

كِتَابُ
صِيحِ الْأَسْبَةِ
تَالِيفُ
الْشَّيْخِ أَبِي الْغُبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِ

(حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب المصرية)

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

دار الكتب المصرية

صباح الألفية

الجزء الأول

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

كِتَابُ
صِيحِ الْأَسْبَةِ
تَالِيفُ
الْشَّيْخِ أَبِي الْغُبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِ

الجزء الأول

(حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب المصرية)

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلم بأجمليه، فصاحته وبيانه .
راقم حقائق المعاني بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على
ترجمة ما في الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذي حفظ برسوم الخطوط ما تكل
الأذهان السليمة عن حفظه . وتبلغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديته
بصورة معناه ولفظه .

أحمده على أن وهب من بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذكور الصوارم .
ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكaram .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوقَّع لصاحبها بالنجاة من النار .
ويُكْتَب قائلها في ديوان الأبرار . وأن مجدا عبده ورسوله الذي آهتت لهيبته
الأسيرة وشرفت بذكره المنابر . وضائق عن دَرَكَ وصفه الطروس ونفدت دون
إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قلدوا أمور الدين فقاموا
بواجبها . وحملوا أعباء الشريعة فانتشرت بهم في مشارق الأرض ومغاربها . صلاة
تُسَطَّر في الصحف . وتفوق بهجتها الروض الأنف .

وبعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأريج البضائع وأنفعها . وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأعلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا تعول في المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . خليفها أبدا خليف بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تُسَرَّجَانِيهَا إِذَا مَا جَنَى الظَّمَا * وَتُرَوَّى بِجَارِيهَا إِذَا بَجَلَ القَطَرُ

وكانت الديار المصرية . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف عَلاَهَا ! قد تعلقْتُ من الثريَّا بأقراطها . وربحت سائر الأقاليم بغيراطها . بشر بفتحها الصادق الأمين، فكانت أعظم بُشْرَى . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمنَ الفاروق فحاسوا خلالَ الديار وعُرها وسهلها . وأقطعتها أيدي المسلمين من الكفار (وكانوا أحقَّ بِهَا وأهلها) .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلى أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسلامية . وفُتِرَتْ مملكتها بخدمة الحرمين . وخدمها سائر الملوك والأئم لحيازة القبلتين .

تَنَاهَتْ عِلَاءً وَالشَّبَابُ رَدَاؤُهَا * فَمَا ظَنُّكُمْ بِالْفَضْلِ والرَّأْسِ أَشَيْبُ؟

وحَظِيْتُ من فضلاء الكُتَّاب بما لم تحَظْ مملكة من الممالك ، ولا مصر من الأمصار . وحوَتْ من أهل الفضل والأدب مالم يحوِّقُطر من الأقطار . فبايرحت متوجهة بأهل الأدب في الحديث والقديم . مطرزة من فضلاء الكُتَّاب بكل مكين

أمين، وحفيظ عليم .

يُجُومُ سَمَاءٌ كُلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ * بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

هذا . والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف . وتباينت
مواردهم في الجمع والتأليف . ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدا .
وأخرى جنت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . وطائفة آهتت بتدوين
الرسائل ليقبَس من معانيها ويَتَمَسَّك بأذيالها . وتكون أنموذجا لمن بعدهم يسلك
سبيلها ، من أراد أن يتيسر على منوالها . ولم يكن فيها تصنيف ، جامع لمقاصدها .
ولا تأليف ، كافل بمصادرها الجلية ومواردنا . بل أكثر الكتب المصنفة في بابها .
والتأليف الدائرة بين أربابها . لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ
الرائقة مما وقع اختيار الكُتَّاب عليه . أو طرف من اصطلاح قد رُفِض . وتغير
أنموذجه وتَقِض . فلا يغني النظر فيه المقلد من كُتَّاب الزمان . ولا يكتفي به القاصر
في أوانٍ بعد أوان . على أن معرفة المصطلح هي اللازم المحتم . والمهم المقدم .
لعموم الحاجة إليه . واقتصار القاصر عليه .

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً * حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

وكان الدُّسْتُور الموسوم "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضل
الألمعي . والمصنَّع اللوذعي . ملك الكتابة وإمامها . وسلطان البلاغة ومالك زمامها .
المقر الشهابي "أحمد بن فضل الله العدوي العمري" سقى الله تعالى عهده العهاد ! .
وألبسه سواغ الرحمة والرضوان يوم المَعَاد ! . هو أنفَس الكتب المصنفة في هذا الباب
عقدا . وأعد لها طريقا وأعذبها ورذا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأعقمت
الأفكار عن مثله ففاز من الصنعة بأحد مذهبها . فكان حقيقا بقوله في خطبته :

"يَا طَالِبَ الْإِنْشَاءِ خُذْ عِلْمَهُ * عَنِّي فَعِلْمِي غَيْرَ مَنْكُورٍ !"

"وَلَا تَقِفْ فِي بَابٍ غَيْرِي فَمَا * تَدْخُلُهُ (إِلَّا بِدُسْتُورِي)"

إلا أنه قد أهمل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسوغ تركها . ولا ينبغي بالفدية لدى القوات نُسكها . كالبطاق ، والملطفات ، والمطلقات . المكبرة في جملة كثيرة من المكتبات . فلم يقع الغنى به عما سواه . ولا الاكتفاء بالنظر فيه عما عداه .

ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دستور المسعى "بتتقيف التعريف" مقتنيا أثره في الوضع ، وجاريا على سَنَه في التأليف . مع إيراد ما أهمله في تعريفه . وذكر ما فاتته من مصطلح ما يُكتب أو حَدَثَ بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وجوده . ووقع الضنُّ به حتَّى بخل بإعارته من عُرف كرمه وجوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنه التعريف مقاصد لا غنى بالكاتب عنها . ولا بُدَّ للتلبس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف ، التي هي عمدة الكاتب . ومراكر البريد وأبراج الحمام ، وغير ذلك من مميزات الواجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلُّ من الدستورين منفردًا عن الآخر بقدر زائد . ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر ، وإن كانا في معنى واحد .

وكيفما كان فالأقتصار على معرفة المصطلح قصور . والإضراب عن تعرف أصول الصنعة ضَعْف همة وفتور . والمقلد لا يوصف بالاجتهاد . وشتان بين من يعرف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جزم الاعتقاد .
وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا * كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّحَامِ

وقد ثبت في العُقُول أن البناء لا يقوم على غير أساس . والفرع لا ينبت إلا على أصل ، والثمر لا يُجْتَنَى من غير غراس .

وكننت في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة عند استقرارى في كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية ، عظم الله تعالى شأنها ! . ورفع قدرها ! وأعز سلطانها !

أنشأت مقامة بنيتها على أنه لابد للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يتمسك بسببها .
وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له
العدول عنها إلى ما عداها . وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها .
وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها . ونهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء
من المواد . وما ينبغي أن يسلكه من الجواد . وضمنتها من أصول الصنعة ما أربت به
على المطولات وزادت . وأودعتها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مصادرها
أو كادت . وأشرت فيها إلى وجه تعلّق بحال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها ملياً .
وأنسابي إلى أهلها وإن كنت في النسبة إليها دعيّاً .

وَلَيْسَ دَعِيَ الْقَوْمِ فِي الْقَوْمِ كَالَّذِي * حَوَى نَسَبًا فِي الْأَكْرَمِينَ عَرِيقًا

إلا أنها قد وقعت موقع الوسخ والإشارة . ومالت إلى الإيجاز فاكثفت بالتلويح
عن واسع العبارة . فعزّ بذلك مطلبها . وفات على المحتجني بعد التناول أطيبها . فأشار من
رأيه مقرون بالصواب . ومشورته عريّة عن الارتياب . أن أتبعها بمصنّف مبسوط
يشتمل على أصولها وقواعدها . ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدِها . ليكون
كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتتمة لما لم يسقّه الفكر إليها . فامتثلت أمره
بالسمع والطاعة . ولم أتلکاً وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة . غير أن القرينة
بذلك لم تسمح . وصار المقتضى يضعف والمانع يترجّح . لأعذار قد تشابه محكمها .
وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فانه يعلمها . إلى أن لاحت لي بوارق الفتح . وظهرت
ولله الحمد آثار المنح . فعند ذلك بلغت النفس أملاًها . وأضفت مواهب الأمتنان
حلّها . وتلا لسان العناية على الغبي الحاسد ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ
لَهَا ﴾ .

فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى (وما حاب من استخار) .
 وراجعت أهل المشورة (وما ندِم من استشار) . مستوعبا من المصطلح ما أشتمل عليه
 "التعريف" و"التثقيف" . موضعا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرب المأخذ وحُسن
 التأليف . متبرعا بأمر زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها . مُتَنَقِّلاً
 من توجيه المقاصد ، وتبيين الشواهد ، بما يُعرف به فرع كل قضية وأصلها . آتياً من
 معالم الكتابة بكل معنى غريب . ناقلاً الناظر في هذا المصنّف عن رتبة أن يسأل فلا
 يجاب إلى رتبة أن يُسأل فيجيب . منها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون ، التي
 يخرج بمعرفة عن عهدة الكتابة ودرّكها ^(١) . ذاكراً من أحوال الممالك المكتّبة عن هذه
 المملكة ما يُعرف به قدر كل مملكة ومليكتها . مبيناً جهة قاعدتها ، التي هي محل الملك
 شرقاً أو غرباً ، أو جنوباً أو شمالاً . معرّفاً الطريق الموصل إليها ، براً وبحراً ، وأقطعا
 واتصالاً . ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها ، إكمالاً للتعريف . ضابطاً لأسمائها .
 بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشى في كتابة الإنشأ) راجياً من الله تعالى أن يكون
 بالمقصود وافية . وللخليل شافيا .

وليعذر الواقف عليه ، فتأنيج الأفكار على اختلاف القرائح لا تنتهي . وإنما ينفق
 كل أحد على قدر سعته ﴿لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ . ورحم الله من وقف فيه
 على سمو أو خطيأ فأصلحه عاذراً لا عاذلاً . ومُنِيلاً لا نائلاً . فليس المبرأ من الخطأ
 إلا من وقا الله وعظم . وقد قيل : الكتاب كالمكلف لا يسلم من المؤاخذه ولا يرتفع
 عنه القلم ، والله تعالى يقرئه بالتوفيق ! . ويُرشِد فيه إلى أوضح طريق ! . ﴿وما توفّيق
 إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

وقد رتبته على مقدّمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة .

المقدمة

في مبادي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، وذم حَمَقاهم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في فضل الكتابة .

الفصل الثاني — في مدح فضلاء الكُتّاب وذم حَمَقاهم .

الباب الثاني

في ذكر مدلول الكتابة لغةً وأصطلاحاً ، وبيان معنى الإنشاء ، وإضافة الكتابة إليه ، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عُرف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل ، وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة ، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصل الأول — في ذكر مدلولها ، وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه . ومرادفة

التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل .

الفصل الثاني — في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة .

الفصل الثالث — في ترجيح النثر على الشعر .

الباب الثالث

في صفات الكُتّاب وآدابهم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصل الثاني — في آدابهم .

الباب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام

وتفرقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في التعريف بحقيقته .

الفصل الثاني — في أصل وضعه في الإسلام وتفرقه بعد ذلك في الممالك بالديار

المصرية وغيرها .

الباب الخامس

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله ، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله

ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث .

الفصل الثاني — في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويديره ويصرفه بقلمه .

الفصل الرابع — في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم رب

كل وظيفة منهم ، وما كان عليه الأمر في الزمن القديم ، وما آستقر عليه الحال

بعد ذلك ✕

المقالة الأولى

فيما يحتاج اليه الكاتب ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في الأمور العالمية ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما يحتاج اليه الكاتب في الجملة .

الفصل الثاني — فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالى ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ (وأنساب العرب) ، ومفانيرهم ، ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم في الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، وأصناف العلوم ، ومن برع في كل علم منها ، والكتب الفائقة في كل فن من فنونها وما يجري مجرى ذلك ؛ والمعرفة بصناعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحدد من ذلك وما يذم .

الفصل الثالث — في معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسنين على اختلاف الأمم فيها وتفاصيل أجزائها ، وما ينخرط في سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

الباب الثاني

فما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر آلات الخط من الدوى وما تتخذ منه ومقاديرها وكيفياتها ، ومعرفة أصناف الأقلام وصناعة برآيتها : فتحا ونحنا وشقا وقطا ؛ ومقادير أطوالها وعدد ما يكون في الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحل الذهب ، وإذابة اللازورد والمغرة العراقية ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في كتابة الديوان .

الفصل الثاني — في الكلام على نفس الخط وأصل وضعه واختلاف الأمم فيه ، وما يخص من ذلك بالخط العربي من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة وتبين

أشكالها واختلاف أوضاعها؛ وما يستعمل منها في ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النقط والشكل والهجاء .

المقالة الثانية

في المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها، وبيان جهاتها الأربع، وما آسّمت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية؛ وبيان موقع الأقاليم العرفية كصر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصل الثاني — في ذكر البحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان في التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثّة في أقطار الأرض ونواحي الممالك مما هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصل الثالث — في استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها .

الباب الثاني

في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم في القديم وما أنطوت عليه

ممالكهم من الأقطار؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بني أمية بالأندلس، والمدعين الخلافة من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصل الثانى — فيما أنطوت عليه الخلافة العباسية فى الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هى عليه الآن .

الباب الثالث

فى ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها،

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فى الديار المصرية وذكر فضائلها ومحاسنها ، وخواصها وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه ، وما ينتهى اليه فى الزيادة وما يصل اليه فى النقص ، والخلجان المتفرعة عنه ، وجسورها الحابسة لمياه النيل على أرضها ، وبحيرات الديار المصرية ، وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها ، ومواشيتها ووحوشها وطيورها ، وذكر حدودها وأبتداء عمارتها وتسميتها مصر، وتفرع الأقاليم التى حوطها عنها ، وذكر أعمالها وقواعدها القديمة، والمباني العظيمة الباقية على مر الأزمان ، وقواعدها المستقرة وما آشتملت عليه من محاسن الأبنية ، وذكر من ملكها جاهليةً وإسلاماً قبل الطوفان وبعده ، وترتيب أحوالها ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها فى القديم والحديث ، وبيان وظائف دولها القديمة والمستقرة لأرباب السيوف والأفلام .

الفصل الثانى — فى البلاد الشامية وما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن — ببلاد الأرمن — وبلاد الدربندات المعروفة الآن ببلاد الروم — مما هو مضاف الى مملكة الديار المصرية ، وفضل الشام وخواصه

وعجائبه وحدوده وأبتداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعماله وجهاته وأجناده وكوره القديمة والمستقرة وقواعده العظام وما كانت عليه في الزمن السابق ومن ملكها جاهلية وإسلاما وما آستقرت عليه الآن من الثيابات ، وترتيب أحوالها ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب ثياباتها وما بها من وظائف وأرباب السيوف والأقلام وما آشتملت عليه من العربان ^(١) .

الفصل الثالث — في البلاد الحجازية وما يخترط في سلكها ، وذكر فضل الحجاز وخواصه وعجائبه وأبتداء عمارته وتسميته حجازا ، وذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وقواعده وأعماله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

الباب الرابع

في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع

والطرق الموصلة اليها ، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في الممالك والبلدان الشرقية عن الديار المصرية ، وما سامت ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية ، وما آشتملت عليه هذه الجهة من مملكة إيران التي هي مملكة الفرس قديما ، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خوزستان وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كرمان وبلاد سيستان وبلاد أرمينية وأذربيجان وبلاد الجبال المعبر عنها بعراق العجم وبلاد الديلم وبلاد الجبل المعبر عنها بكيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغور

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعر عليه في معاجم اللغة التي بأيدينا وإن كان القياس لا ياباه .

وغيرها ، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديما ، وما آشملت عليه من قسم ماوراء
النهر من بخارى وسمرقند ومضافتهما وبلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم
ودشت القبچاق المشتمل على خوارزم والدشت وأعمال السراى وبلاد القرم وبلاد
الأزق وما ينضم إلى ذلك من بلاد السرب والبغار وبلاد الأولاق وبلاد الآص
وبلاد الروس وغيرها ، وقسم ما بيد صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل
على بلاد الخطا وبلاد الصين ، وما اتصل بهاتين المملكتين مما يلي الجنوب من بلاد
البحرين ومملكة الين وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية ، وممالك
الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة في جزائر البحر الهندى .

الفصل الثانى — فى الممالك والبلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية ، من
مملكة تونس المشتملة على بلاد أفريقية ، ومملكة تلمسان المشتملة على بلاد الغرب
الأوسط ، ومملكة فاس المشتملة على بلاد الغرب الأقصى إلى البحر المحيط وما إلى
ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما استعاده منها ملوك الكفر .

الفصل الثالث — فى الممالك والبلدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية
وما آشملت عليه من بلاد السودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى
ومملكة الحبشة ، وبيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصل الرابع — فى الممالك والبلدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما
بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارى من جزائر
بحر الروم بجزيرة قبرس وجزيرة رودس وجزيرة أقریطش وجزيرة المصطكى وجزيرة
صقلية وغيرها وما إلى ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية
ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقالة الثالثة

في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والكنى والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات ونحوها على كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض في أول الدرَج وحاشيته وبعده ما بين السطور في الكتابات، وبيان المستندات التي يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

الباب الأول

في الأسماء والكنى والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأسماء والكنى ومواضع ذكرهما في المكاتبات والولايات وما يجري مجراهما .

الفصل الثاني — في ذكر الألقاب وأصل وضعها وما استعمله الكُتَّاب منها وما كان يلقَّب به أهل كل دولة وما حدث من الزيادة بعد ذلك حتى صار الأمر إلى ما عليه الحال في زماننا، والألقاب التي أصطلح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وُضع منها لأهل الكفر، وبيان معنى كل لقب في اللغة ومن يقع عليه في الاصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها على بعض .

الباب الثاني

في بيان مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير

البياض الذي يراعيه الكاتب في كتابته؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقادير قطع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء في القديم والحديث

الفصل الثاني — في بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البياض الذي يراعيه الكاتب في أعلى الدَّرَج وحاشيته وبعْد ما بين السطور في الكتابة .

الباب الثالث

في بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في بيان المستندات التي يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلقى كاتب السر الأمر في ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلقى كتاب الدست بدار العدل ، أو شمول القصة بالخط الشريف ، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمة من ديوان الخصاص وغيره ، وكتابة الملخصات التي تكتب من الكتب المطولات الواردة على الديوان ، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصل الثاني — في بيان كيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما في معناها ، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل في دواوين الإنشاء من الكامل والثلاثين والنصف والثلاث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقليل الثلاث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المريعة في الكتابة في أعلى الدَّرَج وحاشيته وبعْد ما بين السطور .

الباب الرابع

في الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الفواتح من البسملة والحمدلة والتصلية والسلام في أول الكتب والبعديّة التي يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعته.

الفصل الثاني — في الخواتم واللواحق من كتابة إن شاء الله في آخر المكتوب وكتابة التاريخ ومعرفة معناه ومعرفة التواريخ القديمة وأصل وضع التاريخ في الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذي يؤرخ فيه ؛ وبيان بناء التاريخ العربي على الليالي دون الأيام، واختلاف مذاهب النحاة والكتّاب في التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليالي، ومعرفة استخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحمدلة في آخر الكتب والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، والاختتام بالحسبة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقالة الرابعة

في المكاتبات ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات المكاتبات من أصول يعتمدها الكتّاب فيها من حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال وتقديم مقدمة تناسب المكتوب فيه في أول المكتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية في الخطاب ونحوه في المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيان لكل مقصد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب اليهم على قدر طبقة

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة في الكتابة إلى مَنْ يتعاناها، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الاختتام وما يجري مجرى ذلك، وبيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز وما يلائمها من المعاني، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصل الثاني — في بيان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومذاهب الكُتّاب فيما تُفتّح به المكاتبات في القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر في المكاتبات، وبيان كيفية طي الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه في الإضبارة .

الباب الثاني

في مُصْطَلَحِ المكاتبات الدائرة بين كُتّاب الإسلام في كل زمن من الصدر

الأول وإلى زماننا؛ وفيه ثمانية فصول

الفصل الأول — في الكُتُب الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام وملوك الكفر، واختلاف آفتاحها بحسب المقاصد .

الفصل الثاني — في الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بني أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصل الثالث — في الكتب الصادرة عن الملوك ومن في معناهم مما كُتِب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وخلفاء

بني أمية بالأندلس ، وبقايا الموحدين بأفريقية ؛ وما كتب به عن الملوك ومن في معناهم إلى الملوك ومن في معناهم من المكاتب الدائرة بين ملوك الديار المصرية وملوك الشرق والغرب ، ووزراء الخلفاء ومنقذى أمر الخلافة اللاحقين بشأ الملوك ، وما يُلحق بذلك من المكاتب الصادرة إلى ملوك الكفر واختلاف الافتتاح في ذلك .

الفصل الرابع — في الكتب الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية ، التي هي أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلى خلفاء بني العباس ، وإلى أهل المملكة بمصر والشام والحجاز ، وإلى عطاء القانات بمالك الشرق كقنان مملكة إيران الجامع لحدودها على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام أبي سعيد ثم من بعده من يبلغ شأوه من القانات الصغار كالشيخ واويس ومن تلاه إلى زماننا ، ومن بهذه المملكة من صغار الملوك والحكام ، وقانات مملكة توران من صاحب ما وراء النهر من بخارى وسمرقند وما معها ، وصاحب خوارزم والدشت والقان الكبير صاحب التخت ، وصاحب الهند ، وصاحب اليمن وإمام الزيدية بها . وملوك بلاد المغرب كصاحب تونس ، وصاحب تلمسان ، وصاحب فاس ، وصاحب غرناطة من الأندلس ، وملوك بلاد السودان كملك البرنو وملك الكانم ، وصاحب مالى ، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم من الجهة الشمالية ، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجنوبية وملك القسطنطينية وسائر ملوك الفرنج وحكامهم بجزائر الروم وغيرها من تقدم ذكره في الكلام على المسالك والممالك .

الفصل الخامس — في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية من ملوك الممالك المتقدمة الذكر وحكامها من أهل الإسلام والكفر من ترد مكاتبه على هذه المملكة .

الفصل السادس — في المكتابات الإخوانيات مما كان عليه مُصطلح السلف فمن بعدهم في كل زمن وما استقرّ عليه الحال في زماننا .

الفصل السابع — في مقاصد المكتابات من الأمور الخاصة بالملوك والخلفاء . كالكتب بالإشارة بولاية الخلافة ، والجلوس على تخت السلطنة ، والدّعاية إلى الدين ، والحثّ على الجهاد ، والإخبار عن الفتوحات ، والأمر بلزوم الطاعة ، والتنبيه على مواسم العبادة ، والموعظ عند حدوث الآيات السماوية ، والأوامر والنواهي ، والنهي عن التنازع في الدين ، والكتب إلى من نكت العهد أو خلع الطاعة ، والتضييق على أهل الجرائم ، والإشارة بالمواسم ، والأعياد ، ووفاء النيل ، وركوب الميادين ، والعود من الغزو ، والكتب بالتلقيب على ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ، وبالإحسان والإذمار ، والكتب قرين الإنعام السلطاني من الخيل والجوارح ، وسائر أصناف الإنعام ، والاعتذار عن السلطان في الهزيمة ونحوها ، والأجوبة عن ذلك ، وما يشترك فيه الملوك ومن عدّاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف ، وتكرمة السلطان ، وتجدد الأولاد ، والمساكن ، والعود من الحج ، والقُدوم من السفر ، والإبلال من المرض ، ورضا السلطان وغُزاة السنة ، وشهر رمضان ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والنّيروز ، والمهرجان ، والدخول في دين الإسلام ، والصّرف عن الخدمة في سلامة ، ومن التعازي كالتعزية بالأب والأم والولد والقريب والصديق ، والتشوّقات ، والشّفاعات ، والتهادى ، والأسرارة ، وأسماحة الحوائج ، وأخطاب المودة ، وخُطبة الترويح ، والشكر ، والشكوى ، والاعتذار ، والعتاب ، والمداعبة ، وغير ذلك .

الفصل الثامن — في معرفة إخفاء ما في الكتب من السرّ إما بطريق المترجم ، وإما بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار ، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقالة الخامسة

في الولايات ؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في بيان طبقات الولايات وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها مما يكتب في ولاية الخلافة والسلطنة والولايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية ، وغير ذلك .

الفصل الثاني — في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على سبيل الإجمال .

الفصل الثالث — في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات .

الباب الثاني

في البيعات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في معنى البيعات .

الفصل الثاني — في ذكر تنويع البيعات مما يكتب للخلفاء ، وأصل مشروعيتها ؛ وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة ؛ وبيان صورة ما يكتب فيها ، واختلاف مذاهب الكتاب في ذلك ؛ وذكر نسخ من بيعات الخلفاء مما كان يكتب به في الخلافة العباسية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بني أمية بالأندلس وما يلحق بذلك مما يكتب به لخلفاء بني العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك على ما اصطاح عليه كتاب بلاد الغرب والأندلس .

الباب الثالث

في العهود؛ وفيه فصولات

الفصل الأول — في معنى العهد .

الفصل الثاني — في بيان أنواع العهود مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، وما يكتب به للملوك عن الخلفاء، وما يكتب به عن الملوك لولاة العهد بالسلطنة والملوك المنفردين بصغار البلدان، ومذاهب الكُتَّاب في ذلك، وذكر نسخ من ذلك جميعه مما كتب به ببلاد المشرق والمغرب والديار المصرية .

الباب الرابع

في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيوف

والأقلام وغيرهم؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، وخلفاء بني أمية بالأندلس، وخلفاء الفاطميين بمصر، ومدعين الخلافة من بقايا الموحدين ببلاد المغرب، ومذاهب كُتَّاب الدول في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من مصطلح كُتَّاب المشرق بعد انقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلح كُتَّاب المغرب والاندلس في القديم والحديث، ومصطلح كُتَّاب الديار المصرية في الدولة الطولونية وماولياها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيوبية وماولياها من الدولة التركية، وما استقر عليه الحال فيها الى زماننا، مما يكتب لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية من التقاليد والتفاويض
والمراسيم والتواقيع على اختلاف مراتبها .

الفصل الثالث — فيما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية لأرباب
السيف والأقلام وغيرهم ، وذكر نسخ من ذلك .

المقالة السادسة

في الوصايا الدينية ، والمساحات ، والإطلاقات ، والطرخانيات ، وتحويل السنين ،
والتذاكر ؛ وذكر نسخ من ذلك ؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما لقُدماء الكُتّاب من ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من ذلك ، في زماننا .

الباب الثاني

في المساحات ، والإطلاقات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يكتب في المساحات .

الفصل الثاني — فيما يكتب في الإطلاقات .

الباب الثالث

في الطرخانيات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في طرخانيات أرباب السيوف .

الفصل الثاني — في طرخانيات أرباب الأقاليم .

الباب الرابع

في تحويل السنين ، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية ،

وما يكتب في التذاكر ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصل الثاني — في التذاكر .

المقالة السابعة

في الإقطاعات والمقاطعات ، وذكر نسخ من ذلك ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في ذكر مقدمات الإقطاعات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها ، وأصل

وضعها في الشرع ، وأول من وضع ديوان الجيش في الإسلام ، ومن يستحق إثباته في الديوان ، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصل الثاني — في بيان حكم الإقطاع وانقسامه إلى إقطاع تملك واستغلال .

الباب الثاني

فيما يكتب في الإقطاعات في القديم والحديث ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصل ذلك في الشرع ، وبيان ما أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم من البلاد والأرضين .

الفصل الثاني — في صورة ما كان يكتب في الإقطاعات في الزمن القديم عن خلفاء بني العباس بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بمصر ، وعن الملوك القائمين على الخلفاء بالعراق ، وملوك بني أيوب بالديار المصرية ، وما يكتب في الإقطاعات في زماننا مما استقر عليه الحال ، وما يكتب في ذلك من ديوان الجيش من المربعات وماهي مترتبة عليه ، وما يكتب في ذلك من ديوان الإنشاء من المناشير ، وبيان مراتبها ؛ وذكر قطع الورق الذي يكتب فيه ؛ وما يكتب في طرر المناشير وما يلحق بذلك من الطغراوات المشتمة على الألقاب السلطانية التي كانت تُلصق بأعلى المناشير بين الطرة والبسملة ؛ وما يختص من ذلك بالزيادات والتجديدات .

المقالة الثامنة

في الإيمان ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض في الإيمان ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يقع به القسم من الأقسام التي أقسم الله تعالى بها ، والأقسام التي يُقسم بها الخلق من أقسام العرب في الجاهلية ، والأقسام الشرعية التي يحلف بها

الفصل الثاني — في بيان اليمين الغموس ولغو اليمين ، والتحذير من احنث والوقوع في اليمين الغموس .

الباب الثاني

في نسخ الأيمان المملوكية ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء .

الفصل الثاني — في الأيمان المتعلقة بالملوك مما يحلف به المسامون من أهل السنة وأرباب البدع وأهل الملل من اليهود والنصارى ، والمجوس وما يحلف به الحكماء .

المقالة التاسعة

في عقود الصلح والفُسُوخ الواردة على ذلك ؛ وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

في الأمانات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصل الثاني — في كتابة الأمانات لأهل الإسلام ، وذكر أصل ذلك من السنة ، وإيراد نسخ من ذلك .

الباب الثاني

في الدفن ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصله وكونه مأخوذاً عن العرب .

الفصل الثاني — فيما يكتب في الدفن عن المملوك .

الباب الثالث

فيما يكتب في عقد الذمة وما يتفرع على ذلك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في متعلقات أهل الذمة ، وإلزامهم بالجرى

على ما يقتضيه عقد الذمة لهم .

الباب الرابع

في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام ، وملوك الكفر ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهدنة

وما يرادفها من الألفاظ ، وبيان أصل وضعها في الشرع ، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات واختلاف مذاهب كُتّاب

الشرق والغرب والديار المصرية في ذلك ، وذكر نسخ منها ، وبيان ما يكتب من ذلك من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرد من ذلك مما يكتب عن ملوك الكفر .

الباب الخامس

في عقود الصلح الواقعة بين مَلَكيْن مسلميْن ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول تُعتمد في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يُكتب في عقد الصلح ، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به

عن الخلفاء والملوك في القديم والحديث إلى زماننا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلق
بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الحِدايات، وفيه ستة فصول

الفصل الأول — في المقامات وذكر نسخ منها .

الفصل الثاني — في الرسائل : من الرسائل المملوكية المشتملة على الغزو والصيد
ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورد المدح ، والرسائل الواردة مورد الذم ، ورسائل
المفاخرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاخرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك ،
والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتة بالحوادث والمجاريات
وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصل الثالث — في قدمات البندق ، وذكر نسخ منه .

الفصل الرابع — في الصّدقات المملوكية ، وصدقات الأعيان .

الفصل الخامس — فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفتاوى
وعروضات الكتب والمرويات ، وما يكتب على الكتب المصنّفة والقصائد من
التقريظات ، وما يكتب عن القضاة من التقاليد الحُكمية وإسجلات العدالة والمطلقات
وغير ذلك .

الفصل السادس — في العُمرات التي تكتب للحاج .

الباب الثاني

في الهزليّات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما أعتنت الملوك ببعضه .

الفصل الثاني — في سائر أنواع الهزل .

الخاتمة

في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدّمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها: من معرفة معنى البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام، وبيان معاملة .

الفصل الثاني — في ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشامية على اختلاف طرقها .

الباب الثاني

في مطارات الحمام الرسائيّ، وذكر أبراجها المقرّرة بالديار المصرية

والبلاد الشامية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر مطاراته وأعتناء الملوك بشأنه في القديم والحديث ومسافات طيرانه .

الفصل الثاني — في الأبراج المقرّرة له بالديار المصرية والبلاد الشامية .

الباب الثالث

في ذكر مراكز الثلج الواصل من البلاد الشامية إلى المملوك
بالديار المصرية ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مراكزه .

الفصل الثاني — في هجته .

الباب الرابع

في المناور والمحرقات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في المناور التي كان يُستعمل بها حركة التار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثاني — في المحرقات التي كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التار
ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقدمة

في المبادئ التي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء؛

وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمَقاهم؛

وفيه فصلان

الفصل الأول

(في فضل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى! نسب تعليمها إلى نفسه، وأعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتتح الوحي، وأول التنزيل على أشرف نبي، وأكرم مرسل صلى الله عليه وسلم! وفي ذلك من الأهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه.

ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلَّت قدرته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته؛ ثم زاد ذلك تأكيداً ووفر محله إجلالاً وتعظيماً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يُسَطَّر به فقال تقدست عظمته: ﴿بِالنَّوْلِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُنْجِنٍ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجة تفضيلها، وأثرة تعظيمها وتبجيلها، أن الشارع ندب إلى مقصدها الأسنى، وحث على مطلبها الأغنى، فقال صلى الله عليه وسلم : ”قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ“ مشيراً إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المحتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صنعة لا بد له في معاناتها من مادة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدي إلى تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُستثمر من صنعته .

والكتابة إحدى الصنائع فلا بد فيها من الأمور الأربعة .

فأدتها ، الألفاظ التي تحيلها الكاتب في أوهامه ، وتصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة ؛ والخط الذي يخطه القلم ، ويقيد به تلك الصور . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية ، فتكمل قوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب ، وتحفظ صورته ، ويؤمن عليه من التغير والتبدل والضَياع . وغايتها الشيء المستثمر منها ، وهى انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة ، العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسمية في أمور الدين والدنيا . ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب ، وقع الحُصّ من الشارع عليه ، والحث على الاعتناء به تنبيهاً على أن الكتابة من تمام الكمال ، من حيث إن العمر قصير والوقائع متسعة ؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسان بقلبه أو يحصله في ذهنه .

قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : ”أُكْتُبُ شِعْرِي بِالْكِتَابِ أُعْجِبُ إِلَى مِنَ الْخَفْظِ
إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ لَيَنْسَى الْكَلِمَةَ قَدْ سَهَرْتُ فِي طَلَبِهَا لَيْلَةً فَيَضَعُ مَوْضِعَهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا
لَا تَسَاوِيهَا ، وَالْكِتَابُ لَا يَنْسَى وَلَا يَبْدُلُ كَلَامًا بِكَلَامٍ“ .

وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لمادح حتى قال سعيد بن العاص: "مَنْ لَمْ يَكْتُبْ فِيمِنْهُ يُسْرَى". وقال معن بن زائدة: "إذا لم تكتب اليد فهي رَجُل". وبالغ مكحول فقال: "لأدية ليد لا تكتب". قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسجل نبي سجلاً ولا خليفة مرضى ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلا إذا استفتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور في السجلات التي سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في شرفه ونبله وسابقته ونجدة .

ومن ثم قال المؤيد: "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ إليها ينتهي الفضل، وعندها تقف الرغبة".

ومن كلام أبي جعفر "الفضل بن أحمد" في جملة رسالة "الكتابة أس الملك، وعماد المملكة، وأغصان متفرقة من شجرة واحدة. والكتابة قطب الأدب، وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفصل، وميزان يدل على رجاحة العقل. والكتابة نور العلم، وفدامة^(١) العقول ويثدان الفضل والعدل. والكتابة حلية وزينة وليبوس وجمال وهيئة وروح جارية في أقسام متفرقة، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة، ومن جهل حق الكتابة فقد وسِم بوسم الغواة الجهلة؛ وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلاً ونبلاً تصورا جميعا تصورت الكتابة، ولو أن في الصناعات صناعة مربوبة لكانت الكتابة رباً لكل صناعة.

قال صاحب مواد البيان: ومن المعلوم أن جميع الصنائع وسائل إلى درك المطالب ونيل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة في الكثرة والقلة بحسب تفاضلها في الرفعة

(١) من معاني القدماء المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّعَّةُ؛ إذا كان منها ما لا يفي بالبُلْغَة من قِوَام العيش : نحو الصنائع الميَّنة
السُّوقِيَّة الداخلة في المرافق العامة، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويجاوز حدَّ الكفاية
ويُحْطَى بالمال والنَّعم الخطيرة وهي الصنائع الخاصَّة، وإذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها
عُلم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها في هذا النوع، ولا ما يُكسب
ما تُكسبه من الفوائد والمعاون مع حصول الرِّفاهيَّة والتَّزَه عن دَناءة المكاسب
ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورفاهيَّة العيش ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن
الفسيحة، والملابس الرقيقة، والمراكب النبيلة، والدواب النفيسة، والخدم المستحسنين
وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات المملوكية في أقرب المدد وأقلَّ الأزمنة؛
وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وارتفاع حَظِّها وسمو قدرها إذ كان
لها سعة لمثل هذه الجدوى التي لا يوجد مثلها في غيرها من الصنائع .

وكفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه
الكاتب في سيفه .

قال في موادَّ البيان : ”ومن ثمَّ صار السلطان الذي هو رئيس الناس ومستخدِم
أرباب كلِّ صناعة ومُصَرِّفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلَةً له مع
تَرْفَعه عن التلبس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأنْفَتَه أن يقع اسمٌ من أسمائها عليه“
قال : وذلك أنا نرى كل ملك وسلطان يُؤثِّر أن يكونَ له حظ من بلاغة العبارة وجودة
الخط، وفي ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين
للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضل من سائر المتحلِّين بغيرها من الصنائع الأخر
فقد عُلِم أن الصنائع كلَّها معاون ومرافق، لا تتنظم عمارة العالم إلا بتضافرهم ومُرافدة
بعضها لبعض . وإنها على ضربين : خاصة وعامة، فالعامة صنائع المهنة وأهل الأسواق
والحرف وإن شاركهم الخاصَّة في الحاجة إليها الآن بها تتنظم أمور المعاملات وتعمُر

البلاد؛ والخاصية التي تقع في حيز الملوك والسلاطين، ويتوزعها أعوانهم وأتباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التمييز بين أقدارها بالنظر إلى مقدار عائدتها في أمور الملك والسلطان والرجية مما كان معلقا بالأمر الأهم، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أجسم، والفساد العائد بوقوع خلل فيه على أسباب المملكة أعظم؛ وممر تبته في الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعة تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج في انتظام أمور سلطانه إلى ثلاثة أشياء لا ينتظم ملكه مع وقوع خلل فيها . أحدها رسم ما يجب أن يرسم لكل من العمال والمكاتبين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعد، وإحماذ وإذمام . والثاني استخراج الأموال من وجوها . وأستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها في مستحقها من أعوان الدولة وأولائها الذين يحجون حوزتها، ويسدون ثغورها ويحفظون أطرافها، ويذبون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة ؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا كُتَّاب السلطان ولا سبيل للكُتَّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبر في صنعة الكتابة، فهي إذن من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : ” من أين فضلها أن جعلت في عليّة الناس “ قال صاحب موادّ البيان : ” وقد عُرِفَ أن الذين وضعوها وأبتدعوها ورسموا رسومها هم الأنبياء عليهم السلام “ .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزير، وهارون ويوشع بن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام، وسليمان بن داود كان يكتب لأبيه، وآصف بن برخيا ويوسف بن عتقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد آتتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفان ثم صار الأمر إليه فيما بعد . وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلى غير هؤلاء من أهل هذه الصنعة ممن قرع الذروة العلية من السيادة ، والسنام الباذخ من الرياسة ، على تغير الدول وتنقلها بين العرب والعجم ، وفي ذلك ما يدل على علو خطرهما ، وأرتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبه قوم بالكاتب بعد الحؤول ، وصاروا إلى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان رومياً خاملاً فرفعته الكتابة وكتب لمعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان . ومنهم حسن النبطي كاتب المجلج ، وسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبد الصمد ، وجبل بن عبد الرحمن ، وقثم جد الحجاج بن هشام القحطاني ، وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع ، والفضل بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، وآبن المقفع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وآبن عبد السلام الحنديسابوري ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) في العقد الفريد جد الوليد بن هشام .

ونجاح بن سلامة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والريحان : مروان ابن الحكم، وعبد الملك بن مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو اعتبر من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحد . وهذا الوزير المهلب كان في أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى في سفره ضيقة حتى اشتفى اللحم ولم يقدر عليه فقال آرتجالا :

أَلَا مَوْتُ يَبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ ! * فهذا العيشُ ما لا خَيْرَ فيه !
أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي * يُخَلِّصُنِي مِنَ الْمَوْتِ الْكَرِيهِ !
أَلَا رَحِمَ الْمُهِمِّنُ نَفْسَ حُرٍّ * تصدَّقْ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ !

وكان معه رفيق له فاشترى لحما وأطعمه . ثم ترقى بالكتابة حتى وُزِّرَ لمعز الدولة ابن بويه الديلمي في جلالة قدره . وهذا القاضي الفاضل أصله من بيسان من غير بيت الوزارة رفعته الكتابة حتى وُزِّرَ للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلت رتبته عنده حتى بلغ من رتبته لديه أن كان يكتب في كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرة السلام على الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين في كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغريبة قد جئت فيها أولا * ومن اقتفأها كان بعدى الثاني
فرسولى السلطان في إرسالها * والناس رسلهم إلى السلطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة مشددا في دينه، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أى فيمن تهبوا بالكتابة . وأما عدهما السابق ففى المكنوب لهم .

والمطيع وعز الدولة بن بويه : وجَهِدَ فيه عز الدولة أن يسلم فلم يقع له ؛ ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انما رثيت فضله .

قال في مواد البيان : ”ولا عبرة بمنْ قعد به الجُدُّ، وتخلَّف عنه الحَظُّ من أهل هذه الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . على أن المبرز في هذه الصناعة إن قعدتْ به الأيام في حالٍ فلا بد أن يُرْفَعَ قدره في أخرى : لأنَّ دَوْلَةَ الفاضل من الواجبات ، ودَوْلَةُ الجاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلا أورتيسا كاملا ، فإنه يوفيه حقه ويرقيه إلى حيثُ أَسْتَحَقُّهُ . فن كلام بعض الحكماء : تَسْقُطُ الحظوظ في دولة الملك الفاضل فلا يتسَمُّ الرتبة العلية إلا مستوجبها بالفضيلة .

وبالجملة فَفَضَّلَ الكُتَّابُ أَكْثَرَ مَنْ أَنْ يُحْصَى وَأَجَلُّ مَنْ أَنْ يُسْتَقْصَى ؛ وانما حرمت الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردّا على الملحدِين حيثُ نسبوه إلى الاقتباس من كتب المتقدمين كما أخبر تعالى بقوله ﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسلم ! يأتي من القصص والأخبار الماضية من غير مدارس ولا نظر في كتاب بما لا يعلمه إلا نبيُّ ، كما روى أن قريشا بمكة وجَّهت إلى اليهود : أنْ عَرَفُونَا شَيْئًا نَسْأَلُهُ عَنْهُ ؛ فبعثوا إليهم أن سلوه عن أنبياء أخذوا أحدهم فرموه في بئر وباعوه ، فسألوه فتزلت سورة يوسف جملة واحدة بما عندهم في التوراة وزيادة .

قال العتيبي : "الأُمِّيَّة في رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ! فضيلةٌ وفي غيره تقيصة لأن الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكّن الإنسان بها من الحيلة في تأليف الكلام ، واستنباط المعاني فيتوسل الكُفَّار إلى أن يقولوا أقتدر بها على ما جاء به " .

قال صاحب موادّ البيان : "وذلك أن الإنسان يتوصل بها إلى تأليف الكلام المنشور وإخراجه في الصُّور التي تأخذ بمجامع القلوب ؛ فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج على تكذيب معانديه ، وحسم أسباب الشك فيه " .

وقد حكى أبو جعفر النحاس : أن المأمون قال لأبي العلاء المنقريّ "بلغني أنك أمي ، وأنت لا تقيم الشعر ، وأنت تلحن في كلامك" فقال : "يا أمير المؤمنين ! أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه ؛ وأما الأُمِّيَّة وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً وكان لا يُنشِد الشعر" . فقال له المأمون : "سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل ؛ يا جاهل ! ذلك في النبي ، صلى الله عليه وسلم ! فضيلة وفيك وفي أمثالك تقيصة " .

قال الجاحظ : "وكلام أبي العلاء المنقريّ هذا من أواد ما تكلم به الجهّال" . على أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكوا وجهين في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يعلم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزةً في حقه كما تقدّم . قال أبو الوليد الباجي من المالكية : "ولو كتب ، صلى الله عليه وسلم ! لكان مُعْجِزةً نخرق العادة . قال : وليست بأول مُعْجِزاته صلى الله عليه وسلم ! " .

وإذا كانت الكتابة من بين سائر الصناعات بهذه الرتبة الشريفة والذروة المنيعة ، كان الكتاب كذلك من بين سائر الناس . قال الزبير بن بكار : "الكتاب ملوك وسائر الناس سُوقَةٌ" . وقال ابن المقفع : "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك" . ومن كلام المؤيد "كتاب الملوك عيونهم المبصرة ، وأذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقة" .

وكانت ملوك الفرس تقول: "الْكُتَّابُ نِظامُ الْأُمُورِ، وَجَمَالُ الْمُلْكِ، وَبَهَاءُ السُّلْطَانِ وَخَزَانُ أُمُوالِهِ، وَالْأَمْنَاءُ عَلَى رَعِيَّتِهِ وَبِلَادِهِ وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْجَبَاءِ وَالْكَرَامَةِ، وَأَحَقُّهُمْ بِمَحَبَةِ السَّلَامِ".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "لِلْكُتَّابِ أَقَرَّتْ الْمُلُوكُ بِالْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ، وَإِلَيْهِمْ أُلْقِيَتِ الْأَعْيُنُ وَالْأَزِمَّةُ، وَبِهِمْ أَعْتَصَمُوا فِي النَّازِلَةِ وَالنَّكْبَةِ، وَعَلَيْهِمْ أَتَكَلَّوْا فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالذَّخَائِرِ وَالْعَقْدِ وَوُلاةِ الْعَهْدِ وَتَدْبِيرِ الْمُلْكِ وَقِرَاعِ الْأَعْدَاءِ، وَتَوْفِيرِ الْفِيءِ، وَحِياطَةِ الْحَرِيمِ، وَحِفْظِ الْأَسْرَارِ، وَتَرْتِيبِ الْمَرَاتِبِ، وَنَظْمِ الْحُرُوبِ".

قال في موادّ البيان: "وما من أحد يتوسّل إلى السلاطين بالأدب، ويُمِثُّ إِلَيْهِمِ مِنَ الْعِلْمِ بِسَبَبٍ، إِلَّا وَهُوَ بِأَقْلِهِ لَا يَنْوَلُ مَا يُنَوَّلُهُ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْإِرْفَاقِ، خِلا الْكَاتِبِ فَإِنَّهُ يُنَوَّلُ الرِّغَابَ الْعَظِيمَةَ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْتَحْقَاقِ، لِمَوْضِعِ الْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ وَالْحَاجَةِ؛ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ وَاسِطَةٍ تَقُومُ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالرِّعَةِ لُبْعَدَ مَا يَبِينُ الطَّبَقَتَيْنِ: الْعُلِيَّا وَالْدُّنْيَا، وَلَيْسَ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مَنْ يُسَاهِمُ الْمُلُوكَ فِي جَلَالَةِ الْقَدْرِ وَعَظِيمِ الْخَطَرِ، وَيُشَارِكُ الْعَامَّةَ فِي اتِّوَاضِ وَالْإِقْتِصَادِ سِوَى الْكُتَّابِ فَاحْتِجَ إِلَيْهِمُ لِلسَّفَارَةِ فِي مَصَالِحِ الرِّعَةِ عِنْدَ السُّلَاطِينِ، وَأَسْتِيفَاءِ حَقُوقِ السُّلَاطِينِ مِنَ الرِّعَةِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الصِّلَةِ بَيْنَهُمَا". قال: "وَلَعَلَّ الْمُلُوكَ بِخَطَرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَأَهْلِهَا وَعَائِدَتِهَا فِي أُمُورِ السُّلْطَانِ صَرَفُوا عِنَايَةَ إِلَى الْكُتَّابَةِ وَخَصُّوهُمْ بِالْخُطُوةِ وَعَرَفُوا لَهُمْ فَضْلَ مَا جَمَعُوهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالصَّنَاعَةِ، وَكَانَتْ مُلُوكُ الْفُرسِ لِرَفْعَةِ رَتْبَةِ الْكُتَّابَةِ عِنْدَهُمْ تَجَمُّعَ أَحْدَاثِ الْكُتَّابِ وَنَوَاشِئِهِمُ الْمُعْتَزِّينَ لِأَعْمَالِ الْمُلْكِ وَيَأْمُرُونَ رُؤَسَاءَ الْكُتَّابَةِ بِامْتِحَانِهِمْ فَمَنْ رَضِيَ أَقَرَّ بِالْبَابِ لِيَسْتَعَانَ بِهِ، ثُمَّ يَأْمُرُ الْمُلْكَ بِضَمِّهِمْ إِلَى الْعُمَالِ، وَأَسْتِعْمَالِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ، وَيَنْقُلُهُمْ فِي الْخِدْمِ عَلَى قَدَرِ طَبَقَاتِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يُمكن أحد من عرض اسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا بأذن الملك .

وفي عهد سابور — ”ولكن كاتبك مقبول القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنع مكانه منك وما يُظن به من لطافة موضعه عندك من الضراعة لأحد والمداينة له ، ليحمله ما أوليته من الإحسان على محض النصيحة لك ، ومناذرة من أراد عيبك وأنت قاص حقه“ . ولم يكن يركب المهاليج في أيامهم إلا الملك والكاتب والقاضي .

قلت : ولشرف الكتابة وفضل الكتاب صرف كثير من أهل البلاغة عنايتهم إلى وضع رسائل في المفاخرة بين السيف والقلم ، إشارة إلى أن بهما قوام الملك وترتيب السلطنة ، بل ربما فضل القلم على السيف ورجح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلاً للقلم بقسم الله تعالى به :

إِنْ أَفْتَحَرَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ * وَعَدَّوْهُ مَا يُكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَّمَ
كَفَى قَلَمُ الْكُتَّابِ عِزًّا وَرَفْعَةً * مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وكما قال ابن الرومي :

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمُ السَّيْفَ الَّذِي خَضَعَتْ * لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الْأُئُمُّ
فَالْمَوْتُ ، وَالْمَوْتُ لَا شَيْءٌ يَغَالِبُهُ ، * مَا زَالَ يَتَّبَعُ مَا يَجْرَى بِهِ الْقَلَمُ
كَذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مَذْبُورِيَّتَ * أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مَذْأَرِهَقَتْ خَدَمُ

والمعنى في ذلك أنها تؤثر في إرهاب العدو على بُعد السيف لا تؤثر إلا عن قرب مع ما فضل به القلم من زيادة الجدوى والكرم ، وإلى ذلك يشير بعضهم بقوله مشيراً للقلم

فَلَكُمْ يَقُلُّ الْجَيْشُ ، وَهُوَ عَرْمَرَمٌ ، * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ
وَهَبَتْ لَهُ الْأَجَامُ حِينَ نَشَأَ بِهَا * كَرَمَ السُّيُوفِ وَصَوْلَةَ الْأَسَادِ

الفصل الثاني

(في مدح فضلاء الكتاب وذم محققهم)

أما فضلاء الكتاب فلم يزل الشعراء يلهمجون بمدح أشرف الكتاب وتقريظهم
ويتغالبون في وصف بلاغاتهم وحسن خطوطهم . فمن أحسن ممدح به كاتب
قول ابن المعتز :

إِذَا أَخَذَ الْقِرْطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * تَفْتَحُ نَوْرًا أَوْ تُنْظِمُ جَوْهَرًا

وقول الآخر :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمَشْتُورَ مِنْطِقُهُ * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ

وقول الآخر :

وَكَاتِبٌ يَرْقُمُ فِي طَرِيسِهِ * رَوْضًا بِهِ تَرْبَعُ الْحَاظُهُ
فَالدَّرُّ مَا تَنْظِمُ أَقْلَامُهُ * وَالسَّحَرُ مَا تَنْشُرُ الْفَاطَةُ

وقول الآخر :

إِنْ هَزَّ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْمَلَهَا * أَنْسَاكَ كُلَّ كَيْ هَزَّ عَامِلَهُ
وَإِنْ أَقَرَّ عَلَى رَقٍّ أَنْامِلُهُ * أَقَرَّ بِالرَّقِّ كُتَّابُ الْأَنَامِلِ لَهُ

وقول الآخر :

لَا يُخْطِرُ الْفِكْرُ فِي كِتَابَتِهِ * كَأَنَّ أَقْلَامَهُ لَهَا خَاطِرُ
الْقَوْلِ وَالْفِعْلُ يَجْرِيَانِ مَعًا * لَا أَوَّلُ فِيهِمَا وَلَا آخِرُ

وقول الآخر :

وَشَادِنٍ مِنْ بَنِي الْكُتَّابِ مُقْتَدِرٍ * عَلَى الْبَلَاغَةِ أَحْلَى النَّاسِ لِإِنْشَاءِ
فَلَا يُجَارِيهِ فِي مِيدَانِهِ أَحَدٌ * يُرِيكَ سَحْبَانَ فِي الْإِنْشَاءِ إِنْ شَاءَ

وكذلك أولعوا بدم حق الكتاب ولهجوا بهجوههم في كل زمن .
فمن ذلك قول بعض المتقدمين يهجوا كاتباً :

حمارٌ في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حرب في زياد
فدع عنك الكتابة لست منها ! * ولو غرقت ثيابك في المداد

وقول الآخر :

وكاتب كُتبه تُذكرني القُرآن حتى أظل في عجب
فاللفظ "قالوا قلوبنا غلف" . * والخط "تبت يدا أبا لبيب"

وقول الآخر :

يعي غير ما قلنا ويكتب غير ما * يعيه ويقرا غير ما هو كاتب

وقول الآخر :

وكاتب أقلامه * معودات بالغلط
يكشط ما يكتبه * ثم يعيد ما كشط

وقول ابن أبي العيناء يهجو أسد بن جهور الكاتب .

أوما ترى أسد بن جهور قد غدا * مُشَّبهًا بأجلَّة الكتاب ؟
لكن يُحرق ألف طومار إذا * ما احتيج منه إلى جواب كتاب

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكتاب مما صاروا
به هزواً على ممر الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ
على بعض الخلفاء كتاباً يذكر فيه حاضر طي فصحه حاضر طي فسخر منه أهل المجلس .

ويروى إن كتاب الدواوين ألزموا بعض العمال مالا مخرجاً عليه فبعث بحسابه إلى
عبيد الله بن سليمان فوقع عليه "هذا هذا" ورد الحساب إلى العامل فقدّر العامل

بِضَعْفِ آدَابِهِ أَنَّهُ صَحَّ حُجَّتُهُ وَقِيلَ الْحِسَابُ مِنْهُ كَمَا يُقَالُ فِي تَثْبُتِ الشَّيْءِ هُوَ هُوَ
وَأُخْرِجَ التَّوْقِيعُ إِلَى الْكُتَّابِ وَنَاطَرَهُمْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ إِزَالَةَ الْمَالِ الَّذِي لَزِمَهُ
عَنْهُ فَلَمْ يَفْهَمُوا أَحَدٌ مِنْهُمْ مَا أَرَادَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ فَرَّدَ التَّوْقِيعَ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ فَلَمْ يَزِدْهُ
فِي الْجَوَابِ عَلَى أَنَّ شِدَّةَ الْكَلِمَةِ الْآخِرَةِ وَوَقَعَ تَحْتَهَا "اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ" إِعْلَامًا لَهُ أَنَّ لَفْظَ
هَذَا بِالنَّشِيدِ بِمَعْنَى الْهَذْيَانِ .

وَحَكَى الْعَبَّاسُ بْنُ أَسَدٍ : أَنَّ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ عِيسَى كَتَبَ إِلَى أَبِي الطَّيِّبِ
أَحْمَدَ بْنَ عِيسَى كِتَابًا مِنْ مَكَّةَ فَقَرَأَهُ ثُمَّ رَمَى بِهِ إِلَى فَقَالَ : اقْرَأ . فَقَرَأَتْ : كِتَابِي إِلَيْكَ
يَوْمَ الْقُرْ ، بِالرَّفْعِ . فَقَالَ : مَا مَعْنَى يَوْمَ الْقُرْ ؟ فَقُلْتُ : الْقُرُّ الْبَرْدُ فَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْقُرِّ
بِالْفَتْحِ ، حِينَ يَقَرُّ النَّاسُ بِمَنَى ، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّانِي مِنَ النَّحْرِ . وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ .

قَالَ صَاحِبُ نَهَايَةِ الْأَرْبِ : "وَقَدْ اتَّسَعَ الْخَرْقُ فِي ذَلِكَ وَدَخَلَ فِي الْكِتَابَةِ مَنْ
لَا يَعْرِفُهَا الْبَتَّةَ ، وَزَادُوا عَنِ الْإِحْصَاءِ ، حَتَّى إِنْ فِیْهِمْ مَنْ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الضَّادِ وَالطَّاءِ .
قَالَ : وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ مَنْ أَدْخَلَ نَفْسَهُ فِي الْكِتَابَةِ وَتَوَسَّلَ إِلَى أَنَّ كِتَابَ فِي دِيْوَانِ
الرِّسَالِ : أَنَّهُ رُسِمَ لَهُ بِكُتَابٍ يَكْتُبُهُ فِي حَقِّ رَجُلٍ اسْمُهُ طَرْنَطَايُ فَقَالَ لِكَاتِبٍ إِلَى جَانِبِهِ
طَرْنَطَايُ يَكْتُبُ بِالسَّاقِطِ أَوْ بِالْقَائِمِ . قَالَ : وَصَارَ الْآنَ حَدُّ الْكَاتِبِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ
أَنَّهُ يَكْتُبُ عَلَى الْمَجُودِ مَدَّةً وَيُتَّقِنُ بَزْعِمَهُ أَسْطَرًا فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ أَنَّ خَطَّهُ قَدْ جَادَ
أَدْنَى جُودَةٍ أَصْلَحَ رِزْقُهُ ، وَرَكِبَ رِزْقُونَهُ أَوْ بَغْلَتَهُ ، وَسَعَى فِي الدَّخُولِ إِلَى دِيْوَانِ
الْإِنِّشَاءِ وَالْإِنِّضَامِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَلَعَلَّ الْكِتَابَةَ إِنَّمَا يَحْصُلُ ذِمَّتُهَا بِسَبَبِ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ .
وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ !

تَعَسَّ الزَّمَانُ ! فَقَدْ أَتَى بِعُجَابٍ ^(٢) * وَمَا فُتُونُ الْفَضْلِ وَالْآدَابِ
وَأَتَى بِكُتَّابٍ لَوْ أَنْبَسَطَتْ يَدِي * فِیْهِمْ رَدَدَتْهُمْ إِلَى الْكُتَّابِ

(١) فِي ضَوْءِ الصَّبْحِ (مِنْ مَنَى) .

(٢) فِي الْأَصْلِ بِعُجَابٍ وَقَدْ اخْتَرْنَا رَوَايَةَ الضَّوءِ .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأثوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصح لديهم أعجم ، والبليغ في مخاطبتهم أبكم ، ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وَصِنَاعَتِي عَرَبِيَّةٌ وَكَأَنِّي * أَلْقَى بِأَكْثَرِ مَا أَقُولُ الرُّومَا
فَلِمَنْ أَقُولُ؟ وَمَا أَقُولُ؟ وَأَيْنَ لِي؟ * فَاسِيرَ، لَا بَلْ أَيْنَ لِي فَأُقِيمَا؟

وقد حكى أبو جعفر النحاس عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأجمعت عن مسألة حاجتي لكثرة جمعه ، فرأيت أنه قد أملى على كاتبه "ولم أكتب بخطي إليك خوفا من أن تقف على رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" على ما يجب فقال : أما تحسن الهجاء ؟ أين الواو ؟ فأثبتها الكاتب فحس حينئذ في عيني ، فأجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتي .

وحكى صاحب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء : أنه تقدم إلى كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها على بُرج أنشأه فكتب "أمر بعمارة هذا البرج أبو فلان فلان" وأستوفى ألقابه إلى آخرها ، ودفع المثال إلى الوزير ليوقف عليه فلما قرأه غضب حتى ظهر الغضب في وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبى فلان بالياء محتجا عليه بأن أبو من ألقاظ العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن الحال اقتضت رفعه من حيث إنه في هذا الموضع فاعل ؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متى رأيت الأمير فاعلا في هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة على رأسه حتى تنسبه إلى هذا ؟ والله لولا سالف خدمتك لفعلت بك ! .

قال ابن حاجب النعمان: ولما كان أرباب الأمور وولاؤها من الخلفاء فمن دونهم يتقدمون ما يكتب به الكتاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطأ أو يدخلها من خلل، ويقدمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة. ويرفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتبتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولما انعكست القضية في تقديم من غلط بهم الزمان. وغفل عنهم الحدّثان. واستولت عليهم شرّة الجهل. ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضل. وصار العالم لديهم حشفاً، والأديب محارفاً، والمعرفة منكراً، والفضيلة منقصة، والصمت لُكنه، والفصاحة هُجّنة، اجتنبت الآداب اجتناب المحارم، وهجرت العلوم هجر كبار المآثم. ولو أنصف أحدهؤلاء الجهّال، لكان بالحشف أولى، وبالحرقة والمنقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها^(١). وسفه حقّ المروءة وأفسد أوضاعها ويوصف بالحيّ الناطق، والصامت أرحى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق.

الباب الثاني

من المقدمة

في ذكر مدلول الكتابة لغة وأصطلاحاً؛ وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسّل؛ وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر؛ وفيه ثلاثة فصول.

(١) في الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهي من زيادة الناصح كما هو ظاهر.

الفصل الأول

في ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع للكتابة

الإنشاء في عُرف الزمان، والتعير عنها بصناعة الترسل

الكتابة في اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابةً ومكتبةً وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كتبية، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شفرها بحلقه أوسير ونحوه، ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمي خرز القربة كتابة لضم بعض الخرز إلى بعض. قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يعلمون. وعلى حد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذاً وغيره "إني بعثت إليكم كاتباً". قال ابن الأثير في غريب الحديث "أراد عالماً سمي بذلك لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده عالماً ومعرفةً وكان الكاتب عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً".

أما في الاصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان: بأنها صناعة روحانية تظهر بالآلة، جُمَانِيَّةٌ، دالة على المراد بتوسط نظمها. ولم يبين مقاصد الحد ولا ما دخل فيه ولا ما خرج عنه، غير أنه فسّر في موضع آخر معنى الروحانية فيها بالألفاظ التي يتخللها الكاتب في أوهامه ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه. والجُمَانِيَّةُ بالخط الذي يُحطّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة. وفسر الآلة بالقلم وبذلك يظهر معنى الحد وما يدخل فيه ويخرج عنه، ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطَّره القلم مما يتصوره الذهن ويتخلله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من

المعنى اللغوي . على أن الكتابة ، وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها ، لا تخرج عن أصلين : هما كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال وما في معناهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتى كانت الكتابة إذا أُطلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكتاب إذا أُطلق لا يراد به غير كتابها حتى سُمي العسكري كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء ، وسُمي ابن الأثير كتابه "المثل السائر" في أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب في زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال حتى صار الكاتب إذا أُطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء اسمان : خاص يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الإنشاء ، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذي هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها أو أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه .

وأما تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كُتاب الدست ومن جرى مجراهم بما يعتمد في القضية التي رُفعت القصة بسببها ، ثم أُطلق على كتابة الإنشاء جملة .

قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكُتاب : ومعناه في كلام العرب التأثير القليل الخفيف ، يقال : جنب هذه الناقة موقّع إذا أثرت فيه حبال الأحمال تأثيراً خفيفاً .

وحكى أن أعرابية قالت لجارتها "حديثك ترُويع وزيارتك تَوَقِّع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَعَ الأمر إذا حَقَّ ولَزِمَ ومنه قوله تعالى ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَعَ الصَّيْقُلُ السيف إذا أقبل عليه بمِيقته يحلوه لأنه بتوقيعه فى الرُقعة يحلُو اللبس بالإرشاد إلى ما يُعتمد فى الواقعة، أو من مَوْقَع الطائر - وهى المكان الذى يألفه من حيث إن الموقع على الرُقعة يألف مكاناً منها يُوقَع فيه كحاشية القصة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين - وهو المكان المرتفع فى الجبل لارتفاع مكان الموقع فى الناس وعلو شأنه أو غير ذلك .

وجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقسّم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يُكْتَب على القِصص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات ونحوها إنما يبنى على ما يخرج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو تُكَّاب الدست ومن فى معناهم ؛ وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يبنى عليه المنشئ، وقد يكون سَمَّى بأصله الذى نشأ عنه مجازاً، وقد يعبر عنها بصناعة الترسل تسميةً للشيء بأعم أجزائه إذ الترسل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغنى عنها ملك ولا سُوقَةٌ، بخلاف الولايات فإنها مختصة بأرباب المناصب العلية دون غيرهم ؛ وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه "حُسن التوسُّل، إلى صناعة الترسل" .

(١) عبارة اللسان والقاموس والواقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل . فلعل ما فى الأصول من تصحيف

الفصل الثاني

(في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة)

قد تقدم في الفصل الذي قبله أن الكتابة وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها لا تخرج عن أصليين : كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال .

فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل مارجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني : من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الأقطاعات والمُهدن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المال وصرفه وما يجري مجرى ذلك ككتابة بيت المال والخزائن السلطانية ، وما يُجىء إليها من أموال الخراج وما في معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والتفقات وغير ذلك ، وما في معنى ذلك ككتابة الجيوش ونحوها مما يخرج القول فيه إلى صنعة الحساب ، ولا شك أن لكل من النوعين قدراً عظيماً وخطراً جسيماً ، إلا أن أهل التحقيق من علماء الأدب ما برحوا يرجحون كتابة الإنشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها ، ويحتجون لذلك بأمور .

منها أن كتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبه من ولاياته ومكاتباته مما يتعلق بكتابة الأموال إلى أن يمثل لهم في وصاياه من صناعتهم ما يعتمدونه ، ويبين لهم ما يأتونه ويذرونه ، فلا بد أن يكون عالماً بصناعة من يكتب له . بخلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد على رسوم مقررة وأموذجات محزنة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيها إلى تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها أشتال كتابة الإنشاء على البيان الدال على لطائف المعاني التي هي زبد الأفكار وجواهر الألفاظ، التي هي حلية الألسنة، وفيها يتنافس أصحاب المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثر من تنافسهم في الدرّ والجوهر .

ومنها ما تستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيحة، وذكاء القريحة، وجودة الروية : لما يحتاج إليه من التصرف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبر بها من سبق إلى استعمالها مع حفظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها؛ وفي ذلك من المشقة ما لا يخفاء فيه على من مارس الصناعة، خصوصاً إذا طلب الزيادة والعلو على من تقدمه في استعمالها، أو حذا حدّ ورسوم المبرزين الذين يتحلون الكلام ويوقعونه مواقع مع مراعاة رشاقة اللفظ، وحلاوة المعنى، وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعاني الأبتكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها، ولا سبق سابق إلى كتابتها - لأنّ الحوادث والوقائع لا تنتهي ولا تقف عند حدّ .

ومن هنا تنقص الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر المقامات الحريية وأزدرها جانحاً إلى أنها صور موضوعة في قوالب حكايات مبنية على مبدأ ومقطع بخلاف الكتابة فإن أهوالها غير متناهية ؛ ولو روعي حال ما يكتبه الكاتب في أدنى مدة لكان مثل المقامات مرّات .

ومنها اختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقربه منه وإعظام خواصّه وأعتادهم في المهمات عليه، مع كونه أحرز بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين في الأموال .

وقد قال بعض الحكماء : الكتاب كالجوارح كل جارحة منها ترّفد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح المازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسّه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أخرى - كما سيأتي له بعد .

قال في موادّ البيان "ولا شك في صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل في تقليده ما يعتمد عليه ويتصفح ما يرد منه ويصرفه بالأمر والنهى على ما يؤدّى إلى استقامة ماعدق به ، وهو حلية الملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرها ، ويعلي ذكرها ، ويعظم خطرها ، ويدل على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترغيب ، والإحماذ والإذما ، واقتضاب المعانى التى تُقتر الوالى على ولايته وطاعته ، وتعطف العدو العاصى عن عداوته ومعصيته . على أن بعض المتعصبين قد ربح كتابة الأموال على كتابة الإنشاء بمغالطات أوردتها ، وتزويرات زخرفها وتمقها ، لا تخفى على متأمل ، ولا تنغضى على ذى ذهن سليم .

وقد أورد الحريرى في "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالفرائية ألفاظا قلائل في المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال على لسان أبى زيد السروجى .

"اعلموا أنّ صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكتبة خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب ، وأساطير البلاغة تُسخ لُدّرس ، ودساتير الحُسابات تنسخ وتُدّرس ، والمنشئ جُهينة الأخبار ، وحقيبة الأمرار ، ونجى العظام ، وكبير الندماء ، وقلمه لسان الدولة ، وفارس الحولة ، ولقمان الحكمة ، وترجمان الهممة ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ، به تُستخلص الصياصى ، وتُملك النواصى ، ويُقتاد العاصى ، ويُستدنى القاصى ، وصاحبه برىء من التّجمات ، آمن كيد السّعات ، مقرّظ بين الجماعات ، غير معرّض لنظم الجماعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

(١) فى الضوء عزق بالعين المهمة والزأى وهو المناسب ولعل ما فى الاصل تصحيف .

”إلا أن صناعة الحِساب موضوعةٌ على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنيةٌ على التلقيق، وقلم الحاسب ضابط، وقلم المنشئ خابط، وبين إتّاة توظيف المعاملات، وتلاوة طوامير السجلات، بون لا يُذكره قياس، ولا يعتوره التباس؛ إذ الإتّاة تملأ الأيكاس، والتلاوة تفرغ الراس، ونحارج الأوارج يغني الناظر، وأستخراج المدارج يعنى الخاطر.

ثم إن الحسبة حفظة الأموال، وحملة الأثقال؛ والنقلة الأثبات، والسفرة الثقات، وأعلام الإنصاف والانتصاف، والشهود المقانع في الاختلاف؛ ومنهم المستوفى الذى هو يد السلطان، وقطب الديوان، وقسطاس الأعمال، والمهيمن على العمال، وإليه المال فى السلم والهرج، وعليه المدار فى الدخّل والخرج؛ وبه مناط الضر والنفع، وفى يده رباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحِساب، لأودت ثمره الأكتساب، ولا تصلّ التغابن إلى يوم الحِساب؛ ولكان نظام المعاملات محلولاً، وجرّح الظلمات مظلوماً، وجيد التناصف مغلولاً، وسيّف النظام مسلولاً. على أن يراع الإنشاء متقول، ويراع الحِساب متأول، والحاسب مناقش، والمنشئ أبو براقيش؛ ولكلّهما حمة حين يرقى، إلى أن يلقى ويرقى، وإعنات فيما يُنشأ، حتى يُعشى ويُرشى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّأَهُمْ﴾.

قلت : وقد أوردت فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء المشار إليها بالذکر فى خطبة هذا الكتاب من فضيل الكتابة ما يشدو بذكره المترنم، وأودعتها من شرف الكتاب ما يذعن له الخصم ويسلم.

الفصل الثالث

(في ترجيح النثر على الشعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، مع طول بقائه على ممر الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة الرواء وأفواه النقلة لتمكّن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلّق بعضها ببعض، مع شيوعه واستفاضته وسرعة انتشاره وبعده مسيره وما يؤثّر من الرفعة والضعّة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده يجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعدد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المجدد من الجاء الجسيم والمنح الفائق، الذي يستحقّه بحسن موقع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأريحية، وقبوله لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثّرة في النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجري مجراها وما يُستدلّ به منها في تفسير القرآن الكريم وكلام من أوتي جوامع الكلم، ومجامع الحكم، صلى الله عليه وسلم ! وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكّنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمّة، والمفآخر الضخمة، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقامًا، وأحسن نظامًا، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تُلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ والكلام المشثور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نُقل

من معانى النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته . ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين
على كرم الله وجهه ! ”قيمة كل امرئ ما يحسن“ : أنه لما نقله الشاعر إلى قوله
فَيَا لَأَمَى دَعْنِي أَغَالِي بِقِيَمَتِي * فقيمة كل الناس ما يحسنونه

قد زادت ألفاظه وزهبت طلاوته ، وإن كان قد أفرد المعنى في نصف بيت فإنه
قد احتاج إلى زيادة مثل ألفاظه مرة أخرى توطئة له في صدر البيت ومراعاة
لإقامة الوزن ، وزاد في قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ امرئ
بلفظ الناس ولا شك أن لفظ امرئ هنا أعذب وألطف ، وغير قوله يحسن إلى قوله
يحسنونه ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتد به مستوخم ، وإذا
اعتبرت . انقل من معانى النظم إلى النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حسنا وروفا
ألا ترى إلى قول المتنبي يصف بلدا قد علقت القتلى على أسوارها ؟ :

وكان بها مثل الجنون فأصبحت * ومن جثت القتلى عليها تمائم

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير في قوله يصف بلدا بالوصف المتقدم :
”وكانما كان بها جنون فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم“
فإنه قد جاء في غاية الطلاوة خصوصا مع التورية الواقعة في ذكر العزائم مع ذكر
الجنون ، وهذا في النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذى (لا يأتية
الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ولم يزل على صفة نظم الشعر بل نزهه عنه بقوله
(وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون) وحرم نظمه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
تشريفا لمحله وتزجيها لمقامه منها على ذلك بقوله (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وذلك
أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل على الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاورة للمحدّ، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصّنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، وسبّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لأحاديث الناس فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأخله. بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخطب والترسل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلّق؛ إذ الخطب كلام مبنّى على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتذكير والترغيب في الآخرة والترهيد في الدنيا والحض على طلب الثواب، والأمر بالصّلاح والإصلاح، والحث على التعاضد والتعاطف، ورفض التباغض والتقاطع، وطاعة الأئمة، وصلّة الرحم، ورعاية الذم، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى مما هو مستحسن شرعاً وعقلاً. وحسبك رتبة قام بها النبي صلى الله عليه وسلم! والخلفاء الراشدون بعده. والترسل مبنّى على مصالح الأمة وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسرّة الناس في مهمّات الدّين وصلاح الحال وبيعات الخلفاء وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها. إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر.

قال في موادّ البيان "وقد أحسّت العرب بانحطاط رتبة الشّعْر عن الكلام المنشور كما حكى أن أمراً القيس بن حُجر هم أبوه بقتله حين سمعه يترنّم في مجلس شرا به بقوله :

اسْقِيَا حُجْرًا عَلَى عِلَّاتِهِ * مِنْ كَيْتٍ لَوْهَا لَوْنُ الْعَلَقِ

وما يروى أن النابغة الجعدي كان سيذا في قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وخطأ رتبته. قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر آتباء لهواه بدون دليل واضح".

قال في الصناعتين: "ومع ذلك فإن أكل صفات الخطيب والكاآب أن يكونا شاعرين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كآبا". قال: "والذى قصر بالشعر كثرتة وتعاطى كل أحد له حتى العامة والسفلة فلحقه بالنقص ما لحق الشطرنج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام على احتياج الكاآب للشعر في بيان ما يحتاج إليه الكاآب فيما بعد إن شاء الله تعالى!

الباب الثالث

في صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(في صفاتهم؛ وهى على ضربين)

الضرب الأول

(الصفات الواجبة التى لا يسع إهمالها؛ وهى عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام — يؤمن فيما يكتبه ويمليه. ويوثق به فيما يذره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهب للعدو بوقع كلامه، والجادب للقلوب باطف خطابه فلا يجوز أن يوثى أحد من أهل الكفر؛ إذ يكون عينا للكفار على المسلمين، ومطلعا لهم على خفاياهم فيصلون به إلى ما لا يمكن استدراكه، وقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

أَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۖ وَالْمُرَادُ بِالْبَطَانَةِ فِي الْآيَةِ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَى حَالِ الْمُسْلِمِينَ كَالْأَطْلَاعِ عَلَى مَقْدَارِ خَزَائِنِهِمْ مِنَ الْمَالِ، وَأَعْدَادِ جَيْشِهِمْ مِنَ الْخَيْلِ وَالرِّجَالِ .

قال أبو الفضل الصُّورِي فِي تَذَكُّرِهِ ”وَإِنْ مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي جُبِلَ كُلُّ أَحَدٍ عَلَيْهَا حَتَّى كُلُّ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَنْ يَرَى رَأْيَهُ وَيَدِينُ دِينَهُ“ قَالَ : ”وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ فِي نَفْسِهِ ، وَلِذَلِكَ شَرَطَ بَعْضُهُمْ فِي الْكَاتِبِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَذْهَبِ الْمَلِكِ الَّذِي يَتَذَهَّبُ بِهِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ مُوَافِقًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ“ .

وَلَمَّا فَتَحَتِ الصَّحَابَةُ (رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) مِصْرَ ، بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ يَأْمُرُهُ أَنْ لَا يَسْتَعْمَلَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ كَافِرًا فَأَجَابَهُ عُمَرُو : أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الْبِلَادِ ، وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى مَقَادِيرِ خَرَاجِهَا ، وَقَدْ أَجْتَهَدْتُ فِي نَصْرَانِيَّ عَارِفٍ مَنَسُوبٍ إِلَى أَمَانَةٍ إِلَى حِينٍ مَعْرِفَتِنَا بِهَا فَنَعْزِلُهُ ، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ : كَيْفَ تُؤْمِنُهُمْ وَقَدْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ ؟ وَكَيْفَ تُعِزُّهُمْ وَقَدْ أَذْهَمَهُمُ اللَّهُ ؟ وَكَيْفَ تُقَرِّبُهُمْ وَقَدْ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ ؟ ثُمَّ تَلَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الْآيَةَ وَقَالَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ ”مَاتَ النَّصْرَانِيُّ وَالسَّلَامُ“ .

وَقَدْ رَوَى أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَعَهُ كَاتِبُ نَصْرَانِيٍّ فَأَعْجَبَ عُمَرُ بِخَطِّهِ وَحِسَابِهِ ، فَقَالَ عُمَرُ ”أَحْضِرْ كَاتِبَكَ لِيَقْرَأَ“ فَقَالَ أَبُو مُوسَى ”إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ“ فَزَبَرَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ ”لَا تُؤْمِنُوهُمْ ، وَقَدْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا تُدْنُوهُمْ ، وَقَدْ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا تُعِزُّوهُمْ وَقَدْ أَذْهَمَهُمُ اللَّهُ“ .

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ الْأَمِّ : ”مَا يَنْبَغِي لِقَاضٍ وَلَا وَاِلٍ أَنْ يَتَّخِذَ كَاتِبًا ذِمِّيًّا ، وَلَا يَضَعَ الذِّمِّيَّ مَوْضِعًا يَفْضُلُ بِهِ مَسَالِمًا . وَيَعِزُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردي والقاضي أبو الطيب والبندنجي وابن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون مسلماً وهو الأصح الذي عليه الفتيا في المذهب .

وإذا اشترط الإسلام في كاتب القاضي والوالي ففي كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرر به .

قال أبو الفضل الصوري : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتأمل بنواحيه وأوامره ، والتدبر لقوارعه وزواجره ، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ، وهو الذي يَسُدُّ قُوَى الكلام ، ويثبت صحته في الأفهام ، فتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عارية من الفضائل : لأنه الحجة التي لا تُدْحَضُ ، والحقيقة التي لا تُرْفَضُ ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شيء ، وكانت كتابته مغسولة من أفضل الكلام . وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصرة عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمى حفظ شيء منه وكتبه فقد أيجت حرمة كتاب الله تعالى وأتتهكت ، وأمكن منه من يتخذ هزوا ولعبا والله سبحانه يقول في كتابه المكنون ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم " قال : "ولا يحتج بالصباي وأنه كتب للطبع والطائع من خلفاء بني العباس ، ومعز الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعُضْدُ الخلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابي كان من أهل ملة قليلة أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته .

الصفة الثانية، المذكورة — فقد صرح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشترط في كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا اشترط ذلك في كاتب القاضى ففي كاتب السلطان أولى لما تقدم من عموم النفع والضربه . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال في حق النساء ”جنبوهُنَّ الكُتَّابَةَ، ولا تُسْكِنُوهُنَّ الغُرفَ، وأَسْتَعِينُوا عليهن بلا : فإنَّ نَعْمَ تُضَرِّيَنَّ في المسألة“ . ومروا على كرم الله وجهه على رجل يعلم امرأة الخط . فقال ”لَا تَزِدِ الشَّرَّ شَرًّا“ .

ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال : ”أفغى تُسْقَى سُمًّا“ والله البسامى حيث يقول ! :

مَا لِلنِّسَاءِ وَلِلْكُتَّابَةِ * بَةِ وَالْعَمَلَةِ وَالْخَطَّابَةِ !
هَذَا لَنَا وَلِهِنَّ مِنْنًا أَنْ يَتَّيَّنَ عَلَى جَنَابَةِ

فإن قيل : قد كُنَّ جماعة من النساء يكتبن ولم يرد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روى أبو جعفر النحاس بسنده إلى الحسن أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتب في مكاتباتها بعد البسملة : من المبرأة عائشة بنت أبى بكرٍ حبيبة حبيب الله . وحكى جعفر بن سعيد أنه ذكر لعمر بن مسعدة كاتب المأمون توقعات جعفر بن يحيى فقال : ”قرأت لأُمَّ جعفر توقعات في حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصارا وأجمع للعانى“ . وذكر محمد بن على المدائنى في كتاب القلم والدواة أن عاملا لزيدة كتب إليها كتابا فوقعت في ظهره ”أن أصلح كتابك وإلا صرَفناك عن عمالك“ فتأمله فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه في الدعاء لها وأدام كرامتك، فقال : ”إنها تخيلت أنك دعوت عليها فإن كرامة النساء دفنهن“، فغير ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ؛ ومن كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرح فيه بأنها كتبت بنفسها ولعلها أمرت من يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دونه ، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها ، ومن عداها من النساء لأُعْبَر به .

الصفة الثالثة ، الحرّية — فقد شرطوا في كاتب القاضى أن يكون حراً : لما فى العبد من النقص ، فلا يُعتمد فى كل القضايا ، ولا يُوثق به فى كل الأحوال ؛ فكاتب السلطان كذلك بل أولى كما تقدم .

الصفة الرابعة ، التكليف — كما فى كاتب القاضى فلا يعول على الصبي فى الكتابة إذ لا يُوثق به ولا اعتماد عليه .

الصفة الخامسة ، العدالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقاً فإنه بمنزلة كبيرة ، ورتبة خطيرة ، يحكم بها فى أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف أو كتّم شيئاً قد علمه أو تأول لفظاً بغير معناه أو حرّفه عن جهته ، أدّى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر ، ونفع من يجب الإضرار به ، وكان قد موه على الملك حتى مدح المذموم وذم المدوح . ففى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المأثم ويزعه عن احتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، وأثر فعله من الأضرار ما لم تؤثر السيوف ، والله القائل !

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبٍ بَنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامٍ
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ

وأيضاً فإنه لا يقبل قول الفاسق فتضيع به المصالح ، وربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدين على وهن يدخله على الدين بقلبه ، أو ضرر يجلبه بلسانه .

وأيضاً فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئاً من أمور المسلمين ؛ وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماورديُّ من أصحابنا الشافعية القولَ باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدّم .

الصفة السادسة ، البلاغة — بحيث يكون منها بأعلى رتبة وأسمى منزلة ؛ فإنه لسان السلطان الذي ينطق به ، ويُدّ التّي بها يكتب . وربّ كاتبٍ بلغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى عن الكتاب ، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيض القواضب ؛ وإذا كان جيّد الفطنة صائب الرأي حسن الألفاظ ، نتأثّى له المعاني الجزلة فيجلوها في الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الاختصار ، ويُطيل حيث لايجد عن الإطالة بُدّاً ويتهدّد فيملاء القلوب روعةً ، ويشكر فيُلقي على النفوس مسرةً ؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عظم مملكة سلطانه ونغمّها في معارض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده .

الصفة السابعة ، وفور العقل ، وجرّالة الرأي — فان العقل أسُّ الفضائل وأصل المناقب ؛ ومن لا عقل له لا انتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله ؛ فاذا كان تامّ العقل كامل الرأي ، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كلّ أحد عن سلطانه بما يقتضيه الحال التي يكون عليها ؛ فيشتد ما كانت الشدة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ، ويوبّخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويذمّ من تعدّى الى ما يستوجب الذم ؛ ويأتى بالمكاتبات التي يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعها صائبةً مراعيها .

الصفة الثامنة ، العلم بموادّ الأحكام الشرعية ، والفنون الأدبية ، وغيرها مما يأتي بيانه — إذ الجاهل لا تميزه بين الحق والباطل ، ولا معرفة تُرشده إلى الطرق المعتمدة في الكتابة ؛ ومن سلك طريقاً غير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زل .

الصفة التاسعة ، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكاتب الملوك عن ملكه . وكل كاتب يجذبه طبعه وجيلته وخيمته في الكتابة إلى ما يميل إليه ، ومكاتبه الملوك أحوج شيء إلى التفضيم والتعظيم ، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ، فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشد عزما وأعلى همة ، كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من كتابته .

الصفة العاشرة ، الكفاية لما يتولاه — لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسلمين ، وربما عاد عليهم عجزه بالوبال ، أو أدى بهم ضعفه إلى الاضطراب والاختلال .

الضرب الثاني

(الصفات العرفية)

قال المهذب بن مماتي في كتابه "قوانين الدواوين" : "ينبغي أن يكون الكاتب أدبيا ، حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جرأة ، يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه ثؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية ، شريف الأنفة ، عظيم الزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدام " .

قال محمد بن ابراهيم الشيباني : من صفة الكاتب اعتدال القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمايل ، وخطف الإشارة ، وملاحة الزبي . قال : ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستفرد المركب ،

ولا يكون مع ذلك قَصْفًا جِلْمَةً، متفاورًا الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة؛ والله القائل !

وَسَمُولٍ كَأَنَّمَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتَّابِ“

وقال أبو الفضل الصوري : ”ينبغي أن يكون الكاتب فصيحًا بليغًا أدبيًا، سنيّ الرتبة، قوى الحجّة، شديد العارضة، حسن الألفاظ؛ له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود“ .

قال المذهب بن ممتى : ”أما حسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال خدومه من إثاره إظهار نعمته على من هو في خدمته أو إخفاءها“ . قلت : وهذا قد يخالف ما تقدّم : من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بهي الملبس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدم في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل ويعظمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربما كان التعظيم في الفضل لرتب الحالة المنحط الجانب أكثر، وترجيحه على غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتب المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة : ”لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو وصفا وكان أحدهما جميلا بهيا، ولباسا نبيلًا . وإذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليلا قبيحًا : وبأد الهيئة دميمًا، وخامل الذكّر، مجهولاً : ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي درج واحد من الصواب، لتصدّع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباد الهيئة على ذي الهيئة؛ ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب على مساواته له سببا للتعجب به، والإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أياس، ومن حسده أبعد؛ فلما ظهر منه خلاف ما قدره وتضاعف

(١) في الأصل المعارضة وهو تصحيف من التامع .

(٢) هو فصيل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح نظره وإعجابه في الأصول تصحيف فنبه .

حُسْنُ كلامه في صدورهم كبر في عيونهم: لأن الشيء من غير معدنه أغرب؛ وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف؛ وكلما كان أطرف كان أعجب؛ وكلما كان أعجب كان أبعد؛ وإنما ذلك كنوادر الصبيان وملح المجانين؛ فإن استغراب السامعين لذلك أعجب، وتهجئهم منه أكثر. قال: "والناس موككون بتعظيم الغريب واستظراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوئى مثل الذى معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ؛ وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعاً، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤنة وأكثر فائدة".

الفصل الثانى

(في آداب الكتاب؛ وهى على نوعين)

النوع الأول

(حُسْنُ السيرة وشرف المذهب؛ ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوى الله تعالى في الأسرار والإعلان، والإظهار والإبطان، والمحافظة عليهما، والاستناد إليهما في مبادئ الأمور وعواقبها. فإنها العروة التى لا تنفصم، والحبل الذى لا ينصرم، والركن الذى لا ينهدم، والطريق التى من سلكها آهتدى، ومن حاد عنها ضلّ وتردى؛ والمحافظة على شرائع الدين التى فرضها الله تعالى على خلقه، والحذر من الاستخفاف فيها بحقه، وتوقى غضبه بتأديتها، والاستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقيها^(١).

(١) كذا في الأصول من الوفاة ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل.

(١) ومنها طلب الأجر بما يُئيله من عز سلطانه ويُجديه من فواضل نعمائه ؛ وهذا هو أصح الأغراض التي يجب على كل عاقل أن يقدمه على كل غرض ، ويحصل منه على السهم الوافر ؛ فلا خير في دنيا تنقطع السعادة عنها ، وإنما السعادة بعد الموت ﴿ والدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ ؛ ومن آختر الفاني المنصرم على الباقي الدائم ، فقد خَسِرَت صفقته ، وبارت تجارتُهُ .

والطريق الموصِّل إلى هذا المقصد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان ، وقصدُ النفع العام له ولرعيته ، والاجتهادُ في إغاثة الملهوف ، والأخذ بيد الضعيف ، والنفع بجأه عند سلطانه ، وحمله على العدل في الرعية ، فإذا توثق ذلك فاز بثواب الله تعالى ، وقضى حقَّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر ، وقابل نعمة الله التي أقدَره بها على هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقر بها لديه .

ومنها : بجانب الرِّيب والتَّرهُّ عنها ، والطهارةُ منها . فانها تُسَخِّطُ الله تعالى ، وتذهب بمهابة المرء ، وتُسْقِطُهُ من العيون والقلوب . وأحقُّ مَنْ راعى ذلك من نفسه مَنْ بين أتباع السلطان أهل هذه الصناعة لأختصاصهم به ، ولُطْف منزلتهم عنده . إذ المشهور عند نقلة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورهم ومشايخهم كانوا من جلة العلماء ، وسادة الفقهاء ، وأفاضل أهل الورع ، المبرِّئين من الدَّنَس والطَّمَع ، المميزين على القضاء والحُكْم ، في الاستقلال بعلوم الإسلام ؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب ، ورواية الأشعار ، والعلم بالأيام والسير ، والارتياض بأداب الملوك وعِشرتهم ورسوم صحبتهم ، وغير ذلك مما ينظم في صناعتهم . فقد ساوَوْهم في علم الدِّين ، وفاقَوْهم فيما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدِّين قرينان لا يفترقان ، وعونان على صلاح البلاد والعباد ، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدِّين لأنه تابعه ورديفه .

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنها لزوم العَفَاف والصَّيَانَة فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الذميمة . والمطاعم الوخيمة ، والترفع عن المكاسب اللثيمة ؛ فان ذلك يجمع القُرْبَة إلى الله تعالى والحُظُوة عند السلطان ، وجميل السيرة عند الرعية — حتى إن هذه الطريقة قد تقدم بها عند السلطان المتخلفون في الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لا يقاربونه في غِنَاء ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على مَنْ كان قريبا ، ومن لا مكانة له ولا حرمة على مَنْ له مكانة وحرمة ، وأستدنى لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذى يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَاف الذى عليه نظام معيشتة ، والأرتفاق فيما يحل ويطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل ”الزم الصحة يلزمك العمل“ .^(١)

لا أنه يمتنع من المنافع التى تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلص من قبيح الأحدثثة وإطلاق ألسن الحسدة بالظعن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان ونفوذ الأمر من غير خيانة للوُثَمين ولا اشتكاء للرعية — فانه أولا هذه المنافع لغنى الانسان بالقناعة ، ورضى بالكفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه ودنياه فى سلامة السلطان . اذ لا يجوز أن يستفرغ وسعه ويعرض نفسه للخطر فيما لا تحسن له عائدته ، ولا تخلص منه فائده ، فى جاه ولا مال . وقد علم ما كان عليه أهل هذه الطبقة فى سائر الدول وما حصلوه من الذخائر واقتنوه من القُنِيَات النفيسة ، التى أقدرتهم على إظهار مُروءاتهم ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم على الدوائر والأعقاب .^(٢)

وإنما حصلوا على ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة وذميمة الطعم — لأنهم كانوا فى أزمنة لا يغضى فيها عن متكسب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وإن جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل . (٢) لعله على الذاررى تأمل . (٣) لعله الطمع .

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلاها رتبة — لأنه يتلو الأجر في البقاء والدوام ، وكلما كانت المهمة أعظم وأشرف ، كانت إليه أرغَبَ وبه أَكَلَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعليه الناس حتى قال الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ . وأولى الناس باقتناء ذخائر الحمد وأقراض فرض الشكر من عرض الله تعالى جاهد ، وطول يده ، وأمضى عند السلطان لسانه ، فينبغي أن يختار هذه المكرمة ، ويقوم بالنصيب الأوفر منها ، ولا يتخل بجاهه ولا ماله على قاصد ولا مؤمل ولا ذي رحم وذمام ، ولا يُضَجِّع في أمر بطانته وحاشيته وأصحابه ، ولا يضيِّق عليهم مع سَعَتِهِ ، ولا يقصِّر بهم في كِفَايَتِهِ ، ويجعل اكتسابها بجاهه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ما أوْتُمِنُوا عليه في هذا الغرض ورَضُوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوال النعم ، وسقوط الرتبة وذهاب المال ، والوسم يسم الخيانة والبوار إلى الأبد . ولا يبالغ في ابتناء المعالي واقتناء المحامد وبذل الرغائب وارتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغي لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفَاخِرًا ولا مُكَاثِرًا ولا مقاييسا ، فيكون قد عدا طوره ، وأضلَّ رُشدَه ، وتعرض للعطب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلى سوء الظن به ، وفوق سهام الحسدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالطعن عليه ؛ وربما أدى به ذلك إلى سقوط المنزلة ان سامت نفسه .

ومنها الاقتصاد في طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهُم ما يتناولونه من ذلك بسلوك طريقة مجودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال على اللذات . والانهماك في الشهوات . فان ذلك غير مستحسن للملك ولا سؤفة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها في صلاح المعاش

وأمر الآخرة؛ ولكن لا يكلف ترك اللذات جملة - اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبِلَتْ عليه الطباع من الميل إليها والرغبة في الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم في آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النوع الثانى

حُسن العشرة - التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعاً والحاصلة بالتخلق تكسباً وتطبعاً ، وأعوذ بها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامة وحصول الشاء والشكر والمودة من الأفاضل الأخيار ، وكفاية الأراذل الأشرار ، وان لم يلتزمها الكاتب طوعاً حمل عليها كرها .

وأعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأول

(عشرة الملوك والعظماء)

قال على بن خلف : ولا يُقُوم بأدائها وأكل رسومها إلا مَنْ علَتْ فى الأدب درجته ، وسمَتْ فى رِجَاحَةِ العقل منزلته ، وتميَّزَ بغريزة فاضلة وأدب مكتسب ، وصَبَرَ على المشاقِّ فى التحلَّى بالهمم الشريفة ، والسموِّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلاطان ومساعدة الزمان ، وتمكَّنَ من تصريف النَّفْسَيْنِ الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخَذَهما بقبول ما تُرشد اليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبه راكب خطر جسيم ، بتلكه نفسه لمتحكم فى شعره وبشره ، قادر على نفعه

وَضُرَّه ؛ لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكبير النكايّة إلا ما يؤمّل من صَفْحِهِ ومسامحته ، ويرجو من عَطْفِهِ ورأفته . وأوّل ما يجب على المتصل بخدمة السلطان النظرُ في عواقب أموره وحفظ نفسه من جريرة يُجرّها عليها باغفاله فرضا من فروض طاعته ، وتضييعه المحافظة على حقوق خِدْمَتِهِ ، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقًا يغلب عليه ، ويرجع بغريزة الطبع إليه ، لا يمكنه التزوع عنه ولا المفارقة له ؛ إذ الانتقال عن الطّباع ، شديد الامتناع ، في الخدم والأتباع ؛ فكيف الملوك والرؤساء الذين لا يقابلون بلوم على خُلُقٍ مذموم ؛ بل العادة جارية في أدب خِدْمَتِهِمْ بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطأ ويحسّنوا ما يواقعونه من قبح . فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه ، وما خالف سجيته في إصلاح زمانه ؛ وأن ينزل عن هواه لهواه ، ويتبع فيما يسخطه ويأباه ، ما يؤثّر سلطانه ويرضاه . وينبغي أن لا يعرض نفسه لما يسقط منزلته ويُفسد عاقبته ولا يُوجد للزمن طريقا إلى التنكر له ، ويعينه بتفويق سَهَامِهِ والتصدّي لمواقعها . وقد علم أن الزمان وإن عمّ بنوائبه فإنه يخصّ صاحب السلطان منها بما يزيد على نصيب غيره . ومن أشق الأحوال أن يدفع الإنسان إلى تغيير السلطان مع كون السبب في ذلك شيئا جزّه إلى نفسه بسوء اختياره ، لما يجتمع عليه في ذلك من مرارة النكبة ، وحرارة المغبة ، وتقريع من يُزرى على عقله ، ويؤنبه بجهره . ثم انه يلزمه بعد الاحتياط فيما تقدّم عدّة خصال أيضا .

منها الإخلاص وهو قوام الأمر في المصاحبة ؛ فإن من صحب سلطانا بعقيدة مدخولة في ولايته ، مشوبة في محبته ، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر : لأن الضمائر ^(١) المذوقة والنيات السقيمة لا بد أن يصرّح بما فيها ويظهر ما في دخيلتها ؛ وإذا اتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بإتلاف نفسه ، وإذهاب مُهْجَتِهِ .

(١) لعله المذوقة . أى غير الخالصة من قولهم مذاق فلان إذا لم يخلصه . تأمل .

ومنها النصيحة ، وهى ترب الإخلاص . والطريق الموصل إلى التوفية بها أن يطالع السلطان بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاص أموره وعامها ؛ وعلى من استخلصه السلطان لنفسه ، وأتمته على رعيته ، وأنطقه بلسانه ، وأخذ وأعطى بيده ، وأورد وأصدر برأيه ، وتخيره لهذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستتر عنه دقيقاً ولا جليلاً من أحوال ما فوضه إليه ، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجملته توقياً من لوم لائم ، ولا يحمله فرط النصح له على الإضرار برعيته ، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضییع حقوقها ، ولا القيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها . ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يبقى في ذلك ممكناً ، ولا يدع فيه شأواً للاحق .

ومنها كتمان السر . وهو من أفضل الآداب في حُبة السلطان وغيره ، وأعوذها بالفلاح على صاحبها : لأن كثرة الانتشار الداخل على الدول إنما توجه بتفريط بطائنها وصاحبها في أسرارها ، وإظهارهم بما تقرّر في أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهره ؛ فيجد العدو بذلك الطريق إلى معالجة آرائهم بما ينقضها ، ومقابلتها بما يُفسدها . على أن إفشاء السر من الأخلاق التى طبع أكثر الناس عليها ، وحيل بينهم وبين الإقلاع عنها ؛ فمن علم من نفسه ذلك فليحذر معاملة السلطان في أسرارهِ وبواطنِ أموره ، ولا سيما ما وجد منها في باب حروبه ومكايده ، فإنه إن ظهر منه على خيانة في السر ، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشكر فانه وإن كان واجبا على الإنسان مع أ كفائه ونظرائه فانه مع السلطان الذى يَسْتَظِلُّ بظله ، ويستدرّ أخلاف فضله أوجب . إذ المرء قد يقدر على مكافأة عارفة صديقه بما يُضاهيها ويزيد عليها ، ولا يقدر على مكافأة سلطانه إلا

بشكر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته . ثم الشكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا السير الذي يقضى به حق الخدمة : لأن الإكثار منه داخل في حكم الملق والتثقل ؛ وإنما يظهر شكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهم الخصال اللازمة وأكدها ؛ إذ هو الطريق إلى صلاح العباد وعمارة البلاد ؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحه ودوام عمله ، والسبب الذي لأجله ترغب السلاطين في صحبته : لأنهم ما برحوا يقرّبون صاحب هذه الخصلة ويرونه أهلاً للاختصاص ، موضعاً للثقة ؛ ولا أسوأ حالاً ممن نزل هذه المنزلة وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصد المخالصة، ومقابلة كل نعمة تُفاض عليه بالنهضة فيما أُسند إليه ^(١) : ليدعو ذلك سلطانه إلى رب النعمة لديه ^(٢)، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، في حال سعادته، وإقبال دولته، وفي حال تولّيها عنه وعُطلته . أمّا في حال إقبال الدولة عليه فإن يصحبه بقلبه دون بدنه ولا يتطلب صاحباً غيره ينتقل إلى صحبته ، ويستبدل بخدمته من خدمته ؛ ولا يحدث نفسه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه ؛ ولا أن يرتّب له جهة أخرى يجعله مقدّمة لأمر يترقّب : لما في ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدم وجوبه . وأما في حال أنصراف الدولة عن صاحبه ، فإنه لا يباينه مباينة المساعد للزمان عليه ، الموافق للقادير فيه ، ولا يخونه عند حاجته إليه ، ولا يضيع حقوقه عنده وصنائعه لديه ؛ ولا ينحاز بكليته إلى من أقبلت أمور السلطان عليه ؛ فإن ذلك

(١) في الضوء . أسند . وهى أوضح .

(٢) أى زيادة النعمة .

مما يدل على خُبث السجية ومقابلتها على الإحسان بالإساءة ، وأستعمال العقوق ،
وأطراح الحقوق .

ومنها مجانبة الإدلال . إذ الدالة على السلطان والرئيس من أعظم مصارع التلّف ،
وأقرب الأشياء إلى زوال النعم ، ولأجلها هلك من هلك من بطانة السلطان وخاصة
وزرائه ؛ وفي قصصهم عبرة لمن أنعم النظر في تأملها . وعليه أن يعول في الاعتداد
بخدمته ونصائحه له على أشتارها وظهورها ، ولا يفيض في تعديدها وذكرها ، ولا
يواصل التثقل بأغراضه والإلحاف بأسئلته ، ولا يظهر التشبّع عند التقصّر به ،
ولا الغضب اتكالا على سالف خدمة ، وقليل حرمة ؛ وأن يتناسى ما أسلفه من
الخدمة والصحبة ، ويكون في كل حال عارفا بعوارفه ، معتدا بفواضله ، موجبا
الفروض له لاعياه ، فإن السلطان مجبول على أنفة النفس وعزّتها ، ولا يحتمل التنازل
لأحد : لتزليه الكل منازل الخدم والأرقاء ، وأعتقد أنه سبب النعمة السابعة على
الكافة ، وثقته بوجود العوض عمن يفقده من الأعوان والأصحاب ، ومناصرة الناس
على خدمته والانتساب إلى متابعتهم لما يصلون إليه من الخطوة ، وينالونه من الجاه
والثروة . وإن كان في باطن حاله على خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والاعتداد وتلطّف
في بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمه كاتبا ، ولا لسانه مخاطبا ؛ فإن ذلك
إضرار على همة المصحوب ، ودلالة على إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة
وسُبُوغها ، والمنّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ
آماله ، وسداد أموره ، وسهولة مطالبه . وإذا زاده السلطان رفعة وتشريفا آزداد له
تعظيما وتوقيرا . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل ما يشينه ، وإذا خصه بأثرة
وتقريب أن يزيد الخاصة والعامة بشرا وإيناسا ، وإن آتهم بهفوة لم ينته في إقامة
العُذر والاحتجاج على براءة الساحة إلى الغاية القصوى . بل يتوسط في ذلك ويسأل

من حُسْن الصَّفَح والإقالة وجميل التَّعَمُّد^(١) والعفو ما يجعل للإحسان وجهًا ، ولتَعَقُّبه للسخط سببا . فإنه إذا صدع بالحجة في براءة الساحة ، فلا وجه لمعذرتة وفيه تكذيب لرئيسه ، وربما أدَّى إلى فساد ومُفَاقَة .

ومنها التمسك بأداب الخدمة بالمواظبة عليها ، وصرف الأهتمام إليها ، إذ هي أعظم الذرائع إلى نيل الرتب وبلوغ المآرب ، والسبب الذي يقرب البُعداء ، ويرفهم على أهل الوسائل والحُرم ، وذوى المَوَات^(٢) والخدم ؛ ويُعَمِّي عن كل شَيْن ، وَيُصِمُّ عن كل طعن . وما نال أحد عند السلطان مرتبةً إلا والمواظبة على خدمته سببها والمواصلة موجبها . وأولى الناس بلزوم السلطان كُتَّابُه الذين لا غنى به عن حضورهم ، في ليله ونهاره ، وأحيان شغله وفراغه : لأنه ربما بدَّه ما يحتاج إلى استكفائه إِيَّاه وإسناده إليه ، وإن تأخر عنه في تلك الحال استدعى من مَوْجِدته واستَجَرَّ من لائمه مالا يُزيله العذر إلا في المدة الطويلة . وَرُبَّمَا اضْطُرَّ لغيَّته إلى احضار من يستكفيه ماعَرَضَ له وأدَّى ذلك إلى أصطناعه وتصويره في مقامه وإن كان لا يساويه في فضل ولا علم ولا غناء ، بخلاف ما إذا وجده مُسارعًا إلى أمثلته ؛ فإن ذلك يزيد في حُظوته ، ويدعو إلى استخلاص مودَّته .

فيجب عليه أن يَخْصَّ سلطانه من زمانه بالقسم الأوفر ، والنصيب الأغزر ، ولا يُؤثر نيل لذة عليه ، ولا بلوغ وَطَرٍ إذا أدَّى إلى تنكُّره ؛ فإن استطاع أن يوافقه على وقت يفرضه له يتمكن فيه من بلوغ أوطاره ، والوصول إلى مقاصده ، كان أحمد لعاقبته وأبلغ لقصده ، وأحسم لأسباب اللأمة في غيَّته . ولا ينهمك في الملاذ أنهماك الآمن

(١) التعمد السر من قولهم تعمد الله برحمته أى ستره .

(٢) جمع مائة — وهى الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحد الذي يُبقي فيه فضلة لعوارض السلطان ومهماته الحادثة في آناء الليل، وساعات النهار . فإن تعبته في صلاح زمانه وراحة سلطانه مستبقي لنعيمته ، مستدج لزيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يتبعج بما أصلحه منها حتى ينظر في عواقبه ، ويسوس ما رُد إليه بالسياسة الفاضلة : قَلِيلٌ في غير ضعف ، ويستد في غير عُنف ، ويعفو عن غير خور ، ويسطو من غير جور ، ويقرب بغير تدله ، ويُبعد بغير نُكر ، ويخص في غير مجازاة ، ويعم في غير تضييع ، فلا يشقى به الحَقُّ وإن كان عدواً ، ولا يسعد به وإن كان ولياً .

ومنها إذا حضر بين يدي سلطانه أو رئيسه في المجلس الخاص أو العام أن يعتمد مقابلته بالإجلال والإعظام ، والتوقير والإكرام ، ولا يحمله تأكد الخدمة وتناول الصحبة على إهمال ذلك بل يحفظ رسمه ولا يغير عادته .

ومنها أن يتخير لخطابه في الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلق سره فيها ، وفراغ باله ، وأنشراح صدره ، وارتفاع الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيه أمراً عائداً بانتظام سلطانه ، واستقامة زمانه ، داخلاً في مهمات أعماله التي متى أخرها نُسب إلى التقصير ، فيقدم الكلام فيها خف أو ثقل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره في أمر من الأمور ، فعليه أن يرعيه عينه ويُنصت إليه سمعه ، ويشغل به فكره ، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتى يستوعب ما يليقه إليه ، ويحييه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت في حال إقباله عليه إلى غيره ، ولا يصغى إلى كلام متكلم ، ولا حديث متحدث ، حتى لو امتحنه باستعادة ما فاضله فيه وجده قد أحرز جميعه ؛ فإن التقصير في ذلك مما ينكره الملوك والرؤساء ، ويستدلون به على ضعف المخاطب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالاعتذار عنه : لئلا ينسب إلى التقصير بتأخيره عند الكشف عنه ؛ وإن كان فيه ما يخالف الصواب

أمضاه؛ وإن تعذر السبيلُ إلى فعله لم يظهر التقاعُس عنه لتخطئته، بل يقابله بالاستصواب . ثم يتلطف في تعريفه مكان الخطأ فيما رآه .

ومنها أن يجري في الحال في مجالسه على ما يعود بوفائه وإرادته . فإن مال إلى الانبساط أطلق عَنانَه فيه إطلاق المتجنب للهجر والفحش، ورَفَث القول تابعاً لإيثاره، قاضياً لأوطاره . وإن أظهر الاتِّقباض ذهب مذهبه في ذلك، ولا ينبغي أن يخالفه في حال من أحواله، فإن من شروط هذه الخدمة أن يتصرف صاحبها في كل ما يُصَرَّف فيه، ويُسرِع الاتِّقياد إلى كل ما يُدعى إليه؛ ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر على ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل .

ومنها أن لا يحضُر سلطانه في ملابسه التي جرت العادة أن ينفرد بها كالوشى ونحوه؛ إلا أن يكون هو الذي يشرفه بها، وأن يقتصد في لباسه : فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السوقة، ويصرف عنايته إلى التَّنظف والتعطر، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره، حتى لا تنفع عينُ رئيسه على دَنَس في أثوابه، ولا يجد منه كريه رائحة في حال دنوه منه؛ ويواصل استعمال الطيب والبخور الفائق والتضمُّخ بالمسك؛ فإن المملوك ترى أن من أغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشدَّ إغفالا .

ومنها أن يتجنب التفاسُّح والتعمق في مخاطبة رئيسه، والافتخار عليه بالبلاغة والبيان : لما في ذلك من الترفع عليه في الكلام . بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظ تدلُّ على معانيها بسهولة مع غَضٍّ من صوته، وخفيض من طَرَفه، وسكونٍ من أعضائه : لأنه إنما يُسَّاحم بالإتيان بالفصاحة والذَّهاب بمذهب الحرَّالة للخطباء الذين يُنَّون على المملوك في المواقف العامة ضرورة احتياجهم إلى استعمال ألفاظ تقع في الأسماع أحسن المواقع .

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يُجمل القول في خاصته وعامته ، ويحسن الوساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنب القدح عنده في أكفائه ونظرائه من بطانته ، والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلى محبته والثناء عليه مكافأة له وإمساك الألسن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشير فيه ، ويورده إيراد مستفيد لا مفيد ، ومتعلم لا معلم ، ويتلطّف في أن يوقعه من نفسه موقعا يدعو إلى العمل به . فإن من عادة الملوك والرؤساء الأنفة من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة ؛ وإن تمكّن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادعة بذلك لنفسه الأبية وعزّته المتعاسة .

الضرب الثاني

(آداب عشرة الأكفاء والنظرَاء)

قال عليّ بن خلف : ولا شك أن طريقة الاعتدال في ذلك الموافاة في الإخاء ، والمساواة في الصّفاء ، ومقابلة كل حالة بما يُضاهيها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاء عن قصر ، والمحافظة على ودّ من قرط ، فلا خلاف في فضله والتمدح بمثله ، لا سيما لمثل أهل هذه الصناعة التي يرتفع حقّ الاعتراء إليها عن حقوق القربات الدانية ، والأنساب الراسخة . ولذلك وقع في كلام بعضهم « الكتابة نسب » . قال عليّ ابن خلف : والمعنى فيه أن التناسب الحاصل بين أهلها تناسبٌ نفسانيّ لا جسمانيّ ، يحصل عن تناسب الصور القائمة في نفوسهم بالقوة ، وعن تناسبها بعد خروجها وظهورها من القوة إلى الفعل ، بدليل ما نراه من اتفاق خواطرهم على كثير من المعاني التي يستنبطونها ، وتواردهم فيها . ولولا تناسب الغرائز وتشابهها ، لم يكن أن يتواطئوا في أكثر الأحوال على معاني متكافئة متوافية .

قال : « وإذا كنا نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب الجُسميَّة التي لاتعارف بينها فأولئ
أن نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف . ولذلك قال
الحسن بن وهب : « الكتابة نفسٌ واحدة تجزأت في أبدان متفرقة » . وقال : لآبرة
بما يقع بين بعضهم من التنافر والتباين ، لأن المناسبة إنما تقع عند المساواة . أما من
وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصر حاسدا لمن فوقه ،
للتقصير الذي فيه » .

وبكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم ، ويحفظ مناسبتهم ، ويتوَّخى
مساھمتهم ، ويتلقَّاهم بالإكرام والتميز ، ويجعلهم في أعلى المراتب عنده ، ويزيدهم على
الإنصاف ولا يقصِّر بهم عما يستوجبونه ويستحقونه ، ويتخوَّل بمثل ذلك نظراءه
في الرياسة من غير الكُتَّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلى ملتصقهم أطاب قلوبهم
بالوعد الجميل في المستقبل ، وأجتهد في الوفاء به .

الضرب الثالث

(آداب عشرة الأتباع)

قال علي بن خلف : وهي لاحقة بعشرة الأكفاء : لأن الذين يستعينُ بهم الكاتبُ
يُدْعَوْنَ كُتَّاباً ولا يُدْعَوْنَ أعواناً ، وإنما الأعوانُ خُدَّام الشرطة ومن يجرى مجراهم .
قال : « وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءوسيه وأتباعه ، فاسم الكتابة يجمع بينه
وبينهم ، ومعاشرتهم داخلية في باب التكرم ، والتفضيل ، والاستئثار بحاسن الأفعال
ومكارم الشيم » .

ثم قال بعد ذلك : « وينبغي أن يخصَّهم بالنصيب الأوفر ، من إكرامه ، والقسم
الأغزر ، من ملاحظته وأهتامه ، ويفرض لهم من التقديم والاختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذي يتهى إليه أمل المرءوس من الرئيس : ليجعل خدمتهم له بذلك خدمة مئة ومودة، لخدمة خوف ورهبة ؛ وأن يحب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ؛ وإإلتهم من الترفيه فى بعض الأوقات ما يحسدون به السبيل إلى الأخذ بنصيب من لذاتهم وأوطارهم التى تميل النفوس إليها، وتمتافت عليها ؛ فإنهم متى لحقهم التعب والنصب ، أعترضهم الضجر والملال ، فقصروا فى الأعمال ، وتهاونوا بالأشغال ؛ فلا بد لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكلال ، ولا يفسح لهم فى مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يحمل على سوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يحفظ لهم حقوق الصعبة والخدمة ويؤجدهم من الإعانة ما فيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبدهم بذلك ويستخلص مودتهم إذ القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها .

الضرب الرابع

(آداب عشرة الرعية)

قال ابن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاض بالسلامة . إذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ، ونفورهم عنه ، وإن علت عند السلطان رتبته ، وأرتفعت طبقته ، وظن بنفسه الاستغناء عنهم" . قال : "فينبغي أن يوفر^(١) العناية على استصلاحهم له ، واستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووطاء الكنف ، وخفض الجناح ، والبسط والإيناس وتألفهم : كما يوفرها على استصلاح السلطان وسياسته ، لتصح له رتبة التوسط بين الطبقتين ، ويسلم من طعن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويبرأ من البغض والشحناء ، وينقلهم عما تسرع إليه الطباع الرديئة :

(١) أى دمانة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلى التألف والمودة . وقد أذب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

الضرب الخامس

(آداب عشرة من يُمْتُ إليه بحُرْمَةٍ ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدِلُّ بحقِّ
المفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة في الصِّبا ، والصدافة
بين الآباء وغير ذلك من الحُرْم التي لا يَطْرَحُهَا أَهْلُ المروءات)

قال ابن خلف : ”وينبغي أن يوفيهم حقوقهم ، وينهض بما يسنح من أوطارهم
ومهماتهم ، ويعينهم على ما يحدث من نوائب زمانهم ، ويسعد في بلوغ مطالبهم من
سلطانهم ، ولا يَضِنَّ عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُحَيِّبَ أَمَلَ آملهم ولا قَصْدَه ، ويفرض
لهم من إذعانه وأعتنائه ما يعزُّ جانبهم ، ويسمِّل مآربهم ، ويكف الضيم والظلم عنهم ،
ويسيطر العدل والإنصاف عليهم . فإنه إذا التزم ذلك لهم التزموا له الإعظام والإجلال ،
وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والاعتداد بأياديه ، وأشاعوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا
له مودتهم وتعصَّبهم له“ .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكما لها أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتِّها
الذين فَتَحُوا أبوابها ، ودَلَّلُوا سُبُلَهَا ، وسَهَّلُوا طَرِيقَهَا ؛ ويعاملهم بالإنصاف فيما أعملوا
فيه خواطرهم ، وأتعبوا فيه رِوَايَاتِهِمْ فيَنزِلُهم منازلهم ولا يَخْصِمُهم حقوقهم . فمن آفات
هذه الصنعة على ذوى الفضل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادعاء منزلة
المبرز بل لا يعفيه من ادعاء التقدُّم في الفضل عليه ، والمبرز في الفضل لا يقدر على
إثبات نقص المتخلف ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليه، ويَتَّبِعُهَا الذى تفجَّرت منه، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، التى كتبها إلى الكُتَّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتَّابة، وحاطكم ووفَّقكم وأرشدكم ! فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين؛ ومن بعد الملوكة المكرمين أصنافاً، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُرُوب المحاولات إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم؛ بفعلكم معشر الكُتَّاب فى أشرف الجهات أهل الأدب، والمروءة، والعلم، والرواية . بكمُ تنتنم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها؛ وبنصائحكم يصلحُ الله للخلق سلطانهم، وتعمُر بلادهم . لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم؛ فَمَوْقِعُكم من الملوكة مَوْقِعُ أسماءهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يُبْصِرُونَ، وألسنتهم التى بها يَنْطِقُونَ، وأيديهم التى بها يَبْطِشُونَ . فأمتهكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ! ولا تَزَعْ عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم ! .

وليس أحدٌ أحوَجَ إلى اجتماعِ خِلال الخير المحموده، وخصال الفضل المذكورة المعداده، منكم أيُّها الكُتَّاب، إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مِهْمَات أموره أن يكون حليماً فى موضع الحلم، فهياً فى موضع الحُكم، ومِقْدَاماً فى موضع الإقدام، ومُحْجِجاً^(١) فى موضع الإحجام، مُؤَثِّراً للعفاف، والعدل والإنصاف، كَتُوماً للأسرار، وَفِياً عند الشدائد، عالماً بما يأتى من النوازل؛ ويضع الأمور مواضعها، والطوارق أماكنها . قد نظر فى كل فنٍّ من فنون العلوم فأحكمه، فإن لم يُحْكَمْه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغيرِة عقله، وحُسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده

(١) فى غير هذا الكتاب ومُحْجِجاً ما .

وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عدته وعنايته، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتناقسوا يا معشر الكتاب، في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين؛ وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم .

ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها؛ وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج؛ وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها، وسفساف الأمور ومحآقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب؛ ونزهوا صناعتم عن الدنآات، وآريؤا بأنفسكم عن السعاية والنيمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابؤا في الله عز وجل في صناعتم، وتواصؤا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

وإن نبا الزمان رجل منكم فأعطفؤا عليه ووأسؤه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وأستظهروا بفضل تجربته، وقدم معرفته . وليكن الرجل منكم على من أصطنعه وأستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه . فان عرضت في الشغل محمدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مدمة فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فان العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء؛ وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتد له من وفائه، وشكره، وأحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه . ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى مآلديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء، والشدة، والحرمات،
والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من
أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله
وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقا،
وللظالم منصفا، فإن اخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل
حاكما وللأشراف مكرما، وللنبي موقرا، وللبلاء عامرا، وللرعية مثاقفا، وعن
أيديهم متخلفا؛ وليكن في مجلسه متواضعا حلما، وفي سحلات خراجة، وأستقضاء
حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلأقه، فإذا عرف حسنها وقيحها
أعانه على ما يوافق من الحسن وأحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة،
وأجمل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة
أخلاقها، فإن كانت رموحا لم يهجمها إذا ركبا، وإن كانت شبوبا اتقأها من قبل
يديها، وإن خاف منها شرودا توقأها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق
هواها في طريقها، فإن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف
من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره
من الناس وينظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أو يلقى بالرفق بصاحبه، ومداراته،
وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم
خطابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . ألا فامعنوا رحمكم الله
في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهموه
النبوة، والاستثقال والحقوة؛^(١) ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة
والشفقة إن شاء الله تعالى .

(١) كذا في الأصل . ولعل ثبوت الباء قبل الراء من زيادة الناصح

ولا يجاوزنَّ الرجلُ منكم في هيئةِ مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه
 وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حقّه . فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف
 صنعتكم خدمة لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تُحْتَمَل منكم أفعال
 التضييع والتبذير : وآستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته
 عليكم . وأحذروا متآلف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنهما يُعْقِبَان الفقر ويُدْلَان
 الرُّقَاب؛ ويفضّحان أهلهما ولا سِيَّ الكُتَّاب، وأرباب الآداب؛ وللأُمُور أشباه
 وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتلف أفعالكم بما سبقت إليه تجربتكم؛
 ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوصحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدها عاقبة .

وأعلموا أن للتدبير آفةً مُتَلَفَةً — وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله
 ورؤيته؛ فليقتصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته، وليؤخرْ في آبتدائه
 وجوابه؛ وليأخذ بِمَجْمَع حُجَجِهِ؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن
 إكثاره . وليضرع إلى الله في صلة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط
 المضرب بدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظاناً، أو قال قائل، إن الذي برز من
 جميل صنعته وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تديره، فقد تعرّض
 بظنه أو مقالته إلى أن يكلفه الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف،
 وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مُرَافقته في صناعته
 ومُصاحبه في خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الأبواب مَنْ رُمى بالعُجْب وراء
 ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحد في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين
 أن يعرف فضل نعم الله جلّ شأؤه من غير اغترار برأيه، ولا تركية لنفسه، ولا تكاثر

على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيرته، وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته“ .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل (من يلزم الصحة يلزمه العمل) وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرًا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ! فإن ذلك إليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع

من المقدمة

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه في الإسلام،

وتفرقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(في التعريف بحقيقته)

لا خفاء في أنه أسمٌ مركّبٌ من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للموضع الذي يجلس فيه الكتاب وهو بكسر الدال . قال النحاس في صناعة الكتاب ” وفتحها خطأ “ قال : ” وأصله ديوان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقليل ديوان “ ويجمع على دواوين . وأختلف في أصله ، فذهب قوم إلى أنه عربي . قال النحاس : ” والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يرجع إليه ويعمل

بما فيه“ ومنه قول ابن عباس : « إذا سألتُموني عن شيءٍ من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوانُ العرب ». ويقال دُونته أى أثبتته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلى أنه عجمي وهو قول الأصمعيّ وعليه أقصر الجوهريّ في صحاحه ، فقال الديوان « فارسيّ معرّب ». وقد حكى الماورديّ ” في الأحكام السلطانية “ في سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما — أن كسرى ذات يوم أطلع على كُتّاب ديوانه في مكانٍ لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال ”ديوانه“ أى مجانين فسمي موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، ف قيل ديوان وعليه أقصر أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب .

والثاني — أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمي الكتاب بذلك لحِدْقهم بالأمور ووقوفهم على الحليّ منها والخفيّ .

وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه وأخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتل أمرين :

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتُبتدأ منه .

والثاني — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمّها ، وربما قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الاسم وشهر به واستمر عليه إلى الآن .

الفصل الثاني

(في أصل وضعه في الإسلام وتفترقه عنه بعد ذلك في الممالك)

اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه ، وأصحاب سرياه من الصحابة ؛ رضوان الله عليهم ! ويكتبونه . وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ؛ وبعث إليهم رسله بكتبه : فبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك الفرس ، ودحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر ، وسليط بن عمرو إلى هوزة بن علي ملك اليمامة ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين إلى غير ذلك من المكاتبات . وكتب لعمرو بن حزم عهداً حين وجهه إلى اليمن . وكتب لتيم الداري وإخوته بإقطاع بالشام . وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قریش عام الحديبية . وكتب الأمانات أحياناً . إلى غير ذلك مما يأتي ذكره في الاستشهاد به في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه المکتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش ، فإن أول من وضعه ورثه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته .

على أن القضاء قد ذكر في تاريخه "عيون المعارف" . وفنون أخبار الخلائف " أن الزبير بن العوام ، وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم أموال الصدقات ، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له حرص النخل ، وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات . فان صح ذلك فتكون هذه الدواوين أيضاً قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم ، إلا أنها ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه صلى الله عليه وسلم : كما تقدم من متعلقات كتابة الإنشاء .

وقد رأيت في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم نيف وثلاثون كاتباً : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأبان أخوه ، وسعيد أخوهما ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وحنظلة بن الربيع الأسدي ، وأبي بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت ، وشريحيل بن حسنة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن زيد ، وجهم بن الصلت ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن رباح ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ، ومعيقب بن أبي فاطمة ، وطلحة بن زيد بن أبي سفيان ، والأرقم بن الأرقم الزهري ، والعلاء بن عتبة ، وأبو أيوب الأنصاري ، وبريدة بن الحصيب ، والحصين بن نمير ، وأبو سلمة المخزومي ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب ، وحاطب بن عمرو ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان ألزمهم له في الكتابة معاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت .

وكتب لأبي بكر عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وعثمان هو الذي كتب عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة عن أبي بكر رضوان الله عليه كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضي الله عنه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن خلف .

وكتب لعثمان رضي الله عنه مروان بن الحكم .

وكتب لعلي رضي الله عنه بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسعيد ابن نجران الهمداني .

وكتب للحسن بن علي رضي الله عنهما عبد الله بن أبي رافع كاتب أبيه .

ثم كانت دولة بني أمية فتوات خلفاؤهم من معاوية بن أبي سفيان فبن بعده ، وأمر ديوان الإنشاء في زمن كل أحد مفوض إلى كاتب يُقيمه إلى حين أنقراض دولتهم . وكان الخليفة هو الذي يوقع على القصص ويُحدثها بنفسه ، والكاتب يكتب ما يبرز إليه من توقيعه ويصرفه بقلمه على حكمه . وكان ممن اشتهر من كتابهم بالبلاغة وقوة الملكة في الكتابة حتى سار ذكره في الآفاق ، وصار يضرب به المثل على ممر الأزمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم .

فلما بزغت شمس الخلافة العباسية بالعراق وولي الخلافة أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس ، استوزر أبا سلمة الخلال . وهو أول من لقّب بالوزارة في الإسلام على ما سيأتي ، وتواتت الوزراء بعده لخلفاء بني العباس من يومئذ . وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلى الوزارة ، فيكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بقلمه ، ويتولى أحواله بنفسه ، وتارة يُفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بكلامه ، ويصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها ، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشي على ما يليق إليه من توقيعه ، وربما وقع الخليفة بنفسه حتى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبني ساجوق وغيرهم على الأمر والأمر على ذلك تارة وتارة إلى أنقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن اشتهر من وزراءهم بالبلاغة حتى صار يضرب به المثل يحيى بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون ، وأبن المقفع مترجم كتاب "كيلة ودمنه" ، وسهل بن هرون الذي ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل ابن العميد ، والصاحب كافي الكفأة إسماعيل بن عبّاد ، وأبو إسحاق الصابى في جماعة آخرين منهم .

ثم لما انقرضت الخلافة من بغداد في وقعة هولاكو ملك التتار في سنة (ست وخمسين وستائة) وأستولت المغل والأعاجم على بغداد ، بطل رسم الكتابة المعبرة وصار أكثر ما يُكتب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية ؛ والأمر على ذلك إلى زماننا على ماسياتى بيانه في الكلام على دواوين الأمصار في المكاتب والولايات وغيرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت بلاد الغرب والأندلس بأيدي نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامي في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولا عناية لهم بديوان الإنشاء للتقرب من البداوة ، وغايته المكتبة إلى ديوان الخلافة ونحو ذلك ؛ فلما غلب بنو العباس على الخلافة هرب طائفة من بني أمية إلى بلاد المغرب ، وجازت البحر إلى الأندلس فآثرعوه من التواب الذين كانوا به وملكوه ، وصاروا ينصبون فيه خليفة بعد خليفة ، جارين على سنن ما كانوا عليه بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين خلافة بني العباس ببغداد : من إقامة شعار الخلافة ، واتخاذ ديوان الإنشاء ، واستخدام بلغاء الكتاب وتعدت دولتهم إلى بر العدو من بلاد المغرب فحكوه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المستوليين المستبدين عليهم بالأمر إلى أن انقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب ، وأستولت عليهما طوائف من الملوك وتقلت بهم الأحوال في آستيلاء الملوك على كل ناحية منهما ، وتتابعت الدول في كل حين كلما خبت دولة نجمت أخرى على ماسياتى ذكره في مكاتب ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحضارة والبداءة ، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعتناءهم بكتابة الإنشاء ؛ وإذا استحضرت الدولة صرفت آهتمامها إلى ديوان الإنشاء وترتيبه إلى أن استقر ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعت الفرج منه بأيدي بني الأحمر ، والغرب الأقصى بيد بني مرين ،

والغرب الأوسط بيد بنى عبد الواد، وإفريقية بيد بقايا الموحدین من أتباع المهديّ
أبن تومرت؛ وداخلتهم الحضارة، فأخذوا في ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك،
ومعانة البلاغة في المكاتبات ونحوها؛ وأستمر الحال على ذلك إلى زماننا .

ومن أشهر بالبلاغة من كُتّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زيدون،
والوزير أبو حفص بن برد الأصفر الأندلسي، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم،
والوزير أبو القاسم محمد بن الحد في جماعة أخرى من متقدّمى كُتّابهم . ومن متأخريهم
عبد المهيم كاتب السلطان أبي الحسن المتيني، وأربى على كثير من المتقدمين أبن
الخطيب وزير أبن الأحمر صاحب غرناطة من الأندلس ممن أدركه من عصرناه .

أما الديار المصرية فلديوان الإنشاء بها خمس حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة
الطولونية، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةً بديوان
الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة، والتمر
السير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدر عنهم ما يُدَوّن في الكتب ولا
يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية
أحمد بن طولون، وأستفحال مُلك الديار المصرية في الإسلام، وترتيب أمرها، وإلى
حين أقراض الدولة الاخشيديه؛ وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها، وانتظم
أمر المكاتبات والولايات؛ وكان ممن أشهر من كُتّابهم بالبلاغة وحسن الكتابة،
أبو جعفر محمد بن أحمد بن مؤدود بن عبد : كان كاتب أحمد بن طولون، وكان
مبدأ الكُتّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمارويه بن أحمد بن طولون إسحق بن
بصر العبادي النصراني، وتوالى الكُتّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة — ما كان الأمر عليه من ابتداء الدولة الفاطمية وإلى انقراضها .
ولما ولي الفاطميون الديار المصرية ، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء
وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء عنهم جماعة
من أفاضل الكتّاب وبلغائهم : ما بين مسلم وذمى ، فكتب للعزیز بالله ابن المعز
أبو المنصور بن سوردین النصرانی ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ،
فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر البهزكي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر . وكتب
للسنصر القاضي ولي الدين بن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله
إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى . وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن
على بن أبى أسامة الحلبي إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده
ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ
الأمين تاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجد المبرى المعروف بابن
الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن
أبى الدم اليهودى . ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره
القاضى الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى
الفاضل البيسانى . ثم شرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى
جلال الملك محمود بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤمن كاسيويه . ثم كتب
القاضى الفاضل بين يدى الموفق ابن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة
فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة
سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم .

الحالة الرابعة — ما كان الأمر عليه من ابتداء دولة بنى أيوب إلى آخر
انقراضها .

قد تقدّم أن القاضي الفاضل رحمه الله كان قد كتب بين يدي الموفق ابن الخلال في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبني العباس على ما تقدّم في الكلام على ملوك مصر، فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا ، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين ، فكتب بعده لأبنة العزيز وأخيه العادل أبي بكر . ثم مات ، وكتب للكامل بن العادل القاضي أمين الدين سليمان المعروف بكتاب الدرج إلى أن توفي ، فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة ، وتوالت كتاب الإنشاء في الولاية إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب فولّى ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهيراً . ثم صرفه وولّى بعده صاحب نحر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعدي ، فبقى إلى أنقراض الدولة الأيوبية .

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه في الدولة التركية مما هو مستقر إلى الآن .
قد تقدّم أن صاحب نحر الدين بن لقمان بقى في ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية .

ولما صارت المملكة إلى الدولة التركية ، بقى في صحابة ديوان الإنشاء أيام أيبك التركمانى ، ثم أيام المظفر قطز ، ثم أيام الظاهر بيبرس ، ثم أيام المنصور قلاوون . فباشر ديوان الإنشاء في أيامه مدّة ، ثم نقله إلى الوزارة ، وولّى مكانه بديوان الإنشاء القاضي فتح الدين بن القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر في حياة والده ، فبقى حتى توفي المنصور قلاوون ، واستقر بعده أبنة الأشرف خليل ، واستمرّ عنده في كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معه إلى الشام ، فمات بالشام فولّى الأشرف مكانه القاضي تاج الدين أحمد بن الأثير ، وقفل السلطان راجعا إلى مصر ، فمات

القاضي تاج الدين في أثناء الطريق بمضى شهر من ولايته ، فوئى مكانه القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الأولى ، وأيام العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاجين ، وأيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثانية ، وأيام مظفر بيرس الجاشنكير ، وبرهة من أيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثالثة .

ثم نقله إلى كآبة السر بدمشق المحروسة عوضاً عن أخيه القاضي محي الدين بن فضل الله ، ووئى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعده منه حين كان معه في الكرك ، وبقي حتى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فاستدعى الملك الناصر القاضي محي الدين بن فضل الله من الشام ، فولاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية في المحرم سنة تسع وعشرين وسبعائة .

وكان ولده القاضي شهاب الدين هو الذى يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات إلى سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة فأعادهما الملك الناصر إلى دمشق ، ووئى مكانهما القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود في شعبان من السنة المذكورة ، فبقى حتى حج السلطان وعاد إلى مصر ، فأعاد القاضي محي الدين ولده القاضي شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعائة .

وفي أواخر ذلك تغير السلطان على القاضي شهاب الدين المذكور وصرفه عن المباشرة وأقام أخاه القاضي علاء الدين مكانه يباشر مع والده ، وبقي الأمر على ذلك مدة لطيفة .

ثم سأل القاضي محي الدين السلطان فى العود إلى دمشق ، وقد كبرت سنه وضعفت حركته ، فأعاده وصحبته ولده القاضي شهاب الدين وكتب له تقليد فى قطع

الثَّلاثِينَ : بأن يستمر على صحابة دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية ، وأن يكون جميع المباشرين لهذه الوظيفة بالبواب الشريف مَنْ دونه نُوابه ، وأنه حيث حلَّ يقرأ القصص والمظالم ، ويقرر الولايات والعزل والرواتب وغير ذلك ، ويوقع فيها بما يراه ، ويُجهز إلى مصر ليعلّم عليها العلامة الشريفة ؛ وفوض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضي علاء الدين استقلالا ، وتجهز القاضي محي الدين للسفر ، فمضى ومات بعد أيام قلائل في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعائة بالقاهرة . ثم نُقل إلى دمشق سنة تسع ، وبقي ولده القاضي علاء الدين فبقى في الوظيفة بقية أيام الملك الناصر ، ثم أيام ولده المنصور أبي بكر ، ثم أخيه الأشرف بكك ، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خلع الناصر أحمد نفسه في سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلى الكرك ، توجه القاضي علاء الدين معه ، فأقام عنده ؛ وأستقر الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون في السلطنة بعد أخيه أحمد ، فمقرّر في ديوان الإنشاء القاضي بدر الدين محمد بن محي الدين بن فضل الله ، فبقى في الوظيفة إلى أن عاد أخوه القاضي علاء الدين من الكرك ، فأعيد إلى منصبه ، وبقي بقية أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيام أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفر حاجي ، ثم أيام أخيه الناصر حسن في سلطته الأولى ، ثم أيام أخيه الصالح صالح ، ثم أيام الناصر حسن ثانيا ، ثم أيام المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتوفي ؛ وولى الوظيفة بعده ولده القاضي بدر الدين محمد ، فبقى بقية أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور علي ، ثم أيام أخيه الصالح حاجي بن شعبان إلى أن خلع ؛ وجاءت الدولة الظاهرية برقوق فقرّر في ديوان الإنشاء القاضي أوحّد الدين عبد الواحد بن التركماني ، فبقى حتى توفي فأعيد القاضي بدر الدين

المذكور وبقى حتى خلع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجي بن الأشرف شعبان إلى السلطنة وهو مستمر المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكرك حضر معه القاضي علاء الدين علي الكركي ، فولاه كتابة السر وبقى حتى توجه حجة السلطان إلى الشام في طلب منطاش ، فمات القاضي علاء الدين ، وكان القاضي بدر الدين حجة فاعيد إلى الوظيفة في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد موالي حجة الركاب الشريف السلطاني . ثم توجه حجة إلى الشام عند وصول تمر لبغداد ، فمضى ومات هناك ، فولى الظاهر مكانه القاضي بدر الدين محمود السراي الكستاني في شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وحضر حجة الركاب الشريف إلى الديار المصرية ، فبقى حتى توفى في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة ، فولى الظاهر مكانه المقر العالى الفتحي فتح الله ، ففتح الله به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مغلقا ، وأصفى به من ورده ما كان مكذرا .

وانتقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلى ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم على عادة أبيه . ثم صرفه عن الوظيفة في شهور سنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه في الوظيفة المقر السعدى إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله في وظائف الديار المصرية والمشار إليه . وأقام بها مدة لطيفة ، وعادت إلى المقر الفتحي فتح الله المشار إليه ، وقيل : (هَذِهِ بِصَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا) جفرا فيما على الأسلوب الأول والمهيأ السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلى الخلق ، وإيصال البر إلى مستحقه ، والمساعدة في الله لمن عرف ومن لم يعرف ، والله هو المكافئ لعباده على جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَمْ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ * لَنْ يَذْهَبَ الْعَرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

الباب الخامس

من المقدمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

(في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله
ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث)

أما رفعة محله وشرف قدره، فأرفع محل وأشرف قدر؛ يكاد أن لا يكون عند الملك
أخص منه ولا أزم لمجالسته؛ ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل
زمن، مقدماً لديهم على من عداه: يُلَقَّون إليه أسرارهم، ويُخَصُّونه بخفايا أمورهم،
ويُطْلَعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل والولد، وناهيك
برتبة هذا محلها !

قال صاحب مواد البيان " ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته
أخص من كاتب الرسائل . فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له
عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء اليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله
وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات
مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته وثقت به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب
رُكُونَه إليه، ومحلّه منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محلّ قلبه الذي يؤامره في مشكل
رأيه حتى يتنقح، ويراجع في مهمّ تديره حتى يتضح؛ ولسانه الذي يقرر بترغيه
أولياءه على الطاعة والموافقة، ويستقر بترهيبه عن المعصية والمشاqqة، ويقر بأوامره

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف عن يفر . أو يستنفر كما يقتضيه المقام .

ونواهيه أمور سلطانه، ويُتْرَافُ منازلها في متمدّد مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعمارة بلاده، ومصالحة رعيته، وأجتلاب مودّتهم، واستخلاص نياتهم؛ وعينه التي تلاحظ أحوال سلطانه، ويُريعهما مهمات شانه؛ وأذنه التي يثق بماوعته، ولا يرتاب بما سمعته؛ ويده التي يبسطها بالإنعام، ويبطش بها في النقض والإبرام .

قال : ومن كانت هذه رتبته فالسبب الذي رتبّه فيها أفضل الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والاستيعاب .

قال ابن الطوير في ترتيب الدولة الفاطمية ” وكان هذا المنصب لا يتولّاه في الدولة الفاطمية إلا أجلّ كتاب البلاغة، ويُخاطب بالأجلّ، وإليه تسلّم المكتبة واردة مختمة فيعرضها على الخليفة من يده؛ وهو الذي يأمر بتزليلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالي؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره “ . قال ” وهو أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمُسند، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة “ .

قلت : ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة، ومحلّه أعظم محل؛ إليه تلقى أسرار المملكة وخفائها، وبرأيه يُستضاء في مشكلاتها، وعلى تديره يعول في مهماتها، وإليه تردّ المكتبات، وعنه تصدر؛ ومن ديوانه تُكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعُه على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان؛ وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير في منزله حتى ما يُكتب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من المربّعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرّض لأخذ علامة سلطانية البتّة، وناهيك بذلك رفعةً وشرفاً باذخاً .

وأما لقبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا فى زمن بنى أميّة وما قبله يعبرّون عنه بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك كما أشار اليه القضاعى فى "عيون المعارف". فلما جاءت الدولة العباسيّة، واستقر السّفاح أوّل خلفائهم فى الخلافة، لُقّب كاتبه أبا سلمة الخلال بالوزارة وترك اسم الكاتب؛ واستقر لقب الوزارة على من يليها من أرباب السيوف والأفلام إلى انقراض الخلافة من بغداد . وتقدّم أيضاً أن هذا الديوان كان تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوضه إلى من يتحدّث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيث انفرد عن الوزارة لُقّب متوليه بما يتضمّن إضافته إلى صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهوراً بديوان الرسائل، كما كان فى الزمن الأوّل، لُقّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولّى ديوان الرسائل، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات، أو متولّى ديوان المكاتبات، وحيث كان الديوان مشهوراً بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصريّة لُقّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيماً لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلاميّة . وعلى هذا مصطلح كُتّاب الديوان فى زماننا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليد أو غيره؛ على أنه لو قيل ناظر دواوين الإنشاء لكان أعلى فى الرتبة لما اشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلى من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطميّة بالديار المصريّة كاتب الدّست" .

قلت : وَاَنْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ وَالْحَالِ فِي ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ ، فَتَارَةً إِلَى الدِّيَوَانِ كَاتِبٌ وَاحِدٌ يَعْبُرُ عَنْهُ بِكَاتِبِ الدَّسْتِ ، وَرَبَّمَا عُبِّرَ عَنْهُ بِكَاتِبِ الدَّرَجِ ، وَتَارَةً يَلِيهِ جَمَاعَةٌ يَعْبُرُ عَنْهُمْ بِكُتَّابِ الدَّسْتِ . وَيُقَالُ لَهُمْ كَانُوا فِي أَيَّامِ الظَّاهِرِ بِيَبْرَسَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ ، أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ . وَيَبْقَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ وَلَّى الدِّيَوَانَ الْقَاضِي فَتْحُ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ فِي أَيَّامِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَلُقِّبَ بِكَاتِبِ السَّرِّ ، وَنُقِلَ لِقَبِّ كَاتِبِ الدَّسْتِ إِلَى طَبَقَةِ دُونِهِ مِنْ كُتَّابِ الدِّيَوَانِ . وَاسْتَمَرَ ذَلِكَ لِقَبًّا عَلَى كُلِّ مَنْ وَلَّى الدِّيَوَانَ إِلَى زَمَانِنَا عَلَى مَا سَأْتِي ذِكْرُهُ . وَيُضَاهِيهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعُرْفِ الْعَامِّ مَتَوَلَّى دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ بِدَمَشْقَ ، وَبَحْلَبَ ، وَبَطْرَابْلُسَ ، وَبِحَمَّاهُ ، وَبَصَفَدَ ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يُقَالُ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مُصْطَلَحِ الدِّيَوَانِ صَاحِبُ دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ كَمَا يُقَالُ فِي مَتَوَلَّى دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ ؛ بَلْ يُقَالُ فِي مَتَوَلَّى دِيَوَانِ دَمَشْقَ صَاحِبُ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالشَّامِ ، وَفِي مَتَوَلَّى دِيَوَانِ حَلَبَ صَاحِبُ دِيَوَانِ الْمَكْتَابَاتِ بِحَلَبَ ، وَكَذَا فِي الْبَاقِيَّاتِ . أَمَّا غَزَّةُ ، وَالكَرْكُ ، وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَغَيْرُهَا مِنَ النِّيَابَاتِ الصَّغَارِ فَإِنَّمَا يُقَالُ فِي مَتَوَلَّى شَيْءٍ مِنْ دَوَاوِينِهَا كَاتِبُ دَرَجٍ وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ كَاتِبُ سَرٍّ بَوَاجِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَامَّةَ يَبْدُلُونَ الْبَاءَ مِنْ كَاتِبِ السَّرِّ بِمِيمٍ فَيَقُولُونَ كَاتِمِ السَّرِّ ، وَهُوَ صَحِيحٌ الْمَعْنَى ؛ إِمَّا لِأَنَّهُ يَكْتُمُ سَرَّ الْمَلِكِ ، أَوْ مِنْ بَابِ إِبْدَالِ الْبَاءِ بِالْمِيمِ عَلَى لُغَةٍ رَبِيعَةٍ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الثَّانِي .

الفصل الثاني

(فِي صِفَةِ صَاحِبِ هَذَا الدِّيَوَانِ وَأَدَابِهِ)

قَالَ أَبُو الْفَضْلِ الصُّورِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ تَذَكُّرَتِهِ : ” يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَبِيحَ الْوَجْهِ ، فَصَبِيحَ الْأَلْفَاظِ ، طَلْقَ اللِّسَانِ ، أَصِيلًا فِي قَوْمِهِ ، رَفِيعًا فِي حَيِّهِ ، وَقَوْرًا ، حَلِيمًا

مؤثراً للجد على الهزل، كثير الأناة والرفق، قليل العجلة والخرق، نزر الضحك، مهيب المجلس، ساكن الظل، وقور النادى، شديد الدكاء، متوقد الفهم، حسن الكلام إذا حدث، حسن الإصغاء إذا حدث، سريع الرضا، بطيء الغضب، رؤوفاً بأهل الدين، ساعياً في مصالحهم، محباً لأهل العلم والأدب، راغباً في نفعهم؛ وأن يكون محباً للشغل أكثر من محبته للفراغ، مقسماً للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءاً منه حتى يستوعبه في جميع أقسامها، ملازماً لمجلس الملك إذا كان جالساً، وملازماً للديوان إذا لم يكن الملك جالساً : ليتأشى به سائر كتاب الديوان، ولا يجحدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم ؛ وأن يغلب هوى الملك على هواه ورضاه على رضاه — ما لم ير في ذلك خلا على المملكة، فإنه يجب أن يهذى النصيحة فيها للملك من غير أن يوجده فيما تقدم من رأيه فساداً أو نقصاً، لكن يتحيل لنقص ذلك وتهجينه في نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنٍّ وأفضل تطف؛ وأن يتحلل الملك صائب الآراء ولا ينتحلها عليه؛ ومهما حدث من الملك : من رأي صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه ونفمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمده عليه وشكره . وإذا قال الملك قولاً في مجلسه أو بحضرة جماعة ممن يخدمه فلم يره موافقاً للصواب، فلا يجهره بالرد عليه واستهجان ما أتى به — فإن ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر إلى حين الخلوة، ويدخل في أثناء كلامه ما يوضح به نهج الصواب من غير تلقى برد، ولا يتبجح بما عنده، ويكون مائلاً للملك على أخلاقه الفاضلة، وطباعه الشريفة : من بسط المدلة ومد رواق الأمانة، ونشر جناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وجبر الكسير، والإنعام على المعتبر المستحق، والتوفر على الصدقات، وعمارة بيوت الله تعالى، وصرف الهمم إلى مصالحها، والنظر في أحوال الفقهاء، وحمل كتاب الله العزيز بما يصلح، والاتفات إلى عمارة البلاد، وجهاد الأعداء،

ونشر الحمية، وإقامة الحدود في مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها .
 فيكون لجميع ذلك مؤكداً ، ولأفعاله فيه موطداً ممهداً . وإن أحسن منه بخلة تُنافي
 هذه الخلال ، أو فعلة تخالف هذه الأفعال ، نقله عنها بأطف سعى وأحسن تدرّيج ،
 ولا يدع ممكناً في تبين قبّحها ، وإصلاح رداءة عاقبتها ، وفصيلة مخالفتها إلا بينه
 وأوضحه إلى أن يعيده إلى الفضائل التي هي بالملوك النبلاء أليق ، وأن يكون مع
 ذلك بأعلى مكانة من اليقظة والاستدلال بقليل القول على كثيره ، وبيعض الشيء
 على جميعه ، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء ، بل الرمز والإيحاء : لينبه الملك
 على الأمور من أوائلها ، ويعترفه خواتم الأشياء من مفتحاتها ، ويحدّره حين تبدّوله
 لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بن برمك :
 "أنه كان مع خطبة في معسكر ، جالسين في خيمة إذ نظر خالد إلى سرب من الأطباء
 قد أتى حتى كاذ يخالط العسكر ، فأشار على خطبة بالركوب فسأله عن السبب ،
 فقال الأمر أعجل أن أئين سببه . فركب وأركب العسكر ، فلم يستثموا الركوب إلا
 والعدو قد دهمهم ، وقد آستعدوا له فكانت النصرة لهم على العدو . فلما آتقضى
 الحرب سأل خطبةً خالداً من أين أدرك ذلك ؟ فقال : رأيت الأطباء وقد أقبلت حتى
 خالطت العسكر ، فعرفت أنها لم تفعل ذلك مع نفورها من الإنس إلا لأمر عظيم
 قد دهمها من ورائها " . وأن لا يكتب عن الملك إلا ما يقيم منار دولته ويعظمها ،
 : ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها ، ولا يكتب ما يكون فيه عيب على الملكة
 ولا ذم لها على غابر الأيام ، ومستأنف الأحقاب ؛ وإن أمر بشيء يخرج عن ذلك ،
 تلطف في المراجعة بسببه ، وبين وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به إلى الواجب .
 وأن يكون من كتمان السر بالمتزلة التي لا يُدانيه فيها أحد ، ولا يقاربه فيها بشر ، حتى
 يقرّر في نفسه إماتة كل حديث يعلمه ، ويتناسي كل خبر يسمعه . وأن لا يُطلع والدا

ولا ولدا؛ ولا أخا شقيقا، ولا صديقا صدوقا، على ما دق أو جل؛ ولا يعلمه بما كثر منه ولا قل؛ ويتوهم بل يتحقق أن في إذاعته ما يعلم به وضع منزله وخط رتبته، ويجتهد في أن يصير له ذلك طبعا مرجحا وأمرًا ضرورياً .

قلت : وهذه الصفة هي الشرط اللازم، والواجب المحتم : بها شهر، وبالإضافة إليها عرف . وقد قال المأمون وهو من أعلى الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علماً : ”الملوك تحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء : القُدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم“ .

ومن كلام بعض الحكماء : ”سرك من دمك“ قال صاحب العقد : يعنون أنه ربما كان في إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مَحَجَّنَ الثقفي بقوله :
قد أظعن الطعنة النجلاء عن عريض * وأكتم السر فيه ضربة العنق

وقال الوليد بن عتبة لأبيه : ”إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً أفلا أخبرك به ؟ قال يا بُحَيَّ : إن من كتم سره كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه ؛ فلا تكن مملوكاً بعد أن كنت مالكا“ . وقد كانت ملوك الفرس تقول ”أعظم الناس حقاً على جميع الطبقات من ولي أسرار الملوك“ .

وَأَعْلَمُ أنه إذا كان إفشاء السر ربما أفضى إلى الهلكة خصوصاً أسرار الملوك ، فعلى صاحب هذه الوظيفة القيام من ذلك بواجبه وكتمان السر حتى عن نفسه ؛ فقد حكى صاحب ”الريحان والرياعان“ : أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر ، فقال عبد الله :

وَمُسْتَوْدَعِي سِرًّا تَضَعْنَتِ سَرَّهُ * فَأَوْدَعْتُهُ فِي مُسْتَقَرِّ الْحَشَا قَبْرًا

فقال ابنه عبيد الله ، وهو صبي :

وَمَا السَّرُّ مِنْ قَلْبِي كَتَاؤُ بِحُفْرَةٍ * لِأَنِّي أَرَى الْمَدْفُونِ يَنْتَظِرُ الْحَشْرَا
وَلَكِنِّي أَخْفِيهِ حَتَّى كَأَنِّي * مِنْ الدَّهْرِ يَوْمًا مَا أَحْطَتْ بِهِ خَبْرَا

وعلى صاحب هذه الرتبة الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك بأن لا يتلقاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : " لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحداً إلا خالياً فإنه أصون للسر وأحرز للرأى وأجدر بالسلامة وأعنى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أو ثقت من إفشائه إلى اثنين وإفشائه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رهن بما أفشى اليه . والثاني مطلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، وإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة أو رهبة ، وإن كان عند اثنين كان على شبهة ^(٢) واتسعت عن الرجلين المعارض ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن آتمهما آتم بريئا بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه " .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدهما بحضرة الآخر لتكون العهدة في دركه على واحد بعينه . على أنه ربما أفشى السر مع احتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الحق تنقل الأخبار ، وتفشى ما تطاع عليه من الأسرار . وقد حكى عن علي بن الجهم أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين المتوكل فرأيت الفتح بن خاقان وزيره واقفا على غير مرتبته التي يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مطرقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلى ، وإذا صرفت وجهي إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لي الخليفة يا علي أنكرت شيئا ؟ - قلت نعم يا أمير المؤمنين ! - قال : ماهو ؟ - قلت : وقوف الفتح بن خاقان في غير منزلته ، - قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام ، - قلت :

(١) في الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .

(٢) لعل الأظهر على .

ما السبب يا أمير المؤمنين ؟ — قال : خرجت من عند جارية لي فأسررت إليه سرا
فما عداني السر أن عاد إلي . — قلت لعلك أسررت إلى غيره ، — قال : ما كان
هذا ! — قلت فلعل مستمعا أستمع إليك ، — قال لا ولا هذا أيضا . قال فأطرفت
ملياً ثم رفعت رأسي ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا . —
قال وما هو ؟ — قلت : خبر أبي الجوزاء ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين قال حدثنا
المعتمر بن سليمان عن أبي الجوزاء قال : طلقت امرأتى في نفسي وأنا بالمسجد ثم
أنصرفت إلى منزلي ، فقالت لي امرأتى : طلقني يا أبا الجوزاء ! قلت من أين لك
هذا ؟ قالت حدثتني به جارتى الأنصارية قلت : ومن أين لها هذا ؟ قالت ذكرت
أن زوجها أخبرها بذلك قال : فغدوت على ابن عباس رضى الله عنهما فقصةت
عليه القصة فقال : أما علمت أن وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل ؟ فمن
هنا يفشو السر ، فضحك المتوكل ، وقال إلى يا فتح ! فصب عليه خلعة ، وحمله
على فرس ، وأمر له بمال ، وأمر لي بدونه فأنصرفت إلى منزلي ، وقد شاطرنى
الفتح فيما أخذ فصار إلى الأكثر .

قال أبو نعيم وكان في نفسي من حديث أبي الجوزاء شيء حتى حدثني حمزة
ابن حبيب الزيات . قال : خرجت سنة أريد مكة فبينا أنا في الطريق إذ ضللت
راحلتى فخرجت أطلبها فإذا أنا بأثنين قد قبضا على أحس حشهما ولا أرى شخصهما
بل أسمع كلامهما ، فأخذاني إلى شيخ قاعد وهو حسن الشبهة فسلمت عليه فرد علي
السلام فأفرخ روعي . ثم قال من أين وإلى أين ؟ قلت من الكوفة إلى مكة .
قال : ولم تخلفت عن أصحابك ؟ قلت ضللت راحلتى فبحثت أطلبها ، فرفع رأسه
إلى قوم عنده ، وقال : أينجوا راحلته ، فأنيخت بين يدي . ثم قال : تقرأ القرآن ؟

(١) في الأصول بالجيم وهو تصحيف . وصوابه بالخاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه . أنظر القاموس .

قلت نعم . قال فافراً ، فقرأت حم الأحقاف حتى أتيت ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا
مِنَ الْجِنِّ﴾ فقال مكانك ، أندري كم كانوا ، قلت لا . قال كمًّا أربعة : وكنت
أنا المخاطب عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾
ثم قال أقول الشعر ؟ قلت لا . قال فترويه ؟ قلت نعم . قال هاته ، فأنشدته
قصيدة زهير بن أبي سلمى "أَمِنْ أَمْ أَوْفَى" فقال لمن هذه ؟ قلت لزهير بن أبي سلمى
قال الجني ؟ قلت لا بل الإنسي . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال اتئوني زهير
فأتني بشيخ كأنه قطعة لحم فألقي بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال "أمن
أم أوفى" لمن هي ؟ قال لي — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزهير بن أبي سلمى ؛
قال : صدق وصدق ، قال وكيف هذا ؟ قال هو إلفي من الإنس وأنا تابعه
من الجن ، أقول الشيء فألقيه اليه في فهمه ويقول الشيء فأخذ عنه ، فأنا قائلها في الجن
وهو قائلها في الإنس . قال أبونعيم : فصدق عندي حديث أبي الجوزاء أن وسواس
الرجل يحدث وسواس الرجل .

الفصل الثالث

(فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدبيره ، ويصرفه بقلمه ،

ومتعلق ذلك اثنا عشر أمراً)

الأمر الأول

(التوقيع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصاص بما يعتمده المكاتب من أمر الولايات
والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالملكة ، والتحدث في المظالم ، وهو أمر جليل ،
ومنصب حفيظ ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنع ، والوصل والقطع ، والولاية والعزل

إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية . وأعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء ، فكان الخليفة هو الذى يُوقَّع فى الأمور السلطانية ، وفصل المظالم ، وغيرهما .

الأمر الثانى

(نظره فى الكتب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصورى : ” كان الواجب أن لا يقرأ الكتب الواردة على الملك إلا هو بنفسه ؛ ولما كان ذلك متعذرا عليه لوفورها ، وآتساع الدولة ، وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الخدم ، ووصول الكتب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضيق الزمان عن تفرغه لذلك ، وجب تفويضه إلى متولى ديوان رسائله .“
قال : ” ولما كان حال متولى صاحب الديوان كذلك لأشغاله بالحضور عند الملك فى بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة ، وتقرير ما يجاب به عن كل منها ، مع شغله بتصفح ما يكتب فى الديوان والمقابلة به ، احتاج أن يرد أمرها إلى كاتب يقوم مقامه “
على ما سيذكر فى صفات كتاب الديوان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق برده الأجوبة عن الكتب الواردة على لسانه)

قال أبو الفضل الصورى : ” ومن أهم ما يلزم صاحب هذا الديوان إشعار الملك ما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أن من أعظمها خطرا أن يصدر جواب كل كتاب يصل إليه فى يومه ولا يؤخره إلى غده ويؤرخ فى آخره بتاريخ ذلك اليوم “
فيقال ” وكتب فى يوم وصول كتابك ، وهو يوم كذا “ فإن ذلك يقيم للملك هبة كبيرة ، ويدل

على تطلُّعه للأُمور، وانتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأُمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شُؤونها، ويؤثر في نفس المكاتبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حذرا وخيفة“. قال : ”وينبغي أن يأخذ جميع أرباب الخدم في البلاد بتاريخ كتبهم ويحدِّد لهم من ترك ذلك ؛ فإن في إهماله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرخ لم يعلم بعدُّ العهد بما ذكر فيه من قُربه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمَّنه أم لا ؛ وإذا كان مؤرخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل إليه كتاب اقتضى تاريخه زيادة زمن على مسافة الطريق ، أنكر ذلك على حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجَّة على أنه لم يتأخر به قدرا زائدا على مسافة طريقه ، وأن العذر من تقدُّم التاريخ قبل إرساله ، أنكر ذلك على مرسله إنكارا يردُّعه عن ذلك ويزجره عنه .

الأمر الرابع

(نظره فيما تفتاوت به المراتب في المكاتب والولايات : من الافتتاح

والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب في الزمن المتقدم في غاية الضبط والتحرير، خصوصا في زمن الخلفاء من بنى العباس والفاطميين ؛ لا يزداد أحد في الألقاب على ما لُقِّب به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمَح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها . أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلى نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتبين وأرباب الولايات منزلة على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط ؛ وحينئذ فعليه أن يحتاط في ذلك ويؤاخذ كتاب الإنشاء بالمشاحة فيه، والوقوف عند ما حُدِّ لهم من غير إفراط ولا تفريط . فقد قال صاحب مواد البيان : ”إن الملوك تسمَح ببِدَرَات المال ، ولا تسمَح بالدعوة الواحدة“ وناهيك بذلك تشديدا واحتياطا .

الأمـر الخامس

(نظره فيما يُكتب من ديوانه وتصفحه قبل إخراجـه من الديوان)

قال أبو الفضل الصوري : ” على متولى الديوان أن يتصفح ما يكتب من ديوانه من الولايات والمناشير والمكاتبات ، إذ الكاتب غير معصوم من الخطأ واللحن وسبق القلم ، وعيب الإنسان يظهر منه لغيره مالا يظهر له ، فما أبصره من لحن أو خطأ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحذر من مثله فيما يستأنفه ، فإن تكرّر منه زجره عن ذلك ، وردّعه عن العود إلى مثله ، إذ الغرض الأعظم أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً ، فربما زلّ الكاتب في شيء فيزل بسببه متولى الديوان . بل السلطان . بل الدولة بأسرها . قال : فإذا فرغ من عرض الكتاب والوقوف عليه ، كتب عليه بخطه ما يدل على وقوفه عليه ليكون ملزماً بذكره “ .

وكانه يشير إلى ما تقدّم من كلامه : من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ، وإن كان منشوراً ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال : ” فإن كان متولى الديوان مشغلاً بحضور مجلس السلطان ومخاطباته والتلقّي عنه ، ولا يمكنه مع ضيق الزمان توفية كل ما يكتب بالديوان حقّ النظر فيه وتصفح ألفاظه ومعانيه ، نصب له في ذلك نائباً كامل الصنعة حسن الفطنة موثقاً به فيما يأتي ويذرّ ، يقوم مقامه في ذلك “ . قال : ” وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثر الكل ويصير إليه وقد قارب الصحة أو بلغها فيحصل على الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلى ما لعله خفى على المتصفح من دقائق المعاني وعويص المدارك ، فيقلّ زمن النظر عليه ، ويظفر بالغرض المطلوب في أقرب وقت “ .

(١) العويص بالعين المهملة وهو ما يعسر فهمه . وإعجابه في الأصول تصحيف .

الأمر السادس

(نظره في أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان،

وأكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : ” وَلَيْتَكَ حِجَابِي وَعِزَّتِكَ عَنْ أَرْبَع : هذا المنادى إلى الله في الصلاة والفلاح فلا تُعَوِّجَنَّهُ عَنِي ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحبُ الطعام ، فإن الطعام إذا أُعيد تسخينه فسد ؛ وطارقُ الليل فلا تُحِجِّبْهُ فَشَرُّ مَا جَاءَ بِهِ ، ولو كان خيرا ما جاء في تلك الساعة ؛ ورسولُ الثَّغْرِ ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنةٍ فأَدْخِلْهُ عَلَيَّ ولو كنت في لحافِي “ . وقد تقدّم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذي يتلقّى المكاتبات الواردة ويقرؤها على السلطان ويجاوبُ عنها ، فيجب على صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقظا لما يردُّ على السلطان من نواحي ممالكه وقاصيات أعماله فإنه المعتمد عليه في ذلك والمعول عليه في أمره .

وقد كان أمرُ البريد في الزمن المتقدم والدوادرية يومئذ أمراء صغار وأجناد معدون لصاحب ديوان الإنشاء ، تخرج رسالة السلطان على لسان بعض الدوادرية بما يرسم به لمن يركب البريد في المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلى صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدّم في تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نحاس كلُّ لوح منها بقدر راحة الكفِّ أو نحوها منقوش على أحد وجهيه ألقابُ السلطان ، وعلى الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وفي رقبته شُرابة من حرير أصفر يجعلها راكب البريد في عنقه ويرسل اللوح على صدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلى كاتب السر دفع إلى البريديّ لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلى أميرأخور البريد بالإصطبل السطانيّ بما تبرز به الرسالة من الخيل ،

ويكتبُ اسمه في آخر الكتاب الذي يُنفذ معه بين السطور، ويختم الكتاب،
ويُسَلِّمُ إليه، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلى جهة قصده، وحمله على ما رُسِمَ
له به من خيل البريد على ما سيأتى ذكره في الكلام على كتابة أوراق الطريق،
ويترك اسمه وتاريخ سفره، والجهة التي توجه إليها، والشغل الذي توجه بسببه بدفتر
بالديوان.

فلما عظم أمر الدوادارية واستقر عند الدوادار كاتب من كتّاب الدست يعلّق
عنه الرسالة على ما تقدّم في الكلام على تعليق الرسالة، رجع أكثر الأمر في ذلك إلى
الدوادار، وصار كاتب الدست الذي يخدمه يعلّق الرسالة عنه بذلك كما يعلّقها عنه
في غيره على ما تقدّم. فإن كان البريد إلى جهة الشام كتب في ورقة لطيفة يرسم
برسالة المقرّ المخدم الفلاني أمير دوادار الناصري أو الظاهري مثلاً أعز الله تعالى
أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلاني المرسوم له بالتوجه إلى
الجهة الفلانية، ويحمل على فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد. ثم يؤرّخ.
وإن كان البريد إلى الوجه القبلي أو البحري أو غير ذلك كتب: أن يكتب ورقة
فرس بريد باسم فلان الفلاني من غير تعرض لذكر ورقة طريق، وباقي الكلام على
نحو ما تقدّم، ويؤرّخ ويجهّز تلك الورقة صحبة البريدي إلى صاحب ديوان الإنشاء
فيخلّد الورقة بديوانه عند دواذاره في جملة أضيّير الديوان، ويكتب له في ورقة
صغيرة أيضاً ما مثله: أميرأخور البريد المنصور، يحمل فلان الفلاني على فرس واحد
أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلى الجهة الفلانية ويؤرّخ، ويدفع
إلى البريدي ليدفعها إلى أميرأخور البريد تخلّد عنده، ويكتب اسم البريدي
في آخر الكتاب على ما سيأتى في أول المكاتبات إن شاء الله تعالى، ويختم الكتاب
ويدفع إليه.

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدي عنده شربة حرير صفراء يجعلها في عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدي إلى مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلى اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلى الأبواب السلطانية من نيابة من نيابات المملكة في ورقة الطريق وخيل البريد . ولصاحب ديوان الإنشاء التنبيه على مصالح مراكز خيل البريد في الديار المصرية وغيرها .

وسأتي الكلام على مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة في موضعها إن شاء الله تعالى . وأعلم أنه يجب على الناظر في أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتاط فيمن يرسله في الأمور السلطانية ، فيوجه في كل قضية من يقوم بكفائها وينهض بأعبائها ، ويختص الملوك وأكابر النواب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التجارب منهم ، خصوصا في المهمات العظيمة التي يحتاج الرسول فيها إلى تنسيق الكلام ، وتحسين العبارة ، وسماع شبهة المرسل إليه ، ورد جوابه وإقامة الحجة عليه ، فإنه يقال : يُستدل على عقل الرجل بكتابه وبرسوله . وقد قيل : من الحق على رسول الملك أن يكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين وأستحكام منعة ، وأن يكون بصيرا بخارج الكلام وأجوبته ، مؤديا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا بريئا من الطمع . وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه في مقاصده ، ولا يرسل إلى الملوك الأجانب ، إلا من آخبره بتكرير الرسائل إلى نوابه وأهل مملكته . فقد كان الملوك فيما سلف من الزمن إذا آثروا إرسال شخص لمهم ، قدموا امتحانه بإرساله إلى بعض خواص الملك ممن في قرار داره ، في شيء من مهماته ، ثم يجعل عليه عينا فيما يرسل به من حيث لا يشعر ، فإذا أدى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملك عيته ، فإن

طابق ما قاله الرسول ما أتى به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه ، صارت له الميزة والتقدمة عند الملك ووجهه حينئذ في مهمات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخر ملوك الفرس يقول : ”حق على الملك الحازم إذا وجه رسولا إلى ملك أن يرده بأخر، وإن وجه برسولين وجه بعدهما باثنين، وإن أمكنه أن لا يجمع بين رسله في طريق فعل“ .

ومن الحزم أن الرسول إذا أتاه برسالة أو كتاب في خير أو شر أن لا يتحدث في ذلك شيئا حتى يرسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفا وحرفا ومعنى معنى فإن الرسول ربما فات به بعض ما يؤمله فافعل الكتب ، وغير ما شؤفه به فأفسد ما بين المرسل والمرسل إليه : من ملك أو نائب ونحوهما ؛ وربما أدى ذلك إلى وقوع فتنة بين الملكين ، أو خروج النائب عن الطاعة وتفاقم الأمر بسبب ذلك وسرى إلى ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجه رسولا إلى بعض ملوك الشرق بخفاء برسالة شك الإسكندر في حرف منها فقال له : ”وَيْلَكَ ! إن الملوك لا تخلو من مقوم ومسدد إذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعاني ، وقد وجدت فيها حرفا ينقضها ؛ أفعلين أنت من هذا الحرف أم شك فيه ؟ فقال بل على يقين منه أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تكتب الألفاظ حرفا وحرفا ويعاد إلى الملك الذي جاء ذلك الرسول من عنده مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له . فلما وصل الرسول الثاني إلى ذلك الملك وقرأ عليه ما كتب إليه به الإسكندر في أمر ذلك الرسول ، أنكر ذلك الحرف الذي أنكره الإسكندر وقال للترجم : ”ضع يدك على هذا الحرف“ فوضعتها فأمر أن يعلم بعلامة وقال : ”إني أجل ما وصل عن الملك أن أقطعه بالسكين ، ولكن ليصنع هو فيه وفي قائله ما شاء“ . وكتب إلى الإسكندر : ”إن من أس المملكة صحة لهجة الرسول ؛ إذ كان عن لسانه ينطق ، وإلى أذنه

يؤدى". فلما عاد الرسول إلى الإسكندر دعا برسوله الأول وقال : "ما حملك على كلمة قصدت بها إفساد ما بين ملكين ؟" فأقر أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك ، فقال له الإسكندر : "فأراك قد سعت لنفسك لا لنا ! فاتك ما أملت بما لا تستحقه على من أرسلت إليه فجعلت ذلك ثأرا تُوقعه في الأنفس الخطيرة الرفيعة ! ثم أمر بلسانه فتزع من قفاه . " وكأنه رأى إتلاف نفس واحدة أولى من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقعه بين الملكين من العداوة ويثير من الإحن وضغائن الصدور .

وقد كان أردشير بن بابك يقول : "كم من دم سفك الرسول بغير حلة ! وكم من جيوش هُزمت وقُتل أكثرها ! وكم حُرمة انتهكت ! وكم مال هُتب وعقد نُقض بخيانة الرسل وأكاذيب ما يأتون به ! " .

الأمر السابع

(نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته)

سيأتى فيما بعد أن شاء الله تعالى أن بالديار المصرية أبراجا للحمام الرسائي يجمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان ؛ منها بُرج بقلعة الجبل ، وأبراج بطريق الشام بمدينة بليس ، وأبراج بطريق الإسكندرية . وكان قبل ذلك يدرج إلى قوص ، ومنها إلى أسوان وعيذاب ما يقطع ذلك الآن ^(١) . وحمام كل برج يُنقل منه في كل يوم إلى البرج الذى يليه ليطلب برجه الذى هو مستوطنه إذا أُرسِل . فإذا عرض أمر مهم أو ورد بريد أو غيره ممن يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام ، كتب إليها المتحدث فيها بذلك للأبواب السلطانية ، وبعث بها على أجنحة الحمام . وقد جرت العادة

(١) كذا في الأصل ولعله فاتقطع ذلك الآن .

(٢) صوابه كما هو واضح .

أن تكتب بطاقتان وتؤرخان بساعة كتابتهما من النهار، ويعلق كل منهما في جناح طائر من الحمام الرسائلي ويُرسلان، ولا يكتفى بواحد لأحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلى مقصده . فإذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه ، أمسكه البرّاج وأخذ البطاقة من جناحه وعلّقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه أى من المنقول إلى ذلك البرج، وعلى ذلك حتى ينتهي إلى برج القلعة فيأخذ البرّاج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضّره بين يدي الدوّادار الكبير فيعرض عليه ، فيضع البطاقة عن جناحه بيده . فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلى مطالعة السلطان به ، استقلّ الدوّادار به ، وإن كان مهماً يحتاج إلى إعلام السلطان به ، استدعى كاتب السر وطلع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة . وكذلك الحكم فيما يطراً من المهمّات بالأبواب السلطانية فإنّه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلّقة بذلك المهم . وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق، وحلب، وطرابلس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات ، على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثامن

(نظره في أمور النِداوية)

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين السبط بن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ! ، من فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وهم فرقة من الشيعة معتقدهم معتقد غيرهم من سائر الشيعة أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم !

أنتقلت بالنص إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، ثم إلى آبنه الحسن ، ثم إلى أخيه الحسين ، ثم تنقلت في بنى الحسين إلى جعفر الصادق ، ثم هم يدعون أنتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى آبنه إسماعيل ، ثم تنقلت في بنه .

وسموا الفداوية لأنهم يقادون بالمال على من يقتلونهم . ويسمون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يسطنون مذهبهم ويخفونه ، وتارة بالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد . وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية . وسأنى الكلام عند ذكر تخليفهم في الكلام على الإيمان إن شاء الله تعالى . وكانوا في الزمن المتقدم قد علت كلمتهم ، وأشدت شكيمةم ، وقويت شوكتهم ، وأستولوا على عدة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشام . فأما بلاد العجم فكان بداية قوتهم وانتشار دعوتهم في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي في المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدميهم رجل اسمه عطاش فنشأ له ولد يسمى أحمد فتقدم في مذهبهم وأرتفع شأنه فيهم ، وألم به من في بلاد العجم منهم ، فغلب على قلعة بأصبهان ، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدم ذكره ، وقلعة بالطالقان تعرف بقلعة الموت ؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصياح ذو شهامة وتقدم في علم الهندسة والحساب والنجوم والسحر ، فآتهم بالدعوة للخلفاء الفاطميين ، وهم من جملة طوائف الإسماعيلية ففر الحسن بن الصياح منه هاربا إلى مصر ، وبها يومئذ المستنصر بالله خامس خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نزل ، وأمره بأن يخرج إلى البلاد للدعوة إلى إمامته فأجابه إلى ذلك ، وسأله من الإمام بعده ، فقال له : ابنى نزار وهو الذى تنسب إليه التزارية منهم . فخرج ابن الصياح من مصر وسار إلى الشام ، والجزيرة ، وديار بكر ، وبلاد الروم يدعو إلى إمامة المستنصر . ثم آبنه نزار من بعده ، وسار إلى نحرأسان وجاوزها إلى ما وراء النهر ، ودخل كاشغر يدعو إلى ذلك ، ثم عاد إلى الطالقان وأستولى على قلعة الموت في سنة ثلاث وثمانين

وأربعائة ، ثم استولى على قلعة أصبهان واستضاف إليها عدة قلاع بتلك النواحي في سنة تسع وتسعين وأربعائة ، وقويت شوكة هذه الطائفة بتلك البلاد ، وعظم أمرها ، وخافها الملوك وسائر الناس ، وبقي ابن الصياح على ذلك حتى مات في سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وتقلت تلك القلاع بعده حتى صار أمرها إلى شخص من عقبه يسمى جلال الدين بن حسن الكيما الصياحي فأظهر التوبة في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، وبقي على ذلك إلى سنة ثمان وستمائة ، فأظهر شعائر الإسلام ، وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام ، فأقيمت فيها ، وبقي حتى توفي سنة ثمان عشرة وستمائة ، وقام بعده ابنه علاء الدين محمد ، وتداول مقدموهم تلك القلاع إلى أن خرج هولاكو على بلاد العجم في سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عيبتهم وفسادهم ، فخرّب قلاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشام فكان أول قوتهم بها أنه دخل منهم إلى الشام رجل يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسد ابادى ببغداد في أيام تاج الملوك بوري صاحب الشام ، وصار إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها ، وعاضده سعيد المردغاني وزير بوري حتى علت كلمته في دمشق وسلم له قلعة بانياس ، فعظم أمر بهرام وملك عدة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلى الآن ، وهي سبع قلاع بين حماه وحمص متصلة بالبحر الرومي على القرب من طرابلس : وهي مضيايف ، والرصافة ، والحواني . والقُدُموس ، والكهف ، والعليقة ، والمينقة ، ومن هنا سُميت بقلاع الدعوة . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتل في حرب جرت بينه وبين أهل وادي التيم ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل ، وأقام الوزير المردغاني عوض بهرام بدمشق رجلا منهم اسمه أبو الوفاء فعظم أمره بدمشق حتى صار الحكم له بها ، وهم بتسليمها

(١) لعلها بانياس . قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص .

للفرنج على أن يسلموا له صورَ عوضاً منها، فشعر به بوري صاحب دمشق فقتله وقتل وزيره المردغانى ومن كان بدمشق من هذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقل بالشام لواحد بعد واحد من مقدميهم إلى أن كان المقدم عليهم في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشد الدين سنَّان البصرى وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين مباحنةً ووثبوا عليه مراتٍ ليقْتلوه فلم يظفروا بذلك إلى أن حاصر قلاعهم في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفْح عنهم فأجابهم إلى ذلك وبقي راشد الدين سنَّان مقدماً عليهم حتى مات في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

قال في مسالك الأبصار: "وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهرًا لهم، ولذلك يتولَّونه ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من النعم الأكبر بزعمهم". قال: "ولصاحب مصر بمشايعتهم منيةٌ يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده، ومن بعثه إلى عدوله فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه وقتلوه".

قلت: وكانوا في الزمن المتقدم يُسمون كبيرهم المتحدث عليهم تارة مقدم الفداوية، وتارة شيخ الفداوية. أما الآن فقد سمو أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتاك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين في الزمن المتقدم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها إلا من رُسِم له بالخروج لما يتعلق بالسلطان ولا يُمكن أحد من التجار من الدُّخول إلى بلادهم لشراء قماش وغيره . وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجه بها لنائب الشام المحروس . وسيأتى لإيراد شيء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم في الولايات إن شاء الله تعالى!

الأمر التاسع

(نظره في أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة . وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره وإليه رجوع تديره واختيار رجاله وتصريفهم . فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريد والرسل : لأن الرسول قد يتوجه إلى الصديق وقد يتوجه إلى العدو والجاسوس لا يتوجه إلا إلى العدو ، وإذا وثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا في الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يؤثق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُتَفَعَّ بخبره وإن كان صادقا لأنه ربما أخبر بالصدق فأثَّهم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما أثر الضرر لمن هو عين له إذ المتهم في الحقيقة عينٌ عليك لا عون لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفِراسة تامة : ليدرك بوقور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو والمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدل فيما هو فيه ببعض الأمور على بعض فإذا تفرس في قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوى بحثه فيها بانضمام بعض القرائن إلى بعض .

ومنها أن يكون كثير الدِّهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلى كل موصل ، ويدخل بحيلته في كل مدخل ، ويدرك مقصده من أى طريق أمكنه . فإنه متى كان قاصرا في هذا الباب أو شك أن يقع ظفر العدو به أو يعود صفر اليدين من ظليته .

ومنها أن يكون له دُرْبَةٌ بالأسفار ومعرفةً بالبلاد التي يتوجه إليها : ليكون أغنى له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربما كان في السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربما وقع في العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عينا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها لِيَلْتَقَطَ ما يقع من الكلام فيما يذهب بسببه ممن يخالطه من أهل تلك المملكة وسُكَّانِ البلاد العالمين بأخبارها ، ولا يكون مع ذلك ممن يُتَّهَمُ بممْلَأَةِ أَهْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ من حيث إن الغالب على أهل كل لسان اتِّحَادُ الجَنَسِ ، والجَنَسِيَّةُ علة الضم .

ومنها أن يكون صَبُورا على ما لعله يصير إليه من عُقُوبَةٍ إن ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مَلِكِهِ ولا يُطْلِعُ على وَهْنٍ في مملكته ؛ فإن ذلك لا يخلصه من يد عدوه ، ولا يدفع سطوته عنه . بل ولا يعترف أنه جاسوس أصلا ؛ فإن ذلك مما يحتمُّ هلاكه وَيُقْضَى إِلَى حَتْفِهِ : إلى غير ذلك من الأمور التي لا يسع استيعابها . فإذا وَجَدَ من العيون والجواسيس مَنْ هو مستكمل لهذه الشرائط وما في معناها ، فعليه أن يُظْهِرَ لهم الوُدَّ والمصافاةَ ولا يُطْلِعَ أحدا منهم في زمن تصرفه له أنه يَتَّهَمُهُ ولا أنه غير مأمون لديه ؛ فربما أذاه ذلك في أَضْيَاقِ الأوقات أن يكون عينا عليه ؛ فإن الضرورة قد تلجئه لمثل ذلك ، خصوصا أن جَذْبَهُ إلى ذلك جاذب يشمله عنه مع ما هو عليه من الضرورة ، والضرورة قد تحمل الإنسان على مفاسد الأمور ، وَيُجْزِلُ لهم الإحسان والبرَّ ، ولا يُغْفَلُ تعاهدُهم بالصلوات قبل احتياجه إليهم . ويزيد في ذلك عند توجههم إلى المهمات ، ويتعهد أهلهم في حضورهم وغيبتهم ليملك بذلك قلوبهم ويستصفي به خواطرهم . وإن قُضِيَ على مَنْ بعثه منهم بقضاء أحسن إلى مَنْ خَلَفَهُ من أهله ، وجعل لهم من بعده من الإحسان ما كان يجعله له

إذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره على النصيحة . وإن قُدِّر أن عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبة وهو ثقة، فلا يستوحش منه بل يؤليه الجميل، ويعامله بالإحسان؛ فانه إن لم ينجج المرة نجع الأخرى . وعليه أن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا لا سيما عند التوجه للهمات . وإن استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إذا اختص الواحد بالسر . وأيضا فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه ومما ألثم لعدوه . وكذلك يحترز عن تعرف أحد من عسكره عيونه وجواسيسه؛ فان ذلك ربما يؤدى إلى انتشار السر والعدو بالمفسدة . وعليه أن يصنع إلى ما يليق به إليه كل من جواسيسه وعيونه وإن اختلفت أخبارهم ويأخذ بالأحوط فيما يؤديه إليه أجهاده من ذلك ولا يجعل إختلافهم ذنبا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله؛ إذ كل واحد قد يرى ما لا يرى الآخر، ويسمع ما لا يسمعه . وإذا عثر على أحد من جواسيسه بزلّة فليسترها عنه وعليه، ولا يعاقبه على ذلك ولا يوبّخه عليه فان وبّخه ففى خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما فى ممالأة العدو والخيانة من الوبال فى الآخرة . ولا بأس بأن يحجى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودته وأنه مع العدو على غرر لا يدري ما هو صائر إليه؛ فان ذلك أدعى لاستصلاحه . ولا شك أن استصلاحه إما فى الوقت أو فيما بعد خير من ثبات فساده، فربما أذاه ذلك الى ممالأة العدو ومباطنته، لا سيما اذا كان العدو معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البذل والعطاء . وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوه استعمل فيه التثبت ودوام البشر ولا يظهر تهافتا عليه تظهر معه الخفة، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة، ولا يظهر له كراهة ما يأتية به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمان السر عنه فيما يكره فيؤدى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثر مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارة .

واعلم أنه لا يمكن أحداً من يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه . فيجب الاحتراز منهم بكتان السرّ وبستر العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان إلى أن يعترف الملكُ عدوه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف إلى أن يصير جاسوس عدوه جاسوساً له بأن يتوّدّد إليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتى يستخرج نصيحته ، فيئنّد يلقى إليه ما أراد تبليغه إلى صاحبه الأول مما فيه المكيدة فيوصله إليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه .

الأمر العاشر

(نظرة في أمور القُصّاد الذين يسافرون بالمطّافات من الكتب

عند تعذر وصول البرّد إلى ناحية من النواحي)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وأكدها . وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه : أن أول من اتخذ السّعاة من الملوك معز الدولة بن بويه أول ملوك الديلم بعد الثلاثين والثلاثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركن الدولة ابن بويه بأصبهان ومأمعها فأراد معز الدولة سرعة إعلام أخيه ركن الدولة بتجدّدات الأخبار فأحدث السّعاة وانتشّى في أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش ، وكان أحدهما ساعى السنة والآخر ساعى الشيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

(١) كذا في الأصل . ولعلّ صوابه "لا يمكن أحداً أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسير في كل يوم نيفاً وأربعين فرسخاً ، وأستمر حكم السعاة ببغداد إلى زماننا حتى إن منهم ساعيين لركاب السلطان يمشیان أمامه في المراكب وغيرها على قرب .

قلت : ”وقد رأيتهما في خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر في دولة الظاهر برقوق فازاً من تمر“ . أما الديار المصرية فإنه لا يتعانى ذلك عندهم إلا خفاف الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العدو إلا أنه إذا طرأ مهم سلطاني يقتضى إيصال ما طُف مكاتبته عن الأبواب السلطانية إلى بعض النواحي وتعدر إيصاله على البريد لحيلولة عدو في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، آتدب كاتب السر بأمر السلطان من يعرف بسرعة المشى وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطّف إلى المكتوب إليه والإتيان بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فأكثر إلى الشخص الواحد في المعنى الواحد ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يعترض واحد فيمضى الآخر إلى مقصده كما تقدّم في بطائق الحمام الرسائي . وقد أخبرني بعض من سافر في المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم في الغالب عند خوف العدو يمشون ليلاً ويكنّون نهاراً وإذا مشوا في الليل يأخذون جانباً عن الطريق الجادة ، يكون بين كل اثنين منهم مقدار رمية سهم حتى لا يسمع لهم حس فاذا طلع عليهم النهار كمنوا متفرقين مع مواعدهم على مكان يتلاقون فيه في وقت المسير .

الامر الحادى عشر

(نظره في أمر المناور والمحركات)

أما المناور فسياق أن في الزمن المتقدم عند وقوع الحروب بين التار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفرات بآحر الممالك الشامية وإلى قريب من بليس من أعمال

الديار المصرية أمكنة مرتبة برءوس جبال عوالٍ ، بها أقوام مقيمون فيها ، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدو من بلاد التتار ، وأتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحليية : فإن كان ذلك في الليل أُوقِدَت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبال فينظره من بعده ، فيوقد النار فينظره من بعده ، فيوقد النار وهكذا حتى ينتهي الوقود إلى المكان الذي بالقرب من بليس في يوم أو بعض يوم ، فيرسل بطاقةً على أجنحة الحمام بالإعلام بذلك فيعلم أنه قد تحرك عدو في الجملة فيؤخذ في التأهب له حتى تصل البرد بالخبر مفصلاً .

وأما الحُرقات فسيأتي أنه كان أيضا قوم من هذه المملكة مرتبون بالقرب من بلاد التتار يحيلون على إحراق زروعهم بأن تُمسك الثعالب ونحوها وتربط الخرق المغموسة في الزيت بأذنان تلك الثعالب وتوقد بالنار وترسل في زروعهم إذا ليست فيأخذها الدُّعْر من تلك النار المربوطة بأذنانها فتذهب في الزروع آخذة يمينا وشمالا فما مرت بشيء منه إلا أحرقت وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتحرق المزرعة عن آخرها .

قلت : وهذان الأمران قد بطل حكمهما من حين وقوع الصالح بين ملوك مصر وملوك التتار على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثاني عشر

(نظرة في الأمور العاقبة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة)

قد تقدم في أول هذا الفصل في الكلام على بيان رتبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب مواد البيان أنه ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته

أَخَصَّ مِنْهُ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أَوَّلُ دَاخِلٍ عَلَى الْمَلِكِ وَآخِرُ خَارِجٍ عَنْهُ وَأَنَّهُ لَاغْنَى بِهِ عَنْ مِفَاوِضَتِهِ فِي آرَائِهِ وَالْإِفْضَاءِ إِلَيْهِ بِمَهْمَاتِهِ ، وَتَقْرِيهِهِ مِنْ نَفْسِهِ فِي آنَاءِ لَيْلِهِ وَسَاعَاتِ نَهَارِهِ ، وَأَوْقَاتِ ظَهْوَرِهِ لِلْعَامَةِ وَخُلُوتِهِ ، وَإِطْلَاعِهِ عَلَى حَوَادِثِ دَوْلَتِهِ وَمَهْمَاتِ مَمْلَكَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَثِيقُ بِأَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِهِ يَثِقَهُ بِهِ ، وَلَا يَرْكُنُ إِلَى قَرِيبٍ وَلَا نَسِيبٍ رُكُونَهُ إِلَيْهِ ؛ وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الرِّبَّةِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ ، وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَأْلُوهُ نُصْحًا فِيمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَصْلَحُ لِمَمْلَكَتِهِ وَأَعْمَرُ لِبِلَادِهِ وَأَرْغَمُ لِأَعَادِيهِ وَحُسَّادِهِ وَأَثْبَتَ لِدَوْلَتِهِ وَأَقْوَى لِأَسْبَابِ مَمْلَكَتِهِ .

فَقَدْ حَكَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ الْكَاتِبِ : أَنَّهُ صَحِبَ بَعْضَ الْمُلُوكِ فَقَالَ لِلْمَلِكِ : "أَصْحَبَكَ عَلَى ثَلَاثِ خِلَالٍ - قَالَ وَمَا هِيَ ؟ - قَالَ لَا تَهْتِكُ لِي سِتْرًا ، وَلَا تَشْتِمُ لِي عِرْضًا ، وَلَا تَقْبَلُ فِي قَوْلٍ قَائِلٍ حَتَّى تَسْتَبْرَأَ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ - هَذِهِ لَكَ عِنْدِي فَمَا لِي عِنْدَكَ ؟ قَالَ : لَا أَفْشِي لَكَ سِرًّا ، وَلَا أُؤَخِّرُ عَنْكَ نَصِيحَةً ، وَلَا أُؤْثِرُ عَلَيْكَ أَحَدًا - قَالَ نَعَمْ الصَّاحِبُ الْمُسْتَصْحَبُ أَنْتَ ! .

فَإِذَا أَنْتَهَى إِلَى صَاحِبِ الدِّيْوَانِ خَبَرِيَتَعْلَقَ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ إِلَى الْمَمْلَكَةِ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ عَنْهَا ، أَطْلَعَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ وَأَعْجَلِهِ قَبْلَ فَوَاتِ النَّظَرِ فِيهِ وَتَحَلُّهِ فِيهِ صَائِبَ رَأْيِهِ ، ثُمَّ رَدَّ النَّظَرَ فِيهِ إِلَى رَأْيِ السُّلْطَانِ لِيَخْرُجَ عَنْ عَهْدَتِهِ . وَإِنْ آرَتَابَ فِي خَبَرِ الْمَخْبَرِ أَحْضَرَهُ مَعَهُ إِلَى السُّلْطَانِ لِيَشَافِهَهُ فِيهِ حَتَّى يَكُونَ بَرِيئًا عَنْ تَبَعْتِهِ ، وَلَا يَهْمَلُ تَبْلِيغَ خَبَرِهِ بِعَجْزِ الرِّبَّةِ لِأَحْتِمَالِ صَحَّتِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَيُلْحَقَ بِوَاسِطَةِ إِهْمَالِهِ ضَرَرٌ لَا يُمْكِنُ تَدَارُكُهُ . وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي سَائِرِ مَا يَرْجِعُ إِلَى صَلَاحِ الْمَمْلَكَةِ وَحَسَنِ تَدْبِيرِهَا .

الفصل الرابع

(في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم ربّ كل وظيفة منهم فيما كان الأمر عليه في الزمن القديم وأستقرّ عليه الحال في زماننا)
أما في الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصّوريّ في مقدّمة تذكّره أن أرباب الوظائف فيه على ضربين :

الضرب الأول - الكُتّاب

(١) (وقد عدّاهم إلى سبع كتاب)

الأول - كاتب ينشئ ما يُكْتَب من المكاتبات ، والولايات ، نتصدّي للإنشاء ملكته وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقاً بصفات متولّى الديوان بحيث يكون كاملاً في الصفات ، مستوفياً لشروط الكتابة ، عارفاً بالفنون التي يحتاج إليها الكاتب ، مشتملاً على التقدّم في الفصاحة والبلاغة ، قوى الحجّة في المعارضة ، واسع الباع في الكلام بحيث يقتدر بملكته على مدّح المذموم وذم المحمود وصرف عنان القول إلى حيث شاء ، والإطناب في موضع الإطناب ، والإيجاز في موضع الإيجاز ؛ فإنه أجلُّ كُتّاب الديوان ، وأرفعهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه ، وتلقّى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فينشئ على ذلك كلاماً طويلاً ، ويأتى منه بالعبرة الواسعة ؛ وهو لسانُ الملك المتكلّم عنه ، فهما كان كلامه أبدع ، وفي النفوس أوقع ، عظمت رتبة الملك ، وارتفعت منزلته على غيره من الملوك . وهو الذي ينشئ العهود والتقاليد في الولايات والكُتُب في الحوادث الجار ، والمهمّات العظيمة التي

تتلى فيها الكتب على صياصي المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلى إبراهيم بن الوليد ، وقد همَّ بالعصيان : أما بعد فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأعتمد على أيهما شئت والسلام ؛ فكان سبباً لإقلاعه عما همَّ به .

الثانى — كاتب يكتب مكاتبات الملوك عن ملكه ؛ وقد شرط فيه مع ما شرط فى المتصدى للانشاء المتقدم ذكره أن كان هو الذى ينشئ المكاتبات بنفسه عن الملك أن يكون على دين الملك الذى يكتب عنه ومذهبه ؛ لما يحتاج إليه فى مكتبة الملك المخالف من الاحتجاج على صحة عقيدته ، ونصرة مذهبه ، وإقامة الدلائل على صحة ذلك ، ولن يحتاج للملة أو المذهب من اعتقد خلافه بل المخالف إنما تبدوله مواضع الطعن لا مواضع الحجج . وكذلك أن يكون من علو الهمة ، وقوة العزم ، وشرف النفس بالمحل الأعلى ، والمكان الأرفع ؛ فإنه يكتب عن ملكه ، وكل كاتب فإنه يحتره طبعه وجبلته وخيمته إلى ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوى جانباً وأشدَّ عزماً وأعلى همة ، كان على التفضيم والتعظيم ، والتهويل والترغيب والترهيب أقدر ، وكلما نقص من ذلك نقص من كتابته بقدره ؛ وأن يكون عالماً بقدر طبقة المکتوب إليه فى معرفة اللسان العربى فيخاطب كل قوم على قدر رتبتهم فى ذلك وما يعرف من فهمهم .

الثالث — كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها ، وولاتها ، ووجوها من النواب والقضاة والكتاب والمشارفين والعمال ، وإنشاء تقليدات ذوى الخدم الصغار والأمانات ، وكتب الأيمان والقسامات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبتين المتقدمتين فهى جليلة الخطر عالية القدر ؛ ويجب أن يكون لاحقاً برتب الخدمة منها ، وأن يكون مأموناً على الأسرار ، كفى اليد ، نزه النفس عن العرض

الذنيوى لأنه يطّلع على أكثر مايجرى في الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمصروف قبل صرفه، ويكون مع ذلك سريع اليد في الكتابة، حسن الخط اذ كان هذا الفن أكثر ما يُستعمل ولا يكاد يقلّ في وقت من الأوقات

الرابع — كاتب يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقة بالمنزلة التي قبلها وكأنها جزء منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كُتوماً للسر؛ فيه من الأدب ما يأمّن معه من الخط واللحن في لفظه وخطه، ويكون حسن الخط أو بالغ فيه القدر الكافي . ولكن لما كان هذا الشغل واسعاً وهو أكثر عمل الديوان والذي لا ينفك منه، لم يكّد يستقلّ به رجل واحد فيحتاج إلى معاضدته بآخر يكون دونه في المنزلة، ويُجْعَل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها مما يمليه صاحب الديوان ويصدر عنه في نسخ تكون مخلدة فيه لا تُغادر الميضيّه بحرف لتكون موجودة متى احتيج إليها .

الخامس — كاتب يبيّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها . قال الصوري : لما كانت البلاغة التامة التي يصلح صاحبها للإنشاء وحسن الخط قلما يجتمعان في أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيّض يرسم الإنشاءات والسجلات والتقليدات، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلى الغاية الموجودة بحيث لا يكاد يوجد في وقته أحسن خطاً منه لتصدر الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكل للملكة، وأكثر تفخيماً عند من يكتبه وتعظيماً لها في صدره . ويجب أن يكون مع ذلك في الأمانة، وكتمان السر، ونزاهة النفس على ما تقدّم .

السادس — كاتب يتصفّح ما يكتب في الديوان . قد تقدم أنه لما كان كل واحد ممن تقدم ذكره غير معصوم من السهو والزلال والخطأ واللحن وهنّات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه ويظهر له عيب غيره، وكان زمن متولّى الديوان أضيق من أن يؤتى بكل ما يكتب بديوانه حقّ النظر. وكان القصد أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً، حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً، وجب أن يستخدم متولّى الديوان معينا يتصفح جميع الإنشاءات والتقليدات والمكاتبات وسائر ما يسطر في ديوانه .

قال أبو الفضل الصوري : وينبغي أن يكون هذا المتصفح عالي المنزلة في اللغة والنحو وحفظ كتاب الله تعالى، ذكياً، حسن الفطنة، عاقلاً، مأموناً وأن يكون مع ذلك بعيداً من الغرض والعداوة والشحناء حتى لا يبخس أحداً حقه، ولا يحابي أحداً فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده في الحق على حدٍّ واحد لا يترجح واحد منهم على الآخر . وعليه أن يلزم الكُتاب بعرض جميع ما يكتبونه وينشئونه عليه قبل عرضه على متولّى الديوان — فإذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعترف رضاه عنه ليلتم بدرك ما فيه ويرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمّنة لمتعلّقات الديوان .

قال الصوري : ويجب أن يُختار لذلك كاتبٌ مأمونٌ، طويل الروح، صبور على التعب؛ قال : والذي يلزمه من متعلّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع في الديوان تذاكر تشتمل على مهمّات الأمور التي تُنهى في ضمن الكتب، ويظن أنه ربما سُئل عنها أو احتيج إليها، فيكون أستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقيب عنها من الأضايير . قال : ويجب أن تسلم إليه جميع الكتب الواردة بعد أن يكتب بالإجابة عنها ليتأملها وينقل منها في تذاكره ما يحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله، ويجعل لكل صفقة

أوراقا من هذه التذاكر على حدة ، تكون على رؤوس الأوراق علامات باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى ، أو المشارف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجيب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرغ السنة يستجد للسنة الأخرى التى تلتوها تذكرة أخرى . وكذلك يجعل له تذكرة يسطر فيها مهمات ما تخرج به الأوامر فى الكتب الصادرة لئلا تغفل ولا يجاب عنها ؛ وتكون على الهيئة المتقدمة من ذكر النواحي وأرباب الخدم . وإذا ورد جواب عن شىء مهم نُزل عنده فيقول : ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمن كذا ، فإنه إذا اعتمد هذا وجد السلطان جميع ما يُسأل عنه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثانى — أن يضع فى الديوان دفترًا بالقبال الولاية وغيرهم من ذوى الخدم ، وأسمائهم ، وترتيب مخاطباتهم ؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطب : بكاف الخطاب أو هاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يدعى له به فى السجلات والمكاتبات والمناشير ، والتوقيعات : لاختلاف ذلك فى عرف الوقت . وكذلك يضع فيه ألقاب الملوك الأبعد والمكاتبين من الآفاق وكنائهم وأسماءهم ، وترتيب الدعاء لهم ، ومقداره . ويكون هذا الدفتر حاضرا لدى كتاب الإنشاء ينقلون منه فى المكاتبات ما يحتاجون إليه : لأنه ربما تعدد حفظ ذلك عليهم — ومتى تغير شىء منه كتبه تحته . ويكون لكل خدمة ورقة مفردة فيها اسم متوليها ولقبه ودعاؤه — ومتى صرف كتب عليه صرف بتاريخ كذا ، وأستخدم عوضا منه فلان بتاريخ كذا وأجرى فى الدعاء على مناجه ، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافل عن ذلك : فإنه متى أهمل شىء من ذلك زلّ بزلله الكتاب وصاحب الديوان بل والسلطان نفسه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترًا للحوادث العظيمة وما يتلوهما مما يجري في جميع المملكة ؛ ويذكر كلا منها في تاريخه ؛ فإن المنفعة به كثيرة حتى إنه لو جمع من هذين الدفترين تاريخ لأجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستًا للكتب الصادرة والواردة مفصلاً مُسَانَةً ومُشَاهَرَةً ومُيَاوَمَةً ، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته ”كتاب ورد بتاريخ كذا“ ، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه أو ينسخه جميعه إن دعت الحاجة إلى ذلك ، ويسلمه بعد ذلك إلى الخازن ليتولى الاحتفاظ به على ما سيأتى ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستًا للأنشاءات ، والتقاليد ، والأمانات ، والمناسير وغير ذلك مُشَاهَرَةً في كل سنة بجميع شهورها ؛ وإذا آنقضت سنة استجد آخر ، وعمل فيه على مثل ما تقدم .

السادس — أن يعمل فهرستًا لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربى من الرومى والفرنجى وغيرهما مصرحاً بمعنى كل كتاب ومن ترجمه على ما تقدمت الإشارة إليه . قال الصورى : فإذا رُوِّعَتْ هذه القوانين أنضبطت أموره ولم يكدر بخَلٍّ منه شيء ، وكان جميع ما يُلتمَس منه موجوداً بأيسر سعي في أسرع وقت .

الضرب الثانى

(غير الكتاب ؛ وهما آثان)

أحدهما الخازن . قال الصورى : ”ينبغى أن يختار لهذه الخدمة رجلٌ ذكى فطن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ فى الأمانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع إلى الحد الذى لا يزيد عليه : فإن زمام جميع الديوان بيده ؛ ففى كان قليل الأمانة ربّما أمالته الرشوة إلى

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرٍّ من الأسرار فيضّر بالدولة ضرراً كبيراً . ويجب أن يكون ملازماً للحضور بين يدي كُتّاب الديوان فتى كُتب المنشئ أو المتصدّي لمكتبة الملوك، أو المتصدّي لمكتبة أهل الدولة، أو لكاتبه المناشير وغيرها شيئاً، سلمه للمتصدّي للنسخ فينسخه حرفاً بحرف، ويكتب بأعلى نسخه كتاب كذا— ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته على ما تقدم في موضعه؛ ويسلمه للخازن . وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خطّ الكاتب الذي كتب جوابها بما مثاله . «ورد هذا الكتاب من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لا جواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لا جواب عنه لتبرأ ذمته منه ولا يتأول عليه في وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يعلم به . ثم يجمع كل نوع إلى مثله، ويجمع متعلقات كل عمل من أعمال الملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضبارة، يجمع فيها كُتب من يكتب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية في الشهر الفلاني» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارة واحدة لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل استخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب على هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان من الكتب الواردة ونسخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم احتفاظاً شديداً .

الثاني — حاجب الديوان . قال الصوري : ” ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقيم لديوانه حاجباً لا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إليه، ما خلا أهله الذين هو معدوق بهم، فإنه يجمع أسرار السلطان الخفية فمن الواجب كتمها ومتى أهمل

(١) في الضوء معزوق بهم بالعين المهمة والزاي [وهي أصرح في المقام ففي القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمن أن يُطلع منها على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثر الغاشون له والداخلون إليه، أمكن أهل الديوان معه إظهار الأسرار اتكالا على أنها تُنسب إلى أولئك، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم احتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن ينسب إليهم إذا ظهر” .

وأما ما استقر عليه الحال في زماننا فكتاب الديوان على طبقتين :

الطبقة الأولى — كتاب الدست ؛ وهم الذين يجلسون مع كاتب السر يجلس السلطان بدار العدل في المواعيد على ترتيب منازلهم بالقدمة ويقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسُموا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه : لجلوسهم للكتابة بين يديه ، وهؤلاء هم أحقُّ كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين : لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم .

وقد تقدّم أنهم كانوا في أوائل الدولة التركية في الأيام الظاهرية ببيرس وما والاها قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثة كتاب ، رأسهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلى أن صاروا في آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا خصوصا في سلطنة الظاهر برقوق ، وآبئه الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين وهم أخذون في التزايد .

وقد كانت هذه الرتبة لاحقة بشاؤ كتابة السر في الرفعة والرياسة إلى أن دخل فيها الدخيل ، وقدم فيها غير المستحق ، ووليها من لا يؤهل لها هو دونها ، وألحقت رتبها وصار أهلها في الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوجها الا الأفذاذ من علّت رتبته وقليل ما هم .

(١) المقدمة بالضم السابق . ولعل مراده السابق في الفضل .

الطبقة الثانية — كُتَاب الدَّرَج ، وهم الذين يَكْتُبُونَ ما يَوْقَعُ به كاتبُ السَّر أو كُتَّاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير ، أو رسالة الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وسُمُّوا كُتَّاب الدَّرَج لكَاتِبَتِهِمْ هذه المكتوبات ونحوها في دُرُوج الورق ، والمراد بالدَّرَج في العُرف العام الورق المستطيل المركَّب من عدَّة أوصال ، وهو في عُرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير . قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكُتَّاب : وهو في الأصل اسمٌ للفعل أخذنا من درَجَت الكتاب أدْرَجُه درَجًا إذا أسرَعَت طِيَّه وأدرَجْتَه إدراجًا فهو مُدرَج إذا أعدته على مطاويه وأصله الإسراع في حالة ، ومنه مدرَجة الطريق التي يُسْرِع الناس فيها وناقَةٌ دُرُوج إذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كُتَّاب الإنشاء لأنهم يَكْتُبُونَ ما يُنشَأ من المكاتبات وغيرها مما تقدَّم ذكره ، ولا يجوز أن يطلق عليهم لَقَب الموقَّعين لما تقدَّم من أن المراد من التوقيع الكُتابةُ على جوانب القصص ونحوها . وكما زاد كُتَّاب الدست في العدد زاد كُتَّاب الدَّرَج حتَّى خرجوا عن الحدِّ ، وبلغوا نحوًا من مائة وثلاثين كاتبًا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وأنحط مقدارها حتَّى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلاً . على أن كُتَّاب الدست الآن هم المتصدِّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرَج : كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير ، وصار كُتَّاب الدَّرَج في الغالب مخصوصين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها . وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب في القطع الصغير ، وربما شارك أعلاهم كُتَّاب الدست في التقاليد وكبار التواقيع وما في معناها إذا كان حسن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملةً بل كل أحد يَلْفَق ما يَتَيَّأ له من كلام المتقدمين غير مُبالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مَبْتَهجا بذلك مطالعا

لغيره في أنه الذي ابتدعه وإبتكره . وكل من لفق منهم شيئا أو أنشأه كتبه بخطه على أي طبقة كان في الخط ، ما خلا عهود السلطنة ومكاتب القانات من ملوك الشرق فانه رُبما انتخب لها أعلى أهل الزمان خطا ، تنويعا بذكرها ، ورفعة لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمرا في بعضها ككتابة ما في المكاتبات الواردة والصادرة بدفتر في الديوان إلى آخر مباشرة القاضي بدر الدين بن فضل الله في الدولة الظاهرية برقوق ، ثم رُفِض ذلك وترك وأقتصِر على ما يرد من المكاتبات وما يكتب من المَخَصَّصات وكتابة الموقع الذي يكتب الجواب بسد كل فصل تحته ليس إلا وترك ما وراء ذلك ، وأكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر ، وصار هو المتولى لحفظ ذلك وإيداعه في الأضيير على نحو ما تقدّم ، وكذلك صار أمر حجابة الديوان إليه . ثم للديوان أعوان يسمون المدرا جمع مدير ، شأنهم أخذ القصص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دونه من كتاب الديوان ليكتب كل منهم ما يلزمه من متعلقها ولذلك سُموا بهذا الاسم .

المقالة الأولى

بعد المقدمة

(في بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان)

الباب الأول

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العلمية، وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الأول

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد اختلفت مقاصدُ المصنِّفين في ذلك : فابنُ قتيبة بعد أن بنى كتابه أدب الكاتب على أمور من اللغة والتصريف وطرف من الهجاء قال : "وليس كتابنا هذا لمن لم يتعلَّق من الإنسانية إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسم ، ولم يتقدَّم من الأداء ، إلا بالقلم والدواء : ولكنه لمن شدا^(١) شيئا من الإعراب فعرف الصَّدر والمصدر ، وأنقلبَ الياء عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشبهه ذلك من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفة ، والقيس ، والمدورات ، والعمودين ؛ وتمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فإن المخبر عنه ليس كالمعائن . وذكر أن العجم كانت تقول : من لم يكن عالما بأجراء المياه ، وحفر فُرُض

(١) كذا في الأصل وأدب الكاتب . وفي القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا .

والذي في الضوء سدد .

المشارب ورّدم المهاوى ، ومجّارى الأيام فى الزيادة والنقصان ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر فى استهلاله واتصاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر ، والجسور ، والدوالي ، والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصنّاع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال كتابته . ثم قال : ولا بدّ له مع ذلك من النظر فى مجمل من الفقه والحديث ، ودراسة أخبار الناس ، وحفظ عيون الأخبار ليُدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاور . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر فى ذلك كله على القطب وهو العقل وجودة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعالى كاف ، والكثير مع غيرهما مقصر .

وتابعه أبو هلال العسكري فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» : ”ينبغى أن تعلم أن الكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدوات جمّة : من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة وغير ذلك مما ليس هذا موضع ذكره وشرحه“ .

ولا يخفى أن ما ذكره بعض ما ذكره ابن قتيبة ، يتواردان فيه فى المعنى وإن اختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أول كتابه ”صناعة الكتاب“ فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الكتابة البلاغة ، ومعرفة الأضداد مما يقع فى الكتب والرسائل ، والعلم بترتيب أعمال الدواوين ، والخبرة بمجّارى الأعمال ، والدّربة بوجوه استخراج الأموال ، مما يجب ويمتنع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميّز بذاته ، ولا أنفراد باسم يخصه ؛ وإنما هو جزء من الكتابة وأصل من أركانها . أما الفقه والفرائض والعلم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنجوم ، والمعرفة بأجزاء المياه ، والعلم بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياء منها نحو ما يُكتب بالآلف والياء، وإلى شيء من المقصور والممدود. ولو كلف الكاتب ما ذكره من ذكره لجعل الأصعب طريقاً للأسهل والأشقُّ مفتاحاً للأهون وفي طباع الناس التفار عما ألزمهم من جميع هذه الأشياء .

قلت : والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوعها، فكل نوع من أنواعها يحتاج إلى معرفة فن أو فنون تختص به .

وقد حكى أن عمرو بن مسعدة وزير المعتصم قال : لما خرج المعتصم من بلاد الروم وصار بناحية الرقة، قال لي ويحك يا عمرو ! لم تزل تخدعني حتى وليتُ عمر بن الفرج^(١) الرحجي الأهواز، وقد قعد في سرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضاً ! فقلت يا أمير المؤمنين فأنأبعث إليه حتى يؤخذ بالأموال ولو على أجنحة الطير—قال : كلاً بل تخرج إليه بنفسك كما أشرت به—فقلت لنفسي : إن هذه منزلة خسيصة، بعد الوزارة أكون مستحقاً لعامل خراج ! ولم أجد بداً من الخروج رضاً لأمر المؤمنين—فقلت : ها أنا خارج إليه بنفسي يا أمير المؤمنين ! قال : فضع يدك على رأسك وأحلف أنك لا تقيم ببغداد، ففعلت وأحدثت عهداً باخواني ومتزلي وأني إلى بزورق ففرش لي فيه، ومضيت حتى إذا صرت بين دير هرقل ودير العاقول إذا شاب على الشط يقول : يا ملاح ! رجل غريب يريد دير العاقول فاحملني بأجرك الله !—فقلت : يا غلام

(١) في الأصل عمرو الرحى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت في الكلام على رُحج مثال رُحج : وينسب إلى الخرج فرج وابنه عمر بن فرج وكافاً من أعيان الكتاب في أيام المأمون إلى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعتدل يهجو عمر بن فرج . فن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلة

أبلغ نجاحاً في الكتاب مألوكه * تمضي بها الریح إصداراً وإيراداً

لا يخرج المال عفواً من يدي عمر * أو تغمد السيف في فؤديه إغمداداً

الرحجيون لا يوفون ما وعدوا * والرحجيات لا يخلفن ميعاداً

قَرَّبَ له — فقال : جَعَلْتُ فِدَاكَ ! يُؤْذِيكَ وَيُضِيقُ عَلَيْكَ — فقلت : قَرَّبَ له لَا أَمَّ
 لَكَ ! فَقَرَّبَ له وَحَمَلَهُ عَلَى مَوْخَرِ الزُّورِقِ . وَحَضَرَ الطَّعَامُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعُوهُ
 إِلَى طَعَامِي ، ثُمَّ قُلْتُ : هَلُمَّ يَا قَتِي ، فَوَشَّ وَجَلَسَ ، فَأَكَلَ أَكْلَ جَائِعٍ نَهَمَ إِلَّا أَنَّهُ
 نَظِيفُ الْأَكْلِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنَ الطَّعَامِ أَحْبَبْتُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ الْعَوَامُ فَيَتَنَجَّحِي
 وَيَغْسِلَ يَدَيْهِ نَاحِيَةً فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَعَمَزَهُ الْغُلَامَانُ لِيَقُومَ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَتَنَاقَضْتُ عَمْدًا لِنَهَضِ
 فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَاسْتَوَيْتُ جَالِسًا وَقُلْتُ يَا قَتِي ! مَا صِنَاعَتُكَ ؟ فَقَالَ جَعَلْتُ فِدَاكَ !
 أَنَا حَائِكٌ . فقلت فِي نَفْسِي : أَنَا وَاللَّهِ جَلَبْتُ هَذِهِ الْبَلِيَّةَ ، وَتَغَيَّرَ لَوْنِي ، فَفِطِنَ أُنَى
 اسْتَنْقَلْتُهُ ، فَقَالَ : جَعَلْتُ فِدَاكَ ! إِنَّكَ قَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ صِنَاعَتِي فَأَجَبْتُكَ ، فَأَنْتَ
 مَا صِنَاعَتُكَ ؟ فقلت : هَذِهِ وَاللَّهِ أَضَرُّ مِنَ الْأَوَّلَى إِلَّا يَنْظُرُ إِلَى غُلَامَانِي وَنِعْمَتِي فَيَعْلَمُ
 أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يُسْتَلُّ عَنْ الْحِرْفَةِ ؟ وَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْجَوَابِ ، فَلَمْ أَذْهَبْ إِلَى الْمَرْتَبَةِ
 الْعَظْمَى مِنَ الْوِزَارَةِ لَكِنِّي قَرَّبْتُ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : أَنَا كَاتِبٌ — فَقَالَ جَعَلْتُ فِدَاكَ
 الْكُتَّابُ خَمْسَةٌ فَأَيُّهُمْ أَنْتَ ؟ فَأُورِدَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلُ — فقلت : بَيْنَهُمْ لِي — قَالَ
 نَعَمْ ، هُمْ كَاتِبُ رِسَائِلٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ الْمَفْصُولَ وَالْمَوْصُولَ ، وَالْمَقْصُورَ وَالْمَمْدُودَ ،
 وَالْأَبْتِدَاءَ وَالْجَوَابَ ، حَازِقًا بِالْعُقُودِ وَالْفَتْوحِ — قلت : أَجَلٌ وَمَاذَا ؟ قَالَ : كَاتِبُ
 نَحْرَاجٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ السُّطُوحَ ^(١) وَالْمِسَاحَةَ وَالتَّقْسِيطَ ، خَبِيرًا بِالْحِسَابِ وَالْمُقَاسِمَاتِ .
 قلت : وَمَاذَا ؟ قَالَ : كَاتِبُ قَاضٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، وَالتَّوْبِيلَ
 وَالتَّزْيِيلَ — وَالتَّمْشَابَهَ وَالْحُدُودَ الْقَائِمَةَ وَالْفَرَائِضَ ، وَالْإِخْتِلَافَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْفُرُوجِ ،
 حَافِظًا لِلْأَحْكَامِ ، حَازِقًا بِالشُّرُوطِ — قلت : وَمَاذَا ؟ قَالَ : وَكَاتِبُ جُنْدٍ يَحْتَاجُ أَنْ
 يَعْرِفَ الْحِلَّ وَالشَّيْثَ — قلت : وَمَاذَا ؟ قَالَ : وَكَاتِبُ شُرْطَةٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ
 الْقَصَاصَ وَالْإِحْرَاحَاتِ ، وَمَوْضِعَ الْحُدُودِ ، وَمَوَاقِعَ الْعَفْوِ فِي الْجُنَايَاتِ — قلت حَسَنَ .
 قَالَ : فَأَيُّهُمْ أَنْتَ ؟ فَكُنْتُ مَتَكِنًا فَاسْتَوَيْتُ جَالِسًا مُتَعَجِّبًا مِنْ قَوْلِهِ ، فَقُلْتُ :

(١) فِي نَسْخَةِ الطُّسُوجِ . وَهُوَ كُنْتُورُ النَّاحِيَةِ ، وَرَبِيعٌ دَانِقٌ مَرْبُوحٌ قَامُوسٌ .

أنا كَاتِبُ رسائل - قال : فإن أَخًا مِنْ إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنيا بأمرِكَ لا يَغْفُلُ منها عن صغير ولا كبير يَكْتُبُكَ في كل محبوب ومكروه وأنت له على مثل ذلك تزوجت أمه كيف تكتب إليه ؟ أتهنيه أم تُعْزِيه ؟ - قلت أهنيه . قال فهنّه فلم يَنْجِهْ لى شيء - فقلت : لا أَعْزِيه ولا أَهْنِيه ، فقال : إنك لا تَغْفُلُ له عن شيء ولا تَبْدُ بُدًا من أن تكتب إليه - فقلت : أَقْلِي فأنا كاتب خراج - قال : فإن أمير المؤمنين وجه بك إلى ناحية من عمله ، وأمركَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنصافِ وأنت لا تَدْعُ شيئًا من حقِّ السلطان يذهب ضياعًا ، وحدّرك الظلم والجور ، فخرجت حتّى قَدِمْتَ الناحية فوفّقوك على قَرّاج أرض خطه قابل قسيا كيف تمسّحه - قلت : أَخْذُ وَسَطَه وأخذ طوله فأضربه فيه - قال : تَخْتَلِفُ عليك العُطُوف - قلت : أَخْذُ طوله وعَرْضَه من ثلاثة مواضع - قال : إن طَرَفَيْه محدودان وفي تحدّيده تقويس وذلك يختلف فأعياى ذلك - فقلت : أَقْلِي فأنا كاتب قاضٍ - قال : فإن رجلا هلك وخلف زوجة حرة وسُريّة حاملتين فوضعتا في ليلة واحدة وضعت الحرة جاريةً ، ووضعت السُريّة غلامًا ، فوضعت الجارية في مهد السُريّة ، فلما أصبحت السُريّة قالت الغلام لى ، وقالت الحرة بل هو لى كيف تحكم بينهما ؟ - قلت : لا أدري فأقْلِي ، فأنا كاتب جنيد ، قال : فإن رجلين من أصحاب السلطان أتياك أسمهما واحد ، وأحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق الشفة السفلى ، ورزق أحدهما مائة والآخر ألف كيف تُحْلِمُهُما ؟ - قلت : فلان الأعلم وفلان الأعلم ، قال : إذنْ يَجِىء هذا ورزقه مائة فيأخذ الألف ، ويَجِىء هذا ورزقه ألف فيأخذ المائة - قلت أَقْلِي : فأنا كاتب شرطة ، - قال : فإن رجلين توابنا فشج أحدهما صاحبه مُوضحةً ، وشجّه الآخر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما ؟ - قلت : لا أدري فأقْلِي ، . قال فقلت : إنك قد سألتني فبين لى - قال نعم .

أما الذى تزوجت أمه فكتب إليه : أما بعد فإن الأمور تجري على غير محابٍ
المخلوقين والله يختار لعباده ، نفاً الله لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء
والسلام .

وأما القراح من الأرض ، فإنك تسمح أعوجاجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه
إذا استوى فى يدك عقد تعرفه ضربت طرفه فى وسطه . وأما الحرّة والسرية
فيوزن لهنما فأيهما كان لبنها أخف فالبنت لها . وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم
والمشقوق الشفة السفلى فأفليح . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون
من الإبل وثلث . وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل . فقلت : ألسن تزعم أنك
حائك ؟ فقال : أنا حائك كلام لا حائك نساجة . قال عمرو بن مسعدة : فأحسن
جائزته وأستصحبته معى حتى عدت إلى المعتصم ، فسألنى عما لقيت فى طريق ،
فقصص عليه القصة فأعجب به وقال : لم يصلح ؟ فقلت : للعلماء . فقرره فيها
وعلى رتبته ، فكنن ألقاه فى الموكب النبيل فيترجل لى فأنهاه ، فيقول : هذه
نعمتك وأنت أفدتها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادة يحتاج إليها بمفردها ، وآلة
تخصها لا يستغنى عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنى عن علم ولا يسعه الوقوف عند فن ،
فقد قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعة يحتاج
إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله الناذبة بين النساء ،
والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة فما ظنك
بما فوق هذا وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنسب إليه ، فيقال فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يقتقر إليه من الخوض في كل فن .

وأعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه إلى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهي مواد الإنشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها : كاللغة التي منها استمداد الألفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقييح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى . وعلى هذا أقصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يحتاج إليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ، فإنه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس . وربما احتاج إلى معرفة مأهولون ذلك في الرتبة كمعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به في قدمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به في دسكرة فتوة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج إلى معرفة مصطلح سفل الناس لكتابة أمور هزلية : كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به لطفيلى أقتراحا أو امتحانا للخاطر أو ترويحاً للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج إلى

وصفه كأوصاف الأبطال والشجعان، والجواري والغلمان، والحيل والإبل، وجيل
الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والجمام الهدى،
وسائر أنواع الطير؛ والسلاح بأنواعه؛ وآلات الحصار، والآلات الملوكة، وآلات
السفر، وآلات الصيد، وآلات المعاملة، وآلات اللّهُو والطَّرَب، وآلات اللعب،
وآلات الشربة؛ والمدن، والحصون، والمساجد، وبيوت العبادات؛ والرياض،
والأشجار، والأزهار، والثمار؛ والبراري، والقفار، والمفاوز، والجبال، والرمال،
والأودية؛ والبحار، والأنهار، وسائر المياه؛ والسفن، والكواكب، والعناصر،
والأزمنة، والأنواء، والرياح، والمطر، والحر، والبرد، والثلج، وما يتعلق بكل واحد
من هذه الأشياء أو يخطر في سلكه؛ ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلى وصفه في حالة
من حالات الكتابة على ماسياتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء
الله تعالى .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الأولى

(فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل الغرض منه على خمسة عشر نوعاً)

النوع الأول

(المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأول

(في فضلها وما آخضت به على سائر اللغات)

أما فضلها فقد أخرج ابن أبي شَيْبَةَ بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: "تَعَلَّمُوا اللَّحْنَ وَالْفَرَائِضَ فَإِنَّهُ مِنْ دِينِكُمْ". قال يزيد بن هارون: "اللَّحْنُ هُوَ اللُّغَةُ". ولا خفاء أنها أمتُّ اللغات وأصحُّها بياناً، وأذْلَقُها لساناً، وأمدُّها رُواقاً، وأعذبُها مذاقاً؛ ومن ثمَّ اختارها الله تعالى لأشرف رُسُلِهِ، وخاتمِ أنبيائه، وخيرته من خَلْقِهِ، وصفوته من بَرِيَّتِهِ، وجعلها لغة أهل سماءه وسُكَّانِ جِثَّتِهِ، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يَأْتِيهِ الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ .

قال في صِنَاعَةِ الكُتَّابِ: "وقد آنقادت اللغات كُلُّهَا لِلُّغَةِ الْعَرَبِ، فأقبلتِ الأُممُ إِلَيْهَا يتعلَّمونها".

وأما ما اُختصَّت به على غيرها من اللغات ، فقد حكى في "صناعة الكتاب" أنها اللغة التامة الحُرُوف ، الكاملة الألفاظ ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشِينها نُقصانُه ، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته ؛ وإن كان لها فروع أخرى من الحُرُوف فهي راجعة إلى الحُرُوف الأصلية ؛ وسائر اللغات فيها حروف مولدة ، وينقص عنها حروف أصلية : كاللغة الفارسية : تجد فيها زيادةً ونقصاناً . وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد في الفارسية وغيرها : كالحقِّ والباطل ، والصواب والخطأ ، والحلال والحرام ، فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربياً . قال الفراء : "وجدنا للغة العرب فضلاً على لغة جميع الأمم اُختصاصاً من الله تعالى وكرامةً أكرمهم بها ؛ ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات" . قال : "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسَّعوا فيها ، فقالوا للضرب في الوجه لطم ، وفي القفا صفع ، وفي الرأس إذا أدمى شجج ؛ فكان قولهم لطم أوجز من ضرب على وجهه" . قال في "المثل السائر" : "حضرت مع رجل يهودي عارِف باللغات بفرى ذكر اسم الجمل فقال : لا شك أن العربية أوجز اللغات ، فإن اسم الجمل بالعبرانية كومل فسقط منه الواو وحولت الكاف إلى الجيم" . قال أبو عبيد : وللعرب في كلامها علامات لا يشترُّكهم فيها أحدٌ من الأمم كعلامة إدخالهم الألف واللام في أول الاسم ، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه مع نقلهم كل ما احتاجوا إليه من كلام العجم إلى كلامهم ؛ فقد نُقل ما قالت حكاة العجم والفلاسفة إلى العربية ولم يقدر أحد من الأمم على نقل القرآن إلى لغته لكمال لغة العرب . على أن الكثير من الناس حاولوا ذلك فعسر عليهم نقله ، وتعدَّرت عليهم ترجمته ؛ بل لم يصلوا إلى ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد .

المقصد الثاني

(في وجه احتياج الكاتب إلى اللغة)

لامرّية في أن اللغة هي رأس مال الكاتب ، وأُسّ كلامه ، وكثر إنفاقه ؛ من حيث إن الألفاظ قوالبٌ للعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة ؛ وحينئذ يحتاج إلى طول الباع فيها ، وسعة الخطو ، ومعرفة بسائطها : من الأسماء والأفعال والحروف ، والتصرف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية : ليقندر بذلك على استعمالها في محالها ، ووضعها في مواضعها اللائقة بها ، ويجد السبيل إلى التوسع في العبارة عن الصور القائمة في نفسه فيتسع عليه نطاق النطق ، وينفسح له المجال في العبارة ، وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه ، وتدعو الضرورة إلى نعته ؛ فيستظهر على ما ينشيه ، ويحيط علماً بما يذرّه ويأتيه ؛ إذ المعاني وإن كانت كامنة في نفس المعبر عنها فإنما يقوى على إبرازها وإبانها من توفر حظّه من الألفاظ ، وأقداره على التعرف فيها : ليأمن تداخلها وتكريرها المهجّين للعاني — وناهيك أن ابن قتيبة لم يضمن كتابه ”أدب الكاتب“ غير اللغة إلا التزّر اليسير من الهجاء ؛ وأبا جعفر النحاس ضمن كتابه ”صناعة الكتاب“ جزءاً وافراً من اللغة ؛ وأبا الفتح كشاجم لم يزد في كتابه ”كتر الكتاب“ على ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقصد الثالث

(في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من اللغة ؛ ويرجع المقصود منه إلى خمسة أصناف)
الصنف الأول — الغريب ، وهو ما ليس بمألوف الاستعمال ، ولادائر على الألسنة وذلك أن مدار الكتابة على استخراج المعاني من القراءان الكريم ، والأحاديث النبوية ، والشعر ؛ وألفاظها لا تخلو عن الغريب ؛ بل ربما غلب الغريب منها في الشعر على

المألوف لاسمياً الشعرُ الجاهليُّ . وقد قال الأصمعيُّ "توسّلت بالملح ونلت بالغريب" . قال صاحب "الريحان والريّان" : والغريب وإن لم يُنفق منه الكاتبُ فإنه يجب أن يُعلم ويُتعلّم إليه ويُستشرف ؛ فربّ لفظةٍ في خلالِ شعرٍ أو خطبةٍ أو مثلٍ نادرٍ أو حكايةٍ ، فإن بقيت مُقفلةً دون أن تُفتح لك ، بقي في الصدر منها حُرّازةٌ تُخوّج إلى السؤال ؛ وإن صُنّت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجهال . وقد عاب ابنُ قتيبة رجلاً كتب في وصفِ برذونٍ : "وقد بعثت به أبيضَ الظهر والشفّتين" فقيل له : هَلَّا قلت في بياض الشفتين أرّثم ألمط ؛ فقال لهم : فبياض الظهر ، قالوا لا ندرى ، فقال : إنما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر . وذمّ قوماً من وجوه الكُتّاب بأنه اجتمع معهم في مجلس فتذاكروا عيوبَ الرقيق فلم يكن فيهم من يُفرّق بين الوكع والكوع ، ولا بين الحنف والفدع ^(١) ، ولا بين اللى والألطع . ثم قال : "وأى مقامٍ أخزى لصاحبه من رجلٍ من الكُتّاب أصطفاه بعضُ الخلفاء ، وآرتضاه لِسِرّه ، فقرأ عليه يوماً كتاباً فيه مطراً مطراً كثُر عنه الكَلالُ ، فقال له الخليفة ممتحناً له : وما الكَلالُ ؟ فتردّد في الجواب ، وتعثّر لسانه ثم قال : لا أدري ؛ فقال : سلّ عنه" . قال أبو القاسم الزجاجيُّ في شرح مقدّمة أدب الكاتب : وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عَمّار ، وكان يتقلّد العَرَض عليه ؛ وكان المعتصمُ ضعيفَ البصر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمد بن عَمّار الكتابَ وسأله عن الكَلالِ فلم يعرفه ، قال : إنّ الله وإنّا إليه راجعون ! خليفة أمي ، وكاتب عامي ؛ ثم قال من يُقرب منا من كُتّاب الدار فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف على قَهْرمة الدار فأمر بإشغاصه ، فلما مثل بين يديه ، قال له ما الكَلال ؟ قال : النبات كلّ رطبِه

(١) هو بالفاء والذال المهملة اعوجاج الرُسع من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى أنسها . قاموس . وفي الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنه .

(٢) هو من باب دخل كما في المختار .

ويأسه، فإذا كان رطباً قيل له خلا، وإذا كان يابساً قيل له حشيش، وأخذ في ذكر النبات من ابتدائه إلى آكتهاله إلى هيجه، فقال المعتصم "ليتقلد هذا العرض علينا." ثم خص به حتى استوزره.

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التي هي من أهم شأنه، وأعنى مقاصده. وجُلّ كتب اللغة المصنّفة في شأنها راجعة إليه، كصاح الجوهري، ومُحْكَم ابن سيده، ومُجَمَّل ابن فارس وغيرها من المصنّفات التي لا تكاد تُحصى كثرة والصّاح أقربها مأخذاً، والمحكم أمثلها طريقة، وأكثرها جمعاً، وأكملها تحقيقاً. وقد صرف قوم من المصنّفين العناية من ذلك إلى الإقتصار على ذكر الأسماء والأوصاف: كأوصاف الرجال والنساء المحمودّة والمذمومة، وما يختص من ذلك بالرجال والنساء؛ وأوصاف الخيل، وأعضائها، وألوانها، وشيئاتها، وأسنانها، وسيرها، وعدوها وما يخص الذكور والإناث منها؛ وأوصاف الوحوش: من السباع والظباء والوعول والبقر والحمر الوحشيين؛ وأسماء الطير: من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة، وبغاث الطير كالرخم، وصغاره كالنحل والجراد؛ وأوصاف الهوام كالحشرات: من الحيات والوزغ ونحو ذلك؛ وأوصاف العلويات: من السماء والسحاب والرياح والأمطار؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك؛ وأسماء النّبات: من الشجر البرّي كالطلع والأراك، والبساتين كالنخل والعنب؛ والنبات البرّي كالشّيح والقيصوم؛ وأنواع المرعى؛ وأسماء الأماكن: من البراري والقفار، والرمال والجبال والأحجار، والمياه والبحار والأنهار والعيون والسيول؛ والرياض والمحالّ والأبنية؛ وأسماء جواهر الأرض: من اليواقيت ونحوها؛ وسائر مستخرجات المعادن، كالنحاس والرصاص وما يجري مجراها؛ ومستخرجات البحر: من اللؤلؤ والعنبر والمرجان وغيرها؛ وأسماء المأكولات: من الحبوب، والفواكه، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة؛ وأسماء الأشرية : كالماء، واللبن، والعسل، والخمر؛ وأسماء السلاح : من السيوف، والرماح، والقسي، والسهام، والدروع وغيرها؛ وأسماء اللباس : من الثياب على اختلافها؛ وأسماء الأمتعة، والآنية وسائر الآلات؛ وأسماء الطيب : من المسك، والند، والغالية، والزعفران، وما أشبهها . وكذلك كل ما يجري هذا الجرى . و”كفاية المتحفظ“ لأبن الأجدابى، و”المذهبة والمعقبة“ لأبن أصبغ كافتان بالكثير من ذلك . وفى ”أدب الكاتب“ لأبن قتيبة و”فقه اللغة“ للشعالبي الجزء الوافر من ذلك .

وصرف آخرون عنايتهم إلى التأليف فى الأفعال وتصاريدها كابن درستويه وغيره . وفى ”فصيح ثعلب“ جزء وافر من ذلك ؛ ولعصيرنا الشيخ مقبل الصرعتمشى التحوى كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثانى — الفروع المتشعبة فى المعانى المختلفة، وهى فروع كثيرة متسعة الأرجاء، متباينة المقاصد؛ لا يكاد يجمعها مصنف، وإن كان الكاتب لا يستغنى عن شىء منها، ولا يحسن به تركه .

منها المتباين والمترادف . فأما المتباين فهو ما دلّ لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى، كالسواد والبياض، والطول والعرض؛ ويحتاج إليه فى التعبير عن المعانى المختلفة لاتساع نطاق الكلام . وأما المترادف فهو المتوارد الألفاظ على مسمى واحد كالأسد والسبع للحيوان المفترس؛ والثنية والقُلوص للناقاة، ونحو ذلك . ويحتاج إلى معرفة ذلك للخلص عند ضيق الكلام عليه فى موضع لطول لفظة أو قصرها أو اختلاف وزنها فى شعر، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى ثر، أو غير ذلك مما يضطر فيه إلى إيراد بعض الألفاظ بدل بعض، كما فى قوله :

وَتَيْنِيَّةٌ جاوزتها بَيْنِيَّةٌ * حَرَفٌ يُعَارِضُهَا جَنْبٌ أَدْهَمُ

فإنه أراد بالثنية الأولى العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ؛ والجانب الأدھم استعارةً لظلمها . فالثنية من حيث وقوعها على الناقة والعقبة أوفقٌ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التي هي الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب^(١) الفقه ونحوها .

ومنها الحقيقة والمجاز . والحقيقة هي اللفظ الدالُّ على موضوعه الأصل كالأسد للحيوان المقرّر ، والجمار للحيوان المعروف . والمجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة ، كالأسد للرجل الشجاع بعلاقة الشجاعة في كل منهما ، والجمار للبلد بعلاقة البلادة في كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلى الاستعارة والتثيل والكتابة لما بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليد فإنها في أصل اللغة للجارحة أُطْلِقَتْ على القوة والنعمة مجازاً ، من حيث إن القوة تَظْهَرُ في اليد والنعمة تُؤَلَى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما في معناها .

ومنها الألفاظ المتضادة وهي التي تقع كل لفظة منها على ضد ما تقع عليه الأخرى كالأمانة والخيانة ، والنصيحة والغش ، والفتق والرتق ، والنقض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيراً ما يبنى على الأضداد وربما غلط الكاتب بفعل مقابل الشيء غير ضده فيلزمه النقص في صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطباق اللذين هما من أحسن أنواع البديع . وفي "صناعة الكتاب" لأبي جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك ، وفي "كنز الكتاب" لأبي الفتح كُشِّجِمَ جملةٌ جيدة منه أيضاً . ومنها تسمية المتضادين باسم واحد كالجون للأسود والأبيض ، والقرء للطهر والحيض ، والصريم لليل والنهار ، ووراء خلف وقدام ، ونحو ذلك . ويحتاج إليه للتمييز بين الحقائق التي يقع اللبس فيها . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

ومنها المقصور والمدود كالندى للجود وندى الأرض ، والحقا لكلال القدم والحاfer ، والمدود كالسما للفلك وكل ما علاك ، والبقاء لضد الفناء ، وبحود ذلك ؛ وما يجوز فيه المد والقصر جميعا كالزناء والشرء وما أشبههما . ويحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبار المد والقصر كلفظ الهوى فإنه إن قصر كان بمعنى هوى النفس ، وإن مد كان بمعنى ما بين السماء والأرض . الثانى أنه إذا أضيف المدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يفتح إلى زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان مما يجوز فيه المد والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يد كالبلاء والقلاء ، فإنه إذا كسر أولها قُصِرَا وكُتِبَا بالياء وإذا فتح مُدَا وكُتِبَا بالألف . وكالبقاء فإنه إذا خفف مُدٌ وإذا شدد قُصِرَ ؛ ففى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته ، وفى "أدب الكاتب" من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلف أحواله باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور . وذلك أن المؤنث على ضربين : أحدهما ما فيه علامة من علامات التأنيث الثلاث ؛ وهى الهاء نحو حمزة وطلحة ، والألف المدودة نحو حمراء ، والألف المقصورة نحو حُبلى . وضرب لا علامة فيه وإنما يؤخذ من السماع : كالسما ، والأرض ، والقوس ، والحرب ، وما أشبهها . وربما كان منه ما يجوز فيه التذكير والتأنيث كالطريق ، والسبيل ، والموسى ، واللسان ، والسلطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب من يذكّر ذلك ومنهم من يؤنثه . وربما وقع لفظ التأنيث على الذكر والأُنثى جميعا

(١) أهمله فى الأصل وهو من أهمال النسخ .

(٢) قوله ولو كان مما يجوز الخ كذا فى الأصل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محل الوجه الثالث الذى سقط من قلم النسخ وحاصله أن الداعى إلى معرفتها إما أن يرجع إلى المعنى وهو الأول أو إلى الرسم والكتابة وهو الثانى أو إلى النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسَّخْلَةِ وَالْحَيَّةِ وَالْحَمَامَةِ وَالنَّعَامَةِ وَالْبَطَّةِ وَنَحْوَهَا . وَأَيْضًا فَإِنْ مِنْ وَصَفِ الْمُؤَنَّثِ مَا يُحَذَفُ مِنْهُ الْهَاءُ بِاعْتِبَارِ تَأْوِيلِ آخَرٍ كَصَيْغَةِ فَعِيلٍ : فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَقَتِيلٍ بِمَعْنَى مَقْتُولٍ وَخَضِيبٍ بِمَعْنَى مُخَضَّبٍ ، حُذِفَتِ الْهَاءُ مِنْ مُؤَنَّثِهِ : فَيَقَالُ امْرَأَةٌ قَتِيلٌ وَكُفَّ خَضِيبٌ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَعَالِمٍ بِمَعْنَى عَالَمٍ وَرَحِيمٍ بِمَعْنَى رَاحِمٍ ، تَثَبَّتِ الْهَاءُ فِي مُؤَنَّثِهِ : فَتَقُولُ فِيهِ عَلِيمَةٌ وَرَحِيمَةٌ . وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَعُولٌ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَانَ بِغَيْرِ هَاءٍ نَحْوُ امْرَأَةٍ صَبُورٍ وَشَكُورٍ بِمَعْنَى صَابِرَةٍ شَاكِرَةٍ ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَانَ مُؤَنَّثُهُ بِالْهَاءِ كَالْحُلُوبَةِ بِمَعْنَى الْحَلُوبَةِ ، وَالرَّكُوبَةِ بِمَعْنَى الْمُرْكُوبَةِ ؛ وَصَيْغَةُ مُفْعَلٍ مِمَّا لَا يُوصَفُ بِهِ الذَّكَورُ تَكُونُ بِغَيْرِ هَاءٍ كَامْرَأَةٍ مُرْضِعٍ ، فَإِنْ أَرَادُوا الْفِعْلَ قَالُوا مُرْضِعَةٌ ؛ وَصَيْغَةُ فَاعِلٍ مِمَّا لَا يَكُونُ وَصْفًا لِمَذْكَرٍ تَكُونُ بِغَيْرِ هَاءٍ أَيْضًا نَحْوُ امْرَأَةٍ طَالِقٍ وَحَامِلٍ ، وَرَبَّمَا حُذِفَتِ الْهَاءُ مِمَّا يَكُونُ لِلْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ جَمِيعًا فَتَقُولُ امْرَأَةٌ عَاقِرٌ وَرَجُلٌ عَاقِرٌ . وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" وَ"فَصِيحِ ثَعْلَبٍ" جُمْلَةٌ مِنْ ذَلِكَ . وَفِي كِتَابِ النُّحُوِّ الْمَبْسُوطَةِ قَوَاعِدُ مُوَصَّلَةٌ إِلَى مَقَاصِدِهِ .

وَمِنْهَا الْمُتَهَمُوزُ وَغَيْرُ الْمُتَهَمُوزِ فَإِنَّ الْمَعْنَى قَدْ يَخْتَلِفُ فِي اللَّفْظِ الْوَاحِدِ بِاعْتِبَارِ الْهَمْزِ وَعَدَمِهِ : كَمَا تَقُولُ عَبَّاتُ الْمَنَاعِ بِالْهَمْزِ ، وَعَبَّيْتُ الْجَيْشَ بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَبَارَأْتُ الْكَرِيَّ بِالْهَمْزِ مِنَ الْإِبْرَاءِ ، وَبَارَيْتُ فَلَانًا مِنَ الْمَفَاخِرَةِ بِغَيْرِ هَمْزٍ . وَتَقُولُ زَنَى ' مِنَ الزَّانَا بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَزَنَا فِي الْجَبَلِ إِذَا رَقِيَ فِيهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَرَبَّمَا جَاءَ الْهَمْزُ وَعَدَمُهُ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ كَمَا تَقُولُ شَيْئٌ بِالْهَمْزِ وَشَيْءٌ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَتَقِي ' لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ عَارِفًا بِالْهَمْزِ وَمَوَاضِعِهِ ضَلَّ فِي طَرِيقِ الْكِتَابَةِ . وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" بَابُ مَفْرَدٌ لَذَلِكَ .

وَمِنْهَا مَا وَرَدَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مُزْدَوِجًا كَقَوْلِهِمُ الطَّمُّ وَالرَّمُّ ، يَرِيدُونَ بِالطَّمِّ الْبَحْرَ وَبِالرَّمِّ الثَّرَى ، وَكَقَوْلِهِمُ الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ ، فَالْحَجَرُ مَعْرُوفٌ وَالْمَدَرُ التُّرَابُ النَّدَى وَنَحْوُ ذَلِكَ .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكن من وضعه في مواضعه لتحسين الكلام وتنقيحه في الطباق والمقابلة ؛ وفي "أدب الكاتب" نبذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنى إما على سبيل التغليب : كقولهم القمران يريدون الشمس والقمر ، والعمران يريدون أبا بكر وعمر ، وإما على الحقيقة : كقولهم ذهب منه الأطيبان ، يريدون الأكل والنكاح واختلف عليه الملوآن أو الحديدان ، يريدون الليل والنهار ، ونحو ذلك ؛ وفي "أدب الكاتب" أيضا طرف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتباً كقولهم أوّل النوم النعاس ، وهو الاحتياج إلى النوم ؛ ثم الوسن ، وهو ثقل النعاس ؛ ثم الكرى والغمض ، وهو أن يكون بين النائم واليقظان ؛ ثم التفريق ، وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم ؛ ثم الإغفاء ، وهو النوم الخفيف ؛ ثم التهجاع ، وهو النوم القليل ؛ ثم الرقاد ، وهو النوم الطويل ؛ ثم الهجوع ، وهو النوم الغرق ؛ ثم التسبيخ^(١) ، وهو أشد النوم ، وما أشبه ذلك ، وفي "فقه اللغة" للتحالبي قدر صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مَورد الدعاء : إما على بابه في الدعاء كقولهم "أستأصل الله شأفته" يريدون أذهب الله أثره كما يذهب أثر الشأفة ، وهى قرحة تخرج في القدم فتكوى فتذهب ؛ وقولهم "أباد الله خضراءهم" أى سوادهم ومُعظمهم . أو لم يقصد به حقيقة الدعاء ، كقولهم "تربت يدك" أى ألصقت بالتراب من الفاقة ، وقولهم "أرغم الله أنفه" أى ألصقه بالرغام ، وهم لا يقصدون به الدعاء . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) أهمله في الأصل وهو من إهمال الناسخ .

ومنها ما تختلف أسماءه مع المشابهة في المعنى كالظفر للإنسان ، والحافر للفرس والبغل والحمار ، والظلف للبقر ، والمنسم للبعير ، والبُرثن للسمك ، وما يجري هذا المجرى . وفي "فقه اللغة" جزء وافر منه .

ومنها ما تختلف أسماءه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يقال فيه كأس إلا اذا كان فيه شراب وإلا فهو قدح ، ولا مائدة إلا اذا كان عليها طعام والا فهي خوان ، ولا قلم إلا اذا كان منبرياً والا فهو أنبوبة ، ولا حاتم إلا وفيه فص وإلا فهو فتحة ونحو ذلك ، وفي "فقه اللغة" جملة منه .

ومنها معرفة الأصول التي تُشتق منها الأسماء كتسمية القمر قرّاً لياضه ، إذ الأقر هو الأبيض ، وتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلة البدر لمبادرة الشمس القمر بالطلوع ، أو لتمامه وأمتلائه حينئذ من حيث إن كل تام يقال له بدر ، وتسمية النجم نجماً ، أخذاً من قولهم نجم إذا طلع ونحو ذلك ، وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) ومنها ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب ، لعدم وجوده في لغتهم وهو المغرب كالكف والساق والدلال والوزان والصراف والجمال والقصاب والبيطار وما أشبه ذلك ، وفي "فقه اللغة" جزء من ذلك كاف .

ومنها ما أشترك فيه العربية والفارسية ، كالسنور ، والنخير ، والدينار ، والدرهم ، والصابون ، وما أشبه ذلك ، وفي "فقه اللغة" أيضاً نبذة منه .

ومنها ما اضطررت العرب إلى تعريبه وأستعماله في لغتهم من اللغة العجمية كالكوز ، والإبريق ، والطست ، والخوان ، والطبق ، وغيرها من الآنية ، والسكاج ، والزيرباج ، والطبايح ، والجوداب ، ونحوها من الأطعمة ، والجلاب ، والسكنجيين ، ونحوهما

(١) قوله وهو المغرب كذا في الأصل .

من الأشربة، والخولنجان، والكافور، والصندل، وغيرها من الأفاويه، والطيب ونحو ذلك؛ وفي "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيدةٌ. إلى غير ذلك من الأمور التي لا يسع استيفائها مما في أدب الكاتب وفقه اللغة الكثير منه.

ومنها ما تعددت لغاته؛ ولتعلم أن لغة العرب متعددة اللغات متسعة أرجاء الألسن بحيث لا تُساويها في ذلك لغة. فمن ذلك ما فيه لغتان كقولهم رطل ورطل بكسر الراء وفتحها وسم وسم بفتح السين وضمها؛ وما فيه ثلاث لغات مثل برقع بضم القاف وبرقع بفتحها وبرقوع بضم الباء وزيادة الواو، وخاتم بكسر التاء وخاتم بفتحها وخيتام؛ وما فيه أربع لغات مثل نطع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونطع بفتح النون والطاء جميعا وكسر النون؛ وصادق بفتح الصاد وصادق بكسرهما وصادق بضمها وصادقة بضم الصاد وسكون الدال؛ وما فيه خمس لغات كقولهم ربح الشمال بفتح الشين من غير همز، والشمال بالهمز، والشامل بغير همز، والشمل بفتح الميم، والشمل بسكونها؛ وما فيه ستة لغات كفسطاط بضم الفاء وفسطاط بكسرهما، وفسطاط بضم الفاء وإبدال الطاء تاء، وفسطاط بكسر الفاء، وفسطاط بضم الفاء وتشديد السين، وفسطاط بكسر الفاء؛ وما فيه تسع لغات كالأمثلة بفتح الهمزة وضمها وكسرهما مع فتح الميم وضمها وكسرهما؛ وما فيه عشر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمها وكسرهما مع فتح الباء وضمها وكسرهما والعاشر أصبوع. وفي "أدب الكاتب" جملة من هذا النمط.

الصنف الثالث — الفصيح من اللغة. وأعلم أن اللغة العربية قد تنوعت وأختلفت بحسب تنوع العرب واختلاف ألسنتهم؛ والذي أعتمده حذاق اللغة وجهان: العربية من ذلك ما نطق به فصحاء العرب، وهم الذين حلوا أوساط بلاد العرب، ولم يخالطهم من سواهم من الأمم كثير مخالطة، ولم يصابوا بلاد العجم

فَبَقِيَتْ أَلْفَاظُهُمْ سَالِمَةً مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْإِخْتِلَاطِ بِلُغَةِ غَيْرِهِمْ : كَقَرَشٍ ، وَهَذِيلٍ ،
وَكِنَانَةٍ ، وَبَعْضِ تَمِيمٍ ، وَقَيْسِ عَيْلَانَ ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ عَرَبِ الْحِجَازِ ، وَأَوْسَاطِ نَجْدٍ .
بِمُخَالَفَةِ الَّذِينَ حَلُّوا فِي أَطْرَافِ بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَجَاوَرُوا الْأَعْجَمَ فَتَغَيَّرَتْ أَلْفَاظُهُمْ
بِمُخَالَفَتِهِمْ : كَحَمِيرٍ ، وَهَمْدَانَ ، وَخَوْلَانَ ، وَالْأَزْدَ : لِمُجَاوَرَتِهِمْ بِلَادَ الْحَبَشَةِ ، وَطَيِّئٍ
وَعَسَّانَ : لِمُجَاوَرَتِهِمْ بِلَادَ الرُّومِ بِالشَّامِ ، وَبَعْضِ تَمِيمٍ ، وَعَبْدِ الْقَيْسِ : لِمُجَاوَرَتِهِمْ أَهْلَ
الْحِزْرِ وَفَارِسَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَدْخُلُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ عِدَّةِ وَجُوهِ :

مِنْهَا أَنْ تُبَدَّلَ كَلِمَةٌ بِغَيْرِهَا : كَمَا يَسْتَعْمَلُ أَهْلُ اللُّغَةِ الْحِميرية "ثَبَّ" بِمَعْنَى 'أَجْلَسَ' ،
وَهِيَ فِي عَامَّةِ لُغَةِ الْعَرَبِ لِلْأَمْرِ بِالطَّفْرِ . قَالَ الْقَاضِي الرَّشِيدُ فِي شَرْحِ أُمْنِيَةِ الْأَلْمَعَى
"وَرَبَّمَا غَلَبَتِ الْعُجْمَةُ عَلَى أَحَدِهِمْ حَتَّى لَا يُفْهَمَ عَنْهُ شَيْءٌ" .

وَمِنْهَا أَنْ تُبَدَّلَ حَرْفٌ مِنَ الْكَلِمَةِ بِحَرْفٍ آخَرَ : كَمَا تُبَدَّلُ حَمِيرٌ كَافَ الْخَطَابِ شِينًا
مُعْجَمَةً فَيَقُولُونَ فِي قُلْتُ لَكَ قُلْتُ لَشَّ ؛ وَرَبَّمَا أَبَدَلُوا التَّاءَ أَيْضًا كَافًا فَيَقُولُونَ
فِي قُلْتُ قُلْكَ ، وَكَمَا تُبَدَّلُ رُبْعَةُ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ مِيمًا فَيَقُولُونَ فِي بَكَرٍ مَكْرٌ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
وَكَأَيْسِدِلُ بَعْضُ الْعَرَبِ الصَّادَ الْمَهْمَلَةَ بِالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةَ فَيَقُولُونَ فِي صَابِرٍ سَابِرٍ ، وَكَأَيْسِدِلُ
بَعْضُهُم الطَّاءَ الْمَهْمَلَةَ بِتَاءِ الْمُثَنَاءِ فَوْقَ فَيَقُولُونَ فِي طَالَ تَالٌ وَتُسْمَعُ مِنْ عَرَبِ
أَهْلِ الشَّرْقِ كَثِيرًا ، وَكَأَيْسِدِلُ قَوْمِ التَّاءِ الْمُثَنَاءِ فَوْقَ بِضَادٍ مُعْجَمَةً فَيَقُولُونَ فِي أَتْرَاضِرٍ .
وَمِنْهَا أَنْ يُعَاقَبَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ فِي الْكَلِمَةِ كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَلَخٍ فَلَخَ ، وَفِي أَصْبَهَانَ
أَصْفَهَانَ .

وَمِنْهَا أَنْ يَأْتِيَ بِحَرْفٍ بَيْنَ حَرْفَيْنِ فَيَأْتُونَ بِكَافٍ بِجِيمٍ فَيَقُولُونَ فِي كَلَّ جَمَلٍ . قَالَ
أَبْنُ دُرَيْدٍ : "وَهِيَ لُغَةٌ فِي الْيَمَنِ كَثِيرَةٌ فِي أَهْلِ بَغْدَادٍ" وَيَأْتُونَ بِجِيمٍ كَكَافٍ

على العكس من الأول فيقولون في رَجُل رَكُل يقرَّبونها من الكاف، ويأتون بشين معجمة بحيم فيقولون في أَجْتَمَعُوا أَشْتَمَعُوا، ويأتون بصاد مهملة كزاي فيقولون في صِرَاطٍ زِرَاطٍ، ويأتون بحيم كزاي فيقولون في جابر زابر، ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة، قاله ابن سعيد عن سماعه من العرب؛ ولا يكاد يوجد منهم من يَنطِقُ بها على أصلها الموصوف في كتب النحويين. وقد ذكر الشيخ أنير الدين أبو حيان ذلك جميعه في شرحه على تسهيل ابن مالك.

الصنف الرابع — ما تأخَّن فيه العامة وتغيَّره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأول والعامة تكسره : كقولهم في جَفَن العين بفتح الجيم جَفَن بكسرها ؛ أو مفتوح الأول والعامة تضمه : كقولهم في القَبُول الذى هو خلاف الرَدِّ قَبُول بضمها ؛ أو مكسور الأول والعامة تفتحه : كقولهم في دِرْهَم بكسر الدال دَرِهَم بفتحها ؛ أو مكسور الأول والعامة تضمه : كقولهم في التَّمْسَاح بكسر التاء تُمْسَاح بضمها ؛ أو مضموم الأول والعامة تفتحه : كقولهم في العُصْفُور بضم العين عَصْفُور بفتحها ؛ أو مضموم الأول والعامة تكسره : كقولهم في الظُّفْر بضم الظاء ظَفْر بكسرهما ؛ أو مفتوح الوَسْط : كقولهم في القَالِب بفتح اللام قَالِب بكسرهما ؛ أو مكسور الوسط والعامة تفتحه : كقولهم في الرجل المُوَسَّوس ، والبرَّ المَسَّوس ، والجبن المدوَّد بكسر الواو في الثلاثة : مُوسَّوس ومُسَّوس ومدوَّد بفتحها ؛ أو مضموم الوسط والعامة تفتحه كقولهم في الجُدَّد جمع جديد جُدَّد بفتحها ؛ أو محزك الوسط والعامة تسكنه : كقولهم في التَّحْفَة بفتح الحاء تحْفَة بإسكانها ؛ أو ساكن الوسط والعامة تحزكه : كقولهم في الحَلَقَة بإسكان اللام حَلَقَة بفتحها ؛ أو مشددا والعامة تخففه : كقولهم في العارِيَة بتشديد الياء عارِيَة بتخفيفها ؛ أو مخففا والعامة تشدده : كقولهم في الكَرَاهِيَة بتخفيف الياء كراهِيَة بتشديدها ؛ أو مهموزا والعامة تحذف الهمز من أوله : كقولهم في الإِهْلِيلَج بإثبات همزة في أوله

هَلِيجَ بِحَذْفِهَا ؛ أَوْ مَهْمُوزِ الْوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَسْهَلُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْمِرْءَةِ بِإِثْبَاتِ الْهَمْزَةِ مِرَاءَ بِحَذْفِهَا ، أَوْ غَيْرِ مَهْمُوزِ الْأَوَّلِ وَالْعَامَّةُ ثَبَتِ الْهَمْزَةُ فِي أَوَّلِهِ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْكُرَّةِ ، أُكْرَّةً^(١) ؛ أَوْ كَانَ بِالْظَّاءِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ كَالْوِظِيفَةِ وَنَحْوِهَا ، أَوْ بِالضَّادِ بِفَعْلَتِهِ بِالْظَّاءِ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْبَيْضَةِ بَيْظَةً ، أَوْ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ كَالذَّرَاعِ ، أَوْ كَانَ بِالْجِيمِ بِفَعْلَتِهِ بِالْقَافِ : كَقَوْلِهِمْ فِي مَجَادِيفِ السَّفِينَةِ مَقَادِيفَ ؛ أَوْ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ بِفَعْلَتِهِ بِالنَّاءِ الْمُثَنَّى فَوْقَ : كَقَوْلِهِمْ فِي دَخَارِيسِ الْقَمِيصِ تَخَارِيسَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا شَاعَ وَذَاعَ وَفِي ”أَدَبِ الْكَاتِبِ“ لِأَبْنِ قَتَيْبَةَ نُبْدَةٌ مِنْ لَحْنِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، وَكَتَابُ ”تَثْقِيفِ اللِّسَانِ“ لِأَبْنِ مَكِّي التُّونِسِيِّ مَوْضُوعٌ فِي لَحْنِ أَهْلِ الْغَرْبِ ، وَفَصِيحٌ ثَعْلَبٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْمَقْصِدِ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ — الْأَلْفَاظُ الْكِتَابِيَّةُ ، وَهِيَ الْأَفْظَاءُ أَلْتَّخِيهَا الْكُتَّابُ وَأَتَقَوَّهَا مِنْ اللُّغَةِ أَسْتَحْسَنَانَا لَهَا وَتَمَيَّزًا لَهَا فِي الطَّلَاوَةِ وَالرَّشَاقَةِ عَلَى غَيْرِهَا . قَالَ الْجَاهِظُ ”مَا رَأَيْتُ أَمَثَلَ طَرِيقَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ ، فَإِنَّهُمْ أَلْتَّسُّوْا مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مَتَوَعَّرًا حَوْشِيًّا ، وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا“ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي ”الْمَثَلِ السَّائِرِ“ : أَنَّ الْكُتَّابَ غَرَّبُوا اللُّغَةَ وَأَتَقَوَّوْا مِنْهَا أَلْفَاظًا رَائِقَةً أَسْتَعْمَلُوهَا .

ثُمَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ أَسْمَاءٌ وَأَفْعَالٌ : فَلِأَسْمَاءِ كَقَوْلِكَ فِي الْمَدْحِ فَلَانٌ غُرَّةُ الْقَبِيلَةِ ، وَسَنَامَهَا ، وَذَوَابِتَهَا ، وَذِرْوَتَهَا ؛ وَهُوَ نَبْعَةُ أَرْوَمَتِهِ وَأَبْلَقُ كَتِيبَتِهِ وَمِدْرَهُ عَشِيرَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَالْأَفْعَالُ كَقَوْلِكَ فِي إِصْلَاحِ الْفَاسِدِ : أَصْلَحَ الْفَاسِدَ ، وَلَمْ الشَّعْثَ ، وَرَأَبَ الشَّعْبَ ، وَضَمَّ النَّشْرَ ، وَرَمَّ الرِّثَ ، وَجَمَعَ الشَّتَاتَ ، وَجَبَرَ الْكُسْرَ ، وَأَسَا الْكَلِمَ ، وَرَقَعَ الْخَرَقَ ، وَرَتَّقَ الْفَتَقَ ، وَشَعَبَ الصَّدْعَ . وَفِي ”كِتَابِ الْأَلْفَاظِ“ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَيْسَى الْكَاتِبِ كِفَايَةٌ مِنْ ذَلِكَ . وَلَهُ مَخْتَصَرُ أَرَبِيٍّ عَلَيْهِ . وَفِي ”كَتَرِ الْكُتَّابِ“ لِكُشَّاحِمٍ مَا فِيهِ مَقْنَعٌ .

(١) . هِيَ لُغَةٌ كَانَتْ فِي الْقَامُوسِ .

المقصود الرابع

(في كيفية تصرف الكاتب في الألفاظ اللغوية . وتصريفها في وجوه الكتابة)
 لاختفاء أنه إذا أكثر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعرف الألفاظ المترادفة على
 المعنى الواحد والمتقاربة المعاني ، تمكن من التعبير عن المعاني التي يضطر إلى الكتابة
 فيها بالعبارات المختلفة ، والألفاظ المتباينة ؛ وسهل عليه التعبير عن مقصوده ، وهان
 عليه إنشاء الكلام وترتيبه . وفي الأمثلة التي أوردها كشاحم في "كثر الكتاب"
 حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق في ذلك ، ويهدي
 إلى سلوك الحادة الموصلة إلى القصد منه .

وهذه نسخة مكتوبة منه في التهنئة بمولود يستضاء بها في ذلك ، وهي :

قد جعلك الله من نبع طابت مغارسها ، أرومة رنخت عروقها ؛ شجرة زكت
 غصونها ؛ فرع شرفت منابته ؛ معدن زكت علائقه ؛ جوهر شاعت مكارمه ؛ عنصير
 بسقت فروعه ؛ محمد ذاعت محامده ؛ أصل نجبت مآثره ؛ سنخ خلصت مناقبه ؛
 نصاب صرحت مفاخره ؛ تجرمت مساعيه ؛ أصل فضلت معالمه ؛ عنصير نصرت
 محاسنه ؛ متمى كثر مناقبه . فالزيادة فيها زيادة في جوهر الكرم ، مظاهر في محو
 ثرى الإفضال ، ذخيرة نفيسة لذوى الآمال ، نعمة كاملة السعادة ، غبطة شاملة
 البشاشة ، سرور يواجه الأولياء ، حبور تجتويه الأعداء ، غبطة تصل إلى الأحرار ،
 آتجاج لذوى الأخطار . فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الوافية ، بالولاية الكافية ،
 الكفاية المتظاهرة ، الدفاع الكالى ، الحفاظ الداعى ، الصنع الجميل ، الدفاع الحسن ،
 العافية المتكاثفة . وبلغنى الخبر بهبة الله المستجدة ، الولد المبارك ، الفرع الطيب ،
 السليل الرضى ، الولد الصالح ، الأبى السار ، الثمرة المثمرة ، السلالة الزكية ، النجل

الميمون، الذى عمر أُنِيَّة السَّيَادَةِ . زاد فى موافيق العهد والرياسة ، أرسى قَوَاعِدَ
السَّيَادَةِ ، ثَبَّتَ أَسَاسَ الرَّفْعَةِ ، أَوْثَقَ عُرى المجد ، مَكَّنَ أركان الفضل ، وَطَّدَ أَسَاسَ
المَكَارِمِ ، أَكْثَدَ علائِقَ الشَّرَفِ ، أَبَدَ أَوَانِى الكرم ، أَرَمَ جِبَالَ الجُودِ ، أَمَرَ أَسْبَابَ
الطُّولِ ، شَيَّدَ بُيُوتَ الكَمَالِ ، أَحْصَفَ أَيْدِى السَّمَاحَةِ ، أَحْكَمَ قُوَى الرَّجَاحَةِ ، أَوْثَقَ
عَقْدَ العُلَا ، رَفَعَ دَعَائِمَ الظَّهَارَةِ ، أَنَارَ أَعْلَامَ الغَارَةِ ، أَظْهَرَ عِلَامَاتِ الخَيْرِ . فَنَبَّاشَتْ
بِهِ ، أَنْتَهَجْتُ ، أَجْتَدَلْتُ ، أَغْتَبَطْتُ ، فَرِحْتُ ، سُرِرْتُ ، اسْتَبَشَرْتُ . جَعَلَهُ اللهُ بَرًّا
نَقِيًّا ، سَيِّدًا ، حَمِيدًا ، مَيِّمًا ، مُبَارَكًا ، طَيِّبًا ، عَزِيزًا ، سَعِيدًا ، ظَهِيرًا ، عَوْنًا ، نَاصِرًا ،
رَاجِحًا ، زَكِيًّا ، وَزَرًا ، مَلْجَأًا . يَتَقَبَّلُ سَلْفَهُ ، وَيَقْتَنِى أَثَرَهُ ، يَسْلُكُ مِنْهَا جِهَهُ ، يَسُنُّ
سُنَّتَهُ ، يَتَّبِعُ قَصْدَهُ ، يَسِيرُ سِيرَتَهُ ، يَسْعَى مَسَاعِيَهُ ، يَتَّخِذُ مِثَالَهُمْ ، يَحْدُو حَذْوَهُمْ ،
يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِمْ ، يَتَبَصَّرُ بِصِيرَتِهِمْ ، يَنْوُطُ أَعْيَانَهُمْ ، يَتَرَسَّمُ رُسُومَهُمْ . وَأَيْمَنَ بِهِ عِدْدَكَ ،
كَثَّرَ بِهِ ذُرِّيَّتَكَ ، أَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمَلِكَ ، شَفَعَهُ اللهُ بِأَخْوَةِ بَرَّةٍ ، وَفَقَّهُ اللهُ لِأَدَاءِ حَقِّكَ ،
جَعَلَهُ خَيْرَ خَلْفٍ كَمَا هُوَ خَيْرُ سَلَفٍ . زَيْنَ بِهِ الْعَشِيرَةَ ، وَهَبَ لَهُ التَّمَاءَ ، بَلَغَ بِهِ
أَشْكَالَ الْعُمُرِ ، مَكَّنَ لَهُ فِي رَفِيعِ المَرَاتِبِ ، حَقَّقَ فِيهِ فِرَاسَتَكَ ، وَهَبَ لَهُ تَمَامَ الْفَضِيلَةِ ،
وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، أَجَارَكَ فِيهِ مِنَ الثُّكُلِ ، سَرَّكَ بِفَائِدَتِهِ ، أَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْتِهِ ، أَطَابَ
عَيْشَكَ بِهِ ، مَتَّعَكَ بِعَطِيَّتِهِ ، أَلْهَمَكَ شُكْرَ مَا خَوْلَكَ ، وَاصَلَ لَكَ الْمَزِيدَ بِرَحْمَتِهِ .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عدة كتب بتهنئة
بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك الله من نَبْعَةٍ طَابَتْ مَغَارِسُهَا ، فَالزِّيَادَةُ فِيهَا زِيَادَةٌ
فِي جَوْهَرِ الكَرَمِ ، فَتَوَلَّى اللهُ نِعْمَهُ عِنْدَكَ بِالْحِرَاسَةِ ، وَبَلَّغْنِي الْخَيْرُ هِبَةَ اللهِ الْجَدِيدَةَ
الْمُسْتَجِدَّةَ ، الْوَلَدِ الْمُبَارَكِ الَّذِي عَمَّرَ أُنِيَّةَ السَّيَادَةِ ، فَنَبَّاشَتْ بِهِ ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى بَرًّا

تقيا، يَتَقِيلُ سَلَفَهُ، وَأَيْمَنَ بِهِ دَدَكَ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ، وَوَاصَلَكَ الْمَزِيدَ بِرَحْمَتِهِ، كَانَ ذَلِكَ كِتَابًا كَافِيًا فِي هَذَا النُّوعِ . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ .

النوع الثاني

(المعرفة باللغة العجمية، وهى كل ما عدا العربية : من التركية، والفارسية،
والرُومِيَّة، والفِرَنْجِيَّة، والبربريَّة، والسُّودَان، وغيرهم، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللغات العجمية)

لا يخفى أن الكاتب يحتاج فى كماله إلى معرفة لغة الكتب التى تَرِدُ عليه للملكه
أو أميره ليفهمها ويُحِبُّ عنها من غير أَطَّلَاعِ تَرْجُمان عليها، فإنه أصونُ لسرِّ ملكه،
وأبلغُ فى بُلُوغِ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائنى فى "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت
رضى الله عنه أنه قال : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّهُ يَرِدُ عَلَى أَشْيَاءَ
مِنْ كَلَامِ السُّرْيَانِيَّةِ لَا أَحْسِنُهَا فَتَعَلَّمْ كَلَامَ السُّرْيَانِيَّةِ فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سِتَّةِ عَشَرَ يَوْمًا)) وفى رواية
قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أَتَحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ؟ فَإِنَّهُ يَأْتِينِي كُتُبُهَا،
قُلْتُ لَا . قَالَ فَتَعَلَّمْتُهَا فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا، فَكُنْتُ أُجِيبُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم وَأَقْرَأُ كُتُبَ يَهُودَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ)) وفى رواية، قال : قال لى
رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يَأْزِيدُ تَعَلَّمَ كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَمْنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي
قَالَ فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ فَمَا مَرَّ لِي بِسِتِّ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ حَتَّى حَدَّثْتُهُ فَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ
إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأُجِيبُ إِذَا كَتَبَ)) وفى رواية العِبرانية بدل السُّرْيَانِيَّةِ .

قال محمد بن عمر المدائني بل قد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفهم اللغات كلها وإن كان عربيا لأن الله تعالى بعثه إلى الناس كافة ولم يكن الله بالذي يبعث نبيا إلى قوم لا يفهم عنهم، ولذلك كَلَّمَ سَلْمَانَ بالفارسية . وساق بسنده إلى عكرمة أنه قال : سئل ابن عباس هل تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفارسية قال نعم، دخل عليه سلمان فقال له درسته وسادته قال محمد بن أميل : أظنه مَرَجًا وأهلا .
وحينئذ فيكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر زيدا بتعلم كتابة السريانية أو العبرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعلم لغتهم .

المقصد الثاني

(في بيان ما يتصرف فيه الكاتب من اللغة العجمية)

اعلم أن الذي ينبغي له تعلمه من اللغات العجمية هو ما تتعلق به حاجته في المخاطبة والمكاتبة .

أما المخاطبة فبأن يكون لسان ملكه بعض الألسن العجمية أو كان الغالب عليه لسان عجمي مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية على ملوك الديار المصرية، وكما غلبت اللغة الفارسية على ملوك بلاد العراق وفارس، وكما غلب لسان البربر على ملوك بلاد المغرب مع تبعية عسكر كل ملك في اللسان الغالب عليه له في ذلك فيحتاج الكاتب إلى معرفة لسان السلطان الذي يتكلم به هو وعسكره ليكون أقرب إلى حصول قصده : من فهم الخطاب وتفهمه، وسرعة إدراك ما يليق إليه من ذلك، وتأدية ما يقصد تأديته منه، مع ما يحصل له من الخطوة والتقريب بالموافقة في اللسان؛ فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوس ملوك الديار المصرية وأمرائها وجُنُدها لمن يتكلم بالتركية : من العلماء والكُتَّاب ومن في معانهم على ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكتبة فبأن يكون يعرف لسان الكُتُب الواردة على ملكه ليترجمها له ويُجيب عنها بلغتها التي وردت بها ؛ فإن في ذلك وقعاً في النفوس ، وأستجلاباً للقلوب ، وصونا للسر عن أطلاع ترجمان عليه ؛ وأمرُ النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلم السريانية أو العبرانية على ما تقدم ظاهرٌ في طلب ذلك من الكاتب وحثه عليه .

ثم اللغات العجمية على ضربين : أحدهما ماله قلم يُكتب به في تلك اللغة كاللغة الفارسية ، واللغة الرومية ، واللغة الفرنجية ونحوها ؛ فإن لكل منها قلماً يخصه يُكتب به في تلك اللغة . والثاني ما ليس له قلم يكتب به ، وهي لغات القوم الذين تغلب عليهم البدَاوة كالترك والسُودان . ولأجل ذلك ترد الكُتُب من القانات ملوك الترك بلاد الشمال المعروف في القديم بيت بركة ، والآن بمملكة أذربك باللغة المغلية بالخط العربي . وترد الكتب الصادرة عن ملوك السودان باللفظ العربي والخط العربي . أما اللغات التي لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتب الواردة من ملوك الروم والفرنج ونحوهما ممن لغته قلم يخصه على اختلاف الألسنة واللغات .

النوع الثالث

(المعرفة بالنحو ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إليه)

لا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية ، وميزان تقويمها ؛ وقد تقدم في النوع الأول أن اللغة العربية هي رأس مال الكاتب ، وأُسُّ مقالته ، وكثر إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرق الإعراب، والأخذ في تعاطي ذلك حتى يجعله دأبه، ويُصيرَه ديدنه : ليرتسم الإعرابُ في فكره، ويدور على لسانه، وينطلق به مقال قلمه وكلّمه، ويزول به الوهم عن سبيلِه، ويكون على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحن في كلامه، ذهب محاسن ما أتى به، وأنهدمت طبقة كلامه وألغى جميع ما حسنه، ووقف به عند ما جهله . قال في "المثل السائر" : وهو أول ما ينبغي إثبات معرفته ؛ على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة بل بكل علم ، لا : بل ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرة اللحن . قال صاحب "الريحان والرياعان" ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم يحثون على تعلم العربية، وحفظها والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، والمحلّ المخصوص . قال عثمان المهرى : « أتنا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأذريجان يأمرنا بأشياء، ويدكر فيها : "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة" . وكان لخالد بن يزيد بن معاوية أخ جَاءه يوماً فقال : إن الوليد ابن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال يا أمير المؤمنين ! : إن الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله وأستصغره ، وعبد الملك مُطرق فرغ رأسه وقال : ((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا)) الآية — فقال خالد : ((وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)) الآية — فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى ؟ وقد دخل على فم أقام لسانه لحنًا — فقال خالد : أنعم الوليد تُعول ؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان — فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد في كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوماً لبنيه : "ما ضرَّ أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ؟ أيسرَّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمتيه ؟" . ومن كلام مالك بن أنس

”الإعراب حَلَّى اللِّسَانِ فلا تَمْنَعُوا أَلْسِنَتَكُمْ حُلِيِّهَا“ . والله دَرَّ أبى سعيد البصرى !
حيث يقول :

النَّحْوُ يَسُطُّ مِنْ لِسَانِ الْأَلَكَيْنِ * وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَرْبِ
وَإِذَا طَلَبَتْ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ

قال صاحب ”الريحان والريعان“ واللحن قبيح في كبراء الناس وسراهم ، كما أن الإعراب جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السفلة ويرتقي به إلى مرتبة تلحقه بمن كان فوق نمطه وصنّفه . قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنى ؛ فإن اللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراد به إلى ضده حتى يفهم السامع خلاف المقصود منه . وقد روى أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجزء رسوله فتوهم عطفه على المشركين فقال : أوبرئ الله من رسوله ؟ ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية . على أن الحسن قد قرأها بالجزء على القسم وقد ذهب على الأعرابي فهم ذلك لخفاءه . وقرأ آخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ برفع الأول ونصب الثانى ، فوقع في الكفر بنقل فتحة إلى ضمة وضمة إلى فتحة فقل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفظن له . وسمع أعرابى رجلا يقول : أشهد أن محمدا رسول الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجل لآخر ما شأنك ؟ بالنصب فظن أنه يسأل عن شين به فقال عظم في وجهى . وقال رجل لأعرابى : كيف أهلك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهله فتوهم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صلبا . ودخل رجل على زياد بن أبيه فقال : إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله — فقال زياد للذى أضعته من كلامك أضر عليك مما أضعته من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال من عند أهلونا ، فحسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا والله أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ فأضحك كلُّ منهما من نفسه . قال صاحب "الريحان والرياعن" وكان من يؤثر عقله من الخلفاء يعاقب على اللحن وينفر من خطئ القول ، ولا يجوز أن يُخاطب به في الرسائل البلدانية ، ولا أن يُوقف به على رؤوسهم في الخطب المقامية قال : وهو الوجه . فأنذيتهم مَطْلَب الكمال ، ومَطْأُ الصواب في إحكام الأفعال ، فكيف في إحكام الأقوال . قال ابن قادم النحوى : "وجه إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبى : وهو أمير فأحضرني فلم أدْرِ ما السببُ ، فلما قُرِبت من مجلسه تلقاني كاتبه على الرسائل ميمون بن إبراهيم وهو على ذاية الهلع والجزع ، فقال لى بصوت خفى إنه إسحاق ! ومرة غير متلبث حتى رجع إلى إسحاق ، فراعنى ما سمعتُ ، فلما مثلت بين يديه ، قال كيف يقال وهذا المال مالٌ أو وهذا المالٌ مالا ، فعلمت ما أراد ميمون الكاتبُ فقلتُ له الوجهُ وهذا المالُ مالٌ ويموز وهذا المالُ مالا ، فأقبل إسحاق على ميمون كاتبه بغلظة وفظاظة ثم قال : «ألزم الوجهَ في كُتُبك ودَعْ ما يمحوز ! » ورمى بكتاب كان في يديه ، فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حملة إليه فقال «وهذا المالُ مالا» ، نخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته تَكَاتِبْنِي باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجاوز موضع اللحن في قراءة الكتاب فقامت عند إسحاق ، فكان ميمون الكاتبُ بعد ذلك يقول : لا أدري كيف أشكر ابن قادم ببق على رُوحى ونعمتى . ووقف بعضُ الخلفاء على كتاب لبعض عماله فيه لحن في لفظه فكتب إلى عامله : قَتَعْ كَاتِبَكَ هذا سوطاً معاقبةً على لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدار أهل العلم ، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه وإلحْد من الزلل . قال صاحب "الريحان والرياعن" : فكيف لو أبصر بعضُ كتاب زماننا هذا ؟ . قلت قد قال ذلك في زمانه هو وفي الناس بعض الرِّمق والعلمُ ظاهر وأهله مُكْرَمُونَ ، وإلا فلو عمر إلى زماننا نحن لقال ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ .

ثم المرجع في معرفة النحو إلى التلّق من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر في الكتب المعتمدة في ذلك من كتب المتقدمين والمتأخرين .

وأعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسّطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة في زماننا عند أبناء المشرق "المفصل" للزمخشري و"الكافية" لابن الحاجب . وعند المصريين كتبُ ابن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ابن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلّمي العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم بن مُحَيِّمَةَ قال : « النحو أوله شغل وآخره بغي » قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل وأول الحساب شغل وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ؟ . قال وأما قوله « وآخره بغي » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حدقه صار فيه زهو واستحققر من يلحن فهذا موجود في غيره من العلوم : من الفقه وغيره في بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغي التجاوز فيما لا يحل فهذا كلامٌ محالٌ فإن النحو إنما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيما للعلماء حتى دخل فيهم من لا يستحقُّ هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبعُدَتْ عليهم معرفة الهمزة التي ينضمُّ وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لا معنى لها : في كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . — أما التعمّق في الإعراب والمبالغة فيه فإن حكمه في الاستكراه حكمُ التقعّر في الغريب ؛ وقد كانوا يذتمون من يتعاناه ، ويسخرون من يتعاطاه . قال الأصمعي

خاصم عيسى بن عمر النحوي رجلا إلى بلال بن أبي بردة فجعل عيسى يُسبِع الإعراب ويتعمق في الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه - فقال له القاضي: "لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليه من تركه الإعراب، فلا تتشاغل به وأقصِدْ بِحُجَّتِكَ". وخاصم نحوي نحويًا آخر عند بعض القضاة في دين عليه فقال: "أصلح الله القاضي! لي على هذا درهمان" - فقال خصمه: "والله أصلحك الله! إن هي إلا ثلاثة دراهم ولكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما". فهذا وشبهه قد صار مذموما والمتشبه به مَلُوماً؛ ولذلك كان بعض الكتاب لشدة اقتداره على الإعراب يُعرب كلامه ولا يُحِيلُ إلى السامع أنه يُعرب، فإن عرض مع التعمق في الإعراب لحن، كان ذلك أبلغ في الشناعة، وأجدر بتوجه اللوم على صاحبه والسخرية من المتكلم به. وقد قال الجاحظ: «إن أقبح اللحن لحن أصحاب التعجير والتشديق والتمطيط والجمهوريّة والتفخيم». قال «وأقبح من ذلك لحن الأعراب النازلين على طريق السابلة وبُقرَبِ مجامع الأسواق». وعلى الجملة فالنحو لا يُستغنى عنه ولا يوجد بد منه، إذ هو حُلُّ الكلام، وهو له كما قيل كالمِلح في الطعام. قال في "المثل السائر": والجهل بالنحو لا يَقْدَحُ في فصاحيّة ولا بلاغةٍ ولكنه يَقْدَحُ في الجهل به نفسه لأنه رُسُومُ قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب أتباعهم؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مجراهما وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة. قال: ولذلك لم يكن اللحن قادحا في نفس الكلام: لأنه إذا قيل جاء زيد راكبًا بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطًا في حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته وإنما الغرض أمر وراء ذلك - وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من المنشور مع

ما حكي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدمين في شعرهم ، كقول أبي نؤاس في محمد الأمين :

يا خيرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ * إلا النبيُّ الطاهر المأمونُ

فرغ المستثنى من الموجب . وكقول المتنبي :

أرأيتَ هِمَّةَ نَاقِي في نَاقَةٍ * قَلَّتْ يَدَا سُرْحَا وَخَفَا مَجْمَرَا
تَرَكْتُ دُخَانَ الرِّمِّثِ في أوطَانِهَا * طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ العَنَبَرَا
وَتَكْرَمْتُ رُجَاثَهَا عن مَبْرَكِ * تَقَعَانِ فِيهِ وليس مِسْكَا أَذْفَرَا

بجمع في حالة التثنية ، لأن الناقاة ليس لها إلا رُجَتَانِ وقد قال رُجَاثَهَا .

وأعلم أن اللحن قد فَشَا في الناس ، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيباً ، والنطق بالكلام الفصيح عيباً . قلت : والذي يقتضيه حال الزمان ، والجرى على منهاج الناس أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والكلام المسجوع ، وما يُدَوَّن من الكلام ، ويكتب من المراسلات ونحوها ، ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم ؛ وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام مذسدت الألسنة ، وتغيرت اللغة حتى حكي أن الفراء مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو دخل يوماً على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفراء أتلحن يا يحيى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البدو والإعراب وطباع أهل الحضرة اللحن فاذا حفظت أو كتبت لم أَلْحَنُ وإذا رجعت إلى الطبع لَحَنْتُ — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين " « ومتى سمعت حفظك الله نادرةً من كلام الأعراب فإياك أن

تَحْكِيهَا إِلَّا مَعَ إِعْرَابِهَا وَمَخَارِجِ أَلْفَاظِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ غَيَّرْتَهَا بَانَ لَحْنَتَ فِي إِعْرَابِهَا
 أَوْ أَخْرَجْتَهَا تَخْرُجَ كَلَامُ الْمُؤَلَّدِينَ وَالْبَلَدِيِّينَ ، نَخَرَجْتَ مِنْ تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَعَلَيْكَ فَضْلٌ
 كَبِيرٌ ، وَإِنْ سَمِعْتَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الْعَوَامِّ وَمُلْحَةً مِنْ مُلَحِّهِمْ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ لَهَا
 الْإِعْرَابَ أَوْ تُغَيِّرَ لَهَا لَفْظًا حَسَنًا ، فَإِنْ ذَلِكَ يُفْسِدُ الْإِمْتَاعَ بِهَا وَيُخْرِجُهَا مِنْ
 صُورَتِهَا الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا وَيُذْهَبُ اسْتَطَابَتُهُمْ إِيَّاهَا . قال : « وَاللَّحْنُ مِنَ الْجَوَارِي
 الظَّرَافِ ، وَمِنَ الْكَوَاعِبِ النَّوَاهِدِ ، وَمِنَ الشَّوَابِّ الْمَلَاخِ ، وَمِنْ ذَوَاتِ الْخُدُورِ أَيْسَرُ
 وَرَبَّمَا اسْتَمْلَحَ الرَّجُلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَا لَمْ تَكُنِ الْجَارِيَةُ صَاحِبَةً تَكْلُفُ » وَلَكِنْ إِذَا كَانَ
 اللَّحْنُ عَلَى سَبِيحَةِ سُكَّانِ الْبَلَدِ كَمَا يَسْتَمْلِحُونَ اللَّتْفَاءَ إِذَا كَانَتْ حَدِيثَةَ السَّنِّ فَإِذَا أَسْنَتْ
 وَأَكْتَهَلَتْ سُمِّيَ ذَلِكَ الْاسْتِمْلَاحَ . قال : « وَمَنْ اسْتَمْلَحَ اللَّحْنَ فِي النِّسَاءِ مَالِكُ بْنُ أَسْمَاءَ
 فَقَالَ فِي بَعْضِ نِسَائِهِ :

أُمُغْطِي مَنِيَّ عَلَى بَصَرِي لِلْحُبِّ أَمْ أَنْتِ أَكَلِ النَّاسِ حُسْنًا؟
 وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مِمَّا * تَشْتَبِيهِ الْأَسْمَاعُ يُوزَنُ وَزَنًا
 مَنَظِقُ صَائِبٌ وَتَلَحُّنٌ أَحْيَا * نَا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِحَسَبِ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَرَبَ وَإِنْ تَغَيَّرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ
 بِمَخَالِطَةِ مَنْ عَدَاهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُو كَلَامُهُمْ مِنْ مُوَافَقَةِ الْإِعْرَابِ فِي بَعْضِ الْكَلَامِ
 وَالْجُرِّيِّ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ خُصُوصًا عَرَبِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْهُمْ . وَقَدْ قَالَ
 الْجَاهِلِيَّ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ « وَلِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَلْسِنَةٌ ذَلِيقَةٌ ، وَأَلْفَاظٌ حَسَنَةٌ ، وَعِبَارَةٌ جَيِّدَةٌ ،
 وَاللَّحْنُ فِي عَوَامِّهِمْ فَايَسْ وَعَلَى مَنْ لَمْ يَنْظُرْ مِنْهُمْ فِي النَّحْوِ غَالِبٌ » .

المقصود الثاني

(في كيفية تصريف الكاتب في علم العربية)

وأعلم أن انتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يلحق به . ومن أهم ما يعتنى به من ذلك النسب لكثرة استعماله في الألقاب ونحوها ، وكذلك العدد فإنه مما يقع فيه اللبس على المبتدئ ؛ ومحل ذلك كله كتب النحو . الثاني فيما يقع الكاتب فيه بطريق العرض ، فيحتاج من ذلك إلى معرفة النحاة ومشاهير أهل العربية كأبي الأسود الدؤلى ، وسيبويه ، والفراء ، وأبي علي ، وأبي عثمان المازنى وغيرهم من المتقدمين ؛ وآبن عصفور وآبن مالك وآبن معطى وغيرهم من المتأخرين ؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة في هذا الفن : من المبسوطات والمختصرات من كتب المتقدمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التي اصطلحوا عليها : من ذكر الأسم ، والفعل ، والمعرفة ، والنكرة ، والمبتدأ ، والخبر ، والحال ، والتمييز ، وألقاب الإعراب : من الرفع والنصب والجر والجزم وغير ذلك مما تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم في استعمالاتهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك ليُدْرَج ما عَنَ له من ذلك في خلال كلامه حيث احتاج إليه في التواقيع والمكاتبات وغيرها .

قال في « التعريف » في وصية نحوى : وهو زيد الزمان ، الذى يضرب به المثل ، وعمرو الأوان ؛ وقد كثر من سيبويه الملل ومازنى الوقت لكنه لم يستبح الإبل ، وكسائى الدهر الذى لو تقدم لما اختار غيره الرشيد للأمون ، وذو السؤدد لأبوالأسود على أنه ذو السابقة والأجر المننون . وهو ذو البر الماثور ، والقدر المرفوع ولوائه المنصوب وذيل نغاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَر لمثله من الجزم ، والذهاب عمله الصالح بكل العوامل التي لم يبق منها لحسوده إلا الجزم . وهو ذو الأينية التي

لا يفصح عن مثلها الإعراب ، ولا يعرف أفصح منها فيما أخذ عن الأعراب .
والذى أصبحت أهدأه فوق عمائم الغائم ثلاث ، ولم يزل طول الدهر يُشكر
منه أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات ثلاث . فليتصد للإفاده ، وليعلمهم مثل
ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزياده . وليكن للطلبة نجماً به يهتدى ، ويرفع
بتعليمه قدر كل خبرٍ له وهو المبتدا . وليقدم منهم كل من صلح للتبريز ،
وأستحق أن ينصب إماماً بالتميز . وليورد من موارده أعذب النطاف ، وليجزل إليه كل
مضاف إليه ومضاف . وليوفقهم على حقائق الأسماء ، ويعرفهم دقائق البحوث
حتى اشتقاق الأسم هل هو من السمو أو من السماء . وليبين لهم الأسماء العجمية
المنقولة والعربية الخالصة ، ويدلهم على أحسن الأفعال لا ما يتشبهه بصفات كان
وأخواتها من الأفعال الناقصة ، وليحفظهم المثل وكلمات الشعراء ، ولينصب نفسه لحد
أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء . وليعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف ،
ومع هذا كله فليترقق بهم فما بلغ أحداً علماً بقوة ولا غايةً بعسف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرّس : «ولأنه
في البيان ذو الانتقاد والانتقاء . والعربي الذي كان لرِقَاب الفضلاء ابن مالك فإن
قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في رسالة اقترحت عليه في هذا
الباب وهي : «حرس الله نعمة مولاي ! ، ولا زال كلم السعد من اسمه ، وفعله ،
وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يُرخم وأحمد عيشه لا ينصرف . ولا عليم
مستوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل^(١) ولا عدمت نحة الجود

من نَوَّالِه كُلِّ موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود . ولا خَاطَبَتِ الأيامُ مُلْتَمِسَه إلا بلام التوكيد ، ولا عَدَوَه إلا بلام الجحد . هذه المفاوضة اليه أعزّه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدنا له فعلا غدا به متصبا للكايد ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوت صُحْبته تكررت بخاز قَطْعُها بسبب ذلك التكرير . وسيدنا يعلم بالعلمية المدكُون من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عَيْشُه به خفضا على الإضافة . وكان الظن أن الأشغال التى جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لا تكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرف ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصْبِحَ معرَبُ إحسانه مبنيا ، وأن نزيل كرمه يكون للنكرات بأى محكيّا أو أن يأتى سيدنا بالماضى من الأفعال فى معنى الاستقبال ، أو أن يجعل بدل غلطه الإبدال للأشتمال . أو يدغم من مودته مظهرًا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُحْبَرًا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدير سيدنا مصدرا . ولا يرح سيدنا نسيج وحده فى أموره ! ولا زال حلمه يتناسى الهفوات لا يشتغلُ مفعولُه عن فعله بضميره .

النوع الرابع

(المعرفة بالتصريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليها ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ، ضلَّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالبدال المهملة . ودُكِّن المتاع تضديد بعضه على بعض وهو غير مناسب لفعله مصحف عن المزكون بالزاي بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوى الجاهل بعلم التصريف كيف تصغر لفظاً اضطراب فإنه يقول ضطريب^(١)، ولا يلام في ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته منها، نحو قولهم في منطلق مطبق وفي جحمرش جحمرش^(٢) . ولفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها معنى فلذلك لم تُحذف وحُذفت النون . وأما لفظه جحمرش فخاسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا . فإذا بنى النحوى على هذا الأصل ، فإما أن يحذف من لفظه اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء ، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصل فيصغر لفظه اضطراب حينئذ على ضطريب ، ولم يعلم النحوى أن الطاء في اضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضطريب فإن هذا مما لا يعلمه إلا التصريف والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك اتكالا منهم على تحقيقه من علم التصريف ، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ، فتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف إلى معرفة ذلك كتكليفه ما ليس من علمه . قال : فثبت بما ذكر أن علم التصريف مما يحتاج إليه لئلا يغلط في مثل ذلك . قال : ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأخفهم شأنا قد قال في معائش معائش بالهمز ، وهذه اللفظة مما لا يجوز همزه بإجماع من علماء العربية : لأن الياء فيها ليست

(١) أى باثبات الياء بعد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفعال كما قد يتوهم بل ألف الأفعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحمرش كما تقتضيه القواعد الصرفية . أنظر باب التصغير من الكتاب .

مبدلة من همزة وإنما الياء التي تبدل^(١) من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا يكون عينا نحو سَفَانٌ ، ولم يعلم نافع الأصل في ذلك فأخذ عليه وعيب عليه من أجله وذلك أنه اعتقد أن معيشة على وزن فَعِيلَة تجمع على فَعَائِل ولم ينظر إلى أن الأصل في معيشة معيشة على وزن مَفْعِلَة لأن أصل هذه الكلمة من عاش لكن أصلها عيش على وزن فَعَلَ ، ويلزم مضارع فَعَلَ المعتل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعِيشُ ثم تنتقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيشُ ثم يبنى من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعِيشٌ به كما يقال مَسِيرٌ به ثم يخفف ذلك بجذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشَة . ومن جملة من عابه أبو عثمان المازني فقال في كتابه في التصريف : إن نافعاً لم يدر ما العريّة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر في بعض كُتُب الكُتَّاب فإذا فيه حرف مُصْلَح هو : وقد لَهَوْتُ عن جباية الخراج ، فاغتاط وقال لا يحكه غيرى فحكه فأصلحه وقد لَهِيت بالياء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدمه في الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُسَانَةً ثم صارت مشاهرة ثم صارت مُيَاوَمَةً ثم صارت مُسَاعَةً ، فأخطأ ، وكان يجب أن يقول مُسَاوَعَة . قال في "المثل السائر" : وكثيراً ما يقع أهل العلم في مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا اطلاع لهم عليها ، وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يقع الغلط فيما يوجب قَدْحاً ولا طَعْناً . قال : وقد وقع الغلط لأبي نُوَّاس فيما هو أظهر من ذلك ، وهو قوله في صفة الخمر :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا^(٣) * حَصْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

(١) أى التي تكون الهمزة بدلا منها .

(٢) لعله التي كما يقتضيه السياق .

(٣) المشهور فَوَاقِعُهَا . انظر شرح الأشمون في باب أفعل التفضيل .

فإن فُعِلَ أفعَلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعِلَ التي لا أفعَلَ لها نحو حُبِلَ إلا أن تكون فُعِلَ أفعَلَ مضافةً، وها هنا قد عَرِيت عن الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كَانَ الصُّغْرَى والكُبْرَى أو كَانَ صُغْرَاهَا وَكُبْرَاهَا . فانظر كيف وقع أبو نُوَاس في مثل هذا الموضع مع قُرْبِهِ وَسُهُولِهِ . وغلط أبو تمام أيضا في قوله :

بِالْقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ أَطَّادَتْ * قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُتَمَدِّدًا هَا الطُّولُ

فقال أَطَّادَتْ والصواب أَتَطَدَّتْ لأنَّ التَّاءَ تَبْدَلُ مِنَ الْوَاوِ فِي مَوْضِعَيْنِ أَحَدُهُمَا مَقِيسٌ عَلَيْهِ كَهَذَا الْمَوْضِعِ : لَأَنَّكَ إِذَا بَنَيْتَ أَفْعَلَ مِنَ الْوَعْدِ قُلْتَ أَتَعَدَّ وَكَذَلِكَ أَتَطَدَّتْ فِي الْبَيْتِ فَإِنَّهُ مِنْ وَطَدَ يَطْدُ كَمَا يُقَالُ وَعَدَ يَعِدُ، فَإِذَا بُنِيَ مِنْهُ أَفْعَلٌ قِيلَ أَتَطَدَّتْ وَلَا يُقَالُ أَطَّادَ . وَأَمَّا غَيْرُ الْمَقِيسِ فَقَوْلُهُمْ فِي وَجْهِ نُجْمٍ وَقَالُوا تُكَلَّنُ وَأَصْلُهُ الْوَاوُ لِأَنَّهُ مِنْ وَكَّلَ فَأَبْدَلَتْ الْوَاوُ تَاءً لِلِاسْتِحْسَانِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الْمَخْطُوءَ فِي التَّصْرِيفِ أُنْدَرُ وَقَوْعًا مِنَ الْمَخْطُوءِ فِي النُّحُوْلِ لَأَنَّهُ قَلَّمَا تَقَعُ لَهُ كَلِمَةٌ يَحْتَاجُ فِي اسْتِعْمَالِهَا إِلَى الْإِبْدَالِ وَالنَّقْلِ فِي حُرُوفِهَا . وَالْمَعْصُومُ مِنْ عَصَمِهِ اللَّهُ، وَالْكَلَامُ فِي تَصْرِيفِ الْكَاتِبِ فِي التَّصْرِيفِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي النُّحُوْ .

النوع الخامس

(المعرفة بعلوم المعاني ، والبيان ، والبدیع ، وفيه مقصدان)

المَقْصِدُ الْأَوَّلُ

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبيل الفصاحة واقتفاء سنن

البلاغة، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطر الكاتب إلى معرفتها، والإحاطة بمقاصدها: ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريا في ذلك على قوانين اللغة في التركيب، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء: من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها عن اللكن، وتأدية المطلوب بها، وتكامل الأقاويل الشعرية ثرا كانت أو نظما، في بلوغها غايتها وتأدية ما هو مطلوب بها، وأنها كيف نتعين بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخييل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشئ يذكّر بضده، فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض.

قال أبو هلال العسكري: "فإن صاحب العربية إذا أخل بطلب هذه العلوم، وقطّ في التماسها، فانتته فضيلتها، وعلفت به رذيلة فوئها، وعفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد، وآخر رديء؛ ولفظ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد، بأن جهله، وظهر نقصه؛ وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يضع قصيدة وقد فانتته هذه العلوم، مزج الصفو بالكدر، وخطط الغرر بالغرر؛ فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل. وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه، ساء اختياره، وقبح آثاره؛ فأخذ الرديء المردود، وترك الجيد المقبول؛ فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته؛ مع ما في هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمد الكاتب شريف المعاني، ويستعير فصيح الألفاظ؛ بل منهما تستفاد سائر العلوم، وتقتبس نفائس الفضائل". قال: "وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به، والقارئ المقتدى بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن

مناظرته، وتعام آله في مجادلاته، وشدة شكيته في حجاجه، وبالعربي الصليب،
والقرشي الصريح، أن لا يعرف فهم إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها منها
الزنجي والنبطي، وأن يستدل عليه بما يستدل به الجاهل الغبي“ .

على أن الشيخ بهاء الدين السبكي رحمه الله قد ذكر في شرح تلخيص المفتاح أن
أهل مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرّونها بالطبع، فقال في أثناء خطبته :
”أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم،
والفهم المستقيم، والأذهان التي هي أرق من النسيم، وألطف من ماء الحياة في الحيا
الوسيم، أكسبهم النيل تلك الحلاوة، وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه
الطلاوة، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الأنعام، الأعمار،
ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما أحتجب من الأسرار، خلف الأستار .

والسيف ما لم يلف فيه صيقل * من طبعه لم ينتفع بصقال

فيا لها غنمة لم يوجف عليها من خيل ولا ركاب، ولم يزحف إليها بعد وعيدة^(١)
ولا بلحاق لاحق وأنسكاب سكاب، فلذلك صرفوا همهم إلى العلوم التي هي
نتيجة أو مادة لعلم البيان، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن“ . ثم قال :
”وأما أهل بلاد الشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم، ولا سيم العلوم العقلية
والمنتطق، فاستوفوا همهم الشاخنة في تحصيله، وأستولوا بجدهم على جملة وتفصيله .
ووردوا مناهل هذا العلم فصّدروا عنها بملء سجلهم، وكيف لا وقد أجلسوا عليه
بجيلهم ورجلهم . فلذلك عمروا منه كل دارس، وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد
عنه الحارس . وبلغوا عنان السماء في طلبه، ولو كان الدين في الثريا لئالة رجال من

(١) أي نوق نجائب منسوبة إلى بني العبد حتى من العرب . ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران .
انظر اللسان .

فارس". إلى أن خرج عنهم المفتاح، فكأن الباب أغلق دونهم، وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح، فكأنما حيل بينه وبينهم . وأدارت المنون على قُطْبهم الدوائر، فتعطلت بوفاته من علومه أفواهُ المخابر وبُطون الدفاتر . وأنقطعت زهراهم الطيبة عن المقتطف، وتسَلَّط على العُضد لسان من يعرف "كَيْفَ تُؤَكِّلُ الكَتِفَ" . فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة رحمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مَحَضَ هذا العلم فألقى للطالب زُبْدته، ومَحَضَ النصح فنشر على أعطاف العارى بُرْدته، ولا حملت قبول القبول إلينا عنهم بطاقه، ولا حصلت للتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقه، ولا رأينا بعد أن أنطمست تلك الشموُسُ المشرقة، وأندرست طبقة تحترى الفرقه، ولم يبق إلا رسوم هي من فضائلهم مسترقه . مَنْ أطلع غُصْنُ قلمه من روض الأذهان زهرة على ورقه، ولا من علق شنه بطبقتهم فيقال وافق شُنْ طبقه، بل ركزت بينهم في هذا الزمان ريحه، وخبث مصابحه، وناداهم الأدب سواكم أعني: و"رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ دَعْنِي" .

وما بعض الإقامة في ديارٍ * يَهَانُ بها الفتى إلا بلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل، وآذن بالتحول .

وإذا الكريم رأى الخمولَ نزيله * في مَترَلٍ فالرأى أن يتحول

وفزع إلى مصر فألقى بها عصا التسيار، وأنشد من نادى من تلك الديار .

أقمت بأرضٍ مِصرَ فلا ورأى * تحبُّ بي الركبُ ولا أَمَامِي

ولقد أحسن رحمه الله في بيان السبب، والتعويل في أنجبال أهل مصر على هذا العلم على علاقة الصهر والنسب . حيث قال في أوائل خطبته في أثناء الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما خفقت للبلاغة راية

مجد في بنى غالب بن فهر ، وتعلقت بأزمة الفصاحة أهل مصر : لما لهم من نسب وصهر” .

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه ” حسن التوسل إلى صناعة الترسل“ : وهذه العلوم وإن لم يضطرَّ إليها ذو الذهن الناقب ، والطبع السليم ، والقرينة المطاوعة والفكرة المنقحة ، والبديهة الحجيبة ، والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني ، وصناعة الكلام ؛ يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويختير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب” .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاتب العارفين عن هذه العلوم قاصران عن أدنى رتب الكمال يحيدان ، ولا يدريان كيف يُحييان . فلو سئل كل منهما عن علة معنى استحسنه أو لفظ استحلاه أو تركيب استجاده ، لم يقدر على الإتيان بدليل على ذلك .

وقد حكى الإمام عبد القادر الجرجاني قال : ” ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له : إني أجِدُ في كلام العرب حشواً — فقال له أبو العباس في أيّ موضع — قال : وجدت العرب تقول عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس : لا ، بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب على إنكار منكر قيامه ، فما أحرار المتفلسف جواباً . فإذا ذهب مثل هذا على الكندي فما الظن بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم في أمثاله بالقلوب غير الذوق الصحيح كما قال الشاعر :

شَيْءٌ بِهِ قُتِرَ الْوَرَى غَيْرُ الَّذِي * يُدْعَى الْجَمَالَ وَلَسْتُ أُدْرِى مَا هُوَ
لكن الغالب فى الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتعليل مواد تمكينه . ويُجاب
عن العلة فى انحطاطه وارتفاعه ، ويذكر المعنى فى ارتقائه من حضيض القول
إلى يَفَاعه .

قلت : وهذا العلم وإن شُحِنَ أئمةُ الكُتُبِ ^(١) — كما قال أبو هلال العسكري فى كتابه
”الصناعتين“ والوزير ضياء الدين بن الأثير فى ”المثل السائر“ والشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي فى ”حسن التوسل“ فإنه ليس مختصا بفن الكتابة بل هو آلة لكل
كلامٍ آتضى البلاغة ، كما أن المنطق آلة لكل العلوم العقلية ، التى يُحتاج منها إلى
تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنّفات فيه كالرّمّانى والجرجانى وغيرهما ، وأكثر اعتماد
أهل الزمان فيه على تلخيص المفتاح للقاضى جلال الدين القزوينى فأغنى ما وضع
فيه عن إirاده هنا .

المقصود الثانى

(فى كيفية انتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طرقها ، أتى فى كلامه بالسحر الحلال ، وصاغ
من ألفاظه ومعانيه ما يقضى له بالفصاحة التامة ، والبلاغة الكاملة ، من وجوه تحقيق
الكلام ، وتحسينه وتدبيجه وتنقيحه . وإذا فانت هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها ،
نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك . ثم كما يحتاج إلى هذه العلوم بطريق
الذات ، كذلك يحتاج إليها بطريق العرض من جهة المعرفة بالبلقاء الذين يضرب

(١) لعله وإن شُحِنَ به أئمة الكُتُبِ كتبهم وحرر .

بهم المثل في البلاغة كقُتس بن ساعدة ، وسحبان وائل ، وعمرو بن الأهتم ، ونحوهم من بلغاء العرب ، وابن المقفع ونحوه من المحدثين . وكما قيل في عيِّ باقل - وهو رجل انتهى به العيُّ إلى أنه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً ، فسأله سائل في الطريق ، وهو ممسك الظبي : بكم اشتريته ؟ فلم يُحسن التعبير عن أحد عشر ، ففزق أصابعه العشرة وأخرج لسانه مشيراً إلى أحد عشر فتفطت الظبي وفزهارباً - . وكعرفة أئمة الصناعة : كالجرجاني والرَّماني . وكذلك المعرفة بالأسماء التي أُصطلح عليها أهلها : من الفصل ، والوصل ، والتشبيه كما تقدم ، والمقابلة ، والمطابقة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما احتياجه إلى المعرفة بأسماء البلغاء ولغة أهل الصناعة ، فلائنه ربما احتاج إلى تفضيل بعض من يكتب له ممن يُنسب مثله إلى البلاغة فيفضله بمساواته لبليغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنعة : كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير في ذم كاتب : هَذَا وهو يدعى أنه في الفصاحة أئمة وحده ، ومن قُتس بإياد وسحبان وائل عنده ؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفاً له :

أَتَانَا وَمَا دَانَاهُ سَحْبَانُ وَائِلٌ * بَيَانًا وَعِلْمًا بِالذِي هُوَ قَائِلٌ

فَمَا زَالَ عِنْدَ اللَّقْمِ حَتَّى كَانَهُ * مِنَ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقِلُ

ومما أتى على ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولِي في كلام قليل جاء ذكره في آخر رسالة كتبتُ بها في تقرير المقتر الفتحي ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية - وهو : "على أني أستقيل من التقصير في إطرائه ، والتعرض في مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو أن الحافظ نصيري ، وابن المقفع ظهيري ، وقُتس بن ساعدة يسعدني ، وسحبان وائل يُنحِدني ، وعمرو

أَبْنِ الْأَهَمِّ يُرْشِدُنِي ؛ لَكُنْ اعْتِرَافِي بِالتَّقْصِيرِ أُلْبَغُ مِمَّا آتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالْقُصُورِ أَوْلَى ؛ مِمَّا أَخْفِيهِ ، مِنْ تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ ” .

وَأَمَّا أَحْتِاجُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَلْفَاظِ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ ، فَلَا نَهَ رَبَّمَا وَرَى بِهَا فِي تَفَاصِيلِ كَلَامِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ — كَمَا كَتَبَ الشَّيْخُ زَيْنُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَجْمِيِّ عَلَى الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي نَظَّمَهَا عَيْسَى الْعَالِيَةُ الشَّاعِرُ ، مُضَاهِيًا بِهَا بِدِيعَةَ الصَّفْحَى الْحَلَّى فَقَالَ :

”وَبَعْدُ فَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى هَذِهِ الْمَعِجَزَةِ الَّتِي أَحْيَا بِهَا عَيْسَى مَيِّتَ الْبَدِيعِ ، وَجُودَ مَا شَاءَ فِيهَا مِنَ التَّصْرِيعِ وَالتَّرْصِيعِ ، وَرَقْمَ لَأَعْطَافِهَا حُلَّ التَّوْشِيعِ وَالتَّوْشِيعِ ، وَنَظْمَ لِأَجْيَادِ أَيْبَانِهَا فَرَائِدَ الْمَعَانِي الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ بَحْرِ فِكْرِهِ عَلَى يَدِ يَرَاعَةِ الْمُرِيعِ ، وَقَلْدَهَا مِنْ دُرَرٍ لَفْظَةٍ بِمَا هُوَ أَزْهَى مِنْ زَهْرِ الزُّهْرِ عَلَى نَهْرِ الْحَجَرَةِ وَهَالَاتِ الْبُدُورِ ، وَشَفَّ الْمَسَامِعَ مِنْهَا بِمَا هُوَ أَبْهَى مِنَ النُّورِ فِي الْعُيُونِ وَأَوْقَعَ مِنَ الشِّفَاءِ فِي الصُّدُورِ ؛ وَأَوْجَلَ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ بِمَا طَرَسَ بِهِ الطُّرُوسُ ، وَأَطْلَعَ فِي ذَلِكَ اللَّيْلِ مِنْ نَاصِعِ مَعَانِيهِ نَجُومًا تُرْهِى عَلَى الشَّمُوسِ ، وَأَوْدَعَ الْمَهَارِقَ شُدُورًا تُزَيِّفُ ذَهَبَ الْأَصْوَافِ ؛ وَتُسْفِرُ عَنْ وَجْهِهِ حَسَانَ تَفُوقِ ابْتِسَامِ تُغُورِ الْأَزْهَارِ بَيْنَ الْخَمَائِلِ ؛ وَسَلَكَ فِي الْبَدِيعِ طَرِيقَةَ مُثَلًى ، أَظْهَرَ فِيهَا مِنْ شَهْدِ أَلْفَاظِهِ وَجَوَاهِرِ مَعَانِيهِ مَا حَلَا وَحَلَّى ؛ وَلَمْ يَدَعْ لِلْحَلَّى فِي بَهْجَتِهَا مَحَلًّا ؛ وَأَحْسَنَ التَّنْذِيلِ وَالتَّرْشِيعِ وَالتَّهَكُّمِ عَلَيْهِ ، مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ لِمَا أَهْمَلَهُ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَيْهِ ؛ وَعَادَتِ الْمَعَانِي تَأْوِي مِنْ حُسْنِ تَصْرِفِهِ إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ ، وَتَحْوِي بِشَبَابِ أَقْلَامِهِ كُلِّ مَارَامِهِ مِنْ تَأْبِيدِ التَّأْيِيدِ ؛ وَتَلْقَى مَقَالِيدَهَا مِنْهُ إِلَى مَلَى بِحَسَنِ التَّحْيِيلِ وَالتَّحْوِيلِ فِي نَظْمِهِ وَثَرَهُ ، وَتَحْكَمُ لِمَنْ حَكَمَ لَهُ بِكَمَالِ وَصْفِهِ وَوَصَفَ كَمَالَهُ بِأَنَّهُ نَسِيجُ وَحْدِهِ وَفَرِيدُ عَصَرِهِ ؛ وَأَجْرَى فِي حَلْبَةِ الْبَدِيعِ جِيَادَ أَقْلَامِهِ فَخَازَ قَصَبَ الرَّهَّانِ ، وَأَصْفَى لَهَا مَوَارِدَ النَّفْسِ فَارْتَوَتْ وَأَسْتَخْرَجَتْ مِنْ طُلُمَاتِهِ جَوَاهِرَ الْبَيَانِ ؛ وَنَطَقَتْ بِمَا هُوَ

المالوف من غرائب حِكْمِهِ الحسان ؛ وتأملتُها فوجدتها قد أجاد فيها براعة المَطْلَع ،
وبالغ في تحسين المَتَرَعِ والمَقْطَع ؛ ودخل جنان الجناس فاجتنى من قُطوفها الدانية
ماراق ، وأطردت له أنهارها فاستطرد منها في أعلى الطَّبَاق ؛ وقابل وجوه حُورها
أحسن المقابلة ، آمنّا فيها من الاشتراك والمثالة ؛ وأوضح الفُروق بين التَّوْرِيَةِ والإِبْهَامِ ،
والتوجيه والاستخدام ؛ وأبان في التسميم نقص أبي تَمَّام ، وأوجب في إِبْهَامِهِ
عقدَ الخناصر على نظمه ، وفوض بزاهته التسليم له وطلبَ سَلَامِهِ ؛ ولم يقنع بما فيه
الاكتفاء من التذليل والتذنيب ، بل أتى في الاستدراك على من تقدّمه بالعجب
العجيب ؛ معتمداً في تكميل مقاصده الاقتصار والإيجاز ، ولو ادعى الإعجاز على
الحقيقة لا المجاز لجاز ؛ وتحققت أن ليس له في هذا الفن مُقَاوِلا ومقاوم ، ولا مساوٍ
ولا مساوم ؛ فكم جلب من بحر براعته دُرّةُ أشرقت في ليالي الفترة المسوّدّة ، وكم
حلب من ثدى يراعته دِرّةٌ لها ألف زُبْدَةٍ ؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع
البحرين ، وسمع ورأى من فضله الجزل وفضله الجزيل ما هو عين المراد ومراد
العين ؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وأبتكاره صَبَاحُ الوجوه الصُّباح ، وخفّق
في الخافقين لمقاصده وبصائر جناح النجاح . قد أصبحت كلماته نُحُصُور الفرائد
مَنَاطِق ، ولبُدُور الفوائد مَشَارِق ؛ وإطلائع أسرار المَبَانِي ، آلات ، ولمَطَالع أُنُفُوس
المعاني ، هالات ؛ وقد وقعت حين وقعت على بديعته هذه بين دأين كل منهما
الأخطر ، وبين أمرين أمرين كل منهما الأعسر ؛ إن لم أكتب عليها شيئاً فقد
أخللت بالفرض الواجب ، وإن كتبت فقد فضحت نفسي وعرضتها للعائب ؛
ولكني رُحْتُ على ظُلُمِي متعاملاً ، وغدوتُ على حسب طاقتي في هذا الباب قائلاً :

(١) الدرة بالفتح المرة وبالكسرية الدر وكثرته . مصباح [وقد أعجم الذال في الأصل وهو من إهمال

عَاشَ الْبَدِيعُ وَكَانَ مَيِّتًا وَأَنْتَى * بَادَى الْمَحَاسِنِ زَاهِيًا مَحْرُوسًا
أَحْيَاهُ عَيْسَى نَجْلُ حَجَّاجٍ وَكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أَحْيَاهُ قَدَمَا عَيْسَى

النوع السادس

(حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان احتياج الكاتب إلى ذلك في كتابته)

قال في "حسن التوسل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالى، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبر معانيه، حتى لا يزال مصورًا في فكره، دائرًا على لسانه، مثلًا في قلبه ليكون ذا كراه في كلامه وكل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى قيام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وكفى بذلك مُعِينًا له على قصده، ومُغْنِيًا له عن غيره. قال تعالى ﴿مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. قال في "المثل السائر" كان بعضهم يقول: لو ضاع لي عقل لوجدته في القرآن الكريم. قال في "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلًا سأل بعض العلماء أين تجد في كتاب الله معنى قولهم "الجار قبل الدار"؟ قال في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختلف في جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم في المكتبات ونحوها: فذهب أكثر العلماء إلى جواز ذلك ما لم يُحَلَّ عن لفظه ولم يتغير معناه . فقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب في كتابه إلى هرقل ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله مسلمون ؛ وروى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عهده لعمر بن الخطاب ﴿وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ . وَسِعِلَّمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْلِبُونَ﴾ على ما سيأتي في ذكر عهود الخلفاء عن الخلفاء إن شاء الله تعالى .

وكتب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في آخر كتاب إلى معاوية "وقد علمت مواقع سيوفنا في جدك وخالك وأخيك" ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ . وقال للغيرة ابن شعبة لما أشار عليه بتولية معاوية ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ .

وكتب إلى عامل من عماله بعد البسملة ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ . وقال الحسن بن علي لمعاوية حين نازعه في الخلافة ﴿وإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ . ويروى عن ابن عباس مثله . وكتب الحسن إلى معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وكافة للناس أجمعين ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

وكتب محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي إلى المنصور في صدر كتاب ﴿طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ؛ تَتْلُو عَلَيْهِ مِنْ نَبِيِّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَنُزِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . ولم يزل العلماء وفضلاء الكتاب يستشهدون بالقرءان الكريم في مكاتباتهم في القديم والحديث ، من غير تكبر ؛ وذلك كله دليل الجواز . ونقل عن الحسن البصري ما يدل على كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر على رجل آستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان: بلغني أن أمير المؤمنين عطس فشمته من حضر فرد عليهم **(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا)** . قال في "حسن التوسل" : وإذا صححت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره على الحجاج لكونه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه مثل قوله **(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)** وقوله **(بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)** ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله تعالى .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال في "المثل السائر" وإذا ضُمَّتْ الآياتُ في أماكنها اللاتقة بها ، وموضعها المناسبة لها ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق . قال في "حسن التوسل" : ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجّة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال في "حسن التوسل" : وأين قول العرب - القتلُ أنفى للقتل - لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى من قوله تعالى **(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)** . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك فقرأ عليه **(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ)** فعيسى ابن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض ، وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة .

فمن أخصر ما وقع في ذلك وأبلغ أنه كان على الروم بهرقلة في أيام الرشيد امرأة منهم ، وكانت تُلَاطِفُ الرشيد ولها ابن صغير ، فلما نشأ فوضت الأمر إليه فعاث

وأفسد وخاشن الرشيد؛ فخافت على ملك الروم فقتلت ولدها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يَقْفُور فقتلها وأستولى على الملك وكتب إلى الرشيد: أما بعد، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه، ووضعت نفسها موضع الرُخ، وينبغي أن تعلم أني أنا الشاه وأنت الرُخ فأد إلى ما كانت المرأة تؤدي إليك! فلما قرأ الكتاب . قال للكتاب : أجيئوا عنه فأتوا بما لم يرتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا . فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى يَقْفُور كلب الروم . أما بعد، فقد فهمت كتابك، والجواب ما تراه لا ماتسمعه، والسلام على من أتبع الهدى .

ثم خرج في جمع له لم يُسمع بمثله فتوغل في بلاده وفك وسي . فأوقد يَقْفُور في طريقة نارا شديدة فخاضها محمد بن يزيد الشيباني، وتبعه الناس حتى صاروا من ورائها؛ فلما رأى يَقْفُور أنه لا قبل له به، صالحه على الجزية يؤديها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته .

وكتب ملك الروم إلى المعتصم يتوعده ويتهده فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه فلم يُعجبه مما كتبوا شيء فقال لبعضهم اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ماتسمع (وسيعلم الكافر لمن عُقبى الدار). هذا مع ما ينسب إليه المعتصم من ضعف البصر بالعربية كما تقدم في الكلام على اللغة . ولا يستكثر مثل ذلك على الطبع السليم، والرجوع إلى سلامة العنصر وطيب المختد .

ومثل ذلك في الجواب وأخصر منه أن الأدفونش ملك الفرنج بالأندلس . كتب إلى يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيره يقال له

آبَنَ الْفَخَارِ : بِأَسْمِكَ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةِ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ
 آبَنَ مَرْيَمَ الْفَصِيحِ ، أَمَا بَعْدُ : فَلَا يَخْفَى عَلَى ذِي ذَهْنٍ ثَاقِبٍ ، وَعَقْلٍ لَازِبٍ ، أَنِّي أَمِيرُ
 الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّكَ أَمِيرُ الْمَلَّةِ الْخَنَفِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ رُؤَسَاءُ جَزِيرَةِ
 الْأَنْدَلُسِ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالتَّوَاكُلِ وَالْإِخْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ وَأَنَا أَسُومُهُمُ الْخُسْفَ وَأُخْلِي
 مِنْهُمْ الدِّيَارَ ، وَأَجُوسُ الْبِلَادَ ، وَأَسْبِي الذَّرَارِيَّ ، وَأَقْتُلُ الْكُهُولَ وَالشُّبَّانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 دِفَاعًا ، وَلَا يُطِيقُونَ آمْتِنَاعًا ، فَلَا عَذْرَ لَكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنْ نَصْرِهِمْ ، وَقَدْ أَمَكَّتَكَ يَدُ
 الْقُدْرَةِ ، وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُمْ قِتَالَ عَشْرَةٍ مِنْ بَوَاحِدٍ مِنْكُمْ ،
 وَالْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَلْتَقَاتِلْ عَشْرَةٌ مِنْكُمْ الْوَاحِدَ مِنْهَا ،
 ثُمَّ بَلِّغْنِي أَنَّكَ أَخَذْتَ فِي الْإِحْتِفَالِ ، وَأَشْرَفْتَ عَلَى رِبْوَةِ الْإِقْبَالِ ، وَتَمَاطِلَ نَفْسِكَ عَامًا
 بَعْدَ عَامٍ : وَأَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُوَخِّرُ أُخْرَى ، وَلَسْتَ أَدْرِي إِنْ كَانَ الْجُبْنُ أَبْطَاكَ
 أَوِ التَّكْذِيبُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ، ثُمَّ حُكِيَ لِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ إِلَى الْجَوَازِ سَبِيلًا لَعَلَّ
 لَا يَجُوزُ لَكَ التَّفَخُّمُ بِهِ مَعَهَا ؛ فَأَنَا أَقُولُ مَا فِيهِ الرَّاحَةُ لَكَ ، وَأَعْتَذِرُ لَكَ وَعَنْكَ ، عَلَى
 أَنْ تَقْبَلْ لِي بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الرِّهْنِ ، وَتَرْسِلَ إِلَيَّ بِجَمَلَةٍ مِنْ عِبِيدِكَ
 بِالْمَرَكَبِ وَالشَّوَانِي ، وَأَجُوزَ بَجَهْلِي إِلَيْكَ ، وَأَبَارِزُكَ فِي أَعْرَ الْأَمَاكِنِ عَلَيْكَ ؛ فَإِنْ كَانَتْ
 لَكَ فَغَنِيمَةٌ وَجَّهْتَ إِلَيْكَ ، وَهَدِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَإِنْ كَانَتْ لِي كَانَتْ
 يَدِي الْعُلْيَا عَلَيْكَ وَأَسْتَوْجِبُ سِيَادَةَ الْمَلَتَيْنِ ، وَالْحَكْمَ عَلَى الدِّينَيْنِ ، وَاللَّهَ تَعَالَى يَسْهِّلُ
 مَا فِيهِ الْإِرَادَةُ ، وَيُوفِّقُ لِلْسَّعَادَةِ ؛ لِأَرْبٍ غَيْرِهِ ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ .

فكتب رحمه الله جوابا على أعلى كتابه ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَهُمْ يُجَنُّوْا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

(١) كذا في الأصل بالقاء والحاء المعجمة و يظهر أنه تصحيف عن التثنية بالقاف والحاء المهملة
 والتثنية في الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب كتب إلى الديوان العزيزبيغداد كتابا يعدد فيه موافقه في إقامة دعوة بنى العباس بمصر . فكتب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بِلِ اللَّهِ مِنْكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصد الثاني

(في كيفية استعمال آيات القرآن الكريم)

وَأَعْلَمُ أَنْ تَضْمِينَ الْكَلَامَ بَعْضُ آيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ إِلَى قَسْمِينَ :

أحدهما - الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وهو أقلهما وقوعاً في الكلام ودوراناً في الاستعمال : وهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم وينبه عليه مثل قول الحريري في مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وقول أبي إسحاق في عهدٍ لملك عن خليفة بعد الأمر بالتقوى والحث عليها : فإذا أطلع الله منه على نقاء جيبه ، وطهارة ذيله ، وصحة مروءته ، واستقامة سيرته ، أعانه على حفظ ما استحفظه ، وأنهضه بثقل ما حمله ، وجعل له مخلصاً من الشبهة ، ومخرجاً من الحيرة . فقد قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وقال عز اسمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى أي كثيرة حصنها على كرم الخلق ، وأسلم الطرق ، فالسعيد من نصبها رأى ناظره ، والشقي من نبذها وراء ظهره ، وأشقى منه من يحث عليها وهو صائد عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وأكثرُ مشى الصابى في كتابه على هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه على آى القرآن في خلال كلامه، دون الإشارة إليه؛ والاقتصار على اقتباس معناه.

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قدمة كتب بها لمظفر الدين موسى بن أقوش وقد صرع لغلغة، وأدعى بها للملك المؤيد صاحب حماه: نحمده على توفيقه الذى ساد به من ساد وسماء، وأصاب بتفويقه بمعونة ربه طير السماء، فحسن أن يتلى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام على فضل الكتابة: فقد نطق القرآن الكريم بفضلها، وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخبر تعالى أنه علم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذانا بأن منحتها من أوفر جوده وفائض ديمه؛ وقال جلّت قدرته ﴿بِالنَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتى بذلك فى أكد قسم، فكان من أعظم الأقسام. وقال جلّت عظمته ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾. فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما منعتها النبىُّ صلى الله عليه وسلم معجزة قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ آ كَتَبْتَهَا﴾.

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقرّ البدرى بن فضل الله:

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدم المظفر بعد صرع العدو المسى لغلغة.

قلت حَسْبُكَ قد دُلّني عليه عُرْفُهُ ، وأرشدني إليه وَصْفُهُ ؛ وبأن لي مَحْتَدُهُ الفَاخِرُ
وَحَسْبُهُ الصَّمِيمُ ، وعرفت أصلَهُ الزَّاكِيَ وفرعَهُ الكَرِيمُ ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقولي في اختتام هذه المقامة معبراً عن المقرّ البدرى المشار إليه : فلما تحققت
أنى قد أثبت في ديوانه ، وكنت من جملة غلمانهِ ، رجعت القهقري عن طلب
الكسب ، وتساوى عندى المحل والخضب ؛ فأستغنى بنظرى إليه عن الطعام
والشراب ، وتحققت أن نظرة منه تُرقّيني إلى السحاب ، وتلوت بلسان الصدق على
الملا وهم يسمعون ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

وقولي في بيعة خليفة أنشأتها بعد ذكر تخليف أهل البيعة : وأشهدوا عليهم بذلك
من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام ، والشهود والحكام ، وجعلوا الله على
ما يقولون وكلاماً ، فأستحق عليهم الوفاء بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضاعف
لهم بحسن نيتهم الأجور ، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم من أشار تعالى إليه بقوله
﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وقولي في بيعة أخرى : والله يجعل أنتقالهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى
يمينى ، ويحقق لهم بمن آستخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثانى - الاقتباس وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن، ولا ينبه عليه :
كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده على فواضل زادت محاسن العلوم . وعرفت
تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك :
وسماء الشبيبة بضحي المشيب قد تجلّت ، والنفس قد ﴿ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

وقول ابن نباتة السعدى فى بعض خطبه : فىأياها الغفلة المطرقون . أما أتم
بهذا الحديث مُصدّقون . ماكم لاتسمعون . ﴿ فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلُ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين
لنار جهنم وقوداً . يوم تكونوا ^(١) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .
﴿ يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا مَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أظنون أنكم دون غيركم محلّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إِلَّا كَلَامُ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبَ ﴾ . حتى أنشد فأغرب .
وقوله : ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليه .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى فصل من كتاب فى مدح الجود وذم البخل :
وقد علم أن المال الذى يُحْتَرَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُن بتعطيل
الأيدى عن امتياح مشاربه . فكذلك يَأْجُن هذا بتعطيل الأيدى عن امتناع ^(٢)
مواهبه . وأى فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تُملك به القلوب . وتُفلّ به الخطوب .
ويُرْكَب به ظهر العزم الذى ليس برُكوب ؛ ومن بسط يده فيه ثم قبضها بجُله ، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .

(٢) لعله امتناع بالخاء المهملة .

يقف دون الرجال مغموراً . ويقعد عن نيل المعالي محسوراً . وإذا أدركته منيته مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً * وقوله في وصف كاتب : له بنت فكر ما تمخضت بمعنى إلا أبتجته من غير ما تمهله . و(أتت به قومها تحمله) . ولم تعرض على ملا من البلغاء إلا ألقوا أفلامهم أيهم يستعيروه لا أيهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي من عهد لسلطان : وجمع بك شمل الأمة بعد أن كاد يزيع قلوب قريي منهم ، وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم ، وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم فارهون (وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاجين : وجعل عدوه وإن أعرض بجوش الرعب محصوراً . وكفاه بالنصر على الأعداء التوغل في سفك الدماء فلم (يسرف في القتل إنه كان منصوراً) . وقوله في خطبة صداق في وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضى دينهم . وجمع بين متفرقين (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) . وقوله من توقيع بإمامة صلاة : وليعلم أنه في المحراب مناج لربه . واقف بين يدي من (يحول بين المرء وقلبه) .

وقولى في خطبة هذا الكتاب في الإشارة إلى فتح الديار المصرية : فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق نجاسوا خلال الديار ، وعمرها وسهلها . وأقطعتها أيدي المسلمين من الكفار ، وكانوا أحق بها وأهلها . وقولى في المقامة المتقدمة الذكر : قال إذن قد تعلقت من الصنعة بأسبابها . وأنت البيوت من أبوابها . وقولى فيها : قلت قد بانت لى علومها . فما رسومها ؟ — قال إن أعباءها لباهظة حملا . وإنها لكيرة إلا . ولكن سأحدث لك ذكراً . وأنبئك بما لم تحط به خبراً .

وقولى فى المفارقة بين السيف والقلم فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على
سائر الدول . وكرعت فى دماء الكفر سيوفهم فعادت بخلق النصر لا بجمرة النجل .
صلاة ينقضى دون أنقضائها تعاقب الأيام . وتكل السنة الأقالم عن وصفها
ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .

وربما اقتصر على التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضى الفاضل فيما كتب به
عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الديوان العزيز ببغداد فى الاستصراخ
وتهويل أمر الفرنج : رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى ، وهاهى فى سبيلك مبذوله ،
وأنى وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غبار الحرب : وعقد العجاج سقفا فانهقد .
وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد . غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد . وزينت
بشجوم الصعاد . ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق . ومنها تُقَدَفُ
شياطين الحرب لا شياطين الأستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : ”والطريق فى استنباط المعانى من
القرآن الكريم وأستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمد إلى سورة من القرآن ،
وتأخذ فى تلاوتها وكلما مر بك معنى أثبتته فى ورقة مفردة حتى تنتهى إلى آخرها ،
ثم تأخذ فى أستعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلما عاودت
التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى ما لم يظهر لك فى المرة التى قبلها“ .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الأستعمال على عدة وجوه يورده النائر
فى معنى ثم ينقله لمعنى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالى حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ . فقال في دعاء كتاب : وصل كتاب من الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقرها . ثم أبرزه في معنى آخر فقال أكرم النعم ما كان فيه ذكرى للعابدين . وتقدمه إلى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير . وتجلو ظلمة الخطب بإيضاح المنير . فأنظر إلى أثر رحمة الله كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثم نقله إلى معنى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنين أدنى مجلسه من سمائه ، وآتسه على وحدة الأفراد بحفل نعائه . ورفعته حتى ودّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه . وذلك مقام لا تستطيع الحدود أن ترقى إلى رتبته . ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته . فليردد إعجابا بما نالته من مواطئ أقدامه ، ولينظر إلى سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه .

قال في "حسن التوسل" والناس في استخراج المعاني من القرآن الكريم ، وأستعمالها في الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم . ففطر في الحسن ومفترط وفوق كل ذي علم عليم .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقبض من معانيه كذلك يحتاج إلى معرفة العلوم المختصة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ، ومعرفة رجالها ، ومن أشهر منهم وعرف بجودة القراءة ، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم ، ليمثل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم ؛ في خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقاً لذلك كما قال في "التعريف" في وصية مقرئ في القسم الثالث من الكتاب :
 وليدُمْ على ما هو عليه من تلاوة القرآن ، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُربه ، وصَباح
 القبول المؤذن له برضا ربه ؛ وليجعل سُوره له أسواراً ، وآياته تظهر بين عينيه
 أنواراً . وليلتل القرآن بحروفه وإذا قرأ استعاذ ، وليجمع طُرقه وهي التي عليها الجمهور
 ويترك الشواذ . ولا يرتدّ دون غاية لإقصار ، ولا يقف فبعد أن أتمّ لم يبق بحمد الله
 إحصار ، وليتوسع في مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذل
 للطلبة الرّغاب ، وليشبع فإن ذوى النّهمة سغاب . وليُرّ الناس ما وهبه الله من
 الاقتدار فإنه آتضن السّبع ودخل الغاب ، وليتمّ مباني ما أتمّ ابن عامر وأبو عمرو
 له التعمير ، ولقّه الكسائي في كسائه ولم يقل جدّى ابن كثير ، وحُمّ به لحزمة أن يعودَ
 ذاهب الزمان ، وعرف أنه لا عاصم من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان ، وتدقق
 يتفجّر علماً وقد وقفت السيول الدوافع ، وضراً كثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم
 وهو نافع ، وليقبل على ذوى الإقبال على الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا
 من هو إليه قد أنتسب . وهو يعلم ما من الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النّماء ،
 ووصل سببه منه بجبل الله الممتد من الأرض إلى السماء . فليقدّر حق هذه النعمة
 بحسن إقباله على التعليم ، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهى وفوق كلّ ذي علم عليم .

النوع السابع

(الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال "في حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية ،
 والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ وخصوصاً في السير ، والمغازي ،

والأحكام؛ وتأمل فصاحتها، والنظر في معرفة معانيها وغريبها؛ وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها لينفق منها على سعة، ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحتاج بمكان الحجّة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبنى كلامه على أصل لا يزول، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت فيه الحجّة، وسلم له الخصم، وأدعى له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طلبت غايتها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم وقال: "أنا أفصح من نطق بالضاد".

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به في مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجموح ويستسهل الصعب، وقد رجع الأنصار يوم السقيفة إلى حديث "الأئمة من قریش" حيث رواه لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأذعنوا له، وبايعوه بعد ما اجتمعوا إلى سعد بن عبادة وقالوا: "منا أمير ومنكم أمير". على ما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله. ورجع عمر رضى الله عنه لحديث النهى عن دخول بلد الطاعون فعاد إلى المدينة بعد أن قارب الشام حين بلغه أن به الطاعون. وقال على رضى الله عنه في حق الأنصار: "لو زألوا لزلت معهم" لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أزول معكم حيث ما زلتم".

ثم الذى أشار إليه ابن قتيبة في "أدب الكاتب" أن الأحاديث التى ينبغى للكاتب حفظها الأحاديث المتعلقة بالفقه وأحكامه: كقوله صلى الله عليه وسلم: "البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه". والخراج بالضمان. وبجرح العجماء جبار.

(١) ولا يَغْلُقُ الرهنُ . والمنحةُ مردودة . والعارية مؤداة . والزَّعيمُ غارِم . ولا وصيةٌ لوارث . ولا قَطْعٌ في ثمرٍ ولا كَثَر . ولا قودٌ إلا بمحيدة . والمرأة تُعاقِل الرجل إلى ثلثِ دينها . ولا تعقِلُ العاقلةُ عمدا ولا عبدا ولا صلحا ولا أعترافا . ولا طلاقٌ بالرجال في إغلاق ، والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا . والجارُ أحقُّ بصقبة . والطلاقُ بالرجال والعدة بالنساء . وكنهيه في البيوع عن الخبارة والمحاقلة ، والمزانية ، والمعاومة ، والثنيا ، وعن ربحٍ ما لم يُضْمَن ، وعن بيعٍ ما لم يُقبَض ، وعن بيعتين في بيعة ، وعن شرطين في بيع ، وعن بيعٍ وسلف ، وعن بيع الغرر وبيع الموصافة ، وعن الكالئ بالكالئ ، وعن تلقى الركبان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطلاات الفقهاء .

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والافتباس من معانيه . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن يكون أول ما يحفظه من الأخبار ما تضمنه كتاب "الشهاب في المواعظ والآداب" للقضاعي ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكما وآدابا ، فإذا حفظته وتدرّبت باستعماله ، حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك نتصفح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، و"أهل مكة" أخبر بشعائرها . قال والذي تأخذه إن أمكنك

(١) الحديث في المصباح لا يغلُق الرهن بما فيه . أى لا يستحقه المرتهن بالدين الذي هو مرهون به .

درسه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة؛ وإن كان لك محفوظات كثيرة: كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه وما يأتي ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من استعمالها في كلامك، حتى ترتقم على خاطرك فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته، وسهل عليك أن تأتي به آرتجالاً؛ فتأمل ذلك وأعمل به. ثم قال وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها في الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشرين سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ منه عنى شيء.

المقصد الثاني

(في بيان كيفية استعمال الأحاديث والآثار في الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير: وأعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب كلامٌ فاستوعره واستنكره، وقال: هذا لا يتيأ إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا؛ بل يتيأ في الأكثر منها — فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أَنَّهُ اخْتُصِمَ إِلَيْهِ فِي جَنِينٍ فَقَضَىٰ عَلَىٰ مَنْ أَسْقَطَهُ بَغْزَةً عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ" فأين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو: "قد كثُر الجَهلُ حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل وضرب المثل بياقل وكم في هذه الصورة المثلثة من باقل، ولو عرف كل إنسان قدره لما مشى بدنً إلا تحت رأسه، ولا آتتصب رأسٌ إلا على بدنه، ولكان صاحبُ العامة

أحق بعلمته وصاحب الرسن أحق برسنه . وكنت سمعت بكاتب من الكتاب كلبه إلى غنائه ، وقلمه بُعَاثَه لا يَسْتَنْسِرُ وأى بطش لبُعَاثَه . وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين ، وجب عليه من سُبُل ثلاثة . هذا وهو يدعى أنه في الفصاحة أمة وحده ، ومن قُس إِيَادٍ أو سَحْبَانٍ وأئيل عنده ؛ وإذا كُشِفَ خاطره وجد بليدا لا يخرج عن العمه والكه ، وإن رام أن يستنجّه في حين من الأحيان قضى عليه بغرة عبد أو أمه ؛ وكثيرا ما يتقدم ونقيصته هذه على الأفاضل من العلماء ، وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيض الأرض على هام السماء . فلما أوردته عليه ، ظهرت أماره الحسد على صفحات وجهه مع إعجابه به واستغرابه فيه إياه .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو "لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا تمثال" فهذا أين يستعمل من المكتبات ؟ فترويت في قوله ترويا يسيرا ثم قلت : هذا يستعمل في كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأملت عليه الكتاب ، بخاء هذا الحديث في فصل منه ، وهو : "إذا أفاض الخادم في وصف ولائه ، نكصت همم الأولياء عن مقامه ؛ وعلموا أنه أخذ الأمر بزمامه ؛ فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والإيمان ، فهذا يظهر أثره في طاعة السر وهذا في طاعة الإعلان ؛ وما عداهما فإن دخوله إلى قلبه من الأشياء المحظورة ، والملائكة لا تدخل بيتا فيه تمثال ولا صورة ، فليعول الديوان العزيز منه على سيف من سيوف الله يقرى ، بلا ضارب ؛ ويسرى ، بلا حامل ؛ ولا يسئل إلا بيد حق ، ولا يغمد إلا في ظهر باطل . ولعلم أن كرشه وعيبته في تضمين الأسرار ، وأنه أحد سبغديه إذا عدت مواقف الأنصار" . فلما رأى هذا الفصل بهت له وعجب منه . قال : ولم أقنع بإيراد الحديث الذى ذكر حتى أضفت إليه حديثا آخر ، وهو قول النبی صلى الله عليه وسلم : "الأنصار كرشى وعيبتى" .

ثم تضمين الكلام شيئاً من الأحاديث على ما تقدم في القرآن الكريم؛ فينقسم إلى الاستشهاد والاقباس على ما تقدم .

فأما الاستشهاد فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث، وينبه عليه : كقول أبي إسحاق الصابى في وصية عهد من خليفة لسلطان : وأن يقوم بما يعقده الرجل من عرض المسلمين ، فإن ذمته ذمة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” المسالمون يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ” .

وكما كتب بغض الكتاب في صدر كتاب لديوان الخلافة : والحمد لله على أن صار إلى أمير المؤمنين ميراث الطاهرين من آبائه ، وخصه بما حازله من جريل الفضل وحبائه ، وحقق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعنه العباس رضوان الله عليه ” ألا أبشرك يا عم ! بي ختم النبوة وبولئك تحتم الخلافة ” . وكقوله من عهد آخر : وأمره أن يضع الرصد على من يختار في الحملة من أباقي العبيد ، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلى أن قال وأن يعرفوا اللقط ويتبعوا أثرها ، ويسيعوا خبرها ، فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها ، سلمت إليه ، ولم يعترض فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ” ضالة المؤمن حرق النار ” إلى غير ذلك من الاستشهادات .

وأما الاقتباسات فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث ولا ينبه عليه .
فن ذلك ، ما ذكره الحريري في مقاماته من قوله : وكتمان الفقر زهاده ، وانتظار الفرج بالصبر عباده . وقوله : شأيت الوجوه ، وقبح اللكم ومن يرجوه .
وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

فمن ذلك قوله في دعاء كتاب: "أعاذ الله أيامه من الغير، وبين بخاطر مجده نقص كل خطر . وجعل ذكره زاداً لكل ركب ، وأنساً لكل سمر . ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في وصف نعيم الجنة "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فنقله إلى الدعاء .

ومن ذلك ما ذكره في النصر على العدو في مواطن القتال ، وهو : "أخذنا بسنة رسول الله في النصر الذي نرجوه ، ونبذنا في وجه العدو كفاً من التراب وقلنا شأهت الوجوه؛ فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا، وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا" . أخذ المعنى الأول من حديث غزوة حنين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ قبضة من التراب وألقى بها في وجوه الكفار وقال : "شأهت الوجوه" . وأخذ المعنى الثاني من حديث غزوة بدر : وذلك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من المشركين وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتاً من فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "ذلك من مدد السماء الثالثة" .

ومن ذلك ما ذكره في ضيق مجال الحرب ، وهو : "وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ، وتصادفت الغرر بالغرر والصدور بالصدور . وأستظل حينئذ بالسيوف لأشتباك مجالها وتبوءت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلها" . أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت ظل السيوف" .

ومن ذلك ما ذكره في وصف بعض البلاد الوخمة ، وهو : "ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينه ، مجموع لها بين حرمكة ولأواء المدينة . إلا أنها لم يؤمن

حَرْهَا مِنْ الْخَطْفَةِ، وَلَا تُقِلْتُ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ . أَخَذَ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَا وَاءِ الْمَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ" . وَالْمَعْنَى الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ لِلْمَدِينَةِ : "اللَّهُمَّ حَبِّبْهَا إِلَيْنَا كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ وَأَنْتَ قُلُّ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ" . وَرُشِعَ ذَلِكَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ حَيْثُ قَالَ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يُؤْمِنَ حَرْهَا مِنْ الْخَطْفَةِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ فِي وَصْفِ كَرِيمٍ ، وَهُوَ : "فَأَعْنَى بِجُودِهِ إِغْنَاءَ الْمَطَرِ ، وَسَمَّا إِلَى الْمَعَالِي سُمُّو الشَّمْسِ وَسَارَ فِي مَنَازِلِهَا مَسِيرَ الْقَمَرِ . وَنَبَّجَ مِنْ أَبْكَارِ فَضَائِلِهِ مَا إِذَا أَدْعَاهُ غَيْرُهُ قِيلَ لِلْعَاهِرِ الْجَحْرَ" . أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْجَحْرُ" . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَقْتَبَسَاتِهِ الْمُسْتَكْثَرَةِ ، وَأَسْتَنْبَاطَاتِهِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ قَاصِرَةٍ وَلَا مُسْتَنَكَّرَةٍ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ أَنَا فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ ، وَهُوَ : "وَبَدَأَ الْقَلَمُ فَتَكَلَّمَ ، وَمَضَى فِي الْكَلَامِ بِصَدَقِ عَزْمٍ فَمَا تَوَقَّفَ وَلَا تَلَعَّمْ ؛ فَقَالَ بِأَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَسْتَفْتَحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَيْتُنْ وَأَسْتَجِجُ ؛ إِذَا مِنْ شَأْنِي الْكِتَابَةِ ، وَمِنْ فَنِّي الْخَطَابَةِ ، وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِأَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْذَمُ ، وَكُلُّ كَلَامٍ لَا يُفْتَتَحُ بِحَمْدِ اللَّهِ فَأَسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ" . أَخَذْتُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِأَسْمِ اللَّهِ أَوْ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَجْذَمُ" عَلَى آخْتِلَافِ الرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى حِفْظِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ بِطَرِيقِ الذَّاتِ لِلْإِسْتِشْهَادِ بِهَا ، وَالْإِقْتِبَاسِ مِنْ مَعَانِيهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ : كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنْوَاعِ الْحَدِيثِ وَأَقْسَامِهَا : كَالصَّحِيحِ ، وَالْحَسَنِ ، وَالْمُرْسَلِ ، وَالْمَرْفُوعِ ، وَالْمُسْنَدِ ، وَالْمُتَّصِلِ ، وَالْمُنْقَطِعِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمَعْرِفَةُ بِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَالْمَشَاهِيرِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ :

كالبخارى، ومسلم، وأبى داود، والنسائى وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك
 فى غُضُون كلامه عند احتياجه إليه فى كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدث ونحوه
 كما قال فى " التعريف " فى وصية لمحدث فى قسم الوصايا من الكتاب " وقد أصبح
 بالسنة النبوية مضطرباً ، وعلى ما جمعه طُرُق أهل الحديث مُطْلَباً ، وصح الصحيح
 أن حديثه الحسن ، وأن المرسل منه فى الطلب مقطوع عنه كل ذى لسن . وأن
 مسنده هو المأخوذ عن العوالى ، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى . وأن مثله
 لا يوجد فى نسبه المعرق ، ولا يعرف مثله للحافظين : ابن عبد البر بالمغرب وخطيب
 بغداد بالمشرق . وهو يعرف مقدار طلب الطالب فإنه طال ما شد له النطاق ،
 وسعى له سعيه وتجشم المشاق . ورحل له يشتد به حرصه والمطايا مزومة ، وينبهه
 له طلبه والجفون مقلقة والعيون مهمومة . ووقف على الأبواب لا يضجره طول
 الوقوف حتى يؤذن له فى ولوجها ، وقعد القرفصاء فى المجالس لا تضيق به فروجها .
 فيعامل الطلبة إذا أتوه للفائدة معاملة من جرب ، وليسط للأقرباء منهم ويؤنس
 الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونة من قريب وآونة تغرب . وليسفر لهم صباح قصده
 عن النجاح ، وليفتق لهم من عقوده الصحاح ، وليوضح لهم الحديث ، وليرخ خواطرهم
 بتقريبه ما كان يسار إليه السير الحديث ، وليؤتهم مما وسع الله عليه فيه المجال ،
 ويعانهم ما يجب تعليمه من المتن والرجال ، ويصبرهم بمواقع الجرح والتعديل ،
 والتوجيه والتعليل ، والصحيح والمعتل الذى تنتثر أعضاؤه سقماً كالعليل .
 وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عناية ، وما يُنقب فيه عن دراية أو يقنع فيه
 بجزء روايه . ومثله ما يزداد حلماً ، ولا يعرف بمن رخص فى حديث موضوع
 أو كتم علماً . وسيأتى ذكر هذه الوصية فى موضعها إن شاء الله تعالى .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرّسي الشام :
 ”ولأنه الحافظ الذي أحيا ذكر ابن نُقْطَة بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنى وحده
 دمشق عمن أتى في النسب بعساكر“ .

النوع الثامن

(الإكثار من حفظ خُطَب البلقاء، والتفنن في أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : ”وهي من آكد ما يحتاج إليه الكاتب ، وذلك أن
 الخطب من مستودعات سرّ البلاغة ، ومجامع الحكم ؛ بها تفاخرت العرب
 في مشاهدهم ، وبها نطقَت الخُلَفَاء والأمرء على منابرهم ؛ بها يُمَيِّز الكلام ، وبها
 يُخاطَب الخاص والعام ، وعلى منوال الخطابة تُسَجِّت الكتاب ، وعلى طريق الخطباء
 مَشَتْ الكُتَّاب . وقد قال أبو هلال العسكري رحمه الله في ”الصناعتين“ : والرسائل
 والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا
 من جهة الألفاظ والفواصل ، فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتَّاب في السهولة
 والعدوبة ؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل“ . قال : ”والفرق بينهما
 أن الخطبة يُشَافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة
 في أيسر كلفة“ .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غايةُ الاعتناء حتى قال صاحب ”الريحان
 والريعان“ : إن ما تكلمت به العرب من أهل المدّر والوبر من جيّد المنشور ومزْدَوِج

الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يُحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . لأن الخطيب إنما كان يُخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا آنقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد . قال : ” ولولا أن خطبة قُسن بن ساعدة كان سندُها مما يتنافسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فأطارذ كرها ، ما تميزت عما سواها “ .

قلت : وليس ما أشار إليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به ، بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضريهم وباديهم ، وخاصتهم وعامتهم ، بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصّاع : فلذلك عزَّ حفظُها وقَلَّ عنهم نقلُها . وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ، ورؤسائهم ممن فاز بقدح الفضل ، وسبق إلى ذرى المجد ، ويُحْصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويُثني عليه . ثم يذكّر ما سنع له من مطابق قصده وموافق طلبه : من وعظ يذكّر أو ونحر أو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خطبهم في الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جد النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل . وهي : اسمعوا وعوا ، وتعلموا وتعلموا ، وتفهموا تفهموا ، ليل ساج . ونهار صاج ، والأرض مهّاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك إلى بلاء ، فصلوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم من

(١) لعله صاج من قولهم ضجّ القوم بضجون إذا صاحوا وجلبوا . وفي الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ماتقولون، زينوا حرمكم وعظموه،
وتمسكوا به ولا تُفارِقوه، فسيأتى له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم . ثم قال :

نَهَارٌ وَلَيْلٌ وَأَخْتِلَافُ حَوَادِثٍ * سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلُوهَا وَمَرِيرُهَا
يُثْوَبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْوِبَا * وَبِالنَّعْمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سُورُهَا
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقْلُبُ أَهْلُهَا * لَهَا عُقْدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ * فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَيْرُهَا

ثم قال :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدُ فُخْوَاءَ دَعْوَتِهِ ! * حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْغِي الْحَقَّ خِذْلَانَا

ومن ذلك خطبة قُتُس بن ساعدة الإيادي ، بسوق عكاظ فيما نقله أصحاب
السَّيَر عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنه وهى : أيها الناس ! اسمعوا وعُوا، مَنْ
عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، لَيْلٌ دَاجٌ، وَنَهَارٌ سَاجٌ، وَسَمَاءٌ
ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنُجُومٌ، تَزْهَرُ، وَبَحَارٌ تَزْهَرُ، وَجِبَالٌ مُرْسَاهٌ، وَأَرْضٌ مُدْحَاهُ، وَأَنْهَارٌ مُجْرَاهُ .
إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا ! مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ .
أَرْضُوا فَأَقَامُوا، أَمْ تُرْكُوا فَنَامُوا . يُقْسِمُ قُتُسُ بِاللَّهِ قَسَمًا لَا إِثْمَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ دِينًا هُوَ أَرْضِي
لَهُ وَأَفْضَلُ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ؛ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ مِنَ الْأَمْرِ مَكْرًا ! . وَيُرْوَى أَنْ
قُتُسًا أَنْشَأَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ * ن مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا * لِلْوَيْ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا * تَمْضِي : الْأَكْبَرُ وَالْأَصَاغِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَايِرُ
أَقْنَبْتُ أَنِّي لَا مَحَا * لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

قال صاحب الأوائيل : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”يُعرضُ هذا الكلام يوم القيامة على قُوس بن ساعدة فإن كان قاله الله فهو من أهل الجنة“ .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خطب النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وهى : الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا . ثم إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أختى من لا يوازن بأحد إلا رجحه ، ولا يعدل بأحد إلا فضله ، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل ، وله فى خديجة رغبة ولها فيه مثلها ، وما كان من صداق ففى مالى ، وله نبال عظيم وخبر شائع .

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم ”أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى تُسبغ من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون ، نبؤهم أجدانهم ، ونأكل من ثراهم كأننا نخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة وأمنّا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيّه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا أكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وحاطأ أهل الذلّ والمسكنة ، طوبى لمن زكّت وحسنت خليفته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسّعته السنة ولم تسهوه البدعة !“

ومن خطب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس فى ”صناعة الكتاب“ وهى : ألا إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ، الملك إذا ملك زهده الله جلّ وعز فيما عنده ، ورغبه فيما فى يدي غيره ، وانتقصه شطر أهله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، وإذا وجبت نفسه ، ونصب عمره وصحّا ظله ،

حاسبه الله جل شأؤه وأشدّ حسابه، وأقلّ عفوّه؛ وسترون بعدى مُلْكًا عَصُوضًا، وأُمَّةً سِخَاحًا، ودَمًا مُبَاحًا؛ وإن كانت للباطل نزوةٌ، ولأهل الحق جولةٌ، يعفوها الأثر وتموت السنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن^(١)، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد التناظر.

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنّه أتى على حين وأنا أحسب أنّ من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده؛ ألا وإنه قد خيل إلى أن أقوما يقرءون القرآن يريدون ما عند الناس! ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأثينا به عليه!، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه!، اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها، فإنها لملقة، وإنكم إلّا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مرىء، وإن الباطل خفيف وىء، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة؛ ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلا!.

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تقديم بنى أمية على غيرهم: أمّا بعد فإن لكل شيء آفة، وآفة هذا الدين وعاهة هذه الملة قوم عيابون، طعانون، يظهرون لكم ما يحبون ويُسرون ما تكرهون. أما والله يامعشر المهاجرين والأنصار! لقد عيبتُم على أشياء ونقمتُم مني أمورًا قد أقررتُم لآبن الخطاب بمثلها ولكنه وقعكم وقما، ودمعكم حتى لا يجترئ أحد منكم يملأ بصره منه ولا يُشير بطرفه^(٢).

(١) كذا في الأصول بالشين المعجمة ولعله تصحيف عن التاء المثلثة في اللسان ونور القرآن يبحث عن معانيه وعن علمه. وأورد في ذلك حديث عبد الله أنثروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين. وحديث آخر. من أراد العلم فليتور القرآن. (٢) في غير هذا الكتاب وقعكم والوقم والدمع والفهر والإدلال.

إلا مُسَارَقَةً إِلَيْهِ ؛ أما والله لَأَنَا أَكْثَرُ مِنْ أَبْنِ الْخَطَّابِ عَدَدًا ، وَأَقْرَبُ نَاصِرًا وَأَجْدَرُ
 إِنْ قَالَ هَلُمَّ أَنْ يُجَابَ . ^(١) هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ حَقُوقِكُمْ وَأَعْطَايَكُم شَيْئًا فَإِنِّي إِلَّا أَفْعَلُ
 فِي الْفَضْلِ مَا أُرِيدُ فَلِمَ كُنْتَ إِمَامًا إِذَنْ ؟ أما والله ما عَابَ عَلَيَّ مَنْ عَابَ مِنْكُمْ أَمْرًا
 أَجْهَلُهُ وَلَا أَتَيْتُ الَّذِي أَتَيْتُ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ .

ومن خطب على كرم الله وجهه : حين بُوِيعَ بالخِلافة : إِنْ اللَّهُ أَنْزَلَ كِتَابًا
 هَادِيًا بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، نَحْذُوا بِالْخَيْرِ وَدَعُوا الشَّرَّ ؛ الْفَرَائِضَ أَذَوَهَا إِلَى اللَّهِ
 تَوَدِّعُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ حُرْمًا غَيْرَ مَجْهُولَةٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ
 كُلِّهَا ، وَتَدَدَ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ . فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ
 لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ؛ لَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ ، فَأَذُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ ، وَخَاصَّةً
 أَحَدَكُمْ الْمَوْتَ . فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّمَا خَلَفَكُمْ السَّاعَةُ تُدَكِّرُكُمْ . تَحَقَّقُوا تَلَحُّقُوا ، فَإِنَّمَا
 يَنْتَظِرُ بِالنَّاسِ أَنْحَرَاهُمْ . اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ
 الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ؛ أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ . وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ
 الشَّرَّ فَدَعَوْهُ ، وَادَّكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ .

ومن خطب الحسن بن علي رضي الله عنه : اعْلَمُوا أَنَّ الْحِلْمَ زِينٌ ، وَالْوَقَارَ
 مَوَدَّةٌ ، وَالصَّلَاةَ نِعْمَةٌ ، وَالْإِكْتَارَ صَلَفٌ ، وَالْعَجَلَةَ سَفَهٌ ، وَالسَّفَهَ ضَعْفٌ ، وَالْقَلَقَ
 وَرُطَةً ، وَمَجَالِسَةَ أَهْلِ الدَّنَاءَةِ شَيْنٌ ، وَمُخَالَطَةَ أَهْلِ الْفَسْقِ رِييَةٌ .

ومن خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بصفيين : أَيُّهَا النَّاسُ !
 إِنَّ الْحَرْبَ صَعْبَةٌ ، وَإِنَّ السَّلَامَ مَنْ وَمَبَرَّةٌ ! أَلَا وَقَدْ زَبَنْتَنَا الْحَرْبُ وَزَبَّنَاهَا

(١) فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ وَأَقْنِ إِنْ قُلْتَ هَلُمَّ أَنْ تَجَابَ دَعْوِي مِنْ عَمْرِ . وَالرَّوَايَاتُ مُتَقَارِبَةٌ .

وَأَلْفَتْنَا وَأَلْفَنَاهَا، فَنَحْنُ بَنُوهَا وَهِيَ أُمَّنَا . أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْتَقِيمُوا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى ،
وَدَعُوا الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ ، وَالْبِدَعَ الْمُرْدِيَةَ ، وَلَسْتُ أُرَاكُمْ تَرْدَادُونَ بَعْدَ الْوَصَاةِ
إِلَّا اسْتَجْرَاءَ ، وَلَنْ أَزْدَادَ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْحِجَةِ عَلَيْكُمْ إِلَّا عِقُوبَةٌ ! ، وَقَدْ أَلْتَقَيْنَا نَحْنُ
وَأَنْتُمْ عِنْدَ السَّيْفِ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَحَرَّكْ أَوْ يَنْقَهَقِرْ وَمَا مَثَلِي وَمِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ ابْنُ قَيْسٍ
ابْنُ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيُّ .

مَنْ يَصِلْ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ * يَصِلْ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَّارٍ
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مَنِيَّ جُحَاهِرَةٍ * كُنْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيِي وَإِنْ ذَارِي

ومن خطب عتبة بن أبي سفيان ، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها
أُمُورٌ أَنْ صَعِدَ الْمَنْبِرَ وَقَالَ : ^(١) يَا حَامِلِي الْأُمِّ أَنْوِفِ رُكْبَتَ بَيْنِ أَعْيُنٍ ! إِنَّمَا قَلَّمْتُ
أُظْفَارِي عَنْكُمْ لَيْلِينَ مَسَى إِيَّاكُمْ ، وَسَأَلْتُكُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ إِذَا كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعًا عَلَيْكُمْ ؛
فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الطَّعْنَ عَلَى الْأُمَرَاءِ وَالْعَتَبَ عَلَى السَّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَا أَقْطَعَنَّ
بُطُونَ السَّيَاطِ عَلَى ظُهُورِكُمْ ! فَإِنْ حَسَمْتُ مُسْتَشْرِى دَائِكُمْ وَإِلَّا فَالسَّيْفُ مِنْ
وَرَائِكُمْ . فَكُمْ مِنْ عِظَةٍ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجْرَةٍ مِنَّا قَدْ مَجَّتْهَا قُلُوبُكُمْ ؛
وَلَسْتُ أَبْجُلَ عَلَيْكُمْ بِالْعِقُوبَةِ إِذَا جِئْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مَوْسِلًا لَكُمْ مِنَ الْمَرَاجِعَةِ
إِلَى الْحَسَنِ إِنْ صَرْتُمْ إِلَى الَّتِي هِيَ أَبْرُ وَأَتْقَى .

ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلى البصرة : أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْجَهْلَالَ
الْجَهْلَاءَ ، وَالضَّلَالََةَ الْعَمِيَاءَ ، وَالغَىَّ الْمُؤَفَّى بِأَهْلِهِ عَلَى النَّارِ مَا فِيهِ سَفَهَاءُكُمْ ، وَيَشْتَمِلُ
عَلَيْهِ حُلُمَاؤُكُمْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبُتُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَلَا يَتَحَاشَى عَنْهَا الْكَبِيرُ ؛ كَأَنَّكُمْ
لَمْ تَقْرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْعَذَابِ

(١) لعل عامل أن محذوف والأصل فما كان منه إلا أن الخ .

الأيام لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . إنه ليس منكم إلا من
 طرقت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، وأختار الفانية على الباقية ؛ ولا
 تذكرون أنكم أهدتكم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه : من ترككم الضعيف
 يُقهر^(١) ، والضعيفة المسلوقة في النهار لا تُتصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق .
 ألم يكن منكم نهاية يمنعون الغواة عن دبح الليل وغارة النهار ! قربتم القرابة ! وابعدم
 الدين ؛ تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على النكر . كل أمرئ منكم يرذ عن سفيهه
 صنع من لا يخاف عقابا ولا يرجو معادا . فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم
 حتى آتتهوا حرم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا في مكائس الرب ، حرام على
 الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالأرض هدا وإحراقا ! . إني رأيت آخر هذا
 الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ،
 وإني لأقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقي
 الرجل أخاه فيقول ” آئج سعد فقد هلك سعيد “ أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة
 الأمير بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ؛ وقد كان بيني
 وبين قوم إحن فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحكم قد
 قتله السِّل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يُبدى لي صفحته ،
 فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وراعوا على أنفسكم^(٢) ، فرب مبتئس
 بقدمونا سيئس ، ومسرور بقدمونا سيئس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم
 ساسة ، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي
 خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا
 عدلنا وقيتنا بمناصحتكم لنا ،

(١) في العقد الفريد والصفحة المسلوقة في النهار المبصر . (٢) وقع في الأصل المناخير وهو تصحيف
 عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) في العقد الفريد وأعينوا .

فقام إليه عبد الله بن الأهم وقال : " أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب " قال : " كذبت " ذاك نبي الله داود !

ومن خطب عبد الملك بن مروان ، لما قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص : إرموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، وأجعلوا سلفكم لمن غبر منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتنزّل بكم جائحة السطوات ، وتجوّس خلالكم بؤادر النقيات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة فتجعلكم همدا رفانا ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا . فإياي من قول قائل ، ورشقة جاهل ! فإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة ^(١) فأصم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحرق الموتور ، وإنما هي المصاحفة والمكافئة بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهذل خائب ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ، لمن عرف رُشدَه ^(٢) وأبصر حظه . فأنظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، ولتكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم ، وأستديموا النعمة التي آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زيتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وأجل الجزاء والثوبة عصمكم الله من الشيطان وقتته ونزغه ، وأمدكم بحسن معزته وحفظه . انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطيائكم غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرية عليكم .

نخرج القوم من عنده يدارا كلهم يخاف أن تكون السطوة به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفي عند قدمه الكوفة أميرا على العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا في الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنعوة والغية أول الخير قبل أن تستبينه .

(٢) المطرور براء من المحدود المشحوذ وفي الأصل بالبدال المهملة وهو تصحيف .

(٣) في الأصل بالهاء وإهمال الدال وإعجام حائب ولعله بالميم وإعجام الذال بمعنى ضجر وقلق وإهمال الحاء من حائب فخر .

أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَّلَاعُ النَّسَايَا * مَتَى أَضَعُ الْعَامَّةَ تَعْرِفُونِي

والله يا أهل العراق: إني لأرى رعوها قد أينعت وحن قطافها، وإني لصاحبها!
والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العائم واللى . يا أهل العراق ما يُغَمَزُ جانبي كَتَغْمَازِ
التَّيْنِ، ولا يُقَعِّعُ لى بالشَّانِ. ولقد فُرِرتُ عن ذكاء، وقُشِّتْ عن تجربة، وأجريتُ
من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك تَرَكَاتَه بين يديه فعَجَمَ عيدانها عودا
عودا فوجدنى أمرها عودا . وأشدّها مَكْسِرا، فوجَّهنى اليكم وربما كم بى يا أهل
الكوفة، أهل الشَّقَاقِ والنِّفاقِ، ومساوى الأخلاق: لأنكم طالما أَوْضَعْتُمْ فى الفتنَةِ،
وأَضَطَّجَعْتُمْ فى مَنَامِ الضَّلَالِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ الميِّ، وأيم الله لألْحُوذَكُمْ لَحْوَ العُودِ،
ولأَقْرَعَنَّكُمْ قِرْعَ المِروَةِ، ولأَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلَمَةِ، ولأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرِيبَةٍ
الإبل . إني والله لأحلف إلا صدقت، ولا أعد إلا وفيت . إياى وهذه الزَّرَافَاتِ،
وقال وما يقول، وكان وما يكون . وما أنتم وذاك يا أهل العراق . إنما أنتم أهل
قرية كانت آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَيْمَرْتُ بِأَنِّعِمَ اللهُ، فأناها
وعيدُ القُرَى من ربهَا . فَاسْتَوْثِقُوا وَاعْتَدِلُوا وَلَا تَمِيلُوا، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وشايعوا
وبايعوا .

وَأَعْلَمُوا أَن لَيْسَ مِنِّي الْإِكْثَارُ وَالْإِهْذَارُ وَلَا مَعَ ذَلِكَ التَّفَارُ وَلَا الْفِرَارُ؛ إِنَّمَا هُوَ
أَنْتَضَاءُ هَذَا السِّيفِ، ثُمَّ لَا يُغَمَدُ الشِّتَاءُ وَلَا الصِّيفُ، حَتَّى يُنْذَلَ اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عِزَّكُمْ، وَيُقِيمَ لَهُ أَوْدَكُمْ وَصَعْرَكُمْ . ثُمَّ إِنِّي وَجَدْتُ الصَّدَقَ مِنَ الْبِرِّ، وَوَجَدْتُ الْبِرَّ
فِي الْحَنَّةِ، وَوَجَدْتُ الْكَذِبَ مِنَ الْفُجُورِ، وَوَجَدْتُ الْفُجُورَ فِي النَّارِ . وَإِنْ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَعْطِيَانَكُمْ، وَأُشْخِصَكُمْ لِمُجَاهَدَةِ عَدُوِّكُمْ وَعَدُوِّ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ؛ وَقَدْ أَمَرْتُ لَكُمْ بِذَلِكَ وَأَجَلَّتْكُمْ ثَلَاثًا، وَأَعْطَيْتُ اللهُ عَهْدًا يُؤَاخِذُنِي بِهِ
وَيَسْتَوْفِيهِ مِنِّي: لَنْ تَخْلُفَ مِنْكُمْ بَعْدَ قَبْضِ عَطَائِهِ أَحَدٌ لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ وَأَنْهَبَنَّ مَالَهُ .

ثم أَلْتَفَتَ الى أهل الشام فقال أتم البطانة والعشيرة ! والله لريحكم أطيّب من ريح المسك الأذفر، وإنما أتم كما قال الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية .
وَأَلْتَفَتَ الى أهل العراق فقال والله لريحكم أنتم من ريح الأبخر، وإنما أتم كما قال الله ﴿وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لما قدم البصرة يتهدّد أهل العراق ويتوعدهم :
أيها الناس : من أعياء دأؤه فعندى دواؤه ! ، ومن آسَ طال أجله ، فعلى أن أُعْجَلَه ؛
ومن ثَقُلَ عليه رأسه وضعت عنه ثِقْلَه ، ومن آسَ طال ماضى عمره قصّرت عليه
باقية . إن للشيطان طيِّفاً ، وللسلطان سيِّفاً ! ، فمن سَقِمَتْ سريره ، صَحَّتْ عقوبته ؛
ومن وضعه ذنبه ، رفعه ضُلبه ؛ ومن لم تَسَعْه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهلكة ؛ ومن سَبَقَتْهُ
بادرة فمه ، سَبَقَ بدنه بسفك دمه ؛ إني أُنذِرُكم لا أنظر ، وأحذّرُكم لا أعذر ؛ وأتوعد
كم لا أعفو . إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ؛ ومن آسَ رُخى لبه ، ساء أدبه . إن الحزم
والعزم سَكَنَ في وَسْطِي ، وأبدلاني به سيفي : فقامه في يدي ، ونجاده في عنقي ، وذبابه
قلادة لمن عصاني ! ؛ والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد
فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ؛ وأبى جعفر
المنصور ، وهارون الرشيد ، وآبئيه المأمون من خلفاء بني العباس وغيرهم ، من خلفاء
الدولتين وأمراءهم خطبٌ فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هذا الكتاب
عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبي بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل
الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم يتالون
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وَيُسَعِّفُهُمْ آخرون على ذلك ؛

أيها الناس ! إني قائل قولاً فمن وعاه وأذاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا يعد من ذمامها ؛ إن قصرتم عن تفصيله ، فلن تعجزوا عن تحصيله . فأرعوه أبصاركم وأوعوه أسماعكم وأشعروه قلوبكم ؛ فالموعظة حياة ؛ والمؤمنون إخوة ؛ وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين . فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا النى ترشدوا . وأنيبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . والله جل جلاله . وتقديست أسمائه أمركم بالجماعة ورضيها لكم . ونهاكم عن الفرقة وخطها منكم . فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . جعلنا الله وإياكم من يتبع رضوانه ويحجب سخطه إنا نحن به وله . وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين ، وأختره على العالمين ، وأختر له أصحاباً على الحق وزرء دون الخلق . إختصهم به وأنتخبهم له ، فصدقوه ونصروه وعزروه ووقروه ؛ فلم يقدموا إلا بأمره ، ولم يجمعوا إلا عن رأيه ، وكانوا أعوانه بعده ، وخلفاءه من بعده . فوصفهم فأحسن وصفهم وذكركم فاشئ عليهم فقال وقوله الحق ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ إلى قوله ﴿ مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ فمن غاظه كفر وخاب وبخر وخسر . وقال الله جل وعز ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ إلى قوله ﴿ ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لم وأمره إياه فيهم فلا حق له في النى ، ولا سهم له في الإسلام في أى كثيرة من القرآن ، ففرق مارقة من الدين . وفارقوا المسلمين وجعلوهم عِصيين . وحزبوا أحزاباً ، أشابات وأوشاباً . نخالفوا كتاب الله فيهم نخابوا وخسروا

(١) كذا في الأصل . ولكن باهمال الياء من يعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها أى المقالة .

الدنيا والآخرة . ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين . أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كُنْ زَيْنًا لَهُ
سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . مَا لِي أَرَىٰ عُيُونَ خُزْرًا ، وَرِقَابًا صُغْرًا ، وَبُطُونًا يُجْرَىٰ ،
شَجَى لَا يُسَيِّغُهُ الْمَاءُ ، وَدَاءٌ لَا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ
كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ . كَلَّا وَاللَّهِ بَلْ هُوَ الْهِنَاءُ وَالطَّلَاءُ حَتَّىٰ يُظْهِرَ الْعُذْرَ ، وَيُوحِ
السِّرَّ ، وَيَضَحَ الْعِيبَ ، وَيَشْوِسَ الْجِيبَ . فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عِبْنَا وَلَمْ تَتْرَكُوا سُدَىٰ ،
وَيَحْكُمَ إِنِّي لَسْتُ أَتَاوِيًا أُعْلَمُ^(٢) ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمُ . قَدْ حَلَبْتُمْ أَشْطَرًا ، وَقَلَبْتُمْ أَبْطَنًا
وَأَظْهَرًا . فَعَرَفْتَ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّتْهِمْ ،
وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِبَعْضٍ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْذَنُونَ لَهُمْ ، وَيَصْعَقُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا ! قَبْلَ وَقُوعِ
القَوَارِعِ وَطُولِ الرِّوَايَةِ . هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا ، فَلَسْتُ أَعْتَشُ أَتْبَا وَلَا تَائِبًا ، عَقَا اللَّهُ
عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . فَأَسْرَوْا خَيْرًا وَأَظْهَرُوهُ ،
وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُوهُ . وَطَالَمَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَىٰ نَاكِسِينَ . وَلِيَعْلَمَ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصَرٍّ
أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيِ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوَكُمْ إِلَىٰ هَوَىٰ يَتَّبِعُ ، وَلَا إِلَىٰ رَأْيٍ يَتَدَعُ .
إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْمِثْلَىٰ ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ، فَمَنْ أَجَابَ فَلِيَ رُشْدُهُ ،
وَمَنْ عَمِيَ فَعَنْ قَصْدِهِ . فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ ، الْجَدَائِعِ ، وَلَا تَوَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَا تَسْتَبْدِلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ^(٣) (يُنْسِ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) . إِنِّي أَيْدِيكُمْ وَبُيُوتَاتِ
الطَّرِيقِ ، فَعِنْدَهَا التَّرْنِيقُ وَالتَّرْهِيْقُ . وَعَلَيْكُمْ بِالْجَادَةِ فَهِيَ أَسَدُّ وَأَوْرَدُ ، وَدَعُوا الْأُمَانِيَّ

(١) لعله يُجْرَى جمع أبحر والبحر عظم البطن .

(٢) الأتأوى الغريب الذى ليس فى وطنه .

(٣) أى أظلم راجعا ولا تائبا عما حصل . ووقع فى الأصل أعيش وهو تصحيف لا معنى له هنا .

فقد أودت من كان قبلكم . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . والله الآخرة والأولى .
ولا تفتروا على الله الكذب فيسحقكم بعدايب وقد خاب من أفتري . ربنا لا ترغ قلوبنا
بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

ومن خطب خالد بن عبد الله أمير البصرة : أيها الناس ! نافسوا في المكارم
وسارعوا إلى المغامم . واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا ، ولا تعتدوا
بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فאלله
أحسن لها جزاء ، وأجزل عليها عطاء . وأعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من
الله عليكم ؛ فلا تملوا النعم فتحوّلوا نقيًا . وأعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجرا ،
وأورث ذكرا . ولورأيت المعروف رجلا ، رأيتوه حسنا جميلا يسر الناظرين .
ولو رأيت البخل رجلا ، رأيتوه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتغضى عنه الأبصار .
أيها الناس ! إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس عفوا من
عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ؛ ومن لم يطب حرثه لم يزك
نبتة ؛ والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم .

ومن خطب قطري بن الفجاءة خطبته المشهورة في ذم الدنيا والتحذير
عنها ، وهي :

أما بعد : إني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خصرة ، حقت بالشهوات ، وراقت
بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم نضرتها ،
ولا تؤمن بجمعها . غرارة ، ضرارة . وخاتلة ، زائلة . ونافدة ، بائدة . أكالة ،
غولة . لا تعدوا إذا تاهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال
الله تعالى ﴿ كجاء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه

الرَّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١﴾ مع أن أمرًا لم يكن منها في حبة، إلا أعقبته بعدها عبرة؛ ولم يلق من سرائها بطنًا، إلا منحتَه من ضرائها ظهرًا. ولم تصله غيثة رخاء، إلا هطلت عليه منة بلاء. وحرية إذا أصبحت له منتصرة أن تُسمى له خاذلة متكررة. وأي جانب منها أعدوذب وأحلولى، أمر عليه منها جانب وأوبا. فإن آتت أمرًا من غصونها ورقًا أرهقته من نوائها تعبًا. ولم يُمس منها أمرٌ في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف؛ غرارة غرور ما فيها؛ فانية، فإن من عليها؛ لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه. ومن استكثر منها، استكثر مما يوبقه ويُطيل حزنه، ويُبكي عينه. كم واثق بها قد بفعته، وذى حُكم ثنته إليها قد صرعتَه، وذى أختيال فيها قد خدعته. وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرًا، وذى نخوة قد ردتَه ذليلًا. ومن ذى تاج قد كبته للدين والفم. سلطانها دُول. وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلواها صبر، وغذاؤها سَمَام، وأسبابها رِمام. قِطافُها سَلَع. حياها بعرض موت، وصحیحها بعرض سُقم. منيعها بعرض اهتضام. ومُلكها مسلوب، وعزیزها مغلوب. وسليمها منكوب، وجارها محروب. مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المَطْلَع، والوقوف بين يدي الحَكَم العَدْل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾. أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِن مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْثَفَ جُنُودًا. وَأَشَدَّ عُنُودًا. تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَى تَعْبُدُ، وَآثَرُوهَا أَى إِثَارَ، وَظَعَنُوا عَنْهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّخَارِ. فَهَلْ بَلَّغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَحَتْ لَمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهَا فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتُمْ بِنَحْطِ بِلْ أَرْهَقْتُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَضَعَضْتُمْ بِالنَوَائِبِ،

(١) في غير هذا الكتاب لم تطله من الطل. و يظهر أن غيثة مصحفة عن غيبة. والغيبة الدفعة من المطر.

(٢) في نسخة وأولى.

وَعَقَرْتَهُمْ بِالْفَجَائِعِ . وقد رأيتم تتكروها لمن رادها وآثرها وأخلد إليها ، حين ظعنوا عنها
لفراقٍ إلى الأبد إلى آخر الأمد . هل زودتهم إلا السَّغب ؟ ، وأحلتهم إلا الضنك ،
أو نورت لهم إلا الظلمة ، أو أعقبتهم إلا الندامة ؟ أفهذه تُؤثرون ، أم على هذه تحريصون
أم إليها تطمئنون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ
إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴾ بنست الدار لمن أقام فيها ! فاعلموا إذ أنتم
تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هي كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال
تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلى غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ،
ويخرج الكتاب بذكره عن حده .

المقصد الثاني

(في كيفية تصرف الكاتب في الخطب)

قد تقدّم في أوّل المقصد الأوّل من هذا النوع قول أبي هلال العسكري : إن الرسائل
والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية والمشاكلّة في الفواصل
وإن الخطب يشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة
في أيسر كلفة . وحيث إذ أراد الكاتب نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا
أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخطابة وموارد
الفصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مصانع الخطباء ومشاهيرهم ، اتسع له المجال
في الكلام وسهّلت عليه مستوعرات النثر ، وذلّت له صعاب المعاني ، وفاض على
لسانه في وقت الحاجة ما كُن من ذلك بين ضلوعه فأودعه في ثره ، وضمنه في رسائله ،

فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة ، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ
الفصيحة ، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد ، ولا يسمع خاطره بنظيرها ولو
دأب . إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ، ونوع من أنواعها ، يحتاج الكتاب إليها
في صدور بعض المكاتبات ، وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض و كبار
التواقيع والمراسيم ، والمناشير ، على ماسياتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ؛
وما لعله ينشئه من خطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك . وكذلك يعرف مصانع
الخطباء ، ومشاهير الفصحاء ، والبلغاء ، كقُتُس بن ساعدة الإيادي الذي تقدّمت
خطبته آنفا في صدر الخطب . وسحبان الوائلي : وهو رجل من بني وائل ، لسن بلّغ
يُضرب به المثل في البيان ، وغيرهما ممن يُضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة ؛ ومن
يُنسب إلى العي والعبّابة بكامل : وهو رجل من العرب اشترى ظبيا بأحد عشر درهما
فقليل له بكم اشتريته ففتح كفيه وفرق أصابعه العشرة وأخرج لسانه ؛ يشير بذلك إلى
أحد عشر ولم يحسن التعبير عنها ، فانفلت الظبي فُضرب به المثل في العي . فإذا
عرف البلّغ وغير البلّغ ، وعالي الرتبة وسافلها ، عرّض حينئذ بذكر من أراد منهم
مقاييسا للفاضل بمثله ، وللغبي بنظيره : كما قال القاضي الفاضل في بعض رسائله ،
في جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه :

فأما شوقه لعبده فالمولى قد أبقاها الله قد أوتي فصاحة لسان . وسحب ذيل العي
على سحبان .

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبي من رسالة كتب بها للشيخ تقي الدين
أبن دقيق العيد ، يصف رسالة وردت منه عليه : إن كلها يَمِيس في صدورها
وأعجازها ، وتنثال عليها أعراض المعاني بين إسهابها وإيجازها ؛ فهي فرائد آتلفت
في أبكار الوائلي والإيادي .

النوع التاسع

(١) مما يحتاج إليه الكاتب من حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر في رسائل المتقدمين : من بلغاء الكتاب ؛ وفيه ثلاثة مقاصد

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأول ورسائلهم فلأنها مع (٢) مبتدع البلاغة وكثر الفصاحة غير ملابسة لطريقة الكتاب في أكثر الأمور ؛ فيستعان بحفظها على مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالأتكال على إيراد فصل منها برمتة لخالفته لأسلوب الكتاب في أكثر الأمور .

وأما النظر في رسائل البلغاء من فضلاء الكتاب، فلما في ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق، والنسج على منوال المجيد، والافتداء بطريقة المحسن، وأستدراك ما فات، والاحتراز مما أظهره النقد، ورد ما بهرجه السبك . وأقتصر على النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر على ما يأتي به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبي زور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضرة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظ دون غيره .

(١) كذا بالأصل بزائدة من وفي الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصد الثاني

(في ذكر شيء من مكاتبات الصدر الأول يكون مدخلا إلى معرفة

ما يحتاج إلى حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملة على المحاورة والمراجعة ، فمنها ما كتب به معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه في زمن المشاجرة بينهما ، ^(١) وهى :

أما بعد ، فإن الله أصطفى محمدا ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ؛ وأختار له من المسلمين أعوانا أيده بهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ؛ فكان أفضلهم في الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة ، وخليفة الخليفة ، والخليفة الثالث ؛ فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت . عرفنا ذلك في نظرك الشزر ، وتنفسك الصعداء ، وإبطائك على الخلفاء ، وأنت في كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير الخشوش حتى تُباع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشد حسدا منك لأبن عمك عثمان ، وكان أحقهم أن لاتفعل ذلك به ، في قرابته وصهره ؛ فقطعت رحمة ، وقبحت محاسنه ، وألبت عليه الناس حتى ضربت إليه أباط الإبل ، وشهر عليه السلاح في حرم الرسول ، فقتل معك في المحلة وأنت تسمع في داره الهائعة ؛ لاتؤدى عن نفسك في أمره بقول ولا فعل ير ؛ أقسم قسما صادقا ! لو قتت في أمره مقاما واحدا تنهين الناس عنه ، ما عدل بك ممن قبلنا من الناس أحد ، ولمحا ذلك عنك ما كانوا يعرفونك به : من المجانبة لعثمان والبغى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

(١) كتاب معاوية بيض له في الأصل فتقناؤه من العقد الفريد لأبن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجهول فيه الخشاش . وهو عود يجعل في عظم أنف البعير . مضاجح .

(٣) الهائعة الصوت المفزع .

ابن عَفَّانَ ضَمِينٍ ، إِيوَاؤُكَ قَتَلَةُ عَثْمَانَ ، فَهَمَّ بِطَانَتِكَ ، وَعَضُدُكَ وَأَنْصَارُكَ . فَقَدْ
بَلَغَنِي أَنَّكَ تَنْتَفِي مِنْ دَمِهِ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَادْفَعْ إِلَيْنَا قَتْلَتَهُ نَقْتُلْهُمْ بِهِ . ثُمَّ نَحْنُ
أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَيْكَ ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ عِنْدَنَا إِلَّا السِّيفُ ! وَالَّذِي نَفْسُ
مَعَاوِيَةَ بِيَدِهِ لَا طُلُبْنَ قَتْلَةَ عَثْمَانَ فِي الْجِبَالِ ، وَالرَّمَالِ ، وَالْبَرِّ ، وَالْبَحْرِ ؛ حَتَّى نَقْتُلْهُمْ
أَوْ تَلْحَقَ أَرْوَاحُنَا بِاللَّهِ ! .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ ! تَذَكَّرْتُ فِيهِ أَصْطَفَاءَ اللَّهِ تَعَالَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِدِينِهِ وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ بِنِ أَيْدِهِ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا ! أَفْطَقْتُ
تَحْزِينًا بِآلَاءِ اللَّهِ عِنْدَنَا ، فَكُنْتُ كَكَاغِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجْرٍ أَوْ دَاعِي مِدْرَةٍ إِلَى النَّضَالِ ؛
وَزَعَمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فَلَانٌ وَفَلَانٌ فَذَكَرْتُ أَمْرًا إِنْ تَمَّ أَعْتَرَكُ كُلَّهُ ،
وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ قُلُّهُ ؛ وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلُ وَالْمَفْضُولُ وَالسَّائِلُ وَالْمَسْئُولُ ! .
وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ ،
وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ ؛ هِيَاتُ أَفْدَحَ حَقٍّ قَدْحَ إِيْسٍ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يُحْكَمُ فِيهَا مِنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ
لَهَا ، أَلَا تَرَبُّعٌ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَتَتَأَمَّرُ حَيْثُ أُنْخَرَكُ الْقَدَرُ ، فَمَا
عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ . وَلَا لَكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ . وَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التَّيِّهِ ، رَوَّاعٌ عَنْ
الْقَصْدِ . أَلَا تَرَى غَيْرَ مُجْبَرِكَ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحْدِثُ ، أَنْ قَوْمًا اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَلِكُلِّ فَضْلٍ حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ ، أَوَّلًا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قَطَعَتْ أَيْدِيهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُلِّ فَضْلٍ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدٍ مِنَّا مَا فُعِلَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قِيلَ الطَّيَّارُ
فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ ، وَلَوْلَا مَا نَهَى عَنْ تَزَكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرْنَا كُرِّ فُضَائِلِ جَمَّةٍ ،

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية
 فإنّا صنّاع ربنا ، والناس بعدُ صنّاع لنا ، لم يمنّنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا على قومك
 أن خلطناهم بأنفسنا : فنكحنا وأنكحنا ، فَعَلَ الأَكفاء ولستم هناك ، وأنى يكون
 ذلك كذلك ! ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا
 سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صبيّة النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمّلة
 الخطب ، وإسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شَدَّ عنا وهو قوله
 سبحانه وتعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى
 ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
 فتحن مرةً أولى بالقربة وتارة أولى بالطاعة . ولما احتج المهاجرون على الأنصار
 يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُّوا عليهم ، فإن يكن الفلج به فالحقُّ
 لنا دونكم ، وإن يَكُنْ بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمت أنى لكل الخلفاء
 حسدت ، وعلى كلهم بغيتُ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فتكون
 المَعذرةُ إليك * وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها *

وقلت إني كنتُ أقاد كما يُقاد الجمل الخُشوش حتى أبايع . ولعمرك الله ! لقد
 أردت أن تدم فحمدت ، وأن تفضح فأفتضحت ؛ وما على المسلم من غضاضة
 في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مُرتاباً في يقينه . وهذه حجتي إلى
 غيرك قصدها ، ولكنني أطلقتُ لك منها بقدر ما سنع لك من ذكرها .

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأثينا كان أعدى له وأهدى إلى مَقَاتله :
 أمّن بذل له نُصرته فأستعده واستكفّه أم من استنصره فترأخى عنه وبثَّ المنون
 إليه ، حتى أتى قدره عليه . كلا والله ! لقد علم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم
 هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . وما كنت أعذر من أنى كنت أنقم عليه

أحداً فإن يكن الذنب إليه إرشادى وهدايتى له "فُرُبَّ مَلُومٌ لاذنبَ له . وقد يَسْتَفِيدُ
الظَّنةَ الْمُتَنَصِّحُ" وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما أَسْتَطَعْتُ وما تَوْفِيقُ إلا بالله عليه
تَوَكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولاصحابى إلا السيف فلقد أضحكت بعد استعبار ! متى
ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكليين ؟ أو بالسيوف مخوفين .
(ف) لَبَّثَ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْهَيْجَا حَمَلٌ * سَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ،
وأنا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فى جَحْفَلٍ مِنَ الْمَاهِجِينَ ، وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ
زَحَامِهِمْ ، سَاطِعِ قَتَامِهِمْ ، مُسْرِلِينَ سِرَابِيلَ الْمَوْتِ . أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ .
قد صحبتهم ذُرِّيَّةَ بَدْرِيَّةٍ وَسُيُوفِ هَاشِمِيَّةٍ قَدْ عَلِمَتْ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فى أَخِيكَ وَخَالِكَ ،
وَجَدَكَ ، وَأَهْلَكَ (وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبْعِيدٍ) .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة ،
إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، حين بُويعَ له بالخِلافةِ
وخرج على المنصور يريد أنتراعها منه . من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن
عبد الله . أما بعد : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ
فَسَادًا أَن يَاقْتُلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنْ
الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
قَبْلِ أَن تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولك ذمَّة الله وعهده وميثاقه
وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تُبِتَ من قبل أن يُقدَّرَ عليك أن أوْثقتك على
نفسك وولدتك وإخوتك ومنْ بايعك وجميع شيعتك ، وأن أُعطيتك ألف ألف
درهم ، وأنزِلَكَ من البلاد حيث شئت ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات ، وأن
أُطلقَ مَنْ فى سِجْنِي من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أُنْبِيعَ أحداً منكم بمكرهه

وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجهه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان
ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿ طَسَمَ ، تَلَكَّ
آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَا مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخُّ آبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل
الذي أعطيتني ، فقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما أُعطيتموه بنا ، ونهضتم فيه
بسعيينا وحططتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصي والإمام ، فكيف
ورثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل
فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وإنا بنو أم أبي رسول الله : فاطمة
بنت عمرو في الجاهلية دونكم ، وبنو آبنته فاطمة في الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط
بني هاشم نسباً ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدني العجم ، ولم تُعرق في أمهات الأولاد .
وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم : محمد صلى الله عليه
وسلم . ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً ، وأوسعهم علماً ، وأكثرهم جهاداً : علي بن
أبي طالب ، ومن نسائه أفضلهن : خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى
القبلة ، ومن بناته أفضلهن ، وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام
الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشماً ولد عليا مرتين ،
وأت عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولَدَنِي مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلِ جَدِّي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، فَمَا زَالَ الْإِلَهُ يُخْتَارُنِي حَتَّى اخْتَارَنِي فِي النَّارِ فَوَلَدَنِي أَرْفَعُ النَّاسَ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ ، وَأَهْوُنُ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَأَنَا ابْنُ خَيْرِ الْأَخْيَارِ ، وَابْنُ خَيْرِ الْأَشْرَارِ ، وَابْنُ خَيْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَابْنُ خَيْرِ أَهْلِ النَّارِ . وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ إِنْ دَخَلْتَ فِي بَيْعَتِي أَنْ أَوْفِيَنَّكَ عَلَى نَفْسِكَ وَوَلَدِكَ وَكُلِّ مَا أَصَبْتَهُ إِلَّا حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ حَقًّا لِمُسْلِمٍ أَوْ مَعَاهِدٍ . فَقَدْ عَلِمْتَ مَا يَلْزَمُكَ فِي ذَلِكَ فَأَنَا أَوْفِيٌّ بِالْعَهْدِ مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَخْرَى بِقَبُولِ الْأَمَانِ مِنِّي . فَأَمَّا أَمَانُكَ الَّذِي عَرَضْتَ عَلَيَّ فَأَيُّ الْأَمَانَاتِ هُوَ ؟ أَمَامَانَ ابْنِ هَبِيرَةَ ، أَمْ أَمَانُ عَمِّكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَمْ أَمَانُ مُسْلِمٍ وَالسَّلَامُ .

فَأَجَابَهُ الْمَنْصُورُ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَمَا بَعْدَ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ ، وَبَلَغَنِي كَلَامُكَ ، فَإِذَا جُلُّ نَخْرِكَ بِالنِّسَاءِ ، لَتُضِلَّ بِهِ الْجُفَاةُ وَالْغَوَاةُ ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ النَّسَاءَ كَالْعُمُومَةِ ، وَلَا الْآبَاءَ كَالْعَصْبَةِ وَالْأَوْلِيَاءِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَمَّ أَبَا ، وَبَدَأَ بِهِ عَلَى الْوَالِدِ الْأَدْنَى . فَقَالَ جُلُّ ثَنَاؤِهِ عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ .

وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَمُومَتُهُ أَرْبَعَةٌ فَأَجَابَ اثْنَانِ أَحَدَهُمَا أَبِي ، وَكَفَرَ اثْنَانِ أَحَدَهُمَا أَبُوكَ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ النَّسَاءِ وَقُرَابَاتِهِنَّ ، فَلَوْ أُعْطِينِ عَلَى قَدْرِ الْأَنْسَابِ ، وَحَقِّ الْأَحْسَابِ ، لَكَانَ الْخَيْرُ كُلُّهُ لَأَمْتَةِ بَنْتِ وَهْبٍ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يُخْتَارُ لِدِينِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ أُمِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَفَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَأَنْ هَاشِمًا وَلَدَ عَلِيًّا مَرَّتَيْنِ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ وَلَدَ الْحُسَيْنَ مَرَّتَيْنِ ، خَيْرُ الْأَوَّلِينَ

والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلِدْه هاشم إلا مرة واحدة ، ولم يَلِدْه عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وأما ما ذكرت من أنك أبْن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبى ذلك فقال ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ولكنكم قرابة آبنته ، وإنها قرابة ذريته ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تُؤمَّ فكيف تُورث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخَاصِم ، ومَرَّضها سراً ، ودفعها ليلاً ، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره . ثم أخذ الناس رجالاً فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان في أصحاب الشورى فكلُّ دفعه عنها ، وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه . ثم بايع معاوية بعده ، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وخرج إلى المدينة ، فدفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعموه .

وأما قولك إن الله اختار لك في الكُفْرِ فجعل أبوك أهونَ أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ، ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار . سترِد فتعلم ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وأما قولك إنه لم تَلِدْكَ العجم ، ولم تُعرق فيك أمهات الأولاد ، وإنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وخيرهم أمًّا وأباً ، فقد رأيتك نُفِرت على بنى هاشم طراً ، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرًا ، وأصلاً وفصلاً . نُفِرت على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده ، فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غداً وما وُلِدَ فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عليّ

أَبْنِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ لَأَمُّ وَلَدٍ ، وَلَقَدْ كَانَ خَيْرًا مِنْ جَدِّكَ حَسَنُ بْنُ حَسَنِ . ثُمَّ أَبْنَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ وَجَدَّتُهُ أُمُّ وَلَدٍ . ثُمَّ أَبْنَهُ جَعْفَرٌ وَهُوَ خَيْرُ مَنْكَ وَلَدَتَهُ أُمُّ وَلَدٍ . وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ جَدَّكَ عَلِيًّا حَكِيمٌ وَأَعْطَاهُمَا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ عَلَى الرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ فَأَجْتَمَعَا عَلَى خَلْعِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ عَمَّكَ الْحُسَيْنُ عَلَى ابْنِ مَرْجَانَةَ وَكَانَ النَّاسُ مَعَهُ عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلُوهُ ، ثُمَّ اتَّوَا بِكُمْ عَلَى الْأَقْتَابِ مِنْ غَيْرِ أَوْطِيَةٍ كَالسَّبْيِ الْمَحْلُوبِ إِلَى الشَّامِ . ثُمَّ خَرَجَ مِنْكُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ فَقَتَلَكُمْ بَنُو أُمَيَّةَ وَحَرَّقَوْكُمْ بِالنَّارِ وَصَلَبُوكُمْ عَلَى جَذُوعِ النَّخْلِ حَتَّى خَرَجْنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْرَكْنَا بَثَّارَكُمْ إِذْ لَمْ تُدْرِكُوهُ ، وَرَفَعْنَا أَقْدَارَكُمْ ، وَأُورِثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَلْعَنُونَ أَبَاكَ فِي أَدْبَارِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ كَمَا تُلْعَنُ الْكَفَرَةُ فَنَعْنَاهُمْ وَكَفَرْنَا بِهِمْ ، وَبَيْنَا فَضْلُهُ وَأَشَدُّنَا بِذِكْرِهِ ، فَاتَّخَذْتَ ذَلِكَ عَلَيْنَا حِجَّةً ، وَظَنَنْتَ أَنَا بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ فَضْلِ عَلِيٍّ قَدَمْنَاهُ عَلَى حِزَّةِ الْعَبَّاسِ وَجَعْفَرٍ ، كُلُّ أُولَئِكَ مَضَوْا سَالِمِينَ سَلَامًا مِنْهُمْ وَأَبْتَلَى أَبُوكَ بِالْكَرَمَاءِ . وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَا ثَرْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَقَايَةَ الْحَاجِّ الْأَعْظَمِ ، وَوَلَايَةَ زَمْزَمَ ، وَكَانَتْ لِلْعَبَّاسِ دُونَ إِخْوَتِهِ فَزَاعَ فِيهَا أَبُوكَ إِلَى عَمْرِ فَقَضَى لَنَا عَمْرُهَا . وَتُوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ مِنْ عَمُومَتِهِ أَحَدٌ حَيًّا إِلَّا الْعَبَّاسُ فَكَانَ وَارِثُهُ دُونَ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَطَلَبَ الْخِلَافَةَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمْ يَنْتَلِهَا إِلَّا وَلَدُهُ . فَاجْتَمَعَ لِلْعَبَّاسِ أَنَّهُ أَبُو رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَبَنُوهُ الْقَادَةُ الْخُلَفَاءُ ، فَقَدْ ذَهَبَ بِفَضْلِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَلَوْلَا الْعَبَّاسُ أُخْرِجَ إِلَى بَدْرِكُرْهَا لَمَاتَ عَمَّاكَ طَالِبٌ وَعَقِيلٌ جُوعًا أَوْ يَتِيمَانِ جِفَانٌ عُتْبَةٌ وَشَيْبَةٌ ، فَاذْهَبْ عَنْهُمَا الْعَارُ وَالشَّوَارُ . وَلَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَالْعَبَّاسُ يَمُونُ أَبَا طَالِبٍ لِلْأُزْمَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ . ثُمَّ فَدَى عَقِيلًا يَوْمَ بَدْرٍ فَقَدْ مَنَّاكُمْ فِي الْكُفْرِ ، وَفَدَيْنَاكُمْ مِنَ الْأَسْرِ ، وَوَرِثْنَا دُونَكُمْ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَحَزْنَا شَرَفَ الْآبَاءِ ، وَأَدْرَكْنَا بَثَّارَكُمْ إِذْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ وَوَضَعْنَاكُمْ حَيْثُ لَمْ تَضَعُوا أَنْفُسَكُمْ وَالسَّلَامَ .

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر :
 إنه إنما تملك الرعية بالإحسان إليها، وتظفر بالحبّة منها؛ فإنّ طلبك ذلك بإحسانك،
 هو أدوم بقاء منه باعتسافك بعنفك. وأعلم أنه إنما تُملك الأبدان، فأجمع إليها القلوب
 بالحبّة. وأعلم أن الرعية إذا قدرّت على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فأجتهد أن لا تقول
 تسلم من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن من تختاره
 لولايتك رجلا كان في وضيعة فرفعته، وذا شرف كان مهملا فأصطنعته . ولا تجعله
 امرأ أصبته بعقوبة فأتضع لها ، ولا أحدا من يقع بقلبك أن إزالة سلطانك أحب
 إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غمرا، كثيرا إعجابه بنفسه، قليلا تجربته
 في غيره، ولا كبيرا مديرا، قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه أيضا : إن كلمة منك تسفك دما، وأخرى
 تحقن دما، وإن سخطك سيف مسلول على من سخط عليه، وإن رضاك بركة مفيدة
 على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فأحترس في غضبك من
 قولك أن يُخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف، فإن الملوك تعاقب
 جرما، وتعفو حُلما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العطاء،
 إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حفظة البيضة ، والكتّاب
 الذين هم زينة المملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم، فإننا نحمد
 إليك الله سالمين، وقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتها للموظفة عليها، ونحن
 مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحق فَيَذْهَبَكم العدو، ولا تحتكروا فيسملكم

الفتح، وتزوجوا القرائب فإنه أمس للرحم، وأثبت في النسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئا، ولا ترفضوها، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومخاطباتهم . فن ذلك رسالة الصديق رضى الله عنه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين تلقاها عن مبايعته، على لسان أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، مع ما انضم إلى ذلك من كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علي عنها .

قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ بَشْرِ الْمُرُورُودِيِّ بِبَغْدَادَ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مَتَصَرَّفٍ ؛ وَكَانَ غَزِيرُ الرِّوَايَةِ ، لَطِيفُ الدَّرَايَةِ ، بَخْرِيٌّ حَدِيثُ السَّقِيفَةِ ، فَرَكِبَ كُلُّ مَرْكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَضَ بَشْيَءً ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍ . فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ الْأَبِيِّ بَكْرِ الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيٍّ عَنْهَا ، وَمُبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ عَقِيبَ تِلْكَ الْمَنَازَرَةِ . فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : هِيَ وَاللَّهِ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمَحَبَّاتِ الصَّنَادِقِ ؛ وَمِنْذَ حَفِظْتُهَا مَارَوَيْتُهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي وَزَارَتِهِ ، فَكِتَبْتُهَا عَنْ يَدِهِ ، وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ رِسَالَةَ أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَيْبَنَ ؛ وَإِنَّمَا لَتَدُلُّ عَلَيَّ عِلْمٌ وَحِلْمٌ ، وَفَصَاحَةٌ وَنَبَاهَةٌ ، وَبُعْدُ غُورٍ ، وَشِدَّةُ غَوْصٍ — فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي فَلَوْ أَتَمَمْتَ الْمِنَّةَ عَلَيْنَا بِرَوَايَتِهَا ، أَسَمِعْتَنَا ، فَنَحْنُ أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمُهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجِبَ ذِمَامًا عَلَيْكَ ، فَأَنْدَفَعُ وَقَالَ :

” حَدَّثَنَا الْخَزَاعِيُّ بِمَكَّةَ ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ ، قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ عَيْسَى بْنِ دَوَّابٍ بْنِ الْمَتَّاحِ ، قَالَ : سَمِعْتُ مَوْلَايَ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ : لَمَّا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَادِ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُمَا ، فَدَفَعَ اللَّهُ شَرَّهَا وَيَسَّرَ خَيْرَهَا ، بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ عَنْ عَلِيٍّ تَلَكُّوْهُ وَشِمَاسُ ، وَتَهَمُّهُمُ وَنِفَاسُ ،

فكره أن يتمادى الحال فتبدؤ العورة، وتشتعل الجمرة، وتفترق ذات البين؛ فذعاني بحضرته في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحده فقال: يا أبا عبيدة ما أئمن ناصيتك، وأئمن الخيرين عينك؛ وطالما أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود "لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة" ولم تزل للدين ملتجا، وللمؤمنين مرجأ؛ ولأهلك ركا، ولاخوانك رداء. قد أردت لك لأمر خطر مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل جرحه يسارك ورفقك، ولم يُجب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعزل اليأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك. فتأت له أبا عبيدة وتلطّف فيه، وأنصح الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذه العصاة غير آل جهدا، ولا قال حمدا، والله كالك وناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله. امض إلى علي وأخفّض له جناحك، وأغضّض عنده صوتك، وأعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه، وقل له البحر مغرقة، والبر مفرقة، والحق أكلف، والليل أغدّف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رؤوف، والباطل عنوف عسوف، والعجب قذاحة الشر، والضغن رائد البوار؛ والتعريض شجار الفتنة، والقيحة ثقب العداوة، وهذا الشيطان متكى على شِماله، متحيل يمينه، نافخ خُصّيه لأهله، ينتظر الشّتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادا لله عز وجل أولا، ولآدم ثانيا، ولنبية صلى الله عليه وسلم ودينه ثالثا، يوسوس بالفجور، ويُدلي بالغرور، ويمني أهل الشرور. يوحى إلى أوليائه زخرف القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتي فلان لا مرتهيا له وأتاه من وجهه .

كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف
 الدهر لا منجى منه إلا بعض الناجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء
 هامة عدو الله بالأشد فالأشد ، والآكد فالآكد ، وإسلام النفس لله عز وجل في آبتغاء
 رضاه . ولا بُد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أُرشدك
 من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحياء مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من أثر البقاء
 معك ؛ ما هذا الذي تُسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ،
 ويتخاوض دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويرادّ معه نفسك ، وتكثر عنده
 صعداؤك ، ولا يقيض به لسانك . أُنجمه بعد إفصاح ؟ ألتبیس بعد إيضاح ؟
 أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدي غير هدى النبي صلى الله عليه
 وسلم ، أمثلى " تمشى له الضراء وتدب له الخمر " ، أم مثلك ينقيض عليه الفضاء ،
 ويكشف في عينه القمر ، ماهذه القعقة بالشنان ؟ وما هذه الوعوة باللسان ؟
 إنك والله جد عارف بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا
 عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة إلى الله عز وجل ، ونصرة لدينه
 في زمان أنت فيه في كن الصبا ، وخدر الغرارة ، وعنفوان الشيبة ، غافل عما يُشيب
 ويُرِيب ، لاتبعي ما يُراد ويُشاد ، ولا تحصّل ما يُساق ويُقاد ، سوى ما أنت جارية عليه
 إلى غايك التي إليها عدل بك ، وعندها حط رحلك ، غير مجهول القدر ولا محدود
 الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك نُعاني أحوالا تُزِيل الرّواسى ، وتُفاسي أهوالا تُشيب
 النواصي ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صابها ، ونُشرج عيابه ، ونُحكم
 أساسها ، ونُبزم أمراسها ، والعيون تُحدّج بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والصدور
 تستعير بالغيظ ، والأعناق تتطاوّل بالفخر ، والشّفاف تُشحذ بالمكر ، والأرض تُمسّد

بالخوف ؛ لا تنتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا تدفع في نحر
 أمرئ إلا بعد أن نحسو الموت دونه ، ولا تبلغ مرادا إلا بعد الإياس من الحياة
 عنده ؛ فادين في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والخال
 والعم ، والمال والنسب ، والسبد واللبد ، والهلة والبلة ، بطيب أنفُس ، وقوة
 أعين ، ورَحْب أعطان ، وثبات عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلاقة
 ألسُن ؛ هذا مع خفيات أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلا ، ولولا سنك
 لم تكن عن شيء منها ناكلا ، كيف وفؤادك مشهور ؟ ، وعودك معجوم . والآن
 قد بلغ الله بك وأنقض الخير لك ، وجعل مُرادك بين يديك ، وعن علم أقول
 ماتسمع ؛ فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التقعس والتجسس لمن لا يطلع
 لك إذا خطا ، ولا يترخ عك إذا عطا ؛ فالأمرُ غض ، والنفوس فيها مض ،
 وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجأجا ، وسيفها العضب ، فلا تنب أعوجاجا ، وماؤها
 العذب ، فلا تحل أجاجا . والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا
 الأمر ، فقال لي يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لامن يُحاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه
 لامن يتنفج إليه ؛ هو لمن يُقال هو لك لامن يقول هو لي .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر ، فذكر فينا من قريش
 فقلت أين أنت من علي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني أكره لفاطمة مِعة شبايه ،
 وحداثة سنه . فقلت له متى كنته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ،
 وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت
 منك في ذلك لاحوجاء ولا لوجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد راحة
 سواك ؛ وكنت إذ ذاك خيرا لك منك الآن لي ؛ ولئن كان عرض بك رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن معرضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

فما سكت عن سواك؛ وإن تلجلج في نفسك شيء، فهلم فالحكم مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع. ولقد ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذر: يسره ماسرها، ويسوءه ماساءها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسَخِطُه ما أَسَخَطَها. أما تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه، وأقاربه، وسُجَرَّائِهِ^(١)، إلا أبانه بفضيلة، وخصَّه بمزية، وأفرده بحالة. أتنظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأئمة سُدَى بَدَا، عِبَاهِلَ، مِبَاهِلَ، طَلَا حِي مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحق، لا رائد ولا زائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادى ولا حادى كلا!، والله ما أشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقُربِهِ، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوَى، وأتمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهايج، وإلا بعد أن شَدَحَ يافوخ الشرك بإذن الله، وشَرَمَ وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَعَ أنف الفتنة في ذات الله، وتَفَلَّ في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة، ودار جامعة، إن استقالوني لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائرٌ إلى رأيهم فيك. وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغالقهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم. فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق. ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد فالناس ثمانية فارقهم بهم، وأحنُّ عليهم ولينُّ لهم، ولا تُشَقُّ نفسك بنا خاصة

(١) بالسين المهملة جمع سَجِير كأمير وهو الصديق.

(٢) بالباء الموحدة في الوزنين ومعناها مهملة: أنظر اللسان.

فيهم ، وأترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما تقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه كن لدى الباب هنية فلي معك دور من القول ، فوقفت وما أدري ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه يندى تهللا ، وقال لى قل لعل الرقاد محله ، والهوى مقحمه ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبا ظاهر أو مكتوم ، وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألقا ، وقارب البعيد تلطفًا ، ووزن كل شىء بيزانه ، ولم يخاط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره دينًا كان أو دُنْيَا ، ضللا كان أو هدى . ولا خير فى علم مستعمل فى جهل ، ولا خير فى معرفة مشوية بئكر . ولسنا بكلمة رُفِعَ البعير بين العِجَانِ والذنب ، وكل صالٍ فبناره ، وكل سيل فى قاره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لى وشى ، ولا كلامها اليوم لفرق أو رفق . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كدوب ، فمأذا بعد الحق إلا الضلال . ما هذه الخُزْوانة التى فى قرأش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القداة التى تغشت ناظرِكَ ؟ وما هذه الوحة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هذا الذى ليست بسببه جلد النمر ، وأشتلت عليه بالشحناء والذكر ، ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جزرا لسُيُوفنا ، ودرية لريماحنا ، ومرمى ليطعانا ، وتبعا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثرة حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمه ، بل أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرُتق والفتق ، لها من الله قلب أبى ، وساعد قوى ، ويد ناصره ، وعين باصره . أظن ظنا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مُفتاتًا على الأمة خادعا لها ،

أو متسلطا عليها؟ أترأه حل عُقُودها وأحال عقولها؟ أترأه جعل نهارها ليلا، ووزنها كيلا، ويقظتها رُقادا، وصَلَحها فسادا، لا والله سلا عنها فولَّهَتْ له، وتطامن لها فاصقَتْ به، ومال عنها فالت إليه، وأشماز دونها فاشتملت عليه، حَبُوة حباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إليها، ونعمة سَرَّبله جَمَّالها، ويَدُّ أوجب الله عليه شكرها، وأمةً نظر الله به إليها. والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُبعد حَقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحك بمنكب أخفم من منكبك، وقُرْبِ أَسَّ من قرابتك، وسنَّ أعلى من سنك، وشيية أروع من شيتك، وسيادة لها أصل في الجاهلية، وفرع في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة، ولا تُذكر منها في مقدمة ولا ساقه، ولا تَضْرِبُ فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها بيازل ولا هُبع. ولم يزل أبو بكر حَبَّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلاقة نفسه، وعيبة سره، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومَرْمَقَ طَرَفِهِ. وذلك كله يحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شُهرته مغنية عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقرب منك قُرْبَةً، والقُرابة لحم ودم، والقُرْبَة نفس وروح. وهذا فرق عرّفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون، ومهما شككت في ذلك، فلا تشكَّ أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فأدخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غداً، وألفظ من فيك ما يعلّق بلهاتك، وأنفث سخيمة صدرك عن ثَقَاتِكَ، فإن يك في الأمد طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريئاً أو غير مريء، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء، حين لا راد لقولك إلا من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك يَمُصُّ إهابك، ويعرِّك أديمك، ويُرْزى على هديك. هنالك تقرع السن من ندم،

وتجرع الماء ممزوجاً بدم ، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ، ودارج قوتك ، فتود أن لو سُقيت بالكأس التي أبيتها ، ورُدِدَت إلى حالتك التي استغويتها ، ولله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسراها وضرائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة ، فتمشيت مترملاً أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرقاً من الفرقة ، وشفقاً على الأئمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء ، فأبتثته بجي كلّه ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله جميعاً ، قال : ” حَلَّتْ مُعْلَوِّطُهُ ، وَوَلَّتْ مُحْرَوِّطُهُ “ ، وأنشأ يقول :

إحْدَى لِيَالِيكَ فَهَيْسَى هَيْسَى * لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا في نفس القوم ، ويحسّون به ، ويضطربون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لأجواب لك عندي إنما أنا قايض حقّ الدين ، وراثق فقّ المسلمين ، وسادّ ثلّة الأئمة . يعلم الله ذلك من جُلْجلان قلبي ، وقرارة نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في كِنِّ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زريّة على مسلم ؛ بل لما قد وقّدتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد عليّ حزناً ، ودكرني تَجَنُّناً . وإن الشوق إلى اللّقاء به كافي عن الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلمّ لعلمه ومشيتته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن التظاهر على واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع ؛ وإذ قد أقم الوادي بي ، وحشد النّادي من أجلي ، فلا مَرَحْبا بما أساء أحدا من المسلمين وسرّني . وفي النفس كلام لولا

سابق عقد ، وسالف عهد ، لشفيت غيظي بخصري وبخصري ، وخضت لجنته
بأنحصى ومفرق ، ولكنني ملجئ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحسب ما نزل بي .
وإني غاد إلى جماعتكم ، مبيع صاحبكم ، صابر على ما ساءني وسركم (ليقضى الله
أمرًا كان مفعولاً) .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه فقصصت عليه القول على
غره ، ولم أحتل شيئاً من حلوه وهره ، وبكرت غدوة إلى المسجد ، فلما كان صباح
يومئذ وإذا على مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيراً ،
ووصف جيلاً ، وجلس زميناً^(١) ، وأستاذن للقيام فضى وتبعه عمر مكرماً له ، مستأثراً
لما عنده .

فقال على رضي الله عنه : ما قعدت عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيته فرقا ، ولا أقول
ما أقول تعلقة . ولإني لأعرف منتهى طرفي ومحط قدمي ومنزع قوسي ، وموقع
سهمي ، ولكن قد أزممت على فأسى ثقة بربي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كفكف غربك ، وأستوقف سربك ، ودع العصى
بلحائها ، والدلاء على رشائها . فإننا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وإن متحنا
أروينا ، وإن قرحنا أدمينا ، ولقد سمعت أمائلك التي لغزت بها عن صدر أكل
بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقاتلك ما إن سمعته ندمت على ما قلت . وزعمت أنك
قعدت في كن بيتك لما وقدك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقمده ، فهو
وقذك ولم يقذ غيرك ؟ بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مصابه أن
لا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها . هذه

العرب حولنا ، والله لو تداعت علينا في صُبح نهار لم نلتقي في مسائه . وزعمت أن الشوق إلى الخالق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه ، وموازرة أوليائه ، ومعاونتهم . وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله ، والرأفة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك وأى حق لظ^(١) دُونك . قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سراً وجهراً ، وتقبلت عليه بطناً وظهراً ، فهل ذكرت أو أشارت بك أو وجدت رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه ؟ أو هم في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلوا من أجلك ، وعادوا كفاراً زهداً فيك ، وباعوا الله تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، وينكر على من يعقد الخلافة ، فأنكرت عليهم ، ورددت القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوَكَّف مناجاة الملك . فقلت ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر معقوداً بأنشوطه ، أو مشدوداً بأطراف ليطه ؟ كلا ! والله لا عجماء بحمد الله إلا أفصحت ، ولا شوكة إلا وقد تفتحت . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيت غيظي ؛ وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شائقتها وأقتلع جرثومتها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان . وزعمت أنك ملجَم ؛ ولعمري إن من أتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه .

(١) لظ . أى محمد . ووقع في بعض النسخ لك وفي بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضي الله عنه : مَهَلًا يَا أَبَا حَفْصِ وَالله مابَدَلْتُ مابَدَلْتُ وأنا أريد نَكَثَهُ ، ولا أَقَرَّرْتُ ما أَقَرَّرْتُ وأنا أَبْتَنِي حَوْلًا عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله مَنْ آثَرَ النِّفَاقَ ، وَاحْتَضَنَ الشَّقَاقَ وفي الله سَلْوةٌ عن كلِّ حادِثٍ ، وعليه التَّوَكُّلُ في جميع الحوادث . ارجع يَا أَبَا حَفْصِ إِلَى مَجْلِسِكَ نَاقِعَ الْقَلْبِ ، مَبْرُودَ الْغَلِيلِ ، فَصِيحَ اللَّبَانِ ، فَصِيحَ اللَّسَانِ ؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يَشْدُ الْأُزْرَ ، وَيَحِطُّ الْوِزْرَ ، وَيَضَعُ الْإِصْرَ ، وَيَجْعُ الْأُلْفَةَ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَحَسَنَ تَوْفِيقِهِ .

قال أبو عبيدة رضي الله عنه : فَأَنْصَرَفَ عَلِيٌّ وَعَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . وهذا أصعبُ ما مرَّ عَلِيٌّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها .

يروى أنه بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضي الله عنه ، فأرسلت إلى أَرْفَلَةَ مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا حَضَرُوا ، أَسَدَلَتْ أَسْتَارَهَا ، وَعَلَتْ وِسَادَهَا . ثم قالت أبي : وما أَيْبَهُ ! أباي والله لَا تَعْطُوهُ الْأَيْدَى ، ذَاكَ طَوْدٌ مَنِيفٌ ؛ وَفَرْعٌ مَدِيدٌ ، هِيَا تَكْذِبَتِ الظُّنُونُ ، أَنْجَحَ إِذَا كَدَيْتُمْ ، وَسَبَقَ إِذَا نَبَيْتُمْ * سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا أَسْتَوَلُوا عَلَى الْأُمْدِ * فَيَ قُرَيْشَ نَاشِئًا ، وَكَهْفَهَا كَهْلًا ، يَفُكُ عَانِيَهَا وَيَرِيْشُ مُمْلِقَهَا ، وَيَرَأُبُ شَعْبَهَا ، وَيَلْمُ شَعْبَهَا حَتَّى حَلَيْتَهُ قُلُوبُهَا ، ثُمَّ أَسْتَشْرَى فِي دِينِ اللهِ فَمَا بَرَحَتْ شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللهِ عِزٌّ وَجَلٌّ حَتَّى آتَخَذَ بِنَفَائِهِ مَسْجِدًا يَحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمَبْطُلُونَ ؛ وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ غَيْرِ الدَّمْعَةِ ، وَقَيْدَ الْجَوَانِحِ ، شَجْبَى النَّشِيجِ ، فَاَنْقَضَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتٌ مِنْ قُرَيْشٍ خَفَتَ قَسِيهَا وَفَوَقَتْ سِهَامَهَا وَأَنْتَلَوْهُ غَرَضًا ، فَمَا فَلَوْ لَهُ صَفَاةٌ ، وَلَا قَصْفُورٌ لَهُ قَنَاةٌ ، وَمَرٌّ عَلَى سَيْسَانِهِ ، حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينُ بِجُرْآنِهِ ،

ورسّت أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لنبيه ما عنده ؛ فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رؤوفه ، ومد طنبه ، ونصب حباله ، وأجاب بحيله ورجله ، وأضطرب حبل الإسلام ، ومرج عهده وماج أهله ، وبغى الغوائل ، وظنّت رجال أن قد أكنّبت أطاعهم نهزها ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصديق بين أظهرهم . فقام حاسرا مشمرا ، بجمع حاشيته ورفع قطريه ، فرد رسن الإسلام على غربه ، ولم شعثه بطبه ، وأنتاش الدين فنعسه ، فلما أراح الحق على أهله ، وقرّر الرؤوس على كواهلها ، وحقن الدماء في أهيها ، أنته منيته ، فسد ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة والمعدلة . ذاك ابن الخطاب لله دَرَأَمَ حملت به ودرت عليه ! لقد أوجدت به ، ففنخ الكفرة ودينها ، وشرّد الشرك شذر مدّر ، وبعج الأرض وبجّعها فقاءت أكلها ، ولفظت خباها ، ترأّمه ويصّدف عنها ، وتصدى له ويأبأها . ثم وزع فيها فيأها وودّعها كما صحبها . فأروني ماذا ترتئون وأى يومى أبى تنقّمون : أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت أنشدكم الله هل أنكرتم ما قلت شيئا ؟ قالوا اللهم لا .

ومن ذلك كلام أم الخير : بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلى رضى الله عنه .

يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) فى بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولم شعثه بطبه .

عليه كتابه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة
بكذب! ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى. فلما شيعها
وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير: إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه يجازيني بقولك
في بالخير خيرا وبالشر شرا، فما عندك؟ قالت يا هذا لا يطعمنك بركى أن أسرك
بباطل، ولا تؤيسك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى
قدمت على معاوية فأزلهما مع حريمه، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده
جلساؤه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال لها وعليك
السلام يا أم الخير، وبالرغم منك دعوتينى بهذا الاسم. قالت مه يا أمير المؤمنين!
فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ((ولكل أجل كتاب)). قال صدقت.
فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت لم أزل في عافية وسلامة
حتى صرت إليك فانا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق - قال معاوية بحسن نيتي
ظفرت بكم - قالت يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تُردى عاقبته
قال ليس هذا أردنا. أخبريني كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر؟ قالت لم أكن
والله زورته قبل ولا رويته بعد. وإنما كانت كلمات نفثن لسانى حين الصدمة
فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت - قال لا أشاء ذلك. ثم التفت
إلى أصحابه فقال أيكم يحفظ كلام أم الخير فقال رجل من القوم أنا أحفظه
يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد - قال هاته - قال: نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين
في ذلك اليوم عليها بُرد زيبدي كثيف الحاشية، وهى على حمل أرمك وقد أُحيط
جولها، ويدها سوط منتشر الظفر، وهى كالفحل يهدير في شقشيقته تقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مُبْهَمَة ! ولا سوداء مدْهِمَة فإلى أين تريدون رحمكم الله . أفارارا عن أمير المؤمنين ، أم فرارا من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم أردتادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول .

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبِيدَك يارب أزمَةُ القلوب فاجمع الكلمة على التقوى، وآلف القلوب على الهدى، هلمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصى الوفي، والصدِّيق الأكبر! إنها إحنٌ بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحْدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُنتَهُونَ ﴾ . صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كُحْمُ مستنفرة، فرّت من قسورة . لا تدري أين يُسَلِّكُ بها من بجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى وعمّا قليل ليصبحن نادمين، حين تحلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار . أيها الناس إن الأيكاس آستقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المناها على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبى آبنيه ؟ خلق

من طينته ، وتفترع عن نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان بغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى على سنن استقامته ؛ لا يعرج لراحة اللذات ؛ وهو مُفَلِّقُ الهام ، ومكسر الأصنام إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ؛ فيا لها وقائع ! زرعت في قلوب قوم نفاقا ، وردة وشقاقا ، وقد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يأثم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك .

قالت : والله ما يسوعنى يابن هند أن يُجِرَى الله ذلك على يدى من يُسعدنى الله بشقائه — قال هيات يا كثيرة الفضول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان ؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون — فقال إيه يا أم الخير هذا والله أصلك الذى تبين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سباقا إلى الخيرات ، وإنه لرفع الدرجة — قال فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟ — قالت وما عسى أن أقول فى طلحة أغتيل من مأمته ، وأتى من حيث لم يحتدر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة — قال فما تقولين فى الزبير ؟ قالت يا هذا لا تدغى كرجيع الضبع يعرك فى المِرْكَن — قال حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سباقا إلى كل مكزمة فى الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قرئشا تحدث أنك من أحلمها أن تسعني بفضل حاكمك ،

وأن تعفني من هذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها — قال نعم وكرامة قد أعفيتك؛ وردّها مكرمة إلى بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية يوم صفين أيضا .
يروى أنها ذكرت عند معاوية يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه يا أمير المؤمنين — قال فأشيروا على في أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بأس الرأي أيحسُن بمثل أن يقتل امرأة؟ . ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محرمها وعدة من فرسان قومها، وأن يمهّد لها وطء لينا، ويسرّها بستر خفيف، ويوسع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية، قال مرحبا بك وأهلا! قديمت خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة! — قال كيف كنت في مسيرك؟ قالت ربيبة بيت أو طفلا مُمهدا — قال بذلك أمرناهم . أتدرين فيم بعثت إليك — قالت وأنى لي بعلم ما لم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألسنت الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصقيين بصقيين تحضين الناس على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبتر الذنب، ولن يعود مذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لها معاوية أتخفظين كلامك يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أنسيته — قال لكني أحفظه لله أبوك حين تقولين :

أيها الناس ارعوا وآرجعوا ! إنكم أصبحتم في فتنه غشتكم جلايب الظلم، وجارت بكم عن قصد الحجّة . فإلها فتنه عمياء، صماء، بكاء لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها . إن المصباح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تنير مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ! فصبرا يا معاشر المهاجرين
والأنصار على الغصص ؛ فكان قد أندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة التقوى ،
ودمغ الحق باطله ! فلا يجهل أحد فيقول كيف العدل وأثنى : ليقضى الله أمرا
كان مفعولا . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا
اليوم مابعده ، والصبر خير في عواقب الأمور . أيها الحرب قدما غير ناكسين ،
ولا متشاكسين .

ثم قال لها يازرفاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه — قالت أحسن الله بشارتك ،
وأدام سلامتك ؛ فثلك من بشر نجير وسر جليسه — قال ويسرك ذلك ؟ — قالت : نعم
سررت بالخبر فأتى لى بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لو فؤاؤكم له بعد
موته أعجب عندى من حُبكم له في حياته ! اذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين
آليت على نفسى أن لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا ، ومثلك من أعطى من غير مسألة ،
وجاد من غير طلبة — قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا .

وقريب من ذلك كلام عكرشة بنت الأطرش يوم صفين أيضا .
يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها فسلمت عليه بالخلافة ،
ثم جلست — فقال لها معاوية : الآن صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم
إذ لا على حى ! — قال ألسيت المتقلدة حمائل السيف بصفين ؟ وأنت واقفة بين
الصفين تقولين : أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن
الجنة لا يحزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فابتاعوها
بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصروا همومها . وكونوا قوما مستبصرين في دينهم
مستظهرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ،
ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، وأستدعاهم إلى الدنيا فلبّوه .

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فِي دِينِ اللَّهِ ! وَإِيَّاكُمْ وَالتَّوَّابِينَ كُلَّ فَإِنْ ذَلِكَ يَنْقُضُ عُرَى الْإِسْلَامِ ،
وَيُطْفِئُ نَوْرَ الْحَقِّ . هَذِهِ بَذَرُ الصَّغْرَى ، وَالْعُقْبَةُ الْآخَرَى ، يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
أَمْضُوا عَلَى بَصِيرَتِكُمْ ، وَاصْبِرُوا عَلَى عَزِيمَتِكُمْ . فَكَأَنِّي بَكُمْ غَدًا وَقَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ
كَالْحُمْرِ النَّاهِقَةِ تَقْصَعُ قَصْعُ الْبَعِيرِ :

ثُمَّ قَالَ : فَكَأَنِّي أُرَاكَ عَلَى عَصَاكَ هَذِهِ قَدْ أَنْكَفَأَ عَلَيْكَ الْعَسْكَرَانِ يَقُولُونَ هَذِهِ
عَكْرَشَةُ بِنْتُ الْأَطْرَشِ فَإِنْ كَدَتْ لَتُفْلِيَنَّ أَهْلَ الشَّامِ لَوْلَا قَدْرُ اللَّهِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مَقْدُورًا ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ — قَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الْآيَةَ ، وَإِنَّ اللَّيْبَ إِذَا كَرِهَ
أَمْرًا لَا يَحِبُّ إِعَادَتَهُ — قَالَ صَدَقْتَ فَاذْكُرِي حَاجَتَكَ — قَالَتْ كَانَتْ صَدَقَاتُنَا تَتَوَخَّذُ
مِنْ أَغْيَانِنَا فَتُرَدُّ عَلَى فَقْرَانَا وَقَدْ فَقَدْنَا ذَلِكَ ، فَمَا يُجْبِرُنَا لَنَا كَسِيرٌ ، وَلَا يُنْعِشُنَا لَنَا فَقِيرٌ .
فَإِنْ كَانَ عَنْ رَأْيِكَ فَمَثَلُكَ مِنْ أَنْتَبَهُ مِنَ الْغَفْلَةِ وَرَاجِعِ التَّوْبَةِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِ
رَأْيِكَ فَمَا مَثَلُكَ مِنْ أَسْتَعَانَ بِالْحَوْنَةِ وَلَا أَسْتَعْمَلَ الظُّلْمَةَ — قَالَ مَعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ ،
لَإِنَّهُ يَنْوُبُنَا مِنْ أُمُورِ رَعِيَّتِنَا نَغُورُ نَتَفَتَّقُ ، وَنُجُورُ نَتَدَفَّقُ . — قَالَتْ سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَاللَّهِ
مَا فَرَضَ اللَّهُ لَنَا حَقًّا بَفَعَلٍ فِيهِ ضَرَرٌ لَعَيْنِنَا وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ — قَالَ مَعَاوِيَةُ هِيَئَاتِ
يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ نَبْهَكُمُ عَلَى فُلْنٍ تُطَاقُوا . ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ صَدَقَاتِهِمْ فِيهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ .

وَالشَّاهِدُ فِي هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَلَامُ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ مَعَ مَا فِيهَا : مِنَ الْمَرَاجَعَاتِ ،
وَالْمَخَاطَبَاتِ ، وَالْمَقَاوِلَاتِ ، وَالْمَحَاوَرَاتِ ، الصَّالِحَةُ لِلْإِسْتِشْهَادِ لِلْفَصْلِ الْمُتَقَدِّمِ قَبْلَ
ذَلِكَ . وَهَذَا بَابٌ مُتَسِعٌ لَا يَسِعُ اسْتِيفَاؤُهُ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِيعَابُهُ وَفِيهِ ذِكْرُنَا مَقْنَعٌ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ! أَرْسَلَ إِلَى مَعَاوِيَةَ
بِالشَّامِ كِتَابًا صَحْبَةً صَعْمَةً بَنَ صُوحَانَ ، فَسَارِبَهُ حَتَّى أَتَى دِمَشْقَ ، فَأَتَى بَابَ مَعَاوِيَةَ
فَقَالَ لِأَذْنِهِ : أَسْتَأْذِنُ لِرَسُولِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَبِالْبَابِ جَمَاعَةٌ

من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله : "أمير المؤمنين" . وكثرت عليه
الجلبة ، فاتصل ذلك بمعوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يابن
أبي سفيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أما إنه لو كانت الرسل تُقتل
في جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف
طبعاً أو تكلفاً — فقال له ممن الرجل — قال من نزار — قال وما كان نزار قال كان
إذا غزا انكش ، وإذا لقي افترش ، وإذا أنصرف أحترش . قال فمن أى أولاده أنت ؟ —
قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل النجاد ، ويعول العباد ،
ويضرب ببقاع الأرض العباد — قال : فمن أى أولاده أنت ؟ — قال من جديلة —
قال وما كان جديلة ؟ — قال كان في الحرب سيفاً قاطعاً ، وفي المدكرات غيثاً نافعاً ،
وفي اللقاء لهباً ساطعاً — قال فمن أى أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال
وما كان عبد القيس ؟ — قال كان حسناً أبيض وهاباً ، يقدم لضيفه ما وجد ،
ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء —
قال ويحك يابن صوحان ! فما تركت لهذا الحى من قریش مجداً ولا فخراً ، — قال بلى
والله يابن أبي سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض
والأصفر ، والسرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، ففرح معاوية وظن أن كلامه
يشتمل على قریش كلها ، قال صدقت يابن صوحان إن ذلك لكذلك فعرف صعصعة
ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد . بعدتم عن أنف
المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء — قال ولم ذلك ويلك يابن صوحان ! فقال الويل
لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم — قال قم فأخرجوه — فقال : صعصعة الوعد بيني

(١) أى جد . الأصمعى انكش في أمره وانشر وجد بمعنى واحد . وقوله افترش أى صرع . يقال لقي فلان
فلاناً فاقتشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أى كسب أو صاد .

وبينك لا الوعيد مَنْ أراد المناجزة ^(١) يَتَبَلَّ المحاجزة - فقال معاوية لشيء ما سَوَدَه قَوْمُه
وَوَدِدْتُ أَنِي مِنْ صُلْبِه ؛ ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى بَنِي أُمِيَّة فَقَالَ : هَكَذَا فَلْتَكُنَّ الرِّجَالُ .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على معاوية
وابنه يزيد إلى جانبه فقال له : ائْتَمَكَ أبى ، وَأَصْطَنَعَكَ حَتَّى بَلَغَكَ بِأَصْطِنَاعِهِ إِيَّاكَ
المدى الذى لا يحارى ، والغاية التى لا تُسَامى ؛ فما جازيت أبى بالآلته حتى قَدِمْتَ
هذا على ، وجعلت له الأمر دُونى . ” وَأَوْمَأَ إِلَى يَزِيدَ “ وَاللَّهِ لِأَبى خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ وَأُمى
خير من أمه ولأنا خير منه ! - فقال له معاوية . أمّا ما ذَكَرْتَ يَا بَنَ أَخِي مِنْ تَوَاتُرِ
الْأَثَمِ عَلَى ، وَتَطَاهُرِ نَعَائِكُمْ لَدَى ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَوَجِبَ عَلَى الْمَكَافَاةِ وَالْمُجَازَاةِ ،
وَكَانَ مِنْ شُكْرِى إِيَّاهُ أَنْ طَلَبْتُ بَدْمَهُ حَتَّى كَابَدْتَ أَهْوَالَ الْبَلَاءِ ، وَغَشِيَتْ عَسَاكِرُ
الْمَنَایَا إِلَى أَنْ شَفِيتَ حَرَازَاتِ الصُّدُورِ وَتَجَلَّتْ تِلْكَ الْأُمُورُ . وَلَسْتُ لِنَفْسِى بِالْإِثْمِ
فِي التَّشْمِيرِ ، وَلَا الزَّارِى عَلَيْهَا فِي التَّقْصِيرِ .

وَذَكَرْتُ أَنَّ أَبَاكَ خَيْرٌ مِنْ أَبِى هَذَا ” وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى يَزِيدَ “ فَصَدَقَتْ
لِعَمْرِ اللَّهِ لِعِثْمَانَ خَيْرٌ مِنْ مُعَاوِيَةَ ! أَكْرَمَ كَرِيماً ، وَأَفْضَلَ قَدِيماً ، وَأَقْرَبُ إِلَى مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِمَا . وَذَكَرْتُ أَنَّ أَمْتُكَ خَيْرٌ مِنْ أُمِّهِ فَلِعَمْرِى إِنَّ أَمْرَأَةً مِنْ
قُرَيْشٍ خَيْرٌ مِنْ أَمْرَأَةٍ مِنْ بَنِي كَلْبٍ . وَذَكَرْتُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْ يَزِيدَ فَوَاللَّهِ يَا بَنَ أَخِي
مَا يَسِرُّنِى أَنَّ النُّوَطَةَ عَلَيْهَا رِجَالٌ مِثْلُ يَزِيدَ . فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ ” مَهْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !
أَبْنُ أَخِيكَ آسْتَعْمَلُ الدَّالَّةَ عَلَيْكَ ، وَأَسْتَعْتَبُكَ لِنَفْسِهِ ، وَأَسْتَرَادَ مِنْكَ فِرْدَهَ وَأَجْمَلَ لَهُ
فِي رَدِّكَ ، وَأَحْمَلَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَوَلَّهُ خُرَاسَانَ بِشِفَاعَتِى وَأَعْنَهُ بِمَا لِي بِظَهْرِهِ مَوْرُوثُهُ “
فَوَلَّاهُ مُعَاوِيَةَ خُرَاسَانَ ، وَأَجَازَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ أَعْجَبَ مَا ظَهَرَ
مِنْ حِلْمِ يَزِيدَ .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة . ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المثنى .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه ديناً لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى أنحى زيد بن منبه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الحق بصهرك ”يعنى عتبة“ فقدّم عليه مصر فقال : ”إني سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتألف : ألبس أردية الليل مرة وأخوض في لجج السراب أخرى، موقراً من حُسن الظن بك، وهارباً من دهر قَطم، ودين أزم، بعد غنى جدّنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مهرباً وعليك معولاً — فقال عتبة : مرحباً بك وأهلاً! إن الدهر أعاركم غنى وخطبكم بنا ثم آسترد وأخذ ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا مالا ضيقة معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله“ فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزى بن زُرارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوبر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال يا أمير المؤمنين لم أزل أهرّ ذوائب الرجاء إليك ، ولم أجد معولاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأسمُ المجاهل بالآثار ، يقودنى إليك أمل ، ويسوقنى إليك بلوى ، والمجتهد يُعذر ، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحطّط عن راحلتك رحّلها .

ونخرج عبد العزى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارة عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزُرارة : أتانى اليوم نعى سيد شباب العرب — قال زُرارة يا أمير المؤمنين هو أبى أو أبنتك؟ — قال بل أبنتك فقال ”لأوت ما تلد الوالدة“ . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وَلِلْمَوْتِ تَغْدُو الْوَالِدَتُ سِخَالَهَا * كَمَا لِحَرَابِ الدَّهْرِ تُبْنَى الْمَسَاكِينُ

ومن ذلك ما يروى، أن مروان بن الحكم، وهو والٍ على المدينة في خلافة معاوية حبس غلاماً من بني ليث في جناية جناها بالمدينة، فأنته جدّة الغلام ”وهى أمّ

(١) سِنَانِ بِنْتُ جَشْمِيَّةِ بْنِ خَرْشَةَ الْمَذْحِجِيَّةِ ، فَكَلَمَتْهُ فِي الْغَلَامِ ، فَأَغْلَظَ لَهَا مِرْوَانَ ، فَخَرَجَتْ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَأَنْتَسَبَتْ لَهُ فَعَرَفَهَا ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِابْنَةِ جَشْمِيَّةِ مَا أَقْدَمَكَ أَرْضَنَا ؟ وَقَدْ عَهْدْتُكَ تَسْتُمِينَا ، وَتُحْضِينِ عَلَيْنَا عِدْوَنَا ، قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنْ لَبِنِي عَبْدُ مَنْأَفٍ أَخْلَاقًا طَاهِرَةً ، وَأَعْلَامًا ظَاهِرَةً ، لَا يَجْهَلُونَ بَعْدَ عِلْمٍ ، وَلَا يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ ، وَلَا يَسْتُمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ لَأَنْتَ ، قَالَ ”صَدَقْتَ نَحْنُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ قَوْلُكَ :

عَزَبَ الرُّقَادُ فَمُقَلَّتِي لَا تَرْقُدُ * وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهُمُومِ وَيُورِدُ
يَا آلَ مَذْحِجٍ لَا مُقَامَ فَشَمِّرُوا * إِنَّ الْعَدُوَّ لَالَ مَذْحِجٍ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَيٌّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ * وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَأَبْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ * إِنْ يَهْدِكُمُ النُّورُ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُدَّ شَهِدِ الْحُرُوبِ مَظْفَرًا * وَالتَّصَرُّفُ فَوْقَ لُؤَائِهِ مَا يُفْقَدُ“

قَالَتْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا خَلْفًا بَعْدَهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ كَيْفَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَهِيَ الْقَائِلَةُ :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ * بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا
فَأَذْهَبَ عَلَيْكَ صَلَوةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ * فَوْقَ الْغُصُونِ حَمَامَةٌ قُورِيًا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلْفًا لَنَا * أَوْصَى إِلَيْكَ بِنَا وَكُنْتَ وَفِيًا
وَالْيَوْمَ لَا خَلْفَ يُؤْمَلُ بَعْدَهُ * هِيَاتَ نَأْمَلُ بَعْدَهُ إِنْ سَيَا

قَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لِسَانُ نَطْقٍ ، وَقَوْلٌ صَدَقَ ، وَلَئِنْ تَحَقَّقَ فِيكَ مَا ظَنَّنَاهُ ، فَحُظُّكَ الْأَوْفَرُ ، وَاللَّهُ مَا أَوْزَرَكَ الشَّنَّانَ ، فِي قُلُوبِ الْمَسَامِينِ إِلَّا هَؤُلَاءِ ، فَأَذْخُضْ

مقاتلهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً، ومن المسلمين حُباً. قال وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك من مدح باطل، ولا اعتد إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضير قلبنا. كان على والله أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من غيرك. قال ممن؟ قالت من مروان وسعيد بن العاص — قال وبم استحققت ذلك عندك؟ — قالت بسعة حليمك، وكريم عقوق — قال وإنيهما يطمعان في ذلك — قالت هما والله من الرأي على ما كنت عليه لعثمان بن عفان — قال لقد قاربت فما حاجتك؟ — قالت: يا أمير المؤمنين! إن مروان تبك في المدينة تبكاً من لا يريد منها البراح، لا يحكم بعدل، ولا يقضي بسنة، يتبع عورات المؤمنين؛ حبس ابن أبي فأتيت فقل كيئت وكيئت، فاستمعته أحسن من الحجر، وألقمته أمر من الصبر. ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالغو منه؛ فأيتك يا أمير المؤمنين، لتكون في أمرى ناظراً، وعليه مدياً — قال صدقت لأسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه — قالت يا أمير المؤمنين وأنى بالرجعة وقد نفذ زادي، وكلت راحتي، فأمر لها براحة موطاة وخمسة آلاف درهم.

ومن ذلك ما روى أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الجحون يقال لها الدارمية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها فحج بها، فقال ما حالك يا أبة حاتم؟ — قالت لست لحام أدعى، إن عبتني أنا امرأة من بنى كنانة — قال: صدقت أتدريين لم أرسلت إليك؟ قالت لا أعلم الغيب إلا الله — قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتيني، وواليتي وعاديتيني؟ — قالت أو تعفيني

يا أمير المؤمنين - قال لا أعفك - قالت أما إذا أبيت ، فإنى أحببت عليا على عدله
 في الرعية ، وقسمه بالسوية ؛ وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك ، وطلبك
 ما ليس لك بحق ؛ وواليت عليا على ما عقد له من الولاية ، وعلى حبه المساكين ،
 وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك
 بالهوى - قال ولذلك آتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك - قالت يا هذا بهند
 كانت تضرب الأمثال ، لابي - قال يا هذه أربعي فإنما لم تقل إلا خيرا إنه إذا آتفخ
 بطن المرأة تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثديها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن
 مجلسها فرجعت وسكنت - قال لها فهل رأيت عليا ؟ قالت لقد كنت رأيته -
 قال كيف كنت رأيته ، قالت رأيته لم يفتنه الملك الذي فتتك ، ولم تشغله النعمة
 التي شغلتك - قال لها : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم ، والله كان يحلو القلوب من
 العمى ، كما يحلو الزيت الطست من الصدا - قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟
 قالت : وتفعل إذا سألتك ؟ - قال نعم - قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها خلها وراعيها -
 قال تصنعين بها ماذا ؟ - قالت أغذى بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأصلح
 بها بين العشائر - قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي ؟ - قالت ماء
 ولا كصدا ، ومرعى ولا كالسعدان ، وفقى ولا كالملك ، ياسبحان الله أو دونه ، فأنشأ
 معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلِمِ مني إليكم * فن ذا الذي بعدى يؤمل للحلم ؟
 خذها هنيئاً وأذكري فعل ماجد * جزاك على حرب العداوة بالسلم .

ثم قال : أما والله ! لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا - قالت والله ولا وبرة واحدة
 من مال المسلمين .

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنت صفوان استأذنت على معاوية فأذن لها
فدخلت عليه، وعليها ثلاثة دروع برود تسحبها ذراعا، قد لاثت على رأسها كورا
كالمنسف فسأمت وجلست؛ فقال لها معاوية كيف أنت يا ابنة صفوان؟ - قالت
بخير يا أمير المؤمنين - قال كيف حالك؟ - قالت كسيت بعد نشاط - قال شتان
بينك اليوم وحين تقولين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ * عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْخَوَّارِ
أَسْرِجَ جَوَادَكَ مُسْرِعًا وَمُسَمَّرًا * لِلْغُرَبِ غَيْرَ مُعَوِّدٍ لِفِرَارِ
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبُّ تَحْتَ لَوَائِهِ * وَالْقَى الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً * فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت قد كان ذلك، ومثلك من عفا عما سلف ((وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ)). قال
هيئات، أما والله لو عاد لعديت، ولكنه اخترم منك - قالت أجل! والله إنى لعلى
بينة من ربي وهدى من أمرى - قال كيف كان قولك حين قتل؟ - قالت أنسيته؛
قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

يَا لِلرِّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مُصِيبَةٍ * فَدَحَتْ فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ
الشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَفَقْدِ إِمَامِنَا * خَيْرِ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
حَاشَى النَّبِيِّ لَقَدْ هَدَدَتْ قُوءَانَا^(١) * فَالْحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا لِلْبَاطِلِ

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل ، أذكركى حاجتك - قالت
أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ، فقالت تعس شانى على! فقال زعمت أن لا ؛
قالت هو كما علمت ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال إذا ضيعت الحلم
فمن يحفظه ؟

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدى بن أرطاة : أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فولّ القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، وكانا غير راغبين في القضاء . فقال إياس : أيها الرجل سلّ عني وعن القاسم فقيهي المصير الحسن وأبن سيرين ، وكان القاسم يأتي الحسن وأبن سيرين ، وإياس لا يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به ، فقال له : لا تسأل عني ولا عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذبا فما أشير عليك أن توليني وأنا كاذب ، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفت به على شفير جهنم فنبجى نفسه منها يمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدى : أما إذ فهمتها فأنت لها فاستقضاء .

ومن ذلك : ما حكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطب أبو جعفر المنصور ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس اتقوا الله ، فقام إليه رجل من عَرْض الناس ، فقال أذكرك الذي ذكّرنا به . فأجابه أبو جعفر بلا فكرولا رويّة : سمعنا سمعنا لمن ذكّر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم ؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فقال ، فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت ، وأنا أذكركم أيها الناس أختها ، فإن الموعدة علينا نزلت ، وفيها أنبئت . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : ما يحكى عن الربيع قال : كنا وقفا على رأس المنصور ، وقد طُرحت للهدى بن المنصور وسادة إذ أقبل صالح بن المنصور ، وكان قد رشحه أن يولّه بعض أمره ، فقام بين السماطين والناس على قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فبد

المنصور يده إليه ، ثم قال يا بُنَيَّ ! وأعتنقه ، ونظر في وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكر مقامه ويصف فضله ، فكلهم كره ذلك وهاب المهدي ، فقام شبة بن عقال التميمي ، فقال : "لله در خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ! ما أفصح لسانه ! وأحسن بياناً ! وأمضى جناة ! وأبل ريقه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لا يكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه ، والمهدي أخوه ، وهو كما قال زهير بن أبي سلمى :

يَطْلُبُ شَاوَأَمْرَيْنِ قَدَمًا حَسَنًا * بَدَأَ الْمُلُوكَ وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوْقَا

هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشَاوَهُمَا * عَلَى تَكَالُفِهِ فثَلْهُ لِحَقَا

أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَل * فَمَثَلْ مَا قَدَمًا مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا

قال الربيع : فأقبل على بعض من حضر ، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلصاً^(١) أرضى أمير المؤمنين ، ومدح الغلام ، وسلم من المهدي . فالتفت إلى المنصور ، وقال : ياربيع لا ينصرف التميمي إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً دخل على المهدي ولي عهد المنصور ، فقال يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصور شتمني وقذف أمي ، فإما أمرتني أن أحلله ، وإما عوّضتني فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شمت عدوه بحضرته ، فغضب — فقال ومن عدوه الذي غضب لشمته — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمس به رحماً ، وأوجب عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رحمة ذب ، وعن عرضه دفع ، وما أساء من أنتصر لأبن عمه — قال فإنه كان عدوه — قال فلم ينتصر للعداوة ، إنما أنتصر للرحم ، فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليوتى قال : لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوى ؟ — قال نعم ، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ما حكى: أن المنصور قال لبعض قواده: صدق الذى قال "أَجْعُ كَلْبَكَ يَتَّبِعُكَ" فقال له أبو العباس الطوسى: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يلوح له غيرك رغيفا فيتبعه ويدّعك .

ومن ذلك ما يحكى: أنه وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان، وفيهم محمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى، وكان أعظمهم قدرا، وأكبرهم سنا؛ فقال - أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك، وأقلت وأكثرت وأطنبت، وما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى مُطَنِّبهم فضلك؛ وإن أذنت فى القول قلت - قال قُلْ وأوجز - قال تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى! إن لى حوائج أفاد كرها، قال هاتها - قال كبرت سنّى ودقّ عظمى، ونال الدهر منى؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، وينفى فقرى - قال: وما الذى ينفى فقرى ويجبر كسرك؟ - قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار. فاطرق هشام طويلا، ثم قال: هيهات يابن أبى الجهم، بيت المال لا يحتمل ما سألت - فقال: أما إن الأمر لواحد، ولكن الله أثرك لمجلسك فإن تعطنا خفنا أدت، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوت؛ إن الله جعل العطاء محبة، والمنع مبغضة، ولأن أجبك أحب^(١) إلى من أن أنفضك - قال: فألف دينار لماذا؟ - قال أقضى بها دينا قد حُمّ قضاؤه، وحناني حمله، وأضربى أهله - قال: فلا بأس تُنفّس كربة، وتودى أمانة؛ وألف دينار لماذا؟ - قال أزوّج بها من بلغ من ولدى - قال: نعم المسلك سلكت، أغضضت بصرا، وأعققت ذكرا، وروّجت نسلا؛ وألف دينار لماذا؟ - قال

(١) فى الأصل . ولئن وهو خطأ فى الرسم .

أشترى بها أرضاً يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون
 ذخراً لمن بعدى ؛ قال : فإننا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالحمد لله على ذلك ،
 ونخرج — فقال هشام : ما رأيت رجلاً أوجز في مقال ، ولا أبلغ في بيان منه ، وإنا لنعرف
 الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقتيراً ، وما
 نحن إلا خُزَّان الله في بلاده ، وأمنائوه على عبادِهِ ، فإن أُذِنَ أعطينا ، وإذا منع أبدينا ،
 ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحق ، ما جَبَّهنا قائلًا ، ولا ردَّدنا سائلًا ؛
 فنسأل الذى بيده ما استَحَقُّفنا أن يُجْزِيَهُ على أيدينا فإنه يَسُطُّ الرِّزْقَ لمن يَسْأَلُ
 ويُقدِّر ، إنَّه كانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بصيرا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلمت فأبلغت ،
 وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُتَدى .

والحكايات والأخبار في ذلك كثيرة ، والإطنباب يُخرج عن المقصود ، ويؤدى
 إلى اللالال ، وفيما ذكرنا من ذلك مَقْنَعٌ والله أعلم .

المقصد الثالث

(فى كيفية تصرّف الكاتب فى مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف على من تعاطى صناعة النثر والنظم أنه لا يستقلُّ أحد باستخراج جميع
 المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام من تقدمه : لاقتباس ما فيه من المعانى
 الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وأصطلاحهم ، فينسج
 على منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتوارد الكتاب والشعراء على المعانى غير
 مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنى على أصل واحد من وزن وقافية ،
 فإنه إذا وقف على المعنى وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ؛ مثل أن

يكتب في تهئة بمولود: قد جعلك الله من نَبْعَةِ طَابَتْ مَغَارِسُهَا، وَرَسَخَتْ عُرْوُهَا،
فَالزِّيَادَةُ فِيهَا زِيَادَةٌ فِي جَوْهَرِ الْكَرَمِ، وَذَخِيرَةٌ نَفِيسَةٌ لِدَوَى الْإِقْبَالِ، فَتَوَلَّى اللَّهُ
نِعَمَهُ عِنْدَكَ بِالْحِرَاسَةِ الْوَافِيَةِ، وَالْوِلَايَةِ الْكَافِيَةِ. وَقَدْ بَلَغَنِي الْخَبَرُ بِحُدُوثِ الْوَلَدِ
الْمُبَارَكِ، وَالْفَرَعِ الطَّيِّبِ، الَّذِي عَمَّرَ أَفْنِيَةَ السِّيَادَةِ، وَأَضْحَكَ مَطْلَعَ السَّعَادَةِ،
فَتَبَاشَرْتُ بِذَلِكَ وَابْتَهَجْتُ بِهِ، جَعَلَهُ اللَّهُ بَرًّا تَقِيًّا، سَعِيدًا حَمِيدًا، يَتَقَبَّلُ سَلَفَهُ،
وَيَقْنِي أَثَرَهُمْ؛ وَأَيْمَنَ بِهِ عِدْدَكَ، وَكَثَّرَ بِهِ ذُرِّيَّتَكَ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ، وَأَجَارَكَ
فِيهِ مِنَ الثَّكْلِ بِرَحْمَتِهِ.

فِيأْخِذْ آخِرَ الْمَعْنَى، وَيُورِدُهُ بِالْفَافِ آخِرَى، يَقُولُ: قَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ
زَكَتْ غُصُونُهَا، وَفَرَعَ شُرُفُ مَنَابِتِهَا، فَانْمَوْ فِيهَا نِعْمَةٌ كَامِلَةٌ السَّعَادَةِ، وَغِبْطَةٌ شَامِلَةٌ
السُّرُورِ، فَتَوَلَّى اللَّهُ فَضْلَهُ عَلَيْكَ بِالْحِفَافِ الرَّاعِي، وَالِدِّافِ الْكَالِي؛ وَقَدْ أَتَصَلَ بِى
خَبَرِ السَّلِيلِ الرِّضَى، وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ الَّذِي جَدَّدَ فَوَائِدَ السِّيَادَةِ، وَثَبَّتَ أَسَاسَ الرِّفْعَةِ،
فَاغْتَبِطْتُ بِهِ وَاسْتَبَشَرْتُ، جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدًا مَيِّمُونًا، وَنَجْلًا سَعِيدًا، يَسْلُكُ مَنَاجِ
سَلَفِهِ، وَيُحْدِثُ فِي الْحَاسِنِ حَذْوَهُمْ، وَزَادَ بِهِ فِي ثَرَوَتِكَ، وَأَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمْلَاكَ، وَسَرَّكَ
بُوجُودَهُ، وَأَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْهِ.

فَالْمَعْنَى وَالْفَصْلُ وَاحِدٌ، وَالْأَلْفَاظُ مُخْتَلِفَةٌ. وَكَذَلِكَ مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى وَمَا
فِي مَعْنَاهُ.

قُلْتُ: وَلَا يَنْهَضُ بِمِثْلِ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَخَتْ فِي صِنْعَةِ الْكِتَابَةِ قَدَمُهُ، وَامْتَرَجَ
بِأَجْزَاءِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لِحْمَهُ وَدَمُهُ؛ وَهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ فِي الْقِرْآنِ
الْكَرِيمِ، فَإِنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ نَتَكَرَّرُ فِيهِ مَرَارًا فِي سُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَرَدُّ فِي كُلِّ سُورَةٍ
بِلَفْظٍ وَتَرْكِيبٍ غَيْرِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ فِي الْأُخْرَى، مَعَ اسْتِيفَاءِ حَدِّ الْبَلَاغَةِ وَنَهَايَةِ أَمَدِ
الْفَصَاحَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَلَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَنْهَجَ، أَوْ ارْتَقَى هَذِهِ الدَّرَجَةَ، وَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ بْنُ

حمزة بن طلحة في كتابه "الأقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعجب العجائب، فإنه قد استحسن كلام الخطيب ابن نباتة الفارقي، والأمير قابوس الخراساني، والوزير أبي القاسم المقرئ، والصاحب ابن عباد، وأبي إسحاق الصابي، الذين هم رؤساء الكتابة، وأئمة الخطابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخطب الموجزة الرائقة، فجرد معانيها من ألفاظها، وأخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تنميق، ومراعاة ترصيف، على أتم نظام، وأحسن آلتنام.

وهاتان نسختا كتابين، الأولى منهما كتب بها أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة ابن بويه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عضد الدولة يخبره بمولود ولد له. والثانية عارض بها علي بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابي في ذلك بألفاظ أخرى مع اتحاد المعنى.

فأما التي كتب بها أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة إلى عضد الدولة فهي :

"وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أطل الله بقاءه بالخبر السار للأولياء، الكاتب للأعداء، في الولد الحبيب الأثير، والسيد المقيّل الخطير، الذي زاد الله به في عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالنا والآمال لنا، فأخذ ذلك مني مأخذ الأغبط ونزل عندي أعلى منازل الابتهاج، وسألت الله تعالى أن يختصه بالبقاء الطويل، والعمر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير نامية بنحوه، ناشية بنشوّه : ليكون كلّ يوم من أيامه مُمّدا له من فضله عاده، وواعدا له من غده زياده، ومُجدّدا لديه منحة تُتضاعف إلى ما سبق من أمثاله، ومجدّدا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها، وأن يريه إياه غزّة في وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمنزلته، قائما لللك قيامه، وسادا منه مكانه، ويهّيب له بعد الأكابر النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجارة المشفوع، في فائدة تقدم بمقدمه، وعائدة ترد بمورده؛ ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض اتصالها، أو فترة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنقصها، أو رزية تثلمها، أو تنقصها. إلا أنها الأمد الأبعد^(١) والعمر الأطول؛ ثم تُفَضَّى به غَضارة هذه الدار الدنيا، إلى قرارة الدار الأخرى، مَبْوَأَ أَوْفَى مراتبها، مَبْلَغًا أَقْصَى مبالغها، حَالًا أَرْفَعَ درجاتها، مَخْتَصًا بِأَنْعُمِها، مَبْتَهَجًا بِها، مُسْتَشْمِرًا مَا قَدَّمَهُ لِصَالِحِ سَعِيهِ، وَمُسْتَوِفًا مَا أَفَاءَ عَلَيْهِ مَتَجَرُّهُ الرَّاحِ، وَأَثَارُهُ الْبَادِيَةِ لِإِنْفَاقِهِ فِي أَيَّامِ نَظَرِي^(٢) الَّتِي أَسْتَشَعَرْتُ نُورًا مِنْ سَنَائِهِ، وَأَنْسَتْ جَمَالًا مِنْ بَهَائِهِ، وَثَابَتَ مَصَالِحُهَا بِبِرْكَتِهِ، وَتَوَافَتْ خِيَرَاتُهَا بِبَيْنِهِ؛ وَأَعْتَقَدْتُ أَنَّ السَّعَادَاتِ طَالِعَةُ عَلَيَّ بِمَطْلَعِهِ، وَأَسْبَابُهَا نَاجِمَةُ إِلَى بَمَنَاجِمِهِ؛ فَلَوْ أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَكُونَ مَكَانَ كِتَابِي هَذَا مَشَافِهَا بِالْهَيْئَةِ لَسِيدِي الْأَمِيرِ عَضِدِ الدَّوْلَةِ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاةً وَمَقْبَلًا لِبَسَاطَةِ، لَكُنْتُ أَوْلَى عِيْدِهِ بِالمَسَارَعَةِ إِلَى بَابِهِ، وَأَحَقُّهُمْ بِالمَبَادِرَةِ إِلَى فَنَائِهِ : لِأَنِّي مَعْوَقٌ عَنْ تِلْكَ الخِدْمَةِ بِخِدْمَةِ أَنْفَائِهِ مِنْ قَبْلِهِ . وَمَقِيمٌ بِهَذِهِ الْحَضَرَةِ، إِقَامَةً الْمُتَصَرِّفِينَ تَحْتَ أَمْرِهِ، وَقَدْ وَفَّيْتُ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى، الْوَاهِبِ مِنْهُ أَيْدِيَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا يُقَرَّرُ عَيْنَ الْوَلِيِّ، وَيُقَدَّرُ عَيْنَ الْعَدُوِّ وَيُطَرِّفُهَا، حَقَّقَهَا مِنَ الشُّكْرِ الْمُتَمَرِّقِ لِلْإِقَامِ وَالْمَزِيدِ، بِدَوَامِ الْعِزِّ وَالتَّائِيدِ؛ وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ مَقْبُولًا عَنْهُ، وَنَافِعًا لَهُ، وَعَائِدًا عَلَيْهِ وَعَلَيْنَا بِطَوْلِ الْعُمُرِ وَبِبَاهِي النُّشُوقِ وَالنَّمَاءِ، وَأَنْ يَعْرِفَ سَيِّدِي الْأَمِيرُ عَضِدَ الدَّوْلَةِ أَيْدِيَهُ اللَّهُ بَرَكَتَهُ مَوْلَدَهُ، وَيُؤْمِنَ مَوْرَدَهُ، وَيُقِيهِ حَتَّى يَرَاهُ وَالْأَمْرَاءَ السَّابِقِينَ أَيْدِيَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَبَاءَ أَمْنَاهُمْ، وَأَشْيَاخَ ذَرِيَّتِهِمْ، مَبْلَغًا فِي كُلِّ مِنْهُمْ أَفْضَلَ مَا رَشَّحَتْهُ لَهُ أَمَانِيهِ، وَأَعْلَى مَا أَنْبَسَتْ أَمَالَهُ فِيهِ، بِقُدْرَتِهِ . وَأَنَا أَتَوَقَّعُ الْكِتَابَ بِمَا يَقَرَّرُ عَلَيْهِ أَسْمُ الْأَمِيرِ السَّيِّدِ وَكِتَابَتِهِ، أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَسْتَأْنِفَ إِقَامَةَ الرِّسْمِ فِي مَكَاتِبِهِ، وَتَأْدِيَةَ الْفَرَضِ فِي خِدْمَتِهِ؛ وَسَيِّدِي عَضِدَ الدَّوْلَةِ،

(١) لعله إلى إنشائها كما يفيد السياق . (٢) كذا في الأصول وليحذر .

أطال الله بقاءه ، أعلیٰ عینا فیما یراه بمطالعی بذلك وبكل ما یولیٰه الله من مستأنف
نعمه ، ویجتدده له فی حادث مواهبه له ، لآخذ بحظی منهما ، فأضرب بسهمی فیهما ،
وتصرفی بین أمره ونهیہ ، وتشرفی بعوارض خدمته ، إن شاء الله تعالى .

وأما التی عارضها بها علی بن حمزة بن طلحة فهی :

وصلنی کتاب سیدی الأمير عضد الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشری المتبسمة
عن ناجذ السعد الآنف ، والتغمی المتبسمة عن صبا المجد المتضاعف ؛ التی أشرقت
مطالع الإقبال عن محیّاها ، وتضوّعت نفحات درك الآمال عن ریّاها ، وصدقت
من الأولیاء ظنونهم المرتقبه ، وأنخبّت من الأعداء عیونهم المرتعبه ؛ بالولد النجیب
الخطیر ، الأمير الحیب الظهیر ، الحید المعمر ، المقل المؤمر ، الذی کثر الله به عددنا
معشر أهلیه ، وعددنا بما نرتقبه منه ونزاعیه ، وهو تکرمة مُحقق ظنوننا بما له نرتجیه ،
وما تؤملّه من السعادة المقبلة فیہ ؛ فاستفزتنی غبطة استحوذت علی جوامع لُبّی ،
وتملکتنی بهجة ثوت فی مرابع قلبی ؛ وطففت مبتهلا ، وتضرّعت متوسلا ، إلى ذی
العرش الحید ، الفعّال لما یرید ، أن یجمع له بین العُمر المدید ، والحدّ السعید ، کفّاء
ماقرن له بین المجد العتید ، والملک الوطید ؛ وأن یجعل تحیات أیادیه لدى سیدی
الأمیر متضاعفة الأعداد ، مترادفة الأمداد ، مبشرة بُجباء الأولاد ، یربّی آنفها علی
السالف بسعده ، ویلّهی عن تالدها الطارف بعلو مجده ؛ وأن یریه إیّاه علی مفرق
دولته ، وغرة تُشرق فی جبهة ذریته ، وناهضا بأعباء مملکته ، وقائما بنصرة دعوته ،
حتى یرى أولاد أولاده جُودا ، مظفرا سعیدا ؛ وأن یتبعه أثرابا من الإخوة النجباء ؛
الأماجد السعداء ؛ متجارین فی حلّبات علو الهمم ، متبارین فی مزیّات إیلاء النعم ؛
لیتراید أزدحام وفود السعادة فی عتبات بابہ ، ویتراقد أقتحام جنود الإقبال رحیب
جَنابہ ؛ ویحرّس لديه ماخوله من مواهبه وأیادیه ، ویحفظ علیه مابه فضلّه من مناقبه

ومعاليه ؛ و يقيه من كيد عائد إذا عند ، ويحميه من شر حاسد إذا حسد ؛ وأن يؤتية عائدتي العاجلة والعقبى ، ويحظيه بسعادتي الآخرة والأولى ؛ وأن يجعل سعيه في مصالح عباده مشكورا ، ونظره في مناجح بلاده مبرورا ؛ وأن يغادر متاجر بره وتقواه رابحه ، كما جعل خواطر سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعده نواضر ، ونواظر الأنام إلى فضله نواظر ؛ ومصالحهم بئمه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وسعادته مواتيه ؛ وإنى لأعتقد أن مقبلي في أفياء السعادة ، ونبلي كل مأمول وإرادته ، وتوفيق فيما أوفق فيه ، بما أعتمد به وآتية ، جَدُول من تيار فضله وسعادته ، منوط العرى بسمو همته ؛ وأود أن أكون عوضا عن كتابي هذا إليه ، وخطابي الوارد آنفا عليه ؛ لأسعد بالألاء غرته ، وأحظى بالأشرف من خدمته ؛ أدام الله أيام دولته : لأنى أجدر عبيده بالمهاجرة إلى بابه ، وأولى خدمه بالمبادرة إلى جنابه ؛ ولولا تحلى أعباء خدمته التي طوقنيها ، وكوني نائبه لدى هذه الحضرة فيها ، ثاويا بأوامره ونواهيها في مغانيها ، لما شق غباري من أم ذراه ، ولا أتبع آثارى مُسرِع رام لُقياه . ولقد قمت بالواجب على للنعمة أيده الله المنزلة إلى ، والموهبة بمقدمه كلاًه الله المُحْكَمَة لدى ، التي أضحت بها نواجد المخلص ضاحكة مستبشرة ، وأمسّت بسببها وجوه الكاشحين عابسة مستبشرة : من وافر شكرٍ يمتري المزيد ، وعتي الإماء والعبيد ، والصدقة الدازة على التأبيد ؛ وأنا أرغب إلى الله تعالى رغبة متوسل إليه ، أمل بما لديه ، أن يجعل بركة كل خير درت به أخلافه ، وكرت لأجله أحلافه ، عائدة عليه ، وميامنه ثابتة إليه ، مؤذنة بتعميره ملكا حلالا ، لا يلقى مؤملوه ليم فضله ساحلا ؛ وأن يمد لسيدى عضد الدولة في البقاء ، ويمتعه به وبسابقه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصوى ماتسمو إليه هممه وأمانيه . وإنى لمتوكف لما يصلني من كتاب ينبئ عن اسمه الكريم وكينته ، لأعتمد ما أستوجبه في خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضد الدولة أدام الله علاه، ولى ما يستصوبه ويراه : من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم ، وأوانف المواهب الغالية القيم ، لآخذ وافر سهمى من السرور ، وجزيل قسَمى من الجَدَل والحبور ، وتصريفى بين أمره الممثل المطاع ، ونهيه المقابل بالاتباع ، إن شاء الله تعالى .

النوع العاشر

الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة ، خصوصا أشعار العرب وما توفرت دواعى العلماء بها على اختياره : كالحماسة ، والمفضَّليات ، والأصمعيات ، وديوان هذيل ، وما أشبه ذلك ؛ وفهم معانيها وآستكشاف غوامضها ، والتوفر على مطالعة شروحها ؛ ويلتحق بذلك شعرُ المولدين من العرب ، وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام : بجرير والفرزدق ، والأخطل وغيرهم ؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلّحين من المحدثين : كأبى تمام ، ومسلم بن الوليد ، والبحترى ، وأبن الرومى ، والمتنبى ونحوهم ؛ وفيه مقصدان :

المقصد الأول

(فى بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة المواد ، وصحة الاستشهاد ، وكثرة النقل ، وصقل مرآة العقل ، وأنتراع الأمثال ، والأحتذاء فى اختراع المعانى على أصح مثال ؛ والاطلاع على أصول اللغة وشواهداها ، والأضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأوّل يعتنون بذلك غاية الاعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه " كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر". وذكر صاحب "الريحان والريعان" عن سعيد بن المسيب أنه قال :
كان أبو بكر وعمر وعلىٌ يَحِيدُونَ الشعرَ وعلىٌ أشعرُ الثلاثة . قال : وكان عمر بن
الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدّمها بين يدي حاجته
يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعي رضي الله عنه
أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعي
رضي الله عنه .

وَلَوْلَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرَى * لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ

فإنه يريد من صرف همته إلى الشعر، بحيث صار شأنه ودينته، وهو المعنى بقوله
صلى الله عليه وسلم "لَأَنْ يَمْلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَهُ قَيْحًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْلَأَهُ شَعْرًا" أى أراد
صرف همته إليه حتى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ
لِحِكْمَةً" . وكان عمر رضي الله عنه يسمع البيت يُعْجِبُهُ فيكره مراراً كما ذكره
الحافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنباري في كتاب "طبقات الأدباء"
في ترجمة أبي جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنباري : أنه كان فقيهاً ،
علماً ، واسع الأدب وتقليد القضاء لعدة من الخلفاء . ثم حكى عن ولده أبي طالب
أنه قال كنت مع والدي في جنازة بعض أهل بغداد من وجوه الناس وإلى جانبه
أبو جعفر الطبري ، فأخذ أبي يعظ صاحب المصيبة ويسليه ، ويُشَدُّ أشعاراً ،
ويروى له أخباراً ، فداخله الطبري في ذلك ، ثم آتسع الأمر بينهما في المذاكرة ،
ونجرا إلى فنون كثيرة من الأدب والعلم آتسحسها الحاضرون وأعجبوا بها ، وتعالى
النهار وأقترقنا ، فقال لي أبي يا بُنَيَّ مَنْ هذا الشيخ الذي داخلنا في المذاكرة؟ فقلت :
يا سيدي كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبري ، فقال إنا لله !
ما أحسنْتُ عِشْرَتِي معه ، فقلت كيف ياسيدي ؟ قال : ألا نَبَّهْتَنِي في الحال ،

فكنت إذا كره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والاتساع في صنوف العلوم، ماذا كرته بحسبها، ومضت على ذلك مدة فحضرنا في حق آخر وجلسنا، وإذا بالطبري قد دخل إلى الحق. فقلت له: أيها القاضي هذا أبو جعفر الطبري قد جاء مقبلاً، فأوماً إليه بالجلوس عنده، فعدل إليه وجلس إلى جانبه، وأخذ يحاربه، فكما جاء إلى قصيدة ذكر الطبري منها أبياتاً، قال أبي: هاتها يا أبا جعفر إلى آخرها فيتلعثم الطبري فينشدها أبي إلى آخرها، وكلما ذكر شيئاً من السير، قال أبي هذا كان في قصة فلان، ويوم بني فلان، مرّ يا أبا جعفر فيه فربما مرّ فيه، وربما تلثم، فيمرّ أبي في جميعه. ثم قمنا، فقال لي أبي: الآن شفيّت صدري.

وأما أشعار المحدثين، فللطيف مأخذهم، ودوران الصناعة في كلامهم، ودقة توليد المعاني في أشعارهم، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة، والكتابة، وخصوصاً المتنبي، الذي كأنه ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم، وكثير الاستشهاد بشعره حتى قلّ من يحمله، فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ الأشعار وتدبر معانيها، ساقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما في حفظه منها، فاستعملها في محلها، ووضعها في أماكنها، على حسب ما يقتضيه الحال في إيرادها وأقتباس معانيها.

المقصود الثاني

(في كيفية استعمال الشعر في صناعة الكتابة)

علم أن للكتاب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات:

الحالة الأولى

(الاستشهاد)

وهو أن يُورد البيت من الشعر، أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المشور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينه عليه بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه. وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات: مثل ما كتب به القاضي الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه، ويتشوق إليه:

فِيَارَبِّ إِنْ الْبَيِّنَ أَصْحَحْتُ صُرُوفُهُ * عَلَى، وَمَالِي مِنْ مُعَيَّنٍ فَكُنْ مَعِيَ
عَلَى قُرْبِ عُدَّالِي وَبُعْدِ أَحِبَّتِي * وَأُمُوَاهِ أَجْفَانِي وَنِيرَانِ أَضْلُعِي!

هذه تحية القلب المعدب، وسريرة الصبر المدبذب، وظلامة عزم السلوك المكذب، أصدرتها إلى المجلس وقد وقَدَّ في الحشا نأرها، الزفير أوارها، والدُمُوع شرارها، والشوق آثارها، وفي الفؤاد ثأرها:

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالٌ هَاجِرٌ * لَهَدَيْتُهُ فِي ظُلُمَائِهِ أَنْوَارَهَا

أسفا على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأسرار، ومباسم الثغور والأوطار، وتذكرا لأوقات عذب مذاقها، وأمتد بالأنس رواقها، وزوجت بكرها، ودوَّعب ذكراها:

وَاللَّهِ مَا نَسِيتَ نَفْسِي حَلَاوَتَهَا! * فَكَيْفَ أَذْكُرُ أَيَّ الْيَوْمِ أَذْكُرُهَا؟

ومذ فارقت الحجاب، لأزال جَنَّا جَنَائِهِ نَضِيرًا، وَسَنَا سَمَانَهُ مَسْمَطِيرًا، ومُلْكُهُ في الخافقين خافق الأعلام، وعزُّه على الحديدين جديد الأيام، لم أقف منه على

كُتِبَ تَخْلُفَ سَطورهُ ما غَسَلَ الدَّمْعُ مِنْ سَوادِ ناظِرِي ، وَيُقَدِّمُ بِياضَ مَنْظومِهِ
وَمَنْثورِهِ ما وَزَّعَهُ الْبَيْنَ مِنْ سُوْدِ اِثْنِ خَاطِرِي

وَلَمْ يَتَّقِ فِي الْأَحْشَاءِ إِلَّا صُبابَهُ * مِنَ الصَّبْرِ تَجَرَّى فِي الدَّمُوعِ الْبَوَادِرُ

وَأَسْأَلُهُ الْمَنَابَ ، بِشَرِيفِ الْجَنَابِ ؛ وَأَدَاءَ فَرَضِ ، تَقْيِيلِ الْأَرْضِ ؛ حَيْثُ تَلْتَقِي
وَفُودَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَتَعْمُرُ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ ، الْمُنَى الْغَامِرَةَ ، وَفَضْلَ الظِّلِّ غَيْرِ
مَنْسُوخَ بَهْجَتِهِ ، وَيُبَشِّرُ الْمَجْدَ بِشَخْصٍ لَا تَسْمَحُ الدُّنْيَا بِنَظِيرِهِ :

تَظَاهَرُ فِي الدُّنْيَا بِأَشْرَفِ ظَاهِرِي * فَلَمْ نَرَ أَتَقَى مِنْهُ غَيْرَ صَمِيرِهِ !
كَفَانِي نَفْراً أَنْ أُسَمِّيَ بَعْبِدِهِ * وَحَسْبِي هَدْيًا أَنْ أُسِيرَ بِنُورِهِ !
فَأَيُّ أَمِيرٍ لَيْسَ يَشْرَفُ قَدْرُهُ * إِذَا مَا دَعَاهُ صَادِقًا بِأَمِيرِهِ ؟

وَإِنِّي فِي السُّؤَالِ بِكُتْبِهِ أَنْ يُوَصِّلَهَا لِيُوصِلَ بَهَا لَدَى تَهَانِي تَمَلُّأَ يَدَيَّ وَيُودِعَ بَهَا
عِنْدِي مَسَرَّةً تَقْدَحُ فِي الشُّكْرِ زَنْدِي .

عَهْدُكَ ذَا عَهْدٍ هُوَ الْوَرْدُ نَضْرَةً * وَمَا هُوَ مِثْلُ الْوَرْدِ فِي قِصْرِ الْعَهْدِ
وَأَنَا أَتَرَقَّبُ كِتَابَهُ أَرْتَقَّبُ الْهَلَالَ : لَتُفْطِرَ عَيْنَ عَنِ الْكَرَى صَائِمُهُ ، وَتَرَدَّ نَفْسُ
عَنْ مَوَارِدِ الْمَاءِ حَائِمُهُ اهـ .

بَلْ رُبَّمَا كَانَ كُلُّ الْمَكَاتِبَةِ أَوْ جُلُهَا شِعْراً ، وَقَدْ يَكُونُ صَدْرُ الْمَكَاتِبَةِ شِعْراً وَذِيْلُهَا
نَثْراً ، وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ يَكُونُ طَرَفَاها نَثْراً وَأَوْسَطُها شِعْراً ، وَعَكْسُ ذَلِكَ بِحَسَبِ
مَا يِقْتَضِيهِ التَّرْتِيبُ ، وَيَسُوقُ إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ ؛ وَرُبَّمَا آكُتْنِي بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ مِنَ الشُّعْرِ
فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصِدِ وَبَلُوغِ الْغَرَضِ فِي الْمَكَاتِبَةِ : كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مَلُوكِ الْغَرْبِ
إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتْبَهُ وَرَسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ الْمُتَنَبِّي :

وَلَا تُكْتُبْ إِلَّا الْمَشْرِفَةَ عِنْدَهُ * وَلَا تُرْسِلْ إِلَّا الْخَمِيْسَ الْعِزْمَ .

إلى غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلّ
أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمتنور، وقد تجيء التليقات
بأبيات الشعر في غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن، وتقيح الفكر
كالرسائل الموضوعة في صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك، وقد أودعت المقامة التي
أنشأتها في كتابة الإنشاء جملةً من الأبيات الشعرية، وأردتها مورد الاستشهاد على
ما يقتضيه المقام، ويسوق إليه سياق الكلام، على ما سلف ذكره عند الكلام على
فضل الكتابة فيما تقدم . وعند مطالعة كلامهم، والوقوف على رسائلهم، ترى من
أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره، ويُطربك سمعه .

الحالة الثانية

(التضمين)

وهو أن يضمّن البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة . أما
تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به
القاضي الفاضل :

وصل من الحضرة

كُتِبَ بِهِ مَاءُ الْحَيَاةِ وَنَقَعَهُ السَّحَابُ فَكَأَنِّي إِذْ ظَفِرْتُ بِهِ الْخَضِرُ

فوقفت عنده منه على

عقود، هي الدر الذي أنتَ بجره * وذلك ما لا يدعى مثله البحرُ

ورثت منه في

رياض يد تجني وعينٍ وخطيرٍ * تسابق فيها النور والزهرُ والثمرُ

وكرمت منه في حياض

تسر مجانيها إذا ما جنى الظل * وتروى مجاريها إذا بجل القطرُ

وما زلت منه أنشده

كأني سار في سيرة ليلة * فلما بدا كبرت إذ طلع الفجر
ووافي على ما كنت أعهد

نحلت بأن العين من سحر كفه * فمن ذا ومن ذا فيه ينثر الدر
وأسترجع فأت الدماء من موره

وما كان عندي بعد ذنب فراقه * بأني أرى يوماً به بعد الدهر
ونفس عن النفس بأبيض أثماده وعين العين بأسود إثمده
به لهما سبوح طويل فهذه * على خاطر برد ، وفي خطر بدر
وجدد إليه أشواقاً جديدها

يمر به ثوب الحديدن دائماً * فيلبي ولا يلبى وإن بلي الدهر
وذكر أياماً لا يزال يستعيدنها :

وهيات أن يأتي من الأمر فأت * فدع عنك هذا الأمر قد قضى الأمر
وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاى بعدما ... * أجاب المنادى للصلاة فأعتم
فلما استقر لدى ... * تجلّى الذى من جانب البدر أظلم
فقرأته ... * بعين إذا استمطرها أمطرت دما
وساءلته ... * فسألت مصروفاً عن النطق أعجبا

(١) فى نسخة سمح . وفى أخرى صح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير الى الآية الكريمة (إن لك فى النهار

سبعا طويلا) .

ولم يرد جواباً، ... * ... وما ذا عليه لو أجاب المتيم؟
 ورددته قراءة، ... * ... فعوجلت دون الحليم أن أتحملاً
 وحفظته، ... * ... كما يحفظ الحر الحديث المكنماً
 وكثرته، ... * ... فمن حيث ما واجهته قد تبسماً
 وقبّله، ... * ... فقبّلت دُراً في العقود منظرماً
 وقُتُّ له، ... * ... فكُنْتُ بمفروض الحجة قتيماً
 وأخلصتُ لكتابه، ... * ... وليس على حكم الحوادث محكماً
 ولم أصدقه ! ... * ... ولكنّه قد خالط اللحم والدِّمَا
 وأزخت وصوله، ... * ... فكان لا يدي الوسائم موسماً^(١)
 وشفيتُ به غليل ... * ... فؤاد أمنيّه وقد بلغ الظما
 وداويت عليل ... * ... حشاً ضرماً فيه من النار ضرماً
 فأما تلك الأيام التي ... * ... حمّاهما على اللوم المقام على الحما
 والليالي العذاب التي ... * ... ملأت بحور الليل بيضاً وأنجماً
 وأرسلتُ الزفرة ... * ... فلو صاحفت رضوى لرّض وهُدماً
 وأسبّلتُ العبرة ... * ... كما أنشأ الأفق السحاب المديماً
 وخطبتُ السّلوّة ... * ... فأسأل معدوماً وأمل معدوماً
 فأما الشكر فإنما ... * ... أفضّ به مسكاً عليه مُحْتَمّاً
 وأقوم منه بفرض ... * ... أراي به دون البرية أقوماً
 وأوفى واجب فرض ... * ... وكيف تُوفّي الأرض فرضاً من السما

(١) كذا في الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينة الكاملة على البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى
الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عدت } * وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي
الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه

وبعد أن أنتظرت القيظ والشتاء } * فما للنوى ترمى بليلى المرامي؟
لفصل ربيع

وأستروحت إلى نسيم سحره ... * إذا الصيف ألقى في الديار المراسيا

ومددت يدي لأقطاف ثمره ... * فله ما أحلى وأحلى المجاني!

ووقفت على شكواه من زمانه ... * فبت لشكواه من الدهر شاكيًا

وعجبت لعمى اللخط عن مكانه ... * وقد جمع الرحمن فيه المعاني

وتوقعت له دولة يعلوها الفضل ... * إذا هن من تلك الرياح عواليا

ورتبة يرتقي صهوتها بحكم العدل ... * فرب مراق يعتدّن مهاويا

وإلى الله أرغب في إطلاع سعوده ... * زواهر في أفق العلاء زواها

وفي إنهاض عثرات جدوده ... * فقد عثرت بعد النهوض العواليا

وربما ركب نصف البيت على نصف القرينة ، كما ذكرت في المفارقة بين
السيف والقلم في الكلام على لسان السيف في مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن
ذكرت في التنزيل ، وتمسكت من الامتنان بك في قوله «عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» بشبهة التفضيل ،
فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرّمك من مس أنامله الشريفة ما يؤسى
على فوته ويسرّ بحصوله ، لكنني قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، وشهدت
معه من الوقائع ما لم تُشاهد ، وحلّاني من كفه شرفًا لا يزول حليّه أبدًا ، وحققت بنصره

في كل مُعْتَرَك . ، * فَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أَحَدًا * ؛ فَرَكِبْتَ نَصْفَ بَيْتِ
البردة على نصف قرينة . وما ذكرته في الرسالة التي كتبتها للمقرّر الفتحيّ صاحب
ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد ليس شرفاً
لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطّلع الزمان إلى نزعها ، وأنتهى إليه المجد فوقّف ،
وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف ، وحلّت الرئاسة بفنائها فاستغنت به عن
السّوى ، وأناخت السيادة بأفئائه * فألقت عصاها وأستقرّ بها النوى *

وقد يضمن الكاتب بعض القرينة نصف بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتاً كاملة
الأجزاء على نمط أنصاف الأبيات التي يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن
عمر بن يوسف القرطبيّ في رسالته للشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد تغمدهما الله
برحمته في قوله :

وينهى ورود عذرائه التي ... * لَهَا الشَّمْسُ خِذْنُهَا وَالنُّجُومُ وَلَا تُدْ
وحسنائه التي ... * لَهَا الدَّرُّ لَفْظُهَا وَالدَّرَارِي قَلَانْدُ
ومشرفته التي ... * لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ
وكرمته التي ... * لَهَا الْفَضْلُ وَرَدُهَا وَالْمَعَالِي مَوَارِدُ
وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها * عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَضْلَ جَا حِدُ
وَأَنَّكَ سَيِّفٌ سَلَّهُ اللَّهُ لِلْهَدْيِ * وَلَيْسَ لِسَيْفٍ سَلَّهُ اللَّهُ غَامِدُ

وقد يخالف بين قوافي أنصاف الأبيات التي يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين
فواصل القرائن : كما في قول البديع الحمداني

أنا لقرب دار مولاي ... * كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمَرُ
ومن الأرتياح إلى لقائه ... * كَمَا اتَّفَقَ الصُّفُورُ بِلَلِّهِ الْقَطَرُ

ومن الأمتراج بولائه ... * كما ألتقت الصَّهْبَاءُ والباردُ العَذْبُ
ومن الأبتهاج بمزاره ... * كما اهتَرَّتْ تحتَ البارحِ الغُصْنُ الرُّطْبُ

إلى غير ذلك من فنون الأمتراج التي يزاوج فيها بين المنشور والمنظوم، وينتهى فيها الكاتب إلى ما يبلغ به القدر المحتوم .

أما تضمين بعض أبيات العرب في بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضى الأزرجاني في قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهدِ إلى الوزير المدح يَجْمُلُ * لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصِّفَايَا
وَرَأْفِقُ رُفْقَةً رَحَلُوا إِلَيْهِ * فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا
وَقُلْ لِلرَّاحِلِينَ إِلَى ذُرَاهِ * أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا
وَلَا تَسْلُكُ سِوَى طُرُقِي فَإِنِّي * أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد أشار في كتابه "حسن التوسل" إلى التمثيل بذلك لما نحن بصددده .

الحالة الثالثة

(الحل)

وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عقل الشعر، ويسبكها في كلامه المنشور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية، على فائدها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصا أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم، ومستودع حكمهم، وأنفس علومهم في الجاهلية؛ به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غزرت لديه المواد، وترادفت عليه المعاني، وتواردت على فكره، فيسهل عليه حينئذ حلها، ووضعها

في مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والريعان" :
وهو شأنُ حُذَّاقِ الكتابِ في زماننا ، وفيه من الجمال فنون .

منها أنه يدل على حَفَالةِ أدبِ المجيد ، واتِّساعِ الحفظ ، والتيسير والتأني لسبك
اللفظ .

ومنما أنه ليس يُشهرُ منها إلا النادر للغاية في الحُسن ، فهي إذا حُلَّتْ يحاورها
المنشئ بما يناسب حسنها في البراعة ، وهذا كثير في هذه الصناعة . قال في "المثل
النساء" وإنما جعل المنظوم مادةً للمنثور بخلاف العكس لأن الأشعار أكثر ،
والمعاني فيها أغزر ، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهل الفصاحة كان
جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنثور في كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثُر فإنه لم
يُنقل عنهم بل المنقول عنهم الشعر فأودعوا أشعارهم كل المعاني كما قال الله تعالى
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ . ثم جاء الطراز الأول من المُخَضَّرِين فلم يكن لهم إلا
الشعر . ثم استمر الحال على ذلك فكان الشعر هو الأكثر ، والكلام المنثور بالنسبة
إليه قطرةً من بحر ، فلذلك صارت المعاني كلها مُودعة في الأشعار . قال في "حسن
التوسل" والحلُّ باب متسع على المجيد بحاله ، وتتصرَّف في كلام العارف به رويته
وآرتجاله .

قال صاحب "الريحان والريعان" وأول من فك رقاب الشعر ، وسرَّح مقيده إلى
النثر ، عبد الحميد الأكبر ، كاتب بني أمية إلى أنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه
غير المطبوع المتصرِّف ففقدته وأفسده كما قال القائل : وبعضهم يحلُّ فيعقد . قال :
وكيفية الحل أن يتوشَّح هذا البيت المنظوم وحلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيب
تلك الفرائد وما شابهها ترتيباً ممكن لم يحظره الوزن ولا أضطرَّته القافية ، ويرزها

في أحسن سلك، وأجمل قالب وأصح سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة، ويتخير لها القرائن. وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة فيفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، ما يناسبه. وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء؛ فإن كان نسيبا وتأثي له أن يجعله مديحا فليفعل؛ وكذلك غيره من الأنواع. وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها، فتمت قصرت ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدَّ معيبا. وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدوير الفصاحة، واجتناب ما ينقص المعنى أو يخطئ رتبته.

قال: وهذا الباب لا تحصر المقاصد فيه، ولا حجر على المتصرف فيه.

ثم حل الأبيات الشعرية واستعمالها في النثر على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فيثريه بلفظه، وهو أدنى مراتب الحل)

قال في "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد في نثره على أنه أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير. قال ومثله كن أخذ عقدا قد أتمن نظمته، وأحسن تأليفه، فأوهاه وبدده؛ وكان يقوم عذره في ذلك لو نقله عن كونه عقدا إلى ضرورة أخرى مثله أو أحسن منه. وأيضا فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورا السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء.

وبالجملة فحل الشعر بلفظه لا يخرج عن حالين:

الجال الأول — أن يكون الشعر مما يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وله في حله طريقتان:

الطريق الأول — أن يحلّه بالتقديم والتأخير من غير زيادة في لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتاب أنه حلّ قول البحترى :

أَطْلَ جَفْوَةَ الدُّنْيَا وَتَهْوِينَ شَأْنِهَا * فَا الْغَافِلُ الْمَغْرُورُ فِيهَا بِعَاقِلٍ
يَرْجَى الْخُلُودَ مَعَشَرَ ضَلَّ سَعِيهِمْ * وَدُونَ الَّذِي يَرْجُونَ غَوْلَ الْغَوَائِلِ
إِذَا مَا حَرِيْزُ الْقَوْمِ بَاتَ وَمَا لَهُ * مِنْ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ

فقال في نثرها : أطل تهوين شأن الدنيا وجفوتها، فما المغرور الغافل فيها بعاقل . ويرجو معشر ضل سعيهم الخلود ، وغول الغوائل دون ما يرجون . وإذا بات حريز القوم وماله من الله واقٍ فهو بادي المقاتل . فلم يزد في ألفاظها شيئا .

الطريق الثاني — أن يحلّه بزيادة على لفظه كما حكى الجاحظ عن قليب المعتزلى أنه سمع منشدا ينشد للعتبي .

أَفَلْتَ بِطَالْتُهُ وَرَاجَعُهُ * حِلْمٌ وَأَعَقَبَهُ الْهَوَى نَدَمَا
أَلْقَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ كَلْكَلَهُ * وَأَعَارَهُ الْإِقْتَارُ وَالْعَدَمَا
فَإِذَا أَلَمَ بِهِ أَخُو ثِقَةٍ * غَضَّ الْجَفُونُ وَبَجَجَ الْكَلِمَا

فنثرها فقال يستعطف بعض الملوك على رجل من أهله : جعلني الله فداك ليس هو اليوم كما كان ، إنه وحياتك أفلت بطالتك ، إى والله وراجعه حلمه ، وأعقبه وحقك الهوى ندما . أخنى الدهر عليه والله بكلكله ، فهو اليوم إذا رأى أخا ثقة غض بصره ومجج كلامه . فزاد في نثره ألفاظا على ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض شعراء الحماسة :

وَأَلَدَ ذِي حَنَقٍ عَلَى كَأَمَّا * تَغْلِي عَدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ
أَرْجِيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ * وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَظِرِ مِنْ عَلٍ

فقال في ثره : فكم لقي ألد ذا حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عل وتغلي
عداوة صدره في مِرْجَل فكواه فوق ناظريه ، وأكبه لقمه ويديه .

الحال الثاني — أن يكون الشعر مما لا يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير
بعضها ، فيحتاج في ثره إلى الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتى
يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ * فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

فإن المصراع الثاني من البيت لا يمكن حله بالتقديم والتأخير لأنك تقول
في المصراع الأول : فُؤَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي الْمِصْرَاعِ
الثاني حتى تزيد فيه أو تنقص منه فتقول مثلاً فُؤَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ عَلَى
ما تقدم . ثم تقول وصورته من اللحم والدم فضلة لا غناء بها دونهما ، ولا معول عليها
إلا معهما .

قال في ”الصناعتين“ : وزيادة الألفاظ التي تحصل فيه ليست بضائرة لأن
بسط الألفاظ في أنواع المنشور شائع ؛ ألا ترى أنها تحتاج إلى الأزدواج ؛ ومن
الأزدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنى واحد وليس ذلك بقبیح ؛ إلا إذا اتفق
لفظاهما ؛ إلا أن أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز ، ومعنى
قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل في قوله * لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ *
والمصراع الثاني تذييل للمصراع الأول . قال : فإذا أردت أن تحله حلاً مقتصرًا بغير
لفظه ، قلت الإنسان شطران : لسان وجنان ؛ وقريب من ذلك قول أبي نؤاس .

أَلَا يَأْنِ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا * أَمَا وَاللَّهِ مَازَهَبُوا لَتَبْقَى
فإن المصراع الأول يمكن حله بأن تقول ألا يأن الذين بادوا وفنوا فيكون
مستقيماً . أما المصراع الثاني فإنه إن قُدم فيه أو أخر بأن قيل مازهبوا لتبقى أما والله
فإنه لا يستقيم فتححتاج في نثره إلى تغيير وزيادة فتقول : ألا يأن الذين ماتوا ومضوا
وظعنوا ونأوا أما والله ماظعنوا لتقيم ، ولا راموا لتريم ، ولا موتوا لتحيأ ، ولا فنوا
لتبقى . قال في ”الصناعتين“ وفي هذه الألفاظ طول وليس بضائر على ما تقدم .
قال : وإن أردت اختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصيبك في أيك إلا
لُصيبك فيك .

الضرب الثاني

(وهو أعلى من الضرب الأول أن ينثر المنظوم ببعض ألفاظه ويعرم عن

البعض ألفاظاً أخر . ويحسن ذلك في حالين)

الحال الأول — أن يكون في الشعر ألفاظ لا يقوم غيرها من الألفاظ مقامها بأن

تكون مثلاً سائراً أو جارية مجرى المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْبَحْ إِبِلِي * بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ دُهِلِ بْنِ شَيْبَانَ

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مقامه لكونه علماً على قوم
مخصوصين فيحتاج النائر أن يبقى بلفظه ، كما فعل ”ضياء الدين بن الأثير“ في قوله
في نثر البيت المذكور : لست ممن تسبح إبلة بنو اللقيطة ، ولا الذي إذا هم بأمر
كانت الآمال إليه وسيطه ، ولكنني أحى الهمل ، وأفوت الأمل ، وأقول سبق
السيف العدل . وكذلك كل ما جرى هذا المجرى ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها ، وأحاط من البلاغة بجوانبها ؛ فيبقى على حاله ، ويقرّنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد نقحه وصحّحه ، فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ؛ ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب مثلا من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه يسلك مضيقا ، لما فيه من التعرّض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن نثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثل يضطرّ إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَدَاءَ تَمْلَأُ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةً * وَبَلَاغَةً وَتُدْرِكُ كُلَّ وَرِيدٍ

ثم قال : فقلوه تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن ، وهو أحسن ما فى البيت وأشهر ، فلو قال قائل لمن هذا ؟ قيل وهل يخفى القمر ، وإذا عُرِفَ الكلام صارت المعرفة له علامه ، ولم يُخَشَّ عليه سرقة إذ لو سُرِقَ لدلت عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كل أذن حكمة ، ويجعل فصاحة كل لسان تحمّه . فبقى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة . ونحو ذلك ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي : أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقاليد فقال : * فكم ملّ ضوء الصبح مما يغيره * ثم قال : وظلام النقع مما يثيره . وقال أيضا : وفلّ حديد الهند مما يلاطمه * ثم قال : والأجل مما يساقفه إلى قبض النفوس وإراحته . والقرينتان الأوليان نصفان بيتين للتنبى فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثالث .

(وهو أعلى من الضربين الأولين أن يأخذ المعنى فيكسوه ألفاظا من عنده

ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه)

قال في "المثل السائر" : "وَمَّ يَتَيْنُ حَذَقُ الصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ ؛ فَإِنْ أَسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ ، وَإِلَّا أَحْسَنَ النَّصْرُفَ وَأَتَقَنَ التَّأْلِيفَ ؛ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ .

وتعلم أن الأبيات الشعرية في حلها بالمعنى لها حالان .

الحال الأول — أن يكون البيت الشعر مما يتسع المجال لناثره في ثره فيورده بضروب من العبارات . قال ابن الأثير "وذلك عندى شبه بالمسائل السائلة في الحساب التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة" . فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :
لَا تَعْدِلِ الْمُشْتَقَّ فِي أَشْوَاقِهِ * حَتَّى تَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

فهذا البيت يُصَرَّفُ في ثره في وجوه من المعاني . وقد نثر ابن الأثير هذا البيت فقال : "لَا تَعْدِلِ الْمَحَبَّ فِيمَا يَهْوَاهُ ، حَتَّى تَطْوِيَ الْقَلْبَ عَلَى مَا طَوَاهُ" . ونثره على وجه آخر فقال : "إِذَا اخْتَلَفَتِ الْعَيْنَانِ فِي النَّظَرِ ، فَالْعَدْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَذَرِّ" . وكذلك قول المتنبي أيضا :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدُمُوعِهِ * مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

نثره ابن الأثير فقال : "الْقَتِيلُ بِسَيْفِ الْعُيُونِ ، كَالْقَتِيلِ بِسَيْفِ الْمُنُونِ ؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجَرَّدُ مِنْ غِمْدِهِ ، وَلَا يُقَادُ صَاحِبَهُ بَعْمَدِهِ" . فزاد على المعنى الذي تضمنه البيت عدم القود بالعمد . ونثره على وجه آخر فقال : "دُمُ الْمَحَبِّ وَدَمُ الْقَتِيلِ ، مُتَّفَقَانِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ ؛ وَلَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا ، سِوَى أَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ لَوْنًا" . قال وهذا أحسن من الأول .

وعلى هذا النهج يجري قول ابن الرومي في وصف الحديث :

وَحَدِيثُهَا السَّحَرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ * لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

ثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في وصف السيوف فقال : وكفى السيوف نفرا أنها للجنة ظلال ، وإلى النصر مآل ؛ وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان حديثها عن كلمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلى وصف الأسنّة فقال : حسب ألسنة الأسنّة شرفاً أن كشف خبايا القلوب يدمّ إلا منها ، وأن بث أسرار الضمائر تُكره روايته إلا عنها ؛ فمكرر حديثها في ذلك لا يفضي إلى ملال ، وإذا لم يكن حسن حديثها الذي يسحر الأبواب مما يحل ، فليس في الحديث سحر حلال . ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال : البلاغة تسحر الأبواب حتى تخيل العرض جوهراً وتخيّل الهواء المدرك بالسمع لأنسجامة وعدوبته في الذوق نهراً ؛ لكنه سحر لم يجن قتل المسلم المتحرّز ، فيتأول في حله ، وإذا كان في الحديث ما هو عقلة للمستوفز ، فهذا أنشودة نشاط البليغ وحلّ عقال عقله . ونقله إلى وصف الكتابة . فقال : خطّه شرك العقول ، وفنّته تشغل المطمئن بملاحة المرئي المكتوب ، عن فصاحة المسموع المقول ؛ ولو لم يكن البيان سحراً ، لما تجسّدت منه في طرسه هذه الدرر ، ولو لم يكن بعض السحر حلالاً ، لما أنجلي ظلام النّفس عما يهتدي به من هذه الأوضاح والقرّر .

الحال الثاني — أن يكون البيت الشعر مما يضيق المجال فيه فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه ، وذلك قليل بالنسبة إلى ما يتسع في حله المجال . قال في "المثل السائر" وسببه أن المعنى ينحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي إلا فذاً . فمن ذلك قول أبي تمام الطائي من قصيدة .

تَرْدِي ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا قَمًا أَتَى * بِهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهَى مِنْ سُنْدُسٍ خُضِرِ
فإن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب بين الأحمر والأخضر، وجاء
ذلك واقعا على المعنى الذى أرادته : من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ؛ فإن ثياب
القتلى حمر وثياب الجنة خضر .

قال ابن الأثير : فإذا فكَّ نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لم يمكن ؛
فيجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فكَّ نظامه ؛ لأنه يتصدى لشعره بألفاظه ؛ فإن
كان عنده قوَّةُ تصرف ، وبَسْطَةُ عبارة ، فإنه يأتي به حسنا رائقا . وقد نثر هذا
البيت فقال : لم تكسُّه المنايا نَسْجَ شِفَارِهَا ، حتَّى كَسَتْهُ الْجَنَّةُ نَسْجَ شِعَارِهَا : فبدَّل
أحمر ثوبه بأخضره ، وكأْس حِمَامِهِ بكأْس كَوَثَرِهِ . قال : وهذا من الحُسن على
غاية يكون كدُّ حُسُودِهَا ، من جُمْلَةِ شُهُودِهَا . ومن ذلك قول أبي الطيّب :

وَكَانَ يَهَامِثُ الْجُنُونَ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثَّتِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

فإن أبا الطيّب بنى بيته على واقعة مخصوصة . وذلك أن حصنا من حصون
سيف الدولة قصده الروم ، وأنترعوه ، وخرَّبوه ، فهدَّ سيف الدولة إليه وأسترجه ،
وجدَّد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب جملةً من جُثَّتِ القتلى على السور ؛ فنظم أبو الطيّب
في هذا قصيدا أوله .

* على قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ *

ولما انتهى إلى ذكر الحصن ، جاء بهذا البيت في جملة أبيات ، فشرح صورة
الحال ، في ارتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه ؛ وأبرز ذلك في معنى التمثيل
بالجنون والتمايم . وهذا لا يمكن تبديل لفظه ؛ فيجب على الناثر حسن الصنعة
في حله ونثره . وقد نثره ابن الأثير أيضا فقال : سرى إلى حصن كذا مستعيذاً منه
سَيِّئَةٌ نَزَعَهَا الْعَدُوَّ اخْتِلَاسًا ، وَأَخَذَهَا مُحَادَعَةً لَا اقْتِرَاسًا ؛ فمَّا نَزَلَهَا حَتَّى اسْتَقَادَهَا ،

ولا نازلها حتى استعادها ؛ فكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمام ؛ ثم قال : وفي هذا من الحسن ما لا خفاء فيه . فمن شاء أن ينثر شعرا فليثر هكذا وإلا فليترك . ثم نقله إلى معنى آخر ، وأبرزه في صورة أخرى فأضاف إليه البيت الذى قبله من القصيدة فصار على هذه الصورة .

بناها فأعلى والقنا تفرع القنا * وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت * ومن جثث القتلى عليها تمام

ثم نثرهما فقال : بناها والأسنة في بناها متخاصمه ، وأمواج المنايا فوق أيدي البائين متلاطمه ؛ وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركنض الجياد ، وأصابت بمثل الجنون فعلق عليها تمام من الرءوس والأجساد . ولا شك أن الحرب تعرد عن عز جانبها ، وتقول ألا هكذا فليكتب المجد كاسبه . قال وهذا أحسن من الأول وأتم معنى . ثم تصرف فيه بزيادة على هذا المعنى فقال : بناها ، ودون ذاك البناء شوك الأسل ، وطوفان المنايا الذى لا يقال ساوى منه إلى جبل ؛ ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعلق القتلى عليها مكان التمام أو شيدت بعتل فعلق مكان الأطواق . قال وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله .

قلت : وكما ينبغى الإكثار من حفظ الأشعار على ما تقدم ليوردها في خلال كلامه استشهادا وتضمينا أو يحلها ويقتبس معانيها في نثره على ما تقدم بيانه كذلك ينبغى له معرفة المشاهير من الشعراء الطائرى السمعة : من شعراء الجاهلية كأمرئ القيس ابن حجر ، والنابعة الذبياني ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وزهير ابن أبى سلمى ، والأفوه الأودى ، والمتامس ، والأعشى ، وعلقمة بن عبدة ، وعمرو

(١) أى تفر وتجن يقال عرد الرجل عن قرنه إذا فرونكل . انظر اللسان .

أَبْنُ كُثْلُومَ ، وَالْمَرْقَشُ ، وَالنَّمِرُ بْنُ تَوَلْبَ ، وَمُهَاجِلُ ، وَطُنْفِيلُ الْغَنَوِيُّ ، وَعُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ ،
وَقَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ ، وَالشَّمَاخُ بْنُ ضِرَارٍ ، وَعَنْتَرَةُ ، وَالسُّمُوعِلُ بْنُ عَادِيَا ، وَمَنْ
جَرَى مُجْرَاهُمْ .

وَمَنْ الْمَخْضَرِّينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ جَمِيعًا : حَكَّاسُ بْنُ ثَابِتٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَيْيَدُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَكَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ ، وَزَيْدُ الْخَيْلِ الطَّائِيُّ ، وَالنَّابِغَةُ
الْجَعْدِيُّ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلَاتِ ، وَالْحُطَيْثَةُ ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدَى كَرْبَ ، وَالزُّبَيْرُ الْقَانِ
أَبْنُ بَدْرِ التَّمِيمِيِّ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسِ السَّامِيِّ ، وَالْحَنْسَاءُ بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الشَّرِيدِ ،
وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

وَمَنْ الْمَوْلَدِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا مِنَ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ : كَالْفَرَزْدَقِ ، وَجَرِيرِ
وَالْأَخْطَلِ ، وَالْقَطَامِيِّ ، وَالْحَكِيمُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ ، وَالْمُسَاوِرُ بْنُ هَنْدٍ ، وَعَدِيُّ بْنُ
الرَّقَاعِ ، وَكَثِيرُ عَزَّةَ ، وَعُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالرَّاعِي ، وَأَبْنُ مُقْبِلٍ ، وَأَبْنُ مَفْرَغٍ ، وَلَيْلَى
الْأَخِيلِيَّةُ ، وَمَنْ أَنْخَرَطَ فِي سَلَكِهِمْ .

وَمَنْ الْمُحَدِّثِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَتَوْا بَعْدَ الْمَوْلَدِينَ كِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هِرْمَةَ ، وَأَبْنِ أُذَيْنَةَ ،
وَأَبِي نُوَّاسٍ ، وَأَبِي الْعَتَاهِيَّةِ ، وَطُفَيْلَ الْكَثَّانِيِّ ، وَسَلْمَ الْخَاسِرِ ، وَأَبْنِ مِيَّادَةَ ، وَصَالِحَ
أَبْنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، وَأَبِي عَيْنَةَ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ ، وَالْعَتَّابِيُّ ، وَأَشْجَعُ السَّامِيِّ ،
وَالْعَكَّوْكَ ، وَأَبْنُ أَبِي زُرْعَةَ الدَّمَشْقِيِّ ، وَأَبِي الشَّيْصِ ، وَالْحَمْدُونِيُّ ، وَالْعُتْبِيُّ ، وَدِعْبِلُ
الْخَزَاعِيِّ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيِّ ، وَأَبِي عَلِيٍّ
الْبَصِيرِ ، وَأَبِي تَمَّامِ الطَّائِيِّ ، وَأَبِي عَبَّادَةَ الْبُحْتَرِيِّ ، وَأَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِي ، وَأَبْنُ
بَسَّامٍ ، وَالسَّرِيُّ الْمَوْصِلِيُّ ، وَأَبِي الْفَتْحِ كُشَّاجِمٍ ، وَأَبِي الْفَتْحِ الْعَبْسِيُّ ، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْغَا ، وَأَبْنُ السَّاعَاتِيِّ ، وَأَبْنُ قَلَاقِسَ ، وَالْوَاوَا الدَّمَشْقِيُّ ، وَالْعَفِيفُ التَّمَسَّانِيُّ ، وَأَبْنُهُ ،
وَأَبْنُ سَنَّا الْمَلِكِ ، وَأَبْنُ شَمْسِ الْخُلَافَةِ ، وَأَبْنُ النَّبِيهِ ، وَالصَّفْنِيُّ الْحَلِيُّ وَنَحْوُهُمْ .

ومعرفة الفرسان منهم : كأمريء القيس ، وخُفّاف بن نُدبة ، والزُّبرقان بن بدر وعنترة ، وعمر بن معدى كرب ، ودريد بن الصّمة .

ومن كان منهم راجلا يسعى على رجله كسليك بن السلّكة ، وابن براق ، وتابط شراً ، والشنفرى وغيرهم .

ومن تقدّم منهم في نوع من الشعر ، كمعرفة طفيل الغنوى بوصف الخيل ، وأمية بن أبي الصلت في أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمر بن أبي ربيعة في وصف النساء ، وعنتية بن مرداس بمراكب الإبل ، وكثير في الأمثال ، والفرزدق في الأخبار ، وجريفي المعاني .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظاً : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة ، ومعرفة أى القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهذيل ؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعراً مُقلِّقاً كلهم يعدّون على رجله ، ليس فيهم فارس ؛ وأى قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كشيّان ، وكلب ؛ فقد قيل إنه ليس في الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب في الجاهلية شاعر قديم على أنها مثل شيّان أربع مرات .

وقد ذكر ابن رشيق في "عمدته" عن عبيد الله بن سلام الجحّى وغيره : أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة فكان منهم مهلهل بن ربيعة ، وهو خال أمريء القيس بن حُجر ، ويقال إنه أول من قصّد القصائد والمُرَقَّشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمر بن قميّة ، والحارث بن حِزّة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيّب بن علس وغيرهم ؛ ثم تحوّل الشعر إلى قيس فكان منهم النابغة الذبياني والجمعدى ، وزهير بن أبي سلمي ، وأبنة كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشماخ . ثم استقر الشعر في تميم فكان منهم أوس بن حجر ، ولم يتقدّمه أحد حتى كان النابغة وزهير فأخلاه .

قلت : والمراد أن الشعر غلب في هذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المجيدون ؛ وإلا فالشعر موجود في قبائل العرب قبل ذلك ، : كحُمير وكَهْلان من اليمن ؛ بل في عادٍ وثمودَ على ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، أستعان به في المساواة بمن شاء منهم في التقریظات والتفضيل عليه كما كتبت في تقریظ شاعر : فامروء القيس يغرق في مقياس معانيه ، والنابعة الدُّبَيَانِيُّ يَقْصُرُ عن أن يبلغ مدى شأوه أو يُدَانِيه ، وزُهَيْرٌ يَقتطف زَهْرَاتِ البِلاغة من أَفَانِيْنِه ، وأوسُ بن حجرٍ يَنسج على مِنواله ويَأْتُمُّ بقوانينه ، وطُفَيْلُ الغنوى يَتَطَقَّلُ على موائد شعره ، وطَرْفَةُ بن العبد يَقْصُرُ عنه في شِوَعِ ذِكْرِهِ ، والأَعْشى يَعْشُو إلى ضوء ناره ، وعمرُو بن كُثُومٍ يَسْعَى إلى بابه ويقف بفناء داره ، وكَثِيرٌ في أمثاله لا يعد من أمثاله ، وجرير في مفاخره يتمسك من الفَخَّارِ بأذياله ، والفَرَزْدَقُ في أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلورآه عبدُ الملك بن مروان لاختاره على الأخطل ، أو اجتمع مع أبي نَواس لدى الأمين لقال هذا هو المقدم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمام ، لأعترف له بالتمام ؛ أو بَصْرَ به أبو عُبَادَةَ لقال أنا له عبد و غلام ؛ أو عاصره المتنبي لأعترف بفضلِه ، أو ابن الساعاتي لقال لا يأتي الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

وكذلك ينبغي أن يعرف مصطلح أهل العروض الذي هو ميزان الشعر مثل الوتد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ؛ وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالخَبْنِ ، والخبَل ، والقبض وغيرها : ليدخلها تضاعيف كلامه عند احتياجه إلى ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري في أول ألفيته في العروض .

الحمد لله المليك الغافر * ذى الطول والفضل المديد الوافر
 سبحانه ماذا يقول البارِع * فى كامل ليس له مضارع
 ورزقه فى عدله بسيط * وعلمه بخلقه محيط
 وما ينخوط فى هذا السلك من الكلام المشور أيضا .

النوع الحادى عشر (الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر فى كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميداني ؛ والمفضل بن سلمة الضبيّ ، وحمزة الأصبهانيّ ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلى غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم : كأبى العتاهية ، وأبى تمام ، والمتنبي ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أما فى شعر المولدين فلجريهم على أسلوب العرب ، وركوب جادتهم ؛ وأما المحدثين فللطافة مأخذهم ، وأستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرى النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنى عليه ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

الألفاظ الواردة في المثل دالة عليها، معبرة عن المراد بها، بأخصر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقدمات المعلومة، والأسباب المعروفة، لما فهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطولات؛ وأما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمات مختصرة، تورد للدلالة على أمور كناية مبسطة، كما تقدمت الإشارة إليه، وليس في كلامهم أوجز منها. ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا. وحيث كانت بهذه المكنانة لا ينبغي الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هي ونشئ الكلام، وجوهر اللفظ، وحل المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء كسيرها، ولا عم عمومها، حتى قالوا: أسير من مثل، قال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر * يعرفه الجاهل والخاير

وقد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وقال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية، وقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا يُوَجَّهَةٌ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ إلى غير ذلك من آي القرآن.

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمثال فقال "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داع يقول ادخلوا الصراط ولا تعرجوا: فالصراط الإسلام، والستور

حدود الله ، والأبواب محارم الله ، والداعي القرآن ، إلى غير ذلك من الأمثال التي ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام على أمثال القرآن وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما تقدم من الكلام على القرآن الكريم والأخبار .

ثم هي على ضربين : قريب الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين الناس ؛ وبعيد الفهم لخفائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران على الألسنة مثل قولهم ، ”عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى“ ، وهو مثل يُضْرَبُ للترغيب في السير في الليل ، والحث عليه ؛ وأول من أرسله مثلاً خالد بن الوليد رضي الله عنه ، قاله في صبح ليلة قطع فيها مفازة كانت في طريقه من العراق إلى الشام ؛ وقولهم ”أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً“ . وأول من قال ذلك سُهِيلُ بْنُ عَمْرٍو وكان تزوج صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي جَهْلٍ فولدت له أَبْنَاهُ أَنَسًا ، فرآه الأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ الثَّقَفِيُّ معه فقال من هذا ؟ فقال سُهِيلُ بْنُ أَبِي — فقال الأَخْنَسُ حَيَّاكَ اللهُ يَا أَبْنَى ! أَيْنَ أُمُّكَ ؟ فقال : لا والله ما أُمِّي ثُمَّ ، أَنْطَلَقْتُ إِلَى بَيْتِ أُمِّ حَنْظَلَةَ تَطْحَنُ دَقِيقًا — فقال أبوه أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً — فلما رجعا قال أبوه فَضَحْنِي أَبْنِكَ الْيَوْمَ قَالَ كَذَا وَكَذَا — فقالت إِنَّمَا أَبِي صَبِيٌّ وَأَنْتَ لَا تَجِبُهُ — فقال ”أَشْبَهَ أَمْرُؤُ بَعْضُ بَرٍّ“ فأرسلها مثلاً . والبعيد من الفهم ، مثل قولهم ”إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ“ . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا . والأصل في ذلك كما ذكره المفضل بن سلمة الضبي أن بنى ثعلبة بن سعيد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس ، فقالت طائفة : تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُرَى ، وقالت طائفة : يَغِيبُ الْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكما ، فقال واحد منهم : إن قومي يبيغون على ، فقال الحكم إن يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ ، بَجَرَتْ مَثَلًا . ومن المعلوم أن قول القائل إن يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ ، إذا أخذ على حقيقته

من غير نظر إلى القرائن المنوطة به ، والأسباب التي قيل من أجلها ، لا يعطى من المعنى ما قد أعطاه المثل ؛ بل ما كان يُفهم من هذا القول معنى يفيد لأن البنى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا ، فكان يصير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر — وهو كلام مختل المعنى ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس في تصنيف كتب الأمثال ، فمن ذلك الأمثال لأبى عبيد ، وهو مرتب على ترتيب الوقائع التي تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميداني ، وهي مرتبة على حروف المعجم وفي آخرها جملة من أيام حروب العرب ، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة في هذا الباب : كأمثال الضبي ، والقمي ، وغيرها .

وأما الأمثال الواردة نظما ، فهي كلمات استُحسنَت في الشعر . وطابقت وقائع عامة جارية بين الناس ، فتداولها الناس ، وأجروها مجرى الأمثال النثرية . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يتمثل بقول طرفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سُبْدَى لَكَ الْيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخرجه عن الوزن ، ويُحيله عن طريق الشعر فكان يقول : ” وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُودِ بِالْأَخْبَارِ ” فرارا من قول الشعر المتزه عنه مقامه العلى ، وشرفه الرفيع ، لكن ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : ” أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةٌ لَيْدٍ :

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ * ”

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو نظم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسمى ” بالغوث الهوامع ، في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع “ في الفقه فراجعه هناك ، ويروى أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَحَا لَا تَلُمُّهُ * عَلَى شَعَثِ أَى الرَّجَالِ الْمُهْدَّبِ

ثم قال : لمن هذا؟ فقليل له للنابغة ، فقال : ذاك أشعر شعرائكم ، والمثل السائر فيه في قوله : أَى الرَّجَالِ الْمُهْدَّبِ ، وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثير ، ولذلك وقع في أمثال المحدثين الواردة في أشعارهم ما يستظرف ويستحلى كقول القاضي الأترجاني :

تَأْمَلْ مِنْهُ تَحْتَ الصَّدْعِ خَالَا * لِتَعْلَمَ كَمْ خَبَايَا فِي الزَّوَايَا

يشير بذلك إلى المثل الجارى على ألسنة الناس في قولهم ” في الزوايا خبايا “ وهو من الأمثلة المستفيضة على ألسنة العامة الشائعة بينهم ، وقول ابن عبد ربه .

قَالُوا شَبَابَكَ قَدْ وَثَى فَقُلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَرِّ الْحَدِيدَيْنِ ؟
صَلْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبْدَى مُعَاتِبَةً * فَأَطِيبُ الْعَيْشَ وَصَلِّ بَيْنَ الْفَيْنِ !
وَأَقْطَعْ حَبَائِلَ خَدْنٍ لَا تَلَامُهُ * فَرُبَّمَا ضَاقتِ الدُّنْيَا بِإِثْنَيْنِ .

وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أَهْوَاهُ بَعْدَ الْقَلَى * شَقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
وَأَصْبَحَ الدَّاخِلُ مَا بَيْنَنَا * كَسَاقِطٍ بَيْنَ فِرَاشَيْنِ
قَدْ أُلِيسَ الْبَغْضَاءُ مِنْ ذَا وَذَا * لَا يَصْلُحُ الْغَمْدُ لِسَيْفَيْنِ
مَا بَالُ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أَنْفَايَيْنِ عَيْنَيْنِ ؟

قال الأصمعي : ولم أجد في شعر شاعر بيتاً أوله مثل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيت الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدُمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وبيتا امرئ القيس :

وَأَفْلَتَهُنَّ عِلَاءُ جَرِيضًا * وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ صَفَرَ الْوِطَابِ

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بَنَى أَيْيَمًا * وَبِالْأَشْقَيْنِ مَا كَانَ الْعِقَابُ

قال صاحب العقد : "ومثل هذا كثير في القديم والحديث ، ولا أدرى كيف أغفل القديم منه الأصمعي ، ومنه

* سَتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدم ؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوانات ، فكما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم ، تمثل بقولهم "إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضُ" ، يعني إنما خذلت يوم خذل عثمان ، وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : أصطحب أسد ، وثور أحمر ، وثور أبيض ، وثور أسود في أجمه ؛ فقال الأسد للآخر والأسود : هذا الأبيض يَفْضَحُنَا بلونه ، وَيُطِمِعُ فِينَا مَنْ يَقْصِدُنَا ! فلوتركتاني آكله ، أَمِنَّا فضيحة لونه ؛ فأذنا له في ذلك فأكله ؛ ثم قال للآخر : هذا الأسود يخالف لوني ولونك ولو بقيت أنا وأنت ، ظنك من يراك أسداً مثلي فدعني آكله ، فسكت عنه فأكله ؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت ، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنت فاعلا ولا بد ، فدعني أصعد تلك الهضبة ، وأصيح ثلاثة أصوات ، فقال : آفعل ماتريد ، فصعد وصاح ثلاثة أصوات : "إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضُ" ، فخرت مثلاً .

ويحكى أن عبد الملك بن مروان حج وقدم المدينة ، فقال على المنبر : يا أهل المدينة إنكم قُتلَ عثمانُ بين أظهركم فنحن لآنحسبكم ! وأرسلنا مسلمة بن عقبة فقتلكم في وقعة الحرة ، فأنتم لاتحبوننا ، فثقلنا ومثلكم كما قال النابغة :

كَمَا لَقِيتُ ذَاتَ الصَّفَامِ حَلِيفَهَا * وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِيًّا وَظَاهِرَةً
فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ قَدْ تَمَثَّرَ مَالُهُ * وَأَثُلَ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَقَاوِرَهُ
أَكْبَّ عَلَى فَاسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا * مُدْكَرَةً مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَاسُهُ * وَلِلَّهِ عَيْنٌ لَا تُغْمَضُ نَاطِرَهُ
فَقَالَ تَعَالَى تَجَعَّلِ اللَّهُ بَيْنَنَا * عَلَى مَالِنَا أَوْ تُخْزِي لِي آخِرَهُ
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهِ أَفْعَلُ إِنِّي * رَأَيْتُكَ سُخْرِيًّا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبُهُ فَاسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

وهذه الحكاية مشهورة في الموضوعات على ألسن الحيوان ، وهى أن أخوين هبطا بغنمهما واديا يريغان فيه ، فخرجت حية من تحت الصفا وفى فيها دينار فآلقتة إليهما وأقامت كذلك أياما ؛ فقال أحدهما لابد من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ! فنهاه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس فى يده ، فشجها وشدت عليه فقتلته ، فدفنه أخوه مقابليها ؛ فلما خرجت قال لها هل لك أن نتعاهد على المودة وعدم الأذية ، وتعطينى ذلك الدينار كل يوم ؟ فقالت : لا ! — قال ولم ؟ — قالت لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك لاتصفولى ، وكلما ذكرت الشجرة التى فى رأسى لأصفؤك .

المقصود الثانى

(فى كيفية استعمال الأمثال فى الكتابة)

فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، آنقادت إليه معانيها ، وسيقت إليه ألفاظها ، فى وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها في مكانها ، وأستشهد بها في موضعها . والطريق في استعمالها في النثر ، كما في حل الأشعار واستعمالها ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفَتْ واشتهرت .

فما أستعمله أهل الصناعة من الأمثال المثورة وأوردوه في كلامهم قول المقر الشهابي "آبن فضل الله في "التعريف" في وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقُّ بنى الزَّهراء بما أبَقَتْه له آباؤه ، وألقَتْه إليه من حديث قُصِيَّ جدّه الأُقصَى أبنائوه ؛ وهو أجدر مَنْ طَهَّرَ هذا المسجد من أشياء تنزّه أن يلحق به فُحْش عابها ، وشعَاء هو يَعْرِفُ كيف يَتَّبِعُهَا "وأهل مكة أَخْبَرُ بِشَعَابِهَا" ، فاستعمل المثل السائر في قوله : وأهل مكة أخبر بشعابها ؛ وقد وقع هذا المثل في كلامه أحسن موقع ، وجاء على أبجل نظام : لأنه قد أتى به في مكانه اللائق به ، ومحله الخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله فأستعمله في غير هذا المعنى ، فجاء منحنطاً عن هذه الدرجة ، وقاصراً عن رتبها ، فقال في وصية خطيب ، : ووصايا هذه الرتبة متشعبة ، وهو كأهل مكة أَخْبَرُ بِشَعَابِهَا ، وأحوالها مترتبة ، وهو على كل حال أدرب وأدرى بها ؛ إلا أنه قد ظُرِفَ بذكر الجناس الاشتقاقى في قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في خطبة تقليد بفتوة عن ملك : "ونشهد أن محمدا عبده ورسوله" ، الذى نُورُ شريعته جَلَى ، وجاهُ شفاعته مَلَى ، وبسيفه وبه جاء النصر والشرف من آتَمَاتِنَا إليه ، فلا سَيْفَ إلا ذو الفقار ولا قَتَى إلا على . وهذا على ما هو شائع على الألسنة ، وأن ذلك قيل في يوم ضَرَبَ على رضى عنه كافرا أسمه مَرَحَب ، فشَقَّ البيضة على رأسه نصفين ، وتمادى السيف فيه وفي جواده فشَقَّهُمَا كذلك وخلص السيف بينهما فغاص في الأرض شبرين ؛ إلا أن المعروف عند المحدثين وأصحاب السير أن ذا الفقار أسم سيف للنبي صلى الله عليه

وسلم، أصطفاه من خير لنفسه حين أصطفى صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها، ولعله صلى الله عليه وسلم، أعطاه علياً رضي الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته في المفارقة بين السيف والقلم في الكلام على لسان القلم : وهو "أنا جُذِلْتُهَا مُحَكَّكٌ ، وَعُدِّيْقَهَا الْمُرَجَّبُ ؛ وَكَرَيْمَهَا الْمَبْجَلُ ، وَعِلْمَهَا الْمَهْذَبُ" . فالقرينة الأولى فيها مثلاًن ، وأقول من قالها الحُباب بن المنذر الأنصاري يوم السَّقِيفَةِ ، حين أجمع الأنصار إلى سعد بن عبادة ، يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة ؛ وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة ابن الجراح ؛ وقال الحُباب بن المنذر : مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ، إلى أن كان من كلامه هذان المثالان (١) . والجُذِيلُ تصغير جَذَلٍ ، واحد الأَجْدَالِ ؛ وهي أصول الشجر العظام ؛ وكانت العرب إذا جَرَبَتِ الإبل نصبت لها جِذْلاً في باطن الوادي تحتك فيه ، فلذلك قال جُذِلْتُهَا مُحَكَّكٌ ، أراد أنه يُسْتَشْفَى برأيه ، كما تستشفى الإبل بالحك في ذلك الجَذَلِ ؛ والعَدْتُ بفتح العين النخلة بجمعها ؛ وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناءً يَمْنَعُهَا من السُّقُوطِ ، فذلك هو الترجيب ؛ أراد أنه كريم في قومه عزيز عليهم . وما ذكرته في المفارقة بين السيف والقلم أيضاً على لسان السيف وهو : "فَالشَّمْسُ مِنْ شُعَاعِي فِي نَجَلٍ ، وَاللَّيْلُ مِنْ ضَوْئِي فِي وَجَلٍ ؛ وَمَا أَسْرَعْتُ فِي طَلَبِ ثَارٍ إِلَّا قِيلَ فَاتَ مَا دُجِحَ ، وَسَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلُ" . ففي القرينة الأخيرة مثلاًن أحدهما "فات ما دبح" وهو مثل يضرب لمن طلب الشيء بعد قوّاته ، وأصله أن بعض الملوك رأى مع أعرابي بازيًا ، فأعجبه فأرسل في طلبه قاصداً ، فأتى الأعرابي ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فدبح البازي وطبخه وقدمه إليه ، غير عالم بقصده ؛ فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابي

(١) في الأصل هذين المثالين ولعله سبق قلم من الناسخ .

أمر البازي وما كان من طلب الملك له ، فقال ”فات مأذبح“ إنك أتيتني ولم يكن عندى ما أضيفك به ، فذبحت البازي وطبخته ؛ وهو الذى قدمته إليك . والمثل الثانى ”سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ“ وهو مثل لمن يلوم على فعل شئ بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حَلَّ من الأمثال الواردة نظماً، وأستعمل فى النثر، قول القاضى شهاب الدين ابن فضل الله فى ”التعريف“ فى وصية أمير مكة المعظمة أيضاً فى الوصية على وفود الحجيج : ”وكل هؤلاء إنما يأتون فى ذِمَامِ الله بيته الذى من دخله كان آمناً، وإلى محل ابن بنت نبيّه الذى يلزمه من طريق رِّ الضيف ما أخذ لهم، وإن لم يكن ضامناً ؛ فليأخذ بمن أطاع من عصى ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد، فإن العبد لا يردعه إلا العصا ، فقلوه فإن العبد لا يردعه إلا العصا يشير به إلى قول ابن دريد فى مقصورته .

وَاللَّوْمُ لِلْحَمْرِ مُقِيمٌ رَادِعٌ * وَالْعَبْدُ لَا يَرُدُّهُ إِلَّا الْعَصَا

وقد أشتهر النصف الثانى من هذا البيت حتى جرى مجرى المثل ولعله كان مثلاً سائراً قبل أن ينظمه ابن دريد .

ومنه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من توقيع بنظر مدرسة بعد أن قدم أن أهلها رفعوا قصصهم فى طلب ذلك الناظر : ”وكيف لا وهو نعم الناظر والإنسان، وفى مصالح القول والعمل ذو الدين واللسان، وذو العزائم الذى تقيدت فى حبه الرتب ومن وجد الإحسان“ يريد البيت المشهور :

* وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قِيدًا تَقِيدًا *

وقد أتى فيه بالأكتفاء، فزاد فى كلامه حسناً وطلاوة .

وأعلى منه وأوقع فى النفوس قوله بعد ذلك فى التوقيع المذكور ”فاقتضى علو الرأى أن يجاب فى طلبه إليهم سؤال القوم، وأن يتصل أمس الإقبال باليوم؛ وأن

يَعْرُب ، بن يَسْجُب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام
 ابن تَارح ، وهو آزر ، بن أَرْغُو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أَرْفَخْشَد ، بن سام ، بن نوح عليه
 السلام ، ابن يرد ، بن مهليل ، بن قين ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .
 قال النووي : ”والإتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده
 إلى آدم طريق صحيح“ وفيما بعد عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ،
 قال القضاة في ”عيون المعارف في أحكام الخلائف“ وقد روى أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال ”لَا تُجَاوِزُوا مَعَدَّ بنَ عَدْنَانَ ، كَذَبَ النَّسَابُونَ ، ثُمَّ قرأ وقرونا بين ذلك
 كثيراً ولو شاء أن يعلمه لعلمه“ قال : والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضي
 الله عنه .

المقصد الثاني

(في أنساب العرب ؛ وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(في أمور تجب معرفتها قبل الخوض في النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك من يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهري ”العرب
 جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سُكَّانُ البادية ، والنسبة إلى العرب
 عَرَبِيٌّ ، وإلى الأعراب أعرابيٌّ“ والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن
 الأعراب نوع من العرب ، ثم اتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عَرَبِيَّةٌ وَمُسْتَعَرَبَةٌ .
 فالعَرَبِيَّةُ هم العرب الأول الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها . قال

الجوهريّ "وقد يقال فيهم العرب العرباء". والمستعربة هم الداخلون في العربية بعد العجمية. قال الجوهريّ "وربما قيل لهم المتعربة". وقد اختلف في العاربة والمستعربة فذهب ابن إسحاق والطبريّ إلى أن العاربة هي عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعييل والمالقة وعبد صخّم وجهم الأولى، ومن في معناهم. والمستعربة بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابرو إسماعيل كانت سريانية أو عبرانية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم كعاد ونحوهم، وتعلم إسماعيل العربية من جهم من بني قحطان النازلين على إسماعيل وأمه بمكة. وذهب آخرون منهم المؤيد صاحب حمّاه إلى أن بنى قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، والذي رجحه صاحب العبر الأول.

ثم قد قسم المؤرخون العرب أيضا إلى بائدة وغيرها، فالبائدة هم الذين بادؤوا ودّرت آثارهم كعاد، وثمود، وطسم، وجديس، وغير البائدة هم الباقيون في القرون المتأخرة بعد ذلك من القحطانية: كطيّ، ولخم، وجذام ونحوهم، ومن العدنانية كقزارة وسليم وقريش، ومن في معناهم. ثم قد عدّ الماوردى وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات:

الطبقة الأولى — الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد الذي تُنسب إليه القبائل كعدنان، ويجمع على شعوب، وسمى شعبا لأن القبائل تنتسب منه.

الطبقة الثانية — القبيلة، وهي ما أنقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، وتجمع على قبائل، وسميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها، وربما سميت القبائل جماعم.

الطبقة الثالثة عد العِمارة بكسر العين، وهي ما أنقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة وتجمع على عمائر وعمارات.

الطبقة الرابعة — البطن وهي ما أنقسم فيه أنساب العمارة كبنى عبد مناف ،
وبنى مخزوم وتجمع على بطون وأبطن .

الطبقة الخامسة — الفخذ ، وهي ما أنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم ،
وبنى أمية ، وتجمع على أخخاذ .

الطبقة السادسة — الفصيلة — بالصاد المهملة — وهي ما أنقسم فيه أنساب
الفخذ كبنى العباس وبني أبي طالب ، وتجمع على فصائل ؛ فالفخذ يجمع الفصائل ،
والبطن تجمع الأخخاذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيلة تجمع العمار ، والشعب يجمع
القبائل . قال النووي وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة ، قال الجوهري "وعشيرة
الرجل رهطه الأدنون" وحكى أبو عبيدة عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب
على القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم الفخذ ، فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها
بعد القبيلة ، والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور على
الألسنة من الطبقات الست المذكورة القبيلة ، ثم البطن ، وقيل أن تذكر العمارة
والفخذ والفصيلة ، وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحى ، إما بالعموم مثل
أن يقال حى من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان .

ومما يجب على الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأول — قال الماوردى إذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمار
قبائل ؛ يعنى وتصير البطون عمار ، والأخخاذ بطونا ، والفصائل أخخاذا ، والحادث من
النسب بعد ذلك فصائل .

الثانى — قد ذكر الجوهري أن القبيلة هم بنو أب واحد ، وقال ابن حزم جميع
قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل : وهى تنوخ ، والعنق ، وغسان

فإن كل قبيلة منهم مجتمعة من عدة بطون ، وذلك أن تتوخا أسم لعشر قبائل
اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُموا بَتْنُوخ أخذوا من التَّنُوخ وهو المَقَام ، والعُق جمع
اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم فظفر بهم فأعتقهم فسُموا بذلك . وغسان
عدة بطون من الأزْد نزلوا على ماء يسمى غسان فسُموا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من
قومه بأن يُشهر اسمه بهم لرياسة ، أو شجاعة ، أو كثرة ولد ، أو غيره فتُنسب بنوه
وسائر أعقابه إليه ، وربما انضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته
ونحوهم ، فيقال فلان الطائي ، فإذا أتى من عقبه من أشهر منهم أيضا بسبب من
الأسباب المتقدمة نُسبت إليه بنوه ، وجعلت قبيلة ثانية ؛ فإذا اشتمل النسب على
طبقتين فأكثر كهاشم ، وقُرَيْش ، ومُضَر ، وعدنان ، جاز لمن في الدرجة الأخيرة من
النسب أن يُنسب إلى الجميع : فيجوز لبني هاشم أن يُنسبوا إلى هاشم ، وإلى
قُرَيْش ، وإلى مُضَر ، وإلى عدنان : فيقال في أحدهم الهاشمي ، والقُرشي ، والمُضري ،
والعدناني ؛ بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تغني عن النسبة إلى الأسفل
فإذا قلت في النسبة إلى كلب بن وَبَرَة الكلبي أستغنيت أن تُنسبه إلى شيء من
أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع في النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى .
ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى : مثل أن يقال القرشي العدوي وبعضهم
يرى تقديم السفلى على العليا ، فيقال العدوي القرشي .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والمؤالة فينسب إليهم : فيقال
فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

الخامس — إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى ، جاز أن ينسب

إلى قبيلته الأولى، وأن ينسب إلى القبيلة الثانية التي دخل فيها، وأن ينسب إليهما جميعا مثل أن يقال التيميّ ثم الوائليّ، أو الوائليّ ثم التيميّ وما أشبه ذلك .

السادس - القبائل في الغالب تسمى باسم أبي القبيلة : كربيعة ومُضَرَ، والأَوْس والخَزْرج، وما أشبه ذلك . وقد تسمى القبيلةُ باسم الأم : تَحْدَف، وبِجِيلَة ونحوهما ؛ وقد تسمى باسم خاصّة خَصَّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب على القبيلة لحدوث سبب كغَسَّانَ ، حيث نزلوا على ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع - أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب :

أولها - أن يطلق على القبيلة لفظ الأب كعاد، وشمود، ومَدَيْن، ومَنْ شاكلهم ؛ وبذلك ورد القرآن الكريم (وإلى عادٍ . وإلى ثمودَ . وإلى مَدَيْنَ) يريد بني عاد، وبني ثمود، وبني مَدَيْنَ ، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام بخلاف البطون والأخفاد ونحو ذلك .

وثانيها - أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأخفاد .

وثالثها - أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجمعاءفة ونحوهما ؛ وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها - أن يعبر عنها بآل فلان : كآل ربيعة، وآل فضل، وآل مُرّة، وآل على ، وما أشبه ذلك ؛ وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة، لاسيما في عرب الشام في زماننا . والمراد بالآل الأهل .

وخامسها — أن يعبر عنها بأولاد فلان؛ ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين من
أنحاذ العرب على قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قُرَيْش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عَمَّا يدور في خِزَانَةِ خيالهم مما يُخَالِطُونَهُ
وَيُجَاوِرُونَهُ ؛ إما من الحيوان المفترس كَأَسَدٍ ، وَنَمِرٍ ؛ وإما من النبات كَنَبْتٍ ،
وَحَنْظَلَةٍ ؛ وإما من الحشرات كَحَيَّةٍ ، وَحَشَشٍ ؛ وإما من أجزاء الأرض كَنِفْهَرٍ ، وَصَحْرٍ
ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككَلْبٍ ، وَحَنْظَلَةٍ ،
وَمُرَّةٍ ، وَضِرَّارٍ ، وَحَرْبٍ ، وما أشبه ذلك ؛ وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء : كفَلَّاحٍ
وَنَجَّاحٍ ، ونحوهما . والمعنى في ذلك ما حكى أنه قيل لأبي الدُّقَيْشِ الْكَلَابِيِّ^(١) : لِمَ تُسَمُّونَ
أبنَاءكم بِشَرِّ الأَسْمَاءِ نحو كَلْبٍ وَذَيْبٍ ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مَرْزُوقٍ وَرَبَّاحٍ ؟
فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء مُعَدَّةٌ لِلْأَعْدَاءِ
فاختاروا لهم شر الأسماء ، والعبيد مُعَدَّةٌ لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان في القبيلة آسمان متوافقان : كالحارث والحارث ، وأحدهما
من ولد الآخر أو بعده في الوجود عَبَّرُوا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر ، وعن
الولد أو المتأخر منهما بالأصغر ؛ وربما وقع ذلك في الأخوين إذا كان أحدهما أكبر
من الآخر .

المهيع الثاني

(في معرفة تفاصيل أنساب العرب)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ عَلَى قِسْمَيْنِ :

(١) أهمله في الأصل وصوابه الإجماع .

القسم الأول

(العرب البائدة)

وهم الذين بادؤا ، ودرست آثارهم ، وأتقطعت تفاصيل أخبارهم إلا القليل ؛
والمشهور منهم قبائل :

القبيلة الأولى — عاد ؛ وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه
السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان : من البحرين إلى حضرموت
والشحر ؛ وهم الذين بعث الله تعالى إليهم هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم
بالريح كما ورد به القرآن الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود ، وهم بنو ثمود بن جاث ، (ويقال كاث بالكاف بدل الجيم)
أبن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت منازلهم بالجحر ووادي القرى ، بين
الحجاز والشام ؛ وكانوا يَنْحِتُونَ بُيُوتَهُمْ من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله
تعالى إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا ، فأهلكهم الله بصيحة من السماء كما ورد به
القرآن الكريم .

القبيلة الثالثة — العَمَلقة ، وهم بنو عَمَلِيق ، (ويقال عَمَلِاق) بن لاوذ بن إرم بن
سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يُضْرَبُ بهم المثل في الطول والجثمان . قال الطبري
وتفرقت منهم أمم في البلاد ، فكان منهم أهل عُمان ، والبحرين ، والحجاز ، وملوك
العراق ، والحزيرة ، وجبارة الشام ، وفراغة مصر .

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طَسْم . قال ابن الكلبي وهم بنو طسم
أبن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . وذكر الجوهرى أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلهم الأحقاف باليمن . وذكري في "العبر" أن ديارهم كانت باليمامة ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جديس الآتي ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جديس وهم بنو جديس بن إرم بن سام بن نوح .
وقال الطبري جديس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت مساكنهم بجوار طسم المقدّم ذكرهم ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عبد ضخم ، وهم بنو عبد ضخم بن إرم بن سام بن نوح .
قال في "العبر" : كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أول من كتب بالخط العربي .

القبيلة السابعة — جرهم الأولى . قال ابن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا على عهد عاد فبادوا .

القبيلة الثامنة — مدين ، وهم بنو مدين بن إبراهيم عليه السلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائل وشعوب ؛ وكانت ديارهم ديار عاد وأرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبا من عشيرة قوم لوط^(١) بعث الله إليهم شعيبا فلم يؤمنوا .

القسم الثاني

(من العرب الباقية أعقابهم على تعاقب الزمان)

وأكثر من تدعو حاجة الكاتب إلى معرفته من بقى أعقابهم منهم متفرقة في أقطار الأرض إلى الآن ، وهم على ثلاثة أضرب :

(١) في سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنه .

الضرب الأول

(العرب العاربة)

قال الجوهري : ويقال فيهم العرب العرباء، وهم بنو قحطان، بن عابر، بن شالخ
ابن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن . والمشهور منهم شعبان .

الشَّعْبُ الأول — جرهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهاء) وهم بنو جرهم بن
قحطان، وهم غير جرهم الأولى المقدم ذكرها في جملة العرب البائدة .

وكانت منازلهم أولاً اليمن، ثم آنتقلوا إلى الحجاز فزلوه، فأقاموا به حتى كان من
نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فزلوه عليه بمكة، وآستوطنوها على
ما سيأتي ذكره في الكلام على العرب المستعربة إن شاء الله تعالى .

الشَّعْب الثاني — يعرب، وهم بنو يعرب بن قحطان المقدم ذكره . ويقال إن
العرب إنما سُميت عرباً به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسلوا
فُولدَ لَهُ يَشْجُب، وَوَلَدَ يَشْجُب سَبَّأً، ومنه تفرعت جميع قبائلهم .

ومرجع المشهور فيه إلى قبيلتين :

القبيلة الأولى — حمير وهم حمير بن سبيل (بكسر الحاء وأسمه العرنجج) . وقد ذكر
ابن الكلبي : أنه كان لخمير عشرة أولاد من عقيقه وكان غالبٌ وجُلُّ قبائل حمير من
أَبْنَيْهِ : الهميسع، ومالك ملوك اليمن؛ وكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما
حولها . ولخمير بقايا موجودون إلى الآن، ومنه غالب قبائل قُضَاعَة، ومنه غالب
قبائل حمير، وهو قُضَاعَة، بن مالك، بن عمرو، بن مُرَّة، بن زيد، بن مالك، بن حمير؛
وقيل قُضَاعَة بن مالك بن حمير . وذهب بعض النسابة إلى أن قُضَاعَة من العدنانية
الآتي ذكرهم . قال السهيلي : والصحيح أن أُم قُضَاعَة (وهي جكرة) مات عنها مالك

أَبْن حَمِيرُ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَتَرَوُجَهَا مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ ، فَوَلَدَتْ قُضَاعَةَ عَلَى فَرَّاشِهِ فَتَبْنَاهُ
فَنُسِبَ إِلَيْهِ . قَالَ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاهُ : ”وَكَانَ قُضَاعَةُ مَالِكًا لِبِلَادِ الشَّحْرِ وَقَبْرُهُ بِمَجْلٍ
الشَّحْرِ مَوْجُودٌ“ . وَلِقُضَاعَةُ بَقَايَا إِلَى الْآنَ يَنْسَبُ إِلَيْهِمْ ، وَإِلَيْهِمْ يُنْسَبُ الْقُضَاعِيُّ
الْمِصْرِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ ”الشَّهَابِ فِي الْمَوَاعِظِ وَالْآدَابِ“ فِي الْحَدِيثِ ، وَخَطَطَ مِصْرَ
وغيرهما .

والمشهور من قضاة سبعة أحياء :

الحَيَّ الْأَوَّلُ — بَلَى (بفتح الباء) وهم بنو بَلَى ، بن عمرو ، بن الحَافِي ، بن قُضَاعَةَ ،
ولهم بَقَايَا بِالْأَمْرِ الْمِصْرِيَّةِ بِصَعِيدِهَا الْأَعْلَى ، منهم بنو نَابٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَبَقَايَا بِالْحِجَازِ
وغيرهما ، وَالنَّسَبُ إِلَيْهِمْ بِلَوْنٍ بِزِيَادَةِ وَائِمْكَسُورَةِ قَبْلَ يَاءِ النَّسَبِ .

الحَيَّ الثَّانِي — جُهَيْنَةُ (بضم الجيم وفتح الهاء والنون) ، وهم بنو جُهَيْنَةَ ، بن زَيْدٍ ،
أَبْن لَيْثٍ ، بن سُودٍ ، بن أَسْلَمٍ ، بن الحَافِي ، بن قُضَاعَةَ ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَهُمْ بَقَايَا
بِبِلَادِ الصَّعِيدِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَبِالْحِجَازِ وَغَيْرِهِمَا . وَالنَّسَبُ إِلَيْهِمْ جُهَيْنِيٌّ بِحَذْفِ
الْيَاءِ بَعْدَ الْهَاءِ .

الحَيَّ الثَّلَاثُ — كَلْبٌ ، وهم بنو كَلْبٍ ، بن وَبَرَةَ ، بن ثَعْلَبَةَ ، بن حُلُوَانَ ، بن عِمْرَانَ ،
أَبْن الحَافِي ، بن قُضَاعَةَ ، وَمِنْهُمْ حَارِثَةُ الْكَلْبِيِّ أَبُو زَيْدٍ بنِ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ صَاحِبُ حِمَاهُ : وَكَانَ بَنُو كَلْبٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْزِلُونَ دُومَةَ الْجَنْدَلِ ، وَتَبُولُكَ ،
وَأَطْرَافَ الشَّامِ . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : وَمِنْهُمْ الْآنَ خَلَقَ عَظِيمٌ عَلَى خَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ
مُسْلِمُونَ . قَالَ فِي «مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ» : وَبَشِيرَ ، وَحَلَبَ وَبِلَادَهَا ، وَتَدْمُرَ ، وَالْمَنَاظِرَ
أَقْوَامَ مِنْهُمْ ، وَالنَّسَبُ إِلَيْهِمْ كَلْبِيٌّ .

الحَيَّ الرَّابِعُ — عُدْرَةُ (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عُدْرَةَ

(١) ابن سعيد، بن هذيم، بن زيد، بن ليث، بن سود، بن أسلم، بن الحافي، بن قضاة، وإلى عُدرة هؤلاء ينسب العشق والتيم؛ ومنهم عُمرو بن حرام صاحب عَفراء أحد المتيِّمين وجميل صاحب بُيَّنة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم : ما بال العشق يقتلكم يا بني عُدرة ؟ قال لأن فينا جمالا وعِفَّة : وقيل لآخر منهم : ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عُدرة — فقال : أما والله ! لو رأيتم النواظر الدُّعج ، تحتها المَبَاسِمُ الفُجج ، فوقها الحَوَاجِبُ الرُّجج ، لآخذتموها اللَّات والعُرَى ، ولهم بقايا بالدَّقْهَلِيَّة والمُرْتاحِيَّة من الديار المصرية ، وبقايا بالشام أيضا .

الحى الخامس — بهراء (بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة) ، وهم بنو بهراء ، بن عمرو، بن الحافي : بن قُضاة ؛ ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، منهم المقداد بن الأسود، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالد بن برمك من آل بهراء . قال في العبر : وكانت منازلهم شمالي منازل بلّ من الينبع إلى عقبة أيلة ، ثم جاور بحر القلزم منهم خلق كثير ، وآنشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر، وكثروا هناك ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحى السادس — بنو نهد ، بن زيد، بن ليث، بن سود، بن أسلم، بن الحافي، بن قُضاة ؛ وكانت منازلهم باليمن ، وإليهم كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه المشهور ؛ وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مشاهير نهد الصَّقعب ؛ قال صاحب حماه : وكان رئيسا في الإسلام .

(١) في القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشي تحضن سعدا فتنسب إليه وإلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدًا له كما قد يتوهم من العبارة فتنه .

الحى السابع - جرم، وهم بنو جرم وأسمه عَلاَف، بن زَبَّان، بن حُلُوان، بن عمران،
 ابن الحافى، بن قُضَاعَة . قال الحمدانى : ومنهم بنو جُشَم ، وبنو قُدَامَة ، وبنو عَوْف .
 قال فى العبر : ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . قلت ووهم القاضى ولى
 الدين بن خلدون فجعلهم هم الذين ببلاد غَزَّة ، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طيئ
 لا جرم قُضَاعَة . وعدّ صاحب حمّاه فى تاريخه منهم تَنُوخ (بفتح التاء المثناة فوق
 وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهري : ولا تشدّد نونه ، والتحقيق
 ما قاله أبو عبيد : أنهم ثلاثة أبطن من القحطانية زَرَار ، والأحلاف^(١) . قال : وسُمُّوا بذلك
 لأنهم حلفوا على المقام بمكان بالشام والتَنَخُّ المَقَام . قال ابن سعيد : ومن الناس
 من يطلق تَنُوخ على الضَّجَاعَة ، ودَّوس الذين تَنَخَّوا بالبحرين . قال صاحب
 حمّاه : وكان بينهم وبين التَّحَمِيمين ملوك الحيرة حروب ؛ ولتَنُوخ بقايا بالمعرة من بلاد
 الشام فيما ذكره الحمدانى .

القبيلة الثانية - من القحطانية كَهْلَان (بفتح الكاف وسكون الهاء) ، وهم بنو
 كَهْلَان بن سبأ . قال أبو عبيد : وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كَهْلَان ،
 وكانوا متداولين الملك باليمن مع بنى حمير، انفرد بنو حمير بالملك ، وبقيت بطون كهلان
 على كثرتها تحت ملكهم . قال فى العبر : ثم تقاصر ملك حمير وبقيت الرياسة على
 العرب بالبادية لبني كَهْلَان ، وهم أحياء كثيرة .
 والمشهور منهم أحد عشر حياً :

الحى الأول - الأزْد (بفتح الهمزة وسكون الزاى وبالذال المهملة) ، قال
 أبو عبيد : ويقال بالسين بدل الزاى . قال الجوهري : بالزاى أفصح ، وهم بنو
 الأزْد ، بن الغوث ، بن نَبْت ، بن مالك ، بن أدَد ، بن زيد ، بن كهلان ، وهم من أعظم
 الأحياء وأكثرهم بطونا . وقد قسّم الجوهري الأزْد إلى ثلاثة أقسام :

(١) أى أسد وغطفان فهما آثنان وزار الثالث .

أحدهما - أزدُ شُوءة، وهم بنو نصر بن الأزد، وشُوءة لقب لنصر غلب على بنيه .
الثانى - أزد السَّراة، بإضافة أزد إلى السَّراة (بالسين المهملة)، وهو موضع
بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعرفوا به .

(١)
الثالث - أزدُ عَمَّان بإضافة أزد إلى عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)،
وهى مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعرفوا بها . وللازد بقايا ببلاد الشام بزُرْع
وبُصْرَى فيما قاله فى "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة
ونون فى الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بنو جَفْنَةَ، والحارث وهو مُحْتَرَق، وثعلبة وهو
العنقاء، وحارثة، ومالك، وكعب، وخارجة، وعوف بن عمرو، بن عامر ماء السماء،
بن حارثة الغطريف، بن امرئ القيس البَطْرِيق ويقال البهلُول، ابن ثعلبة، بن
مازن، بن الأزد، وإنما سُموا غسان لماء نزلوا عليه اسمه غسان فشربوا منه فسُموا
به . قال فى العبر : وهو على القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفى ذلك يقول
بعض الأنصار :

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعَشَرٌ نَجَبٌ * الْأَزْدُ نَسَبَتْنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان مُلْكُ العرب بالشام بعد سَليح المقدم ذكرهم إلى أن كان
أخبرهم جَبَلَةُ بن الأيهم الذى أسلم فى زمن عمر ثم ارتد، ولحق ببلاد الكُفَر . وقد
ذكر فى "مسالك الأبصار" أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبلقاء واليرموك وحمص . ومنها
الأوس والخزرج أبنا حارثة، بن ثعلبة، بن عمرو مزنيقياً، بن عامر ماء السماء، بن حارثة
الغطريف، بن امرئ القيس البَطْرِيق، بن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد، وكانت منازلهم

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهري بالقلم والقاموس أيضاً وضبطه شارحه بالعبارة . فقال :
كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت . وفيه أيضاً أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فخر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع فى الأصل بالمشناة وهو تصحيف .

يَثْرِبَ ، ومنهم كانت أنصارُ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم بقايا كثيرة متفرقة بالْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ . وقد ذكر الحمداني : أن منهم جماعةً بِمَنْقَلُوطٍ من صعيد مصر من عَقِبِ
حَسَّانَ بن ثابت ، وسعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنهما .

الحى الثاني — من كَهْلَانِ طِيٍّ (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر)
أخذنا من الطاعة على وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المِرْعَى ، وهم بنو طيٍّ ، بن أدَدَ
أَبْنِ زَيْدٍ ، بن يَشْجُبٍ ، بن عَرِيبٍ ، بن زَيْدٍ ، بن كَهْلَانَ ، والنسبة إليهم طائى ،
وإليهم ينسب حاتم الطائى المشهور بالكرم ، وأبو تمام الطائى الشاعر المشهور ، وهم
كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم باليمن فخرجوا منها على إثر خروج الأزد عند
تفرقهم بسيل العَرم ، فزلوا بَنَجْدَ والحجاز على القُرب من بنى أسد ، ثم غلبوا بنى أسد
على جَبَلٍ أَجَا وسَمَى من بلاد بَنَجْدَ ، فزلوهما فعرفا بَجَبَلٍ طيٍّ إلى الآن ؛ ثم آفَترَقوا
فى أوّل الإسلام زمنَ الفُتُوحات فى الأقطار ، ولهم بطون كثيرة . منهم ثَعْلُ (بضم
الثاء المثناة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثَعْلٍ ، بن عمرو ، بن الغوث ،
أَبْنِ طِيٍّ . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد
الخليل .

ومنها جَدِيلَةٌ (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر) ،
ذكرهم الجوهري ولم يرفع نسبهم ؛ ثم قال : وَجَدِيلَةٌ أُمُّهُمْ عَرَفُوا بِهَا : وهى جَدِيلَةٌ
بنت سُبَيْعِ بن عمرو من حمير .

ومنها نَبْهَانُ (بفتح النون وسكون الباء الموحدة ونون بعد الألف) ، وهم بنو نَبْهَانَ ،
واسمه سُودَانُ ، بن عمرو ، بن الغوث ، بن طيٍّ .

ومنها بَوْلَانُ (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو
بَوْلَانَ ، واسمه غُصَيْنٌ ، بن عمرو ، بن الغوث ، بن طيٍّ . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

لأنهم وضعوا الخط العربي على ما سيأتى ذكره فى الكلام على الخط فيما بعد
إن شاء الله .

ومنها هِئَاء، وهم بنو هِئَاء، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنهم إياس بن قبيصة الذى ملك بعد النعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والdal المهملتين وسين مهملة فى الآخر) ، وهم بنو
سُدُوس بن أصمَع من بنى سعد، بن نَبْهَان، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنهم جعفر بن عطية الذى يقول :

مَدَحْتُ نَسِيبِي جَعْفَرًا إِنْ جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاهَ النَّدى وَأَنَا مِلهُ

ومنها سَلَامَانُ (بفتح السين المهملة ونون فى الآخر) ، وهم بنو سَلَامَان، بن ثعل،
أبن الغوث، بن طيء .

ومنها بُحْتَرُ (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء
مهملة فى الآخر) ، وهم بنو بُحْتَر، بن عَتُود، بن عُثَيْر، بن سَلَامَان، بن ثعل،
أبن عمرو، بن الغوث، بن طيء ؛ منهم أبو عبادة البحرى الشاعر الإسلامى المشهور .

ومنها زُبَيْدُ (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وdal مهملة
فى الآخر) ، وهم بنو زُبَيْد، بن مَعْن، بن عمرو، بن عُثَيْر، بن سَلَامَان، بن عمرو، بن
الغوث، بن طيء . قال ابن سعيد : وزُبَيْد هؤلاء هم الذين بيرية سنجار من الجزيرة
الفراتية ، وهم الذين ذكرهم المقرئ الشهابى بن فضل الله ، وسماهم زُبَيْد الأَحلاف .

ومنها سُنَيْسُ (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة
فى الآخر) وهم بنو سُنَيْس بن معاوية ، بن حَرْوَل، بن ثعل، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدي فى سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر فى القاموس أنه بالكسر وكذلك هو
فى الصحاح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طبيّ . وقد ذكر الحمدانيّ أن منهم طائفةً بشغردميّاط ، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميّين ، وعدّ منهم ثلاثة بطون : وهم الخزاعلة ، وعبيد ، وجُحوح . والإمرة في زماننا هذا فيهم ، في الخزاعلة ، في بنى يوسف بمدينة سحّا من الأعمال الغربية . قال الحمدانيّ : ومنهم طائفة بالبطائح من بلاد العراق .

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم في الآخر) ، وهم بنو ثعلبة بن عمرو ، بن الغوث ، بن طبيّ . وقال الحمدانيّ جَرَمَ أَسَمُ أمه غلب عليه : وهى جرم بنت الغوث ابن طبيّ ؛ وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غَزَّة من البلاد الشامية . قال الحمدانيّ : وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين ، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد ، دخلت طائفة منهم مصر ، وبقي بقاياهم بمكانهم ببلاد غَزَّة . وقد ذكر الحمدانيّ منهم ثلاثة بطون : وهم شمجان ، وقران ، وجيَّان . ثم قال : والمشهور من جَرَمَ الآن جَذِيمة ؛ ويقال إن لهم نسبا في قریش ؛ وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم ، وقيل بل من جذيمة بن مالك ، بن حنبل ، بن عامر ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فيهر . ثم قال وجَذِيمة هؤلاء هم آل عَوْسَجَة ، وآل أحمد ، وآل محمود . ثم قال : ومنهم أسلم ، وشبل ، ورضيعة ، ونيور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفثة ، وكور ، وموقع . ومنهم من بنى غوث العاجلة ، والعبادلة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ، وبنو مقدم ، وآل نادر . ومنهم من بنى غوث بنو بها ، وبنو خولة ، وبنو هرماس ، وبنو عيسى ، وبنو سهيل ؛ وأرضهم الداروم ؛ وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببنى فهد . ثم اختلطوا بهم .

ومنها ثعلبة ، وضبطه معروف ؛ وهم بنو ثعلبة بن سلامان ، بن ثعل ؛ بن عمرو ؛ بن الغوث ، بن طبيّ ، وهم رعيان درما وزريق ، أبى عَوْف بن ثعلبة ، وقيل أبنا ثعلبة وآسَمَ درما عمرو ، ودرما آسَمُ أمه غلب عليه . قال الحمدانيّ : وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد آتتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بطون درما سلامة، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابل، والمرانة، والحياثيون؛ ومن بطون زريق بها بنوهم والطيحيون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصاحفة؛ ومن بنى زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُموت، والروايات، والنمورة، والشمخيون، والسَّعالى، والرمالي، والمعامرة، والسَّنديون، والبجاجة، والعقيليون، والمساهرة، والمعافرة؛ ومنهم أيضا العليميون . قال الحمداني: وكان مقدمهم قديما عمرو بن عسيلة أمَّمر بالبوق والعلم . ومن العليميين القمعة، والرياحين، والغوفة . قال الحمداني: وكان فيهم رجال ذوو ذكرونباهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا . ومنهم من أمَّمر بالبوق والعلم . ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرية .

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاي وتشديد الياء المثناة تحت وهاء في الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أَفْلَت، بن ثعل، بن عمرو، بن سَلامان، بن ثعل، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء . قال الحمداني: وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز . قال في العبر: وفيهم الإمارة في العراق إلى الآن ولهم صولة عظيمة . وهم بطون كثيرة: فمن بطونهم البطين، وأنخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود . ومن بطونهم الأجود وأنخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبي الحزم، وآل علي، وآل عقيل، وآل مسافر . هذا ما ذكره الحمداني . وزاد في مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقي، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبنى جميل، وآل أبي مالك . قال في "المسالك": وديار

آل أجود منهم الرخيمية، والرقبي، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكن، والحموم، والأم، والمعينة. ويلهم مساعدة. وديارهم من الحضر إلى بركة زرود، إلى سقارة، إلى البقعاء، إلى التيب، إلى الساسة، إلى حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طريف، بن عمرو، بن بجيلة، بن مالك، بن جدعاء، بن ذهل، بن رومان، بن جندب، بن خارجة، بن سعد، بن قطرة، بن طيء. قال ابن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمداي: ديارهم جبل أجا وسلمى. ثم قال وظفير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دغفل، بن جراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حرب، بن السكّن، بن ربيع، ابن علق، بن حوط، بن عمرو، بن خالد، بن معبد، بن عدى، بن أفلت، بن سلسلة، بن غنم، بن ثوب، بن معن، بن عتود، بن عنيز، بن سلامان، بن ثعل، بن عمرو، بن القوث، ابن طيء. قال في "مسالك الأبصار": وتقول بنو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بن خالد، بن برمك من العباسة بنت المهدي، أخت الرشيد، ويؤمنون أنه كان يحضر مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه في تزويجها ليحلّ له نظرها لأجمعهما مجلسه فعقد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها على حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون في نسبه إنه ربيعة بن سالم، ابن شبيب، بن حازم، بن علي، بن جعفر، بن يحيى، بن خالد، بن برمك، ويؤمنون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

لأنهم من سلسلة بن عُنَيْز، بن سلامان، بن طي، وهم كرام العرب وأهل البأس
والنجدة، والبرامكة وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجم وشتان بين العرب والعجم؛
وقد شرف الله تعالى العرب أن بعث منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه،
وجعل فيهم الخلافة والملك، وأبترَّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأسنتهم تاج كسرى
وقيصر، وكفى بذلك شرفاً لا يُطَاوَل، ونغراً لا يُتَنَاوَل. وذكر في "التعريف" نحوه
قال في العبر: وكانت رياسة طي في أيام الفاطميين لبني الجراح، ثم صارت لآل
ربيعة. قال الحمداي: وكان ربيعة هذا قد نشأ في أيام الأتابك زنكي وأبنة نور الدين
الشهيد صاحب الشام ونبع بين العرب وولد له أربعة أولاد: وهم فضل، ومرا،
ونابث، ودغفل، ومنهم تفرَّعت بطون آل ربيعة. ثم المشهور من آل ربيعة الآن
ثلاثة بطون: وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علي: قال فضل هم بنو فضل بن ربيعة
وآل مرا بنو مرا بن ربيعة. وأما آل علي فمن آل فضل، وهم بنو علي بن حديث، بن
عُقبة بن فضل المتقدم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضاً بعد ذلك بيوتا أرفعها قدراً
بيت عيسى بن مُهَنَّأ، بن مائع، بن حديث، بن عقبة، بن فضل. قال في "مسالك
الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل. قال: ثم صار آل عيسى بيوتا، بيت
مهنا بن عيسى، وبيت فضل بن عيسى، وبيت حارث بن عيسى، وبيت محمد
ابن عيسى، وبيت هبة بن عيسى. وسيأتى الكلام على تقسيم الإمرة فيهم في الكلام
على عرب الشام في المسالك والممالك إن شاء الله.

الحى الثالث — من كهلان مَدْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء
المهمله وجيم في الآخر)، وهم بنو مَدْحِج وأسمه مالك، بن أدَد، بن زيد، بن يَشْجُب،
ابن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرى: مَدْحِج

أَبْنُ يُحَارِبٍ، بَنُ مَالِكٍ، بَنُ زَيْدٍ، بَنُ كَهْلَانَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَدَّادِيُّ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَمَّوْا مَذْحِجَ شَجَرَةً تَحَالَفُوا عِنْدَهَا أَسْمَهَا مَذْحِجَ، فَسَمَّوْا بِأَسْمَهِهَا. ثُمَّ لَمَذَحَجَّ بَطُونَ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا خَوْلَانُ، (بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَنُونِ بَعْدِ اللَّامِ أَلْفٌ)، وَهُمْ بَنُو خَوْلَانَ بْنِ مَالِكٍ، وَهُوَ مَذْحِجٌ وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ. قَالَ فِي الْعَبْرِ: وَبِلَادِ خَوْلَانَ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ مِنْ شَرْقِيهِ، قَالَ: وَقَدْ أَفْتَرَقُوا فِي الْفَتْوحَاتِ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ الْيَوْمَ ذُرِّيَّةٌ إِلَّا بِالْيَمَنِ؛ ثُمَّ قَالَ وَهُمْ غَالِبُونَ عَلَى أَهْلِهِ.

وَمِنْهَا جَنْبٌ (بِفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ النُّونِ وَبَاءٍ مُوَحَّدَةٍ فِي الْآخِرِ)، وَهُمْ بَنُو مُنْبَهٍ، وَالْحَارِثُ، وَالْفُغْلَى، وَسَبْحَانَ، وَشَمْرَانَ، وَهَفَانَ بْنِ يَزِيدٍ، بَنُ حَرْبٍ، بَنُ عَلَّةٍ، أَبْنُ جَلْدٍ، بَنُ مَذْحِجٍ. قَالَ أَبُو عِيْسَى: وَسَمَّوْا بِجَنْبٍ لِأَنَّهُمْ جَانَبُوا عَمَّهُمْ صُدَاءَ، وَحَالَفُوا سَعْدَ الْعَشِيرَةِ، وَحَالَفَتْ صُدَاءُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. وَمِنْ جَنْبٍ مَعَاوِيَةُ الْخَلِيفَةُ الْجَنْبِيُّ صَاحِبُ لُؤَاءِ مَذْحِجٍ فِي حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ.

وَمِنْهَا سَعْدُ الْعَشِيرَةِ، وَهُمْ بَنُو سَعْدِ الْعَشِيرَةِ بْنِ مَذْحِجٍ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَمِتْ حَتَّى رَكِبَ مَعَهُ مِنْ وَلَدِهِ وَوَلَدَ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ، فَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْهُمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ عَشِيرَتِي دَفْعًا لِلْعَيْنِ عَنْهُمْ، فَقِيلَ لَهُ سَعْدُ الْعَشِيرَةِ. ثُمَّ مِنْ بَطُونَ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَوْذٌ (بِفَتْحِ الهمزة وَسُكُونِ الْوَاوِ وَذَالٍ مَعْجَمَةٍ فِي الْآخِرِ)، وَهُمْ بَنُو أَوْذِ بْنِ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ الْأَفْوَهُ الْأَوْذِيُّ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ. وَمِنْ بَطُونَ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَيْضًا جُعْفَى (يُضَمُّ الْجِيمُ وَسُكُونُ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةُ وَكُسْرُ الْفَاءِ وَيَاءُ مَثْنَاةٌ تَحْتَ فِي الْآخِرِ) وَهُمْ بَنُو جُعْفَى بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ وَالنَّسَبَةُ إِلَيْهِمْ جُعْفَى عَلَى مِثْلِ لَفْظِهِ، وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ بِالْمُؤَالَاةِ، فَيُقَالُ الْجُعْفِيُّ مُوَلَاهُمْ. وَمِنْ بَطُونَ سَعْدِ

(١) صَوَابُهُ وَدَالُ مَهْمَلَةٍ أَنْظَرَ الْقَامُوسَ وَشَرَحَهُ فِي مَادَّةِ أَوْذٍ عَلَى أَنَّهُ لَمْ تَوْجَدْ مَادَّةُ أَوْذٍ بِالْمَعْجَمَةِ فَيَا بِأَبْدِنَا مِنَ الْمَعَارِجِ قَتْنِهِ.

العشيرة زُبَيْدُ (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعرف زُبَيْدُ هؤلاء زُبَيْدُ الأكبر، وهم زُبَيْدُ الحجاز. قال فى مسالك الأبصار: وعليهم دَرَكُ الحاج المصرى من الصَّفرَاء إلى الجحفة ورايغ. ومن زُبَيْدُ هؤلاء بطنٌ تعرف زُبَيْدُ الأصغر، وهم بنو مُنَبِّه الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْدُ هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

(١)
ومنها النَّخَع (بفتح النون وسكون الخاء المعجمة وعين مهلة فى الآخر)، وهم بنو النَّخَع وأسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحَج. قال أبو عبيد: وسُمى النَّخَع لأنه اتَّخَعَ عن قومه أى بَعْد، ومنهم الأَشتر النَّخَعِيُّ أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه مِصر، وكتب له بها عهداً على ماسأتى ذكره فى الكلام على العهود عند ذكر الولايات فيما بَعْد إن شاء الله تعالى. وإليهم ينسب إبراهيم النَّخَعِيُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنَس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَنَس بن مَذْحَج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابى المشهور؛ وإليهم ينسب الأسود العنسى الكذاب، الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بخروجه فأدعى النبوة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بَلْحَارِث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كَعْب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحَج. قال فى "العبر": وديارهم بنواحى نَجْرَانَ من اليمن مجاورون لبنى ذُهَل بن مُزَيْقِيَاء، منهم بَشِير الحارثى الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له: ما أسمك قال: أكير، قال: بل أنت بَشِير.

(١) الذى فى القاموس النَّخَع بالتحريك قبيلة وفى المصباح والنخع بفتحين قبيلة من مَذْحَج فليُنظر.

الحى الرابع — من بني كهلان همدان (بفتح الهاء وسكون الميم وodal مهملة ثم ألف ونون) ، وهم بنو همدان ، بن مالك ، بن زيد ، بن أوسلة ، بن ربيعة ، بن الحيار ، ابن زيد ، بن كهلان ، . قال فى "العبر" : وكانت ديارهم بايمن من شرقية ، ولما جاء الإسلام تفرق من تفرق منهم ، وبقى من بقى باليمن . قال : وكانت همدان شيعه لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه عند وقوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلِي بِسَلَامٍ

قال فى "مسالك الأبصار" : وبالجل المعروف بالطييين من الشام فرقة من همدان .
الحى الخامس — من بنى كهلان كندة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) ، وهم بنو كندة ، وأسمه ثور ، بن عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن مرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال صاحب حماة : وسمى كندة لأنه كند أباه أى كفر نعمته . قال : وبلادهم باليمن قبل حَضْرَمَوْت ، وكان لهم مُلْكٌ بالحجاز واليمن ؛ ومنهم الأشعث بن قيس الصحابى المشهور ؛ ومنهم أيضا القاضى شريح قاضى على رضى الله عنه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللوى من بلاد الشام قوما ينسبون إلى كندة ، ولهم بطون منها السكون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو) ، وهم بنو السكون ابن أشرس بن كندة ؛ ومنهم معاوية بن حديج قاتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ؛ وعد منها صاحب حماة السكاسك أيضا (بفتح السين الأولى وكسر الثانية) ، والذي ذكره أبو عبيد أنه من حمير ، وقال : هم بنو السكاسك بن واثلة بن حمير . قال الجوهري : والنسبة إلى السكاسك سكسكى ردا له إلى أصله كما ينسب إلى مساجد مسجدي .

الحى السادس - من بنى كهلان مُراد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مراد، بن مالك، بن أدد، بن زيد، بن يشجب، بن عريب، ابن زيد، بن كهلان، قال الجوهري: ويقال إن اسمه يُحابر فتمرد فسمى مُرادا . وجعلهم في العبر بطنًا من مدحج، فقال مراد بن مدحج . قال صاحب حماء : وبلادهم إلى جانب زبيد من بلاد اليمن، قال : وإلى مراد هذا ينسب كل مُرادى من عرب اليمن .

الحى السابع - من بنى كهلان أعمار (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أعمار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نبت، بن مالك، بن زيد، بن كهلان . ولهم بطنان - الأولى بجيلة (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر)، وهم بنو عبقر، والغوث، وصهبية، وحزيمة (١) بن أعمار، بن أراش . قال أبو عبيد : وبجيلة أمهم، عرفوا بها - وهى بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة، قال في العبر : وكانت بلادهم في سروات اليمن والمجاز إلى تبالة . ثم أفترقوا أيام الفتح الإسلامى في الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل، قال الجوهري : ويقال إنهم من العدنانية، لأن نزار بن معد بن عدنان وُلد له مضرٌ وربيعة وإياد وأنمار، وولد لأنمار بجيلة وخنعم فصاروا إلى اليمن، وإلى بجيلة هؤلاء ينسب جرير بن عبد الله البجلي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جميلا فائق الجمال، حتى إنه كان يقال له يُوسف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه :

لَوْلَا جَرِيرٌ هَلَكْتَ بِجِيلِهِ * نَعِمَ الْفَتَى وَبُسْتِ الْقَبِيلِهِ

الثانية - خنعم (بفتح الخاء المعجمة وسكون التاء المثناة وفتح العين المهملة وميم في الآخر)، وهم بنو خنعم بن أنمار بن أراش المقدم ذكره ابن هند بنت مالك

(١) بفتح الخاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك في سبائك الذهب

أَبْنُ الْغَافِقِ بْنِ الشَّاهِدِ بْنِ عَدٍ ، وَفِيهِمْ مِثْلُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ الْجَوْهَرِيِّ فِي الْكَلَامِ عَلَى بَيْحِلَةَ أَنَّهُمْ مِنَ الْعَدْنَانِيَّةِ : لِأَنَّ خَنْعَمَ وَبَيْحِلَةَ يَرْجِعُونَ إِلَى أُنْمَارٍ . وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ مَعَ إِخْوَتِهِمْ بَيْحِلَةَ بَسْرَوَاتِ الْيَمَنِ فَافْتَرَقُوا فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ . وَمِنْ خَنْعَمَ هَؤُلَاءِ أَكْلُبُ (يَفْتَحُ الْهَمْزَةَ وَسُكُونُ الْكَافِ وَضَمُّ اللَّامِ وَبَاءُ مُوَحَّدَةٍ فِي الْآخِرِ) ، وَهُمْ بَنُو أَكْلُبَ ، بْنِ عُفَيْرَ ، بْنِ خَلْفَ ، بْنِ خَنْعَمَ . قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَيُقَالُ إِنَّ أَكْلُبَ مِنْ رَبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَهُمْ بَطُونَ كَثِيرَةٌ ، وَمَنَازِلُهُمْ بِبِشَّةٍ شَرْقِيَّةٍ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ . وَمِنْ خَنْعَمَ أَيْضًا بَنُو مُنَبِّهٍ وَالْفُرْعَ ، وَبَنُو نَضْلَةٍ وَمَعَاوِيَةَ ، وَآلُ مَهْدَى ، وَبَنُو نَصْرٍ ، وَبَنُو حَامٍ ، وَالْوَرْدُ ، وَنَادِرٌ ، وَآلُ الصَّعَافِيرِ ، وَالشَّامَاءُ ، وَبَلُوسٌ ، قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَمَنَازِلُهُمْ عَلَى الْقَرَبِ مِنْ بِشَّةٍ شَرْقِيَّةٍ مَكَّةَ أَيْضًا .

الحَيُّ الثَّامِنُ — مِنْ بَنِي كَهْلَانَ جُدَّامَ (بَضْمُ الْجِيمِ وَفَتْحُ الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَأَلْفُ ثَمِيمٍ) ، وَهُمْ بَنُو جُدَّامَ ، بْنِ عَدِيٍّ ، بْنِ الْحَارِثِ ، بْنِ مُرَّةَ ، بْنِ أَدَدَ ، بْنِ زَيْدٍ ، ابْنُ يَشْجُبَ ، بْنِ عَرِيبَ ، بْنِ زَيْدٍ ، بْنِ كَهْلَانَ ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ : وَجَعَلَهُمْ صَاحِبُ حِمَاةٍ فِي تَارِيخِهِ مِنْ وَلَدِ عَمْرُو بْنِ سَبِيحٍ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ ، وَتَزَعَمُ نَسَابَةُ مُضَرَ أَنَّهُمْ مِنْ مُضَرِيغِينَ مِنَ الْعَدْنَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُمْ آتَقَلُّوا إِلَى الْيَمَنِ فَتَزَلُّوْهَا ، فَحُسِبُوا مِنَ الْيَمَنِ ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِ الْكُمَيْتِ يَذْكُرُ آتَقَلُّوْهُمُ إِلَى الْيَمَنِ بِانْتِسَابِهِمْ فِيهِمْ :

نَعَاءُ جُدَّامًا غَيْرَ مَوْتٍ وَلَا قَتْلٍ * وَلَكِنْ فِرَاقًا لِلدَّعَائِمِ وَالْأَصْلِ !

وَاسْتَشْهَدَ لَهُ الْحَمْدَانِيُّ أَيْضًا بِقَوْلِ جُنَادَةَ بْنِ خَشْرَمٍ الْجُدَّامِيِّ :

وَمَا قَطَطَانُ لِي بِأَبٍ وَأُمِّ * وَلَا تَصْطَادُنِي شُبُهَةُ الضَّلَالِ

وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ نُسَبِي وَلَكِنْ * مَعْدِيًّا وَجَدْتُ أَبِي وَخَالِي

(١) أَعْجَمَهُ فِي الْأَصْلِ . وَقَالَ فِي سَبَائِكَ الذَّهَبِ « حَلَفَ بِفَتْحِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ بَنُوهُ بَطْنُ مِنْ خَنْعَمَ » .

قال الحمداى : ويقال إنهم من ولد أعصر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ،
 وأستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وفد جُدَام ، فقال " مَرَحَبًا بِقَوْمٍ شُعَيْبٍ وَأَصْهَارِ مُوسَى " . قال صاحب حماة :
 وكان فيهم العددُ والشرف . قال الحمداى : وهو أول من سكن مصر من العرب حين
 جاءوا فى الفتح مع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وأقْطَعُوا فيها بلادا بعضها بأيدي
 بنينهم إلى الآن . وكان لجُدَام ولدان : هما حِشْم (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين
 المعجمة وميم فى الآخر) ، وحَرَام (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم) ؛ ومن
 ولد حِشْم عَتِيت (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت
 (٢) وتاء مثناة فوق فى الآخر) وهم بنو عَتِيت بن أسلم ، بن مالك ، بن شُئُوعة ، بن تَدِيل ،
 ابن حِشْم بن جُدَام . قال أبو عبيد : وهم اليوم ينتسبون فى بنى شِيان ، ويقولون
 عَتِيت بن عَوْف بن شِيان . قال وإليهم تنسب حُفْرة عَتِيت بالبصرة ، قال
 الجوهري : أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال ، فكانوا يقولون إذا كبر صبياننا
 لم يتركونا ، حتى يفتكونا ، فلم يزلوا عنده حتى هلكوا فضرَب لهم العرب مثلا
 فقالوا : أودى عَتِيت ، وفى ذلك يقول الشاعر :

تَرْجِيها وقد وَقَعَتْ بُقْرٌ * كما تَرْجُوا صَاغِرَهَا عَتِيتُ (٢)

ثم لجُدَام الآن بطون كثيرة متفرقة فى الأقطار؛ منهم بالشرقية من الديار
 المصرية من بنى زيد بن حَرَام بن جُدَام ، وبنى مُحَرمة بن زيد بن حَرَام بن جُدَام ؛
 فأما بنو زيد فمنهم بنو سُويد ، وبعجة ، وبردة ، ورفاعة ونائل ، من بنى زيد بن
 حَرَام بن جُدَام ، فمن ولد سُويد هَلْبا سويد ، وهم بنو هَلْبا بن سُويد بن زيد بن حَرَام

(١) فى سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم فى السبائك أيضا وهو بالباء الموحدة فى الصحاح والقاموس
 وأنشد الأول البيت بالباء الموحدة ومثله فى باقوت فتنه .

أَبْنُ جُدَامَ . قَالَ الْحَمْدَانِي . وَمِنْهُمْ الْعَطَوِيُّونَ ، وَالْجَابَرِيُّونَ ، وَالْقَتَاوَرَةُ ، وَحَمْدَانُ ،
وَرُومَانُ ، وَصَمْرَانُ ، وَأَسْوَدُ . وَالْحَمِيدِيُّونَ ، وَمِنْ الْحَمِيدِيِّينَ ، أَوْلَادُ رَاشِدَ ، وَمِنْهُمْ الْبَرَّاجِسَةُ ،
وَأَوْلَادُ يَمِينٍ وَالْجَرَّاشَنَةُ ، وَالْكَعُوكُ ، وَأَوْلَادُ غَانِمَ ، وَآلُ حَمُودَ ، وَالْأَخِيوَهُ ، وَالزَّرْقَانُ ،
وَالْأَسَاوَرَةُ ، وَالْحَمَارِيُّونَ . وَمِنْ بَنِي رَاشِدَ أَيْضًا الْحَرَّاقِصُ ، وَالْخَنَافِيسُ ، وَأَوْلَادُ
غَالِي ، وَأَوْلَادُ جَوَّالَ ، وَآلُ زَيْدَ ، وَمِنْ النُّجَابِيَّةِ أَوْلَادُ نَجِيبَ وَبَنُو فَضِيلَ .

وَمِنْ هَلْبَا سُؤَيْدَ أَيْضًا بَنُو الْوَلِيدَ ، وَهُمْ بَنُو الْوَلِيدَ بْنِ سُؤَيْدَ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ . وَمِنْهُمْ
الْحَيَادَرَةُ ، وَهُمْ بَنُو حَيَادَرَةَ ، بَنُ يَعْرَبَ ، بَنُ حَبِيبَ ، بَنُ الْوَلِيدَ ، بَنُ سُؤَيْدَ .
قَالَ الْحَمْدَانِي : وَهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهُمْ بَنُو عِمَارَةَ ، وَهُوَ عِمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدَ . وَمِنْهُمْ
عَدَدٌ ، وَالْحَبِيبُونَ : وَهُمْ بَنُو حَبَّةَ بْنِ رَاشِدَ بْنِ الْوَلِيدَ . وَمِنْ وَلَدِ الْوَلِيدَ بْنِ سُؤَيْدَ
الْمَذْكُورِ طَرِيفُ بْنُ بَكْتُوتَ الْمَلْقَبُ زَيْنَ الدَّوْلَةِ ، كَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ
فِي مَضِيْفَتِهِ أَيَّامَ الْغَلَاءِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا تَأْكُلُ عِنْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَكَانَ يَهْتَمُّ الثَّرِيدَ
فِي الْمَرَاقِبِ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِ مِنْ أَمْرِ بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ وَعَدَّ مِنْ أَحْلَافِهِمْ أَوْلَادُ الْهُوْبَرِيَّةِ ،
وَالرَّدَالِيْنَ ، وَالْخَلِيفِيِّينَ ، وَالْخَضِيزِيِّينَ ، وَالرَّبِيعِيِّينَ ، وَهُمْ أَوْلَادُ شَرِيفِ النُّجَابِيِّينَ ،
وَذَكَرَ الْحَمْدَانِي أَنَّ لَهُمْ نَسَبًا فِي قُرَيْشَ إِلَى عَبْدِ مَنَافَ ، بَنُ قُصَيٍّ . وَمِنْ هَلْبَا سُؤَيْدَ
هَؤُلَاءِ هَلْبَا مَالِكَ ، وَهُمْ بَنُو مَالِكَ بْنِ سُؤَيْدَ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكَ بَنُو عُبَيْدَ وَهُمْ بَنُو
عُبَيْدَ بْنِ مَالِكَ ، وَمِنْ بَنِي عُبَيْدَ الْمَذْكُورِ الْحَسَنِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو الْحَسَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَ بْنِ
مَوْهُوبَ بْنِ عُبَيْدَ ، وَالْغَوَّارَةُ ، وَهُمْ بَنُو الْغَوَّارِ بْنِ أَبِي بَكْرَ بْنِ مَوْهُوبَ بْنِ عُبَيْدَ ، وَبَنُو
أُسَيْرَ ، وَهُمْ بَنُو أُسَيْرَ بْنِ عُبَيْدَ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكَ أَيْضًا اللَّيْدِيُّونَ ، وَالْبَكْرِيُّونَ ،
وَالْعَقِيلِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو عُقَيْلَ بْنِ قُرَّةَ بْنِ مَوْهُوبَ بْنِ عُبَيْدَ . وَمِنْهُمْ بَنُو رَدِئِي ، وَهُمْ بَنُو
رَدِئِي بْنِ زِيَادَ ، بَنُ حُسَيْنَ ، بَنُ مَسْعُودَ ، بَنُ مَالِكَ ، بَنُ سُؤَيْدَ . وَمِنْ وَلَدِ بَعْجَةَ هَلْبَا بَعْجَةَ ،
وَهُمْ بَنُو هَلْبَا ، وَمَنْظُورَ ، وَرَدَا ، وَنَائِلَ بَنِي بَعْجَةَ بْنِ زَيْدَ بْنِ سُؤَيْدَ بْنِ بَعْجَةَ ، فَهِيَ وَلَدُ

هلبا بعجة مُفَرَّج بن سالم ، أمره المعز أليك بالبوقة والعلم ، ثم خلفه على إمرته ولده
حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عِصْمة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة .
ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعْجة ، وهو صاحب السَّراة المضروب به المشل
في الكرم والشجاعة .

ومن ولد نائل مُهَنَّأ بن علوان بن على بن زبير بن حبيب بن نائل ، كان
جوادا كريما طرقتة ضيُوف في شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال
بَرَكَات عنده . ومن بنى حَرَام بن جُدَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمداني : وفي جُدَام
نَحْسُ سَعُود أختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام . وسَعْد
أبن مالك بن أَفْصَى بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام ، وإليه ينسب أكثر
السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُدَام ، وسعد بن سامة بن عَنَس بن
غَطَفَان بن سعد بن مالك بن حرام بن جدام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ،
والسَّلاحمة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وَعَدْلَان ، وَقَزَّارة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد
وخفراء ، ولهم مزارع وما كل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنِية غمر إلى ريفها .
ومنهم شاور وزير العاضد الفاطمي ، وإليه تنسب أولاد شاور بكار منية غمر
وخفراؤها ؛ على أن ابن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أَرْضِعَ فيهم النبي صلى الله
عليه وسلم . وأما بنو محرمة فمنهم الشَّوَاكِر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد
العجار أدلاء الحاج من زمن السلطان صلاح الدين وهلم جَرَّا .

ومن جدام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جدام عليهم دَرَكَ الحاج إلى
العقبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمداني : وَقَلَّ في عرب مصر مَنْ
يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزهير ، عَدَّ منهم الحمداني الحَضِينِيين ، وردالة ،

(١) في الأصل الخط تكرار في الأسماء. ونقص من العدد ويؤخذ من السياك أن الساقط هو سعد
أبن ربيع بن إياس بن حرام بن جدام فتنه .

والأحامدة ، والجمارنة ، وهم بنو حمران . قال الحمداني : وفي زهير هؤلاء من
بنى عيرين ، وبنى شبيب ، وبنى عبد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عبيد ،
وبنى عبد القوى ، وبنى شاكر ، وبنى حسن ، وبنى سمان . وهم يتواردون في أسماء
بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدي بالبقاء ، وبنو عقبة ،
وبنو زهير بالشوبك . ومنهم بنو سعيد بصرخد ، وحوران ، ومنهم جماعة ببلاد
الغور ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السودان .

الحى التاسع — من بنى كهلان نلح (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم
فى الآخر) ، وهم بنو نلح بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد بن يشجب بن
عريب ، بن زيد ، بن كهلان ، ونلح أخو جذام المقدم ذكره ، وكل منهما عم لكندة
المقدم ذكره أيضا . وعد صاحب حماة نلحا من بنى عمرو بن سبإ كما عد جذاما إذ
كانا أخوين كما تقدم . وقد كان للفاويزة من النخمين ملك بالحيرة من بلاد العراق ،
ثم كان لبنى عبّاد من بقاياهم بالأندلس ملك بإشبيلية . وذكر القضاعى أنهم حضروا
فتح مصر ، وأختلطوا بها ، هم ومن خالطهم من جذام . قال الحمداني : وبصعيد الديار
المصرية منهم قوم يسكنون بالبر الشرق ، ذكر منهم الحمداني سبع أبطن . الأولى
سمّاك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مر ، وبنو مليح ، وبنو نهبان ، وبنو عبس ،
وبنو كريم ، وبنو بكير ، وديارهم من طارف بيا بالهينسا إلى منحد دير الجميزة
فى البر الشرق . الثانية بنو حدان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو
مُدج ، وبنو عيش ، وديارهم من دير الجميزة ، إلى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ،
وهم بنو معمر ، وبنو واصل ، وبنو مرأ ، وبنو حبان ، وبنو معاد ، وبنو البيض ،
وبنو حجرة ، وبنو شنوءة . وديارهم من مسجد موسى إلى أسكر ، ونصف بلاد

إطفيح . ولبنى البيض الحلى الصغير ، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى معصرة
بوش . الرابعة بنو جعد ، وهم بنو مسعود ، وبنو حدير ، وهم المعروفون بالحديريين ،
وبنو زبير ، وبنو ثمال ، وبنو نصار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو
عدى ، وهم بنو موسى ، وبنو محرب ، ومسكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو
بحر ، وهم بنو سهل ، وبنو معطار ، وبنو فهم ، وهم المعروفون بالفهميين ، وبنو
عسير ، وبنو مسند ، وبنو سباع ، ومسكنهم الحلى الكبير . السابعة قيس ، وهم
بنو غنيم ، وبنو عمرو ، وبنو حجرة ، ولبنى غنيم منهم العدوية ، ودير الطين إلى
جسر مصر ، ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حلوان ، ولبنى حجرة النصف الثانى ،
ونصف طرا .

ومن بطون نخم بنو الدار رهط تميم الدارى صاحب النبی صلى الله عليه وسلم ،
وهم بنو الدار بن هانىء ، بن حبيب ، بن نمارة ، بن نخم . قال الحمدانى وبلد الخليل
عليه السلام معمور من بنى تميم الدارى رضى الله عنه ، وبيد بنى تميم هؤلاء الرقعة
التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لقيم وإخوته بإقطاعهم بيت حبرون التي هي بلد
الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة في قطعة من آدم من خف
أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ونخبطه .

الحلى العاشر — من بنى كهلان الأشعريون . وهم بنو الأشعر بن أدد ، بن
زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال وسُمي الأشعر لأن أمه ولدته
وهو أشعر . وجعله صاحب حماة من بنى أشعر بن سبيل ، وهم رهط أبى موسى
الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحلى الحادى عشر — من بنى كهلان عاملة . وهم بنو عاملة ، وأسمه الحارث ، بن
عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن وبرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يشجب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان؛ وذ كر أبو عبيد أن بنى عاملة هم بنو الحارث بن مالك؛
يعنى ابن الحارث بن مرة بن أد، وأنه كان تحته عاملة بنت مالك بن وديع بن عفر،
ابن عدى، بن الحارث، بن مرة بن أد فعرّفوا بها . وذ كر صاحب حماة أنهم من
ولد عاملة بن سبيل . وقد ذكر الحمداني أن يجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجمل الفقير .

الضرب الثاني

(من العرب الباقيين على ممر الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهري : ويقال لهم المتعربة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما
السلام، سُموا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العبرانية أو السريانية، فلما
نزل جرهم من القحطانية عليه وعلى أمه بمكة المشرفة، تزوج منهم، وتعلم هو وبنوه
العربية من جرهم المذكورين فسموا لذلك المستعربة . وأعلم أن الموجودين من
العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عدنان بن أدّ المقدم ذكره في عمود
النسب على خلاف في نسبه إلى إسماعيل يطول ذكره . قال في العبر: ومضى عدا عدنان
من ولد إسماعيل قد انقرضوا، ولم يبق لهم عقب؛ ولذلك عرفت هذه العرب بالعَدَنَانِيَّة .
ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأول : من سُموا بالثلاث المتفرعة من عمود النسب ستة أصول :

الأصل الأول : بن معد بن عدنان ؛ والمتفرع منه على حاشية عمود

النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى - إياد (بكسر الهمزة ودال مهملة في الآخر) وهم بنو إياد بن زيار

المقدم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إياد الحجاز وسار بأهله إلى أطراف

العراق فأقام به .

ومن إِيَادُ قُسْ بن ساعدة الإياديّ، وكعْبُ بن مَامة الذي يضرب به المثل في الكرم؛ يقال إنه كان معه ماء لا يفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقه ومات عطشا.

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة في الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدم ذكره؛ وقد اختلف في تعقبه، فذهب ذاهبون إلى أنه ذهب إلى اليمن ونزل بالسراوات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعُدوا في اليمانية؛ وذهب آخرون إلى أنه لا عقب له إلا من بنتٍ له زوجها لأراش من اليمانية، فولدت له أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمانية؛ فبنو أنمار المعدودون في اليمانية هم بنو أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمانية من بنت أنمار بن نزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلي.

القبيلة الثالثة — ربيعة، وهم بنو ربيعة بن نزار ويعرف بربيعة الفرس : لأن أباه نزاراً أوصى له من ماله بالخليل . قال في "مسالك الأبصار" وبالرحبة قوم منهم .

ولربيعة بطنان . وهما أسد، وضبيعة أبنا ربيعة ، ولكل منهما عدّة أنخاذ، وديارهم إلى الآن بالجزيرة الفراتية تُعرف بديار ربيعة . أما أسدٌ فأكثرهما أنخاذاً .

فمن أسد بنو عترة (بفتح العين المهملة والنون والزاي وهاء في الآخر) وهم بنو عترة ابن أسد المقدم ذكره؛ وكانت منازلهم خير من ضواحي المدينة . وجديلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر) وهم بنو جديلة بن أسد المقدم ذكره، والنسبة إليهم جدليّ بحذف الياء بعد الدال .

ومن جديلة عبد القيس؛ وهم بنو عبد القيس، بن أفضى، بن دُعْمَى، بن جديلة . قال في العبر : وكانت ديارهم بتهامة حتى خرجوا إلى البحرين وزاحموا من بها من بكر بن وائل وتميم ، وقاسموهم المواطن، والنسبة إليهم عبديّ ، ومنهم من ينسب إليهم عبديّ قيسيّ ، وبعضهم يقول عبقيّ .

ومن عبد القيس هؤلاء الأئبج الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ فيكَ نَحْصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الحِلْمُ والأَنَاةُ".

ومن جديلة أيضا بنو النمر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسط بن هنب
ابن دُعْمَى بن جديلة . قال في العبر وديارهم رأس العين من أعمال الجزيرة الفراتية .
ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحت) وهم بنو وائل بن قاسط بن هنب
ابن أفضى ، بن دُعْمَى ، بن جديلة المقدم ذكره .

ومن وائل بكر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتغلب (بالتاء المثناة في أوله
والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب أبني وائل
المقدم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملك بني وائل الذي قتله جَسَّاس ، وهاجت بسببه
الحرب المعروفة بالبُسُوس أربعين سنة .

ومن تغلب أقوام بَزَرَع ، وبُصْرَى ، وبالقرتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بَجِينِينَ وبلادها ، وبالرجبة قوم منهم .

ومن بني تغلب كانت بنو حَمْدان ملوك حلب قديما .

ومن بكر بن وائل شَيْبَانُ ، وهم بنو شَيْبَانَ بن ثعلبة ، بن عُكَّابَة ، بن صَعْب ، بن
علي ، بن بكر .

ومن بني شَيْبَانَ هؤلاء مُرَّة وأبْنُه جَسَّاس قاتل كُليب المذكور . ومنهم طَرْفة
ابن العبد الشاعر .

...ومن بني شَيْبَانَ أيضا سَدُوس (بفتح السين المهملة في أوله وسين ثانية في آخره)
وهم بنو سَدُوس بن دُهل بن شَيْبَانَ .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، وقُتِلَ فى خلافة الصديق رضى الله عنه ، وهم بنو حنيفة بن لحيم ، بن صعب ، بن على ، بن بكر ، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عجل ، بن لحيم ، بن صعب ، بن على ، بن بكر ، بن وائل . قال فى العبر : وكانت منازلهم من اليمامة إلى البصرة ؛ قال ثم خلفهم الآن فى تلك البلاد بنو عامر المتفق ، بن عقيل ، بن عامر ، بن صعصعة . وذكر الحمداني أن بلادهم فى زمانه الجزيرة من بلاد حلب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضبيعة بن ربيعة (فبضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضبعة) وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الباهلى المشهور .

الأصل الثانى - مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مضر بن نزار المقدم ذكره ، ويُعرف بمُضر الحمر : لأن أباه أوصى له من ماله بالذهب وما فى معناه ؛ وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها أُنْدرج فيما بعدها لكونها على عمود النسب ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابلس من بلاد الشام بقية من مُضر ، وبالرجبة رجال منهم ، وله على حاشية عمود النسب فرع واحد قد جمع عدة قبائل ، وهو قيس وقد اختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) وأسمه الناس (بالنون) ابن مضر ؛ وقيل هو قيس بن مضر لصلبه ، وعيلان المضاف إليه قيل فرسه وقيل كلبه . قال صاحب حماة : وجعل الله تعالى لقيس من الكثرة أمرا عظيما ، ولكثرة بطونه غلب على سائر العدنانية حتى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبة فيقال قيس ويمن .

فمن قبائل قيس هَوَازُنْ ، وهم بنو هَوَازَنَ بن منصور بن عِكرمة بن خَصَافَة بن قيس عِيلَانَ ، وهم الذين أغار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسباهم .

ومن هوازن بنو سَعْدَ الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضيعاً فيهم ، وهم بنو سَعْدَ بن بكر بن هوازَنَ . قال في العبر : وقد أفتقر بنو سَعْدَ هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم حى فيطرق إلا أن منهم فرقة بإفريقية من بلاد المغرب بنواحى باجة يعسكرون مع جُند السلطان .

وقد ذكر ابن خلكان أن شاور السعدى وزير العاضد الفاطمى خليفة مصر منهم وإن كان الحمدانى قد ذكر أنه من سَعْدَ جُذَامَ من القَحْطَانِيَةِ بالشرقية من الديار المصرية على ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعَصَعَة . وهم بنو عامر بن صَعَصَعَة بن معاوية ابن بكر بن هوازَنَ ، وإليهم يُنسَبُ مجنون بنى عامر الشاعر الذى كان يُسَبَّبُ بليل . ومن بنى عامر بن صَعَصَعَة بنو كلاب ، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعَصَعَة . قال في العبر : وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حى ضَرِيَّةَ وهو حى كَلِيبَ ، وحى الرَبْدَة في جهات المدينة النبوية ، وفدك والعوالى ، ثم آتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صِيَّةٌ وملكوا حلب ونواحيها ، وكثيرا من مدن الشام ، ثم ضَعُفُوا . قال ، وهم الآن تحت خِفارة الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنهم يُنسَبون إلى عبد الوهاب المذكور في سيرة البطلال وذكر أن اسمه عبد الوهاب بن نُوبَحْت .

ثم قال ، وهم بأطراف حلب ، وهم عرب غُزَّ يتكلمون بالتركية ، ويركبون الأكاديش ، ولهم غارات عظيمة ، وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يباغون من سباياهم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بني كلاب .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو هلال ، وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة . قال الحمدانيّ وكان لهم بلادٌ صعيد مصر كلها ، وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة ، وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقية . قال في العبر : وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيديّ لما ضى بن مقرب ، ولما بايعوا لأبي ركوّة بالمغرب وقتله الحاكم ، سلّط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم ، وانتقل من بقي منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بني جشم هناك . وذكر الحمدانيّ أن بحلب طائفة منهم ، ثم صار لهم بلاد أسوان وما تحتها . ثم قال : وبنو عجم منهم بنو قرة ، إلى عذاب ، وبساقية قلّة منهم بنو عمرو وبطنهم ، وهم بنو رفاعه ، وبنو حجير ، وبنو عزيز . وبأصفون وإسنا منهم بنو عغبة ، وبنو جميلة .

ومن بني هلال حرب فيما ذكره ابن سعيد . قال الحمدانيّ ، وهم ثلاث بطون بنو مسروح ، وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . قال : ومساكنهم الحجاز ومن حرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمدانيّ ، وذكر أن منهم بنو عمرو . ثم قال : ومن بني عامر ثمير بن عامر ابن صعصعة . قال في العبر : وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعدوتيّ الفرات . قال وهم إحدى بحرات العرب ، وكان لهم كثرة وعدّة في الجاهلية والإسلام ، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حرّان وغيرها ، ثم غلبهم عليها خلفاء بني العباس أيام المعتز بالله فهاكوا بعد ذلك وبادوا .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو عقيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر : وكانت

مساكنهم بالبحرين في كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بنو عُقَيْل هؤلاء ، وبنو تغْلِبَ وبنو سُليْم ، وكان أظهرهم في الكثرة والغلب بنو تغْلِبَ ؛ ثم اجتمع بنو عُقَيْل وبنو تغْلِبَ على بنى سُليْم فأخرجوهم من البحرين ؛ ثم اختلف بنو عُقَيْل وبنو تغْلِبَ بعد مدة فغلب بنو تغلب على بنى عُقَيْل فطردوهم عن البحرين ، فساروا إلى العراق ، وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية وتغلبوا على الجزيرة والموصل ، وملكوا تلك البلاد ؛ وكان منهم المقلد وقرواش وقريش وأبنة مسلم ملوك الموصل ، وبقيت بأيديهم حتى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق ، فتحولوا عنها إلى البحرين حيث كانوا أولا فوجدوا بنى تغلب قد ضعف أمرهم فغلبوهم على البحرين ، وصار الأمر بالبحرين لبنى عُقَيْل .

ومن بنى عُقَيْل هؤلاء آل عامر ، وهم بنو عامر بن عُقَيْل المذكور ، وهم الذين بيدهم بلاد البحرين . قال ابن سعيد : سألت أهل البحرين في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : الملكة بها لبنى عامر بن عُقَيْل ، وبنو تغلب من جملة رعاياهم ؛ على أن الحمداني قد وهبهم فقال : وهم غير عامر المُتَّفِق ، وعامر بن صعصعة ، وتبعه على ذلك في "مسالك الأبصار" . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بنى عُقَيْل

ومن بنى عُقَيْل أيضا بنو عبادة (بضم العين المهملة وبالباء الموحدة والdal المهملة) وهم بنو عبادة بن عُقَيْل . قال ابن سعيد : ومنازلهم بالجزيرة الفراتية مما يلي العراق لهم عدد وكثرة . قال : ومنهم الآن بقية بين الخازر والزَّاب ، يقال لهم عرب شرف الدولة في تجلُّ وعُدَد ، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المائة فارس .

ومن بنى عُقَيْلٌ أيضا خَفَاجَةً (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجم مفتوحة بعد الألف وهاء في الآخر) وهم بنو خَفَاجَةَ بن عمرو بن عُقَيْلٍ ، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَم (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم في الآخر) وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوازَن . قال في العبر : وكانت مساكنهم بالسَّروَات ، وهى تلال تفصل بين تِهَامَةَ ونجد ، متصلة من البحرين إلى الشام كسَّروَات الجبل . قال : وسَّروَات جُشَم متصلة بسَّروَات هُدَيْل . ثم قال : وقد انتقل بعضهم إلى المَغْرِب ، وهم الآن به ، ولم يبق بالسَّروَات منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَم هؤلاء دُرَيْد بن الصَّمَّة .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح الثاء المثناة وكسر القاف وسكون الياء وفاء في الآخر) وهم رَهْط الحجاج بن يوسُف : وهم بنو ثَقِيف وأسمه قَيْسُ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوازَن ؛ ويقال إنهم من إِيَاد بن نِزَار المقدم ذكره . وعن بعض النسابة أن ثَقِيفاً من بقايا ثَمُودَ ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ فَاِتَّبَعُوا ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال في العبر : وثَقِيف بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهى مدينة من أرض نجد على مرحلتين من مكة فى شرقها وشمالها كانت فى القديم للعالمقة ، ثم نزلها ثمود قبل وادى القرى : ويقال إن الذى سكنها بعد العالمقة عدوان . ثم غلبهم عليها ثَقِيفُ فهى الآن دارهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهَلَةُ ، وهم بنو سَعْدِ مَنَاة بن مالك بن أعْصَر ، وأسمه مُنَبِّه ابن سعد بن قَيْس عيلان ؛ وجعلهم فى العبر بنى مالك بن أعْصَر . وباهلة أُم سَعْدِ مَنَاة عَمْرُو فوا بها : وهى باهلة بنت صَعْب بن سعد العشيرة من مَذْحِج ، منهم أبو أُمَامَةَ الباهلي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازن ، وهم بنو مازن بن منصور بن خَصَفَة بن قيس عيلان . قال في العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غَطَفَان بن قيس عيلان . قال في العبر : وهم بطن متسع كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلي وادي القري وجبلى طي أجا وسلمي ، ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية ، وأستولى على مواطنهم هناك قبائل طي .

ومن بطون غَطَفَان بنو عَبَس (بفتح العين وسكون الباء الموحدة وسين مهملة في الآخر) وهم بنو عَبَس بن بَغِيض بن رَيْث بن غَطَفَان . منهم زهير بن قيس صاحب حرب داحس والغبراء . وهما فرسان كانت إحداهما وهي داحس لعَبَس^(١) والأخرى وهي الغبراء لفزارة فأجريت فوق الحرب بسببهما .

ومن عبس هؤلاء عنترة بن شداد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غَطَفَان أَشْجَع (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة في الآخر) وهم بنو أَشْجَع بن رَيْث بن غَطَفَان . قال في العبر : وكانوا هم عرب المدينة النبوية ، وكان سيدهم معقل بن سنان الصحابي . قال : ولم يبق أحد منهم بنجد إلا بقايا حول المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصى منهم حتى عظيم يطعنون مع عرب معقل بجهات سحلماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غَطَفَان أيضا ذُبْيَان ، قال الجوهرى (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم بنو ذُبْيَان بن رَيْث بن غَطَفَان ومنهم النابغة الذبياني الشاعر المشهور .

ومن ذُبْيَان فَزَارَة (بفتح الفاء والزاي والراء المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو فَزَارَة ابن ذُبْيَان . قال في العبر : وكانت فزارة بنجد وادي القري ، فلم يبق منهم بنجد أحد .

(١) أنت الفرس المسمى بداحس ومقتضى القاموس تذكره وقد صرفه فيه فليحذر .

ونزل جيرانهم من طيِّ مَكَانِهِمْ . وذكر أن بأرض بَرْقَة إلى طَرَابُلُس الغرب منهم قبائل : رَوَاحَة ، وَهَيْت ، وَفَزَان . قال : وبإفريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهلهم ، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصى إلى الاستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سُليم ، يستظهرون بهم في مواقف الحرب ، وقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للولوك . ثم قال وفي بركة ببلاد هيت جماعةٌ منهم نازلون بها ، ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمداني : ومنهم بالديار المصرية جماعةٌ بالصعيد ، وجماعة بضواحي القاهرة في قلوب وما حولها ، وبهم عُرفت القرية المسماة بخَرَاب فَزَارَة هناك . ومن فزارة بنو مازين ، وبنو بدر ، فأما بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ، وأما بنو بدر فهم بنو بَدْر بن عَدِيّ بن فزارة : قال في العبر ، وفيهم كانت رئاسة بني فَزَارَة في الجاهلية ، يرأسون جميع عَطْفَان وتدين لهم قيس وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدى ، ومنهم كان حذيفة بن بدر صاحب القُرس المعروفة بالغبراء المقدم ذكرها ، ومن بني بدر هؤلاء وبني عمهم بني مازين جماعةٌ بالقلوبية من الديار المصرية .

قلت : وبنو بدر هم قبيلتنا التي إليها نعتري ، وفيها نتسب ، وأهل بلدتنا قَلَقَشَنْدَة نصفهم من بني بدر ونصفهم من بني مازن .

ومن قبائل قيس أيضا بنو سُليم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان . قال الحمداني : وهم أكبر قبائل قيس . وكان سُليم من الولد بُهْتَة (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خير .

(١) ذكره في القاموس في باب الناء المثلثة فقال وبهتة رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حرّة سُليمان، وحرّة النارين وادى القرى وتيمّا . قال : وليس لهم الآن بنجد عدد ولا بقية . ثم قال : وبإفريقية منهم حتى عظيم ، وقد تقدّم أنه كان منهم جماعة بالبحرين فغلبهم عليها بنو عقيل بن كعب وبنو تغلب . وقال الحمداني : ومساكنهم برقة مما إلى المغرب ومما إلى مصر . قال : وفيهم الأبطال الأنجاد ، والخليل الحجاد . قال في العبر : وقد استولوا على برقة ، وهي إقليم طويل واسع الأطراف ، وخرّبوا مدنه ولم يتركوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهم . قال في "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهم في بني عزاز ، وهي الآن في زماننا لبني عريف .

ومن سليم هؤلاء ليبد ببرقة ، وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيس عدوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون في الآخر) وهم بنو عدوان وأسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد : وسمى عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله . قال في العبر : وهم بطن متسع ، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إياد والعاقلية ، ثم غلبهم عليها ثقيف ، فخرجوا إلى تهامة . وبإفريقية الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمداني عدوان من عرب برية الحجاز من أحلاف آل فضل من عرب الشام ، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصل الثالث — إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المشناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مضر المقدم ذكره ، وكانت تحته خندف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء في الآخر) وهي خندف بنت حُلوان ابن عمران بن الحافى بن قُضاة ، فعُرف بنوه بها فقيس لهم خندف : لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشى ، فقال لها : مالك تُخَنِّدِينَ ؟ والخَنْدَفَةُ أن يقلب ظهر قدمه إلى الأرض عند مشيه . وله فرعان على حاشية عمود النسب .

الفرع الأول — طابخة (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء في الآخر) وهم بنو طابخة ، وأسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر ، وسمى طابخة لأنه كان هو وأخوه مدركة الآتى ذكره على عمود النسب ، وكان أسمه عامرا ، في إبل لهما فصادا صيدا ، وقعدا يطبخانه فعدت عادية على إبلهما فاستاقتهما ، فقال عامر لعمرو أتدرك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ الصيد ، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاء أباهما أخبراه الخبر ، فقال لعامر : أنت مدركة . وقال لعمرو : أنت طابخة فسميا بذلك .

ويتفرع عن طابخة قبائل كثيرة .

فمن قبائل طابخة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر) وهم بنو تميم بن مُرَّ بن مُرَّاد بن طابخة . قال في العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة ، وأمتدت إلى العديب من أرض الكوفة ، ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر ، ولم يبق منهم بادية ، وورث مساكنهم غزية من طيء وخفاجة من بني عَقيْل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر ، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، وإليهم يُنسب جديلة ابن عبد الله العنبري الصحابي .

ومن بطون تميم بنو حَنْظَلَة وضبطه معروف ، وهم بنو حَنْظَلَة بن مالك ابن زيد مائة بن تميم ، ويقال لهم حَنْظَلَة الأكرمون . قال الجوهري : وهم أكبر قبيلة في تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تحت وسكون الراء المهملة وضم الباء
الموحدة وسكون الواو وعين مهملة في الآخر) ؛ وهم بنو يربوع بن حنظلة .

ومن بنو يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سباج التي تنبأت في زمن مسيلمة
الكذاب وهم غير بنو العنبر المقدم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضبة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال في العبر :
وكانت ديارهم بالناحية الشمالية من نجد بجوار بني تميم ثم أنتقلوا في الإسلام إلى
العراق ، وهم الذين قتلوا المتنبي الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزينة (بضم الميم وفتح الزاي وسكون الياء المثناة تحت
وفتح النون وهاء في الآخر) وهم بنو عثمان وأوس ، أبى عمرو ، بن أد بن طابخة ، ومُزينة
أُمهما عُرفوا بها ؛ وهى مزينة بنت كلب بن وبرة . ومنهم كعب بن زهير ناظم
الغصيدة المعروفة ببانت سعاد ، وإليهم يُنسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزني
صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

الفرع الثاني — قَمْعَة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو
قَمْعَة بن إلياس بن مضر . قال الجوهري إن أباه سماه قَمْعَة لما أنقمع في بيته أى
أنقهر وذلل ولم يشتهر عقبه .

الأصل الرابع — مُدْرَكَة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة
وفتح الكاف وهاء في الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مضر ؛ وقد تقدم سبب
تسميته مدركة . وله فرع واحد على حاشية عمود النسب وهو هُدَيل (بضم الهاء
وفتح الدال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام في الآخر) وهم بنو هُدَيل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لها بطون كثيرة والنسبة إليها هَذَلِي بحذف الياء بعد الذال ، وإليهم يُنسَب عبد الله بن مسعود الصحابى رضى الله عنه .

الأصل الخامس — خَزَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المشناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو خَزَيْمَة بن مُدْرِكَة . وله فرعان على حاشية عمود النسب ، وهما الهون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهون بن خَزَيْمَة ، وهى قبيلة مشهورة .

(١) ومن بطون الهون عَصَد (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر) ، وهم بنو عَصَد بن الهون .

ومن بطون الهون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المشناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الديش بن مُلَيْح بن الهون ، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَصَد والدِّيش القارة . قال أبو عبيد : وُسِّمُوا بذلك لأنَّ الشَّدَاخ اللَّيْثِيَّ أراد أن يفرقهم فى بطون كناية فقال بعضهم : دَعُونَا قَارَةً لَا تَتَفَرَّقُ فُسِّمُوا الْقَارَةَ .

وأما أَسَدٌ وضبطه معروف ، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم مما يلى الكرخ من أرض نجد فى مجاورة طي . قال : ويقال إن بلاد طي كانت لبني أسد ، فلما خرج بنو طي من اليمن تغلبوا على أجاسمى ، وتفرق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حى . قال ابن سعيد : وبلادهم الآن لطي . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

(١) صوابه ولام فهو عضل لا عضد أنظر القاموس .

ومن بطون أسد الكاهلية ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دودان بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كنانة بن خزيمه ؛ وهى قبيلة عظيمة اشتهرت على عمود النسب . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بالإخيمية من صعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة ، وذكر في "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِمُوا الديار المصرية في وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياط وما حولها . وله على حاشية عمود النسب خمسة فروع :

الفرع الأول — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون في الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كنانة .

الفرع الثاني — عَبْد مَنَاة بإضافة عبد إلى مَنَاة (بميم مفتوحة بعدها نون) ، وهم بنو عبد مَنَاة بن كنانة ، ولهم عدة بطون .

منهم غِفَار (بكسر الغين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف) ، وهو بنو غِفَار ابن عبد مَنَاة بن كنانة ، وهم رهط أبي ذَرِّ الغِفَارِيّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غِفَارُ غَفَر الله لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة ؛ ومن بكر هؤلاء الدُّثُل . وهم بنو الدُّثُل بن بكر ابن عبد مَنَاة ؛ وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث ؛ وهم بنو لَيْث بن بكر بن عبد مَنَاة منهم الصَّعْب بن جَثَامَة اللّيثي الصَّحَابِيّ رضى الله عنه . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية قُلْتَة بالإخيمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بلحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .
ومنهم بنو مُدْج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجيم في الآخر) ،
وهم بنو مُدْج بن مُرة بن عبد مناة . وفي بنى مُدْج هؤلاء عِلْمُ القيافة ، وهو إلحاق
الآبِن بالأب ونحو ذلك بالشبه . ومنهم طائفة الآن بصَرْخَد وَحَوْران من بلاد الشام ،
وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو صَمْرَة (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء
في الآخر) وهم بنو صَمْرَة ، بن بكر ، بن عبد مناة ، وإليهم ينسب عمرو بن أُمَيَّة الضَمْرِيّ
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية
قُلْتَة وما يليها من بلاد إنجيم من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كَنانة ؛ وإليه ينسب العمرِيُّون من بنى كَنانة .

الفرع الرابع — عامر بن كَنانة ؛ ومنه العامريُّون من كَنانة .

الفرع الخامس — مالك بن كَنانة . ومن عَقِبِهِ بنو فِرَاس ، بن غنم ، بن ثعلبة ، بن
الحارث ، بن مالك . وفي بنى فِرَاس هؤلاء يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب
رضي الله عنه لبعض من كان معه : ”لَوِدِدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِأَلْفٍ مِنْكُمْ سَبْعَةٌ مِنْ بَنِي
فِرَاسِ بْنِ غَنَمٍ“ . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بساقية قُلْتَة وما يليها من الإنجيمية
بمصر . وذكر الحمداني أيضا أن من كَنانة بنُ خَزِيمَة طائفة بصعيد مصر بالأشْمُونِيَّين
وما حولها تُعرَف بِكَانَة طَلْحَة .

الصنف الثاني من العرب العدنانية — قُرَيْش (بضم القاف وفتح الراء المهملة) ،
وهم بنو النَّضَر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) آبن كَنانة وقيل في تسميته بذلك إنه
كان في سفينة يجمر فارس إذ خرجت عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيْش فخافها أهل

السفينة على أنفسهم فأخرج سهما من كنانته ورمأها فأثبتها ، ثم قُرِبَت السفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلى مكة فُسِّمَ باسمها . وقيل سَمِيَ بنوه بذلك لغلبتهم القبائل وقهرهم إياهم ، تشبيها بالدابة المقدم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دواب البحر وقيل أخذوا من التقرش ، وهو الاجتماع لأن قُصِيًّا جمعهم عليه عند ولايته أمر قريش . وقيل لتجارتهم أخذوا من التقرش ، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول على عمود النسب :

الأصل الأول — فِهْر بن مالك ، ويتفرع عن فِهْر على حاشية عمود النسب قبيلتان :
القبيلة الأولى — بنو الحارث ، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بنى الحارث هؤلاء بنو الجراح رهط أبي عبيدة بن الجراح ، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوع لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فِهْر ، المقدم ذكره . ومنهم الضحَّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فِهْر . ويتفرع عنه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة ، وهم بنو الأدرم بن لؤى بن غالب ، والأدرم هو الناقص الذَّقْن .

الأصل الثالث — لؤى بن غالب . ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — سعد ، وهم بنو سعد بن لؤى بن غالب ، كان له من الولد عمار ، وعمارى ، ونخزوم ، من أمه بُنَانَة (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفون فيقال لهم بنو بُنَانَة ، ومنهم أبو الطَّفِيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم ابن غالب كما في القاموس في مادة ت ي م ففعل لفظ ابن لؤى بما طغى به فلم ينتج .

القبيلة الثانية — خُرَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي) وهم بنو خزيمية بن لؤى ؛ وكان تحته عائذة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الخمس بن خُفَافَة فَعُرف ولده بها فقبل لهم بنو عائذة .

القبيلة الثالثة — بنو عامر ، وهم بنو عامر بن لؤى ، وكان له من الولد حِسل وبَغِيض . ومن ولد حِسل سُهَيْل بن عمرو الذى عقد الصُّلح مع النبي صلى الله عليه وسلم ، يوم الحُدَيْبِيَّة لقريش ؛ ومنهم عمرو بن عبد ود العامرى فارس العرب الذى قتله على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لؤى بن غالب ، ويتفرع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — هُصَيْن (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة فى الآخر) . ومن هُصَيْن بنو سَهْم ، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَّة بنى سَهْم بُقُسطاط مصر حول الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى عمرو بن العاص أشتانا بالصعيد ، ولهم حصنة فى وقف عمرو على أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْن المتقدم ذكره ؛ ومنهم أُمَيَّة بن خَلَف عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عَدَى ، وهم بنو عدى بن كعب ؛ ومنهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالحنة ؛ وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدى جماعة إلى الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزَيْك وزير الفاتر الفاطمى .

ومنهم رجال من بنى عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ومقدمهم خَلَفَ بن نصر العُمري وأنهم لقوا من الصالح طلائع بن رُزَيْك وافر الإكرام ، ونزلوا بالبُرُس^(١) من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العُمريين ببلاد الشام فرقة بوادى بن زيد وفرقة بجولون .

الأصل الخامس — مرة بن كعب ، ويتفرع عنه قبيلتان على حاشية عمود النسب :

القبيلة الأولى — تيم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وطلحة أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الصديق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبي بكر رضى الله عنه جماعة بالأشْمُونِ والبَهْـنَسَائِيَّة من صعيد مصر . قال الحمداني ، وهم ثلاث فرق هم وأقرباؤهم وأطلق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولى منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسموا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشتات كثيرة في البلاد لاحد لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسَفَط سُكَّة ، وطحا المدينة من بلاد الأشْمُونِ فيما ذكره الحمداني ، وأكثرهم الآن بدْهَـرُوط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبي الإمامين : مالك والشافعي رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يَفْـطَةَ ، وهم بنو يَفْـطَةَ بن مُرَّة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاى وسكون الواو وميم فى الآخر) وهم بنو مخزوم بن

(١) قال ياقوت برلس بفتحين وضم اللام وتشديدها وفي القاموس برلس بالضات وشدة اللام .

يَقْظَةُ بن مُرَّة بن كعب ، وبه اشتهرت القبيلة دون أبيه يَقْظَةُ لكثرة عقبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهل ابن هشام عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخوه العاص بن هشام ، قُتِلَا يوم بدر كافرين ، وأخوهما سلمة بن هشام ، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سعيد بن المسيب التابعي المشهور ، وقد ذكر الحمداني أن من بنى مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يدعى بنو خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال : وقد أجمع أهل العلم بالنسب على أنقراض عقبه . قال ولعلهم من سواه من بنى مخزوم فهم أكثر قریش بقیة وأشرفهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرع منه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة ، وهى زُهرة (يضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهرة بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهرى أن زُهرة اسم امرأة كلاب تُسب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم آمنَةُ بنتُ وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَي بن كلاب بن مرة ، وكان قُصَي عظيما فى قریش ، وهو الذى جمعهم بعد التفرق ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ حِينَ يَدْعَى جُمُعًا * بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرٍ

وآرتجع مفاتيح الكعبة من خُرَاعَة بعد أن كانوا آنترعوها من بنى إسماعيل على ما تقدّم ذكره . ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ ، وبسد بنيه كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَيٍّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبى عَبْشَانَ الخُزَاعِيَّ ، أرسلها مع أبنه عبد الدار هذا إلى البيت وقال : يا بنى إسماعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بن طلحة الحُجَبِيّ الذى آنترع النبي صلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طلبها منه لتدخُل عائِسةُ رضى الله عنها البيت ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفَتَح ليلا قط فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأعادها إليه وقال ” هِيَ فِيكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ “ . وقد ذكر فى المسالك أن بحجّة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بنو شيبَة بن عثمان المقدّم ذكره ، أبى طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبَة الكعبة ، ومفاتيحها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى شيبَة هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفط وما يليها من بلاد البنسائية يعرفون بحجّة نهار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العزى ، وهو عبد العزى بن قُصَيٍّ ، منهم هَبَار بن الأسود كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فحُسن إسلامه ومدحه . ومن بنى عبد العزى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدّم ذكره . ومن بنى أسد هؤلاء الزبير بن العوام ، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أم المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وورقة بن نوفل الذي أئنته خديجة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، في ابتداء النبوة حين جاءه الملك بحراء . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الزبير طائفة بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بنو بدر ، وبنو مصلح ، وبنو رمضان .

ومن بنى مضعب بن الزبير جماعة يعرفون بجماعة محمد بن وراق . ومن ولد عروة ابن الزبير بنو غنى .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصي ، ولبنى عبد مناف في قريش النسب الصميم ، والحسب الكريم ، وإلى هذا أشار أبو طالب بقوله :
إِذَا أَفْخَرْتَ يَوْمًا قُرَيْشَ بِمَفْخَرٍ * فَعَبْدُ مَنْفٍ أَصْلُهَا وَصِمِيمُهَا
ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — بنو عبد شمس بن عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أمية ؛ وهم بنو أمية الأكبر وأمية الأصغر آبن عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أمية الأكبر ، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمون الأعياص ؛ وهم العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، وستة يسمون العنابس ؛ وهم حرب ، وأبو حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وعمرو ، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب ، والحكم بن العاص . ومن ولده كانت المراءنة خلفاء بنى أمية .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العبال ، ومن عقب أمية الأصغر الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية ، التي كان يشب بها عمر بن أبي ربيعة ، وكان تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وفيهما يقول عمر بن أبي ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سَهِيلاً * عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ * وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

وقد اختلف في النسبة إلى أمية على مذهبين، أحدهما أنه أموى بضم الهمزة جريا على اللفظ في أمية، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبي حيّان في شرح التسهيل، الثانى أنه ينسب إليها أموى بفتحها لأن أمية تصغير أمة فإذا نسبت رددته إلى أصله وعليه أقصر الجوهرى .

(١)
القبيلة الثانية — نوئل، وهم بنو نوئل بن عبد مناف، ومنهم نافع بن طريب ابن عمرو بن نوئل الذى كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وكان نوئل وعبد شمس متآلفين فجرى بنوهما على ذلك .

القبيلة الثالثة — بنو المطلب، وهم بنو المطلب بن عبد مناف، وكان المطلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدم ذكره فجرى بنوهما على ذلك، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم ”لم يَفْتَرِقْ هَاشِمٌ وَالْمُطَلِّبُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامَ“ . ومن بنى المطلب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وأسمه عمرو، وسمى هاشما لهشمه التريد أيام المجاعة؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

عَمَرُوا الَّذِي هَشَمَ التَّرِيدَ لِقَوْمِهِ * وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْوُونَ عِجَافُ

وأنتهت إليه سيادة قريش . وكان له على حاشية عمود النسب أربعة أولاد . وهم فضلة، وأسد، وصيفى، وأبو صيفى، ولم يشتهروا كل الأستمار .

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم، وكان له اثنا عشر ولدا : عبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والعباس،

(١) كذا فى سبائك الذهب أيضا والذي فى العقد الفريد شافى بن طريب .

وَضَرَّارَ، وَحَمْزَةَ، وَجَمَلًا، وَأَبُو هَلَبَ، وَقُثَمَ، وَالغَيْدَاقَ الْمَلْقَبَ بِالْمُقَوِّمِ، وَالْحَارِثَ أَعْمَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خِلافٍ فِي الْعَدَدِ فِيهِمْ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَالْعَقَبُ مِنْهُمْ لِسِتَّةٍ: حَمْزَةُ وَالْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَبُو هَلَبَ، وَأَبُو طَالِبَ، وَالْحَارِثُ، وَعَبْدُ اللَّهِ.

فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَمِنْ وَلَدِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَلَاصَةُ الْوُجُودِ، وَزُبْدَةُ الْعَالَمِ. وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَمِنْ وَلَدِهِ الْخُلَفَاءُ مِنْ زَمَنِ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ أَوَّلِ خُلَفَائِهِمْ وَهَلَمَّ جَرًّا إِلَى الْمُسْتَعِينِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ خَلِيفَةِ الْعَصْرِ. وَأَمَّا حَمْزَةُ فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ عَقِبَهُ أَنْقَرَضَ. وَأَمَّا أَبُو طَالِبَ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ، وَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَجَعْفَرٌ، وَعَقِيلٌ، فَمِنْ وَلَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقِبَهُمَا قَدْ مَلَأَ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّ مِنْهُمْ بِصَعِيدَ مِصْرَ جَمَاعَةً مِنَ الْجَعْفَرِيَّةِ بَنِي جَعْفَرِ الصَّادِقِ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلَىٍّ وَقَالَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ بَحْرَى مَنَقْلُوطَ إِلَى سَمْلُوطَ غَرْبًا وَشَرْقًا، وَعَدَّ مِنْ بَطُونِهِمُ الْحَيَادِرَةَ، وَهُمْ أَوْلَادُ حَيْدَرَةَ، وَالسَّلَاطِنَةَ، وَهُمْ أَوْلَادُ أَبِي بُجَيْشٍ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ الشَّرِيفُ حِصْنُ الدِّينِ بْنِ تَغْلِبَ صَاحِبُ دَرَوْ سَرَبَامَ مِنَ الْأَشْمُونِينَ، وَبِهِ عَرَفَتْ بَدْرُ الشَّرِيفِ، وَكَانَ قَدْ سَمَتْ نَفْسَهُ إِلَى الْمُلْكِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ وَبَقِيَ حَتَّى مَلَكَ الظَّاهِرُ بَيْبَاسَ، فَأَعْمَلَ لَهُ غَوَائِلَ الْغَدْرِ حَتَّى قَبِضَ عَلَيْهِ وَشَنَقَهُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. قَالَ وَمِنْ بَنِي الْحُسَيْنِ قَوْمٌ بِحَرَجَةِ مَنَقْلُوطَ، وَبَنِي الْحُسَيْنِ هَؤُلَاءِ تَعْرِفُ الْقَرْيَةَ الْمَسْمَاةَ بِبَنِي الْحُسَيْنِ. وَفِي أَسْيُوطَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَوْلَادِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ يُعْرِفُونَ بِأَوْلَادِ الشَّرِيفِ قَاسِمٍ. وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْإِبْصَارِ" أَنَّ بَسَامِيَّةَ وَحَلَبَ وَبِلَادَهُمَا جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي الْحُسَيْنِ.

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام ببلاد الشام بوادي بنى زيد، وبصرخدا
وبلادها جماعة من عامر بن هلال، يدعون أنهم من بنى جعفر بن أبي طالب أيضا .
وفي بعض قُرَى أذربِيعات قوم يدعون أنهم منهم . وأما الحارث وأبو لُهب فقد ذكر
في العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمجمله .

الضرب الثالث

(من العرب الموجودين المتردد في عروبتهم)

وهم البربرُ (ببائين موحدتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة
في الآخر) . قال الجوهرى : ويقال فيهم البريرة والهاء للعجمة والنسب ولا يتمتع
حذفها . وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النساين إلى أنهم
من العرب . ثم اختلف في ذلك ف قيل أوزاع من اليمن ، وقيل من غسان وغيرهم
تفرقوا عند سَيْل العَرَم قاله المسعودى ؛ وقيل خَلَفَهُمْ أُرْهُةُ ذُو الْمَنَارِ أَحَدُ تَبَايِعَةِ الْيَمَنِ
حين غزا المغرب ؛ وقيل من ولد لُقْمَانَ بن حَمِيرَ بن سَبَّأ ، بعث سرية من بنيهِ إلى
المغرب ليعمروه ، فقتلوا وتناسلوا فيه ؛ وقيل من نخم وجَدَام ، كانوا نازلين بِفَلَسْطِينَ
من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلبثوا إلى مصر فمنعهم ملوكها
من نزولها فذهبوا إلى المغرب فقتلوه ؛ وذهب قوم إلى أنهم من ولد لقشان بن
إبراهيم الخليل عليه السلام . وذكر الحمداني أنهم من ولد بَرَبَر بن قِيدَار بن إِسْمَاعِيل
عليه السلام ، وأنه آرتكب ذَنْبًا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ الْبَرُّ الْبَرُّ أَذْهَبَ يَابِرْفَا أَنْتَ يَبْرُ ، وقيل
هم من ولد بَرَبَر بن ثَمِيلَا بن مَازِيع بن كَنْعَانَ بن حَام بن نُوح عليه السلام ، وقيل
من ولد بَرَبَر بن كَسَلَاجِيم بن حَام بن نُوح ؛ وقيل من ولد ثَمِيلَا بن مَارَاب بن عمرو
ابن عَمْلَاق بن لَؤْذ بن إِرَم بن سَام بن نُوح ؛ وقيل من ولد قِبْط بن حَام بن نُوح ؛

وقيل أخلاط من كنعان والعليق ؛ وقيل من حمير ومصر والقبط ؛ وقيل من ولد جالوت ملك بنى إسرائيل ، وإنه لما قتله داود تفرقوا في البلاد فلما غزا إفريقيش البلاد نقلهم من سواحل الشام إلى المغرب ، وهو الذى رجمه صاحب العبر . وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلى أنهم من العرب وإن لم يتحقق من أى عرب هم ، وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة ، قال فى العبر : وهى على كثرتها راجعة إلى أصلين لا تخرج عنهما : أحدهما البرانس ، وهم بنو برنس بن بربر . والثانى البتر ، وهم بنو مادغش الأبت بن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلى سبعة أصول ، وهى اردواحة ، ومصمودة ، وأوربة ، وعجبة ، وكامة ، وصنهاجة ، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة ، وهسكورة ، وكرولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الحزم الغفير ؛ والذى تدعو الحاجة إلى ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلى ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبه إليهم ، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — مصمودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو مصمودة بن برنس بن بربر . قال فى العبر : وهم أكبر قبائل البربر ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم شعوبا ، ومنهم الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلى الآن .

ومن مصمودة هتاتة (بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدي بن تومرت المقدم ذكره ، وهو الذى ينسب إليه الحفصيون ملوك إفريقية القائمون بتونس إلى الآن على ما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممالك .

القبيلة الثانية — زِنَانَة (بكسر الزاي وفتح النون وبعد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بطن من البُتْر بن البربر . قال في العبر : وأسم زِنَانَة جانا بالجم ويقال شانا بالشين ، آبن يحيى ، بن صولات ، بن ورساك ، بن ضرى ، بن رحيك ، بن مادغش ، بن بربر . ونقل آبن حزم عن بعضهم أن ضرى ، بن شقعو ، بن تبدواد ، بن ثملا ، بن مادغش ، بن هوك ، بن برسق ، بن كداد ، بن مازيع ، بن هراك ، آبن هريك ، بن بدّا ، بن بديان ، بن كنعان ، بن حام ، بن نوح عليه السلام . وقيل : جانا آبن يحيى ، بن ضريس ، بن جالوت ، بن هريك ، بن جديلات ، بن جالود ، بن رديلات ، آبن عصى ، بن بادين ، بن رحيك ، بن مادغش الأبر ، بن قيس عيلان ، وحينئذ تكون من العرب العدنانية . وقيل : جالوت ، بن جالود ، بن ديال ، بن قحطان ، بن فارس فتكون من الفرس . قال في العبر : وترغم نَسَابَة زِنَانَة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القحطانية ؛ وبعضهم يقول إنهم من العالقة . وقد تقدّم عددهم في العرب .

ومن زِنَانَة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المشناة تحت ونون في الآخر) وهم بنو مَرِين ، بن ورتاجن ، بن ماخوخ ، بن وجريج ، بن فاتن ، آبن بدر ، بن يحفت ، بن عبد الله ، بن زرتييص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رحيك ، بن واشين ، بن نصبين ، بن سراء ، بن احيا ، بن ورسيك ، بن اديت ، بن جانا ، وهو زِنَانَة . ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلى الآن على ما يأتى ذكره في الكلام على المسالك والممالك إن شاء الله .

ومن زِنَانَة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القائمون بها إلى الآن .

القبيلة الثالثة — صَنْهَاجَة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء وألف بعدها Jim مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بنو صَنْهَاجَة ، بن برنس ، بن بربر .

وقيل صنهاج، بن أورينغ، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من خير من عرب اليمن
 قاله ابن الكلبي والطبري والبيهقي والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني .
 وحكى ابن حزم : أن صنهاج إنما هو ابن امرأة اسمها بصلى وليس له أب معروف
 وأنها تزوجت بأورينغ، وهو معها، فولدت له هواره، فكان صنهاج أخا هواره لأمة .
 ومن صنهاجة لمتونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون
 وهاء في الآخر) ، ومن لمتونة ملوك المرابطين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف
 ابن تاشفين باني مدينة مراکش من الغرب الأقصى ، وهم الذين أنقروا ملكهم
 بدولة الموحدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال في العبر : وهم قبيلتان :
 القبيلة الأولى — هواره (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهمل بعد الألف
 وهاء في الآخر) ، وهم بنو هواره بن أورينغ، بن برنس، بن بربر . وذكر الحمداني أنهم
 من ولد بر، بن قيذار، بن إسماعيل عليه السلام . قال في العبر : ونسأبتهم يقولون
 إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عاملة إحدى بطون قضاة، وتارة
 يقولون إنهم من ولد المسور، بن السكاسك، بن وائل، بن حمير، وتارة يقولون من ولد
 السكاسك، بن أشرس، بن كندة، فيقولون هواره، بن أورينغ، بن حيور، بن المثنى،
 ابن المسور . وقد عد الحمداني من بطونهم بالديار المصرية بنى مجريش، وبنى
 اسرات، وبنى قطران، وبنى كريب، ولكنهم الآن قد آتست بطونهم، وكثرت
 شعوبهم، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد، وأولاد مامن، وبندار، والعرايا، والشللة، وأشخوم، وأولاد
 مؤنين، والروابع، والروكة، والبروكية، والبهايل، والأصباغة، والدناجلة، والمواسية

(١) في العبر بدون هاء التانيث وقد اختلف الأصل الذي بيدنا فتارة يثبتها وتارة يحذفها .

والبلازد ، والصوامع ، والسدادرة ، والزبانية ، والخيافشة ، والطرده ، والأهله ،
وازلتين ، واسلين ، وبنو قير ، واثيه ، والتبابعة ، والغنائم ، وفزارة ، والعبادة ،
وساورة ، وغلبن ، وحديد ، والسبعة . وذكروا في "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار
المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلى العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر على
ما ذكره إلى آخر المائة الثامنة في الدولة الظاهرية الشيعية برقوق فغلهم على البحيرة
زنارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلى صعيد مصر ، ونزلوا به
بالأعمال الإنخيمية في جرجا وما حولها . ثم قَوِيَ أمرهم ، واشتد بأسهم ، وكثر
جمعهم ، حتى آتَشَرُوا في معظم الوجه القبلي فيما بين أعمال قوص ، وإلى غربي الأعمال
البنيسائية ، وأقْطَعُوا بها الإقطاعات ، وصارت الإمرة في بلاد إنخيم لأولاد عمر ،
وفي أعمال البنسا وما حولها لأولاد غريب ، والأمر على ذلك إلى الآن .

(١)
القبيلة الثانية - لَوَّاثَة (بفتح اللام والواو والتاء المثناة وهاء في الآخر) قال
الحمداني : ويقال لَوَّاثَا بالألف ، وهم بنو لَوَّاثَا الأصغر ، بن لَوَّاثَا الأكبر ، بن رحيك ،
ابن مادغش الأثر ، بن بربر . قال الحمداني : وهم يقولون إنهم من قيس من
غطفان ، بن سعد ، بن قيس عيلان . وذكروا عن بعض النسائيين أنهم من ولد بر ، بن
قَيْذَار ، بن إسماعيل عليه السلام ، وأنه تزوج امرأة من العاليق فولدت له أولادا
منهم لَوَّاثَة .

وحكى ابن حزم عن بعض النسابة : أن لَوَّاثَة من القبط . ثم قال : وليس بصحيح .
قال الحمداني : ولهم بمصر بطون كثيرة ، منهم بنو بلار ، وجد وخاص ، وبنو مجدول
وبنو جديدي ، وقطوفة ، وبركين ، ومالو ، ومزورة . قال : وبنو جديدي تجمع أولاد

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط في باب التاء المثناة من فوق فليتب .

قريش، وأولاد زَعَارِع، وهم أشهر مَنْ في الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاة وواهلة .
وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن .
ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسية، وهم بنو محمد، وبنو علي، وبنو زرار،
ونصف بنى شهلان .

وأما الفرقة التي بالجزيرية، فبنو مجدول، وسقارة، وبنو أبي كثير، وبنو
الجلاليس . قال : ويقال لهذه الفرقة جد وخاص، ويقال للأولى البلارية، ومنهم
مَغَاة، ولهم سَمْلُوط إلى الساقية، ولبنى بركين قُلُوسًا وما معها إلى بحرى طنبدى،
ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسقط أبو حرجا إلى طنبدى، وإهريت . ومنهم
بنو محمد، وبنو علي المقدم ذكرهما، وأما زرارهم بنو زعارع .

وأما مزورة، فبنو وركان، وبنو غرواسن، وبنو جمار، وبنو الحكم،
وبنو الوليد، وبنو الجحاج، وبنو الحرمة .

وأما بنو زرار . فن بنى زرية، ومنهم نصف بنى عامر، والحماسن، والضباعنة،
وهم في إمارة بنى زعارع . ومنهم أيضا بنو زيد وأما زرارهم أولاد قريش، ومساكنهم
التَّوَيَّة، وبالجزيرة منهم صلامس : عرب البدرشين، وبنو منصور : عرب منية
رهينة، وبنو بكم : عرب سقارة، وبنو مجدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبهم
تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيى، والسوة، وعبيد،
ومصلة، وبنو مختار . ومن لوائة هؤلاء زُئارة (بضم الزاى وتشديد النون وألف
ثم راء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم بنو زُئارة من ولد بر، بن قيثار، بن إسماعيل
عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوارة، وأكثر زُئارة ببلاد المغرب، ومنهم جماعة

(١) في السبائك بنو الجلاليس بالجمع وحرر .

(٢) في معجم ياقوت طنبة بالذال المعجمة وهاء التأنيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانيّ من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش ، وهم مزداشة ، وبنى صالح ، وبنى سام وزمران ، وأوريقة ، وعزهان ، ولفان . وزاد بعضهم بنى حبون ، وواكدة ، وفريطية ، وغرجومة ، وطازولة ، ونفات ، وناطورة ، وبنى السعوية ، ومزداشة ، وبنى أبى سعيد ، وهم عرب بدر بن سلام . ومن لوائه أيضاً مزانة (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) ، وهم بنو مزانة ، بن لوائه الأصغر ، ومنازلهم من البحيرة غرباً إلى العقبة الكبيرة ببرقة .

المقصد الثالث

(فى معرفة أنساب العجم)

وهم منّ عدا العرب من الفُرس ، والتُرك ، والرُّوم ، وغيرهم . ويُحتاج إلى ذلك فى المكاتبات إلى ملوكهم ، وعقد الهدن معهم ، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولى — الترك (بضم التاء المثناة فوق وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر) ، وهم الأئمة المشهورة الذين منهم ملوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى تُرك ، بن كומר بن يافث ، بن نوح عليه السلام ، وقيل من بنى طيراش ، بن يافث ، ونسبهم ابن سعيد إلى ترك ، بن عابر ، بن شمويل ، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق ، وهم الخفشاج ، والطغرغر ، وهم التتر . ويقال فيهم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التاء طاء ، والخطا ، والخزنجية والخزرب ، وهم الغز الذين كان منهم ملوك السلاجقة ، والهياطلة ، وهم الصغدر والغور والعلان ، ويقال : اللان ، والشركس ، والأركش ، والروس فكلُّهم من جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجرامقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء في الآخر)، وهم أهل الموصل في الزمن القديم . قال ابن سعيد: وهم من ولد جرموق، بن أشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجليل (بكسر الجيم وسكون المشاة تحت ولام في الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال ابن سعيد : وهم من بنى باسل، بن أشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخزر (بفتح الخاء والزاي المعجمتين وراء مهملة في الآخر) ، وهم التركمان . في الإسرائيليات أنهم من ولد توغرىجا، بن كومر، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من بنى طيراش بن يافث؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المشاة تحت وفتح اللام وميم في الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بنى بويه الخارجين على خلفاء بنى العباس ببغداد . قال في العبر : هم من بنى ماداي، بن يافث، بن نوح؛ وقال ابن سعيد : من بنى باسل، بن أشور، بن سام، بن نوح، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الروم وضبطهم معروف، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القسطنطينية الآن؛ قيل هم من بنى كيثم بن يونان، وهو يابان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد رومي، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رعويد ابن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهري : من ولد روم، بن عيصو بن إسحاق .

السابعة — السريان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المشاة تحت

وألف ثم نون)، قال آبن الكلبي : من بنى سُورِيان، بن نيط، بن ماش، بن آدم،
آبن سام، بن نوح .

الثامنة — السِّند (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر)،
في الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح، وحكى
الطبري عن آبن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وضبطهم معروف . قال آبن سعيد : جميع أحيائهم من ولد
حام بن نوح ؛ ونقل الطبري عن آبن إسحاق : أن الحبشة من ولد كوش بن حام
والنوبة، والزَّنج، والزَّغَاوة من ولد كَنْعان بن حام . وذكر آبن سعيد : أن الحبشة
من بنى حَبَش والنوبة من ولد نُوبة أو بنى نوبى ، والزَّنج من بنى زَنج ، ولم يرفع
في نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام ، وأنهم من بنى غييه .

العاشرة — الصَّقالبة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لأم مكسورة
وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث
آبن نوح، وقيل هم من بنى اشكاز، بن توغرما، بن كورم، بن يافث .

الحادية عشرة — الصِّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صيني، بن ماغوغ
آبن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرخ
الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبرانيون (بكسر العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح
الراء المهملة وألف بعدها نون مكسورة وياء مشناة تحت مشددة مضمومة وواو
ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبري : وهم من
ولد عابر، بن شالخ، بن أرغشذ، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة في الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأكاسرة . قال ابن إسحاق : هم من ولد فارس ، بن لاوذ ، ابن سام ، بن نوح . وقال ابن الكلبي : هم من ولد فارس ، بن طيراش ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح ؛ وقيل من ولد طيراش ، بن همدان ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل من بنى أميم ، بن لاوذ ، بن سام . ووقع للطبري : أنهم من ولد رعويل ، بن عيصو ، بن إسحاق ، ابن إبراهيم عليه السلام . قال في العبر : ولا آلتفات إلى هذا القول لأن مُلك الفُرس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجم في الآخر) قيل من ولد طوبال ، بن يافث ؛ وقيل من ولد غطرما ، بن كומר ، بن يافث .
الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم أهل مصر في القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم ، بن قفط ، بن مصر ، بن بيسر ، بن حام ، بن نوح ؛ وعند الإسرائيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة في الآخر) ، وهم أهل الأندلس في القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل هم من ولد قُوط ، بن حام ، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم بنو أيوب ملك مصر بعد الفاطميين . قال في العبر : هم من بنى إيران بن أشور ، بن سام ، بن نوح . قال المقرئ الشهابي ابن فضل الله في كتابه "التعريف" : ويقال في المسلمين الكُرد ، وفي الكفار الكرج ، وحينئذ فيكون الكُرد والكُرج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكَنْعَانِيُّونَ (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة وضم الياء المثناة تحتُ المشددة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — أَلَّانَ (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا قصدوا سواحل الشام في الدولة الأيوبيَّة ومواطنهم في شمالي البحر الرومي غربا بشمال . قال في العبر : وهم من ولد طوبال ، بن يافث ، بن نوح .

العشرون — النَّبَطُ (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر)، وهم أهل بابل من العراق في الزمن القديم، وإليهم تنسب الفلاحة النَّبْطِيَّة لِأَبْنِ وَحْشِيَّة . قال ابن الكلبي : هم من بني نيط ، بن ماس ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . وقال ابن سعيد : هم من بني نيط ، بن آشور ، بن سام ، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهِنْدُ وضبطه معروف . في الإسرائيليات أنهم من ولد دادان ، بن رعماء ، بن كُوش ، بن حام ، بن نوح ، ونقل الطبري عن ابن إسحاق أنهم من بني كوش ، بن حام ، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأَرَمُنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون في الآخر) وهم أهل إرمينية الذين بقاياهم ببلاد سيس ؛ قيل هم من ولد قهويل ، بن ناحور ، بن تارخ ، وهو آزر ، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأَشْبَانُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشع ، بن يافث ، بن نوح . وعند الإسرائيليين من ولد ياولان وهو يونان بن يافث ، وعند آخرين أنهم من شعوب بني عيصو بن

إسحاق؛ وقال الطبري: أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذي قبله.

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحكماء شرقاً الخليج القسطنطيني، وهم من ولد يونان، وهو يوان، بن يافث، بن نوح. وقال البيهقي: هم من ولد يونان، بن خلجان، بن يافث. وشذ الكندي فقال: يونان، بن عابر، بن شالخ، ابن أرغشذ، بن سام بن نوح؛ بفعل يونان أخا لقحطان أبي عرب اليمن. وقال: إنه خرج من بلاد العرب مغاضباً لأخيه قحطان فزل شرقاً الخليج القسطنطيني؛ ورد عليه أبو العباس الناشي بقوله:

تُحَلِّطُ يُونَانًا بَقَحْطَانَ ضَلَّةً * لَعَمْرِي لَقَدْ بَاعَدْتَ بَيْنَهُمَا جِدًّا

ثم اليونانية على ثلاثة أصناف اللطينيون، وهم بنو لطين بن يونان، والإغريقيون وهم بنو إغريق بن يونان، واللكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان وهي أصل الروم فيما يقال على ما تقدم.

الخامسة والعشرون زويلة — (بضم الزاي وفتح الواو وسكون الياء المشناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر) وهم أهل برقة في القديم، ومنهم الطائفة الذين وصلوا صُحْبَةَ جوهر المعزى باني القاهرة المنسوب إليهم باب زويلة بالقاهرة، يقال إنهم من بني حو بلا بن كوش بن حام بن نوح.

السادسة والعشرون ياجوج وماجوج — وضبطهما معروف. قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث.

النوع الثالث عشر

(المعرفة بمفآخرات الأئم ومنافرآتهم ، وما جرى بينهم في ذلك من المحآورات والمراجعات والمناقضات ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه آحتياج الكاتب إلى ذلك)

(١) إخفاء أنه يتعين على الكاتب معرفة المفآخرات الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه الاقتخار التي يمدح بمثلها : مما يُستعان بمثله على المدح والإطراء الواقع في الولايات وما يُفَضَّل به كل واحد من البلغاء على خَصْمه ، وما يردُّ عليه من الأجوبة المبطلّة له لينسج على منوال ذلك فيما يرد عليه من المخاطبات ، والمكاتبات عند دعاية ضرورته إليه ، وآحتياجه إلى إirاده .

المقصد الثاني

(في ذكر أنموذج من المفآخرات ، والمنافرات يُنسج على منواله)

فأما المفآخرات ، فمنها ما روى أنه لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفد بني تميم سنة الوفود بعد فتح مكة ، فيهم عطارد بن حاجب ، بن زُرارة ، بن عُدَس التيمي ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن زيد ، وعُتْبَة بن حصن ابن حذيفة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، في لَقَّهم ولَفَّيْهم ، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حُجراته أنْ أخرج إلينا يا محمد ، فتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من صياحهم فخرج إليهم — فقالوا : يا محمد جئناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيد السياق .

لِنُفَاحِرِك . فَأَذِنَ لِشَاعِرِنَا وَخَطَبِنَا - قَالَ "قَدْ أَذِنْتُ لَخَطِيبِكُمْ فَيَقُلْ" فَقَامَ عَطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ فَقَالَ :

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الْفَضْلُ ، وَهُوَ أَهْلُهُ ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكًا ، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالًا عَظَامًا نَفْعَلُ مِنْهَا الْمَعْرُوفَ ، وَجَعَلَنَا أَعَزَّ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عِدَدًا ، وَأَشَدَّهُ عُدَّةً ، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ ؟ أَلَسْنَا بِرُءُوسِ النَّاسِ وَأَوَّلِي فَضْلِهِمْ ؟ فَمَنْ فَآخِرُنَا فَلْيَعُدِّدْ مِثْلَ مَا عَدَدْنَاهُ ، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَا كَثَرْنَا الْكَلَامَ وَلَكِنَّا تَحِيَّيْنَا عَنِ الْإِكْثَارِ ، وَأَقُولُ هَذَا لِأَنَّا تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا ، وَأَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرِنَا" ثُمَّ جَلَسَ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ الْخَزَرَجِيِّ : "قُمْ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ" فَقَامَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ :

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ خَلَقَهُ ، قَضَىٰ فِيهِنَّ أَمْرَهُ ، وَوَسَّعَ كَرِسِيِّهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ فِعْلِهِ ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكًا وَأَصْطَفَىٰ مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولًا ، أَكْرَمَهُ نَسَبًا ، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثًا وَأَفْضَلَهُ حَسَبًا ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَائْتَمَنَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ ، وَكَانَ خَيْرَةً مِنَ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، فَأَمَّنَ بِرَسُولِ اللَّهِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ ، أَكْرَمُ النَّاسِ أَحْسَابًا ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجُوهًا ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالًا ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ الْخَلْقِ إِجَابَةً ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ ، فَتَحَنَّنَ أَنْصَارُ اللَّهِ ، وَوُزَرَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ، تُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُتَّعَ بِمَالِهِ وَدَمِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَدًا ، وَكَانَ قِتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا ، أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ" .

فقام الزبرقان بن بدر التيمي فقال :

نَحْنُ الْكَرَامُ فَلَا حَى يُفَاخِرُنَا * مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ * عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يَتَّبِعُ
وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمَنَا * مِنْ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُنَاسِ الْقَزَعُ
وهي أبيات .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت ”قم فأجب الرجل فيما

قال“ فقال حسان رضى الله عنه :

إِنَّ الذَّوَابَّ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ * قَدْ بَيْنُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ * تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ يُصْطَنِعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ * أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
صَحِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنْ الْخَلَائِقُ فَاعْلَمْ شَرَّهَا الْيَدْعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ * فَكُلُّ سَبْقٍ لَأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَتَّبِعُ
لَا يَرْقِعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ * عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
أَكْرَمَ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شَيْعَتَهُمْ * إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
وهي أبيات .

ويروى أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضْلَنَا * إِذَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ
فَإِنَّا فُرُوعُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارِمِ
وَمَا بَدُورُ الْعَالَمِينَ إِذَا اتَّقَحُوا * وَنَضْرِبُ رَأْسِ الْأَصِيدِ الْمُتَفَاقِمِ
وَمَا لَنَا الْمِرْبَاعُ فِي كُلِّ غَارَةٍ * نَغِيرُ بَنَجْدٍ أَوْ بَارِضِ الْأَعَاجِمِ

فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودَدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى * وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعَظَائِمِ
نَصْرُنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا * عَلَى أَنْفٍ رَاضٍ مِنْ مَعْدٍ وَرَاغِمِ
نَصْرَانُهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا * بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمِ
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا * وَطَبْنَا لَهُ نَفْسًا بِفِيءِ الْمَغَانِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا * عَلَى دِينِهِ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا * وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فُخِرْكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبْلُكُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ * لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظُفْرِ وَخَادِمِ؟
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّ دِمَائِكُمْ * وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاءً وَأَسْلَمُوا * وَلَا تَلْبَسُوا زِيَا كَرِيٍّ الْأَعَاجِمِ

فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي ! إن هذا الرجل مُراد ،
لخَطِيئِهِ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيئِنَا ، وَلشَاعِرِهِ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا ، وَأَصْوَاتُهُ أَعْلَى مِنْ
أَصْوَاتِنَا ، فَأَسْلَمُوا وَأَحْسَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، جَوَائِزَهُمْ .

ففى هذا الوفد نزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت : وهذه مكابرة ظاهرة ، وتجاهل فاحش من بنى تميم ، حيث طلبوا المفاخرة
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ العرب على اختلاف شعوبهم ، وتتابع قبائلهم
معترفون لبني هاشم بالسبق في الشرف ، والتقدم في الفضل ، مع ما فضل الله تعالى به

رسوله صلى الله عليه وسلم ، وَخَصَّه به من رفيع الشَّرَف الذى لم يبلغه نبى مرسل ،
ولا ملك مقرب .

وقد تعرّض أبو نؤاس فى بعض أشعاره لمدح بنى تميم ، وبالغ فى نفعهم فأغش ، فقال :

نُحْرِمُهُ خَيْرَ بَنِي خَازِم * وَخَازِمٌ خَيْرُ بَنِي دَارِم
وَدَارِمٌ خَيْرُ تَمِيمٍ وَمَا * مِثْلُ تَمِيمٍ فِي بَنِي آدَمَ

ونقضه عليه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى ، فقال رحمه الله فأجاد
القول ، وفاز بالقدح المعلن فقال :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ * فَن تَمِيمٌ وَبَنُو دَارِمٍ ؟
وَهَاشِمٌ خَيْرُ قُرَيْشٍ وَمَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فِي بَنِي آدَمَ !

وهو مأخوذ من قول الأول :

قُرَيْشٌ خَيْرُ بَنِي آدَمَ * وَخَيْرُ قُرَيْشٍ بَنُو هَاشِمٍ
وَخَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ أَحْمَدُ * رَسُولُ الْإِلَهِ إِلَى الْعَالَمِ

وإليه ينظر قول ابن عرسية :

لِلَّهِ مِمَّا قَدْ بَرَأَ صَفْوَةٌ * وَصَفْوَةُ الْخَلْقِ بَنُو هَاشِمٍ
وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ يَنِيهِمْ * مُحَمَّدٌ النُّورُ أَبُو الْقَاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلى حيث قال :

إِذَا مُضِرُّ الْجُرَاءِ كَانَتْ أُرُومَتِي * وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَابْنُ خَازِمٍ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَاخٍ وَتَنَاوَلْتُ * يَدَايَ الثَّرِيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ

فإنه جعل مُضِرَّ التى هى أرومة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصل نفعه وقُعدده
سُودده. فأصاب الفخر فى قوله ، وفاز بالشرف فى شعره .

قال المولى صلاح الدين الصفدى رحمه الله فى شرح لامية العجم " وإنما ذكر خازما لأنه مولى خزيمة بن خازم التميمى ، وإنما نزل أبوه الموصل فنسب إليها .
ومن لطيف ما يحكى أن معاوية بن أبى سفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف ، فقال معاوية " مَنْ أكرم الناس أبا وأُمًّا ، وجَدًّا وجَدَّةً ، وعَمًّا وعَمَّةً ، وخالا وخالة ؟ " - فقام النعمان بن العجلان الزرقى بعد ما أخذ بيد الحسن فقال " هذا أبوه على بن أبى طالب ، وأُمُّه فاطمة ، وجَدُّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجَدَّتُه خديجة ، وعَمُّه جعفر ، وعَمَّتُه أُمُّ هانئ ابنة أبى طالب ، وخالُه القاسم ، وخالته زينب ، فهذا هو الشرف الذى لا يُدانى والفضل الذى لا يُبارى " .

وقريب من ذلك ما يحكى أنه جرى بين عبد الله بن الزبير وبين معاوية كلامٌ طويل فى آخره - " فقال ابن الزبير ، ما مىلى يهارش ، ولكن عندك من قریش والأَنْصار ، ومن ساكنى الحجون والآطام مَنْ إن سألتَه حملك على محبة أئین من ظهر الجفیر - قال : ومن ذلك - قال هذا ؟ يعنى أبا الجهم بن حذيفة - فقال معاوية تكلم بأبا الجهم - فقال أعفى - فقال عزمتُ عليك لتقولن - قال : نعم : أمك هند ، وأُمُّه أسماء بنتُ أبى بكر ، وأسماء خير من هند ، وأبوك أبو سفيان وأبوه الزبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير ، وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما حكاه ابن الكلبي . قال : قال كسرى للنعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم - قال فبأى شىء ؟ قال : مَنْ كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكامل الرابع فاليث من قبيلته فيه ويُنسب إليه - قال فأطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر ، وآل حاجب ابن زُرارة ، وآل ذى الجَدَّين ، وآل الأشعث بن قيس بن كندة - قال فجمع هؤلاء

الرَهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ ، وَقَالَ لِيَتَكَلَّمُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَآثِرِ قَوْمِهِ وَلِيَصْدُقَ ، فَكَانَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيُّ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، وَكَانَ أَلْسَنَ الْقَوْمِ ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّ فِينَا الشَّرَفَ الْأَقْدَمَ وَالْأَعَزَّ الْأَعْظَمَ ، وَمَآثِرَةً لِلصَّنِيعِ الْأَكْرَمِ — فَقَالَ مَنْ حَوْلَهُ وَلِمَ ذَاكَ يَا أَخَا فَزَارَةَ ؟ فَقَالَ أَلَسْنَا الدَّعَائِمَ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْعَزَّ الَّذِي لَا يُضَامُ ؟ قِيلَ صَدَقْتَ . ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ فَقَالَ :

فَزَارَةُ بَنَتْ الْعِزَّ وَالْعِزُّ فِيهِمْ ! * فَزَارَةُ قَيْسٍ حَسْبُ قَيْسٍ نِضَالُهَا
لَهَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ وَالْحَسْبُ الَّذِي * بَنَاهُ لَقَيْسٌ فِي الْقَدِيمِ رِجَالُهَا
فَهَيْهَاتَ قَدْ أَعْيَا الْقُرُونُ الَّتِي مَضَتْ * مَآثِرُ قَيْسٍ مَجْدُهَا وَفِعَالُهَا
وَهَلْ أَحَدٌ إِنْ هَزَّ يَوْمًا بِكَفِّهِ * إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يَنَالُهَا
فَإِنْ يَصْلَحُوا يَصْلَحْ لَذَاكَ جَمِيعُهَا * وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ مِنَ النَّاسِ حَالُهَا

ثُمَّ قَامَ الْأَشْعَثُ الْكِنْدِيُّ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لَهُ أَنْ يَقُومَ قَبْلَ رِبِيعَةَ وَتَمِيمَ لِقَرَابَتِهِ مِنَ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ ، فَقَالَ ، قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَا تُقَاتِلُ عَدِيدَهَا الْأَكْثَرَ ، وَزَحْفَهَا الْأَكْبَرَ ، وَإِنَّا نَغِيَاثُ الْكُرْبَاتِ وَمَعْدِنُ الْمَكْرُمَاتِ — قَالُوا وَلِمَ يَا أَخَا كِنْدَةَ ؟ قَالَ لِأَنَا وَرَثَةُ مَلِكٍ كِنْدَةٍ فَاسْتَظَلَلْنَا بِأَفْيَائِهِ ، وَتَقَلَّدْنَا مِنْكَبَهُ الْأَعْظَمَ ، وَتَوَسَّطْنَا بِمُجْبُوحِهِ الْأَكْرَمِ ، ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ ، فَقَالَ :

إِذَا قِسْتَ أَبْيَاتَ الرِّجَالِ بِبَيْتِنَا * وَجَدْتَ لَنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ يُفَانِرُ
فَمَنْ قَالَ كَلًّا أَوْ أَنَا نَا بِحُطَّةٍ * يَنَافِرُنَا فِيهَا فَتَحْنُ نُحَاطِرُ
تَعَالَوْا فَيَقْوَا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَيْبَا * لَهُ الْفَضْلُ فِيمَا أَوْرَثْتَهُ الْأَكَابِرُ

ثُمَّ قَامَ نِسْطَامُ الشَّيْبَانِيُّ فَقَالَ ” قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَا بُنَاةُ بَيْتِهَا الَّذِي لَا يَزُولُ ، وَمَغْرَسُ عِزِّهَا الَّذِي لَا يَحُولُ ، قَالُوا وَلِمَ يَا أَخَا شَيْبَانَ — قَالَ لِأَنَا أَدْرِكُهُمُ لِلثَّارِ ، وَأُضْرِبُهُمُ لِلْمَكْبَرِ ، وَأَقُومُهُمُ لِلْحُكْمِ ، وَأُلْدِّهُمُ لِلنَّصَمِ . ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ فَقَالَ :

لَعَمْرِي بِسْطَامٌ أَحَقُّ بِقَضَائِهَا * وَأَوَّلُ بَيْتِ الْعِزِّ عِزُّ الْقَبَائِلِ
 فَسَائِلُ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنْ عِزِّ قَوْمِهَا * إِذَا جَدَّ يَوْمَ الْفَخْرِ كُلُّ مُنَاقِلِ
 أَلْسِنَا أَعَزَّ النَّاسَ قَوْمًا وَنُصْرَةً * وَأَضْرَبَهُمُ لِلْكَبْشِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ
 وَقَائِعُ عِزِّ كُلِّهَا رَبِيعَةٌ * تَذِلُّ لَهَا عِزًّا رِقَابُ الْحَافِلِ
 إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ يُنْكِرِ النَّاسُ فَضْلَهَا * وَعَادَ بِهَا مِنْ شَرِّهَا كُلُّ وَائِلِ
 وَإِنَّا مُلُوكُ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الزَّلَازِلِ

ثم قام حاجبُ بنُ زُرارة التيمي . فقال : قد علمتَ معدَّ أنا فروعَ دعائِمِنا ، وقادةَ
 زحفِنا — قالوا : ولم ذاك يا أخا بني تميم ؟ قال لأننا أكثرُ الناسِ عديداً ، وأنجبهم طراً
 وليداً ، وأنا أعطاهمُ للجزيل ، وأحملهمُ للثقل ؛ ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ أَبْنَاءُ خِنْدَفٍ أَنَّنَا * لَنَا الْعِزُّ قَدْماً فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
 وَأَنَا كِرَامُ أَهْلِ مَجْدٍ وَثَرْوَةٍ * وَعِزٌّ قَدِيمٌ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
 فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ وَأَبْنٍ سَيِّدٍ * أَغْرَّ نَجِيبُ ذِي فَعَالٍ وَنَائِلِ
 فَسَائِلُ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنَّا فَإِنَّا * دَعَائِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ

ثم قام قيسُ بنُ عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعُهم في المكرمات
 دعائم ، وأثبتهم في النابئات مقادِم ؛ قالوا : ولم ذاك يا أخا بني سعد ؟ قال لأننا
 أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ؛ وأنا لا نَنكُلُ إِذَا حَمَلْنَا ، ولا نُزَامُ إِذَا حَلَلْنَا . ثم قام
 شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ قَيْسُ وَخِنْدِفُ أَنَّنَا * وَجُلُّ تَمِيمٍ وَالْجَمِيعِ الَّذِي تَرَى
 بَأَنَّا عِمَادُ فِي الْأُمُورِ وَأَنَّنَا * لَنَا الشَّرَفُ الضَّخْمُ الْمُرَكَّبُ فِي النَّدَى
 وَأَنَا لِيُوثُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَازِقٍ * إِذَا جُرَّ بِالْبَيْضِ الْجَمَاحُ وَالطَّلَى^(١)

فَنَ ذَا لِيَوْمِ الْفَجْرِ يَعْدِلْ عَصِيًّا * وَقَيْسًا إِذَا مَرَّتْ أُلُوفٌ إِلَى الْعُلَا
فَهِيَاتَ قَدْ أَعْيَا الْجَمِيعَ فِعَالُهُمْ * وقاموا بيوم الفجر مسعاة من سعى

فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى جباةهم ،
وأعظم صلاتهم ، وكترم ما بهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعدّ البيوتات المشهورة بعظم القدر والشرف :
تعدّ بيت هاشم بن عبد مناف ، وتعدّ أربعة ، أو ثلث بيت آل حذيفة بن بدر ، وبيت
آل زُرارة الدارميين : بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الحدين : عبد الله بن عمرو بن
الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بن كعب
بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يعدّون في البيوتات إنما كانوا ملوكا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَفَاخِرَةَ قَدْ تَكُونُ بِحَقِيقَةِ الْحَسَبِ . وقد تكون فيها الفصاحة واللسن
مقام الحسب : كقول أبي تمام الطائي يفتخر :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرْضِعَ الْمَجْدُ فِيهِمْ * وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَاغِعُ
مَضَوْا وَكَانَ الْمَكْرُمَاتِ لَدِيهِمْ * لَكثْرَةٍ مَا وَصَّوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ
فَأَيُّ يَدٍ فِي الْمَجْدِ مُدَّتْ فَلَمْ يَكُنْ * لَهَا رَاحَةٌ مِنْ مَجْدِهِمْ وَأَصَابِعُ
هُمْ اسْتَوْدَعُوا الْمَعْرُوفَ مُحْفُوظَةً لَنَا * فَضَاعَ وَمَا ضَاعَتْ لَدِينَا الْوَدَائِعُ

وقوله أيضا :

جَرَى حَاتِمٌ فِي حَلْبَةٍ مِنْهُ لَوْ جَرَى * بِهَا الْقَطْرُ شَاوًا قِيلَ أَيُّهَا الْقَطْرُ؟
فَقِيَّ ذَخِرَ الدُّنْيَا أَنَاسٌ وَلَمْ يَزَلْ * لَهَا بَازِلًا فَانْظُرْ لِمَنْ بَقِيَ الذُّخْرُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَفْخَرْ بِمَا شَاءَ مِنْ نَدَى * فَلَيْسَ لِحَيٍّ غَيْرِنَا ذَلِكَ الْفَخْرُ
جَعَلْنَا الْعُلَا بِالْجُودِ بَعْدَ اقْتِرَاقِهَا * إِلَيْنَا كَمَا الْإِيَّامُ يَجْمَعُهَا الشَّمَرُ

قال في شرح اللامية : وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قُرَى حوران من الشام، فغير أسم أبيه وأندس في بنى طيء؛ وذكر صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير: من أشعر الناس؟ قال : قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية، وقد أخذ عتزا له فاعتقلها وجعل يَمْصُ ضَرْعَهَا، فصاح به أَخْرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دميم، رث الهيئة . وقد سال ابن العزري الحيتي، فقال ترى هذا؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبي، أو تدري لم كان يشرب من ضرع العترة؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوت الحباب فيطاب منه؛ ثم قال أشعر الناس من فاجر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلهم .

قال الصلاح الصفدي : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير في مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بأعترافه لذلك الرجل، وإظهاره بخل أبيه . وربما كان الافتخار بالتوروية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامع حقيقة الافتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبي الحسن الجزار :

أَلَا قُلْ لِلَّذِي يَسْأَلُ * لُ عَنْ قَوْمِي وَعَنْ أَهْلِي
لَقَدْ تَسْأَلُ عَنْ قَوْمٍ * كِرَامِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ
يُرِيقُونَ دَمَ الْأَنْعَا * مِ فِي حَزْنٍ وَفِي سَهْلِ
وَمَا زَالُوا لَمَّا يُبْدُو * نَ مِنْ بَاسٍ وَمِنْ بَذْلِ
يَرْجِيهِمْ بَنُو كَلْبٍ * وَيَحْشَاهُمْ بَنُو عَجَلٍ

وقوله أيضا :

إِنِّي لَمِنْ مَعْشَرِ سَفَكِ الدَّمَاءِ لَهُمْ * دَابٌّ، وَسَلَّ عَنْهُمْ مِنْ رَبِّ تَحْقِيقِ

تُضَىٰ بِالْدَّمِ إِشْرَاقًا قَوَاضِيَهُمْ * فَكُلُّ أَيَّامِهِمْ أَيَّامٌ تُشْرِيقُ

وعلى هذا المنهج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت على قبر مكتوبا أنا ابن من كانت الريح طوع أمره ، يحبسها إذا شاء ، ويطلقها إذا شاء ، قال فعظم في عيني ؛ ثم ألقت إلى قبر آخر قبالة فإذا عليه مكتوب : لا يعتر أحد بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدادين ، يحبس الريح في كيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، قال : فعجبت منهما يتسابان ميتين ، فإذا طرق السمع شيء من ذلك ظن السامع أنه في غاية الفخر والشرف حتى يعلم حقيقته ؛ وأشباه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضع استيعاب القول في المفارقة الحقيقية ولا غيرها .

وأما أيام المنافرة وهي المحاكمة في الحسب ، فن ذلك ما يحكى أن الأعشى أتى علقمة ، بن ثلاثة ، بن عوف ، بن الأخوص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامة ذوفأش الحميري^(١) من التبابعة ، فسأل الأعشى علقمة أن يتلّيه أى يحيره ، فقال له علقمة : أتليك على بنى الأخوص — قال لا يقنعنى — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعنى — قال : فليس عندى أكثر من هذا ؛ فأتى عامر بن الطفيل بن مالك ابن جعفر بن كلاب ، قال قد أتليك على الجن والإنس ، ثم أتى سلامة فأنصرف من عنده مجبأته .

وكان عامر وعلقمة المذكوران لما أسن أبو برآء وهو عامر بن مالك ، بن جعفر ، ابن ملاعب الأسنة تنازعا في الرئاسة .

فقال علقمة كانت لجدى الأخوص وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعد عمك عنها وأنا أسترجمتها فانا أولى بها منك ، فشرى الشر بينهما وسارا إلى المنافرة ،

(١) وقع في الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناصح .

وقدِم الأعشى^(١) على تَفِيئة ذلك فصار هو وليد مع عامر ، وصار مع علقمة الحطيئة ،
والسندي ، وتافرا .

فقال عامر لعلقمة : والله إني لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول
منك قصبا .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك .

فقال علقمة : أنا فرك إني لبر ، وإنك لفاجر ، وإني لولود ، وإنك لعافر ؛ وإني
لعف ، وإنك لعاهر ؛ وإني لوايف ، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم وقد وقيت لبني عمرو بن تميم .

وقد زعموا أني غدرت بهم وهم كاذبون ؛ ولكني أنا فرك : أنا أنحر منك للقاح ،
وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في السنة الشياح^(٢) .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس ترعم أني جبان ؛ ولأن تلقى العدو وأنا
أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلقك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أني
بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطى العشيرة إذا ألمت ؛ ولكني أنا فرك : أنا خير
منك أثرا ، وأحد منك بصرا ، وأشرف منك ذكرا .

فقال عامر : أنت رجل فان ، وليس لبني الأحوص فضل على بني مالك
في العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ؛ ولكني أنا فرك أني أسمى منك سمة ،
وأطول منك قبة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمه ، وأسرع منك رحمه ،
وأبعد منك همه .

(١) أى على أنه أنظر القاموس في مادة ف ي أ . (٢) الشياح بالكسر القحط .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيع ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛
ولكني أنا فرك بآبائي وأعمامي .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنا فرك فيهم ؛ ولكني أنا فرك : أنا خير
منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدِّبا .

فقال علقمة : قد علمتُ أن لك عَقِبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكني أنا فرك أنى
خير منك وأولى بالخير منك .

فقال عامر : إني والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتلُ منك للكمَاه ، وخير منك
لِلوَالَاه .

فقال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص على بنى مالك بن
جعفر : إنك إن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنا فرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .
فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : غير وتيس وتيس وعز فأرسلها مثلا نعم على مائة من الإبل إلى مائة^(١)
يعطاها الحكم أينما ينفر عليه صاحبه أخرجه ففعلوا ، ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على
يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو بن الوحيد فسمى الضمين ، وصارت علما عليه
إلى الآن ، ونخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وعامر فيمن معه من بنى مالك وقد
أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك بن جعفر وهو أبو برآء ، فقال : يا عماه
أعنى — فقال : يا ابن أختى سبنى ، فقال : لا أسبُك وأنت عمى — قال : فسبَّ الأحوص —
فقال : عامر ولا أسبُ والله الأحوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد
رَبَعْتُ فيها أربعين مِرْبَاعا فاستعِن بها على منافرتك ، وجعلنا منافرتهما إلى أبى سفيان

(١) هكذا فى الأغاني .

(٢) لعله إبل .

أَبْنُ حَرْبٍ بَنَ أُمِيَّةَ فَلَمْ يَقُلْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، وَكَرِهَ ذَلِكَ لِحَالِهِمَا وَحَالِ عَشِيرَتِهِمَا، وَقَالَ لَهَا
أَتَمَّا كُرْكَبْتِي الْبَعِيرَ الْأَدْرَمَ، وَأَبْنَى أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا، فَأَنْطَلَقَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ بَنِ هِشَامٍ،
فَأَبْنَى أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا؛ فَوَثَبَ مَرْوَانَ بَنَ سُرَاقَةَ، بَنَ قَتَادَةَ، بَنَ عَمْرُو، بَنِ الْأَحْوَصِ
وَكَانَ مَعَ عُلُقَمَةَ فَقَالَ :

يَا لِقُرَيْشٍ بَنُوا الْكَلَامَا * إِنَّا رَضِينَا مِنْكُمْ الْأَحْكَامَا
فَبِينُوا إِذْ كُنْتُمْ الْحُكَّامَا * كَانَ أَبُوْنَا لَهُمْ إِمَامَا
وَعَبْدُ عَمْرُو مَعَ الْفِتَا * فِي يَوْمٍ نَحْنُ مُعَلِّمُ الْإِعْلَامَا
يُحْسِنُ فِيهِ السَّرَّ وَالْإِفْدَامَا * وَدَعَلَجَ أَقْدَمُهُ إِقْدَامَا
لَوْلَا الَّذِي أَجْشَمْتُمْ إِجْشَامَا * لَا تَحْدِثْتُمْ مَذْجَ أَنْعَامَا

فَأَبْوَا أَنْ يَقُولُوا بَيْنَهُمَا شَيْئًا، فَأَتِيَا غِيلَانَ بَنَ سَلَمَةَ بَنَ مَعْتَبِ الثَّقَفِيِّ فَرَدَّهُمَا إِلَى
حَرْمَلَةَ بَنِ الْأَشْعَرِ الْمُزَيَّ، فَرَدَّهُمَا إِلَى هَرِمَ بَنِ قُطَيْبَةَ بَنِ سَنَانَ الْفَرَّارِيِّ، وَإِنَهُمَا سَاقَا
الْإِبِلَ مَعَهُمَا حَتَّى أَشْتَّتْ وَأَرْبَعَتْ لَا يَأْتِيَانِ أَحَدًا إِلَّا هَابَ أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا،
فَوَعَدَهُمَا هَرِمٌ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ، فَأَتِيَا لِلْوَعْدِ، وَقَالَ لِبَيْدٍ وَكَانَ مَعَ عَامِرٍ يَوْمَئِذٍ يَرْتَجِزُ :

يَا هَرِمُ، وَأَنْتَ أَهْلُ عَدَلٍ * هَلْ يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِي^(١)
إِنْ يَفْخَرِ الْأَحْوَصُ يَوْمًا قَبْلِي * لِيَذْهَبَنَّ أَهْلُهُ بِأَهْلِي
لَا تَجْعَلَنَّ شَكْلَهُمْ وَشَكْلِي * وَتَسْلَ آبَاءَهُمْ وَتَسْلِي
* قَدْ عَلِمُوا أَنَّا كَرَامُ الْأَصْلِ *

وقال أيضا :

إِنِّي أَمْرٌ مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ * عَلَقَمَ قَدْ نَافَرْتَ غَيْرَ مُنْقَرٍ
* نَافَرْتَ سَقْبًا مِنْ سَقَابِ الْعَرَعَرِ *

فقال خُفافة بن عوف بن الأحوص بن جعفر :

نَهْنِه إِلَيْكَ الشَّعْرَ يَا لَيْبِدُ * وَأَصْدُدْ فَقَدْ يَنْفَعُكَ الصَّدُودُ
سَادَ أَبُونَا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا * سُودِدْكُمْ صَغِيرُهُ زَهِيدُ

ثم قال :

إِنِّي إِذَا مَا نُسِي الْحَيَاءُ * وَضَاعَ يَوْمَ الْمَشْهَدِ اللَّوَاءُ
أُنْمِي وَقَدْ حُقَّ لِي النَّاءُ * إِلَى كُھُولِ ذِكْرَهَا سَنَاءُ
إِذَا لَا تَزَالُ حُلُوةً كَوْمَاءُ * مَبْقُورَةٌ لَسَقِيهَا رُغَاءُ
لَمْ يَنْهِنَا عَنْ نَحْوِهَا الصَّفَاءُ * لَنَا عَلَيْكُمْ سَوْرَةٌ وَلَاءُ
* الْمَجْدُ، وَالسُّودْدُ، وَالْعَطَاءُ *

ثم قال :

أَنْتُمْ عَزَلْتُمْ عَامِرَ بْنَ مَالِكٍ * فِي سَنَوَاتٍ مُضَرَّ الْهَوَالِكِ
* يَا شَرَّ أَحْيَاءٍ وَشَرَّ هَالِكِ *

وكان السندريّ مع علقمة فارتفع صوته، فقبل من ذا ؟ فقال :

أَنَا لِمَنْ أَنْكَرَ صَوْتِي السَّندَرِيّ * أَنَا الْفَقِي الْجَعْدُ الطُّوَالُ الْجَعْفَرِيّ
* مِنْ وَلَدِ الْأَحْوَصِ أَخُوَالِي غَنِيّ *

فقال عامر للبيد : أجبه ! فرغب عن إجابته، وكان السندريّ يقول لجدته
عيساء، وكانت أمةً لفاخسة ابنة جعفر بن كلاب، امرأة شريح بن الأحوص،
فوقع عليها شريح فولدت له زبّان، ويزيد، وشهابا، فقال لبيد :

لَمَّا دَعَانِي عَامِرٌ لِأُسْـبَهُمْ * أَيْتُ وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَيْسَاءَ ظَالِمًا
أَلَا أَيْنَمَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكِ * فَلَا زَالَ يُلْقِي فِي الْحَيَاةِ الْمَلَاوِمَا

لِيَكُنَّ السَّنَدِيُّ نَدِيدَنَا * وَأَشْتَمُ أَعْمَامًا عُمُومًا عَمَامَا
وَأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ الْقُبُورِ أَبَوَةً * كَرَامًا هُمْ شَدُّوا عَلَى النَّامَا
لَعِبْتُ عَلَى أَكْثَافِهِمْ وَجُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وَسَمُونِي وَلِيدَا وَعَاصِمَا
بَلَى أَيْنَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا مَلُومًا وَلَا يَمَا

ووثب الحطيئة فقال :

مَائِحِسُنُ الْحُكَّامُ بِالْفَضْلِ بَعْدَمَا * بَدَأَ سَابِقُ ذُو غُرَّةٍ وَجُجُولٍ ؟

حتى أتى على قصيدة كاملة ، ثم قال :

يَا عَامٍ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاجٍ وَمَكْرَمَةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعَاةَ مَنْ جَارِيَتِهِ أُمُّ

وأقام القوم على ذلك أياماً ، فأرسل هَرَمٌ إلى عامر فأنابه سراً لا يعلم به أحد ، فقال : يا عامر كنت أحسب أن لك رأياً ، وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتتفر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بأبائه ، فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال عامر : أنشدك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً ! هذه ناصيتي لك فأجرزها وأحكم فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسؤبىنى وبينه — فقال أنصرف فسوف أرى رأيي : فخرج عامر وهو لا يشك أنه سيفضله عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سرا ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فرد عليه علقمة بما رد به عامر وأنصرف وهو لا يشك أنه ينفر عامرا عليه ، ثم إن هَرَمًا أرسل إلى أخيه وبنى أخيه : إني قاتل غدا بين هذين الرجلين مقالةً ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ، وليطرد بعضهم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان ندينى وأجعل — أى ندى . وعماعما أى مشرفة .

هَرمَ بجلَسِ مجلِسَه وأقبلَ الناسَ ، وأقبلَ علقمة وعامر حتى جلسا ، فقال لبيد :

يَا هَرمُ ابْنَ الأَكْرَمِينَ مَنصِبَا * إِنَّكَ قَدْ وَلَيْتَ أَمْرًا مُعْجَبَا
فَأَحْكُمْ وَصَوِّبْ رَأْيَ مَنْ تُصَوِّبَا * إِنَّ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ تُرْتَبَا
لَخَيْرُنَا خَالًا وَأُمًّا وَأَبَا * وعامرٌ خَيْرُهُمَا مُرَكَّبَا
* وعامرٌ أَدْنَى لِقَيْسٍ نَسَبَا *

فقال هَرمُ : إنكما يابني جعفر قد تحاكمتما عندي وأنتما كركبتي البعير الفحلِ تقعان الأرض معا ، فليس منكما واحد إلا وفيه مالميس في صاحبه ، وكلاكما سيدٌ كريم ، فعمد بنو هَرمَ وبنو أخيه إلى تلك الجزُر فنحروها حيث أمرهم هَرمُ ، وفرقوا بين الناس ، ولم يفضل هَرمَ واحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يجلب بذلك شرا على الفئتين ، وهما أبنا عم ، فلما رأى ذلك الأعشى ، خرج وهو يقول :

شَاقَكَ مِنْ قَتْلَةِ أَطْلَاهَا * بالشَّطِّ فالوْثِرِ إلى حَاجِرِ
وقَد رَاها وَسَطَ أَتْرَابِهَا * في الحَيِّ ذِي البَهْجَةِ والثَّامِرِ
إِذْ هِيَ مِنْهُلُ الغُصَنِ هَيْالَةً * تَرُوقُ عَيْنِي ذِي الحِجَا الزَائِرِ
كَكْدُمِيَّةٍ صُورَ مَحْرَابِهَا * بِمُذْهَبٍ في مَرَمِيٍّ مَائِرِ
تَشْفِي غَلِيلَ النَّفْسِ لِأَهْلِهَا * حَوْرَاءُ تَسْبِي نَظَرَ النَّاظِرِ
عَهْدِي بِهَا في الحَيِّ قَدْ سُرِبَتْ * هَيْفَاءُ مِثْلُ المُهِرَةِ الضَّامِرِ
مَمْشُوقَةُ القَدِّ غُلَامِيَّةٌ * مَوْصُوفَةٌ بِالْخُلُقِ الطَّاهِرِ
قَدْ نَهَدَ الثَّدْيُ عَلَى نَحْرِهَا * فِي مُشْرِقِ ذِي صُبْحِ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدْتُ مَيِّتًا إِلَى نَحْرِهَا * عَاشَ وَلَمْ يُقْلَ إِلَى قَائِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا * يَا عَجَبًا لِمَيِّتِ النَّاشِرِ
عَلَّمْ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِي * الناقِضِ الأَوْتَارِ والوَاثِرِ

والفارس الخيل يحيل إذا * نار غبار الكعبة الشائر
 سدت بني الأحوص لم تعدهم * وعامر ساد بني عامر
 إن الذي فيه تماريتما * بين السامع والناظر
 حكتموه ففضى بينكم * أبلج مثل القمر الزاهر
 لا يأخذ الرشوة في حكمه * ولا يبالي غبن الخاسر
 فأعجب الدهر متى سويا ؟ * لم ضاحك من ذا ومن ساجر ؟
 فأقن حياء أنت ضيعته * مالك بعد الشيب من عاذر
 ولست بالأكثر منهم حصي * وإنما العزة للكاثر
 أقول لما جاءني فخره * سبجان من علقمة الفاجر !
 علقم لا تسفه ولا تجعل * عرضك للوارد والصادر
 قد قلت قولاً ففضى بينكم * وأعترف المنفور للنافر

وعاش هريم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هريم أى الرجلين
 كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : أو قلت ذلك اليوم يا أمير المؤمنين ، عادت جدعة ،
 وبلغت شعقات هجر — فقال عمر رضى الله عنه : ” نعم مستودع السر أنت يا هريم !
 مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم ، وإلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم “ .

قال أبو عبيدة : ومات علقمة بجوران وهو والى عمر بن الخطاب . وأما عامر
 ابن الطفيل فأصابته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته العدة ومات
 في بيت سلوية ، فقال : أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية ؟

وفى هذه القصة مقنع فى المنافرة عن غيرها ، وفى كتاب ” الريحان والريعان “
 لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاحرات والمنافرات :

النوع الثالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قد ذكر في "حسن التوسل" : أن الكاتب يحتاج إلى معرفة أيام العرب ، وتسمية الأيام التي كانت بينهم ، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم من الأشعار ، والمناقضات ؛ وذكر فارس مشهور ، أو ملك مذكور ، أو واقعة معينة لشخص خاص ؛ وما ادّعاء كل منهم لنفسه أو ليومه : لما في ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة قديمة ، أو يرد عليه في مكتبة من ذكر يوم مشهور ، أو فارس معين ، ونحو ذلك مما مضى عليه أمر الجاهلية ، أو حدث في الإسلام ؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع ، علما بما جرى منها ، لم يدرك كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصد الثاني

(في ذكر أيام من ذلك تُرشد إلى معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا ، وأعظمها حربا . يوم خُراز (خُراز اسم جبل بين البصرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرفت به) ؛ وكانت الحرب فيه بين بني ربيعة الفرس ، وهو ربيعة نزار ، وبين قبائل اليمن ؛ وكانت الغلبة فيه لبني ربيعة ، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا ، وكان قائد ربيعة كليب بن ربيعة ملك بني وائل (واسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفرس ؛ وكان قد مُلِّك على بني معد وقبائل

جموع العرب وهزمهم وعظم شأنه ، وبقى زمانا من الدهر ؛ ثم داخله زهو شديد ، وبغى على قومه فصار يحبى عليهم مواقع السحاب ، ولا يرعى حياه ، ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى ، فلا يصاد ؛ ولا ترد إبل مع إبله ؛ ولا توقد نار مع ناره ؛ وبقى كذلك حتى قتله جساس بن مرة الوائلى أيضا ؛ ولما قُتل كليب توالى الحروب بسبب قتله بين بنى تغلب ، وبين بكر أبى وائل ؛ وكان قائد بنى تغلب مهلهل أخو كليب ، وقائد بنى بكر مرة أبو جساس المقدم ذكره ؛ فكان بينهم يوم عُنيزة ، وتكافأ فيه الفريقان ، ثم كان بينهم يوم واردة ، وانتصر فيه بنو تغلب على بكر ؛ ثم كان بينهم يوم الحنو ، وانتصرت فيه بكر على تغلب ، ثم كان بينهم يوم العصيات ، وانتصرت فيه تغلب على بكر ، وأصيب بنو بكر حتى ظنوا أنهم قد بادوا ؛ ثم كان بينهم يوم قصّة ، وهو يوم التحالق كثر فيه القتل بين الفريقين ، فى أيام آخر لم يشتد فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أَبَاغ ، وعَيْنُ أَبَاغ موضع يقال له ذات الخيار ؛ وكان الحرب فيه بين غسان ونحلم ، وكان قائد غسان الحارث الذى طلب أدرع امرئ القيس ، وقيل غيره ، وكان قائد نحلم المنذر بن ماء السماء بغير خلاف ؛ وفى هذا اليوم قُتل المنذر ، وأنهزمت نحلم ، وتبعتهم غسان إلى الحيرة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مرج حليمة ، وكان بين غسان ونحلم أيضا ؛ وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظم الغبار حتى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكديد ، وكان بين كنانة وسليم ، وانتصرت فيه سليم على كنانة ، وقتل فيه ربيعة بن مكرم فارس كنانة ؛ وبه يضرب المثل فى الشجاعة ؛ وكان يعقر على قبره فى الجاهلية ، ولم يعقر على قبر غيره . ويوم الكلاب الأول ؛ والكلاب موضع بين البصرة والكوفة ؛ وكان بين

الأخوين : شَراحيل وسَلَمَة ابْنَي الحارث بن عمرو الكندي ؛ وشَراحيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرهم ، وسَلَمَة الأصغر ، وكان معه تغلب وائل وغيرهم ، واشتد القتال بينهم ، وانتصر سَلَمَة وتغلبُ على شَراحيل وبكر ، وأنهزم شَراحيلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه . ويوم الكلاب الثاني ، وكان بين بكر وائل . ويوم أُوارة ، (وأُوارة اسم جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن أمراء القيس ملك الحيرة ، وبين مُنذر وائل بسبب الحيرة ، وظفر فيه المنذر ، وأقسم أنه لا يزال يذبحهم حتى يسيل دُمهم من رأس أُوارة إلى حَضِيضه ، وبقي يذبحهم والدم يجود فسكب عليه ماء حتى سال الدم من رأس الجبل إلى حَضِيضه ، وبرت يمينه . ويوم رَحْرَحان ، (ورَحْرَحان اسم واد بالمجاز) وكانت الحرب فيه بين الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وبني دارم ، وبني ماوية ، وبني مَعْبَد بن زُرارة ، وبني تميم ، وأنهزمت فيه بنو تميم ومن معهم ، وأسر مَعْبَد بن زُرارة ، وقصد أخوه لقيط بن زُرارة أن يَسْتَفِكَ فلم يقدر ، وعدبوا مَعْبدا حتى مات . ويوم شَعْب جبلة ، وشَعْبُ جبلة هَضْبَة حمراء بين الشَّريف والشَّرف . وكان من شأنه أنه لما اتَّقَضَتْ وقعة رَحْرَحان المتقدمة ، ومضى لها سنة ، وذلك في العام الذي وُلِدَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استنجد لقيط بن زُرارة التميمي بنِي دُبَيان لثأر أخيه فأجده ، وتجمعت بنو تميم غير بني سعد ، وخرجت معه بنو أسد ، وسار بهم لقيط إلى بني عامر وبني عَبَس في طلب ثأر أخيه مَعْبَد ، فأدخلت بنو عامر وبني عَبَس أموالهم في شَعْب جبلة ، فحضرهم لقيط فخرجوا عليه من الشَّعب وكسروا جماع لقيط وقتلوا لقيطا ، وأسرُوا أخاه حاجب بن زُرارة ، وانتصرت بنو عامر وبني عَبَس نصرا عظيما ، وقُتِل أيضا من بنِي دُبَيان وبني تميم ومن بنِي أسد جماعة مستكثرة ؛ وكان هذا اليوم من أعظم أيامهم . ويوم ذِي قار ، وهو أقرب الوقائع المشهورة في الجاهلية عهدا ، وكان في سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقيل عام بدر .

وكان من حديثه أن كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ،
 فحبسه فهلك في الحبس ؛ وكان النعمان قد أودع حلقتَه (وهى السلاح والدروع)
 عند هانىء بن مسعود البكرى ، فأرسل أبرويز يطلبها من هانىء ، فقال هذه أمانة ،
 والحر لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لما أمسك النعمان جعل مكانه فى مُلك الحيرة
 إياس بن قبيصة الطائى ، فاستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافل
 عن هانىء بن مسعود حتى يطمئن وتنبه فندركه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك
 لا تألوه نصحا — فقال إياس : رأى الملك أفضل ؛ فبعث أبرويز الهزبان^(١) فى ألفين
 من الأعاجم ؛ وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن
 ذى قار ، فزلولوه ووصلت إليهم الأعاجم ، وأقتتلوا ساعة فأنهزمت الأعاجم هزيمة
 قبيحة ؛ فيروى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خبر بذلك أصحابه ، فقال ” اليوم أول
 يوم آتتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا “ .

ولأبى عبيدة مصنف مفرد فى أيام العرب ، وقد أورد منها ابن عبد ربه فى كتاب
 ” العقد “ جملة مستكثرة ، وفى آخر كتاب الأمثال للبيدائى نبذة محزنة من ذلك ،
 وليس بنا حاجة إلى استيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وقعة الجمل ، وكانت بين على كرم
 الله وجهه ، ومعه أهل الكوفة ، وبين عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت
 راكبة يومئذ على جمل اسمه عسكر وبه عرفت الوقعة ، وقُتل بين الفريقين خلق
 كثير ، وكانت النُصرة فيه لعلى ومن معه .

ومنها وقعة صفين ، وكانت بين على كرم الله وجهه ومعه أهل العراق ، وبين
 معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهل الشام ، وكان آتداؤها فى سنة ست وثلاثين ،
 وكان مدّة مقامهم بصفين مائة وعشرة أيام أوقعوا فيها وقعات كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ؛ وكانت عدة القتلى بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسة وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ؛ وكان عمار بن ياسر مع علي رضي الله عنه ، وقاتل حتى قُتل ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " يَقْتُلُ عَمَّارَا الْفِئَةِ الْبَاغِيَّةُ " ومضت عليهما مدة ، وعلى رضي الله عنه على العراق ، ومعاوية على الشام ومصر إلى أن قتل علي رضي الله عنه .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في أكثر من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهادهم ، والإمساك عما شجر بينهم واجب .

ومنها وقعة مرج راهط ؛ وكان من حديثها أنه لما هلك يزيد بن معاوية ، كان سعيد بن جندب على قنسرين ، فوثب عليه زفر بن الحارث فأخرجه منها وبايع عبد الله ابن الزبير ، فلما قعد زفر على المنبر ، قال : الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر وحصر ، فضحك الناس من قوله ؛ وكان حسان بن جندب على فلسطين ، والأردن ، فاستعمل على فلسطين روح بن زنباع الجذامي ، ونزل هو الأردن ، فوثب ناتل بن قيس الجذامي على روح بن زنباع فأخرجه من فلسطين وبايع ابن الزبير ؛ وكان النعمان ابن بشير على حمص فبايع لابن الزبير ، وكان الضحاك بن قيس على دمشق ، فجعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فقدم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم على ابن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق على ذلك بنو أمية ، واليمانيون ؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلى بنو أمية تصدر إليهم ؛ وقال لمروان وعمرو بن سعيد : أكتبوا إلى حسان بن جندب فيسير من الأردن حتى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ؛ فلما استقلت رايات الضحاك من دمشق ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه

الأمّة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلى إظهار بيعة
أبن الزبير، وسار حتى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتى لقي مروان، فسار مع
مروان حتى لَقُوا الضحّاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحّاك في نحو ثلاثين ألفا
وأقتلوا، فقتل الضحّاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصود الثالث

(في كيفية استعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع في كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من المعرفة بأيام الحرب، والعلم
بتفاصيل أخبارها، ومن يعد من فرسان حروبها، ومصايق خطبائها، ومفلق شعرائها،
وما جرى بينهم في ذلك من الخطب والأشعار والمناقضات، كان مستعدا لما يستشهد
به من واقعة قديمة، أو يرد عليه في مكتبة : أو شعر : من ذكر أيام مشهورة ،
أو ذكر فارس معين ؛ كما قال أبو تمام الطائي يمدح بن شيان :

إذا أَفْتَحَرْتَ يوماً تَمِّمَ بِقَوْسِهَا * وَزَادَتْ عَلَى مَا وَطَدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ

فَأَتَمَّ بِذِي قَارٍ أَمَالَتْ سِوْفُكُمْ * عُرُوشَ الَّذِينَ أَسْتَرَهُنَّ قَوْسَ حَاجِبِ

يشير إلى أن حاجب بن زُرارة التيمي وفد على كسرى في سنة جَدَب فقال
الحاجب مَنْ أَنْتَ؟ قال رجل من العرب، فلما دخل على كسرى قال له مَنْ أَنْتَ؟
قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب — ؟ قال كنت بالباب
رجلا منهم فلما حضرت بين يدي الملك سُدُّهُمْ ؛ فمَلَأْهُ دُرّاً ؛ وشكا إليه مَحَلَّ
الحجاز، وطلب منه حِمْلُ ألف بغير بُرٍّ على أن يعيد قيمتها، — فقال وما ترهني على
ذلك — قال قَوْسِي، فاستعظم همتهم وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْلُ ألف بغير بُرٍّ، ومات
حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمام في بيتيه إلى هذه المنقبة : يقول يابن شيبان في يوم ذى قار أبديتم
جيش كسرى الذى آسترهن قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" في خطبة كتابه "فلائد العقيان" : لو جاوره
كُتِبَ ما طرق حمّاه ، أو استجار به أحد من الدهر حمّاه ، أو كان بوادى الأخرم ،
لطف به ربيعة وأحرم ، أو استنجد الكندى ما كساه الملاء ، أو كان حاضراً
يسطام لما خر على الألاء .

وكما قلت في المفارقة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقر الزينى أبى يزيد
الدوادار الذى من أجله وضعت "فلولقيه فارس عبس لوثى عابسا ، أو طرق حمى
كُتِبَ لبات من حمّاه آيسا ، أو قارعه ربيعة بن مكدّم لعل بالسيف مفرقه ،
أو نازله يسطام لبدد جمعه وفرقه" .

إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ويتنظم في هذا السلك .

قال في "حسن التوسل" : وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من
هذه الأيام ، عالما بما جرى فيها ، لم يدرك كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا
ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك تقصا في صناعته ، وقصورا عما يتعين
عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه .^(١)

وأما الوقائع التى وردت في حوادث خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن
الأثير" رحمه الله في "المثل السائر" : إنها كالأمثال في الاستشهاد بها وذكرها أمثلة .
منها قوله من كتاب : ولا يُعد البرّ برا حتى يلحق الغيب بالحضور ، ويصل من لم
يصله بجزاء ولا شكور ، فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابت شمال
رسول الله عن عيين عثمان . يشير إلى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ، في بيعة الحديبية^(٢)

(١) لعل من زائدة من قلم الناسخ . (٢) في بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى مكة في حاجة ، ولم يحضر البيعة ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيده الشمال على اليمين وقال ”هذه عن عثمان وشمالى خير من يمينه“ .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة : ”وإذا آستعنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترص بما عرفته من مبدإ حاله ، فإن الأحوال تنتقل بتقل الأجساد ؛ وإياك أن تُخدع بصلاح الظاهر كما خُدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

يشير بذلك إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعى أبا موسى الأشعرى ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثى ، فذهب الربيع بن زياد إلى بعض موالى عمر وسأله عما يروج عنده ويتفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش فضى ، وليس جبة صوف ، وعمامة رثاء ، وخفا مطابقا ، وحضر بين يديه في جملة العمال ، فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعرى به .

ومنها قوله في معارضة كتاب القاضى الفاضل إلى ديوان الخلافة يُعدّ فيه مساعى الملك الناصر ”صلاح الدين يوسف بن أيوب“ وما قاساه في الفتوح من الأهوال وهو : ومن جملة ما فعل الخادم في الدولة المصرية . وقد قام بها منبر وسرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فردّ الدعوة العباسية إلى معادها ، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زهو أعوادها . يشير بذلك إلى ما تقدّم من اجتماع الأنصار في اليوم الذى مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، في سقيفة بنى ساعدة إلى سعد بن عبادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر : منّا أمير ومنكم أمير ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ، وليكّا الأمراء وأنتم الوزراء . إلى غير ذلك مما يحجرى هذا المحجرى وينتظم في هذا السلك .

النوع الرابع عشر (في أوأبد العرب)

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية، بعضها يجري مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى الأصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهي عدة أمور :

منها الكهانة ، وكان موضوعها عندهم الإخبار عن أمور غيبية بواسطة أستراق الشياطين السمع من السماء ، وإلقاء ما يستمعونه من الغيبيات إليهم . وقد كان في العرب قبل البعثة عدة كهنة تعتمد العرب كلامهم ، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخبرون به . ومن عجيب أخبارهم في ذلك أن هند أبة عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه ابن المغيرة المخزومي ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فحلا البيت يوما فأضطجع الفاكه هو وهند فيه ، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فوجده فلما رآها وثلى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل إلى هند فركضها برجله وهي نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذي نرج من عندك — فقالت لم أر أحدا وأنت الذي أنبهتني — فقال لها أذهبي إلى بيت أبيك فأقيمي عنده ! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قدرميت أبتى بأمر عظيم ، فهاكمني إلى بعض كهان اليمن ، نخرجا في جماعة من قومهما إلى كاهن من كهان اليمن ومعهما هند ونسوة أخر ، فلما شارفوا بلاد الكاهن ، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمني ميسما يكون علي سبة — فقال أبوها سأختبره لك فصفر لفرسه حتى أدلى ، فأدخل في إحليله حبة حنطة وشده عليها بسير ، فلما دخلوا على الكاهن ، قال له عتبة : إنا قد جئناك في أمر وقد خبات لك خبا أختبرك به فانظر ماهو فقال ثمرة في كمره — فقال أريد أئين من هذا — فقال حبة بر ، في إحليل

مُهر - فقال له أنظر في أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول أنهضني حتى دنا من هند فقال لها : أنهضني غير رشحاء ولا زانية ولتلدن لي كما أسمه معاوية ؛ فنمض إليها الفاكه فأخذ بيدها ، فجذبت يدها من يده ، وقالت إليك عني ! فوالله لأحرض على أن يكون من غيرك ، فترجها أبو سفيان ابن حرب فولدت له معاوية ، فكان من أمره ما كان إلى أن آتته به الحال إلى الخلافة . وقد أخبر جماعة من الكهنة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم قرب ظهوره منهم سطيح الكاهن وغيره .

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، حُرست السماء ومنعت الشياطين من استراق السمع كما أخبر تعالى بقوله ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ .

ومنها الزجر والطيرة : وهما في معنى واحد ؛ وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أوتركه زجروا الطير حتى يطير ؛ فإن طار يمينا كان له حكم ، وإن طار شمالا كان له حكم ، وإن طار أماما كان له حكم ، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم ؛ ومن ثم سميت الطيرة أخذًا من أسم الطير ؛ وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب ، ثم تعدّوه إلى غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك ؛ وربما انتهى بعض الزجر إلى حد الكهانة .

ومما يحكى من زجر الطير أن رجلا من لهب : وهم بطن من العرب يعرفون بالعيافة ، خرج في حاجة له ، ومعه سقاء من لبن فسار صَدْرَ يومه فعطش فأناخ ليشرب فإذا غراب فنعب فأثار راحلته ، ثم سار حتى كان وقت الظهيرة أناخ ليشرب ، فنعب الغراب وتمرغ في التراب ، فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرشحاء بالمهمات من النساء القيحة ووقع في الأصل باعجام الشين وهو تصحيف فأحذره .

ثُعْبَانٌ عَظِيمٌ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ سَارَ فَإِذَا غَرَابٌ وَقَعَ عَلَى سِدْرَةٍ فَصَاحَ بِهِ فَوْقَ عَلَى سَلَمَةٍ ،
فَصَاحَ بِهِ فَوْقَ عَلَى صَخْرَةٍ فَأَنْتَهَى إِلَيْهَا ، فَأَثَارَ مِنْ تَحْتِهَا كَنْزًا ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَبِيهِ قَالَ
لَهُ مَا صَنَعْتُ ؟ قَالَ سَرْتُ صَدْرَ يَوْمِي فَأَنْخَتُ لِأَشْرِبَ فَنَعَبَ الْغَرَابُ — فَقَالَ :
أَثَرُ رَاحَتِكَ وَإِلَّا فَلَسْتَ بِأَبْنِي — قَالَ فَعَلْتُ — قَالَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ سَرْتُ حَتَّى وَقْتُ
الظَّهِيرَةِ فَأَنْخَتُ لِأَشْرِبَ فَنَعَبَ الْغَرَابُ ، وَتَمَرَّغَ فِي التَّرَابِ — فَقَالَ أَضْرِبَ السَّقَاءَ وَإِلَّا
فَلَسْتَ بِأَبْنِي . قَالَ فَعَلْتُ ، فَوْقَ عَلَى صَخْرَةٍ قَالَ أَثَرُ مَا تَحْتِهَا وَإِلَّا فَلَسْتَ بِأَبْنِي . قَالَ
فَعَلْتُ ، فَوَجَدْتُ كَنْزًا .

وقد وردت السنة بإبطال حكم الزجر والطيرة بقوله صلى الله عليه وسلم ” أَقْرِؤْوا
الطَّيْرَ فِي وَكُؤَاتِهَا “ وقوله صلى الله عليه وسلم ” لَا عَدَوَى وَلَا طَيْرَةَ “ وَأَسْتَحْسِنُ صَلَّى
الله عليه وسلم ، الْفَالُ فَقَالَ ” وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ وَهِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ أَسْمَعُهَا “ . وقد فرق
العلماء بين الفال والطيرة بأن الطيرة تُقَصَّدُ وَالْفَالُ يَأْتِي مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ .

ومنها الْمَيْسَرُ : وهو ضرب من القمار كانوا يقتسمون به لحم الجُرْزِ التي يذبحونها
بحسب قِدَاحٍ يَضْرِبُونَهَا ، لِكُلِّ قِدَاحٍ مِنْهَا نَصِيبٌ مَعْلُومٌ : وهى أحد عشر قِدَاحًا :
سبعة منها لها حظٌّ إِنْ فَازَتْ وَعَلَيْهَا غَرَمٌ إِنْ خَابَتْ بِقَدْرِ مَا لَهَا مِنَ الْحِظِّ عِنْدَ الْفَوْزِ ،
وَأَرْبَعَةٌ مِنْهَا تُثَقَّلُ بِهَا الْقِدَاحُ لَا حِظَّ لَهَا إِنْ فَازَتْ ، وَلَا غَرَمٌ عَلَيْهَا إِنْ خَابَتْ .
فَأَمَّا السَّبْعَةُ الَّتِي لَهَا الْحِظُّ إِنْ فَازَتْ وَعَلَيْهَا الْغَرَمُ إِنْ خَابَتْ . فَأُولَئِهَا الْفَدُّ : وهو
قِدَاحٌ فِي صَدْرِهِ حَرْزٌ وَاحِدٌ ، وَلَهُ نَصِيبٌ وَاحِدٌ فِي الْأَخْذِ وَالْغَرَمِ . وَالثَّانِي التَّوَمَ ،
وَفِي صَدْرِهِ حَرَّانٌ ، وَلَهُ نَصِيبَانِ فِي الْأَخْذِ وَالْغَرَمِ . وَالثَّالِثُ الصَّرِيبُ (وَيُسَمَّى
الرَّقِيبُ) وَفِيهِ ثَلَاثَةُ حُرُوزَ ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَنْصِبَاءَ . وَالرَّابِعُ الْحُلْسُ وَفِيهِ أَرْبَعَةُ حُرُوزَ وَلَهُ
أَرْبَعَةُ أَنْصِبَاءَ . وَالْخَامِسُ النَّافِئُ وَفِيهِ خَمْسَةُ حُرُوزَ ، وَلَهُ خَمْسَةُ أَنْصِبَاءَ . وَالسَّادِسُ
الْمُسَيْلُ ، وَيُسَمَّى الْمُصْفَحُ أَيْضًا ، وَفِيهِ سِتَّةُ حُرُوزَ وَلَهُ سِتَّةُ أَنْصِبَاءَ . وَالسَّابِعُ الْمُعْلَى ،

وفيه سبعة حروز، وله سبعة أنصباء؛ وهو أوفرها حظًا، ولذلك يُضربُ به المثل في الحظ فيقال قَدَحُهُ المَعْلَى .

وأما الأربعة التي تُثَقَّلُ بها القداح فهي السِّفِيح، والمَنْيَح، والمُضَعَّف، والوَعْد، وكان طريقهم في ذلك أن القوم يجتمعون فيشترُون جُرُورًا فينحَرُونها ويُفَصِّلُونها على عشرة أجزاء، ويستريحون فيها على سبعة أنصباء لا أكثر، وتسمى الأنصباء فيها الأيسار، فإن كانوا أقل من سبعة وأراد أحدهم قَدَحين أو أكثر، أخذ وكان له فوزها، وعليه غرمها؛ فإذا جَرُّوا الجزور على ذلك، أتوا برجل يسمونه الحُرْضَة^(١)، من شأنه أنه لم يأكل لحماً قط بئس، ويؤتى بالقداح فتشَدُّ مجموعة في قطعة جلد تسمى الرِّبَابَة، ثم يلف الحُرْضَة على يده اليمنى ثوباً لئلا يجد مس قَدَح، له مع صاحبه هوى فيحابه في إخراجها، ثم يؤتى بثوب أبيض يسمى المِجْوَل، فيُسَطُّ بين يدي الحُرْضَة، ويقوم على رأسه رجل يسمى الرِّقِيب، ويدفع رِبابَة القَدَاح إلى الحُرْضَة، وهو محوّل الوجه عنها، فيأخذ الرِّبابَة التي تُجْمَع فيها القَدَاح، ويدخل يده تحت الثوب فينكر القداح فإذا نهد فيها قَدَح يناوله دُفْعَة إلى الرِّقِيب، فإن كان مما لاحظ له، ردّ إلى الرِّبابَة فإن خرج بعده المُسَيِّل مثلاً أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر، وعلى ذلك أبداً يفعل بمن فاز ومن خاب، وربما نحروا عدّة جُرُر، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً، وإنما الغرم على الذين خابوا، وكان عندهم أنه لا يحل للخاصين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً؛ فإن فاز قَدَح الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطأ فعلوا ذلك به؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عبّاد أسماء القداح التي لها النصيب فوزاً وغرمًا في أبيات فقال :

(١) الحُرْضَة بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين . ووقع في الأصل الحُرْضَة بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النسخ فأحذره .

إِنَّ الْقِدَاحَ أَمْرُهَا عَجِيبٌ * الْقَدُّ وَالْتَّوَمُ وَالرَّقِيبُ
وَالْحِلْسُ ثُمَّ النَّافِسُ الْمُصِيبُ * وَالْمُصْفَحُ الْمَشْتَرُ النَّجِيبُ
ثُمَّ الْمَعْلَى حَظُّهُ الرِّغِيبُ * هَاكَ قَدَّ جَاءَ بِهَا التَّرْتِيبُ

ومنها الأزلَام : وهى ضرب من الطَّيْرَةِ ، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه ، أخذوا قِدَاحًا مكتوبًا على بعضها آفَعْل ، لا تَفْعَلْ ، وعلى بعضها نَعَمْ ، وعلى بعضها لا ، وعلى بعضها خُذْ ، وعلى بعضها سِرْ ، وعلى بعضها سَرِيع ، فإذا أراد أحدهم سَفَرًا مثلاً أتى سَادَنَ الْأَوْثَانِ ، فيضرب له بتلك القِدَاح ويقول : اللهم أيُّها كان خيرا له فأخْرِجْهُ فما خرج له عمل به ، وإذا شكُّوا في نسب رجل أجالوا القِدَاح وفي بعضها مكتوبٌ صَرِيحٌ ، وفي بعضها مكتوبٌ مُلْحَقٌ ، فإن خرج الصريح أثبتوا نسبته ، وإن خرج المُلْحَقُ نَفَوَهُ . وإن كان بين اثنين اختلاف في حق سُمِّي كل منهما له سهما وأجالوا القِدَاح فمن خرج سهمه فالحق له وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحِيرَةُ ، والسَّائِبَةُ ، والوَصِيلَةُ ، والحَامِي .

فأما البَحِيرَةُ ، فكانت الناقة إذا أُنتِجَتْ خمسة أبطن عمدُوا إلى الخامس منها ما لم يكن ذكرا فشَقُّوا أذننها وتركوها ، فلا يُحْزُّها وبر ، ولا يُحْمَلُ عليها شيء ولا يُذَكَّرُ عليها إن ذُكِّتَ اسمُ الله تعالى ، وتكون ألبانها للرجال دون النساء .

وأما السَّائِبَةُ فكان الرجل يُسَيِّبُ الشيء من ماله : بهيمةً أو عبداً ، فيكون حراما أبدا وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصِيلَةُ فكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن عمدُوا إلى السابع فإن كان ذكرا ذُبِحَ ، وإن كان أنثى تُرِكَت في الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى قيل وصات أخاها فحَرُمَا جميعا ، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفعل إذا صار من أولاده عشرة أبطن، قالوا حمى ظهره،
فترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركب، ولا يُمنع ماءً، ولا مرعى، وقد أخبر الله
تعالى ببطلان ذلك بقوله: ﴿مَجَعَلُ اللَّهِ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمدة إلى البعير الذى
كلت به مائة فأغلق ظهره بأن يترع شيئاً من فقراته ويعقر سنامه كي لا يُركب يُعلم
أن إبل صاحبه قد أَمَّأت .

ومنها التَّفَقُّة، والتَّعْمِيَّة . كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً فقأ عين الفعل: وهى
التفقة، فإن زادت على ذلك فقأ العين الأخرى وهى التعمية، ويُرْمَحُونَ أن ذلك
يدفع العين عن الإبل قال الشاعر:

وَهَبْتَهَا وَأَنْتَ ذُو أَمْتَانِ * تُفَقِّأُ فِيهَا أَعْيُنَ الْبُعْرَانِ

ومنها نكاح المقت: وهو نكاح زوجة الأب—وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا
مات قام أكبر ولده، فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها
حاجة يزوجه بعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثون النكاح كما يرثون المال،
فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، وحرّم زوجة الأب بقوله
﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ
سَبِيلًا﴾ ومن ثم سُمي نكاح المقت .

ومنها رمى البعرة: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها، دخلت حفشاً
(يعنى خُصّاً) ولبست شراًيبها ولم تَمَسَّ طيباً حتى تَمِضَ عليها سنة، ثم يُؤْتَى بدابة:
حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتَفْتَضُّ به أى تَمَسُّحُ به فقلماً تَفْتَضُّ بشيء إلا مات، ثم تخرج
بعد ذلك فتعطى بعرة قترى بها، ثم تراجع ما شئت من طيب أو غيره فنسخ

الإسلام ذلك بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ .

ومنها وأد البنات (وهو قتلهن) . كانوا يقتلوهن خشية العار؛ ومن فعل ذلك قيس ابن عاصم المنقرئ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المال، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسبوا ذراريهم فأناب القوم وسأله فيهم فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباه ردت إليه، وكل من اختارت صاحبها تركت معه، فكلهن اخترن آباءهن إلا أبنة لقيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن الجموح، فنذر قيس أنه لا يولد له أبنة إلا قتلها فكان يقتلن بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشية الإملاق والفاقة، فكان الرجل منهم يقتل ولده مخافة أن يطعم معه إلى أن نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾ .

ومنها حبس البلياء، كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ويقبلون برأسها إلى ورائها ويغطون رأسها بولية وهي البرذعة فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه في المعاد ليركبها قال أبو زيد :

كالبساياء رؤوسها في الولايا * مانحات السموم حرائد الحود

ومنها الهامة — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يطالب بشأه، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة، وصاح : أسقوني أسقوني حتى يطالب بشأه، قال ذو الأصبغ :

(١) في الأصل بزية وكذلك جمعها في البيت زلايا وهو تصحيف فأحذره .

(٢) في الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يَا عَمْرُو إَلَّا تَدْعُ شَيْئِي وَمَقْصَتِي * أَضْرِبَكَ حَتَّى تَقُولَ الْهَامَةُ أَسْقُونِي
ومنها تأخير البكاء على المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يبيكين المقتول منهم
حَتَّى يُوْخَذَ بِثَأْرِهِ، فإذا أُخِذَ بِهِ بَكَيْنَهُ حِينَئِذٍ، قال الشاعر :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ * فَلَيَّاتِ نِسْوَتًا بَوَاجِهِ نَهَارِ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ * يَلْطُمْنَ حُرَّ الْوَجْهِ بِالْأَنْصَارِ

ومنها تصفيق الضال — كان الرجل منهم إذا ضلَّ في الفلاة، قلب ثيابه وحسب
ناقته وصاح في أذنها كأنه يُومئ إلى إنسان وصفق بيديه قائلا : الْوَحَا الْوَحَا النَّجَاءُ
النَّجَاءُ هَيْكَل : السَّاعَةَ السَّاعَةَ إِلَى الْإِلَى عَجَل ، ثم يحرك ناقته فيزعمون أنها تهتدي ،
إلى الطريق حينئذ . قال الشاعر :

وَأَذِنَ بِالتَّصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ * فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَىِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا
يريد إذا ساء ظنُّه بنفسه حين يضل .

ومنها الغول — كانوا يزعمون أن الغول تترأى لأحدهم في الفلاة فتبعها فتستهويه ،
وربما ادعى أحدهم أنه قابلها وقتلها قال تَابِطُ شَرًّا :

أَلَا مِنْ مُحِبٍّ فِتْيَانُ فَهْمٍ ^(١) * بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بَطَانِ
بَأْنِي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوَى * بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَانًا نِضْوُ أَرْضٍ * أَخُو سَفَرٍ نَحَلَّى لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شِدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَتْ * لَهَا كَفْنِي بِمَقْصُولِ يَمَانِي
فَأَضْرَبُهَا بِلَا دَهْشٍ خَفَرْتُ * صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجَرَانِ

ومنها ضَرْبُ الثَّوْرِ لِيَشْرَبَ الْبَقْرُ — كانوا يزعمون أن الجحش تركب الثيران فتصد
البقر عن الشرب ، فيضربون الثور ليشرب البقر ، قال الشاعر :

(١) في نسخة فهر . وفي ياقوت قويم . وقوله في البيت الثاني سهب في الأصل سيف وهو تصحيف .

كَذَاكَ الثَّورُ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوَى ^(١) * إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقَرُ الظَّمَاءُ

ومنها تعليق سنّ الثعلب وسنّ الهرة وحيض السمرة — كانوا يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه؛ قالت امرأة تصف ولدا :

كَانَتْ عَلَيْهِ سِنَّةٌ مِنْ هِرَّةٍ * وَتَعَلَّى وَالْحَيْضُ حَيْضُ السَّمَرَةِ

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلقونه على أنفسهم، يزعمون أنه وقاية من العين والسحر، قائلين إن الجن تنفر من الأرنب لكونها تمحيض، قال الشاعر :

وَلَا يَنْفَعُ التَّعْشِيرُ إِنْ حُمَّ وَقَعَ وَلَا وَدَعٌ يَغْنَى وَلَا كَعْبُ أَرْنَبٍ

ومنها تعليق الحلي على السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا ألسع فيهم إنسان علقوا عليه الحلي من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيفيق، قال النابغة :

يَسْمَهُ مِنْ وَقْتِ الْعِشَاءِ سَالِمُهَا * لِحَلَى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

ومنها وطء المقاتل القتل — كانوا يزعمون أن المرأة المقاتلات (وهي التي لا يعيش لها ولد) إذا وطئت قتيلًا شريفًا بقي أولادها، قال بشر بن أبي خازم :

يَظُلُّ مَقَالِيتُ النِّسَاءِ يَطَانُهُ * يَقْلَنُ أَلَا يُلْقَى عَلَى الْمَرْءِ مِزْرُ

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طَرفَ عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول في كل مرة: بإحدى جاءت من المدينة : بائنتين جاءتا من المدينة ، بثلاث جئن من المدينة إلى سبع سكن هيجانها .

(١) في الأصل بالهواوى وهو تصحيف فأحذره .

ومنها كى السليم من الإبل ليرأ الحرب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُر (وهو الحرب) فكَّووا صيححا إلى جانبه ليشم رائحته برئ، وربما زعموا أنه يؤمن معه العدو، قال النابغة :

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ * كَذَى الْعُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

ومنها ذهاب الخدر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر، قالت امرأة من كلاب :

إِذَا خَدِرْتُ رَجُلِي ذَكَّرْتُ ابْنَ مُصْعَبٍ * فَإِنْ قُلْتُ عَبْدُ اللَّهِ أَجَلِي فُتُورُهَا

ومنها الحلى^(١) عن الصبيان بجباية الحى وإطعامه الكلاب — كانوا يرون أن الفتى إذا ظهر فيه الحلى بشفته (وهى بُور تنبت بالشفة) فيأخذ منخلا على رأسه ويمزج بين بيوت الحى وينادى الحلى الحلى فيلقى فى منخله من هنا تمر، ومن هنا كسرة، ومن هنا قطعة لحم فإذا امتلأ نثره بين الكلاب فيذهب عنه الحلى .

ومنها شق الرداء والبرقع، لدوام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحببت رجلا أو أحبا ولم تُسَقَّ عليه رداءه ويسق عليها برقعها فسد جهما، قال الشاعر :

إِذَا سُقَّ بَرْدُ شَقِّ الْبُرْدِ بَرُقِعُ * دَوَالِيكَ حَتَّى كُلُّنَا غَيْرُ لَايسَ

فَكَمْ قَدْ شَقَّقْنَا مِنْ رِداء مُحَبَّرٍ * وَمِنْ بَرُقِعٍ عَنْ طِفْلةٍ غَيْرِ عَانيسَ

ومنها رمى سن الصبي المثغر فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أنغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبأته وإبهامه وقال أبدلنى بها أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج والفالج والنغل ، قال طرفة :

بَدَّلْتَهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنِيَّتِهِ * بَرْدًا أبيضَ مَصْقُولِ الأَشْرُ

(١) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية نخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشركم ينق الحمار ثم دخلها ، لم يصبه وباءها ، قال عروة ابن الورد :

لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى * نُهَاقَ حَمِيرٍ إِنِّي لَجَزُوعٌ

ومنها عقد الرتم — وهو نبت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عمدا إلى رتم فعقده فإن رجع ورءاه معقودا ، اعتقد أن امرأته لم تتحنه ، وإن رءاه محلولاً اعتقد أنها خانتة ، قال الشاعر :

خَانَتْهُ لَمَّا رَأَتْ شَيْبًا بِمَفْرِقِهِ * وَغَرَّهَ حِلْفُهَا وَالْعَقْدُ لِلرَّتَمِ

ومنها اعتبار دائرة المهقوع — وهي دائرة تكون في عنق الفرس يقال لها الهقعة على ما يأتى ذكره في الكلام على الخيل في الطرف الآتى — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عرق تحت صاحبه آغتمت حليته ، وطلبت الرجال ، قال الشاعر :

إِذَا عَرِقَ الْمَهْقُوعُ بِالْمَرْءِ أَنْعَظَتْ * حَلِيلَتُهُ وَأَزْدَادَ حَرًّا عِجَانُهَا

ومنها خضاب نحر الفرس السابق — كان من عادتهم إذا أرسلوا خيلا على صيد فسبق أحدها خضبوا صدره بدم الصيد علامة له ، قال الشاعر :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْعَاوِيَاتِ بَنَحَرِهِ * عُصَارَةُ حَنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلٍ ^(٢)

ومنها جزناصية الأسير — كانوا إذا أسروا رجلا ثم منوا عليه فأطلقوه ، جزوا ناصيته ووضعوها في كئانة ، قالت الخنساء .

حَزَنَّا نَوَاصِيَ فُرْسَانِهِمْ * وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنْ لَا تُجْزَا

(١) في اللسان في زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتى تفسيره بذلك في الدوائر .

(٢) في نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر

(في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان)

الصنف الأول

(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" للعرب ثلاث عشرة نارا .
الأولى نار المزدلفة — وهي نار تُوقَد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراهن من دفع من
عرفة . وأول من أوقدها قُصيّ بن كلاب ، فهي تُوقَد إلى الآن .

الثانية نار الاستطار — كانوا في الجاهلية الأولى إذا اجتهدوا المطر جمعوا البقر
وعقدوا في أذنانها وعراقيها السِّلَع والعُشَر ، ويضعّون بها في الجبل الوعر ، ويُشعلون
فيها النار ، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر ، قال الشاعر :

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيَقُورًا مُسَلَّعَةً * وَسِيْلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ

الثالثة نار الحلف — كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف
عندها ، ويذكرون خيرها ، ويدعون بالحُرمان من خيرها على من نقض العهد ، وحلّ
العقد . قال العسكري " وإنما كانوا يُحْصُونَ النار بذلك لأن منفعتها تختص
بالإنسان ، لا يشاركه فيها شيء من الحيوان غيره " .

الرابعة نار الطرد — وهي نار كانوا يُوقِدونها خَلْفَ مَنْ يَمْضِي ولا يحبون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا على
جبلهم ليلبغ الخبر أصحابهم .

السادسة نار الحرّتين : كانت في بلاد عبس فإذا كان الليل تضيء نار تسطع

وفي النهار دخان مرتفع ، وربما بَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مرَّ بها ، فخر خالدُ بْنُ سنانِ النَّبِيُّ ، فدفعها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِي — تُرْفَعُ لِلتَّقَرُّ فَيَتَّبِعُهَا قَهْوَى بِهِ الْغَوْلُ عَلَى زَعْمِهِمْ كَمَا تَقْدَمُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَوَابِدِ الْعَرَبِ .

الثامنة نار الصيد — وَهِيَ نَارُ تُوقَدُ لِلطَّبَاءِ تَغْشَاهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْهَا .

التاسعة نار الأسد — وَهِيَ نَارُ تُوقَدُ إِذَا خَافُوا الْأَسَدَ لِيَنْفِرَ عَنْهُمْ فَإِنْ مِنْ شَأْنِهِ النَّفَارُ عَنِ النَّارِ ، يُقَالُ إِنَّهُ إِذَا رَأَى النَّارَ حَدَثَ لَهُ فِكْرٌ يَصِدُّهُ عَنْ قَصْدِهِ .

العاشرة نار القِرَى — وَهِيَ نَارُ تُوقَدُ لِيَرَاهَا الْأَصْيَافُ فَيَهْتَدُوا إِلَيْهَا .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كَانُوا يُوقِدُونَ النَّارَ لِلْمَسْعُوعِ إِذَا لُدِّغَ يُسَاهِرُونَهُ بِهَا ، وَكَذَلِكَ الْمَجْرُوحُ إِذَا تَزَفَ دَمُهُ ، وَالْمَضْرُوبُ بِالسَّيَاطِ وَمَنْ عَضَّ الْكَلْبُ كَى لِيَأْنَامُوا فَيَسْتَدَّ الْأَمْرَ بِهِمْ فَيُؤَدِّهِمْ إِلَى الْهَلَكَةِ .

الثانية عشرة نار الفداء — كَانَ الْمُلُوكُ مِنْهُمْ إِذَا أَسْرَوْا نِسَاءَ قَبِيلَةٍ خَرَجَتْ إِلَيْهِمْ السَّادَةُ مِنْهُمْ لِلْفِدَاءِ أَوْ الْأَسْتِيبَابِ فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْرِضُوا النِّسَاءَ نَهَارًا فَيَفْتَضِحْنَ أَوْ فِي الظُّلْمَةِ فَيَخْفَى قَدْرُ مَا يَحْبِسُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الصَّغْفَى ، فَيُوقِدُونَ النَّارَ لَعَرْضِهنَّ .

الثالثة عشرة نار الوسم — وَهِيَ النَّارُ يُسَمَّى بِهَا الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِبْلَهُ فَيُقَالُ لَهُ مَاسِمَةٌ إِبْلَكَ ؟ فَيَقُولُ كَذَا :

الصنف الثاني

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقِيمُونَهَا فِي شُهُورِ السَّنَةِ ، وَيَنْتَقِلُونَ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَيَحْضُرُهَا سَائِرُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ : مِنْ قُرْبِ مَنْهُمْ وَبَعْدَ . فَكَانُوا يَنْزِلُونَ دُومَةَ الْحَنْدَلِ

أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يعيشون فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - وربما غلب على السوق كلب، فيعشونهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر. ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقهم بها، وكان يعيشون في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين. ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين أيضا فتقوم سوقهم بها. ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشجر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما. ثم يرتحلون فينزلون عدن من اليمن أيضا فيشترون منه اللطائم وأنواع الطيب. ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويحلبون منها الحرز والأدم والبرود، وكانت تجلب إليها من معافر. ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم ويتنشدون الأشعار، ويتحاجون؛ ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة أرتفع إلى من له الحكومة؛ وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم؛ وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التيمي. ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج. ثم يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآبوا بالسلامة.

النوع السادس عشر

(النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى معرفة وقائع التاريخ، وتفصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشيء منها لأمر. منها العلم بأزمنة الوقائع والمجريات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والمجريات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متى أخل بمعرفة ذلك

أحتج بالقصة في غير موضعها ، أو نسبها إلى غير من هي له ، أو لبس عليه خصمه بالاستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلى غير من هي له ليظهر مُحجته عليه ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصد الأول

(في ذكر نبذة تاريخية لا يسع الكاتب جهلها مما يحتج به الكاتب تارة
ويذاكر به ملكه أو رئيسه أخرى)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه : ما بين مختصر ، ومبسوط : من مقتصر على فن ، ومستوعب لفنون ، وفي خلال تلك المصنّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ؛ لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظفر بالجوهر في المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل في خلالها بقتة ؛ فإذا التقت الجواهر من المعدن ، سهل تناوّلها لمريدها ، وهي على ضربين .

الضرب الأول

(الأوائل)

وهي معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكري بالتصنيف ، وأورد الثعالبي منها في كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتب التاريخ منها جملة مما لم يتعرضوا إليه ؛ وقد اقتصرت منها على ما تتشوّف نفوس أكثر الناس إلى معرفته والأطلاع عليه : مما توفرت الدواعي عليه ، فاستمر وجوده ، وأنسحب عليه حكم الاستعمال إلى الآن ، أو أشتهر في مبدأ أمره ، ثم زال بعد ذلك ؛ جاريا في ترتيبه على وجه يقرب تناوله ، مقدّما الأهم فالأهم بالنسبة إلى حال الكاتب :

أمور تتعلق بالأنبياء عليهم السلام

(سوى ما يأتي ذكره مما شا كل غيره)

أول من استرقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أول من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ وهو أول من قصَّ شاربته ، وأول من فرق شعره ، وأول من تمضمض ، وأول من آستاك ، وأول من قلم الأظفار ، وأول من آستنجى ، وأول من آختن ، وأول من رمى الحمار .

الخلافة وما يتعلق بها

أول من سُمي خليفةً أبو بكر الصديق رضى الله عنه حين ولى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة إن شاء الله تعالى ؛ وهو أول من آستخلف من الخلفاء : آستخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مرض موته ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة ؛ وهو أول خليفة فرض له العطاء فى بيت المال عن الخلافة ، ولما أدركته الوفاة أوصى باعادة جميع ما حبل إليه من ذلك إلى بيت المال من ماله .

أول من سُمى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على هذا اللقب فى جملة الألقاب فى المقالة الثالثة ؛ وهو أول من رتب بيت المال فيما ذكره العسكرى ، لكنه قد ذكر فى موضع آخر أن عمر كان على بيت المال من قبل أبى بكر رضى الله عنه ، فيكون أبو بكر قد سبقه إلى ذلك ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على وكالة بيت المال فى المقالة الخامسة ؛ وهو أول من كور الكور ومسح أرض السواد ، ورتب الخراج على الأرضين ، والحزبة على

(١) الجَمَاجِمُ ؛ وهو أول من حمل الطعام من مصر إلى الحجاز ؛ وذلك في عام الرمادة عند غلو السعر بالحجاز. وسيأتى ذكره في الكلام على خليج القاهرة في أوائل المسالك والممالك .
 أول من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛
 وسيأتى ذكره في الكلام على الإقطاعات في المقالة السادسة ، وهو أول من حمى
 الحمى لنعم الصدقة من الخلفاء ، وهو أول من اتخذ صاحب شرطة من الخلفاء .

أول من اتخذ بيتاً رعى فيه قصص أهل الظلمات أمير المؤمنين على بن أبى طالب
 رضى الله عنه ، وبقي حتى كتبت له شتمه في رُقعة ، وطُرِحت في البيت فتركه ؛ ثم اتخذه
 المهدي بعده ، ثم ترك بعد ذلك .

أول من سلم عليه بالخلافة فليل السلام عليك يا أمير المؤمنين معاوية ؛ وكانوا قبل
 ذلك يقولون السلام عليكم ؛ وهو أول من عهد إلى ابنه بالخلافة ، عهد بها إلى ابنه
 يزيد ، ثم تبعه الكثير من الخلفاء على ذلك ؛ وهو أول من استخلف في حال صحته
 وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمر إلا في مرض موته ، وعمر لم يجعل الأمر شورى إلا
 وهو مطعون ؛ وسيأتى ذكر ذلك جميعه في الكلام على ولاية الخلفاء في المقالة الخامسة ،
 وهو أول من اتخذ المقصورة في المسجد لصلاة الجمعة ؛ وقيل اتخذها مروان قبله ،
 وقيل عثمان ؛ وهو أول من نهى عن الكلام بحضرته من الخلفاء ، وكان الناس قبل
 ذلك يردون على الخليفة ويعترضونه فيما يقول ؛ وهو أول من اتخذ ديوان الخاتم لخم
 الكتب ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على اللواحق من المقالة الثالثة ، وهو أول من اتخذ
 البريد في الإسلام ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على البريد في خاتمة الكتاب .

(١) في الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فإنه أول من
 نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء فليحذر .

أول من سار في الناس بالخبيرية من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليد بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل نخاطبه باسمه فأمر به فوطئ .
 أول من رتب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، وأتخذ في قصره بيتا يجلس فيه الناس حتى يؤذن لهم ، وهو أول من اتخذ الأتراك اتخذ حمادا التركي ، ثم اتخذ المهدي بعده مباركا التركي ، ثم أكثر الخلفاء من الأتراك بعد ذلك .
 أول من جلس للمصائب من الخلفاء على البساط دون الأتباط هارون الرشيد حين نعى إليه قريبه : إبراهيم بن علي ، فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا في المآثم .
 أول من نعت على المنبر بنعت الخلافة الأمين بن الرشيد ف قيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبد الله محمدا الأمين .

أول من أضيف لقبه من الخلفاء إلى اسم الله المعتصم ف قيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام على الخلفاء في المقالة الثانية .
 أول من حوّل السنة الشمسية إلى السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكل ، وسيأتي ذكره في تحويل السنين في المقالة السابعة ، وهو أول من أمر بتغيير زى أهل الذمة ، وسيأتي ذكره في الكلام على عند الصلح لأهل الذمة في المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أول من لبس التاج الضحّاك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال ، وفي زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .
 أول من مسح الأرضين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخراج على الأرضين ، ووظف الموطّفات على البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، وأتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أَوَّل من جلس على السرير من ملوك العرب جَذِيعَةُ الأبرش، وهو أَوَّل من وقعت له السُّمعة من ملوك العرب، وأَوَّل من لبس الطُّوقَ منهم .

أَوَّل من مَشَتْ الرجال معه وهو راكب الأشعثُ بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية مَلَكُوهُ عليهم وتَوَجَّوه .

أَوَّل من مَشَى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ بن أبيه، وهو أَوَّل من جلس الناس بين يديه على الكرسي، وهو أَوَّل من آتخذ العَسَسَ والحَرَسَ .

أَوَّل من سَلَّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقبل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم، ثم تبعه الأمراء على ذلك .

أَوَّل من حَمَلَ إليه التَّلَجُ الحجاج بن يوسف، وسيأتي ذكره في الكلام على حَمَل التَّلَجُ لصاحب الديار المصرية في خاتمة الكتاب .

أَوَّل مَنْ نَقَشَ اسمه من الملوك على الدنانير والدرهم مع الخلفاء عِزُّ الدَّوْلَةِ بن بويه وإخوته ملوك الديلم القائمين على الخلفاء العباسيين ببغداد، في سنة أربع وثلاثة وثلاثمائة، ثم تبعهم الملوك على ذلك .

أَوَّل من حَمَلَ السَّنَجَقَ على رأسه من الملوك غازي بن زنكي صاحب الموصل، وهو أَوَّل من آخَتر الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدِّبَابِيسَ تحت ركبهم .

أَوَّل من حَمَلَ الشمع معه على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طُغْج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفَرَّاش راكب أمامها، وهو يلتفت في كل قليل يصالحها، فأبدلها الملوك بعده بهذه الفوانيس التي تجعل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل .

أَوَّل من لُقِّب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضوان بن ولخشي وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان مَنْ قَبْلَهُ من الوزراء لا ينعت بالملك .

أول من لف العمامة على الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بني أيوب يلبسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون على أرباب الأقاليم المتعممين في مقابلة أن الجند كانوا بغير عمامم .

أول من اعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند على ذلك وأستمر الأمر على ذلك إلى الآن ، وكان لهم قبل ذلك غداثر شعر مرسله كعرب الحجاز ونحوهم .

الوزراء

أول من سمى وزيرا في الإسلام أحمد بن سليمان الخلال، وزير السقّاح أول خلفاء بني العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك على ذلك، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتباً. أول من لُقّب بالصاحب من الوزراء، كافي الكفاة إسماعيل بن عبّاد، وكان السبب في ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد، ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجّدا وتبعه الخلفاء على ذلك، وسيأتي ذكره في الكلام على هذا اللقب في المقالة الثالثة .

أول من لقب بالملك الفلاني من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ونحشى وزير الحافظ، لُقّب الملك الأفضل، ثم صار رسماً لوزرائهم بعد ذلك، وتبعهم ملوك الديار المصرية على ذلك إلى الآن .

القضاة

أول قاض كان في الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أستقضاها أبو بكر الصديق رضى الله عنه، في خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد في قضية .

أول قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نوفل ، استقضاه عليها أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

أول قاض بالكوفة جبير بن القشعم .

أول قاض بالبصرة أبو مريم الحنفى ، أحد بنى حنيفة ، استقضاه أميرها عمرو
ابن غزوان فى سنة أربع عشرة من الهجرة .

أول قاض بمصر قيس بن أبى العاص السهمى ، استقضاه عليها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، فى خلافته فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أول قاض جمع له القضاء والشرطة بمصر عائش بن سعيد وليهما من قبل أميرها
مسلمة بن مخلد .

أول قاض بمصر نظر فى الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو محجن توبة فى خلافة
هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال :
هذه مآلها إلى الفقراء والمساكين فأنا أضع يدي عليها ، فما مضت له سنة حتى صار
لها ديوان عظيم .

أول قاض بمصر خرج لرؤية الهلال عبد الله بن لهيعة . قال أبو عمر الكندى ،
وهو أول قاض ولى مصر عن خليفة ، ولها عن أبى جعفر المنصور فى أول سنة
خمس وخمسين ومائة .

أول قاض ولى مصر ممن يقول بقول أبى حنيفة أبو الفضل إسماعيل بن اليسع
الكندى ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبى حنيفة ولم يألوه ، وكان يرى
بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلى أبى جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أول قاض بمصر أدخل النصارى في خصوصاتهم إلى المسجد أبو عبد الرحمن محمد ابن مسروق ، وكانت ولايته لها من قبل الرشيد في سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو أول من اتخذ لمجلسه الشهود من قضاة مصر .

أول قاض ولي مصر من يقول بقول مالك أبو نعيم إسحاق بن الفرات مولى معاوية ابن حديج ، وللشافعي عليه ثناء جميل في معرفة الخلاف ، وهو أول قاض اتخذ للشهود ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قبل الرشيد في سنة بضع وثمانين ومائة . أول قاض ولي على المصاحف أمينا بجامع القسطنطين الحارث بن مسكين ، وكانت ولايته في خلافة المتوكل .

أول ما استقرت قضاة الديار المصرية أربعة ، من كل مذهب قاض في سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز وكان شافعيًا ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشق ذلك على السلطان والأمراء فاتفق رأيهم على أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقتضى كل منهم بمذهبه .

أول ما خص قاضي القضاة الشافعي بالديار المصرية بالتولية في أعمالها دون رفقته الثلاثة في سلطنة المنصور قلاوون في شوال سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره ابن المكرم في تذكرته .

الأمور العلمية

أول من أخطأ في القياس إبليس ، حيث قال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ أو لم يعلم أن ما ألقى إلى جوهر الطين زاد ونما ، وما ألقى إلى جوهر النار اضمحل وتلاشى .

- أول من نطق بالحكمة أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام .
- أول من دلَّ على تركيب الأفلاك ، وقدر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه على عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .
- أول من نظر في الطب أفريدون ملك الفرس بعد الضحاك ، وفي أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا في علومهم .
- أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو أول من نقط المصاحف النقط الأول على الإعراب .
- أول من صنَّف في علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلي .
- أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفية خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثر من ذلك .
- أول من صنَّف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى .
- أول من صنَّف في أصول الفقه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، صنَّف فيه كتابه الرسالة .
- أول من صنَّف في الفقه مالك بن أنس صنَّف كتابه الموطأ .
- أول من عمل العروض الخليل بن أحمد ، وهو أول من صنَّف اللغة مرتبة على حروف المعجم صنَّف كتابه " العين " .
- أول من صنَّف في علم البديع عبد الله بن المعتز .
- أول من سنَّ الإساءة والأجتراء في البحث فرعون ، بينا هو وموسى عليه السلام في مقام المناظرة حيث قال ﴿ وما رَبُّ العالمين ﴾ فأجابه موسى بقوله ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ إلى آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿ لَئِنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ .

الخطابة

أول من جمع قريشا وخطبهم ونبه على أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قُصِيَّ
 ابن كلاب، وسيأتي ذكره في الكلام على مكة في المسالك والممالك في المقالة الثانية.
 أول من خطب على العصا وعلى الراحلة قُصِيَّ بن ساعدة الإيادي، وقد تقدم
 ذكر خطبته التي خطبها على الراحلة في الكلام على الخطب.

أول من عمل المنبر تميم الداري عمله للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأى متابر
 الكائن بالشام.

أول من أرنج عليه في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : أيها الناس إن
 اللذين كانا من قبلي كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالا، وأتم إلى إمام عادل أحوج منكم
 إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها في الجمعة الأخرى ثم نزل .
 أول من خطب جالسا معاوية حين كثر شحمه .

أول من أقام الجمعة بالمدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعد بن زُرارة
 الأنصاري بنى بياضة .

أول من رفع يده في الخطبة يوم الجمعة عبيد الله بن عبد الله بن عمر .
 أول من أخرج المنبر في العيد مروان بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج .

الخط

أول من خط بالقلم في الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس .
 أول من كتب بالعربية قيل هود عليه السلام أنزل عليه ، وقيل إسماعيل ،
 وقيل ثلاثة نفر من بولان من طيء أصطلحوا على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام
 على الخط في الباب الثاني من هذه المقالة .

كتابة الإنشاء

أول من كتب في أول الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام ، حين كتب لِبَلْقَيْسَ كما أخبر الله تعالى عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت .

أول من كتب في أول الكتب باسمك اللهم أُمِيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ ، فكتبها قُرَيْشٌ في كتبهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتبها في ابتداء الأمر ، وسيأتي ذكر جميع ذلك في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .

أول من كتب من فلان إلى فلان قُسْ بن ساعدة فيما قاله العسكرى وأقزوه النبي صلى الله عليه وسلم ، في مكاتباته ، وسيأتي ذكره في الكلام على الفواتح في المقالة الثالثة .

أول من زاد في أوائل الكتب بعد التمجيد ” وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله “ هارون الرشيد ، وسيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .
أول من أَرخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وسيأتي ذكره في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة .

أول من كتب في آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أبي بن كعب قاله العسكرى .
أول من ختم الكتب سليمان عليه السلام فقد قيل في قوله تعالى حكاية عن بَلْقَيْسَ ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ إن المراد به المختوم . وأول من ختمها في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب ، وسيأتي ذكر ذلك في الكلام على الخواتم .

أول من آتخذ الطين لخم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

أول من آتخذ ديوان الخاتم معاوية بن أبى سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما فى معناها

أول من آتخذ الديوان فى الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره فى الكلام على الإقطاعات فى المقالة السادسة .

أول من جعل الحساب فى دفاتر خالد بن برمك فيما قاله الثعالبي ، وكان قبل ذلك فى أدراج من كاغذ ورق .

أول من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية المجاج بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتبه زاذان فروخ فكان كتاب العراقيين علماء وتلاميذ^(١) .

أول من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبد الملك بن مروان ، نقله له سليمان بن سعيد مولى الحسين كاتب رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أول من نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد العزيز بن مروان فى إمارته على مصر ، ذكره صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" .

أول من وسع فى أرزاق الكتاب الفضل بن سهل وزير المأمون .

(١) فى الأصل فروج بالمهملة فكان كبار العراقيين وهو تصحيف فأحذره .

الخَرَاجُ وَالْجَزِيَّةُ

أول من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرى أنوشروان؛ وذلك أنه مر على زرع وأمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقاً، ولا نستحله حتى يأخذ الملك حقه، فقرر على الزرع قدراً معلوماً وخلى بين الغلة وأصحابها .

أول من وضع الخراج على الأَرْضَيْنِ والجَزِيَّةَ على الجماع في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السَّوَادَ؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصور حين خرب السَّوَادَ .

أول من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد بن أبيه فبقى حتى أسقطه زياد ابن أبيه^(١) .

أول من عَرَّفَ العرفاء على الناس لجباية المال وغيره زياداً، وكان يقول : العرفاء كالأيدي والمناكب فوقها .

المعاملات

أول من ضرب الدينارين والدراهم في الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشام من فضة خالصة، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بديناطيم الفرس والروم؛ ولما ضربها عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك، فضرب الدراهم ونقش عليها قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إلى آخر السورة ، فسميت الدراهم الأحديّة ، وكرهها الناس لنقش القرآن عليها، مع أنه قد يجملها المحدث، فسميت المكروهة .

قلت : وقد رأيت درهماً من هذه الدراهم الأحديّة، أرانيه بعض أعيان حلب، وذكر لي أن فلاحاً أصاب رَكَازاً لطيفاً بها فأحضره إلى نائب حلب خوف عُهْدَتِهِ ،

(١) كذا في الأصل .

فاقتسمه هو وأهل مجلسه ، وعوّضه من كل درهم أضعافه ، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أول من شدد في العيار في الدراهم يوسف بن عمر ، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها ، ثم استخفّ درهما فوجده ينقص حبة ، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرائين ألف سوط ، وكانوا مائة ضراب ، فضرب في نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أول من شدد في خلوص الذهب أحمد بن طولون صاحب مصر والشام ، وذلك أنه حين وجد الكثر المشهور بعين شمس ، وأتى له منه بميت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية فعرّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللعين أكبر منه أو ذهبه أخلص من ذهبه ، ثم شدد في التعليق حتى كان قاضي القضاة يحضره بنفسه ، وسيأتى الكلام على ذلك في معاملة الديار المصرية في المقالة الثانية .

أول من ضرب الدراهم الزئوف في الإسلام عبيد الله بن زياد .

أول من اتخذ السنة الموازين من الحديد عبد الله بن عامر أمير المدينة من قبل عثمان .

أول من عمل الأوزان المجاج بن يوسف ، عملها له سمير اليهودي ، وذلك أن المجاج حين ضرب الدراهم الأحديّة على ما تقدّم ضربها سمير اليهودي من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد المجاج قتله ، فقال : ألا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلي ؛ قال : هاته ، فوضع الأوزان ، وزن ألف ، ووزن خمسمائة ، ووزن ثلثمائة إلى وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتى بها إلى المجاج فعفا عنه ، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوزان فيزنون به غيره .

أول من آتخذ الذراع التي يُذَرَع بها الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السّواد . وقيل أول من آتخذها زياد ، نظر إلى ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصيه فجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العمارة

أول بيت وضع في الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ، قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ .

أول من جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أول من سقف بمكة سقفا قصي بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنما يتولون في العريش .

أول من بوّب بمكة بابا حاطب بن أبي بلتعة .

أول من آتخذ بمكة رَوْشَنًا بُدَيْل بن ورقاء الخُرَاعِي . وهو أول من بنى بها بيتا مربعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربع في البناء كيلا يُشَبَّه ببناء الكعبة .

أول قرية بُنيت بعد الطوفان قرية ثمانين ، من الجزيرة الفراتية ، بناها نوح عليه السلام ، وأُنزل بها من كان معه في السفينة وهم ثمانون رجلا .

أول مدينة بُنيت بمصر بعد الطوفان مدينة منّف وأصلها بالسريانية مافه ومعناها ثلاثون ، سميت باسم جماعة مصر بن بئصر الذين كانوا معه ، وسيأتي ذكرها في جملة قواعد مصر القديمة في المقالة الثانية .

أول من عمل الحماّم سليمان عليه السلام ، صنعها له الجحّ وعملوا له النّورة لإزالة شعر كان عليّ بلقيس حين تزوّجها فيما يقال .

أَوَّلُ مَنْ آتَخَذَ الْآجُرَّ هَامَانُ لِفِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ لَهُ ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ .

أَوَّلُ مَنْ بَنَى بِالْحِصِّ وَالْآجُرِّ فِي الْإِسْلَامِ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ بِالْبَصْرَةِ .

الزَّرع

أَوَّلُ مَنْ غَرَسَ النِّخْلَةَ أَنُوشُ بْنُ شَيْثَ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الصَّناعات

أَوَّلُ مَنْ خَاطَ الثِّيَابَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ يَلْبَسُونَ الْجُلُودَ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الْقِرَاطِيسَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقِيلَ غَيْرُهُ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَا يُكْتَبُ فِيهِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الصَّابُونَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ قَالَهُ الثَّعَالِبِيُّ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الْكَيْمِيَاءَ قَارُونَ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةُ عَنْهُ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الزَّجَاجَ مَلِكِي أَحَدُ مَلُوكِ مِصْرَ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ مَلُوكِهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

أَوَّلُ مَنْ آتَخَذَ الرِّحَالَ عِلَافُ بْنُ زَبَّانَ^(١) الْحَمِيرِيُّ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ قَبْلَ ذَلِكَ يَرْكَبُونَ الْمَخَاصِرَ .

أَوَّلُ مَنْ كَسَا السَّكْبَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُبَيْعٌ : أَسْعَدُ أَبُو كَرِيبٍ .

(١) . وَقَعَ فِي الْمَخْصَصِ رَبَّانٍ بِإِهْمَالِ الزَّايِ وَفِي الْقَامُوسِ وَالصَّحَاحِ بِإِعْجَامِهَا وَهُوَ الْأَقْرَبُ .

أول من اتخذ المحامل له المجاج بن يوسف .
 أول من اتخذ السياط الأصبح بن مالك ، أحد ملوك اليمن فقيل السياط
 الأصبحية .

اللباس

أول من لبس الثياب الحمر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أول من أطال ثيابه وسحبها على الأرض تحجباً وتبهاً .

أول من قور طيلسانا من العرب في الإسلام عبد الله بن عامر أمير المدينة من
 قبل عثمان . والطيلسان المقور على نحو الطرحة التي يلبسها الوزراء وقضاة القضاة
 الآن ، وكانت وزراء الفاطميين يلبسونها . وهو أول من لبس الخبز ، فقال أهل
 المدينة لبس الأمير جلد دب .

أول ما لبس بنو العباس السواد حين قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية
 إبراهيم بن محمد الإمام أول قائم منهم بطلب الخلافة حزناً عليه ، فأستمر فيهم ، وفيه
 كلام يأتي في المقالة الثانية عند الكلام على لبس الخلفاء .

أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة زياد بن أبيه .
 أول من آخذى النعال من العرب جذيمة الأبرش .

أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية الوليد بن المغيرة .

أول من لبس النعال الصمراة المرواني كان قصيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصمراة
 لتزيد في طوله وليسمعه جواريه وحرمه عند دخول بيته ففصلح شأنها من كانت على
 غير هيئة صالحة . قال العسكري : من ثم اتخذ الناس نعال الخشب يعني القباقيب .

أول من أمر بتغيير زيّ أهل الذمة المتوكّل ، أمرهم أن يلبسوا العسليّ ، ويتخذوا رُكب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين ، وسيأتى ذكره في عقد صلح أهل الذمة في المقالة السابعة .

الحرب وآلاته

أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام ، وكانت قبله وحوشاً لا تُركب فراضها وركبها ، وتعلّم بنوه رياضتها منه ، فصارت فيهم إلى الآن . ولذلك العرب أعرفُ الناس بالخيّل . وهو أول من ميّزين العتاق منها والهجن في سهام أصحابها ، فسبقت العتاق الهجن .

أول من اتخذ الدروع وليسها داود عليه السلام إذ يقول تعالى ﴿ وَاللَّهُ لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ ^(١) وكانوا قبل ذلك يلبسون تنانير من حديد .
أول من اتخذ السّلاح وجاهد سليمان عليه السلام فيما قاله العسكرى وفيه نظر .
أول من اتخذ الحديد من العرب ذُو يَزَنَ الحميريّ ، وكانت أسنتهم قبل ذلك صياصي البقر .

أول من اتخذ الحصن من الجبل للكائن الإسكندر .
أول من اتخذ المنجنيق الضّحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ، وضعه فيه ورمى به في النار فكانت عليه برداً وسلاماً . وأول من اتخذ من العرب جذيمة الأبرش .
أول من اتخذ الجواسيس والعيون على العدو الإسكندر .

أول لواء عقده النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لواء أبيض لعمه حمزة وقال "خُذْهُ يَلَأَسَدَ اللَّهِ" وذلك في رمضان من السنة التي هاجر فيها ، وحمله له يزيد بن أبي يزيد .

(١) لعل مراده صفاً من حديد كما هو نص الأوائيل والتفسير واللفظة في نسخة الخط غير مجوّدة .

أول ما عُقدت الرايات في الإسلام يوم حُنين، عقد صلى الله عليه وسلم، راية سوداء من بُرد عائشة، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الأولى قاله العسكري .

أول من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبي بن خلف لعنه الله، طعنه صلى الله عليه وسلم طعنة خفيفة فوجد لها ألماً شديداً ف قيل له لن تبالى فقال : لو أن ما بي بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أول حرب كان بين أهل القبلة يوم صفين، بين عائشة وعلى رضي الله عنهما .

الأسماء والألقاب

أول من سُمي المصحف مُصحفاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين جمع القرآن .

أول من سُمي باسم النبي صلى الله عليه وسلم، محمد بن حاطب حين وُلد بأرض الحبشة في الهجرة الأولى .

أول من سُمي بالحسن والحسين السَّبطان ولداً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو أحمد العسكري في كتابه "التصحيف والتحريف" قال المفضل حجب الله هذين الأسمين عن أن يسمي بهما حتى سُمي بهما النبي صلى الله عليه وسلم، آبنيه عليهما السلام أما حسن وحسين الموجودان في أنساب طيئ فالأول بسكون السين والثاني بفتح الحاء وكسر السين .

أول من سُمي عبد الملك في الإسلام عبد الملك بن مروان .

أول من سُمي بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العروض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد .

أول من سُمي الغالية غالية معاوية بن أبي سفيان شهماً من عبد الله بن جعفر فوصفها له فقال إنها غالية .

أول ما سميت العَطِيَّات جوائز في زمن عثمان رضى الله عنه ، وذلك أن ابن عامر كان على العراق من قبل عثمان فبعث جيشا مع قَطَن بن عبد عوف الهلالي إلى كَرَمَانَ ، بغرى الوادى بسيل خيف منه الفرق ، فقال قَطَن من عبّره فله ألف درهم ، فعبّره رجلاً ثم آخر ثم آخر حتى جاز جميعهم فأعطاهم قَطَن ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف ، فاستكثرها ابن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها ، وقال : كل ما كان في سبيل الله فهو جائز .

أول ما لُقّب بفلان الدولة في أيام المكتفى بالله .

أول ما لقب بفلان الدين في أيام القادر بالله ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة .

الضيفان

أول من قرئ الضيف إبراهيم الخليل عليه السلام حتى كُنِيَ أبا الضيفان لكثرة قَرَاهِ لَهُمْ .

أول من سَنَّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحد ملوك الفُرس .

أول من هَشَم الثَّرِيد للقرى في زمن المَحَل هاشم بن عبد مناف ، وبذلك سُمي هاشما وكان اسمه قبل عمرا .

أول من فَطَّر جيرانه في شهر رمضان عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب . وهو أول من حمل الطعام على رءوس الناس لكثيرته وأول من أنهبه .

وجوه السب

أول من اتخذ البيمارستان بالشام للرضى الوليد بن عبد الملك .

أول من اتخذ البيارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط ، وهو موجود إلى الآن .

أول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

الأعياد والمواسم

أول من اتخذ النيروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنى مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى يوم جديد عزبته العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نيروز .

أول هدية كانت فى النيروز لجما الملك المتقدم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصب إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاستحلاه فصنع منه السكر فوافق فراغه فى أول يوم ملك فيه جما وهو يوم النيروز فأهدى إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادون فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادوا بغير السكر .

أول ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القائم بعد الضحاك من ملوك الفرس ، وذلك أنه لما ظفر بالضحاك فقيده وآتطع ، ما كان فى زمنه من الظلم والفساد ستمى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرى : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النيروز .

أول من آتفتح المكاتبه بتهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسف أهدى إلى المأمون سقط ذهب فيه قطعة عود هندی فى طوله وعرضه ، وكتب معه "هذا يوم جرت فيه العاده ، بإلطاف العبيد الساده" .

الأقوال

أول من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصل الخطاب المشار إليه بقوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾ . وقيل أول من قالها قُتُس بن ساعدة .

أول من قال مَرَحَبًا سيف بن ذِي يَزَنَ ، قال ذلك لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، حين وَفَدَ عليه لِيَهْنِئَهُ بِرَجُوعِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ ، فقال له ” مَرَحَبًا وَأَهْلًا ، وَنَاقَةً وَرَحْلًا ، وَمُنَآخَا سَمَلًا ؛ وَمَلِكًا رَجُلًا ، يُعْطَى عَطَاءً جَزَلًا “ .

أول من قال جعلت فِدَاكَ عَبْدُ اللَّهِ بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفِتْنَةَ ، فَقَالَ ” جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا أَصْنَعُ ؟ “ . وقيل أول من قالها له عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حِينَ دَعَا عُمَرُ بْنُ وَدَّ الْعَامِرِيَّ إِلَى الْمُبَارَزَةِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ ” جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذِنُ لِي ؟ “ ثم أَسْتَعْمَلَهَا الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَكَاتِبَاتِهِمْ .

أول من قال أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : تَكَلَّمَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِحَضْرَتِهِ فِي الْعَدْلِ بِكَلَامٍ أَعْجَبَهُ ، فَقَالَ لَهُ : صَدَقْتَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ ؛ ثُمَّ نَقَلَهَا الْكُتَّابُ إِلَى اسْتِعْمَالِهَا فِي مَكَاتِبَاتِهِمْ .

أول من قال أَيَّدَكَ اللَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ أَعْلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا .

الشعر والغناء

أول من قَصَّدَ الْقَصَائِدَ مُهْلِلُ خَالِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ ؛ وَالْقَصِيدُ مَا زَادَ عَلَى سَبْعَةِ أَيْيَاتٍ .

(١) في نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة في اللسان في مادة رب ح ل .

أول من أطلال الرِّجَز العَجَّاج . قيل إن الرجز كان في الجاهلية إنما يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثة في الحرب ونحوه حتى جاء العَجَّاج ففتح أبوابه وشبهه بالشعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات ، ونعت الإبل والظُّلول ؛ وكان في أول الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أول من أستخرج اللطيف من المعاني في الشعر وجرى على طريقه البديع مسلم ابن الوليد .

أول من أخرج الغناء العربيَّ جرادةَ جاريةُ ابنِ جُدعان فيما قاله العسكري . وفيه نظر فإن الغناء معهود من عهد عاد حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غَتَّه الجَرَادَتَان" .

أول من علم الجوارى المُنتمات الغناء إبراهيم الموصلي ، وكان الناس بمكة لا يعلمون الجارية الحسنة الغناء .

النساء

أول امرأة خُفِضَتْ هاجرُ أم إسماعيل ؛ وذلك أنها حين تغيرت عليها سارةُ لَتَسْرَى إبراهيم عليه السلام بها حلفت لتقطعن شيئاً من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تخففها ، وتثقب أذنيها ، وتجعل فيهما قرطين ففعلت فزادت حسناً .

أول امرأة آكتحلَت بالإمْد زرقاءُ اليمامة ، وكانت تنظر مسيرة ثلاثة أيام .

أول امرأة تنبأت سجاحُ التيميةُ التي تزوجها مُسَيْلِمَةُ الكَذَّاب .

أول امرأة لبست المصبغات في الإسلام شُميلة زوج عباس ، وهي أول من
عبأت الطيب ^(١) .

الموت والدفن

أول امرأة حُملت في نعش زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم .
أول من دُفِن بالبقيع عثمان بن مظعون ، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة .
أول من دُفِن بقرافة مصر رجل اسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عمّرت والله .

أمور تنسب للجاهلية

أول من حرّم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم ، ثم جاء
الإسلام بتقريره .

أول من حرّم القمار في الجاهلية الأقرع بن حابس التيمي ، ثم جاء الإسلام بتقريره .
أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حذان ، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن .
أول من حكم أن الولد للفراش في الجاهلية أكرم بن صيفي حكيم العرب ، ثم جاء
الإسلام بتقريره .

أول من قطع في السرقة في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .
أول من سنّ الدية مائة من الإبل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ،
وذلك أنه نذر إن ولد له عشرة ذكور ليذبحن العاشر فولد له عشرة ، وكان عاشرهم
عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش في أمره ، وأشير عليه
بأن يُقرع بينه وبين الإبل حتى تخرج القرعة على الإبل ، فأقرع بينه وبين عشرة

(١) في اللسان يقال عبأ الطيب ... يعبؤه عبأ صنعته وخلطه .

نُفِجَت القُرْعَةُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ زَادَ عَشْرَةً بَعْدَ عَشْرَةٍ وَهِيَ تَقَعُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَيْهَا فَتَحَرَّهَا ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ ” أَنَا ابْنُ الدَّبِيحَيْنِ “ يَعْنِي إِسْمَاعِيلَ وَعَبْدَ اللَّهِ ، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِتَقْرِيرِهَا .
أَوَّلُ مَنْ أَوْقَدَ النَّارَ بِالْمَزْدَلِفَةِ حَتَّى يَرَاهَا مِنْ الْمَوْقِفِ قُصِيُّ بْنُ كَلَابٍ ، فَهِيَ تُوقَدُ إِلَى الْآنَ .

أَوَّلُ مَنْ أَهْدَى الْبُذْنَ إِلَى الْبَيْتِ إِلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ .
أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ .
أَوَّلُ مَنْ خَضَبَ بِالْوَشْمَةِ مِنْ قَرِيشٍ عَبْدُ الْمَطْلَبِ .
أَوَّلُ مَنْ نَسَّى النِّسَاءَ ، وَسَيَّبَ السَّوَابَّ ، وَجَعَلَ الْوَصِيلَةَ وَالْحَاجِمِيَّ عَمْرُو بْنُ لُحِيٍّ وَهُوَ أَبُو خَزَاعَةَ .

الضرب الثاني

(من النبذ التاريخية التي لا يسع الكاتب جملها نواذر الأمور ولطائف الوقائع والمآجريات)

العراقة وشرف الآباء

قَالَ التَّعَالِيُّ ، أَشْرَفَ الْأَنْبِيَاءُ فِي النَّبُوَّةِ يَعْنِي تَوَاصَلَ الْأَبَاءُ فِيهَا يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ ابْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَشَاهَدَ مَاقَالَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ ” الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ “ وَلَا يَخْفَى أَنَّ إِخْوَتَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الرِّتَبَةِ فِي الْعِرَاقَةِ .
أَعْرَقَ الْأَكَّاسَةَ فِي الْمُلْكِ شَيْرُويَهْ بْنُ أَبَرْوِيزَنْ أَرْدَشِيرَ بْنَ بَابَكٍ مُلْكُ ابْنِ مُلْكٍ ابْنِ مُلْكٍ ابْنِ مُلْكٍ .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس في حُجبة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بن أبي خُفافة رضى الله عنهم ، أربعتهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحبوه .

أعرق الخلفاء في الخلافة المتتصر ، بن المتوكل ، بن المعتصم ، بن الرشيد ، بن المهدي ، بن المنصور في آباءه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها . وفي معناه أخواه المعتمد والمعتز ، أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا في الخلافة فإنه لم تمض عليه مدة تعتبر ، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين في جملة الخلفاء .

أعرق الناس في المُلْك والخلافة جميعا باعتبار الأصول والحواشي من الذكور والإناث يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . أما من جهة الخلافة فهو خليفة ، وأبوه خليفة ، وجدّه خليفة ، وجدّ أبيه خليفة ، وعمومته خلفاء . وأما من جهة المُلْك فأمه شاهر بنت فيروز ، بن يزدجرد ، بن شهریار ، وأمها من بنات شيرويه ابن أبرويز ، وأم شيرويه مريم بنت قيصر ، وأم فيروز بنت خاقان ملك الترك .

أعرق الوزراء في الوزارة أبو علي الحسين ، بن القاسم ، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأخوه أبو جعفر محمد بن القاسم ، فإن القاسم وُزِّرَ للمقتدر ومحمد وُزِّرَ للقائم وأباهما القاسم وُزِّرَ للمعتضد ثم للمكتفى بعده ، وعبيد الله وُزِّرَ للمعتضد ، وسليمان وُزِّرَ للمهدي وبعده للمعتد فكل من الحسين ومحمد وزير ابن وزير ابن وزير يعني في آباءه ثلاثة وزراء ، وهو الرابع فيها .

أعرق الناس في القتل عمارة بن حمزة بن مُصعب بن الزبير بن العوام بن خُوَيْلِد ، قُتِلَ عمارة ، وأبوه حمزة جميعا يوم قَدِيد في حرب الإباضية ، وقتل مُصعب بدير الجلائق في الحرب بينه وبين عبد الملك ، وقتل الزبير بوادي السباع في نوبة الجمل ،

وقتل العَوَام في حرب الفَجَّار ، وقُتِل خُوَيْلِد في حرب نُحْرَاعَة . قال الثعالبي ولا يعرف في العرب والعجم سِتَّةً مغبونون في نَسَقٍ واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس في الفقه إسماعيل بن حمَّاد بن أبي حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمام الأعظم .

أعرق الناس في القضاء بلال بن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : كان بلال قاضيا على البصرة ، وأبو بُرْدَة قاضيا على الكوفة ، وأبو موسى قاضيا لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

أعرق الناس في حِجَابَة الخلفاء العبَّاس بن الفضل بن الرَّبيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والرَّبيع حجب المنصور والمهدي ؛ وفي ذلك يقول أبو نَواَس من أبيات :

سَادَ الرَّبِيعُ وَسَادَ فَضْلٌ بَعْدَهُ * وَنَمَتْ بَعْبَاسُ الْكَرِيمِ فُرُوعُ
عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا أَحْتَدَمَ الْوُغَى * وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس في الشعر سعيد بن عبد الرحمن بن حَسَّان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، ستة كلهم شعراء على نَسَقٍ ؛ ثم كانت العَرَّاقَة في الشعر بعده مع زيادة آباء لمتوج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيى ، بن مروان ، بن الحبوب ، بن مروان ، ابن سليمان ، بن يحيى ، بن أبي حفصة : مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ عشرة على نَسَقٍ :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس في الأُمَّة نسبا الحسن والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدَّهما ، والقاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالهما ، وعلي بن

أبى طالب أبوهما ، وفاطمة بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت خويلد جدتهما .

أشرف النساء في النسب والصَّهر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعليّ بن أبى طالب زوجها ، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ الناس في المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوج إليه أربعة من الخلفاء ؛ تزوج الوليد بن عبد الملك بنته عبدة ، وسليان بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيد بن عبد الملك بنته أمّ سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رقية : قال الثعالبي ولا يُعرف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأة ولّدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وطلحة والزبير ؛ وهي حفصة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المديّج ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بن عروة بن الزبير ، وأم عروة أسماء بنت أبى بكر ، وأمّ المديّج فاطمة بنت الحسين بن عليّ ؛ وأمّ الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمّ فاطمة بنت الحسين أمّ إسحاق بنت عبيد الله ؛ وأمّ عبد الله بن عمرو زينب بنتُ عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فهي من ولد كل من المذكورين .

أربع نسوة في الإسلام ولدت كل واحدة منهنّ خليفتين ؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدت الحسن والحسين ، وقد بُرِّع لهما بالخلافة ؛ وولادة بنت العباس العبّسية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدت له الوليد وسليان ؛ وهما

خليفتان؛ وساهر بنت فيروز بن يزدجرد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيد وإبراهيم فوليا الخلافة، والخيزران ولدت للمهدي موسى الهادي وهارون الرشيد .
 امرأة لها اثنا عشر محرما كل منهم خليفة ، وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ،
 يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبي سفيان جدّها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، وعبد الملك
 ابن مروان زوجها ، ومروان بن الحكم حموها ، ويزيد بن عبد الملك أبنها ، والوليد^(١)
 وسليمان وهشام أبناء عبد الملك أولاد زوجها .

ومثلها من بنى العباس زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، جدّها المنصور ، وأخو
 جدّها السفّاح ، وزوجها الرشيد ، وعمّها المهدي ، وأبنا الأمين ، وأبناء زوجها المأمون
 والمعتصم والواثق والمتوكل .

خليفة سلم عليه بالخلافة عمّه وعم أبيه وعم جدّه ، وهو هارون الرشيد سلم عليه
 سليمان بن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه المهدي ، وعبد الصمد بن علي عم
 جدّه أبي جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم ابن خليفة ، وهو المتوكل ، سلم عليه
 أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليمان بن المأمون ، وعبد الله بن الأمين ،
 وأبو محمد بن الرشيد ، والعباس بن الهادي ، ومنصور بن المهدي^(٢) .

خليفة قبل هو وأبنه يد خليفة فأجاز أبنه بجائزة ثم قبل المقبلة يدّه هو وأبنه يد
 المقبل أولا وهو خليفة فأجاز أبنه بمثل تلك الجائزة ، وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم
 ابن المهدي أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبل يده ثم أدنى منه أبنه هارون فقبل
 يده ، وقال يا أمير المؤمنين عبدك هارون آخى فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما

(١) المحدود تسعة فقط وكذا في المثل بها فتنه .

(٢) كذا في الأصل .

أَسْتُخْلِفَ المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدي ثم ترجل في ذلك الموضع بعينه وقبل يده وأدنى منه آبنه هبة الله فقبل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين عبدك هبة الله آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامن أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقين من شهر ربيع الأول ومن ثم سمي المثنى .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقس ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ، وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن آبن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ، وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلف فيها الرشيد ، ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما آبن الآخر بين قبريهما بُعد كبير ، وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطوس وقبر المأمون بطرسوس .

خليفة ركب البريد ؛ وهو موسى الهادي ، مات أبوه المهديّ وهو نائبه على جرجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدَة والقضيب فركب البريد وأتى إلى بغداد بعد ثلاثة عشر يوما من موت المهديّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفان اسم كل منهما جعفر قتل كل منهما في يوم الأربعاء وهما المتوكل والمقتدر .

خليفة وليّ الخلافة ستين سنة متوالية ؛ وهو المستنصر بالله الفاطميّ خليفة مصر على أن الثعالبيّ في "لطائف المعارف" قال استقرّت ولاية معاوية بن أبي سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوما أو بعض يوم ، هو عبد الله بن المعتز ، بويع بعد خلع المقتدر ، فلما كان من الغد حاربه غلمان المقتدر وعاونهم العامة فهرب وأختفى ثم ظفربه .

أربعة إخوة ولي كل منهم الخلافة ، وهم الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حتى سوى أبي بكر الصديق والطائع لله وكلاهما اسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة من أبواه هاشميّان سوى الحسن بن عليّ من فاطمة ومحمد الأمين ابن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من اسمه العباس سوى أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس بن المتوكل على الله محمد خليفة العصر ، على كثرة هذا الاسم في أولاد الخلفاء العباسيين وكونه اسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرني أمير المؤمنين المستعين

المشار إليه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشيخ بدر الدين البهنسى بمكة المشرفة، رأى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل على الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .

وسياتى ذكر ذلك فى الكلام على العهد الذى أنشأه قبل ولايته الخلافة بنحو ثمان سنين أمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى : الناس يرون أن كل سادس يقوم بأمر الدين منذ أول الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن نخلع . ثم معاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله ابن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فالقى . ثم كانت الدولة العباسية فكان السفاح، والمنصور، والمهدى، والهادى، والرشيد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمتصم، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، والمكشفي، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم رد إلى الخلافة ثم قتل، ولم يعتد بخلافة ابن المعتز لخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النديم" والثعالبي فى "لطائف المعارف" : ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتنى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاكو عند آستيلائه على بغداد . قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدى لا يليق بمثله فإنه أسقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين ابن نباتة في تاريخ الخلفاء أنهم لما بايعوا المستنصر المذكور خلعه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحيدةً فيكون من بعد المستنصر المستعصم المذكور ثم المستنصر أحمد ، الذي أتى به الظاهر بيبرس وتوجه إلى الديار المصرية ، ثم الحاكم أحمد ، ثم ابنه المستكني سليمان ، ثم ابنه المستعصم أحمد ، ثم الواثق ، إبراهيم نخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكني ، ثم ابنه المتوكل ، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر ، ثم المستعين أبو الفضل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالى أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدي : وكذلك العبيديون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور ، والمُعزُّ باني القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزیز ، والحاكم قتلته أخته . ثم الظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر نخلع وقتل ؛ ثم الفائز ، والعاقد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب في ملك مصر أولهم صلاح الدين ، ثم ولده العزيز ، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين ، والعاقل الكبير أخو صلاح الدين ، والكاظم ولده ، والعاقل الصغير نخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدين أيوب ، ثم المعظم توران شاه ، ثم أم خليل شجرة الدر ، ثم الأشرف موسى وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أولهم المعز أيك ، وابن المنصور ، والمظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، وابن السعيد برقة ، وأخوه العادل سلامش نخلع ، وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم ابنه الأشرف خليل ، ثم المعظم بيدرا ولم يعتد به لخلعه من يومه كما لم يعتد بابن المعتز في الخلفاء ، ثم الناصر محمد بن قلاوون ، ثم العادل كتبغا ، ثم المنصور لاجين ، ثم المظفر بيبرس الجاشنكير نخلع ، ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد ، ثم الأشرف بكك ابن الناصر محمد ، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد ، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجى بن الناصر محمد نخلع ، ثم الناصر حسن بن الناصر محمد ، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد ، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجى ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم آبنه المنصور على ، ثم الصالح حاجى بن الأشرف شعبان نخلع ، ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثانى والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلْك وهو فى بطن أمه ، وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقدوا التاج على رأس أمه على أن يكون من فى بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملَّكوه .

ثلاثة من ملوك فارس آبن وأب وجدّ أسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ، ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الشعاليّ : وهذا التناسق لا يقع إلا فى الأكابروالرؤساء وقد جاء من هذا النمط فى سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أول أسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أول أسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثانى أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتل أبا مسلم الخراسانى وأسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن على وعبد الجبار بن عبد الرحمن والى خراسان .

قال الشعاليّ : أربعة فى الإسلام قتل كل واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراسانى ، وبابك ، والبرقي .

قلت : وقد وقع لتيemor كور كان المعروف بتمرنك صاحب ما وراء النهر على رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك ، فإنه قد فتح من الهند إلى الخليج القسطنطيني ، وقتل من كل إقليم من الخلق ما لا يحصى حتى كان يبنى بالرؤوس في كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسراة الناس

ثلاثة بنو أعمام في زمن واحد ، كل منهم سيد جليل ، لم يصلح للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ابن اسمه محمد كذلك ، وهم علي بن عبد الله بن عباس وأبنة محمد وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأبنة محمد ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وأبنة محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق في العالم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وأبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العاص وأبنة عبد الله كان بينهما في السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبي ولا يعهد مثل ذلك . أخوان تباعد ما بينهما في السن تباعدا شديدا وهما موسى بن عبيدة الربدى المحدث^(١) وأخوه عبد الله كان بينهما في السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك في غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسن من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبي طالب كان طالب أسن من عقيل بعشر سنين ، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسن من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا في سنة واحدة وقتلوا في يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة ، وهم زيد ، وزيد ، ومدرِك أولاد المهلب بن أبي صفرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) في الأصل الزبيرى وهو تصحيف عن الربدى كما يعلم من الخلاصة للزرجى .

رجل مكث عشر سنين لا يولد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلب
ابن أبي صفرة في غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال في الإسلام لم يمت كل منهم حتى رأى من ولده وولد ولده أكثر
من مائة فيما قاله الثعالبي وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وخليفة بن براء السعدي ، وعبد الرحمن بن عمر الليثي ، وجعفر بن سليمان
الهاشمي ؛ ومنهم من يذكر بده أبا بكره مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشد تباعد ، وهم بنو العباس بن عبد المطلب قبر
عبد الله بالطائف ، وقبر عبيد الله بالمدينة ، وقبر معد بأفريقية ، وقبر الفضل بالشام ،
وقبر قثم بسمرقند .

فاض قضى في الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكندي
استقضاه عمر على الكوفة فبقى بها خلافة عمر وما بعدها إلى تمام المدة المذكورة لم
يتعطل منها سوى ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

”من كان من الخلفاء أصلع“ قال الثعالبي : كان الصلح في عمر ، وعثمان ، وعلي ،
ومروان بن الحكم ، وعمر بن عبد العزيز ؛ قال ثم أقطع الصلح من الخلفاء .

”من كان في غاية الطول“ ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنه راكب
والناس يمشون لطوله ؛ وكان عدي بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط في الأرض ؛
وكذلك جرير بن عبد الله البجلي ، وكان قس بن ساعدة في نهاية الطول والجسام ،
وكان عبد الله بن زياد إذا رآه الرأي وهو ماش ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان
علي بن عبد الله بن عباس في غاية من الطول ، وكان أبوه عبد الله أطول منه ، وجده

العباس أطول من أبيه ؛ ويقال إن جبلة بن الأيهم الغساني كان طوله اثني عشر شبرا .

”من كان في غاية القصر“ قال الثعالبي : كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه شديد القصر يكاد الجُلوس يوازونه من قصره ؛ وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دحداحا ، وكان الحطيئة الشاعر مُفَرَط القصر ، ولذلك لُقِّب بالحُطَيْيَّة ، وكان ذو الرِّمَّة الشاعر قصيرا جدًّا ؛ ورأيت في بعض التواريخ أن كثيرَ عزة كان طوله ثلاثة أشبار ؛ وكان العباس بن الحسن في غاية من القصر وفيه قيل :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ * وَأَنْظُرْ إِلَى الْفَضْلِ وَالْمُجَدِّ الَّذِي شَادَا
إِنَّ النُّجُومَ نَجُومَ الْجَوِّ أَصْغَرُهَا * فِي الْعَيْنِ أَبْعَدُهَا فِي الْجَوِّ إِصْعَادَا

”من عُرف بالدهاء من العرب“ معاوية بن أبي سفيان ، زياد ابن أبيه ، عمرو بن العاص ، المغيرة بن شعبه ، قيس بن سعد بن عبادة ، عبد الله بن بديل الخزاعي .
”من نُسِبَ منهم إلى الحق“ عامر بن كرّيز ، معاوية بن مروان بن الحكم ، بكار ابن عبد الملك بن مروان ، العاص بن هشام ، عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان ، سهيل بن عمرو وأخوه سهيل ، العاص بن سعيد بن العاص .

”المؤلفة قلوبهم في أول الإسلام“ قال الثعالبي : هم من قرّش أبو سفيان ابن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وهبّار بن الأسود ، والحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وصفوان بن أمية ، وأنس بن عدى . ومن فزارة عيينة بن حصن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سليم العباس بن مرداس . ومن ثقيف العلاء بن الحارث .

”من أصيبت عينه“ أبو سفيان بن حرب ، ذهب عينه يوم الطائف ثم عمي بعد ذلك . الأشعث بن قيس ، ذهب عينه يوم اليرموك ، المغيرة بن شعبه كذلك .

الأشتر النخعي جُرير بن عبد الله البجليّ، عدى بن حاتم، عتبة بن أبي سفيان، المختار
أبن أبي عبيد، الأحنف بن قيس، المهلب بن أبي صفرة، طاهر بن الحسين، عمرو
أبن الليث الصفار.

”من سُمِلَتْ عيناه من الخلفاء والملوك“ أما من الخلفاء فالقاهر، والمتقى،
والمكتفي، وأما من الملوك فهُرْمُز بن أنوشروان أحد الملوك الأكاسرة، صمصام
الدولة بن بويه، منصور بن نوح بن منصور الساماني.

”من كان مكفوف البصر من أشرف الناس“ زُهْرَة بن كلاب بن كعب،
عبد المطلب بن هاشم، العباس بن عبد المطلب، الحَكَم بن العاص، أبو سفيان بن
حرب، الحارث بن العباس بن عبد المطلب، مُطْعِم بن عدى بن نَوْفَل بن
عبد مناف، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة، عتبة بن
مسعود الهذلي، عبد الله بن عبيد الله بن عتبة، أبو أحمد بن بَحْش بن مسعود
الأسدي، جابر بن عبد الله الأنصاري، عبد الله بن أرقم، البراء بن عازب، حسان
ابن ثابت، أبو أسيد الساعدي، قتادة بن دَعَامَة، دُرَيْد بن الصَّمَّة الجُشَمي، عزيمة
ابن نَوْفَل الزُّهري، الفاكه بن المغيرة المخزومي، جذيمة بن حازم النهشلي، أبو العباس
الشاعر، علي بن زيد بن جُدعان، المغيرة بن مِقْسَم الضبي، الترمذی الكبير الحافظ
الفقيه، منصور الشاعر المصري، ابن سيده اللغوي، أبو العلاء المعري، بَسَّار بن
بُرْد، أبو البقاء العُكْبَرِي، أبو العيْناء هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي،
أبو القاسم السَّمِيلِي صاحب الروض الأُنْف، أبو القاسم الشاطبي، الصرصري
الشاعر، أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري، أبو عبد الله بن خَلْصَة المغربي
النحوي، أبو عبد الله بن الخياط.

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنف . ومن ملوك الفرس أنوشروان كان أعور، يزدجرد كان أعرج . ومن ملوك العرب جذيمة الوضاح، كان أبرص، النعمان ابن المنذر، كان أحمر العينين والشعر . ومن الخلفاء عبد الملك بن مروان أنجر، يزيد ابن عبد الملك أققم، هشام بن عبد الملك أحول، مروان الحمار أشقر أزرق، موسى الهادي شفته العليا متقلصة، حتى كان أبوه المهدي قدرتب له خادما يلازمه متى غفل وفتح فاه قال: موسى أطبق، إبراهيم بن المهدي كان أسود سمينا يلقب بالتنين . ومن أشراف قریش وغيرهم أبو طالب أعرج، وأبو جهل أحول، أبو لهب كذلك، وكذلك زياد، وعدى بن زيد . الأحنف بن قيس، أحنف متراكب الأسنان، صعل الرأس، مائل الذقن . والربيع بن زياد أبرص، وكذلك الحارث بن حنظلة، وأيمن بن حريم، والحسن بن حنظلة، وكان عبيدة السلماني أصم، وكذلك ابن سيرين والكبيش الشاعر، والمرقش الأكبر الشاعر أجده .

أصحاب النوادر

ابن أبي عتيق، أشعب الطمع، أبو الغصن جحا، أبو العبر، أبو العنابس، ابن الحصص مزيد المدني .

أجواد الإسلام

عبيد الله بن عباس بن عبد المطاب، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، عبد الله بن عامر بن كرز، حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام، عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، خالد بن عبد الله

(١) في العقد الفريد اسم الجواد عبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، عتاب بن أبي
ورقاء الحنظلي ، أسماء بن خارجة بن حصن بن بدر الفراري ، عبد الله بن أبي بكرة
مولي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطلحات المعروفون بالجود

طلحة الفيّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحد العشرة ؛ وطلحة الجود — وهو
طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله
ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علي
أبي طالب ؛ وطلحة الندى — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ؛ وطلحة
الطلحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وزمعة ^(١)
ابن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن
مغزوم : سُموا بذلك لأنهم لم يترود معهم أحد في سفر قط لجودهم .

من أشهر عند أهل الأثر بقلبه

غسيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبي عامر الأنصاري أصيب يوم أحد فأخبر
النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غسلته . قاتل الجن ، هو سعد بن عبادة ،
بال في مجرقتله الجن . مصاغ الملائكة ، هو عمران بن حصين . حمى الدبر ، هو
عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، حتمه النحل إلى أن كان الليل . ذو الشهادتين هو
خزيمة بن ثابت الأنصاري ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دين اليهودي
حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه وفاه ، اعتمادا على خبر النبي صلى الله عليه

(١) في الأصل مسلمة و ربيعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وسلم ، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليمين هو عبيد بن عبد عمرو الخزاعيّ كان يعمل بيديه معا . ذو العِمامة ، هو أبو أُحِيحة سعيد بن العاص بن أمية ، كان إذا لبس عمامته لم يلبس قرشيّ عمامته حتى يترعها . ذو الثُدَيّة ، كانت إحدى يديه مُحَدّجة كالثدي ، كان رأس الخوارج . ذو الثِفَنَات ، كان يقال ذلك لعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، ولعليّ بن عبد الله بن عباس لما على أعضاء السّجّادات منهما من شبه ثِفَنَات البعير . ذو السِّيفين ، هو أبو الهيثم ابن التّيّهان ، سمي بذلك لتقلّده في الحرب بسيفين . سيف الله ، هو خالد بن الوليد . أسدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النّطّاقين ، هي أسماء بنتُ أبي بكر ، سميت بذلك لأنها شَقَّتْ نِطَاقَهَا للسُّفرة في الليلة التي هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأبوها إلى المدينة . عُرْوَةُ الصَّعَالِيك ، هو عُرْوَةُ بن الوَرْد ، كان إذا شكا إليه أحد أعطاه فرسا ورُحْما وقال له : إِنْ لم تستغنِ بذلك فلا أغناك الله . سُلَيْك ^(١) المَقَانِب ، هو سُلَيْك بن سُلَيْكَة ، كان أعدى الناس حتى إن الفرس لا يُدْرِكُه . طَفِيلُ الأعراس ، رجل من غَطَفَان ؛ وقيل هو من مَوَالِي عُثْمَانَ بن عفّان رضي الله عنه ، كان يتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوَةٍ وإليه تنسب الطُّفَيْلِيَّة . أشجُّ بن أمية هو عمر بن عبد العزيز . جبار بن العباس هو هارون الرشيد : لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسّروج والنبم الفِضّة ، وأغزى عليّ بن عيسى بن ماهان بلاد التّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هِرَقْلَة ، وأخذ الجزية من ملك الروم . بنات طارق ، هن بنات العلاء بن طارق بن أمية بن عبد شمس ؛ سُمّين بِجَدّهنّ ، يضرب بهنّ المثل

(١) في الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان في مادة س ل ك .

في الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ؛ يُضرب بهنّ
المثل في الحُسْنِ وغلُو المهر .

من كان فردا في زمانه بحيث يضرب به المثل في أمثاله

كان الإسكندر ، في طَوْفان الأرض ، وكسرى أنوشروان ، في العدل ، وزرقاء
اليمامة ، في حِدّة النظر ، وحاتم الطائي ، في الكرم ، وكعب بن مامة ، في الإيثار ،
وارسطاطاليس ، في الحكمة ، وبقرات ، في الطب ، وقس بن ساعدة ، في الفصاحة ،
وسحبان وائل ، في البلاغة ، وعمرو بن الأهتم ، في البيان ، وباقل ، في العي ، وأبو بكر
الصدّيق رضي الله عنه ، في معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في قوّة
الهيبة ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه ، في التّلاوة ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله
عنه ، في القضاة ، ومعاوية ، في كثرة الاحتمال ، وأبو عبيدة بن الجراح ، في الأمانة ،
وأبو ذر ، في صدق اللّهُجة ، وأبيّ بن كعب ، في القرآن ، وزيد بن ثابت ، في الفرائض ،
وآبْنُ عباس ، في تفسير القرآن ، وعمرو بن العاص ، في الدّهاء ، وأبو موسى الأشعريّ ،
في سَلَامَة الباطن ، والحسن البصريّ ، في الوعظ والتذكير ، ووهب بن منبه ،
في القصص ، وآبْنُ سيرين ، في تعبیر الرؤيا ، ونافع ، في القراءة ، وأبو حنيفة ، في القياس
في الفقه ، وآبْنُ إسحاق ، في المغازی ، ومقاتل ، في التّأويل ، والكلبيّ ، في قصص القرآن ،
وآبْنُ الكلبيّ الصغير ، في النسب ، وأبو الحسن المدائنيّ ، في الأخبار ، ومحمد بن جرير
الطبريّ ، في علوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، في العروض ، وفُضَيْل بن عياض ، في العبادة ،
ومالك بن أنس ، في العلم ، والشافعيّ ، في فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، في الغريب ، وعليّ
آبْنُ المدينيّ ، في علل الحديث ، ويحيى بن معين ، في رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ،
في السنة ، والبخاريّ ، في نقد الصحيح ، والجنيد ، في النّصوّف ، ومحمد بن نصر المروزيّ ،

في الاختلاف، وأبو علي الجبائي، في الاعتزال، وأبو الحسن الأشعري، في علم الكلام،
 وأبو القاسم الطبراني، في عوالي الحديث، وعبد الرزاق، في آرتحال الناس إليه، وآبن
 منده، في سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، في سُرعة القراءة، وآبن حزم، في مذهب
 الظاهر، وسيبويه، في النحو، وأبو الحسن البكري السيري، في الكذب، وإياس بن
 معاوية، في الذكاء والتفترس، وعبد الحميد، في الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخراساني،
 في علو الهمة والحزم، وإسحاق الموصلي النديم، في الغناء، وأبو الفرج الأصفهاني
 صاحب الأغاني، في المحاضرة، وأبو معشر، في النجوم، والرازي، في الطب، وعمار بن
 حمزة، في التيه، والفضل بن يحيى، في الجود، وجعفر بن يحيى، في التوقيع، وآبن
 زيدون، في سعة العبارة، وآبن القرية، في البلاغة، والجاحظ، في الأدب والبيان،
 والحري، في المقامات، والبديع الهمداني، في الحفظ، وأبونوأس، في المجون والخلاعة،
 وآبن حجاج الشاعر، في سُخف الألفاظ، وانتنبى، في الحكم والأمثال شعرا، والزنجشري،
 في تعاطي العربية، والنسفي، في الجدل، وجرير الشاعر، في الهجاء الخبيث، وحماد
 الراوية، في شعر العرب، والاحنف بن قيس، في الحلم، والمأمون، في حُب العفو،
 والوليد، في شرب الخمر، وعطاء السلمي، في الخوف من الله تعالى، وآبن البواب،
 في الكتابة، والقاضي الفاضل، في الترسل، والعياد الكاتب، في الجناس، وأشعب،
 في الطمع، وأبو نصر الفارابي، في معرفة كلام القدماء ونقله وتفسيره، وحنين بن
 إسحاق، في ترجمة اليوناني إلى العربي، وآبن سينا، في الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام
 نغر الدين الرازي، في الأطلاع على العلوم، والجاحظ في سعة العبارة، والسيف
 الأميدي، في التحقيق، والنصير الطوسي، في معرفة المجسطي، وآبن الهيثم، في الرياض
 ونجم الدين الكاتبي، في المنطق، وآبن الأعرابي، في الأطلاع على اللغة، وأبو العيناء،
 في الأجوبة المسكتة، ومزید، في البخل، والقاضي أحمد بن أبي دواد، في المروءة

وحسن التقاضى ؛ وآبن المعتز ، فى التشبيه ، وآبن الرُومى ، فى التطير ، والصولى
فى الشَّطرنج ، والغزالى ، فى الجمع بين المعقول والمنقول ، وآبو الوليد بن رُشد ، فى تلخيص
كتب الأقدمين الفلسفية والطبية ، ومحيى الدين بن عربى ، فى علوم التصوف ، وجابر
ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب اتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِدَ النّبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، وبعث يوم الاثنين ،
وهاجر يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين .

اتفاقية أخرى — قَتَلَ عبدُ الله بن زياد الحسين بن علىّ عليهما السلام يوم
عاشوراء ، وقتله الله على يد إبراهيم بن الأستر فى يوم عاشوراء .

أخرى — قال عبد الملك بن عمير الليثى : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس
الحسين بن علىّ بين يدى عبد الله بن زياد على ترُس ، ثم رأيت فيه رأس عبد الله
آبن زياد بين يدى المختار بن أبى عبيد ، ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدى مُصعب
آبن الزبير ، ثم رأيت فيه رأس مُصعب بين يدى عبد الملك بن مروان . قال :
فحدثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدثنى الحسين بن يحيى الكاتب أنه لما ولى المعتز لم
تمض مدة لطيفة حتى أحضر الناس وأنُحِرَ المؤيد ^(١) وقيل أشهدوا أنه دُعِيَ فأجاب ،
وليس به أثر ، ثم مضت مدة شهر فأحضر الناس وأنُحِرَ المستعين وقال : إن منيته
أتت عليه ، وها هو لا أثر به فأشهدوا ، ثم خلع المعتز ، وأستخلف المهتدى ، ولم
يمض إلا مديدة حتى أُنُحِرَ المعتز ميتا وقال : أشهدوا ، أنه قد مات حتف أنفه

ولأثر به ، ثم لم تكمل السنة حتى استُخلف المعتمد فأُخرج المهتدى مينا وقال : اشهدوا أنه قد مات حتف أنفه من جراحته ، فتعجب الناس من تلاخُطهم في مدة يسيرة .
 عبرة — مات المكتفى بالله عن مائة ألف ألف دينار ، ولما غُسل لم توجد بحجرة ينخر فيها إلا بحجرة من خرف أحمر ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة .
 قال أحمد بن أبي دواد : لقد شددت لحي المأمون ، والمعتمد ، والواثق ، بعد موتهم فلم أجد خرقه أشد بها لحي واحد منهم إلا ما أخرقه من الدراريح التي تكون على .
 لطيفة — في سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد برّد فاضل سهام المواريث على ذوى الأرحام ، وأبطل ديوان المواريث ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

لطيفة — في سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بغرق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفظ الناس من ذلك فقلّت الأمطار حتى استسقوا ببغداد مرّات .

غريبة — ذكر ابن سينا في المقالة الأولى من كتابه الشفاء أنه نزل بجرّجان صاعقة من الهواء فنشبت في الأرض ، ثم نبت نبوة الكرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفروا عليها فإذا هي قطعة من حديد تقدير مائة وخمسين مترا ، وهي أجزاء جاورشيّة صغار مستديرة ، التصق بعضها ببعض ، فكتب محمود بن سبكتكين ، صاحب خراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثقله فحاولوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات ، فعُوج كسره فقطع منه قطعة لطيفة ، وحملت إليه فرام أن يطبع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى — في سنة إحدى عشرة وخمسمائة جاء سيل عظيم فغرق مدينة سنجان من بلاد الجزيرة ، وهدم المنازل ، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكى

أن السيل حمل مَهْدًا فيه صبيّ صغير فتعلق المهدي بشجرة زيتون ، وغاض الماء ، وبقى المهدي معلقا بالشجرة فسلم الصغير .

أعجوبة — في سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وقَلَسِطِينَ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ ، طلع فيها الماء من رءوس الآبار ، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم ، فزل الناس إلى أرض البحر يلتقطون ما آنكشف البحر عنه مما في أرضه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ خربت شيزر ، وحماة ، وحمص ، وحصن الأكراد ، وطرابلس وأنطاكية ، وغيرها من البلاد التي حولها ، ووقعت الأسواق والقلاع حتى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة .

فائدة — في سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتفى الخليفةُ باب الكعبة ، وعمل عوضه بابا مصفحا بالفضة المذهبة ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا ليُدْفَنَ فيه .

نادرة — في سنة خمس وستين وسبعمائة وقع نُلُجٌ عَظِيمٌ بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بَعُكْبَرَاءَ وما حولها .

أخرى — في سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وأمتد من مكة إلى الشام ، وعظم بحورَاتٍ حتى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصبغة والقماش ، وسدّت أعين الماء خوفا من أن يفسدها ، وكان من شأنه بَعَجُلُونَ أنه امتلأت منه المدينة وغُلّقت الأسواق ، وطُبِّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسدّت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فمأوا عليهم الجامع ، وترامى على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة ، وكذلك حير الناس حتى خرجوا من الجامع يُحِبُّون فيه خبا إلى الركب ، وأتنت لكثرة ما قتل منه حتى صار أهل البلد يسمون القطران ليغطي رائحته ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ .

أخرى — في سنة اثنتين وسبعين وسبعائة رأى أهل الشام في السماء بعد مغيب الشفق حمرة عظيمة من جهة الشمال ، ثم اشتدت الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة وانتشرت في السماء حتى كاد يغطي ثلثها ، وعم بلاد الشام حتى كان يدمشق ، وبعلبك وحلب ، وقاقون ، والرملة ، والقدس ، وطرابلس ، حتى خاف جميع أهل هذه البلاد على أنفسهم الهلاك ، وضرعوا إلى الله تعالى ، وأبتهلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر في سنة اثنتي عشرة وثمانائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتى داخلني منه أنه عذاب قد صبَّ على الناس ، ثم آنقش بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجمله فوقائع الدهر وعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

وَاللَّيَالِي كَمَا عَلِمْتَ حَبَالِي * مُقَرَّبَاتٌ يَلْدَنَ كُلُّ عَجِيبٍ

المقصد الثاني

(في وجه بيان استعمال الكاتب ذلك في خلال كلامه)

لا يخفى أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدمين وسيرهم ، وأخبارهم ، ومن برع منهم ، صار عنده علم بما لعله يسأل عنه ، وأعتداد لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتاج عليه به من صورة قديمة : ليكون على يقين منها ، مع ما يحتاج إلى إيرادها في خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حسن الاحتجاج بذكره في أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الهمداني إلى أبي الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر في مجلسه فقال : إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه ، وعقنا ،
وشمخ بأنفه عنا ، والحمد لله على فساد الزمان ، وتغير نوع الانسان . فكتب إليه :
” نعم أطل الله بقاء الشيخ الإمام ، إنه الحمأ المسنون ، وإن ظننت الظنون ؛
والناس لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم ، وأرتكبت الأضداد ، وأختلط الميلاد .
والشيخ يقول فسد الزمان ، أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية ، وقد
رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة الروانية ، وفي أخبارها ” لا تكسع الشول
بأغبارها ؟ “ أم السنين الحربية ، والسيوف يعمد في الطلا ، والرُح يركز في الكلا ،
وميت حجر في الفلا ، والحرتان وكر بلا ، أم البيعة الهاشمية ، وعلى يقول : ليت العشرة
منكم براس ، من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية ، والتغير إلى الحجاز ، والعيون إلى
الأعجاز ؟ أم الإمارة العدوية ، وصاحبها يقول : وهل بعد البرؤل إلا التزول ؟
أم الخلافة التيمية ، وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأاة الإسلام ؟ أم على عهد
الرسالة ويوم الفتح قيل أسكتي يافلانه ، فقد ذهبت الأمانه ؟ أم في الجاهلية
وليد يقول :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَافِهِمْ * وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ يَحْلِدُ الْأَجْرِبُ .

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نُحِبُّهَا * إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانُ .

أم قبل ذلك ، ويروى لآدم عليه السلام :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا * فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُسَوِّدٌ قَبِيحُ !

أم قبل ذلك والملائكة تقول : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ؟

وما قسد الناس ، ولكن أطرده القياس ؛ ولا ظلمت الأيام ، إنما امتد الإظلام ؛ وهل

يفسُد الشيء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ، ولعمري ! لئن كان كرم
العهد كتابا يرد وجوابا يصدرُ لانه لقريب المثال ، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه ،
شفيق على بقاءه ، منتسب إلى ولائه ، شاكر لآلائه .

والغاية القصوى فى ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليد بن زيدون"
رحمه الله على لسان محبوبته ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلى إنسان
استمالها عنه إلى نفسه وهى :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلظه ، العاثر
فى ذيل أغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الدباب ، على الشراب ،
المتهافت تهافت القراش فى الشهاب ، فإن العجب أ كذب ، ومعرفة المرء نفسه
أ صوب ، وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا
من خلتي لما قدعت فيه أنوف أشكالك ، مرسلا خيلتك مرثاه ، مستعملا
عشيقتك قواده ، كاذبا نفسك فى أنك ستزل عنها إلى ، وتخلف بعدها على :

وَلَسْتُ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ * دَعْتُهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ !

ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك ، وملتك إذ لم تفر عليك ، فإنها أعذرت
فى السفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ،
والإنسانية أسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة أنك أنفردت بالجمال ، وأستأثرت
بالكمال واستعليت فى مراتب الخلال ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك
فغصصت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسالت عنه ، وأن قارون أصاب بعض
ما كترت ، والنطف عثر على فضل ماركرت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقصر رعى
ماشيتك ، والإسكندر قتل دارا فى طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم
عن جماعتك ، والضحاك أستدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ويشيرين

قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ؛ وأن مالك بن نويرة إنما أردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك ؛ وكليب بن ربيعة إنما حى المرعى بعزتك ، وجساسا إنما قتله بأنفك ، ومهلهلا إنما طلب ثأره بهمتك ؛ والسموعل إنما وفى عن عهدك ، والأحنف إنما آحتبى فى بردك ؛ وحاتم إنما جاد بوفرك ، ولقى الأضياف بيشرك ؛ وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذيك ، والسليك بن السليكة إنما عدا على رجلبك ؛ وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنّة بيدك ؛ وقيس بن زهير إنما استعان بدهاك ، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ؛ وسحبان وائل إنما تكلم بلسانك ، وعمر بن الأهتم إنما سحر ببيانك . وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك ، والحمالات فى دماء عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك ؛ وأن أحتيال هريم لعامر وعلقمة حتى رضيا كان عن إشارتك ، وجوابه لعمر ، وقد سألته عن أيهما كان ينقر وقع بعد مشورتك ؛ وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجذك ، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك ؛ والمهلب أوهن شوكة الأزارقة بأيدك ، وأفسد ذات بينهم بكيدك ؛ وأن هرمس أعطى بيلينوس ما أخذ منك ، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما حدث عنك ؛ وبطليموس سوى الإصطراب بتديرك ، وصور الكرة على تقديرك ؛ وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ؛ وكلاهما قلّدك فى العلاج ، وسألك عن المزاج ؛ وأستوصفك تركيب الأعضاء ، وأستشارك فى الداء والدواء ؛ وأنت نهجت لأبى معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ؛ وأعطيت النظام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت للكيندى رسما استخرج به الدقائق ؛ وأن صناعة الألحان اخترعك ، وتأليف الأنقار توليدك وأبتدأك ؛ وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أفلامك ، وسهل بن هارون مدون كلامك ؛ وعمر بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ؛ وأنت الذى

أقام البراهين ، ووضع القوانين ؛ وحدّ الماهية ، وبين الكيفية والكيفية ؛ وناظر
 في الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ؛ وحلّ المعنى ، وفصل بين الأسم
 والمسمى ؛ وضرب وقسم ، وعدل وقوم ؛ وصنف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظرف
 والحال ؛ وبني وأعرب ، ونفى وتعجب ؛ ووصل وقطع ، وثنى وجمع ؛ وأظهر
 وأخمر ، وأبدأ وأخبر ؛ وأسْتفهم وأهمل ، وقيد وأرسل ؛ وأسند وبحث ، ونظر
 وتصفح الأديان ، وزجّج بين مذهبي ماني وغيلان ؛ وأشار بذبح الجعد ؛ وقتل بشار
 ابن بُرد ؛ وأنك لو شئت تحرّقت العادات ، وخالفت المعهودات ؛ فأحلت البحار
 عذبه ، وأعدت السّلام رطبه ؛ ونقلت غداً فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت
 خمسا ؛ وأنك المقول فيك "كلّ الصيد في جوف الفراء" ، والمقول فيك :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمَسْتَنَكِرٍ * أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

والمعنى بقول أبي تمام :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَرِدْهَا * عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ

والمراد بقول أبي الطيّب :

ذَكَرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً * كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْتَاهَا

فكدمت في غير مكدم ، وأسستمننت ذا ورم ، وففخت في غير ضررم ، ولم تجد لرمح
 مهزّا ، ولا لشفرة محزّا ، بل رضيت من الغنيمة بالإياب ، وتمنت الرجوع بخفي
 حنين ، لأنني قلت لها :

* لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ *

وأنشدت :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبَ

ونخرت وكفرت ، وعبست وبسرت ، وأبدأت وأعدت ، وأبرقت وأرعدت ،

وَهَمَّتْ ولم أفعل ، وَكِدْتُ وليتني ، ولولا أن للجوار ذِمَّةً ، وللضيافة حُرمة ، لكان الجواب في قَدَالِ الدُّمُسْتَقْ ؛ والنعل حاضرة إن عادت العُقْرُب ، والعُقوبة ممكنة إن أصرَّ المذنب ؛ وهَبْها لم تلاحظك بعين كيلة عن عيوبك ملؤها حببها وحسن فيها من تود ؛ وكانت إنما حلتك بجلاك ، ووسمتك ، بسياك ، ولم تُعرك شهادة ، ولا تكلفت لك زياده ؛ بل صدقت سن بكها فيما ذكرته عنك ، ووضعت الهناء مواضع الثَّقب فما نسبته إليك ؛ ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمُعَيَّدَى تسمع به خير من أن تراه ، هجين القَدال ، أرعن السَّبال ، طويل العنق والعلاوه ؛ مُفْرِط الحُجق والغباوه ؛ جافى الطبع ، سيئ الإجابة والسمع ، بغيض الهيئه ، سخيף الذَّهاب والحيئه ، ظاهر الوسواس ، مُتَنِّ الأنفاس ؛ كثير المعاييب ، مشهور المثالب ؛ كلامك متمم ، وحديثك غمغمه ؛ وبيأنك فَهَفَهه ، وضحكك قَهَقَهه ، ومشيك هروله ، وغناك مسأله ، ودينك زندقه ، وعلمك مخرقه :

مَسَاوِ لو قِسْمَنَ عَلَى الْغَوَانِي * لَمَّا أُمْهِرَتْ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

حَتَّى إن بَاقِلًا موصوفًا بالبلاغة إذا قُرِنَ بك ، وَهَبَقَّةً مستحقًا لَأَدَمَ العقل إذا أُضِيفَ إليك ؛ وأبا غبشان محمود منه سَدَادُ الفعل إذا نسب إليك ، وطويسا مأثور عنه بمن الطائر إذا قيسَ عليك ، فوجودك عدم ، والأعتناء بك نَدَم ؛ والحية منك ظَفَر ، والجنة معك سَقَر ؛ كيف رأيت لؤمك لكريمي كفاء ! وَضَعْتَكَ لشرفي وفاء ؛ وأنى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها ، والطيور إنما تقع على آلافها ، وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرت أن نارِي المؤمن والكافر لا تتراءيان ، وقلت الخبيث والطيب لا يستويان ، وتمثلت :

* عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ *

وذكرت أنى علق لأبياع من زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه
إلا من أجاد، فما أحسبك إلا قد كنت تهيأت للتهيه، وترشحت للترفيه،
لولا أن جرح العجاء جبار، للقيت ما لقي من الكواعب يسار؛ فما هم إلا بدون
ما هممت به، ولا تعرض إلا لأيسر مما تعرضت له؛ أين آدعائك رواية الأشعار،
وتعاطيك حفظ السير والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع * وتكح في أكفائها الحباط

وهلا عشت ولم تغتر، وما أمك أن تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة
التمس، أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة^(١) بالجهني الذي جاء خاطبا، فذهن
أسته بزيت وأدناه من قرية النمل؛ ومتى كثر تلاقينا، وأتصل ترائينا؟ فيدعوني
إليك ما دعا أبة الخس إلى عبدها من طول السواد، وقرب الوساد؛ وهل فقدت
الأرقام فأنكح في جنب، أو عضلني همام بن مرة، فأقول زوج من عود، خير من
قعود، ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لأرتفعت عن هذه الخطئة، وما رضيت بهذه
الخطئة، فالنار ولا العار، والمينة ولا الدنية، والحرة تجوع ولا تأكل بشديها :

فكيف وفي أبناء قومي منكح * وفتيان هزان الطوال الغرائقه

ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور دون الجواد؛ وإنما يتيم من
لا يجد ماء، ويرعى الهشيم، من عدم الجيم؛ ويركب الصعب من لا ذلول له؛ ولعلك
إنما غرك من علمت صبوتي إليه، وشهرت مساعفتي له من أقمار العصر، ورياحين
المصر، الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب شيم .
* من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم *

(١) في الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة ع ل ف في القاموس .

فَحَنَّ قَدَحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهْمٌ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَاعْمُرُوهُمْ فِيهِمْ ؟
وَكَالْوَشِيظَةِ فِي الْعِظَمِ بَيْنَهُمْ ؛ وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ لَقَمِيصِكَ
عَنْ بَعْضِ قُوَّتِكَ ؛ وَعَطَّرْتَ أُرْدَانَكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ ؛ وَأَخْتَلْتَ فِي مِشْيَتِكَ ،
وَحَدَقْتَ قُضُولَ لِحْيَتِكَ ؛ وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ؛ وَرَقَّقْتَ خَطَّ
عِدَارِكَ ، وَأَسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الْاِكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْاِعْتِدَادِ مِنْهُمْ
فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ أَسْتُكَ الْحُفْرَةَ . وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مَحْرَقُ الْبُرْدَيْنِ ، وَحَلَّتْكَ
مَارِيَّةُ الْبُقْرَطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ عَمْرُو الصَّمْصَامَةِ ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ ، مَا شَكَّكَتُ
فِيكَ ، وَلَا تَكَلَّمْتَ بَمَلَأَ فِيكَ ، وَلَا سَتَرْتُ إِيَّاكَ ، وَلَا كُنْتُ إِلَّا ذَاكَ . وَهَبَكَ سَامِيَتِهِمْ
فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارِبَتِهِمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ؛ أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى
بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَاعٍ ، إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبَ خَالِي الذَّرَاعِ ، وَأَيْنَ مِنْ أَنْفَرْدَ بِهِ مَنْ لَا غَلَبَ
إِلَّا عَلَى الْأَقْوَلِ الْأَخْسَّ مِنْهُ ؛ وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يِعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ،
وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَى ، وَبَيْنَ آخِرَقْدَ نَزَحَتْ بِيرِهِ ، وَنَضَبِ
غَدِيرِهِ ، وَذَهَبِ نَشَاطِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضَرَاطُهُ . وَهَلْ كَانَ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ
وَسُوءُ الْكِيلَةِ ، وَيَقْتَرَنُ عَلَى بَكَ إِلَّا الْغَدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سُلُولِهِ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو * أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

مَا كَانَ أَحْلَقَكَ بِأَنْ تُقَدَّرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرَبَّعَ بِذَلِكَ عَلَى ظُلْمِكَ ، وَلَا تَكُونَ بِرَاقِشِ
الدَّالَّةِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعِزَّ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةِ لِحَتْفِهَا ؛ فَمَا أُرَاكَ إِلَّا قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى
سِرْحَانٍ ، وَبِكَ لَا يَطْبِي أَعْفَرٌ ؛ قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا ،
وَقَرَعْتُ عَصَا الْعِتَابِ ، وَحَدَّرْتُ سُوءَ الْعِقَابِ .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ * وَالشَّيْءُ تَحْقَرَهُ وَقَدْ يَنْمِي

فَإِنْ بَادَرْتُ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتُ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ؛ كُنْتَ قَدْ أَشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ
لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ؛ وَإِنْ قُلْتَ جَعَجَعَةً وَلَا طِخْنَ ، فُرُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتَ :

لَا يُؤَسِّنَكَ مِنْ مُحَدَّرَةٍ * قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا

فَعُدَّتْ لِمَا نَهَيْتُ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتُ مِنْهُ ، بَعَثْتَ مِنْ يُزْجِجُكَ إِلَى
الْخَضِرَاءِ دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكُزًا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَتْ أَكَّارُهَا بِكَ ،
وَتَسْلُطُ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ : فَنِ قَرْعَةٍ مُعْجَظَةٍ تَقُومُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلةٍ مُنْتِنَةٍ تُرْمَى بِهَا
تَحْتَ خِصَاكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، لَكِنِّي تَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قُدْرِكَ :
فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ * رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

فلولا المعرفة بالتاريخ، والإحاطة بالوقائع والسير، والأقاصيص، والأمثال السائرة
في معنى ذلك، لما تأتى للنائر الاقتدار على سبك هذه الوقائع، والتلويح بقصصياتها.

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المصنفة فيها
وأسماء الرجال المبرزين في فنونها ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام، وكمال اعتناء، حتى حصلوا منها
على العدد الجَمِّ، وحصلوا على الخزائن الجليلة . ويقال إن أعظم خزائن الكتب
في الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يُحصى
كثرةً، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دَهَمَت التتر ببغداد، وقتل
ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيها ذهب،
وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها .

الثانية — خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية. ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، وأستلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدار بلوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدى فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة — خزانة خلفاء بنى أمية بالأندلس؛ وكانت من أجل خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلى أنقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كل مذهب.

أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كتب المدارس التى أبنتوها من حيث إنها بذلك أمس.

واعلم أن الكتب المصنفة أكثر من أن تُحصى، وأجل من أن تُحصَر؛ لا سيما الكتب المصنفة فى الملة الإسلامية فإنها لم يصنف مثلها فى ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم؛ إلا أن منها كتب مشهورة قد توفرت الدواعى على نقلها، والإكثار من نسخها، وطارَت سُمعتها فى الآفاق ورُغب فى اقتنائها.

المقصد الثانى

(فى ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلى سبعة أصول، يتفرع عنها أربعة ونحسون علما)

الأصل الأول

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأول علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المتعجب، والمجرد لكراع؛ وأدب الكاتب لأبن قتيبة، ووفقه اللغة للتحالى، والفصيح لشعلب، وكفاية المتحفظ

لآبن الأجداى ، والألفية لآبن أصبع . ومن المتوسطة فيه المجمل لآبن فارس ، وديوان الأدب للفارابى ، وإصلاح المنطق لآبن السكيت . ومن المبسطة الجامع للأزهري والعباب الزاهر للصاغاني ، والصاحح للجوهري . قال فى إرشاد القاصد : ولا أنفع ولا أجمع من المحكم لآبن سيده .

الثانى علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكى لآبن جنى والتعريف لآبن مالك . ومن المتوسطة تصريف آبن الحاجب ، وهو من أحسن الكتب الموضوععة فيه وأجمعها . ومن المبسطة فيه المتع لآبن عصفور ، وشرح تصريف آبن الحاجب وغيره .

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لآبن الحاجب ، والدرة الألفية لآبن معطى ، والخلاصة لآبن مالك . ومن المتوسطة المفصل للزخشرى والمقرب لآبن عصفور ، والكافية الشافية لآبن مالك ، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدة اختصاره . ومن المبسطة كتاب سيبويه وشرحه ، وشرح آبن قاسم على الألفية ، وشرحه على التسهيل ، وشرح شهاب الدين السمين عليه ، وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبى حيان على التسهيل .

(١)
الرابع علم المعانى — من الكتب المنفردة فيه مصنف تيمم الحرى ، وهو عزيز الوجود .

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام نحرالدين الرازى ، والجامع الكبير لآبن الأثير الجزرى .

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختصرة فيه زهر الربيع للطزرى . ومن المتوسطة فيه البديع للتيفاشى ، وشرح البديعة للصفى الحلى . ومن المبسطة كتاب التحجير لآبن أبى الأصبع .

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة على علوم المعاني والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك ، والإيضاح لابن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضي القضاة جلال الدين القزويني وعليه عدة شروح . منها شرح الخلخالي ، وشرح الشيخ أكل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكي ، وهو من أجل شروحه ، والمعول عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازاني .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عروض ابن مالك ، ولابن الحاجب فيه لامية كافية ، اعتنى الناس بشرحها ، ومن شرحها الشيخ جمال الدين ابن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوي . وللساوي لامية ضاهي فيها لامية ابن الحاجب ، والإمام القزويني عليها شرح حسن ، ولأبي في مختصر بديع ، وللبوهري فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عروض ابن القطاع ، وعروض ابن الخطيب التبريزي . ومن المبسطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبي الحسن العروضي المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثاري محتسب مصر ألفية فائقة سماها "هداية الضليل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعى .

الثامن علم القوافي — من الكتب المختصرة فيها قوافي الأيكي . ومن المتوسطة قوافي ابن القطاع ، ومن المبسطة قوافي ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — في أصول الخط ألفية لشعبان الآثاري ، ولابن الحسين كتاب في قلم الثلث ، ولابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنف في قلم النسخ ، وفي صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبي ، وفي خلال كتب النحو الجامعة كالتسهيل وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت في هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبي عمرو الداني .

الأصل الثاني

(العلوم الشرعية، وفيه تسعة علوم)

الأول علم النواميس المتعلق بالنبؤات — وفيه كتاب لأرسطاطاليس، وكتاب لافلاطن، وأكثر مسائله في "كتاب المدينة الفاضلة" لأبي نصر الفارابي، وفي آخر الطوالع والمصباح للبيضاوي مسائل من ذلك ^(١).

الثاني علم القراءات — من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبي عمرو الداني، ونظمه الشاطبي في قصيدته التي وسمها بحorz الأمانى، فأغنت عما سواها من كتب القراءات وأعنى الناس بشرحها، ولأبن مالك دالية بديعة في علم القراءات لكنها لم تستهر. ومن الكتب المبسطة فيه كتاب الروضة في القراءات، وشرح الشاطبية كالقاسى وغيره.

الثالث علم التفسير — من الكتب المختصرة فيه زاد المسير لأبن الجوزى، والوجيز للواحدى، والنهر لأبي حيان. ومن المتوسطة فيه الوسيط للواحدى والكشاف للزمخشري، ومعالم التنزيل للبعوى. ومن المبسطة البسيط للواحدى، وتفسير القرطبي، وتفسير الامام نحر الدين، والبحر المحيط لأبي حيان.

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فن من الفنون يميل إليه في تفسيره، فالتيفاشي تغلب عليه القصص، وأبن عطية تغلب عليه العربية، وأبن عطية تغلب ^(٢) عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعانى وغير ذلك.

الرابع علم رواية الحديث — أضبط الكتب المصنفة فيه وأصحها رواية صحيح البخارى، وصحيح مسلم رضى الله عنهما، وبعدهما بقية كتب السنن المشهورة، كسنن أبى داود، والترمذى، والنسائى، وأبن ماجه، والدارقطنى. والمستندات المشهورة كسنن أحمد، وابن أبى شيبه، والبزار ونحوها.

(١) هو كتاب البيضاوى في علم الكلام. (٢) هما مفسران أحدهما متقدم على الآخر وكلاهما مسمى بأبى محمد عبدالله إلا أن المتقدم دمشقى والمتأخر غرناطى كذا يؤخذ من كشف الظنون.

ومن كتب السير السيرة لأبن هشام ، وزهر الخمائل لأبن سيد الناس .
ومن الكتب المبسوطه المشتملة على متون الأحاديث دون الرواة جامع الأصول
لأبن الأثير . ومن المتوسطة الجمع في ذلك الجمع بين الصحيحين للحميدى ، ومختصر جامع
الأصول لمصنفه . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام ، الإمام بأحاديث الأحكام ،
للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسى .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووى . ومما يتعلق بالأدعية
كتاب الأدكار له ، وسلاح المؤمن لأبن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنفات
المختلفة المقاصد مما لا يحصى كثرة .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول في ذلك علوم الحديث
لأبن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووى ، وعلوم الحديث للهاكم ، والكفاية للخطيب
أبى بكر ، وفي أول جامع الأصول المقدم ذكره في كتب رواية الحديث قطعة من
ذلك . ومن الكتب المبسوطه في أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطه
في معانى الحديث شرح البخارى لأبن بطلال ، وشرحه لأبن التين المغربى ، وشرحه
لمغلطائى ، وشرحه لاكماني ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم
للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيى الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ،
وشرح العمدة للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدين الفاكهاني .
ومن الكتب في غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبى السعادات
أبن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطوالع للقاضى ناصر الدين
البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجه نصير الدين الطوسى ، وكتاب الأربعين

للقاضى جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام نضر الدين ، والصحائف
 للسمرقندى ، وشرح الطوالع للسيد العبرى ، وشرحها للشيخ عز الدين الأصفهاني .
 السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر ابن الحاجب ،
 ومنهاج البيضاوى ، والتنقيح للقرافى ، والقواعد لأبن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه
 التحصيل للأرموى . ومن المبسوطه فيه الإحكام للأمدى ، والمحصل للإمام
 نضر الدين ، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى ، وشرى
 المسيلى ، وشرح الشيخ شمس الدين الأصفهاني ، وأتقن شرح عليه للعصدي ، وكشرح
 منهاج البيضاوى لأبن المطهر ، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى ، وغير ذلك ؛
 وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المغنى للأبهري ، والفصول للنسفي
 وأخلاصة للراغى ، والمعونة لأبى إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس
 للعميدى ، والوسائل للأرموى . ومن المبسوطه تهذيب النكت للأبهري .

التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المزني ، ومختصر البويطى
 والوجيز للغزالي ، والتنبيه لأبى إسحاق الشيرازى ، والمحرر للرافعى ، والمناهج للنووى
 والحاوى الصغير لعبد الغفار القزوينى ، والعجب العجائب ، وجامع المختصرات ،
 ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المتوسطة المذهب لأبى إسحاق
 الشيرازى ، والوسيط للغزالي ، والشرح الصغير للرافعى ، والروضة للنووى ، والجواهر
 للقموى ، وأجمعها على اختصار المتقى للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المبسوطه
 الأئم للإمام الشافعى ، والحاوى للماوردى ، والبحر للرويانى ، والنهاية لإمام الحرمين ،
 والبسيط للغزالي ، والشامل لأبن الصباغ ، والتتمة للتولى ، والعدة لأبى المكارم
 الرويانى ، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى ، وشرح المذهب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كل لأغنى عن جُل كتب المذهب ، والكفاية في شرح التنبيه لأبن الرِّقَّة ، والمطلب في شرح الوسيط له ، والبحر المحيط في شرح الوسيط للقُمُولي . ومن محاسنها المهمَّات على الرافعي ، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوي . ومن كتب الحنفية المختصرة البداية ، والنافع ، والكنز ، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسطة المحيط ، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضي عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجَلَّاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكي ، هذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعي ، والجواهر لأبن شاس ، ونظم الدرر للشارمَسَاحِي . ومن المبسطة النوادر لأبن أبي زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب أبن يونس ؛ وشرح التلقين للآزري ، وليس بكامل ، والذخيرة للقَرَّافِي .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الحَدَّقِي ، والنهاية الصغرى لأبن رَزِين . ومن المتوسطة الْمُقْنِع ، والكافي . ومن المبسطة المغنى لأبن قُدَّامة . ومن كتب الخلاف في المذاهب الأربعة الاختلاف والجمع لأبن هبيرة الحنبلي . ومن المشتمل على مذاهب السلف الإشراف لأبن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعي ، وفيه اثنا عشر علما)

الأول علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجز لأبن النفيس ، والفصول لأبقراط ، ومن المتوسطة المختار لأبن هُبَل ، والمائة للسيجي ، والشافى لأبن القف . ومن المبسطة كامل الصناعة المعروف بالملكي ، والقانون للرئيس أبي علي بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلى التهذيب والترتيب ، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظاً وأحسنها تصنيفاً .

- الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .
- الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفى كتاب العلاجين لأبن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .
- الرابع علم الفِرَاسَة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِرَاسَة للامام نحر الدين الرازى ، ولفلين فيه كتاب مختص بالتفرس فى النساء .
- الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لأبن الدقاق ، وتعبير الحنبلى المرتب على حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للحنبلى .
- ومن المبسوطه فيه تأليف أبى سهيل المسيحى ، والبشرى فى شرح كتاب الكرماني .
- السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لأبن هنبتا .
- ومن المبسوطه مجموع أبى سريح . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبى معشر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القيصى ، والفهم للبيرونى مدخل إلى هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .
- السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوقاف — ومن كتب السحر المعتمدة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام نحر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوارزمى ، وكتاب طيارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للجربطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .
- ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتمدة من اللغة النورانية للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطَّلَسَّات — فى كُتاب طَبَّتانا الذى نقله ابن وحشية عن النبط اُمُودج لعمل الطَّلَسَّات ومدخل إلى علمها ، وفى غاية الحكم للجريطى قواعد هذا العلم . قال فى إرشاد القاصد إلا أنه ضنَّ بالتعليم كل الضن ، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كُتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتباً مجهولة المصنِّفين .
 العاشر علم الكيميا — من الكتب المطولة فيه كتب جابر بن حيان . قال فى إرشاد القاصد : وأمثلة كتب الإسلاميين فى ذلك التذكرة لأبن كونه ، ورُتبة الحكيم للجريطى ، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى .
 الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية ، ترجمة أبى بكر بن وحشية .
 الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب ، وفى مثلثات ابن محقق ^(١) حصر صوره .

تنبيه — لارسطاطاليس ثمانية كتب فى الطبيعى يختص كل كُتاب منها بجزء جردها ابن سينا فى مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصاً مفيداً ، والمتأخرون جمعوا فى غالب كتبهم بينه وبين الالهى فى التصنيف كما فى الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصل الرابع

(علم الهندسة ، وفيه عشرة علوم)

الأول علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لأبن الهيثم ، ومصنف للكرخى .

(١) فى كشف الظنون محقوق .

- الثانى علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب على بن عيسى الوزير . ومن المبسوطه كتاب ابن الهيثم .
- الثالث علم المرآيا المحرقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لابن الهيثم .
- الرابع علم مراكز الأثقال — من الكتب المعتمدة فيه كتاب ابن الهيثم ، وفيه كتاب لأبى سهل الكوهي .
- الخامس علم المساحة — من الكتب المختصرة فيه كتاب ابن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة كتاب ابن المختار . ومن المبسوطه ، كتاب ارشميدس .
- السادس علم إنباط المياه — للكرنجي فيه مختصر جليل ، وفي خلال الفلاحة النبطية لابن وحشية مهمات هذا العلم .
- السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .
- الثامن علم البنكومات — فيه كتاب لارشميدس عمدة في بابه .
- التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبنى موسى بن شاكر .
- العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بحيل بنى موسى ، وفيه كتاب مختصر لفيلن ، وكتاب مبسوط للبديع الجزرى .

الأصل الخامس

(علم الهيئة ، وفيه خمسة علوم)

- الأول علم الزيجات — قال فى إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصد الزيج العلأى . قال وأهل مصر فى زماننا إنما يقيمون دفتر السنة من زيح لفقوه من عدة أزياج ولقبوه بالمصطلح ؛ وأتم الزيجات فى زماننا الذى نحن فيه زيح الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي ، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطه جامع المبادئ والغايات لأبى على المرأكشى .
 الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتره فيه كتاب الأرصاد لأبن الهيثم ، وكتاب الآلات العجيبه للهارثى يشتمل عليه .
 الرابع علم تسطيح الكرة — من الكتب القديمه فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس . ومن الكتب المحدثه فيه الكامل للفرغانى ، والأستيعاب للبىرونى ، وآلات التقويم للتراكشى .
 الخامس علم الآلات الظليه — فيه عدّه مصنفات ، ولابراهيم بن سنان الحرزاني فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق ، وفيه خمسة علوم)
 الأول علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس الماردىنى ، ومختصر السموئل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطه الكافى للكرخى . ومن المبسوطه الكامل لأبى القاسم بن السمع .
 الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندى كتب معده ، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الفبار كتاب الحصار ، وكتاب المدخل وغيرهما .
 الثالث علم الجبر والمقابله — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لأبن فلوس الماردىنى ، والمفيد لأبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطه فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطه جامع الأصول لأبن المحلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .
 الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعه كتاب لزين الدين المعزى الخامس علم حساب الدور والوصايا — من الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحوىجى .

الأصل السابع

(العلوم العملية ، وفيه ثلاثة علوم)

الأول علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه لاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيه ، كتاب للشيخ أبى على ابن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسطة كتاب للإمام نحر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الانتفاع فيها بالاطلاع على السير الفاضلة المحموده للملوك وغيرهم ، ولا أنفع من السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه ، وذكر كتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره : كما وقع لى فى تقرير مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن ، أبى سيدنا شيخ الإسلام أبى حفص عمر البلقينى الكافى الشافعى ” إن تكلم فى الفقه فكأنما بلسان الشافعى ” تكلم ، والربيع عنه يروى ، والمزنى منه يتعلم ، أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام باتفاق ، وقطع السيف الآمدى ” بأنه المقدم فى هذا الفن على الإطلاق ، أو جرى فى التفسير قال الواحدى هذا هو العالم الأوحى ، وأعطاه أبى عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد ، وأعترف له صاحب الكشف بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام نحر الدين هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخلاف واندفع المعارض ، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى ، وعدا شأو الشاطبى ”

في الرائية وتقدمه في حرز الأمانى ؛ أو تحدث في الحديث شهد له السفيانان بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له ابن معين في التبريز والتقدم في الدراية ؛ وهتف الخطيب البغدادي يذكره على المتأبر ، وقال ابن الصلاح لمثل هذه الفوائد نعين الرحلة ، وفي تحصيلها تنفد المحابر ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعري بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا في الكلام ؛ أو دقق النظر في المنطق بهر الأبهري في مناظرته ، وكتب الكاشي وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألم بالحدل رمى الأرموى نفسه بين يديه ، وجعل العميدى عمدته في آداب البحث عليه ؛ أو بسط في اللغة لسانه أعترف له ابن سيده بالسيادة ، وأقر بالعجز لديه الجوهرى وجلس ابن فارس بين يديه مجلس الاستفاده ، وأنحأ إلى النحو والتصريف أربى فيه على سيبويه ، وصرف الكسائى له عزمه فسار من البعد إليه ، أو وضع أنموذجا في علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجاني ، ولم يتعد حده ابن أبي الأصبغ ولم يجاوز وضعه الرماني ؛ أو روى أشعار العرب ، أزرى بالأصمعي في حفظه ، وفاق أبا عبيدة في كثرة روايته وغزير لفظه ؛ أو تعرض للعروض والقوافي استحققهما على الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارك وأعترف الجوهرى بأنه ليس له في هذا الفن مثيل ؛ أو أصل في الطب أصلا ، قال ابن سينا هذا هو القانون المعبر في الأصول ، وأقسم الرازي بحجي الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنف الفصول ؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فاتقاد ذلك العلم إليه ، أو سلك في علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض ابن الهيثم عن حل الشكوك ووثى وهو كظيم ، وحمد المؤتمن بن هود عدم إكمال

كتابه الاستكمال، وقال عرفت بذلك نفسى وفوق كل ذى علم عليم، أو عرج على علوم الهيئة لأعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأعجوبة النادرة، وقال ابن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائرة؛ أو صرف إلى علم الحساب نظره لقال السمّوع ابن يحيى، لقد أحيا هذا العزّ الدارس، وأنجّلت عن هذا العلم غياهبه حتى لم يبق عمه عاميه ولا عمّة على ممارس :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فإن وجدت لساناً قائلًا فقل

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقدّم ذكر شىء مما يجرى هذا المجرى فى الكلام على النحو ونحوه .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى، أوله "النوع الثامن عشر—المعرفة بالأحكام السلطانية"

صحيفة

الباب الرابع - في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء الخ؛ وفيه فصلان ٨٩

الفصل الأول - في التعريف بحقيقته ٨٩

الفصل الثاني - في أصل وضعه في الإسلام وتفرقه عند بعد ذلك

في الممالك ٩١

الباب الخامس - في قوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله وآداب

أهله؛ وفيه أربعة فصول ١٠١

الفصل الأول - في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعته قدره الخ ١٠١

الفصل الثاني - في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه ١٠٤

الفصل الثالث - فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتديره الخ؛

وفيه اثنا عشر أمرا ١١٠

الفصل الرابع - في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية الخ؛

وفيه ضربان ١٣٠

المقالة الأولى

في بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان ١٤٠

الباب الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية؛ وفيه

ثلاثة فصول ١٤٠

الفصل الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال ١٤٠

الفصل الثاني - فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء؛

وفيه طرفان (صوابه ثلاثة أطراف) ١٤٨

الطرف الأول - فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل العرض منه

على خمسة عشر نوعا (صوابه تسعة عشر نوعا) ١٤٨

- النوع الأول — المعرفة باللغة العربية ؛ وفيه أربعة مقاصد ... ١٤٨
- النوع الثاني — المعرفة باللغة العجمية الخ ؛ وفيه مقصدان ... ١٦٥
- النوع الثالث — المعرفة بالنحو ؛ وفيه مقصدان ... ١٦٧
- النوع الرابع — المعرفة بالتصريف ... ١٧٧
- النوع الخامس — المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع ؛
وفيه مقصدان ... ١٨٠
- النوع السادس — حفظ كتاب الله العزيز ؛ وفيه مقصدان ... ١٨٩
- النوع السابع — الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ؛
وفيه مقصدان ... ٢٠١
- النوع الثامن — الإكثار من حفظ خطب البلغاء ، والتفنن
في أساليب الخطباء ؛ وفيه مقصدان ... ٢١٠
- النوع التاسع — مما يحتاج إليه الكاتب الخ ؛ وفيه ثلاثة مقاصد ... ٢٢٧
- النوع العاشر — الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة الخ ؛
وفيه مقصدان ... ٢٧١
- النوع الحادي عشر — الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصدان ... ٢٩٥
- النوع الثاني عشر — معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم ... ٣٠٦
- النوع الثالث عشر — المعرفة بمفاحرات الأمم ووفراتهم الخ ؛
وفيه مقصدان ... ٣٧٢
- النوع الثالث عشر (مكرر) المعرفة بأيام الحروب الواقعة ؛ وفيه
ثلاثة مقاصد ... ٣٩٠

صحيفة

النوع الرابع عشر — في أوابد العرب ... ٣٩٨

النوع الخامس عشر — في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان ... ٤٠٩

النوع السادس عشر — النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال ؛

وفيه مقصدان ... ٤١١

النوع السابع عشر — المعرفة بخزائن الكتب وأنواع العلوم الخ ؛

وفيه مقصدان ... ٤٦٦

كِتَابٌ

صُنْحُ الْأَسْنَةِ

نَالِقٌ

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثاني

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣١ هـ
م ١٩١٣

فهرست الجزء الثانى

من كتاب صبح الأعشى

صحيفة

- ٦ النوع الثامن عشر - المعرفة بالأحكام السلطانية
- الطرف الثا - فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتّابة
- ٧ الخ، ويشتمل على أنواع
- النوع الأول - مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنسانى ، وهو على
- ٨ ضريبن
- النوع الثانى - مما يحتاج إلى وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة
- أصناف
- ١٧ النوع الثالث - ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش الخ ، وهو
- أصناف
- ٣٦ النوع الرابع - فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور ، وهو على أربعة
- أصناف
- ٥٢ النوع الخامس - ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار ، وفيه اثنا
- عشر صنفاً
- ٩٤ النوع السادس - نفيس الطيب ، وفيه أربعة أصناف
- ١١٣ النوع السابع - ما يحتاج إلى وصفه من الآلات ، وهى أصناف
- ١٢٥ النوع الثامن - مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه
- مقصدان
- ١٤٦ النوع التاسع - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العلويات مما بين السماء
- والأرض ، وهى على أصناف
- ١٦٦

صيفة

- النوع العاشر - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،
 ١٧٧ وهي على أصناف
 الطرف الثالث - في صناعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ،
 ١٨٣ وفيه مقصدان
 الفصل الثالث - في معرفة الأزمنة والأوقات الخ ، وفيه أربعة أطراف
 ٣٢٩ الطرف الأول - في الأيام ، وفيه ست جمل
 ٣٢٩ الطرف الثاني - في الشهور ، وهي على قسمين طبيعي واصطلاحى
 ٣٥٨ الطرف الثالث - في السنين ، وفيه ثلاث جمل
 ٣٨٦ الطرف الرابع - في أعياد الام ومواسمها ، وفيه خمس جمل
 ٤٠٦ **الباب الثانى** - فيما يحتاج إليه الكاتب من الامور العملية ، وهو الخط
 ٤٣٠ وتوابعه ولواحقه ، وفيه فصلان
 الفصل الأول - في ذكر آلات الخط ومباده وصوره وأشكاله الخ ،
 ٤٣٠ وفيه ثلاثة أطراف
 الطرف الأول - في الدواة وآلاتها ، وفيه مقصدان
 ٤٣٠ الطرف الثاني - في الآلات التى تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة
 ٤٣٤ آلة الخ
 الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ ،
 ٤٧٢ وفيه ثلاث جمل

(تم فهرست الجزء الثانى من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى

فى الكلام على نفس الخط)

بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف^(١) كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط في كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم رب كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده في وصاياه . وقد أورد أفضى القضاة أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي رحمه الله في الأحكام السلطانية ما فيه مَقْنَع من ذلك ؛ ونحن نورد في هذا الكتاب ، بُدَّةً من كل باب ، مما به يستغنى الناظر فيه عن مراجعة غيره . والذي تكلم عليه الماوردي من الوظائف الأصول الإمامة ، والوزارة ، وتقليد الإمارة على البلاد ، وتقليد الإمارة على الجهاد ، والولاية على ضروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية النّقابة على ذوى الأنساب ، والولاية على إقامة الصلوات ، والولاية على الحج ، والولاية على الصدقات ، وقَسَم الفئء والغنيمة ، ووضع الجزية والخراج ، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد ، وإحياء الموات ، واستخراج المياه ، والحجى ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحِسبة . وأنا أقتصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دون ما عده من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

(١) أى الكاتب . (٢) هو على بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون .

هذه الولايات، وما يوجب توليتها، وما يعتبر في متوليها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا توليها، وما ينافي أمورها، ويحجب أحوالها، عرف ما أتى من ذلك، وما يذّر، فيكون ما ينشئه من البيعات، والعهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجري مجرى ذلك جارياً منه على السداد، ما شيا على القواعد الشرعية التي من حاد عنها ضلّ، ومن سلك خلاف طريقها زلّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمهادنات والمفاسحات، وما يجري مجرى ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب على الكاتب فيها، وقآها حقها، وأتى بذكر ما يتعلق بها من الشروط، وجرى في وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها، بجرى الأمر في ذلك على السداد، ومشت كتابته فيها على أتم المراد؛ إن كتب بيعة، أو عهداً الخليفة، تعرّض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة، ونصب إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرّض إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرّض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه درج بالوفاة، وأن المولى استحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرّض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سنن الطريق، والعدول عن منهج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثاني. وإن كان عهداً تعرّض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب في ذلك الغرض، وجرى فيه على سواء الصراط، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى من سائر الولايات على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه فقرة من بيعة أنشأها توضيح ما أشرت إليه من ذلك.

فن ذلك ما قلته فيها مشيراً إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد ، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع ، مستند لأقوى دليل تنقطع دون نقضه الأطماع ، وتنبو عن سماع ما يخالفه الأسماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى اجتماع شروط الخلافة في الموثى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذى جمع شروطها فوقها ، وأحاط منها بصفات الكمال وأستوفاه ، ورامت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها ، وتسور معاليها فرفق إلى أعلاها ، واتخذ بها فكان صورتها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى عقد البيعة : بجمع أهل الحل والعقد ، المعبرين للاعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخير والصلحاء ، وأرباب الرأى والنصحاء ، وأستشارهم فى ذلك فصوبوه ، ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى القبول ، وقابل عقدها بالقبول محضر من القضاة والشهود فلزمت ، ومضى حكمها على الصحة فانبرمت ، إلى غير ذلك مما يخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام الساطانية ، يتعين عليه معرفة ما عدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالمهندسة ونحوها ، وسيأتى التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه على اختلاف أنواعها ، ويشتمل على أنواع)

النوع الأول

(مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنساني ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أوصافه الجسمية، وهي على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء ؛ وهي عدة أمور)

منها حُسن اللون ؛ والألوان في البشر ؛ ترجع إلى ثلاثة أصول : وهي البياض ،
والسُمرة ، والسّواد ؛ ويعبر عن السواد بشدة الأدمة ، وربما عبر عن البياض برقة
السُمرة . ويستحسن من هذه الألوان البياض ؛ وأحسن البياض ما كان مُشرباً
بمجرة ؛ وقد جاء في حديث ضمام بن ثعلبة أنه حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم
عند وفوده عليه بقوله : ”أيكم ابن عبد المطلب ؟ قيل هو ذاك الأغر المتكى“ ،
والأغرهو المُشرب بمجرة ، اخذاً من المغرة : وهي الصبغ المعروف . وقد جاء في وصفه
صلى الله عليه وسلم انه ”أزهر اللون“ . والأزهر هو الأبيض بصفرة خفيفة .
والسُمرة مستحسنة عند كثير من الناس ، وهو الغالب في لون العرب ، وقد قيل
في قوله صلى الله عليه وسلم ، ”بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ“ إن المراد بالأحمر العجم
لغلبة البياض فيهم ، والمراد بالأسود العرب لغلبة السُمرة فيهم ؛ أما السواد فإنه غير
مدحوح بل قد ذمَّ الله تعالى السواد ، ومدح البياض بقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ﴾ الآية . على أن كثيراً من الناس قد جَنَحُوا إلى استحسان السودان والميل إليهم ،
وتأنقوا في الاحتفال بأمرهم ؛ وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فانت طالق لم تطلق وإن كانت زنجيةً سوداء، فقد قال تعالى
﴿وَصَوِّرْهُمْ فَأَحْسَنَ صُورَهُمْ﴾ . وبالجملة فالحسن في كل لون مستحسن والله القائل :

إِنَّ الْمَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحِبُّ فِي كُلِّ لَوْنٍ

ومنها حُسْنُ القَدِّ؛ وأحسنُ القدود الرِّبْعَةُ : وهو المعتدل القامة، الذى لا طُولَ فيه ولا قَصَرَ، وليس كما يقع فى بعض الازدهان من أنَّ المراد منه دُونَ الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبي صلى الله عليه وسلم، "أَنَّهُ كَانَ رِيبَةً" . ويستحسن فى القَدِّ القَوَامُ والرِّشَاقَةُ، ويشبَّه بالمرح والغُصْنِ، وأكثر ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقوامها .

ومنها سواد الشعر؛ وأكثر ما يكون ذلك فى السُّمُرِ، فإنَّ اجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن؛ ويشبَّه سواد الشعر بالليل؛ وربما وقعت المبالغة فيه فشبهه بفَحْمَةِ الليل، وبُدْجِي الليل، وبفَحْمَةِ الدُّجَى؛ وقد يشبهه بالآيُنُوس ونحوه مما يغلب فيه حَلَكُ السَّوَادِ. وقد اختلف الناس فى جُعودَةِ الشعر وسُبُوطِهِ أيهما أحسن؟ فذهب قوم إلى استحسان الجُعودَةِ : وهى انقباض الشعر بعض انقباض وهو مما يستحسنه العرب، وإليه ذهب الفقهاء حتى لو شرط البائع فى عبد كونه جعد الشعر وظهر سَيطَ الشعر ردَّ بذلك بخلاف العكس . وذهب آخرون إلى استحسان السُّبُوطَةِ، وهى استرسال الشعر وانبساطه من غير انكماش؛ وأكثر ما يوجد ذلك فى الترك وَمَنْ فى معناهم . ثم الذاهبون إلى استحسان الجُعودَةِ يستحسنون التواء شعر الصُّدْغِ؛ ويشبهونه بالواو تارةً وبالعقرب أخرى .

ومنها وضوح الجبين، وسَعَةُ الجبهة، وانحسار الشعر عنها؛ فيستقيحُ الغَمَمُ : وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وسامة الوجه وحُسْنُ الحَيَا . ويشبَّه الوجه فى الحسن بالشمس، وبالقمر،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس والقمر أتم من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة؛ وقد جاء في بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم: "هل كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ فقال بل كالشمس والقمر".

ويستحسن في الوجه حمرة الوجنتين؛ ويشبه لونهما بالورد، والشقيق، والعقيق، وبالعندم، وما يجرى مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المشرقة.

ومنها بلج الحاجبين وزججهما، فالبلج انقطاع شعر الحاجبين: بأن لا يكون بينهما شعر يصل ما بينهما، وهو خلاف القرن؛ وربما استحسن الخفى من القرن، وهو الذى دق فيه شعر ما بين الحاجبين حتى لا يظهر فيه إلا خضرة خفية. والزجاج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلى مؤخر العين، وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "أنه كان أزج الحاجبين".

ويستحسن في الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوسين؛ ويشبه تقويسهما بالنون تارة، وبالقوس أخرى.

ومنها حسن العينين؛ ويستحسن في العين الحور: وهو خلوص بياض العين، والتجل وهو سعتها ويقال فيه حينئذ أنجل وربما قيل أعين، ومنه قيل للحور عين، والدجج: وهو شدة سواد الحدقة، والكحل: وهو أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة.

وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجم أخرى. وتشبه بالترجس وربما شبهت بنور الباقلي؛ وأعترض بأن فيه حولا. وربما شبهت العين بالسيف، وبالسهم، وبالسنان. وقد يستحسن في العينين الفتور وضعف الأجفان.

ومنها حسن الأنف؛ ويستحسن فيه القنأ: وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دقة فيه، وهو الغالب في العرب؛ وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم "أنه كان أفتى الأنف". ويستحسن فيه الشم أيضا: وهو استواء قسبة الأنف وعلو أرنبته. ويشبه الأنف بالسيف في بريقه.

ومنها حسن الفم . ويستحسن فيه الضيق . ويشبه الميم ، وبالصاد ، وبالخاتم .
ومنها حسن الشفتين . ويُستحسن فيهما الجمرة . وتشبه حمرتهما بما تُشبه به
الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللَّي : وهو سمرة
تعلو حمرتهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الشَّنب : وهو بياض وبريق يعلوهما .
وتشبه الأسنان في البياض وحسن النظم بالؤلؤ ، وبالبرد ، وبالطلع : وهو نبت أبيض ،
ولأَفَاح ، وبالحَبِّب : وهو الذي يعلو الكأس عند شجته بالماء . وقد تشبه بالجوهر ،
ويستحسن فيها الأَشْر : وهو تحديد الأسنان كما يقع في كثير من الصَّبيان ، ويستحسن
في السِّنخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه . ويشبه بالعقيق والورد وسائر ما يشبه به الخلد
ومنها حسن الحيد : وهو العنق . ويستحسن فيه طوله وبياضه من الأبيض .
ويشبه بإبريق فضة .

ومنها دِقَّة الخَصْر ، وهو معقد الإزار حتى إنهم يشبهونه بدور دُمْلَج ، ودور
خَلْخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة في الرجال والنساء جميعا فإنها
في النساء أكْد . فإن الأمر في الحسن منوط بهن ، فهما كانت المرأة أحسن كان
أعظم لسانها ، وأعز لمكانها ، وقد قيل لرجل من بني عُذرة : ما بال الرجل منك
يموت في هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يا بني عُذرة - فقال "أما والله لو رأيتم
النواظر الدَّمْع ، فوقها الحواجب الرُّج ، تحتها المَبَاهِم الفُلُج ، لا تُخَذ تمودا اللات والعزى !"
وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى
ذكره هنا .

(١) أى مزجه يقال شج الخمر الماء إذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللحية ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ إن المراد اللحية ، على خلاف في ذلك . ويستحسن في اللحية أستاذتها وتوسطها في المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسنت اللحية من الرجل كُملت محاسنه . وتزيد الأحداث على الرجال في الحُسْن بمقدمات ذلك : فيستحسن منهم خُضرة الشارب ، وخُضرة العارض والعدار ، ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان ، وبدبيب النمل ونحو ذلك . ويشبه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قُزَح ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ على أن أهل الفِرَاسة قد آستحسنوا في الرجل أموراً تخالف ما تقدم .

منها سعة الفم وغِلظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل على الشجاعة وهو أمر مطلوب في الرجل كما تقدم .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ومما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسميّة السَّمنُ ، فهو أمر مطلوب في المرأة ما لم يُفِرط ويخرج عن الحد المطلوب ؛ ففى الصحيحين من حديث أم زرع " بنت أبي زرع وما بنت أبي زرع ؟ ملء كساءها ، وغِيْظُ جارِتها " إشارة إلى امتلائها بالشحم . ووصف أعمر ابى امرأة فقال " بَيْضَاءُ رُغْبُوْهُ ، بِالْشَّحْمِ مَكْرُوْبُهُ ، بِالْمِسْكِ مَشْبُوْبُهُ " . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفَّةُ وقلة اللحم لأجل قوة النهضة ، وسرعة الحركة في الحرب وغيره ، والسَّمنُ يمنع ذلك ، مع ما يقال إن فيه تبليداً للذهن قال بعضهم : " ما رأيت حَبْرًا سمينًا إلا محمد بن الحسن " يعنى

صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه . وربما أستحسن قلة اللحم فى المرأة أيضا ،
وتوصف حينئذ بالهيف .

ومن ذلك ثقل الرِّدف فهو مما يتمدح به فى النساء بخلاف الرجل فإن ذلك
فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكى فى ذلك أن رجلا أخذ خطرا من قوم على أن يغضب
معاوية بن أبى سفيان مع غلبة حلمه ، فعمد إلى معاوية وهو ساجد فى الصلاة ،
فوضع يده على عجزته وقال : ما أشبه هذه العجيزة بعجيزة هند ! - يعنى أم معاوية ، فلما
سلم من صلاته ، التفت إلى ذلك الرجل وقال : ” يا هذا إن أبأ سفيان كان محتاجا
من هند إلى ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك فخذ ” .

ومما يستحسن فى المرأة طول الشعر فى الرأس ، ودقة العظم ، وصغر القدم ،
ونعومة الجسد ، وقلة شعر البدن ، فى أمور أخرى يطول ذكرها .

الضرب الثانى

(الصفات الخارجة عن الجسد ، وهى على ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلى أصليين : العقل والعفة ، ويدخل تحت كل من هذين الأصلين
عدّة من أوصاف المدح . فأما العقل فيدخل تحته العلم . وصفاته المعرفة ، والحياء ،
والبيان ، والسياسة ، والكفاية ، والصّدع بالحجة ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك
مما يحجرى هذا المجرى . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة فى الرجال والنساء
جميعا وإن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العفة فيدخل تحتها القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه رجل ولا امرأة ؛ وإذا ركب العقل مع العفة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به : كالنزاهة ، والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، ونحو ذلك مما ينخرط في هذا السلك .

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلى أصليين أيضا : وهما العدل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصليين عدة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخل تحت العدل السماحة ، والتبرع بالذائل ، وإجابة السائل ، وقرئ الضيف ، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدة أوصاف كالحماية والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والنكاية في العدو ، والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير في المهامه الموحشة ، وما أشبه ذلك ؛ وإذا ركب العقل مع الشجاعة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به كالصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ويرجع إلى أصليين مذمومين في الرجل : وهما الجبن والبخل ؛ وذلك أن المرأة إذا جبنت كفت عن المساوى خوفا على نفسها أو عرضها ، وإذا بخلت حفظت مال زوجها عن الضياع والإتلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال المدحوة أربعة أوصاف : آثان يشتركون فيهما مع النساء - وهما العقل والعفة ؛ وآثان ينفردون بهما عن النساء وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء المدحوة أربعة أيضا آثان يشتركن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة ، وآثان ينفردن بهما عن الرجال وهما

الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر : ”ومدائح الرجال تنقسم بحسب المدحوحين من أصناف الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضُّر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والأفراد عن المثل والقرين : كقول النابغة في النعمان بن المنذر .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَدَبَّدَبُ
بَأَنِكَ شَمْسُ وَالْمُلُوكِ كَوَاكِبُ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكَبُ

وما يجرى مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والذرية ؛ وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة في إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

بِدَيْهَتِهِ مِثْلُ تَفْكِيرِهِ * مَتَى رَمَتْهُ فَهُوَ مُسْتَجْمِعٌ
وكما قيل :

يُرَى سَاكِنَ الْأَوْصَالِ بِاسِطَ وَجْهِهِ * يُرِيكَ الْهُوَيْنَى وَالْأُمُورُ تَطِيرُ
ويمدح القائد يعنى الأهير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل في باب البطش والبسالة ، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة والخلق والبذل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما في أكثر الأمور موجودان في ذوى بُعد الهمة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ مِمَّا يَنْوَبُهُ * فَفَى بِأَسِهِ شَطْرُ وَفَى جُودِهِ شَطْرُ

فَلَا مِنْ بُغَاةِ الْخَيْرِ فِي عَيْنِهِ قَدَّى * وَلَا مِنْ زُرَيْرِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَر
قال: "وتمدح السُّوقَة والمتعيشون بأصناف الحِرْف وضُروب المكاسب والصِّعاليك
بما يضاهي الفضائل النفسانية من العقل والعِفَّة والعدل والشَّجاعة، خاليا عن مثل
مدح الملوك ومن تقدّم ذكره من الوزراء والكُتّاب والقوَّاد
ويمدح ذوو الشَّجاعة منهم بالإقدام والفتك والتشمير والتيقُّظ والصبر مع التحدُّق
والسَّباحة وقلة الآكثراث بالخطوب الملمة ونحو ذلك".

قلت : ويؤخذ مما ذكره قدامه أن القضاة والعلماء يُوصَفون بما يليق بمجملهم من
ذلك فيوصف العالم بثقابة الذهن، وحِدَّة الفهم، وسَعَة الباع في الفضل، ومايجرى
بجُرى ذلك، ويوصفُ القضاة بذلك وبالعدل والعفة ومباينة الجور ونحو ذلك،
وستقف في قسم الولايات في نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض
والمراسيم ونحوها من ذلك بما يتضح لك به سواء السبيل .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَاتِبَ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنَ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ
كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنْهُ ، فَرَبَّمَا أَحْتَاجَ إِلَى الْكِتَابَةِ بِذِمِّ شَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مَا يَنْفِقُ مَعَهُ : كَمَا حَكَى أَنَّ بَعْضَ
الْعَمَالِ بَعَثَ إِلَى الرَّشِيدِ بَعْدَ أَسْوَدَ فَقَلَّبَ كِتَابَهُ وَوَقَّعَ عَلَيْهِ "أَمَا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَوْ وَجَدْتَ
عَدَدًا أَقَلَّ مِنَ الْوَاحِدِ ، أَوْ لَوْنًا شَرًّا مِنَ السَّوَادِ ، بَعَثْتَ بِهِ إِلَيْنَا وَالسَّلَامَ" .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ صِفَةَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ فَهُوَ مُسْتَفْجَعٌ
مَعَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الْجَسْمِيَّةِ : كَالْحَدَبِ وَالْحَوْلِ وَنَحْوَهُمَا ، وَمِنْ
الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ : كَسُوءِ الْخُلُقِ وَبَدَاةِ اللِّسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا مَقْنَعٌ فِي الْإِرْشَادِ
إِلَى الْمَرَادِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْقَصْدِ .

النوع الثانى

(مما يحتاج إلى وصفه هى دواب الركوب، وهى أربعة أصناف)

الصنف الأول

(الخيـل)

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها فى مواضع ؛ من أهمها وصفها عند بحث شئ منها فى الإنعام والهدايا ، والجواب عن ذلك . ووصفها فى ترتيب الجيوش والمواكب وذكرها فى مجالات الحرب، وما يجرى مجرى ذلك . ويشتمل الغرض منه على معرفة أصنافها، وألوانها، وشيئاتها، وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها، ومعرفة الدوائر التى تكون فيها؛ والبصر بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأول - العرب : وهى أفضلها وأعلىها قيمةً، وأغلاها ثمنًا ، تطلب للسبق والحقاق؛ والملوك تتعالى فى أثمانها وتعدّها لهم الحرب . وتوجد ببلاد العرب ومخلاتهم فى أقطار الأرض : كالجزاز، ونجد، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وبرقة ، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى - العجميات : وهى البراذين ويقال لها الهماليج، وتعرف الآن بالأكاديش وتُجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم . وغالب ما توجد مشقوقة المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشى .

الثالث - المولّد بين العرب والبراذين : فإن كان الأب عجمياً والأم عربية قيل له هجين، وإن كان بالعكس قيل له مُقرِف؛ وهى تكون فى الجحرى والمشي متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبي أصيبع أن أصول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان ، وما سواها مفرع عنها .

الأول - البياض : وقيل أن يخلص من لون يخالطه ؛ فإن صفا بياضه قيل فيه أشهب قرطاسي ، فإن كان أذناه وقوائمه وعُرفه وذيله سودا ، قيل مُطَرَف ، فإن خالط البياض شعر أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهب كافوري ، وإن كان السواد فيه أغلب قيل أشهب حديدي ، وأشهب أشمط ، وأشهب محلس ^(١) ، فإن كان فيه نُكَّتْ سود قيل أشهب مفلس ، فإن اتسعت قليلا قيل أشهب مدنر ، فإن كان في شهبته طرائق ، قيل أشهب مجزع ، فإن كان فيه بقع من أي لون كان دون البياض قيل مبقع ، فإن صغرت تلك البقع قيل أبقع ، فإن تفرقت واختلقت مقاديرها قيل أشيم ، فإن تعادل ذلك اللون مع البياض مع صغر النقط من اللونين قيل أمش ، فإن تناهت في الصغر ، قيل أبرش ، فإن كان البياض نكنا صغيرة في ذلك اللون قيل مفوف ، فإن كان شيء من ذلك كله في عضو واحد قيد به ، مثل قولك مفوف القطة ، وأمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثاني - السواد : فإذا كان الفرس شديد السواد قيل فيه أدهم ، فإن آشتد سواده قيل أدهم غيبي ، فإن علا السواد خضرة قيل أحوى والجمع حو ، فإن خالط سواده سُقْرة قيل أدبس ، فإن انضم إليه أدنى حمرة أو صفرة قيل أحمر ، فإن ضرب سواده إلى يسير بياض قيل أورق ، ونحوه الأكهب ، وفي دونه من السواد يقال أربد .

الثالث - الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة ، وعُرفه وذيله أسودان ، قيل فيه أورد والجمع وراد والأئني ورده ؛ فإن خالط حمرة سواده فهو كمي ، الذكر والأئني فيه سواء ؛ فإن صفت حمرة شيئا قليلا قيل كمي مدمي ، فإن كان صافيا قليل

(١) في الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان في مادة خ ل س .

الحمرة وعُمرُفه وذيله أشقران قيل أشقر . فإن كان أحمر وذيله وعمرُفه كذلك قيل أمغر ؛ فإن خالط شُقرة الأشقر أو الكيت شُقرة بيضاء قيل صنابيُّ أخذاً من الصَّنَاب وهو الخردل بالزبيب ، فإن كانت حمرة كصدا الحديد ، قيل أصداً ، فإن زاد فيه السواد شيئاً يسيراً قيل أحاي والأسم الجؤوة .

الرابع - الصُفرة : فإن كانت صُفرته خالصة تُسبّه لون الذهب وعُمرُفه وذيله أصهبان مائلان إلى البياض قيل أصفر خالص ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطزف وهو الذى يسمونه فى زماننا الحبشى ، فإن كان أصفر ممتزجاً ببياض قيل أشهب سوسنى ، فإن كان فى أكارعه خطوط سود قيل موشى .

وأما شياتها وهى البياض المخالف للونها ، فمنها الغُزة : وهى البياض الذى يكون فى وجه الفرس اذا كان قدره فوق الدرهم ، فإن كان دون الدرهم قيل فى الفرس أفرح (١) والعامّة تقول فيه أغر شعرات ، فإن جاوز البياض قدر الدرهم قيل فيه أعرم ، ثم أول رتبة الغُزة يقال له النّجم ، فإن سالت الغُزة ورقت ولم تجاوز جبهته ، قيل فيه أغر عصفورى ، فإن تبادت حتى جلّت خيشومه ولم تبلغ محفّته ، قيل أغر شمراخى ، فإن ملأت جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشدخ ، فإن أصابت جميع وجهه إلا أنه ينظر فى سواد ، قيل مبرقع ، فإن فشّت حتى جاوزت عينيه وأبيضّت منها أشفاره ، قيل مُغرب ، فإن أصابت منه خدّاً دون خدّ قيل لطيّم أيمن أو أيسر ، فإن كان بشفته العليا بياض قيل أرثم ، وإن كان بالسفلى بياض قيل ألمط ، فإن نالهما جميعاً قيل أرثم ألمط .

(١) وقع فى الأصل أعرم بإعجام العين وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل ألمط بالنون والطاء وهو تصحيف .

ومنها التحجيل في الرجلين وما في معنى ذلك ؛ إن كان البياض في مؤخر الرُسخ لم يستدِرْ عليه قيل في الفرس مُنْعَل ؛ وإن كان في الأربع قيل مُنْعَل الأربع ؛ أو في بعضها أضيف إليه فقيل مُنْعَل اليدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنى أو اليسرى ؛ فإن استدار على الرُسخ وهو المَفْصَل الذى يكتنفه الوظيف والحافر وكان في إحدى الرجلين ، قيل أَرَجُلٌ ، وإن كان في الرجلين جميعا قيل مُخَدَّم وأُخَدَّم ؛ فإن جاوز رُسخ الرجل واتصل بالوظيف : وهو ما بين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثلثيه ، قيل مُحَجَّل ، أخذاً من الحَجَل : وهو الخِمال ؛ فإن كان في رجل واحدة ، قيل مُحَجَّل الرجل اليمنى أو الرجل اليسرى ؛ فإن كان في الرجلين جميعا قيل مُحَجَّل الرجلين ؛ فإن كان معه في إحدى اليدين بياض يجاوز الرُسخ إلى دون ثلثي الوظيف قيل مُحَجَّل الثلاث مطلق اليد اليمنى أو اليسرى ؛ فإن كان البياض في اليد الأخرى كذلك ، قيل مُحَجَّل الأربع ؛ فإن كان البياض في اليدين فقط قيل أَعَصَم ، سواء جاوز الرُسخ أم لا ؛ ولا يُطلق التحجيل على اليدين أو أحدهما إلا بانضمام إلى تحجيل الرجلين أو أحدهما ؛ فإن كان في اليد الواحدة قيل أَعَصَم اليد اليمنى أو اليسرى ؛ وإن كان فيهما قيل أَعَصَم اليدين ، وإن كان التحجيل في يد ورجل من جانب واحد قيل مُمَسَّك ؛ وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمَسَّك الأيمن مطلق الأياسر ؛ وإن كان بالعكس قيل مُمَسَّك الأيسر مطلق الأيمن ؛ وإن كان التحجيل في يد ورجل من خلاف فهو الشَّكَّال . وقيل الشَّكَّال بياض القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائم ، فإن تعدى البياض حتى جاوز عُرْقوبَي الرجلين أو ركبتي اليدين ، قيل فيه جُجَبَب ؛ فإن علا البياض حقوى رجله ومِرْفَقَيْ يديه قيل أَبْلَقُ ، فإن زاد على ذلك حتى بلغ الأنفاذ والأعضاء ، قيل أَبْلَقُ مُسْرَوَل ؛ فإن آخض البياض بيديه

(١) كذا في الأصل بالقاف ولعله مصحف عن النون لأن الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه أما الحنو فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأنفاذ الخ .

وطال حتى بلغ مرقميه قيل أقفر ومقفر ؛ فإن كان البياض في الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعرقوب ولا بالركبة قيل موقوف .

ومنها الشيات التي تتخلل سائر جسدها ؛ فإن كان الفرس مبيض الأذنين أو في أذنيه نقش بياض دون سائر لونه قيل فيه أذراً ، وإن كان مبيض الرأس قيل أصقع ، فإن أبيض فقا قيل أقنف ؛ فإن شابت ناصيته قيل أسعف ، فإن أبيضت جميعها قيل أصبغ الناصية ؛ فإن غشى البياض جميع رأسه قيل أغشى ، وربما قيل فيه أرخم ؛ فإن أبيض رأسه وعنقه جميعاً قيل أدرع ؛ فإن أبيض ظهره قيل أرحل ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدبر قيل مصرد ، فإن أبيض بطنه قيل أنبط ، فإن أبيض جنباه قيل أخصف ، فإن كان البياض بأحد جنبيه قيل أخصف الجنب الأيمن أو الأيسر ؛ فإن أبيض كفه قيل آزر ؛ فإن أبيض عرض ذنبه من أعلاه قيل أشعل ؛ فإن أبيض بعض هله دون بعض قيل محصل ؛ فإن أبيض جميع هله قيل أصبغ هلب الذنب ؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بهيم ومضمت من أى لون كان .

وأما ما يستحسن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحب في الفرس دقة الأذنين وطولهما وانتصابهما ، ودقة أطرافهما ، وقرب ما بينهما ، وكل ذلك من علامات العتق . وفي الناصية اعتدال شعرها في الطول ، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مفترطة في كثرتها . ويقال في هذه الناصية الجثلة . ويستحب مع ذلك لين الشكير (وهو ما طاف بجنب الناصية من الزغب) . ويستحب عظم الرأس وطوله وسعة الجبهة ، وأسالة الخد ، وملاسته ، ودقته ، وقلة لحم الوجه ، وعري الناهضين (وهما عظمان في الخد) وسعة العين ، وصفاء الحدقة ؛ وذلك كله من علامات العتق . ويستحب في العين السمو والحدّة ورقّة الجفون وبعد نظره . قال ابن قتيبة : وهم يصفونها بالقبل والشوس والحوص ، وليس ذلك فيها عيباً ولا هو خلقة ، وإنما

تفعله لعزة أنفسها . ويستحب في المنخر السعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النفس . قال وربما شقَّ منخره لذلك وبعد ما بين المنخرين . ويستحب في الفم الهَرْت (وهو طول شقِّ شدقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نفسه ، ورقة الجحفلتين وهما الشفتان لأنه دليل العتق ، وطول اللسان ليكثر ريقه فلا ينهر ، ورقته لأنه أسرع لتضممه العلف ، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رئته وسهولة نفسه . ويستحب في العنق الطول فقد كان سلمان بن ربيعة يفرق بين العتاق والهجن فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيل إليها واحدا واحدا فثابت سُنْبُكُهُ منها ثم شرب هَجْنَهُ ، وما شرب ولم يثن سُنْبُكُهُ جعله عتيقا لأن في أعناق الهجن قصرا فلا تنال الماء حتى تثنى سُنْبُكُهَا ؛ وقد روى أنه هَجَّنَ فرس عمرو بن معدى كرب فأستعدى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال سلمان أدع بإناء فيه ماء ثم أتى بفرس عتيق لاشك في عتقه فأشعر في الإناء فصصف بين سُنْبُكَيْهِ ومدَّ عُنُقَهُ فشرب . ثم قال اتنوني بهجين لاشك فيه فأشعر فبرك فشرب ، ثم أتى بفرس عمرو بن معدى كرب فأشعر فصصف بين سُنْبُكَيْهِ ومدَّ عُنُقَهُ ثم ثنى أحد سُنْبُكَيْهِ قليلا فشرب فقال عمر أنت سلمان الخيل . ويستحب فيها مع ذلك الكبرلأنه أقرب لانتقياده وعطفه ، وغلظ مُرْكَبِ عُنُقِهِ ودقَّة مَدْبَجِهِ . ويستحب فيه ارتفاع الكَتِفَيْن والحَارِك والكاهل ، وقصر الظهر وعَرْض الصَّهْوَة (وهي مقعد الفارس من الظهر) وارتفاع القَطَاة (وهي مقعد الرِّدْف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتين وهما ماتحت دقي السرج من الظهر . ويستحب في الكفل الاستواء والاستدارة والملاسة والتدوير . ويستحب طول السَّيِّب : وهو الشعر المسترسل في ذيله ، وقصر العَسيب : وهو عَظْم الذنب وجلده ؛ ولذلك قال بعض الأعراب ” اختره طويل الذنب قصير الدَّنب “ يعنى طويل الشعر قصير العَسيب . قال ابن قتيبة

ويستحب أن يرفع ذنبه عند العدو، ويقال إن ذلك من شدة الصُّلب . ويستحب
 عَرْض الصدر : وهو ما عَرَضَ حيثُ ملتقى أعلى لَبِيه، ويسمى اللَّبَان والكَلَكَل ؛
 وكذلك آرتفاعه عن الأرض مع دِقَّة الزَّوَر، وهو ما استدق من صدره بين يديه،
 بحيث يقرب ما بين المِرْقَين لأنه أشد له وأقوى لجريه . ويستحب فيه عَرْض
 الكتف وغلظه وقصر النسا : وهو عِرْق في الساق مستبطن الفخذ، وشنجه، وقصر
 وظيف اليد : وهو قَصَب يديه، وقصر الرُّعْغ، ودِقَّة إبرة العُرْقوب وتحديدته : لأنه
 أشد لقَصَب الساق وطُول وظيف الرجل ليخذف الأرض بها فيكون أشد لعدوه،
 وغلظ عَظْم القوائم، وغلظُ الجبال : وهى عَصَب الذراعين، ولُطْف الرُّكبة، وقُرب
 ما بين الركبتين، وشِدَّة كَعْبِه : لأنَّ ضَعْف الكعب داعية الجرد، وأنحاء الرجلين^(١)
 وتوترهما، وبعد ما بين الرجلين : وهو الفَحَج : لأنه أشد لتمكُّن رجله من الأرض .
 ويستحب صفاء الحافر، وصلابته، وسعته، وكونه أزرق أو أخضر غير مشوب ببياض :
 لأن البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تَعَقُّب ؛ ولُطْف سُورِه :
 وهى شئ فى باطن حافره كالنوى : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره ؛ وأن
 تكون أطراف سَنابكه وهى مقادِم حوافره رقيقة . ويستحب فيه مع ذلك كَلَّة
 اتساع إهابه وهو جلده، ورقَّة أديمه، وصفاء لونه، ولين شعره، وكثرة عُرْفِه، وكثرة
 نومه، وسعة خطوه، وخِفَّة عَنانِه، ولين ظهره، وحُسْن آسْتقلاله فى أول سيره،
 وخِفَّة وَقْع قوائمه على الأرض إذا مشى، وشِدَّة وقعها إذا عَدَا، مع حِدَّة نفسه وسُرعة
 عدوه، واتساع طرقتيه، وقد يغتفر القَطَاف فى المشى فى دوابِّ الجَرَى . ثم إنه قد
 يحتمل فوات آلة الحسن والفرَّاهة فى المشى ولا يُغْتَفَر النقص فى آلة الجَوْدَةِ وشِدَّة
 العدو والصبر : لأنَّ بهما يدرك ما يَطْلُب، وينجو مما يَهْرُب .

(١) فى اللسان الجرد وزم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى ينعته المشى والسعى .

وأما ما يُستقبح ويُذم من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خلقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدن : وهو بُعد ما بين اليدين ، والصَّم وهو أن لا يسمع : وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبداً إلى خلف ، وإذا جُرَّ خلفه خشبةً ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها ، والحذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحو العينين أو الخدين كماذان الكلاب السلوقيّة ، والطول وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصر الأخرى ، وكونه أسكّ : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السّفا : وهو قلة شعر الناصية ، والغَم : وهو أن يكثر شعر الناصية ويطول حتى يغطّي العين : وهو عيب خفيف والسّفا ^(١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القَرَح : وهو أن يكون البياض الذي في الوجه دُونَ قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ ، فإن كان في وسط البياض في الوجه سواد كان عيباً يُتشاءم به .

ومنها العَشا : وهو أن لا يُبصر ليلاً فيصير بمثابة نصف فرس لأنه لا ينتفع به في الليل دون النهار ، وكونه قائم العين : وهو الذي يكون على ناظره سواد يضرب للخصرة والكُدرة يقل معها بصره ، والحَوَل : وهو أن يكون بإحدى عينيه بياض خارج سواد الحدقة من فوق ، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يتبرّك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك في العينين كان أعظم لبركته ، والخَيْف : وهو أن تكون إحدى عينيه زرقاء : وهو مما يُتشاءم به لاسيما إذا كانت الزُّرقة في العين اليسرى ، فإن أزرقّت العينان جميعاً كان أقلّ لشؤمه ، وغُور العينين : وهو دخولهما في وجهه ، والغَرَب : وهو بياض أشفار العينين ، يكون عنه ضعف بصره في القمر والحَرّ الشديد ، والكُنّة : وهو أن يبصر قدامه ، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

(١) أى أن السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) في الخط إسقاط لا وفي المطبوع اثباتها وهو الظاهر .

ومنها القَنَب : وهو أَحَدِيدَاب في الأنف ، ويكون في الهُجْن ، والحنَس : وهو أن يُرى فوق مَنْخَرِهِ منخسفاً : لأنه يضيق نفسه إذا ركض .

ومنها القَطَس : وهو أن تكون أسنانه العليا داخلية عن أسنانه السفلى ، والطَّبْطَبَة وهو أن تسترني بحفاته السفلى فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهْدَل ، وأن يكون في حنكه شامة سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قَصَر اللسان لأنه إذا قَصُر لسانه قل ريقه فيُسرع إليه العطش ، والخرَس وعلامته أن تراه يصمّل ولا يُجِجِم ، وهو عيب لطيف .

ومنها القَصَر : وهو غلظ في العنق ، واللَّفَف : وهو استدارة فيه مع قصر ، والدَّن وهو طُمَأْنِينَة في أصل العنق ، والهنع : وهو طُمَأْنِينَة في وَسَط العنق ، والقَوْد : وهو يُبَس في العنق بحيث لا يقدر الفرس أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ، وهو عيب شديد ، والجَسَأ : وهو يُبَس المعطف .

ومنها الكَتَف : وهو انفراج يكون في أعلى كَتِفَي الفرس مما يلي الكاهل ، والقَعَس : وهو أن يطمئن الصُّلب من الظهر وترتفع القَطَاة ، والبَزَخ : وهو أن يطمئن الصُّلب والقَطَاة جميعا ، وهو عيب رديء يضر بالعمل ، وكون الكَفَل فيه تحديد ويكون العُجْز صغيرا ، والفرق : وهو نُقْصَان إحدى حَرْفَتَي الوركين ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسوح الكفل ولا عيب فيه .

ومنها الدَّن : وهو تَطَامُن الصدر ودُّنُوهُ من الأرض ، وهو من أسوأ العيوب ، والزَّور : وهو دخول إحدى فَهْدَتَي الصدر وخروج الأخرى .

ومنها الهَضَم : وهو استقامة الضِّلوع ودخول أعاليها ، والإخطاف : وهو لحوق ما خلف الحَزَم من بطنه ، والتَّجَل : وهو خروج الخاصرة ورقة الصفاق .

ومنها العَصَل : وهو التواء عَسِيب الذَّنْبِ حَتَّى يَبْرُزَ بَعْضُ بَاطِنِهِ الَّذِي لَا شَعَرَ عَلَيْهِ ، وَالْكَشَف : وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَالصَّبْغ : وَهُوَ بَيَاضُ الذَّنْبِ ، وَالشَّعَل : وَهُوَ أَنْ يَبْيَضَّ عَرَضُ الذَّنْبِ وَهُوَ وَسْطُهُ .

ومنها الفَحَج وهو إفراط بُعْدُ مَا بَيْنَ الْكَعْبَيْنِ ، وَالْحَلَل : وَهُوَ رَخَاوَةُ الْكَعْبَيْنِ ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ تَقْوِيسُ الْيَدَيْنِ ، وَهُوَ عَيْبٌ فَاحِشٌ ، وَالطَّرْق : وَهُوَ أَنْ تَرَى رِكْبَتَيْهِ مَفْسُوخَتَيْنِ كَالْمَقْوَسَتَيْنِ إِلَى دَاخِلٍ ، وَهُوَ عَيْبٌ فَاحِشٌ ، وَالْقَسَطُ وَهُوَ أَنْ تَرَى رِجْلَاهُ مَتَصِيبَتَيْنِ غَيْرَ مُخَبَّتَيْنِ ، وَالْبَدَد : وَهُوَ بُعْدُ مَا بَيْنَ الْيَدَيْنِ ، وَالْفَحَج وَهُوَ إفراط بُعْدِ مَا بَيْنَ الْعُرْقَوَيْنِ ، وَالْقَفَد : وَهُوَ أَنْتِصَابُ الرُّسْغِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى الْحَافِرِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي الرَّجْلِ ، وَالصَّدَف : وَهُوَ تَدَانِي الْفَخْذَيْنِ وَتَبَاعُدُ الْحَافِرَيْنِ فِي التَّوَاءِ مِنَ الرُّسْغَيْنِ بِحَيْثُ تَرَى رُسْغَيْ يَدَيْهِ مَفْتُوحَيْنِ ، وَالتَّوْجِيهِ : وَهُوَ نَحْوُ مَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ ، وَالْقَدَعُ وَهُوَ التَّوَاءُ الرُّسْغِ مِنْ عَرْضِهِ الْوَحْشِيِّ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مِنْ رَأْسِ الشَّظِيِّ ، وَوُطُوهُ عَلَى وَحْشِيٍّ حَافِرِيهِ جَمِيعًا وَهُوَ الْجَانِبُ الْخَارِجُ ، وَالْإِرْتِاشُ : وَهُوَ أَنْ يَصُكَّ بِعُرْضِ حَافِرِهِ عُرْضَ عَجَائِيَّتِهِ مِنَ الْيَدِ الْأُخْرَى ، وَذَلِكَ لَضَعْفِ يَدِهِ ، وَالْحَنْف : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حَافِرًا يَدَيْهِ مَكْبُوبَيْنِ إِلَى دَاخِلٍ ، وَالنَّقْد : وَهُوَ أَنْ يَرَى الْحَافِرَ كَالْمَتَقَشِّرِ ، وَالشَّرَج : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ذُو الْحَافِرِ لَهُ بَيْضَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَالْأَرَحُّ : وَهُوَ أَنْ يَمَسَّ الْأَرْضَ بِبَاطِنِ حَافِرِهِ .

ومنها الْبَدَدُ فِي الْيَدَيْنِ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ إِذَا مَشَى 'يَدِيرُ حَافِرَهُ إِلَى خَارِجٍ عِنْدَ النَّقْلِ وَلَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ فِي الْعَمَلِ ، وَالتَّلَقُّفُ وَهُوَ أَنْ يَخِيطَ بِيَدَيْهِ مَسْتَوًى لَا يَرْفَعُهُمَا إِلَى بَاطِنِهِ وَهُوَ خِلَافُ الْبَدَدِ .

ومنها التَّلَوِيح : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفَرَسُ إِذَا ضَرَبَتْهُ حَرَكَةُ ذَنْبِهِ ، وَهُوَ عَيْبٌ فَاحِشٌ فِي الْحُجُورَةِ لِأَنَّهُ رِمَا بَالَتِ الْحَجَرَ وَرَشَّتْ بِهِ صَاحِبَهَا .

الضرب الثانى

(العيوب الحادثة وهى عدة عيوب)

منها الحَدَب ؛ ويكون فى الظهر بمثابة حَدَبَةِ الإنسان ، وهو عيب فاحش ، والغُدَّة وتكون فى الظهر أيضا بإزاء السَّرة .

ومنها العنق : وهو انتفاخ وورم بقدر الرُّمانة أو أقل مما يلى الخاصرة ؛ وهو عيب فاحش لاعلاج فيه .

ومنها الحَمَر - وهو عيب يحدث عن ثُجَّة الشعر ، وربما كان من شرب الماء على التعب فيحدث عنه ثَقَل الصدر .

ومنها الأنتشار : وهو انتفاخ العَصَب بواسطة التَّعب ؛ ويكون من فوق الرُّسْغ إلى آخر الركبة ، وهو عيب فاحش .

ومنها تحرك الشَّظَاة : وهو عظم لاصق بالذَّراع ؛ وهو على الفرس أشق من الانتشار .

ومنها الرَّوَح : وهو داء يكون منه غَلَطٌ فى القوائم كمثل داء الفيل فى البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون فى بدء أمره ماءً أصفر ، ثم يصير دماً ، ثم يصير عظماً . ويكون على الوظيف وفى مَفْصِل الركبة ؛ وهو على العَصَب والركبة شر منه على الوظيف .

ومنها القَمَع ، ويكون فى الرجلين فى طرف العُرْقوبين ؛ وهو غَلَطٌ يعتريهما . والملح ، ويكون فى الرجلين تحت القَمَع من خَلْف : وهو انتفاخٌ مستطيلٌ لا يضر بالعمل ؛ والجَرْد : وهو كالعظم الناقى يكون فى الرجلين تحت العُرْقوبين على المَفْصِل من داخل ومن خارج ؛ وهو عيب فاحش تُؤَل منه الدابة إلى العطَب ؛ والنَّفَخ :

وهو أنتفاخ يكون في مواضع الجَرَد . وهو من دواعي الجَرَد؛ والعُقَال : وهو أن تَقْلَصَ رجله ، وذلك يكون في عَصَب الرجل الواحدة دون الأخرى ، وربما كان في الرجلين جميعاً ، وهو عيب فاحش يضرُّ بالعمل ، وهو في البرد أشدُّ منه في الحر . ومنها الشَّقَاق : وهو داء يصيبه في أرساغه ، وربما أرتفع إلى وظيفه ، والسرطان : وهو داء يأخذ في الرُّسْغ فيبَيِّس عروقه حتى ينقلب حافره .

ومنها العَرَبُ : وهو جُسوءٌ في رُسْغ رجله . والدَّخَس : وهو ورم يكون في حافره . والقَفَد : وهو تَشْنِج عصب رُسْغه حتى ينقلب حافره إلى داخل فيمشي على ظاهر الحافر .

ومنها النَّمْلَة : وهي شَقٌّ في الحافر من ظاهره : والرَّهْسة : وهي ما يكون في الحافر من صَدْمَة ونحوها ، والعامّة تقولها بالصاد . والقَشْر وهو أن تتقشر حوافره ، وهو عيب فاحش ، والنَّسُور : وهو الذي تسميه العامّة الوُقُرة : وهو داء يحدث في نُسُور الدابة فإذا قُطِع سَالَ الدَّم منه .

ومنها الأُدْرَة : وهي عِظَم الخُصْيَتَيْن ، وربما عَظُمَت خُصْبَتَاهُ في الصيف (١) وأَحْمَرَت في الشتاء . والمُدْلَى : وهو الذي يدلّ ذكره ثم لا يرده ، وهو عيب قبيح بحيث يقبح ركوب الفرس الذي به هذا العيب .

ومنها البَرَص : وهو بياض يعتري الفرس في مَرَقَاتِهِ : كالْمُحْفَلَة وجُفُون العينين وبين الفَخِذَيْن والخُصْيَتَيْن .

ومنها الخلد : وهو داء شديد ينقبُ موضعه من بَدَن الدابة يسيل منه ماءٌ أَصْفَرُ ، فإذا كُرِيَ بالنار برأ وانفتح موضع آخر ، فلا يزال كذلك حتى تعطب الدابة ، وهو

عيب فاحش ؛ في عيوب أخرى يطول ذكرها . وفي كتب البيطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله علاج منه وبيان مالا علاج له .

وأما الدوائر التي تكون في الخيل فقد عدّها العرب ثمانى عشرة دائرة ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأولى دائرة الحياء وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللطاة : وهى دائرة تكون في وسط الجهة . الثالثة دائرة النطيح : وهى دائرة ثانية في الجهة بأن يكون في الجهة دائرتان . الرابعة دائرة اللّهزمة : وهى دائرة تكون في لَهْزِمَة الفرس . الخامسة دائرة المقود^(١) : وهى التى تكون في موضع القلادة . السادسة دائرة السّماءة : وهى دائرة تكون في وسط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البقيتين : وهما دائرتان في نحر الفرس فيما قاله الأصمعي . وقال أبو عبيد البنيقة الشعر المختلف في منتهى الخاصرة والشاكلة . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة في باطن الحلق إلى أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللبد . الحادية عشرة دائرة الهقعة : وهى دائرة تكون في عرض الزور . الثانية عشرة دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون في الزور بأن تكون فيه دائرتان في الشقين في كل شقّ منهما دائرة وتسمى النافذة دائرة الحزام أيضا . الثالثة عشرة والرابعة عشرة دائرتا الحرب : وهما اللتان يكونان تحت الصقرين وهما رأسا المجبتين اللذين هما العظمان النائتان المشرفان على الخاصرتين كأنهما صقران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصقرين : وهما دائرتان بين المجبتين والقُصْرَيْن . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناحس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر - وهى دائرة الهقعة مع ذكره أن أبى الخيل المهقوع . ودائرة القالع . ودائرة الناحس . ودائرة النطيح . قال وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

(١) فى المخصص . المعموم .

وذكر صاحب زهر الآداب في اللغة أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المقود،^(١)
 ودائرة السَّامة، ودائرة الحقعة احتجاجاً بأن أبقى الخليل المهقوع، ويكرهون دائرة
 النطيج، ودائرة اللّهمزة، ودائرة القالع .

ورأيت في بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المقود ودائرة
 السَّامة ، ودائرة الحقعة وما عدا ذلك فهو مكروه ، وكره حكاه الهند دوائر أخرى
 ذكروها وهي أن يكون في مقدّم يده دائرة ، أو في أصل ذنبه من الجانبين دائرتان
 أو على ناصيته دائرة، أو على مخجّره دائرة، أو في بحفلة السفلى دائرة، أو على سُرته
 دائرة، أو على منسجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأقول ما تَصَع الحجرة جنيهاً قيل مهر، والأُنثى مهرة . فإذا
 فُصل عن أمه قيل فُلُو . فإذا استكمل حولاً قيل حَوَى والأُنثى حَوَلَة . فإذا دخل
 في الثانية قيل جَدَعُ والأُنثى جَدَعَة . فإذا دخل في الثالثة قيل ثُنَى والأُنثى ثَنِيَّة .
 فإذا دخل في الرابعة قيل رَبَاع والأُنثى رَبَاعِيَّة . فإذا دخل في الخامسة قيل قَارِح
 للذكر والأُنثى . وفي الغالب يلقى أسنانه في السنة الثالثة ، وربما تأخر إلقاؤها إلى
 السنة الرابعة : وذلك إذا كان أبواه شابين ، وقد يلقى أسنانه في حول واحد :
 وذلك إذا كان أبواه هَرَمِينَ ، ثم لكل مهر اثنتا عشرة سنّاً : ست من فوق وست
 من أسفل ، ويليهما من كل جانب نابٌ ، ويليهما الأضراس . وتنبت ثناياه بعد وضعه
 بخمسة أيام . وتنبت رباعيّاته بعد ذلك إلى مدّة شهرين . وتنبّت قوارحه بعد
 ذلك إلى ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنتي عشرة دون الأنياب
 والأضراس . وربما ألقى المهر بعض أسنانه ، ثم لاتبّت . وإذا قَرِح المهر أصفرت
 أسنانه ، وأسودت رؤوسها وطالت فيبقى كذلك خمس سنين ، فإذا جاوزت ذلك

أبيضت وحفي رؤوسها ، ثم تتقل فتصير كلون العسل خمس سنين ، ثم تبيض
 فتصير كلون القُبار ويزداد طولها . وربما دلس النخاسون فنشروا أسنانها وسووها .
 ومما وجد في الكتب القديمة أن الفرس تتحرك ثنياه في سبع وعشرين سنة ،
 وتتحرك الرباعيات في ثمان وعشرين سنة ، وتتحرك القوارح في تسع وعشرين سنة ،
 ثم تسقط الثنياه في ثلاثين سنة ، والرباعيات في إحدى ثلاثين سنة ، والقوارح
 في اثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما الفرس في الخيل فاعلم أن المهر وإن ظهرت فيه علامات النجابة أو العكس
 لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبح منه ما كان حسناً ، ويحسن منه ما كان قبيحاً ،
 وإنما يتفرس فيه إذا ركب له العلف ، وذهب عنه لحم الرضاع . وأفضل الفراسة
 في المهر أخذه في الجرى ، فإنه صنعتته التي خلق عليها وإليها يؤول ، فإذا أحسن
 الأخذ في الجرى فهو جواد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجري إذا ركب لضعف
 فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدى قوته ؛ وقد لا يجري جدّاً ويجرى ثنياً ،
 وقد لا يجري ثنياً ويجرى رباعياً ، وقد لا يجري رباعياً ويجرى قارحاً حين تجتمع
 له قوته . ويعرف ضعف الضعيف منها بتأزيه تحت فارسه وعجزه عنه وفترته
 إذا نزل عنه .

ومما يدل على جودة الفرس وحسن جريه أنه يراه إذا أخذ في الجرى سماً
 بهاديه ، وأثبت رأسه ، ولم يستعن بهما في حضره واجتمعت قوائمه ، وسبح بيديه
 وصرح برجليه ، ولها في حضره ، وامتد ، وبسط ضبعيه حتى لا يجد مزيداً ،
 وتكون يده في قرن ، ورجلاه في قرن ، فإذا كان الفرس كذلك فهو الجواد السابق .
 وقد قيل : إن خير الخيل الذي إذا مشى تكفأ ، وإذا عدا بسط يديه ، وإذا أدبر جفاً ،
 وإذا أقبل أفعى .

الصف الثاني

(البغال)

وفيها نوعيّة من الخيل والحَمير: من حيث إنها تتولّد بين حصّان وأتان، أو بين حمار وحِجْرة^(١). وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء: من العلماء، والوزراء، والحكام وسائر رؤساء المتعمّمين. وإنه صلى الله عليه وسلم، في يوم أحد كان راجيا بغلة، ولولا شرفُها ونفاسُها وقِيامُها مقام الخيل لما ركبها النبي صلى الله عليه وسلم في موطن الحرب؛ وألوانها وأسنانها على ما تقدّم في الخيل، ويستحسن فيها غالب ما يستحسن في الخيل؛ وقد قيل إن خيار ما يقتنى من البغال ما أشدّت قوائمه، وعظمت قصّرتُه، وعتقه وهامته، وصفت عيناه، ورحب جوفه، وعرض كفله، وسلم من جميع العيوب والعلل،

ومما يستحسن في البغال دون الخيل السّفا: وهو خفة شعر الناصية. وأن يكون بيديها ورجليها حُطوط مختلفة: جُلّ ما تكون للسّور: ويقال إن خير ما يختار للسرّج والركوب البغال المصرية: لأن أمهاتها عتاق ومُجنّ، وخيار ما يحتاج إليه للسّرايا والمواكب والرّكض مع الخيل بغال الجزيرة وإفريقية.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن في البغلات منها شدّة محبة للدواب إذا ربطت معها وفسادا للدواب إذا اعتادتها حتّى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة. ويحسن في البغال الخصى، وفي البغلات التّحويص، ولا يُعاب ركوب شيء منها حينئذ إذا كان نفيسا.

(١) قد تكرر في هذا المقام تأنيث الحجر بالهاء وفي القاموس مانعه والحجر الأنثى من الخيل وبالهاء.

لحن قال شارحه وهو غامى مسترذل ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه.

الصف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها على معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقبح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين . الأول البَحَاتِي : وهي جمال جُفَاة القُدُود ، طويلة الوَبر ، تجلب من بلاد الترك . الثاني العَرَاب وهي الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحَصَر . وأما ألوانها فترجع إلى ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجمل إذا كان خالص البياض قيل آدم والأثني أدماء على الضد من بني آدم ، فإن خالط البياض يسير شُقْرة قيل أعيس والأثني عيساء .

الثاني الحمرة فإن أحمر وغلبت عليه الشُقْرة قيل أصهب والأثني صهباء ، فإن خلصت حمرة قيل أحمر والأثني حمراء ؛ فإن خالط حمرة قُبُوْة قيل كُميت ، فإن صفت حمرة قيل أحمر مُدْمِي ، فإن خالط الحمرة خُضْرَة قيل أحوى ، فإن خالطها صُفْرَة قيل أحمر رادني بكسر الدال . فإن خالطها سَوَادٌ قيل أَرْمَك والأثني رَمَكاء . فإن كانت حمرة كَصَدِّ الحديد قيل أَجَأَى .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أَكْغَف ، فإن خالط السواد صُفْرَة قيل أحوى ، فإن علق بسواده بياض قيل أَوْرَق . فإن زادت وَرْقته حتى أظلم بياضه قيل أدهم ، فإن أشتد سواده قيل جَوْن ، فإن كان بين الغُبْرة والحمرة قيل خَوَّار والأثني خَوَّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرف أذكر أم أنثى سَلِيل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقَب ، وإن بان أنه أنثى قيل حَائِل . ثم هو حَوَّار حتى

يُقَطَّم ، فإذا فُطِمَ وفُصِّلَ عن أمه قيل فصيل . وذلك في آخر السنة الأولى من وضعه ،
 فإذا دخل في الثانية قيل ابن مخاض : لأن أمه فيها تكون من المخاض (وهي الحوامل)
 والأثني بنت مخاض ، فإذا دخل في الثالثة قيل ابن لبون : لأن أمه فيها تكون ذات لبن
 والأثني بنت لبون ، وإذا دخل في الرابعة قيل حَقٌّ : لأنه يستحق أن يحمل عليه والأثني
 حَقَّة ، فإذا دخل في الخامسة قيل جَذَع والأثني جَذَعَة ، فإذا دخل في السادسة
 قيل ثَنِيّ لأنه يُلْقَى فيها شَيْتَهُ والأثني ثَنِيَّة . فإذا دخل في السابعة قيل رَبَاع (بفتح الراء)
 لأن فيها يلقي رَبَاعِيَّتَهُ والأثني رَبَاعِيَّة بالتخفيف ، فإذا دخل في الثامنة قيل سَدِيس
 وسَدَس الذَّكْر والأثني فيه سواء ، وربما قيل في الأثني سَدِيسَة . فإذا دخل
 في التاسعة قيل بَازِلٌ لأنه فيها يَبْزُلُ نابُهُ ، والذكر والأثني فيه سواء ؛ وقد يقال فيه
 فاطر ؛ فإذا دخل في العاشرة قيل مُحْلِف ؛ وليس وراء ذلك للإبل ضَبْطٌ بل يقال مُحْلِفٌ
 عامٍ ومُحْلِفٌ عامين فأكثر ، فإذا علا السن بعد ذلك قيل فيه عَوْدُ والأثني عَوْدَة ، فإن
 علا عن ذلك قيل قَحْرٌ ، فإن تكسرت أنيابه لطول هَرَمِهِ قيل ثَلْبُ والأثني ثَلْبَة ،
 ويقال في الناقة إذا كان فيها بعض الشباب عَزُوم ، وربما قيل شَارِف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت في بعض المصنِّفات أن كلَّ ما يستحب
 في الفَرَس يستحب في البعير خلا عَرَضِ غَارِبِهِ ، وقتل مِرْفَقِهِ ، ونكس جاعِرَتِهِ
 وهي أعلى الْوَرِك ، وأنْدَلَقَ بطنه ، وتفَرَّشَ رجله ، فإن ذلك يستحب في الإبل
 دون الخيل .

وقد صرح الشعراء في أشعارهم بعدة أوصاف مستحسنة في الناقة ، منها دقة
 الأُذُن ، وتحديد أطرافها ، وكِبَرُ الرأس ، وأَسْطَالَة الوجه ، وعِظَمُ الوجنتين ، وقُنُو
 الأنف ، وطول العُنُق وغلظه ، ودقة المَدْبَح ، وطول الظهر ، وعظم السَّنام . وهي
 الكَوَّماء ، وطول ذنبها ، وكثرة شعره ، غليظة الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست

رَهْلَةً ، ولا مسترخيةً ؛ وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْسَاءَ الجلد ، تَامَّةَ الخلق ، قَوِيَّةً ، صُلْبَةً ، خَفِيفَةً ، سَرِيعَةَ السَّيْرِ .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَانٌ من نِتَاجِ مَهْرَةٍ : وهى قبيلة من قُضَاعَةَ باليمن ، والعيديَّةُ منسوبة إلى بنى العَيد من قبيلة مَهْرَةٍ المذكورة ، والأَرْحِيَّةُ منسوبة إلى بنى أَرْحَبَ ، والغُرَيْرِيَّةُ منسوبة إلى غُرَيْرٍ ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّدَقِيَّةُ منسوبة إلى شَدَقَمَ : فحل كريم أيضا ، والجَدِيلِيَّةُ منسوبة إلى جَدِيل : فحل كريم ، والدَّاعِرِيَّةُ منسوبة إلى دَاعِر : فحل كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَنِيَّةُ منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيسُ الغالى الثمين وخيرها حُمُرُ الديار المصرية ، وأحسنها ما أُتِيَ به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأَثْمَانِ إلى ما يقارب أثمانِ أوساطِ الخيل ، وربما يميَّزُ العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تام الخلق ، حديد النفس . ولا عيب فى ركوب الحمار ولا وهَيْصَةٌ ^(١) فقد ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ، ”رَكَبَ الحِمَارَ“ ولا عبرة برَفْعٍ من رَفَعٍ عن ركوبه بعد أن ركبهُ النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) مراده ولا قصص ولكن لم تقف فى مادة ر ه ص ولا و ه ص على هذا المعنى .

النوع الثالث

(ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده؛ وهو أصناف)

الصنف الأول

(جليل الوحش)

وهو ما يتخذهُ الملوكُ للزينة وما في معناها؛ ويحتاج الكاتب إليه لوصفه في الهدايا والمواكب، وما يجري مجراها.

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب.

الأول الأسد - ويجمع على أسد وأسود وأسود وآساد، ويقال له أيضا اللَّيْث والضيغم، والضَّغَام، والهَزْبَر، والهيصم، والهَرُماس، والفَرافِصَة، وحِدرَةُ، والقُسُورَة. وله أسماء كثيرة سوى هذه، لا تكاد تدخل تحت الحصر، حتى قال ابن خالويه للأسد خمسمائة اسم. ويقال لولده الشَّبل ولأنثاه اللَّبُوءة. قال ابن السندي في كتابه "المصايد والمطارد": وإذا تأملت أصناف الحيوان وبجحت صورها وما أُعطيت من الأسلحة ومقادير الخلق، وجدت الأسد أعظم خلقه، وأكثر أبديةً، وأشدَّ إقداما من جميعها، ليست له غريزة في الهرب البتة.

ومن خصائصه وعجيب خلقه أن عظم عنقه عظم واحد ليست له خرز عظام كما في غيره من الحيوان بدليل أنه لا يلوي عنقه، ولا يلتفت، ومع ذلك فهو يتلع الشيء العظيم، ولبونه لا تلد إلا جرأ واحدا، وإنها تضعه كاللحمة ليس فيه حس ولا حركة فتحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه المرة بعد المرة حتى يتحرك، ثم تأتي أمه فترضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب للماء وإن كان لا يفارق الغياض، وله صبر على

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقه، وليس يُلْقَى رَجِيعُهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْيَوْمِ، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلى خَلْفٍ كما تبول الحِمَال، وهو أَشَدُّ السَّبَاعِ ضَرَاوَةً عَلَى أَكْلِ بَنِي آدَمَ، وإذا أَقْتَرَسَ فَرِيَسَةً وَأَكَلَ مِنْهَا، لَا يَعُودُ إِلَيْهَا، وَلَا يَطَأُ أَثَرَهُ شَيْءٌ مِنَ السَّبَاعِ. قال ابن السندي في "المصايد والمطارِد" وَلَا يَأْكُلُ مِنْ فَرِيَسَةِ غَيْرِهِ مِنَ السَّبَاعِ. وقد قيل إنه يهرُب من الهر، ومن الحُرْو، ومن الدِّيكِ الأَبْيَضِ، وإنه إذا رأى النار عرضت له فكرة أورثته بهتة، وأنه يهرُب من عَوَاءِ الحُرْو إذا عُرِكَتْ أذنه، ويقال إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السُّوس من الثياب وغيرها أَمِنَ من ذلك، وإنه إذا عمل منه وَتَرَقُوسٌ وَأُضِيفَ إِلَى أَوْتَارٍ مِنْ قِرَاءٍ وَمِيعَى أَوْ غَيْرِهَا أَبْطَلَ أَصْوَاتَهَا وَعَلَا صَوْتُهُ عَلَيْهَا، ومن طبعه أنه لَا يَشْرَبُ مَاءً وَلَقَّ فِيهِ كَلْبٌ وَإِنْ مَاتَ عَطَشًا.

الثاني النَّمُورُ - جمع نَمِر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا على أُنَمَارٍ وَنِمَارٍ، والأُنثَى نَمْرَةٌ، وهو حيوان مُرَقَّع اللون بَسَوَادٍ وَبَيَاضٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ مِنْ خِلْقَةِ الْفَهْدِ، وهو أَخْبَثُ مِنَ الْأَسَدِ، لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ. قال: ابن السندي: وهو وَدُودٌ لْجَمِيعِ الْحَيَوَانِ، عَدُوٌّ لِلنَّسْرِ، وَيَنَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَالْحَيَوَانُ يُطِيفُ بِهِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِ، أَسْتَحْسَانًا لْجَلْدَتِهِ.

وهو جنسان أحدهما عَظِيمُ الْجُثَّةِ، صَغِيرُ الذَّنْبِ، والثاني صَغِيرُ الْجُثَّةِ عَظِيمُ الذَّنْبِ. قال في "المصايد والمطارِد" وَيَصَادُ بِالْحَجَرِ لِأَنَّهُ يَجْهَأُ. قال: وَمَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ تَمَسَّحَ بِشَحْمِ ضَبُعٍ وَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ.

الثالث الكَرَكْدَنُ - (بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشددة في الآخر) قال الزمخشري في "ربيع الأبرار": وهو وَحْشٌ يَكُونُ بِبِلَادِ الْهِنْدِ يُسَمَّى الْحِمَارَ الْهِنْدِيَّ، لَهُ قَرْنٌ وَاحِدٌ فِي جِهَتِهِ يَبْلُغُ غَلْظُهُ شَهْرَيْنِ، وَهُوَ

(١) ضبطه في القاموس بشدة الدال أى وتخفيف النون وقال والعاملة تشدد النون

محدد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وأنه ربّما نطح الفيل فبعجه بقرّنه ، وأن أنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبّة له وهربا منه .

الرابع الفيل - وهو حيوان يؤتى به من بلاد الهند والحبشة . قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء ، وهو من ذوات الخراطيم ، وخرطومُه أنفه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يتناول الطعام والشراب ، ومنه يُعنى ويخرّ فيه الصوت كما يخرّه الزامر في القصبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السنور عداوة وأن الفيل يهرب منه هربا شديدا . وذكر صاحب "الحيل في الحروب" ^(١) أنه يقصر عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينفر في الحروب . وقد ذكر الجوزي أن للفيل إقداما على السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوض لأنه يثقب جلده بقرصه ، ومن ثم يرى الفيل دائما يحرك آذانه ليطرده عنه الناموس ، وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى حتى لو أن إنسانا كان جالسا وجاء الفيل من خلفه لما شعر به . وذكر عبد القاهر البغدادي ^(٢) أن الفيلة تحمل سبع سنين ، وقيل سنتين ، وقيل ثلاث قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرفه داخل حلقه وأصله من خارج على العكس من سائر الحيوان ، وأن ثديها على كبدها وتضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالي أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب آرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزرافة - (بفتح الزاى وضمها) وهي حيوان يؤتى به من بلاد الحبشة واليمن ، طويل اليدين ، قصير الرجلين ، ذنبه وحوافره كذنب البقر وحوافرها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) في حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتى بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا في الاصل وعبرة الحياة ولا ينزوعها اذا وضعت الا بعد ثلاث سنين .

ورقبته ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه موشى بالبياض والصفرة. قال الجاحظ :
وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نوق الحبشة وبين بقر الوحش وبين
الذئب - وهو ذكر الضباع . وذلك أن الذئب يعرض للناقة فيسهلها فتلقح بولد يحىء
خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عرّض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى
الولد زرافةً ، وإن كان ذكرا تعرّض للمهاة فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا . قال :
ومنهم من يزعم أن الزرافة الأنثى لا تلّتح من الزرافة الذكر . ثم قال وهذا مشهور
باليمن والحبشة . ثم إن كانت أسنانها سودا دلت على هرمها ، وإن كانت بيضا
دلت على حداثة سنّها .

ومن أمراضها الكلب (وهو كالجنون يعتريها كما يعتري الكلب فيقتلها) وكلّ
من عضته وهى على هذه الحالة قتلته إلا ابن آدم فإنه ربما عالج فسلم . ومن
أمراضها أيضا الذئبة والتقرس .

الصنف الثانى

(مُعَلَّمَاتُ الصَّيْدِ)

وقد يعبر عنها بالضوّارى . وهى كل ما يقبل التعليم من الوحوش كائنا ما كان
حتى حكى عن السودانى القنّاص أنه بلغ من حذقه أنه ضرى ذبّا حتى أصطاد به
الظباء وما دونها ، وألفه حتى رجح إليه من ثلاثين فرسخا ، وضرى أسدا حتى أصطاد
به حمر الوحش . ويقال إن ابن عرس يُجعل حبل فى عنقه ويدخل على الثعلب
فلا يخرج إلا به . وهى على ضربين .

الأول الفُهودة .. جمع فُهد بكسر الهاء . وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من
أسد ومَرة أو من نمر ولَبْوة ، وهو من السباع التى تصاد ثم تؤنّس حتى تصيد ،

(١) فى المصباح الجمع فهود كفلس وفلوس وكذا بقية معاجم اللغة فاعل ما فى الاصل من التعريف
والاصحيف وهو الأقرب .

وهو من الحيوان المحمّد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها في بعض كالكلب وغيره قال : في ” التعريف “ وأوّل من صاد به كسرى أنوشروان أحد ملوك الطبقة الأخيرة من الفُرس قال : في ” المصايد والمطارد “ ويصطادونه بضروب من الصيد . منها الصوت الحسن فإنه يصنعي إليه إصغاء شديدا .

ومنها كدّه وإتعا به حتّى يحمى ويعيا وينهر ويخفى ، فإذا أخذ غُطّيت عيناه وأدخل في وعاء ، وجعل في بيت مادام وحشياً ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدعه يرى الدنيا ، ويجعل له مربكاً كظهر الدابة يعودده رُكوبه ويُطعمه على يده فلا يزال كذلك حتّى يتأثّس ، فإذا ركب مؤنّخ الدابة فقد صار داجنا وصاد . وفي طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتّى يضرب بنومه المثل فيقال ” أَوُمٌ مِنْ فَهْدٍ “ . وكثرة الحياء حتّى إنه لا يعلم أنه عاطل أثى بين يدي الإنس ، وقد عُني بمراعاته في ذلك فلم يوقف عليه . وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ابن السندی عن بعض الفهّادة أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده على فرجه نفر وعَضَّ يده . ومنها الغَضَب حتّى إنه إذا أُرسل على صيد فلم يحصله احتد ، وإن لم يأخذ سائسه في تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب ” المصايد والمطارد “ والمسئ من الفُهود إذا صيد كان أسرع في الصيد من الحرو الذي يُربى ويؤدّب ، والأثى أٌصيد من الذكر كعامّة إناث الجوارح . قال : وليس شيء من الوحش في قدر جرم الفهد إلا والفهد أفضل منه . قال : في ” المصايد والمطارد “ وضدّ الفهد الطباء والوعول على اختلاف أجناسها .

الثاني الكلاب - جمع كَلْب ويجمع على أَكْلَب أيضا وعلى كَلِيب كعبد وعبيد والأثى كَلْبَة ، وتجمع على كلبات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء

مَشْتَرَكِ الطَّبَاعِ بَيْنَ السَّبْعِ وَالْبَهِيمَةِ: لِأَنَّهُ لَوْ تَمَّ لَهُ طِبَاعُ السَّبْعِيَّةِ لَمَا أَلْفَ النَّاسَ وَلَوْ تَمَّ لَهُ طِبَاعُ الْبَهِيمَةِ لَمَا أَكَلَ الْلَحْمَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ يَحْتَلِمُ وَأُنْثَاهُ تَحِيضٌ ، وَتَحْمِلُ أُنْثَاهُ سَتِينَ يَوْمًا ، وَرَبَّمَا حَمَلَتْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَسْفِدُ بَعْدَ سَنَةٍ ، وَرَبَّمَا تَقَدَّمَ عَلَى ذَلِكَ . وَلَهَا عِنْدَ السَّفَادِ أَشْتَبَاكٌ عَظِيمٌ ، وَإِذَا سَفَدَ الْأَثَى كَلْبَانِ مُخْتَلِفَانِ أَتَتْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ بِلَوْنِهِ . وَفِيهِ مِنْ اقْتِفَاءِ الْآثَارِ وَشَمِّ الرَّائِحَةِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَالْمَيْتَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْلَحْمِ الْغَرِيضِ .

وَمَنْ طَبَعَهُ أَنَّهُ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ شَاهِدًا أَوْ غَائِبًا ، ذَا كَرَا أَوْ غَافِلًا ، وَنَائِمًا أَوْ يَقْظَانَ ، وَهُوَ يَقْظُ حَيَوَانٌ فِي اللَّيْلِ ، وَإِذَا نَامَ كَسَرَ أَجْفَانِ عَيْنَيْهِ وَلَا يُطَبِّقُهَا خِلْفَةَ نَوْدِهِ . وَمَنْ عَجِيبُ شَأْنُهُ أَنَّهُ يَكْرُمُ الرَّئِيسَ مِنَ النَّاسِ فَلَا يَنْبَحُهُ وَإِنَّمَا يَنْبَحُ أَوْ بَاشَ النَّاسَ . وَمَنْ طَبَعَهُ أَنْ الضَّبْعَ إِذَا مَشَتْ عَلَى ظِلِّهِ فِي الْقَمَرِ رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَتَأْكَلُهُ ، وَإِذَا ظَفَرَ بِكَلْبٍ غَرِيبٍ كَادَ يَفْتَرِسُهُ .

وَقَدْ أَجَازَ الشَّارِعَ اتِّخَاذَهَا لِلصَّيْدِ وَنَحْوِهِ ، وَأَبَاحَ صَيْدَهَا مَعَ نَجَاسَةِ عَيْنِهَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا لِلصَّيْدِ دَارًا أَحَدُ مُلُوكِ الْفُرْسِ قَالَ فِي "المَصَائِدِ" وَالْمَطَارِدِ : وَإِذَا كَسَرَ الْكَلْبُ الْأَرَانِبَ فَهُوَ نَهَايَةُ وَإِنْ كَانَ يُطَبِّقُ فَوْقَ ذَلِكَ . وَالْكَلْبُ يَمْسِكُ لِصَاحِبِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مِنَ الصَّيْدِ بِخِلَافِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ . قَالَ : وَإِنَاثُهَا أَسْرَعُ تَعَلُّمًا مِنَ الذَّكَورِ ، وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا حَتَّىٰ إِنَّمَا تَعِيشُ عَشْرِينَ سَنَةً .

وَمِنْ خَاصِيَةِ الْكَلْبِ أَنَّهُ إِذَا عَايَنَ الطَّبَّاءَ قَرِيبَةً كَانَتْ أَوْ بَعِيدَةً ، عَرَفَ مِنْهَا الْعَلِيلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَالْعِزَّ مِنَ التَّيْسِ فَيَتَّبِعُ التَّيْسَ مِنْهَا دُونَ الْعِزِّ وَإِنْ كَانَ التَّيْسُ أَشَدَّ عَدُوًّا وَأَبْعَدَ وَثْبَةً: لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ التَّيْسَ إِذَا عَدَا شَوَّطًا أَوْ شَوَّطِينَ غَلَبَ عَلَيْهِ الْبَوْلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ إِرْسَالَهُ فِي عَدُوِّهِ فَيَقْلُ عِنْدَ ذَلِكَ عَدُوَّهُ وَيَقْصُرُ مَدَى خُطَاهُ فَيَدْرِكُهُ الْكَلْبُ ، بِخِلَافِ الْعِزِّ فَإِنَّمَا إِذَا اعْتَرَاهَا الْبَوْلُ أَرْسَلَتْهُ لِسَعَةٍ مَسِيلِهِ ، وَالْكَلْبُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ طَبْعًا ،

وكذلك يعرف حجرة الأرناب والثعالب وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه ويشير مافيها من الوحش ؛ وإذا صعد منه أرنب إلى أعلى جبل شاهق ، كان له من الناطف في الارتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميت من المماوت .

ومن خصائص الأئني أنها تحمل ستين يوما ويبقى حرؤها بعد الولادة اثني عشر يوما أعمى . وأكثر ما تضع ثمانية أجراء ، وربما وضعت واحدا فقط ، ورأس الكلب كله عظم واحد ، والكلب يطرح مقادِم أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يليق منها شيئا حتى ينبت في مكانه غيره ؛ والفرق بين الذكر والأئني أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأئني تبول مقمية وربما رفعت رجلها ، والذكر يهيج للسفاد في السنة قبل الأئني ، وأسنان الذكر أكثر ومضغه أشد . قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة ثم البيض إذا كانت عيونها سوداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" أن الأبيض أفره والأسود أصبر على الحر والبرد . ومن علامة النجاسة والفراة فيه أن يكون تحت حنكه طاقة شعر مفردة غليظة ، وأن يكون شعر خديه جافا . ومن علامة الفراة طول ما بين يديه ورجليه وقصر ظهره وصغر رأسه وطول عنقه وغصاف أذنيه وبعدهما بينهما ، وزرقة عينيه ، وضخامة مقلتيه ، وتوحدته ، وطول خطمه ودقنه ، وسعة شدقه ، وتوقجهته وعرضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين ، طويل الصدر ، غليظه ، قريه من الأرض ، ناتي الزور ، غليظ العضدين مستقيم اليدين ، منضم الأظافر ، عريض ما بين مفاصل الأعطاف ، عريض ما بين عظمي أصل الفخذين مع طولها وشدتها لهما ، دقيق الوسط ، مستقيم الرجلين ، قصير الساقين ، غير مخني الركبتين ، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة ؛ وإن الكلبة

إذا ولدت واحداً كان أفره من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفره من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهما وإذا ألقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى فأياها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكلب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعتري الكلب يؤثر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جراً صغاراً .

ومن عجيب ما يحكى في ذلك أن رجلاً عضه كلب فلتقاه بكه فأصابته أسنانه ولعابه فشمركمه ساعة ثم نشره فتساقط منه جراً صغاراً .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سلوقية (بفتح السين) وزغارية (بضم الزاي) . فأما السلوقية فنسوبة إلى سلوق بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماء في تقويم البلدان والمقرئ الشهابي ابن فضل الله في "التعريف" قال في "التعريف" : وهي مولدة بين الثعالب والكلاب ، ولذلك لا تقبل التعليم إلا في البطن الثالث منها ، قال : ولها سلاح جيد ، قال في "المصايد والمطارد" : ولها أنساب كأنساب الخيل ، قال : وقيل أن يعرض لها مروض الكلب . وأما الزغارية فهي ألطف قداً من السلوقية ولم أدر إلى ماذا تنسب .

الصنف الثالث

(ما يعنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضرباً)

الأول الحمارة العتابية - وهي حيوان في صورة البرذون موشى الجلد بالبياض والسمود يروق الناظر حسنهما ، وقد كان أهدى للظاهر برقوق سقى الله عهده حمارة من هذا النوع فأقامت مدة ، ثم أعطاها فقيراً من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخليل والحمير ويمشي بها في القاهرة ، ثم عوضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر عنها عوضاً ، وأعتادها منه ، وأرسلها في هدية لابن عثمان صاحب بلاد الروم غربى الخليج القسطنطيني .

الثاني البقر الوحشية - وتعرف بالمها ، وهي دون البقر الأهلية في المقدار ، ولها قرنان في رأسها ، في كل قرن منهما شُعب ، وهي من جليل الصيد ، ويقال للفقى منها المها ، وبها يضرب المثل في حُسن العيون وسوادها . ومن طبعه الشبق وشدة الشهوة ، ولذلك إذا حلت أنثاه هربت منه خوفاً من تعبته بها وهي حامل ، وربما ركب الذكر الذكر لشدة شبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتاً من الذكور إلا البقر الوحشية فإن الأنثى أغم صوتاً وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية الوهادات ، وما آستوى من الأرض ودنا من الماء والعُشب ، وليست مما يسكن الجبل ، ولذلك عيب في ذلك محمد بن عبد الملك الزيأت كاتب المعتصم ووزيره حيث وصف ثورا من ثيرانها برعيه في الجبل . وهي مما يُصاد بالطرد على الخيل ، ويقال إن أول من طردها على الخيل ربيعة بن زار بن معد بن عدنان فإنه أول من ركب الخيل على قول ؛ ولما ركبها رأى بقرة وحشية فطردها فلجأت إلى مكان يمكنه أخذها منه فرق لها وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلق بها ، وأقدر معين له عليها من جوارح الطير العقاب . قال ابن السندي : ودمها أسرع إلى الجُود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحمر الوحشية - ويقال للأنثى من حمر الوحش أتان وللذكر حمار وعير كما يقال في الحمر الإنسانية ، وربما قيل الفراء ، وهو من أشد الصيد عدواً ولذلك يُضرب به المثل فيقال "كل الصيد في جنب الفراء" أو "في جوف الفراء" . وبه تشبه العرب خيلها وإبلها في السرعة ، ويقال إن الحمار الوحشي لا ينزو إلا إذا

كان له من العمر ثلاثون شهرا وإن الأثى لا تُلَقَّح منه حتى يتم له ثلاث سنين ،
وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدة الغيرة على أُنثى حتى يقال إن فيها ما إذا
وُلِدَ له ولد ذكر كدم قضيبه وخُصْيِيه حتى يقطعهما . قال في ” المصايد والمطارد “
وليس يتعلَّق به شئ من الصَّواري ولا الجوارح إلا العقاب ، ولا شئ أبلغ في صيده
من الرمي بالشَّاب .

الرابع الغزالان - ويقال لها الطَّاء بكسر الظاء واحدا ظبي ؛ ثم الطَّاء على ثلاثة
أضرب : أحدها البيض ، ويقال لها الآرام جمع رُم ، ومساكنها الرمل ، ويقال هي
ضأن الطَّاء . وثانيها الأدم ؛ وهي ظباء سمر الظهور ، بيض البطن ، طويلة
الأعناق والقوائم ؛ وهي أسرعها عدوا . ومساكنها الجبال والشَّعاب . وثالثها العُفر
وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة ؛ قصار الأعناق ؛ ومساكنها صلاب الأرض .
ويصيد جميعها الفهد والكلب والعقاب . وتُصَاد أيضا بالحِبالَة والشَّرَك ، وربما
صِيدَت بايقاد النار بإزائها ؛ لأن الظبي إذا رأى النار في الليل تأملها وأدمن النظر إليها
وعَشِيَ بصره وذهل ؛ وقد يُضاف إلى النار تحريك جرس ونحوه فيزداد دُهو له فيؤخذ .
وتصاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيَّيل - جمع أَيْل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام
في الآخر) . وهو حيوان قريب الشَّبه من الطَّاء ، له قرنان في رأسه كالظبي . قال
في ” المصايد والمطارد “ وهو معتصم بالجبل قلما يحلَّ السهل ، وقرونه مُصَمَّمة
لا تجويف فيها ، ويخلِّفها في كل عام غيرها ، ويتبدى في ذلك بعد مضي سنين من
ولادته ، وله أربع أسنان في كل ناحية من ناحيتي فيه ؛ وذكَه عَصَب لا لحم فيه .
ولا غُضْرُوف ولا عَظْم ؛ ودم كل حيوان يجمد إلا دمه ؛ وليس للأثى منها قرون .
البتة ؛ وأصوات ذكورها أحمَد من أصوات إناثها ؛ وهو يرتاح لسماع الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذَلَّ لها، ويأكل الحيات ولا يضره سمها، وسيأتي في الكلام على الأشجار أن البادزهر الحيواني من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا نجر بقرنه مع كبريت أحمر هربت الحيات .

السادس الأرانب - جمع أرنب والأرنب مؤنثة^(١) وهي حيوان صغيرة الجثة قصيرة اليدين قريب من لون الثعلب، وليس شيء مما يوصف بقصر اليدين أسرع منها . ومن خصائصها كثرة الشعر حتى إنه لينبت في بطون شديها وتحت رجلها . وقضيب ذكر الأرنب من عظم ، وربما ركب الأثنى الذكر في السفاد، ولا ينال الأرنب إلا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تطاء الأرض بباطن كفها لتعفى أثرها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلى ساحل البحر، وإذا طردت لجأت إلى الجبال واشتد عدوها فيها، والأثنى لاتسمن، وهي عند العرب مما يحيض، وتُسفد وهي حبل، وتلد الأول والثاني على ما في بطنها .

السابع الذئب - جمع ذئب وهو حيوان في صورة الكلب في لونه بلق بكودة والذئبة أجراً من الذئب وأشد عدواً، وأسنانها عظم مخلوق في فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ابن السندي : وأخبرني أبو بكر الدقيشي أن هذه الخلقة في أسنان الضبع أيضاً ، والذئب صاحب خلوة وأنفراد . ومتى رأى الإنسان قبل أن يراه أخفى صوته ، وإن رآه جزع منه أجترأ عليه وساوره، وإذا تسافد هو وأنشاء التحما التحاما شديدا حتى يقال إنه إذا هم عليهما داخل في هذه الحالة قتلها كيف شاء ولذلك يبعدان في هذه الحال إلى مكان لا يريان فيه، وإذا تهارش ذئبان فأدعى أحدهما الآخر عدا الذي أدعى على المدمى فقتله خوفاً من أخذ الثار ،

(١) في المصباح ويقع على الذكر والانثى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليه الذئاب نُصرةً له ، وإذا لقي الفارس والأرض مثلوجة تحمش الثلج بيديه ورمى به في وجه الفارس ليدهشه ثم يعقر دابته فيتمكّن منه ، ومتى وطئ الفرس أثر الذئب رعد وخرج الدخان من جسده كله ولذلك قلّ من يطرد من الفرسان ولا يتفطن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانيّ ضرى ذئبا حتى أصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب - جمع ثعلب . وهو حيوان معروف ، موصوفٌ بكثرة الروغان في عدوه وبالحيل حتى إنه يتكاوت عند رؤية الغراب فينزل عليه الغراب على ظنّ موته لياكل منه فيقبضه هو . ومن خبئه وحيلته يختلط بكبار الوحوش وجأثها ، قال في "المصايد والمطارد" . ومن فضائله تشبيههم بمشية الخيل بمشيته التي يقال لها الثعلبية . ومن عجائبه أن قضيبه في خلقة الأنوبة أو سطه عظم في صورة الثقب والباقي عصب ولحم . وهو كريم الوبر ، والأسود من وبره في الغاية القصوى ، والأبيض منه لا يكاد يفرق بينه وبين الفئك .

ومن خصائصه أنه يتمرغ في الزرع فلا ينبت موضعه ، وربما سقّد الكلبة فولدت كلبا في خلقة السلوقي الذي لا يقدر على مثله . وقد تقدّم ذكر ذلك في الكلام على الكلاب السلوقية . ومواضع الكروم والآجام ، ويصيده الفهد والكلب وجوارح الطير

التاسع الضباع - جمع ضبع ، ويقال لها أم دامر ، وهي مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثى . ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة على سطح ووطئت ظله وقع فأكلته ، وإذا أفتحتم عليها مقتحم وجارها وقد سد جميع منافذ حجرها حتى يمتنع

منه الضوء فلا يبقى فيه حرم إبرة، ربطها بحبل ونرح بها؛ وإن بقي ما يدخل منه الضوء، ولو قدر سم إبرة وثبت عليه فأكلته. ومن كان معه شيء من الحنظل لم تقرب به الضبع.

العاشر سنور البر - وهو النفا، وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما التحريم وصيده يحتاج إلى علاج كبير، وربما وثب على وجوه الناس، وطرده بالخليل من أعسر الطراد، وأولى ما يصاد به الرمي، ومنهم من يعمده في السباع قال في "المصايد والمطارد" "وقلما أنتفع به في صيد إلا أنه يثب على الكركي وما في مقداره من الطيور فيصيده. أما السنور الأهلي، وهو الهر المعروف بغير ما كول ولا يصيد إلا الفاروما في معناه من خشاش الأرض، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم، في الهرة ولكنها من الطوافين عليكم بمعنى أنها تطوف على النائم في بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخشاش.

الحادي عشر الذب - وهو حيوان قريب في الصورة من السبع، وهو يسكن الجبال والمغائر، والأنثى ترفع ولدها أياما هربا به من الذر والتمل لأنها تضعه كقطعة لحم فلا تزال تنقله وتراعيه حتى تستند أعضائه، وتجعله تحت شجرة الجوز وتضعدها فتجتمع الجوز في كفها ثم تضرب اليمنى على اليسرى وترمي إليه، فإذا شبع نزلت وربما قطعت من الشجرة العود الذي يعجز الناس عنه وتقبض عليه في موضع مقبض العصا وتشد به على الفارس وغيره فلا تصيب به شيئا إلا أهلكته. ومن خصيسته أنه يستتر في الشتاء فلا يظهر إلا في الصيف بخلاف سائر الحيوان.

الثاني عشر الخنزير - وهو حرام بنص القرآن، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياسا على الكلب؛ بل قالوا إنه أسوأ حالا منه لعدم حل آقتنائه إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد. وهو حيوان في نحو مقدار الحمار وشعره كالإبر

وله نابان بارزان من فكّه الأسفل . ومن خاصّته أنه لا يُلقَى شيئاً من أسنانه ، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلقى أسنانهَا خلا الأضراس ، وهو كثير السّفاد ، كثير النّسل ، حتّى إنه ربما بلغت عدّة ختانيصه ^(١) وهى أولاده اثني عشر ^(١) خصوصاً . قال فى "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البرى الجاهل الذى لا يقبل التّأديب والتعليم ، ويقبل السّمّن سريعاً ، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سمّت .

الثالث عشر السّمور - (بفتح السين وبالميم المشدّدة المضمومة على وزن السّفود والكلّوب) . وهو حيوان برى يشبه السّنور ، وقد يكون أكبر منه . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو حيوان جرى ليس فى الحيوان أجراً منه على الإنسان ، لا يُصاد إلا بالخيّل ، ووقع للنّوى فى تهذيب الأسماء واللغات أن السّمور طير ، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هشام البستيّ فى شرح الفصيح فقال : إنه ضرب من الجن . والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم . وحكمه حلّ أكله ، ومنه يتخذ نفيس الفراء التى لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان من يدانى الملوك لحُسْنها ودِفائِها ، وأحسنه ما كان منه شديد النّعومة مائلاً إلى السّواد .

الرابع عشر الفَنَك - (بفتح الفاء والنون) وهو دويّة لطيفة ، لها وبر حسن أبيض يخالطه بعض حمرة يُتخذ من جلوده الفراء . قال ابن البيطار : وفروه أطيب من جميع الفراء ، ومزاجه أبرد من السّمور وأحر من السّنجاب ، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيراً ما يجلب من بلاد الصّقالبة .

الخامس عشر القاقم - (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دويّة فى قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يُتخذ الفراء ، وهو أبرد من مزاجها وأرطب من السّنجاب ، ولذلك كان لونه البياض ، وهو أعز قيمة من السّنجاب .

(١) فى الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة .

السادس عشر الدَّق - (بفتح الدال المهملة واللام وقاف في الآخر) فارسيّ معرّب ؛ وهو دُوَيْبَةُ تقرب من السَّمُور . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو يقرّس في بعض الأحيان ويكرّج في الدم . وذكر ابن فارس أنه التمس . وقد ذكر الرافعي أنه يسمّى ابن مُقرّض والمعروف أن الدَّق حيوان يتخذ منه القراء .

السابع عشر السَّنَجاب - وهو حيوان أكبر من الفأر ووبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة . وحكمه الحِلُّ ، وقال بتحريمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده القراء النّفيسة التي يلبسها أعيان الناس ورؤسائهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صعد الشجر العالى ، وفيها يأوى ، ومنها يأكل ؛ وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالية ؛ وأحسن ألوانه الأزرق ؛ ثم إنه يقال إنه ربما تبقى زُرْقته ^(١) لأنه يُخْنَق ولا يذكّى ، فإن صح ذلك فهو ميتة لا يطهر شعره بالدباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعي رضي الله عنه خلافا للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وابن أبي عَصْرُون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزي عن الشافعي واختاره الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله .

الثامن عشر سنّور الزّباد - وهو في صورة السنّور الأهليّ إلا أنه أطول ذنبا منه وأكبر جثّة ، ولونه إلى السواد أميل ، وربما كان أتمر ، وهو يُجَاب من بلاد الهند والسند ؛ والزّباد فيه شبهه بالوسخ الأسود اللزج ، ذفر الرائحة ، يخالطه طيب كطيب المسك ، ويوجد في باطن إبطه ، وباطن أخفأذه ، وباطن ذنبه ، وحول ذنبه . فيؤخذ من هذه الأماكن بمِلْعَقَةٍ ونحوها .

التاسع عشر السنّور الأهليّ - (وهو الهر) ويقال في أصل خلقه إن أهل السفينة شكّوا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح على وجه الأسد بيده فعطس فخرج السنّور من أنفه ولذلك هو يشبهه في التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان في خصال . منها أنه يعطس ، ويتشاءب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلعابه كأنه يغسله ، وإذا آتسخ شيء من بدنه نظّفه ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويسمّمه حتى تخفى رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشمه الفأر فيهرب ، وهو يهيج للسفاد في آخر الشتاء ، ويكثر الصباح حينئذ ، وتحمل الأثني منه مرة في السنة ، وتقيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألفت منزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملق لهم وترقق ، وإذا أختطف شيئا هرب به خوف المعاقبة عليه . والهرة إذا جاءت أكلت أولادها - ويقال إنها تفعل ذلك من شدة الحنوّ . وقد ذكر القزويني أن نوعا من السنانير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلى ذنبها .

العشرون النمّس - قال الجوهري : وهو دُويّة عريضة كأنها قطعة قديد ، تكون بأرض مصر تقتل الثعبان ، والنمّس بمصر معروف - وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبر اللون ، طويل الذنب ، يصيد الدجاج ، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأنس فتأنس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها ، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها موارد في الوصف ، وكيف يصف ضواري الصيد كالقَهْد وكيف يصف وحوش الصيد كالظباء ، وبقر الوحش ، وحرر الوحش وغيرها . وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وتجتنب الأسود ورود ماء * إذا كان الكلاب يلعن فيه

وكما أنشد الجاحظ :

جاءت مع الأفشين في هودج * تُرّجى إلى البصرة أجنادها

كأنها في فعلها هرة * تُريد أن تأكل أولادها

مشيرا بذلك إلى ما تقدم من أكل الهرة أولادها وغير ذلك مما يجري هذا المجرى وسيأتى ذكر ما فى معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلى ذلك فى رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكأية قدم البندق، وما يجرى مجرى ذلك، وهو على أربعة أصناف .

الصنف الأول

(الجوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش ؛ ويحتاج الكاتب إلى وصفها فى الرسائل الصيدية وفى إهداء شئ من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجُتّة المعتبر فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث ؛ أما ذكرها فإنها أطف فى المقدار وأضعف فى الصيد على ما أتى بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى . قال فى " التعريف " ويستحب فى الجوارح كبرها متها ، ونتو صدرها ، وآتساع حماليتها ، وقوة إبصارها ، وحدة مناسرها ، وصفاء ألوانها ، ونعومة ريشها ، وقوة قوادمها ، وتكاثف خوافيها ، وثقل مجملها ، وخفة وثباتها ، وأشدادها فى الطلب ، ونهمها فى الأكل ؛ وقد قسمها فى " التعريف " إلى قسمين : صُقُور و بُزاة ، وفترق بينهما بأن الصُقر ما كان أسود العين والبازى ما كان أصفر العين على اختلاف المسميات ، ثم قال " أما العقاب فإنه لا يعد فى الصُقور ولا فى البزاة وهو معدود فى الجوارح ، وفى الطير الجليل " . وبالجمله فالجوارح على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(العقاب ، وهو ضربان)

الضرب الأول - المخصوص باسم العقاب وهى مؤنثة لاتذكر، وجمع على عقبان وأعقب . قال فى "المصايد والمطارد" وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر فى الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فنها سوداء دجوجية ، وخداریة ؛ وهى التى لابیاض فيها . ومنها البقعاء - وهى التى يخالط سوادها بياض . ومنها الشقراء - وهى التى فى رأسها نقط بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العقاب الغرن بفتح الغين والراء المهملة - ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم ، لأنساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان . والعقاب من أسرع الطير طيارا ، فقد حكى أن عقابا حملت كف عبد الرحمن بن عتاب ابن أسيد المسمى ببعسوب قريش ، المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فألقته بمكة فأخذت فوجد بها حلقة فعرف أنها كفه ، وأرخ ذلك الوقت فتبين أنها ألقته يوم الجمل الذى قتل فيه ، وأول من صاها أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أمرها وإفراط سلاحتها قال حکاؤهم هذا لا يفي خير بشره .

وصفة الوثيق النجيب منها وثاقة الخلق ، وثبوت الأركان ، وحمرة اللون ، وغور العين بالحاليق ؛ وأن تكون صقعاء ، عجزاء ، لاسيما ما كان منها من أرض سرت أو جبال المغرب . وهى تصيد الظباء والثعالب والأرانب ، وقد تصيد حمر الوحش ، وطريق صيدها إياها أنها إذا نظرت حمار الوحش رمت بنفسها فى الماء حتى يتل جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يعلق بهما ، ثم تطير طيارا ثقيلًا حتى تقع على هامته فتصفق على عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك

التراب الذى علق بجناحيها ، فلا تستطيع المسير بعد ذلك فيدركها القانصُ فيأخذها وربما كسرت الأدمى .

ومما يحكى فى ذلك أن قيصر ملك الروم أهدى إلى كسرى ملك الفرس عقابا ، وكتب إليه إنها تعمل أكثر من عمل الصقور ، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظي فافتنصته ، فأعجبه ما رأى منها فأنصرف وجوعها ليصيد بها فوثبت على صبي له فقتلته ، فقال كسرى : إن قيصر قد جعل بيننا وبينه دما نائرا بغير جيش . ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر تمرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فهذا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش ، وكنتم ماصنعت العقاب فأعجب قيصر حسن النمر ووافق صفته ما وصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فتياته فقال صادنا كسرى .

ومن شأنها أنها لا تطلب شيئا من الوحش الذى تصيده ، وهى لا تقرب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها ، ولا تزال مرقبة على مرقب عال ، فإذا رأت بعض سباع الطير قد صاد شيئا آتقتضت عليه ، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها ، فإن جاءت لم يتمتع عليها الذئب فى صيدها ، وربما أغتالت البراة فقتلتها ،

ومن خصائصها أنها أشد إخفاء لفرأخها من سائر الطير . قال غطريف بن قدامة الغساني صاحب صيد هشام بن عبد الملك : "وأول من لعب بالعقاب أهل المغرب" ، فلما عرفوا أسرارها نقذوه إلى ملك الروم فاستدعى جميع حكامه فقال لهم : أنظروا فى قوة هذا الطير ، وعظم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرفوا أسرارها فى صيده وتعليمه ، وكيف ينبغى أن يكون - فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد فى سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير - وعند العداوة والغضب كل الأجناس عنده من سائر الحيوان

على اختلاف أنواعه واحد لقوة غضبه وشدة بأسه فهو لا يستعظم الأدنى ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثانى - الرُّجَج (بضم الزاى وفتح الميم المشددة ثم جيم) والعامة تبدل الزاى جيما والجيم زايا - وهو طائر معروف تصيد به الملوك الوحش، وأهل البيزرة يعدونه من خفاف الطير الجوارح، إلا أنهم يصفونه بالغدر وقلة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بقاء،

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث: الرُّجَج طائر دون العقاب حرته غالبية، والعجم تسميه دُوراً دران ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثانى

(من الجوارح البزاة . وهى ما أصفرت عينه،

وهى على خمسة أضرب)

الأول - البازى المختص فى زماننا باسم البازى ؛ وفى ضبطه ثلاث لغات أفصحها بازى بكسر الزاى وتخفيف الياء فى الآخر، والثانى بازٍ بغير ياء فى آخره، والثالث بازى بانباء الياء وتشديدها حكاها ابن سيده ؛ ويقال فى التثنية بازِيَان وفى الجمع بَوَازٍ وبزاة - ولفظه مشتق من البزوان - وهو الوثب . وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران . وهو من أشرف الطيور الجوارح، وأحرصها على طلب صيده . فى أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطيرستان ومعه منديل فيه شيء ملقّف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شلو بازٍ ودراجة ، فأطلقه عليها فأحسّت به ، وكنت قد أمرت بإحراق قصب قد أفسد أرضا لى فتعاملت الدراجة حتى

أقتحمت النار هاربة من البازي، واشتد طلبه لها وحرصه عليها فلم تردّه النار عنها وأقتحمها في أثرها فأسرعت فيهما فأدركهما وقد أحترقا، فأحضرهما إلى الأمير ليراهما فيرى بهما ثمرة إفراط الحرص وإفراط الجبن . وهو من أشدّ الحيوان كبرا وأضيقها خلقا . قال القزويني ولا يكون إلا أنثى، وذكرها نوع آخر من حدأة أو شاهين أو غيرهما . ولذلك تختلف أشكالها . والبازي قليل الصبر على العطش ومأواه مساقط الشجر .

ومن فضيلته أن الصيد فيه طبيعة لأنه يؤخذ من وكره فرخا من غير أن يكون يصيد مع أبويه فيصيد ابتداء وقريحة من غير تضرية، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يجب ولم يصد، وإذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عود أكثر مما يوجد عنده في تلك الحال وجري على ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومهر فيه . قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعدد ريش جناح البازي عشرون ريشة ، أربع قوادم، وأربع مناكب، وأربع أباهر، وأربع كلى، وأربع خواف . ويقال سبع قوادم ، وسبع خواف ، وسائر لغب . والخواف أخف من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المنسر، والرأس، وغلظ العنق، وسعة اللجين ، ودائرتي الأذنين والشدين، وسعة الحذقة، وطول القوادم، وقصر الخوافي والذنب، وشدة اللحم، وعرض ما بين المنكبين والزور، وسعة الحوصلاء، وسعة ما ينتقل إليه طعمه، وعرض الخالب، ورزانة المحمل، وغلظ خطوط الصدر، وذكاء القلب، والتسمير، وكثرة الأكل ، وتتابع النهش، وسرعة الاستمراء ، وشدة الانتفاض، وضخامة السلاح، وبعد الذرق . وأن تراه كأنه مفعيا^(١) إذا استقبلته على يد حامله تشبها^(١) بالغراب الأبقع . قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمختار من ألوانها الأحمر

(١) كذا في الاصل .

الأكثر سوادا ، الغليظُ خطوط الصدر ، والأشهبُ الشديدُ الشَّبهة ، الشَّبيه بالابيض ، والأصفر المدبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ على نجابته ، والبازي يصيد الكلب ، والأرنب ، والغزال ، والكُرْكِي ومافى معناه ، والدُّراج ، والمجل ، وسائر الحمام ، والبَطَّ ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازي عدمُ الإباق فإنه إن صاد بقي على فريسته وإن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلى كد ولا تعب ولا طَرْد خيل . وأول من صاده من الملوك قُسطنطين ملك الروم - وذلك أنه مر يوما بلحف جبل فرأى بازيا يطير ثم نزل على شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صورته ، وراقه حسن لباسه ، فأمر بأن يصاد له جملة من البزاة فصيده له وحملت إليه فأرتبطها في مجلسه ، فعرض لبعضها في بعض الايام أيم فوثب عليه فقتله - فقال : هذا ملك يغضبه ما يغضب الملوك فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجن ، وهو الذي يربى في البيوت فوثب عليه فأكلت إلا جريحا - فقال هذا ملك جبار لا يَحْتَمِل ضيما - ثم مرَّ به طائر فكسره ونهش منه - فقال هذا ملك نوعه لما جاع أخذ طعامه بسلطان وقدره - فحمله على يده وصاد به .

الثاني الزُّرْق - (بضم الزاي المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف في الآخر) وهو ذكر البازي قال في "المصايد والمطارد" وهو يصيد ما يصيد البازي من دق الطير ولا ينتهي إلى صيد الكُرْكِي .

(٢) الثالث الفقيمي - وهو بازٍ قَصِيفٌ قليل الصيد ذاهل النفس .

الرابع الباشق - (بكسر الشين وفتحها) فارسي معرَّب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظر القاموس (٢) في حياة الحيوان العنقوي ولم تجدهما في القاموس .

وصفاته الحمودة كصفات البازي الحمودة . وأفضلها أثقلها وزنا قال في "المصايد والمطارد" وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال في حياة الحيوان : إنه يصيد أنحر ما يصيده البازي وهو الدُّرَّاج والحَمَام والوَرَّشَان ، وإذا قوى على صيده لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما .

الخامس البَيْدَق - وهو دون الباشق ، وصيده العصافير .

القسم الثالث

(من الجوارح الصقور - وهي السُّود العيون من الجوارح ؛ وهي ضربان)

الضرب الأوَّل - الشَّواهين (واحدُها شاهين) وهي صنفان . الأوَّل المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلماء بالجوارح أن الشَّواهين هي أسرع الجوارح كلها وأشجعها وأخفها وأحسنها ثقلها ، وإقبالا ، وإدبارا ، وأشدَّها ضراوة على الصيد ؛ إلا أنهم عابوها بالإبقاء وما يعتريها من شدة الحرص ، حتى إنها ربما ضربت نفسها على الغلظ من الأرض فماتت ، وهي أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح - ويقال إن صدرها عَصَبٌ مجدول مُنْحَم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تعلّق بكفها ، وهم يحدّدون منها ما قرّض داجنًا دون ما قرّض وحشيًا .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كاسمه يعني كالميزان المسمّى بالشاهين ، فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع ؛ بل حالها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الحمام يخافها أكثر مما يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب "المصايد والمطارد" الأحمر اللون إذا كان عظيم الهامة ، واسع العينين حادّهما ، سائل السُّفْعَتَيْن ، تامّ المنسر ، طويل العنق ، رَحْب الصدر ، ممتلئ الزَّوْر ، عريض الوسط ، جليل الفخذين ، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ دائرة الخصر ، قليل الريش لينه ، تام الخوافي ، ممتلئ العكوة ، رقيق الذنب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هي المحمودة وأن السواد هو أصل لونها وإنما آتلفت إلى لون البراري خالت . قال والجر منها تكون في الأرياف والمواضع السهلة ، والشهب في الجبال والبراري . ثم قال ولا يصيد منها الكركي والخبرج إلا البحرية . وأول من صادها فيما يقال قسطنطين ملك الروم أيضا ، وذلك أنه رأى شاهينا محلقا على طير الماء يصطاده فأعجبه ما عاين من فرأهته ، وسرعة طيرانه وحسن صيده ، فإنه رآه يحلق في طيرانه حتى يلحق بعنان الجوثم يعود في طرفه عين فيضرب طير الماء فيأخذه قناصا . فقال ينبغي أن يصاد هذا الطائر ويعلم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أعجوبة في أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله على يده . قال في "المصايد والمطارد" وأنه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة على رأس الملك حتى ينزل فتقع حوله إلى أن ركب بها ملك منهم ، وساروهي على رأسه فطار طائر فانتقض بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأعجب الملك به فصرأها على الصيد وصاد بها .

وقال ابن عثير : كانت ملوك العرب إذا ركب في مواكبها طيروا الشواهين فوق رؤوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثاني من الشواهين الأنيوه ^(١) قال في "المصايد والمطارد" وهو دون الشاهين في القوة ، وله سرعة لا تزيد على صيد العصافير .

الضرب الثاني - من الصقور ما عدا الشواهين وهي أصناف .
الأول السنقر . قال في "التعريف" وهو أشرف الجوارح وإن كان لا ذكر له

(١) لم نعر على هذا الاسم .

في القديم . قال والسَّاقِرُ يُجَلَّبُ من البحر الشامي مغالًى في أثمائها . ثم قال وكان الواحد منها يبلغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وأنخط عن تلك الهضبة .

الثاني - المخصوص في زماننا باسم الصَّقر ويجمع على أَصْقَرُ وَصُقُور وَصُقُورَة قال في "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُرّ . ويقال له الأكدر، والأجْدَل . قال في "المصايد والمطارد" ويقال لها يُقال الطير : لأنها أصبر على الأذى، وأحمل لغلظ الغذاء، وأحسن إلفاً، وأشدّ إقداماً على جِلَّة الطير، ومزاجه أبرد من البازي والشاهين، وبسبب ذلك يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنه يفوته، وهو أهدي من البازي نفساً، وأسرع استئناساً بالناس وأكثرها قنعا، وأبرد مزاجاً، لا يشرب ماءً وإن أقام دهرًا . ونوع يُوصف بالبخر وتتن الفم ومسكنه المغائر والكهوف وصدوع الجبال دون رعوس الأشجار وأعلى الجبال، والعرب تحدّد من الصُّقُور ما قرنص وحشياً، وتذم ما قرنص داجياً، وتقول إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهي تصيد الكُرْكُي وما في معناه، والبَطّ وسائر طير الماء .

والصقور من أثبت الجوارح جناتنا في الطيران، وأحرصها في اتباع الصيد، حتى يحكى أن بعض ملوك مصر أرسل صقرا على كركي صبيحة يوم الجمعة بمصر فبينما الناس يصلّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركي بالجامع الأموي بدمشق، فأخذ فوجد فيه لوح السلطان فعرف به، فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال في "المصايد والمطارد" ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبغث، وأحوى، وأبيض، وأخرج، وهو الذي فيه نقط بيض . قال ويستحب في الصقر أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، واسع العينين، تام المنسر، طويل العنق، رطب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين، قريب القدمة من القفا، طويل الجناحين، قصير الذنب، سبط الكف،

غليظ الأصابع فيروزجها، أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفات الفَرَاهَة والوَاقَة والسرعة . قال أدهم بن محرز : وأول من لعب بالصقر الحارث بن معاوية بن كندة الكندي - خرج يوما الى الصيد فرأى صيادين قد نصبوا شباكاً عِدَّة ، فوقع فيها عصافير عِدَّة فحين رآها صقر من الجو انقضَّ عليها يطلبها فأمر الحارث بنصب الشباك للصقور فنصبت لها فأصطاد منها جملة . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعي له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العش وعلمت اصطادت أجود صيد لأن صيدها طبيعي بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوكر ثم كبر فإنه لا يصطاد غير طعمه فلذلك يُنهي عن تربية الصقر .

الثالث الكُونَج - قال في حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزُرَق إلى البازي إلا أنه أحر منه ، ولذلك كان أخف جناحاً وأقلَّ بجراً . قال ويصيد أشياء من طير الماء ويعجز عن الغزال لصغره .

الرابع الكُوَهِيَّة - وهي موثاة بالبياض والسراد يخالط لونها صُفْرَة ، قال في " التعريف " وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة ، وهي قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليُوَيُّو - (بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضاً) قال في " المصايد والمطارد " وتسميه أهل مصر والشام الجَلَم ، وبهذا سماه في " التعريف " وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزُرْقَة ، وهي مع صغرها يجتمع الاثنان منها على الذكر فيصيده ، وسموه الجَلَم أخذاً من الجَلَم : وهو المقص تشبيهاً به لأن له سرعة كسرعة المقص في قطعه ، ومزاجه بالنسبة إلى الباشق بارد رطب لأنه أصبر نفساً منه ، وأثقل حركة . وهو يشرب الماء شرباً ضرورياً كما يشربه الباشق ، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حار يابس ولذلك هو أشجع منه . ويقال

إن أول من ضمه على الصيد وأصطاد به بهرام جور : أحد ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يؤيؤا يطارد قنبرة ، ويروغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتى صادها ، فأمر بتأديبه والصيد به .

الصنف الثاني

(الطير الجليل)

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصّره ويحتاج إليه في الرسائل الصيدية ، وفي كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعة عشر طائراً ، وهى على ضربين .

الضرب الأول - طيور الشتاء - وهى التى يكثر وجودها فيه - وهى عشرة طيور .
الأول الكركي - وهو طائر أغبر ، طويل الساقين ، فى قدر الإوزة ، ويجمع على كراكى ، وفى طبعه خور يحمله على التحارس ، حتى إنه إذا اجتمع جماعة من الكراكى لأبد لها من حارس يحرسها بالنوبة بينها . ومن شأن الذى يحرس منها أن يهتف بصوت خفى كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته ، قام واحد من كان نائماً يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفّاً واحداً ، يقدمها واحد منها كالرئيس لها وهى تتبعه ، يكون ذلك حيناً ثم يخلفه آخر منها مقدماً حتى يصير الذى كان مقدماً مؤخراً ، وفى طبعها التناصر والتعاضد . ومن خاصتها أن أثنائها لاتقعد للسفاد بل يسفدها وهى قائمة ، ويكون سفاده سريعاً كالعصفور . وذكر جميع بن عمير التميمي أن الكراكى تبيض فى السماء ، ولا تقع فراخها ، وكذبه المحدثون فى ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القزويني فى عجائب المخلوقات ، والكركى لا يمشى على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلق الأخرى ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسف به الأرض قال في "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صَوْتًا يُسَمِع على أميال . قال وإذا تقدم مجيئها في الفصل آسَدَلْ بذلك على قوّة الشتاء . ويقال إن الكراكى تأتى إلى مصر من بلاد الترك . وفي طلبه وصيده نتغالى ملوك مصر تغاليا لا يدرك حدّه ، وتتفق في ذلك الأموال الجمة التى لانهاية لها . وكان لهم من علو الشأن بذلك ما لا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثانى الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - واحدة إوزة وجمعوه على إوزون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركى ، وهو طير فى قدر الإوز البلدى أبيض اللون . وله تجنّز فى مشيته كالجلجل ، وهو من جملة طير الماء مقطوع بحل أكله .

الثالث اللّغّغ - وهو دون الإوز فى المقدار ، لونه كلون الإوز الحبشى إلى السواد ، أبيض الجفن ، أصفر العين . ويعرف فى مصر بالعراقى ، ويأتى إليها فى مبادئ طلوع زرعها فى زمن إتيان الكراكى إليها . ومن شأنها أن يتقدّمها واحد منها كالديل لها ، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدا كالجلجل ودليلها فى وسطها متقدّم عليها بعض التقدّم . وقد يصفّ خلفه صفين ممتدين يلقيناه فى زاوية حادة حتى يصير كأنه حرف جيم بلا عراقة ، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبرت حدث فى بياض بطونها وصدورها نقطٌ سود ، والفرخ منها لا يعتريه ذلك .

الرابع الحُبرج - (بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجميم فى الآخر) - وهو الحبارى . قال فى "المصايد والمطارد" ويقع على الذكر والأُنثى ويجمع على حُبَارِيَات وذكّر غيره أن واحده وجمعه سواء . وبعضهم يقول إن الحُبرج هو ذكر الحبارى . قال فى "المصايد والمطارد" وهو طائر فى قسدير الديك ، كثير الرّيش : ويقال لها دجاجة البرّ . قال فى حياة الحيوان : وهى طائر طويل العنق ،

رَمَادَى اللون ، في مِثْقاره بعض طول ، يقال لذكر الحبارى الخَرْب (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة في الآخر) - ويجمع على خَرَابٍ وأخرابٍ وخِرْبَان .

ومن خاصته أن الجارح إذا أعتنقها أرسلت عليه ذَرْقًا حاصلًا معها ، متى أحبت أرسلته ، فيه حدةٌ تمنعُ ريشه ، ولذلك يقال : سَلَحُهَا سِلَاحُهَا . قال في حياة الحيوان : وهى من أشد الطير طيرانا ، وأبعدها شَوْطًا ، فإنها تصاد بالبصرة فيوجد في حواصلها الحبة الخضراء التى شجرها البُطم ، ومنابتها تُحوم بلاد الشام ، وإذا تُنف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمدا - قال وهى من أكثر الطير جَهْدًا فى تحصيل الرزق ، ومع ذلك تموت جوعًا بهذا السبب . قال فى "المصايد والمطارِد" : وهى مما يُعاف لأنها تأكل كلَّ شئ حتى الخنافس - وقال فى حياة الحيوان : حكها الحلُّ لأنها من الطيبات ، وأستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حُبارى" ويقال لولدها اليَجْبور ، وربما قيل له نَهَارٌ كما يقال لولد الكروان ليل .

الخامس الثَّم - بفتح التاء وتشديد الميم - وهى طائرٌ فى قدر الإوز أبيض اللون ، طويلُ العنق ، أحمرُ المنقار ، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرًا .

السادس الصوغ - بضم الصاد المهملة وغيث معجمة فى الآخر - وهو طائرٌ مختلط اللون من السواد والياض ، أحمرُ الصدر ، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار .
السابع العُنَّاز - بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر - وهو طائر أسود اللون ، أبيضُ الصدر ، أحمرُ الرجلين والمنقار .

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره فى فصل الضاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه .

الثامن العقاب وقد تقدم ذكره في الكلام على الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب، ومما يتعلق بهذا المكان أنها الأسود، والخواخية، والسُّفْع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يأوى الجبال، وما يأوى الصحارى، وما يأوى الغياض، وما يأوى حول المَدُن.

وقد تقدم ذكر الخلاف في أن ذكرها من جنسها أو من جنس آخر في الكلام على الجوارح. وحكمها تحريم الأكل لأنها من ذوات الحُثَب من الطير، وأختلف في قتلها هل هو مستحب أم لا بجزم الرافعي والنووي من أصحابنا الشافعية في الحج باستحباب قتلها. وجزم النووي في شرح المذهب بأنها من القسم الذي لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة، وبه جزم القاضي أبو الطيب رحمه الله. التاسع النسر بفتح النون، ويجمع في القلة على أنسر. وفي الكثرة على أنسور، وسُمِّي أنسرًا لأنه ينسر الشيء ويتلعه. والنسر ذو منسر وليس بذى حُثَب وإنما له أظفار حِدَاد الحُثَالِب، وهو يسفد كما يسفد الديك. وزعم قوم أن الأئشي منه تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حر الشمس للبيض مقام الحَضْن. والنسر حاد البصر يرى الحيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة شمه في الغاية، ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته، وهو أشد الطير طيراناً وأقواها جناحاً حتى يقال إنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد. وإذا وقع على حيفة وعليها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو في غاية الشره والنهم في الأكل إذا وقع على حيفة وأمتلأ منها لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة، والأئشي منه تخاف على بيضها وفراخها الحُقَاش فتفرش في أوكارها ورق الدلب لتتفر منه

الْحُقَاشَ ، وهو من أشد الطير حزنا على فراق إلفه حتى إذا فارق أحدهما الآخر مات حزنا .

وهو من أطول الطير أعمارا حتى يقال إنه يُعمر ألف سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الحيف .

العاشر الأنيسة - قال في حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُماة وإنما أسمه الأنييس . قال : وهو طائر حادّ البصر ، يشبه صوته صوت الجمل ، ومأواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة بالأشجار ، وله لونٌ حسن ، وتدير في معاشه . وقال أرسطو : إنه يتولد من الشقراق والغراب . وذلك بين في لونه . ويقال إنه يحب الأئس ، ويقبل الأدب والتربية ، وفي صفه وقورته أعاجيب ، حتى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقمرى ، وغذائه الفاكهة واللحم وغير ذلك . ومن شأنه ألفة الغياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستحب . فإن صح تولده من الشقراق والغراب فينبغى تحريمه . والأنيسة ذات ألوان مختلفة ، بدنّها يميل إلى الغبرة ، وعنقها يشتمل على خضرة وزرقة ، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزّها وجودا .

الضرب الثاني طيور الصيف - وهي التي يكثر وجودها فيه ، وهي أربعة أطيّار . الأول الكى بضم الكاف : وهو طير أغبر اللون إلى البياض ، أحمر المنقار والحوصلّة ، رجلاه تضربان إلى السواد .

الثاني الغرنوق - بكسر الغين المعجمة وفتح النون - ويقال فيه غرنوق - بضم الغين وفتح النون ، ويجمع على غرانيق . قال الجوهري : وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق ، وتبعه الزخمرى على ذلك . وقال أبو خيرة : وسمى غرنيقا لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطاردة" الغرنيق كركى إلا أنه أخضر طويل المنقار ،

(١) لم نعر عليه في حياة الحيوان ولم يذكر في معاجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركى إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله دُؤابتان في رأسه .
وقال : ومن خصائصها أن ريشها في شببتها يكون رمادياً ، فإذا كبرت أسود وليس
ذلك في سائر الطير ، فإن الريش لا يحول بياضه إلى السواد بل يحول سواده إلى
البياض : كما في الغربان والعصافير والخطاطيف .

الثالث المرزم - وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة ، طويل الرجلين والعنق ،
وهو حلال الأكل .

الرابع الشبيط - بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمى
اللقلق أيضاً ، ويعرف بالبلارح^(١) . وكنيته عند أهل العراق أبو خديج - وهو طائر أبيض ،
أسود طرفي الجناحين ، ورجلاه ومنقاره حمر ، وهو يأكل الحيات ولكنه يوصف
بالفطنة والذكاء . وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما في شرح المهذب والروضة
الحرمة وإن كان من طير الماء .

وسياتى الكلام على ما يحمل من هذه الطيور الأربعة عشر بأعناقها وما يحمل منها
بأسياها فيما يتعلق بمصطلح الرماة في الكلام على كتابة قدم البندق في موضعه إن شاء
الله تعالى . وطيور الواجب كلها حلال إلا النسر والعقاب .

الصنف الثالث

(ما عدا الطير الجليل مما يُصَاد بالحوارح وغيرها ، وهو على ضربين)

الضرب الأول ما يحمل أكله - وهو أنواع كثيرة لا يأخذه الحصر ، ونحن نقتصر
على ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها النعام - وهو اسم جنس الواحدة نعامة ، وهو طائر معروف مرَّكَّب من

(١) مصحف لم نهند إليه . ولعله البارح .

صورتى جمل وطائر ولذلك تسميه الترك دواقش بمعنى طير جمل ، وتسميه الفُرس
 أشترمرك ، ومعناه جمل وطائر . ويجمع النعامة على نعامات ، ويسمى ذكرها الظَّائِمَ ؛
 ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طيرانها ؛
 ومن الناس من يظن أنها متولدة من جمل وطير ولم يصح ذلك . ومساكنها الرمل ،
 وتضع بيضها سطورا مستطيلا بحيث لو مدّ عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن
 الأخرى ، ثم تعطى كلّ بيضة منها نصيبها من الحَصْن : لأنها لا تستطيع ضم جميع
 البيض تحتها ، وإذا خرجت للطعم فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت
 بيضها ، فربما حضنت هذه بيض هذه ، وربما حضنت هذه بيض هذه ؛
 ولذلك توصف في الطير بالحق ؛ ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فنه ماتحضنه ، ومنه
 ما تجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتجعله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى
 به أفراخها إذا خرجت . وليس للنعام حاسة سمع ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه
 عن سماعه حتى يقال إنه يسم رائحة القناص من بُعد ؛ والعرب تقول إن النعامة
 ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها . وهو لا يشرب ماء ، وإن طال عليه الأمد ،
 ولذلك يسكن البرارى التى لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح .
 ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصلب والحجر والحديد فتذيقه معدتها حتى تدفعه
 كالماء ، وتبتلع الجمر فيطفئه جوفها ، وإذا رأت فى أذن صغير أو لؤة أو حلقة اختطفتها .
 وحكمه حل أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سم وحي .

ومنها الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - وهو اسم جنس واحد إوزة ، وجمعوه
 على إوزون ، وهو مما يحب السباحة فى البحر ، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح
 فى الحال ، وإذا حضنت الأثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها ، ويخرج فرخها فى دون
 الشهر من البيضة . وهو من الطيبات ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

ومنها البطّ، وهو من طيور الماء واحده بطّة للذكر والأنثى وليس بعربيّ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القِرْيُث - بكسر القاف، ويسمى مُلَاعِبَ ظله . وهو طائر صغير الحرم من طيور الماء، سريع الاختطاف، لا يزال مرفرفاً على وجه الماء على جانب كطيران الحداة، يهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعا، ويرفع الأخرى حذرا؛ فإن أبصر في الماء ما يستقلّ بجملة من السمك أو غيره آنقضّ عليه كالسهم المرسل فأخرجه من قعر الماء، وإن أبصر في الجوّ جارحا، مرّ في الأرض . وبه يضرب المثل في الإقبال على الخير والإدبار عن الشرّ، فيقال: "كأنه قِرْيُث، إن رأى خيرا تدلّ، أو رأى شرا تولّى".

ومنها الغَطَّاس - ويقال له الغَوَاص ، وهو طائر أسود نحو الإوزة ، يغوص في الماء فيستخرج السمك فيأكله ، وهم فيه في حياة الحيوان فجعله القِرْيُث .

ومنها الدجّاج - بفتح الدال المهملة وكسرها وضما، حكاه ابن معن الدمشقيّ وابن مالك وغيرهما ، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم ، والواحدة دجاجة والذكر والأنثى فيه سواء . قال ابن سيده : وسميت دجاجة لإقبالها وإدبارها، يقال : دَجَّ القوم إذا مشّوا بتقارب خطوٍ، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالحضن، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا، ظريفا، سريع الحركة، يُدعى فيُجيب ، ثم كلما مرّت عليه الأيام حمق ونقص حسنه . ومما يعرف به الذكر من الأنثى في حالة الصغر أن يعلق الفرخ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثى . والدجاج يبيض في جميع السنة ، وربما باضت الدجاجة في اليوم مرتين ، ويتم خلق البيض في عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابها الهواء تصلبت . وتشتمل البيضة على بياض وصفرة ويسمى المَح ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له في البيضة يتغذاه من سُرته ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبق لبيضاها مَحٌ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن في البيوت ، وقد ورد في سُنَنِ ابن ماجه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أمر الاغنياء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادي : أمر كل قوم من الكسب بحسب مقدّرتهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمر بها سائر السباع فلا تخامها فإذا مرّ بها ابن آوى وهي على سطح رمت نفسها إليه ، وهي توصف بقلّة النوم وسرعة الانتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخور طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له الحبشي . أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم في الجميع الحل .

ومنها الديك - وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيَكَةٍ ودِيُوك ، وهو أبله الطبيعة حتى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى ربح الرافعي من مذهب الشافعي رضى الله عنه اعتماد الديك المحزّب وفاقا للمتولّي والقاضي حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تنقيطاً لا يُحِلُّ فيه شيء طال الليل أم قصر . لكن قد ورد في معجم الطبراني وغيره : إن لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، له جناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائمه في الهواء ، يؤذّن كلَّ سحر فيسمع تلك

الصبيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجن والإنس ، فعند ذلك يُجيبه
 دُيُوك الأرض ؛ وحينئذ فيكون الديك في ذلك تابعا . وقد ورد عدة أحاديث
 في النهى عن سَبِّ الديك ، ومدح الديك الأبيض ، والحث على آخذه .

ومن حميد خصال الديك أنه يسوى بين دجاجة : ولا يؤثرُ واحدة على الأخرى .
 ويقال إنه يبيض في السنة بيضة ؛ ويفرق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته
 أصغر من بيضة الدجاجة ، وهى مدورة لا تحديد في رأسها .

ومنها القَطَا - بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع على قَطَوَاتٍ
 وقَطِيَّاتٍ ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات ، ويسمى قَطَاً لحكاية صوته : لأنه يصيح
 ” قَطَا قَطَا “ ولذلك تصفها العرب بالصدق . قال الجوهري ، وهو معدود من
 الحَمَام ، وبه قال ابن قتيبة ، وعليه جرى الرافعي في الحج والأطعمة : قال الشيخ
 محب الدين الطبري : والمشهور خلافه .

ثم القِطَا نوعان : كُدْرِيٌّ وجُونِيٌّ ، وزاد الجوهري نوعا ثالثا وهو القَطَاط ،
 فالكدرى غُبر اللون ، رُقش البطون والظهور ، صفر الحلق ، قصار الاذنان .
 والجُونِيٌّ سُودُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرا أغبر أرقط ، تعلوه صُفرة ، وهى
 أكبر جرماً من الكدرى ، تعبد كل جُونِيَّة كُدْرِيَّتَيْن ، والكدرية تُفَصِّح باسمها
 فى صياحها ، والجُونِيَّة لا تفصح بل تُقرِّرُ بصوت فى حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض فى القَفْرِ على مسافة
 بعيدة من الماء . وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من
 أفاحيصها فى طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة
 سبع مراحل ، فترد الماء فتشرب ثم تقيم على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلى

الماء ثانية . والجؤنية تخرج إلى الماء قبل الكُدْرِيَّة ؛ وهى توصف بالهداية فتأتى أفاحيصها ليلا ونهارا فلا تضل عنها ؛ وتوصف بحسن المشى ، وبقلة النوم .

ومنها الكَرَوَانُ - بفتح الكاف والراء - وهو طائر فى قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ؛ ويجمع على كِرَوَان بكسر الكاف والأثني كَرَوَانَة .

ومنها المَجَلُّ - بفتح الحاء المهملة والجيم ، وهو طائر على قدر الحمام كالقَطَا ، أحمر المنقار والرجلين ؛ ويسمى دَجَاج البر ؛ ويقع على الذكر والأثني ؛ وقد يقال له القَبِجُ أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم فى الآخر ، يقال للذكر والأثني منه قَبِجَة ، ويسمى الذكر منه أَلِيعُقُوب ^(١) ؛ والقَبِج بفتح القاف والموحدة وجيم فى الآخر ، ويقال فى الأثني منه مَجَلَة . وهو صِفَان : نَجْدِيٌّ وَتِهَامِيٌّ ، فالنجدى أحمر الرجلين ، والتهامى فيه بياض وخضرة ؛ ومن شأنه أنه يأتى إلى مصر عند هيجان زرعها ويصبح صياحا حسنا ، تقول العاقمة : إنه يقول فى صياحه : ” طَابَ دَقِيقُ السَّبِيلِ “ . ومن شأن الأثني منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها تتمرغ فى التراب وتصبه على أصول ريشها فتَلْقَحْ ؛ ويقال : إنها تَلْقَح بسماع صوت الذكر ، وبريح يهب من قبيله ؛ وإذا باضت ميز الذكر الذكور منها فخصنها ، وتحضن الأثني الإناث . وكذلك فى التربية ، وفرخها يخرج كاسيا يزغب الريش كما فى الدجاج ؛ وفى ” المصايد والمطارد “ أن القَبِج كثير السَّفَاد ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأثني ورأى بيضا ، كسره . قال التوحيدى : ويعيش المحل عشر سنين ويعمل عشرين ، يجلس الذكر فى واحد والأثني فى واحد ؛ وهو من أشد الطيور غيرة على أنثاه حتى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأثني ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا معطوف على القبح الاوّل اشارة الى لغة أخرى وليس معطوفا على اليعقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتي عَشْ غيرَه فيأخذ بيضه ويحضنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التي باضتها؛ وفيه من قوة الطيران ما يظنه من لم يحققه عند طيرانه أنه حجر رُمِيَ بِمِقْلَاعٍ لسرعته .

ومنها القُمَيْرِيُّ - بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع على قَمَارِيٍّ غير مصروف . قال في المحكم : ويجمع على قُمَرٍ أيضا؛ والأثني منه قُمَرِيَّةٌ، ويقال للذكر منه الْوَرَشَانُ - بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أيضا سَاقُ حُرٍّ . قال الْبَطْلِيُّ سَيِّ: وُسْمَى سَاقُ حُرٍّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك، ويكنى أبا الأخضر، وأبا عمران، وأبا الناجية . قال ابن السمعاني: والقُمَيْرِيُّ منسوب إلى القُمَيْرِ، وهي بلدة تشبه الحصَّ لياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القُمَيْرِيُّ طير صغير، وعده في المحكم من الحمام . ويقال : إن الهوام تهرب من صوت القَمَارِيِّ . قال القزويني : ومن خاصية القَمَارِيِّ أنها إذا ماتت ذكورها لم تنزواج إنثاهما؛ والوَرَشَانُ الذي هو ذكر القُمَيْرِيِّ يوصف بالحنو على أولاده حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رءاه في يد القانص . قال عطاء : وهو يقول في صياحه ”لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْغَرَابِ“ . ومنه نوع أسود حجازي يقال له النوى، شجي الصوت جدا .

ومنها الفَاخِخَةُ - بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخيت بفتح الفاء وكسر الخاء : وهي طائر من ذوات الأطواق، حجازية في قدر الحمام، حسنة الصوت، ويقال إن الحيات تهرب من صوتها . حتى يحكى أن الحيات كثرت بأرض، فشكا أهلها ذلك إلى بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخيت إليها فانقطعت الحيات عنها؛ وفي طبعها الأئس بالناس؛ وتعيش في الدور، إلا أن العرب تسمها بالكذب فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب، وهي تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بعد، ولذلك تقول العرب في أمثالهم : ”أَكْذَبُ مِنْ فَاحِخَةٍ“ .

ومنها الدُّبْسِيُّ - بضم الدال، وهو طائر صغير منسوب إلى دُبْسِ الرُّطَبِ - بكسر الدال، وذلك أنهم يُغَيِّرُونَ في النسب فيقولون في النسبة إلى الدَّهْرِ دُهْرِيٌّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام. ثم هو أصناف: مصري، وحجازي، وعراقي؛ وكلها متقاربة، لكن أخفها المصري، ولونه الدُّكْنَةُ، وقيل هو ذكر اليمام. وفي طبع الدُّبْسِيِّ أن لا يُرَى ساقطاً على وجه الأرض، بل في الشتاء له مَشَقٌّ، وفي الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَكْرٌ.

(١) ومنها الشَّقِيقُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون: وهو الذي تسميه العامة بمصر اليمام، وهو دون الحمام في المقدار ولونه الحمرة مع كُودَةٍ، وفي صوته ترجيع وتحزين. ومن شأنها أنها تحسن أصواتها إذا اختلطت. ومن طبعه أنه إذا قَعَّدَ أنثاه، لم يزل أعزبَ إلى أن يموت، وكذلك الأُنثى إذا قَعَّدَتْ ذكرها؛ وفيه أُلْفَةٌ للبيوت، وعنده احتباس.

(٢) ومنها الدَّرَاجُ - بفتح الدال، وكنيته أبو الحجاج وأبو خَطَّار: وهو طائر ظاهر جناحيه أغبر وباطنهما أسود، على خِلْقَةِ الْقَطَا إلا أنه أَلْطَفُ. وهو يطلق على الذكر والأنثى؛ والجاحظ يعدُّه من جنس الحَمَامِ لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام، والناس يعبرون عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ". ويقال إنه طائر مبارك؛ وهو كثير التاج، يبشر بِقُدُومِ الرِّبِيع؛ وهو يصلح بهبوب الشَّمال، وصفاء الهواء؛ ويسوء حاله بهبوب الجنوب حتى لا يقدر على الطيران.

ومنها العُصْفُورُ - بضم العين، وحكى ابن رَشِيقٍ في كتاب الغرائب فتحها، والأنثى عُصْفُورَةٌ، وكنيته أبو الصَّفْوِ، وأبو مُحَرِّز، وأبو مُرَاحِم، وأبو يعقوب. قال حمزة:

(١) الذي في حياة الحيوان أنه بالكسرا ه.

(٢) في حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما الذي بالفتح فهو القنفذ.

سمى عصفورا لأنه عصى وفرّ، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدورى، ووكره
العمران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلت مدينة من أهلها ذهب
العصافير منها؛ وهو كثير السفاد حتى إنه ربما سفد في الساعة الواحدة مائة مرة،
ولفرخه تدرّب على الطيران حتى إنه يدعى فيجيب. قال الجاحظ: بلغنى أنه
يرجع من فرسخ.

(١) ومنها الشحرور - بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء المهملة، وهو طائر أسود
فوق العصفور له صوت شجي، ويكون بأرض الشام كثيرا.

ومنها الهزار - بفتح الهاء والزاى المعجمة، طائر نحو العصفور له صوت حسن
ويسمى العندليب أيضا ويجمع على عنادل.

(٢) ومنها البلب - بضم الموحدين وسكون اللام الأولى والثانية، وهو طائر أسود
فوق العصفور، والجحرى منه فوق ذلك؛ ويقال له النغر - بضم النون وفتح الغين
المعجمة وراء مهملة فى الآخر، والكعيت - بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة
فوقية فى الآخر، والجمل - بضم الجيم، وقد ثبت فى الصحيحين من رواية أنس رضى
الله عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان
لى أخ لأُمّى فطيم يقال له عمير فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال:
يا أبا عمير، ما فعل النغير؟ لنغر كان يلعب به".

ومنها السباني - بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدد ميمه، وهو طائر معروف
فوق العصفور ويجمع على سمانيات: وهو من الطيور التى لا يعرف من أين تأتى،
بل يأتى فى البحر الملح يغوص بأحد جناحيه فى الماء ويقيم الآخر كالقلع للسفينة

(١) قال فى حياة الحيوان انه كسحنون وكذلك ضبطه فى القاموس بالضم.

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناسخ.

فتدفعه الريح حتى يأتى الساحل ؛ وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحسون - وتسميه أهل الجزيرة والشام وحلب وتوابعها زقية ، وهو طائر فطن ، ويسميه الأندلسيون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ؛ وهو عصفور ذو ألوان : حرة وصفرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ؛ وهو قابل للتعليم يعلم أخذ الشيء كالفلس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها أبو برأقش - بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتأون ألوانا ، وبه يضرب المثل في التلون .

ومنها الزاغ - بزى وغين معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغربان صغير أخضر اللون لطيف الشكل حسن المنظر ، وقد يكون أحمر المتقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمي بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغدأف - بضم الغين المعجمة وبالذال المهملة والفاء في آخره ، وهو غراب ^(١) الغيط ويجمع على غدافان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدري : هو غراب صغير أسود لونه كلون الرماد ، وقد قال النووى في الروضة بتحريمه وإن كان الرافعى قد جزم بحلّه ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع - وهو غراب أسود المتقار ؛ وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثانى - ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس - ويجمع على طاويس ، وهو طائر فى نحو مقدار الإوزة حسن

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان غراب القيط .

اللون ، والذكر منه غَايَةٌ في الحُسْنِ ؛ له في رأسه ريش خضر قائمة كالشربوش ، وفي ذنبه ريش أخضر طويل في أحسن منظرٍ ، وليس للأُنثى شئ من ذلك ؛ وهو في الطير كالفرس في الدواب عزا وحُسنا ؛ وفي طبعه الزَّهو بنفسه والخِلاءُ والإعجاب بريشه ، والأُنثى منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفي هذا الحد يكمل ريش الذكر ويتم لونه ، ويبضه مرة واحدة في السنة ، ويكون بيضه من اثنتي عشرة بيضة إلى ما حولها ، ولا يبيض متتابعاً ، وسَفَادُهُ في أيام الربيع ، وفي الخريف يُلقِي ريشه كما يُلقِي الشجر ورقه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو كثير العبث بالأُنثى إذا حَصَنَتْ وربما كسر بيضها ؛ ولذلك يُحْضَنُ بيضه تحت الدجاج لكن لا تقوى الدجاجة على حَضْنِ أكثر من بيضتين منها ، وتُعاهد الدجاجة بالطَّعمِ والسقية وهي راقدة عليه ، كيلا تقوم عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضنه الدجاجة يكون ناقص الحنة عما تحضنه أنثاه ، وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدة حضنه ثلاثون يوماً ؛ وفرخه يخرج من البيضة كالفرج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السَّمَنْدَلُ - بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وفتح الدال المهملة .
ولام في الآخر ، وقال الجوهرى : السَّمَنْدَلُ بغير ميم . وقال ابن خَلَّكَانَ : السَّمَنْدَلُ بغير لام : وهو طائر يكون بأرض الصين والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتى يقال إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها فإذا آتسخت ألقيت في النار فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هي في نفسها . قال ابن خَلَّكَانَ في ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة في طوله وعرضه ، فألقيت في النار فأثرت فيها فغمس أحد جوانبها في الزيت وجعل في النار فأشتعل وبقى زماناً طويلاً ثم أطفئ ، وهو على حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البغدادى أنه أُهْدَى للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعة منه عرض ذراع فى طول ذراعين ، فغمست فى الزيت وقربت من النار فاشتعلت حتى فنى الزيت ، ثم عادت بيضاء كما كانت ، وبعضهم يقول إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وبره .

ومنها البيّغاء - بيّعين مفتوحين الأولى منهما مخففة والثانية مشددة وغين معجمة بعدها ثم ألف ؛ وهو المعبر عنه بالدرّة بدال مهملة مضمومة ، وقال ابن السمعاني فى الأنساب : هى باسكان الباء الثانية ، وهى طائر أخضر اللون فى قدر الحمام يحاكي ما يسمعه من اللفظ ؛ ثم هى على ضريين : هِنْدِيٌّ وهى أكبر جثة ومنقارها أحمر ، ونُوِيٌّ وهى أدونها ومنقارها أسود ، ويقال : إن منها نوعا أبيض ، ويذكر أنه أُهْدَى لمعز الدولة ابن بويه ببغاء بيضاء اللون سوداء المنقار والرجلين ، على رأسها ذؤابة فسّتيّة ، وهى طائر دُمِث الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوّة على حكاية الأصوات وقبول التلقين ، تختذه الملوك والأكابريّين بما يسمع . ومن شأنه أنه يتناول طعمه برجله كما يتناول الإنسان بيده ؛ والهنديّ منه أقرب إلى التعليم من النوبيّ .

ومنها أبو زُرِّيْق - بزى مضمومة ثم راء مهملة وفى آخره قاف ، ويقال له القيق بكسر القاف والزُرِّيَابُ بزى معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت وبعد الألف باء موحدة ؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم ، سريع الإدراك لما يعلم ، وقد يزيد على البيّغاء إذا أنجب ، بل إذا تعلم جاء بالحروف مبينة حتى يظن سامعه أنه إنسان ، بخلاف البيّغاء فإنها لا تفصح كل الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى فى أمره ما حكاه صاحب "منطق الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعه أربعائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد فى طريقه عتّة من فراخه

فاشترها بما معه ثم رجع إلى بغداد فعلةها في أقفاص في حانوته ، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلها إلا واحدا كان أضعفها وأصغرها فتقل ذلك عليه وبات ليلته تلك يتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى يا غياث المستغيثين أغثنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذي بقى يصيح بلسان فصيح : يا غياث المستغيثين أغثنى ، فأجتمع الناس عليه يسمعون صوته فأجتازت جارية للخليفة فأشترته منه بألف درهم .

ومنها الهدد - بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما ، وهو طائر معروف ذو خطوط موشية وأوان ، ويجمع على هداهد ؛ ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج ، قوة ركبها الله تعالى فيه ، ولذلك عُني به سليمان عليه السلام مع صغره كما قاله البيهقي في "شعب الإيمان" . ويقال : إنه كان دليلا لسليمان عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة في التنزيل . وقد ذكر الزمخشري أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هدهدا آخر ، فحكى له عظيم ملك سليمان ، فحكى له ذلك الهدد عظيم ملك بلقيس باليمن ، فذهب ليكشف الخبر فلم يرجع إلا بعد العصر ، فلما عاد إليه توعده فأرعى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه ، وقال : يا نبي الله أذكر وقوفك بين يدي الله ! فأرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخطاف - بضم الخاء المعجمة ويجمع على خطاطيف ، وهو طائر في قدر العصفور ، أسود ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعرض عن أقواتهم ويقتات البعوض والذباب . ومن شأنه السكنى في البيوت المعمورة بالناس في أفاحيص بينها من الطين ؛ ويختار منها السقوف والأماكن التي لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي في تفسيره في سورة النمل أن سبب قرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض ، استوحش ، فأنسه الله تعالى بالخطاف وألزمه البيوت فهو لا يفارق بني آدم أسلما ، وانخفاش يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جعل في عُشِّه قُضْبَانَ الكَرَفِيسِ لِيَنْفِرَ الْخُفَّاشَ عنها .

ومن عادته أنه لَا يُفْرِخُ في عُشِّ عَتِيقٍ حَتَّى يُطَيِّنَهُ بِطِينٍ جَدِيدٍ، وَلَا يَلْقَى شَيْئًا مِنْ ذَرْقِهِ في عُشِّه بَلْ يَلْقِيهِ إِلَى مَا شَاءَ ؛ وَإِذَا سَمِعَ حَسَّ الرِّعْدِ يَكَادُ يَمُوتُ ، وَيُوجَدُ في عُشِّهِ حَجَرُ الْيَرَقَانِ وَهُوَ حَجَرٌ صَغِيرٌ فِيهِ خُطُوطٌ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسَّوَادِ إِذَا عَلِقَ عَلَى مَنْ بِهِ الْيَرَقَانُ أَوْ شَرِبَ مِنْ سُحَالَتِهِ بَرِيءٌ ؛ وَإِنَّمَا يَأْتِي بِهَذَا الْحَجَرِ إِذَا أَصَابَ فِرَاحَهُ الْيَرَقَانُ ، وَلِذَلِكَ يَحْتَالُ بَعْضُ النَّاسِ بِلَطْخِ فِرَاحِهِ بِالزَّعْفَرَانِ لِيُظَنَّ أَنَّ الْيَرَقَانَ قَدْ أَصَابَهَا فَيَأْتِي إِلَيْهَا بِهَذَا الْحَجَرِ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ .

ومن الخطاطيف نوع آخر أَلَطَفٌ قَدْرًا مِنْ هَذَا ، يَسْكُنُ سُطُوطَ الْأَنْهَارِ وَجَوَانِبَ الْمِيَاهِ ، وَعَدَّوْا مِنْ أَنْوَاعِهِ أَيْضًا الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ مِصْرَ الْخُضَيْرِيَّ ، وَهُوَ طَائِرٌ أَخْضَرُ دُونَ الْبَيْغَاءِ فِي الْمَقْدَارِ لَا يَزَالُ طَائِرًا وَهُوَ يَصِيحُ ، يَقْتَاتُ الْفَرَاشَ وَالذَّبَابَ .

ومنها الصُّرْدُ - بضم الصاد وفتح المزملة ودال مهملة في الآخر ، ويجمع على صِرْدَانٍ . قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ : وَسَمِيَ صُرْدًا ، حِكَايَةً لَصَوْتِهِ ، وَيُسَمَّى الْوَاقِ بِكَسْرِ الْقَافِ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو كَثِيرٍ ، وَهُوَ طَائِرٌ فَوْقَ الْعَصْفُورِ ، نَصْفُهُ أَبْيَضُ وَنَصْفُهُ أَسْوَدُ ، ضَخْمُ الرَّأْسِ ، ضَخْمُ الْمَنْقَارِ وَالْبَرَّاشِ ، لَا يُرَى إِلَّا فِي شَعْفَةِ أَوْ شَجَرَةٍ بِحَيْثُ لَا يَتَمَدَّرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، وَلَهُ صَفِيرٌ مُخْتَلَفٌ . وَمِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ يَصِيدُ الْعَصَافِيرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، فَيَصَفِّرُ لِكُلِّ طَيْرٍ يَرِيدُ صَيْدَهُ بِلَفْتِهِ ، يَدْعُوهُ إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْهُ فَيَنْثَبِ عَلَيْهِ فَيَأْكُلُهُ ، وَالْعَرَبُ تُنْشَاءُ بِهِ وَتَنْفِرُ مِنْ صِيَاحِهِ ، وَهُوَ مِمَّا وَرَدَتْ الشَّرِيعَةُ بِالْهَيْ عَنْ قَتْلِهِ .

ومنها الْعَقَّاقُ - بعيين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه الْقَعْقَعُ عَلَى الْقَلْبِ ، قَالَ الْجَاهِظُ : سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْقُ فِرَاحَهُ فَيَتَرَكُهُمْ أَيْامًا بِلَا طُعْمٍ . وَيُقَالُ لَصَوْتِهِ الْعَقَّعْمَةُ : وَهُوَ طَائِرٌ عَلَى قَدْرِ الْحَمَامَةِ فِي شَكْلِ الْغُرَابِ وَجَنَاحَاهُ أَكْبَرُ مِنْ جَنَاحِي الْحَمَامَةِ ، ذَوَاوَيْنِ : أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ ، طَوِيلُ الذَّنَبِ . وَمِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ

لا يَأْوِي تحت سَقَف ولا يَسْتَظِل به ، بل يَهْيئ وَكْرَه في المَوَاضِع المُشْرِفَة ، وفي طَبْعِه الزَّنا والخِيَانَة ، ويوصَف بالسرقة والخُبث ، وإذا رأى حُلِيًّا أو عِقْدًا ، أَخْطَفَه ؛ والعرب تضرب به المَثَل في جميع ذلك ، وإذا باضت الأُنثى منه أَخَفَتْ بيضها بورق الدُّلْب خوفاً عليه من الخُفَّاش ، فإنه متى قُوب من البيض مَدَرَ وتغير من ساعته . ويقال إنه يَجْبَأ قُوَّتَه كما يَجْبُوهُ الإنسان والنملة إلا أنه يَنْسَى ما يَجْبُوهُ ؛ وبعضهم يَعدُّه في جملة الغُرَبان ؛ وفيه وجه عندنا بحلِّ أكله .

ومنها الشَّرقاء - بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية ، ويجوز فيه كسر الشين أيضاً ، وربما قلبوه فقالوا الشَّرْقَاق ، ويسمى الأَخِيل أيضاً ، وهو طائرٌ صغير بقدر الحمام أَخْضَرُّ مُشْبَعُ الخُضرة ، حسنُ المنظر في أَجَنَّتِه سَواد ، والعرب تُنشِئ به . وفي طَبْعِه الشَّرُّ حتَّى إنه يَسْرِقُ فِرَاحَ غيره وعدّه الجاحظ نوعاً من الغُرَبان ، ويكثر ببلاد الشام والروم وخِرَاسَانَ . ولا يزال متباعداً من الإنسان ، يألف الرَوَّابِي ورُءُوس الجبال ، إلا أنه يَحْضُنُّ بيضه في عوَالِي العُمُرَان التي لا تَنَالُهَا الأيدي . وعُشُّه شديد البُنيان ، وله مَشَقٌّ ومَصِيف . قال الجاحظ : وهو كثير الأسْتِغَاثَة ، إذا مرَّ به طائرٌ ضربه يَجْنَاحُه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه بحلِّ أكله .

ومنها الغُرَابُ الأَبْقَع - قال الجوهري : وهو الذي فيه بياض وسَواد ، ويسمى غراب الدين أيضاً ، قال صاحب "المجالسة" سَمِيَ بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حين أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع . قال ابن قتيبة : وجعل فاستقاً لأجل ذلك ، ويسمى الأعور إتماً لأنه يُغْمَضُ إحدى عينيه لقوة بصره ، وإما لصفاء عينيه وحدة بصره من باب الأضداد . ومن طَبْعِه الخِيَانَة والسرقة والعرب تُنشِئ به وتكره صوته . وقد سبق القول على ذلك في أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الأستتار عند السَّفاد وأنه يَسْفِدها مواجهة مُلقاة على ظهرها ،
والأشْيُ تبيض أربع بيضات ونحسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفر عنها
الأبوان لبشاعة مَنْظَرِها حينئذ فتغتذى من البعوض والذباب الكائن في عُسْها حتى
ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها، وعلى الأثْيُ الحَصْنُ وعلى الذكر أن يأتِيها بالطَّعم ؛
وفيه حَذَرٌ شديد وتناصُر، حتى إنه إذا صاح الغراب مستنصرا آجتماع إليه عدَّة
من الغُربان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير - وهو الجبَلِيّ ؛ وفيه وجه بجله .
ومنها الحِدَاةُ - بكسر الحاء والهمز الطائر المعروف ويجمع على حَدٍ وحِدَاءٍ .
ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهي لا تصيد بل تخطف ، ومن طبعها أنها تَصُفُّ
في الطيران وليس ذلك لشيء من الكواسر غيرها ، وزعم آبن وحشية وآبن زهر أن
الحِدَاةَ والعُقَابَ يتبدلان فتصير الحِدَاةُ عُقَابًا والعُقَابُ حِدَاةً . وربما قيل الغراب
بدل العُقَابِ ؛ ويقال : إنها تصير سنَّةً ذكرا وسنَّةً أنثى ، ويقال : إنها أحسن الطير
مجاورة لما جاورها من الطير حتى لو ماتت جوعا لاتعدو على فرخ جارتها . وفي طبعها
أنها إنما تختطف من تختطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتى يقال إنها عسراء ؛
وقد ثبت في الصحيحين حل قتلها في الحل والحرم .

ومنها الرَّحْمَةُ - بفتح الراء المهملة والحاء المعجمة ، وكنيتها أم جَعْرَان ، وأم رِسَالَةَ
وأم عَجِيبة ، وأم قَيْس ، وأم كثير . ويقال لها الآنوقُ بفتح الهمزة ؛ وهي طائر أبقع بياض
وسواد فوق الحِدَاةِ في المقدار تأكل الحَيْفَ ، وهي معدودة في بُغَاثِ الطير ، وهي
تسكن رءوس الجبال العالية وأبعدها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل

ببيضه فيقولون : "أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ" والأثى لا تمكن من نفسها غير ذكراها
وتبيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البومة - بضم الباء الموحدة وفتح الميم - للذكر والأثى : وهو طائر من طير
الليل في قَدَرِ الإوزة ، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله ، يشبه وجه الآدمي
في صفرة عينين وتوقد هما ، ويقال للذكر منها الصدى والضوء - بضم الضاد
المعجمة - والقياد - بالفاء وتشديد المنة تحت ، ويقال للأثى الهامة . وكنية الأثى
أم الخراب ، وأم الصبيان ؛ ولها في الليل قوة سلطان لا يحتملها شيء من الطير ؛
تدخل على كل طائر في وكره في الليل فتخرجه منه وتأكل فراخه ويبيضه ، ولا تنام
الليل ؛ والطير بجملته يعاديا من أجل ذلك ، فإذا رأوها في النهار قتلوها وتتفوا ريشها ،
ومن ثم يجعلها الصيادون في شباكهم ليقع عليها الطير فيقتنصونها ؛ فهي لا تظهر
بالنهار لذلك . ونقل المسعودي في مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من
ظهورها في النهار خوفاً من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصور في نفسها
أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يحكى ما ذكره الطرطوشي في "سراج الملوك" : أن عبد الملك بن مروان
أرق ليلة فاستدعى سميرا يحدثه ، فكان مما حدثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان
بالبصرة بومة وبالموصل بومة فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها لأبنا -
فقال بومة البصرة : لا أفعل حتى تجعلى في صداقها مائة ضيعة خراب - فقالت بومة
الموصل : لا أقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة
فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للظالم .

(١) عبارة حياة الحيوان فإذا رآها الطير . . . قتلها وتنهن وهي أصوب .

ومنها البُؤة - بضم الباء وفتح الحمزة - قال الجوهري : وهو طائر يشبه البومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب نحوه ، ويقال له البُوهة أيضا ، وهي من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التي يسميها الناس في زماننا المصاصة ويزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمصُّ أنوفهم .

ومنها الحُقَّاش - بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء والشين المعجمة ، ويجمع على حَقَافِيش - وهو طائر غريب الشكل والوصف لاريش عليه ، وأجنحته جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لا صفة بجنبه ، وسمى حُقَّاشا لأنه لا يبصر نهارا ، وبه سمي الرجل أخفش ، والعامة تسميه الوطواط ، وقيل الحُقَّاش الصغير ، والوطواط الكبير ، ويقال إن الوطواط هو الحُطَّاف لا الحُقَّاش . وليس هو من الطير في شيء ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويحيض ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويول كما تبول ذوات الأربع ، ويُرِضع ولده من ثديه . ولما كان لا يبصر نهارا ألتمس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هيجان البعوض فالبعوض يخرج في ذلك الوقت يطلب قُوته من دماء الحيوان ، والحُقَّاش يخرج اطلب الطعم فيقع طالب رزق على طالب رزق ، ويقال إنه هو الذي خلقه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبينا لغيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبَغِضَةً له وتسطو عليه ، فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ، وهو شديد الطيران ، سريع القلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ، وهو موصوف بطول العمر حتى يقال : إنه أطول عمرا من النسر ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يسفد وهو طائر في الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهزه أحد من اللغويين بل ذكره في باب الهاء وقد رسم في الصحاح بالواو وكذا في القاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حنوطاً عليه، وربما أرضعت
الأنثى ولدها وهي طائرة. وفي طباعه أنه متى أصابه ورق الدلب خدر ولم يطر،
وقد ورد النهى عن قتله.

فإذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصها، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه
في نظمه ونثره كما في قول الشاعر:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها، * نيم، فالمخاوف كلهن أمان
وأصطد بها العتقاء فهي حائل، * وأقتد بها الجوزاء فهي عنان

إشارة إلى عظم العتقاء وعدم القدرة على مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد. وكما
في قول أبي الفتح كشاجم، مخاطباً لولده يطلب البر منه:

اتَّخِذْ فِي خَلَّةٍ فِي الْكَرَاكِي * اتَّخِذْ فِيكَ خَلَّةَ الْوَطْوَاطِ
أنا إن لم تَبْرِّني في عناء * فيبري ترجو جواز السراط

يشير إلى ما تقدم من أن في طبع الكركي برّ والديه إذا كبراً، كما أن في طبع
الوطواط برّ أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه، وكما في قول الشاعر:

مثل النهار يزيد إِبْصارَ الوري * نورا، ويعني أعين الخُفَّاشِ

إشارة إلى أن الخُفَّاش لا يُبْصِرُ نهاراً، بخلاف سائر أرباب الأبصار، وكما قيل
في وصف شارد عن القتال:

وهم تركوه أسلَحَ مِنْ حُبَارِي، * رأى صقرا، وأشرد من نَعَامِ^(١)

يريد ما تقدم مما يعرض للباري من إرسالها سَلَحَها على الجارح عند اقتناصه
لها، وأت النعام في غاية ما يكون في البرية من الشراد والنّفار، ونحو ذلك مما
يجرى هذا الجري.

(١) ورد هذا البيت في حياة الحيوان هكذا: وهم تركوك رأّت

الصنف الرابع

(الحمام)

وقد اختلف في الحمام في أصل اللغة فنقل الازهرى عن الشافعى رضى الله عنه أن الحمام يطلق على كل ماعب وهدر وإن تفرقت أسماؤه، فدخل فيه الحمام، واليمام، والدبابسى، والقمارى، والفواخت وغيرها. وذهب الأصمعى إلى أن الحمام يطلق على كل ذات طوق كالفواخت والقمارى وأشباهاها. ونقل أبو عبيد عن الكسائى سمعا منه أن الحمام هو الذى لا يألف البيوت، وأن اليمام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمام هذا النوع المخصوص المعروف.

ثم هو على قسمين .

أحدهما ما ليس له أهتداء فى الطيران من المسافة البعيدة . والثانى ماله أهتداء، ويعرف بالحمام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد اعتنى الناس بشأنه فى القديم والحديث، وآتهم بأمره الخلفاء : كالمهدى ثالث خلفاء بنى العباس، والواثق، والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق، لاسيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا فى آفتنائه، ولهجوا بذكره، وبالغوا فى أئمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعة دینار ؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دینار ؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراة بعشرين دینارا ، وإنه كان عندهم دفاتر بأنسب الحمام كأنسب العرب، وإنه كان لا يتمتع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبار عنها، والوصف لأثرها والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكر بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان فى فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض، بهامات لهم مع ثقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر لا يرون بذلك بأسا .

وذكر المقرّ الشهابيّ بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ - يعني في الديار المصرية والبلاد الشامية - من الموصِل وأت أول من آتني به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آتني بعض المصنفين بأمره ، حتى صَنَفَ فيه أبو الحسن بن ملاعب القوّاس البغدادي ، كتابا للناصر لدين الله العباسي ، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ، وريشه ، والوشوم التي توشم في كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعض المسافات التي أُرْسِلَتْ منها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري مجرى ذلك . وذكر في "التعريف" أن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمام" ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأول

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القوّاس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلى ذكر ألوان ستة .

اللون الأول البياض - ومنه الأبيض الصافي ، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة ؛ فإن كان الغالب في شُقرته البياض ، قيل فِضِّي ؛ فإن زاد ، قيل أشقر .
اللون الثاني الخضرة - إن كانت خضرته مُشَبَّعة إلى السواد ، قيل أخضر مسنّ ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل نَبَّي الخضرة ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل صافي الخضرة ؛ فإن تكثرت خضرته بأن لم يكن صافي الخضرة ، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرَة - وهي عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلى البياض، فإن كان صافيا، قيل أصفر قرطاسي .

اللون الرابع الحمرة - إذا كان شديد الحمرة، قيل عُنَّايي، فإن كان دون ذلك، قيل نَمْرِي، فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقِي، فإن كانت حُمْرته تضرب إلى الخضرة، قيل أَكْفَا، فإن كانت حمرته تضرب إلى البياض، قيل أحمر صدقي .

اللون الخامس السواد - إذا كان شديد السواد لا بياض فيه، قيل أسود مُطْبَق، فإن كان لون سواده ناقصا، قيل أسود أخلس، فإن كان سواده يضرب إلى الخضرة، قيل أسود رمادي، فإن كان في سواده مائية، قيل أسود برّاق، فإن كان ساقاه أيضا أسودين، قيل أسود حالك وأسود زنجي .

اللون السادس النَمْرِي - وهو أن يكون في الطائر نقط يخالف بعضها بعضا، ويختلف الحال فيه باختلاف كبر النقط وصغرها، فتارة يقال مدّر، وتارة يقال ملمّع، وتارة يقال أبرش، وتارة يقال مُوشَّح، وتارة يقال أبقع، وتارة يقال أبلق، وتارة يقال دبّاسي، وتارة يقال مدّرّع إلى غير ذلك مما لا يستوفي كثرة . ثم إن كان الطائر أكل العينين وحول عينيه حمرة، قيل فقيع، فإن كان أصفر العين، قيل أصفر زريني، فإن كان أبيض العنق، قيل هلالِي، وهو أحسنها، والأصفر العين بعده، فإن كانت العين بيضاء وفيها حمرة، قيل رُماني العين .

الأمر الثاني

(في عدد ريش الجناحين والذنب المعتد به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، في كل جناح منهما عشر ريشات، الأولى منها - وهي التي في طرف الجناح - تسمى الصمة، والثانية وهي التي بعدها تسمى

المُضَافَةُ الرَّئِيسِيَّةُ ، والثالثة وهى التى بعدها تُسمى الواسِطِيَّةُ ، والرابعة وهى التى بعدها تُسمى المُضَافَةُ ، والخامسة وهى التى بعدها تُسمى المِنْطَفَةُ ، والسادسة وهى التى بعدها تُسمى المُنْجَدِرَةُ ، والسابعة وهى التى بعدها تُسمى الناقِصَةُ ، والثامنة وهى التى بعدها تُسمى المُوَئِيسَةُ ، والتاسعة وهى التى بعدها تُسمى الزَّامِلَةُ ، والعاشرَةُ وهى التى بعدها تُسمى المَعِينَةُ .

وبعضهم يسمي الأولى الصغيرة ، والثانية الرقيقة ، والثالثة الموفية ، والرابعة الباحلة ، والخامسة الحيرة ، والسادسة الصرافة ، والسابعة ممسكة الرمى ، والثامنة والتاسعة الحافظتين ، والعاشرَةُ المَلِكَةُ .

وربما كان فى كل جناح إحدى عشرة ريشةً فيسمى الطائر حينئذ أعلم .
ولهذه الريشات العشر عشر ريشات مع كل واحدة منها رادفةٌ : وهى الريش الصَّغَارُ التى تغطى قِصَبَ الجَنَاحِ من ظاهره ، ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطى قِصَبَتِهَا ، لكل واحدة منها اسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا الخَوَافِى ، وهى الريش المسَطَّرُ مع العشر ريشات الطَّوَالِ المتقلبُ برؤوسه إلى مُؤَخَّرِ الجَنَاحِ . وهى تسع ريشات ، الأولى منها تسمى الحدقة ، والثانية الرِّمَّةُ ، والثالثة الغَرَّةُ ، والرابعة الحِزْ ، والخامسة الجائِزَةُ ، والسادسة المسامَةُ ، والسابعة الملازمة ، والثامنة الشعثة ، والتاسعة اللامعة . وبعضهم يسمي الأولى بنت الملكة ، والثانية الإبرة ، والثالثة المقشعة ، والرابعة الصافية ، والخامسة المصفية ، والسادسة المصفرة ، والسابعة الزرقاء ، والثامنة السوداء ، والتاسعة المزرقَّةُ . وعد فيها عاشرَةً تسمى المخضرة - ولكل ريشة من الريشات التسع ريشةً صغيرة تغطى قِصَبَتِهَا لها اسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافى الغفار ، ولكل ريشة من الغفار ريشة صغيرة من باطنها تغطى قِصَبَتِهَا .

ومن ريش الجناحين المَقَوَّات : وهي ثلاث ريشات في طَرْف الجناح ، تسمى الزوائد . ومن فوقها ثلاث ريشات صغار تغطي قصبتها ، تسمى الغواشي ، وأصلها مع أصل ^(١) أيضا .

وأما الذنب ، فالمعتبر فيه اثنتا عشرة ريشة من كل جانب : منه ست ريشات تسمى الأولى منها الغزالة ، والثانية العروس ، والثالثة الباشقة ، والرابعة الباقية ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمر الثالث

(الفرق بين الذكر والأنثى)

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أن الأنثى إذا تمشت ، قَدَمَتِ الرَّجُلَ اليسرى ؛ والذكر يُقَدِّمُ الرَّجُلَ اليمنى . ومنها أن يرى الذكر مُقْتَدِرًا في الأرض مُسْتَشِيطًا ، والأنثى بالضد من ذلك ؛ ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن استواءً من الأنثى ؛ ومنها أن مَذَنَجَ الذكر يكون عريضاً ومَذَنَجَ الأنثى دقيقاً ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريض الخد والأنثى بالضد من ذلك ؛ ومنها أن الأنثى إذا طارت فتحت جناحيها والذكر إذا طار أخرج عَشْرِيه .

الأمر الرابع

(في بيان صفة الطائر الفاره)

قال أبو الحسن القواس : علامته أن يكون رأسه مكعباً ، وعينه معتدلةً ، غير ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة ، ولا قلقة منزعة ؛ وأن يكون منقاره غليظاً قصيراً ؛ وأن يكون وسط المنخيرين ، مكاثم القرطمتين ، أهرت الشدقين ، واسع الصدر ، نقي الريش ،

(١) لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيد المقام تأمل .

طويل الفخذين ، قصير الساقين ، غليظ الاصابع ، شثن البراش ، طويل القوادم من غير إفراط .

ويستحب فيه قصر الذنب ، ودقته ، واجتماع ريشه من غير تفرق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القصير أقرب ، وأن يكون جوجه : وهو جانب الصدر طويلا ممتدا ، وعقه طويلا منتصبا ، وريش قوادمه وخوافيه مبنيًا متطابقا بعضه مع بعض من غير تفرق ولا تمعط ، وأن يكون شديد اللحم ، مكتنزا غير رخو ولا رهيل . ويستحب فيه أيضا أن يكون قليل الرعدة عند الفرع ، سريع اللقطة للحب ، خفيف الحركة والنهوض ، والتزول من غير طيش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مسطحا لا أحذب ولا أوقص ، ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدره ، ويرفع عقه ، ويفتح ما بين نخديه شبه البازي .

ومن علامة فراشته أنه إذا طال عليه الطيران وأراد النزول على سطحه أن لا يدلّ رجله حتى يقع صدره على سطحه لانه إذا دلّ ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد آنحلت سراويله بمعنى أنه قد أدى جميع ما عنده من القوة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المغرّز ، وطول الذنب ، وتفرق الريش .

الأمر الخامس

(الفراسة في الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره في صغره أن يكون حديد النظر ، شديد الحذر ، خفيف اللحم ، قليل الريش ، سريع النهضة ، كثير التلفت في الجو ، ممتد العظم ، مستويا ، لطيف الذنب ، خارج العنق ، قصير الساقين ، طويل الفخذين ، محجلا ،

(١) لعل الجار ومجوره من زيادة الناصح .

مذيل المتقار، مدور القراطيم، مضاعف المحاجر، يلزم موضعاً واحداً من صغره إلى ازدواجه، فإذا ازدوج على السطح يكون حريصاً على طائرته، حسن الأخلاق معها لا يطردّها طرد الكلاب، ولا يغتال غيلة الذئاب، قليل الذرق، كثير الدهن، مُدلاً بنفسه، كأنه يعلم أنه فارّه. فإن كان فيه بعض هذه الخصال، كانت فراهته على قدر ما فيه من ذلك.

قال أبو الحسن الكاتب: ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيه الحركة وهو تحت أبيه وأمه، وكلما جمعه لتضمه تحتها، خرج من تحتها ويعتلق للخروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جلاًحاً، وريش جسده وجناحه مستطيلاً عند نبعه من جسده، وأن يطول ريشه حتى يغطى ظهره ولا ينتشر إلا بعد ذلك، وأن يكون من جؤجؤ الصدر إلى مغززه أقصر من بطنه إلى رأس برائته.

وفي الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المتقار ليس فيه بياض، ورأس متقاره وأصله سواء، لاتحاديد في رأسه، عريض القراطيم، غليظ الشدين، منتشر المخربين، جهورى الصوت، غائر العين، قال أبو الحسن القواس: ولا تكون هذه الصفة إلا في الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم.

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللاتيين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثانى، وأذار، ونيسان، وإيار، فإذا وقع الإفراخ فى شئ من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء، نجباء، أذكاء، ونُهِوا عن الإفراخ فى كانون الأول، وكانون الثانى، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذى يُفْرخ فيه لا يزال ناقص البدن، قليل الفطنة، يلقى ريشه فى السنة مرتين فيضعف.

وأما المكان فقد حكى عن إقليم الهندى أن أولى ما أفرخ الحمام بالسطوح ،
وذلك أن الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحرّ الموضع فيصير له عادة
ثم لا ينهض حتى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزقّ والعائف يعرف السطح
حق المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصعود والهبوط . وربما أخذه إلى الرعى
بالصحراء فلا يكمل حتى يصير شهما غارفا بأمر الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ
بالسفل فإنه يتربّى جسده على برودة النىء ولين الهواء ، فإذا كل وترقّ إلى السطح
لقيه خشونة الهواء وقوة الحرّ ، فيحدث له الحرّ الجامد بفؤاده الجكّاد والدقّ .

الأمر السابع

(فى مسافة الطيران)

قد تقدّم أن طائرا طار من الخليج القسطنطينيّ إلى البصرة ، وأن الحمام كان
يُرسل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه ” جنى المحل وجنى
النحل ” أن العزيز ثنائى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه
مارأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر
حمام من الشام ، فكتب الوزير بطاقة يأمر فيها من بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام
المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية وترسل ففعل ذلك فلم
يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القراصية فطلع بها إلى العزيز من يومه . وذكر
أيضا فى كتابه ” المغرب فى أخبار المغرب ” أن الوزير اليازورى المغربى وزير
المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من افريقية من بلاد المغرب إلى
مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القوَّاس في كتابه في الحمام أنَّ حماما طار من عبادان إلى الكوفة ، وأنَّ حماما طار من التُّرْنَاوْذ إلى الأُبُلَّةِ ونحو ذلك ، وسيأتى الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية في المقالة العاشرة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

النوع الخامس

(ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطة الملوك فلا بد أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها والنفيس منها وخواصها لأنه ربما جرى ذكر شيء من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة في رفعة محله ، وعلوِّ مقداره ، وهذا هو الذى عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" في احتياج الكاتب إلى ذلك . والثاني أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدر عن ملكه أو هدية تصل إليه ، مع ما يحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التى هى عمودُ البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لا يُحسن التعبير عنها ؛ ألا ترى إلى تشبيهات ابن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقع في نهاية الحُسْن ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبر كالمعاينة" وقد آغتنى الناس بالتصنيف في الأحجار في القديم والحديث .

فمن صنف فيه في القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطاليس ، وبلينوس ، وياقوس الإنطاكى .

ومن صَنَّف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبى خالد المعروف بابن الجزار ، ويعقوب بن إسحاق الكِنْدِىّ وغيرهما . وأحسن مصنّف فيه مصنّف أبى العباس أحمد بن يوسف التِّيفَاشِىّ .

والذى يتعلق الغرض منه بذلك اثنا عشر صنفا .

الصف الأول

(اللؤلؤ)

وهو يتكون في باطن الصدف ، وهو حيوان من حيوان البحر الملح له جلد عظمي كالخزون ، ويغوص عليه الغواصون ، فيستخرجونه من قعر البحر ، ويصعدون به فيستخرجونه منه . وله مغاصات كثيرة ، إلا أن مظان النفيس منه بسرنديب من الهند ، وبكيش ، وعمان ، والبحرين من أرض فارس ، وأخضره أولو جزيرة خارك ، بين كيش والبحرين .

أما ما يوجد منه ببحر القلزم وسائر بحار الحجاز فردى ولو كانت الدرّة منه في نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجيد اللؤلؤ في الجملة هو الشفاف الشديد البياض ، الكبير الحجم ، الكثير الوزن ، المستدير الشكل ، الذي لا تضرير فيه ، ولا تفرطح ، ولا أعوجاج . ومن عيوبه أن يكون في الحبة تفرطح ، أو أعوجاج ، أو يلصق بها قشر أو دودة ، أو تكون مخوفة غير مصمتة ، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع في الدرّة أوصاف الجوّدة ، فما زاد على وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى درّا . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سميت حبة لؤلؤ ، وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمى حبة أيضا ، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجوّدة فيها ، وتسمى الحبة المستديرة الشكل عند الجوهريين الفارة ، وفي عرف العامة المدحرجة . ومن طبع الجواهر أنه يتكون قشورا رقاقا طبقة على طبقة حتى لو لم يكن كذلك فليس على أصل الخلقة بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سحق وسقى مع سمن البقر نفع من السموم .

وقال ارسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من كبار وصغاره حتى يصير ماء رَجَاجاً ثم طلى به البرص أذهب به ، وقيمة الدرّة التي زنتها درهمان وحبّة مثلاً أو وحبّتان مع اجتماع شرائط الجودّة فيها سبعة دینار ، فإن كان اثنتان على هذه الصفة كانت قيمتهما ألفی دینار كل واحدة ألف دینار لاتفاقهما في النظم ، والتي زنتها مثقال وهي بصفة الجودّة قيمتها ثلثمائة دینار ، فإن كان اثنتان زنتها مثقال وهما بهذه الصفة على شكل واحد لاتفرق بينهما في الشكل والصورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعة دینار . وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية أنه كان عند خلفائهم درّة تسمى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه في المواكب العظام على ماسياتي ذكره في الكلام على ترتيب دولتهم في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويضّر جميع الأدهان ، والمحوضات بأسرها لاسيما الليمون ، ووهج النار ، والعرق ، وذفر الرائحة ، والاحتكاك بالأشياء الخشنة ، ويجلوّه ماء حمض الأترج إلا أنه إذا أُنجِج عليه به قشره ونقص وزنه ، فإن كانت صفرة من أصل تكونه في البحر فلا سبيل إلى جلاؤها .

الصنف الثاني

(الياقوت)

قال بلينوس : وهو حجر ذهبي ، وهو حصي يتكوّن بجزيرة خلف سرنديب من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخاً ، دورها نحو ستين فرسخاً في مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرّاهون تُحدّر منه الرياح والسيول الياقوت فيلتقط ، والياقوت حصاؤه . وهو الجبل الذي أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام ، فإذا لم تُحدّر السيول منه

شيئا، عمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فذبحوه وسلخوا جلده وقطعوه قطعاً كباراً وتركوه في سفح ذلك الجبل فيختطفه سُور تأوى إلى ذلك الجبل فتصعد بالعلم إلى أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النسور وتنزل به إلى أسفل فيسقط منه ما علو به من الياقوت، فإذا أخذ كان لونه مظلماً ثم يشف بملاقة الشمس ويظهر لونه على أى لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب .

الضرب الأول الأحمر - ومنه البهرمان ، ولونه كلون العصفُر الشديد الحمره الناصع في القوة الذي لا يشوب حرته شائبة، ويسمى الرمانى: لمشاھتہ حبّ الرمان الرائق الحب، وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأعلاها ثمنا .

ومنه الخيرى : وهو شبيه بلون الخيرى : وهو المنشور، ويتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوردى : وهو كلون الورد ويتفاضل في شدة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردى الذى يضرب إلى البياض، والسماقى الذى يضرب إلى السواد .
الضرب الثانى الأصفر - وأعلاه الجلتارى، وهو أشده صفرة، وأكثره شعاعاً ومائتة، ودونه الخلقى، وهو أقل صفرة منه، ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلى البياض .

الضرب الثالث الأبيض - ومنه المهائى: وهو أشدها وأكثرها ماءً وأقواها شعاعاً، ومنه الذكر : وهو أثقل من المهائى وأقل شعاعاً وأصلب حجراً، وهو أدون أصناف

الياقوت وأقلها ثمنًا . وأجود الياقوت الأحمر البهرمانى والرمانى والوردى النير المشرق اللون الشفاف ، الذى ينفذه البصر بسرعة . وعيوبه الشعرة : وهى شبه تشقيق يرى فيه ، والسوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المعدن .
ومن أردنا صفاته قبح الشكل .

ومن خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها الماس ، وليس يقطعه هو على أى لون كان غير الماس .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينحك على خشب العُشر الذى تجلى به جميع الأحجار ، بل طريق جلانه أن يكسر الجزع اليماني ويحرق حتى يصير كالنورة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الغراء ثم يحك على وجه صفيحة من نحاس حجر الياقوت ، فينجل ويصير من أشد الجواهر صقالة .

ومن خواصه أنه ليس لشيء من الأحجار المُشفة شعاع مثله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار ، وأنه يصبر على النار فلا يتكلس بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة ، وإذا خرج من النار برد بسرعة حتى إن الإنسان يضعه فى فيه عقب إخراجها من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحول إلى البياض ، أما الحمرة فإنها تقوى بالنار ، بل إذا كان فى الفص نُكْة حمراء ، فإنها تنسع بالنار وتنشط فى الحجر . بخلاف النكته السوداء فيه ، فإنها تنقص بالنار فذهب حرته بالنار فليس بياقوت بل ياقوت أبيض مصبوغ ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافع ما ذكره أوطا ليس ، أن التختم به يمنع صاحبه أن يصيبه الطاعون إذا ظهر فى بلد هو فيه ، وأنه يعظم لابسه فى عيون الناس ، ويسهل عليه

قضاء الحوائج، وتيسر له أسباب المعاش، ويقوى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لا تقع على من تختم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وأمتحانه أن يُحكَّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يجرَّحُها بأسرها ولا تؤثر في فيه . قال التيفاشي : وقيمة الأحمر الخالص على ما جرى عليه العرف بمصر والعراق أن الحجر إذا كان زنته نصف درهم، كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص، والحجر الذي زنته درهم قيمته ستة عشر دينارا، والحجر الذي زنته مثقال قيمته دينارين القيراط، والحجر الذي زنته مثقال وثلاث قيمته ثلاثة دنائير القيراط إلى ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائته وكبر جرمه حتى ربما بلغ ما زنته مثقال من جوده مائة مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهاية في الصَّبغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثير من حرمة، وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم دينارين، وقيمة الأزرق والمالهاني كل درهم بأربعة دنائير، وقيمة الأبيض على النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص في الصَّبغ والمائية مع القرب من المعدن والبعد عنه، وقد ذكر ابن الطوير في ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجر ياقوت أحمر في صورة هلال زنته أحد عشر مثقالا يُعرف بالحافر، يجعل على جبين الخليفة بين عينيه مع الدرّة المتقدمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَخْشُ)

قال في مسالك الأبصار : ويسمى اللَّعَل . قال بلينوس : وأعتقد في الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعد عن الياقوتية علل من اليُس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحُر، ومعدن البَلَخْش الذي يتكوّن فيه بنواحي بَلَخْشَان، والعجم

تقول : بَدَخْشَانُ بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين . قال التيفاشى :
وأخبرنى من رأى مَعْدَنَه من التَّجَارِ أَنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم
يكل طبعه وأنعقاده بعد ، والحجر مجتمع عليه ، وهو على ثلاثة أضرب : أحمر معقرب^{وسر}
وأخضر زَرْجَدِيٍّ ، وأصفر ، والأحمر أجوده . قال التيفاشى : وليس لجميعه شئ من
خواص الياقوت ومنافعه ، وإنما فضيلته تشبهه به فى الصَّبْغ والمائية والشعاع
لا غير . قال : وقيمته فى الجملة غالبا على النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال
فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد
لا يوجد بعد التعب والإنفاق ، ولهذا عرِّف وجوده ، وغَلَتْ قيمته ، وكثر طالبه ،
والتفتت الأعناق إلى التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البَلَخْش
قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأحضرت إليه وهو بِدَمَشَق ، وكانت
قطعة جليلة مثلية على هيئة المُشِطِ العودى . وهى فى نهاية الحسن وغاية الجودَةِ ،
زنتها خمسون درهما ، كاد المجلس يُضَيء منها ، فأحضر الصاحب نجم الدين الحنفى
الجوهريّ وسأله عن قيمتها فقال له نجم الدين الجوهريّ : إنما يعرف قيمتها من
رأى مثلها ، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نرمثلها فكيف نعرف قيمتها ؟
فأُجِبَ بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع (عَيْنُ الْهَرِّ)

قال التيفاشى : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرة به أضعف عنه
الياقوتية ، ولذلك إنما يوجد فى مَعْدِنِ الياقوت المتقدم ذكره ، وتخرجه الرياح

(١) فى ياقوت أنها فى أعلى طхарستان متاخمة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخرجُ الياقوتَ على ما تقدّم ، قال : ولم أجده في كتب الأحجار ، وكأنه مُحدّثُ الظهور بأيدى الناس ، والغالب على لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة ، إلا أنه ترى في باطنه نُكْثَةً على قدر ناظر المهرّ الحامل للنور المتحرك في فصّ مقلته وعلى لونه : على السواد ، وإذا تحرك الفصّ إلى جهة ، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته . فإن مال إلى جهة اليمين ، مالت النكتة إلى جهة اليسار وبالعكس ، وكذلك الأعلى والأسفل ، وإن كسر الحجر أو قطع على أقل جزء ، ظهرت تلك النكتة في كل جزء من أجزائه ، ولذلك يسمّى عين الهر .

وأجوده ما اشتدّ بياض أبيضه وشفيفه ، وكثرت مائية النكتة التي فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها وإشراقها ، ولا يخفى أن حُسنَ الشكل وكِبَرَ الحرم يزيدان في قيمته كسائر الأحجار . قال التيفاشي : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض ثقات الجوهريين أنه يجمع سائر الخواص التي في الياقوت البهرمانى في منافعه ، ويزيد عليه بأن لا ينقص مال حامله ولا تعثره الآفات ، وأنه إذا كان في يد رجل وحضر مصافّ حرب وهُزِمَ حزبه فالتقى نفسه بين القتلى ، رآه كل من يمرّ به من أعدائه كأنه مقتول متشحط في دمه ، وإن ثمنه بالهند مع قُرب معدنه أغلَى من ثمنه ببلاد المغرب بكثير ، لعلمهم بخواصه ، وقيّمته تختلف بحسب الرغبة فيه ، وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المثلّال منه بنخسة دنانير ، ويزيد على ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشي عن بعض التجار أن حجرا منه يبيع في المعبر من بلاد الهند بمائة وخمسين دينارا وأنه يبيع منه حجر ببلاد الفُرس بسبعائة دينار .

الصف الخامس

(الماس)

قال بليزوس في كتاب الأحجار : وأبتدأ في معدنه لينعقد ذهبا، فأبعدته العوارض عن ذلك، وهو يتكون في معدن الياقوت المقدم ذكره وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الياقوت، وهو ضربان : أحدهما أبيض شديد البياض يشبه البلور يسمى البلوري لذلك ، والثاني يخالط بياضه صفرة فيصير كلون الزجاج الفرعوني، ويعبر عنه بالزيتي . قال الكندي : والذي عاينته من هذا الحجر ما بين الخردلة إلى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه، وإذا وضع على سندال حديد ودق بالمطرقة لم ينكسر، وغاص في وجه السندال والمطرقة وكسرها، ولا يلتصق بشيء من الأجساد إلا هشم ويحو النقوش التي في الأحجار كلها . وإنما يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يجعل داخل شيء من الشمع ويدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمه الحديد، فينكسر حينئذ؛ أو يجعل في أسرب وهو الرصاص ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتهى أكله فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وأبتلعها أو طار بها، ومتى أبتلع منه الإنسان قطعة، ولو أصغر ما يكون خرفت أمعاءه وقتلته على الفور . قال أرسطوطاليس : وبينه وبين الذهب محبة يتشبه به حيث كان .

ومن خاصته أن كل قطعة تؤخذ منه تكون ذات زوايا قائمة الرأس : ست زوايا وثمان زوايا وأكثر؛ وأقله ثلاث زوايا، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا،

وبه يثقب الدرّ والياقوت والزمرد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرْكَب في رأس منقار حديد منه قطعة بقدر ما يراد من سعة الثقب وضيقة ثم يثقب به، فيثقب بسرعة .

ومن منفعتيه فيما ذكره ارسطوطاليس أن مَنْ كان به الحصاة الحادثة في المثانة في مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقتها في مِرْوَدٍ نُحَاسٍ مُمَصَّطَكِي الصاقاً مُحْكَمًا ثم أدخل المِرْوَدَ إلى الحصاة فإنها تثقبها . قال أحمد بن أبي خالد : وبذلك عالجت وصيفا الخادم من حصاة أصابته وأمتنع من الشق عليها بالحديد . وقال ابن بوسطر : وإذا علّق على البطن من الخارج، نفع من المغس الشديد ومن فساد المعدة؛ وقيمته الوُسْطَى فيما ذكره التيفاشي أن زنة قيراط منه دينارين؛ ونقل عن الكِنْدِيِّ أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المثلثال بثمانين دينارا وأرخَصَ ما شاهد منه ببغداد أيضا المثلثال بخمسة عشر دينارا، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصالح لفَصٍّ قدر نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلفلة ثلاثة أضعاف وأربعة وخمسة .

الصنف السادس

(الزمرد)

يقال بالذال المعجمة والمهملية . قال بليнос : والزمردُ أبتدأ لينعقد ياقوتا، وكان لونه أحمر إلا أنه لشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرَضَ له السواد وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضر؛ ومعدنه الذي يتكوّن فيه في التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية، يوجد في جبل هناك مُتَدِّدٌ كالجَسَرِ فيه معادن . قال في مسالك الأبصار : وبينه وبين قُوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والماء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر في موضع يعرف بغدير أعين . فنه ما يوجد قطعاً صغاراً كالخصى منبهةً في تراب المعدن وهي الفصوص وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو القصب وهو أجوده . قال في مسالك الأبصار : وتلك العروق منبهة في حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشي : ويوجد على بعضه تربة كالكحل الشديد السواد، وهو أشده خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحب حمّاه في تاريخه أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لما استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زمردٍ طولها أربعة أذرع أو نحوها . وهو على ثلاثة أضرب .

الأول الذبّابي - وهو شديد الخضرة، لا يشوب خضرته شيء آخر من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسن الصبغ، جيد المائية، شديد الشعاع، ويسمى ذبابيا لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي : وهو من أحسن الألوان خضرةً وبصيصاً . قال في مسالك الأبصار : وهو أقل من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثاني الریحاني - وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الریحان .

الثالث السلقي - وخضرته أشبه شيء بلون السلقي .

الرابع الصابوني - ولونه كلون الصابون الأخضر، قال في "مسالك الأبصار" : وإذا استخرج الزمرد من المعدن، جعل في زيت الكحان ثم لف في قطن وصر في خرقة كتان ونحوها، ولم يزل العمل في هذا المعدن إلى إنشاء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فترك لكثرة كلفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبّابي، ويزداد حسنه بكم الحرم، وأستواء القصبة،

وعدم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابى اختلاف الصبغ بحيث يكون موضع منه مخالفا للموضع الآخر ، وعدم الاستواء فى الشكل ، والتشعير : وهو شبه شقوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرخاوة ، وخفة الوزن ، وشدة الملاسة والصقل والنعومة ، وزيادة الحضرة والمائية إذا ركب على البطانة ، وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثبات الياقوت .

ومن خاصية الذبابى التى أمتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعى إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، آنفقت عيونها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعة زمرّد ذبابى خالص ، فحصلت أفعى وجعلتها فى طشت وأصقته بشمع فى رأس سهم وقربته من عينها فسمعت قعقة خفية كما فى قتل صوّابة فنظرت إلى عينها فإذا هما قد برزتا على وجهها وضعفت حركتها . وبهذه الخاصة يمتحن الزمرّد الخالص من غيره كما يمتحن الياقوت بالصبر على النار .

ومن منافعها أن من أدمن نظره أذهب عن بصره الكلال ، ومن تختم به دفع عنه داء الصرع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ، ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ، وإذا كان فى موضع لم تقر به ذوات السموم ، وإذا سُحِل منه وزن ثمان شعيرات وسقيته شارب السم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ، وإذا تختم به من به نفث الدم أو إسهاله ، منع من ذلك ، وإذا علّق على المعدة من خارج ، نفع من وجعها ، وشرب حكا كته ينفع من الجذام . وقيمة الذبابى الخالص فى الحجر الذى زنته درهم أربعة دنانير القيروط ، ويتضاعف بحسب كبره ، وينقص بحسب صغره ، إلا أنه لا ينقص بالصغر نقص غيره من الأحجار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمعوج والمستقيم . أما بقية أصناف الزمرّد ، فإنه لاقيمة لها يعتد بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابى .

الصنف السابع

(الزبرجد)

وهو حجر أخضر يتكوّن في معدن الزمرّد؛ ولذلك يظنه كثير من الناس نوعاً منه إلا أنه أقلّ وجوداً من الزمرّد . قال التيفاشي : أما في هذا الزمان فإنه لا يوجد في المعدن أصلاً ، وإنما الموجود منه بأيدي الناس فصوص تستخرج بالنش من الآثار القديمة بالإسكندرية ؛ وذكر أنه رأى منه فصّاً في يد رجل أخبره أنه استخرجه من هناك ، زنته درهم ، لا يكاد البصر يقلع عنه لروقة مائه ، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخضرة ، الحسن المائية ، الرقيق المستشفّ ، الذي ينقده البصر بسرعة ؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون ؛ وليس فيه شيء من خواص الزمرّد إلا أن إدمان النظر إليه يحلو البصر . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصنف الثامن

(الفيروزج)

وهو حجر نحاسي يتكوّن في معدن النحاس من الأبخرة الصاعدة منها ، إلا أنه لا يوجد في جميع معادن النحاس ؛ ومعدنه الذي يوجد فيه نيسابور ، ومنه يحلب إلى سائر البلدان ؛ ومنه نوع آخر يوجد في نساور إلا أن النيسابوري خير منه ؛ وهو ضربان بسحاق^(١) وخلاجي ، والخالص منه العتيق هو البسحاق وأجوده الأزرق الصافي اللون ، المشرق الصفاء ، الشديد الصقالة ، المستوى الصبغ ، وأكثر ما يكون فصوصاً ؛ وذكر الكندي أنه رأى منه حجراً زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصفاء الحق ويكدر بكدرته وإذا مسه الدهن أذهب حسنه وغير لونه ، والعرق يطفى لونه ، والمسك إذا باشره ، أفسده وأذهب حسنه ؛

(١) في مفردات ابن البيطار سنجابي ولعل ما في الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفص الجيد منه إلى جانب ما هو دونه في الجودة، أذهب بهجته، وإذا وضع إلى جانب الدهنج غلب الدهنج على لونه فأذهب بهجته ولو كان الفص الفيروزج في غاية الحسن والجودة.

ومن منافعه أنه يحلو البصر بالنظر إليه، وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب، وقيمته تختلف باختلاف الجودة اختلافا كثيرا فربما كان الفصان منه زنتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثن الآخر درهم. وبالجملة فالخلتجي الجيد على النصف من البسحاق الجيد. قال التيفاشي: وأهل المغرب أكثر الناس له طلبا وأشدّهم في ثمنه مغالة، وربما بلغوا بالفص منه عشرة دنانير مغربية ويحوصون على التحتم به، وربما زعموا أنه يدخل في أعمال الكيمياء.

الصنف التاسع

(الدهنج)

وقد ذكر أرسطو طاليس أنه أيضا حجر نحاسي يتكوّن في معادن النحاس يرتفع من أبحرتها وينعقد، لكنه لا يوجد في جميع معادن كرمّان وسجستان من بلاد فارس. قال: ومنه ما يؤتى به من غار بنى سليم من برية المغرب، في مواضع أخرى كثيرة. وأجود أنواعه أربعة: وهي الافرندي، والهندي، والكرماني، والكركي، وأجوده في الجملة الأخضر الملبّع الخضرة، الشبيه اللون بالزمرّد، معرّق بخضرة حسنة، فيه أهلة وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صلبا أملس يقبل الصقالة.

ومن خاصته في نفسه أن فيه رخاوة بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نُصب للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين، ذهب نوره لرخاوته وأنحل، ولذلك إذا حكّ أنحك سريعا، وإذا خرط خرزا أو أواني أو غير ذلك، كان في خرطه سهولة،

وإذا وقع في الزيت آشتدت خضرته وحسن، فإن غُفِلَ عنه حتى يطول بُنْهُ في الزيت، مال إلى السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون ؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل وذلك به موضع القوبة الحادثة من المرة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصه أنه إذا سقى من سُحَّالته شارب سُمَّ نفعه بعض النفع ؛ وإن شرب منه من لم يشرب سما، كان سما مفرطاً يَنْقُطُ الأمعاء، ويُلهِبُ البدن ، ويحدث فيه سما لا يبرأ سريعاً، لا سيما إذا حُكَّ بحديدة ؛ ومن أمسكه في فيه ومصه أضربه ؛ وقيمته أن الافريدي الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوب بن إسحاق الكندي أنه رأى منه صحيفة تسع ثلاثين رطلا .

الصنف العاشر

(البُلُورُ)

قال بلينوس : وهو حجر بُورَقِيٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدت به أعراض عن بلوغ رتبة الياقوت ؛ وقد اختلف أصحابنا الشافعية رحمهم الله في نفاسته على وجهين، أحدهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه، والثاني أنه ليس بنفيس لأن نفاسته في صنعته لا في جوهره . ويوجد بأماكن، منها بترية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده ، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو في غاية الجودة ، ومنه معادن توجد بأرمينية تميل إلى الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشي أنه ظهر في زمنه معدنٌ منه بالقرب من مراكش من المغرب

(١) في مفردات ابن البيطار براء . وهي أروض .

الأقصى إلا أن فيه شعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلس كبير: أرضا وحيطانا . ونقل عن بغض التجار أن بالقرب من غزنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينا وبين كاشغر، جبلين من بلور خالص مطلين على وادٍ بينهما وأنه يُقَطَّع في الليل لتأثير شُعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار في الأعين . وأجوده أصفاه وأنقاها وأشفاه وأبيضه وأسلمه من التشعير، فإن كان مع ذلك كبير الحُرْم، آنية أو غيرها كان غاية في نوعه . وقد ذكر الكندي أن في البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المعدن أكبر من مائة من . ونقل التيفاشي : أنه كان بقصر شهاب الدين الغوري صاحب غزنة أربع خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايا .^١ على محامل من بلور، كل محمل مائين ثلاثة قناطر إلى أربعة . وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك .

ومن خاصته ما ذكره أفرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصَّبغ .

ومن خاصته أيضا أنه إذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى خِرْقَةٍ سوداء، احترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تحتم به أو علقه عليه لم يرمم سوء . وقيمته تختلف بحسب كبر آنيته وصغرها وإحكام صنعتها . قال التيفاشي : وبالجملة فالقطعة التي تحمل^(١) منه رطلا إذا كانت شديدة الصفاء سالمة من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية .

(١) مراده وزن ولكنه كثيرا ما يستعمل بعض لغات العامة .

الصف الحادى عشر

(المرجان)

وهو حجر أحمر في صورة الأحجار المتشعبة الأغصان؛ ومعدنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القلزم بساحل إفريقية، يعرف بمرسى الخرز، ينبت بقاعه كما ينبت النبات، وتعمل له شبك قوية مثقلة بالرصاص، وتدار عليه حتى يلتفّ فيها، ويجذب جذبا عنيقا فيطلع فيها المرجان. وربما وجد ببعض بلاد الفرنجة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق. ولأهل الهند فيه رغبة عظيمة؛ وإذا أخرج، حك على مسنّ الماء، ويحلّ بالسنباذج المعجون بالماء على رخامة فيظهر لونه، ويحسن؛ ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقى. وأجوده ما عظم حرمة، وأستوت قصباته، وأشدّت حرته، وسلم من التسويس؛ وهو خروق توجد في باطنه حتى ربما كان منه شئ خاوي كالعظم؛ وأردؤه مامل منه إلى البياض أو كثرت عقده وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سلامته من العقد لوجود التشعب فيه، فإن اتفق أن تقع منه قطعة مضمّنة مستوية لا عقد فيها ولا تشطيب، كانت في نهاية الجوده. وقد يوجد منه قطع كبار فتحمل إلى صاحب إفريقية فيعمل له منها دوى وأنصبه سكاكين. قال التيفاشى: رأيت منها محبرة طول شبر ونصف، في عرض ثلاث أصابع، وارتفاع مثلها؛ بغطائها في غاية الحمرة وصفاء اللون. وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها: أنه كان لخلفاء الفاطميين دواة من المرجان تُحمل مع الخليفة إذا ركب في المراكب العظام أمام راجب على فرس، كما سيأتى ذكره في الكلام على المسالك والممالك، في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومن خاصته في نفسه أنه إذا ألقى في الخل لآن وأبيض؛ وإن طال مكثه فيه

أَحْلَى ، وَإِذَا آتَخَذَ مِنْهُ خَاتَمٌ أَوْ غَيْرُهُ وَلَبَسَ جَمِيعَهُ بِالشَّمْعِ ثُمَّ نَقَشَ فِي الشَّمْعِ بِإِبْرَةِ
بَحِثْ يَنْكَشِفُ حَرَمُ الْمَرْجَانِ وَجَعَلَ فِي خَلِّ الْخَمْرِ الْحَاقِقِ يَوْمًا وَلَيْلَةً أَوْ يَوْمَيْنِ
وَلَيْلَتَيْنِ ثُمَّ أَخْرَجَ وَأَزِيلَ عَنْهُ الشَّمْعُ ، ظَهَرَتِ الْكَتَابَةُ فِيهِ حَقْرًا بِتَأْثِيرِ الْخَلِّ فِيهِ ،
وَبَقِيَةِ الْخَاتَمِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ . قَالَ التِّفَاشِيُّ : وَقَدْ جَرَبْنَا ذَلِكَ مَرَارًا ، وَمَتَى أَلْقَى
فِي الدَّهْنِ ظَهَرَتْ حُمْرَتُهُ وَأَشْرَقَ لَوْنُهَا .

وَمِنْ مَنَافِعِهِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْإِسْكَانْدَرُ أَنَّهُ إِذَا عَلِقَ عَلَى الْمَصْرُوعِ أَوْ مَنْ بِهِ التَّقَرُّسُ ،
نَفَعَهُ ، وَإِنْ أَحْرَقَ وَأَسْتَنَّ بِهِ ، زَادَ فِي بَيَاضِ الْأَسْنَانِ وَقَلَعَ الْخَفَرِ مِنْهَا وَقَوَّى اللَّائِمَةَ ،
وَطَرِيقَ إِحْرَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ فِي كَوْزِ نَخَارٍ وَيُطَيِّنَ رَأْسَهُ وَيُوضَعُ فِي تَوْرِ لَيْلَةٍ ، وَإِذَا سَبَحَ
وَشَرِبَهُ مِنْ بِهِ عَسَرَ الْبَوْلُ ، نَفَعَهُ ذَلِكَ ، وَيَحَالُ أَوْ رَامَ الطَّحَالِ بَشْرِبَهُ ، وَإِذَا عَلِقَ
عَلَى الْمَعْدَةِ نَفَعَ مِنْ جَمِيعِ عِلْمِهَا كَمَا فِي الزُّمْرَدِ ، وَإِذَا أَحْرَقَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَشَرِبَ مِنْهُ
ثَلَاثَةَ دَوَائِقَ مَعَ دَائِقٍ وَنَصَفَ صَمْعٍ عَرَبِيٍّ بَبْيَاضِ الْبَيْضِ وَشَرِبَ بِمَاءٍ بَارِدٍ ، نَفَعَ
مَنْ نَفَثَ الدَّمَ . قَالَ التِّفَاشِيُّ : وَقِيمَتُهُ بِإِفْرِيقَةِ غَشِيَا الرُّطَلِ الْمَصْرِيِّ مِنْ خَمْسَةِ
دَنَانِيرَ إِلَى سَبْعَةِ مَغْرِبِيَّةٍ ، وَهِيَ بِقَدْرِ دِينَارَيْنِ إِلَى مَا يَقَارِبُهُمَا مِنَ الذَّهَبِ الْمَصْرِيِّ ،
وَبِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عَلَى ضِعْفِي ذَلِكَ وَثَلَاثَةِ أَضْعَافِهِ ، وَمِنْ اسْكَانْدَرِيَّةٍ يَحْمَلُ إِلَى سَائِرِ
الْبِلَادِ ، وَيَخْتَلِفُ سَعْرُهُ بِحَسَبِ قَرْبِ الْبِلَادِ وَبَعْدِهَا ، وَقِلَّتِهِ ، وَكَثْرَتِهِ ، وَصَغُرِهِ ،
وَجَوْدَتِهِ ، وَرَدَائَتِهِ ، وَحَسَنِ صَنْعَتِهِ .

الصَّنْفُ الثَّانِي عَشَرَ

(الْبَادِزَهْرُ الْحَيَوَانِيّ)

هُوَ حَجَرٌ خَفِيفٌ هَسٌّ . وَأَصْلُ تَكْوِينِهِ فِي الْحَيَوَانِ الْمَعْرُوفِ بِالْأَيْلِ بِتَخْوِمِ الصِّينِ .
وَإِنْ هَذَا الْحَيَوَانُ هُنَاكَ يَأْكُلُ الْحَيَاتِ ، قَدْ آتَدَ ذَلِكَ غَدَاءَ لَهُ ، فَيَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ

وجود هذا الحجر منه على ماسياتى بيانه ، وقد اختلف الناس فى أى موضع يكون من هذا الحيوان ، فقليل إنه يتكون فى مآقى عينيه من الدموع التى تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويتربى الحجر حتى يكبر فيَحْتَكُ فيسقط عنه . وقيل يكون فى قلبه فيصايد لأجله ويدبح ويستخرج منه . وقيل فى مرارته . قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأخضر المُشْرَبُ بالحمرة والمشرَب بالبياض . وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل . وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهش . ويستدل على خلوصه بكونه ذا طبقات رقاق متراكبة كما فى اللؤلؤ ، وبه نقط خفية سود ، وأن يكون أبيض المحك مر المذاق . قال التيفاشى : وكثيرا ما يُغش فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيوانى ولكنها تتميز عن البادزهر الحقيقى بأن المصنوع أغبر كمد اللون ساذج غير منقط ، والبادزهر الحقيقى الخالص أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالتمش ، وطبقاته أرق من طبقات لمصنوع بكثير ، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومحك أبيض .

ومن خاصته فى نفسه أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يخشنه ويغير لونه وسائر صفاته حتى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشى أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب فى كيس وسافر به فأحتك بالذهب فتغير لونه ونقص وزنه حتى ظن أنه غير عليه ، وأنه ربطه بعد ذلك فى خرقة وتركه أياما فعاد فى الصفة إلى ما كان ، إلا أنه بقى على نقص ماذهب منه .

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغير القاتلة ، حارة كانت أو باردة : من حيوان كانت أو من نبات ، وأنه ينفع من عضّ الحوام ونهشها ولدغها ، وليس فى جميع الأحجار ما يقوم مقامه فى دفع السموم . وقد قيل إن معنى لفظ بادزهر النافى للسم ، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتى عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحولة أو محكوكة على المبرّد بزيت الزيتون أو بالماء ، أخرج السم من جسده بالعرق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذّر على موضع النেশة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله . قال ابن جمع : وإن حُكّ منه على مسنّ في كل يوم وزن نصف دائق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والاحتياط ، قاوم السموم القتّالة ولم تحش له غائلة ولا إثارة خلط ؛ ومن تخمّ منه بوزن اثنتي عشرة شعيرة في فصّ خاتم ثم وُضع ذلك الفصّ على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم، نفع منها نفعا يينا، وإن وضع على فم الملدوغ أو من سُقي سما نفعه . قلت : هذه هي الأحجار النفيسة الملوكية التي تلتفت الملوك إليها وتعنى بشأنها، أما غيرها من الأحجار كالبنفش ، والعقيق ، والجَزَع ، والمِغْنَاتِيس ، واليشم ، والسبج ، والألازورد وغيرها مما ذكره المصنفون في الأحجار فلا أعتدّاد به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكره .

النوع السادس

(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله في هديّة وما يجري مجرى ذلك ، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنف الأول

(المسك)

وهو أجّلها . قال محمد بن أحمد التيميّ المقدسي في كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة ذات أربع ، أشبه شئ بالطبي الصغير، قيل لها قرن واحد، وقيل قرنان، غير أن له نايتين رقيقين أبيضين في فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

في وجهه كالخزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضل دموى يجتمع من جسمها إلى سرتها ، بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء في كل سنة في وقت معلوم ، فيقع الورم في سرتها ويجتمع إليها دم غليظ أسود فيشتد وجعها حتى تمسك عن الرغى وورود المياه حتى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الطباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها بما عليها من الشعر ، والمسك فيها دم عييط : وهى النواج ، فإن كانت النابخة كثيرة الدم ، أكنفى بما فيها ، وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيد فيها من غيرها ، ويصب فيها الرصاص المذاب وتحاط بالخصوص وتعلق في حلق مستراح أربعين يوما ، ثم تخرج وتعلق في موضع آخر حتى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تُصير النواج في مزود صغار وتخطها التجار وتحملها . وقيل انه ينبت لهذه الطباء حين يعرض لها هذا العارض بناء كالمنازة في طول عظم الذراع لتأتى الطباء فتحك سررها بذلك البناء فتسقط النواج ، حتى إنه يوجد في تلك المراغة ألوف من النواج ما بين رطب وجامد .

ثم قيل إن هذه الطباء توجد بمغازات بين الصين وبين الثبت والصغد من بلاد الترك ، وإن أهل الثبت يلتقطون ما قرب إليهم ، وقد قيل إن المسك يحمل إلى الثبت من أرض بينها وبين الثبت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التي ينسب إليها ، إما باعتبار أصل وجوده فيها ، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده في الجملة ما طاب مرعى ظيئه ، ومرعى ظيائه النبات الذى يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيب رائحة من بعض حتى يقال إن منه ما رائحته كرائحة المسك . وقيل أجوده ما كُمل في الظبي قبل بينوته عنه . وقال أحمد بن يعقوب : وأجود المسك في الرائحة والنظر ما كان قفاحيا تشبه رائحته رائحة التفاح اللباني ،

وكان لونه يغلب عليه الصفرة ، ومقاديره وسطا بين الحلال والرقاق ، ثم ما هو أشد سوادا منه إلا أنه يقاربه في الرأى والمنظر ، ثم ما هو أشد سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمة . قال : وبلغنى عن تجار الهند أن من المسك صنفين آخرين يتخذان من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المكث ، والثانى يفسد بطول المكث ، والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها على ترتيبها في الفضل مقدما منها في الذكر الأفضل فالأفضل على ما رتبته أحمد .

الأول التبتى - وهو ما حملة التجار من التبت إلى خراسان على الظهر لطيب مرعاه ، وحملة في البر ، دون البحر .

الثانى الصفدى - وهو ما حمل من الصفد من بلاد الترك على الظهر إلى خراسان .
الثالث الصينى - وإنما نقصت رتبته لأن مرعاه في الطيب دون مرعى التبتى ، ولما يلحقه من عفونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصينى ما يؤتى به من خانقو : وهى مدينة الصين العظمى ، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمل في البحر إلى بحر فارس ، فإذا قرب من بلد الأبله ارتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى - وهو ما يحمل من التبت إلى الهند ثم يحمل من الهند إلى الديبل ثم يحمل في البحر إلى سيراى من بلاد العجم ، وثمان من البحرين ، وعدن من اليمن ، وغيرها من النواحى . وسبب انحطاط رتبته عن الصينى وإن كان من جنس التبتى مع أنه أقرب مسافة من الصينى ما ذكره المسعودى : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كفرة الهند فلطخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدلونه بغيره ، ويبيعه سدنة الأصنام فيطول مكثه على الأصنام تضعف رائحته . على أن محمد بن العباس قد فضل الهندى على الصينى لقرب مسافة حملة في البحر .

الخامس القنبارى - ويؤتى به من بلد تسمى قنبار بين الصين والتبت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مسك جيد إلا أنه دون التبتى فى القيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة . قال : وربما غلطوا به فنسبوه إلى التبتى .

السادس الطُغرغزى - وهو مسك رزين يضرب إلى السواد ، يؤتى به من أرض الترك الطغرغز وهم التتر ، وهو بطىء السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غلطوا به أيضا .

السابع القصارى - ويؤتى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين . قال ابن يعقوب : وقد يُلحق بالصينى إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة . الثامن الحزيرى - وهو مسك أصفر ، حسن الرائحة ، يشابه التبتى إلا أن فيه زعارة . التاسع الجبلى - وهو مسك يؤتى به من السند من أرض الموليان ، وهو كبير النواجح حسن اللون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصارى - وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النابغة التى زنتها أوقية زنه درهم واحد من المسك . قلت : أما المسك الدارى فإنه منسوب إلى دارين : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تجار الهند ، ويحمل منها إلى الأقطار وليست بمعدن للمسك .

الصنف الثانى

(العنبر)

قال محمد بن أحمد التيمى : والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صخور وعيون فى الأرض ، يجتمع فى قرار البحر ، فإذا تكاثف اجتذبت به الدهانة التى هى فيه على

أقنطافه من موضعه الذى تعلّق به ، وطفاً على وجه الماء ، وهو حارّ ذائب فتقطّعه
الريّح وأمواج البحر قطعاً كباراً وصغاراً فترمى به الريح إلى السواحل ، لا يستطيع
أحد أن يدنو منه لشدة حره وفورانته ، فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد ، فيجمعه
أهل السواحل . قال أحمد بن يعقوب : وربما ابتاعته سمكة عظيمة يقال لها
الكال وهو فائر فلا يستقرّ في جوفها حتى تموت فتطفو ويطرّحها البحر إلى الساحل
فيشقّ جوفها ويُستخرج منها ؛ ويسمّى العنبر السّمكى ، والعنبر المبلّوع . قال التميمي :
وهو في لونه شبهه بالنار ، ردىء في الطيب : للشهوة التى يكتسبها من السمك .
قال : وربما طرح البحر القطعة العنبر فيصيرها طائر أسود كالخُطّاف فيعرف عليها
بجناحيه ، فإذا سقط عليها ليختطف بمنقاره منها تعلّق بمنقاره ومخاليه بها فيموت
ويبقى ويبقّى منقاره ومخاليه فيها ، ويعرف بالعنبر المنقيرى .

قال التميمي : ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر يُحبّ يركبونها مؤدّبةً
تعريف العنبر ، يسرون عليها في ليالى القمر على شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام
راكبها أو غفل ، بركت بصاحبها حتى ينزل عنها فيأخذّه .

قال التميمي : وألوان العنبر مختلفةٌ . منها الأبيض : وهو الأشهب ، والأزرق ،
والرمادى ، والجزازى : وهو الأبرش ، والصفائح : وهو الأحمر ، وهما أدنى العنبر
قدراً . قال : وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّة رائحةً ، وذكاً بغير زعارة .

قال أحمد بن يعقوب : وأنواع العنبر كثيرة ، وأصنافه مختلفة ، ومعادنه متباينة .
وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره ، والذى وقفت على ذكره منه ستة أضرب .

الأول الشّحرى - وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشّحر من أرض
اليمن . قال : وهو أجود أنواع العنبر ، وأرفعه ، وأفضله ، وأحسنه لوناً ، وأصفاه جوهرًا
وأغلاه قيمةً .

الثاني الزنجي - وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها . قال التيمي : وزعم الحسين بن يزيد السيرافي أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتى به منها إلى عدن ، ولونه البياض .

الثالث السلاهي - قال التيمي : وأجوده الأزرق الدسم الكثير الدهن ، وهو الذي يستعمل في الغوالي .

الرابع القاقلي - وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن ، وهو أشهب جيد الريح ، حسن المنظر خفيف ، وفيه يس يسير . وهو دون السلاهي لا يصلح للغوالي إلا عن ضرورة . وهو صالح للذرائر والمكاسات .

الخامس الهندي - وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلية ، ويحمل إلى البصرة وغيرها ، ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عمان تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المغربي - وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر ، وهو أردأ الأنواع كلها . وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري . قال التيمي : ويغالط به فيه . قال التيمي : ومن العنبر صنف يعرف بالنَّد ، وتقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهة ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لين يمتد فما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشحري : وهو أسود فيه صفرة ، يحضب اليد إذا لمس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له على النار . وإنما يستعمل في الغوالي إذا عثر العنبر السلاهي ، ومنه الزنجي : وهو نظير الشحري في المنظر ودونه في الرائحة : وهو أسود بغير صفرة ، ومنه الحمري : وهو يحضب اليد وأصول الشعر خضبا جيدا ، ولا ينفع في الطيب .

قلت : أما المعروف في زماننا بالعنبر مما يلبسه النساء فإنما يقال له الند ، وفيه جزء من العنبر . قال في نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب .

الأول المثلث - وهو أجودها وأعطرها ، وهو يركب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيب ، وجزء من العود الهندي الطيب ، وجزء من المسك الطيب .

الثاني وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيب عشرة مثاقيل ، ومن الند العتيق الجيد عشرة مثاقيل ، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث - وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيل من الخام عشرة مثاقيل من الند العتيق وثلاثون مثقالا من العود ، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثالث

(العود)

قال التيمي : أخبرني أبي عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجر عظام تنبت ببلاد الهند ، فمنه ما يجلب من أرض قشмир الداخلة : من أرض سرنديب ، ومن قسار ، وما اتصل بتلك النواحي ، وأنه لا تصير له رائحة إلا بعد أن يعتق . ويقشر فإذا قشر وجفف ، حمل إلى النواحي حينئذ . قال : وأخبرني بعض العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة ، بخلاف ما قارب القشركا في الآبوس والعناب ونحوهما من الأشجار التي داخلها فيه دهانة وما في خارجها خشب أبيض ، وأنه يقطع ويقلع ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن في التراب سنين حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس أنه يكون في أودية بين جبال شاهقة ، لا وصول

لأحد إليها لصعوبة مسلكها، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَرِ
الأزمان فتأكل الأرض مافيه من الخشب ويبقى صميمُ العود وخالصه فتجزه السيول
وتُخْرِجُه من الأودية إلى البحر فتقذفه الأمواج إلى السواحل فيلتقطه أهل السواحل
ويجمعونه فيبيعونه . ويقال إنه يأتي به قوم في المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على
البعد بحيث لا ترى أشخاصهم، ثم يطلعون ليلا فيضعونه بفرصة تلك البلاد، ويخرج
أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائع ويتركونها إلى الليل، فيأتي أصحابُ العود فمن
أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه، فيزيدونه حتى يُعَجِّبه فيأخذه، كما يحكى
في السُّمُورِ وغيره في ساكني أقصى الشمال .

وأجود العود ما كان صلباً، رزينا، ظاهر الرطوبة، كثير المائية والذهنية، الذي
له صبر على النار، وغليان، وبقاء في الثياب .

أما اللون فأفضله الأسود والأزرق الذي لا يبيض فيه، ثم منهم من يفضل
الأسود على الأزرق، ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .
وهو على ثمانية عشر ضربا .

الأول المندلي - نسبة إلى معدنه، وهو مكان يقال له المندل من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشكي : وهو أرفع أنواع العود وأفضلها وأجودها وأبقاها
على النار وأعبقها بالثياب . على أن التجار لم تكن تجلبه في الجاهلية وإلى آخر الدولة
الأموية^(١)، ولا ترغب في حمله للراة في رايحته إلى أن دخل الحسين بن برمك إلى بلاد
الهند هاربا من بني أمية، ورأى العود المندلي فاستجاده ورغب التجار في حمله،
فلما غلب بنو العباس على بني أمية، وحضر بنو برمك إليهم وقربوهم، دخل الحسين

(١) هكذا بالاصل .

أَبْن بَرْمَكْ يَوْمَا عَلَى الْمَنْصُورِ فَرَاهُ يَتَبَخَّرُ بِالْعُودِ الْقَمَارِيِّ فَأَعْلَمَهُ أَنْ عِنْدَهُ مَا هُوَ أَطْيَبُ مِنْهُ ، فَأَمَرَهُ بِإِحْضَارِهِ ، فَأَحْضَرَهُ إِلَيْهِ فَاسْتَحْسَنَهُ ، وَأَمَرَ أَنْ يَكْتَبَ إِلَى الْهِنْدِ بِحَمْلِ الْكَثِيرِ مِنْهُ ، فَاشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ وَعِزَّ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، وَأَحْتَمَلَ مَا فِيهِ مِنْ مَرَارَةِ الرَّائِحَةِ وَزَعَارَتِهَا لِأَنَّهَا تَقْتُلُ الْقَمَلَ وَتَمْنَعُ مِنْ تَكُونِهِ^(١) فِي الثِّيَابِ :

الثَّانِي الْقَامِرُونُ - وَهُوَ مَا يَجْلِبُ مِنَ الْقَامِرُونِ : وَهُوَ مَكَانٌ مَرْتَفِعٌ مِنَ الْهِنْدِ . وَقِيلَ الْقَامِرُونُ أَسْمٌ لِشَجَرٍ مِنْ شَجَرِ الْعُودِ ، وَهُوَ أَغْلَى الْعُودِ ثَمَنًا وَأَرْفَعُهُ قَدْرًا .

قَالَ التِّمِيمِيُّ : وَهُوَ قَلِيلٌ لَا يَكَادُ يُجْلَبُ إِلَّا فِي بَعْضِ الْحِينِ ، وَهُوَ عُودٌ رَطْبٌ جَدًّا ، شَدِيدٌ سَوَادِ اللَّوْنِ ، رَزِينٌ ، كَثِيرُ الْمَاءِ . وَذَكَرَ الْحُسَيْنُ بْنُ يَزِيدَ السَّيْرَافِيُّ أَنَّهُ رُبَّمَا خْتَمَ عَلَيْهِ فَانْطَبَعَ وَقِيلَ اخْتَمَ لِيْنِهِ . قَالَ : وَيَكُونُ فِيهِ مَا قِيَمَةُ الْمَنْ مِنْهُ مَائَتًا دِينَارًا .

الثَّلَاثُ السَّمَنْدُورِيُّ - وَهُوَ مَا يَجْلِبُ مِنْ بِلَادِ سَمَنْدُورٍ ، وَهِيَ بِلَدٌ سُفَالَةٌ الْهِنْدِ ، وَيُسَمَّى لَطِيبَ رَائِحَتِهِ رِيحَانُ الْعُودِ ، وَبَعْضُهُ يَفْضَلُ بَعْضًا . قَالَ التِّمِيمِيُّ : وَتَكُونُ الْقِطْعَةُ الضَّخْمَةُ مِنْهُ مَنًّا وَاحِدًا .

الرَّابِعُ الْقَارِيُّ - وَهُوَ مَا يَجْلِبُ مِنْ قَمَّارٍ ، وَهِيَ أَرْضٌ سُفَالَةٌ الْهِنْدِ ، وَبَعْضُهُ يَفْضَلُ بَعْضًا أَيْضًا ، وَتَكُونُ الْقِطْعَةُ مِنْهُ نِصْفَ رَطلٍ إِلَى مَادُونَ ذَلِكَ .

الْخَامِسُ الْقَاقُلِيُّ - وَهُوَ مَا يَجْلِبُ مِنْ جَزَائِرِ بَحْرِ قَاقُلَةٍ ، وَهُوَ عُودٌ حَسَنُ اللَّوْنِ ، شَدِيدُ الصَّلَابَةِ دَسِمٌ ، فِيهِ رِيحَانِيَّةٌ حُمْرَةٌ ، وَلَهُ بَقَاءٌ فِي الثِّيَابِ إِلَّا أَنْ قُتِرَ بِهِ رُبَّمَا تَغْيِيرٌ عَلَى النَّارِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُسْتَقْصَى إِلَى آخِرِهِ .

السَّادِسُ الصَّنْفِيُّ - وَهُوَ مَا يَجْلِبُ مِنْ بِلَدٍ يُقَالُ لَهَا الصَّنْفُ بِبِلَادِ الصِّينِ ، وَهُوَ مِنْ أَحْلَى الْأَعْوَادِ وَأَبْقَاهَا فِي الثِّيَابِ . قَالَ التِّمِيمِيُّ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْضَلُهُ عَلَى الْقَاقُلِيِّ^(٢) وَيَرَى أَنَّهُ أَطْيَبُ وَأَعْبَقُ وَأَمِنُ مِنَ الْقُتَارِ ، وَرُبَّمَا قَدَّمُوهُ عَلَى الْقَمَارِيِّ أَيْضًا . قَالُوا :

(١) فِي الْأَصْلِ تَلَوْنُهُ وَهُوَ تَصْحِيفُ (٢) فِي يَاقُوتَ . وَهُوَ مِنْ أَرْدِ الْعُودِ لِأَفْرَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَشَبِ الْإِلْسِيرِ .

وأجود الصَّنْفِيّ الأسود الكثير الماء، وتكون القطعة منه مناً وأكثر وأقل. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندي والقهاري.

السابع الصندفوري - وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنْفِيّ. ويقال إنه صُنِفَ منه ولذلك كانت قيمته لاحقة بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورزانة، وصلابة؛ إلا أنه ليس بالقطع الكبار.

الثامن الصَّبِيّ - ويؤتى به من الصين، وهو عود حسن اللون، أول رائحته تشاكل رائحة الهندي إلا أن قُتَارَهُ غير محمود، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقل.

التاسع القطعي - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصَّنْفِيّ. العاشر القصور - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة؛ وهو أعذب رائحة من القطعي إلا أنه دونه في القيمة.

الحادي عشر الكلهي - وهو عود رطب يعضع، وفيه زَعَارَةٌ، وشدة مرارة للدهانة التي فيه، وهو من أعبق الأعواد في الثياب وأبقاها. الثاني عشر العولاتي - وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحي قمار من أرض الهند.

الثالث عشر اللوقيني - وهو ما يجلب من لوقين؛ وهي طرف من أطراف الهند وله حُمْرَةٌ في الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة.

الرابع عشر المانطائي - وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثل قيمة اللوقيني، وهو خفيف ليس بالحسن اللون. قال أحمد بن العباس: وهو قطع كبار، ملس لا عقد فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يصلح للأدوية.

الخامس عشر القندغلى - ويؤتى به من ناحية كله^(١) ، وهى ساحل الزنج ، وهو يشبه القمارى إلا أنه لا طيب لرائحته .

السادس عشر السمولى - وهو عود حسن المنظر ، فيه حمرة وله بقاء فى الثياب .

السابع عشر الرانجى - وهو عود يشبه قرون الثيران ، لا ذكاء له ، ولا بقاء فى الثياب .

الثامن عشر المحرم - سمي بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشك الناس فى أمره ، فخرمه السلطان ومنعه فسمى المحرم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصنغى والقافلى صنفا يقال له العطلى يؤتى به من الصين ، وهو عود صلب خفيف حسن المنظر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفلق - وهو عود يؤتى به من أرض الصين ، يكون فى العظم مثل الخشب الرانجى الغلاظ يباع المن منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح فى قشوره ، وداخله خشب خفيف مثل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له فى أوله رائحة حلوة طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصنف الرابع (الصندل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .

الأول المقاصيرى - وهو الأصفر ، الدسم ، الرزين ، الذى كأنه مسح بالزعفران الذى الرائحة . واختلف فى سبب تسميته بالمقاصيرى ف قيل نسبة إلى بلد تسمى

(١) الذى فى معجم البلدان لياقوت أنها كوة وأما كة فقد قال إنها فرضة بالهند اه .

مقاصير؛ وقيل إن بعض خلفاء بني العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومحاطيه مقاصير منه ؛ وهو شجر عظام يُقَطَّع رطباً، وأجوده ما أصفر لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زعارة . قال التيمي : وهو يدخل في طيب النساء : الرطب واليابس ؛ وفي البرميكات ، والمثلثات ، والذرائر؛ ويتخذ منه قلائد، ويدخل في الأدوية؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأَسِرَّةُ وإنه يأمر بقطع ما يحمل منه من اليمن إلى غيرها من البلاد قِطْعاً صغاراً حتى لا يكون منها ما يعمل سريراً لغيره من الملوك .

الثاني الأبيض منه الطيب الريح - وهو من جنس المقاصيري المتقدم ذكره لا يخالفه في شيء إلا في البياض؛ ويقال إن المقاصيري هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث الجوزي - وهو صُلبُ العود أبيض، يضرب لونه إلى السَّوْمَرَةِ، ويؤتى به من موضع يقال له الجَوْزُ، وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذي قبله .

الرابع السائوس ويقال الكلوس - وهو صندل أصفر طيب الرائحة إلا أن في رائحته زعارةً؛ ويستعمل في الذرائر، والمثلثات : في الطيب والبخورات .

الخامس، يضرب لونه إلى الحجرة - وهو على نحو من الذي قبله .

السادس صندل جعد الشعرة - لا بساطة فيه إذا شقق بل يكون فيه تجعید كما في خشب الزيتون، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل في شيء سوى البخورات والمثلثات .

السابع أحمر اللون - وهو خشب حسن اللون، ثقيل الوزن لا رائحة له، إلا أنه يتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدُّوِيِّ وقِطْعِ الشَّطْرَنْجِ ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطبية .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى أو يرد هدية، ويجرى ذكره في مكاتبات الملوك، أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب كالسُنْبُل، والقَرْنِفَل، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلى وصفه من الآلات : وهى أصناف)

الصنف الأول

(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة ، التى يركب فيها السلطان وهى عدة آلات .

منها الخاتم بفتح التاء وكسرها، وحكى فيه ابن قتيبة والجوهري وغيرهما خِتَامَ وخَاتَمًا، وهو ما يجعل فى الإصبع من الحلى، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع : سمي بذلك لأنه يختم بنقشه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى فى الكلام على ختم الكتب ” أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى بعض ملوك الأعاجم فقبل له إنهم لا يقرءون كتابا غير مختوم فأتخذ خاتما من ورق وجعل نقشه محمد رسول الله وأقتدى به فى ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلى أن جعلوا للكتب طابعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه ” ديوان الخاتم ” وأقتفى الملوك أثرهم فى ذلك ، ثم غلب بمملكتهما وماناهزها الاكتفاء فى المكاتبات باللصاق ، وصار اسم الخاتم مقصورا على ما يجعل فى الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت الملوك إنما تلبس الخواتم بفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تجملا ، وربما بعثت بها فى تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وأقرفه .

ومنها المُنْدِيل بكسر الميم ، وهو مَنْدِيل يُجْعَلُ فِي الْمِنْطَقَةِ الْمَشْدُودَةِ فِي الْوَسْطِ مَعَ الصُّلُوقِ وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ جَرَى أَصْطِلَاحُ الْمُلُوكِ عَلَى الْبَعْثِ بِهِ فِي الْأَمَانَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْخَاتَمِ ؛ وَالْمِنْدِيلُ آلَةٌ قَدِيمَةٌ لِلْمُلُوكِ ؛ فَقَدْ حَكَى أَنَّهُ كَانَ لِلْأَفْضَلِ بْنِ أَمِيرِ الْجِيُوشِ أَحَدِ وَزَرَاءِ الْفَاطَمِيِّينَ مَائَةٌ بَذْلَةٍ مَعْلُوقَةٌ عَلَى أَوْتَادٍ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَى كُلِّ بَذْلَةٍ مِنْهَا مَنْدِيلٌ مِنْ لَوْنِهَا ؛ وَلَمْ يَكُنِ الْمِنْدِيلُ مِنْ آلَاتِ الْخِلَافَةِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ آلَاتِهَا الْبُرْدَةُ عَلَى مَا سَأَتِي ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْخِلَافَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها التَّخْتُ ، وَيُقَالُ لَهُ السَّرِيرُ : وَهُوَ مَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ فِي الْمَوَاقِبِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ مِنْ رُسُومِ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، رَفْعَةً لِمَكَانِ الْمَلِكِ فِي الْجُلُوسِ عَنْ غَيْرِهِ حَتَّى لَا يَسَاوِيَهُ غَيْرُهُ مِنْ جُلَسَائِهِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزُ أَنَّهُ كَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُرْسِيٌّ يَقُولُهُ ” وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا “ وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ كُرْسِيٌّ مِنْ عَاجٍ مُغَشًى بِالذَّهَبِ .

ثُمَّ هَذِهِ الْأَسِرَّةُ تَخْتَلِفُ بِأَخْتِلَافِ حَالِ الْمُلُوكِ ، فَتَارَةٌ تَكُونُ مِنْ أُبْنِيَةِ رُخَامٍ وَنَحْوِهِ ، وَتَارَةٌ تَكُونُ مِنْ خَشَبٍ ، وَتَارَةٌ مِنْ فُرُشٍ مَحْشُوءَةٍ مَتْرَاكِبَةً ؛ وَقَدْ حَكَى أَنَّهُ كَانَ لِلْمُلُوكِ الْفُرْسُ سُرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ يَجْلِسُونَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرَ يَجْلِسُ مَعَ قَوْمِهِ عَلَى الْأَرْضِ غَيْرَ مَرْتَفِعٍ عَلَيْهِمْ ، وَيَأْتِيهِ الْمُقَوِّسُ وَمَعَهُ سُرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ ، يَجْلُ مَعَهُ عَلَى الْأَيْدِي ، فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ فَلَا يَمْنَعُهُ عُمَرُو مِنْ ذَلِكَ ، لِإِجْرَاءٍ لَهُ عَلَى عَادَتِهِ فِي الْمُلْكِ فِيمَا قِيلَ ، لَمَّا عَقَدَهُ لَهُ مِنَ الذِّمَّةِ وَاتَّخَذَهُ مَعَهُ مِنَ الْعَهْدِ .

ومنها الْمِظَلَّةُ ، وَأَسْمُهَا بِالْفَارْسِيَةِ الْخِزْ بَنُونَ بَيْنَ الْجَحِيمِ وَالزَّأَى الْمَعْجَمَةُ ، وَيَعْبَرُ عَنْهَا الْعَامَّةُ الْآنَ بِالْقُبَّةِ وَالطَّيْرِ : وَهِيَ قُبَّةٌ مِنْ حَرِيرٍ أَصْفَرٍ ، تَجُلُّ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ ، عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ يُدْعَى أَمِيرَ يَكُونُ رَاكِبًا بِجِذَاءِ الْمَلِكِ ، يُظَلُّهُ بِهَا حَالَةَ الرُّكُوبِ مِنَ الشَّمْسِ فِي الْمَوَاقِبِ

العظام، وسيأتى ذكرها فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرقبة : وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر ، قد طُرِزَت بالذهب الزركش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئى فيها ، تشد على رقبة فرس الملك فى المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المعطى لظهر الفرس وكفله .

ومنها الغاشية ، وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يظنها الناظر كلها ذهباً ، يلقبها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها الجفتاه ، وهى فرسان أشبهان قريبا الشبه ، برقتين من زركش ، وعدة تضاهى عدة مركوب السلطان كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان ، يعلوهما مملوكان من المحاليك السلطانية قريبي الشبه أيضا ، على رأس كل منهما قبعة من زركش مشابهة للآخر .

ومنها المنطقة بكسر الميم : وهى ما يشد فى الوسط ، وعنها يعبر أهل زماننا بالحياصة ، وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : على بن أبى طالب رضى الله عنه كان له منطقة . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات المملوكية ، على أن ملوك الزمان لم تجر لهم عادة بشد منطقة ، وإنما يلبسها الملك للأمراء عند إلباسهم الخلع والشاريف ، وهى تختلف بحسب اختلاف الرتب ، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص ، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهى الرايات التى تُحمل خلف السلطان عند ركوبه ، وهى من شعار الملوك القديمة ، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعقد لأمراء

سراياه الرايات عند بعثها ؛ ثم قد يعبر عن بعضها بالعصائب جمع عصاية : وهي الألوية ، أخذاً من عصابة الرأس : لأن الراية تعصب رأس الرمح من أعلاه ؛ وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق ، والسنجق باللغة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمى بذلك مجازاً .

ومنها الطبول ، ويقال لها الدبادب ، والبوقات ، والزممر المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها ، وهي المعبر عنها بالطبخاناه ، وهي من شعار الملوك القديم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن الطبل في بلاد المغرب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة المغرب في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى . والسر فيها إرهاب العدو ، وتخذيله كما كتب به أرسطو في كتاب "السياسة" للإسكندر ، أو تقوية النفوس وتشجيعها على الحرب كما قاله الغزالي رحمه الله في "الإحياء" وكتب كثرت أعدادها ، كان أنعم لشأن الملك وأبلغ في رفعة شأنه . وقد حكى أن دبابد الإسكندر كانت أربعين حملاً .

قلت : وقد ذكر في "التعريف" من جملة الآلات الملوكة الدواة ، والقلم ، والمِرْملة . ولا يخفى أنها بالآلات الكتاب أليق وإن كان السلطان لا يستغني عنها ؛ وسيأتي الكلام عليها في الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(آلات الركوب - وهي عدة آلات)

منها السرج - وهو ما يقعد فيه الراكب على ظهر الفرس ؛ وأشكال قوابله مختلفة ؛ ثم من السرج ما يكون مغشى بالذهب ، وهو مما يصلح للولوك .

ومنها ما يكون مغشًى بالفضة البيضاء؛ وكل منها قد يكون منقوشاً وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها ما يكون ساذجاً .

ومنها اللجام - وهو الذى يكون فى ذكّ الفرس يمنعه من الجراح؛ وقولبه أيضاً، مختلفة؛ ثم منها ما يكون مطلياً بالذهب، ومنها ما يكون مطلياً بالفضة، ومنها ما يكون ساذجاً، ومنها ما يكون رأسه وجنباه محلى بالفضة، ومنها ما يكون غير محلى .

ومنها الكنبوش - وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكفله؛ وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من الخايش : وهى الفضة الملبسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ وبه يركب القضاة وأهل العلم .

ومنها العباءة بالمد - وهى التى تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المِهْمَاز - وهو آلة من حديد تكون فى رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخلف وما فى معناه؛ ومؤخره إصبع محدّد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت فى المشى أو جدّت فى العدو . وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فضة، وتارة يكون من حديد مطلى بالذهب أو الفضة؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركه .

ومنها الكُور - وهو ما يقعد فيه الراكب فى ظهر النجيب : وهو الهجين، والعرب تسميه الرّحل؛ ثم قد يكون مقدّمه ومؤخره مغشًى بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشًى .

ومنها الزّمام - وهو ما يقاد به النّجيب، ويضبطه به الراكب كما يضبط الفارس الفرس بالعنان .

ومنها الرّكاب - وهو ما تجعل فيه الرّجل عند الركوب، وكانت العرب تعتاده

من الجلد والخشب ، ثم جُدِلَ عن ذلك إلى الحديد . قال أبو هلال العسكري :
 في كتابه "الأوائل" وأول من آتخذه من الحديد المَهْلَبُ بنُ أبي صُفْرَةَ ، وكانت
 رُكْبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يَصُكُّ الراكب ^(١) بركابه فيوهن مِرْفَقَه .
 ومنها السَّوْطُ - وهو ما يكون بيد الراكب يَضْرِبُ به الفرس أو النجيب ،
 وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرَعَة لأنه يُقْرَع به المركوب إذا تقاعس ، وهو بدل من
 القضيب الذي كان للخلفاء على ما سياتي ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة
 في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث

(آلات السفر؛ وهي عدة آلات)

منها المِحْفَةُ بكسر الميم : وهي تَحْمَلُ على أعلاه قُبَّةٌ ، وله أربعة سواعد : ساعدان
 أمامها وساعدان خلفها ، تكون مغطاة بالجوخ تارة وبالحرير أخرى ، تُحْمَلُ على بغلين
 أو بعيرين يكون أحدهما في مقدمتها ، والآخر في مؤخرتها ، إذا رَكَبَ فيها الراكب
 صار كأنه قاعد على سرير ، لا يلحقه أنزعاج ، وقد جرت عادة الملوك والأكابر
 باستصحابها في السفر خشية ما يَعرِضُ من المرض .

ومنها المِحْمَلُ بكسر الميم الأولى وفتح الثانية : وهو آلة كالمِحْفَةِ إلا أنه يحمل على
 أعلى ظهر الجمل بخلاف المِحْفَةِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها الفَوَانِيسُ ، جمع فأنوس ، وهي آلة كُرِيَّة ذات أضلاع من حديد ، مَغْشَاةٌ
 بخرقه من رقيق الكَتَّانِ الصافي البياض يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة في أسفل باطنه

(١) لعله المركوب .

(٢) ضبطه في القاموس والصاحح كجاس . ولعل ما في الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

فَيُشَفُّ عَنْ ضَوْئِهَا ؛ وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَحْمَلَ مِنْهَا اثْنَانِ أَمَامَ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ فِي السَّفَرِ فِي اللَّيْلِ .

وَمِنْهَا الْمَشَاعِلُ جَمْعُ مَشْعَلٍ : وَهِيَ آلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ كَالْقَفَصِ مَفْتُوحُ الْأَعْلَى ، وَفِي أَسْفَلِهَا حُرْقَةٌ لَطِيفَةٌ ، تَوْقِدُ فِيهِ النَّارَ بِالْحَطْبِ فَيَبْسُطُ ضَوْءَهُ ، يَحْمَلُ أَمَامَ السُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ فِي السَّفَرِ لَيْلًا أَيْضًا .

وَمِنْهَا الْحِيَامُ جَمْعُ خَيْمَةٍ ، وَيُقَالُ لَهَا الْفُسْطَاطُ وَالْقُبَّةُ أَيْضًا : وَهِيَ بَيْوتٌ تُتَّخَذُ مِنْ خِرْقِ الْقُطْنِ الْغَلِيظِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمَلُ فِي السَّفَرِ لَوَايَةَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُتَّخِذُهَا مِنَ الْأَدِيمِ ، وَقَدْ آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ” وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ” وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي فِي سَعَتِهَا ، وَتَنْتَاهِي بِكِبَرِهَا . وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الدَّوْلَةِ الْفَاتِمِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ خُلَفَائِهِمْ خَيْمَةٌ تُسَمَّى الْقَاتُولُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ فَرَّاشًا مِنَ الْفَرَّاشِينَ وَقَعَ مِنْ أَعْلَى عَمُودِهَا فَتَاطَلَتْ .

وَمِنْهَا الْخُرُكَاهُ : وَهِيَ بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ مَصْنُوعٌ عَلَى هَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ وَيَغْشَى بِالْجُودِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمَلُ فِي السَّفَرِ لِتَكُونَ فِي الْخَيْمَةِ لِلْبَيْتِ فِي الشِّتَاءِ لَوَايَةَ الْبَرْدِ .

وَمِنْهَا الْقُدُورُ جَمْعُ قَدْرٍ : وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يُطْبَخُ فِيهَا وَتَكُونُ مِنْ نُحَاسٍ غَالِبًا ، وَرَبَّمَا كَانَتْ مِنْ بَرَامٍ . وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي بِكَثْرَتِهَا وَعِظَمِهَا : لِأَنَّهَا مِنْ دَلَائِلِ كَرَمِ الْمَلِكِ وَكَثْرَةِ رِجَالِهِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْظِيمَ قَدْرِ مَا كَانَتْ الْجِنُّ تَعْمَلُهُ لَهُ مِنَ الْقُدُورِ بِقَوْلِهِ ” يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ” .

وَمِنْهَا الْأَثَافِي ، وَهِيَ الْآلَةُ الْمُتَلَتِّةُ الَّتِي تَعَلَّقُ عَلَيْهَا الْقَدْرُ عِنْدَ الطَّبِيخِ ، وَتَكُونُ مِنْ حَدِيدٍ .

ومنها النار التي يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدم في الكلام على نيران العرب ذكر نار القرى، وهي نار كانت تُرْفَعُ ليلاً ليراها الضيف فيمتهدى بها إلى الحى .

ومنها الحفان جمع جَفَنَةٍ : وهي الآنية التي يوضع فيها الطعام؛ وقد تقدم في الكلام على القدور أنها مما كانت الحن تعمله اسليمان عليه السلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بكبر الحفان لدلالاتها على الكرم ، وفي ذلك يقول الأعشى في مدح المُحَلَّقِ لَيْلَةَ بات عليه :

نفى الدَّامَ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفَنَةً * بَكَائِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ

قيل أراد بالشيخ العراقي كسرى، فشبهه جفنته بجفنته .

ومنها حياض الماء : وهي حياض من جلد تحمل في السفر ليقى الماء فيها لسقى الدواب ونحوها، وكبر قدرها دليل على رفعة قدر صاحبها ونخامته : لدلالاتها على كثرة دوابه، واتساع عسكره .

الصنف الرابع

(آلات السلاح ؛ وهي عدة آلات)

منها السيف : وهو معروف . وسيأتى في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هلك لأنه به يقع الهلك .

وأعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرَ : وهو المعبر عنه بالفولاذ، قيل سيف فولاذ، وإن كان من حديد أنثى : وهو المعبر عنه في زماننا بالحديد، قيل سيف أنثى ؛ فإن كان مثله من حديد أنثى وحداه من حديد ذكر كما في سيوف الفريجة^(١)، قيل سيف مُدَّكَرٌ، ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردت، صارت حديدا، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا، فتحجىء في غاية الحُسْنِ والمُضَاءِ .

(١) هكذا في الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

(١) ثم إن كان عريض الصفيح ، قيل له صفيحة ؛ وإن كان محدا لطيفا ، قيل له قَصِيْب ؛ فإن كان قصيرا قيل أْبَر ؛ فإن كان قصره بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليه ، قيل مِشْمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حد واحد وجانبه الآخر جاف ، قيل فيه صمّامة ، وبهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُرُوز مستطيلة قيل فيه فقّارات ، وبذلك سمي سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفقار ، يروى أنه كان فيه سبع عشرة فقارة . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذي طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدِيٌّ ومُهَنْدٌ ، وفيما طبع باليمن يَمَانٍ ، وفيما طبع بالمِشَارِف : وهى قُرَى من قُرَى العرب قريبة من ريف العراق ، قيل له مَشْرِفٌ ؛ فإن كان من المعدن المسمى بَقَسَّاس : وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له قُسَّاسِيٌّ ، وتارة ينسب السيف إلى صاحبه كالسيف السَّرِيحِيّ نسبة إلى قَيْن من قِيُون العرب اسمه سَرِيح معروف عندهم بحسن الصنعة . ويوصف السيف بالحُسام : وهو القاطع أخذا من الحُسم : وهو القطع ، وبالصارم : وهو الذى لا ينبو عن الضربة . والناس يبالغون فى تحلية السيوف فتارة تُرْصَع بالجواهر ، وتارة يُحْلَوْنَها بالذهب ، وتارة يحلونّها بالفضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية .

ومنها الرُّمَحُ : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما مَتَّخَذ من القنأ ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قَنَاء ، ويقال لمفصلها أُنَابِيْب ، ولعقدّها كُغُوب ؛ فإن كان قد نَسَأ فى نباته مستقيما بحيث لا يحتاج إلى تثقيف ، قيل له الصَّعْدَة - بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم قيل له مَثَقَف . ويوصَف القنأ بالخَطِيّ - بفتح الخاء المعجمة ، نسبة إلى

(١) لعله مدققا (٢) كذا بالأصل . وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

الخط : وهى بلدة بالبحرين تجلب إليها الرّاح من الهند ، وتنقل منها إلى بلاد العرب ، وليست تُثبت القنا كما توهّمه ابن أصبغ فى أرجوزته المذهبة .
 الثانى ما يُتخذ من الخشب كالزان ونحوه ، ويسمى الذابل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقال للحديد الذى فى أعلى الرّيح السّنان ، وللذى فى أسفله الرّج والعقب .
 ويوصف الرّيح بالأسمر : لأن لون القنا السّمرة ، وبالعسّال : وهو الذى يضطرب فى هزه ، وبالدّن : وهو اللين ، وبالسّمهرى نسبة إلى بلدة يقال لها سمّهرة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السّمهرة ، وهى الصّلابة .

ومنها الطّبر ، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمى السّكر الصّلب بالطّبرزد يعنى الذى يكسر بالفاس . وإلى الطّبر تنسب الطّبرداريّة : وهم الذين يحملون الأتبار حول السلطان على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها السّكين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدّواة فى الكلام على آلات الكتّابة وإنما سميت سكيناً لأنها تُسكّن حركة الحيوان . وتسمى المذبة أيضاً لأنها تقطع مدىّ الأجل ، وهذه الاشتقاقات أولى بألة الحرب من آلة الكتّابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما يناسبه .

ومنها القوس ، وهى مؤنثة . والقسيّ على ضربين : أحدهما العربية ، وهى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عود واحد قيل لها قسيب ، وإن كانت من فلقين قيل لها فلق . الثانى الفارسية : وهى التى تُركّب من أجزاء : من الخشب والقُرْن والعقب والغراء . ولأجزائها أسماء يخص كلّ جزء منها اسم ، فوضع إمساك

الرامي من القوس يسمى المَقْبِضُ ، ومجرى السهم فوق قَبْضِ الرامي يسمى كَبِدُ القوس ، وما يُعْطَف من القوس يسمى سِيَّةَ القوس ، وما فوق المَقْبِض من القوس ، وهو ماعلى يمين الرامي يسمى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ماعلى يسار الرامي يسمى رِجْلُ القوس .

ومنها النَّشَاب ، والنَّبَل ، فالبَل ما يرمى به عن القِسيّ العربية ، والنَّشَاب ما يرمى به عن القِسيّ الفارسيّة حكاية الأزهرى ، ومجرى الوتر من السهم يسمى الفُوق ، وحديدُه يسمى النَّصْل ، والرَّيشُ يسمى القُدْدَ ، والسهم قبل تركيب الريش يسمى القِدَح (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ ، ويقال لها الجَعْبَةُ : وهى بكسر الكاف : وهى ظَرْفُ السهام ، وتكون تارةً من جلد ، وتارةً من خَشَب .

ومنها الدَّبُوسُ ، ويسمى العامود : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومن فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدَّبُوس .

ومنها البِيضَةُ : وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه ما يرسل على القفا والآذان ، وربما كان ذلك من زَرَدٍ .

ومنها المِقْفَرُ ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقايةً لأنفه أيضاً ، وقد تكون من زَرَدٍ أيضاً .
ومنها الدَّرْعُ : وهو جَبَّة من الزَرَد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام ، وهى تذكر وتؤنث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه أَلَيْنَ

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلى نَسَجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السَّلُوقِيَّةُ نسبةً إلى سَلُوقَ ، قريةً من قُرَى اليمن ، وربما قيل دُرُوعٌ حَطُومِيَّةٌ بضم الحاء المهملة نسبةً لخطوم رجل من عبدِ القَيْسِ ^(١) . وأعلم أن لَيْسَ العرب في الحرب كان الزرد ، أما الآن ، فقد غلب عمل القَرَقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها التُّرْسُ : وهو الآلة التي يتقي بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه ، وتسمى الجُنَّةَ أيضا بضم الجيم أخذًا من الاجْتِنَانِ وهو الاختفاء ، وربما قيل لها الحِجَفَةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ، ثم هي تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيذان مضموم بعضها إلى بعض بنحيط القطن ونحوه ، فإن كانت من جلد ، قيل لها دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخامس

(آلات الحصار ، وهي عدة آلات)

منها المَنْجَنِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ في الآخر ، وحكى ابن الجوالقي فيه كسر الميم ، وحكى فيه أيضا منجنوق بالواو وَمَنْجَمِيقٍ بإبدال النون الثانية ميما ، وهو اسم أعجمي ، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق . قال الجوهرى : وأصله مَنْ جِي نِيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ابن خلكان : تفسير مَنْ وتفسير جِي ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ابن قتيبة في كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكري

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النسخ . والصواب حَطُومِيَّةُ نسبةً إلى حُطَمَ رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

في "الأوائل" : وهو آلة من خشب لها دَفَتَانِ قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ الْمَنْجَنِيقِ التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع الْمَنْجَنِيقَ جَذِيْمَةُ الْأَبْرَشُ مَلِكُ الْحِيرَةِ على العرب . وذكر الواحدى في تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يَقْدِرُوا على القرب من النار لِقُوِّهِ فيها ، فجاءهم الْأَعْيُنُ إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وأَلْقَوْهُ فيه فقتلوه به في النار ، فكان أول مَنْجَنِيقٍ عُمِلَ .

ومما يلتحق بالمنجنيق الزبارات : وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر .

ومنها السَّهَامُ الْخَطَايَا ^(١) ، وهي سهام عِظَامُ يرمى بها عن قِسيٍّ عِظَامُ توتر بلوالب يجزها ويرمى عنها فتكاد تحرق الحجر .

ومنها مَكَاكِلُ الْبَارُودِ ، وهي المدافع التي يرمى عنها بالنَّظَطِ . وحالها مختلف : بعضها يرمى عنه بِأَسْهَمِ عِظَامٍ تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه بِبُنْدُقٍ من حديد من زينة عشرة أرتال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل ، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية ، شَعْبَانَ بن حُسَيْنٍ ، في نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَامٍ رحمه الله ، بها مدفعا قد صُنِعَ من نُحَاسٍ وَرَصَاصٍ وقيد بأطراف الحديد رُمِيَ عنه من الْمِيدَانِ بِبُنْدُقَةٍ من حديد عظيمة محماة ، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة .

(١) لعله مصحف والذي يؤخذ من المخصص أن السهم الخطاي هو السهم الغايظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيدته التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النَّفْطِ، وهى قدور ونحوها يجعل فيها النَّفْطُ ويرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق، على أن القوارير فى اللغة اسم للزُّجَاج وإنما أَسْتَعِيرَتْ فى آلات النَّفْطِ مجازاً .

ومنها الستائر، وهى آلات الوقاية من الطوارق، وما فى معناها مما يستتر به على الأسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد ، وهى عدة آلات)

منها قوس البَنْدُق (ويسمى الجُلَّاهِق) قوس يتخذ من القنأ ويلف عليه الحرير ويفترى، وفى وسط وتره قطعة دائرة تسمى الجوزة، توضع فيها البندقة عند الرمي .
ومنها الجراوة ، وهى آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذى يرمى به عن القوس المتقدم ذكره .

ومنها الشَّابُكُ ، وهى آلة تتخذ تعقد من خيطان وتنصب لاقتناص الصيد، وكذلك تطرح فى الماء فيصاد بها السمك .

ومنها الزُّبْطَانَةُ^(١)، وهى آلة من خشب مستطيلة كالرمح مجوفة الداخل يجعل الصائد بندقة من طين صغيرة فى فيه ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدة فتصيب الطير فترميه، وهى كثيرة الإصابة .

ومنها الفُخُّ، وهو آلة مَبْوَسَةٌ لها دَفَّتَانِ تفتحان قسراً ، وتعاقدان فى طرف شطاة ونحوها إذا أصابها الصيد، أنطبقت عليه .

ومنها الصَّنَانِيرُ جمع صِنَّارَةٍ، وهى حديدة معقفة^{مُزَعَزَعَةٌ} محددة الرأس يصاد بها السمك .

(١) فى الأصل الزربطانة . والتصحيح من القاموس .

الصف السابع

(آلات المعاملة، وهى عدة آلات)

منها الميزان، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقدرات، فالموازين قديمة
الوضع قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة
القِسْطِ بِالْوِزْنِ كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. قال أبو هلال
العسكرى: وأول من آخذ الموازين من الحديد عبد الله بن عامر. قال: وأول
من وضع الأوزان سمير اليهودى، وذلك أن المجاج ضرب الدراهم بأمر عبد الملك
أبن مروان ونهى أن يضربها أحد غيره، فضربها سمير فأمر المجاج بقتله لأجترائه
عليه. فقال سمير: أنا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلى، فوضع الأوزان: وزن
ألف، وخمسمائة، وثلاثمائة، إلى وزن ربع قيراط، وجعلها حديدا، فغفا عنه. وكان
الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وأكثرها يؤخذ عددا.
ومنها الذراع، مؤنثة، وهى إحدى الآلات التى تقدر بها المقادير أيضا، بها تقدر
الأرضون، ويقاس البزوما فى معناه، ولم تزل الناس قديما وحديثا يتعاملون بها على
اختلافها، وقد ورد ذكرها فى القراءات الكريمة فى قوله تعالى ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾. وقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية سبع أذرع.
إحداها العُمريَّة، وهى الذراع التى قدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى
الله عنه لمسح سواد العراق. قال موسى بن طلحة: وطولها ذراع وقبضة وإبهام.
قال الحكم بن عتيبة: عمده عمر رضى الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا،
فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وإبهاما قائمة، ثم ختم فى طرفها
بالرصاص، وبعث بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف ففسحا بها السواد.

الثانية الهاشمية ، وتسمى الزيادة . قال : وهي أربع وعشرون إصبعاً ، كل إصبع سبع شعيرات مُعْتَدِلَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرًا لِبَطْنٍ ، كل شعيرة عرض سبع شَعَرَاتٍ من شعر البرَدُونِ ؛ وهذه الذراع التي يعتمدها الفقهاء في الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبر في مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عَبَّرُوا عنها بذراع الملك ؛ وسميت بالهاشمية لأن أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس أَعْتَبَرَهَا وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهَا في المساحة وَتَبَعَ سائر خلفائهم على ذلك ، وبنو العباس من بني هاشم ، فنسبت إلى بني هاشم مباينةً لِمَنْ تَقَدَّمَهم من خلفاء بني أُمَيَّةَ . قال المَاورِدِيُّ : وتسمى الزِيَادِيَّةُ : لأن زيادا مسح بها السَّوَادَ أيضا .

الثالثة البِلَالِيَّةُ ، وهي أنقص من الهاشمية المقدم ذكرها ثلاثة أرباع عُشْرِهَا ؛ وإنما سُمِّيَتِ البِلَالِيَّةُ لِأَنَّ بِلَالَ بن أَبِي بُرْدَةَ بن أَبِي مُوسَى الأشعري هو الذي وضعها ، وذكر أنها ذراعُ جَدِّهِ أَبِي مُوسَى .

الرابعة السَّوَدَاءُ ، وهي دون البلالية باصبعين وثلاثي أصبع ؛ وأوَّل من وضعها الرشيد ، قدَّرها بذراع خادم أسود ، كان قائما على رأسه . قال المَاورِدِيُّ : وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البز والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخامسة اليُوسُفِيَّةُ ، وهي دون الذراع السوداء بثلاثي أصبع ؛ وأوَّل من وضعها أبو يوسف صاحبُ أبي حنيفة . قال المَاورِدِيُّ : وبها يَدْرَعُ القضاةُ الدَّوْرَ ببغداد .

السادسة القصبة ، وهي أنقص من الذراع السوداء بإصبع وثلاثي أصبع ؛ وأوَّل من وضعها ابنُ أبي ليلى القاضي . قال المَاورِدِيُّ : وبها يتعامل أهل كَلَوَازِي .

السابعة المهرانية، قال الماوردي : وهي بالذراع السوداء ذراعان وثلاث ذراع ؛ وأول من وضعها المأمون ، وهي التي يتعامل بها في حفر الأنهار ونحوها .
ومنها المقص (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة ، وينتفع به في أمور مختلفة .

الصف الثامن (آلات اللّعب ؛ وهي عدة آلات)

منها التّرد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حكم الفرس ؛ وضعه أردشير بن بابك أول طبقة الأكاسرة ، من ملوكهم ، ولذلك قيل له زردشير ، وضعه مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة اثني عشر بيتا بعدد شهور السنة ، والمهاريك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصوص بثلاثة الأفلاك ، ورميها مثل ثقلها ودورانها ، والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة ، وهي الشمس ، ويقابله اليك ، والبنج ، ويقابله الدو ، والجهار ، ويقابله الثا ، وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر : تارة له وتارة عليه ، وهو يصرف المهاريك على ما جاءت به النقوش ، إلا أنه إذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه ، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة ؛ لكن قد وردت الشريعة بذمه قال صلى الله عليه وسلم " مَنْ لَعِبَ بِالزَّرْدِشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَزِيرٍ " وفي رواية " ملعون مَنْ لَعِبَ بِالزَّرْدِشِيرِ " . وفي تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان ، أحدهما التحريم ، والثاني الكراهة . وإذا قلنا حرام ، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشطرنج ، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان ، والأولى منهما

(١) الذي في القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوله وفي لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب جردخل .

أفصح، وهو فارسيّ معرّب، وأصله بالفارسية شش رنگ، ومعناه ستة ألوان وهي الشاه (والمراد بها الملك) والفرزان، والفيل، والفرس، والرّخ، والبيدق، ثم الشّطرنج من أوضاع حكماء الهند وحكّهم . وضعه صصه بن داهر الهنديّ لبهيب ملك الهند مساواة لأردشير بن بابك في وضعه النرد، وعرضه على حكماء زمانه فقبضوا بتفضيله، ثم عرضه على الملك وعزّفه أمره، فقال: أحتمك على، فتمنى عليه عدد تضعيف بيوته، من قمحة إلى نهاية البيوت، فاستصغره همته وأنكر عليه مواجهته بطلب نزر يسير، فقال هذه طلّيتي فأمر له بذلك، فحسّبه أرباب دواوينه فقالوا للملك: إنه لم يكن عندنا ما يقارب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان، فكان إعجابه بالأمر الثاني أكثر من الأوّل. قال ابن خلكان: ولقد كان في نفسي من هذه المبالغة شيء حتّى أجتمع بي بعض حساب الإسكندرية فأوضح لي ذلك وبينه، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعائة وثمانية وستين حبة، وقال: تجعل هذه الجملة مقدار قدح، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية، ثم أنقل من الويات إلى الإردب، ولم يزل يُضعّفها حتّى آتته في البيت الأربعين إلى مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعائة واثنين وستين إردبا وثلاثي إردب، وقال: هذا المقدار شونة، ثم ضاعف الشّون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، وقال: هذا المقدار مدينة؛ ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين، وهو نهايتها، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة، وقال: تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد قال الصّلاح الصّفديّ في شرح اللامية: وآخر ما أقضاه تضعيف رقعة الشّطرنج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات، وأربعمائة وستة وأربعون ألفا خمس مرات،

وسبعمائة وأربعة وأربعون ألفاً أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفاً ثلاث مرات ،
وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفاً وستمائة وخمس عشرة
حبة عدداً .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارى : إذا جمع هذا العدد هرماً واحداً مكعباً ، كان
طوله ستين ميلاً ، وعرضه كذلك ، وارتفاعه كذلك ، بالميل الذى هو أربعة
آلاف ذراع .

واللعب بالشطرنج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازى رحمه الله
فى "المهذب" أن سعيد بن جبيرة الإمام الكبير التابعى المشهور كان يلعب الشطرنج
عن استبدار . ومن يضرب به المثل فى لعب الشطرنج الصولى : وهو أبو بكر محمد
ابن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المأمون كان
لا يجيد لعب الشطرنج ، فكان يقول : عجباً منى كيف أدبر ملك الأرض من الشرق
إلى الغرب ولا أحسن تدير رقعة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حله عند أصحابنا
الشافعية ثلاثة أوجه أحصحها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام ، فإن اقترن به
رهن من الجانيين أو أحدهما ، فإنه محرم بلا نزاع .

الصنف التاسع

(آلات الطرب : وهى عدة آلات)

منها العود : وهو آلة من خشب مخففة ؛ له عنق ورأسه ممال إلى خلفه ، وهو
آلة قديمة ، وتسميه العرب المزهر بكسر الميم ، وهو أخف آلات الطرب وأرفعها قدراً
وأطيبها سماعاً ، حتى يقال إنه قيل له هل يُسمع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال
رأسه إلى خلفه فهى مماله لأجل ذلك .

ومنها الجنك، قال في "التعريف" : وهو آلة محدثة طيبة النعمة، لذيد السماع يقارب العود في حسنه، وشكله مباين لشكل العود، ورأسه ممال إلى أسفل؛ يقال إنه قيل له : هل يُسمع أحسن منك ؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّبَابُ (بفتح الراء) : وهي آلة مجوفة مركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر مُرَّمَر عليها بقوس وتره من شعر فيسمع لها حِسٌّ طيبٌ، وأكثر من يعانها العرب .
ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَنْجَة لطيف القدر في تدويره، أطيب حسا وأشجى من الرَّبَاب .

ومنها الدُّفُّ (بضم الدال) : وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج، وهي المعبر عنها في زمننا بالصرابير، حلَّ سماعه، أو بَصُنُوج، فالأصح كذلك .
ومنها الشَّابَّةُ (بفتح الشين) : وهي الآلة المتخذة من القَصَبِ المحجوف، ويقال لها اليرَاع أيضا تسمية لها بأسم ما اتخذت منه، وهو اليراع يعنى القَصَب، وربما عبر عنها بالمِزمار العراقي؛ وتصحيح مذهب الشافعي رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعي رحمه الله يميز سماعها والنَّوَوِيُّ يمنع من ذلك .

الصننف العاشر

(المسكرات وآلاتها ؛ وهي عدّة أشياء)

منها الخمر : وهي ما اتخذ من عصير العنب خاصّة ؛ وهي محرمة بنص القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ وأبو حنيفة يبيحها للتداوى والعطش، ولم تبَّعْ عند الشافعية إلا لإساعة لقمة المغصوص خاصّة ؛ وشاربها يحدّ بالإنفاق ؛ وحكم بنجاستها تغليظا في الزجر عنها، وأباح أبو حنيفة المُتَلَثِّث : وهو ماذهب ثلثاه وبقي ثلثه وقال بطهارته ، وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نبيذ ؛ وقد ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى القول بتنجيسه والحدّ بشربه وإن لم ينذه منه إلى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفة الحدّ في القدر الذي لا يُسْكِر ؛ ثم للخمير أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمّى الخمر لأنها تُخمر العقل : أى تغطيه ، والحُمَيّا لأنها تُخمي الجسد ، والعُقَار لأنها تعافر الدنّ : أى تطول مدتها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التي تكاد تتجاوز مائة .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذي يُصبّ منه ؛ والإبريق في أصل اللغة ماله خرطوم يصبّ منه .

ومنها القدح : وهو إناء من زجاج ونحوه يصبّ فيه من الإبريق المقدم ذكره .
ومنها الكأس : وهو القدح بعد امتلائه ، ولا يسمّى كأساً إذا كان فارغاً بل قدحاً كما تقدّم .

ومنها الكؤب بالباء الموحدة : وهو الذي لأعروة له يُمسك بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاي المعجمة .

قلت : والعجب ممن يذهب طيباته في حياته الدنيا ، ويفوز بها وصْفُه المرارة وطبعه إزالة العقل الذي به تدرك اللذة ، ويفوت النعيم المقيم في دار البقاء ! فقد ورد "أن من شرب الخمر في الدنيا لم يطعمها في الآخرة" . قال العلماء : إذا رآها ، لا يشتهيها ولم تطلبها نفسه ، وقد وصف الله تعالى حال نحر الجنة بقوله : "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ" . وأتبع ذلك بكلمة النعمة في قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا" .

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خيراً ما عندك بشر ما عندنا .
ومنها الحَشِيشَةُ التي يأكلها سَفَلَةُ الناس وأرذلهم ، وتسميها الأطباء الشَّهْدَانِجَ ،
وعبر عنها ابن البيطار في مفرداته بالقَنْبِ الهِنْدِيِّ . وهي مدمومة شرعاً ، مضرة طبعاً ،
تُفْسِدُ المزاج ، وتؤثر فيه الجَفَافَ وغلبة السوداء ، وتفسد الذهن ، وتورث مَسَاءةَ
الأخلاق ، وتُحْطُّ قَدْرَ متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة
المتكاثرة . وكلام القاضي حُسَيْنٍ يدل على أنه لا يحد متعاطيها وإن فُسِّقَ ، فإنه قال :
وغير الخمر مثل البَنْجِ ، وجَوْزِ مَائِلٍ ، والأفيون لا يحد متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد تناوله
فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى به ، لم يُفْسَقْ ؛ وقد أفرد ابن القسطلاني
الحشيشة بتصنيف سماه ”تَكْرِمَةُ المَعِيشَةِ“ ، في ذم الحشيشة “ ذكر الكثير من معانيها
ومساوى متعاطيها ، أعادنا الله تعالى من ذلك .

النوع الثامن

(مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان ما يقع عليه اسم الفلك وعدد أكرهه^(١) ، وما بين كل كرتين

وحركة الأفلاك في اليوم واللييلة)

أما ما يقع عليه اسم الفلك ، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب ”مناهج
الفكر“ : تواطأت الأمم على تسمية أجرام السموات أفلاكاً ، وقال ابن قتيبة
في ”أدب الكاتب“ : الفلك مدار النجوم الذي يضمها ، وأحتج بقوله تعالى بعد

(١) في القاموس الأكر لغة في الكرة . وقد جمعها المؤلف على هذه اللغة وفي اللسان أن أكر جمع كرة

مقلوب اللام إلى موضع الفاء فانظره .

ذكر النجوم : ”وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ“ قال : وسى فلَكًا لآستدارته ومنه قيل فَلَكَةُ الْمَغْزَلِ لآستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئته ، فقد اختلف علماء الهيئة في ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِّيَّةٌ لا مسطحة ، لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال حركة الكرة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكرهه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أكرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفاف طبقات البصلة ، بحيث يماس محذب كل كُرَّةٍ سفلى مقعر كُرَّةٍ أخرى عليا إذ لا خلاء بينهما عندهم . قالوا : وأقرب هذه الأكر إلى الأرض كُرَّةُ الْقَمَرِ ، ثم كُرَّةُ عَطَارِدَ ، ثم كرة الزهرة ، ثم كرة الشمس ، ثم كرة المريخ ، ثم كُرَّةُ الْمُشْتَرَى ، ثم كرة زحل ، ثم كرة الكواكب الثابتة ، ثم كرة الفلك الأطلس ، وسمى بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلك المحيط . ويسمى ^(١) فَلَكُ الْكَلِّ ، وفلك الأفلاك ، والفلك الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى النوحى في ”كتاب الآراء والديانات“ أن بعض القدماء ذهب إلى أن كُرَّةَ الشمس أعلى من سائر كُرَّات الكواكب ، وبعدها كُرَّةُ القمر ، وبعدها كرة الكواكب المتحركة ، ثم كرة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاعتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكرسي ، والفلك التاسع هو العرش . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أن فوق الكرة التاسعة كُرَّةٌ عاشرة هي المحركة لسائر الأكر . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خلاء لانهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالم الصورة ، ثم عالم النفس ، ثم عالم السياسة ، ثم عالم العلة الأولى ، ويعنون به البارئ تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أهمله في الأصل ولم نثر عليه بعد البحث .

وأما ما بين كل كُرَّتَيْن ، فذهب أهل الهيئة إلى أنها متراصة لاخلاء بينها لكن قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق القصاص من أهل الأثر على أن بين كل سماء وسماء خمسمائة سنة ؛ وفي سنن الترمذي أن "بين كل سماء وسماء واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة" .

• وأما حركة الأفلاك اليومية ، فإن الفلك الأطلس المقدم ذكره يتحرك بما في ضمنه في اليوم والليلة حركة واحدة دورية على قطبين مائلين يسميان قطبي العالم أحدهما (١) عظمى تقطع هذا الفلك نصفين تسمى دائرة معدل النهار ، لأن الشمس متى حلت بها ، أعتدل النهار في سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرة دائرة أخرى متوهمة تقسم هذا الفلك نصفين على نقطتين متقابلتين ، يصير نصفها في شمالي معدل النهار ونصفها الآخر في جنوبيه ، ويسمى منطقة البروج ، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة في السنة الشمسية ، ومن ثم قسمت اثني عشر قسما ويسمى كل قسم منها برجاً .

المقصد الثاني

(في ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الكواكب السبعة السيارة)

وهي زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وأشتقاق أسمائها ، ومقادير أبعادها من الأرض ، وقدر محط كل كوكب منها .

(١) في المواعظ للقريري . [ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار] . فلعن في عبارة الأصل سقطا من النسخ وحرر .

فأما القمر ، فأخوذ من القُمْرَةِ : وهى البياض ، سُمى بذلك لبياضه ؛ وقد تقدّم أن فلَكَه أقرب الأفلاك إلى الأرض ، وهو المعبر عنه بالسما الدنيا ، ودَوْرُه ألف ومائة وخمسة وثمانون ميلاً ، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعده عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمّى هلالاً الليلة الأولى والثانية والثالثة ، ثم هو قُرٌّ إلى آخر الشهر . ويسمّى في ليلة أربع عشرة بالبدر ، قيل لمبادرته الشمس قبل الغروب ، وقيل لتامه وأمتلئه كما قيل لعشرة آلاف بدرٍ لأنها تمام العدد ومتمناه ؛ ويسمّى ليلة في آخر الشهر ، وربما استمرّ ليلتين فلا يرى بمعنى أنه يختفى فلا يرى ، ويسمّى هذا الاختفاء السرار .

وأما عَطَارِدُ ، فعناه النافذ في الأمور ، ولذلك سُمى الكاتب ؛ وهو في الفلك الثانى بعد فلَك القمر ؛ ودَوْرُ قُرْصِه سبعمائة وعشرون ميلاً ، وهو جزء من اثنين وعشرين جزءاً من الأرض ؛ وبعده ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثمانمائة ميل . وأما الزُّهْرَةُ ، فأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى في الفلك الثالث من القمر ، ودَوْرُ قرصها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلاً ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المَحْفَقَةِ لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سُفْلِيَّةٍ : وهى القمر وعَطَارِدُ والزُّهْرَةُ ، وبين ثلاثة عُلوِيَّةٍ : وهى المِرْيَخُ والمُشْتَرِى وزُحَلُ ، وذلك أنها فى الفلك الرابع من القمر ؛ ودور قرصها مائة ألف وثمانمائة وثمانون ميلاً ؛ وهى مثل الأرض مائة وست وستون مرة وربع وثمان مرة ، وبعدها عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وخمسة آلاف وأثنان وتسعون ألفاً ومائة وثلاثة وأربعون ميلاً .

وأما المَرِّيجُ، فمأخوذ من المَرَّخ : وهو شجر تَحْتَكُ أغصانه فتورى النار، فسمى بذلك لشبهه بالنار في أحمراره ، وقيل المَرِّيجُ في اللغة هو السهم الذى لا ريش له ، والسهم الذى لا ريش له يتلوى في سيره ، فسمى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه في سيره ؛ وهو فى الفلك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مرّةً ونصفاً ، وبُعْدُه عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف وأثنى عشر ألفاً وثمانمائة وستة وستون ميلاً .

وأما المُشْتَرَى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع عندهم ؛ وهو فى الفلك السادس من القمر، ودَوْرُ قرصه أحد وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وسبعون ميلاً، وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمان مرّةً، وبُعْدُه عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانية وستون ألفاً ومائتا ميل .

وأما زُحَلٌ، فمأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ، سمي بذلك لبطئه في سيره، وقد فسّره بعض المفسرين قوله تعالى ”النَّجْمُ الثَّاقِبُ“ ودَوْرُ قرصه تسعون ألفاً وسبعمائة وتسعة عشر ميلاً، وبُعْدُه عن الأرض ستة وأربعون ألف ألف ومائتا ألف وسبعمائة وسبعة وسبعون ميلاً ، وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَاتِلِ ، ويسمون المَرِّيجَ الأحمر، ويسمّون عُطَّارِدَ الْكَاتِبِ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعة بأسماء بلغتهم فيسمون زحل كيوان، والمُشْتَرَى تير، والمَرِّيجَ بهرام، والشمس مهر، والزهرة أناهيد، وعُطَّارِدَ هرمس، والقمر ماه .
وَأَعْلَمُ أَنَّ لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين ، إحداهما قَسْرِيَّةٌ ، وهى حركته بحركة فلك الكل فى اليوم والليلة حركةً تامّةً، وتسمى الحركة السريعة ؛ والثانية حركة ذاتية يتحرّك فيها هو بنفسه من المغرب إلى المشرق وتسمى الحركة البطيئة ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه ؛ وهذه الحركة في القمر أبينُ لسرعة سيره ، إذ يقطع الفلكَ بالسير من المغرب إلى المشرق في كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمنالين ، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة ، والثاني تحرك نملة تدبُّ على دُولاب إلى ذات الشمال والدُولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثاني

(الكواكب الثابتة)

وهي الكواكب التي في الفلك الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب إلى المشرق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسيرة جدا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق إلى المغرب في اليوم واللييلة ؛ والذي يحتاج إلى ذكره منها الكواكب المشهورة مما تُتعرّف به الأزمنة على ما تقدم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه . وهي ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(نجوم البروج التي تنتقل فيها الشمس في فصول السنة)

وهي اثنتا عشرة صورة في آسنى عشر برجاً ، بعضها من منازل القمر ، وبعضها من صور أخرى جنُوبية وشَمالية ، وبعضها من كواكب متفرقة لا تنسب إلى صورة . الأول الحمل : وهو الكبشُ ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مقدّمه في المغرب ومؤخره لالمشرق ، وأول ما يطلع منه قمره وهو الكوكب الجنوبي المنفرد من

الكوكبين الشماليين من مَفْصِلِ اليَدِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليمنى الكوكبُ الشَّمَالِيُّ المَضْيءُ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليسرى كوكبٌ خَفِيَ بِقَرَبِ الشَّمَالِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى لَحْيَيْهِ آخَرُ مِثْلِهِ ، وعلى مَفْصِلِ يَدِهِ الكوكبان الشماليان اللذان على عَقِبِ الرَّجْلِ اليسرى مِنَ الثَرِيَا ، وهو الذى يقال له البُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشَّمالِ ، وكأنه إنما يظهر منه يد واحدة ورجلٌ واحدة ، والثريا على طرفِ أَلْيَتِهِ .

الثانى الثَّوْرُ : وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مُقَدَّمُهُ إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب ، وظهره إلى الشمال ، ويده ورجلاه إلى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعة كواكب تسمى القَطْعُ أى هى موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبْرَانُ وجهه ، وركن الدَّبْرَانِ فَمُهُ ، والكوكب المَضْيءُ الذى فى الدَّبْرَانِ عينه ، وكوكبان خارجان عن الدَّبْرَانِ فَرْدَةٌ قَرْنِهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبْرَانِ نَفْسِهِ إلى الشَّمالِ ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبهه بالمقطوع الذى جُعِلَ خَدُّهُ على رأس عُنُقِهِ ويده منحطتان إلى الجنوب ، ويظهر منه رجلٌ واحدة ويدان ، وذَنَبُهُ أَتْرُ ، والثريا خارجة عنه إلى الشَّمالِ وكذلك اللَّطْحَةُ ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبْرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوَمُ : وهو المعبر عنه فى أَلْسِنَةِ النَّاسِ بالجوزاء . قال الحسين بن يونس الحاسب فى كتابه فى "هيئة الصُّورِ الفلكية" : والناس مخطئون فى ذلك وإنما الجوزاء هى الصورة المعروفة بالجبار فى الصور الجنوبية ، وقدم التوَمُ الأيمن بعض كواكب الجبار التى على تاجه . قال : والتوَمُ على خط وسط السماء جَسَدَانِ ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجل واحدة ، والرأسان فى جهة المشرق ، ورجلاهما فى جهة المغرب ، والذراع الشامى هو الرأسان ، ويده

اليمى^١، وهى التى فى جهة الشمال هى الذراع اليمانى والمضىء من الذراع اليمانى يسمى
الشعرى الغميصاء، ويده اليسرى ممتدة إلى التوابع.

الرابع السرطان : وهو صورة سرطان على وسط السماء، رأسه إلى الشمال ومؤخره
إلى الجنوب، والنثرة على صدره، وعينه كوكبان خفيان تحت النثرة يدعيان بالجمارين
وزبانه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شماليين من التوهم
ومؤخره كف الأسد.

الخامس الاسد، فى وسط السماء، فمه مفتوح إلى النثرة، وعلى رأسه كواكب
مضيئة، والطرف على عنقه، والجهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبى المضىء من
النثرة، وهو عظيم النور، وكأله كواكب خفية خارجة عن الطرف والجهة إلى الشمال
والخراتان خاصرتيه، والصرفة ذنبه، وكفه المتقدمة فى آخر السرطان، وكفه الأخرى
بعده هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلى من الخراتين
إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للمشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجهة شمالي
منها، وسائر فقاراته إلى المشرق.

السادس العذراء، فى وسط السماء. قال حسين بن يونس : والعرب تسميها
السنبلة، وهو خطأ، وإنما هى حامل السنبلة، ورأسها فى الشمال بميلة إلى المغرب
ورجلها فى الجنوب، وهى مستقبلة المشرق وظهرها إلى المغرب. قال : ورأسها
كواكب صغار مستديرة كاستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبى الخراتين
ومنكبها أربعة كواكب تحت هذه إلى الشرق، وجناحها الأيمن ستة كواكب
كهيئة الجناح.

السابع الميزان، وهو صورة ميزان، كفتها^(١) إلى جهة المشرق وقبها إلى جهة
المغرب، والسمالك الأعزل على قبها من الجهة اليمى ومقابله كوكب آخر على قبها

(١) فى المصباح «الميزان مذكر» فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهة الشمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلى المغرب على علاقتها، وهو على قصبة السُّنْبُلَةِ، وكوكبان من الغُفْرِ على محامله مع كواكب أُحَرٍ، وزُبَانِيَا العقرب كَفَّتَاهُ .

الثامن العقرب، وهو صورة عَقْرَب على وسط السماء، رأسه في المغرب وذنبه في المشرق، وإحدى رجليه في الجنوب، والأخرى في الشمال، والغُفْرُ على رأسه والزُّبَانِيَانِ اللذان هما كَفَّتَا الميزان زُبَانِيَاهُ، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل، والإكليل على صدره، والقلب هو قلبه، ونياط القلب كوكبان خفيان والقلب في وسطهما، وهو خارج عنهما إلى الشمال، والشَّوْلَةُ ذنبه، والكواكب التي على طرفها جبهته، وإبرته لَطْخَةٌ مستطيلة فيما بين الشَّوْلَةِ والنَّعَائِمِ الصادرة؛ ففيه من منازل القمر خمس منازل : وهى الغُفْرُ، والزُّبَانَانِ، والإكليل، والقلب، والشَّوْلَةُ؛ وأظهر ما تكون صورة العقرب وهو على الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاث منازل : الإكليل والقلب والشَّوْلَةُ .

التاسع القَوْسُ، ويسمى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو في جهة المشرق، ورأسه في الشمال ورجلاه في الجنوب؛ والنَّعَائِمُ الواردة على وسطه، وهو على الجسَدِ الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لَطْخَةٌ مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب دُعْمَانُ أَى (١) النَّعَائِمِ، والبلْدَةُ على مَقْبِضِ القوس ويده اليمنى قابضة على رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لَطْخَةٍ صغيرة قريبة منها .

العاشر الجَدِّي : وهو صورة جَدِّي مستلق على ظهره مُقَدَّمُهُ في المغرب ومؤخره في المشرق، وظهره للجنوب ويداه ورجلاه إلى الشمال، وهو شبهة بالمنقلب إلى القوس

(١) كذا في المخطوط ولم نهند الى ايضاحه .

وقرنه إلى بطنه، وفه إلى القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشمالى من سعد الذابح أحد قرنيّه، والجنوبى منه قرنه الآخر، وكوكب آخر خفى تحت سهم القوس غربى سعد الذابح فهُ، وعلى كتفه سعد بلع، وعلى وركه سعد السعد، والمضىء من سعد السعد حق وركه وشق الحوت الجنوبى على ظهره، وطرف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب الالمح فيها خفاء، وطرف رجله الكوكب المسمى رأس الدلو.

الحادى عشر الدلو: وهو صورة رجل قائم بيده دلو، رأسه إلى الشمال، ورجلاه إلى الجنوب، وظهره إلى المشرق، ووجهه إلى المغرب، والكواكب التى تسمى الحباء من سعد الأخبية رأسه، ويده اليسرى من فوق رأسه حتى تنزل إلى الدلو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مرفقه الأيسر، وبطنه يسمى الحرة، ودلوه أربعة سعد من السعد السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نائرة، وسعد الملك، وسعد البهائم وسعد الماتح، وكل سعد منها كوكبان، وعلى رجله اليسرى كوكب عظيم النور، وعلى رجله اليمنى كوكب أبيض يقرب فى العظم من الذى قبله، والفرغ المقدم خارج عن صورته إلى الشمال.

الثانى عشر الحوت: وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحوت وهى شمالية، والثانية جنوبية عنها، وهى أطول منها وأخفى الكواكب، والكواكب السبعة السيارة ترسم الجنوبية منهما بمسيرهن، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السعد السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهمام وسعد البارع وسعد الماطر، وليس الفرغ المؤخر فى جسم الحوت بل خارج عنه إلى الشمال والمغرب.

(١) الذى فى القاموس سعد مطر.

الصنف الثاني

(نجوم منازل القمر التي ينتقل فيها القمر من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه) وهي ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرها صور البروج الأثنى عشر المتقدمة .

الأولى الشَّرطان ، والشَّرطان تثنية شَرط ، وهو العلامة كأنه سمي بذلك لكونه علامة على طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمى أيضا النَّطَح والناطح : لأنها عند أصحاب الصور قرنا الحمل ؛ وهما كوكبان يَبْران بينهما قَابُ قَوْسَيْن ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب إلى الجانب الجنوبي ، ومنها كوكب أَلطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمى بعضهم هذه المنزلة الأَشراط على الجمع لا على التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت في المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكسة ، وواحد منها أحمر مضى وتحتة آخر خفي والثالث في الشمال وهو أحمر مضى .

الثانية البُطين ، تصغير بطن ، وإنما صُغِرَ فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتي ذكره في جملة المنازل ؛ والبُطين ثلاثة كواكب مثل أَثافي القِدَر : وهي الشكل المثلث الذي ينصب عليه القِدَر عند الطبخ ؛ وهي على القرب منها في موضع بطن الحمل من الصورة ؛ وواحد منها مضى وأثنان خفيان ، والخفيان يَطْلَعان قبل المضى .

الثالثة الثَّريّا ، ويسمى النجم علما عليها ، وبه فسر قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهي في شكل مثلث متساوي الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدا كالرشاش ، ومطلعها إلى الشمال عن مطلع الشَّرطين والبُطين ؛ وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الانخفاض منها ؛ وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنب الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها أَلِيّة الحمل لقربها منه .

الرابعة الدبران ، ويسمى تالى النجم لكونه يطلع تلو الثريا ، وربما سمي حادى النجم لذلك ، ويسمى أيضا المجدح وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضىء أحمر عظيم النور ، وأسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقى المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هى رأس الثور ، وأول ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال ، والكوكب الأحمر المضىء هو آخر ما يطلع منها ؛ والعرب تقول للكوكبين القرييين منه : كلباء ، والباقي غنم ، وربما قالوا : قلاصه ، ويقولون في خرافاتهم : إن الدبران خطب الثريا إلى القمر فقالت : ما أصنع بسبروت ؟ فداق إليها الكواكب المسماة بالقلاص مهرا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : ^(١) "أوفى من الحادى وأغدر من الثريا" .

الخامسة الهقعة ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون في عنق الفرس ، وقد مر القول عليها في الكلام على أوصاف الخيل ؛ وهى ثلاثة كواكب محيية صغار تسمى الأثافي ، وهى على أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهبة : وهى خمسة أنجم على شكل الصولجان : أربعة منها على خط مستقيم ، الثالث منها يسمى قوس الجوزاء ، والخامس منعطف إلى جهة الجنوب مقدار شبر في رأى العين ، وسميت هبة لانهطافها أخذاً من قولهم : هنت الشيء إذا عطفته ، وبعضهم يسميها النجعة ، وهى عند أصحاب الصور خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهبة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم في صورة قوس من مقبضها النجان اللذان يقال

(١) المراد بالحادى الدبران كما تقدم في كلامه وكما يشير إليه قول الشاعر : * كما وفى بقلاص النجم حاديا *
ووقع في الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (ه ن ع) أنها تحياة وجمعها تحاى .

لها الهنعة ، وبعضهم يقول : إن الهنعة كوكبان مقترنان ، الشمالى منهما أضوءهما وحذاءهما ثلاثة كواكب تسمى التجاني ربما عدل القمر فتزل بها .

السابعة الذراع : وهى كوكبان : أحدهما نير والآخر مظلم ، بينهما قدر سوط فى رأى العين ، وفيما بينهما كواكب صغار تسميها العرب الأظفار ، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعان : مقبوضة وفيها ينزل القمر ، وهى جنوبية ، وسميت مقبوضة لأن الأخرى أرفع منها فى السماء ، ولهذا سميت مبسوطة ، وهى مثلها فى الصورة ، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع فى صورة الكلب الأصغر ، وربما عدل القمر عن المقبوضة فتزل بها .

الثامنة الثرة ، وهى لطحعة كقطعة سحاب يجعلها أصحاب الصور على صدر السرطان . وسميت ثرة لأن إلى جانبها نجمين صغيرين هما عند العرب على منخري الأسد ، وتسميها الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمام جبهة الأسد شبت بشئ نثره من أنفه ، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه ، وتسمى الآهة أيضا وتشبه بالملعف .

التاسعة الطرف ، وهى كوكبان خفيان مقترنان بين يدي الجبهة ، سمي بذلك لموقعهما موقع عيني الأسد ، وقدامهما ستة كواكب صغار تسميها العرب الأشفار آثنان منها فى نسق الطرف ، والأربعة البواق بين يديه .

العاشرة الجبهة ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلى الشرق ، فهى لذلك على شكل مثلث مستطيل القاعدة قصير الساقين ، وإلى الجنوب عنها نجم أحمر مضى جدا يسمى قلب الأسد يرسمه المنجمون فى الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة على كنف الأسد .

الحادية عشرة الخراتان ، وتسمى الزبرة وعُرف الأسد والزبرتين ، وهما كوكبان نيران بينهما فى رأى العين مقدار ذراعين ، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب ،

يَتَدَّانِ عِنْدَ التَّوَسُّطِ مَعَ خَطِّ الْأَسْوَاءِ، وَسَمِيَا الْخِرَاتَانِ تَشْبِيْهًا بِثَّقَيْنِ فِي السَّمَاءِ، وَمِنْهُ نَحَرْتُ الْإِبْرَةَ، وَتَحْتَ هَذَيْنِ النُّجُومِ تَسْعَةُ أَنْجُمٍ صَغَارُ. وَسَمِيَتْ الزُّبْرَةُ لِشَعْرِ يَكُونُ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَسَدِ مِمَّا يَلِي خَاصِرَتَهُ، وَعَدُّوا الْجَمِيعَ أَحَدَ عَشَرَ كَوْنًا مِنْهَا نَجْمَانِ هُمَا الْخِرَاتَانِ وَالتَّسْعَةُ الشَّعْرُ.

الثَّانِيَةُ عَشْرَةُ الصَّرْفَةُ: وَهِيَ كَوْكَبٌ نَيِّرٌ، وَهُوَ عِنْدَ أَصْحَابِ الصُّوَرِ قُنْبُ الْأَسَدِ وَالْقُنْبُ وَعَاءُ الْقَضِيبِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْكَوْكَبِ سَبْعَةُ أَنْجُمٍ صَغَارُ طُمُسٌ مَلَاصِقَةٌ لَهُ، وَسَمِيَ هَذَا الْكَوْكَبُ بِالصَّرْفَةِ لِأَنَّهُ يَنْصَرِفُ الْحَرَّ عِنْدَ طُلُوعِهِ مَعَ الْفَجْرِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَأَنْصَرِفُ الْبَرْدَ إِذَا غَرَبَ مَعَ الشَّمْسِ، وَيُقَالُ الصَّرْفَةُ نَابُ الدَّهْرِ لِأَنَّهَا تَقْدَرُ عَلَى فَصْلِ الزَّمَانِ، وَيَشْكَلُ مَعَ الْخِرَاتَانِ مِثْلًا لَهُ زَاوِيَةٌ قَائِمَةٌ وَإِحْدَى سَاقِيهِ أَطْوَلُ مِنَ الْآخَرَى وَفِي قَاعِدَتِهِ قِصْرٌ.

الثَّلَاثَةُ عَشْرَةُ الْعَوَاءُ، وَهِيَ نَحْمَسَةٌ كَوَاكِبٌ نَيِّرَةٌ عَلَى شَكْلِ لَامٍ، كَانَ أَعْتَبَرُ أَبْتَدَاؤَهَا مِنَ الشَّمَالِ وَعَظْفُهَا مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ لَكِنْ الْمَصْطَفُ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ وَالْمَنْعُطُ وَاحِدٌ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا وَرَكِّي الْأَسَدِ، وَتَشْبِيْهَا الْعَرَبُ بِكَلَابِ تَعْوَى خَلْفَ الْأَسَدِ لِأَنَّهَا وَرَاءَهُ، وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ الْعَوَاءُ، وَأَصْحَابُ الصُّوَرِ يَجْعَلُونَهَا فِي السُّنْبُلَةِ عَلَى صَدْرِهَا.

الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ السَّمَاءُ، وَهُوَ السَّمَاءُ الْأَعْزَلُ: وَهُوَ كَوْكَبٌ نَيِّرٌ يَمِيلُ لَوْنُهُ إِلَى الزُّرْقَةِ وَسَمِيَ سَمَاءً لِكَوْنِهِ قَرِيبًا مِنْ سَمِيَةِ الرَّأْسِ، وَسَمِيَتْ الرَّأْسُ أَعْلَى مَا يَكُونُ مِنَ الْفَلَكَ وَسَمِيَتْ الْعَرَبُ الْأَعْزَلُ لِأَنَّهُ يَطْلُعُ إِلَى جَانِبِهِ نَجْمٌ مُضِيءٌ يَسْمُونَهُ السَّمَاءَ الرَّاحِ لِكَوْنِ كَوْكَبٍ صَغِيرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْأَعْزَلُ لِأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَأَحَدُهُمَا جَنُوبِيٌّ، وَهُوَ الْمُنْتَزِلَةُ، وَأَصْحَابُ الصُّوَرِ يَثْبُتُونَ السَّمَاءَ كَيْنِ: الْأَعْزَلُ وَالرَّاحِ فِي صُورَةِ الْعِذْرَاءِ، وَهِيَ السُّنْبُلَةُ، وَالْعَرَبُ تَجْعَلُهَا سَاقِي الْأَسَدِ، وَرَبَّمَا عَدَلَ الْقَمَرُ فَتَزَلُ بِعَجْزِ الْأَسَدِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ كَوَاكِبٍ بَيْنَ يَدَيِ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ، يُقَالُ لَهَا عَرْشُ السَّمَاءِ، وَتَسْمَى أَيْضًا

(١) فِي لِسَانِ الْعَرَبِ كَأَنَّهَا كِتَابَةٌ أَلْفٌ ... وَيُقَالُ كَأَنَّهَا نُونٌ.

الحَبَاءُ، والأَحْمَالُ، والغُرَابُ، وهذه المنزلة حد ما بين المنازل اليمانية والمنازل الشامية،
فإن كان أسفل من مَطْلَعِهِ فهو يمانى، وهو شِقُ الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى،
وهو شِقُ الشَّمال.

الخامسة عشرة الغَفَرُ، ثلاثة كواكب خفية على خَطِّ فيه تقويس، وسميت بذلك
لخفائها مأخوذة من المَغْفِرَةِ التى تسترُ الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنه المَغْفَرُ الذى
فوق الرأس، وقيل لأنها زُبَانِيُ العقرب، وقيل مأخوذة من الغَفَرَةِ: وهى الشعر الذى
فى طرف ذنب الأسد، وأصحاب الصُّور يجعلونها بين ساقى الأسد.

السادسة عشرة الزُّبَانَانِ، وهما كوكبان نيران هما عند العرب يد العقرب يترس
بهما: أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّور يجعلونها كَفَتَى الميزان، وبينهما فى رأى
العين قدرُ قامة الرجل.

السابعة عشرة الإكَّالِيلُ، وهو ثلاثة كواكب مجتمعة فى خفاء الغَفَرِ مصطفىَّةً
معتزلة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها
فوق جهة العقرب كالتاج، وهى عند أصحاب الصُّور على عمود الميزان.

الثامنة عشرة القَلْبُ، وهو كوكب أحمر نير مضطرب قريب من الجهة بين
كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَّاطَى القلب أى علاقتيه، وسمَّته أصحاب الصُّور
قَلْبًا لوقوعه موضع القلب من صورة العقرب، والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى
قَلْبُ السمكة، والثالث قلب الثور، والرابع قلب الأسد. وحيث ذكر القلب على
الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب هذا.

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكب متقاطرة على تقويس فى بُرْج العقرب أشبه
شئ بَدَنَبِ العقرب إذا شالته، ولذلك سميت الشَّوْلَةُ، وفى الشولة كوكبان خفيان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبرة والحمة ، وخلفهما نجم صغير لا يزالهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشولة على المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدره عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشولة ، وهي ستة كواكب بيض منعطفة .

العشرون النعائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نيرة تشكل مربعا فيه أطراف تسمى الواردة وهي المنزل ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من الحجرة شبت بنعام وردت نهارا ، والأربعة الأخرى تسمى النعائم الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من الحجرة شبت بنعام وردت ثم صدرت ، والواردة التي هي المنزل عند أصحاب الصور واقعة في يد الرامى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البلدة ، وهي فرجة في السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب ، والبلدة في كلام العرب الفرجة من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البلدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستة كواكب مستديرة صغار خفية تشبه القوس ، وبعضهم يسميها الأذحى لأن بالقرب منها كواكب تسميها العرب البيض لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فتزل بالأذحى ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة على جبهة الرامى .

الثانية والعشرون سعد الذابح ، وهو كوكبان صغيران بينهما في رأي العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع في ناحية الشمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب سمي سعدا لأنهمال الأمطار في أيام طلوعه ، وسمى ذابحا لقوة البرد في إبان طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمي ذابحا لأن بالقرب من نجمة الشمال نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شأنه التى تدبح ، ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد

بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج فى مقدمة أدب الكاتب ؛ وأصحاب الصُّور يثبتون هذا السعد فى موضع قرئى الجدى من الصورة .
الثالثة والعشرون سعد بُلَع ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابح فى المسافة التى بينهما لكن أحد الكوكبين خفى ، وهو الذى يلعه ؛ وهذا السعد عند أصحاب الصُّور على كعب ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وسمى بُلَع لأنه فى أيام طلوعه تفيض الأنهار وتزيد الآبار ، فكأن الأرض ابتلعت ماءها ، وقيل لأنه يطلع فى الوقت الذى قيل فيه ”يَا أَرْضُ اْبْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي“ زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود ، وعدته كوكبان أيضا على ما تقدم فى السعدين من البعد ، وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نير والآخران دونه فى النور ؛ وأصحاب الصُّور يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وربما قصر القمر فتزل سعد نَاشِرَة ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمى أصحاب الصور نجميه بالمُحْمِينِ ، وهما فى مؤخر الجدى ، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأخبية ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول : إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بطّة والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء ؛ ومنهم من يجعل الكوكب الذى فى وسط الثلاثة عمود الخباء ، وهو عند أصحاب الصُّور على الكتف الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمى سعد الأخبية لخروج الحَبَّات فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به لأخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرَّغ المقدم ، ويقال فيه مقدم الدلو والفرغ الأول والفرغ الأعلى وعرقوة الدلو العليا ، وهو كوكبان نيران بينهما فى رأى العين نحو من خمسة أذرع ؛ وأصحاب الصُّور يزعمون أن الشمالى منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرَّغُ المؤخَّرُ، ويقال له مؤخر الدَّلْوِ السُّفْلَى، وهو كوكبان يشبهان ما تقدم، أحدهما شَمَالِيٌّ والآخر جنوبيٌّ، وهما عند أصحاب الصُّورِ على مؤخر القوس، وربما قصر القمر فتزل في الكَرَبِ الذي في وسط العَرَّاقِ، وربما نزل ببلدة الثعلب.

الثامنة والعشرون الحُوتُ، وهو آخر المنازل، ويقال لها السَّمَكَةُ، وتسمى الرِّشَاءُ أيضا، وهي ثمانية عشر كوكبا تشكل شكل سمكة رأسها في جهة الشمال وذنبها في جهة الجنوب، وفي الشرق منها كوكب تير، يسمى سُرَّةَ الحُوتِ، وبطن الحوت، وبطن السمكة، وقلب السمكة، وربما عدل القمر فتزل بالسمكة الصُّغرى، وهي من السمكة الكبرى في الشمال مثل صورتها إلا أنها أعرض منها وأقصر، وأصحاب الصُّورِ يجعلون الكوكب التير من الحوت في حد المرأة المسلسلة، ورأسها هو الشمال من الفَرَّغِ المؤخَّر.

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ما ليس داخلا في شيء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب في شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال)

وهي عدة نجوم .

منها بنات نعش : وهي سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالى، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة، وهي المعبر عنها بالبنات، وتعرف هذه بنات نعش الكبرى، وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها .

ومنها الجدى الذى تعرف به القبلة، وهو نجم صغير على القرب من القطب الشمالى يستدل به على موضع القطب، ويقال له جدى بنات نعش الصغرى .

ومنها الْفَرْقَدَانِ ، وهما كوكبان متقاربان معدودان في بنات نَعِيش .
ومنها السُّمَاءُ ، وهو كوكب خفي في بنات نَعِيش الكبرى ، والناس يَتَحَنُّونَ به
أبصارهم لخفائه .

ومنها السَّمَاءُ الرَّاحُ ، وهو غير الْأَعْزَلِ الْمُقَدَّمِ ذكره في منازل القمر ، سمي راحا
لكوكب يَقْدُمُهُ ، تقول العرب : هو رُحْمُهُ بخلاف الْأَعْزَلِ فَإِنَّهُ الَّذِي لَارُحُ مَعَهُ .
ومنها النَّسْرُ الْوَاقِعُ ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أُنَافِي ، سمي الْوَاقِعَ لأنهم يجعلون اثنين
منه جَنَاحِيهِ ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْرُ الطَّائِرُ ، سمي بذلك لأنهم يجعلون اثنين منه جَنَاحِيهِ ، ويقولون : قد
بسطهما كأنه طائر ، والعامة تسميه الميزان .

ومنها الْكَفُّ الْخَضِيبُ ، وهو كف الثُّرَيَّا الْمَبْسُوطَةُ ، ولها كف أخرى يقال
لها الْجَدْمَاءُ ، وهي أسفل من الشَّرْطَيْنِ .

ومنها الْعَيُّوقُ ، وهو في طَرْفِ الْحَجَرَةِ الْأَيْمَنِ ، وعلى أثره ثلاثة كواكب بَيِّنَةٌ يُقَالُ
لها الْأَقْلَامُ ، وهي من مواقع الْعَيُّوقِ .

ومنها سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمر منفرد عن الكواكب ولقربه من الْأَفُقِ كأنه
أَبْدَأَ يَضْطَرِبُ ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال ابن قُتَيْبَةَ : ومطلعه عن يسار
مُسْتَقْبِلِ قِبْلَةِ الْعِرَاقِ . قال : وهو يُرَى في جميع أرض العرب ، ولا يرى في شيء
من بلاد أَرْمِينِيَّةَ .

ومنها الشَّعْرَيَانِ : الْعَبُورُ ، وكانت تعبد في الجاهلية لقوله تعالى : ”وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
الشَّعْرَى“ وهي في الجوزاء ، والشَّعْرَى الْغَمِيضَاءُ ، ومع كل واحدة منهما كوكب
يقال له الْمِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرة، وسعد المالك، وسعد البهائم، وسعد الهمام، وسعد البارع، وسعد مطرب، وكل سعد منها كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع فهي متناسقة؛ وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدمة في منازل القمر؛ تكون جملة السعود عشرة.

فإذا عرّف الكاتب أحوال الأفلاك والكواكب وأسماءها وصفاتها، عرف كيف يصفها عند احتياجه إلى وصفها، وكيف يعبر عنها عند جريان ذكرها.

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبْقَى وَتَرْقَى لِلْعَالَا أَبَدًا * مَا دَامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَحْكَامُ
مَهْرٌ وَمَاهٌ وَكِوَانٌ وَتِيرٌ مَعًا * وَهَرَمَسٌ وَأَنَا هَيْدٌ وَبَهْرَامُ

مشيرا بذلك إلى ذكر الأفلاك السبعة، وما لها من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدم ذكرها.

وكما قال الطُّغْرَائِي فِي لَامِيَةِ الْعَجَم :

وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي، فَلَا عَجَبٌ * لِي أَسْوَةٌ بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ
مشيرا إلى كون فلك زحل أعلى من فلك الشمس لما تقدم أنها في الرابع، وهو في السابع.

وكما قال بعضهم يصف خضرة السماء، وما لها من الكواكب :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا، وَالشَّهْبُ فِيهَا * وَأَصْغَرُهَا لِأَكْبَرُهَا مُزَاجُ
لِسَاطِ زَمْرَدٍ ثُبُوتٌ عَلَيْهِ * دَنَائِيرٌ يَخَالِطُهَا دَرَاهِمُ

وكما قال ذو الرمة وقد ذكر الثريا :

يَدْفُ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانُهَا * فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ
بعشرين من صغرى النجوم كأنها * وإياه في الخضراء لو كان ينطقُ

قِلَاصٌ حَدَاها رَاكِبٌ مَتَعَمِّمٌ * إِلَى الْمَاءِ مِنْ جَوْزِ التَّنُوفَةِ مُطْلَقٌ
 مشيراً إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ خِطْبَةِ الدَّبْرَانِ الثَّرِيَّا وَهَرَبِهَا مِنْهُ وَإِمَارِهِ إِيَّاهَا بِالْقِلَاصِ :
 وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي حَوْلَهَا .
 وَكَأَيْ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْبَيْغَاءُ ذَا كَرَاهٍ حَالٍ مُخْتَفٍ يُرْجَى لَهُ الظُّهُورُ :
 سَتَخْلُصُ مِنْ هَذَا السِّرَارِ وَأَيُّهَا * هَلَالٌ تَوَارَى فِي السِّرَارِ فَمَا خَلَصَ
 مَشِيراً بِذَلِكَ إِلَى حَالَةِ تَوَارَى الْقَمَرِ حَالَةَ السِّرَارِ ثُمَّ خُلُوصِهِ عِنْدَ إِهْلَالِهِ .

النوع التاسع

(مِمَّا يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى وَصْفِهِ الْعُلُوبَاتِ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،
 وَهِيَ عَلَى أَصْنَافٍ)

الصنف الأول

(الريح)

وهي مؤنثة ، يقال هبت الريح تهبُّ هبوباً ، وتجمع على رياح ، وقد دل الاستقراء
 على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب ، كانت بلفظ الإفراد
 وحيث وردت في معرض الرحمة ، كانت بلفظ الجمع . قال تعالى في جانب العذاب :
 ”فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ“ وقال : ”إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا“ وقال
 في جانب الرحمة : ”وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ“ وقال جلَّتْ
 قدرته : ”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ . وَمَنْ تَمَّ
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَشْتَدَّتْ الرِّيحُ قَالَ : ”اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَّاحًا
 وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا“ وَقَدْ وَرَدَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُرْسِلُهَا ، قَالَ تَعَالَى :
 ”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تحدث عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في ارتفاعه فيتناكس ويتحامل على الهواء ويحرك الهواء بشدة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولى الصَّبا : وهى التى تأتى من المَشْرِق، وتسمى القَبُول أيضا : لأنها فى مقابلة مُسْتَقْبِلِ المشرق، قال فى صناعة الكُتَّاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية : لأنها تأتى من مَشْرِقِ الشمس ، وهى التى نُصِرَ بها النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : ” نُصِرْتُ بالصَّبا “ .

الثانية الدَّبُورُ ، ومَهَبُها من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبى ، وسميت الدَّبُورَ لأن مُسْتَقْبِلَ المشرق يستدبرها ، وتسمى الغربية لهبوبها من جهة المغرب ، وبها هَلَكْتُ عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : ” وَأَهْلِكْتُ عادٌ بالدَّبُورِ “ .

الثالثة الشَّمالُ ، ويقال فيها شَمَالٌ وشَمَالٌ وشَامِلٌ مهموزا وغير مهموز ، ومَهَبُها من حد القطب الشمالى إلى مغرب الشمس ، وسميت شَمَالًا لأنها على شَمال من مُسْتَقْبِلِ المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وتسمى البحريَّة لأنها يُسَارِها فى البحر على كل حال .

الرابعة الجَنُوبِيَّة ، ومَهَبُها من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية القِبْلِيَّةَ لأنها تأتى من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا المَرِيسِيَّةَ لأن فى الجهة القبليَّة بلاد المَرِيس : وهم ضرب من السُّودان ، وهى أردأ الرياح عند اهل مصر . وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبٍ ريحين تسمى النَّجَاء ، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعدلت عنها ، قال فى ” فقه اللغة “ : وإذا

جاءت بَنَفَسٍ ضَعِيفٍ وَرَوْحٍ فَهِيَ النِّسِيمُ ؛ وإنْ أَبْتَدَأَتْ بِشِدَّةٍ قِيلَ لَهَا النَّافِثَةُ ؛
فإنْ حَرَكْتَ الْأَغْصَانَّ تَحْرِيكًا شَدِيدًا وَقَلَمْتَ الْأَشْجَارَ قِيلَ زَعَزَعَ ؛ فإنْ جَاءَتْ
بِالْحَصْبَاءِ قِيلَ حَاصِبَةٌ ؛ فإذا هَبَّتْ مِنَ الْأَرْضِ كَالْعَمُودِ نَحْوَ السَّمَاءِ قِيلَ لَهَا
إِعْصَارٌ . وقد وَرَدَ بِهَا الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” فَاصْبَا بِهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ “ ، وَالْعَامَّةُ
تَسْمِيهَا الرُّوْبَعَةَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يَثِيرُهَا ، وَمَنْ تَمَّ سَمَاهَا التَّرْكُ
نَعِيمٌ بِكَ يَعْنِي الشَّيْطَانَ ؛ فإذا كَانَتْ بَارِدَةً ، فَهِيَ الصَّرَصَرُ . وقد وَقَعَ ذِكْرُهَا
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ” إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا “ ؛ فإذا لَمْ تُثَلِّحْ شَجَرًا وَلَمْ تَحْمِلْ
مَطَرًا ، فَهِيَ الْعَقِيمُ . وقد قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ عَادَ : ” إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ “
كَانَتْ لَا مَطَرَ فِيهَا .

الصنف الثاني

(السَّحَابُ)

وهو الْأَجْرَامُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَطَرَيْنِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ يُنْشِئُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
كَمَا أَخْبَرَ بِقَوْلِهِ : ” وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ “ ، وَيُسَوِّقُهَا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ كَمَا ثَبَتَ
فِي الصَّحِيحِ ” أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ صَوْتًا مِنْ سَحَابَةٍ : أَسْقَى حَدِيقَةَ فُلَانٍ “ .

وذهب الْحِكَمَاءُ إِلَى أَنَّهُ بُحَارٌ مُتَصَاعِدٌ مِنَ الْأَرْضِ مَرْتَفِعٌ مِنَ الطَّبَقَةِ الْحَارَّةِ إِلَى
الطَّبَقَةِ الْبَارِدَةِ فَيُثْقَلُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَنْعَقِدُ فَيَصِيرُ سَحَابًا . قَالَ التَّعَالِي فِي ” فِقْهِ اللُّغَةِ “ :
وَأَوَّلُ مَا يَنْشَأُ يُقَالُ لَهُ النَّشْءُ ؛ فإذا انْتَسَحَبَ فِي الْهَوَاءِ ، قِيلَ لَهُ سَحَابٌ ؛ فإذا تَغَيَّرَتْ
بِهِ السَّمَاءُ ، قِيلَ لَهُ غَمَامٌ ، فإنْ سَمِعَ صَوْتَ رَعْدِهِ مِنْ بَعِيدٍ قِيلَ فِيهِ عَقْرٌ ؛ فإذا أَظْلَمَ ،
قِيلَ عَارِضٌ .

وقد أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ عَادَ بِقَوْلِهِ : ” فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِنًا“؛ فَإِنْ كَانَ بَحِثٌ إِذَا رُئِيَ ظُنَّ أَنَّ فِيهِ مَطَرًا، قِيلَ لَهُ مُحِيلَةٌ؛
فَإِنْ كَانَ السَّحَابُ أَبْيَضَ، قِيلَ لَهُ مُزْنٌ؛ فَإِذَا هَرَّاقَ مَا فِيهِ، قِيلَ جَهَامٌ، وَقِيلَ
الْجَهَامُ هُوَ الَّذِي لَا مَطَرَ فِيهِ.

وقد أُولِعَ أَهْلُ النِّظْمِ وَالنَّثَرِ بِوصفه وَتَشْبِيهه.

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسَمَعُ مِنَ السَّحَابِ، وَقَدْ اختلفَ فِي حَقِيقَتِهِ فَرَوَى أَنَّهُ
صَوْتُ مَلَكٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابُ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْعةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
صَوْتُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ مَسْكَنَهُ
السَّحَابُ؛ وَذَهَبَتِ الْفَلَّاسِفَةُ إِلَى أَنَّهُ دُخَانٌ يَتَصَاعَدُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَرْتَفِعُ حَتَّى يَتَّصِلَ
بِالسَّحَابِ وَيَدْخُلُ فِي تَضَاعُيفِهِ وَيَبْرُدُ فَيَصِيرُ رِيحًا فِي وَسْطِ الْغَيْمِ، فَيَتَحَرَّكُ فِيهِ بِشِدَّةٍ
فَيَحْصُلُ مِنْهُ صَوْتُ الرَّعْدِ، وَيَقَالُ مِنْهُ رَعَدَتِ السَّمَاءُ؛ فَإِذَا زَادَ صَوْتُهَا، قِيلَ
أَرْتَجَسَتْ؛ فَإِذَا زَادَ، قِيلَ أَرَزَمَتْ وَدَوَّتْ؛ فَإِذَا أَشْتَدَّتْ، قِيلَ قَصَفَتْ وَقَعَقَعَتْ؛
فَإِذَا بَلَغَ النِّهَايَةَ، قِيلَ جَلَجَلَتْ وَهَدَّهَدَتْ.

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضَوْءٌ يُرَى مِنْ جَوَانِبِ السَّحَابِ، وَقَدْ اختلفَ فِيهِ أَيْضًا فَرَوَى أَنَّ الرَّعْدَ
صَوْتُ مَلَكٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ وَأَنَّ الْبَرْقَ صَخَّكُهُ؛ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْعةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
صَخَّكُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا، وَالْفَلَّاسِفَةُ يَقُولُونَ إِنَّهُ دُخَانٌ يَرْتَفِعُ

من الأرض حتى يتصل بالسحاب كما تقدم في الرعد ، ثم تقوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواء والدخان فيصير نارا مضيئة وهو البرق ؛ ويقال ومض البرق إذا لمع لمعانا قويا ، وأومض إذا لمع لمعانا خفيا ؛ فإن أطمع في المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه ، قيل خلب^{مستحق} .

الصنف الخامس

(المطر)

وهو الماء الذي يخلقه الله تعالى في السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلى أنه يُبحر يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو في حرارة الشمس أو فيهما) فيجتمع ، وربما أعانت الرياح على جمعه بأن تسوق البعض إلى البعض حتى يتلاحق ؛ فإذا آتته إلى الطبقة الباردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذي يتصاعد من القدر وينتهي إلى غطاء القدر وعند أدنى برودة ينعقد قطرات .

ثم للطور زمان يكثر فيه ، وزمان يقل فيه ؛ وقد رتب العرب ذلك على أنواع الكواكب التي هي منازل القمر ، وجعلوا لكل منها نوءا ينسب إليه . قال أبو حنيفة الدينوري في " كتاب الأنواء الكبير " : كانت العرب تقول : لا بد لكل نوء كوكب من أن يكون فيه مطر ، أو ريح ، أو غيم ، أو حر ، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد اختلف في معنى النوء فذهب ذاهبون إلى أن النوء في اللغة النهوض ؛ وذهب الفراء إلى أنه السقوط والميلان ؛ وذهب آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعا ، على أنهم متفقون أن العرب كانت ترى الأمر للسقوط

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الأرض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلى أن المراد بالنوء السقوط يحريه على بابه، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء النهوض يقول: إنما سمي نوءاً لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن كان موضوعه في اللغة النهوض من باب التفاضل كما يقال للديع سليم وللهلكة مفازة، على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضى نوءه ودخل نوء الكوكب الذي بعده، قال أبو حنيفة الدينوري: وهو التأويل المشهور الذي لا ينزع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه، أطل هو على السقوط وكان أشبه حالاً بحال الناهض. وقد عدّها أبو حنيفة ثمانية وعشرين نوءاً بعد منازل القمر المتقدمة الذكر، وذكر أن بعضها أجهر وأشهر من بعض.

الأول نوء الشرطين، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم.

الثاني نوء البطين، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود. قال ابن الأعرابي: يقال إنه ماناء البطين والدبران أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جذبا.

الثالث نوء الثريّا، وهو خمس ليال وقيل سبع؛ وأثره محمود عندهم مشهور. الرابع نوء الدبران، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة؛ وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع في أشعارهم له ذكر.

الخامس نوء الهقعة، وهو ست ليال، ولا يذكر نوءها إلا بنو الجوزاء التي الهقعة رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة.

السادس نوء الهنعة، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نوء الجوزاء.

السابع نوء الذراع المقبوضة، وهي خمس ليال، وقال ابن كنانة: ثلاث ليال،

وهو أول أنواء الأسد ، وأثره محمود عندهم موصوف ؛ وربما نسب إلى المِرْزَم ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة ، وربما نسب إلى الشَّعْرَى الغَمِيصَاء ، وهو كوكبها الآخر الذي هو أنور من المِرْزَم ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراع المبسوطة فتجمعهُمَا معا في النوء ، وهما لا يتوآنان معا بل ولا يطلعان معا ، لكن لكثرة صحة إحداهما للآخرى في الذكر واجتماعهما في اسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَي صورة واحدة ، وهي صورة الأسد .

الثامن نوء النَّثَرَةِ ، وهو سبع ليال ، وله عندهم ذكر مشهور .
التاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجهة الآتية الذكر عليه .

العاشر نوء الجهة ، وهو سبع ليال ، وذكره مشهور لديهم .
الحادى عشر نوء الزُّبْرَةِ ، ونوءها أربع ليال ، وقيلما تنفرد لغلبة الجهة عليها أيضا .
الثانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليال ، ولا يكاد يوجد لها ذكر عندهم في أشعارهم .

الثالث عشر نوء العَوَاء ، وهو ليلة واحدة ، وليس من الانواء المشهورة .
الرابع عشر نوء السَّمَاءِ الأعزَل ، وهو أربع ليال ، وله ذكر مشهور ، وكثيرا ما يذكر معه السَّمَاءُ الراح ، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان في الطلوع ، وحينئذ فإفراد السَّمَاءِ الراح بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء الغَفَر ، وهو ثلاث ليال ، وقيل ليلة ، وما بينه وبين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد ، وهى ثمانية أنواء أولها الذراع ، وآخرها نوء السماء ، وليس له في السماء نظير في كثرة الأنواء .

- السادس عشر نوء الزباني، وهو ثلاث ليال .
- السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .
- الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .
- التاسع عشر نوء الشولة، وهو ثلاث ليال، وقيلما يذكر .
- العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .
- الحادى والعشرون نوء البلدة، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .
- الثانى والعشرون نوء سعد الذابح، وهو ليلة واحدة .
- الثالث والعشرون نوء سعد بلع، وهو ليلة واحدة .
- الرابع والعشرون نوء سعد السعود، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .
- الخامس والعشرون نوء سعد الأخبية، وهو ليلة واحدة .
- السادس والعشرون نوء الفرغ المقدم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .
- السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .
- الثامن والعشرون نوء الحوت، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدينورى : والأيام في هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا هذه النجوم أنواء موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مظنة الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مطر، وقال ابن قتيبة : أول المطر الوسمى سمي بذلك لانه يسيم الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال الثعالبي عن أبي عمرو : إقبال الشتاء الخريف، ثم الوسمى، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم ^(١) .

الصنف السادس

(الثلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض فتذيب الشمس منه ملاقته شدة حرارتها، ويبقى في أماكن مخصوصة من أعلى الجبال بالأمكنة الباردة جميع السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصيبه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيساقط أجزاء لطيفة، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها؛ ويوصف بشدة البرد وشدة البياض؛ وسيأتي الكلام على ما ينقل منه من الشام إلى ملوك الديار المصرية في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

الصنف السابع

(البرد بفتح الراء)

وهو حب يسقط من الجو؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع في الهواء فلا تدركه البرودة حتى يجتمع قطرات، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتعزم برودتها إلى مواطنها فتنعقد؛ وحب هذا البرد متفاوت المقادير منه ما هو قدر الجحش فما دونه، ومنه ما هو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر بيض الحمام والدجاج. قال الحكماء: ولا يتصور وقوعه إلا في الخريف والربيع ويوصف بما يوصف به الثلج من شدة البرد وشدة البياض، ويشبه به أسنان الإنسان الناصعة البياض.

الصنف الثامن

(قوس قُزَح)

وهو قوس يظهر في الجوّ من حمرة وخضرة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوس قُزَح ، وتسميته قوس الله لأن قُزَح اسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صقالة صار كالمرآة ، والمخاض له إذا كان الشمس في قفاه يرى الشمس في الهواء كما يرى الشمس في المرآة ، ويشترك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حمرة بين خضرتين أو خضرة بين حمرتين ، وربما لا يكون اللون المتوسط ، ويكون مرتفعاً ارتفاعاً قريباً من الأرض ، فإن كان قبل الزوال ، رُؤى ذلك القوس في المغرب ، وإن كان بعد الزوال ، رُؤى في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء ، فلا يمكن أن يرى إلا قوساً صغيراً في الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتي ذكرها في آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى .

الصنف التاسع

(الهالة)

وهي الدائرة التي تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البصر وبين القمر صقيل رطب ، فيرى القمر في جزء منه ، وهو الجزء الذي لو كان فيه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشيء الذي يرى في مرآة من موضع لو كانت فيه مرآة كثيرة محيطة بالبصر ، وكانت موضوعة على تلك النسبة فيرى

الشيء في كل واحدة من المرائى ، فإذا تواصلت المرائى روى في الكل ، فُتْرى
حيثُند دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصنف العاشر

(الحَرُّ)

وسُلْطانه أواخرَ فصل الربيع وأوائلَ فصل الصيف ، والسبب فيه مسامتة
الشمس للرؤوس ، فتشتدُّ نائرةً في الهواء وحِرْم الأرض ، لاسيما الحجاز وما في معناه .
وأهل النظم ، والنثر مُولعون بوصف شدة حره .

الصنف الحادى عشر

(البَرْد)

وسُلْطانه أواخرَ فصل الخريف وأوائلَ فصل الشتاء .
وأهل النظم والنثر مُكثِّرون من ذكره ووصفه ، حتَّى إنه ربما أفرد بعضُ الناس
ما قيل فيه وفي وصفه بالتصنيف .

الصنف الثانى عشر

(الهَبَاءُ)

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كَوَّةً يدخل منها الضوء ، فيكون
شبه عمود ممتد من الكَوَّة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء
لطيفة متفاوتة تُحسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شبهه الله تعالى به أعمال الكُفَّار

في القيامة فقال جل من قائل : ”وقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا“
ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المباد بالذرة المذكورة في القرآن
بقوله تعالى : ”مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ“
ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العاشر

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،

وهي على أصناف)

الصفن الاول

(الجبال ، والأودية ، والفقار)

فأما الجبال فهي أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادت لما
دحاها الله تعالى على الماء . وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه
الماء قبل أن يدحو الله الأرض ، وأن الأرض منها دُحيت ، فلما مادت وأُرسيت
بالجبال ، كان أول جبل أُرسي منها جبل أبي قُبَيْس بمكة المشرفة فلذلك هو أقرب
الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل أن قاف جبل محيط بالدنيا عنه تتفرع جميع
جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعظمة في القدر والعلو
وصعوبة المسلك ، وما يجرى مجرى ذلك .

وأما الأودية ، فهي وهاد في خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات
الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك . وتوصف بالآتساع وبُعْد المسافة والعُمق ، وربما
وصفت بخلاف ذلك .

وأما القفار، فهي البرارى المتسعة الأرجاء الخالية من الساكن . وتوصف بالسَّعة
وبعد المسافة وقلة الماء والإيجاش وصعوبة المسلك، وما يجرى مجرى ذلك .

الصنف الثاني

(المياه الأرضية ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول - الماء الملح

ووقع في لغة الإمام الشافعى رضى الله عنه الماء المالح ؛ وهو أحد العناصر
الأربعة ، وسيأتى في الكلام على الأرض في المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من
جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الإلهية لعجالة الدنيا من كشف بعض ظاهرها
الأعلى ، وأنه تفرعت منه بحار منبثة في جهات الأرض لتجرى السفن فيها بما ينفع
الناس ؛ وقد ذكر الحكماء أن في الماء الملح كثافة لا توجد في الماء العذب ، ومن
أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب في الماء العذب ، حتى يقال : إن
السفن التي تغرق في البحر الملح لا تبلغ أرضه بخلاف التي تغرق في الأنهار فإنها تنزل
إلى قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحت في الماء العذب بيضة دجاجة ونحوها
غمرت فيه ، فإذا أذبت في ذلك الماء ملحا بحيث يغلب على الماء وطرحت
فيه البيضة ، عامت ؛ وقد اختلف في الماء الملح هل هو كذلك من أصل الحلقة
أو عرضت له الملوحة بسبب ملاقاه من سبخ الأرض على مذهبين ؛ ومن خصائص
البحر الملح أنه في غاية الصفاء حتى إنه يرى ما في قعره على القرب من شطه .
ويوصف البحر بالسعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتى يقال في المثل "حدث
عن البحر ولا حرج" .

الضرب الثانى — الماء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأبحرنة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل فى الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل ويحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها .
وهو على ثلاثة أنماط :

النمط الأول — ماء الأنهار ، وهى ما بين صغار وكبار وقرية المدى وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهى سيجون ، وجيحون ، والدجلة ، والفُرات ، ونيل مصر ، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفها ماء على ماسياتى ذكره فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى ، وفى الأنهار الجبار تسير السفن .

النمط الثانى — العيون : وهى مياه تنبع من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح فى قُبى قد حُفرت لها ، وهى منبعثة فى كثير من الأقطار .

النمط الثالث — البُئار : وهى حفائر تحفر حتى ينبع الماء من أسفلها ويرفع فيها ارتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد اختلف فى الماء الذى ينبع من الأرض هل هو الذى نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذى نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعالى : ” وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ “ الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذى ينبع من الأرض غير الذى نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : ” فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا “ . ويوصف الماء للاستحسان بالعدوبة ، والصفاء ، والرقّة ، والحلّة ، وشدة البرد ، وفى معناه الشِّم . ويسبّه فى شدة البرد بالزلزال : وهو ما يترى داخل الثلج فى تجاوىف توجد فيه فيكون من أشد الماء بردا .

الصنف الثالث

(النبات ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول — في أصل النبات

قد ذكر المسعودي في مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قضييا مودعة أصناف الثمر ، منها عشرة لها قشر : وهي الجوز ، واللوز ، والجَلُوز ، والفستق ، والبَلُوط ، والشاه بلوط ، والصنوبر ، والنارج ، والرمان ، والحشخاش . ومنها عشرة لثمرها نوى : وهي الزيتون ، والرطب ، والمشمش ، والخوخ ، والإجاص ، والغيراء ، والنبق ، والعناب ، والمخيطي^(١) ، والزعرور . ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى : وهي التفاح ، والسفرجل ، والكثيري ، والعنب ، والتين ، والأترج ، والخرنوب ، والتوت ، والقنء ، والبطيخ .

المقصد الثاني

(فيما تختص به أرض دون أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجد في كثير من الآفاق ، ومنه ما يختص ببعض الأماكن دون بعض ؛ وقد حكى أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية : أن بلاد سبلماسة من جنوبي بلاد المغرب الأقصى شجرة ترتفع نصف قامة أو أرجح ، ورقها كورق الغار ، إذا عمل منها إكليل ولبسه الرجل على رأسه ومشى أو عدا أو عمل عملا ، لم يتم مادام ذلك الإكليل على رأسه ، ولا يناله من ضرر السهر وضعف القوة ما ينال من سهر وعمل . وفي بلاد إفريقية شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصف ساعة مات ، وإن مسها ماس أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هزها مات .

(١) كذا في المفردات لأبن البيطار أيضا ولكن في القاموس (وكتامة وجيز) فاعل فيه لغة ثالثة .

قلت ومما يختص بأرض دون أرض اللسان : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع
تتفرع فروعاً ، لا تثبت في سائر الدنيا إلا في الديار المصرية بموضع مخصوص من بلدة
يقال لها المطرية ، على القرب من مدينة عين شمس ، وتسقى من بئر هناك ، ويقال إنه
أغتسل فيها المسيح عليه السلام ولذلك النصارى يعظمون اللسان ويتبركون به .

المقصود الثالث

(في ذكر أصناف النبات التي أولع الكتاب والشعراء بوصفها وتشبيهها :
وهي على ضرب)

الضرب الأول — ماله ساق

وهو الشجر ، وأكثر ما أولع أهل النظم والنثر بثمارها أو نورها ، في الوصف
والتشبيه ثراً ونظماً : كالأوز ، والفستق ، والجُلُوز : وهو البندق ، والشاه بلوط :
وهو القِصطل ، والصنوبر ، والرمان ، والجُلنار ، والإجاص ، والقراصيا ، والزعرور ،
والخوخ ، والمشمش ، والعناب ، والنبق ، والينب ، والتين ، والتوت ، والتفاح ،
والسفرجل ، والكمثرى ، واللفاح ، والخروب ، والأترج ، والرنج ، والليمون ،
والطلع ، والبلح ، والبُسْر ، والتمر ، والرمانج : وهو جوز الهند ، والتجار يسمونه النارجيل .
وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرها .

الضرب الثاني — ماله ساق

وقد أولعوا بالوصف والتشبيه منه ؛ فمن ذلك الزرع : من البرّ والشعير ونحوهما ،
ويتبع ذلك نور الباقلاء ، وكذلك الحشخاش ، والكنان ، والبطيخ الهندي : وهو
الأخضر ، والخراساني : وهو العبدلي ، نسبة إلى عبد الله بن طاهر ، فإنه أول من نقله

من حُرَّاسَانِ إِلَى مِصْرَ، وَالْبَطِيخِ الصِّينِيِّ : وهو الأصفر، والرَّسْنِيْتُ : وهو المعروف بِاللَّفَّاحِ، وَالْقَنَاءِ، وَالْحِيَارِ، وَالْبَادُجَانِ، وَالسَّلْجَمِ : وهو اللَّقْتُ، وَالْجَزَرُ، وَالثُّومُ، وَالْبَصَلُ، وَالْكُرَّاثُ، وَالرَّيَّاسُ، وَالهَلْيُونُ، وَالنَّعْنَاعُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الثالث — الفواكه المشمومة

والَّذِي أَوْلَعَ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْهُ الْوَرْدُ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ : مِنْ أَحْمَرَ، وَأَبْيَضَ، وَأَصْفَرَ، وَأَزْرَقَ، وَأَسْوَدَ، وَالنَّسْرِينِ، وَالْبَانِ، وَالْحَلَّافِ، وَالنَّيْلُوفَرِ، وَالْبَنْفَسَجِ، وَالنَّزْجِسِ، وَالْيَاسْمِينِ، وَالْأَسُ، وَالزَّعْفَرَانِ، وَالرَّيْحَانِ .

الضرب الرابع — الأزهار

والَّذِي وَقَعَ الْوَلُوعُ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْ ذَلِكَ الْحَيْرِيِّ : وهو المَشْتَوْر : مِنْ أَصْفَرٍ أَوْ أَزْرَقٍ، وَالسُّوسَنِ، وَالْأَذْرِيُونِ : وهو وَرْدٌ أَصْفَرُ لَهُ رِيحٌ، وَالْحَزَمِ : وهو الْخُرَامِيُّ، وَالشَّقِيقُ ^(١) . وَيُسَمَّى الشَّقَاقُ ، وَيَقَالُ لَهُ شَقَائِقُ الثُّعْمَانِ : لِأَنَّ الثُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذَرِ حَمِيًّا ظَهَرَ الْكَوْفَةُ بِهِ هَذَا النَّبَاتُ فَعُرِفَ بِهِ ، وَالْبَهَّارِ : وهو تَوْرٌ أَحْمَرٌ، وَالْأَقْحُوَانُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الخامس — الرياض

وهي الْأَمَاكِنُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى الْأَشْجَارِ، وَالْأَزْهَارِ، وَالْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَدْ أَتَفَقَ جَوَابُ الْأَرْضِ عَلَى أَنَّ مَتَرَهَاتِ الْأَرْضِ أَرْبَعَةٌ مَوَاضِعَ : وَهِيَ سَعْدٌ سَمَرَقَنْدَ، وَشُعْبُ بَوَّانَ، وَنَهْرُ الْأَبْلَةِ، وَغُوطَةُ دِمَشْقَ .
وقد أكثر الشعراء في وصف الرياض وولع الكتاب بمثل ذلك .

(١) نعله والشقيقة ففي اللسان أن الشقائق لا واحد له أو واحدته شقيقة وعلل لذلك فانظره .

الطرف الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى

(في صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في الأصول التي يبنى الكلام عليها : وهي سبعة أصول)

الأصل الأول

(المعرفة بالمعاني . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأول

(في شرف المعاني ، وفضلها)

اعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب . فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني؛ بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وُضعت ، وعليها بُنيت؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ : لأنه إذا كان المعنى صواباً واللفظ منحطاً ساقطاً عن أسلوب الفصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه ، وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لا روح فيه، ولو كان على أحسن الصور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في ”المثل السائر“ : ومما رأيته من المدعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القُشور ، وقصّروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغنّة ، التي لا حاصل وراءها، أنهم إذا أنكرت هذه الحالة عليهم ؛ وقيل لهم إن

الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفقر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعددة ، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته ، وإذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدوا إلى طريق المعاني ، يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ، فإنهم إنما آعتنوا بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني آعتناءهم بالألفاظ . فلم يكنفهم جهلهم فيما آرتكبوه حتى آدعوا الأسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن كانت تعنى بالألفاظ فُتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدراً في نفوسها . ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها ، وزينوها وبالغوا في تحسينها : ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه حفظه ، وإذا لم يكن مسجوعاً لم يأنس به أنسه في حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها ورقّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، فصار ذلك كإبراز صورة الحسناء في الحلل الموشاة والأثواب المحبرة ، فإننا قد نجد من المعاني الفاحرة ماشوه من حسنه بدّاذة لفظه وسوء العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكري رحمه الله : ومن عرف ترتيب المعاني وآستعمل الألفاظ على وجوهها بلغه من اللغات ثم آنتقل إلى لغة أخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب آستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، وحوّلها إلى اللسان العربي . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال في "المثل السائر": "وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَعَانِي الْخَطَّابِيَّةَ قَدْ حُصِرَتْ أَصُولُهَا، وَأَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ حَكَمَاءُ الْيُونَانِ، غَيْرَ أَنَّ الْحَصْرَ كُلِّيَّ لَا جَزْئِيَّ، وَحَالُ أَنْ تُحْصَرَ جَزْئِيَّاتُ الْمَعَانِي وَمَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهَا مِنَ التَّفَرُّيعَاتِ الَّتِي لَا نِهَآيَةَ لَهَا، لَا جَرَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَصْرَ لَا يَسْتَفِيدُ بِمَعْرِفَتِهِ صَاحِبُ هَذَا الْعِلْمِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْبَدْوَىَّ الْبَادِيَّ رَاغِيَّ الْإِبِلِ مَا كَانَ يَتَرَشَّى مِنْ ذَلِكَ بِفَهْمِهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ، وَمَعَ هَذَا، فَإِنَّهُ كَانَ يَأْتِي بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ إِنْ قَالَ شَعْرًا أَوْ تَكَلَّمَ نَثْرًا. قَالَ: وَلَقَدْ فَاوَضَنِي بَعْضُ الْمُتَفَلِّسِينَ فِي هَذَا، وَأَنَسَقَ الْكَلَامَ إِلَى شَيْءٍ ذَكَرَهُ لِأَبِي عَلِيٍّ بْنِ سَيْنَا فِي الْخَطَّابَةِ وَالشَّعْرِ، وَذَكَرَ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الشَّعْرِ الْيُونَانِيَّ يُقَالُ لَهُ الْوَلُوغَاذِيَا، وَقَامَ فَأَحْضَرَ كِتَابَ الشِّفَاءِ لِأَبِي عَلِيٍّ وَوَقَفَنِي عَلَى مَا ذَكَرَهُ، فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ آسَتْجَهَلْتُهُ، فَإِنَّهُ طَوَّلَ فِيهِ وَعَرَّضَ كَأَنَّهُ يَخَاطَبُ بَعْضَ الْيُونَانِ وَكُلَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ لَعَوَ، لَا يَسْتَفِيدُ بِهِ صَاحِبُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيُّ شَيْئًا، ثُمَّ مَعَ هَذَا جَمِيعِهِ فَإِنْ مَعَوَّلَ الْقَوْمُ فِيمَا يَذْكُرُ مِنَ الْكَلَامِ الْخَطَّابِيِّ أَنَّهُ يُورَدُ عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ وَنَتِيجَةٍ، وَهَذَا مِمَّا لَمْ يَخْطُرْ لِأَبِي عَلِيٍّ بْنِ سَيْنَا بِبَالٍ فِيمَا صَاغَهُ مِنْ شَعْرٍ أَوْ كَلَامٍ مُسَجَّوعٍ عَمَلُهُ، وَعِنْدَ إِفَاضَتِهِ فِي صَوْغِ مَا صَاغَهُ لَمْ تَخْطُرِ الْمُقَدِّمَتَانِ وَالنَّتِيجَةُ لَهُ بِبَالٍ، وَلَوْ أَنَّهُ فَكَّرَ أَوَّلًا فِي الْمُقَدِّمَتَيْنِ وَالنَّتِيجَةِ، ثُمَّ أَتَى بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ، لَمَّا أَتَى بِشَيْءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَلِطَالِ الْخُطْبِ عَلَيْهِ. قَالَ: بَلْ إِنْ الْيُونَانِ أَنْفَسَهُمْ لَمَّا نَظَمُوا مَا نَظَّمُوهُ مِنْ أَشْعَارِهِمْ، لَمْ يَنْظُمُوهُ فِي وَقْتِ نَظْمِهِ وَعِنْدَهُمْ فِكْرَةٌ فِي مُقَدِّمَتَيْنِ وَنَتِيجَةٍ، وَإِنَّمَا هَذِهِ أَوْضَاعٌ تَوْضَعُ وَتَطَوَّلُ بِهَا مَصْنُفَاتُ كُتُبِهِمْ فِي الْخَطَّابَةِ وَالشَّعْرِ، وَهِيَ كَمَا يُقَالُ:

قَعَاقِعٌ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ * كَأَنَّهَا شِعْرُ الْأَيُّورِدِيِّ

الوجه الثاني

(في تحقيق المعاني ، ومعرفة صوابها من خطئها ، وحسنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعاني على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما كان من المعاني مستقيماً حسناً : كقولك رأيت زيدا ،

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال في الصناعتين : والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يجوز
إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطيئاً .

فأما المعنى المستقيم الجزل من النظم ، فمن الوعظ قول التمر بن توكب يذم طول
الحياة :

يَوَدُّ الْقَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى * فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ ؟

يَكَادُ الْقَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصَحَّةٍ * يَنْوُو إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيَحْمَلُ

وقول أبي العتاهية في الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وَكُنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعُظُ مِنْكَ حَيًّا !

وفي وصف الأيام قول أبي تمام :

عَلَى أَنَّهَا الْيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

ومن الملاح قول أمية بن أبي الصلت :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * بِسَيْبٍ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وليس بسينٍ لِأَمْرِي بَذْلٌ وَجْهَهُ * إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

وقول أبى تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مِنَّا بِأَهْمِ كَانَهُمْ * لَا يَيْئَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

وقول الآخر :

هُمْ الْأَوَّلَى وَهَبُوا لِلْجَدِّ أَنْفُسَهُمْ * فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُمِدُوا

ومن الفخر قول معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْدَيْتُ كَفَى لِرَبِيبَةٍ * وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي !

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا * وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي !

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصْنِنِي مُصِيبَةٌ * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتْلِي !

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَاحِيَتُ لِمُنْكَرٍ * مِنَ الْأَمْرِ لَا يَمِشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي !

وَلَا مُوَثِّرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * وَأُوَثِّرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ، عَلَى أَهْلِي !

وقول الآخر :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول الشنفرى :

أُطِيلُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ * وَأَضْرِبُ عَنْهُ الْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ

وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الْعَارِ لَمْ يَلَفْ مَشْرَبٌ * بُعَاشَ بِهِ إِلَّا لَدَى وَمَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَاتٍ بِهِ * وَهَنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَأَلَمْ خَدَّهُ * فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ

وصَاحَفَهُ قَلْبِي فَأَلَمَ كَفِّهِ * فَمِنْ صَفَحَ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ حَفَرُ
وَمَرَّ بِفِكْرِي خَاطِرًا بَفَرَحَتِهِ * وَلَمْ أَرَ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ

ومن التشبيب قول القائل :

وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَحْبَبْتُ إِلَيْهِمْ * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَىٰ وَهُمْ مَعِيَ
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا * وَيَسْتَأْفَهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

وقول الآخر :

إِنْ لَمْ أَزُرْ رَبَّكُمْ سَعِيًا عَلَىٰ حَدَقِ * فَإِنَّ وَدِّيَ مَنُوسِبٌ إِلَىٰ الْمَلَقِ
تَبَّتْ يَدِي إِنْ تَنَنَيْ عَنْ زِيَارَتِكُمْ * بَيْضُ الصَّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طُرُقِي

ومن الحكمة قول المتنبي :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ * ذَا عَقَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

وقول الآخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَىٰ الْقَدَىٰ * ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُؤِهِ * عَلَىٰ شَعْبٍ أَيْ الرِّجَالِ الْمُهْدَبِ؟

ومن الهجو قول الطرمّاح في تميم :

تَمِيمٌ يَطْرُقُ اللَّوْمُ أَهْدَىٰ مِنَ الْقَطَا * وَلَوْ سَلَكَتُ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ

وقول الآخر :

لَوْ أَطْلَعَ الْغُرَابُ عَلَىٰ تَمِيمٍ * وَمَا فِيهَا مِنَ السَّوَاءِ شَابَا

إلى غير ذلك من معاني الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما يخطر في هذا السلك من النثر ما يحكى أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مروان برملة اللوى فقال : رحم الله امرأ لم تمنح أذناه كلامى ، وقدم معاذة من سوء مقامى ، فإن البلاد مجدبه ، والحال مسغبة ، والحياء زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر ، يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمر بمير ، أودعا بخير .

ومعاني القاضى الفاضل هى التى ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قلوبها على النفوس من غير حاجب ولا بواب . فمن ذلك قوله :

”يا بنى أيوب لو ملكتم الدهر لا تمطيطم لياليه أداهم ، وقلدتهم أيامه صوارم ، وأفنيتهم شمسوه وأقماره فى الهباب ، دنانير ودراهم ، وأيامكم أعراس وما ثم فيها على الأموال ماتم ، والجود فى أيديكم حاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم“ .

فهذا هو السحر الحلال ، والمعانى التى تخضع لها شم الجبال ، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثانى

(ما كان مستقيا قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال فى ”الصناعتين“ وإنما قبح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علماء المعانى التعقيد . وسماه ابن الاثير فى ”المثل السائر“ المعاظلة المعنوية ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنى يختل به ويضطرب . قال فى ”المثل السائر“ وهو ضد

الفصاحة : لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف . فن ذلك قول بعضهم :

فأصبحت بعد خط بهجتها * كأن قفراً سوماً قلباً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها فقدّم خبراً كأن ، وهو خط عليها فجاء مختلاً مضطرباً ، وأقبح منه وأكثر اختلالاً قول الفرزدق :

إلى ملك مأمته من محارب * أبوه ، ولا كنت كليب تصاهره

يريد إلى ملك أبوه مأمته من محارب ، والمعنى مأم أبيه من محارب ، يمدحه بذلك ذماً لمحارب . وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مملكا * أبو أمه حتى أبوه يقاربه

يريد وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، وهو خاله ، فلمّا استعمل فيه التقديم والتأخير في غير موضعه جاء مشوهاً رثاً كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ابن الأثير" : وقد استعمل الفرزدق من التعاضل كثيراً كأنه يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يجيء إلا متكلفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سبيلها وطبعها في الاسترسال ، لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ، ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ، ذهب المراد به . ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الصنف الثالث

(ما كان مستقيماً ولكنه كذب : كقولك حملت الجبل ،

وشربت ماء البحر ، وما أشبه ذلك)

وأعلم أن المعاني المستعملة في الشعر والكتابة أكثرها جارٍ على هذا الأسلوب خصوصاً المعاني الشعرية ، فإنه مقدمات تخيلية تُوجب في النفس انقباضاً وانبساطاً على ما هو مقرر في علم المنطق . وقد قال في "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبني على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتنعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، والألفاظ الكاذبة : من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان ، ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله . قال : وليس يراد منه إلا حُسن اللفظ وجودة المعنى ، فهذا الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء عليهم السلام . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع رحمه الله في كتابه تحرير التحجير : وأنا أقول قد اختلف في المبالغة ، فقوم يرون أن أجود الشعر كذبه ، وخير الكلام ما بُولغ فيه ، ويحتجّون بما جرى للناطقة الديباني مع حسان بن ثابت رضي الله عنه في استدراك النابغة عليه تلك المواقع المحمية في قوله :

لنا الحَفَنَاتُ الْفَرْيَاءُ بِمَعْنٍ بِالضُّحَى * وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا

فإن النابغة إنما عاب على حسان ترك المبالغة ، والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن رُوِيَ عنه انقطاعه في يد النابغة ، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج مخرج الصدق ، وجاء على مَنهج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من مَنعف المتكلم وتجزئه عن أن يخترع معنى ، أو يفترع

معنى من معنى ، أو يحلّى كلامه شيئاً من البديع ، أو ينتخب ألفاظاً موصوفة بصفات الحسن ، ويحدد تركيبها ؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يستد بها خلله ويتم نقصه : لما فيها من التهويل على السامع ، ويدّعون أنها ربما أحوالت المعاني فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلى حدّ الامتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبين مردودان . أما الأول فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه ، وهذا قول من لا نظره لأننا نرى كثيراً من الكلام والأشعار جارياً على الصدق المحض خارجاً مخرج البحث ، وهو في غاية الجودة ، ونهاية الحسن ، وتمام القوة ، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن ، والمحاسن لا تُحصر ضرورها ؛ فكيف يقال إن هذا الضرب على أنفراده يفضل سائر ضرور المحاسن على كثرتها ؛ وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان ؛ ومن كان مذهبه توخى الصدق في شعره غالباً ، ليس فوق أشعارهم غايةً لمترقّ ؛ ألا ترى إلى قول زهير :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِيٍّ مِنْ خَلِيقَةٍ * وَإِنْ خَالَهَا تَحْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمَ
وإلى قول طرفة :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى * لَكَاطُولِ الْمُرْنَى وَثِنْيَاهُ فِي الْيَدِ
وإلى قوله :

سُبَيْدِي لَكَ الْإِيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
وإلى قول الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة ، وإن خلت من المبالغة ؛ والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب

مارؤى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان قاضى الصُفْرىة من الخوارج
أنها قالت له يوما : أنت أعطيت الله تعالى عهدا أن لا تكذب فى شعرك ،
فكيف قلت :

فهنالك مجزأة بن ثو * ركان أشجع من أسامه .

فقال : يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة
قط ، وهذا حسان يقول :

وإنا الشعرلُب المرء يعرضه * على المجالس إن كَيْسا وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قابله * بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

على أن هؤلاء الفحول وإن رجحوا هذا المذهب ، لا يكرهون ضده ، ولا
يُجحدون فضله ، وقلمنا تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توثى الصدق كان الغالب
عليهم ، وكانوا يكثرُونَ منه ، ومن أكثر من شئ عُرِفَ به كما أن النابغة ومن تابعه
على مذهبه لا يكرهون ضد المبالغة ، وإلا فكل احتجاج جاء به على التّعان فى الاعتذار
جار مجرى الحقيقة كقوله :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير
مصيب ، وخير الأمور أوسطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حد الإمكان ، ولم تجر مجرى الكذب
المحض ، فإنها لا تُندم بحال ، كقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة نائر * لها نقدٌ لولا الشعاعُ أضاءها
ملكْتُ بها كفى فأنهرتُ فقها * يرى قائمٌ من دونها من وراءها^(١)

(١) فى اللسان ما . ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيد المبالغة ، إذ لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة ؛ وكذلك قول أبي تمام .

تَكَادُ تَنْتَقِلُ الْأَرْوَاحُ لَوْ تُرِكَتْ * مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلاً عن الجواز بتقديم كاد ، حتى قال : لَوْ تُرِكَتْ ، قال : وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه ، وعلى حده ورد قول شاعر الحماسة ، وقد بالغ في مدح مدوحه فقال :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرٍّ * وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعَتْهُ * وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فإن هذا الشاعر ألقى بيده وأظهر عجزه ، وأعترف بقصوره عن شكر بر هذا الممدوح ، وفطن أنه لو أقصر على ذلك ، لأحتمل أن يقال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة برّه : لأحتمل أن يكون لضعف مادتك عن الشكر ، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء ولا بدّ : لأحتمل أن يكون العجز لضعف الإنسان ، فأحترز عن ذلك بقوله :

* وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ *

ثم تم المعنى بأن قال للشُّكُور ، للمبالغة في الشكر ، فإن شكورا معذول عن شاكر للمبالغة كما تقدم ؛ ثم أظهر عذره في عجزه بأن قال في البيت الذي يليه :

* وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعَتْهُ *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مخرج المثل السائر ليكثر دورانه على الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين ، والتنويه بذكره في كل زمان حيث قال :

* وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حد الإمكان، وجرى مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة في الشرع، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك، ولا يتحاشون الوقوع فيه. وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله: "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَيْبِدٍ: * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ" *

إشارة لذلك أيضا .

فمن المبالغة في الشعر المنتهية إلى حد الكذب قول البُخترى: :
 وَلَوْ قَسَتْ يَوْمًا حِجْلَهَا بِحَقَائِبِهَا * لَكُنَا سَوَاءً، لَا بِلِ الْجِلِّ أَوْسَعُ
 وَصَفَهَا بِرِقَّةِ الْخَصْرِ وَغَلِظِ السَّاقِ حَتَّى جَعَلَ حِجْلَهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى سَاقِهَا أَوْسَعَ مِنْ
 حَقَائِبِهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى خَصْرِهَا؛ وَأَبْلَغَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
 مِنْ الْهَيْفِ لَوْ أَنَّ الْخَلَائِلَ صُبِّرَتْ * لَهَا وَنُحْمًا، جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَائِلُ
 جَعَلَ الْخَلَائِلَ يَحُولُ فِي جَمِيعِ بَدَنِهَا، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَدْحِ فِي شَيْءٍ لَأَنَّ الْخَلَائِلَ
 لَوْ صَارُوا شَاحِلًا لِلرَّأَةِ، لَكَانَتْ فِي غَايَةِ الدَّمَامَةِ حَتَّى تُصِيرَ فِي خِلْقَةِ الْحُرِّ وَالْمَهْرِّ.
 وَأَبْلَغَ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ.

وَرَحْبُ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ * كَوْسَعِهِ، لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ
 جَعَلَ صَدْرَهُ فِي السَّعَةِ وَالرُّحْبِ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَنَحْوَهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
 وَيَوْمَ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرَضٍ مِثْلِهِ * وَوَجْدَى مِنْ هَذَا وَهَذَاكَ أَطُولُ
 إِلَّا أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْعَرَضَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، إِذَا الدَّهْرُ يُوصَفُ بِالطُّولِ لَا بِالْعَرَضِ،
 وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لَهُ طَوْلًا وَعَرَضًا؛ وَيَقْرَبُ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنِّي رَجُلٌ * لَوْلَا مَخَاطَبِي إِيَّاكَ، لَمْ أَبْنِ^(٢)

(١) الجرو مثلث الجيم (٢) المشهور في الرواية لم ترني وهي التي شرح عليها المعنوي .

فجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدة التحول . قال الشيخ زكى الدين بن أبى الأصبع : ومما يجرى به التمثيل فى باب المبالغة قول بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يطلبها ، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمها . وقول بعض بلغاء الكُتَّاب : إن من النعمة على المُنْتِنِ عليك أن لا يخلو من مساعد ، ولا يخشى من معاند ، ولا تلحقه نقيصة المكذِّب ، ولا يُكرِّهه عَوَزُ الأوصاف بالتطلب ، ولا ينتهى من القول إلى منتهى إلا وجد بعده مقتضى ووراء متجى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مقنع إن شاء الله تعالى .

الصنف الرابع

(ما كان محالا : وهو ما لا يمكن كونه البتة : كقولك آتيك أمس ، وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك)

قال فى الصناعتين : فإن اتصل الكذب بحال ، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما ، ومررت بيقظان نائم ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال لعدم إمكان الجمع بين التقيضين ، وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشعر مبنى على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتنعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، وذلك فى الكذب مما لا نزاع فى كثرتة فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع ، نادر فى النظم والنثر ، معدود من المعايب ، محكوم عليه بالرد .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

وإن إذا ما الموت حلّ بنفسها ، * يزأل بنفسى قبل ذاك فأقبر

قال العسكري : هذا من المحال الذي لا وجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل :
إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال المتنع الذي
لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم
الدور ، وهو محال ، فيحكم فيه بالبطان وقطع الدور .

ومما يلتحق بالمحال وينخرط في سلكه تناقض المعاني وأضرابها .

فمن ذلك قول المسيب بن عيسى في وصف ناقة :

قَسَلْ حاجتها إذا هي أعرضت * بمخيمصة سرج الديدن وساع
فكأن قنطرة بموضع كورها * ملساء بين غوامض الأنساع
وإذا أطفت بها ، أطفت بكل كل * بيض القرايص مجفّر الأضلاع

قال في "الصناعين" : وهذا من المتناقض لأنه قال بمخيمصة ، ثم قال موضع
كورها قنطرة ، وهي مجفّرة الأضلاع فكيف تكون مخيمصة وهذه صفتها ؟
وقريب منه قول الحطيئة :

حارج يلاوذ بالكناس كأنه * متطوف حتى الصباح يدور
حتى إذا ما الصبح شق عموده * وعلاه أسطع من سناه منير
وحصى الكتيب بصفحته كأنه * خبث الحديد أطارهن الكبير

زعم أنه لم يزل يطوف حتى أصبح وأشرف على الكتيب ، فمن أين صار الحصى
بصفحته ؟ . وقول المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها على أن دكرة * إذا خطرت دارت به الأرض قائما
وكيف صحا عنها من إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقُ لسانك إلى خلافه ، كقولك :

ضَرَبَنِي زَيْدٌ وَأَنْتَ تَرِيدُ ضَرْبُ زَيْدًا)

قال في "الصناعتين" : فإن تعمّدت ذلك ، صار كذباً ، وهذا النوع أكثر وقوعاً من الذى قبله ، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة : فمن ذلك الغلط فى الأوصاف ؛ وهى على وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكرة بما ينافية .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المسك :

يَكْسُو الْمَفَارِقَ وَاللَّبَاتِ ذَا أَرْجٍ * من قُصِبِ مُعْتَلِفِ الْكَافُورِ دَرَجٍ

بجعل المسك من قُصِبِ الظُّبْيِ ، وهو معاه ، وجعل الظُّبْيَ يعتلف الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط . وقريب منه قول زهير يصف الضفادع :

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَبَاتٍ مَاؤُهَا طَحِلٌ * على الجُدُوعِ تَحَافُ الْعَمَّ وَالْغَرَقَا^(١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الفرق ، ونشوءها فيه . وقريب منه قول ذى الرمة :

إِذَا أَنْجَابَتِ الظُّلُمَاءُ ، أَضْحَتْ رُؤُوسُهَا * عليهن من جهد الكرى وهى صُلَعٌ

فوصف الرؤوس بالضلوع . قال ابن أبى فروة : ما أغفلت هذا ، ولقد قلت لذى الرمة : ما علمت أحداً أضلع الرؤوس غيرك ، قال : أجل .

(١) فى اللسان يحذف فس فى الاصل رواية له .

قال فى الصناعتين : ومما لم يُسمع مثله قط قول عديّ بن زيد فى الخمر :
والمُشْرِفُ الهَيْدَبُ يسعى بها * أخضر مطموئاً بماء الحَرِيصِ
فوصف الخمر بالخضرة ، والحريصُ السحابة تجرُّ وجه الأرض أى تقشرها ،
ومنه سميت إحدى الشجّاج فى الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .

ومنها وصف الشئ على خلاف المعهود والعادة المعروفة .

فمن ذلك قول المرّار :

وَحَالٍ عَلَى خَدَيْكَ يَسْدُو كَأَنَّهُ * سَنَا الْبَدْرِ فى دَعَجَاءٍ بِادٍ دُجُونُهَا
والمعروف أن الحيلان سُدٌّ أَوْ سَمٌّ ، والحدود الحسان إنما هى البيض ، فأتى
هذا الشاعر بقلب المعنى ؛ ومثله قول الآخر :

كَأَنَّمَا الْحِيلَانُ فى وَجْهِهِ * كَوَاكِبٌ أَحَدَقْنَ بِالْبَسْدَرِ

قال أبو هلال العسكري : ويمكن أن يُحتجّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه
الحيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول امرئ القيس فى وصف الفرس أيضا :

وَالسُّوْطُ أَهْوَبُ وَلِلْسَاقِ دِرَّةٌ * وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعٌ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

قال أبو هلال العسكري : فلو وصف أخس حمارٍ وأضعفه ، ما زاد على ذلك ؛
وقول القائل :

صَبَّهْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنًا * فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سَرَّاعٌ وَأَرْجُلُ

فجعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تحوجه إلى ذلك ؛ ومن ذلك قول

امرئ القيس :

وَأَرْكَبُ فى الرَّوْعِ خَيْفَانَةً * كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

شبه ناصية الفرس بسعف النخلة أطولها، وإذا غطى الشعر عين الفرس
لم يكن كريما .

ومثله قول طرفة يصف ذنب البعير :

كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي، تَكْتَفَأُ * حِفَافِيهِ، شُكَّا فِي الْعَيْبِ بِمَسْرِدِ
فَجَعَلَ ذَنْبَهُ كَشِيفَا، طَوِيلَا عَرِيضَا، وَإِنَّمَا تُوصَفُ النِّجَاطُ بِخَفَةِ الذَّنْبِ
وَرِقَّةَ الشَّعْرِ .

ومنها أن يجرى في مقاصد المعاني على خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول
جُنَادَةَ :

مَنْ حُبَّهَا أَتَمَّنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي * مَنْ نَحْوِ بَلَدِهَا نَاجٍ فَيَنْعَاها
لَكِنَّهُ يَكُونُ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ * وَتُضْمِرُ النَّفْسُ بِأَسَاثِمٍ تَسْلَاهَا
فَإِذَا تَمَنَّى الْمَحَبَّ لِلْحَبِيبِ الْمَوْتَ فَإِذَا عَسَى أَنْ يَتَمَنَّى الْبَغِيضَ لِبَغِيضِهِ ؟
وقول الآخر :

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِقَتْلِهَا مِنْ حُبِّهَا * كَيْفَا تَكُونُ خَصِيمَتِي فِي الْحَشْرِ
فَذَكَرَ أَنَّ شِدَّةَ الْحَبِّ حَمَلَتْهُ عَلَى قَتْلِ مَحْبُوبَتِهِ حَتَّى تَخَاصَمَهُ فِي الْحَشْرِ لَطَلَبِ حَقِّهَا،
وَشِدَّةُ الْحَبِّ لَا تَعْمَلُ إِلَّا عَلَى الْإِكْرَامِ وَالْبِرِّ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ تَكْرَهُهُ، فَتَتْرَكَ حَقَّهَا
لَهُ حَتَّى لَا يَطُولَ وَقُوفُهَا مَعَهُ لِلخِصَامِ، وَقَوْلُ نُصَيْبٍ :

فَإِنْ تَصِلِي، أَصْلُكَ وَإِنْ تَعُودِي * بِهِجْرٍ بَعْدَ ذَاكَ، فَلَا أَبَالِي
وَالْعَاشِقُ يَلَاطِفُ قَلْبَ مَحْبُوبِهِ وَلَا يُحَاجُّهُ، وَيَلَايِنُهُ وَلَا يُلَاجُّهُ .

الأصل الثاني

(من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ ، والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأول

(في فضل الألفاظ وشرفها)

قد تقدم في الكلام على المعاني أن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصريح يزداد حسنا بالحلل الفاحرة ، والملابس البهيّة ، والقبّيح يزول عنه بعض القُبّح : كما أن الحسن ينقصُ حسنه رثاءة ثيابه وعدم بهجة ملبوسه ، والقبّيح يزداد قبحا إلى قُبّحه . فالألفاظ ظواهر المعاني ، تحسّن بحسنها وتقبّح بقبّحها ، وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : "ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودّة اللفظ ، وصفائه . وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلق من أود النظم والتأليف . قال : وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يُقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما تقدم من نعوته . ثم قال : ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسينُ اللفظ أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام ، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صناعته ، ورونق ألفاظه ، وجودّة مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم مُنشئه ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني ، وتونّح صواب المعاني أحسن من تونّح هذه الأمور في الألفاظ ، فلهذا يتأنق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، ويالقون في تجويدها ، ويغنون في ترتيبها ، ليدلّوا على براعتهم ،

وَحَدِّقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذَلِكَ فَرَحُّوا كَدًّا كَثِيرًا ،
وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلُولًا عَذْبًا ،
وَسَاسِيًا سَهْلًا ، وَمَعْنَاهُ وَسَطًا ، دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجَيِّدِ ، وَجَرَىٰ مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ ،
كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ ، * وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِجٌ ،
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارَى رِحَالُنَا * وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَاسِخٌ ،
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَا ، * وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمُطَيِّ الْأَبَاطِحُ
وَلَيْسَ تَحْتَ هَذِهِ الْأَلْفَافِ كَثِيرٌ مَعْنَى ، وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجَبَةٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ : وَلَمَّا
قَضَيْنَا الْحَجَّ وَمَسَّحْنَا بِالْأَرْكَانِ ، وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ بَعْضُنَا
بَعْضًا ، جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُنَا الْإِبِلُ فِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَوَابًا
وَاللَّفْظُ بَارِدًا فَاتَرَكَاتِ مَسْتَمِجْنَا مَأْفُوظًا ، وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا ، كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ
فِي أَبِي عَثْمَانَ سَعِيدِ بْنِ وَهَبٍ :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ * رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أَبَا عَثْمَانَ أَبَكَيْتَ عَيْنِي * يَا أَبَا عَثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

الوجه الثاني

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغي استعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذي ينبغي أن يستعمل في النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البهيج الذي
تقبله النفس ، ويميل إليه الطبع ، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح في أصل اللغة هو الظاهر البين ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان
ضوءه ، وأفصح اللبن إذا تجلت عنه رغوته وظهر ، وأفصح الأعجمي وفصح إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبينُ ، وأفصح الرجل عما في نفسه ، إذا أظهره . قال في المثل السائر : وأهل البيان يَقْفُونَ عند هذا التفسير ، ولا يكشفون عن السريه . قال : وبهذا القول لا تبين حقيقة الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحاً جيداً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً ؛ على أنه قد يكون اللفظ ظاهراً الزيد ولا يكون ظاهراً العمرو ، فيكون فصيحاً عند واحد دون آخر ، وليس كذلك ، بل الفصيح مالم يُجْتَنَفْ في فصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرف ما هي ، لم يبق في اللفظ المختص بها خلاف ؛ وأيضاً فإنه لو جرى بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، فينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأن الفصاحة وصفٌ حُسْنِ اللفظ لا وصفٌ قُبْحِه . قال : وتحقيق القول في ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتب لغة ؛ وإنما كانت بهذه الصيغة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ؛ وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنِها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرَبُوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسَبَرُوا وقَسَمُوا فاختاروا الحُسْنَ من الألفاظ فاستعملوه ، ونَفَوْا القبيح منها فلم يستعملوه ، فَحَسُنُ الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ؛ فالفصيح إذن من الألفاظ هو الحُسْنُ . ثم قال : والمرجع في تحسين الألفاظ وقبحها إلى حاسة السمع ، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحُسْنُ ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشَّخْرُورِ ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره نَهيقَ الجمار ، ولا يبعد ذلك في صهيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة المُرْنة والديمّة يستلذهما السمع ، ولفظة البُعاق

قبيحة يكرها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترى لفظي المُرْنَة والدَّيْمَة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال وتري لفظ البُعَاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وإن آستعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوْقُه غير سليم ، لا جرم أنه ذم وقدر فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عَرَبِيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين ، فإن حقيقة الشئ إذا علمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعْرَجْ على ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتى يتصف بأربع صفات :

الصفة الأولى

(أن لا يكون غريبا : وهو ما ليس مأنوس الاستعمال ولا ظاهر المعنى)

ويسمى الوحش أيضا ، نسبة إلى الوحش لنفاره وعدم تأنسه وتألفه ، وربما قلب قيل الحَوْشَى نسبة إلى الحوش : وهو النَّفَار . قال الجوهري : وزعم قوم أن الحوش بلاد الجن وراء رمل يبرين ، لا يسكنها أحد من الناس ، فالغريب والوحش والحوشى كله بمعنى .

ثم الغريب على ضربين .

الضرب الأول - ما يُعَاب آستعمله مطلقا : وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث

وتنقيب ، وكشف من كتب اللغة : كقول ابن جحدر .

حَلَقْتُ بِمَا أُرْقَلْتُ حَوْلَهُ * هَمْرَجَلَةٌ خَلَقَهَا شَيْطَمُ

وما شَبَقْتُ مِنْ تَوْفِيَةٍ * بها من وحى الجن زيزيم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الحبب ، يقال منه أرقلت الناقة تُرْقَل

إرقالا ، والهمرجلة الناقة السريعة ، وقال أبو زيد : الهمرجلة الناقة النجيبة الراحلة .

(١) كذا في الضوء أيضا وفيه تساهل لأن الفار معني لا نحاش لالحاش انظر القاموس .

وَالشَّيْظُ الشَّدِيدُ الطَّوِيلُ وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِبْلِ وَالْخَلِيلِ وَالْأَنْثَى شَيْظَمَةٌ . وَالشَّبْرَقَةُ الْقَطْعُ ، يُقَالُ شَبْرَقْتُ الثَّوْبَ أَشْبَرَقَهُ شَبْرَقَةً إِذَا قَطَعْتَهُ ، وَشَبْرَقْتُ الطَّرِيقَ إِذَا قَطَعْتَهَا وَالتَّنَوُّفَةُ الْمَفَازَةُ ، وَيُقَالُ فِيهَا تَنَوُّفِيَّةٌ أَيْضًا . وَالْوَحْيُ هُنَا الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، يُقَالُ سَمِعْتُ وَحَاةَ الرَّعْدِ : وَهُوَ صَوْتُهُ الْمَتَدُّ الْخَفِيُّ ، وَقَوْلُهُ زَيْزَمَ حِكَايَةً لِأَصْوَاتِ الْجَنِّ إِذَا قَالَتْ زَى زَى ؛ وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَقُولُ حَلَفْتُ هَذِهِ الْحَلْفَةَ بِمَا سَارَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ الشَّدِيدَةُ السَّيْرِ الْعَظِيمَةِ الْخَلْقُ ، وَمَا قَطَعْتَ مِنْ مَفَازَةٍ لَا يَسْمَعُ فِيهَا إِلَّا أَصْوَاتُ الْجَنِّ ؛ وَهَذَا مِمَّا لَا يُوقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدٍّ وَتَعَبٍ فِي كَشْفِهِ وَتَبَعُّهِ مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ .

الضرب الثاني - ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخريج اللفظ على وجه بعيد : كلفظ مسرج من قول العجاج .

وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبًا مُزَجَّجًا * وَفَاحًا وَمَرْسِنًا مُسْرَجًا

فَالْمُقَلَّةُ شَحْمَةُ الْعَيْنِ ، وَالْحَاجِبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْمَزْجُجُ الْمُقْوَسُ مَعَ طَوٍّ وَدَقَّةٍ فِي طَرَفِهِ وَالفَاحُ الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْفَحْمِ ، وَالْمَرْسِنُ الْأَنْفُ ، وَصِفُهُ بِكَوْنِهِ مُسْرَجًا إِمَّا أَنَّهُ كَالسَّيْفِ السَّرِيحِيِّ فِي الدَّقَّةِ وَالْأَسْتَوَاءِ ، وَالسَّرِيحِيُّ نِسْبَةٌ إِلَى قَيْنٍ يُسَمَّى سَرِيحًا تَنْسَبُ إِلَيْهِ السُّيُوفُ ، وَإِمَّا أَنَّهُ كَالسَّرَاجِ فِي الْبَرِيقِ وَاللَّمَعَانِ ؛ أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ سَرَجَ اللَّهُ وَجْهَهُ إِذَا بَهَّجَهُ وَحَسَّنَهُ . فَهَذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا لَا يُقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ التَّصْرِيفَ وَأَتَقَنَهُ .

إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ يَخْتَلِفُ فِي الْغَرَابَةِ وَعَدَمِهَا بِاخْتِلَافِ النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مَأْلُوفًا مُتَدَاوِلَ الْأَسْتِعْمَالِ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ فِي كُلِّ زَمَنٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا فِي زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا عِنْدَ قَوْمٍ ، مُسْتَعْمَلًا مَأْلُوفًا عِنْدَ آخَرِينَ .

وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ .

الصنف الأول

(المألوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمان القديم وإلى زماننا : كالسما
والأرض ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الألفاظ ،
وأعذبها ، وأعلاها درجة وأعلاها قيمة ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفاً متداولاً
كما تقدم ؛ وهذا لا يقع عليه اسم الوحش بحال . قال في : ” المثل السائر ” وأنت
إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذي هو أفصح الكلام ، وجدته سهلاً سليماً ، وما
تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً - هذا وقد أنزل في زمن العرب العرباء ،
وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالاً وكفى بالقرآن الكريم قدوةً ، وقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ” ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن
وهي السبع المثاني ” يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى ما أشتملت عليه من
الألفاظ ، وجدتها سهلة قريبة يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوق ،
وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، فإن أحسن الكلام ما عرف
الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ؛ وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها
وقرب متناولها ؛ والمقتضى بألفاظ القرآن يكفي بها عن غيرها من جميع الألفاظ
المنثورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأول في الزمن القديم تتحاشى اللفظ الغريب
في نظمها ونثرها ، وتميل إلى السهل وتستعذبه ؛ ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن
نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه ،
فقال له : ” إنك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحذثه أيامه وتنتقل
به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكر من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من
سودد منصبك وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب محبباً يحتمل ما حمل عليه :

من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ؛ ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ما يطول رعاتها ، ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان : من الخطب الحليل ، الذي عمت رزيتته نزارا واليمن ، ولم تُخصص بذلك كندة دوننا : للشرف البارِع الذي كان لِحجر ، ولو كان يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاده ؛ ولا يلحق أقصاه أدناه ؛ فأحد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها في بناء المكرّمات صوتا ، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات حُسامك بباقي قصرته ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستلّ نعيمته إلا تمكينه من الانتقام . أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداء رجعت به القُضب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحن على البرءاء . وإما أن وادعنا إلى أن تَضَعَ الحوامل قُسُدا للآزر وتَعُدَّ الخمر فوق الرايات . فبكى أمرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال .

”لقد علمت العرب أنه لا كُفءَ لِحجر في دم ، وأنى لن أعتاض به جملا ولا ناقة ، فأكتسب به سبة الأبد ، وفَتَّ العضد ؛ وأما النظرة فقد أوجبتنا الأجنة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سببا ؛ وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل في القلوب حقا وفوق الأُسمة علقا .

إذا جالت الحرب في مآزق * تُصافح فيه المنايا النفوسا !

أقيمون أم تتصرفون ؟ “ قالوا بل نتصرف بأسوا الاختيار وأبلى الاجترار ، بمكروء وأذية ، وحرب وبلية .

ثم نهضوا عنه وقيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوَرْدَ إِنْ غَدَتْ * كَتَأْتُبْنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ مُمِطِر
فَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ لَا وَاللَّهِ ! وَلَكِنْ أَسْتَعِذُّ بِهِ ، فَرُويدا يَنْفِرُجُ لَكَ دُجَاهَا عَنْ
فُرْسَانِ كِنْدَةَ وَكَتَّابِ حِمِير . وَلَقَدْ كَانَ ذِكْرُ غَيْرِ هَذَا بِي أَوَّلِي إِذْ كُنْتَ نَازِلًا بِرَبْعِي ،
وَلَكِنَّكَ قُلْتَ فَأَوْجِبْتَ .

فَقَالَ قَيْصَةُ مَا يُتَوَقَّعُ فَوْقَ قَدْرِ الْمَعَاتِبَةِ وَالْإِعْتَابِ ، فَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ هُوَ ذَاكَ .
قَالَ فِي : ” الْمَثَلُ السَّائِرُ “ ، فَيُنْظَرُ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الرَّجُلَيْنِ : قَيْصَةُ وَأَمْرُؤُ
الْقَيْسِ حَتَّى يَدَعَ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ فِي أَسْتِعْمَالِ الْوَحْشِيِّ مِنَ الْأَلْفَاظِ . فَإِنْ هَذَا
الْكَلَامُ قَدْ كَانَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ هُوَ كَلَامُ كُلِّ
فَصِيحٍ مِنَ الْعَرَبِ مَشْهُورٌ ، وَمَا عَدَاهُ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ . قَالَ : وَهَذَا الْمَشَارُ إِلَى هَاهُنَا
هُوَ مِنْ جَزَلِ كَلَامِهِمْ ، وَهُوَ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنَ السَّلَاسَةِ وَالْعُدُوبَةِ ، وَإِذَا تَصَفَّحْتَ
أَشْعَارَهُمْ أَيْضًا وَجَدْتَ الْوَحْشِيَّ مِنَ الْأَلْفَاظِ قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْلَسِلِ فِي الْقَمِّ
وَالسَّمْعِ ، وَعَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ فِي الْجَزَالَةِ وَالشُّمُولَةِ يَجْرَى مِنَ النَّظْمِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَذْنِي مَعِيشَةٍ ، * كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْمَعِي لِحَجْدٍ مُؤَثِّلٍ * وَقَدْ يُدْرِكُ الْحَجْدَ الْمُؤَثِّلُ أَمْثَالِي

فَانْظُرْ إِلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا لَفْظَةٌ غَرِيبَةٌ ، وَلَا كَرِهَ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْجَزَالَةِ
وَكَذَلِكَ أَبْيَاتُ السَّمْعِ الْمَشْهُورَةِ وَهِيَ .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ * فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَجَلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمًا ، * فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الشَّاءِ سَبِيلٌ

تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَايِدُنَا * فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ

وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

يَقْرَبُ حُبَّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا * وَتَكْرَهُهُ أَجَاهُكُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ * وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَبِيلُ
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِيقٍ * بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ أَنْ لَا تُسَلَّ نِصَالُهَا * فَتَغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرت ماتضمته هذه الأبيات من الجزالة، خلطها زُبرا من الحديد مع ماهى
عليه من السهولة والعدوبة وأنها غير فظة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب في جانب
الرقعة من الأشعار ما يكاد تدوب لرقته القلوب : كقول عروة بن أذينة :

إِن الَّتِي زَعَمْتَ فَوَادَكَ مَلَّهَا * خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقَتْ هَوَى لَهَا
بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النِّعَمُ فَصَاغَهَا * بَلْبَاقَةٍ فَادَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
حَجَّيْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : * مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا !
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةٍ * شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَسَلَّهَا
وقول يزيد بن الطَّرِيقَةِ في محبوبته من بنى جَرَم .

بَنَفْسِي مِنْ لَوْمَةٍ بَرْدُ بَنَانِهِ * عَلَى كَيْدِي، كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ

وإذا كان هذا قول ساكن الغلاة، لا يرى إلا شيعة أو قيصومة ولا يأكل إلا
ضبا أو يربوعا، فما بال قوم سكنوا الحضر، ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشياً
الألفاظ وشظف العبارات ؟ ولا يُجْلَدُ إلى ذلك إلا جاهلٌ بأسرار الفصاحة ،
أو عاجزٌ عن سلوك طريقها ، فإن كل أحد ممن حصل على نبذة من علم الأدب
يمكنه أن يأتي بالوحش من الكلام ، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة ، أو يتلقفه
من أربابها . وأما الفصيح المتصِفُ بصفة الملاحاة ، فإنه لا يقدر عليه ولو قدر عليه
لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه .

قال : وإن مارى فى ذلك مُمَارٍ ، فلينظر إلى أشعار علماء الأدب من كان يُشَار إليه حتى يعلم صحّة ذلك ؛ فإن ابن دُرَيْد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرت إلى شعره ، وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين مُنَحَطًّا ، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عَشْرَ مِعْشَارٍ ما علمه ، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشعراء المُحَدِّثِينَ ، وشعره كتر نسيم على عَدَبَاتِ أغصان ، أو كؤلؤات طَلَّ على طُرُرِ رِيحَانٍ ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى استخراجها من كتاب من كتب اللغة ، كقوله :

وإني ليرضيني قليل نوالكم * وإن كنت لأرضى لكم بقليل

بجرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود إلا عدوكم بجيل

وقوله فى محبوبته فوز :

يا فوز يا مُنيّة عبّاس * قلبى يُفدى قلبك القاسى

أسأت إذ أحسنت ظنى بكم * والحزم سوء الظنّ بالناس

يُقَلِّعُنِي شَوْقِي فَأَتِيكُمْ * والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الأبيات ؟ وأعلق بالخاطر ، وأسرى فى السمع ؟ ومثلها تسهر راقدات الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوايق عند الرّهان ؛ ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريق التى هى سَهْلَةٌ وَغَرَّةٌ ، قريبة بعيدة ؟ . وقد كان أبو العتاهية أيضا فى غُرّة الدولة العباسية ، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجارى ، رَقَّةً أَلْفَافٍ ، وَلَطَافَةً سَبَك ، وليس بريك ولا واه ، وأنظر إلى قصيدته التى يمدح بها المهديّ ويشبب بجاريتته عتب وهى :

أَلَا مَا لِسَيِّدَتِي مَا هَا * تُدِلُّ ، فَأَحْمِلُ إِذْ لَدَا

ألا إن جاريةً للإِما * م قد أُسْكِنَ الحُسْنَ سِرْبَها
لقد أتعَبَ اللهُ قَلْبِي بها * وَأَتَعَبَ في اللّوْمِ عُدْها
كأنَّ بعينِي في حَيْثُ ما * سلكت من الأرضِ تَمْثالها
فلما وصل إلى المديح قال من جملته :

أنتَه الخِلاَفَةُ متقادةٌ * إليه تُجَرَّرُ أذْيالها
فلم تَكْ تَصْلُحْ إلَّا لَهُ * ولم يَكْ يَصْلُحْ إلَّا لها
ولو رامها أحدٌ غيرُه، * لزلزلتِ الأرضُ زِلْزالها
ولولم تُطْعَمْ نِباتُ القُلُوبِ، * لَمَّا قَبِلَ اللهُ أَعْمالها

فهذه الأبيات من أرقِّ الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، وهي على ما ترى من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات، حتى قال بشارٌ عند سماع المهدي لها من أبي العتاهية : ”انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده“ يريد هل زال عن سرير طربا بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نواس في السهولة والسلاسة والرقّة ، ولذلك قدّم على شعراء عصره مع ما فيه من فحول الشعراء ومفلقهم كمسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقّة شعره وسهولته : كقوله في محبوبته جنان :

ألم تر أنّي أَفْنَيْتُ عُمرِي * بِمَطْلِبِها وَمَطْلِبِها عِيسِر
فلَمَّا لم أَجدُ سَبباً إليها * يُقَرِّبُنِي وَأَعِينِي الأُمُور
حَجَجْتُ وقلت : قد حَجَجْتُ جَنان * فيجمعُنِي وإياها المِيسِر

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره، وكان هو وأبو العتاهية كأنما يُنفقان من كيس واحد . ومن لطيف ما يحكى في توافّق طريقتهما

وَاتَّحَادَ مَاخِذَهُمَا أَنْ أَبَا نُوَّاسٍ جَلَسَ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ التُّجَّارِ بِبَغْدَادَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الشَّعْرَاءِ فَاسْتَسْقَى أَبُو نُوَّاسٍ مَاءً فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ :

* عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجزوه ، فأخذ أولئك الشعراءُ يترددون في إجازته وإذا هم بأبي العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وَكَيْتَ وقد قال أبو نُوَّاسٍ :

* عَذَّبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزا له :

* حَبَّدَا الْمَاءَ شَرَابَا *

فَعَجِبُوا لِقَوْلِهِ عَلَى الْفُورِ مِنْ غَيْرِ تَلْبَثٍ ، فِهَذَا هُوَ الْكَلَامُ السَّهْلُ الْمُنْتَعِجُ تَرَاهُ يُطْمَعُكَ أَنْ تَأْتِيَ بِمَثَلِهِ ، فَإِذَا حَاوَلْتَ مِمَّا ثَلَّثَهُ رَاغَ عَنْكَ كَمَا يَرُوعُ الثَّعْلَبُ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَنْ خَاضَ فِي كِتَابَةِ أَوْ شَعْرِ ، فَإِنْ خَيْرَ الْكَلَامِ مَا دَخَلَ الْأُذُنَ بِغَيْرِ إِذْنٍ .

وَمِنَ الشَّرْ قَوْلِ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَغَالُطُكَ عَنْ جُرْمِهِ ، وَلَا يَسْتَدْعِي بِرِّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ ، وَلَا يَسْتَعِطُّكَ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِالذَّنْبِ ، وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِالْاعْتِرَافِ بِالْجُرْمِ ، نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ الْحَدَاثَةِ ، وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ الْحُنُكَةُ ، وَبَاعَدَتْْنِي مِنْكَ الثِّقَةُ بِالْأَيَّامِ ، وَقَادَتْْنِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبَلَ الصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ الْعُدْرِ ، وَتَجَدَّدَ النِّعْمَةُ بِاطِّرَاحِ الْحِفْدِ ، فَإِنَّ قَدِيمَ الْحُرْمَةِ وَحْدِيَّتِ التَّوْبَةِ يَحَقِّقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِسَاءَةِ ، وَإِنْ أَيَّامَ الْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةُ ، وَالْمُنْتَعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةً ، فَعَلَّتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَانْظُرْ إِلَى قُوَّةِ هَذَا الْكَلَامِ فِي سَهُولَتِهِ ، وَقُرْبِ مَاخِذِهِ مَعَ بُعْدِ تَسَاوُلِهِ وَالِإِتْيَانِ بِمُشَاكَلِهِ . وَأَجْزَلُ مِنْهُ مَعَ السَّهُولَةِ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ لَخُرُوجِهِ عَلَيْهِ

مع ابن الأشعث : "أجذب بنا الجَنَابُ، وأحزنَ بنا المَنَزِلُ، فاستَحْلَسْنَا الحَدَرَ،
واكْتَحَلْنَا السَّهْرَ، وأصابَتْنا فَتْنَةٌ لم تكن فيها بَرَّةٌ أَتَقِيَاءَ، ولا فَجْرَةٌ أَقْوِيَاءَ" فَعَفَا عَنْهُ .
قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يَسْتَجِيدُونَ الكلامَ
إذا لم يَقِفُوا على معناه إلا بِكُدٍّ ، ويستفصِّحونه إذا وجدوا ألفاظه كَرَّةً غليظةً ،
وجاسِيَةً غريبةً ، ويستحقرون الكلام إذا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا، وسهلاً حُلُوًّا، ولم يعلموا
أن السهل أَمْنٌ جانبا، وأَعَزُّ مطلبًا ، وهو أحسن موقعًا، وأعذب مُسْتَمَعًا ، ولهذا
قيل "أجود الكلام السَّهْلُ المَتَنِعُ" وكان المَفْضَلُ يختار من الشعر ما يَقلُّ تداول الرواة
له ، ويكثر الغريب فيه . قال العسكرى : وهذا خطأ في الاختيار : لأن الغريب
لم يكثر في كلام إلا أفسده، وفيه دِلَالَةٌ على الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مَسْعَدَةَ فقال : هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته
أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كُتْبِهِ ، فإذا رامها ؛ تعذرت عليه ،
وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال ذلك
عَيٌّ في زمانى ، وَتَكَلَّفٌ منى لو قاتله ، وقد رُزِقْتَ طبعًا وآتساعًا في الكلام ، فأنا
أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير ، ثم أنشدنى :

أَيَا رَبِّ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِالَّذِي بِهِ * مَدَحْتُ عَلَيْكَ غَيْرَ وَجْهِكَ فَارْحَمِ

قال في الصناعتين : فهذا كلامٌ عاقلٍ يَضَعُ الكلامَ موضعه ، ويستعمله في إِبَانَةِ .
ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعاني رَفَقٌ ، والتشادق في غير أهله نقص ،
والنظر في وجوه الناس عِيٌّ ، ومس اللحية هُلْكٌ ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ ، والخروج
عما بُنِيَ عليه الكلامُ إسهابٌ ؛ فأجود الكلام ما كان جَرَلًا سهلاً ، لا يَنْغَلِقُ معناه ،
ولا يَسْتَبْهِمُ مَغْزَاهُ ، ولا يكون مكدودًا مستكْرَهًا ، ومتوعرًا مُتَقَعَّرًا ، ويكون بريثًا من

الغثائَة، عاريا من الرثائَة، فالكلّام إذا كان لفظه غثًا، ومَعْرِضُهُ رثًا، كان مردودًا، ولو أحتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعِهِ وأفضله. قال في "المثل السائر": أما البداوة والعُنْجِيَّةُ، فتلك أمة قد خَلَتْ، ومع أنها قد خَلَتْ وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عَيْبَتْ على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب على الناس رقة الحَضَر؟

الصنف الثاني

(الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الاستعمال في الزمن الاول ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمى الوَحْشِيُّ الغليظ، والعِكَرُ، والمتوعَّر وهو على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(ما يعاب استعماله في النظم والنثر جميعا)

قال في "المثل السائر": والناس في قبح استعماله سواء، لا يختلف فيه عمرٌ بيَّادٍ، ولا قَرَوِيٌّ مَتَحَضِرٌ. قال : وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أَجْهَلُ الناس ممن لم يَخْطُرْ بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلا، وهو ما مَجَّه سَمْعُكَ، ونَبَا عنه لسانك، وثَقُلَ عليك النطقُ به، على أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المُفْلِقِينَ من العرب والمُحَدِّثِينَ. فمن ذلك لفظ الجَحِيش في قول تأبط شراً من أبيات الحماسة :

يَظَلُّ يَوْمًا وَيُمْسِي بِفَيْرِهَا * جَحِيشًا وَيَعْرَوِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ

فإن لفظة جَحِيش من الألفاظ المنكرة القبيحة، قال في "المثل السائر" : وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى فريد ؟ وفريد لفظة حسنة رائقة لو وضعت في هذا البيت موضع جَحِيش لما آختل شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما استعماله القبيح، والثاني أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها؛ وأقبح من ذلك لفظ أَطْلَحَّم في قول أبي تمام :

قد قلت لما أَطْلَحَّم الأمرُ وَأَنْبَعَثَ * عَشَوَاءَ تَالِيَةً غُبَسًا دَهَارِيَسَا

فإن لفظة أَطْلَحَّم من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة ، وأنها غليظة في السمع ، كرهية على الذوق ؛ وكذلك لفظة دَهَارِيَس في آخر البيت المذكور .

وعلى حد ذلك ورد لفظ جِيدَر في قوله من أبيات في وصف فرس :

نعم متاع الدنيا حَبَاكَ به * أَرْوَعُ لاجِيدَرٌ ولا جِبْسُ

لفظة جيدر وحشية غليظة؛ وأغاظ منها لفظة جَفَخَتْ في قول أبي الطيب المتنبي :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَحُونَ بها بهم * شيمٌ على الحسب الأغر دلائلُ

فإن لفظة جَفَخَ مرَّةً الطعم ، وإذا مرَّت على السمع أَقْشَعَرَّ منها ، وكان له مندوحة عن استعمالها فإنَّ جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ وَيَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ وَيَجْفَحُونَ، لآستقام وزن البيت وحطى في استعماله بالأحسن، فهو في ذلك كَتَأَبَّطَ شَرًّا في لفظة جَحِيش في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

هذا ما أورده ابن الأثير من هذا النوع ؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقْلَد

في قول زهير :

تقيُّ تقيُّ لم يُكْثَرْ غَنِيمَةً * بَهَكَةً ذِي قُرْبَى وَلَا حَقْلَدَ

والْحَقْلَدُ السَّيِّءُ الْخَلْقُ^(١). قال في "الصناعتين": وقد أخذ الرواة على زُهَيْرٍ في لفظة الْحَقْلَدِ فاستبشعوها، وقالوا: ليس في لفظ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهَا، وكذلك لفظ الْجَرِشِيِّ في قول أبي الطَّيِّبِ في مدح سيف الدولة بن حمدان وأسمه عليّ:

مُبَارَكُ الْأَسْمِ أَغْرُ اللَّقَبِ * كَرِيمُ الْجَرِشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ

فلفظ الجَرِشِيِّ مما يكرهه السمع، وينبوعه اللسان، والجَرِشِيُّ بمعنى النَّفْسِ فجعل اسمه مباركا، ولقبه أغرّ، ونفسه كريمة، ونسبه شريفا، وذلك أنه كان يسمى عليّاً وهو أسم مبارك لمواقفة أسم أمير المؤمنين: عليّ كرم الله وجهه ويلقب سيف الدولة وهو لقب أعرابي مشهور، وأغرّ أخذاً من غرة الفرس لأنها أشهر ما فيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحَسَبِ والعَرِاقَةِ، وإما باعتبار بذل المال وكثرة العطاء، وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عَرِاقَتِهِ في بيت الملك وعَرِاقَةِ حَسَبِهِ.

الضرب الثاني

(ما يعاب آستعماله في النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه آستخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولاً لغيره. قال: وهذا يكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة.

منها لفظ شَرَنْبَثَةٍ من قول الفرزدق:

ولولا حيَاءُ، زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً * إِذَا سُرِثَ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي
شَرَنْبَثَةً شَمْطَاءَ مَنْ يَرِ مَايَهَا * يُشْبِهُ وَلَوْ بَيْنَ الْخُمَاسِيِّ وَالطُّفْلِ

(١) في القاموس: «الحقْلَد في قول زهير الاثم» ومثله في لسان العرب.

قال : فلفظة شَرَنْبَةِ من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام منشور من كتاب أو خطبة ، لعبت على استعمالها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٌ الواردة في أبياتٍ بُشِّرَ في وصفه لقاءه الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المَهْنَدَ عن يميني * فَقَدَّ لَهُ من الأضلاع عَشْرًا

فَخَرَّ مُضْرَجًا يَدِمُ كَأَنِّي * هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءَ مُشْمَخِرًا

وكذلك في قول البُحَيْرِيِّ في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِي رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظة مُشْمَخِرٌ لا يحسن استعمالها في الخطب والماكتبات ، ولا بأس بها في الشعر ؛ وقد وردت في حُطْبِ الشيخ الخطيب ابن بُنَاتَةَ كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : أَقْمَطَرُ وَبَالُهَا ، وَأَشْمَخَرٌ نَكَالُهَا ، فاطابت ولا ساءت .

ومنها لفظة الكَنُورِ من أوصاف السحاب كقول أبي الطَّيِّب :

يَا لَيْتَ بَاكِئَةً شَجَانِي دَمْعُهَا * نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ فَتَعْدِرَا

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنُورًا

فلفظة الكَنُورِ لا تعاب نظماً ، وتعاب نثراً .

ومنها لفظة العَرِمَسِ ، وهو اسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر ولا يعاب استعمالها كقول المتنبي :

وَهَمَّهِ جَبْتُهُ عَلَى قَدَمِي * تَعِجْزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّلُ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها ، ولو استعملت في الكلام المنشور من

الخطب لما طابت ولا ساغت ؛ وقد جاءت مُوحَّدة في شعر أبي تمام في قوله :
 هي العِرمُسُ الوجناء وابن مِلْمَةٍ * وجأش على ما يُجِدُّ الدهرُ خافِضُ
 ومنها لفظة الشَّدْنِيَّة في قول أبي تمام أيضا .

* يَأْمُوضِعُ الشَّدْنِيَّةَ الوجناء *

وهي ضرب من التوق ، فإن الشَّدْنِيَّة لآتعب شعرا وتعب لو وردت في كتابة
 أو خطبة . هذا ما أورده في "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال :
 وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الألفاظ ؛ وعلى هذا فأعلم أن كل ما يسوغ استعماله
 في الكلام المشور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله
 في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المشور . قال : وذلك شيء استنبطته
 وأطلعت عليه لكثرة ممارستي هذا الفن ، ولأن الذوق الذي عندي دأبني عليه ،
 فمن شاء أن يقلدني فيه ، وإلا فليدمن النظر حتى يطالع على ما أطلعت عليه .
 والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت ، على أن الشيخ سعد الدين التفتازاني رحمه الله
 قد تابعه على ذلك في شرح التلخيص فلا أعلم أقلده في ذلك أم ذوقه أداه إليه ؟ .

الضرب الثالث

(ما يعاب استعماله بصيغة دون صيغة)

قال في "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليّة ، ومكانة شريفة ،
 وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مدّعي فنّ الفصاحة
 وفواوضهم وفواوضوني ، وسألهم وسألوني ، فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا
 الموضوع كما ينبغي ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أُسبق إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فننتقل من القُبْح إلى الحُسْن وبالعكس فيصير القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح والطبع السليم؛ وقد نبه منه على تسعة أنماط .

النمط الأول - ما يترجح فيه الاسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل لفظ خَوْدٌ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل خَوْدٌ على وزن فَعَلَّ بتشديد العين ومعناها أسرع . يقال : خَوْدُ البعير إذا أسرع في مشيه، فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة، قد وردت في النظم والنثر كثيراً، وإذا جاءت على صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبي تمام :

وإلى بنى عبد الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتَكَ النِّعَامِ رَأَى الطَّرِيقُ فَخَوْدًا^(١)

إلا أن لفظة خَوْدٌ قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال عنها بعض القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوْدَ رَأُهَا : * رُوَيْدِكَ لَمَّا تُسَفِّقِي حِينَ مَسَفَّقِي

رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَجَلِي * عَمَايَةُ هَذَا الْعَارِضِ الْمَتَالِقِ

والرَّأُلُ النِّعَامُ، والمراد أن نفسه فزت وفزعت، شبه بإسراع النعام في فراره وفزعه فلما أورد ذلك على سبيل المجاز، زال بعض القبح . قال : وهذا يدركه الذوق الصحيح فهي في بيت أبي تمام قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس على ذلك أشباهه ونظائره .

النمط الثاني - ما يترجح فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي وذلك في مثل لفظة وَدَعَ، وهي فعل ماضٍ ثلاثي لا يُنْقَلُ بها على اللسان، ومع ذلك

(١) في المثل السائر . الظلام . وكذا في ديوان أبي تمام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مُستَحْسَنَةٍ، فإذا أَسْتَعْمَلْتَ على صيغة الأمر أو الأستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما على صيغة الأمر فكما في قوله تعالى: "فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا" ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة، وأما على صيغة الأستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال: "لَوْ مَدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصِلًا وَصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمِّقَهُمْ" وقد أَسْتَعْمَلَهَا أَبُو الطَّيِّبِ على هذا الوجه في قوله:

تَشْقُكُمْ بِقَنَاهَا كُلَّ سَاهِيَةٍ * وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ

جاءت في كلامه بهجة رائقة، وأما الماضي من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذًا ولا حُسْنَ له، كقول أبي العتاهية:

أَثَرُوا فَلَمْ يَدْخُلُوا قُبُورَهُمْ * شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وَكَانَ مَاقَدَّمُوا لَأَنْفُسِهِمْ * أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الذِّى وَدَعُوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعًا، ولا أصابت من الطَّلَاوة غَرْصًا، وهذه لفظة واحدة لم يتغير شيء من أحوالها سوى أنها نقات من صيغة إلى صيغة؛ وكذلك لفظة وَذَرَ فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: "ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا". وتستعمل مستقبلية أيضا كقوله تعالى: "سَأُصْلِيهِ سَقَرًا وَمَا أُدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ" ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة الماضي، فإنها أقبح من لفظة وَدَعَ، وقد أَسْتَعْمَلْتَ ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا.

الخط الثالث - ما يرجع فيه الأفراد في الأستعمال على التثنية، وذلك في مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعالى: "وَدَعَ أَذَاهُمْ".

الْأَخْدَعُ ، فإنها يحسن استعمالها في حالة الأفراد دون التثنية ؛ فمما وردت فيه مفردة بجاءت حسنة رائقة ، قول الصِّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَقَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي * وَجِئْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا

ومما ورد فيه لفظ التثنية بجاء ثقيلا مستكرها قول أبي تَمَّام :

يَا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعِكَ فَقَدْ * أَصْبَحْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرْقِكَ

هكذا ذكره في المثل السائر ، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما فَحَسُنَتْ ، وجاءت مشناة في الآخر ففُجِعَتْ .

النمط الرابع - ما يرجح فيه الأفراد في الاستعمال على الجمع ، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة ، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى : ” وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا “ أَوْ قُرِنَتْ بِالسَّمَاءِ مفردة كما في قوله تعالى : ” وَيُمِسُّكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ “ أَوْ مجموعة كما في قوله تعالى : ” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ “ ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنا ، لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابلة الجمع في السموات ، ولما أراد أن يأتي بها مجموعة قال : ” اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ “ وكذلك لفظة البُقعة ، وكذلك لفظة طَيْفٌ في ذكر طَيْفِ الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوفٍ ، وهي في حالة الأفراد من أَرْقِ الْأَنْفَاطِ وَالطُّفْهَاءِ ، فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلَاوة ، وفارقتها تلك البَهْجَةُ ، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الأفراد قال تعالى : ” إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ “ . ولم تزل الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الأفراد فيقع أحسن موقع ، ولم يلبسوا باستعماله مجموعا ، قال في المثل السائر : ويالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدّة ووزنا، وهى ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا مما لا يُعلم السرّ فيه، والدوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما، وكذلك يجرى الحكم فى جميع المصادر، فإنها فى حالة الإفراد أحسن منها فى حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة بخفاء غنة مستكرهة، كما فى قول عنتره:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْتَ عَلَيْهِ * وَإِنْ يَفْقِدْ فَحَقَّ لَهُ الْفُقُودُ

فالفقود جمع مصدر من قولنا: فقد يفقد فقدا، وليس له من الروق والطلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فقّد، وإن كان جائزا من جهة العربية.

النمط الخامس - ما يترجح فيه الجمع فى الاستعمال على الإفراد كلفظة اللبّ الذى هو العقل، فإن استعمالها بصيغة الجمع فى غاية الحسن والبهجة والطلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة فى غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: "وَلَيَنْتَكِرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"، وقوله: "وَمَا يَذْكُرْ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"، إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع، أما فى حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق، بعيدة المخارج، ليست بمستنقلة ولا مكروهة، قال فى المثل السائر: وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر فى رموزه وأسراره، وجدت هذه اللفظة قد روى فيها الجمع دون الإفراد فإن أضيفت أو أضيف إليها، حسن استعمالها، وساغ فى طريق الفصاحة إيرادها. أما إضافتها فكقول النبي صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء: "مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَامَعْشَرَ النِّسَاءِ"، وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَا، ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ * وَهُنَّ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنَّهُنَّ

قال في المثل السائر : فإن عَرِيت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق السليم ، وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة ، وهى وإن لم تكن مستقبحة في حالة الأفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وأنظر إلى ما عليها من الطلاوة والمائية في قوله تعالى : ” يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ” وعلى هذا النحو لفظ رجاً بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنها قد وردت في القرآن بلفظ الجمع في قوله تعالى : ” وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ” أى جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكسِبها من الحسن ما لم يوجد لها حالة الأفراد ؛ فإن أضيفت حالة الأفراد كرجا البئر ونحوه ، حسنت كما في حالة الجمع . قال في المثل السائر : وليس كذلك لفظ الصُّوف والأصواف ، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم إلا مجموعا حيث قال تعالى : ” وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ” لأن لفظ الصوف مستحسن في حالة الأفراد كما في حالة الجمع . قال : وإنما قُبِح ذكره في قول أبى تمام :

كَانُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا * فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفًا

لأنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان . قال : وعلى هذا النهج وردت لفظة حبر وأجبار فإنها مجموعة أحسن منها مفردة ، ولم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة .

المنط السادس - ما يترجح فيه بعض الجموع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقال في الجمع سِهَام صَوَائِبُ وصَائِبَاتٍ وَصَيْبٌ بالتشديد ، وهذه الجموع كلها حسنة ، رائقة ، مُعْجِبَةٌ ، دَائِرَةٌ عَلَى أَلْسِنَةِ أَرْبَابِ الثَّرِّ وَالنَّظْمِ ، ويقال في جمعه أيضا صَيْبٌ عَلَى وَزْنِ كُتُبٍ ، وهو جمع قبيح ،

مرفوض الاستعمال، ثقیل علی النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نواس
فی شعره حیث قال :

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعْتُ * عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةُ فِي

قَتَلْتُ إِنْسَانًا كَيْدِي * بِسَهَامٍ لِلرَّدَى صُيِّبَ

جاءت غنة كريمة نابية عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع في قيد،
فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الاستعمال؛ ويقال في جمعه أيضا
أقياد، وهو من الجوع المستكرهة الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول عوف
القوافي من أبيات الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يَحْسُ رُقَادُ * مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ

لَمَّا أَتَانِي مِنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ * أَمْسَتْ عَلَيْهِ تَظَاهِرُ الْأَقْيَادُ

فلم يحسن ولم يرق، وكذلك القول في جمع قبة، فإنه يجمع على قباب وهو جمع
حسن دائر على ألسنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا على قُبَب،
وليس بمستحسن، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قيد، وقد استعمله
أبن محكان التميمي في قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أَتَذْنِيهِمْ لِأَرْحَانَا * فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِي لَهُمْ قُبَا؟

فلم يحسن بحسن قباب بل جاءت كريمة مستشعة؛ وأعجب ما في هذا الباب
أن الجمع قد يكون متفقا في لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاستعمال
في الجمع باختلاف المعاني حتى لو جىء بجمع في مكان لم يحسن استعماله وإن
كان جائزا من جهة العربية : كلفظ العين، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها
على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النية منهم، والعين الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع على أعيان، وقد شذ هذا الموضع على المتنبي في قوله :
وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ * وَالْخَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبْلُ

بجمع العين الباصرة على أعيان في الموضعين، قال في "المثل السائر": وكانت الذوق
يأبى ذلك ولا يجد له على اللسان حلاوة وإن كان جائزاً، وأعجب من ذلك كله أنك
ترى وزناً واحداً من الألفاظ، فتارة تجد مفردة حسناً، وتارة تجد جمعه حسناً،
وتارة تجدهما جميعاً حسنين .

فما مفردة أحسن من جمعه خبرور : وهو قرخ الحبارى، فإنه يجمع على حبارير
ومفردة أحسن من جمعه، وكذلك طنبور وطناير، وعرقوب وعراقيب، وما
أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفردة بهلول وبهاليل، ولهموم ولهاميم، وهذا ضد الأول .
ومما مفردة حسن وجمعه حسن جمهور وجهير، وعرجون وعراجين وما
أشبه ذلك .

النمط السابع - ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون
كلفظ الثالث والرابع إلى العشر، فإنها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال
فإذا تحركت أوساطها فقلت ثلث، ورُبُع، وخمُس وكذلك إلى عَشْر، فإن الحسن
من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثلث، والخمُس، والسدُس أما الربع، والسبع، والثنى،
والتسع، والعشر فليس كذلك في حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك في السبع، والتسع،
والعشر خاصة فإن الثقل ظاهر فيها، أما الربع والثنى فانهما في الحسن مع تحريك
الوسط كالثلث، والخمُس، والسدُس، وقد ورد القراءان بتحريك الوسط فيهما في سورة
النساء حيث قال تعالى : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ

لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ“ وقوله: ”وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَالْثَمَنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ“ وأى حُسْن وفصاحة بعد وروده في القرآن الكريم ؟

النمط الثامن - ما يترجح فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض كَأَسْمِ الْفَاعِلِ الْمُبْنِيِّ مِنْ فَعِلَ بَفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِ الْعَيْنِ ، فَإِنَّهُ يَبْنَى عَلَى فَاعِلٍ وَفَعِيلٍ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفَعْلَانٍ نَحْوُ حَمِدَ فَهُوَ حَامِدٌ ، وَحَمِدٌ ، وَحَمْدَانٌ ، وَفَرِحَ فَهُوَ فَرِحٌ ، وَفَارِحٌ ، وَفَرِحَانٌ ، وَغَضِبَ فَهُوَ غَضِبَانٌ ، وَغَاضِبٌ ، فَالْأَفْعَالُ الثَّلَاثَةُ عَلَى وَزْنٍ وَاحِدٍ ، وَصِيغُ أَسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ الْمُبْنِيَةِ مِنْهَا مُخْتَلِفَةٌ فِي الْأَحْسَنِ الْغَالِبِ اسْتِعْمَالُهُ ، فَحَامِدٌ مِنْ حَمِدَ أَحْسَنُ مِنْ حَمِدٍ وَحَمْدَانٌ ، وَفَرِحٌ مِنْ فَرِحَ أَحْسَنُ مِنْ فَارِحٍ وَفَرِحَانٌ ، وَغَضِبَانٌ مِنْ غَضِبَ أَحْسَنُ مِنْ غَاضِبٍ ، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا ؛ وَقَدْ جَاءَ بِنَاءُ أَسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ فَرِحَ عَلَى فَارِحٍ فِي قَوْلِ بَعْضِ شُعَرَاءِ الْحِمَاسَةِ :

فَمَا أَنَا مِنْ حُرْنٍ وَإِنْ جَلَّ جَارِعٌ * وَلَا يَسُرُّورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

فلم يحسن كحسْنِ فَرِحَ ، أما ما جاء منه على وَزْنِ فَعْلَةٍ نَحْوُ هُمَزَةٍ وَلِزَةٍ وَجُمَةٍ وَنَوْمَةٍ وَلُكْنَةٍ وَلُحْنَةٍ ، وما أشبه ذلك ، فقد قال في ”المثل السائر“ : الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع - ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وأفتعل فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه : ولفظة أفتعل لها موضع تستعمل فيه ، تقول : قعدت إلى فلان إذا جلست إليه ، وأقعدت غارب الجمل ، إذا ركبت عليه ، ولا يحسن أن تقول أقعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل ، وإن كان ذلك جائزًا ، وكذلك أفعول وأفعوعل فإنك تقول أعشَبَ المكان ، فإذا كثَرُ عَشَبُهُ قلت : أعشَوَشَبَ فلفظة أفعوعل للتكثير ، وهى على ما فيها من تَكَرُّرِ الْحُرُوفِ طَبِيعَةٌ

عَدْبَةٌ، وكذلك سائر ما في وزننا نحو آخَشَوْشَ المِكان، وآغَرَّ وَرَقَتِ العين، وأَحْلَوَى الطعم، وما أشبه ذلك، قال في "المَثَل السَّائِر": وهذا كله مما أخذته بالاستقراء، وفي اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن استقصاؤها.

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقد أمثال هذه الكلمات لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيرا ما يقع فحول الخطباء والشعراء في مثلها، ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرَّت به الألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح، فما يحده الحسُّ منها مُوحِّداً وحده، وما يحده الحسُّ منها مجموعاً جمعه، وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ.

الصنف الثالث

(المتوحش في زمن دون زمن)

وهو ما كان متداول الاستعمال في زمن العرب، ثم رُفِضَ وترك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا، ولا لديهم غريباً كما سيأتي التنبيه عليه، وإنما يعاب استعماله على غيرهم ممن قَصُرَ فهمهم عنه، وَقَلَّتْ معرفتهم به، وقد كان كلام العرب مشحوناً به في نظمهم ونثرهم، دأراً على ألسنتهم في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وأنظر إلى ما انضمت به خطبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عياناً؛ فمن ذلك قول أبي المَثَمِّ الهُدَلِيِّ:

أَبِي الهَضِيمَةِ نَابٍ بِالْعَظِيمَةِ مَتَّـلَافُ الْكَرِيمَةِ جَلْدٌ غَيْرُ ثِيَانٍ
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَّالُ الْوَدِيقَةِ مَعْتَنَاقُ الْوَسِيقَةِ، لَا نَكْسُ وَلَا وَاِنٍ
رَبَّاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَابُ سَلْهَبَةٍ، قَطَّاعُ أَقْرَانٍ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَادُ أُنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَانٍ

وقول أعرابي في وصف إبل : كُومٌ بهَّازِر ، مُكَّدٌ خَنَاجِر ، عِظَامُ الحَنَاجِر ، سِبَاطُ المَشَافِر ، أَجَوَافُهَا رِغَاب ، وَأَعْطَانَهَا رِحَاب ؛ تُنَمَّعُ مِنَ البَهَمِ ، وَتَبْرُكُ لِلْجَمَمِ . يريد بالكُوم جمع كَوْمَاء ، وهى الناقة العظيمة السَّنام ، والبَهَّازِر جمع بهزرة : وهى الناقة العظيمة ، والمُكَّد جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والخنَاجِر جمع خُنْجور : وهى بمعنى المَكُود أيضا ، والعِظَام الخنَاجِر غِلَظُ الأَعْنَاق ، وَسِبَاطُ المَشَافِر أى مرسَلات المشافر ، والمِشْفَرُ من الناقة كَالْحَقْفَلَةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى ويخروط فى هذا السِّلْك ؛ فهذا ومثله لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم غربيا ولا لديهم وَحْشِيًّا ، بل شائعا بينهم ، دائرا على ألسنتهم فى نظمهم ونثرهم ؛ وأعظم شاهد لأستحسان استعماله عندهم ووضوح منهجه لديهم أن القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد آشتل على ألفاظ من ذلك كقوله تعالى : ” وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ” وقوله : ” إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ” وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومة المعانى عند المخاطبين : لأن الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، والخطاب بما لا يفهم بعيد ، وقد قال تعالى : ” وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ” . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلى الله عليه وسلم ” مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تِرَةٌ ” أى نقص ، وقيل تَبِعَةٌ ، وقيل حَسْرَةٌ . وقوله صلى الله عليه وسلم ” لَيْسَ تَرَجُّعُ أَحَدِكُمْ حَتَّى فِي شِسْعٍ نَعْلِهِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَصَائِبِ ” والشَّعُّ أحدُ سيور النعل ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : ” أَلْطُوا بِيَاذَا الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ ” أى ألزموا هذه الدعوة وأكثروا منها . وقوله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء : ” وَأَغْسِلْ حَوْتِي وَأَسْلُلْ سَخِيمةَ قَلْبِي ” وأشبه ذلك .

وحديث أم زرع صريح في شيوع ذلك فيهم، وعمومه في مخاطباتهم ومكالماتهم؛ وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : "جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَنَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا .

قالت الأولى : زوجي لَمْ يَحِلَّ غَتٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ، لَسَهْلٌ فَيَرْتَقِي وَلَا سَمِينٌ فَيَنْتَقِي ، وفي رواية فينقل .

قالت الثانية : زوجي لَا أَبْتُ خَبْرَهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذْرَهُ ، إِنْ أَذْكُرَهُ أَذْكُرْ عَجْرَهُ وَيَجْرَهُ .

قالت الثالثة : زوجي العَشَقُّ ، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقَ ، وَإِنْ أَسْكُتَ أُعْلَقَ .

قالت الرابعة : زوجي كَلِيلُ تِهَامِهِ ، لَأَحْرٌ وَلَا قُرٌّ وَلَا خَوْفٌ وَلَا سَامَهُ .

قالت الخامسة : زوجي إِنْ دَخَلَ فَهَدَ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدَ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهَدَ .

قالت السادسة : زوجي إِنْ أَكَلَ لَفَّ ، وَإِنْ شَرِبَ أَشْتَفَّ ، وَإِنْ أَضْطَجَعَ أَلْتَفَّ ، وَلَا يُوجِلُ الْكَفَّ ، لِيَعْلَمَ الْبَثَّ .

قالت السابعة : زوجي عَيَاءُ طَبَاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ ، شَجَاكَ أَوْ فَلَكَ أَوْ جَمَعَ كَلَالِكَ .

قالت الثامنة : زوجي الرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ ، وَالْمَسُّ مَسُّ أَرْبَبٍ .

قالت التاسعة : زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ ، طَوِيلُ النَّجَادِ ، عَظِيمُ الرَّمَادِ ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ .

قالت العاشرة : زوجي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ، لَهُ إِبِلٌ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ ، كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ .

قالت الحادية عشرة : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ وَمَا أَبُو زَرْعٍ ؟ أَنَاسٌ مِنْ حُلِيِّ أَذْنِي ،

وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضْدِي، وَيَجْعَلُنِي فَبَجَعَتْ إِلَى نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةِ بَشِقٍ،
فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَارْقُدْ نَاتَصِبُ،
وَأَشْرَبُ فَاتَّقَحُ، (وفي رواية فَاتَّقَمَحُ) ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ؟ عَكُومَهَا
رَدَّاحُ، وَبَيْتُهَا فَسَاحُ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ؟ مَضْجَعُهُ كَسَلٌ شَطْبِي،
وَتَشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ
أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارِيَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ؟
لَا تَنْتُ حَدِيثُنَا تَنْتِيْنَا (وفي رواية لَا تَبْتُ حَدِيثُنَا تَبْتِيْنَا)، وَلَا تَنْتُ مِيرَتَنَا تَنْتِيْنَا، وَلَا
تَمَلُّ بَيْنَنَا تَعَشِيْنَا. قالت : خرج أبو زرع والأوطابُ مُخْصَصُ، فَلَقِيَ أَمْرَأَةً مَعَهَا
وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُقَمَاتَيْنِ فَطَلَقْنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ
بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ سَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيًّا، وَأَرَاخَ عَلَى نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ
رَائِحَةٍ زَوْجًا، (وفي رواية فَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ ذَائِحَةٍ زَوْجًا). وقال : كُلِّي أُمُّ زَرْعٍ وَمِيرِي
أَهْلِكِ ، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ

قالت عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنتُ لكِ كَأُمِّي زَرْعٍ لَأُمِّ
زَرْعٍ (وفي رواية غير أُمِّي لَا أَطْلُقُكَ) .

فإذا كان هذا كلام نساءهم الدائر فيما بينهم من محادثاتهن مع بعضهم في خلواتهن،
فما ظنك بقرسان الكلام في نظمهم ونثرهم ؟ فأنشأ يعاب عليهم ذلك، ويُنكر عليهم
الإتيان بمثله ؟

وقد آخِضَ رجلٌ وأمرأة إلى يحيى بن يعمر، وهو من أكابر التابعين وجِلَّتِهِم،
فقال للرجل : أَلَا سَأَلْتُكَ مِمَّنْ شَكَرَهَا وَشَبَّرَكَ ، أَنْشَأَتْ تَطْلُهَا وَتَضْمَلُهَا ؟ أما غير
العرب ممن تكلف ذلك وأتى به في كلامه المعتاد في مخاطباته أو نثره ونظمه فإنه
يعاب عليه ذلك، ويخطأ به عن درجة الفصاحة ، ويخرج به عن قانونها ، إذ

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كل أحد بما يفهمه ولا يكلف بما لا يعلمه ، وخير الكلام ما جاد وأفاد . قال بشر بن المعتمر : إياك والتوَعَّر ، فإنه يُسَلِّمُكَ إلى التعقيد والتقييد ، وهو الذى يستهلك معانيك ، ويمنع مراميكَ .

قال أبو هلال العسكري : وربما غلب سوء الرأى وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السُّوقَ ، والمملوكَ والأعجميَّ ، بألفاظ أهل نجد ، ومعانى أهل السَّراة ، وحكاياتهم فى ذلك كثيرة . قال أبو نصر الجوهريّ .: سقط عيسى بن عمر عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُتُمْ عَلَى تَكَاكُوتُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ؟ افْرِتَقُوا عَنِّي . أى ما لكم اجتمعتم على اجتماعكم على ذى جِنَّةٍ تفرقوا عني . وذكر الجاحظ هذه الحكاية عن أبى علقمة النحوى بزيادة فقال : مر أبو علقمة ببعض طُرُق البصرة فهاجت به مِرَّةٌ فوثب عليه قوم يعرضون إمامه ويؤذنون فى أذنه ، فَأَقْلَتَ من أيديهم وقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُتُمْ عَلَى تَكَاكُوتُونَ عَلَى ذِي جِنَّةٍ افْرِتَقُوا عَنِّي . فقال بعضهم : دَعُوهُ فَإِنَّ شَيْطَانَهُ يَتَكَلَّمُ بِالْهِنْدِيَّةِ .

وقال أبو علقمة يوما لحاجه : أَشْدُدْ قَصَبَ اللَّهَازِمِ ، وَأَرْهِفْ ظُبَاتِ الْمَشَارِطِ ، وَأَمِرَّ الْمَسْحَ ، وَأَسْتَجِلْ الرَّشْحَ ، وَخَفِّفِ الْوِطْعَ ، وَعَجِّلِ التَّرْعَ ، وَلَا تُكْرِهَنَّ آيَاءَ ، وَلَا تَرْدَنَّ آيَاءَ ، فقال له الحَجَّامُ : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل وتحتسه بغلٍ مِصرى حسن المنظر ، فقال : إن كان محبباً لهذا البغل كمنظريه فقد كل ! فقال أبو علقمة : والله لقد خرجت عليه من مِصر فتكبت الطريق مخافة السُّراقِ وجورِ السلطان ، فبينما أنا أسير فى ليلة ظلماء ، قَتَمَاءَ ، طَخِيَاءَ مُدْهِمَةٍ ، حِنْدِسٍ ، دَاجِيَةٍ ، فى صَوَّحِ أَمْلَسٍ ، إذ أحس بَنَبَاةٍ من صوت نَفَرٍ ، أو طَيْرَانِ ضَوْعٍ ، أو نَغْضِ سَبَدٍ ، فَحَاصَ عن الطريق مُتَنَجِّجًا لِعِزَّةِ نَفْسِهِ ، وَفَضَّلَ

قُوَّتِهِ ، فَبَعَثْتَهُ بِالْجَاحِمِ فَعَسَلَ ، وَحَرَّكَتَهُ بِالرَّكَابِ فَسَلَّ ، وَأَنْتَعَلَ الطَّرِيقَ يَغْتَالُهُ مُعْتَرِمًا ،
وَالْتَحَفَ اللَّيْلَ لِأَيَّامِهِ مُظْلِمًا ، فَوَاللَّهِ مَا شَبَّهَتْهُ إِلَّا بَطْيِيَّةَ نَافِرَةٍ تَحْفِرُهَا فَتَخْأُ شَاغِيَةً ،
فَقَالَ الرَّجُلُ فَادْعُ اللَّهَ وَسْأَلُهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَكَ هَذَا الْبَغْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَلِمَ ؟
قَالَ : لِيُجِيزَكَ الصَّرَاطَ بِطَفْرَةٍ .

وَكَانَتْ أَمْرَأَةٌ تَأْكُلُ الطَّيْنَ فَخَصَلَ لَهَا بِسَبَبِهِ إِسْمَاعِيلُ مَرَضَتْ مِنْهُ ، وَكَانَ لَهَا
وَلَدٌ يَتَكَلَّمُ بِالْغَرِيبِ ، فَكَتَبَ رِقَاعًا وَطَرَحَهَا فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ . فِيهَا
صَبِيحٌ أَمْرُؤٌ وَرَعِيٌّ ، دَعَا لَأَمْرَأَةٍ إِنْقَعَلَةَ مُقْسَنَةً قَدْ مُنِنَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوقِ فَأَصَابَهَا
مِنْ أَجَلِهِ الْإِسْتِمْصَالُ أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالْأَطْرِغَشَاشِ . فَكُلَّ مِنْ قَرَأَتْ رُقْعَتَهُ ، دَعَا عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَلَعَنَ أُمَّهُ .

وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْمَغَازِي الضَّبِّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ
إِلَّا بِالْغَرِيبِ ، نَفَخَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حَجَرٍ ، مَعَهَا مِهْرٌ فَأَقْلَعَتْ ، فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مِهْرُهُ
نَخْرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَمَرَّ بِحَيَّاطٍ فَقَالَ : يَا ذَا النَّصَاحِ وَذَاتِ السَّمِّ ، الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ
وَعَيٍّ لَغَيْرِ عَدِيٍّ ، هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَاءَ يَتَّبِعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسْرَهْفُ ؟ كَأَنَّ غُرَّتَهُ
الْقَمَرُ الْأَزْهَرُ ، يَنْبِرُ فِي حُضْرِهِ كَأَنَّ الْبُحْرَ الْأَجْرَدَ ، فَقَالَ الْخَيَّاطُ : أَطْلُبُهَا فِي تَرْلُجٍ ؟
فَقَالَ : وَيَحْكُ مَا تَقُولُ ! قَبِّحَكَ اللَّهُ ، فَإِنِّي مَا أَعْرِفُ رَطَانَتَكَ . قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ
أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَأَنَا مَنْطِقًا .

وَضَرَبَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ عَيْسَى بْنُ عَمْرِو النَّحْوِيُّ ضَرْبًا كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ وَدِيعَةٍ
فَكَانَ يَقُولُ وَهُوَ يَضْرِبُ : مَا هِيَ إِلَّا أَثْيَابٌ فِي أَسْفَاطٍ أَخَذَهَا عَشَارُوكَ . وَسَأَلَهُ
رَجُلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ . فَقَالَ : لَيْسَتْ مَسْأَلَتُكَ يَتَنَّا : أَيْ لَيْسَتْ مُسْتَوِيَّةً ، وَأَصْلُ الْيَتَنِ
نَخْرُجُ رِجْلَ الْوَلَدِ قَبْلَ رَأْسِهِ . وَسَأَلَهُ آخَرُ عَنْ كِتَابَتِهِ ، فَقَالَ : كَتَبْتُ حَتَّى أَنْقَطَعَ

(١) كَذَا فِي الصَّنَاعَتَيْنِ أَيْضًا وَلَعَلَّهُ مَصْحُفٌ عَنِ الطَّيْرِ بِالرَّاءِ بِدَلِيلِ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ فَإِنَّ الطُّرْمُوقَ اسْمٌ لِلْخَفَاشِ وَهُوَ
مِنَ الطَّيْرِ .

سوائى أى ظهري ، على ان أبا جعفر النحاس قد عدّ عيسى بن عمر من المطبوعين في ذلك . قال الجاحظ : رأيتم يديرون في كتبهم هذا الكلام فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودَوَّنُوهُ لأنه يدل على فصاحة وبلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرمّاح وأشعار هذيل تأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأصمعيّ بمثل هذا الكلام ، لظننت أنه يستجهل نفسه ، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصنف الرابع

(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضَر منهم ، فإن أهل الحَضَر يَأْلِفُونَ السَّهْلَ من الكلام ، ويستعملون الألفاظ الرقيقة ، ولا يستعملون الغريب إلا في النادر ، وأهل البادية يَأْلِفُونَ اللفظ الجَزَلَ ويميلون إلى استعمال الغريب ، وإذا نظرت إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَرْوَمتِهِمْ ، وكلام أهل حَضَرَمَوْتَ وما جاورها من اليمن ومخالف الحجاز ، علمت فرقَ ما بين الكلامين ، وتباين ما بين الطرفين ، حتى كأنَّ البادى يَرْتُّنُ بالنسبة إلى الحاضر ، ويتكلم بلغة غير العربية ، وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يتكلم بها على الدوام ، ويخاطب بها الخاص والعام ، لغة قريش وحاضرة الحجاز ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أَوْقَى جوامع الكلم وجمع إلى سُهولة الحاضرة جَزالة البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وِثَامَةَ وقبائل اليمن بلغتهم ، ويخاطبهم في الكلام الجَزَلَ على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهْدِيِّ وكتابه إلى بنى نَهْدٍ ، وذلك أنه لما قَدِمَ وفودُ العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زُهَيْرٍ

النَّهْدِيُّ . فقال : أئتيك يا رسول الله من غُورِ تِهَامَةٍ على أَكْوَارِ المَيْسِ ، ترمي بنا العيسُ ، نستَحلب الصَّيْبَ ، ونستَخِيب الخَيْرَ ، ونستَعِضد البريرَ ، ونستَحِيلُ الرَّهَامَ ، ونستَحِيلُ الجَهَامَ ، من أرض غائلة النَّطَاءِ ، غليظة الوطاءِ ، قد جَفَّ المِذْنُ ، ويَسَّ الجَعْنُ ، وسَقَطَ الأُمْلُوجُ ، ومات العُسْلُوجُ ، وهَلَكَ الهَدْيُ ، وفادَ الودِيّ ، برثنا إليك يا رسول الله من الوثنِ والعَثنِ ، وما يُحَدِّثُ الزَّمَنُ ؛ لنا دعوةُ السلامِ ، وشريعةُ الإسلامِ ماطما البحرِ ، وقَامَ تَعَارٌ ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ، ماتِ بَيْضٌ بِلَالٌ ، ووَقِيرٌ كَثِيرٌ الرِّسْلِ ، قليلُ الرِّسْلِ ، أصابتها سُدْيَةٌ حَرَاءُ مُؤْزِلَةٌ ، ليس لها عِلٌّ وَلَا نَهْلٌ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” اللّٰهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُحَضِّهَا وَمَحْضِهَا وَمَذْقِهَا وَفَرْقِهَا ، وَأَبْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ بَيَانِ الثَّمَرِ ، وَأُفْجِرْ لَهُمُ الثَّمَدَ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ ، كَانَ مُسْلِمًا . وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ ، كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَانَ مُخْلِصًا . لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكِ ، وَوَضَائِعُ الْمُلْكِ ، لَا تُلَطِّطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تُأْخِذُ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ “ .

وكتب معه كتابا إلى بني نهد فيه ” بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة ، ولكم العارض والفرش وذو العنان الرُّكُوبُ ، والفلو الضَّيِّبُ ؛ لَا يُمْنَعُ سَرْحُكُمْ ، وَلَا يُعْضَدُ طَائِحُكُمْ وَلَا يَمْنَعُ دَرُكُمْ مَالٌ تُضْمِرُوا الإِمَاقَ ، وتأكلوا الرِّبَاقَ ؛ مَنْ أَقْرَفَ لَهُ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةِ ؛ وَمَنْ أَبَى فَعَلِيهِ الرِّبْوَةُ . “

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة همدان ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه صلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وَفْدُ هَمْدَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ أَبُو ثَوْرٍ ، وَهُوَ ذُو الْعِشْعَارِ ، وَمَالِكُ بْنُ أَيْقَعٍ ، وَضَبَامُ بْنُ مَالِكِ السُّلَمَانِي ، وَعَمِيرَةُ بْنُ مَالِكِ الْخَارِفِي ، فَلَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَرَجِعَهُمْ مِنْ تَبُوكَ وَعَلَيْهِمْ مُقَطَّعَاتِ الْحَبَرَاتِ وَالْعَائِمِ الْعَدَنِيَّةِ ، بِرَحَالِ الْمَيْسِ عَلَى
 الْمَهْرِيَّةِ وَالْأَرْحِيَّةِ ، وَمَالِكُ بْنُ نَمِطٍ وَرَجُلٌ آخَرٌ يَتَجَزَّانِ بِالْقَوْمِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا :
 هَمْدَانُ خَيْرُ سُوقَةٍ وَأَقْيَالُ * لَيْسَ لَهَا فِي الْعَالَمِينَ أَمْثَالُ
 مَحَلُّهَا الْهَضْبُ وَمِنْهَا الْأَبْطَالُ * لَهَا إِطَابَاتُ بِهَا وَكَأَلُ
 وَيَقُولُ الْآخَرُ :

إِلَيْكَ جَاوَزَنَ سَوَادَ الرَّيْفِ * فِي هَبَوَاتِ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ
 * مُحَطَّمَاتٍ بِجِبَالِ اللَّيْفِ *

فَقَامَ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! نَصِيَّةٌ مِنْ هَمْدَانَ مِنْ كُلِّ
 حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَتَوَكَّ عَلَى قُلُوصِ نَوَاجٍ ، مَتَّصِلَةٌ بِجِبَالِ الْإِسْلَامِ ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ
 لَائِمٌ ، مِنْ مُخْلَافٍ خَارِفٍ ، وَيَايَمٌ ، وَشَاكِرٌ ، أَهْلُ السَّوَادِ وَالْقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ
 الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ مَا أَقَامَ لَعَلَّعٌ ، وَمَا جَرَى الْعَفْوَورُ بِصُلْعٍ .
 فَكَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا فِيهِ ” بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ !
 هَذَا كِتَابٌ مِنْ مَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُخْلَافٍ خَارِفٍ وَأَهْلِ جَنَابِ
 الْهَضْبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ ، مَعَ وَافِدِهَا ذِي الْمِشْعَارِ : مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ ، وَلِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ
 عَلَى أَنْ لَهُمْ فِرَاعَهَا وَوَهَاطَهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، يَأْكُلُونَ عِلَافَهَا وَيَرْعَوْنَ
 عَافِيَهَا ؛ لَهُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَامُ رَسُولِهِ ، وَشَاهِدُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ . “

فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدُّجَى * وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَالِدِ
 وَهْنٍ بِنَا خَوْصَ طَلَاخٍ تَعْتَلِي * بِرُكْبَانِهَا فِي لَاحِبٍ مُتَمَدِّدِ
 عَلَى كُلِّ قَتْلَاءِ الدَّرَاعَيْنِ جَسْرَةً * تَمْرُنَا مَرَّ الْحِجَفِّ الْخَفِيدِ

حَلَفْتُ رَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنِّي * صَوَادِرَ الرُّجَّانِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدَدٍ
 بِأَنْ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ * رَسُولُ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ
 فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِيهَا * أَبْرَ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ * وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِقِيِّ الْمُهَنْدِ

وفي رواية أن في كتابه إليهم، إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها
 وترعون عفاءها، لنا من دفيهم وصرامهم ما سأموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة
 الثلب والناب، والفصيل والعارض، والداجن والكبش الحورى، وعليهم فيها
 الصالغ والقارح .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لا تكدر دومة . قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه
 ”بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، لا تكدر حين أجاب إلى الإسلام، وخلع
 الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد، سيف الله في دومة الجندل وأكافها، إن لنا
 الضاحية من الضحل^(١) والبور والمعالي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والحافر
 والحصن، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، ولا
 تعدل فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحققها،
 عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر
 من المسلمين“ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت، وهو
 ”بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الأقبال العبايلة من أهل حضرموت
 بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعة الشاة، والتيمة لصاحبها، وفي السيوب

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء ويروى ”لكم الضاحية من البعل“ وهو النخل

الخمس ، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ، ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مُسَكِّرٍ حرامٌ . وفي رواية أنه كتب إليهم " إلى الأقبال العبايلة والأرواح المشايب ، وفي التبعة شاة لا مقورة الألباط ولا ضناك ، وأنطوا الشجة وفي السيوب الخمس ، ومن زنى من أميكر فأصقعه مائة ، وأستوفضوه عامًا ، ومن زنى من أمييب فضرجه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا عمة في فرائض الله تعالى ، وكل مُسَكِّرٍ حرامٌ ، ووائل بن حُجْرٍ يترفل على الأقبال " .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله " في المثل السائر " : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها كحديث طهفة وما جرى مجراه ، على أنه قد كان في زمنه أولاً متداولاً بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيراً لأنه أعلم بالفصح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصح أن لا يكون مبتدلاً عامياً ، ولا ساقطاً سوقياً)

واللفظ المبتدل على قسمين

القسم الأول

مالم تغيره العامة عن موضعه اللغوى إلا أنها أختصت باستعماله دون الخاصة فابتدل لأجل ذلك وسُخِفَ لفظه ، وأنحطَّت رتبته لأختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعمله من الخاصة مَلُوماً على الإتيان به لمشاركة العامة فيه ، وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فَعِيبَ عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدق من قصيدة :

وأصبح مبيض الضرب كأنه * على سروات التبت قطن مندق

فقوله مبتدأ من الألفاظ العامة المبتدلة ، وإن كان له أصل في اللغة يقال نَدَفَ القُطْنُ إذا ضربه بالْمِنْدَفِ ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف نَدِيف .

ومن ذلك قول أبي نُؤَاس :

وَمِلْحَةٍ بِالْعَدْلِ تَحْسَبُ أُنَى * بِالْجَهْلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ

فالشطار جمع شاطر ، وهو في أصل اللغة اسم لمن أعيأ أهله حُبْنًا ، يقال منه شَطَّرَ وشَطَّرَ بالفتح والضم شَطَّارَةً بالفتح فيهما ، ثم أَسْتَعْمَلَ في الشجاع الذي أعيأ الناس شجاعةً ، وغلب دَوْرَانُهُ على لسان العامة فَأَمْتَنَ وَأَبْتَدَلَ ، فَاسْتَعْمَلَ أبا نُؤَاسٍ له غير لائق ، وكذلك قوله أيضا :

يَأْمَنُ جَفَانِي وَمَلَأَ * نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا

وَمَا تَمَرَّحِبَتَ لِمَا * رَأَيْتَ مَالِي قَلًّا

إِنِّي أَظُنُّكَ فِيمَا * فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرْيُثُ

فلفظ القِرْيُثُ من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وهو اسم لطائر صغير من طيور الماء يَخْطُفُ صِغَارَ السَّمَكِ من الماء برجليه وَمِنْقَارِهِ ، فإذا سَقَطَ على الماء ولم يحصل على صيد ، أَرْتَفَعَ بُسْرَعَةً ، فتضرب به العامة المثل تقول : فلان كَأَنَّهُ قِرْيُثٌ ، إن وجدَ خيرا تَدَلَّى ، وإن وجدَ شرا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وَأَمْرٍ الْجِلْدَةِ صَيْرَتْهُ * فِي النَّاسِ زَاغًا وَشِقِرَاقًا

مَا زِلْتُ أَجْرِي كُلَّكِي فَوْقَهُ * حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقًا

فَقَوْلُهُ قَاقَا حِكَايَةُ لَصُوتٍ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ لِصِيَاحِ الْمَغْلُوبِ ، يُقَالُ فَعَلْتُ بِفُلَانٍ كَذَا وَكَذَا حَتَّى قَالَ : قَاقَ ، وَأَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي الْإِبْتِدَالِ بَيْنَ الْعَامَةِ وَالسَّخَافَةِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ * شُعْرَاءُ كَأَنَّهَا الْحَازِبَارِ

قَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ" : وَهَذَا الْبَيْتُ مِنْ مَضْحَكَاتِ الْأَشْعَارِ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الرِّسَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هَذَا * لَيْسَ شَيْئًا ، وَبَعْضُهُ أَحْكَامُ -
فِيهِ مَا يَجِبُ الْبَرَاةُ وَالْفَهْمُ * فِيهِ مَا يَجِبُ الرِّسَامُ

وَعَدَّ مِنْهُ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ" قَوْلَ الْبُحْتَرِيِّ :

وَجُوهٌ حُسَادِكَ مُسَوَّدَةٌ * أَمْ صُبِغَتْ بَعْدَى بِالزَّاجِ ؟

قَالَ : فَلَفْظَةُ الزَّاجِ مِنْ أَشَدِّ أَلْفَاظِ الْعَامَةِ ابْتِدَالًا ، وَكَذَلِكَ عَدَّ مِنْهُ قَوْلَ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ :

أَوْ دُمِيَّةٌ فِي مَرَمِيٍّ مَرْفُوعَةٌ * بَنِيَتْ بِأَجْرٍ يُسَادُ بِقَرْمِدٍ

قَالَ : فَلَفْظَةُ أَجْرٍ مُبْتَدَلَةٌ جَدًّا ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْلَمَ شَيْئًا مِنْ سِرِّ الْفَصَاحَةِ الَّتِي تَضْمُنُهَا الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّهُ لَمَّا جِئَ فِيهِ بِذِكْرِ الْأَجْرِ لَمْ يَذْكُرْ بَلْفِظَهُ ، وَلَا بَلْفِظَ الْقَرْمِدِ أَيْضًا ، وَلَا بَلْفِظَ الطُّوبِ الَّذِي هُوَ لُغَةٌ أَهْلِ مِصْرَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ مُبْتَدَلَةٌ لَكِنْ ذَكَرَ فِي الْقُرْءَانِ عَلَى وَجْهِ آخَرٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا" فَعَبَّرَ عَنِ الْأَجْرِ بِالْوُقُودِ عَلَى الطِّينِ ؛ نَعَمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُبْتَدَلَةِ السَّخِيفَةِ لَفْظَةُ الْكَنَسِ ، وَمَا أَشْتَقُّ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ عَابَهَا الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ حَيْثُ قَالَ مِنْ أَبْيَاتِ :

يُزَحَرَفُ مِنْهَا وَجْهٌ فَهُوَ جَنَّةٌ * وَيُخْضَرُ مِنْهَا نَضْرَةٌ فَهُوَ سِنْدِسٌ
صَلْبِيٌّ وَهَذَا الْحُسْنُ بَاقٍ فَرُبَّمَا * يَعْزَلُ بَيْتُ الْحُسْنِ مِنْهُ وَيَكُنْ

فلما وقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة، كتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل: وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمني أنها البداية، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا ما بعده: وَمَا يُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ أَفْصَحَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ. ولا عيب في هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لُحِجَ الناس بما تحتها، ودونوا مادونها، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بما لا يقار بها، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مدّها ولا نصيفه، والقصيدة فائقة في حسنها، بديعة في فنّها، وقد ذلّت السنين فيها وآنقادت، فلو أنها الرأى لما رادت؛ وبيت يُعْزَلُ ويكنس أردت أن أكنّسه من القصيدة، فإن لفظة الكنس غير لائقة في مكانها.

فأجابه ابن سناء الملك قائلا: وعلم المملوك مانبه عليه مولانا من البيت الذي أراد أن يكنّسه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوبا بهذا البيت، مستجليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد ملّح فيه، وأن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه، وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتر في قوله:

وقَوَّامِي مِثْلُ الْقَنَآةِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدَّيْ مِنَ الْحَقِيقِ مَكْنُوسُ

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثّر، ويطلب مطالبه فتعسر عليه وتتعذر، ولا آتس ناره إلا لما وجد عليها هدى، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميلة إليه طبعه، ولا سار قلبه إلا إلى من دلّه عليه سمعه، ورأى المملوك أبا عبادة قد قال:

ويا عَادِلِي فِي عِبَرَةٍ قَدْ سَفَحَتْهَا * لِيَيْنِ، وَأُخْرَى قَبْلَهَا لِلتَّجَنُّبِ

نَحَاوِلُ مَنِّي شَيْعَةً غَيْرِ شَيْعِي، * وَتَطْلُبُ مَنِّي مَدَّهَا غَيْرَ مَدَّهِي؟

وقال :

وما زَارَنِي إِلَّا وَهَتْ صَبَابَةٌ * إِلَيْهِ ، وَإِلَّا قُلْتُ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا
فَعَلِمَ الْمَمْلُوكُ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ لَا تُسَلَّكَ ، وَعَقِيلَةٌ لَا تُمْلَكُ ، وَغَايَةُ لَا تُدْرَكُ ؛ وَوَجَدَ
أَبَا تَمِّمٍ قَدْ قَالَ :

* سَلَّمَ عَلَى الرَّبِّيعِ مِنْ سَلَمِيْ بِذِي سَلَمٍ *

وقال : * خَشُنَتْ عَلَيْهِ أُخْتُ بَنِي خُشَيْنٍ * ؛

فَاشْتَأَزَ مِنْ هَذَا التَّمِطِ طَبْعُهُ ، وَأَفْشَعَرَ مِنْهُ فَهْمُهُ ، وَنَبَأَ عَنْهُ ذَوْقُهُ ، وَكَادَ سَمْعُهُ
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَيِّغُهُ ، وَوَجَدَ هَذَا السَّيِّدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَرِقِ قَدْ قَالَ :

وَقَفْتُ فِي الرُّوضِ أَبْكِي فَقَدْ مُشِبِّهِ * حَتَّى بَكَتْ بِدُمُوعِي أَعْيُنُ الزَّهْرِ

لَوْلَمْ أَعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا * لَرَحْتِي ، لَأَسْتَعَارْتُهَا مِنَ الْمَطَرِ

وقال :

قَدَّكَ غُضْنٌ لَا شَكَّ فِيهِ كَمَا * وَجْهُكَ شَمْسُ نَهَارِهِ جَسَدُكَ

فَوَجَدَ الْمَمْلُوكُ طَبْعَهُ إِلَى هَذَا التَّمِطِ مَائِلًا ، وَخَاطَرَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَيْهِ سَائِلًا ؛
فَنَسَجَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ خَاطَرُهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ ؛ ” وَحُبُّكَ الشَّيْءَ
يُعْمِي وَيُصِمُّ “ فَقَدْ أَعْمَاهُ حُبُّهُ وَأَصَمَّهُ إِلَى أَنْ نَظَّمَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ تَقْلِيدًا
لِأَبْنِ الْمُعْتَرِقِ حَيْثُ قَالَهَا ، وَحَمَلَ أَثْقَالَهَا ؛ وَهِيَ تُغْفَرُ لَذَلِكَ فِي جَنْبِ إِحْسَانِهِ ، فَأَمَّا
الْمَمْلُوكُ فَهِيَ عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ لِسَانِهِ ؛

فَأَجَابَهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا حِجَّةَ فِيَا أَحْتَجُّ بِهِ عَنِ الْكَنَسِ
فِي بَيْتِ ابْنِ الْمُعْتَرِقِ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مُعْصُومٍ مِنَ الْغَاطِ ، وَلَا يُقَدَّرُ إِلَّا فِي الصُّوَابِ فَقَطْ ؛
وَقَدْ عَلِمَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي عَمْدَتِهِ مِنْ تَهَافُتِ طَبْعِهِ ، وَتَبَايُنِ وَضْعِهِ ؛ فَذَكَرَ مِنْ
مَحَاسِنِهِ مَا لَا يُعَلَّقُ مَعَهُ كِتَابٌ ، وَمِنْ بَارِدِهِ وَغَثِّهِ مَا لَا تُلْبَسُ عَلَيْهِ ثِيَابٌ .

وقد تَعَصَّبَ القاضى السعيد على أبى تَمَّامٍ فنقصه من حظه ، ولُبَّحُتْرِى فَأَعْطَاهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ ، وَمَا أَنْصَفَهُمَا :

ولو كان هذا مَوْضِعَ الْعَتَبِ لَأَشْتَفَى * فُؤَادِى وَلَكِنْ لِلْعِتَابِ مَوَاضِعُ

قال المولى صلاح الدين الصَّفْدِى رحمه الله تعالى فى شرح لامية العجم : وقد أَسْتَعْمَلَ ابنُ سِنَاءِ الْمَلِكِ رحمه الله تعالى هذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يَتَّعِظْ بِنَهْيِ الْفَاضِلِ وَلَا أَرْعَوْى ، وَلَا أَزْدَجَرَ عَمَّا قَبِىحَهُ لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ الْهَوَى ، فَقَالَ :

تَوَسَّسَ شِعْرِى بِهِ مُدَّةً * وَمَا بَرَحَ الْحَلَى وَالْوَسْوَسَهُ

وَحَلَّصَنِى مِنْ يَدَى عِشْقِهِ * ظَلَامٌ عَلَى خَدِّهِ حَنْدَسَهُ

كَنَسْتُ فُؤَادِى مِنْ عِشْقِهِ * وَلِحِيَّتِهِ كَانَتْ الْمِكْنَسَهُ

قال : وأما القاضى الفاضل ، فَمَا أَظْنَهُ خِلا فى هذا الإيراد ، مِنْ ضَعْفِ آتِنَادِ ؛ وَأَحَاشَى ذَاكَ الذَّهْنَ الْوَقَّادَ ، مِنْ هَذَا الْاَعْتِقَالِ فى ورطة هذا الَاَعْتِقَادِ ؛ وَمَا أَرَاهُ إِلَّا أَنَّهُ تَعَمَّدَ أَنْ يَعْكُسَ مِرَادَهُ ، وَيُوهَى مَا شَدَّهُ وَيُوهِنَ مَا شَادَّهُ ؛ وَيُرْمِيهِ بِبَلَاءِ الْبَلَاءِ ، إِمَّا عَلَى سَبِيلِ النَّكَالِ أَوْ النَّكَادَةِ : لِأَنَّ الْفَاضِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّنْ يَتَوَخَّى هَذِهِ الْأَلْفَاظَ وَيَقْصِدُهَا ، وَيُنْشِئُهَا وَيُنْشِدُهَا ، وَيُورِى زِنَادَهَا وَيُورِدُهَا .

فَنَ كَلَامِ الْقَاضِى الْفَاضِلِ فى بعض رسائله ، وَمَا أَسْتَطَاعَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْ تَقْبِضَ بَجَرِهِ ، وَلَا أَلْبَاهِمُ أَنْ تَسِيغَ نَحْمَرَهُ . وَلَا سِيُوفُهُمْ أَنْ تَكْنُسَ قِيمَهُ . قَالَ فى "المثل السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام ، وضعت من قدره ولو كان معناه شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن منهم القليل ومنهم الكثير .

القسم الثاني

(ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته

العامة وجعلته دالاً على معنى آخر. وهو على ضربين)

الضرب الأول - ما ليس بمستقيح في الذكر ولا مستكره في السمع. وذلك كتسميتهم الإنسان إذا كان دمث الأخلاق، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله ظريفاً، والظرف في أصل اللغة مختص بنطق اللسان فقط، كما أن الصبابة مختصة بالوجه، والوضاء مختصة بالبشرة، والجمال مختص بالأنف، والحلاوة مختصة بالعينين، والملاحاة مختصة بالشم، والرشاقة مختصة بالقدر، واللباقة مختصة بالشئال؛ فالظرف إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعم من موضوعه كما تقدم؛ ومن وقع له الذهول عن ذلك فغلط فيه أبو نواس في قوله :

اِخْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ * فَيَكُ فَصَارَا إِلَى جِدَالٍ

فقال هذا يمينه لى * للعرف والبذل والنوال

وقال هذا وجهه لى * للظرف والحسن والكمال

فاقتربا فيك عن تراض * كلاهما صادق المقال

فوصف الوجه بالظرف، وهو من صفات النطق كما تقدم؛ وكذلك أبو تمام في قوله :

لَكَ هَضْبَةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنْتَ * أَجْأً إِذَا ثُقُلْتَ، وَكَانَ خَفِيفًا

وحلاوة الشيم التي لو مازجت * خلق الزمان القدم، عاد ظريفاً

فوصف الشيم بالحلاوة وهي مختصة بالعينين، ووصف الخلق بالظرف وهو

مختص بالنطق كما تقدم بيانه .

الضرب الثاني - ما يُستقبح ذكره كما في لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والصُّرم بالسين، فإن الصُّرم بالصاد في أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرّمه يَصْرِمُه صَرْمًا وصُرْمًا بالفتح والضم إذا قطعه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة في أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها؛ قال أبو صخر الهذلي:

قد كان صُرْمٌ في أَمَاتٍ لَنَا * فَعَجِلْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصُّرْمِ

فأستعمله بمعنى القطع ولم يُعبَ عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل كانت باقية على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وأستعملت لفظ الصُّرم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب على أبي الطَّيِّب استعماله في قوله:

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنَهُ مَا أَذَقْنِي * وَعَفَّ، بَخَازَاهُنَّ عَنِّي بِالصُّرْمِ

على أنه إنما يكره استعماله بصيغة الاسم لما تقدّم، أما إذا استعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ وَيَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حرج في استعماله، وقد استعمله ابن الرومي بالسين على بابهِ بَخَاءٍ أَقْبَحَ وَأَشْنَعُ، فقال يهجو الورد:

كَأَنَّهُ سُرْمٌ بَغْلٍ حِينَ يُخْرِجُهُ * عِنْدَ الْبَرَّازِ، وَبَاقِي الرَّوْثِ فِي وَسْطِهِ

قال الصَّلاح الصَّفْدِيُّ: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر في الورد أيضا:

كَأَنَّهُ وَجَنَةٌ الْحَبِيبِ وَقَدْ * نَقَطَهَا عَاشِقٌ بِدِينَارٍ

قال: فانظر إلى هذا، وَجَنَةٌ، وَحَبِيبٌ، وَدِينَارٌ، وإلى ذلك، سُرْمٌ، وَبَغْلٌ،

وَرَوْثٌ، وَشَتَانٌ ما بينهما.

الصفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح أن لا يكون متنافر الحروف ، فإن كانت حروفه متنافرة بحيث يثقل على اللسان ويعسر النطق به فليس بفصيح)
 وذلك نحو لفظ المُعْخَجُ في قول بعض العرب عن ناقة : تَرَكْنَاهَا تَرْعى المَعْخَجَ :
 بالخاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسود ، وكذلك لفظ مُسْتَشْرِزَات من قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي من جملة القصائد السبع الطوال :
 غَدَايَرُهُ مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى الْعُلَى * تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مِثْنٍ وَمُرْسَلٍ
 فلفظ مستشزرات من المتنافر الذي يثقل على اللسان ، ويعسر النطق به . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيب على امرئ القيس هذا اللفظ فأكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء ، فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة ، وقلت له : لا يمنع إحسان امرئ القيس من استقباح ماله من القبيح ، بل مثال ذلك كمثل غَزَالِ الْمِسْكِ فإنه يخرج منه الْمِسْكُ وَالْبَعْرُ ، ولا يمنع طِيبُ مَا يخرج من مسكه من خُبثِ مَا يخرج من بَعْرِهِ ، ولا تكون لَذَازَةُ ذَلِكَ الطِّيبِ حَامِيَةً لِلخُبثِ مِنَ الْاِسْتِكْرَاهِ ، فَاسْكَتَ الرَّجُلُ عِنْدَ ذَلِكَ .

إذا علمت ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك ، لأن الواضع قَسَمَهَا في وضعه إلى ثلاثة أقسام ؛ ثَلَاثِيًّا ، وَرُبَاعِيًّا ، وَخُمَاسِيًّا ، فَالْثَلَاثِيُّ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الْأَكْثَرُ ، وَلَا يَوْجَدُ فِيهِ مَا يَكُونُ اسْتِعْمَالُهُ إِلَّا النَّادِرُ ؛ وَالْخُمَاسِيُّ هُوَ الْأَقْلُ ، وَلَا يَوْجَدُ فِيهِ مَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا الشَّاذُّ النَّادِرُ ؛ وَالرُّبَاعِيُّ وَسَطُ بَيْنِ الثَّلَاثِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ فِي الْكَثَرَةِ عَدَدًا وَاسْتِعْمَالًا ، فَيَكُونُ أَكْثَرُ اللُّغَةِ مُسْتَعْمَلًا غَيْرَ مَكْرُوهٍ . قَالَ : وَلَا تَقْتَضِي حِكْمَةُ هَذِهِ

اللغة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسقط الواضع منها حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استئقلا واستكراها ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وذلك دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخرج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخَلِّ بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة وقد أعنى بأمور جرئية دون ذلك ؟ كمثله بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغَلَيَّانِ ، والضَّرَبَانِ ، والتَّقَرَّانِ ، والنَّزَوَانِ ؛ وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يخلّ بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ . على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أهي متباعدة أو متقاربة ؟ لطل الخطب في ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا في مدة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقييح آخر ، على أنه قد يجرى من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشجرية : (وهي الجيم والشين والياء) متقاربة المخارج : لأنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وإذا تركب منها لفظ جاء حسنا رائقا ، فإن لفظة جَيْش قد اجتمع فيها الحروف الشجرية الثلاثة ، وهي مع تقارب مخرجها حسنة رائقة ، وكذلك الحروف الشفهية (وهي الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مخرج جميعها من الشفة ، وإذا تركب منها لفظ جاء سلسا غير متنافر ، كقولك أكلت بقمي ، وهو في غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها ، وقد يجرى من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَعَ بمعنى عدا ، فإن الميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان ، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريمة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ؛ على أنه لو عكست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حسنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها ، على أن اللام لم تزل فيها وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ، ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض ، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفة إلى الحلق في مَلَعَ أعسر من إخراجها من الحلق إلى الشَّفة في عِلْم ، فإن لفظة بَلَعَ فيها الباء وهى من حروف الشفة واللام وهى من وسط اللسان والعين وهى من حروف الحلق وهى غير مكروهة .

قال في "المثل السائر" : ولربما أعترض بعض الجهال بأن الاستئصال في لفظ مستشزرات إنما هو لطولها وليس كذلك ، فإننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر ، لكان ثقيلًا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاي ، فتقلل النطق بها ، نعم لو أبدلنا من الزاي راء ومن الراء فاء قللنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ، ومن ثم ظهر لك أن اعتبار آبن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غير معتبر ، وقد ورد في القرآن العظيم ألفاظ طوالٌ لا شك في حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : ﴿ فَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن لفظ فسيفيكهم الله مركب من تسعة أحرف ، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف . قال : والأصل في هذا الباب أن الأصول لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي : كقولك عَذَبَ وَعَسَجَدَ ، فالأولى ثلاثية

والثانية رُبَاعِيَّة ، أما الْخَمَاسِيَّة من الأصول ، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِقْ وَتَجْمَرِشْ ، وما جرى مجراهما ، ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من الخماسيَّة الأصول شيء إلا ما كان من اسم نبيٍّ عَرَّبَ اسمَه ، ولم يكن في الأصل عربياً كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح ، أن لا يكون على خلاف القانون المستنبط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية ، وما هو في حكمها)

كوجوب الإعلال في نحو قام والإدغام في نحو مدّ ، وغير ذلك مما يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فكَّ الإدغام في مدّ فقال مدّد ، لم يكن فصيحاً ، وعلى حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمد لله العليّ الأجلّ *

فإن قياس بابه الإدغام فيقال الأجلّ .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح التلخيص : وأما نحو أبى يابى وعور وأستحوذ وقطط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة في شيء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع ، فهي في حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هي عمود الفصاحة في اللفظ المفرد ، وقطب دائرة حسنه ، فتميّز أتصف بها وسلم من أضدادها ، كان بالفصاحة متّسماً ، وبالحسن والرونق مشتملاً ، وللطبع ملائماً ، وللسمع موافقاً ، ومتى عَرِيَ عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلى الهُجْنَة ، فحجّه السمع ، وقلاه الطبع ورفضته النفوس ، ونفرت منه القلوب ، فلزم العيبُ قائله ، وتوجه العتبُ على مستعمله . قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجهّال إذا قيل

لا حدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العُسلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِنِط ، وبين لفظة السِّيف ولفظة الخنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكِس ، فلا ينبغي أن يُخاطَبَ بخطاب ، ولا يُجابَ بجواب ، بل يترك وشأنه كما قيل : ” أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعر في رحله “

وما مثاله في ذلك إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخلق ذات عين محمّرة ، وشَفَّةٍ غليظة ، وشعر قَطَط ، وبين صورة رُومِيَّة بيضاء مُشْرِبة بجمرة ، ذات خَدَّ أَسِيل ، وطَرْفٍ كحيل ، ومَبْسَمٍ كأنما يُظَم من أَقَاح ، وطُرة كأنها ليل على صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين السمع والنظر في ذلك ، فإن هذه حاسَّة وهذه حاسَّة ، وقياس حاسة على حاسة غير مُمتنع ، ولا عبرة بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشنيعة ، فإن الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فإننا لو رأينا من يُحِبُّ أكل الفَحْم والحِصَّ والتراب ، ويختار ذلك على مَلَأذ الأَطعمة ، فإننا لاستجيد هذه الشهوة بل نحكم عليه بالمرض وفساد المِعدة ، وأنه يحتاج إلى العلاج والمداواة ، ومن له أدنى بصيرة يعلم أن لالفاظ في الأذن نَغمة لذيدة كنغمة الأوتار ، وصوتا مُنكَرًا كصوت الحمار ، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحَنْظَل . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن أסתحسن الألفاظ وأستقبحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مجال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وُجدت ، عُلِمَ حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام ، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأول

(في بيان فضل المعرفة بذلك ، ومسيس حاجة الكاتب إلى معرفته ، والإشارة إلى خفي سره وتوعر مسلكه)

قال أبو هلال العسكري : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل ، والخطب ، والشعر ، وجميعها يحتاج إلى حُسن التأليف ، وجودة التركيب ، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سيئا ، ورصف الكلام رديئا ، لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلاوة . فإذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مُستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها ، كان راقيا في المرأى ، وإن لم يكن مرتفعا نبلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما يليق بها ، اقتضته العين وإن كان فائقا ثميناً ، وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن من أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ، ولا يعمي المعنى ، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى وفقها ، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها ، وصرفها عن وجوهها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفة الاستعمال في نظمها . وقد قال العتابي : الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخرًا وأخرت منها مقدما ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما أنه لو حوّل رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل ، لتحوّلت الحلقة وتغيرت الحلية .

قال في "الصناعتين": وقد أحسن في هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر": وهذا الموضع يضلُّ في سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين لم تتفحهم منه رائحة؟ ومن الذي يؤتبه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشق، ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث أفرادها قد استعملتها العرب ومن بعدهم، وهي مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وأنظر إلى قوله تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" وما أشتملت عليه هذه الآية من الحُسْن والطلاوة والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الإتيان بمثُلها، ولا يستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالم مضاهاتها، على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، ففوق التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز وأُخِّمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللفظة الأولى بالثانية والثالثة والرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية. ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لا بسنة من الحُسْن والرونق ما ليسته في موضعها من الآية، ولكل كلمة مع صاحبها مقام .

قال ابن الأثير: ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد، كلاهما في الاستعمال على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يُفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا مما لا يدركه إلا من دق فهمه، وجل نظره . وإذا نظرت إلى قوله تعالى: "مَا جَعَلَ اللَّهُ

لَرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ“ وقوله تعالى : ”رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا“ رأيت ذلك عياناً ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد أَسْتَعْمَلَ الجوف في الآية الأولى والبطن في الآية الثانية ولم يُسْتَعْمَل أحدهما مكان الآخر ، وكذلك قوله تعالى : ”مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى“ وقوله : ”إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ“ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن ، ولم يستعمل أحدهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ * لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلَ

* الموت أحلى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ *

وقول أبي الطيب المُنْتَبِي :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ * رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي قِمَاهَا شَهْدُ

فلفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حَسَنٌ مُسْتَعْمَلٌ ، وقد جاءت لفظة الشهد في بيت أبي الطيب أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج ، على أن لفظة العسل قد وردت في القرآن دون لفظة الشهد فجاءت أحلى من الشهد في موضعها ، وكثيرا ماتجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ وَبُلْغَاءِ الْكُتُبِ وَمَصَاقِعِ الْخُطَبَاءِ ، وتحتها دقائق ورموز ، إذا عُلِمَتْ وَقِيسَ عَلَيْهَا كَانَ صَاحِبُ الْكَلَامِ قَدْ آتَمَى فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ إِلَى الْغَايَةِ الْقَصْوَى فِي وَضْعِ الْأَلْفَاظِ فِي مَوَاضِعِهَا اللَّائِقَةِ بِهَا . قال : وأعجب من ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تَرُوقُكَ فِي كَلَامٍ ، ثم تراها في كلام آخر فتركها ، وقد جاءت لفظة في آي القرآن الكريم بهجة رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها في كلام آخر فجاءت ركيكة نابية عن الذوق ، بعيدة من الاستحسان ، فن ذلك لفظة يؤدي فإنها وردت في قوله تعالى : ”إِنَّ دَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ“ فجاءت في غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت في قول أبي الطيب :

تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي * وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ

جاءت رثه مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة، وذلك لقوة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في البيت الشعر، والسبب في ذلك أن لفظة تؤذي إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كما في الآية الكريمة حيث قال : ”إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّيَّ“ وفي بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شيء لتعلق به حيث قال :

* تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي *

ثم أستأنف كلاماً آخر فقال :

* وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبويّ مضافةً إلى كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بزمامها، وأحاطت من الطلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما أشتكى النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فرقاه فقال : ”بسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك“ فصارت إلى الحُسْن بزيادة حرف واحد، وهذا من السرّ الخفيّ الذي يدقّ فهمه . وعلى نهج لفظة يؤذي يردّ لفظة لى، فإنها لا تحسن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحقها هاء السكت في قوله تعالى : ”مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ“ لما لم يكن بعدها ما يتعلق به، بخلاف قوله : ”إِنَّ هَذَا أَحْيَىٰ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ“ فإنه لم تلحقها هاء السكت اكتفاء بما هي متعلقة به .

ومما يجرى مثل هذا المجرى لفظة القمّل ، فإنها قد وردت في قوله تعالى :
 ”فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ“ فجاءت في غاية الحسن ،
 ووردت في قول الفرزدق :

مِنْ عِزِّهِ أَجْتَحَرَتْ كُليبٌ عنده * زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

جاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت في الآية مندرجةً في ضمن كلام
 لم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في البيت قافيةً أقطع الكلام عندها . هذا
 ماخص ما ذكره ابن الأثير ، وقال : إنه لم يسبق إليه ، وجعل الحاكم فيه الذوق
 السليم دون غيره . وعلى الجملة فلا نزاع في أن تركيب الألفاظ يعطى الكلام من
 القوة والضعف ما تريد به قيمة الألفاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحطُّ
 مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثاني

(في بيان ما يبنى عليه تركيب الكلام وترتيبه . وله ركان)

الركن الأول - أن يسلك في تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللكنة والهجنة .
 والفصاحة في المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولى

(أن يكون سليماً من ضعف التأليف)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام على القانون النحويّ المشتهر فيما بين معظم أصحابه
 حتى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمار قبل الذكر لفظاً أو معنى ، نحو ضرب
 غلامه زيداً ، فإنه غير فصيح وإن كان ما اتصل بالفاعل فيه ضمير المفعول به

مما أجازاه الأخفش وتبعه ابن جني لشدة اقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل ،
وأستشهد بقوله :

لما عصى أصحابه مضجعا * أدى إليه الكيل صاعا بصاع

وقوله :

جرى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يحزى سيمار

وقوله :

ألا ليت شعري ، هل يلومن قومه * زهيرا على ما جر من كل جانب

الصفة الثانية

(أن يكون سليما من التعقيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذى يراد منه ، وهو على

ضريين .

الضرب الأول - وهو الذى يسميه ابن الأثير (المعاطلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب
الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير ، أو حذف أو إضمار ، أو غير
ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وإن كان ثابتا فى الكلام ، جاريا على القوانين
كقول الفرزدق ، فى مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ، خال هشام بن
عبد الملك :

وما مثله فى الناس إلا مُملكا * أبو أمه حتى أبوه يقاربه

أى وما مثل هذا المدوح فى الناس حتى يقاربه ويُشبهه فى الفضائل إلا مُملكا ،
أبو أم ذلك المملك أبو المدوح ، فيكون المدوح خال المملك ، والمعنى أنه لا يماثل

أحد هذا الممدوح الذي هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام؛ افسده وعقد معناه،
وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلى حدّ اللكنة؛ وكذلك قوله في الوليد بن عبد الملك :
إلى ملك، ما أئمه من محارب * أبوه، ولا كانت كليب تصاهره
يريد إلى ملك ما أئمه من محارب، وقوله :

تعال فإن عاهدتني لا تحوئي * نكن مثل من ياذب يصطحبان
يريد نكن ياذب مثل من يصطحبان، وقوله :

ولست نخراسان التي كان خالد * بها أسد، إذ كان سيفاً أميرها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد ولي نخراسان ووليها أسد بعده، فمدح خالد
بأنه كان سيفاً، بعد أن كان أسد أميرها، فكأنه يقول وليست نخراسان بالبلدة التي كان
خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها . قال ابن الأثير : وعلى هذا التقدير ففي كان
الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قدم بعض ما إذ مضافة
إليه وهو أسد عليها ، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح
والا خفاء به . قال : وأيضا فإن أسداً أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير
لا يكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير ، ولما
سماه الكوفيون الضمير المجهول ، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأصبحت بعد بهجتها قفراً * كأن قفراً رسومها قلماً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها ، فقدم خبر كأن وهو
خط عليها بجاء مختلاً مضطرباً ، قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من أقبح هذا
النوع لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضاً ؛ على أن ذلك قد وقع لجمع من
فحول شعراء العرب . كقول امرئ القيس :

ههما أخوا في الحرب من لا أخاله * إذا خاف يوما نبوة فدعاهما

يريد أخوا من لأخوى له في الحرب، وقول النابغة :

يُثْرِنَ الثَّرَى حَتَّى يَبَاشِرَنَّ بَرْدَهُ * ، إِذَا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَهَا ، بِالْكَلاِ كُلِّ
قال أبو هلال العسكري : وهذا البيت مستهجن جداً لأن المعنى 'تعمى فيه' ،
يريد يُثْرِنَ الثَّرَى حَتَّى يَبَاشِرَنَّ بَرْدَهُ بِالْكَلاِ كُلِّ إِذَا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَهَا ؛ وقول
أبى حية التميمي :

كَمَا خُطَّ الْكَتَابُ بِكَفٍّ ، يَوْمَا ، * يَهُودَى يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ
يريد كما خط الكتاب بكف يهودى يوما يقارب أو يزيل ؛ وقول ذى الرمة :
نَضًا الْبُرْدَ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ ، ذُو جُنُونِهِ * أَجَارِيَّ ، صَهَّالٌ وَصَوْتُ مَبْرَسَمٍ
يريد وهو من جنونه ذو أجاري ؛ قال في "الصناعتين" : كأنه تخطيط كلام مجنون
أو هجر مبرسم ؛ وقول الشماخ :

تَحَامَصُ عَنْ بَرْدِ الْوِشَاحِ إِذَا مَشَتْ * تَحَامَصَ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْأَمْعَزِ الْوَجِي
يريد تَحَامَصَ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْوَجِي الْأَمْعَزِ ؛ قال أبو هلال العسكري : وليس
للمحدث أن يجعل هذه الأبيات حجةً ويبنى عليها فإنه لا يُعَدَّرُ في شيء منها ، لإجماع
الناس اليوم على مجانبة أمثاله واستجدادة ما يضح من الكلام ويستبين ، وأستزلال
ما يُشْكِلُ منه ويستبهم ؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يعاظم
بين الكلام .

قال في "المثل السائر" : والفرزدق أكبر الشعراء تعاظلا وتعقيدا في شعره ، كأنه
كان يقصد ذلك ويتعمده ، لأن مثله لا يجيئ إلا متكلفا مقصودا ، وإلا فإذا ترك
مؤلف الكلام نفسه تجرى على سجيها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من
هذا التعقيد ، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثانى من التعقيد - أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بخلل فى انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى الثانى المقصود ، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلى الوسائط الكثيرة ، مع خفاء القرائن الدالة على المقصود ، كقول العباس بن الأخف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا * وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدَّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يريد إلى أطلب بعد الدار عنكم لتقربوا منى ، وتسكب عيناي الدموع لتجمد وتكف الدمع بحصول التلاقى ، والمعنى أتى طبت نفسا بالبعد والفراق ، ووطئت نفسى على مقاساة الأحران والأشواق ، وأتجرع الغصص ، وأحتمل لأجلها حُرنا يُفِيضُ الدَّمُوعَ من عيني لا تسبب بذلك إلى وصل يدموم ، ومسرّة لا تزول ، فتجمد عيني ويرقأ دمعى ، فإن الصبر مفتاح الفرج ؛ فكثى بسكب الدموع عن الكابة والحزن ، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يجعل دليلا عليه ، يقال أبكاني الدهر وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرّنى ؛ وكثى بجمود العين عما يوجبه دوام التلاقى من الفرح والسرور ؛ فإن المتبادر إلى الذهن من جمود العين بخلها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ما قصده الشاعر من التعبير به عن الفرح والسرور ، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركة بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء ، وبين زمن السرور الذى لم يطلب فيه بكاء ؛ وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلى الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلى أحدهما ، كما صرح به الرماني وغيره ، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذى يدل عليه اللفظ المشترك

مستقبحا كما نبه عليه ابن الأثير في الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام ، وبين الإهانة بسبب الخيانة التي لا توجب الحد : من الضرب وغيره ، والمعنيان ضدان فحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حسنة راقمة ، وكانت في أعلى درجات الفصاحة ؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى : ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقوله : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير في الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر في الآية الثانية زال اللبس وحسن الموقع ، ولو وردت مهملة بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن ، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح ، كما لو قلت عزز القاضي فلانا وأنت تريد أنه عظمه ، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه ، وعلى هذا النهج يجري الحكم في الحسن والقبح مع القرينة وعدمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فما ورد مع القرينة بفاء حسنا قول تأبط شرا : أقول للحيان ، وقد صفرت لهم * وطأبي ويومئ ضيق الجحر معور فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب بكسر الحية واليربوع ونحوهما ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة فخصصه سبق إلى الفهم المعنى القبيح لأشتهاره دون غيره . ومما ورد مهملا بغير قرينة بفاء قبيحا قول أبي تمام :

أعطيتني دية القتيل وليس لي * عقل ولا حق عليك قديم

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لي عقل أنه من العقل الذي هو ضد الجنون ولو قال وليس لي عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذاً على صاحب هذه الصناعة أن يراعى في كلامه مثل هذا الموضع .

الصفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليماً من تنافر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة)

وقد اختلف في معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول - أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون في الكلام ثَقْلٌ على اللسان وَيَعْسُرُ النطقُ به على المتكلم ، وإليه ذهب السَّكَّاكِيُّ وغيره من علماء البيان . وهو على ضربين .

الضرب الأول - أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبي تمام :

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى * مَعَى ، وَإِذَا مَالَمْتُهُ ، لُمْتُهُ وَحَدَى

فقوله أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ فيه بعض الثَّقَلِ على اللسان في النطق به ، وذلك أن الاء والهاء متقاربان في المخرج ، وقد اجتمعا في قوله أَمْدَحُهُ ، ثم تكررت الكلمة في البيت مع تَقَارُبِ مخرج الحرفين فتقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ ابن العميد رحمه الله .

ومما يحكى في ذلك أن صاحب بن عبَّادٍ أنشد هذا البيت بحضرة ابن العميد ، فقال له ابن العميد : هل تعرف في هذا البيت شيئاً من الهُجْنَةِ ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقال له ابن العميد : غير هذا أريد ، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العميد : هذا التكرير في أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ مع الجمع بين الاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حدِّ الاعتدال ، نافر كل التنافر ، فاستحسنه صاحب بن عبَّادٍ ذلك .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح تلخيص المفتاح : ولا يجوز أن يراد أن الثقل في لفظة أَمْدَحُهُ دون تكرار ، فإن مثل ذلك واقع في التنزيل نحو قوله تعالى :

”فَسَبَّحَهُ“ والقول باشتمال القراءان على كلام غير فصيح مما لا يجترئ عليه المؤمن .
الضرب الثانى - ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة النطق به ، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ يَمَكَّانٍ قَفَرٌ * وليس قُربَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف ، فصاح واحد منهم على حَرْبِ بن أُمَيَّةَ فأت ، فقال ذلك الجنّ هذا البيت . قال المسعودى فى ”مروج الذهب“ : والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثانى أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعَتَّعَ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير : والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه ، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سِلْسِلَةٌ ، ولا خَفَاءَ بما فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلَقَ على ذلك اسم التنافر ، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعدّ هذا من أنواع المعاطلة اللفظية ، ثم ذكر من أمثله قول الحريرى فى مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا * وَعَافَ عَافِيَ الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كشافهم :

وَالزَّهْرُ وَالْقَطَرُ فى رُبَاهَا * مَا يَنْ نَظْمٍ وَيَنْ نَثْرٍ
حَدَائِقُ ، كَفُّ كُلِّ رِيحٍ * حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلَّتْ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفَدَّى * مَلِيحٍ مَانِعٍ مَنِى مُرَادَى

وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرَى الَّتِى تَرَى كُلَّ جَفْنٍ * رَأَاهَا غَيْرَ جَفْنَهَا غَيْرَ رَاقٍ

وعاب بيت الحريري لتكرر العين فيه في قوله :

* وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثاني من بيتي كشاجم لتكرر الكاف فيه في "كَفَّ وَكَلَّ" الاولى و"كَلَّ" الثانية ، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى رِكَارٍ يضعه في شِدْقِهِ حتَّى يديره له ؛ وعاب البيت الذي يليه لتكرر الميم فيه في أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عُقْدٌ ، متصلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبي لتكرر الجيم والراء في أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يَعْرِضُ لقائله في نوبة الصَّرْع التي تنوبه في بعض الأيام . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسم من المعاطلة كثيرا في كلامه ثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لسلك الطريق كقوله في وصف رجل سخي : "أنت المُرِيحُ كِيدَ الرِّيحِ ، والمُليحُ إن تَجَهَّمُ المَلِيحُ بالتكليم ؛ عند سائل يُلَوِّحُ ، بل تفوق إذ تَرُوقُ مَرَأَى يُوْحُ ؛ يامغبوق كأس الحمد يامصبُوح ضاق عن نَدَاك اللُّوحُ ، وبيابك المفتوح يستريح ويُرِيحُ ذو التَّبَرِيحِ ، وَيُرْفَهُ الطَّلِيحُ " فانظر إلى حرفي الراء والحاء كيف لزمهما في كل لفظة من هذه الألفاظ بجاء على ما تراه من الثقل والغثاثة .

ثم قال : وأعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا ، فقالوا في جعل لك : جَعَلَكْ ، وفي تضربوني تضربُونِي ، وكذلك قالوا : أَسْتَعِدْ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه أَسْتَعِدْدْ ، وَأَسْتَتَبْ الأمر إذا تهيأ والأصل فيه أَسْتَتَبْ ، وأشبه هذا كثير في كلامهم حتَّى إنهم لَشَدَّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أَمَلَيْتُ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة في المثل السائر .

الكتاب ، والاصل فيه أملت ، فأبدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرر الحروف مما يوجب التنافر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كيف اجتمع فيه ست عشرة ميم في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع ، مع ما أشتملت عليه من الطلاوة والروني الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثاني - أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثاني غير مشاكل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكري في "الصناعتين" فما اختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كَهَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نَصَابِنَا * كَهَاءُ وَلَا فِينَا يَعْدُ بَخِيلُ

فليس بين قوله ما في نصابنا كهأ وقوله فنحن كهأ المزن مناسبة لأن المراد بالكهأ الذي لا غناء به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كهأ أي لا غناء عندهم ، ورجل كهأ أي مسن ؛ كذلك سيف كهأ أي كليل ، ولسان كهأ أي عي ، وفرس كهأ أي بطيء ، فهو يصف قومه بالنجدة والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يغني ، وماء المزن إنما يحسن في وصف الجود والكرم . قال في "الصناعتين" : ولو قال : ونحن ليوث الحرب وأولو الصرامة والنجدة ، ما في نصابنا كهأ ، لكان الكلام مستويا ؛

أو فتن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف ، لكان جيداً ؛ ومن ذلك قول طرفة :
ولست بحلال التلّاع مخافة * ولكن متى يسترفد القوم أرغد

فالمصراع الثاني من البيت غير مشا كل لصورة المصراع الأول وإن كان المعنى صحيحاً لأنه أراد ولست بحلال التلّاع مخافة السؤال ولكني أنزل الأمكنة المرتفعة ليتتابوني وأرغد هم ، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيراً صحيحاً ولكنه خطه وحذف منه

منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر ؛ وأدواء الكلام كثيرة ؛ ومنه قول الأعشى :

وإن امرأ أسرى إليك ودونه * سهوب ومومة وبيداء سملق ،

لمحتوفة أن تستجيب لصوته * وأن تعلمي أن المعان موفق

فقلوه : وأن تعلمي أن المعان موفق غير مشا كل لما قبله ؛ وعلى نحو ذلك ورد قول عنترة :

حرق الجناح كأن لحى رأسه * جلمان بالأخبار هش مولع

إن الذين نعبت لي بفراقهم * هم أسلموا ليل التمام وأوجعوا

فليس قوله بالأخبار هش مولع من صفة جناحيه ولحيته ؛ وقريب منه قول أبي تمام :

محمد إن الحاسدين شهود * وإن مصاب المزن حيث تريد

فليس النصف الثاني من النصف الأول في شيء ؛ وكذلك قول الطائي :

قوم هدى الله العباد بجهنم * والمؤثرون الضيف بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعجزه بوجه .

وعد بعض الأدباء من هذا النوع قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ، * ولم أبتطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الرق الروى ولم أقل * لخيلى كرى كرة بعد إجمال

وقال : لو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل في آستواء النسيج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * لخلي كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروى للذة، * ولم أتطن كاعبا ذات خلخال

لأن ركوب الجواد مع ذكر مرور الخيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواكب أحسن . قال في "الصناعتين" : قال أبو أحمد : والذي جاء به أمرؤ القيس هو الصحيح لأن العرب تضع الشيء مع خلافه، فيقولون : الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل ما يجري هذا المجرى . قال أبو هلال العسكري : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب، فنختلف إلى مدرّك نتعلم منه الشعر، فقام لنا يوما : إذا وضعت الكلمة مع لفيها، كنتم شعراء . ثم قال : أجزوا هذا البيت :

* ألا إنما الدنيا متاع غرور *

فأجازه كل واحد منا بشيء، فلم يرّضه . فقلت أنا :

* وإن عظمت في أنفيس وصدور *

فقال : هذا هو الجيد المختار . قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطنى قال : حدثنا أبو العباس بن عربى، قال : حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة، قال : دفن مسلمة رجلا من أهله ثم قال :

* نروح ونغدو كل يوم وليلة *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فحتى متى هذا الرواح مع الغدو *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* فإلك مَعْدَى مَرَّةً وَمَرَّاحًا *

فقال : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا زَوْحٌ وَلَا نَعْلُو *

فقال : الآن تم البيت ، وأشبه ذلك ونظائره كثيرة . ومما اختلف فيه البيت الأول والثاني قول ابن هرمة :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ * وَقَدَحِي بِكَفَى زَنْدًا شَحَاحًا

كَتَارَكَةٍ بَيْضَهَا بِالْعَرَاءِ * وَمُلْبَسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحًا

وقول الفرزدق :

فإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشِي * سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سَجُوفَ الْعَامِمِ

كَمُهْرِيْقٍ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ ، وَغَرَّهُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِيَّاحُ السَّمَامِ

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة الأول مع بيت الفرزدق الثاني ، وبيت الفرزدق الأول مع بيت ابن هرمة الثاني ، فيقال في الأول :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ * وَقَدَحِي بِكَفَى زَنْدًا شَحَاحًا

كَمُهْرِيْقٍ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرَّهُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِيَّاحُ السَّمَامِ

مع تغيير إحدى القافيتين ، ويقال في الثاني :

وَإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشِي * سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سَجُوفَ الْعَامِمِ

كَتَارَكَةٍ بَيْضَهَا بِالْعَرَاءِ * وَمُلْبَسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحًا

مع تغيير إحدى القافيتين حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث - أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما في معناها أولى بالذكر، فتجىء الكلمة غير لا ثقة بمكانها، وهو ما أصطلح عليه ابن الاثير في "المثل السائر". وهو على ضربين .

الضرب الأول ، ما يوجد منه في اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو في معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا؛ وهو على أنواع شتى .

منها فك الإدغام في غير موضع فكّه، كقول ابن أتم صاحب :
مَهْلًا عَاذَلْ قَدْ جَرَّبْتُ مِنْ خُلُقِي * أَنِي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَمِنُوا
فَكَ الْإِدْغَامُ فِي ضَمِنُوا، وكان الأحسن أن يقال : وَإِنْ ضَمِنُوا أَيْ بَحَلُّوا .
وعلى حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فَلَا يُبْرِمُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ * وَلَا يُحْلِلُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارة في مكانها، غير قلقة ولا نافرة؛ وكذلك كل ما جاء على هذا النهج فلا يحسن أن يقال بَلَّ الثوبَ فهو بالل؛ ولا سَلَّ السيفَ فهو سالل، ولا هَمَّ بالامر فهو هامم، ولا خطَّ الكتاب فهو خاطط، ولا حَنَّ إلى كذا فهو حانن؛ وهذا لو عُرِضَ على من لا ذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟ لكن لا بد لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف في غير موضعه، كقول دَعِيلٍ :

شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ فِي الْحَوَائِجِ، إِنَّهُ * يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

فالفاء في قوله فاشكر زائدة في غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء

الدين ابن الاثير : أنشدني بعض الأدباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقيح : لأن سبكه قَلَقَ نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير،

وهي في زيادتها كزيادة الكَرِش ، فقال : لهذه الفاء في كتاب الله تعالى أشباه : كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا ، أما العلم فإن الفاء في قوله تعالى : ”وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ“ فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : ”وَقُمْ فَأَنْذِرْ“ وهي مثل قولك : آمش فأسرع ، وقُل فأبلغ ، وليست الفاء التي في قول دُعِيل : شفيحك فاشكر من هذا القليل ، بل هي زائدة ولا موضع لها ، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدم معطوف عليه^(١) ، وحاشا فصاحة القراء من ذلك . فأدعن بالتسليم ورجع إلى الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراشح في علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع في الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف النثر كقول أبي تمام :

قَرَأَنِي اللَّهُ وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَمَّا * أَفَادَ الْغَنَى مِنْ نَائِلٍ وَفَوَائِدِي

فَأَصْبَحَ يَأْتَانِي الزَّمَانُ مِنْ آجَلِهِ * بِإِعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ

فقوله من آجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر ؛ وعلى حدّه ورد قول أبي الطيّب :

يُوسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ * طَلَابُ الطَّالِبِينَ لَا لِالْتِنَظَارِ

فقوله لا الانتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل في الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أَرَى إِثْنَيْنِ أَجْمَلَ شِمَةً * عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمْلِ

(١) لم يذكر الثاني وقد ذكره في ”المثل السائر“ فقال . وأما الذوق فإنه ينبوع الفاء الواردة في قول

دُعِيل ويستغلها ... الى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذعن الخ .

وقوله أيضا :

إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ * بِنَشْرِ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قِمِينُ

فقطع ألف الوصل في لفظ الاثنين في البيت الأول والثاني .

ومنها أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحترى :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ * وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها ، فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبي والصفة التى هى المتعلق بالضمير الذى هو بها ، قُبِحَ ذلك . ولو قال من قلب بها متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهُجْنَةُ . ونحو ذلك .

الأصل الرابع

(المعرفة بالسجع الذى هو قوام الكلام المنشور وعلو رتبته ،

ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأول

(فى معرفة معناه فى اللغة والأصطلاح ، وبيان حكمه فى حالتى الدرج والوقف)

أما فى اللغة فقال فى "موادّ البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم لأستقامته فى الكلام ، وأستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت على حدة واحد ، يقال منه سَجَعَتِ الحمامةُ تُسَجِّعُ سَجْعاً فهى ساجعة ؛ سُمِّيَ السجع فى الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتى على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمات متوازنة متماثلة . فأشبه ذلك الترجيع .

وأما فى الأصطلاح ، فقال فى "موادّ البيان" : هو تَقْفِيَةُ مقاطع الكلام من غير وزن ، وذكر نحوه فى "المثل السائر" فقال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنشور على حرف واحد ؛ ويقال للجزء الواحد منه سَجْعَةٌ ، وتجمع على سَجَعَاتٍ ، وَفِقْرَةٌ (بكسر

الفاء) أخذنا من فِقْرَةِ الظهر : وهى إحدى عظام الصُّلْبِ ، وتجمع على فِقَرٍ وفِقَرَاتٍ بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربما فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقال لها أيضا قَرِينَةٌ لمقارنة أختها وتجمع على قرائنَ ، ويقال للعرف الأخير منها حرف الرُّوى والفاصلة .

وأما بيان حكمه فى الوقف والدرج فأعلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأسماع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدرج : لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزوجة بين الفقر، وذلك لا يتم إلا بالوقف . ألا ترى أن قولهم : ما أبعدَ ما فات ، وما أقربَ ما هوات ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الإعراب فتختلف أواخر القرائن ويفوت الساجع غرضه .

الغرض الثانى

(فى بيان حُسْن موقعه من الكلام)

قال فى "الصناعتين" : لا يحسن مشور الكلام ، ولا يخلو حتى يكون مُرَدَّجًا ، ولا تجد لبلّغ كلاما محلولاً من الأزواج ، وناهيك أن القراء الكريم الذى هو عنصرُ البلاغة ومَنَاطُ الإعجاز مشحونٌ به ، لا تخلو منه سورة من سورِهِ وإن قصُرَتْ . بل ربما وقع السجع فى فواصل جميع السورة ، كما فى سورة النجم ، وأقربت ، والرحمن وغيرها من السُور . بل ربما وقع فى أوساط الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ وقوله : "لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ" وقوله : "وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ" وما أشبه ذلك . وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : ” أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامَ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ “ . بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصريف اللغة طلبا للزوجة : كقوله في تعويذه لابن آبنته : ” أُعِيْذُهُ مِنَ الْهَامَةِ وَالسَّامَةِ ، وَالْعَيْنِ الْأَلَامَةِ “ ، وأصلها في اللغة المُلِمَّة لأنها من أَلَمَّ ، فعبر عنها باللامة لموافقة الهامة والسامة ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : ” أَنْصَرِفْنَ مَازُورَاتٍ غَيْرِ مَاجُورَاتٍ “ ، والأصل في اللغة أن يقال مَوْزُورَاتٍ أخذنا من الوِزْرِ ، فعبر بـ مَازُورَاتٍ لموافقة مَاجُورَاتٍ ؛ وعلى ذلك كان يجري كلام العرب في مُهِمِّ كلامهم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بابنه : اللهم إِنْ كُنْتُ قَدْ أَبْلَيْتَ ، فَطَالَمَا عَافَيْتَ . وقول الآخر : اللهم هَبْ لَنَا حَبَكَ ، وَأَرْضَ عَنَا خَلْقَكَ ، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجَنَيْنِ بغرة عبدٍ أو أمةٍ ، فقال الرجل : أَدَّى مِنْ لَاشَرِبَ وَلَا أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَسْتَهَلَ ، ومثل ذلك يُطَلَّ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ” أَتَسْجَعُ كَسْجَعِ الْكُفَّانِ “ ، فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبأ عن السجع طبعه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجع الكُفَّانِ ، لما في سجعهم من التكلف والتعسف كما وجهه أبو هلال العسكري ، وإما لجريانه على عادتهم في الجواب في الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لانفس السجع الماتى به كما اختاره صاحب ” المَثَلِ السَّائِرِ “ ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ، لآقتصر على قوله أَسْجَعًا ولم يقيد بسجع الكُفَّانِ .

الغرض الثالث

(في بيان أقسام السجع ، وهى راجعة إلى صنفين)

الصنف الأول

(أن تكون القرينتان متفتحتين في حرف الروى ، ويسميه الرّماني السجع الحالى)
وعليه عمل أكثر الكُتّاب من زمن القاضى الفاضل ، وهلم جرا
إلى زماننا ، وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء
ويسمى التصريح ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه في النثر قوله تعالى :
(**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**) وقوله : (**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ**) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : ” **اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي ،
وَاغْسِلْ حَوْبَتِي** ” . وقوله للأَنْصار ” **إِنكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ** ”
وقول بعض الأعراب في وصف سنة جذبة : **سنة جردت ، وحال جهدت ، وأيد
جمدت ، ونحو ذلك . ومثاله في النظم قول الخنساء :**

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْدَى الطَّرِيقَةِ ، نَفَّاعٌ وَصَرَّارُ !
جَوَابُ قَاصِيَةِ ، جَرَّازُ نَاصِيَةِ ، * عَدَدُ أَلْوِيَةِ ، لَخِيلُ جَرَّارُ !

المرتبة الثانية - أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين فقط ، دون
ماعداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : (**فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ**)
ثم قال : (**وَمَتَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ**) . وكقول الحريري في مقاماته : **أَجَلَّائِي
حُكْمٌ دَهْرٍ قَاسِطٌ ، إِلَى أَنْ أُنْتَجَعَ أَرْضٌ وَاسِطٌ** . وقوله : **وَأَوْدَى النَاطِقُ وَالصَّامِتُ ،
وَرَتَّى لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ ، وما أشبه ذلك .**

المرتبة الثالثة - أن يقع الاتفاق في حرف الروى مع قطع النظر عن التوازن في شيء من أجزاء الفقرة في آخر ولا غيره، ويسمى المطرّف . كقوله تعالى : ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ وقولهم : جَنَابَهُ مَحَطُّ الرَّحَالِ ، وَمُحِيمُ الْأَمَالِ . وما يجري هذا المجرى .

الصنف الثانى

(أن يختلف حرف الروى في آخر الفقرتين ، وهو الذى يعبرون عنه بالآزدواج . والرّمانيّ يسميه السّجع العاطل ، وعليه كان عمل السلف من الصحابة ومن قارب زمانهم : وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يقع ذلك في النثر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولى - أن يراعى الوزن في جميع كلمات الفقرتين أو في أكثرها ، مع مقابلة الكلمة بما يعادلهما وزناً ، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلىها . كقوله تعالى : ”وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ“ وكقول الحريري : اسودّ يومى الأبيض ، وأبيضّ فودى الأسود .

المرتبة الثانية - أن لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من الفقرتين فقط ، ويسمى التوازن أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ”وَمَارِئُ مَصْفُوفَةٍ وَزَرَائِي مَبْثُوثَةٍ“ وقولهم : اصْبِرْ عَلَى حَرِّ الْقِتَالِ ، وَمَضِضِ النَّزَالِ ، وَشِدَّةِ النَّصَاعِ ، وَمُدَاوِمَةِ الْبِرَازِ ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثاني

(السَّجْعُ الواقع في الشَّعر)

ويسمى التصريح في البيت الأول، ومحل الكلام عليه علم البديع . وقد ذكره في المثال السائر، في أعقاب الكلام على السجع في الكلام المنثور، وجعله على سبع مراتب .

المرتبة الأولى - وهي أعلاها درجة - أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه . ويسمى التصريح الكامل : كقول امرئ القيس :

أَفَاطِمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ * وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ هَجْرِي فَأَجْلِي

فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه في الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية - أن يكون المِصْرَاعُ الأول مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى الذي يليه إلا أنه مرتبط به، كقول امرئ القيس أيضا :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * يَسْقُطُ اللَّوْئِي بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فإن المِصْرَاعَ الأول منه غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه، ولكنه لما جاء الثاني صار مرتبطاً به .

المرتبة الثالثة - أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمى التصريح المَوْجَّه، كقول ابن حجاج :

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فِي الْمَهْرَجَانِ * خِفَّةُ الشَّرْبِ مَعَ خُلُوءِ الْمَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْرَاعَ الثاني أولاً والآخر ثانياً، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة - أن يكون المِصْرَاعُ الأول غير مستقلاً بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى التصريح الناقص، وليس بمستحسن . كقول المتنبي :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَغَانِي * بِمَنْزِلَةِ الرِّبْعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المِصْرَاعَ الأوَّلَ لا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فِي فَهْمٍ مَعْنَاهُ دُونَ الْمِصْرَاعِ الثَّانِي .
المرتبة الخامسة - أن يكون التصريحُ في البيت بلفظة واحدة في الوسط والقافية،
ويسمى التصريح المكرر؛ ثم اللفظة التي يَقَعُ بها التصريح قد تكون حقيقةً لا مجازاً
فيها، كقول عبيد بن الأبرص :

وَكُلُّ ذِي غِيَّةٍ يُتُوبُ * وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُتُوبُ

وقد تكون اللفظة التي يَقَعُ بها التصريح مجازيةً كقول أبي تمام الطائي :

فَتَى كَانَ شَرِبًا لِلْعُقَاةِ وَمَرْتَعًا * فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْضَ مَرْتَعًا

المرتبة السادسة - أن يكون المِصْرَاعُ الأوَّلُ معلقاً على صفة يأتي ذكرها في أوَّل
المِصْرَاعِ الثَّانِي؛ ويسمى التصريح المعلق . كقول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي * بِصُبحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمَثَلِ

فإن المِصْرَاعَ الأوَّلَ معلق على قوله بِصُبحٍ، وهو مُسْتَقْبَحٌ فِي الصَّبْعَةِ .

المرتبة السابعة - أن يكون التصريح في البيت مخالفاً لقافيته؛ ويسمى التصريح
المشطور، وهو أنزل درجات التصريح وأقبحها . كقول أبي نواس :

أَقْلَنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ * وَبِالإِقْرَارِ عُدْتُ مِنَ الْجُحُودِ

فإنه قد صرَّع في وسط البيت بالباء ثم في آخره بالذال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر
لأنه قد يَقَعُ مثله في النثر إذ الفقرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفقرتان كالبيتين،
وأيضاً فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(في معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(السجعات القصار)

وهي ماصيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال في "حسن التوسل": وهي تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله في القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر. كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُّسْتَقِرَّةٌ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا آتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرَّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضرب الثاني

(السجعات الطوال)

قال في "حسن التوسل": وهي ألد في السمع، يتشوق السامع إلى ما يرد مترايدا على سمعه، وأقل ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْسٌ كَفُورٌ وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسِيَّةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ فالأولى من إحدى عشرة لفظة، والثانية من ثلاث

عشرة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأولى من أربع عشرة لفظة ، والثانية من خمس عشرة ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَوْهُمُ كَثِيرًا لَّفَاشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُوهُمْ إِذِ التَّيِّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالُ لَكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة ، وهذا غاية ما انتهى إليه الطول في القرآن الكريم . وينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع وقوفاً مع ما ورد به القرآن الكريم الذي هو أفصح كلام ، وأقوم نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .

وأعلم أنه قد جرت عادة كُتَّاب الزمان ومصطاحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرة بحيث لا يتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب . وعلى هذا فيختلف القصّر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض .

الغرض الخامس

(في ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر ؛ وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن لا يزيد السجع على سبعتين ، وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون القرينتان متساويتين لا تزيد إحداهما على الأخرى كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

فَالْمُورِيَّاتِ قَدَحًا فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا فَآثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) وأمثال ذلك .
 المرتبة الثانية - أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله
 تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ
 بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولى ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما
 إذا طالت الثانية عن الأولى طولا يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستقبح حينئذ ،
 ووجهه في "حسن التوسل" بأنه يُبعد دخول القافية على السامع فيقلّ الالتذاذ
 بسماعها . والمرجع في قدر الزيادة والقصر إلى الذوق .

المرتبة الثالثة - أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى . قال في "المثل السائر" :
 وهو عندي عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد آستوفى أمده من الفصل الأول
 بحكم طوله ، ثم يحىء الفصل الثاني قصيرا فيكون كالشيء المبتور ، فيبقى الإنسان عند
 سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، وفيما قاله نظر ، فقد تقدّم في قوله تعالى :
 ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكَ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية تسع
 عشرة ، بل قد آختر تحسين ذلك أبو هلال العسكري في "الصناعتين" محتجا له بكثرة
 وروده في كلام النبوة كقوله صلى الله عليه وسلم لا نصار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ
 الْفَزَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ " وقوله : " الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَوُ دِمَائُهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ
 سِوَاهُمْ " وقوله : " رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَعَمِيَ ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ " .

الحالة الثانية

(أن يزيد السجع على سبعتين . ولها أربع مراتب)

المرتبة الأولى - أن يقع على حدّ واحد في التّساوى ، وهو مستحسن ، وقد ورد
 في القراءات الكريم بعض فلك كقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية - أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا بِأَنَّ كَذِبَ السَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة - أن تكون الأولى والثانية متساويتين ، والثالثة زائدة عليهما ؛ وقد أشار إلى هذه المرتبة في "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة ، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة - أن تكون الثانية زائدة على الأولى ، والثالثة زائدة على الثانية . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن تكون في هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة في الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة ، ومثل له في "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر ، ومثل له في "المثل السائر" بقوله في وصف صديق : فقلت : الصديق من لم يعتص عنك بخالف ، ولم يعاملك معاملة الخالف ، وإذا بلغه أذنه وشاية أقام عليها حد السارق أو القاذف ؛ فالأولى : وهي لم يعتص عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القليل ، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط في "حسن التوسل" الزيادة في الثالثة بأن لا تتجاوز المثل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفى حكم الرابعة في الزيادة مع الثالثة . قال في "حسن التوسل": ولا بد من الزيادة في آخر القرائن .

الغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمور أخرى .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف ، خاليا من التعسف ، محمولا على ما يأتي به الطبع وتبديده الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى ، نرجح السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة ، لا غثة ولا باردة ، موفقة المعنى ، حسنة التركيب ، غير قاصرة على صورة السجع الذي هو تواطؤ الفقر ، فيكون كن نقش أثوابا من الكُرسف ، أو نظم عقدا من الحرز الملون . قال في "المثل السائر": وهذا مقام ترل عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا ، ولولا ذلك كان كل أديب سجاجا إذ ما منهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة .

ومنها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلّت عليه أختها ، لأن أشتمال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ما هو مقترر فى علم البيان . قال فى "المثل السائر" : فلا يكون مثل قول الصابى فى وصف مدبر : "يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويسير تدبيره وهو ثاو لم يبرح" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويُنْحَنُ الحراح فى عدوه وسيفه فى الغمد لم يجرح ، لَسَلِمَ من هُجَّةِ التكرار : فإنه تصير كل سبعة محتوية على معنى بحiale .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار ، كَلَّتِ الأبصار ، وقولهم : ما وراء الخلقِ الدِّمِمْ ، إِلَّا الخُلُقُ الذِّمِمْ ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السبعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعاً فى سجع ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَسْتُ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فإن قوله : ﴿ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ سجعان داخلتان فى السبعة التى آخرها ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ بِأَخْذِيهِ ﴾ وقوله : ﴿ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ سجعان داخلتان فى السبعة التى آخرها : ﴿ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وعدّ العسكرى منه قولهم : عادَ تَعْرِضُكَ تَصْرِيحًا ، وَتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا .

وأما قبحه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قدامة : أن كاتباً كتب فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به

مَا يَسْتَعِيدُ الْحَرْ، وَإِنْ كَانَ قَدِيمَ الْعُبُودِيَّةِ، وَيَسْتَعْرِقُ الشُّكْرَ، وَإِنْ كَانَ سَالِفَ فَضْلِكَ
لَمْ يَبْقَ شَيْئًا مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ بَعِيدَةٌ عَنْ مِثَالِ كَلِمَةٍ مِنْهُ .

وَمِنْهَا التَّطْوِيلُ ، فِيمَا ذَكَرَ قَدَامَةً وَغَيْرُهُ : وَهُوَ أَنْ يَجِيءَ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ طَوِيلًا
فِيحْتَاجُ إِلَى إِطَالَةِ الثَّانِي بِالضَّرُورَةِ . كَمَا حَكَى قَدَامَةً أَنَّ كَاتِبًا كَتَبَ فِي تَعْزِيَةٍ : إِذَا
كَانَ لِلْحُزْنِ فِي لِقَاءِ مِثْلِهِ كَبِيرُ الرَّاحَةِ فِي الْعَاجِلِ ، وَكَانَ طَوِيلُ الْحُزْنِ رَاتِبًا إِذَا رَجَعَ
إِلَى الْحَقَائِقِ وَغَيْرِ زَائِلٍ . قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" : وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَطَالَ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ ،
وَعَلِمَ أَنَّ الْجُزْءَ الثَّانِيَّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ أَطْوَلَ ، أَحْتَاجُ إِلَى تَطْوِيلِ الثَّانِي فَأَتَى
بِاسْتِكَرَاهٍ وَتَكْلُفٍ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَالْإِطَالَةُ بِقَوْلِهِ وَغَيْرِ زَائِلٍ . . .

الأصل الخامس

(حَسَنُ الْإِتِّبَاعِ ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِخْتِرَاعِ)

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكَاتِبِ الْإِنْشَاءِ مَسْلُكَيْنِ :

المسلك الأول

(طَرِيقَةُ الْإِتِّبَاعِ)

وَهِيَ نَظَرُ الْكَاتِبِ فِي كَلَامٍ مِنْ تَقْدَمِهِ مِنَ الْكُتُبِ ، وَسُلُوكِ مَنْ جِهَهُمْ ، وَاقْتِفَاءِ
سَبِيلِهِمْ ، وَسِمَاهَا أَيْضًا التَّقْلِيدُ ، وَهِيَ عَلَى صَنْفَيْنِ .

الصنف الأول

(الْإِتِّبَاعُ فِي الْأَلْفَاظِ)

وَهُوَ اعْتِمَادُ الْكَاتِبِ عَلَى مَا رَتَبَهُ غَيْرُهُ مِنَ الْكُتُبِ ، وَأَنْشَأَهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَةِ
الْبَثْرِ ، بَأَنَ يَعْتَمِدَ إِلَى مَا أَنْشَأَهُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ وَرَتَبَهُ عُلَمَاءُ الصَّنَاعَةِ : مِنْ نَثَرٍ أَوْ نَظْمٍ
فِيَاخُذُهُ بِرُفْعَتِهِ ، وَيَأْتِي عَلَيْهِ بِصِيغَتِهِ ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ نَاسِخًا نَاقِلًا لِكَلَامِ غَيْرِهِ ، حَاكِيًا

له . ولمثل ذلك توضع الدساتير ، وتُدَوَّن الدواوين . على أنه ربما غير وبدل ، وحرف وصحف ، وأزال اللفظ عن وضعه ، وأحال المعنى عن حكمه . وبعضهم ربما حملته الألفه والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته ، فعدل إلى كلام غيره ، فالتقط من كل مكان سمعتين أو سمعات ، ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده ، وينتهى إلى مراده .

فإن كان لطيف الذوق ، حسن الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختار من خلال السجع لطيفه ، وأحسن رصفه وتأليفه ، جاء بهجاً رائعاً . لأنه أتى من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذى قصده النثر ، وتفريق مادون من كلام الأفاضل ، وتبديد شمله ، وخروج الكلام عن أن يُعرف قائله ، ويعلم منشئه ، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه ، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق ، ولا حسن الاختيار ، جاء مالفقه من كلام غيره رثاً ركيكاً ، نابعاً عن الذوق ، بعيداً عن الصنعة ، يُعاد من النسخ إلى المسخ ، وأخرج الكلام عن موضوعه ، وأفسده في وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى ، والمُصيبة العظمى . ثم لا يكتفى بذلك حتى يتجبح به ، ويعتقد أن ذلك عين الإثشاء وحقيقته ، محتجا في ذلك بقول الحريري : ”إن صناعة الحِسَاب موضوعة على التحقيق ، وصناعة الإثشاء مبنية على التلفيق“ . ظاناً أن التلفيق هو ضم سمعات منتظمة ، وفقرات مؤلفة بعضها إلى بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها ، وإضافة كلمة إلى مشاكلها . وشتان ما بين التلفيقين ، وبعداً لما بين الطريقين :

وَالزُّبُورُ وَالْبَازِي جَمِيعًا * لَدَى الطَّيْرَانِ أَجْنَحَةٌ وَخَفَقُ
وَلَكِنْ بَيْنَ مَا يَصْطَادُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّبُورُ فَرَقُ

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهراً مكشوفاً فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخاً لكلام غيره، وناقلاً له؟ فأى فضيلة في ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنى بلفظه كان سارقاً، ومن أخذ بعض لفظه كان سانحاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده كان أولى به ممن تقدمه، وأين من هو أولى بالشئ ممن سبقه إليه ممن يعدّ سارقاً وسانحاً؟ ويقال إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هذا فيمن أخذ سجعاً أو سجعيتين في خطبة أو رسالة، أو بيتاً أو بيتين في قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكلمها، أو الخطبة أو الرسالة برميها، أو لفظها من خطب أو رسائل فذاك إنما يعدّ ناسخاً إن أحسن النقل، أو ماسخاً إن أفسده.

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّائِرَ الْمَاهِرَ وَالشَّاعِرَ الْمُفْلِقَ قَدْ يَأْنِي بِكَلَامٍ سَبَقَهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، فَيَأْتِي بِالْبَيْتِ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ الْقَرْيَةِ مِنَ النَّثْرِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بَلْفِظِ الْأَوَّلِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، أَوْ بِتَغْيِيرِ لَفْظٍ يَسِيرٍ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَسْمِيهِ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَقُوعَ الْحَافِرِ عَلَى الْحَافِرِ. وَقَدْ سَأَلَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ عَنِ الشَّاعِرِينَ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنَى، فَقَالَ: عَقُولُ رِجَالٍ تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا.

والواقع من ذلك في كلامهم على قسمين.

القسم الأول

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى واللفظ جميعاً)

كقول الفرزدق:

وَعَرَّ قَدْ وَسَقَتْ مُشَمَّرَاتٍ * طَوَالِحَ لَا تُطِيقُ لَهَا جَوَابَا
بِكُلِّ نَيْيَسَةٍ وَبِكُلِّ نَغَرٍ * غَرَائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ أَنْتِسَابَا
بَلْغَنَ الشَّمْسِ حِينَ تَكُونُ شَرْقَا * وَمَسْقَطُ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . و يروى أن عمر بن
أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تَسُطُّ غَدًا دَارُ جِرَانِنَا *

فقال ابن عباس رضى الله عنه :

* وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَعَدُّ *

فقال عمر: والله ما قلتُ إلا كذلك . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين":
وأنشدت الصحاب إسماعيل بن عبّاد رحمه الله :

* كَانَتْ سَرَاةُ النَّاسِ تَحْتَ أَظْلِهِ *

فسبقنى وقال :

* فَعَدَّتْ سَرَاةُ النَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل
السائر": ويحكى أن امرأة من عَقِيل يقال لها ليلي، كان يتحدث إليها الشَّابُّ ،
فدخل الفرزدقُ إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تَأْلِفُهُ فدخل إليها
فأقبلت عليه وتركت الفرزدقَ ، فغاضه ذلك فقال للفتى : أنصاري عني ؟ فقال : ذاك
إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدقَ فَصْرَعَهُ وجلس على صدره فَضَرَطَ ،
فوثب الفتى عنه وقال ياباً فِرَاسٍ : هذا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ ، والله ما أردت ما جرى ،
قال : ويحك ! والله ما بى أنك صرعتنى ولكن كأتى بآبن الأثان ، (يعنى جريرا) وقد
بلغه خبرى ، فقال يهيجونى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لَتَحْضَى بِقُرْبِهَا * نَفَاكَ دُبُرٌ لَا يَزَالُ يَحُونُ

فلو كنتَ ذَا حَرَمٍ شَدَدْتَ وَكَأَهُ ، * كَمَا شَدَّ جُرْبَانَ الدَّلَاصِ قِيُونُ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب ما يكون في هذا الموضع وأعجبه ! قال في "الصناعتين" : وإذا كان
القوم في قبيلة واحدة، في أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم
وشمائلهم تكون متضاربة . قال في "المثل السائر" : ويقال إن الفرزدق وجريراً كانا
ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندي مستبعد، فإن
ظاهر الأمر يدل على خلافه، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى، وإلا فإذا رأينا شاعراً
متقدماً الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده، علمنا بشهادة الحال
أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة،
فكيف تتفق الألسنة أيضاً في صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكري في "الصناعتين"
يوافق به العتب على المتأخر، وإن ادعى أنه لم يسمع كلام الأول في مثل ذلك .

القسم الثاني

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى وبعض اللفظ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما اتفق فيه المعنى وأكثر اللفظ)

كقول امرئ القيس :

وَقُوفًا بِهَا صَحِيَّ عَلَى مَطِيئِهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى، وَتَجَلِّ

وقول طرفة :

وَقُوفًا بِهَا صَحِيَّ عَلَى مَطِيئِهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى، وَتَجَلِّ

فالتخالف بينهما في كلمة القافية فقط .

وقول البعيث :

أَتَرْجُو كَلْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا * نَحِيرٌ، وَقَدْ أَعْيَا كَلْبًا قَدِيمُهَا ؟

وقول الفرزدق :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا * نَحِيرٌ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا ؟

فالتخالف بينهما في موضعين من البيت ، كلمة القافية وأسم القبيلة .

وقول بعض المتقدمين يمدح مَعْبَدًا صاحبَ الْغَنَاءِ :

أَجَادَ طُوَيْسٌ وَالسَّرِيجِيُّ بَعْدَهُ * وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ

وقول الفرزدق بعده :

مَحَاسِنُ أَصْنَافِ الْمُغَنِّينَ جَمْلَةٌ * وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلَّا لِمَعْبَدٍ

فاتفقا في النصف الثاني، واختلفا في النصف الأول . إلى غير ذلك من الأشعار

التي وقعت خواطر الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثاني

(ما اتفق فيه المعنى مع يسير اللفظ)

فمن ذلك قول البُحْتَرِيِّ في وصف غلام :

فَوْقَ ضَعْفِ الصَّغِيرِ إِنْ وَكَلَ الْأُمُّرُ إِلَيْهِ ، وَدُونََ كَيْدِ الْكِبَارِ

أخذه من قول أبي نَوَاسٍ :

لَمْ يَجُفْ مِنْ كِبَرٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ * مِنَ الْأُمُورِ، وَلَا أَرَى بِهِ الصَّغَرُ

وقول أبي تَمَّامٍ :

وَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيًا بِشِعْرِي * وَلَكِنِّي مَدَحْتُ بِكَ الْمَدِيحَا

أخذه من قول حسان بن ثابت ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
 مَا إِنِّ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا ! بِمَقَالَتِي * لَكِن مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّد !

وقول أبي الطيّب :

أَيْنَ أَرْمَعَتْ أَهْذَا الْهُمَامُ * نَحْنُ نَبَتْ الرُّبَا ، وَأَنْتَ الْغَمَامُ
 أخذه من قول بشار :

كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاهُ الْقَطَارُ

الصف الثاني

(التقليد في المعاني)

وهذا مما لا يستغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه
 ”الصناعتين“ : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم
 والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من
 عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا
 عليها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم
 أولى بها من سبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته
 أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد آسماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنين
 عليّ كرم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد ، لنفد . ومن كلام بعضهم : كلُّ
 شيء إذا شئتَه قَصُرَ إلا الكلام ، فإنك إذا شئتَه طال ، والمعاني مشتركة بين العقلاء ،
 وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي . وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ
 وورصفها ، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني

بينهم ، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسده في الأخذ وقصّر فيه عمن تقدّمه . قال في "الصناعتين" : وما يُعرَفُ للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عترة :

وَحَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِجٍ * غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَمِّمِ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ * قَدَحَ الْمُكَبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ

فإنه مأنوزع فيه على جودته . قال : وقد رامه بعض المحذّنين فافتضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه إلى الذى ابتكره وسبق إليه ، فالمعنى الجيد جيد ، وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وسط ، والردى ردى وإن لم يكن مسبوقا إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنى مبتدع ، محتجا لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نطق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنى من المعانى إلا وقد طُرِقَ مرارا . قال في "المثل السائر" : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجر على الخواطر وهى قاذفة بما لانهاية له ؟ إلا أن من المعانى ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطَلَقُ عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأوّل . كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَاعَفَتْ * آثَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ

وقولهم فى المديح : إن عطائه كالبحر أو كالسحاب ، وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ؛ وإنه يوجد بما له من غير مسألة ؛ وأشباه ذلك .

وقولهم فى المراثى : إن هذا الرزء أول حادث ؛ وإنه استوى فيه الأبعد والأقارب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ؛ وإن بعد هذا الذاهب لا يعد للنية ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطر من

غير كُفَّةٍ ؛ وليستوى في إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَقُ على الآخرِ فيه اسمُ السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسمُ السرقة في معنى مخصوص . كقول أبي تمام :

لا تُكْرِوْا ضَرْبِي له مِنْ دُونِهِ * مَثَلًا شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ ،
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

فإن هذا معنى ابتدأه مخصوص بأبي تمام ، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السيئة التي مطلعها :

* مَا فِي وَفُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ *

أنتهى إلى قوله منها :

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ، * فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ ، فِي ذَكَاءِ إِيَّاسِ

فقال الحكيم الكندي : وأى نحر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فاطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمر وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كلُّ ماجرى هذا المجرى . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني مَنْ قبلهم ، ويبنون على بناء مَنْ تقدّمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبي تمام :

حُلِقْنَا ، رَجَالًا لِلتَّجْدِّ وَالْأَسَى * وَتِلْكَ الْغَوَانِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَاتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مُصْعَبُ بن الزبير : وإنما التسليم والسُّلُوُ حُزْمَاءُ الرِّجَالِ ، وَإِنْ الْجُرْعَ وَالْهَلَعَ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ ؛ وقوله أيضا : تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا * كَأَنَّ الْمَجْدَ يُدْرِكُ بِالصَّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف
لأستعملتك ، وقول أبي الأسود له فى جواب ذلك : إن كنت تريدنى للصراع فإنى
لا أصلح له وإلا فغير شديد أن أمر وأنهى ؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدم :

أطال يدى على الأيام حتى * جريتُ صُروفها صاعا بصاع

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

فإن تُقتلَ أو يُمكنَ اللهُ مِنْكَ ، * نكلُ لَكُما صاعاً بصاع المكايل

وقول أبي الطيب المتنبى :

وإذا كانتِ النفوسُ كباراً * تعبتُ فى مُرادها الأجسامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوةُ فوق القدرة ، كان هلاكُ
الجسم دونَ بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر :

من راقب الناس مات غمّاً * وفازَ باللذةِ الجسورُ

أخذه من قول بشار :

من راقب الناس لم يظفرَ بِحاجته . * وفاز بالطيباتِ الفاتكُ اللَّهجُ

فلما سمع بشارُ بيت الخاسر ، قال : ذهب أبْنُ الفاعلةِ بيتى . ومثل هذا وأشباهه
مما لا ينحصر كثرةً ، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكُتاب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من قوله فى فصل
من كتاب : إذا كان للحسن من الثواب ما يُقْنِعُهُ ، وللسىء من العقاب ما يُقْمَعُهُ ،

أزداد الحسنُ فى الإحسان رَغْبَةً ، وأنقاد المسىء للحق رَهْبَةً . أخذه من قول على

كرم الله وجهه ! : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتقصد أعوانه ، حتى

لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ، وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ؛ ثُمَّ لَا يَتْرَكُ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ،
فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَهَاوَنَ الْحَسَنُ وَاجْتَرَأَ الْمُسِيءُ، وَفَسَدَ الْأَمْرُ، وَضَاعَ الْعَمَلُ .

وما كتب به بعض الكُتَّابِ في فصل وهو : لو سَكَتَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ، لَنَطَقَ
أَثْرُكَ عَلَيَّ . وفي فصل آخر : ولو جَهِدْتُكَ إِحْسَانَكَ، لَا كَذَبْتُكَ أَثَارُكَ، وَنَمَّتْ عَلَيَّ
شَوَاهِدُهَا . أَخْذَهُ مِنْ قَوْلِ نَضِيبٍ :

* وَلَوْ سَكَتُوا أَثَبْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبَ *

وما كتب به أحمد بن يوسف من فصل، وهو : أَحَقُّ مَنْ أَثَبْتُ لَكَ الْعَذَرَ فِي حَالِ
شُغْلِكَ، مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بَرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . أَخْذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ! : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرٍ مَا أُولَى، وَيَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ .

والإقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقدّم الكلام عليه قبل ذلك .
قال في "الصناعتين" : وَمِنْ أَخْفَى أَسْبَابِ السَّرْقَةِ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنَى مَنْ نَظَمَ فَيُورِدُهُ
فِي نَثَرٍ، أَوْ مِنْ نَثَرٍ يُورِدُهُ فِي نَظْمٍ؛ أَوْ يَنْقِلُ الْمَعْنَى الْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمَرٍ فَيَجْعَلُهَا
فِي مَدِيحٍ . أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقِلُهَا إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَصِلُ لِهَذَا إِلَّا الْمُبَرِّزُ الْكَامِلُ
الْمُقَدَّمُ .

وقال في "المثل السائر" : أَشْكَلُ سَرَقَاتِ الْمَعَانِي، وَأَدْقُهَا، وَأَغْرَبُهَا، وَأَبْعَدُهَا
مَذْهَبُ أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى مُجَرَّدًا مِنَ اللَّفْظِ . قَالَ : وَذَلِكَ مِمَّا يَصْعُبُ جَدًّا وَلَا يَكَادُ
يَأْتِي إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ وَيَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الْأَشْعَارِ إِلَّا بَعْضُ الْخَوَاطِرِ دُونَ
بَعْضٍ .

فمن ذلك قول أبي تمام في المدح :

فَقِي مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةً * تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

أخذه من قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقَرَّرًا * مِنَ الْمَالِ ، يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيُبْلِغَ عُذْرًا أَوْ يَنْالَ رَغِيَةً * وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مَنْجَحٍ

فعروة جعل أجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذى هو غايةُ أجهتاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار . قال في "المثل السائر" : وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف . وأظهر من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عزى ربيعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود

أخذه من قول ابن المقفع في باب المرائى من الحماسة :

وقد جر نفعا فقدنا لك أننا * أمنا على كل الرزايا من الجرع

على أنه ربما وقع للتأخر معنى سبقه إليه من تقدمه ، من غير أن يلم به المتأخر ولم يسمعه . ولا أستبعد في ذلك كما يستبعد اتفاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال العسكري : وهذا أمر قد عرفته من نفسى فلا أمتري فيه ! وذلك أنى كنت عملت شيئا في صفة النساء ، فقلت :

* سَفَرْنَ بِدُورٍ وَأَتَقَبْنَ أَهْلَةً *

وظننت أنى لم أسبق إلى جمع هذين التشبيهين حتى وجدت ذلك بعينه لبعض البغداديين فكثرت تعجبي ، وعزمت على أن لا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنى المجرد عن اللفظ لا تخرج عن اثني عشر ضربا .

الضرب الأول

أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه . قال في "المثل السائر" : وهذا من أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة ، ولا يأتي إلا قليلاً . فمن ذلك قول المتنبي :

وَإِذَا أَنْتَكَ مَذْمُومٌ مِنْ نَاقِصٍ ، * فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وهذا المعنى أستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحماسة ، وإن لم يكن صريحاً فيه حيث يقول :

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَتَيْتُ * بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلٍ

قال في "المثل السائر" : والمعرفة بأن هذا المعنى من ذلك المعنى عسر غامض غير متبين إلا لمن أعرق في ممارسة الشعر ، وغاص على استخراج المعاني . قال : وبيان ذلك أن الأول يقول : إن بغض الذي هو غير طائل إياي قد زاد نفسي حبا إلى أي قد جملها في عيني وحسنها عندي كون الذي هو غير طائل متقصي ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذاً من هذا الضرب قول البُحْتَرِيِّ في قصيدة يفخر فيها بقومه :

شِيخَانٍ قَدْ ثَقَلَ السَّلَاحُ عَلَيْهِمَا * وَعَدَاهُمَا رَأَى السَّمِيعُ الْمُبْصِرُ

رَكِبَا الْقَنَّا مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلَا الْقَنَّا * فِي عَسْكَرٍ مِتَحَامِلٍ فِي عَسْكَرٍ

أخذه من قول أبي تمام في وصف جمل :

رَعَتْهُ الْفَيَافِي بَعْدَ مَا كَانَ حَقْبَةً * رَعَاهَا ، وَمَاءُ الرُّوْضِ يَهْلُ سَاكِبُهُ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض، ثم سار فيها فرعته أى أهنئته، فكانها فعلت به مثل ما فعل بها، والبُحترى نقله إلى وصف الرجل بعلو السن والمهرم، فقال: إنه كان يحمل الرمح في القتال، ثم صار يركب الرمح أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا في الأخذ قول البُحترى أيضا:
أَعَاتِكَ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِي * إِلَيْكَ، فَالْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مَبْعِدِي
أخذه من قول أبي تمام:
لَا أَظْلِمُ النَّأْيَ، قَدْ كَانَتْ خَلَاثُهَا * مِنْ قَبْلِ وَشِكِ النَّوَى عِنْدِي نَوَى قُدْفَا

الضرب الثانى

أن يؤخذ المعنى فيعكس، قال في "المثل السائر": وذلك حسن يكاد يخرج منه حسنة عن حد السرقة.

فمن ذلك قول أبي نواس:
. قالوا: عَشِقْتُ صَغِيرَةً، فَأَجَبْتُهُمْ * أَشْهَى الْمَطَى إِلَى مَا لَمْ يَرْكَبِ.
كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لَوْلُو مَثْقُوبَةٍ * نَظْمَتْ وَحَبَّةِ لَوْلُو لَمْ تُثَقِّبْ؟
وقول ابن الوليد في عكسه:

إِنَّ الْمَطِيَّةَ لَا يَلِدُ رُكُوبَهَا * حَتَّى تُدَلِّلَ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَبَا.
وَالدَّرُّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرَابَهُ، * حَتَّى يَزِينَ بِالنِّظَامِ وَيُثَقَّبَا.

ومنه قول ابن جعفر:

وَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنَّهُ لَا تُرِيدُنِي * وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُجْعَلِي،
تَمَنَيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا * تَذُوقُ صَيَابَاتِ الْهَوَى فَيَرْقَى لِي

وقول غيره في عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّنِي صُدُودُكَ عَنِّي * فِي طَلَابِيكَ ، وَامْتِنَاعِكَ مِنِّي
حَذَرًا أَن أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي ، * وَإِذَا مَا خَلَوْتُ ، كُنْتَ التَّمَنَّى

أما ابن جعفر فإنه ألقي عن منكبيه رداء الغيرة ، وأما الآخر ، فإنه جاء بالضد
من ذلك وبالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبي الشَّيْص :

أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لِذِيْدَةٍ * شَغَفًا بِذِكْرِكَ ، فَلَيْلَتُنِي اللَّوْمُ

وقول ابن الطيب في عكسه :

أَأَحِبُّهُ وَأَحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ، * إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبي تمام :

وَلَوْلَا خِلَالُ سَنَاهَا الشَّعْرُ مَا دَرَيْ * بُغَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير في عكسه :

لَوْلَا الْكِرَامُ وَمَا سَنُوهُ مِنْ كَرَمٍ ، * لَمْ يَدْرِ قَائِلُ شِعْرِ كَيْفَ يَمْتَدِحُ

الضرب الثالث

(أن يؤخذ بعض المعنى دون بعض)

فمن ذلك قول أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ يمدح عبدالله بن جُدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِّأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * يَبْدُلُ ، وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ زَيْنٌ

وقول أبي تمام بعده :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفَرًا ، وَهِيَ إِنْ شُهِرَتْ ، * كَانَتْ فَخَارًا لِمَنْ يَعْفُوهُ مُؤْتِنًا
مَا زِلْتُ مَسْتَظِرًّا أَنْجُوبَةً زَمَنًا * حَتَّى رَأَيْتُ سُؤْلًا يُجْتَنَى شَرَفًا

فأمية بن أبى الصلتِ أتى بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء غيرك ليس بزين ؛ وأبو تمام أتى بالمعنى الأول فقط .

ومنه قول على بن جبلة :

وأَنْلَ ما لم يَحْوِهِ مُتَقَدِّمٌ ، * وإن نال منه آخِرٌ فهو تابعُ

وقول أبى الطيّب بعده :

تَرْفَعُ عَنِ عَوْنِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ ، * فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَدَارِيَا

فأبن جبلة أتى بمعنيين ، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد من تقدمه ، وإن نال الآخريشئاً فهو مقتد به وتابع له ؛ وأبو الطيّب أتى بالمعنى الأول فقط ، وهو أنه فعل ما لم يفعله غيره مشيراً إلى ذلك بقوله : فَمَا يَفْعَلُ الْفَعْلَاتِ إِلَّا عَدَارِيَا أى يستبكرها ويُزِيلُ عُدَّتَهَا .

ومنه قول الآخر :

أَنْتِجُ الْفَضْلَ أَوْ تَحْلُ عَنْ الدُّنْيَا ، فَهَذَا تَأَنُّ غَايَةُ الْهِمَمِ

وقول البُحْتَرِيِّ بعده :

إِدْفَعْ بِأَمْشَالِ أَبِي غَالِبٍ * عَادِيَةَ الْعُدَمِ ، أَوْ اسْتَعْفِفْ

فَالْبُحْتَرِيُّ اقْتَصَرَ عَلَى بَعْضِ الْمَعْنَى وَلَمْ يَسْتَوْفِهِ

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر . قال فى "المثل السائر" : وهذا النوع من

السَّرِقَاتِ قَلِيلٌ الْوُقُوعِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ .

فمن ذلك قول الأحنس بن شهاب :

إِذَا قَصَرْتُ أَسِيفًا ، كَانَ وَصْلُهَا * خُطَانًا إِلَى أَعْدَائِهَا ، فَنُضَارِبُ

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إِنْ قَصَرَ الرُّحُّ لَمْ يَنْمَسِ الْخُطَا سَدَّهَا * أَوْ عَزَدَ السِّيفُ لَمْ يَنْهَمِ بَتَعْرِيدِ
أخذ مسلم المعنى الذى أورده الأحنس : وهو وصل السلاح إذا قصُر بالخطأ
إلى العدو وزاد عليه عدم تعريضهم أى فرارهم إذا عزد السيف . ومنه قول جرير
فى وصف أبيات من شعره :

غَرَابِ آلاَفٍ إِذَا حَانَ وَرُدُّهَا * أَخَذْنَ طَرِيقًا لِلْقَصَائِدِ مُعَلِّمًا

وقول أبى تمام بعده :

غَرَابُ لَاقَتْ فِى فِنَائِكَ أَنْسَهَا * مِنَ الْمَجْدِ فَهَى الْآنَ غَيْرُ غَرَابٍ
فزاد أبو تمام على جرير قرآن ذلك بالمدح ومدحه مع الأبيات . ومنه قول
المعدّل بن غيلان :

وَلَسْتُ بِنَظَارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتِ الْعَالِيَاءُ فِى جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول أبى تمام بعده :

يَصْدُ عَنْ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُدُودٌ * وَلَوْ بَرَزَتْ فِى زَى عَدْرَاءَ نَاهِدٍ
فزاد عليه قوله :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فِى زَى عَدْرَاءَ نَاهِدٍ *

ومما اتفق لى نظمته فى هذا الباب أنه لما عُمرت مدرسة الظاهر برقوق بين
القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعمارتها الأمير حرّكس الخليلي أميرأخو
الظاهرى ، وكان قد أعتد بناءها بالصُّخُور العظيمة التى لا تُقْلَهُا الْحِمالُ حَمَلًا ، ولا
تَحْمَلُ إِلَّا عَلَى الْعَجَلِ الْخَشَبِ فَأُولِعَ الشَّعْرَاءُ بِالنَّظْمِ فِى هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَنَظَّمَ بَعْضُ الشَّعْرَاءِ
أَبْيَاتًا عَرَضَ فِيهَا بِذِكْرِ الْخَلِيلِيِّ وَقِيَامِهِ فِى عِمَارَتِهَا ، ثُمَّ قَالَ فِى آخِرِهَا :

وَبَعْضُ خُدَامِهِ طَوْعًا لَخْدِمَتِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلٍ

وَأَلْزَمَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ بِنِظْمِ شَيْءٍ فِي الْمَعْنَى، فَوَقَعَ لِي أُبَيَاتٌ مِنْ جَمَلَتِهَا :
وَبِالْخَلِيلِ قَدْ رَاجَتْ عِمَارَتُهَا * فِي سُرْعَةٍ بَيِّنَتْ مِنْ غَيْرِ مَامَهْلٍ
كَمْ أَظْهَرَتْ عَجَبًا أَسْوَاطُ حِكْمَتِهِ * وَقَدْ غَدَتُ مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ
وَكَمْ مَخْضُورٍ تَخَالُ الْجَنِّ تَنَقُّلُهَا * فَإِنَّهَا بِالْوَحَا تَأْتِي وَبِالْعَجَلِ

فزدت عليه ذكر الوحا الذي معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتي به المعزّمون
في عزائمهم من قولهم الوحا الوحا العجل العجل مع ما تقدّم له من التوطئة بقولي
تخال الجن تنقلها. على أنى لست من فُرسان هذا الميدان، ولا من رجال هذا الوغى

الضرب الخامس

أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى فَيُكْسَى عِبَارَةً أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَارَةِ الْأُولَى قَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ"
وهذا هو الحمود الذي يَجْرُجُ بِهِ حُسْنُهُ عَنْ بَابِ السَّرْقَةِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ :
إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ * قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا
أَخَذَهُ الْبَحْثَرِيُّ فَقَالَ :

قَلَّ الْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَهُمْ * وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّيْءُ حَتَّى يَكْثُرَا
ومنه قول أبي نَوَاسٍ :

يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْفَتَى * تَقَلَّبُ عَيْنُهُ إِلَى شَخْصٍ مِنْ يَهُوَى
وقول أبي الطيب بعده :

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ * فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

ومنه قول أبي العلاء بن سليمان في مَرْثِيَةٍ :

وَمَا كُفَّةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ * وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطَمِ

وقول القيسراني بعده :

وأهوى الذي يهوى له البدر ساجداً * أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ابن الرومي :

إِذَا شَنَّتْ عَيْنُ أَمْرِي شَيْبَ نَفْسِهِ * فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّائَةِ أَجْدَرُ

وقول من بعده :

إِذَا كَانَ شَيْئِي بَغِيضًا إِلَى * فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا حَيًّا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكاً موجزاً قال في "المثل السائر" وهو من أحسن السرقات : لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة بابه في البلاغة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

بَرَزْتَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَاحِدًا * فِيهَا تَسِيرُ مُغَوَّرًا أَوْ مُنْجِدًا

حَجَبًا بِأَنَّكَ سَأَلْتَ مِنْ وَحْشَةٍ * فِي غَايَةِ مَا زِلْتَ فِيهَا مُفْرَدًا

وقول ابن الرومي بعده :

غَرَبَتْهُ الْخَلَائِقُ الزُّهْرُ فِي النَّاسِ * وَمَا أَوْحَشَتْهُ بِالتَّغْرِيبِ

فأخذ معنى البيتين في بيت واحد، ومنه قول أبي العتاهية :

وَإِنِّي لَمَعْدُورٌ عَلَى فِرْطِ حُبِّهَا * لِأَنَّ لَهَا وَجْهًا يَدُلُّ عَلَى عُدْرِي

أخذه أبو تمام فقال :

لَهُ وَجْهٌ إِذَا أَبْصَرُ * تَهُ نَاجَاكَ عَنْ سُدْرِي

فأوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبي تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كَانَتْ مُسْأَلَةُ الرَّبَّانِ تُخْبِرُنِي * عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ أَطِيبَ الْخَبْرِ

حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ * أَذُنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بِصَرِي !
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَأَوْجَزَنِي أَخَذَهُ فَقَالَ :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَرَ الْخَبَرَ الْخَبَرُ^{هُ}
وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

أَمِنْ خَوْفٍ فَقَرٍ تَعَجَّلَتْهُ * وَأَخَّرَتْ إِنْفَاقَ مَا تَجَمَّعُ ؟
فَصَرَّتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنَى * وَمَا كُنْتَ تَعْدُو الذِّى تَصْنَعُ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَمِنْ يَنْفِقُ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ * مَخَافَةَ فَقَرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ^{هُ}

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة في المعنى ، بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه ،
فمن ذلك قول أبي تمام :

هُوَ الصُّنْعُ إِنْ يُعْجَلُ فَنُفْعٌ وَإِنْ يَرْتِ * فَلَلرَّيْثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَبِيلِكَ عَنِّي * أَسْرَعُ السُّحُبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ
فَزَادَهُ وَضُوحًا بِضَرْبِ الْمَثَالِ لَهُ بِالْجَهَامِ : وَهُوَ السَّحَابُ الَّذِي لَا مَطَرَ فِيهِ .
وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ أَيْضًا :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَنَاهُ مِنْ حَقِيقَتِهِ * نَفِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا
أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

وَجَاهِلٌ مَدَّهُ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي * حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمُ^{هُ}
إِذَا رَأَيْتَ نُبُوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً * فَلَا تَطْنَنَّ أَنَّ اللَّيْلَ مَبْتَسِمُ^{هُ}

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

وكذلك لم تُفْرِطْ كَابَةً عَاطِلٍ * حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالٍ
أَخَذَهُ الْبَحْتَرِيُّ فَقَالَ :

وقد زادها إفراطاً حُسْنِ جَوَارِهَا * لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خَيْبٍ
وَحُسْنِ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى * طَوَالِغَ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْبٍ
فضرب له مثالا بالكواكب في ظلام الليل ، فأوضحه وزاده حُسْناً .

الضرب الثامن

اتحاد الطريق واختلاف المقصود ، مثل أن يسلك الشاعران طريقا واحدة
فتخرج بهما إلى مَوْرِدَيْنِ ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .
فمن ذلك قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَاقَ فَوْقَهُ * عَصَابُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَابِ
جَوَانِحٍ قَدْ أَيقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ * إِذَا مَا اتَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبٍ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضروب من العبارات ،
فقال أبو نؤاس :

يَتَوَخَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ * ثِقَةً بِاللَّحْمِ مِنْ جَزَرِهِ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرُ عَادَاتٍ وَثَقَنَ بِهَا * فَهَنْ يَتَّبِعْنَهُ فِي كُلِّ مَرْتَحَلٍ

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَمْتَ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ صُحَى * بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاحِلُ

أقامت مع الرأيات حتى كأنها * من الجيش إلا أنها لا تُقاتل
وكل هؤلاء قد أتوا بمعنى واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك
أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذا الطريق
مع اختلاف مقصده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها * خوفاً فأنفسها إليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بدخلها * شهدت عليك ثعالب وسور

فهذا قد فضل به مسلم غيره في هذا المعنى ، ولما انتهى الأمر إلى أبي الطيب سلك
هذه الطريق التي سلكها من تقدمه إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذي قصدوه
فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجملة ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره فقال :

سحاب من العقبان يزحف تحتها * سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه
فحوى طرفي الإغراب والإعجاب

الضرب التاسع

بياض بالأصل^(١)

(١) لمقتصر في الضوء على أحد عشر نوعاً وجعل العاشر تاسعاً الخ وكذلك عدّها صاحب المثل السائر .

الضرب العاشر

أن يكون المعنى 'عاماً فيجعل خاصاً أو خاصاً فيجعل عاماً، وهو من السرقات التي يسأخ صاحبها؛ فأما جعل العام خاصاً، فمن ذلك قول الأخطل^(١) .
لَاتَنَّهُ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ * عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
أخذه أبو تمام فقال :

أَلُّومٌ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَغْتَدَى * لِلْبُخْلِ تَرْبًا؟ سَاءَ ذَاكَ صَنِيعًا !
فالأخطل نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقاً فجاء بالخلق منكراً فجعله شائماً
في بابه ؛ وأبو تمام خصص ذلك بالبخل ، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق .
وأما جعل الخاص عاماً، فمن ذلك قول أبي تمام .
وَلَوْ حَارَدَتْ شَوْلٌ عَدْرَتْ لِقَاحَهَا * وَلَكِنْ مَنَعَنَ الدَّرَّ وَالضَّرْعُ حَافِلُ
أخذه أبو الطيب فجعله عاماً فقال :
وَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ * كَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقٍ

الضرب الحادي عشر

قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة . قال في "المثل السائر" وهذا لا يسمى
سرقة بل يسمى إصلاحاً وتهذيباً ، فمن ذلك قول أبي نُوَاسٍ في أرجوزة يصف فيها
اللعب بالكرة والصوب لحان فقال من جملتها :
جِنُّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ * كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبْرِ
أخذه المتنبي فقال :

فكَأَنَّمَا تُنِجَّتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ * وَكَأَنَّمَا خُلِقُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضاً - وفي ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للتوكل الليثي .

فهذا في غاية العاق والارتقاء بالنسبة إلى قول أبي نَؤاس ، ومنه قول أبي الطيب .
لو كَانَ مَا تُعْطِيهِمْ حُمُومٌ قَبْلَ أَنْ * تُعْطِيَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا التَّأْمِيلَا
وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يَبْقَ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْمَلُهُ * تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ
فكلام ابن نباتة أحسن في الصورة من كلام المتنبي هنا ، وإن كان مأخوذاً منه .

الضرب الثاني عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ؛ وهو الذي يعبر عنه أهل هذه الصناعة
بالمسخ ، وهو من أرذل السرقات وأقبحها ، فمن ذلك قول أبي تمام :
فَتَى لَا يَرَى أَنَّ الْفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ * وَلَكِنْ يَرَى أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلُ
أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرَى أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بِأَقْتَلِ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبٍ
ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعَزِّيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى * مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ
أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وَبِالْفَاظِكَ أَهْتَدَى فِإِذَا عَزَّكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتُ قَبْلَا

المسلك الثاني

(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" فهي أن لا يتصفح كتابه
المتقدمين ولا يطلع على شيء منها ، بل يصرف همهته إلى حفظ القرآن الكريم وكثير
من الأخبار النبوية وعامة من دواوين فحول الشعراء من غلب على شعره الإجابة

في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي ، حتى يستقيم إلى طريق يفتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما في الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جدا ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجأما ، وخاطرا رقا . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرتبطا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا ينشئ كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش على دقائمه ، وقلبه ظهرا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، وأستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . على أنه لابد للكاتب المرتقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف في اقتباس المعاني واستخراجها فيرقى إلى درجة الاجتهاد في الكتابة ، كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ، وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، أستخرج بفكره حينئذ ما يؤديه إليه آجهاده . فالمجتهد في الكتابة يستخرج المعاني من مظانها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد في الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد في الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرها مما يتعلق بفن الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم ، وخلق الفكر عن المشوَّش)

أما وجود الطبع فقال في "موادّ البيان" : أول معاين هذه الصناعة الجليلة القرينة الفاضلة ، والغريزة الكاملة ، التي هي مبدأ الكمال ، ومنشأ التمام ، والأساس الذي يبنى عليه ، والركن الذي يُستند إليه ، فإن المرء قد يجتهد في تحصيل الآداب ، ويتوفّر على آقتناء العلوم وأكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما أكتسبه ، بخلاف المطبوع على ذلك ، فإنه وإن قصر في اقتباس العلوم وأكتساب المواد فقد يلحق بأوساط أهل الصناعة ؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبّع ، والمناسب بغريزته للصناعة دون المتصنّع ، ولا سبيل إلى أكتساب سهولة الطبع ولا كرازته ، بل هو موهبة تُحصّ ولا تعم ، وتوجد في الواحد وتُفقد في الآخر .

قال ابن أبي الأصبع في "تحرير التجريد" ومن الناس من يكون في البديهة أجمع منه في الروية ، ومن هو مجيد في الروية وليست له بديهة ؛ ولعلها يتساويان .

وممنهم مَنْ إذا خاطب أبدع ، وإذا كاتب قَصَّر ؛ ومن هو بضد ذلك ، ومن قَوَّى نثره ضَعَّف نظمه ، ومن قَوَّى نظمه ، ضَعَّف نثره ، وقلمها يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ، ولهذا قيل : أشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، وعنتر إذا كلب ، والأعشى إذا طرب ^(١) . قال في "المثل السائر" بل ربما نَفَدَ في بعض أنواع الشعر دون بعض فُرى مُجيدا في المدح دون الهجاء ، أو بالعكس ، أو ماهرا في المقامات ونحوها دون الرسائل ، أو في بعض الرسائل دون بعض . قال ابن أبي الاصبع : ولربما واتاه العمل في وقت دون وقت ، ولذلك قال الفرزدق : إني ليمر على الوقت ولقُعُ ضرس من أضراسي أيسر على من قول الشعر ؛ ولذلك عز تأليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة والمهرة في معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُو طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذي قامت صور معانيه في نفوسهم وصَعُب الأمر عليهم في تأليفه ونظمه ؛ فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدمه في اللغة ومهارته في العربية ، وأختراعه علم العروض ، الذي هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يتهيا له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة ، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يأباني جيده وأبي رديئه ، مشيرا بذلك إلى أن طبعه غير مساعد له على التأليف المرضي الذي تحسن نسبته إلى مثله . وقيل للفضل الضبي ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ، فقال علمي به يعني من قوله وأبشد :

أبي الشعر إلا أن يفى رديئه * على ويأبى منه ما كان محملا
فيا ليتني إن لم أجد حوك وشيه * ولم أك من فرسانه كنت مفعلا

وأشدد أبو عبيدة خَلَقًا الأحمر شعرا له فقال : اخبأ هذا كما تخبأ السُّنُورَةَ حاجتها ، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام جروبها ، وما يجرى مجرى ذلك من مواد تأليف الكلام ونظمه . ويحكى عن أبي العباس المبرد أنه قال : لا أحتاج إلى وصف نفسى : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقين تختلج في نفسه مسألةٌ مُشْكَلَةٌ إلا لقينى بها وأعدنى لها ، فأنا عالم ومُعلِّمٌ ، وحافظ ودارس ، لا يخفى على مشته من الشعر ، والنحو ، والكلام المنثور ، والخطب ، والرسائل ، ولربما احتجت إلى اعتذار من قلّة ، أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذى أقصد نُصِبَ عيني ثم لأجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بحميل فحاولت أن أكتب إليه رُقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أمورى فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى إلى غيره ، ولذلك قيل زيادة المنطق على الأدب خُدعة ، وزيادة الأدب على المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك ؛ على أن الطبع بمفرده لا ينهض بالمقصود من ذلك نهوضه مع اشتماله على المواد المساعدة له على ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدّم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالى ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدمين وأيام العرب وما يجرى مجرى ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومُسَهِّلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوته ؛ إذ معرفته هذه الأمور قائمة من الإنشاء مقام المادّة ، والطبع قائم منه مقام الآلة ، فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم توجد المادّة والآلة جميعا ، ولو كان حصول المادّة

كافيا فى التوصل إلى حسن التأليف الذى هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها على المعانى المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلف من الرسائل والخطب والأشعار سهلة ، والمُشاهد بخلاف ذلك : لقصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .
وأما خلق الفكر عن المشوِّش فإنه يرجع إلى أمرين .

الأمر الأول

(صفاء الزمان)

فقد قال أبو تمام الطائى فى وصيته لأبى عبادة البحرى مرشدا له للوقت المناسب لذلك : تَخِيَّرِ الْأَوْقَاتَ وَأَنْتَ قَلِيلُ الْهَمُومِ ، صِفْرٌ مِنَ الْغُومِ ؛ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَادَةَ فِي الْأَوْقَاتِ إِذَا قَصَدَ الْإِنْسَانُ تَأْلِيفَ شَيْءٍ أَوْ حَفَظَهُ أَنْ يَخْتَارَ وَقْتَ السَّحَرِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَهَا مِنَ الرَّاحَةِ ، وَقَسَطَهَا مِنَ النَّوْمِ ، وَخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ الْغِذَاءِ ، وَصَفَا الدِّمَاغُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَبْجَرَةِ وَالْأَدْخَنِ ، وَسَكَتَ الْغَمَاغِمُ ، وَرَقَّتِ النَّسَائِمُ ، وَتَغَنَّتِ الْجَمَائِمُ .

وخالف ابن أبى الأصبع فى اختيار وقت السحر، وجنح إلى اختيار وسط الليل ، أخذاً من قول أبى تمام فى قصيدته البائية :

خُذْهَا ابْنَةُ الْفِكْرِ الْمُهْدَّبِ فِي الدُّجَى * وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الْجِلْبَابِ

مفسراً للدُّجَى بوسط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة ، ونالت قسطها من النوم ، وخَفَّ عَنْهَا ثِقَلُ الْغِذَاءِ ، فيكون الذهن حينئذ صحيحا ، والصدر منشرحاً ، والبدن نشيطاً ، والقلب سائماً . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه يَرِقُّ النسيم وينهض الغداء ، إلا أنه يكون قد آتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطق وغيره ، ويرتفع معظم الأصوات ، ويجرى الكثير من الحركات ، وينقشع بعض الظلمات بطلوع أوائل الضوء ؛ وربما آتبه عن بعض

الناس الغذاء فتحزكت الشهوة لإخلاف ما أنهض منه وخرج من فضلاته ، فكان ذلك داعيا إلى شغل الخاطر ، وباعثا على أنصراف الهم إلى تدبير الحدّث الحاضر ، فيتقسم الفكر ، ويتذبذب القلب ، ويتفرق جميع الهم . بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثانى (صفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكان الذى هو فيه خاليا من الأصوات ، عاريا عن المخوفات والمهولات والطوارق ، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعجبا رقيق الحواشى فسيح الأرجاء ، بسيط الرّحاب ، غير غمّ ولا كدر؛ فإن أنضم إلى ذلك ما فيه بسط للخاطر : من ماء وخضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر . وقد ذهب بعضهم إلى أنه ينبغى خلو المكان من النقوش الغريبة والمرأى المعجبة ، فإنها وإن كانت مما ينشط الخاطر فإن فيها شغلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتت .

المقصد الثانى

(من الطرف الثالث فى بيان طُرُق البلاغة ووجوه تحسين الكلام ،
وكيفية إنشائه ، وتأليفه ، وتهذيبه ، وتأديته ، وبيان ما يُستحسن من الكلام
المصنوع ، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبى الأصبع فى "تحرير التحير" : يجب على كل من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أولا نفسه ويمتنعها بالنظر فى المعانى ، وتدقيق الفكر فى استنباط المخترعات ؛ فإذا وجد لها فطرة سليمة وجيلة

• موزونة وذكاء وقادا وخطرا سمحا وفكرا ثاقبا وفهما سريعا وبصيرة مبصرة
والمعينة مهذبة وقوة حافظه وقدرة حاكية وهمة عالية ولمحة فصيحة وفطنة
صحيحة ، أخذ حينئذ في العمل ؛ وإن كان بعض ذلك غير لازم لرب الإنشاء ، ولا
يُضطرُّ إليه أكثر الشعراء ، ولكن إذا كملت هذه الصفات في الكاتب والشاعر ، كان
موصوفا في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكري في "الصناعتين" : إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر
معانيه ببالك ، ونق له كرائم اللفظ ، فأجعلها على ذكر منك ليقرَّب عليك تناوُّها ،
ولا يتعبك تطلبها ، واعمله مادمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفتور ، وتحوَّك
الملال ، فأمسك : فإن الكثير مع الملال قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس ،
والخواطر كالينابيع يسقي منها شيء بعد شيء فتجد حاجتك من الرى ، وتنال أربك من
المنفعة ، فإذا أكرثت عليها نضب ماؤها ، فقلَّ عنك غناؤها . وينبغي أن تخرج مع
الكلام معارضة ، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته ، أو معنى بديع تعلقت
بذيله . وتحزَّز أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت في تطلبه ، ولعلك لا تلحقه على
طول الطلب ، ومواصلة الدأب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضيَّعت أول كلِّ شيء * أبت أعجازه إلاَّ النواء

وقد قالوا ينبغي لصانع الكلام أن لا يتقدم الكلام تقدما ولا يتبع ذنابه تتبعاً ،
ولا يجعله على لسانه حملاً ، فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه
والشارد منه ، وإن تتبعه فاتته سوابقه ولواحقه ، وتباعدت عنه جياده وغرره ؛ وإن
حملة على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مساويه في محاسنه ، ولكنه
يجرى معه فلا تند عنه نادة تعجبه سَمِنا إلاَّ كبَحها ، ولا تتخلف عنه مُثقلة هزيلة
إلاَّ أرهقها ، وطورا يفزقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلط المثل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، يأخذ عَفْوَهُ ويستغزر دَرَّه ، ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وإياك والتعقيد والتوعر ، فإنَّ التوعر هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما ، فليتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونهما عما يندسهما ، ويفسدهما ويهجنهما ، فتصير بهما إلى حدِّ تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس البلاغة ، وترتبن نفسك في ملابستها ، وليكن لفظك شريفا ، عذبا ، فحما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفاً ، وقريبا معروفاً ، فإن وجدت اللفظة لم تقع مرقعها ، ولم تصل إلى مركزها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقلةً في موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فلا تُكرِّهها على اغتصاب أماكنها ، والنزول في غير أوطانها ، وإن بُليت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة ، وعصت عليك بعد إجالة الفكر ، فلا تعجل ، ودعه سبحانه يومك ، ولا تضجر ، وأمهله سواد ليلتك ، وعادوه عند نشاطك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كنت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرف ، وينبغي أن تعرف أقدار المعانى ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما ، حتى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

قال في "مواد البيان" ويكون استعمال كل من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحتها وسلسلها وبهجها في موضعه ، وأن يسلك في تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجها عن حكم الكلام المنشور العاطل ، الذى تستعمله العاقبة في المخاطبات ، والمكاتبات ، إلى حكم المؤلف الحالى بحلِّ البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والأشباع ، والمقابلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال فى ”الصناعتين“ وإن عملت رسالة أو خطبة فتخط ألفاظ المتكلمين :
كالجسم ، والجوهر ، والعرض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والناسوت ،
فإن ذلك هجنة .

قال فى ”مواد البيان“ وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصناعة فيخرج
منها إلى ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانسة لها . قال وإنما يؤتى الكاتب فى هذا
الباب من جهة أن يكون له شركة فى صناعة غير الكتابة ، كصناعة الفقه والكلام
وغيرهما : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات
ألفاظ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاوره والخوض فى الصناعة ؛ ومن
عادة الإنسان إذا تعاطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلقة
به ، فيوقعها فى الكتب التى ينشئها لغلبة عادة استعماله إياها فيهجنها بإدخاله فيها
ماليس من أنواعها .

قال فى ”الصناعتين“ وتخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التثام
الكلام ، وهو من أحسن نعوته وأزین صفاته ، فإن أمكن مع ذلك انتظامه من
حروف سهلة الخارج ، كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه ؛ وإن اتفق له أن يكون
موقعه فى الإطناب أو الإيجاز أليق بموقعه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جاعلا
للحسن ، بارعا فى الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنيك عن مصادره ،
وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال فى ”مواد البيان“ وإذا سلكت طريقا فتر فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت
رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضیعة . وخالف ابن أبى الاصبع ، فقال : ولا تجعل
كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضیعا نازلا ، بل فصله تفصيل العقود ، فإن العقد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسن فرائده ، ولا بين جمال واسطته ، فإن الكلام إذا كان متنوعا في البلاغة ، أفتنت الأسماع فيه ، ولا يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه ، ولا يخرج عن غرض إلى غيره حتى يكمل كل ما ينتظم فيه : كما إذا كان ينشئ كتابا في العدل والتوبيخ ، فيشوب ألفاظه بألفاظ أخرى تخرج عن الخشونة إلى اللين ، فإن اختلاف رُقعة الكلام من أشد عيوبه .

قال في "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حوشيا بدويا ، ولا مبتدلا سوقيا ، ورتب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدم منها ما يحسن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيرها ، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تؤخر ما كان التقديم به أليق ، ولا تكرر الكلمة الواحدة في كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد : "ومثل خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئا ينبي بحقك ، ورأى أن تقرظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصرا عن حقك أبلغ في أداء ما يجب لك" . فكرر ذكر الحق مرتين في مقدار يسير . على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية ، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير في القرآن الذي هو أفصح كلام ، وأنق نظام ، في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام ، وأمثاله في القرآن الكريم كثير .

قال في "الصناعتين" فإن أحتاج إلى إعادة المعاني أعادها بغير اللفظ الذي ابتدأ به : كما قال معاوية : "من لم يكن من بني عبد المطلب جوادا فهو دَخِيل ، ومن لم يكن من بني الزبير شجاعا فهو لَزِيق ، ومن لم يكن من بني المغيرة تياها فهو سَنِيد" . فقال دَخِيل ، ثم قال لَزِيق ، ثم قال سَنِيد والمعنى واحد ، والكلام على ما ترى

حسن . ولو قال لزيق ثم أعاد لسمع . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" قد ذكر ماينافي ذلك ، وتعقب أبا إسحاق الصابى في قوله في تجميدة كتاب : الحمد لله الذى لا تدركه الأعين بالحفاظها ، ولا تحته الألسن بالفاظها ، ولا تحلقه العصور بمرورها ، ولا شهرمه الدهور بمرورها ، وقوله بعد ذلك فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : لم ير للكفر أثرا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسما إلا أزاله وعفاه ؛ فقال لافرق بين مرور العصور ، وكرور الدهور ؛ وكذلك لا فرق بين نحو الأثر وإعفاء الرسم ؛ ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين فى جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق فى اللفظة الأخيرة فقط .

قال فى "الصناعتين" وتجنب كل ما يكسب الكلام تعمية : كما كتب سعيد ابن حميد ، يذكر مظلمة إنسان فى كتابه : لفلان وله بى حرمة مظلمة ، يريد لفلان مظلمة وله بى حرمة ، بمعنى أنه راعى حرمة . قال : وأعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن مالم يكن فى سجعك استكراه ، وتنافر ، وتعقيد ؛ وكثيرا ما يقع ذلك فى السجع ، وقلمًا يسلم إذا طال من استكراه وتنافر .

قال ابن أبى الأصبع : ولا تجعل كلامك كله مبدئاً على السجع ، فظهر عليه الكلفة ، ويتبين فيه أثر المشقة ، وتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ النازل ؛ وربما استدعيت كلمة لقطع رغبة فى السجع بخافت نافرة من أخواتها ، قلقة فى مكانها . بل أصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعانى ، وأجهد فى تقويم المباني ، فإن جاء الكلام مسجوعا عفا من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فأتزكه . وإن اختلفت أجباعه وتباينت

في التقفية مقاطعه ، فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، وأتفق من غير قصد ولا اكتساب ؛ وإنما كانت كلماتهم متوازية ، وألفاظهم متساوية ، ومعانيهم ناصعة ، وعبارتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وجمل كلامهم متمثلة ؛ وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن آقنى أثره من فُرسان الكلام : كبن المقفع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمر بن مسعدة ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال في "مواد البيان" : وأقل ما يكون من الأزواج قرينتان .

قال في "الصناعتين" : وينبغي أن يجتنب إعادة حروف الصلّات والرباطات في موضع واحد إذا كتب ، في مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسيله أن يداويه حتى يزيله ، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول : أفئت به شهداء عليه ، كقول المتنبي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ * سَبَّوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن الأصبغ : وليراع الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، بحسب ما يقتضيه المقام ويتجنب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكري : وينبغي أن يأتي في تأليفه الكلام بآيات من الكتاب العزيز في الأمور الجليلة ، للترصيع والتحلية ، والاستشهاد للعاني على ما يقع في موقعه ، ويلق بالمكان الذي يُوقع فيه ، ولكنه لا يستكثر منه حتى يكون هو الغالب على كلامه ، تنزيها لكلام الله تعالى عن الابتدال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرُّك والزينة ، لا ليُجعل حشواً في الكلام ؛ وإذا استعير منه شيء أتى به على صورته ؛ ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يَخْلَى كلامه من شيء منه تحليّةً له ، فإن خَلَوَ الكلام من القراءان يَطْمِسَ محاسنه ، وَيَنْقُصَ بهجته ، ولذلك كانوا يسمّون الخطبة الخالية من القراءان بترأ .

وينبغي أن لا يستعمل في كتابته ما جاء به القراءان العظيم من الحذف ومخاطبة الخاصّ بالعام ، والعام بالخاص ، والجماعة بلفظ الواحد ، والواحد بلفظ الجماعة ، وما يجري هذا المجرى ، لأن القراءان قد نزل بلغة العرب ، وخطب به فصحاؤهم ، بخلاف الرسائل .

قال في ”الصناعتين“ لا يجوز أن يستعمل فيها ما يختص بالشعر من صرف مالا ينصرف ، وحذف مالا يُحذف ، وقصر الممدود ، ومدّ المقصور ، والإخفاء في موضع الإظهار ، وتصغير الأسم في موضع تكبيره ، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل ”أنا جَدِيلُها المُحَكَّك ، وَعُدَيْقُها المُرَجَّب“ . ومما يُستحسن من وصية أبي تمام لأبي عَبَادَةَ البُحْتَرِيِّ في الشعر مما لا يستغنى النثر عن المعرفة به ، والنسج على منواله : لانه يجب أن يتناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، ويكون كخيّاط يقدر الثياب على قدر الأجسام ، وأن يجعل شهوته لتأليف الكلام هي الذريعة إلى حسن نظمها ، فإن الشهوة نعم المعين ! ويعتبر كلامه بما سلف من كلام الماضين ، فما استحسنه العلماء فليقتصد به ، وما استقبحوه فليجتنبه ، وينبغي أن يعمل السجعات مفرقة بحسب ما يوجد به الخاطر ثم يرتبها في الآخر ويحترز عند جمعها من سوء الترتيب ، ويتوخى حسن النسق عند التهذيب ، ليكون كلامه بعضه آخذاً بأعناق بعض ، فإنه أكمل لحسنه ، وأمثل لرصفه ، وأن يجيد المبدأ والمخلص والمقطع ، ويميز في فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ، ويجتهد في تجويد هذه المواضع وتحسينها ، ويوضح معانيه ما استطاع .

قلت وقد سبق في أول هذه المقالة في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيان كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفية حل الشعر إلى النثر، وتضمينه في خلال الكلام المنشور وما يجري هذا المجرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يستحسن من الكلام المصنوع فقد قال في "الصناعتين" إن الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتخيره لفظه ، وإصابته معناه ، وجودة مطالعه ، ولين معاطفه ، وأستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه أعجازه بهواديته ، وموافقة أواخره لمبادئه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطالعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه ؛ فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، وأشتمل على الروق والطلاوة ، وسلم من ضعف التأليف ، وبعد من سماجة التركيب ، صار بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً ؛ فإذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم يجمه ، والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ، وتقلق عن الجاسي البشع ؛ وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها وتنفر عما يضادها ويخالفه ؛ والعين تألف الحسن ، وتقضى بالقبيح ؛ والأنف يرتاح للطيب ويعاف المنين ؛ والفم يلتذ بالحلو ، ويمج المتر ؛ والسمع يتشوق للصوت الرائع ، وينزوي عن الجهير الهائل ؛ واليد تنعم باللين ، وتتأذى بالحشن ؛ والفهم يأنس من الكلام المعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصغى إلى الصواب ، ويهرب من الخال ، ويتقبض عن الوحيم ، ويتأنر عن الجافي الغليظ ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

قال وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي ، والقروى والبدوي ، إنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وجماله ، وزاهاته وقهائه ، وكثرة

طَلَاوْتُهُ وَمَائِهِ ، وَصَحَّةُ السَّبَكِ وَالتَّرَكِيبِ ، وَاخْلُوتُ مِنْ أَوْدِ النِّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ ، وَلَيْسَ يُطَلَّبُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا ، وَلَا يَقْنَعُ مِنَ اللَّفْظِ بِذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفَ مِنْ نَعْوَتِهِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ . أَلَا تَرَى أَنْ الْخُطْبَ الرَّائِعَةَ ، وَالْأَشْعَارَ الرَّائِقَةَ ، لَمْ تُعْمَلْ لِإِفْهَامِ الْمَعْنَى فَقَطْ : لِأَنَّ الرَّدَى مِنَ الْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ الْجِيدِ مِنْهَا فِي الْإِفْهَامِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ حَسَنُ الْكَلَامِ ، وَإِحْكَامُ صَنْعَتِهِ ، وَرَوْنَقُ أَلْفَاظِهِ وَجُودُهُ مَقَاطِعِهِ ، وَبَدِيعُ مَبَادِيهِ ، وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ ، عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَمَنْشِئِهِ . وَأَيْضًا فَإِنْ الْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظًا حُلُومًا وَعَذْبًا وَسَطًا دَخَلَ فِي جَمْلَةِ الْجِيدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ . وَأَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا تَلَاَمَ نَسْجُهُ وَلَمْ يَسْخَفْ ، وَحَسَنُ نَظْمِهِ وَلَمْ يَهْجُنْ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِيهِ الْغَلِيزُ مِنَ الْكَلَامِ فَيَكُونَ خَلْقًا بَغِيضًا ، وَلَا السُّوقِيُّ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَيَكُونَ مُهْلَهَلًا دُونًَا ، وَلَا خَيْرٌ فِي الْمَعْنَى إِذَا اسْتَكْرَهَتْ قَهْرًا ، وَالْأَلْفَاظُ إِذَا أُجْبِرَتْ قَسْرًا ، وَلَا خَيْرَ فِيمَا أَجِيدَ لَفْظُهُ إِلَّا مَعَ وَضُوحِ الْمَغْزَى وَظُهُورِ الْمَقْصِدِ . قَالَ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى قَوْمِ الْجَهْلِ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ الْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدٍّ ، وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَرَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً ، وَيَسْتَحْقِرُونَ الْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا ، وَسَهْلًا حُلُومًا ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا ، وَأَعَزُّ مَطْلَبًا ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا ، وَأَعَدَّبُ مَسْتَمْعًا ، وَلِهَذَا قِيلَ أَجُودُ الْكَلَامِ السَّهْلُ الْمَتْنَعُ . وَقَدْ وَصَفَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ النَّاسِ ، وَمَنْ بَلَغَتْهُ أَنْ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنَّهُ يَكْتُبُ مِثْلَ كُتُبِهِ ، فَإِذَا رَامَهَا تَعَدَّرَتْ عَلَيْهِ ، وَأَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لَخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَخْنَفِ :

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سِيلَ لَمْ * يَبْسُدْ وَإِنْ عُوْتُبَ لَمْ يُعْتَبَ

صَبٌّ بَعْضِيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي * لَا تَشْرِبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ هَذَا وَاللَّهِ الشَّعْرَ الْحَسَنَ الْمَعْنَى ، السَّهْلَ اللَّفْظَ ، الْعَذْبَ الْمُسْتَمَعَ ، الْقَلِيلَ

النظير، العزيز الشبيه، المُطعم الممتنع، البعيدُ مع قربه، الصَّعبُ مع سهولته، قال
بفعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تستعملُ الغريب
في شعرك؟ فقال: ذلك عيٌّ في زمانِي، وتكُفُّ مني لوقلته، وقد رُزِقْتُ طبعًا وآتساعًا
في الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام
وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه، وما كان
من الكلام لفظه سهلًا ومعناه مكشوفًا بينًا فهو من جملة الرديء المردود، لا سيما
إذا ارتكبت فيه الضرورات، فأما الجزل المختار من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة
إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها، وأجود الكلام ما كان سهلًا جزلًا، لا ينغلق
معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودًا مستكراهًا، ومتوعرًا متقعّرًا، ويكون
بريثًا من الغثائفة، عاريا من الرثائفة. فمن الجزل الجيد من النثر قولُ سعيد بن حميد:
وأنا مَنْ لا يحاجُّك عن نفسه، ولا يغالطُك عن جُرمه، ولا يلتبس رضاك إلا من جهته،
ولا يستدعي رُكَّ إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك
إلا بالاعتراف بالجُرم، نبتَ بى عنك غيرةُ الحداثة، وردتني إليك الحُنكة، وواعدتني
منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول
العُذر، وتجدد النعمة بأطراح الحقد، فإنَّ قديم الحُرمة وحديث التوبة يحقّقان ما بينهما
من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالَّت قصيرة، والمتعة بها وإن كثُرَتْ قليلة، فعَلَّتْ
إن شاء الله تعالى.

وأجزلُ منه قول الشعبي للحجاج، وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث
أجذبَ بنا الحساب، وأحزنَ بنا المنزل، فاستحسّنا الحذر، واكتملنا السهر،
وأصابنا فتنةٌ لم نكن فيها بررةً أتقياء، ولا بكرةً أقوياء. فعفا عنه.

ومن النظم قول المزار :

لَا تَسْأَلِ الْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ * قَدْ يُقَسِّرُ الْمِرَّةُ يَوْمًا وَهُوَ مُحَمَّدٌ
أَمْضَى عَلَى سُنَّةٍ مِنَ الْيَدِي سَلَفَتْ * وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبُتُ الْعُودُ
فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض منه ويقفون على أكثر
معانيه لحسن ترتيبه وجودة نسجه ؛

قال في "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غثًا، ومعرضه رثًا، فإنه يكون
مردودًا، ولو احتوى على أجل معنى وأنبه، وأرفعه وأفضله، كقول القائل :
أَرَى رَجُلًا بَادَنِي الدِّينَ قَدْ قَبِعُوا * وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالدُّونِ
فَاسْتَغْنِ بِالَّذِينَ عَنْ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا آسَتْ تَغْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ
قال : فهو لا يدخل في جملة المختار، ومعناه كما ترى جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجزل
الردىء الفج، الذى ينبغى ترك استعماله فقد مر في الكلام على الغريب الحوشى .

المقصد الثالث

(فى بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقصره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها على
ثلاثة ضروب .

الضرب الأول

(الإيجاز)

وهو جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثر آي القرآن الكريم
فمن ذلك قوله تعالى فى مفتح سورة الفاتحة : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . أنتظم
فيه خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لم يشدَّ عنه شيء فى أوجز لفظ وأقرب

وأَسْهَلُهُ ؛ ومنسَه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ استوعبَ جميعَ الأشياءِ على الاستقصاءِ في كلمتين لم يخرجَ عنهما شيءٌ ؛ وقوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ فدخل تحت الأمنِ جميعُ المحبوباتِ لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً : من الفقرِ والموتِ وزوالِ النعمةِ والجورِ وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله في صفة نحر أهل الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُتَزَفُونَ ﴾ انتظم بقوله : ولا هم عنها يتزفون عدمَ ذهابِ العقلِ وذهابِ المالِ ونفادِ الشرابِ ، فلم يكن فيها شيءٌ من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فجمع فيها مكارم الأخلاق بأسرها : لأنَّ في العفو صلةَ القاطعين ، وإعطاء المانعين ؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله تعالى ، وصلةَ الرحم ، وصونَ اللسان عن الكذب ، وغيضَ الطُّرف عن المحرمات ، والتبرُّى من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئاً من المنكر ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرةً .

ومن كلام النبوة قوله صلى الله عليه وسلم : ” نَبِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ “ وقوله عليه السلام : ” حُبُّكَ الشَّيْءَ يَعْمي وَيُصِمُّ “ إلى غير ذلك من جوامع الكلم .

الضرب الثاني

(الإطناب)

وهو الإشباعُ في القول ، وترديدُ الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثيرُ في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جلَّ وعزَّ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ في الموضوعين تأكيداً لإعلاماً أنه كذلك لا محالة . وقوله : ﴿ فَفَرِّزُوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فكرر إني

لكم منه نذير مبين من حيث إن الكفر وإن تعددت أقسامه لا يخرج عن تعطيل أو شرك ففي قوله قفروا إلى الله نفى التعطيل بإثبات الإله وفي قوله : ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر نفى الشرك . وقد كرر سبحانه في سورة الرحمن قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث عدد فيها نعمه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرها ، وقدرته عليها ، ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ونعمة ، تنبيهاً على موضع ما أسداه إليهم فيها ، وكذلك كرر في سورة المرسلات : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِّبِينَ ﴾ تأكيداً لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيراً كما في قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ الْآلِحُقُونُ أَتَاكَ ^(١) *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمَةً كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *
إلى غير ذلك مما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثالث

(المساواة)

بأن تكون الألفاظ بإزاء المعاني في القلة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكري في "الصناعتين" بقوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ ﴾ وقوله : ﴿ وَدَّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم "لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والزكاة مغرمًا" وقوله "إياك والمشاورة" فإنها تميم الغرة ^(٢)

(١) في الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور في البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبهاً له بقرعة الفرس . والعرة العمل السيئ تشبهاً له بالعدرة . انظر اللسان .

وُنُحِّي الْعُرَّةَ“ . وقول بعض الكُتَّاب : سألتَ عن خَبَرِي وأنا في عافية لا عَيْبَ فيها
إلا فَقْدُكَ ، وَنِعْمَةٌ لَمْ يَزِدْ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد عَلَّمَتْنِي نَبُوءُكَ سَلَوْتُكَ ،
وَأَسْلَمَتْنِي يَأْسِي مِنْكَ ، إِلَى الصَّبْرِ عَنْكَ . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ ،
وتولَّى إِصْلَاحَكَ وَالْإِصْلَاحَ بكَ ، وأَجَزَلَ مِنْ الْخَيْرِ حَظُّكَ وَالْحِطُّ مِنْكَ ، وَمَنْ عَلَيْكَ
وعَلَيْنَا بكَ . وقول الشاعر :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ * عَلَى وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وَمَا هَجَرَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ عِنْدَهَا * قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

إذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء في أي الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام، فذهب
قوم إلى ترجيح الإيجاز، محتجّين له بأنه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدار الحاجة
من الكلام فضلة داخلية في حيز اللغو والهذر، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما
دلالة على بلادة صاحب الصناعة وغبأوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم
بالإيجاز فإن له إفهاما ولا إطالة آستبهما . وقال جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم
على أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنجع
من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لابن حازم
لم لا تطيل القصائد فأنشد :

أَبِي أَنْ أُطِيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي * إِلَى الْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وإيجازي مختصر قريب * حذفتُ به الفضول من الجوابِ

وذهبت طائفة إلى أن الإطناب أرجح، واحتجوا لذلك بأن المنطق إنما هو بيان
والبيان لا يحصل إلا بوضوح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتها إلا بمرادفة الألفاظ
على المعنى حتى تُحِيطَ به إحاطة يؤمن معها من اللبس والإبهام، وإن الكلام الوجيز
لا يؤمن وقوع الإشكال فيه . ومن ثم لم يحصل على معانيه إلا خواص أهل اللغة

العارفين بدلالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشْبَع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في جهته . ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقيس بن خازجة : مَاعِنْدَكَ فِي جَمَالَاتِ ذَاتِ حُسْنٍ ؟ قال : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ ، وَرِضًا كُلِّ سَاخِطٍ ، وَخُطْبَةً مِنْ لَدُنْ تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ ، أَمْرٌ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ ، وَأَنْهَى عَنْ التَّقَاطُعِ . فقول لا بى يعقوب الجرمي هَلَّا أَكْتَفَى بقوله أَمْرٌ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ عن قوله وَأَنْهَى عن التقاطع ؟ فقال : أوما علمت أن الكناية والتعريض لا تعملُ عملَ الإطناب والتكشُّف ؟ ألا ترى أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأحزاب أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوحي ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم جعل الكلام مبسوطا ، وقلمما يَجِدُ قصةً لبني إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع مُعَادَةً لِبُعْدِ فهمهم ، وتأخر معرفتهم ؛ بخلاف الكلام المُشْبَع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في فهمه .

وذهبت فرقة إلى ترجيح مساواة اللفظ المعنى ، واحتجوا لذلك بأن مترع الفضيلة من الوسط دون الأطراف وأن الحُسْنَ إنما يوجد في الشيء المعتدل .

قال في "مواد البيان" : والذي يوجه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواة صفاتٌ موجودة في الكلام ولكل منها موضع لا يخلُفه فيه رديقه ، إذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع ، وإذا وُضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برُسوم الصنعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمُخاطبة الملوك ، وذوى الأخطار العالسة ، والهمم المستقيمة ، والشؤون السنية ، ومن لا يجوز أن يُشغل زمانه بما همته مصروفة إلى مطالعة غيره .

وأما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يُقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى المجاج في فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم على ارتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبعد صيته، فإنه كتب فيه: "الحمد لله الذي كفى بالإسلام قصداً ما سواه؛ وجعل الحمد متصلاً بنعمه؛ وقضى أن لا ينقطع المزيّد وجهله، حتى ينقطع الشكر من خلقه. ثم إنا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين، نرى منهم ما يسرنا أكثر مما يسرهم، ويرون منا ما يسوءهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم: ينصرون الله ويحذّهم، ويخصّصنا ويحقّقهم، حتى بلغ الكتاب بناديتهم أجله، فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فإن الذي حمّله على الاختصار في هذا الكتاب إنما هو كونه إلى السلطان الذي من شأنه اختصار المكاتبات التي تُكتب إليه، بخلاف ما لو كُتب به عن السلطان إلى غيره، فإنه يتعين فيه بسط القول وإطالته على ماسيأتي ذكره في أول المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى.

وأما مساواة اللفظ للمعنى فإنه يصلح لمخاطبة الأكفاء والنظرّاء والطبقة الوسطى من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبة متوسطة بين طرفي الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تُخصّص بها الطبقة الوسطى من الناس. قال أما لو استعمل كاتب ترديد الألفاظ ومراذقها على المعنى في المكتابة إلى ملك مصروف المهمة إلى أمور كثيرة متى أنصرف منها إلى غيظها دخلها الخلل، لرُبّ كلامه في غير رتبته، ودلّ على جهله بالصناعة. وكذا لو بُني على الإيجاز كتابا يكتبه في فتح جليل الخطر، حسن الأثر، يُقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الأشهاد من العامة ومن يُراد منه تفخيم شأن السلطان

في نفسه ، لأوقع كلامه في غير موقعه ، ونزله في غير منزلته : لأنه لا أقبح ولا أفسح من أن يُستنفر الناس لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظام أمور المملكة أو الدين ، فإذا حضر الناس كان الذي يمتز على أسماعهم من الألفاظ واردا مَوْرَد الإيجاز والاختصار لم يحسن موقعه وخرج من وَضْع البلاغة لوضعه في غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التي تبني عليها صنعة الكلام هو القدر اللازم الذي لا يسع الكاتب الجهل بشيء منه ، ولا يُسمَح بإخلاء كتاب مصنف في هذا الفن منه .

أما المتمّمات التي يكمل بها الكاتب : من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة ، تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء فاقضى الحال من المتقدمين للتصنيف في هذا الفن أن قد قَصَرُوا تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في ”المثل السائر“ وأبي هلال العسكري في ”الصناعتين“ والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في ”حسن التوسل“ كما تقدّمت الإشارة إليه في مقدّمة الكتاب ، فليُطلَب ذلك من مظانّه من هذه الكتب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة ، وتصانيف متعدّدة ، أو يكون في المصنّف الواحد منه النّبذة غير الكافية ، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشف الكثير من المصنّفات المتفرقة في الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

(من الباب الأول من المقالة الأولى)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف
الأمم فيها، وتفصيل أجزائها، والطرق الموصلة إليها، ومعرفة
أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأول

(في الأيام ، وفيه ست جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول اليوم ومعناه ، وبيان ابتداء الليل والنهار)

وقد اختلف الناس في مدلول اليوم على مذهبين .

المذهب الأول (وهو مذهب أهل الهيئة) - أن اليوم عبارة عن زمان جامع لليل والنهار ، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة الأولى إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلك نصف النهار . والحدائق من المتجمين يؤثرون فلك نصف النهار على الأفق بسهولة تحصل بذلك في بعض أعمالهم ؛ لأن اختلاف دوائره في سائر الأوقات اختلاف واحد ؛ وبعضهم يؤثر استعمال الأفق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهر للعيان ، وهو الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم من يقدم الليل فيفتح اليوم بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل ، وعلى ذلك عمل المسلمين وأهل الكتاب ، وهو مذهب العرب : لأن شهورهم مبنية على مسير القمر ، وأوائلها مقدرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدم النهار على الليل فيفتتح اليوم بطلوع الشمس ويحتم بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهب الروم والفرس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما قبل صاحبه فقال : هما في دائرة واحدة، والدائرة لا يعلم لها أول ولا آخر، ولا أعلى ولا أسفل .

المذهب الثاني (وهو مذهب الفقهاء) - أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال لزوجته أنت طالق يوم يقدم فلان فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين : طبيعي وشرعي .

أما الطبيعي فالليل من لدن غروب الشمس وأستارها بحدبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غيوبة نصفها في الأفق في المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعي - فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بالخط الأبيض من قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّمْسَ فِي اللَّيْلِ تَكُونُ غَائِبَةً تَحْتَ الْأَرْضِ، فَإِذَا قَرُبَتْ مِنَّا فِي حَالِ غَيْبَتِهَا أَحْسَسْنَا بَضِيئَاتِهَا الْحَيِطَ بِظِلِّ الْأَرْضِ الَّذِي هُوَ اللَّيْلُ، وَهَذَا الضِّيَاءُ طَبِيعَةٌ أَمَامَهَا يَطْلُعُ، فِي السَّحَرِ بَيَاضٌ مُسْتَطِيلٌ مُسْتَدِقُّ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْفَجْرُ الْكَاذِبُ إِذَا لَاحَظَ لَهْ فِي الشَّرِيعَةِ، وَيُشَبَّهُ بِذَنبِ السَّرْحَانِ لِاتِّصَابِهِ وَأَسْتَطَاتِهِ وَدِقَّتِهِ، وَيَسْقُ مَدَّةً ثُمَّ يَزْدَادُ هَذَا الضَّوْءُ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ طَوِيلًا وَعَرْضًا وَيَنْبَسِطُ فِي عَرْضِ الْأُفُقِ، وَهُوَ الْفَجْرُ الثَّانِي وَيُسَمَّى الصَّادِقَ، وَعَلَيْهِ تَقَرَّبَ جَمِيعُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ

بالفجر، وبعده يحتر الأفق لأقتراب الشمس وسطوع ضيائها على المدورات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع، وعند غروبها ينعكس الحكم في الترتيب المتقدم فيبقى الأفق محمرا من جهة المغرب بعد الغروب، ثم تزول الحمرة ويبقى البياض الذي هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمها عند الحنفية، ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذب مدة من الليل ثم يذهب، وهذا لا حكم له في الشرعيات. والهند لا يعدون الفجر ولا الشفق من الليل ولا من النهار، ويجعلونهما قسما مستقلا وهذا في غاية البعد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما.

الجملة الثانية

(في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة)
واعلم أن البلاد والنواحي على قسمين :

القسم الأول

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبداً، لا يختلفان بزيادة ولا نقصان)

وذلك في البلاد التي لا عرض لها . وهي مأمرة عليه خط الاستواء ؛ والعلة في التساوي هي أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قطبي فلك البروج دائرة عظيمة تقسم سطح السماء نصفين على السواء وسموها دائرة معدل النهار ، توهموا أيضا في موازاتها دائرة أخرى تقسم سطح الارض نصفين وسموها دائرة الاستواء ، وخط الاستواء ؛ وكل بلد يميز عليه هذا الخط لا عرض له : وذلك لأنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمس أبداً على رؤوس ساكنيه ، وميلها فى ناحيتى الشمال والجنوب بقدر واحد ، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدل النهار بنصفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذى من طلوع الشمس إلى غروبها مساوياً لقوس الليل : وهو الزمان الذى من غروب الشمس إلى طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبداً فى هذه المواضع فى جميع السنة .

القسم الثانى

(ما يختلف فيه الليل والنهار فى السنة بالاستواء والزيادة والنقصان ،

وهى البلاد ذوات العروض)

والعلة فى الزيادة والنقصان أن المواضع التى تميل عن خط الاستواء إلى الشمال تميل فى كل موضع منها دائرة معدل النهار إلى الجنوب وتخط الشمس ويرتفع القطب الشمالى من الأفق ويصير للبلد عرض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقدر بعده عن الخط . وإذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كل دائرة من الدوائر الموازية لها بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسميها أعظم من الذى تحتها : لأن القطب لما ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثر من نصفها وأنحط مدار الشمس عن سمت الرأس إلى جهة الجنوب فبعد مشرق الصيف عن مشرق الشتاء فطال النهار وقصر الليل ، وكلما زاد ارتفاع القطب فى الأقاليم زاد الاختلاف الذى هو بين هذه القطع إلى أن تكون نهاية الأطوال حيث يكون ارتفاع القطب اثنتى عشرة درجة ونصفاً وربعاً وهو أول المعمور ، اثنتى عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه تسعاً وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثانى ، ثلاث عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثاً

وثلاثين درجةً ونصفاً وهو آخر الإقليم الثالث أربع عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه تسعا وثلاثين درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربع عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خمس عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الإقليم السادس خمس عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه خمسين درجةً وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعةً وربعا .

ولا يزال اختلاف مطالع البروج يزداد بالإمعان في الشمال ويتسع شرقا المنقلبين ويتقاربان مع مغربيهما إلى أن يلتقيا في العرض المساوي لتمام الميل الأعظم : وهو حيث يكون ارتفاع القطب ستا وستين درجةً . وفي هذا الموضع يكون قطب فلك البروج في دوره يمر على سمت الرؤوس ، ويكون أول السرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبداً ، ومدار أول الجدي فقط غائبا أبداً . فيكون مقدار النهار الأطول أربعاً وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض في هذه المواضع عند موازاة قطب فلك البروج سمت الرؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق ، فيكون أول الحمل في المشرق ، وأول الميزان في المغرب ، وأول السرطان في الأفق الشمالي ، وأول الجدي في الأفق الجنوبي . فإذا صار قطب فلك البروج والأفق نصفين وارتفع النصف الشرقي من فلك البروج وانخفض النصف الغربي فيطلع حينئذ ستة بروج دفعةً واحدةً ، وهي من أول الجدي إلى آخر الجوزاء ، وكذلك تغرب الستة الباقية دفعةً واحدةً . وحيث يكون ارتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهناك يكون مدار ما بين النصف من الجوزاء إلى النصف من السرطان ظاهرا فوق الأرض أبداً ، وما بين النصف من القوس إلى النصف من الجدي غائبا أبداً ، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهر الباقية من السنة كل يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعة. وحيث يكون ارتفاع القطب تسعاً وستين درجة ونصفاً وربعا فهناك يكون مدار برجى الجوزاء والسرطان ظاهراً فوق الأرض ، ومدار برجى القوس والجدى غائباً تحت الأرض أبداً . ولذلك يكون مقدار شهرين من الصيف نهائياً كله ، وشهرين من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثلاثاً وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلى النصف من الأسد ظاهراً أبداً والأجزاء النظرية لها غائبة أبداً ، فيكون مقدار ثلاثة أشهر من الصيف نهائياً كله ، وثلاثة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثماناً وسبعين درجة ونصفاً فهناك يكون مدار الثور والجوزاء والسرطان ظاهراً أبداً والبروج النظرية لها غائبة أبداً ، فيكون أربعة أشهر من الصيف نهائياً كله وأربعة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب أربعاً وثمانين درجة فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحمل إلى النصف من السنبلة ظاهراً أبداً والبروج النظرية لها غائبة أبداً فيكون خمسة أشهر من الصيف نهائياً كله وخمسة أشهر من الشتاء ليلاً كله .

ومما يعرض في هذه المواضع التي تقدم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج في دائرة نصف النهار مما يلي الجنوب كان أول الحمل في المشرق وأول الميزان في المغرب ، وتكون البروج الشمالية ظاهرة أبداً فوق الأرض والجنوبية غائبة تحتها ، وهناك يطالع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجدى والسرطان منكوساً ، فيطلع الثور قبل الحمل ، والحمل قبل الحوت ، والحوت قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسة ، وحيث يكون ارتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سمت الرأس فهناك تكون دائرة معدل النهار منطبقة على الأفق أبداً ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحَوِيًّا موازيا للأفق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدل النهار ظاهرا أبداً فوق الأرض والنصف الجنوبى غائباً تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس فى البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأفق ويكون أكثر ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معدل النهار، وإذا كانت فى البروج الجنوبية كانت غائبة أبداً فتكون السنة هناك يوماً واحداً ستة أشهر ليلاً وستة أشهر نهاراً، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للأفاق إما دُولَابِيَّةٌ، وهى فى خط الاستواء، وإما حَمَلِيَّةٌ، وهى فى الآفاق المائلة عنه، وإما رَحَوِيَّةٌ : وهى فى المواضع التى ينطبق فيها قطب العالم على سمت الرأس فسيبحران من أتقن ما صنع !

الجملة الثالثة

(فى معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانها بتنقل الشمس فى البروج)

اعلم أن للشمس حركتين : سريعةً وبطيئةً .

أما السريعة فحركة فلك الكلِّ بها فى اليوم واللييلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمى الحركة اليومية .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج فى سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، ولتعلم أن جهة المشرق وجهة المغرب لا تتغيران فى أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب، وإن اختلفت مطالعتهما . قال تعالى ﴿ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أى جهة الشروق وجهة الغروب فى الجملة، إلا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها فى الشمال وتلك الغاية مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ وهو مَشْرِقُ الصيف ومَغْرِبُهُ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماء الرامح، ولها غاية تنحطُّ إليها فى الجنوب، وتلك

الغاية أيضا مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ : وهو مَشْرِقُ الشتاء ومغربه ، ومَطْلَعُها حينئذٍ بالقُرْبِ من مَطْلَعِ بطن العقرب ، وهذان المَشْرِقانِ والمَغْرِبَانِ هما المراد بقوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغائتين مائة وثمانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمانون مَغْرِبًا ، ففي كل يوم تَطْلُعُ في مَطْلَعٍ من المشرق غير الذي تَطْلُعُ فيه بالأمس ، وتَغْرُبُ في مغرب غير الذي تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ﴾ ونقطةُ الوسط بين هاتين الغائتين : وهى التى يعتدل فيها الليلُ والنهارُ يُسمَّى مَطْلَعُ الشمس فيها مَشْرِقُ الأستواء ، ومَغْرِبُ الأستواء ، ومطلعها حينئذٍ بالقرب من مَطْلَعِ السماك الأعزل .

وقد قسّم علماء الهيئة ما بين غاية الارتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسما ، قالوا : والمعنى فى ذلك أن الشمس فى المبدأ الأول لما سارت مَسِيرَها الذى جعله الله خاصا بها قطعت دَوْرَ الفلك التاسع فى ثلثمائة وستين يوما ، وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية وسميت بحركتها هذه فى هذا الفلك دائرةً عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلى ثلثمائة وستين جزءا وسموا كل جزء درجة ، ثم قسمت هذه الدَرَجَ إلى اثني عشر قسما على عدد شهور السنة ، وسموا كل قسم منها برجًا ، وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا فى كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكل منها صورة من الصور فسموا كل قسم باسم الصورة التى وجدوها عليه ، وكان القسم الأول الذى ابتدؤا به نجوما إذا جمّع متفرّقاتها تشكلت صورة حَمَلٍ ، فسموها بالحمل ، وكذلك البواقي .

قال صاحب ”مناهج الفكر“ : وذلك فى أول ما رَصَدُوا ، وقد آتت قلت الصور عن أمكتها على ما زعموا فصار مكان الحمل الثور ، وهى تتقل على رأى بطليموس فى ثلاثة آلاف سنة وعلى رأى المتأخرين فى ألفى سنة .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الدّورة الفلكية في العروض الشماليّة تنقسم إلى ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة إليه ، والسنة ثلثمائة وستون يوماً منقسمة على الأثنى عشر برجاً المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوماً ، وتوزّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج فما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها إذا حلّت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع إلى جهة الشمال ، وذلك في السابع عشر من برمها من شهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السريان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، اعتدل الليل والنهار ، فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة ، وهو أحد الاعتدالين في السنة ، ويسمى الاعتدال الربيعي : أوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة ، والليل على مائة وخمس وستين درجة .

ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كلّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كلّ يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً صاعداً : لصعودها في جهة الشمال .

ثم تنقل الشمس إلى السرطان وتكثر راجعة إلى جهة الجنوب، ويسمى ذلك المُنْقَلَب الصيفي، وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط، ويبقى من حزيران من شهور السريان، ويونيه من شهور الروم خمسة أيام، وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، فينقص النهار فيه في كل يوم سدس درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما نحس درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائتين ونحس درجات، والليل على مائة ونحس وخمسين درجة.

ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة ونحس وتسعين درجة، والليل على مائة ونحس وستين درجة.

ثم تنقل إلى السنبلة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار. ويسمى الاعتدال الخريفي: لوقوعه في أول الخريف. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا، لهبوطها في الجهة الشمالية.

ثم تنقل إلى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، وهي آخذة في الهبوط، والنهار في النقص والليل في الزيادة، فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة ونحس وستين درجة والليل على مائة ونحس وتسعين درجة.

ثم تنقل إلى العقرب ، فينقص النهار في كل يوم ثلث درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ، وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية . ويسمى سير الشمس في هذه البروج جنوباً هابطاً ، لهُبوطها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجدي في السابع عشر من كيهك وتكرّر راجعة ، فتأخذ في الارتفاع وتأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان ، فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوما خمس عشرة درجة ونقص الليل كذلك ،

ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبيا صاعدا : لصعودها في الجهة الجنوبية ، وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها ، فإذا اختلفت العروض كان الامر في الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه - إذا أردت أن تعرف الشمس في أى برج من البروج وكم قطعت منه في أى وقت شئت فأقرب الطرق في ذلك أن تعرف الشهر الذى أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه ^(١)

الجملة الرابعة

(في بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار)

وقد تقدم أن النهار الطبيعي أوله طلوع الشمس وآخره غروبها ، والنهار الشرعى أوله طلوع الفجر الثانى وآخره غروب الشمس ، فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء ، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعام . أما الفجر فإن أمره خفى لا يعرفه كل أحد ، وقد تقدم أنقسامه إلى كاذب : وهو الأول ، وصادق : وهو الثانى ، وعليه التعويل في الشرعيات ، فيحتاج إلى توضيح يوضحه ويظهره للعيان . وقد جعل المنجمون وعلماء الميقات له نجوما تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط ، وهى منازل القمر ، وعدتها ثمان وعشرون منزلة : وهى الشرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والمقعة ، والمنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والحيبة ،

(١) بياض في الأصل .

والخَرَّتَانِ ، والصَّرْفَةِ ، والعَوَاءِ ، والسَّمَكَ ، والغَفَرِ ، والزَّبَانَانِ ، والإِكْلِيلِ ، والقَلْبِ ،
والشَّوْلَةِ ، والتَّعَائِمِ ، والْبَلْدَةِ ، وسَعْدُ الذَّالِجِ ، وسَعْدُ بَلَعٍ ، وسَعْدُ السُّعُودِ ، وسَعْدُ
الأُخْيَةِ ، والفَرْغُ المَقْدَمِ ، والفَرْغُ المؤَخَّرِ ، وبطن الحَوْتِ ،

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قُرِبَتْ من كوكب من الكواكب الثابتة
أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون ، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً ويكون خفائه
غيبَةً له ، ولا يزال كذلك خافياً إلى أن تبعد عنه الشمس بعداً يمكن أن يظهر معه
للاَبْصار وهو عند أول طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً حينئذ فلا يغلب
نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً ، وحصة كل منزلة من هذه
المنازل من السنة ثلاثة عشر يوماً وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب
كما سيأتي ^(٢) على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور
ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوماً : وهي ثلاث عشرة درجة
من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوماً بعد انقضاء أيام
المنازل الثمانية والعشرين فكان يوماً وربعاً فجعل يوماً في المنزلة التي توافق آخر السنة
وهي الجهة فكان حصتها أربعة عشر يوماً ، وبقي ربع يوم ونسيء أربع سنين حتى
صار يوماً فزيد على الجهة أيضاً ، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر
منها أربعة عشر يوماً ثلاث سنين وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوماً .

فأما الشَّرَطَانِ : وهما المنزلة الأولى ، فأول طلوعهما بالفجر في الثالث والعشرين
من برمودة من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من نيسان من شهور السُّريان .

وأما البَطَّيْنِ : وهو المنزلة الثانية فأول طلوعه بالفجر في السادس من بشنس من
شهور القبط ، وهو أول يوم من أيَّام من شهور السُّريان .

(١) لعله يختفي نهاراً ويظهر ليلاً . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة .

(٢) كذا في الأصل ولعله فإن أيام السنة إذا قسمت على الخ .

وأما الثَّريَّا : وهى المنزلَّة الثالثة فأول طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط ، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السريان .

وأما الدَّبران : وهو المنزلَّة الرابعة فطلوعها بالفجر فى الثانى من يؤنه من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقَّعة : وهى المنزلَّة الخامسة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من يؤنه من شهور القبط ، وهو التاسع من خريزان من شهور السريان .

وأما الهَنَّة : وهى المنزلَّة السادسة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من يؤنه من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من خريزان من شهور السريان .

وأما الدَّرَاع : وهو المنزلَّة السابعة ، فأول طلوعه بالفجر فى الحادى عشر من أبيب من شهور القبط ، وهو الخامس من تموز من شهور السريان .

وأما النَّثْرَة : وهى المنزلَّة الثامنة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السريان .

وأما الطَّرْف : وهو المنزلَّة التاسعة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السريان .

وأما الجبهة : وهى المنزلَّة العاشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرَتان : وهو المنزلَّة الحادية عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسيء القبطى ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه ، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفَة : وهى المنزلَّة الثانية عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط ، وهو التاسع من أيلول من شهور السريان .

وأما العَوَاء : وهى المنزلة الثالثة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط ، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السريان .

وأما السَّمَك : وهى المنزلة الرابعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط ، وهو الخامس من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الغَفَر : وهى المنزلة الخامسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الزُّبَانان : وهى المنزلة السادسة عشرة ، فأول طلوعهما بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط ، وهو آخر يوم من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الإِكليل : وهو المنزلة السابعة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع عشر من هاتور من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما القَلْب : وهو المنزلة الثامنة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما الشُّوْلَة : وهى المنزلة التاسعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط ، وهو التاسع من كانون الأول من شهور السريان .

وأما النِّعائم : وهى المنزلة العشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من كانون الأول من شهور السريان .

وأما البَلْدَة : وهى المنزلة الحادية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط ، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الذَّابِح : وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثاني من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بَلَعٍ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السريان .

وأما سَعْدُ السُّعُود : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثاني عشر من شباط من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الْأَخْيَةِ : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر أول يوم من برمها من شهور القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شهور السريان .

وأما الْفَرَّغُ الْمُقَدِّم : وهو المنزلة السادسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الرابع عشر من برمها من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .
وأما الْفَرَّغُ الْمُؤَخَّر : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في السابع والعشرين من برمها من شهور القبط ، وهو الثاني والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْنُ الْحَوْت : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في العاشر من برمودة من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي أبياتا ، يعلم منها مَطَالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غَلِط بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله ، وهي هذه :

تَبَيَّصْ تَهَكِّمْ بِحَسِّ بَكَاغٍ هَذَرْ * هِيْزَاءُ هَلَقٍ كِيَجْشُ كَكُونِ بَرْزِ

ططب طكبذ أهب أيجس بأخ * بيدم بكرم بيت بكجش رمز^(١)
 وليس فيها من الحشوات قط سوى * أواحر النظم فافهم شرحها لتعز
 وبيان ذلك أن الحرف الأول من كل كلمة اسم للشهر الذي تطلع فيه تلك المنزلة
 والحرف الآخر منها اسم المنزلة وما بين الآخر والأول عدد ما مضى من الشهر بحساب
 الجمل ، مثال ذلك التاء من تبيص كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصرفة ،
 والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمل اثنا عشر ، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكأنه
 قال في الثاني عشر من توت تطلع منزلة الصرفة بالفجر ، وكذلك البواقي ، إلا أنه
 لا عبرة بأواحر البيتين ، وهي برز في البيت الأول ، ورمز في البيت الثاني .
 ونظم الإمام محب الدين جار الله الطهرى أبياتاً كذلك على شهور السريان ،
 وهي هذه :

تهس تحيغ تلز تجىء * توكق كطش كبكن نزول
 كدب كويذ كلب شيس * شهكح أريم أبكم أول
 نهب نحيش آب * أوكد حطت حبكه ضجول

والحال في هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأواسطها كالحال في الأبيات
 المتقدمة ، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأول والسين إشارة للسمك ، والهاء بينهما
 بخمسة ففي الخامس من تشرين الأول يطلع السمك ، وعلى هذا الترتيب في البواقي .
 وأعلم أن هذه المنازل لا تزال أربع عشرة منزلة منها ظاهرة فوق الأرض في نصف
 الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافية تحت الأرض في نصف الفلك ، وهي مراقبة
 بعضها لبعض لأستواء مقادير أبعادها ، فإذا طلعت واحدة في الأفق الشرق غربت
 واحدة في الأفق الغربى ، وكانت أخرى متوسطة في وسط الفلك فهي كذلك أبداً .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالاصل وبه تكل الشهور والمنازل .

والقاعدة في معرفة ذلك أنك تبتدئ بأية منزلة شئت ، وتعدّ منها ثمانية من الطالع
فالثامنة هي المتوسطة والخامسة عشرة هي الغاربة ؛ فإذا كان الطالع الشرطين للمتوسط
الثمة والغارب الغفر ؛ وكذلك في جميع المنازل ؛ وفي مراقبة الطالع منها للغارب يقول
بعض الشعراء مقيداً لها على الترتيب بادئاً بطلوع النّطح : وهو الشرطان وغروب
الغفر حينئذ :

كَمْ أُمَّا لَوْ مِنْ نَاطِحٍ بَاغْتِفَارٍ * وَأَحَالُوا عَلَى الْبُطَيْنِ الزُّبَانِي
وَالثُّرَيَّا تَكَلَّتْ فَرَأَيْنَا الْقَلْبَ مِنْهَا يُسْعَرُ الدَّبْرَانَا
هَقَعُوا شَوْلَةً وَهَنَعُوا نَعَامًا * بَعْدَ مَا ذَرَعُوا الْبِلَادَ زَمَانَا
تَنَرُوا ذُبُجَهُمْ بِطَرْفِ بُلَيْعٍ * جَبْهَةَ السَّعْدِ فِي خَرَاتِ خَبَانَا
فَانصَرَفْنَا فِي الْمَقْدَمِ عَوَا * آخِرَا وَالسَّمَاءَ مَدَّ رِشَانَا

وقال آخر :

النَّطْحُ يَغْفِرُ الْبُطَيْنِ مُزَانٍ * ثُمَّ الثُّرَيَّا تَبْنِي إِكْلِيلَا
وَالْقَلْبَ لِلدَّبْرَانِ خِلَّ عَادِرٍ * مِنْ أَجْلِ هَقْعَةِ شَوْلَةٍ مَا قِيلَا
تَهْوَى الْهَنِيئَةَ لِلنَّعَائِمِ مِثْلَ مَا * يَنْوِي الذَّرَاعَ لِبَلَدَةِ تَرْجِيلَا
وَالثُّرَيَّا يَضْحُ عَنْ طَرْفِ بُلُوعِهِ * وَجَبْهَةَ سَعْدٍ غَدَا مَقُولَا
وَلِزُبْرَةٍ وَسَطِ الْخَبَاءِ إِقَامَةً * فَاصْرِفْ مَقْدَمَ ذِكْرَهَا تَعْجِيلَا
يَهْوِي الْمُؤَخَّرَانِ سِمَاكَ مَرَّةً * مَدَّ الرَّشَاءَ لِحَيْدِهِ تَنْكِيلَا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشوري الشير بالسهروردي أرجوزة ، ذكر
فيها الطالع ، ثم الغارب في بيت وبعده المتوسط ثم التود وهو الذي يقابله تحت
الارض في بيت ثان - قال :

(١) إن طلع الشرطان

بُطِينَهَا نُورَ الزُّبَانِ خَلَعَ * فَنَاعِسُ الطَّرْفِ رَمَى سَعْدَ بَلَعٍ
 مُرِيًّا مَعَ الْإِكْلِيلِ بِالْوُقُودِ * تُنَوِّرُ الْجِبَةَ فِي السُّعُودِ
 وَالْدَّبْرَانُ الْقَلْبَ مِنْهُ يَخْفِقُ * فَالْحَرَتَانُ لِلْجِبَاءِ يَطْرُقُ
 وَهَقْعَةً شَوْلَتْهَا مِنْزَمَةٌ * وَصَرْفَةٌ بَفَرْغِهَا مُقَدَّمَةٌ
 وَهَنْعَةٌ مِنْهَا النَّعَائِمُ تَفَرَّتْ * بَعُودَةٌ بِالْفَرْغِ قَدْ تَأَخَّرَتْ
 رَمَى الذَّرَاعُ بِلَدَّةٍ أَصَابَهَا * سَمَّاكَ بَطْنِ الْحَوْتِ مَا أَصَابَهَا
 فَهَذِهِ جَمَلَتَا مَكْمَلَهُ * لِلشَّمْسِ فِي ثَلَاثِ عَشْرٍ مَنَزِلَهُ

الجملة الخامسة

(في ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحركاً حركاتٍ متعددةً يتلو بعضها بعضاً ،
 جعل مقدار كل حركة منها يوماً ، ولما كانت الشمس في حركة من هذه الحركات تارةً
 تكون ظاهرة لاهل الربع المعمور وتارة مستترة عنهم بحدبة الأرض ، أنقسم لذلك
 مقدار تلك الحركة إلى الليل والنهار ، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تظهر فيه الشمس
 على ساكني ذلك الموضع من المعمور ، والليل عبارة عن الوقت الذي تخفى عنهم فيه ،
 فإنه يوجد وقتُ الصبح في موضعٍ وقتَ طلوع الشمس في موضعٍ آخر ، وفي موضعٍ
 آخر وقت الظهر ، وفي موضعٍ آخر وقت المغرب ، وفي موضعٍ آخر وقت نصف الليل .
 ولما كانت منطقة البروج مقسومةً إلى اثني عشر برجاً ، وكل برج إلى ثلاثين
 درجة ، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقة بحركة فلك الكل لها في زمان اليوم

الجامع لليل والنهار، قَسَمَ كل واحد منهما إلى اثني عشر جزءاً، وجعل قسْطُ كل جزء منها خمسَ عشرة درجةً، وسمَّى ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان في الاعتدالين على مامرٍ، اضْطُرَّ إلى أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمى المعتدلة، وزمانيّة وتسمى المعوجة. فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرها بحسب طول النهار وقصره. فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قُصُرَ كانت ساعاته أقل، مقدار كل ساعة منه خمسَ عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادها وتختلف مقاديرها، فإن زمان النهار طال أو قصر ينقسم أبداً إلى اثنتي عشرة ساعة، مقدار كل واحدة منها نصفُ سدس الليل والنهار، وهي في النهار الطويل أطول منها في القصير. والذي كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيّة دون المستوية، فكانوا يَقْسِمُونَ كلا من الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعةً، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماءً تخصُّها.

فأما ساعاتُ الليل فسمَّوا الأولى منها الشاهدَ، والثانية الغسقَ، والثالثة العتمة، والرابعة الفحمة، والخامسة الموهن، والسادسة القطع، والسابعة الجوشن، والثامنة الهتكة، والتاسعة التبشير،^(١) والحادية عشرة الفجر الأول، والثانية عشرة الفجر المعترض.

وأما النهار فسمَّوا الساعة الأولى منه الدور، والثانية البزوغ، والثالثة الضحى، والرابعة الغزالة، والخامسة الهاجرة، والسادسة الزوال، والسابعة الدلوك، والثامنة العصر، والتاسعة الأصيل،^(٢) والعاشره الصبوب، والحادية عشرة الحدود، والثانية عشرة الغروب.

(١) العاشرة غير موجودة في الاصل. وعد في نهاية الأرب بعد التبشير الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم المعترض. وبه تعلم ما هنا (٢) لعل صوابه الحدور.

وتروى عنهم على وجه آخر؛ فيقال فيها : البُكور، ثم الشُّروق ، ثم الإِشراق،
ثم الرُّاد ، ثم الضُّحى ، ثم المُنوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العصر ، ثم الطَّفَل
(بتحرك الفاء)، ثم العِشى ، ثم الغروب . ذكرهما ابن النحاس في "صناعة الكتاب".
قال في "مناهج الفكر": ويقال إن أول من قسم النهار إلى اثنتى عشرة ساعة آدم عليه
السلام، وصن ذلك وصيةً لابنه شيث عليه السلام، وعرفه ماوظف عليه كل ساعة
من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة

(في أيام الأسبوع ، وفيها أربعة مدارك)

المُدرك الأول

(في ابتداء خَلْقها وأصل وجودها)

وقد نطق القراءان الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل .
أما الإجمال فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .
وأما التفصيل فقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ لِّمَن ظَلَمَ وَهُوَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ﴾
فَلِلَّأَرْضِ اثْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾
والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومين المتقدمين ، ومثله في كلام العرب كثير،
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " إذا نام أحدكم جاء الشيطان فعقد تحت رأسه ثلاث
عقد ، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإذا توضأ انحلت عقدتان ، فإذا
صلى انحلت الثالثة " فالمراد بقوله عقدتان عقدة والعقدة الأولى . وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات في غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابنُ جرير من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ” أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، تسأله عن خلق السموات والأرض ، فقال خلق الله الأرض يومَ الأحد ويومَ الاثنين ، وخلقَ الجبال يومَ الثلاثاء وما فيهن من منافع ، وخلقَ يومَ الأربعاء المدائن والشجرَ والعمران والحراب ، فهذه أربعة أيام ، وخلقَ يومَ الخميس السماء ، وخلقَ يومَ الجمعة النجومَ والشمس والقمرَ والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه ، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة ” قالت اليهود ، ثم ماذا ؟ قال ” ثم استوى على العرش ” قالوا : أصبت لو أتممت ، قالوا : ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر في هذا الحديث ليوم السبت في أول الخلق ولا في آخره ، نعم ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه قال ” أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيدي فقال خلق الله التربة يومَ السبت ، وخلق فيها الجبال يومَ الأحد ، وخلقَ الشجرَ يومَ الاثنين ، وخلق المكروه يومَ الثلاثاء ، وخلق النور يومَ الأربعاء ، وبث فيها الدواب يومَ الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بينَ العصر إلى الليل ” قال ابن كثير وهو من غرائب الصحيح ، وعلمه البخاري في تاريخه فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار ، وهو أصح . فقد ورد التصريح في هذا الحديث بذكر الأيام السبعة ووقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولى من الحديث الذى قبله ، وأستدل بأن الفراغ كان يوم الجمعة ، وخالفه غيره من العلماء الحذاق النظار . وقالوا دليله دليل على خطئه : لأن الخلق فى ستة أيام يوم الجمعة منها كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدخل فى الأيام لكاتب الخلق فى سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فبين أن الابتداء يوم الأحد إذ كان الآخر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأننا إن عملنا على الابتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئا وإن عملنا على الابتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاس أن مقدار كل يوم من أيام خلق السموات والأرض ألف سنة من أيام الدنيا ، وأنه كان بين ابتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخلق القلم الذى أمره بكتابة كل ما هو كائن إلى قيام الساعة يوم : وهو ألف عام ، فصار من ابتداء الخلق إلى انتهائه سبعة آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدة إقامة الخلق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا باب مداره على النقل دون الآراء .

المذكر الثانى

(فى أسمائها . وقد اختلف فى ذلك على ثلاث روايات)

الرواية الأولى - ما نطق به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن : وهو الأحد والاثان والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت .

والأصل في ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسماه الأحد ، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامساً فسماه الخميس " ولا ذكر في هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز . قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ وقال جل وعز ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً﴾ . وسياطين في غير هذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما ابتدئ فيه الخلق منها .

فالأحد بمعنى واحد ويقال بمعنى أول ورجحه النحاس ، وهو المطابق لتسمية الثاني بالاثنتين . والثالث بالثلاثاء . وقيل أصله وحَد بفتح الواو والحاء كما أن أَنَاة أصلها وَنَاة ، ويجمع في الفِئْلَةِ على أَحَادٍ وَأَحْدَاتٍ ، وفي الكثرة على أَحُود وأُوْحَاد ويحكي في جمعه أَحُد أيضاً قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنتان بمعنى الثاني . قال النحاس ، وسبيله أن لا يثنى ، وأن يقال فيه : مضت أيام الاثنين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريون الأثن والجميع الثني . وقال ابن قتيبة في أدب الكاتب : إن شئت أن تجعده فكانه مبني للواحد قلت أثنانين . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفراء في الأيام وقال : إنما يجوز على حيلة بعيدة ، وهي أن يقال اليوم الاثنان فتضم النون فتصير مثل عمران فتثنيه وتجمعه على هذا . وحكى عن الفراء أيضاً في جمع الكثرة أثنان فتقول مضت أثنان مثل أسماء وأسام قال : وقرأت على أبي إسحاق في كتاب سيويه فيما حكاه اليوم الثني فتقول على هذا في الجمع الاثناء .

والثلاثاء بمعنى الثالث، ويجمع على ثلاثاوات وحي الفراء أَنَاثَ . قال النحاس ويجوز أَنَاثِيثُ ، وكذا ثَلَاثِيثٌ مثل جمع ثلاثة لأن أُنثِيَ التأنيث كالهاء . وتقول فيه مضت الثلاثاء على تأنيث اللفظ ومضى على تذكير اليوم ، وكذا في الجمع تقول مضت ثلاثٌ ثلاثاوات ، وثلاثةٌ ثلاثاوات .

والأربعاء بمعنى الرابع ، ويجمع على أربعاوات وكذا أربعاء والياء فيه عوض ما حُذِفَ ، فإن لم تعوض قلت أربع . وأجاز الفراء أربعاءات مثل ثلاثاءات ومنعه البصريون للفرق بين ألف التأنيث وغيرها .

والخميس بمعنى الخامس ، ويجمع في القلة على أُنْحِسة . وفي الكثرة على نُحْسٍ ونُحْسَانٌ كُرْعَفٌ ورُعْفَانٌ . ويقال أُنْحِساءٌ كأَنْصَاءٍ ، وحي الفراء في الكثرة أُنْحِساءٌ .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وأختلف في سبب تسميته بذلك فقال النحاس : لاجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر في أن الاسم كان بها قديما وقيل لاجتماع الناس للصلاة فيه . ثم اختلف فقيل سميت بذلك في الجاهلية وأُخْتُجَّ له بما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل أن أول من سُمِّي الجمعة جمعة كعبُ ابنِ لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه جمع قُرَيْشًا وخطبهم فسميت جمعة وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا العروبة . وقيل إنما سميت بذلك في الإسلام وذلك أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام ، وللنصارى كذلك فهموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونُصَلِّي ، فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فأجعلوا يوم العروبة لنا فأجتمعوا إلى سعد بن زُرارة الأنصاري فصلَّى بهم يومئذ ركعتين وذَكَرَهُمْ فسموه يوم الجمعة . لاجتماعهم فيه فأنزل الله تعالى سورة الجمعة . على أن السَّهْبِيلِيَّ تقد قال في الروض الأُنْف : إن يوم الجمعة كان يسمَّى بهذا الاسم قبل أن يصلي الأنصار الجمعة .

أما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحب الأوائل فإنه لما قدم المدينة مهاجرا نزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أياما ثم خرج يوم الجمعة عائدا إلى المدينة فأدركته الصلاة في بنى سالم بن عوف في بطن وادي لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وتجمع على جمع وجمعات بالفتح والتسكين .^(١)

والسبت ومعناه القطع بمعنى أنه قُطِع فيه الخلق على رأى من يرى أن السبت آخر أيام الجمعة ، وأنه لخلق فيه على ماسياتى ذكره . وقول النحاس إنه مشتق من الراحة أيضا لاعتباره به لمُصَاهَاة قول اليهود فيه على ماسياتى إِبْتِداء شاء الله تعالى . ويجمع في القلة على أسبُت وسبَّات بالتحريك ، وفي الكثرة على سُبُوت بضم السين مثل قَرَح وقُرُوح .

الرواية الثانية - ما يروى عن العرب العاربة من بنى قحطان وجُرم الأولى : وهو أنهم كانوا يُسمُّون الأحد أول لأنه أول أعداد الأيام ويسمُّون الاثنين أهون أخذا من الهون والهويني ، وأوهدا أيضا أخذا من الوهدة : وهى المكان المنخفض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأول في العدد . ويسمُّون الثلاثاء جبَّارا (بضم الجيم) لأنه جبر به العدد . ويسمُّون الأربعاء دُبَّارا (بضم الدال المهملة) لأنه دبر ما جبر به العدد بمعنى أنه جاء دبره . ويسمُّون الخميس مُؤنسا لأنه يؤنس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا في الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به ولا يُسافر إلا فيه وقال : ” اللَّهُمَّ بَارِكْ لِمَتِي فِي بُكُورِهَا يَوْمَ نَحْيِسُهَا ” . ويسمُّون الجمعة العروبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفي لغة شاذة عروبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف ، ومعناه اليوم البين أخذا من قولهم أعرب إذا أبان ، والمراد أنه بين العظمة والشرف ، إذ لم يزل معظما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمعات أيضا بضمين . قال في المصباح كغرفات في وجوهها .

تعظيماً ، وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةُ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا " . وَيُسَمُّونَهُ أَيْضاً حَرَّةً بِمَعْنَى أَنَّهُ مَرْتَفِعٌ عَالٍ كَالْحَرَّةِ الَّتِي هِيَ كَالرُّمْحِ ، كَمَا يَقَالُ مِحْرَابٌ لَأَرْتِفَاعِهِ وَعُلُوِّ مَكَانَتِهِ ، وَيُسَمُّونَ السَّبْتَ شَيْاراً (بِفَتْحِ الشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِهَا مَعَ الْيَاءِ الْمُثْنَاةِ تَحْتَ) أَخْذَا مِنْ شُرْتِ الشَّيْءِ إِذَا اسْتَخْرِجْتَهُ وَأَظْهَرْتَهُ مِنْ مَكَانِهِ إِمَّا بِمَعْنَى أَنَّهُ اسْتَخْرِجَ مِنَ الْيَوْمِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخَلْقُ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَرَى أَنَّهُ أَحْرَاقُ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَأَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ الْأَحَدُ وَاتِّمَاءُ الْجُمُعَةِ ، وَإِمَّا بِمَعْنَى أَنَّهُ ظَهَرَ أَوَّلُ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ يَرَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْجُمُعَةِ وَكَانَ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ فِيهِ ، وَإِلَى هَذِهِ الْأَسْمَاءِ يُشِيرُ النَّابِغَةُ بِقَوْلِهِ :

أُوْمَلْ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي * لِأَوَّلِ أَوْ لِأَهْوَنِ أَوْ جُبَارِ
أَوْ التَّالِي دُبَارِ فَإِنْ أَقْتَهُ * فَمُؤْنِسٍ أَوْ عَرُوبَةٍ أَوْ شِيَارِ

الرواية الثالثة - ما حكاها النحاس عن الضَّحَّاك : إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ليس منها يوم إلا له اسمٌ أُبْجَدُ هَوَّزٌ حُطِّيْ كُلُّهُمْ سَعَفَصٌ قَرَشْتُ . وقد حكى السهيلي رحمه الله أن الأسماء المتداولة بين الناس الآن مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاؤرتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعها العرب العاربة : وهي أُبْجَدُ هَوَّزٌ حُطِّيْ كُلُّهُمْ سَعَفَصٌ قَرَشْتُ التي خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات : علوياً وسُفْلياً . وهذا يخالف ما تقدم في الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلى أنها أسماءٌ للأيام التي وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أُبْجَدُ اسماً للأحد على مذهب من يرى أن ابتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له في هذه الرواية^(١) .

(١) أسقط الناسخ الأجمال الثاني وقد ذكره في الضوء بقوله (ويحتمل أن أُبْجَدُ اسمٌ للسبت على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُدْرَكُ الثَّالِثُ

(في بيان أوّل أيام الأسبوع ، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .
وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب)

المذهب الأوّل - أن أوّل أيام الأسبوع وأبتداء الخلق الأحد . واحتج لذلك بما تقدّم من حديث ابن عباس " أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد " الحديث ومجديته الآخر " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد " وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أوّل الأسبوع الأحد .

المذهب الثاني - أن أوّل أيام الأسبوع وأبتداء الخلق السبت . واحتج له بحديث أبي هريرة المتقدم " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت " الحديث ، وإذا كان ابتداء الخلق السبت لزم أن يكون أوّل الأسبوع السبت .

المذهب الثالث - أن أوّل أيام الأسبوع الأحد ، لحديث " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين " الحديث . وأبتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُدْرَكُ الرَّابِعُ

(في التفاؤل بأيام الأسبوع والتطيّر بها وما يُعزى لكلٍّ منها
من خير أو شرٍّ على ما هو متداول بين الناس)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا أَصْلَ لِدَٰلِكَ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَلَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . وَقَدْ وَرَدَتِ الْقِرْعَةُ عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَوْزِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى الْأَيَّامِ : أَنَّهُ قَالَ : السَّبْتُ يَوْمُ مَكِّيٍّ وَخَدِيعَةٍ ؛ وَيَوْمُ الْأَحَدِ يَوْمُ غُرَيْسٍ وَعِمَارَةٍ ؛ وَيَوْمُ الْأَثْنَيْنِ

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة ديم وحرب ومكافحة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء؛ ويقال يوم نحس مستمر؛ ويوم الخميس يوم دخول على الأمراء وطلب الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خلوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مكّرت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارة يوم الاثنين، وأن حواء حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عادًا وثمودًا، وأن إبراهيم دخل على التمرود يوم الخميس، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة . وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبيات وإن كان قد خالف الواضع في مواضع فقال :

لَنِعَمَ الْيَوْمُ يَوْمُ السَّبْتِ حَقًّا * لَصِيدٍ إِنْ أَرَدْتَ بِلَا أَمْتَرَاءِ
وَفِي الْأَحَدِ الْبِنَاءُ فَإِنَّ فِيهِ * تَبَدُّىَ اللَّهِ فِي خَلْقِ السَّمَاءِ
وَفِي الْإِثْنَيْنِ إِنْ سَافَرْتَ فِيهِ * سَتَرَجُعُ النَّجَاحِ وَالْغِنَاءِ
وَإِنْ تُرِيدَ الْحِجَامَةَ فِي الثَّلَاثَا * فَفِي سَاعَاتِهِ هَبْرُقُ الدَّمَاءِ
وَإِنْ شَرِبَ أَمْرُؤُكُمْ دَوَاءً * فَنِعَمَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ
وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ قَضَاءُ حَاجٍ * فَإِنَّ اللَّهَ يَأْذَنُ بِالْقَضَاءِ
وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ التَّرْوِيحُ حَقًّا * وَلَذَاتُ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ

وسياتى الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهر في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى .

الطرف الثاني

(في الشُّهُورِ ، وهى على قسمين : طَبِيعِيٌّ وَأَصْطِلَاحِيٌّ)

القسم الأول

(الطَّبِيعِيَّةُ والمراد به القَمَرِيَّةُ)

وهو مدَّة مَسِيرِ القَمَرِ من حين يفارق الشَّمْسَ إلى حين يفارقها مرة أخرى :
وهى على ضربين :

الضرب الأول

(شُهُورُ الْعَرَبِ)

والشُّهُرُ الْعَرَبِيَّةُ عبارةٌ عَمَّا يَبِينُ رُؤْيَا الْهَلَالِ إلى رُؤْيَا ثَانِيَا ، وَعَدَدُ أَيَّامِهِ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا وَنِصْفُ يَوْمٍ عَلَى التَّقْرِيبِ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكُسْرُ فِي الْعَدَدِ عَسِرًا عَدُّوا بِجَمَلَةِ الشَّهْرَيْنِ تِسْعَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا ، أَحَدُهُمَا ثَلَاثُونَ وَهُوَ التَّامُّ ، وَالْآخَرُ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ وَهُوَ النَّاْقِصُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَفَ لَا يَدْخُلُ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ شَهْرًا فَلَمَّا مَضَى تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ غَدَا عَلَيْهِمْ أَوْ رَاحَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَلَفْتَ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا فَقَالَ الشُّهُرُ يَكُونُ تِسْعَةٌ وَعِشْرِينَ » . وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَسِيرِ النَّيِّرَيْنِ : الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِالْمَسِيرِ الْأَوْسَطِ . أَمَّا بِالْمَسِيرِ الْمَقْوومِ فَإِنَّهُ يَتَّفَقُ إِذَا اسْتَكْمَلَ الشُّهُرُ بِرُؤْيَا الْهَلَالِ عِيَانًا أَنْ يَتَوَالَى شَهْرَانِ وَثَلَاثَةٌ تَامَةٌ وَتَتَوَالَى كَذَلِكَ نَاقِصَةٌ وَعَلَى ذَلِكَ عَمَلُ الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ . وَلَهُمْ فِي اسْتِعْمَالِهِ طَرِيقَتَانِ .

الطريقة الأولى

(طريقة العرب)

ومدة الشهر عندهم من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وهى أسهل الطرق وأقربها، وعليها جاء الشرع، وبها نطق التنزيل قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهِلَالَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(فى أحوال الأهلة التى عليها مدارُ الشهور فى ابتدائها وانتهائها)

واعلم أن مسير القمر مقدرٌ بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ والشمس تعطيه فى كل ليلة ما يستضىء به نصف سبع قرصه حتى يكمل ثم تسابه من الليلة الخامسة عشرة كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر . وروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه سئل عن القمر فقال : يُحَقُّ كل ليلة ويولدُ جديداً ؛ ويبعدُ مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمت ذلك فللقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدم فى الشمس .

أما الحركة السريعة فحركة فلك الكحل به من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق فى اليوم والليلة .

واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضى ستة أسابيع ساعة من الليل، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه فى كل ليلة ماضية بهذا المقدار حتى يكون مغيبه فى الليلة السابعة نصف الليل، وفى الليلة الرابعة عشرة طلوع الشمس،

ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي ستة أسابيع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغداة .

وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطلع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمس ليال تقديرا فأضربها في ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنتان فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات وثلاثة أسابيع ساعة، وكذلك العمل في أي ليلة شئت ؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ست ليال مثلا فأضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل في أي ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالي الشهر بعد استهلاله كل ثلاثة أيام قسما وستمها بأسم فالثلاث الأول منها هلال ، والثلاث الثانية قمر ، والثلاث الثالثة بهر ، والثلاث الرابعة زهر (والزهر البياض)، والثلاث الخامسة بيض : لأن الليالي تبيض بطلوع القمر فيها من أولها إلى آخرها، والثلاث السادسة درع : لأن أوائلها تكون سودا وسائرها بيض ، والثلاث السابعة ظلم ، والثلاث الثامنة حنادس ، والثلاث التاسعة دأدي (الواحدة منها دأداة على وزن فعالة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها محاق وليلة سرار لإحراق الشمس القمر فيها .

ومنهم من يقول ثلاث غرز : (وغرة كل شيء أوله) ، وثلاث شهب ، وثلاث زهر ، وثلاث تسع : لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بهر ، بهر فيها ظلام الليل، وثلاث بيض ، وثلاث درع ، وثلاث دهم وخم وحنادس ، وثلاث دأدي . ويروى عنهم أنهم يسمون ليلة ثمان وعشرين الدجاء ، وليلة تسع وعشرين

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التي قبلها بدليل التعليل .

الدَّهْمَاءُ، وَلَيْلَةُ ثَلَاثِينَ اللَّيْلَاءِ، وَهُمْ يَقُولُونَ فِي أَتْبَاعِهِمْ : الْقَمَرُ ابْنُ لَيْلِهِ، رَضَاعُ سَخِيلِهِ، حَلَّ أَهْلِهَا بِرُمَيْلِهِ، وَابْنُ لَيْلَتَيْنِ حَدِيثُ أَمَتَيْنِ، كَذِبٌ وَمِينٌ، وَابْنُ ثَلَاثٍ، قَلِيلُ اللَّبَآثِ، وَابْنُ أَرْبَعٍ، عَتَمَةُ أُمِّ رُبْعٍ، لِاجْتِنَاعِ وَلَا مُرْضَعٍ، وَابْنُ خَمْسٍ، حَدِيثٌ وَأُنْسٌ، وَعَشَاءُ خَلْفَاتِ قُعْسٍ، وَابْنُ سِتٍّ، سِرُّوَيْتٌ، وَابْنُ سَبْعٍ، دُجْلَةٌ ضَمْبَعٌ، وَحَدِيثٌ وَجَمْعٌ، وَابْنُ ثَمَانٍ، قَمَرٌ إِصْحِيَانٌ، وَابْنُ تِسْعٍ، مَحْدُو النَّسْعِ، وَيُقَالُ الشَّعْبُ، وَابْنُ عَشْرِ، مُحَنَّقُ الْفَجْرِ، وَثُلَاثُ الشَّهْرِ .

هذا هو المحفوظ عن العرب في كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت في بعض المجاميع على زيادة إلى آخر الشهر، وكأنها والله أعلم مصنوعة ، وهي على السنة العرب موضوعه ، وهي : وَابْنُ إِحْدَى عَشْرَةٍ، يُرَى عِشَاءً وَيُرَى بُكْرَةً، وَابْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةٍ، مُرْهَقُ الْبَشَرِ بِالْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، وَابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ، قَمَرٌ بَاهِرٌ، يُعْشَى النَّازِرُ، وَابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ مُقْبِلُ الشَّبَابِ ، مَضَى دُجْنَاتِ السَّحَابِ ، وَابْنُ خَمْسِ عَشْرَةٍ تَمَّ التَّمَامُ، وَنَفِدَتِ الْأَيَّامُ، وَابْنُ سِتِّ عَشْرَةٍ نَقَصَ الْخَلْقُ، فِي الْغَرْبِ وَالْمَشْرِقِ، وَابْنُ سَبْعِ عَشْرَةٍ، أُمَكْنِتِ الْمُقْتَفِرَ الْقَفْرَةَ، وَابْنُ ثَمَانِ عَشْرَةٍ قَلِيلُ الْبَقَاءِ، سَرِيعُ الْفَنَاءِ ، وَابْنُ تِسْعِ عَشْرَةٍ يَطِيءُ الْغُلُوعَ، سَرِيعُ الْخُشُوعِ، وَابْنُ عَشْرِينَ يَطْلُعُ سُحُورُهُ، وَيَغِيبُ بُكْرُهُ، وَابْنُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ كَالْقَبَسِ، يَطْلُعُ فِي الْغَلَسِ ، وَابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ يُطِيلُ السُّرَى، رَيْثَمَا يُرَى ، وَابْنُ ثَلَاثِ وَعَشْرِينَ يُرَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيَالِ، لَا قَمَرٌ وَلَا هِلَالٌ، وَابْنُ خَمْسِ وَعَشْرِينَ دَنَا الْأَجَلَ، وَأَنْقَطَعَ الْأَمَلُ ، وَابْنُ سِتِّ وَعَشْرِينَ دَنَا مَا دَنَا ، فَمَا يُرَى إِلَّا سَنَا ، وَابْنُ سَبْعِ وَعَشْرِينَ يَشُقُّ الشَّمْسَ ، وَلَا يُرَى لَهُ حَسٌّ ، وَابْنُ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ ضَائِلُ صَغِيرٍ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْبَصِيرُ .

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال وتقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوماً بلياليها كالشمس في البروج قال تعالى ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوماً . والمنازل للقمر كالبروج للشمس ؛ وذلك أنه لما اتصل إلى العرب ماحقه القدماء برصدهم من الكواكب الثابتة ، وكان لا غنى لهم عن معرفة كواكب تُرشدهم إلى العلم بفصول السنة وأزمته ، رصدوا كواكب وأمتحنوها ، ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها ؛ لأنهم قسموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التي يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوماً ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبعاداً ما بينها وبين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة ، وسموها منزلة إلى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر : لأن القمر إذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين إلى المحاق الذي بدأ منه ، فحذفت المتكرر ، فبقى ثمانية وعشرين ويزاد بالشرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل ، الذي هو أول البروج .

ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طلوعه من ناحية الشام ، وتسمى الشامية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال ، التي هي رأس الحمل والميزان صاعداً إلى جهة الشمال ، وهي : الشيطان ، والبطين ، والثريا ، والذبران ، والمقعة ، والهنة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والخرتان ، والصرفة ، والعواء ، والسمك . ويطلوعها يطول الليل ويقصر النهار . والجنوبي منها ما كان طلوعه من ناحية اليمن وتسمى إيمانية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطاً إلى جهة الجنوب .

وهى : العَقْر، والزُّبَانان، والإِكْلِيل، والْقَلْب، والشَّوْلَة، والنَّعَائِم، والْبَلْدَة، وسَعْدُ الذَّابِج، وسَعْدُ بَلَع، وسَعْدُ السَّعُود، وسَعْدُ الأَخِيَّة، والْفَرْعُ المَقْدَم، والْفَرْعُ المؤخَّر، وبطن الحوت، وبطلوعها يقصُر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قِطْعَة من الفلك مقدارها رُبْع سُبْع الدَّوْر، وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءاً من الفلك عبارة عن ^(١) لاً عن الكواكب، وإنما الكواكب حدود تَفْرُق بين كل منزلة وأُخْرَى، فُعْدَل بالتسمية إليها وغلبت عليها .

وتزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المَنْزِلَة نَفْسِهَا وإما فيما بينها وبين التي تليها وإما محاذياً لها خارجاً عن السمْت شَمَالاً أو جَنُوباً . وقد تقدّم الكلام على عُدُول القمر عن بعض المنازل ونزوله في غيرها .

ولتَعْلَمَ أَنَّ المنازل مَقْسُومَةٌ على البروج الاثني عشر موزعةً عليها : فالشَّرَطَان والبُطَيْن وثُلثُ الثَّريا لِلْحَمَل، وثُلثا الثَّريا والدِّبْرَان وثُلثُ الحَقِيقَة لِلثَّوْر، وثُلثُ الحَقِيقَة والْمَنْعَة والدَّرَاع لِلْجُوزَاء، والنَّثْرَة والطَّرْف وثُلثُ الجَبْهَة لِلشَّرَطَان، وثُلثُ الجَبْهَة والخِرَتَان وثُلثُ الصَّرْفَة لِلْأَسَد، وثُلثُ الصَّرْفَة والعَوَاء والسَّيَّكُ لِلْمِزَان، وثُلثُ الشَّوْلَة للعَقْر، وثُلثُ الشَّوْلَة والنَّعَائِم والْبَلْدَة لِلْقَوْس، وسَعْدُ الذَّابِج وسَعْدُ بَلَع وثُلثُ سَعْد السَّعُود لِلْجَدَى، ^(٢) وثُلثُ الفَرْع المَقْدَم والفَرْع المؤخَّر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أيّ منزلة هو أو كمّ مضى له فيها من الأيام، فخذ ما مضى من سنة القبط شهوراً كانت أو أياماً أو شهوراً وأياماً

(١) بياض بالاصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطاً هو [وثُلثا سَعْد السَّعُود وسَعْدُ الأَخِيَّة وثُلثا الفَرْع المَقْدَم للدَّوْر] .

وَأَبْسَطُهَا أَيَّامًا ، وَأَضْفَ إِلَى مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَطْرَحَ الْمَجْمُوعَ ثَلَاثَةً عَشَرَ ثَلَاثَةً عَشَرَ ، وَهُوَ عَدَدُ لُبُّثِ الْقَمَرِ فِي كُلِّ مَنَزَلَةٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَجْعَلُ أَوَّلَ كُلِّ مَنَزَلَةٍ مِنَ الْعِدَدِ الْخَرْتَانِ ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَيَّامِ دُونَ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ فَهُوَ عَدَدُ مَا مَضَى مِنَ الْمَنَزَلَةِ الَّتِي آتَتْهُ الْعِدَدُ إِلَيْهَا .

مثال ذلك أن يمضي من سَنَةِ الْقَبْطِ شَهْرُ تَوْتٍ وَأَرْبَعَةُ أَيَّامٍ مِنْ بَابِهِ فَتَبَسُّطُهَا أَيَّامًا تَكُونُ أَرْبَعَةً وَثَلَاثِينَ يَوْمًا فَتَضِيفُ إِلَيْهَا يَوْمَيْنِ تَصِيرُ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ يَوْمًا فَاطْرَحُ مِنْهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَرَّتَيْنِ بِسِتَّةٍ وَعَشْرِينَ لِلْخَرْتَانِ مِنْهَا ثَلَاثَةُ عَشَرَ وَلِلصَّرْفَةِ ثَلَاثَةُ عَشَرَ تَبْقَى عَشْرَةٌ ، وَهِيَ مَا مَضَى مِنَ الْمَنَزَلَةِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ الْعَوَاءُ .

وإن أردت أن تعرف في أيِّ بَرَجٍ هُوَ فَاحْسُبْ كَمْ مَضَى مِنَ الشَّهْرِ الْعَرَبِيِّ يَوْمًا وَزِدْ عَلَيْهِ مِثْلَهُ ثُمَّ زِدْ عَلَى الْجُمْلَةِ خَمْسَةً وَأَعْطِ لِكُلِّ بَرَجٍ خَمْسَةً وَأَبْدَأْ مِنَ الْبَرَجِ الَّذِي فِيهِ الشَّمْسُ فَأَعْطِ لِكُلِّ بَرَجٍ خَمْسَةً فَأَيُّمَا نَقَدَ حَسَابُكَ فَالْقَمَرُ فِي ذَلِكَ الْبَرَجِ ، وَالْاعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى كَمْ مَضَى مِنَ الشَّهْرِ الْعَرَبِيِّ بِالْحِسَابِ دُونَ الرُّوْيَةِ وَاللَّهِ أَعْلَمُ .

الجملة الثانية

(في أسمائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولى - ما نطق به العرب المستعربة ، وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وقد نطق القرآن الكريم بصِدْقِهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعةً وعشرين . الشهر الأول منها المحترم ؛ سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يحترمون فيه القتالَ ، ويجمع على مُحَرَّمَاتٍ وَمَحَارِمٍ وَمَحَارِمٍ . الشهر الثاني صَفَرٌ ، سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يُغيرون فيه على بلاد يقال لها

الصَّفَرِيَّةُ ، ويجمع على صَفَرَاتٍ وَأَصْفَارٍ وَصُفُورٍ وَصَفَارٍ . الشهر الثالث ربيع الأول
سمى بذلك لأنهم كانوا يُحْصِلُونَ فيه ما أصابوه في صَفَرٍ . والربيع في اللغة الحِصْبُ ،
وقيل لأرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولى بالضواب ، ويقال في التثنية ربيعان
الأولان وفي الجمع ربيعات الأولات . ومن شرط فيه إضافة شهر قال في التثنية شهرا
ربيع الأولان وفي الجمع شَهْرَات ربيع الأولات والأوائل ، وإن شئت قلت في القليل
أشهر وفي الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأربعة الأوائل ، وعن غيره رُبْعُ الأوائل .
الشهر الرابع ربيع الآخر - والكلام في تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام في ربيع
الأول . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمي بذلك لجمود الماء فيه : لأن الوقت
الذى سَمِيَ فيه بذلك كان الماء فيه جامداً شدة البرد ، ويقال في التثنية جُمَادَيَانِ
الأوليان وفي الجمع جُمَادِيَاتِ الأوليَّات . الشهر السادس جمادى الآخرة - والكلام فيه
تسميةً وتثنيةً وجمعاً كالكلام في جُمَادَى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمي بذلك
لتعظيمهم له أخذاً من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع على رَجَبَاتٍ وَأَرْجَابٍ ،
وفي الكثرة على رِجَابٍ وَرُجُوبٍ . الشهر الثامن شعبان ، سمي بذلك لتشعبهم فيه لكثرة
الغارات عقب رَجَبٍ ، وقيل لتشعب العود في الوقت الذى سَمِيَ فيه . وقيل لأنه
شَعَبٌ بين شهرى رَجَبٍ ورمضان ويجمع على شَعْبَانَاتٍ وشعابة على حذف الزوائد ،
وحكى الكوفيون شَعَائِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ على قول سيبويه كما لا يجوز عنده
في جمع عُثْمَانَ عَثَامِينَ . الشهر التاسع رمضان - سمي بذلك أخذاً من الرمضاء لأنه
وافق وقت تسميته زمن الحَرِّ ، ويجمع على رَمَضَانَاتٍ وحكى الكوفيون رَمَاضِينَ ،
والقول فيه كالقول في شَعَائِينَ ، ومن شرط فيه لفظ شهر قال في التثنية شَهْرَ رَمَضَانَ
وفي الجمع شَهْرَاتِ رَمَضَانَ وأشهر رمضان وشهور رمضان . الشهر العاشر شَوَّالٌ سمي
بذلك أخذاً من شَالَتْ الإبل بأذنانها إذا حملت : لكونه أول شهور الحج وقيل من

شال يُشُول إذا أرتفع : ولذلك كانت الجاهلية تَكْرَهُ التَّروِيحَ فيه لما فيه من معنى الإشالة والرفع إلى أن جاء الإسلام بهَدْمَ ذلك . قالت عائشة رضي الله عنها فيما ثبت في صحيح مسلم ” تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَوَّالٍ وَبَنِي فِي شَوَّالٍ فَأَيُّ نِسَائِهِ كَانَ أَحْظَى عِنْدَهُ مِنِّي “ ويجمع على شَوَّالَاتٍ وشَوَّالِيلَ وشَوَّالٍ . الشهر الحادى عشر ذُو الْقَعْدَةِ ، ويقال بالفتح والكسر ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْعُدُونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ لِكَوْنِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَيَجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْقَعْدَةِ ، وَحَكَى الْكُوفِيُّونَ أُولَاتُ الْقَعْدَةِ ، وَرَبَّمَا قَالُوا فِي الْجَمْعِ ذَاتُ الْقَعْدَةِ أَيْضًا . الشهر الثانى عشر ذُو الْحِجَّةِ سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ الْحِجَّةُ فِيهِ ، وَالْكَلَامُ فِي جَمْعِهِ كَالْكَلَامِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ . ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حُرِّمَ كما قال تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرِّمٌ ﴾ وقد أجمعت العلماء على أن الأربعة المذكورة هى رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمُ . وقد اختلف في الابتداء بعددها فذهب أهل المدينة إلى أنه يُبْتَدَأُ بِذِي الْقَعْدَةِ فيقال ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمُ وَرَجَبٌ ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّهَا فِي خُطْبَةِ حِجَّةِ الْوَدَاعِ كَذَلِكَ فَقَالَ ” السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرِّمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمُ وَرَجَبٌ “ وَأَخْتَارَهُ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ . وَذَهَبَ أَهْلُ الْكُوفَةِ إِلَى أَنَّهُ يُبْتَدَأُ بِالْحَرَمِ فيقال الْحَرَمُ وَرَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ : لِأَيُّبِهَا مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِلَيْهِ مِيلُ الْكُتَّابِ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ ذِكْرُهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مِنْ سَنَتَيْنِ . وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ يَعْظُمُونَ هَذِهِ الْأَشْهُرَ وَيَحْزَمُونَ الْقِتَالَ فِيهَا حَتَّى لَوْلَقِيَ الرَّجُلُ فِيهَا قَاتِلَ أَبِيهِ لَمْ يَهْجِهِ ، إِلَى أَنْ حَدَّثَ فِيهِمُ النَّسِيُّ فَكَانُوا يُنْسَتُونَ الْحَرَمَ فَيُؤْخَرُونَهُ إِلَى صَفَرٍ فَيَحْزَمُونَهُ مَكَانَهُ وَيُنْسَتُونَ رَجَبًا فَيُؤْخَرُونَهُ إِلَى شَعْبَانَ فَيَحْزَمُونَهُ مَكَانَهُ لِيَسْتَبِيحُوا الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ .

وأعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شهر المحرم، وشهر صفر، وشهر ربيع الأول وكذا في البواقي. على أن منها ثلاثة أشهر لم تكدر العرب تنطق بها إلا مضافةً إليها، وهي شهر ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك في رمضان ما ورد به القرآن من إضافته قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لا تنقل رمضان ولكن قل كما قال الله عز وجل شهر رمضان فإنك لا تدري ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت في الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إذا جاء رمضان أغلقت النيران وصفدت الشياطين" الحديث. وهذا صريح في جواز تعريته عن الإضافة.

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب أحكمها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقا، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصمت رمضان، وما أشبه ذلك وهو ما رجحه النووي في شرح مسلم. والثاني المنع مطلقا، والثالث إن حقت قرينة تدل على الشهر كما في قوله صمت رمضان فقد جازت التعرية، وإن لم تحف قرينة لم تجز؛ وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رجب أيضا. وقال كل شهر في أوله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة. ويقال في المحرم أيضا شهر الله المحرم ويقال في الربيعين ربيع الأول وربع الآخر وفي الجمادين جمادى الأولى وجمادى الآخرة. قال ابن مكي: ولا يقال جمادى الأول بالتذكير وجوزة في كلامه على "تثقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولم يقولوا ربيع الثاني وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية: لأنه إنما يقال الثاني والثانية لما له ثالث وثلاثة، ولما لم يكن هذين ثالث ولا ثالثة قيل فيهما الآخر والآخرة

كما قيل الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيع الثاني وجمادى الثانية . ويقال في رجب الفرد : لأنفراده عن بقية الأشهر الحرم، ويقال فيه أيضا رجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان، ويقال في شعبان المكرم لتكرمه وعلوقدره، وفي رمضان المعظم والمعظم قدره : لعظمته وشرفه، وفي شوال المبارك : للفرق بينه وبين شعبان خشية الالتباس في الكتابة، ويقال في كل من ذى القعدة وذى الحجة الحرام . قال النحاس وقد جاء في ذى الحجة أيضا الأصم ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مرة الهمداني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقية حمراء محضمة^(١)، فقال : أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : يوم النحر قال : صدقتم يوم الحج الأكبر، أَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ شَهْرُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : ذو الحجة قال : صدقتم شهر الله الأصم .

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون في المحرم المؤتمر : أخذنا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يحرمون فيه القتال فيكثرون . وقيل أخذنا من الأتمار بمعنى أنه يؤتمر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتمرات ومأمير . ويقولون في صفر ناجر إما من النجر والنجاز (بفتح النون وكسرها) الأصل، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يبدأ فيه بعد المحرم، وإما من النجر وهو السوق الشديد . لشدة سوقهم الخيل إلى الحرب فيه ، وإما من النجر، وهو شدة الحر لشدة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون في شهر ربيع الأول خوان (بالحاء المعجمة) : لأن الحرب تشتد فيه فتحونهم فتقتصمهم : ويجمع على خوانات وخواوين وخواون . ويقولون في ربيع الآخر وبضان، أخذنا من الوبيص وهو البريق : لبريق الحديد فيه : ويجمع على وبضانات، وحكى قطرب في بضان فيجمع على أبصنة

(١) أى قطع طرف أذنهما . قاموس .

وفي الكثرة بَصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى حَنِين : لأنهم يَحْنُون فيه إلى أوطانهم :
 لكونه كان يقع في زمن الربيع ، ويجمع على أَحِنَّة وَحْنٌ كَرِغِفٍ وَرُغْفٍ . ويقولون
 لجمادى الآخرة رُبِّي وَرَبَّةٌ : لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التي ليست بجرم :
 وهي ما بعد صفر . قال أبو عبيد رُبَّان كل شيء جماعته ، ويجمع على رُبَيَّاتٍ وَرَبَايَاً مثل
 حَبَالِي . ومن قال رُبَّةً جمعه على مَارِيب . ويقولون في رجب الأصمُّ : لما تقدم^(١)
 من أنه لا يُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أَصَامٍ . قال النحاس
 ولا تقل صمَّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سَمَّيت رجلاً أحمر جمعته على أَحَامِرٍ ولم
 تجمع على حُمُرٍ . ويقولون في شعبان عَادِلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم
 في القبائل ويجمع على عَوَادِل . ويقولون في رمضان نَاتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه
 لإغارتهم على الأموال في الذي قبله ، ويجمع على نَوَاتِقَ . ويقولون في شَوَالٍ وَعِلٌّ
 أخذاً من قولهم : وَعَلَ إلى كذا إذا لجأ إليه لأنهم يهربون فيه من الغارات لأن يعده
 الأشهر الحُرْمَ فيلَجُّون فيه إلى أمكنة يتحصنون فيها ، ويجمع على أُوْعَالٍ كَكَتِفٍ
 وَأَكْتَفٍ ، وفي الكثرة وُعُول . ويقولون في ذى القعدة وَرَنَةٌ وَالْوَاوِ فِيهِ مَنْقَلَبَةٌ عَنْ
 هَمْزَةٍ أَخْذًا مِنْ أَرِنَ إِذَا تَحَرَّكَ : لأنه الوقت الذي يتحرك فيه إلى الحج ، أو من
 الأُرُون ، وهو الدنو : لقربه من الحج ويجمع على وَرَنَاتٍ وَرَانٍ كَحَدَانٍ . ويقولون
 في ذى الحجة بُرْكٌ ، غير مصروف : لأنه معدول عن بَارِكٍ ، أو على التكثير كما يقال
 رجل حَكَمٌ وهو مأخوذ من البركة : لأن الحج فيه ، أو مِنْ بَرَكِ الْجَمَلِ لَأنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي
 تَبَرَّكَ فِيهِ الْإِبِلُ لِلْوَسْمِ ، ويجمع على بَرَكَانٍ مِثْلُ نَغِيرٍ وَنَغِرَانٍ .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدم ذكره .

(١) كذا في الضوء أيضا ولعله مصحف عن رَبَابٍ أَوْ رَبِّ تَأْمَلْ

وقد نظم بعضهم ذلك في أبيات على الترتيب فقال .

بمؤتمِرٍ وناحِرٍ ابتَدَأْنَا * وبالحَوَانِ يَتَّبَعُهُ البُصَانُ
ورُبِّيْ ثُمَّ أَيْدَةٍ تَلِيهِ * تَعُودُ أَصَمُّ صَمًّا بِهِ السَّنَانُ
[وعَادِلَةٌ وَنَاطِلَةٌ جَمِيعًا * وَوَاغِلَةٌ فَهُمْ غَرَرِ حِسَانُ^(١)
وَوَرْنَةٌ بَعْدَهَا بَرَكٌ فَتَمَّتْ * شُهُورًا لِحَوْلِ يَعْرِبِهَا الْبَيَانُ

ثم للناس في إخراج أول الشهر العربي طُرُق، أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسّمها نصفين، فإن كان النصف صحيحا أضفت على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسورا كتبه وأضفته على الجملة؛ ثم تبدئ من أول يوم من السنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ما حصل معك من الأصل والمضاف فحيث انتهى عدّك فذلك اليوم هو أول الشهر .

مثال ذلك في الصحيح النصف : إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً فتعدّ من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر، ثم تبدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم فتعدّ الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون اثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس .

ومثاله في المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضا وكان أول

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه في "نهاية الأرب" للنويري فأثبتناه كما ترى وبه

المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ ماضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسّمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبدئ عدد الأيام من أول المحرم ، وهو الأحد كما تقدّم فيكون آتاء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطرق المعتبرة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربى فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه ، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وأنظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم أنظر كم يوما مضى من الشهر القبطى الذى أنت فيه فأضفه على ما آجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربى، ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضى من الشهر العربى ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثالا فتعدّ من أول شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر في الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربى الذى أنت فيه ومنه يعرف أوله .

الضرب الثاني

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الاجتماع إلى الاجتماع ، وهو اقتران الشمس والقمر في آخر الشهر ولذلك توافق شهورهم في التقدير شهور العرب ، ولا تخالف أوائلها إلا بيوم واحد في بعض الأحيان لأسباب في ملتهم ولكنهما لا تطابق شهرا لشهر ، فإن شهور العرب غير مكبوسة ، وشهور اليهود مكبوسة ؛ وهذه الطريقة لا تعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر . ولذلك لا يعرف شهور اليهود منهم إلا الآحاد ، وشهورهم وهي اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون ، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مسير الشمس والقمر ؛ وفي السنة الكبيسة تكون شهورهم ثلاثة عشر شهرا كما سيأتي ؛ وشهورهم توافق شهور السريان في بعض أسمائها دون بعض ، الأول تشرى ، الشهر الثاني مرحشوان ، الشهر الثالث كسلا ، الشهر الرابع طابات ، الشهر الخامس شباط ، الشهر السادس آذار ، الشهر السابع نيسان ، الشهر الثامن أيار ، الشهر التاسع سيوان ، الشهر العاشر تموز ، الشهر الحادى عشر آب ، الشهر الثانى عشر أيلول ؛ وفي السنة التى يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتى بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثانى ، وسيأتى ذلك مفصلا في الكلام على السنين إن شاء الله تعالى . وقد تقدّم أنها توافق شهور العرب إلا في القليل إلا أنها يدخلها الكبس لأمر في ملتهم ، وسيأتى الكلام على كبسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني

(من الشهور الأصطلاحى والمراد به الشمس ٣)

وهى مدة قطع الشمس مدار بُرج من بروج الفلك الاثنى عشر، وذلك ثلاثون يوماً وثلاثة عشر يوماً تقريباً، وعليه عمل القبط، والفرس، والسرّيان، والروم .
وهى على صنفين :

الصنف الأول

(ما يكون كل شهر من شهور السنة ثلاثين يوماً، وما فضل عن ذلك

جعل نسيئاً بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسب لدقلطيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء فى آخر الثانى عشر منها، وهى خمسة أيام .

الشهر الأول منها توت، ودُخوله فى العشرين من آب من شهور السّريان، وآخره السادس والعشرون من أيلول منها؛ فيه يدرك الرطب، ويكثر السّفرجل والعنب الشّتوى، وتبتدئ الحُمضات . وأزل يوم منه يوم النيروز وهو رأس سنة القبط؛ وفى سابع عشره عيد الصليب، فيه تفتح أكثر الترع بمصر؛ وفى ثامن عشره أول فصل الخريف؛ وفى تاسع عشره يتبدى هيجان السّوداء فى البدن؛ وفى العشرين منه يفضد اللسان؛ وفى الحادى والعشرين منه يتبدى يَبْضُ النّعام؛ وفى الرابع والعشرين منه أول دى ماه من شهور الفرس؛ وفى الثامن والعشرين منه يذهب الحر؛ وفى التاسع والعشرين منه أول رعى الكراكى؛ وفى الثلاثين منه وهو آخره يُزرع الهليون .

الشهر الثاني بابه، ودخوله في السابع والعشرين من أيلول، من شهر السريان،
 وآخره السادس والعشرون من تشرين الأول منها، فيه يُدْرَكُ مالا تُسَقُّ له الأرضُ
 كالبرسيم وغيره؛ وفي آخره تُسَقُّ الأرض بالصعيد؛ وفيه يُحْصَدُ الأرز، ويطيب
 الرمان، وتضع الضأن والمعز والبقر الخيسية؛ ويستخرج دهن الآس واللينوفر،
 ويدرك الثمر والزبيب وبعض المحمضات؛ وفي ثلثه رأس سنة السريان؛ وفي رابعه
 أول تشرين الأول من شهرهم؛ وفي خامسه عرس النيل؛ وفي سادسه يطيب
 شرب الدواء؛ وفي سابعه نهاية زيادة النيل؛ وفي ثامنه يكره خروج الدم؛ وفي حادى
 عشره يتبدئ النيل في التقص؛ وفي ثالث عشره بداية الوحش؛ وفي رابع عشره
 يكثر التاموس؛ وفي خامس عشره يتبدئ زرع القُرط؛ وفي سادس عشره يتبدئ
 كثرة السعال؛ وفي تاسع عشره يتبدئ زرع الساجم، وفي الثانى والعشرين منه
 يتبدئ صلاح المواشى، وفي الثالث والعشرين منه يتبدئ كثرة الغيوم، وفي الرابع
 والعشرين منه يتبدئ أهل مصر الزرع، وفي السابع والعشرين منه يتبدئ سمن
 الحيتان، وفي الثامن والعشرين منه أول المد، وفي التاسع والعشرين منه أول
 الليالى البلق.

الشهر الثالث هتور؛ ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول؛ وآخره
 الخامس والعشرون من تشرين الثانى. فيه يُزْرَعُ القمح ويطلع البنفسج والمنثور،
 وأكثر البقول، ويجمع ما بقى من الباذنجان وما يجرى مجراه، ويحمل العنب من
 قوص، وفي ثانيه يتبدئ حصاد الأرز، وفي خامسه أول تشرين الثانى من شهر
 السريان، وفيه يتبدئ برد المياه، وفي سادسه أول المطر الوسمى، وفي سابعه يتبدئ
 أهل الشام الزرع، وفي ثامنه يتبدئ هبوب الرياح الجنوبيّة، وفي تاسعه يتبدئ
 زرع الحشاش، وفي حادى عشره يتبدئ اختفاء الهوام، وفي ثالث عشره يتبدئ

غليان البحر، وفي رابع عشره تعمى الحيات، وفي سادس عشره يُجمع الزعفران، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش، وفي الثامن والعشرين منه يُغلق البحر الملح وتبتنع السفن من السفر فيه لشدة الرياح، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى سُخُونُهُ بطن الأرض، وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهور الفرس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله في السادس والعشرين من تشرين الثاني من شهور السريان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأول منها. فيه تدرك الباقلاء، وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب، ويدرك الترجس والبنفسج، وتلاحق الحمضات، وفي أوله ابتداء أربعينيات مصر، وفي ثالته يتبدى موت الذباب، وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السريان، وفي سابعه آخر الليالى البلى وأول الليالى السود، وفي حادى عشره يتبدى الشجر فى رمى أوراقه، وفي ثانى عشره تظهر البراغيث، وفي سابع عشره أول فصل الشتاء: وهو أول أربعينيات الشام، وفي ثامن عشره يتنفس النهار، وفي الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر، وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه من شهور الفرس^(١)، وهو نوروزهم وأول سنتهم، وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم، وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل، وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء فى الليل، وفي الثلاثين منه يتبدى تقليم الكروم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها، فى زرع القمح فيه تغرير، وفيه تُسقى الأرض للقصب والقلقاس، ويتكامل الترجس، وفي أوله تبيت الرياح الشديدة، وفي ثانيه يدرك القرط، وفي سادسه أول كانون الثانى من شهور السريان،

(١) سياتى قريباً أن نرور الفرس وأول سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الاتية .

وفي عاشره آخر أربعينيات مصر، وفي حادى عشره أول نصب الكروم، وفي ثانى عشره يشتد البرد، وفي ثالث عشره يتبدى زرع المقات، وفي سابع عشره يتبدى غرس الأشجار، وفي ثامن عشره تتبدى كثرة الندى، وهو آخر الليالى السود، وفي تاسع عشره يتبدى وقوع الثلج بالشام وغيره، وفي الرابع والعشرين منه يتبدى صفو ماء النيل، وفي التاسع والعشرين منه يتبدى اختلاف الرياح.

الشهر السادس أمشير؛ ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهور السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها. فيه تُغرس الأشجار، وتُقلّم الكروم، ويُدرّك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البنفسج والبنثور، وفي رابعه يتبدى إفراخ النخل، وفي سادسه أول شباط من شهور السريان، وفي حادى عشره يتبدى إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف، وفي ثانى عشره يتبدى تحرك دواب البحر، وفي الثانى والعشرين منه ثانى جمرة فاترة، ويتبدى مرض الأطفال، ويتبدى خروج ورق الشجر، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى خروج الدواب للرعى، وفي الرابع والعشرين منه أول حرادماه من شهور الفرس، وفي الخامس والعشرين منه يتبدى هيجان الرياح، وفي السابع والعشرين منه تتبدى ثالث جمرة حامية، وفي الثامن والعشرين منه أول المفرطات، وفي التاسع والعشرين منه آخر نهى اقراط.

الشهر السابع برمها؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شهور السريان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تُزهر الأشجار، ويعقد أكثر الثمار، ويُزرع أوائل السّمسم، ويُقلّع الكتّان، ويُدرّك الفول والعدس، وفي ثانيه يجمد خروج الدم، وهو أول الأعجاز، وفي ثالث عشره تفتّح الحيات أعينها، وفي خامس عشره تطيب الألبان، وفي سادس عشره يتبدى خروج دود القز، وفي ثامن عشره يبيج الدم، وفي تاسع عشره ظهور الهوام، وفي العشرين منه يُزرع السّمسم، وفي

الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهور الفُرس ، وفي السادس والعشرين منه
يبتدئ شُرْبُ المُسْهَل ، وفي السابع والعشرين منه خروج الدُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده ، ودخوله في السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ،
وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُقَطَفُ أوائل عَسَل النحل ، وفيه تكثر
الباقلاء ، وَيُنْفَضُ جَوْز الكَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطن الأول من الجز ، ويقطع
بعض الشعير ، ويُذَرَك الخيار شنبه . وفي أوله يُؤْكَل الأَرِيك ، وفي رابعه يُعَصَّر دُهْن
البَلَسَان ، وفي خامسه تبتدئ كثرة الزهور ، وفي سادسه أول نيسان من شهور
السريان ، وفي ثاني عشره يُخَاف على بعض الزرع ، وفي ثامن عشره آتِر قلع
الكَّان ، وفي العشرين منه يُنْهَى عن أكل البُقُول ، وفي الثاني والعشرين منه ظهور
السَّكَاة ، وفي الثالث والعشرين منه الحِتَام الكبير للزرع ، وفي الرابع والعشرين منه أول
تردماه من شهور الفرس ، وفي الخامس والعشرين منه نهاية مدَّ الفُرات ، وفي الثامن
والعشرين منه يَبْيَضُ النِّعَام .

الشهر التاسع بشنس ، ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور
السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أيَّار منها . فيه يكثر الثَّفَّاح القاسمي ، ويبتدئ
الثَّفَّاح المسكي ، والبطيخ العبدلي والحوفي ، والمشمش ، والخبوخ الزهرى ، والورد
الأبيض . وفي نصفه يُذَرَك الأرز ، ويحصَّد القمح ، وفي سادسه أول أيَّار من شهور
السريان ، وفي رابع عشره يجمع الخشخاش ، وفي ثامن عشره يجمع العَصْفَر ، وفي
الحادى والعشرين منه تبتدئ بُرودة الأرض ، وفي الرابع والعشرين منه أول شهر
برماه من شهور الفُرس .

الشهر العاشر بئونه ، ودخوله في الخامس والعشرين من أيَّار من شهور السريان ،
وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحَصْرَم ، ويطيب بعض العنب

والتين البوفى وهو الديفور، والحوخ الزهرى والمشعر، والمكثرى البوهى، والقراصيا،
 والتوت، ويطلع البلح، ويقطف جمهور العسل، وفي ثلثه يتسدى توحم النيل،
 وفي سادسه يكمل الدرياق، وفي سابعه أول حزيران من شهور السريان، وفي تاسعه
 يتسدى مهبّ الريح الشمالية، وفي عاشره يتسدى تنفس النيل، وفي خامس عشره
 تحرك شهوة الجماع، وفي ثانى عشره عيد ميكائيل، فى ليلته يؤزن من الطين زنة ستة
 عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع فى مكان ويؤزن عند طلوع الشمس فما
 زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراع، وفي ثالث عشره يتسدى نقص
 القرات، وفي رابع عشره تهب الرياح السائم، وفي تاسع عشره تذهب البراغيث،
 وفي العشرين منه تريج الصفراء، وفي الثانى والعشرين منه يعقد الجوز، ويقوى
 أندفاع النيل، وفي الرابع والعشرين منه يثور وجع العين وهو أول مهرماه من شهور
 الفرس، وفي السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفي الثامن والعشرين منه
 ينادى عليه، وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

الشهر الحادى عشر أبيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور
 السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والتين ويقل
 البطيخ العبدلى ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفي رابعه
 أول نمى أبقرط، وفيه يموت الجراد، وفي سابعه أول تموز من شهور السريان،
 وفي عاشره يتسدى وقع الطاعون، وفي ثانى عشره يتسدى قوة السائم، وفي ثالث
 عشره تدرك الفاكهة، وفي سابع عشره تغور العيون، وفي ثامن عشره يجمع السماق،
 وفي الثانى والعشرين منه يدرك الفستق، وفي الرابع والعشرين منه أول أبانماه من
 شهور الفرس، وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعري اليمنية، وفي التاسع
 والعشرين منه يدرك نخل الحجاز.

الشهر الثانى عشر مسرى؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من تموز من شهور
السريان، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعْمَلُ الخَلُّ، ويُدْرِكُ البُسْرُ
والمَوْزُ وتُغَيَّرُ طُغُومُ الفاكهة لغلبة الماء على الأرض، ويُدْرِكُ اللَّيْمُونُ التَّفَاحُ،
ويبتدئ إدراك الرِّمَّان، وفى رابعه تُقْصَانُ الدَّجَلَةُ، وفى خامسه أول العصور، وفى ثامنه
أول آب من شهور السَّريَّان، وفى ثانى عشره فَصَالُ المَوَاشِى، وفى رابع عشره تَقْلُ
الألبان، وفى خامس عشره تَسْخُنُ المياه، وفى سابع عشره تَخْتَلِفُ الرياح، وفى ثامن
عشره يُحْدَرُ لَسْعُ الهوام، وفى الثانى والعشرين منه آخرُ العصور، وفى الرابع والعشرين
منه يَبْجُ النَّعَام، وفى الخامس والعشرين منه تَكْثُرُ الغُيُومُ، وفى الثامن والعشرين منه
آخر السَّهَائِم، وفى التاسع والعشرين منه أول آذرماه من شهور الفرس .

أيام النسيء - ودخولها فى الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف
آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضع الناس طُرُقًا لإخراج أول الشهر القبطى بالحساب أقربها أن تعرف يوم
النَّيروز ثم تعد ماضى من الشهور القبطية بالشهر الذى تريد أن تعرف أوله فما كان
فأضعفه فما تحصل فأسقط منه واحدا أبدا، ثم أسقط الباقي سبعة سبعة فما فضل
فعد من يوم النِّيروز إلى آخر الباقي بعد الإسقاط على توالى الأيام فأيضا انتهى العدد
فذلك اليوم هو أول الشهر المطلوب .

مثال ذلك: كان يوم النيروز الأحد، وأردنا أن نعرف أول أمشير، عددنا كم مضى
من أول الشهور القبطية وعددنا منها أمشير، وجدنا ذلك ستة، أضعفناها صارت
أثنى عشر، أسقطنا منها واحدا بقي أحد عشر، أسقطنا منها سبعة بقي أربعة،
عددنا من يوم النيروز وهو الأحد أربعة فكان آخرها يوم الأربعاء فعلمنا أن أول
أمشير الأربعاء .

وأما شهور الفرس، فهي اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء خمسة أيام في آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأول منها افرودين ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأول يوم منه نيروز الفرس ورأس سنتهم . الشهر الثاني اريديهشماه، ودخوله في الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث منها . الشهر الرابع تيرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمهاث من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمودة منها . الشهر الخامس تردماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمودة من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برمما، ودخوله في الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرى منها . أيام النسيء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولها في الرابع والعشرين من مسرى، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله في التاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العاشر دى ماه . ودخوله في الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منها . الشهر الحادى عشر بهمن ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها . الشهر

(١) وقع في الاصل شيء من السقط والتحريف وقد صححناها من نهاية الارب ومن الضوء بمعونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثاني عشر [اسفندارماه، ودخوله في الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط،
وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم خاص يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة
موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط ما يقع في هذه الشهور من
وغيرها .

الصنف الثاني

(من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والنقصان ،

فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقل ، وبعضها أكثر ،

وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فأثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها
ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأول
منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في الرابع من بابه من شهور
القبط، وآخره الرابع من هاتور منها، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر
العاشر منها . الشهر الثاني تشرين الثاني، وهو ثلاثون يوما، ودخوله في الخامس من
هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافق نوفمبر من شهور الروم،
وهو الشهر الحادي عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما،
ودخوله في الخامس من كيهك من شهور القبط، وآخره الخامس من طوبه منها،
ويوافق ديسمبر من شهور الروم، وهو الشهر الثاني عشر منها . الشهر الرابع كانون
الثاني، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشير منها ، ويوافقه ينير من شهر الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله في السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهاث منها ؛ ويوافقه فبراير من شهر الروم ، وهو الثاني من شهرهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الخامس من برمهاث من شهر القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقه مارس من شهر الروم ، وهو الثالث من شهرهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من برمودة من شهر القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقه ابريل من شهر الروم ، وهو الرابع من شهرهم . الشهر الثامن أيّار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من بشنس من شهر القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايو من شهر الروم ، وهو الخامس من شهرهم . الشهر التاسع حزيان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من بؤنه من شهر القبط ، وآخره السادس من أبيب منها ، ويوافقه يونيه من شهر الروم ، وهو السادس من شهرهم . الشهر العاشر تمّوز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من أبيب من شهر القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقه يوليه من شهر الروم ، وهو السابع من شهرهم . الشهر الحادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الثامن من مسرى من شهر القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهر الروم ، وهو الثامن من شهرهم . الشهر الثاني عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في الرابع من توت من شهر القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقه ستنبر من شهر الروم ، وهو التاسع من شهرهم ، وبذهايه يذهب الحر جملة ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أَيْلُولُ وَارْتَفَعَ الْحَرُّورُ * وَأَخْبَتَ نَارَهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشورى فى أبيات أبتدأ فيها بأيلول فقال :

وَأَبْدَأُ بِأَيْلُولٍ مِنْ الشَّرِّ يَانِي * تَشْرِينُ الْأَوَّلُ يَتَّبِعُهُ الثَّانِي
كَانُونُ كَانَونُ شَبَاطُ يَطْلُعُ * آذَارُ نَيْسَانُ أَيَّارُ يَتَّبِعُ
ثُمَّ خَزِيرَانُ وَمُوزَوَابُ * تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ يَهْدِي مَنْ أَحَبَّ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل ،
وهى هذه :

شَهْرُ الرُّومِ أَلَوَانُ * زِيَادَاتُ وَنَقْصَاتُ
فَتَشْرِينُهُمُ الثَّانِي * وَأَيْلُولُ وَنَيْسَانُ
ثَلَاثُونَ ثَلَاثُونَ * سَوَاءُ وَخَزِيرَانُ
شَبَاطُ خُصَّ بِالنَّقْصِ * وَقَدَرُ النَّقْصِ يَوْمَانُ

ونظم صاحب "مناجى الفكر" تدخلها مع شهور القبط فى أرجوزة بجاءت فى غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا ، وهى هذه :

مَتَى تَشَأْ مَعْرِفَةَ التَّدَاخِلِ * مِنْ أَوَّلِ الشُّهُورِ فِي الْمَنَازِلِ
فَعَدَّ مِنْ تَوْتٍ بِلَا تَطْوِيلِ * أَرْبَعَةً فَهِيَ أَبْدَأُ أَيْلُولِ
وَبَابُهُ كَذَلِكَ مَعَ تَشْرِينِ * الْأَوَّلِ السَّابِقِ فِي السَّنِينَ
وَالْخَامِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ هَتُورِ * أَوَّلُ تَشْرِينِهِمُ الْآخِرِ
أَوَّلُ كَانَونٍ بَغَيْرِ دَلْسِهِ * إِذَا نَقَصَتْ مِنْ كَيْمِكَ خَمْسَهُ
وَطُوبَى لِمَنْ مَرَّ مِنْهُ سِتَّةَ * أَمَّاكَ كَانَونُ الْآخِرُ بَغْتَهُ
وَمِنْ شَبَاطٍ أَوَّلُ يُوَافِقُ * سَابِعَ أَمْشِيرٍ حَسَابُ صَادِقِ
أَوَّلِ آذَارٍ إِذَا جَعَلْتَهُ * لَبْرَمَهَاتٍ خَامِسًا وَجَدْتَهُ

أَوَّلُ نِسَانٍ لِدَى التَّجْرِيدِ * السَّادِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ بَرْمُودِ
وَمِثْلُهُ أَبَارُ مَعَ بَسَنَسِ * وَاحِدَةٌ مَقْرُونَةٌ بِخَمْسِ
أَمَّا حَزِيرَانُ فَيَحْسِبُونَهُ * أَوَّلُهُ السَّابِعُ مِنْ بُوْنَهُ
كَذَلِكَ السَّابِعُ مِنْ أَيْبِ * أَوَّلُ تَمَّوْزٍ بَلَا تَكْذِيبِ
أَوَّلُ آبٍ عِنْدَ مَنْ يَحْصِلُ * ثَامِنُ مَسْرَى ذَاكَ مَا لَا يَجْهَلُ

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة في بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر السرياني والحرف الأخير للشهر القبطي وما بينهما لعدد الأيام التي إذا مضت من ذلك الشهر القبطي دخل ذلك الشهر السرياني وهو :

أَدَّتْ تَدْبُ تَهْ كَهْكَ كُوطْ أَرَا * أَهْبُ نُوبُ أُوْبُ حَزْبُ تَرَا أَحْمُ
فالألف من أدت إشارة لأيلول من شهور السريان، وهو آخر شهورهم، والهاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أول شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففي الرابع من توت يدخل أيلول، والهاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففي الرابع من بابه يدخل تشرين الأول، والهاء من ته إشارة لتشرين الثاني، والهاء الأخيرة إشارة لهاتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففي الخامس من هاتور يدخل تشرين الثاني، والكاف من أول من كهك إشارة لكانون الأول والكاف الأخيرة إشارة لكيمك والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من كيمك يدخل كانون الأول، والكاف من كوط إشارة لكانون الثاني، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بستة، ففي السادس من طوبه يدخل كانون الثاني، والألف الأولى من أزا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والراي بينهما بسبعة، ففي السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من برمهات يدخل آذار، والتون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من برموده يدخل نيسان ، والألف من أوب إشارة لآيار ، والباء إشارة لبشنس ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من شنس يدخل آيار ، والحاء من حزب إشارة لحزيران ، والباء إشارة لبؤنه ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من بؤنه يدخل حزيران ، والتاء من ترأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأبيب ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من أبيب يدخل تموز ، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرى ، والحاء بينهما بثمانية ، ففي الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسب لأغسطس ملك الروم) وهو قيصر الأول ، فأثنا عشر شهرا ، بعضها ثلاثون يوما ، وبعضها زائد على الثلاثين ، وبعضها ناقص عنها كما في شهور السريان ، وهي مطابقة لشهور السريان في العدد ، مخالفة لها في الأسماء والترتيب . الشهر الأول ينير ، ويوافق كانون الثاني من شهور السريان ، وهو الرابع من شهورهم ، وفي أول يوم منه يكون القلداس ، ويوقد أهل الشام في ليلته نيرانا عظيمة ، لاسيا مدينة أنطاكية ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم ، وسائر بلاد النصراني . الشهر الثاني فبراير ، ويوافق شباط من شهور السريان ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس ، ويوافق آذار من شهور السريان ، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل ، ويوافق نيسان من شهور السريان ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايو ، ويوافق آيار من شهور السريان ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه ، ويوافق حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليه ، ويوافق تموز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافق آب من شهور السريان ، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتبر ، ويوافق أيلول من شهور

السريان ، وهو الثاني عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ويوافقه تشرين الأول من شهور السريان ، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادي عشر نوفمبر ، ويوافقه تشرين الثاني من شهور السريان ، وهو الثاني من شهورهم . الشهر الثاني عشر دجنبر ، ويوافقه كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشوري فقال :

يَسِيرُ قَبْرِ مَارَسٍ لِلرُّومِ * أBRIL مائة خامس المعلوم
يُنْهَ وَيُلهِ ثُمَّ آغشت شتبر * أكتوبر نوفمبر دجنبر

الطرف الثالث

(في السنين : وفيه ثلاث حمل)

الجملة الأولى

(في مدلول السنة والعام)

يقال : السنة ، والعام ، والحول ، وقد نطق القراء بالاسماء الثلاثة قال تعالى :
﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلَفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا ﴾ فاتى بذكر السنة والعام في آية واحدة ،
وقال جل وعز : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وقد تختص السنة
بالجذب والعام بالخضب ، وبذلك ورد القراء الكريم في بعض الآيات قال تعالى :
﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾ فعبر بالعام عن الخضب
وقال جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبر
بالسنين عن الجذب . على أنه قد وقع التعبير بالسنين عن الخضب أيضا في قوله
تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول
فإنه يقع على الخضب والجذب جميعا .

الجملة الثانية

(في حقيقة السنة، وهي على قسمين : طبيعية وأصلاحية كما تقدم في الشهور)

القسم الأول

(السنة الطبيعية : وهي القمرية)

وأولها استملال القمر في غرة المحرم، وآخرها سَلَخُ ذِي الْحِجَّةِ من تلك السنة، وهي اثنا عشر شهراً هلالياً قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوماً وخمسة وسدس يوم تقريباً، ويجتمع من هذا الخمس والسدس يوم في كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذي اجتمع شيء، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه في السنة السادسة يوم واحد، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصلاً بأحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين سنة، وتسمى تلك السنين بكائس العرب.

قال السهيلي: كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً حتى يُلَوِّزَ الدَّوْرُ إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته، فلما كانت سنة حُجَّةِ الْوَدَاعِ : وهي سنة تسع من الهجرة، عاد الحج إلى وقته اتفاقاً في ذِي الْحِجَّةِ كما وُضِعَ أولاً فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحج، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ: "إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ"، بمعنى أن الحج قد عاد في ذِي الْحِجَّةِ. وفي بعض التعاليق أن سني العرب كانت موافقةً لِسِنِي الْفُرْسِ في الدخول والأَسْلَاحِ فحدث في أحوالهم انتقالاتٌ فسَدَ عليهم بها الكِبْسُ في أول السنة السادسة من ملك أغيطش، وذلك بعد ملك ذِي الْقَرْنَيْنِ بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوماً فسَنُوا كِبْسَ

الربع من ذلك اليوم في كل سنة فصارت سنينهم بعد ذلك الوقت محفوظةً المواقيت .
وقيل لم تزل العرب في جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تنسأ
سينيا إلى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادت العرب أن يكون حجهم في أخصب
وقت من السنة ، وأسهل زمان للتردد بالتجارة فعملوا الكبس من اليهود والله أعلم
أي ذلك كان .

القسم الثاني

(الأصلاحية : وهي الشمسية)

وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت عدم
دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وإما متفرقة وسمتها
سنيئاً ، بحسب ما اصطاحوا عليه كما ستقف عليه في مصطلح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعدد أيامها عند جميع الطوائف : من القبط ، والفرس ، والسريان ، والروم ، وغيرهم
ثلثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام
وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حدّاق المفسرين في قوله
تعالى ﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ : إنه إن حمل على السنين القمرية
فهو على ظاهره من العدد ، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائدة هي تفاوت
زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلثمائة سنة تسع سنين لا تُحِلُّ بالحساب أصلاً
قال صاحب "مناهج الفكر" ولذلك كانوا في صدر الإسلام يُسقطون عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنةً ويسمونها سنة الأزدلاف : لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال وإنما حملهم على ذلك
الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .
المصطلح الأول - مصطلح القبط ، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فإذا انقضت الاثنا عشر شهرا اضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة اضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كيسة في تلك السنة ، وبعض ظرفائهم يسمي الخمسة المزيدة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغشطش . وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى وستين سنة ويسقطونها من سنينهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية في الإقطاعات ، والزرع ، والخراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثاني - مصطلح الفرس ؛ وشهورهم كمشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع من شهورهم اضافوا إليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمى الفرس هذه الأيام الخمسة الاندركاه ؛ ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما في أيام الشهر ؛ ولما لم يجز في معتقدهم كبس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخرونه إلى أن يتم منه في مائة وعشرين سنة شهر كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التي يليق فيها بهرك ، قال المسعودي في "مروج الذهب" وإنما أخرؤا ذلك إلى مائة وعشرين سنة لأن أيامهم كانت سعوذا ونحوسا فكرهوا أن يكتسوا في كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السعوذ إلى أيام النحوس ، ولا يكون النيروز أول يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) في مروج الذهب - الهارك ، وفي الضوء - بهرك .

وعلى هذا المصطلح كان يُجْبَى الخراج للخلفاء وتُمشَى الأحوال الديوانية في بداية الأمر وعليه العمل في العراق وبلاد فارس إلى الآن .

المصطلح الثالث - مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تقدّم : من كونها تارة ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنما فعلوا ذلك حتى لا يلحقهم النسيء في شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة على شهور القبط والفُرس مُوزعة على رؤوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين : وهى تشرين الأول ، وكانون الأول ، وكانون الثانى ، وآذار ، وأيار ، وتموز ، وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام ، وهى نظير النسيء في سنة القبط والفُرس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية ، فإذا آنقضت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملقاة إلى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجعلونه نظير اليوم الذى كبسه القبط ويضيفونه إلى شباط ، فيصير تسعة وعشرين يوما .

المصطلح الرابع - مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قَرِيَّة كالعربية كما تقدّم فقد اضطُروا إلى أن تكون سنتهم شمسية : لأنهم أمروا في التوراة أن يكون عيد الفطر في زمان الفريخ فلم يتأت لهم ذلك حتى جعلوا سنينهم قسمين : الأول بشيطا ومعناه بسيطة وهى القمرية ، والثانى معبارت ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت أسم موضوع عندهم على الكامل ، فإنه لما كان في بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها باضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها حِسارين ومعناه ناقصة ، وهى التى يكون الشهر الثانى والثالث منها (وهما مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ،

والنوع الثانى شلايم ومعناه تامة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تاماً ، والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرها ناقص يتلوه تام ، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يميزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسع عشرة سنة سبع مرات ، ويسمّون الجملة مخزورا ومعناه الدور ، وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوها معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت ، كل ذلك حتى لا تخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أول سنتهم ، فإذا آتقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعملوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلح المنجّمين فالسنة عندهم من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الحمل إلى حلولها فى آخر نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الميزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السنبلة ، والأول هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كون الشمس فى نقطة ما من فلک البروج إلى عودها إلى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجند والمرترقة بالديار المصرية كانت أولا على هذا المصطلح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجملة الثالثة

(في فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مَهايِيع)

المَهايِيعُ الأول

(في الحكمة في تغيير الفصول الأربعة في السنة)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْفُصُولَ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ طِبَاعِ السَّنَةِ لِتَبَايُنِ مَصَالِحِ أَوْقَاتِهَا
حِكْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ بَطْلِمَيْوسُ : تَحْتَاجُ الْأَبْدَانُ إِلَى تَغْيِيرِ الْفُصُولِ ، فَالْشِّتَاءُ
لِلتَّجْمِيدِ ، وَالصَّيْفُ لِلتَّحْلِيلِ ، وَالْخَرِيفُ لِلتَّنْدْرِيجِ ، وَالرَّبِيعُ لِلتَّعْدِيلِ . وَعَلَى ذَلِكَ
يَقَالُ : إِنْ أَصْلَ وَضَعَ الْحَمَامُ أَرْبَعَةَ بَيْوتَ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ عَلَى التَّنْدْرِيجِ تَرْتِيبُهَا
عَلَى الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ .

المَهايِيعُ الثاني

(في كَيْفِيَّةِ انْقِسَامِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ إِلَى الْفُصُولِ)

وَأَعْلَمُ أَنَّ دَائِرَةَ مَنْطِقَةِ الْبُرُوجِ لَمَّا قَاطَعَتْ دَائِرَةَ مَعْدَلِ النَّهَارِ عَلَى تَقَطُّعَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ
مَالٍ عَنْهُمَا فِي جِهَتَيِ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ بِقَدَرٍ وَاحِدٍ فَالنَّقْطَةُ الَّتِي تَجُوزُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ
مِنْ نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ عَنْ مَعْدَلِ النَّهَارِ تَسْمَى نَقْطَةُ الْإِعْتِدَالِ الرَّبِيعِيِّ ،
وَهِيَ أَوَّلُ الْحَمَلِ ، وَالنَّقْطَةُ الَّتِي تَجُوزُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ تَسْمَى نَقْطَةُ الْإِعْتِدَالِ
الْخَرِيفِيِّ : وَهِيَ أَوَّلُ الْمِيزَانِ . وَيَتَوَهَّمُ فِي الْفَلَكَ دَائِرَةُ ثَلَاثَةِ مُعْتَزِّضَةٍ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى
الْجَنُوبِ تَمُرُّ عَلَى أَقْطَابِ تَقَابُلِ الدَّائِرَةِ الْمَخْطُوطَةِ عَلَى الْفَلَكَينِ تَقَطُّعُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ
فَلَكَ مَعْدَلِ النَّهَارِ وَفَلَكَ الْبُرُوجِ بِنِصْفَيْنِ ، فَوُجِبَ أَنْ يَكُونَ قِطْعُهَا لِفَلَكَ الْبُرُوجِ عَلَى

(١) لَعَلَّهُ مَالُ نِصْفِهَا فِي جِهَةِ الشَّمَالِ وَالْآخَرُ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ كَمَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْمُقَرَّرِ .

النقطتين اللتين هما في غاية الميل والبعد عن معدل النهار في جهتي الشمال والجنوب : فتسمى النقطة الشمالية نقطة المُنْقَلَب الصيفي : وهي أول السَّرَطَان ؛ وتسمى النقطة الجنوبية نقطة المُنْقَلَب الشتوي ، وهي أول الجَدْي . واختلاف طبائع الفصول عن حركة الشمس وتقلُّها في هذه النقط ، فإنها إذا تحركت من الحمل ، وهو أول البروج الشمالية أخذ الهواء في السُّخونة لقربها من سمت الرأس وتواتر الإسحان إلى أن تصل إلى أول السرطان ، وحينئذ يشتد الحر في السَّرَطَان والأسد إلى أن تصل إلى الميزان ، فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل ؛ ثم يأخذ الهواء في البرودة ويتواتر إلى أول الجَدْي ، وحينئذ يشتد البرد في الجَدْي والدلو لبعد الشمس عن سمت الرأس إلى أن تصل إلى الحمل فتعود الشمس إلى أول حركتها .

المهيع الثالث

(في ذكر الفصول ، وأزمنتها ، وطبائعها ، وما حصة كل فصل منها)

من البروج والمنازل ؛ وهي أربعة فصول)

الأول - فصل الربيع - وأبتدأه عند حُلُول الشمس برأس الحمل . وقد تقدّم ومدته أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوله حُلُول الشمس رأس الحمل ، وآخره عند قطعها بَرَج الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر ، والزُّهرة ؛ ومن المنازل السَّرَطَان ، والبُطَيْن ، والأثَرِيَا ، والدَّبَرَان ، والمَقْعة ، والمَنْعة ، والذَّراع بما في ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ؛ ومن الرياح الجنوب ؛ وطبعه حارٌّ رطب ؛ وله من السنن الطُّفُولِيَّة والحَدَاثَة ؛ ومن الأخلاط الدَّمُ ؛ ومن القوى الهاضمة . وفيه تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشَّاء ، فيطلع النبات ، وتزهر الأشجار وتورق ، ويهيج الحيوان للسَّفاد ، وتذوب الثلوج ،

وَتَبَعُ الْعُيُونُ ، وَتَسِيلُ الْأَوْدِيَةُ ، وَأَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزَيْنَتْ فَتَصِيرُ كَأَنَّهَا
عُرُوسٌ تَبَدَّتْ لُحْطَاهُمَا ، فِي مُصَبَّغَاتِ ثِيَابِهَا ، وَيُقَالُ : إِذَا نَزَلَتِ الشَّمْسُ رَأْسَ
الْجَمَلِ . تَصَرَّمُ الشِّتَاءُ ، وَتَنْقَسُ الرِّبْعُ ، وَأَخْتَالَتِ الْأَرْضُ فِي وَشْيِهَا الْبَدِيعُ ، وَتَبَرَّجَتْ
لِلنَّظَّارَةِ ، فِي مَعْرِضِ الْحُسْنِ وَالنَّضَارَةِ .

وَمِنْ كَلَامِ الْوَزِيرِ الْمَغْرِبِيِّ : لَوْ كَانَ زَمَنُ الرِّبْعِ شَخْصًا لَكَانَ مُقْبَلًا ، وَلَوْ أَنَّ الْأَيَّامَ
حَيَوَانَ لَكَانَ لَهَا حَلِيًا وَمُجَلَّلًا : لِأَنَّ الشَّمْسَ تَخْلُصُ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتِ حُوتِ السَّمَاءِ ،
خَلَّاصَ يُونُسَ مِنْ ظُلُمَاتِ حُوتِ الْمَاءِ ، فَإِذَا وَرَدَتِ الْحِلَّ وَافَتْ أَحَبَّ الْأَوْطَانِ
إِلَيْهَا ، وَأَعَزَّ أَمَاكِنَهَا عَلَيْهَا .

وَكَانَ عَبْدُوسُ الْخَزَاعِيُّ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ بِالرِّبْعِ وَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِأَنْوَارِهِ ،
وَلَا اسْتَرْوَحَ بِنَسِيمِ أَزْهَارِهِ ، فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ ، مُحْتَاجٌ إِلَى الْعِلَاجِ .

وَيُرْوَى عَنْ بَقْرَاطِ الْحَكِيمِ مِثْلُهُ ، وَفِيهِ بَدَلُ قَوْلِهِ "فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ" فَهُوَ عَدِيمُ
حِسْبٍ ، أَوْ سَقِيمُ نَفْسٍ . وَلِحَالَلَةِ مَحَلِّ هَذَا الْفَصْلِ فِي الْقُلُوبِ ، وَلِزَوَالِهِ مِنَ النُّفُوسِ
مَنْزِلَةَ الْكَعَابِ الْخُلُوبِ ، كَانَتِ الْمُلُوكُ إِذَا عَدِمَتْهُ اسْتَعْمَلَتْ مَا يُضَاهِي زَهْرَهُ مِنْ
الْبُسْطِ الْمَصْصُورَةِ الْمُنْقَشَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمَقْفُوفَةِ الْمَرْقُوشَةِ . وَقَدْ كَانَ لِأَنُوشِرْوَانَ بِسَاطُ
يُسَمِّيهِ بِسَاطُ الشِّتَاءِ مَرْصَعٌ بِأَزْرَقِ الْيَاقُوتِ وَالْجَوَاهِرِ وَأَصْفَرِهِ وَأَبْيَضِهِ وَأَحْمَرِهِ ،
وَقَدْ جَعَلَ أَخْضَرُهُ مَكَانَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، وَأَلْوَانَهُ بِمَوْضِعِ الزَّهْرِ وَالنَّوَارِ . وَلَمَّا أَخَذَ
هَذَا الْبِسَاطُ فِي خِلَافَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَاقِعَةِ الْقَادِسِيَّةِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ فِيمَا
أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : "إِنَّ أُمَّةً آدَتْ هَذَا إِلَى أَمِيرِهَا لِأَمِينَةٍ" ثُمَّ
مَرَّقَهُ فَوَقَعَ مِنْهُ لَعْلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِطْعَةً فِي قِسْمِهِ مَقْدَارُهَا شَبْرٌ فِي شِبْرِ فَبَاعَهَا بِخَمْسَةِ
عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَقَدْ أَطْنَبَ النَّاسُ فِي وَصْفِ هَذَا الْفَصْلِ وَمَدَحِهِ ، وَأَتَوْا بِمَا يَقْصُرُ عَنْ شَرْحِهِ ،

وتغالى الشعراء فيه غاية التغالى ، وفصلوا أيامه ولياليه على الأيام والليالي ، وما أحلى قول البحرى ! :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّالِقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا * من الحُسنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدَّ نَبَهُ النَّوْزُورُ فِي غَسَقِ الدُّجَى * أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نَوْمًا
يَفْتَحُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّمَا * يَبْتُ حَدِيثًا بَيْنَهُنَّ مُكْتَمًا
وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ رِدَاءَهُ * كَمَا نَشَرْتُ ثَوْبًا عَلَيْهِ مُتَمَنَّا
أَحْلَ فَبَدَى لِلْعُيُونِ بَشَاشَةً * وَكَانَ قَدَى الْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرِمًا
وَرَقَّ نَسِيمُ الْجَوِّ حَتَّى كَأَنَّمَا * يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْبَةِ نَعْمًا
وَأَحْلَى مِنْهُ قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعُلَوِيِّ :

أَوَمَا تَرَى الْأَيَّامَ كَيْفَ تَبَرَّجَتْ * وَرَبِيعَهَا وَالِ عَلَيْهَا قِيمٌ ؟
لَيْسَتْ بِهِنَّ الْأَرْضُ الْجَمَالَ فَحُسْنُهَا * مُتَازِرٌ بِبُرُودِهِ مُتَعَمِّمٌ
أَنْظُرْ إِلَى وَشْرِ الرِّيَاضِ كَأَنَّهُ * وَشَى تَنْشُرُهُ الْأَكْفُ يَنْمَمُ
وَالنُّورُ يَهْوِي كَالْعُقُودِ تَبَدَّدَتْ * وَالْوَرْدُ يَحْجُلُ وَالْأَفَاقِي تَبَسُّمُ
وَالطَّلُّ يَنْظُمُ فَوْقَهُنَّ لَآلِيًا * قَدْ زَانَ مِنْهُنَّ الْفَرَادَى النَّوْمُ
وَيَكَادُ يَذْرِى الدَّمْعُ نَرَجِسَهَا إِذَا * أَضْحَى وَيَقْطُرُ مِنْ شَقَائِقِهَا الدَّمُ

ومنها :

أَرْضٌ تُبَاهِيهَا السَّمَاءُ إِذَا دَجَا * لَيْلٌ وَلاَحَتْ فِي دَجَاهَا الْأَنْجُمُ
فَلِخُضْرَةِ الْجَوِّ أَخْضَارُ رِيَاضِهَا * وَلِزَهْرِهِ زَهْرُ وَنُورِ يَجْمُ
وَكَايَسُقُ سَنَا الْمَجَرَّةِ جَرَّهُ * وَادِ يَسُقُ الْأَرْضَ طَائِمَ مَقْعُ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّهْرُ إِذْ بَاهَتْ بِهِ * وَحَيًّا يَحُودُ بِهِ مِلْتُ مَرْهَمُ

وقول الآخر :

طَرَقَ الحَيَاءُ بِرِّهِ المَشْكُورِ * أهْلًا به مِنْ زَائِرٍ وَمَزُورٍ !
وَحَبَا الرِّيَاضَ غِلَالَةً مِنْ وَشْيِهِ * بَغْرَابِ التَّفْوِيفِ والتَّحْيِيرِ
وَأَعَارَهَا حَلِيًّا تَأْتِي الغَيْثُ فِي * تَرْصِيعِهِ بِجَوَاهِرِ المَنْشُورِ
بُورْدَ كُورْدِ البَاقُوتِ قَا * رَبِّ أَبْيَضًا كَمَصَاعِدِ الكَافُورِ
وَمُعْصَفِرِ شَرِيقِ وَأَصْفَرِ فَاقِعِ * فِي أَخْضَرِ كَالسُّنْدِسِ المَنْشُورِ
فَكَانَتْ أَرْزَقَهُ بَقَايَا إِثْمِيدٍ * فِي أَعْيُنِ مَكْحُولَةٍ بِفُتُورِ
كُلَّتْ صِفَاتُ الزَّهْرِ فِيهِ فَنَابَ عَمَّ * غَابَ مِنْ أَنْوَاعِهِ بِمَحْضُورِ

وقول الآخر :

اشْرَبْ هَنِئًا قَدْ أَتَاكَ زَمَانُ * مَتَعَطَّرٌ مَتَهَلَّلٌ تَسْوَانُ
فَالْأَرْضُ وَشْيٌ وَالنَّسِيمُ مَعْبَرٌ * وَالْمَاءُ رَاحٌ وَالطُّيُورُ قِيَانُ

الثاني - فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم
وآبَ تَدَاوُهُ إِذَا حَلَّتْ الشَّمْسُ رَأْسَ السَّرَطَانِ ، وَانْتَهَاؤُهُ إِذَا أَتَتْ عَلَى آخِرِ دَرَجَةٍ مِنَ
السُّنْبُلَةِ ؛ فَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْبُرُوجِ السَّرَطَانُ ، وَالْأُسْدُ ، وَالسِّنْبُلَةُ . وَهَذِهِ الْبُرُوجُ تَدُلُّ
عَلَى السُّكُونِ ، وَلَهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ الْمَرِيخُ وَالشَّمْسُ ؛ وَمِنَ الْمَنَازِلِ النَّتْرَةُ ، وَالطَّرْفُ ،
وَالْجُهْبَةُ ، وَالزُّبْرَةُ ، وَالصَّرْفَةُ ، وَالْعَوَاءُ ، وَالسَّهْمُ يُتَدَاخَلُ فِيهِ ؛ وَلَهُ مِنَ السَّاعَاتِ
الرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ ، وَمِنَ الرِّيَاحِ الصَّبَا ، وَطَبَعُهُ حَارٌّ يَابَسٌ ؛ وَلَهُ مِنَ السَّنِّ
الشَّبَابُ ؛ وَمِنَ الْأَخْلَاطِ الْمِرَّةُ الصَّفْرَاءُ ؛ وَمِنَ الْقُوَى الْقُوَّةُ النَّفْسِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ .
وَالْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَصْلِ وَغَرَاتٌ : وَهِيَ الْحُرُورُ ؛ مِنْهَا وَغَرَةُ الشَّهْرِى ، وَوَغَرَةُ
الْجُوزَاءِ ، وَوَغَرَةُ سُهَيْلٍ ، أَوْهَا أَقْوَاهَا حَرًّا ؛ يَقَالُ إِنْ الرَّجُلُ فِي هَذِهِ الْوَغَرَةِ يَعْطَشُ
بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْبَيْتِ ، وَإِذَا طَلَعَ سُهَيْلٌ ذَهَبَتِ الْوَغَرَاتُ ؛ وَتُسَمَّى الرِّيَاحُ الَّتِي فِي هَذِهِ

الْوَعْرَاتِ الْبَوَارِحَ ؛ سَمِيتَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ يَسَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا بَرَحَ الطَّيُّ إِذَا أَتَاكَ مِنْ يَسَارِكَ ؛ وَقَدْ أُولِعَ النَّاسُ بَيْنَ لَفْحَاتِ الْحَرِّ وَسُومِهِ ، وَأَتَوْا فِيهِ بِدَائِعَ تَقْلَعُ مِنْ قَلْبِ الصَّبِّ غَمَامَ غُومِهِ . وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : أَوْقَدْتَ الظَّهِيرَةَ نَارَهَا ، وَأَذَكْتَ أَوَارَهَا ، فَأَذَابَتْ دِمَاعَ الصَّبِّ ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ ؛ هَاجِرَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ الْعُشَّاقِ ، إِذَا أَشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ الْفِرَاقِ ؛ حَرَّتْهُرْبُ لَهُ الْحِرْبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَتَسْتَجِيرُ بِمَتْرَاكِ الرُّمُسِ ؛ لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشُ ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ نَلْجُ وَلَا خَيْشُ ؛ فَهُوَ كَالْقَلْبِ الْمَهْجُورِ ، أَوْ كَالنُّتُورِ الْمُسْجُورِ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمْ : وَهُوَ ذُو الرِّقَةِ حَرَّ هَاجِرَةٍ فَقَالَ :

وَهَاجِرَةٌ حَرَّتْهَا وَاقِدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِجِهَا حَاجِي
تَلَوْدُ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَاذَ الْغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ
وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حِرْبَاؤُهَا * كَمَا يَسْجُدُ الْقَسُّ لِلرَّاهِبِ
وَقَالَ سَوَّارُ بْنُ الْمُضَرِّسِ :

وَهَاجِرَةٌ تُشْتَوَى بِالسَّمُومِ * جَنَادِيهَا فِي رُءُوسِ الْأَكَمِ
إِذَا الْمَوْتُ أَخْطَأَ حِرْبَاءَهَا * رَمَى نَفْسَهُ بِالْعَمَى وَالصَّمَمِ
وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمُعَرِّي :

وَهَجِيرَةٌ كَالْهَجْرِ مَوْجُ سَرَايِهَا * كَالْبَحْرِ لَيْسَ لِمَائِهَا مِنْ طُحْلِبِ
وَإِخَى بِهِ الْحِرْبَاءُ عُودَى مَنِيرِ * لِلظُّهْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَحْطُبِ
وَقَالَ آخَرُ :

وَرَبَّ يَوْمٍ حَبْرُهُ مُنْضَجٌ * كَأَنَّهُ أَحْشَاءُ ظَمَانِ
كَأَنَّهَا الْأَرْضُ عَلَى رَصْفَةٍ * وَالْجَوُّ مُحْشَوُّ نِيرَانِ

وَبَالِغُ الْأَمِيرِ نَاصِرُ الدِّينِ بْنِ الْفَقَيْسِيِّ فَقَالَ مِنْ أَيْبَاتِ :
فِي زَمَانٍ يَكْشُوهُ الْوُجُوهَ بِحَرٍّ * وَيَذِيبُ الْجُسُومَ لَوْ كُنَّ صَخْرًا

لَا تَطِيرُ النُّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَتْ تَشْمُسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرَا
يَسْتَكِي الضَّبُّ مَا أَشْكَى الصَّبِّ فِيهِ * وَلِحَرْبَائِهِ إِلَى الظِّلِّ حَرَا
وَيَوُدُّ الغُصْنُ الرِّطِيبُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى
وقال أيضا يَصِفُ لَيْلَةَ شَدِيدَةِ الْحَرِّ

يَا لَيْلَةً بَتَّ بِهَا سَاهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَفَرِطِ الْأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِمٌ * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي اسْتِنَارُ
وَكَيْفَ لَا أُحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاوُهَا بِالشَّهْبِ تَرْمِي الْجَمَارِ

على أن أبا علي بن رَشِيقٍ قد فَضَّلَهُ على فصل الشتاء فقال :

فَصَلُ الشِّتَاءِ مُبِينٌ لَا خَفَاءَ بِهِ * وَالصَّيْفُ أَفْضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَ
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ إِنْ جَاءُوهُ نُسَاكَ
أَنْهَارُ نَحْمِرٍ وَأَطْيَارٌ وَفَاكِهَةٌ * مَا شِئْتُ مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا وَمِنْ ذَاكَ
فَقُلْ لِمَنْ قَالَ لَوْلَا ذَاكَ لَمْ يَكْ ذَا * إِذَا تَفَضَّلَ عَلَى أَخْرَاكَ دُنْيَاكَ
سَمَّ الشِّتَاءَ بَعْبَاسٍ تُصَبُّ غَرَضًا * مِنَ الصَّوَابِ وَسَمَّ الصَّيْفَ صَخَاكَ

الثالث - فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوله عند حُلُولِ الشمسِ رَأْسَ المِيزَانِ ؛ وذلك في الثامن عشر من تَوْتِ وإِذَا بَقِيَ مِنْ أَيْلُولِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ؛ وَآخِرُهُ إِذَا أَتَتْ الشَّمْسُ عَلَى آخِرِ دَرَجَةٍ مِنَ الْقَوْسِ ؛ فَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْبُرُوجِ الْمِيزَانُ وَالْعَقْرُبُ وَالْقَوْسُ ؛ وَهَذِهِ الْبُرُوجُ تَدُلُّ عَلَى الْحَرَكَةِ ؛ وَلَهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ زُحَلٌ ، وَمِنَ السَّاعَاتِ السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ . وَالطَّالِعُ فِيهِ مَعَ الْفَجْرِ مِنَ الْمَنَازِلِ الْغُفْرُ وَالزُّبَّانَانُ وَالْإِكْلِيلُ وَالْقَلْبُ وَالشُّوْلَةُ وَالنَّعَائِمُ وَالْبَلْدَةُ يَتَدَاخَلُ فِيهِ . وَهُوَ بَارِدٌ يَابَسٌ ، لَهُ مِنَ السَّنَنِ الْكُهُولَةُ ؛ تَهِيحُ فِيهِ الْمِرَّةُ السَّوْدَاءُ وَتَقْوَى فِيهِ الْقُوَّةُ الْمَاسِكَةُ ، وَتَهْبُّ فِيهِ الرِّيحُ الشَّمَالِيَّةُ ، وَفِيهِ يَبْرُدُ الْهَوَاءُ ، وَيَتَغَيَّرُ الزَّمَانُ ، وَتَنْصَرِمُ

النَّارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُمزَلُ البهائم، وتموتُ المَواتِمُ، وتَجَحَّرُ الحَشَرَاتُ،
ويطلب الطيرُ المواضعَ الدَّفِئَةَ، وتصيرُ الأرضُ كأنها كَهَلَةٌ مُدْرِةٌ. ويقال: فصل
الخریف ربيعُ النَّفسِ كما أن الربيعَ ربيعُ العین: فإنه ميقَاتُ الأقوات، وموَسِمُ الثَّارِ
وأوَانُ شَبَابِ الأشجارِ، وللنَّفوسِ في آثاره مَرَبَعٌ، ولِلْجُسُومِ بمواقع خيراتِه مستمتعٌ.
وقد وصفه الصَّابِي فقال "الخریف أصحُّ فصولِ السَّنةِ زمانًا، وأسهلُها أوَانًا، وهو
أحدُ الاعتدالينِ المتوسَّطينِ بَيْنَ الاَفتِلَاقَيْنِ، حينَ أبدتِ الأرضُ عن ثمرتها،
وصرَّحت عن زُبدتها، وأطلقت السماءَ حَوَافِلَ أنوائِها، وأذنتُ بَانسكابِ مائها،
وصارتِ المَواردُ، كَمَتونِ المَبَارِدِ، صفاءً من كَدَرِها، وتهذبًا من عَكَرِها، وأطرَادًا مع
نَفَحاتِ الهِواءِ، وحركاتِ الرِّيحِ الشَّجْواءِ، وآكُنتِ الماشيةُ وبرَّها القَشِيبَ،
والطائرُ ريشَه العَجِيبَ".

ومن كلامِ ابنِ شبل: كُلُّ ما يَظْهَرُ في الرِّبيعِ نُورًا، ففِي الخَريفِ نُجْتًا ثَمَارُهُ.
وقال أبو بكر الصنوبري:

ما قَضَى في الرِّبيعِ حَقَّ المَسَرِّ * تِ مُضِيعٌ لِحَقِّهَا في الخَريفِ
نَحْنُ مِنْهُ على تَلَقِّي شِتَاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو ودَاعَ مَصِيفِ
في قَمِيصٍ مِنَ الزَّمانِ رَقِيقٍ * وِرْدَاءٍ مِنَ الهِواءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ المَاءُ فِيهِ خَوْفًا إذا ما * لَمَسَتْهُ يَدُ النِّسَمِ الضَّعِيفِ
وقال ابن الرومي يصفه:

لَوْ لَا قَوَاكِهُ أَيْلُولٍ إذا اجْتَمَعَتْ * مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَرَقَّ الجُوءُ والمَاءُ
إذا لَمَّا حَفَلَتْ نَفْسِي إذا أَشَقَلْتُ * على هائلةِ الحَالِينِ غَبْرَاءُ
يا حَبْدًا لَيْلُ أَيْلُولٍ إذا بَرَدَتْ * فِيهِ مَضَاجِعُنَا والرِّيحُ شِجْواءُ !
ونَحَشَ القُرْفِيةِ الحِلْدَ والتَّائِمَتْ * مِنَ الضَّجِيعِينَ أَجْسامُ وأَحْشَاءُ

وَأَسْفَرَ الْقَمَرَ السَّارِيَ بِصَفْحِهِ * يَرَى لَهَا فِي صَفَاءِ الْمَاءِ لَأْلَاءُ
 بَلْ حَبْذَا نَفْحَةً مِنْ رِيحِهِ تَخَوَّأُ * يَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرِّيحَانِ أَنْبَاءُ
 قُلْ فِيهِ مَا شِئْتَ مِنْ فَضْلِ تَعَهُدِهِ * فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّ لَهِ بَيْضَاءُ
 وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصيف من أبيات :

طَابَ شَرْبُ الصَّبُوحِ فِي أَيْلُولٍ * بَرْدَ الظَّلِّ فِي الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
 وَخَبَتْ لَفْحَةُ الْهَوَا حَرَعَنَا * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ الطَّوِيلِ
 وَخَرَجْنَا مِنَ السَّمُومِ إِلَى بَرٍّ * دَسِيمٍ وَطِيبٍ ظِلِّ ظَائِلِ
 فَكَأَنَّا زِدَادُ قُرْبَا مِنَ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ شَارِقٍ وَأَصِيلِ
 وَوَجْهُهُ الْبَقَاعُ تَنْتَظِرُ الْغَيْثَ * أَنْ تَنْظَارَ الْحُبُّ رَدَّ الرُّسُولِ
 وقريب منه قول الآخر :

إِشْرَبَ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ فَقَدْ حَدَا * بِالصَّيْفِ لِلنَّدْمَانِ أُطِيبُ حَادٍ
 وَأَثْمَنًا بِاللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ * فَأَرْتَا حَتِ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَادِ
 وَافَاكَ بِالْأَنْدَاءِ قُدَامَ الْحَيَا * فَلَا أَرْضُ لِلْأَمْطَارِ فِي أَسْتِعْدَادِ
 كَمْ فِي ضَمَائِرِ تَرْبِيهَا مِنْ رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ بَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادٍ
 تَبَدُّو إِذَا جَاءَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِيعَادِ
 ومما يقرب منه قول جحظة البرمكي :

لَا تَصْنَعْ لِلْوَمِ إِنْ اللَّوَمَ تَضْلِيلُ * وَأَشْرَبَ فَنِي الشَّرْبِ لِلْأَحْزَانِ تَحْلِيلُ
 فَقَدْ مَضَى الْقَيْطُ وَاجْتَنَّتْ رَوَاحِلُهُ * وَطَابَتْ الرِّيحُ لِمَا آلَ أَيْلُولُ
 وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ بَيْتٌ يَشْتَكِي مَرَّهَا * إِلَّا وَنَظَرُهُ بِالطَّلِّ مَكْهُولُ

وبالغ بعضهم فسوى بينه وبين فصل الربيع فقال في ضمن تهنية لبعض إخوانه :

هَنَيْتَ إِقْبَالَ الْحَرِيرِ * وَفُزْتَ بِالْوَجْهِ الْوَضَّ

تَمَّ أَعِيدَ الْآ فِي الْكَمَا * لْ جَاءَ فِي خَلْقِ سَوَى
فَكَى الرَّيِّعَ بِحُسْنِهِ * وَنَسِيمَ رِيَّاهُ الدَّيْكَى
وَيَنْوَبُ وَرْدَ الرَّعْفَرَا * نِ لَهُ عَنِ الْوَرْدِ الْجَسَى

وأبلغ منه قول الآخر، يفضل على فصل الربيع الذى هو سيد الفصول ورئيسها :

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيفِ لَهْنُ فَخْرُ * عَلَى زَمَنِ الرَّيِّعِ وَأَى فَخْرُ
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدِ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وَعَقِيبَ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تذمه لاستيلاء المِزَّةِ السوداء فيه، ويقولون إنَّه واه ردى

مَتَى تَشَبَّثَ بِالْجَسَمِ لَا يُمْكِنُ تَلَافِيهِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

حَذْفِ التَّدَثُّرِ فِي الْخَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ وَنَسِيمُهُ خَطَافُ
يَجْرِى مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى زَمَاقِهَا * لَصَدِيقِهَا وَمِنَ الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع - فصل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوما وربيع يوم ونصف من يوم، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى ، وذلك فى الثامن عشر من كيهك وإذا بقى من كانون الأول ثمانية أيام ، وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من الحوت فيكون له من البروج الجدى والدلو والحوت ، وهذه البروج تدل على السكون ، والطالع فيه مع الفجر سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعد ، وسعد الأخية ، والفرغ المقدم والفرغ المؤخر ، والرشاء . فيه تهب رياح الدبور ، وهو بارد رطب . فيه يهيج البلغم ، وتضعف قوى الأبدان . له من السن الشيخوخة ومن القوى البدنية القوة الدافعة ، وفيه يشتد البرد ، ويحش الهواء ، ويتساقط ورق الشجر ، وتبحر الحيات ، وتكثر الأنواء ، ويظلم الجو وتصير الأرض كأنها عجوز هزومة ، قد دنا منها الموت . وله من الكواكب المشتري وعطارد . ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة . ويقال إذا حلت الشمس الجدى مد الشتاء رواقه ، وحل نطاقه ، ودبت

عقاربُ البردِ لاسِبه ، ونفعُ مدَّخرِ الكسبِ كالسِبه . وللبلغاءِ في وصفِ حالِ من
أظله ، ملحٌ تدفعُ عن المقرورِ متى استعدَّ بها طَلَه ووبَلَه .

فإن ذلك قول بعضهم يصف شدة البرد: ”بردٌ يغيِّرُ الألوان ، وينشِّفُ الأبدان ؛
ويجمِّدُ الرِّيقَ في الأشداق ، والدَّمعُ في الآفاق ؛ بردٌ حالٌ بين الكلبِ وهريه ،
والأسدِ وزئيره ، والطيرِ وصفيره ، والماءِ ونحريه“ .

ومن كلام الفاضل : ”في ليلة جَمَدِ نحرها ، ونَحَدِ جمرها ؛ إلى يومِ تَوَدَّ البَصَلَةَ لو
أزدادت قُصَا إلى قُصَا ، والشمسُ لو جَرَّتْ النارَ إلى قُرْصِها ؛ أخذه بعضهم فقال :

وَيَوْمَنَا أَرِيَا حُهُ قَرَّةٌ * نَحْمَشُ الْأَبْدَانَ مِنْ قُرْصِهَا
يَوْمَ تَوَدَّ الشَّمْسُ مِنْ بَرْدِهِ * لَوْ جَرَّتِ النَّارَ إِلَى قُرْصِهَا

ولأبن حكيما البغدادى :

إِلْبَسْ إِذَا قَدِمَ الشِّتَاءُ بُرُودًا * وَأَفْرِشْ عَلَى رَغَمِ الْحَصِيرِ لُبُودًا
الرِّيقُ فِي اللَّهَوَاتِ أَصْبَحَ جَامِدًا * والدَّمْعُ فِي الْآمَاقِ صَارَ بُرُودًا
وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْهَوَا * عَادَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودًا
وترى على بردِ المياهِ طيورَها * تختارُ حرَّ النارِ والسَّفُودَا
يا صاحِبَ الْعُودَيْنِ لَا تُهْمَلُهُمَا * حَرَّقْ لَنَا عُودًا وَحَرِّكْ عُودَا
لبعضهم :

شِتَاءٌ تَقْلُصُ الْأَشْدَاقُ مِنْهُ * وَبَرْدٌ يَجْعَلُ الشَّبَانَ شَيْبَا
وَأَرْضٌ تَزَلُّقُ الْأَقْدَامُ فِيهَا * فَاتَمَتْنِي بِهَا إِلَّا دَيْبَا

ومن كلام الزمخشري :

أَقْبَلَتْ يَا بَرْدُ بِبَرْدٍ أَجْرَدٍ * تَفْعَلُ بِالْأَوْجِهَةِ فَعْلَ الْمِرْدِ

أُظِلُّ فِي الْبَيْتِ كِمِثْلِ الْمُقْعَدِ * مُتَقِضًا تَحْتَ الْكِسَاءِ الْأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِي أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ * فَهَاتِ لِلْبَيْعَةِ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الحِصَال ، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ
قد صافَحَ خيشومه ذَنَبَهُ ، وأنكر البيتَ وطَنَه ، والتوى التَّوَاءَ الجُبَابَ ، وأستدار
استِدَارَةَ الجُبَابِ ، وجَلَدَه الجَلِيدَ ، وضربه الضَّرِبَ ، وصعد أنفاسَه الصَّعِيدَ ، فحمَاهُ
مُبَاحٌ ، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاحٌ .

ومن شعر الحماسة في وصف ليلة شديدة البرد :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ أُنْدَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يَلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا
وَلَأَبَى الْقَاسِمِ التَّنَوُّحَى :

وَلَيْلَةٌ تَرَكَ الْبَرْدُ الْبِلَادَ بِهَا * كَالْقَلْبِ أَسْعَرَ نَارًا فَهُوَ مَثْلُوجُ
فَإِنْ بَسَطْتَ يَدًا لَمْ تَبْسُطْ خَصْرًا * وَإِنْ ثَقُلَ فَيَقُولُ فِيهِ تَبْيِجُ
فَنَحْنُ مِنْهُ وَلَمْ نُحْرَسْ ذُووُ خَرَسٍ * وَنَحْنُ فِيهِ وَلَمْ نُفْلَجْ مَقَالِجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثيرا الضباب :

يَوْمٌ مِنَ الزَّمْهِرِيرِ مَقْرُورٌ * عَلَيْهِ جَبُّ السَّحَابِ مَزْرُورٌ
وَشَمْسُهُ حَرَّةٌ مُحْدَرَةٌ * لَيْسَ لَهَا مِنْ ضَبَابِهِ نُورٌ
كَأَنَّ الْجَوْ حَشَوْهُ إِبْرٌ * وَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوَارِيرُ

وحكى أن أعرابياً أشتد به البرد فأضاءت نَارُ فِدَانٍ مِنْهَا لِيَصْطَلَى ، وهو يقول :

اللهم لَا تَحْرِمْنِيهَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ! . أَخَذَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ وَهُوَ فِي غَايَةِ الْمِبَالَةِ :

أَيَارَبَّ إِنْ الْبَرْدَ أَصْبَحَ كَالْحَيَا * وَأَنْتَ بِحَالِي عَالِمٌ لَا تَعْلَمُ
فَإِنْ كُنْتُ يَوْمًا مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ * فَفِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمُ

وقد آعنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تغيب فيه
الهوام وتنجحر الحشرات، ويموت الذباب، ويهلك البعوض، ويبرد الماء، ويسخن
الجوف، ويطيب العناق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلد حمرة البيت .
وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركت مقدمة الخريف حميده * وبدا الشتاء جديده لا ينكر
مطر يروق الصحو منه وبعده * صحو يكاد من الغضارة يطر
غيثان : والأنواء غيث ظاهر * لك وجهه والصحو غيث مضمّر
وقال أبو الفتح كشاجم :

أذن الشتاء بلهوه المستقبل * فدنت أوائله بغيث مسبل
متكاثف الأنواء منغدي الحيا * هطل الندى هزج الرعود مجلجل
جاءت بعزل الجذب فيه فبشرت * بالخصب أنواء السماء الأعزل
وقد ولىع الناس بذكر الاعتداد لها قديما وحديثا .

قيل لأعرابي ما أعددت للبرد ؟ فقال طول الرعدة، وتقرّص القعدة، وذوب
المعدة . أخذه ابن سكرة، فقال :

قيل ما أعددت للبر * د وقد جاء بشده
قلت دراعة عري * تحتها جبة رعد

واعلم أن ما تقدم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف ، والطريق
المشهور . وقد ذكر الأبي في كتاب الدر أن العرب قسّمت السنة أربعة أجزاء فجعلوا
الجزء الأول الصّفرية ، وسمّوا مطره الوسمى ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو
السفلى ، وآخره سقوط الهقعة ، وجعلوا الجزء الثاني الشتاء ، وأوله سقوط الهقعة ،

وآخره سقوطُ الصَّرفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف ، وأوله سقوطُ العَواء ، وآخره سقوطُ الشَّوْلة . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظ ، وسموا مطَّره الخَرِيف ، وأوله سقوطُ النَّعائم ، وآخره سقوطُ عَمْرِقُوة الدَّلو العُلَيَّا .

وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب" طريقا آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء، ويأتي فيه الورد والكَّجَّة، والنَّور؛ ولا يعرفون الربيع غيره . والعرب تختلف في ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تُدرِك فيه الثَّمار، وهو الخريف ، وبعده فصلُ الشتاء ، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذي تسميه العامَّة الربيع ؛ ثم فصلُ القَيْظ : وهو الذي تسميه العامَّة الصيف ، ومنهم من يسمي الفصل الذي تُدرِك فيه الثَّمار : وهو الخريف الربيع الأوَّل ، ويسمى الفصل الذي يلي الشتاء وتأتي فيه الكَّجَّة والنَّور الربيع الثاني ؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع " .

وفي بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة ستة أزمان . الأوَّل الوَسْمِيَّ وحِصَّتُه من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثُلثا منزلة : وهى العَواء ، والسَّمَاك والغَفَر ، والزُّبَّانان ، وثُلثا الإكليل . الثانى الشتاء ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثُلثا منزلة : وهى ثُلثُ الإكليل ، والقلب ، والشَّوْلة ، والنَّعائم ، والبلْدة ، وثُلثُ الدَّاجح . الثالث الربيع ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثُلثا منزلة ، وهى ثُلثا الدَّاجح ، وبلْع ، والسَّعود ، والأخِيَّة ، والفرْغ المقدم . الرابع الصيف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثُلثا منزلة ، وهى الفرْغ المؤخَّر ، وبطن الحوت ، والشرطان ، والبُطَيْن ، وثُلثا الثَّريَّا . الخامس الحَمِيم ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثُلثا منزلة : وهى ثُلث الثَّريَّا ، والدَّبران ، والحقعة ، والهنعة ، والدَّرَاع وثُلث النثرة . السادس

الحريف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثاً منزلة : وهي ،
ثلاثا النثرة ، والطرف ، والجبهة ، والخرتان ، والصرفة .

والأوائل من علماء الطب يسمون السنة إلى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون
الشتاء والصيف أطول زماناً وأزيد مدّة من الربيع والحريف ، فيجعلون الشتاء
أربعة أشهر ، والصيف أربعة أشهر ، والربيع شهرين ، والحريف شهرين ، إذ كانا
متوسطين بين الحرّ والبرد وليس في مدتهما طول ولا في زمانهما اتساع .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْفُصُولِ عَلَى بَعْضٍ إِنَّمَا هُوَ أَقْوِيلُ الشُّعْرَاءِ
وَأَفَانِينُ الْأَدْبَاءِ ، تَفَنُّنًا فِي الْبَلَاغَةِ ، وَالْأَفَالُوَاضِعِ حَكِيمٍ جَعَلَ هَذِهِ الْفُصُولَ مُشْتَمِلَةً عَلَى
الْحَرِّ تَارَةً وَعَلَى الْبَرْدِ أُخْرَى لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ ، وَرَتَّبَهَا تَرْتِيبًا خَاصًّا عَلَى التَّدْرِيجِ ، يَفْهَمُ ذَلِكَ
أَهْلُ الْعُقُولِ وَأَرْبَابُ الْحِكْمَةِ ، جَلَّتْ صِنْعَتُهُ أَنْ تَكُونَ عَرِيَّةً عَنِ الْحِكْمَةِ أَوْ مَوْضُوعَةً
فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ
ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ :

الطرف الرابع

(في أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في أعياد المسلمين)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ وَجَاءَتْ بِهِ السَّنَّةُ عِيدَانِ : عِيدُ الْفِطْرِ ،
وعِيدُ الْأَضْحَى . والسبب في اتّخاذهما مارواه أبو داود في سنّنه عن أنس بن مالك
رضي الله عنه " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلِأَهْلِهَا يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ
فِيهِمَا ، فَقَالَ : مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ ؟ فَقَالُوا : نَحْنُ نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد بدلكم خيراً منهما يوم الأضحي، ويوم الفطر، فأول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة . وروى ابن بطيش في كتاب الأوائل أن أول عيد ضحى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين من الهجرة وخرج إلى المصلى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدان قد شرعا في سنة واحدة؛ نعم قد أبدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسموه عيد الغدير . وسبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه يوم غدير خم : وهو غدير على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق تصب فيه عين وحوله شجر كثير، وهي الغيبة التي تسمى نجماً . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل بالغدير وأتى بين الصحابة ولم يؤاخ بين علي وبين أحد منهم فرأى النبي صلى الله عليه وسلم منه أنكساراً فضمه إليه وقال "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي والتفت إلى أصحابه وقال من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وآل من وآله، وعاد من عاداه"، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة . والشيعة يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلون في صبحتها ركعتين قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الجديد، وعتق العبيد، وذبح الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل في الإكرام . والشعراء والمترسلون يهتئون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(في أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جداً حتى إن علي بن حمزة الأصهباني عمل فيها كتاباً ذكر فيه أسباب اتخاذهم لها، وسبب سلوكهم فيها، وقد اقتصرنا منها على المشهور الذي وليع الشعراء بذكره، وأعنى الأهرام بأمره، وهي سبعة أعياد .

العيد الأوّل النَّيروز - وهو تعريب نُوروز ، ويقال إن أوّل من اتخذهُ جم شاد أحد ملوك الطبقة الثانية من الفُرس ومعنى شاد الشُّعاع والضياء . وإن سبب اتّخاذهم لهذا اليوم عيداً أن الدّين كان قد فسد قبله ، فلما ملك جدّه وأظهره ، فسَمّى اليوم الذي ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفي بعض التعاليق أن جم شاد ملك الأقاليم السبعة والحقّ والإنس ، فأتخذ له عَجَلَةً رَكَبَهَا ، وكان أوّل يوم رَكَبَهَا فيه أوّل يوم من شهر افرودين ماه ، وكان مدّة ملكه لا يُريهم وجهه ، فلما رَكَبَهَا أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجمال وافراً ، فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً ، وسَمَّوه نوروزاً . ومن الفرس من يزعمُ أنه اليوم الذي خلق الله فيه النُّور ، وأنه كان معظماً قبل جم شاد . وبعضهم يزعمُ أنه أوّل الزمان الذي ابتدأ الفلك فيه بالدوران . ومدّته عندهم ستة أيام أوّلها اليوم الأوّل من شهر افرودين ماه الذي هو أوّل شهر ستهم . ويسمّون اليوم السادس النُّوروز الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس على طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع ظُرفاء خواصهم .

وحكى ابن المقفّع أنه كان من عاداتهم فيه أن يأتي الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله ، مليح الوجه ، فيقف على الباب حتّى يُصبح ، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ، ويقف حيث يراه ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما أسمك ؟ ولأى شيء وردت ؟ ومامعك ؟ فيقول : أنا المنصور ! وأسمي المبارك ! ومن قبل الله أقبلت ! والملك السعيد أردت ! وبالهناء والسلامة وردت ! ومعنى السّنة الجديدة ! ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من فِضة وعليه حنطة ، وشعير ، وجلبان ، وحمص ، وسمسم ، وأرز : من كل واحد سبع سنبلات ، وسبع حبات ، وقطعة سكر ، ودينار ودرهم جديدان ، فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدْخَل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة ، ثم الناس على طبقاتهم ؛ ثم يقدم للملك رغيف كبير من تلك الحبوب مصنوع موضوع في سلة ، فيأكل منه ويطعم من حضر ؛ ثم يقول : هذا يوم جديد ، من شهر جديد ، من عام جديد ، يحتاج أن يُجَدِّد فيه ما أخلق من الزمان ؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس : لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه دولته ، ويصلهم ، ويفترق عليهم ما وصل إليه من الهدايا .

وأما عوام الفرس فكانت عاداتهم فيه رفع النار في ليلته ، ورش الماء في صبيحته ؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويعا بذكره ، وإشهارا لأمره . وقالوا في رش الماء : إنما هو بمنزلة الشهرة لتطهير الأبدان مما أنضاف إليها من دخان النار الموقدة في ليلته . وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فيروز بن يزدجرد لما آستم سورجى ، وهى أصهبان القديمة لم تمطر سبع سنين في ملكه ؛ ثم مطرت في هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به ، فصار ذلك سنة عندهم في ذلك اليوم من كل عام ، وما أحلى قول بعضهم يخاطب من يهواه ، ويذكر ما يعتمد في التيروز من شب النيران وصب الأمواه :

كَيْفَ آتَيْتَ بِهَاجِكِ بِالنَّيْرُوزِ يَاسَكُنِي * وَكُلُّ مَا فِيهِ يَحْكِيَنِي وَأَحْكِي

فَنَارَةُ كُلِّهِيبِ النَّارِ فِي كَيْدِي * وَتَارَةُ كِتَوَالِي عَابِرِي فِيهِ

أَسَأَمْتَنِي فِيهِ يَأْسُوْلِي إِلَى وَصْبِ * فَكَيْفَ تُهْدِي إِلَى مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأول من رسم هدايا التيروز والمهرجان في الإسلام المجاج بن يوسف الثقفى ، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، واستمر المنع فيه إلى أن فتح باب

الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب فإنه أهدى فيه لأمون سَفَطَ ذهبٍ فيه قطعة عودٍ هنديٍّ في طوله وعرضه، وكتب معه : هذا يومُ جَرَتْ فيه العادة، بإتحاف العبيد السادة، وقد قلت :

عَلَى الْعَبْدِ حَقٌّ وَهُوَ لَا شَكَّ فَاعِلُهُ * وَإِنْ عَظُمَ الْمَوْلَى وَجَلَّتْ فَوَاضِلُهُ
أَلَمْ تَرَنَا نُهْدِي إِلَى اللَّهِ مَالَهُ * وَإِنْ كَانَ عَنْهُ ذَاغِيٌّ فَهُوَ قَابِلُهُ
فَلَوْ كَانَ يُهْدَى لِلْجَلِيلِ بِقَدْرِهِ * لَقَصَّرَ عَنْهُ الْبَحْرُ يَوْمًا وَسَاحِلُهُ
وَلَكِنَّا نُهْدِي إِلَى مَنْ نُجِلُّهُ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِنَا مَا يُشَاكِلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يومَ نِيروز: هذا يومٌ سَهَّلَتْ فيه السَّنةُ للعبيد الإهداءَ للملوك ، فتعلَّقتُ كُلُّ طائفةٍ من البرِّ بحسبِ القُدرةِ والهِمةِ ، ولم أجِد فيما أملك ما يفي بحَقِّك ، ووجدتُ تقريظك أبلغَ في أداء ما يجب لك ، ومن لم يُؤتَ في هديته ، إلا من جهةِ قُدْرته ، فلا طعنَ عليه .

هذا ما يتعلق بنِيروز الفُرس من ذكر الهدايا فيه ، وإيقادِ النار ، ورشِّ الماء ، وأول من سنَّه . وأما تعلُّقه بالخراج فسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على جباية الخراج في فنِّ الدِّيونة .

العيد الثاني من أعياد الفُرس المَهْرَجَانُ - وهو في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السُّريان ، وفي السادس عشر من مَهْرماه من شهور الفُرس ، وفي التاسع من أبيب من شُهور القبط ؛ وبينه وبين النيروز مائةٌ وسبعةٌ وستون يومًا ، وهذا الأوَانُ في وسط زمان الخريف ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أَحِبُّ الْمَهْرَجَانَ : لِأَنَّ فِيهِ * سُرُورًا لِلْمُلُوكِ ذَوِي السَّنَاءِ
وَبَابًا لِلْهَوَايَا إِلَى أَوَانٍ * تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

ومدته ستة أيام، ويُسمى اليوم السادس منه المهرجان الاكبر، كما يُسمى اليوم السادس من أيام التيروز عندهم التيروز الاكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمون شهورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يُسمى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف، فمات في النصف من هذا الشهر، وهو مهرماه، فسمى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبت، والفرس تقدم في لغتها ما تؤخره العرب في كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولى . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح، وفى ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إذا ما تحقّق بالمهرجا * ن من ليس يعرف معناه غاظا

ومعناه أن غلب الفرس فيه * فسّموه للروح فيه حفاظا

ويقال إنما ظهر فى عهد افريدون الملك، ومعنى هذا الاسم إدراك الثأر، وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضحّاك، فانه كان أفسد دين المجوسية وخرج على جم شاد فأخذ منه الملك وقتله، فلما غلبه افريدون قتله بجبل دُنباوند، وأعاد المجوسية إلى ما كانت، فاتخذ الفرس يوم قتله عيداً، وسمّوه مهرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعض الفرس أن الضحّاك هو الثرود وافرديون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المهرجان هو اليوم الذى عُقد فيه التاج على رأس اردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية . وكان مذهب الفرس فى المهرجان أن يدهن ملكهم بدهن البان تبركا، وكذلك العوام، وأن يلبس القصب والوشى، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها، ويكون أول من يدخل إليه الموبدان بطبق فيه

أُتْرَجَةٌ ، وَقِطْعَةٌ سُكَّرٌ ، وَنَبَقٌ ، وَسَفَرَجَلٌ ، وَعَنْابٌ ، وَتَفَّاحٌ ، وَعِنَقُودٌ عِنَبٌ أبيضٌ ،
وسبع طاقَاتٍ آسٍ ، قد زَمَزَمَ عليها ، ثم تدخُلُ الناسُ على طبقاتهم بمثل ذلك ، وربما
كانوا يذهبون إلى تفضيله على التيروز ، وفيه يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَخَا الْفُرْسِ إِنْ الْفُرسَ تَعَلَّمُ إِنَّهُ * لِأَطْيَبِ مِنْ نِيرُوزِهَا مَهْرَجَانِهَا
لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يَغْمُ هَوَاوُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسُرُّ زَمَانُهَا

قال المسعودي : وأهل المروءات بالعراق وغيرها من مَدُن العجم يجعلون هذا
اليوم أَوَّلَ يوم من الشتاء فيغيرون فيه الفُرس والآلات ، وكثيرا من الملابس .

العيد الثالث السَّدَق - ويسمى أبان روز ، ويعمل في ليلة الحادى عشر من شهر
بهمن ماه من شهور الفُرس ، وسُنَّتْهم فيه إيقاد النيران بسائر الأدهان والولوع بها حتى
إنهم يلقون فيها سائر الحُبوب ؛ ويقال إن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأول ،
وهو عندهم كيومرت لما كل له من ولده مائة ولد زوج الذكور بالإناث ، وصنع لهم
عُرْسًا أكثر فيه وقود النيران ، ووافق ذلك الليلة المذكورة فاستسنت ذلك الفُرس
بعده . وقد وليت الشعراء بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرزي يصف سَدَقًا

عمله السلطان ملكشاه بدجلة ، أشعل فيه النيران والشموع في السَّارِيَّات من أبيات :

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعُشَّاقِ مُضَرَمَةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ
نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ وَأَشْتَبَهَتْ * بِهُدُفَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَقِ
وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا الْبَدْرَ وَأَصْطَاحَا * عَلَى الْكَوَكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِّ
مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطًا مِنْ جَوَاهِرِهَا * مَا بَيْنَ مَجْتَمِعِ وَارٍ وَمُفْتَرِقِ
مِثْلُ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَّهَا نَزَلَتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِسَلَا رَجْمٍ وَلَا حَرَقِ
أَعْجَبَ نِينَارٍ وَرِضْوَانٍ يَسْعَرُهَا * وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرَقِ
فِي مَجْلِسٍ صَحَّكَ رَوْضُ الْحَنَانِ لَهُ * لَمَّا جَلَا ثَغْرُهُ عَنْ وَاضِحٍ يَقِقْ

(١) كذا في نهاية الأرب أيضا والظاهر السَّارِيَّات وهو اسم لنوع من السفن .

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :
 لَيْلَتُنَا حُسْنُهَا عَجِيبٌ * بالقَصْفِ والتَّيِّهِ قد تَحَقَّقَ
 لِنَارِهَا فِي السَّمَاءِ لِسَانٌ * عن نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ
 وَالْجَوْثُ مِنْهَا قَدْ صَارَ جَمْرًا * وَالنَّجْمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يُحْرِقُ
 وَدِجَالَةُ أُضْرِمَتْ حَرِيقًا * بِأُلْفِ نَارٍ وَأُلْفِ زَوْرِ
 فَمَا وَهَّاءُ كَبْلُهُ حَمِيمٌ * قَدْ فَارَ مِمَّا عَلَى وَبَقِيَ

وقال عبد العزيز بن نباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَذْكَى الْهَمَامُ بِأَرْضِهِ * مُشَهَّرَةً يَتَنَبَّأُهَا الْفَخْرُ صَالِيًا
 تَغِيبُ النُّجُومُ الرَّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِهَا * وَتَحْسُدُ أَيَّامُ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا
 قِلَادَةُ مُجْدٍ أَغْفَلَ الدَّهْرُ نَظْمَهَا * عَلَيْهِ وَقَدْ السَّيْنِ الْخَوَالِيَا ^(١)
 هِيَ اللَّيْلَةُ الْغَرَاءُ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ * تُغَادِرُ جَيْدَ الدَّهْرِ أَبْلَجَ حَالِيَا

العيد الرابع الشركان - وهو في الثالث عشر من تيرماه من شهور الفرس ، زعموا
 أن أرس رمى سهمه لما وقعت المصالحة بين منوچهر وقراسياب التركي من المملكة
 على رمية سهم ، فأمتد السهم من جبال طبرستان إلى أعلى طخارستان .

العيد الخامس أيام الفردجان - وهي خمسة أيام ؛ أولها السادس والعشرون من
 أبان ماه من شهور الفرس ، ومعناه تربية الروح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمة
 وأشربة لأرواح موتاهم ، ويزعمون أنها تغتذى بها .

العيد السادس ركوب الكوبج - ويعمل في أول يوم من ادرماه من شهور
 الفرس ، وسنتهم فيه أن يركب في كل بلد من بلادهم رجل كوبج ، قد أعد لما يصنع

(١) كذا في الاصل . ولعله وقد بد الخ

به بأكل الأطعمة الحارة كالخوز، والثوم، واللحم السمين ونحوها، وبشرب الشراب
الصّرف أيّما قبل حلول الشهر، فإذا حلّ الشهر لبس غلالة سابورية، وركب بقرة
وأخذ على يده غرابا، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء، ويضربونه بالثلج، ويروحون
عليه بالمرّاح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحرّ الحرّ، يفعل ذلك سبعة أيام،
ومعه أوباش الناس ينهون ما يجذون من الأمتعة في الحوانيت، وللسلطان عليهم
مال، فإذا وجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا .

قال المسعودى : ولا يُعرف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم، وأهل الشام
والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفعل كان يتداوله أهل
كل بيت منهم كوسج، وحكى الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك
أن كوسجا كان يشرب في هذه الأيام الدواء، ويطلي بدنه فيها فغلب عليها، وفي ذلك
يقول الشاعر :

قَدْ رَكِبَ الْكُوسَجُ يَصَاحُ * فَانْزِلْ عَلَى الزَّهْرَةِ وَالرَّاحِ

وَأَنْعَمَ بِأَدْرَمَاهُ عَيْشًا وَخُدَّ * مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ بِأَفْيَاحِ

والسنة عندهم منقسمة على أقسام، في أول كل قسم منها خمسة أيام تسمى
الكنبهارات، زعم زرادشت أن في كل يوم خلق الله تعالى نوعا من الخليفة فهم
يتخذونها أعيادا لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة - ويتخذونه في يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وستتهم
فيه أنهم يأكلون فيه البهمن الأبيض باللبن الحامض على أنه ينفع الحفظ، ورؤساء
نُراسان يعملون فيه الدّعوات على طعام يطبخون فيه كلّ حبّ ما كُولٍ ولحم حيوانٍ
يؤكل، ويحضر ما يوجد في ذلك الوقت من بقل أو نبات .

فهذه أعياد الفرس المشهورة الدائرة بين عاقمتهم وخاصتهم .

الجملة الثالثة

(في أعياد القبط)

وأعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا على ذكر تفصيلها سردا في خلال شهور القبط مع ذكر غيرها، وأوردنا كل عيد منها في يومه من شهور القبط، وربما ذكرنا بعضها أيضا في شهور السريان والروم، على أن منها ما لا يتعلق بوقت مقيد كالْفِصْح الأكبر عندهم، فإنه متعلق بفطرهم من صومهم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقت معين، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا على ما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى، ونحن نقتصر في هذا الفصل على المشهور من أعيادهم دون غيره، ونبين أوقاتها، ونشرح أسبابها. وهى أربعة عشر عيداً. وهى على ضربين : كبار وصغار .

الضرب الأول

(الكبار : وهى سبعة)

العيد الأول البشارة، ويعنون به إشارة غبريال، (وهو جبريل على زعمهم) لمريم عليها السلام بميلاد عيسى صلوات الله عليه، يعملونه في التاسع والعشرين من برمهاث من شهور القبط .

الثانى الزيتونة، وهو عيد الشعانين، وتفسيره بالعريّة التّسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم . وستّم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور، (وهو الحمار) فى القدّس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

الثالث الفصح، وهو العيد الكبير عندهم، يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصّلوات بثلاثة أيام، وخَلَص آدم من

الجحيم ، وأقام في الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء .
قاتلهم الله أنى يؤفكون .

الرابع خميس الأربعين ، ويسميه الشاميون السَّلاق : وهو الثاني والأربعون من
الْفِطْر ، يقولون إن المسيح عليه السلام تسلَّق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام ،
ووعدهم بارسال الفارقليط ، وهو روح القدس عندهم .

الخامس عيد الخميس ، وهو عيد العنصرة يعملونه بعد خمسين يوما من القيام ؛
وهو في السادس والعشرين من بشنس ، ويقولون إن روح القدس حَلَّتْ في التلاميذ
وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلّموا بجميع الألسنة ، وذهب كل واحد منهم إلى بلاد
لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

السادس الميلاد ، وهو اليوم الذي يقولون إن المسيح ولد فيه بيت لحم (قرية من
أعمال فلسطين) ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهور القبط ، وهم
يقولون إنه ولد يوم الاثنين ، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون فيها
المصابيح بالكنايس ويزينونها .

السابع الغطّاس ، يعملونه في الحادى عشر من طوبه ، من شهور القبط . يقولون
إن يحيى بن زكريّا عليه السلام وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام بمحيرة
الأردن ، وأن عيسى لما خرج من الماء أتصل به روح القدس على هيئة حمامة ،
والنصارى يغمسون أولادهم فيه في الماء على أنه يقع في شدة البرد ، إلا أن عقبه
يحيى الوقت ، يقول المصريون : غطّستم صيفتم ، ونورزتم شتّيتم .

الضرب الثاني

(من أعياد القبط الأعياد الصغار . وهي سبعة أيام)

الأول الخِتَان ، ويعملونه في سادس بئونة من شهر القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِنَ في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثاني الأربعون ، يعملونه في الثامن من شهر أمشير من شهر القبط ، ويقولون : إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوما من ميلاده الهيكل وبارك عليه ؛ تلك عقول أضلّها باريها ، وإلا فإين مقام الكاهن من مقام عيسى عليه السلام . وهو روح الله وكلمته .

الثالث خميس العهد ، يعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام ، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملأوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل جميع النصارى الحاضرين ، ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه في هذا اليوم يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، والعاقبة من النصارى يُسمّون هذا الخميس خميس العدس ؛ وهم يطبخون فيه العدس على ألوان .

الرابع سبت الثور ، وهو قبل الفصح بيوم . يقولون : إن الثور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخيلاتهم النيرنجية التي يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها عقول عوامهم الضعيفة . وذلك أنهم يعلّقون القناديل في بيت المذبح ويتخيّلون في إيصال النار إليها بأن يمدّوا على جميعها شريطا من حديد في غاية الدقة مدهونا بدهن البلسان ودهن الزنبق ، فإذا صلّوا وجاء وقت الزوال فتحو المذبح فتدخل الناس إليه ، وقد آشتلت فيه الشموع ويتوصّل بعض القوم إلى أن يعلّق

النار بطرف الشريط الحديد فتسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دُهن البَاسَان عُلُوق النار فيه بُسرعة مع أدنى ملامسة ، فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل ، فالحمد لله على الإسلام .

الخامس حدّ الحُدُود ، وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، يعملونه أول أحد بعد الفطر : لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم ، وفيه يحدّدون الآلات وأثاث البيوت ، ومنه يأخذون في الاستعداد للعاملات والأمور الدنيوية .

السادس التجلّي ، ويعملونه في الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِع في هذا اليوم ، وتمنّوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا وموسى عليهما السلام ، فأحضّرهما لهم بمصلّى بيت المقدس ثم صعد وصعدا .

السابع عيد الصليب ، وهو في السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارى يقولون : إن قُسْطَطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية وبنى كنيسة قُسْطَطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبرجان فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده ، فهم أن يصانعهم ويفرض لهم عليه إتاوة في كلّ عام ليكفّوا عنه ، فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ، ومعها أعلام عليها صُلبان فخاربت البرجان فانهزموا ، فلما أصبح عمل أعلاما وصور فيها صُلبانا ثم قاتل بها البرجان فهزمهم ، فسأل من كان في بلده من التجّار هل يعرفون فيما طافوه من البلاد دينا هذا زيّه ؟ فقالوا له دين النصرانية وإنه في بلد القدس والخليل من أرض الشام . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم إليه ، وأن يعضوا شعورهم ويحاثوا لحاهم . وإنما فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البرجان جنس من الروم (قاموس) .

أَنْ رُسُلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا قَدْ وَرَدُوا عَلَى الْيُونَانِ قَبْلُ بِأَمْرِهِمْ بِالتَّعَبُّدِ بِدِينِ
النَّصْرَانِيَّةِ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَمَثَلُوا بِهِمْ هَذِهِ الْمُثَلَّةَ نَكَالًا لَهُمْ فَفَعَلُوا ذَلِكَ تَأْسِيًّا بِهِمْ .
وَلَمَّا تَنَصَّرَ قُسْطَنْطِينَ خَرَجَتْ أُمُّهُ هِيلَانِي إِلَى الشَّامِ فَبَنَتْ بِهِ الْكَائِسَ ، وَسَارَتْ
إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَطَلَبَتْ الْخَشَبَةَ الَّتِي زَعَمَتِ النَّصَارَى أَنَّ الْمَسِيحَ صَلَّبَ عَلَيْهَا
فَحُمِلَتْ إِلَيْهَا فَغَسَّتْهَا بِالذَّهَبِ ، وَاتَّخَذَتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا .

وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَفْصَلًا فِي تَرْجُمَةِ قُسْطَنْطِينَ فِي خَاتَمَةِ الْكِتَابِ عِنْدَ
ذِكْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَفِيمَا ذَكَرْنَا هُنَا مَقْنَعٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَدْ صَارَ مِنْ أَعْيَادِهِمُ الْمَشْهُورَةِ بِالْدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْيَرُوزُ ، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ
سَنَتِهِمْ ؛ وَإِنْ لَفْظَةُ الْيَرُوزِ فَارْسِيَّةٌ مَعْرَبَةٌ ، وَكَأَنَّ الْقَبْطَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اتَّخَذُوا ذَلِكَ عَلَى
طَرِيقَةِ الْفُرْسِ وَاسْتَعَارُوا اسْمَهُ مِنْهُمْ فَسَمَوْا الْيَوْمَ الْأَوَّلَ مِنْ سَنَتِهِمْ أَيْضًا يَرُوزًا
وَجَعَلُوهُ عِيدًا .

قَالَ فِي "مَنَاجِجِ الْفِكْرِ" وَهُمْ يَظْهَرُونَ فِيهِ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَإِيقَادِ الْتِيرَانِ ،
وَصَبِّ الْأَمْوَاهِ أَضْعَافَ مَا يَفْعَلُهُ الْفُرْسُ ؛ وَيُشَارِكُهُمْ فِيهِ الْعَوَامُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَأَهْلُ الشَّامِ يَعْمَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ سَنَتِهِمْ أَيْضًا ، وَهُوَ أَوَّلُ
يَوْمٍ مِنْ يَنِينٍ مِنْ شَهْرِ الرُّومِ وَيُؤَافِقُهُ كَانُونُ الثَّانِي : وَهُوَ الشَّهْرُ الرَّابِعُ مِنْ شَهْرِ
السُّرْيَانِ ؛ وَذَلِكَ فِي السَّادِسِ مِنْ طُوبَةِ مِنْ شَهْرِ الْقَبْطِ ، وَيُسَمُّونَهُ الْقَلَنْدَاسَ ،
إِلَّا أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ يَزِيدُونَ فِيهِ التَّصَافُعَ بِالْأَنْطَاعِ ، وَرَبْمَا حَمَلُهُمْ تَرَكُّ الْأَحْتِشَامِ عَلَى
أَنْ يَقْبِجُوا عَلَى الرَّجْلِ الْمُطَاعِ ؛ وَلَوْلَا أَنَّ وِلَاةَ الْأَمْرِ يَدْعُوْنَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ،
لَمْنَعُوا الطَّرِيقَ مِنَ السَّالِكِ ؛ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مَنْ ظَفَرُوا بِهِ لَا يَتْرَكُونَهُ إِلَّا بِمَا يُرْضِيهِمْ .
وَالَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ بِالْدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى آخِرِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ أَنَّهُمْ

يقتصرون على رَشِّ الأمواه والتَّصافُع، وتركِ الاحتشام دون إيقاد النيران، إلا من يفعل ذلك من النصارى في بيته أو خاصَّته .

ولهم أعياد ومواسم سوى ما تقدَّم ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط، وهى :

عيد سيغورس، وعيد متى الإنجيلي، وهما في الثاني من توت . عيد سمعان الحبيس؛ وهو في الرابع من توت . عيد ماما؛ وهو في الخامس من توت . عيد شعيا؛ وهو في السادس من توت . عيد ساويرس؛ وهو في السابع من توت . عيد موسى النبي عليه السلام؛ وهو في الثامن من توت . عيد توما التلميذ؛ وهو في التاسع من توت . وخروج نوح عليه السلام من السفينة، ومولد مريم عليها السلام، وهما في العاشر من توت . عيد باسيلوس، وهو في الحادى عشر من توت . عيد ميخائيل، وصوم جدليا؛ وهما في الثالث عشر من توت . عيد سمعان الحبيس، وعيد تادرس الشهيد؛ وهما في الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس؛ وهو في السادس عشر من توت . وصوم كبور؛ وهو في العشرين من توت . ونياحة أبى جرج؛ وهى في الثانى والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس؛ وهو في الثالث والعشرين من توت . عيد اسطأتوا، وأنتقال يوحنا؛ وهما في السابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون؛ وهو فى أول بابه . عيد سوسنان؛ وهو فى الثانى من بابه . عيد يعقوب بن حلفا؛ وهو فى الخامس من بابه . عيد أبو بولا؛ وهو فى السابع من بابه . عيد توما؛ وهو فى الثامن من بابه . عيد أبى مسرجة؛ وهو فى العاشر من بابه . عيد يعقوب؛ وهو فى الحادى عشر من بابه . وشهادة متى؛ وهى فى الثانى عشر من بابه . عيد الفُرات؛ وهو فى الثالث عشر من بابه .

وشهادة يوحنا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السيدة ؛ وهى فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لوقا ؛ وهى فى الثانى والعشرين من بابه . عيد أبى جرج ؛ وهى فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل ؛ وهى فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يعقوب ويوسف ؛ وهى فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار ؛ وهى فى السابع والعشرين من بابه . عيد مرقص ؛ وهى فى آخر يوم من بابه . عيد بطرس البطرک ؛ وهى فى أول يوم من هاتور . عيد زكريا ؛ وهى فى الرابع من هاتور . واجتماع التلاميذ ؛ وهى فى السادس من هاتور . وتكريز أبى جرج ؛ وهى فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهى فى الثامن من هاتور . وتذكار الثلاثمائة وثمانية عشر ؛ وهى فى التاسع من هاتور . ونيحة إسحاق ؛ وهى فى العاشر من هاتور . عيد ميكايل ؛ وهى فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهى فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول ؛ وهى فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسياس ؛ وهى فى العشرين من هاتور . عيد شمعون ؛ وهى فى الحادى والعشرين من هاتور . تذكار الشهداء ؛ وهى فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مرقوريوس ؛ وهى فى الرابع والعشرين من هاتور . عيد أبى مقورة ؛ وهى فى الخامس والعشرين من هاتور . عيد ادفانيوس ؛ وهى فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المقطع ؛ وهى فى السابع والعشرين من هاتور . عيد ياهور ؛ وهى فى الثانى من كيهك . عيد اندراس ؛ وهى فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهى فى الخامس من كيهك . عيد بزياره ، وهى فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهى فى الثامن من كيهك . عيد مارى نقولا ؛ وهى فى العاشر من كيهك . عيد سمعان ؛ وهى فى الرابع عشر من كيهك ونيحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ وصوم الميلاد ؛ وهى فى الثالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو في الثالث من طوبه . عيد يوحنا الإنجيلي ؛ وهو في الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو في السابع من طوبه . عيد الختان ؛ وهو في الثامن من طوبه . عيد إبراهيم ؛ وهو في التاسع من طوبه . وصوم الغطاس ؛ وأوله العاشر من طوبه . وصوم العذاري ؛ وهو في الثالث عشر من طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو في الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس ؛ وهو في الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس ؛ وهو في السادس عشر من طوبه . عيد يوحنا ؛ وهو في التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل ، وتذكار السيدة ؛ وهما في العشرين من طوبه . وصوم نينوى ؛ وهو في الحادي والعشرين من طوبه . ومقتل يحيى ؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبي بشارة ؛ وهو في الخامس والعشرين من طوبه . عيد الشهداء ؛ وهو في السادس والعشرين من طوبه . عيد طيمارس الرسول ؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نياحة تقولا ؛ وهو في اليوم الآخر من طوبه . عيد العذاري ، وعيد يهوذا ؛ وهما في الأول من أمشير . عيد مقار ؛ وهو في الثاني من أمشير . ونياحة تبادرس ؛ وهو في السادس من أمشير . ونياحة برصوما ، وهو في التاسع من أمشير . عيد بيطن ، وشهادة يعقوب ؛ وهما في العاشر من أمشير . عيد أبي مسرحة ؛ وهو في الرابع عشر من أمشير . عيد قلانوس ؛ وهو في السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو في السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد ؛ وهو في التاسع عشر من أمشير . ونزول السيدة من الجبل ؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛ وهو في السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا ؛ وهو في اليوم الآخر من أمشير . عيد الجلبانة ؛ وهو في الثالث من شهر برمهات . عيد أرمانوس ؛ وهو في السابع من برمهات . عيد العمودة ؛ وهو في التاسع من برمهات . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلانى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلباس الشهيد ؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر ؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة ؛ وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصلבות ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرک ؛ وهو فى الثانى من برمودة . عيد حرقىال النجيب ؛ وهو فى الخامس من برمودة . عيد مرقص ؛ وهو فى السابع من برمودة . والأخذ بالحدید ؛ وهو فى الثامن من برمودة . عيد یوحنا الأسقف ؛ وهو فى الحادى عشر من برمودة . عيد جرجس ؛ وهو فى الثالث عشر من برمودة . عيد أبى مَتَّى ؛ وهو فى السادس عشر من برمودة . عيد یعقوب ، عيد سنوطه ، وهما فى التاسع عشر من برمودة . وذكراڤ الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برمودة . عيد ساویرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برمودة . عيد أبى نیطس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برمودة . عيد أصحاب الکهف ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمودة . عيد مرقص الإنجيلي ، وهو فى اليوم الآخر من برمودة . عيد تیادرس ؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الحندس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة یعقوب ؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوم ؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أساسیاس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دیر القصیر ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السید

إلى مصر؛ وهو في الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو في الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميذ ؛ وهو في السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس ؛ وهو في السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس ؛ وهو في التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشاء ؛ وهو في اليوم الآخر من بشنس . عيد أبي مقار؛ وهو في الثاني من بئونه . ووجود عظام لوقا ؛ وهو في الثالث من بئونه . عيد توما ، وعيد مامور ؛ وهما في الرابع من بئونه . عيد يوحنا ، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما في التاسع من بئونه . عيد أبي مينا ؛ وهو في الخامس عشر من بئونه . عيد أبي مقار ، وهو في السادس عشر من بئونه . عيد السيدة ؛ وهو في الحادى والعشرين من بئونه . عيد اتريب وهو في الثالث والعشرين من بئونه . عيد أبي مينا ، وهو في ^(١) والعشرين من بئونه ؛ وتدكار تبادرس ؛ وهو في أول أبيب . ونياحة بولص ؛ وهو في الثاني من أبيب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة ؛ وعيد القيصرية ؛ وهما في الخامس من أبيب . وعيد أبي سنوبة ؛ وهو في السابع من أبيب . وعيد اسنباط ؛ وهو في الثامن من أبيب . وشهادة هررون ، وعيد سمعان ؛ وهما في التاسع من أبيب . وعيد تادرس نظيره ؛ وهو في العاشر من أبيب . وعيد أبي هور ؛ وهو في الثاني عشر من أبيب . وعيد أبي مقار ؛ وهو في الرابع عشر من أبيب . وعيد اقدام السرياني ؛ وهو في الخامس عشر من أبيب . وعيد يوحنا وزكريا ؛ وهو في السادس عشر من أبيب . وعيد يعقوب التلميذ ، وهو في السابع عشر من أبيب . وعيد بولاق ، وهو في التاسع عشر من أبيب . وعيد تادرس الشهيد ، وهو في العشرين من أبيب . وعيد السيدة ، وعيد ميخائيل ؛ وهما في الحادى

والعشرين من أيب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده، وهما في الثالث والعشرين من أيب . وعيد سمندو، وهو في الرابع والعشرين من أيب . وعيد مرقوريوس، وهو في الخامس والعشرين من أيب . وعيد حزقيال النبي عليه السلام، وهو في السابع والعشرين من أيب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم، وهما في الثامن والعشرين من أيب . وحرم السيد، وهو في اليوم الآخر من أيب . وعيد الخندق، وهو في اليوم الأول من مسرى . وعيد أبي مينا، وهو في اليوم الثاني من مسرى . وعيد سمعان المعمودى، وهو في الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة، وهو في الثامن من مسرى . وعيد طور سينا، وعيد السيدة، وهما في التاسع من مسرى . وعيد اللباس، وهو في العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو في الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو في السابع عشر من مسرى . وعيد أبي مقار، وهو في الثامن عشر من مسرى . وعيد اليسع، وهو في التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف، وهو في العشرين من مسرى . وصوم الأربعين، وهو في الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بدمشق، وهو في الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل، وهو في السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق، وهو في الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد، وشهادة يوحنا، وهو في اليوم الآخر من مسرى .

الجملة الرابعة

(في أعياد اليهود ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(مانظقت به التوراة بزعمهم ، وهى خمسة أعياد)

العيد الأول - رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمونه عيد رأس هيشا أى عيد رأس الشهر ، وهو أول يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل ابنه فيه وفداه بذبح عظيم .

العيد الثانى - عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذى يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتِلَ عندهم . ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى ، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر ، وربما سمّوه العاشر . ويُستترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الاحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ، ويعزمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، ويحمده ربوبية الله تعالى .

العيد الثالث - عيد المظلة : وهو سبعة أيام أولها الخامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمى عرايا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا حج لهم ، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون

والخِلاف، وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله إياهم في التيه بالغمام .

العید الرابع - عيد الفطير : ويسمونه الفصح ، ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، ويُطْفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلّص الله فيها بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، ففعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفي أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العید الخامس - عيد الأسابيع : ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، وآنذاهم لهذا العيد في السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طور سيناء، وفي جملة هذا الخطاب العشر كلمات: وهى وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصلها حفظا ورعا، وهو حج من حجوجهم ؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير، والمظلة ؛ وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون في عملها، ويجعلونها بدلا عن المن الذى أنزل الله عليهم في هذا اليوم، ويسمى هذا العيد أيضا عشرينا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثانى

(ما أحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العید الأول - الفوز : وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة يهْدَى فيه بعضهم إلى بعض، وهم يقولون : إن سبب آنذاهم له أن يجتصر لها أجلي من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم بحى، وهى إحدى مدينتى أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولى والأخيرة فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون، ولليهود يومئذ حبري يسمى بلغتهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عم من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابته لذلك، فخطبت عنده حطوة صار بها مردوخاي قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره واحتقاره حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتب مع نواب الملك في جميع الأعمال أن يقتل كل أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما : وهو النصف من آذار، وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام : لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفي فيه، وأراد بذلك المبالغة في نكائتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم ويموت موسى فأنضح لمردوخاي ذلك من بعض بطانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم عليه هيمون في أمر اليهود، وسألها لإعلام الملك بذلك، وحضها على أعمال الحيلة في خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما حمله على ذلك الحسد على قربنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتل أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان في ذلك اليوم، فأتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام، وفي هذا العيد يصورون من الورق صورة هيمون ويملئون بطنها نخالة وملحا ويلقونها في النار حتى تحترق، ينجدون بذلك صبيانهم .

العيد الثاني، عيد الحنكة، وهو ثمانية أيام، يؤقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفي الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سُرُج . وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبارة تغلب على بيت المقدس وفتك باليهود وأقتص أبكارهم، فوثب عليه

أولاً كُفَّاهُمْ وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لَوْقُود الهيكَل فلم يجدوا إلا يسيراً وزَّعوه على عدد ما يُوقَدُونَهُ من السُّرُجِ على أبوابهم في كل ليلة إلى تمام ثمان ليال فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسَمَّوه الحنكة ، ومعناه التنظيف لأنهم نظَّفوا فيه الهيكَل من أقذار شِيعَةِ الجبار ، وبعضهم يسميه الرباني .

الجملة الخامسة

(في أعياد الصابئين)

ومَدَّارُ أعيادهم على الكواكب ؛ وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة : وهى زُحَلُ ، والمشتري ، والمريخُ ، والزهرةُ ، وعُطَّارِدُ في بيوت شَرَفِها ؛ وذلك أن من البروج ما يقوم لهذه الكواكب مقام قصر العز للملك ، يشتهر فيه ويعلو ويشرف ؛ وفيها درجات معلومة يُنسَبُ الشرف إليها ؛ ومنها ما يَحْمَلُ فيه ويفسُدُ حاله ، ويكون ذلك أيضاً في درجات معلومة ، تقابل درجات الشرف به من البرج المقابل . ويسمى ذلك هُبُوطاً ؛ فزُحَلُ شرفه في إحدى وعشرين درجة من الميزان ، ويهبط في مثلها من الحَمَلِ ، والمشتري يشرف في خمس عشرة درجة من السَّرَطانِ ، ويهبط في مثلها من الجَدِيِّ ؛ والمريخ يشرف في ثمان عشرة درجة من الجَدِيِّ ، ويهبط في مثلها من السَّرَطانِ ؛ والزهرة تشرف في تسع وعشرين درجة من الحُوتِ ، وتهبط في مثلها من السَّنْبِلَةِ ؛ وعُطَّارِدُ شرفه في خمس عشرة درجة من السَّنْبِلَةِ ، ويهبط في مثلها من الحُوتِ ؛ وكذلك الشمس تشرف في تسع عشرة درجة من الحَمَلِ ، وتهبط في مثلها من الميزان ؛ والقمر يشرف في ثلاث درجات من السَّنْبِلَةِ ، ويهبط في مثلها من الحُوتِ . وهم يعظمون اليوم الذي تنزل الشمس فيه الحَمَلُ ، ويلبسون فيه أنفخ ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تَبْنِي الهياكل وتجعل لها أعياداً بحسب الكواكب التي بنيت على أسمها فيه .

الباب الثاني

من المقالة الأولى

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛

وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في ذكر آلات الخط ، ومبادئه ، وصوره ، وأشكاله ، وما ينخرط في سلك ذلك ؛

وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في الدواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في نفس الدواة ، وفيه أربع جهات)

الجملة الأولى

(في فضلها)

قد أخرج ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خَلَقَ اللهُ النُّونَ : وهى الدَّوَاةُ" وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ النُّونَ : وهى الدَّوَاةُ وَخَلَقَ الْقَلَمَ ، فقال : أَكْتُبْ ، فقال : وما أَكْتُبُ ؟ قال : أَكْتُبُ ما هو كائن إلى يوم القيامة" . وهذا

الخبر والأثر دالان على أن المراد بالنون فى الآفة هو الدّواء، وإن فسرهُ بعضهم بغير ذلك . إذ الدواء هى المناسبة فى الذّكر لذكر القلم وتسطير الكتّابة فى قوله تعالى : ﴿بِ الْقَلَمِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواء هى أمّ آلات الكتّابة، وسَمَطُها الجامع لها . ولا ينبغي ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ نَحَرَ حَرْجَ مَنْ بَيْتِهِ بغيرِ مَحَبَّةٍ وأداةٍ، فقد عَزَمَ على الصّدقة . قال المدائنى : يعنى بالأداة مثل السّكّين، والمِقلَمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سَابور : مثل الكاتب بغير دَوّاة، كمثل مَنْ يسير إلى الهِجاء بغير سلاح .

الجملة الثانية

(فى أصلها فى اللغة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوّاة ودَوّيات فى أدنى العدد، وفى الكثير دَوّى ودَوّى (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دَوّاء، ودَوّاء (بضم الدال وكسرها) ودَوّايًا مثل حَوّايًا، وأدَوّيت دَوّاة أى اتّخذت دَوّاة؛ ورجل دَوّاء (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عَطّار وبَزّاز .

الجملة الثالثة

(فيما ينبغى أن تتخذ منه، وما تحلّ به)

أما ما تتخذ منه فينبغى أن تتخذ من أجود العِبدان وأرفعها ثمنًا كالآبنوس، والسّاسم، والصّندل، وهذا اعتماد منه على ما كان يعتاده أهل زمانه، ويتعانه أهل عصره .

قلت : وقد غلب على الكُتّاب فى زماننا من أهل الإنشاء وكُتّاب الأموال اتّخاذ الدّوى من النّحاس الأصفر، والفولاذ، وتغالوا فى أتمانها وبالغوا فى تحسينها .

والنحاس أكثر استعمالاً ، والفولاذ أقل لعزته ونفاسته ، واختصاصه بأعلى درجات
الرياسة ، كالوزارة وماضاهاها .

وأما دوى الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآبُوس والصَّنْدَل الأحمر ، فإنه
يتعاناه في زماننا قضاءً الحكم وموقعهم وبعض شهود الدواوين .

وأما التحلية ، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدّواة أن يكون عليها من الحليّة
أخف ما يكون ويمكن أن تُحَلَّى به الدّوى ، في وثاقه ولُطْف : ليأمن من أن تنكسر
أو تنقصم في مجلسه ، قال : وحق الحليّة أن تكون ساذجةً بغير حُفَرٍ ولا ثِيَابٍ
فيها : ليأمن من مسارعة القذى والدّنس إليها ، ولا يكون عليها نقش ولا صورة .
وحق هذه الحليّة مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفضة
والذهب . على أن بعض الكُتّاب في زماننا قد اعتاد التحلية بالفضة ، ولا يخفى أن
حكم ذلك حكم الضربة في الإثناء فتحرم مع الكبر والزينة ؛ وتكره مع الصغر والزينة
والكبر والحاجة ؛ وتباح مع الصغر والحاجة من كسر ونحوه ، كما قرره أصحابنا الشافعية
رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التويّه إذا كان يحصل
منه بالعرض على النار شيء ، والله أعلم .

الجملة الرابعة

(في قدرها وصفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدّواة أن تكون متوسطة في قدرها : لا بالقصيرة
فتقصّر أقلامها وتقبح ، ولا بالكثيفة فيثقل حملها وتُعْجَف . فلا بدّ لصاحبها أن
يحملها ويضعها بين يدي مَلِكِهِ أو أَمِيرِهِ في أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولّى
ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولها بمقدار عَظَمِ الذراع أو فَوْيَقَ ذلك قليلاً

تكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين ، لطيفة القدّ ، طلبا للخفّة ، ولأنهم إنما يتعاونون في كتابتهم الدّرج ، وهو غير لائق بالدواة في الجملة . على أن الصغير من الدّرج لا يأبى جعله في الدواة المدوّرة . وأما كُتَّاب الأموال ، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ، ليجعلوا في باطن غطاها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب لهذه الدواة في القطع . وعلى هذا النموذج يتخذ قضاة الحكم وموقعوهم دويهم ، إلا أنها في الغالب تكون من الخشب كما تقدّم .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلكَاتِبِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْسِينِ الدَّوَاةِ وَتَجْوِيدِهَا وَصَوْنِهَا . وَلِلَّهِ الْمَدَائِنُ حَيْثُ يَقُولُ :

جَوْدَ دَوَاتِكَ ، وَاجْتَهِدْ فِي صَوْنِهَا * إِنَّ الدَّوِيَّ خَزَائِنُ الْآدَابِ

وأهدى أبو الطيّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلى صديق له دواة أنبوس مُحَلَّاة وكتب معها .

لَمْ أَرَسُودَاءَ قَبْلَهَا مَلَكَتْ * نَوَاطِرَ الْخَلْقِ وَالْقُلُوبِ مَعَا
لَا الطُّولُ أَزْرَى بِهَا وَلَا قِصَرٌ * لَكِنْ أَنْتَ لِلْوُصُولِ مَجْتَمَعَا
فَوْقَكَ جُنَحٌ مِنَ الظَّلَامِ بِهَا * وَبَارِقٌ بِائْتِلَاقِهَا لَمَعَا !
خُذْهَا لِذُرٍّ ، بِهَا تُنْظَمُهُ * يَرَوْقُ فِي الْحُسْنِ كُلُّ مَنْ سَمِعَا

أما المحبرة المفردة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها : فمنهم من رجّحها ومالوا إلى اتّخاذها خِلمة حملها ، وقالوا : بها يكتب القراء والحديث والعلم . وكرهها بعضهم واستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذي هو من أشدّ الحِرَفِ وأتعبها ، وأقلها مَكْسَبَا .

ويروى أن شعبة رأى في يد رجل محبرة، فقال : أرم بها فإنها مشؤمة لا يبقى معها أهل ولا ولد، ولا أم ولا أب .

الطرف الثاني

(في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة آلة ،

أول كل آلة منها ميم)

الآلة الأولى - المزبر (بكسر الميم) ، وهو القلم أخذ له من قولهم زبرت الكتاب إذا اتقنت كتابته ، ومنه سميت الكتُب زُبْرًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ ذُرِّيٍّ ﴾ وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة ومزبر أي قلم . وفيه جملتان .

الجملة الأولى

(في فضله)

عن الوليد بن عباد بن الصامت رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” أول ما خلق الله القلم ، فقال : أكتب ، قال : يارب وما أكتب ؟ قال : أكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد “ رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وقال : حسن غريب ، وابن أبي حاتم واللفظ له . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه ” إن أول ما خلق الله القلم والحوت ، فقال له أكتب ، فقال : يارب وما أكتب ؟ قال : أكتب كل شيء كائن إلى يوم القيامة “ ثم قرأ ” رب القلم “ رواه الطبراني ووقفه ابن جرير على ابن عباس . وفي رواية قال ابن عباس : ” أول ما خلق الله القلم ، قال : أكتب ، قل : وما أكتب ؟ قال : أكتب القدر ، بخرى بما يكون من ذلك

اليوم إلى يوم قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بحار الماء ، فنفثت منه السماء وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون ، فادت الأرض ، فأثبتت بالجلال ، فإنها لتفخر على الأرض : لأنها أثبتت عليها“ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وروى محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد ”إن أول ما خلق الله اليراع ، ثم خلق من اليراع القلم ، فقال له : أكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : ما هو كائن ، قال : فزبر القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة“ . وأخرج بسنده إلى ابن عباس ، قال : ”أول ما خلق الله اليراع : وهو القصب المثقب ، فقال : أكتب قضائي في خلقي إلى يوم القيامة“ . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر إليه فانشق بنصفين ، ثم قال : أجر قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجري على اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ . ويروى أن خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

وأعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ رَّبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم به ، وذلك في غاية الشرف . والله أبو الفتح البستي حيث يقول :
إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم * وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة * مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فأضاف التعليم بالقلم إلى نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتاباً إلا به ، لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ”من قلم قلماً يكتب به علماً أعطاه الله شجرة في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها“ . وقد قيل الأقلام مطايا الفطن ، وُرسل الكرم . وقال عبد الحميد : القلم شجرة ثمرها الألفاظ ،

والفكر بجر لؤلؤه الحكمة، وفيه رى العقول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصري ناجيه بما ستر عن الأسماع . وقال ابن المقفع : القلم بريد العلم يحث على البحر، ويحث عن خفي النظر . وقال أحمد بن يوسف : ما عبرات الغواني في حدودهن بأحسن من عبرات الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان آثان : بيان لسان، وبيان بنان؛ ومن فضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق على الأبد، وما ينسسه اللسان تدرسه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسنة أقلامها، بنوء الأقلام يصوب غيث الحكمة . وقال جعفر بن يحيى : لم أرباباً أحسن تبسماً من القلم .

قال ابن المعتز : القلم مجهز لجيوش الكلام، تخدمه الإرادة، ولا يمل من الاستزاده، كأنه يقبل بساط سلطان؛ أو يفتح نور بستان .

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، من جواب كتبه للعماد الأصقفهاني : وكيف لا يكون ذلك ، وقلمها هو اليراع الذى نفثت الفصاحة فى روعه ، ومكنت الشجاعة بين ضلوعه ! فإذا قال أراك كيف تنسّق الفرائد فى الأحياد .

ومن كلام ابى حفص بن برد الأندلسى : ما أعجب شأن القلم ! يشرب ظلمةً، ويلفظ نوراً؛ قد يكون قلم الكاتب، أمضى من شبة الحارب؛ القلم سهم ينفذ المقاتل، وشفرة تطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمر بن عثمان الكاتب : قلم يطلق الآجال والأرزاق، وينث السّم والدرياق؛ قلم تدق عن الإداراك حركاته، وتحلى بالفائس فتكاته؛ يسرع ولا آنحدار السيل إلى قراره، وأتقداح الضوء من شراره، معطوفة الغايات على المبادى، مصروفة الأعجاز إلى الهوادى؛ وإذا صال

أراك كيف اختلف الرماح بين الآساد . وله خصائص أخرى يبدعها إبداعاً ، فإذا لم يأت بها غيره تطبعاً أتى بها هو طبعاً ، فطوراً يرى إماماً يلقي درساً ، وطوراً يرى ماشطة تجلو عرساً ، وطوراً يرى ورقاء تصدح في الأوراق ، وطوراً يرى جواداً محلقاً بخلق السباق ، وطوراً أفعواناً مطرقاً ، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق ! ولطالما نفث سحراً ، وجلب عطرًا ، وأدار في القِرطاسِ نحرًا ، وتصرف في صنوف الغناء فكان في الفتح عمر ، وفي الهدى عمارة ، وفي الكيد عمراً ، فلا تحظى به دولة إلا نخرت على الدول ، واستغنت عن الخيل والحوّل .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيا ، ولا استقامت المملكة . وكل شيء تحت العقل واللسان لأنهما الخاكان على كل شيء ، والقلم يريكمهما صورتين ، ويوجد كهما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقته صنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم في صحن الكتب . وقال العتابي : بكاء القلم تبسم الكتب . وقال البُحترى : الأفلام مطايا الفطن . وقال أبو دلف العجلي : القلم صانع الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير ، إذا رُعف أعلن أسرارهِ ، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ما أثرت الأفلام ، لم تطمع في درسه الأيام . وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخط الذي هو جنى العقول . وقال علي بن منصور : بنور القلم تُضيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة في بيان اللسان ، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف . وقال غيره : بالقلم تُرف بنات العقول إلى خُدور الكتب . وقال المأمون : لله در القلم كيف يحوك وشي المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهض بما يطلع بهمله اللسان ، ويبلغ مالا

يلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألسنا ناطقة ، وأعيننا ملاحظة ؛ وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : انخط شيء أظهره العقل بواسطة سن القلم ، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : انخط بالقلم ينمى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع الوتر ، والمهنة المنطقية مقدمة على المهنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المنطق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلة الفاعلة ، والممداد العلة الهيولانية ، وانخط العلة الصورية ، والبلاغة العلة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول في شرف القلم وفضله .

فن ذلك قول أبي تمام الطائي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب وذلت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه * مازال ينبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبذب * أن السيوف لها مدأ رهفت خدم
وقوله :

لك القلم الأعلى الذي شباته * تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات أعابه * وأرى الخنى أشتارته أيد عواسل
له ريقة طلل ، ولكن وقعها * بآثاره في الشرق والغرب وأبل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت * لنجواه تقويس الحيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الجلى وأقبلت * أعاليه في القوطاس وهى أسافل

وقد رَفَدَتْهُ الخِصِرَانِ وسَدَّتْ * ثلاث نواحيه الثلاثُ الأَنَامِلُ
 رأيتَ جليلاً شأنه وهو مُرْهَف * ضَنًّا، وتَمِينًا خطبُه وهو نَاحِلُ
 وقول أبي هلال العسكري :

أَنظُرْ إِلَى قَلَمٍ يَنْكُسُ رَأْسَهُ * لِيَضْمَ بَيْنَ مُوَصَّلٍ وَمُفَصَّلِ
 تَنْظُرْ إِلَى مِخْلَابٍ لَيْثٍ ضَيْغَمٍ * وَغِرَارٍ مَسْنُونِ الْمُضَارِبِ مِفْصَلِ
 يَبْدُو لَنَاظِرِهِ بَلَوْرٍ أَصْفَرٍ * وَمَدَامِعِ سُودٍ وَجِسْمٍ مُنَحَلِ
 فَالذَّرْجُ أَبْيَضٌ مِثْلُ خَدٍّ وَاضِحٍ * يَثْنِيهِ أَسْوَدٌ مِثْلُ طَرْفِ أَكْحَلِ
 قَسَمَ الْعَطَايَا وَالْمَنَايَا فِي الْوَرَى * فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ فَاحْذَرِ وَأُمْلِ
 طَعْمَانِ شَوْبُ حَلَاوَةٍ بِمَرَارَةٍ * كَالْتَهْرِ يَخْلُطُ شَهْدُهُ بِالْحَنْظَلِ
 فَإِذَا تَصَرَّفَ فِي يَدَيْكَ عِنَانُهُ، * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَوْمَلًا بِمَوْمَلِ
 وَمُدَلَّلًا بِمَعَزَزٍ، وَلَرْبَمَا * أَلْحَقْتَ فِيهِ مَعَزَّزًا بِمُدَلَّلِ

وقوله :

لَكَ الْقَلَمُ الْجَارِي بِبُؤْسٍ وَأَنْعَمٍ * فَنَهَا بَوَادٍ تُرَجِّحِي وَعَوَائِدُ
 إِذَا مَلَأَ الْقِرطَاسَ سُودَ سُطُورِهِ * فَتِلْكَ أَسْوَدٌ تُبْقِي وَأَسَاوِدُ
 وَتِلْكَ جَنَانٌ تُجَنِّحِي ثَمَرَاتِهَا * وَيُلْقَاكَ مِنْ أَنْفَاسِهِنَّ بَوَارِدُ
 وَهِنَّ بِرُودٍ مَالِهِنَّ مَنَاسِيحُ * وَهِنَّ عَقُودٌ مَالِهِنَّ مَعَاقِدُ
 وَهِنَّ حَيَاةٌ لِلْوَلِيِّ رِضِيَّةٌ * وَهِنَّ حُتُوفٌ لِلْعَدُوِّ رَوَاصِدُ

الجملة الثانية

(في اشتقاقه)

وقد اختلف في ذلك ؛ ف قيل : سمي قَلَمًا لاسْتِقَامَتِهِ ، كما سميت القِدَاحُ أَقلامًا .
 في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ قال بعض المفسرين :
 تشاؤوا في كفالتها فضربوا عليها بالقِدَاح ، والقِدَاح مما يضرب بها المثل في الاستقامة ؛
 وقيل : هو مأخوذ من القَلَام : وهو شجر رُخْوٌ فلما ضارعه القلم في الضعف سمي
 قَلَمًا ؛ وقيل : سمي قَلَمًا لِقَلَمِ رَأْسِهِ ، فقد قيل إنه لا يسمى قَلَمًا حَتَّى يُبْرَى ،
 أما قبل ذلك ، فهو قَصَبَةٌ . كما لا يسمى الرمح رُمحًا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ وإلا فهو
 قَنَازَةٌ . ومنه قَلَامَةُ الظفر ؛ وإلى ذلك يشير أبو الطَّيِّب الأزدى بقوله :

قَلَمٌ قَلَمٌ أَظْفَارَ الْعِدَا * وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفْرِ
 أَشْبَهَ الْحَيَّةَ حَتَّى إِنَّهُ * كَلَمًا عَمَّرَ فِي الْأَيْدِي قَصْرُ

وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ ففكر ساعة وقلب يده ؛ ثم نال : لا أدري ، ف قيل
 له : توهمه . قال : هو عودٌ قَلَمٌ من جوانبه كتقليم الظُّفْرِ ، فسمى قَلَمًا .

الجملة الثالثة

(في صفته)

قال إبراهيم بن العباس لغيلان بن يديه يعلمه الخط : ليكن قلمك صُلْبًا ، بين
 الدقة والغِلظ ، ولا تَبْرَه عند عُقْدَةٍ فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتوى ،
 ولا ذى شَقٍّ غير مستوى ؛ وإن أعوزك البحرى والفارسي ، واضطرت إلى الأقلام
 النبطية فاختر منها ما يعيل إلى السَّمَرَةِ .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : ينبغي للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقله عقدا ، وأكثره لحما ، وأصله قشرا ، وأعدله استواء . وقال العتابي : سألني الأحمسي يوما بذار الرشيد : أى الأنابيب للكتابة أصلح وعليها أصبر ؟ فقلت : ما شيف بالهجير مأوه ، وستره من تلويحه غشاؤه ، من التبرية القشور ، الدرية الظهور ، الفضية الكسور . وكتب على بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلاما :

أما بعد فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة ، التي غلبت على الأسم ، ولزمت لزوم الوسم ، خلّت محل الأنساب ، وجرت مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخرية اجرى في الكواغد ، وأمر في الجلود ، كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس ، وألين في المعاطف ، وأشد لتصرف الخط فيها ، ونحن في بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحببت أن نتقدم في اختيار أقلام صخرية ، ونتوق في اقتنائها قبلك ، وتطلبها من مظانها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ، وأن نتمن باختيارك منها الشديدة الصلبة ، النقية الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرة اللحوم ، الضيقة الأجواف ، الرزينة المحمل : فإنها أبقى على الكتابة ، وأبعد من الحفأ . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القصبان ، المقومات المتون ، الملس المعاهد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، المستحكمة يئسا ، وهي قائمة على أصولها لم تعجل عن إبان ينعها ، ولم تؤخر إلى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء ، وعفن الأنداء . فإذا استجمعت عندك ، أمرت بقطعها ذراعا [ذراعا ^(٣) قطعاً رقيقاً ، ثم عبأت منها حزمًا فيما يصونها من الأوعية ^(٤) وتكتب معه بعدتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) في العقد الفريد ثنائى وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سحق لفق تتوقت * به حضرميات الأكف الحوائك

(٢) في العقد الفريد نعيم . (٣) الزيادة عن العقد الفريد . (٤) في العقد . وجهها مع من يؤدي الامانة في حراستها وحفظها وايصالها وكتبت الخ .

وأهدى ابن الحرون إلى رجل من إخوانه الكُتَّاب أقلاما، وكتب إليه :
 إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظم الأمور، وقوام الخلافة، وعمود المملكة،
 أتخفك من آلتها بما يخف محمله، وتثقل قيمته، ويعظم نفعه، ويحل خطرَه؛
 وهى أقلام من القصب النابت فى الصخر، الذى نشف بحر الهجير فى قشره ماءه،
 وستره من تلويحه غشاؤه؛ وهى كاللائى المكنونة فى الصدف، والأنوار المحجوبة
 فى السدف، تَبْرِيهُ القشور، دُرِيَّةُ الظهور، فِضِّيَّةُ الكسور؛ قد كستها الطبيعة
 جوهرا كالوشى المحبَّر، وروثقا كالديباج المنير.

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابى، يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة اصناف :
 وأضفتُ إليها أقلاما سليمة من المعايب، مُبرَّأه من المثالب، بِحَمَّةِ المحاسن، بعيدة
 عن المطاعن؛ لم يربها طول ولا قصر، ولا ينقصها صَعْفُ خَوَر؛ ولا يَشِينُهَا لين
 ولا رخاوة، ولم يعبها كَرَاذَة ولا قساوة؛ وهى آخذة بالفضائل من جميع جهاتها،
 مستوفية للممادح بسائر صفاتها؛ صُلْبَةُ المعاجم، لَدَنَةُ المقاطع، موفية القدود والألوان،
 محمودة الخبَرِ والعِيَان؛ وقد آستوى فى المَلَّاسَةِ خارجها وداخلها، وتناسب
 فى السَّلَاسَةِ عاليها وسافلها؛ نبتت بين الشمس والظل، وأختلف عليها الحر والقر؛
 فافتحها وَقْدَانُ الهَوَاجِر، ولفعها سَمَائِمُ شهر ناجر؛ ووقدَها الشَّفَّانُ بَصَرِدَه، وقذفها
 الغمام ببرده، وصابتها الأنواء بصيَّبها، وآستهلتَ عليها السحاب بشآيلِها؛ فاستمرت
 مرارها على إحكام، وآستحصد سَجَلُها بالإبرام؛ جاءت شَتَّى الشَّيَآت، متغايرة
 الهيئات، متباينة الحالِّ والبُلْدَان؛ تختلف بتباعد ديارها، وتأنف بكرم نجارها.
 فمن أنايب قَنَّا ناسبت رماح الخط فى أجناسها، وشاكت الذهب فى ألوانها،

(١) لعله وافية القدود . أى تامة كاملة .

(٢) لعله حبلى وحرر .

وضاهت الحرير في لمعانها ، مضابطة الحفاء ، نمرّة القوّى ، لا يسيطها القط ،
ولا يُسَعَّبُ بها الخط .

ومن مِصْرِيَّة بيض كانها قَبَاطِيٌّ مِصْرَنْقَاء ، وَغِرْقِيٌّ البِيض صفاء ، غَذاها الصعيد
من ثراه بِلْبَّة ، وسقاها النيل من نَمِيرِه وَعَدْبِه ، فجاءت ملتئمة الأجزاء ، سليمة من
الالتواء ، تستقيم شقُوقُها في أطواها ، ولا تَنَكَّب عن يمينها ولا شمالها ، مقترن بها
صفراءُ كانها معها عَتِيَانٌ قَرْنٌ بِجُجَيْنٍ ، أو ورقٌ خُطٌّ بَعِينٌ ، تختال في صُفْرٍ مَلَّاحفها ،
وتميس في مُدْهَبٍ مَطَارِفها ؛ بلونِ غِيَابِ الشمس ، وَصِبْغِ ثِيَابِ الْوَرَسِ .

ومن منقوشة تَرُوقُ العين ، وتُوْنِقُ النفس ؛ ويَهْدِي حُسْنُها الأَرِيحِيَّةَ إلى القلوب ،
ويَحُلُّ الطَّرْفَ لها حَبْوَةَ الحليم اللبيب ؛ كأنها آخْتَلَفَ الزَّهْرَ اللامع ، وأَصْنَفَ
الثمر اليانع .

ومن بحرية مَوْشِيَّة اللَّيْط ، رائقة التخطيط ؛ كأن داخلها قطرة دم ، أو حاشية
رداء مُعَلَمٌ ؛ وكأنَّ خارجها أرقم ، أو متن وَاِدٍ مُفْعَمٌ ؛ نشرت ألوانا تُزْرِى بَوْرْدِ الحدود ،
وأبدت قامات تَفْضَحُ تَأْوِدُ الْقُدُود .

ومن كلامِ أبنِ الزيات : خير الأقلام ما آسَتحَكُمُ نُضْجُه وخف بزره ؛ قد
تساعدت عليه السعود في فَلَكَ البروج حولا كاملا ، تُولِفه بِمُخْتَلِفِ أركانها وطباعها ،
ومتباين أنوائها وأنحاءها ؛ حتَّى إذا بلغ أشدّه وآسَوى ، وشَقَّتْ بوازله ، ورَقَّتْ
شمائله ؛ وآبَست من غشائه ، وتَأَدَّى من لحائه ؛ وتعزَّى عنه ثوب المِصْفِيف ،
بانقضاء الحريف ، وكشف عن لَوْنِ البِيضِ المَكْنُونِ ، والصَّدْفِ المخزون ؛
قُطِعَ ولم يَجْعَلْ عن تمام مصلحته ، ولم يُؤَخَّرْ إلى الأوقات المخوفة عاهاثها عليه من
خَصْرِ الشتاء ، وَعَفَنِ الأنداء ؛ فجاء مستَوِي الأنايب معتدلها ، مُتَقَفَّ الكعوب
مقومها .

وقد حرر الوزير أبو عليّ بن مقلّة رحمه الله منّا الحاجة من هذه الأوصاف،
واقْتَصَرَ على الضرورى منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما استحك نُضْجُه فى جِرمه ، ونَشِيفَ ماؤُه فى قِشره ، وقُطِعَ بعد إلقاء
بزره ، وبعد أن أصفرَ لحاؤُه ورقَّ شجره ، وصلبَ شحمُه ، وثَقُلَ حجمه .

الجملة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولها وغَلظها)

قال ابن مقلّة : خير الأقلام ما كان طولُه من ستة عشر إصبعا إلى اثنى عشر ،
وأمثلاؤُه ما بين غَلْظِ السَّابَةِ إلى الخِصْرِ . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام
على اختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسنُ قُودِ القلم أن لا يُجَاوِزَ به الشَّبرُ بأكثر من جِلْفَتِه
ويشهد له قول الشاعر :

قَتَى لو حوى الدنيا لأصبح عَارِيًّا * من المال ، معتاضا ثيابا من الشُّكْرِ
له تَرْجَمَانٌ أحرُسُ اللَّفِظِ صامتٌ ، * على قَابِ شِبْرِ بل يزيد على الشَّبرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أحمدُ الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول
والقِصْر ، والغَلْظِ والدقة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل فىبقى مائلا إلى
ما بين الثلث ، والغليظ المفرط لا تحمله الأنامل .

وقال فى الحِلْيَةِ : إذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لينَ الأنبوب ، وفى
لحمه فضل ، وفى قِشره صلابة ، وإن كانت صُلْبَةً ، كان يابس الأنبوب صُلْبَةً ،
ناقص الشحم : لأن حاجته إلى كثرة المداد فى الصحيفة الرَّخْوَةِ أكثر من حاجته إليه
فى الصحيفة الصُّلْبَةِ . فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد ؛ ويمكن

في الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها في القلم الصُّلْب الخالي من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

(في بَرَى القلم ، وفيه خمسة أنظار)

النظر الأول

(في اشتقاقه وأصل معناه)

يقال بَرَيْتَ القلم أَبْرِيه بَرَّيًّا وِبَرَايَة غير مهموز ، وهو قلم مَبْرَى ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يا بَارِي القَوْسِ بَرَّيًّا لَيْسَ يُحْكِمُهُ * لَا تُفْسِدِ القَوْسَ ، أَعْطِ القَوْسَ بَارِيهَا
ويقال أيضا بَرَوْتُ القلم والعُودَ بَرَوًّا بالواو ، والياء أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البرى بُرَايَةً (بضم الموحدة في أوله) على وزن نُزَالَةٍ وَحْثَالَةٍ ، والفُعالة اسم لكل فضلة تفضل من الشيء ، وتقول في الأمر : أبر قلبك .

النظر الثاني

(في الحث على معرفة البراية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خِلال ، منها جودة بَرَى القلم ، وإطالة جِلْفَتِهِ ، وتحريف قَطَّتِهِ ، وحسن التأتى لأمتهاء الأنامل ، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المقرّ الغلائی ابن فضل الله ، طيب الله مهجعه ! : من لم يحسن الاستمداد ، وبرى القلم ، والقطّ وإمساك الطُّومار ، وقسمة حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة في شيء .

ويحكى أن الضحّاك كان إذا أراد أن يبرى قلمها ، توارى بحيث لا يراه احد ، ويقول : الخط كله القلم . وكان الأنصارى إذا أراد أن يبرى فعل ذلك ، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حمّاد : لاحدق لغير مميّز لصنوف البراية . ورأى إبراهيم بن المحبس رجلا يأخذ على جارية قلم الثلث ، فقال : أعلمتها البراية ؟ قال : لا ، قال : كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برأيتك ؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط .

قال المقر العلّائى ابن فضل الله : ورأيت بخط أبى على بن مقلة رحمه الله ، نعم نعم ملاك الخط حسن البراية ، ومن أحسنها سهل عليه الخط ، ولا يقتصر على علم فن منها دون فن ، فإنه يتعين على من تعاطى هذه الصناعة أن يحفظ كل فن منها على مذهبه : من زيادة فى التحريف ، ومن النقصان منه ، ومن اختلاف طبقاته . ومن وعى قلبه كثرة أجناس قَطِّ الأقلام ، كان مقتدرا على الخط ، ولا يتعلّم ذلك إلا عاقل ، والقلم للكاتب كالسيف للشجاع .

وقال الضحّاك بن عجلان : القلم من أجناس الأقلام كاللّغن من أجناس الألحان فى الصناعة ، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك . ومن كلام المقر العلّائى ابن فضل الله : جَوْدَةُ البراية نصفُ الخط .

ومنها من ذهب إلى أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم ، حتى حكى الغزالى رحمه الله فى نصيحة الملوك أن صاحب بن عبّاد كان وزيرا لبعض الملوك ، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسدونه ، ولم يزلوا حتى ذكروا للملك أنه لا يحسن براية القلم ، وعمدوا إلى أقلامه فكسروا رءوسها ، ثم إن الملك أمره بكتيب كتاب فى المجلس ، فوجد أقلامه كلّها مكسرة الرءوس فأخذ قلمها منها ، وكتب به إلى أن انتهى إلى آخر الكتاب بخط فائق رائق ، فمال له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن برى القلم ، فقال : إن أبى علمنى كاتباً ولم يعلمنى نجّاراً .

النظر الثالث

(في معرفة محلّ البراية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِيّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبة ،
يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها ، فإن محل القلم من البكاتب محل الرح
من الفارس . وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام الطائي بقوله في أبياته المتقدمة :
وأقبلت * أعاليه في القرطاس وهى أسافل

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم لبرية فلا يخلو من استقامة في البنية أو أعوجاج
في الخلقة ، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه ، وهو حيث استدق ، وإن كان
مُعَوَّجًا ودعت الضرورة إليه ، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقلّ آلتواء من أعلاه .

النظر الرابع -

(في كيفية إمساك السّكّين حال البرى)

قال ابن البربري : إذا بدأت بالبراية فأمسك السكين باليد اليمنى ، والأنبوبة
باليسرى ، وضع إبهامك اليمنى على فقا السكين ، ثم اعتمد على الأنبوبة اعتمادا رقيقا .

النظر الخامس

(في صناعة البراية)

قال العتّابي : سألت الأضمعيّ يوما بدار الرشيد : أى نوع من البرى أصوب
وأكتب ؟ فقلت : البرية المستوية القطعة التي عن يمين سنّها برية تأمن معها
المحبة عنه المدة والمطة ، الهواء في شقها فتيق ، والريح في جوفها خريق ، والمداد
في خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربما حَسُن الخط باعتبار براية القلم ، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته ، فقد قيل : إن الأحوال المحزرة كان عجيب البراية للقلم ، فكان خطه رائقا بهجاً من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصاري المحرر : كنت أكتب في ديوان الأحوال ، فقربت منه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلماً من أقلامه ، فجاد خطي به ، فلاحته منه نظرة إلى دواتي ، فرأيت القلم فعرفه ، فأخذه وأبعدني . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَرِّيَّ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ .

المعنى الأول - في صفته ، ومقداره في الطول ، والتقصير .

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون في القلم الصُّلْبُ أكثر تقعيراً ، وفي الرَّخْوِ أَقَلُّ ، وفي المعتدل بينهما . وصفته أن تتبدى بزلوك بالسكين على الاستواء ، ثم تُمِيلَ القطع إلى مايلي رأس القلم ، ويكون طول الفتحة مقدار عُقْدَةِ الإبهام ، أو كمنقير الحمام ، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السمرى رحمه الله في أرجوزته بقوله :

وَطُولُهَا كَعُقْدَةِ الْإِبْهَامِ لَا * أَعْلَى وَلَا أَدْنَى يَكُونُ أَرْدَلَا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله : كل قلم تقصّر جِلْفَتُهُ ، فإن الخط ينجى به أَوْقَصَ ، والوَقْصُ قِصْرُ العنق ، ولذلك سمي متفاعلاً في عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أَوْقَصَ ، وكأنه يريد بالقِصْرِ مادون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب : أَطْلُ خُرْطُومِ قَلَمِكَ . فقيل له :
أله خرطوم قال : نعم . وأنشد .

كَأَنَّ أَنْوَفَ الطَّيْرِ فِي عَرَصَاتِهَا * خَرَّاطِيمُ أَقْلَامٍ تُخَطُّ وَتُعْجَمُ

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان لرغبان، وكان يكتب بقلم قصير البرية :
أتريد أن يوجد خطك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلفة قلمك وأسمها ، وحرف
القطعة وأيمها ، قال رغبان : ففعلت ذلك بفاد خطي . وقال الشيخ عماد الدين بن
العفيف رحمه الله : إذا طالت البرية ، فإنه يحيى الخط بها أخف وأضعف وأجلى ؛
وإذا قصرت ، جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثانى - النحت .

قال الوزير أبو علي بن مقلة : وهو نوعان ، نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما
نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتي السن معا ، ولا يحمل على
إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا لجلفة القلم دق
أو غلط . قال : ويجب أن يكون جانبا مسيفين ، والتسيف أن يكون أعلاه ذاهبا
نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرى المداد من القلم . قال : وأما نحت
بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام في صلابة الشحم ورخاوته ؛ فأما الصلْبُ
الشحمة فينبغى أن يُنحت وجهه فقط ، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط
الذى يؤثر الكاتب أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتى
تنتهى إلى الموضع الصلْب من جرم القلم ، لأنك إن كتبت بشحمته ، تشطى القلم
ولم يصف جريانه .

ومن كلام ابن البربري : لاتقصع البراية ، ولا تحالف بين حدى القلم ؛ فإن ذلك
حياكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجلفة على أنحاء : منها أن يرهف جانبي البرية ، ويسمن وسطها شيئا يسيرا ؛
وهذا يصلح للبسوط والمعلق والمحقق .

ومنها ما تستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للرسل والمنزوج والمفتوح .

ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها ما يرهف من جاتبي وسطه ، ويكون مكان القطعة منه أعرض مما تحتهما ؛ وهذا يصلح في جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثالث - الشق : وفيه مهيعان .

المهيع الأول

(في فائزته)

قال الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله : لو كان القلم غير مشقوق ما استمرت به الأنامل ، ولا اتصل الخط للكاتب ، ولكثر الاستمداد ، وعُدم المشق ، ولما ل المداد إلى أحد جنبي القلم على قدر قتل الكاتب له .

المهيع الثاني

(في صفة الشق ، وفيه مُدْرَكَان)

المُدْرَك الأول

(في قدره في الطول)

قال ابن مقله : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شقه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنى فيه أنه إذا زاد على ذلك آنفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ . وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغي أن يكون شقه إلى آخر الفتحة ؛ وربما زاد على ذلك

بمقدار إفراطه في الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السمرمري رحمه الله في أرجوزته فقال :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّقَّ أَيْضًا يَخْتَلِفُ * بِحَسَبِ الْأَهْلَامِ، فَافْهَمْ مَا أَصِفُ
فَإِنْ يَكُنْ مُعْتَدِلًا شُقَّ إِلَى * مُقْدَارِ ثُلُثِ الْحِلْفَةِ أَنْقَلْ وَأَقْبِلَا
وَالرَّخْوُ لِلنَّصْفِ أَوْ الثَّلَاثِينَ زِدْ * وَالصُّلْبُ بِالْفَتْحَةِ الْحَقُّ تَسْتَفِدْ
وَرَبَّمَا زَادُوا عَلَى ذَاكَ إِذَا * أَفْرَطَ فِي الصَّلَابَةِ، أَعْرِفْ ذَا وَذَا

المُدْرَكُ الثَّانِي

(في محله من الحِلْفَةِ في العرض)

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله في المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشق متوسّطاً لحِلْفَةِ القلم ، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله فقال : وليكن غَلَطُ السَّيْنِينِ جميعاً سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظَ من الأيسر دون العكس على كل حال ؛ وهذا إنمّا يأتى إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الاعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع - القَطْبُ وفيه مهيعان :

المهيع الأول

(أَشْتَقَاقُهُ وَمَعْنَاهُ)

يَقَالُ قَطَطْتُ الْقَلَمَ أَقْطُهُ قَطًّا فَأَنَا قَاطٌ . وَهُوَ مَقْطُوطٌ وَقَطِيطٌ : إِذَا قَطَعْتَ سِنَّهُ وَأَصَلَ الْقَطَّ الْقَطْعُ ، وَالْقَطُّ وَالْقَدُّ مُتَقَارِبَانِ ، إِلَّا أَنَّ الْقَطَّ أَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِيمَا يَقَعُ السِّيفُ فِي عَرَضِهِ ، وَالْقَدُّ مَا يَقَعُ فِي طَوْلِهِ . وَكَانَ يَقَالُ : إِذَا عَلَا الرَّجُلُ الشَّيْءَ

بسيفه قده ، وإذا عرضة قطه . وذلك أن مخرج الطاء والdal متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومد حاجبيه .

المهيع الثاني

(في صفته)

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَجْنَاسَ الْقَطِّ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ مَقَاصِدِ الْكُتَّابِ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْبَرَايَةِ ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ الْكِتَابَةِ . قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ عَجَلَانَ : مَنْ وَعَى قَلْبُهُ كَثْرَةَ أَجْنَاسِ قَطِّ الْأَقْلَامِ ، كَانَ مُقْتَدِرًا عَلَى الْخَطِّ . وَقَالَ الْمُقَرَّرُ الْعَلَاءِيُّ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ تَعْمَدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ : كَانَ بَعْضُ الْكُتَّابِ إِذَا أَخَذَ الْأَنْبُوبَةَ لِيَبْرِئَهَا تَفَرَّسَ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُطَّ تَوَقَّفَ ثُمَّ تَحَرَّى ، فَتَوَقَّفَ ثُمَّ يَقُطُّ عَلَى تَثَبُّتٍ .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط على نوعين :

النوع الأول - المحترَف ، وطريق بريه أن يحرف السكين في حال القط ، وهو ضربان ، قائم ومصوب : أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوب ، فهو ما كان القشر فيه أعلى من الشحم .

النوع الثاني - المستوى ، وهو ما تساوى سناه ، وأجودهما المحترَف ، وقد صرح بذلك الوزير أبو علي بن مُقْلَة ، فقال : وأحدها ما كان ذا سنٍّ مرتفع من الجهة اليمنى ارتفاعاً قليلاً إذا كان القلم مصوباً ، وهذا معنى التحريف ؛ وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار كما تقدم عند ذكر سِنِّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذاً من جهة اليسار إلى جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقل تصرفاً من المحترَف . قال : وقد كان بعض من لا يعتد به يقط القلم على ضدِّ

ما يعتمد عليه الأستاذون ، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره ، فكان خطه لا يجيء إلا رديئا ، وإذا كانت القطعة على الضد من ذلك ، كان الكاتب متصرفا في الخط ، متمكنا من القراطاس . قال الوزير ابن مقلة : وأججع السكين قليلا إذا عزمتم على القَطِّ ولا تنصّبها نصبا ، يريد بذلك أن تكون القطعة أقرب إلى التحريف ، وأن تكون مصوّبة . قال الشيخ شمس الدين بن أبي رقية : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام ، والتحريف والتدوير ، فقال : الرقاع والتواقيع أميل إلى التدوير بين يدي ، قِطَّةٌ مُرَبَّعةٌ ، والنسخ والمحقق والمشعر أميل إلى التحريف ، والمحقق أكثر تحريفا منهما . وقد فسر ابن الوحيد قول ابن البوّاب : لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير ، إن المعنى أن لكل قلم قِطَّةً صفة ، فقطة الريحاني أشدها تحريفا ، ثم يقل التحريف في كل نوع من أنواع قِطِّ الأقلام حتى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظر السادس

(في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالرّاية ، وما لكل من سِنَى القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : من لم يدر وجه القلم ، صدره ، وعرضه ، فليس من الكتابة في شيء . وقد فسر ذلك الوزير أبو علي بن مقلة فقال : أعلم أن للقلم وجهها وصدرها وعرضها ، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قِطَّةً ، وهو ما يلي لمة القلم وأما صدره فهو ما يلي قشرته ، وأما عرضه ، فهو نزولك فيه على تحريفه . قال : وحرف القلم هو السنّ العليا وهي اليمنى .

الجملة السادسة

(في مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطة، وتفترعها عن قلم الطومار، ونسبتها من مساحته على اختلاف مقاديرها في الدقة والغليظ والتوسط، وما ينبغي أن يكون في دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التي جرى الاصطلاح عليها بين الكتاب، وأعظمها وأجلها وأكثرها مساحة في العرض هو قلم الطومار : وهو قلم كانت الخلفاء تعلم به في المكتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأنامل ليتمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة، ثقل على الأنامل ولا تحتمله، ويتخذ أيضا من القصب الفارسي، ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهيل الكتابة به ويجري المداد فيه . ولهم قلم دونه يسمى مختصر الطومار، وبه يكتب النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتماد على المراسيم ونحوها . وقدروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون معتبرات، وهو أصل لما دونه من الأقلام، فقلم الثلاثين من هذه النسبة مقدر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدر باثنتي عشرة شعرة، وقلم الثلث مقدر بثان شعرات، ومختصر الطومار ما بين الكامل منه والثلاثين . وكل من هذا، الأقلام فيه ثقل وهو ما كان إلى الشح أميل، وخفيف، وهو ما كان إلى الدقة أقرب . إذا تقرر ذلك فطول الألف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ويجعل طولها نظير ذلك، ففي قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولها، وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار

وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علي بن مقلة : ينبغي أن تكون أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبرى للقلم الذي هو بصدد أن يحتاج إلى تأبته ليجده مهياً ، فلا يتأخر لأجل برايته .

الآلة الثانية - المِقلمة : وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام ، سواء كان من نفس الدواة أو أجنبية عنها ، وقد لاتعد من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالباً .

الآلة الثالثة - المِدْيَةُ ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في معناها وأشتقاقها)

قال الجاحظ : يقال بضم الميم وفتحها وكسرها وتجمع على مدًى : وهي السكين ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا بَغَاءَ الذِّبِّ فَذَهَبَ بَابِنِ إِحْدَاهُمَا ، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا : إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنِكَ ، وَقَالَتِ الْآخَرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنِكَ . فَتَحَاكَمَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى ، فخرجتا إلى سليمان بن داود فأخبرتا ، فقال : اثْنُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَتِ الصَّغْرَى : لَا تَقْعَلْ رَحِمَكَ اللَّهُ هُوَ أَبْنَاهُ ، فَقَضَى بِهِ لِلصَّغْرَى " قال أبو هريرة : إِنْ سَمِعْتُ بِالسَّكِينِ إِلَّا يَوْمُئِذٍ مَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا الْمُدْيَةَ .

ثم الأصل في السكين التذكير ، قال أبو ذؤيب :

يُرَى نَاصِحًا لِي مَا بَدَأَ ، فَإِذَا خَلَا ، * فَذَلِكَ سِكِّينٌ عَلَى الْخَلْقِ حَاقِظٌ ^(١)

(١) في اللسان والصاح يرى ناصحاً فيما بدا .

قال الكسائي : ومن أنث أراد المديّة وأنشد :

فَعَيْثُ فِي السَّنامِ غَدَاةٌ قُرٌّ * بِسَكِينٍ مَوْثِقَةِ النَّصابِ^(١)

ويقال سَكِينَةٌ بالهاء ، وهو قليل . وفي حديث المَبْعَثِ "أنه لما شَقَّ الْمَلِكُ بطنه صلى الله عليه وسلم قال : ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ" وتجمع على سَكَكِين ، سميت مُدِيَّةً أخذًا من مَدَى الأجل وهو آخره : لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره ، وسميت سَكِينًا لأنها تَسْكُنُ حركة الحيوان بالموت . ونِصابُ السكين أصلُها ، ونِصاب كل شيء أصله قال الشاعر :

وإنَّ نِصابِي إن سَأَلْتِ ، وأُسْرَتِي * من الناس حَى يَقْتُنُونَ الْمَرْثَى^(٢)

• أى وإن أصلى . ويقال أنصبت السكين إذا جعلت لها نِصابًا ، كما يقال أقبضتها إذا جعلت لها مَقْبِضًا ، وأقربتها إذا جعلت لها قَرِيبًا ، وأغلقتها إذا جعلت لها غِلَافًا ، والحديدَةُ الزاهية في النِصاب سِيلَانٌ . ويقال أحددت السكين فأنا أُحَدُّه إحداد وحَدَّ السكينُ نفسه صار حادًا ، وأحدّ فهو مُحَدّ ، وسكين حادّ ، فإذا أمرت من أحدّه قلت أحدده ، ومن حدّه قلت حدّه .

الوجه الثاني

(في صفتها)

قال بعض الكُتّاب : هى مِسْنُ الأَفْلام ، تستحدّ بها إذا كَلَّتْ ، وتطلق بها إذا وقفت ، وتلمّها إذا تسعّنت . فتجب المبالغة في سقيها وإحدادها ليتمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ، ولا نشطى قَطَطُهُ . وينبغى أن لا يستعملها في غير البراية لئلا تَكَاً وتفسد . قال الصولى : وأحدّد سكينك ولا تستعملها لغير ذلك . قال الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله : وآستحدّ السكين حدّا ، ولتكن ماضية جدّا ، فإنها

(١) أى أثرت السنام بالسكين انظر اللسان (٢) المرثم من الابل الكريم تقطع أذنه ويترك لها زئمة

(٣) أى وحدتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كالة جاء الخط رذيثا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
فساد البراية من بلاد السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي أن تكون لطيفة
القد ، معتدلة الحد . فقد كره المبالغة في سقيها ، لتمكن الباري من بريها . ولا عيب
في حملها في الكرم والخلف ، فقد روى المدائني عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال :
اتخاذ الرجل السكين في خقه من المروءة . قالوا : وأحسنها ما عرض صدره ،
وأرهم حده ، ولم يفضل عن القبضة نصابه ، وأستوى من غير أعوجاج . قال
الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدي وجماعة من الكُتّاب يستحسنون
العقاية : وهي التي صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكيننا ، فقال :
وسكين عتيقة الحديد ، وثيقة الشعيرة ، محكمة النصاب ، جامعة الأسباب ، أحد
من البين ، وأحسن من اجتماع محبين ، وأمضى من الحسام ، في برى الأفلام . والله
القائل في وصفها :

أنا إن شئت عدة لعدو * حين يُحشَى على النفوس الحِمَامُ

أنا في السلم خادم لدواة * وبحدى تقوم الأفلامُ

الآلة الرابعة - المِقْطُ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرى في الصحاح إلا أنه

قال فيه : مِقْطَةٌ بالتأنيث .

قال الصولي : ينبغي أن يكون المِقْطُ صُلْبًا فتمضى القِطَّةُ مستوية لامتشطية .

قال الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله : إذا قططت فلا تقط إلا على مِقْطٍ أملس

صُلْبٍ غير مثلم ولا خشن لئلا يتشظى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :

ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآبُس والعاج ، ويكون مسطح الوجه الذي

يَقْطُّ عليه ، ولا يكون مستديرا : لأنه إذا كان مستديرا تشظى القلم ، وربما تهلت

القِطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غير جيدة . قلت وينبغي أن لا يكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنجاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجيء القطة صالحة .

الآلة الخامسة - المحبرة، وهي المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول - الجونة، وهي الظرف الذى فيه اللبقة والخبر .

قال بعض فضلاء الكتاب : وينبغي أن تكون شكلا مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين ، يوقدهما خط ، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد فى زواياه فيفسد المداد ، فإذا كان مستديرا كان أبقي للمداد ، وأسهل فى الاستمداد .

الصنف الثانى - اللبقة ، وتسميها العرب الكرسف تسمية لها بأسم القطن الذى نتخذ منه فى بعض الأحوال كما سيأتى ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(فى اشتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواة وَلَقْتُهَا ، أخذنا من قولهم : فلان لا تُلَيِّقُ كَفَّهُ درهما أى لا تحبسهُ ولا تُمسكه ، وأنشد الكسائى :

كَفَّاكَ كَفَّ مَا تُلَيِّقُ دِرْهَمًا * جُودًا ، وَكَفَّ تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدَّمَ

يصفه بالجود ، أى كَفَّاكَ مَا تُمَسِّكُ درهما ، ويقال : ما لاقَتِ المرأة عند زوجها أى ما عِلَقَتْ . قال المبرد : دخل الأصمعى على الرشيد بعد غيبة غابها ، فقال له : كيف حالك يا أصمعى ؟ فقال : ما ألاقَتْنى نحوك أرض يا أمير المؤمنين : نأمسك الرشيد عنه ، فلما تفرق أهل المجلس ، قال له : ما معننى ألاقتنى ؟ قال : ما حبستنى ، فقال : لا تكلمنى فى مجلس العامة بما لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تستحق أسم اللبقة حتى تلاق فى الدواة بالنفس : وهو المداد .

الوجه الثانى

(فيما نتخذ منه ونتعاهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصُّوف والقطن ، ويقال فيه الكُرسُف ،
والبرُس ، والطُّوط ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الخشن : لأن أنفاسها
في المحبرة وعدم تلبُّدِها أعونُ على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين على الكاتب
أن يتفقد اللِّقَّة ويطيِّبها بأجود ما يكون ، فإنها تُروِّح على طول الزَّمن ، والله القائل :

مُتَظَرِّفٌ شَهِدَتْ عَلَيْهِ دَوَاتُهُ * أن الفتي لا كان غيرَ ظَرِيفٍ

إن التفَقْدَ للدَّواة فضيلةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيِّب دواته بأطيب ما عنده من طيب نفسه ، فسئل عن
ذلك ، فقال : لأنى أكتبُ به أَسْمَ الله تعالى وأَسْمَ رسوله صلى الله عليه وسلم وأَسْمَ
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فلحسُه بالسنتنا ونمحوه
بأكمننا .

قال الشيخ علاء الدين السُّرْمَرى : ويتعين على الكاتب تجديد اللِّقَّة في كل
شهر ، وأنه حين فراغه من الكتابة يُطبِّق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ،
يفسد الخط . ونظم ذلك في أرجوزته فقال :

وَجَدَدِ اللِّقَّة كُلِّ شَهْرٍ * فَشَيْخُنَا كَانَ بِهِذَا يُغْرِى

لأجل ما يقع فيها من قَذَى * فَيَنْتَشِي من ذاك فى الخط أذى

وينبغى له مع ذلك أن يصونها عن الأشياء القَدرة كالبصاق ونحوه ، فقد حكى
محمد بن عمر المدائنى أن بعض العلماء رأى صبياً يمسُق في دواته فزجره ، وقال
لعلَّه : أَمْنَع الصَّبِيَّانِ عن مثل هذا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائني : كأنه تخرج أن يكتب القرآن بمداد غير نظيف . قال المدائني : وكان بلغني عن ابن عباس أنه أجاز أن يبصق الرجل في دواته ، فسألت أحمد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضعه عاصم بن سليمان الكودن ، وكان كذاباً ذكرته لأبي داود الطيالسي فقال : هو كذاب يجب أن تعرفوا كذبه ، صفوا له مسألة حتى يحدثكم بحديث ، فقال : بحثت أنا وعمر بن موسى الحارثي في جماعة ، فقال له عمر : ما تقول في الرجل يبرق في الدواة ويستمد منها ؟ وكان قد ذهب بصره ، فقال : حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يبرق في الدواة ويستمد منها ، ثم قال : وحدثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس مثل ذلك ، قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر ، قال : ففهم ، فقال : نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأساً . .

الصنف الثالث - المداد والخبر وماضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأول

(في تسميتهما واشتقاقهما)

أما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أي يعينه ، وكل شيء مددت به شيئاً فهو مداد ، قال الأخطل :

رَأَتْ بَارِقَاتٍ بِالْأَكْفِ كَأَنَّهَا * مَصَابِيحُ سُجْرٍ أُوقِدَتْ بِمِدَادٍ ^(١)

سمي الزيت مداداً لأن السراج يمد به ، فكل شيء أمددت به الليقة مما يكتب به فهو مداد ، وقال ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ : هو من المداد لامن الإمداد . ويقال : أمد القلم في الخير مثل ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحِيمٍ ﴾ ومدّه في الشر ، مثل ﴿ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مِثًّا ﴾ . ويقال فيه أيضاً نفس

(١) في اللسان رأوا بواو الجماعة .

وتَنَقَّسَ ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح ، ويجمع على أَنْقَاس .

وأما الحبر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الحبر يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء ، قال ابن أحمري ذكر أميرة :

تَيْدُهُ بِفَاحِمٍ جَعِيدٍ * وَأَبْيَضَ نَاصِعِ الحَبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفي الخبر ”يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ قَدْ ذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبَّرُهُ“ بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ابن الأعرابي : حَبْرُهُ حَسَنُهُ ، وَسَبَّرُهُ هَيْئَتُهُ ، وقال المبرد : قال التوزي : سألت الفراء عن المداد لم سمي حبرا ؟ فقال يقال لِلْمَعْلَمِ حَبْرٌ وَحَبْرٌ يَعْنِي بَفَتْحِ الحاء وكسرهما ، فأرادوا مداد حبر أي مداد عالم ، فحذفوا مداد وجعلوا مكانه حبرا . قال : فذكرت ذلك للأصمعي ، فقال : ليس هذا بشيء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حبر إذا كثرت صُفْرَتُهَا حَتَّى صَارَتْ تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ ، والحبر الأثري يبقى في الجلد ، وأنشد :

لَقَدْ أَشْتَمْتُ بِي آلَ فَيْدٍ وَغَادَرْتُ * بِجِلْدِي حَبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيَا

أراد بالحبر الأثر ، يعني أثر الكتابة في القرطاس ، قال المبرد : وأنا أحسب أنه سمي بذلك لأن الكتاب يُحَبَّرُ به أي يُحَسَّنُ ، أخذوا من قولهم حَبَّرْتُ الشَّيْءَ تَحْبِيرًا إِذَا حَسَّنْتَهُ .

الوجه الثاني

(في شرف المداد والحبر، واختيار السواد لذلك)

في الخبر ”يُؤْتَى بِمَدَادٍ طَالِبِ الْعِلْمِ وَدَمِ الشَّهِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوضَعُ أَحَدُهُمَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَالْآخَرُ فِي كِفَّةِ الْآخَرِ“ فلا يَرَحُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ“ قال بعض الحكماء : صُورَةُ الْمَدَادِ فِي الْأَبْصَارِ سَوْدَاءُ ، وَفِي الْبَصَائِرِ بَيْضَاءُ . وقد قيل : كَوَاكِبُ

الحِكم في ظلم المداد . ونظر جعفر بن محمد إلى فقي على ثيابه أثر المداد ، وهو يستره منه ، فقال له : يا هذا ! إن المداد من المروءة . وأنشد أبو زيد :

إذا ما المنسك طيب ريح قوم * كفتني ذاك رائحة المداد

وما شيء بأحسن من ثياب * على حافات حم السواد

وقال بعض الأدباء : عطفوا دفاتر الآداب بسواد الجبر . وكان في حجر إبراهيم ابن العباس قرطاس يمشق فيه كلاما فأسقط ، فمسحه بكفه ، فقبل له لو مسخته بغيره ؟ فقال المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد في ذلك :

إنما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

وأنشد غيره :

من كان يعجبه أن مس عارضه * مسك يطيب منه الريح والنسما

فإن مسكي مداد فوق أتملتي * إذا الأصابع يوما مست القلما

على أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المداد في ثوب الكاتب سخافه ، ودناءة منه وقلة نظافه . قال أبو العالية : تعلمت القراءة والكتابة ، وما شعر بي أهلي ، وما روى في ثوبي مداد قط . وأنشدوا :

دخيل في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حرب في زياد

يشبه ثوبه للحو فيه * إذا أبصرته ثوب الحداد

فدع عنك الكتابة لست منها * ولو لطخت وجهك بالمداد

وقال فارس بن حاتم : يريق الجبر تهدي العقول لخبايا الحكم : لأنه أبق على الدهر ، وأمنى للذكر ، وأزيد للأجر .

وأعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الربع منها وأنشدوا في ذلك :

رُبْعُ الْكِتَابَةِ فِي سَوَادٍ مِدَادِهَا * وَالرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعَةِ الْكِتَابِ

وَالرُّبْعُ مِنْ قَلَمٍ تُسَوَّى بِرِيهِ * وَعَلَى الْكَوَاعِدِ رَابِعُ الْأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما أختير فيه السواد دون غيره لمضادته لون الصحيفة . قال : وليس شيء من الألوان يضاد صاحبه كمضادة السواد للبياض . قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مُبَيَّضٌ * وَالْفَرْعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ

ضِدَّانَ مَا اسْتَجْمَعَا حَسَنًا * وَالضَّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضَّدُّ

ويقال في المداد : أسود قائم ، وهو أول درجة السواد ، وحالك وحائك ، وحلكوك ، وحلبوب ، وداج ، ودجوي ، وديجور ، وأدهم ، ومدهام .

قال المدائني : حدثني بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبي عبيدة .

كتب جعفر بن حدار بن محمد إلى دعلج بن محمد يستهديه مدادا :

يَا أَحِيَّ لِلدُّوَادِ لَا لِلدِّادِ * وَصَدِيقٍ مِنْ بَيْنِ هَذَا الْعِبَادِ

وَالَّذِي فِيهِ أَلْفٌ مَجْدٍ طَرِيفٌ * قَدْ أُمِدَّتْ بِأَلْفٍ مَجْدٍ تِلَادِ

أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ حَالَ دَوَاتِي * أَصْبَحْتُ تَقْتَضِي قَيْصَ حَدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وَسَوْدَاءُ مَقَاتِلَهَا مِثْلُهَا * وَأَجْفَانُهَا مِنْ لُحَيْنٍ صَقِيلِ

إِذَا أَذْرَفَتْ عَبْرَةً خَلَّتْهَا * كَغَالِيَةٍ فَوْقَ خَدِّ أَسِيلِ

الوجه الثالث

(في صنعتهما، وفيه نظران)

النظر الأول - في مادتهما .

وأعلم أن المواد لذلك منها ما يُستعمل بأصله ولا يحتاج فيه إلى كبير علاج وتديير كالغُصّ، والزاج، والصمغ، وما أشبهها . ومنها ما يحتاج إلى علاج وتديير، وهو الدَّخَان . قال أبو القاسم خُلف بن شعبة الكاتب : ويَتَوَخَّى في الدخان أن يكون من شيء له دهنية، ولا يكون من دخان شيء يابس في الأصل لأن دخان كل شيء مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل في أيام نُحَارويه بمداد لم أر أنعم منه، ولا أشد سوادا منه . فسألته من أي شيء أستخرجته ؟ فكتم ذلك عني، ثم تَلَطَّفَ به بعد ذلك، فقال لي : من دهن بزر الفُجْل والكَّان، أضع دهن ذلك في مَسَارِج وأوقدها، ثم أجعل عليها طاسا حتى إذا نَفِدَ الدهن، رفعت الطاس، وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربي . وإنما جمعه بماء الآس ليكون سواده مائلا إلى الخُضرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالِي الحِمِص وشبهه، وتُلَقَّى عليه ماء، وتأخذ ما يعلو فوقه وتجمعه بماء الآس، والعسل والكافور والصمغ العربي والملح، وتمده وتقطعه شواير، والدخان الأول أجود والله أعلم .

النظر الثاني - في صنعتهما؛ وفيه مسامكان

المسلك الأول

(في صناعة المداد، وبه كانت كتابة الأولين من أهل الصنعة وغيرهم)
قال الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله : وأجود المداد ما أُتخذ من سُخَامِ النَّفْطِ ،
وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال ، فيجاء نخله وتصفيته ، ثم يلقى في طنجير ، ويصب
عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر
درهما ، ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهما ، ومن العفص عشرة دراهم ،
ولا يزال يساط على نار لينة حتى يثخن حرّمه ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء
ويرفع إلى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلى أنه لا ينحصر في سُخَامِ النَّفْطِ ، بل
يكون من دُخَانٍ غيره أيضا كما تقدّم . نعم ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك
إلى الكافور لتطيب رائحته ، والصبر ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن
الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب .

المسلك الثاني

(في صناعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأول - ما يناسب الكاغد أي الورق : وهو حبر الدُّخَانِ ، ونحن
نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

”صفة“ يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل يدق جريشا وينقع في ستة أرطال
ماء مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا ، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف
أو الثلثين ، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام ، ثم يصفى ثانيا ، ثم يضاف لكل رطل
من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي ، ومن الزاج القبرسي كذلك ، ثم يضاف إليه
من الدخان المتقدم ذكره ما يكفي من الحلاكة . ولا بد له مع ذلك من الصبر
والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه ، ويحفظ بالعسل على طول الزمن ؛ ويجعل

(١) من الدخان لكل رطل من الحبر بعد أن تسحق الدخان بأكوة كفاك بالسكر النبات والزعفران والشعر والزنجار إلى أن تُجيد سحقه ، ولا تصحنه في صلاية ولا هاؤن يفسد عليك .

الصنف الثاني - ما يناسب الرق ، هو يسمى الحبر الرأس ، ولا دخان فيه ، ولذلك يجيء بصاصاً برافاً ، وبه إضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه ، ويفسد الكاغد على طول ؛ ونحن نذكر منه .

”صفة حبر“ وهي ، يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيجرحش ، ويلقى عليه من الماء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل في طنجير ، ويوضع على النار ويوقد تحته بنار لينة حتى ينضج ، وعلامة نضجه أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بصاصة ، ثم يلقي عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق ، ومن الزاج أوقية ثم يصفى ويودع في إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة .

”صفة حبر سفري“ يعمل على البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيجرحش جرشاً جيداً ويسحق لكل أوقية عفش درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربي ، ويلقى عليه ويرفع إلى وقت الحاجة . فإذا احتاج إليه صب عليه من الماء قدر الكفاية وأستعمله .

الوجه الرابع

(في ليق الاقتحاحات)

وهي ما يكتب به فواتح الكلام : من الأبواب ، والفصول والابتداءات ونحوها ، ولا مدخل لشيء من ذلك في في الإنشاء والديونة ، إلا الذهب فإنه يكتب به في الطغراوات في كتب الثقات ، وفي الأسماء الجليلة منها ، كما سيأتي في موضعه من

(١) بياض بالاصل . وفي الضوء ثلث أوقية بعد الخ .

المكاتبات من فن الإنشاء إن شاء الله تعالى، وباقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتَّاب النسخ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .
ونحن نذكر منه ما الغالب استعماله وهو أصناف :

الصفى الأول - الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُحَلَّ ورق الذهب ، وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النقى ، ويقتل فيه فى إناء صينى أو نحوه حتى يضمحل خرمه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقى ويغسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ ما رسب فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من اللبقة ، والزر اليسير من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليل من ماء الصمغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جف صقل بمصقلة من خرّج حتى يأخذ حده ، ثم يزّمك بالخبر من جوانب الحرف .

الصفى الثانى - اللّازورد ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدنى ، وباقى ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقى عليه قليل من ماء الصمغ العربى ، ويجعل فى دواة كدواة الذهب المتقدم ذكرها ، وكلما رسب حرك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كي لا يَسْوَدَ ويفسُد .

الصفى الثالث - الزُّهْمُرُ ، وأجوده المغربى ، وطريق الكتابة به أن يسخق بالماء حتى ينعم ، وإن سخق بماء الرمان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يلاق بليقة كما يلاق الخبر ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصفى الرابع - المغرة العراقية ، وهى بما يكتب به فى نفائس الكتب ،

وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان . وطريقه في الكتابة كما في الرُّمَحْفَرِ ، والله أعلم .

الآلة السادسة - المِلْوَأُ ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدّواة أى تحرك به اللقطة . قال بعض الكُتّاب : وأحسن ما يكون من الآنُسِ لثلا يغيره لو نُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة - المِرْمَلَة ، وأسمها القديم المِترَبَة ، جَعَلًا لها آلة للتراب ، إذ كان هو الذى يُترَب به الكتُب . وتشمّل على شيئين :

الأول - الظرف الذى يُجعل فيه الرمل ، وهو المسمّى بذلك . ويكون من جنس الدّواة إن كانت الدواة نُحَاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا على حسب ما يختاره رَبُّ الدواة . ومحلها من الدواة ما على الكاتب مما بين الحبرة وباطن الدواة مما يقابل المنشأة الآتى ذكرها ، ويكون فى فيها شُبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها . وربما أُتِّخِذت مِرْمَلَة أخرى أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لاحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصِغَرها . وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة تقارب حبة الرّانج^(١) ، لها عنق فى أعلاها ، تكون فى الغالب من جنس الدواة من نُحَاسٍ ونحوه ، وربما أُتِّخِذت من خشب لِقْضَاة الحكم ونحوهم .

ومما ألفت فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَرِيفَةُ الشَّكْلِ وَالتَّمَثَالِ ، قَدْ صُنِعَتْ * نَحْيَى الْعُرُوسَ وَلَكِنْ لَيْسَ تَغْتَلِمُ
كَأَنَّهَا مِنْ ذَوَى الْأَلْبَابِ خَاشِعَةً * تَبْكِي الدَّمَاءَ عَلَى مَاسِطَرِّ الْقَلَمِ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمى المتربة أيضا، وفي ذلك يقول الوجه المناوى :

يا مَادِحًا أمرا ولم يَأْتِهِ * ولم يَنْلِ منه ولا جَرَبَةً

لَا تَغِيْطُ الْكَاتِبَ فى حاله ، * فإنه الْمُسْكِينُ ذُو الْمِتْرَبَةِ

الثانى - الرمل، وقد اختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره ، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل ؛ وخيره ما كان دقيقا .
وهو على أنواع :

النوع الأول - ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق للجبل المُقَطَّم من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمُّها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى - يؤتى به من الوَاحَاتِ، وهو رمل متحجّر شديد الحمرة، يتخذ منه الكُتَّابُ حجارة لَطَافًا تُحْتَبَسُ بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيوم وما والاها .

النوع الثالث - يؤتى به من جزيرة بحر القلزم من نواحي الطُّور، وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع - رمل بين الحمرة والصفرة، به سُدُورٌ بَصَاصَةٌ يَحَالُفُ الناظر سُدُورُ الذهب، وهو عزيز الوجود جدًّا، وبه يرمِّلُ الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة - المنشأة، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأول - الظرف، وحاله كحال المِرْمَلَةِ فى الهيئة والمحلِّ من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لأشْبَاكَ فى فِهِّه ليتوصَّل إلى اللصاق، وربما آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّابِ مِنْشَأَةً أحرى، غير التى فى صدر الدواة من رِصَاصٍ على هيئة حُقٍّ لطيف، ويجعلها

في باطن الدواة كالمِرملة المتوسطة ، فإن اللصاق قد يتغيّر بمكثته في النحاس ، بخلاف الرصاص .

الثاني - اللصاق ، وهو على نوعين : أحدهما اللّش المتخذ من البرّ ، وطريقه ان يطبخ على النار كما يطبخ للقماش ، إلا أنه يكون أشد منه ، ثم يجعل في المنشأة ، وهو الذي يستعمله كُتّاب الإنشاء ولا يقولون على غيره لسرعة اللصاق به ، وموافقة لونه للورق في نصّاعة البياض ، والثاني المتخذ من الكثيراء ، وهو أن تبلّ الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق ، ثم تجعل في المنشأة . وكثيرا ما يستعمله كُتّاب الديونة ، وهو سريع التغير إلى الخضرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغي أن يستعمل في اللصاق في الجملة المأورد والكافور لتطيب رائحته .

الالة التاسعة - المنفذ ، وهي آلة تشبه المحرز . تتخذ لحزم الورق ، وينبغي أن يكون محل الحاجة منها متساويا في الدقة والغلظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لثلا تختلف أثقاب الورق في الضيق والسعة ، خلا أن يكون ذبابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود ، وحكمه في النّصاب في الطول والغلظ حكم المديّة ، وقد سبق . وأكثر من يحتاج إلى هذه الآلة من الكُتّاب كُتّاب الدواوين ، وربما احتاج إليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله .

الالة العاشرة - المِزْمَة ، قال الجوهري : المِزْم بالكسر خشبتان تشدّ أو ساطهما بحديدة تكون مع الصياقلة والأبارين ، ولم يزد على ذلك . وهي آلة تتخذ من النّحاس ونحوه ، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرّج حال الكتابة لينع الدرّج من الرجوع على الكاتب ، ويُحبس بحبس على الدفتين .

الالة الحادية عشرة - المِفْرَشَة ، وهي آلة تتخذ من حرّ كنان : بطانة وظهارة ، أو من صوف ومحوه ، تُفرش تحت الأقلام وما في معناها مما يكون في بطن الدواة .

الآلة الثانية عشرة - الْمَسْحَة ، وتسمى الدفتر أيضا ، وهى آلة تُتَّخَذُ مِنْ حَرَقٍ
مترابكة ذات وجهين ملونين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القماش ،
يُمسَحُ القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد ، والغالب
فى هذه الآلة أن تكون مدورة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة ، ويكون
مقدارها على قدر سعة النواة . وفيها يقول القاضى الفاضل رحمه الله :

مَسْحَةٌ نَهَارُهَا * يُجِنُّ لَيْلَ الظُّلَمِ
كَأَنَّهَا مُنْذُ خُلِقَتْ * مِنْ دِيلِ كَمِّ الْقَلَمِ

وقال نور الدين على بن سعيد المغربي فيها :

وَمَسْحَةٌ لَاحَتْ كَأَنَّهَا تَبَدَّدَتْ * بِهِ قِطْعُ الظُّلَمَاءِ ، وَالصُّبْحُ طَالِعُ
وَلَمَّا أَطَالَ اللَّيْلُ فِيهَا وَرُودُهُ ، * حَكَّتُهُ ، وَمُدَّتْ لِلصَّبَاحِ الْمَطَالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

وَمَسْحَةٌ تَنَاهَى الْحُسْنُ فِيهَا * فَأُخِجَتْ فِي الْمَلَاخَةِ لَا تُبَارَى
وَلَا تُنْكَرُ عَلَى الْقَلَمِ الْمُوَافَى * إِذَا فِي وَصْلِهَا خَلَعَ الْعِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة - الْمِسْقَاة ، وهى آلة لطيفة تُتَّخَذُ لَصَبِ الْمَاءِ فِي الْحِجْرَةِ وتسمى
الْمَأْوَرْدِيَّةَ أيضا : لأن الغالب أن يجعل فى الحِجْرَةِ عَوْضَ الْمَاءِ مَا وَرَدَ لِنَطِيبِ رَائِحَتِهَا ،
وأىضا فإن المياه المستخرجة كماء الْوَرْدِ وَالْخَلِافِ وَالرَّيْحَانِ ونحو ذلك لِاتِّحُلَّ الحبر ولا
تفسده ، بخلاف الْمَاءِ . وتكون هذه الآلة فى الغالب من الخبزون الذى يخرج من
البحر المِلْحِ ، وربما كانت من نُحَاسٍ ونحوه ، والمعنى فيها أن لا تخرج الحِجْرَةُ من
مكانها ، ولا يصب من إناء واسع الفم كالْكُوزِ ونحوه ، فربما زاد الصب على
قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة - المسطرة، وهي آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها؛ وأكثر من يحتاج إليها المذهب .
الآلة الخامسة عشرة - المصقلة، وهي التي يُصقل بها الذهب بعد الكتابة، وهي من آلات الدواة لاحالة .

الآلة السادسة عشرة - المهرق (بضم الميم وفتح الراء) وهو القرطاس الذي يكتب فيه ، ويجمع على مَهَارِق . قلت : وعد صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآتاري منها المداد، وهو ظاهر، والمخيط، وفي عده بعد .

الآلة السابعة عشرة - المسنن، هو آلة تُخذ لإحداث السكين؛ وهو نوعان: أكهب اللون، ويسمى الرومي، وأخضر، وهو على نوعين : حجازي، وقوصي؛ والرومي أجودها، والحجازي أجوده الأخضر .

الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه في بعض الأبيات المتقدمة ؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فما نطق به القراءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القراءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللوح . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح ؛ سمي بذلك لأن المعاني تلوح بالكتابة فيه ؛ ثم اختلفوا : فقرا نافع برفع محفوظ على أنه نعت للقراءان بتقدير بل هو قراءان مجيد محفوظ في لوح، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وقرأ الباقون بالجر على نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة في اللوح المحفوظ تصدق ذلك ، وهو أم القراءان ، منه نُسِخَ القرآن الكريم والكتب المنزلة ، ومنه تَنَسَّخُ الملائكة أعمال الخلق . قال ابن عباس : وهو لَوْحٌ من دُرَّةٍ بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته الدُرُّ والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وأصله في حجرٍ ملكٍ . وقال أنس : اللوح المحفوظ في جهة إسرافيل عليه السلام ؛ وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قال ابن عباس : وفي صدر اللوح مكتوب ” لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعدده وآتبع رُسُلَهُ أدخله الجنة “ . وسُمي محفوظاً لأن الله تعالى حَفِظَهُ عن الشياطين ، وقيل : حَفِظَهُ بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيى بن يَعْمَرُ في لَوْحٍ بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والأرض اللُّوحُ ، والمعنى أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وهو ذو نور وعلو وشرف . وقد ورد في القرآن بلفظ الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبي : كانت من زَبَرَجَدَةٍ خضراء . وقال سعيد بن جبير : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُرْمُدٍ أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من بَرَدٍ : وقال الحسن : خَشَبٍ : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : ” الْأَلْوَابُ أَلَّتْ أُتْرِزْتُ عَلَى مُوسَى مِنْ سِدْرِ الْجَنَّةِ ، وَكَانَ طُولُ كُلِّ لَوْحٍ مِنْهَا اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعاً “ . وقال وهب بن منبه : من صخرة صماء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وآختلف في عددها، فقيل : سبعة ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ؛ وقيل لوهان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس أيضا ، وجمعت على عادة العرب في إيقاع الجمع على التثنية كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يريد داود وسليمان عليهما السلام وآختره الفراء . وقيل عشرة . قاله ابن منبه ، وقيل تسعة . قاله مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير .

الثاني - الرق (بفتح الراء) قال تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ قال المبرد : هو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه . قال المعافى بن أبي السيار : ومن ثم استبعد حمله على اللوح المحفوظ ، والمنشور المبسوط ؛ وآختلف في الكتاب المسطور فيه : فقيل اللوح المحفوظ ، وقيل القرآن ، وقيل ما كتبه الله تعالى لموسى وهو يسمعى صرير الأقلام .

الثالث - القرطاس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد وهو الكاغد .

أما القرطاس ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَآلَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قال ابن أبي السيار : القرطاس كاغد يتخذ من بردى مصر ، وكل كاغد قرطاس ، قال : والجمهور على كسرها ، وضها أبو زيد وعكرمة وطلمة ويحيى بن يعمر ، والذي حكاه الجوهري عن أبي زيد يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قرطس بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ، والمراد بالكتاب في الآية الكريمة المكتوب لأنفس الصحيفة . قاله المعافى .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ وقال جل وعز : ﴿ إِنَّ هَذَا لَنبِيُّ الصُّحُفِ ﴾

(١) يظهر أنه وقع هنا تحليط من الناسخ والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه آختلف في الرق فقيل الجلود وقيل اللوح المحفوظ . وآختلف أيضا في الكتاب المسطور فيه فقيل القرآن وقيل ما كتبه الخ . فتنبه .

الأولى صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۖ وتجمع أيضا على صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفًا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطأ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّين يكتُبُون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكيل ، وعندهم أخذ الناسُ صنعةَ الورق ، وأهل الهند يكتُبُون فى خِرْق الحرير الأبيض ، والفُرس يكتُبُون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتُبُون فى الخفاف (بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رِقَاق ، وفى النحاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسْب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا خُوصَ عليه ، واحدها عَسِيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغنم . وعلى هذا الأسلوب كانت العربُ لقربهم منهم . وآسَمَت ذلك إلى أن بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزل القرآن والعربُ على ذلك ، فكانوا يكتُبُون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهم النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى الخفاف والعُسْب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن ” فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ الْقُرْآنَ مِنَ الْعُسْبِ وَالْخَفِّافِ “ . وفى حديث الزهرى ” قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنُ فى الْعُسْبِ “ وربما كتب النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض مكاتباته فى الأَدَم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وأجمع رأى الصحابة رضى الله عنهم على كتابة القرآن فى الرِّقِّ لُطُول بقاءه ، أولأنه الموجود عندهم حينئذ . وبقى الناس على ذلك إلى أن ولى الرشيدُ انخلافه وقد كَثُرَ الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب الناس إلا فى الكاغد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متى نُحِى منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُهُ . وَاَنْتَشَرَتِ الْكُتَابَةُ فِي الْوَرَقِ إِلَى سَائِرِ الْأَقْطَارِ، وَتَعَاطَاهَا مِنْ قُرْبٍ وَبَعْدٍ، وَاسْتَمَرَّ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْآنَ .

الجملة الثالثة

(في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة، ومعرفة أجناسه)

الْوَرَقُ (بفتح الراء) اسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة وَرَقَات . وبه سمي الرجل الذي يكتب وَرَاقًا . وقد نطق القرآن الكريم بتسميته قِرطاسا وصَحِيفَةً كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكاغد بغين ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طِرْس، ويجمع على طُرُوس، ومَهْرَقٌ (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف)، ويجمع على مَهَارِق . وهو فارسيّ معرّب، قاله الجوهريّ . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرfa ضَقيلا، متناسب الأطراف، صبوراً على مُرُور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البَغْدَادِيّ: وهو ورق ثخين مع ليونة وِرْقَةٍ حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جداً، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كُتَّابُ الْإِنْشَاءِ فِي مَكَاتِبَاتِ الْقَانَاتِ وَنَحْوِهَا كَمَا سَيَأْنِي بَيَانُهُ فِي الْمَكَاتِبَاتِ السَّاطِنِيَّةِ . ودونه في الرتبة الشاميّ؛ وهو على نوعين: نوع يعرف بالحمويّ، وهو دون القطع البغداديّ . ودونه في القدر وهو المعروف بالشاميّ، وقطعه دون القطع الحمويّ، ودونهما في الرتبة الورق المصريّ؛ وهو أيضاً على قطعين: القطع المنصوريّ، وقطع العادة والمنصوريّ أكبر قطعاً . وقبلما يُصَقَّلَ وجهاه جميعاً . أما العادة فإن فيه مايصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين المصلوح . وغيره عندهم على رتبتين: عال

(١) أي نوع دونه الخ فتنبه .

ووسط . وفيه صنف يعرف بالقوى صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يُنتفع به في الكتابة يُتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك . وإنما نهت على ذلك وإن كان واضحاً لأمرين : أحدهما أن لا تُحلى كتابنا من بيان الورق الذي هو أحد أركان الكتابة ؛ الثانى أنه قد ينتقل الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى كما لا يعرف المصريون ورق غير مصر معرفتهم بورق مصر ، فيقع الأطلاع على ذلك لمن أرادته . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجية فهو ردىء جداً ؛ سريع البلى ، قليل المكث ؛ ولذلك يكتبون المصاحف غالباً فى الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء .

وسأأتى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الديونة عند ذكر ورق كل فن ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى .

تم الجزء الثانى ، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث ؛ وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى ،

فى الكلام على نفس الخط)

صُبحُ الأَسبَعِ

الجزء الثالث

دار الكتب الخديوية

كتاب

صحيح الأئمة

نالت

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثالث

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
م ١٩١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الأولى

(فى الكلام على نفس الخط ؛ وفيه سبعة أطراف)

الطرف الأول

(فى فضيلة الخط)

قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾
فأضاف تعليم الخط إلى نفسه ، وأمتنَّ به على عباده ؛ وناهيك بذلك شرفا !
وقال جل وعز : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم بما يَسْطُرُونه .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أنه الخط
كما تقدّم الكلام عليه .

ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عِفْرِيْتَا عن الكلام فقال : رِيحٌ لَا يَبْقَى !
قال فما قيده ؟ قال : الكتابة .

وقال عبيد الله بن العباس : الخط لسان اليد .

وقال جعفر بن يحيى: الخط سِمْط الحكمة، وبه تَفَصَّل شُؤورها، وينتظم مشورها.

(١)

وقال النَّظَّام: الخط أصل الروح له جسدانية في سائر الأعمال. إلى ما يجري

هذا الجري.

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني: الخط لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول،

ووصيُّ الفكر، وسلاح المعرفة، وأئس الإخوان عند الفرقة، ومحدثهم على بُعد

المسافة، ومستودع السر، وديوان الأمور.

وقال مسلم بن الوليد: من عجائب الله تعالى في خلقه، وإنعامه عليهم من فضله،

تعليمه إياهم الكتاب المفيد للباقيين، حكم الماضيين، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب،

على لغات متفرقة، في معانٍ معقولة، بحروف مؤلفة من ألف، وباء، وجيم، ودال،

متباينات الصور مختلفات الجهات، لقاحها التفكير، ونتائجها التأليف، تحرس

مُنفردة، وتتنطق مُزدوجة، بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن مزورة، ولا حركات

ظاهرة؛ ما خلا قلباً جوف باريه بطنه ليعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد

ما آتته منه إليه، وشق رأسه ليحتبس الاستمداد عليه؛ وأربع من شفتيه، يجمعها

حواشي تصويره إليه؛ فهناك أشتد القلم برشفه، وقذف المادة إلى صدره، ثم مجها

من شقه بمقدار ما احتملت شفتاه بتخطيط أجزاء النقط التي أراد بها الخطوط،

فالأبصار لها سامية، فإذا حكمتها الألسن فالآذان لها واعية. وأولى أسمائها بها حينئذ

الكلام الذي سده العقل وأتممه اللسان، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفتان،

وصداه الحق، وجرعته الأسماع على أنحاء شتى، وسميت لها الأشياء لتعريف متناكرها،

(٢)

وتمييز متشابهها، وتبيين معلومها من مجهولها. فمن ذلك فضل الكتاب الصناعات.

(١) عبارة الضوء. "قال بعض العلماء: الخط كالروح في الجسد".

(٢) لعله وسيت أي تطلعت ونظرت. أو وسميت بها الخ.

وبالجملة فليس يذكر ذاكر شيئاً مما يجري به الخاطر، أو يميل إليه العقل،
أو يُلْقِيهِ الفهم، أو يقع عليه الوهم، أو تُدْرِكُهُ الحواس، إلا والكتاب والكلام موكلان
به، مدبران له، معبران عنه .

فلما أن تضمّنت الحروف الدلالة، وقامت الألفاظ بالعبارة، نطقت الأفواه بكل
لغة، وتصرّف المنطق بكل جهة، فلم تكتف منه أمة بأمة، ولم تستغن عنه ملة دون
ملة، فعرب ذلك بلغة العرب التي هي القاهرة لجميع اللغات، المنظمة لجميع المعاني
في وجيز الصفات .

ولو لم يكن من شرف الخط إلا أن الله تعالى أنزله على آدم أو هودٍ عليهما السلام
كما تقدم ذكره، وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورةً، وأنزل الألواح على موسى
عليه السلام مكتوبةً، لكان فيه كفاية .

وأيضاً فإنّ فيه من حفظ الحقوق، ومنع تمرد ذوي العقوق؛ بما يُسَطَّر عليهم من
الشهادات، التي تقع في السجلات، والمكاتبات بين الناس لحوائجهم من المسافات
البعيدة التي لا ينضبط مثل ذلك لحامل رسالة، ولا يناله الحاضر بمشاهدة وإن كثّر
حفظه وزادت بلاغته . ولذلك قيل : الخطُّ أفضل من اللفظ : لأن اللفظ يفهم
الحاضر فقط، والخط يفهم الحاضر والغائب . والله القائل في ذلك يصف القلم .

وَأَحْرَسَ يَنْطِقُ بِالْحُكْمَاتِ * وَجُثْمَانُهُ صَامِتٌ أَجْوَفُ
بِمَكَّةَ يَنْطِقُ فِي خُفْيَةٍ * وَبِالشَّامِ مَنَظِقُهُ يَعْرِفُ

الطرف الثاني

(في بيان حقيقة الخط)

قال الشيخ شمس الدين بن الاكفاني في كتابه "إرشاد القاصد" في حصر العلوم:

وهو علم نتعرف منه صور الحروف المفردة ، وأوضاعها ، وكيفيّة تركيبها خطّاً ، أو ما يكتب منها في السُّطور، وكيف سبيله أن يكتب ، وما لا يكتب ؛ وإبدال ما يُبدل منها في الهجاء وبما إذا يُبدل . قال : وبه ظهرت خاصّة النوع الإنسانيّ من القوّة إلى الفعل ، وأما تاز به عن سائر الحيوان ؛ وضبط الأموال ، وترتيب الأحوال ، وحفظ العلوم في الأدوار ، واستمرارها على الأطوار ، وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحمل السرّ من مكان إلى مكان .

وبهذه الفضائل حافظت الغريزة الإنسانية على قبوله بطلب تعلّمه محافظة لم يحتاج بها إلى تذكّار بعد الغيبة . ولهذا العلة آستغنى عن كتاب يُصنّف فيه .

ثم قال : وجميع العلوم إنما تعرف بالدلالة عليها : بالإشارة ، أو اللفظ ، أو الخط ؛ والإشارة تتوقّف على المشاهدة ؛ واللفظ يتوقّف على حضور المخاطب وسماعه ؛ أما الخط فإنه لا يتوقّف على شيء فهو أعمّها نفعاً وأشرفها .

وأعلم أنه قد تقدّم في الكلام على اللغة في ”النوع الأول مما يحتاج إليه الكاتب“ أنه ينبغي للكاتب أن يتعلّم لغة من يحتاج إلى مخاطبته أو مكاتبتها من اللغات غير العربية ، فكذلك ينبغي أن يتعلّم من الخطوط غير العربية ما يحتاج إليه من ذلك فقد قال محمد بن عمر المدائنيّ في كتاب ”القلم والدواة“ : إنه يجب عليه أن يتعلّم الهندية وغيرها من الخطوط العجميّة . ويؤيد ذلك ما تقدّم في الكلام على اللغة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ”أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلّم كتاب يهود من السريانية أو العبرانية فتعلّمها“ وكان يقرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم كتبهم ويحييهم عنه .

الطرف الثالث

(في وضع الخط ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى .

(في بيان المقصود من وضعه ، والموازنة بينه وبين اللفظ)

أما بيان المقصود من وضعه أعلم^(١) أن وضع اللفظ لأداء المعنى الحاصل في الذهن المشعور به للسمع ؛ إذ لا وقوف على ما في الذهن ؛ ووضع الخط لأداء اللفظ المقصود فهمه للنظر فيه . فإذا أردت إيقافك أحدا على ما في ذهنك من المعاني تكلمت بالفاظ وضعت لها ، وإذا أردت تأدية ألفاظ ذلك الإيقاف إلى أحد بغير شفاه ، نقشت النقوش الموضوعة لتلك الألفاظ ، فيطالع تلك النقوش ، ويفهم منها تلك الألفاظ ، ومن الألفاظ تلك المعاني ؛ ولا علاقة معقولة بين المعاني والألفاظ على الأمر العام ، ولا بين الألفاظ والنقوش الموضوعة ؛ ومن ثم جاء اختلاف اللغات والخطوط كالعربية والرومية وغيرهما .

وأما الموازنة بينه وبين اللفظ ، فالأصل في ذلك أن الخط واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها : من حيث إن الخط دال على الألفاظ والألفاظ دالة على الأوهام ؛ ولاشتراك الخط واللفظ في هذه الفضيلة . وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما ؛ وذلك أنهما يعبران عن المعاني إلا أن اللفظ معنى متحرك والخط معنى ساكن ، وهو وإن كان ساكنا فإنه يفعل فعل المتحرك بإيصاله كل ما تضمنه إلى الأفهام وهو مستقر في حيزه ومكانه فبأنه كما أن اللفظ فيه العذب الرشيق السائغ^(٢) في الأسماع كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الأشكال والصور . وكما أن اللفظ

(١) أي فنقول أعلم الخ . (٢) لعل وجه الكلام هكذا [مستقر في حيزه ، قائم في مكانه ، وما الخ] .

فيه الجَزَلُ الفصيح الذى يستعمله مَصَاقِعُ الخطباء، ومَفَالِقُ الشعراء، والمُبْتَدَلُ السخيف الذى يستعمله العوام فى المكاتبة والمحاطبة، كذلك الخطُّ فيه المحرَّرُ المحقَّق الذى تكتب به الكتب السلطانية والأُمُور المهمة، وفيه المُطْلَقُ المرسل الذى يتكاتب به الناس ويستعملونه فيما بينهم . وكما أن اللفظ يقع فيه لَحْنُ الإعراب الذى يهَجِّنُهُ كذلك الخط يقع فيه لَحْنُ الهجاء . وكما أن اللفظ إذا كان مقبولا حُلُوا رفع المعنى ' الخسيس وقرَّبَهُ من النَّفُوسِ ، وإن كان غثًا مستَكْرَها وضع المعنى ' الرفيع وبعَّده من القلوب ، كذلك الخط إذا كان جيِّدا حسَنًا ، بعث الإنسان على ' قراءة ما أودع فيه وإن كان قليل الفائدة ، وإن كان ركيكا قبيحا ، صرَّفه عن تأمل ما تضمَّنه وإن كان جليل الفائدة .

ولما أشترك اللفظ والخط فى الفوائد العامة التى جُعِلَتَ فيهما وقع الاشتراك أيضا بين آتئهما إذ آلة اللفظ للسان ، وآلة الخط القلم ؛ وكل منهما يفعل فعل الآخر فى الإبانة عن المعانى إلا أن اللفظ لما كان دليلا طبيعيا جُعِلَتِ آله آلة طبيعية ، والخط لما كان دليلا صناعيا جعلت آله آلة صناعية ؛ ولما تقاسمت الآلتان الدلالة نابت إحداهما مناب الأخرى فأوقعوا اسم اللسان على القلم فقالوا : الأفلام ألسنة الأفهام ، وشركوا بينهما فى الاسم فقالوا : القلم أحدُ اللسانين .

الجملة الثانية

(فى أصل وضعه ؛ وفيه مسلكان)

المسلك الأول

(فى وضع مطلق الحروف)

قيل إن أول مَنْ وضع الخطوط والكتب كلها آدم عليه السلام : كتبها فى طين وطبخه ؛ وذلك قبل موته بثلاثمائة سنة ؛ فاما أظَلَّ الأرض الغرقُ أصاب كل قوم

كتابهم . وقيل أَخْنُوخ (وهو إدريس عليه السلام) . وقيل لإنها أنزلت على آدم عليه السلام في إحدى وعشرين صحيفة . وقضية هذه المقالة أنها توقيفية علمها الله تعالى بالوحي، والمقالتان الأولتان محتملتان لأن تكون توقيفية وأن تكون اصطلاحية وضعها آدم وإدريس عليهما السلام . على أنه يحتمل أن يكون بعض ذلك توقيفيا علمه الله تعالى بالوحي، وبعضه اصطلاحيا وضعه البشر : واحد أو جماعة، فيصير الخلاف فيه كالخلاف في اللغة هل هي توقيفية أو اصطلاحية على ما هو مقرر في علم الأصول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسلك الثاني

(في وضع حروف العربية)

قال الشيخ أبو العباس البوني رحمه الله في كتابه "لطائف الإشارات، في أسرار الحروف المعلومات" :

يروى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله كل نبي مرسل بم يرسل ؟ - قال بكتاب منزل - قلت يا رسول الله أي كتاب أنزل على آدم ؟ - قال : ا ب ت ث ج إلى آخره - قلت يا رسول الله كم حرف ؟ - قال : تسع وعشرون - قلت يا رسول الله عددت ثمانية وعشرين، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحمرت عيناه، ثم قال يا أبا ذر: والذي بعني بالحق نبيا ! ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفا - قلت يا رسول الله فيها ألف ولام - فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد، أنزله على آدم في صحيفة واحدة، ومعه سبعون ألف ملك، من خالف لام ألف فقد كفر بما أنزل على آدم ! ومن لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه ! ومن لا يؤمن بالحروف وهي تسعة وعشرون حرفا لا يخرج من النار أبدا مكانه .

وهذا الخبر ظاهر في أن المراد منه حروف العربية فقط، إذ قد أجاب صلى الله عليه وسلم أبا ذر رضى الله عنه بحروف ا ب ت ث وأثبت منها لام ألف، وليس ذلك في غير حروف العربية، وقضية ذلك أن حروف العربية أنزلت على آدم عليه السلام وهو الموافق لما في أول الفصل قبله، لكن في كتاب "التنبيه على نقط المصاحف وشكلها" للشيخ أبي عمرو الداني رحمه الله أنها أنزلت على هود عليه السلام، ولا تباين بينهما: لجواز أن تنزل على آدم مربة وعلى هود أخرى، فربما نزلت الآية على نبي ثم نزلت على نبي آخر كما قيل في قوله تعالى: ﴿حَمَسَقْ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إنه ما بعث الله تعالى نبياً إلا وأنزل عليه ﴿حَمَسَقْ﴾ وقد أنزلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ على سليمان عليه السلام، ثم أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وربما أنزلت الآية الواحدة على النبي صلى الله عليه وسلم مرتين كما في الفاتحة فإنها نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة على أحد الأقوال.

وعلى الجملة فتخصيته أنها توقيفية وهو الموافق لأحد الأقوال في مطلق الحروف.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان، (وبولان قبيلة من طيء) نزلوا مدينة الأنبار، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدر، وعامر بن جذرة، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة، ثم قاسوها على هجاء السريانية؛ فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإحجام، ثم نقل هذا العلم إلى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه.

ونقل الجوهري عن شريق بن القظامي أن أول من وضعه رجال من طيء منهم مرامر بن مرة وأنشد عليه:

(١) في الأصل مرار. والذي في جميع معاجم اللغة مرامر، ولذا في البيت أيضاً.

تَعَلَّمْتُ بِأَجَادٍ وَآلِ مُرَامِي * وَسَوَدْتُ أَثْوَابِي وَلَسْتُ بِكَاتِبٍ

قال الجوهري: وإنما قال آل مُرَامٍ لأنه كان قد سُمي كل واحد من أولاده بكلمة من أبي جاد وهم ثمانية . وذكر غيره نحوه فقال : أول من اخترعه وألف حروفه ستة أشخاص من طَسَمٍ كانوا يُزولوا عند عدنان بن أدَدَ، وكانت أسماءهم : أبجد ، وهوز ، وحطى ، وكلمن ، وسعفص ، وقرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفا ليست في أسمائهم ألحقوها بها ، وسموها الروادف ، وهي الثاء المثلثة ، والحاء ، والذال ، والطاء ، والغين ، والضاد المعجمات على حسب ما يلحق من حروف الجمل ، ثم انتقل عنهم إلى الأنبار ، واتصل بأهل الحيرة ، وفشأ في العرب ولم ينتشر كل الانتشار إلى أن كان المبعث .

وقيل إن نفيساً ونصراً وتياً ودومة بنى إسماعيل وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطوراً واحداً موصول الحروف كلها غير متفرقة ، ثم فرقه نبت وهميسع وقيدار ، وفتروا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر . وعن هشام بن محمد عن أبيه قال : أخبرني قوم من علماء مصر أن أول من كتب الكتاب العربي رجل من بني النضر بن كانه ، فكتبته العرب حينئذ .

وقضية هذه المقالات أنها اصطلاحية .

وفي السيرة لأبن هشام : أن أول من كتب الخط العربي خير بن سبأ عليه في المنام قال : وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام . وهو مخالف لما تقدم من كلام أبي عمرو الداني : أن العربي أنزل على هود عليه السلام .

قال السهيلي رحمه الله في "التعريف والإعلام" : والأصح ما روينا من طريق أبي عُمَرَ بن عبد البر رحمه الله يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ" قال ابن عبد البر : وهذا أصح من رواية "أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ" وهذا محتمل للتوقيف أيضا : بأن يكون إسماعيل علمها بالوحي ، وللاصطلاح : بأن يكون وضعه من نفسه .

ثم أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكة من قِبَلِ حَرْبِ بن أُمِيَّة . قال المدائني : حدثني حَسَنُ بن عبد الملك الأنصاري قال : حدثني سليمان بن سعيد المزني قال : سمعت الفراء يقول حدثني العمري أنه قيل لابن عباس من أين تعلمتم الهجاء والكتابة والشكل؟ قال علمناه من حَرْبِ بن أُمِيَّة؛ قيل : ومن أين علمه حرب بن أُمِيَّة؟ قال : من طارئ طرأ علينا من اليمن؛ قيل : ومن أين علمه ذلك الطارئ؟ قال : كانت^(١) بالوحي لهُود عليه السلام .

وذكر أبو عمرو الداني في كتاب "التنبيه على النقط والشكل" نحوه . وقيل أول ما ظهرت باليمن من قِبَلِ أَبِي سُفْيَانَ بن أُمِيَّة : عم أبي سفيان بن حرب، وأئنته من قِبَلِ رجل من أهل الحيرة؛ قال أهل الحيرة : أخذناها من أهل الأنبار .

وقال أبو بكر بن أبي داود عن علي بن حرب عن هشام بن محمد بن السائب قال : تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار ، وخرج إلى مكة ، وتزوج الصهباء بنت حرب . وقيل إنه لما تعلم أبو سفيان بن حرب الخط من أبيه تعلمه عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من قريش ، وتعلمه معاوية بن أبي سفيان من عمه سُفْيَانَ .

(١) في الضوء [من كاتب الوحي] .

أما الأوس والخزرج فقد روى الواقدي بسنده إلى سعد بن سعيد قال : كانت الكتابة العربية قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودى من يهود ماسكة قد علمها فكان يعلمها الصبيان بقاء الإسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زُرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، يكتب الكتابين جميعا العربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن حضير ، ومعن بن عدى ، وأبو عبس بن كثير ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد .

قال صاحب "الأبحاث الجميلة في شرح العقيلة" : والخط العربي هو المعروف الآن بالكوفي ومنه استنبطت الأقلام التي هي الآن . وقد ذكر ابن الحسين في كتابه في قلم الثلث أن الخط الكوفي فيه عدة أقلام مرجعها إلى أصلين وهما التقوير والبسط .

فالمنقور هو المعبر عنه الآن باللين : وهو الذي تكون عراقاته وما في معناها منخسفة منحطة إلى أسفل كالثلث والرقاع ونحوهما .

والمبسوط : هو المعبر عنه الآن باليابس وهو مالا أنخساف وأنحطاط فيه كالحقق وعلى ترتيب هذين الأصلين الأقلام الموجودة الآن . ثم قد ذكر صاحب "إعانة المنشئ" أن أول ما نقل الخط العربي من الكوفي إلى ابتداء هذه الأقلام المستعملة الآن في أواخر خلافة بني أمية وأوائل خلافة بني العباس .

قلت : على أن الكثير من كتّاب زماننا يزعمون أن الوزير أبا علي بن مقلة (رحمه الله تعالى) هو أول من ابتدع ذلك ، وهو غلط فإننا نجد من الكتب بخط الأولين فيما قبل المائتين ما ليس على صورة الكوفي بل يتغير عنه إلى نحو هذه الأوضاع المستقرة وإن كان هو إلى الكوفي أميل لقربه من نقله عنه .

قال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب": ويقال إن جَوْدَةَ الخط آتت إلى رجلين من أهل الشام يقال لهما الضحَّاك وإسحاق بن حمَّاد، وكانا يخطانِ الجليل، وكأنه يريد الطومار أوقريباً منه .

قال صاحب "إعانة المنشيء" وكان الضحَّاك في خلافة السَّفَّاح : أول خلفاء بني العباس ، وإسحاق بن حمَّاد في خلافة المنصور والمهدي .

قال النحاس : ثم أخذ إبراهيم (يعني الشجرى) عن إسحاق بن حماد الجليل وأخترع منه قلماً أخفَّ منه سماه قلم الثلثين ، وكان أخطَّ أهلِ دهره به ، ثم اخترع من قلم الثلثين قلماً سماه قلم الثلث .

قال صاحب "الأبحاث الجميلة": وأخذ يوسف أخو إبراهيم الشجرى القلم الجليل عن إسحاق أيضاً، وأخترع منه قلماً أدق منه وكتبه كتابة حسنة فأعجب به ذوالرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون ، وأمر أن تحرر الكتب السلطانية به ، ولا تكتب بغيره وسماه القلم الریاسی . قال بعض المتأخرين : وأظنه قلم التوقيعات .

قال النحاس : ثم أخذ عن إبراهيم الشجرى الأحوال الثلثين والثلث ، وأخترع منهما قلماً سماه قلم النصف ، وقلماً أخفَّ من الثلث سماه خفيف الثلث ، وقلماً متصل الحروف ليس في حروفه شيء ينفصل عن غيره سماه المسلسل ، وقلماً سماه غبار الحلية ، وقلماً سماه خط المؤامرات ، وقلماً سماه خط القصص ، وقلماً مقصوعاً سماه الحوائجی . قال : وكان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير إحكام ولا إتقان ، وكان عجيب البرى للقلم ، وكان وجه النعجة مقدماً في الجليل . قال : وكان محمد بن معدان يعني المعروف بأبي ذرجان مقدماً في خط النصف ، وكان قلمه مستوی السنين ، وكان يشقُّ الطاء ، والظاء ، والصاد ، والضاد بعرض النصف ، ويعطف

مثل يا، ويصل كل ياء من يساره إلى يمينه بعرض النصف لا يرى فيه اضطراب .
وكان أحمد بن محمد بن حفص المعروف بزاقف أجلّ الكُتّاب خطأ في الثلث، وكان
أبن الزيات في أيام أبن طولون وزير المعتصم يعجبه خطّه ولا يكتب بين يديه غيره،
وانتهت رياسة الخط بمصر إلى طبّط المحرّر جودة وإحكاما .

قال النحاس : وكان أهل مدينة السلام يحسدون أهل مصر على طبّط وأبن
عبد كان يعني كاتب الإنشاء لأبن طولون، ويقولون بمصر كاتبٌ ومحرّرٌ ليس لأمر
المؤمنين بمدينة السلام مثلهما .

قلت : ثم انتهت جودة الخط وتحريره على رأس الثلاثمائة إلى الوزير أبي عليّ محمد
أبن مقلّة وأخيه أبي عبد الله .

قال صاحب "إعانة المنشىء" : وولّدنا طريقة اخترعها وكتب في زمانها جماعة
فلم يقاربوها . وتفرد أبو عبد الله بالنسخ، والوزير أبو عليّ بالدرج، وكان الكمال
في ذلك للوزير، وهو الذى هندس الحروف وأجاد تحريرها، وعنه انتشر الخط
في مشارق الأرض ومغاربها، والله قول القائل :

سَبَقَ الدَّمْعُ فِي الْمَسِيرِ الْمَطَايَا * إِذْ رَوَى مِنْ أَحَبِّ عَنْهُ بَقْلَهُ
وَأَجَادَ السُّطُورَ فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ * وَلَمْ لَا يُجِيدُ وَهُوَ أَبْنُ مَقْلَهُ

وقول الآخر:

تَسْلَسَلْ دَمْعِي فَوْقَ خَدِّي أَسْطُرًا * وَلَا عَجَبٌ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ أَبْنُ مَقْلَةٍ

ثم أخذ عن أبن مقلّة محمد بن السمساني، ومحمد بن أسد، وعنه أخذ الأستاذ
أبو الحسن عليّ بن هلال المعروف بابن البوّاب، وهو الذى أكمل قواعد الخط وتممها
وأخترع غالب الأقلام^(١) التى أسسها أبن مقلّة، ولما مات رثاه بعضهم بقوله :

(١) فى الضوء . وأخترع عدة أقلام .

وَأَسْتَشْعَرَ الْكُتَّابَ فَقَدَكَ سَالِفًا * فَجَرَتْ بِصِحَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ
فَلِذَاكَ سَوْدَتِ الدُّوَى وَجُوهَهَا * أَسَفًا عَلَيْكَ وَشَقَّتِ الْأَقْلَامُ

ومن أخذ عنه محمد بن عبد الملك، وعن محمد بن عبد الملك أخذت الشيخة
المحدثة الكاتبة زينب الملقبة بشهادة أبنه الأبري، وعنهما أخذ أمين الدين ياقوت،
وعنه أخذ الولي العجمي، وعليه كتب العفيف، وعن العفيف أخذ ولده الشيخ
عماد الدين، ويقال إنه كان كاهن البواب في زمانه. وعن الشيخ عماد الدين بن
العفيف أخذ الشيخ شمس الدين بن أبي رقية محتسب الفسطاط، وهو من عاصرناه،
وأخذ عنه شيخنا الشيخ شمس الدين محمد بن علي الرقفاوي المكتب بالفسطاط،
وصنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها إليه في صناعة الكتابة، أحسن فيه
الصنيع، وبه تخرج صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثري
محتسب مصر، ونظم في صناعة الخط ألفية وسمها (بالناية الربانية) في الطريقة
الشعبانية) لم يسبق إلى مثلها، ثم توجه بعد ذلك إلى مكة، ثم إلى اليمن والهند،
ثم عاد إلى مكة فأقام بها ونبغ.

قلت : وقد علم مما تقدم ذكره أن ألقاب الأقلام : من الثلثين والنصف والثلث
وخفيف الثلث والمُسَلْسَل والغبار قديمة ، وإن وقع في أذهان كثير من الناس أنها
من مخترعات ابن مقلة وابن البواب فن بعدهما .

الطرف الرابع

(في عدد الحروف، وجهة ابتدائها، وكيفية ترتيبها، وفيه أربع جمل)^(١)

الجملة الأولى

(في مطلق الحروف في جميع اللغات)

وأعلم أن الحروف تختلف باختلاف اللغات بحسب تعدد مخارجها، فحروف السريانيين، والروم، والفُرس، والصَّقلَب، والتُّرك من أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وعشرين حرفاً؛ وحروف العبرانيين، واليونانيين، والقبط الأول، والهنود وغيرهم من اثنين وثلاثين إلى ستة وثلاثين؛ فيوجد في غير العربية من الحروف ما لا يوجد في العربية كما يوجد في العربية ما لا يوجد في غيرها من اللغات، ويكثر في الاستعمال فيها ما لا يكثر في غيرها. فالحاء المهملة، والظاء المعجمة مما أفردت بها العرب في لغاتها، واختصت بها دون غيرها من أرباب اللغات؛ والعين المهملة قليلة في كلام بعض الأمم ومفقودة في كلام كثير منهم؛ وكذلك الصاد والضاد والذال المعجمة ليست في الفارسية، والثاء المثلثة ليست في الرومية ولا في الفارسية، والفاء ليست في التركية.

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: ولذلك يقولون في فقيه يقيه بالباء الموحدة المشربة الفيوية.

الجملة الثانية

(في حروف العربية)

وأعلم أنا لما كنا بحمد الله أمة وسطاً خير أمة أُخرجت للناس، وكان خير الأمور أوسطها، وكانت حروف اللغات ما بين أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وثلاثين كما

تقدّم، كانت حروف الكلام العربىّ التى بها رُقمُ القرآن الكريم ثمانيةً وعشرين حرفًا فى اللفظ، متوسطةً بين حروف اللغات، وهى ا ب ت ث إلى آخره، وتسمى حروف الهجاء وحروف التهجى، ويسمى سبويه والخليل حروف العربية أى حروف اللغة العربية، وهى التى يتركّب منها الكلام العربىّ، وتسمى أيضا حروف المعجم، إما لأنها مقطّعة لا تُنقّط إلا بإضافة بعضها إلى بعض، وإما لأن منها ما يُنقّط النقط المعروف، أو تنقط كلّها أى تُشكّل إذ النقط قد يكون بمعنى 'الشّكل'.
وقال بعض أهل اللغة: ^(١) النقط بالسواد كمثّل التاء عليها نقطتان، يقال منه أعجمت الحروف، ومعناه حرف الخط المعجم. وبعضهم يجعل المعجم مصدرا بمعنى 'الإعجام' من أعجمت الشيء إذا بيّنته فكأنها مبيّنة للكلام، وتكون الهمزة فى أعجمت للإزالة أى أزلت عجمته إما بنقطه أو شكله.

قال الشيخ عبد الخالق بن أبى القاسم المصرى: وإذا اعتبرت سائر اللغات بالتحقيق لن يزيد ذلك على ثمانية وعشرين حرفًا (يريد غير اللام ألف) فى الحروف العربية والقائل بذلك يجعل اللام ألف مركبا من حرفين فلا يعدّه حرفا مستقلاّ.
قال علماء الحرف: وجعلت ثمانية وعشرين حرفا على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين.

قالوا: ولما كانت المنازل القمرية يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلةً ويغيب تحت الأرض أربع عشرة كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة: وهى الألف، والباء، والحاء المهملة،

(١) أى العجم النقط الخ كما فى اللسان.

(٢) هو المبرد كما نقله عنه فى اللسان.

والحاء المعجمة، والعين المهملة، والغين المعجمة، والفاء، والقاف، والكاف، واللام،
 والميم، والهاء، والواو، والياء المثناة تحت . تقول الألف والباء والحاء فتظهر اللام
 في لفظك وكذلك في البواق . وما يندغم منها أربعة عشر حرفاً أيضاً بعدد المنازل
 الغائبة : وهى التاء المثناة من فوق، والتاء المثناة، والدال المهملة، والذال المعجمة،
 والراء، والزاي، والسين المهملة، والشين المعجمة، والصاد المهملة، والضاد المعجمة،
 والطاء المهملة، والظاء المعجمة، والنون . تقول التاء، والتاء، والدال فتخفى في لفظك،
 وكذلك في البواق .

وقد تقدم في خبر أبى ذر رضى الله عنه أنها نزلت على آدم عليه السلام تسعة
 وعشرين حرفاً عد منها اللام ألف وهو الموجود في التصوير فلا يعول إلا عليه
 إن صح الحديث .

ثم للحروف العربية فروعٌ توجد في اللفظ دون الكتابة مستحسنةٌ ومستقبحةٌ، تبلغ
 بها الحروف العربية سبعة وأربعين حرفاً، ولا يوجد ذلك في لغة أمة من الأمم، أضربنا
 عن ذكرها لعدم تعلقها بالخط الذى نحن بصدده، وبالله المستعان .

الجملة الثالثة

(في بيان جهة ابتداء الحروف)

وأعلم أن أصحاب الأقلام اختلفوا باعتبار مقاصدهم في البداءة بالحروف .
 فمنهم من يبدأ من اليمين إلى اليسار كالعرب والعبرانيين والهنود وأهل الطبيعة
 والسريانيين، آخذاً فيه على سير الفلك من المشرق إلى المغرب، والمشرق عندهم يمين
 الفلك ويقال له مأخذ كورى، وقيل لأن فيه الاستمداد من الكبد إلى القلب .

ومنهم من يبدأ من اليسار إلى اليمين كالرومية واليونانية والقبطية ، وفنّ من الفارسية أخذاً فيه على سير الكواكب السبعة السيارة من المغرب إلى المشرق . ويقال له مأخذ دَوْرِيٌّ ؛ وقيل لأنه ناشئ عن حركة القلب إلى الكبد .

الجملة الرابعة

(في كيفية ترتيب الحروف)

وأعلم أن ترتيب الحروف على ضربين : مفردٍ ومزدوجٍ ؛ وبين أهل الشرق وأهل الغرب في كل من النوعين خلاف في الترتيب .
أما المفرد فأهل الشرق يرتبونه على هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي

وأما أهل الغرب فإنهم يرتبونه على هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض
ع غ ف ق س ش ه و لا ي

وأما المزدوجُ فأهل الشرق يرتبونه على هذا الترتيب :

أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضطغ .

وأهل الغرب يرتبونه على هذا الترتيب :

أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ظغش^(١) .

(١) كذا في الأصل والضوء ولعل الصواب ظغض .

على أنه قد اختلف في كلمات أبجد هل لها معنى أم لا، وهل يكره تعلمها أم لا،
وأكثر الناس في الشرق والغرب على تعلمها .

وقد جاء أنها كانت تُعلم في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ويشهد لذلك
قول الأعرابي في أبياته :

أَتَيْتُ مَهَاجِرِينَ فَعَلَّمُونِي * ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ مُتَابِعَاتٍ
وَحَطُّوا لِي أَبَا جَادٍ وَقَالُوا * تَعْلَمُ سَعْفَصًا وَقَرَّشَاتٍ

وقيل : إن أبجد، وهوز، وحطى، وكلهن، كانت أسماء ملوك مدين، وإن كلهن
كان في زمن شُعَيْب عليه السلام، وقد تقدم أن الأربعة المذكورة كانت أسماء
واضعي الخط العربي على قولٍ والله أعلم .

الجملة الخامسة

(في كيفية صور الحروف العربية وتداخل أشكالها)

قد تقدم أن الحروف العربية على تسع عشرة صورة : وهي صورة الألف،
وصورة الباء والتاء والثاء، وصورة الجيم والحاء والخاء، وصورة الدال والذال، وصورة
الراء والزاي، وصورة السين والشين، وصورة الصاد والضاد، وصورة الطاء والظاء،
وصورة العين والغين، وصورة الفاء والقاف^(١)، وصورة الكاف، وصورة اللام، وصورة
الميم، وصورة النون، وصورة الهاء، وصورة الواو، وصورة اللام ألف، وصورة الياء،
وفرقوا بينها بالنقط كما سيأتي، وقصدوا بذلك تقليل الصور للاختصار لأن ذلك
أخف من أن يجعل لكل حرف صورة فتكثر الصور . ثم ترجع الصور التسع عشرة
صورة^(٢) بعد ذلك إلى خمس صور : وهي الألف والجيم والراء والنون والميم، ففي

(١) لعله وصورة القاف ليم العدد ولاختلاف صورتين في الرسم .

(٢) لعله زائد من النسخ والصواب إسقاطه .

صورة الألف إحدى عشرة صورة ألف قائمة : وهى أ وسبع ألفات مسطوحة :
 وهى ب ت ث ، ك ل ي ، فكل هذه على صورة الألف غير أن فيها
 ما تكرر فيه صورة الألف : وهى الكاف واللام ، وألفان مبطوحتان : وهى ط ظ ،
 وألف معطوفة : وهى لا ، وفى الجيم سبع صور جيم مرفلة : وهى ج ح خ ،
 وجيمان مخدوفتان وهما د ذ ، وجيمان شاخصتان وهما ع غ ، وفى الراء ثلاث
 صور وهى ر ز و ، وفى النون ست صور وهى ن س ش ض ق ،
 وفى الميم صورتان وهما م ه .

الطرف الخامس

(فى تحسين الخط ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى الحث على تحسين الخط)

لاخفاء أن حسن الخط من أحسن الأوصاف التى يتصف بها الكاتب ، وأنه يرفع
 قدره عند الناس ، ويكون وسيلة إلى نجاح مقاصده ، وبلوغ مآربه ، مع ما ينضم إلى
 ذلك من الفوائد التى لا تكاد تُحصى كثرة .

وقد قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : " الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً " .

وقال بعض العلماء : الخط كالروح فى الجسد ، فإذا كان الإنسان جسيماً وسيماً
 حسن الهيئة ، كان فى العيون أعظم ، وفى النفوس أخف ، وإذا كان على ضد ذلك سَمِئَةً
 النفوس ، ومَجَنَّةً القلوب ، فكذلك الخط إذا كان حسن الوصف ، مليح الرصف ،

(١) لم يذكر إلا ستة ولعل الساقط الفاء فانها لم تذكر فى الصور الاتية .

مَفْتَحُ الْعُيُونِ، أَمْلَسَ الْمُتُونِ، كَثِيرَ الْإِتْلَافِ، قَلِيلَ الْإِخْتِلَافِ، هَشَّتْ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَأَشْتَهَتْهُ الْأَرْوَاحُ؛ حَتَّى إِنْ الْإِنْسَانَ لَيَقْرُوهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ كَلَامٌ دَنَى، وَمَعْنَى رَدَى، مُسْتَرِيدًا مِنْهُ وَلَوْ كَثُرَ، مِنْ غَيْرِ سَامَةٍ تَلَحُّقُهُ؛ وَإِذَا كَانَ الْخَطُّ قَبِيحًا بَجَتْهُ الْأَفْهَامُ، وَلَفْظَتُهُ الْعُيُونُ وَالْأَفْكَارُ، وَسَمَّ قَارَنَهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ عَجَائِبُهَا، وَمِنَ الْأَلْفَاظِ غَرَائِبُهَا.

ويقال: إِنْ الْخَطُّ مُوَازٍ لِلْقِرَاءَةِ، فَأَجُودَ الْخَطُّ أَيْدِيَهُ، كَمَا أَنَّ أَجُودَ الْقِرَاءَةِ أَيْدِيهَا؛ وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْخَطَّ الْحَسَنَ هُوَ الْبَيِّنُ الرَّائِقُ الْبَهِيحُ. ثُمَّ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلٍ وَضَعَ الْخَطُّ أَنَّ الْخَطَّ وَاللَّفْظَ يَتَقَاسِمَانِ فَضِيلَةَ الْبَيَانِ، وَيَشْتَرِكَانِ فِيهَا.

قال في "موادِّ البيان": ولما كَانَ الْخَطُّ قَسِيًّا لِلْفَظِّ فِي الْبَيَانِ الَّذِي آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَجَبَ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يُعْنِيَ بِأَمْرِ الْخَطِّ، وَيُرَاعِيَ مِنْ تَجْوِيدِهِ وَتَصْصِيحِهِ، مَا يَرَاغِيهِ مِنْ تَهْذِيبِ اللَّفْظِ وَتَنْقِيحِهِ: لِيَدُلَّ عَلَى سُرْعَةٍ وَسَهُولَةٍ كَمَا يَدُلُّ اللَّفْظُ الْبَلِيغُ الْبَيِّنُ: لِأَنَّ الْخَطَّ وَإِنْ كَانَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي لِأَنْسَاوِيٍّ مِنَ الشَّرَفِ فَإِنَّمَا تَحْصُلُ فُضَائِلُهُ لِلْجِدِّ مِنْهُ، كَمَا أَنَّ الْمَنْطِقَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الشَّرَفِ فِي هَذَا الْحَدِّ فَإِنَّمَا تَحْصُلُ فُضَائِلُهُ النَّامَةُ لِمَنْطِقِ الْبَلِيغِ اللَّسَنِ، دُونَ مَنْطِقِ الْعَبِيِّ الْأَلْكَنِ؛ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصَّنَائِعِ الْفَاضِلَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِنَّمَا يَحْصُلُ فَضْلُهَا لِلْمَاهِرِ فِيهَا دُونَ الْمُبْتَدِئِ.

قال: فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ لَا يَقْدَمَ عَلَى تَهْذِيبِ خَطِّهِ وَتَحْوِيلِهِ شَيْئًا مِنْ آدَابِهِ فَإِنْ جَوْدَةُ الْخَطِّ أَوَّلُ الْأَدَوَاتِ الَّتِي يَنْتَظَمُ بِحُصُولِهَا لَهُ أَسْمُ الْكِتَابَةِ، وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ إِذَا حَازَهَا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا. وَقَدْ دَخَلَ بَحْسُنُ الْخَطِّ فِي الصَّنَاعَةِ مَنْ إِذَا فُحِصَ عَنْ مَقْدَارِ مَعْرِفَتِهِ وَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ الْكِتَابَةُ عَنْ نِسْبَتِهِ إِلَيْهَا.

ويجب مع ذلك أن يراعى تأسيس الخط على الوضع الذى أصطلح عليه المجيدون من الكتاب . فقد قسم أهل الصناعة الخط إلى قسمين : محقق ومطلق .
فأما المحقق فما صحّت أشكاله وحروفه على اعتبارها مفردة .
قال فى "موادّ البيان" : وهذا القسم هو الذى يُستعمل فى الأمور الجسيمة : ككُتُب العهود ، والإسجلات ، والتعليكات التى تبقى على الأعقاب ، والمكاتبات الصادرة عن الملوك إلى الملوك ، الدالة على قدر المكتوب عنه والمكتوب إليه .
وأما المطلق فهو الذى تداخلت حروفه واتصل بعضها ببعض .
قال فى "موادّ البيان" : وهو خط مولّد من المحقق ، يستعمل فى تنفيذ ما لا يمكن تأخير من المكاتبات المهمّة والأمر العامّة . قال : ويجب أن يلزم الطريقة فى كل واحد من الخطين ، ولا يخلط حروف أحدهما بحروف الآخر .

الجملة الثانية

(فى الطريق إلى تحسين الخط ، ويتوصّل إلى ذلك بأمور)

الأوّل — معرفة تسكيل الحروف

قال فى "موادّ البيان" : وهو الأصل فى أدب الخط : لأن الخط إنما يسمّى جيداً إذا حسنت أشكال حروفه ، وإنما يسمّى رديئاً إذا قُبِحت أشكال حروفه .
وحُسْنُ صور حروف الخط فى العين شبيهٌ بحُسْنِ مخارج اللفظ العذب فى السَّمْع .
قال : والوجه فى تصحيح الحروف أن يبدأ أولاً بتقويمها مفردةً مبسوطةً لتصح صورة كل حرف منها على حيالها ، ثم يؤخذ فى تقويمها مجموعةً مركبةً ، وأن يبدأ

(١) لم يذكر غيره ولعله آكتفى بما تقدم فى الأدوات من حسن البراية والخبر والليقة وغير ذلك فليتنبه .

من المركب الثنائي والثلاثي، ثم بالرباعي، ثم بالخماسي، فإن هذه هي أمثلة الأسماء والحروف الأصلية، وأن يعتمد في التمثيل على توقيف المهرة في الخطوط، العارفين بأوضاعها ورسومها وأستعمال آلاتها، فإن لكل خط من الخطوط قلما من الأقلام يصلح لذلك الخط، وهذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التي يصنع الصانع بكل آلة منها جزءا من صناعته لا يصنع به غيره؛ ولا يعول على كتابة خط من الخطوط بنقل مثاله بنفسه فإن ذلك لا يكفيه، إذ لو كان ذلك كافيا لاستغنى في جميع الصنائع عمن يؤقف عليها. على أن كثيرا من أصحاب الخطوط قد كتبوا طبعاً دون التوقيف من أحد على طريقة من طرق المحررين، إلا أن الأفضل أن يبنى الخط على أصل يكون له أساسا، فإذا فصلت أحواله آنكشف فساد كثير من حروفه.

الطرف السادس

(في قواعد تتعلق بالكتابة ،

لا يستغنى الكاتب المحيد عن معرفتها، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في هندسة الحروف، ومعرفة اعتبار صحتها ونحن نذكرها على ترتيب الحروف)

الألف

قال الوزير أبو علي بن مقلة : وهي شكل مركب من خط منتصب، يجب أن يكون مستقيما غير مائل إلى استلقاء ولا أنكباب . قال : وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر .

قال الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : وهى قاعدة الحروف المفردة ، وبقى الحروف متفرعة عنها ومنسوبة إليها .

ثم الذى ذكره صاحب " رسائل إخوان الصفا " فى رسالة المرسى ، عند ذكر حروف المعجم أستطرادا أن مساحتها فى الطول تكون ثمان نُقْط من نُقْط القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثمن الطول .

والذى ذكره الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : أنها مقدرة بست نقط .

والذى ذكره الشيخ زين الدين شعبان الآثارى فى ألفيته أنها مقدرة بسبع نقط ، فما زاد على ذلك كان زائدا عن مقدارها وما نقص كان ناقصا عنه .

قال ابن عبد السلام : وتكون النقطة مربعة . قال : ويكون ابتداءها بنقطة وآخرها بِسْطِيَّة .

قال ابن مقلة : وأعتبرها أن تخط إلى جانبها ثلاث أَلِفَات أو أربع أَلِفَات فتجد فضاء ما بينها متساويا .

قال ابن عبد السلام : وتكون تلك الألفات المخطوطة إلى جانبها مناسبات لها فى الطول متساويات الرؤوس والأذنان .

الباء

قال ابن مقلة : هى شكلٌ مرَّكَّب من خطين : منتصبٍ ومنسطح . قال : ونسبته إلى الألف بالمساواة .

قال ابن عبد السلام : ويكون المنتصب طوله بمقدار ثلث أَلِفِ خطّه . قال ويبدأ أوله بنقطة ، وكذلك آخره إن كان مُرَّسَلا ، فإن كان معطوفا فليكن بسنّ القلم

اليسرى، والمستدير فيه مثل المنتصب، ولكن يكون المنتصب أرجح من المستدير بزريسير؛ وتكون السّنة المبتدأ بها مترجحة في الطول على آخرها المعطوف .

قال ابن مقلة : وأعتبار صحته أن تزيد في أحد سنيها ألف فتصير لاما . وزاد ابن عبد السلام في إيضاحه فقال : أن تزيد المنتصب تكمة ألف بحيث يكون طول حملته كطول المنسطح لا أطول ولا أقصر . ثم قال : وهذا الحرف وما يجري مجراه من يمتة إلى يسرة، وكل ما كان كذلك فينبغي أن يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا . ولا يخفى أن التاء والثاء في معنى الباء في ذلك جميعه .

الجم

قال ابن مقلة : هي شكل مرّكب من خطين : مُنكَب ونصف دائرة؛ وقطرها مساوٍ للألف . وأبدل ابن عبد السلام المُنكَب بالمنسطح . ثم قال : والمنسطح كلُّي ألف من خطه، وربما يكون أنقص بنقطة . قال : ومساحة نصف الدائرة كألف ونصف ألف من قلم الكتابة، ورأسها يكون من يسرة إلى يمتة على استقامة تقريبا؛ وكل ما كان كذلك ينبغي أن يمال برأس القلم فيه إلى اليمنة قليلا، يبدأ أوله بشطية بالسّن اليمنى من القلم، وآخر تعريجها بالسّن اليسرى منه .

قال ابن مقلة : وأعتبار صحته أن تحطّ عن يمينها وشمالها خطين فلا تنقص عنهما شيئا يسيرا ولا تخرج .

وقال ابن عبد السلام : وأعتبار صحة رأسها أن تكتبه من يسرة إلى يمتة على استقامة تقريبا . قال : وحسنها أن تحفضها من الجهة اليمنى قليلا؛ وميزانها أن تُسطر سطرًا وتأخذ عليه من يسرة إلى يمتة مقدار ثلثي ألف من قلم الكتابة، بحيث لا يرتفع

أولها عن آخرها إلا يسيرا، ولا آخرها عن أولها بل تكون منسبكة فيه . واعتبار نصف الدائرة أن تقابله بنصف آخر فيصير دائرة . ثم قال : وليقصد أن يجعل رأس الجيم سـ واءً أخذاً ابتداء الدائرة في جسد ثلث الرأس، منسبكا فيه ، بحيث يكون الثلث ضلعاً واحداً .

ولا يخفى أن الحاء والحاء في معنى الجيم في جميع ما تقدم .

الدال

قال ابن مقلة : هي شكل مركب من خطين : منكب ومنسطح ، مجموعهما مساوٍ للألف . وجعل ابن عبد السلام منها شكلاً آخر مركباً من ثلاثة خطوط : منكب ، ومنسطح ، ومستدير . وكأنه يريد الدال المجموعة . ثم قال : فالمنكب طوله بمقدار نصف ألف خطه لا غير ، وكذلك المنسطح . وأبتداء أولها بنقطة ، وآخرها إن كان مرسلًا بقطعة ، وإن كان معطوفاً بسنن القلم اليسرى .

قال ابن مقلة : واعتبار صحتها أن تصل طرفيها بخط فتجده مثلثاً متساوي الأضلاع .

ولا يخفى أن الدال في معنى ما تقدم .

الراء

قال ابن مقلة : وهي شكل مركب من خط مقوس هو ربع الدائرة التي قُطرها الألف وفي رأسه سنّة مقدرة في الفكر .

قال ابن عبد السلام : وتبدأ أولها بنقطة ، وآخرها إن كان مرسلًا فبسنن القلم اليمنى ، وإن كان معطوفاً فبسننه اليسرى .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة .
ولا يخفى أن الزاى فى معناها .

السين

قال ابن مقلة : وهو شكل مركب من خمسة خطوط : متصب ، ومقوس ، ومتصب ، ومقوس ، ثم مقوس .

قال ابن عبد السلام : ومساحة رأس السين من أول سنّ منها إلى ثالث سنّ كلّى ألف خطّه . قال : ومساحة قوسها إن كان معطوفاً مساحة ألف من خطّه ، وإن كان مرسلًا مساحة ألفين من خطّه . وطول كل سنّة مثل سدس ألف خطّه ، يبدأ أولها بنقطة ، أما آخرها فإن كان مرسلًا فبسنّ القلم اليمنى ، وإن كان معطوفاً فبسنّة اليسرى . قال : وإذا ابتدأت بالسنّة وطلعت إلى الثانية فخذ إلى الثالثة من أعلاها ليصير بياض من أسفلها ، فإنك متى أخذت رأس سنّة من أسفلها صار أسفلها مصطحباً ، ويكون البياض الذى بين السنين على السوية فى البياض .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها يعنى صحة رأسها أن تميز بأعلاها وأسفلها خطين فلا تخرج عنهما شيئاً ولا تنقص .

ولا يخفى أن حكم الشين أيضاً كذلك .

الصاد

قال ابن مقلة : هى شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوس ، ومنسطح ، ومقوس .

قال ابن عبد السلام : وأبتدأوه بِشَطِيطَةٍ ، أما أنتهاؤه فإن كان مرسلًا فبسنّ القلم
اليمنى ، وإن كان معطوفًا فبسنه اليسرى . قال : ومساحة رأس الصاد في الطول
كُثْلِيّ ألف خطه ، ومساحة قوسها إن كان معطوفًا مساحة ألف الكتابة ؛ وإن كان
مرسلًا فمساحة ألفين من قلم خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تجعلها مربعة فتصير متساوية الزوايا في المقدار .
وقال ابن عبد السلام : أعتبر صحتها أن يكون أعلاها كراء معلقة ، والمنسطح
كباء ، والمقوس كنون ، ويكون رأس النون مُشْرِفاً على آخرها .

ولا يخفى أن الضاد كذلك .

الطاء

قال ابن عبد السلام : هو شكل مركّب من ثلاثة خطوط : منتصب ، ومقوس ،
ومنسطح ، يبدأ أوله بنقطة وآخره بنقطة . قال : ومساحة ضوء الطاء في الطول كُثْلِيّ
ألف خطّه .

قال ابن مقلة : وأعتبرها كأعتبر (١) .

وقال ابن عبد السلام : أعتبر صحتها أن يكون المنتصب كألف من خطه
في الانتصاب والطول ، والمقوس كراء معلقة ، والمنسطح كباء مرسل .
ولا يخفى أن حكم الطاء في ذلك كالطاء .

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة .

العين

قال ابن مقلة : وهى شكلٌ مرَّكَّب من خطين : مقوِّس ومنسطحٍ أحدهما نصف الدائرة .

وقال ابن عبد السلام : هى شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط : مقوِّس^(١) ، ومنكب ، يبدأ أوَّلها بِشِطِّيَّة ، وآخر تعريجها بِسَنِّ القلم اليسرى ، والتعريجة نصف دائرة ، ومساحة القوس كَألفٍ وثلاث من قلم الكتابة ، ومساحة الرأس فى الطول كَثَلَتَى ألف خطه ، ويصوَّر من رأسها رأس صاد .

قال ابن مقلة : وأعتبار صحتها كأعتبار الجيم .

وقال ابن عبد السلام : أعتبارها أن تخط عن يمينها خطأ من أعلاها إلى متنهى تعريجها فلا يقصر ظهر القوس عن يسارها يسيرا بنقطة تكون سدس ألف خطها لا غير .

ولا يخفى أن العين فى الحكم كذلك .

الفاء

قال ابن مقلة : هى شكلٌ مرَّكَّب من أربعة خطوط : منكَبٌ ، ومستَلَقٌ ، ومنتصب ، ومنسطح .

قال ابن عبد السلام : تبدأ أوَّلها بنقطة وتأخذ على سطر إلى جهة اليسار ، ثم تأخذ المستلقى إلى أن تنتهى إلى قُبالة المنسطح بحيث يصير كالبدال المقلوبة ، ثم

(١) لعله مقوِّسين . وفى الأصل تضييب إشارة إلى التوقف .

تأخذ من حيث انتهت إلى أن تَلَصَّقَ بالمنسطح فيبقى مثلثا متساوي الأضلاع،
مساحة ضوئه نقطة بمقدار سدس ألف خطه، ثم إن كان معطوفا ختمته بسنّ القلم،
وإن كان مرسلا فبقطته .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحته أن تصل بالخط الثاني منها خطا فيصير مثلثا
قائم الزاوية .

القاف

قال ابن مقلة : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكبّ، ومستقي، ومقوس .
قال ابن عبد السلام : هو مركب من أربعة خطوط ، رأسها كرأس الفاء سواء
بجميع ما تقدم، وإرسالها كالنون على ماسيأتي ذكره، فإن كان آخرها معطوفا فبسّنّ القلم
اليسرى، وإن كان مرسلا فبسّنّه اليمنى . قال : ومساحة ضوء القوس من أوله
إلى آخره إن كان معطوفا كألف قلم الكتابة، وإن كان مرسلا فكألفين .
قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها كأعتبر النون، وسيأتي ذكره .

الكاف

قال ابن مقلة : شكل مركب من أربعة خطوط : منكبّ، ومنسطح، ومتصّب،
ومنسطح .
وقال ابن عبد السلام : وهو مركب من أربعة خطوط، مستقي، ومنسطح،
طوله مقدار ألف وثلاث ألف من قلم الكتابة، ومنكبّ طوله مقدار ثلث ألف

من خطه ، ومنسطح ، طوله مقدار ألفين من خطه ، يفصل منتهى المنسطح ما بين المنسطحين .

قال : ولك أن تزيد الأسفل عن رأس الكاف بمقدار ثلث ألف الكتابة بسبب ما يتصل به ، فيصير فضاء ما بين ما اتصل بآخرها إلى رأس الكاف مثل الفضاء الذي بين المنسطحين .

قال : ولا يجوز أن تكتب مختلصة إذا لم يتصل آخرها بحرف ، بل إذا كانت آخر كلمة تكتب متصلة قائمة لا غير ، وتكتب إذا كانت متصلة كاللام على ماسياتي بيانه .

قال : وتبدأ أولها بشطية فإذا انتهت إلى اتصال رأسها بالمنسطح تشير بتدويرها دون تحديدها .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن يفصل منها ياءان . قال ابن عبد السلام : يعنى مستقيمة ومقلوبة .

اللام

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من خطين : متصِّب ، ومنسطح .

قال ابن عبد السلام : فالمنسطح ألف والمتصِّب ياء ، فإن كان معطوفاً فيسنّ القلم اليسرى ، وإن كان مرسلًا فبقطه .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تُخرج من أولها إلى آخرها خطا يُماس الطرفين فيصير مثلثًا قائم الزاوية .

قال : وتكتب على الأنواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء .

الميم

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من أربعة خطوط : مُنْكَبٌّ ، وَمُسْتَتَقٌّ ، وَمُنْطَاحٌ ، وَمُقَوَّسٌ .

وقال ابن عبد السلام : مرَّكَّب من أربعة خطوط : منكبٌّ ، ومقوَّسٌ ، ومستلقٍ بتقويسٍ ، ومقوَّس كالراء يكون ربع دائرة ؛ فإن كان آخرها متصفاً فهو في الوضع والطول مثل ألفٍ من خطه غير مائل إلى استلقاء ولا أنكباب ، تبدأ أول الميم بشظيةٍ وآخرها بشظيةٍ .

قال : ومساحة ضوئها مثل سدس ألف خطِّها ؛ وهو مستطيلٌ مستدير كالليضة منتصب إلى جهة اليمين .

قال ابن مقلة : وأعتبارها كأعتبار الهاء ، وسيأتي .

النون

قال ابن مقلة : هو شكل مرَّكَّب من خطِّ مقوَّسٍ ، هو نصف الدائرة ؛ وفيه سِنة مقدرة في الفكر .

قال ابن عبد السلام : يبدأ أوله بنقطة ، وآخره إن كان معطوفاً فبسنِّ القلم اليسرى ومساحة ضوئه ألف من قلم خطه ، وإن كان مُرسَلاً فبسنِّ القلم اليمنى ، ومساحة ضوئه ألفان من قلم خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبار صحتها أن يُوصَلَ بها مثلها فتكون دائرةٌ .

الهاء

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط ، منكَبٌّ ، ومتصِبٌّ ، ومقوَّس .

وقال ابن عبد السلام : من ثلاثة خطوط ، منكَبٌّ ، ومنسطح بترطيب ، ومستقلٍّ ؛ تبدأ أولها بنقطة وآخرها إرساله بسنِّ القلم اليمنى ؛ طول المنكَبِّ كطول نصف ألف من خطه ، وطول المنسطح كثلث ألف من خطه ، وطول المستقلِّ كنصف ألف قلم خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبار صحتها أن تجعلها مربعة فتساوى الزاويتان العُلَيَّان كَتَساوى الزاويتين السُّفْلَوَيْنِ .

وقال ابن عبد السلام : أعتبار صحتها أن تجعل ردَّتْها في ثلثيها ، فإذا كل وضعها فاجعلها مربعة فتساوى الزاويتان العاليتان والزاويتان السافلتان .

الواو

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط : مستقلٍّ ، ومنكَبٌّ ، ومقوَّس .

وقال ابن عبد السلام : هي مركَّبة من أربعة خطوط ، رأسها كرأس الفاء ، وتقويسها كالراء ، وهو ربع دائرة ؛ تبدأ أولها بنقطة ، وآخرها إن كان معطوفاً فيسنِّ القلم اليسرى ، وإن كان مرسلًا فيسنِّه اليمنى .

اللام ألف

قال ابن عبد السلام : هي شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط : منكبٌّ ، ومنسطح مستقيم ، ومستلق ؛ طول المنكبِّ كطول ألف من قلم الكتابة ، وطول المنسطح كثنائي ألف الكتابة ، وطول المستلق كطول ألف الكتابة ؛ تبدأ أوَّل المنكبِّ بنقطة ، وكذلك المستلق .

قال : وأعتبر صحتها أن يكون ثلثها من أسفلها والثلثان من أعلاها ، وأن تخط من رأس اللام إلى رأس الألف خطا مستقيما ، وأن تخط من أعلاها إلى أسفلها خطا فلا يقصر عنها ولا يخرج .

قال : ومنها نوع آخر مركب من ثلاثة خطوط : منكبٌّ ، ومستدير يقارب ألفا ، ومستلق يقابل طرفه طرف المنكبِّ .

الياء

قال ابن مقلة : شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط ، مستلقٍ ، ومنكبٌّ ، ومقوَّس . قال ابن عبد السلام : وهي كالنون ؛ وتبدأ أولها بشَطِيطَةٍ رأسها كدال مقلوبة ، طول المستلق منها كنصف ألف من خطه ، وكذلك المنكبُّ على ما تقدم في الدال . قال : والمقوَّس إن كان معطوفا فساخته كألف من خطه وآخره بسنَّ القلم اليسرى وإن كان مرسلا فساخته كألفين من خطه وآخره بسنَّ القلم اليمنى .

قال : ومنها نوع كرأس الكاف المستلق والمنسطح سواء .

قال ابن مقلة : وأعتبرها كأعتبر الواو .

الجملة الثانية

(في معرفة ما يقع به ابتداء الحروف وأتتهاؤها : من نُقْطَة أو شَطِيطَة أو غير ذلك)
أما الابتداء فعلى ثلاثة أضرب .

الضرب الأول

(ما يتبدأ بنقطة ، وهو تسع صور ^(١))

صورة الباء وأختها ، وصورة الدال وأختها ، وصورة السين وأختها ، وصورة
اللام ، وصورة النون ، وصورة العين وأختها . وقد جمعها السمرريُّ في أرجوزته
في أوائل كلمات بيت واحد ، وهو قوله :

إِذَا بَدَتْ دَعْدُ رَقَا سَنَاهَا * لِعَاشِقٍ نَاحَ عَلَى هَوَاهَا

على أن الشيخ شرف الدين بن عبد السلام قد وهم فعَدَّ منها الفاء ، وليس كذلك
بل هي مما يتبدأ بمخلقة ^(٢) على ماسياتي ذكره .

الضرب الثاني

(ما يتبدأ بشَطِيطَة ، وهو صُورَ خمسة أحرف)

الحاء ، والطاء ، والياء ، والصاد ، والكاف

وقد جمعها السمرريُّ في قوله : ”خطي يصك“ .

وجعل ابن عبد السلام الخمسة

الغين ، والطاء ، والحاء ، والكاف ، والصاد

(١) لم يصل العدد إلى التسع ولعله سبع وسقطت صورة الزاء وأختها كما يظهر بالتأمل في بقية الأضرب .

(٢) لعله بمخلقة .

وجمعها في قوله : ” غط خَصَّكَ “ وألحق بها أشباهها .

الضرب الثالث

(ما يتبدأ بحلقة ^(١) . وهو صور أربعة احرف)

القاف ، والمميم ، والواو ، والفاء

وقد جمعها السمرى في قوله : ” قُمْ وَفَّ “ .

وأما الاختتام فعلى ثلاثة أضرب أيضا :

الضرب الأول

(ما ينتتم بقطة القلم . وهو صور ستة أحرف)

الطاء ، والفاء ، والباء ، واللام ، والdal ، والكاف

وجمعها ابن عبد السلام في قوله : ” دَبَّ طِفْلُكَ “ ولا يخفى أن أخواتها في معناها .

الضرب الثاني

(ما ينتتم بشطية ؛ وهو صورة واحدة)

وهي الألف

الضرب الثالث

(ما يرسل في ختمه إرسالا ، وهو صورة أحد عشر حرفا ، وهي)

السين ، والراء ، والحاء ، والمميم ، والنون ، والياء ،

والعين ، والقاف ، والصاد ، والواو ، والهاء .

يجمعها قولك "سرح منيع وقصه".

الطرف السابع

(في مقدمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة ؛ وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في كيفية إمساك القلم عند الكتابة ، ووضعه على الورق)

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : يجب أن تكون أطراف الأصابع الثلاث :
الوسطى والسبابة والإبهام على القلم ، وإلى ذلك يشير أبو تمام الطائي بقوله :
وسدت * ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل *

أما قول القائل في وصف القلم أيضا :

وَذِي عَفَافٍ رَاكِعٍ سَاجِدٍ * أَخُو صَلَاحٍ دَمْعُهُ جَارِي
مَلَا زُمُ الْخَمْسِ لِأَوْقَاتِهَا * مُجْتَهِدًا فِي طَاعَةِ الْبَارِي

يريد بالخمس الأصابع الخمس ، فإنه على سبيل المجاز ، من باب مجاز المجاورة .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : وتكون الأصابع مبسوطة غير مقبوضة ،
لأن بسط الأصابع يتمكن الكاتب معه من إدارة القلم ، ولا يتكى على القلم الاتكاء
الشديد المضعف له ، ولا يمسكه الإمساك الضعيف فيضعف اقتداره في الخط ، لكن
يجعل آعتماده في ذلك معتدلا .

وقال حنون : إذا أراد الكاتب أن يكتب فإنه يأخذ القلم فيتكى على الحنصر ،
ويعتمد بسائر أصابعه على القلم ، ويعتمد بالوسطى على البنصر ، ويرفع السبابة على
القلم ، ويعمل الإبهام في دَوْرَانِهِ وتحريكه .

قال ابن مقلة: ويكون إمساك القلم فَوْيَقَ الفتحة بمقدار عَرْضِ شعيرتين أو ثلاثٍ؛
وتكون أطراف الأصابع متساويةً حَوْلَ القلم لانتْفُضِلَ إحداهن على الأخرى .
قال صاحب "الحلية": وتكون الأصابع على القلم منبسطة غير متقبضة لِيَتِمَكَّنَ
من إدارة القلم، ولا يدار حالة الاستمداد .
قال ابن العفيف: وعلى حسب تَمَكُّنِ الكاتبِ من إدارة قلمه وسرعة يَدِهِ
في الدَّوران يكون صفاء جوهر حروفه .

الجملة الثانية

(في كيفية الاستمداد، ووضع القلم على الدَّرَج)

أما الاستمداد فهو أصل عظيم من أصول الكتابة . وقد قال المقرّ العلّائي بن
فضل الله: من لم يُحَسِّنِ الاستمدادَ وَبَرَى القلمَ فليس من الكتابة في شيء .
قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: وإذا مدّ الكاتب فليكن القلم بين أصابعه
على صورة إمساكه له حين الكتابة، ولا يديره للاستمداد: لأن أحسن المذاهب فيه
أن يكون من يد الكاتب على صورة وضعه في الكتاب، ويحرك رأس القلم من باطن
يده إلى خارجها فإنه يمكن معه مقام القلم على نصبته من الأصابع، ومتى عدل عن
هذا لحِقَتْهُ المشقّة في ثقل نَصْبَةِ الأصابع في كل مدّة .
قال: وهذا من أكبر ما يحتاج إليه الكاتب، لأن هذا هو الذي عليه مدار
جَوْدَةِ الخط .

ثم قال: وَقَلِّمًا يُدْرِكُ علم هذا الفصل إلا العالمُ الحاذقُ بهندسة الخط، مع ما يكون
معه من الأناة وحسن التأدية .

ومن كلام المقرّ العلّائيّ بن فضل الله : ينبغي للكاتب أن لا يُكثر الاستمداد بل يمدّ مدّاً معتدلاً، ولا يحرك اللّيقة من مكانها، ولا يعثر بالقلم فإن ذلك عيب عند الكتّاب، ولا يردّ القلم إلى اللّيقة حتّى يستوعب ما فيه من المداد، ولا يدخل منه الدواة كثيراً، بل إلى حدّ شقّه، ولا يجاوز ذلك إلى آخر الفتحة : ليأمن تسويد أنامله، وليس ذلك من خصال الكتّاب .

وأما وضع القلم على الدّرج فقال أبو عليّ بن مُقْلَة : ويجب أن يكون أزلّ ما يوضع على الدّرج موضع القطعة منكباً .

الجملة الثالثة

(في وضع القلم على الأذن حال الكتابة عند التفكير)

قال محمد بن عمر المدائني : يُستحبُّ للكاتب في كتابته إذا فكّر في حاجة أن يضع القلم على أذنه، وساق بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أن معاوية بن أبي سفيان كان يكتب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فكان إذا رأى من النبيّ صلى الله عليه وسلم إعراضاً وضع القلم في فيه، فنظر إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : ”يا معاوية إذا كنت كاتباً فضع القلم على أذنك فإنه أذكرك وللهملي“ .

وساق بسنده أيضاً إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إليه وهو يكتب في حوائجه فقال له : ”ضع القلم على أذنك فإنه أذكرك“ . وأخرج أيضاً من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتابه ”ضع القلم على أذنك يكن أذكرك“ .

وفي رواية عن أنس : ”كان معاوية كاتباً للنبيّ فراه يوماً قد وضع القلم على الأرض فقال : يا معاوية إذا كتبت كتاباً فضع القلم على أذنك“ .

وأخرج أيضا "أن كعبا كان يتحدث عند عائشة، فذكر إسرائيل فقال : له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب مسرّب به والقلم على أذنه فإذا نزل الوحي جرى القلم ودرست الملائكة . فقالت عائشة : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ."

الطرف الثامن^(١)

(في ذكر قوانين يعتمدها الكاتب في الخط، وفيه ست جمل)

الجملة الأولى

(في كيفية حركة اليد بالقلم في الكتابة، وما يجب أن يراعى في كل حرف)
قال السمرري وأبن عبد السلام وغيرهما : كل خط منتصب ينبغي أن يكون الاعتماد فيه من القلم على سنيّه معاً، وكل خط من يمينه إلى يسره ينبغي أن يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا، وكل خط من يسره إلى يمينه ينبغي أن يمال رأس القلم فيه إلى اليمين قليلا، وكل شظية ينبغي أن تكون بالسنّ اليميني من القلم، وكل نقطة ينبغي أن تكون بسنّ القلم، وكل تععير كما في النون وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسنّ الأيمن وكل إرساله يجب أن تكون بسنّ القلم اليميني، وكل تعريج كما في عراقة الحميم والعين يجب أن يكون بسنّ القلم اليسرى، وكل ما أخذ فيه من يمينه إلى يسره كاللام ونحوها ينبغي أن يمال فيه رأس القلم إلى اليسرة قليلا، وكل ما أخذ فيه من يسره إلى اليمين كراس الحميم ينبغي أن يمال رأس القلم فيه إلى اليمين قليلا، وكل خط منتصب فيمينه أن يكون آتمائه إرساله، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سدس ألف خطها، وقيل مثل سبعة، وكل شظية في أول أو آخر مثل سبع ألف خطها .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : وللسنّ الأيمن من القلم الألف واللام ورفعة الطاء والنون والباء والكاف إذا كانت قائمة مبتدأة، وأواخر التعريقات والمذات

(١) تقدم أن الأطراف سبعة فهذا زائد عليها .

وطبقة الصاد والضاد، ومدة السين والشين، وللايسر الجيم وأختاها والزّادات
وتدوير رءوس الفاءات والقافات والهاءات والواوات والكافات المشقوقة .

قال : وكل ردة من اليسار إلى اليمين تكون بصدر القلم .

قال : ويجب أن تكون المطّات الطويلة بين القلم اليمنى 'مُشْطَاة' ممالة، فتكون
المطّة من رأس شطيّتها، وأن تُكتب المدّات القصيرة بحرف القلم، وإذا ابتدأ بالمدّة
وجب أن يُدار القلم على سنّه مثل مطّة الطاء، وإذا وصلت المطّة بحرفٍ مثلها كُتبت
بوجه القلم مثل مطّة الفاء المفردة . ثم قال : وهذا من أعظم أسرار الكتابة .

الجملة الثانية

(في تناسُب الحروف ومقاديرها في كل قلم)

قال صاحب "رسائل إخوان الصفا" : في رسالة الموسيقى منه : ينبغي لمن يرغّب
أن يكون خطّه جيّدا وما يكتبه صحيح التناسُب، أن يجعلَ لذلك أصلاّ يبنى عليه
حروفه : ليكون ذلك قانونا له يرجع إليه في حروفه، لا يتجاوزها ولا يقصر دونه .

قال : ومثال ذلك في الخطّ العربى أن تخط ألفا بأى قلم شئت، وتجعل غلظه الذى
هو عرضُه مناسبا لطوله وهو الثمن : ليكون الطول مثل العرض ثمان مرّات . ثم تجعل
البركار على وسط الألف وتدير دائرة تحيط بالألف لا يخرج دورها عن طرفيه، فإن
هذا الطريق والمسلك يؤصلان إلى معرفة مقادير الحروف على النسبة، ولا تحتاج
في مقاييسك ما تنقصده إلى شيء يخرج عن الألف وعن الدائرة التى تحيط به .

فالباء وأخواتها : كل واحدة منها يجب أن يكون تسطيحها إذا أضيفت إليه سنّها
مساويا لطول الألف، فإن زاد سمج وإن قصر قبح، ومقدار ارتفاع سنّها وجميع

السنن التي في السين والشين ونحوها لا يتجاوز مقدار ثمن الألف . والجيم وأخواتها مقدار مدتها في الابتداء لا يقصر عن نصف طول الألف .

وكذلك يجري الأمر في العين، والغين، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والراء والزاي : كل واحدة منها مثل ربع محيط الدائرة؛ والدال، والذال كل واحدة منهما يجب أن يكون مقدارها إذا أزيل الأثناء الذي فيها وأعيدت إلى النسطيح لا يتجاوز طول الألف ولا يقصر دونه .

والسين، والشين : كل واحدة منهما يجب أن تكون سننها إلى فوق مثل مقدار ثمن الألف، وفي العرض بمقدار نصفها، وفي التعريق مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف . والصاد، والضاد : مقدار عرض كل منهما في مداها مثل مقدار نصف الألف وفتحة البياض فيها مقدار ثمن الألف أو سدسها، وتعريقها إلى أسفل مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف .

والطاء، والظاء : كل واحدة منهما في ناحية يجب أن يكون مقدارها مثل مقدار جميع طول الألف وعرضه مثل نصف الألف . والعين، والغين كل واحد منهما مقدار تقويسه في العرض مثل نصف الألف أو مثل الألف إذا أعيدت إلى النسطيح وأزيل تنبيهه، وتقويسه من أسفل مثل نصف محيط الدائرة .

والفاء : يجب أن يكون تسطيحه إلى قدام بعد الطالع منه من فوق مثل طول الألف .

وحلقته وحلقة الواو والميم كلها إلى فوق مثل سدس الألف، وإلى أسفل في الميم . والواو : مثل الراء . والقاف تقويسها من فوق ينبغي أن يكون مثل سدس طول الالف، وتعريقها مثل مقدار نصف الدائرة .

والكاف : ينبغي أن يكون الأعلى منها طول الألف ، وفتحة البياض التي داخله مثل سدس طول الألف ؛ وتسطيحه من أسفل مثل أعلاه وكسرتة إلى فوق مثل نصف طول الألف .

واللام : يجب أن يكون مقدار طول قائمتها مثل الألف ، ومدتها إلى قدام مثل مقدار نصف الألف .

والنون : يجب أن يكون مقداره مثل نصف محيط الدائرة .

والياء : ينبغي أن يكون مبدؤه دالا مقلوبة لا تتجاوز مقدار طول الألف ، وتعريقها إلى أسفل مثل نصف محيط الدائرة .

ثم قال : وهذه المقادير وكيفية نسبة بعضها إلى بعض هو ما توجه قوانين الهندسة والنسبة الفاضلة ، إلا أن ما يتعارفه الناس ويستعمله الكتاب على غير ذلك .

وقد أشار الشيخ عماد الدين بن العفيف إلى ضوابط في ذلك على ما تقتضيه أوضاع الكتاب يجب الوقوف عندها فقال : وأعلم أن مقادير الحروف متناسبة في كل خط من الخطوط .

وأعلم أن صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري في ألفيته قد جعل طول الألف سبع نقط من كل قلم ، ومقتضاه أن يكون العرض سبع الطول .

ثم قال : إن ما زاد عن ذلك فهو زائد في الطول ، وما كان ناقصا عن ذلك فهو ناقص ، وعلى ذلك تختلف المقادير المقدرة بالألف من الحروف بنقص قدر الثمن من الطول .

فالألف واللام قدر سواء في كل خط ، وكذلك الباء وأختها ، والجيم وأختها ، والعين والغين قدر سواء ، والنون ، والصاد ، والضاد ، والسين ، والشين ، والقاف ، والياء المعرقة قدر سواء ، والراء ، والزاي ، والميم ، والواو قدر سواء .

قال : وكل عرابة بدأت بها في كل خط ما فعلى مثلها يكون انتهاؤها .

ثم قال : فتفهم هذا القدر فإنه كثيرا ما يختلط على الكتاب الخدائق .

وقد ذكر الشيخ شرف الدين بن عبد السلام من ذلك أضربا :

أحدها - ما هو متناسب الطول، وهو خمس صور : صورة الألف، وصورة اللام، وصورة القاف، وصورة التاء، وصورة الكاف ويجمعها قولك "الفتك" وفرع عليها أربع صور يجمعها قولك "بثمي" .

الثاني - ما يجوز مدّه من أول السطر إلى آخره وقصره ما شاء، ما لم يقصر عن طول الألف، وهي الباء، والكاف، واللام، ويجمعها قولك "بكل" ويتفرع عليها أخواتها .

الثالث - ما هو متناسب في المقدار، وهو ثلاث صور : يجمعها قولك "دليل" . والمنكب من الدال والمستلق منها والمنسطح والمستلق منها والمنكب من الياء بمقدار نصف ألف خطّه .

الرابع - ما هو متناسب المساحة في حال العطف والإرسال : وهي القاف، والسين، والباء، والياء، والضاد، ويجمعها قولك "قبس يض" وكل أخت تلحق بأختها .

الخامس - ما هو متناسب في الإرسال وهو الميم، والواو، والزاي، ويجمعها قولك "موز" .

السادس - ما هو متناسب في الضم والإرسال، وهو ست صور : هي الفاء، والقاف، والهاء، والميم، والواو، واللام، ويجمعها قولك "فقه مولا" .

السابع - ماهو متناسبُ ضوء الباطن ، وهو ثلاث صور : الصاد ، والطاء ،
والعين وأخواتها .

الثامن - ماهو متناسب الرؤوس ، وهو ثلاث : الصاد ، والعين ، والطاء ؛
ويجمعها قولك ”صعط“ ويلحق بها أخواتها .

التاسع - ماهو متناسبٌ في التعرّيج ، وهو العين ، والجيم ، ويجمعهما قولك ”عج“ .

الجملة الثالثة

(فيما يجب أعماده لكل ناحية من نواحي القلم)

قد تقدّم في الكلام على راية القلم أن للقلم سناً أيمنَ وسناً أيسرَ، وعرضاً،
ووجهاً، وصدرًا؛ وأنه يتعين على الكاتب معرفته كل واحد منها : ليعطى كل واحد
منها حقه في الموضع الذي يقتضيه الحال . وقد ذكر السمرريُّ في أرجوزته جملاً كلية
إذا عرفها الكاتب سهل عليه ما يرومه من ذلك فقال :

”إن كل خط متصّب الشكّل كالألف ونحوه يجب في كتابته الاعتماد على سنّ
القلم جميعاً، وكلّ خطّ أخذ من اليمين إلى اليسار يجب إمالة القلم فيه إلى اليسار شيئاً
يسيراً، وكلّ خطّ أخذ من اليسار إلى اليمين يجب إمالة القلم فيه إلى اليمين شيئاً يسيراً،
وكل نقطة يعتمد فيها بسنّه جميعاً، وكل شظية فإنها تُختلّس بسنّه اليمنى اختلاسا،
وكل إرساله تعقيب كما في الجيم والعين يُعتمدُ فيها على السن الأيسر، وكلّ تّعير كما
في النون يكتب بالسنّ اليمنى“ .

وأفصح عن ذلك الشيخ عماد الدين بن العفيف فقال :

إن للسنّ الأيمن الألف واللام، ورفعة الطاء، والنون، والباء، والكاف إذا كانت
قائمة مبتدأة، وأواخر التعريقات والمدّات، وطبقة خطة الصاد والضاد المستقلة،

وبدء السين والشين . وللسن الأيسر الجيم وأختيها ، والردّات ، وتدوير رؤوس الفاءات والهاءات والواوات والكافات المشقوقة^(١) . ثم قال : وكل ردّة من اليسار إلى اليمين تكون بصدر القلم .

الجملة الرابعة

(في الترويس)

والذي يدخله الترويس في الجملة الألف ، والباء ، والجيم ، والدال ، والراء ، والطاء ، والكاف ، واللام المجموعة ، ويختلف الحال في ترويسها وعدمه باختلاف الأقلام . فمنها ما يرؤس حتماً ، ومنها ما يمتنع فيه الترويس ، ومنها ما الكاتب فيه بالخيار بين الترويس وعدمه ، وربما رؤس بعض الحروف في بعض الأقلام ولم يرؤس في بعضها . ثم قد ذكر أهل الصناعة أن ترويس الألف كسبّه . وذهب ياقوت إلى الزيادة على ذلك ؛ وترويس الباء وأختيها بقدر نقطتين ؛ وترويس الجيم بقدر نصف نصبها ؛ وترويس الصاد والطاء كالسين ؛ وترويس الفاء والقاف كالباء . وسيأتى الكلام على ترويس كل حرف منها في قلمه إن شاء الله تعالى .

الجملة الخامسة

(فيما يُطمس من الحروف ويفتح)

وهي المعبر عنها بالعتد ، وهي صورة الصاد ، والطاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والميم والهاء ، والواو ، واللام ألف المخففة ، ويختلف الحال فيها :

(١) لعله المشكولة كما يستفاد من التعريف عن أشكال الحروف الآتى .

ففيها ما لا يُطَمَس بحال، وهي الصاد وأختها، والطاء وأختها، والعين المفردة والمبتدأة وأختها .

ومنها ما يطمس في بعض الأقلام دون بعض وهي : العين المتوسطة، والعين الأخيرة ؛ وكذلك الغين، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف .
وسياتى الكلام على ما يُطَمَس ويفتح من ذلك في كل قلم عند ذكره .
ثم الطمس فيما يُطَمَس منها على سبيل الجواز لاعلى سبيل اللزوم .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والرجوع في ذلك إلى قانون مضبوط، وهو أنه كلما غُلِظَتِ الأقلام كان الطمس فيها على خلاف الأصل، وكلما رَقَّتْ كان الفتح فيها على خلاف الأصل، وذلك أننا عدلنا عن الفتح إلى الطمس لأجل التلطيف .

الجملة السادسة

(في ذكر الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء في زماننا)

وسياتى في المقالة الثالثة في الكلام على ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق من الأقلام : أن المقر الشهابي بن فضل الله ذكر في ذلك خمسة أقلام، وهي : مختصر الطومار، والثُلث، وخفيف الثُلث، والتوقيع، والرقاع . مختصر الطومار لقطع البغدادى الكامل، والثُلث لقطع الثلثين، وخفيف الثلث لقطع النصف، والتوقيع لقطع الثلث، والرقاع لقطع العادة .

ويلتحق بالخمسة التي ذكرها ثلاثة أقلام أخر، وهي : الطومار الكامل، والمحقق، والغبار .

فالطومار : يكتب به السلطان علاماته على المكاتبات والولايات ومناشير الاقطاع .

والمحقق : أَسْتَحْدِثْتُ كِتَابَهُ فِي طُغْرَاوَاتٍ كُتِبَ الْقَانَاتُ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَالْغُبَارُ : يُكْتَبُ بِهِ بِطَائِقُ الْحَمَامِ وَالْمَلَطَّافَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا .

وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ الْمُسْتَعْمَلُ بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ فِي الْجُمْلَةِ ثَمَانِيَةَ أَقْلَامٍ : الطُّومَارُ ، وَخُصَرُ الطُّومَارِ ، وَالثَّلْثُ ، وَخَفِيفُ الثَّلْثِ ، وَالتَّوْقِيعُ ، وَالتَّوْقَاعُ ، وَالمُحَقِّقُ ، وَالْغُبَارُ .

وَقَدْ اختلفَ الْكُتَّابُ فِي تَسْمِيَةِ قَلَمِ الثَّلْثِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَقْلَامِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى الْكُتُّورِ كَالثَّلَاثِينَ وَالنِّصْفِ عَلَى مَذْهَبَيْنِ :

المذهب الأول - ما نقله صاحب "منهاج الإصابة" عن الوزير أبي علي بن مقله أن الأصل في ذلك أن لخط الكوفي أصلين من أربع عشرة طريقة ، هما لها كالحاشيتين : وهما قلم الطومار : وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شيء مستدير . قال : وكثيرا ما كُتِبَ بِهِ مَصَاحِفُ الْمَدِينَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَقَلَمُ غُبَارِ الْحِلْيَةِ : وهو قلم مستدير كله ليس فيه شيء مستقيم ، فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسباً مختلفة ، فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلث سمي قلم الثلث ، وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلثان سمي قلم الثلثين ، وعلى ذلك اقتصر صاحب "منهاج الإصابة" .

المذهب الثاني - ما ذهب إليه بعض الكُتَّاب أن هذه الأقلام منسوبة من نسبة قلم الطومار في المساحة ، وذلك أن قلم الطومار الذي هو أجل الأقلام مساحةً عَرْضُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْبُرْذُونِ كَمَا سَيَأْتِي ، وَقَلَمُ الثَّلْثِ مِنْهُ بِمِقْدَارِ ثُلَاثِهِ : وهو ثَمَانِ شَعْرَاتٍ ، وَقَلَمُ النِّصْفِ بِمِقْدَارِ نِصْفِهِ ، وهو اثْنَتَا عَشْرَةَ شَعْرَةً ، وَقَلَمُ الثَّلَاثِينَ بِمِقْدَارِ ثَلَاثِيهِ : وهو ثَمَانِ عَشْرَةَ شَعْرَةً . وَإِلَى ذَلِكَ كَانَ يَذْهَبُ بَعْضُ مَشَايِخِ الْكُتَّابِ الَّذِينَ أَدْرَكَاهُمْ ، وَعَلَيْهِ أَقْتَصَرَ الْمَوْلَى زَيْنُ الدِّينِ شُعْبَانُ الْآثَارِيُّ فِي أَلْفِيَّتِهِ .

وهذه صور حروف الأفلام السبعة التي تستعمل في ديوان الإنشاء ولوازمه وهي :
 الطومار، ومختصره، والثُلث، وخفيف الثُلث، والرَّقاع، والمحقق، والغبار في حالتها
 الإفراد والتركيب .

القلم الأول

(قلم الطومار بإضافة قلم إلى الطومار)

والمراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله ، وهو المعبر عنه في زماننا
 بالقرخة ؛ فأضيف هذا القلم إليه لمناسبة الكتابة به فيه . وقد تقدم أنه قلم جليل قدر
 الكتاب مساحة عرضه بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون ؛ وبه كانت الخلفاء
 تكتب علاماتهم في الزمن المتقدم في أيام بني أمية فمن بعدهم .

فقد حكى أحمد بن إبراهيم الدورقي في مناقب عمر بن عبد العزيز : أن عمر بن
 عبد العزيز أتى بطومار ليكتب فيه فامتنع وقال : فيه ضياع الورق وهو من بيت
 مال المسلمين ؛ وبالضرورة فلا يكتب في الطومار إلا بقلم الطومار ؛ وهذا دليل على
 أنه كان موجودا فيما قبله ، وأظنه من الأمور التي رتبها معاوية بن أبي سفيان ، إذ
 هو أول من قرّر أمور الخلافة ، ورتب أحوال الملك ، وبه استقرت كتابة ملوك
 الديار المصرية من لدن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون "وهلم جراً إلى زماننا .

قال صاحب "منهاج الإصابة" : ويكون من لبّ الجريد الأخضر ، ويُؤخذ منه
 من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأنامل . قال : ويمكن أن يكون من القصب الفارسي .

قلت : والذي استقر عليه الحال في كتابة العهود بالديار المصرية بقصب البوص
 الأبيض الغليظ الأنايب ؛ ينتقى قصبه من جزائر الصعيد بالوجه القبلي ؛ وفي كل سنة

يُحَظَرُ بِرَيْدِي بَطْلِبْ هَذِهِ الْأَفْلَامَ مِنْ وِلَاةِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ، وَيُؤْتَى بِهَا فَتَحْفَظُ عِنْدَ كَاتِبِ السَّرْوِيِّ بِرَيْدِي مِنْهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ^(١) يَوْضَعُ فِي دَوَاتِهِ بِقَدَرِ الْحَاجَةِ .

قَالَ فِي "مَنْهَاجِ الْإِصَابَةِ" : وَلَا يَدَّ فِيهِ ^(١) بِقَدَرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي حَجِّ الْقَلَمِ الْحَبْرَ فِي الْقُرْطَاسِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلْكَتَابِ فِيهِ طَرِيقَتَيْنِ :

إِحْدَاهُمَا - طَرِيقَةُ الثَّلَاثِ فَتَجْرَى الْحَالُ فِيهِ عَلَى الْمِيلِ إِلَى ^(١)

الثَّانِيَةِ - طَرِيقَةُ الْمُحَقِّقِ فَتَجْرَى الْحَالُ فِيهِ عَلَى الْمِيلِ إِلَى ^(١) بِطَرِيقَتَيْنِ ، وَكَيْفِيَّةُ تَشْكَلِ ^(١) وَالْفَاءُ وَالْقَافُ فِيهِ أَوْسَطُهَا لِحْدَهُ ^(١) مَدَوْرَةٌ

الْيَا ^(١) الْأَحْرَفُ كَمَثَلِهِ ^(١) الرَّابِعُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ صَادٌ مَدَوْرَةٌ ^(١) وَكَافٌ مَشْكُولَةٌ .

وَذَكَرَ الْمَوْلَى زَيْنُ الدِّينِ شُعْبَانُ الْآثَارِيُّ فِي أَلْفَيْتِهِ : ^(١) فِيهِ التَّرْوِيسُ فِي الْأَلْفِ، وَالْبَاءِ، وَالْجِيمِ، وَالْدَّالِ ^(١) وَاللَّامِ وَالنُّونِ فِي الْإِفْرَادِ وَالتَّرْكِيبِ عِنْدَ الْإِبْتِدَاءِ وَأَنَّهُ ^(١) الطَّمَسُ فِي شَيْءٍ مِنْ عَقْدِهِ كَالصَّادِ، وَالطَّاءِ، وَالْقَافِ، وَالْقَافِ، وَالْمِيمِ، وَالْهَاءِ، وَالْوَاوِ، وَاللَّامِ أَلْفُ الْمُحَقَّقَةِ بِحَالٍ، وَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ الطَّمَسَ لَا يَلِيقُ بِالْخَطِّ الْجَلِيلِ .

(١) وَقَعَ طَمَسٌ بِالْخَبْرِ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ فِي مَوَاضِعَ .

وهذه صورة كتابة أسم السلطان في المكاتب والولايات وغيرها منسوباً للسلطان

السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون

صورة ما يكتب في جليل المكاتب

الحسين محمد

صورة مايكتب في متوسطات المكاتب

هذا هو محمد

صورة ما يكتب في صغار المكاتب



وهذه صورة كتابة العلامة على المناشير للإقطاع لمن علامته
الله أملى بياء راجعة

للسلام

القلم الثاني

(قلم مختصر الطومار)

بإضافة قلم إلى مختصر، وربما قيل فيه مختصر الطومار بحذف المضاف؛ وهو الذى يكتب به فى قطع البغدادى الكامل .

وقد ذكر المولى زين الدين شعبان الآثرى فى ألفيته : أن مقدار مساحته ما بين كامل الطومار وبين قلم الثلثين، وحينئذ يكون مقداره ما بين عرض ست عشرة شعرة من شعر البردون وبين أربع وعشرين شعرة؛ والحامل له على ذلك أن أعلى ما وضعوه من الأقلام المنسوبة لكسر من الكسور قلم الثلثين، وهو عرض ست عشرة شعرة؛ فلو كان مرادهم بمختصر الطومار هذا المقدار، لعبروا عنه بقلم الثلثين دون مختصر الطومار، فتعين أن يكون فوق ذلك ودون الطومار الكامل، فيكون ما بين عرض ثمان عشرة شعرة وعرض أربع وعشرين شعرة .

ثم هذا القلم يجوز أن يكتب به على طريقة الثالث فى الميل فى حروفه إلى التقوير وعلى ذلك يكتب كتاب ديوان الإنشاء فى عهد الملوك عن الخلفاء، والمكاتبة إلى القانات العظام من ملوك بلاد الشرق . ويجوز أن يكتب به على طريقة المحقق فى الميل فى حروفه إلى البسط كما فى الطريقة الثانية من قلم الطومار، وسيأتى ذكر شكل الثالث فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولا يخفى أن هذا القلم بالنسبة إلى الترويس وعدم الطمس على ما تقدم فى الطومار للحوقه به فى الجلالة وسعة مساحة العرض .

وهذه صـ

فصل في

— سورة كتابة — هـ

سورة كتابة

القلم الثالث

قلم الثلث

بإضافة قلم إلى الثلث، ويقال فيه الثلث بجذف المضاف وهو الذي يُكْتَب به في قَطْع الثلثين .

وقد تقدم اختلاف الكُتَّاب في نسبته هل هو باعتبار التقوير والبسط أو باعتبار أنه ثلث مساحة الطومار، من حيث إن عَرَض الطومار أربع وعشرون شعرةً من شعر البرذون، وعرض الثلث ثمانُ شعرات وهي الثلث من ذلك؛ وقَطَّة هذا القلم محترفة : لأنه يحتاج فيه إلى تشعيرات لانتأني إلا بحرف القلم، وهو إلى التقوير أميل منه إلى البسط، بخلاف المحقق على ما سياتي ذكره، والترويس فيه لازم .

وقد ذكر المولى زين الدين شعبان الآثاري في ألفيته : أنه يروى فيه من الحروف الألف المفردة، والجيم وأختاها، والطاء، والكاف المجموعة، واللام المفردة، والسنة المبتدأة، وعقده من الصاد وأختها، والطاء وأختها، والعين وأختها، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة كلها مفتحة لا يجوز فيها الطمس بحال . وهو على نوعين :

النوع الأول

(الثلث الثقيل)

وربما قيل فيه ثقل الثلث ، وهو المقدرة مساحته بثمان شعرات على ما تقدم ذكره، وهذه صورته مفردة ومركبة .

الألف على ضربين مفردة ومركبة، فالمفردة على ثلاثة أنواع .

الأول - الألف المطلق

أ

وطريقه : أن تبتدىء فيه بصدر القلم من قفا الألف ، ثم تصعد إلى هامتها فإذا بلغتها نزلت بعرض القلم إلى وجهه ، ثم تنزل بوجه القلم معتمدا في نزولك على السن اليمنى حتى إذا بلغت شاكلة الألف أدرت القلم برفق حتى تختمه بحرفه .

الثاني - المشعر

ج

وطريقه : كالذى قبله إلا أنه إذا جئت آخر الألف عطفت ذنبها ويكون موصولا بغيره ، فإن لم يوصل بغيره فالغالب أن يكون مطلقا .

الثالث - المحرف

ح

وطريقه : أن يبدأ فيه من هامة الألف بوجه القلم فتضعه على تحريفه وتنزل به مستويا ، حتى إذا بلغت شاكلته أدرت حرف القلم على مامضى من الشرط في المطلق والمشعر .

الضرب الثاني

(المرَّكَّب مع غيره من الحروف)

ولا يكون إلا طرفاً أخيراً، إذ لا يوصل بما بعده، لأن الألف مطيَّة يُرَكَّب عليها
ولا تَرَكَّب، وطريقه أنك تصعد به بعد تمام الحرف الذي قبله بصدر القلم عكسا
لنزولك بالألف المحرَّف، فإذا بلغت هامة الألف وقفت بالقلم حتى يكون بمنزلة
رأس الألف المحرَّف.

وكذلك يفعل في اللام الطالع، وهذه صورته .

الطالع

الصورة الثانية

(صورة الباء)

وهي على ضربين

الضرب الأول

المفردة

وهي ثلاثة أنواع : مجنوعة، وموقوفة، ومبسوطة . ولك في ابتدائها في الثلاث
الصور وجهان : إن شئت بدأت من قفاها بتشعيرة على ماضئ من صفة الألف
المطلق، وهو مذهب الأستاذ أبي الحسن، وإن شئت بصدر القلم . ثم لكل صورة
منها طريقة تخصها .

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم حتى إذا بلغت فتلة الباء وهى الإدارة الخفية التى تجمع بين الخط القائم والمبسوط ، فقلت القلم ومططت الباء بصدره ، حتى إذا صرت إلى آخرها ختمت بحرف القلم الأيمن ، ونثرت يدك برفق حتى ترفع ذنب الباء ، حتى يجىء رأسها فى نهاية الدقة .

المجموعة



وأما الموقوفة : فطريقها كطريق المجموعة فى جميع ما تقدم ، إلا أنك إذا بلغت المكان الذى ترفع فيه من ذنب المجموعة ، وقفت فيه بعرض القلم فتأتى مطة محرفة كتحرير القلم .

الموقوفة



وأما المبسوطة^(١) :

المبسوطة



وأما المركبة^(٢) : فعلى نوعين : متوسطة ومتطرفة .

فأما المتوسطة : فلها حالان .

أحدهما - أن يكون قبلها وبعدها مثلها ، فتكون الوسطى مرتفعة على أخواتها . وإذا رفعتها أكثر من أخواتها ، رجعت فى خط يلاصقها . وهذا فى كل حرف صغير كالنون ، والباء ، والتاء .

الثانى - أن لا يكون قبلها وبعدها مثلها ، فهى كإحدى السنوات .

(١) لم يتكلم عليها . (٢) هذا هو الضرب الثانى من ضربى الباء وهى المركبة .

وأما المتطرفة : فلها حالان أيضا .

أحدهما - أن تكون مبتدأة : وهي التي تكون في أول الكلمة ، فطريقها أن تبدأ فيها بعرض القلم تحذرا من يمينك إلى يسارك ، وهي تصحب الجيم وأختها .
 الثاني - أن تكون في آخر الكلمة ، وتكون محذوفة الرأس للتركيب كرأس السين المبسوطة ، وتكون صورة مثلتها كصورة المفردة سواء في جميع أحوالها : في الجمع والبسط والوقف ؛ وهذه صورتها .

مركبة مبسوطة

مركبة موقوفة

مركبة مجموعة



النصورة الثالثة

(صورة الجيم وما شاكلها)

وهي على أربعة أضرب : مرسلة ، ومسبلة ، ومجموعة ، وملوزة ؛
 وأبتداء جميع الصور على وجهين ، من رأسها ومن جبهتها .

فأما المبتدأة من رأسها فيخير الكاتب فيها بين أمرين : إن شاء جعلها جزا ، وإن شاء جعلها مشعرة ، فإنها يبدأ فيها بصدر القلم ، وهو مذهب الأستاذ أبي الحسن ، والمشعرة يحطفها بحرف القلم أو بصدده على ما مضى ؛ فإذا بلغت جبهتها أدت بحررت بوجه القلم ، وأنت في الجزة بالخيار : إن شئت جئت بها على خط مستقيم ، وإن شئت رطبته شيئا يسيرا ؛ فإذا بلغت قفاها ، كنت أيضا بخيرا : إن شئت رجعت في الخط الذي جئت فيه ، وإن شئت رجعت في خط تحته يلاصقه بصدر القلم ؛ فإذا وصلت تحت هامة الجيم أدت القلم على تحريفه فترلت بعرضه حتى إذا بلغت آخر عجز الجيم ختمتها بحرف القلم . ولا يخرج صدر الجيم عن الخط الموازي

لجبهتها، كما لا يجوز أن يخرج طَرَف ذَنبها عن الخط الموازى لِقَفَّها، حتَّى لو نصب عليها خطوطا لناسبت أعاليها أسافلها، وهذه صورتها .

مفردة مرسلّة



وأما المسبلة : فإنها كالمرسلّة في الصورة والصفة، والفرق بينهما أنك في المرسلّة إذا بلغت الصدر ونزلت فيه، أسبلت ذنبها، وهذه صورتها .

مفردة مسبلة



وأما المجموعة : فإنها كالمرسلّة أيضا في جميع أوصافها ويزيد عليها أنك إذا وفيت بها على ماضئ من صُفّة المرسلّة رددت ذنبها على عجزها فصارت هنالك دائرة، وهذه صورتها .

مفردة مجموعة



وأما الملوّزة : فلها لا تكون إلا قبل الألف، وطريقها أن تبدأ بعرض القلم من تحت الألف فيما تقدّر، فإذا بلغت جبهة الجيم، جررت بوجه القلم جرةً مبطنّة حتّى يصير البياض الأوسط لَوَزةً محققة، فترفع الألف مع جبهة الجيم وتبقى تحت ذنب الألف بقية رأس الجيم، وهذه صورتها .

مبتدأة مركبة ملوّزة

ح

وزاد المتأخرون صورة أخرى تسمى الرتقاء، وصورتها أنك تبدئ برأس واو من واوات الثلث مفردة، وتكون مرتفعة الرأس بقدر نقطة من نقط الخط، ثم تكمل عليها بقية العمل المتقدم ذكره على الثلاث حالات المتقدمة في الباب، وهي المرسلة والمسبلة، والمجموعة، وهذه صورتها .

رتقاء مجموعة

رتقاء مسبلة

رتقاء مرسلة

ح

ح

ح

وزاد المتأخرون صوراً أخرى في التركيب: وهى ثلاث: أولى، ووسطى، وأخيرة .
أما الأولى: فأبتداء العمل فيها كابتداء العمل فى الثلاث حالات الأول، ثم تكمل
بالحرف الذى تريد، وهذه صورتها .

مركبة مبتدأة محققة

حم

وتارة تكون ملوزة وهى التى تصحب الألف وما شابهها كالـدال، واللام،
واللام ألف، وقد صوروها مع الألف فتقاس على ما عداها .

وهذه صورتها مع اللام	وهذه صورتها مع اللام ألف	وهذه صورتها مع الدال
مركبة مبتدأة ملوزة	مركبة مبتدأة ملوزة	مركبة مبتدأة ملوزة
مع شبه الألف	مع شبه الألف	مع شبه الألف

حل حلا حد

وأما المتوسطة: فالعمل فيها كالعمل فى المبتدأة المحققة المركبة كما تقدم ولكن
بغير ترويس، وهذه صورتها .

مركبة متوسطة محققة

ح

وأما الأخيرة: فالعمل فيها كالعمل في الثلاث حالات الأول: المرسلة، والمسبلة،
والمجموعة، ولكن بغير ترويس، وهذه صورها .

مركبة مختمة بمجموعة

مركبة مختمة مسبلة

مركبة مختمة مرسلة



الصورة الرابعة

(صورة الدال وأختها)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

ولها صورة واحدة، وهي شكل مُثلَّث على زاوية واحدة، ويجمع طرفها جميعا يسيرا،

وهذه صورتها :

مفردة



الضرب الثانى

المركبة

ولها أربعة أشكال : مجموعة ، ومبسوطة ، ومخطوفة ، ومقطوفة .

أما المجموعة : فإنك ترفعها بعد فراغك من الحرف الذى قبلها ، ولك فى ذلك مذهبان :

أحدهما - مذهب الوزير أبى على بن مقله^(١) .

والثانى - مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البواب ، وطريقه أن ترفعها مائلا إلى اليسار ميلا خفيفا .

ثم على كلا المذهبين ترجع بخط يلاصق الخط الذى صعدت به وبظهر القطة فى الانتهاء ، وتأتى بالعراقة على شكل عراقة الدال المفردة فى الجمع ، وهذه صورتها :

مجموعة مركبة

د

وأما المبسوطة : فحكها فى جميع صفاتها حكم المجموعة ، إلا أنك إذا نزلت فى المبسوطة إلى العراقة وفتلتها ، أرسلت العراقة بعرض القلم ، وهذه صورتها :

مركبة مبسوطة

د

(١) لم يبين طريقه ولعله سقط من قلم الناسخ فحرر .

وأما المخطوفة : فهي كالمجموعة أيضا ، إلا أنك تخطفها بحرف القلم وتختتمها بأدق ما تقدر عليه من النحافة ، وهذه صورتها :

مركبة مخطوفة

د

وأما المقطوفة : فهي كالمخطوفة ، إلا أنك بعد الفتلة تَبْقِي لها ذنباً صغيراً بحرف القلم وهذه صورتها :

مركبة مقطوفة

د

الصورة الخامسة

(صورة الراء وأختها)

وهي على ضربين : مفردة ، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

ولها ثلاثة أشكال : مجموعة ، ومبسوطة ، ومقورة ؛ وأبتدأوها في جميع الصور على وجهين .

أحدهما - أن تبدأ من قفاها صاعداً إلى هامتها ثم تنزل إلى وجهها .

والثاني - أن تبدأ بها حذاً من رأسها ، وهو مذهب الأستاذ أبي الحسن بن البواب .

ثم لكل واحدة منها بعد ذلك عمل يخصها . فأما المجموعة فطريقها أن تبدأ فيها بوجه القلم وتنزل على خط الاستواء بقدر ربعها ، ثم تدير القلم وتبدأ في العراقة بصدر القلم ، ويكون تنزلك إياها أكثر صبا من الباء المفردة قليلا ، فإذا عرقت مثل ما نزلت به أولا على خط الاستواء نثرت يدك بالقلم إلى فوق وأنت تريد ذات اليمين بإشارة لطيفة ، ويكون ختمها بسن القلم اليمنى ، وهذه صورتها :

مفردة مجموعة



وأما المبسوط : فطريقها أن تنزل بها على ما ذكرناه ، وترسل ما عرقت منها على ما تقدم في الدال المجموعة وتنقص منها النثرة الأخيرة ، وتحدد طرفها ، وهذه صورتها :

مفردة مبسوط



وأما المقورة : فطريقها أن تنزل بأقل مما ذكرناه شيئا يسيرا ، وهذه صورتها :

مفردة مقورة



الضرب الثاني

المركبة

ولها أربعة أشكال : مخطوفة، ومقطوفة، وبراء، ومدغمة .

فأما المخطوفة : فهي كالمقورة في الصورة، غير أن عراقمتها بحرف القلم؛ وهذه

صورتها :

مركبة مخطوفة

س

وأما المقطوفة : فإنك تُبقي لها ذنباً صغيراً، وهذه صورتها :

مركبة مقورة

س

وأما البراء : فإنك تقطفها من الثلاثين فتحذف ثلثها وتأتي بها مستدقة الطرف ،

وهذه صورتها :

مركبة مقطوفة

عس

وأما المدغمة : فإنها تصلح بعد كل حرف وتقبل بعد المد، وسميت مدغمة مجازاً

وإلا فالحرف الذي قبلها هو الذي يدغم فيها، لكنهم لما حذفوا منها شيئاً لقبوها بذلك ،

ولا بُدَّ أن تحذف من الحرف الذي قبلها شيئاً من آخره وتحذف منها شيئاً من أولها .

وثُبِّقَ من كل واحد منهما ما يدل عليه ؛ وهذه صورتها :

مركبة مدغمة



الصورة السادسة

(صورة السين)

وحكمها في حالتى الأفراد والتركيب سواء، غير أنها في حالة الأفراد تزيد العراقة ، وعراقتها كعراقة النون في الجمع والبسط والتقوير ؛ وسيأتى الكلام على ذلك في حرف النون إن شاء الله تعالى .

ثم هى على نوعين : محققة ، ومعلقة .

فأما المحققة : فلها شكلان ، مُظْهَرة ، ومدغمة .

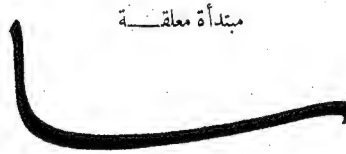
فطريق المظهرة أن تبدأ بوجه القلم ثم تدير القلم منها إلى أختها إدارة لطيفة في نهاية الاعتدال ، وتحدد رأس الثانية بسن القلم اليمنى ، ويكون الذى بين الأولى والثانية أقل مما بين الثانية والثالثة ، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البواب . وإذا كان قبلها شيء يكون سواء ، ويجوز أن تكون مصدرة مقلوبة ؛ وهذه صفتها :

محققة مظهرة



وأما المعلقة : فصفتها أنك تحذف السين حذفاً وتقيم جرّةً مقامها، وتبدأها بوجه القلم عاملاً إلى آخرها .

هذا إذا كانت مبتدأة، فإن كانت متوسطة، فالأولى أن تكون محققة، ولا بد من جرّ فوق المعلقة نقطت أو لم تنقط، وهذه صورتها :



وتحسن قبل الكاف المشكولة وقبل الألف، ولا تكون قبل الصاد والعين والكاف المعرّاة، وقيل إنها لم ترفى خط أبى البوّاب إلا مفردة .

الصورة السابعة

(صورة الصاد)

والكلام في عراقتها كالكلام في عراقة السين : من الجمع، والبسط، والتقوير، وسيأتى الكلام على ذلك في حرف النون .

نعم لا تكون عراقتها إلا حديدة الطرف في جميع صورها، ولا يجوز فيها الوقف بحال . أما نفس الصاد فلها شكل واحد، وهي تقارب التلويزة . وللناس فيها مذهبان : الأول إظهار مبدأ الصاد تحت رأس العراقة، والآخر إخفاؤه، وفي كلا المذهبين لا بد من ظهور رأسها شيئاً يسيراً . فإن كانت متوسطة، فيكون رأسها بحرف القلم

محدد الطرف .. وإن كانت مفردة أو متطرفة فإنها تكون عريضة الرأس بوجه القلم .
وإذا ركبت على خط قبلها، لا يكون خطأ على خط ولا يظهر أكثر من خط واحد،
وهذه صورتها :

مجموعة

ص

الصورة الثامنة

(صورة الطاء وأختها)

وهي ثلاثة أنواع : موقوفة، ومرسلة، ومحقة
فأما الموقوفة : فطريقها أن تبدأ بها على صورة الألف المطلق . فإذا وفيت به،
رجعت طالعا من تلقاء ذنب الألف حتى تقارب شاكلته، فترجع إلى يمينك، فتركب
عليه شكلا على صورة اللوزة، وتخرج ذنب اللوزة من تحت الألف وتقف عليه
بعرض القلم فتظهر القطعة، وهذه صفتها .

مفردة موقوفة

ط

وأما المرسلة : فهي على نحو ما تقدم في الموقوفة غير أن الجزة السفلى هاهنا مبطنة،
وفي الموقوفة على خط مستقيم، وهذه صفتها .

مفردة مبسوطة

ط

وقد اختلف الكُتَّاب في رأس الطاء، فكان بعضهم يذهب أن يكون على طَرَف اللُّوزة من غير ركوب عليها، وهو أحد المذاهب فيها .

قال الشيخ أبو القاسم : سألت بعض مشايخي عن "طى" كيف يكون وضع الياء فيها ؟ بحضرة جماعة من الكُتَّاب، فقال : تُكْتَب طاء جيدة بعدها ياء حسنة، فقلت : الحمد لله الذى أبقي على جديد الأرض من يُحَسِّنُ صفة الخط بمثل هذا الضبط . فلما أردت الانصراف أشار إلى أن أجلس فجلست حتى آنصرف القوم، فقال : قد كنتُ سألتُ عنها شيخنا أبا الحسن بن هلال فقال لى : إذا فرغت من الطاء فاحذف رأس الياء وألصق قفا الياء بَدَنِ الطاء، ثم تممها على مذهبك فى الياء أثنى شئتَ، ولا تخرج صدر الياء من تحت رأس الطاء . وعلامة صحتها أنك إذا حذفت لوزة الطاء بقيت فى نهاية الصفحة إن كان بعدها ياء . وإن كان بعدها واو بقيت أيضا فى نهاية الكمال .

قال الشيخ أبو القاسم : فينبغى أن يكون رأسها فى آخر اللوزة، ولا يكون مربكا على ظهرها لانه إذا تركب بطل هذا القياس .

وأما المحققة : فإنك تبدأ فيها على صورة اللام المبتدأة المعلقة، ويأتى الكلام على ذلك فى حرف اللام إن شاء الله تعالى .

وأكثر ما تستعمل هذه الطاء إذا كانت مشعرة بألف قبلها وألف بعدها فستحسن، وهذه صفتها .

متوسطة بين قائمين

طا

وأعلم أنه لا بدّ للطاء من مدّة قبلها تركب عليها، ويكون طرفها ينتهى إلى تحت رأس الطاء من غير زيادة ولا نُقصان، ويجوز في طَرَف هذه المدّة الجمع وعدمه، وكلا المذهبين حسن .

الصورة التاسعة

(صورة العين وأختها، ولها حالان)

الحال الأول : أن لا تكون متصلة بما قبلها، وهى على نوعين : ملوّزة، ومركّبة .
فأما الملوّزة : فإنك تبدأ فيها من رأس العين بحرف القلم فى غاية الدقة، حتّى إذا وصلت إلى هامتها، مكّنت إدارة قلمك فصرت عاملاً بوجهه إلى قَمَحْدُوَةِ العين فتصير على صورة اللوزة؛ وتكون هذه العين قبل الهاء المدغمة؛ وهذه صفتها .

ملوّزة

ع

وتكون أيضا قبل هاء الردف؛ وهذه صورتها .

ملوّزة مع هاء الردف

عه

وأما المركبة : فهى مركبة من راءين محققة ومعلقة ، وأبتدأوها على ما تقدّم فى الملوّزة؛ غير أنك إذا صرت إلى هامتها وأدرت القَمَحْدُوَةَ، نزلت على خطّ مستقيم أو قريب من الاستقامة . والذى وجد بخط الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب على

الاستقامة ، وهذه العين لا يكون بعدها إلا حرف طالع كالألف واللام وما جرى مجراهما ، وهذه صفتها .

مركبة ونعيلة

ح

وكثير من الكُتّاب يخطونها مع ما قبلها كالجماعة والبضاعة ، فإنهم يردّون من الألف إلى العين جرة مبطنة يجعلونها عالية العين ، وهي مستحسنة ، ولا بدّ لها من ألف قبلها وحرف طالع بعدها ، وهذه صفتها .

مردوفة ومشكولة

ح

الحال الثاني : أن يكون قبلها شيء متصل بها ، وتسمى المربعة ، وهي على نوعين : منوّرة ، ومطموسة .

فأما المنوّرة : وتسمى المحققة ، فإنك إذا خرجت من الحرف الذي قبلها أتبعته خطا محدودبا مبطنا إلى يسارك بصدر القلم ، ثم حررت عالية العين بوجه القلم ثم على الجرة الأولى جرة تناقضها مثلها في القدر والمساحة بقطع الخط الأول ، ثم إن كانت معرقة عرقت . وإن كانت غير ذلك اتبعها ما بعدها .

وعلاوة صحتها أن تلتبس البياض الذي في وسطها فإن تناسبت زواياه فهو في غاية الصحة وقد تم تركيبها، وإلا فتحرر حتى يصح ما رسم؛ وهذه صفتها .

مربعة مفتوحة

عد

وأما المطموسة ، وتسمى المعلقة ولا تكون إلا في قلم التوقيعات والرقاع ، فصفتها أن تكون وقصاء غير مفتوحة ، ولا يجوز فيها من العراقات غير المجموعة ، وهذه صورتها .

معلقة مطموسة

عد

ثم إن كانت معرقة مفردة أو مركبة ، فالعراقة على ثلاثة أنواع : مسبلة ، ومرسلة ، ومجموعة ، كعراقات الجيم .

فأما المسبلة : فإنك إذا نزلت من ظهرها أسبلت العراقة فتكون أكثر من نصف الدائرة ، ولا يخرج الصدر عن الرأس ولا الظهر عن القمَّحْدُوَّة ، بل يكون كل واحد منهما مساويا لما فوقه ، غير زائد عليه ولا ناقص عنه . وكان الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله يقول : ” المرء على ترك شيء مما يعملُه أقدرُ منه على تكلف شيء لم يعتده ” . ويأمر الطلبة بإخراج دَنَبِ العين من تحت صدرها ؛ وهذه صورتها .

مفردة مسبلة

ع

وأما المرسلة : فإنك تأتى بالعراقة نصف دائرة محققة ، وتتأمل فيها من المسامطة ما وصف في المسبلة والمسبلة تكون حديدة الطرف ، والمرسلة يجوز فيها التحديد والوقف ، والتحديد مذهب الأستاذ أبي الحسن بن البواب ؛ وهذه صورة التحديد ، وهذه صورة الوقف .

مفردة مرسلة



وأما المجموعة : فإنها كالمرسلة أيضا في جميع أوصافها ، وتريد عليها أنك إذا وقَّيت بها على ما مضى من صفة المرسلة ، رددت ذنبها على عجزها فصارت هنالك دائرة ، وهذه صفتها .

مفردة مجموعة



الصورة العاشرة

(صورة الفاء)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فعلى ثلاثة أقسام : مجموعة، ومبسوطة، وموقوفة. وقد تقدم الكلام على هذه العراقات في حرف الباء، فأغنى عن إعادته هنا، وهذه صفة العراقات الثلاث.



وأما المركبة : فإنها تكون مقلوبة ، وذلك أن بياضها يكون الحاد منه في ملتقى الخطين اللذين يتقاطعان في ذهابها ومجيئها ، ويكون عرضه عند هامتها ، وهذه صفة المتوسطة .

متوسطة

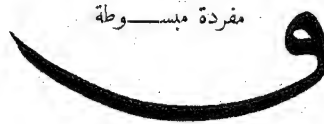


الصورة الحادية عشرة

(صورة القاف)

وهي على ضربين أيضا : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فحكم رأسها حكم الفاء، وحكم عراقتها حكم النون، وستأتي، غير أنها تكون مفردة مبسوطة وهي مستحسنة بخلاف النون ، وهذه صفتها .



وأما المركبة : فإنها كالفاء في جميع ما تقدم، فلا حاجة إلى تمثيلها .

الصورة الثانية عشرة

(صورة الكاف)

وهي على ثلاثة أنواع : مبسطة ، ومشكولة ، ومعزاة ؛

ولكل واحدة منها موضع يخصها

فأما المبسطة : فتكون مفردة ومركبة ، وإفرادها قليل ؛ والمركبة منها موضعها
الابتداءات والوسط ، ولا تكون طرفاً أخيراً بحال ؛ وطريقها أن تبدأ فيها بصدر القلم
من رأسها حتى ترد جبهتها فتخط عاليتها بوجه القلم وتقتل على هذا المنهج إلى المطّة
السفلى ، وتمطها بصدر القلم وتقط ذنبها ؛ وتوشى في عاليتها أن تكون على خط مستقيم
لتجعلها قالباً للمطّة السفلى ؛ وأعتبر صحتها باعتبار البياض الذى فى وسطها إذا استقام
استقامت ؛ وهذه صورتها فى الإفراد ، والتركيب ، والابتداء .

متوسطة مبسطة

مبتدأة مبسطة

مفردة مبسطة

ك ك ك

وأما المشكولة : فلا تكون إلا مركبة ؛ وموضعها الابتداءات والوسط ، ولا تنفرد
البتة ؛ وتكون على هيئة شق لوزة فإن وصلت بألف أو لام تدين وتخرج الحرف
الذى يكون بعدها من تحت رأسها أصلاً لأن الكاف المبسطة والمشكولة لا يجوز

أن يأتي بعدهما مدة، وإنما سميت مشكولة للجزء التي عليها، وهذه صورتها في الابتداء وفي الوسط .

متوسطة مشكولة

مبتدأة مشكولة

ك ك

وأما المعزاة : فلا تكون إلا طرفاً أخيراً وهي في الصورة والشبه كاللام المطلقة، والفرق بين اللام والكاف المعزاة أن القائم من الكاف ثلثا المبسوط، والمبسوط من اللام كالقائم فيها، وهذه الكاف لا تجمع أبداً، فإن موضعها أواخر السطور؛ وهذه صفتها .

مفردة معزاة

ل

الصورة الثالثة عشرة

(صورة اللام)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهي على نوعين : مجموعة، ومطلقة

فأما المجموعة : فطريقها ان تبدأ من قفاها على نحو ما وصف في الألف المطلق
 لأن الألف واللام يجريان على نظام واحد في كل خط لأنهما صاحبان، كالباء والتاء،
 وكالحاء والخاء، وكالعين والغين . فإذا وصلت إلى شاكلته عرقت اللام عراقية
 أكثر حُدُورا من الباء، وجمعت ذنبها كما تقدّم في حرف الراء، وهذه صفتها .

مجموعة

مطلقة

ل ل

الضرب الثانى

المركبة

وهى على قسمين : محققة ، ومبتدأة معلقة .

فأما المبتدأة المحققة : فهى كالمرسلة غير أنها محذوفة المطة لأجل التركيب ؛
وهذه صفتها .

مبتدأة محققة

ل

وأما المبتدأة المعلقة : فتتزل فيها بعرض القلم مائلا من يمينك إلى يسارك ، وهى
تختص بثلاثة أحرف من سائر الحروف وهى الجيم ، والحاء ، والخاء ، ويكون مبتدؤها
يوازى قفا الجيم من غير زيادة ولا إشارة إلى العراقة ؛ وهذه صفتها :

مبتدأة معلقة

لحا

الصورة الرابعة عشرة

(صورة الميم)

وهي على خمسة أضرب : محققة ، ومعلقة ، ومسبلة ، ومبسوطة ، ومفتولة .

الضرب الأول

المحققة

وهي على نوعين : مبتدأة ، وغير مبتدأة

فأما المحققة المبتدأة : فإنها كثيرا ما تصحب اللام ، وصفتها إذا أردت^(١) وضعها أنك إذا صرت إلى آخر الحرف الذي تريد منه الميم المحققة ، تميل فيه يسيرا ثم ترجع بخط آخر بجواره طالعا فيه ، ثم تعرق كتعريق الميم المعلقة ؛ وهذه صفتها .

مبتدأة محققة

وكان الشيخ عماد الدين بن العفيف إذا آتته من الحرف الذي قبل هذه الميم ، يقف فيه ثم يبدأ من يمينه براء مدغمة ؛ وهذه صفتها .

محققة مختمة

(٢)

وأما المحققة غير المبتدأة :

(١) في العبارة شيء يظهر للتأمل . (٢) سقط الكلام عليها من النسخة .

الضرب الثانى

المعلّقة

وهى على نوعين، مبتدأة، وغير مبتدأة

فأما المعلقة المبتدأة : فإنها لاتحسن إلا مشعّرة مع ما قبلها ، ولا تكون إلا قبل الألف ؛ وهذه صفتها .

معلقة مبتدأة

ما

وأما المعلقة غير المبتدأة : فإنها تختص بالبسملة على مذهب الحنّاق .

وطريقها : أنك إذا مططت إلى آخر المطّة ، رجعت بالميم فى الخط الذى جئت فيه ، حتّى إذا بلغت هامتها فارقت ذلك الخط لثلاثىء منافرة ؛ فإذا وصلت إلى جهة الميم ، عرّقتها على ما رسم فى الرء المجموعة والمقورة والمبسوطة والمخطوفة .

وكان الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب لا يفردّها ؛ وهذه صفتها .

معلقة مختمة

س

وأما المعاقبة المبتدأة : فإنك تبدأ فيها كابتداء المحققة ، فإذا بلغت قتلها ألصقت مدتها بقفاها ، والأولى أن تكون مطموسة ، فإذا بلغت جبهتها عرقت كتعريق الراء المدعومة ، لا يستعمل فيها غير ذلك ، وهذه صفتها .

معلقة مبتدأة



الضرب الثالث

المُسبلة

ولا بأس بتركيبها وأفرادها ، غير أنك إذا وصلت إلى جبهتها أسبلت عراقه كهيئة الألف . لاى من فوق ، وتكون حديدة الطرف ، وهذه صفتها .

مركبة

مفردة مسبلة



الضرب الرابع

المبسوطة

وهي كالمحققة ، وهي مفردة ، وهذه صفتها .

مبسوطة



الضرب الخامس

المفتولة

وأكثر مواضعها بعد الهاء المدغمة على مذهب الحدّاق. وبعض الكتاب يميزها مع غير الهاء، والأول أجود .

وطريقها أنك إذا جئت بها بعد الهاء المدغمة تقوّس بصدر القلم ثم تنزل بقدر ما قوّست، ثم تدير الميم عن يمينك وتردّ إلى يسارك شكلا مدوّرا، وتعرّفها على ماتقدّم في المعلقة والمحقة، وهذه صفتها .

مفتولة



الصورة الخامسة عشرة

(صورة النون)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأوّل

المفردة

وهي على أربعة أنواع : مجموعة، ومقوّرة، ومبسّطة، ومدغمة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بوجه القلم على خطّ مستقيم . فإذا نزلت منها بمقدار ما ينزل من الباء وبلغت الفتلة، أدّرت القلم برفق من الفتلة بصدر القلم،

ثم تصير العراقة جمعا بصدر القلم ، حتى إذا بلغت ذنبها ختمت بحرف القلم ؛
وهذه صفتها .

مفردة مجموعة



وأما المقورة : فإنها تكون كنصف دائرة ، ويكون ذنبها موازيا لرأسها من غير زيادة
عليه ؛ ويجوز أن يكون ناقصا عنه شيئا يسيرا ، وذلك قليل ؛ وهذه صفتها .

مفردة مقورة



وأما المبسوطة : فأكثر ما تكون متطرفة ولا تكون مفردة بحال . وطريقها أنك
إذا نزلت على ما وصف في المجموعة وبلغت بها الفتلة وأدرت صدر القلم إلى العراقة ،
جعلتها قطعة قوس من دائرة عظمى ، حتى يكون فيها تبطين يسير ، وتختمها بحرف
القلم ، ولا يجوز في شيء من مبسوبات العراقة أن يكون مرفوعا ؛ ولا يجوز أن يكون
إلا حديد الطرف ؛ وهذه صفتها :

مفردة مبسوطة



وأما المدغمة : فإنها لا تنفرد البتة ؛ ولا تحسن إلا مع ثلاثة أحرف ، مع الميم وهي
كثيرة المؤاخاة لها ، ومع الكاف ومع العين .
وكان بعض الكتاب يأبى إدغام النون ويكرهه ، إلا الأستاذ أبا الحسن بن البواب .

ولا يتقدم هذه النون من سائر الحروف إلا ثلاثة أحرف : الميم المعلقة من سائر الميمات، والعين الملوّزة : وهى الصادية من أشكال العين خاصة، والكاف المشكولة من أشكال الكاف خاصة .

وطريقها أنك إذا بلغت قفا الميم أو صدر العين أو قاعدة الكاف، صببت النون صباً فى عَرَض اللام المبتدأة المعلقة، فإذا صببت ثلثها، ختمت العراقة على مارسم فى الرء المدغمة وعراقة الميم المدغمة؛ وهذه صورها :

مدغمة مع العين

مدغمة مع الكاف

مدغمة مع الميم

م ك ع

الصورة السادسة عشرة

(صورة الهاء)

وهى على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهى على نوعين : معرّاة، ومركبة

فأما المعرّاة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم ثم تنزل إلى عجزها ميلاً إلى ذات اليمين شيئاً يسيراً، ثم تفتل إلى قاعدتها بصدر القلم إلى صدرها، ثم تصعد بمثل ما كنت آنحدرت به من وجهها إلى قفاها، وهذه صفتها .

معرّاة

هـ

وأما المركبة : فهي في الصورة قريبة من المُعْتَزَّة إلى صدرها ؛ فإذا بلغت صدرها وأنت طالع إلى وجهها ، رفعت به عرض القلم وأخرجت وجه الماء إلى قفاها ؛ والكاتب مخير بين التقليل والكثير في ذلك . ويكون الطرف الخارج إلى قفاها محدداً ؛ وهذه صفتها :

مركبة



وإنما سميت مُرَكَّبَةً وإن كانت مفردة مجازاً للتركيب طرفها وإلا فالمراد بالمركب كيفاً وقع في المصطلح المختلط بغيره .

الضرب الثاني

المركبة

وهي على قسمين

القسم الأول

المشقوقة

وهي على ستة أنواع : ملوزة ، ووجه الهرم ، ومشقوقة طولاً ،

ومشقوقة عرضاً ، ومختلصة ، ومدعمة .

فأما الملوزة : فتكون مبتدأة ، ومتوسطة ، ولا تتأخر بحال . فإن كانت مبتدأة فطريقها أن تبدأ بصدر القلم مقدار نصف الماء المفردة ، ثم تدير القلم من يسارك إلى يمينك حتى إذا وصلت إلى المكان الذي آبتدأت منه أدت إلى يمينك أيضاً حتى يصير مركز نصف دائرة محققة لطيفة بصدر القلم ، وتقف عليها وقفة خفيفة ، ثم تنزل بوجه القلم من غير إدارة حتى تصير إلى المكان الذي آبتدأت منه أولاً ، فيصير رأس الماء حاداً في الغاية .

ومذهب الأستاذ أبي الحسن أن يكون النصف الأعلى أصغر من النصف الأسفل
بجزء يسير ، وهذه صفتها .

مقورة

ها

وإن كانت متوسطة : فهي غير مستحسنة إلا قبل الألف ، وطريقها على ما تقدم
ولها حكم : وهو أنك تجيء بالخط الذي قبلها حتى يشقها متصلا بالألف ، حتى لو
طرحت الهاء لاتصل الألف بما قبله مستغنيا عن الهاء كما ركبت من فوقه تركيبا ،
ويكون هذا العمل في كل حرف يقع معها ؛ وهذه صفتها .

مقورة مستديرة

ها

وأما وجه الهر : فتكون أيضا مبتدأة ، ومتوسطة ؛ ولا يجوز تأخيرها . وطريقها
في الابتداء والتوسط أنك تبدأ من رأسها بوجه القلم معتدل النزول شيئا قليلا ، ثم تردّها
عن يمينك إلى يسارك صاعدة معتدلة ، ثم يصير جميعها دائرة على مركّين ، فإذا بلغت
المكان الذي ابتدأت منه تكففتها طولا حادارا من أن يقع فيها حوّل ، وهو أن يكون
أحد شقيها أوسع من الآخر . وكثيرا ما يكون شقها بحرف القلم إذا كانت متوسطة .

فإن كانت مبتدأة فشققها بوجه القلم .

وهذه صورتها في التوسط

وجه الهر متوسطة

وهذه صورتها في الابتداء

وجه الهر

هـ

وأما المشقوقة طولا : فإنها لا تكون إلا متوسطة ؛ ولا يجوز تقديمها ولا تأخيرها ؛ ولا تصحب من حروف المعجم غير اللام وحدها ؛ وطريقها كطريق وجه الهر ، ويقترقان في القاعدة فتكون قاعدتها مستديرة ، وتكون اللام نازلة عليها من فوقها ؛ وعلامة صحتها أنك إذا حذفت الهاء صارت اللام متصلة بما بعدها كأنما زيدت الهاء عليها ؛ وهذه صفتها .

مشقوقة طولا

هـ

وأما المشقوقة عرضا : فلا تكون إلا صحبة اللام أيضا ؛ وطريقها أنك إذا نزلت باللام معتدلة ، أدت الهاء فأصعقتها بوجه اللام وشققت الهاء عرضا ، ولا بد من مدة لطيفة تكون بعدها ؛ وهذه صفتها .

مشقوقة عرضا

هـ

وأما المختلّسة : فإنها لا تكون إلا مبتدأة ، ويكون بعدها من الحروف حروف المدّ واللين : وهى الألف ، والواو ، والياء ؛ وهى مطموسة ؛ وهذه صفتها .

مختلّسة

هى

وأما المدغمة : فلا تكون إلا متوسطة ؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها أدت منه إدارة لطيفة ، ونزلت بها نزلة إلى ذات اليمين ، ثم صعدت فى خط يلاصق الخط الذى هبطت فيه من غير وخز يكون بينهما ؛ وتكون مطموسة أيضا ولا يكون أسفلها أوسع من أعلاها بل يكون أعلاها أوسع شيئا يسيرا ؛ ويتوحد فيها الترطيب : وهو شدة الاستدارات ، ففى كان العمل فيها يابساً كان رديئاً ؛ وهذه صورتها :

مدغمة

مها

القسم الثاني

ما يقع في آخر الكلمة وهي على نوعين

هاء الرِّدْف، والمُخَفَّاة

فأما هاء الردف : فطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذي قبلها طلعت فيه بصدر القلم، ثم نزلت في الخط الذي صعدت فيه .

هذا مذهب الأستاذ أبي الحسن بن البواب .

ومذهب الوزير أبي علي بن مقلة أن تنزل في خط يلاصق الخط الذي صعدت فيه ، وكلاهما مستحسن ؛ فإذا بلغت ثلثي ماصعدت به جئت بصدر القلم إلى وجه الهاء ولا تخرج رأسها إلى قفاها البتة ؛ وهذه صفتها :

مردوفة

ه ه

وأما المُخَفَّاة: فأكثر ما تصحب الحروف القصار ، وهي يمين أليق ؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذي قبلها أدت منه إلى الهاء إدارة لطيفة مهللة ، ثم تأتي بنصف راء مدغمة حديدة الطَّرف مخطوفة ؛ وهذه صفتها :

مخطوفة

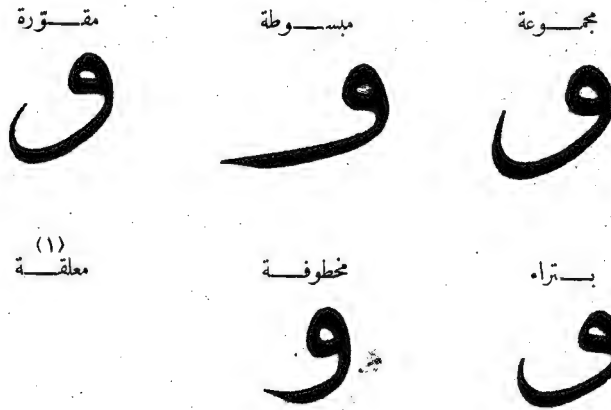
س

الصورة السابعة عشرة

(صورة الواو)

ونظيرها في التركيب الفاء، وفي الإفراد القاف، لكن القاف أكبر مساحة من الواو، وتكون على خمسة أنواع : مجموعة، ومبسوطة، ومقورة، وبتراء، ومخطوفة؛ ويكون ذلك في الإفراد والتركيب .

وكان بعض الكتاب يجعلها معلقة كالراء المدغمة لأنها قدرها . وقد تقدم أن الراء والزاي، والميم، والواو قدر سواء في كل خط .



الصورة الثامنة عشرة

(صورة اللام ألف)

ولها ثلاث صور : محققة، ومخففة، ووراقية

فأما المحققة : فلا تكون إلا مفردة ولا يجوز تركيبها بحال ؛ وطريقها أن تبدأ بوجه القلم ثم تنزل به على تلك الصورة، ثم تفتل إلى قاعدتها بوجه القلم، ثم ترفع القلم

(١) لم يضع لها رسماً في الأصل .

وقد بَطَّنتَ قلبك فصيرت بطنه مما يلي يمينك وظهره عن يسارك؛ ويكون قدر الألف واللام قدرا سواء في الطول والالتواء والغِلَظِ والنَّحَافَةِ؛ ويكون ما بينهما كواحد منهما؛ وتكون القاعدة على هيئة رأس الفاء المبسوطة لكنها مقلوبة؛ وهذه صورتها:

محققة مفردة

وأما الخففة : فيجوز فيها التركيب والإفراد وكلاهما مستحسن جيد . وصورتها في التركيب كصورتها في الأفراد؛ وطريقها أن تأتي بلام معلقة على ما تقدم في اللام المعلقة في حرف اللام، ثم ترمى عليها ألفا معوجةً إلى ذات اليمين ويكون ذنب الألف موزونا على الخط الذي لامست به الحرف الذي قبل اللام إن كانت مركبة؛ وهذه صفتها :

مخففة مركبة

وإن لم تكن مركبة فتشعرهما معا؛ وهذه صورتها في الأفراد :

وأما الوراقية : فإنها كالمحققة ، فإذا كتبت اللام ركبت عليها الألف وأخرجتها عنها، ثم صيرت لها منها قاعدة مثلثة حادة الزوايا، والأولى أن تكون مفردة .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولا يكون هذا الشكل إلا في قلم
النسخ وما شاكله وفي قلم المحقق وما شابهه ؛ وهذه صفتها :

وراقية

لا

الصورة التاسعة عشرة

(صورة الياء)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهي على ثلاثة أنواع : مجموعة، ومقوّزة، ومبسّطة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بصدر القلم فتعمل رأسها دالا مقلوبة وصدرها
أيضا دالا مستوية، فإذا تركبت الدالان جررت العراقة، وعلامة صحتها أن تكون
الدالان صحيحتين كما تقدّم . وإذا ركبت خطأ من ذنبها إلى صدرها، صار صادًا
جيدًا، وهذه صفتها :

مفردة مجموعة

ى

وأما المقورة : فبدؤها كبدء المجموعة ، غير أنك إذا وصلت إلى صدرها عرقت نصف دائرة ؛ ويكون ذنبها يحاذي صدرها ؛ وتكون حديدة الطرف ؛ ولا يجوز فيها الوقف ولا الجمع ؛ ويكون رأسها موزونا على صدرها ، لا يجاوزها ، سواء انفردت أو تركبت ؛ وهذه صورتها :

مقورة



وأما المبسوطة : فعلى ما تقدم في المقورة ؛ وتفارقها من الصدر فتكون العراقة قطعة قوس مهللة ، وتكون حديدة الطرف ولا يجوز فيها الوقف ؛ وهذه صورتها :

مبسوطة



الضرب الثاني المركبة

وهي على ثلاثة أنواع : مبتدأة ، ومتوسطة ، ومتأخرة

فأما المبتدأة والمتوسطة : فحكمهما حكم الباء ، والتاء ، والنون ؛ وما شابهها .

وأما المتأخرة : فعلى ثلاث صور ، محققة ، وراجعة ، ومعلقة .

فأما المحققة: فعلى ما تقدم أولا، غير أنك تحذف رأسها للتركيب؛ وهذه صورتها:

محقة

فى

وأما الراجعة: فتختص ببعض الكلم دون بعض: كالفاء، واللام، وهى مع الفاء أكثر استعمالا.

وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها بطشه شيئا يسيرا وجئت برأس كرأس الياء، ويكون فيها شيء من تبطين، ثم تجز القلم إلى ذات اليمين جرة معتدلة في التكيف، فإذا بلغت ثلاثة أرباعها أدت القلم برفق، ولا تظهر الإدارة، ثم تمر وأنت مديراً لقلمك حتى تختتمها بحرف القلم في نهاية الدقة والتحديد؛ وهذه صورتها:

راجعة

و

وأما المعلقة: فتكون على صورة اللام المجموعة واللام المرسله؛ وهذه صفتها:

معلقة

و

النوع الثاني

قلم الثلث الخفيف

ويقال فيه خفيف الثلث، وهو الذى يكتب به فى قَطْع النصف، وصوره كصور الثلث الثقيل المتقدمة الذكر لا تختلف، إلا أنه أدق منه قليلا وألطف مقادير منه بنزير يسير .

قال الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ : والفرق بينه وبين الثلث الثقيل أن الثقيل تكون متصباته ومبسوطاته قدر سَمْع تُقَطُّ على ما فى قلمه، على ما تقدم، والثلث الخفيف يكون مقدار ذلك منه خمس نقط . فإن نقص عن ذلك قليلا، سُمي القلم اللؤلؤى .

القلم الرابع

قلم التوقيع

بإضافة قلم إلى التوقيع، سُمي بذلك لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهور الصّص، ويقال فيه قلم التوقيعات على الجمع أيضا، وقد يقال فيه التوقيع والتوقيعات بحذف المضاف إليه . ثم هو على نوعين .

النوع الأول

قلم التوقيع المطلق

وهو الذى يكتب به فى قَطْع الثلث، وقد تقدم أن أول من اخترعه يوسف أخو إبراهيم الشجرى، وأن ذا الرياستين: الفضل بن هارون أعجب به، وأمر أن تحزّر الكتابة السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسى، ولعله إنما سُمي الرياسى لما تقدم من اختصاص الكتب السلطانية به أخذًا من الرياسة، وقواعد حروفه وأوضاعه فى الأصل قواعد قلم الثلث إلا أنه يخالفه فى أمور .

أحدها - أن قَطَّته إلى التدوير أميل ، بخلاف الثلث فإن قَطَّته إلى التحريف أميل . وذلك أن التوقيع امتلاء حروفه على السواء بخلاف الثلث ، فإن فيه تشعيرات تحتاج إلى التحريف .

الثانى - أن حروفه إلى التقوير أميل من الثلث ، وإن كان فى الثلث ميل إلى التقوير فإنه لا يبلغ فى ذلك مبلغ التوقيع .

قال لى الشيخ عبد الرحمن المَكْتَبُ^(١) الشهير بابن الصائغ : ويكون فى سطره تقوير ما على نسبة تقوير حروفه .

قال الشيخ زين الدين شعبان فى ألفيته : وتكون متصباته مرسومة كما فى الثلث . قال لى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ المَكْتَبُ : ويموز ترك الترويس فى بعض حروفه .

قال الشيخ زين الدين شعبان الآثرى : ويخبر فيه بين الطمس والفتح فى العين المتوسطة ، والفاء ، والقاف ، والميم ، والواو ، وعقدة اللام ألف المحققة . وخص الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ طمس العين بالآخرة .

قال الشيخ زين الدين شعبان الآثرى : ويختص من الحروف الزائدة على الثلث ، بالراء المقورة ، والراء البترء ، والراء المخطوفة ، والواو المقورة ، والواو البترء ، والواو المخطوفة ، والعين البترء ، وسيأتى ذكرها عند تشكيل الحروف فيما بعد . إن شاء الله تعالى .

(١) قال فى الصحاح للجوهري : والمَكْتَبُ الذى يعلم الكتابة ، قال الحسن : كان الحجاج مَكْتَبًا بالطائف يعنى معلما . وفى المصباح كتبت الغلام تكتيبا علمية الكتابة . [ففيه لغتان] .

حرف الألف

مركب

ا

محرف

ا

مشم

ا

مطلق

ا

الباء

مبسوطة

ب

موقوفة

ب

مجموعة

ب

مركبة مبتدأة . مركبة متوسطة

ب

مدغمة مبسوطة

ب

مدغمة مجموعة

ب

مركبة مبسوطة

عب

مركبة موقوفة

ف

الجيم

مرسلة

ح

مسبلة

ح

مجموعة

ح

رتقاء مفردة عرسلة

ح

رتقاء مقوَّرة مسبلة

ح

رتقاء مفردة مجموعة

ح

مركة مبتدأة ملوَّزة

ح

رتقاء مبتدأة

ح

مركة متوسطة

ح

مركة مختتمة عرسلة

ح

مركة مسبلة

ح

مجموعة

ح

الدال

مركبة مجموعة	مختلطة	مفردة مجموعة
عد	د	د
مركبة مشعرة	مركبة مخطوفة	مركبة مختلطة
هد	حد	عد

الراء

مفردة مبسوطة	مخطوفة	مقوورة
ر	ر	ر
مركبة مدغمة	مركبة مبسوطة	مفردة مدغمة
عر	حر	ر
مركبة مجموعة	مفردة مجموعة	
صهر	ر	

السين

مبسوطة

مجموعة

مخسوفة

س س س

مخسوفة

متوسطة

مبتدأة مركبة

ساحس عس

مفردة معلقة

مطرقة مجموعة

مطرقة مبسوطة

عس عس س

مركبة متوسطة معلقة

مركبة مطرقة معلقة

عس حسا

الصاد

مبسوطة

مجموعة

مخسوفة

ص ص ص

مطرقة مخسوفة

متوسطة

مبتدأة

صا ص ص

مطرقة مبسوطة

مطرقة مجموعة

فص فص

الطاء

مركبة ملفوفة

مفردة موقوفة

مفردة مرسلة

طا

ط

ط

مبتدأة مبسوطة

متوسطة لقائمين

متوسطة لمبسوطين

طس ططا طسط

مطرفة موقوفة

مطرفة مرسلّة

وط وط

العين

مرسلّة

مسبلة

مجموعة

نعلية بينها منتصب

ع ع ع عا

نعلية بينها ما هو في حكم المنتصب

صادية بينها مبسوط

صادية بينها ما هو في حكم المبسوط

ع ع ع عم

مولفة مع الإفراد

مولفة مع التركيب

بستاء

ماح صالكا حح

الفاء

مجموعة

موقوفة

مبسوطة

ف ف و

مبتدأة

متوسطة

متطرفة مجموعة

فر فر فر

مطرفة موقوفة

مطرفة مبسوطة

ف ف

القاف

مفردة مجوعة محسوفة مبسوطة

ف ف ف

مطرفة مجوعة مطرفة محسوفة مطرفة مبسوطة

حو حو حو

الكاف

مجموعة مفردة موقوفة مبسوطة

ل ل ل

مشكولة مبتدأة متوسطة مبسوطة مبتدأة

كا مكلف كبا

وسطى

مشكولة مبتدأة

متوسطة

ملكه كه هكه

مبسوطة

منزول عليها

مشكولة مركبة مطرفة مجموعة بزورقها

اسك عك حط

اللام

يخرج منها قاف على طريقة يا قوت

يخرج منها نون على رأى ابن البواب

مفردة

ل لى لى

مطرفة

وسطى

مركبة مبتدأة

أوياء على طريقة ابن العفيف

لى لى لى لى

الميم

مبتدأة مشعرة

مسبلة

مخطوطة

مفردة

ما م م م

مسبلة ملوزة

مسبلة ملفوفة

وسطى محققة

وسطى مقلوبة

ما ما م م

النون

وسطى

مختلطة

مدغمة

مفردة مجموعة

ن ن ن ن

مختلطة

مدغمة

مركبة مطرفة مجموعة

ن ن ن

الهاء

مركبة مبتدأ ملوزة

مفردة مثلثة

مفردة مربعة

هـ

هـ

هـ

طالعة

مدغمة

وجه المهر

هـ

هـ

هـ

مردوفة

محققة

محدودة

مخطوفة

هـ هـ هـ هـ

الواو

مبسوطة مفتوحة

مجموعة مفتوحة

مبسوطة مشدودة

مجموعة مشدودة

و و و و

بـتراء

مخلوطة متوارة

مقوارة

و و و

اللام الف

مركبة محققة

مرشوفة مفردة

محققة مفردة

لا لا حلا علا

الياء

راجعة

مركبة

مفردة مجموعة

ي ي ي

مركبة مبسوطة

مركبة مجموعة

مبتدأة ثم وسطى

لب في في

مركبة مبسوطة

مركبة مخسوفة

مركبة راجعة

ي في ي

القلم الخامس

من الأقلام المستعملة بديوان الإنشاء

قلم الرقاع

بإضافة قلم إلى الرقاع، والمعنى أنه يُكْتَبُ به في الرقاع جمع رُقْعَةٍ، والمراد الورقة الصغيرة التي تكتب فيها المكاتبات اللطيفة والقصاص وما في معناها، وهو الذي يكتب به في قطع العادة من المنصوري والقطع الصغير، وصوره في الأصل كصور حروف الثلث والرقاع في الإفراد والتركيب إلا أنه يخالفه في أمور :

أحدها - أن قلمه أميل إلى التدوير من قلم التوقيع الذي هو أميل إلى التدوير من قلم الثلث .

قال لى الشيخ عبد الرحمن بن الصائغ المَكْتَبُ : وتكون جَلْفَةٌ قلمه في البراية أقصر من الثلث والتوقيع .

الثاني - أن حروفه تكون أدق وألطف من حروف التوقيع .

الثالث - أن الترويس لا يقع في متصباته من الألف المفردة وأخواتها إلا في القليل، بخلاف الثلث والتوقيع فإن الترويس فيهما لازم .

الرابع - أنه يغلب فيه الطمس في العين المتوسطة والأخيرة، وكذلك الفاء، والقاف، والميم، والواو، وعقدة اللام أَلَفُ المحققة. أما الصاد والطاء والعين المفردة والمبتدأة فإنها لا تكون الا مفتوحة .

الخامس - أنه يوجد فيه من الحروف ما لا يوجد في غيره كالألف المائلة إلى جهة اليمين على ماسياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه صورة حروفه إفراداً وتركيباً

الألف

طالغ

محرف

مشم

مطلق

ا

ا

ا

ا

الباء

مفردة موقوفة

مدغمة مبسوطة

مدغمة مفردة

مجموعة

ب

ب

ب

ب

مطرقة مبسوطة

مطرقة موقوفة

مبتدأة . وسطى . مطرقة

ب

ب

ب

الجيم

مفردة مرسلّة

ح

مفردة مسبلة

ح

مفردة مجموعة

ح

رتقاء مرسلّة

ح

رتقاء مجموعة

ح

رتقاء مسبلة

ح

مبتدأه

حسد

وسطى

ح

وسطى مفتوحة

لح

مطرقة مرسلّة

ح

مطرقة مسبلة

ح

مطرقة مجموعة

ح

الـ دال

مشـعـرة

هـد

مـخـطـوـفـة

د

مـخـتـلـسـة

د

مـفـرـدـة مـجـمـوعـة

د

مـخـطـوـفـة

مـد

مـخـتـلـسـة

عـد

مـرـكـبـة مـجـمـوعـة

مـد

الـراء

بـتـراء

ر

مـخـطـوـفـة

ر

مـقـوـرة

ر

مـجـمـوعـة

ر

مـقـطـوـفـة

ر

مـدغـمـة

ر

مـحـقـقـة

ر

السين

مجموعة

س

معلقة

س

مخسوفة

س

مبسوطة

س

مبتدأة

س

متوسطة

س

مطرفة مجموعة

س

مبسوطة

س

مخسوفة

س

معلقة

س

الصاد

مجموعة

ص

مبسوطة

ص

مخسوفة

ص

أولى مركبة

صد

وسطى مركبة

فصم

مطرقة مجموعة

نص

مطرقة مبسوطة

فص

مطرقة مخسوفة

فص

الطاء

مبتدأة

طا

موقوفة

ط

مرسلة

ط

مطرقة موقوفة

عط

مطرقة مرسلة

حط

متوسطة

حطب

العين

مجموعة

ع

مسبلة

ع

مرسلة

ع

متوسطة

عاد

مبتدأة صادية

ع

مبتدأة نغالية

عا

مطرقة مجموعة

مع

مطرقة مسبلة

مع

مطرقة مرسلة

مع

الفاء

مبسوطة

و

موقوفة

و

مجموعة

و

مطرقة مجموعة

مف

وسطى

مف

أولى مركبة

و

مطرقة مبسوطة

مف

مطرقة موقوفة

مف

القاف

مبتدأ	مبسوطة	مخسوفة	مفردة مجموعة
ق	ق	ق	ق

متوسطة	مطرقة مخسوفة	مطرقة مجموعة	مبسوطة
ق	ق	ق	ق

الكاف

مجموعة	موقوفة	مبسوطة	أولى مشكولة
ك	ك	ك	كلا

وسطى مشكولة	مركبة مجموعة
ك	ك

أولى مبسوطة

كه

مركبة مقوِّرة

ك

مركبة موقوفة

ك

مشكولة مفصولة

كـ

مشكولة موصولة

كـ

وسطى مبسوطة

كـ

اللام

مبتدأة

له

مبسوطة

لـ

موقوفة

لـ

مفردة مجموعة

لـ

موقوفة

لـ

مبسوطة

لـ

مجموعة مركبة

لـ

متوسطة

لـ

الميم

مبتدأة مركبة

م

مسبلة

م

مخطوطة

مر

مفردة معلقة

مر

مختتمة محقة

م

مركبة مسبلة

عم

مطارفة معلقة

حمر

وسطى مركبة

مر

النون

مدغمة مبسوطة

ن

مدغمة مجموعة

ن

مجموعة

ن

أولى . وسطى

ن

مخطوطة

ن

مبسوطة

ن

مخطوطة مركبة

ن

مبسوطة مركبة

ن

مجموعة مركبة

ن

الهاء

مدغمة	وجه الهمز	مدورة	مراجعة
هـ	هـ	هـ	هـ

محدودة	مشقوقة طولا	ماوزة	مشقوقة عرضا
هـ	هـ	هـ	هـ

مختلطة	مختلطة	محققة
هـ	هـ	هـ

الواو

مبسوطة مركبة	مجموعة مركبة	مبسوطة مفردة	مجموعة مفردة
عو	وو	و	و

اللام ألف

مرفلة

فلا

محققة مركبة

حلا

مفردة

لا

محققة مفردة

لا

الياء

مبتدأه . وسطى

د

راجعة

ء

مخسوفة

ي

مجموعة مفردة

ي

راجعة مركبة مختمة

ة

مخسوفة مركبة

ى

مجموعة مركبة

ى

وهذه الصورة المصطلح عليها الآن : (وقد أجازوا فيها الفتح والطمس جميعاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ إمامنا أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه
المعروف قروض والايامردول ومن تواني
عرفسه ضاع ومن قاهر الحق قهره والسلام

الجملة السابعة

(في كتابة البسملة)

وبيان صورتها في كل قلم من الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء ؛ وفيها مهيئان

المهيع الأول

(في ذكر قواعد جامعة للبسملة في جميع الأقلام ، وتشتمل على ثمان قواعد)

الأولى - قد اتفق الكُتَّاب على تطويل باء البسملة أكثر مما يطول به غيرها من الباءات التي في أول الكلمة . وسيأتى في الكلام على البسملة في المقالة الثالثة أنها طوّلت بدلا من الألف المحذوفة بينها وبين السين لكثرة تكرارها . وقد ذكر بعض المصنّفين في الخط أنها تكون بمقدار ثلثي ألف ذلك الخط .

وقد سبق القول على مقدار ألف كل قلم فيما تقدم ، وهذا أصل يترتب عليه غيره .

الثانية - في البسملة خمس أخوات متساويات في الطول والانتصاب ، وهي :

ألف الحلالة ، والألف واللام من الرحمن ، والألف واللام من الرحيم ، فكُلُّها على

مقدار واحد ، وقد سبق .

الثالثة - فيها أربع أخوات متساويات في الإرسال : وهى إرسالَةُ الميم من بسم وإرسالَةُ الراء من الرحمن ، وإرسالَةُ الراء من الرحيم ، وإرسالَةُ الميم من الرحيم .

الرابعة - فيها أربع أخوات متساويات في الضوء : وهى الميم من بسم ، والهاء من الجلالة ، والميم من الرحمن ، والميم من الرحيم .

الخامسة - فيها أختان متناسبتان في المقدار : وهما الهاء من الرحمن ، والحاء من الرحيم .

السادسة - أن لامات الجلالة تكون موازيةً من أعلاها للباء في أول البسملة إلا أن اللام الثانية من لامات الجلالة تكون أخفض من اللام الأولى بيسير .

قال ابن عبد السلام في الميزان : بحيث لا يُدرك ذلك إلا بتأمل . والذي ذكره الشيخ زين الدين الآثاري أنها تكون ناقصة عنها بقدر نُقْطَة (يعنى من نُقْط قلم كاتبها) وتكون الهاء أخفض من اللام الثانية مثل ذلك .

السابعة - أن يكون بين الباء والسين قدرُ رُبْعِ أَلِفٍ من أَلِفَات ذلك الخط ، وتكون أسنان السين منها محدّدة الأطراف ، ويكون الأخذ من كل سِنَّ من أسنان السين من أعلاها آخذاً فيها إلى أسفل مع التساوى من الأعلى وكذا من الأسفل ، بحيث إنه إذا خُطَّ خطٌّ من أسفل الباء إلى آخر السين لاصق بهما وقع على الاستقامة ، ثم يأخذ في مد السين من أعلى السنة الأخيرة منها ، وتكون أصابعه مقدّمة وكُلُوَّة يده مؤخّرة .

الثامنة - أن يكون البسط بين اللام الأولى والثانية منخفضاً لمستويا ، وكذلك ما بين اللام الثانية والهاء .

المهيع الثانى

(فى بيان صورة البسملة فى كل قلم من الأقلام التى تستعمل
فى ديوان الإنشاء)

قد تقدم أن الأقلام التى تستعمل فى ديوان الإنشاء مما يكتب به كُتَّابُه ستة أقلام
وهى : مختصر الطومار، وقلم الثلث الثقيل والخفيف، وقلم التوقيعات، وقلم الرقاع،
وقلم الغبار، إلا أن المحقق لا بسملة له فى ديوان الإنشاء : لأنه إنما يستعمل فى كتابة
طغرة كتاب على ما تقدم ذكره، ولا بسملة للطغرة .

اللهم إلا أن يكتب مختصر الطومار على طريقة المحقق فتكتب البسملة فيه على
طريقة المحقق، بخلاف قلم الغبار فإنه يكتب به فى الملطّفات فيحتاج إلى البسملة
وإن لم يحتج إليها فى البطائق .

وتعلم أن صورة البسملة فى هذه الأقلام تختلف ما بين صورة واحدة لكل
قلم فأكثر . وقد ذكر صاحب العناية الربانية صوراً من ذلك : وأنا أوردتها على
الترتيب إن شاء الله تعالى .

فأما بسملة قلم مختصر الطومار، فقد تقدم أن طريقته طريقة الطومار، وأن الطومار
تارة يكتب على طريقة المحقق وهو الأكثر، وتارة يكتب على طريقة الثلث، وعليه
عمل كُتَّاب الإنشاء، وربما عملوا على طريقة المحقق، وحينئذ فإن كان المكتوب
على طريقة المحقق فبسملة على طريقة المحقق مع امتلاء قلمه على حد قلم مختصر
الطومار على ما تقدم بيانه .

وهذه صورة بسملته

لس
ال

على طريقة الثلث

مرادهم

وأما قلم الثلث الثقيل وقلم الثلث الخفيف فطريتهما واحدة لا خُلق بينهما إلا في رقة القلم وغِظله على ما تقدم بيانه في الكلام على أصل الأقلام.
وللبسملة فيهما ثلاثُ صور.

الصورة الأولى - أن تكون الراء في الرحمن وفي الرحيم مخسوفةً؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثانية - أن تكون الراء فيها مجموعة والنون في الرحمن مجموعة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثالثة : أن تكون الراء فيهما مدعومة والنون في الرحمن مدعومة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما بسملة قلم التوقيع فلها ثلاث صور :

الصورة الأولى - مختصرة من قلم الثلث فتكون كهي ، إلا أنها أدق قلما منها ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثانية - أن تكون الحاء فيها في الرحمن مقبولة وفي الرحيم مأكوزة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثالثة - أن تكون الحاء فيها في الرحمن والرحيم مقبولة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما بسملة قلم الرقاع، فإن السين تكون فيها بالتدريج، كل سنّ دون التي قبلها
بيسير؛ والكاتب فيها يخير بين وصل أسنانها وفصلها فصلاً يسيراً. وقد أصطلحوا
على أن تكتب الألف التي قبل الجلالة فيها متصلةً بميم بسم، وتكون مثل الألف
والصاعد في قلم الرقاع، ثم يجعل لها ذيلٌ وتُوصل بالجلالة؛ ولها ثلاث صور.

الصورة الأولى - أن تكون الراء فيها مدغمة، والحاء في الرحمن والرحيم مقلوبة؛

وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثانية - أن تكون الراء فيها مدغمة والحاء رتقاء؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثالثة - أن توصل الألف بالجلالة من أعلاها؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما بسملة الغبار^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) لعلها صورة واحدة وهي هذه .

الجملة الثامنة

(في وجوه تجويد الكتابة وتحسينها ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(حسن التشكيل)

قال الوزير أبو علي بن مقلة : وتحتاج الحروف في تصحيح أشكالها إلى خمسة أشياء :

الأول - التوفية ؛ وهي أن يؤتى كل حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يركب منها : من مقوس ومنحن ومنسطح .

الثاني - الإتمام ؛ وهو أن يعطى كل حرف قسمته من الأقدار التي يجب أن يكون عليها : من طول أو قصر أو دقة أو غلط .

الثالث - الإكمال ؛ وهو أن يؤتى كل خط حظه من الهيئات التي ينبغي أن يكون عليها : من انتصاب ، وتسطيح ، وأنجاب ، واستلقاء ، وتقويس .

الرابع - الإشباع ؛ وهو أن يؤتى كل خط حظه من صدر القلم حتى يتساوى به فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ولا أغلظ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف من الدقة عن باقية مثل الألف والراء ونحوهما .

الخامس - الإرسال ؛ وهو أن يرسل يده بالقلم في كل شكل يجري بسرعة من غير احتباس يضره ولا توقف يرهقه .

الضرب الثاني

(حسن الوضع)

قال الوزير: ويحتاج إلى تصحيح أربعة أشياء .

الأول - الترصيف؛ وهو وصل كل حرف متصل إلى حرف .

الثاني - التأليف؛ وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ما ينبغي

ويحسن .

الثالث - التسطير؛ وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطرا منتظما
الوضع كالمسطرة .

الرابع - التنصیل؛ وهو مواقع المدّات المستحسنة من الحروف المتصلة .

وأعلم أن المدّ في الخطّ قديم، فقد حكى أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب":
أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المَشَقَّ . وكأنه يريد أنهم كانوا على ذلك في القديم،
فقد تقدّم أن أول ما تعلم أهل الحجاز الخطّ من أهل الأنبار . على أن صاحب
"موادّ البيان" قد حكى أن جماعة من المحزّرين كانوا يكرهون المَشَقَّ لإفساده خطّ
المبتدئ ودلالته على تهاون المنتهى .قال : ولذلك كرهوا كتابة البسملة بغير سين مبيّنة ثم صارت كراهة ذلك سنة
وعرفا . والذي عليه حدّاق المحرّرين استعمال المدّ .قال في "موادّ البيان" وهذه المدّات تستعمل لأمرين: أحدهما أنها تحسّن الخطّ
وتقوّضه في مكان كما يحسّن مدّ الصوت اللفظ ويفخّمه في مكان . الثاني أنها ربما
أوقعت ليم السطر إذا فضل منه مالا يتّسع لحرف آخر: لأن السطر ربما ضاق
عن كلمتين وفضل عن كلمة فتمدّت التي وقعت في آخر السطر لتقع الأخرى في أول
السطر الذي يليه .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : مواضع المدّ أواخر السطور ، وتكره إذا كانت سينا مدغمة .

قال في "موادّ البيان" : فيجب على الكاتب أن يعرف أحكامها لئلا يوقعها في غير المواضع اللاتقة بها فيشتبه الحرف بغيره ويفسد المعنى ، مثل أن يوقع المدّ في متعلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستعلم ، أو يوقع المدّ في متسلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستسلم . ثم قال : وبالجمله فالكلمة الأصلية اسماء كانت أو حرفا أو فعلا لا تخرج عن أربعة أصناف :

الصنف الأول

(الثنائية)

وهي إما أسماء مضاعفة أو أفعال أو حروف .

فالأسماء : نحو ندّ، وضرّ، وسرّ، وشرّ، وظلّ، وظلّ، وما أشبه ذلك .

والأفعال : نحو قلّ، وكلّ، وقمّ، وعدّ، وتمّ، وسرّ، ونحو ذلك .

والحروف : نحو هل ، بل ، وقط ، وقد ، ومدّ ، وعن ، ولو ، ولم ، ومنّ ، وما ، وما يجري مجرى ذلك .

فأما الأسماء والأفعال الثنائية فقد ذكر في "موادّ البيان" : أنه لا يحسن المدّ في شيء منها إلا في سرّ، وشرّ، من الأسماء وسرّ من الأفعال لأن السين أو الشين وإن كان كل منهما حرفا على حياله في صورة ثلاثة أحرف .

قال : وقد يحسن في نحو ظل ، وظلّ ، في بعض المواضع .

وأما الحروف الثنائية فقد ذكر في "موادّ البيان" : أنه لا يحسن المدّ فيها .
(١٠)

وحكى صاحب "منهاج الإصابة": أن بعض الكتاب كان يمدّ في أواخر السطور مثل ما، وهل، وعن. ثم حكى عن أبي القاسم بن خلوفاً: أن ذلك لا يجوز في عن في أول السطر ولا في آخره.

الصنف الثاني

(الثلاثية)

قال في "موادّ البيان": والمدّ فيها على الأكثر قبيح لأنها لا تنقسم بقسمين متساويين. قال: ومنها ما يُسمَح في مدّه للضرورة كما إذا وقع في آخر سطر يحتاج إلى التتميم فيمدّ كيّيع وقطع ونحوهما. وعلى نحو من ذلك جرى صاحب "منهاج الإصابة" ثم قال: ويجوز أن تمدّ إذا كان ثالثها ألفاً أو لاماً. وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف: كان والدى يمدّ في الكلمة الثلاثية إذا كان أولها الجيم وأختاها، والطاء، والسين، والعين. قال في "موادّ البيان": وينبغي إذا مدّ أن يُقدّم الحرفان الأولان وتوضع المدة بينهما وبين الثالث. أما عسى، ومتى، وفتى، ونحوها فإنها لا تحتل المدة بحال.

الصنف الثالث

(الرابعة نحو محمد وجعفر)

قال أبو القاسم بن خلوفاً: والمدّ فيه جائز بل المدّ فيه أحسن من القصص. قال في "موادّ البيان": ولا يجوز أن يقدّم منها ثلاثة أحرف ويوقع المدة بينها وبين الحرف الرابع ولا بالعكس بل يوقع المدّ بين الحرفين الأولين والحرفين الآخرين فقط. قال: على أن منها ما لا يحسن المدّ فيه نحو تغلب، وخبير، ونير.

الصنف الرابع

(الخماسة)

نحو : مشتمل ، ومستقل ، ومسيطر ، ومهيمن .

وقد اختلف علماء الخط فيه على مذهبين : فذهب صاحب "مواد البيان" إلى أن المد فيها لا يحسن ، فإنها لا تنقسم بقسمين متساويين كما في الثلاثية ؛ وذهب أبو القاسم بن خلوفاً إلى أن المد فيها لازم ، لا يجوز تركه . ثم إذا مد فالذى ذكره في "مواد البيان" أن الأحسن أن يُقدم حرفين ويوقع المد بينهما وبين الثلاثة الأحراف الأخر .

أما ما كان زائداً على خمسة فقد ذكر صاحب "العناية الربانية" أنه يرجع فيه إلى الأصول . ويعتبر من السداسي^(١) فإنه مد فيما بعد السين من مسلمون وبعد التاء من معتبر .

قال في "مواد البيان" : ويصح المد فيما جاء من الأسماء والأفعال والحروف موصولاً بضمير كناية مثل ، كتبه ، وعلمته ، وفيه ، ومنه ، وعليه ، وإليه ، إذا وقعت المدة بين تمام الكلمة والضمير .

قال : ومشق السين يُحسن الخط في بعض المواضع ، ويقبح إذا وقعت طرفاً نحو مشق السين من العباس والجواس ، وأقبح من ذلك مشقها إذا كانت موصولة بحرف واحد يتقدمها نحو يأنس ، وعانس ، وجالس ، وناعس . وإذا توالى سينان أو سين وشين ، فالأحسن أن يفصل بينهما في الخط المحرر بمدة لطيفة نحو مسست وغششت ورششت .

(١) لعل الصواب من الثلاثي بالتاءين المثلثين .

قال أبو القاسم بن خلوف : ومن الحروف مالا يحسن المد بعده إذا كان مبتدأ وهو الباء وأختها، والياء، والفاء، والقاف، واللام، وأما الكاف المشكولة فإنه لا يجوز مد ما بعدها في ابتداء ولا توسط .

وقد ذكر الشيخ زين الدين شعبان الآثاري في ألفيته حروفا يجوز مدّها في مواضع : أحدها - الباء وأختها، فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل بدر، أو راء مثل بر، أو ميم مثل تم، أو هاء مثل هز، وأنه ربما مدّت إذا كان بعدها لام مثل بل، أو لام ألف مثل بلا .

الثاني - الجيم وأختها، فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل حداد، أو راء مثل حرير، أو ميم مثل حم، أو هاء مثل جهر .
الثالث - السين وأختها، وتمدّ إذا كان بعدها راء مثل سر، أو ميم مثل سم، أو هاء مثل سهم .

الرابع، والخامس - الصاد وأختها، والطاء وأختها، فلا يجوز مد واحد منها بحال .
السادس - العين وأختها، فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل عد، أو راء مثل عر، أو ميم مثل عم، أو هاء مثل عهن .
السابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي عشر - الفاء، والقاف، واللام، والميم، والهاء، فحكمها حكم العين وأختها في جواز المد فيما تقدّم .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ولا يجوز الجمع بين مدتين في كلمة واحدة و"على" تمدّ إذا كانت الياء معرّقة، فإن كانت راجعة لم يجز المد أصلا : لأنه يجتمع في كلمة ثلاثية مدتان .

قال في "موادّ البيان" : ويصح أن تمدّ حرفين توالي بينهما في سطر واحد، وأن توضع حرفين ممدودين في سطرين : أعلى وأسفل على تقابل وتخاذ .

(١) الكلام فيما يجوز مده فانيات هذا القسم سهو عن المقسم .

قال السَّرْمَرِيُّ : وإن كان في آخر الكلمة ياء لم يحز المد قبل الياء . قال : ولذلك لا يجوز المد بعد السين في اسم موسى ، ولا قبل السين في اسم عيسى ^(١) .
 قال الآثاري : وأجاز بعضهم مد العين منه بخلاف السين .
 قال ابن العفيف : ولا تُدغم الواو والنون بعد مد أصلا في خفيف ولا ثقیل .
 قال : ولا يحسن إدغام السين بعد الكاف المشكولة ، ويجوز بعد اللام والميم .
 قال في "مواد البيان" : ويقبح أن تكتب ياءان معطوفتان متقاربتان في سطر واحد .
 قال الشيخ عماد الدين بن الشيرازي : وإذا توالى العراقات وكان فيها الياء وجب أن تكون راجعة إلى ذات اليمين .
 قال ابن أبي رقية : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف : هل يكون ذلك في كل قلم ؟ قال نعم ! إذا تمكّن الكاتب من وضعها إلا في المحقق فإنه غير جائز .
 قال السَّرْمَرِيُّ : وإن أتت ياءان متقاربتان مثل قول القائل "لى صلى" ردّ ياء الأخرى من الكلمتين دون الأولى ، وإن شئت عرّقتهما جميعا ، وهو اختيار الوزير ابن مقلة . قال : وتردّ الياء بعد الألف واللام مثل إلى في خفيف الأقلام دون ثقیلها على الأحسن .
 قال الآثاري : وإذا توالى حروف متشابهة كتبت التصير منه مقدّما على الطويل .

(٢) الصنف الخامس

(مراعاة فواصل الكلام)

قال في "مواد البيان" : وذلك بأن تميز الفصول المحتمل كل فصل منها على نوع من الكلام عما تقدّمه : تُعرّف مبادئ الكلام ومقاطعها ، فإن الكلام ينقسم فصولا طوالا

(١) كذا في الضوء أيضا والمراد سواء اتصل المد بالياء أو كان قبله في كلمته .

(٢) لم يترجم في الضوء بحامس ، ولا بسادس ، وأقتصر في الترجمة على ما بعدهما وهو المناسب .

وقصارا، فالطَّوَالُ كتنقسم منشور المترسل إلى رسائله، ومنظوم الشاعر إلى قصائده .
ومثل هذا لا يحتاج إلى تفصيل : لأنه لا يشكل الحال فيه في الرسالة أو القصيدة
بغيرها اتصالا وانفصالا .

والفصول القصار كأنقسام الرسالة إلى الفصول ، والقصيدة إلى الأبيات . ومثل
هذا قد يشكل ، فينبغي أن يُمَيِّزَ تميزا يؤمِّنُ معه من الاختلاط ، فإن ترتيب الخط
يفيد ما يفيد ترتيب اللفظ . وذلك أن اللفظ إذا كان مرتبًا تَخَصَّصَ بعض المعاني
من بعض ، وإذا كان مُخَلَّطًا أشكلت معانيه ، وتعدر على سامعه إدراك محصوله .
وكذلك الخط إذا كان متميز الفُصول ، وصل معنى كل فصل منه إلى النفس على
صورته ، وإذا كان متصلا دعا إلى إعمال الفكر في تخليص أغراضه .

وقد اختلفت طُرُق الكُتَّاب في فصول الكلام الذي لم يُمَيِّزْ بذكر باب أو فصل
ونحوه . فالنُسَاخ يجعلون لذلك دائرة تفصل بين الكلامين ، وكُتَّاب الرسائل يجعلون
للفواصل بياضا يكون بين الكلامين من سجع أو فصل كلام ، إلا أن بياض فَصْل
الكلامين يكون في قدر رأس إبهام ، وفصل السجعتين يكون في قدر رأس خنصر .

قال في "مواد البيان" : وينبغي أن لا تكون الجملة في آخر السطر والفاصلة في أول
السطر الذي يليه ، فإنه مُلَيِّس لَانْتِصَال الكلام ، بل لا يجعل في أول السطر بياضا أصلا
لأنه يقبح بذلك لخروجه عن نسبة السطور ، ولا أن يُفَسِّح بين السطر والذي يليه
إفساحًا زائدا عما بين كل سطرين ، ولكن يُرَاعَى ذلك من أول شروعه في كتابة السطر
فيقدَّر الخط بالجمع والمشق حتى يَخْلُصَ من هذا العيب .

الصنف السادس

(حسن التدبير في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها)

لأن السطور في المنظر كالفصول، فإذا قطع السطر على شيء يتعلق بما بعده كان قبيحا، كما إذا كتب بعض حروف الكلمة في آخر السطر وبعضها في أول السطر الذي يليه .

ثم للفصل المستقيم في آخر السطر وأول الذي يليه صنفان :

الصنف الأول

(فصل بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض، وتفريقها في السطر والذي يليه) مثل أن تقع معه لفظة "كتاب" في آخر السطر، فيكتب الكاف والتاء والألف في آخر السطر والباء في أول السطر الذي يليه؛ أو يقع في آخر السطر لفظة "مسرور" فيكتب الميم والسين والراء فيه والواو والراء الثانية في أول السطر الذي يليه ونحو ذلك .

قال في "موادّ البيان" : وهو قبيح جداً لأنه لا يجوز فصل الاسم عن بعضه . قال : وأكثر ما يوجد ذلك في مصاحف العامة وخطوط الورّاقين ؛ والحامل لهم على ذلك في الغالب هو ضيق آخر السطر عن الكلمة بكاملها ؛ ومن هنا أحتاج الكاتب إلى النظر في ذلك بالجمع والمشتق من حين شروعه في كتابة أول السطر على ما تقدم . قال صاحب "منهاج الإصابة" : وإنما وقع مثل ذلك في المصاحف التي كتبت في زمن أمير المؤمنين : عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنها كتبت بقلم جليل مبسوط ، فربما وقع في بعض الأماكن اللفظة فيقطعها في آخر السطر ويجعل باقيها في السطر الثاني .

وعلى ذلك حمل ما روى أن عثمان رضى الله عنه . قال : ” إنَّ في المصحفِ لحناً ستقيمهُ العربُ بألسنتها “ إذ لا جائر أن يكون ذلك لحناً في اللفظ فقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على أن ما بين دفتي المصحف قرءانٌ ، ومحالٌ أن يجتمعوا على الحن . على أن هذه الرواية غير مشهورة عن عثمان رضى الله عنه كما أشار إلى ذلك الشاطبي بقوله في الرائية :

وَمَنْ رَوَى سَتَقِيمُ الْعُرْبُ أَلْسِنَهَا * لَحْنًا بِهِ قَوْلَ عُمَانَ فَمَا شَهَرَا

الصنف الثاني

(فصل الكلمة التامة وصلتها)

مثل ان يكتب ” وصل كتابك وأيدك الله “ مَفَصَّلات ، فيكتب ” وصل “ في آخر السطر و ” كتابك “ في أول الذي يليه ، أو يكتب ” أيدك “ في آخر سطر وأسم ” الله “ تعالى في أول الذي يليه ، وما جرى مجرى ذلك .

قال في ” مواد البيان “ : والأحسن تجنبه إذا أمكن ، فإن لم يمكن فيتجنب القبيح منه ، وهو الفصل بين المضاف والمضاف إليه : كعبد الله و غلام زيد وما أشبه ذلك : لأنَّ المضاف والمضاف إليه بمنزلة الاسم الواحد ، والفصل بين الاسم وما يتلوه في النسب : كقولك زيد بن محمد ، فلا يجوز أن يفصل بين الاسم والمنسوب إليه كما لا يجوز أن يفصل بين المضاف والمضاف إليه . قال : فإن كان المراد بلفظة ابن تثبيت النبوة كقولك لزيد ابن جاز قطع الابن عما تقدمه . وكأنه إنما امتنع ذلك لأن لزيد لا يستقل بنفسه فلا يدخله لبس بخلاف غلام زيد ونحوه . ثم قال : ومما يقبح فصله الفصل بين كل اسمين جعلاً اسماً واحداً نحو حضرموت ، وتأبط شراً ، وذى يزن ، وأحد عشر .

قلت : وباب الخط وأقلامه وحسن تدييره متسع لا يسع أستيفائه .

الفصل الثالث

من الباب الثانى من المقالة الأولى

(فى لواحق الخط ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى النقط ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(فى ميسس الحاجة إليه)

قال محمد بن عمر المدائنى : ينبغي للكتاب أن يُعجم كتابه ، ويبيّن إعرابه ، فإنه متى أعراه عن الضبط ، وأخلاه عن الشكل والنقط ، كثّر فيه التصحيف ، وغلب عليه التحريف . وأنخرج بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنه أنه قال ” لكل شيء نور ، ونور الكتاب العجم ” . وعن الأوزاعى نحوه .

وقال أبو مالك الحضرمي : أى قلم لم تعجم فصوله ، آستعجم محموله . ومن كلام بعضهم ” الخطوط المعجمة ، كالبرود المعلمة ” .

ثم قد تقدّم فى الكلام على عدد الحروف أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفاً ، وقد وضعت أشكالها على تسعة عشر شكلاً . فمنها ما يشترك فى الصورة الواحدة منه الحرفان : كالذال والذال ، والراء والزاي ، والسين والشين . ومنها ما يشترك فى الصورة الواحدة منه الثلاثة : كالباء والتاء والثاء ، والجيم والحاء والحاء . ومنها ما ينفرد بصورة واحدة كالألف . ومنها ما لا يلتبس حالة الأفراد ، فإذا رُكّب ووُصل بغيره ألتبس : كالنون والقاف ، فإن النون فى حالة الأفراد منفردة بصورة ،

فإذا رُكِّبت مع غيرها في أول كلمة أو وَسَطَها، أَشْتَبَهَتْ بالبَاء وما في معناها، والقاف إذا كانت منفردة لا تلتبس، فإذا وصلت بغيرها أولاً أو وسطاً التبتست بالفاء، فاحتيج إلى مِيزٍ يُمَيِّزُ بعض الحروف من بعض : من نقط أو إهمال ليزول اللَّبْسُ، ويذهب الاشتراك .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : ولذلك ينبغي أن القاف والنون إذا كتبا في حالة الإفراد على صورتها الخاصة بهما لا يَنْقُطَانِ، لأنه لا شبه بينهما ولا يُشْمِهُانِ غيرهما، فيكونان إذ ذاك كالكاف واللام . قال : ومنع بعض مشايخنا الاشتراك في صورة الحروف . وقال : الصورة والنقط مجموعهما دالٌّ على كل الحرف ؛

إذا تقرر ذلك فالنقط مطلوب عند خوف اللبس، لأنه إنما وُضِعَ لذلك ؛ أما مع أمن اللبس فالأولى تركه لئلا يُظْلَمَ الخَطُّ من غير فائدة .

فقد حكى أنه عُرِضَ على عبد الله بن طاهر خط بعض الكُتَّاب فقال ما أحسنه ! لولا أنه أكثر شؤنيه .

وقد حكى محمد بن عمر المدائني أن جعفر المتوكل كتب إلى بعض عماله أن أَحْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمَدِينِيِّينَ وَعَرَّفْنَا بِمَبْلَغِ عَدَدِهِمْ، فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل مَنْ كَانَ فِي عَمَلِهِ مِنْهُمْ وَخَصَّاهُمْ فَمَاتُوا غَيْرَ رَجُلَيْنِ أَوْ وَاحِدٍ .

وقد حكى المدائني عن بعض الأدباء أنه قال : كثرة النقط في الكُتَّابِ سُوءٌ ظَنٌّ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ .

أما كُتَّابُ الْأَمْوَالِ فَإِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ النِّقْطَ بِحَالٍ ؛ بَلْ تَعَاطِيهِ عِنْدَهُمْ عَيْبٌ فِي الْكُتَّابَةِ .

الجملة الثانية

(في ذكر أول من وضع النقط)

قد تقدّم في الكلام على وضع الحروف العربية أن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من قبيلة بولان على أحد الأقوال . وهم : مُرَار بن مُرَّة^(١) ، وأسلم ابن سُدرة ، وعامر بن جَدرة ، وأن مرارا وضع الصور ، وأسلم فصل ووصل ، وعامرا وضع الإعجام . وقضية هذا أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف .

وقد روى أن أول من نَقَطَ المصاحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين : ” على كرم الله وجهه “ . فإن أريد بالنقط في ذلك الإعجام ، فيحتمل أن يكون ذلك ابتداء لوضع الإعجام ، والظاهر ما تقدّم ، إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عَرَبِيَّةً عن النقط إلى حين نَقَطَ المصحف .

وقد روى أن الصحابة رضوان الله عليهم جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشكل . على أنه يحتمل أن يكون المراد بالنقط الذي وضعه أبو الأسود الشكل على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(في بيان صورة النقط ، وكيفية وضعه)

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : وللنَّقَطُ صورتان : إحداهما شكلُ مربعٍ والأخرى شكلُ مستدير .

قال : وإذا كانت نقطتان على حرف ، فإن شئت جعلت واحدة فوق أخرى ، وإن شئت جعلتهما في سطرٍ معاً ، وإذا كان يجوار ذلك الحرف حرفٌ يُنْقَطُ لم يجز أن يكون النقط إذا اتسعت إلا واحدةً فوق أخرى ، والعلة في ذلك أن النقط إذا كنَّ

في سطر خرجن عن حروفهن فوقع اللبس في الأشكال، فإذا جعل بعضها على بعض كان على كل حرف قسطه من النقط فزال الإشكال .

قلت : وإذا كان على الحرف ثلاث نقط ، فإن كانت ثاء جعلت واحدة فوق اثنتين، وإن كانت شينا فبعض الكتاب ينقطه كذلك ، وبعضهم ينقطه ثلاث نقط سطرًا، وذلك لسعة حرف الشين بخلاف الثاء المثلثة .

أما السين إذا تقطت من أسفلها فإنهم يتقطنها ثلاثة سطرًا واحدًا .

الجملة الرابعة

(فيما يختص بكل حرف من النقط وما لا تقط له)

قد تقدم أن حروف المعجم ثمانية وعشرون حرفًا سوى اللام ألف، وإن ذلك على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين، وأن المنازل أبدًا منها أربعة عشر فوق الأرض، وأربعة عشر تحت الأرض، ثم إنه لا بد أن يبقى مما فوق الأرض منزلة مخفية تحت الشفق، فكانت الحروف المتوسطة خمسة عشر حرفًا بعدد المنازل المخفية : وهي الأربعة عشر التي تحت الأرض، والواحدة التي تحت الشعاع، إشارة إلى أنها تحتاج إلى الإظهار لاختفائها : وهي الباء، والتاء، والثاء، والجيم، والحاء، والذال، والزاي، والشين، والضاد، والطاء، والغين، والفاء، والقاف، والنون، والياء، آخر الحروف .

وكانت الحروف العاطلة ثلاثة عشر بعدد المنازل الظاهرة : وهي الألف، والحاء، والذال، والراء، والسين، والضاد، والطاء، والعين، والكاف، واللام، والميم، والهاء، والواو .

فأما الألف فإنها لا تُنْقَطُ لِأَنفَرَادِهَا بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ، إِذْ لَيْسَ فِي الْحُرُوفِ مَا يُشَبِّهُهَا فِي حَالَتِ الْإِفْرَادِ وَالتَّرَكِيبِ .

وَأَمَّا الْبَاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ مِنْ أَسْفَلُ لِتُخَالِفَ التَّاءَ الْمُثَنَاءَ مِنْ فَوْقُ، وَالتَّاءَ الْمُثَلَّثَةَ فِي حَالَتِ الْإِفْرَادِ وَالتَّرَكِيبِ، وَالْيَاءَ الْمُثَنَاءَ مِنْ تَحْتُ، وَالنُّونَ فِي حَالَةِ التَّرَكِيبِ أَبْتَدَاءً أَوْ وَسَطًا وَنُقِطَتْ مِنْ أَسْفَلُ لِكَلَّا تَلْتَبَسَ بِالنُّونِ حَالَةَ التَّرَكِيبِ .

وَأَمَّا التَّاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِأَثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ لِتُخَالِفَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الصُّورَتَيْنِ فِي حَالَةِ الْإِفْرَادِ وَتُخَالِفُهُمَا مَعَ الْيَاءِ وَالنُّونِ حَالَةَ التَّرَكِيبِ أَبْتَدَاءً أَوْ وَسَطًا .

وَأَمَّا الثَّاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِثَلَاثٍ مِنْ فَوْقُ لِتُخَالِفَ مَا قَبْلَهَا مِنَ الصُّورَتَيْنِ فِي الْإِفْرَادِ وَتُخَالِفُهُمَا مَعَ النُّونِ وَالْيَاءِ أَيْضًا فِي التَّرَكِيبِ أَبْتَدَاءً أَوْ وَسَطًا .

وَأَمَّا الْجِيمُ فَإِنَّهَا تَنْقُطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ تَحْتُ لِتُخَالِفَ الصُّورَتَيْنِ بَعْدَهَا .

وَأَمَّا الْهَاءُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ، وَيَكُونُ الْإِهْمَالُ لَهَا عَلَامَةً، هُذَّاقُ الْكُتَّابِ يَجْعَلُونَ لَهَا عَلَامَةً غَيْرَ النُّقْطَةِ: وَهِيَ حَاءٌ صَغِيرَةٌ مَكَانَ النُّقْطَةِ مِنَ الْجِيمِ .

وَأَمَّا الْخَاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَعْلَاهَا لِتُخَالِفَ مَا قَبْلَهَا : مِنَ الْجِيمِ وَالْهَاءِ .

وَأَمَّا الدَّالُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ وَلَا تَعَلَّمُ، وَيَكُونُ تَرْكُ الْعَلَامَةِ لَهَا عَلَامَةً .

وَأَمَّا الذَّالُ فَتُنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقُ فَرَقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أُخْتِهَا .

وَأَمَّا الرَّاءُ فَإِنَّهَا لَا تَنْقَطُ وَلَا تَعَلَّمُ، وَيَكُونُ الْإِهْمَالُ لَهَا عَلَامَةً .

وَأَمَّا الزَّايُ فَإِنَّهَا تَنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقُ فَرَقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّاءِ .

وَأَمَّا السِّينُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ، وَتَكُونُ عَلَامَتُهَا الْإِهْمَالُ كَغَيْرِهَا، وَبَعْضُ الْكُتَّابِ يَنْقُطُهَا بِثَلَاثٍ نَقْطٍ مِنْ أَسْفَلِهَا .

وأما الشين فإنها تُنْقَط بثلاث من فوق فَرَقاً بينها وبين أختها، فإن كانت مدغمة فلا بد من جَرَّة فوقها؛ ثم إن كانت محققة فاللائق التأسيس بنقطتين وجعل نقط ثالث من أعلاهما؛ وإن كانت مدغمة فالأولى جعل الثلاث نقط سطرا واحدا .
وأما الصاد فإنها لا تنقط؛ نعم حُذِّق الكُتَّاب يجعلون لها علامة كالحاء، وهي صاد صغيرة تحتها .

وأما الضاد فإنها تنقط بواحدة من أعلاها فَرَقاً بينها وبين أختها .
وأما الطاء فإنها لا تُنْقَط لكن لها علامة كالصاد والحاء، وهي طاء صغيرة تحتها .
وأما الظاء فإنها تنقط بواحدة من فوقها فَرَقاً بينها وبين أختها .
وأما العين فإنها لا تُنْقَط، ولها علامة كالحاء، والصاد، والطاء، وهي عين صغيرة في بطنها .

وأما الغين فإنها تنقط بواحدة فَرَقاً بينها وبين أختها .
وأما الفاء فذهب أهل الشرق أنها تنقط بواحدة من أعلاها، ومذهب أهل الغرب أنها تنقط بواحدة من أسفلها .
وأما القاف فلا خلاف بين أهل الخط أنها تنقط من أعلاها إلا أن من نقط الفاء بواحدة من أعلاها نقط القاف بأثنين من أعلاها ليحصل الفرق بينهما، ومن نقط الفاء من أسفلها نقط القاف بواحدة من أعلاها .

وقد تقدم من كلام الشيخ أبي حيان رحمه الله عن بعض مشايخه : أن القاف إذا كتبت على صورتها الخاصة بها ينبغي أن لا تُنْقَط إذ لا شبهة بينهما^(١) وذلك في حالتى الأفراد والتطرف أخيرا .

(١) أى بين القاف والفاء .

وأما الكاف فإنها لا تنقط، إلا أنها إذا كانت مشكولة عُلِّمت بشكلة، وإن كانت معرأة رسم عليها كاف صغيرة مبسوطة لأنها ربما أَلْتَبَسَتْ باللام .

وأما اللام فإنها لا تُنْقَط ولا تَعَلَّم، وترك العلامة لها علامة .

وأما الميم فإنها لا تنقط ولا تعلم أيضا لأنفرادها بصورة .

وأما النون فإنها تنقط بواحدة من أعلاها، وكان ينبغي اختصاص النقط بحالة التركيب ابتداءً أو وسطاً لانتباسها حينئذ بالباء، والتاء، والهاء أوائل الحروف، والياء آخر الحروف؛ بخلاف حالة الإفراد والتطرف في التركيب أخيراً فإنها تختص بصورة فلا تلتبس كما أشار إليه الشيخ أمير الدين أبوحيان رحمه الله، إلا أنها غلبت فيها حالة التركيب فروعيت .

وأما الهاء فإنها لا تنقط بجميع أشكالها، وإن كثرت؛ لأنه ليس في أشكالها ما يلتبس بغيره من الحروف .

وأما الواو فإنها لا تنقط وإن كانت في حالة التركيب تقاربُ الفاء، وفي حالة الإفراد تقارب القاف : لأن الفاء لا تشابهها كل المشابهة ، ولأن القاف أكبر مساحةً منها .

وأما اللام أَلِف فإنها لا تنقط لأنفرادها بصورة لا يشابهها غيرها .

وأما الياء فإنها تنقط بنقطتين من أسفلها ، وإن كانت في حالة الإفراد والتطرف في التركيب لها صورة تخصها : لأنها في حالة التركيب في الابتداء والتوسط تشابهُ الباء، والتاء، والهاء، والنون، فيحتاج إلى بيانها بالنقط لتغليب حالة التركيب على حالة الإفراد كما في النون، وربما نقطها بعض الكُتَّاب في حالة الإفراد بنقطتين في بطنها والله سبحانه وتعالى أعلم .

المقصود الثاني

(في الشكل، وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في اشتقاقه ومعناه)

قال بعض أهل اللغة : هو مأخوذ من شكل الدابة ، لأن الحروف تُضَبَطُ بقيد فلا يلتبس إعرابها كما تُضَبَطُ الدابة بالشكال فيمنعها من الهروب . قال أبو تمام :

تَرَى الْأَمْرَ مَعْجُومًا إِذَا كَانَ مُعْجَمًا * لَدَيْهِ وَمَشْكُولًا إِذَا كَانَ مَشْكُولًا

الجملة الثانية

(في أول من وضع الشكل)

وقد اختلفت الرواية في ذلك على ثلاث مقالات ، فذهب بعضهم إلى أن المبتدئ بذلك أبو الأسود الدؤلي : وذلك أنه أراد أن يعمل كتابا في العربية يقوم الناس به مافسد من كلامهم : إذ كان ذلك قد فَشَا في الناس .

فقال : أرى أن أبتدئ بإعراب القراء أولا ، فأحضر من يمسك المصحف ، وأحضر صبغا يخالف لون المداد . وقال للذي يمسك المصحف عليه : إذا فتحتُ فَايَ فاجعل نقطة فوق الحرف ، وإذا كسرتُ فَايَ فاجعل نقطة تحت الحرف ، وإذا ضمنتُ فَايَ فاجعل نقطة أمام الحرف ، فإن أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة (يعني تنوينا) فاجعل نقطتين . ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف .

وذهب آخرون : إلى أن المبتدئ بذلك نصر بن عاصم الليثي ، وأنه الذي نحسبها وعشرها .

وذهب آخرون : إلى أن المبتدئ بذلك يحيى بن يعمر .

قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله : وهؤلاء الثلاثة من جلة تابعي البصريين .

وأكثر العلماء على أن أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لا غير . وأن الخليل

أبى أحمد هو الذى جعل الهمزة والتشديد عن الروم والإشمام ^(١) .

الجملة الثالثة

(فى الترغيب فى الشكل والترهيب عنه)

وقد اختلفت مقاصد الكتّاب فى ذلك ، فذهب بعضهم إلى الرغبة فيه ، والحث

عليه : لما فيه من البيان والضبط والتقيد .

قال هشام بن عبد الملك : أشكّلوا قرائن الآداب ، لئلا تنبذ عن الصواب .

وقال على بن منصور : حلّوا غرائب الكلم بالتقيد ، وحصّنها عن شبه

التصحيف والتحريف .

ويقال : إجماع الكتّاب يمنع من استعجامها ، وشكلها يصونها عن إشكالها ،

ولله القائل :

وكانَّ أحرفَ خطّه شجرٌ * والشَّكْلُ فى أغصانه ثمرٌ

وذهب بعضهم إلى كراهته ، والرغبة عنه .

قال سعيد بن حميد الكاتب : لأن يُشكل الحرف على القارئ أحبّ إلى من أن

يُعاب الكاتب بالشكل . ونظر محمد بن عبّاد إلى أبى عبيد وهو يقيّد البسملة

فقال : لو عرفته ما شكلته . وقد جرد الصحابة رضوان الله عليهم المصحف حين

جمعوا القراءان من النقط والشكل وهو أجدر بهما ، فلو كان مطلوباً لما جردوه منه .

(١) كذا فى الأصل .

قال الشيخ أبو عمرو الداني : وقد وردت الكراهة بنقط المصاحف عن عبد الله آ بن عمر، وقال بذلك جماعة من التابعين .

وأعلم أن كُتَاب الدِّيُونَة لا يعرجون على النقط والشكل بحال، وكُتَاب الإنشاء منهم مَنْ منع ذلك محاشاة للمكتوب إليه عن نسبته للجهل بأنه لا يقرأ إلا ما نُقِط أو سُكِلَ ، ومنهم مَنْ ندب إليه : للضبط والتقيد كما تقدم .

والحق التفريق في ذلك بين ما يقع فيه اللبس ويتطرق إليه التحريف لغلقته أو غرابته وبين ما تسهل قراءته لوضوحه وسهولته .

وقد رخص في نقط المصاحف بالإعراب جماعة : منهم ربيعة بن عبد الرحمن ، وآبن وهب . وصرح أصحابنا الشافعية رضي الله عنهم بأنه يُندب نقط المصحف وشكله ؛ أما تجريد الصحابة رضوان الله عليهم له من ذلك فذلك حين ابتداء جمعه حتى لا يدخلوا بين دقتي المصحف شيئا سوى القراءة ، ولذلك كرهه مَنْ كرهه .

وأما أهل التوقيع في زماننا فإنهم يرغبون عنه خشية الإلزام بالنقط والشكل إلا ما فيه إلباس على مامر ، وأهل الدِّيُونَة لا يرون بشيء من ذلك أصلا ويعتدون ذلك من عيوب الكتابة وإن دعت الحاجة إليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الجملة الرابعة

(فيما ينشأ عنه الشكل ويترب عليه)

وأعلم أن الشكل جارٍ مع الإعراب كيفما جرى ، فينقسم إلى السكون (وهو الجزم) ، وإلى الفتح (وهو النصب) ، وإلى الضم (وهو الرفع) ، وإلى الجر (وهو الخفض) . أما السكون فلأنه الأصل . وأما الحركات الثلاث فقد قيل إنها مشاكلة للحركات الطبيعية : فالرفع مشا كل حركة الفلك لارتفاعها ، والجر مشا كل حركة

الأرض والماء لانتخاضها، والنصب مشا كل حركة النار والهواء لتوسطها؛ ومن ثم لم يكن في اللغة العربية أكثر من ثلاثة أحرف بعدها ساكن إلا ما كان معدولا . فسبحان من أتقن . اصنع ! .

ثم الذى عليه أكثر النحاة أن الحركات الثلاث مأخوذة من حروف المد واللين وهى الألف، والواو، والياء، اعتمادا على أن الحروف قبل الحركات والثانى مأخوذ من الأول . فالفتحة مأخوذة من الألف إذ الفتحة علامة النصب فى قولك : رأيت زيدا، ولقيت عمرا، وضربت بكرا، والألف علامة النصب فى الأسماء المعتلة المضافة كقولك : رأيت أباك، وأكرمت أخاك، ويكون إطلاقا للرؤى المنصوب كقولك : المذهب، وأنت تريد المذهب، فلما أشبعت الفتحة نشأت عنها الألف، والكسرة مأخوذة من الياء لأنها أختها ومن مخرجها، والكسرة علامة الخفض فى قولك مررت بزيدا، وأخذت عن زيد حديثا، والياء علامة الخفض أيضا فى الأسماء المعتلة المضافة كقولك : مررت بأبيك وأخيك وذى مال، والضممة من الواو لأنها من مخرجها : من الشفتين، وهى علامة الرفع فى قولك : جاءنى زيد، وقام عمرو، ونرج بكرا، والواو علامة الرفع فى الأسماء المعتلة المضافة كقولك : جاءنى أخوك وأبوك وذو مال .

وذهب بعض النحاة إلى أن هذه الحروف مأخوذة من الحركات الثلاث، الألف من الفتحة، والواو من الضمة، والياء من الكسرة اعتمادا على أن الحركات قبل الحروف، بدليل أن هذه الحروف تحدث عند هذه الحركات إذا أشبعت، وأن العرب قد استغنت فى بعض كلامها بهذه الحركات عن هذه الحروف اكتفاء بالأصل عن الفرع : لدلالة الأصل على فرعه .

(١) أى الأسماء الخمسة أو الستة على الخلاف .

وذهب آخرون إلى أن الحروف ليست مأخوذةً من الحركات ، ولا الحركات مأخوذة من الحروف ، اعتماداً على أن أحدهما لم يسبق الآخر، وصححه بعض النحاة .

الجملة الخامسة

(في صور الشكل ومَحَالِّ وضعه على طريقة المتقدمين والمتأخرين)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ ... (١) ... فِي غَالِبِ الصُّوَرِ إِلَى التَّقْطِ بِلَوْنٍ يَخَالِفُ لَوْنَ الْكِتَابَةِ .
وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو الدَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَرَى أَنَّ اسْتِعْمَالَ النِّقْطِ لَوْنَيْنِ ، الْحُمْرَةِ وَالصُّفْرَةِ ، فَتَكُونُ الْحُمْرَةُ لِلْحُرُكَاتِ ، وَالتَّنْوِينِ ، وَالتَّشْدِيدِ ، وَالتَّخْفِيفِ ، وَالسَّكُونِ ، وَالْوَصْلِ ، وَالْمَدِّ ؛ وَتَكُونُ الصُّفْرَةُ لِلْهَمْزَةِ خَاصَّةً .

قَالَ : وَعَلَى ذَلِكَ مَصَاحِفُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ اسْتَعْمَلْتَ الْخَضِرَ لِلْإِبْتِدَاءِ بِالْفَاتِ الْوَصْلِ عَلَى مَا أَحْدَثَهُ أَهْلُ بَلَدِنَا ، فَلَا أَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا . قَالَ : وَلَا اسْتَجِيزُ النَّقْطَ بِالسَّوَادِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّغْيِيرِ لِصُورَةِ الرَّسْمِ . وَقَدْ وَرَدَتْ الْكَرَاهَةُ لِذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ غَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ .

وَأَمَّا الْمُتَأَخَّرُونَ فَقَدْ أَحْدَثُوا لِذَلِكَ صُورًا مُخْتَلِفَةً لِأَشْكَالٍ لِمُنَاسِبَةٍ تَخَصُّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَمِنْ أَجْلِ اخْتِلَافِ صُورِهَا وَتَبَايُنِ أَشْكَالِهَا رَخَّصُوا فِي رِسْمِهَا بِالسَّوَادِ .
وَيَتَعَلَّقُ بِالْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ سَبْعُ صُورٍ .

الأولى

(علامة السكون)

وَالْمُتَقَدِّمُونَ يَجْعَلُونَ عِلَامَةً ذَلِكَ جُرَّةً بِالْحُمْرَةِ فَوْقَ الْحَرْفِ ، سِوَاهُ كَانَ الْحَرْفُ الْمُسَكَّنُ هَمْزَةً كَمَا فِي قَوْلِكَ : لَمْ يَسَأْ ، أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْحُرُوفِ كَالَّذَالِ مِنْ قَوْلِكَ : أَذْهَبَ .

(١) لعل المراد يميلون في شكل غالب الخ . وفي الضوء كانوا يجعلون الشكل نقطة الخ .

أما المتأخرون فإنهم رسموا لها دائرة تشبه الميم إشارة إلى الجزم إذ الميم آخر حرف من الجزم، وحذفوا عراقة الميم استخفافاً، وسمّوا تلك الدائرة جزمة، أخذوا من الجزم الذى هو لقب السكون، ويحتمل أن يكونوا أتوا بتلك الدائرة على صورة الصّفر فى حساب الهندود ونحوهم إشارة إلى خلوق تلك المرتبة من الأعداد لأن الصفر هو الخالى، ومنه قولهم : ”صِفْرُ الْيَدَيْنِ“ بمعنى أنه فقير ليس فى يديه شئ من المال .
وحُدِّقُ الْكُتَّابِ يجعلونها جيماً لطيفة بغير عراقة إشارة إلى الجزم .

الثانية

(علامة الفتح)

أما المتقدمون فإنهم يجعلون علامة الفتح نُقْطَةً بالجمرة فوق الحرف . فإن أتبت حركة الفتح تنويناً، جعلت نقطتين، إحداهما للحركة، والأخرى للتنوين .
والمتأخرون يجعلون علامتها ألفاً مضطجعة . لما تقدّم من أن الألف علامة الفتح فى الأسماء المعتلة ورسموها بأعلى الحرف موافقة للمتقدمين فى ذلك، وسمّوا تلك الألف المضطجعة نُصْبَةً أخذوا من النصب ؛ ويجعلون حالة التنوين خطين مضطجعتين من فوقه كما جعل المتقدمون لذلك نقطتين، وعبروا عن الخطتين بنصبتين .
قال الشيخ عماد الدّين بن العفيف رحمه الله : ويكون بينهما بقدر واحدة منهما .

الثالثة

(علامة الضم)

أما المتقدمون فإنهم يجعلون علامة الضمة نقطة بالجمرة وسط الحرف أو أمامه، فإن لحق حركة الضم تنوينٌ، رسموا لذلك نقطتين : إحداهما للحركة، والأخرى للتنوين على ما تقدّم فى الفتح .

وأما المتأخرون فإنهم يجعلون علامة الضمة واوا صغيرة : لما تقدّم أن الواو من علامة الرفع في الأسماء المعتلة، وسمّوها رفعة لذلك، ورسومها بأعلى الحرف ولم يجعلوها في وسطه كيلا تشين الحرف، بخلاف المتقدمين لخالفه الاون ولطافة النقطة . فإن لحق حركة الضم تنوينٌ رسموا لذلك واوا صغيرة بخطّة بعدها : الواو إشارة للضم، والخطّة إشارة للتنوين، وعبروا عنهما برفعتين . وبعضهم يجعل عوض الخطّة واوا أخرى مردودة الآخر على رأس الأولى .

الرابعة

(علامة الكسر)

والمتقدمون يجعلون علامة الجرّة نقطة بالجرّة تحت الحرف . فإن لحق حركة الكسر تنوين رسموا لذلك نقطتين .

والمتأخرون جعلوا علامة الكسر شَطِيطَةً من أسفل الحرف إشارة إلى الياء التي هي علامة الجرّ في الأسماء المعتلة على مامر، وسمّوا تلك الشَطِيطَةَ خَفْضَةً، أخذًا من الخفض الذي هو لقب الكسر، ولم يخالفوا بينها وبين علامة النصب لاختلاف محلها . فإن لحق حركة الكسر تنوينٌ رسموا له خطتين من أسفله : إحداها للحركة، والأخرى للتنوين .

الخامسة

(علامة التشديد)

والمتقدمون اختلفوا : فذهب أهل المدينة أنهم يرسمون علامة التشديد على هذه الصورة (^(١)) ولا يجعلون معها علامات الإعراب بل يجعلون علامة الشد مع الفتح فوق الحرف، ومع الكسر تحت الحرف، ومع الضم أمام الحرف .

(١) بياض في الأصل والضوء .

قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله : وعليه عامة أهل بلدنا . قال : ومنهم من يجعل مع ذلك نقطة علامة للإعراب ، وهو عندى حسن .
وعامة أهل الشرق على أنهم يسمون علامة التشديد صورة شين من غير عراقية على هذه الصورة (ش) كأنهم يريدون أول شديد ، ويجعلون تلك العلامة فوق الحرف أبداً ويُعربونه بالحركات . فإن كان مفتوحاً جعلوا مع الشدة نقطة فوق الحرف علامة الفتح ، وإن كان مضموماً جعلوا مع الشدة نقطة أمام الحرف علامة الضم ، وإن كان مكسوراً ، جعلوا مع الشدة نقطة تحت الحرف علامة الكسر . وعلى هذا المذهب استقر رأي المتأخرين أيضاً ؛ غير أنهم يجعلون بدل النقط الدالة على الإعراب علامات الإعراب التي أصطلحوا عليها من النصب ، والرفعة ، والخفضة . فيجعلون النصب والرفعة بأعلى الشدة ، ويجعلون الخفضة أسفل الحرف الذي عليه الشدة . وبعضهم يجعلها أسفل الشدة من فوق الحرف . ولا فرق في ذلك بين أن يكون المشدد من كلمة واحدة أو من كلمتين كالإدغام من كلمتين .

السادسة

(علامة الهمزة)

والمقدمون يجعلونها نقطة صفراء ليخالفوا بها نقط الإعراب كما تقدم في كلام الشيخ أبي عمرو الداني رحمه الله : ويسمون فوق الحرف أبداً ، إلا أنهم يأتون معها بنقط الإعراب الدالة على السكون والحركات الثلاث بالهمزة على ما تقدم . وسواء في ذلك كانت صورة الهمزة واوا أو ياء أو ألفاً ، إذ حق الهمزة أن تلزم مكاناً واحداً من السطر : لأنها حرف من حروف المعجم . والمتأخرون يجعلونها عينا بلا عراقية ، وذلك لقرب مخرج الهمزة من العين ، ولأنها تتمحن بها كما سيأتي .

ثم إن كانت الهمزة مصوّرة بصورة حرف من الحروف: فإن كانت الهمزة ساكنة، جعلت الهمزة من أعلى الحرف مع جرمة بأعلاها. وإن كانت مفتوحة، جعلت بأعلى الحرف أيضا مع نصبة بأعلاها. وإن كانت مضمومة، جعلت بأعلى الحرف مع رفعة بأعلاها. وإن كانت مكسورة، جعلت بأسفل الحرف مع خفضة بأسفلها. وربما جعلت بأعلى الحرف والخفضة بأسفله.

وقد اختلف القدماء من النحويين في أىّ الطّرفين من اللام ألف هي الهمزة. فحكى عن الخليل بن أحمد رحمه الله أنه قال: الطّرف الأول هو الهمزة، والطّرف الثانى هو اللام.

قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله: وإلى هذا ذهب عامة أهل النقط، وأستدلوا على صحة ذلك بأن رسم هذه الكلمة كانت أولا لاما مبسّطة في طرفها ألف على هذه الصورة "لا" كنحو رسم ما أشبه ذلك مما هو على حرفين من سائر حروف المعجم مثل "يا، وها" وما أشبههما إلا أنه آسثقل رسم ذلك كذلك في اللام ألف خاصة لا اعتدال طرفيه لمشابهة كتابة الأعاجم فحسن رسمه بالتضفير فضم أحد الطرفين إلى الآخر فأيهما ضم إلى صاحبه كانت الهمزة أولى ضرورة. وتعتبر حقيقة ذلك بأن يؤخذ شيء من خيط ونحوه فيصفر ويخرج كل واحد من الطرفين إلى جهة، ثم يقام الطرفان فيتين من الوجهين أن الأول هو الثانى في الأصل، وأن الثانى هو الأول لا محالة في التضفير.

وأيضا فقد اتفق أهل صناعة الخط من الكُتّاب القدماء وغيرهم على أنه يرسم الطّرف الأيسر قبل الطّرف الأيمن، ولا يخالف ذلك إلا من جهل صناعة الرسم إذ هو بمنزلة من ابتدأ يرسم الألف قبل الميم في "ما" وشبهه مما هو على حرفين، فنبت بذلك

أن الطرف الأول هو الهمزة، وأن الطرف الثاني هو اللام : إذ الأول في أصل القاعدة هو الثاني، والثاني هو الأول على ما مر، وإنما اختلف طرفاها من أجل التضيف.

وخالف الأخفش: فزعم أن الطرف الأول هو اللام، والطرف الثاني هو الهمزة، وأستشهد لذلك بأن ما تُلَفِّظ به أولا هو المرسوم أولا وما تُلَفِّظ به آخر هو المرسوم آخر، ونحن إذا قرأنا لأنت ولأنه ونحوهما لفظنا باللام أولا ثم بالهمزة بعدها. ونازعه في ذلك الشيخ أبو عمرو الداني. والحق أن ذلك يختلف باختلاف اللام ألف على مارتبه متأخرو الكتاب الآن. ففي المصفورة على ما تقدم، وفي المصفورة بهذه الصورة "لا" بالعكس.

وإن كانت الهمزة غير مصفورة بحرف من الحروف كالهمزة في جزء وخَبَّ، جعلت العلامة في محل الهمزة من الكلمة مع علامة الإعراب: من سكون، وفتح، وضم، وكسر. فإن عرض للهمزة مع حركة من الحركات الثلاث تنوين، جعل مع الهمزة علامة التنوين: من نصبتين أو رفعتين أو خفضتين على ما مر في غير الهمزة. قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله: وتمتحن الهمزة في موضعها من الكلام بالعين، فحيث وقعت العين وقعت الهمزة مكانها، وسواء كانت متحركة أو ساكنة لحقها التنوين أو لم يلحقها، فتقول في آمنوا عامنوا، وفي وءاتى المال وعاتى المال، وفي مستهزئين مستهزعين، وفي خاسعين خاسعين، وفي مبرءون مبرعون، وفي متكئون متكئون، وفي ماء ماع، وفي سوء سوء، وفي أولياء أولياء، وفي تنوء تنوع، وفي لتنوء لتنوع، وفي أن تبوء أن تبوعا، وفي تبوء تبوع، وفي من شاطي من شاطع، وكذلك ما أشبهه حيث وقع فالقياس فيه مطرد.

السابعة

(علامة الصلة في ألفات الوصل)

أما المتقدمون فإنهم رسموا لها جرّة بالجرّة في سائر أحوالها ، وجعلوا محلها تابعا للحركة التي قبل ألف الوصل . فإن وليها فتحة كما في قوله تعالى : ” نَتَقُونَ الذِّى ” جعلت الصلة جرّة حمراء على رأس الألف على هذه الصورة (آ) وإن وليها كسرة كما في قوله تعالى : ” رَبِّ الْعَالَمِينَ ” جعلت الصلة جرّة حمراء تحت الألف على هذه الصورة (١) وإن وليها ضمة كما في قوله تعالى : ” نَسْتَعِينُ أَهْدِنَا ” جعلت الصلة جرّة حمراء في وسطها على هذه الصورة (+) . فإن لحق شيئا من الحركات التنوين جعلت الصلة أبدا تحت الألف ، لأن التنوين مكسور للساكنين ما لم يأت بعد الساكن الواقع بعد ألف الوصل ضمة لازمة نحو قوله تعالى : ” فَيَلًا أَنْظُرْ ” و ” عِيُونَ أَدْخُلُوهَا ” . قال بعضهم بضم التنوين فتجعل الجرّة على ذلك في وسط الألف .

وأما المتأخرون [فإنهم رسموا لذلك صادًا لطيفة إشارة إلى الوصل] وجعلوها بأعلى الحرف دائما ولم يرأعوا في ذلك الحركات ، آكتفاءً باللفظ .

تنبيه

قد تقدم في ... الأول من الهجاء أن اللفظ قد يتعين في الهجاء إلى الزيادة والنقصان ، ولا شك أن الشكل يتغير بتغير ذلك ، ونحن نذكر من ذلك ما يختص بالهجاء العرفي دون الرسمي باعتبار الزيادة والنقص .

(١) ما بين الدائرتين بيض له في الأصل وأخذناه عن ” ضوء الصبح ” .

(٢) بياض في الأصل .

أما الزيادة، فمثل أولئك، وأولو، وأولات ونحوها .

قال الشيخ أبو عمرو الداني : وسبيلك أن تجعل علامة الهمزة نقطة بالصفرة في وسط ألف أولئك وأولو وأولات، وتجعل نقطة بالحمرة أمامها في السطر لتدل على الضمة . قال : وإن شئت جعلتها في الواو الزائدة : لأنها صورتها ، وهو قول عامة أهل النقط . هذه طريقة المتقدمين .

أما المتأخرون : فإنهم يجعلون علامة الهمزة على الواو وهو مخالف لما تقدم من اعتبار الهمزة بالعين فإنها لو امتحنت بالعين، لكان لفظها عولتك وكذلك البواقي . وأما النقص فمثل النبئ إذا كتبت بياء واحدة، وهؤلاء، وياء ادم إذا كتبتا بحذف الألف بعد الهاء في هؤلاء والألف الثانية في ياء ادم فترسم علامة الهمزة من النقطة الصفراء وحركتها على رأى المتقدمين، وصورة العين على رأى المتأخرين قبل الياء الثانية في النبيين . وتجعل ذلك على الألف الثانية في يا ادم لأنها صورتها وعلى الواو في هؤلاء لأنها صورتها .

ووراء ما تقدم من الشكل أمور تتعلق بالإدغام، والإظهار، والإخفاء، والإقلاب، والمدة وغيرها : من متعلقات القراءة ليس هذا موضع ذكرها والله أعلم .

(فائدة)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولا بد من تناسب الشكل والنقط وتناسب البياضات في ذلك للحروف .

الفصل الرابع

من الباب الثاني من المقالة الأولى

(في الهجاء ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في مصطلحه الخاص ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(المصطلح الرسمي)

وهو ما أصطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم في كتابة المصحف عند جمع القرآن الكريم ، على ما كتبه زيد بن ثابت رضى الله عنه ، ويسمى الاصطلاح السلفي أيضا ، ونحن نورد منه ما جرت إليه الكلام أو وافق المصطلح العرفي .

الضرب الثاني

(المصطلح العروضي)

وهو ما أصطلح عليه أهل العروض في تقطيع الشعر ، وأعتادهم في ذلك على ما يقع في السمع دون المعنى ، إذ المعتد به في صناعة العروض إنما هو اللفظ : لأنهم يريدون به عدد الحروف التي يقوم بها الوزن متحركاً وساكتاً فيكتبون التنوين نونا ، ولا يُراعون حذفها في الوقف ، ويكتبون الحرف المدغم بحرفين ، ويحذفون اللام وغيره مما يدغم في الحرف الذي بعده : كالرحمن والذاهب والضارب ، ويعتمدون في الحروف على أجزاء التفعيل ، فقد نتقطع الكلمة بحسب ما يقع من تبين الأجزاء كما في قول الشاعر :

سَبْدَى لَكَ الْيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودَ .
فيكتبونه على هذه الصورة :

سَبْدَى ، لَكَ لَأَيَّامًا ، مَّا كُنْ ، تَجَاهِلَنْ * وَيَأْتِي ، كَبَا الْأَخْبَا ، رِمْلَمْ ، تَزُودَى .

المقصد الثاني

(في المصطلح العام)

وهو ما اصطاح عليه الكتاب في غير هذين الاصطلاحين ، وهو المقصود من الباب ؛ وفيه جملتان :

الجملة الأولى

(في الأفراد ، والحذف ، والإثبات ، والإبدال ، وفيه مدركان)

المدرَك الأول

(في بيان الأصل المعتمد في ذلك ، وما يكتب على الأصل)

وأعلم أن الأصل في الكتابة مطابقة المنطوق المفهوم ، وقد يزيدون في وزن الكلمة [ما ليس في وزنها ليفصلوا بالزيادة بينه وبين المشبه له ، وينقصون من الكلمة] عما هو في وزنها استخفافا واستغناء بما أبقى عما آتقص إذا كان فيه دليل على ما يحذفون : كما أن العرب تنسرف في الكلمة بالزيادة والنقصان ، ويحذفون ما لا يتم الكلام في الحقيقة إلا به استخفافا وإيجازا إذا عَرَفَ المخاطب ما يقصدون .

قال ابن قتيبة : ورُبَّمَا تركوا الاشتباه على حاله ، ولم يفصلوا بين المتشابهين وأبكتفوا بما يدل عليه من متقدم أو متأخر : كقولك للرجل الواحد : يغزوا ، وللاثنتين

(١) سقطت هذه الجملة من الأصل ووجدناها " في أدب الكاتب " و " في ضوء الصبح " فأثبتناها لأنها مرادة له وليستقيم الكلام .

لن يَغْزُوا وللجميع لب يَغْزُوا بالواو والألف في الجميع من غير تفريق بين الواحد والاثنين والجمع ، وبقوّه على أصله .

إذا علمت ذلك ، فالمكتوب على المصطلح المعروف هو على قسمين .

القسم الأول

(ماله صورة تخصّه من الحروف ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو على أصله المعترف به في ذوات الحروف وعددها)

بتقدير الابتداء بها والوقوف عليها ، سواء بقي لفظه على حاله

أم أنقلب النطق به إلى حرف آخر)

فيكتب لفظ ”إمحي“ بغير نون بعد الألف ، وإن كان أصله آمحي على وزن أنفعل من المحو : لأن الإدغام من كلمة واحدة ؛ بخلاف ما إذا كان الإدغام من كلمتين ؛ فيكتب لفظ ”من مال“ بنون في من منفصلة من ميم مَال وإن كانت النون الساكنة تدغم في الميم .

ويكتب لفظ خنق مصدر خنق ولفظ أنت وما أشبهها بنون ، وإن كانت النون مُحفّاة في القاف من خنق وفي التاء من أنت . وكذلك حالة التركيب نحو من كافر .

ويكتب عبر وما أشبهها بنون أيضا وإن كانت النون الساكنة تنقلب عند الباء ميما ؛ وكذلك في حالة التركيب نحو من بعد . ويكتب مثل أضربوا القوم ويغزو

الرجل بواو ، وكذلك كل ما فيه حرف مدّ حذف لساكن يليه لأنه لولا التقاء الساكنين لثبتت هذه الواو لفظا . ويكتب أنا بألف بعد النون وإن كانت في وصل الكلام

لإشباع في الفتحة لأن الوقف عليه بألف . ومن أجل ذلك كتبت ﴿لِكِنَّا هُوَ اللَّهُ﴾

(١) في المصباح أن فعل خنق من باب قتل ومصدره ككتف ويسكن للتخفيف .

بألف بعد النون في لكا إذ أصله لكن أنا . ويكتب المتون المنصوب مثل زيدا وعمرا من قولك : رأيت زيدا وضربت عمرا بالألف لأنه يوقف عليه بالألف بخلاف المتون المرفوع والمجورور نحو جاء زيد ومررت بزيد، إذ الوقف عليه بحذف نون التنوين وإسكان الآخر على الصحيح . وتكتب إذا المتونة بالألف على رأى المازني رحمه الله ومن تابعه : لأن الوقف عليها بالألف لضعفها، والمبرد والا كثرون على أنها تكتب بالنون . قال الأستاذ ابن عصفور : وهو الصحيح : لأن كل نون يوقف عليها بالألف كتبت بالألف وما يوقف عليها نفسها كما توصل كتبت بالنون وهذه يوقف عليها عنده بالنون، وأيضا فإنها إذا كتبت بالنون كانت فرقا بينها وبين إذا الطرفية لثلا يقع الإلباس . وفصل الفراق قال : إن ألغيت كتبت بالألف، وإن أعلمت كتبت بالنون لقوتها . ويحكى عن أبي العباس محمد بن يزيد أنه كان يقول : أشتهى أن أكوى يد من يكتب إذن بالألف لأنها مثل أن ولن، ولا يدخل التنوين في الحروف .

ويكتب نحو لنسفعاً بالألف لأن الوقف عليها بالألف، وكذلك يكتب اضرباً زيدا ولا تضرباً عمرا بالألف على رأى من آدعى أنه الأكثر، ووجهه بأن النون الخفيفة تنقلب ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحا في الوقف .

وذهب بعضهم إلى أنها تكتب بالنون تشبيها لنونه بنون الجمع نحو اضربن للجمع المذكور وبه جزم الشيخ أثير الدين أبو حيان . ووجهه بأنه لو كتبت بالألف لالتبس بأمر الاثنين ونهيهما في الخط، وإن كنت إذا وقفت عليه وقفت بالألف فلم تُراع حالة الوقف في ذلك لأن الوقف منع من اعتباره ما عرض فيه من كثرة الإلباس :

(١) أى تشبيها لنون التوكيد التى فى الفعل المستند الى المفرد بنون التوكيد التى فى الفعل المستند الى الجمع .

لأنهم لو أرادوا (على الوقف بالألف) كتابته بالألف، كثر الألبس بالوقف والخط، فتجنبوا ما كثر به الإلباس. ويكتب كل اسم في آخر داء نحو قاضى وغازى وداعى وحادى وسارى ومُشترى ومُهندي ومُستدعى ومُفترى فى حالتى الرفع والجر بغير داء، كما فى قولك جاء قاضٍ ومررت بقاضٍ، وكذا فى الباقيات، وفى حالة النصب بالياء مع زيادة ألف بعدها كما فى قولك: رأيتُ قاضياً وغازياً وداعياً وما أشبهه.

وإن كان جمعاً: فإن كان غير منصرف كُتِبَ فى حالتى الرفع والخفض بغير داء على ما تقدم.

فِيُكْتَبُ فى الرفع هؤلاء جوارٍ وغواشٍ وسوارٍ ودواعٍ، وفى الخفض مررت بجوارٍ وسوارٍ وغواشٍ ودواعٍ بغير داء فى الحالتين.

ويكتب فى النصب بالياء إلا أنه لا تزد الألف بعدها، فتكتب رأيت جوارى وسوارى ودواعى.

فإذا دخلت الألف واللام فى جميع هذه الأسماء، أثبتت فيها الياء سواء المنصرف وغير المنصرف، فيكتب هذا الداعى والغازى والقاضى والمستدعى وهؤلاء الجوارى والسوارى والدواعى بالياء فى الجميع.

قال ابن قتيبة: وقد يجوز حذفها، وليس بمستعمل إلا فى كتابة المصحف. ويكتب نحو ره أمرًا بالرؤية، ولم يرَ نفياً للرؤية، وقه أمرًا بالوقاية، ولم يقه نفياً لذلك وما أشبهه بالهاء وإن كانت الهاء تسقط منه حالة الدَّرج، لأن الوقف عليها بالهاء. وكذلك قولهم: مه أنت، ومجىء مه جئت: لأن الوقف على ما الاستفهامية بعد حذف ألفه بالهاء فيكتب بالهاء، بخلاف ما إذا وقعت ما المحذوف ألفها بعد

(١) كذا فى الضوء أيضاً ولعله [بمه آتيت].

الجار نحو حَتَّامَ وإِلَامَ وَعَلَامَ فإنه لا تلحقها الهاء لشدة الاتصال فلا تكتب بالهاء .
وتكتب تاء التأنيث في نحو رحمة ونعمة ونقمة وقسمة وخدمة وطلحة وقحمة بالهاء
لأن الوقف عليها بالهاء على الصحيح ، وبعضهم يقف عليها بالتاء ، وهى لغة قليلة
فتكتب بالتاء موافقةً للوقف . وقد وقع في رسم المصحف الكريم مواضع من ذلك
نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنِ نَمُوتُ أَوْ قُتِلْنَا لَكُلِّ بَنِي آدَمَ خَلْقٌ وَاحِدٌ وَنَحْنُ عُتْبَىٰ ذِي الْقُرْبَىٰ ۚ ﴾
قال ابن قتيبة : وأجمع الكتاب على كتابة السلام عليك ورحمت الله وبركاته
في أول الكتاب وآخره بالتاء . قال : فإن أضفت تاء التأنيث إلى مضمرة ، صارت تاء
فتكتب شَجَرَتِكَ وناقَتِكَ ورحمتِكَ وما أشبهه بالتاء .

أما أخت و بنت ، وجمع المؤنث السالم مثل قائمات وصائمات وتائبات ، وتاء
التأنيث الساكنة في آخر الفعل نحو قامت وقعدت ، وما أشبه ذلك ، فإنه يكتب
جميع ذلك بالتاء لأن الوقف عليها بالتاء .

قال ابن قتيبة : وهيات يوقف عليها بالهاء والتاء ، والإجماع على كتابتها بالتاء .
ثم اللفظ الذى يكتب على نوعين :

النوع الأول

(أن يكون أسما لحرف من حروف الهجاء ، وهو على وجهين)

الوجه الأول

(أن يكون أسما قاصرا على الحرف لم يسم به غيره ، وله حالان)

أحدهما - أن يقصد اسم ذلك الحرف لا مسماه فيكتب المفوظ به نحو جيم إذا

سئل كتابته فيكتب بجيم وياء وميم .

الثاني - أن يقصد مسماه لا اسمه فيجب الاختصار في الكتابة على أول حرف في الكلمة، ويكتب بصورة ذلك الحرف مثل قَ نَ صَ ، ولذلك كتبت الحروف المفتوح بها السور على نحو ما كتبوا حروف المعجم . وذلك لأنهم أرادوا أن يضعوا أشكالا لهذه الحروف تميز بها ، فهي أسماء مدلولاتها أشكال خطية ، ولو لم يضعوا لها هذه الأشكال الخطية ، لم يكن للخط دلالة على المنطوق . ولو اقتصروا على كتبها على حسب النطق ولم يضعوا لها أشكالا مفردة تميز بها لم يمكن ذلك : لأن الكتابة بحسب النطق متوقفة على معرفة كل حرف وشكل كل حرف غير موضوع ، فاستحال كتبها على حسب النطق . ألا ترى أنك إذا قيل لك : أكتب جيم ، عين ، فاء ، راء ؛ وإنما تكتب هذه الصورة "جعفر" والمفوض بلسان الأمر بالكتابة جيم والمكتوب ج . ولو كان تصوير اللفظ بصور هجائه ، لكان المكتوب "ججيم" كالمفوض على قياس غيره من الألفاظ .

ويشهد لذلك ما حكى أن الخليل رحمه الله قال يوما لطلبته : كيف تنطقون بالجيم من جعفر ؟ فقالوا جيم فقال : إنما نطقتم بالآسم ولم تلفظوا بالمسؤول عنه ، ثم قال : الجواب جه لأنه المسمى من الكتاب (يريد جيا مفتوحة ، وإنما أتى فيها بالهاء ليتمكن الوقف عليها) .

الوجه الثاني

(أن لا يكون الآسم قاصرا على الحرف بأن يسمى به غيره أيضا كما إذا سُمي رجل بقاف أو ياسين ، فللكتاب فيه مذهبان) :

أحدهما - أن تكتب صورة الحرف هكذا قَ ويس .

والثاني - أن يكتب المفوض به هكذا "قاف" و "ياسين" وهو اختيار أبي

عمرو بن الحاجب رحمه الله .

النوع الثاني

(أن لا يكون أسما لحرف من حروف المعجم، وهو على وجهين أيضا)

الوجه الأول

(أن يكون له معنى واحد فقط)

فيكتب هكذا (زيد) إذا طلب كتابة زاي، ياء، دال.

الوجه الثاني

(أن يكون له أكثر من معنى واحد)

فيكتب بحسب القرينة كما إذا قيل لك: أكتب شعرا فإن دلت القرينة على أن المراد هذا اللفظ كتب هكذا (شعرا) وإلا فيكتب ما ينطبق عليه الشعر إذ هو معنى الشعر.

الضرب الثاني

(ما تغير عن أصله، وهو على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ما تغير بالزيادة. والزيادة تقع في الكتابة بثلاثة أحرف)

الحرف الأول

(الألف، وتزداد في مواضع)

(منها) تزداد بعد الميم في مائة فتكتب على هذه الصورة (مائة) فرقا بيننا وبين منه، وإنما كانت الزيادة من حروف العلة دون غيرها لأنها تكثر زيادتها، وكان حرف العلة ألفا لأنها تشبه الهمزة، ولأن الفتحة من جنس الألف. ولم تكن الزيادة ياء، لأنه يستعمل في الخط أن يجمع بين حرفين مثنان في موضع مأمون فيه اللبس.

(١) عبارة الضوء فإن كان له معنى (أى واحد) كتب على هذه الصورة "زيد" وهى أوضح.

ألا ترى إلى كتابتهم خطيئة على وزن فعيلة بياء واحدة ولو كتبت على صيغة لفظها، لوجب أن تكتب بياءين، ياء لبناء فعيلة، وياء هي صورة الهمزة . ولم تكن الزيادة واوا لاستئصال الجمع بين الياء والواو، وجعل الفرق في مائة ولم يجعل في منه لأن مائة أسم ومنه حرف والأسم أحمل للزيادة من الحرف، ولأن المائة محذوفة اللام بدليل قولهم: أمأيت الدراهم، فجعل الفرق في مائة بدلا من المحذوف مع كثرة الاستعمال؛ ثم اختلف في المثني منه فقيـل لا يـزاد في مائتين لأن موجب الزيادة اللبس ولا لبس في الثنية، والراجح الزيادة كما في الإفراد : لأن الثنية لا تغير الواحد عما كان عليه . أما في حالة الجمع، فقد اتفقوا على منع الزيادة فكتبوا ” مئتين ومئات “ بغير ألف بعد الميم : لأن جمع التكسير يتغير فيه الواحد وجمع السلامة ربما تغير فيه أيضا فغلبت .

قال الشيخ أنير الدين أبو حيان رحمه الله : وقد رأيت بخط بعض النحاة ” مائة “ على هذه الصورة بألف عليها نبرة الهمزة دون ياء . قال : وكثيرا ما أكتبُ أنا ” مئة “ بغير ألف كما تكتب ” فئة “ لأن كُتِبَ مائة بالألف خارج عن القياس . فالذى اختاره أن تكتب بالألف دون الياء على وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف على وجه تسهيلها .

(ومنها) تراد بعد واو الجمع المتطرفة في آخر الكلمة إذا اتصلت بفعل ماض أو فعل أمر مثل ضَرَبُوا وأَضَرُّوا وما أشبههما فتكتب بألف بعد الواو . وسُمِّيَ ابن قتيبة هذه الألف ألف الفصل لأنها تفصل بين الفعل كي لا تلبس الواو في آخر الفعل بواو العطف . فإنك لو كتبت أَوْرَدُوا وصَدَرُوا مثلا بغير ألف ثم اتصلت بكلام

(١) لعل الأظهر لأنها تفصل بين الفعل وما بعده من الكلام .

بعدها، ظن القارئ أنها واو العطف. ولما فعلوا ذلك في الأفعال التي تنقطع وأوها عن الحرف كالفعلين المتقدمين، فعلوا ذلك في الأفعال التي تتصل وأوها بالحرف قبلها نحو كانوا وبنوا ليكون حكم هذه الواو في جميع المواضع واحدا. أما إذا لم تقع طرفا في آخر الكلام نحو ضربوهم وكألوهم ووزنوهم، لم تلحق به الألف. فلو اتصلت واو الجمع المذكورة بفعل مضارع نحو لن يضربوا ولن يذهبوا. فذهب بعض البصريين أنه لا تلحقها الألف. ومذهب الأخفش لحوقها كالماضي والأمر. ولو اتصلت باسم نحو ضاربوهم وضاربو زيد. فذهب البصريين أنها لا تلحق بل يجعل الهمزة تلو الواو. ومذهب الكوفيين أنها تلحق فيكتبون ضاربوا زيد وقاتلوا عمرو وهُمُوا بألف بعد الواو في الجميع، والراجح الأول.

(ومنها) زادها الفراء في يدعو ويغزو في المفرد حالة الرفع خاصة تشبيها بواو الجمع. وأطلق ابن قتيبة النقل عن بعض كتّاب زمانه بأنها لا تُلحق في مثل ذلك : لأن العلة التي أُدخلت هذه الألف لأجلها في الجمع لا تلزم هنا : لأنك إذا كتبت الفعل الذي تتصل واوه به من هذا الباب مثل أنا أرجو وأنا أدعو لم تشبه واؤه واو العطف أيضا إلا بأن تزيل الكلمة عن معناها لأن الواو من نفس الفعل لا تفارقه إلا في حال جزمه، والواو في صدرها، ووردوا وأوجع مكثف بنفسه يمكن أن يجعل للواحد وتوهم الواو عاطفة لشيء عليه. قال : وقد ذهبوا مذهبا. غير أن متقدمي الكتّاب لم يزالوا على إلحاق ألف الفصل بهذه الواوات كلها ليكون الحكم في كل موضع واحدا.

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : وفصل الكسائي في حالة النصب فقال : إن لم يتصل به ضمير نحو لن يدعوك، كتب بغير ألف فرقا بين الحالين.

(١) لعل الصواب [إن لم يتصل به ضمير نحو لن يدعوك كتب بألف. وإن اتصل به ضمير نحو الخ].

(ومنها) تزداد شذوذاً بعد الواو المبدلة من الألف في الربو فتكتب بألف بعد الواو على هذه الصورة (الربوا) تنبئها على أن الأصل أن يكتب بالألف . ووجه الشذوذ أنه من ذوات الواو فكان قياسه أن يكتب بالألف .

وقد زيدت في مواضع من المصحف ، كما في قوله تعالى : ”إِنْ أَمْرُؤَا هَلَكَ“ تنبئها على أنه كان ينبغي أن تكون صورة الهمزة ألفاً على كل حال ولا يعتد بالضم والكسرة إذ اللغة الأصلية فيها إنما هي فتح الراء دائماً ، والقياس كتابته بصورة الحركة التي قبل الهمزة ، وكذلك كتبوا ”لَا أَوْضَعُوا“ بزيادة ألف بعد اللام ألف ، وذلك يختص برسم المصحف الكريم دون غيره ، فلا يقاس عليه والله أعلم .

الحرف الثاني

(الواو ، وتزداد في مواضع أيضاً)

(منها) تزداد في عمرو بعد الراء إذا كان علماً في حالتى الرفع والجر فربما بينه وبين عُمَر . وكانت الزيادة واوا ولم تكن ياء لئلا يلتبس بالمضاف إلى ياء المتكلم ، ولا ألفاً لئلا يلتبس المرفوع بالمنصوب . وجعلت الزيادة في عمرو دون عُمَر ، لأن عُمراً أخف من عُمَر من حيث بناءه على فَعْل ومن حيث أنصرافه . أما في حالة النصب فلا تزداد فيه الواو ويكتب عمرو بألف وعُمَر لا يكتب بألف لأنه لا ينصرف ، وكذلك المحلى باللام كالعُمَر والمضاف كعُمَره والواقع قافية شعر كقول الشاعر :

إِنَّمَا أَنْتَ فِي سُلَيْمٍ كَوَاوٍ * أُلْحِقْتُ فِي الْمَجَاءِ ظُلُمًا بِعَمْرِ

وكذلك عُمَر واحد عُمُور الأسنان : وهو اللحم الذي بينها ، وما هو بمعنى المصدر مثل قولهم : لَعَمْرُ اللَّهِ لا تزداد فيه الواو إذ لا لبس . ولم يفرقوا في الكتابة بين عُمَر العَلَم وعُمَر جمع عُمَرَة لأنهما ليسا من جنس واحد فلا يلتبس .

(ومنها) تزداد في أولئك بين الألف واللام فرقا بينها وبين إليك إذ حذفوا ألف أولئك الذي بعد اللام لكثرة الاستعمال فالتبست بإليك، وكانت الواو أولى بالزيادة من الياء : لمناسبة ضمة الهمزة، ومن الألف : لاجتماع صورتى الألف وهم يحذفون الواحدة إذا اجتمعت صورتها، وجعلت الزيادة في أولئك دون إليك : لأن الاسم أحمل للزيادة من الحرف ولأن أولئك قد حذف منه الألف فكان أولى بالزيادة لتكون كالعوض من المحذوف .

قال ابن الحاجب : وحملوا أولى عليه مع عدم اللبس كما حملوا مائتين على مائة . (ومنها) تزداد في أولى وفي أولو بين الألف واللام، أما في أولى فللفرق بينها وبين إلى، وأما في أولو فبالحمل على أولى بالياء، صرح به الشيخ أبو عمرو بن الحاجب، وقاله الشيخ أنير الدين أبو حيان بجنا وأدعى أنه لم يظفر في تعليقه بنص . قال : وحمل التأنيث في أولات على التذكير في أولى .

(ومنها) تزداد في أونحى تصغير أُنحى بين الألف والحاء ، والتغير يأنس بالتغير . وجعلت الزيادة واوا لمناسبة ضمة الهمزة كما في أولئك ونحوه . وأكثر أهل الخط لا يزيدونها لأن التصغير فرع عن التكبير وليس ببناء أصلي .

الحرف الثالث

(الياء المنشأة تحت)

وتزداد في مواضع من رسم المصحف الكريم فيكتبون قوله تعالى : (بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) بياءين بين الألف والdal من قوله : ”بَأَيْدٍ“ . وقوله تعالى : (من نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) بياء بعد الألف من نبأ، وقوله تعالى : (من مَلَأِيهِ) و (من مَلَأِيهِمْ) بياء قبل الهاء فيهما . وهذا مما يجب الاتقياد إليه في المصحف اقتداءً بالصحابة رضوان الله عليهم .

أما في غير المصحف فيكتب بأيد بياء واحدة لأن الهمزة فيه أول كلمة فتصوّر ألفا كغيرها من الهمزات الواقعة أولا على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . ويكتب من نبي ومن ملئه ومن ملّهم بغير ياء لأن الهمزة في نبي وملأ أخيرة بعد فتحة فتصوّر ألفا كما في نحو كالأ وخطأ، وكذلك إذا أضيف إليه الضمير .

وذهب بعضهم إلى أنها تكتب في هذا ياء على ما يناسب حركتها سواء أضيفت نحو من كلته أو لم تضاف نحو من الكلى .

قال بعضهم : والأقيس أن يكتب ياء مع الضمير المتصل نحو من خطئه لأنها صارت معه كالمتوسطة ويكتب ألفا إذا تطرقت نحو من خطأ اعتبارا بما يؤول إليه في التخفيف والله أعلم .

النوع الثاني

(ما يغير بالنقص)

والنقص يقع في الكتابة على وجهين .

الوجه الأول

(ما لا يختص بحرف من الحروف ، وهو المدغم)

فيكتب كل مشدد من كلمة واحدة حرفا واحدا نحو شدّ ومدّ وآدّ كر ومقرّ وأقشعّر فيكتب بدال واحدة في شدّ ومدّ وآدّ كر وراء واحدة في مقرّ وأقشعّر وإن كان في اللفظ حرفان ، فإن الحرف المدغم فيما بعده هو متلفظ به ساكنا مدغما ، فكان قياسه أن تكتب له صورة بحسب النطق ، لكنه لما أدغم ضعّف بالإدغام ، إذ صار النطق به وبالمدغم فيه نطقا واحدا فأقتصر في الكتابة على حرف واحد ولم يجعل للأول صورة اختصارا . وسواء كان المدغم إدغام مثل نحو ردّ أو مقارب نحو أطّجع أصله

أَضْطَجَعَ . وأَجْرُوا نَحْوَ قَنْتُ مُجْرَى مَا هُوَ مِنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ كَلِمَتَيْنِ لَشِدَّةِ
اتِّصَالِ الْفِعْلِ بِالْفَاعِلِ مَعَ كَوْنِ الْحَرْقَيْنِ مِثْلَيْنِ .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وكذلك نَحْوِمَّ وَعَمَّ ^(١) وَالْأَمَّ .

الوجه الثاني

(ما يختص بحرف من الحروف)

وينحصر ذلك في خمسة أحرف :

الحرف الأول

(الألف ، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف مع لام التعريف إذا دخلت عليها لام الجذر، فيكتب للقوم وللغلام وللناس بلامين متواليين من غير ألف ، بخلاف ما إذا دخلت عليها باء الجذر فإنها لا تُحذف، فيكتب بالقوم وبالغلام وبالناس بألف بين الباء واللام . وإن كان في أول الكلمة ألف ولام من نفس الكلمة ليستا اللتين للتعريف نحو الألف واللام في الالتقاء واللتقاء والتباس . ثم دخلت لام الجذر أو باؤه ثبتت الألف ، فيكتب بالتقاءن ولالتقاءنا ولالتباس الأمر على وبالتباسه ، فإن أدخلت ألف التعريف ولامه على الألف واللام اللتين من نفس الكلمة للتعريف ولم تصل الكلمة بلام الجذر وبائه لم تحذف شيئا ، فيكتب الالتقاء والالتقاء والتباس بلامين ولامين ^(٢) ، وكذلك إذا وصلتهما بلام الجذر أو بائه ، فيكتب بالالتقاء وبالالتقاء والتباس ولالتقاء ولالتقاء .

(ومنها) تُحذف بعد اللام الثانية من لفظ الله تعالى ، وبعد الميم من الرحمن إذا دخلت عليها الألف واللام ، فيكتب الله بلامين بعدهما هاء على هذه الصورة "الله" ،

(١) ليس من الباب فالصواب حذفه كما وقع في الضوء . . . (٢) لعله بألفين ولامين .

وإن كانت المدة بعد اللام الثانية توجب ألفاً بعدها، ويكتب الرحمن بنون بعد الميم على هذه الصورة "الرحمن" وإن كانت المدة على الميم توجب ألفاً بعدها : لأنه لا التباس في هذين اليمين ، ولكثرة الاستعمال . فلو تجردا عن الألف واللام كتبنا بالألف كما قالوا : لآه أبوك يريدون لله أبوك ، فحذفوا حرف الجز والألف واللام وكتبوه بالألف . وكقولك : رحمان الدنيا والآخرة فيكتبونه بالألف .

(ومنها) تحذف بعد اللام من السلام في عبد السلام وفي السلام عليكم ، فيكتبان على هذه الصورة : "عبد السلم" و "السلم عليكم" .

(ومنها) تحذف بعد اللام من ملائكة ، فتكتب على هذه الصورة : "ملئكة" . قال أحمد بن يحيى : لأنه لا يشبهه لفظ مثله ، ولكثرة الاستعمال .

(ومنها) تحذف بعد الميم من سموات ، فتكتب على هذه الصورة : "سموات" .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : وعلة الحذف فيه علة الحذف في الملائكة من كثرة الاستعمال وعدم الشبه . وأما الألف الثانية منه وهى التى بعد الواو، فإنها لا تحذف : لأنها دليل الجمع ، ولأنها لو حذفت لاجتمع فى الكلمة حذفان ، وقد كُتِبَتْ فى المصحف بحذف الألفين جميعاً فيجب الاتقياد إليه فى المصحف خاصة .

(ومنها) تحذف بعد اللام فى أولئك ، وبعد الذال من ذلك فيكتبان على هذه الصورة : "أولئك" و "ذلك" . فلو تجرد أولاء وذا عن حرف الخطاب وهو الكاف ، كتبنا بالألف فيكتبان على هذه الصورة : "أولاء" و "ذا" .

(ومنها) تحذف بعد ها التنبيه إذا اتصلت بذا التى للإشارة وكانت خالية من كاف الخطاب فى آخر الكلمة ؛ فتحذف من هذا وهذه وهؤلاء ، فيكتب الجميع بغير ألف ، فان اتصلت بأسم الإشارة الكاف نحو ذاك أمتنع الحذف ، فيكتب بألف

بعد الهاء على هذه الصورة "ها ذاك" ولا يضر اختلاف حرف الخطاب بالنسبة للأفراد والجمع والتذكير والتأنيث . وأما تا وتي في الإشارة بتا^(١) للذكر وتي للمؤنث ، فإن الألف لا تحذف معهما إذا اتصلت بهما ها التنبيه ، فيكتب هاتا وهاتي وهاتان . وذكر أحمد بن يحيى : أنها حذفت من هاتم وهانا وهانت أيضا ، فتكتب بألف واحدة بعد الهاء في جميع ذلك . قال : وهو القياس ، وكان الأصل أن تكتب بالفين على هذه الصورة : ها أتم وها أنا وها أنت ؛ ثم تلى الهمزة . ودليل أن ألف ها قد حذفت من ها التنبيه في غير اتصالها بذا وما والاها من رسم المصحف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في النور ﴿ آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وفي الزحرف ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ وفي الرحمن ﴿ آيَةُ الْفَلَاحِ ﴾ .

قال ابن قتيبة : ويكتب أيها الرجل وأيها الأمير بالألف وإن كان قد كتب في القرآن الكريم بالألف وغير الألف لاختلافهم في الوقف عليها . (ومنها) تحذف من ثمانية عشر وثمانى نساء ، بخلاف ما إذا حذفت الياء منها نحو ثمان عشرة وعندي من النساء ثمان فإنه لا تحذف الألف ، بل تكتب على هذه الصورة : "ثمان عشرة وعندي من النساء ثمان" لأنه قد حذف منه الياء فلو حذف الألف ، لتوالى الحذف فيكثر : فمثل قول الشاعر :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ ثَمَنِيًّا وَثَمَنِيًّا * وَثَمَانِ عَشْرَةَ وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعًا

يكتب الأولان بغير ألف والثالثة بالألف . وفي ثمانين وجهان : أحدهما إثبات الألف بعد الميم فيها : لأنه قد حذف منه الياء إذ الياء في ثمانين ليست ياء ثمانية لأنها حرف الإعراب المنقلب عن الواو في حالة الرفع ، فلو حذفت الألف أيضا لتوالى فيه الحذف . والوجه الثاني الحذف : لأن الياء منه كأنها لم تحذف بدليل أنه قد عاقبتها

(١) كذا في الضوء أيضا ولعله سهو أو سبق قلم فإن تا وتي للمؤنث كما هو واضح .

ياء أخرى فهما لا يجتمعان، فكأن الياء موجودة إجراء للعاقب مجرى المعاقب . وإذا قلت ثمانون بالواو، فحكمه حكم ثمانين بالياء في جواز الوجهين .

(ومنها) تحذف بعد اللام من ثلاث فيكتب على هذه الصورة : ”ثَلَث“ سواء كانت مفردة، نحو عندى ثَلَاث من البَطَّ، أو مضافة نحو ثَلَاث نساء، أو مركبة نحو ثَلث عشرة امرأة، أو معطوفة نحو ثَلث وثلاثون جارية، وحكم ثَلثة بالتاء كذلك في جميع الصور .

وكذلك تحذف أيضا من ثلاثين وثلاثون بالياء والواو، فيكتبان على هذه الصورة : ”ثَلثين“ و ”ثَلثون“ .

فأما ثَلَاث المعدول كما في قوله تعالى : ”مَثْنًى وَثَلَاثَ“ . فقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : لم أقف فيه على نَقْل . قال : والذي أختاره أن يكتب بالألف لوجهين : أحدهما أنه لم يكثر كثرة ثَلث، وثَلثة، وثَلثين، وثَلثون . والثاني أنها لو حذفت لآلِيسَت بثَلثٍ الذى ليس بمعدول .

قال ابن قاسم رحمه الله : وقد ذكر في ”المقنع“ أنه محذوف في الرسم .

(ومنها) تحذف من - يا - التى للنداء إذا اتصلت بهمزة نحو يا أحمد، يا إبراهيم، يا أبا بكر، يا أبانا، فتكتب على هذه الصورة : يا أحمد، يا إبراهيم، يا أبا بكر، يا أبانا . ثم الأظهر أن المحذوف هو أَلَف يا لا صورة الهمزة .

وقال أحمد بن يحيى : المحذوف صورة الهمزة لا الألف من يا نعم إذا كانت الهمزة المتصلة بيا كهمزة آدم أمتنع الحذف، وكتبت بالفاءين على هذه الصورة : يا آدم : لأنهم قد حذفوا أَلَفا من آدم لتوالى أَلَفَيْنِ، وحرف النداء مع المنادى كالكلمة الواحدة بدليل أنه لا يجوز الفصل بينهما فلو حذفت الألف من يا لآجمع فيما هو كالكلمة الواحدة حذف أَلَفَيْنِ .

أما إذا لم يل يا همزة البتة نحو يازيد، ويا جعفر، فالذى يستعمله الكتاب فيه إثبات الألف في يا . وفي كلام أحمد بن يحيى تجوز كتابته بغير ألف أيضا، توجيهها بأنهم جعلوها يا مع ما بعدها شيئا واحدا، إذ أقاموا يا مقام الألف واللام بدليل أنهم لا ينادون ما فيه ألف ولا م، فلا يقولون يا الرجل .

(ومنها) تحذف من الحارث إذا كان علما ودخلت عليه الألف واللام، فيكتب على هذه الصورة: الحرث . أما إذا عرى عن الألف واللام، فإنه يثبت فيه الألف لئلا يلتبس بحرب بالباء الموحدة إذ قد سمي به، وإنما امتنع اللبس مع الألف واللام لأنهما إنما يدخلان من الأعلام على ما كان صفة إذا أريد به معنى التفاؤل وحرب ليس بصفة فلم يدخل عليه وإن كانا قد دخلا على بعض المصادر كالعلاء . وكذلك إذا كان حارث اسم فاعل من الحرث فإنه يكتب بالألف أيضا كما إذا عرى عن الألف واللام .

(ومنها) تحذف مما كثر استعماله من الأعلام الزائدة على ثلاثة أحرف إذا لم يحذف منها شيء، سواء كان ذلك العلم من اللغة العربية نحو مالك، وصالح، وخالد، أو من اللغة العجمية نحو إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وهارون، وسليمان، فكتب على هذه الصورة: ملك، وصالح، وخلد، وإبراهيم، وإسماعيل، وهرون، وسليمان . بخلاف ما إذا لم يكثر استعماله كحاتم، وجابر، وحامد، وسالم، وطالوت، وجالوت، وهاروت وماروت، وهامان، وقارون، فإنها لا تحذف ألفها .

وقد حذفت في بعض المصاحف من هاروت، وماروت، وهامان، وقارون، فكتبت على هذه الصورة: هروت، ومروت، وهمن، وقرون .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: وذكر بعض شيوخنا أن إثباتها في نحو صالح، وخالد، ومالك جيد .

وقال أحمد بن يحيى : يجوز فيه الوجهان ، وهو قضية كلام ابن قتيبة .

أما إذا كان العلم الذي كثر استعماله على ثلاثة أحرف فما دونها نحو هالة وأوس^(١) ولام ، فإنه لا تحذف ألفه ، وكذلك إذا حذف منه شيء غير الألف نحو إسرائيل وداود ، لأنهم قد حذفوا من إسرائيل صورة الهمزة ، ومن داود الواو فأمتنع حذف الألف لثلاث يتوالى الحذف .

ويلتحق بذلك في الإثبات ما لو خيف بالحذف التباسه : كعامر ، وعباس ، فلا تحذف منه الألف أيضا ، لأنه لو كتب بغير ألف ، لالتبس عامر بعمر ، وعباس بعبس .

(ومنها) تحذف استحسانا مما كثر استعماله ، مما في آخره الألف والنون نحو شعبان ، وعثمان وما أشبههما ، فيكتبان على هذه الصورة "شعبن" و "عثمن" .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : إلا أنهم لم يحذفوا ألف عمران والإثبات في نحو شعبان حسن أيضا .

قال ابن قتيبة : فأما شيطان ، ودهقان ، وإثبات الألف فيهما حسن . وكان القياس إذا دخلت عليهما الألف واللام أن يكتبتا بغير ألف ، إلا أن الكُتَّاب مجعُونَ على ترك القياس في ذلك .

(ومنها) تحذف من كل جمع على وزن مفاعل أو وزن مفاعيل ، إذا لم يحصل بالحذف التباس الجمع فيه بالواحد لموافقته له في الصورة ، فحيث لا يقع اللبس مثل خواتم ودوائق في وزن مفاعل ومحاريب وتمائيل وشياطين في وزن مفاعيل

(١) كذا في الأصل والضوء أيضا .

تحذف الألف فيكتب على هذه الصورة : حَوَاتِم ، ودَوَاتِق ، ومحَرِيب ، ومَثِيل ،
 وشَيْطِين ، ودهْقِين . إذ المفرد منها خَاتِمٌ ، ودَاتِقٌ ، ومَحْرَابٌ ، ومِثَالٌ ، وشَيْطَانٌ ،
 ودهْقَانٌ ، وهى لا تشابه صور الجمع فيها . بخلاف ما إذا كان يلتبس فيه الجمع بالواحد ،
 مثل مساكين فى وزن مفاعيل جمع مسكين فإنه يكتب بالألف لئلا يلتبس بالواحد .
 فلو كان الحذف يؤدى إلى موافقته للواحد فى الصورة لكنه فى غير موضع المفرد
 نحو ثلاثة دراهم ، ودراهم جياذ ، ودراهم معدودة ، حذف منه الألف وكتب على
 هذه الصورة : ثلاثة دراهم ، ودراهم جياذ ، ودراهم معدودة ، لأنه لا يلتبس حينئذ .
 بخلاف عندى دراهم ونحوه فإنه لو حذف الألف منه ، لالتبس بدرهم المفرد .
 ثم الحذف فى مفاعل ومفاعيل على ما تقدم إنما هو على سبيل الجواز ، وإلا
 فالإثبات أجود .

وشرط بعض المغاربة فى جواز الحذف شرطا : وهو أن لا تكون الألف فاصلا
 بين حرفين متماثلين ، فلا تحذف الألف من نحو سكاكين ، ودكاكين ، ودنانير ، لئلا
 يجتمع مثلاً فى الخط وهو مكروه فى الخط ككراهته فى اللفظ .
 وقد كتبت فى المصحف مساكين ، ومساكينهم بغير ألف على هذه الصورة مساكينُ ،
 ومسكينهم^١ ، وإن كان اللبس موجودا .

قال الشيخ أنير الدين أبو حيان رحمه الله : وإنما كتبنا كذلك لأنهما قد قرئتا
 بالافراد فكتبنا على ما يصلح فيهما من القراءة . كما كتبوا ﴿وَمَا يُجَادِعُونَ﴾ بغير ألف
 على هذه الصورة ﴿وَمَا يُجَدِّعُونَ﴾ لأنه يصلح لقراءة يُجَدِّعُونَ من الثلاثي .
 (ومنها) تحذف الألف الأولى مما كان فيه ألفان ، مما جمع بالألف والتاء المزيدين
 نحو صالحات ، وعابدات ، وقتات ، وذات كرات ، فكتب على هذه الصورة "صالحات ،
 وعبدات ، وقتات ، وذات كرات" .

وكذلك تحذف من صفات جمع المذكر السالم نحو الصالحين، والقانتين، فيكتب على هذه الصورة : ”الصلّحين“ و”القنّتين“ وإن لم يكن فيه ألف أخرى حملا على المؤنث .

وقال بعض المغاربة : إن كان مع ألف الجمع ألف أخرى كالسماوات، والصالحات، فيختار حذف ألف الجمع وإبقاء الأخرى . وثبت في المصحف بحذف الألفين جميعا على هذه الصورة : ”سموت، وصلحت“ وكذلك سياحات، وغيابات . وإن كان ليس فيه ألف أخرى فليختار إثبات الألف كالمسلمات ، وثبت أيضا في المصحف محذوف الألف على هذه الصورة : مسلمت .

قال : وتحذف أيضا في جمع المذكر السالم من الصفات المستعملة كثيرا : كالشاكرين، والصادقين، والخاسرين، والكافرين، والظالمين، وما أشبهها في كثرة الاستعمال فتكتب على هذه الصورة ”الشكرين، والصدقين، والخسرين، والكافرين، والظلمين“ .

نعم إن خيف اللبس فيما جمع بالألف والتاء مثل طالحات، آمتنع الحذف لأنه لو حذفت الألف منه، لآلتبس بطلحات جمع طلحة . وكذلك لو خيف اللبس فيما جمع بالواو والنون، نحو حاذرين، وفارحين، وفارحين . فلو حذفت الألف منه، لآلتبس بجاذرين، وفرّحين، وهما مختلفان في الدلالة، لأن فاعلا من هذا النوع مذهب به مذهب الزمان، وفعل يدل على المبالغة لاعلى الزمان .

وكذلك لو كان مضعفا مثل شابات ، والعادين ، فلا يجوز فيه حذف الألف لأنه بالإدغام نقص في الخط إذ جعلوا الصورة للمدغم والمدغم فيه شكلا واحدا . ولذلك كتبوا في المصحف الضالّين والعادين بالألف . وقد أجرى مجرى المضعّف في الإنبات ما بعد ألفه همزة نحو الخائنين . وقد حذفت ألفه في بعض

المصاحف، فكتب على هذه الصورة "الحئين". ويتعين الإثبات أيضا فيما هو معتل اللام مثل دانيات حملا على داني، كما حذف من الصالحين حملا على الصالحات، ومثل الرامين لأنه قد حذف منه لام الفعل . وحمل ما جمع بالألف والتاء عليه كما حمل الصالحين على الصالحات في حذف الألف، وإن كانت العلة فيهما مفقودة . قال ابن قتيبة : وكذلك ما كان من ذوات الياء والواو لا يجوز فيه حذف الألف نحوهم القاضون ، والرامون ، والساعون : لأنهم حذفوا الياء لا لتقاء الساكنين لما استثقلوا ضمة في الياء بعد كسرة فسكنوا ثم حذفوا الياء، فكروها أن يحذفوا الألف أيضا لثلاثي ياء بالكلمة .

(ومنها) تحذف إحدى الألفين مما اجتمع فيه ألفان مثل آدم، وأزر، وأمن، وأمين، وأتين، وأنفا، ووراك، وقراءة، وبراءة، وشنان، وشبهه، فكتب على هذه الصورة "آدم، وأزر، وآمن، وآمين، وآتين، وآفا، ووراك، وقراءة، وبراءة، وشنان" فلو أفتح الأول منهما كما في قرأ لفعل الآتين من القراءة، كتب بألفين على هذه الصورة : (قرأ) ، لثلاثي ياء بفتح الواحد، إذ المفرد تقول فيه قرأ فكتبه بألف واحدة . وذهب قوم إلى أنه في التثنية يكتب أيضا بألف واحدة مسندا إلى ألف الآتين، وبه قال أحمد بن يحيى . والذي عليه المتأخرون وهو الأجود عند ابن قتيبة ما تقدم .

(ومنها) تحذف إحدى الألفات مما اجتمع فيه ثلاث ألفات ، مثل برأت جمع براءة ، ومسأت جمع مساء ، فكتب بألفين فقط على هذه الصورة : "برأت" و"مسأت" لأنها في الجمع ثلاث ألفات . فلو حذفوا آتين، آخو بالكلمة .

(ومنها) تحذف من أول الكلمة في الاستفهام في اسم، أو فعل، نحو الله أذن لكم ؟ السحر إن الله سيضلّه ؟ الذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أصفى البنات على البنين ؟

أالرجل في الدار؟ أاسمك زيد أم عمرو؟ فكتب بألف واحدة على هذه الصورة:
 اللَّهُ؟ أَلَسَّحَرُ؟ أَلَذَّكَرَيْنِ؟ أالرجل؟ أاسمك؟ أالآن؟ .

ثم مذهب أحمد بن يحيى، وعليه جرى ابن مالك رحمه الله : أنه لافرق بين
 المكسورة، والمضمومة. والذي ذهب إليه المغاربة أنها تكتب بالفتحة، إحداهما
 ألف الوصل، والأخرى همزة الاستفهام .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وجاز في نحو الرجل الأمران،
 ورسمت في المصحف بألف واحدة نحو الذكرين، أالآن .

• (ومنها) تحذف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف من حروف الجر، نحو
 عَمَّ تَسْأَلُ؟ وَفِيمَ تُفَكِّرُ؟ وَمِمَّ فَرِقْتَ؟ وَلِمَ تَكَلَّمْتَ؟ وَبِمَ عَلِمْتَ؟ وَحَتَّى تَغْضَبُ؟
 وَعَلَامَ تَدَّأَبُ؟ فكتب كلها بغير ألف في آخرها فرقا بينها وبين ما الموصولة، ويصير
 حرف الجر كأنه عوض من الألف المحذوفة . وكان الحذف من الاستفهامية دون
 الموصولة لأن آخرها منتهى الاسم، والأطراف محل التغيير. بخلاف الموصولة: لأنها
 متوسطة من حيث إنها تحتاج إلى صلة .
 وحكى الكوفيون ثبوتها في الاستفهامية أيضا، والله أعلم .

تذنيب

تحذف الهمزة المصورة بصورة الألف في أربعة مواضع :

الأول - تحذف بعد الباء من بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فكتب بغير ألف على
 هذه الصورة: "بسم". والقياس إثباتها كما تكتب أيها بالألف لكنها حذفت لكثرة
 الاستعمال، أما في غير بسم الله الرحمن الرحيم، فظاهر كلام ابن مالك أنها لا تحذف،
 فثبتت في بَاسْمِ رَبِّكَ، وفي بِاسْمِ اللَّهِ، مفردا .

وقال بعضهم : إن كان مضافا إلى لفظ الله تعالى وليس متعلقا بالباء ملفوظا به ، حذف وإلا فلا ، فتثبت في بآسم ربك لأنه غير مضاف إلى لفظ الله تعالى ، وفي نحو قولك تبركت بآسم الله : لأن متعلقه ملفوظ به .

وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إن شئت أثبت وإن شئت حذف ، فمن أثبت قال : ليست مبتدأ بها ، وليس معها الرحمن الرحيم ، ومن حذف ، قال : كان معها الرحمن الرحيم في الأصل ، فحذفت في الاستعمال . فإن أضفت الأسم إلى الرحمن أو القاهر ونحوه ، فقال الكسائي : تحذف ، وقال الفراء : لا يجوز أن تحذف إلا مع الله لأنها كررت معه ، فإذا عدوت ذلك أثبت الألف .

الثاني - تحذف بين الفاء والواو ، وبين همزة هي فاء الفعل من وزن الكلمة ، مثل قولك فأت وأت : لأنهم لو أثبتوا لها صورة الألف ، لكان ذلك جمعا بين ألفين : إحداهما صورة همزة الوصل ، والأخرى صورة الهمزة التي هي فاء الفعل ، مع أن الواو والفاء شديدتا الاتصال بما بعدهما لا يوقف عليهما دونه ، وهم لم يجعوا بين ألفين في سائر هجائهم إلا على خلاف في المتطرفة كما مر ، لأن الأطراف محل التغيرات والزيادة ، فلذلك حذفوها في نحو فأذن ، وأثن فلان ، وعليه كتبوا ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ ﴾ فلو كانت الهمزة بين غير الفاء والواو وبين الهمزة التي هي فاء الفعل ثبتت ، نحو آتتو ﴿ أَلَّذِي أَوْثَمَنَ ﴾ . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي ﴾ وكذلك لو كانت ابتداء والهمزة فاء الفعل ، نحو أُنْذِنَ لي ، أو ثمن فلان ، ثبتت أيضا ، أو ليست فاء ، نحو ثم أضرب ، وأضرب ، فاضرب . وكذلك في ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ ﴾ .

الثالث - تحذف في ابن وأبنة مما وقع فيه ابن مفردا صفة بين علمين ، غير مفصول ، فيكتب نحو جاء فلان بن فلان ، أو فلانة بنة فلان بغير ألف في ابن وأبنة . ولا فرق في ذلك بين أن يكون العلمان اسمين ، نحو هذا أحمد بن عمر ، أو كنيين ،

نحو هذا أبو بكر بن أبي عبد الله، أو لقَيْن، نحو هذا نَبْتُ بن بطة، أو آسما وكنية،
نحو هذا زيد بن أبي قُحَافَة، أو لقبا وآسما، نحو هذا أنف الناقة بن زيد، أو كنية
ولقبا، نحو هذا أبو الحرث بن نَبْتُ، أو لقبا وكنية، نحو هذا بدر الدين بن أبي بكر.

فهذه سبع صور: تسقط فيها الألف من أبْن ولا تسقط فيما عداها، فلو قلتَ هذا
زيد أبْنك، وأبْن أخيك، وأبْن عمك، ونحو ذلك مما ليس له صيغة بين علمين، أثبتَّ^(١)
فيه الألف . وكذلك إذا كان خبرا كقولك : أظنَّ زيدا أبْن عمرو، وكأنَّ بكرا
أبْن خالد، وإن زيدا أبْنُ عمرو، فتثبت الألف في الجميع . ومنه في القراءان الكريم :
(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ أَبْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ أَبْنُ اللَّهِ) كتبنا في المصحف
بالألف . فلو شئت الابن، ألحقت فيه الألف صفة كان أو خبرا، فتكتب قال
عبدالله: وزيدا أبنا محمد كذا وكذا، وأظنَّ عبد الله وزيدا أبني محمد فعلا كذا بالألف .
وكذلك إذا ذكرت أبنا بغير اسم، فتكتب: جاء ابن عبد الله بالألف أيضا . وحكم
أبنة مؤنثا في جميع ما ذكر حكم الابن، تقول: جاءت هندُ بنةُ قيس، فتحذف الألف .
وشرط الأستاذ أبو الحسن بن عصفور أن يكون مذكرا فلا تسقط من أبنة .

ونقل أحمد بن يحيى عن أصحاب الكسائي: أنه متى كان منسوبا إلى اسم أبيه
أو أمه أو كنية أبيه أو أمه وكان نعتا، حذفوا الألف فلم يُجزه في غيره الاسم والكنية
في الأب والأم . قال: وأما الكسائي فقال: إذا أضفت إلى اسم أبيه أو كنية أبيه،
وكانت الكنية معروفة بها كما يعرف باسمه، جاز الحذف، لأن القياس عنده الإثبات،
والحذف استعمال، فإذا عدى الاستعمال، رُجع إلى الأصل .

وحكى ابن جنى عن متأخرى الكُتَّاب: أنهم لا يحذفون الألف مع الكنية، تقدَّمت
أو تأخرت . قال : وهو مردود عند العلماء على قياس مذاهبهم .

(١) في الضوء [مما ليس بين علمين] وهي أوضح . [ولعل الأصل مما ليس صفة] .

والألف تحذف من الخط في كل موضع يحذف منه التنوين وهو حُذِفَ مع الكُنْى .

الرابع - تحذف من كل مُعَرَّف بالألف واللام إذا دخلت عليه لامُ الابتداء، نحو ﴿وَلَا حِرَّةَ يُجِيرُكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أو لامُ الجز، نحو للدار ألف ساكن غيرك؛ وقياسها الإثبات كما أثبتوها في لَابَنكَ قائم، ولِأَبِيكَ مال؛ وسبب حذفها التباسها بلا النافية .

وذهب بعضهم : إلى أنها لا تحذف مع لام الابتداء فرقا بينها وبين الجازة . ولم يحذفوها من نحو مررت بالرجل والله أعلم .

الحرف الثاني

(اللام، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف من الذى للزومها، فكأنها ليست منفصلة، وكذلك تحذف من جمعه وهو الذين لأنه يشبه مفردة في لزوم البناء، ولفظ الواحد كأنه باق فيه؛ ولم يحذفوه من المثني كما في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ فكتبوه بلامين فرقا بينه وبين الجمع . وإنما آخضت التثنية بالإثبات، لأنها أسبق من الجمع، واللبس إنما حصل بالجمع .

(ومنها) تحذف من التثنية للزومها كما تقدم، ومن تثنيها وهى التثان، وجمعها : وهى الآتى لأنهما لا يلتبسان، بخلاف تثنية الذى وحروفه .

وقال أحمد بن يحيى : كتبوا الآتى (التثنية) واللاى (التثنية) وأسقطوا لاما من أولها وألفا من آخرها . قال : وهذا للاستعمال لأنه يقل في الكلام مثله ، ويدل عليه ما قبله وما بعده، ولو كتب على لفظه كان أولى .

قال الشيخ أمير الدين أبو حيان رحمه الله: والذي عهدناه من الكُتَّاب أنه لا تحذف الألف لثلاث يلتبس بالمفرد .

(ومنها) تحذف من الليل واللييلة على أجود الوجهين ، فيكتبان بلام واحدة على هذه الصورة : ” اللَّيْلُ وَاللَّيْلَةُ ” : لأن فيه اتباع المصحف ، وأجاز بعضهم كتابته بلامين . قال أبو حيان : وهو القياس .

(ومنها) تحذف من ... (١) ... ونحوه ، مما دخل عليه لام الحرف فيكتب بلامين وإن كان في اللفظ ثلاث لامات .

(ومنها) قال أحمد بن يحيى : يكتب الطيف بلام واحدة لأنه قد عُرِفَ فحذف ، وهذا بخلاف اللّهُو، واللّعب، واللّعبة، واللّاعبين، واللّغو، واللؤلؤ، واللّات، واللّهم، واللّهَب واللّوامة ، فإنها لا تحذف منها اللام .

قال ابن قتيبة : وكل اسم كان أوله لاماً ثم أدخلت عليه لام التعريف ، كتبه بلامين ، نحو اللهم ، واللبن ، واللحم ، واللجام ، وما أشبه ذلك . وإن كانوا قد اختلفوا في الليل واللييلة لموافقة المصحف كما تقدّم .

الحرف الثالث

(النون، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف من عن إذا وصلت بمن أو ميمًا ، فتكتب عنم وعمًا وعم .

(ومنها) تحذف من من الجارة إذا وصلت بمن أو ما ، فتكتب منن وميًا .

(ومنها) تحذف من إن إذا وصلت بلم ، فتكتب إلم .

(ومنها) تحذف من أن المفتوحة إذا وصلت بلا ، فتكتب ألا .

(١) بياض بالأصل ولعله من اللّعب ونحوه الخ .

الحرف الرابع

(الواو، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف لأَمِنْ اللبس، مثل ما كتبوا من قوله تعالى: ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾. ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ بغير واو في يدعو ويمحو، لأن ذكر الداع في الأول، وذكر الله تعالى في الثاني يمنع أن يكون الفاعل جماعة فلا يحصل اللبس، بخلاف قولك لا تضربوا الرجل: فإنه لو حذف لالتبس الجمع فيه بالواحد.

(ومنها) تحذف مما توالى فيه واوان في كلمة واحدة، مثل داوود، وطاووس، ورؤوس، ويستون، ويلون، وأووا إلى الكهف، ويسوا، وتبوؤوا، وجأؤوا، وبأؤوا، وأسأؤوا، ويؤوده، ويؤوس، وفادرؤوا، ومبرؤون، فيكتب باووا واحدة. وكتب بعضهم طاووس ونحوه باووين على الأصل، والقياس الاقتصار على واو واحدة كراهة اجتماع المثليين.

وأستثنى ابن عصفور من ذلك موضعاً، وهو أن لا يؤدى إلى اللبس، نحو قول وصؤول على وزن فعول فإنه يلتبس بقول وصول، واختاره أحمد بن يحيى.

(ومنها) تحذف مما توالى فيه ثلاث واوات في كلمتين ككلمة، مثل ليسوعوا، وينوعون، فتكتب ليسوعوا، وينوعون، باووين فقط، ويكتب لؤوا، وأجتؤوا، وآلتؤوا، باووين، لأنه لو حذف إحدى الواوين لالتبس الجمع بالمفرد.

ووقع في المصحف كتابة يَسْتَوُونَ، وَيَلْوُونَ، باووا واحدة، وذلك لأن في يستون ونحوه أجمع واوان وضمة، فناسب الحذف، وفي لؤوا رؤوسهم، ونحوه أنفتح ما قبل الواو فناسب الإثبات.

(ومنها) تحذف للجزم كما في قولك لم يَغْدُ فتحذف الواو علامة للجزم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الحرف الخامس

(الياء، وتحذف في مواضع)

- (منها) للجزم كما في قولك : لم يَقْضُ ، فتحذف الياء من آخره علامة للجزم .
 (ومنها) تحذف لمراعاة الفواصل ، نحو قوله تعالى : ”وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ“ بغير ياء
 في آخرها لمراعاة ما قبله من قوله ”وَالْفَجْرِ“ .
 (ومنها) تحذف فيما توالي فيه ياءان أو ثلاثة ، فَكُتِبَ النَّبِيُّ ، وَخَاسِئِينَ ، وَخَاطِئِينَ ،
 وَإِسْرَائِيلَ ، وما أشبه ذلك بياءين فقط ، وإن كان في اللفظ ثلاث ياءات ^(١) .
 (ومنها) تحذف لأمن اللبس ، فَكُتِبَ قَارِئِينَ جمع قارئ بياء واحدة ، فرقا بينها
 وبين قَارِئِينَ تثنية قارئ فإنها تكتب بياءين .
 (ومنها) تحذف مدة ضمير الغائب مثل قولك : ضربه ، فكتبه بغير واو ، وإن كنت
 تلفظ به لأنك إذا وقفت حذفها ووقفت على الهاء ساكنة ، وكذلك مدة ضمير
 الغائبين ، مثل قولك : ضربهم في لغة من وصل الميم ، وكذلك حذفوها إذا وليت
 الكاف ، نحو ضربكم زيد ولكم في لغة من وصل الميم بواو وبياء ، لأنه إذا وقف
 حذف الصلة والله أعلم .

النوع الثالث

(ما يُغَيَّرُ بِالْبَدَلِ)

والحروف التي يدخلها البدل ثلاثة أحرف : الألف ، والواو ، والياء ، والألف والياء
 أكثرهما تعاقبا .

فتنوب الياء عن الألف في ثلاثة محال :

(١) لعل في العبارة سقطا والأصل فيكتب بياء فقط وإن كان في اللفظ ياءين وبياءين فقط وإن كان الخ .

(٢) تعلق هذا بالحرف الرابع أكثر منه بالخامس .

المحل الأول

(الاسم، وهو ثلاثة أحوال)

الحال الأول - أن تكون الألف فيه رابعة فصاعداً، نحو المِعْزَى، والمُسْتَدْعَى، والحُبْلَى، والمرْضَى، والمَلْهَى، والمدْعَى، والمُسْتَرَى، ومِثْلَى، ومِثْنَى، وكذلك أَعْمَى، وأَعْشَى، وأَظْمَى، وأَقْنَى، وأَذْنَى، وأَعْلَى، ومُعَاْفَى، ومُنَادَى، وما أشبه ذلك، فتكتب الألف في جميع ذلك ياءً سواء كان منقلبا عن واو أو منقلبا عن ياء، لأنك إذا شئت شئت بالياء، ومن ثم كتبت ياويلتى، وياحسرتى، ويا أسفى، بالياء إشعاراً بأنها مما مال أو تقلبها عند التثنية ياء، إلا فيما قبلها ياء نحو الدنيا، والعُلْيَا، والقُصْيا، وهُدْيَا، ومَعْيَا، وَمَحْيَا، وعام حياً ورؤْيَا، وسُقْيَا، فإنك لا تكتب الألف فيها ياءً كراهة أن تجتمع ياءان في الخط. نعم يغتفر ذلك في نحو يحيى ورَيْثُ عَمَيْن: للفرق بين يحيى علما وبينه فعلا وبين رَيْثُ علما وبينه وصفا، وكان البدل في العلم دون الوصف والفعل لأن الفعل والصفة أثقل.

قال ابن قتيبة: وأحسبهم أتبعوا في يحيى رسم المصحف.

(١)
فلو كان مهموزاً، نحو مستقراً ومستتبناً، أو قبل آخره ياء نحو خطايا، وزوايا، ورَكَايَا، والْحَوَايَا، والحيا، وما أشبهه كتب بالألف.

الحال الثاني - أن تكون الألف فيه ثالثة، فإن كانت مبدلة عن ياء، نحو فقي، ورحى، وسوى، والهُدَى، والمدى للغاية، والهوى لهوى النفس، وندى الأرض، وندى الجود، وحنى الدابة، والكرى النوم، والقذى، والأذى، والحنى: حُشُّ القول، والضنى: المرض، والردى: الهلاك، والطوى: الجوع، والأسى: الحزن، والعمى: في القلب والعين، والحنى: جنى الثمرة، والصدى: العطش، والشرى: في الجسد، والضوى:

(١) كذا في الضو. أيضاً وليس مما نحن فيه.

الهْزَالُ، والثَّرَى : التراب النَّدَى، والجَوَى : داء في الجوف، والسَّرَى : [سَيْرُ] الليل، والسَّلَى : سَلَى الناقة، وَمَنَى : المكان المعروف، والمدَى^(١) الغاية، والصدى آسم طائر يقال إنه ذكر البوم، والنَّسَى : عرق في الفخذ، وطَوَى : وادٍ، والوَغَى : الحرب، والوَحَى : العَجَلُ، والوَرى : الخَلْقُ، والذَّرَى : الناحية وأنا في ذرى فلان، والمعَى واحد الأمعاء، والحِجَى والنَّهَى العقل، والحَشَى واحد الأحشاء، وما أشبه ذلك كتب بالياء .

وإن كانت منقلبة عن واو، نحو عصا، ومنا للقدر، ورجا لجانب البئر، والقنا في الأنف، والرما والقرأ للظهر، والعشا في العين، والقفا : قفا الإنسان، والصغا : ميلك للرجل، ووطا جمع وطاة، و[لها جمع] لهاة، والفلا جمع فلاة، كتب بالألف .
وتفتقر الواو من الياء فيه بطرق أقربها التثنية تقول في الأول فتيان، ورحيان، وسويان .

قال ابن قتيبة : فلو ورد عليك اسم قد ثنى بالواو والياء عملت على الأكثر الأعم .
وذلك نحو رَحَى، فإن من العرب من يقول رحوت الرِّعاء، ومنهم من يقول رَحِيت، قال : وكتبها بالياء أحبُّ إلى لأنها اللغة العالية .

وكذلك الرِّضا من العرب من يقول في تثنيته رضيان، ومنهم من يقول رضوان، قال : وكتبته بالألف أحبُّ إلى : لأن الواو فيه أكثر، وهو من الرضوان . وكذلك الحكم في متى، لأنها لو سُمِّي بها وُثِّنِي، لقلت متيان، فيعلم أنه من ذوات الياء . وتقول في الثاني : عَصَوَان ومَتَوَان ورجَوَان، فيعلم أنه من ذوات الواو . فإذا أشكل عليك شيء فلم تعلم أهو من ذوات الواو [أو من ذوات الياء]؟^(٢) نحو خسا بالخاء المعجمة والسين المهملة، كتبته بالألف لأنه هو الأصل .

(١) تقدم فهو مكرر . (٢) الزيادة عن ضوء الصبح .

ومنهم من يكتب الباب كله بالألف على الأصل وهو أسهل للكتاب . وعلى تقدير كتبها بالياء فلو كان متونا فالتخار عندهم أنها تكتب بالياء أيضا ، وهو قياس المبرّد وقياس المازني أن يكتب بألف إذ هي ألف التنوين عنده في جميع الأحوال .
وقاس سيبويه المنصوب بالألف لأنه للتنوين فقط .^(١)

قال ابن قتيبة : وتعتبر المصادر بأن يرجع فيها إلى المؤنث ، فما كان في المؤنث بالياء كتبت بالياء ، نحو العمى ، والظمى ، لأنك تقول عمياء وظمياء ، وما كان المؤنث فيه بالواو كتبت بالألف ، نحو العشا في العين ، والعنا وهو كثرة شعر الوجه ، والقنا في الأنف ، لأنك تقول عشاء ، وقنواء ، وعثواء .

قال : وكل جمع ليس بين جمعه وبين واحد في الهجاء إلا الهاء من المقصور ، نحو الحصى ، والقطا ، والنوى ، فما كان جمعه بالواو كتبت بالألف ، وما كان جمعه بالياء كتبت بالياء .

وكتبت لدى بالياء لأنقلابها ياء في لديك .

وأما كلاً ، فالصحيح من مذهب البصريين أنها تكتب بالألف ، لأن ألفه عن واو . ومن زعم أنها عن ياء كالمعى ، كتبت بالياء . وأجاز الكوفيون كتبها بالياء وهو خطأ على مذهبهم لأن الألف عندهم للتثنية ، وألف التثنية لا يجوز أن تكتب ياء لثلاثا يلتبس المرفوع بغيره . وقياس كلنا عند البصريين أن تكتب ياء ، وشذ كتابتها بالألف .

قال ابن قتيبة : والذي أستحبه أن تكتب كلاً وكلنا في حال الرفع بالألف ، وفي حالي الجز والنصب بالياء . فإذا قلت : أتاني كلاً الرجلين أو كلنا المرأتين ، كتبت بالألف . وإذا قلت : رأيت كل الرجلين أو كلتي المرأتين كتبت بالياء ، لأن العرب قد فرقت بينهما في اللفظ فقالوا : رأيت الرجلين كليهما ، ومررت بالرجلين كليهما ، ومررت بالمرأتين كليهما . وقالوا : جاءني الرجلان كلاهما ، والمرأتان كلتاها .

(١) لعله المنصوب فقط فقال يكتب بالألف الخ . (٢) أى مع المكى كما هي عبارة ابن قتيبة .

وَتَرَىٰ إِن لَّمْ تَتَوَّنْ، فَأَلْفُهَا لِلتَّأْنِيثِ وَإِنْ تَوْنَتْ فَهِيَ لِلإِلْحَاقِ، وَقِيَاسُهَا أَنْ تَكْتُبَ
بِالْيَاءِ . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فَعَلْ، فَأَلْفُهُ بَدَلُ التَّنْوِينِ كَأَلْفِ صَبْرًا، فَهُوَ قِيَاسُهُ .
وَوَقَعَ فِي كَلَامِ ابْنِ الْبَادِسِ أَنْ تَرَىٰ فِي الْخَطِّ بِيَاءً، وَهُوَ خِلَافُ الْمَعْرُوفِ .

تَنْبِيْهُ

لَوْ اتَّصَلَ الْأَسْمُ الَّذِي يَكْتُبُ بِالْيَاءِ بِضَمِيرٍ مُتَّصِلٍ، نَحْوَ رَحَاكَ، وَقَفَاكَ، وَمَلْهَاكَ،
وَمَرَعَاكَ، فَقِيلَ يَكْتُبُ بِالْيَاءِ كَحَالِ عَدَمِ اتِّصَالِهَا، فَيَكْتُبُ عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ: رَحِيكَ،
وَقَفِيكَ، وَمَلْهِيكَ، وَمَرَعِيكَ .

قَالَ الشَّيْخُ أَثِيرُ الدِّينِ أَبُو حَيَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَاخْتِيَارَ أَصْحَابُنَا فِيهِ بِالْأَلْفِ إِذَا اتَّصَلَ
بِهِ ضَمِيرٌ خَفِضَ أَوْ ضَمِيرٌ نَصَبَ، سِوَاءِ كَانَتْ ثَلَاثِيًّا أَمْ أَزِيدًا، إِلَّا إِحْدَىٰ خَاصَّةً فَإِنَّهَا
تَكْتُبُ بِالْيَاءِ حَالِ اتِّصَالِهَا بِضَمِيرٍ الْخَفِضِ، نَحْوَ مَنْ إِحْدِيهِمَا كَحَالِهَا دُونَ الْإِتِّصَالِ،
وَاخْتَلَفُوا إِذَا اتَّصَلَتْ بِنَاءٍ تَأْنِيثٍ تَنْقَلِبُ هَاءُ فِي الْوَقْفِ، فَذَهَبَ الْبَصْرِيُّونَ إِلَىٰ
كِتَابَتِهَا أَلْفًا، نَحْوَ الْحَصَاةِ، وَآخَرُ الْكُوفِيِّينَ كِتَابَتَهَا بِالْيَاءِ نَحْوَ الْحَصِيَّةِ .

الحال الثالث - أن تكون الألف فيه ثنائية، نحو ما وذا إذا كانا آسيتين، فيكتب
بالألف على صورة النطق به .

المحل الثاني

(الفعل، وله حالات)

الحال الأول - أن تكون الألف فيه رابعةً فصاعداً، نحو أعطى، وأستعلى،
وتداعى، وتعادى، وأستدنى، وما أشبهه فتكتبه كله بالياء إلا أن يكون مهموزاً، نحو
أخطأ، وأنبأ، وتخطأ، وأستنبأ، فإنه يكتب بالألف . وكذلك إذا كان قبل آخره ياءً،
نحو أستحيا، وتحايا، وأعيا، وتعايا، وأستعيا، وما أشبهه فإنك تكتبه بالألف .

ووقع في بعض المصاحف ﴿نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ بالألف في آخر نحشَى ، وفي بعض المصاحف بالياء .

الحال الثاني - أن تكون الألف ثالثة ، فترده إلى نفسك ، فإن ظهرت فيه الواو فأكتبه بالألف ، نحو قولك : عدا ، ودعا ، ومحا ، وغزا ، وسلا ، وعلا من العلو ، لأنك تقول : عدوت ، ودَعَوْتُ ، ومحوْتُ ، وغزوت ، وسلوت ، وعلوت . وشذ زكى ، فكتب بالياء وإن كان من ذوات الواو ، لأنه من زكى يزكو ، إلا أن العرب يُميلون الأفعال ذوات الواو . وإن ظهرت فيه الياء فأكتبه بالياء ، نحو قولك : قضى ، ومشى ، وسعى ، وعسى ، لأنك تقول : قضيت ، ومشيت ، وسعيت ، وعسيت ، ويجوز كتابته بالألف أيضا .

تنبيه

لو اتصل بالفعل ضمير متصل ، نحو رماه ، وجزاه ، ورعاه ، فقبل يكتب على حاله بالياء ، فيكتب على هذه الصورة : رميه ، وجزّاه ، ورعّاه ، والصحيح كتابته بالألف . قال ابن قتيبة : وكل ما لحقته الزيادة من الفعل لم تنظر إلى أصله ، وكتبته كله بالياء ، فتكتب أغزى فلان فلانا ، وأدنى فلان فلانا ، وألهى فلان فلانا بالياء . وهو من غزوت ، ودنوت ، وطوت ، لأنك تقول فيه : أغزيت ، وأدנית ، وألهيت . وكذلك تكتب يُغزى ، ويُدنى ، ويُلهى ، على البناء لما لم يسم فاعله بالياء ، لأنك تقول في تثنيته : يُغزَيَان ، ويُدْنَيَان ، ويُدْعَيَان .

الحال الثالث

(بعض الحروف)

وأعلم أن الحرف الذى فى آخره ألف فى اللفظ إنما يكتب ألفاً على صورة لفظه ، نحو ما ، ولا ، وألا ، وما أشبهها ، وأستثنوا من ذلك أربع صور فكتبوها بالياء .

إحداها - بلى، قال بعض النحاة لإمالتها: وقال سيديويه: لأنه إذا سبى بها وثنت
 قيل بَلَّيْنِ كما يقال في متى مَتَيَانِ .

الثانية - إلى، وكتبت بالياء لأنها تُرَدُّ إلى الياء في قولهم إليك .

الثالثة - على، وكتبت بالياء لأنها تُرَدُّ إلى الياء أيضا في قولهم عليك .

قال ابن قتيبة: وكان القياس فيها وفي إلى أن تكتب بالالألف لعدم جواز
 الإمالة فيها .

الرابعة - حتى، وكتبت بالياء حملا على إلى لكونهما بمعنى الانتهاء والغاية،
 ولأنه قد روى فيها الإمالة عن بعض العرب فروعى حكمها .

تنبيه

لو وليت ما الاستفهامية حتى، أو إلى، أو على، كُيِّنَ بالألف على هذه الصورة:
 حَتَّامٌ، وإلام، وعَلَامٌ، لأنها شديدة الاتصال بما الاستفهامية بدليل أن ما بعدها
 لا يوقف عليه إلا بذكرها معه، فكأن الألف وقعت وسطا فصارت كحال ما كتب
 بالياء إذا اتصل بضمير خفض أو ضمير نصب، فإنه يكتب بالألف .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله: فإن وُصل في حَتَّامٍ وإلى الهاء الحائرة،
 فلك أن تجريها على الاتصال ولا تَعْتَدَّ بها، ولك أن تعتدَّ بها وترجع الألف في حتى،
 وإلى، وعلى، إلى أصلها، فتكتب بالياء يعني على هذه الصورة حتى مه، وإلى مه،
 وعلى مه .

(فائدة)

قد يُكْتَبُ بالياء ما هو من ذوات الألف للجاورة كما في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾
 وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿فإن الضُّحَىٰ ونحوه قياسه عند البصريين

أن يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو، ولكنه كتب بالياء لمجاورة سجي، وسجي وإن كان من ذوات الواو أيضا، كتب بالياء لمجاورة قلى الذى هو من ذوات الياء، فسجى مجاور، والضحى مجاور المجاور .

وأما الواو فقد نابت عن الألف فى مواضع من رسم المصحف الكريم : وهى الصلاة، والزكاة، والحياة، والنجاة، ومِسْكَاة، وَمَنَاء، فتكتب على هذه الصورة : الصلوة، والزكوة، والحياة، والنجوة، ومِنُوءة، ومِسْكُوءة . فمنهم من كتبها كذلك فى غير المصحف أيضا أتباعا للسلف فى ذلك، ومنهم من كتبها بالألف وهو القياس، ووجه بأن رسم المصحف متبع فى القراءة خاصة . ولا يكتب شئ من نظائر ذلك إلا بالألف . كالقناة، والقطة، أقصارا على ما ورد به الرسم السلفى .

قال ابن قتيبة : وقال بعض أهل الإعراب : إنهم كتبوا هذه الكلمات بالواو على لغات الأعراب، وكانوا يميلون فى اللفظ بها إلى الواو شيئا . وقيل بل كتبت على الأصل، إذ الأصل فيها واو، لأنك إذا جمعت قلت : صلوات، وزكوات، وحيوات، وإنما قلت أَلَفًا، لما أُنْفَتَحَتْ وَأُنْفَتَحَ ما قبلها .

قال : ولولا اعتياد الناس لذلك فى هذه الأحرف الثلاثة : أى الصلاة، والزكاة، والحياة، لكان من أحب الأشياء إلى أن تكتب كلها بالألف . وجمعوا فى الربا بين العوض والعوض منه، فكتبوه بواو وألف بعدها على هذه الصورة : الربوا . وفى بعض المصاحف ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا﴾ بألف بغير واو، وما سواه فلا خلاف فيه .

تنبيه

لو اتصل بشئ مما أبدلت ألفه واوا ضمير، نحو صلاتهم، وزكاتهم، وحياتك، ونجاته، ومِسْكَاة، ورباه، كتبت بالألف دون الياء، والله أعلم .^(١)

(١) كذا فى الضوء أيضا . ولعل صوابه دون الواو .

القسم الثاني

(ما ليس له صورة تخصه)

وهو الهمزة، إذ تقع على الألف والواو والياء، وعلى غير صورة، ولها ثلاثة أحوال .

الحال الأول

(أن تكون في أول الكلمة)

فكتب ألفا بأي حركة تحركت : من فتحة، مثل أحمد، وأيوب، وأحد، أو ضمة : نحو أخذ، وأكرم، وأوحى، وأولئك، أو كسرة : نحو إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، وإئيد، وإيل، وإذ، وإذا، وإلى، وإلا، وإما، سواء في ذلك همزة القطع مثل أكرم، وهمزة الوصل مثل آتخذ، والهمزة الأصلية مثل أمرئ، والهمزة الزائدة مثل إشاح . وذلك لأن الهمزة المبتدأة لا تخفف أصلا من حيث إن التخفيف يقر بها من الساكن، والساكن لا يقع أولا، فجعلت لذلك على صورة واحدة . واختصت الألف بذلك دون الياء والواو حيث شاركت الهمزة في المخرج، وفارقت أختها في الحقة، ولا فرق في ذلك بين أن تكون الهمزة مبدأة كما في الصور المذكورة، أو تقدمها لفظ آخر، نحو ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ وفِائِي، وأفأنت، وبأنه، وكأنه، وكأين، وبإيمان، وإيلاف، ولبيامام، وسأترك، ولأقطعن، ومررت بأحمد، وجئت لأكرمك، وأكتحلث بالإئيد، إلا فيما شدد من ذلك، نحو هؤلاء، وأبنؤم، ولئن، ولئلا، ويومئذ، وحينئذ، وما أشبهها، فإنه كان القياس أن تكتب الهمزة فيها ألفا لأنها وقعت أولا، لكنهم خالفوا فكتبوا همزة هؤلاء، وأبنؤم بالواو، وإن كانت في الحقيقة مبدأة . دليل أن ها حرف تنبيه وهو منفصل عن اسم الإشارة . وكذلك ابن أسم أضيف إلى الأم، لكنهم شبهوها بهمزة لؤم، فكتبوها بالواو، وراعوا في ذلك كثرة لزوم

هاء الإشارة، وعدم أنفكك أبزوم الواقع في القرآن، فكأنها صارت همزة متوسطة .
وكتبوا همزة لئن ، ولئلا ، وحينئذ ، ويومئذ ، وما أشبهها ياء وإن كانت أول كلمة
وكان القياس أن تكتب بالألف . أما لئن ، فلأن أصلها لئن بلام ألف ونون . وأما
لئلا ، فلأن أصلها لئلا ، بلام ألف ونون منفصلة من لا ، بدليل أنهم إذا لم يحيوا
بعدها بلا ، كتبوها لئلا ، نحو جئت لأن تقرأ ، لكنهم جعلوا اللام مع أن كالشيء
الواحد . وكذلك حينئذ ، ويومئذ ، فإن الأصل أن يفصل الظرف المضاف للجمله
التي بقى منها إذ المنونة تنوين العوض وأن يكتب بالألف ، لكن جعل الظرف مع
إذ كالشيء الواحد ، فوصل بإذ ، وجعلت صورة الألف ياء كما جعلوها في يئس .
وكذلك الحكم في كل ظرف أضيف إلى ما ذكر ، سواء المفرد : كالأمثلة المذكورة ،
والجمع نحو أزمانئذ . وسيأتي الكلام على ما يتعلق من ذلك في الفصل والوصل
إن شاء الله تعالى .

الحال الثاني

(أن تكون متوسطة ، ولها حالتان)

الأولى - أن تكون ساكنة ، فلا يكون ما قبلها إلا متحركاً وتكتب بحركة
ما قبلها . فإن كان ما قبلها مفتوحاً ، كتبت ألفاً نحو رأس ، وكأس ، وبأس ، ويأس ،
وضأن ، وشأن ، ودأب ، وتأمّر ، وتأكّل . وإن كان ما قبلها مضموماً ، كتبت واواً ،
نحو مؤمن ، وتؤمن ، وتؤوى ، وتؤتى ، ومؤتى ، ويؤفك ، وما أشبهها . وإن كان ما قبلها
مكسوراً ، كتبت ياء ، نحو بئر ، وذئب ، وبئس ، وأنبيهم ، ونبتنا ، وجئت ، وجئنا ،
وشئت ، وشئنا ، ولمئت ، وما أشبهها .

الثانية - أن تكون الهمزة متحركة ، والنظر فيها باعتبارين .

الاعتبار الأول - أن يكون ما قبلها ساكناً، وحينئذ فلا يخلو : إما أن يكون حرفاً من حروف العلة (وهي الألف والواو والياء) أو حرفاً صحيحاً . فإن كان الساكن الذي قبلها حرفَ علةٍ نُظِرَ : إن كان حرف العلة ألفاً، فإن كانت حركة الهمزة فتحةً، فلا تثبت للهمزة صورة نحو ساءل ، وأبناءكم ، وأبناءكم ، ونساءكم ، ونساءكم ، وجاءنا ، وجاءكم ، (وساءل ، فأعل من السؤال) وما أشبهه . وإن كانت ضمة تثبت لها صورة الواو، نحو التساؤل ، وأباؤكم ، وأبناؤكم ، وأولياؤكم ، وبآبائنا^(١)، وشبه ذلك ؛ وإن كان حرف العلة واواً أو ياءً : فإما أن تكونا زائدين للذ، أو تكون الياء للتصغير أو أصليتين أو ملحقتين بالأصل . فإن كانتا زائدين للذ نحو خطيئة، ومقروءة، وهنيئاً، مريئاً، أو ياء تصغير نحو أقيس تصغير أفؤس جمع فأس، فلا صورة للهمزة . وإن كانتا أصليتين نحو سوءة، وهيئة، أو ملحقتين بالأصل نحو جيئل (وهو الضبع)، وحوءبة (وهو الدلو العظيم)، والحوءب (أسم موضع)، والسّموءل (أسم رجل) ، فإنك تحذفها وتنقل حركتها إلى الساكن قبلها فتقول : سؤة، وهية، وجيل، وحوبة، وحب وسمول . ولا صورة للهمزة حينئذ في تحقيقها ولا في حذفها . وإن كان الساكن الذي قبلها حرفاً صحيحاً، نحو المرأة، والكّماء، ويسام، ويسام، ويلؤم ونحو ذلك، فتنتقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وتحذف الهمزة . والأحسن الأقيس أن لا تثبت لها صورة في الخط لافي التحقيق ولا في الحذف والنقل .

ومنهم من يجعل صورتها الألف على كل حال، فيكتبها على هذه الصورة : المرأة والكّماء، ويسام، ويسام، ويلأم، وهو أقل استعمالاً . وقد كتب منه حرف في القرآن بالألف، وهو قوله تعالى : ” يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ “ .

(١) كذا في الأصل، وليس هذا موضعها كما هو ظاهر .

ومنه من يجعل صورتها على حسب حركتها، فيكتب المرأة، والكمة، ويسام، بالألف، ويكتب يسيم بالياء، ويكتب يلؤم بالواو. وأستثنى بعضهم من ذلك ما إذا كان بعدها حرف علة، نحو سؤل، ومشؤم، فلم يجعل لها صورة أصلا، وإذا كان مثل رءوس يكتب بواو واحدة فلا صورة لها. وكذلك الموعودة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ على ما كتبت في المصحف بواو واحدة لا يجعل لها صورة.

الاعتبار الثاني - أن يكون ما قبلها متحركا فينظر: إن كانت مفتوحة مفتوحا ما قبلها، كتبت ألفا نحو سأل، ورأيت، وأرك، وبدأكم، وأنشأكم، وقرأه، وليقرأه، وشبه ذلك. إلا إن كان بعدها ألف فلا صورة لها، نحو مآل ومآب. وذهب بعضهم إلى أنها تصوّر ألفا فتكتب بألفين. وإن كانت مفتوحة مكسورا ما قبلها نحو خاطئة، وناشئة وليبطئن، وموطئا، وخاسئا، وينشئكم، وشانئك، صوّرت بجائس ما قبلها (وهو الكسرة) فتصوّر ياء. وإن كانت مفتوحة، مضموما ما قبلها نحو الفؤاد، والسؤال، ويؤده إليك، ويؤلف، ومؤجلا، ومؤذن، وهزوا، وشبهه، صوّرتها بجائس ما قبلها. وإن كانت مضمومة، مضموما ما قبلها، نحو نؤم، كصبر جمع صبور، أو مضمومة، مفتوحا ما قبلها نحو لؤم، كتبت بالواو في الحالتين، إلا إن كان بعدها في الصورتين واو، نحو رءوس، ونؤم، وإن كانت مضمومة، مكسورا ما قبلها نحو يستهزون، وأنيثكم، ولا يئبئك، وسنقرئك، كتبت بواو على مذهب سيبويه، وياء وواو بعدها على مذهب الأخفش.^(٢)

(١) أى فلا صورة لها. (٢) هذا خاص بنحو يستهزون ويقرهون.

الحال الثالث

(أن تكون الهمزة آخرًا، ولها حالتان أيضا)

الأولى

(أن يكون ما قبلها ساكنًا، والنظر فيها باعتبارين)

الاعتبار الأول - أن يكون ما قبلها صحيحًا، فتحذف الهمزة وتلقى حركتها على ما قبلها ولا صورة لها في الخط، نحو جزء، وخبء، ودفع، والمرء، وملء. سواء في ذلك حالة الرفع والنصب والجر. وقيل: إن كان ما قبل الساكن مفتوحًا، فلا صورة لها. وإن كان مضمومًا، فصورتها الواو، وإن كان مكسورًا، فصورتها الياء مطلقًا. وقيل: إن كان مضمومًا أو مكسورًا فعلى حسب حركة الهمزة، فيكتب الجزء، والدفع، بالواو في الرفع وبالألف في النصب وبالياء في الجر. وإن كان شيء من ذلك منصوبًا متونًا فيكتب بالألف واحدة، هي البدل من التنوين. وقيل: يكتب بألفين، إحداهما صورة الهمزة، والأخرى صورة البدل من التنوين.

الاعتبار الثاني - أن يكون ما قبلها معتلًا، فينظر: إن كان حرف العلة زائدًا للذئ، فلا صورة لها نحو نبيء، ووضوء، وسماء، والسوء^(١)، والمسئء، وقترء، وشاء، ويشاء، والماء، وجاء، إلا إن كان متونًا منصوبًا فيكتبه البصريون بألفين، والكوفيون وبعض البصريين بواحدة، وهذا إذا كان حرف العلة ألفًا نحو سماء: الألف الواحدة حرف العلة، والأخرى البدل من التنوين. فإن اتصل ما قبله ألف بضمير مخاطب أو غائب، فتصوّر الهمزة واوا رفعًا، نحو هذا سماءك، وياءً جرًا نحو نظرت إلى سماءك، وألفًا واحدة هي ألف المتنصبًا، نحو رأيت سماءك. أما إذا كان حرف

(١) هذه الألفاظ الأربعة ليس فيها مدزائد ولعله مصحف وأصله [وبناء ونساء والمساء وخباء الخ]. فليحذر.

العلة ياء أو واو نحو رأيت وضوءاً، فيكتب بالالف واحدة. وإن كان حرف العلة غير زائد للدة، فلا صورة للهمزة في الخط .

الحالة الثانية

(أن يكون ما قبل الهمزة متحركاً)

فكتب صورة الهمزة على حسب الحركة قبلها . فإن كانت الحركة فتحة ، رسمت ألفاً ، نحو بَدَأَ ، وَأَنشَأَ ” وَمِنْ سَبِيٍّ نَبِيًّا “ وَالْمَلَأَ ، وَيُسْتَهْزَأُ ، على البناء للفعول ، وَيُنشَأُ كذلك ، ورأيت أَمْرًا وما أشبهه . وإن كانت كسرة رسمت ياء ، نحو قُرِئَ ، وَأُسْهِزِيَ ، ولكل أمرئٍ ، ومن شاطئٍ ، وَيَسْتَهْزِئُ ، على البناء للفاعل ، وبرئ ومررت بأمرئٍ . وإن كانت ضمة ، رسمت واوا ، نحو أَسْرَوْ ، وَاللُّؤْلُؤُ ، وما أشبه ذلك ، إلا في مثل النبا إذا كان منصوباً متوناً فقليل : يكتب بألفين نحو سمعت نبأً ، وقيل : بواحدة وهو الأولى . وإن اتصل بها ضمير ، فعلى حسب الحركة قبلها كخالها إذا لم يتصل بها ضمير . وقيل : إن كان ما قبلها مفتوحاً ، فبالف نحو لن يقرأ ، إلا أن تكون هي مضمومة فبواو ، إن قلنا بالتسهيل بين الهمزة والواو ، وبالياء إن قلنا بإبدالها ياء ، وقيل إن أنضم ما قبلها أو أنكسر ، فكما قبل الاتصال بالضمير ، فتجعل صورتها على حسب الحركة قبلها . وإن أنفتح ما قبلها وأنفتحت ، فبالألف نحو لن يقرأ ، وكذلك إذا أنفتح ما قبلها وسكنت نحو لم يقرأ ، ولم يُنبأ ، وأقرأ ، وإن نشأ وما أشبهه . وإن أنفتح ما قبلها وأنضمت ، فبالواو نحو يقرأ . وقيل بالواو والألف كما كتبوا في المصحف (قُلْ مَا يَعْبَوْنَ) و (نَبَأُ الْخَصْمِ) و (يَدْعُوا الْخَلْقَ) (أَوَمَنْ يُنَشِّئُ) بواو وألف في الجميع . أو أنكسرت ، فبالياء نحو من المقرئ ، وقيل بها وبألف كما كتبوا في المصحف (مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) بألف وياء .

تنبيه

قد تقدّم في الحذف أن همزة الوصل تحذف في بعض مواضع وتثبت فيمّا عداها .
 فحيث ثبتت ، كتبت بحسب حالها إذا ابتدئ بها . فإن كانت يبتدأ بها مضمومة ،
 كتب ما يليها واوا إن كانت همزة أو واوا مبدلة منها ، نحو أوْثَمَنَ فلان ، وقلت لك
 أوامر فلانا بكذا ؛ وإن كانت يبتدأ بها مكسورة ، كتب ما يليها ياء إن كانت همزة
 أو ياء مبدلة منها ، نحو آذَن لي يا زيد ، آت القوم ، آت عليهم كذلك وإن كان
 النطق بها واوا بضم ما قبلها نحو ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذِّنْ لِي ﴾ تكتبه ياءً على الهمزة
 في الابتداء بها ؛ ويستثنى فاء إفعل من نحو يَوجَل مثل يَوسَن فإنها تكتب واوا
 بعد الواو والفاء كما في قولك فأَوجَل ، وأَوجَل . يكتبان بإثبات ألف الوصل ، والواو
 بعدها ولم يكتبوها على ابتداء الهمزة . أما بعد غير الواو والفاء ، فإنها تكتب بحسب
 الابتداء بها نحو قلت لها آيِجلى ، أو ثم آيِجلى ، وقلت لكم آيِجلوا ، فانك تلفظ به واوا
 وتكتبه ياء للانفصال ؛ وإن كانت قبلها كسرة كانت ياء لفظا وخطا ، نحو قلت لَكَ
 آيِجلى ، وكذلك إذا ابتدئ بهمزة الوصل نحو آيِجلى ياهند .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ هَمْزَةٌ اسْتِفْهَامٌ وَبَعْدَهَا هَمْزَةٌ قَطَعَ صَوْرَتُ هَمْزَةِ الْقَطْعِ بَعْدَهَا
 بِجَانِسِ حَرَكَتِهَا . فَإِنْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ فَتْحَةً كَتَبْتُ أَلْفًا ، نَحْوُ أَسْجَدَ وَإِنْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ
 ضَمًّا كَتَبْتُ وَآوَا نَحْوُ أُؤْزِلَ وَإِنْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ كَسْرَةً كَتَبْتُ يَاءَ نَحْوُ أَتَنَّاكَ
 لِأَنَّهَا إِذَا خَفَّتْ بِالْبَدَلِ كَانَ إِبْدَالُ الْمَفْتُوحَةِ أَلْفًا ، وَإِبْدَالُ الْمَضْمُومَةِ وَآوَا ، وَإِبْدَالُ
 الْمَكْسُورَةِ يَاءَ . وَقَدْ تَحْذِفُ الْمَفْتُوحَةُ خَطَا فَتَكْتُبُ بِأَلْفٍ وَاحِدَةٍ ، نَحْوُ أَسْجَدَ كَمَا
 فِي رِسْمِ الْمَصْحُفِ .

وَأَخْتَلَفَ فِي السَّاقِطَةِ مِنَ الْهَمْزَتَيْنِ وَالْحَالَةِ هَذِهِ : فَقِيلَ الثَّانِيَّةُ ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ
 أَبُو بَكْرٍ : وَقِيلَ الْأُولَى وَهُوَ قَوْلُ الْكَسَائِيِّ .

فلو كانت ثلاث ألفات في اللفظ نحو قوله تعالى : (أَلِهْتُنَا خَيْرٌ) فقال أحمد ابن يحيى : تكتب بواحدة .

وآختلف في الثابتة ، فذهب الفراء وثعلب وآبن كيسان إلى أنها الاستفهامية لأنها حرف معنى . وحكى الفراء عن الكسائى : أنها الأصلية وحكاها آبن السيد عن غير الكسائى وحكى عنه أنها ألف الجمع .

وقد تكتب غير المفتوحة ألفا نحو قوله ألأنك ، لأن الألف هى الأصل ، والهمزة حرف زائد لمعنى كالواو والفاء فلا يعتد به ، لكنه قليل ، والله أعلم .

الجملة الثانية

(فى حالة التركيب والفصل والوصل)

وآعلم أن الأصل فصل الكلمة من الكلمة ، لأن كل كلمة تدل على معنى غير معنى الكلمة الأخرى ، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبر عنهما يكون متميزا . وكذلك الخط النائب عن اللفظ يكون متميزا بفصله عن غيره . ويستثنى من ذلك مواضع كتبت على خلاف الأصل .

(منها) أن تكون الكلمتان كشئ واحد ، وذلك فى أربعة مواضع .

الموضع الأول - أن تكون الكلمتان قد رُكِّبَا تركيب مزج ، مثل بعلبك : ليدل على أن التركيب الذى يعتبر فيه وصل الكلمة بالأخرى هو تركيب المزج ، وهو أن يتحد مدلول اللفظين . بخلاف ما إذا رُكِّبَا تركيب إسناد نحو زيد قائم ، أو تركيب إضافة نحو غلام زيد ، أو تركيب بناء لم يتحد فيه مدلول اللفظين نحو خمسة عشر ، وصباح مساء ، وبين بين ، وحيص بيص ، فإن هذا كله يكتب مفصولا لا تخط فيه كلمة بأخرى .

الموضع الثانى - أن تكون إحدى الكلمتين لا يتبدأ بها فى اللفظ ، نحو الضمائر البارزة المتصلة ، ونون التوكيد ، وعلامة التأنيث والتثنية والجمع فى لغة أكلونى البراغيث ، وغير ذلك مما لا يمكن أن يتبدأ به ، فكل هذا يكتب متصلا وإن كان من كلمتين .

الموضع الثالث - أن تكون إحدى الكلمتين لا يوقف عليها ، وذلك ما كان نحو باء الجز ، وفاء العطف ، ولام التأكيذ ، وفاء الجزاء ، فإن هذه الحروف لا يوقف عليها ، فلما أمتزجت فى اللفظ أمتزجت فى الخط فتكتب متصلة وإن كانت فى الحقيقة كلمتين .

الموضع الرابع - أن تكون الكلمة مع الأخرى كشيء واحد فى حال ما فاستصحب لها الاتصال غالبا : مثل بعلبك ، إذا أعرب إعراب المضاف والمضاف إليه ، فإن هذا الإعراب يقتضى أن تفصل إحدى الكلمتين من الأخرى ، لأن الإعراب قد فصلهما . أما إذا أعرب إعراب ما لا ينصرف فلا يصح فيه الفصل أصلا ، لأن اللفظ الثانى منتهى الأسم ، فهو مفرد فى المعنى وفى اللفظ .

وكتبوا لثلا مهموزة وغير مهموزة بالياء (وكان القياس أن تكتب بالألف) كما تكتب لأن إذا كانت اللام مكسورة بالألف فكذلك إذا زيدت عليها لا ، إلا أن الناس آتبعوا رسم المصحف ، وكذلك لئن فعلت كذا تكتبه بالياء آتباعا للمصحف ، وإن كان القياس أن يكتب بالألف . وسيأتى الكلام على وصل لا بيان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(ومنها) توصل من الجارزة وهى المكسورة الميم بما بعدها بعد حذف النون منها على ما تقدم فى موضعين :

الموضع الأول - توصل من المفتوحة الميم مطلقا ، سواء كانت موصولة نحو أخذت الدرهم من أخذته منه ، أو موصوفة كما فى المثال المذكور فإنها فيه تحتل

المعنيين جميعا، أو استفهامية نحو مَنْ أَنْتَ؟ أو شرطية نحو مَنْ تَأْخُذُ دَرَهْمًا آخُذْ منه، وإنما وصلت بها لأجل اشتباههما خطأ إذ لو كتبتا مَنْ لكانتا مشتبهتين في الصورة فأدغمت نون مَنْ في ميم مَنْ وَزَلَتْ منزلة المدغم في الكلمة الواحدة، فلم يجعل له صورة بل حذف مع كتبه متصلا، وقد تقدّم الكلام على ذلك في الحذف. هذا هو المشهور الراجح.

وقال الأستاذ بن عصفور: إن كانت مَنْ استفهامية، كتبت مفصولة على قياس ما هو من المدغمات على حرفين.

الموضع الثاني - توصل بعد حذف النون أيضا بما، إذا كانت موصولة نحو عجبتُ مما عجبَ منه، أو استفهامية نحو مِمَّ هذا الثوب؟ أو زائدة كما في قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَايَاهُمْ أَغْرُقُوا﴾. أما إذا كانت شرطية نحو مَنْ مَا تَأْخُذُ آخُذْ، أو موصوفة نحو أكلتُ من ما أكلتَ منه، فإن القياس يقتضى أن تكون مفصولة.

وقال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور: إذا كانت ما غير استفهامية، كتبت مِنْ معها، وقضيته أنها لا تكتب متصلة إلا في حالة الاستفهام فقط، وتكتب منفصلة فيما عداها.

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: والأول أصح لأن علة الوصل في مَنْ مفقودة في مما، وهي التباس اللفظين خطأ.

(ومنها) توصل عن بما بعدها بعد حذف النون منها على ما تقدّم، في موضعين. الموضع الأول - توصل بمن الموصولة غالبا، نحو رَوَيْتُ عَنْ مَنْ رَوَيْتَ عَنْهُ، ويجوز فصلها، فتفصل عن مَنْ وتثبت النون في عن، وأما مَنْ غير الموصولة، فالقياس فصلها، فتكتب في الاستفهام عن مَنْ تسأل؟ وفي الشرط، عن مَنْ ترض أرض عنه، فتفصل عن مَنْ على ما مر.

وزعم ابن قتيبة أن عَنْ مَنْ تكتب موصولة بكل حال ، سواء الموصولة وغيرها كما تكتب عم وعمما موصولة من أجل الإدغام . وزعم غيره أنه لا يؤثر الإدغام في ذلك لأنهما كلمتان إلا في نحو عمما قليل لزيادتها .

الموضع الثاني - توصل بما الاستفهامية ، كما في قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وتحذف الألف من ما على ما تقدم في الحذف .

(ومنها) توصل مع بما إذا كانت زائدة ، وتقطع إذا كانت موصولة ، قاله ابن قتيبة .

(ومنها) توصل في بمن في موضعين :

الموضع الأول - توصل بمن الاستفهامية دائما نحو قولك : فيمن تفكر ؟ ولكن لا تحذف الياء منها كما حذفت النون من عن ومن ، إذ لا إدغام هنا .

الموضع الثاني - توصل بما إذا كانت موصولة في الغالب نحو فكرت فيما فكرت فيه ، ولا تسقط الياء على ما مر . ويجوز في هذه الحالة فصلها ، فتفصل "في" عن "ما" . وتكتب على هذه الصورة "في ما" . وكذلك توصل بما إذا كانت استفهامية نحو قوله تعالى : ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ولا تحذف ياءها كما تقدم .

أما مع إذا اتصلت بما أو بمن ، فإنها تكتب منفصلة . قاله ابن قتيبة .

قال بعض النحاة : أظن سبب ذلك قلة الاستعمال ، وإلا فما الفرق بين مع وبين في . قال : وقد يمكن أن يفرق بينهما في الاسمية ، فإن في لا تكون إلا حرفا ، ومع إن تحركت كانت اسما ، وإن سكنت ، فخلافا والأصح الاسمية ، وأيضا فإنها تنفصل مما بعدها .

(ومنها) توصل الحروف النواصب للاسم ، الروافع للخبر ، إذا دخلت على ما الزائدة نحو إنما وكأنا وليتا . فتكتب إنَّ وكانَّ وليتَ متصلات بما ، نحو إنما فعلت كذا ، وإنما كلمت أخاك ، وإنما أنا أخوك ، وكأنا وجهه قر ، وليتا هذا الشيء لي ،

ونحو ذلك . فإن كانت ما موصولة ، كتبت مفصولة نحو **إِنَّ** ما قلت لحق ، وكأن ما حدثت صحيح ، ولت ما لك لى . على أنه قد جاء فى القرآن كثير من ذلك متصلا . وزعم بعضهم أنه لم يأت فى القرآن مفصولا إلا قوله تعالى فى الأنعام : **(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ)** . وقد كتبوا فى المصحف : **(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ)** فى الطور وغيره متصلا ، وكذلك : **(إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرٍ)** . مع رفع كيد ونصبه ، وإن كانت ما موصولة فى الموضعين .

(ومنها) توصل قل بما إذا دخلت عليها نحو قلما أتيتك مائة مرة .

(ومنها) توصل إن الشرطية بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون نحو : **(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ)** .

(ومنها) توصل إن الشرطية بما إذا جاءت بعدها بعد حذف النون نحو : **(وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ)** . وإنما حذف النون فى هذه ومقابلها لإدغامها كما فى مما وعما ونحوه .

(ومنها) توصل أين بما نحو : **(أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ)** . لأن ما إذا دخلت على أين صارت جازمة إذ تقول : أين تكون أكون ، فترفع النون ، فإذا دخلت عليها ما ، قلت : أينما تكن أكن بخزمت ، فصارت أين وما كأنها كلمة واحدة . فإن كانت ما موصولة ، فصلت نحو أين ما اشتريت تريد أين الذى اشتريت .

ولم يصلوا متى بما بل كتبوها منفصلة عنها ، إذ لو وصلت للزم قلب الياء ألفا كما فى حتام فتكتب متام فيتعذر إدراكها .

(ومنها) توصل حيث أيضا بما نحو : **(وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ قُولُوا وَجْوهَكُمْ شَطْرَهُ)** . كما تقدم فى أين .

(ومنها) توصل كل بما المصدرية، إذا دخلت عليها، نحو كَلَّمَا جِئْتَنِي أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ . فإن كانت نكرة منعوتة كتبت مفصولة نحو كُلُّ مَا تَفْعَلُ حَسَنٌ، وكلُّ مَا كَانَ مِنْكَ حَسَنٌ .

قال ابن قتيبة: وكلُّ مَنْ مقطوعة على كل حال ومكان .

(ومنها) توصل هل يَلَا، وتحذف إحدى اللامين على هذه الصورة (هَلَّا فَعَلْتَ) وتقطعها من بل، فتكتب (بَلْ لَا تَفْعَلْ) .

قال ابن قتيبة: والفرق بينهما أنَّ لَا إذا دخلت على هل تغير معناها، فكأنها معها كلمة واحدة؛ وإذا دخلت على بل لم تغير المعنى تقول: بل تفعل، وبل لَا تفعل، كما تقول: كي تفعل، وكي لَا تفعل .

(ومنها) توصل بين بما الزائدة، نحو بينما أنا جالس، وبينما أنا أمشي .

(ومنها) توصل أي بما إذا كانت ما زائدة كما في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وكما تقول: أَيُّمَا الرَّجُلَيْنِ لَقِيتُ فَأَكْرَمَ . فإن كانت ماموصولة قطعت فتكتب أي ما تراه أَوْفَقُ، أي ما عندك أَفْضَلُ، مقطوعة .

(ومنها) يوصل يوم وحين بإِذٍ من قولك يومئذ وحينئذ، وكان القياس الفصل، على ما تقدم في الهضرة .

(ومنها) توصل لَنْ وَلِئِنْ وَلِئَلَّا وإن كان كل منهما كلمتين . إذ الأصل لِأَنَّ وَلِأَنَّ لا وقد تقدم بيان كتابتهما بالياء دون الألف، ليكونهم جعلوه مع ما بعده كالشيء الواحد .

(ومنها) توصل أَنَّ المفتوحة بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون على أحد الأقوال فتكتب على هذه الصورة (أَلَّا) . (والثاني)، تفصل منها وتثبت النون، فتكتب على

هذه الصورة : (أن لا يقوم) . و(الثالث) ، يُفصل بين أن تكون مخففة عن الثقيلة ، فتكتب مفصولة نحو علمت أن لا يقوم زيد ، وعلمت أن لا ضرر عندك ، التقدير أنه لا يقوم وأنه لا ضرر عندك ولذلك ثبتت في قوله تعالى : ﴿ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنِ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ أو ناصبة للفعل فتقدر كتبها متصلة على اللفظ وتحذفها في الخط ، نحو يعجبني ألا تقوم وهو قول الأخفش وابن قتيبة وأختار ابن السيد . (والرابع) ، التفصيل بين أن تدغم بَعْنَةً ، فتكتب منفصلة أو بغير غُنة فينوى الاتصال وتحذف خطأ . ويروى عن الخليل ، وأستحسنه بعض الشيوخ : وقد وقع في القرآن مواضع متصلة ومواضع منفصلة فيجب اتباعها اقتداء بالسلف . وقد وقع في المصحف وصل مواضع القياس فصلها ، فيجب وصلها في المصحف اتباعا لرسمه ، وتوصل في غيره في الغالب أو في بعض الأحوال .

(ومنها) وصلت بئس بما في موضعين :

أحدهما - ﴿ بئسًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ في البقرة .

والثاني - ﴿ بئسًا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ في الأعراف .

(ومنها) وصلت نعم بما للادغام . وحكى ابن قتيبة فيه الفصل والوصل .

(ومنها) وصلت إن بلم مع حذف النون للادغام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ في هود ، بخلاف التي في القصص فإنها كتبت مفصولة بإثبات النون .

(ومنها) وصلت أن بلم مع حذف النون للادغام في سورة الكهف في قوله :

﴿ أَلَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ .

(ومنها) وصلت أم بمن في نحو قوله تعالى : ﴿ آمَنَ هُوَ قَانِتٌ ﴾ .

قال محمد بن عيسى : كل ما في القرآن من ذكر أم فهو موصول إلا أربعة مواضع

في النساء : ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ . وفي التوبة : ﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ .
وفي الصافات : ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ . وفي فصلت : ﴿ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا ﴾ .

(ومنها) وصلت كي بلا في نحو كَيْلًا وَلَيْلًا في أربعة مواضع في المصحف ،
﴿ لَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ في آل عمران . و ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ في الحج
و ﴿ لَيْلًا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرْجٌ ﴾ في الأحزاب . و ﴿ لَيْلًا تَأْسُوا ﴾ في الحديد
وما عداها فهو مقطوع كما في أول الأحزاب .

ووجه ابن قتيبة المقطوع بأنك تقول : أتيتك كي تفعل وكى لا تفعل ، كما تقول :
حتى تفعل وحتى لا تفعل فيختلف المعنى بالنفي والإثبات فيه .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الأولى

(فما يكتب بالطاء، مع بيان ما يقع الاشتباه فيه مما يكتب بالضاد)

وإنما خصت الطاء بالذكر دون الضاد لقلّة وقوع الطاء وكثرة وقوع الضاد ؛
وخصّ ما يكتب بالطاء بالذكر دون ما يكتب بالذال المعجمة ، لأن الدال والذال
في صورة الكتابة واحد ، فلا يظهر خطأ الكاتب فيه ، بخلاف الطاء والضاد : فإن
شكّلهما مختلف فيظهر خطأ الكاتب وعوّاره فيه ؛ فذلك وقعت العناية بالتنبيه على
ما يكتب بالطاء دون ما يكتب بالذال المعجمة .
وقد أوردته على حروف المعجم ليقرب تناوله .

حرف الألف

فيه - أظله الشيء : إذا غشيّه ؛ أما أضله من الضلال إذا ضلّ دابته إذا نددت ،

فبالضاد .

حرف الباء

فيه - بهَّظه الأمرُ : إذا أتعبه . وفيه ، البَظَرُ : وهو اللَّحْمَةُ المتدَلِّيَّةُ من فَرْجِ المرأة ، التي تُقَطَّعُ بِالْحَتَّانِ .

حرف التاء المثناة فوق

فيه - التَّقْرِيطُ : وهو المدح ، والتَلَمَّظُ : وهو تحريك الشفتين بعد الأكل لا ابتلاع ما حَصَلَ بين الأسنان .

حرف الجيم

فيه - الجَوَاطُ : وهو الجافي المتكبر ، أو الأَكُولُ ، والجَحُوظُ : وهو نُتُو العَيْنِ وَنُدُورُهَا ، ومنه أَبُو عُثْمَانَ الجاحِظُ ، ومَحْظَةُ البرمكي .

حرف الحاء المهملة

فيه - الحِفْظُ : وهو ضِدُّ النِّسيانِ ، والحَفِيفَةُ : وهى المَوْجِدَةُ ، والحِطُّ : وهو الغنى والنصيب . ومنه قوله تعالى : (إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) . وقوله : (لَدَّ كَرِمٌ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ) . أما الحِصُّ بمعنى الحث فإنه بالضاد . ومنه قوله تعالى : (وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ) . والحُطُوةُ : وهى الرفعة ، والحَظَرُ : وهو المنع . ومنه قوله تعالى : (كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) . وقوله : (كَهَشِيمٍ مُّحتَظِرٍ) . وفى معناه الحَظِيرُ : وهو المحوَّط من قصب ونحوه . أما الحُضُورُ خلافُ الغِيَةِ فإنه بالضاد ، والحِظْلُ : وهو النَّبَاتُ المُرُّ المعروف .

حرف الشين المعجمة

فيه - الشَّطِيطَةُ : وهى القِطْعَةُ من الشَّيْءِ ، والشَّطَاظُ : وهى عِيدَانُ لِطَافٍ يُجْمَعُ بِهَا الْعِدْلَانُ ، والشَّظَفُ : وهو خُسْثُونَةُ الْعِيشِ ، والشُّوَاظُ : وهو لَهَبُ النَّارِ . ومنه

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾. والشَّيْطَمُ : وهو الفرس الطويل الظهر، والشَّناطِي : وهى أطراف الجبال .

حرف الظاء المعجمة

فيه - الظَّنُّ : بمعنى 'التخمين والشك'، والظَّنَّةُ : وهى التهمة . أما الضَّنُّ بمعنى 'البخل فإنه بالضاد، وعلى المعنيين قرئ قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ بالضاد والظاء : لانتجاء المعنيين فى النبىِّ صلى الله عليه وسلم إذ ليس ببحيل ولا متهم ؛ وفيه ظَلَّ يفعل كذا : إذا فعله نهارا . ومنه قوله تعالى : ﴿فَطَلَّوْا فِيهِ يَعْرَجُونَ﴾ . وقوله : ﴿فَطَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ . وقوله : "وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا" .

أما ضَلَّ من الضلال : خلاف الهدى ؛ وضَلَّ الشئُ : إذا ضاع ، فبالضاد . وفيه الظَّلُّ : خلاف الحرِّ حيثما وقع وما يُسْتَقُّ منه ، والظُّلْمُ وما يَنْشَعِبُ منه ، والظَّلَامُ وما يتفرع منه ، والظُّلْمُ (بفتح الظاء) وهو ماء الأسنان ، والظِّلْمُ : وهو ذَكَرُ النِّعَامِ ، والظُّبَى : واحدُ الطُّبَاءِ ، والظُّبِيَّةُ الأنثى منه ، والظُّبِيَّةُ : حَيَاءُ النِّقَاقَةِ ، والظُّبَةُ : وهو حُدُّ السيف ، والظَّرْفُ : وهو الوعاء الحسن ، والظُّعْنُ : وهو السَّفَرُ . ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ ظَعَنَكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ . والظَّرَابُ : وهى الهِضَابُ . أما الضَّرَابُ مصدر ضاربتُه فإنه بالضاد ، والظَّعِينَةُ : وهى المرأة ، والظَّلْفُ : وهو للبقر والغنم كالخافر للخيول ، والظَّلَفُ : وهو نزاهة النفس ، والظُّفَرُ : واحدُ الأظفار ، والظَّقَرُ : وهو النصر . أما ضَفَرَ الشعر ونحوه فبالضاد ، والظُّفَرُ : وهى المُرْضِعة ، والظَّهْرُ : وهو العُضْوُ المعروف . أما الضَّهْرُ : وهو صخرة فى الجبل يخالف لونُها لونه فإنه بالضاد ، والظَّهِيرُ : وهو المَعِينُ ، والظَّهِيرة : وهى وَسَطُ النهار ، والظَّمَا : وهو العطش ، والظَّارار جمع ظُرٌّ : وهو الغليظ من الأرض . أما الضَّرِيرُ : بمعنى 'الاعمى' فبالضاد ،

وَالظَّرَبَانُ : وهى دَوِيَّةٌ مَتْنَةُ الرِّيحِ ، وَالظَّلْعُ : وهو العَمَزُ يقال نَافَقَ ظَالِعٌ إِذَا غَمَزَتْ فِي الْمَشْيِ . أما الضِّلَعُ واحد الأضلاع فإنه يَكْتَبُ بالضاد ، ومنه قولهم فَرَسٌ ضَلِيعٌ .

حرف العين المهملة

فيه - الْعَظْمُ : وهو معروف ؛ وَالْعَظْمَةُ : وهى الكِبْرِيَاءُ وما تَصَرَّفَ مِنْهَا ، وَعَظَّهُ الدهرُ وَعَظَّتْهُ الحربُ . أما الْعَضُّ بالأسنان فبالضاد ، وَالْعَظْلُ ^(١) : وهو الشَّدَّةُ ، ومنه تَعَاظَلُ الجراد والكلاب فى السَّفَادِ . أما الْعَضْلُ بمعنى المنع فإنه بالضاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُمْ أَنْ يَنْكَحُوا أَرْوَاجَهُنَّ﴾ . وكذلك قولهم : أَعْضَلَ الأَمْرُ إِذَا صَعُبَ . ومنه الداءُ الْعُضَالُ ، وسوقُ عُمَاطٍ : وهو سُوقٌ كان يَقامُ للعرب فى الجاهلية وأصل الْعَكْظِ الْحَبْسُ .

حرف الغين المعجمة

فيه - الْغَيْظُ بمعنى الحَنَقِ وما تَفَرَّعَ عنه ، أما غَاضُ المَاءِ بمعنى غَارَ وَالْغَيْصَةُ وهى مَنِيْتُ الشَّجَرِ فى المَاءِ فبالضاد ، وَالْغِلَظُ وما تَصَرَّفَ منه .

حرف الفاء

فيه - الْفَظَاظَةُ : وهى القسوة ومنه قوله تعالى : ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ . أما أَنْفِضَاضُ الْجَمْعِ فبالضاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ . وكذلك أَفْضِضَاضُ الْبَكْرِ وَالْكَأَبِ ؛ وَالْفَظِيعُ : وهو الشنيع ، وَفَاطَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ . أما فَيْضُ الْإِنَاءِ وَالدَّمْعُ بمعنى السَّيْلَانِ ، فبالضاد ؛ ومن ثمَّ جاز أن يكتب فَاطَتْ نَفْسُهُ بِالظَّاءِ عَلَى معنى ماتت نفسه ويحوز أن يكتب بالضاد على معنى سالت نفسه .

(١) كذا فى الضوء أيضا بالظاء المشالة . وفى اللسان فى مادة (ع ض ل) ... [وأصل العضل المنع والشدة]

أى بالضاد الساقطة ولم يذكره بهذا المعنى فى مادة (ع ظ ل) .

حرف القاف

فيه - القَيْظ وهو صميم الخَرِّ وما تَصَرَّف منه . أما القَيْض الذى هو القشر الأعلى من البيض فبالضاد ، وكذلك قَيْضُ الله له كذا أى أتاحه له ، والقَرَض : وهو ثمرة شجرة السَّنَط التى يدبغُ بها الجلد . أما القَرَض بمعنى القطع فبالضاد ، ومنه قَرَضَ المال .

حرف الكاف

فيه - الكَطْم : وهو كَتَمَ الحُزْنَ ، والكَيْطُ : وهو شدَّة الحرب ، وكَاظَمَهُ : وهو آسَمَ مكان بالبحرين .

حرف اللام

فيه - لَطَى : آسَمُ جَهَنَّمَ ، واللَّظُّ : وهو اللزوم . ومنه ”أَلْطَوْا بِيَاذَا الْجَلَالِ والإِكْرَامَ“ أى ألزمو هذا الاسم فى الدعاء والمناجاة به ، واللَّحْظُ : وهو النظر بمُنْحَر العين ، واللَّمْظُ : وهو بياضُ الجفلة السفلى من الفرس ، ومنه قيل فرس أَلْمَظُ ، واللَّفْظُ : وهو معروف وما تصرف من جميع ذلك .

حرف النون

فيه - النَّظْم وما تصرف منه ، والنَّظَرُ بالعين وما تصرف منه ، والنَّظِير وهو المثل . أما النَّصَارَةُ بمعنى 'البهجة فبالضاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ . ومنه أَشْتَقاق بنى النَّصِير وفى معناه النَّصَارُ اسمُ الذهب ، والنَّظَافَةُ : وهى خلاف القُدَّارَةِ .

حرف الواو

فيه - الوَظِيف : مافوق الرُّسُغ من ذوات الحافر ، والوَظِيفَةُ ، وأصلها الطعام الراتب ثم آسُتْعِمِلَتْ فيما هو أَعَمُّ من ذلك .

حرف الياء

الْيَقَظَّة : وهى خلاف النوم .

المقالة الثانية

في المسالك والممالك ؛ (وفيها أربعة ابواب)

الباب الأول

في ذكر الأرض على سبيل الإجمال

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

(في معرفة شكل الأرض، وإحاطة البحر بها، وبيان جهاتها الأربع، وما آشتقت عليه من الأقاليم الطبيعية، وبيان مَوَاقِعِ الأقاليم العُرفية من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها، ومعرفة طريق أستخراج جهة كل بلد؛ وفيه طَرَفَانِ) .

الطَّرَفُ الأول

(في شكل الأرض، وإحاطة البحر بها)

أما شكل الأرض فقد تقرّر في علم الهيئة أن الأرض كُرَيَّةُ الشَّكْلِ والماء مُحِيطُ بها من جميع جهاتها إلا ما اقتضته العناية الإلهية من كشف أعلاها لوقوع العِارة فيه؛ وقيل هي مُسَطَّحة الشَّكْلِ؛ وقيل كالأُرْس؛ وقيل كالطَّبْل. والتحقيق الأول؛ وبكل حال فالماء محيط بها من جميع جهاتها كما تقدّم .

قال في "تقويم البلدان" : وأحواله معلومة في بعض المواضع دون بعض، فمن المعلوم الحال الجانب الغربي ويسمى بحر أوقيانوس (بهزمة مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف مكسورة ثم ياء مثناة تحت مفتوحة ثم ألف بعدها نون ثم واو ثم سين مهملة) .

(١) هذه الفقرة تناسب الكلام على البحار وقد ذكرها هناك .

ثم للأرض أربع جهات :

الأولى - المَشْرِقُ، سميت بذلك لَشُرُوقِ الشمس منها، ويقال لها الشَّرْقُ أيضا .

الثانية - المَغْرِبُ، سميت بذلك لغروب الشمس فيها، ويقال لها الغَرْبُ أيضا .

الثالثة - الشَّمالَ (بفتح الشين) وهي التي إذا آستقبلت المَشْرِقَ كانت على شِمَالِكَ ويقال لها الشام أيضا، لأن الشام كانت في جهة الشمال عن بلاد المغرب فسميت الجهة به، وأهل مصر يسمون هذه الجهة البَحْرِيَّةَ : لكونها جهة البحر الرومى، أو تسمية لها بأسم الرياح التي تهب منها فقد سبق أنهم يسمون الرياح التي تهب من الشمال البحرية: لأنها يسار بها في البحر كيف كان .

الرابعة - الجَنُوبَ (بفتح الجيم) وهي التي إذا آستقبلت المَشْرِقَ كانت على جانبك الأيمن ولم يُسمَّ بالأيمن كما سُمِّيَ بمقابلته بالشَّمالَ، لأنه لما ذكر الشَّمالَ لم يبق إلا الجانب الأيمن فآستغنى عن ذكره، وأهل مصر يسمون هذه الجهة القبليَّةَ : لوقوعها في جهة قبليتهم ولذلك يبدءون بها في التحديد، وإن كان الأصل الابتداء بالمشرق : لأن منه مبدأ حركة الفلك .

ثم كُرَّةُ الأرض يقسمُها خطُّ في وسطها بنصفين : نصفٍ جنوبيٍّ، ونصف شماليٍّ، ويسمَّى هذا الخط خط الاستواء لآستواء الليل والنهار عنده في جميع فصول السنة، ويقاطعه خط آخر يقسمُها بنصفين : نصفٍ شرقيٍّ ونصفٍ غربيٍّ، وتصير الأرض به أربعة أرباع، ويسمى هذا الخط خط نصف النهار لمسامة الشمس له في نصف النهار، وكلُّ من هذين الخطين مقسوم بمائة وثمانين درجةً، كل درجة ستون دقيقةً . وسيأتى تقدير ذلك بالأُميال والفراسخ والمراحل والبُرد في الكلام على بُعد ما بين البلدان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن كل ما بعد عن أقصى العارة في المغرب إلى جهة المشرق يعبر عنه عند علماء الهيئة والميقات بالطول ؛ وقد اختلف في ابتداء ذلك : فالقدماء ابتدؤوه من جزائر البحر المحيط تُعرف بالخالدات ، يأتي الكلام عليها في جملة جزائر البحر المحيط ، والمحققون على ابتداء ذلك من ساحل البحر المحيط الغربي الذي هو أقصى العارة الآن ، وبينهما عشر درج ، ونهاية العارة في المشرق موضع يقال له كُنْدُرْ ، ومتصف ما بين الابتداء والنهاية الشرقية يسمى قبة أرين ، ويعبر عنه بقبة الأرض ؛ وهي على بعد ربع الدور من المبداء الغربي ، ويختلف الحال فيه باختلاف الابتداء من الجزائر الخالدات أو من الساحل . وما بعد عن خط الاستواء المقدم ذكره يعبر عنه بالعرض ؛ فإن كان في جهة الجنوب فالعرض جنوبي ، وإن كان في جهة الشمال فالعرض شمالي . ويعتبر الطول والعرض في الأمكنة من البلدان وغيرها بالدرج والدقائق على ما سيأتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثم النصف الجنوبي من الأرض لاعمارة فيه إلفيا قارب خط الاستواء في بعض بلاد الزنج والحبشة ، وما إلى ذلك مما لا يزيد عرضُه على ثلاث درج فيما أورده السلطان عماد الدين صاحب حماه في "تقويم البلدان" أوست عشرة درجة وخمسين وعشرين دقيقة فيما ذكره إسحاق الحارثي وغيره . وأكثر المعمور إنما هو في النصف الشمالي ، والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء إلى نهاية ست وستين درجة ونصف درجة في العرض ؛ وما وراء ذلك إلى نهاية الشمال خراب لاعمارة فيه ، وغالب العمارة واقع بينا يجاوز عرضُه عشر درج إلى حدود الخمسين درجة ، وما وراء ذلك في جهة الجنوب إلى خط الاستواء ، وفي جهة الشمال إلى حد العمارة غالبه جبال وقفار ؛ وغالب العمارة في الطول من ساحل البحر المحيط الغربي إلى تسعين درجة فما دونها .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(فِي مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ مِنَ الْأَقَالِيمِ الطَّبِيعِيَّةِ)

قَدْ قَسَّمُ الْحِكْمَاءُ الْمَعْمُورَ إِلَى سَبْعَةِ أَقَالِيمٍ ممتدَّةٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ فِي عُرُوضٍ قَلِيلَةٍ تَتَشَابَهُ أَحْوَالُ الْبَقَاعِ فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنْهَا ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي تَرْتِيبِهَا بِحَسَبِ الْعَرْضِ ، فَقَوْمٌ جَعَلُوا أَبْتَدَاءَ الْأَوَّلِ مِنْهَا خَطَّ الْأَسْتَوَاءِ ، وَآخَرُ السَّابِعِ مِنْتَهَى الْعِمَارَةِ فِي الشَّامِ وَهُوَ سِتُّ وَسِتُونَ دَرَجَةً عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ أَبْتَدَاءَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ حَيْثُ الْعَرْضُ اثْنَتَا عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَلَاثًا دَرَجَةً ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ إِلَى خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ خَارِجٌ عَنِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ ، وَآخِرُ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ حَيْثُ الْعَرْضُ خَمْسُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثَ دَرَجَةٍ ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ إِلَى نِهَايَةِ الْعُمُرَانِ فِي الشَّامِ خَارِجٌ عَنِ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الشَّامِ فَيَكُونُ مِنَ الْعُمُرَانِ مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ، وَعَلَيْهِ وَقَعَ التَّرْتِيبُ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

الْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ - مَبْدَؤُهُ حَيْثُ الْعَرْضُ اثْنَتَا عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَلَاثًا دَرَجَةً كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَوَسَطُهُ حَيْثُ الْعَرْضُ سِتُّ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَنِصْفُ وَثَمَنُ دَرَجَةٍ ، وَآخِرُهُ حَيْثُ الْعَرْضُ عِشْرُونَ دَرَجَةً وَرَبْعُ وَثَمَنُ دَرَجَةٍ ، فَتَكُونُ سَعَتُهُ سَبْعَ دَرَجَاتٍ وَثَلَاثَ دَرَجَةٍ وَثَمَنُ دَرَجَةٍ .

الْإِقْلِيمُ الثَّانِي - مَبْدَؤُهُ حَيْثُ الْعَرْضُ عِشْرُونَ دَرَجَةً وَرَبْعُ وَثَمَنُ دَرَجَةٍ ، وَوَسَطُهُ حَيْثُ الْعَرْضُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثًا دَرَجَةً ، وَآخِرُهُ حَيْثُ الْعَرْضُ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَنِصْفُ دَرَجَةٍ ، فَتَكُونُ سَعَتُهُ بِالتَّقْرِيبِ سَبْعَ دَرَجٍ وَثَلَاثَ دَقَاقِقٍ .

الإقليم الثالث - مبدؤه حيث العرض سبع وعشرون درجة ونصف درجة ؛
ووسطه حيث العرض ثلاثون درجة وثلاثا درجة ؛ وآخره حيث العرض ثلاث
وثلاثون درجة ونصف وثمان درجة ^(١) بالتقريب .

الإقليم الرابع - مبدؤه حيث العرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف وثمان
درجة ؛ ووسطه حيث العرض ست وثلاثون درجة ونحس وسدس درجة ؛ وآخره
حيث العرض تسع وثلاثون درجة ؛ إلا عشرين ؛ فتكون سعة خمس درج وسبع عشرة
دقيقة بالتقريب .

الإقليم الخامس - مبدؤه حيث العرض تسع وثلاثون درجة ؛ ووسطه حيث
العرض إحدى وأربعون درجة ورُبُع درجة ؛ وآخره حيث العرض ثلاث وأربعون
درجة ورُبُع وثمان درجة ؛ فتكون سعة أربع درجات ورُبُع وثمان وعشر درجة
بالتقريب .

الإقليم السادس - مبدؤه حيث العرض ثلاث وأربعون درجة ورُبُع وثمان
درجة ؛ ووسطه حيث العرض خمس وأربعون درجة وعشر درجة ؛ وآخره حيث
العرض سبع وأربعون درجة ونحس درجة ؛ فتكون سعة ثلاث درجات ونصف
وثمان ونحس درجة .

الإقليم السابع - مبدؤه حيث العرض سبع وأربعون درجة ونحس درجة ؛
ووسطه حيث العرض ثمان وأربعون درجة ونصف ورُبُع وثمان درجة ؛ وآخره
حيث العرض خمسون درجة وثلاث درجة ؛ فتكون سعة ثلاث درجات وثمان
دقائق .

(١) فتكون سعة ست درجات وثمان درجة [ولعل هذه الفذلكة سقطت من قلم الناسخ وقد ذكرت في الضوء
وتقويم البلدان] .

وأما أطوال هذه الأقاليم فإنها تختلف في الطول والقصر باعتبار القُرب من خط الاستواء والبعد عنه ؛ فكلما قُرب الإقليم من خط الاستواء كان أكثر طولاً من الذى يليه : ضرورة أن أوسع الكُرّة وسَطُها وما بعده من الجانبين يقصُر شيئاً فشيئاً .

فطول الإقليم الأول - من ابتدائه من ساحل البحر المحيط الغربى إلى ساحل البحر المحيط الشرقى فيما ذكره في "تقويم البلدان" مائةً وأثنتان وسبعون درجةً وسبع وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم الثانى - مائة وأربع وستون درجة وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم الثالث - مائة وأربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة .

وطول الإقليم الرابع - مائة وأربع وأربعون درجة وسبع عشرة دقيقة .

وطول الإقليم الخامس - مائة وخمس وثلاثون درجة وأثنتان وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السادس - مائة وست وعشرون درجة وسبع وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السابع - مائة وتسع عشرة درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

الفصل الثانى

من الباب الأول من المقالة الثانية

(فى البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البلدان فى التعريف بها والسفر إليها؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فى البحر المحيط)

وهو المستدير بالقدر المكشوف من الأرض . وأحواله معلومة فى بعض المواضع

دون بعض .

فمن المعلوم الحال منه الجانب الغربى ، ويسمى بحر أوقيانوس ، وفيه الجزائر

الخالدة المتقدمة ذكرها فى الكلام على الأطوال .

ويأخذ فى الأمتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصى من زقاق سبتة الذى بين

الأندلس وبرّ العدوّة إلى جهة الجنوب حتى يتجاوز صحراء لمتونة : وهى بادية البربر

بين طرف بلاد المغرب من الجنوب وبين طرف بلاد السودان من الشمال ، ثم يمتدّ

جنوباً على أرض خراب غير مسكونة ولا مسلوكة حتى يتجاوز خط الاستواء المتقدم

ذكره إلى الجنوب .

قال الشريف الإدريسي : وماؤه هناك ثخين غليظ شديد الملوحة ، لا يعيش فيه

حيوان ، ولا يسلك فيه مركب .

ثم يعطف إلى جهة الشرق وراء جبال القمر التى منها منابع نيل مصر الآتى

ذكرها ، فيصير البحر المذكور جنوبياً عن الأرض ، ويمتدّ شرقاً على أراض خراب

وراء بلاد الزنج ، ثم يمتدّ شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند ، ثم يأخذ مشرقاً

حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة ، وهناك بلاد الصين ؛ ثم ينعطف

في شرق الصين إلى جهة الشمال ويصير في جهة الشرق عن الأرض، ويمتد شمالا على شرق بلاد الصين حتى يتجاوز حد الصين، ويسامت سدّ يأجوج ومأجوج، ثم ينعطف ويستدير على أرض غير معلومة الأحوال؛ ويمتد مغربا ويصير في جهة الشمال عن الأرض، ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها؛ ثم ينعطف غربا وجنوبا ويستدير على الأرض ويصير في جهة الغرب منها، ويمتد على سواحل أمم مختلفة من الكُفَّار حتى يُسامت بلاد رومية من غربها، ثم يمتد جنوبا ويتجاوز بلاد رومية ويسامت البلاد التي بينها وبين الأندلس، ويتجاوزها إلى سواحل الأندلس؛ ويمتد على غربي الأندلس جنوبا حتى يجاوزه وينتهي إلى زقاق سبّنة الذي وقعت البداءة منه .

الطَّرَف الثاني

(في البحار المنبّهة في أقطار الأرض، ونواحي الممالك، وما بها من الجزائر المشهورة) وهي على ضربين :

الضرب الأول

(الخارج من البحر المحيط وما يتصل به)

والمشهور منه ثلاثة أبحر .

البحر الأول

(الخارج من البحر المحيط الغربي إلى جهة الشرق)

وهو (بحر الروم) وأضيف إلى الروم لسكنى أهمهم عليه من شماليه، ويعبر عنه بالبحر الرومي أيضا، وقد يعبر عنه بالبحر الشامي : لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه، ومخرجه من المحيط من بحر أوقيانوس المتقدم ذكره بين الأندلس وبرّ العدوّة

من بلاد المغرب، ويسمى هناك بحر الرقاق، وربما قيل رُقَاق سَبْتَة - لمجاورته لها على ماسيائي، وهو هناك في غاية الضيق .

قال الشريف الإدريسي : والثابت في الكتب القديمة أن سَعَتَه عشرة أميال ولكنه اتسع بعد ذلك .

قال ابن سعيد : وهو في زماننا ثمانية عشر ميلا .

قال في "الروض المعطار" ويذكر أنه كان عليه قنطرة عظيمة بين الأندلس وساحل طَنْجَة من بر العُدوة، مبنية بالحجارة، لا يعلم لها نظير في معمور الأرض، يتر عليها الناس والدواب من جانب إلى جانب، وأن البحر قبل الفتح الإسلامي بمائة سنة طمى فأغرق القنطرة، وربما ظهرت لأهل المراكب تحت الماء . قال : والناس يقولون إنه لأبد من ظهورها قبل فناء الدنيا .

ويتبدى هذا البحر من أول بحر الرقاق المقدم ذكره، ويمتد على (سواحل الغرب) إلى حدود الديار المصرية فيمتر على مدينة (طَنْجَة) حيث الطول ثمان درج، والعرض خمس وثلاثون درجة ونصف، ثم يعطف جنوبا وشرقا إلى مدينة (سلا) . ثم يمتد شرقا وشمالا إلى مدينة (سَبْتَة) ويمتد كذلك حتى يسامت مدينة (فاس) قاعدة الغرب الأقصى على بُعد منه، ثم يمتد إلى حدود مدينة (تلمسان) قاعدة الغرب الأوسط، ثم يأخذ شرقا بميلة إلى الشمال حتى يصير عند (الجزائر) فُرْضة بِجَايَة، ويمر حتى يسامت (بجاية) .

ثم يمتد حتى يجاوز مدينة (مرسى الخرز) الذي به معاص المَرَجَان شرق قُسْطَينَة : آنح مملكة بِجَايَة من الشرق، ثم يتجاوز مملكة بِجَايَة إلى أول حدود أفريقية، ويمر في سمت وسط المشرق حتى يقابل مدينة (تونس) قاعدة أفريقية من شمالها، ويدخل منه خور إلى تونس المذكورة .

ثم يمتد بعد أن يتجاوز تُؤس نحو تسعين ميلا شرقا نصّا، ثم يعطف جنوبا حتى يصير له دخلة كبيرة في الجنوب، وفي فم هذه الدخلة حيث يعطف البحر عن الشرق إلى الجنوب جزيرة (قَوْصَرَة) مقابلة لجزيرة صقلية .

ثم يمتد في الجنوب إلى قريب من مدينة (سوسة)؛ ثم يشرق إلى سوسة المذكورة ثم يأخذ شرقا وجنوبا إلى مدينة (المهديّة)؛ ثم يمر شرقا وجنوبا حتى يتجاوز مدينة (صفاقس)، ويمتد حتى يجاوز جزيرة (جرّبة)؛ ثم يعطف شمالا ويصير للبر الجنوبي دخلة في البحر، ويمتد شرقا وشمالا حتى يبلغ مدينة (أطرابلس) : وهي آخر مدن أفريقية؛ ثم يمتد شرقا حتى يجاوز حدود أفريقية عند طول إحدى وأربعين درجة، ثم يمتد شمالا على سواحل (برقة) الآتي ذكرها في جملة نواحي الديار المصرية إلى (طلميثا) ثم ينعطف إلى جهة الشمال، ويكون للبر في البحر دخلة إلى (رأس أوثان) : وهو جبل داخل في البحر، ثم يشرق من رأس أوثان إلى (رأس تبنى) : وهو جبل في البحر قبالة رأس أوثان من جهة الشرق؛ ثم يعطف إلى الجنوب ويمتد جنوبا حتى يسامت (عقبة برقة) : وهي أول حدود الديار المصرية، على ما يأتي ذكره في تحديدها .

ثم يمتد على سواحل مصر، ويمر شرقا وجنوبا إلى مدينة (الإسكندرية) من قواعد الديار المصرية .

(١) ثم يأخذ شرقا إلى عند مصب فرقة النيل الشرقية، ويأخذ مشرقا إلى (رشيد) ثم إلى (الفرما) ثم إلى (العريش) ثم إلى (رح) : وهي منزلة في طرف رمل الديار المصرية

(١) بياض في الأصل . وفي الضوء [رشيد عند مصب فرقة النيل الغربية، ويمتد كذلك إلى مدينة دمياط، عند مصب فرقة النيل الشرقية، ويأخذ شرقا إلى الطينة ثم إلى الفرما ... الخ] .

من جهة الشام على مرحلة من غَزَّة، حيث الطُّول نحو ستِّ وخمسين درجة ونصف والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة؛ ومن هنا ينقطع تشريقه .

ثم ينعطف ويأخذ شَمَالاً على (سواحل الشام) الآتى ذكرها في الكلام على المملكة الشامية فيمتدُّ إلى مدينة (غَزَّة) ، ثم إلى (عَسْقَلان) ، ثم إلى (يَافَا) ميناء الرملة من أعمال الصَّفِّقة الساحلية من دمشق، ثم إلى (قَيْسَارِيَّة) . (بفتح القاف) وهي مدينة خراب تعدُّ من جُنْد فلسطين، كانت من أمَّهات المُدُن، ثم إلى (عَثْلَيْث) من أعمال صَفْد، ثم إلى (عَكَّا) من أعمالها، ثم إلى (صُور) من أعمالها، ثم إلى (بَيْرُوت) من أعمال الصَّفِّقة الشمالية من دمشق، ثم إلى (جُبَيْل) : وهي مدينة قديمة خراب، ثم إلى (أَنفَة) : من أعمال طرابلس، ثم إلى مدينة (طرابلس) ، ثم إلى (أَنْطَرطُوس) من أعمالها، ثم إلى (بَلْنِيَّاس^(١)) من أعمالها، ثم إلى (جَبَلَة) من أعمالها، ثم إلى (اللَّاذِقِيَّة) من أعمالها، ثم إلى (السُّوَيْدِيَّة) ميناء أَنْطَاكِية من أعمال حَلَب، ثم يأخذ البحر غرباً بشمال إلى (أَيَّاسَ) ، مدينة الفتوحات الجاهانية ، ثم إلى (المَصِيصَة) ثم إلى (أَذَنَة) ثم إلى (طَرَسُوس) ثم يمتدُّ شَمَالاً بَعْرُب حتى يجاوز حدود بلاد الأرمن؛ ويمتدُّ على سواحل بلاد الروم التي هي الآن بيد التركمان الآتى ذكرها في مكاتبات ملوكهم إلى (الْكُرْكُ) . (بضم الكاف وسكون الراء المهملة) وهي بلدة بساحل بلاد المسامين هي الآن بيد صاحب قبرس؛ ثم يمرُّ شَمَالاً إلى (العَلَايَا) ، ويقابلها من البر الآخر (دِمياط) من سواحل الديار المصرية تقريباً، ثم يمرُّ إلى (أَنْطَالِيَّة) ، ثم إلى (بَلَّاط) ، ثم إلى (طنفزلو) ، ثم إلى (أَيَّاس لوق) ، ثم إلى (مَغْنِيْسِيَا) ، ثم إلى مدينة (إبزو) : وهي بلدة على فم الخليج القسطنطيني من الشرق، وبها يعرف الخليج فيقال فم إبزو، ويقابلها من البر الآخر غربى مدينة الإسكندرية، فيما بينها وبين بَرْقَة؛ ثم يجاوز الخليج المذكور ويمتدُّ مغرباً بمِيلة إلى الجنوب على سواحل الروم والفرنجة، فيمرُّ على بلاد المرا : وهي مملكة أولها فم الخليج القسطنطيني

(١) قال في معجم البلدان [بضمين وسكون النون] . وفي القاموس [بَلْنِيَّاس كِسْر طراط] فاعل فيه لغتين .

المتقدم ذكره من جانبه الغربي . كانت في الأيام الناصرية آبن قلاوون مشتركة بين صاحب القسطنطينية وبين طائفة الكيتلان من الفرنج ، وقد فتحها الآن آبن عثمان وأستملكها من الروم .

ثم يأخذ بين الغرب والجنوب حتى يجاوز بلاد (الملفجوط) وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به . ويقابلها من البر الآخر شرقي برقة ، ثم يمتد في الغرب إلى بلاد اقليرنس ، ثم إلى بلاد الباسليسة : وهي امرأة ملكت هذه البلاد بعد السبعائة فُعرفت بها .

ويقابلها من البر الآخر أوساط برقة . وبآحر هذه المملكة من جهة الغرب (جَوْن البنادقة) . وهو خليج يخرج من بحر الروم هذا ، ويمتد غربا بشمال حتى يصير طرفه غربي رومية ، وعلى طرفه مدينة (البندقية) ومن فمه إلى متناه نحو سبعائة ميل ، ثم يجاوز فم الخور المذكور إلى مملكة بولية ، وأولها فم خور البنادقة من الجانب الغربي . ويقابلها من البحر الآخر (طامينا) فُرضة برقة المتقدمة الذكر ، ثم يمتد في الغرب إلى بلاد (قلقرية) من جملة مملكة بولية المتقدمة الذكر .

ويقابلها من البر الآخر بلاد أطرابلس من بلاد إفريقية ، ثم يمتد إلى ساحل (رومية) ، المدينة المعظمة المشهورة .

ويقابلها من البر الآخر شرقي ثؤنس من إفريقية . ثم ينقطع تغريبه ويأخذ جنوبا حتى يجاوز سواحل بلاد رومية المذكورة إلى بلاد التسقان : وهم جنس من الفرنج وبلادهم معروفة بنبات الزعفران .

ويقابلها من البر الآخر مدينة ثؤنس : قاعدة أفريقية المتقدمة الذكر ، ويمتد في الجنوب إلى بلاد (بيزه) وهي بلدة على الركن الشمالي من جزيرة الأندلس إليها ينسب الفرنج البيازنة والحديد البيزاني .

ويقابلها من البر الآخر (مَرْسَى الْحَرَز) آخر مملكة بِحَايَة من الشرق على ما تقدم ذكره .
ثم يمتد إلى بلاد (جَنوة) الآتى ذكرها فى الكلام على البلاد الشمالية ، ثم يأخذ
غربا إلى جبل البُرت : وهو الجبل الفاصل بين جزيرة الأندلس وبين الأرض
الكبيرة ذات الأُمم المختلفة ، ثم ينقطع تغريبه ويعطف مشرقا ويدخل الركن الشرقى
من الأندلس فيه ؛ ويمتد فى الشرق ، ويستدير على الركن المذكور ، ثم يعطف غربا
ويمتد على (سواحل الأندلس) إلى مدينة (بَرْشَلُونَه) ثم إلى مدينة (طَرْطُوشَه) .
قال فى "الروض المعطار" : ويقابلها من البر الآخر مدينة بحاية .

قال فى "تقويم البلدان" : وعرض البحر بينهما ثلاثة مجارب ثم يمتد كذلك بين الغرب
والجنوب إلى مدينة بَلَنْسِيَة ، ثم يعطف غربا إلى دَانِيَة ، ثم يمتد غربا بجنوب إلى
مدينة مالقة ثم يمر إلى الجزيرة : وهى مقابلة لساحل سَبْتَة وطَنْجَة حيث وقع الابتداء .
وسأبقى الكلام على ضبط ما لم يضبط من البلاد على ساحل هذا البحر بالحروف
مع ذكر صفاتها عند التعرض لذكرها فى الكتاب فى مواضعها إن شاء الله تعالى . .
وطول هذا البحر من البحر المحيط إلى ساحل الشام فيما يذكر ألف فرسخ ومائة
وسبعون فرسخا ، وغاية عَرْضُه فى بعض الأماكن ستمائة ميل .

وأما ما يتصل بالبحر الرومى المتقدم الذكر فبحر نِيَطِش (بنون مكسورة وياء مثناة
تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة فى الآخر) . وهو المعروف فى زماننا
بِبحر القِرِم : لتركب بلاد القِرِم على ساحله ، ويعرف أيضا بالبحر الأرمنى : لتركب بعض
بلاد أَرْمِينِيَّة على بعض سواحله ، وربما قيل فيه البحر الأسود : وهو متصل ببحر الروم
المذكور من شماله ، ويتركب عليه من آخره (بحر مانِيَطِش) بزيادة لفظ "ما" فى أوله وباقي
الضبط على ما تقدم وهو المعروف فى زماننا ببحر الأَزَق : لتركب بلاد الأَزَق على ساحله
الشرقى وليس وراءه بحر متصل به : ولذلك يُعبر عنه بعضهم ببحيرة مانِيَطِش وهو

يصبُّ في بحر نيطش، وبحر نيطش يصب في بحر الروم؛ ولذلك تُسرَّع المراكبُ في سيرها من القِرم إلى بحر الروم، وتبطئ في سيرها من بحر الروم إلى القِرم لآستقبالها جريان الماء.

وأول بحر نيطش المذكور مما يلي بحر الروم . (الخليج القسطنطيني) المتقدم ذكره في تحديد بحر الروم : وهو خليج ضيق للغاية بحيث يرى الإنسان صاحبه من البر الآخر.

قال ابن سعيد : وطول هذا الخليج نحو خمسين ميلا .

وذكر في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين أن طوله سبعون ميلا وأتصاله بالبحر الرومي من جانبه الشمالي، ويمتد شمالا على (سواحل بلاد الروم) من البر الشرقي منه إلى (قلعة الجرون) وهي قلعة خراب على ساحل هذا الخليج مقابل القسطنطينية ويمتد من الجرون شمالا بميلة يسيرة إلى الشرق إلى مدينة كربي على خليج القسطنطينية على القرب من الجرون المذكورة؛ ثم يمتد شرقا بشمال إلى مدينة (كتروا)، وهي آخر مدن القسطنطينية التي على هذا الساحل، ثم يمتد إلى مدينة (كينولي) وهي بلدة على الخليج القسطنطيني، ثم يأخذ بين الشمال والغرب، ويكون للبر دخلة في البحر إلى جهة الغرب، وعلى طرف هذه الدخلة فرضة (سنوب) من سواحل الروم الآتي ذكرها في مكاتبات ملوك الكفر، ثم يأخذ في الاتساع إلى مدينة (سامسون)، وهي بلدة من سواحل بلاد الروم، ثم يأخذ مُشرِّقا إلى مدينة (طرابزون)، وهي فرضة للروم بهذا الساحل، ثم يمتد شمالا بميلة إلى مدينة (سُخوم)، وهي مدينة على ثلاثة أيام عن طرابزون شرقا بشمال، وبينها وبين بلاد الكرج يوم واحد، ويقال إنها من بلاد الكرج؛ ثم يمتد شرقا بشمال إلى مدينة (أَبْجَاس)، وهي مدينة في جبل على ساحل البحر على القرب من سُخوم؛ ثم يتضايق البحر مُغرِّبا ويضيق من البر الآخر حتى يتقارب البرآن ويصير

الماء بينهما مثل الخليج، وهو مصب بحر مَانِيَطُش في بحر نِيَطُش، وعلى جانب هذا الخليج مدينة (الطامان) من سواحل الروم: وهى حد بلاد الروم، من مملكة بركة المستملة على القرم، ودشت القَبَجاق، والسراى، وخوارزم على ما سياتى بيانه فى مكاتبات القانات؛ ثم يأخذ فى الاتساع شرقا وشمالا وغربا ويصير كالبركة، ويمتد على سواحل الأزق الآتى ذكرها فى مكاتبات حاكمها إلى مدينة الشقراق، وهى أول بلاد الأزق، ومنها ينتهى تشريقه؛ ثم يعطف إلى الشمال ويأخذ إلى مدينة (الأزق)، ثم يستدير من الأزق حتى يصير إلى الغرب، وينتهى إلى الخليج الذى بين بحر نِيَطُش وبحر مَانِيَطُش المتقدم ذكره.

وهناك مدينة الكرش من بلاد الأزق مقابل مدينة الطامان المتقدمة الذكر من البر الآخر، ثم يمر جنوبا ويمتد على سواحل القرم الآتية الذكر فى مكتبة حاكمها، فيمر إلى مدينة (الكفا) فرضة القرم.

ويقابلها من البر الآخر مدينة طرابزون المتقدمة الذكر، ثم يمتد كذلك إلى مدينة صوداق: وهى فرضة ببلاد القرم أيضا.

ويقابلها من البر الآخر مدينة سامسون المتقدمة الذكر، ثم يأخذ فى الانضمام جنوبا ويعطف مشرقا بحيث يكون للبر دخلة فى البحر، ويمتد على سواحل بلاد البلغار إلى مدينة صارى كومان من بلاد البلغار، وبينها وبين صُلغَات مدينة القرم خمسة أيام.

ويقابلها من البر الآخر مدينة سنوب المتقدمة الذكر، ثم يأخذ فى الاتساع غربا بميلة إلى الجنوب ويمتد كذلك إلى مدينة أقجَا كومان من بلاد البلغار، ثم يأخذ جنوبا ويمتد على (سواحل بلاد القُسْطَنْطِينِيَّة) إلى بلدة صَقْجى، وعندها يصب نهر طُنا (بطاء مهملة مضمومة بعدها نون وألف). وهو نهر عظيم بقدر مجموع دجلة والفرات، ثم

يتضابق ويأخذ شرقاً حتى ينتهي إلى أول الخليج القُسْطَنْطِينِيّ المتقدم ذكره، ثم يأخذ جنوباً ويتقارب البرّان ويمتدّ كذلك إلى مقابل مدينة كربى المتقدمة الذكر، ثم يمتدّ كذلك إلى مدينة (القُسْطَنْطِينِيَّة) قاعدة ملك الروم الآتى ذكرها في مكتبة ملكها .
ويقابلها من البر الآخر قلعة الجرون المتقدمة الذكر، ثم يمتدّ حتى يصبّ في بحر الروم حيث وقع الابتداء . وسأبقى الكلام على ضبط ما لم يضبط من البلاد التي على ساحل هذا البحر المتقدمة الذكر مع ذكر صفاتها عند الكلام على مكاتبات ملوكها وحكامها إن شاء الله تعالى .

ويبحر نيطش المتقدم ذكره على القرب من الخليج القُسْطَنْطِينِيّ جزيرة (مرّمرأ) الآتى ذكرها عند الكلام على مكتبة ملكها في جملة ملوك الكفر إن شاء الله .

البحر الثاني

(الخارج من المحيط الشرقي إلى جهة الغرب)

وهو بحر يخرج عند أقصى بلاد الصّين الشرقية الجنوبية مما يلي خط الاستواء حيث لا عرض، وقيل : على عرض ثلاث عشرة درجة في الجنوب، ويمتدّ غرباً بشمال على (سواحل بلاد الصّين) الجنوبية، ثم على المفاوز التي بين الصّين والهند حتى ينتهي إلى (جبال قامرون) الفاصلة بين الصّين والهند .

قال ابن سعيد : ومدينة الملك بها في شرقيها، ثم يجاوز (جبال قامرون) المذكورة ويمتدّ على سواحل بلاد (الهند) من الجنوب، ويمرّ على (سُقَالَة الهند) وهي سُوفارة، ويمتدّ حتى ينتهي إلى آخر الهند، ثم يمتدّ على مفازة السّند الفاصلة بينه وبين البحر، ويمرّ حتى ينتهي إلى فم بحر فارس الخارج من هذا البحر إلى جهة الشمال على ما سيأى ذكره إن شاء الله تعالى .

ويجازه إلى بلاد اليمن فيمر على (ساحل مهرة) : أول بلاد اليمن ، ويمتد من شمالها على سواحل اليمن من جنوبه حتى ينتهي إلى مدينة (عدن) فُرْصَة اليمن ، ثم يمر من عدن إلى الشمال بميلة إلى الغرب نحو مجرا حتى ينتهي إلى (باب المندب) وهو فُرْصَة بين جبلين ، ويخرج منه ويمتد غربا بميلة إلى الشمال اثني عشر ميلا ، ثم يعطف شمالا ويمتد على سواحل اليمن الغربية إلى (علافقة) فُرْصَة مدينة (زبيد) ، ثم يمتد شمالا أيضا إلى مدينة (حلي) من أطراف اليمن من جهة الحجاز ، وهي المعروفة بحلي ابن يعقوب ثم يمتد شمالا على (ساحل الحجاز) إلى (جدة) ، فُرْصَة على بحر القلزم ، ثم يمتد شمالا إلى (الحففة) ميقات الإحرام لأهل مصر ، ثم يمتد شمالا بميلة إلى الغرب حتى يتصل بساحل (ينبع) ، ثم يأخذ بين الغرب والشمال حتى يجاوز (مدين) الآتي ذكرها في كور مصر القديمة ، ويمتد شمالا بجنوب حتى يقارب (أيلة) الآتي ذكرها في كور مصر القديمة أيضا ، ثم يعطف إلى الجنوب حتى يجاوز أيلة المذكورة إلى مكان يعرف (برأس أبي محمد) ويكون للبردخلة في البحر في جهة الجنوب ، ثم يعطف شمالا حتى ينتهي إلى فُرْصَة (الطور) : وهي مكان حط وإقلاع لمراكب الديار المصرية ، وما يصل إليها من اليمن وغيرها ، ويمر في الشمال حتى يصل إلى فُرْصَة (السويس) : وهي مكان حط وإقلاع للديار المصرية أيضا ، وعنده ينتهي بر العرب ببحر القلزم ويتبدى بر العجم . وهناك يقرب هذا البحر من بحر الروم على ما تقدم ذكره في الكلام على أصل هذا البحر .

ثم من السويس يعطف إلى الجنوب على ساحل مصر ، ويمتد موازيا لبلاد الصعيد حتى ينتهي إلى مدينة (القلزم) التي ينسب إليها هذا البحر الآتي ذكرها في الكلام على كور مصر القديمة ، ويقابلها من بر الحجاز أيلة ، ثم يأخذ عن القلزم جنوبا بميلة إلى الشرق حتى يسامت فُرْصَة الطور المتقدم ذكرها ، وتصير فُرْصَة الطورين أيلة

وَالْقُلُومُ غَرْبِيَّ الدَّخْلَةِ الْمُتَقَدِّمَ ذَكَرَهَا، ثُمَّ يَمْتَدُّ كَذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى (الْقُصَيْرِ)، فُرُضَةُ قُوصٍ، ثُمَّ يَتَسَعُ فِي جِهَتِي الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ حَتَّى يَكُونَ اتِّسَاعُهُ تِسْعِينَ مِيلًا، وَتُسَمَّى تِلْكَ الْقِطْعَةُ الْمُتَسَعَةُ بَرَكَّةَ الْغُرُنْدَلِ : وَهِيَ الَّتِي أَغْرَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا فِرْعَوْنَ، ثُمَّ يَأْخُذُ جَنُوبًا بِمِيلَةٍ يَسِيرَةُ إِلَى الْغَرْبِ إِلَى (عِيَذَابَ)، فُرُضَةُ قُوصٍ أَيْضًا . وَيَقَابِلُهَا مِنْ بَرِّ الْحِجَازِ جُدَّةُ فُرُضَةُ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ، ثُمَّ يَمْتَدُّ فِي سَمْتِ الْجَنُوبِ عَلَى (سَوَاحِلِ بِلَادِ السُّودَانِ) حَتَّى يَصِيرَ عِنْدَ (سَوَاكِينَ) مِنْ بِلَادِ الْبَحَاةِ، ثُمَّ يَمْتَدُّ كَذَلِكَ حَتَّى يَحِيطَ (بِجَزِيرَةِ دَهْلَكَ) وَهِيَ جَزِيرَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْغَرْبِيِّ، وَأَهْلُهَا مِنَ الْحَبَشَةِ الْمُسْلِمِينَ . وَيَقَابِلُهَا مِنَ الْبَرِّ الْآخَرِ جَنُوبِيَّ حُلِيِّ ابْنِ يَعْقُوبَ مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ، وَيَمْتَدُّ حَتَّى يَصِلَ إِلَى رَأْسِ (جَبَلِ الْمُنْدَبِ) الْمُتَقَدِّمَ ذَكَرَهُ .

وَهُنَاكَ يَضِيقُ الْبَحْرُ حَتَّى يَرَى الرَّجُلُ صَاحِبَهُ مِنَ الْبَرِّ الْآخَرِ .

وَيَقَالُ : إِنَّهُ بِقَدْرِ رَمِيَّتِي سَهْمٍ، وَتُرَى جِبَالُ عَدَنَ مِنْ جِبَالِ الْمُنْدَبِ فِي وَقْتِ الصُّبْحِ، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ بَابَ الْمُنْدَبِ وَيَأْخُذُ شَرْقًا وَجَنُوبًا، وَيَتَسَعُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَيَمُرُّ عَلَى بَقِيَةِ سَوَاحِلِ الْحَبَشَةِ حَتَّى يَمُرَّ بِمَدِينَةِ (زَيْلَعٍ) مِنْ بِلَادِ الْحَبَشَةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَيَقَابِلُهَا عَدَنَ مِنْ بَرِّ الْيَمَنِ، وَهِيَ عَنْ عَدَنَ فِي الْغَرْبِ بِمِيلَةٍ إِلَى الْجَنُوبِ، ثُمَّ يَمُرُّ إِلَى مَدِينَةِ مَقْدُشُو^(١)، ثُمَّ يَمْتَدُّ كَذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى (خَلِيجِ بَرِّرَا) الْخَارِجِ مِنْ بَحْرِ الْهِنْدِ فِي جَانِبِهِ الْجَنُوبِيِّ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذَكَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَيَتَجَاوَزُ فَمِنْ هَذَا الْخَلِيجِ وَيَمْتَدُّ عَلَى (سَوَاحِلِ بِلَادِ الزَّنْجِ) حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ يَمْتَدُّ عَلَى (سَوَاحِلِ بِلَادِ الْوَاقِ) عَلَى أَمَا كُنْ مَجْهُولَةٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَبْدَأِهِ مِنَ الْبَحْرِ الْحِيطِ الشَّرْقِيِّ . عَلَى أَنَّهُ فِي تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِسَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ فِيمَا هُوَ شَرْقِيٌّ بَابَ الْمُنْدَبِ لِعَدَمِ تَحَقُّقِهِ .

(١) فِي تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ [بِكسر الدال] وَفِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ [بفتح الدال] فَهُمَا لَفْتَانِ .

وأعلم أن هذا البحر يسمى في كل مكان باسم ما يسامته من البلدان ، أو باسم بعض البلدان التي عليه . فيسمى فيما يقابل بلاد الصين بحر الصين ، وفيما يقابل بلاد الهند إلى ماجاورها إلى بلاد اليمن شرق باب المندب بحر الهند ، وفيما دون باب المندب إلى غايته في الشمال والغرب بحر القلزم نسبة إلى مدينة القلزم المتقدمة الذكر في ساحل الديار المصرية .

قال في "تقويم البلدان" : وطول هذا البحر من طرف بلاد الصين الشرق إلى القلزم ألفان وسبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا بالتقريب ، ومقتضى كلام ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" أن طوله أربعة آلاف وتسعمائة وستة وستون فرسخا وثلثان : فإنه قد ذكر أن طول بحر الصين والهند إلى باب المندب أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ ، ثم ذكر أن طول بحر القلزم ألف وأربعمائة ميل ، وهي أربعمائة وستة وستون فرسخا وثلثان وبين الكلايين بون .

وكلام صاحب تقويم البلدان أقرب إلى الصواب . فإنه أستخرجه من تضريب الدرج وأستخرج أميالها وفراسخها . وبأن بحر القلزم من الذراع الآخذ إلى جهة السويس على ميل من مدينة القلزم موضع يعرف (بذنب التمساح) يتقارب بحر القلزم وبحر الروم فيما بينه وبين الفرما حتى يكون بينهما نحو سبعين ميلا فيما ذكره ابن سعيد .

قال في "الروض المعطار" : وكان بعض الملوك قد حفره ليوصل ما بين القلزم وبحر الروم فلم يتأت له ذلك لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم ، والله تعالى قد جعل بينهما حاجزا كما ذكر تعالى في كتابه . قال : ولما لم يتأت له ذلك آحتفر خليجا آخر مما يلي بلاد تنيس وديمياط وجرى الماء فيه من بحر الروم إلى موضع يعرف بقيعان (؟) .

فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلى هذه القرية، وتدخل من بحر القلزم إلى ذنب التماسح فيقرب مافي كل بحر إلى الآخر، ثم آرتدم ذلك على طول الدهر .

وقد ذكر ابن سعيد أن عمرو بن العاص كان قد أراد أن يخرق بينهما من عند ذنب التماسح المتقدم ذكره فمناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال : إِذَنْ يَتَخَطَّفُ الرُّومُ الْمُجْحَاجَ .

وذكر صاحب "الروض المعطار" أن الرشيد هم أن يوصل ما بين هذين البحرين من أصل مَصَبِّ النيل من بحر بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر فلم يتأت له قسمة ماء النيل ، فرام ذلك مما يلي بلاد الفَرَمَا فقال له يحيى بن خالد : إنَّ هَذَا تَخَطَّفُ النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَكَّةَ ، وَاحْتِجَّ عَلَيْهِ بِمَنْعِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ .

ويتفرع من البحر الهندي بجران عظيمان مشهوران ، وهما (بحر فارس ، والخليج البربرى) .

فأما بحر فارس ، فهو بحر ينبعث من بحر الهند المتقدم ذكره من شماليه ، ويمتد شمالا بميلة إلى الغرب غربى (مفازة السند) الفاصلة بينه وبين بحر الهند ، ثم على غربى بلاد السند ، ثم على أرض (مكران) من نواحي الهند ، ويخرج منه من آخر مَكْرَانَ خَوْرٌ يمتد شرقا وجنوبا على ساحل مَكْرَانَ وَالسُّنْدِ حَتَّى يَصِيرَ السُّنْدُ غَرْبِيَّةً ، ثُمَّ يَنْعُطُ آخِرُهُ عَلَى (ساحل بلاد كَرْمَانَ) مِنْ شِمَالِهَا حَتَّى يَعُودَ إِلَى أَصْلِ بَحْرِ فَارَسَ ، فَيَمْتَدُّ شِمَالًا حَتَّى يَنْتَهَى إِلَى مَدِينَةِ (هُرْمُوز) وَيَنْتَهَى إِلَى آخِرِ كَرْمَانَ فَيُخْرِجُ مِنْهُ خَوْرٌ يَمْتَدُّ عَلَى سَاحِلِ كَرْمَانَ مِنْ شِمَالِهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ آخِرِهِ عَلَى سَاحِلِ بِلَادِ فَارَسَ مِنْ جَنُوبِهَا حَتَّى يَتَّصِلَ بِأَصْلِ بَحْرِ فَارَسَ ، وَيَمْتَدُّ شِمَالًا ثُمَّ يَنْعُطُ وَيَمْتَدُّ مَغْرِبًا إِلَى (حِصْنِ ابْنِ عُمَارَةَ) مِنْ بِلَادِ فَارَسَ ، وَقِيلَ مِنْ بِلَادِ كَرْمَانَ ، وَهُوَ الْيَوْمَ خَرَابٌ ؛

ثم يمتد مغرباً في جبال منقطعة ومفاوز إلى مدينة (سِيرَاف) ، ثم يمتد كذلك إلى (سيف البحر) بكسر السين : وهو ساحل من سواحل فارس ، فيه مزارع وقرى مجتمعة ، ثم يمتد إلى (جَنَابَة) من بلاد فارس ، ثم يمتد إلى (سِينِيَز) من بلاد فارس ، وقيل من الأهواز ثم يمتد إلى مدينة (مَهُرُوبَان) من سواحل خوزستان ، وقيل من سواحل فارس ، وهي فُرْصَة (أَرَجَان) وما والاها ، ثم يمتد مغرباً بميلة يسيرة نحو الشمال إلى مدينة (عَبَادَان) من أواخر بلاد العراق من الشرق على القرب من البصرة عند مَصَبِّ دَجَلَة في هذا البحر ، ثم ينعطف ويمتد جنوباً إلى (كَاطَمَة) وهي جَوْنٌ على ساحل البحرين مما يلي البصرة على مسيرة يومين منها ، ثم يمتد إلى (القَطِيف) من بلاد البحرين ثم يمتد كذلك إلى مدينة (عُمَان) فُرْصَة بلاد البحرين ، وإليها تنتهي مراكب السند والهند والزنج ، ويخرج على القرب منها عن يمين المُقْلَع من ساحلها في جهة الغرب بحر بلاد (الشَّحْرِ) من اليمن أيضاً ، وإليها ينسب العنبر الشَّحْرِيُّ الطَّيِّب كما تقدم ذكره في النوع الخامس فيما يحتاج إليه من نفيس الطيب ، ثم يمر على سواحل (مَهْرَة) من شرق بلاد اليمن حتى ينتهي إلى مبدئه من بحر الهند .

قال في "تقويم البلدان" : وبهم هذا البحر ثلاثة أجبلٍ يخشاها المسافرون ، يقال لأحدها كُسَيْر ، والثاني عَوِير ، والثالث ليس فيه خير .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وطول هذا البحر أربعائة فرسخ وأربعون فرسخاً ، وعمقه ثمانون باعاً .

وأما الخليج البربري ، فهو ينبعث من بحر الهند المتقدم ذكره في جنوبي جبل المنْدَب المتقدم الذكر ، ويمتد في جنوبي بلاد الحبشة ، ويأخذ غرباً حتى ينتهي إلى مدينة بَرَّاء (بباين موحدين مفتوحين ورايين مهملتين الأولى منهما ساكنة)

وهي قاعدة الزاوية من السودان، حيث الطول ثمان وستون درجة والعرض ست درج ونصف .

قال في "تقويم البلدان": وطوله من المشرق إلى المغرب نحو خمسمائة ميل .
قال الشريف الإدريسي: وموجه كالجبال الشواهي ولكنه لا ينكسر . قال:
يركب فيه إلى جزيرة قنبلو ويقال قنبلة، وهي جزيرة للزنج في هذا البحر .
قال في "القانون": وطولها اثنتان وخمسون درجة، وعرضها في الجنوب ثلاث درج .
قال الإدريسي: وأهلها مسلمون .

البحر الثالث

(الخارج من المحيط الشمالي، المعروف ببحر برديل)

(بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت ولام في الآخر) .

قال ابن سعيد: ويقال له بحر برطانية أيضا، وهو بحر يخرج من شمالي الأندلس ويأخذ شرقا إلى خلف جبل الأبواب الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة، ويقرب طرفه الشرقي حتى يبقى بينه وبين بحر الروم المتقدم ذكره أربعون ميلا، وهناك مدينة (برديل) التي يضاف البحر إليها .

الضرب الثاني

(من البحار المنبثة في أقطار الأرض ما ليس له اتصال بالبحر المحيط)
وهو بحر الخزر (بفتح الخاء والزاي المعجمتين، وراء مهملة في الآخر) .

ويسمى بحر جرجان لوقوع مدينة جرجان على ساحله ، وبحر طبرستان لوقوع ناحية طبرستان على ساحله أيضا ، وهذا البحر بحر ملح منفرد عن البحار لا اتصال له بغيره البتة .

قال ابن حوقل : وهو مظلم القعر ، ويقال إنه متصل بحر نيطش من تحت الأرض .

قال المسعودي : وهو غاط لا أصل له ، ولم أدر من أين أخذه قائله أم من طريق الحس ، أم من طريق الاستدلال والقياس .

قال الشريف الإدريسي : وهو مدور الشكل إلى الطول ، وقيل مثلث الشكل كالقلم ، وعلى ساحله الجنوبي بلاد الجيل والديلم ، وعلى جانبه الشرق بلاد جرجان والمفاضة التي بين جرجان وخوارزم ، وعلى جانبه الشمال بلاد الترك والخزر وجبال سياه كوه ، وعلى جانبه الغربي بلاد إيلاق وجبال الفتق ، وأبتدأه من جهة الغرب عند مدينة (باب الحديد) المعروف باب الأبواب من بلاد آران ، حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض نحو إحدى وأربعين درجة على القرب من دربند شروان ، ثم يمتد جنوبا من باب الحديد أحدا وخمسين فرسخا ، وهناك مصب نهر الكرفيه ، ثم يمتد مشرقا بانحراف إلى الجنوب ستة عشر فرسخا ، فيمر على أراضي موقان من عمل أردبيل من آذربيجان ، ثم يمتد جنوبا وشرقا حتى تبلغ غايته في الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة قبالة مدينة (آمل) قصبة طبرستان ، ثم ينعطف ويمتد شرقا حتى يجاوز بلاد الجيل إلى مدينة آبسكون ، وهي فرضة جرجان ، ثم يمتد إلى نهايته في الشرق حيث الطول ثمانون درجة ، والعرض نحو أربعين عند مدينة جرجان ، وهي في الشرق منه قرية من ساحله ، ثم ينعطف ويمتد شمالا وغربا حتى يبلغ نهايته في الشمال حيث العرض نحو خمسين درجة ، والطول تسع وسبعون

(١) درجة؛ وفي شماليه وغربيّه يصبّ نهر إبل الذي عليه مدينة السراى قاعدة مملكة أذربك الآتى ذكرها في مكتبة قانهم إن شاء الله تعالى .

قال في "تقويم البلدان" : وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة الثانية

(في كيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في كيفية استخراج جهات البلدان)

إذا كنت في بلد وأردت أن تعرف جهة بلد آخر عن البلد الذي أنت فيه، فالذي أطلقه كثير من المصنّفين أنك تعرف طول البلد الذي أنت فيه وعرضه، وطول البلد الآخر وعرضه، وتقابل بين الطولين وبين العرضين فإن كان ذلك البلد أعرض من بلدك مع مساواته له في الطول، فهو عنك في جهة الجنوب . وإن كان أطول من بلدك مع مساواته له في العرض، فهو عنك في جهة الشرق . وإن كان أقلّ طولاً مع مساواته في العرض، فهو عنك في جهة الغرب . وإن كان أطول وأعرض من بلدك، فهو عنك بين الشرق والشمال . وإن كان أقلّ طولاً وعرضاً، فهو عنك بين المغرب والجنوب . وإن كان أكثر طولاً وأقلّ عرضاً، فهو عنك بين الشرق والجنوب .

والذي ذكره المحققون من علماء الهيئة أن البلد إذا كان أطول من بلدك مع مساواته له في العرض، يكون عنك في جهة الشرق بميلة إلى الشمال . وإذا كان أقلّ

(١) في معجم البلدان بالمشناه الفوقية [بوزن إبل] .

طولا مع مساواته له في العرض ، يكون في جهة الغرب بميلة إلى الشمال أيضا .
 وإذا كان أقل طولا وعرضا ، يكون بين المغرب والجنوب على ما تقدم ، إلا أن يقل
 الفصل بينهما بأن يكون أقل من درجة ، فإنه يحتمل أن يكون كذلك وأن يكون
 على وسط المغرب . وإذا كان أقل طولا وأكثر عرضا ، فإنه يكون بين المشرق
 والمغرب على ما تقدم ، إلا أن يقل الفصل بينهما فيحتمل أن يكون كذلك وأن يكون
 على وسط المشرق .

الطرف الثاني

(في معرفة الأبعاد الواقعة بين البلدان)

قد تقدم أن الأطوال والعروض في الأمكنة والبلدان تعتبر بالدرج والدقائق ،
 وأن الدرجة مقسومة بستين دقيقة ، ثم الذي حققه القدماء كبطليموس صاحب
 المجسطي وغيره تقدير الدرجة بستة وستين ميلا وثلاثي ميل ، وبه أخذ أكثر المتأخرين ،
 وعليه العمل . وما وقع لأصحاب الرصد المأمورين مما يخالف ذلك بنقص عشر درج
 مما لا تعويل عليه .

وقد نقل علاء الدين بن الشاطر من المتأخرين في "زيج" عن القدماء أنهم قدروا
 الدرجة بالتقريب بعشرين فرسخا ، وبستين ميلا ، وبمئتي ألف وأربعين ألف ذراع ،
 وبخمس مائة برز ، وبمسير يومين .

وقدر الشافعي رضي الله عنه ذلك بسير يومين بالأيام المعتدلة دون لياليهما ، وقدر
 السير بالسير المعتدل ، وتقدير الدرجة كما بين الفسطاط وديمياط ، فإن عرض ديمياط
 يزيد على عرض الفسطاط بدرجة وكسري سير على ما سيأتي ذكره .

فاذا أردت أن تعرف كم بين البلد الذي أنت فيه وبين بلد آخر على الخط المستقيم ،

فلك حالتان :

الحالة الأولى - أن يكون ذلك البلد على سَمْتِ بلدك الذي أنت فيه في الطول أو العرض، فأنظر كم درجة بينهما بالزيادة والنقص فاضربه في ست وستين، وهو ما لكل درجة من الأميال، فما خرج من الضرب فهو بُعد ما بينهما من الأميال على الخط المستقيم، فاعتبره بما شئت من المراحل والفراسخ والبُرد على ما تقدم بيانه .

الحالة الثانية - أن لا يكون ذلك البلد على سَمْتِ بلدك الذي أنت فيه . فطريقك أن تقابل بين عرض بلدك وطوله، وبين عرض البلد الآخر وطوله، وتنظر كم فَضْل ما بين الطولين وبين العرضين، وهو ما يزيده أحد الطولين أو أحد العرضين على الآخر فتضرب كلاً من فَضْل الطولين وفضل العرضين في مثله، وتجمع الحاصل من الضربين فما كان خذ جَدْرَهُ، وهو القدر الذي إذا ضربته في مثله حصل عنه ذلك العدد، فما بلغ فهو مقدار ما بين بلدك والبلد الآخر من الدرج، فاضربه في ست وستين وثلاثين على ما تقدم، فما بلغ فهو أميال . فاعتبره بما شئت من المراحل والفراسخ والبُرد على ما تقدم .

مثال ذلك - أن الفُسْطَاطَ طوله خمس وخمسون درجة، وعرضه ثلاثون درجة ودمشق طولها ستون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصف درجة، ففضل ما بين طوليهما خمس درج، وفضل ما بين عرضيهما ثلاث درج ونصف درجة، فتضرب فضل ما بين الطولين : وهو خمس درج في مثله يبلغ خمسا وعشرين ، وتضرب فضل ما بين العرضين، وهو ثلاث ونصف في مثله يبلغ اثني عشر وربعاً، فتجمع ما حصل من الضربين، وهو خمس وعشرون وأثنا عشر وربع يكون سبعة وثلاثين وربعاً فخذ جَدْرَهَا يكن ستمًا ونصف سدس تقريباً، وهو ما بين الفُسْطَاطَ ودمشق من الدرج، فاضربه في ست وستين وثلاثين، وهي ما للدرجة الواحدة من الأميال يكن أربعاًة وخمسة أميال وثلث سدس ميل، فإذا آعتبرت كل أربعة

وعشرين ميلاً بمرحلة على ما تقدّم، كانت سبع عشرة مرحلة تقريباً، وهو القدر الذى بين القُسطاطِ ودِمَشقَ على الخط المستقيم .

أما الطرق المسلوكة إلى البُلدان على التعاريح بسبب البحار والجبال والأودية وغيرها، فإنها تقتضى الزيادة على ذلك .

وقد ذكر أبو الرّيحان البيرونىّ في كتابه "القانون" : أن زيادة التعريح على الاستواء يكون بقدر الخمس تقريباً . فإذا كان بين البلدين أربعون ميلاً على الخط المستقيم كانت بحسب سير السائر خمسين ميلاً .

قلت : وفيه نظر لطول بعض التعاريح على بعض فى الزيادة بالبحار والجبال عن الخط المستقيم على ما هو مشاهد فى الأسفار .

اللهم إلا أن يريد الغالب كما تقدّم بين القُسطاطِ ودِمَشقَ، فقد مرّ أن بينهما على الخط المستقيم سبع عشرة مرحلة بالتقريب، فإذا أضيف إليها مثلُ خمسها، وهو ثلاثة وخمسان، كانت عشرين مرحلة، وهو القدر المعتاد فى سيرها بالسير المعتدل . وأعلم أن أطوال البُلدان وعُرُوضها قد وقع فى الكتب المصنفة فيها ككتاب "الأطوال" المنسوب للفرّس . و"رسم المعمور" المترجم للأمون من اللغة اليونانية . و"الزيجات" وغير ذلك اختلاف كثير وتباين فاحش . ومن صرح بذكر ذلك أبو الرّيحان البيرونىّ فى كتابه "القانون" فقال عند ذكرها : ولم يتهىأ لى تصحيح جميعها، وقد صححتُ ما أمكن منها .

قال فى "تقويم البُلدان" : إلا أن معرفة ذلك بالتقريب خير من الجهل بالكلية .

الباب الثاني

من المقالة الثانية

(في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم في القديم والحديث، وما أنطوت

عليه الخلافة من الممالك في القديم، وما كانت عليه من الترتيب،

وما هي عليه الآن، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء : من خلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء

بني العباس بالعراق، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بني أمية بالأندلس .

أما الخلافة، فسيأتى في المقالة الخامسة في الكلام على الولايات أن المراد بها

خلافة النبي صلى الله عليه وسلم بعده في أمته . ولذلك كان يقال لأبي بكر الصديق

رضي الله عنه : خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الراجح أنه لا يجوز أن يقال

في الخليفة خليفة الله إلى تمام القول فيما سيأتى ذكره هناك، إن شاء الله تعالى .

وأما من وليها من الخلفاء، فعلى أربع طبقات .

الطبقة الأولى

(الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

وأولهم ((أبو بكر الصديق رضي الله عنه))؛ بوع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه

النبي صلى الله عليه وسلم ! على ما سيأتى ذكره في الكلام على البيعات من المقالة

الخامسة إن شاء الله تعالى .

وبقى حتى توفى لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة

ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم ! في حجرة دأشة رضي الله عنها

وبويع بعده ((عمر بن الخطاب رضى الله عنه)) فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر رضى الله عنه بعد أن عهد له بالخلافة ، وتوفي يوم السبت سلخ ذى الحجة الحرام سنة ثلاث وعشرين بطعنة أبى لؤلؤة : غلام المغيرة بن شعبة ، ودفن مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه

وفى أيامه فتحت الأمصار ففتحت دمشق على يد خالد بن الوليد وأبى عبيدة ابن الجراح ، وتبعها فى الفتح سائر بلاد الشام ، ففتحت بيسان ، وطبرية ، وقيسارية ، وفلسطين ، وعسقلان ، وبعبك ، وحمص ، وحلب ، وقنسرين ، وأنطاكية ، وسار إلى بيت المقدس فى خلال ذلك ، ففتحه صلحا .

وفتح من بلاد الجزيرة الفواتية الرقة ، وحران ، والموصل ، ونصيبين ، وأمد والرها .
وفتح من العراق القادسية ، والمدائن ، على يد سعد بن أبى وقاص ، وزال ملك الفرس ، وأنهزم ملكهم يزدجرد إلى فرغانة من بلاد الترك .

وفتحت أيضا كور دجلة ، والأبله ، على يد عتبة بن غزوان .

وفتحت كور الأهواز على يد أبى موسى الأشعرى .

وفتحت نهاوند ، وإصطخر ، وأصهمان ، وتستر ، والسوس ، وأذر بيجان ، وبعض أعمال خراسان .

وفتحت مصر ، والإسكندرية ، وأنطاكيس ، وهى برقة ، وطرابلس الغرب ، على يد عمرو بن العاص .

وبويع بالخلافة بعده ((عثمان بن عفان رضى الله عنه)) ثلاث بقين من المحرم سنة أربع وعشرين ، وقتل بالمدينة لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل يوم الأضحى ، وقيل غير ذلك .

وبويع بالخلافة بعده **(على كرم الله وجهه)** يوم قتل عثمان ، وقتل لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة بالعراق ، ودفن بالنجف على الصحيح المشهور .

وبويع بالخلافة لأبنه **(الحسن)** بالكوفة من العراق يوم قتل أبيه ، وسلم الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، وقيل في ربيع الآخر ، وقيل في جمادى الأولى ، ولحق بالمدينة فأقام بها إلى أن توفي بها في ربيع الأول سنة تسع وأربعين ، وقيل ست وخمسين .

الطبقة الثانية

(خلفاء بنى أمية)

أولهم **(معاوية بن أبي سفيان)** كان أميراً على الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واستمر بها إلى أن سلم الحسن إليه الأمر ، فاستقل بالخلافة وبقى حتى توفي بدمشق مستهل رجب الفرد سنة ستين من الهجرة ، وقيل في النصف من رجب ، وهو أول من رتب أمور الملك في الإسلام .

وقام بالأمر بعده أبنه **(يزيد)** بالعهد من أبيه ، وبويع له بعد وفاته في رجب سنة ستين ، وتوفي لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين .

وقام بالأمر بعده أبنه **(معاوية)** وبويع له بالخلافة في النصف من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ، فأقام بالخلافة أربعين يوماً ، وقيل ثلاثة أشهر ، وقيل عشرين يوماً .

وقام بالأمر بعده **(مروان بن الحكم)** ، وبويع له بالخلافة بالجالية في رجب سنة أربع وستين ، ثم جددت له البيعة في ذى القعدة من السنة المذكورة ، وتوفي بالطاعون بدمشق في شهر رمضان سنة خمس وستين .

وقام بالأمر بعده أبنه **(عبد الملك)** بالعهد من أبيه ؛ وبويع له بالخلافة في الثالث من شهر رمضان المذكور ، وتوفي بدمشق منتصف شوال سنة ست وثمانين .

وقام بالأمر بعده أبنه **(الوليد)** بالعهد من أبيه ؛ وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، وتوفي بدمشق في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين .

وقام بالأمر بعده أخوه **(سليمان بن عبد الملك)** ؛ وبويع له يوم موت أخيه الوليد ، وكان أبوه قد عهد أن يكون هو الخليفة بعد أخيه الوليد ، وتوفي بدائق لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين .

وقام بالأمر بعده أبن عمه **(عمر بن عبد العزيز)** بعهد له ؛ وبويع له بالخلافة يوم موته ، وتوفي بخنصرة لخمس وقيل لست بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

وقام بالأمر بعده **(يزيد بن عبد الملك بن مروان)** بعهد من أخيه سليمان أن يكون له الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ، وقيل بعهد من أبيه أن يكون له الأمر بعد أخيه سليمان ، ولكنه سلم لأبن عمه عمر ؛ وبويع له يوم موت عمر ، وتوفي بجولان لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه **(هشام بن عبد الملك)** بعهد من أخيه يزيد ؛ وبويع له بالخلافة في يوم موته ، وتوفي بالرصافة ليست خلون من ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة .

وقام بالأمر بعده **(الوليد بن يزيد بن عبد الملك)** ؛ وبويع له بالخلافة لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وقتل لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ^(١) .

(١) أى فكانت خلافته سنة واحدة وشهرين .

وقام بالأمر بعده أبنه **(يزيد)** المعروف بالناقص ؛ سمي بذلك لتقصه الجند ما كان زادهم **يزيد** ؛ بويع له بالخلافة يوم قتل الوليد ، وتوفى بدشق لعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعده أخوه **(إبراهيم بن الوليد)** ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه في ذى الحجة المذكور ، فكث أربعة أشهر ، وقيل أربعين يوماً ثم خلع نفسه .

وقام بالأمر بعده **(مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعدي)** بتسليم إبراهيم بن الوليد الأمر إليه ؛ وفي أيامه ظهرت دعوة بني العباس ، وقصدته جيوشهم فهرب إلى مصر ، فأدرك وقتل بقرية يقال لها بوضير من الفيوم ، وبزواله زالت دولة بني أمية .

الطبقة الثالثة

(خلفاء بني العباس بالعراق)

وأول من قام بالأمر منهم بعد خلفاء بني أمية **(السفاح)** وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس : عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بويع له بالخلافة بالكوفة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وتوفى بالأنبار لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه **(المنصور)** أبو جعفر عبد الله ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه السفاح ، وتوفى بطريق مكة وهو محرم بالحج سنة ثمان وخمسين ومائة ، ودفن بالحجون .

وقام بالأمر بعده أبنه **(المهدي)** أبو عبد الله محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم مات أبوه بطريق مكة وهو يومئذ ببغداد ، وتوفى بماسبذان في المحرم سنة تسع وستين ومائة .
وقام بالأمر بعده أبنه **(الهادي)** أبو محمد موسى ؛ بويع له بعد أبيه يوم موته وهو غائب^(١) ، فسار إلى بغداد ودخلها بعد عشرين يوماً ، وتوفى لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة .

(١) وكان مقبلاً ببحرجان يحارب أهل طبرستان بعسكر أبيه .

وقام بالأمر بعده ((الرشيد)) أبو محمد هرون بن المَهْدِيّ، بُويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادي، وتوفي ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((الأمين)) أبو عبد الله محمد، ويقال أبو موسى، ويقال أبو العباس، بالعهد من أبيه هرون الرشيد، وبُويع له صبيحة الليلة التي توفي فيها أبوه الرشيد، وقتل لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم قام بالأمر بعده أخوه ((المأمون)) أبو العباس، ويقال أبو جعفر عبد الله، بالعهد له من أبيه الرشيد أن يكون له الأمر بعد أخيه الأمين، وبُويع له بالخلافة يوم قتل أخيه الأمين ببغداد وهو غائب، وبُويع له البيعة العامة لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وتوفي بأرض الروم لليلة بقيت من رجب، وقيل لثمان خلون منه سنة ثمان عشرة ومائتين، ودفن بطرسوس .

وقام بالأمر بعده أخوه ((المعتصم بالله)) أبو إسحاق محمد بن هرون الرشيد، بُويع له بالخلافة يوم موت أخيه المأمون وهو يومئذ بطرسوس، فسار إلى بغداد، فدخلها مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين، وتوفي بسامرا لثاني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه ((الواثق بالله)) أبو جعفر هرون، بُويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتوفي بسمر من رأى است بقسين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه ((المتوكل على الله)) أبو الفضل جعفر، بُويع له بالخلافة يوم موت أخيه الواثق، وقتل لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أبوه (المستنصر بالله) أبو جعفر محمد؛ بويع له بالخلافة صبيحة قتل أبيه المتوكل، وتوفي بسلامًا ثلاث خلون من ربيع الآخر، وقيل لخمس خلون من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (المستعين بالله) أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة في اليوم الثاني من موت المستنصر، وخلع نفسه لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وجهز إلى واسط، فقتل بها في آخر رمضان من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعده (المُعْتَرُ بالله) أبو عبد الله محمد، وقيل أبو الزبير ابن المتوكل على الله المتقدم ذكره؛ بويع له ببغداد حين خلع المستعين نفسه، وبايعه المستعين فيمن بايع، وخلع ثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ثم قتل بعد ذلك .

وقام بالأمر بعده (المهتدي بالله) أبو عبد الله ، ويقال أبو جعفر محمد بن الواثق بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة بعد ليلتين من خلع المعتز بالله، وقتل لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين ؛ وكان يقال هو في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية .

وقام بالأمر بعده (المعتمد على الله) أبو العباس ، ويقال أبو جعفر أحمد بن جعفر المتوكل المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم قتل المهتدي بالله، وتوفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (المعتضد بالله) أبو العباس أحمد بن الموفق، طلحة بن جعفر المتوكل؛ بويع له بالخلافة يوم قتل المعتمد على الله، وتوفي ببغداد لسبع وقيل لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أبوه ((المكتفى بالله)) أبو محمد عليّ ب، بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه المعتضد وهو غائب بالرقة، وكتب إليه بذلك فأخذ البيعة عليّ من عنده وسار إلى بغداد، فدخلها لثمان خلون من جمادى الأولى من سنته، وتوفى ببغداد لثلاث عشرة ليلة، وقيل لثنتي عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه ((المقتدر بالله)) أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله المتقدم ذكره، وخُلع لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين .

وبويغ ((المرتضى بالله)) أبو محمد عبد الله بن المعتز، فأقام يوما وليلة ثم اضطرب عليه الأمر فأخفى، وعاد الأمر إلى المقتدر فظفر بابن المعتز فصادره، ثم أخرج من دار السلطان ميّتا لليلتين خلّتا من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خلع المقتدر بالله نفسه، وبويغ بالخلافة أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد فأقام يومين، ثم عاد الأمر إلى المقتدر بالله وبقي حتى قُتل لثلاث خلون من شوال سنة عشرين وثلاثمائة .

وقام بالأمر بعده أخوه ((القاهر بالله)) المتقدم ذكره، لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة، ثم خلع وسُملت عيناه لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة .

وقام بالأمر بعده ابن أخيه ((الراضى بالله)) أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله المتقدم ذكره، وتوفى لست عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

وقام بالأمر بعده أخوه ((المتقى بالله)) أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله المتقدم ذكره، بويغ له بالخلافة لعشر بقين من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وخُلع وسُملت عيناه لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه ((المستكفي بالله)) أبو القاسم عبد الله بن المستكفي بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المتبق بالله بمشاركته له^(٢)، ثم خلع وسميت عيناه في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه ((المطيع لله)) أبو القاسم، ويقال أبو العباس الفضل ابن المقدر بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المستكفي، وخلع نفسه منها للعجز بالمرض في الثالث عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

وولى الخلافة بعده ابنه ((الطائع لله)) أبو بكر عبد الكريم؛ بويع له بالخلافة يوم خلع أبيه المطيع لله، وقبض عليه لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، فخلع نفسه .

وقام بالأمر بعده ((القادر بالله)) أبو العباس أحمد بن إسحاق؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الطائع، وكان غائبا بالبطائح فأحضر، وجددت له البيعة ببغداد في شهر رمضان من السنة المذكورة، وتوفي حادى عشر ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((القائم بأمر الله)) أبو جعفر عبد الله ، بالعهد من أبيه، وجددت له البيعة بعد موت أبيه، توفي ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابن ابنه ((المقتدى بأمر الله)) عبد الله [بن] ذخيرة الدين محمد ابن القائم بأمر الله المتقدم ذكره، وتوفي فجأة في الخامس والعشرين من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستظهر بالله)) أبو العباس أحمد؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه، وتوفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة .

(١) كذا في العقد أيضا وفي - حياة الحيوان [أبو العباس] .

(٢) ليست هذه الكلمة في العقد ولا في حياة الحيوان وهي قليلة الجدوى كما ترى .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المسترشد بالله)) أبو منصور الفضل ؛ بويغ له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستظهر، وقتل في قتال الباطنية سبع عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((الراشد بالله)) أبو جعفر المنصور، بالعهد من أبيه ؛ وجددت له البيعة يوم قتله ، وخلع في منتصف ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ((المقتنى لأمر الله)) أبو عبد الله محمد بن المستظهر المتقدم ذكره ؛ بويغ له بالخلافة يوم خلع الراشد بالله ، وتوفى ثانى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستجد بالله)) أبو المظفر يوسف ؛ بويغ له بالخلافة يوم وفاة أبيه المقتنى ، وتوفى تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستضىء بالله)) أبو محمد الحسن ؛ بويغ له بالخلافة يوم وفاة أبيه المستجد من أقاربه بيعة خاصة ، وفى عشرة بيعة عامة ^(١) ، وتوفى ثانى ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((الناصر لدين الله)) أبو العباس أحمد ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه المستضىء ، وتوفى أول شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((الظاهر بأمر الله)) أبو نصر محمد ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه الناصر ، وتوفى رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستنصر بالله)) أبو جعفر المنصور ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه الظاهر ، وتوفى لعشر خلون من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستعصم بالله)) أبو أحمد عبد الله ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه المستنصر بالله ، وقتله هولاكو ملك التتار فى العشرين من المحرم سنة

(١) أى تاسع ربيع الآخر التالى للبيعة الخاصة الواقعة فى التاسع .

ست وخمسين وستائة . وبقتله أنقرضت الخلافة العباسية من بغداد، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس ببغداد إذا عدت خلافة ابن المعتز، وحسبت خلافة القاهرة أولاً وثانياً خلافة واحدة .

الطبقة الرابعة

(خلفاء بني العباس بالديار المصرية من بقايا بني العباس)

وأول من قام بأمر الخلافة بها ((المستنصر بالله)) أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبي نصر محمد المتقدم ذكره . وذلك أنه لما قتل التتر المستعصم المتقدم ذكره، وبقيت الخلافة شاغرة نحواً من ثلاث سنين ونصف ثم قدم جماعة من عرب الحجاز إلى مصر في رجب سنة تسع وخمسين وستائة أيام الظاهر بيبرس، ومعهم المستنصر المذكور، وذكروا أنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر، فعقد الملك الظاهر له مجلساً حضره جماعة من العلماء، منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية، وقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعرن الشافعى، وهو يومئذ قاضى الديار المصرية بمفرده، وشهد أولئك العرب بنسبه، ثم شهد جماعة من الشهود على شهادتهم بحكم الاستفاضة، وأثبت ابن بنت الأعرن نسبه، ثم بايعه الملك الظاهر بالخلافة وأهل الحل والعقد، وأهتم الملك الظاهر بأمره، وأستخدم له عسكراً عظيماً، وتوجه الملك الظاهر إلى الشام وهو صحبته بفخّره من هناك بعسكره إلى بغداد طمعاً أن يستولى عليها ويتربعها من التتر، فخرج إليه التتر قبل أن يصل بغداد فقتلوه، وقتلوا غالب عسكره في العشر الأول من المحرم سنة ستين وستائة . فكانت خلافته دون السنة، وهو أول خليفة لقب بلقب خليفة قبله، وكانوا قبل ذلك يلقبون بالقباب مرّجلاً .

وقام بالأمر بعده ((الحاكم بأمر الله)) أبو العباس أحمد بن حسين بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القميّ ابن الأمير حسن بن الراشد بالله أبي جعفر المنصور المتقدم ذكره في الخلفاء ببغداد . قَدِمَ مصر سنة تسع وخمسين وستمائة ، وهو ابن خمس عشرة سنة في سلطنة الظاهر بيبرس ، وقيل إن الظاهر بعث من أحضره إليه من بغداد ، وجلس له مجلسا عاما أثبت فيه نسبه ، وبايعه بالخلافة في سنة ست وستين وستمائة ، وأشركه معه في الدماء في الخطبة على المنابر ، إلا أنه منعه التصرف والدخول والخروج . ولم يزل كذلك إلى أن ولي السلطنة الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، فأسكنه بالكيش بخطط الجامع الطولوني ، فكان يخطب أيام الجمعة في جامع القلعة ويصلي ، ولم يطلق تصرفه إلى أن تسلطن المنصور لاجين ، فأباح له التصرف حيث شاء وأركبه معه في الميادين ، وتوفي في شهر سنة إحدى وسبعائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستكني بالله)) أبو الربيع سليمان بالعهد من أبيه الحاكم ، وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، وأستقر على ما كان عليه أبوه من الركوب والتزول وركوب الميادين مع السلطان إلى أن أعيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة المرة الثانية بعد خلع الملك المظفر بيبرس الجاشنكير في شهر سنة تسع وسبعائة ، فحصل عند السلطان منه وحشة ، فجهزه إلى قوص ليقم بها ، وبقى بقوص حتى توفي في سنة أربعين وسبعائة .

وولى الخلافة بعده ابنه ((المستعصم بالله)) أبو العباس أحمد بعهد من أبيه المستكني بأربعين شاهدا بمدينة قوص ، ودعى له على المنابر في العشر الأخير من شوال سنة أربعين وسبعائة .

ثم خلعه الناصر محمد بن قلاوون ، وبايع بالخلافة ((الواثق بالله)) أبا إسحاق إبراهيم ابن الحاكم بأمر الله المتقدم ذكره ، وأمر بأن يدعى له على المنابر ، وتحمل له راية الخلافة ،

فخرى الأمر على ذلك . وكان قد هم بمبايعته بعد موت المستكفي فلم يتم له . فلما توفى الملك الناصر في العشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، أعيد المستعصم بالله أحمد المتقدم ذكره إلى الخلافة بعد خلع الواثق إبراهيم ، وبقي حتى توفى رابع شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعائة .

ثم ولى الخلافة بعده أخوه (المعتضد بالله) أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان سابع عشر شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، وتوفى عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة .

وولى الخلافة بعده ابنه (المتوكل على الله) أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله المتقدم ذكره بالعهد من أبيه المعتضد ، وأستقر له الأمر بعد وفاة أبيه يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة ، وبقي حتى خلعه الأمير أيبك أنابك العساكر في سلطنة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان بن حسين .

وولى الخلافة مكانه (المستعصم بالله) أبو يحيى زكريا بن الواثق إبراهيم المتقدم ذكره ، فأقام في الخلافة دون ثلاثة أشهر . ثم أعيد المتوكل على الله محمد بن أبي بكر إلى الخلافة ثانيا في أواخر المحرم أو أوائل صفر سنة تسع وسبعين وسبعائة ، وأستمر حتى قبض عليه الظاهر برقوق وأعتقله بقلعة الجبل في مستهل شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبعائة .

وولى الخلافة مكانه (الواثق بالله) أبو حفص عمر بن الواثق بالله إبراهيم المتقدم ذكره ، فبقي حتى توفى في العشر الأول من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعائة ، فأعاد الظاهر برقوق المستعصم بالله زكريا المتقدم ذكره ثانيا إلى الخلافة ، والمتوكل على الله في الاعتقال والناس لا يرون في كل ذلك الخليفة غيره .

ثم عنّ للملك الظاهر برقوق بعد ذلك فأطلق المتوكل على الله من الاعتقال، وأكرمه وأحسن إليه في ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وبقي في الخلافة حتى توفي سابع عشر شهر رجب الفرد سنة ثمان وثمانمائة .

وولى الخلافة بعده أبوه (أبو الفضل العباس ولقب المستعين بالله) وبقي في الخلافة على سنين من تقدمه من الخلفاء العباسيين بالديار المصرية من قصور أمره على العهد إلى السلطان والدعاء له على المنابر قبل السلطان إلى أن قبض على الناصر فرج بن برقوق بالشام في الثاني عشر من ربيع الأول من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فاستقل بالأمر وأستبد به، وأجمع له أمر الخلافة: من ضرب اسمه على السكة في الدنانير والدراهم والدعاء له على المنابر بمفرده، والعلامة على التقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها، وفوض أمر تدبير دولته للأمير "شيخ" وكتب له تفويض في ورق، عرضه ذراع ونصف بذراع البز، يزيد عما كان يكتب فيه للسلطين نصف ذراع بقلم مختصر الطومار .

وكان المتولى لأمر كتابته المقر الشمسى محمد العمرى عين أعيان كُتاب الدست الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية، ونائب كاتب السر . وسيأتى ذلك في الكلام على التواقيع في المقالة الخامسة إن شاء الله تعالى .

وأما مقرّات الخلفاء، فهي أربع مقرّات :

المقرّة الأولى

(المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام)

كانت مقرّة الخلفاء الراشدين إلى حين أنقراضهم، وذلك أن مبدأ النبوة كان بمكة ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأقام بها حتى توفى في الثالث عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

(١) المشهور أن وفاته يوم الاثنين الثاني عشر الخ ولكن في العقد "ثلاث عشرة خلت من ربيع الأول" ولعل المؤلف آتاه .

ثم كان بعده في الخلافة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، ثم الحسن إلى حين سلّم الأمر لمعاوية، وإنما كان مقام عليّ والحسن بالعراق زمن القتال بينهما وبين معاوية .

المقرّة الثانية

(الشّام)

وهي دار خلفاء بني أميّة إلى حين آنقراضهم
قد تقدّم أن معاوية كان أميراً على الشّام قبل الخلافة، ثم استقل بالأمر حين سلّم إليه الحسن، وبقي في الشّام هو ومن بعده إلى حين آنقراض خلافتهم، فقتل مروان بن محمد على ماتقدّم ذكره . وكانت دار إقامتهم دمشق، وإن نزلوا غيرها فليس لإقامة .

المقرّة الثالثة

(العراق)

وهي دار خلفاء بني العبّاس

وكان أول مبايعة السّفّاج به بالكوفة على ماتقدّم، ثم بني بعد ذلك بالأنبار مدينةً وسماها الهاشمية ونزلها . فلما ولي أخوه أبو جعفر المنصور الخلافة بعده بني بغداد . وسكنها وصارت منزلاً لخلفاء بني العبّاس بعده إلى حين آنقراض الخلافة منها بقتل التتر المستعصم آخر خلفائهم بها .

المقرّة الرابعة

(الديار المصرية)

وهي دار الخلافة الآن

وقد تقدّم سبب انتقال الخلافة إليها بعد آنقراضها من بغداد في الكلام على من ولي الخلافة من الخلفاء، فأغنى عن إعادته هنا .

وقد تقدّم أن الحاكم بأمر الله ثانی خلفائهم بمصر أسكنه الأشرف خلیل بن قلاوون بالكبش بخط الجامع الطولوني . أما الآن فاستقرت دار الخلافة بخط المشهد النفيسي بين مصر والقاهرة ، ولا أخلى الله هذه المملكة من آثار النبوة .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة الثانية

(فيما أنطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم ، وما كانت عليه

من الترتيب ، وما هي عليه الآن)

أما ما أنطوت عليه من الممالك ، فاعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فتح مكة وما حول المدينة من القرى تحيّر ونحوها .

وفتح خالد بن الوليد من الشام في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وهي أول فتح فتح بالشام ، ثم كانت الفتوح الكثيرة في خلافة عمر رضي الله عنه ، ففتح بلاد الشام ، وكور دجلة والأبلة ، وكور الأهواز ، وإصطخر ، وأصبهان ، والسوس ، وأذربيجان ، والري ، وجرجان ، وقزوین ، وزنجان ، وبعض أعمال خراسان ، وكذلك فتح مصر ، وبرقة ، وطرابلس الغرب .

ثم فتح في خلافة عثمان رضي الله عنه : كرمان ، وسجستان ، ونيسابور ، وفارس ، وطبرستان ، وهراة ، وبقية أعمال خراسان . وفتحت أرمينية ، وحران ، وكذلك فتحت أفريقية ، والأندلس ، وسد الإسلام ما بين المشرق والمغرب ، وكانت الأموال تُجبي من هذه الأقطار النائية والأمصار الشاسعة ، فتحمل إلى الخليفة ، وتوضع في بيت المال بعد تكفية الجيوش وما يجب صرفه من بيت المال . ولم يزل الأمر على ذلك إلى إنشاء خلافة بني العباس ، ماعدا الأندلس فإن بقايا خلفاء بني أمية استولوا عليه

حتى يقال : إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة مارة ويقول :
 ”أذهبي إلى حيث شئتِ يَا بِنِي نَحْرَاجُكِ“ ثم اضطرب أمر الخلافة بعد ذلك
 وتناقص شأنها وأستبدَّ أكثر أهل الأعمال بعمله من خلافة الرازي على ماسياتى ذكره
 في الكلام على ترتيب الخلافة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأما ترتيب الخلافة : فله حالتان ،

الحالة الأولى

(ما كان عليه الحال في الزمن القديم)

اعلم أن الخلافة لأبتداء الأمر كانت جارية على ما أُلِفَ من سيرة النبي صلى الله
 عليه وسلم ! : من خُشونة العيش ، والقُرب من الناس ، وأطراح الحِيلاء وأحوال
 الملوك ، مع ما فتح الله تعالى على خلفاء السلف من الأقاليم ، وجبي إليهم من الأموال
 التي لم يُفَرِّ عظماء الملوك بجزء من أجزائها . ونَاهِيكَ أنهم فتحوا عدَّة من الممالك العظيمة
 التي كانت يضرب بها المثل في عَظَم قدرها ، وارتفاع شأن ملوكها ، من ممالك المشرق
 والمغرب . حتى ذكر عظماء الملوك عند بعض السلف فقال : ”إنما المَلِكُ الذي يأكل
 الشعير ويعسُّ على رجله بالليل ماشيا وقد فُتِحَتْ له مشارق الأرض ومغاربها“
 يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن سَلَّمَ الحسنُ
 رضي الله عنه الأمرَ لِمُعَاوِيَةَ ، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم !
 ”الْخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ“ فكان آخر الثلاثين خلافة الحسن .

فلما سَلَّمَ الحسن رضي الله عنه لمُعَاوِيَةَ بعد وقوع الاختلاف وتَبَيَّنَ الآراء ، اقتضى
 الحال في زمانه إقامة شِعَارِ المَلِكِ ، وإظهار أُمَّةِ الْخِلَافَةِ ، فأخذ في ترتيب أمور الخلافة
 على نظام المَلِكِ لما في ذلك من إرهاب العدو وإخافته . بل كان ذلك شأنه وهو

أمير بالشام قبل أن يلى الخلافة . حتى حكى صاحب "المقد" وغيره أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قَدِمَ الشام فى خلافته وهو راكب على حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف، ومعاوية أمير على الشام، فخرج معاوية لملاقاته فى موكب عظيم، فلقى فى طريقه فى خَفٍّ من القوم فلم يشعر به وتعداه طالبا له، ثم عُرِفَ ذلك فيما بعد، فرجع وسلم على أمير المؤمنين عمر، ومثنى إلى جانبه، فلم يلتفت إليه وطال به ذلك، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين، فالتفت إليه حينئذ، وقال: أنت صاحب الموكب الآن مع ماياغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ - فقال: يا أمير المؤمنين: إنا بأرض يكثرفيها جواسيس العدو فأحتاج أن أظهر لهم من أهبة الملك والسلطان ما يزعمهم، فإن أمرتنى به، آثمت؛ وإن نهيتنى عنه، آتيت - فقال: إن كان ماقلت حقًا، فإنه لَرَأَى أديب! وإن كان غير حق، فإنه لخُدعة أريب. لا أمرك ولا أنأك - فقال عبد الرحمن: لحسن يا أمير المؤمنين! ما صدر به هذا الفتى عما أوردته فيه - فقال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه .

فلما صارت الخلافة إليه، زاد فى حسن الترتيب وإظهار الأبهة، وأخذ الخلفاء بعده فى مضاعفة ذلك والاحتفال به حتى أمست الخلافة فى أعين ما يكون من ترتيب الملك، وفاقته فى ذلك الأكاسرة والقيصرة . بل أضحت فى جانب الخلافة سائر الممالك العظام، وأنطوى فى ضمنها ممالك المشارق والمغرب، خصوصاً فى أوائل الدولة العباسية فى زمن الرشيد ومن والاه .

حتى يحكى أن صاحب عمورية من ملوك الروم كانت عنده شريفة مأسورة فى خلافة المعتصم فعذبها، فصاحت وأعتصماه! فقال لها: لا يأتى المعتصم خلاصك إلا على أبلق . فبلغ ذلك المعتصم، فسادى فى عسكره بركوب الخيل البلق، وخرج

وفي مقدمة عسكره أربعة آلاف أبلق، وأتى عمورية فحاصرها وخلص الشريفة، وقال : أشهدى لى عند جدك المصطفى صلى الله عليه وسلم أنى جئت لخلاصك ، وفي مقدمة عسكرى أربعة آلاف أبلق .

وقد حكى ابن الأثير فى تاريخه : أنه لما وصلت رُسُل ملك الروم إلى بغداد فى سنة خمس وثلاثمائة فى خلافة المقتدر ، رُتّب من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفا ما بين راكب وراجل ، ووقف بين يدى الخليفة سبعمائة حاجب ، وسبعة آلاف خادم خصى : أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سُود ، ووقف الغلمان الحمرية الذين هم بمثابة ممالك الطبايق الآن بالباب ، بتمام الزينة والمناطق المُحلّاة ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة ، وغرائب الزينة ، وغُشيت جدرانها بالستور ، وفرشت أرضها بالبُسُط ، وكان عدّة البسط اثنين وعشرين ألف بساط ، وعدّة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين ألف ستر ، منها اثنا عشر ألف ستر من الديباج المذهب ، وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها وأوراقها ، وطيور الذهب والفضة على أغصانها ، وأعضائها تمثال بحركات موضوعة ، والطيور تُصَفّر بحركات مرتبة ، وألقيت المراكب والدبابدب فى دجلة بأحسن زينة . وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع ، إلى غير ذلك من الاحوال الملوكية التى يطول شرحها .

هذا مع تقهقر الخلافة وأنحطاط رتبها يومئذ . ولم تزل الخلافة قائمة على ترتيب واحد فى النفقة والجرايات والمطابخ وإقامة العساكر إلى آخر أيام الراضى بالله .

فلما ولى المُتقي لله ، تقاصر أمر الخلافة وتناقص ، وقنع الخلفاء من الخلافة بالدعاء على المنابر وضرب أسمهم على الدنانير والدرهم ، وربما خطب الواحد منهم بنفسه ، ومع ذلك فكان الخليفة هو الذى يولّى أرباب الوظائف من القضاة وغيرهم ، وتكتب عنه العهود والتقاليد وغيرها لا يشاركه فى ذلك سلطان .

وأما شِعَارُ الخِلافةِ :

فمنها - الخَاتَمُ : والأصل فيه ما ثبت في الصحيح "أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم ! قيل له : إن الملوك لا يَقْرَءُونَ كِتَابًا غيرَ مختومٍ فَاتَّخَذَ خَاتَمًا من وَرَقٍ ، وجعل نَقْشَهُ مُحَمَّدٌ رسول الله " فلما تَوَفَّى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ، لبسه أبو بكر بعده ثم لبسه عمر بعد أبي بكر ، ثم لبسه عثمان بعد عمر ، فوقع منه في بئر فلم يَقْدِرْ عليه . وَاتَّخَذَ الخلفاء بعد ذلك خواتيمَ ، لكل خَاتَمٍ نَقْشٌ يخصه ، وبقي الأمر على ذلك إلى اقتراض الخِلافة من بَغْدَادَ .

(ومنها) البُرْدَةُ : وهى بَرْدَةُ النبي صَلَّى الله عليه وسلم التى كان الخليفة يلبسها فى المواقب .

قال ابن الأثير : وهى شِمْلَةٌ مَخْطُوطَةٌ ، وقيل كِسَاءٌ أَسْوَدُ مَرِيعٍ فيه صِغَرٌ ، وقد اختلف فى وصولها إلى الخلفاء .

حكى المَآوَرِدِيُّ فى الأحكام السلطانية عن أبان بن تغلب أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم كان وهبها لكعب بن زُهَيْرٍ حين أَمْتَدَحَهُ بقصيدته التى أولها : "بَانتُ سَعَادُ" فأشترها منه معاوية . والذى ذكره غيره أن كعبا لم يسمح ببيعها لمعاوية ، وقال : لم أكن لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا . فلما مات كعب أشترها معاوية من ورثته بعشرة آلاف درهم .

وحكى المَآوَرِدِيُّ أيضا عن حمزة بن ربيعة أن هذه البردة كان النبي صَلَّى الله عليه وسلم أعطها لأهل أَيْلَةَ أَمَانًا لهم ، فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أبي أوفى وهو عامل عليهم من قِبَلِ مَرْوَانَ بن محمد آخر خلفاء بنى أُمَيَّةَ وبعث بها إليه ، وكانت فى خِزَانَتِهِ حَتَّى أُخِذَتْ بعد قتله . وقيل أشترها أبو العباس السفاح : أول خلفاء بنى العباس بثلاثمائة دينار .

(ومنها) القَضِيب : وهو عُود كان النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأخذه بيده .

قال الماورديّ : وهو من تركة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي صدقة .

قلت : وكان القَضِيب والبردةُ المتقدّما الذّكر عند خلفاء بني العباس ببغداد إلى أن آنزعهما السلطان سنجر السُّلجُوقيّ من المسترشد بالله، ثم أعادهما إلى المفتي عند ولايته في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . والذي يظهر أنها بقيت عندهم إلى انقضاء الخلافة من بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فإن مقدار ما بينهما مائة وإحدى وعشرون سنة ، وهي مدّة قريبة بالنسبة إلى ما تقدّم من مدّتهما .

(ومنها) ثياب الخلافة : وقد ذكر السلطان عماد الدّين صاحب حماه في تاريخه في الكلام على ترجمة الملك السعيد إسماعيل أحد ملوك بني أيوبَ بآيَمَنَ أنه كان به هَوَجٌ ، فادّعى أنه من بني أمية وليس ثياب الخلافة ، ثم قال : وكان طول الكم يومئذ عشرين شبراً ، فيحتمل أنه أراد زمن بني أمية ، وأنه أراد زمن بني أيوب .

(ومنها) اللون في الأعلام والخلع ونحوها .

وكان شعار بني أمية من الألوان الخُضْرَة ، فقد حكى صاحب حماة عن الملك السعيد إسماعيل المتقدّم ذكره : أنه حين ادّعى الخلافة وأنه من بني أمية لبس الخُضْرَة ؛ وهذا صريح في أنه شعارهم .

أما بنو العباس فشعارهم السَّوَادُ ؛ وقد اختلف في سبب اختيارهم السَّوَادَ ، فذكر القاضي الماورديّ في كتابه "الحاوي الكبير" في الفقه : أن السبب في ذلك أن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم حُتَيْنٍ ويوم الفَتْحِ عقد لعمه العباس رضي الله عنه رايةً سوداء .

وحكى أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن سبب ذلك أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حين أراد قتل إبراهيم بن محمد العباسي : أول القائمين من بني العباس بطلب الخلافة قال لشيخته : لا يهولنكم قتلى ، فإذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العباس يعني السفاح ، فلما قتله مروان ، لبس شيعة عليه السوداء ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .

ومن غريب ما وقع مما يتعلق بذلك ما حكاه ابن سعيد في "المغرب" أن الظافر الفاطمي أحد خلفاء مصر لما قتله وزيره عباس ، بعث نساء الخليفة شعورهن طي الكُتب إلى الصالح طلائع بن رزيك ، وهو يومئذ والي بمنية بن خصب ، فحضر إليهم وقد رفع تلك الشعور على الرماح ، وأقام الرايات السود إظهاراً للحرب على الظافر ، ودخل القاهرة على ذلك ، فكان ذلك من الفأل العجيب ، وهو أن مصر انتقلت إلى بني العباس بعد خمس عشرة سنة ، ورفعت راياتهم السوداء .



وأما تولية الملوك عن الخلفاء ، فكان الحال فيه مختلفاً باعتبار السلطان بحضرة الخلافة وغيره . فإن كان الذي يوليه الخليفة هو السلطان الذي بحضرة الخلافة ، كبنى بويه وبني سلجوق وغيرهم ، فقد حكى ابن الأثير وغيره أن السلطان طغرل بك بن ميكائيل السلجوقي لما تقلد السلطنة عن "القائم بأمر الله" في سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، جلس له الخليفة على كرسي ارتفأه عن الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه البردة ، ودخل عليه طغرل بك في جماعة ، وأعيان بغداد حاضرون ، فقبل طغرل بك الأرض ويد الخليفة ، ثم جلس على كرسي نصب له ، ثم قال رئيس الرؤساء وزير الخليفة عن لسان الخليفة : "إن أمير المؤمنين قد ولّاك جميع ما ولّاه الله تعالى من

بلاده، وردَّ إليك أمرَ عبادِه، فاتَّق الله فيا ولَّاك، وأَعرِف نَعمته عليك، ثم خُلِعَ على طَغرلُك سَبْعُ جِبات سود بَريق واحد، وِعمامة سوداء، وطُوق بطوق من ذهب، وسُورَ سِوَارَيْن من ذهب، وأُعطي سِيفاً بَغلَاف من ذهب، ولقبه الخليفة، وقرئَ عَهدُه عليه فقبل الأرض ويدَ الخليفة ثانياً وأنصَرف، وقد جُهِزَ له فرس من إصطَبَلات الخليفة بِمَرَكَب من ذهب مَقنَـدس فركب وأنصَرف إلى داره، وبعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً من الترك بِجُـوهِم وسلاحهم مع ثياب وغيرها . ولعل هذا كان ترتيبهم في لبس جميع ملوك الحضرة .

- وإن كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم، جُهِزَ له التَّشْرِيف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة، وهو جُبَّة أَطلس أسود بطراز مُدْهِب وطوق من ذهب يَجْعَلُ في عِـنقه، وسِوَارَانِ من ذهب يَجْعَلان في يديه، وسِيفٌ قِرابُه ملبس بالذهب، وفرس بِمَرَكَب من ذهب، وعَلَمٌ أسودٌ مَكْتُوب عليه بالبياض اسمُ الخليفة يَنشرُ على رأسه، كما كان يبعث إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل . فإذا وصل ذلك إلى سلطان تلك الناحية، لبس الخِلْعَةَ والعمامة، وتقلد السيف وركب الفرس وسار في موكبه حتَّى يصل إلى محل ملكه . وربما جُهِزَ مع خِلْعَةِ السلطان خِلْعٌ أخرى لولده أو وزيره أو أحد من أقاربه بحسب ما يَقتضيه الحال حينئذ .

وآخر من وصلت إليه الخِلْعَةُ والطوق والتقليد من ملوك بني أيوب من بغداد الناصرُ يوسف بن العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم في سنة خمس وخمسين وستمائة .

وأما الوظائف المعتبرة عندهم ، فعلى ضربين :

الضرب الأول

(وظائف أرباب السيوف ؛ وهى عدّة وظائف)

(منها) الوزارة فى بعض الأوقات دون بعض .

وقد ذكر القضاعى وغيره أن أول من لقّب بالوزارة فى الإسلام ، أبو سلمة ، حفص بن سلمان الخلال وزير أبى العباس السفّاح أول خلفاء بنى العباس ، ولم يكن ذلك قبله ، ثم جرى الأمر على ذلك فى اتّخاذ الخلفاء الوزراء إلى اتّقراض الخلافة ببغداد بقتل التّار المستعصم فى سنة ست وخمسين وستمائة ، ووزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمى ، وقتله هولاكو ملك التّار بعد قتل المستعصم لمائة على المستعصم مع التّار ، وهو آخر وزراء الخلافة ببغداد .

(ومنها) الحجابة : وكان موضوعها عندهم حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه ، لا التّصدى للحكم فى المظالم كما هو الآن .

وقد ذكر القضاعى فى " تاريخ الخلائف " ما يقتضى أن الخلفاء لم تزل تتخذ الحجاب من لدن الصّدّيق رضى الله عنه فن بعده ، خلا الحسن بن على فإنه لم يكن له حاجب .

(ومنها) ولاية المظالم : وموضوعها قود المتظالمين إلى التناصف بالرّهبة ، وزجر المتنازعين عن التجأ بالهبة . كما قاله الماوردى فى " الأحكام السلطانية " وهى شبيهة بالمجوبية الآن فى هذا المعنى ؛ وكانت عندهم من أعلى الوظائف وأرفعها رتبة لا يتولاها إلا ذوو الأقدار الجليّة ، والأخطار الحفيلة .

(ومنها) النّقابة على ذوى الأنساب : كالتّالبيين والعباسيين ومن فى معنهم ، كما فى نقابة الأشراف الآن بالديار المصرية وأعمالها ؛ وكانت لديهم من وظائف

أرباب السيوف، ولذلك أُسْتُصِحِبَ هذا المعنى في نقيب الأشراف الآن، فيكتب في ألقابه الأميرى، وإن كان من أرباب الأقاليم على ما سيأتى ذلك في كتابة توقيعه إن شاء الله تعالى .

الضرب الثانى

(وظائف أرباب الأقاليم، وهى نوعان، دينية وديوانية)

فأما الديوانية - فأجلها الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم . وقد مر القول في ابتداء وزارة الخلفاء وانهائها فى الكلام على وزارة أرباب السيوف فى الضرب الأول .
وأما الدينية - (فمنها) القضاء، وكانت ولاية القضاء عن الخليفة تارة تكون عامة لبغداد وأعمالها ، وتارة قاصرة على بغداد أو أحد جانبيها .

(ومنها) الحسبة وأمرها معروف .

(ومنها) ولاية الأوقاف والنظر عليها .

(ومنها) الولاية على المساجد والنظر فى أمر الصلاة .

ومن الوظائف الخارجة عن حضرة الخلافة لأرباب السيوف الإمارة على الجهاد، والإمارة على الحج، وغيرهما .

ومن الوظائف الخارجة عن الحضرة لأرباب الأقاليم ولاية قضاء النواحي ، والحسبة بها إلى غير ذلك من ولايات زعماء الذمة وغيرهم .

الحالة الثانية

ما صار إليه الأمر بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية عند استيلاء التتار على

بغداد لما بايع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة تسع وخمسين وستائة

”المستنصر بن الظاهر“ أول الخلفاء بمصر على ما تقدم ذكره وكتب له عهد عنه بالسلطنة من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وعمل له السلطان الدهاليز وآلات الخلافة ورتب له الجندارية، وأستخدم له عسكريا عظيما وجهزه إلى بغداد للاستيلاء عليها فقتله التتار على ما تقدم.

ثم لما بايع الظاهر أيضا الإمام ”الحاكم بأمر الله“ ثاني خلفائهم أيضا في سنة تسع وخمسين وستمائة على ما تقدم ذكره، بقى مدة، ثم أشركه معه في الدعاء في الخطبة على المنابر في سنة ست وستين وستمائة، إلا أنه منعه من التصرف والدخول والخروج. ولم يزل كذلك إلى أن ولي السلطنة الملك الأشرف ”خليل بن المنصور قلاوون“ فأطلق سبيله، وأسكنه في الكيش على القرب من الجامع الطولوني، وكان يخطب أيام الجمع بجامع القلعة إلى أن ولي السلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين، فأباح له التصرف والركوب إلى حيث شاء، وبقي الأمر على ذلك إلى أن ولي الخلافة ”المستعصم بالله“ أبو العباس أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان المرة الثانية بعد موت الملك الناصر محمد بن قلاوون، ففوض إليه السلطان نظر المشهد النفيسى، وأستقر بأيدي الخلفاء إلى الآن.

والذى أستقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلى السلطان خاصة في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة، ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك.

قلت : ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن قبض على السلطان الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق بالشام في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة على ما تقدم ذكره،

فاستقل الإمام "المستعين بالله" خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكتابة على العهود ومناشير الإقطاعات ، والتقاليد ، والتواقيع ، والمكاتبات وغيرها ، وأُفرد بالدعاء على المنابر ، وضرب اسمه على الدنانير والدرهم والطرر على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب الخلفاء ، وهيئته في لبسه عند ركوبه بالمدينة في المواكب أو غيرها .

فعمامته مدورة لطيفة عليها رَفْرَفٌ من خَلْفِه تقدير نصف ذراع في ثلث ذراع مرسل من أعلى عمامته إلى أسفلها ، وفوق ثيابه كالمية ضيقة الكُم مفرجة الذيل من خلف وتحتها قباء ضيق الكُم .

أما تقليده السلطان السلطنة ، فالذي رأيته في بعض التواريخ في عهد الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس : أحمد بن أبي الربيع سليمان ، إلى السلطان الملك المنصور أبي بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مبايعة الحاكم المذكور عند موت أبيه في سنة اثنتين وأربعين وسبعائة : أنه طلع القضاة والأمراء إلى القلعة واجتمعوا بدار العدل ، وجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت ، وعليه خِلاعة خضراء ، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض ، وخرج السلطان من القصر إلى الإيوان من باب السر على العادة ، فقام له الخليفة والقضاة والأمراء ، وجاء السلطان فجلس على الدرجة الأولى من التخت دون الخليفة ، ثم قام الخليفة فقرأ : ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)) إلى آخر الآية ، وأوصى السلطان بالرفق بالرعية ، وإقامة الحق ، وإظهار شعائر الإسلام ونصرة الدين ، ثم قال : "فوضت إليك جميع أمر المسلمين ، وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين" . ثم قرأ : ((إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)) إلى آخر الآية ، ثم أتى الخليفة بخِلاعة سوداء وعمامة سوداء مرقومة الطرف بالبياض ، فألبسها السلطان وقلده سيفه ، ثم أتى بالعهود المكتوب عن الخليفة للسلطان فقرأه القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر إلى آخره . فلما فرغ من قراءته ، تناوله الخليفة

فكتب عليه ماصورته - فوضت إليه ذلك - وكتب - أحمد بن عم محمد صلى الله عليه وسلم - وكتب القضاة الأربعة شهادتهم بالتولية، ثم أتى بالسياط على العادة .

وأخبرني من حضر تقليد السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق عن الإمام المتوكل على الله أبي الفتح : محمد المشار إليه فيما تقدم : أنه حضر الخليفة وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، والقضاة الأربعة وأهل العلم ، وأمراء الدولة إلى مقعد بالإصطبلات السلطانية يعرف بالخرّاقة ، وجلس الخليفة في صدر المكان على مقعد مفروش له ، ثم أتى السلطان وهو يومئذ حدث ، فجلس بين يديه ، وسأله شيخ الإسلام عن بلوغه الحلم فأجاب بالبلوغ ، فخطب الخليفة خطبة ، ثم خاطب السلطان بتفويض الأمر إليه على نحو ما تقدم ذكره ، ثم أتى الخليفة بخلع سوداء وعمامة سوداء مرقومة فوقها طرحة سوداء مرقومة ، ثم جلس الخليفة في مكانه الذي كان جالسا فيه ، ونصب للسلطان كرسي إلى جانب مقعد الخليفة فجلس عليه ، وجلس الأمراء والقضاة حوله على قدر منازلهم ، وقد استقرت جائزة تقليد السلطنة للخليفة ألف دينار مع قماش سكندري .

أما حضوره بمجلس السلطان في عامة الأيام ، عند حضوره إلى السلطان لسلام أومهم أو غير ذلك ، فقد أخبرني بعض جماعة الخليفة أن الإمام المتوكل المتقدم ذكره كان إذا حضر إلى مجلس السلطان الظاهر ، قام له ، وربما مشى إليه خطوات وجلس على طرف المقعد وأجلس الخليفة إلى جانبه .

الباب الثالث

من المقالة الثانية

(في ذكر مملكة الديار المصرية ومضافاتها، وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الأول

(في مملكة الديار المصرية ومضافاتها، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الديار المصرية، وفيه اثنا عشر مقصدا)

المقصد الأول

(في فضلها ومحاسنها)

أما فضلها فقد ورد في الكتاب والسنة ما يشهد لها بالفضيلة، ويقضى لها بالافخر قال تعالى : ﴿ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يريد بالقوم بنى إسرائيل، وبالأرض أرض مصر، ووصفها بالبركة إما بمعنى الفضل كما في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ . وإما من الخصب وسعة الرزق بدليل قوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿ فَأَنزَلْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعِوْنٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانْكَبُوا ﴾ . وقال جل وعز : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكَا بِمِصْرَ يُبُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ فأمر بالعبادة في بيوتها إشارة إلى شرف أرضها ورفع قدرها .

وقد ذكر الله تعالى أسمها في غير موضع من كتابه العزيز في ضمن قصص الأنبياء عليهم السلام . فقال تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ وفي موضع آخر . ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وقال حكاية عن فرعون لعنه الله : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ وفي معناه قوله تعالى خطابا لبني إسرائيل : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرَ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ على قراءة الحسن والأعمش مصر غير مصروف .

قال القضاعي : وكذلك قراءة من قرأ ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ مصروفا بناء على أن مصر مذكر سمي به مذكرا فلم يمنع الصرف فيه ، والتصريح بذكرها دون غيرها من الأقاليم دليل الشرف والفضل .

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إِنَّكُمْ سَتَقْتَحُونَ بِلَادًا يُدْكِرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لِأَهْلِهَا نَسَبًا وَصِهْرًا “ أراد بالنسب هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، وكان بعض ملوك مصر قد وهبها لزوجته سارة . وأراد بالصهر مارية أم إبراهيم : ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، كان المقوقس قد أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم في جملة هديته .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ فَاتَّخِذُوا بِهَا جُنْدًا كَثِيفًا ، فَذَلِكَ خَيْرٌ جُنْدِ الْأَرْضِ ، قِيلَ : وَلَمْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُمْ فِي رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ “ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” مِصْرُ أَطْيَبُ الْأَرْضِينَ تَرَابًا وَعَجْمُهَا أَكْرَمُ الْعَجَمِ نَصَابًا “ .

ويقال في التوراة : ” مِصْرُ خَزَائِنُ اللَّهِ ، فَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ قَصَمَهُ اللَّهُ “ .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه ولاية مِصْرَ جامعة تعديل الخلافة .

ومن كلام كعب الأحبار ”مصرُ بلدُ معافٍ من الفتن ، فمن أرادها بسوء كبه الله على وجهه“ .

ووصفها الكِنْدِيُّ فقال : جَبَلُهَا مُقَدَّسٌ ، وَنِيلُهَا مُبَارَكٌ ، وَبِهَا الطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قال كعب الأحبار : كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى مِنَ الطُّورِ إِلَى طُوًى وَفِي التَّوْرَةِ وَادٍ مُقَدَّسٌ أَفِيحٌ ، يَرِيدُ وَادِى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَدَخَلَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ ، وَيَعْقُوبُ ، وَيُوسُفُ ، وَإِخْوَتُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وَقَتْلُ فِي ”الرُّوضِ الْمُعْطَارِ“ عَنِ الْجَاهِظِ أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَ بِهَا بُكُورَةً أَهْنَسَ الْآتِي ذِكْرُهَا فِي كُورِ مِصْرَ الْمُقَدَّسَةِ ، وَأَنَّ نَحْلَةَ مَرْيَمَ كَانَتْ بِأَهْنَسَ قَائِمَةً إِلَى زَمَانِهِ . وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَ بِهَا بِمَدِينَةِ أَسْكَرَ شَرْقِي النِّيلِ ، وَهِيَ الْآنَ قَرْيَةٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِطْفِيحِيَّةِ الْآتِي ذِكْرُهَا فِي أَعْمَالِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .

وَبِهَا سَجَنُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَدِينَةِ بُوصَيْرِ الْخُرَابِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجِزْيَةِ عَلَى الْقَرَبِ مِنَ الْبَدْرَشِينِ .

قَالَ الْقُضَاعِيُّ : أَجْمَعَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْمَكَانِ ، وَأَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِهِ ، وَسَطْحُهُ مَعْرُوفٌ بِإِجَابَةِ الدَّعَاءِ .

سَأَلَ كَافُورُ الْإِخْشِيدِيِّ الْإِمَامَ أَبَا بَكْرَ بْنِ الْحَدَّادِ الْفَقِيهَ الشَّافِعِيَّ عَنْ مَوْضِعِ يَسْتَجَابُ فِيهِ الدَّعَاءُ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالدَّعَاءِ عَلَى سَطْحِ هَذَا السَّجَنِ .

قَالَ الْقُضَاعِيُّ : وَعَلَى الْقَرَبِ مِنْهُ مَسْجِدُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مُبَارَكٍ .

وبسفع المَقَطَم بالقرافة الصغرى قبر (يهودا ورويل) من إخوة يوسف عليه السلام .
وقد روى أنه دخلها من الصحابة رضوان الله عليهم ما يزيد على مائة رجل ،
ودُفِنَ بقرافتها جماعة منهم فيما ذكره ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة خمسة نفر وهم :
عمرو بن العاص ، وعبد الله بن حذافة ، وأبو بصرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى ،
وعبد الله بن الحرث الزبيدى ، وهو آخرهم موتاً .

قال القُضَاعَى : وذكر غير ابن لهيعة أن مسلمة بن مخلد الأنصارى أيضا مات
بها ، وهو أميرها .

**

أما محاسنها ، فلا شك أن مصر مع ما آشتلت عليه من الفضائل ، وحُقَّتْ به من
الماثر أعظم الأقاليم خطراً ، وأجلها قدراً ، وأخفها مملكة ، وأطيبها تربةً ، وأخفها
ماء ، وأخصبها زرعاً ، وأحسنها ثماراً ، وأعد لها هواءً ، وألطفها سائِجاً .
ولذلك ترى الناس يرحلون إليها ، وفوداً ، ويفدون عليها من كل ناحية ، وقل أن
يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما آشتلت عليه من حسن
المنظر ، وبهجة الروق لا سيما في زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التى تملأ
العين سامةً وحسناً ، وتروق صورةً ومعنى .

قال المسعودى : وصف الحكماء مصر فقالوا : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة
أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء .
فاللؤلؤة البيضاء ؛ زمان النيل ، والمسكة السوداء زمان نضوب الماء عن أرضها
والزمردة الخضراء زمان طلوع زرعها ، والسبيكة الحمراء زمان هيج الزرع وأكتماله .
وقد قيل : لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سورٌ ، لغنى أهلها بها عما سواها
ولما احتاجوا إلى غيرها من البلاد . وناهيك ما أخبر الله تعالى به عن فرعون مع

عتوه وتَجَبُّه وآدائه الروبوبة بآفتخاره بملكها بقوله : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وهي إقليم العجائب ، ومعدن الغرائب ؛ كان أهلها أهل ملك عظيم ، وعن قديم ؛ وإقليمها أحسن الأقاليم منظرًا ، وأوسعها خيرا ؛ وفيها من الكنوز العظيمة ما لا يدخله الإحصاء . حتى يقال إنه ما فيها موضع إلا وفيه كنز .

قلت : أما ما ذكره أحمد بن يعقوب الكاتب في كتابه في "المسالك والممالك" من ذمه مصر بقوله : هي بين بحر رطبٍ عَفِنٍ كثير البخارات الرديئة ، يولد الأدواء ويُفسد الغداء ، وبين جبلٍ وبرٍّ يابس صُلْدٍ ، لشدة بيسه لا تنبت فيه خضراء ، ولا تنفجر فيه عين ماء ، فكلامٌ مُتَعَصِّبٍ خرق الإجماع ، وأتى من سخيف القول بما تنفر عنه القلوب وتُجمه الأسماع ؛ وكفى به نقیصة أن ذمَّ النيل الذي شهد العقل والنقل بتفضيله ، وغصَّ من المقطم الذي وردت الآثار بتشريفه .

المقصود الثاني

(في ذكر خواصها وعجائبها ، وما بها من الآثار القديمة)

أما خواصها ، فمن أعظمها خطرًا معدنُ الزمرد الذي لا نظير له في سائر أقطار الأرض ، وهو في مغارة في جبل على ثمانية أيام من مدينة قوص ، يوجد عروقا خضراء في تطابق حجر أبيض ، وأفضله الدبابي ، وهو أقل من القليل ، بل لا يكاد يوجد .

ولم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرد إلى أثناء الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" فأهمل أمره وترك .

قال في "مسالك الأبصار" : وجميع ملوك الأرض وأهل الآفاق تستمد منه ، وقد مرّ القول عليه في جملة الأشجار الملوكية في أواخر المقالة الأولى .

وأعظم خطراً منه وأرفع شأنًا البَلَّسَانُ الذي تسميه العامة البَلَّسَمَ ، وهو نبات يزرع ببُقعة مخصوصة بأرض المطرية من ضواحي القاهرة على القرب من عين شمس ، ويسقى من بئر مخصوصة هناك ، يقال إن المسيح عليه السلام أغتسل بها حين قدمت به أمه إلى مصر ، والنصارى تزعم أنه حفرها بعقبه وهو طفل ، حين وضعته أمه هناك .

ومن خاصتها أن البَلَّسَان لا يعيش إلا بمائها ولا يوجد في بقعة من بقاع الأرض غير هذه البقعة .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وطول هذه الأرض ميل في ميل ، وشأنه أنه يُفصد في شهر كيهك من شهور القبط ، ويجمع ما يسيل من دهنه ويصفى ويطبخ ويحمل إلى خزانة السلطان ، ثم ينقل منه قدر معلوم إلى قلاع الشام والبيارستان ليستعمل في بعض الأدوية ، وملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج يستهدونه من صاحب مصر ويهادونه بسببه ، لما يعتقدونه فيه من أثر المسيح عليه السلام في البئر ، وله عليهم بذلك اليد الطولى والمنة العظمى ، لا يساويه عندهم ذهب ولا جوهر .

قال في "مسالك الأبصار" : والنصارى كافة تعتقد فيه ما تعتقد ، وترى أنه لا يتم تنصّر نصراني حتى يوضع شيء من هذا الدهن في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها .
وبها معدن النطرون ، وهو منها في مكانين .

أحدهما - بركة النطرون التي بالجبل الغربى غربى عمل البحيرة الآتى ذكره

في جملة أعمالها المستقرّة ، وهي من أعظم المعادن وأكثرها متحصّلاً على حجارة
الطرون وقلة ثمنه .

قال في ” التعريف “ : لا يعرف في الدنيا بركة صغيرة يُستغلّ منها نظيرها ، فإنها
نحو مائة فدانٍ تغلّ نحو مائة ألف دينار .

والثاني - مكان بالخطّارة من الشرقية ، ولا يبلغ في الجودّة مبلغ البركة الأولى ،
ولا يبلغ في المتحصّل قريباً من ذلك .

وبها أيضاً معدن الشبّ على القرب من أسوان ، وهو من المعادن الكثيرة
المتحصّل أيضاً إلى غير ذلك من الخواص .

وبها معدن التّفط على ساحل بحر القلزم ، يسيل دهنه من أعلى جبلٍ قليلاً قليلاً
وينزل إلى أسفله فيتحصل في ديارٍ قد وضعها له الأقولون ، وتأتى العرب فتحمله إلى
خزائن السلاح السلطانية .



وأما عجائبها ، فكثيرة .

(منها) جبل الطير شرق النيل مقابل مُنيّة بنى خَصِيبٍ فيه صدع يأتي إليه جنس
البواقي من الطير ، وهو المعروف بالبحّ في يوم من السنة فيضعون مناقيرهم في ذلك
الصدع واحداً بعد واحد حتى يتعلق منها واحد في ذلك الصدع فيتركونه ويذهبون .
قال ابن الأثير في ” عجائب المخلوقات “ : قال أبو بكر الموصليّ : سمعت من أعيان
تلك البلاد أنه إذا كان العام مخصباً ، يُقبض على طائرين ؛ وإن كان متوسطاً ،
يقبض على طائر واحد ؛ وإن كان جَدْباً ، لم يقبض على شيء .

(ومنها) مكان بالجبل الشرقيّ عن النيل ، على القرب من أنصنا به تلال رمل إذا
صعد إلى أعلاها وكسح الرمل إلى أسافلها سمعت له أصوات كالرعد ، يسمع من
البر الغربيّ من النيل .

وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنه إذا كان الذي صعد على ذلك المكان جنباً أو كانوا جماعة فيهم جنب، لم يسمع شيء من تلك الأصوات لو كسح الرمل .
(ومنها) مكان بالجبل المذكور على القرب من إنحيم به تلال رمل إذا كسحها الإنسان من أعلى إلى أسفل، عادت إلى ما كانت عليه وارتفع الرمل من أسفلها إلى أعلاها .
قال في "الروض المعطار" : وعلى النيل جبل يراه أهل تلك الناحية من أنتضى سيفه وأولجه فيه وقبض على مقبضه بيديه جميعاً، اضطرب السيف في يديه وارتعد فلا يقدر على إمساكه ولو كان أشد الناس ؛ وإذا حُدَّ بحجارة هذا الجبل سكينٌ أو سيف لا يؤثر فيه حديد أبداً، وجذب الإبر والمسأل أشدَّ جذبا من المغناطيس، ولا يبطل فعلها بالثوم كما يبطل المغناطيس، أما الحجر نفسه فإنه لا يجذب .

قال القضاعي : ويجبل زماخير الساحرة يقال إن فيه خلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل لا يصل إليها أحد يلوح فيها خط مخلوق "باسمك اللهم" . وعلى القرب من الطور عين ماء في أجمة رمل ينبع الماء من وسطها فورات لطيفة وينبسط ماؤها حوطاً نحو الذراع، ثم يغوص في الرمل فلا يظهر له أثر، ولا يعرف أحد إلى أين يذهب، وهي على ذلك مدى الدهور والأيام لا ينقطع نبعها، ولا يجتمع ماؤها في مكان يدركه البصر، وعجائبها أكثر من أن تذكر .

المقصود الثالث

(في ذكر نيلها ومبدئه وانتهائه، وزيادته ونقصه، وما تنتهي إليه زيادته،

وما تصل إليه في النقص قاعدته)

أما ابتداءه وانتهائه، فاعلم أن ابتداءه من أول الخراب الذي هو جنوبي خط الاستواء المقدم ذكره، ولذلك عسر الوقوف على حقيقة خبره .

وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر، إما (بفتح القاف والميم كما هو المشهور، وإما بضم القاف وسكون الميم) كما نقله في "تقويم البلدان" عن ضبط ياقوت في "المشرك" وابن سعيد في "معجمه".

(١)
قال في "رسم المعمور" وطرفه الغربى عند طول ونصف وعرض إحدى عشرة ونصف في الجنوب، وطرفه الشرقى حيث الطول إحدى وستون درجة ونصف والعرض بحاله . قال في الرسم : ولونه أحمر . وذكر الطوسى أنهم شاهدوه على بُعد، ولونه أبيض لما غلب عليه من الثلج . وأعرضه في "تقويم البلدان" بأن عرض إحدى عشرة في غاية الحرارة لاسيما في الجنوب لحضيض الشمس .

قال بطليموس : والنيل ينحدر من الجبل المذكور من عشرة مَسيلات، بين كل مسيلين منها درجة في الطول المقدم بيانه، والغربى منها، وهو الأول عند طلوع ثمان وأربعين درجة، والثاني عند طلوع تسع وأربعين، وعلى ذلك حتى يكون العاشر منها عند طلوع سبع وخمسين، كل مسيل منها نهر، ثم تجتمع العشرة وتصب في بطيحتين كل خمسة منها تصب في بطيحة، ثم يخرج من كل واحدة من البطيحتين أربعة أنهار، ثم تنفرع إلى ستة أنهار، وتسير الستة في جهة الشمال حتى تصب في بحيرة مدورة عند خط الاستواء تعرف ببخيرة كورى، فيفترق النيل منها ثلاث فرق .
ففرقة تأخذ شرقا وتذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر الهندى مقابل بلاد اليمن . وفرقة تأخذ غربا وتذهب إلى التُّكُّورِ وغانة من مملكة مالى من بلاد السودان، وتمت حتى تصب في البحر المحيط الغربى عند جزيرة أوليل وتسمى نيل السودان .

وفرقة تأخذ شمالاً - وهي نيل مصر - فيمرّ في الشمال على بلاد زغاوة، وهي أول ما يليق من بلاد السودان .

ثم يمرّ على بلاد النوبة حتى ينتهي إلى مدينتها دُنْقَلَة الآتي ذكرها في الكلام على ممالك السودان .

ثم يمرّ شمالاً بميلة إلى الغرب إلى طول إحدى وخمسين، وعرض سبع عشرة على حاله .

ثم يمرّ مغرباً بميلة قليلة إلى الشمال إلى طول اثنتين وثلاثين، وعرض تسع عشرة . ثم يرجع مشرقاً إلى طول إحدى وخمسين .

ثم يمرّ في الشمال إلى الجَنَادِلِ : وهو الجبل الذي ينحدر عليه النيل بين منتهى مراكب النوبة في آنحدارها ومراكب مصر في صُعودها ، حيث الطول ست وخمسون درجة ، والعرض اثنان وعشرون درجة .

ثم يمرّ شمالاً إلى مدينة أُسْوَان الآتي ذكرها في أعمال الديار المصرية على القرب من الجنادل المقدمة الذكر .

وتمرّ شمالاً بميلة إلى الغرب إلى طول ثلاث وخمسين، وعرض أربع وعشرين . ثم يشرّق إلى طول خمس وخمسين .

ثم يأخذ في الشمال حتى ينتهي إلى مدينة الفُسْطَاط الآتي ذكرها في قواعد مصر المستقرة .

ويمتدّ في جهة الشمال أيضاً حتى يصير بالقرب من قرية تسمى شَطْنُوف^(١) من قرى مصر، من عمل منوف فيفترق بفرقتين : فرقة شرقية وفرقة غربية . فأما الفرقة الشرقية، فتمرّ في الشمال حتى تأتي على قرية تسمى المنصورة من عمل المرتاحية،

(١) كذا ضبطه ياقوت بالعبارة . وقال في القاموس "شَطْنُوف كَلَزُون" .

فتشعب شُعْبَتَيْنِ وتمَّزَّ الغَربِيَّةُ مِنْهُمَا، وهى العَظْمَى إلى دَمِساطٍ من شَرقِهَا، وتَصَبَّ في بَحرِ الرُّومِ حيثُ الطُّولُ ثَلاثٌ وخَمسونَ درَجةً وخَمسونَ دَقيقةً، والعَرضُ إِحدىً وثَلاثونَ وخَمسَ وعَشرَونَ دَقيقةً، وتمَّزَّ الشَّرقِيَّةُ مِنْهُمَا على أَشْهُومِ طَاحٍ، من غَربِهَا حتَّى تَجاوِزَ بَلاَدَ المَئزَلَةِ، وتَصَبَّ في بَحرِةٍ شَرقِيٍّ دَهايطُ حتَّى بِحَيرةِ تَنيسَ حيثُ الطُّولُ أَرَبٌ وخَمسونَ درَجةً وثَلاثونَ دَقيقةً .

وأما الفِرَقَةُ الغَربِيَّةُ، فتمَّزَّ من شَطَنُوفِ المَقَدِّمِ ذَكرُهَا حتَّى تَأْتِيَ بِالقَربِ من قَريَّةٍ تَسمَى بِأَبَى نُسَابَةِ من عَمَلِ البَحرِةِ، فَتَشَعْبُ شَعبَتَيْنِ، الغَربِيَّةُ مِنْهُمَا، وهى العَظْمَى تَأخُذُ شَمَالاً بَينَ عَمَلِ البَحرِةِ من شَرقِهَا وَبَينَ جَزرِيَّةِ بَنى نَصرَ من غَربِهَا، والشَّرقِيَّةُ تَأخُذُ شَمَالاً أَيْضاً بَينَ جَزرِيَّةِ بَنى نَصرَ من شَرقِهَا، وَبَينَ عَمَلِ الغَربِيَّةِ من غَربِهَا . وَيَسمَى هَذا البَحرُ بِجَحرِ أَبيارٍ، وَيمَّزَّ حتَّى يَلتَقِيَ مَعَ الفِرَقَةِ الغَربِيَّةِ عِندَ قَريَّةٍ تَسمَى الفَرَسَتَقَ من الغَربِيَّةِ بِالقَربِ من مَدِينَةِ أَبيارِ المَنسُوبِ إِلِهَا البَحرُ المَقَدِّمِ ذَكرُهَا، وَيَصِيرُ شَعبَةً وَاحِدَةً وَيمَّزَّ حتَّى يَصَبَّ في البَحرِ الرُّومِيَّ غَربِيَّ قَريَّةٍ تَسمَى رَشِيدَ حيثُ الطُّولُ ثَلاثٌ وخَمسونَ، والعَرضُ إِحدىً وثَلاثونَ .

وَمِنْ هَذِهِ الفِرَقَةِ يَتَفَرَّعُ خَلِيجٌ صَغيرٌ يَدخُلُ إلى بَحرِيَّةٍ تَسمُوهُ الآتِي ذَكرُهَا في جَمَلَةٍ البَحرِيَّاتِ، وَيَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ فِرَقَةٍ مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ وَمَا يَلِهَا مِنْ أَعْلَى النِّيلِ خُلُجَانٌ يَأْتِي ذَكرُ المَشْهُورِ مِنْهَا فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَأما زِيادَتُهُ ونَقْصُهُ، فَقَدْ اِخْتَلَفَ في مَدَدِ زِيادَتِهِ : فَنَقَلَ المَسْعُودِيُّ عَنِ العَرَبِ أَنَّهُ يَستَمِدُّ مِنَ الأَنْهَارِ وَالعيُونِ . وَلِذلِكَ تَنِيضُ الأَنْهَارِ وَالعيُونِ عِندَ زِيادَتِهِ . وَإِذَا غَاضَ زَادَتْ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَى القَضَاعِيُّ بِسَندِهِ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ العَاصِ أَنَّهُ قَالَ : ”إِنَّ نِيلَ مِصرَ سَيدُ الأَنْهَارِ، سَخَّرَ اللهُ لَهُ كُلَّ نَهْرٍ بَينَ

(١) كَذَا ضَبَطَهَا المُوَلِّفُ فَمَا يَأْتِي وَأَلْحَقَ بِهَا الهَاءَ وَكَذلِكَ بِاقُوتٍ إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ مِنْهَا الهَاءَ : تَسمُوهُ .

المشرق والمغرب أن يُمِدّه، فأمدته الأنهار بمائها، وفَجَّر الله له الأرض عيونا فأتتهى جريه إلى ما أراد الله، فأوحى الله إلى كل منها أن يرجع إلى عُنْصُرِهِ .

ويقال عن أهل الهند زيادته ونقصه بالسيول، ويعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار، ورُكُود السحاب .

وقالت القِبْطُ : زيادته من عيون في شاطئه رأها من سافر ولَحِقَ بأعاليه، ويؤيده مارواه القضاعى بسنده إلى يزيد بن أبي حبيب "أن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه قال لكعب الأحبار : أسألك بالله ! هل تجد لهذا النيل في كتاب الله عز وجل خبرا؟ قال : إى والله ! إن الله عز وجل يُوحى إليه في كل عام مرتين، يوحى إليه عند خروجه، فيقول : إن الله يأمرك أن تجرى، فيجرى ما كتب الله له، ثم يُوحى إليه بعد ذلك، فيقول : يانيلُ إن الله يأمرك أن تنزلَ، فينزلَ . ولا شك أن جميع الأقوال المتقدمة فرع لهذا القول، وهو أصل لجميعها .

وبكل حال فإنه يبدأ بالزيادة في الخامس من بؤونه من شهور القِبْطُ . وفي ليلة الثانى عشر منه يوزن الطَّيْنُ، ويعتبر به زيادة النيل بما أجرى الله تعالى العادة به، بأن يوزن من الطين الجاف الذى يعلوه ماء النيل زنة ستة عشر درهما على التحجير، ويرفع في ورقة أو نحوها ويوضع في صُنْدُوقٍ أو غير ذلك، ثم يوزن عند طلوع الشمس، فهما زاد أعتبرت زيادته كل حبة خروب بزيادة ذراع على الستة عشر درهما .

وفي السادس والعشرين منه يُؤخذ قاع البحر وتقاس عليه قاعدة المقياس التى تنفى عليها الزيادة .

وفي السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة، ويحسب كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا إلى أن يكمل آخى عشر ذراعا، فيحسب كل ذراع أربعاً وعشرين أصبعا، فإذا وفى ستة عشر ذراعا، وهو المعبر عنه بماء السلطان، كسر خليج القاهرة،

وهو يوم مشهود ، وموسم معدود ؛ ليس له نظير في الدنيا ؛ وفيه تكتب البشارات
بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة ، وتسير بها البرد ، ويكون وفاءه في الغالب في مسرى
من شهور القبط ، وفيها جل زيادته .

وفي النيروز ، وهو أول يوم من توت يكثر قطع الخُلجان والترع عليه ، وربما
أضطرب لذلك ثم عاد .

وفي عيد الصليب ، وهو السابع عشر من توت المذكور يقطع عليه غالب
بقية الترع .

وقد حكى القضاة عن ابن عفير وغيره عن القبط المتقدمين أنه إذا كان
الماء في اثني عشر يوما من مسرى اثني عشر ذراعا ، فهي سنة ماء ، وإلا فالماء
ناقص ، وإذا تم الماء ستة عشر ذراعا قبل النيروز فالماء يتم ، ثم غالب وفاءه
يكون في النصف الأول من مسرى ، وربما وفي في النصف الثاني منها ، وقد
يتأخر عن ذلك .

وفي الثامن من بابه يكون نهاية زيادته .

ورأيت في " تاريخ النيل " أنه تأخر وفاءه في سنة ثمان وسبعائة إلى تاسع عشر
بابه فوق ستة عشر ذراعا ، وزاد أصبعين بعد ذلك في يومين : كل يوم أصبع بعد أن
أستسقى الناس أربع مرات ، وهذا مما لم نسمع بمثله في دهر من الدهور .

وقد جرت عادته أنه من حين ابتداء النداء بزيادته في السابع والعشرين من
بئونه إلى آخر أبيب تكون زيادته خفيفة ما بين أصبعين فما حولهما إلى نحو
العشرة ، وربما زاد على ذلك . فإذا دخلت مسرى ، أشتدت زيادته وقويت ،
فيزيد العشرة فما فوقها ، وربما زاد دون ذلك . وأعظم ما تكون زيادته على القرب
من الوفاء حتى ربما بلغ سبعين أصبعا .

ومن العجيب أنه يزيد في يوم الوفاء سبعين أصبعا مثلاً، ثم يزيد في صبيحة يوم الوفاء أصبعين فما حولهما، ويتم على ذلك . وله في آخر بابه زيادة قليلة يعبر عنها بصبة بابه لما ينصب إلى النيل من ماء الأملاق .

وقد ذكر عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم وغيره أنه لما فتح المسلمون مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل شهر بؤونه، فقالوا : أيها الأمير إن لينلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، وهو أنه إذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضيناها فيها، وزيناها بأفضل الزينة، وألقيناها فيه . فقال : هذا مما لا يكون في الإسلام، فأقاموا أيب ومسرى وهو لا يزيد قليلا ولا كثيرا . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعترفه ذلك ، فكتب إليه أن أصبت ، وكتب رقة إلى النيل فيها ” من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر .

أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك ، فنسأل الله أن يجريك ” .

وبعث بها إليه ، فألقاها في النيل ، وقد تهيأ أهل مصر للخروج منها ، فأصبحوا يوم الصليب ، وقد بلغ في ذلك اليوم ستة عشر ذراعا .

ويروى أنه وقع مثل ذلك في زمن موسى عليه السلام ، وهو أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون ، فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء ، فرغبوا إلى موسى فدعاهم بإجراء النيل رجاء أن يؤمنوا ، فأصبحوا وقد أجراه الله في تلك الليلة ستة عشر ذراعا .

ورأيت في ” تاريخ النيل ” المتقدم ذكره : أنه في زمن المستنصر أحد خلفاء الفاطميين

بمصر مكث النيل سنتين لم يَطْلُع، وطلع في السنة الثالثة وأقام إلى الخامسة لم ينزل، ثم نزل في وقته وَنَضَبَ المَاءُ عن الأرض، فلم يوجد من يزرعها لقلة الناس؛ ثم طلع في السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة، ولم يبق إلا صُبابَةٌ من الناس، ولم يبق في الأقاليم ما يمشى على أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر، وأنه وفي ست عشرة ذراعا في ليلة واحدة بعد أن كان يخاض من برٍّ إلى برٍّ، وأقل ما انتهى إليه قاع النيل في النقص ذراع واحد وعشرة أصابع، ووقع ذلك من سنة الهجرية وإلى آخر الثمانمائة مرتين فقط : المرة الأولى - في سنة خمس وستين ومائة من الهجرة . وبلغ النيل فيها أربع عشرة ذراعا وأربعة عشر أصبعا . والمرة الثانية - في سنة خمس وثمانين وأربعمائة . وبلغ فيها سبع عشرة ذراعا وخمسة أصابع .

وقد وقع مثل ذلك في زماننا ، في سنة ست وثمانمائة . وأغني ما انتهى إليه القاعُ في الزيادة مما رأيتُه مسطورا إلى آخر سنة خمس وعشرين وسبعائة تسعة أذرع . وسمعت بعض الناس يقول إنه في سنة خمس وستين وسبعائة كان القاع اثنتي عشرة ذراعا .

وأقل ما بلغ النقص في نهاية الزيادة اثنا عشر ذراعا وأصبعا . وذلك في سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وأغني ما كان ينتهي إليه في الزمن المتقدم ثمانية عشر ذراعا حتى تعجب الناس من نيل بلغ تسع عشرة ذراعا في زمن عمر بن عبد العزيز، ثم انتهى في المائة السابعة إلى أن صار يجاوز العشرين في بعض الأحيان .

ومن العجيب أنه في سنة تسع وسبعين وثلثمائة كان القاع على تسع أذرع، ولم يُوف بل بلغ خمس عشرة ذراعا وخمس أصابع ؛ وفي سنين كثيرة كان القاع فيها

(١) - الذراع والاصبع يذكران ويؤنثان وقد جرى في كلامه تارة بالذكور وتارة بالتأنيث وكل صحيح .

دون الدرايين ، وجاوز التوفاء إلى ثمانى عشرة ذراعا فما دونها . ولا هبرة بقول المسعودى فى "مروج الذهب" إن أقل ما يكون القاع ثلاثة أذرع ، وإنه فى مثل تلك السنة يكون متقصرا . فقد تقدم ما يخالف ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ .

قلت : وقد جرت عادة صاحب المقياس ، أنه يعتبر قياسه زمن الزيادة فى كل يوم وقت العصر ، ثم ينادى عليه من الغد بتلك الزيادة أصابع من غير تصريح بذرع إلا أنه يكتب فى كل يوم رقاعا لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، كأرباب الوظائف من الأمراء ، وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، والمحاسب ، ومن فى معنائهم ، فيذكر زيادته فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقه من القبطى من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع وما صار إليه من الأذرع والعادة بينهما بزيادة أو نقص ، ولا يطلى على ذلك عوام الناس ورعاعهم ، فإذا وفى ستة عشر ذراعا صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعا عند كل أحد .

وأما مقاييسه ، فقد ذكر إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب "العجائب" أن أول من وضع مقياسا للنيل (خصليم) السابع من ملوك مصر بعد الطوفان : صنع بركة لطيفة وركب عليها صورتى عقاب من نحاس : ذكر وأتى ، يجتمع عندها كهنتهم وعلمائهم فى يوم مخصوص من السنة ، ويتكلمون بكلام فيصغر أحد العقابين . فإن صغر الذكور استبشروا بزيادة النيل . وإن صغرت الأنثى استشعروا عدم زيادته فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة .

قال المسعودى : وقد سمعتُ جماعة من أهل الخبرة يقولون : إن يوسف عليه السلام حين بنى الأهرام اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه .

قال القضاعى : وذلك بمدينة مَنْف ، وقيل : إن النيل كان يقاس بأرض يقال لها علوة إلى أن بنى مقياس مَنْف ، وإن القِبْط كانت تقيس عليه إلى أن بطل .

قلت : وموضع المقياس بِمَنْف إلى الآن معروف على القرب من الأهرام اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدْرشين ، وقيل كانوا يقيسونه بالرصاصه .

قال المسعودى : ووضعت دُلُوكَة العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياسا بأنصنا صغير الأذرع ، ووضعت مقياسا آخر بإنجيم ، ووضعت الرُّوم مقياسا بقَصْرِ الشَّمْع .

قال القضاعى : وكان المقياس قبل الفتح بقياسارية الأكسية بالفُسْطَاطِ إلى أن آتتْ المسامون أنبيتهم بين الحصن والبحر ، ثم جاء الإسلام وفتحت مصر والمقياس بِمَنْف .

كان النيل يقاس بِمَنْف ويدخل القياس إلى الفسطاط فينادى به ، ثم بنى عمرو بن العاص مقياسا باسوان ، ثم بنى مقياسا بدَنْدَرَة ، ثم بنى في أيام معاوية مقياسا بأنصنا .

فلما ولي عبد العزيز بن مَرْوَانَ مصر ، بنى مقياسا صغير الأذرع بِمُحْلَوَانَ من ضواحي الفُسْطَاطِ ، ثم لما ولي أَسَامَةُ بن زيد التَّنُوخِي بنى مقياسا في جزيرة الصَّنَاعَة المعروفة الآن بالرُوضَة بِأمر سليمان بن عبد الملك : أحد خلفاء بنى أُمَيَّة سنة سبع وتسعين من الهجرة ، وهو أكبرها دَرَعًا ، ثم بنى المأمون مقياسا أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة في سنة سبع وأربعين ومائتين في ولاية يزيد بن عبد الملك ^(١) على مصر ، وهو المعمول عليه إلى زماننا هذا .

(١) صوابه الموكل كما هي عبارة المقرئى وياقوت .

(٢) صوابه يزيد بن عبد الله التركي كما في المقرئى .

وكانت النصارى تتولى قياسه فعزلهم المتوكل عنه ورَّتب فيه أبا الرِّداد عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرِّداد المؤدّب، وكان رجلا صالحا، فأستقرّ قياسه فى بَيْتِهِ إلى الآن؛ ثم أصلحه أحمد بن طولون فى سنة تسع وخمسين ومائتين .

ثم كل ذراع يعتبر ثمانية وعشرين أصبعا إلى تمام اثنتى عشرة ذراعا، ثم يكون كل ذراع أربعة وعشرين أصبعا، فلما أرادوا وضعه على ستة عشر ذراعا، وزعوا الذراعين الزائدين، وهما ثمانية وأربعون أصبعا على اثنى عشر ذراعا لكل ذراع منها أربعة أصابع، فصار كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا، وبقي الزائد على ذلك كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا .

قال القضاعى: وكان سبب ذلك فيما ذكره الحسين بن محمد بن عبد المنعم فى رسالة له أن المسلمين لما فتحوا مصر عرض على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقاه أهلها من الغلاء عند وقوف النيل فى حدّ لمقياس لهم فضلا عن تقاصره، ويدعوهم ذلك إلى الاحتكار، والاحتكار يدعوهم إلى زيادة الأسعار، فكتب عمر إلى عمرو ابن العاص يسأله عن حقيقة ذلك، فأجابه: إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربع عشرة ذراعا، والحد الذى يروى منه سائرهما حتى يفصل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ست عشرة ذراعا، والنهائيتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان: فى الظميا والاستبحار، اثنتا عشرة ذراعا فى النقصان وثمانى عشرة ذراعا فى الزيادة. فأستشار عمر رضى الله عنه على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى ذلك، فأشار بأن يكتب إليه أن يبنى مقياسا، وأن يقصّ ذراعين على اثنتى عشرة ذراعا، ويبقى ما بعدهما على الأصل .

قال القضاعى : وفى هذا نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار، وانتقاض الأحوال، وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها إلى آخرها أربعة وعشرون أصبعا كل ذراع بغير زيادة على ذلك .

قال المسعودى : فإذا تم النيل خمس عشرة ذراعا، ودخل فى ست عشرة، كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يُستسقى فيه، وكان فيه نقص من خراج السلطان . وإذا آتته الزيادة إلى ستة عشر ذراعا، ففيه تمام خراج السلطان وأخضب الناس، وفيه ظمأ ربع البلد، وهو ضار للبهائم لعدم المرعى .

قال : وأتم الزيادات العامة النافعة للبلد كله سبع عشرة ذراعا، وذلك كفافها ورثي جميع أرضها . وإذا زاد على السبع عشرة ذراعا وبلغ ثمانى عشرة، استبحر من مصر الربع، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع . قال : وذلك أكثر الزيادات . قلت : هذا ما كان عليه الحال فى زمانه وما قبله وكان الحال جاريا على ما ذكره فى غالب السنين إلى ما بعد السبعائة .

أما فى زماننا، فقد علت الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء فى كل سنة وضعفت الجسور، وصار النيل بحكمة الله تعالى إلى ثلاثة أقسام : متقاصرة وهى ست عشرة ذراعا فما حولها، ومتوسطة وهى سبع عشرة ذراعا إلى ثمان عشرة ذراعا فما حولها، وعالية وهى ما فوق الثمان عشرة، وربما زادت على العشرين .

المقصود الرابع في ذكر خلجانها،

(وخلجانها القديمة ستة خُلج)

الخليج الأول

(المنهى)

وهو الخليج الذى حفره "يوسف الصديق عليه السلام"، ومخرجه بالقرب من دروة سربام، من عمل الأشمونين الآتي ذكرها، وهى المعروفة بدروة الشريف، ويأخذ شمالا إلى مدينة بهنسى، ثم إلى قرية اللاهون من عمل بهنسى، ويمتد في الجبل حتى يجاوزه إلى إقليم الفيوم، ويمتد بمدينة وينبث في نواحيه.

وهذا النهر من غرائب أنهار الدنيا تحف فوهته في أيام نقص النيل، وباقية يجرى في موضع ويحف في آخر إلى إقليم الفيوم، فيجرى شتاءً وصيفا من أعين تتفجر منه ولا يحتاج إلى حفر قط.

ويقال: إن "يوسف عليه السلام" حفره بالوحي ومياهه منقسمة على استحقاق مقدر، كما في دمشق من البلاد الشامية.

قال في "الروض المعطار": وكانت مقاسمه بحجر اللاهون على القرب من القرية المنسوبة إليه المتقدمة الذكر. قال: وهو من عجائب الدنيا، وهو شاذروان بين قبتين من أحكم صنعة، مدرج على ستين درجة، فيها فوارات في أعلاها وفي وسطها وفي أسفلها، يسقى الأعلى الأرض العليا، والأوسط الأرض الوسطى، والأسفل الأرض السفلى بوزن وقدر معلوم.

قال: ويقال إن يوسف عليه السلام عمله بالوحي، وإن ملك مصر يومئذ لما عاينه قال هذا من ملكوت السماء.

ويقال إنه عمل من الفضّة والنحاس والرخام . قلت : قد ذهبت معالم هذا
اللاهون وبقى بعض بنائه ونُقِلَت المقاسم إلى مكان آخر بالقيوم تسقى الآن الأراضي
على حكمها .

ومن غرائب أمره أن به التماسيح التي لا تحصى كثرة ، ولم يشتهر في زمن من
الأزمان أنها آذت أحدا قط .

الخليج الثاني

(خليج القاهرة الذي يكسر سده يوم وفاء النيل)

حفره عمرو بن العاص وهو أمير مصر ، في خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .
قال القضاعي : أمر بحفره عام الرمادة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وسأفه إلى بحر القلزم ، فلم يتم عليه الحول حتى جرت فيه السفن وحمل فيها الزاد
والأطعمة إلى مكة والمدينة ، ونفع الله بذلك أهل الحجاز .

وذكر الكندي في كتاب " الجند العربي " أن حفره كان سنة ثلاث وعشرين
من الهجرة ، وفرغ منه في ستة أشهر ، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز
في الشهر السابع .

قال الكندي : ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم
أضاعته الولاة فترك وغلب عليه الرمل ، وصار منتهاه إلى ذنب التماسيح من ناحية
الطور والقلزم .

وذكر ابن قديد : أن أبا جعفر المنصور أمر بستده حين خرج عليه محمد بن
عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ليقطع عنه الطعام .

(١) ولم يكن عليه قنطرة إلى أن بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة في سنة تسع ...
(٢) وقد ذكر المسعودي في "مروج الذهب" أنه أنقطع جريان هذا الخليج
عن الإسكندرية إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة لردم جميعها وصار شرب
أهلها من الآبار .

قال ابن عبد الظاهر : وليس لها أثر في هذا الزمان . قال : وإنما بنى السلطان
الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب هاتين
القنطرتين الموجودتين الآن على بستان الخشاب وباب الخرق ، يعنى قنطرة السد
وقنطرة باب الخرق في سنة نيف وأربعين وستائة .

وذكر في موضع آخر من خطه أن القنطرة التي عليه خارج باب القنطرة بناها
القائد جوهر سنة ستين وثلاثمائة ، وقنطرة اللؤلؤة - وهي التي كانت بالقرب من ميدان
القمح ، وبعضها باق إلى الآن - من بناء الفاطميين أيضا ، واللؤلؤة التي تنسب هذه
القنطرة إليها منظر على برّ الخليج القبلى ، بناها الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ،
كانت مستنزها لخلفاء الفاطميين ينزلون فيها في أيام النيل ويقيمون بها إلى آخر النيل .
قلت : أما باقى القناطر التي على هذا الخليج : كقنطرة عمر شاه ، وقنطرة سنقر ،
وقنطرة أمير حسين ، فكلها مستجدّة في الدولة التركية ، وغالبها في الدولة الناصرية
محمد بن قلاوون .

قال ابن أبي المنصور في "تاريخه" : وأول من رتب حفره على الناس المأمون
ابن البطائحي ، وكذلك البساتين في دولة الأفضل ، وجعل عليه واليا بمفرده .

(١) لعله تسع وستين فإن ابتداء ولايته لمصر في خمس وستين .

(٢) هذه الفقرة غير مناسبة هنا وقد ذكرها قريبا بالقطعا في الكلام على خليج الإسكندرية فنبه .

الخليج الثالث

(خليج السردُوس)

ويقال السردُوسى بزيادة ياء فى آخره، وهو الذى حنّره هامان لفرعون .
قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقال : إنه لما حنّره سأله أهل
البلاد أن يحرنه إليهم على أن يجعلوا له على ذلك مالا ، فتحصل له من ذلك مائة
ألف دينار فحملها إلى فرعون ، فقال : ويحك ! إنه ينبغى للسيد أن يعطف على
عبده ولا ينظر إلى ما فى أيديهم ، وأمر برّد المال إلى أربابه .
قال : وكان هذا الخليج أحد نزعات الدنيا يسافر فيه يوما بين بساينٍ مشتبكة
وأشجارٍ مُتَفِّةٍ وفواكه دانية . قلت : أما الآن فقد ذهب ذلك ، وبطل الخليج
وعوّض عنه ببحر أبى المنجا الآتى ذكره .

الخليج الرابع

(خليج الإسكندرية)

وهو خليج مخرجه من الفرقة الغربية من النيل عند قرية تسمى العُطَفَ تُقَابِلُ
قُوَّةَ، مدينة المزارحتين، ويميل غربا حتى يتصل بجُدران الإسكندرية، وتدخل منه
قناةٌ تحت الأرض إلى داخلها، ويتشعب منها شُعبٌ كثيرة تدخل دُورَها، وتخرج
من دار إلى أخرى، ويخالط آبارها فيحلو ماؤها وتملأ منها صهاريجها حينئذ فتتمكث
من السنة إلى السنة .

وكانت قُوَّةُ هذا الخليج فيما تقدّم جنوبى قُوَّته الآن عند قرية تسمى الظاهرية
من عمل البُحيرة ، وكان يمرّ على دَهَنُور مدينة البحيرة ، ثم نقل إلى مكانه الآن ،
ويقال إن أرضه فى القديم كانت مفروشة بالبلاط .

قال في "تقويم البلدان" : وهو من أحسن المنتزهات لأنه مخضر الجانين
بالبساتين، وفيه يقول ظافر الحداد الشاعر السكندري :

وَعَشِيَّةٌ أَهَدَتْ لِعَيْنِكَ مَنْظَرًا * جَاءَ السُّرُورُ بِهِ لِقَلْبِكَ وَافْدَا
رَوْضٌ كُمُخَضَّرِ الْعِذَارِ وَجَدُولٌ * نَقَشَتْ عَلَيْهِ يَدُ الشَّمَالِ مَبَارِدَا
وَالنَّخْلُ كَالْعِيدِ الْحِسَانِ تَزَيَّنَتْ * وَلَيْسَنَ مِنْ أُمَّارِهِنَّ قَلَائِدَا

وقد ذكر المسعودي في "مروج الذهب" : أنه أنقطع جريان هذا الخليج
عن الإسكندرية إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة لردم جميعها، وصار شرب أهلها
من الآبار .

الخليج الخامس

(خليج منجا)

ويقال إن الذي حفره برصا : أحد ملوك مصر بعد الطوفان .

الخليج السادس

(خليج دمياط)

ولم أقف على تفاصيل أحواله .

أما بحر أبي المنجا، فإنه وإن عظم شأنه مستحدث حفره الأفضل بن أمير الجيوش
وزير المستعلي بالله النماطي .

قال ابن أبي المنصور في "تاريخه" : وكان سبب حفره أن البلاد الشرقية كانت
جارية في ديوان الخلافة، وكان معظمها لا يروى في أكثر السنين ولا يصل الماء
إليها، إلا من خليج السردوس المتقدم ذكره أو من غيره من الأماكن البعيدة .

وكان يشارف العمل يهودى اسمه أبو المنجا فرغب أهل البلاد إليه في فتح ترعة يصل الماء منها إليهم في ابتدائه فرفع الأمر إلى الأفضل، فركب في النيل في ابتدائه في مركب ورمى بجرم من البوص في النيل وجعل يتبعها بمركبه إلى أن رماها النيل إلى فم ذلك البحر فحفر من هناك ، وأبتدأ جفره يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسة ، وأقام الحفر فيه سنتين وغرّم فيه مال كثير . وكان في كل سنة تظهر فائده ، ويتضاعف ارتفاع البلاد التى تحته ، وغلب عليه إضافته إلى أبى المنجا لتكلمه فيه . فلما عرض على الأفضل ما صرف عليه أستعظمه وقال غرّمنا عليه هذا المال العظيم والاسم لأبى المنجا ، فسماه البحر الأفضلى فلم يتم له ذلك ولم يعرف إلا أبى المنجا ، ثم سطر أبى المنجا المذكور بعد ذلك ونفى إلى الإسكندرية . ولما ولى المأمون بن البطائحي الوزارة تحدّث معه الأمراء في أن يتخذ لفتح يومما كفتح خليج القاهرة، فأبتنى عند سدّه منظرة متسعة يتزل فيها عند فتحه .

قلت : وكانت فيه معدية يعدى فيها بين قلوب وبيسوس، وكان يحصل للناس بها مشقة عظيمة لكثرة المازين، فعمر عليها الظاهر ببيرس رحمه الله قنطرة عظيمة بحجر صلد، من غرائب البناء، تمر عليها الناس والدواب، فحصل للناس بها الارتفاق العظيم، وهى باقية على جدّها إلى زماننا .

وكان سدّه يقطع في عيد الصليب في سابع عشر توت ، ثم استقرّ الحال على أن يقطع يوم النوروز في أول يوم من توت حرصا على رى البلاد .
وأما بقية خلج الديار المصرية المستحدثة وترعها بالوجهين : القبلى والبحرى، فأكثر من أن تحصر، ولكل منها زمن معروف يقطع فيه .

المقصود الخامس

(في ذكر بحيرات الديار المصرية ، وهي أربع بحيرات)

الأولى منها - بحيرة الفيوم ، ويعبر عنها بالبركة ، وهي بحيرة حلوة بالقرب من الفيوم بين الشمال والغرب عنه ، على نحو نصف يوم ، يصب فيها فضلات مائة المنصب إليه من خليجه المنهى المتقدم ذكره ، وليس لها مصرف تنصرف إليه لإحاطة الجبل بها ، ولذلك غلبت على كثير من قرى الفيوم وعلا ماؤها على أرضها .

قال في "تقويم البلدان" : وطولها شرقا بغرب نحو يوم ، وبها أسماك كثيرة تحصل من صيدها جملة كثيرة من المال ؛ وبها من آجام القصب والطرفاء والبردى ما يتحصل منه المال الكثير .

الثانية - بحيرة بوقير (بضم الباء الموحدة وسكون الواو وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحت وراء مهملة في الآخر) وهي بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومي بين الإسكندرية ورشيد ، ولها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية المتقدم ذكره ، يأتيها ماء النيل منه عند زيادته ؛ وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المال الكثير ، وفيها من أنواع الطير كل غريب ، ويجوانبها الملاحات الكثيرة التي يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها .

قلت : وقد وقع للسلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله وهم جعل هذه البحيرة هي بحيرة تسمى الآتي ذكرها ؛ على أن هذه البحيرة قد أقطع مددها من البحر الملح في زماننا بواسطة غلبة الرمل على أشتونها الموصل إليها الماء من بحر الروم بففت وصارت سبخة طويلة عريضة ؛ ومات ما كان يصاد منها من السمك البرى ، وما يتحصل منها من الملح المنعقد بسواحلها ، وعاد على الإسكندرية

بواسطة ذلك ضرر كبير لأنه كان الغالب على أهلها أكل السمك ويحصل لهم بالملح
رفق كبير .

الثالثة - بَحِيرَة نَسْتَرُوه (بفتح النون وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة
فوق وضم الراء المهملة وسكون الواو وهاء في الآخر) وهى بحيرة ماء مِلْح أيضا
بالقرب من البركس في آخر بلاد الأعمال الغربية الآتى ذكرها ، متسعة الأرجاء
إذا توسطها المركب لا تُرى جوانبها لعظمها ، بعد مركزها عن البر ، وبالقرب منها
قرية تسمى نَسْتَرُوه ، وهى التى تضاف إليها ، وداخلها قرية أخرى تسمى سِنْجَار
لا زرع فيهما ولا نفع ، وليس بهما غير صيد السمك ، وهى الغاية القُصوى فيما
يُتَحَصَّل من المال .

قال صاحب حماة : يبلغ متحصل صيد سمكها فى كل سنة فوق عشرين ألف
دينار مصرية ، وليس يساويها بحيرة من البحيرات فى ذلك .
قلت : وأخبرنى بعض مباشريها أنها فى زماننا قد تميز متحصلها عن ذلك نحو
مثله للاجتهاد فى الصيد ، وكثرة الضبط وارتفاع السعر .

الرابعة - بَحِيرَة تَنِيَسَ قال السمعاني (بكسر التاء المثناة فوق والنون المشددة
المكسورة ثم ياء مثناة تحت وسين مهملة فى الآخر) وهى بَحِيرَة مَرَسِيَّة متصلة بالبحر الرومى
أيضا بآخر عمل الدقهلية والمُرَاحية الآتى ذكره ، وفيها مصبُّ بحر أَشْمُوم المنفرد من
الفرقة الشرقية من النيل ، ولذلك يعذب مأوها فى أيام زيادة النيل ، وبوسطها تَنِيَسُ
الآتى ذكرها فى الكلام على الكُور القديمة .

قال صاحب "الروض المعطار" : طمى عليها البحر قبل الفتح الإسلامى بمائة
سنة ففرقتها وصارت بحيرة ، ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب "بحيرة دمياط"
وهما فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة .

المقصد السادس

(في ذكر جبالها)

اعلم أن وادى مِصرَ يكتنفه جبلان شرقا وغربا ، يتبدآن من الجنادل المتقدمة الذكر فوق أسوان آخذين في جهة الشمال على تقارب بينهما بحيث يُرى كل منهما من الآخر والنيل ماز بين جنبتيهما .

فأما الشرق منها فيمتر بين النيل وبحر القلزم المتقدم الذكر حتى يجاوز القُسطَاط فينعطف ويأخذ شرقا حتى يأتى على آخر بحر القلزم من الشمال ، يرتفع في موضع وينخفض في آخر ، وفي أوائل هذا الجبل من جهة الجنوب على القرب من مدينة قُوص (مَعِين الزُّمَرْد) المتقدم ذكره في خواص الديار المصرية ، في مغارة طويلة في قطعة جبل عالية ، تسمى قرشده ليس هناك أعلى منها ، وعلى القرب من ذلك (مقطع الرُخام) الملون من الأبيض والسَّمَاقِ وسائر الألوان المستحسنة التي لا تساوى حُسْنًا . ويسمى الجبل المطل منه على النيل مقابل المراغات من عمل إنجيم . (جبل الساحرة) وأظنه جبل زماخير الساحرة المتقدمة الذكر في عجائب الديار المصرية . ويسمى الجبل المطل منه على النيل مقابل مدينة مَنَقْلُوط (جبل أبى فيدة) بقاء وياء مشاة تحت .

ويسمى الجبل المطل منه على النيل مقابل منية بنى خصيب من الأشمونين . (جبل الطيمون) ، ويعرف الآن بجبل الطير ؛ وقد تقدّم ذكره في جملة عجائب الديار المصرية .

ويسمى ماسامت القُسطَاط والقرافة منه (المُقَطَّم) وربما أُطلق المُقَطَّم على جميع المُقَطَّم^(١) ؛ وقد اختلف في سبب تسميته بذلك ، فقيل سمي باسم مُقَطَّم الكاهن كان مقيا فيه لعمل الكيمياء .

(١) لعله على جميع الجبل .

وقال أبو عبد الله النيني : سمي المَقَطَّم بن مصر بن بيسر، وكان عبدا صالحا آنفرد فيه لعبادة الله تعالى .

وذكر الكِنْدِيُّ في كتاب "فضائل مصر" ما يوافق ذلك : وهو أن عمرو بن العاص رضى الله عنه سار في سفح المَقَطَّم ومعه المَقْوِصُ ، فقال له عمرو : ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات كجبال الشام ؟ فلو شققنا في أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا - فقال المقوقس : وجدنا في الكتب أنه كان أكثر البلاد أشجارا ونبتا وفاكهة ، وكان ينزله المَقَطَّم بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح عليه السلام ، فلما كانت الليلة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام ، أوحى الله تعالى إلى الجبال : إني مكلمٌ نبياً من أنبيائي على جبل منك فسمت الجبال كلها وتشاхت إلا جبل بيت المقدس فإنه هبط وتصاغر ، فأوحى الله تعالى إليه : لم فعلت ذلك ؟ وهو به أخبر ، فقال : إعظاما وإجلالا لك يارب ! فأمر الله تعالى الجبال أن يحيوه كل جبل مما عليه من النبت ، بخاد له المَقَطَّم بكل ما عليه من النبت حتى بقي كما ترى ، فأوحى الله تعالى إليه إني معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غرس الجنة .

وأكر القضاعى وغيره أن يكون لمصر ولد اسمه المقطم ، وجعلوه مأخوذا من القطم وهو القطع ، لكونه منقطع الشجر والنبات .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وفيه كنوز عظيمة ، وهياكل كثيرة ، وعجائب غريبة . وللملوك مصر فيه من الجواهر والذهب والفضة والأواني ، والآلات النفيسة ، والتماثيل العجيبة ، وتراب الصنعة ما يخرج عن حد الإحصاء .

قال في "الروض المعطار" : وإذا دبرت تربته حصل منها ذهب صالح .

ويلى المَقَطَّم من جهة الشمال (اليحامي) ، وهى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرق وجبانتها .

قال القضاعى : وقيل لها اليحامي لاختلاف ألوانها، واليحموم فى كلام العرب الأسود المظلم، ولعله يريد الجبل الأحمر وما والاها .

وفى شرق المقطم على بحر القلزم (طور سيناء) الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه، وهو جبل مرتفع للغاية، داخل فى البحر .

قال الأزهرى : وسى الطور بطور بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .
قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ومن خاصته أنه كيفما كسر، ظهر فيه صورة شجر العليق، وقد نبى هناك ديرا على الجبل، وغرس بواديه بساتين وأشجار .



وأما الغربى منهما، فإنه يتدنى من الجنادل أيضا ويمتز فى الشمال فيما بين بلاد الصعيد والصحراء، ثم فيما بين بلاد الصعيد والواحات، ثم فيما بين بلاد الصعيد والقيوم حتى ينتهى إلى مقابل الفسطاط . وهناك موقع الهرميين العظيمين المقدم ذكرهما على القرب من بؤصير، ثم يعطف ويأخذ غربا بشمال فيما بين بلاد ريف الوجه البحرى والبرية حتى يجاوز بركة النطرون، ويمضى إلى قريب من الإسكندرية .
ويسمى فيما سامت الواحات (جبل جالوت) نسبة إلى جالوت البربرى .
ويتصل به من جنوبى الواحات (جبل اللازورد) قيل إن به معدن لازورد، وأنه أمتنع أستخراجه لانتقطاع العارة هناك .

المقصود السابع

(فى ذكر زروعها، ورياضينها، وفواكهها، وأصناف المطعوم بها)

أما زروعها فيزرع فيها من أنواع الحبوب المقتاتة وغيرها كالأبر والشعير والذرة والأرز، والبقلى، والحمص، والعدس، واليسلا، والخبان، واللوىيا، والسيسم، والقرطم، والخشخاش، والخروع، والسلمج، وبزر الكنان، والبسيسم، وغير ذلك .

وبها قصب السكر في غاية الكثرة، والبطيخ، والقثاء على اختلاف أنواعها،
والملوخيا، والقلقاس، واللفت، والباذنجان، والدباء، والهلين، والقنبسط، وأنواع
البقول المختلفة، كالثوم، والبصل، والكراث، والفجل وغيرها، وعامة زرع حبوبها
على النيل عند نزوله عن أرضها من أثناء بابه من شهور القبط إلى أثناء طوبه منها
بحسب ما يقتضيه حال الزرع. وربما زرع فيها على السواقي والدواليب؛ وأكثر
ما يكون ذلك في بلاد الصعيد خصوصا في سنين الجذب؛ ويُزرع في الفيوم
في غير زمن النيل على نهر المنهى المتقدم ذكره في جملة الأنهار. ولا زرع فيها
على المطر إلا القليل النادر بأطراف البحيرة مما لا عبرة به على قلة المطر بها بل فقده
بصعيدها.

وأما رياحينها، ففيها الآس، والورد، والبنفسج، والترجس، والياسمين،
والنسرين، والبان، والينوفر، وأزهار الحمضات، والريحان الفارسي على اختلاف
أنواعه، والمنثور فيها بقله، وإنما أكثر بالإسكندرية، إلى غير ذلك من بقايا الأنواع
التي يشق استيعابها.

وأما فواكهها، ففيها الرطب، والعنب، والتين، والرمان، والحوخ، والمشمش،
والقراصيا، والبرقوق، والتفاح، والكمثرى، والسفرجل بقله، واللوز الأخضر،
والنبق، والثوت، والفريصاد، والموز. ولا يوجد فيها الجوز، والفستق، والبنديق،
والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه. وإن زرع بأرضها شيء من ذلك، لم يُفلح؛
والزيتون فيها بقله، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنما يؤكل ملحا.

وفيهما من الحمضات الأترج، والحماض، والبجاد، والنارج، والليمون، على
اختلاف أنواعها.

وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من الألبان، والأجبان، والعسل، الذي لا يساوى حسنا، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال، والسكر الكثير من المكرر والتبع، والوسط، والنبات. ومنها يجلب إلى أكثر البلاد. قال في "مسالك الأبصار": وقد نُسب به ما كان يذكر من سكر الأهواز.

وبها من أنواع الحلوى والأشربة المتخذ ذلك من السكر والأشربة (؟) الفائقة مالا يوجد في غيرها من الأقاليم.

وبها من لحم الضأن، والبقر، والمعز، مالا يعادله غيره في قُطر من الأقطار لطافة ولذة.

قلت: ومن محاسنها أن فاكهتها لا يدوم نوع منها في جميع السنة فيمَلّ، بل يأتي كل نوع منها في وقت دون وقت، فتشوق النفوس إلى طلبه، ويكون لقومه بهجة. ولا يعترض ذلك بدوام أكل الجنة، فإن الجنة أكلها لا يمل بخلاف ما كل الدنيا. ولأهل الرفاهية بذلك فرحة، ونتغالي فيه في ابتدائه مع أنه يجتمع في الحين الواحد من الفواكه والرياحين مالا يحتاج معه في زمنه إلى غيره.

قال المهذب بن ممتي في "قوانين الدواوين": بعثت غلاما لي يحضر من فكاكي القاهرة ما وجد بها من أنواع الفاكهة والرياحين، فأحضر لي منها الورد، والزجس، والبفسج، والياسمين، والمتثور، والمرسين، والريحان، والطلح، والبلح، والجمار، والحيار، والبطيخ الأخضر، والباقل، والتفاح، والفقوس، والأترنج، والنارنج، والأشبهاء، والليمون، والتمر هندي الأخضر، والعنب، والحصرم.

وقال بعض الجوالين في الآفاق: طفت أكثر المعمور من الأرض فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبه، ولبن أمشير، ونخروب برمهات، وورد برمودة، وبنق بشنس، وتين بؤنة، وعسل أبيب، وعنب مسرى، ورطب توت، ورمان بابه، وموز هتور، وسمك كيهك.

المقصود الثامن

(في ذكر مواشيتها، ووحوشها، وطيورها)

أما مواشيتها، ففيها الإبل المستجادة، والبقر العظيمات القدود، والأغنام المستطابة للحم، والخيول المسومة، والبغال النفيسة، والحمر الفارهة مما ليس له نظير في إقليم من الأقاليم، ولا مصر من الأمصار .

وأما ووحوشها، ففي براريها الغزلان، والنعام، والأرانب، والثعالب، والضباع، والدئاب، وغير ذلك، ويحلب إلى سلطانها الفيلة، والزرافات، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية، والسباع من بلاد الشام من مملكته لتكون في إصطبلاته زينة لمملكته .

وأما طيورها ففيها من الطيور الدواجن في البيوت الدجاج، والإوز، والحمام، ومن الطيور البرية الصقر، والعقاب، والنسر، والكركي، واللغ، والإوز التركي، والمرزم، والبجع، والبلسون، والجرج، والحجل، والكروان، والسمان، والببل، وسائر أنواع العصافير، والأنواع المختلفة من طيور الماء . ويحلب إلى سلطانها سائر أنواع الجوارح الصائدة على اختلاف أجناسها من أقاصى البلدان، ويقع التغالى في أتمناها للغاية القصوى على ما يأتى ذكره في الكلام على أوصافها إن شاء الله تعالى .

المقصود التاسع

(في ذكر حدودها)

قد اضطربت عبارات المصنفين في المسالك والممالك في تحديدها، والذي عليه الجمهور أن حدّها الشّمالى، وهو المعبر عنه عند المصريين بالبحرى يتبدى مما بين الزعقة وريح عند حدّها من الشام والبحر شماله، ويمتدّ غربا على ساحل البحر

المذكور حيث الشجرتان عند الشجرة التي يعلق فيها العوامُ الحرقَ وتقول هذه مفاتيح الرمل، عند الكُثْبُ المجنبه عن البحر الرومى، إلى رَحْ ثم إلى العريش أخذاً على الحفار، إلى الفرما، إلى الطينة، إلى دِمياط، إلى ساحل رشيد، إلى الإسكندرية، وهى آخر العارة بهذا الحدّ. ثم يأخذ على اللينونة، على العميدى، إلى بَرْقَة، إلى العَقْبَة الفاصلة بين الديار المصرية وإفريقية على ما تقدّم ذكره فى الكلام على سواحل البحر الرومى.

وحدها الغربىّ يتبدى من ساحل البحر الرومى حيث العَقْبَة، ويمتدّ جنوباً، وأرض إفريقية غربية، على ظاهر القيوم والوَاحَاتِ حتّى يقع على صحراء الحبشة على ثمان مراحل من أسوان.

وحدها الجنوبىّ وهو المعبر عنه عند المصريين بالقبلىّ، يتبدى من آخر هذا الحدّ بصحراء الحبشة ويمتدّ شرقاً، وبلاد الروم من بلاد البرية جنوبيه حتّى يأتى إلى أسوان، ثم يمتدّ من أسوان شرقاً حتّى ينتهى إلى بحر القلزم مقابل أسوان على خمس عشرة مرحلة منها.

وحدها الشرقى يتبدى من آخر هذا الحدّ ويمتدّ شمالاً وبحر القلزم شرقه إلى عِدَابَ إلى القصير إلى القلزم إلى السويس، ثم يأخذ شرقاً عن بركة الغرندل التى أغرق الله تعالى فيها فرعون من بحر القلزم إلى تيه بنى إسرائيل؛ ثم يعطف شمالاً ويمرّ على أطراف الشام حتّى يخطّ على ما بين الزعقة ورغ ساحل البحر الرومى حيث وقعت البداءة.

وعلى هذا التحديد جرى السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تقويم البلدان" والمقتدر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" إلا أنه فى "تقويم البلدان" جعل ابتداء الحدّ الشمالى نفس رَغْ، ونهاية الحدّ الغربىّ حدود بلاد النوبة؛ وفى "التعريف"

جعل ابتداء الحدّ الشمالى ما بين الزعقة وريح، ونهاية الحدّ الغربى صحراء بلاد الحبشة على ما تقدم فى التحديد، والأمر فى ذلك قريب .

وخالف فى ذلك القضاعى بفعل ابتداء الحدّ الشمالى من العريش ، وليس فيه بُعد عن ریح بل فى الآثار ما يدل عليه . كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وجعل الحدّ الجنوبى يقطع بحر القلزم وينتهى إلى ساحل الحجاز بالحوراء: أحد منازل طريق الحجاز من مصر؛ والحدّ الشرقى يمتد على ساحل البحر الشرقى إلى مدين، إلى أيلة، إلى تيه بنى إسرائيل، إلى العريش . فأدخل بحر القلزم من حدّ الحوراء إلى نهايته فى الشمال، وما على ساحله من برّ الحجاز مما يسامت العريش كأيلة ومدين ونحوها فى أرض مصر .

قلت : وفيه نظر ، والظاهر ما تقدم لأن البر الشرقى من القلزم معدود من ساحل الحجاز من جملة جزيرة العرب، وهى ناحية على أنفرادها، وكأن الذى حمل القضاعى على ذلك مسامحة هذا الساحل لحدّها بساحل البحر الرومى على ما تقدم . وأعلم أن جميع المحدّدين لها وإن اختلفت عباراتهم فى ابتداء الحدّ الشمالى الفاصل بينها وبين الشام، هل هو من العريش أو من ریح أو بين الزعقة وريح ؟ متفقون على أن ابتداء الحدّ حيث الشجرتان ، وكأنهما شجرتان قديمتان حدّد فى الأصل بهما .

قال فى "التعريف" : وما إخال الآن بقاء الشجرتين، وإنما هو موضع الشجرة التى تعلّق فيها العوام الحرق ، ويقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثْب الخبئة عن البحر الرومى قريبا من الزعقة .

قال : فأما الأشجار التى بالمكان المعروف الآن بالسردية، ويعرف قديما بالعُش^(١) فهى وإن عظمت محدثة من زمن من حدّد الأقاليم، وليست فى موضع ما ذكره .

(١) فى الضوء، والتعريف "بالخرّوبية" .

ثم لها طول وعَرْض ، فطولها ما بين جهتي الشمال والجنوب ، وعَرْضها ما بين جهتي المشرق والمغرب . وقد قيل إن طولها مسيرة شهر وعَرْضها مسيرة شهر .
وذكر القضاة أن ما بين العريش إلى بركة أربعون ليلة .

المقصود العاشر

(في ابتداء عمارتها ، وتسميتها مصر ، وتفرع الأقاليم التي حولها عنها)

أما ابتداء عمارتها ، فقد ذكر المؤرخون أنها عُمِرَت مرتين :

المرّة الأولى - قبل الطوفان ، وأول من عمّرها قبل الطوفان نقرأوس بن مصرم
ابن براجيل بن رزائيل بن غريباب بن آدم عليه السلام ، نزلها في سبعين رجلا من
بنى غريباب جبابرة ، فعمّرها . وهو الذي هندس نيلها وحفره حتى أجراه ، ووجه
إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه ، وبنى المدن وأثار المعادن ، وعمل الطلسمات .
المرّة الثانية - بعد الطوفان ، وأول من عمّرها بعد الطوفان مصر بن بيصر بن
حام بن نوح عليه السلام ، قدم إليها هو وأبوه بيصر في ثلاثين رجلا من قومه حين
قسم نوح الأرض بين بنيهِ ، فزلوا بسفح المقطم ، وتقرّوا فيه منازل كبيرة نزلوا بها
ثم آبتنوا مدينة منّف وسكنوها على ما يأتي ذكره في الكلام على قواعد مصر القديمة
إن شاء الله تعالى .

قال ابن لهيعة : وكان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يُسكنه الله تعالى
الأرض الطيبة المباركة التي هي آمن البلاد وغوث العباد ، ونهرها أفضل الأنهار ،
ويجعل له فيها أفضل البركات ، ويسخر له الأرض ولولده ويدلّلها لهم ، ويقوّمهم
عليها . فسأله عنها فوصفها له ، وأخبره بها .

(١) لم تتفق الكتب على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر فلذلك لم نعول عليها وأقصرنا على ما في
نسختنا الخطية .

وأما تسميتها مصر ، فقليل : إن نقراووس بن مصرىم أول ملوكها قبل الطوفان حين عمرها سماها باسم أبيه مصرىم تبركا ، وأن مصر بن بيصر إنما سمي باسمه .
وأكثر المؤرخين على أنها سميت بمصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . وعلى الوجهين تكون علماً منقولاً عن اسم رجل .

وقال الجاحظ في رسالة له في مدح مصر : إنما سميت مصر لمصير الناس إليها قلت : ويجوز أن تكون سميت مصر لكونها حداً فاصلاً بين بلاد المشرق والمغرب إذ المصر في أصل لغة العرب اسم للحد بين الأرضين كما قاله القضاعى . ومنه قول أهل حجر : آشتريت الدار بمصورها ، أى بحدودها .
قال القضاعى : وكيف ما ...^(١) أما أن أريد بالمصر البلد العظيم فإنه ينصرف ويجمع على أمصار .

وأما تفرع الأقاليم التي حولها عنها . فعن ابن أبيه أنه لما استقر مصر بن بيصر بهذه البلاد هو وأبوه بيصر وإخوته : فارق ، وماح ، وياح وكثر أولادهم ، قال له إخوته : قد علمت أنك أكبرنا وأفضلنا ، وأن هذه الأرض أسكنك إياها جدك نوح ، ونحن نضيق عليك أرضك ، ونحن نطلب إليك بالبركة التي جعلك فيها جدك نوح أن تبارك لنا في أرض نلحق بها ونسكنها ، وتكون لنا ولأولادنا ، فقال : نعم عليكم بأقرب البلاد إلى ، لاتباعدوا مني ، فإن لى في بلادى هذه مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى ، وتكون لى ولولدى وأولادهم ، لحاز مصر لنفسه ما بين الشجرتين اللتين بالعريش إلى أسوان طولا ، ومن برقة إلى أيلة عرضاً ، وحاز فارق لنفسه ما بين برقة إلى إفريقية ، فكان ولده الأفارقة ، وبذلك سميت إفريقية ، وذلك مسيرة شهر ، وحاز ماح ما بين الشجرتين من منتهى حد مصر إلى الجزيرة ، مسيرة

(١) كذا في الأصل بدون بياض وهو غير مستقيم ولعله وكيفما كان فإنها لاتنصرف . أما إن الخ .

شهر، وهو أبو نَبَط الشام . وحازياح ماوراء الجزيرة كلها من البحر إلى الشرق مسيرة شهر، فهو أبو نَبَط العراق .

وقد قال القضاعى بعد ذكر حدود مصر الأربعة : وما كان بعد هذا من الجانب الغربى فهو من فوج أهل مصر وثغورهم من بَرَقَة إلى الأندلس .

قلت : وذلك أن المسلمين بعد فتح مصر توجهت طائفة منهم إلى إفريقية ففتحها، ثم توجهت طائفة من إفريقية إلى الأندلس ففتحته على ما سياتى ذكره فى الكلام على مكاتبات ملوك الغرب إن شاء الله تعالى .

المقصد الحادى عشر

(فى ذكر قواعدها القديمة ، والمباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ،
القواعد المستقرة ، وما فيها من الأبنية الحسنة)
وقواعدها القديمة على ضربين :

الضرب الأول

(ما قبل الطوفان)

والمعروف لها إذ ذاك قاعدتان :

القاعدة الأولى - مدينة أسسوس، وهى أول مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان، بناها نقرأووس بن مصرىم بن براجيل بن رزائىل بن غرباب بن آدم عليه السلام : أول ملوك مصر قبل الطوفان، وموضعها خارج الإسكندرية تحت البحر الرومى كما ذكره بعض المؤرخين، وشق لها نهرا يتصل بها من النيل .
القاعدة الثانية - مدينة برسان، وهى مدينة بناها نقرأووس المتقدم ذكره لأبنة مصرأيم وأسكنه فيها، ولم أقف على مكانها .

الضرب الثاني

(قواعدها فيما بعد البطوفان)

والمشهور منها ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى - مدينة مَنْف . قال في "تقويم البلدان" : (بكر الميم وسكون النون وفاء في الآخر) والجارى على الألسنة منف (بفتح الميم) وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهى أول مدينة بنيت بمصر بعد الطوفان، بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام حين نزل مصر .

قال في "الروض المعطار" : وأصلها بالسريانية مافه ومعناها بالعربية ثلاثون وذلك أن مصر حين نزلها كان في ثلاثين رجلا من أهل بيته، فسمّاها بعددهم .

قال ابن الأنبارى في كتابه "الزاهر" : وهى على آثنى عشر ميلاً من القُسطَاط . قلت : وَمَنْفٌ هذه فى جنوبى القُسطَاط على القرب من البلدة المعروفة بالبدرشين من عمل الجيزة، وهى المعروفة بمصر القديمة، وقد نخرت وصارت كيئانا، وبها آثار بنيان من الحجر الكدّان، يوجد تحت الردم على القرب من أحجار الأهرام فى العظمة والمقدار وبوسطها آثار رِبَاةٍ عظيمة، بها صلمان عظيمان من حجر صوّان أبيض، طول كل صم منها نحو عشرين ذراعا، وهما مطروحان على الأرض، وقد غطى الطين أسفلهما .

وكان على القرب منهما بيت عظيم من حجر أخضر، قطعة واحدة : جوانبه الأربعة وأرضه وسقفه، ولم يزل على ذلك إلى الدولة الناصرية حسن بن الناصر محمد بن

قلاوون، وأراد الأمير شيخو أتابك العساكر نقله إلى القاهرة صحيحاً ففعل فأنكسر فأمر بأن تحت منه أعتاب فتحت وجعل منها أعتاب خانقاه وجامعه بصليبة الجامع الطولوني، وشرقى هذه المدينة معالم سور مبنى بالجر الكذّان النحت فصوصاً صغاراً بالطين والجير الذى قد علمت، لونه لون الحجر. ويقال: إنه سور الأهرام التى بناها يوسف عليه السلام لأتخار الحنطة فى سنبلها.

ويذكر بعض أهل تلك البلاد أنه يوجد بعض السُنْبُل الذى أخبر به يوسف عليه السلام تحت تلك الأرض إلى الآن، وأنه فى المقدار فوق مقدار الحنطة المتعارفة بقليل.

وفى شمالى هذه المدينة بلدة صغيرة تعرف بالعزيرية، يقال إنها كانت منزلة العزيز وزير الملك، وهناك مكان على القرب منها يعرف بزليخا، وفى غربها إلى الشمال فى سفح جبل مصر الغربى سجن يوسف عليه السلام، وإلى جانبه مسجد موسى عليه السلام، وعلى القرب من السور المقدم ذكره مسجد يعقوب عليه السلام. ويقال إن النيل كان تحت هذا السور، وهناك مكان يعرف بالمقياس إلى الآن.



القاعدة الثانية - مدينة الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر بن فيلبس المقدونى ملك اليونان المقدم ذكره.

وقد ذكر القضاعى: أنه كان بها عدة عجائب، من أعجبها المنارة، وهى منارة مبنية بالجر والرصاص ارتفاعها فى الهواء ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبار، وقيل أربع مائة ذراع، وقيل مائة وثمانون ذراعاً، وقيل بالجر لغلبة الجير فيه. وعلى رأسها امرأة من أخلاط يرى فيها من حضر إليها على بُعد، وتهتدى بها المراكب السائرة إلى الإسكندرية إذ برتها منخفض لا جبال فيها، تحرق بشعاعها ما أرادوا إحراقه

(١) لعله وقيل بالجير أى هى مبنية بالجر والرصاص وقيل بالجير الخ تأمل.

من المراكب الواصلة ، آحتال عليها النصارى فى أوائل الإسلام فى خلافة الوليد
ابن عبد الملك الأموى فكسروها ، وتداعى هدم المنارة شيئا فشيئا إلى أوساط
المائة الثامنة فاستؤصلت وبقى أثرها .

(ومنها) الملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ثم يرمون بكرة فلا تقع
فى حجر أحد إلا ملك مصر ، وإن حضر فيه ألف من الناس كان كل منهم
ناظرا فى وجه صاحبه ، وإن قرئ كتاب ، سمعوه جميعا ، أو أتى بنوع من اللعب
رأوه عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية والسفلة .

وكان من غريب هذا الملعب أن عمرو بن العاص رضى الله عنه حضر فيه
فى الجاهلية فى يوم لعب الكرة ف وقعت الكرة فى حجره ، وهم لا يعرفونه ، فتعجب
القوم منه وقالوا ما رأينا هذه الكرة كذبت قط إلا هذه المرة ، فاتفق أن ملكها
فى الإسلام . و (عمود السوارى) الذى بظاهر الإسكندرية الآن أحد عمود هذا
الملعب ، وهو عمود عظيم يرمى الرجل القوى السهم عن قوس قوى فلا يبلغ رأسه .
(ومنها) عمودا الإعياء ، وهما عمودان ملقيان وراء كل منهما جبل حصباؤه
كصبرا الجمار بمنى يُقبل العبي بسبع حصيات حتى يستلقى على أحدهما ، ثم يرمى
وراءه بالسبع ويقوم ولا يلتفت ، ويمضى لطلبته فلا يحس بشئ من تعب .
(ومنها) القبة الخضراء ، وهى قبة ملبسة نحاسا كأنه ذهب إبريز لا يُبليه القدم
ولا تُخلقه الدهور .

(ومنها) المِسلتان ، وهما جبلان قائمان على سَرَطانات نحاس فى أركانها كل
ركن على سرطان ، فلو أراد مرید أن يدخل تحتها شيئا إلى الجانب الآخر لفعل .
قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وهاتان المِسلتان إحداهما فى الركن
الشرقى من البلد ، والثانية ببعض البلد ، وهما عمودان مُربعان من حجر أحمر ،

وعرض قواعدهما من الجهات الأربع أربعون شبرا، طول كل واحدة منهما خمس قاعات، وأعلىها مُستَدَقٌ^(١)، وعرض قاعدتهما من الجهات الأربع أربعون شبرا . ويقال إن عليهما مكتوب بالسريانية: "أنا يعمر بن شداد، بنيت هذه المدينة وأردت أن أجعل فيها من الآثار المعجزة، والعجائب الباهرة، فأرسلت البتون بن مرة العادى ومقدام بن يعمر بن أبى رغال الثودى إلى جبل بريم الأحمر، فأقتطعوا منه حجرين وحملاهما على أعناقهما، فأنكسرت ضاع البتون، فوددت أن أهل مملكتى كانوا فداء له، فأقامهما القطن بن حازم المؤتفى فى يوم السعادة".

وقد قيل فيها : إنها إرم ذات العماد ، ولم تزل عامرة إلى الفتح الإسلامى ، فلما فتحها عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

"أما بعد . فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية، وأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للولوك". ويقال إنه وجد فيها أربعة آلاف بقال يبيعون البقل، وكان فيها من الروم يومئذ مائة ألف من أهل القوة لحقوا بأرض الروم فى المراكب، وكان من بقى ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .

قلت : وقد ذهب جل ذلك وزال أكثره ، ولم يبق من عجائبها ظاهرا إلا عمود السوارى ، وهو عمود عظيم من حجر صوان خارج المدينة لا يكاد يكون له نظير فى الدنيا ، ويقال إنه كان قبلها مدينة فى مكانها تسمى رقوره بناها مصر بن بيسر بن حام بن نوح المتقدم ذكره حين بنى مدينة منف ، وعلى منوالها نسج الإسكندر مدينته .



القاعدة الثالثة - قصر الشمع الذى هو داخل مدينة القسطنطينية، وهو المعبر عنه فى كتب الفتوح بالحصن ، بناه كسرجوس الفارسى أحد نواب ملك الفرس

(١) يظهر أنه مكرم المذكور فى السطر قبله . (٢) فى ياقوت قطن بن جارد .

عند آستيلائهم على مصر بعد غلبة بُحْت نَصْر الآتى ذكره في الكلام على ملوكها .
 قال الفضاغى : ولم يكله وإنما كله الروم بعد ذلك ^(١) التى فتحت مصر
 وهى مقرة الملوك بها . وقد قيل : إن المَقْوَس كان يقيم بالإسكندرية أربعة أشهر
 من السنة ، وبمدينة منف أربعة أشهر ، وبقصر الشمع أربعة أشهر .
 وأعلم أنه قد كان بالديار المصرية مستقرات أخرى عظام كانت قواعد لبعض
 ملوكها فى بعض الأزمان ، ومدن دون ذلك يأتى الكلام على جميعها بعد ذكر الكور
 القديمة والأعمال المستقرة إن شاء الله تعالى .



وأما المباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ، فاعلم أن ملوك مصر الأقدمين كان
 لهم من العناية بالبناء ما ليس لغيرهم ، وكانوا يتفانرون بذلك لإخباره على طول
 الزمن بعظمة ملكهم وأقدارهم على ما لم يبلغه غيرهم ، ومن أعظم أبنيتهم (الأهرام) .
 وهى قبورٌ اتخذوها فى غاية الوثاقة حفظاً لأجسامهم ، وكان لهم بها العناية التامة ،
 وآبتوا منها عدة بالجبل الغربى من النيل ، بعضها مقابل القُسطاط ، وبعضها ببوصير
 السِّدر وسقارة ودهشور من الأعمال الخيزية ، وبعضها بميدوم من البهنساوية ،
 وأعظمها خطراً وأجلها قدرا الهرمان المقابلان للقُسطاط ، يقال إن طول عمود
 كل هرم منهما ثلاثمائة وسبعة عشر ذراعاً ، تحيط بها أربعة سطوح متساوية الأضلاع ،
 طول كل ضلع منها أربعمائة وستون ذراعاً .

قال أبو الصلت : ليس على وجه الأرض بناءً باليد حجر على حجر بهذا المقدار .
 ويقال : إن لها أبواباً فى أرج فى الأرض طول كل درج مائة ونمسون ذراعاً ،
 وباب الهرم الشرقى من الجهة البحرية ، وباب الهرم الغربى من الناحية الغربية ،

(١) بياض بالأصل .

والصابئة تحجّ هذين الهرمين ويقولون : إن أحدهما قبر إدريس عليه السلام ، والآخر قبر ابنه صابئ الذي إليه ينتسبون .

وقد اختلف في بانيها فأكثر المؤرخين على أن بانيها سوريد بن سملوق أحد ملوك مصر قبل الطوفان ، الآتى ذكره في الكلام على ملوكها فيما بعد إن شاء الله تعالى ، جعلها قبورا لأجسادهم وكنوزا لأموالهم ، حين أخبره منجموه وكهنته بما دلم عليه الرصد النجومى من حدوث حادثة تعم الأرض ؛ ورجحه محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم وقال : لو بُنيت الأهرام بعد الطوفان ، لكان علمها عند الناس . وذكر ابن عفير عن أشياخه أن بانيها جياد بن مياد بن شمر بن شداد بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

قال : ولم تزل مشايخ مصر يقولون : إن الذى بناها شداد بن عاد . وذهب المسعودى وغيره إلى أنه بناها يوسف عليه السلام .

وقال ابن شبرمة بنتها العاتقة حين ملكوا مصر . وبالجملة فهما من أعظم الآثار وأقدمها وأجل المباني وأدومها ؛ ولله القائل .

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ وَاسْمَعْ مِنْهُمَا * مَا يَرَوِيَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْغَايِرِ

لَوْ يَنْطِقَانِ ، لَخَبَرَانَا بِالَّذِى * صَنَعَ الزَّمَانُ بِأَوَّلِ وَبَآخِرِ

وكيفها كان فملهما إلى الخراب ، شأن الدنيا ومبانيها .

وقد كان المأمون : أحد خلفاء بني العباس حين دخل إلى مصر فى سنة ست عشرة ومائتين قصد هدمها فلم يقدر ، فأعمل الحيلة فى فتح طاقة فى أحدهما يتوصل منها إلى من لقان ، يصعد فى أعلاه إلى قاعة بأعلى الهرم ، بها ناووس من حجر ، وينزل فى أسفله إلى بئر تحت الأرض لم يعلم ما فيها . ويقال : إنه وجد فى أعلاه مالا فاعتبره

فإذا هو قدر المال الذى صرفه من غير زيادة ولا نقص ؛ وقد أخذ الآن فى قطع حجارتها الظاهرة لآتخاذ البلاط منها . فإن طال الزمان يوشك أن ينحربا كغيرهما من المباني .

ولله المتنبى حيث يقول :

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُيَانِهِ ؟ * مَا قَوْمُهُ ؟ مَا يَوْمُهُ ؟ مَا الْمَصْرَعُ ؟
تَتَخَفُّ الْأَثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا * دَهْرًا ، وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَبَعُ !

قال إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب ” العجائب ” : وقد قيل إن هوجيب أحد ملوك مصر قبل الطوفان أيضا بنى الهرم الكبير الذى بهشور ، والثانى بناء قفطريم ، بن قفط ، بن قبطيم ، بن مصر ، بن بيسر ، بن حام ، بن نوح عليه السلام بعد الطوفان .

قال القضاعى : أما الهرم الذى بدير أبى هر ميس : وهو الهرم المدرج يعنى الذى شاملى أهرام دهشور ، فإنه قبر قرياس ، وهو فارس أهل مصر ، كان يعد فىهم بألف فارس ، فلما مات جزع عليه ملكه وبنى له هذا الهرم فدفنه فيه .

قال : وقبر الملك نفسه الهرم الكبير من الأهرام التى غربى دير أبى هر ميس ، وعلى بابه لوح من الحجر الكدّان طوله ذراع فى ذراع مكتوب بالخط البرباوى .

ومن عظيم بنيانهم أيضا ولطيف حكمهم (البرابى) وهى بيوت عبادة كانت لهم ، زبروا فيها حكمهم ، ورققوا توارىخ ملوكهم ، وصوّروا فيها صور الأمم التى حولهم . فمضى قصدتهم أمة من الأمم ، أوقعوا بصورهم المصوّرة من النكال ما أرادوا ، فيصيب تلك الأمة على البعد ما أوقعوه بتلك الصور ، إلى غير ذلك من الحكم التى أودعوها والطلسمات التى وضعوها بجدرانها .

ويقال : إن أول من بنى البرابى بمصر دُلُوكَة العجوز، التى ملكت مصر بعد فرعون لعنه الله !

قال فى "مسالك الأبصار" : وقد أخبرنى الحكيم شمس الدين محمد بن سعد الدمشقى أنه رآها وتأملها، فوجدها مشتملة على جميع أشكال الفلك ، وأن الذى ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد بل توّلى عليها قوم بعد قوم حتى تكاملت فى دَوْرٍ، وهو ثلاثون ألف سنة : لأن مثل هذه الأعمال لا تُعمل إلا بالأرصَاد ولا يكمل رصد المجموع فى أقل من هذه المدة .

قلت : ويجوز أن يكون الرصد حصل على الوجه المذكور ، وزُرِ بِرُورِقِمَ فى الكُتُب فلما بنى الثانى هذه البرابى، نقل منها ما زُرِ بِرِفى الكتب من ذلك الزمن المتقدم .

وأعلم أن أكثر البرابى بالوجه القبلى من الديار المصرية، وبالوجه البحرى القليل منها ، وقد استولى الخراب على جميعها، وذهبت معالمها ولم يبق إلا آثارها، والذى وقفت عليه فى التواريخ، ووقفت على آثار غالبه ورسومه سبع برابٍ .

(منها) برِبا سَمْنُودٌ كانت بظاهِر سَمْنُود من الأعمال الغريبة بالوجه البحرى .
قال الكندى : رأيتها وقد خزنَ فيها بعضُ عَمَلِها قَرظاً فرأيتَ الجمل إذا دنا من بابها بجملته وأراد أن يدخلها ، سقط كل ديبب فى القرظ فلا يدخل منها شىء إلى البربا .

قال القضاعى : ثم خربت عند الخمسين وثلاثمائة .

(ومنها) برِبا تُمى بالمرُتَاحية من الوجه البحرى على القُرب من مدينة تُمى الخراب وعامة أهل تلك الناحية يقولون برِبا عاد، وهى باقية يُجَدِّرانها، وسقوفُها من أعظم

المجارة العظيمة، إلى الآن باقية، وبأعلى بابها قطعة مبنية بالطوب الأحمر والجص،
وداخلها أخواض عظيمة من الصوان غريبة الشأن .

(ومنها) بربا إنحيم، وهي بربا بظاهر مدينة إنحيم من الوجه القبلي؛ كانت من
أعظم البرابي وأحسنها صنعةً وأكبرها حكمةً، ولم تزل عامرة إلى أوساط المائة الثامنة،
فأخذ في هدمها والعمارة بأحجارها خطيب إنحيم، ولم يبق إلا آثارها، وبعض
جدرانها قائمة إلى الآن .

(ومنها) بربا دندرة من الأعمال القوصية .

قال القضاعي : وهي بربا عجبية فيها مائة وثمانون كوة تدخل الشمس في كل
يوم في كوة منها، ثم تكثر راجعة إلى الموضع الذي بدأت منه، وهي الآن خراب لم
يبق إلا آثارها .

(ومنها) بربا الأقصر: وكانت بربا عظيمة فهُدمت أيضاً، ولم يبق منها إلا آثارها .

ومن بقايا الآثار بها صنم عظيم من حجر صوان أملس، قائم على باب ضريح الشيخ
أبي الحجاج الأقصري على حاله إلى الآن، ومر عليه زمن الشيخ وهو على ذلك،
ولعله إنما أراد ببقائه التنبيه على ضعف عقول عبدة الأصنام لكونهم يعبدون
حجراً مثل هذا .

(ومنها) بربا أرمنت، وهي بربا صغيرة قد ذهبت معالمها، ولم يبق بها إلا عمدة
صوان قائمة من غير شيء محمول عليها .

(ومنها) بربا إسنا، وهي متوسطة القدر بين الكبير والصغير، وقد بق منها
قطعة جيدة جعلت شونة للغلال، وأهل إسنا يذكرون أن الفأر لا يدخلها، وإن
دخلها مات .

ومن الآثار العجيبة بمصر أيضا مسلتان بعين شمس على القرب من المطرية من ضواحي القاهرة من حجر صوان أحمر محمدتا الرأسين. ذكر القضاعي: أن الشمس تطلع على الجنوبية منهما في أقصر يوم في السنة، وعلى الشمالية في أطول يوم في السنة؛ وتتردد فيما بينهما في بقية السنة. وذكر أنه كان عليهما صومعتان من نحاس، إذا كان زمن زيادة النيل تقاطر الماء من أعلاهما إلى أسفلهما، فنبت حولهما العوسج، وما في معناه من الحشيش.

ومن العجائب حائط العجوز، وهو حائط من لبن، بنتها دلوكة ملكة مصر بعد فرعون، من العريش إلى أسوان، دائرة على أراضي مصر من شرقها وغربها في لحف جبلها، وجعلت بين كل ثلاثة أميال محرسا، وشقت خليجا من النيل إلى جانبها، وآثارها باقية إلى الآن بالجانب الشرق والجانب الغربى.

المقصد الثانى عشر

(في ذكر قواعد المستقرة)

وهي ثلاث قواعد، قد تقاربت واختلطت حتى صارت كالقاعدة الواحدة.

القاعدة الأولى

(مدينة الفسطاط)

بفاء مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم طاء ثانية في الآخر. ويقال فيه فُسطاط بإبدال الطاء الأولى تاء وفسطاط. قال الجوهري: وكسر الفاء لغة فيهن، وهى المدينة المعروفة بين العامة بمصر وأسمها القديم باب أليون^(١). قال أبو السعادات بن الأثير في نهايته: بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو ونون في الآخر.

(١) وفى ياقوت بابليون الباء الثانية مكسورة واللام ساكنة وقد ذكره أيضا فى أليون

قال القضاعي : وهو آسمها بلغة الروم والسودان ، ولذلك يعرف القصر الذي بالشرق باب أليون ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال في "كتاب الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة ، وعرضها ثلاثون درجة وعشر دقائق .

وقال في "القانون" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال ابن سعيد : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال في "رسم المعمور" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة . والذي عليه عمل أهل زماننا في وضع الآلات وغيرها طول خمس وخمسين درجة ، وعرض ثلاثين .

وآختلف في سبب تسميتها بالفسطاط ، فقال ابن قتيبة : إن كل مدينة تسمى فسطاطاً ، ولذلك سميت مصر الفسطاط .

وقال الزنجشيري : الفسطاط اسم لضرب من الأبنية ، في القدر دون السرادق والذي عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضي الله عنه يعني خيمته ، وذلك أن عمرا لما فتح الحصن المعروف بقصر الشمع في سنة إحدى وعشرين من الهجرة وأستولى عليه ضرب فسطاطه على القرب منه فلما قصد التوجه إلى الإسكندرية لفتحها ، أمر بنزع فسطاطه للرحيل ، فإذا بجحام قد أفرخ فيه فقال : لقد تحزمت منّا بحرم ، وأمر بإقرار الفسطاط مكانه ، وأوصى على الجحام ، وسار إلى الإسكندرية ففتحها ، ثم عاد إلى فسطاطه ونزل به ونزل الناس حوله ، وأبنتى داره الصغرى التي هي على القرب من الجامع العتيق مكان فسطاطه ، وأخذ الناس في الاختطاط حوله فتنافست القبائل في المواضع والاختطاط ، فوئى عمرو

على الحِطَط معاوية بن حُذَيْجِ التَّجِييِّ، وشريك بن سُمَيِّ الغُطَيْفِيَّ، وعمرو بن قَحْزَمِ الخَوْلَانيَّ، وحيَويل بن ناشِرَةِ المَعافِرِيَّ، ففصلوا بين القبائل وأنزلوا الناس منازلهم، فأختطوا الحِطَط وبنَّوا الدور والمساجد، وعُرفت كل خِطَّة بالقبيلة أو الجماعة التي أختطتها، أو بصاحبها الذي أختطها .

فأما الحِطَط والأدُر التي عرفت بالقبائل والجماعات .

(فمنها) خِطَّةُ أهل الرَاية، وهم جماعة من قُرَيْشٍ، والأنصار، وحرَّاعَة، وأسلم، وغِفَّارٍ، ومزَيْنَة، وأشَجَع، وجُهَيْنَة، وتَقِيْف، ودَوَس، وعَبَس بن بَغِيض، وجرش من بني كِنَانَة، وليث بن بكر، لم يكن لكل منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فجعل لهم عمرو بن العاص رايةً لم ينسبها إلى أحد، وقال يكون وقوفكم تحتها، فكانت لهم كالنسب الجامع، وكان ديوانهم عليها فعرفوا بأهل الرَاية، وأنفردوا بخِطَّة وحدهم، وخِطَّتْهم من أعظم الحِطَط وأوسعها .

(ومنها) خِطَّةُ مَهْرَة، وهم بنو مَهْرَة بن حِيدَان بن عمرو بن إلخاف بن قُضَاعَة ابن مالك بن حَيْر، من قبائل التَّيْن .

(ومنها) خِطَّةُ نُجَيْب، وهم بنو عَدِيَّ وسعد ابني الأَشْرَس بن شَيْب بن السَّكَن بن الأَشْرَس بن كِنْدَة؛ ونُجَيْبُ اسمُ أمهما عرفت القبيلة بها .

(ومنها) خِطَطُ نَلَم، وهي ثلاث : الأولى بنو نَلَم بن عَدِيَّ بن مُرَّة بن أَدَد، ومن خالطهم من جَدَام . والثانية، بنو عبد ربه بن عمرو بن الحرث بن وائل بن راشدة ابن نَلَم . والثالثة، بنو راشدة بن أَدَب بن جَزِيلَة بن نَلَم .

(ومنها) خِطَطُ اللَّفِيْف، وهم جماعة من القبائل تسارعوا إلى مراكب الروم حين بلغ عمرًا قدومهم الإسكندرية عند فتحها، فقال لهم عمرو، وقد آستكثرهم : إنكم

(١) كذا في ابن دقاق أيضا ووقع في المقرئى "بنورية" وهو تصحيف .

(٢) في خطط المقرئى وابن دقاق "فقال لهم عمرو بن جمالة" .

لِكما قال الله : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) فُسِّمُوا اللَّفِيفَ من يومئذ .

(ومنها) خِطَطُ أهل الظاهر ، وهم جماعة من القبائل قفلوا من الإسكندرية بعد قفول عمرو بن العاص ، فوجدوا الناس قد أخذوا منازلهم ، فتحاكموا إلى معاوية بن حُذَيْج الذي جعله عمرو على الخِطَطِ ، فقال لهم : إني أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل ، فسميت منازلهم الظاهر .

(ومنها) خِطَطُ غَافِقٍ ، وهم بنو غافق بن الحرث بن عك بن صُدْثَانَ بن عبد الله ابن الأزد .

(ومنها) خِطَطُ الصَّدِفِ : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين . وهم بنو مالك بن سَهْلٍ بن عمرو بن قيس بن حَمِيرٍ من قبائل اليَمَنَ ، وقيل بنو مالك بن مُرْقَعٍ بن كِنْدَةَ ، سمي الصَّدِفُ لأنه صَدَفَ بوجهه عن قومه حين أتاهاهم سَيْلُ العَرِمِ .

(ومنها) خِطَطُ خَوْلَانَ ، وهم بنو خَوْلَانَ بن عمرو بن مالك بن زيد بن عَرِيبِ .

(ومنها) خِطَطُ الفارسيين ، وهم بقايا جند باذان ، عامل كسرى ملك الفُرس على اليَمَنِ .

(ومنها) خِطَطُ مَذْجِج ، وهم بنو مالك بن مُرَّة بن أَدَد بن زيد بن كَهْلَانَ بن عبد الله .

(ومنها) خِطَةُ يَحْصَبَ ، وهم بنو يَحْصَبَ بن مالك بن أسلم بن زيد بن غَوْثِ

ابن حَمِيرِ .

(ومنها) خِطَةُ رُعَيْنٍ ، وهم بنو رُعَيْنٍ بن زيد بن سهل بن يَعْفَر بن مُرَّة بن أَدَدِ .

(ومنها) خِطَةُ بنى الكَّلَاعِ ، وهو الكَّلَاعُ بن شُرَحْبِيل بن سَعْد بن حَمِيرِ .

(ومنها) خِطَةُ المَعَاظِرِ ، وهم بنو المَعَاظِرِ بن يَعْفَر بن مُرَّة بن أَدَدِ .

(ومنها) خِطَطُ سَبَا ، وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سَبَا .

(ومنها) خِطَةُ بنى وائل ، وهو وائل بن زيد مناة بن أَفْصَى بن إياس بن حَرَام بن

جَدَام بن عَدَى .

(ومنها) خِطَّةُ الْقَبْضِ ، وهم بنو القَبْضِ بن مَرَّئِدٍ .

(ومنها) خِطَطُ الْحَمْرَاوَاتِ ، وهى ثلاث ؛ سميت بذلك لتزول الروم بها ، وهم حُمْرُ الْأَلْوَانِ :

الأولى - الحمراءُ الدُّنْيَا ؛ وبها خِطَّةُ بَلَى ، وهم بنو بِلَى بن عمرو بن إلخاف بن قُضَاعَةَ إلا من كان منهم فى أهل الرّاية ؛ وخِطَّةُ ثَرَاد من الأزْد ، وخِطَّةُ فَهْمٍ ، وهم بنو فَهْمٍ بن عمرو بن قيس بن عَيْلَانَ ، وخِطَّةُ بنى بجر بن سَوَادَةَ من الأزْدِ .

الثانية - الحمراءُ الوُسْطَى ، وبها خِطَّةُ بنى نَبِه ، وهم قوم من الروم حضروا الفتح ؛ وخِطَّةُ هُدَيْلٍ ، وهم بنو هذيل بن مُدْرِكَةَ بن إِيَّاس بن مُضَرٍ ؛ وخِطَّةُ بنى سَلَامَانَ من الأزْدِ .

الثالثة - الحمراءُ القُصُوى ، وهى خِطَّةُ بنى الأزرق من الرُّوم ، وحضر الفتح منهم أربعائة رجل ؛ وخِطَّةُ بنى يَشْكُرَ بن جَزِيلَةَ من نَلَمَ ، وإليهم ينسب جبل يَشْكُرُ الذى بُنِيَ عليه جامع أحمد بن طولون الآتى ذكره مع جوامع الفُسطَاطِ إن شاء الله تعالى .

(ومنها) خِطَطُ حَضْرَمَوْتَ ، وهم بنو حَضْرَمَوْتَ بن عمرو بن قَيْسٍ بن معاوية بن حَمِيرٍ ، إلى غير ذلك من الخطط التى دَرَسْتُ قبل الأهتمام بالتأليف فى الخِطَطِ .



وأعلم أنه كان فى خلال هذه الخِطَطِ دُور جماعة كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم ممن حضر الفتح .

(منها) دار عمرو بن العاص ، ودار الزُّبَيْرِ بن العَوَّام ، ودار قَيْسٍ بن سَعْدٍ بن عُبَادَةَ الأنصارى ، ودار مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّدٍ الأنصارى ، ودار عبد الرحمن بن عَدِيْسٍ البَلَوِىّ ، ودار وَهَبٍ بن عُمَيْرٍ بن وَهَبٍ بن خَلَفٍ الجُمَحِىّ ، ودار نافع بن عبد القيس بن لَقِيْطٍ الفِهْرِىّ ، ودار سَعْدٍ بن أبى وَقَّاصٍ ، ودار عُقْبَةَ بن عامر الجُهَنىّ ، ودار القاسم

وعمره وأبني قيس بن عمرو، ودار عبد الله بن سعد بن أبي سريح العامري، ودار مسعود بن الأسود بن عبد شمس بن حرام البلوي، ودار المستورد بن شداد الفهري، ودار حيي بن حرام الليثي، (وفي صحبته خلاف)، ودار الحرث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء، ودار بشر بن أرطاة العامري، ودار أبي ثعلبة الحشني، ودار إياس بن البكير الليثي، ودار معمر بن عبد الله بن فضلة القرشي العدوي، ودار أبي الدرداء الأنصاري، ودار يعقوب القبطي رسول المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مارية: أم ولده إبراهيم وأختها شيرين، ودار مهاجر مولى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ودار عتبة بن زيد الأنصاري، ودار محمد ابن مسلمة الأنصاري، ودار أبي الأسود مسروح بن سدر الحصني، ودار عبد الله ابن عمر بن الخطاب، ودار خارجة بن حذافة بن غانم العدوي، ودار عتبة بن الحرث، ودار عبد الله بن حذافة السهمي، ودار محمية بن جزء الزبيدي، ودار المطلب بن أبي وداعة السهمي، ودار هبيب بن معقل الغفاري، وبه يعرف وادي هبيب بالقرب من الإسكندرية، ودار عبد الله بن السائب المخزومي، ودار جبر القبطي رسول المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودار يزيد بن زياد الأسلمي، ودار عبد الله بن ريان الأسلمي، (وفي صحبته خلاف)، ودار أبي عميرة رشيد بن مالك المزني، ودار سباع بن عرفة الغفاري، ودار فضلة بن الحرث الغفاري، ودار الحرث بن أسد الخزاعي (وفي صحبته خلاف)، ودار عبد الله بن هشام بن زهرة من ولد تميم بن مرة، ودار خارجة بن حذافة بن غانم العدوي، وهو أول من أبتني غرفة بالفسطاط، فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمرها فكتب إلى عمرو بن العاص: أن أدخل غرفة خارجة وأنصب فيها سريرا، وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهديها . ففعل عمرو فلم

يبلغ الكوى فأقترها، ودار محمد بن حاطب الجمحي، ودار رِفاعَة الدَّوسِيّ، ودار فضالة
 ابن عبيد الأنصاري، ودار المطلب بن أبي وداعة السهمي^(١). إلى غير ذلك من الدور
 التي أغفلت ذكرها أصحاب الخطط.

قلت : وكان أمراء مصر القائلون مقام ملوكها الآن يتزلون بالفُسْطَاط، ولم يكن
 لهم في ابتداء الأمر مقرّة معيّنة، ولا دارٌ للإمارة مخصوصة . فنزل عمرو بن العاص
 أولُ أمرائها بداره على القرب من الجامع ، ولم يزل كلُّ أمير بعده ينزل بالدار التي
 يكون بها سكنه إلى آخر الدولة الأمويّة، وكان عبد العزيز بن مروان ، وهو أمير
 مصر في خلافة أخيه عبد الملك بن مروان قد بنى دارا عظيمة بالفُسْطَاط سنة سبع
 وستين من الهجرة وسماها دار الذهب، وجعل لها قبة مُدْهبة إذا طلعت عليها
 الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفا على بصره، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها
 وعظمتها، وكان عبد العزيز ينزلها، ثم نزلها بنوه بعده . فلما هرب مروان بن محمد
 آخر خلفاء بني أميّة إلى مصر، نزل هذه الدار فلما رهقه القوم، أمر بإحراقها، فلامه
 في ذلك بعض بني عبد العزيز بن مروان فقال : إن أبى ، أنها لبنة من ذهب
 ولبنة من فضة، وإلا فما تصاب به في نفسك أعظم، ولا يمتنع بها عدوك من بعدك .
 فلما غلب بنو العباس على بني أميّة وهرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني
 أميّة إلى الديار المصرية، وتبعه على بن صالح بن علي الهاشمي إلى أن أدركه بمصر
 وقتله وأستقر أميرا على مصر في خلافة السّفّاح أول خلفاء بني العباس، آبتني دارا
 للإمارة ونزلها، وصارت منزلةً للأمراء بعده إلى أن ولي أحمد بن طولون الديار
 المصرية فنزل بها في أول أمره، ثم اختط بعد ذلك قصره المعروف بالميدان فيما بين
 قلعة الجبل الآن والمشهد النّفيسي وما يلي ذلك في سنة ست وخمسين ومائتين ،

(١) سبق ذكرها في أعادتها سهو .

وكان له عدة أبواب : بعضها عند المشهد النفيسى ، وبعضها عند جامعة الآت ذكره ، وأختط الناس حوله ، وأقطع كل أحد قطعة آبتنى بها ، فكان يقال : قطعة هارون بن حمارويه ، وقطعة السودان ، وقطعة القراشين ، فعرف ذلك المكان بالقطائع ، وتزايدت العمارة حتى اتصلت بالقسطاط ، وصار الكل بلدا واحدا ، ونزل أحمد بن طولون بقصره المذكور ، وكذلك بنوه بعده ، وأهملت دار الإمارة التي آبتناها على بن صالح بالقسطاط . واستقر الأمر على ذلك بعده أيام ابنه حمارويه وولديه جيش وهارون ، وزادت العمارة بالقطائع في أيامهما ، وكثرت الناس فيها حتى قتل هارون بن حمارويه بعد قتل أبيه وأخيه ، وسار محمد بن سليمان الكاتب بالعساكر من العراق من قبل المستكفي بالله ، ووصل إلى مصر في سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وقد ولي الطولونية عليهم ربيعة بن أحمد بن طولون ، فتسلم البلد منه ونحرب القطائع وهدم القصر وقلع أساسه ، ونحرب موضعه حتى لم يبق له أثر . وكان بدر الخفيفي غلام أحمد بن طولون قد بنى دارا عظيمة بالقسطاط عند المصلى القديمة ، وقيل اشتراها له أحمد بن طولون ، ثم تخط عليه أحمد فنكبه ، وسكنها بعده طاهر بن حمارويه ، ثم سكنها بعده الحماني غلام أحمد بن طولون . فلما هدم محمد بن سليمان الكاتب قصر بنى طولون بالقطائع ، سكن هذه الدار ، ثم سكنها عيسى النوشري أمير مصر بعده ، واستقرت منزلة للأمرء إلى أن ولي الإخشيد مصر فزاد فيها وعظمها ، وعمل لها ميديانا وجعل له بابا من حديد ، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة ، ولم تزل منزلة للأمرء إلى أن غلبت الخلفاء الفاطميون الإخشيدية على مصر وبنى القائد جوهر القاهرة والقصر ، فنقل باب هذه الدار إلى القاهرة ، وصار القصر منزلة لهم على ماسياتى ذكره في الكلام على خطط القاهرة . إن شاء الله تعالى .

وصار القُسطَاطُ في كل وقت تتزايد عمارته حتى صار في غاية العماره ونهاية الحسن .
به الأدْرُ الأنيقة ، والمساجد القائمة ، والحمامات الباهية ، والقياسُ الزاهية ،
والمستزهرات الرائقة ؛ ورحل الناس إليه من سائر الأقطار ، وقصدوه من جميع
الجهات ؛ وغصَّ بسُكَّانه ، وضاق فضائوه الرحيب عن قُطَّانه . حتى حكى صاحب
”إيقاظ المتنفل“ عن بعض سُكَّان القُسطَاط أنه دخل حمَّاماً من بناء الروم في أيام
تُحمارَويَّة بن طولون في سنة سبع عشرة وثلاثمائة فلم يجد فيها صناعاً يخدمه ، وكان
فيها سبعون صناعاً قلَّ منهم من معه ثلاثة نفرٍ يغسلهم ، وأنه دخل بعدها حمَّاماً
ثم حمَّاماً فلم يجد من يخدمه إلا في الحمام الرابعة ، وكان الذي خدمه معه ثان .

وحكى في موضع آخر عن يثق به عن أبيه أنه شاهد من مسجد الوركَة بالقُسطَاط^(١)
إلى جامع ابن طولون قصبة سوق متصلة ، فعَدَّ ما بها من مقاعد الحِصص المصلوق
فكانت ثلاثمائة وتسعين مقعداً غير الحوانيت وما بها .

وحكى أيضاً عن أخبره أنه عدَّ الأسطال النحاس المؤبدة في البكر لآستقاء الماء
في الطاقات المطلة على النيل ، فكانت ستة عشر ألف سطل . قال : وبلغ أجرة
مقعد يكرى عند البيارستان الطولوني بالقُسطَاط في كل يوم آثنى عشر درهما .

وذكر ابن حوقل أنه كان بالقُسطَاط في زمانه دار تعرف بدار ابن عبيد العزيز
بالموقف يُصبَّ لمن فيها من السكان في كل يوم أربعمئة راوية ماء ، وفيها خمسة
مساجد ، وحمَّامان ، وفُرَّان .

قلت : ولم يزل القُسطَاط زاهى البنيان ، باهى السُكَّان ، إلى أن كانت دولة الفاطميين
بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة على ماسياتى ذكره ، فتقهقر حاله وتناقص ، وأخذ
الناس في الانتقال عنه إلى القاهرة وما حولها ، فخلا من أكثر سُكَّانه ، ونتابع الخراب

(١) الذى فى المخطوط للقرزى حين روى هذه الحكاية عن ”إيقاظ المتنفل“ أيضاً ، ”مسجد عبدالله“
فعله يسمى بذلك أيضاً .

في بنيانه، إلى أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية في أيام العاضد: آخر خلفاء الفاطميين، ووزيره يومئذ شاور السعدى نخاف على القُسطاط أن يملكه الفرنج ويحصنوا به، فأضرم في مساكنه النار فأحرقها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلو.

ولم يزل الأمر على ذلك في تفهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس: أحد ملوك الترك بالديار المصرية، فصرف الناس همتهم إلى هدم ما خلا من أخطائه والبناء بتقضه بساحل النيل بالقُسطاط والقاهرة، وتزايد الهدم فيه واستمر إلى الآن، حتى لم يبق من عمارته إلا ما بساحل النيل، وما جاوره إلى ما يلي الجامع العتيق وما داني ذلك، ودثرت أكثر الحطط القديمة وعفا رسمها، وأصحح ما بقي منها وتغيرت معاملها. وإذا نظرت إلى خطط الكندى والقضاعى والشريف النساب، عرفت ما كان القُسطاط عليه من العماره وما صار إليه الآن، وإنما أجريننا ذكر بعض الخطط المتقدمة، حفظاً لأسماؤها وتبنيها على ما كانت عليه. إلا أن في ساحله المِطْل على النيل الآن وما جاور ذلك المباني الحسنة، والدور العظيمة، والقصور العالية، التي تهيج الناظر، وتسرى الخاطر.

وكان أكثر بنيانه بالأجر المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه، وآثاره الباقية تشهد له بذلك، وقد صار ما خرب منه ودثر كيما ناكاب لجمال العظيمة، وهجر غالبها وترك، وسكن في بعضها رعاع الناس ممن لا يعبأ به في جوانب منها لا تعد في العامر.

ومن كيانه المشهورة التي ذكرها القضاعى كوم الجارح، وكوم دينار، وكوم السمكة وكوم الزينة، وكوم الترمس؛ وزاد صاحب "إيقاظ المتغفل" كوم بنى وائل، وكوم ابن غراب، وكوم الشقاف، وكوم المشانيق.

ويقابل الفسطاط من الجهة البحرية جزيرة الصّناعة المعروفة الآن بالرّوضة ، كانت صناعة العائر أولاً بها فنسبت إليها .

قال الكندي : وكان بناؤها في سنة أربع وخمسين ثم غلب عليها اسم الروضة لحسنها ونضارتها وإطافة الماء بها ، وما بها من البساتين والقصور ، وهي جزيرة قديمة كانت موجودة في زمن الروم . وكان بها حصن عليه سور وأبراج ، وبين الفسطاط وبينها جسر ممتد من المراكب على وجه النيل كما في جسر بغداد على الدجلة ولم يزل قائماً إلى أن قدم المأمون مصر فأحدث عليه جسراً من خشب تمر عليه المباةرة وترجع ، وبعد خروج المأمون من مصر هبت ريح عاصفة في الليل فقطعت الجسر القديم ، وصدمت بسفنه الجسر المحدث فذهب جميعاً ، ثم أعيد الجسر المحدث وبطل القديم .

وقد ذكر القضاعي : أنه كان موجوداً إلى زمنه ، وكان في الدولة الفاطمية ، ثم جدد الحصن المذكور أحمد بن طولون أمير مصر في خلافة المعتمد في سنة ثلاث ومائتين ، ثم استهدم بعد ذلك بتأثير النيل في أبراجه ومرور الزمان عليه ، ثم بنى الصالح نجم الدين أيوب قلعة مكانه في سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وبقيت حتى هدمها المعز أيك التركاني أول ملوك الترك ، وعمر من نقضها مدرسته المعزية برحبة الخروب ، وأخذ الناس مكانها أملاكاً ، وهي على ذلك إلى زماننا ، ولم يبق بها إلا بعض أبراج أخذها الناس أملاكاً وعمرها عليها بيوتا . فلما ملك الظاهر بيبرس ، هم بإعادتها فلم يتفق له ذلك وبقيت على حالها .

قلت : وكانت أُرْفَةُ^(١) النيل التي بين جزيرة الصناعة وبين الفسطاط هي أقوى الفرقتين والتي بين الجزيرة والبحيزة هي الضعيفة ، ثم انعكس الأمر إلى أن صار ما بين الجزيرة والفسطاط يحف ولا يعلوه الماء إلا في زيادة النيل ، ويبدو بين آخر

(١) في الأصل أُرْفَة وهو تصحيف والأُرْفَة بالراء المهملة الحد والمستأنة والمراد بها هنا الفرقة .

الْفُسْطَاط وهذه الجزيرة على فُوْهة خليج القاهرة حيث السدّ الذى يفتح عند وفاء النيل مكاناً كالجزيرة، يعرف بُنْشَاة المَهْرَانِي كان كوما يحرق فيه الأجر يُعرف بالكوم الأحمر، عدّه القضاعى فى جملة كيّان الفُسْطَاط .

قال صاحب "إيقاظ المتغفل" : وأوّل من أبتدأ فيه العمارة بلبان المهرانيّ فى الدولة الظاهرية ببيرس فنسبت المنشأة إليه .

وبلى الفُسْطَاط من غربيّه بركة تُعرف ببركة الحبش، وهى أرض مزدرعة .
قال القضاعى : كانت تعرف ببركة المعافِر وَحِمِير، وكان فى شرقيّها جنّات تعرف بالحبش فنسبت إليها .

وذكر ابن يونس فى تاريخه أن تلك الجنّات تعرف بقتادة بن قيس بن حبشى الصدقى، وهو ممن شهد فتح مصر .

قلت : وهى الآن موقوفة على الأشراف من ولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقفها عليهم الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد من الخلفاء الفاطميين، وويله من قبله حيث القرافة المكان المعروف بالخنديق، كان قد أحضره عبد الرحمن بن عيينة خندقا فى سنة خمس وستين من الهجرة عند مسير مروان بن الحكم إلى مصر، فعرف بذلك .



وأما جوامعُه فســـــــتة :

الأوّل

(الجامع العتيق المعروف بجامع عمرو)

وذلك أن عمرا لما بنى داره الصغرى مكان فُسْطَاطِه على ما تقدّم ذكره، اختط الجامع المذكور فى خِطّة أهل الراية المتقدمة الذكر .

قال القضاعى : وكان جنانا فيما ذكر الليث بن سعد . قال : وكان الذى حاز موضعه قيسبة بن كاثورم التيجيى أحد بنى سوم ، فنزله فى حصار الحصن المعروف بقصر الشمع ، فلما رجع عمرو من الإسكندرية ، سأل قيسبة فيه ليجعله مسجدا فسلمه إليه ، وقال : تصدقت به على المسلمين ، وأخط له خطة مع قومه فى بنى سوم فى تيجب ، فبنى فى سنة إحدى وعشرين ، وكان طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا ، ويقال : إنه وقف على قبلته ثمانون رجلا من الصحابة رضوان الله عليهم : منهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وأبو بصرة الغفارى وغيرهم ، ولم يكن له يومئذ محراب مجوف بل عمدة قائمة بصدر الجدار ، وكان له بابان يقابلان دار عمرو ابن العاص ، وبابان فى بحريه ، وبابان فى غربيه ، وطوله من قبله إلى بحريه مثل طول دار عمرو ، وبينه وبين دار عمرو سبعة أذرع . ولما فرغ من بنائه ، اتخذ عمرو بن العاص له منبراً يخطب عليه ، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره ، ويقول : أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره . ويقال إنه أعاده إليه بعد وفاة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

وقيل إن زكريا بن مرقيا ملك التوبة أهدى لعبد الله بن أبى سرج العامرى^(١) فى إمارته على مصر منبرا فجعله فى الجامع ، ثم زاد فيه مسالمة بن محمد الأنصارى فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة ، وهو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان زيادة من بحريه ، وزخرفته ، وهو أول من صلى على الموتى داخل الجامع ، وتوالت فيه الزيادات والتجديدات إلى زماننا . وأول من رتب فيه قراءة المصحف

(١) فى ابن دقاق المخطوط "ابن مرقى".

عبد العزيز بن مروان في إمارته في سنة ست وسبعين، ورفع عبد الله بن عبد الملك سقفه في سنة تسع وثمانين بعد أن كان مطاطاً، ثم جعل فيه المحراب المجوف ^{مرفوعاً} قرّة ابن شريك العبسيّ أتباعاً لعمر بن عبد العزيز في محراب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وأحدث فيه المقصورة تبعاً لمعاوية حيث فعل ذلك بالشّام .

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة أمر موسى بن نصر الخنسيّ وهو أمير مصر باتخاذ المنابر في جميع جوامع قرى مصر . وأول من نصب اللوح الأخضر فيه عبد الله ابن طاهر، وهو أمير مصر في سنة اثنتي عشرة ومائتين، ثم أحترق الرواق الذي فيه اللوح الأخضر في ولاية ثمارويه بن أحمد بن طولون، فعمره ثمارويه في سنة خمس وسبعين ومائتين . ثم جدّد اللوح "الظاهر بيبرس" في سنة ست وستين وستائة ثم جدّد اللوح الأخضر برهان الدين المحلّي التاجر في سلطنة "الظاهر بقوق" في أواخرها وقد وصف صاحب "إيقاظ المتغفل" الجامع على ما كان في زمانه في حدود ثلاث عشرة وسبعائة فقال : إن ذرعه ثمانية وعشرون ألفاً بذراع العمل، مقدمه ثمانية آلاف ذراع وتسعمائة ذراع وخمسون ذراعاً، ومؤخره ثمانية آلاف ذراع وتسعمائة وخمسون ذراعاً، وصحنه خمسة آلاف ذراع، جانبه الشرقي ألفاً ذراعاً وخمسمائة ذراعاً وخمسون ذراعاً، وجانبه الغربيّ كذلك، وأبوابه ثلاثة عشر باباً لكل باب منها اسم يخصه، في جانبه القبلي باب واحد، وبه أربعة وعشرون رواقاً، سبعة في مقدمه، وسبعة في مؤخره، وخمسة في شرقيّه، وخمسة في غربيّه، وفيه ثلاثمائة عمود وثمانية وستون عموداً، بعضها منفرد وبعضها مضاف مع غيره، وبصدره ثلاثة محاريب : المحراب الكبير المجاور للمنبر، والمحراب الأوسط، ومحراب الخمس؛ وفيه خمس صوامع : إحداها في ركنه القبليّ مما يلي الغربي، وهي الغرفة؛ والثانية في ركنه القبليّ مما يلي الشرقيّ، وهي المنارة الكبرى؛ والثالثة في ركنه البحريّ

مما يلي الشرق ، وتعرف بالجديدة ، والرابعة فيما بين هذه المنارة والمنارة الآتى ذكرها ، وتعرف بالسعيدة ، والخامسة فى الركن البحرى مما يلي الغربى مقابل باب السطح ، وتعرف بالمستجدة .

وهو على هذه الصفة إلى الآن لكنه قد استهدم رواق اللوح الأخضر والرواقات التى داخله ، فأمر السلطان الملك الظاهر ببنائها ، فعلقت جذره على الخشب ، فأخترته المنية قبل الشروع فى البناء ، وأخذ القاضى برهان الدين المحلى تاجر الخصاص فى عمارة ذلك ، فهدم رواق اللوح الأخضر وما داخله ، وجدد اللوح الذى كان قد نصبه الظاهر بيبرس ، وعمر الرواقات المستهدمة أنفُس عمارة وأحسنها .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أنه قد تقدم أنه وقف على إقامة محراب هذا الجامع ثمانون رجلا من الصحابة ، وحينئذ فىلحق بحاريب البصرة والكوفة على الوجه الصائر إليه بعض أصحابنا الشافعية فى أنه لا يجتهد فى التيامن والتياسر فى محاريبهما كما نبه عليه الشيخ تقي الدين السبكي فى شرح منهاج النووى فى الفقه ، لكن قد ذكر القضاء فى خطه عن الليث بن سعد وابن لهيعة أنهما كانا يتيامنان فى صلاتهما فيه ، وأن محرابه كان مشرقا جدا ، وأن قرة بن شريك حين هدمه وبناءه ، تيامن به قليلا .

وقد حكى الشيخ تقي الدين السبكي فى شرح المنهاج أيضا عن بعض علماء الميقات : أنه أخبره أن فيه الآن أنحرافا قليلا . قال : ولعله من تغيير البناء ، وقد سألت بعض علماء هذا الشأن عن ذلك ، فأخبرنى عن الشيخ تقي الدين أبى الطاهر رأس علماء الميقات فى زماننا أنه كان يقول : من الدلالة على صحة عملنا فى أستخراج القبلة موافقته لمحراب الجامع العتيق .

الثاني

(الجامع الطولوني)

بناه أحمد بن طولون في سنة تسع وخمسين ومائتين على الجبل المعروف بجبل يَشْكُرُ .
قال القاضي : وينسب إلى يَشْكُرُ بن خزيمة من لحم ، كان خِطَّةَ لهم .
قال ابن عبد الظاهر : وهو جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء فيه .

قال : ويقال : إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام عليه . ويقال : إن ابن طولون أنفق على هذا الجامع مائة ألف دينار وعشرين ألفاً من كثر وجده .
ويقال : إنه لما فرغ من بنائه أمر بتسميع ما يقوله الناس فيه من العيوب ، فسمع رجل يقول : محرابه صغير ، وآخر يقول : ليس فيه عمود ، وآخر يقول : ليس فيه ميضأة ، فقال : أما المحراب ، فإني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد خطه لي ، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذي خطه لي . وأما العمُدُ ، فإني بنيت من مال حلال ، وهو الكثر الذي وجدته فإكنت لأشوبه بغيره ، والعمد لا تكون إلا من مسجد أو كنيسة فزهرته عن ذلك . وأما الميضأة ، فأردت تطهيره من النجاسات ، وها أنا أبنيها خلفه ، ثم أمر ببنائها على القرب .

ويحكى أنه كان لا يعبت بشيء قط ، وأنه أخذ يوماً درج ورق أبيض وأخرجه ومده كالحزون ، ثم استيقظ لنفسه وظن أنه فُطِنَ له ، فأمر بعمارة المنارة على تلك الهيئة ، وعلى نظير العشارى الذى على رأسها تحمل العشارى الذى على رأس قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه . ولما فرغ من بناء الجامع رأى في منامه كأن نارا نزلت من السماء فأحرقت الجامع دون ما حوله فغير رؤياه على عابر فقال له : بُشْرَاكَ قبوله ، فإن الأمم الحالية كانوا إذا قَرَّبوا قربانا فَتَقَبَّلَ ، نزلت نار من السماء فأكلته ، كما في قصة هَابِيلَ وَقَايِيلَ ، ورأى مرةً أخرى كأن الحق سبحانه وتعالى تجلَّى على ما حول الجامع

فَعَبَّرَهُ لَهُ عَابِرٌ بِأَنَّهُ يَخْرُبُ مَا حَوْلَ الْجَامِعِ وَيَبْقَى هُوَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَهَدَمَتْ مَنَازِلَ بَنِي طَوْلُونَ فِي نَكْبَتِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْجَامِعُ .

الثالث

(جامع راشدة)

بَنَاهُ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ جَنُوبِيَّ الْفُسْطَاطِ ، عَلَى الْقَرَبِ مِنَ الرِّصْدِ ، وَأَدْخَلَهُ فِي وَقْفِهِ مَعَ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ وَجَامِعِ الْمُقَيْسِ .
قَالَ فِي "إِقْطَاطِ الْمُتَغَفَّلِ" : لَيْسَ هُوَ بِجَامِعِ رَاشِدَةٍ حَقِيقَةٍ ، وَإِنَّمَا جَامِعُ رَاشِدَةٍ كَانَ بِالْقَرَبِ مِنْهُ ، وَهُوَ جَامِعٌ قَدِيمٌ بَنَتْهُ قَبِيلَةٌ يُقَالُ لَهَا رَاشِدَةٌ عِنْدَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ ، فَلَمَّا بَنَى الْحَاكِمُ هَذَا سَمَى بِاسْمِهِ . قَالَ : وَقَدْ أَدْرَكْتُ بَعْضَهُ وَمَحْرَابَهُ ، وَكَانَ فِيهِ شَجَرٌ كَثِيرٌ مِنْ شَجَرِ الْمُقَلِّ .

الرابع

(جامع الرصد)

بَنَاهُ الْأَمِيرُ عَزَّ الدِّينُ أَبِيكَ الْأَقْرَمُ أَمِيرُ جَانْدَارِ الصَّالِحِيِّ النُّجْمِيِّ فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِينَ وَسِتْمِائَةٍ ، عَمَرَ مَنْظَرَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ بِهِ هُنَاكَ ، وَعَمَّرَ رِبَاطًا بِجَانِبِهِ قَرَّرَ فِيهِ عِدَدًا تَتَعَقَّدُ بِهِ الْجُمُعَةُ مُقِيمِينَ فِيهِ لَيْلًا وَنَهَارًا .

الخامس

(جامع الشَّعْبِيَّةِ بِظَاهِرِ مِصْرَ أَيْضًا)

بَنَاهُ الْأَمِيرُ عَزَّ الدِّينُ الْأَقْرَمُ الْمَذْكُورُ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَسِتْمِائَةٍ ، وَسَكَنَهُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ بْنِ اللَّبَّانِ الْفَقِيهَ الشَّافِعِيَّ الصُّوفِيَّ فَعَرَفَ بِهِ الْآنَ .

السادس

(الجامع الجديد)

بناه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من مَوْرَدَةِ الخلفاء، وبدأ بعمارته في التاسع من المحرم في سنة إحدى عشرة وسبعائة، وأتت عمارته في ثامن صفر سنة اثنتي عشرة وسبعائة، وخطب به قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، وصلى فيه الجمعة في التاسع من الشهر المذكور، ورتب فيه صوفية يحضرونه بعد العصر كما في الخواثق، وهو من أحسن الجوامع وأزهرها بقعة خصوصا في أيام زيادة النيل.



وأما مساجد الخمس، فكانت على العدد الذي لا يحصى لكثرتها، وخطط القضاء شاهدة بذلك .

وقد رأيت في بعض التواريخ أن الفناء وقع في أيام كافور الاخشيدى حتى لم يجدوا من يقبل الزكاة، فأتوا بها إلى كافور فلم يقبلها، وقال : أبنوا بها المساجد واتخذوا لها الأوقاف، فكان ذلك سبب زيادة الكثرة فيها، ولكنها الآن قد خربت بخراب الفسطاط ودثرت ولم يبق إلا آثار القليل منها .



وأما المدارس، فكان المتقدمون يجلسون للعلم بالجامع العتيق؛ وأول من أحدث المدارس بالفسطاط بنو أيوب، فعمر السلطان صلاح الدين رحمه الله مدرستين . إحداهما - مدرسة المالكية، المعروفة بالقمحية في المحرم سنة ست وستين وخمسة، وسميت بالقمحية لأن معلومها يصرف للمدرسين والطلبة قححا .

قال العماد الكاتب : وكانت قبل ذلك سوقا يباع فيه الغزل .

والثانية - المدرسة المعروفة بابن زين التجار، وكانت سجنًا يُسجن فيه فيها السلطان صلاح الدين مدرسة ووقفها على الشافعية، ووقف عليها الصاغة المجاورة لها

ثم عمّر الملك المظفر تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بالمكان المعروف بمنازل العز بالقرب من باب القنطرة قبليّ القُسْطَاط مدرسةً ووقف عليها أوقافاً من جملتها جزيرة الصّناعة المعروفة بالرّوضة .

ثم بنى السلطان الملك المعزّ أيك التُّركمانيّ أول ملوك الترك مدرسته المعزية برحبة الخروب في شهور سنة أربع وخمسين وستمائة .

وعمرّ الصاحب شرف الدين بن الفائزيّ مدرسته الفائزية قبل وزارته في شهور سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وعمر الصاحب بهاء الدين بن حنا المدرسة الصاحبية بزقاق القناديل بعد ذلك .



وأما الخوانق والرُّبُط فلم تعهد بالقُسْطَاط ، غير أن الصاحب بهاء الدين بن حنا عمّر رباط الآثار الشريفة النبوية بظاهر قبليّ القسْطَاط واشترى الآثار الشريفة وهي ميلٌ من مُحاس ، ومِلَقَطٌ من حديد ، وقطعة من العنزة ، وقطعة من القصعة بجملة مال وأثبتها بالاستفاضة وجعلها بهذا الرباط للزيارة .



وأما البيارستان فأول من أنشأه بالقُسْطَاط أحمد بن طولون في سنة تسع وخمسين ومائتين وأنفق عليه ستين ألف دينار .

قال القضاعيّ : ولم يكن قبله بيارستان بمصر ، وشرط أن لا يعالج فيه جُنْدِيٌّ ولا مملوك .

القاعدة الثانية

(القاهرة)

(بألف ولام لازمين في أولها وقاف مفتوحة بعدها ألف ثم هاء مكسورة وراء مهملة مفتوحة ثم هاء في الآخر) ويقال فيها القاهرة المعزية نسبة إلى المعز الفاطمي الذي بنيت له ، وربما قيل المعزية القاهرة ، سميت بذلك تفاؤلا ، وهي المدينة العظمى التي ليس لها نظير في الآفاق ، ولا يسمع بثلاثها في مصر من الأمصار .
 بناها القائد جوهر المعزى لمولاه المعز لدين الله أبي تميم معد ، بن المنصور أبي الطاهر إسماعيل ، بن القائم أبي القاسم محمد ، بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله الفاطمي في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، عند وصوله إلى الديار المصرية من المغرب ، واستيلائه عليها ، وموقعها شمالي القُسطاط المتقدم ذكره على القرب منه .

قال في "الروض المعطار" : وبينهما ثلاثة أميال . وكأنه يريد ما كان عليه الحال في ابتداء عمارة القاهرة وهو ما بين سور القُسطاط وسور القاهرة .
 أما الآن فقد انتشرت الأبنية واتصلت العمارة حتى كادت المدينتان تتصلان أو اتصلتا .

قال القاضي محي الدين بن عبد الله الظاهر في خِطاط القاهرة : والذي استقر عليه الحال أن حدَّ القاهرة من السبع سقايات إلى مشهد السيدة رُقية عرضا ، وكان قبل ذلك من المجنونة .

قال ابن سعيد : وكان مكانها قبل العمارة بستانا لبنى طولون على القرب من منازلهم المعروفة بالقِطائع . وكيفما كان ، فطولها وعرضها في معنى طول القُسطاط وعرضه أو أكثر عرضا بقليل ، وكان ابتداء عمارتها أنَّ أمر إفريقية وزيها من بلاد المغرب كان قد أفضى إلى المعز المذكور ، وقوى طمعه في مصر بعد موت كافور الإخشيدي

وهى يومئذ والشام والحجاز بيد أحمد بن علي بن الاخشيذ أستاذ كافور وهو وصي .
لم يبلغ الحلم ، والمتكلم في المداكمة أهل دولته ، والحسين بن عبدالله ، في الشام كالنائب
أو الشريك له يدعى له بعده على المنابر .

وكانت مصر قد ضُعت عسكرها لما دَهَمَهَا من الغلاء والوباء ، فجهز المعزُ قائده
جوهر المتقدم ذكره ، فبرز جوهر إلى مدينة رَقَّادة من بلاد إفريقية في أكثر
من مائة ألف وما يزيد على ألف صندوق من المال ، وخرج المعزُ لتشييعه ،
فقال للشايخ الذين معه : ” والله لو خرج جوهر هذا وحده ، لفتح مصر ، وليدخلها
بالأردية من غير حرب ، وليرزق في خرابات ابن طولون ، ويبنى مدينة تسمى القاهرة
تَقهر الدنيا “ وكان للغز غلام بَرِّقة اسمه أفلح ، فكتب إليه المعزُ أن يترجل لجوهر
إذا عبر عليه ويقبل يديه ، فبذل مائة ألف دينار على أن يُعنى من ذلك ، فأبى المعزُ
إلا ذلك ، فترجل من مكانه وقبل يديه ، وسار جوهر حتى دخل مصر وتسلمها
لسبع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ونزل في مُناخه من
سفره موضع القاهرة الآن ليلا ، وأخط القصر وأخذ في بنائه وعمارة القاهرة ،
وأخط الناس حوله .

فأما القصر ، فإنه أخطه في الليلة التي أناخ فيها قبل أن يُصبح ، فلما أصبح رأى
فيه أزوارا غيرة معتدلة فلم يعجبه ، ثم قال : قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة
فتركه على حاله وتماذى في بنيانه حتى أكمله .

ومكانه الآن المدرسة الصالحية بين القصرين إلى رجة الأيدمرى طولاً ، ومن
السبع حُوخ إلى رجة باب العيد عَرْضاً ، والحد الجامع لذلك أن تجعل باب المدرسة
الصالحية على يسارك وتمضى إلى السبع حُوخ ، ثم إلى مشهد الحسين ، ثم إلى رجة
الأيدمرى ، ثم إلى الركن المخلق ، ثم إلى بين القصرين حتى تأتى إلى باب المدرسة

• الصالحية من حيث ابتدأت، فما كان على يسارك في جميع دَوْرَتِكَ فهو موضع القصر .
وكان له تسعة أبواب بعضها أصليٌ وبعضها مستحدث .

أحدها - باب الذهب ، ويقال إنه كان مكان المدرسة الظاهرية الآن .

الثاني - باب البحر ، ويقال إن مكانه باب قصر يشبك . قال ابن عبد الظاهر :
وهو من بناء الحاكم .

الثالث - باب الزُهوْمَة ، ومكانه قاعة شيخ الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، وكانت
الصاغة مطبخاً للقصر وكانوا يدخلون بالطعام إلى القصر من ذلك الباب فسمي باب
الزُهوْمَة لذلك ، والزُهوْمَة الذَّفر .

الرابع - باب التربة ، ويقال إن مكانه بين باب الزُهوْمَة المتقدم الذكر
ومشهد الحسين .

الخامس - باب الدَّيْلَم ، وهو باب مشهد الحسين .

السادس - باب قَصْر الشوك ، ومكانه بالموضع المعروف بقصر الشوك على
القرب من رحبة الأيدمرى .

السابع - باب العيد ، وهو باب البيارستان العتيق ، سمي بذلك لأن الخليفة
كان يخرج منه لصلاة العيد ، وإليه تنسب رحبة باب العيد .

الثامن - باب الزُمُرْد ، وهو إلى جانب باب العيد المتقدم ذكره .

التاسع - باب الريح ، وقد ذكر ابن الطَّوَيَّر أنه كان في ركن القصر الذي
يقابل سور دار سعيد السعداء التي هي الخانقاه الآن .

ثم استجد المأمون بن البطائحي وزير الأمر تحت القوس الذي بين باب الذهب
وباب البحر ثلاث مناظر ، وسمى إحداها الزاهرة ، والثانية الفاخرة ، والثالثة الناضرة .

وكان "الآمر" يجلس فيها ليعرض العساكر في عيد الغدير، والوزير واقفٌ في قوس باب الذهب، وكان مكان السيوفيين الآن سلسلةٌ ممتدةٌ إلى ما يقابلها تعلق في كل يوم من وقت الظهر حتى لا يجوز تحت القصر راكب، ولذلك يعرف هذا المكان بدرب السلسلة .

ومما هو داخل في حدود القصر مشهد الحسين .

وسبب بناءه أن رأس الإمام الحسين عليه السلام كانت بعسقلان، فخشى الصالح طلائع بن رزيك عليها من الفرنج فبنى جامعاً خارج باب زويلة، وقصد نقل الرأس إليه فغلبه الفائز على ذلك، وأمر بابتناء هذا المشهد، ونقل الرأس إليه في سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

(١) ومن غريب ما اتفق من بركة هذه الرأس الشريفة ما حكاه القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر : أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حين استولى على هذا القصر بعد موت العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر قبض على خادم من خدام القصر وحلق رأسه وشد عليها طاساً داخله خنفس فلم يتأثر بها، فسأله السلطان صلاح الدين عن ذلك وما السرفيه، فأخبر أنه حين أحضرت الرأس الشريفة إلى المشهد حملها على رأسه، فحلق عنه السلطان وأحسن إليه .

وكان بجوار القصر قصر صغير يعرف بالقصر النافعي من جهة السبع خوخ فيه عجائز الفاطميين .

قلت : ولم يزل هذا القصر منزلة الخلفاء الفاطميين من لدن المعز أول خلفائهم بمصر وإلى آخر أيام العاضد آخر خلفائهم، وكانت الوزراء يتزلون بدار الوزارة التي آبتناها أمير الجيوش بدر الجمالي داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية ببيرس

(١) أنت الرأس مجارة للغة العامة واللغة العربية تذكيره .

الآن. فلما وَلَّى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة عن العاضد بعد عمه أسد الدين شيركوه، نزل بدار الوزارة المذكورة، وبقي بها حتى مات العاضد فتحول إلى القصر وسكنه، ثم سكنه بعده أخوه العادل أبو بكر. فلما ملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر انتقل منه إلى قلعة الجبل على ما سيأتى ذكره في الكلام على القلعة إن شاء الله تعالى. وصارت دار الوزارة المتقدمة الذكر منزلا للرسل الواردين من الممالك إلى أن عمّر مكانها السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير الخاقاه المعروفة به، وخلا القصر من حيثئذ من ساكنيه، وأهمل أمره فخر.

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر: قال لى بواب لباب الزهومة اسمه مرهف في سنة ثلاثين وستمائة: كان لى على هذا الباب المدة الطويلة ما رأيته دخل فيه حطب ولا رمى منه تراب. قال: وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه، ثم أخذ الناس بعد ذلك في تملكه وأستحكاره، وعمرت فيه المدارس والأدور. فبنى السلطان الملك الصالح "نجم الدين أيوب" فيه مدرسته الصالحية، ثم بنى "الظاهر بيبرس" فيه مدرسته الظاهرية، وبنى فيه بشتاك أحد أمراء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فيه قصره المعروف به، وجعلت دار الضرب في وسطه، ولم يبق من آثاره إلا البيارستان العتيق، فإنه كان قاعة بناها العزيز بالله بن المعز الفاطمي على ما سيأتى ذكره.

وكذلك القبة التي على رأس السالك من هذا البيارستان إلى رحبة باب العيد، وبعض جُدُرٍ لا يعتد بها قد دخلت في جملة الأملاك.



وأما (أبواب القاهرة وأسوارها)، فإن القائد جوهرًا حين أخطأها جعل لها أربعة أبواب: بابين متقاربين، وبابين متباعدين. فالمتقاربان (بابا زويلة) نسبة إلى زويلة

قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر من المغرب، ولذلك يقع في عبارة الموثقين وغيرهم بابا زويلة؛ وأحد هذين البابين القوس الموجود الآن المجاور للمسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام؛ والثاني كان موضع الحوانيت التي يباع فيها الجبن على يَسْرَةِ القوس المتقدم ذكره يدخل منه إلى المحمودية . وكان سبب إبطاله وسده أن المِصْرَ الذي بنيت له القاهرة لما دخلها عند وصوله من المغرب، دخل من القوس الموجود الآن هناك فأزدهم الناس فيه وتجنبوا الدخول من الباب الآخر، وأشتهر بين الناس أن مَنْ دخل منه لم تقض له حاجة ، فَرُفِضَ وَسُدَّ ، وجعل زقاق جنوبية يتوصل منه إلى المحمودية، وزقاق شمالية يتوصل منه إلى الأنماطين وما يليها .

والبابان المتباعدان هما القوس الذي داخل باب الفتوح خارج حارة بهاء الدين، وقوس آخر كان على حياله داخل باب النصر بالقرب من وكالة قيسون الآن، فهدم ثم أبتنى أمير الجيوش بدر الجمالي المتقدم ذكره في سنة ثمانين وأربعمائة سورا من لَبَنٍ دائرا على القاهرة، وبعضه باق إلى زماننا بخط سوق الغنم داخل الباب المحروق؛ ثم أبتنى الأفضل بن أمير الجيوش باب زويلة، وباب النصر، وباب الفتوح الموجودين الآن فيما ذكره القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في خَطِّطِهِ ، إلا أنه ذكر في مواضع آخر منها أن باب زويلة بناه العزيز بالله وأكمله بدر الجمالي، وهو من أعظم الأبواب وأشمخها، وليس له باشورة على الأبواب، وفيه يقول علي بن محمد النيلي :

يَصَاحُ لَوْ أَبْصَرْتَ بَابَ زُوَيْلَةَ ، * لَعَلِمْتَ قَدْرَ مَحَلِّهِ بُيُنَانَا
بَابٌ تَأَزَّرَ بِالْمَجْرَةِ وَأَرْتَدَى الشَّعْرَى * وَلَا تَ بَرَأْسِهِ كَيَوَانَا
لَوْ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَاهُ لَمْ يُرِدْ * صَرَحَا وَلَا أَوْصَى بِهِ هَامَانَا

قال ابن عبد الظاهر : (وباب سعادة) ربما ينسب إلى سعادة بن حيان غلام المعزّ، وكان قد ورد من عنده في جيش إلى جوهر وولى الرملة بعد ذلك .
قال : (وباب القنطرة) منسوب إلى القنطرة التي أمامه ، وهى من بناء القائد جوهر بناها عند خوفه من القرامطة ليجوز عليها إلى المقيس . والقوس الذى بالشارع الأعظم خارج باب زويلة على رأس المنجبية عند الطيورين الآن كان بابا بناه الحاكم بأمر الله خارج القاهرة ، وكان يعرف بالباب الحديد .

(وباب الخوخة) الذى على القرب من قنطرة الموسكى أظنه من بناء الفاطميين أيضا ؛ ولما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب "الديار المصرية آتندب لعمارة أسوار القاهرة ومصر فى سنة تسع وستين وخمسمائة الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى الرومى على كثرة من أسرى الفرنج عندهم يومئذ ، فبنى سورا دائرا (١) عليها وعلى قلعة الجبل والفسطاط ، ولم يزل البناء به حتى توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله وهو الموجود الآن ؛ وجعل فيها عدة أبواب :

منها باب البحر ، وباب الشعرية ، وباب البرقية ، والباب المحروق ؛ وآبنتى برجين عظيمين أحدهما بالمقيس على القرب من جامع باب البحر ، وهو الذى هدمه صاحب شمس الدين المقيسى وزير الأشرف شعبان بن حسين على رأس السبعين والسبعائة ، وأدخله فى حقوق الجامع المذكور حين جدد بناءه ؛ والثانى بباب القنطرة جنوبى الفسطاط .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : وقياس هذا السور من أوله إلى آخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بالهاشمى ، من ذلك من باب البحر إلى البرج بالكوم الأحمر يعنى رأس منشأة المهرانى المتقدم ذكرها فى الكلام

(١) لم يذكر هذه الجملة فى خطط المقرئى .

على خِطَطِ القُسْطَاطِ عند فُوْهَةِ خَلِيجِ القَاهِرَةِ عَشْرَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ ؛ ومن الكوم الأحمر المذكور إلى قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة سبعة آلاف ذراع ومائتا ذراع ؛ ومن مسجد سعد الدولة المذكور إلى باب البحر ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة وأثنان وتسعون ذراعا ، ودائر القلعة ثلاثة آلاف ذراع ومائة وعشرة أذرع .

وأقصر السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه على ذَرْعِ السور من غير تفصيل ولم يتعرض للذراعين الزائدين .

قلت : وهذا السور قد دَثِرَ أكثره ، وتغيرت معالم غالبه : للصوق عمائر الأملاك به حتى إنه لا يتميز في غالب الأماكن من الأملاك ، وسقط ما بين باب البحر إلى الكوم الأحمر حتى لم يبق له أثر . على أن ما هو داخل سور القاهرة الأول من الأماكن أرضه سبخة ومائه زقاق .

قال ابن عبد الظاهر : ولذلك عَتَبَ المِعْزُ عند وصوله إلى الديار المصرية ودخوله القاهرة على جوهر لكونه لم يعمُرْها مكان المَقْصِ على القرب من باب البحر أو جنوبي القُسْطَاطِ على القرب من الرصد لتكون قريبة من النيل ، عَدْبَةُ مياه الآبار .

وأعلم أن خطط القاهرة قد اتسعت وزادت العارة حولها ، وصار ما هو خارج سورها أضعاف ما هو داخله . ثم منها ما هو منسوب إلى دولة الفاطميين ، ومنها ما هو منسوب إلى من تقدمهم من الملوك ، إما لدروس اسمه الأول وغلبة اسمه الثاني عليه ، وإما لاستحداثه بعد أن لم يكن ؛ ومنها ما هو مجهول لأنقطاع شهرته بطول الأيام ومرور الليالي . وإنما يقع التعرض هنا للأماكن الظاهرة الشهيرة ، الدائرة على الألسنة دون غيرها ، وأنا أذكرها على ترتيب الأماكن لا على ترتيب القِدَم والحَدُوث .

أما خططها المشهورة داخل السور .

(فمنها) ”حارة بهاء الدين“ داخل باب الفتوح ، وتعرف بالطواشى بهاء الدين قراقوش باني سور القاهرة المتقدم ذكره ، وكانت في دولة الفاطميين تعرف بين الحارثيين ؛ ثم أخطها قوم في الدولة الفاطمية يعرفون بالرَّيَّحانية والعيزية فعرفت بهم . فلما سكنها بهاء الدين قراقوش المذكور ، أشتهرت به وُسِّيَ ما قبل ذلك .

(ومنها) ”حارة بَرْجَوَان“ وتعرف بِبَرْجَوَان الخادم ، كان خادماً القُصُور في أيام العزيز بالله ابن المُعزَّ ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ، ووصَّاه على ابنه الحاكم فعظم شأنه ، ثم قتله الحاكم بعد ذلك . ويقال إنه خلف في تركته ألف سراويل بألف تكة حرير .

وبهذه الحارة كانت دار المظفر بن أمير الجيوش بدر الجمالي .

(ومنها) ”خط الكافوري“ كان بستانا لكافور الاخشيدي ، وبنيت القاهرة وهو بستان ، وبقى إلى سنة إحدى وخمسين وستائة ، فاخطه طائفة البحرية والعيزية إصطبلات ، وأزيلت أشجاره وبقيت نسبته إلى كافور على ما كانت عليه .

(ومنها) ”خُط الخرنشَف“^(١) كان ميدانا للخلفاء الفاطميين ، وكان لهم سرداب تحت الأرض إليه من باب القصر يمترون فيه إلى الميدان المذكور راكبين ، ثم جعل مصرفا للماء لما بنيت المدرسة الصالحية ، ثم بنى به الغُرُّ بعد الستائة إصطبلات بالخرنشف وسكنوها فسمى بذلك .

(ومنها) ”درب شمس الدولة“ على القرب من باب الزهومة ، وكان في الدولة الفاطمية يعرف بحارة الأمراء ، وبها كانت دار الوزير عباس وزير الظافر ، وبها المدرسة المسروورية بناها مسرور الخادم ، وكان أحد خُدَّام القصر في الدولة الفاطمية وبقى إلى الدولة الأيوبية ، وأختص بالسلطان صلاح الدين وتقدم عنده ،

(١) في المقرئ ”الخرنشف“ وفسره بأنه المتجمد من وقود الحمامات بعد إحراقها وهي تسمية عرفية .

ثم سكنها شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف ،
وعمرها دربا فعرف به ونسب إليه .

(ومنها) "حارة زويلة" وتنسب إلى زويلة قبيلة من البربر الواصلين صحبة القائد
جوهر على ما تقدم ذكره في الكلام على باب زويلة ، وهي حارة عظيمة متشعبة .
(ومنها) "الجودرية" وتعرف بطائفة يقال لهم الجودرية من الدولة الفاطمية نسبة
إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبي الخلفاء الفاطميين ، آتتوها وسكنوها حين
بنى جوهر القاهرة ، ثم سكنها اليهود بعد ذلك إلى أن بلغ الحاكم الفاطمي أنهم
يهزؤون بالمسلمين ويقعون في حق الإسلام ، فسدد عليهم أبوابهم وأحرقهم ليلا ،
وسكنوا بعد ذلك حارة زويلة المتقدمة الذكر .

(ومنها) "الوزيرية" وتعرف بالوزير أبي الفرج يعقوب بن كلس وزير المعز بالله
الفاطمي ، وكان يهودى الأصل يخدم في الدولة الاخشيدية ، ثم هرب إلى المعز
الفاطمي بالمغرب لما لزمه ، فلقى عسكر المعز مع جوهر فرجع معه ، وعظمت
مكانته عند المعز حتى استوزره ، وكانت داره مكان مدرسة الصاحب صفى الدين
ابن شكر : وزير العادل أبي بكر بن أيوب المعروفة بالصاحبية بسوق الصاحب ،
وكانت قبل ذلك تعرف بدار الديباج .

(ومنها) "المحمودية" قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : ولعلها منسوبة
إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية القادمة في أيام العزيز بالله الفاطمي إلى مصر .

(ومنها) "حارة الروم" داخل بابى زويلة ، آتتها الروم الواصلون صحبة جوهر
القائد حين بنائه القاهرة فعرفت بهم ونسبت إليهم إلى الآن .

(ومنها) "الباطلية" قال ابن عبد الظاهر : تعرف بقوم أتوا المعز بنى القاهرة وقد
قسم العطاء في الناس فلم يعطهم شيئا ، فقالوا : نحن على باطل ؟ فسميت الباطلية .

(ومنها) "حارة الدِّيلم" وتعرف بالدِّيلم الواصلين صحبة افتكين المعزى غلام المعز ابن بويه الديلمي، وكان قد تغلب على الشام أيام المعز الفاطمي وقاتل القائد جوهرًا وأستنصر بالقرامطة، وخرج إليهم العزيز بالله فأسره في الرملة وقدم به إلى القاهرة فأجرل له العطاء، وأنزله هو وأصحابه بهذه الحطة. وبها كانت دار الصالح طلائع ابن رزيك باني الجامع الصالحى خارج باب زويلة، وكان يسكنها قبل الوزارة، ووخخته بها معروفة إلى الآن بخوخة الصالح.

(ومنها) "حارة كُتامة" على القرب من الجامع الأزهر بجوار الباطنية، تعرف بقبيلة كُتامة من البربر الواصلين صحبة جوهر من الغرب.

(ومنها) "إصطبل الطارمة" بظاهر مشهد الحسين، كان إصطبلًا للقصر، وبهذا الخط كانت دار الفطرة التي يعمل فيها فطرة العيد، بناها المأمون بن البطاحي وزير الأمر، وكانت الفطرة قبل ذلك تعمل بأبواب القصر، وسيأتي الكلام على الفطرة مستوفى في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(ومنها) "حارة الصالحية" قبلى مشهد الحسين : كانت طائفة من غلمان الصالح طلائع بن رزيك قد سكنوها فعرفت بهم ونسبت إليه.

(ومنها) "البرقية" قال ابن عبد الظاهر : آخطها قوم من أهل برقة قَدِمُوا صحبة جوهر فعرفت بهم. ورأيت بخط بعض الفضلاء بحاشية خط ابن عبد الظاهر أن الصالح طلائع بن رزيك لما قتل عباسا وزير الظافر وتقلد الوزارة عن الأمر، أقام جماعة من الأمراء يقال لهم البرقية عونًا له وأسكنهم هذه الحطة فنسبت إليهم.

(ومنها) "قصر الشوك" على القرب من رَحبة الأيْدْمَرى، قال ابن عبد الظاهر: كان قبل عمارة القاهرة منزلة لبني عُدرة تعرف بقصر الشوك.

(١)

(ومنها) وكانت خزانة السلاح في الدولة الفاطمية ، ثم جعلت سجنًا في الأيام المستنصرية ، ثم أحتكرت بعد ذلك وجعلت أدرا .

(ومنها) ”رَحْبَة باب العيد“ تنسب إلى باب العيد : أحد أبواب القصر المسمى بباب العيد المقدم ذكره .

(ومنها) ”دَرْب مُلُوحِيَّة“ ينسب لملوحيَّة صاحب رِكاب الحاكم ، وبه مدرسة القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبه كانت داره .

(ومنها) ”العُطُوف“ وأصل أسمها العُطُوفية : نسبة إلى عطوف خادم الحاكم .

(ومنها) ”الجَوَانِيَّة“ قال ابن عبد الظاهر : وهي صفة لمحدوف ، وأصلها حارة الروم الجَوَانِيَّة ، وذلك أن الروم الواصلين صحبة جوهر أخطوا حارة الروم المتقدمة الذكر وهذه الحارة ، وكان الناس يقولون : حارة الروم البرَّانية وحارة الروم الجَوَانِيَّة فنقل ذلك عليهم ، فأطلقوا على هذه الجَوَانِيَّة وقَصَرُوا اسم حارة الروم على تلك . قال : والوزاقون إلى هذا الوقت يقولون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا المعروفة بالجَوَانِيَّة ، ثم قال : ويقال إنها منسوبة إلى الأشراف الجَوَانِيَّين الذين منهم الشريف الجَوَانِي النَّسَابَة .

وأما خططها المشهورة خارج السور :

(فمنها) ”الحُسَيْنِيَّة“ كانت في الأيام الفاطمية ثمان حارات خارج باب الفتوح أولها الحارة المعروفة بحارة بهاء الدين المتقدم ذكرها ، وهي حارة حامد ، والمنشأة الكبرى ، والحارة الكبيرة ، والمنشأة الصغيرة ، وحارة عبيد الشراء ، والحارة الوسطى ، وسوق الكبير بمصر ، والوزيرية ، وكان يسكنها الطائفة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعُجَّان وعبيد الشراء .

قال ابن عبد الظاهر : وكان بها من الأرمن قريب من سبعة آلاف نفس ، ثم سكنها جماعة من الأشراف الحسينيين قدموا في أيام الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب من الحجاز إلى مصر ، فزلوا بهذه الأمكنة وأستوطنوها فسميت بهم ، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك وبنوا بها الأبنية العظيمة والأدب الضخمة .

قال ابن عبد الظاهر : هي أعظم حارات الأجناد .

قلت : وذلك بحسب ما كان الحال عليه في زمانه ، ولكنها قد خربت في زماننا هذا ، وانتقل الأجناد إلى الأماكن القريبة من القاعة بصليبة الجامع الطولوني ونحوها . وبنى بهاء الدين قراقوش خانا للسبيل تنزلة المارة وأبناء السبيل فعرف خطه به . (ومنها) "الخنديق" خارج الحسينية بالخنديق ، كان عنده خندق أحفره العزيز بالله الفاطمي وكان المعز قد أسكن المغاربة هناك في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة حين تبسطوا في القرافة والقاهرة وأخرجوا الناس من منازلهم ، وأمر متاديا ينادى لهم كل ليلة : من بات منهم في المدينة أستحق العقوبة .

(ومنها) "أرض الطّبال" ، منسوبة لامرأة مغنية اسمها نَسَب ، وقيل طَرَب ، كانت مغنية للمستنصر الفاطمي وأسمه معَدّ .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : ولما ورد الخبر عليه بأنه خُطب له ببغداد في نوبة البساسيري قريب السنة غتته نَسَب هذه :

يَا بَنِي الْعَبَّاسِ صُدُّوا * قَدْ وَلِيَ الْأَمْرَ مَعَدُّ

مُلْكُكُمْ كَانَ مُعَارًا * وَالْعَوَارِي تُسْتَرَدُّ

فوهبها هذه الأرض في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فحُكِرَتْ وبنيت آدرا فعرفت بها . قال : وكانت من مُلَح القاهرة وبهجتها ، وفيها يقول ابن سعيد المغربي مجانسا بين القُرط الذي ترعاه الدواب والقُرط الذي يكون في الأذن .

سقى الله أرضاً كلما زُرَتْ رَوْضَهَا ، * كَسَاها وحَلَّاهَا بزَيْنَتِه القُرْطُ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا والمِيَاهُ عَفُودُهَا * وفي كُلِّ قُطْرٍ من جوانبِها قُرْطُ
(ومنها) "خط باب القنطرة" قال ابن عبد الظاهر : ذكر لي علم الدين بن ممان
أنه في كتب الأملاك القديمة يسمى بالمرتاجية .

(ومنها) "المقس" قال القضاعي في "خططه" : كانت ضيعة تعرف بأَمِّ دَيْنٍ ،
وكان العاشر الذي يأخذ المكس يقعد بها لاستخراج المال ، فقليل المكس بالكاف
ثم أبدلت الكاف في الألسنة قافا .

قال ابن عبد الظاهر : . ومن الناس من يقول فيه المَقْسِم لأن قسمة الغنائم
في الفتوح كانت فيه . قال : ولم أر ذلك مسطورا ، وكانت الدكة من نواحيه
بستانا إذا ركب الخليفة من الخليج يوم الكسر أتى إليه في البر الغربي من الخليج
في مركبه ويدخله بمفرده فيسقي منه فرسه ، ثم يخرج إلى قصره على ما سيأتي ذكره
في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . إن شاء الله تعالى .

قال ابن عبد الظاهر : والدكة الآن أدْرُ وحارات شهرتها تغني عن وصفها
فسبحان من لا يتغير .

قلت : وقد خرب أكثر تلك الأدْر والحارات حتى لم يبق منها إلا الرسوم ،
وبعضها باق يسكنه آحاد الناس .

(ومنها) "ميدان القمح" كان قديما بستانا سلطانيا يسمى بالمَقْسِي يدخل الماء
إليه من الخليج المعروف بالخليج الذكر الذي بناه كافور الاخشيدى ، ثم أمر الظاهر
الفاطمي بنقل أنشابه وحفره وجعله بركة قدام اللؤلؤة ، وأبقى الخليج المذكور
مسلطا على البركة ليستمتع الماء فيها . فلما ضعف أمر الخلافة الفاطمية ، وهُجرت
رُسومها القديمة في التفرج في اللؤلؤة وغيرها ، بنت السُّودان المعروفون بالطائفة

الْفَرَحِيَّةُ السَّاكِنُونَ بِالْمَقَسِّ عِنْدَ ضَيْقِهِ عَلَيْهِمْ قُبَالَةَ اللُّؤْلُؤَةِ حَارَةً سَمِيَتْ حَارَةُ
اللُّصُوصِ بِسَبَبِ تَعَذُّبِهِمْ فِيهَا مَعَ غَيْرِهِمْ ، ثُمَّ تَنَقَّلَتْ بِهَا الْحَالُ حَتَّى صَارَ عَلَى مَا هُوَ
عَلَيْهِ الْآنَ .

(ومنها) ”برأين التبان“ غربي خليج القاهرة، وينسب إلى ابن التبان رئيس حراقة
الخلافة الفاطمية، وكان الأمر الفاطمي قد أمر بالعمارة قبالة الخرق غربي الخليج،
فأول من عمر به ابن التبان المذكور، أنشأ به مسجدا وبستانا ودارا فعرفت الحطة
به إلى الآن .

(ومنها) ”خط اللوق“ وهو خط قديم متسع ينتهي إلى الميدان المعد لركوب السلطان
عند وفاء النيل، قد عمر بالأبنية وسكنه رعا ع الناس وأوباشهم والمكان المعروف
الآن بباب اللوق جزء منه .

(ومنها) ”بركة الفيل“ وهي بركة عظيمة متسعة جنوبي سور القاهرة عليها الأبنية
العظيمة المستديرة بها .

قال ابن عبد الظاهر : وتنسب إلى رجل من أصحاب ابن طولون يعرف بالفيل
وما أحسن قول ابن سعيد المغربي :

أَنْظُرْ إِلَى بَرَكَةِ الْفِيلِ الَّتِي أَكْتَنَفَتْ * بِهَا الْمَنَاطِرُ كَالْأَهْدَابِ لِلْبَصْرِ
كَأَنَّهَا هِيَ وَالْأَبْصَارُ تَرْمُقُهَا * كَوَاكِبٌ قَدْ أَدَارُوهَا عَلَى الْقَمَرِ

(ومنها) ”خط الجامع الطولوني“ من الصليبية وماوالاها، وقد تقدم في الكلام على
خَطِّ الطُّسْطَاطِ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ كَانَتْ مَنَازِلَ لِأَحْمَدَ بْنِ طُولُونٍ وَعَسْكَرِهِ، وَالْجَبَلِ
الَّذِي فِي جَانِبِهَا الْبَحْرَى يَعْرِفُ بِجَبَلِ يَسْكُرَ، وَعَلَيْهِ بِنَاءُ الْجَامِعِ الطُولُونِيِّ الْمَذْكُورِ،
وَأَسْتَحْدِثُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ قُصُورًا جَاءَتْ فِي نَهَايَةِ
الْحَسَنِ وَالْإِتْقَانِ، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بِالْكَبْشِ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْكُنُهَا أَكْبَارُ الْأُمَرَاءِ إِلَى أَنْ

نَحَرَّهَا الْعَوَامُ فِي وَقْعَةِ الْجَلْبَانِ قَبْلَ السَّبْعِينَ وَالسَّبْعَائَةِ وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْآنَ ،
وَقَدْ شَرَعَ النَّاسُ الْآنَ فِي اسْتِحْكَارِ أَمَا كُنْهَا لِلْعَامَةِ فِيهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ ثَمَانِمِائَةٍ .

(ومنها) "خَطَّ حَارَةَ الْمَصَامِدَةِ" وَتَنْسَبُ لَطَائِفَةِ الْمَصَامِدَةِ مِنَ الْبُرْبَرِ الَّذِينَ قَدِمُوا
مَعَ الْمُعَزِّ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَكَانَ الْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ الْمُصمودِيّ ، وَكَانَ الْمَأْمُونُ بْنُ
الْبَطَّاحِيِّ وَزِيرُ الْأَمْرِ قَدْ قَدَّمَهُ وَتَوَهَّ بِذِكْرِهِ ، وَسَلَّمْ إِلَيْهِ أَبْوَابُهُ لِلْبَيْتِ عَلَيْهَا ، وَأَضَافَ
إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ .

(ومنها) "الْهَلَالِيَّةُ" قَالَ أَبُو عَبْدِ الظَّاهِرِ : أَظْنَاهَا الْحَارَةُ الَّتِي بَنَاهَا الْمَأْمُونُ بْنُ الْبَطَّاحِيِّ
خَارِجَ الْبَابِ الْجَدِيدِ الَّذِي بَنَاهُ الْحَاكِمُ بِالْشَّارِعِ عَلَى يَسْرَةِ الْخَارِجِ مِنْهُ لِلْمَصَامِدَةِ لِمَا
قَدَّمَهُمْ وَتَوَهَّ بِذِكْرِهِمْ ، وَحَذَّرَ أَنْ يَبْنَى بَيْنَهَا وَيَبْنَى بَرَكَةُ الْفِيلِ حَتَّى صَارَتْ هَذِهِ الْحَارَةُ
مُشْرِفَةً عَلَى شَاطِئِ بَرَكَةِ الْفِيلِ إِلَى بَعْضِ أَيَّامِ الْحَافِظِ .

(ومنها) "الْمُسْتَجِيَّةُ" قَالَ أَبُو عَبْدِ الظَّاهِرِ : بَلَغَنِي أَنَّهَا مَنْسُوبَةٌ لِشَخْصٍ فِي الدَّوْلَةِ
الْفَاطِمِيَّةِ يَعْرِفُ بِمُسْتَجِبِ الدَّوْلَةِ .

(ومنها) "الْيَانِسِيَّةُ" قَالَ أَبُو عَبْدِ الظَّاهِرِ : أَظْنَاهَا مَنْسُوبَةٌ لِيَانِسٍ وَزِيرِ الْحَافِظِ ،
وَكَانَ يَلْقَبُ بِأَمِيرِ الْجِيُوشِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ ، وَيَعْرِفُ بِيَانِسِ الْفَاصِدِ لِأَنَّهُ فَصَّدَ حَسَنَ
أَبْنِ الْحَافِظِ ، وَتَرَكَهُ مَحْلُولَ الْفِصَادَةِ حَتَّى مَاتَ .

قَالَ : وَكَانَ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَسْمِهِ يَانِسُ الْعَزِيزِيُّ ، وَالْيَانِسِيَّةُ جَمَاعَةٌ كَانُوا فِي زَمَنِ الْعَزِيزِ
بِاللَّهِ ، وَمِنْهُمْ يَانِسُ الصَّقَلِيُّ ، وَنِسْبَةُ هَذِهِ الْحَارَةِ مُحْتَمَلَةٌ لِأَنَّهُ تَكُونُ لِكُلِّ مِنْهُمْ ، وَقَدْ ذَكَرَ
أَبْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ عِدَّةَ حَارَاتٍ كَانَتْ لِلْجُنْدِ خَارِجَ بَابِ زَوِيلَةَ غَيْرَ مَالَعْلَةٍ ذَكَرَهُ سَرْدَا ،
مِنْهَا مَا هُوَ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ حَارَةُ حَلَبَ وَالْحَبَانِيَّةُ . وَمِنْهَا مَا لَيْسَ كَذَلِكَ وَهُوَ
الشُّوبُكُ ، وَالْمَأْمُونِيَّةُ ، وَالْحَارَةُ الْكُبَيْرَةُ ، وَالْمَنْصُورَةُ الصَّغِيرَةُ ، وَحَارَةُ أَبِي بَكْرٍ .



وأما جوامعها فأقدمها (الجامع الأزهر) بناه القائد جوهر بعد دخول مولاه المعز إلى القاهرة وإقامته بها، وفرغ من بنائه وجمعت فيه الجمعة في شهر رمضان لسبع خلون من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، ثم جدّد العزيز بن المعز فيه أشياء وعمر به أما كن، وهو أول جامع عُمر بالقاهرة .

قال صاحب "نهاية الأرب" : وجدّه العزيز بن المعز، ولما عمّر الحاكم جامعهم نقل الخطبة إليه وبقي الجامع الأزهر شاغرا، ثم أُعيدت إليه الخطبة وصلى فيه الجمعة في ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة في سلطنة الظاهر بيبرس، وتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا .

قال ابن عبد الظاهر : وسمعت جماعة يقولون إن به طلسم لا يسكنه عُصفور .

الجامع الثاني

(الجامع الحاكمي)

بناه الحاكم الفاطمي على القرب من باب الفتوح وباب النصر، وفرغ من بنائه في سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وكان حين بنائه خارج القاهرة إذ كان بناؤه قبل بناء باب الفتوح وباب النصر الموجودين الآن، وكان هو خارج القوسين اللذين هما باب الفتوح وباب النصر الأولان .

ثم قال : وفي سيرة العزيز أنه آخط أساسه في العاشر من رمضان سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وفي سيرة الحاكم أنه ابتدأه بعض الوزراء وأتمه الحاكم، وعلى البدنة المجاورة لباب الفتوح أنها بنيت في زمن المستنصر في أيام أمير الجيوش سنة ثمانين وأربعمائة، ثم استولى عليها من ملكها والزيادة التي إلى جانبه بناها الظاهر ابن الحاكم ولم يكملها، ثم ثبت في الدولة الصالحية نجم الدين أيوب أنها من الجامع .

وأن بها محراباً، فَأُتِّرِعَتْ مِنْ هِيَ مَعَهُ وَأُضِيفَتْ لِلْجَامِعِ، وَبُنِيَ بِهَا مَا هُوَ مَوْجُود
الآن فِي الْإَيَّامِ الْمَعْرِزِيَةِ أَيْبِكُ التُّرْكُمَانِيِّ وَلَمْ تَسْقُفَ .

الجامع الثالث

(الجامع الأقمر)

بَنَاهُ الْآمِرُ الْفَاطِمِيُّ بِوَسَايَةِ وَزِيرِهِ الْمَأْمُونِ بْنِ الْبَطَّانِيِّ ؛ وَكُلَّ بِنَاؤُهُ فِي سَنَةِ
تِسْعِ عَشْرَةٍ وَخَمْسِمِائَةٍ ؛ وَيَذْكُرُ أَنَّ أَسْمَ الْآمِرِ وَالْمَأْمُونِ عَلَيْهِ .
قُلْتُ : وَلَمْ يَكُنْ بِهِ خُطْبَةٌ إِلَى أَنْ جَدَّدَ الْأَمِيرُ يَلْبَغَا السَّالِمِيُّ : أَحَدُ أَمْرَاءِ الظَّاهِرِ
بَرْقُوقِ عِمَارَتُهُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِمِائَةٍ وَرَبَّ فِيهِ خُطْبَةٌ .

الجامع الرابع

(الجامع بالمَقَسِّ بِيَابِ الْبَحْرِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِالْجَامِعِ الْأَنْوَرِ)

بَنَاهُ الْحَاكِمُ الْفَاطِمِيُّ أَيْضًا فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ .

الجامع الخامس

(^(١)الجامع الظَّافِرِيُّ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ الْآنَ بِجَامِعِ الْفَكَاهِينِ)

بَنَاهُ الظَّافِرُ الْفَاطِمِيُّ دَاخِلَ بَابِ زُوَيْلَةَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَكَانَ
زُرِّيَّةً لِلْكَبَّاشِ ، وَسَبَبَ بِنَاؤُهُ جَامِعًا أَنْ خَادِمًا كَانَ فِي مَشْرِفٍ عَلَى الزَّرِيَّةِ فَرَأَى
ذَبَابًا وَقَدْ أَخَذَ رَأْسِينَ مِنَ الْغَنَمِ فَذَبَحَ أَحَدَهُمَا وَرَمَى سِكِّينَتَهُ وَذَهَبَ لِقَضَاءِ
حَاجَةٍ لَهُ ، فَأَتَى رَأْسَ الْغَنَمِ الْآخَرَ فَأَخَذَ السَّكِينِ بِفَمِهِ وَرَمَاهَا فِي الْبَالُوْعَةِ ، وَجَاءَ
الدَّبَّاحُ فَلَمْ يَجِدِ السَّكِينِ ، فَاسْتَصْرَخَ الْخَادِمُ وَخَلَصَهُ مِنْهُ ، فَرَفَعَتِ الْقِصَّةُ إِلَى أَهْلِ
الْقَصْرِ فَأَمَرُوا بِعِمَارَتِهِ .

(١) فِي خَطِّ الْمَقْرِزِيِّ "الْفَاكِهِينَ" .

الجامع السادس

(الجامع الصالحى)

بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاقد من الفاطميين خارج باب زويلة ، بقصد نقل رأس الحسين عليه السلام من عسقلان إليه ، عند خوف هجوم الفرنج عليها ، فلما فرغ منه لم يمكّنه الفائز من ذلك ، وأبّنى له المشهد المعروف بمشهد الحسين بجوار القصر ، ونقله إليه فى سنة تسع وأربعين وخمسة مائة ؛ وبنى به صهريجا وجعل له ساقية تنقل الماء إليه من الخليج أيام النيل على القرب من باب الخرق . ولم يكن به خطبة ، وأول ما أقيمت الجمعة فيه فى الأيام المعزية أئيك التركاني فى سنة اثنتين وخمسين وسمائة ، وخطب به أصيل الدين أبو بكر الإسعردى ؛ ثم كثرت عمارة الجوامع بالقاهرة فى الدولة التركية خصوصا فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون وما بعدها ، فعمر بها من الجوامع ما لا يكاد يحصى كثرة : بجامع الماردنى وجامع قوصون خارج باب زويلة وغيرهما من الجوامع ، وأقيمت الجمعة فى كثير من المدارس والمساجد الصغار المتفرقة فى الأخطاط لكثرة الناس وضيق الجوامع عنهم .



وأما مدارسها ، فكانت فى الدولة الفاطمية وما قبلها قليلة الوجود بل تكاد أن تكون معدومة ، غير أنه كان بجوار القصر دار تعرف "بدار العلم" خلف خان مسرور ، كان داعى الشيعة يجلس فيها ، ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم ، وجعل الحاكم لها جزءا من أوقافه التى وقفها على الجامع الأزهر وجامع المنقوس وجامع راشدة ؛ ثم أبطل الأفضل بن أمير الجيوش هذه الدار لاجتماع الناس فيها وانحوض فى المذاهب خوفا من الاجتماع على المذهب التزارى ؛ ثم أعادها الأمر

بواسطة خُدام اتقصر بشرط أن يكون مُتَوَلِّيًا رجلاً ديناً والداعى هو الناظر فيها ،
ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن .

وقد ذكر المسبحى فى تاريخه : أن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل
العزیز بالله فى حمله رزق جماعة من العلماء ، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق ،
ونبى لهم دارا بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة
وتكلموا فى الفقه ، وأبو يعقوب قاضى الخندق رئيس الحلقة والماتى عليهم إلى وقت
العصر ، وكانوا سبعة وثلاثين نفرا . ثم جاءت الدولة الأيوبية فكانت الناتحة لباب
الخير ، والغارسة لشجرة الفضل ، فأبنتى الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر (دار
الحديث الكاملية) بين القصرين فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وقرربها مذاهب
الأئمة الأربعة وخطبة ، وبقى إلى جانبها خراب حتى بُنى أدرا فى الأيام المعزية أيبك
الترکمانى فى سنى خمسين وستمائة ، ووُفِّى على المدرسة المذكورة ، ونبى من نبى
من أكابر دولتهم مدارس لم تبلغ شأوهذه ، وشتان بين الملوك وغيرهم .

ثم جاءت الدولة التركية فأربت على ذلك وزادت عليه ، فأبنتى الظاهر بيبرس
(المدرسة الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية ، ثم أبنتى المنصور
قلاوون (المدرسة المنصورية) من داخل بيارستانه الآتى ذكره وجعل قباها
مُربة سنية .

ثم أبنتى الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة الناصرية) بجوار البيارستان المذكور .
ثم أبنتى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (مدرسته العظمى) تحت القلعة ،
وهى التى لم يُسبق إلى مثلها ، ولا سمع فى مصر من الأمصار بنظيرها ، يقال إن إيوانها
يزيد فى القدر على إيوان كسرى بأذرع .

ثم أبنتى ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين (المدرسة الأشرفية) بالصوة تحت

القلعة ومات ولم يكملها، ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لتسلطها على القلعة في سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونقل أحجارها إلى عمارة القاعات التي أنشأها بالحوش بقلعة الجبل، ولم تعهد مدرسة قصّدت بالهدم قبلها .

ثم آبتنى الظاهر برقوق (مدرسته الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الكاملية فجاءت في نهاية الحسن والعظمة ، وجعل فيها خطبة ، وقرر فيها صوفية على عادة الخوانق ودروسا للأئمة ، فتعاني فيها ضخامة البناء ، ونظم الشعراء فيها ، فكان مما أتى به بعضهم من أبيات :

وَبَعْضُ خُدَامِهِ طَوْعًا لِحِدْمَتِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلٍ

وتواردوا كلهم على هذا المعنى ، فأقترح على بعض الأكابر نظم شيء من هذا المعنى فنظمت أبياتا جاء منها :

وَبِالْخَلِيلِي قَدْ رَاجَتْ عِمَارَتُهَا * فِي سُرْعَةٍ بُنِيَتْ مِنْ غَيْرِ مَا مَهَلٍ
كَمْ أَظْهَرَتْ عَجَبًا أَسْوَاطَ حِكْمَتِهِ * وَكَمْ غَدَّتْ مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلٍ
وَكَمْ صَخُورٍ تَحَالُ الْحِنْ تَنْقُلُهَا * فَإِنَّهَا بِالْوَحَا تَأْتِي وَبِالْعَجَلِ

وفي خلال ذلك آبتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ماملأ الأخطاط وشحنها .



وأما الخوانق والأربط ، فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية ، وكان المتكررها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فأبتنى (الخانقاه الصلاحية) المعروفة بسعيد السعداء ، وسعيد السعداء لقب لخادم للمستنصر الفاطمي آسمه قنبر كانت الدار له ، ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح طلائع بن رزيك ، ولما ولي الوزارة فتح من دار الوزارة إليها سرّدا با تحت الأرض ، وسكنها شاور

السعدى وزير العاضد ثم ولده الكامل . فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خاتناه ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة ، وبستان الحبانية بزقاق البركة .



وأما مساجد الصلوات الخمس ، فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى ، بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلون .



وأما البيارستان ، فقال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : بلغنى أن البيارستان كان أولا بالقشاشين يعنى المكان المعروف الآن بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر ، وهناك كانت دار الضرب بناها المأمون بن البطائى وزير الأمر قبالة البيارستان المذكور ، وقرر دور الضرب بالإسكندرية وقوص وصو وعسقلان ، ثم لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية وأستولى على القصر ، كان فى القصر قاعة بناها العزيز بن المعز فى سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، فجعلها السلطان صلاح الدين بيارستانا : وهو البيارستان العتيق الذى داخل القصر ، وهو باقى على هيئته إلى الآن ، ويقال إن فيها طلسم لا يدخلها نمل ، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيارستانا .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : ولقد سألت المباشرين بالبيارستان المذكور عن ذلك فى سنة سبع وخمسين و (١) ... مائة فقالوا صحيح .

ثم أبنتى السلطان الملك "المنصور قلاوون" رحمه الله دارست الملك أخت الحاكم ، المعروفة بالدار القطبية بيارستانا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة بمباشرة الأمير علم الدين

الشجاعى ، وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة المتقدم ذكرهما فبقى معالم بعض الدار على ما هو عليه ، وغير بعضها . وهو من المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا . ونظرة رتبة سنية يتولاه الوزراء ومن فى معناهم .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهو الجليل المقدار ، الجليل الآثار ، الجليل الإيثار ، لعظيم بنائه ، وكثرة أوقافه ، وسعة إنفاقه ، وتنوع الأطباء والكهالين والجراحية فيه .

قلت : ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها ، وتتجدد معالمها ، خصوصا بعد خراب القسطنطين وانتقال أهله إليها على ما تقدم ذكره حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا : من القصور العلية ، والدور الضخمة ، والمنازل الرحبة ، والأسواق الممتدة ، والمناظر النظرة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائقة ، والخوانق الفاخرة ، مما لم يُسمع بمثله فى قُطرٍ من الأقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار . وغالب مبانيها بالأجر ، وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، مؤزرة الحيطان به ، وغالب أعاليتها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة ، وكلها أو أكثرها مبيضة الجدر بالكس الناصع البياض ، ولأهلها القوة العظيمة فى تعلية بعض المساكن على بعض حتى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض ، فى كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها ، وأسطحة مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة ، وصناعة عجبية .

قال فى "مسالك الأبصار" : لا يرى مثل صنّاع مصر فى هذا الباب ، وبظاهرها البساتين الحسان ، والمناظر النظرة ، والأدر المطلة على النيل ، والخلجان الممتدة منه ومن مدّه ، وبها المستنزهات المستطابة ، خصوصا زمن الربيع لغدرانها الممتدة من مقطعات النيل وما حولها من الزروع المختلفة وأزهارها المائسة التى تسر الناظر وتبهج الخاطر .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وأجمع المسافرين برًا وبحرًا أنه لم يكن أحسن منها منظرًا ، ولا أكثر ناسًا ، وإليها يُجلب ما في سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب وزرّي عجيب ، وملكها ملكٌ عظيم ، كثير الجيوش ، حسن الزيّ لا يمانله في زيّه ملك من ملوك الأرض ، وأهلها في رفاهية عيش وطيب مأكلٍ ومشرب ، ونساؤها في غاية الجمال والظرف .

قال في "مسالك الأبصار" : أخبرني غير واحد ممن رأى المدن الكبار أنه لم ير مدينة آجتماع فيها من الخلق ما آجتماع في القاهرة .

قال : وسألت الصدر مجد الدين إسماعيل عن بغداد وتوريز هل يجعان خلقا مثل مصر ؟ فقال : في مصر خلق قدر من في جميع البلاد .

قال في "التعريف" : (والقاهرة اليوم أم الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهي في وقتنا دار الخلافة ، وكرسى الملك ، ومنبع الحكماء ، ومحط الرحال ، ويتبعها كل شرق وغرب خلا الهند فإنه نائي المكان ، بعيد المدى ، يقع لنا من أخباره ما نكبره ، ونسمع من حديثه ما لا نألفه .

قال : وكان يحق لنا أن نجعل كل النطق بالقاهرة دائرة ، وإنما نفردها بما أشتملت عليه حدود الديار المصرية ، ثم ندير بأمر كل مملكة نطاقها ، ثم إليها مرجع الكل وإلى بحرهما مصب تلك الخلق .

قال في "مسالك الأبصار" : إلا أن أرضها سيخة ، ولذلك يعجل الفساد إلى مبانيها .

وذكر القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نحو ذلك وأن المعزّ لام القائد جوهرًا على بنائها في هذا الموضع ، وترك جانب النيل عند المقس أو جنوبى الفسطاط حيث الرصد الآن .

القاعدة الثالثة

(القلعة)

بفتح القاف، ويعبر عنها بقلعة الجبل، وهي مَقَرَّةُ السلطان الآن ودار مملكته .
 بناها الطواشي بهاء الدين قراقوش المتقدم ذكره للملك الناصر صلاح الدين
 يوسف بن أيوب رحمه الله، وموقعها بين ظاهر القاهرة والجبل المقطَّم والفُسْطَاط،
 وما يليه من القرافة المتصلة بعمارة القاهرة والقرافة، وطولها وعرضها على ما تقدَّم
 في الفُسْطَاط أيضا، وهي على نَشْرٍ مرتفع من تقاطيع الجبل المقطم، ترتفع في موضع
 وتخفض في آخر .

وكان موضعها قبل أن تبنى، مساجد من بناء الفاطميين : منها مسجد رديني الذي
 هو بين أدْرِ الحريم السلطانية .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : قال لي والدي رحمه الله : عرض على
 الملك الكامل إمامته، فأمتنعت لكونه بين أدْرِ الحريم . ولم يسكنها السلطان صلاح
 الدين رحمه الله، ويقال : إن أبنه الملك العزيز سكنها مدة في حياة أبيه، ثم أنتقل
 منها إلى دار الوزارة .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : قال لي والدي رحمه الله : كُنَّا نَطْلُعُ
 إليها قبل أن تُسَكَّنَ في ليالي الجمع نيت متفرجين كما نبيت في جواسق الجبل والقرافة .
 وأول من سكنها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب أنتقل إليها من
 قصر الفاطميين سنة أربع وثمانئة، وأستقرت بعده سكا للسلطين إلى الآن .

ومن غريب ما يحكى أن السلطان صلاح الدين رحمه الله طلع إليها ومعه أخوه
 العادل أبو بكر، فقال السلطان لأخيه العادل : هذه القلعة بُنيت لأولادك، فنقل
 ذلك على العادل وعرف السلطان صلاح الدين ذلك منه - فقال : لم تفهم عني

إنما أردت أنى أنا نجيب فلا يكون لى أولاد نجباء، وأنت غير نجيب فتكون أولادك نجباء فسرى عنه، وكان الأمر كما قال السلطان صلاح الدين، وبقيت خالية حتى ملك العادل مصر والشام، فاستناب ولده الملك الكامل محمداً فى الديار المصرية فسكنها . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن أول من سكنها العادل أبو بكر، ولما سكنها الكامل المذكور، احتفل بأمرها وآتم بعمارتها وعمرها أبراجاً، منها البرج الأحمر وغيره .

وفى أواخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة عمّر بها السلطان الملك المنصور قلاوون برجاً عظيماً على جانب باب السر الكبير، وبني عليه مشرفات حسنة البنيان، بهجة الرخام، رائقة الزخرفة . وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ثم عمّر بها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة أماكن، كلت بها معانيها، وأستحق بها القلعة على بنائها .

أحدها - القصر الأبلق الذى يجلس به السلطان فى عامة أيامه، ويدخل عليه فيه أمراؤه وخواصه، وقد أستجدّ به السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" رحمه الله فى جانبه مقعداً بإزاء الإصطبلات السلطانية جاء فى نهاية من الحسن والبهجة .

والثانى - الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان فى أيام المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل فى الرعية .

والثالث - جامع الخطبة الذى يصلى فيه السلطان الجمعة، وستأتى صفة هذه الأماكن كلها .

وهذه القلعة ذات سور وأبراج، فسيحة الأفنية، كثيرة العمار، ولها ثلاثة أبواب يدخل منها إليها .

أحدها - من جهة القرافة والجبل المُقَطَّم ، وهو أقل أبوابها سالكا وأعزها
آسطارقا .

والثانى - باب السر، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخوَصَّ
الدولة : كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، يتوصل إليه من الصَّوَّة : وهى بقية النَّشْر
الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة ، بتعريج يمشى فيه مع جانب جدارها
البحرى حتَّى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس
فيه السلطان أيام المواكب ، وهذا الباب لا يزال مُغْلَقًا حتَّى ينتهى إليه من يستحق
الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يعلق .

والثالث - وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس ، يتوصل
إليه من أعلى الصَّوَّة المتقدم ذكرها ، يرقى إليه فى درج متناسبة حتَّى يكون مدخله
فى أول الجانب الشرقى من القلعة ، ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة ينتهى منها إلى
دَرْكاه جليلة يجلس بها الأمراء حتَّى يؤذَن لهم بالدخول ، وفى قبلى هذه الدركاه
(دار النيابة) ، وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثمَّ نائب ، و (قاعة
الصاحب) ، وهى التى يجلس بها الوزير وكُتَّاب الدولة ، و (ديوان الإنشاء) ، وهو
الذى يجلس فيه كاتب السر وكُتَّاب ديوانه ، وكذلك (ديوان الجيش) ، وسائر
الدواوين السلطانية .

وبصدر هذه الدركاه باب يقال له باب القلَّة يدخل منه إلى دهاليز فسيحة ،
على يَسْرَةِ الداخل منها باب يتوصل منه إلى جامع الخطبة المتقدم ذكره ، وهو من
أعظم الجوامع ، وأحسنها وأبهجها نظرا ، وأكثرها زخرفة ، متسع الأرجاء ، مرتفع
البناء ، مفروش الأرض بالرخام الفائق ، مُبَطَّنُ السَّقُوف بالذهب ، فى وسطه قبة يليها
مقصورة يصلَّى فيها السلطان الجمعة ، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك

من حديد محكمة الصنعة ، يحفّ بصحنه رواقات من جميع جهاته ، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ، ودور الحريم السلطانية .

وبصدر الدهاليز المتقدمة الذكر مَصْطَبَةٌ يجلس عليها مقدم الممالك ، وعندها مدخل باب السر المتقدم ذكره ، وفي مجنبه ذلك ممرٌ يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير المتقدم ذكره ، وهو إيوان عظيم عديم النظير ، مرتفع الأبنية ، واسع الأفنية ، عظيم العمُد ، تليه شبّابيك من حديد عظيمة الشأن محكمة الصنعة ؛ وبصدره سرير الملك ، وهو منبرٌ من رخام مرتفع ، يجلس عليه السلطان في أيام المواكب العظام لقدم رسل الملوك ونحو ذلك .

ويُتيامن عن هذا الإيوان إلى ساحة لطيفة بها باب القصر الأبلق المتقدم ذكره ، وبنواحيها مصاطبٌ يجلس عليها خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة ؛ ويدخل من باب القصر إلى دهاليز عظيمة الشأن ، نبهة القدر ، يتوصل منها إلى القصر المذكور ، وهو قصر عظيم البناء ، شاهق في الهواء ، به إيوانان في جهتي الشمال والجنوب ، أعظمهما الشمال ، يطُلّ منهما على الإصطبلات السلطانية ، ويمتد النظر منهما إلى سوق الخيل والقاهرة والفُسْطَاط وحواضرها ، إلى مجرى النيل ، وما يلي ذلك من بلاد الجزيرة والجلبل وما إلى ذلك ؛ وبصدره منبرٌ من رخام كالذي في الإيوان الكبير يجلس عليه السلطان أحياناً في وقت الخدمة على ما يأتي ذكره .

والإيوان الثاني وهو القبلي خاص بخروج السلطان وخواصه منه ، من باب السر إلى الإيوان الكبير خارج القصر للجلوس فيه أيام المواكب العامة ، ويدخل من القصر المتقدم ذكره إلى ثلاثة قصور جَوَانِيَّة : واحد منها مسامت لأرض القصر الكبير ، وأثنان مرفوعان ، يُصعد إليهما بدرج ، في جميعها شبّابيك من حديد تُشْرِفُ على ما يُشْرِف عليه القصر الكبير ، ويدخل من القصور الجَوَانِيَّة إلى دور الحريم وأبواب الستور

السلطانية؛ وهذه اتقصور جميعها ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر، وداخلها مؤزّر
بالرخام والفصّ المذهب المشجّر بالصّدْف وأنواع الملونات، والسقوف المبطنّة
بالذهب واللّازورد تُحرق لضوء في جدرانها بطاقات من الزجاج القُبرسيّ الملون^(١)
كقطع الجواهر المؤنفة في العقود، وجميع أرضها مفروشة بالرخام المتقول من أقطار
الأرض مما لا يوجد مثله .

قال في "مسالك الأبصار": فأما الأدر السلطانية فعلى ما صاع عندي خبره أنها ذوات
بساتين وأشجار ومناخات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدواجن .
وخارج هذه القصور طباق واسعة للمالك السلطانية، ودور عظام لخوّاص
الأمراء من مقدّمى الألوّف، ومن عظم قدره من أمراء الطّبليخانة والعشرات،
ومن خرج عن حكم الخاصكية إلى حكم البرانيين .

وبها بيوت ومساكن لكثير من الناس، وسوق للآكل، وبيع بها النّفيس من
السلاح والقماش مع الدّالّين يطوفون به .

وبهذه القلعة مع ارتفاع أرضها وكونها مبنية على جبل برّ ماء معين مقبوبة
في الحجر، احتقرها بها، الدين قراقوش المتقدّم ذكره حين بناء القلعة، وهى من أعجب
الآبار، بأسفلها سواقٍ تدور فيها الأبقار، وتنقل الماء في وسطها، وبوسطها سواق
تدور فيها الأبقار أيضا وتنقل الماء إلى أعلاها؛ ولها طريق إلى الماء ينزل البقر
فيه إلى معينها في مجاز، وجميع ذلك تحت في الحجر ليس فيه بناء .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر: وسمعت من يحكى من المشايخ أنها لما
تقرت، جاء ماؤها عدبا فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة في ماءها فوسع تقرا في الجبل،
فخرجت منه عين مالحلة غيرت عدوبتها . ويقال: إن أرضها تسامت أرض

(١) في المقرئى هكذا [وقد مؤهت باللازورد والنور يحرق في جدرانها الخ] .

بركة الفيل ؛ وهذه البئر ينفع بها أهل القلعة فيما عدا الشرب من سائر أنواع الاستعمالات . أما شربهم فمن الماء العذب المنقول إليها من النيل بالروايا على ظهور الجمال والبغال مع ما ينساق إلى قصور السلطان ودور أكابر الأمراء المجاورين للسلطان من ماء النيل في المجارى ، بالسواقى النقالات والدواليب التى تديرها الأبقار وتقلل الماء من مقر إلى آخر حتى ينتهى إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور والأدور فى ارتفاع نحو خمسمائة ذراع .

وقد استجد السلطان الملك الظاهر برقوق بهذه القلعة صهرىجا عظيما يملأ فى كل سنة زمن النيل من الماء المنقول إلى القلعة من السواقى النقالات ، ورتب عليه سبيلا بالدركاه التى بها دار النيابة يسقى فيه الماء وحصل به للناس رفق عظيم .

وتحت مشرف هذه القلعة مما يلي القصور السلطانية ميدان عظيم يحول بين الإصطبلات السلطانية وسوق الخيل ، ممرج بالنجيل الأخضر ، فسيح المدى ، يسافر النظر فى أرجائه ؛ به أنواع من الوحوش المستحسنة المنتظر ، وتربط به الخواص من الخيول السلطانية للتفسيح ؛ وفيه يصلى السلطان العيدين على ماسياتى ذكره ؛ وفيه تعرض الخيول السلطانية فى أوقات الإطلاقات ووصول التقدام والمشتري ، وربما أطعم فيه الجوارح السلطانية ؛ وإذا أراد السلطان التزول إليه خرج من باب إيوان القصر وركب من درج تليه إلى إصطبل الخيول الخاص ، ثم نزل إليه راكبا وخواص الأمراء فى خدمته مشاة ، ثم يعود إلى القصر كذلك .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى "خططه" : وكان هذا الميدان وما حوله يعرف قديما بالميدان ، وبه قصر أحمد بن طولون وداره التى يسكنها ، والأماكن المعروفة بالقطائع حوله على ما تقدم ذكره فى خطط القسطنطين ، ولم يزل كذلك حتى بنى الملك الكامل بن العادل بن أيوب هذا الميدان تحت القلعة حين

سكنها ، وأجرى السواقي النِّقالات من النيل إليه ، وعمّر إلى جانبه ثلاث برك تملأ لسقيه ، ثم تعطل في أيامه مدّة ، ثم أهتم به الملك العادل ولده ، ثم أهتم به الصالح نجم الدين أيوب اهتماما عظيما ، وجدّد له ساقية أخرى ، وغرس في جوانبه أشجارا فصّار في نهاية الحسن . فلما توفّي الصالح تلاشى حاله إلى أن هُدم في سنة خمسين وستائة ، أو سنة إحدى وخمسين في الأيام المعزّية أبيك التركاني ، وهُدمت السواقي والقناطر وعفّت آثارها ، وبقي كذلك حتى عمّره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله ، فأحسن عمارته ورصّفه أبدع ترصيف ، وهو على ذلك إلى الآن .

أما الميّدان السلطانيّ الذي بَحْطُ اللوق ، وهو الذي يركب إليه السلطان عند وفاء النيل للعب الكرّة ، فبناه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجعل به المناظر الحسنة ونصب الطّوارق على بابه كما تنصّب على باب القلاع وغيرها ، ولم تزل الطّوارق منصوبة عليه إلى ما بعد السبعائة ، وسيأتى الكلام على كيفية الركوب إليه في المواكب في الكلام على ترتيب المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

والقلعة التي بالروضة تقدّم الكلام عليها [في الكلام] على خِطَط القُسطاط .



ومما يتصل بهذه القواعد الثلاث ويلتحق بها القرافة التي هي مدفن أمواتها ، وهي تربة عظيمة ممتدّة في سفح المَقْطَم ، موقعها بين المقطم والقُسطاط وبعض القاهرة ، تمتد من قلعة الجبل المتقدم ذكرها آخذة في جهة الجنوب إلى بركة الحبش وماحولها . وكان سبب جعلها مقبرة مارواه ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد : أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يديعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار ، فتعجب عمرو من ذلك ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ذلك ،

فكتب إليه عمر : أن سلّه لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تُزرع ولا يُستنبط بها ماء ولا ينتفع بها ؛ فسأله ، فقال : إنا لنجد صفتها في الكتب أن فيها غراس الجنة ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ذلك ، فكتب إليه عمر : ”إني لا أرى غرس الجنة إلا المؤمنين فأقبر بها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعها بشيء“ فقال المقوقس لعمر : ما على ذا عاهدتنا ، فقطع لهم قطعة تدفن فيها النصارى ، وهي التي على القرب من بركة الحبش ؛ وكان أول من قُبر بسفح المقطم من المسلمين رجلا من المعافير اسمه عامر ، فقبل عمرت .

ويروى أن ديسى عليه السلام مرّ على سفح المقطم في سياحته ومعه أمه ، فقال : ”يا أمّاه ! هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم“ . وفيها ضرائح الأنبياء عليهم السلام كإخوة يوسف وغيرهم . وبها قبر آسية امرأة فرعون ، ومشاهد جمادة من أهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء .

وقد بنى الناس بها الأبنية الرائقة ، والمناظر البهجة ، والقصور البديعة ، يسرح الناظر في أرجائها ، ويتعج الخاطر برؤيتها ؛ وبها الجوامع والمساجد والزوايا والرُّبُط والخوانق ، وهي في الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن .

الفصل الثانى

من المقالة الثانية

(فى ذكر كُورِ الديار المصرية ؛ وهى على ضربين)

الضرب الأول

(فى ذكر كُورها القديمة)

وقد جعلها القُصّاعى فى ”خططة“ ثلاثة أحياء ، وتشتمل على خمس وخمسين كُورة ، إلا أنه ذكرها سردا غير مبينة ولا مُرتبة ، وقد أوردتها هنا مبينة مرتبة ،

ونَهَتْ عَلَى مَا هُوَ مُسْتَمَرٌّ مِنْهَا عَلَى حِكْمِهِ ، وَمَا تَغْيِيرُ حِكْمِهِ بِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُسْتَمَرَّةِ مَعَ بَقَاءِ أَسْمَائِهِ ، وَمَادَرَسَ اسْمُهُ وَنُسَبِيٍّ ، أَوْ تَغْيِيرُ وَلَمْ تَعْلَمْ لَهُ حَقِيقَةُ .

الحيز الأول

(أعلى الأرض ، وهو الصعيد)

والمراد ماهو من كُورَهَا جنوبيّ الفُسْطَاطِ إِلَى نَهَائِيَّتِهِ فِي الْجَنُوبِ ، وَاسْمِي صَعِيدَا لِأَنَّ أَرْضَهُ كُلُّهَا وَجَلَتْ فِي الْجَنُوبِ ، أَخَذَتْ فِي الصُّعُودِ وَالْأَرْتِفَاعِ .
وقد ذكر القُضَاعِيُّ فِيهِ عَشْرِينَ كُورَةً :

الأولى - (كُورَةُ الْيَوْمِ) وَهِيَ كُورَةٌ بَاقِيَةٌ مُسْتَمَرَّةٌ الْحَكْمَ إِلَى الْآنَ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهَا فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُسْتَقَرَّةِ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الثانية - (كُورَةُ مَنَفٍ) وَمَنَفٌ هِيَ مَدِينَةُ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرَ ، الَّتِي بَنَاهَا مِصْرُ بْنُ بَيْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهَا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا مِنَ الْفُسْطَاطِ فِي جَنُوبِيَّةٍ عَلَى الْقَرَبِ مِنَ الْبَلَدَةِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ بِالْبَدْرَشِينِ .

الثالثة - (كُورَةُ وَسِيمٍ) وَوَسِيمٌ بَفَتْحِ الْوَاوِ وَكَسْرِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ الْمُنْتَهَا تَحْتَ وَمِيمٍ فِي الْآخِرِ . بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ الْجِيزَةِ مَعْرُوفَةٌ ، وَالثَّابِتُ فِي الدَّوَاوِينِ أَوْسِيمٌ بِزِيَادَةِ أَلْفٍ فِي أَوَّلِهَا وَسُكُونِ الْوَاوِ .

الرابعة - (كُورَةُ الشَّرْقِيَّةِ) وَكَانَ الْمُرَادُ بِهَا عَمَلٌ لِمُطْفِحِ الْآنَ إِذَا هُوَ شَرْقُ النَّيْلِ وَلَيْسَ بِالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ عَمَلٌ مُسْتَقْلِلٌ شَرْقُ النَّيْلِ سِوَاهُ .

الخامسة - (كُورَةُ دَلَّاصَ وَبُوصِيرِ) أَمَّا دَلَّاصُ فَبِدَالِ مَهْمَلَةٍ مُفْتُوحَةٍ وَلامَ أَلْفٍ ثُمَّ صَادَ مَهْمَلَةٍ قَالَ فِي " الرُّوضِ الْمُعْطَارِ " : كَانَتْ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا عَجَائِبُ الْأَبْنِيَةِ ، وَبِهَا كَانَ مُجْتَمَعٌ سَحَرَةُ مِصْرَ . وَأَمَّا بُوَصِيرُ فَاَلْمُرَادُ هُنَا بُوَصِيرُ قُورِيدُسَ الَّتِي قَتَلَ بِهَا

مَرَوَانُ الحِمَار : آخر خلفاء بني أُمَيَّة ، ودَلَّاص وبُوصِير هذه كلاهما الآن من عمل البهنسئى ، وسيأتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

قال فى "الروض المعطار" : قال الجاحظ : بها ولد عيسى بن مريم عليه السلام . وذكر أن نخلة مريم كانت قائمة بها إلى زمانه .

قلت : والمعروف أن مولد عيسى عليه السلام كان بالقُدس من أرض الشام على ما سيأتى ذكره فى الكلام على الإيمان فى أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى .

السادسة - (كُورَةُ أَهْنَسَ) وَأَهْنَسُ بفتح الهمزة وسكون الهاء وفتح النون وألف وسين مهملة فى الآخر ، وتعرف بأهناس المدينة ، كانت مدينة فى القديم ، وهى الآن من جملة عمل البهنسئى الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

السابعة - (كُورَةُ الْقَيْسِ) وَالْقَيْسُ بفتح القاف وسكون الياء المثناة تحت وسين مهملة فى الآخر ، كانت مدينة فى القديم ، وهى الآن قرية معدودة من عمل البهنسئى أيضا .

الثامنة - (كُورَةُ الْبَهْنَسِ) وهى ذات عمل مستقرّ ، وسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

التاسعة - (كُورَةُ طَحَا وَحَيْرِ شُنُودَةَ) . أما طحا فبفتح الطاء والحاء المهملتين وألف فى الآخر ، كانت فى القديم مدينة ذات عمل ، ولذلك تعرف بطحا المدينة ، وهى الآن من عمل الأشمونين الآتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة ، وإليها ينسب أبو جعفر الطحاوى إمام الحنفية ومحدثهم .

وأما حير شُنُودَةَ ، فمن الأسماء التى درّست ولم تعلم حقيقتها .

العاشرة - (كُورَةُ بُوَيْطَ) قال ابن خلكان : بُوَيْطَ بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وطاء مهملة فى الآخر . وقال فى "تقويم البلدان" ^(١)

(١) نص ياقوت على الضبط وقال أكثر ما يقال بغير همز .

بهمزة مفتوحة في أوله وباء ساكنة ، وهو آسم واقع على بلدين بالديار المصرية :
 إحداهما بعمل البهنسي في لحف الجبل على طريق المازة ، وإليها ينسب أبو يعقوب
 البويطي : أحد رواة الحديد عن الإمام الشافعي رضي الله عنه . والثانية من عمل
 سيوط وتعرف ببويط البتينة ، وإليها ينسب شرق بويط والظاهر أنها المرادة هنا .
 الحادية عشرة - (كُورَةُ الْأَشْمُونِينَ وَأَنْصَنَا وَشُطْبُ) . أما مدينة الْأَشْمُونِينَ ، فذات
 عمل مستقر ، وسيأتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة فيما بعد إن شاء الله تعالى .
 وأما أَنْصَنَا ، فقال في "تقويم البلدان" : هي بفتح الهمزة وسكون النون وكسر الصاد
 المهملة وفتح النون وألف في الآخر ، وهي مدينة قديمة خراب في البر الشرقي من
 النيل قبالة الْأَشْمُونِينَ .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة : أن مارية القبطية التي أهداها الموقس للنبي صلى
 الله عليه وسلم من كورتها من قرية يقال لها حَفْنُ ، وأنصنا الآن من جملة عمل
 الْأَشْمُونِينَ .

وأما شُطْبُ ، فبضم الشين المعجمة وسكون الطاء المهملة وباء موحدة في الآخر ،
 وهي مدينة قديمة بنيت في زمن شداد بن عديم أحد ملوك مصر بعد الطوفان
 قد خربت وعمر عليها قرية صغيرة سميت بأسمها ، وهي الآن من جملة عمل سيوط
 الآتي ذكره في الأعمال المستقرة .

الثانية عشرة - (كُورَةُ سَيُوط) وهي مستقر الحكم ، وسيأتي ذكرها في الأعمال
 المستقرة .

الرابعة عشرة - (كُورَةُ قَهْقُوه) وهي من الأسماء التي درست ونُسيت ، ولم أعلم
 بالصعيد بلدة تسمى الآن بهذا الاسم .

الخامسة عشرة - (كورة إبحيم والدَّير وأُنشاية) : أما كورة إبحيم، فمن الكُور المستمزة الحكم، وسيأتى الكلام عليها فى الكُور المستقرّة .

وأما الدير، فيجوز أن يكون المراد به الدَّير والبلاص ، وهى بلدة فى شرق النيل شمالي قنّا، هى الآن من عمل قُوص الآتية الذكر .
وأما أنشاية، فمن الأسماء التى جهلت .

السادسة عشرة - (كورة هُو ودندرة وقنّا) : أما هُو، فبضم الهاء وسكون الواو، وهى مدينة صغيرة على ساحل البر الغربى الجنوبى من النيل ، ويضاف إليها فى الدواوين الكوم الأحمر، فيقال هُو والكوم الأحمر .

وأما دندرة، فبفتح الدال المهملة وسكون النون وفتح الدال الثانية والراء المهملة وهاء فى الآخر، وهى مدينة قديمة خراب على الساحل الغربى الجنوبى من النيل فى شرق هُو، وبها كانت البرّابة العظيمة المتقدم ذكرها فى عجائب الديار المصرية .
وأما قنّا، فبكسر القاف وفتح النون وألف فى الآخر، وهى مدينة شرق النيل وبها ضريح السيد الجليل عبد الرحيم القنّائى ، المعروف بالبرّكة وإجابة الدعاء عنده . وهذه البلاد الثلاث الآن من جملة عمل قُوص الآتى ذكره فى الكلام على الأعمال المستقرّة .

السابعة عشرة - (كورة قفط والأقصر) . أما قفط، فبكسر القاف وسكون الفاء وطاء مهملة فى الآخر، كانت مدينة قديمة بالبر الشرقى من النيل جنوبى قنّا المتقدمة الذكر، بناها قفط بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام أحد ملوك مصر بعد الطوفان، نخرت وبقيت آثارها وعمرت على القرب منها مدينة صغيرة سميت بأسمها .

(١) فى ياقوت قفط بن مصر ... ثم قال وأصله فى كلامهم قفطيم ومصرم ولكن الذى فى المقرئى نحو ساقى الاصل .

وأما الأَقْصَرُ، فبضم الهمزة وسكون القاف وضم الصاد المهملة وراء مهملة في الآخر، وتسمى الأَقْصَرَيْنِ أيضا على التثنية، وهى مدينة خراب بالبر الشرقى من النيل، قد عُمر على القرب منها قرية سميت بأسمها، وبها ضريح السيد الجليل أبو الحجاج الأَقْصَرِيّ، وكانت بها بَرّاة عظيمة نفرت، وأعلم أن بين قِفْط والأَقْصَر مدينة قوص، وقد ذكر القضاعى كورتها فى جملة الكُور، فكيف يستقيم أن تذكر قِفْط والأَقْصَر كورة واحدة؟ .

الثامنة عشرة - (كورة قُوص) وهى مستمرة الحكم، وسيأتى الكلام عليها فى جملة الأعمال المستقرة إن شاء الله تعالى .

(١)
التاسعة عشرة - (كورة أَسْنَا وَأَرَمَنْتَ) . أمّا أَسْنَا ، فبفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح النون وألف فى الآخر، وهى مدينة حسنة بالبر الغربى من النيل، ويقال : إنه لم يسلم من تخريب بُحْتَنَصَر من مدن الديار المصرية سواها، وذلك أن أهلها هربوا منه إلى الجبل بالقرب منها فتبعهم وقتلهم هناك وترك البلد على حالها .

وأما أَرَمَنْتُ ، فبفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم وسكون النون وتاء مثناة فوق فى الآخر، وهى مدينة صغيرة بالبر الغربى الشالى من النيل بينها وبين أَسْنَا مرحلة، وكلاهما الآن من عمل قُوص، وقد جرى على الألسنة الجمع بينهما فى اللفظ فيقال : أَسْنَا وَأَرَمَنْتَ، وكأن ذلك لكثرة اجتماعهما فى إقطاع واحد .

العشرون - (كورة أُسْوان) : وسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرة مع الأعمال القُوصية إن شاء الله تعالى .

(١) ضبطه ياقوت بكسر الهمزة .

الحيز الثاني

(أسفل الأرض)

وقد ذكر القضاعي : أنها ثلاث وثلاثون كورة في أربع نواحي .

الناحية الأولى

(كُور الحَوْف الشرقيّ، وبها ثمان كُور)

الأولى - (كورة عَيْنِ شَمْسٍ) وعين شمس مدينة قديمة خرابٌ على القرب من المطرِيَّة من ضواحي القاهرة الآتي ذكرها في الأعمال المستقرّة .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : رأيت على حاشية بعض كتب التواريخ أن مَلِكها كان عَظِيم الشأن، وعاش إلى زمن يوسف عليه السلام وتزوج أبنته .

الثانية - (كورة أَتْرِب) وأتريب مدينة خرابٌ على القرب من بُها العَسَل من أعمال الشرقية الآتي ذكرها في الأعمال المستقرّة، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ابن بيسر بن حام بن نوح عليه السلام .

الثالثة - (كورة بَنّا وَثَمِي) أما بَنّا ، فلا يعرف بالحوف الآن بلدة أسمها بَنّا ، وإنما بَنّا بعمل الغربية ، وسيأتي ذكرها مع بُوصير هناك .

وأما ثَمِي ، فبضم التاء المشاة فوق وفتح الميم وياء مشناة تحت في آخرها ، وهي مدينة خرابٌ بعمل المُرْتاحِيَّة ، بها آثارٌ عَظَامٌ ، رأيت فيها أبوابا من حجر صَوَان قطعة واحدة ، ارتفاعها نحو عشرة أذرع قائمة على قاعدة من صَوَان أيضا .

الرابعة - (كُورَة بَسْطَة) وبَسْطَة بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وهاء في الآخر ، وهي مدينة خرابٌ تعرف الآن بَبَلْ بَسْطَة من عمل الشرقية .

- الخامسة - (كورة طَرَايَّة) وهى من الأسماء التى دَرَسَتْ ولم تعرف .
- السادسة - (كورة قُرَيْبِيَّط) وهى من المجهول أيضا .
- السابعة - (كورة صَان وإِيلِيل) وهى من المجهول .
- الثامنة - (كورة الفَرَمَا والعَرِيْش) . أمَّا الفَرَمَا، فقال فى "تقويم البلدان":
هى بفاء وراء مهملة وميم مفتوحات ثم ألف، وهى بلدة خرابٌ على شاطئ بحر
الروم، على بُعد يومٍ من قُطِيَّة . قال ابن حَوْقَل : وبها قَبْرُ جَالِينُوس الحكيم .
وأما العَرِيْشُ ، فبفتح العين المهملة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ
وشين معجمة فى الآخر، قال فى "الروض المعطار" : كانت مدينة ذات جامعين
مفترقِ البناء، وثمار وفواكه .
- قال فى "تقويم البلدان" : وهى الآن مَبْرَلَةٌ على شَطِّ بحر الرُّوم ، وبها آثار
قديمة من الرُّخام وغيره .
- قال فى "الروض المعطار" : وكان بينها وبين قَدَس طريق مسلوكة فى البر .

الناحية الثانية

(بطن الريف)

- وأصل الرِّيف فى لغة العرب موضع الزَّرْع والشجر، إلا أنه غلب بالديار المصرية
على أسفل الأرض منها، وفيها سَبْعُ كُور .
- الأولى - (كُورَةُ بَنَّا وبُوصِير) . أمَّا بَنَّا، فبفتح الباء الموحدة والنون وألف فى الآخر،
وَبُوصِيرُ تقدّم ضبطها فى الكلام على بوصير المعروفة بمصر يوسف بالجيزية عند ذكر
قواعد مصر القديمة ، وبنا وْبُوصِيرُ هذه كلاهما من عمل الغربية الآتى ذكره
فى الأعمال المستقرّة .

الثانية - (كُورَة سَمْنُودَ)، وسمْنُودُ بفتح السين المهملة والميم وضم النون المشددة والواو ودال مهملة في الآخر، وهى مدينة صغيرة من الأعمال الغربية، كان لها عمل مستقرّ في أول الأمر ثم أضيفت إلى عمل الغربية .

الثالثة - (كُورَة نَوْسَا)، ونَوْسَا بفتح النون والواو والسين المهملة في الآخر، وهى الآن قرية من قُرَى المُرْتاحية .

الرابعة - (كورة الأَوْسِيَّة)، وهى من الأسماء التى دَرَسَتْ وَجْهَات .

الخامسة - (كورة البُجُوم)، بالباء الموحدة والجيم، وهى من الأسماء المندرسة أيضاً، ولا يُعرف مكان بالديار المصرية اسمه البُجُوم إلا أرض بأسفل عمل البحيرة على القرب من الإسكندرية، صارت مستنقعا للمياه المتصرفة عن البحيرة .

السادسة - (كُورَة دَقْهَلَة)، ودَقْهَلَة بفتح الدال المهملة والقاف وسكون الهاء وفتح اللام وهاء في الآخر، وهى مدينة قديمة بالجزيرة بين فِرْقَة النيل المازة إلى دميّاط والفرقة التى تصب ببحيرة تَنيس، وإليها ينسب عمل الدقهلية، وهى الآن قرية من عمل أَشْمُوم الآتى ذكرها في الأعمال المستقرّة، وإن كان العمل في الأصل منسوباً إليها .

السابعة - (كورة تَنيسَ ودِمِيّاطَ)، أمّا تَنيسَ، فقال في اللُّبَاب: هى بكسر المثناة فوق والنون المشددة وسكون الياء المثناة تحت وسين مهملة في الآخر، والجارى على الألسنة فتح التاء؛ كانت مدينة عظيمة فطمى عليها الماء قبل الفتح الإسلامى بمائة سنة، فأغرق ما حولها وصارت بُحيرةً، وسيأتى الكلام عليها في الكلام على بُحيرتها، وهى الآن قرية صغيرة بوسط البُحيرة والماء محيط بها .

قال في "الروض المعطار": وكانت تُرْبَتها من أطيب التُّرْب، وبها تُحَاك الثياب النفيسة التى ليس لها نظير في الدنيا، وقد قيل: إن الجنتين اللتين أخبر الله تعالى

عنهما في سورة الكهف بقوله : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ الآية ، كانتا بَنَتَيْنِ .

وأما دِمْيَاطُ ، فسيأتى ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة إن شاء الله تعالى .

الناحية الثالثة

(الجزيرة بين فرقتي النيل الشرقية والغربية ، وفيها خمس كور)

الأولى - (كورة دَمِيسَ وَمَنُوفَ) . أما دَمِيسُ ، فبفتح الدال المهملة وسكون الميم وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وسين مهملة في الآخر ، وهي الآن بلدة من عمل الغربية .

وأما مَنُوفُ فمن الأسماء التي نُسِيت وجهلت .

الثانية - (كورة طَوَّة مَنُوفَ) ، وهي من الأسماء التي جهلت ولا يعلم بالديار المصرية الآن بلدة اسمها طَوَّة غير بلدين بالوجه القبلي إحداهما بالأشْمُونِينِ ، والثانية بالبهنساوية .

الثالثة - (كورة سَخَا وَتَيْدَة وَالْفَرَّاجُونِ) . أما سَخَا ، فبفتح السين المهملة والحاء المعجمة وألف في آخرها ، وهي بلدة حسنة كانت ذات عمل ، ثم أَسْتَقَرَّتْ من عمل الغربية الآن .

وأما تَيْدَة ، فبفتح التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وفتح الدال المهملة وهاء في آخرها ، وهي الآن قرية من قرى الغربية .

وأما الْفَرَّاجُونُ ، فبالألف واللام في أولها ، ثم فاء مفتوحة وراء مهملة مشددة بعدها ألف وجيم مضمومة وواو ساكنة ونون في الآخر ، وهي بلدة مضافة إلى تَيْدَة ، فيقال : تَيْدَة وَالْفَرَّاجُونُ .

- الرابعة - (كورة بقيرة وديصا)، وهما من الأسماء التي نُسيت وجهلت .
الخامسة - (كورة البشرد)، وهى من الأسماء التي جهلت .

الناحية الرابعة

(الخوف الغربى، وفيها إحدى عشرة كورة)

الأولى - (كورة صا)، وصا بصاد مهملة مفتوحة وألف فى الآخر، وهى مدينة خراب شرق الفرقة الغربية من النيل، بناها صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام، أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وبها الآن آثار عظيمة، وقد عمرت بالقرب منها قرية وسميت بأسمها، وكان عملها كان من البر الغربى .

الثانية - (كورة شباس) وشباس بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة وألف ثم سين مهملة أسم لثلاث بلاد من عمل الغربية الآن، وهى شباس الملح، وشباس أنبارة، وشباس ستقر، وتعرف بشباس الشهداء، وكان المراد الثالثة فإنها أعظمها .

الثالثة - (كورة البدقون)، وهى من الأسماء التي درست وجهلت .

الرابعة - (كورة الخيس والشراك) . أما الخيس فلا تعرف بالبحيرة الآن بلدة تسمى الخيس، وإنما الخيس بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء وسين مهملة فى الآخر، بلدة من عمل الشرقية .

وأما الشراك، فكسر الشين المعجمة المشددة وفتح الراء المهملة وألف ثم كاف، وهى بلدة من عمل البحيرة .

الخامسة - (كورة خربت)، بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح التاء المثناة فوق، وهى قرية معروفة من عمل البحيرة، ومنها سار من سار من المصريين لقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

السادسة - (كورة قَرُطَسًا وَمَصِيل) . أما قَرُطَسًا فبفتح القاف وسكون الراء المهملة وفتح الطاء والسين المهملتين وألف في الآخر ؛ وهى قرية من عمل البحيرة الآن .

وأما مَصِيل ، فمن الأسماء التى جهلت .

السابعة - (كورة المليدس) وهى من الأسماء التى جهلت .

الثامنة - (كورة إخنا ورَشِيدَ والبُحَيْرَة) . أما إخنا ، فمن الأسماء التى جهلت ولا يعرف بالبُحَيْرَة بلد أسمها إخنا ، وإنما أخنويه من عمل الغربية ، والعامة تقول إخنا .

وأما رَشِيدُ ، بفتح الراء المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر ، فَلَبْدَة عند مَصَبِّ الفرقة الغربية التى يقع الاعتناء بحفظها . وفى ذلك نظر لاعتباره الغربية ورشيد من سواحل البحيرة ، وبينهما بعدٌ يبعد معه أن يجتمعا فى كورة واحدة .

وأما البُحَيْرَة ، فالظاهر أنه يريد بحيرة بوقير المتقدم ذكرها فى الكلام على القواعد القديمة ، ويأتى بقية الكلام عليها فى الأعمال المستقرة إن شاء الله تعالى .

(١) العاشرة - (كورة مَرِيُوط) . وَمَرِيُوطُ بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر ، وهى ناحية غربى الإسكندرية داخلية الآن فى عملها ، بها الأشجار والبساتين ، وفواكهها تحمل للإسكندرية .

الحادية عشرة - (كورة لُؤْيِيَّةٌ وَمَرَاقِيَّة) . أما لوبية ، فبلام وواو وباء موحدة ثم ياء مثناة تحت وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : وهى كورة

(١) سقطت التاسعة من قلم الناسخ وهى "كورة البتون" وقد ذكرها ابن دقاق فى كتابه "الانتصار" .

من كُور مصر الغربية ، متصلة بالإسكندرية . قال : وقد قيل إن الإسكندر كان منها .

وأما مَرَاقِيَّةٌ ، فميم وراء مهملة وألف وقاف وياء مثناة تحت وهاء في الآخر . وقد ذكر القضاعى في تحديد الديار المصرية ما يقتضى أنهما بجوار بَرَقَة ، فقال : إن الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى لُوبِيَّة وَمَرَاقِيَّة ، ثم قال : وفي آخر أرض مَرَاقِيَّة تلقى أرض أنطابلس ، وهى بَرَقَة ، والظاهر أن لوبية غربى مريوط ، ومَرَاقِيَّة غربى لوبية وهى آخر أرض الديار المصرية من جهة الغرب .

الحيز الثالث

(كُور القِبْلة ، وفيها خمس كور)

الأولى - (كورة الطُور وفاران) . أما الطُور فضبطه معروف . قال في المشترك : والطور في اللغة العبرانية اسم لكل جَبَل ، ثم صار علمًا لجبال بعينها ، منها جبل طُورِ زَيْتًا بلفظ الزيت ، وهو اسم لجبل برأس عين من بلاد الجزيرة وجبل بالْقُدْس وجبل مُطَلَّ على طَبَرِيَّة ، وطُور هُرون بالْقُدْس ، وطُور سينا ، وهو المراد هنا ، وهو جبل داخل في بحر القلزم على رأسه دَيْرٌ عَظِيم ، وفي واديه بساتين وأشجار ، وهو على مَرَحَلَةٍ من فُرْضَةِ الطور المتقدمة الذكر في تحديد بحر القلزم ، وكأنها سميت باسمه لتقربها منه . قال ابن الأثيرى في "كتاب الزاهر" : وسمى الطُور بطُور بن إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام .

وأما فاران ، فبفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة بعدها ألف ثانية ثم نون ، قال في "الروض المعطار" : وهى مدينة صغيرة من برالحجاز على جون على البحر . قال : ولجبال فاران ذِكْرٌ في التوراة .

الثانية - (كورة رَايَة والقُلْزَم). أما راية فن الأسماء التي جهلت ، وقد ذكرها
آبن سعيد مقرونة بالقلزم فقال : ورايَة والقُلْزَم من كور مصر .

وأما القُلْزَمُ ، فقال في المشترك : هو بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي المعجمة
ثم ميم في الآخر ، وهي مدينة قديمة على ساحل بحر القُلْزَم وإليها ينسب البحر المذكور .
قال في "القانون" : وطولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها
ثمان وعشرون درجة وعشرون دقيقة ، وعلى القرب منها غَرِقَ فِرْعَوْنُ .

الثالثة - (كورة أَيْلَة وحَيِّها ، ومَدِين وحَيِّها ، والعَوْنِيد وحَيِّها ، والخوراء وحَيِّها) .
أما أَيْلَة فقال في "تقويم البلدان" : هي بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت
وفتح اللام وهاء في الآخر . قال : وهي كانت مدينة صغيرة خرابا على ساحل بحر القُلْزَم .
قال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وأربعون دقيقة .

قال في "تقويم البلدان" : وبها زرع يسير ، وهي مدينة اليهود الذين جعل منهم
الْقِرْدَة والخنازير ، وعليها طريق مُجَّاج مصر . قال : وهي في زماننا برج وبه وَاِلٍ من
مصر وليس بها مندرع ، وكان بها قلعة في البحر فبطلت ونُقِلَ الوالى إلى البرج .

وأما مَدِين فبضبطها معروف ؛ وهي في الأصل آسم لقبيلة شُعَيْب عليه السلام
وكانوا مقيمين بها فسميت البلد بهم ، وهي مدينة خراب على بحر القُلْزَم محاذية لَتَبُوكَ
من بلاد الشام على نحو ست مراحل منها ، وعدّها في "الروض المعطار" من بلاد
الشام ، وبها البئر التي آسقى منها موسى عليه السلام لبنات شُعَيْب وسقى غنمهن .

قال آبن سعيد : وسعة البحر عندها نحو مجرى .

وأما العَوْنِيد ؟ فبعين مهملة وواو وياء مثناة تحت ونون ودال . قال في "الروض
المعطار" : وهي مدينة قريبة من نصف الطريق بين جَدَّة والقُلْزَم . قال : وعلى

القرب منها مرسى صناء، ينحدر الماء بها عن أثر قدم من أوسط الأقدام بينة الكعب والأُنْحَص والأصابع لم يُعَفِّها الزمان، ولا تتمحى بمرور الماء عليها .

وأما الحوراء، فبحاء مهملة مفتوحة بعدها واو ساكنة وراء مهملة مفتوحة ثم ألف في الآخر . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة على ساحل وادي القرى بها مسجد جامع ، وبها ثمانية آبار عذبة ، وبها ثمار ونخل وأهلها عرب من جُهينة وبلي . قلت : والمعروف في زماننا أن الحوراء منزلة بطريق حجاج مصر، ولعلها على القرب منها .

الرابعة - كورة بدأ يعقوب وشُعيب ، ولم أعلم حقيقة مكانهما . قلت : ذكر القضاعي أيلة ومدين وما والاها مما على ساحل بحر القلزم من بر الحجاز في أعمال مصر جريا على ما قدمه من إدخال ذلك في تحديد الديار المصرية ، على أنه قد أهمل من جملة الديار المصرية حيزين آخرين .

الحيز الأول

(بلاد ألواح)

إذ هي داخلية في حدود الديار المصرية على ما حدده هو وغيره . قال في "اللُّبَاب" : وهي بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الواو وفي آخره حاء مهملة، وقال في "المشترك" : واح بغير ألف ولام ويجمع على واحات، وهي ناحية غربي بلاد الصعيد منقطعة عنه خلف الجبل الغربي من جبلي مصر المتقدم ذكرهما . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة . قال في "تقويم البلدان" : والبرارى محيطة بها من جميع جهاتها ، وهي بينها كالجزيرة، بين رمال ومفاوز .

قال البكريّ : وهو إقليم مستقلّ غير مفتقر إلى سواه . قال في "الروض المعطار" :
وهي آخر بلاد الإسلام ، وبينها وبين بلاد النوبة ستُّ مراحل . قال : وفي هذه
الأرض شَبَّية وزاجيّة وعيون حامضة الطعوم ولكل نوع منها منفعة وخاصة ،
وبها العيون الجارية ، والبساتين ، والثمار ، والتمر الكثير ، وبها مدن كثيرة مسوّرة
وغير مسوّرة .

قال في "المشترك" : وهي ثلاث كور : واحة الأولى ، واحة الوسطى ،
واحة القصوى .

قلت : والأولى منها - مقابل الأعمال البهناوية ، وهي أعمرها وأكثرها ثمرة ،
ومنها يجلب التمر والزبيب الكثير ، وتعرف بواحة البهنسي وبالواحة الخاصّ .
والثانية - مقابل شماليّ الأعمال الأسيوطية ، وتعرف بالواحة الداخلة ، وهي
تلو الواحة الأولى في العمارة ، بها مدُن مشهورة ، منها السلمون والهنداو والقلمون
والقصير وغيرها .

والثالثة - مقابل جنوبيّ الواحة الثانية ، وتعرف بالواحة الخارجة ، وبين ريف
الصعيد وبين جميعها عرض جبل مصر الغربيّ ، ومسيرته ثلاث مراحل فما دونها
بحسب اختلاف الأماكن والطرق .

قال في "التعريف" : وهي جارية في اقطاع أمراء مصر ، وهم يؤثّون عليها من
قَبْلِهِمْ . قال : ومَعْلَمُها كأنه مصالحة لعدم التمكن من استغلاله أسوة بقية ديار مصر ،
لوقوعه منقطعا في البلاد النائية والقفار النازحة .

قال في "مسالك الأبصار" : ولا تعدّ في الولايات ولا الأعمال ، ولا يحكم
عليها من قِبَلِ السلطان .

الحيز الثاني

(بَرْقَة)

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهى من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : وطولها اثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة . وهى أرض ممتدة الأرجاء ، مديدة الفضاء ، وهى من أزكى الأراضى دواب ، وأمرها مرعى .

قال في "مسالك الأبصار" : أخبرنى بعض من رءاها أنها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلس فى منابت أشجارها وكيفية أرضها وما هى عليه ، وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزراع ، كانت إقليما كبيرا يقارب نصف الشام ، قال : وبها الماشية والسائمة الكثيرة : من الإبل والغنم والخيول ، وخیلها من أقوى الخيل وأصلبها حوافر ، وصورها بين العراب والبرادين ، وقد جمعت بين حسن العراب وكمال تخاطيطها ، وصلابة البرادين وثباتها على الوعور ، وهى إلى محاسن العراب أقرب ، ولكنها لا تبلغ شأوَ خيل البحرين والحجاز ، وفحولها أنجب من إناثها . قال : وكذلك بها المدن المبنية ، والقصور العلية ، والآثار الدالة على ما كانت عليه من الجلالة .

قال ابن سعيد : وهى سلطنة طويلة ، وإن لم يكن لها استقلال لاستيلاء العرب عليها ، وهى إلى إفريقية أقرب منها إلى مصر . قال : وكان سريرها فى القديم بمدينة (طبرقة) . وذكر صاحب "الروض المعطار" : أن قاعدتها كانت مدينة (أنطا بلس) ، وقد تقدم من كلام القضاعى فى تحديد الديار المصرية فى آخر الحد الشمالى ما يوافقه . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن مدنها طُمَيْثًا . قلت : والتحقيق أن بَرْقَة قسمان : قسم محسوب من الديار المصرية ، وهو بادون العقبة الكبرى إلى الشرق .

وقسم محسوب من إفريقية، وهو مافوق العقبة المذكورة إلى الغرب، وهذه المدن الثلاث مما يلي جهة المغرب، والقسمان كلاهما بيد العرب أصحاب الماشية، قال في "مسالك الأبصار": وربما زرع بعضهم في بعض أرضها فأنجب، ولكنهم أهل بادية لا عناية لهم بعارة ولا زرع. قال: وأمرها إلى صاحب مصر يُقَطِّعها بالمناشير تارة لبعض الأمراء وتارة للعرب يأخذون عدادها، وكأنه يريد القسم الذي هو من مصر.

الضرب الثاني

(من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرة، ولها وجهان)

الوجه الأول

(القبلى)

وهو المعبر عنه بالصعيد، وقد تقدّم بيانه في الكلام على الكور القديمة، وبه تسعة أعمال:

العمل الأول - الحيزية. وهو أقربها إلى القُسطاط والقاهرة، ومقر ولايته مدينة الحيزية (بكسر الجيم وإسكان الياء المثناة تحت وفتح الزاى المعجمة وبعدها هاء) وموقعها في الإقليم موقع القُسطاط، وطولها وعرضها واحد، وإليها ينسب الربيع الحيزي راوى الأم عن الشافعي رضي الله عنه.

قال في "الروض المعطار": ويقال إن بها قبر كعب الأخبار، وهي مدينة لطيفة على ضفة النيل الغربية مقابل جزيرة المقياس المتقدمة الذكر والنيل بينهما، وبعض هذا العمل يأخذ في جهة الشمال إلى الوجه البحري الآتي ذكره.

قال في "الروض المعطار": والحيزية أخططها عمرو بن العاص رضي الله عنه.

العمل الثانى - الإِطْفِيحِيَّةُ . وهو شرق النيل فى جنوب الفُسْطَاط ، مُصَاقِبُ بركة الحبش وبساتين الوزير . ومقر ولايته مدينة "إِطْفِيح" (بكسر الهمزة وإسكان الطاء المهملة وبالفاء والياء والحاء المهملة) وربما قلبت الطاء تاءً مثناةً فوق ، وهى مدينة لطيفة فى البر الشرقى ، وموقعها فى الإقليم الثالث ، ولم يتحرل طولها وعرضها ، وعملها ما بين المقطم والنيل أخذاً عنها جنوباً وشمالاً ، وليس لعملها كبير ذكر .

العمل الثالث - البَهَنَسَاوِيَّةُ . وهو مما يلي عمل الحيزة من الجهة الجنوبية ، ومقر ولايته مدينة البَهَنَسَى . قال فى "المشترك" : (بفتح الباء وسكون الهاء وفتح النون وسين مهملة مفتوحة وألف مقصورة) وهى مدينة لطيفة قديمة بالصعيد الأدنى بالبر الغربى من النيل تحت الجبل بطوق المزدرع ، مركبة على ضفة بحر الفيوم . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها إحدى وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمان وعشرون درجة .

العمل الرابع - الفَيُومِيَّةُ . وهو مُصَاقِبُ لعمل البَهَنَسَى من غريبه ، وبينهما منقطع رمل . وهو من أعظم الأعمال وأحسنها عمارة ، كثير البساتين ، غزير الفواكه ، دار الأرزاق . يقال إنه كان متصل مياه الديار المصرية فاستخرجه يوسف عليه السلام وجعله ثلثمائة وستين قرية لتعمير كل قرية منها بلد مصر يوماً من أيام السنة .

قلت : وأما الآن فقد نقصت عدة قراه بسبب ما عراها من ركوب ماء البركة التى هى متصل مياهه^(١) ، المتقدم ذكرها فى جملة بحيرات الديار المصرية وركوب مائها على أكثر القرى المجاورة لها ، ولولا ما هو شامل له من بركة الصديق عليه السلام ،

(١) كذا فى الأصل بدون نقط ولعله مصحف عن متصل أى مكان المصل والشيخ وفى خطط المقرئى وقد كان مفيض ماء النيل . وفى تقويم البلدان كان فى وهدة وقد سبق إليه نهر من رشح ماء النيل . وفى المسعودى وكان مضافة .

لكانت قد غَطَّت جميع بلاده . إذ المياه تنصبُّ إليها شتاءً وصيفاً على ممرِّ الدهور
وتعاقب الأيام، وليس لها مصِّرف تنصرف منه ضرورةً إحاطةً الجبال بها من الجهات
التي هي بصَدَدٍ أن تُصَرَف منها ، ولقد أجتهد بعض حُكَّام الزمان على أن يتحیل
في عمل مصِّرف يُقَطِّع في الجبل لتتصرف منه مياهها فلم يجد إلى ذلك سبيلاً .
ولو كان ذلك في حيز الإمكان، لفعله يوسف عليه السلام .

قال ابن الأثير في ”عجائب المخلوقات“ : ويقال إنه على جميع القُيُوم سورٌ دائرٌ،
ومقرُّ ولايته (مدينة القُيُوم) وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .
قال في ”القانون“ : وطولها أربع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها
ثمان وعشرون درجة وعشرون دقيقة .

وقال في ”تقويم البلدان“ : القياس أن طولها ثلاث وخمسون درجة، وعرضها
تسع وعشرون درجة، وهي مدينة حسنة على ضَفَّة البحر المنمى حسنة الأبنية ،
زاهية المعالم . وبها الجوامع والرُّبُط والمدارس ، وهي راكبة على الخليج المنمى من
جانبيه، وهو مخترق وسطها . قال في ”العزیزی“ : وبين القُيُوم والفُسْطَاطِ
ثمانية وأربعون ميلاً .

العمل الخامس - عمل الأَشْمُونِيَّين والطَّحَاوِيَّة . وهو مصاقب لعمل البهنسي
من جنوبيه، وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الفضاء، متقارب القرى . ومقرُّ
الولاية به (مدينة الأَشْمُونِيَّين) بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون
الواو وفي الآخرون . وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ما ذكره
في ”تقويم البلدان“ والإقليم الثاني على ما يقتضيه كلام المقرِّ الشهابي بن فضل الله
في ”مسالك الأبصار“ حيث جعل آخر الإقليم الثاني دَهْرُوط من البهنساوية .

قال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهي مدينة لطيفة بالبر الغربي من النيل، كانت في الأصل مدينة قديمة بناها أشتون بن قطيم بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح عليه السلام، ثم حُرِّبَتْ وَدَثِّرَتْ، وبُنِيت هذه المدينة على القرب منها. وكان هذا العمل فيا تقدّم عملين : أحدهما عمل الأشتونين هذا، والثاني عمل طحا المدينة (بفتح الطاء والحاء المهملتين وألف في الآخر) وقد تقدّم ذكرها في الأعمال القديمة، ثم أضيفا وجعلا عملاً واحداً.

العمل السادس - المنفلوطية . وهو مصابف لعمل الأشتونين من جنوبه، وهو من أخصّ خاص السلطان الجارى في ديوان وزارته، ومنه يحمل أكثر الغلال إلى الأهرام السلطانية بالقسطاط . ومقر ولايته (مدينة منفلوط) . قال في "تقويم البلدان" : (بفتح الميم وسكون النون وفتح الفاء وضم اللام ثم واو وطاء مهملة في الآخر). وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة فيما ذكره في "تقويم البلدان" : ومن أواخر الإقليم الثاني على ما يقتضيه كلام "مسالك الأبصار" .

قال في "كتاب الأطوال" : وطولها اثنتان وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وعشرون درجة وأربعون دقيقة؛ وهي مدينة لطيفة بالبر الغربي من النيل بالقرب من شطّه .

العمل السابع - الأسيوطية . وهو مصابف لعمل منفلوط من جنوبه، وهو عمل جليل، ومقر الولاية به (مدينة أسيوط) ^(١) بضم الألف وسكون السين وضم المثناة تحت وفي آخرها طاء مهملة . هكذا ضبطه السمعاني في "كتاب الأنساب" :

(١) ضبطها في القاموس كذلك وضبطها ياقوت بالفتح .

وذكرها في "الروض المطار" في حرف الهمزة ، ووقعت في شعر ابن الساعاتي
بغير ألف في قوله :

لِلَّهِ يَوْمٌ فِي سُيُوطٍ وَلَيْلَةٌ * عُمُرُ الزَّمَانِ بِمِثْلِهَا لَا يَغْلُظُ
يَتَنَا بِهَا ، وَالْبَدْرُ فِي غُلُوءَاتِهِ * وَلَهُ يَجْنَحُ اللَّيْلُ فَرْعَ أَشْمُطُ
وَالطَّيْرُ تَقْرَأُ ، وَالْغَدِيرُ صَحِيفَةٌ * وَالرَّيْحُ تَكْتُبُ ، وَالْغَمَامُ يَنْقُطُ

وإثبات الألف فيها هو الجارى على 'السنة العامة بالديار المصرية ، والثابت
في الدواوين حذفها . وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : وطولها إحدى وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة ،
وعرضها اثنتان وعشرون درجة وعشر دقائق . وهى مدينة حسنة فى البر الغربى من
النيل على مرحلة من مَنَقْلُوطَ ، وبها مساجد ومدارس وأسواق وقياسر وحمامات .

العمل الثامن - (الإنجيميّة) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوطَ من جنوبيه ،
وهو عمل ليس بالكبير ، وبلاده أكثرها بالبر الغربى عن النيل ، وحاضرتة (مدينة
إِنْجِيمٍ) . قال فى "تقويم البلدان" : (بكسر الألف وسكون الحاء المعجمة والمثناة
تحت بين الميمين ، والأولى منهما مكسورة) وموقعها فى أواخر الإقليم الثانى من
الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : وطولها إحدى وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها
ست وعشرون درجة . وهى مدينة لطيفة بالبر الشرقى عن النيل على مرحلتين من
أُسْيُوطَ ، وبها كانت البرابى العظامُ المتقدمة الذكر ، ويقال إن ذا النون المصرى
العابد الزاهد منها ، وولايتها مضافة إلى قُوصَ .

العمل التاسع - القُوصِيَّةُ . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوطَ من جنوبه ، وهو
عمل متسع الفضاء بعيد ما بين القرى ، ينتهى آخره إلى أُسْوَان : آخر الديار المصرية

في البر الشرق والغربي، وهي بلاد النمر، ومنها يجلب إلى سائر البلاد المصرية، ومقر ولايته (مدينة قوص). قال في "المشارك" - بضم القاف وسكون الواو، وفي الآخر صاد مهملة - وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة .

قال ابن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها ست وعشرون درجة، وهي مدينة جليلة في البر الشرق عن النيل، ذات ديار فائقة، ورباع أنيقة، ومدارس وربط وحمامات، يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال، وبها البساتين والحدائق المستحسنة إلا أنها شديدة الحر، كثيرة العقارب، حتى إنه يقيض لها من يدور في الليل في شوارعها بالمسارح لقتلها، ويقاربها في الكثرة أيضا سأم أرض .

قال المقر الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أخبرني عن الدين حسن بن أبي المجد الصفدي أنه عد في يوم صائف على حائط الجامع بها سبعين سأم أرض على صف واحد . ومما يدخل في عملها مما له ولاية مستقلة مدينة أسوان . قال السمعاني : - بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الواو وبعدها ألف ونون - وخالف ابن خلكان في "تاريخه" فضبطه بضم الهمزة، وغلط السمعاني في فتحها . وهي مدينة في أوائل الحد الجنوبي من الديار المصرية، وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : طولها اثنتان وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

قال في "القانون" : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . وهي في البر الشرق من النيل، ذات نخيل وحدائق، وهي من قوص على نحو خمس مراحل .

قال في "التعريف" : وواليتها وإن كان من قبل السلطان فإنه نائب لوالى قوص .

قلت : أما الآن ، فقد صار لها وَّالٍ مستقلُّ بنفسه لا حكم لوالى قُوصَ عليه ،
وسياتى الكلام عليها في مراكر البريد ، ويأتى الكلام على ولايتها في جملة الولايات
بالديار المصرية إن شاء الله تعالى .

الوجه الثانى

(البحرى)

وهو كل ما سفل عن القاهرة إلى البحر الرومى حيث مَصَبُّ النيل . وإنما
سمى بَحْرِيًّا لأن منتهاه البحر الرومى ، ولا يلزم من ذلك تسمية الجانب الشرقى من
الديار المصرية بَحْرِيًّا لأن نهايته إلى بحر القلزم ، لأن آتياه إليه ليس حقيقيا
لأنه يتطاع بحر القلزم عن بلاد الديار المصرية بالجبال والبرارى المُفْقَرَةِ ، بخلاف بحر
الروم فإنه متصل بالبلاد مجاور لها فناسب النسبة إليه .

قلت : وقد وقع للمقر الشهابى بن فضل الله فى " التعريف " فى بلاده وأعماله من
الوهم ما لا يليق بمصرى على ما سياتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .
وهذا الوجه هو أرطب الوجهين وأقلهما حرا ، وأكثرهما فكهة ، وأحسنهما مدنا .
ويشتمل على ثلاث شعب تحوى سبعة أعمال .

الشعبة الأولى

(شرقى الفرقة الشرقية من النيل)

وفىها أربعة أعمال .

العمل الأول - الضواحي : جمع ضاحية ، وهى فى أصل اللغة البارزة للشمس ،
وكانها سميت بذلك لبروز قُرَاهَا للشمس ، بخلاف المدينة لَغَبَةِ الكِنِّ بها ، وهو
ما يجاور القاهرة من جهة الشمال من القرى ، وولايتها مضافة إلى ولاية القاهرة
وداخلة فى حكمها ، وليست منفردة بمقر ولاية غيرها .

العمل الثانى - القليوبية . وهو مُصَاقِبٌ للضواحي من شمالها مما يلي جهة النيل ، وهو عمل جليل ، حسن القرى ، كثير البساتين ، غزير الفواكه . ومقر الولاية به (مدينة قَلْيُوبَ) - بفتح القاف وإسكان اللام وضم المثناة تحت وسكون الواو وباء موحدة فى آخرها . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، ولم يتجزئ طولها وعرضها ، غير أنها من القاهرة فى جهة الشمال على نحو فرسخ ونصف من القاهرة .

قلت : ومن بلادها بلدتنا (قَلَقَشَنَدَة) وهى بلدة حسنة المنظر ، غزيرة الفواكه ، وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير ، وقد ذكر ابن يونس فى "تاريخه" : أنه ولد بها . قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثبات عندنا .

قال ابن خلكان : - بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون الباء وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة - ، وهكذا هى مكتوبة فى دواوين الديار المصرية ، وأبدل ياقوتٌ فى "معجم البلدان" اللام راءً ، وهو الجارى على السنة العامة ، وعليه جرى القضاعى فيما رأيتهم مكتوباً فى "خطه" : قال ابن خلكان : وهى على ثلاثة فرائخ من القاهرة ١ وهى بلدة حسنة المنظر ، كثيرة البساتين ، غزيرة الفواكه وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير . قال ابن يونس فى "تاريخه" : ولد بها ، ثم قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس وليس لما يقولونه ثبات عندنا ١) وذكر .

وقال القضاعى فى "خطه" : فى الكلام على دار الليث بالفسطاط : وكان له دار بقرقشندة بالريف ، بناها فهدها ابن رفاعه أمير مصر عنادا له ، وكان ابن عمه ،

فبناها الليث ثانياً فهدمها ، فلما كانت الثالثة ، أتاه آتٍ في منامه فقال له ياليثُ :
﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾
فأصبح وقد أفلج ابنُ رِفاعَةَ فأوصى إليه ومات بعد ثلاث . وبقي الليثُ حتى توفى
في منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ؛ وصلى عليه موسى بن عيسى الهاشمي
أمير مصر للرشيد .

وترجم له ابن خلكان بالأصبهاني ، ثم قال في آخر ترجمته : ويقال إنه من قَلَقَشَنَدَةَ .
قلت : وما قاله ابن يونس أثبت ، ويجب الرجوع إليه لأمرين : أحدهما أنه
مصريٌّ وأهل البلد أخبر بحال أهل بلدهم من غيرهم ، الثاني أنه قريب من زمن
الليث فهو به أدري ، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ، ثم نزل آباؤه قَلَقَشَنَدَةَ
المذكورة وولد بها وسكنها ، فنسب إليها كما وقع في كثير من النسب ؛ وإعادة داره
بها بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقدم ذكره في كلام القضاعي دليل آرائه
بشأنها وميله إليها ، وحينئذ فلا منافاة بين النسبتين .

وذكر في "الروض المعطار" أنه كان له ضيعة على القرب من رشيد من بلاد
الديار المصرية ، يدخل عليه منها في كل سنة خمسون ألف دينار لم تجب عليه فيها زكاة .

العمل الثالث - الشرقية . وهو مصاقب للضواحي من شماليها مما يلي جهة
المُقَطَّم ، والقلوبية من جهة الشمال أيضاً ، وهو من أعظم الأعمال وأوسعها .
إلا أن البساتين فيه قليلة بل تكاد أن تكون معدومة : لآتصاله بالسبخ وبداوة غالب
أهله ، وآخر العمران فيها من جهة الشمال الصَّالِحِيَّة ، وما وراء ذلك منقطع رمال على
ما تقدم ذكره في المنقطع عنها من جهة الشرق ؛ ومقر ولايته مدينة بليس .
قال في "تقويم البلدان" : - بكسر الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الباء الموحدة
(١)

(١) قال في القاموس "بليس كفرنيق وقد يفتح أوله بلد بمصر" وضبطه ياقوت بكسر الباءين وسكون اللام .

وسكون المشاة تحت ثم سين مهملة . كذا ذكره ، والجارى على الألسنة ضم الباء في أولها ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن يكون طولها أربعاً وخمسين درجة وثلاثين دقيقة ، وعرضها ثلاثين درجةً وعشر دقائق . وهى مدينة متوسطة بها المساجد والمدارس والأسواق ، وهى تحط رحال الدرب الشامى . وفى الركن الشمالى الجنوبى من هذا العمل (بِهَا) . قال النووى فى شرح مسلم : بكسر الباء والمعروف فتحها ، وهى البلدة التى أهدى الموقس إلى النبى صلى الله عليه وسلم من عسلها ؛ وفى آخره من جهة الشرق (قَطِيًا) بفتح القاف وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المشاة تحت وألف فى الآخر . كذا وقع فى "التعريف" و "مسالك الأبصار" : وفى "تقويم البلدان" : إبدال الألف فى آخره بهاء ، وهى قرية بالرملى المعروف بالحفار على طريق الشام على القرب من ساحل البحر الرومى .

قال فى "التعريف" : وقد جعلت لأخذ الموجبات ، وحفظ الطرقات ، وأمرها مهم ، ومنها يطالع بكل صادر ووارد .

العمل الرابع - (الدَّهْلِيَّةُ والمُرْتاحِيَّةُ) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل الشرقية من جهة الشمال ، وأواخره تنتهى إلى السَّبَاخ وإلى بحيرة تَنِيْس المتصلة بالطينة من طريق الشام ، ومقر الولاية به (مدينة أَشْمُوم) بضم الهَمْزة وإسكان الشين المعجمة وبعدها ميم ثم واو وميم ثانية - كما ضبطه فى "تقويم البلدان" ونقله عن خط ياقوت فى "المشترك" والذى فى "اللباب" إبدال الميم فى آخرها بنون ، وعزاه فى "تقويم البلدان" للعامة .

قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها أربع وخمسون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة . وهى مدينة صغيرة على ضفة الفرقة

التي تذهب إلى بُحيرة تَنَيس من فرقة النيل الشرقية من الجهة ؛ وبآخر هذا العمل (١)
(مدينة دِمَياط) بكسر الدال المهملة وسكون الميم وياء مثناة من تحت وألف وطاء -
قال في "الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها
إحدى وثلاثون درجة وخمسة وعشرون دقيقة .

وقال ابن سعيد : طولها أربع وخمسون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة
وعشرون دقيقة . وهي واقعة في الإقليم الثالث ، وهي مدينة حَسَنَة عند مَصَبِّ الفرقة
الشرقية من النيل في بحر الروم ، ذات أسواق وحمامات ، وكان عليها أسوار من عمارة
المتوكل : أحد خلفاء بني العباس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة ،
خَرَّبَت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستائة خوفا من أستيلائهم عليها ،
وهي على ذلك إلى الآن ، ولها ولاية خاصة بها .

الشُّعبة الثانية

(غربيّ فرقة النيل الغربية ؛ وفيها عملان)

العمل الأوّل - عمل البُحيرة . وهو مما يلي عمل الجيزة المقدم ذكره من الجهة
البحرية ، وهو عمل واسع ، كثير القرى ، فسيح الأرضين . ومقر ولايته (مدينة دَمَهُور) -
بفتح الدال المهملة والميم وسكون النون وضم الهاء وسكون الواو وفي آخرها
راء مهملة - وتعرف بدمَهُور الوَحْش . وهي مدينة متوسطة ذات مساجد ومدارس
وأسواق وحمامات . وموقعها في الإقليم الثالث ؛ ولم يتحرّر لى طولها وعرضها ، غير
أنها على نحو مرحلة من الإسكندرية بين الشرق والجنوب فليعتبر طولها وعرضها
منها بالتقريب .

قلت : ويدخل في هذا العمل حَوْف رمسيس والكُفُور الشاسعة .

(١) لعله من الجهة الشرقية .

العمل الثانى - عمل المزارحتين . وهو ما جاور خليج الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر الرومى ، وبعضه بالبر الشرقى من النيل ، وحاضرتة (مدينة قوة) . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الفاء وتشديد الواو ؛ وهى مدينة متوسطة بالبر الشرقى من فرقة النيل الغربية يقابلها جزيرة لها تعرف بجزيرة الذهب ذات بساتين وأشجار ومنظر رائع ، وليس بها ولاية . وإنما يكون بها شاذ للخاص ، يتحدث فى كثير من أمور الولاية ، وهى فى الحقيقة كإحميم مع قوص .

وبلى هذين العاملين غربا بشمال (مدينة الإسكندرية) - بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الكاف وسكون النون وفتح الدال وكسر الراء المهملة وتشديد الياء المشناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الثالث .

قال فى كتاب "الأطوال" : طولها إحدى وخمسون درجة وأربع وخمسون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة وثمان وخمسون دقيقة ، وقد تقدم القول على أصل عمارتها فى الكلام على قواعد الديار المصرية قبل الإسلام .

وهى الآن بالنسبة إلى ما تشهد به التواريخ من بنائها القديم جزء من كل ، وهى مع ذلك مدينة رائعة المنظر ، حسنة الترتيب ، مبنية بالحجر والكلس ، مبيضة البيوت ظاهرا وباطنا كأنها حمامة بيضاء ، ذات شوارع مشرعة ، كل خط قائم بذاته كأنها رقعة الشطرنج ، يستدير بها سوران منيعان ، يدور عليهما من خارجهما خندق فى جوانب البلد المتصلة بالبر ، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربى مما يلى الشمال إلى المشرق حيث دار النيابة ، وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المسترة والمجانيق المنصوبة .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقال إن منارها كان فى وسط البلد وإن المدينة كانت سبع محجّات ، وإنما أكلها البحر ، ولم يبق إلا محجة واحدة ،

وهى المدينة الباقية الآن وصار مكانُ المنار منها على مسيرة ميل . قال : ويقال إن مساجدها أُحصيتُ فى وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مسجد ؛ وبها الجوامع والمساجد ، والمدارس ، والخَوَاق ، والرُّبُط ، والزوايا ، والحمامات ، والديار الجلييلة ، والأسواق الممتدة . وفيها يُنْسَج القماش الفاخر الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتَمِير من قُماشها جميع أقطار الأرض ، وهى قُرُصَة بلاد المغرب ، والأَنْدَلُس ، وجزائر الفرنج ، وبلاد الروم ، والشام . وشُرِب أهلها من ماء النيل : من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلى داخل دُورها ، وأستعمال الماء لعامة الأمر من آبارها ، ويَجَنَّبَت تلك الآبار والصحاريح بالوعاء تصرف منها مياه الأمطار ونحوها ؛ وبها البساتين الأنيقة ، والمستنزهات الفاتقة ، ولهم بها القصور والجواسق الدقيقة البناء ، المحكة الجُدُر والأبواب ؛ وبها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حسنا مع رِخص الثمن ؛ وليس بها مزارع ولا لها عملٌ واسع ، وإن كان متحصِّلها يعدل أعمالا : من واصل البحر وغيره ؛ وهى أجلُّ ثغور الديار المصرية ، لا يزال أهلها على يقظة من أمور البحر والاحتراز من العدو الطارق ؛ وبها عسكر مستخدم لحفظها .

قال فى "مسالك الأبصار" : وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها موسوم بنبابة السلطنة سواها .

قلت : وهذا فيما تقدّم حين كانت النيابة بها صغيرة فى معنى ولاية . أما من حين طرقها العدو المخدول من الفرنج فى سنة سبع وستين وسبعمائة وأجتاح أهلها وقتل وسبى ، فإنها أستقرّت من حينئذ نبابة كبرى تضاهى نبابة طرابلس وحمّة وما فى معناهما ، وهى على ذلك إلى الآن ؛ وسيأتى الكلام على نيابتهما فى الكلام على ترتيب المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الشعبة الثالثة

(ما بين فرقتي النيل الشرقية والغربية، وهو جزيرتان)

الجزيرة الأولى - جانبها الشرقى يمتد في طول فرقة النيل الشرقية إلى مصبه في البحر الملح حيث دُمِيطَ بالقرب منها، وجانبها الغربى يمتد في طول فرقة النيل الغربية إلى تُجَاهِ أبى نُسَّابة من عمل الحيزة فينشأ بحرُ أبيار المتقدم ذكره ويمتد في طولها إلى قرية الفَرَسْتَق خارج الجزيرة من الغرب فيتصل بفرقة النيل التي تفرع منها على ما تقدم، ويمتد في طولها إلى مصبه في البحر الملح حيث رشيد .

وتشتمل هذه الجزيرة على عمليتين :

العمل الأول - المنوفية . وأوله من الجنوب من القرية المعروفة بِسَطْنُوف على أول الفرقة الغربية من النيل، ومقر ولايته (مدينة منوف) - بضم الميم والنون وسكون الواو وفاء في الآخر)، وهى مدينة إسلامية بنيت بدلا من مدينة قديمة كانت هناك قد خربت الآن وبقيت آثارها كيانا، وولايتها من أنفس الولايات، وقد اضيف إليها عمل أبيار، وهو جزيرة بنى نصر الآتى ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى، وهى مدينة حسنة ذات أسواق، ومساجد، ومسجد جليل للخطبة، وحمام، وخانات .

قلت : وربما غلط فيها بعض الناس فظن أنها من منف المتقدمة الذكر فى الكلام على قواعد مصر القديمة، وبينهما بُعد كثير إذ منف المتقدمة الذكر جنوبى القُسطاط على اثنى عشر ميلا منه كما تقدم ذكره، وهذه شمالي القُسطاط والقاهرة فى أسفل الأرض .

العمل الثانى - الغربية . وهو مُصَاقِبٌ للمنوفية من جهة الشمال، ويمتد إلى البحر الملح بين مصبى النيل إلا ما هو من عمل المزارحتين على فرقة النيل الغربية من

(١) ضبطها ياقوت والقاموس بالفتح وتبعناها فى كثير من المواضع .

الشرق؛ وهو عمل جليل القدر، عظيم الخطر؛ به البلاد الحسنة، والقرى الزاهية، والبساتين المتراكبة وغير ذلك؛ وفي آخره مما يلي بحر الروم موقع ثغر البرّس .

ويندرج فيه ثلاثة أعمال أحرّكت قديمة، وهى القويسية، والسمنودية، والدنجاوية، ومقر ولايته (مدينة المحلة). قال فى "المشترك" : - بفتح الميم والخاء المهملة وتشديد اللام ثم هاء فى الآخر - وتعرف بالمحلة الكبرى، وقد غلب عليها اسم المحلة حتى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى .

قلت : ووقع فى "التعريف" : التعبير عنها بمحلة المرحوم وهو وهم، وإنما هى قرية من قراها .

قال فى "المشترك" : ويقال لها محلة الدقلا (بفتح الدال المهملة والقاف) وهى مدينة عظيمة الشأن، جليلة المقدار، رائعة المنظر، حسنة البناء، كثيرة الساكن، ذات جوامع، ومدارس، وأسواق، وحمامات؛ وهى تعادل قُوص من الوجه القبلى فى جلاله قدرها، ورياسة أهلها، ويفرق بينهما بما يفرق به بين الوجه القبلى والوجه البحرى من الرطوبة واليبوسة .

الجزيرة الثانية - ما بين بحر أبيّار المتقدّم ذكره وبين الفرقة الغربية من النيل، وتعرف بجزيرة بنى نصر، وهى عمل واحد، وحاضرتة (مدينة أبيّار) - بفتح الهمزة كما قاله فى "الروض المعطار" وإسكان الباء الموحدة وفتح المثناة تحت وبعدها ألف ثم راء مهملة - وهى مدينة لطيفة حسنة المنظر يعمل فيها القماش الفائق من المحتررات وغيرها، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة؛ ولم يتحرّلى طولها ولا عرضها، وهى مضافة إلى ولاية منوف، وليس بها الآن ولاية مستقلة .

الفصل الثالث

(فيمن ملك الديار المصرية ، جاهليةً وإسلاماً)

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" : وكانت أهل مصر
أهل مُلك عظيم في الدهور الخالية والأزمان السالفة ، ما بين قبطى ويونانى
وعمليق ، وأكثرهم القبط . قال : وأكثر من تملك مصر الغرباء .
وهم على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى

(من ملكها قبل الطوفان ، وقَلَّ من تعرّض له من المؤرّخين)

قد تقدّم في الكلام على ابتداء عمارة مصر أن أول من عمّرها قبل الطوفان
نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرياب بن آدم عليه السلام ، ومعنى
نقراووس بالسريانية ملك قومه ، وهو الذى عمّر مدينة أمسوس أول قواعد مصر
المتقدّم ذكرها ؛ ثم ملكها بعده أبنه نقراووس الثانى مائة وسبع سنين ؛ ثم ملكها
بعده أخوه مصرام بن نقراووس الأول ؛ ثم ملكها بعده عنقام الكاهن ولم تطل
مدّة ملكه ؛ ويقال إن إدريس عليه السلام رُفِعَ في زمانه ؛ ثم ملكها بعده أبنه
غرناق ؛ ثم ملك بعده رجل من بنى نقراووس اسمه لوجيم ؛ ثم ملك بعده رجل اسمه
خصليم ، وهو أول من عمل المقياس للنيل على ما تقدّم ذكره ؛ ثم ملك بعده أبنه
هرصال ، ومعناه بالسريانية خادم الزهرة ، وهى مدينة شرق النيل ، وعمل سرباً
تحت النيل إليها ، وهو أول من عمل ذلك وأقام في الملك مائة وأربعاً وثلاثين سنة ،
ويقال إن نوحاً عليه السلام ولد في زمانه ؛ ثم ملك بعده أبنه بدرسان ؛ ثم ملك بعده
أخوه شمروود ، وكان طوله فيما يقال عشرين ذراعاً ؛ ثم ملك بعده فرسيدون بن
بدرسان المتقدّم ذكره مائة وستين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنه شرناق مائة وثلاث سنين ؛

ثم ملك بعده آبنه سهلوق مائة وتسع سنين ؛ ثم ملك بعده آبنه سوريدين ، وهو الذى بنى الأهرام العظام بمصر على ما تقدم ذكره فى الكلام على عجائب مصر وخواصها ؛ ثم ملك بعده آبنه هر جيب نيفاً وسبعين سنة ، وهو الذى بنى الهرم الأول من أهرام دهشور ؛ ثم ملك بعده آبنه مناوش ثلاثاً وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه أفروس أربعاً وستين سنة ؛ وفى أيامه حصل القحط العظيم ، وساطت الوحوش والتمايح على الناس ، وأعقمت الأرحام حتى يقال إن الملك تزوج ثلثمائة امرأة . يبنى الولد فلم يولد له ، وذلك مقدمة الطوفان ؛ ثم ملك بعده رجل من أهل بيت الملك اسمه أرمالينوس ؛ ثم ملك بعده آبن عمه فرعان ، وهو أول من لقب بلقب الفراعنة ، وكان قد كتب إلى ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام ، وفى زمنه كان الطوفان وهلك فيمن هلك .

المرتبة الثانية

(من ملكها بعد الطوفان إلى حين الفتح الإسلامى)

وللؤرخين فى ذلك خلف كثير ، وقد جمعت بين كلام التواريخ التى وقفت عليها فى ذلك ، وهم على طبقات .

الطبقة الأولى

(ملوكها من القبط)

قد تقدم فى الكلام على ابتداء عمارتها أن أول من عمرها بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وكان بيصر قد كبر سنه وضعف ، فأقام يسيراً ثم مات ، فدفن فى موضع دير أبى هرميس غربى الأهرام . قال القضاعى ، ويقال إنها أول مقبرة دفن فيها بأرض مصر ؛ وملك بعده آبنه مصر فعمر وطالت مدة ملكه ،

وعمرت البلاد في أيامه وكثر خيرها، ثم مات؛ وملك بعده أبنه (قبطيم)، وإليه ينسب القبط، ويقال إنه أدرك ببلّة الألسن التي كانت بعد نوح عليه السلام، وهى ريح نخرجت عليهم ففرقت بينهم وصار كل منهم يتكلم بلغة غير لغة الآخر، ونخرج منها باللغة القبطية؛ ثم ملك بعده أبنه (قفط)، وهو الذى بنى مدينة قفط بالصعيد الأعلى وسماها بأسمه، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده أخوه (أشنن)، وهو الذى بنى مدينة الأشمونين المتقدم ذكرها بالوجه القبلى، وطالت مدته حتى قيل أنه بقى ثمانمائة سنة، وقيل ثمانمائة وثلاثين؛ ثم ملك بعده أخوه (أتريب)، وهو الذى بنى مدينة أتريب المتقدم ذكرها بالوجه البحرى من الديار المصرية؛ ثم ملك بعده أخوه (صا)، وهو الذى بنى مدينة صا المتقدم ذكرها بالوجه البحرى أيضا؛ ثم ملك بعده (قفطريم) بن قفط، ويقال إنه الذى وضع أساس الأهرام الدهشورية غير الهرم الأول الذى بناه هرجيب المتقدم ذكره قبل الطوفان، وهو الذى بنى مدينة دندري بالصعيد الأعلى، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده أبنه (بودشير)، وهو الذى أصلح جنبتى النيل بهندسته؛ ثم ملك بعده أبنه (عديم)؛ ثم ملك بعده أبنه (شدات)، وهو الذى تم الأهرام الدهشورية التى وضع أساسها قفطريم المتقدم ذكره. ويقال: إن مدينة شطب التى بالقرب من مدينة أسيوط بنيت في أيامه، وآثارها باقية إلى الآن، وهو أول من ولع بالصيد وأخذ الجوارح والكلاب السلوقية، وعمل البيطرة من ملوك مصر، ومات عن أربعائة وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده أبنه (مناوش)، ويقال إنه أول من عمل له الحمام بمصر؛ ثم ملك بعده أبنه (مناوش) وطالت مدته فى الملك حتى بقى فيما يقال ثمانمائة سنة، وقيل ثمانمائة وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده (مناوش) بن أشمن نيفا وأربعين سنة، وقيل ستين سنة، وهو أول من عمل له الميدان بمصر، وأول من بنى البيارستان لعلاج المرضى، وفى أيامه بنيت مدينة سنترية

بالوآحات ؛ ثم ملك بعده أبنه (مرقوره) نيفاً وثلاثين سنة ، وفي كتب القبط أنه أول من ذلل السباع وركبها ؛ ثم ملك بعده (بلاطس) خمسا وعشرين سنة ؛ ثم ملكت بعده بنت من بنات أَثَرِيْبَ خمسا وثلاثين سنة ، وهى أول من ملك مصر من النساء ؛ ثم ملك بعدها أخوها (قليمون) تسعين سنة ، وفي أيامه بنيت مدينة دِمِيَّاط على أسم غلام له كانت أمه ساحرة له ، وفي أيامه بنيت أيضا مدينة تَنِيْسَ ؛ ثم ملك بعده أبنه (فرسون) مائتين وستين سنة ؛ ثم ملك بعده ثلاثة ملوك أو أربعة لم يعين أسمهم ؛ ثم ملك بعدهم (مرقونس) الكاهن ثلاثا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنه (اليساد) خمسا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنه (صبا) وأكثر القبط تزعم أنه أخوه ، نيفاً وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنه (تدراس) ، وهو الذى حفر خليج سخا المتقدم ذكره فى خُلْجَانِ مصر القديمة ؛ ثم ملك بعده أبنه (ماليق) ، ويقال إنه خالف دين آبائه فى عبادة الأصنام ، ودان بدين التوحيد . ولما أحس بالموت ، صنع له نأوسا وكنز معه كنوزا عظيمة ، وكتب عليها أنه لا يستخرجها إلا أمة النبي الذى يبعث فى آخر الزمان ؛ ثم ملك بعده أبنه (حريا) ، وفى بعض التواريخ حرايا خمسا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنه (كلكن) ، وفى بعض التواريخ كلكى نحواً من مائة سنة ، وهو أول من أظهر علم الكيمياء بمصر ، وكان قبل ذلك مكتوما ، وفى زمنه كان الثرؤد بأرض بابل من العراق ؛ ثم ملك بعده أخوه (ماليا) ؛ ثم ملك بعده (حربيا) بن ماليق ؛ ثم ملك بعده (طوطيس) بن ماليا ، وفى بعض التواريخ طوليس سبعين سنة ، وفى بعض التواريخ أنه ملك بعد أبيه ماليا ، والقبط تزعم أن الفراعنة سبعة هو أولهم ، وهو الذى أهدى هاجر لإبراهيم عليه السلام ؛ ثم ملكت بعده أخته (حوريا) ، وهى التى بنى لها جيرون المؤتفكى صاحب الشام مدينة الإسكندرية حين خطبها على أحد الأقوال فى عمارتها ليجعلها مهرا لها ، ثم آحالت عليه فسمته هو وجميع عسكره

في خلع فاتوا؛ ثم ملكت بعدها بنت عمها (زلفى) ويقال دلفه بنت مأموم؛ ثم ملك بعدها (أيمين) الأترى، وهو آخر ملوك القبط من هذه الطبقة. والذي ذكره القضاة وغيره أنه ملكها بعد وفاة بيصر ابنه مصر، ثم قفط بن مصر، ثم أخوه أثنى، ثم أخوه أترى، ثم أخوه صا، ثم ابنه تدراس، ثم ابنه مالىق، ثم ابنه حريا، ثم ابنه كلكن، ثم أخوه ماليا، ثم حربيا، ثم طوطيس بن ماليا، ثم ابنه حوريا، وهى أول من ملكها من النساء، ثم ابنة عمها زلفى، ومنها أترعتها العالقة الآتى ذكرهم.

الطبقة الثانية

(ملوكها من العالقة ملوك الشام)

أول من ملكها منهم (الوليد) بن دومع العليق، وقال السهيلي: الوليد بن عمرو ابن أراشة. اقتلعها من أيمين: آخر ملوك القبط المتقدم ذكره، وهو الفرعون الثانى عند القبط، وقيل هو أول من سمي بفرعون، وقام في الملك مائة وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده ابنه (الريان) مائة وعشرين سنة، والقبط تسميه نهر اوس، وهو الفرعون الثالث عند القبط، ونزل مدينة عين شمس، وكانت الملوك قبله تنزل مدينة منف، وفي أيامه وصل يوسف عليه السلام إلى مصر، وكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه. ويقال: إنه آمن بيوسف عليه السلام؛ ثم ملك بعده ابنه (دارم) ويقال دريوس، وهو الفرعون الرابع عند القبط، وفي أيامه توفي يوسف عليه السلام، وفي أيامه ظهر بمصر معدن فضة على ثلاثة أيام في النيل؛ ثم ملك بعده ابنه (معدان) ويقال معاديوس، وهو الفرعون الخامس عند القبط، إحدى وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده ابنه (أقسامس) وهو الفرعون السادس عند القبط، وبعضهم يزعم أن منارة الإسكندرية بنيت في زمنه، وأهل الأثر يسمونه كاسم، وربما قالوا كاسم؛

ثم ملك بعده آبنه (لاطس) ؛ ثم ملك بعده رجل آسمه (ظلمها) كان من عُمَّاله نُفُرج عليه فقتله وملك مكانه ، وهو الفرعون السابع عند القبط ، وهو فرعون موسى .
قال المسعودى : وهو الوليد بن مصعب الموجود فى كتب الأثر ، والوليد بن مصعب هو فرعون موسى وهو الوليد بن مصعب بن عمرو بن معاوية بن أراشة ، يجتمع مع الوليد بن دومع فى أراشة ، وهو آخر من ملك مصر من العماقة ، وبعضهم يقول ظلمها بن قومس من ولد أشمون أحد ملوك القبط المتقدم ذكرهم ؛ وعلى هذا فيكون فرعون موسى من القبط ، وهو أحد الأقوال فيه ، وهو الذى يعول عليه القبط ، ويوردونه فى كتبهم ، وآخرون يجعلونه من نَحْم من الشام ، والظاهر الأول ، وهو أول من عرّف العرفاء على الناس ، وفى زمنه حفر خليج سَرْدوس المتقدم ذكره فى خُلْجان النيل ، ويقال : إنه عاش دهرا طويلا لم يمرض ولم يشك وجعا إلى أن أهلكه الله تعالى بالغرق . (١)

الطبقة الثالثة

(ملوكها من القبط بعد العماقة)

أول من ملكها منهم بعد فرعون دَلُوكة ، وطالت مدتها فى الملك حتى عرفت بالعجوز ، وإليها ينسب حائط العجوز المبنى بالطوب اللين المستدير على بلاد مصر فى لحف الجبلين : الشرقى والغربى ، وأثره باق بالوجه القبلى إلى الآن ، ويقال إنها التى بنت البرابى بمصر ؛ ثم ملك بعدها رجل من أبناء أكاير القبط آسمه (دركون) بن بطلوس ، ويقال دركوس بن ملوطس ؛ ثم ملك بعده رجل آسمه (تودس) ثم ملك بعده آبنه (لقاش) نحو من خمسين سنة ؛ ثم ملك بعده (هرينا) بن لقاش نحو من عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (بلطوس) ويقال بلوطس بن مياكيل أربعين سنة ؛ ثم ملك

(١) تنبيه وقع اختلاف فيما بأيدينا من الكتب فى أسماء الملوك وترتيبهم فى هذا الذى بعده فعولنا على الاصل

بعده (مالوس) ويقال فالوس بن توطيس عشر سنين ؛ ثم ملك بعده ميا كيل .
قال المسعودى : وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرب بيت المقدس ؛
ثم ملك بعده (نوله) وهو الذى غزا رجعم بن سليمان عليه السلام بالشام ، وقيل إن
الذى غزا رجعم كان اسمه شيشاق . قال السلطان عماد الدين صاحب حمة :
وهو الأصح . قال : ثم لم يشتهر بعد شيشاق المذكور غير فرعون الأعرج ، وهو
الذى غزاه بُخْتَنْصَرٌ وصلبه ، والذى ذكره المسعودى أنه ملك بعد ميا كيل المتقدم
ذكره (مريوس) ؛ ثم ملك بعده أبنة (بغاش) ثمانين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنة
(قومس) عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنة كاييل .

قال المسعودى : وهو الذى غزاه بُخْتَنْصَرٌ وصلبه وخرب مصر ، وبقيت مصر
أربعين سنة خرابا .

الطبقة الرابعة

(ملوكها من الفُرس)

أول من ملكها فى جملة مملكة الفرس (بهراسف) بواسطة أن بُخْتَنْصَرٌ كان نائبا له
ومن حين استولى عليها بُخْتَنْصَرٌ ، توالى عليها الولاة من جهته ، وهو بيابل سبعا
وخمسين سنة وشهرا كما ذكر صاحب حمة إلى أن مات ، فولى بعده أبنة (أولات)
سنة واحدة ؛ ثم أولياها بعده خوه (بلطشاش) بن بُخْتَنْصَرٌ ، ثم استقرت مصر والشام
بأيدي نواب الفُرس عن ملوكهم .

فلما مات بهراسف ، ملك بعده كيستاسف ؛ ثم ملك بعده أبنة أردشير بهمن
ابن آسفديار بن كيستاسف ، وأنسطت يده حتى ملك الأقاليم السبعة ؛ ثم ملك
بعده أبنة (دارا) ، وفى زمنه ملك الإسكندر بن فيلبس على اليونان فقصده ، فلما قرب

منه قتله جماعة من قومه ، ولحقوا بالإسكندر ، وهو آخر من ملك مصر من الفُرس ، ولم أقف على تفصيل ثواب الفُرس بمصر إلا أنه كان منهم كسرجوس الفارسي ، وهو الذي بنى قصر الشمع بالقُسطاط على ما تقدم ذكره ، وبعده (طحارست) الطويل ، وفي أيامه كان بقراط الحكيم .

الطبقة الخامسة

(ملوكها من اليونان)

أول من ملكها منهم (الإسكندر بن فيليس) حين غلب دارا ملك الفُرس على ملكه وأستولى على ما كان بيده ، وكان مقر ملكه مقدونية من بلاد الروم القديمة ، وأخاز له ملك العراق ، والشام ، ومصر ، وبلاد العرب . فلما مات تفرقت ممالكه بين الملوك ، فملك مصر ونواحي الغرب البطالسة من ملوك اليونان ، كان كل منهم يلقب بطليموس .

فأول من ملكها منهم (بطليموس المنطقي) عشرين سنة ، ويقال : إنه أول من لعب بالبزاة وضراها ، ثم ملك بعده (بطليموس محب أخيه) أربعين سنة ، وقيل ثمانا وثلاثين سنة ، وهو الذي نقل التوراة من العبرانية إلى اليونانية ، وفي أيامه ظهرت عبادة التماثيل والأصنام ، ثم ملك بعده (بطليموس الصائغ) خمساً ، وقيل ستاً وعشرين سنة ، ثم ملك بعده (بطليموس محب أبيه) سبع عشرة سنة ، ثم ملك بعده (بطليموس صاحب علم الفلك) أربعاً وعشرين سنة ، وهو الذي ألف كتاب المجسطي ، ثم ملك بعده (بطليموس محب أمه) سبعاً وعشرين سنة ، ثم ملك بعده (بطليموس الصائغ الثاني) ثم ملك بعده (بطليموس المخلص) ست عشرة سنة ، وقيل سبع عشرة ، ثم ملك بعده (بطليموس الإسكندراني) تسع سنين ، وقيل اثنتي عشرة سنة ،

ثم ملك بعده (بَطْلِمُوسُ اسكندروس) ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده (بَطْلِمُوسُ مَجِبُ أَخِيهِ) الثانى ثمان سنين ؛ ثم ملك بعده (بَطْلِمُوسُ دوتيسوس) ؛ ثم ملكت بعده ابنته قلوبطرا اثنتين وعشرين سنة ، وبزوالها انقرض ملك اليونان عن مصر وزال .

الطبقة السادسة

(ملوكها من الروم)

أول من ملكها منهم (أغسطس) . يقال بشينين معجمتين ومهملتين ولقبه قيصراً ، وهو أول من تلقب به ، ثم صار علماً على ملوك الروم . قصد قلوبطرا المتقدم ذكرها ، فلما أحسَّت بقربه منها ، عمدت إلى مجلسها فجعلت فيه الرياحين والمشموم ، وأعملت الفكر في تحصيل حية إذا نهشت الإنسان مات لحينه ولم يتغير حاله ، فقربت يدها منها حتى ألقت سمها في يدها ، وأنسابت الحية في الرياحين ، وجاء أغسطس فوضع يده في الرياحين فنهشته الحية ، فبقي يوماً ومات بعد أن ملك الروم ثلاثاً وأربعين سنة . وفي أيامه ولد المسيح عليه السلام ؛ ثم ملك بعده الروم ومصر طيباريوس ، ويقال طبريس اثنتين وعشرين سنة . قال المسعودى : وفي زمنه رفع المسيح عليه السلام . قال : ولما مات أغسطس ، اختلف الروم وتحزبوا وتنازعوا في الملك مائتين وثمانيا وتسعين سنة ، لانظام لهم ، ولا ملك يجمعهم ؛ ثم ملكهم عانيوس . قال صاحب حماة : وكان رفع المسيح في زمنه ، وهو مخالف لما تقدم من كلام المسعودى ؛ ثم ملك بعده قلدريوس أربع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده نارون ثلاث عشرة سنة ، وهو الذى قتل بطرس وبولص الحواريين برومية وصلبهما ؛ ثم ملك بعده

(١) في المسعودى فلوريوس . وبالجملة فين ما بأيدينا من الكتب اختلاف في هذه الأسماء فتولنا على المخطوط والله أعلم .

ساسانوس عشر سنين ؛ ثم ملك بعده طيطوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده
دوميتيوش ، ويقال اديطانش خمس عشرة سنة ، وكان على عبادة الأصنام فتبع
اليهود والنصارى وقتلهم ؛ ثم ملك بعده ادريانوس ستا وثلاثين سنة فأصابته علة
الجذام فسار إلى مصر يطلب طباً لذلك فلم يظفر به ومات بعلة ؛ ثم ملك بعده
ايطيئوس ، ويقال ابطاوليس ثلاثا وعشرين سنة ، وهو الذى بنى بيت المقدس
بعد تخريبه الثانية وسماه إيليا ، ومعناه بيت الرب ، وهو أول من سماه بذلك ؛ ثم ملك
بعده مرقوس ، ويقال قومودوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قومودوس ثلاث
عشرة سنة ، وكان دين النصارى قد ظهر فى أيامه ، وفى زمنه كان جالينوس الحكيم ؛
ثم ملك بعده قوطنجوس ستة أشهر ؛ ثم ملك بعده سيوارس ثمانى عشرة سنة ؛
ثم ملك بعده ايطيئوس الثانى أربع سنين ؛ ثم ملك بعده اسكندروس ثلاث عشرة
سنة ؛ ثم ملك بعده بكسمينوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده خورديانوس ست
سنين ؛ ثم ملك بعده دقيانوس ، وقيل دقيوس سنة واحدة ، فقتل النصارى وأعاد
عبادة الأصنام ، ومنه هرب الفتية أصحاب الكهف ، وكان من أمرهم ما قص الله
تعالى فى كتابه العزيز ؛ ثم ملك بعده غالوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده علينوس
وولديانوس أشتركا فى الملك ، وقيل إن ولديانوس انفرد بالملك بعد ذلك ، وأقام فيه
نحس عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده فلوديوس سنة واحدة ؛ ثم ملك بعده اردياس ،
ويقال اردليانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعده قروقوس سبع سنين ؛ ثم ملك بعده
ياروس وشركته سنتين ؛ ثم ملك بعده دقلطيانوس إحدى وعشرين سنة ، وهو آخر
عبدة الأصنام من ملوك الروم ، وبمهلكه تؤرخ النصارى إلى اليوم ، وعطى عليه
أهل مصر ، فسار إليهم من رومية ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وهم الذين يعبر عنهم
النصارى الآن بالشهداء .

ثم ملك بعده قسطنطين المظفر إحدى وثلاثين سنة فسار من رومية إلى قُسْطَنْطِينِيَّةَ
وَبْنَى سورها وأستقرّت دار ملكهم ، وأظهر دين النصرانية وحل الناس عليه ؛
ثم ملك بعده أبْنُه قُسْطَنْطِينُ فشدّ دين النصرانية وبنى الكُأْسَ الكثيرة ؛ ثم ملك
بعده إيلانوس ، ويقال إيلانس سنة واحدة ، وهو ابن أنحى قُسْطَنْطِينِ المتقدم ذكره ،
فرفض دين النصرانية ورجع إلى عبادة الأصنام ، وبموته خرج الملك عن
بْنَى قُسْطَنْطِينِ ؛ ثم ملك بعده بطريق من بطارقة الروم اسمه بوثيانوس ، ويقال
سيوتيانوس سنة واحدة فأعاد دين النصرانية ، ومنع عبادة الأصنام ؛ ثم ملك بعده
قالنطيانوس أربع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده خرطيانوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك
بعده باردوسيوس الكبير تسعا وأربعين سنة ؛ ثم ملك بعده ادقادوس بقُسْطَنْطِينِيَّةَ
وشريكه أويوريوس بروميَّة ثلاث عشرة سنة ؛ ثم ملك بعدهما مرقيانوس سبع
سنين ، وهو الذى بنى دير مارون بِمَحْصَ ؛ ثم ملك بعده وإليطيس سنة واحدة ؛
ثم ملك بعده لاون الكبير سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده زيتون ثمان عشرة سنة ؛
ثم ملك بعده اسطيسوس سبعا وعشرين سنة ، وهو الذى عمّر أسوار مدينة حماة ؛
ثم ملك بعده بوسيطيتوس تسع سنين ؛ ثم ملك بعده بوسيطيتوس الثانى ثمانيا
وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده طبريوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده طبريوس الثانى
أربع سنين ؛ ثم ملك بعده ماريقوس ثمان سنين ؛ ثم ملك بعده ماريقوس الثانى ،
ويقال مرقوس أثنتى عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قوقاس ثمان سنين ؛ ثم ملك
بعده هرقل وأسمه بالرومية أوقليس ، وهو الذى كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ،
يدعوه إلى الإسلام ، وكانت الهجرة النبوية فى السنة الثانية عشرة من ملكه .

قال المسعودى : وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، هاجر وملك الروم قيصر بن قوق ^(١) (ثم ملك الروم بعده) قيصر بن قيصر ،

(١) وإليه تنسب الدناير القوقية (قاموس مادة ق وق) .

وذلك في خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، وهو الذى حارب به أمراء الإسلام بالشام وأقتلوا الشام منه .

والذى ذكره في " التعريف " في مكتبة الازفونش صاحب طليطلة من ملوك الفرنج بالاندلس أن هرقل الذى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم في زمنه وكتب إليه لم يكن الملك نفسه ، وإنما كان متسلم الشام لقيصر ، وقيصراً بالقسطنطينية لم يرم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كتب لهرقل لأنه كان مجاوراً لجزيرة العرب من الشام . وعظيم بصرى كان عاملاً له ، ويظهر أن قيصر الأخير الذى ذكره هو الذى كان المقوقس عاملاً له على مصر . ويقال : إن المقوقس تقبل مصر من هرقل بتسعة عشر ألف ألف دينار .

وأعلم أنه كان الحال يقتضى أن نذكر ثواب من تقدم من ملوك الروم واليونان والفرس على مصر ، ولكن أصحاب التواريخ لم تعتن بأمر ذلك ، فتعذر العلم به . وإذا ذكر الأصل ، استغنى به عن الفرع .

وذكر القضاعى : أنه بعد عمارة مصر من نحراب مجتصر ظهرت الروم وفارس على سائر الملوك التى وسط الأرض فقاتلت الروم أهل مصر ثلاث سنين إلى أن صالحوهم على شيء في كل عام ، على أن يكونوا في ذمتهم ويمنعوهم من ملوك فارس ، ثم ظهرت فارس على الروم وغلبوهم على الشام وألحوا على مصر بالقتال ، ثم استقر الحال على نحراب مصر أن يكون بين فارس والروم في كل عام ، وأقاموا على ذلك تسع سنين ، ثم غلبت الروم فارس وأخرجوهم من الشام وصار ماصولحت عليه أهل مصر كله خالصاً للروم ، وجاء الإسلام والأمر على ذلك .

المرتبة الثالثة

(من وليها في الإسلام : من بداية الأمر إلى زماننا، وهم على ضربين)

الضرب الأول

(فيمن وليها نيابةً ، وهو الصدر الأول ، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(عمّال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

قد تقدّم أنها لم تزل بيد الروم والمُقَوِّس عامل عليها إلى خلافة عمر رضى الله عنه ، ولم تزل كذلك إلى أن فتحها عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير في سنة عشرين من الهجرة ، وقيل سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ ووليها (عمر بن العاص) من قبل عمر ، وهو أول من وليها في الإسلام ، وبقى عليها إلى سنة خمس وعشرين ، وبنى الجامع العتيق بالفسطاط ، ثم وليها عن عثمان ابن عفان رضى الله عنه (أبو يحيى العامري) فمكث فيها إحدى عشرة سنة ، وتوفي سنة ست وثلاثين ؛ ثم وليها عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (قيس بن سعد) الخزرجي في أول سنة سبع وثلاثين ؛ ثم وليها عنه (مالك بن الحارث النخعي) المعروف بالأشتر في وسط سنة سبع وثلاثين ، وكتب له عنه عهدا يأتي ذكره في الكلام على اليهود إن شاء الله تعالى ، فُسِّمَ ومات قبل دخوله إلى مصر ؛ ثم وليها عنه (محمد بن أبي بكر الصديق) رضى الله عنه في آخر سنة سبع وثلاثين فمكث دون السنة ؛ ثم وليها عن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (عمر بن العاص ثانيا) سنة ثمان وثلاثين خمس سنين ، وتوفي بها سنة ثلاث وأربعين ؛ ثم وليها عنه (عقبة بن عامر الجهني) في سنة أربع وأربعين فمكث فيها ثلاث سنين وكسراً ؛ ثم وليها عنه (مسلمة بن مخلد) الخزرجي سنة سبع وأربعين فمكث فيها خمس عشرة سنة .

الطبقة الثانية

(عُمَّال خلفاء بنى أُمَيَّةَ بالشَّام)

لما أفضت الخلافة بعد معاوية إلى ابنه يزيد، وليها عنه (سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى) في سنة اثنتين وستين، فمكث فيها سنتين وكسراً؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفهري) في سنة أربع وستين، وأقره على الولاية بعد يزيد ابنه معاوية، ثم مروان ابن الحكم، فمكث فيها اثنتين وعشرين سنة؛ ثم وليها عن عبد الملك بن مروان (عبد الله بن عبد الملك بن مروان) في أول سنة ست وثمانين، فمكث فيها خمس سنين؛ ثم وليها عنه (قُرَّة بن شريك) في سنة تسعين، وأقره عليها الوليد بن عبد الملك بعده، فمكث فيها سبع سنين؛ ثم وليها عن سليمان بن عبد الملك (عبد الملك بن رفاعه) في سنة سبع وتسعين، فمكث فيها ثلاث سنين وكسراً؛ ثم وليها عن عمر بن عبد العزيز (أيوب بن شرحبيل الأصبغي) آخر سنة تسع وتسعين، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم كانت خلافة يزيد بن عبد الملك، فوليها عنه (صفوان الكلبي^(١)) سنة إحدى ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر أيضاً؛ ثم وليها عن هشام بن عبد الملك (محمد بن عبد الملك) أخو هشام في سنة خمس ومائة، فمكث فيها أشهراً؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن يوسف الثقفي) في ذي الحجة سنة خمس ومائة، فمكث فيها أربع سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (عبد الملك^(٢)) في سنة تسع ومائة وعزل فيها؛ ثم وليها عنه (الوليد) أخو عبد الملك في سنة تسع المذكورة، فمكث فيها عشر سنين وكسراً، وتوفي سنة تسع عشرة ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفهري) ثانياً في آخر سنة تسع عشرة ومائة، فأقام بها سبعة أشهر؛ ثم وليها عنه (حنظلة) بن صفوان

(١) الذي في المقرئى بشر بن صفوان الكلبي.

(٢) أى ابن رفاعه ثانياً كما في المقرئى.

ثانياً^(١) في سنة عشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وكسرا وعزل؛ ثم وليها عن مروان بن محمد الجعدي^(٢)؛ فولياها عنه (عتابة التجيبي) سنة سبع وعشرين ومائة، فمكث فيها خمس سنين أو دونها؛ ثم وليها عنه (حفص بن الوليد) سنة ثمان وعشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (الفزاري) سنة إحدى وثلاثين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (عبد الملك بن مروان) مولى نَحْم سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو آخر من وليها عن بني أمية.

الطبقة الثالثة

(عُثمّال خلفاء بني العبّاس بالعراق)

أول من وليها في الدولة العباسية عن أبي العبّاس السفّاح : أول خلفائهم، (صالح بن علي) بن عبد الله بن عباس سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها أشهراً قلائل؛ ثم وليها عنه (عبد الملك) مولى بني أسد آخر سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (صالح بن علي) ثانياً في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة. ثم وليها عن أبي جعفر المنصور (عبد الملك) سنة تسع وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (القيس التميمي) سنة إحدى وأربعين ومائة، فمكث فيها سنتين؛ ثم وليها عنه (حميد الطائي) سنة ثلاث وأربعين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (يزيد المهلبي) سنة أربع وأربعين ومائة، فمكث فيها تسع سنين؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية) سنة اثنتين وخمسين ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (محمد بن عبد الرحمن بن معاوية) سنة أربع وخمسين

(١) لم يذكر أن حفظة كان أميراً على مصر فيما سبق [ولكن في المقرئى أن بشر بن صفوان استخلف أخاه حفظة على مصر حينما ولاه يزيد على أفريقية في سنة اثنتين ومائة فتكون ولايته هذه المرة ثانية].

(٢) صوابه: ثم وليها عنه [أى عن مروان] حسان بن عتاهية التجيبي كما ذكره المقرئى والمقام فيه أوضح.

ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عليّ التميمي) في سنة خمس وخمسين ومائة ، فمكث فيها سنتين وستة أشهر .

ثم وليها عن المهديّ (عيسى التميمي) سنة إحدى وستين ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (أصبح) مولى المنصور في سنة اثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (زيد بن منصور) الحميريّ في وسط سنة اثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (يحيى أبو صالح) في ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سالم بن سوادة التميمي) سنة أربع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إبراهيم العباسي) في سنة خمس وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (معين الدين ختم) في سنة ست وستين ومائة .

ثم وليها عن الهادي (أسامة بن عمرو العامري) في سنة ثمان وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الفضل بن صالح العباسي) في سنة تسع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (علي بن سليمان العباسي) آخر السنة المذكورة .

ثم وليها عن الرشيد (موسى العباسي) في سنة اثنتين وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (محمد بن زهير) الأزديّ سنة ثلاث وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه داود بن يزيد المهلبّي سنة أربع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى العباسي) سنة خمس وسبعين ومائة ومات بها ؛ ثم وليها عنه (عبدالله بن المسيب الضبي) في أول سنة سبع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (هرثة بن أعين) سنة ثمان وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبد الملك العباسي) في سلخ ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهديّ العباسي) في سنة تسع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى) التنوخيّ في آخر سنة ثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهديّ) ثانيا سنة إحدى وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إسماعيل بن صالح) في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سُمَيَّة بن عيسى) ابن إسماعيل سنة اثنتين وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الليث البيوردي) في آخر السنة

(١) في المقرئى الجمعى . (٢) في المقرئى واضح . (٣) في المقرئى "إسماعيل"

المذكورة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن إسماعيل) في آخر سنة تسع وثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن محمد العباسي) المعروف بابن زئب في سنة تسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (مالك بن دهم الكلابي) سنة اثنتين وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن الأمين (الحسين بن الحجاج) سنة ثلاث وتسعين ومائة.

ثم وليها عن الأمين (حاتم بن هرثة بن أعين) سنة خمس وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد أبو نصر) مولى كندة سنة ست وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن المأمون (المطلب بن عبد الله الخزاعي) سنة ثمان وتسعين ومائة.

ثم وليها عن المأمون (العباس بن موسى) سنة ثمان وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (المطلب بن عبد الله) ثانيا في سنة تسع وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (السري بن الحكم) في سنة مائتين؛ ثم وليها عنه (سليمان بن غالب) في سنة إحدى ومائتين؛ ثم وليها عنه (أبو نصر محمد بن السري) في سنة خمس ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبيد الله) في سنة ست ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن طاهر) مولى خراة في سنة عشر ومائتين (وهو أول من جلب البطيخ الخراساني المعروف بالعبدلي من خراسان إلى مصر فُسب إليه)؛ ثم وليها عنه (عيسى الجلودي) في سنة ثلاث عشرة ومائتين؛ ثم وليها عنه (عمرو بن الوليد التيمي) في سنة أربع عشرة ومائتين؛ ثم وليها عنه (عيسى الجلودي) ثانيا في آخر السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (عبدويه بن جبلة) في سنة خمس عشرة ومائتين؛ ثم وليها عنه (عيسى بن منصور) مولى بني نصر في سنة ست عشرة ومائتين.

(وفي هذه السنة دخل المأمون مصر وفتح الهرم).

ثم وليها عن المعتصم بالله ^(١) المسعودي في أول سنة تسع عشرة ومائتين؛

(١) يبايع في الأصل، والذي في المسعودي أن خلافة المعتصم كانت في سنة تسع عشرة ومائتين، وفي المقرئ أنه ولي على مصر في هذا التاريخ (كيدر) ومات كيدر في ربيع الآخر من السنة المذكورة، فولي آبيه (المظفر) باستخلاف أبيه.

ثم وليها عنه (المظفر بن كيدر) في وسط السنة المذكورة أشهراً قلائل ؛ ثم وليها عنه (أبو العباس الحمقى) في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (مبارك بن كيدر) في سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علي بن يحيى) في سنة ست وعشرين ومائتين .

ثم وليها عن الواثق بالله (عيسى بن منصور الجلودى) ثالث مرة في سنة تسع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علي بن يحيى) ثانياً في سنة أربع وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (إسحاق الجلبى) في سنة خمس وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (نخاعة) في سنة ست وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عقبة الضبي) في سنة ثمان وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (يزيد بن عبد الله) في سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، وأقره عليها بعده المنتصر بالله ، ثم المستعين بالله .

ثم وليها عن المستعين بالله (مُزاحم بن خاقان) في سنة ثلاث وخمسين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن مُزاحم) في سنة أربع وخمسين ومائتين وأقره عليها المهتدى بالله .

الضرب الثانى

(من وليها مُلكاً ، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(من وليها عن بنى العباس قبل دولة الفاطميين)

وأولهم (أحمد بن طولون) وليها عن المعتمد في سنة ست وستين ومائتين وعمر بها جامعته المتقدم ذكره في خطط الفسطاط ؛ وفي أيامه عظمّت نيابة مصر وشمخت إلى المُلْك (وهو أول من جلب الممالك الترك إلى الديار المصرية وأستخدمهم في عسكرها) .

(١) مقتضاه أن المذكور ولى عن الواثق في هذا التاريخ مع أن خلافة الواثق كانت سنة سبع وعشرين ومائتين ووفاته كانت في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، فالمدكور كان عن المتوكل فاعل الصواب ثم وليها عن المتوكل فتأمل .

وأقره المعتضد بالله بعد المعتمد، وبقى بها حتى مات فوليا عن المعتضد (نُحَارَوِيَه بن أحمد بن طولون) في أول سنة آئنتين وثمانين ومائتين، وقتله جُنْدُه في السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (جَاش بن نُحَارَوِيَه) في سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتله جُنْدُه في السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (هرون بن نهارويه) في آخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتل في سنة آئنتين وتسعين .

ثم وليها عن المكتفي بالله (شَيْبَانُ بن أحمد بن طولون) في سنة آئنتين وتسعين ومائتين فبقي آخى عشر يوما وعُزِلَ؛ ثم وليها عنه (محمد بن سليمان الوائقي) في آخر سنة آئنتين وتسعين ومائتين؛ ثم وليها عنه أو عن المقتدر بالله (عيسى النوشري) في سنة خمس وتسعين ومائتين .

ثم وليها عن المقتدر بالله (أبو منصور تكين) في سنة سبع وتسعين ومائتين وعُزِلَ؛ ثم وليها عنه (أبو الحسن) في سنة ثلاث وثلثمائة وعزل؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثانيا سنة سبع وثلثمائة وعزل؛ ثم وليها عنه (هلال) سنة تسع وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن كيغَلغ) في سنة إحدى عشرة وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثالث مرة في السنة المذكورة .

ثم وليها عن القاهرة بالله (محمد بن طُغج) في سنة إحدى وعشرين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن كيغَلغ) ثانيا في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وأقره عليها المكتفي المستكفي بالله بعده .

ثم وليها عن المطيع لله (أبو القاسم الأخشيدي) في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (علي بن الأخشيدي) سنة تسع وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (كافور الأخشيدي) الخادم في سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وكان يحب العلماء والفقهاء، ويكرمهم، ويتعاهدهم بالثقات، ويكثر الصدقات حتى استغنى الناس في أيامه، ولم يجد أرباب

الأموال من يقبل منهم الزكاة فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبتئوا بها المساجد ويتخذوا لها الأوقاف ففعلوا ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن عليّ الأخشيدي) في سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، وهو آخر من وليها من العمال عن خلفاء بني العباس بالعراق .

الطبقة الثانية

(من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعبيديين)

أول من وليها منهم (المعز لدين الله أبو تميم معد بن تميم بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي) وإليه ينسبون ، جهز إليها قائده : جوهراً من بلاد المغرب إلى الديار المصرية ففتحتها في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة على ما تقدم في الكلام على قواعد الديار المصرية وأنقطعت الخطبة العباسية منها ؛ ورحل المعز من المغرب إلى مصر فوصل إليها ودخل قصره بالقاهرة في سابع رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وصارت مصر والمغرب مملكة واحدة وبلاد المغرب نيابة من مصر ، وتوفي ثالث ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة .

ثم ولي بعده أبوه (العزیز بالله أبو المنصور) يوم وفاة أبيه ، وإليه ينسب الجامع العزیزى بمدينة بلبيس ، وتوفي بالحمّام في بلبيس ثامن رمضان المعظم قدره سنة ست وثمانين وثلثمائة .

ثم ولي بعده أبوه (الحاكم بأمر الله أبو عليّ المنصور) ليلة وفاة أبيه ، وبني الجامع الحاكمي في سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وهو يومئذ خارج سور القاهرة ، وفارق مصر وخرج إلى الجبل المقطم فوجدت ثيابه مزررة الأطواق وفيها آتار السكاكين ولا جثة فيها ، وذلك في سلخ شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ولم يشك في قتله . والدُرزيّة من المبتدعة يعتقدون أنه حيّ وأنه سيرجع ويعود على ما سيأتي في الكلام على أيمانهم وتحليفهم إن شاء الله تعالى .

ثم ولى بعده آبنه (الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على) وبقي حتى توفى في شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

ثم ولى بعده آبنه (المستنصر بالله أبو تميم معد) بعد وفاة أبيه . وفي أيامه جدد سور القاهرة الكبير في سنة ثمانين وأربعمائة . وتوفى في ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة . وفي أيامه كان الغلاء الذى لم يعهد مثله ، مكث سبع سنين حتى خربت مصر ، ولم يبق بها إلا صُبابَة من الناس على ما تقدم في سياقة الكلام على زيادة النيل . ثم ولى بعده آبنه (المستعلى بالله) أبو القاسم أحمد يوم وفاة أبيه . وتوفى لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ثم ولى بعده (الأمير بأحكام الله أبو على المنصور) في يوم وفاة المستعلى ، وقتل بجزيرة مصر في الثالث من ذى القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمائة .

ثم ولى بعده آبن عمه (الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد الحميد بن الأمر أبو القاسم محمد) يوم وفاة الأمر . وتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (الظافر بأمر الله إسماعيل) رابع جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده آبنه (الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى) صبيحة وفاة أبيه . وتوفى في سابع عشر شهر رجب الفرد سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (آبنه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف) يوم وفاة الفائز . وتوفى يوم عاشوراء سنة أربع وستين وخمسمائة بعد أن قطع السلطان صلاح الدين خطبته بالديار المصرية وخطب للخلفاء العباسيين ببغداد قبل موته ، وهو آخر من ولى منهم .

الطبقة الثالثة

(ملوك بني أيوب)

وهم وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العباس فهم ملوك مستقلون، وفي دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملوكها .

أول من ملك مصر منهم الملك الناصر (صلاح الدين يوسف بن أيوب) كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام رحمه الله قد جهزه صحبة عمه : أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية حين استغاث به أهل مصر في زمن العاضد الفاطمي المتقدم ذكره لغلبة الفرنج عليهم ثلاث مرّات انتهى الحال في آخرها إلى أن السلطان صلاح الدين وثب على شاور وزير العاضد المذكور فقتله وتقلد عمه أسد الدين شيركوه الوزارة مكانه عن العاضد، وكتب له بذلك عهد من إنشاء القاضي الفاضل، فأقام فيها مدة قريبة ومات، فقوض العاضد الوزارة مكانه للسلطان صلاح الدين، وكتب له عهد من إنشاء القاضي الفاضل أيضا، وبقي في الوزارة حتى ضعف العاضد وطال ضعفه فقطع السلطان صلاح الدين الخطبة للعاضد، وخطب للخليفة العباسي ببغداد بأمر الملك العادل صاحب الشام . ثم مات العاضد عن قريب فاستقل السلطان صلاح الدين بالسلطنة بمصر وقوى جأشه، وثبتت في الدولة قدمه . وتوفي بدمشق في سنة تسع وثمانين وخمسمائة ؛ وكانت مدة ملكه بالديار المصرية أربعاً وعشرين سنة وملكه الشام تسع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده مصر ابنه (الملك العزيز) وملك معها دمشق وسلمها إلى عمه العادل أبي بكر في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وتفرقت بقية الممالك الشامية بيد بني عمه من بني أيوب .

ملك مصر والشام جميعا في ربيع الأول سنة ست وتسعين وخمسمائة ؛ وتوفي

بدمشق سنة خمس عشرة وستائة .

ثم ملك بعده أبْنُه (الملك الكامل) عقبَ وفاة أبيه المذكور، وهو أول من سكن قلعة الجبل بعد قصر الفاطميين بالقاهرة على ما تقدّم ذكره في الكلام على القلعة، وآسَمَت في ذلك عشرين سنة، وفتح حرّان وديار بكر، وكان الفرنج قد آسَعادوا بعض ما فتحه السلطان صلاح الدين من ساحل الشام، وكتب الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ست وعشرين وستمائة على أن يكون بأيدي الفرنج القلاع والنواحي التي ملكوها بعد فتح السلطان صلاح الدين، وهي جبلة، وبيروت، وصيدا، وقلعة الشقيف، وقلعة تينين، وقلعة هونين، وإسكندرونة، وقلعة صفد، وقلعة الطور والجبون، وقلعة كوكب، ومجدل يافا ولُدّ،^(١) والرملة، وعسقلان، وبيت جبريل، والقدس وأعمال ذلك ومضافاته. وبني مدرسته الكاملية بين القصرين المعروفة بدار الحديث، وتوفي بدمشق سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أبْنُه (الملك العادل أبو بكر) وقبض عليه في العشر الأوسط من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أخوه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل في أوائل سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أبْنُه الملك المعظم (توران شاه) وهو الذي كسر الفرنج على المنصورة في المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقتل في الثامن والعشرين من المحرم المذكور. ثم ملك بعده أم خليل (شجرة الدر) في صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، فأقامت ثمانية أشهر، ولم يملك مصر في الإسلام امرأة غيرها.

ثم ملك بعدها الملك الأشرف (موسى بن الناصر يوسف بن المسعود بن الكامل ابن العادل أبي بكر بن أيوب) في شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة وخلع نفسه وهو آخر الملوك الأيوبية بالديار المصرية.

(١) سيأتي له في الجزء الرابع هكذا "مجدل يافا"

الطبقة الرابعة

(ملوك الترك خَلَدَ الله تعالى دولتهم)

أول من ملكها منهم (الملك المعز أيبك التركماني) بعد خلع الأشرف موسى : آخر ملوك الأيوبية في شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة ؛ وجمع له بين مصر والشام ، وأستمر الجمع بينهما إلى الآن ، وبنى المدرسة المعزية برحبة الخروب بالفسطاط ، وتزوج بأم خليل المقدم ذكرها ، وقتل بجأَم القلعة في سنة أربع وخمسين وستمائة . ثم ملك بعده أبْنُه (الملك المنصور على) عقيب وفاة والده المذكور . وقُتِلَت أم خليل المذكورة ، ورميت من سور القلعة ، وقُبِضَ على المظفر سنة سبع وخمسين وستمائة . ثم ملك بعده الملك (المظفر قطز) وكان المصاف بينه وبين التتار على عَيْن جالوت بعد أن استولوا على جميع الشام في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وكسروهم أشد كسرة وأستقلع الشام منهم ، وبقي حتى قتل في مُنصرَفه بطريق الشام وهو عائد منه بالقرب من قصير الصالحية على أثر ذلك في السنة المذكورة .

ثم ملك بعده الملك (الظاهر بيبرس) البندقداري في ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وأخذ في جهاد الفرنج وأستعادة ما أرتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البيرة في سنة تسع وخمسين وستمائة والكرَك في سنة إحدى وستين ، وحصن في آخر سنة اثنتين وستين وستمائة ، وقيسارية وأرسوف في سنة ثلاث وستين ، وصَفَد في سنة أربع وستين ، وإفا والشَّيْف ، وأنطاكية في سنة ست وستين ، وحصن الأكراد وعكا وصافيتا في سنة تسع وستين ، وكسر التتار على البيرة بعد أن عدى الفُرات خوضا بعساكره في سنة إحدى وسبعين ، وفتح قلاعا من بلاد سويس في سنة ثلاث وسبعين ، ودخل بلاد الروم ، وجلس على

(١) لعل مراده الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر شريك المعز في السلطنة . وأنظر المقام في خطط

كرسى بنى سَلْجُوقَ بَقِيَّسَارِيَّةَ الروم، ورجع إلى دمشق في آخر سنة خمس وسبعين .
وتوفي بدمشق في المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وبني مدرسته الظاهرية
بين القصرين .

وملك بعده أبْنُه (الملك السعيد بركة) في صفر سنة ست وسبعين وستمائة ،
وخلع وسير إلى الكرك .

وملك بعده أخوه (الملك العادل سلامش) في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين
وستمائة ، وبقي أربعة أشهر ثم خلع .

وملك بعده (الملك المنصور قلاوون الصالحى) الشهير بالألفى في رجب سنة ثمان
وسبعين وستمائة ، وسمى الألفى لأن آقسنقر الكامل كان قد اشتراه بألف دينار، وفتح
حصن المرقب بالشام في تاسع عشر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وستمائة ، وفتح
طرابلس في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وهو الذى بنى البيارستان
المنصورى والمدرسة المنصورية والقبة اللتين داخل البيارستان بين القصرين . وتوفي
بظاهر القاهرة المحروسة ، وهو قاصد الغزو فى ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة
ودفن بترته بالقبة المنصورية داخل البيارستان المتقدم ذكره .

وملك بعده أبْنُه (الملك الأشرف خليل) صبيحة وفاة أبيه وأخذ فى الغزو ففتح عكا
وصُور، وصيدا، ويروت، وعثليت، والساحل جميعه، وأقتلعه من الفرنج فى رجب
سنة تسعين وستمائة . وقتل فى متصيده بالبحيرة فى العشر الأوسط من المحرم سنة ثلاث
وتسعين وستمائة ، وهو الذى عمر المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسى .

ثم ملك بعده (الملك المعظم بيدرا) وخلع من يومه .

وملك بعده (الملك الناصر محمد بن قلاوون) فى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ،
وهى سلطنته الأولى . وخلع بعد ذلك وبعث به إلى الكرك فحُيِس بها .

وملك بعده (الملك العادل كتبغا) عقب خلعه، ووقع في أيامه غلاء شديد وفناء عظيم؛ ثم خلع في صفر سنة ست وتسعين وستمائة، وتولى بعد ذلك نيابة صرّخد ثم حمّة، وبقي حتى توفي بعد ذلك؛ وهو الذي ابتدأ عمارة المدرسة المعروفة بالناصرية بين القصرين وأكمل بناءها الناصر محمد بن قلاوون فنسبت إليه .

وملك بعده (الملك المنصور حسام الدين لاچين) في الخامس والعشرين من صفر المذكور^(١) فجدد الجامع الطولوني وعمل الروك الحُسامي في رجب الفرد سنة سبع وتسعين وستمائة، وقتل في الحادي عشر من شوال^(٢) من السنة المذكورة، وبقي الأمر شورى مدة يسيرة، ثم حضر الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وأعيد إلى السلطنة في حادي عشر شوال من السنة المذكورة .

وملك بعده (الملك المظفر بيبرس الجاشنكير) في الثالث والعشرين من شوال المذكور وخلع في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وسبعائة، وهو الذي عمر الخانقاه الركنية بيبرس داخل باب النصر مكان دار الوزارة بالدولة الفاطمية، وجدّد الجامع الحاكمي .

وملك بعده (الملك الناصر محمد بن قلاوون) في مستهل شوال من السنة المذكورة، وهي سلطته الثالثة . وفيها طالت مدّته وقوى ملكه، وعمل الروك الناصري في سنة ست عشرة وسبعائة، وبني مدرسته الناصرية بين القصرين، وبقي حتى توفي في العشرين من ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعائة، ودفن بتربة والده . ثم ملك بعده أبناه الملك المنصور أبو بكر عقب وفاة والده، وخلع تاسع عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعائة .

(١) أي سنة ست وتسعين وستمائة .

(٢) في المقرئ "من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة" وإن تولية ابن قلاوون المرة الثانية في السادس من جمادى الأولى من السنة المذكورة وبقي إلى الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وسبعائة ثم ولي المظفر في التاريخ المذكور . [وبملاحظة ذلك يستقيم الكلام ويعلم ما في الأصل] .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الأشرف بك) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع أخيه المنصور المذكور، وخلع في التاسع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة .
ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر أحمد) بن الناصر محمد بن قلاوون بعد أن أُحْضِر من الكرك، وأستمر في السلطنة حتى خلع نفسه في أوائل المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالح إسماعيل) بن الناصر محمد بن قلاوون في العشرين من المحرم المذكور، وبقي حتى توفي في ربيع ربيع الآخرة سنة ست وأربعين وسبعائة .
وملك بعده أخوه ^(١) (الملك المظفر حاجي) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع أخيه الكامل شعبان ، وبقي حتى خلع في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعائة وقتل من يومه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) بن الناصر محمد بن قلاوون في رابع عشر شهر رمضان المذكور، وخلع في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالح صالح) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع أخيه الناصر حسن ، وبقي حتى خلع في ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) المتقدم ذكره مرة ثانية يوم خلع أخيه الصالح صالح ، وبقي حتى خلع وقُتِل في عاشر جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعائة ؛ وبني مدرسته المعظمة تحت القلعة التي ليس لها نظير في الدنيا ، وفي أيامه ضربت الفلوس الجُدَّد على ماسياتي ذكره ، وهو آخر من ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون لصلبه .

(١) سقط من قلم النسخ الكامل شعبان فإنه تولى بعد أخيه الصالح إسماعيل ومكث سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما ثم خلع كما تشير اليه بقية العبارة .

وملك بعده ابن أخيه (الملك المنصور محمد) بن المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع عمه الناصر حسن، وبقى حتى خلع في خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعائة .

وملك بعده ابن عمه (الملك الأشرف شعبان) بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع المنصور المتقدم ذكره وهو طفل، وبقى حتى كمل سلطانه وبني مدرسته بأعلى الصوة تحت القلعة ولم يتمها، وج فرج عليه ممالكه في عقبه أيلة فقتر منهم وعاد إلى القاهرة فقيض عليه وقتل في ثالث ذى القعدة الحرام سنة ثمان وسبعين وسبعائة، وفي أيامه فتحت مدينة سيس وأقتلعت من الأرمن على ماسياتي ذكره في الكلام على أعمال حلب .

وملك بعده ابنه (الملك المنصور على) يوم خلع أبيه وهو طفل، فبقى حتى توفي في الثالث والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعائة .

وملك بعده أخوه (الملك الصالح حاجي) بن شعبان بن حسين يوم وفاة أخيه، وبقى حتى خلع في العشر الأوسط من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعائة .

وملك بعده (الملك الظاهر برقوق) فعظم أمره، وأرتفع صيته، وشاع ذكره في الممالك وهابته الملوك وهادته، وساس الملك أحسن سياسة، وبقى حتى خلع وبعث به إلى السجن بالكرك في شهر رجب أو جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعائة .

وملك بعده (الملك المنصور حاجي) بن شعبان، وهو الملقب أولاً بالصالح حاجي وهي سلاطنته الثانية، وبقى حتى عاد الملك الظاهر برقوق المتقدم ذكره في سنة [اثنتين ^(١) وتسعين وسبعائة، فزاد في التيه وضخامة الملك، وبلغ شأوا لم يبلغه غيره من غالب متقدمي الملوك، وبقى حتى توفي في منتصف شوال المبارك سنة إحدى وثمانمائة .

وملك بعده أبنه (الناصر فرج) وسنه إحدى عشرة سنة بعهد من أبيه، وقام بتدبير أمره أمراء دولته، فبقى حتى تغير عليه بعض مماليكه وبعض أمرائه، وحضر الممالك بالقلعة، فنزل منها محتفيا على حين غفلة في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، ولم يعلم لأبتداء أمره أين توجه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك المنصور عبد العزيز) في التاريخ المذكور .
ثم ظهر أن السلطان الملك الناصر فرجا كان محتفيا في بعض أماكن القاهرة، فركب في ليلة السادس من شهر جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانمائة، ومعه جماعة من الأمراء ومماليكه، وخرج الأمراء للقيام بضرة أخيه عبد العزيز فطلع عليهم السلطان فرج، ومن معه فوآوا هارين، وطلع السلطان الملك الناصر بالقلعة في صبيحة النهار المذكور وأستقر على عادته، وبقي في السلطنة حتى توجه إلى الشام لقتال الأمير شيخ والأمير نوروز نائجي دمشق وحلب، ومعه الإمام (المستعين بالله أبو الفضل العباس) بن المتوكل محمد خليفة العصر، ودخل دمشق وحصر بقلعتها حتى قبض عليه في ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس عشرة وثمانمائة، وأستبد الإمام المستعين بالله بالأمر من غير سلطان، ورجع إليه ما كان يتعاطاه السلطان من العلامة على المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمناشير وغيرها، وأفرد اسمه في السكة على الدنانير والدرهم، وأفرد بالدعاء في الخطبة على المنابر، ثم عاد إلى الديار المصرية في أوائل ربيع الآخر من السنة المذكورة، وسكن الأدر السلطانية بالقلعة، وقام بتدبير دولته الأمير شيخ المقدم ذكره وسكن الإصطبلات السلطانية بالقلعة وفوض إليه الإمام المستعين بالله ما وراء سرير الخلافة، وكتب له تفويض بذلك في قطع كبير، عرضة ذراع ونصف بزيادة نصف ذراع عما يكتب به للسلطين . إلا أنه لم يصرح له فيه بسلطنة ولا إمارة، بل كتب له بدل الأميرى الأمرى بإسقاط الياء على ما سياتى ذكره في الكلام على عهود الملوك إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع

من الباب الثالث من المقالة الثانية

(في ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في ذكر معاملاتها، وفيه ثلاثة أركان)

الركن الأول

(الأثمان، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(الدنانير المسكوكة مما يضرب بالديار المصرية، أو يأتي إليها من المسكوك

في غيرها من الممالك، وهي ضربان)

الضرب الأول

(ما يتعامل به وزنا كالذهب المصري وما في معناه)

والعبرة في وزنها بالثاقيل، وضابطها أن كل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم من الدراهم الآتي ذكرها، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقدر ثنتين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء، خلافا لابن حزم فإنه قدره بأربع وثمانين حبة، على أن المثقال لم يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام.

قلت : وقد كان الأمير صلاح الدين بن عرام في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين بعد السبعين والسبعائة ضرب بالإسكندرية، وهو نائب السلطنة بها يومئذ، دنانير زنة كل دينار منها مثقال، على أحد الوجهين منه "محمد رسول الله" وعلى الوجه الآخر "ضرب بالإسكندرية" في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره، ثم أمسك

عن ذلك فلم تكثر هذه الدنانير ولم تشتهر، ثم ضرب الأمير يلبغا السالمى أستاذار العالية فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق دنانير زنة كل واحد منها مثقال، فى وسط سكتة دائرة فيها مكتوب "فرج" وربما كان منها ما زنته مثقال ونصف أو مثقالان، وربما كان نصف مثقال أو ربع مثقال. إلا أن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم جعلوا نقصها فى نظير كلفة ضربها.

الضرب الثانى

(ما يتعامل به معادة)

وهى دنانير يؤتى بها من بلاد الإفرنجية والروم، معلومة الأوزان، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصرى، وأعتبره بصنج الفضة المصرية كل دينار زنة درهم وحبتي خروب يرجح قليلا، وهذه الدنانير مخصصة على أحد وجهيها صورة الملك الذى تُضرب فى زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية، ويعبر عنها بالإفرنجية جمع إفرنجي، وأصله إفرنجى بسين مهملة بدل التاء المثناة فوق نسبة إلى إفرنجية: مدينة من مدنها، وربما قيل فيها إفرنجية، وإليها تنسب طائفة الفرنج، وهى مقرّة الفرنسيين ملكهم، ويعبر عنه أيضا بالدوكات. وهذا الاسم فى الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة، وذلك أن الملك آسمه عندهم دوك، وكأن الألف والتاء فى الآخر قائمان مقام ياء النسب.

قلت: ثم ضرب الناصر فرج بن برقوق دنانير على زنة الدنانير الإفرنجية المتقدمة الذكر، فى أحد الوجهين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفى الآخر آسم السلطان، وفى وسطه سَفَطٌ مستطيل بين خطين، وعرفت بالناصرية وكثر وجودها،

وصار بها أكثر المعاملات . إلا أنهم يَنْقُصُونَهَا في الأثمان عن الدنانير الإفريقية عشرة دراهم .

ثم ضَرَبَ على نظيرها "الإمام المستعين بالله أبو الفضل العباس" ^(١) حين أَسْتَبَدَّ بالأمر بعد الناصر فرج، ولم يتغير فيها غير السَّكَّةِ، باعتبار آنتقالها من اسم السلطان إلى اسم أمير المؤمنين .

ثم صَرَفُ الذهب بالدينار المصرية لا يثبت على حالة بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال، وغالب ما كان عليه صرف الدينار المصري فيما أدركاها في التسعين والسبعائة وما حولها عشرون درهما، والإفريقي سبعة عشر درهما ومقارب ذلك أما الآن فقد زاد وخرج عن الحد خصوصا في سنة ثلاث عشرة وثمانائة، وإن كان في الدولة الظاهرية ببيرس قد بلغ المصري ثمانية وعشرين درهما ونصفا فيما رأيته في بعض التواريخ .

أما الدينار الجَيْشِيُّ، فمسمى لاحقيقة، وإنما يستعمله أهل ديوان الجيش في عبرة الإقطاعات بأن يجعلوا لكل إقطاع عبرة دنانير معينة من قليل أو كثير، وربما أخلت بعض الإقطاعات من العبرة . على أنه لا طائل تحتها ولا فائدة في تعيينها، فربما كان متحصِّل مائة دينار في إقطاع أكثر من متحصِّل مائتي دينار فأكثر في إقطاع آخر . على أن صاحب "قوانين الدواوين" قد ذكر الدينار الجَيْشِيُّ في الإقطاعات على طبقات مختلفة في عبرة الإقطاعات، فالأجناد من التُّرك والأكراد والتركمان دينارهم دينار كامل، والكتانية والعساقلة ومن يجرى مجراهم دينارهم نصف دينار، والعربان في الغالب دينارهم ثَمَنُ دينار، وفي عُرْف الناس ثلاثة عشر درهما وثلاث، وكأنه على ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش في الزمن

(١) كذا في "حياة الحيوان" أيضا وفي "مروج الذهب" أبو العباس كاسبق للؤلؤ في الخلفاء العباسيين .

القديم، فإن صرف الذهب في الزمن الأول كان قريبا من هذا المعنى، ولذلك جعلت الدية عند من قدرها بالنقد من الفقهاء ألف دينار وأثنى عشر ألف درهم، فيكون عن كل دينار اثنا عشر درهما، وهو صرفه يومئذ.

النوع الثاني

(الدراهم النقرة)

وأصل موضوعها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية على نحو ما تقدم في الدنانير، ويكون منها دراهم صحاح وقراضات مكسرة على ما سيأتى ذكره في الكلام على دار الضرب فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والعبرة في وزنها بالدرهم، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقد رُبست عشرة حبة من حب الخروب، فتكون كل خروبتين ثمن درهم، وهى أربع حبات من حب البر المعتدل، والدرهم من الدينار نصفه وخمسه، وإن شئت قلت سبعة أعشاره فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم.

أما الدراهم السوداء، فاسمها على غير مسميات كاللدينار الحيشية، وكل درهم منها معتبر في العرف بثلاث دراهم نقرة، وبالإسكندرية دراهم سوداء يأتى الكلام عليها في معاملة الإسكندرية إن شاء الله تعالى.

النوع الثالث

(الفلوس، وهى صنفان: مطبوع بالسكة، وغير مطبوع)

فأما المطبوع فكان في الزمن الأول إلى أواخر الدولة الناصرية حسن بن محمد ابن قلاوون فلوس لطاف، يعتبر كل ثمانية وأربعين فلوسا منها بدرهم من النقرة على اختلاف السكة فيها، ثم أحدث في سنة تسع وخمسين وسبعائة في سلطنة حسن أيضا

فلوس شهرت بالجدد جمع جديد، زنة كل فلّس منها مثقال، وكل فلس منها قيراط من الدرهم، مطبوعة بالسكة السلطانية على ما سيأتى ذكره في الكلام على دار الضرب إن شاء الله تعالى، فجاءت في نهاية الحُسْن، وبطل ما عداها من الفلّوس، وهى أكثر ما يتعامل به أهل زماننا. إلا أنها فسد قانونها في تنقيصها في الوزن عن المثقال حتى صار فيها ما هو دون الدرهم، وصار تكوينها غير مستدير، وكانت توزن بالقبان كل مائة وثمانية عشر رطلا بالمصرى بمبلغ خمسمائة درهم، ثم أخذت في التناقص لصغر الفلوس ونقص أوزانها حتى صار كل مائة وأحد عشر رطلا بمبلغ خمسمائة. قلت: ثم استقر الحال فيها^(١) على أنه لو جعل كل أوقية فما دونها بدرهم، لكان حسنا باعتبار غلو النحاس وقلة الواصل منه إلى الديار المصرية، وحمل التجار الفلوس المضروبة من الديار المصرية إلى الحجاز واليمن وغيرهما من الأقاليم متجرا، ويوشك إن دام هذا أن تنفد الفلوس من الديار المصرية، ولا يوجد ما يتعامل به الناس.

وأما غير المطبوعة فُنحاس مكسر من الأحمر والأصفر، ويعبر عنها بالعق، وكانت في الزمن الأول كل زنة رطل منها بالمصرى بدرهمين من الثقرة، فلما عُمِلت الفلوس الجدد المتقدمة الذكر، استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، وهى على ذلك إلى الآن.

قلت: ثم نفدت هذه الفلوس من الديار المصرية لغلو النحاس، وصار مهما وجد من النحاس المكسور خلط بالفلوس الجدد وراج معها على مثل وزنها.

(١) لعل الأوضح ثم استقر الحال فيها على ذلك على أنه الخ تأمل.

الركن الثاني

(في المِثْمَنَات ، وهى على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(الموزونات)

ورطلها الذى يعتبر بوزنه فى حاضرتها من القاهرة والفُسْطَاط وما قاربهما الرطل المصرى ، وهو مائة وأربعة وأربعون درهما ، وأوقيته اثنا عشر درهما ، وعنه يتفرع القِنْطَارُ المصرى ، وهو مائة رطل ، وتعتبر أوزان الطيب بها بالمتن ، وهو مائتان وستون درهما ، وأوقيته ست وعشرون أوقية ، فتكون أوقيته عشرة دراهم .

النوع الثانى

(المِكيَلَات من الجيوب ونحوها)

وأعلم أن بمصر أقداحا مختلفة المقادير أيضا كالأرطال بحسبه ^(١) ، ولكل ناحية منها قَدَحٌ مخصوص بحسب إردبها ، والمستعمل منها بالحاضرة القَدَحُ المصرى ، وهو قَدَحٌ صغير تقديره بالوزن من الحب المعتدل مائتان واثنتان وثلاثون درهما ، وقدره الشيخ تقي الدين بن رزين فى الكلام على صاع الفِطْرَةِ باثنتين وثلاثين ألف حبة وسبعائة وأثنتين وستين حبة ، وكل ستة عشر قدحا تسمى وِيَّةٌ ، وكل ستة وتسعين قدحا تسمى إردباً ، وبنواحيها بالوجهين القبلى والبحرى أرادبٌ متفاوتة يبلغ مقدار الإردب فى بعضها إحدى عشرة وية بالمصرى فأكثر .

(١) لعله بحسب إردبها . أو هى زائدة من قلم الناسخ .

النوع الثالث

(المقيسات ، وهى الأراضى والأقشنة)

فأما الأراضى فصنفان :

الصنف الأول

(أرض الزراعة)

وقد اصطاح أهلها على قياسها بقصبة تعرف بالحكمة ، كأنها حررت فى زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى فنسبت إليه ، وطولها ستة أذرع بالهاشمى كما ذكره أبو القاسم الزجاجى فى "شرح مقدمة أدب الكاتب" وخمسة أذرع بالنجارى كما ذكره ابن ممتى فى "قوانين الدواوين" ومائة أذرع بذراع اليد كما ذكره غيرهما ؛ وذراع اليد ست قبضات بقبضة إنسان معتدل ، كل قبضة أربعة أصابع بالخنصر والبنصر والوسطى والسبابة ، كل إصبع ست شعيرات معترضات ظهراً لبطن على ما تقدم فى الكلام على الأميال . وقد تقدر القصبة بباعين من رجل معتدل ؛ وربما وقع القياس فى بعض بلاد الوجه البحرى منها بقصبة تعرف بالسندفاوية أطول من الحكمة بقليل ، نسبة إلى بلد تسمى سندفاً بالقرب من مدينة المحلة ، ثم كل أربعائة قصبة فى التكسير يعبر عنها بقدان ؛ وهو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ست عشرة قصبة فى التكسير .

الصنف الثانى

(أرض البنيان من الدور وغيرها)

وقد اصطالحوا على قياسها بذراع يعرف بذراع العمل طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، ولعله الذراع الذى كان يقاس به أرض السواد بالعراق ، فقد ذكر الزجاجى

أنه ذراع وثلاث بذراع اليد، وكان ابتداء وضع الذراع لقياس الأرضين أن زياد
 ابن أبيه حين ولّاه معاوية العراق وأراد قياس السواد، جمع ثلاثة رجال : رجلاً
 من طوال القوم ورجلاً من قصارهم ورجلاً متوسطاً بين ذلك ، وأخذ طول ذراع
 كل منهم ، بجمع ذلك وأخذ ثلثه ، فجعله ذراعاً لقياس الأرضين ، وهو المعروف
 بالذراع الزيادي لوقوع تقديره بأمر زياد، ولم يزل ذلك حتى صارت الخلافة لبني
 العباس فأتخذوا ذراعاً مخالفاً لذلك كأنه أطول منه ، فسمي بالهاشمي لوقوعه في خلافة
 بني العباس ، ضرورة كونهم من بني هاشم .

وأما الأقدشة ، فإنها تقاس بالقاهرة بذراع طوله ذراع بذراع اليد وأربع أصابع
 مطبوقة ، ويزيد عليه ذراع القماش بالقسطاط بعض الشيء ، وربما زاد في بعض
 نواحي الديار المصرية أيضاً نحو ذلك . ولغير القماش من الأصناف أيضاً كالخصر
 وغيرها ذراع يخصه .

الركن الثالث

(في الأسعار)

وقد ذكر المقرئ الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" جملة من الأسعار
 في زمانه فقال : وأوسط أسعارها في غالب الأوقات أن يكون الإردب القمح بخمسة عشر
 درهماً ، والشعير بسعره^(١) ، وبقية الحبوب على هذا الأنموذج ، والأرض يبلغ فوق
 ذلك ، واللحم أقل سعره الرطل بنصف درهم ، وفي الغالب أكثر من ذلك ، والدجاج
 يختلف سعره بحسب حاله ، بخيذه الطائر منه بدرهمين إلى ثلاثة ، والدون منه بدرهم
 واحد ، والسكر الرطل بدرهم ونصف ، وربما زاد ، والمكّر منه بدرهمين ونصف .

قلت : وهذه الأسعار التي ذكرها قد أدركنا غالبها ، وبقيت إلى ما بعد الثمانين والسبعائة
فعلت الأسعار وتزايدت في كل صنف من ذلك وغيره ، وصار المثل إلى ثلاثة أمثاله
وأربعة أمثاله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ذي المنن الجسيمة القادر على إعادة ذلك
على ما كان عليه أو دونه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ .

الطرف الثاني

(في ذكر جسورها الحابسة لمياه النيل على أرض بلادها إلى حين استحقاق
الزراعة ؛ وأصناف أرضها ؛ وما يختص بكل صنف من أرضها من الأسماء الدائرة
بين كُتّابها ؛ ومزارعها ؛ وبيان أصناف مزروعاتها وأحوال زرعها)
فأما جسورها ، فعلى صنفين :

الصنف الأول

(الجسور السلطانية)

وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تُعمر في كل سنة من الديوان
السلطاني بالوجهين : القبلي والبحري ، ولها جرابيف ومحاريث وأبقار مرتبة على
غالب البلدان بكل عمل من أعمالها . وقد جرت العادة أن يجهز لكل عمل في كل
سنة أمير بسبب عمارة جسوره ، ويعبر عنه بكاشف الجسور بالعمل الفلاني ،
ويعرف بذلك في تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة ، وربما أضيف كُشف
جسور عمل من الأعمال إلى متولى جريه ، ويقال في تعريفه : وإلى فلانة وكاشف
الجسور بها ، إذا كانت المكاتبه بسبب شيء يتعلق بالجسور ؛ ولهذه الجسور كاتب
منفرد بها مقرّر في ديوانه ما على كل بلد من الجرابيف والأبقار ، وتكتب التذاكير

السلطانية لكاشف كل عمل في الورق الشامي المربع ، ويشملها العلامة الشريفة السلطانية بالآسم الشريف ، وللبسور خولة ومهندسون لكل عمل يقومون في خدمة الكاشف في عمارة البسور إلى أن تنتهي عمارتها .

الصنف الثاني

(البسور البلدية)

وهي الخاصة ببلد دون بلد ، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد : من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم ؛ ولها ضرائب مقررة في كل سنة .

قال ابن مماتي في "قوانين الدواوين" : والفرق بين السلطانية والبلدية أن السلطانية جارية مجرى سور المدينة الذي يجب على السلطان الاهتمام بعمارته والنظر في مصلحته وكفاية العامة أمر الفكرة فيه ، والبلدية جارية مجرى الأدر والمساكن التي داخل السور ، كل صاحب دار منها ينظر في مصلحتها ويلتزم تدير أمره فيها . قال : وقد جرت عادة الديوان أن المقطع المنفصل إذا أنفق شيئاً من إقطاعه في إقامة جسر لعمارة السنة التي أنتقل الخير عنه لها ، استعيد له نظير منفقته من المقطع الثاني ؛ وكذلك كل ما أنفق من مال سنته في عمارة سنة غيره كان له استعادة نظيره .

قلت : وقد أهمل الاهتمام بأمر البسور في زماننا ، وترك عمارة أكثر البسور البلدية ، واقتصر في عمارة البسور السلطانية على الشيء اليسير الذي لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من الله تعالى به على العباد من كثير الزيادة في النيل من حيث إنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعاً فما فوقها إلى ما جاوز العشرين ، لغات رى أكثر

البلاد وتعطلت زراعتها ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ وإلا فقد كان النيل في الغالب يقف على سبع عشرة ذراعا فما حولها، بل قد تقدّم من كلام المسعودي أنه إذا جاء النيل ثمانى عشرة ذراعا، آستبحر من أراضيها الثلث .



وأما أنواع أرضها وما يختص بكل نوع من الأسماء، فإنها تختلف باختلاف الزراعة وعدمها، وبسبب ذلك تتفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف قيمة ما يُزرع فيها، وقد عدّ منها ابن مماتي ثلاثة عشر نوعا :

النوع الأول - الباق : قال ابن مماتي : وهو أثر القرط والقطاني والمقائي . قال : وهو خير الأرضين وأغلاها قيمة وأوفاهما سعرا وقطيعه، لأنها تصلح لزراعة القمح والكتّان .

قلت : والمعروف في زماننا أن الباق أثر القرط والقول خاصة . أما المقائي فإن أثرها يسمى البرش، وسيأتى ذكره فيما بعد .

النوع الثاني - رى الشراقى : قال ابن مماتي : وهو يتبع الباق في الجودة، ويُلقَقُ به في القطيعه : لأن الأرض قد ظمّت في السنة الماضية وأشدّت حاجتها إلى الماء . فلما رويت حصل لها من الرى بمقدار ما حصل لها من الظم، وكانت أيضا مستريحة فزرعها يُحِبُّ .

النوع الثالث - البروبية، وأهل زماننا يقولون البرايب : قال ابن مماتي : وهو أثر القمح والشعير، قال : وهو دون الباق لأن الأرض تضعف بزراعة هذين الصنفين . فتى زرع أحدهما على الآخر لم تنجب كنجابة الباق وسعرها دون سعره، ويجب أن تزرع قُرُوطًا وقَطَانِيَّ ومَقَائِيَّ لتستريح الأرض وتصير باقا في السنة الآتية .

النوع الرابع - البُهْمَاة ، بضم الباء الموحدة وسكون القاف - وهو أثر الكَّان .
قال ابن ممتى : ومتى زُرِع فيه القمح لم يُحِبَّ ، وجاء رقيق الحب أسود اللون .
النوع الخامس - الشتونية ، وأهل زماننا يقولون الشتانى : وهو أثر ما روى
وبار فى السنة الماضية . قال ابن ممتى : وقطيعته دون قطعة الشراقى .

النوع السادس - شق شمس ، قال ابن ممتى : وهو عبارة عما روى وبار
فُحِرَتْ وعُطِّل ، وهو يجرى مجرى الباق ورى الشراقى ، ويحيى ناحب الزرع .
النوع السابع - البرش النقاء ، قال : وهو عبارة عن كل أرض خَلَّتْ من أثر
ما زرع فيها للسنة الماضية ، لا شاغل لها عن قبول ما نوعه من أصناف المزدروعات .
النوع الثامن - الوسخ المزدرع ، قال : وهو عبارة عن كل أرض لم يستحكم
وسخها ، ولم يَقْدِر المزارعون على آسنتكال إزالته منها فخرثوها وزرعوها وطلع زرعها
مختلطا بوسخها .

النوع التاسع - الوسخ الغالب : وهو عبارة عن كل أرض حصل فيها من
النبات الذى شغلها عن قبول الزراعة ما غلب المزارعين عليها ، ومنعهم بكثرتة عن
الزراعة فيها ، وهى تباع مراعى للبهائم .

النوع العاشر - الخرس : وهو عبارة عن فساد الأرض بما آسنتحكم فيها من
موانع قبول الزرع ، وهو أشد من الوسخ الغالب فى التنقية والإصلاح ، وهى مرعى
الدواب .

النوع الحادى عشر - الشراقى : وهو عبارة عما لم يصل إليه الماء لقصور
النيل وعلو الأرض ، أو سد طريق الماء عنه .

النوع الثاني عشر - المستبحر : وهو عبارة عن أرض واطئة إذا حصل الماء فيها لا يجد مصرفاً له عنها فيمضي زمن المزارعة قبل زواله بالأنضوب . قال ابن ممتى : وربما أنتفع به من أزرع الأرض بالاستقاء منه بالسواقي لما زرعه في العلو .

النوع الثالث عشر - السباح : وهو أرض غلب عليها الملح فملحت حتى لم ينتفع بها في زراعة الحبوب ، وهى أردئ الأرضين . قال ابن ممتى : وربما زرع فيما لم يستحكم منها الهليون والباذنجان ، وربما قطع منها ما يسبخ به الكائن ، ويزرع فيها القصب الفارسى فينجب .

الطرف الثالث

(في وجوه أموالها الديوانية ، وهى على ضربين : شرعى وغير شرعى)

الضرب الأول الشرعى ،

(وهو على سبعة أنواع)

النوع الأول

(المال الخراجى : وهو ما يؤخذ عن أجرة الأرضين ؛ وله حالان)

الحال الأول - ما كان عليه الأمر في الزمن المتقدم ، وقد أورد ابن ممتى في "قوانين الدواوين" ما يقتضى أنه كان على كل صنف من أصناف المزدروعات قطعة مقررة في الديوان السلطاني لا يختلف أمرها : فذكر أن قطعة القمح كانت إلى آخر سنة سبع وستين وخمسمائة عن كل فدان ثلاثة أرباب ، ثم إنه تقرّر عند المساحة في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة إردبان ونصف إردب . ثم قال : ومن

ذلك ما يباع بعين، ومنه ما يُزرع مُشاطرة . قال : وقطيعه الشعير كذلك ؛ وقطيعه
 القُول عن كل فدان من ثلاثة أَرادبٍّ إلى إردبين ونصف ؛ وقطيعه الجلبان والحِص
 والعدس عن كل فدان إردبان ونصف ؛ وقطيعه الكَنّان تختلف باختلاف البلاد . ثم
 قال : وهى على آخر ما تقرر فى الديوان عن كل فدان ثلاثة دنائير إلى مادونها ؛
 وقطيعه القُرط بالديوان عن كل فدان دينار واحد ، وفيما بين الناس مختلف ؛ وقطيعه
 الثوم والبصل عن كل فدان ديناران ؛ وقطيعه التُّرْس عن كل فدان دينار واحد
 ورابع ؛ وقطيعه الكُمون والكراويا والسَّلجم الصيفى عن كل فدان دينار واحد .
 قال : وكان قبل ذلك دينارين ؛ وقطيعه البَطِيخ الأخضر والأصفر ، واللَّوِيَاء عن
 كل فدان ثلاثة دنائير ؛ وقطيعه السَّمسم عن كل فدان دينار واحد ؛ وقطيعه القُطن
 كذلك ؛ وقطيعه قَصَب السُّكر عن كل فدان إن كان رأساً خمسة دنائير ، وإن كان
 خلفاً ديناران وخمسة قراريط ؛ وقطيعه القُلُقاس عن كل فدان ثلاثة دنائير ؛ وقطيعه
 النِّيلة عن كل فدان ثلاثة دنائير ؛ وقطيعه الفُجَل عن كل فدان دينار واحد ؛ وقطيعه
 اللَّفْت كذلك ؛ وقطيعه الحَس عن كل فدان ديناران ؛ وقطيعه الكُرْب كذلك .
 قال : والقطيعه المستقرّة عن خراج الشَّجر والكَرم تختلف باختلاف سنيها . ثم قال :
 وهو يدرك فى السنة الرابعة ويترتب على كل فدان ثلاثة دنائير ؛ وقطيعه القَصَب
 الفارسى عن كل فدان ثلاثة دنائير .

الحال الثانى - ما الأمر عليه فى زماننا ، والحال فيه مختلف باختلاف البلاد .

فالوجه القبلى الذى هو الصعيد أكثر خراجه غلالاً من قمح وشعير وحبّ وفول
 وعدس وبسلة وجلبان ، ويعبر فى عرف الدواوين عما عدا القمح والشعير والحِص
 بالحبوب ، ثم الغالب أن يؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ما بين
 إردبين إلى ثلاثة بكيل تلك الناحية ، وربما زاد أو نقص عن ذلك ، وفى الغالب

يؤخذ مع كل إردب درهم أو درهمان أو ثلاثة، ونحو ذلك بحسب قطائع البلاد وضرائبها في الزيادة والنقص في الأردب والدراهم ؛ وربما كان الخراج في بعض هذه البلاد دراهم ؛ وما بار من أرض كل بلد يباع ما نبت فيه من المريع^(١) متاجرة، وربما أخذ فيه العدد^(٢) على حسب عرف البلاد .

والوجه البحرى غالب نخراج بلاده دراهم، وليس فيه ماخراج بلاده غلة إلا القليل على العكس من الوجه القبلى .

ثم الذى كان عليه الحال إلى نحو التسعين والسبعائة في غالب البلاد أن يؤجر أثر الباقي كل فدان بأربعين درهما فما حولها، والبراب كل فدان بثلاثين درهما فما حولها، ثم غلا السعر بعد ذلك حتى جاوز الباقي المائة والبراب الثمانين، وبلغ البرش نحو المائتين، وذلك عند غلو الغلال وارتفاع سعرها .

قلت : ثم تزايد الحال في ذلك بعد الثمانمائة إلى ما بعد العشر والثمانمائة حتى صار يؤخذ في الباقي عن كل فدان نحو الأربعائة درهم، وربما زادت الأرض الطيبة حتى بلغت ستمائة درهم، وفي البراب ونحوه دون ذلك بالنسبة؛ ثم إنه إذا كان المقرر في خراج بلد من بلاد الديار المصرية غلالا وأعوز صنف من الأصناف أن يؤخذ البديل عنها من صنف آخر من الغلة .

وقد ذكر في "قوانين الدواوين" أن قاعدة البديل أن يؤخذ عن القمح بدل كل إردب، من الشعير إردبان، ومن الفول إردب واحد ونصف، ومن الحمص إردب، ومن الجلبان إردب ونصف، والشعير يؤخذ عن كل إردب منه نصف إردب من

(١) مراده بالعدد المواشى الراحية : من الابل والبقر والغنم .

(٢) في التركيب ركازة والمعنى مفهوم .

القمح أو ثلثا إردب من الفول أو نصف إردب من الحِصّ أو ثلثا إردب من الجلبان ؛ وفي الفول يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو نصف إردب من الشعير أو ثلث إردب من الحِصّ أو إردب من الجلبان ؛ وفي الحِصّ يؤخذ عن كل إردب منه إردب من القمح أو إردبان من الشعير أو إردب ونصف من الفول أو إردب ونصف من الجلبان ؛ وفي الجلبان يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلث إردب من الحِصّ . ثم قال : والسَّمِسْمُ والسَّلْجُمُ والكَنَّا ما رأيت لها بدلا ، والاحتياط في جميع ذلك الرجوع إلى سعره الحاضر ، فإنه أسلم طريقةً وأحسن عاقبةً .

وأعلم أن بلاد الديار المصرية بالوجهين : القبلي والبحري بجلتها جارية في الدواوين السلطانية وإقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا التزر اليسير مما يجري في وقف من سلف من ملوك الديار المصرية ونحوهم على الجوامع والمدارس والخواق ونحوها مما لا يعتد به لقلته .

والجاري في الدواوين على ضربين .

الضرب الأول

(ما هو داخل في الدواوين السلطانية ، وهو الآن على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(ما هو جار في ديوان الوزارة ؛ وأعظمه خطرا وأرفعُه قدرا جهتان)

إحداهما - عمل الجيزية المتقدم ذكره في أعمال الديار المصرية ، ولها مباشرين بمفردها من ديوان الوزارة ما بين ناظر ومستوفٍ وشهود وصير في وغيرهم ، وغالب

نحاجه مبلغ دراهم تحمل إلى بيت المال فتثبت فيه وتصرف منه في جملة مصارف بيت المال ، وربما حمل من بعضها الغلّة اليسيرة من القمح وغيره للأهراء السلطانية بالقُسْطَاطِ ، ومن أرضها تفرد الإطلاقات ، وييذر فيها البرسيم لربيع الخيول بالإصطبات السلطانية والأمراء والممالك السلطانية .

الثانية - عمل مَنقُوط ، وله مباشرون كما تقدّم في الجيزيّة بل هي أرفع قدرا وأكثر متحصّلا ، وغالب نحاجه غلال : من قمح وفول وشعير ، وغلالها تحمل إلى الأهراء السلطانية بالقُسْطَاطِ ، ويصرف منها في جملة مصارف الأهراء على الطواحين السلطانية والمناخات وغير ذلك ، وربما حمل منها المبلغ اليسير إلى بيت المال فيثبت فيه ويصرف منه على ما تقدّم في الأعمال الجيزية ، وما عدا هاتين الجهتين من البلاد الجارية في ديوان الوزارة مفرقة في الأعمال بالوجهين القبلي والبحري ، وهي في الوجه القبلي أكثر ، ولكنها قد تناقصت في هذا الزمن حتى لم يبق فيها إلا بعض بلاد بالوجه القبلي .

الصنف الثاني

(ما هو جار في ديوان الخالص)

وهو الديوان الذي أحدثه السلطان "الملك الناصر محمد بن قلاوون" حين أبطل الوزارة على ما سيأتى ذكره ، وأعظم بلاده وأرفعها قدرا مدينة الإسكندرية فإنها في الغالب مضافة إليه ، وبها مباشرون من ناظر ومستوف وشادين وغيرهم . وربما أُنحرت عنه في جهات أخرى جارية فيه ، ويلها تروجة وقوة وتستره ، ومأل جميعها يحمل إلى خزانة الخالص الآتى ذكرها تحت نظر ناظر الخالص الآتى ذكره .

الصنف الثالث

(ما هو جار في الديوان المفرد)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" في سلطته ، وأفرد له بلادا ، وأقام له مباشرين وجعل الحديث فيه لأستاذ داره الكبير ، ورتب عليه نفقة مما يليكه من جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك .

قلت : وليس هو المختار لهذا الاسم بل رأيت في ولايات الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما يدل على أنه كان للخليفة ديوان يسمى الديوان المفرد .

الصنف الرابع

(ما هو جار في ديوان الأملاك)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" المتقدم ذكره ، وأفرد له بلادا سماها أملاكا ، وأقام لها أستاذ دار ومباشرين بمفردها ، وهذا الديوان خاص بالسلطان ليس عليه مرتب نفقة ولا كلفة .

الضرب الثاني

(ما هو جار في الإقطاعات)

وهو جلُّ البلاد بالوجهين القبلي والبحري ، والبلاد النفيسة الكثيرة المتحصلة في الغالب تقطع للأمرء على قدر درجاتهم ، فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلى البلد الواحدة ، وما دون ذلك من البلدان يقطع للمالك السلطانية ، يشترك الاثنان فما فوقهما في البلدة الواحدة في الغالب ، وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد .

وما دون ذلك يكون لأجناد الحلقة تجتمع الجماعة منهم في البلد الواحد بحسب مقداره وحال مُقْطَعِهِ ، وفي معنى أجناد الحلقة المُقْطَعُونَ من العُربان بالبحيرة والشرقية من أرباب الأدراك وملتزمي خيل البريد وغيرهم .

ثم أعلم أن لبلاد الديار المصرية حالين .

الحال الأول - أن تتجزأ إجارة طين البلد بقدر معين لا يزيد ولا ينقص ، وطلب الخراج على حكها .

الحال الثاني - أن تكون البلاد مما جرت العادة بمساحة أرضها لسعة طينها واختلاف الرى فيه بالكثرة والقلة في السنين ؛ وقد جرت العادة في ذلك أن كاتب خراج الناحية يطلب خولة القانون بذلك البلد وتورينخ الأحواض على المزارعين بفدن مقدرة ، وتكتب بها أوراق تسمى أوراق المسجل ، وتحمل نسختها إلى ديوان صاحب الإقطاع فتخلد فيه ؛ فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطاع مباشرة ، فيمسحون أرض تلك البلد في كل قبالة بأسماء المزارعين ، ويكتب أصل ذلك في أوراق تسمى الفُنداق ، ثم تجمع القبائل بأوراق تسمى تاريخ القبائل ، ثم تجمع أسماء المزارعين بأوراق تسمى تاريخ الأسماء ، ويقابل بين ما أشتملت عليه أوراق المسجل وما أشتملت عليه مساحته ، وفي الغالب يزيد عن أوراق المسجل ، ويجمع ذلك وتنظم به أوراق تسمى المكلفة ، ويكتب عليها الشهود وحاكم العمل ، وتحمل لديوان المُقْطَع نسخا .

النوع الثانى

(ما يَتَحَصَّلُ مما يُسْتَخْرَجُ من المعادن)

وقد تقدّم فى الكلام على خواص الديار المصرية أن الموجود الآن بها ثلاثة معادن .

الأول - معدن الزمرد على القرب من مدينة قوص ، ولم يزل مستمرّ الاستخراج إلى أواخر الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" ، ثم أهمل لقلة ما يتحصّل منه مع كثرة الكلف وبقى مهملاً إلى الآن . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنه كان له مباشرون وأمناء من جهة السلطان يتولّون استخراجه وتحصيله ، ولهم جوامك على ذلك . ومهما تحصل منه حُمل إلى الخزانة السلطانية فبإيعاد ما يبيع ، ويبقى ما يصلح للخزائن المملوكية .

الثانى - معدن الشَّبّ (بالباء الموحدة فى آخره) . قال فى "قوانين الدواوين" : ويحتاج إليه فى أشياء كثيرة ، أهمّها صبغ الأحمر ، وللرّوم فيه من الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة ، وهو عندهم مما لا بُدّ منه ولا مندوحة عنه ، ومعادنه بأما كن من بلاد الصعيد والواحات على ما تقدّم فى الكلام على خواص الديار المصرية .

قال : وعادة الديوان أن يُنفَقَ فى تحصيل كل قنطارٍ منه باللّتى ثلاثين درهماً ، وربما كان دون ذلك . وتهبّط به العرب إلى ساحل قوص ، وساحل إنجيم ، وساحل أسبوط ، وإلى البهنسى إن كان الإتيان به من الواحات ، ثم يحمل من هذه السواحل إلى الإسكندرية ، ولا يعتدّ للبشرين فيه إلا بما يصح فيها عند الاعتبار . قال ابن مماتى : وأكثّر ما يبيع منه فى المتجر بالإسكندرية خمسة آلاف قنطارٍ بالبحروى ، وبيع منه فى بعض السنين ثلاثة عشر ألف قنطار ، وسعره من خمسة دنانير إلى خمسة

دنانير وربع وسدس كل قنطار . قال : أما القاهرة ، فأكثر ما يباع فيها منه في كل سنة ثمانون قنطارا كل قنطار بسبعة دنانير ونصف ؛ ثم قال : وليس لأحد أن يبيعه ، ولا يشتريه سوى الديوان السلطاني ، ومتى وجد مع أحد شيء من صفه آسئله . قلت : وقد تغير غالب حكم ذلك .

الثالث - معدن النطرون ، وقد تقدّم في الكلام على خواص الديار المصرية أن النطرون يوجد في معدنين : أحدهما بعمل البحيرة مقابل بلدة تسمى الطرانة على مسيرة يوم منها ، وتقدّم في كلام صاحب "التعريف" أنه لا يعلم في الدنيا بقعة صغيرة يستغل منها أكثر مما يستغل منها ، فإنها نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار في كل سنة . والمعدن الثاني بالفاقوسية على القرب من الخطارة ، ويعرف بالخطاري ، وهو غير لاحق في الجودة بالأول :

قال في "نهاية الأرب" : وأول من احتجر النطرون أحمد بن محمد بن مبر نائب مصر قبل أحمد بن طولون ، وكان قبل ذلك مباحا . قال في "قوانين الدواوين" : وهو في طور محدود لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهة الديوان ، والنفقة على كل قنطار منه درهمان ، وثمن كل قنطار منه بمصر والإسكندرية لضيق الحاجة إليه سبعون درهما . قال : والعادة المستقرة أنه متى أنفق من الديوان في العربان عن أجرة حوالة عشرة آلاف قنطار ، ألزموا بحمل خمسة عشر ألف قنطار ، حسابا عن كل قنطار قنطاراً ونصف ؛ ثم قال : وأكثره مصروف في نفقة الغزاة .

قلت : أما في زماننا فقد تضاعفت قيمة النطرون وغلا سعره لاحتجار السلطان له ، وأفرط حتى خرج عن الحد ، حتى إنه ربما بلغ القنطار منه مبلغ ثلاثمائة درهم أو نحوها . وقد كان على النطرون مرتبون من دواب دسّت وكُتّب دَرَج وأطباء وكهّالين وغيرهم وجماعة من أرباب الصدقات يستأدون ذلك ، وينفقون على حمولته إلى ساحل النيل

بالبلدة المعروفة بالطَّزَّانة المتقدِّمة الذكر، ويبيعونه على مَنْ يرغب فيه ليتوجه به في المراكب إلى الوجه القبلى، ولم يكن لأحد أن يبيع شيئاً بالوجه البحرىّ جملةً، ثم بطل ذلك في أواخر الدولة الظاهرية برقوق، وصار النطرون بجملته خالصاً للسلطان جاريافى الديوان المفرد تحت نظر أستاذ دار، يحلّ إلى الإسكندرية والقاهرة فيُخزَن في شُؤن ثم يباع منها، وعليه مباشرون يحضرون الواصل والمبيع، ويعملون الحسابات بذلك، وتميّز بذلك متحصّله للغاية القصوى.

النوع الثالث

(الزكاة)

قد تقرّر في كتب الفقه أن مَنْ وجبت عليه زكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه، وبين أن يفترقها بنفسه. والذى عليه العمل في زماننا بالديار المصرية أن أرباب الزكوات المؤدّين لها يفترقونها بأنفسهم، ولم يبق بها ما يؤخذ على صورة الزكاة إلا شيئين :

أحدهما ما يؤخذ من التجار وغيرهم على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب أو فضة، فإنهم يأخذون على كل مائتى درهم خمسة دراهم، ثم إذا اشترى بها شيئاً ونرج به وعاد بنظير المبلغ الأوّل لا يؤخذ منه شيء عليه حتى يجاوز سنة. إلا أنهم أتقصوا سنة ذلك بفعلوها عشرة أشهر، وخصّوه بما إذا لم يزد في المدة المذكورة على أربع مرار. فإن زاد عليها استأنفوا له المدة، ثم إنه إذا كان بالبلد متجراً لأحد من تجار الكارم من بهار ونحوه وحال عليه الحول بالبلد، أخذوا عليه الزكاة أيضاً. ومجرى ذلك جميعه مجرى سائر متحصّلات الإسكندرية في المباشرة وغيرها.

الثانى ما يؤخذ من العداد من مواشى أهل بركة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى عمل البحيرة بسبب المرعى، وفي الغالب يُقَطَّع لبعض الأمراء، ويخرج قصادهم لأخذه.

النوع الرابع (الجوالى)

وهى ما يؤخذ من أهل الدَّمة عن الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة، وهى على قسمين : ما فى حاضرة الديار المصرية من القُسطَاط والقاهرة، وما هو خارج عن ذلك . فأما ما بحاضرة الديار المصرية، فإن لهذه الجهة بها ناظرًا يولّى من جهة السلطان بتوقيع شريف، ويتبعه مباشرون من شاذ وعامل وشهود، وتحت يده حاشِرٌ لليهود وحاشِرٌ للنصارى يعرف أرباب الأسماء الواردة فى الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ فى كل عام من الصّبيان، ويعبر عنهم بالنَّشو، ومن يقدّم إلى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها، ويعبر عنهم بالطارئ، ومن يهتدى أو يموت ممن اسمه وارد الديوان . ويُملى على كُتَّاب الديوان ما يتجدد من ذلك .

قال فى "قوانين الدواوين" : إن الجزية كانت فى زمانه على ثلاث طبقات : عليًا، وهى أربعة دنانير وسدسٌ عن كل رأس فى كل سنة، ووُسْطى وهى ديناران وقيراطان، وسُفلى وهى دينار واحد وثلاث وربع دينار وجبتان من دينار، وإنه أضيف إلى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشاذ والمباشرين . ثم قال : وقد كانت العادة جارية باستخراجها فى أول المحرم من كل سنة، ثم صارت تُستخرج فى أيام من ذى الحجة . قلت : أما الآن، فقد نقصت حتى صار أعلاها خمسة وعشرين درهماً، وأدناها عشرة دراهم، ولكنها صارت تُستأدى معجلة فى شهر رمضان، ثم ما يتحصّل منها يحمل منه قدر معين فى كل سنة لبيت المال، وباقي ذلك عليه مرتبون من القضاة وأهل العلم والديانة يوزع عليهم على قدر المتحصّل .

وأما ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها فإن جزية أهل الذمة في كل بلد تكون لمُقطَع تلك البلد من أمير أو غيره تجرى مجرى مال ذلك الإقطاع ، وإن كانت تلك البلد جارية في بعض الدواوين السلطانية ، كان ما يتحصّل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا في ذلك الديوان .

النوع الخامس

(ما يؤخذ من تُجَّار الكفار الواصلين في البحر إلى الديار المصرية)
وأعلم أن المقرّر في الشرع أخذ العشر من بضائعهم التي يقدّمون بها من دار الحرب إلى بلاد الإسلام إذا شُرِطَ ذلك عليهم . والمفتى به في مذهب الشافعي رضي الله عنه أن للإمام أن يزيد في المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر للحاجة إلى الأرزاد من جلب البضاعة إلى بلاد المسلمين ، وأن يرفع ذلك عنهم رأسا إذا رأى فيه المصلحة . وكيفما كان الأخذ فلا يزيد فيه على مرّة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ، حتّى لو رجع إلى بلاد الكفر ثم عاد بالتجارة في سنته لا يؤخذ منه شيء إلا أن يقع التراضي على ذلك ، ثم الذي ترد إليه تُجَّار الكفار من بلاد الديار المصرية تُغرّ الإسكندرية ، وتغرّد مياط المحروستين ، تأتي إليهما مراكب الفرنج والروم بالبضائع فتبيع فيهما أو تمتاز منهما ما تحتاج إليه من البضائع ، وقد تقرّر الحال على أن يؤخذ منهم الخمس وهو ضعف العشر عن كل ما يصل لهم في كل مرة ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضا .

قال ابن مئتي في "قوانين الدواوين" : وربما بلغ قيمة ما يُستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينارا ، وربما آنحط عن العشرين دينارا . قال : ويطلق على كليهما خمس ، قال : ومن الروم من يُستأدى منه العشر ، إلا أنه لما

كان الخمس أكثر، كانت النسبة إليه أشهر . ولذلك ضرائب مستقرّة في الدواوين وأوضاع معروفة .

النوع السادس

(المواريث الحشرية)

وهي مال من يموت وليس له وارث خاص : بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال مَنْ يموتُ وله وارثٌ ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصِبَ له .

وهذه الجهة أيضا على قسمين : مافى حاضرة الديار المصرية، وما هو خارج عنها . فأما ما بحاضرة الديار المصرية ، فإن لهذه الجهة ناظرا يولّي من قِبَل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون من شاذ وكاتب ومُشارِف وشُهود، وهي مضافة إلى ماتحت نظر الوزارة من سائر المباشرات، ومُتَحَصِّلُهَا يحمل إلى بيت المال، وربما كان عليها مرتّبون من أرباب جوامك وغيرهم . وقد جرت عادة هذا الديوان أن كاتبه في كل يوم يكتب تعريفا بمن يموت بمصر والقاهرة من حشري أو أهلي وتفصيله من رجال ونساء وصغار ويهود ونصارى، وتكتب منه نسخ لديوان الوزارة، ولنظر الدواوين ومستوفى الدولة، ويُسَدّ من وقت العصر . فمن أطلق بعد العصر، أضيف إلى النهار القابل .

وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية ، فلها مباشرون يُحَصِّلُونها ويحملون ما يتحصّل منها إلى الديوان السلطاني .

النوع السابع
(ما يتحصّل من دار الضرب بالقاهرة)
والذى يضرب فيها ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(الذهب)

وأصله مما يجلب إلى الديار المصرية من التبر من بلاد التّكُور وغيرها مع ما يجتمع إليه من الذهب . قال في "قوانين الدواوين" : وطريق العمل فيها أن يُسبك ما يجتمع من أصناف الذهب المختلفة حتى يصير ماء واحدا ، ثم يقب قُضباناً ويقطع من أطرافها قطع بمباشرة النائب فى الحكم ، ويحرر بالوزن ويسبك سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من بعضها أربعة مثاقيل ويضاف إليها من الذهب الحائف المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل ، ويعمل كل منها أربع ورقات وتجمع الثمان ورقات فى قدح نحار بعد تحرير وزنها ، ويوقد عليها فى الأتون ليلة ، ثم تخرج الورقات وتمسح ويعبر القدح على الأصل (؟) فإن تساوى الوزن وأجازته النائب فى الحكم ، ضرب دنانير . وإن نقص أعيد إلى أن يتساوى ويصح التعليق فيضرب حينئذ دنانير .

قال ابن الطوير فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية بالديار المصرية فى سياقة الكلام على وظيفة قضاء القضاة : وسبب خلوص الذهب بالديار المصرية ما حكى أن أحمد بن طولون صاحب مصر كان له إمام بمدينة عين شمس الخراب على القرب من المطرية من ضواحي القاهرة ، حيث ينبت البلسان ، وأن يدفره ساخت بها يوما فى أرض صلبة ، فأمر بحفر ذلك المكان فوجد فيه خمسة نواويس فكشفها فوجد فى الأوسط منها ميتا مُصبرا فى عسل ، وعلى صدره لوح لطيف من ذهب فيه كتابة لاتعرف ، والنواويس الأربعة مملوءة بسبائك الذهب ، فنقل ذلك الذهب

ولم يجد من يقرأ ما في اللوح ، فدلَّ على رهاب شيخ بدير العربة بالصعيد له معرفة بخط الأولين ، فأمر بإحضاره فأخبر بضعفه عن الحركة ، فوجه باللوح إليه ، فلما وقف عليه قال : إن هذا يقول : أنا أكبر الملوك ، وذهي أخلص الذهب . فلما بلغ ذلك أحمد بن طولون ، قال : قبح الله من يكون هذا الكافر أكبر منه أو ذهبه أخلص من ذهبه ، فشدد في العيار في دور الضرب ، وكان يحضر ما يعلق من الذهب ويختم بنفسه فبقى الأمر على ما قرره في ذلك من التشديد في العيار . وكانت دار الضرب في الدولة الفاطمية لا يتولاها إلا قاضي القضاة تعظيماً لشأنها ، وتكتب في عهده في جملة ما يضاف إلى وظيفة القضاء ، ويقيم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم ، وبقى الأمر على ذلك زمناً بعد الدولة الفاطمية أيضاً . أما في زماننا ، فنظرها موكول لناظر الخاص الذي استحدثه "الملك الناصر محمد بن قلاوون" عند تعطيله الوزارة على ماسياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

والسكة السلطانية بالديار المصرية فيما هو مشاهد من الدنانير أن يكتب على أحد الوجهين - لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون^(١) - وعلى الوجه الآخر اسم السلطان الذي ضرب في زمنه وتاريخ سنة ضربه .

الصنف الثاني

(الفضة النقرة)

وقد ذكر ابن ميماتي في "قوانين الدواوين" في عيارها أنه يؤخذ ثلثمائة درهم فضة فتضاف إلى سبعمائة درهم من النحاس الأحمر ، ويسبك ذلك حتى يصير ماء واحدا فيقلب قضباناً ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً ، ثم تسبك ، فإن خلص

(١) ليس نظم آية كما قد يتوهم .

منها أربعة دراهم فضة ونصف حساباً عن كل عشرة دراهم ثلاثة دراهم، وإلا أعيدت إلى أن تصح . وكأن هذا ما كان الأمر عليه في زمانه ؛ والذي ذكره المقر الشهابي ابن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أن عيارها الثلثان من فضة والثلث من نحاس، وهذا هو الذي عليه قاعدة العيار الصحيح كما كان في أيام الظاهر بيبرس وما والاها، وربما زاد عيار النحاس في زماننا على الثلث شيئاً يسيراً بحيث يظهره النقد، ولكنه يروح في جملة الفضة، وربما حصل التوقف فيه إذا كان بمفرده . قلت : أما بعد الثمانمائة فقد قلت الفضة، وبطل ضرب الدراهم بالديار المصرية إلا في القليل النادر لاستهلاكها في السروج والآنية ونحوها، وانقطاع وصلها إلى الديار المصرية من بلاد الفرنج وغيرها . ومن ثم عجز وجود الدراهم في المعاملة بل لم تكد توجد . ثم حدث بالشأم ضرب دراهم رديئة فيها الثلث فما دونه فضة والباقي نحاس أحمر، وطريقة ضربها أن تقطع القضبان قطعاً صغيراً كما تقدم في الدنانير، ثم تُرصع إلا أن الدنانير لا تكون إلا صحاحاً مستديرة، والفضة ربما كان فيها القراضات الصغار المتفاوتة المقادير فيما دون الدرهم إلى ربع درهم وما حوله ؛ وصورة السكة على الفضة كما في الذهب من غير فرق .

الصنف الثالث

(الفلوس المتخذة من النحاس الأحمر)

وقد تقدم أنه كان في الزمن الأول فلوس صغار كل ثمانية وأربعين فلساً منها معتبرة بدرهم من النقرة إلى سنة تسع وخمسين وسبعائة في سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الثانية، فأحدثت فلوس عبر عنها بالجدد زنة كل فلس منها مثقال، وهو قيراط من أربعة وعشرين قيراطاً من الدرهم، ثم تناقص مقدارها حتى كادت

تفسد وهى على ذلك . وطريق عملها : أن يُسبك النحاس الأحمر حتى يصير كالماء ، ثم يخرج فيضرب قضباناً ، ثم يُقَطَّع قطعاً صغيراً ، ثم تُرَصَّع وتسك بالسكة السلطانية وسكتها أن يكتب على أحد الوجهين اسم السلطان ولقبه ونسبه ، وعلى الآخر اسم بلد ضربه وتاريخ السنة التى ضرب فيها .

الضرب الثانى

(من الأموال الديوانية بالديار المصرية غير الشرعى ،

وهو المكوس ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(ما يختص بالديوان السلطانى وهو صنفان)

الصنف الأول

(ما يؤخذ على الواصل المجلوب ، وأكثره مُتَحَصِّلاً جهتان)

الجهة الأولى

(ما يؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر القلزم

من جهة الحجاز واليمن وما والاها ، وذلك بأربعة

سواحل بالبحر المذكور)

الساحل الأول - عِيْدَابُ . وقد كان أكثر السواحل واصلًا لرغبة رؤساء

المراكب فى التعدي من جُدَّةَ إليه ، وإن كانت باحته متسعة لغزارة الماء وأمن

الطَّاقِ بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر ، ومن هذا الساحل يتوصل إلى قُوصَ

بالبضائع ومن قُوصَ إلى فُنْدُقِ الكارم بالنُسطَاطِ فى بحر النيل .

الساحل الثانى - القَصِير . وهو فى جهة الشمال عن عِيذاب ، وكان يصل إليه بعض المراكب لقربه من قُوص وبعْد عِيذاب منها ؛ وتُجمل البضائع منه إلى قُوص ، ثم من قُوص إلى فُنْدُق الكارم بالقُسْطَاط على ما تقدّم ، وإن لم يبلغ فى كثرة الواصل حدّ عِيذاب .

الساحل الثالث - الطُور . وهو ساحل فى جانب الرأس الداخلى فى بحر القلزم بين عقبة أيلة وبين بر الديار المصرية ؛ وقد كان هذا الساحل كثير الواصل فى الزمن المتقدم : لرغبة بعض رؤساء المراكب فى السير إليه ، لقرب المراكب فيه من برّ الحجاز حتّى لا يغيب البر عن المسافرين فيه وكثرة المراسى فى برّه ، متى تغير البحر على صاحب المركب وجد مرّسة يدخل إليها ، ثم ترك قصْد هذا الساحل والسفر منه بعد انقراض بنى بدير العباسية التجار ، ورغب المسافرون عن السفر فيه لما فيه من الشعب الذى يُخشى على المراكب بسببه ، ولذلك لا يُسافر فيه إلا نهاراً ، وبقى على ذلك إلى حدود سنة ثمانين وسبعائة ، فعمر فيه الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، وهو يومئذ حاجب الحجاب بالديار المصرية مرّكباً وسفّرها ، ثم أتبعها بمركب آخر بحسّر الناس على السفر فيه وعَمَرُوا المراكب فيه ، ووصلت إليه مراكب اليمن بالبضائع ، ورُفِضت عِيذاب والقَصِير ، وحصل بواسطة ذلك حمل الغلال إلى الحجاز ، وغزرت فوائد التجار فى حمل الحنطة إليه .

الساحل الرابع - السُوَيْس على القرب من مدينة القلزم الخراب بساحل الديار المصرية . وهو أقرب السواحل إلى القاهرة والقُسْطَاط إلا أن الدخول إليه نادر ، والعمدة على ساحل الطور كما تقدّم .

قلت : وهذه السواحل على حدّ واحد فى أخذ المرتب السلطانى ، وقد ذكر فى "قوانين الدواوين" : أن واصل عِيذاب كان آسَقرَ فيه الزكاة . أما الذى عليه

الحال في زماننا، فإنه يؤخذ من بضائع التجار العُشر مع لواحق أخرى تكاد أن تكون نحو المرتب السلطاني أيضا .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَصَلَّ البضائع للتجار المسلمين إلى ساحل الإسكندرية ودمياط المتقدم ذكرهما، فيؤخذ منها المرتب السلطاني على ما توجبه الضرائب .

الجهة الثانية

(ما يؤخذ على واصل التجار بقُطيا في طريق الشام إلى الديار المصرية)
وعليها يردُّ سائر التجار الواصلين في البر من الشام والعراق وما والاها ، وهي أكثر الجهات متحصلا وأشدّها على التجار تضيقا وعندهم ضرائب مقررة لكل نوع يؤخذ عن نظيرها .

الصنف الثاني

(ما يؤخذ بمحاضرة الديار المصرية : بالفسطاط والقاهرة)
وهو جهات كثيرة ، يقال إنها تبلغ اثنتين وسبعين جهة ، منها ما يكثر متحصله ومنها ما يقل ، ثم بعضها بحسب ما يتحصّل من قليل وكثير ، وبعضها له ضَمانٌ ^(١) بمقدار معين لكل جهة ، يطلب بذلك المقدار إن زادت الجهة فله وإن نقصت فعليه .
قلت : وقد عمت البلوى بهذه المكوس ، ونحرجت في التزيّد عن الحدّ ، ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس بسببها . وقد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله في سلطنته قد رفع هذه المكوس ومحا آثارها ، وعوّضه الله عنها بما حازه من الغنائم وفتح من البلاد والأقاليم ، وربما وقع الإلهام من الله تعالى لبعض ملوك المملكة برفع المظالم الحاصلة منها . ومن أعظم ذلك خطرا

وأرفعه أجراً ما فعله السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" بن الملك الناصر محمد بن قلاوون تغمده الله تعالى برحمته من بطلان مكوس الملاحى والقراريط على الأملاك المبيعة .

النوع الثانى

(مالا اختصاص له بالديوان السلطانيّ)

وهى المكوس المتفرقة ببلاد الديار المصرية فتكون تابعة للإقطاع إن كانت تلك البلد جارية فى ديوان من الدواوين السلطانية فتحصلها لذلك الديوان ، أو جارية فى إقطاع بعض الأمراء ونحوهم فتحصلها لصاحب الإقطاع ، ويعبر عنها فى الدواوين بالهلالي كما يعبر عما يؤخذ من أجرة الأرضين بالخراجى .

المقصد الثالث^(١)

(فى ترتيب المملكة، ولها ثلاث حالات)

الحالة الأولى - ما كانت عليه فى زمن عمّال الخلفاء من حين الفتح إلى آخر الدولة الأخشيدية - ولم يتحرر لى ترتيبها ، والظاهر أنه لم يزل توابها وأمرأؤها حينئذ على هيئة العرب إلى أن وليها أحمد بن طولون وبَنُوه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . على أنه كان أكثر عسكره من السودان ، حتى يقال إنه كان فى عسكره اثنا عشر ألف أسود ، وتبعتهم الدولة الأخشيدية على ذلك إلى آخر دولتهم .

(١) لم يسبق له التعبير بالمقصد الأول والثانى ولم يجعل كعادته فعل هذا من بعض النساخ . وقد وقع فى هذا الجزء شئ من هذا القبيل فأقتضى التنبيه .

الحالة الثانية - من أحوال الديار المصرية ما كانت عليه في زمن الخلفاء الفاطميين؛ وينحصر المقصود من ترتيب مملكتهم في ثلاث جمل^(١)

الجملة الأولى

(في الآلات المملوكية المختصة بالمواكب العظام)

وهي على أصناف متعددة :

منها (التاج) . وكان يُنَعَت عندهم بالتاج الشريف، ويعرف بشدة الوقار . وهو تاج يركب به الخليفة في المواكب العظام، وفيه جوهرة عظيمة تُعرف بالتيمة زنتها سبعة دراهم ولا يقوم عليها لنفاستها؛ وحولها جواهر أخرى دونها؛ يلبس الخليفة هذا التاج في المواكب العظام مكان العمامة .

ومنها (قضيب الملك) . وهو عُود طويل شبر ونصف، ملبس بالذهب المرصع بالذرّ والجوهر، يكون بيد الخليفة في المواكب العظام .

ومنها (السيف الخاص) الذي يحمل مع الخليفة في المواكب . يقال إنه كان من صاعقة وقعت وحصل الظفر بها فعمل منها هذا السيف، وحليته من ذهب مرصعة بالجواهر، وهو في خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه، وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة في الموكب .

ومنها (الدواة) . وهي دواة متخذة من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان على صلابته ومناعته، تلف في منديل شرب^(٢) أبيض، ويحملها شخص من الأستاذين في الموكب أمام الخليفة تكون بينه وبين السرج، ثم جعل حملها لعدل من العدول المعبرين .

(١) وصلت في العدالي سبع جمل . (٢) كذا في الأصل وسأقي ولعله نوع مخصوص من الحرير .

ومنها (الريح) . وهو ربح لطيف في غلاف منظوم باللؤلؤ؛ وله سنان مختصر بحلقة الذهب؛ وله شخص مختص بحمله .

ومنها (الدَّرَقَةُ) . وهى دَرَقَةٌ كبيرة بكوايخ من ذهب؛ يقولون إنها دَرَقَةٌ حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها غِشاء من حرير؛ ويحملها في الموكب أمير من أكابر الأمراء، له عندهم جلالة .

ومنها (الحافر) . وهى قطعة ياقوت أحمر فى شكل الهلال، زنتها أحد عشر مثقالا، ليس لها نظير فى الدنيا، تخاط خياطة حسنة على خرقة من حرير، وبدائها قضب زمرد ذبابى عظيم الشأن، تجعل فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى المواكب .

ومنها (المِظَلَّةُ) التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه . وهى قبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمِظَلَّة التى يركب بها السلطان الآن، وكانت اثني عشر شوزكا عرض سُفل كل شوزك شبر، وطوله ثلاثة أذرع وثلاث، وآخره من أعلاه دقيق للغاية بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة، وعمودها قنطارية من الزان ملبَّسة بأنايب الذهب، وفى آخر أنبوبة ثلثى رأس العمود ملكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشواذك فى حلقة من ذهب، وتنزل فى رأس الرمح . ولها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، وحاملها من أكبر الأمراء .

قال ابن الطوير : وكان من شرطها عندهم أن تكون على لون الثياب التى يلبسها الخليفة فى ذلك الموكب، لا تخالف ذلك .

ومنها (الأعلام) . وأعلامها اللواءان المعروفان بلوائى الحمد، وهما رحمان طويلان ملبَّسان بأنايب من ذهب إلى حدٍّ أسنتهما، وبأعلامهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب، ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين، يُخرجان لخروج المِظَلَّة إلى أميرين معتين لحملها، ودونهما رحمان برءوسهما أهلة من ذهب صامت، فى كل واحد

منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر، وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما، يحملهما فارسان من صبيان الخاص، ووراءهما رايات لطاف ملونة من الحرير المرقوم ومكتوب عليها ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ طول كل راية منها ذراعان في عرض ذراع ونصف، في كل واحدة ثلاثة طرازات على رماح من القنأ، عدتها أبدا إحدى وعشرون راية، يحملها أحد وعشرون فارسا من صبيان الخليفة، وحاملها أبدا راكب بغلة .

ومنها (المذبذبان) وهما مذبذبان عظيمتان كالنخلتين ملويتان محمولتان عند رأس فرس الخليفة في الركوب .

ومنها (السلاح) الذي يحملها الركابية حول الخليفة . وهو صامص مصقولة، ودبابيس ملبسة بالكمخات الأحمر والأسود، ورؤوسها مدورة، ولتوت حديد كذلك ورؤوسها مستطيلة، وهي عمد حديد طول ذراعين، مربعات الأشكال بمقابض مدورة بعدة معلومة من كل صنّف، وستائة حربة بأسنة مصقولة، تحتها جلب الفضة، وثلاثمائة درقة بكوايج فضة، يحمل ذلك في الموكب ثلاثمائة عبد أسود كل عبد حربتان ودرقة واحدة، وستون رمحا طول كل واحد منها سبع أذرع، برأسها طلعة وعقبها من حديد، يحملها قوم يقال لهم السريرية يقتلونهم بأيديهم اليمنى فتلا متدارك الدوران، ومائة درقة لطيفة، ومائة سيف بيد مائة رجل، كل رجل درقة وسيف يسرون رجالة في الموكب، وعشرة سيوف في خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب يقال لها سيوف الدم، تكون في أعقاب الموكب برسم ضرب الأعناق إذا أراد الخليفة قتل أحد . وذلك كله خارج عما يخرج من خزانة التجميل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب الرتب وأزمنة العساكر لتجملهم في الموكب، وهي نحو أربعائة راية مرقومة الأطراف، وبأعلاها رمامين الفضة المذهبة، وعدة من العاريات : وهي

شبه الكسجاوات ملبسة بالحرير الأحمر والأصفر والقرمزي وغير ذلك ، وعليها
كوايج الفضة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عمارية ، ويختص لواءان
على رنحين منقوشين بالذهب غير منشورين يكونان أمامه في الموكب إلى غير ذلك
من الآلات التي يطول ذكرها ، ويعسر استيعابها .

ومنها (التقارات) . وكانت على عشرين بغلا على كل بغل ثلاث مثل تقارات
الكوسات بغير كوسات ، تسير في الموكب اثنتين اثنتين ولها حس حسن .

ومنها (الخيام والفساطيط) وكان من أعظم خيمهم خيمة تعرف بالقاتول ، طول
عمودها سبعون ذراعا ، بأعلاه سفرة فضة تسع راوية ماء ، وسعتها ما يزيد على فدانين
في التدوير . وسميت بالقاتول لأن فرأشاً سقط من أعلاها فأت .

قلت : ولعمري إن هذه لأثرة عظيمة تدل على عظيم مملكة وقوة قدرة ، وأنى
يتأتى مثل هذه الخيمة للملك من الملوك وإن جل قدره وعظم شأنه .

الجملة الثانية

(في حواصل الخليفة ، وهي على خمسة أنواع)

النوع الأول

(الخزائن ، وهي ثمان خزائن)

الأولى - (خزانة الكتب) . وكانت من أجل الخزائن وأعظمها شأنا عندهم ،
وكان فيها من المصاحف الشريفة المكتوبة بالخطوط المنسوبة الفائقة عدّة كثيرة ،
ومن الكتب النفيسة ما يزيد على مائة ألف مجلد ، مشتملة على أنواع العلوم
مما يدهش الناظر ويحيره ، وربما اجتمع من المصنّف الواحد فيها عشر نسخ

فما دونها، وكان فيها من الدُّرُوج المكتتة بالخطوط المنسوبة نكحَ آبن مقلة وآبن البواب، ومن جرى مجراها^(١).

الثانية - (خزانة الكُسوة) وهي في الحقيقة خزانتان . إحداهما - الخزانة الظاهرة، وهي المعبر عنها في زماننا بالخزانة الكبرى على ما كانت عليه أولاً، والمعبر عنها بخزانة الخاص على ما استقرَّ عليه الحال آخراً، وكان فيها من الحواصل من الديباج الملوّن على اختلاف ضروبها، والشرب الخاص الدقيق والسقلاطون، وغير ذلك من أنواع القماش الفاخرة ما يدل على عِظَم المملكة، وإليها يحمل ما يُعمل بدار الطراز بتّيس ودِمياط والإسكندرية من مستعملات الخاص، وفيها يفصل ما يؤمر به من لباس الخليفة، وما يحتاج إليه من الخلع والتشريف وغير ذلك . الثانية - معدّة للباس الخليفة خاصة، وهي المعبر عنها في زماننا بالطشت خاناه، وإليها ينقل القماش المفصل بالخزانة الأولى من قماش الخليفة وغيره .

الثالثة - (خزانة الشراب). وهي المعبر عنها في زماننا بالشراب خاناه، وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربّيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريّات الفائقة التي لا توجد إلا فيها، وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصّينيّة من الزبادي والصُّحُون والبرانيّ والأزيار ما لا يقدر عليه غير المملوك .

الرابعة - خزانة الطّعم . وهي المعبر عنها في زماننا بالحوائج خاناه، وكانت تحتوي على عدّة أصناف من جميع أصناف القلويّات من الفستق وغيره والشكّر والقند والأعسال على أصنافها والزيت والشمع وغير ذلك، ومنها يخرج راتب المطابخ خاصاً وعاماً، وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقيعات في كل شهر، ولا يحتاج إلى غيرها إلا في اللحم والخضر .

(١) لعل الأنسب فافرقها (٢) لعل تسماه [ما يدل على عظم المملكة] كما سيأتي في نظيره .

الخامسة - (خزانة السروج) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالركاب خاناه ، وكانت قاعة كبيرة بالقصر ، بها السروج والجلج من الذهب والفضة ، وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة ، ثم منها ما هو قريب من الخاص ، ومنها ما هو وسط برسم من هو من أرباب الرتب العالية ، ومنها ما هو دون ، برسم من هو برسم العوارى أيام للمواكب لأرباب الخدم .

السادسة - (خزانة الفرش) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالفرش خاناه ، وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك ، وكان الخليفة يحضر إليها من غير جلوس ويطوف فيها ، ويسأل عن أحوالها ، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات وحملها إليها .

السابعة - (خزانة السلاح) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالسلاح خاناه ، فيها من أنواع السلاح المختلفة مالا نظيره : من الزرديات المغشاة بالديباج المحكة الصنعة المحلاة بالفضة ، والجواشن المذهبة ، والخوذ المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف العربيات والقلجورية ، والرماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة ، والأسنة العظيمة والقسي المحبورة المنسوبة إلى أفاضل الصناع ، وقسي الرجل والركاب ، وقسي اللولب التى تبلغ زنة نصله خمسة أرتال بالمصرى ، والنبل الذى يرمى به عن القسي العربية فى المجارى المصنوعة لذلك .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : كان يصرف فيها فى كل سنة سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار .

الثامنة - (خزانة التجمل) . وهى خزانة فيها أنواع من السلاح يخرج منها للوزير والأمراء فى المواكب الأولى والثضب الفضة والعماريات وغيرها . قال ابن الطوير : هى من حقوق خزائن السلاح .

وأما (خزائن المال) فكان فيها من الأموال والجواهر النفيسة، والذخائر العظيمة، والأقمشة الفاخرة مالا تحصره الأقلام.

وناهيك أن المستنصر لما وقع الغلاء العظيم بمصر، أخرج من خزائنه في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ذخائر تسعها للإعانة على قيام أمر المملكة والجند، فكان مما أخرجهم ثمانون ألف قطعة بلور كبار، وسبعون ألف قطعة من الدياج، وعشرون ألف سيف محلي. ولما استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على القصر بعد وفاة العاضد: آخر خلفائهم، وجد فيه من الأعلاق الثمينة والتحف ما يخرج عن حد الإحصاء، من جملة الخافر الياقوت المقدم ذكره. ويقال إنه وجد فيه قضيب زمرد يزد على قامته الرجل على ما تقدم ذكره في الكلام على الأحجار الملوكة في أثناء المقالة الأولى، ووجد فيه أيضا الهرم العنبر الذي عمله الأمين زنته ألف رطل بالمصرى.

النوع الثاني

(حواصل المواشى المعبر عنها عند كُتَّاب زماننا بالكراع؛ وهي حاصلان)

الأول - الإصطبلات. وهي حواصل الخيول والبغال وما في معناها، قال ابن الطوير: وكان لهم إصطبلان. قال: وكان للخليفة برسم الخاص^(١) في كل إصطبل ما يقرب من الألف رأس، النصف من ذلك برسم الخاص، والنصف برسم العواري في المواكب لأرباب الرتب والمستخدمين، وكان لكل ثلاثة رؤس منها سائس واحد، لكل واحد منها شداد برسم تسييرها، وبكل من الإصطبلين راض كأمير اخور. ومن غريب ما يحكى أن أحدا من خلفاء الفاطميين لم يركب حصانا أدهم قط، ولا يرون إصافته إلى دوابهم بالإصطبلات.

(١) لعلها زائدتان من قلم النسخ.

الثانى - المَنَاحَت . وهى حواصل الجمال ، وكان لهم من الجمال الكثيرة بالمَنَاحَت وعددها الفائقة ما يقصر عنه الحد .

النوع الثالث

(حواصل الغلال وشؤون الأتبان)

أما الغلال ، فكانت لهم الأهرأء فى عدة أماكن : بالقاهرة وبالقُسْطَاط ، والمَقْصِم ، ومنها تصرف الإطلاقات لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية ، وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ، وربما طال زمن الغلال فيها حتى تقطع بالمساحى .

وأما شؤون الأتبان ، فكان بطريق القُسْطَاط شونتان عظيمتان مملوءتان بالبنين معبأتان تعبئة المراكب كالجلبين الشاهقين ، وينفق منها للإصطبلات والمواشى الديوانية وعوامل بساتين الملك ، وكانت ضريبة كل شليف عندهم ثلثمائة وستين رطلا .

النوع الرابع

(حواصل البضاعة)

قال ابن الطوير : وكان فيها ما لا يحصره إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من القنب والكَنّ ، والمنجنيقات والصنّاع الكثيرة من الفرنج وغيرهم من أهل كل صنعة ، وكانت الصناعة أولا بالجزيرة المعروفة الآن بالرّوضة ، ولذلك كانت تعرف بينهم بجزيرة الصّناعة قاله القضاعى .

النوع الخامس

(ما في معنى' الحواصل : لوقوع الصرف والتفرقة منه،

وهو الطواحين والمطبخ ودار الفطرة)

فأما الطواحين، فإنها كانت معلقة، مداراتها أسفل وطواحينها فوق كما في السواقي حتى لا يقارب الدقيق زبل الدواب الدائرة لأختصاصه بالخليفة . وأما المطبخ، فقد تقدّم في الكلام على خطط القاهرة ، وكان يدخل بالطعام منه إلى القصر من باب الزهومة مكان قاعة الحنابلة من المدرسة الصالحية الآن على ما تقدّم في خطط القاهرة . قال ابن الطوير : ولم يكن لهم أسمطة عامّة في سوى العيدين وشهر رمضان .

المجملة الثالثة

(في ذكر جيوش الدولة الفاطمية ، وبيان مراتب أرباب السيوف)

وهم على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول الأمراء،

(وهم على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - مرتبة الأمراء المطوقين . وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم؛ وكانهم بمثابة الأمراء مقدّمى الألوّف في زماننا .

المرتبة الثانية - مرتبة أرباب القُضْب، وهم الذين يركبون في المواكب بالقُضْب الفِصّة التي يخرجها لهم الخليفة من خزانة التّجمل تكون بأيديهم، وهم بمثابة الطبلخاناه في زماننا .

المرتبة الثالثة - أدوان الأمراء ممن لم يؤهل لحمل القُضْب . وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات في زماننا .

الصنف الثاني

(خواص الخليفة ، وهم على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(الأستاذون)

وهم المعروفون الآن بالخدام وبالطواشيّة ، وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة ، ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة ، وأجلهم المَحْكُون ، وهم الذين يُدَوِّرون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن ، وهم أقربهم إليه وأخصمهم به ، وكانت عدتهم تزيد على ألف . قال ابن الطوير : وكان من طريقتهم أنه متى ترشح أستاذ منهم للحك وحك ، حمل إليه كل أستاذ من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه وسيفا وفرسا فيصبح لاحقا بهم ، وفي يده مثل ما في أيديهم .

النوع الثاني

(صبيان الخاص)

وهم جماعة من أخضاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم ، ومقامهم مقام المعروفين بالخاصكية في زماننا .

النوع الثالث

(صبيان الحجر)

وهم جماعة من الشَّباب يناهزون خمسة آلاف نفر مقيمون في حُجْر منفردة لكل حُجْرٍ منها اسم يخصها ، يضاھون ممالك الطباقي السلطانية الآن المعبر عنهم بالكنانية إلا أن عدتهم كاملة وعللهم مزاحة ، ومتى طُلبوا لهم لم يجدوا عائقا ، وللصبيان منهم حجرة منفردة يتسلمها بعض الأستاذين ، وكانت حُجْرَتهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية ببيرس الآن .

الصنف الثالث

(طوائف الأجناد)

وكانوا عدّة كثيرة، تنسب كلّ طائفة منهم إلى مَنْ بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم، كالحفاظية والامرية من بقايا الحافظ والامر، أو إلى مَنْ بقى من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجماليّ وولده الأفضل، أو إلى مَنْ هي منتسبةٌ إليه في الوقت الحاضر كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة، أو من المستصنعين كالروم والفرنجة والصقالبة، أو من السودان من عبيد الشراء، أو العتقاء وغيرهم من الطوائف، ولكل طائفة منهم قُوداء ومقدمون يحكمون عليهم.

الجملة الرابعة

(في ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية، وهم على قسمين)

القسم الأول

(ما بحضرة الخليفة، وهم أربعة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب الوظائف من أرباب السيوف، وهم نوعان)

النوع الأول

(وظائف عاقمة الجند، وهي تسع وظائف)

الوظيفة الأولى - (الوزارة) وهي أرفع وظائفهم وأعلىها رتبةً. وأعلم أن الوزارة في الدولة الفاطمية كانت تارة تكون في أرباب السيوف، وتارة في أرباب الأقاليم، وفي كلا الجانبين تارة تعلو فتكون وزارة تفويض تضاهي السلطنة الآن

أو قريبا منها، ويعبر عنها حينئذ بالوزارة؛ وتارة تتحط فتكون دون ذلك، ويعبر عنها حينئذ بالوساطة .

قال في "نهاية الأرب" : وأول مَنْ خُوطب منهم بالوزارة يعقوب بن كلثوم وزير العزيز، وأول وزارتهم من عطاء أرباب السيوف بدر الجمالي وزير المستنصر، وآخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومنها استقل بالسلطنة على ما تقدّم .

الوظيفة الثانية - (وظيفة صاحب الباب) وهي ثاني رتبة الوزارة . قال ابن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرى، وصاحبها في المعنى يقرب من النائب الكافل في زماننا، وهو الذي ينظر في المظالم إذا لم يكن وزيراً صاحب سيف، فإن كان ثم وزيراً صاحب سيف، كان هو الذي يجلس للمظالم بنفسه، وصاحب الباب من جملة مَنْ يقف في خدمته .

الوظيفة الثالثة - (الاسفهلارية) . قال ابن الطوير : وصاحبها زمام كل زمام، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم، وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم .

الوظيفة الرابعة - (حمل المظلة) في المواسم العظام : كركوب رأس العام ونحوه . وهي من الوظائف العظام، وصاحبها يسمى حامل المظلة، وهو أمير جليل، وله عندهم التقدّم والرفعة : لحمل ما يعلو رأس الخليفة .

الوظيفة الخامسة - (حمل سيف الخليفة) في المواكب التي تحمل فيها المظلة، ويعبر عن صاحبها بحامل السيف .

الوظيفة السادسة - (حمل رُح الخليفة) في المواكب التي تحمل فيها المظلة . وهو رُح صغير يحمل مع الخليفة في المواكب، وصاحبها يعبر عنه بحامل الرُح .

الوظيفة السابعة - (حمل السلاح) حول الخليفة في المواكب . وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبصبيان الركاب الخاص أيضا، وهم الذين يعبر عنهم في زماننا بالسلاح دارية والطبردارية، وكانت عدتهم تزيد على ألفي رجل، ولهم أئسا عشر مقدما، وهم أصحاب ركاب الخليفة، ولهم ثقباء موكلون بمعرفتهم، والأكابر من هؤلاء الركابية تندب في الأشغال السلطانية، وإذا دخلوا عملا كان لهم فيه الصيت المرتفع .

الوظيفة الثامنة - (ولاية القاهرة). وكان لصاحبها عندهم الرتبة الجليلة والحُرمة الوافرة، وله مكان في الموكب يسير فيه .

الوظيفة التاسعة - (ولاية مصر) . وهي دون ولاية القاهرة في الرتبة كما هي الآن، إلا أن مصر كانت إذ ذاك عامرة أهلة، فكان مقدارها أرفع مما هي عليه في زماننا .

النوع الثاني

(وظائف خواص الخليفة من الأستاذين؛ وهي عدة وظائف؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يختص بالأستاذين المحنكين؛ وهي تسع وظائف)

الأول - (شدّ التاج) . وموضوعها أن صاحبها يتولى شدّ تاج الخليفة الذي يلبسه في المواكب العظيمة بمثابة اللقاف في زماننا، وله ميزة على غيره بلمسه التاج الذي يعلورأس الخليفة، وكان لشده عندهم ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد، يأتي به في هيئة مستطيلة، ويكون شده بمنديل من لون لبس الخليفة، ويعبر عن هذه الشدة بشدة الوقار كما تقدم .

الثانية - وظيفة (صاحب المجلس). وهو الذى يتولى أمر المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوس العام فى المواعيد، ويخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير الملك يعلمهم بذلك، وينعت (بأمين الملك)، وهو بمثابة أمير خازن دار فى زماننا.

الثالثة - وظيفة (صاحب الرسالة). وهو الذى يخرج برسالة الخليفة إلى الوزير وغيره.

الرابعة - وظيفة (زمام القصور). وهو بمثابة زمام الدور فى زماننا.

الخامسة - وظيفة (صاحب بيت المال). وهو بمثابة الخازن دار فى زماننا.

السادسة - وظيفة (صاحب الدفتر) المعروف بدفتر المجلس. وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لأمر الخلافة.

السابعة - وظيفة (حامل الدواة). وهى دواة الخليفة المتقدم ذكرها، وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة المذكورة قدامه على السرج ويسير بها فى المواعيد.

الثامنة - وظيفة (زم الأقارب). وصاحبها يحكم على طائفة الأشراف الذين هم أقارب الخليفة وكلمته نافذة فيهم.

التاسعة - (زم الرجال). وهو الذى يتولى أمر طعام الخليفة كأستادار الصحبة.

الضرب الثانى

(ما يكون من غير المحتكين، ومن مشهوره وظيفتان)

الأولى - نقابة الطالبين. وهى بمثابة نقابة الأشراف الآن، ولا يكون إلا من شيوخ هذه الطائفة وأجلهم قدرًا، وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من

الأدعياء، وإذا أرتاب بأحد أخذه بإثبات نسبه . وعليه أن يعود مرضاهم، ويمشي في جنازهم، ويسعى في حوائجهم، ويأخذ على يد المتعدى منهم، ويمنع من الاعتداء، ولا يقطع أمرا من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك .

الوظيفة الثانية - (زم الرجال) . صاحبها يتحدث على طوائف الرجال والأجناد كرم صبيان الحجر، وزم الطائفة الآمرية والطائفة الحافظية، وزم السودان وغير ذلك، وهو بمثابة مقدم الممالك في زماننا .

الصنف الثاني

(من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أرباب الأقاليم، وهم على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أرباب الوظائف الدينية، والمشهور منهم ستة)

الأول - (قاضى القضاة) . وهو عندهم من أجل أرباب الوظائف وأعلام شأننا وأرفعهم قدرا . قال ابن الطوير : ولا يتقدم عليه أحد أو يحتمى عليه، وله النظر في الأحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها، وربما جمع قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض واحد وكتب له به عهد واحد كما سيأتى في الكلام على الولايات إن شاء الله تعالى .

ثم إن كان الوزير صاحب سيف، كان تقليده من قبله نيابة عنه، وإن لم يكن، كان تقليده من الخليفة،

ويقدم له من إصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائما، وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة، ويخرج له من خزانة السروج مركب ثقيل وسرج برادفتين من الفضة، وفي المواسم الأطواق، وتخلع عليه الخلع المذهبة، وكان من

مصطلحهم أنه لا يعدل شاهدا إلا بأمر الخليفة، ولا يحضر إملاكا ولا جازاة إلا بإذن، وإذا كان ثم وزير لا يخاطب بقاضى القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير؛ ويجلس يوم الاثنين والخميس بالقصر أول النهار للسلام على الخليفة، ويوم السبت والثلاثاء يجلس بزيادة الجامع العتيق بمصر، وله طرحة ومسند للجلوس وكُرسيّ توضع عليه دوائته. وإذا جلس بالمجلس، جلس الشهود حوَالَيْهِ يَمَنَةً وَيَسَرَةً على مراتبهم في تقدّم تعديليهم. قال ابن الطوير: حتى يجلس الشاب المتقدّم التعديل أعلى من الشيخ المتأخر التعديل، وبين يديه أربعة موقعون: آثنان مقابل آثنين، وبياه خمسة حُجَّاب: آثنان بين يديه وآثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم. ولا يقوم لأحد وهو في مجلس الحكم البتة.

الثانى - (داعى الدعاة). وكان عندهم على قاضى القضاة فى الرتبة ويتربّأ بزيه فى اللباس وغيره. وموضوعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم.

الثالث - (المحتسب). وكان عندهم من وجوه العدول وأعيانهم، وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرئ سجّله بمصر والقاهرة على المنبر؛ ويده مُطْلَقَةٌ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة؛ ولا يُحَال بينه وبين مصلحة أرادها؛ ويتقدّم إلى الولاية بالشّد منه، ويقيم الثّواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كتنوّاب الحُكْم؛ ويجلس بجامعى القاهرة ومصر يوما بيوم، وباقى أمره على ما الحال عليه الآن.

قلت: ورأيت فى بعض سجّلاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشرطة بهما أحيانا.

الرابع - (وكالة بيت المال). وكانت هذه الوكالة لا تُسند إلا لذوى الهيبة من شيوخ العدول، ويفوّض إليه عن الخليفة بيع ما يرى بيعه من كل صنف يملك

ويجوز التصرف فيه شرعاً، وعتق الممالك، وتزويج الإماء، وتضمين ما يقتضى الضمان، وأبتياع ما يرى أبتياعه، وإنشاء ما يرى إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك مما يحتاج إليه في التصرف عن الخليفة .

الخامس - (النائب). والمراد نائب صاحب الباب المتقدم ذكره المعبر عنه في زماننا بالمهمندار . قال ابن الطوير : ويعبر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفة . قال : وهى رتبة جليلة ، يتولاها أعيان العدول وأرباب الأقاليم ؛ وصاحبها ينوب عن صاحب الباب فى تلقى الرُّسل الواردين على الخليفة على مسافة وقفه تُواب الباب فى خدمته ، ويُتزل كلاً منهم فى المكان اللائق به ، ويرتّب لهم ما يحتاجون إليه ، ولا يمكن أحداً من الاجتماع بهم ، ويتولى أفتقادهم ، ويُدكّر صاحب الباب بهم ، ويسعى فى نجاز أمرهم ، وهو الذى يسلمّ بهم على الخليفة أو الوزير ويتقدمهم ويستأذن عليهم ، ويدخل الرسول وصاحبُ الباب قابضُ على يده اليمنى ، والنائب قابض على يده اليسرى فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم ، ويحتد فى انفصالهم على أحسن الوجوه ، وإذا غاب أقام عنه نائباً إلى أن يعود . ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمةً ولا طُرفةً إلا بإذن .

قال ابن الطوير : وهو المسمى الآن بالمهمندار ، وسيأتى فى الكلام على ترتيب المملكة المستقر أن المهمندار الآن من أصحاب السيوف ، وكأنّ ذلك لموافقة الدولة فى اللسان والهيئة .

السادس - (القراء) . وكان لهم قراء يقرءون بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه فى المواكب وغير ذلك ، وكان يقال لهم "قراء الحضرة" يزيدون فى العدة على عشرة نفر ، وكانوا يأتون فى قراءتهم فى المجالس ومواكب الركوب بآيات مناسبة للحال بأدنى ملابس ، قد ألفوا ذلك وصار سهل الاستحضار عليهم ، وكان ذلك يقع منهم موقع

الاستحسان عند الخليفة والحاضرين، حتى إنه يحكى أن بعض الخلفاء غَضِبَ على أمير فأمر باعتقاله ، فقرأ قارئ الحضرة : ﴿ حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فاستحسن ذلك وأطلقه إلا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا رُوِيَ قصدهم فيها، أخرجت القراءن عن معناه : كما يحكى أنه لما استُوزِر المستنصر بدر الجمالي قرأ قارئهم : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ولما استُوزِر الحافظ رضوان قرأ قارئهم : ﴿ يَشْرَهُمْ رَبَّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ إلى غير ذلك من الوقائع .

النوع الثاني

(من أرباب الأقاليم أصحاب الوظائف الديوانية ، وهى على ثلاثة أصرب)

الضرب الأول

(الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم)

أعلم أن أكثر وزراءهم فى ابتداء دولتهم إلى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأقاليم : تارة وزارة تامة وتارة وساطة ، وهى رتبة دون الوزارة ، ومن اشتهر من وزراءهم أرباب الأقاليم فيما ذكره ابن الطوير يعقوب بن كلس وزير العزيز ، والحسن بن عبد الله اليازورى وزير المستنصر ، وأبو سعيد التستري ، والجرجاني ، وأبن أبى كدينة ، وأبو الطاهر أحمد بن بابشاذ صاحب المقدمة فى النحو ، ووزير الوزراء على بن فلاح ، والمغربى وزير المستنصر ، وهو آخر من وُزِّرَ لهم من أصحاب الأقاليم ، وعليه قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فوزر للمستنصر على ما تقدم ذكره ، وربما تخلل تلك المدة الأولى فى الوساطة أرباب السيوف ، كبرجوان الخادم ، وقائد القواد الحسين بن جوهر ، وثقة ثقات السيف والقلم على بن صالح

كلهم في أيام الحاكم . وربما وَلَّى الوساطة بعضُ النصارى، كعيسى بن نسطورس في أيام العزيز، ومنصور بن عبَّدون الملقب بالكافي، وزرعة بن نسطورس الملقب بالشافي كلاهما في أيام الحاكم . وربما كان الأمرُ شورى في أهل المروادني^(١)، وكان من زمرِ وزرائهم أصحاب الأفلام أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلقهم كالعدول، وينفردون بلبس الدرايع مشقوقةً من النحر إلى أسفل الصدر بأزرار وعمرى؛ وهذه علامة الوزارة؛ ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك، ومنهم من تكون أزراره من لؤلؤ، وتادته أن تحمل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب، وأمره نافذ في أرباب السيوف من الأجناد، وفي أرباب الأفلام .

الضرب الثاني

(ديوان الإنشاء، وكان يتعلق به عندهم ثلاث وظائف)

الأولى - صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات، وكان لا يتولاه إلا أجلُّ كُتَّاب البلاغة، ويخاطب بالأجل، وكان يقال له عندهم كاتب الدست الشريف، وإليه تسلَّم المكاتبات الواردة مختومةً فيعرضها على الخليفة من يده، وهو الذي يأمر بتزيلها والإجابة عنها، ويستشير الخليفة في أكثر أموره، ولا يُحجب عنه متى قصد المثلّ بين يديه، وربما بات عنده الليالي، ولا سبيل إلى أن يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكاتبه أحدٌ إلا خواص الخليفة . وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالخذّ والمسد، ودواته من أخصّ الدوى وأحسنها إلا أنه ليس لها كرسى توضع عليه كدواة قاضى القضاة، ويجعلها له أستاذ من الأستاذين المختصين بالخليفة إذا أتى إلى حضرته .

(١) كذا في الأصل مضبياً عليه إشارة للتوقف ولعله المروءات .

الثانية - (التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم) وهي رتبة جليلة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات، يكون صاحبها جلسا للخليفة في أكثر أيام الأسبوع في خلوته، إذا كره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين، ويقرأ عليه ملح السَّير، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ويقوى يده في تجويد الخط وغير ذلك. وصحبته للجلوس دواة مُحَلَّة، فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير، وقِرطاس فيه ثلاثة مثاقيل نَدَّ مثَلث خاص ليتبرخ به عند دخوله على الخليفة ثانی دَفْعَة. وإذا جلس الوزير صاحب السيف للمظالم، كان إلى جانبه يوقِّع بما يأمر به في المظالم. وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن، وفراش لتقديم القصص؛ ويرفع إليه هناك قصص المظالم فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال كما يفعل كاتب السر الآن.

الثالثة - (التوقيع بالقلم الجليل). وكان يسمى عندهم الخدمة الصغيرة لجلالته، ولصاحبها الطَّراحة والمسند في مجلسه بغير حاجب. وموضوعها الكتابة بتنفيذ ما يوقِّع به صاحب القلم الدقيق، وبسطه. وصاحب القلم الدقيق في المعنى ككاتب السر أو كاتب الدَّست في زماننا، وصاحب القلم الجليل ككاتب الدَّرَج. فإذا رفعت قِصَص المظالم، حملت إلى صاحب القلم الدقيق فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من نفسه، ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق، ثم تحمل في خريطة إلى الخليفة فيوقِّع عليها، ثم تُخْرَج في خريطة إلى الحاجب فيقف على باب القصر، ويسلم كل توقيع لصاحبه. أمَّا توقيع الخليفة بيده على القِصَص، فإنه إن كان ثمَّ وزيرٌ صاحبُ سيف وقَّع الخليفة على القصة بخطه: "وزيرنا السيد لأجل (ونعته بالمعروف به) أمتنا الله تعالى ببقائه يتقدم بكذا وكذا إن شاء الله تعالى" ويحمل إلى الوزير فإن كان يحسن الكتابة،

كتب تحت خط الخليفة : "أمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه"
 وإن كان لا يحسن الكتابة، كتب أمتثل فقط؛ وإن لم يكن وزيراً صاحب سيف :
 فإن أراد الخليفة نجاز الأمر لوقته، وقَّع في الجانب الأيمن من القصة "يوقع بذلك"
 فتخرج إلى صاحب ديوان المجلس فيوقع عليها بالقلم الجليل ويخلى موضع العلامة،
 ثم تعاد إلى الخليفة فيكتب في موضع العلامة (يُعتمد) وثبت في الدواوين بعد ذلك .
 وإن كان يوقع في مساحة أو تسويغ أو تحجيس، كتب لرافعها بذلك "وقد أمضينا
 ذلك" وإن أراد علم حقيقة القصة، وقَّع على جانب القصة "ليخرج الحال
 في ذلك" وتحمل إلى الكاتب فيكتب الحال وتعاد إلى الخليفة فيفعل فيها ما أراد
 من توقيع ومنع، والله أعلم .

الضرب الثالث

(ديوان الجيش والرواتب، وهو على ثلاثة أقسام)

الاول - (ديوان الجيش) . ولا يكون صاحبه إلا مُسلياً، وله الرتبة الجليلة
 والمكانة الرفيعة؛ وبين يديه حاجبٌ، وإليه عرض الأجناد وخيولهم، وذكر حَلاهم
 وشيآت خيولهم . وكان من شرط هذا الديوان عندهم أن لا يثبت لأحد من الأجناد
 إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وليس له تغيير أحد
 من الأجناد ولا شيء من اقطاعهم إلا بمرسوم . وبين يدي صاحب هذا الديوان
 نُقباء الأمراء، يُعرفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير
 ذلك، على ما الحال عليه الآن . وكان قد فسخ للأجناد في المقايضة بالإقطاعات لما
 لهم في ذلك من المصالح كما هو اليوم، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير
 علامة؛ ولم يكن لأمر من أمراءهم بلد كاملة، وإن علا قدره إلا في النادر . ومن
 هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات، وله خازنان برسم رفع الشواهد .

الثانى - (ديوان الرواتب) . وكان يشتمل على اسم كل مرتزق فى الدولة وجار وجرية ؛ وفيه كاتب أصيل بطراحة ونحو عشرة معينين ، والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمر ومباشرة من استجد وموت من مات ، وفيه عدة عروض يأتي ذكرها فى الكلام على إجراء الأرزاق والعطاء .

الثالث - (ديوان الإقطاع) . وكان مختصا عندهم بما هو مَقْطَع للأجناد ، وليس للباشيرين فيه تنزيل حلية جُنْدِي ولا شية دابته ، وكان يقال لإقطاعات العربان فى أطراف البلاد وغيرها الاعتداد ، وهى دون عبرة الأجناد .

الضرب الرابع (نظر الدواوين)

وصاحب هذه الوظيفة هو رأس الكل ، وله الولاية والعزل ، وإليه عرض الأرزاق فى أوقات معروفة على الخليفة والوزير ، وله الجلوس بالمرتبة والمسند ؛ وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ؛ وتُخرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسى ، وإليه طلب الأموال واستخراجها والمحاسبة عليها ، ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة . قال ابن الطوير : ولم يرفى هذه الوظيفة نصرانى إلا الأحرم .

الثنائية^(١) - ديوان التحقيق . وموضوعه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير ، وله الخلع ومرتبته يجلس عليها وحاجب بين يديه ، ويفتقر إليه فى كثير من الأوقات ، ويُلحق برأس الدواوين المتقدم ذكره .

الثالثة - ديوان المجلس . قال ابن الطوير : وهو أصل الدواوين قديما ، وفيه معالم الدولة بأجمعها ، وفيه عدة كُتاب ، وعنده معين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان

(١) لم يتقدم له تقسيم ولم يذكر أولى لتكون هذه ثانيها والذى يفهم من المقام أنها وظائف وأن وظيفة نظر الدواوين أولى ونظر ديوان التحقيق ثمانية وهكذا تأمل .

هو المتحدث في الإقطاعات، ويُجْلَع عليه وينشأ له سجلٌ بذلك لاحق بديوان النظر، وله دواة تُخْرَج له من خزانة الخليفة وحاجب يقف بين يديه، وكان يتولاه عندهم أحد كُتَّاب الدولة ممن يكون مترشحاً لأن يكون رأس الدواوين، ويسمى أَسْتِيَارُهُ دفتر المجلس، وهو متضمن للعطاء والظاهر من الرسوم التي تقرّر في غُرّة السنة والضحايا، وما ينفق في دار الفِطْرَةِ في عيد الفطر، وفي فتح الخليج والأسمطة المستعملة في رمضان وغيره، وسائر المآكل والمشارب والتشريفات، وما يُطْلَق من الأهراء من الغلّات، وما لأولاد الخليفة وأقاربه وأرباب الرواتب على اختلاف الطبقات من المُرتَّب، وما يَريد من الملوك من الهدايا والتحف، وما يَبْعَثُ به إليهم من الملاطفات، ومقاديرِ صلات الرسل الواردين بالمكاتبات، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من الحريم، وضبط ما يُنفَق في الدولة من المهمّات ليَعْلَمَ ما بين السنة والأخرى من التفاوت وغير ذلك من الأمور المهمة. وهذا الديوان في زماننا قد تفرّق إلى عدّة دواوين كالوزارة ونظر الخصاص والجيش وغيرها.

الرابعة - (ديوان خزائن الكُسوة). وكان لها عندهم رتبة عظيمة في المباشرات، وقد تقدّم ذكر حواصلها في جملة الخزائن فيما سبق.

الخامسة - (الطراز). وكان يتولاه الأعيان من المستخدمين من أرباب الأقلام، وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين، ومُقامه بِدَمِيَّاطٍ وَتَيْسٍ وغيرهما من مواضع الاستعالات، ومن عنده تحمل المستعمالات إلى خزانة الكسوة المقدّمة الذكر.

السادسة - (الخدمة في ديوان الأحباس). قال ابن الطوير: وهي أوكد الدواوين مباشرة ولا ينجّدم فيها إلا أعيان كُتَّاب المسلمين من الشهود المعدّلين، وفيها عدّة مدراء (١)

(١) تقدّم له مثل هذا الجمع في الجزء الأول ونهنا عليه.

بسبب أرباب الرواتب ، وكان فيه كاتبان ومُعِينان لنظم الاستياريات ، ويُورِد في استياريه كل ما في الرقاع والرواتب ، وما يُحِبُّ له من جهات كل من الوجهين القبلي والبحري .

السابعة - (الخدمة بديوان الرواتب) . وفيه مرتبات الوزير فمن دُونَه إلى الضوَّى . قال ابن الطوير : بلغ في بعض السنين ما يزيد على مائة ألف دينار ونحوها من مائتي ألف ، ومن القمح والشعير عشرة آلاف إردب ، وكان استياري الرواتب يعرض في كل سنة على الخليفة فيزيد من يزيد ، وينقص من ينقص ، وإنه عُرِضَ سنة على المستنصر بالله فلم يعترض أحدا من المرتبين بنقص ، ووقع على ظاهر الاستياري بخطه ” الفقر مرُّ المذاق ، والحاجة تذلُّ الأعناق ، وحراسة النعم بإدراار الأرزاق ، فليَجْرُوا على رسومهم في الإطلاق ، ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ” وأمر ولي الدولة ابن خيران كاتب الإنشاء بإمضاء ذلك .

الثامنة - (الخدمة في ديوان الصعيد) من الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى . وكان فيه عدة كُتَّاب فروع ، والاستيفاء مقسوم بينهم ، ويليهم عمل التذاكر بطلب ما تأخر من الحساب . وصاحب هذا الديوان يترجمها بخطه ، ويحملها إلى صاحب الديوان الكبير فيوقع عليها بالاسترفاع ، ويندب لها من الحجاب أو غيرهم من يراه ، وله مياومة يأخذها من المستخدمين مدة بقاءه عندهم ويحضرها نسخاً للتواوين الأصول .

التاسعة - (الخدمة في ديوان أسفل الأرض) . وهو الوجه البحري خلا الثغور ، وحكمه فيما تقدم من الكُتَّاب وما يلزم كلا منهم حكم ديوان الصعيد المتقدم الذكر من غير فرق .

العاشرة - (الخدمة في ديوان الثغور) . وهي الإسكندرية ودمياط وسائر و البرلس والفرما ، وحكمه حكم ما تقدم من ديوان الصعيد وأسفل الأرض .

الحادية عشرة - (الخدمة في الجوالى والمواريث الحشرية). قال ابن الطوير: كان لا يتولاه إلا عدل، وفيه جماعة من الكُتّاب على ما تقدّم في غيره من الدواوين أيضا .
الثانية عشرة - (الخدمة في ديوانى الخراجى والهلاليّ) وتجرى فيه الرباع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتزقين .

الثالثة عشرة - (الخدمة في ديوان الكُراع). وفيه معاملة الإصطبلات، وما فيها من الدواب الخاص وغيرها والبغال والجمال ودواب المَرَمّة المُرصدة للعمائر ورباع الديوان، وعُدّد ذلك وآلاته، وعلوفات ذلك مع ما ينضم إليه من علوفة الفيلة والزراف^(١) والوحوش وراتب مَنْ يخدمها. وكان في هذا الديوان كاتباً أصل ومستوفى ومُعِينان .
الرابعة عشرة - (الخدمة في ديوان الجهاد). ويقال له ديوان العمائر، وكان محله بالصّناعة بمصر، وفيه إنشاء المراكب للأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، ومنه يُنفق على رؤساء المراكب ورجالها، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استُدعى له من بيت المال بما يكفيه .

الصنف الثالث من أرباب الوظائف

(أصحاب الوظائف الصناعية)

وأعظمها وظائف الأطباء، وكان للخليفة طبيب يُعرف بطبيب الخاص يجلس على باب دار الخليفة كلّ يوم، ويجلس على الدكّ التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون منهم من يجذونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتب لهم رقاعاً على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها، وتبقى الرقاع عند مباشرها شاهدا لهم . ولكل منهم الجارى والراتب على قدره .

(١) لم نعر على هذا الجمع في كتب اللغة ولعله جارى العامة في تعبيراتهم .

الصنف الرابع

(الشعراء)

وكانوا جماعة كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره، وكان منهم أهل سُنَّة لا يَغْلُون
في المديح، وشيعة يَغْلُون فيه. فَمِنْ أَحْسَنِ مَدِجٍ فِيهِمْ لِسْنِيَّ قول عمارة التيمي رحمه الله:
أَفَاعِيلُهُمْ فِي الْجُودِ أَفْعَالُ سُنَّةٍ * وَإِنْ خَالَفُونِي فِي أَعْتِقَادِ التَّشْيِيعِ

ومن الذي وقعت فيه المغالاة قول بعضهم :

هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَجْلِسُ * أَبْصَرْتُ فِيهِ الْوَحْيَ وَالْتَّزِيلَا

وَإِذَا تَمَثَّلَ رَأْسُ بَاقِي مَوَكِبٍ، * عَايَنْتُ تَحْتَ رِكَابِهِ جَبْرِيلَا

قلت : وهذه المغالاة من المغالاة الفاحشة التي لا يجوز الإقدام عليها لسنيّ
ولا متشيّع، وإنما هي من اقتحام الشعراء البوائق .

القسم الثاني

(من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج

عن حضرة الخلافة، وهو صنفان)

الصنف الأول

(النُّوَاب والوُلاة)

وأعلم أن مملكتهم كانت قد (١) في ثلاث ممالك فيها توابعهم ووَلَاتِهِمْ .
المملكة الأولى الديار المصرية، وهي التي كانت قد آسَتْقَرَّتْ قَاعِدَةً مَلِكُهُمْ، ومَحْطٌّ
رحلهم، وكان بها أربع ولايات .

الأولى - ولاية قُوصَ . وكانت هي أعظم ولايات الديار المصرية، وواليها
يحكم على جميع بلاد الصعيد، وربما وُلِّيَ بِالْأَشْمُونِينَ ونحوها من يكون دونه .

(١) بياض بالأصل ولعله "أنحصرت" كما يفهم من سياق كلامه .

الثانية - ولاية الشَّرْقِيَّة . وكانت دون ولاية قُوصَ في الرتبة، وكان متوليها يحكم على عمل بُلْبَيْسَ وعمل قَلْيُوبَ وعمل أَشْمُومَ .

الثالثة - ولاية الغَرْبِيَّة . وكانت دون ولاية الشرقية في المرتبة ، وكان متوليها يحكم على عمل المَحَلَّة ، وعمل مَنُوفَ ، وعمل أبيار .

الرابعة - ولاية الإسْكَندَرِيَّة . وهى دون الغربية في الرتبة، وكان متوليها يحكم على أعمال البحيرة بأجمعها .

قال ابن الطوير : وهؤلاء الأربعة كان يُخْلَعُ عليهم من خزانة الكُسُوة بالبدنة، وهو النوع الذى يلبسه الخليفة في يوم فتح الخليج .

قلت : لعل هذه الولايات الأربع ولايات الولاية التى تدخل تحت حكمها الولايات الصَّغار، أو تكون هى التى أَسْتَقَرَّ عليه الحال في آخر دولتهم ، وإلا فقد رأيت في تذكرة أبي الفضل الصورى : أحد كُتَّاب الإنشاء في أيام القاضى الفاضل ^(١) سجلات كثيرة لولاية الوجهين القبلى والبحرى .

الجملة الخامسة

(من ترتيب مملكتهم، في هيئة الخليفة في مواكبه وقصوره، وهى على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(جلوسه في المواكب ، وله ثلاثة جلوسات)

الجلوس الأول

(جلوسه في المجلس العام أيام المواكب)

وأعلم أن جلوس الخليفة أولاً كان بالإيوان الكبير الذى كان بالقصر على سرير المُلْك الذى كان بصدرة إلى آخر أيام المستعلى . فلما ولى أبنه الأمر الخلافة بعده ،

(١) لم يذكر بقية الممالك الثلاث أقتصاراً على المقصود وسيأتى ذكر البقية في الجزء الرابع .

نقل الجلوس من الإيوان الكبير إلى القاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر أيضا ، وصار يجلس من مجالسها على سرير الملك به ، وجعل الإيوان الكبير خزانةً للسلاح ، ولم يتعرض لإزالة سرير الملك منه حتى جاءت الدولة الأيوبية ، وهو باق ، وكان جلوس الخليفة في هذه الحالة لا يتعدى يومى الاثنين والخميس ، وليس ذلك على الدوام بل على التقرير بحسب ما تقتضيه الحال . فإذا أراد الجلوس فإن كان في الشتاء علق المجلس الذى يجلس فيه بستور الديباج ، وفرش بالبسط الحرير ، وإن كان في الصيف ، علق بالبستور الديبكية وفرش بطبرى طبرستان المذهب الفائق ، وهيئت المرتبة المعدة لجلوسه على سرير الملك بصدر المجلس ، وغشى السرير بالقرقوشى ، ثم يستدعى الوزير من داره بصاحب الرسالة على حصان رهوان فى أسرع حركة على خلاف الحركة المعتادة ، فيركب الوزير فى هيئته وجماعته وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء ، وهو راكب إلى أول باب من الدهاليز الطوال عند دهليز يعرف بدھليز العمود ، ويمشى وبين يديه أكابر الأمراء إلى مقطع الوزارة بقاعة الذهب ، فإذا تمأجل جلوس الخليفة ، استدعى الوزير من مقطع الوزارة إلى باب المجلس الذى فيه الخليفة وهو مغلق ، وعلى بابه ستر معلق ، فيقف زمام القصر عن يمين باب المجلس وزمام بيت المال عن يساره ، والوزير واقف أمام باب المجلس وحواله الأمراء المطوقون وأرباب الحدم الجليلة ، وفى خلال القوم قراء الحضرة ، ويضع صاحب المجلس الدواة مكانها من المرتبة أمام الخليفة ، ثم يخرج كم من أكمامه يعرف بفرد الكم ويشير إلى زمام القصر وزمام بيت المال الواقفين بباب المجلس ، فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا على سرير الملك مستقبلا القوم بوجهه ، ويستفتح القراء بالقرآن ، ويدخل الوزير المجلس ويسلم بعد دخوله ، ثم يقبل يدي الخليفة ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية ،

ثم تُخْرَج له مَحْدَة عن الجانب الأيمن من الخليفة ويؤمر بالجلوس إليها ، ويقف
 الأمراء في أماكنهم المقررة لهم فصاحب الباب وأسفهلار من جانبي الباب
 يمينا ويسارا ، ويليه من خارجه ملاصقا للعتبة زمام الأمرية والحافظية وباقي الأمراء
 على مراتبهم إلى آخر الرواق ، وهو إفريز عالٍ عن أرض القاعة ، ثم أرباب القصب
 والعماريات يميناً ويسرة كذلك ، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة ،
 ويقف مستندا بالقدر الذي يقابل باب المجلس نواب الباب والحجاب ، فإذا انتظم
 الأمر على ذلك ، فأقول مائل للخدمة بالسلم قاضي القضاة والشهود المعروفون
 بالاستخدام فيجيز صاحب الباب القاضي دون من معه فيسلم على الخليفة بأدب
 الخلافة ، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ، ويقول بصوت مسموع : ” السلام
 على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ” يتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل
 السلام ، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمائمهم ، وبالأشراف الطالبين نقيهم ، فتمضي
 عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث ، ثم يسلم عليه من حُلِعَ عليه بقوص أو الشرقية
 أو الغربية أو الإسكندرية ، ويشرفون بتقبيل العتبة ، وإذا دعت حاجة الوزير
 إلى مخاطبة الخليفة في أمر ، قام من مكانه وقرب منه مُنَحْنِيًا على سيفه ، ويخاطبه
 مرة أو مرتين أو ثلاثا ، ثم يؤمر الحاضرون بالانصراف فينصرفون ، ويكون آخرهم
 خروج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله . فإذا خرج إلى الدهليز الذي ترجل فيه ،
 ركب منه إلى داره ، وفي خدمته من حضر في خدمته إلى القصر ، ويدخل الخليفة
 إلى سكّنه مع خواص الأستاذين ، ثم يُغْلَق باب المجلس ويرنخ الستر إلى أن يحتاج
 إلى حضور موكب آخر فيكون الأمر كذلك .

الجلوس الثانى

(جلوسه للقاضى والشهود فى ليلالى الوقود الأربع من كل سنة)

وهى : ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه .

إذا مضى النصف من جمادى الآخرة حمل إلى القاضى من حواصل الخليفة ستون شمعة ، زنة كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى ليركب بها فى أول ليلة من شهر رجب ؛ فإذا كان أول ليلة منه جلس الخليفة فى منظره عالية كانت عند باب الزمرد من أبواب القصر المتقدم ذكره ، وبين يديه شمع يوقد فى العلوقيتين شخصه على ارتفاعه . ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع المحمول إليه من حراثة الخليفة موقودا ، من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبين الصفيين مؤذنون الجوامع ، يعلنون بذكر الله تعالى ، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقرر محفوظ ، ويحجبه ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من حجاب الخليفة ، خارجا عن حجاب الحكم المستقرين وهم خمسة فى زى الأمراء ، وفى ركابه القراء يقرءون القرآن ، والشهود وراءه على ترتيب جلوسهم يجلس الحكم الأقدم فالأقدم ، وحول كل منهم ثلاث شمعات أو شمعتان أو شمعة واحدة إلى بين القصرين فى جمع عظيم حتى يأتى باب الزمرد من أبواب القصر ، فيجلسون فى رجة تحت المنطرة التى فيها الخليفة ، ويحضر بين يديه بسمت ووقار وتشوف لا تنتظار ظهور الخليفة ، فيفتح الخليفة إحدى طاقات المنطرة فيظهر منها رأسه ووجهه ، وعلى رأسه عدة من خواص الأساذين من المحنكين وغيرهم ، فيفتح بعض الأساذين طاقة أخرى فيخرج منها رأسه ويده اليمنى ، ويشير بكمه قائلا : " أمير المؤمنين یردّ علیکم السلام " فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، وبالجماعة الباقية جملة من غير تعيين أحد ؛ ويستفتح قراء الحضرة بالقراءة وهم قیام فى الصدر ، ظهورهم

إلى حائط المنْظَرَةِ ووجوههم للحاضرين . ثم يتقدم خطيب الجامع الأنور (وهو الذى بباب البحر) فيخطب كما يخطب فوق المنبر ، وينبه على فضيلة ذلك الشهر ، وأن ذلك الركوب علامته ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ؛ ثم يتقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ؛ ثم يتقدم خطيب جامع الحاكم فيخطب كذلك ، والقراء فى خلال تلك الخطب يقرءون ، فإذا آتته خطابة الخطباء ، أخرج الأستاذ الأول يده من تلك الطاقة فيرد على الجماعة السلام ؛ ثم تغلق الطاقتان وينفض الناس ، ثم يركب القاضى والشهود إلى دار الوزير فيجلس لهم ليساموا عليه ، ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بأخف من مقام الخليفة ويدعون له ، ثم ينصرفون ويذهب القاضى والشهود صحبته إلى مصر ، وإلى القاهرة فى خدمته ، ويمر بجامع ابن طولون فيصلى فيه ويخرج منه فيجد وإلى مصر فى تلقئه فيمضى فى خدمته ، ويمر على المشاهد فيتبرك بها ، ويمضى إلى الجامع العتيق ويدخل من باب الزيادة التى يحكم فيها فيصلى فى الجامع ركعتين ، ويؤقده التنور الفضة الذى بالجامع ، وهو تنور عظيم حسن التكوين فيه نحو ألف وخمسمائة براق ، وبسفله نحو مائة قنديل ؛ ثم يخرج من الجامع فإن كان ساكنا بمصر استقر بها ، وإن كان ساكنا بالقاهرة آتتظره وإلى القاهرة فى مكانه حتى يعود من مصر فيذهب فى خدمته إلى داره .

وكذلك يركب فى ليلة الخامس عشر من رجب إلا أنه بعد صلاته فى جامع مصر يتوجه إلى القرافة فيصلى فى جامعها ؛ ثم يركب فى أول شعبان كذلك ؛ ثم فى نصفه كذلك .

الجلوس الثالث

(جلوسه فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول)
وكان عادتهم فيه أن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطارا من السكر الفائق حلوى من طرائف الأصناف ، وتُعطى فى ثلاثمائة صينية نحاس . فإذا كان ليلة ذلك المولد ،

تفرّق في أرباب الرسوم : كقاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، وقراء الحضرة ، والخطباء ، والمتصدّرين بالجوامع بالقاهرة ومصر ، وقومة المشاهد وغيرهم ممن له اسم ثابت بالديوان ، ويجلس الخليفة في منظره قريبة من الأرض مقابل الدار القُطَيْبِيَّة المتقدمة الذكر (وهى البيمارستان المنصوريّ الآن) ثم يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ومعهم أرباب تفرقة الصوانى المتقدمة الذكر ، فيجلسون في الجامع مقدار قراءة الختمة الكريمة ، وتُسَد الطريق تحت القصر من جهة السيوفين وسُوَيْقَة أمير الجيوش ، ويكنس ما بين ذلك ويرش بالماء رشاً ، ويرش تحت المنظره بالرمال الأصفر ، ويقف صاحب الباب ووالى القاهرة على رأس الطُّرُق لمنع المارة ، ثم يستدعى القاضى ومن معه فيحضرون ويتجلّون على القرب من المنظره ويجمعون تحتها وهم متشفون لانتظار ظهور الخليفة ، فيفتح إحدى طاقات المنظره فيظهر منها وجهه ، ثم يُخْرِجُ إحدى الأستاذين المحنكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يردّ عليكم السلام ، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء كما تقدّم في ليلى الوقود فإذا آتته خُطابة الخطباء ، أخرج الأستاذ يده مشيراً برّد السلام كما تقدّم ، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس إلى بيوتهم ، وكذلك شأنهم في مولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه الخاص في أوقات معلومة عندهم من السنة .

الضرب الثانى

(ركوبه فى المواكب ، وهو على نوعين)

النوع الأوّل

(ركوبه فى المواكب العظام ، وهى ستة مواكب)

الموكب الأوّل

(ركوب أوّل العام)

وكان من شأنهم فيه أنه إذا كان العشر الآخر من ذى الحجة من السنة ، وقع

الاهتمام بانخراج ما يحتاج إليه في المواكب من حواصل الخليفة : فيُخرج من خزان السلاح ما يحمله الركابية وغيرهم حول الخليفة كالصمّاصم ، والدبّابيس ، والثُّنُوت ، وعمد الحديد ، والسيوف ، والدِّرق ، والرماح ، والألوية ، والأعلام . ومن خزانة التّجمل برسم الوزير والأمراء وأرباب الحِدم الألوِيَّة والقُضْب ، والعماريات ، وغير ذلك مما تقدّم ذكره . ومن الإصطبلات مائةُ فرس مسومة برسم ركوب الخليفة وما يجنبه . ويُخرج من خزانة السروج مائةُ سرج بالذهب والفضة مرصّع بعضها بالجواهر بمراكب من ذهب ، وفي أعناق الخيل أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وفي أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة مسطحة ، قيمة كل فرس وما عليها من العدة ألف دينار ، يُدفع للوزير منها عشرة بعثتها برسم ركوبه وركوب أخصائه ، وتسلم إلى المناخات أغشية العماريات لتحمل على الجمال ، إلى غير ذلك من الآلات المستعملة في المواكب مما تقدّم ذكره في الكلام على الخزائن ، ويُبعث إلى أرباب الحِدم من الإصطبلات بخيول عادية ليركبوها في الموكب . فإذا كان يوم التاسع والعشرين من ذى الحجة ، آستدعى الخليفة الوزير من داره على الرسم المعتاد في الإسراع ، فإذا عاد صاحب الرسالة من آستدعاء الوزير ، خرج الخليفة من مكانه راكبا في القصر ، فينزل في السِدِّي ، بدهليز باب الملك الذي فيه الشباك ، وعليه ستر من ظاهره ، فيقف من جانبه الأيمن زمامُ القصر ، ومن جانبه الأيسر صاحب بيت المال ، ويركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترَجَّل الأمراء وهو راكب ، ويدخل من باب العيد ، ولا يزال راكبا إلى أول باب من الدهاليز الطّوال ، فينزل ويمشي فيها وحواليه حاشيته ومن يُراه من أولاده وأقاربه . فإذا وصل إلى الشُّباك ، وجد تحته كرسيّا كبيرا من حديد فيجلس عليه ورجلاه تطلّ الأرض ، فإذا جلس ، رفع كلّ من زمام القصر وصاحب بيت المال

الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسا على مرتبة عظيمة ، فيقف ويسلم ويخدم بيده في الأرض ثلاث مرّات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسية فيجلس . ويستفتح القراء بقراءة آيات لا ثقة بذلك المكان مقدار نصف ساعة ؛ ثم يسلم الأمراء ، ويُشرع في عرض خيول الخاص المقدم ذكرها واحدة واحدة إلى آخرها . فإذا تكمل عرضها ، قرأ القراء ما يناسب ختم ذلك المجلس . فإذا فرغوا أُرْجى السترو قام الوزير فدخل عليه فقبل يديه ورجليه ، ثم ينصرف عنه فيركب من مكان نزوله ويخرج الأمراء معه إلى خارج فيمضون معه إلى داره رُكباناً ومشاة على حسب مراتبهم . فإذا صلى الخليفة الظهر ، جلس لعرض خزانة الكسوة الخاص وتعيين ما يلبس في ذلك الموكب ولباسه فيه ، فيعين منديلاً لشدة التاج ، وبدلةً من هذا النوع ، والجوهرية الثمينة وما معها من الجواهر المتقدمة الذكر لشدة التاج وتشدّ مظلة تشبه تلك البدلة ، وتلف في منديل دسّيقٍ فلا يكشفها إلا حاملها عند ركوب الخليفة ، ثم يشدّ لواءى الحمد المتقدمى الذكر . فإذا كان أول يوم من العام ، بكرّ أرباب الرتب من ذوى السيوف والأقلام فلا يُصبح الصبح إلا وهم بين القصرين مستظرين ركوب الخليفة (وهو يومئذ فضاء واسع خال من البناء) ويبكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه ، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير استدعاء وأمامه ماشرفه به الخليفة من الألوية والأعلام ، والأمراء بين يديه رُكباناً ومشاة ، وأولاده وإخوته قدامه ، وكل منهم مرئى الذؤابة بلا حنك ، وهو في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل والحنك متقلدا بالسيف الذهب . فإذا وصل إلى باب القصر ، ترجّل الأمراء ودخل هورا بجا إلى محل نزوله بدهايز القصر المعروف بدهليز العمود فيترجّل هناك ويمشى في بقية الدهاليز حتى يصل إلى مقطع الوزارة بقاعة الذهب هو وأولاده وإخوته وخواص حاشيته ، ويجلس الأمراء بالقاعة على دكك معدة لهم ،

وَيَدْخُلُ فَرَسُ الْخَلِيفَةِ إِلَى بَابِ الْمَجْلِسِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَعَلَى بَابِ الْمَجْلِسِ كُرْسِيٌّ يَرْكَبُ مِنْ عَلَيْهِ . فَإِذَا اسْتَوَتْ الدَّابَّةُ إِلَى ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ ، أُخْرِجَتِ الْمِظْلَةُ إِلَى حَامِلِهَا فَيَكْشِفُهَا بِمَا هِيَ مَلْفُوفَةٌ فِيهِ وَيَتَسَلَّمُهَا بِإِعَانَةِ أَرْبَعَةِ مَعْدِينَ لَخْدَمَتِهَا فَيَرْكُضُهَا فِي آلَةٍ مِنْ حَدِيدٍ تُشَبِّهُ الْقُرْنَ الْمَصْطَحِبَ مَشْدُودَةً فِي رِكَابِ حَامِلِهَا الْإِيْمَنَ بِقُوَّةٍ ، وَيُمْسِكُ الْعُمُودَ بِحَاجِزٍ فَوْقَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ السِّيفَ فَيَتَسَلَّمُ حَامِلَهُ . فَإِذَا تَسَلَّمَهُ أَرْخَى ذُوَابَتَهُ فَلَا تَزَالُ مَرْخَاةً مَا دَامَ حَامِلًا لَهُ ، ثُمَّ تُخْرَجُ الدَّوَاةُ فَيَتَسَلَّمُهَا حَامِلُهَا وَيَجْعَلُهَا قَدَامَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّرَجِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ الْوَزِيرَ عَنِ الْمَقْطَعِ وَيَنْضِمُ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءَ وَيَقْفُونَ إِلَى جَانِبِ فَرَسِ الْخَلِيفَةِ ، وَيَرْفَعُ صَاحِبُ الْمَجْلِسِ السِّتْرَ فَيُخْرِجُ مَنْ كَانَ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ لِلْخِدْمَةِ مِنَ الْأَسْتَازِينَ ، وَيُخْرِجُ الْخَلِيفَةَ فِي أَثَرِهِمْ فِي ثِيَابِهِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَعَلَى رَأْسِهِ التَّاجَ الشَّرِيفَ وَالْذَّرَّةَ الْيَتِيْمَةَ عَلَى جَبْهَتِهِ ، وَهُوَ مُحَنَّكَ مَرْنَحَى الذُّوَابَةِ مِمَّا يَلِي جَانِبَهُ الْأَيْسَرَ مُتَقَلِّدٌ بِالسِّيفِ الْعَرَبِيِّ وَقَضِيبُ الْمُلْكِ بِيَدِهِ ، وَيَسْلُمُ عَلَى الْوَزِيرِ قَوْمَ مَرْتَبَتِهِ لَذَلِكَ ، ثُمَّ عَلَى الْقَاضِي وَعَلَى الْأَمْرَاءِ بَعْدَهُمَا ، ثُمَّ يُخْرِجُ الْأَمْرَاءَ وَبَعْدَهُمُ الْوَزِيرَ فَيَرْكَبُ وَيَقِفُ قُبَالَةَ بَابِ الْقَصْرِ ، وَيُخْرِجُ الْخَلِيفَةَ رَاكِبًا وَفَرَسَهُ مَاشِيَةً عَلَى بُسْطِ خَشْيَةٍ أَنْ تَرْتَلِقَ عَلَى الرَّخَامِ وَالْأَسْتَازُونَ حَوْلَهُ . فَإِذَا قَارَبَ الْبَابَ وَظَهَرَ وَجْهَهُ ، ضَرَبَ رَجُلٌ بَبُوقٍ لَطِيفٍ مُعَوَّجٍ الرَّأْسَ مَتَّخِذٍ مِنَ الذَّهَبِ يَقَالُ لَهُ الْغَرِيبَةُ مُخَالَفٌ لَصَوْتِ الْأَبْوَاقِ ، فَتَضْرِبُ الْبُوقَاتُ فِي الْمَوَكِبِ ، وَتُنَشَّرُ الْمِظْلَةُ ، وَيُخْرِجُ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَابِ الْقَصْرِ فَيَقِفُ وَقْفَةً يَسِيرَةً بِمَقْدَارِ رُكُوبِ الْأَسْتَازِينَ الْمُحَنِّكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَرْبَابِ الرُّتَبِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْخِدْمَةِ بِالْقَاعَةِ ، ثُمَّ يَسِيرُ الْخَلِيفَةُ فِي الْمَوَكِبِ وَصَاحِبُ الْمِظْلَةِ عَلَى يَسَارِهِ ، وَهُوَ يَحْرِصُ أَنْ لَا يَزُولَ ظِلُّهَا عَنْ الْخَلِيفَةِ ، ثُمَّ يَكْتَتِفُ الْخَلِيفَةَ مُقَدِّمًا صَيَّانَ الرِّكَابِ ، اثْنَانِ مِنْهُمْ فِي شَكِيمَتِي الْجَامِ فَرَسَهُ ، وَاثْنَانِ فِي عُنُقِ الْفَرَسِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، وَاثْنَانِ فِي رِكَابِهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ أَيْضًا ، وَالْإِيْمَنُ مِنْهُمَا هُوَ صَاحِبُ الْمِقْرَعَةِ

الذى يناولها الخليفة ويتناولها منه ، وهو الذى يؤدى عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامر والنواهي ، واللواء المعروفان بلواء الحمد عن جانبيه ، والمَدَبَتَانِ عند رأس فرس الخليفة ، والركابية يمينه وشماله نحو ألف رجل مقلدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناذيل والسلاح ، وهم من جانبي الخليفة كالجنّاحين المادّين ، بينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد ، وبالقرب من رأسها الصقليان الحاملان للمدبتين ، وهما مرفوعتان كالنخلتين . (ويترتب الموكب) : أجناد الأُمراء وأولادهم وأخلاق العسكر أمام الموكب وأدوان الأُمراء يلونهم ، وبعدهم أرباب القُضْبِ الفضة من الأُمراء ، ثم أرباب الأطواق منهم ، ثم الأستاذون المحنكون ، ثم أهل الوزير المتقدم ذكرهم ، ثم الحاملان للواء الحمد من الجانبين ، ثم حامل الدواة وحامل السيف بعده ، وهما من الجانب الأيسر ، وكل واحد من تقدم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه ، ثم الخليفة بين الركابية ، وهو سائر على تُوْدَةٍ ورفقٍ ، وفي أوائل العسكر ومتقدميه وإلى القاهرة ذاهبا وعائدا لفسح الطرقات وتسيير من يقف ، وفي وسط العسكر أسفهلار يُمَحُّ الأجناد على الحركة ويزجر المتراحمين والمعترضين في العسكر ذاهبا وعائدا ، وفي زمرة الخليفة صاحب الباب لترتيب العسكر وحراسة طرقات الخليفة ذاهبا وعائدا ، يليق صاحبُ الباب أسفهلار ، وأسفهلار يُلِقُّ وإلى القاهرة ، وفي يد كل منهم دبّوس ، وخلف الخليفة جماعة من الركابية لحفظ أعقابه ، ثم عشرة يحملون عشرة سيوف في خرائط ديباج أحمر وأصفر يقال لها سيوف الدم يرسم ضرب الأعناق ، وبعدهم الحاملون للسلاح الصغير المتقدم الذكر ، ووراء الوزير في هيئة عظيمة ، وفي ركابه نحو خمسمائة رجل ممن يختاره لنفسه من أصحابه ، وقوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الأجناد من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة مجتهدا أن لا يغيب الخليفة عن نظره ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير في عدّة

كثيرة تدوى من أصواتها الدنيا، ووراء ذلك حاملُ الرمح المقدم ذكره والدرقة المنسوبة إلى حمزة، ثم رجال الأساطيل مشاةً ومعهم القسيّ العربية، وتسمى قسيّ الرّجل والركاب، ما يزيد على خمسمائة رجل؛ ثم طوائف الرجال من المصامدة، ثم الرّيحانية والجوشية، ثم الفرنجية، ثم الوزيرية: زمرةٌ بعد زمرةٍ في عدّة وافرة تزيد على أربعة آلاف؛ ثم أصحاب الرايات والسبعين، ثم طوائف العساكر: من الأمرية والحفاظية والحجرية الكبار والحجرية الصغار والأفضلية والجوشية، ثم الأتراك المصطعون، ثم الديلم، ثم الأكراد، ثم الغز المصطعة وغيرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس .

قال ابن الطوير: وهذا كله بعضٌ من كلّ . وإذا ترتب الموكب على ذلك، سار من باب القصر الذي خرج منه بين القصرين، يسير بموكبه حتى يخرج من باب النصر ويصل إلى حوض كان هناك يعرف بعز الملك على القرب من باب النصر، ثم ينعطف على يساره طالبا باب الفتوح، وربما عطف عند خروجه من باب النصر على يساره، وسار بجانب السور حتى يأتي باب الفتوح فيدخل منه . وكيف كان فإنه يدخل منه، ويسير الموكب حتى ينتهي بين القصرين فيقف العسكر هناك على ما كان عليه عند الركوب ويترجل الأمراء . فإذا آتته الخليفة إلى الجامع الأقمر، وقف هناك في جماعته وينفرج الموكب للوزير فيتحرك مسرعا ليصير أمام الخليفة .

فإذا مرّ بالخليفة، سَكَعَ له سَكْعَةٌ ظاهرة، فيشير الخليفة بالسلام عليه إشارة خفيفة، وهذه أعظم كرامة تصدر من الخليفة، ولا تكون إلا للوزير صاحب السيف .

فإذا جاوز الوزير الخليفة، سبقه إلى باب القصر ودخل راكبا على عادته والأمراء أمامه مشاةً إلى الموضع الذي ركب منه بدلهيز العمود المقدم ذكره، فيترجل هناك ويقف هو والأمراء لانتظار الخليفة . فإذا آتته الخليفة إلى باب القصر، ترجل الأستاذون المجنّون ودخل الخليفة القصر وهو راكب والأستاذون مُحَدِّقون به .

فإذا انتهى إلى الوزير، مشى الوزير أمام وجه فرسه إلى الكرسي الذي ركب من عليه فيخدمه الوزير والأمرء، وينصرفون ويدخل الخليفة إلى دُوره . فإذا خرج الوزير إلى مكان ترجله ركب، والأمرء بين يديه، وأقاربُه حواليه إلى خارج باب القصر، فيركب منهم مَنْ يستحق الركوب، ويمشي من يستحق المشي، ويسيرون في خدمته إلى داره، فيدخل راكبا وينزل على كرسي فيخدمه الجماعة وينصرفون، وقد رأى الناس من حسن الموكب ما أبهجهم وراق خواطِرهم، ويتفرق الناس إلى أماكنهم فيجدون الخليفة قد أرسل إليهم الغزاة : وهي دنانير رباعية ودرهم خفاف مدقورة، ويكون الخليفة قد أمر بضرها في العشر الأخير من ذي الحجة برسم التفرقة في هذا اليوم، لكل واحد من الوزير والأمرء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام قدر مخصوص من ذلك، فيقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة، ويكتب إلى البلاد والأعمال مَخَلَّقات بالبشائر بركوب أول العام كما يكتب بوفاء النيل وركوب الميدان الآن.

الموكب الثاني

(ركوب أول شهر رمضان)

وهو قائم عند الشيعة مقام رؤية الهلال، والأمر في العرض واللباس والآلات والركوب والموكب وترتيبه والطرق المسلوكة على ما تقدم في أول العام من غير فرق، ويكتب فيه المَخَلَّقات بالبشائر كما يكتب في أول العام .

الموكب الثالث

(ركوبه في أيام الجمع الثالث من شهر رمضان)

وهي الجمعة الثانية [والثالثة ^(١) والرابعة] ، وذلك أنه إذا ركب إلى الجامع الأنور بباب البحر، بكر صاحب بيت المال إلى الجامع بالقرش المختص بالخليفة محمولا

(١) الزيادة ليست بالأصل ، ولكن سياق كلامه يدل عليها .

على أيدي أكابر الفَرَّاشين ملفوفاً في العَرَّاضى الدبيقية ، فيُفَرَّش في المحراب ثلاث طَرَاحات إنما شاميات ، وإِذَا دَبِقَ أبيض ، منقوشة بالجمرة ، وتُفَرَّش واحدة فوق واحدة ، ويعلّق ستران يَمَنَّةً وَيَسْرَةً ، في السترا الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، وفي الستر الأيسر سورة الفاتحة وسورة المنافقين كتابة واضحة مضبوطة ، ويصعد قاضى القضاة المنبر ، وفي يده مِدْخنة لطيفة خِزْرَان يُحْضَرُهَا إِلَيْهِ صاحبُ بيت المال وفيها نَدٌّ مِثْلُ لا يَشْمُ مثله إلا هنالك ، فيبخر ذُرَّةَ المنبر التى عليها القَنَا كالقبة جلوس الخليفة للخطابة ثلاث دَفَعَات ، ويركب الخليفة فى هيئة ما تقدّم فى أوّل العام وأوّل رمضان : من المِظَلَّة والآلات ، ولباسه فيه الثياب البياض غير المُدْهَبَةِ توقيراً للصلاة ، والمِنْدِيل والطيلسان المقوّر . وحول ركابه خارج الركابية قراء الحضرة من الجانبيين يرفعون أصواتهم بالقراءة نَوْبَةً بعد نَوْبَةٍ من حين ركوبه من القصر إلى حين دخوله قاعة الخطابة ، فيدخل من باب الخطابة فيجلس فيها ، وإن احتاج إلى تجديد وضوء فعل ، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب وأسفهلار وصبيان الخاص ، وغيرهم ممن يجرى مجراهم من أولها إلى آخرها ، وكذلك من داخلها من باب خروجه إلى المنبر . فإذا أذِنَ للجمعة دخل إليه قاضى القضاة ، فقال : "السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله" فيخرج ماشياً وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ، ومن يليهم من الأمراء من صبيان الخاص ، وبأيديهم الأسلحة حتى ينتهى إلى المنبر فيصعد حتى يصل إلى الدَّرْوَةِ تحت القبة المُبَخَّرَةِ ، والوزير على باب المنبر ووجهه إليه . فإذا استوى جالسا أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيقبلُ يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزّر عليه تلك القبة وتصير كالمهودج ، ثم ينزل مستقبلاً للخليفة ويقف ضابطاً للمنبر . فإن لم يكن وزيراً صاحب

سيف ، كان الذى يَزُرُّ عليه قاضى القضاة ، ويقف صاحب الباب ضابطاً للنبر ، فيخطب خطبة قصيرة من سَفَط يأتى إليه من ديوان الإنشاء ، ويقرأ فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلى فيها على أبيه وجده يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويعظ الناس وعظاً بلغا قليل اللفظ ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فيقول : ” اللهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً “ ويتوسل بدعوات نخمة تليق به ، ويدعو للوزير إن كان ثم وزير ولجيش بالنصر والتألف ، وللعساكر بالطّفر ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ، ثم يختم بقوله ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ ﴾ ^(١) فيطلع إليه من زر عليه فيفك ذلك التزوير عنه ، وينزل القهقري ، فيدخل المحراب ويقف على تلك الطراحات إماماً والوزير وقاضى القضاة صفّاً ، ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم لحائط المقصورة ، والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه فيقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب فى الستر الأيمن ، وفى الثانية ما فى الستر الأيسر . فإذا سمع الخليفة ، سمع القاضى المؤذنين ، فيسمع المؤذنون الناس . فإذا فرغ نخرج الناس وركبوا أولاً فأولاً وعاد إلى القصر والوزير وراءه حتى يأتى إلى القصر ، والطبول والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً .

فإذا كانت الجمعة الثالثة من الشهر ، ركب إلى الجامع الأزهر كذلك وفعل كما فعل فى الجمعة الأولى ، لا يختلف فى ذلك غير الجامع .

فإذا كانت الجمعة الرابعة منه ، ركب إلى الجامع العتيق بمصر ويزين له أهل القاهرة من باب القصر إلى الجامع الطولونى ، ويزين له أهل مصر من الجامع الطولونى إلى

(١) لعله فينزل (أى الخليفة) فيدخل الخ . (٢) لعله نخرج ونخرج الناس الخ .

الجامع العتيق ، وقد ندب الواليان بالبلدين من يحفظ الناس والزينة . ويركب من باب القصر ويسير في الشارع الأعظم بمصر ، يمشى في شارع واحد بين العمارة إلى الجامع العتيق بمصر فيفعل كما فعل في الجامعين الأولين من غير مخالفة . فإذا قضى الصلاة ، عاد إلى القاهرة من طريقه تلك إلى أن يصل إلى قصره ، وفي خلال ذلك كله لا يتر بمسجد إلا أعطى أهله دينارا على كثرة المساجد في طريقه .

الموكب الرابع

(ركوبه لصلاة عيدي الفطر والأضحى)

أما عيد الفطر فيقع الأهتمام بركوبه في العشر الأخير من رمضان ، وتعقب أهبة المواكب على ما تقدم في أول العام وغيره ، وكان خارج باب النصر مصلى على ربوة وجميعها مبنى بالحجر ، ولها سور دائري عليها وقلة على بابها ، وفي صدرها قبة كبيرة في صدرها محراب ، والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلى مكشوفاً تحت السماء ، ارتفاعه ثلاثون درجة وعرضه ثلاثة أذرع ، وفي أعلاه مصطبة . فإذا كل رمضان ، وهو عندهم ثلاثون يوماً من غير نقص . فإذا كان اليوم الأول من شوال ، سار صاحب بيت المال إلى المصلى خارج باب النصر ، وفرش الطراحات بمحراب المصلى ، كما تقدم في الجوامع في أيام الجمع ، ويلقى سترين يمنة ويسرة ، في الأيمن الفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الأيسر الفاتحة ، وهل أتاك حديث الغاشية ، ويركز في جانبي المصلى لواءين مشدودين على رحمين ملبسين بأنايب الفضة ، وهما منشوران مرخيان ، ويوضع على ذروة المنبر طراحة من شاميات أو دبيق ، ويفرش بأقيه بستر من بياض ، على مقداره في تقاطيع درجه مضبوطة لا تتغير بالمشي وغيره ، ويجعل في أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يمنة ويسرة ، ثم سار الوزير من داره إلى

قصر الخليفة على عادته المتقدمة الذكر، ويركب الخليفة بهيئة الموابك العظيمة على ما تقدم في أول العام : من المظلة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويكون لباسه في هذا اليوم الثياب البيض الموشحة المجومة ، وهى أجل لباسه ومطلته كذلك ، ويخرج من باب العيد على عادته فى ركوب الموابك إلا أن العساكر فى هذا اليوم من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره، وينتظم القوم له صفين من باب القصر إلى المصلى ، ويركب الخليفة إلى المصلى فيدخل من شرقها إلى مكان يستريح فيه دقيقةً ، ثم يخرج محفوظا بحاشيته كما فى صلاة الجمع المتقدمة الذكر فيصير إلى المحراب ، والوزير والقاضى وراءه كما تقدم ، فيصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، ويقرأ فى الركعة الأولى ما فى الستر الذى على يمينه ، وفى الثانية ما فى الستر الذى على يساره . فإذا فرغ وسلم ، صعد المنبر لخطابة العيد . فإذا انتهى إلى ذروة المنبر ، جلس على تلك الطراحة بحيث يراه الناس ، ويقف أسفل المنبر الوزير ، وقاضى القضاة ، وصاحب الباب وأسفهلار ، وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزمأم القصر ، وصاحب دفتر المجلس ، وصاحب المظلة ، وزمأم الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرح ، ونقيب الأشراف الطالبين .^(١) ووجه الوزير إليه فيقبلهما بحيث يراه الناس ، ثم يقوم فيقف على يمين الخليفة . فإذا وقف أشار إلى قاضى القضاة بالصعود فيصعد إلى سابع درجة ، ثم يتطلع إليه منتظرا ما يقول ، فيشير إليه فيخرج من كفه درجا قد أحضر إليه فى أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونه [ويقول] بعد البسملة : شرف بصعود المنبر الشريف فى يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة

(١) فيه سقط وفى المقرئى بعد هذا [فيشير إليه فيصعد ويقرب وقوفه منه و يكون وجهه موازيا لرجليه فيقبلهما الخ].

كذا من عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجل (يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) ثم ذكر من يُشرفه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير، ثم ذكر القاضي ولكنه يكون هو القارئ للثبّت فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : الملوك فلان بن فلان ونحو ذلك ، ثم الواقفين على باب المنبر من تقدّم ذكره بنعوتهم واحدا واحدا، وكلما ذكر واحدا استدعاه وطلع المنبر، كل منهم يعرف مقامه في المنبر يميناً ويسرة . فإذا لم يبق أحد ممن أُطلع إلى المنبر، أشار الوزير إليهم فأخذ كل من هو في جانب بيده نصيبا من اللواء الذي بجانبه فيستتر الخليفة ويستترون، وينادى في الناس بالإنصات، فيخطب الخليفة خطبة بليغة مناسبة لذلك المقام ، يقرأها من السّفط الذي يُحضر إليه مسطرا من ديوان الإنشاء كما في جُمع رمضان المتقدمة الذكر . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقى كلّ من في يده شيء من اللواء خارج المنبر، فينكشفون ويتزلون القهقريّ أولا بأول الأقرب فالأقرب . فإذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكان الذي خرج منه ، فلبث قليلا ثم يركب في هيئته التي أتى فيها إلى المصلّى ، ويعود في طريقه التي أتى منها . فإذا قرب من القصر، تقدّمه الوزير على العادة، ثم يدخل من باب العيد الذي خرج منه ، فيجلس في الشُّباك الذي في الإيوان الكبير ، وقد مدّ منه إلى فسقية في وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سماء فيهِ من الخشكان والبسندود، وغير ذلك مما يعمل في العيد مثل الجبل الشاهق ، كل قطعة ما بين ربع قطار إلى رطل واحد ، فإكل كل من يأكل وينقل من ينقل لا تجر عليه ولا مانع دونه ، ثم يقوم من الإيوان فيركب إلى قاعة الذهب فيجد سرير الملك قد نُصب ، ووضع له مائدة من فضة ، ومدّ السّماط تحت السرير فيترجل عن السرير، ويجلس على المائدة، ويستدعى الوزير فيجلس معه، ويجلس الأمراء على السّماط ولا يزال كذلك حتى

يستهدم السباط قريب صلاة الظهر؛ ثم يقوم وينصرف الوزير إلى داره والأمراء في خدمته فيمدهم سباطا يأكلون منه وينصرفون .

وأما عيد الأضحى، فإنه إذا دخل ذوالحجة وقع الأهتمام بركوبه . فإذا كان يوم العيد، ركب الخليفة على ما تقدم في عيد الفطر من الزى والترتيب والركوب إلى المصلى، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح، ومطأته كذلك، ويخرج إلى المصلى خارج باب النصر ويخطب، ثم يعود إلى القصر كما في عيد الفطر من غير زيادة ولا نقص؛ ثم بعد دخوله إلى القصر يخرج من باب الفرج، وهو باب القصر الذى كان مسامتا لدار سعيد السعداء التى هى الخاتمة الآن، فيجد الوزير راكبا على الباب المذكور، فيترجل الوزير، ويمشى في خدمته إلى المنحَر، وهو خارج الباب المذكور . وكان إذ ذاك فضاء واسعا لابناء فيه، وهناك مصطبة مفروشة يطأ عليها الخليفة والوزير وقاضى القضاة والأستاذون المحنكون وأكابر الدولة، ويكون قد سبق إلى المنحَر أحد وثلاثون فصيلا وناقة للأضحية، ويده حربة، وقاضى القضاة ممسك بأصل سنانها، وتقدم إليه الأضحية رأسا رأسا فيجعل القاضى السنان في نحر النخيرة ويطعن به الخليفة في كبشها، فتخزين يديه حتى يأتى على الجميع، ثم يسير رسوم الأضحية إلى أرباب الرسوم المقررة، وفي اليوم الثانى يساق إلى المنحَر سبعة وعشرون رأسا، ويركب الخليفة فيفعل بها كذلك، وفي اليوم الثالث يساق إليه ثلاث وعشرون رأسا فيفعل بها كذلك . فإذا آنقضى ذلك فى اليوم الثالث وعاد الخليفة إلى القصر، خلع على الوزير ثيابه الجمر التى كانت عليه يوم العيد، ومنديلا بغير اليتيمة والعقد المنظوم بالجواهر، ويركب الوزير بالخيلة من القصر، ويشق القاهرة بالشارع سالكا إلى الخليج فيسير عليه حتى يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة، وبذلك آنفصال العيد . ثم أول نخيرة تحرر تقدد ويسير إلى داعى اليمن فيفرقها على المعتقدين من وزن نصف درهم

إلى وزن ربع درهم، وبقى ذلك يفرق على أرباب الرسوم في أطباق للبركة، وأكثره يفرقه قاضي القضاة وداعى الدعاة على الطلبة بدار العدل والمتصدّرين بجوامع القاهرة، وفى اليوم الأول يمدّ السباط بقاعة الذهب على ما تقدّم فى عيد الفطر من غير فرق .

الموكب الخامس

(ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل)

قد تقدّم عند ذكر النيل فى الكلام على الديار المصرية آبتداءً زيادة النيل ووفاءه وآتياؤه ، وذكرُ المناداة عليه على ما الأمر مستقرّ عليه . إلا أنه فى زمن هؤلاء الخلفاء لم يكن ينادى عليه قبل الوفاء ، وإنما يؤخذ قاعه وتكتب به رُقعة للخليفة والوزير ، ثم ينزل بديوان الرسائل فى مسير معدّ له فى الديوان ، ويستمرّ الحال على ذلك فى كل يوم ترفع رُقعة إلى ديوان الإنشاء بالزيادة لا يطّلع عليها غير الخليفة والوزير ، وأمره مكتوم إلى أن يبقى من ذراع الوفاء (وهو السادس عشر) أصبح أو أصبعان ، فيؤمر بأن يبيت فى جامع المقياس تلك الليلة قراءُ الحضرة والمتصدّرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم نختم القراء الكريم فى تلك الليلة هناك ، ويمدّ لهم السباط بالأطعمة الفاخرة ، وتوقد عليهم الشموع إلى الصبح . فإذا أصبح الصبح وأذن الله تعالى بوفاء النيل فى تلك الليلة ، طلعت رُقعة ابن أبى الرّداد إلى الخليفة ، فحضر إليه بالقصر ، فيركب الخليفة فى هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والموكب العظيم ، إلا أنه يلبس اتاج الذى فيه اليتيمة ، ولا يُخلّى المظلة على رأسه فى ذلك اليوم ، ويركب الوزير وراءه فى الجمع العظيم على ترتيب الموكب ، ويخرج من القصر شاقا القاهرة إلى باب زويلة فيخرج منه ، ويسلك الشارع إلى أن يجاوز البستان المعروف بعباس عند رأس الصّليبة بالقرب من الخانقاه الشيخونية

الآن، فيعطف سالكا على الجامع الطولوني والجسر الأعظم حتى يأتي مصر، ويدخل من الصناعة - وهي يومئذ في غاية العماره، وبها دهليزٌ ممتد بمصاطب مفروشة بالحصر العبداني مؤزر بها - ويخرج من بابها شاقاً مصر حتى يأتي المنطرة المعروفة برواق الملك على القرب من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجه له والوزير معه ماشياً إلى المكان المعد له، ويكون العشارى الخاص المبرر عنه الآن بالحراقة واقفاً هناك بشاطئ النيل، وقد حمل إليه من القصر بيتٌ مثنى من العاج والآبنوس كل جانب منه ثلاثة أذرع، وطوله قامه رجل تام، فيركب في العشارى المذكور وعليه قبة من خشب محكم الصنعة، وهو وقبته ملبس صفائح الفضة المذهبة، ثم يخرج الخليفة من دار الملك المذكورة ومعه من الأستاذين المحنكون من يختاره من ثلاثة إلى أربعة، ثم يطلع خواص الخليفة إلى العشارى والوزير ومعه من خواصه آثنان أو ثلاثة لا غير، فيجلس الوزير في رواقٍ بظاهر البيت المذكور، بفوانيس من خشب مخروط مدهونة مذهبة، بستور مسدلة عليه، ويسير العشارى من باب المنطرة إلى باب المقياس العالى على الدرج، فيطلع من العشارى، ويدخل إلى الفسقية التى فيها المقياس، والوزير والأستاذون المحنكون بين يديه، فيصلى هو والوزير كل منهما ركعتين بمفرده، ثم يؤتى بالزعفران والمسك فيديفه في إناء بيده بآلة معه، ويتناوله صاحب بيت المال فيناوله لأبن أبى الرداد، فيلقى نفسه في الفسقية بثبابة فيتعلق في العمود برجليه ويده اليسرى ويحلقه بيده اليمنى، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن، ثم يخرج على فوره راكباً في العشارى المذكور، ثم يعود إلى دار الملك، ويركب منها عائداً إلى القاهرة، وتارة ينحدر في العشارى إلى المقس، ويتبعه الموكب فيسير من هناك إلى القاهرة. ويكون في البحر ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس للتفرج وإظهار الفرح. فإذا كان اليوم الثانى من التخليق أتى أبى الرداد

إلى الإيوان الكبير الذى فيه الشباك بالقصر فيجد خلعة مذهبة بطيلسان مقور ،
ويُدفعُ إليه خمسة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم مهياة له ، فيلبس الخلعة ،
ويخرج من باب العيد المتقدم ذكره فى أبواب القصر ، وقد هيئ له خمس بغال على
ظهورها الأحمال المزينة بالخلى ، على ظهر كل منها راكب وبيده أحد الأكياس
الخمسة المتقدمة الذكر ظاهر في يده ، وأقاربه وبنوعمه يحجبونه وأصدقائه حوله ،
وأمامه حلمان من الثقارات السلطانية ، والأبواق تضرب أمامه ، والطبل وراءه مثل
الأمراء ؛ فيشق بين القصرين ، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه
الخليفة أو يخرج ، نزل قبله ، ويخرج من باب زويلة فى الشارع الأعظم حتى يأتى
مصر فيشق وسطها ويمر بالجامع العتيق ، ويحاوره إلى شاطئ النيل فيعدى إلى المقياس
بخلعته ومامعه من الأكياس ، يأخذ من الأكياس قدرا مقتررا له ، ويفرق باقى ذلك
على أرباب الرسوم الجارية من قديم الزمان من بنى عمه وغيرهم .

الموكب السادس

(ركوبه لفتح الخليج)

وهو فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق المتقدم ذكره ، وليس كما فى زماننا
من فتحه فى يوم التخليق ؛ وكان يقع الاهتمام عندهم بركوب هذا اليوم من حين
يأخذ النيل فى الزيادة ، وتعمل فى بيت المال موائد من التماثيل المختلفة : من
الغزلان ، والسباع ، والفيلة ، والزرايرف عدة وافرة ، منها ما هو ملبس بالعنبر ،
وما هو ملبس بالصندل ، مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك يعمل أشكال
الثقاج والأترج وغير ذلك ، وتخرج الخيمة العظيمة المعروفة بالقاتول المتقدمة الذكر
فتنصب للخليفة فى بر الخليج الغربى على حافته عند منظره يقال لها السكرة على

القرب من فم الخليج، ويلف عمود الخيمة بديساج أحمر أو أبيض أو أصفر من أعلاه إلى أسفله، وينصب فيها سرير الملك مستندا إليه ويغشى بقرقوبى، وعرائسه ذهب ظاهرة، ويوضع عليه مرتبة عظيمة من الفرش لل خليفة، ويضرب لأرباب الرتب من الأمراء بحجري هذه الخيمة خيم كثيرة على قدر مراتبهم فى المقدار والقرب من خيمة الخليفة، ثم يركب الخليفة على عادته فى المواكب العظيمة بالمظلة وتوابعها من السيف والرمح والألوية والدواة وسائر الآلات، ويزاد فيه أربعون بوقا: عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة، يكون المنفرون بها ركبانا، والمنفرون بالأبواق الثحاس مشاة، ومن الطبول العظام عشرة طول . فإذا كان يوم الركوب، حضر الوزير من دار الوزارة راكبا فى هيئة عظيمة، ويركب حينئذ إلى باب القصر الذى يخرج منه الخليفة، ويخرج الخليفة من باب القصر راكبا والأستاذون المحنكون مشاة حوله، وعليه ثوب يسمى البدنة حرير مرقوم بذهب، لا يلبسه غير ذلك اليوم، والمظلة بنسبته، فيركب الأستاذون المحنكون ويسير الموكب على الترتيب المتقدم فى ركوب أول العام سائرا فى الطريق التى ذهب فيها للتخليق حتى يأتى الجامع الطولونى، ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسا ببابه من هذه الجهة، فيقف لهم الخليفة وقفة لطيفة، ويسلم على القاضى، فيتقدم القاضى ويقبل رجله التى من جانبه، ويأتى الشهود أمام وجه فرس الخليفة، ويقفون بمقدار أربعة أذرع عن الخليفة فيسلم عليهم، ثم يركبون ويسير الموكب حتى يأتى ساحل الخليج، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة، فيتقدمه الوزير على العادة، فيترجل على باب الخيمة، ويجلس على المرتبة الموضوعة له فوقه^(١)، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم، ويوضع للوزير كرسى الجارى به العادة على ما تقدم فى جلوسه فى القصر، فيجلس

(١) أى فوق السرير المتقدم وصفه قريبا .

ورجله يُحْكَن الأرض ، ويقف أرباب الرتب صفين من سرير الملك إلى باب الخيمة ، وقراء الحضرة يقرءون القرآن ساعة زمانية . فإذا فرغوا من القراءة ، أستاذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤذن لهم فيتقدمون واحدا بعد واحد على مقدار منازلهم المقررة لهم ، ويُنشد كل منهم ما وقع له نظمه مما يناسب الحال . فإذا فرغ أتى غيره وأنشد ما نظمه إلى أن يفرغ إنشادهم ، والحاضرون ينتقدون على كل شاعر ما يقوله ، ويحسون منه ما حسن ويوهون منه ما وهى .

فإذا آنقضى هذا المجلس ، قام الخليفة عن السرير فركب إلى المنطرة المعروفة بالسكرة بقرب الخيمة والوزير بين يديه ، وقد فرشت بالفرش المعدة لها ، فيجلس الخليفة بمكان معد له منها ، ويجلس الوزير بمكان منها بمفرده ، ويجلس القاضى والشهود فى الخيمة البيضاء الدبقية ؛ فيطُل منها أستاذ من الأستاذين المحنكين فيشير بفتح السد فيفتح بالمعاول ، وتضرب الطبول والأبواق من البرين ، وفى أثناء ذلك يصل السباط من القصر صحبة صاحب المائدة القائم مقام أستاذ دار الصحبة الآن ، وعدتها مائة شدة فى الطيافير الواسعة فى القواوير الحرير ، وفوقها الطراحات النفيسة ، وريح المسك والأفاويه تفوح منها ، فتوضع فى خيمة وسيدة معدة لذلك ، ويحمل منها للوزير وأولاده ما جرت به عادتهم ، ثم لقاضى القضاة والشهود ، ثم إلى الأمراء على قدر مراتبهم : على أنواع الموائد من التماثيل المقدمة الذكر خلا القاضى والشهود ، فإنه لا يكون فى موائد تماثيل . فإذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف ووراءها العشاريات الكبار ، وهى سبعة : الذهبى المختص بالخليفة ، وهو الذى يركب فيه يوم التخليق ، والفضى ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والألأزوردى ، والصقلى ، وهو عشارى أنشأه نجار من صقلية على الإنشاء المعتاد فنسب إليه ، وعليها الستور الدبيق الملونة ، وفى أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والحرز

الأزرق، وتسير حتى ترسو على بالمنظرة التي فيها الخليفة . فإذا صلى الخليفة العصر، ركب لا بسا غير الثياب التي كانت عليه في أول النهار، ومِظَلَّتُهُ مناسبة لثيابه التي لبسها، وباقي الموكب على حاله، ويسير في البر الغربي من الخليج شاقاً للبساتين حتى يصل إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه ويسير إلى القصر، والوزير تابعه على الرسم المعتاد، فيدخل الخليفة قصره، ويمر الوزير إلى داره على عادته في مثل ذلك اليوم .

وذكر القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : أنه إذا ركب من المنظرة المعروفة بالسكره، سار في بر الخليج الغربي على ما تقدم ذكره حتى يأتي بستان الدكة، وقد علقت دهاليزه بالزينة فيدخله وحده ويسقى منه فرسه ، ثم يخرج حتى يقف على الرعنة المعروفة بخليج الدار، ويدخل من باب القنطرة ويسير إلى قصره .

النوع الثاني

(من مواكبهم المواكب المختصرة في أثناء السنة)

وهي أربعة أيام أو خمسة فيما بين أول العام ورمضان ولا يتعدى ذلك يومى السبت والثلاثاء . فإذا عزم على الركوب في يوم من هذه الأيام، قدم تفرقة السلاح على الركابية على ما تقدم ذكره في أول العام ، وأكثر ما يكون ركوبه إلى مصر، فيركب والوزير وراءه على أخصر من النظام المتقدم له في المواكب العظام وأقل جمعاً، ولبسه في هذه الأيام الثياب المدهبة من البياض والملون ومنديل من نسبة ذلك مشدودة بشدة عسر شدات غيره ، وذوائبه مرخاة تقرب من جانبه الأيسر، وهو مقلد بالسيف العربي المجوهر بغير حنك ولا مظلة، ويخرج شاقاً القاهرة في الشارع الأعظم حتى يجاوز الجامع الطولوني على المشاهد إلى الجامع العتيق . فإذا وصل إلى بابه، وجد الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها مخراب، مفروشة

(١) كذا في الأصل ولعله غير شدات .

بخصير وعليها سجادة معلقة ، وفي يده المصحف الكريم المنسوب خطه إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه فيناوله المصحف من يده فيقبله ويتبرك به ويأمر له بعتاء يفرق على أهل الجامع .

الضرب الثالث

(من هيئة الخليفة هيئته في قصوره)

قال ابن الطوير : كان له ثياب يلبسها في الدور أكامها على النصف من أكام ثيابه التي يلبسها في المواكب ، وكان من شأنه أنه لا ينصرف من مكان إلى مكان في القصر في ليل أو نهار إلا وهو راكب ، ولا يقتصر في القصر على ركوب الخيل بل يركب البغال والحمير الإناث لما تدعوه الضرورة إليه من الجواز في السرايب القصيرة والطولوع على الزلاقات إلى أعلى المناظر والمساكن ، وله في الليل نسوة يرسم شد ما يحتاج إلى ركوبه من البغال والحمير ، وفي كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق في الليل ، ويبت خارج القصر في كل ليلة نحسون فارسا للحراسة . فإذا أذن بالعشاء الآخرة داخل قاعة الذهب وصلى الإمام الراتب فيها بالمقيمين من الأستاذين وغيرهم ، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة - مقام أمير جاندار الآن - فإذا علم بفراغ الصلاة تضرب البوقية من الطبول والبوقات وتوايها على طريق مستحسنة ساعة زمانية ، ثم يخرج أستاذ يرسم هذه الخدمة فيقول : "أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام" فيغرز سنان الدولة حرباً على الباب ثم يرفعها بيده ، فإذا رفعها أغلق الباب ، ودار حول القصر سبع دورات . فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البوايين والفتراشين وأوى المؤذنون إلى خزائن لهم هناك ، وترعى السلسلة عند المضيق : آخر بين القصرين عند السيوفيين

فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب البوقية سحرا قرب الفجر فتُرفع السلسلة ويحوز الناس من هناك .

الجملة السادسة

(في آهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور وآعتنائهم بأمر الجهاد، وسيرهم في رعاياهم ، وآستماله قلوب مخالفيهم)

أما آهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور وآعتنائهم بأمر الجهاد، فكان ذلك من أهمّ أمورهم، وأجلّ ما وقع الآعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام، حين كانت بأيديهم، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج، وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدوّنة، وجوامكهم في كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين، وعلى الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جاشا، وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو، جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقسم، فيجلس في منظره كانت يجامع باب البحر والوزير معه للوادعة^(١)، ويأتي القواد بالمراكب إلى تحت المنطرة، وهي مزينة بالأسلحة والمنجنيقات والعب منصوبة في بعضها، فتسير بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما يفعل حالة القتال، ثم يحضر إلى بن يدي الخليفة المقدّم والرئيس فيوصيها ويدعو لهم بالسلامة، وتتحدر المراكب إلى دميّاط وتخرج إلى البحر الملح، فيكون لها في بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مربكاً أصطفى الخليفة

(١) أى التوديع . وقد جرى فيه وفي كثير غيره على اصطلاحات العامة .

لنفسه السبي الذي فيه من رجال أو نساء أو أطفال، وكذلك السلاح، وما عدا ذلك يكون للغنائم لا يُساهمون فيه . وكان لهم أيضا أسطول بعيدَاب يتلقى به الكارم فيما بين عِيدَاب وسواكن ، وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا يجزأرب بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميمهم الأسطول منهم ، وكان عدّة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاث ، وكان إلى قَوْص هو المتولى لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكتفيه .

وأما سيرهم في رعيتهم واستمالة قلوب مخالفينهم ، فكان لهم الإقبال على من يقد عليهم من أهل الأقاليم جلّ أودق ، ويقابلون كل أحد بما يليق به من الإكرام ، ويعوضون أرباب الهدايا بأضعافها . وكانوا يتألفون أهل السنّة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك ^(١) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومذاهب مالك والشافعي وأحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم ، بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ، ومن سألهم الحكم به أجابوه ، وكان من شأن الخليفة أنه لا يكتب في علامته إلا "الحمد لله رب العالمين" ولا يخاطب أحدا في مكاتبته إلا بالكاف حتى الوزير صاحب السيف ، وإنما المكاتبات عن الوزير هي التي تتفاوت مراتبها ، ولا يخاطب عنهم أحد إلا بنعت مقرر له ودعاء معروف به ، ويراعون من يموت في خدمتهم في عقبه ، وإن كان له مرتب تقبلوه إلى ذريته من رجال أو نساء .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

الجملة السابعة

(في إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدولتهم ،
وما يتصل بذلك من الطعمة)

أما إجراء الأرزاق والعطاء ، فقد تقدم أن ديوان الجيوش كان عندهم على ثلاثة أقسام : قسم يختص بالعرض وتحلية الأجناد وشيآت دوابهم ، وقسم يختص بضبط إقطاعات الأجناد ، وقسم يختص بمعرفة ما لكل مرتزق في الدولة من راتب وجار وجرية ، ولكل من الثلاثة كُتَّابٌ يختصون بخدمته . والقسم الثالث هو المقصود هنا ؛ وكان راتبهم فيه بالدنانير الحيشية ، وكان يشتمل على ثمانية أقسام .

الأول - فيه راتب الوزير وأولاده وحاشيته .

فراتب الوزير في كل شهر خمسة آلاف دينار ، ومن يليه من ولد أو أخ من ثلثمائة دينار إلى مائتي دينار ، ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى الكامل بن شاور ، ثم حواشيه من خمسمائة دينار ، إلى أربعمائة دينار ، إلى ثلثمائة دينار خارجا عن الإقطاعات الثاني - فيه حواشي الخليفة .

فأولهم الأستاذون المحنكون على رُتبهم . فزِمَامُ القصر ، وصاحبُ بيت المال ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدفتر ، وشادُ التاج ، وزِمَامُ الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس ، لكل واحد منهم في الشهر مائة دينار ، ثم من دونهم من تسعين دينارا إلى عشرة دنانير على تفاوت الرُتب . وفي هذا طبيا الخاص ، ولكل واحد منهما في الشهر خمسون دينارا ، ولمن دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

الثالث - فيه أرباب الرُتب بحضرة الخليفة .

فأول مسطور فيه كاتب الدَّست - وهو المعبر عنه الآن بكاتب السرّ - وله في الشهر مائة وخمسون ديناراً، ولكل واحد من كُتّابه ثلاثون ديناراً - ثم الموقَّع بالقلم الدقيق، وله مائة دينار - ثم صاحب الباب، وله مائة وعشرون ديناراً - ثم حامل السيف وحامل الرمح، ولكل منهما سبعون ديناراً، وبقية الأئمة على العساكر والسودان من خمسين ديناراً، إلى أربعين ديناراً، إلى ثلاثين .

الرابع - فيه قاضى القضاة، وله في الشهر مائة دينار - وداعى الدعاة وله مثله؛ وقرّاء الحضرة، ولكل منهم عشرون ديناراً، إلى خمسة عشر ديناراً، إلى عشرة .

الخامس - فيه أرباب الدواوين ومن يجرى مجراهم .

فأولهم متولّى ديوان النظر، وله في الشهر سبعون ديناراً - ثم متولى ديوان التحقيق، وله خمسون ديناراً - ثم متولى ديوان المجلس، وله أربعون ديناراً - ثم متولى ديوان الجيوش، وله أربعون ديناراً؛ ثم صاحب دفتر المجلس، وله خمسة وثلاثون ديناراً؛ ثم الموقَّع بالقلم الجليل القائم مقام كاتب الدَّرَج الآن، وله ثلاثون ديناراً . ولكل مِعين عشرة دنائير، إلى سبعة، إلى خمسة .

السادس - فيه المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة واليها، ولكل واحد منهما خمسون ديناراً - وللحماة بالأهراء والمناخات والجوالى والبساتين والأماكن وغيرها لكل منهم ما يقوم به من عشرين ديناراً، إلى خمسة عشر، إلى عشرة، إلى خمسة .

السابع - فيه عدة الفزاشين برسم خُدْمة الخليفة والقصور وتظيفها خارجا وداخلا ونصب الستائر المحتاج إليها والمناظر الخارجة عن القصر، ولكل منهم في الشهر ثلاثون ديناراً فما حولها - ثم من يليم من الرشّاشين داخل القصر وخارجه وهم نحو ثلثمائة رجل، ولكل منهم من عشرة دنائير إلى خمسة .

الثامن - فيه الركابية ومقدموهم، ولكل من مقدميهم في الشهر نحسون دينارا وللركابية من خمسة عشر دينارا إلى عشرة إلى خمسة .
وأما الطعمة فعلى ضريين .

الضرب الأول

(الأسمطة التي تمتد في شهر رمضان والعدين)

أما شهر رمضان فإن الخليفة كان يرتب بقاعة الذهب بالقصر سَمَاطاً في كل ليلة من استقبال الرابع منه، وإلى آخر السادس والعشرين منه، ويستدعى الأمراء لحضوره في كل ليلة بالنوبة، يحضر منهم في كل ليلة قومٌ كي لا يحرمهم الإفطار في بيوتهم طول الشهر، ولا يكلف قاضي القضاة الحضور سوى ليالي الجمع توقيراً له، ولا يحضر الخليفة هذا السَماط، ويحضر الوزير فيجلس على رأس السَماط . فإن غاب قام ولده أو أخوه مقامه . فإن لم يحضر أحد منهم، كان صاحب الباب عوضه . وكان هذا السَماط من أعظم الأسمطة وأحسنها، يمتد من صدر القاعة إلى مقدار ثلثيها بأصناف المأكولات والأطعمة الفاخرة، ويخرجون من هنالك بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين، ويفترق فضل السَماط كل ليلة، ويتهاداه أرباب الرسوم حتى يصل إلى أكثر الناس . وإذا حضر الوزير بعث الخليفة إليه من طعامه الذي يأكل منه تشريفاً له، وربما خصه بشيء من سَحُوره .

وأما سَماط العدين فإنه يمتد في عيد الفطر وعيد الأضحى تحت سرير الملك بقاعة الذهب المذكورة أمام المجلس الذي يجلس فيه الخليفة الجلوس العام أيام المواكب، وتنصب على الكرسي مائدة من فضة تعرف بالمدورة، وعليها من الأواني الذهبية والصينية الحاوية للأطعمة الفاخرة ما لا يليق إلا بالملوك، وينصب السَماط العام تحت السرير من خشب مدهون في طول القاعة في عرض عشرة أذرع، وتفرش

فوقه الأزهار المشمومة ، ويرص الخبز على جوانبه كل شابورة ثلاثة أرطال من نقي الدقيق ، ويعمر داخل السماط على طوله بأحد وعشرين طبقا عظاما ، في كل طبق أحد وعشرون حرفا من الشوى ، وفي كل واحد منها ثلثائة ونحسون طيرا من الدجاج والفراريج وأفراخ الحمام ، ويعبئ مستطيلا في العلو حتى يكون كقامة الرجل الطويل ، ويسور بتشاريح الحلواء اليابسة على اختلاف ألوانها ، ويسد خلل تلك الأطباق على السماط نحو من خمسمائة صحن من الصحن الخزفية المترعة بالألوان الفاتكة ، وفي كل منها سبع دجاجات من الحلواء المائعة والأطعمة الفاخرة ، ويعمل بدار الفطرة الآتى ذكرها قصرات من حلوى زنة كل منهما سبعة عشر قنطارا في أحسن شكل ، عليها صور الحيوان المختلفة ، ويمحلان إلى القاعة فيوضعان في طرفي السماط . ويأتى الخليفة راكبا فيترجل على السرير الذى قد نصبت عليه المائدة الفضة ويجلس على المائدة وعلى رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين ، ثم يستدعى الوزير وحده فيطلع ويجلس على يمينه بالقرب من باب السرير ، ويشير إلى الأمراء المطوقين فمن دونهم من الأمراء ، فيجلسون على السماط على قدر مراتبهم فإيا كلون وقرء الحضرة فى خلال ذلك يقرءون القرآن ، ويبقى السماط ممدودا إلى قريب من صلاة الظهر حتى يستهلك جميع ما عليه أكلا وحملا ، وتفرقة على أرباب الرسوم .

الضرب الثانى

(فيما كان يعمل بدار الفطرة فى عيد الفطر)

وكان لهم بها الأهتمام العظيم . وقد ذكر ابن عبد الظاهر أصنافها فقال : كانت ألف حملة دقيق ، وأربعمائة قنطار سكر ، وستة قناطير فستق ، وأربعمائة وثلاثين

(١) عبارة المقرئى " من الصحن الخزفية " التى فى كل منها سبع دجاجات وهى مترعة الخ .

إردب زبيب، وخمسة عشر قنطار عسل نحل، وثلاثة قناطير خل وإردبين سمس وإردبين أنيسون وخمسين رطلا ماء ورد، وخمس نوايح مسك، وكافور قديم عشرة مثاقيل، وزعفران مطحون مائة وخمسون درهما، وزيت برسم الوقود ثلاثون قنطارا. في أصناف أخرى يطول ذكرها. قال ابن الطوير: ويندب لها مائة صانع من الخلاوين، ومائة فرّاش برسم تفرقة الطوافير على أصحاب الرسوم خارجا عن هو مرتب فيها، ويحضرها الخليفة والوزير معه فيجلس الخليفة على سريره فيها، ويجلس الوزير على كرسي له، في النصف الأخير من رمضان، وقد صار مالها من المستعمالات كالجبال الرواسي، فتفرق الحلوى من رُبع قنطار إلى عشرة أرتال إلى رطل واحد، والخشكان من مائة حبة إلى خمس وسبعين حبة، إلى ثلاث وثلاثين، إلى خمس وعشرين، إلى عشرين، ويفترق على السودان على يد مقدمهم بالأفراد من تسعة أفراد إلى سبعة، إلى خمسة، إلى ثلاثة كل طائفة على مقدارها (١)

بسماط يوم الفطر ما يمد في الإيوان الكبير قبل مد سباط الطعام بقاعة الذهب. وقد وقع في كلام ابن الطوير خلف في وقته، فذكر في موضع من كتابه أن ذلك يكون قبل ركوب الخليفة لصلاة العيد، وذكر في موضع آخر أن ذلك يكون بعد حضوره من الصلاة.

(٢) الطرف الثامن

(في جلوس الوزير للظالم إذا كان صاحب سيف، وترتيب جلوسه)
يجلس الوزير في صدر المكان، وقاضى القضاة مقابله، وعن جانبيه شاهدان من المعبرين، وكاتب الوزير بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه

(١) بياض بالأصل. ولعله وقد كان سباط يوم الفطر يمد الخ.

(٢) لم يتقدم في هذا الفصل تقسيم الأطراف.

صاحب الباب وأسفهلار، وبين أيديهما التواب والمُجَّاب على طبقاتهم . وذلك يومان في الأسبوع .

وقد رثاهم عمارة اليمنى بعد أنقراضهم وأستيلاء السلطان صلاح الدين بن أيوب على الملكة بقصيدة وصف فيها مملكتهم، وعدد مواكبهم، وحقى مكارمهم، وجلّى محاسنهم، وهى :

رَمَيْتْ يَادَهُرُ كَفَّ الْمَجْدِ بِالشَّلِّ * وَجِيْدُهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلَى بِالْعَطْلِ
سَعَيْتِ فِي مَنَهِجِ الرَّأْيِ الْعُثُورِ فَإِنْ * قَدَّرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ فَاسْتَقِلْ
جَدَعْتَ مَا رَنَكَ الْآقْفَى فَأَنْفُكَ لَا * يَنْفُكُ مَا بَيْنَ أَمْرِ الشَّيْنِ ^(١) وَالتَّجَلِّ
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلٍ * شَقِيتَ، مَهَلًا أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلٍ
لَهْفَى وَلَهْفَ بَنَى الْأَمَالِ قَاطِبَةً * عَلَى خِيَعَتِهَا فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
قَدِمْتُ مَصْرَ فَأَوَّلْتَنِي خِلَافَتُهَا * مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أَرَبْنِي عَلَى أَمَلِي
قَوْمٌ عَرَفْتُ لَهُمْ كَسْبَ الْأُلُوفِ، وَمِنْ * كَمَالِهَا أَنَهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسْأَلِ
وَكُنْتُ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ سَمَا * رَأْسَ الْحِصَانِ يَهَادِيهِ عَلَى الْكَفْلِ
وَنَلْتُ مِنْ عِظَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً * وَخَلَّةً حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ
يَاعَاذِلِي فِي هَوَى أُنْبَاءِ فَاطِمَةٍ * لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِي عَدَلِي
بِاللهِ! زُرْسَاحَةَ الْقَصْرِينِ وَأَبْكَ مَعِي * عَلَيْهِمَا لَا عَلَى صِفَتَيْنِ وَالْجَمَلِ!
وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا : وَاللهِ مَا أَلْتَحَمْتُ * فَيْكُمْ جُرُوحِي وَلَا قَرَحِي بِمُنْدِيلِ!
مَاذَا تَرَى كَانَتْ الْإِفْرِجُجُ فَاعِلَةً * فِي تَسْنِيلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
[هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرُ قِسْمَةٍ مَا * مَلَكْتُمُو بَيْنَ حُكْمِ السَّبْيِ وَالنَّفْلِ ^(٢)؟]

(١) فى المخطوط للقرىزى "قرع السن" . (٢) الزيادة عن المقرئى .

وَقَدْ حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا، وَأَسْمُ جَدِّكُمْ * مُحَمَّدٌ وَأَبُوكُمْ خَيْرٌ مُتَعَلِّ
 مَرَرْتُ بِالْقَصْرِ وَالْأَرْكَانُ خَالِيَةٌ * مِنَ الْوُفُودِ، وَكَانَتْ قِبْلَةَ الْقَبْلِ
 فَمِلْتُ عَنْهَا بِوَجْهِ خَوْفٍ مُتَقِيدٍ * مِنَ الْأَعَادِي، وَوَجْهُ الْوُدِّ لَمْ يَمِلْ
 أَسْبَلْتُ مِنْ أَسْفَى دَمْعِي غَدَاةَ خَلْتُ * رِحَابَكُمْ وَغَدَتِ مَهْجُورَةَ السُّبُلِ
 أَتَيْتُ عَلَى مَآثِرَاتٍ مِنْ مَكَارِمِكُمْ * حَالِ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تَحِلْ
 (دَارُ الضِّيَافَةِ) كَانَتْ أُنْسٌ وَافِدُكُمْ * وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلَلٍ
 وَ(فِطْرَةُ الصَّوْمِ) إِذَا ضَحَّتْ مَكَارِمُكُمْ، * تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرُ مُحْتَمَلٍ
 وَ(كُسُوةُ النَّاسِ) فِي الْفَضْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ * وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ عَنْدهُمْ وَبَلٍ
 وَمَوْسِمٌ كَانَ فِي (يَوْمِ الْخَلِيجِ) لَكُمْ * يَأْتِي تَجَمُّعُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
 وَ(أَوَّلُ الْعَامِ) وَ(الْعِيدِينَ) كَمْ لَكُمْ * فَيَمِينٌ مِنْ وَبَلٍ جُودٍ لَيْسَ بِالْوَشَلِ
 وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي (يَوْمِ الْغَدِيرِ) كَمَا * يَهْتَرُ مَا يَنْ قَصْرَيْكُمْ مِنَ الْأَسَلِ
 وَالْخَيْلُ تُعَرِّضُ فِي وَشْيٍ فِي شَيْءٍ * مِثْلَ الْعَرَائِسِ فِي حَلَى وَفِي حُلَلِ
 وَمَا حَبَلْتُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةِ الْأَطْبَاقِ إِلَّا عَلَى الْأَكْثَافِ وَالْعَجَلِ
 وَمَا خَصَصْتُمْ بِيَرَّ أَهْلَ مَمْلَكَةٍ * حَتَّى عَمَّكُمْ بِهِ الْأَقْصَى مِنَ الْمَلَلِ
 كَانَتْ رَوَاتِبُكُمْ لِلْوَافِدِينَ وَلِلضَّيْفِ الْمُقِيمِ وَلِلطَّارِئِ مِنَ الرُّسُلِ
 ثُمَّ (الطَّرَازُ) يَنْتَبِسُ الَّذِي عَظُمَتْ * مِنْهُ الصَّلَاتُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَالْأَوَّلِ
 وَلِلْجَوَامِعِ مِنْ أَهْمَاسِكُمْ نَعَمْ * مَنْ تَصَدَّرَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلٍ
 وَرُبَّمَا عَادَتِ الدُّنْيَا فَعَقَلَهَا * مِنْكُمْ وَأُخِثَتْ بِكُمْ مَحَلُولَةُ الْعُقُلِ

والله ! لا فَاَزَ يَوْمَ الْحَشْرِ مُبْغِضُكُمْ * ولا نَجَا من عذاب النَّارِ غَيْرُ وَايَ
ولا سُقِيَ الْمَاءَ من حَرٍّ ومن ظَمِئٍ * من كَفَّ خَيْرَ الْبَرِيَّاءِ خَاتَمَ الرُّسُلِ
[ولا رَأَى جَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي خُلِقَتْ * مَنْ خَانَ عَهْدَ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ بْنِ عَلِيٍّ (١)]
أَمَّتَنِي وَهَدَاتَنِي وَالذَّخِيرَةَ لِي * إِذَا أَرْتَهِنْتُ بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلٍ
وَاللَّهِ لَمْ يُؤْفِقْهُمْ فِي الْمَدْحِ حَقَّهُمْ ! * لِأَنَّ فَضْلَهُمْ كَالْوَالِدِ الْهَاطِلِ
وَلَوْ تَضَاعَفَتِ الْأَقْوَالُ وَأَسْتَبَقَتْ * مَا كُنْتُ فِيهِمْ بِمَجْدِ اللَّهِ بِالتَّجَمُّلِ
بَابُ النِّجَاةِ ، هُمْ ذُنُبًا وَآخِرَةً * وَحُبُّهُمْ فَهُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَالْعَمَلِ
نُورُ الدُّجَى وَمَصَابِيحُ الْهُدَى وَهُمْ * مِنْ نُورٍ خَالِصٍ نُورِ اللَّهِ لَمْ يَغْلِبْ
وَاللَّهُ لَا زُلَّتْ عَنْ حُبِّي لَهُمْ أَبَدًا * مَا أَنْعَرَ اللَّهُ لِي فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ !

قلت : وعمارة هذا لم يكن على مُعْتَقِدِ الشَّيْعَةِ بل فقيها شافعيًا ، قَدِمَ مِصْرَ بِرِسَالَةٍ
عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ أَبِي فُلَيْتَةَ أَمِيرِ مَكَّةَ إِلَى الْفَائِزِ أَحَدِ خُلَفَائِهِمْ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ
فِي وَزَارَةِ الصَّالِحِ طَلَّاعِ بْنِ رَزِيكٍ ، فَأَحْسَنُوا لَهُ وَبَالِغُوا فِي بَرِّهِ ، فَأَقَامَ عِنْدَهُمْ
وَتَأَلَّفَ بِهِمْ ، وَأَتَى فِيهِمْ مِنَ الْمَدْحِ بِمَا بَهَرَ الْعُقُولَ ، وَلَمْ يَزَلْ مُوَالِيًا لَهُمْ حَتَّى زَالَتْ
دَوْلَتُهُمْ وَأَسْتَوْلَى السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَرَنَادَهُمْ بِهَذِهِ
الْقَصِيدَةِ ، فَكَانَتْ آخِرَ أَسْبَابِ حَتْفِهِ ، فَصَلَبَ فَيَمَنْ صَلَبَ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ مِنْ أَتْبَاعِ
الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ .

(تم الجزء الثالث)

ويليه الجزء الرابع ، وأوله ” الحالة الثالثة من أحوال المملكة ،
ما عليه ترتيب المملكة من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا ”

(١) الزيادة عن المقرئ في الخطوط .

فهرست

الجزء الثالث

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

الفصل الثانى - من الباب الثانى من المقالة الأولى فى الكلام على

- نفس الخط ؛ وفيه سبعة [ثمانية] أطراف ... ٥
- الطرف الأول - فى فضيلة الخط ... ٥
- الطرف الثانى - فى بيان حقيقة الخط ... ٧
- الطرف الثالث - فى وضع الخط ؛ وفيه جملتان ... ٩
- الجملة الأولى - فى بيان المقصود من وضعه ، والموازنة بينه وبين اللفظ ... ٩
- الجملة الثانية - فى أصل وضعه ؛ وفيه مسلكان ... ١٠
- المسلك الأول - فى وضع مطلق الحروف ... ١٠
- المسلك الثانى - فى وضع حروف العربية ... ١١
- الطرف الرابع - فى عدد الحروف وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها ؛
- وفيه أربع [خمس] جمل ... ١٩
- الجملة الأولى - فى مطلق الحروف فى جميع اللغات ... ١٩
- الجملة الثانية - فى حروف العربية ... ١٩
- الجملة الثالثة - فى بيان جهة ابتدآت الحروف ... ٢١
- الجملة الرابعة - فى كيفية ترتيب الحروف ... ٢٢
- الجملة الخامسة - فى كيفية صور الحروف العربية ، وتداخل أشكالها ... ٢٣
- الطرف الخامس - فى تحسين الخط ؛ وفيه جملتان ... ٢٤
- الجملة الأولى - فى الحث على تحسين الخط ... ٢٤
- الجملة الثانية - فى الطريق إلى تحسين الخط ... ٢٦
- الطرف السادس - فى قواعد تتعلق بالكتابة لا يستغنى الكاتب المجيد
- عن معرفتها ؛ وفيه جملتان ... ٢٧

صفحة

- الجملة الأولى — في هندسة الحروف، ومعرفة اعتبار صحتها ... ٢٧
- الجملة الثانية — في معرفة ما يقع به ابتداء الحروف وانتهائها من نقطة
أوشظية أوغير ذلك . أما الابتداء فعلى ثلاثة أضرب ٣٩
- الضرب الأول — مايتبدأ بنقطة ... ٣٩
- الضرب الثانى — ما يتبدأ بشظية ... ٣٩
- الضرب الثالث — ما يتبدأ بحلقة ... ٤٠
- الضرب الأول — [من ضروب الاختتام] ما يختم بقطة القلم ... ٤٠
- الضرب الثانى — ما يختم بشظية ... ٤٠
- الضرب الثالث — ما يرسل فى ختمه إرسالا ... ٤٠
- الطرف السابع — فى مقدمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة ؛
وفيه ثلاث جمل ... ٤١
- الجملة الأولى — فى كيفية إمساك القلم عند الكتابة، ووضعها على الورق ٤١
- الجملة الثانية — فى كيفية الاستعداد ووضع القلم على الدرج ... ٤٢
- الجملة الثالثة — فى وضع القلم على الأذن حال الكتابة عند التفكير ... ٤٣
- الطرف الثامن — فى ذكر قوانين يعتمدها الكاتب فى الخط، وفيه ست جمل ٤٤
- الجملة الأولى — فى كيفية حركة اليد بالقلم فى الكتابة ... ٤٤
- الجملة الثانية — فى تناسب الحروف ومقاديرها فى كل قلم ... ٤٥
- الجملة الثالثة — فيما يجب اعتماده لكل ناحية من نواحي القلم ... ٤٩
- الجملة الرابعة — فى الترويس ... ٥٠
- الجملة الخامسة — فيما يطمس من الحروف ويفتح ... ٥٠
- الجملة السادسة — فى ذكر الأقلام المستعملة فى ديوان الإنشاء
فى زمان المؤلف ... ٥١

صفحة

٥٣	القلم الأول — قلم الطومار
٥٩	القلم الثانى — قلم مختصر الطومار
٦٢	القلم الثالث — قلم الثلث ؛ وهو على نوعين
٦٢	النوع الأول — الثلث الثقيل ، وصوره مفردة ومركبة
	الألف على ضربين : مفردة ومركبة
٦٢	الضرب الأول — المفردة
٦٤	الضرب الثانى — المركب مع غيره من الحروف
٦٤	الصورة الثانية — صورة الباء ؛ وهى على ضربين
٦٤	الضرب الأول — المفردة
٦٥	وأما المركبة فعلى نوعين : متوسطة ومتطرفة
٦٦	الصورة الثالثة — صورة الجيم وما شاكلها
٧٠	الصورة الرابعة — صورة الدال وأختها ؛ وهى على ضربين
٧٠	الضرب الأول — المفردة
٧١	الضرب الثانى — المركبة
٧٢	الصورة الخامسة — صورة الراء وأختها ؛ وهى على ضربين
٧٢	الضرب الأول — المفردة
٧٤	الضرب الثانى — المركبة
٧٥	الصورة السادسة — صورة السين
٧٦	الصورة السابعة — صورة الصاد
٧٧	الصورة الثامنة — صورة الطاء وأختها
٧٩	الصورة التاسعة — صورة العين وأختها

صفحة	
٨٣	الصورة العاشرة — صورة الفاء
٨٣	الصورة الحادية عشرة — صورة القاف
٨٤	الصورة الثانية عشرة — صورة الكاف
٨٦	الصورة الثالثة عشرة — صورة اللام ؛ وهي على 'ضرين
٨٦	الضرب الأول — المفردة
٨٧	الضرب الثاني — المركبة
٨٨	الصورة الرابعة عشرة — صورة الميم ؛ وهي على 'خمسة أضرب
٨٨	الضرب الأول — المحققة
٨٩	الضرب الثاني — المعلقة
٩٠	الضرب الثالث — المسبلة
٩٠	الضرب الرابع — المبسوطة
٩١	الضرب الخامس — المفتولة
٩١	الصورة الخامسة عشرة — صورة النون
٩٣	الصورة السادسة عشرة — صورة الهاء ؛ وهي على 'ضرين
٩٣	الضرب الأول — المفردة
٩٤	الضرب الثاني — المركبة
٩٩	الصورة السابعة عشرة — صورة الواو
٩٩	الصورة الثامنة عشرة — صورة اللام ألف
١٠١	الصورة التاسعة عشرة — صورة الياء ؛ وهي على 'ضرين
١٠١	الضرب الأول — المفردة
١٠٢	الضرب الثاني — المركبة

صفحة

١٠٤	التسوع الثاني - قلم الثلث الخفيف
١٠٤	القلم الرابع - قلم التوقيع
١١٩	القلم الخامس - قلم الرقاع
١٣٢	القلم السادس - قلم الغبار
١٣٣	الجملة السابعة - في كتابة البسملة؛ وفيها مهيعان
١٣٣	...	المهيع الأول - في ذكر قواعد جامعة للبسملة في جميع الأقلام
		المهيع الثاني - في بيان صورة البسملة في كل قلم من الأقلام التي
١٣٥	تستعمل في ديوان الانشاء
١٤٣	الجملة الثامنة - في وجوه تجويد الكتابة وتحسينها؛ وهي على ضربين
١٤٣	الضرب الأول - حسن التشكيل
١٤٤	الضرب الثاني - حسن الوضع
١٤٥	...	الكلمة الأصلية - أسما كانت أو حرفا أفعلا، لا تخرج عن أربعة أصناف
١٤٥	الصف الأول - الثنائية
١٤٦	الصف الثاني - الثلاثية
١٤٦	الصف الثالث - الرباعية
١٤٧	الصف الرابع - الخماسية
١٤٩	مراعاة فواصل الكلام
١٥١	...	حسن التدوير - في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها
١٥١	الفصل المستقبح - في آخر السطر وأول الذي يليه صنفان
		الصف الأول - فصل بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض
١٥١	وتفريقها في السطر والذي يليه
١٥٢	الصف الثاني - فصل الكلمة التامة وصلتها

صفحة

الفصل الثالث - من الباب الثاني من المقالة الأولى في لواحق الخطب؛	
وفيه مقصدان	١٥٣
المقصد الأول - في النقط؛ وفيه أربع جمل	١٥٣
الجملة الأولى - في ميسس الحاجة إليه	١٥٣
الجملة الثانية - في ذكر أول من وضع النقط	١٥٥
الجملة الثالثة - في بيان صورة النقط وكيفية وضعه	١٥٥
الجملة الرابعة - فيما يختص بكل حرف من النقط وما لا تقط له	١٥٦
المقصد الثاني - في الشكل؛ وفيه خمس جمل	١٦٠
الجملة الأولى - في اشتقاقه ومعناه	١٦٠
الجملة الثانية - في أول من وضع الشكل	١٦٠
الجملة الثالثة - في الترغيب في الشكل والترهيب عنه	١٦١
الجملة الرابعة - فيما ينشأ عنه الشكل ويترتب عليه	١٦٢
الجملة الخامسة - في صور الشكل ومحال وضعه على طريقة المتقدمين	
والمتأخرين	١٦٤
الأولى - علامة السكون	١٦٤
الثانية - علامة الفتح	١٦٥
الثالثة - علامة الضم	١٦٥
الرابعة - علامة الكسر	١٦٦
الخامسة - علامة التشديد	١٦٦
السادسة - علامة الهمزة	١٦٧
السابعة - علامة الصلة في ألفات الوصل	١٧٠

الفصل الرابع - من الباب الثاني من المقالة الأولى في الهجاء ؛

وفيه مقصدان ... ١٧٢

المقصد الأول - في مصطلحه الخاص ؛ وهو على ضربين ... ١٧٢

الضرب الأول - المصطلح الرسمي ... ١٧٢

الضرب الثاني - المصطلح العروضي ... ١٧٢

المقصد الثاني - في المصطلح العام ؛ وفيه جملتان ... ١٧٣

الجملة الأولى - في الأفراد والحذف والإثبات والإبدال ... ١٧٣

المكتوب على المصطلح المعروف على قسمين ... ١٧٤

القسم الأول - ماله صورة تخصه من الحروف ؛ وهو على ضربين ... ١٧٤

الضرب الأول - ما هو على أصله المعترف به في ذوات الحروف وعددها الخ ... ١٧٤

اللفظ الذي يكتب ، على نوعين ... ١٧٧

النوع الأول - أن يكون أسما لحرف من حروف الهجاء ... ١٧٧

النوع الثاني - أن لا يكون أسما لحرف من حروف المعجم ... ١٧٩

الضرب الثاني - ما تغير عن أصله ؛ وهو على ثلاثة أنواع ... ١٧٩

النوع الأول - ما تغير بالزيادة ... ١٧٩

النوع الثاني - ما يغير بالنقص ... ١٨٤

النوع الثالث - ما يغير بالبدل ... ٢٠٠

القسم الثاني - ما ليس له صورة تخصه ، وهو الهمزة ؛ ولها ثلاثة أحوال ... ٢٠٨

الحال الأول - أن تكون في أول الكلمة ... ٢٠٨

الحال الثاني - أن تكون متوسطة ؛ ولها حالتان ... ٢٠٩

الحال الثالث - أن تكون الهمزة آخر ؛ ولها حالتان ... ٢١٢

الجملة الثانية - في حالة التركيب والفصل والوصل ... ٢١٥

سفرة

الفصل الخامس — من الباب الثاني من المقالة الأولى فيما يكتب بالظاء
مع بيان ما يقع الاشتباه فيه مما يكتب بالضاد ... ٢٢٢

المقالة الثانية

- في المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب ... ٢٢٧
- الباب الأول — في ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول ٢٢٧
- الفصل الأول — في معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها؛
وفيه طرفان ... ٢٢٧
- الطرف الأول — في شكل الأرض وإحاطة البحر بها ... ٢٢٧
- الطرف الثاني — فيما أشتملت عليه الأرض من الأقاليم الطبيعية ... ٢٣٠
- الفصل الثاني — في البحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان؛ وفيه طرفان ٢٣٣
- الطرف الأول — في البحر المحيط ... ٢٣٣
- الطرف الثاني — في البحار المنبثة في أقطار الأرض؛ وهي على ضربين ٢٣٤
- الضرب الأول — الخارج من البحر المحيط وما يتصل به ... ٢٣٤
- الضرب الثاني — من البحار المنبثة في أقطار الأرض ما ليس له اتصال
بالبحر المحيط ... ٢٤٨
- الفصل الثالث — في كيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة
بينها؛ وفيه طرفان ... ٢٥٠
- الطرف الأول — في كيفية استخراج جهات البلدان ... ٢٥٠
- الطرف الثاني — في معرفة الأبعاد الواقعة بين البلدان ... ٢٥١

الباب الثاني - في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم في القديم

والحديث آنح، وفيه فصلان ... ٢٥٤

الفصل الأول - في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، وهم على أربع طبقات

الطبقة الأولى - الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ... ٢٥٤

الطبقة الثانية - خلفاء بني أمية ... ٢٥٦

الطبقة الثالثة - خلفاء بني العباس بالعراق ... ٢٥٨

الطبقة الرابعة - خلفاء بني العباس بالديار المصرية ... ٢٦٤

وأما مقرّات الخلفاء، فهي أربع مقرّات :

المقرّة الأولى - المدينة النبوية... ٢٦٧

المقرّة الثانية - الشام ... ٢٦٨

المقرّة الثالثة - العراق ... ٢٦٨

المقرّة الرابعة - الديار المصرية... ٢٦٨

الفصل الثاني - فيما أنطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم، وما كانت

عليه من الترتيب، وما هي عليه الآن، ولها حالتان ... ٢٦٩

الحالة الأولى - ما كان عليه الحال في الزمن القديم ... ٢٧٠

شعار الخلافة ... ٢٧٣

الوظائف المعتبرة عندهم على ضربين ... ٢٧٧

الضرب الأول - وظائف أرباب السيوف ... ٢٧٧

الضرب الثاني - وظائف أرباب الأقلام ... ٢٧٨

الحالة الثانية - ما صار إليه الأمر بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية ... ٢٧٨

صفحة

الباب الثالث - في ذكر مملكة الديار المصرية ؛ وفيه ثلاثة فصول ...	٢٨٢
الفصل الأول - في مملكة الديار المصرية ومضافاتها ؛ وفيه طرفان ...	٢٨٢
الطرف الأول - في الديار المصرية ؛ وفيه اثنا عشر مقصدا ...	٢٨٢
المقصد الأول - في فضلها ومحاسنها ...	٢٨٢
المقصد الثاني - في ذكر خواصها وعجائبها ، وما بها من الآثار القديمة ...	٢٨٦
المقصد الثالث - في ذكر نيلها ومبدئه وأتته وزيادته ونقصه الخ ...	٢٨٩
المقصد الرابع - في ذكر خلجانها ؛ وهي ستة ...	٣٠١
الخليج الأول - المنهى ...	٣٠١
الخليج الثاني - خليج القاهرة ...	٣٠٢
الخليج الثالث - خليج السردوس ...	٣٠٤
الخليج الرابع - الإسكندرية ...	٣٠٤
الخليج الخامس - خليج منجا ...	٣٠٥
الخليج السادس - خليج دمياط ...	٣٠٥
المقصد الخامس - في ذكر بحيرات الديار المصرية ؛ وهي أربع بحيرات ...	٣٠٧
المقصد السادس - في ذكر جبالها ...	٣٠٩
المقصد السابع - في ذكر زروعها ورياحينها وفواكهها وأصناف	
المطعوم بها ...	٣١١
المقصد الثامن - في ذكر مواشها ووحوشها وطيورها ...	٣١٤
المقصد التاسع - في ذكر حدودها ...	٣١٤
المقصد العاشر - في ابتداء عمارتها ، وتسميتها مصر . وتفرع الأقاليم	
التي حولها عنها ...	٣١٧

صفحة

المقصد الحادى عشر — فى ذكر قواعدها القديمة والمباني العظيمة الباقية الخ ٣١٩
وقواعدها القديمة على ضربين :

الضرب الأول — ما قبل الطوفان ٣١٩

الضرب الثانى — قواعدها فيما بعد الطوفان ٣٢٠

المقصد الثانى عشر — فى ذكر قواعدها المستقرة ؛ وهى ثلاث ... ٣٢٩

القاعدة الاولى — مدينة الفسطاط ٣٢٩

(جوامعها) ٣٤٠

القاعدة الثانية — القاهرة ٣٤٨

(جوامعها) ٣٦٤

القاعدة الثالثة — القلعة ٣٧٢

الفصل الثانى — فى ذكر كور الديار المصرية ؛ وهى على ضربين ... ٣٧٩

الضرب الأول — فى ذكر كورها القديمة ؛ وهى ثلاثة أحياز ... ٣٧٩

الحيز الأول — أعلى الأرض ؛ وهو الصعيد ٣٨٠

الحيز الثانى — أسفل الأرض ؛ وهو أربع نواح ... ٣٨٥

الناحية الأولى — كور الحوف الشرقى ؛ وبها ثمان كور ... ٣٨٥

الناحية الثانية — بطن الريف ؛ وفيها سبع كور ... ٣٨٦

الناحية الثالثة — الجزيرة بين فرقى النيل الشرقية والغربية ؛

وفيها خمس كور ٣٨٨

الناحية الرابعة — الحوف الغربى ؛ وفيها إحدى عشرة كورة ... ٣٨٩

الحيز الثالث — كور القبلة ؛ وفيها خمس كور ... ٣٩١

الحيز الأول — [مما لم يذكره القضاعى] بلاد الواح ... ٣٩٣

صفحة

الحيز الثاني — برقة ... ٣٩٥

الضرب الثاني — من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرة

ولها وجهان ... ٣٩٦

الوجه الأول — القبلى ... ٣٩٦

الوجه الثاني — البحرى؛ ويشتمل على ثلاث شعب ... ٤٠٢

الشعبة الأولى — شرقى الفرقة الشرقية من النيل؛ وفيها أربعة أعمال ... ٤٠٢

الشعبة الثانية — غربى فرقة النيل الغربية؛ وفيها عملان ... ٤٠٦

الشعبة الثالثة — ما بين فرقى النيل الشرقية والغربية؛ وهو جزيرتان ... ٤٠٩

الفصل الثالث — فيمن ملك الديار المصرية جاهلية وإسلاما؛ وهم

على ثلاث مراتب ... ٤١١

المرتبة الأولى — من ملكها قبل الطوفان ... ٤١١

المرتبة الثانية — من ملكها بعد الطوفان إلى حين الفتح الإسلامى؛ وهم

على طبقات ... ٤١٢

الطبقة الأولى — ملوكها من القبط ... ٤١٢

الطبقة الثانية — ملوكها من العماليق ملوك الشام ... ٤١٥

الطبقة الثالثة — ملوكها من القبط بعد العماليق ... ٤١٦

الطبقة الرابعة — ملوكها من الفرس ... ٤١٧

الطبقة الخامسة — ملوكها من اليونان ... ٤١٨

الطبقة السادسة — ملوكها من الروم ... ٤١٩

المرتبة الثالثة — من وليها فى الإسلام من بداية الأمر إلى زمن المؤلف؛

وهم على ضربين ... ٤٢٣

صفحة

الضرب الأول —	فيمن وليها نيابة، وهو الصدر الأول؛ وهم على ثلاث طبقات	٤٢٣
الطبقة الأولى —	عمال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم	٤٢٣
الطبقة الثانية —	عمال خلفاء بني أمية بالشام	٤٢٤
الطبقة الثالثة —	عمال خلفاء بني العباس بالعراق	٤٢٥
الضرب الثاني —	من وليها ملوكا؛ وهم على أربع طبقات	٤٢٨
الطبقة الأولى —	من وليها عن بني العباس قبل دولة الفاطميين	٤٢٨
الطبقة الثانية —	من وليها من الخلفاء الفاطميين	٤٣٠
الطبقة الثالثة —	ملوك بني أيوب	٤٣٢
الطبقة الرابعة —	ملوك الترك	٤٣٤
الفصل الرابع — في ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية؛ وفيه ثلاثة		
أطراف		٤٤٠
الطرف الأول —	في ذكر معاملاتها؛ وفيه ثلاثة أركان	٤٤٠
الركن الأول —	الأئمان؛ وهي على ثلاثة أنواع	٤٤٠
النوع الأول —	الدنانير المسكوكة؛ وهي ضربان	٤٤٠
الضرب الأول —	ما يتعامل به وزنا	٤٤٠
الضرب الثاني —	ما يتعامل به معادة	٤٤١
النوع الثاني —	الدراهم النقرة	٤٤٣
النوع الثالث —	الفلوس	٤٤٣
الركن الثاني —	في المشتمات؛ وهي على ثلاثة أنواع	٤٤٥
النوع الأول —	الموزونات	٤٤٥

صفحة

النوع الثاني — الميكيلات ٤٤٥

النوع الثالث — المقيسات؛ وهي الأراضي والأقشة ٤٤٦

أما الأراضي فصنفان :

الصنف الأول — أرض الزراعة ٤٤٦

الصنف الثاني — أرض البنان ٤٤٦

الركن الثالث — في الأسعار ٤٤٧

الطرف الثاني — في ذكر جسورها وأصناف أرضها؛ وما يختص بكل

صنف آخر ٤٤٨

أما جسورها فعلى صنفين :

الصنف الأول — الجسور السلطانية ٤٤٨

الصنف الثاني — الجسور البلدية ٤٤٩

الطرف الثالث — في وجوه أموالها الديوانية؛ وهي على ضربين ٤٥٢

الضرب الأول — الشرعي؛ وهو على سبعة أنواع ٤٥٢

النوع الأول — المال الخراجي ٤٥٢

والجاري في الدواوين منه على ضربين :

الضرب الأول — ماهو داخل في الدواوين السلطانية؛ وهو الآن (زمن

المؤلف) على أربعة أصناف ٤٥٥

الصنف الأول — ماهو جار في ديوان الوزارة ٤٥٥

الصنف الثاني — ماهو جار في ديوان الخالص ٤٥٦

الصنف الثالث — ماهو جار في الديوان المفرد ٤٥٧

الصنف الرابع — ماهو جار في ديوان الأملاك ٤٥٧

صفحة

الضرب الثانى — ماهو جار فى الإقطاعات... ٤٥٧

النوع الثانى — ما يتحصل مما يستخرج من المعادن ... ٤٥٩

النوع الثالث — الزكاة ... ٤٦١

النوع الرابع — الجوالى ... ٤٦٢

النوع الخامس — ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين فى البحر إلى

الديار المصرية ... ٤٦٣

النوع السادس — الموارىث الحشرية ... ٤٦٤

النوع السابع — ما يتحصل من دار الضرب بالقاهرة؛ والذي يضرب

فيها ثلاثة أصناف ... ٤٦٥

الصف الأول — الذهب ... ٤٦٥

الصف الثانى — الفضة النقرة ... ٤٦٦

الصف الثالث — الفلوس المتخذة من النحاس الأحمر ... ٤٦٧

الضرب الثانى — من الأموال الديوانية بالديار المصرية غير الشرعى،

وهو المكوس؛ وهى على نوعين ... ٤٦٨

النوع الأول — ما يختص بالديوان السلطانى؛ وهو صنفان ... ٤٦٨

الصف الأول — ما يؤخذ على الواصل المحلوب وأكثره متحصلا

جهتان ... ٤٦٨

الجهة الأولى — ما يؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر

القلزم من جهة الحجاز واليمن وما والاها ... ٤٦٨

الجهة الثانية — ما يؤخذ على واصل التجار بقطيا فى طريق الشام ... ٤٧٠

الصف الثانى — ما يؤخذ بحاضرة الديار المصرية بالفسطاط والقاهرة ... ٤٧٠

صفحة

- النوع الثاني — ما لا اختصاص له بالديوان السلطاني ... ٤٧١
- في ترتيب المملكة؛ ولها ثلاث حالات ... ٤٧١
- الحالة الأولى — ما كانت عليه من حين الفتح إلى آخر الدولة الأخشيديّة ٤٧١
- الحالة الثانية — ما كانت عليه في زمن الخلفاء الفاطميين ؛ وتنحصر
- في ثلاث جمل ... ٤٧٢
- الجملة الأولى — في الآلات الملوكة المختصة بالمواكب العظام ... ٤٧٢
- الجملة الثانية — في حواصل الخليفة ؛ وهي على خمسة أنواع ... ٤٧٥
- النوع الأول — الخزائن — ... ٤٧٥
- النوع الثاني — حواصل المواشي ... ٤٧٨
- النوع الثالث — حواصل الغلال وشون الأتبان ... ٤٧٩
- النوع الرابع — حواصل البضاعة ... ٤٧٩
- النوع الخامس — ما في معنى الحواصل ... ٤٨٠
- الجملة الثالثة — في ذكر جيوش الدولة الفاطمية وبيان مراتب أرباب
- السيوف ؛ وهم على ثلاثة أصناف ... ٤٨٠
- الصف الأول — الإمراء ... ٤٨٠
- الصف الثاني — خواص الخليفة ؛ وهم على ثلاثة أنواع ... ٤٨١
- النوع الأول — الأستاذون ... ٤٨١
- النوع الثاني — صبيان الخصاص ... ٤٨١
- النوع الثالث — صبيان الحجر ... ٤٨١
- الصف الثالث — طوائف الأجناد ... ٤٨٢
- الجملة الرابعة — في ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ؛ وهم على قسمين ٤٨٢

صفحة

القسم الأول — ما بحضرة الخليفة ؛ وهم أربعة أصناف ... ٤٨٢

الصف الأول — أرباب الوظائف من أرباب السيوف ؛ وهم نوعان ٤٨٢

النوع الأول — وظائف عامة الجند ... ٤٨٢

النوع الثاني — وظائف خواص الخليفة من الأستاذين ؛ وهي

على ضربين ... ٤٨٤

الضرب الأول — ما يختص بالأستاذين المحنكين ... ٤٨٤

الضرب الثاني — ما يكون من غير المحنكين ... ٤٨٥

الصف الثاني — من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أرباب الأقلام ؛

وهم على ثلاثة أنواع ... ٤٨٦

النوع الأول — أرباب الوظائف الدينية ... ٤٨٦

النوع الثالث — من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الدينية ؛ وهي

على ثلاثة [أربعة] أضرب ... ٤٨٩

الضرب الأول — الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم ... ٤٨٩

الضرب الثاني — ديوان الإنشاء ... ٤٩٠

الضرب الثالث — ديوان الجيش ... ٤٩٢

الضرب الرابع — نظر الدواوين ... ٤٩٣

الصف الثالث — من أرباب الوظائف أصحاب الوظائف الصناعية ٤٩٦

الصف الرابع — الشعراء ... ٤٩٧

القسم الثاني — من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج

عن حضرة الخلافة . وهو صنفان ... ٤٩٧

الصف الأول — النواب والولاة ... ٤٩٧

صفحة

- الجملة الخامسة — من ترتيب مملكتهم في هيئة الخليفة في مواكبه وقصوره؛
 وهي على ثلاثة أضرب ... ٤٩٨ ... ٤٩٨ ... ٤٩٨
 الضرب الأول — جلوسه في المواكب؛ وله ثلاثة جلوسات ... ٤٩٨ ... ٤٩٨ ... ٤٩٨
 الجلوس الأول — جلوسه في المجلس العام أيام المواكب ... ٤٩٨ ... ٤٩٨ ... ٤٩٨
 الجلوس الثاني — جلوسه للقاضي والشهود في ليالى الوقود الأربع
 من كل سنة ... ٥٠١ ... ٥٠١ ... ٥٠١
 الجلوس الثالث — جلوسه في مولد النبي صلى الله عليه وسلم ... ٥٠٢ ... ٥٠٢ ... ٥٠٢
 الضرب الثاني — ركوبه في المواكب؛ وهو على نوعين ... ٥٠٣ ... ٥٠٣ ... ٥٠٣
 النوع الأول — ركوبه في المواكب العظام، وهي ستة مواكب ... ٥٠٣ ... ٥٠٣ ... ٥٠٣
 الموكب الأول — ركوب أول العام ... ٥٠٣ ... ٥٠٣ ... ٥٠٣
 الموكب الثاني — ركوب أول شهر رمضان ... ٥٠٩ ... ٥٠٩ ... ٥٠٩
 الموكب الثالث — ركوبه في أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان ... ٥٠٩ ... ٥٠٩ ... ٥٠٩
 الموكب الرابع — ركوبه لصلاة عيدى الفطر والأضحي ... ٥١٢ ... ٥١٢ ... ٥١٢
 الموكب الخامس — ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل ... ٥١٦ ... ٥١٦ ... ٥١٦
 الموكب السادس — ركوبه لفتح الخليج ... ٥١٨ ... ٥١٨ ... ٥١٨
 النوع الثاني — من مواكبهم المواكب المختصرة في أثناء السنة ... ٥٢١ ... ٥٢١ ... ٥٢١
 الضرب الثالث — من هيئة الخليفة هيئته في قصوره ... ٥٢٢ ... ٥٢٢ ... ٥٢٢
 الجملة السادسة — في اهتمامهم بالأساطيل، وحفظ الثغور، واعتنائهم بأمر
 الجهاد، وسيرهم في رعاياهم، واستمالة قلوب مخالفينهم ... ٥٢٣ ... ٥٢٣ ... ٥٢٣
 الجملة السابعة — في إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدولتهم
 وما يتصل بذلك من الطعمة ... ٥٢٥ ... ٥٢٥ ... ٥٢٥

وأما الطعنة - فعلى ضربين ٥٢٧

الضرب الأول - الأسمطة التي تمتد في شهر رمضان والعيد ... ٥٢٧

الضرب الثاني - فيما كان يعمل بدار الفطرة في عيد الفطر ... ٥٢٨

في جلوس الوزير للظالم الخ ... ٥٢٩

ما عليه ترتيب المملكة: من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا،

صَحاح الألف

الجزء الرابع

دار الكتب الخديوية

كتاب

صحيح الأئمة

نالت

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الرابع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
س ١٣٣٢ هـ
٣ ١٩١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحالة الثالثة

من أحوال المملكة ، ما عليه ترتيب المملكة

(من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الْإِيوِيَّةَ لَمَّا طَرَأَتْ عَلَى الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ وَخَلَفَتْهَا فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، خَالَفَتْهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ تَرْتِيبِ الْمَمْلَكَةِ ، وَغَيَّرَتْ غَالِبَ مَعَالِمِهَا ، وَجَرَتْ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الدَّوْلَةُ الْأَتَابِكِيَّةُ عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي بِالْمَوْصِلِ ، ثُمَّ وَلَدَهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ نُورُ الدِّينِ مَحْمُودٌ بِالشَّامِ وَمَا مَعَهُ ؛ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ يَلْبَسُونَ الْكَلَوَاتِ الصُّفْرَ عَلَى رُءُوسِهِمْ مَكْشُوفَةً بِغَيْرِ عِمَائِمٍ ، وَذَوَائِبُ شَعُورِهِمْ مُرْخَاةٌ تَحْتَهَا سِوَاءٌ فِي ذَلِكَ الْمَالِكِ وَالْأَمْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ . حَتَّى يَحْكِيَ عَنِ الْمَلِكِ الْمَعْظُمِ عَيْسَى بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ صَاحِبِ دِمَشْقَ فِي أَطْرَاحِ التَّكْلِيفِ : أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ الْكَلَوَةَ الصُّفْرَاءُ بِلَا شَاشٍ ، وَيَخْتَرِقُ الْأَسْوَاقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُطَرَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَكَانَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي حِينَ مَلَكَ الْمَوْصِلَ بَعْدَ أَبِيهِ أَحَدَثَ حَمْلَ السَّنَجَقِ عَلَى رَأْسِهِ ، فَتَبِعَهُ الْمُلُوكُ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَلْزَمَ الْأَجْنَادَ أَنْ يَشْدُوا السِّيُوفَ فِي أَوْسَاطِهِمْ ، وَيَجْعَلُوا الدَّبَابِيسَ تَحْتَ رُكْبِهِمْ عِنْدَ الرُّكُوبِ كَمَا حَكَاهُ السُّلْطَانُ عِمَادُ الدِّينِ صَاحِبُ حِمَاةٍ فِي تَارِيخِهِ .

فلما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الديار المصرية، جرى على هذا المنهج أو ما قاربته، وجاءت الدولة التركية، وقد تنقحت المملكة وترتبت، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك وقيام أبيته، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذب وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك، وفخر ملكها على سائر الملوك .

ولم يزل السلطان والجند يلبسون الكلوة الصفراء بغير عمامة إلى أن ولي السلطان "الملك الأشرف خليل" بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، فأحدث الشاش عليها بجات في نهاية من الحسن، وصاروا يلبسونها فوق الذوائب الشعر المُرخاة على ما كان عليه الأمر أولاً إلى أن حج السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون في سلطته الثالثة، فخلق رأسه وخلق الناس رؤوسهم، وأستداموا خلق رؤوسهم وترك ذوائب الشعر إلى الآن .

ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد .

المقصود الأول

(في ذكر رسوم الملك وآلاته ؛ وهو أنواع كثيرة، بعضها عام في الملوك

أوأكثرهم، وبعضها خاص بهذه المملكة)

منها - (سرير الملك) ويقال له تحت الملك . وهو من الأمور العامة للملوك ، وقد تقدم أن أول من اتخذ مرتبة للجلوس عليها في الإسلام معاوية رضي الله عنه حين بدن ، ثم تنافس الخلفاء والملوك بعده في الإسلام في ذلك حتى اتخذوا الأسرة، وكانت أسرة خلفاء بني العباس ببغداد يبلغ علوها نحو سبعة أذرع . وهو في هذه المملكة منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذي يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر

الجوامع إلا أنه مستند إلى الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رُسل عليه ونحو ذلك ، وفي سائر الأيام يجلس على كرسي من خشب مغشى بالحريز ، إذا أرخى رجليه كادت أن تلحقا الأرض ، وفي داخل قصوره يجلس على كرسي صغير من حديد يحمل معه إلى حيث يجلس .

ومنها - (المقصورة) للصلاة في الجامع . وقد تقدم في الكلام على ترتيب الخلافة أن أول من اتخذها في الإسلام معاوية ، وقد صارت سنة ملوك الإسلام بعد ذلك تميزا للسلطان عن غيره من الرعية ، وهي في هذه المملكة مقصورة بجامع قلعة الجبل على القرب من المنبر متخذة من شبك حديد محكمة الصنعة ، يصل فيها السلطان ومن معه من أخصاء خاصيته يوم الجمعة .

ومنها - (نقش اسم السلطان) على ما ينسج ويرقم من الكسوة والطرز المتخذة من الحرير أو الذهب بلون مخالف للون القماش أو الطرز لتصير الثياب والطرز السلطانية مميزة عن غيرها ، تنويها بقدر لابسها : من السلطان أو من يشرفه بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلك . ولذلك دار مفردة بعمله بالإسكندرية تعرف بدار الطراز ، وعلى ذلك كانت خلفاء الدولتين : بنى أمية وبنى العباس حين كانت الخلافة قائمة .

ومنها - (الغاشية) . وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يحالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا ، وهي من خواص هذه المملكة .

ومنها - (المظلة) . ويعبر عنها بالختر (بحجم مكسورة ، فدتبدل شيئا معجمة ، وتاء مثناة فوق) ، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة

مَطْلِيَّةٌ بالذهب، تحمل على رأسه في العيدين . وهي من بقايا الدولة الفاطمية، وقد تقدم الكلام عليها مبسوطا في الكلام على ترتيب مملكتهم .

ومنها - (الرَّقَبَةُ) . وهي رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب بحيث لا يرى الأطلس تراكم الذهب عليها، تجعل على رقبة الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس إلى نهاية عُرفه، وهي من خواص هذه المملكة .

ومنها - (الحفَّة) . وهما اثنتان من أوشاقية إصطبله قريبان في السن، عليهما قباءان أصفران من حرير بطراز من زركش، وعلى رأسيهما قُبَعَتَانِ من زركش، وتحتهما فرسان أشهبان برهبتين وعُدَّة، نظير ما للسلطان راكب به كأنهما معدان لأن يركبهما، يركبان أمانه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير ونحو ذلك، وهما من خواص هذه المملكة .

ومنها - (الأعلام) . وهي عدَّة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان وأسمه، وتسمى العِصَابَة ؛ وراية عظيمة في رأسها خُصْلَةٌ من الشعر تسمى الجاليش ؛ ورايات صُفْر صغار تسمى السَّناجِقُ .

قال السلطان عماد الدين صاحب حمّة في تاريخه : وأول من حَمَلَ السنجق على رأسه من الملوك في ركوبه غازي بن زنكي، وهو أخو السلطان نور الدين محمود ابن زنكي صاحب الشام .

ومنها - (الطبلخاناه) . وهي طبول متعدّدة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تدقُّ في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب، وهي من الآلات العامة لجميع الملوك . ويقال إن الإسكندر^(١)

كان معه أربعون رجلاً طبلخاناه، وقد كتب أرسطو في "كتاب السياسة" الذي كتبه للإسكندر أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، والذي ذهب إليه بعض المحققين أن السر في ذلك أن في أصواتها تهيجاً للنفس عند الحرب وتقوية الجأش كما تتفعل الإبل بالحداء ونحو ذلك.

ومنها - (الكوسات) . وهي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدقُّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبولٌ وشبابة، يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة، ومرة قبل التسبيح على المواد^(١)، وتسمى الدّورة بذلك في القلعة، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه.

ومنها - (الخيام والفساطيط) في الأسفار. ولهذا السلطان من ذلك المدد الكبير، تتخذ له الخيام العظيمة الشأن المختلفة المقادير والصنعة من القطن الشامي الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان مما يدهش بحسنه العقول: لينوب مناب قصورهم في الإقامة، وسيأتي ذكر أمور أخرى من آلات الملك سوى ما تقدّم منفردة في أماكنها إن شاء الله تعالى.

المقصد الثاني

(في حواصل السلطان، وهي على أربعة أنواع^(٢))

النوع الأول

(الحواصل المعبر عنها بالبيوت)

وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالطشت خاناه، والشراب خاناه

(١) صوابه المآذن وكثيراً ما يجارى لغة العامة.

(٢) يظهر أن هذا النوع من النسخ فإنه في الضوء لم يذكر التنوع وإنما قسم الحواصل إلى البيوت الثمانية فقط ثم أتبعها بالمقصد الثالث.

ونحوهما؛ وخاناه لفظ فارسيّ معناه البيت، والمعنى بيت كذا إلا أنهم يؤخرون
المضاف عن المضاف إليه على عادة العجم في ذلك، وهي ثمانية بيوت .

الأول - (الشَّرَابْ خَانَاه) . ومعناها بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة
المُرَصَّدَةِ لخاصّ السلطان، والمشروب الخاص من السكر والأقسما وغير ذلك، وفيها
يكون السكر المخصوص بالمشروب، وبها الأواني النفيسة من الصّينيّ الفاتر من
اللازوردى وغيره مما تساوى السكرجة الواحدة اللطيفة منه ألف درهم فما حوله .
ووظيفة الشاد بها تكون لأمر من أكابر أمراء المئين الخاصكية المؤمنين، ولها
مِهتار يعرف بمهتار الشراب خاناه متسلّم لحواصلها، له مكانة عليّة، وتحت يده غلمان
عنده برسم الخدّمة، يُطالِق على كل منهم شراب دار، وسيأتي في الكلام على الألقاب
في المقالة الثالثة معنى الإضافة إلى الدار في ذلك ونحوه .

الثاني - (الطَّشْتْ خَانَاه) . ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون
الطَّشْت الذي تغسل فيه الأيدي والطَّشْت الذي يُغسل فيه القماش، وقد غلب
عليهم استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع
فتح الطاء، وأصله طُسّ بسين مشدّدة فأبدلت من إحدى السينين تاء للاستتقال .
فإذا جُمع أو صُغِرَ، رُدّت السين إلى أصلها، فيقال في الجمع طِسّاس وطُسُوس،
وفي التصغير طُسيّس . قال الجوهريّ : ويقال فيه أيضا طَسّة، ويجمع على طَسّات،
والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه على طاسات، ويجعلون الطَّشْت اسمًا لنوع
خاص، والطاسة اسمًا لنوع خاص .

وفي الطَّشْتْ خَانَاه يكون ما يلبسه السلطان من الكلوثة والأقيّة وسائر الثياب
والسيف والخفّ والسرموزة وغير ذلك .

وفيها يكون ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخاد والسجادات التي يصلّي عليها وما شاكل ذلك، ولها أيضا مهتار من كبار المهتارية، يعرف بمهتار الطشت خاناه، وتحت يديه عدة غلمان بعضهم يعرفون بالطشت دارية، وبعضهم يعرف بالرختوانية. وله التحدث في تفرقة اللحم على الممالك السلطانية من الحوائج خاناه وإقامة قباض اللحم، ويطلق على كل من غلمان الطشت خاناه وقباض اللحم بابا، وهي لفظة رومية بمعنى الأب، أطلقوها على مهتار الطشت خاناه تعظيما له، ثم غلبت على من عداه، ولغلمانها دُرْبَةٌ بترتيب الأحمال التي تحمل على ظهور البغال للزينة في المواكب العظيمة ونحوها، يأتون فيها من بديع الصنعة والتعاليق الغريبة بكل عجيب، وهم يتباهون بذلك، ويسامى بعضهم بعضا فيه.

الثالث - (الفراش خاناه). ومعناها بيت الفراش، وتشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام، ولها مهتار يعرف بمهتار الفراش خاناه، وتحت يده جماعة من الغلمان مستكثرة مرصدون للخدمة فيها في السفر والحضر يعبر عنهم بالفراشين، وهم من أشهر الغلمان وأنهمهم، ولهم دُرْبَةٌ عظيمة في نصب الخيام حتى إن الواحد منهم ربما أقام الخيمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له في ذلك، ولهم معرفة تامة بشد الأحمال التي تحمل في المواكب على ظهور البغال، يبلغ الحمل منها نحو خمسة عشرة ذراعا.

الرابع - (السلّاح خاناه). ومعناها بيت السلاح، وربما قيل الزرد خاناه ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السلاح: من السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد المانع، والقرقات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك

من الأطبار وسائر أنواع السلاح ، ويقلُّ بها قسيّ الرّجل والركّاب لعدم معاناتها بالديار المصرية ، وإنّما تكثّر بالثغور كالإسكندريّة وغيرها ، وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بنجّازن السلاح من الأسلحة ، يجعل على رؤوس الحمالين ويُرَفُّ إلى القلعة ويكون يوما مشهودا ، وفي هذه السلاح خاناه من الصّناع المقيمين بها لإصلاح العدّد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة ، ويسمّى صانع ذلك الزردكاش ، وهي لفظة عجمية وكان معناها صانع الزرد ، ولها غلمان أخرى وفراشون بسبب خدمة القماش وأتقاده .

الخامس - (الركّاب خاناه) . ومعناها بيت الركاب ، وتشتمل على عدّد الخيل من السروج ، والجم ، والكّابيش ، وعى المراكيب ، والعبي الإصطبلات ، والأجّلال ، والمخالي وغير ذلك من الأصناف التي يطول ذكرها ، وفيها من السروج المغشّاة بالذهب والفضة المطلية والساذجة والكّابيش المتخذة من الذهب المزركش المزهرّة بالريش ، وغير المزهرة ، والعبي المتخذة من الحرير وصوف السهك ، وغير ذلك من نفائس العدّد والمراكيب ما يحير العقول ويدهش البصر ، مما لا يقدر على مثله إلا عظماء الملوك . ولها مهتار متسلم لحواصلها يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه ، وتحت يده رجال لمعاصده على ذلك .

السادس - (الحوائج خاناه) . ومعناها بيت الحوائج ، وليست على هيئة البيوت المتقدمة مشتملة على حاصل معين ، وإنّما لها جهة تحت يد الوزير منها يصرف اللّحم الراتب للطبخ السلطانيّ والدور السلطانية ورواتب الأمراء والممالك السلطانية وسائر الجند والمتعمّمين ، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ

(١) لم نعر على حيوان بهذا الاسم ولعله مصحف عن السمند .

أسماءهم الدفاتر، وكذلك تَوَابِلُ الطعام للطبخ السلطانيّ والدور السلطانية، ومن له تَوَابِلُ مرتبة من الأمراء وغيرهم، والزيت للوقود، والحبوب، وغير ذلك من الأصناف المتعددة؛ ولها مباشرون منفردون بها يضبطون أسماء أرباب المستحقّات ومقادير استحقاقهم، وهي من أوسع جهات الصرف حتى إن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم في كل يوم خارجا عما عداه من الأصناف، وربما زاد على ذلك.

السابع - (المطبخ). وهو الذي يُطَبَخُ فيه طعام السلطان الراتب في الغداء والعشاء والطارئ في الليل والنهار والأسمطة التي تمدّ بالإيوان الكبير بدار العدل في أيام المواكب، ويحمل إليه اللحم والتوابل وسائر الأصناف من الحوائج خاناه المتقدمة الذكر بقدر معلوم مرتب؛ يُستهلك فيه في كل يوم قناطير مقنطرة من اللحم والدجاج والإوز والأطعمة الفاخرة؛ وله أمير من الأمراء يحكم عليه يسمى أستاذار الصحبة وتحت يده آخر يعبر عنه بالمشرف؛ وله طبّاخ كبير معتبر يعبر عنه بأسباسلار.

الثامن - (الطبخانة). ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات؛ ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمر علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ويتولّى أمرها في السفر؛ ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبخانة؛ وله رجال تحت يده ما بين دبندار: وهو الذي يضرب على الطبل، ومُنْفَر وهو الذي يضرب بالبوق، وكُوسِيٌّ، وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصنّاع.

المَقْصِد الثالث

(في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم انتظام المملكة)

وقيام المُلْك ؛ وهم على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(أرباب السيوف ؛ والنظر فيهم من وجهين)

الوجه الأول

(مراتبهم على سبيل الإجمال ؛ وهي على نوعين)

النوع الأول

(الأمراء ؛ وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى - أمراء المِثْنين مقدمو الألوف ، وعدة كل منهم مائة فارس .

قال في "مسالك الأبصار" : وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين ؛ وله التَّقدِّمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب . ثم الذي كان آسَفتَر عليه قاعدة المملكة في الروك الناصري محمد بن قلاوون ، وما بعده إلى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ، أن يكون بالديار المصرية أربعة وعشرون مقدما ، ولما آسَجت في الدولة الظاهرية الديوان المفرد لخاص السلطان وأُفرد له عدة كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين ، نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه ، وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدما بما في ذلك من نائب الإسكندرية ونائبي الوجهين : القبلي والبحري .

الطبقة الثانية - أمراء الطبلخانا ، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارسا .
قال في "مسالك الأبصار" : وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارسا ،
بل ذكر في "التعريف" في أواخر المكاتبات أنه يكون للواحد منهم ثمانون فارسا .
قال في "مسالك الأبصار" : ولا تكون الطبلخانا لأقل من أربعين ، وهذه الطبقة
لاضابط لعدة أمراءها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخانا
بفعلت إمرة عشرين أو أربع عشرات ، أؤضم بعض العشرات ونحوها إلى بعض
وجعلت طبلخانا ، ومن أمراء الطبلخانا تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف
والكشّاف بالأعمال ، وأكابر الولاية .

الطبقة الثالثة - أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس . قال في "مسالك
الأبصار" : وربما كان فيهم من له عشرون فارسا ولا يعدّ إلا في أمراء العشرات ،
وهذه الطبقة أيضا لاضابط لعدد أمراءها بل تزيد وتنقص كما تقدّم في الكلام على أمراء
الطبلخانا ، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاية ونحوهم من أرباب الوظائف .
الطبقة الرابعة - أمراء الخمسات . وهم أقل من القليل خصوصا بالديار المصرية ،
وأكثر ما يقع ذلك في أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعاية لسلفهم ، وهم في الحقيقة
كأكابر الأجناد .

النوع الثاني

(الأجناد ؛ وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى - الممالك السلطانية . وهم أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ،
وأشدّهم إلى السلطان قربا ، وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة ،

وهم في العدة بحسب ما يؤثّرهُ السلطان من الكثرة والقلة ، وقد كان لهم في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم في أيام السلطان الملك الظاهر برقوق العدد الجَمّ والمدد الوافر لطول مدة ملكهما واعتنائهما بجلب الممالك ومشتراها .

الطبقة الثانية - أجناد الحلقة . وهم عدد جَمّ وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات ، وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يُحاط بعبّته ويطلع إليه . قال في "مسالك الأبصار" : ولكل أربعين نفساً منهم مقدّم منهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه ، وترتيبهم في موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهايز السلطان في السفر كالحرس ، وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب .

الوجه الثاني

(في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدم ذكرهم ، وهم على نوعين)

النوع الأول

(من هو بحضرة السلطان ، وهي خمسة وعشرون وظيفة)

الأولى - النيابة . ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية . قال في "التعريف" : وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير ، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان ، وسائر التواقيع لا يعلم الرجل منهم إلا على ما يتعلق بخاصة نيابته . قال : وهذه رتبة

لا يخفى ما فيها من التمييز . قال في "مسالك الأبصار" : وجميع ثواب الممالك تكتبه فيما تكتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يرآجع السلطان ، ويستخدم الجند من غير مشاورة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وقل أن لا يجاب فيمن يُعينه ، وهو سلطانٌ مختصر بل هو السلطان الثاني . وعادته أن يركب بالعسكر في أيام المواكب وينزل الجميع في خدمته . فإذا مثل في حضرة السلطان ، وقف في ركن الإيوان . فإذا آنقضت الخدمة ، خرج إلى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويجلس جلوسا عاما للناس ، ويحضره أرباب الوظائف ، ويقف قدّامه الحجاب ، وتقرأ عليه القصص ، ثم يمد الساط للأمرء كما يمد لهم السلطان فيأكلون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان يتصدى لقراءة القصص ، وسماع الشكاوى بنفسه ، ويأمر في ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه ، ولكنه لا يستبد بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه بل يكتب بإشارته وينبه على ذلك ، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك .

أما ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ، ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمر من الأمور ، وما كان من الأمور المعضلة التي لا بد من إحاطة علم السلطان بها فإنه يعلمها بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله إليه . هذا آخر كلامه في "المسالك" غير أن هذا النائب تارة ينصب وتارة يعطّل جيد الملكة منه ؛ وعلى هذا كان الحال في الأيام الناصرية ابن قلاوون تارة وتارة وكذا الحال في زماننا . وإذا كان متصباً ، أخصّ بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض ، ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له وناظر الجيش ملازم السلطان .

قال في "التعريف" : أما نائب الغيبة : وهو الذي يترك إذا غاب السلطان

(١) كذا في الضوء أيضاً ومراده يترك وشأنه في الحكم .

والنائب الكافل، وليس إلا لإيجاد الثوائر وخلص الحقوق، فحكمه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء .

الثانية - الأتابكية . ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر . قال السلطان عماد الدين في "تاريخه" : وأصله أطابك ومعناه الولد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولقبه بالقباب منها هذا؛ وقيل أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى، وغايته رفعة المحلّ وعلو المقام .

الثالثة - وظيفة رأس نوبة . وموضوعها الحكم على الممالك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحدٌ مقدّم ألف وثلاثةٌ طبلخاناه .

الرابعة - إمرة مجلس . وموضوعها (١) وهو يتحدّث على الأطباء والكهّالين، ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً .

الخامسة - إمرة سلاح . وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في الجامع الجامعة، وصاحبها هو المقدم على السلاح دارية من الممالك السلطانية والمتحدّث في السلاح خاناه السلطانية ، وما يُستعمل لها ويقدم إليها ، ولا يكون إلا واحداً من الأمراء المقدمين .

السادسة - إمرة أخورية . وموضوعها التحدّث على إصطبل السلطان وخيوله، وعادتها مقدّم ألف يكون متحدّثاً فيها حديثاً عاماً، وهو الذي يكون ساكناً

(١) بياض بالأصل ولعله وموضوعها تولى أمور مجلس السلطان .

بإصطبل السلطان، ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه . أما أمراء العشرات والجند، فغير محصورين .

السابعة - الدَّوَادِرِيَّة . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عاقمة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكتب السر، ويأخذ الخط على عاقمة المناشير والتواقيع والكتب . وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء برسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب ، وسيأتي بيان ذلك فيما يكتب بالرسائل في الكلام على قوانين ديوان الإنشاء إن شاء الله تعالى .

وفي هذه الوظيفة عدة من الأمراء والجند ، وقد كانت في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما تلاها ليس فيها أميرٌ مقدّم ألف ، ثم آل الأمر إلى أن صار الأعلى منهم مقدّم ألف ، ونائبه طبلخاناه . وأول من استقرّ في وظيفة الدَّوَادِرِيَّة من الأمراء الألوف طغتمر النجمي في الدولة الناصرية حسن ، ثم صار غالب من يليها ألوف ، وربما كان طبلخاناه أحيانا .

الثامنة - الجُوبِيَّة . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها أن صاحبها يُنصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك ، والذي جرت به العادة خمسة حُجَّاب ، آثنان من مقدّمى الألوف : وهما حاجب الحُجَّاب هو المشار إليه من الباب الشريف ، والقائم مقام النائب في كثير من الأمور . وأعلم أن هذا الاسم أول ما حدث في الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان موضوعها إذ ذاك حجب السلطان عن العامة ، ويُغلق بابه دونهم أو يفتح لهم على قدره في مواقيته ،

(١) في الكلام سقط ظاهر ولعل الأصل "حاجب الحجاب ونائبه وحاجب الحجاب هو الخ" تأمل .

ثم تبعهم بنو العبّاس على ذلك . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أنه كان للمقتدر سبعائة حاجب . هذا وكانت الخلافة قد أخذت في الضعف ، وهو خلاف موضوعها الآن ، وفيها بمالك المغرب معانٍ أخرى يأتي ذكرها عند الكلام على ممالكها إن شاء الله تعالى .

التاسعة - إمرة جاندار . وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . قال في "مسالك الأبصار" : ويقدم البريد مع الدوادار وكتب السر . قال : وصاحبها كالمسلم للباب ، وله به البرددارية وطوائف الركابية والخازندارية . وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أوقته كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ، وهو المسلم للزردخانه التي هي أرفع قدرا في الاعتقالات ، ولا تطول مدة المعتقل بها ، بل إما يعجل بتخليه أو إتلاف نفسه ؛ وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يطوف بالزفة حول السلطان في سفره ، وقد جرت العادة أن يكون فيها أميران : مقدم ألف ، وطبلخانه ، والمشار إليه هو المقدم .

العاشر - الاستادارية . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشرابخانه والحاشية والعلمان ، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ، ويحكم في غلمانه وباب داره ، وإليه أمر الجاشنكيرية ، وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوى الإيئين ، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك للمالك وغيرهم . وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة : واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخانه ، وربما تقصوا عن ذلك .

(١) جمع الكسوة كسًا وكسًا . فسا في الاصل جار على اصطلاح العامة .

الحادية عشرة - الجاشنكيرية . وموضوعها التحدث في أمر السّماط مع الاستادار على ما تقدّمت الإشارة إليه ، ويقف على السّماط مع أستاذار الصحبة ، وأكبرهم يكون من الأمراء المقدمين .

الثانية عشرة - الخازندرية . وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وفضّاش وغير ذلك ، وكانت عاداتها طبلخاناه ، ثم استقرت مقدمة ألف ، ويطلبه في حساب ذلك ناظر الخالص الآتي ذكره .

الثالثة عشرة - شدّ الشراب خاناه . وموضوعها التحدث في أمر الشراب خاناه السلطانية وما عمل إليها من السّكر والمشروب والقواكه وغير ذلك ، وتارة يكون مقدّما ، وتارة يكون طبلخاناه .

الرابعة عشرة - أستاذارية الصحبة . وموضوعها التحدث على المطبخ السلطاني والإشراف على الطعام والمشى أمامه والوقوف على السّماط ، والعادة أن يكون صاحبها أمير عشرة .

الخامسة عشرة - تقدمة الممالك . وموضوعها التحدث على الممالك السلطانية والحكم فيهم ، ولا يكون صاحبها إلا من الخدام ، والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه ، وله نائب أمير عشرة .

السادسة عشرة - زمامية الدور السلطانية . وصاحبها من أكبر الخدام ، وهو المعبر عنه بالزّمام ، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه .

السابعة عشرة - رقابة الجيوش . قال في "مسالك الأبصار" : وهي موضوعة لتحلية الجند في عزمهم ، ومعه يمشى الثّقباء ، وإذا طلب السلطان أو النائب

أو الحاجب أميرا أو غيره، أحضره . قال : وهو كأحد الحُجَّاب الصغار، وله التَّطَلُّب بالحراسة في الموكب والسفر .

الثامنة عشرة - المهندارية . وموضوعها تَلَقِّي الرسل الواردين وأمراء العُربان وغيرهم ممن يردُّ من أهل المملكة وغيرها .

التاسعة عشرة - شَدِّ الدواوين . وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدثا في استخلاص الأموال، وما في معنى ذلك ؛ وعادتها إمرة عشرة .

العشرون - إمرة طَبَر . وموضوعها أن يكون صاحبها حاملا الطَّبَر في الموكب، ويحكم على مَنْ دونه من الطَّبَر دارية ؛ وعادتها إمرة عشرة أيضا .

الحادية والعشرون - إمرة عَلم . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفا في أمرها ؛ وعادتها إمرة عشرة .

الثانية والعشرون - إمرة شكار . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا في الجوارح السلطانية من الطُّيُور وغيرها والصُّيُود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها ؛ وهي إمرة عشرة .

الثالثة والعشرون - حِرَاسَة الطير . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على حراسة الطيور من الكَرَكَي التي هي بصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها ؛ وهي إمرة عشرة .

الرابعة والعشرون - شَدِّ العُمَّار . وموضوعها أن يكون صاحبها متكلمًا في العُمَّار السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار ؛ وهي إمرة عشرة .

الخامسة والعشرون - الولاية . والولاية بالحاضرة على صنفين .

الصنف الأول

(وَلَاةُ الشُّرْطَةِ ، المعروفون في الديار المصرية بولاية الحرب ؛ وهم ثلاثة ،
بالقاهرة ، والفُسْطَاطُ المعروف بمصر ، والقَرَافَةُ)

فأما وإلى القاهرة ، فيحكم في القاهرة وضواحيها ، وهو أكبر الثلاثة وأعلامهم
رتبةً ، وعادته إمرة طبلخاناه .

وأما وإلى الفسْطَاط ، فيحكم في خاصّة مصر على نظير ما يحكم وإلى القاهرة
في بلده ؛ وعادته إمرة عشرة .

وأما وإلى القرافة ، فيحكم في القرافة التي هي تُرْبَةُ هَاتَيْنِ المدينتين بمراجعة وإلى
مصر ؛ وعادته إمرة عشرة . وقد أضيفت الآن القرافة إلى مصر ، وصارت ولاية
واحدة وجعلت إمرة طبلخاناه ولكنها لا تبلغ شأوا القاهرة .

الصنف الثاني

(وَلَاةُ الْقَلْعَةِ ، وهم آثَنان)

أحدهما - وإلى القلعة ، وهو أمير طبلخاناه ، وله التحدّث على باب القلعة الكبير
الذي منه طلوع عامّة العسكر ونزولهم في الفتح والغلق ونحو ذلك .

الثاني - وإلى باب القلعة ، وهو أمير عشرة ، وله التحدّث على الباب المذكور
وأهله كما لو إلى القلعة التحدّث على الباب الكبير المتقدم ذكره .

النوع الثاني

(ماهو خارج عن الحضرة السلطانية ، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(نواب السلطنة)

والذى بمصر الآن ثلاث نيابات ، جميعها مستحدثة عن قُرب .

الأولى - نيابة الإسكندرية . وهى نيابة جليلة تُصاهى نيابة طرابلس وحماة وصَفَد من المملكة الشامية الآتى ذكرها ، وبها كرسى سلطنة ونمجاه سلطانية توضع على الكرسى ، ونائبها من الأمراء المقدمين يركب فى المواكب بالشبابة السلطانية ، ومعه أجناد الحلقة المرتبون بها ، ويخرج فى موكبهِ إلى ظاهر الإسكندرية خارج باب البحر، ويجتمع إليه الأمراء المسيرون بها هناك ، ثم يعود وهم معه إلى دار النيابة، ويمد السباط السلطانيّ، ويأكل عليه الأمراء والأجناد، ويحضره القضاة ، وتقرأ القصص على عادة النيابات ثم ينصرفون .

وكان ابتداء ترتيب هذه النيابة فى سنة سبع وستين وسبعائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرّق العدو المخذول من الفرنج الإسكندرية وفتكوا بأهلها وقتلوا منهم الخلق العظيم ونهبوا الأموال الجمة ، وكانت قبل ذلك ولاية تُعدّ فى حملة الولايات ، وكان لوالها الرتبة الجليلة والمكانة العلية من أكابر أمراء الطليخاناه .

الثانية - نيابة الوجه القبلى . وهى مما استُحدثت فى الدولة الظاهرية بقوق ، وهو فى رتبة نيابة الوجه البحرى بل أعظم خطراً منه ، ومقر نيابته مدينة أسيوط المتقدم ذكرها ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها ، وهى فى الترتيب على

ما تقدم من نيابة الوجه البحرى ، وكانت قبل ذلك كاشفا يطلق عليه والى الولاية كما كان فى الوجه البحرى .

الثالثة - نيابة الوجه البحرى . وهى مما أستحدث فى الدولة الظاهرية أيضا ، ونائبها من الأمراء المقدمين ، وهو فى رتبة مقدم العسكر بغزة الآتى ذكرها ، ومقر نائبها دمنهور مدينة البحيرة المتقدم ذكرها ؛ وليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة ولاية حرب كبيرة ، وقد كان القائم بها قبل ذلك كاشفا يطلق عليه والى الولاية ولم يكن له مقررة خاصة .

الطبقة الثانية

(الكشاف)

قد تقدم أنه قبل النيابة بالوجهين القبلى والبحرى كان بهما كاشفان ، ولما استقرت النيابة بهما جعل للوجه البحرى كاشف من أمراء الطبلخاناه على العادة المتقدمة ، يتحدث فى بلاده ماعدا عمل البحيرة لقربه من نائب الوجه البحرى ، وجعل كاشف آخر من رتبته لعمل الفيوم وعطل من والى ، وأضيف إليه عمل البهنسى أيضا ؛ وسائر الوجه القبلى أمره راجع إلى نائبه المتقدم ذكره .

الطبقة الثالثة

(الولاية بالوجهين : القبلي والبحري)

وقد تقدم ذكر أعمالهما . ومراتب الولاية بهما لا تخرج عن مرتبتين .

المرتبة الأولى

(١) أمراء الطبلخاناه، وهي سبع ولايات بالوجهين : القبلي والبحري)

فأما الوجه القبلي ففيه أربع ولاة من هذه الرتبة .

الأول - والى البنسى، وهي أقرب ولاية الطبلخاناه بهذا الوجه الآن إلى القاهرة .

الثاني - والى الأشمونين .

الثالث - والى قوص وإنجيم، وهو أعظم ولاية الوجه القبلي حتى إنه يركب في المواكب بالشبابة السلطانية أسوة النواب بالملك .

الرابع - والى أسوان، وهو محدث في الدولة الظاهرية برقوق، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والى قوص، وكانت ولاية الفيوم طبلخاناه آستقرت كشفا على ما تقدم .

أما أسنوط، فلم يكن بها ولاية لكونها كانت مستقر والى الولاية بالوجه القبلي، ثم صارت مستقر النائب به، وسيأتي بيان ما كان ولاية طبلخاناه، ثم نقل إلى العشرات .

وأما الوجه البحري ففيه أربعة ولاية من هذه الرتبة .

(١) لعله ثمان ولايات كما يظهر من عد الولاية بالوجهين .

الأول - والى الشرقية وهو والى بلبس .

الثانى - والى منوف .

الثالث - والى الغربية ، وهو والى المحلة ، ورتبته فى الوجه البحرى فى رفعة القدر تضاهى رتبة والى قوص فى الوجه القبلى .

الرابع - والى البحيرة ، وهو والى دمنهور .

وقد تقدم أن الإسكندرية قبل أن تستقر نيابة كان بها وال من أمراء الطبلخانا .

المرتبة الثانية

(من الولاية أمراء العشرات ، وهى سبعة ولاية بالوجهين)

فأما الوجه القبلى ففيه ثلاثة ولاية .

الأول - والى الجيزة ، وقد كان قبل ذلك طبلخانا ، ثم نقل إلى العشرات .

الثانى - والى إطفيح ، ولم يزل عشرة .

الثالث - والى منفوط ، وهو وإن كان الآن أمير عشرين فقد تقدم أن من دون الأربعين معدود فى العشرات . على أنها كانت قبل ذلك ولاية طبلخانا وحطت عن ذلك .

وقد كانت بعيداب فى الايام الناصرية وال أمير عشرة يولث من قبل السلطان ويراجع والى قوص فى الأمور المهمة .

وأما الوجه البحرى ، ففيه أربعة ولاية من هذه الرتبة .

- الأول - والى قَلْيُوبَ، ولم تزل ولايتها إمرة عشرة .
 الثانى - والى أُنْثُومَ، ولم تزل عشرة أيضا .
 الثالث - والى دِمِّيَاطَ .
 الرابع - والى قَطِيَا، وكان قبل ذلك طبلخاناه .

الضرب الثانى

(من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملةُ الأَقْلَامِ، وهم على نوعين)

النوع الأول

(أرباب الوظائف الديوانية، وهى كثيرة للناية لايسع استيفائها
 والمعتبر منها مما يجب الاقتصار عليه تسع وظائف ^(١))

الأولى - الوِزَارَةُ . وهى أجلُّ الوظائف وأرفعها رتبةً فى الحقيقة لولم تخرج
 عن موضوعها ويُعَدَّلَ بها عن قاعدتها . قال فى "مسالك الأبصار" : وربها ثانى
 السلطان لو أنْصَفَ وعُرفَ حقُّه، لكنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعدَ بها
 مكانُها حتى صار المتحدِّث فيها كناظر المال لا يتعدَّى الحديث فيه، ولا يتسع له
 فى التصرف مجال، ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لِتَطْلُعَ السلطان إلى الإحاطة بجزئيات
 الأحوال . قال : وقد صار يليها أناسٌ من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على
 قدر الإنفاق، وقطيعتها أشهر من أن تذكر .

قال : وكان هذا السلطان (يعنى الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله) قد أبطلها ،
 وصار ما كان يتحدَّث فيه الوزير منقسما إلى ثلاثة : ناظرِ المال - ومعه شاة الدواوين

(١) أوصلها فى العدد إلى ست وعشرين ومراوده أن المهم منها تسع وإن كان قد ذكر أكثر .

لتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاوص لتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين، وكتب السر للتوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورةً وأستقلالاً . قلت : ولما عادت الوزارة بعد ذلك ، صارت إلى ما كانت عليه من الاقتصار على التحدث في المال ، وبقيت كتابة السر على ما صارت إليه من التوقيع على القصص . دار العدل وغيرها . ثم إن كان الوزير صاحب قلم ، فهو المستقل بمباشرة الوظيفة نظرا وتنفيذا ومحاسبة على الأموال ، وإن كان صاحب سيف ، كان مقتصر على النظر والتنفيذ ، وكان أمر الحساب في الأموال راجعا إلى ناظر الدولة معه .

ثم لو وظيفة الوزارة أتباع كثيرة أجلها نظر الدولة وأستيفاء الصُحبة وأستيفاء الدولة . فأما نظر الدولة : وهو المعبر عنه في مصطلح الدواوين المعمورة بالصُحبة الشريفة فهو موضوعها أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه ، ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تعالىه . وإن كان الوزير صاحب سيف ، كان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات ، وما يتعلق بها والوزير مقتصر على النظر والتنفيذ .

وأما أستيفاء الصُحبة - فهي وظيفة جليلة رفيعة القدر . قال في "مسالك الأبصار" : وصاحبها يتحدث في جميع المملكة مصرًا وشامًا ، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان ، تارة تكون بما يعمل في البلاد ، وتارة بإطلاقات ، وتارة بأستخدامات كبار في صغار الأعمال ، وما يجري مجراه .

قال : وهذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكل من دواوين الأموال فهو فرع هذا الديوان وإليه يرجع حسابه ومنتهاى أسبابه .

وأما آستيفاء الدولة - فهي وظيفة رئيسية ، وعلى متوليها مدار أمور الدولة في الضبط والتحرير ومعرفة أصول الأموال ووجوه مصارفها ، ويكون فيها مستوفيان فأكثر .

الوظيفة الثانية - كتابة السر . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها ، وتصريف المراسيم ورودا وصَدْرًا ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها . وقد تقدم في الكلام على الوزارة أنه صار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه ، في أمور أخرى من التحدث في أمر البريد وتصريف البريدية والقُصَادِ ، ومشاركة الدَّوَادِرِ في أكثر الأمور السلطانية مما تقدم ذكره مفصلاً . وبديوانه كُتِّب الدَّسْتُ : وهم الذين يجلسون معه في دار العدل ويقرءون القصص على السلطان ويوقعون عليها بأمر السلطان ، وكُتِّب الدَّرَج : وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة ، وربما شاركهم كُتِّب الدست في ذلك .

الوظيفة الثالثة - نظر الخاص . وهي وظيفة محدثة ، أحدثها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله حين أبطل الوزارة على ما تقدم ذكره ، وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان . قال في "مسالك الأبصار" : وقد صار كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه ، وصار إليه تدير جملة الأمور وتعيين المباشرين يعني في زمن تعطيل الوزارة . قال : وصاحب هذه الوظيفة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان . ولناظر الخاص أتباع من كُتِّب ديوان الخاص كمستوفي الخاص ، وناظر خزانة الخاص ونحو ذلك مما لا يسع آستيعابه .

الوظيفة الرابعة - نظر الجيش . وموضوعها التحدث في أمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطه ؛ وهي وظيفة

جلیلة رفیعة المقدار ، و دیوانها أول دیوان وُضع فی الإسلام بعد النبی صلی الله علیه وسلم فی خلافة عمر . قال الزُّهری : قال سعید بن المسیب : وذلك فی سنة عشرين من الهجرة ، و سیأتی الكلام علی ما یتعلق بها فی الكلام علی كتابة المناشير فی المقالة السادسة إن شاء الله تعالى . ولناظر الجيش أتباع بديوانه یولّون عن السلطان ، كصاحب دیوان الجيش وکتابه وشهوده ، وكذلك صاحب دیوان الممالیک ، وکاتب الممالیک وشهود الممالیک . فإن الممالیک السلطانية فرع من الجيش ونظرهم راجع إلى ناظر الجيش .

الوظيفة الخامسة - نظر الدواوين المعمورة والصحبة الشریفة . وهو المعبر عنه بناظر الدولة ، وموضوعها التحدث فی کل ما یتحدث فیہ الوزير ، وکل ما کتب فیہ الوزير کتب فیہ هو ، یکتب فیہ بمثل مارسم به .

الوظيفة السادسة - نظر الخزانة . قال فی "مسالك الأبصار" : وكانت أولا کبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملکة ، فلما استحدثت وظيفة الخاص ، صغر أمر الخزانة ، وسمیت بالخزانة الکبری ، وهو اسم فوق مسماه . قال : ولم یکن بها الآن إلا خلع تخلع منها أو ما یحضر إليها ویصرف أولا فأولا ، وفی الغالب یكون ناظرها من القضاة أو من یتحقق بهم ، ولناظر الخزانة أتباع یولّون عن السلطان كصاحب دیوان الخزانة .

الوظيفة السابعة - نظر البيوت والحاشية . وهو نظر جلیل ، وکل ما یتحدث فیہ الأستاذار له فیہ مشاركة فی التحدث فیہ ، وقد تقدم تفصیل حال وظيفة الأستاذارية .

الوظيفة الثامنة - نظر بیت المال . وموضوعها حمل حمول المملکة إلى بیت المال والتصرف فیہ تارة قبضا وصرفا وتارة بالتسویغ محضرا وصرفا . قال فی "مسالك الأبصار" : ولا یلیها إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة .

الوظيفة التاسعة - نظر الإصطبلات السلطانية . وموضوعها مباشرة إصطبلات السلطان والتحدّث في أنواع الخيول والبغال والدواب والجمال السلطانية ، وعليها وعُدتها ، وما لها من الاستعمالات والإطلاقات ، وكل ما يبتاع لها أو يباع منها ، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك .

الوظيفة العاشرة - نظر دار الضيافة والأسواق . وموضوعها التحدّث في أمر ما يتحصّل من سوق الخيل والرقيق ونحوهما ، وصرف ذلك في كلفة من يرد إلى الأبواب السلطانية من رُسل الملوك ونحوهم ، وصرف مرتبات مقررة لأناس في كل شهر ، والتحدّث فيها ولايةً وعزلاً وتنفيذاً راجعاً إلى الدّوادار ، وللوزير المشاركة معه في المتحصّل في شيء مخصوص .

الوظيفة الحادية عشرة - نظر خزائن السلاح . وموضوعها التحدّث على كل ما يستعمل من السلاح السلطاني ، وعادته أن يجمع ما يتحصّل من عمل كل سنة ويجهّز في يوم معين ، ويحمل على رؤوس الجمّالين إلى خزائن السلاح ، بالقلعة المحروسة ، ويخلع عليه وعلى رُفقته من المباشرين .

الوظيفة الثانية عشرة - نظر الأملاك السلطانية . وموضوعها التحدّث على الأملاك الخاصّة بالسلطان من ضياع وربّاع وغير ذلك .

الوظيفة الثالثة عشرة - نظر البهّار والكارمي^(١) . وموضوعها التحدّث على واصل التجار الكارميّة من اليمن من أصناف البهّار وأنواع المتجر ، وهي وظيفة جليّة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها ، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعاً لها ، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان .

(١) ربح في الضوء الكانمي بالنون وقال انه نسبة الى الكانم فرقة من السودان كان منهم طائفة مقيمة بمصر ينجرون في البهار من القفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم الى آخر ما قال فراجعه .

الوظيفة الرابعة عشرة - نظر الأهرء بمصر بالصناعة . وهى شونة الغلال السلطانية التى يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدث فيما يصل إليها من النواحي من الغلال وغيرها ، وما يُصرف منها على الإصطبلات الشريفة والمناخات السلطانية وغير ذلك .

الوظيفة الخامسة عشرة - نظر الموارث الحشرية . وموضوعها التحدث على ديوان الموارث الحشرية ممن يموت ولا وارث له ، أو وله وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث فى إطلاق جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .

الوظيفة السادسة عشرة - نظر الطواحين السلطانية بمصر بالصناعة أيضا . وهو مغلق عظيم فيه عشرة حجارة يخرج منها فى كل يوم نحو خمسين تليسا .

الوظيفة السابعة عشرة - نظر الحاصلات . وهو المعبر عنه بنظر الجهات ؛ وموضوعه التحدث فى أموال جهات الوزارة من متحصل ومصروف أو حمل لبيت المال وغيره .

الوظيفة الثامنة عشرة - نظر المرتجعات . وموضوعها التحدث على ما يرجع من يموت من الأمراء ونحو ذلك ، وقد رُفِضت هذه الوظيفة وتعطلت ولايتها فى الغالب وصار أمر المرتجع موقوفا على مستوفى المرتجع ، وهو الذى يحكم فى القضايا الديوانية ويفصلها على مصطلح الديوان ، وهو المعبر عنه بديوان السلطان .

الوظيفة التاسعة عشرة - نظر الخيزة . وموضوعها التحدث على ما يتحصل من عمل الخيزية التى هى خاص السلطان ، وهى فرع من فروع الدواوين .

الوظيفة العشرون - نظر الوجه القبلى . وموضوعها التحدث على بلاد الصعيد بأسرها مما يتحصل فيها من ميراث وغيره .

الوظيفة الحادية والعشرون - نظر الوجه البحرى . وموضوعها كموضوع نظر الوجه القبلى المتقدم ذكره .

الوظيفة الثانية والعشرون - صحابة ديوان الجيش . وموضوعها التحدث فى كل ما يتحدث فيه ناظر الجيش من أمر الإقطاعات .

الوظيفة الثالثة والعشرون - صحابة ديوان البيارستان . وموضوعها التحدث فى كل ما يتحدث فيه ناظر البيارستان .

الوظيفة الرابعة والعشرون - صحابة ديوان الأعباس . وصاحبها يكتب فى كل ما يكتب فيه ناظر الأعباس إلا أنها بطلت .

الوظيفة الخامسة والعشرون - استيفاء الصجبة .

استيفاء الدولة (١)

النوع الثانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ،

وهو منحصر فى خمس وظائف)

الوظيفة الأولى - قضاء القضاة . وموضوعها التحدث فى الأحكام الشرعية وتنفيذ قضايها ، والقيام بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم ، ونصب النواب

(١) تقدم الكلام عليها فى الكلام على توابع الوظيفة الأولى من هذا النوع وهى الوزارة فرأى أنه لا داعى الى الإعادة فلا سقط كما قد يتوهم .

للتحدث فيما عَسَّرَ عليه مباشرته بنفسه ؛ وهى أرفع الوظائف الدينية واعلاها قدرا وأجلها رتبة .

وأعلم أن الأمر فى الزمن الأول كان قاصرا على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان ، بل كان فى الدولة الفاطمية قاض واحد بالديار المصرية ، وأجناد الشام ، وبلاد المغرب ، مضاف إليه التحدث فى أمر الصلاة ودور الضرب وغير ذلك على ما استتقف عليه فى تقاليد بعض قضاتهم فى الكلام على تقاليد القضاة إن شاء الله تعالى ، ثم استقر الحال فى الأيام الظاهرية ببيرس فى سنة ثلاث وستين وستائة على أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة : الشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم ، وكان السبب فى ذلك فيما ذكره صاحب "نهاية الأرب" أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذ بيد القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز بمفرده ، وكان الأمير جمال الدين ايدغدى أحد أمراء السلطان الملك الظاهر المتقدم ذكره يعانده فى أموره ، ويغضُّ منه عند السلطان ، لتثبته فى الأمور وتوقفه فى الأحكام . فبينما السلطان ذات يوم جالس بدار العدل إذ رُفِعَتْ إليه قصة بسبب مكان باعه القاضى بدر الدين السنجارى ، ثم ادَّعى ذريته بعد وفاته أنه موقوف ، فأخذ الأمير ايدغدى يغضُّ من القضاة بحضرة السلطان ، فسكت السلطان لذلك ، ثم قال للقاضى تاج الدين : ما الحكم فى ذلك ؟ قال : إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع ، قال : فإن عجزت التركة عن ذلك ، قال : يوقف على حاله ، فامتعض لها السلطان وسكت ، ثم جرى فى المجلس ذكر أمور أخرى توقف القاضى فى تمشيتها ، وكان آخر الأمر أن الأمير ايدغدى حسنَ للسلطان نصب أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ففعل ، وأقر القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فى قضاء الشافعية ، وولى الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح

السبكي قضاء المالكية ، والقاضي بدر الدين بن سلمان قضاء الحنفية ، والقاضي شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم القدسي قضاء الحنابلة ، وجعل لهم الأربعة أن يؤثروا التواب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضي تاج الدين بالنظر في مال الأيتام والأوقاف ، وكتب له بذلك تقليد من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر أوله ” الحمد لله مجرد سيف الحق على من أعتدى “ . ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب التواب ، وإجلاس الشهود ، ويستقل الشافعي منهم بتولية التواب بنواحي الوجهين القبلي والبحري لا يشاركه فيه غيره .

الوظيفة الثانية - قضاء العسكر . وهي وظيفة جليلة قديمة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قاضي عسكره بهاء الدين بن (١) وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاة المتقدم ذكرهم ، ويسافر مع السلطان إذا سافر ، وهم ثلاثة نفر : شافعي ، وحنفي ، ومالكي ، وليس للحنابلة منهم حظ ، وجلسهم في دار العدل دون القضاة الأربعة المتقدمين الذكر على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة - إفتاء دار العدل . وموضوعها على نحو ما تقدم في قضاء العسكر ، وبها أربعة نفر ، من كل مذهب واحد ، وجلسهم دون قضاة العسكر على ما يأتي ذكره .

الوظيفة الرابعة - وكالة بيت المال . وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وأدور وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى . قال في ” مسالك الأبصار “ :

ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل : تارة يكون دون المحتسب ، وتارة فوٲه بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه .

الوظيفة الخامسة - الحسبة . وهى وظيفة جليلة رفيعة الشأن ، وموضوعها التحدث فى الأمر والنهى ، والتحدث على المعاش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته . وبالحضرة السلطانية محتسبان : أحدهما بالقاهرة ، وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنًا ؛ وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى بكماله خلا الإسكندرية ، فإن لها محتسبا يخصصها ، والثانى بالفسطاط ومرتبته منحلة عن الأول ؛ وله التحدث والتولية بالوجه القبلى بكماله ، والذى يجلس منهما بدار العدل فى أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر ؛ ومحل جلوسه دون وكيل بيت المال ، وربما جلس أعلى منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه .

الصنف الثانى

(من أرباب الوظائف الدينية من لا يجلس له بالحضرة السلطانية)

وهذه الوظائف لأحصَرَ لعددها على التفصيل ، ولا سبيل إلى استيفاء ذكرها على تفاوت المراتب فوجب الأقتصار على ذكر المهِّم منها .

ثم هذه الوظائف منها ما هو مختص بشخص واحد ، ومنها ما هو عام فى أشخاص .

فأما التى هى مختصة بشخص واحد .

فمنها (رقابة الأشراف) وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ؛ موضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم

والأخذ على يد المتعدى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبر عنها في زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبين .

ومنها (مشيخة الشيوخ) والمراد بها مشيخة الخانقاه التي أنشأها الملك الناصر محمد ابن قلاوون بسرياقوس من ضواحي القاهرة .

أما مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة المعروفة بسعيد السعداء ، فإنها وإن قدم زمنها وعظم قدرها دون تلك في المشيخة .

ومنها (نظّر الأعباس المبرورة) وهي وظيفة عالية المقدار ، وموضوعها أن صاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس من الأرضين المفردة لذلك من نواحي الديار المصرية خاصة ، وما هو من ذلك على سبيل البرّ والصدقة لأناس معينين ، وأصل هذه الوظيفة أن اللّيث بن سعد رحمه الله اشترى أراضى من بيت المال في نواح من البُلدان وحَبَسَهَا على وجوه البرّ ، وهي المسماة بديوان الأعباس بوجوه العين ، ثم أضيف إلى ذلك الرِّبَاع والدور المعروفة بالفُسْطَاط وغيره ، ثم أضيف إليها رزق الخطابات ، ثم كثرت الرِّزْق من الأرضين في الدولة الظاهرية ببيرس بواسطة صاحب بهاء الدين بن حنا وأخذت في الزيادة إلى زماننا ؛ وهي تارة يتحدث فيها السلطان بنفسه ، وتارة النائب ، وفي غالب الوقت يتحدث فيها الدُّوَادار الكبير على ما استقرّ عليه الحال آخره .

ومنها (نظر البيارستان) والمراد البيارستان المنصوريّ الذي أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين ، وكان داراً لِسِتِّ الملك أخت الحاكم الفاطميّ فغير معاملة وزاد فيه ، وليس له نظير في الدنيا في برّه ومعروفه ؛ وهي من أجلّ الوظائف وأعلىها ؛ وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية .

وأما التي هي عامة في أشخاص .

فمنها (الخطابة) وهي في الحقيقة أجل الوظائف وأعلىها رتبة ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعلها بنفسه ، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم ، وهي على كثرة الجوامع بالديار المصرية بحيث إنها لا تحصى كثرة - لا يتعلق منها بولاية السلطان إلا القليل النادر : كجامع القلعة إلا إذا كان مفردا عن القضاء ونحو ذلك مما لا ناظر له خاص .

ومنها (التدريس) وهي على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولّى السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره ويرتفع شأنه مما لا ناظر له خاص كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه ، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالقسّاط ، وهي المعروفة بالخشابية ، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصوري المتقدم ذكره بين القصرين ، ودرس الجامع الطولوني ونحو ذلك .

المقصود الرابع

(في زيّ أعيان المملكة من أرباب المناصب السلطانية بالديار المصرية)

في لبسهم وركوبهم ، وهم أربع طوائف)

الطائفة الأولى

(أرباب السيوف ، وزيّهم راجع إلى أمرين)

الأمر الأول (لبسهم) . ويختلف الحال فيه باعتبار مواضع اللبس من البدن .

فأما ما به تغطية رؤوسهم ، فقد تقدم أنهم كانوا في الدولة الأيوبية يلبسون كلوات

صُفر بغير عمام ، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم . فلما كانت الدولة

الأشرية "خليل بن قلاوون" رحمه الله، غير لونها من الصفرة إلى الحمرة وأمر بالعمائم من فوقها، وبقيت كذلك حتى حجَّ الملك الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله في أواخر دولته فخلق رأسه فخلق الجميع رؤوسهم، وأستمروا على الخلق إلى الآن، وكانت عمائمهم صغيرة فزيد في قدرها في الدولة الأشرية "شعبان بن حسين" فحسنت هيئتها وجادت، وهي على ذلك إلى زماننا.

وأما ثياب أبدانهم فيلبسون الأقبية التتيرية والتكلاوات فوقها ثم القباء الإسلامي فوق ذلك، يشد عليه السيف من جهة اليسار والصولق والكرلك من جهة اليمين.

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه": وأول من أمر بذلك غازي بن زنكي أخو العادل نور الدين الشهيد حين ملك الموصل بعد أبيه، ثم الأمراء والمقدمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبية قصيرة الأكام أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كبير في قصر الكم وطوله، مع سعة الكم القصير وضيق الأكام الطويلة.

ثم إن كان زمن الصيف كان جميع القماش من فوقاني وغيره أبيض من النصافي ونحوه، وتشد فوق القباء الإسلامي المنطقة، وهي الحياصة، ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب، وربما جعلت من الذهب، وقد ترصع باليشم. قال في "مسالك الأبصار": ولا ترصع بالجواهر إلا في خلع السلطان لأكابر أمراء المئين.

وإن كان زمن الشتاء كانت فوقانياتهم ملونة من الصوف النفيس والحرير الفائق، تحتها فراء السنجاب الغض. ويلبس أكابر الأمراء السَّمُور، والوشق، والقاقم والفنك، ويجعل في المنطقة منديلا لطيفا مُسدلا على الصولق، ومعظمهم يلبس

المطرز على الكمين من الزركش أو الحرير الأسود المرقوم . قال في "المسالك" : ولا يلبس المطرز إلا من له إقطاع في الحلقة ، أمان هو بعد بالجامكية ، فلا يتعاطى ذلك . وأما ما يجعل في أرجلهم ، فإن كان في الصيف لبسوا الخفاف البيض العلوية ، وإن كان في الشتاء لبسوا الخفاف الصفر من الأديم الطائفي ، ويشدون المهاميز المسقطة بالفضة في القدم على الخف . قال في "مسالك الأبصار" : ولا يكفّ مهمازه بالذهب إلا من له إقطاع في الحلقة على ما تقدم في لبس المطرز .

الأمر الثاني (ركوبهم) . أما ما يركبون ، فالحيل المسومة النفيسة الأثمان خصوصا الأمراء ومن يلحق بشأوهم ، ولا يركبون البغال بحال بل تركبها غلمانهم خلفهم بالقماش النفيس والهيئة الحسنة والقوالب المحلاة بالفضة ، وربما غشى جميعها بالفضة بل ربما غشى جميعها بالذهب للسلطان وأعيان الأمراء ، ومعها العبي السابلة الملوثة من الصوف الفائق ، وربما جعلت من الحرير لأعيانهم ، وقد يتخذ بدلها الكبايش بالحواشي المخايش ، وربما كانت زركشا للسلطان والأمراء ، وتحلى لجمهم وتسقط بالفضة بحسب اختيار صاحبها ، ويجعل الدبوس في حلقة متصلة بالسرّج تحت ركبتة اليمنى . قال صاحب حماة : وأول من أمرهم بذلك غازي بن زكي حين أمرهم بشد السيوف في أوساطهم على ما تقدم ذكره . قال في "مسالك الأبصار" : وعلى الجملة فزيهم ظريف وعددهم فائقة نفيسة .

الطائفة الثانية

(أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء ؛

وزيهم راجع أيضا إلى أمرين)

الأمر الأول (ملبوسهم) . ويختلف ذلك باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء

منهم يلبسون العمام من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قَرَبُوسَ سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عَوَضَ الذُّوَابَةِ الطيلسانَ الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلغا متسع الأكمام طويلها مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويمتاز قُضَاةُ القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعي ، ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فَرَجِيَّةً مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزرّرة بالأزرار ، وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان القَوَاقِي من ملبوسهم من الصوف الأبيض الماطى ، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات ، ويلبسون الحِفاف من الأديم الطائفي بغير مَهاْمِيز .

الأمر الثاني (مركوبهم) . أما أعيان هذه الطائفة من القضاة ونحوهم فيركبون البغال النفيسة المساوية في الأثمان لمُسُومَاتِ الخيول ، بلجُمُ ثِقَالٍ وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج قرقيشينا من جوخ . قال في "مسالك الأبصار" : وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه ، ويجعلون بدل العبي الكنايش من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة ، ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك الزناري من الجوخ ، وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكفل ولا يعلوه بردنب ولا قوش ، وربما ركبوا بالكنايش . وأما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالكنايش والعبي .

الطائفة الثالثة

(مشايخ الصوفية)

وهم مُضَاهُونَ لطائفة العلماء في لبس الدلق إلا أنه يكون غير سابل، ولا طويل الكُم، ويُرخون ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تلتحق الكتف، ويركبون البغال بالكابيش على نحو ما تقدم.

الطائفة الرابعة

(أرباب الوظائف الديوانية)

أما أعيانهم كالوزراء ومن ضاهاهم، فيلبسون الفراجي المضاهية لفراجي العلماء المتقدمة الذكر، وربما لبسوا الحجاب المفرجة من ورائها. وقد ذكر في "مسالك الأبصار": أن أكابرهم كانوا يجعلون في أكامهم بادهنجات مفتوحة، وقد صار ذلك الآن قاصرا على ما يلبسونه من التشاريف. ومن دون هؤلاء يلبسون الفرجيات المفرجة من ورائها على ما تقدم.

وأما ركوبهم فيضاهي ركوب الجند أو يقاربه. قال في "مسالك الأبصار": وتجل هذه الطائفة بمصر أكل مما هم بالشام في زيهم وملبوسهم، إلا ما يحكى عن قبض مصر في بيوتهم من اتساع الأحوال والتنفقات، حتى إن الواحد منهم يكون في ديوانه بأدنى اللباس ويأكل أدنى المأكول، ويركب الحمار، حتى إذا صار في بيته أنتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود. قال: ولقد تبالع الناس فيما تحكى من ذلك عنهم.

المقصود الخامس

(في هيئة السلطان في ترتيب الملك ، وله ثلاث هيئات ^(١))

الهيئة الأولى

(هيئته في جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم)

عادةً هذا السلطان إذا كان بالقلعة في غير شهر رمضان أن يجلس بكرة يوم الاثنين بباوانه الكبير المسمى بدار العدل المتقدم ذكره مع ذكر القلعة في الكلام على حاضرة الديار المصرية ؛ ويكون جلوسه على الكرسي الذي هو موضوع تحت سرير الملك . قال في "مسالك الأبصار" : ويجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، ثم ويكل بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة . ويجلس على يساره كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكلمة حلقة دائرة . قال : وإن كان الوزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان من أرباب السيوف ، كان واقفاً على بُعد مع بقية أرباب الوظائف . وكذلك إن كان ثم نائب وقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان ممالك صغار عن يمينه ويساره من السلاح دارية والجمدارية والخاصكية ؛ ويجلس على بُعد بقدر خمسة عشر ذراعاً من يمينه ويساره ذوو السن من أكابر أمراء الميين ، وهم أمراء المشورة ؛ ويلهم من أسفل منهم أكابر الأمراء ، وأرباب الوظائف وقوف ، وباقي الأمراء وقوف من وراء المشورة ؛ ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوا دارية لإحضار قصص أرباب الضرورات وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه القصص فما احتاج فيه إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث فيه مع الحاجب وناظر الجيش ، ويأمر في البقية بما يراه .

(١) الصواب سبع كما عبر به في الضوء وهي في العدد أيضاً سبع كما ستره .

قلت : وقد استقرّ الحال على أن يكون عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة : وهما الشافعي والمالكي ، وعن يساره قاضيان وهما الحنفي ثم الحنبلي ؛ ويل القاضى المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة المتقدم ذكرهم الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ؛ ويلهم مفتو دار العدل على هذا الترتيب ؛ ويلهم وكيل بيت المال ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة ، وربما جلس المحتسب فوق وكيل بيت المال إذا علا قدره عليه بعلم أو رياسة . كل هؤلاء صف واحد عن يمين السلطان مستدبرين جدار صدر الإيوان مستقبلين بابه ، والقاضيان الحنفي والحنبلي كذلك من الجانب الأيسر ، والوزير إن كان من أرباب الأقلام إلى جانب الكرسي من الجانب الأيسر بانحراف ، وكاتب السريه ، وتستدير الحلقة حتى يصير الجالس بها مستدبرا باب الإيوان على ما تقدمت الإشارة إليه في كلام "مسالك الأبصار" .

الهيئة الثانية

(هيئته في بقية الأيام)

عادته فيما عدا الاثنين والخميس من الأيام أن يخرج من قصوره الجوانية المتقدم ذكرها إلى قصره الكبير المشرف على إصطبلاته ، ثم تارة يجلس على تحت الملك الذى بصدره ، وتارة يجلس على الأرض ، ويقف الأمراء حوله على ما تقدم في الجلوس في الإيوان ، خلا أمراء المشورة والغرباء منه فليس لهم عادة بحضور هذا المجلس إلا من دعت الحاجة إلى حضوره ، ثم يقوم في الثالثة من النهار فيدخل إلى قصوره الجوانية لمصالح ملكه ، ويعبر عليه خاصته من أرباب الوظائف كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخصاص ، وناظر الجيش في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه .

الهيئة الثالثة

(هيئة في صلاة الجمعة والعيدين)

أما صلاة الجمعة فإن عاداته أن يخرج إلى الجامع المجاور لقصره المتقدم ذكره من القصر، ومعه خاصة امرائه، فيدخل من أقرب أبواب الجامع للقصر، ويصلي في مقصورة في الجامع عن يمين المحراب خاصة، ويصلي عنده فيها أكابر خاصته، ويحيى بقية الأمراء : خاصتهم وعاقبتهم فيصلون خارج المقصورة عن يمينها ويسارها على مراتبهم ، فإذا فرغ من الصلاة دخل إلى دور حريمه وذهب الأمراء كل واحد إلى مكانه .

وأما صلاة العيدين ، فعاداته أن يركب من باب قصره وينزل من منفذة من الإصطبل إلى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دھليز على أكل ما يكون من الهيئة ، ويحضر خطيب جامع القلعة إلى الميدان فيصلي به العيد ويخطب ، فإذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والممالك يمشون حوله ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، والغاشية محمولة أمامه ، والحر وهو المظلة محمول على رأسه مع أحد أكابر الأمراء المتقدمين وهو راكب فرسا إلى جانبه ، والأوشاقيان الجففة المتقدم ذكرهما راكبان أمامه ، وخلفه الخنائب ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وأرباب الوظائف من السلاح دارية كلهم خلفه ، والطبردارية أمامه مشاة بأيديهم الأظفار ، ويطلع من باب الإصطبل ويطلع إلى الإيوان الكبير المتقدم ذكره ، ويمد السباط ويجمع على حامل الحر ، وأمير سلاح ، والأستادار ، والباشنكير ، وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة في مهم العيد كتواب أستاذار ، وصغار الباشنكيرية ، وناظر البيوت ونحوهم .

(١) لم يذكر هذه الجملة في الضوء . وعدم ذكرها أولى لأنها سبقت .

الهيئة الرابعة

(هيئة للعب الكرة بالميدان الأكبر)

عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاثة مواكب متوالية في كل سبت ينزل من قصره أول النهار من باب الإصطبل، وهو راكب على الهيئة المذكورة في العيد ماعدا الحتر فإنه لا يحمل على رأسه، وتحمل الغاشية أمامه في أول الطريق وآخره، ويصير إلى الميدان فينزل في قصوره، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طبقاتهم، ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر والأمراء معه، ثم ينزل فيستريح، ويستمر الأمراء في لعب الكرة إلى أذان العصر، فيصلى العصر ويركب على الهيئة التي كان عليها في أول النهار ويطلع إلى قصره .

الهيئة الخامسة

(هيئة في الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل)

واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج، ولم تجر العادة بركوبه فيه بمظلة ولا ربة فرس، ولا غاشية، ولا ما في معنى ذلك مما تقدم ذكره في ركوب الميدان والعديد، بل يقتصر على السناجق، والطبردارية، والجاويشية ونحو ذلك، ويركب من القلعة عند طلوع صاحب المقياس بالوفاء في أي وقت كان، ويتوجه إلى المقياس فيدخله من بابه ويمد هناك سباطا يأكل منه من معه من الأمراء والممالك، ثم يذاب زعفران في إناء ويتناوله صاحب المقياس ويسبح في فسقية المقياس حتى يأتي العمود والإناء الزعفران بيده فيخلق العمود، ثم يعود ويخلق جوانب الفسقية وتكون حراقة السلطان قد زينت بأنواع الزينة، وكذلك حراريق الأمراء، وقد فتح شبك المقياس المطل على النيل من جهة القساط وعلق عليه ستر، فيؤتى بحراقة

السلطان إلى ذلك الشباك فينزل منه وَيَسْبَحُ وحراريق الأمراء حوله وقد شخن البحر بمراكب المتفرجين ، يسرون خلف الحراريق حتى يدخل إلى فم الخليج ، وحرقة السلطان العظمى المعروفة بالذهبية وحراريق الأمراء يلعب بها في وسط امتدادها ، ويرمي بمدافع النقط على مقدمهما ، ويسير السلطان في حرقة الصغيرة حتى يأتي السد فيقطع بحضوره ، ويركب وينصرف إلى القلعة .

الهيئة السادسة

(هيئته في أسفاره)

ولم تجر العادة فيها باظهار ماتقدم من الزينة في موكب العيد والميدان ، بل يركب في عدة كبيرة من الأمراء : الأكابر والأصاغر ، والخواص ، والغرباء ، وخواص ممالكه . ولا يركب في السير برقة ولا عصائب ، ولا تتبعه جنائب ، ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل . فإذا دخل الليل حُملت أمامه فوانيس كثيرة ومشاعل ، فإذا قارب مخيمه ، تُلقي بالشموع المركبة في الشمعدانات المكثفة ، وصاحت الجاوشية بين يديه ، وترجل الناس كافة إلا حملة السلاح والأوشاقية وراءه ، ومشت الطردارية حوله حتى يدخل الدهليز الأول من مخيمه فينزل ويدخل إلى الشقة ، وهي خيمة مستديرة متسعة ، ثم منها إلى شقة مختصرة ، ثم إلى لاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور حركاه من خشب ، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب ينصب للبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة حمام بقدر من رصاص وحوض على هيئة الحمامات بالمدن إلا أنه مختصر . فإذا نام طافت به الممالك دائرة وطاف بالجميع الحرس ، وتدور الزفة حول الدهليز في كل ليلة مرتين : عند نومه وعند استيقاظه من النوم ، ويطوف مع الزفة أمير من أكابر الأمراء وحوله

الفوانيس والمشاعل، ويبيت على باب الدهليز أرباب الوظائف من النقباء وغيرهم .
فإذا دخل إلى المدينة، ركب على هيئة ركوبه لصلاة العيد بالمظلة وغيرها ، هذا
ما يتعلق بخاصته .

أما موكله الذى يسير فيه جمهور ممالكه، فشعاره أن يكون معهم مقدم الممالك
والأستادار، وأمامهم الخزائن والجنايب والهجج، ويكون بصحبته فى السفر من كل
ما تدعو الحاجة إليه من الأطباء والكحّالين والجرائحية وأنواع الأدوية والأشربة
والعقاقير وما يجرى مجرى ذلك، يُصَرَفُ ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق .

الهيئة السابعة

(النوم)

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواص ممالكه من الأمراء وأرباب الوظائف
من الجمدارية وغيرهم، يَسْهَرُونَ بالنوبة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل، كلما آنقضت
نوبة قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم، ويتعاقب كل منهم ما يشاغله عن
النوم فقوم يقرءون فى المصاحف، وقوم يلعبون بالشطرنج والأكل وغير ذلك .
(١)

(١) أى وقوم يشاغلون بالاكل الخ .

المقصود السادس

(في عاداته في إجراء الأرزاق ؛ وهو على ضرين)

الضرب الأول

(الجارى المستمر ؛ وهو على نوعين)

النوع الأول

(الإقطاعات)

والإقطاعات في هذه المملكة تجرى على الأمراء والجند ، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراضٍ يَسْتَغِلُّهَا مُقْطَعُهَا ويتصرف فيها كيف شاء ، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل ، وتختلف باختلاف حال أربابها .

فأما الأمراء بالديار المصرية فقد ذكر في ” مسالك الأبصار ” أنَّ أكبر الأمراء يبلغ إقطاع الواحد منهم مائتي ألف دينار جيشية ، وربما زاد على ذلك . ويتناقص باعتبار انحطاط الرتبة إلى ثمانين ألف دينار وما حولها ، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطبائخاناه ثلاثين ألف دينار فأكثر ، وينقص إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار ؛ ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك ؛ ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمى الحلقة إلى ألف وخمسمائة دينار ، وكذلك أعيان جند الحلقة إلى مائتين وخمسين ديناراً .

وأما إقطاعات الشام فلا تُقارب هذا المقدار بل تكون بتدرج الثلثين في جميع ماتقدم ، خلا أكبر الأمراء المقدمين بالديار المصرية ، فليس بالشام من يبلغ شأوهم إلا نائب الشام فإنه يقاربهم في ذلك . قال في ” مسالك الأبصار ” : وليس للنواب في المسالك مدخل في تأمير أمير عَوْض أمير بل إذا مات أمير صغير أو كبير طوّل به

السلطان فأمر مكانه مَنْ أراد ممن في خدمته، ويخرجه إلى مكان الخدمة، وأما مَنْ كان في مكان الخدمة أو ينقل إليه من بلد آخر فعلى ما يراه في ذلك .

أما جُند الحلقة، فمن مات منهم أستخدم النائب عوضه، وكتب بذلك رُقعة في ديوان جيش تلك المملكة، ويجهز مع بريدى إلى الأبواب السلطانية فيقابل عليها من ديوان الجيش بالحضرة، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها (يكتب) ويكتب بها مربعة من ديوان الجيش، ويكتب عليها منشور .

ولجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتب الجارية في كل يوم: من اللحم، والتوابل، والخبز، والعليق، والزيت، ولأعيانهم الكسوة والشمع، وكذلك الممالك السلطانية وذوو الوظائف من الجند مع تفاوت مقادير ذلك بحسب مراتبهم وخصوصيتهم عند السلطان وقرابهم إليه . قال في "مسالك الأبصار" : وإذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنائير وخبز ولحم وعليق إلى أن يتأهل للإقطاع في جملة الحلقة، ثم منهم من ينقل إلى العشرة أو الطبلخانة على حسب الحظوظ والأرزاق .

النوع الثانى

(رزق أرباب الأقالام)

وهو مبلغ يصرف إليهم مُشاهرة . قال في "مسالك الأبصار" : وأكبرهم كالوزير له في الشهر مائتان وخمسون ديناراً جيشية، ومن الرواتب والغلة ما إذا بسط وثنى كان نظير ذلك، ثم دون ذلك ودون دونه، ولأعيانهم الرواتب الجارية: من اللحم، والخبز، والعليق، والشمع، والسكر، والكسوة ونحو ذلك، إلى غير ذلك مما هو جار على العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأراضى المؤبدية، وما يجرى مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لا يوجد بمملكة من الممالك، ولا مصر من الأمصار .

الضرب الثاني

(الإنعام وما يجري مجراه : مما يقع في وقتٍ دون وقت ؛ وهو على خمسة أنواع)

النوع الأول

(الحلج والتشريف)

قال في "المسالك" : واصحاب مصر في ذلك اليد الطولى حتى بقي بابه سوقاً ينفق فيه كل مجلوب ، ويحضر الناس إليه من كل قطرٍ حتى كاد ذلك ينهك الملكة ويودي بمُتَحَصِّلاتها عن آخرها . قال : وغالب هذا مما قرره هذا السلطان ، ولقد أتعب من يحيى بعده من كثرة الإحسان ،
وهى على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(تشريف أرباب السيوف)

وهى على طبقات ، أعلاها ما هو مختص بالأمرء المقدمين من النواب وغيرهم فوقاني أطلس أحمر بطرز زركش ، مفروى بسنجاب ، بدائر سنجف من ظاهره مع غشاء قندس ، وتحت قباء أطلس أصفر ، وكلوتة زركش بكلايب ذهب ، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض ، مرقومان بالقباب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملون ، ومنطقة ذهب مرگبة على حاشية حرير تشد في وسطه ، ويختلف حال المنطقة بحسب المراتب . فأعلاها أن يعمل من عمدتها [بواكير] ^(١) وسطاً ومحبسين ، مرصعة بالبلخيش والزمرّد والأؤلؤ ، ثم ما كان بيكارية واحدة مرصعة ، ثم ما كان بيكارية واحدة من غير ترصيع ، فإن كان التشريف لتقليد ولاية مُفَخِّمة ، زيد سيفاً محلياً بذهب وفرساً مُسرَّجاً ملجماً بكنبوش زركش ، وربما زيد أكبر النواب كتاب الشام

(١) الزيادة عن ضوء الصباح .

تركيبة زركش على' فوقاني، وشاش حرير سكندري مموج بالذهب، ويعرف ذلك بالمتمر. وعلى' ذلك كان شاش صاحب حماة، ويكون عوض كنبوشه زنارى' أطلس أحمر؛ ودون ذلك من التشاريف أقيية طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام، مجوخ: جاخات مكتوبة بألقاب السلطان، وجاخات صور وحوش أو طيور صغار، وجاخات ملونة بموجة بقصب مذهب، يفصل بين جاخاته نقوش، يركب على' القباء طراز زركش، وعليه السنجاب والقندس كما تقدم، وتحت قباء من الطرح السكندري' المفرج، وكلوتة زركش بكلايب وشاش كما تقدم، وحياسة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لا تكون، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يُلحق بهم، وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندار والولاء ومن يجري مجراهم^(١). ثم للتشاريف أماكن.

منها إذا ولي أمير أو صاحب منصب وظيفة فإنه يلبس تشريفا يناسب ولايته التي وليها على' حسب ما تقتضيه الرتبة علوا وهبوطا.

ومنهم عيد الفطر، يخلع فيه على' جميع أرباب الوظائف: من الأمراء وأرباب الأقاليم كالأستادار والدوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاوص وناظر الجيش ونحوهم، كل منهم بما يناسبه.

قال في "مسالك الأبصار": ومن عادة السلطان أن يُعَدَّ لكل عيد خلعة على' أنها للمبوسه من نسبة خلع أكابر المئين فلم يلبسها، ولكن يختص بها بعض أكابر المئين يخلعها عليه.

ومنهم الميادين، يخلع فيها على' أكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمر أو أكثر يلبس فيه خلعة من المفرج المذهب.

(١) لم يذكر في الأصل الصف الثاني والثالث وهما تشاريف الوزراء والكتاب وتشاريف القضاة والعلماء، وقد تكلم عليهما في الضوء، فأنظره.

ومنها دَوْران الحمل في شَوّال ، يخلع فيه على أرباب الوظائف بالمحمل كالمقاضى والنّاظر والمحتسب والشاهد والمقدّمين والأدلة ونّاظر الكسوة ومباشرها ومن في معناهم .

النوع الثاني (الخيول)

قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين في كل سنة : المرة الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على القُرط في أواخر ربيعها ، فينعم على الأخصّاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، وتكون خيول المقدّمين منهم مُسرّجة ملجّمة بكّابيش من زركش ، وخيول أمراء الطبلخانات عُرياً من غير قُماش . المرة الثانية عند لعيه الكُرّة بالميدان ، وتكون خيول المقدّمين والطبلخانات مُسرّجة ملجّمة بفضة يسيرة بلا كّابيش ؛ وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية كل أحد بحسبه ، وليس لأمرء العشرات في ذلك حظ إلا ما يتفقدون به على سبيل الإنعام .

قال المقرّ الشهابي بن فضل الله : ونخاصة المقرّيين من الأمراء المقدّمين والطبلخانات زيادات كثيرة في ذلك بحيث يصل بعضهم إلى مائة فرس في كل سنة ؛ وله أوقات أخرى يفرّق فيها الخيل على ممالكه وربما أعطى بعض مقدّمى الحلقة ؛ وكلّ من مات له فرس من ممالكه دفع إليه عوضه ، وربما أنعم بالخيول على ذوى السنّ من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد ونحوه .

ونخيول الأمراء في كل سنة إطلاقات أراض بالأعمال الجيزية لزراع القُرط لخيولهم من غير خراج ؛ وللمالك السلطانية البرسيم المزدّرع على قدر مراتبهم ، وما يدفع

إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتب لهم في غير زمن الربيع عوضا عن كل عليقة نصف فدان من القرط القائم على أصله في مدة ثلاثة أشهر .

النوع الثالث (الكسوة والحوائص)

قد جرت عادة السلطان أنه ينعم على مماليكه وخواص أهل المناصب من حملة الأقاليم في كل سنة بكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف على قدر مراتبهم ، ومن عاداته أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرّق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين ، يفرّق في كل موكب ميدان على أميرين بالنوبة حتى يأتي على آخرهم في ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نوبته في ذلك . قال في "المسالك" : أما أمراء الشام فلا حظ لهم من الإنعام في أكثر من قباء واحد يلبس في وقت الشتاء إلا من تعزّض لتقصّد السلطان فإنه ينعم عليه بما يقتضيه حاله .

النوع الرابع (الإنعام والأوقاف^(١))

وأكثر الأوقات لا ضابط لعطائه إنما يكون بحسب منزلة المنعم عليه عند السلطان وقربه منه . قال في "مسالك الأبصار" : ولخاصة الأمراء المقدمين أنواع من الإنعامات كالعقار والأبنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار ، وكساوى القماش المتوع ، وفي أسفارهم في وقت خروجهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأموال .

(١) في الضوء "والإدراة" .

النوع الخامس

(المأكول والمشروب)

أعظم أسمطة هذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب . إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدمة ، مُدَّ السِماطُ بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة المتنوعة الفاخرة ، وَيَجْلِسُ السلطانُ على رأس الخِوانِ والأمراءِ يَمَنَةً وَيَسَرَّةً على قدر مراتبهم في القرب من السلطان ، فيأكلون أكلاً خفيفاً ثم يقومون ، ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يُرْفَعُ الخِوانُ . وأما في بقية الأيام فيمدد الخِوانُ في طرفي النهار لعامة الأمراء خلا البرانيين فإنه لا يحضره منهم إلا القليل النادر .

ففي أول النهار يمدد سِماطٌ أوَّلُ لا يأكل منه السلطان شيئاً ، ثم سِماطٌ ثانٍ بعده قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم سِماطٌ ثالث بعده يسمى الطارئ ، ومنه مأكول السلطان .

وفي آخرَيَاتِ النهار يمدد سِماطان الأول والثاني المسمى بالخاص ، ثم إن استدعى بطارئ حضر ، وإلا فيحسب ما يؤمر به ، وفي كل هذه الأسمطة يسقى بعدها المشروب من الأقسام السكرية عقب الأكل . وأما في الليل فيبيت بالقرب من ميته أطباق من أنواع المأكول المختلفة والمشروب الفائق ليتشاغل أصحاب النوب بالمأكول والمشروب عن النوم . قال في "مسالك الأبصار" : ولكل ذي إمرة بمصر من خواص السلطان عليه السكر والحلوى في شهر رمضان ، والضحية على مقادير رتبهم .

المقصود السابع

(في اختصاص صاحب هذه المملكة بأما كن داخله في نطاق مملكته ، يمتاز بها
على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم)

منها الكعبة المعظمة داخله في نطاق هذه المملكة ، واختصاصه بكسوتها
ودوران الحمل في كل سنة .

أما كسوة الكعبة ، فإنها كانت في الزمن الأول مختصة بالخلفاء ، وكانت خلفاء
بنى العباس يجهزونها من بغداد في كل سنة ، ثم صارت إلى ملوك الديار المصرية
يجهزونها في كل سنة ، واستقرت على ذلك إلى الآن . ولا عبرة بما وقع من استبداد
بعض ملوك اليمن في بعض الأعصار بذلك في بعض السنين ، وهذه الكسوة تُنسج
بالقاهرة المحروسة بمشهد الحسين من الحرير الأسود مطرزة بكتابة بيضاء في نفس
النسج ، فيها : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ الآية . ثم في آخر الدولة
الظاهرية برقوق استقرت الكتابة صفراء مشعة بالذهب . ولهذه الكسوة ناظر
مستقل بها ، ولها وقف أرض بلسوس من ضواحي القاهرة يُصرف منها على
استعمالها .

وأما دوران الحمل ، فقد جرت العادة أنه يدور في السنة مرتين : المرة الأولى
في شهر رجب بعد النصف منه ، يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق
دورانه بترتين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام ، ويكون دورانه في يوم الاثنين أو الخميس
لا يتعداهما ، ويحمل الحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة من خركه وعليه غشاء
من حرير أطلس أصفر ، وأبعلاه قبة من فضة مطلية وبييت في ليلة دورانه داخل
باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ، ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور

ويسير إلى تحت القلعة، فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم، ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة ملبسين المصفاة الحديد المغشاة بالحرير الملقون، وخيولهم ملبسة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما في القتال، وبأيديهم الرماح، عليها الشطافات السلطانية فيلبعون تحت القلعة كما في حالة الحرب، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رمحان يديرهما في يده وهو واقف على ظهر الفرس، وربما كان وقوفه في نعل من خشب على دُباب سيفين من كل جهة، وهو يفعل كذلك ويهتئوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثرة، ويطلق تحت القلعة في خلال ذلك، ثم يذهب إلى الفسْطاط فيمتر في وسطه، ثم يعود إلى تحت القلعة ويفعل كما في الأول إلا أنه أقل من ذلك؛ ثم يحمل من جامع الحاكم ويوضع في مكان هناك إلى شوال؛ وفي خلال ذلك كله الطبلخانات والكومات السلطانية تضرب خلفه، ويخلع فيه على جماعة مستكثرة؛ وكذلك يفعل في نصف شوال إلا أنه يرجع من تحت القلعة إلى باب النصر ويخرج إلى الريدانية للسفر ولا يتوجه إلى الفسْطاط.

المقصود الثامن

(في آتساء الأخبار إليه، وهو على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم)

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته كاتَب نائب تلك الجهة السلطان عزفه بوفوده، وأستاذنه في إشخاصه إليه، فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره فيحضر. فإذا وقع الشعور بحضوره فإن كان مرسله

ذا مكانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق ، خرج بعض أ كابر
 الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقاءه ، وأُنزل بقصور السلطان بالميدان
 الذى يلعب فيه بالكرة ، وهو أعلى منازل الرسل . وإن كان دون ذلك تلقاه
 المهمندار وأستاذن عليه الدوادار وأنزله دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر
 رتبته ، ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بإيوانه ، وتحضر أعيان المملكة الذين
 شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ، ويحضر ذلك الرسول وصحبته
 الكتاب الوارد معه ، فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب منه فيمسحه بوجه
 الرسول ، ثم يدفعه إلى السلطان فيفضّه ويدفعه إلى كاتب السرفيقروء على السلطان
 ويأمر فيه أمره .

النوع الثانى

(الأخبار التى ترد عليه من جهة نوابه)

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه فى مملكته بكل ما يتجدد عندهم من مهمات
 الأمور أو ما قاربها ، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما
 يراه فى ذلك ، أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه ، وينفذ على البرد أو أجنحة الحمام
 الرسائل على ما يأتى ذكره فى المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد برىء من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهز من
 الأبواب الشريفة بجواب ، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السربين يدي
 السلطان فيقبل الأرض ، ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريى ، ثم
 يناوله للسلطان فيفضّه ويجلس كاتب السرفيقروء عليه ويأمر فيه بأمره .

وأما بطائق الحمام ، فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرئاسي ببطاقة أخذها البراج وأتى بها الدوادار، فيقطع الدوادار البطاقة عن الحمام بيده ، ثم يحملها إلى السلطان ويحضر كاتب السر فيقرأها كما تقدم .

النوع الثالث

(أخبار حاضرتة)

جرت العادة أن والى الشرطة يستعلم متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوابه ، ثم تكتب مطالعة جامعةً بذلك وتعمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها . قال في "مسالك الأبصار" : وأما ما يقع للناس في أحوال أنفسهم فلا .

المقصود التاسع

(في هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم)

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ الْمِثْنِ أَوِ الطَّبْلَخَانَاتِ سُلْطَانٍ مُخْتَصَرٍ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ بَيْوتٌ خَدَمَةٌ كَبِيرَةٌ خَدَمَةُ السُّلْطَانِ مِنَ الطَّشْتِ خَانَاهُ ، وَالْفِرَاشِ خَانَاهُ ، وَالرَّكَّابِ خَانَاهُ ، وَالزَّرْدِ خَانَاهُ ، وَالْمَطْبُخِ ، وَالطَّبْلَخَانَاهُ ، خِلاَ الْحَوَائِجِ خَانَاهُ فَإِنَّهَا مُخْتَصصةٌ بِالسُّلْطَانِ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ مَهْتَارٌ مُتَسَلِمٌ حَاصِلُهُ ، وَتَحْتَ يَدِهِ رِجَالٌ وَغُلَّامَانِ لِكُلِّ مِنْهُمْ وَظِيفَةٌ مُخْتَصصةٌ ، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ مِنْهُمْ الْحَوَائِصُ مِنْ إِصْطِبَلَاتِ الْخَيُْولِ وَمُنَآخَاتِ الْجِمَالِ وَشُؤْنِ الْغُلَّالِ ؛ وَلَهُ مِنْ أَجْنَادِهِ أَسْتَادَارٌ ، وَرَأْسُ نَوْبَةٍ ، وَدَوَادَارٌ ، وَأَمِيرُ مَجْلِسٍ ، وَجَمْدَارِيَّةٌ ، وَأَمِيرُ اخُورٍ ، وَأَسْتَادَارُ صَحْبَةٍ ، وَمَشْرِفٌ . وَتُوصَفُ الْبُيُوتُ فِي دَوَاوِينِ الْأَمْرَاءِ بِالْكَرِيمَةِ ، فَيَقَالُ الْبُيُوتُ الْكَرِيمَةُ كَمَا يَقَالُ فِي بُيُوتِ السُّلْطَانِ الْبُيُوتُ الشَّرِيفَةُ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا فَيَقَالُ : الطَّشْتِ خَانَاهُ الْكَرِيمَةُ وَالْفِرَاشِ خَانَاهُ

الكرمية ، وكذا في الباقي ؛ ويوصف الإصطبل بالسعيد فيقال : الإصطبل السعيد ، وكذلك المَنَاح ؛ وتوصف الشُّون بالمعمورة فيقال : للشُّونة المعمورة . قال في "مسالك الأبصار" : ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث ركب وخلفه جنيب مسرج ملجَمٌ ، وربما ركب الأمير من أكابرهم بجنيبين سواء في ذلك الحاضرة والبر . قال : ويكون لكل منهم طلب مشتمل على أكثر مما يليكه ، وقدامهم خزانة محمولة للطلبخانة على جمل واحد ، يجزّه راكب على جمل آخر ، والألف على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك . وأمام الخزانة عدّة جنائب تُحزّ على أيدي ممالك ركّاب خيل وهجن ، وركّابة من العرب على هجن ، وأمامهم الهجن بأكوارها مجنوبة ، للطلبخانة قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهجان والألف قطاران وربما زاد بعضهم . قال : وعدد الجنائب في كثيرتها وقتها إلى رأى الأمير وسعة نفسه ، والجنائب المذكورة منها ماهو مسرج ملجَمٌ ، ومنها ماهو بعباءة لا غير . انتهى كلامه .

ومن عاداتهم أيضا أن الأمير إذا ركب يكون أكابر أجناده من أرباب الوظائف : كرأس نوبة والدوادار ، وأمير مجلس ، ومشاة الخدمة أمامه ؛ وكل من كان منهم أكبر كان إليه أقرب ؛ وتكون الجمدارية من ممالك الصغار خلفه وأمير اخوره خلف الجميع ، ومعه الجنائب والأوشاقية على قاعدة السلطان في ذلك .

ومن عادة أكابر مجالس بيوتهم أنه ينصب للأمرير بشتميخ خلف ظهره من الجوخ الأحمر المزهر بالجوخ الملوّن ، برك ذلك الأمير وطراز نيه ألقابه ، ويجلس على مقعد مُسنَد ظهره إلى البشتميخ ، وربما جلس أكابرهم على مدورة من جلد ورجلاه على الأرض ، وتكون الناس في مجلسه في القرب إليه على حسب مراتبهم .

ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هتاب أو دواة أو بقجة أو فرنسية ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين ، بألوان مختلفة ، كل

أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك، ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر، وشون الغلال، والأملاك والمراكب وغير ذلك، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة تنقش على العبي والبلاسات ونحوها، وربما جعلت على السيوف والأقواس والبركصطوانات للخيول وغيرها.

ومن عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون في يومى الاثنين والخميس في الموكب منضمين على نائب السلطنة الكافل إن كان، وإلا فعلى حاجب الحجاب، ويسيرون تحت القلعة مرات، ثم يقفون بسوق الخيل وتعرض عليهم خيول المناداة، وربما نودى على كثير من آلات الخيل والحليم والحركات والأسلحة. قال في "مسالك الأبصار": وقد ينادى على كثير من العقارات، ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية على ما تقدم.

ومن قاعدة هذه المملكة أن أجناد الأمراء كافة تعرض بديوان الجيوش السلطانية وتثبت أسماءهم مفصلة فيه، وكانوا فيما تقدم يحلون بالديوان. أما الآن، فقد ترك ما هنالك واكتفى بأوراق تكتب من دواوين الأمراء بأسماء أجناده وتخلد بديوان الجيوش، ثم كلما مات واحد منهم أو فصل من الخدمة، عرض بديوان الجيش واحد مكانه يعبر فيه عرض من ديوان ذلك الأمير.

ومن دأبهم أن من مات من الأمراء والجند قبل استكمال سنة خدمته حوسب في مستحق إقطاعه على مقدار مدته، وكتب له بذلك محاسبة من ديوان الجيوش، ويكون ما يتحصل من المغل شركة بين المستقر وبين الميت أو المنفصل على حسب استحقاق القراريط، كل شهر من السنة بتراطين.

ومن عادة الأمراء أنه إذا مر السلطان في متصدياته بإقطاع أمير كبير، قدم له من الإوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو إليه همة مثله فيقبله منه ، ثم ينعم عليه بخلعة كاملة يلبسها، وربما أمر لبعضهم بشيء من المال فيقبضه .

المقصود العاشر

(في ولاية الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية ،
وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(النواب، والمستقر بها ثلاث نيابات)

الأولى - نيابة الإسكندرية : وهي نيابة جليلة ، نائبا من الأمراء المقدمين يضاهي في الرتبة نيابة طرابلس وما في معناها أو يقاربها ، وبها حاجب أمير عشرة ، وحاجب جندي ، ووال للمدينة ، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر، يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضي قضاة مالكي ، وقاض حنفى مستحدث ، وربما كان بها قاض شافعى ، والمالكي أكبر الكل بها ، وهو المتحدث في أموال الأيتام والأوقاف . على أنه ربما ولي قضاء قضائها في الزمن الماضى شافعى ، وبها موقع يعبر عنه في البلد بكتاب السر ، وناظر متحدث في الأموال الديوانية ، ومعه مستوف ، وتحت يده كتاب وشهود ، وبها محتسب ، وليس بها قضاة عسكر ولا مفتودار دبل ، ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتركز بها أمراء المقدمين والطبلخانات في غير الزمن الذى يمتنع سير المراكب الحربية في البحر بشدة الريح منها ، ووال للتركيز يسمى الحاجب . وقد مر القول على معاملتها ، وذكر أحوالها في الكلام على قواعد الديار المصرية المستقرة فأغنى عن إعادته هنا .

وهذه النيابة مع جلالة قدرها ورفعة محلها ليس لها عمل يحكم فيه نائبا ولا قاضيا
وتنقسم، بل حكمهم قاصر على المدينة وظواهرها لا يتعدى ذلك، بخلاف غيرها من
سائر نيابات المملكة؛ وبها كرتى سلطنة بدار النيابة؛ وعادة الخدمة السلطانية بها
في أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفي خدمته مماليكه وأجناد
المائتين المتقدم ذكرهم، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس، ويسير
في موكبهِ والشَّابَّة السلطانية بين يديه حتى يخرج من باب البحر، ويخرج الأمراء
المركَّزون على حديثهم أيضا، ويجمعون في الموكب ويسرون خارج باب البحر
ساعة ثم يعودون، ويتوجه النائب إلى دار النيابة في مماليكه وأجناد المائتين، وقد
فارقه الأمراء المركَّزون وتوجه كلُّ منهم إلى منزله. فإذا صار إلى دار النيابة : فإن
كان في ذلك الموكب سَمَاطٌ، وضع الكرتى في صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر
ووضع عليه سيف نَمِجَة سلطانية ومُدَّ السَماط تحته وأكل ممالك النائب وأجناد
المائتين وجلس النائب بجنبته من الإيوان والشباك مُطَلُّ على مينا البلد، ويجلس
القاضى المالكى عن يمينه، والقاضى الحنفى عن يساره، والناظر تحته، والموقع بين
يديه، ورؤوس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص فيقرؤها الموقع على النائب
فيفصلها بحضرة القضاة ثم ينصرف الموكب .

قلت : وهذه النيابة مستحدثة، وكان آبتداء ترتيبها في سنة سبع وستين وسبعائة
في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقها الفرنج فנקوا بأهلها وقتلوا ونهبوا
وأسروا، وكانت قبل ذلك ولاية تعد في جملة الولايات الطبلخانة، وكان لواليتها
الرتبة الحليلة والمكانة العلية .

الثانية - نيابة الوجه البحرى . وهى مما استحدثت في الدولة الظاهرية برقوق،
ونائبها من الأمراء المقدمين، وهو في رتبة مقدم العسكر بغزة الآتى ذكره في الممالك

الشامية، ومقرّ نيابتها مدينة دَمْنُورَ بالبحيرة، وحكمه على جميع بلاد الوجه البحرىّ المتقدّم ذكرها فى الكلام على أعمال الديار المصرية المستقرّة خلا الإسكندرية، وليس على قاعدة النيابات فى ركوب المراكب وما فى معناها، بل نائبا فى الحقيقة كاشفٌ كبير، وليس فيها من رسوم النيابة سوى لبس التّشريف وكتابة التّقليد والمكتبة بما يكتب به مثل نائبا من النّواب، وقد كان القائم بها فى الزمن الأوّل قبل استقرارها نيابةً يعبر عنه بوالى الولاية.

الثالثة - نيابة الوجه القبلى. وهى مما استحدثت فى الدولة الظاهرية برقوق أيضا، وكان مقرّ نائبا مدينة أسيوط، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى، وهى فى التّرتيب والرتبة على ما تقدّم من نيابة الوجه البحرىّ، غير أنها أعظم خطرا فى النفوس وكان القائم بها قبل ذلك يسمّى والى الولاية كما تقدّم فى الوجه البحرىّ.

الطبقة الثانية

(الكشاف)

قد تقدّم أنه قبل استحداث النيابة بالوجهين القبلى والبحرىّ كان بهما كاشفان يعبر عن كل منهما بوالى الولاية، ولما استقرّ نيابتين جعل للوجه البحرىّ كاشفٌ من أمراء الطبليخاناه على العادة المتقدمة، وهو فى الحقيقة تحت أمر نائب الوجه البحرىّ، ومقرّته منية عَمْرٍ من الشرقية، وجعل كاشف آخر للبهنساوية والقيوم، وعُطِّلَ القيوم من والى، وباقى الوجه القبلى أمره راجعٌ إلى نائبه، ولليزية كاشفٌ يتحدّث فى جسورها وسائر متعلقاتها، ولا يتعدّى أمره إلى غيرها من النواحي.

الطبقة الثالثة

(الولاية بالوجهين القبلي والبحري)

وقد تقدم ذكر أعمالهما؛ ومراتب الولاية بهما لاتخرج عن مرتبتين :
المرتبة الأولى - الولاية من أمراء الطبلخانا. وهي سبع ولايات بالوجهين القبلي والبحري على ما استقر عليه الحال .

فأما الوجه القبلي ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة: وهي ولاية البهنسي، وولاية الأشمونين، وولاية قوص، وهي أعظمها حتى إن واليها كان يركب بالشبابه أسوة النواب بالممالك، وولاية أسوان: وهي مستحدثة في الدولة الظاهرية برقوق، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والي قوص يجعل فيها نائباً من تحت يده، وكانت ولاية القيوم طبلخانا، ثم استقرت كشفا على ما تقدم .

أما أسيوط، فلم يكن بها والٍ لكونها مقر نائب الوجه القبلي ومقر والي الولاية من قبله، وسيأتي ما كان ولاية طبلخانا من الوجه القبلي ثم نقل .

وأما الوجه البحري ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة، وهي ولاية الشرقية، ومقر واليها بلبليس، وولاية المنوفية ومقر واليها مدينة منوف، وولاية الغربية، ومقر واليها المحلة الكبرى، وهي تضاهي ولاية قوص من الوجه القبلي إلا أن واليها لم يركب بالشبابه قط، وولاية البحيرة، ومقر واليها مدينة دمهور، وربما عطلت ولايتها لكونها مقرّة النائب، وقد تقدم أن ولاية النائب قبل أن تستقر نيابة كانت ولاية طبلخانا.

المرتبة الثانية - من الولاية أمراء العشرات . وهي سبع ولايات بالوجهين :
فأما القبلي ففيه من هذه الرتبة ثلاث ولايات : ولاية البحيرة، وكانت قبل ذلك طبلخانا، وولاية إطفح ولم تزل عشرة، وولاية منفوط ولايتها عشرون، وكانت

قبل ذلك ولاية طبلخاناه، وقد كان بَعِيدَابَ في الأيام الناصرية ابن قلاوون وما بعدها
وال أمير عشرة يوثى من قبل السلطان ويراجع وإلى قُوصَ في الأمور المهمة .
وأما الوجه البحرى ، ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة ، ولاية منوف ، وولاية
أشْمُومَ ، وولاية دِمِيَّاطَ ، وولاية قَطِيَا ، وكانت قبل ذلك طبلخاناه .

الطبقة الرابعة

(أمراء العربان بنواحي الديار المصرية)

قد تقدّم في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى ذكر أصول أنساب
العرب ، وأنقسامهم إلى قَحْطَانِيَّةٍ وهم العاربة ، وإلى عَدْنَانِيَّةٍ وهم المستعربة ، وبيان
رجوع كل بطن من بطون العرب الموجودين الآن بالديار المصرية وغيرها إلى قبيلتهم
التي إليها ينتسبون ، وبيان من بوجهى الديار المصرية القبلى والبحرى من القبائل ،
وأخذ كل قبيلة المتشعبة منها . والمقصود هنا بيان أمراء العربان بالوجهين
المذكورين في القديم والحديث .

فأما الوجه القبلى ، فقد ذكر الحمدانى أن الإمرة كانت بالوجه القبلى في ثلاثة أعمال :
العمل الأول - عمل قُوصَ ، وكانت الإمرة به في بيتين من بلى من قُصَاعَةَ بن
حَمِيرَ بن سَبَاٍ من القَحْطَانِيَّةِ .

الأول - بنو شاذٍ المعروفون بنى شاذى . وكانت منازلهم بالقصر الخراب المعروف
بقصر بنى شاذى بالأعمال القُوصِيَّةِ ، وتقدم هناك أنه قيل لإنهم من بنى أُمَيَّةَ بن
عبد شمس من قُرَيْشٍ .

الثان - العجالة . وهم بنو العَجِيلِ بن الذئب منهم أيضا ، وكانوا معهم هناك .

العمل الثاني - عمل الأشمونين . وكانت الإمرة به في بنى ثعلب من السلاطنة ، وهم أولاد أبى مجيش من الحيادة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق ، من عقب الحسين السبط ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكانت منازلهم بدروت سربام ، وغلب عليها الشريف حصن الدين بن ثعلب فعرفت بدروت الشريف من يومئذ ، وأستولى عليها وعلى بلاد الصعيد . وقد تقدم أنه كان في آخر الدولة الأيوبية . فلما ولي المعز أليك التركمانى : أول ملوك الترك بالديار المصرية السلطنة ، أنف من سلطته وسمت نفسه إلى السلطنة بفهز إليه المعز جيوشا ، فخرت بينهم حروب لم يظفروا به فيها ، وبقي على ذلك إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس ، فنصب له حبال الحيل وصاده بها وشقه بالإسكندرية .

العمل الثالث - البهنسى ، وكانت الإمرة فيه في بيتين .

الأول - أولاد زعازع . (بضم الزاى) من بنى جديدى من بنى بلار من لوائه (٢) من البربر أو من قيس عيلان على الخلاف السابق عند ذكر نسبهم في المقالة الأولى . قال الحمداى : وهم أشهر من فى الصعيد .

الثانى - أولاد قرئش . قال الحمداى : وهم أمراء بنى زيد ، ومساكنهم نوية دلاص .

قال : وكان قرئش هذا عبدا صالحا كثير الصدقة ، ومن أولاده سعد الملك المشهور بنوه هناك .

وذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى " التعريف " : أن الإمرة بالوجه القبلى فى زمانه (وهو سلطنة الناصر محمد بن قلاوون وما وليها) كانت لناصر الدين عمر بن فضل ، ولم يذكر مقرته ولا من أى العرب هو ، وذكر أيضا أن الإمرة فى فوق

(١) تقدم لنا فى الجزء الأول (ص ٣٦٥) ضبطها بالفتح والصواب ما هنا .

(٢) ضبطها المؤلف فما تقدم بالباء المثناة ولكن الجحد ذكرها فى باب التاء المثناة .

أسوان كانت في عرب يقال لهم الحِدَارِيَّة في سميرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ وشوكة مُنْكِيَّة ، يغزو الحبشة وأُمَّ السودان ويأتى بالنهاب والسبايا ، وله أثر محمود وَفَضْلٌ مَأثور ، وفد على السلطان فأكرمتهوا ، وعقد له لواء وَشُرَّفَ بالتَّشْرِيف ، وَقُدِّدَ ، وَكُتِبَ إلى ولاية الوجه القبليّ عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاذته والركوب للغزو معه متى أراد ، وكتب له منشور بما يفتحه من البلاد ، وتقليدُ بِأَمْرَةِ عربان القبلة مما يلي قُوصَ إلى حيث تصل غايته ، وترك رأيته .

قلت : أما في زماننا فذو جَهَّتْ عربُ هَوَّارة وجوهها من عمل البحيرة إلى الوجه القبليّ ونزلت به أنتشرت في أرجائه أنتشار الجراد ، وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها ، وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبليّ قاطبةً ، وأنحازوا إليهم وصاروا طَوْعَ قيادهم .
والإمرة الآن فيهم في بيتين .

الأول - بنو عمر : محمد وإخوته . ومنازلهم بَحْرَجَا وَمُنْشَأة إنحيم ؛ وأمرهم نافذ إلى أسوان من القبلة وإلى آخر بلاد الأشمونين من بحرى .
الثاني - أولاد غريب . وييدهم بلاد البهنسى ، ومنازلهم دَهْرُوط وما حولها .



وأما الوجه البحريّ ، فقد ذكر الحمدانيّ أن الإمرة فيهم في خمسة أعمال .
العمل الأول - الشرقية . قال : والإمرة فيها في قبيلتين .
الأولى - ثعلبة ، وذكر أن الإمرة كانت فيهم في شُقَيْر بن جرجى من المصاحفة من بنى زُرَيْقٍ ، وفي عمر بن نفيلة من العَلَمِيِّين .

الثانية - جُدَام : وقد ذكر أن الإمرة كانت فيهم في خمسة بيوت .
الأول - بيت أبي رُشد بن حبشى ، بن نَجْم ، بن إبراهيم من العُقَيْلِيِّين : بنى عُقَيْل

ابن قُتُورَة ، بن مَوْهوب ، بن عُبَيْد ، بن مالك ، بن سُويد ، من بني زيد بن حَرَام ،
ابن جُدَام ؛ أَمَرَ بالبوق والعَلَم .

الثاني - طَرِيف بن مَكُون^(١) ، من بني الوليد ، بن سُويد المقَدَّم ذكره ؛ وإلى
طَرِيف هذا يُنسَب بنو طَرِيف من بلاد الشَّرْقِيَّة . قال الحمْدَانِي : وكان من
أَكْرَم العرب ، كان في مَضِيَّتِهِ أَيَّامُ الْغَلَاءِ أَثْنَا عَشَرَ أَلْفًا تَأْكُلُ عنده ، وكان يَهْتَمُّ
الترِيد في المراكب . قال : ومن بنيهِ فَضْل بن سَمْح بن كُثُونَة ، وإِبْرَاهِيم بن عَلِي ؛
أَمَرَ كلَّ مِنْهُمَا بِالْبُوقِ وَالْعَلَم .

الثالث - بيت أولاد منازل من ولد الوليد المذكور ، كان منهم مَعْبَد بن مُبَارَك ،
أَمَرَ بالبوق والعَلَم .

الرابع - بيت نَمِي بن خَنْعَم من بني مالك ، بن هَلْبَا بن مالك بن سُويد ، أَقْطَعَ خَنْعَم
ابن نَمِي المذكور وأَمَرَ ، وَأَقْتَنِي عِدَدًا مِنَ الْمَالِكِ الْإِتْرَاكِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ ، وَبَلَغَ
مِنَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ مَنَزَلَةً ، ثُمَّ حَصَلَ عِنْدَ الْمَلِكِ الْمُعْزِ أَيْبُكُ التُّرْكُمَانِي عَلَى الدَّرَجَةِ
الرَّفِيعَةِ ، وَقَدَّمَهُ عَلَى عَرَبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ غِلْمَانُهُ ، فَفَعَلَ
الْمُعْزُ أَيْبُيهِ : سَلَمَى وَدَغَشَ عَوْضَهُ ، فَكَانَا لَهُ نَعَمٌ الْخَلْفُ ، ثُمَّ قَدِمَ دَغَشَ دِمَشْقَ فَأَمَرَهُ
الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَاحِبُ دِمَشْقَ يَوْمئِذٍ مِنْ بَنِي أَيُّوبَ بِبُوقٍ وَعَلَمٍ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَيْبُكُ
أَخَاهُ سَلَمَى كَذَلِكَ .

الخامس - بيت مُفَرِّج بن سَالِم بن رَاضِي من هَلْبَا بَعْجَةَ ، ابن زيد ، بن سُويد ،
ابن بَعْجَةَ ، من بني زيد بن حَرَام بن جُدَام ؛ أَمَرَهُ الْمُعْزُ أَيْبُكُ التُّرْكُمَانِي بِالْبُوقِ وَالْعَلَم .
وذلك أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ الْمُعْزُ تَأْمِيرَ سَلَمَى بن خَنْعَمِ الْمَقْدَّمِ ذَكَرَهُ أَمْتَنَعَ أَنْ يُؤَمَّرَ حَتَّى
يُؤَمَّرَ مُفَرِّج بن غَانِمِ^(٢) فَأَمَرَ .

(١) تقدم في الجزء الأول (ص ٣٣٢) آبن بكتوت . (٢) لعله سالم .

العمل الثانى - المنوفية . والإمارة فيها لأولاد نصير الدين من لواتة ، ولكن إمرتهم فى معنى مشيخة العرب .

العمل الثالث - الغربية . والإمارة فيه فى أولاد يوسف من الخزانة من سنيس من طي من كهلان من القحطانية ، ومقرتهم مدينة سخا من الغربية .

العمل الرابع - البحيرة . وقد ذكر فى " التعريف " : أن الإمارة فى الدولة الناصرية ابن قلاوون كانت لخالد بن أبى سليمان وفائد بن مقدم . قال فى " مسالك الأبصار " : وكنا أميرين سيدين جليلين ذوى كرم وإفضال وشجاعة وثبات رأى وإقدام .

العمل الخامس - برقة . قال فى " التعريف " : ولم يبق من أمراء العرب ببرقة يعنى فى زمانه إلا جعفر بن عمر ، وكان لا يزال بين طاعة وعصيان ، ومخاشنة وليان ، والجيوش فى كل وقت تمتد إليه ، وقيل أن تطفر منه بطائل أو رجعت منه بمغم ، وإن أصابته نوبة من الدهر . قال : وآخر أمره أن ركب طريق الواح حتى خرج من الفيوم وطرق باب السلطان لائذا بالعفو ، ووصل ولم يسبق به خبر ، ولم يعلم السلطان به حتى استأذن المستأذن له عليه وهو فى جملة الوقوف بالباب ، فأكرم أئمة الكرامة وشرف بأجل التشاريف ، وأقام مدة فى قرى الإحسان وإحسان القرى وأهله لا يعلمون ماجرى ، ولا يعلمون أين يم ولا أى جهة نحا ، حتى أتتهم وافدات البشائر وجاءت منه . فقال له السلطان : لم لا أعلمت أهلك بقصدك إلينا؟ قال : خفت أن يقولوا : فيتك بك السلطان فأتببط ، فاستحسن قوله ، وأفاض عليه طوله ، ثم أعيد إلى أهله ، فأنقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء ولا رثى له صاحب ولا شمت به عدو .

قلت : والإمرة اليوم في بركة في عمر بن عريف ، وهو رجل دين وكان أبوه [عريف ذا دين متين رأيته^(١)] في الإسكندرية بعد الثمانين والسبعائة ، واجتمعت به فوجدت آثار الخير ظاهرة عليه .

الفصل الثاني

من المقالة الثانية

(في المملكة الشامية ، وما يتصل بها : من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة مما هو مضاف إلى هذه المملكة ، وفيه أربعة أطراف)

الطرف الأول

(في فضل الشام وخواصه وعجائبه ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في فضل الشام)

أعظم شاهد لذلك ما أخرجه الترمذي من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال : ” كُنَّا يَوْمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُوَلِّفُ الْقُرَّاءَ مِنَ الرَّقَاعِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : طُوبَى لِأَهْلِ الشَّامِ . فَقُلْتُ : لِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَاسِطَةً أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهِ “ . هذا وقد بُعِثَ بِهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَفِيهِ ضَرَائِحُهُمُ الشَّرِيفَةُ ، وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُسَمَّى إِلَيْهَا الرِّحَالُ ، وَهُوَ أَوَّلُ الْقِبْلَتَيْنِ ، وَبِهِ يَنْزِلُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنَارَةِ جَامِعِ دِمَشْقَ ، وَبِهِ يَقْتُلُ الدَّجَالُ بِمَدِينَةِ لُدٍّ . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ” إِنْ اللَّهُ بَارَكَ فِيمَا بَيْنَ الْعَرِيشِ إِلَى الْفُرَاتِ وَخَصَّ فَلَسْطِينَ بِالتَّقْدِيسِ “ .

(١) ترك له في الأصل بياضا وأخذناه عن الضوء للولف .

المقصود الثاني

(في خواصه وعجائبه)

أما خواصه فإنَّ به الأماكن التي تعظمها الأمم على اختلاف عقائدهم كالصخرة التي هي قبلة اليهود، والقمامة التي يحجها النصارى من سائر أقطار الأرض، وطور نابلس الذي تحج السامرة، وبمدينة صور كنيسة تعتقد طائفة من النصارى أنه لا يصح تملك ملوكهم إلا منها، على ماسياتي ذكره في الكلام على أعمال صفد إن شاء الله تعالى، وغير ذلك مما تتقاد به الأمم إلى صاحب هذه المملكة وتُدعِئُ لمُسالمتِهِ .
وأما عجائبه فكثيرة .

منها - (حمة طبرية) المشهورة : وهي عين تبَّعُ ماءً شديد الحرارة يكاد يسلق البيضة، يقصدها المترددون للاستشفاء بالاعتسال فيها . قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وليس فيها حمام يوقد فيه النار إلا الحمام الصغير .

ومنها - (قبة العقارب) بمدينة حمص . وهي قبة بالقرب من مسجد جامعها ، إذا أخذ شيء من تراب حمص وجبل بالماء وألصق بداخل تلك القبة وترك حتى يجف ويسقط بنفسه من غير أن يلقيها أحد ثم أخذت ووضع منها شيء في بيت لم يدخله عقرب ، أو في قماش لم يقربه ، وإن دُر على عقرب منه شيء أخذها مثل السكر فربما زاد عليها فقتلها ، بل قيل إن ذلك لا يختص بالقبة بل عامة أرض البلد كذلك حتى لا يدخلها عقرب إلا مات ، بل لا يقرب ثيابا ولا أمتعة عليها غبارها ، وإلى ذلك أشار القاضي الفاضل في البشري بفتوحها بقوله : "ودبت إليها عقارب المجانيق فخالفت عادة حمص في العقارب ، ورُميت الحجارة بالحجارة فوقعت العداوة المعروفة بين الأقباط" .

ومنها - (عَيْنُ فَوَارَةٍ) داخل البحر المائج على القُرب من ساحل مدينة طرابلس على قدر رمية حجر عن البر، تتبّع ماءً عذبا يطفو على وجه الماء قدر ذراع أو أكثر يثبّين عند سكّون الريح .

ومنها - (وادي الفوّار) وهو وادٍ بالقرب من حصن الأكراد من عمل طرابلس غربا عنه بشمال على الطريق السالكة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي صفة برّ قائمة في الأرض ، وفي سفّل الأرض سردابٌ ممتد إلى الشمال يَفُور في كل أسبوع يوما واحدا لا غير ، فتسقى به أرضٌ ومزروعاتٌ ، وينزل عليه التُّرُكُان ويَرِدُونَهُ ، ويُسمَع له قبل فوّارانه دويٌّ كالرعد ، وهو في بقية الأيام يابسٌ لا ماء فيه . قال : وذَكَر لي مَنْ دخل السرداب أن في نهايته نهرا كبيرا آخذا من الغرب إلى الشرق تحت الأرض ؛ له جريان قويٌّ ، وبه موج وريح عاصف ، لا يُعرف إلى أين يجري ولا من أيّ جهة يأتي .

ومنها - (حمامُ القُدُموس) من قلاع الدعوة من عمل طرابلس يخرج منها أنواع كثيرة من الحيات تظهر من أنابيب مائها وتدخل في ثياب داخلها ، ولم يشتهر أنها أضرت أحدا قط على ممرّ الدهور وتطاول الأزمنة ، حكاها في "مسالك الأبصار" . ومنها - (صدعٌ) في سور الخواري من قلاع الدعوة من عمل طرابلس أيضا . إذا لدغ أحد بحية فأتى إلى ذلك الموضع فشاهده بعينه أو أرسل رسوله فشاهده ، سلم من تلك اللدغة ، ولم يضره السم . إلى غير ذلك من العجائب الظاهرة والمندرسة بمرور الزمان عليها .

قال ابن الأثير : وبقرى حلب قرية تسمى براق ، يقال إن بهامعبدا يقصده أصحاب الأمراض ويبيتون به . فإذا أن يرى المريض في منامه مَنْ يقول له أستعمل كذا وكذا

فيراً، أو يمسح عليه بيده فيراً . قال في تاريخه : وبقرية مبرون من قرى صَفَد مغارة يظهر فيها الماء في يوم من السنة تجتمع إليه اليهود في ذلك اليوم، ويجلبون منه الماء إلى البلاد البعيدة؛ وبوادي دلسه من عملها عين تعرف بعين الجن تفور لحظة كالنهر ثم تغور حتى لا يبقى فيها ماء، ثم تفور كذلك ليلاً ونهاراً، وبقرية بكوزا من قرى صَفَد عَنب داخل العنبة عنبة أخرى، وبقرية عداش من قرىها بلوط يؤخذ الواحد منه من الشجرة فيوجد حضنها حجر، وبقرية عياض تراب الجير إذا عمل منه كوز وسقي فيه الكسير من آدمي أو غيره، جبر عظمه، وبالناصره من أعمالها كنيسة بها عمود إذا اجتمع عنده جماعة وعملوا سماعاً عرق العمود حتى يظهر عرقه .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(في حدوده، وأبتداء عمارته، وتسميته شاماً، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في حدوده)

وقد اختلف في تحديده، فذكر في "التعريف" أن حدّه من القبله إلى البرّ المقفر: تيه بنى إسرائيل وبرّ الحجاز والسّماوة إلى مرّمي الفرات بالعراق . قال : وهذه المحادّات كلّها من جزيرة العرب .

وحده من الشرق طرف السّماوة والفرات .

وحده من الشّمال البحر الرومي .

وحده من الغرب حدّ مصر المتقدّم ذكره، وذكر في "تقويم البلدان" :

أن حدّه من الجنوب من أول رفح التي في أول الحفارين مصر والشام إلى حدود تيه بنى إسرائيل إلى ما بين الشّوبك وأيلة من البلقاء؛ وحده من الشرق من البلقاء

إلى مشاريق صَرَّخَدَ، آخِذاً على أطراف الغوطة، إلى سَامِيَّة، إلى مشاريق حلب، إلى بَالِس، وحدّه من الشمال من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم، إلى البيرة، إلى سُمَيْسَاط إلى حصن منصور، إلى بَهْسَنَى، إلى مَرَعَش، إلى بلاد سيس، إلى طَرَسُوس، إلى بحر الروم، وحدّه من الغرب من طَرَسُوس المذكورة آخِذاً على ساحل البحر الرومى إلى رَفَحِ المتقدمة المذكور حيث وقع الابتداء .

قات : والخُلْفُ بينهما في شيئين .

أحدهما - أنه في " التعريف " جعل حدّه الشّماليّ إلى البحر الرومى، وحدّه الغربيّ جَدَّ مصر المتقدم ذكره، وفي " تقويم البلدان " جعل حدّه الشّماليّ البلاد التي بين الفُرات والبحر الرومى، وحدّه الغربيّ البحر الرومى من طَرَسُوس إلى رَفَحِ فيدخل حدّ مصر الذى حدّ به الجانب الغربيّ في " التعريف " في هذا الحدّ، وكأنّ الموقع لهما في ذلك أن البحر الرومى عن الشام غرباً بشمال، فَجَنَحَ كل منهما إلى جهة .

الثانى - أنه في " تقويم البلدان " أدخل بلاد الأرمن المتصلة بأخر بلاد حَلَب من الشمال في حدود الشام، وفي " التعريف " أخرجها وهو التحقيق . وقد صرّح بذلك في " التعريف " فيما بعد فقال بعد أن أفرد الفتوحات الجاهانيّة التي هي أوّل بلاد الأرمن من جهة حَلَب بالذكر : وأُتِيَتْ بها هُنا إذ لم يكن لها تَعَلُّقٌ بمملكة تذكّر فيها، وليست من الشامات في شيء وإنما هي من بلاد الأرمن المسماة قديماً ببلاد العواصم والثغور، وسيأتى الكلام على بلاد الأرمن بمفردها في جملة أعمال حلب في الكلام على قواعد المملكة الشامية إن شاء الله تعالى .

على أن ما ذكره من التحديد في " التعريف " و " تقويم البلدان " لا يخلو عن تساهل . فقد قال في " التعريف " : بعد ذكر الحدود التي أوردها : وهذه الحدود هي الجامعة على ما يحتاج إليه، وإذا فُصِّلَتْ تحتجّج إلى زيادة إيضاح . وقال

في "تقويم البلدان" : بعد ذكر الحدود التي أوردتها أيضا : وبعض هذه الحدود قد تقع شرقية عن بعض الشام وهي بعينها جنوبية عن بعض آخر، مثل البلقاء فإنها جنوبية عن حلب وما على سمتها، وشرقية عن مثل غزّة وما على سمتها فليعلم العذر في ذلك.

قال ابن حوقل : وطول الشام من ملطية إلى رفح خمس وعشرون مرحلة . فمن ملطية إلى منبج أربع مراحل ، ومن منبج إلى حلب مرحلتان ، ومن حلب إلى حمص خمس مراحل ، ومن حمص إلى دمشق خمس مراحل ، ومن دمشق إلى طبرية أربع مراحل ، ومن طبرية إلى الرملة ثلاث مراحل ، ومن الرملة إلى رفح مرحلتان .

قال التيفاشي في "سرور النفس" : وطوله أكثر من شهر . قال ابن حوقل :

وأعرض ما فيه طرفاه . فأحد طرفيه من الفرات من جسر منبج على منبج على قورس في حد قنسرين ، ثم على العواصم في حد إنطاكية ، ثم يقع على جبل اللكام ، ثم على المصيصة ، ثم على أذنة ، ثم على طرسوس ، وذلك نحو عشر مراحل وهذا هو السمّ المستقيم . والطرف الآخر يأخذ في البحر من حد يافا من جند فلسطين حتى ينتهي إلى الرملة إلى بيت المقدس ، ثم إلى أريحا ، ثم إلى زغر ، ثم إلى جبل الشراة إلى أن يأتي إلى معان ، وتقدير ذلك ست مراحل . ثم قال : أما ما بين هذين الطرفين من الشام فلا يكاد بين الأردنّ ودمشق وحمص يزيد على أكثر من ثلاثة أيام ، لأن من دمشق إلى طرابلس على بحر الروم غربا يوما وإلى أقصى الغوطة شرقا حتى يتصل بالبادية يوما ، ومن حمص إلى أنططوس على بحر الروم غربا يومين ، ومن حمص إلى سامية على البادية شرقا يوما ، ومن طبرية من جند الأردنّ إلى صور على البحر الرومي غربا يوما ، ومنها إلى أريحا على حدود بني فزارة شرقا يوما .

المقصود الثاني

(في آبتداء عمارته وتسميته شاما وما يَلْتَحِقُ بذلك)

أما آبتداء عمارته، فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخ الشام عن هشام بن محمد عن أبيه : أن نوحا عليه السلام لما قسم الأرض بين بنيه لحق قوم من بني كنعان^(١) ابن حام بن نوح عليه السلام بالشام فسميت الشام، حين تَشَاءُموا إليها، يعنى من أرض بابل كما جاء في الرواية الأخرى. قال : فكانت الشام يقال لها لذلك أرض كنعان، وجاء بنو إسرائيل فأجلّوهم عنها، وبقيت الشام لبني إسرائيل إلى أن غلب عليه الروم وأنزعوه منهم فأجلّوهم إلى العراق إلا قليلا منهم، ثم جاء العرب فغلبوا على الشام (يعنى في الفتح الإسلامى) ثم الشام مهموز مقصور. قال النووى في "تهذيب الأسماء واللغات" وغيره : ويجوز فيه فتح الشين والمد. قال : وهى ضعيفة وإن كانت مشهورة قال الجوهرى : ويجوز فيه التذكير والتأنيث. قال النووى : والمشهور التذكير. وقد اختلف في سبب تسميته شاما فقليل لتشاؤم بني كنعان إليه كما تقدم في كلام ابن عساكر، وقيل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به، وأسمه بالسريانية شام بشين معجمة، والعرب تنقلها إلى السين المهملة. وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسواد واليباض فسمى شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة. وقيل سميت شاما لأنها عن شمال الكعبة، والشام لغة في الشمال. قال أبو بكر بن محمد : ويجوز فيه وجهان. أحدهما أن يكون من اليد الشؤمى وهى اليسرى. والثانى أن يكون فعلاً من الشؤم.

(١) كذا في معجم البلدان أيضا وفي القاموس في مادة (ك ن ع) كنعان بن سام.

الطَّرَف الثالث

(في أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواسيه ، ووحوشه وطيوره ، وفيه ستة مقاصد)

المقصود الأول

(في ذكر الأنهار العظام بالشام وماهو مضاف إليه مما يتكرر ذكره بذكر البلدان ، وهي أربعة أنهار ^(١))

الأول - نهر الفرات وهو أعظمها ، وقد تقدّم في الكلام على النيل أنه شقيقه في الخروج من الجنة . وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ! قال : " لا تقوم الساعة حتى يحسّر الفرات عن جبل من ذهب فيقتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم لعلى أنا الذي أنجوي به " وأول أبتدائه من شمالي مدينة (أرزن الروم) وشرقيها ، وهي آخر بلاد الروم من جهة الشرق حيث الطول أربع وستون درجة والعرض اثنتان وأربعون درجة ونصف ، ثم يأخذ إلى قرب (ملطية) ثم يأخذ إلى (سمساط) ثم يأخذ مشرقا ويتجاوز (قلعة الروم) من شماليها وشرقيها ، ثم يسير إلى (البيرة) من جنوبيها ، ثم يمر مشرقا حتى يجاوز بالس ، ثم قلعة جعبر ويتجاوزها إلى الرقة ، ثم يسير مشرقا ويتجاوز الرجة من شماليها ويسير إلى عنة ، ثم يمتد إلى هيت ، ويمتد حتى يجاوز مخرج (نهر كوثي) الآتي ذكره ، فينقسم قسمين ويمر أحدهما : وهو الجنوبي إلى (الكوفة) ويتجاوزها ، ويصب في بطنح العراق ، ويمر الآخر : وهو أعظمها بإزاء (قصر ابن هبيرة) ويعرف هذا القسم بنهر سورا (بضم السين المهملة وآخره ألف يمد ويقصر) وهي قرية على النهر تسمى إليها ،

(١) الصواب ستة أنهار كما يتضح مما سيأتي .

ويتجاوز قصر ابن هيرة ويسير جنوبا إلى (مدينة بابل) القديمة، ويتفرع منه بعد أن يجاوز بابل عدة أنهر، ويمر عموده إلى (مدينة النيل) ويجاوزها حتى يصب في دجلة ويسمى من بعد مجاوزة النيل (نهر الصرة) . وعلى الفرات أنهار تصب فيه وأنهار تخرج منه ليس بنا حاجة إلى تفصيلها .

الثانى - نهر حماة . ويسمى العاصى لأن غالب الأنهر تسقى الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بأنفسها، ونهر حماة لا يسقى إلا بنواعير تترع الماء منه ، ويسمى أيضا النهر المقلوب : لجره من الجنوب إلى الشمال ، وغالب الأنهر إنما تجرى من الشمال إلى الجنوب ، وأسمه القديم نهر الأرنت^(١) ، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها على نحو مرحلة، تسمى الرأس، ويمتد من الرأس شمالا حتى يصل إلى مكان يسمى قائم الهرمل بين قرية جوسية والرأس ، ويمر في واد هناك وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب ، ويمتد شمالا حتى يتجاوز (جوسية) ويمتد حتى يصب في (بحيرة قدس) غربى حصص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حصص إلى الرستن ، ويمتد إلى حماة ، ثم إلى شيزر ، ثم إلى بحيرة أفامية ، ثم يخرج من بحيرة أفامية ، ويمر على دركوش ، ويمتد إلى جسر الحديد ، وذلك جميعه شرقى جبل اللكام . فإذا وصل إلى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوبا بغرب ويمر على سور أنطاكية ، ويسير كذلك مغربا بجنوب حتى يصب في بحر الروم عند السويدية ويصب في العاصى عدة أنهر :

منها - نهر منبعه من تحت أفامية يسير مغربا حتى يصل إلى بحيرة أفامية ويختلط بالعاصى .

(١) أورده ياقوت في معجم البلدان بالبدال المهملة .

ومنها - نهر في شمال أفامية على نحو ميلين يُعرف بالنهر الكبير يسير مدى قريبا
ويصب في بحيرة أفامية، ويخرج منها مع العاصي .

ومنها - النهر الأسود، يجري من الشمال ويمر تحت درّ بساك ويمتد حتى يصب
في بحيرة أنطاكية ويخرج منها ويصب في العاصي .

ومنها - نهر يغرا - بفتح الياء المشناة تحت وسكون الغين المعجمة وفتح الراء المهملة
ثم ألف مقصورة - بلدة هناك يمر عليها ويصب في النهر الأسود المذكور .

ومنها - عفرين - بكسر العين المهملة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة ثم باء مشناة
تحت ونون في الآخر - وهو نهر يأتي من بلاد الروم ويمر على الراوندان إلى الجومة
ويمر في الجومة إلى العمق ويختلط بالنهر الأسود .

الثالث - نهر الأرذد . والأرذد بضم الهمزة وسكون الراء المهملة وضم الدال
المهملة أيضا وتشديد النون . كذا ضبطه السمعاني في "اللباب" قال : وهي بلدة
من بلاد الغور من الشام نسب إليها النهر ويسمى الشريعة أيضا ، وأصله من أنهار
تصب من جبل الثلج إلى بحيرة بانياس ، ثم يخرج من البحيرة المذكورة ويصب
في بحيرة طبرية ، ويمتد جنوبا ، وهناك يصب في نهر اليرموك بين بحيرة طبرية
المذكورة وبين القصير ، ويمتد في وسط الغور جنوبا حتى يجاوز بيسان ، ويمتد
في الجنوب كذلك إلى أريحا ، ولا يزال يمتد في الجنوب حتى يصب في بحيرة زغر
وهي البحيرة المنتنة المعروفة ببحيرة لوط .

الرابع - نهر العوجاء - بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح الجيم وبعدها
ألف - ويسمى نهر أبي فطرس (بضم الفاء وبالطاء والراء والسين المهملات) وهو نهر
شمالى مدينة الرملة من فلسطين باثنى عشر ميلا ، ومنبعه من تحت جبل الخليل

عليه السلام مقابل قلعة خراب هناك تسمى مجد اليابا، ويجرى هذا النهر من الشرق إلى الغرب، ويصب في بحر الروم جنوبى غابة أرسوف، ومن منبعه إلى مصبه دون مسافة يوم. قال في "العزى": وما تبقى عليه جيشان إلا غلب الغربى وأنهم الشرق، وسيأتى الكلام على أنهار دمشق في الكلام على حاضرتها إن شاء الله تعالى إذ لا يتعداها إلى غيرها من البلاد.

الخامس - نهر جیحان . بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح الحاء المهملة وبعد الألف نون - وتسمى العامة جهان - يجيم وهاء مفتوحتين وألف ثم نون، وربما زادوا ألفا بعد الجيم فقالوا جادان، وإليه تنسب الفتوحات الجاهانية الآتى ذكرها. قال: في "رسم المعمور": وأوله عند طول ستين درجة وعرض أربعين درجة، وهو نهر يقارب الفرات في الكبر، ويمر ببسيس، ويسير من الشمال إلى الجنوب بين جبال في حدود الروم حتى يبلغ المصيصة من شمالها (٢) حيث الطول تسع وخمسون وكسر والعرض ست وثلاثون درجة، وعرض خمس عشرة، وجريانه عندها من المشرق إلى المغرب، ويتجاوز المصيصة ويصب بالقرب منها في بحر الروم.

السادس - نهر سيحان . بفتح السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الحاء المهملة وبعدها ألف ثم نون. قال في "رسم المعمور": وأوله عند طول ممان وخمسين، وعرض أربع وأربعين، ويمر ببلاد الروم إلى الجنوب عند مجرى جیحان المتقدم ذكره، ويسير حتى يمر ببلاد الأرمن، ويمر على سور أذنة من شرقها حيث الطول تسع وخمسون بغير كسر، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة،

(١) أوردها في المعجم هكذا "مجدلابة".

(٢) في تقويم أبى الفداء "خمسة عشرة دقيقة".

ويتجاوز أذنة ويلتقي مع جيحان المتقدم ذكره ويصيران نهرا واحدا ، ويصبان
في بحر الروم بين آياس وطرسوس على ما تقدم ذكره .

المقصود الثاني

(في ذكر بحيراته ، وهي ثمان بحيرات)

الأولى - بحيرة طبرية . قال الزجاجي : سميت طبرية بطباري ملك من ملوك
الروم ، وهي في أول الغور ، يدخل إليها نهر الشريعة المنصب من بحيرة بانياس الآتي
ذكرها ، ودورها نحو مسيرة يومين ، ووسطها حيث الطول ثمان وخمسون درجة ،
والعرض اثنتان وثلاثون ، وهي قرعاء . ليس بها قصب نابت . وطبرية مدينة خراب
على شاطئ البحيرة المذكورة من جانبها الغربي الجنوبي ، قال العثاني في " تاريخ
صفد " : ويقال إن قبر سليمان بن داود عليهما السلام بهذه البحيرة .

الثانية - بحيرة زغر وتعرف بحيرة سدوم وبحيرة لوط . وهي بحيرة متنة ليس
بها سمك ولا يأوى إليها طير ، وفيها منصب نهر الأردن المسحى بالشريعة عند
نهايته ، ويغيب الماء فيها ولا يخرج منها شيء من الأنهار ، وهي في آخر الغور من
جهة الجنوب ، ودورها فوق مسيرة يومين ، ووسطها حيث الطول تسع وخمسون
درجة والعرض إحدى وثلاثون .

الثالثة - بحيرة بانياس . وهي بحيرة بالقرب من بانياس من مقابلة دمشق
يصب فيها عدة أنهار من جبل هناك ، ويخرج منها نهر الشريعة ويصب في بحيرة
طبرية المتقدم ذكرها ، وبها غابة قصب .

الرابعة - بحيرة البقاع . وهي مستنقع ماء في جهة الغرب عن بعلبك على مسيرة
يوم منها ، بها هيش وغابات قصب .

الخامسة - بحيرة دِمَشْقَ . وهى بحيرة فى شرق غُوطَةِ دِمَشْقَ بِمِثْلَةِ يسيرة إلى الشمال يصب إليها فضلة نهر بَرْدَى وغيره، وتتسع فى أيام الشتاء وتضيق فى أيام الصيف، وبها غابات قَصَب، وفيها أما كن تَحْمَى من العدو .

السادسة - بحيرة قَدَس . بفتح القاف والدال وفى آخرها سين مهملة .

وهى بحيرة فى أرضٍ مستوية، عن حِصَصٍ فى جهة الغرب على بعض يوم منها، وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة وفى طرفها الشمالى سدٌ ممتد فى طولها مبنى بالججر من بناء الأوائل ينسب بناؤه إلى الإسكندرِ طولهُ شرقاً وغرباً ألف ومائتان وسبعة وثمانون ذراعاً، وعرضه ثمانية عشر ذراعاً ونصف ذراع، وعلى وسط السد بُرْجَانٍ من حجر أسود .

السابعة - بحيرة أَفَامِيَّة . وهى عتدة بطامح فى الغرب بِمِثْلَةِ إلى الشمال عن أَفَامِيَّة بين غابات من القَصَب، يصب فيها النهر العاصى من جهة الجنوب . وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك، فالجنوبية منهما بُحِيرَةُ أَفَامِيَّة المذكورة، وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ، وقعرها قريب قامة، وأرضها مَوْحَلَةٌ لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها، وبوسطها جُحْمٌ قَصَبٌ وَبَرْدَىٌ وحولها القصب والصفصاف، وبها من أنواع الطير ما لا يحصى كثرةً، وينبت بها فى زمن الربيع اللَّيْنُوفُ الأصفر حتى يستر الماء عن آخره بَوْرَقِهِ وزَهْرِهِ . والبحيرة الشمالية من عمل حصن بَرَزُويَّة بقدر بحيرة أَفَامِيَّة أربع مرات، ووسطها مكشوف، وينبت اللَّيْنُوفُ بجانبها الجنوبى والشمالى وبينها وبين بحيرة أَفَامِيَّة المذكورة زُقَاقٌ تسير فيه المراكب من إحداهما إلى الأخرى . قال فى "تقويم البلدان" : ويعتبر طول هذه البطامح وعرضها بأفامية .

الثامنة - بحيرة أَنْطَاكِة . وهى بحيرة بين أَنْطَاكِة وَبَغْرَاسَ وحارمٍ فى أرض تعرف بالعمق (بفتح العين المهملة وسكون الميم) من معاملة حَلَبَ شمالى أَنْطَاكِة على

مَسِيرَة يَوْمَيْنِ مِنْ حَلَبَ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ عَنْهَا . وَفِيهَا مَصَبُّ نَهْرِ عَفْرَيْنَ وَالنَّهْرُ الْأَسْوَدُ وَنَهْرُ يَغْرَا الْمَتَقَدِّمَ ذِكْرَهَا ، وَدَوْرُهَا نَحْوَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ ، وَأَجَامُ الْقَصَبِ مُحِيطَةٌ بِهَا وَفِيهَا مِنَ الطَّيْرِ وَالسَّمَكِ نَحْوُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي بَحِيرَةِ أَفَامِيَّةَ . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَطُولُهَا طَوِيلٌ أَنْطَاكِةً تَقْرِيْبًا ، وَعَرْضُهَا أَكْثَرُ مِنْ عَرْضِهَا بِدَقَائِقَ .

المقصود الثالث

(فِي ذِكْرِ جِبَالِهَا الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَقَاصِدِ ، وَهِيَ دَنَّةُ أَجْبَلِ) مِنْهَا - (جِبَلُ الثَّلَاجِ) بِالنَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ وَالْجِيمِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَالطَّرْفُ الْجَنُوبِيُّ لِهَذَا الْجَبَلِ بِالْقَرَبِ مِنْ صَفَدَ . قَالَ فِي "رَسْمِ الْمَعْمُورِ" حَيْثُ الطَّوْلُ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً ، وَالْعَرْضُ اثْنَتَانِ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً . قَالَ : فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : ثُمَّ يَمْتَدُّ إِلَى الشَّامِ وَيَتَجَاوَزُ دِمَشْقَ . فَإِذَا صَارَ فِي شَمَالِهَا ، سَمِيَ جَبَلُ (سَنِيرٍ) وَيُسَمَّى جَانِبُهُ الْمُطْلُ عَلَى دِمَشْقَ جَبَلُ (نَاسِيُونٍ) وَيَتَجَاوَزُ دِمَشْقَ وَيَمُرُّ غَرْبِيَّ بَعْلَبَكَ ، وَيُسَمَّى الْجَبَلُ الْمُقَابِلَ لَبَعْلَبَكَ جَبَلُ (لَبْنَانٍ) ^(١) بِلَامٍ مَكْسُورَةٍ وَبَاءٍ مُوَحَّدَةٍ سَاكِنَةٍ وَنُونٍ مُفْتُوحَةٍ بَعْدَهَا أَلْفٌ وَنُونٌ ثَانِيَةٌ - وَإِذَا تَجَاوَزَ بَعْلَبَكَ وَصَارَ شَرْقِيَّ طَرَابُلُسَ سَمِيَ جَبَلُ (عَكَّارٍ) بَعَيْنٍ مُهْمَلَةٍ مُفْتُوحَةٍ وَكَافٍ مُشَدَّدَةٍ وَرَاءَ مُهْمَلَةٍ فِي الْآخِرِ - إِضَافَةً إِلَى حِصْنٍ بِأَعْلَاهُ يُسَمَّى عَكَّارًا ، ثُمَّ يَمُرُّ شَمَالًا وَيَتَجَاوَزُ طَرَابُلُسَ إِلَى حِصْنِ الْأَكْرَادِ مِنْ عَمَلِ طَرَابُلُسَ ، وَيَسَامَتِ حِمَصٌ مِنْ غَرْبِهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَيَمْتَدُّ حَتَّى يَجَاوِزَ سَمْتَ حِمَاةَ ، ثُمَّ سَمْتَ شَيْزَرَ ، ثُمَّ سَمْتَ أَفَامِيَّةَ ، وَيُسَمَّى قِبَالَةَ هَذِهِ الْبِلَادِ جَبَلُ (الْأَكَّامِ) بِضَمِّ اللَّامِ . قَالَ فِي "رَسْمِ الْمَعْمُورِ" : وَجِبَلُ الْأَكَّامِ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ يَصِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ شَحْشَبُو ، آتِسَاعُهُ نِصْفُ يَوْمٍ حَتَّى يَتَجَاوِزَ صَهْيُونَ وَالشُّغْرَ وَبَكَّاسَ وَالنَّصِيرَ ، وَيَنْتَهِي إِلَى أَنْطَاكِةَ فَيَنْقَطِعُ هُنَاكَ وَيَصِيرُ قِبَالَةَ جِبَالِ الْأُرْمَنِ .

قال في "تقويم البلدان" : ويقابل جبل اللكام المذكور عند مسامته لأفامية المتقدمة الذكر جبل آخر من شريقه ، يسمى جبل (شَحْشَبُو) بشين معجمة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وشين ثانية مفتوحة بعدها باء موحدة مضمومة ثم واو - إضافة إلى قرية هناك تسمى بذلك ، ويمر من الجنوب إلى الشمال على غربى المعرة وسمرين وحلب ، ثم يأخذ غربا ويتصل بجبال الروم .

ومنها - (جبل عاملة) وهو جبل ممتد في شرق ساحل بحر الروم وجنوبيه ، حتى يقرب من مدينة صور ، وعليه شقيف أرنون ، نزله بنو عاملة بن سبيل من عرب اليمن عند تفرقهم بسيل العريم فعرف بهم .

ومنها - (جبل عوف) وهو جبل بالقرب من عجلون ، كان ينزله قوم من بنى عوف من جرم قضاة فعرف بهم ، وكانوا عصاة لا يدخلون تحت طاعة حتى بنى عليهم أسامة أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة عجلون فدخلوا تحت الطاعة على ماسياتى ذكره .

ومنها - (جبل الصلت) إضافة إلى مدينة الصلت الآتى ذكرها في أعمال دمشق ، وهو جبل في شرق جبل عوف وشماله ، كان أهله عصاة حتى بنى عليهم المعظم غيسى ابن العادل حصن الصلت فدخلوا في الطاعة .

المقصود الرابع

(في ذكر زروعه وفواكهه ورياحينه)

أما زروعه فغالبا على المطر . قال في "مسالك الأبصار" : ومنها ماهو على سقى الأنهار وهو قليل ، وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البر والشعير والذرة والأرز والباقل والبسلة والحبان ، واللوبياء والحبنة ، والسّمسم والقرطم ، ولا يوجد فيه

الكَّثَانُ والْبَرْسِيمُ؛ وبه من أنواع البَطِيخِ والقِنَاءِ ما يُسْتَطَابُ ويستَحْسَنُ، وكذلك غيرها من المزدروعات كالْقُلُقَاسِ والمُلُوخِيَا والبَادِجَانِ واللَّفَتِ والجَزَرِ والهِلْيُونِ والقُنْبِيطِ والرَّجَلَةِ والبَقْلَةِ اليمانية، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة؛ وقصبُ السُّكَّرِ في أغواره إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حدَّ مصر.

وأما فواكهه، ففيه من كل ما يوجد في مصر كالنَّيْنِ والعِنَبِ والرَّيَّانِ والقَرَّاصِيَا والْبَرْقُوقِ والمِشْمِشِ والخَوْخِ - وهو المسمَّى بالدَّرَاقِنِ - والتُّوتِ والفِرْصَادِ؛ ويكثر بها التَّنْفَاحُ والكَثْرَى والسَّفَرْجَلُ مع كونها أكثر أنواعاً وأبهج منظرًا، ويزيد عليه فواكه أُخْرَى لا توجد بمصر، وربما وجد بعضها في مصر على الدور الذي لا يعتدُّ به كالْجَوْزِ والبُنْدُقِ والإجَاصِ والعُنَّابِ والزَّعْرُورِ، والزَّيْتُونُ فيه الغاية في الكثرة، ومنه يعتصر الزيتُ وينقل إلى أكثر البلدان وغير ذلك، وبأغوارها أنواع الحمَّضات كالْأُتْرُجِ والليمون والكَّجَادِ والتَّارَنُجِ ولكنه لا يبلغ في ذلك حدَّ مصر، وكذلك المَوْزُ ولا يوجد البلَّحُ والرُّطْبُ فيه أصلاً. قال في "مسالك الأبصار": وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الربيع كالسَّفَرْجَلِ والتَّنْفَاحِ والعِنَبِ.

وأما رَيَّاحِيته، ففيه كل ما في مِصْرَ من الآسِ والوَرْدِ والرَّجِيسِ والبَنْفَسِجِ والياسمين والنَّسْرِينِ، ويزيد على مصر في ذلك خصوصاً الوَرْدُ حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان. قال في "مسالك الأبصار": وقد لُيِّىَ به ما كان يذكر من ماء ورد جور ونصيبين.

(١) أى بالشام وأنت باعتبار البقعة أو البلاد وقوله ويزيد عليه أى على مصر.

المقصد الخامس

(في ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره)

أما مواشيه ففيه جميع ما تقدم من مواشى مِصْرَ من الإبل والبقر والغنم والخيل والبعال والحُمير، إلا أن أبقاره لا تبلغ في العظم مبلغ أبقار مصر، وأغنامه لا تبلغ في طيبة اللحم مبلغ أغنامها، وحميره لم تبلغ في الفراهة مبلغ حميرها .
وأما ووحوشه ، ففيه الغزلان والأرانب والأسود وكثير من أنواع الوحوش المختلفة مما لا يوجد مثله في مِصْرَ .

وأما طيوره، ففيه الإوز والدجاج والحمام وأنواع طيور الماء المختلفة الأنواع .
قال في "مسالك الأبصار": ولا تكون الفراريح فيها إلا بحضانة ولا تتجّع فيها المعامل التي تعمّل لإخراج الفراريح في مصر . قال : ويذكر أن رجلا من أهل مصر عمل فيها معملا في حاضرة العقبية فصعد له العمل فيه في الصيف دون الخريف .

المقصد السادس

(في ذكر النفيس من مطعوماتها)

فيها العسل بقدر متوسط ، ويعمل فيها السكر الوسط والمكرر ، والشراب موجود فيها دون مصر، وأكثر حلواها من العسل والمن .

الطَّرَف الرابع

(في ذكر جهاته وكوره القديمة وقواعده المستقرة وأعمالها ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ذكر جهاته وكوره القديمة)

قد قسم المتقدمون الشام إلى خمسة أجناد - جمع جند بضم الجيم وإسكان النون ودال مهملة في الآخر كما ضبطه الجوهري - وغيره .

الأول - (جُنْدُ فَلَسْطِين) وفِلَسْطِينُ بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر . قال الزجاجي : سميت بِفِلَسْطِين بن كُثُوم من ولد فلان بن نوح ، بلدة كانت قديماً نسبت الكورة إليها . قال ابن حوقل : وهو أول الأجناد الخمسة من جهة الغرب من رَحَى إلى حَدِّ الْجَبُونِ ، وعَرَضُه من يافا إلى أَرِيحَا نحو يومين . قال ابن الأثير : هي كُورَةٌ كبيرة تشتمل على بلاد المقدس وغَزَّة وعَسْقَلَان . قال ابن حوقل : وهي أرخبى بلاد الشام .

الثاني - (جُنْدُ الْأُرْدُنِّ) والأُرْدُنُّ بلدة قديمة من بلاد الغور نسبت الكورة إليها ، وقد مرَّ ضبطها في الكلام على نهر الأُرْدُنِّ عند ذكر الأنهار ، وقد نسبت الكورة إليها كما نسب إليها النهر المتقدم ذكره . قال ابن حوقل : وديار قوم لُوطٍ والبحيرة المُنْتَنَةِ وزَعْرُ إلى يَسَانَ وإلى طَبَرِيَّة تسمى الغور : لأنه بين جبلين ، وسائر بلاد الشام مرتفعةٌ عليه . قال : وبعضها من الأُرْدُنِّ وبعضها من فِلَسْطِين .

الثالث - (جُنْدُ دِمَشْقَ) وسيأتى الكلام عليها في قواعد الشام المستقرّة .

الرابع - (جندِ حَمَصَ) وسيأتى الكلام عليها في الصفقة الشرقية من صفقات دِمَشْقَ .

الخامس - (جُنْدُ قَنَسَرِين) . قال في "الألباب" : بكسر القاف وفتح النون المشددة وسكون السين وكسر الراء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ونون في الآخر . قال الزجاجي : وقد روى أنها سميت برجل من قَنِيسٍ يقال له ميسرة ، نزلها فتر به رجل فقال له : ما أشبه هذا الموضع بقنّ سيرين ! فبنى منه آسم لكان قليل : قَنَسَرِين . وقيل : ددا أبو عبيدة ميسرة بن مسروق القيسي فوجهه في ألف فارس

(١) في معجم البلدان لياقوت : برجل من عبس .

(٢) » » » : العبسي .

في أثر المدوّنة على قَنَسَرِينَ فجعل ينظر إليها فقال : ماهذه ؟ فسُمِّيت له الرومية .
فقال : والله كأنها قَنَسَرِينَ . قال : وهذا يدل على أن قَنَسَرِينَ اسم مكان آخر عرفه
ميسرة فشبّه به هذا فسميت به .

قال ابن الأنباري : وفي إعرابها قولان .

أحدهما - أنها تجرى مجرى قولك الزيدون فتجعلها في الرفع بالواو فتقول هذه
قَنَسَرُونَ وفي الخفض والنصب بالياء فتقول مررت بقَنَسَرِينَ ونحلت قَنَسَرِينَ .

التول الثاني - أن تجعلها بالياء على كل حال وتجعل الإعراب في النون ولا تصرفها .

وهي قاعدة من قواعد الشام القديمة على القرب من حلب ؛ كان الجُنْد ينزلها
في ابتداء الإسلام ، ثم ضُعِفَتْ بحلب وخربت وصارت قرية على ما سيأتي ذكره
في الكلام على حلب إن شاء الله تعالى .

قال ابن الأثير : وكل جُنْدٍ منها عَرَضَهُ من ناحية الفُراتِ إلى ناحية فِلَسْطِينَ ،
وطوله من الشرق إلى البحر ، وحكاها في "التعريف" على وجه آخر فقال : للناس
في الشام أقوالٌ ، فمنهم من لا يجعله إلا شاما واحدا [ومنهم من يجعله شامات ، فيجعلون
بلاد فِلَسْطِينَ والأرض المقدسة إلى الأُرْدُنَّ شاماً^(١)] ويقولون الشام الأعلى ؛
ويجعلون دِمَشْقَ وبلادها من الأُرْدُنَّ إلى الجبال المعروفة بالطّوال شاما ، ويقع على
قرية النَّبْكَ وما هو على خطها ؛ ويجعلون سُورِيَا : وهي حصّ وبلادها إلى رَحْبَة
مالك بن طَوْق شاما ، ويجعلون حماة وشِيزَر من مضافاتها . وثمّ من يجعل منها حماة
دون شِيزَر ؛ ويجعلون قَنَسَرِينَ وبلادها وحلب مما يدخل في هذا إلى جبال الروم
وبلاذ العواصم والثغور : وهي بلاد سِيس شاماً . ثم قال : أما عَمَّا وطَرَابُلُسُ وكل

(١) الزيادة عن ضوء الصبح للؤلّف ليستقيم الكلام .

ما هو على ساحل البحر فكل ما قابل منه شيئاً من الشامات حسب منه . قال :
ونبها على ذلك كله ليعرف . ثم قال : أما ما هو في زماننا وعليه قانون ديواننا فإنه إذا
قال سلطاننا بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دِمَشْقَ ونائبها . وسيأتي الكلام
على حدود ولايته في الكلام على نيابة دِمَشْقَ إن شاء الله تعالى .

المقصود الثاني

(في ذكر قواعده المستقرّة وأعمالها، وهي ست قواعداً، كل قاعدة منها تعدّ مملكة
بل كانت كل قاعدة منها مملكة مستقلة بسلطان في زمن بنى أيوب)

القاعدة الأولى

(دِمَشْقُ وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بكسر الدال المهملة وفتح الميم وسكون الشين المعجمة وقاف في الآخر. وتسمى
أيضاً جَلَقَ - بفتح الجيم مكسورة ولام مشددة مفتوحة وقاف في الآخر . وبذلك ذكرها
حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مدحه لَبْنَى غَسَّانَ : ملوك العرب بالشام بقوله :

لِللَّهِ دَرُ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ * يَوْمًا بِجَلَقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

وحكى في "الروض المعطار" تسميتها جَيْرُونَ - بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت
وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون في الآخر - وسماها في موضع آخر العَدْرَاءَ - بفتح
العين المهملة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء المهملة وألف بعدها - وموقعها
في أواخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : وطولها ستون درجة
وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقد اختلف في بانيتها : فقيل بناها

نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك أنه لما نزل من السفينة أشرف فرأى تَلَّ حرافٍ بين نهري حرافٍ وديصافٍ، فأتاه فبنى حرافاً، ثم سار فبنى دِمَشْقَ، ثم رجع إلى بَابِلَ فبناها . وقيل بناها جِئْرُونُ بن سعد بن عاد، وبه سميت جِئْرُونُ . ويقال إن جِئْرُونُ وَبَرِيدَا كانا أَخَوَيْنِ وهما أَبْنَا سَعْدَ بن لَقْمَانَ بن عاد، وبهما يعرف باب جِئْرُونُ وباب البريد من أبوابها . وقيل بناها العازر : غلام إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان حَبَشِيًّا وهبه له مُرُودُ بن كَعْنَانَ حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسمه دِمَشْقَ فسماها بِاسْمِهِ .

وفي "كتاب فضائل الفُرسِ" لأبي عُبَيْدٍ أن بيوراسب ملك الفُرسِ بناها . وقيل إن الذي بناها ذو القَرْنَيْنِ عند فراغه من السدِّ وَكَلَّ بِمَارْتَهَا غلاما له اسمه دِمَشْقُ وسكنها دِمَشْقُ ومات فيها فسميت به . وهي مدينة عظيمة البناء ذات سور شاهقٍ ولها سبعة أبواب : باب كَيْسَانَ، وبابُ شَرْقَى، وبابُ تُوْمَا، وباب الصغير، وباب الجابية، وباب الفَرَادِيسِ، والبَابُ الْمَسْدُودُ .

وروى الحافظ بن عساکر عن أبي القاسم تَمَّامَ بن محمد : أن بانيها جعل كل باب من هذه لِكُوكِبٍ من الكواكب السبعة ، وصوّر عليه صُورَتَهُ ، فجعل باب كَيْسَانَ لَزُحَلٍّ، وباب شَرْقَى للشمس ، وباب تُوْمَا للزُّهْرَةِ، وباب الصغير لَشَتْرَى، وباب الجابية للمَرِيخِ، وباب الفَرَادِيسِ لِعُطَّارِدَ، والبَابُ الْمَسْدُودُ للقمر . وعلى كل حال فهي مدينة حسنة الترتيب ، جليلة الأبنية ، ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربع ، وغطوتها أحد مستنزهات الدنيا العجيبة المفضلة على سائر مستنزهات الأرض ، وكذلك الرَبْوَةُ وهي كَهْفٌ في قم واديها الغربي ، عنده تنقسم مياهها ، يقال إن به مَهْدَ عِيسَى عليه السلام . وبها الجوامع والمدارس ، والخَوَاقِ والرُّبُطُ ، والزوایا والأسواق المرتبة

والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع، ذات البرك والماء الجاري .
وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها والماء مُحكَّم عليها من جميع نواحيها
باتقان محكم، وهي في وطأة مستوية من الأرض بارزة عن الوادي المنحط عن منتهى
ذيل الجبل، مكشوفة الجوانب لتمر الهواء إلا من الشمال فإنه محجوب بجبل قاسيون،
وبذلك تُعاب وتنسب إلى الوخامة . قال في "مسالك الأبصار" : ولولا جبلها
الغربي الملبس بالثلوج صيفا وشتاء، لكان أمرها في ذلك أشد، وحال سُكَّانها أشق،
ولكنه درياق ذلك السم، ودواء ذلك الداء . وهي مستديرة به من جميع نواحيه .
قال في "مسالك الأبصار" : وغالب بنائها بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور
مصر لكنها أكثر زخرفة منها وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعا .
قال : وعناية أهلها بالمباني كثيرة، ولهم في بسايتهم منها ما تفوق به وتحسن
بأوضاعه، وإن كانت حَلَبُ أجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدشقُ أزين وأكثر رونقا
لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها، ويستعمل في عماراتها خشب
الحور - الحناء والراء المهملتين - بدلا من خشب النخل إلا أنه لا يُغشى بالياض
ويكتفى بحسن ظاهره . وأشرف دورها ما قرب، وأجل حاضرتها ما هو في جانبيها :
الغربي والشمالي .

فأما جانبها الغربي ففيه قلعتها، وهي قلعة حسنة مرجلة على الأرض، تحيط بها
وبالمدينة جميعها أسوار عالية، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة . وإذا دعت
الحاجة إليه أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها، وتحت القلعة ساحة
فسحة بها سوق الخيل، على جانب وادي ينتهي فيه مما يلي القلعة إلى شرفين محيطين
به في جهتي القبلة والشمال، في ذيل كل منهما ميدان مُمرَج بالنجيل الأخضر، والوادي
يشق بينهما . وفي الميدان القبلي منهما القصر الأبق - وهو قصر عظيم مبنى من أسفله

إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب، وإحكام عجيب، ببناء الظاهر ببيرس
 البُنْدُقْدَارِيَّ في سلطته، وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة
 الجبل بمصر، وأمام هذا القصر دركاه يُدْخَلُ منها إلى دِهْلِيزِ القصر، وهو دِهْلِيزٌ
 فسيحٌ يشتمل على قاعات ملوكة مفروشة بالرخام الملون البديع الحُسْنِ، مؤزر بالرخام
 المفصل بالصَّدَفِ والفَصِّ المُنْهَبِ إلى سُجُفِ السَّقُوفِ، وبالدار الكبرى به
 إيوانان متقابلان تُطلُّ شبايك شرقيهما على الميدان الأخضر، وغربيهما على شاطئ
 وادٍ أخضر يجري فيه نهر، وله رَفَارِفُ عالية تناغى السُّحُبُ، تُشْرِفُ من جهاتها الأربع
 على جميع المدينة والغوطة .

والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكية والإصطبلات السلطانية والحمام وغير ذلك
 من سائر ما يحتاج إليه، وبالدكاره التي أمام القصر المتقدم ذكرها جَسْرٌ معقود على
 جانب الوادي يُتَوَصَّلُ منه إلى إيوان براني يُطلُّ منه على الميدان القبلي، أستجده
 أقوش الأفرم في نيابته في الأيام الناصرية ابن قلاوون، وتُجَاهَ باب القصر بابٌ
 يُتَوَصَّلُ من رحبته إلى الميدان الشمالي، وعلى الشرفين المتقدم ذكرهما أبنية جليلة
 من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس ورُيُطٌ وخَوَاقِقُ وزَوَايَا وحمامات ممتدة على
 جانبيين ممتدين طول الوادي .

ولهذه القلعة نائبٌ بمفردها غير نائب دِمَشْقَ يحفظها للسلطان ولا يَمَكِّنُ أحدا من
 طلوعها من النائب أو غيره . وإذا دخل السلطان دِمَشْقَ نزل بها . وبها تَحْتُمُ مَلِكُ
 كغيرها من ديار الملك .

وأما جانبها الشمالي ويسمى العُقَيْبَةِ، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذات أبنية جليلة
 وعمائر ضخمة، يسكنها كثير من الأمراء والجنود، وبازاء المدينة في سفح جبل قاسيون
 (مدينة الصالحية): ومى مدينة ممتدة في سفح الجبل بازاء المدينة في طول مدى يُشْرِفُ

على دِمَشْقَ وَغُوطِهَا، ذَاتُ بَيْوتٍ وَمَدَارِسَ وَرِبَاطٍ وَأَسْوَاقٍ وَبَيْوتٍ جَلِيلَةٍ، وَبِأَعْلَاهَا
 مَعَ ذَيْلِ الْجَبَلِ مَقَابِرُ دِمَشْقَ الْعَامَّةِ، وَلِكُلِّ مَن دِمَشْقَ وَالصَّالِحِيَّةِ الْبَسَاتِينِ الْإِيْقَةُ
 بِنَسْلَسِلٍ جَدَاوِلَهَا وَتَغْنَى دُوحَاتِهَا، وَبِمَائِلِ أَغْصَانِهَا وَتَغْرُدُ أَطْيَارُهَا، وَفِي بَسَاتِينِ الزُّهْرَةِ
 بِهَا الْعُمُورُ الضَّخْمَةُ، وَالْجَوَاسِقُ الْعَلِيَّةُ، وَالْبُرُكُ الْعَمِيقَةُ، وَالْبَحِيرَاتُ الْمَتَدَّةُ، تَتَقَابَلُ
 بِهَا الْأَوَاوِينَ وَالْمَجَالِسُ، وَتَحْفُفُ بِهَا الْغِرَاسُ وَالنَّصُوبُ الْمُطْرَزَةُ بِالسَّرْوِ الْمُتَنَفِّ،
 وَالْحُورُ الْمَشْهُوقُ الْقَدُّ وَالرِّيَاحِينَ الْمَتَارِجَةُ الطَّيِّبُ، وَالْفَوَاكِهُ الْجَنِيَّةُ، وَالثَّمَرَاتُ
 الشَّيْبَةُ، وَالْأَشْيَاءُ الْبَدِيعَةُ، الَّتِي تُغْنَى شَهْرَتُهَا عَنِ الْوَصْفِ، وَيَقُومُ الْإِيْجَازُ فِيهَا
 مَقَامُ الْإِطْنَابِ.

وَمَسْقُ دِمَشْقَ وَبَسَاتِينُهَا مِنْ نَهْرِ يَسْمَى بَرْدَى - بَفَتْحِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَالرَّاءِ وَالْدَّالِ
 الْمَهْمَلَتَيْنِ وَبِآخِرِهِ أَلْفٌ . أَصْلُ مَخْرَجِهِ مِنْ عَيْنَيْنِ: الْبَعِيدَةُ مِنْهَا دُونَ قَرْيَةِ تَسْمَى
 الزَّبْدَانِيَّ، وَدُونَهَا عَيْنٌ بَقْرِيَّةٌ تَسْمَى الْفَيْجَةُ، بِذَيْلِ جَبَلٍ يَخْرُجُ الْمَاءُ مِنْ صَدْعٍ
 فِي نَهَائِهِ سَفْلَهُ قَدْ عَقَدَ عَلَى مَخْرَجِ الْمَاءِ مِنْهُ عَقْدٌ رَوْحِيٌّ الْبِنَاءُ، ثُمَّ تَرَفُّدُهُ مَنَاجِئُ فِي مَجْرَى
 النَّهْرِ، ثُمَّ يَقْسَمُ النَّهْرُ عَلَى سَبْعَةِ أَنْهَارٍ: أَرْبَعَةٌ غَرْبِيَّةٌ: وَهِيَ نَهْرُ دَارِيَّاءَ، وَنَهْرُ الْمِزَّةِ، وَنَهْرُ
 الْقَنْوَاتِ، وَنَهْرُ بَانَّاسَ. وَاثْنَانِ شَرْقِيَّةٌ وَهُمَا نَهْرُ يَزِيدَ، وَنَهْرُ ثَوْرَاءَ، وَنَهْرُ بَرْدَى مُمْتَدِّ بَيْنَهُمَا.
 فَأَمَّا نَهْرُ بَانَّاسَ وَنَهْرُ الْقَنْوَاتِ، فَهُمَا نَهْرَا الْمَدِينَةِ حَاكِمَانِ عَلَيْهَا وَمُسْلَطَانِ عَلَى
 دِيَارِهَا، يَدْخُلُ نَهْرُ بَانَّاسَ الْقَلْعَةَ، ثُمَّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ لِلْجَامِعِ وَقِسْمٌ لِلْقَلْعَةِ، ثُمَّ يَنْقَسِمُ
 كُلُّ قِسْمٍ مِنْهُمَا عَلَى أَقْسَامٍ كَثِيرَةٍ وَيَتَفَرَّقُ فِي الْمَدِينَةِ بِأَصَابِعٍ مَقْدَرَةُ مَعْلُومَةٍ، وَكَذَلِكَ
 يَنْقَسِمُ نَهْرُ الْقَنْوَاتِ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْقَلْعَةِ وَلَا الْجَامِعِ، وَيَجْرِي فِي قُنًى
 مَدْفُونَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى مَسْتَحَقَاتِهَا بِالْأَمَّاكِنِ عَلَى حَسَبِ

التقسيم، ثم تنصب فضلات الماء والبرك ومجاري الميضات إلى قُنيٍّ معقودة تحت الأرض، ثم تجتمع وتتَهَرَّ وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقي البساتين .

وأما نهر يَزِيد، فإنه يجري في ذيل الصالحية المتقدم ذكرها ويشق في بعض عمارتها .
وأما بقية الأنهار، فإنها تنصرف إلى البساتين والغيطان لسقيها، وعليها القصور والبنان خصوصاً ثوراً فإنه نيل دِمَشقَ، عليه جُلُ مبانيها وبه أكثر تنزهات أهلها، من يخاله يراه زُمُرْدَةٌ خضراء، لالتفاف الأشجار عليه من الجانبين .

وبها (جامع بنى أمية) وهو جامع عظيم، بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة ثمان وثمانين من الهجرة، وأنفق فيه أموالاً جَمَّةً حتى يقال إنه أنفق فيه أربع مائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وإنه اجتمع في ترخيمه اثنا عشر ألف مَرخَمٍ . قال في "الروض المعطار" : ودَرَعُه في الطول من المشرق إلى المغرب مائتا خُطوة وهي ثلثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الشمال مائة خطوة وخميس وثلاثون خُطوة وهي مائتا ذراع، وتد زُحْرَفَ بأنواع الزحرفة من الفُصوص المذهبِ والمرمرِ المصقول، وتحت نَسْرِهِ عمودان مجزعان بالجرمة لم يَرِ مثلهما، يقال إن الوليد اشتراها بألف وخمسمائة دينار، وفي المحراب عمودان صغيران يقال إنهما كانا في عرش بلقيس، وعند منارتها الشرقية حجرٌ يقال إنه قطعةٌ من الحجر الذي ضرب به موسى عليه السلام فأنفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

وقد ورد أن المسيح عليه السلام ينزل على المنارة الشرقية منه، ويقال إن القبة التي فيها المحراب لم تزل مَعْبَدًا لابتداء عمارتها وإلى آخر وقت . بناها الصابئة متعبداً لهم، ثم صارت إلى اليونانيين فكانوا يُعظمون فيها دينهم، ثم أنتقل إلى اليهود فقتل يحيى بن زكريا عليه السلام، ونصب رأسه على باب جِروُنَ من أبوابه فأصابته بركته، ثم صار إلى النصارى فجعلتها كنيسة، ثم أفتح المسلمون دِمَشقَ فاتخذوه

جامعها، وعلق رأس الحسين عليه السلام عند قتله في المكان الذي علق عليه رأس يحيى بن زكريا إلى أن جدد الوليد، ويقال إن رأس يحيى عليه السلام، مدفون به، وبه مصحف عثمان الذي وجه به إلى الشام.

قال في "الروض المعطار": ويقال إن أول من وضع جداره الأول هود عليه السلام. وقد ورد في أثر أنه يُعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها وما يدخل تحت حكم الولايات)

وقد ذكر في "التعريف" أن ولايتها من لدن العريش: حد مصر إلى آخر سلمية مما هو شرق بشمال وإلى الرحبة مما هو شرق بجنوب. قال: وقد أضيف إليها في زمن سلطاننا بلاد جعبر، وكان من حتمها أن تكون مع حلب. وحينئذ فتكون ولايتها مشتملة على الشام الأعلى المتقدم ذكره وما يليه وما يلي ما يليه، وبعض الشام الأدنى، وليس يخرج عنه من ذلك إلا حماة وما خرج مع صفد وطرابلس والكرك. قال: ويكون في نيابة نائبا نيابة غزاة ونيابة حمص وبعض شيء مما يقتضى الحق أن يكون مع حلب.

وتشتمل على بر وأربع صفقات.

فأما البر فالمراد به ضواحيها. قال في "التعريف": وحدها من القبلة قرية الحيارة المجاورة للكسوة وما هو على سمتها طولا، ومن الشرق الجبال الطوال إلى النبك وما على سمتها من القرى أخذا على عسان^(١) وما حولها من القرى إلى الزبداني، ومن الغرب ما هو من الزبداني إلى قرى القران المسامطة للحيارة المتقدم ذكرها. قال: ويدخل في ذلك مرج دمشق وغوطتها.

(١) في الأصل والضوء باللام [والصحيح عن ياقوت].

وأما صَفَقَاتُهَا، فأربع صَفَقَات .

الصفقة الأولى

(الساحلية والجبليّة)

وهي الصَّفَقَةُ الغَربيّة عن دمشق . قال في "مسالك الأبصار" : وهي عبارة عن بلاد غَزَّة وما جاورها سهلاً ووعراً .

قال في "التعريف" : وهذه الصفقة هي الشام الأعلى، ينتقص منه ماهو من نهر الأردن إلى حدِّ قاقون . ثم هذه الصفقة لها جهتان .

الجهة الأولى

(الساحلية)؛ وهي التي بساحل بحر الروم المتقدّم ذكره،

وتشتمل على أربعة أعمال)

الأول - (عمل غَزَّة) - بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة أيضاً وفي آخرها هاء - وهي مدينة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ، في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وعشر دقائق، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة . وقال ابن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة، وهي على طَرَفِ الرمل بين مضر والشّام؛ أخذة بين البر والبحر بجانبها، مبنية على تَشْرَعَالٍ على نحو ميل من البحر الرومي، متوسطة في العِظَم، ذات جوامع، ومدارس، وزوايا، وبمارستان، وأسواق؛ صحيحة الهواء؛ وشرب أهلها من الآبار، وبها أمكنة يجتمع بها المطر إلا أنه يُسْتَقَلُّ في الشرب فيعدل منه إلى الآبار لَخَفَةِ مائها، وبساحلها البساتين الكثيرة . وأجلُّ فاكهتها العنب والتين؛ وبها بعض النخيل، وبرّها تمتد إلى تيه بني إسرائيل من قبلها، وهو موضع زرع

وماشية إلا أن أهل برها عُسْرَانُ بعضهم أعداء بعض . ولولا خوف سطوة السلطنة لما أَعْمِدَ سيفُ الفتنه بينهم ولا جتاحوا المدينة ومن فيها .

قلت : والحال فيها مختلف : فأكثر الأحيان هي مقدمة عسكر مضافة إلى دِمَشْقَ ، يَأْتِمِرُ مَقْدَمُ العسكر فيها بأمر نائب السلطنة القائم بِدِمَشْقَ ، ولا يُعْضِي أَمْرًا دون مراجعته وإن كانت ولايته من الأبواب السلطانية ، وتارة تكون نيابةً مستقلةً وتضاف إليها الصفقة الساحلية بكاملها فيكون لها حكم النيابات .

الثاني - (عمل الرملة) . بفتح الراء المهملة وسكون الميم وفتح اللام وفي آخرها هاء - وهي مدينة من جند الأُرْدُنِّ ، موقعها في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وعشر دقائق . وقال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وست وعشرون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

وهي مدينة إسلامية بناها سليمان بن عبد الملك في خلافة أبيه عبد الملك . قال في "الروض المعطار" : وسميت الرملة لغلبة الرمل عليها . وقال في "مسالك الأبصار" : سميت بأمرأة أسماها رملة ، وجدها سليمان بن عبد الملك هناك في بيتٍ شِعَرَ حين نزل مكانها يرتاد بناءها ، فأكرمه وأحسن تَزْلَهُ ، فسألها عن اسمها فقالت رملة ، فبنى البلد وسمّاها باسمها . قال في "العزيزي" : وهي قَصَبَة فَلَسْطِينَ ، وهي في سهل من الأرض ، وبينها وبين القُدْسِ مسيرة يوم . قال في "الروض المعطار" : وبينها وبين نابلس يوم ، وبينها وبين قيسارية مرحلة ، وكان عبدُ الملك قد أجرى إليها قناة

ضعيفة للشرب منها، وأكثر شربهم الآن من الآبار ومن صهاريج يجتمع فيها ماء المطر، وهي مقرة الكاشف بتلك الناحية .

وميناءها مدينة يافا - بفتح المثناة من تحت وألف وفاء ثم ألف في الآخر - وهي مدينة صغيرة بالساحل، وهي في الغرب عن الرملة وبينهما ستة أميال .

الثالث - (عمل لُد) - بضم اللام وتشديد الدال المهملة - وهي بلدة من جُندِ فلسطين واقعة في الإقليم الثالث شرقاً بشمال عن الرملة، وبينهما ثلاثة فراسخ، ولم يتحررلى طولها وعرضها، غير أنها نحو الرملة في ذلك: لقربها منها أو أطول وأعرض بقليل . وهي مدينة قديمة كانت هي قصبة فلسطين في الزمن الأول إلى أن بنيت الرملة فتحول الناس إليها وتركوا لُدًا، وقد ثبت في الصحيح أن المسيح عليه السلام يقتل الدجال ببابها .

الرابع - (عمل قاقون) - بفتح القاف وبعدها ألف ثم قاف ثانية مضمومة - وهي مدينة لطيفة غير مسورة، بها جامع وحمام وقلة لطيفة، وشربها من ماء الآبار، ولم يتحرر لى طولها وعرضها، إلا أن بينها وبين لُد مسيرة يوم فلتعتبر بها بالتقريب .

الجهة الثانية

(الجبلية، وبها ثلاثة أعمال)

الأول - (عمل القدس) . والقدس بضم القاف والدال لفظ غلب على مدينة بيت المقدس - بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة - وهو المسجد الأقصى، وأصل التقديس التطهير، والمراد المطهر من الأدناس . وهي مدينة من جُندِ فلسطين واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال": طولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان": والقياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة .

وهى مبنية على جبل مستدير، وعرة المسلك؛ وبنائها بالمجر والكلس؛ وغالب حجرها أسود؛ وشرب أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد الأقصى وعين تجرى إليها عن بعد، وكذلك عين سلوان وليس مأواها بالكثير، وكان بها آثار قلعة قديمة خربت بحددها الناصر "محمد بن قلاوون" فى سنة ست عشرة وسبعائة، وليس بها حصانة، وكانت المدينة كلها قد غلب عليها الخراب من حين آستلاء الفرنج عليها، ثم تراجع أمرها للعمارة، وصارت فى نهاية الحسنى؛ بها المدارس والرط والحمامات والأسواق وغيرها. والمسجد الأقصى هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال، وهو القبلة الأولى.

قال فى "الروض المعطار": وأول من بنى بيت المقدس وأرى موضعه يعقوب عليه السلام، وقيل داود. والذى ذكره فى "تقويم البلدان" أن الذى بناه سليمان ابن داود عليهما السلام وبقى حتى خربه مجتنصر، فبناه بعض ملوك الفرس وبقى حتى خربه طيطوس ملك الروم، ثم بق ورثم؛ وبقى حتى تنصر قسطنطين ملك الروم وأمه هيلانة وبنّت أمه قمامة على القبر الذى يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام دفن فيه، وخربت البناء الذى كان على الصخرة وجعلتها مطرحة لقمامات البلد عتادا لليهود؛ وبقى الأمر على ذلك حتى فتح أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب رضى الله عنه القدس فدل على الصخرة فنظف مكانها وبنى عليها مسجدا، وبقى حتى ولى الوليد ابن عبد الملك الخلافة فبناه على ما هو عليه الآن. على أن المسجد الأقصى على الحقيقة جميع ما هو داخل السور، وعلى القرب من المسجد الصخرة التى ربط النبى صلى الله عليه وسلم بها البراق ليلة الإسراء، وهى حجر مرتفع مثل الدكة آرتفاعها من الأرض نحو قامة، وتحتهما بيت طوله بسطة فى مثلها، ينزل إليها بسلم وعليها قبة دالية، بناها الوليد بن عبد الملك حين بنى المسجد الأقصى.

قال المهلبى في كتابه "العزى": ولما بناها الوليد بنى هناك عِدَّة قِباب وسمى كل واحدة منها بأسم: وهى قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر. قال فى "مسالك الأبصار": وإلى الصخرة المتقدمة الذكر قِبلة اليهود الآن، وإليها حَجُّهم. وبه القُمامة التى تحجها النصارى من أقطار الأرض، وبيت لَحْم الذى هو من أجلّ أما كن الزيارة عندهم، وكان به كنيسة للروم يقال إن بها قبر حنة أُم مريم بنت عمران عليها السلام ثم صارت فى الإسلام دار علم. فلما ملك الفرينج القدس فى سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة، فلما فتح السلطان صلاح الدين القدس بنى بها مدرسة. وكان اسمها فى الزمن الأول إيليا. والأرض المقدسة مشتملة على بيت المقدس وما حوله، إلى نهر الأردن المسمى بالشرية، إلى مدينة الرملة طولاً، ومن البحر الشامى إلى مدائن لوط عليه السلام، وغالبها جبال وأودية إلا ما هو فى جنباتها.

الثانى - (عمل بلد الخليل عليه السلام). وأسمها بيت حبرون بإضافة بيت واحد البيوت إلى حبرون (بحاء مفتوحة وباء موحدة ساكنة وراء مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة ونون) كذا ضبطه فى "تقويم البلدان": وفى كلام صاحب "الروض المعطار": ما يدل على إبدال الحاء بجم والباء الموحدة بمثناة تحت، فإنه ذكرها فى حرف الجيم فى سياقة الكلام على تسمية دِمَشَقَ جَيُّوَنَ. وهى بلدة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة، طولها فى بعض الأزياج ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وبها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ونسائهم، وهى إحدى القرى التى أقطعها النبى صلى الله عليه وسلم! تميم الدارى كما سيأتى ذكره فى الكلام على المناشير إن شاء الله تعالى.

الثالث - (عمل نَابِلَس) - بفتح النون وألف وضم الباء الموحدة واللام وسين مهملة في آخرها - مدينة من جُنْدِ الأَرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : طُولُهَا سبع ونحسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ست ونحسون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، وعرضها على ما تقدم . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة يُحتاج إليها ولا تحتاج إلى غيرها . قال ابن حوقل : وليس بفِلَسْطِينَ بلدةً فيها ماءٌ جارٍ سواها ، وباقى ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه ، وبها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام ، وهي مدينة السامرة ، وكانت السامرة في الزمن المتقدم لا توجد إلا بها ، وبها الجبل الذي يحج إليه السامرة ، وسيأتي الكلام على الموجب لتعظيمه عندهم عند الكلام على تحليفهم في باب الإيمان إن شاء الله تعالى .

الصفقة الثانية

(القبيلة)

سميت بذلك لأنها قبلي دِمَشَق . قال في "مسالك الأبصار" : وتشتمل على بلاد حَوْرَانَ والغَوْر وما مع ذلك . قال في "التعريف" : وحدّها من القبلة جبال الغَوْرِ القبيلة المجاورة لمرج بنى عامر ، ومن الشرق البرية ، ومن الشمال حدود ولاية بَرَدِمَشَقِ القُبَلِيّ ، ومن الغرب الأغوار إلى بلاد الشَّقِيف . قال : والأغوار كلها داخلة في هذه الصفقة خلا ما يختص بالكرك .

وتشتمل هذه الصفقة على عشرة أعمال .

الأول - (عمل بَيْسَانَ) - بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح السين المهملة وألف ونون - مدينة من جُنْدِ الأَرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال

في "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وسبع وعشرون دقيقة . وهي مدينة صغيرة بلا سور، ذات بساتين وأشجار وأنهار وأعين، كثيرة الحُصْب واسعة الرزق، ولها عين تشقُّ المدينة، وهي على الجانب الغربي من الغور .

قال في "التعريف" : وهي مدينة الغور، وبها مقر الولاية . قال في "مسالك الأبصار" : ولها قلعة من بناء الفرنج . قال في "الروض المعطار" : ويقال إن طالوت قتل جالوت هناك .

الثاني - (عمل بانياس) - بياء موحدة وألف ونون وياء مشناة تحت وألف ثم سين مهملة - مدينة من جند دمشق واقعة في الإقليم الثالث . قال في "تقويم البلدان" : طولها ثمان وخمسون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة . قال : وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب . قال في "العزيزي" : وهي في لحف جبل الثلج ، وهو مطلٌ عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه شتاءً ولا صيفاً . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة الحولان، وبها قلعة الصبية (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المشناة تحت وفتح الباء الموحدة وهاء في الآخر) . قال في "التعريف" : وهي من أجل القلاع وأمنعها .

الثالث - (عمل الشعرا) - بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وفتح الراء المهملة وبعدها ألف - وهي عن بانياس المتقدمة الذكر شرق بجنوب، وطوله ما بين بانياس إلى جبل الثلج . قال في "التعريف" : والولاية بها تكون تارة بقرية حان (بالحاء المهملة) وتارة بقرية القنيطرة تصغير قطرة ، ولم يتحرر لي طولها ، وعرضها فلتعتبرا بما قاربهما من الأعمال .

الرابع - (عمل نوى) - بفتح النون والواو وألف في الآخر - وهى بلدة صغيرة، عن دِمَشْقَ في جهة الغرب إلى الجنوب على نحو مرحلة ، وهى مدينة قديمة من أعمال دِمَشْقَ ، بها قبر أيوبَ النَّبِيِّ عليه السلام ، وإليها ينسب الشيخ محيى الدين النووى الشافعى رحمه الله ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها فلعتبر بما قاربها أيضا ، وهى عن عيين الشعرا المتقدم ذكرها شرق بجنوب أيضا .

الخامس - (عمل أَدْرَعَاتَ) - بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء ^(١) والعين المهملتين وألف ثم تاء مشناة من فوق فى الآخر - قال فى "الروض المعطار": ويجوز فيها الصرف وعدمه . قال : والتاء فى الحالين مكسورة . وقال الخليل بن أحمد : من كَسَرَ الألفَ لم يصرْفْ ؛ وهذا صريح فى حكاية كسر الألف فى أولها . ويقال لها يَدْرَعَاتُ بياء مشناة تحتُ بدل الألف - وهى مدينة من أعمال دِمَشْقَ من الإقليم الثالث . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة - وهى مدينة البَنِّيَّة ، وبينها وبين الصَّنَمِينَ ثمانية عشر ميلا . قال فى "التعريف" : وبها ولاية الحاكم على مجموع الصَّفَّة ، وقد كان قديما بغيرها .

السادس - (عمل عَجْلُون) - بفتح العين وسكون الجيم وضم اللام وسكون الواو ونون فى آخره - قلعة من جُنْدِ الأَرْدُنِّ فى الإقليم الثالث ، طولها ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق ، وعرضها ثلاثون درجة وعشر دقائق . مبنية على جبل يعرف بجبل عَوْفِ المتقدم ذكره فى جبال الشام المشهورة تُشْرِفُ على الغور . وهى محدثة البناء بناها عز الدين أسامة بن منقذ : أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب فى سنة ثمانين وخمسمائة . قال فى "مسالك الأبصار" : وكان مكانها [دير به]

(١) كذا فى التوقيم أيضا وفى المعجم [وكسر الراء] وفى القاموس [بكسر الراء وتفتح] .

راهب اسمه عَجْلُونُ فسميت به . قال في "التعريف" : وهو حصن جليل على صِغَرِهِ ، وله حصانة ومنعة منيعة . ومدينة هذه القلعة الباعونة (بفتح الباء الموحدة وألف بعدها ثم عين . مضمومة وواو ساكنة ونون مفتوحة وفي آخرها هاء) وهي على شوط فرس من عَجْلُون . قال في "المسالك" : وكان مكانها ديرًا أيضا به راهب اسمه بَاعُونَة فسميت المدينة به ، وهما شرقي بيسان المتقدم ذكرهما

السابع - (عمل البلقاء) . قال في "الروض المعطار" : سميت بالبلقاء بن سورية من بني عَمَّان بن لوط ، وهو الذي بناها . قال في "تقويم البلدان" : وهي إحدى كَوَرِ الشَّراة ، وهي عن أريحا في جهة الشرق على مرحلة ، ومدينة هذا العمل حُصْبَانُ (بضم الحاء وإسكان السين المهملة وفتح الباء وبعدها ألف ونون) وهي بلدة صغيرة ولها واد وأشجار وأرحية وبساتين وزروع .

قال في "مسالك الأبصار" : ومن هذا العمل (الصَّلتُ) - وهي بألف ولام لازمين في أوله وفتح الصاد المهملة المشددة وسكون اللام وبعدها تاء مثناة - بلدة لطيفة من جُندِ الأَرْدُنِّ في جبل الغور الشرقي في جنوب عَجْلُون على مرحلة منها ، وبها قلعة بناها المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب ، وتحت القلعة عين واسعة يجري مائها حتى يدخل البلد ، وهي بلدة عامرة أهلة ذات بساتين وفواكه . قلت : وكلامه في "التعريف" قد يخالف كلامه في "مسالك الأبصار" في جعل الصَّلت من عمل حُصْبَان ، فإنه قال : وأولها من جهة القبلة البلقاء ومدينتها حُصْبَانُ ، ثم الصَّلتُ ، ثم عَجْلُونُ ، وعَجْلُونُ عمل مستقل كما تقدم ، ومقتضاه أن يكون الصَّلتُ أيضا عملا مستقلا . وكذا رأيته في "التذكرة الآمدية" نقلا عن شهاب الدين ابن الفارقي أحد كتّاب الإنشاء بدمشق في الدولة الناصرية ابن قلاوون ، وأخبرني بعض

(١) في الأصل "عيد" والتصحيح والضبط عن ياقوت في معجم البلدان .

كُتِبَ الإنشاء أن المستقر الصلت فقط والبقاء مضافة إليها، وعليه يدل كلام القاضى تقي الدين بن ناظر الجليش في "التتيف" فإنه قال: ومن كُتِبَ إليه من الولاة بالمالك الشامية في قديم الزمان - ولعله في الأيام الشهيدة - وإلى الصلت والبقاء فيما نقل عن خط المرحوم نصر الدين بن النشائي كاتب الدست الشريف .

الثامن - (عمل صرحد) - بفتح الصاد وإسكان الراء المهملتين وفتح الحاء المعجمة ودال مهملة في آخره - بلدة صغيرة ذات يساتين وكروم وليس بها ماء سوى ما يجتمع من ماء المطر في الصهاريج والبرك . قال ابن سعيد : وليس وراء عملها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البرية^١، ومنها تسلك طريق تعرف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد في نحو عشرة أيام . قال في "التعريف" : وبها قلعة وكان بها ملك من الممالك المعظمية . قال في "مسالك الأبصار" : وهى محدثة البناء بُدِئَتْ قبل نور الدين الشهيد بقليل ، ولما وصلت عساكر هولاكو ملك التتار إلى الشام هدموا شرفاتها وبعض جذرانها فحدها الظاهر ببيرس ، وهى على ذلك إلى الآن .

التاسع - (عمل بصرى) - بضم الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وألف فى الآخر - هكذا هو مقيد بالشكل فى كتب اللغة والحديث والمسالك والممالك وجار على الألسنة، ووقع فى "تقويم البلدان" ضبطه بفتح أوله فلا أدري أهو سبق قلم أو غلط من النسخة أو أخذه من كلام غيره، وهى مدينة بحوران من أعمال دمشق واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "كتاب الأطوال" و"القانون" : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة .

(١) الذى فى "تقويم البلدان" طبع بباريس سنة ١٨٤٠ م ضبطه بضم الباء الموحدة كما هو المشهور ، فلعن نسخة التقويم كانت كذلك فأصلحها المصحح ولم ينبه .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة حَوْرَانَ السفلى ، بل حَوْرَانَ كلها ، بل الصفقة جميعها ، وكلامه في "التعريف" يوافقه ، وهي مدينة أَرْزَلِيَّة مبنية بالحجارة السود ، ولها قلعة ذات بناء مَتِين شبيه ببناء قلعة دِمَشْق . قال في "التعريف" : وكانت دار مُلْك لبني أيوب ، وقد ثبت في الصحيح من حديث الخندق أنه (صلى الله عليه وسلم) . قال "ثم ضربتُ الضربة الثالثة فلاحَت لي مِنْهَا قُصُور بُصْرَى كأنها أنياب الكلاب" وهي التي وجد النبي صلى الله عليه وسلم بها بحيرا الراهب وآمن به حين قدم تاجرا لخديجة بنت خُوَلَيْد قبل البعثة ، وقبر بحيرا هناك مشهور يزاره ، وقد تقدم الكلام عليها فأغني عن إعادته هنا .

العاشر - (عمل زُرْع) - بضم الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة وعين مهملة في الآخر - وهي بلدة من بلاد حَوْرَانَ لها عملٌ مستقلٌ ، ولم يتحرر لي طولها وعرضها . قال في "التعريف" : وقد يتصل عمل بُصْرَى بأذرعاتٍ لوقوع زُرْع متشاملة .

الصفقة الثالثة

(الشمالية)

سميت بذلك لأنها عن شَمَال دِمَشْق . قال في "مسالك الأبصار" : وهي ساحليَّة وجبليَّة . قال في "التعريف" : وحدّھا من القبلة حدّ ولاية دِمَشْق الشماليّ وبعض الغربيّ ، وحدّھا من الشرق قرية جُوسِيَّة التي بين القرية المعروفة بالقَصَب من عمل حمص وبين القرية المعروفة بالفيجة من عمل بَعْلَبَك ، وحدّھا من الشمال مرج الأَسَل المستقل عن قائم الهرمل حيث يمدّ العاصي بطراً بُلُس ، وكل ما تشامل عن جبل لُبْنَانَ إلى البحر ، وحدّھا من المغرب ما هو على سمت البحر منحدرًا عن صور إلى حدّ ولاية بَرَدِمَشْق القبليّ والغربيّ .

وتشتمل هذه الصنفقة على خمسة أعمال .

الأول - (عمل بَعْلَبَكَّ) - بفتح الباء الموحدة وسكون العين المهملة وفتح اللام والباء الموحدة الثانية وفي آخرها كاف - هكذا ضبطه في "تقويم البلدان" والجارى على السنة الناس فتح العين وإسكان اللام . قال في "الروض المعطار" : وكان لأهلها صَنَمٌ يدعى بَعْلًا ، فالبعل أَسْمٌ للصنم ، وبَكَ أَسْمُ الموضع فسميت بعلبك لذلك . قال : وإليهم بُعِثَ النَّبِيُّ إِلْيَاسُ عليه السلام ، وكأنه يشير بذلك إلى ما قصه الله تعالى في سورة الصافات بقوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ وكان فتحها في سنة أربع عشرة من الهجرة ، وهى مدينة من أعمال دِمَشْقَ واقعة في الإقليم الرابع طولها ستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهى مدينة شمالي دِمَشْقَ ، جليلة البناء ، نبيهة الشان ، قديمة البنيان ، يقال إنها من بناء سليمان عليه السلام . قال في "مسالك الأبصار" : وهى مختصرة من دِمَشْقَ في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها ؛ بها المساجد والمدارس والرُّبُط والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة ، والماء جار فى ديارها وأسواقها ، وفيها يعمل الدهان الفائق من الماعون وغيره ويحمل منها إلى غالب البلدان مع كونها واسعة الرزق رخيصة السعر ، وكانت دار مُلْكٍ قديم ، ومن عَشْها درج "نجم الدين أيوب" ، والد الملوك الأيوبية رحمه الله ، وبها قلعةٌ حصينةٌ جليلة المقدار من أجل البنيان وأعظمه ، وهى مرحلة على وجه الأرض كقلعة دِمَشْقَ . قال في "التعريف" : بل إنما بنيت قلعة دِمَشْقَ على مثالها ، وهى هات لا تعد من أمثالها ! وأين قلعة دِمَشْقَ منها وحجارتها تلك الجبال الثوابت ، وعمدها تلك الصخور النوابت .

قَدْ يَبْعُدُ الشَّيْءُ مِنْ شَيْءٍ يُشَابِهُهُ * إِنَّ السَّمَاءَ نَظِيرُ الْمَاءِ فِي الزَّرَقِ

وبهذه القلعة من عمارة مَنْ نزل بها من الملوك الأيوبية آثارٌ ملوكية جليلة ، ويستدير بالمدينة والقلعة جميعاً سورٌ عظيم البناء مبنًى بالحجارة العظيمة المقدار الشديدة الصلابة ، ويحْفُ بذلك عُوطَة عظيمة أُنِيقَةُ ذاتِ بساتين مشبكة الأشجار بها الثمار الفائقة ، والفواكه المختلفة . وبظاهرها عين ماء متسعة الدائر مأوَّها في غاية الصفاء بين مروج وبساتين ، يمتدّ منها نهر يتكسّر على الحصباء في خلال تلك المروج إلى أن يدخل المدينة ، وينقسم في بيوتها وجهاتها . وعلى البعد منها عينٌ أخرى تُعرف بعين اللخوج (؟) في طَرَفِ بساتينها ، منها فرع إلى الجانب الشمالى من المدينة ، ويصب في قناة هناك ويدخل منه إلى القلعة ، وبخارجها جبلُ لُبْنَانَ المعروف بعُشِّ الأولياء .

الثانى - (عَمَلُ الْبِقَاعِ الْبَعْلَبَكِيِّ) - بوصف البقاع - بكسر الباء الموحدة وفتح القاف وبعدها ألف ثم عين مهملة - بالبعلبكى ، نسبة إلى بعلبك لقربه منها . قال في "التعريف" : وليس له مقر ولاية .

الثالث - (عَمَلُ الْبِقَاعِ الْعَزِيزِيِّ) - بوصف البقاع بالعزيرى نسبة إلى العزيز عكس الذليل ، وكأنه نسبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله . قال في "التعريف" : ومقرُّ الولاية به كَرَكُ نوح عليه السلام . قال : وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بَعْلَبَك ، وهما مجموعتان لوالٍ جليل مفرد بذاته .

الرابع - (عَمَلُ بَيْرُوتَ) - بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وواو وتاء مثناة من فوق في آخرها - وهى مدينة من الإقليم الثالث بساحل دِمَشْقَ . قال في "كتاب الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعَرْضُها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهى مدينة جلييلة على ضَفَةِ البحر الرومى ، عليها سوران من حجارة ، وفيه كان ينزل الأوزاعى الفقيه

المشهور، وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلاً في التكسير، نتصل إلى تحت لبنان المقدم ذكره . قال في "تقويم البلدان" : وشرب أهلها من قناة تجرى إليها . وقال في "مسالك الأبصار" : شرب أهلها من الآبار . قال ابن سعيد : وهي فُرْضة دِمَشْقَ ولها مينا جليلة ، وفي شمالها على الساحل مدينة جَبَلٍ تصغير جبل . قال في "الروض المعطار" : بينهما ثمانية عشر ميلاً . قال في "العزيزي" : وبينها وبين بَعْلَبَكَّ على عَقَبَةِ الْمُغَيْثَةِ ستة وثلاثون ميلاً .

الخامس - (عمل صيداً) - بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة تحت وفتح الدال المهملة وألف مقصورة في الآخر - وهي مدينة بساحل البحر الرومي ، واقعة في الإقليم الثالث ، ذاتُ حصْنٍ حصين . قال ابن القَطَّامِي سميت بصَيْدُون بن صدقا بن كَنْعَانَ ابن حام بن نوح عليه السلام ، وهو أول من عمَّرها وسكنها . وقال في "الروض المعطار" : سميت بامرأة . وشرب أهلها من ماء يجرى إليهم من قناة . قال في "العزيزي" : وبينها وبين دِمَشْقَ ستة وثلاثون ميلاً . قال في "مسالك الأبصار" : وكورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار . قال في "الروض المعطار" : وبها سمك صغار له أَيْدٍ وأرجل صغار إذا جُفِّفَ وسُحِّقَ وشرب بالماء ، أنعظ إنعاظاً شديداً . قال في "المسالك" : وهي ولاية جليلة واسعة العمل ممتدة القرى ، تشتمل على نيف وستمئة ضيعة .

الصفحة الرابعة

(الشرقية؛ وهي على ضرين)

الضرب الأول

(ماهو داخل في حدود الشام، وهو غربى الفرات)

قال في "التعريف": وحدها من القبلة قرية القصب المجاورة لقرية جوسية المقدم ذكرها، أخذاً على النّبك إلى القرّيتين؛ وحدها من الشرق السماوة إلى الفرات وينتهى إلى مدينة سلمية إلى الرستن؛ وحدها من الغرب نهر الأرنط وهو العاصى، وتشتمل على خمسة أعمال أيضاً.

الأول - (عمل حصّ) - بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وصادمهملّة في الآخر. قال في "الروض المعطار": ولا يجوز فيها الصرف كما يجوز في هند لأن هذا اسم أعجمي. قال: وسميت برجل من العاليق اسمه حصّ هو أول من بناها. قال الزجاجي: هو حص بن المهر بن حاف بن مكنف، وقيل برجل من عاملة هو أول من نزلها، وأسمها القديم سورياً (بسين مهملة مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة وياء مشددة تحت مفتوحة وألف في الآخر). وبه كانت تسميها الروم، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "تقويم البلدان": والقياس أن طولها إحدى وستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهي مدينة جليلة، وقاعدة من قواعد الشام العظام. قال في "التعريف": وكانت دار ملك للبيت الأسديّ يعني أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب. قال: ولم يزل لملكها في الدولة الأيوبية سطوة تخاف وبأس يخشى، وهي في وطأة من الأرض ممتدة على القرب من النهر العاصى، ومنه شرب أهلها، ولها منه

(١) كذا في النص، أيضاً وفي "معجم البلدان" ابن جان.

ماء مرفوعٌ يجرى إلى دار النيابة بها وبعض مواضع بها . قال في "مسالك الأبصار" :
وبها القلعة المصفحة وليست بالمنيعة ، ويحيط بها وبالبلد سورٌ حصين هو أمنع
من القلعة . قال في "العزيزى" : " وهى من أصح بلاد الشام هواءً ، وبسطها
بحيرة صافية الماء ، ينقل السمك إليها من الفرات حتى يتولد فيها ، والطير مبنوث
في نواحيها . قال ابن حوقل : وليس بها عقارب ولا حيات . وقد تقدم في الكلام
على خواص الشام وعجائبها أن بها قبةً بالقرب من جامعها إذا ألصق بها طين من طينها
وترك حتى يسقط بنفسه ووضع في بيت أوثياب لم يقربها عقرب . وإن دُر منه على
العقرب شيء أخذته مثل السكرور بما قتله ، ولها من بر بعلبك أنواع الفواكه وغيرها ؛
ومأشها يقارب قماش الإسكندرية في الجودة والحسن ، وإن لم يبلغ شأوه في ذلك .
قال في "الروض المعطار" : ويقال إن بقراط الحكيم منها . وإن أهلها أول من آبتدع
الحساب ؛ وبها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ومقامه مشهور بها يزار .

الثانى - (عمل مصيف) بكسر الميم وسكون الصاد - وهى بلدة جليلة ، ولها
قلعة حصينة في لحف جبل اللكام الشرقى عن حماة وطرابلس ، في جهة الشمال عن
بارين على مسافة فرسخ ، وفي جهة الغرب عن حماة على مسيرة يوم ، وبها أنهر صغار
من أعين ، وبها البساتين والأشجار . وهى قاعدة قلاع الدعوة الآتى ذكرها في أعمال
طرابلس ودار ملكها ، وكانت أولاً مضافةً إلى طرابلس ثم أفردت عنها وأضيفت
إلى دمشق .

الثالث - (عمل قاراً) - بقاف مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة وألف ثانية .
هكذا هو مكتوب في "التعريف" وغيره وهو الجارى على الألسنة . ورأيتها
مكتوبة في "تقويم البلدان" بهاء في الأتربدل الألف الأخيرة . وهى قرية كبيرة
قبلى حمص ، بينها وبين دمشق على نحو منتصف الطريق ، تنزلها قوافل السفارة ، وبينها
وبين حمص مرحلة ونصف ، وبينها وبين دمشق مرحلتان ، وغالب أهلها نصارى .

الرابع - (عمل سَلَمِيَّة) - بفتح السين المهملة واللام وكسر الميم وياء مشناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في الآخر - وهى بلدة من عمل حمص من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن يكون العرض أربعاً وثلاثين ونصفاً . قال أحمد الكاتب : بناها عبد الله بن صالح بن عليّ بن عبد الله ابن عَبَّاس بن عبد المطلب وأسكن بها ولده . وهى بلدة على طرف البادية تَزْهَة خُصْبَة كثيرة المياه والشجر، ومياها من قُي . قال في "الروض المعطار" : وبينها وبين حَمَصَ مرحلة .

الخامس - (عمل تَدْمَر) - بفتح التاء المشناة فوق وسكون الدال المهملة وضم الميم وراء مهملة في الآخر - كذا ضبطه السمعاني في "الأنساب" : والجارى على السنة الناس ضم أولها . قال في "التعريف" : وهى بين القَرَيَتَيْنِ والرَّحْبَة ، وهى معدودة من جزيرة العرب واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : طُولُهَا اثنتان وستون درجة ، وعَرْضُهَا أربع وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : وهى من أعمال حَمَصَ من شَرْقِهَا ، وغالب أرضها سَبَاخٌ ، وبها نخيل وزيتون ؛ وبها آثار عظيمة أزيلت من الأعمدة والصخور، ولها سور وقلعة .

قال في "الروض المعطار" : وهى فى الأصل مدينة قديمة بنتها الجحّ لسليمان عليه السلام، ولها حصون لا تُرام . قال : وسميت تَدْمَرُ بتدْمَر بنت حَسَّان ابن أَدْيَنَة ، وفيها قبرها . وإنما سكنها سليمان عليه السلام بعدها . قال في "العزى" : وبينها وبين دِمَشْقَ تسعة وخمسون ميلاً ، وبينها وبين الرَّحْبَة مائة ميل وميلان . قال صاحب حماة : وهى عن حَمَصَ على ثلاث مراحل .

(١) فى القاموس ويافوت "وسكون الميم" أى وتخفيف الياء

الضرب الثاني

(من هذه الصفة ما هو من بلاد الجزيرة، بين الفرات والدجلة)

على القرب من الفرات)

وهو مدينة الرَّحْبَةِ . قال في "اللُّبَابِ" : بفتح الراء والحاء المهملتين والباء الموحدة وهاء في الآخر - وهي مدينة على الْفُرَاتِ بين الرَّفَّةِ وَعَانَةَ ، واقعة في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وتعرف بِرَحْبَةِ مالِك بن طَوْق ، وهو قائد من قَوَادِ هَارُونَ الرشيد ، قيل إنه أول من عمَّرها فنسبت إليه . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد خربت الرَّحْبَةُ المذكورة وصارت قرية ، وبها آثار المدينة من المآذن الشواهد وغيرها ، وأستحدث شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادى صاحب حِمَصَ من جنوبها الرحبة الجديدة على نحو فرسخ من الْفُرَاتِ ، وهي بلدة صغيرة ولها قلعة على تَلٍّ تراب ، وشرب أهلها من قناة من نهر سَعِيدٍ ، الخارج من الفرات . قال : وهي اليوم مغطى القوافل من الْفُرَاتِ والشام ، وهي أحد الثغور الإسلامية في زماننا .

قال في "التعريف" : وبها قلعة نيابة ، وفيها بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين ، ولم تزل إمرتها طبلخاناه ، بمرسوم شريف من الأبواب الشريفة من الأيام الناصرية ابن قلاوون إلى الآن .

تنبيه - قال في "التعريف" : ومما أُضيف إلى دِمَشْقَ في زمن سلطاننا يعني الناصر بن قلاوون بلادُ جَعْبَر . قال : وحققا أن تكون مع حَلَبَ ، وهي مستمرة على ذلك إلى زماننا ، وسيأتى الكلام عليها في الأعمال الحلبية إن شاء الله تعالى .

(١) كذا في التقويم أيضا وضبطها في المعجم بإسكان الحاء وهو مقتضى إطلاق القاموس .

وقد ذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الجيش في كتابه "التثقيف" : أنه كان قد آسَـتَـقَرَّ بَتَدْمُرٍ وَسَلَمِيَّةٍ وَالسُّخْنَةِ وَالْقَرَيَتَيْنِ نَوَآبٍ، وَآسَـتَـقَرَّ الْحَالُ عَلَى أَنْ مَكَاتِبُهُ كُلُّ مِنْهُمُ إِنْ كَانَ مَقْدَمًا نَظِيرُ النَّائِبِ بِالرَّحْبَةِ، يَعْنِي "صَدَرَتْ" وَ"الْعَالِي" وَإِنْ كَانَ طَبْلَخَانَاهُ فَالْأَسْمُ "وَالسَّامِيُّ" بِالْيَاءِ .

القاعدة الثانية

(من قواعد البلاد الشامية حَلَبٌ ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

قال في "اللِّبَابِ" : هي بفتح الحاء المهملة واللام وباء موحدة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : وطولها اثنتان وستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونحسون دقيقة .

وآختلف في سبب تسميتها حَلَبَ عَلَى قَوْلَيْنِ حَكَاهُمَا صَاحِبُ "الروض المعطار" : أحدهما أنه كان مكان قلعتها رَبْوَةً ، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يَأْوِي إليها وَيَحْلُبُ غَنَمَهُ وَيَتَصَدَّقُ بِلَبْنِهَا فَسُمِيَتْ حَلَبَ بِذَلِكَ . الثاني أنها سُمِيَتْ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَمَالِقِ ^(١) أَسْمُهُ حَلَبٌ . قال الزجاجي : حَلَبُ بْنُ الْمَهْرِ مِنْ وَلَدِ جَانِ بْنِ مَكْنَفٍ .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة ؛ وهي في وطاء حمراء ممتدة ، مبنيةٌ بِالْحَجَرِ الْأَصْفَرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فِي الْأَفَاقِ ؛ وَبِهَا الْمَسَاكِنُ الْفَائِقَةُ ، وَالْمَنَازِلُ الْأَنْيَقَةُ ، وَالْأَسْوَاقُ الْوَاسِعَةُ ، وَالْقِيَاسُ الْحَسَنُ ، وَالْحَمَامَاتُ الْبَهِيْجَةُ . ذات جوامعَ ومساجدَ ومدارسَ وخوانقَ وزوَايَاَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ وَجُوهِ الْبَرِّ ،

(١) في الأصل "خان" وفي الضوء "حاف" والتصحيح من ياقوت .

وبها بیمارستان حسنٌ لعلاج المرضى . قال في "مسالك الأبصار" : ولها نهران : أحدهما يعرف بنهر قُوق ، وهو نهرها القديم . والثاني يعرف بنهر الساجور ، وهو نهر مستحدث ، ساقه إليها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" في سلطنته وحكمه عليها . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أن الملك الظاهر غازي بن العادل "أبي بكر بن أيوب" ساق إليها نهرًا في سنة خمس وستمائة ، ولعله نهر قُوق المذكور . قال في "مسالك الأبصار" : ويجرى إلى داخلها فرع ماء يتشعب في دُورها ومساكنها ولكنه لا يبل صَدَاحًا ولا يَشْفِي غُلَّتْها ، وبها الصهاريج المملوءة من ماء المطر ، ومنها تُربُّ أهلها ؛ ويدخل إليها الثلج من بلادها ، وليس لأهلها إليه كثير التفتات لبرد هوائهم وقرب اعتدال صيفهم وشتائهم ؛ وبها الفواكه الكثيرة وأكثرها مجلوب إليها من نواحيها لِقَلَّةِ البساتين بها ؛ وبها المروج الفيح والبرّ المتد حاضرة وبادية ؛ وبها عسكر كثير وأمم من طوائف العرب والأكراد والترُكَّان .

قال في "اللباب" : وكان الحنْدُ في ابتداء الإسلام يتزلون قَسْرِينَ ، وهي المدينة التي تُنسب الكورة إليها على ما تقدم ذكره ولم يكن حلب معها ذكر . قال ابن سعيد : ثم ضعفت بقوة حلب عليها ، وهي الآن قرية صغيرة .

قال في "مسالك الأبصار" : وكانت حلب قد عظمت في أيام بني حمدان ، وتاهت بهم شرقًا على كيوان . جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخارًا ، وأخذت لها من بروج السماء منطقةً وأسوارًا ؛ ولم تزل على هذا يُسار إليها بالتعظيم ، ويأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم ؛ حتى نزل هولاكو بحوافرخيله فهدمت أسوارها ونحرت حواضرها ، ولم تزل خالية من الأسوار ، عَرِيَّةً من الأبواب ، إلى أن كانت فتنة منطاش في سلطنة الظاهر برقوق والنائب بها من قبله الأمير كمشيغا ، فجدد أسوارها ، ورتب أبوابها ، وهي

سبعة أبواب: باب قَنْسَرِينَ من القبلة، وباب المقام من القبلة أيضا، وباب التَّيْرَب من الشرق، وباب الأربعين من الشرق أيضا، وباب النصر من بحريها، وباب الحِثَّان من غربيها، وباب أَنْطَاكِية من غربيها أيضا، وهي الآن في غاية ما يكون من العمارَة وحُسْن الرُّونق والبهجة، ولعلها قد فاقت أيام بنى حَمْدان؛ ولم يزل نائما من أكابر الأمراء المقدمين من الدولة الناصرية فما قبلها إلى الآن، وقد زادت رتبته عما كان عليه في الأيام الناصرية؛ وهي ثانية دِمَشق في الرتبة، ومعاملاتها على ما تقدم في دِمَشق من الدراهم والدنانير والفُلُوس وصنجة الذهب والفضة . غير أن الفلوس الجُدُد لم تَرَجَّح بها بعدُ، ورِطْلُها سبعمائة وعشرون درهما بالصَّنْجَة الشامية، كلُّ أوقية^(١) ستون درهما، ومعاملاتها معتبرة بالمكوك، ولا تعرف فيها الغرارة، ولا في شيء من أعمالها؛ وتختلف بلادها في المكوك اختلافًا متباينًا في الزيادة والنقص . قال في "مسالك الأبصار": والمعدل فيها أن يكون كل مكوكين ونصف غرارة وما بين ذلك وكل ذلك تقريبًا .

قلت : وأخبرني بعض أهلها أن المكوك بنفس مدينة حَلَبَ معتبر بسبع وبيات بالكيل المصري، والذراع القماش ذراعٌ وسدسٌ بذراع القماش القاهري، ويزيد على ذراع دمشق بقيراطين، وقياس دُور أرضها بذراع العمل المعروف بالديار المصرية .

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "مسالك الأبصار": هي أوسع الشام بلادًا، متصلةٌ ببلاد سِيس والرُّوم وديار بكر وبرية العراق . قال في "التعريف": ويحدها من القبلة المَعْرَة وما وقع

(١) وأواقيع اثنتا عشرة أوقية [كما سيأتي له في حلب في موضع آخر] .

على ستمتها إلى الدمنة الخراب والسلسلة الرومية ومجرى القناة القديمة الواقع ذلك بين الحيار (يعنى بكسر الحاء المهملة والياء المثناة تحت وألف وراء مهملة) والقرية المعروفة بقبة ملاعب، ويحدها من الشرق [البر] حيث يحدها بردى أخذها على جبل الثلج، ثم الجلاب على أطراف باليس إلى الفرات دائرة بجدها. قال: وبهذا التقسيم تكون بلاد جعبر داخلية في حدودها، ويحدها من الشمال بلاد الروم مما وراء بهسنى وبلاد الأرمن على البحر الشامى: ثم أعمالها على ثلاثة أقسام.

القسم الأول

(ما هو داخل في حدود بلاد الممالك الشامية، ولها بر وأعمال)
فأما برها فهو ضواحيها على ما تقدم في دمشق، وهو كالعمل المنفرد بنفسه.
وأما أعمالها، فقد ذكر المقر الشهابى بن فضل الله في كتابيه "التعريف"
و"مسالك الأبصار" بها ستة عشر عملاً^(١) على أكثرها، وربما انفرد أحد الكتّابين
عن الآخر ببعض دون البعض.

الأول - (عمل قلعة المسلمين) - المدية في القديم بقلعة الروم وهي قلعة من جند قنسرين في البر الغربى الجنوبي من الفرات، في جهة الغرب الشمالى عن حلب على نحو خمس مراحل منها، وفي الغرب عن البيرة على نحو مرحلة، والفرات بذيلها. وموقعها في الإقليم الرابع. قال بعض أصحاب الأزياج: وطولها آثنتان وستون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. وهي من القلاع الحصينة التي لا ترام ولا تدرك، ولها ربض وبساتين، ويمر بها نهر يعرف بمزبان يصب في الفرات. قال في "التعريف": وكان بها خليفة الأرمن

(١) المعدود ستة وعشرون وفي الضوم "سبعة وعشرون". (٢) لعله آتقفا على أكثرها.

ولا يزال بها طاغوت الكُفْر، فقصدها الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون
فتزل عليها، ولم يزل بها حتى فتحها، وسمّاها قلعة المسلمين . قال : وهى من
جلائل القلاع .

الثانى - (عمل الكَحْتَا) - بفتح الكاف وسكون الحاء المعجمة وفتح التاء المشددة فوق
ثم ألف فى الآخر، والألف واللام فيه غير لازمتين - وهى قلعة فى أقاصى الشام من
جهة الشمال بشرق من حلب، على نحو خمس مراحل منها، وموقعها فى الإقليم الرابع .
قال بعض أصحاب الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وعشر دقائق، وعرضها
ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى قلعة عالية البناء لأثرام حصانة، ولها
بساتين ونهر، وملطية عنها فى جهة الغرب على مسيرة يومين، وكركر منها فى جهة
الشرق، وكانت أحد ثغور الإسلام فى وجوه التار عند قيامهم . قال فى "التعريف" :
وهى ذات عمل متسع، وعسكر تطوع مجتمع .

الثالث - (عمل كَرْكَرْ) بفتح الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف مفتوحة ثانية
بعدها راء مهملة ثانية أيضا - وهى قلعة من أقاصى الشام فى الشمال عن حلب
على نحو خمس مراحل أيضا، وفى الغرب من الكَحْتَا المتقدمة الذكر على نحو يوم
منها، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها إحدى وستون
درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

قال فى "تقويم البلدان" : وهى قلعة حصينة شاهقة فى الهواء يرى
الفرات منها كالجدول الصغير، وهو منها فى جهة الشرق، وكانت من أعظم الثغور
فى زمان التتار .

الرابع - (عمل بهَسْنَى) - بفتح الباء الموحدة والهاء وسكون السين المهملة ثم نون
وألف - وهى قلعة فى شمالى حلب على نحو أربع مراحل منها، وموقعها فى الإقليم

الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة حصينة مرتفعة لأثرام حصانة ، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورستاق متسع ، وبها مسجد جامع . ثم قال : وهي بلدة واسعة ، كثيرة الخير والخصب ، وهي في الغرب والشمال عن عيّناب ، وبينهما نحو مسيرة يومين ، وبينها وبين سيّس نحو ستة أيام . قال في "التعريف" : وهي الثغر المتأخّر لبلاد الدروب ، والمشتعل في حمرة الحروب ، وبها عسكر من التتركان والأكراد . ولا يزال لهم آثار في الجهاد . قال : ولناؤها مكانة جليلة ، وإن كان لا يلحق بنائب البيرة .

الخامس - (عمل عيّناب) - بفتح العين وسكون الياء المثناة تحت والنون وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف وباء موحدة - وهي مدينة من جند قنسرین شمالاً حلب على نحو مرحلتين منها ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها اثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي مدينة حسنة ، واسعة الأرجاء ، كثيرة المياه والبساتين ، ذات أسواق جليلة مقصودة للتجار والمسافرين ، وبها قلعة حصينة متقوية في الصخر . وهي عن حلب في الشمال على نحو ثلاث مراحل منها ، وعن قلعة الروم في الجنوب على نحو ثلاث مراحل أيضاً ، وعن بهسنى في جهة الشرق والجنوب على نحو ثلاث مراحل .

السادس - (عمل الراوندان) - بألف ولام لازمتين وراء مهملة بعدها ألف ثم واو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة ثم ألف ونون - وهي قلعة من جند قنسرین واقعة في الإقليم الرابع طولها اثنتان وستون درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهي قلعة حصينة على جبل مرتفع أبيض ، ذات أعين وبساتين وفواكه ، وواد

حسن ؛ ونهرها من تحتها نهر عَفْرَيْنَ المتقدم ذكره آخذاً من الشَّمال إلى الجنوب ،
وهي في الغرب والشَّمال عن حلب ، وبينهما نحو مرحلتين ، وفي الشمال عن حارِم .
السابع - (عمل الدَّرْبَسَاك) - بفتح الدال المهملة وسكون الراء المهملة وفتح الباء
الموحدة والسين المهملة ثم ألف وكاف ، والألف واللام فيه غير لازمتين - وهي قلعة
من جُنْد قَسْرَيْنَ واقعة في الإقليم الرابع شمالي حلب على نحو ثلاث مراحل أو أربع
منها . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن يكون طولها إحدى وستين درجة ،
وعرضها ست وثلاثون درجة . وهي قلعة حصينة ذات أعين وبساتين ، وبها مسجد
جامع ، ولها من شريقها مروج متسعة ، حسنة المنظر ، كثيرة العُشب ، يمر بها النهر
الأسود المتقدم ذكره .

الثامن - (عمل بَغْرَاس) - بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وراء مهملة
وألف ثم سين مهملة - كذا ضبطه السمعاني في "الأنسَاب" ووقع في "التعريف"
و"مسالك الأبصار" بالصاد المهملة بدل السين . والجارى على السَّنة الناس
ضم أوله ؛ وهي قلعة من جُنْد قَسْرَيْنَ ، واقعة في الإقليم الرابع شمالي حلب على نحو
أربع مراحل منها . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة
ونحس ونحسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث ونحسون دقيقة ،
وهي في الجبل المطل على عَمَقِ حارِم . قال ابن حوقل : وكان بها دارضيافة
لرُبَيْدَةَ . قال في "تقويم البلدان" : وهي ذات أعين وبساتين وأشجار ، وبينها
وبين الدَّرْبَسَاك نحو بعض مرحلة ، وهي في جهة الجنوب عن الدَّرْبَسَاك . قال
في "الغزي" : وبينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلاً ، وبينها وبين إسكندرونة
كذلك ، وبينها وبين حارِم نحو مرحلتين . وبَغْرَاس في الجنوب عن دَرْبَسَاك
وبينها بعض مرحلة ، وحارِم في جهة الشرق عنها ، قال في "التعريف" : وكانت

هى الثَّغَرُ فى بحر الأرمن حتى استضيفت الفتوحات الجاهانية . قال : وبها رُصَصُ
وهى عضو من أعضائها وجزء من أجزائها . ورُصَصُ المذكورة براء مهملة مضمومة
وصادين مهملتين الصاد الأولى مفتوحة ، وهى بلدة على الساحل ، وقد مر ذكرها
فى الكلام على بحر الروم على سواحل الأرمن .

التاسع - (عمل القصير) تصغير قصر . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى قلعة
غربي حَلَبَ على نحو أربع مراحل منها . قال فى "التعريف" : وهى لأنطاكية
ولم يتحرر لى طولها وعرضها .

العاشر - (عمل الشُّغْر وبكَّاس) - آسمان لقلعتين بينهما رَمِيَّة سَهْم .
فالشُّغْر - بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم راء مهملة .

وبكَّاس - بفتح الباء الموحدة والكاف ثم ألف وسين مهملة فى الآخر . وهما من
جُنْد قَنَسَرِينَ ، وموقعهما فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولهما إحدى
وستون درجة ، وعرضهما خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهما مبنيان على
جبلٍ مستطيل ، وتحتهما نهر يجرى ، وبهما بساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، ولها
رُستاق ومسجد جامع . قال فى "تقويم البلدان" : وهما فى الجنوب عن أنطاكية
وبينهما الجبال .

الحادى عشر - (عمل شَيْر) - بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح
الزاي المعجمة وفى آخرها راء مهملة . وهى مدينة من جُنْد حِصَصَ غربي حَلَبَ
على نحو ثلاث مراحل منها ، واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البلدان" :
القياس أن طولها إحدى وستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها أربع وثلاثون درجة
 وخمسون دقيقة . وهى مدينة ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة وأكثرها الرمان ،
ولها ذكر فى شعر امرئ القيس مع حماة . قال فى "العزيرى" : وبينها وبين حماة

تسعة أميال ، وبينها وبين حَصَّ ثلاثة وثلاثون ميلا ، وبينها وبين أَنْطَاكِية ستة وثلاثون ميلا .

الثاني عشر - (عمل جَجْر شُغْلَان) بلفظ حجر واحد الحجارة وإضافته إلى شُغْلَان (بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم لام ألف ونون) . وهي قلعة شمالي حَلَب على نحو ثلاث مراحل منها . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بالقرب من بَغْرَاس في جهة الشمال على مسافة قريبة جدًا ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها ولكنها تعتبر ببَغْرَاس المتقدمة المذكور بها منها - وهي الآن خراب .

الثالث عشر - (عمل قلعة أَيْ فَيْيَس) - بهزمة مفتوحة وباء موحدة مكسورة بعدهما ياء ساكنة ثم قاف مضمومة وباء موحدة مفتوحة وياء مثناة تحت ساكنة ثم سين مهملة في الآخر - وهي قلعة حصينة غربي حَلَب مما يلي الساحل ، على نحو ثلاث مراحل قصيرة من حَلَب ، كذا أخبرني به بعض أهل البلاد ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها ، وسيأتى في الكلام على ترتيب المملكة أنها استقرت ولاية ، وربما أُضيفت إلى غيرها .

الرابع عشر - (عمل قلعة حَارِم) - بجاء مهملة مفتوحة وألف ثم راء مهملة مكسورة وميم في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي قلعة حصينة في جهة الغرب من حَلَب على نحو مرحلتين منها ، ذات بساتين وأشجار ، وبهانهر صغير وبينها وبين أَنْطَاكِية مرحلة ، وربضها بلد صغير . قال ابن سعيد : وقد خُصَّت بالرقمان الذي يُرى باطنه من ظاهره مع عدم العجم وكثرة الماء .

الخامس عشر - (عمل كَفْرِ طَاب) - بفتح الكاف وسكون الفاء وراء مهملة ثم طاء مهملة بعدها ألف وباء موحدة - على إضافة كَفْرِ إلى طَاب . هذا هو الجاري على

الألسنة وهو الصواب ، وأصله من الكفر بمعنى التغطية ، والمراد مكان الزرع والحرث لتغطية الحبّ بالزراعة كما في قوله تعالى: ﴿ كُنْ لَّ غَيْثٍ أَنْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ يريد الزراع ، ووقع في كلام صاحب حماة بفتح الفاء وهو وهم .

وظاهر كلام صاحب "الروض المعطار" أن طاب في معنى الصفة لكفر فإنه قال : وسمى بذلك لأن حوله أرض كريمة . قال : وأرضه صحيحة الهواء ومن سكنها لا يكاد يمرض ، وقيل إنه منسوب إلى رجل أسمه طاب - وهي بلدة صغيرة من جند حمص غربى حلب ، على نحو ثلاث مراحل منها ، واقعة في الإقليم الرابع . قال في "كتاب الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها إحدى وستون درجة وخمس عشرة دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة - وهي على الطريق بين المعرة وشيزر . قال في "العريزي" : وبينها وبين المعرة وشيزر اثنا عشر ميلا .

السادس عشر - (عمل فامية) - بفتح الفاء وألف بعدها ثم ميم مكسورة وياء مشاة تحت وهاء في الآخر . قال في "المشارك" : ويقال لها أفامية بهمزة في أولها يعنى مفتوحة . وهي مدينة من أعمال شيزر، غربى حلب ، على نحو أربع مراحل منها واقعة في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها إحدى وستون درجة وثلاث دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة . قال في "العريزي" : وكورة فامية لها مدينة كانت عظيمة قديمة ، على نشز من الأرض ، ولها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب .

السابع عشر - (عمل سَرْمِين) - بفتح السين وسكون الراء المهملة وكسر الميم ثم ياء
 مثناة تحت ساكنة ونون بعدها . وهى مدينة فى الغرب من حَلَبَ على نحو مرحلتين
 صغيرتين منها ، واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها إحدى
 وستون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وخمسون
 دقيقة . وهى مدينة غير مسورة ؛ وبها أسواق ومسجد جامع ؛ وشرب أهلها من الماء
 المجتمع فى الصهاريج من الأمطار ، وهى كثيرة الحُصْب ، وبها الكثير من شجر التين
 والزيتون ، وهى فى جهة الجنوب عن حَلَبَ على مسيرة يوم منها وعملها متسع .

ومن مضافاتها مدينة الفُوعَة (بضم الفاء وفتح العين المهملة) . وهى مدينة على
 القرب من سَرْمِين فى الغرب منها ، وتسمى هذه الولاية الغُرَيَّات (بفتح الغين المعجمة
 وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المثناة تحت المشددة وألف ثم تاء
 مثناة فوق فى الآخر) . قال فى "التعريف" : وهى أجل ولايات حَلَبَ .

الثامن عشر - (عمل الجَبُول) - بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشددة ثم واو
 ساكنة ولام فى الآخر - وهى بلدة شرق حَلَبَ على نحو مرحلة كبيرة منها ، وهى
 بالقرب من الفُرَّات ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها . قال فى "تقويم البلدان" :
 ومنها ينقل الملح إلى سائر أعمال حَلَبَ ؛ وقد أخبرنى بعض أهلها : أن أصل هذا الملح
 نهر يصل إليها يعرف بنهر الذهب فيبقى ماء فيما يمر عليه من البلدان حتى ينتهى إليها
 فينعتقد ملحا لوقته .

التاسع عشر - (عمل جَبَلِ سَمْعَانَ) - وضبطه معروف . وهى فى جهة الشمال من
 حَلَبَ على [يوم] منها ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها .
 (١)

(١) فى الأصل ساعة وأبدل فى الهامش بانظ "يوم" .

العشرون - (عمل عزّاز) - بفتح العين المهملة والزاي المعجمة وألف ثم زاي ثانية مكسورة - كذا ضبطه في "اللباب" والجاري على الألسنة أعزاز بهمزة مفتوحة في أولها وسكون العين والزاي الأخيرة في الوقف ؛ وهي بلدة شمالي حلب بشرق على نحو مرحلة منها . قال في "كتاب الأطوال" : وطولها إحدى وستون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهي في شمالي حلب بميلة إلى الغرب . قال ابن سعيد : ولأعزاز جهات في نهاية الحسن والطيبة والحصب ، وهي من أنزه الأماكن .

الحادي والعشرون - (عمل تلّ باشر) - بفتح التاء المشناة فوق وتشديد اللام ثم فتح ألباء الموحدة وألف بعدها شين معجمة مكسورة وراء مهمل في الآخر - وهي حصن شمالي حلب على مرحلتين منها بالقرب من عيّناب المتقدم ذكرها . قال ابن سعيد : وهي ذات مياه وبساتين .

الثاني والعشرون - (عمل منبج) - بفتح الميم وسكون النون وفتح الباء الموحدة (١) وفي آخرها جيم - كذا ضبطه ابن الأثير في "اللباب" : وهي بلدة من جند قنسرين شرقي حلب على نحو مرحلتين منها واقعة في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها اثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : بناها بعض الأكسرة الذين غلبوا على الشام وسماها منبج فعزبت منبج ، وكان بها بيت نار للفُرس ، وهي كثيرة الفنى السارحة والبساتين ، وغالب شجرها التوت ، وأكثرها خراب .

(١) ضبطه في القاموس كجلبس [أى بكسر اللام] وكذلك ضبطه صاحب "تقويم البلدان" عن اللباب

فأعل ما هنا سبق قلم .

الثالث والعشرون - (عمل تيزين) - بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وكسر الزاى المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر - وهى بليدة صغيرة من أعمال حلب فى جهة الغرب على نحو مرحلة منها .

الرابع والعشرون - (عمل الباب وبزاعا) . وضبط الباب معروف ، وبزاعا بضم الباء الموحدة وفتح الزاى المعجمة وألف بعدها عين مهملة وألف مقصورة فى الآخر . كذا ضبطه فى "تقويم البلدان" : والجارى على الألسنة إبدال الألف فى آخره بهاء . وهما بلدتان متقاربتان ، من جنس قنسرين على مرحلة من حلب فى الجهة الشمالية الشرقية فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها اثنتان وستون درجة وعشر دقائق ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

أما الباب : فبليدة صغيرة . قال فى "تقويم البلدان" : بها مشهد به قبر عقيل ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وبها أسواق وحمام ومسجد جامع ، وبها البساتين الكثيرة والنزه .

وأما بزاعا - فضيعة من أعمال الباب .

الخامس والعشرون - (عمل دركوش) - بفتح الدال وسكون الراء المهملتين وضم الكاف وسكون الواو وشين معجمة فى الآخر - وهى بلدة على النهر العاصى غربى حلب على نحو ثلاث مراحل منها ، وأكثر زرع أرضها العنب . أخبرنى بعض أهل تلك البلاد أن حبة العنب بها ربما بلغت فى الوزن عشرة دراهم ، وبها قلعة عاصية آستولى هولاكو على قلاع الشام ماعداها فإنه لم يصل إليها .

السادس والعشرون - (عمل أنطاكية) . قال فى "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهملة . قال فى "تقويم البلدان" : ثم ألف وكاف

مكسورة ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر . قال ابن الجواليقي في "المعرب" :
وياؤها مشددة . وخالف في "الروض المعطار" : فذكر أنها مخففة الياء - وهي
مدينة عظيمة غربي حلب بشمال يسير على نحو مرحلتين منها . قال في "تقويم
البلدان" : وهي قاعدة بلاد العواصم . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن
طولها ستون درجة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي مدينة
عظيمة قديمة ، على ساحل بحر الروم ، بناها بطليموس الثاني من ملوك اليونان ؛ وقيل
بناها ملك يقال له أنطاكين فعرفت به ، ولها سور عظيم من صخر ليس له نظير
في الدنيا . قال في "العزيزي" : مساحة دورّه اثنا عشر ميلاً . قال في "الروض
المعطار" : عدد شرفاته أربع وعشرون ألفاً ، وعدد أبراجه مائة وستة وثلاثون برجاً .
قال ابن حوقل : وهي أزه بلاد الشام بعد دمشق ، ويمتد بظاهرها العاصي والنهر
الأسود مجودين ، وتجري مياههما في دورها ومسكنها ومسجداتها الجامع ، وماؤها
يستحجر في مجاريه حتى لا يؤثر فيه الحديد ، وشربه يحدث رياح القولنج ، والسلاح
بها يُمَرَع إليه الصّدأ ويذهب ريح الطيب بالمكث فيها ، وهي أحد كراسي بطارقة
النصارى ، ولها عندهم قدر عظيم . وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ إنها أنطاكية وإن ذلك الرجل
"حبیب النّجار" وقبره بها مشهور يزار . قلت : وحيثنذ فتصير ولايتها المذكورة
في "التعريف" و"مسالك الأبصار" : أثنتى عشرة ولاية .

ومينا أنطاكية المذكورة (السَّوَيْدِيَّة) بضم السين المشددة وفتح الواو وسكون الياء
المثناة تحت وكسر الدال المهملة وفتح الياء المثناة تحت المشددة وهاء في الآخر .
قال في "تقويم البلدان" : وموضعها حيث الطول ستون درجة وخمس وأربعون

(١) لعله ولاياتها . على أن هذه الفلزكة تحتاج إلى تأمل .

دقيقة . وعندها مصبُ النهر العاصي ، وهناك ينعطف البحر الرومي ويأخذ غربا
بشمال على سواحل بلاد الأرمن .

القسم الثاني

(من الأعمال الحليّة البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقدم ذكرها)

في الأعمال الحليّة من الشمال ، وهي المعروفة ببلاد الأرمن

قال في ” التعريف “ في مكتبة ممتلك سبيس : وهذه البلاد منها بلاد تسمى
العواصم ، ومنها بلاد كانت تسمى قديما بالثغور ، سميت بذلك لمناغرتها الروم ، وإلى
مثل ذلك أشار في ” تقويم البلدان “ أيضا .

فالعواصمُ (بفتح العين المهملة والواو وكسر الصاد المهملة وميم في الآخر) . قال ابن
حوقل : وهي أسم للناحية وليست موضعا بعينه يسمى العواصم . قال : وقصبتها
أنطاكية . قال : وعدّ ابن خرداذبه العواصم فكثرتها وجعل منها كورة منبج ،
وكورة تيزين وبالس ورصافة هشام ، وكورة جومة وكذا شيزر وأفامية ، وإقليم معرة
النعمان ، وإقليم صوران ، وإقليم تلّ باشر وكفر طاب ، وإقليم سلمية ، وإقليم جوسية ،
وإقليم لبنان إلى أن بلغ إقليم قسطل بين حصّ ودمشق .

قلت : وأول من سماها بذلك الرشيد هارون حين بنى بها مدينة طرسوس الآتي
ذكرها في سنة سبعين ومائة ، والذي يظهر أنها سميت بذلك لعصمتها مأدونها من
بلاد الإسلام من العدو ، إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر ، واقعة في نحر العدو ، وعساكر
المسلمين حافظة لها .

والثغور جمع ثغر (بفتح التاء المثناة وسكون الغين المعجمة وفي آخره راء مهملة) .

قال في ” المشترك “ وهو أسم لكل موضع يكون في وجه العدو ، قال : وثغور الشام
كانت أذنّة وطرُسوس وما معهما فاستولى عليها الأرمن .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه : أن الرشيد في سنة سبعين ومائة عزل الثغور كلها من الجزيرة وقَسَّرَين وجعلها حِيزًا واحدًا وسماها العواصم . قلت : ومقتضى ذلك أن تكون الثغور والعواصم أسماء على مسمى واحد ، وعليه ينطبق كلام المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" . وقد حدّد في "التعريف" هذه البلاد بجملتها فقال : وحدّها من القبلة وأنحراف للجنوب بلاد بَغْرَاس وما يليها ؛ وحدّها من الشرق جبال الدَّرَبَنَدَات ؛ وحدّها من الشمال بلاد آبن قرمان ؛ وحدّها من الغرب سواحل الروم المفضية إلى العَلَايا وأنطاليا . وسيأتى الكلام على أصل استيلاء الأرمن على هذه البلاد وارتفاعها منهم وعودها إلى الإسلام في الكلام على مكتبة ممتلك سيس ، على ما كان عليه الأمر قبل عودتها إلى الإسلام في مكاتبات ملوك الكفر إن شاء الله تعالى .

ويشتمل على عدّة نيابات ، بعضها ذكره في "التعريف" وبعضها استجدّ بعد ذلك ، وهى على ضربين أيضا .

الضرب الأول

(الأعمال الجبارة) وهى صفتان : ساحلية وجبلية

فأما الجبلية ، فثلاثة أعمال .

الأول - (عمل مَلَطِيَّة) - بفتح الميم واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مثناة ^(١) تحت مشددة مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى مدينة شمالي حلب بمئة إلى الشرق على نحو سبع مراحل منها . قال آبن سعيد : وهى قاعدة بلاد الثُّغُور ، وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : وطولها إحدى وستون درجة ،

(١) ضبطها ياقوت والمجد بفتحين ثم سكون وقال ياقوت : كسر الطاء وتشديد الياء من قول العامة .

وعرضها سبع وثلاثون درجة ، ووافقته في ”القانون“ على الطول وجعل العرض ثمانيا وثلاثين درجة ؛ وقد عدّها آبن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرى بلاد الروم على مرحلة . قال صاحب حماة : والأليق عدّها من بلاد الروم . ثم قال : وعدّها بعضهم من الثغور الجزرية . قال في ”الروض المعطار“ : وكانت قديمة فخرتها الروم ، فبنّاها أبو جعفر المنصور يعنى ثانياً خلفاء بنى العبّاس في سنة تسع وثمانين ^(١) ومائة ، وجعل عليها سورا محكماً - وهى بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار ، وهى مسورة ، فى بسيط من الأرض والجبال محتفة بها من بُعد ، ولها نهر صغير يمر بسورها ، ولها قنّ تدخلها وتجرى فى دورها إلا أنها شديدة البرد - وهى فى شمالى الجبل الدائر الذى بيسيس فى غربيه ، فى الجنوب عن سيواس ، وبينهما نحو ثلاث مراحل ، وفى الغرب عن نَخْنَا وبينهما نحو مرحلتين . وقد ذكر فى ”تقويم البلدان“ : أنها فتحت فى سنة خمس عشرة وسبعائة .

الثانى - (عمل دَرَنَدَة) - بفتح الدال والراء المهملتين وسكون النون وفتح الدال الثانية وهاء فى الآخر - وهى مدينة فى جهة الغرب عن مَلَطِيَّة على نحو مرحلة ، ذات بساتين وأنهار وعيون ماء تجرى ، وبينها وبين حَلَب نحو عشرة ايام .

الثالث - (عمل دَبَرَكِي) - بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وسر الكاف وياء مثناة تحت فى الآخر . وقد يقال دَوْرَكِي بإبدال الباء واوا . وهى مدينة فى جهة الشمال والغرب من حَلَب ، على نحو عشر مراحل منها ، بها بساتين وأشجار ، وبينها وبين حَلَب نحو اثنى عشر يوما .

(١) ليله مصحف عن ثلاثين فان المنصور تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، ونقل ياقوت أنه أرسل من بينى ملطية سنة أربعين ومائة .

وأما الساحلية، فإن بها خمسة أعمال .

الأول - (آياس) - بفتح الهمزة الممدودة والياء المثناة تحت ثم ألف وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الزيج" : طولها تسع وخمسون درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وهي فُرْضة تلك البلاد، وبينها وبين بَغْرَاس المتقدم ذكرها مرحلتان . قال في "التعريف" : وقد جعلت نيابةً جليلةً نحو حَصَّ ، وجعل أمرها إلى نائب الشام ، ثم جعلت إلى نائب حَلَبَ ، وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية إضافة إلى نهر جاهان المجاور لها ، وهو جيحان المتقدم ذكره ، وكانت استعادتُها من الأرمن في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون في سنة ثمان وثلاثين وسبعائة ، ولذلك قال في "التعريف" : والعهد بفتحها قريب .

الثاني - (عمل طَرَسُوسَ) - بفتح الطاء والراء المهملتين جميعاً وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية - هكذا ضبطه في "الباب" والجارى على الألسنة سكون راءها ، وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل بحر الروم شمالاً بغرب عن حَلَبَ ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة مسورة ، بناها الرشيد في سنة سبعين ومائة وأكملها في سنة اثنتين وسبعين ، ولها خمسة أبواب : باب الجهاد ، وباب الصَّفْصاف ، وباب الشام ، وباب البحر ، والباب المسدود . والنهر يشق في وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد . قال ابن حوقل : وهي في غاية الخصب ، وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجزين الروم والمسلمين ، وبها دُفِنَ المأمون بن الرشيد ، وكانت استعادتُها من الأرمن في الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون .

الثالث - (عمل أدنة) - بهمزة ودال مهملة ونون مفتوحات وهاء في الآخر .
وهي مدينة من بلاد الأرمن واقعة في الإقليم الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها تسع ونحسون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال أحمد ابن يعقوب الكاتب في كتابه "المسالك والممالك" : وهي من بناء الرشيد . قال ابن حوقل : وهي مدينة حصينة عامرة ، وبينها وبين طرسوس ثمانية عشر ميلا .

الرابع - (عمل سرفندكار) - بكسر السين وسكون الراء المهملتين وفتح الفاء وسكون النون وفتح الدال المهملة والكاف ثم ألف وراء مهملة - هكذا ضبطه صاحب حماة ، ثم قال : وقد يجعل موضع الفاء واوا فيقال سرونندكار والموجود في الدساتير إسفندكار بهمزة في الأول وسقوط الراء الأولى ؛ وهي قلعة من بلاد الأرمن واقعة في الإقليم الرابع . قال في "الزيح" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة حصينة في واد على صخر ، وبعض جوانبها ليس له سور للاستغناء عنه بالصخر ، وهي على القرب من نهر جيحان من البر الجنوبي ، في الشرق عن تل حمدون على نحو أربعة أميال .

الخامس - (عمل سيس) - بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت ثم سين مهملة ثانية - هذا هو المعروف في زماننا ، ووقع في كلام صاحب كمال الدين ابن العديم أن اسمها سيسّة بأشبات هاء في آخرها ، وكلامه في "العريزي" يوافقه . وهي قاعدة بلاد الأرمن وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الزيح" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة . وهي بلدة كبيرة ذات بساتين وأشجار ، ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل ، بناها بعض خدام الرشيد وهو الذي سماها . قال ابن سعيد : وكانت قاعدة الثغور الشمالية . قال في "العريزي" : وبينها

(١) الذي في "تقويم البلدان" و"معجم البلدان" و"القاموس" أنها بالذال المعجمة .

وبين المصيبة أربعة وعشرون ميلاً، وكانت استعادتها من الأرمن في الدولة الأشرية شعبان بن حسين. قلت: وقد كانت سبب في أعقاب الفتح نيابة مستقلة، ثم صارت مقدمة عسكر مضافة إلى حلب كما يقع في غزاة في كونها تارة تكون نيابة مستقلة، وتارة مقدمة عسكر مضافة إلى دمشق على ما تقدم ذكره.

الضرب الثاني

(١) (من الأعمال الصغار بلاد الأرمن)

وهي ثلاثة عشر عملاً لثلاث عشرة قلعة، لم تجر العادة بمكاتبة أحد من نوابها عن الأبواب السلطانية، ذكر بعضها في "التعريف" وبعضها في "التثقيف" وبعضها في غيرهما من الدساتير.

الأول - (عمل قلعة باري كرك) بفتح الباء الموحدة وألف بعدها راء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة ثم كاف مفتوحة وراء مهملة وواو ساكنة ثم كاف في الآخر. وهي قلعة على رأس جبل بالقرب من طرسوس في الشمال، على نحو نصف مرحلة قال في "التثقيف": "استجدت في سنة ستين وسبعائة". قلت: أفتتحها بيدمر الخوارزمي نائب سيس في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون.

الثاني - (عمل كاوراً) بفتح الكاف وبعدها ألف وواو وراء مفتوحة مشددة وألف في الآخر. وهي قلعة في الشمال عن آياس على جبل مطل على البحر الرومي على نحو ساعة. قال في "التثقيف": "استجدت سنة تسع وستين وسبعائة".

الثالث - (عمل كوكلاك) بفتح الكاف وسكون الواو ولام ألف بعدها كاف ثانية. وهي قلعة مدورة على رأس جبل في الشمال عن طرسوس على نحو مرحلة، يسكنها طائفة من التركمان.

الرابع - (عمل كَرْزَال) بكاف مكسورة وراء هملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وبعدها ألف ثم لام . وهى قلعة صغيرة على رأس جبل بالقرب من كَوْلَاك المتقدّم ذكرها على نحو مرحلة . قال فى "التثقيف" : استجدّت فى سنة نيف وسبعين وسبعائة .

الخامس - (عمل كُومى) بضم الكاف وسكون الواو وكسر الميم وياء مثناة تحت فى الآخر .

السادس - (عمل تَلّ حَمْدُون) بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام وفتح الحاء المهملة وإسكان الميم وضم الدال المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر . وهى قلعة ببلاد الأرمن ، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال ابن سعيد : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : كانت قبل أن يخرّبها المسلمون قلعةً حصينة حسنة البناء على تَلّ عال ، ولها سور مانع ورَبَض وبساتين ونهر يجرى ، وعلى القرب من جِيحَان فى جهة الجنوب على نصف مرحلة ، وبينها وبين آياس نحو مرحلة ، وبينها وبين سِيس نحو مرحلتين .

السابع - (عمل الهَارُوبِيَّيْن) - بفتح الهاء وألف بعدها ثم راء هملة مضمومة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت مشددة مفتوحة ثم تاء مثناة فوق بعدها ألف ونون . قال فى "التعريف" : وهما حصنان بناهما هارون الرشيد . وقال فى "المشترك" : الهارونية مدينة صغيرة آخططها هارون الرشيد بالثُغُور فى طَرَف جبل اللّكّام . وقال فى "العزى" : الهارونية آخر حدود الثُغُور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية ، وبينها وبين الكنيسة السّوداء اثنا عشر ميلاً .

قال في "كتاب الأطوال" : وطولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

الثامن - (عمل قلعة نَجْمَة) بفتح النون وسكون الجيم وفتح الميم وهاء في الآخر.^(١) وهى قلعة على القرب من الفُرات بينها وبين جَسْر مَنبِج خمسة وعشرون ميلا . قال في "تقويم البلدان" : وهذه القلعة فى السحاب . قال : وكان يقال لذلك المكان حصن مَنبِج فصارت تعرف بقلعة نَجْمَة . ثم قال : وهى من بناء السلطان محمود بن زنكى . قلت : وفى "التعريف" ما يقتضى أنها من جملة بناء المأمون .

التاسع - (عمل قلعة حيمص) . وهى قلعة خراب صغيرة بالقرب من نهر جِيحَان .
العاشر - (عمل قلعة ثُلُوثَة) - وهى قلعة شمالي كَوَلَاكْ أستعادها ابن عثمان .
الحادى عشر - (عمل قلعة تامرون) شمالي طَرَسُوس ، بيد عيسى بن ألاس البرسقى التركمانى .

الثانى عشر - (عمل سنياط كلا) شمالي طَرَسُوس . كانت داخل المملكة أستولى عليها ابن قرمان فى أيام المنصور بن الأشرف شعبان .
الثالث عشر - (عمل بلسلوص) غربى طَرَسُوس على ساحل البحر، بيد حسن ابن قوسى البرسقى التركمانى .

القسم الثالث

(من الأعمال الحربية البلاد المجاورة للفرات من شرقية من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة، وهى ثلاثة أعمال)

الأول - (عمل البيرة) بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الراء المهملة وألف فى الآخر . وهى قلعة فى البر الشرقى فى الشمال عن الفُرات، فى الشرق^(٢)

(١) فى المعجم بدون هاء وقال "بلفظ النجم من الكواكب" (٢) لعله وهاء فى الآخر، وهى غير البيرة التى ببلاد الأندلس فان تلك الهضبة فيها أصلية على وزن إخرطة وكبريتة فليتنبه .

عن قلعة الروم المتقدم ذكرها على نحو مرحلة والفُرات بينهما . وقد عُدّها في "تقويم البلدان" : من جُنْد قَنَسَرِينَ من أعمال الشام ، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في بعض الأزياج : طولها اثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهى قلعة ذات ارتفاع وحصينة لأترام . قال في "تقويم البلدان" : ولها سوق وعمل . قال ابن سعيد : وقلعتهما على صخرة . قال في "التعريف" : ولها منعة وعسكر .

الثانى - (عمل قلعة جَعْبَرِ) - بفتح الجيم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدة وراء مهملة فى الآخر . وهى قلعة من ديار بكر فى البر الشرقى الشمالى من الفُرات أيضا ، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها اثنتان وستون درجة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال القاضى جمال الدين ابن واصل : وكانت هذه القلعة تعرف قديما بالدَّوسِرِيَّة نسبة إلى دَوْسَر : عبدالنعمان ابن المنذر ، وهو الذى بناها أولا لما جعله النعمان على أفواه الشام ، ثم تملكها سابق الدين جعبر القشيرى فى أيام الملوك السَّاجُوقِيَّة فعرفت به ، ثم آتَرعها منه السلطان ملكشاه الساجوقى . قال صاحب حماة : وهى فى زماننا خراب ليس بها ديار . قلت : وذلك فى أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، ثم عمرت بعد ذلك فى آخر الدولة الناصرية أو بعدها بقليل ؛ وقد أشار إلى ذلك فى "التعريف" : حين تعرّض لذكرها فى آخر مضافات الشام قبل ذكر حَلَبَ بقوله : وهى مجددة البنيان ، مستجدّة الآن ، لأنها جُددت منذ سنوات ، بعد أن طال عليها الأمد ، وأُخِنى عليها الذى أُخِنى على بُد . وكان قد ذكر قبل ذلك فى الكلام على تقاسيم الشام أنها مضافة إلى دِمَشْق . ثم قال : وحققها أن تكون مع حَاب ، وقد صارت الآن من مضافات حَلَب .

الثالث - (عمل الرُّها) - بضم الراء المهملة وفتح الهاء وألف فى الآخر . وهى مدينة من ديار مُصَرِّفى البر الشرقى الشمالى عن الفُرات ، وموقعها فى الإقليم الرابع بالقرب

من قلعة الروم . قال في "الأطوال" : طولها آثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة . قال في "العزى" : وهى مدينة عظيمة رومية، فيها آثار عجيبة . قال في "الروض المعطار" : وهى مدينة ذات عيون كثيرة تجرى منها الأنهار، وبها البساتين والأشجار الكثيرة، وعليها سور من حجارة، ولها أربعة أبواب باب حرّان، والباب الكبير، وباب سبع، وباب الماء . قال : وليس فى بلاد الجزيرة أحسن منتهات منها ولا أكثر فواكه ، والفُرَاتُ منها فى ناحية الغرب على مسيرة يومين ، وفى ناحية الشمال على مسيرة يوم . قال فى "تقويم البلدان" : وكان بها كنيسة عظيمة ، وفيها أكثر من ثلثمائة دير للنصارى . قال : وهى اليوم خراب يعنى فى أثناء الدولة الناصرية ، ثم عمرت بعد ذلك . قلت : وهى اليوم عامرة أهلة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

القاعدة الثالثة

(من قواعد المملكة الشامية حمأة)

وقد ذكرها فى "مسالك الأبصار" بعد دِمَشْقَ ، وهو ألبق لقربها منها ، ولكنه قد ذكرها فى "التعريف" بعد حلب فتبعته على ذلك ؛ وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الحاء المهملة والميم وألف ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع بين حِصَصٍ وقِسْرَيْنَ . قال فى "تقويم البلدان" : وطولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ؛ وهى مدينة قديمة أزليّة . قال فى "تقويم البلدان" : ولها ذكر فى التوراة ، وهى على ضفة

العاصي مَكِينة البناء، ولها سُورٌ جليل، وبيوت ملوكها وشُرُفاتها مطلة على النهر العاصي، وبها القصور الملوكية، والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والزوايا والأسواق التي لا تَعْدَم نوعاً من الأنواع؛ وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة؛ وغالبُ مبانيها العلية، وآثار الخير والبرِّ الباقية فيها من فواضل نِعَم الدولة الأيوبية؛ وبها نواعيرٌ مرَّكبة على العاصي، تدور بجريان الماء، وترفع الماء إلى الدور السلطانية ودُور الأمراء والأكابر والبساتين؛ وفي بساتينها الغُرَّاسُ الفائق والثمار الغريبة؛ ولم يكن لها في القديم نَبَاهة ذِكر، وكان الصَّيْتُ لِحَصِّ دُونِها، ثم تنبه ذكرها في الدولة الأتابكية زنكى؛ فلما آلت إلى ملوك بنى أيوب مَصْرُوها بالأبنية العظيمة، والقصور الفائقة، والمساكن الفاحرة، وتأمير الأمراء، وتجنيد الأجناد فيها؛ وعَظَّموا أسواقها وزادوا في غِرَاسِها، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كلَّ من فاق في فنِّه إلى أن كملت محاسنها، وصارت معدودةً من أمهات البلاد وأحسن الممالك؛ وهى في غاية رَفَاهة العيش إلا أنها شديدة الحرِّ محبوبةُ الهواء، ويعرَّضُ لها في الخريف تغير تنسب به إلى الوَحَامَة، ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى في بقية الشام، وإنما يجلب إليها مما يجاورها؛ وحولها مروج فيحٌ ممتدةٌ يكثر فيها مصايد الطير والوحش؛ وليس بالممالك الشامية بعد دِمَشْقَ لها نظير، ولا يدانيها في لُطْف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد. قال في "الروض المِعْطار": وبينها وبين حِمَصَ أربعون ميلاً، ولم تزل بأيدي بقايا الملوك الأيوبية من جهة صاحب مصر، يقيم ملوكهم فيها ملكاً بعد ملك إلى أن كان بها منهم آخر الأيام الناصرية محمد بن قلاوون المتقدم ذكره، وأستقرَّ فيها بالأمير طغيتمر الحموى^(١): أحد مقدّمى الألوْف بالديار المصرية نائباً؛ وأستمرت بأيدي التَّوَاب يليها مقدّم ألف بعد مقدّم ألف إلى الآن.

(١) لعل الباء من زيادة النسخ أى كان بها منهم في تلك الأيام وأستقر فيها الأمير الخ.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "التعريف": وحدها من القبلة مدينة الرستن وماسمتها أخذا بين سَلَمِيَّة وقبة ملاعب، إلى حيث جَرَّ النهر والآثار القديمة؛ وحدها من الشرق البرُّ أخذاً على سَلَمِيَّة إلى ما آسفل عن قُبَّة ملاعب؛ وحدها من الشمال آخر حدِّ المعزة من العرانا،^(١) وحدها من الغرب مَصَافَات مَصَيَّاف وقلاع الدعوة؛ وليس بها ثواب قلاع البتة، ولها ثلاثة أعمال.

الأول - (عمل برّها) - وهو ظاهرها وما حولها كما تقدّم في دمشق وحلب.

الثاني - (عمل بَارِين) - بفتح الباء الموحدة وألف بعدها وكسر الراء المهملّة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر - وهي بلدة على مرحلة من حماة في الغرب عنها بِمَيْلَة يسيرة إلى الجنوب؛ وموقعها في الإقليم الرابع. قال في "تقويم البلدان":^(٢) والقياس أن طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة.

الثالث - (عمل المَعَرَّة) - بفتح الميم والعين المهملّة ثم راء مهملّة مشدّدة مفتوحة وهاء في الآخر - وهي مدينة من جُنْدِ حِمَص واقعة في الإقليم الرابع. قال في "كتاب الأطوال": طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة. وقال في "تقويم البلدان": القياس أن طولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وتعرف بمَعَرَّة النُّعْمَان. قال: البلاذريّ إضافة إلى النُّعْمَان بن بَشِير الأنصاريّ رضى

(١) كذا في الأصل بإهمال النقط وفي الضوء "من الغرب".

(٢) لم يتكلم على العرض كما دتّه ولعله سقط من قلم النسخ. ويستفاد من "التقويم" أن عرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة.

الله عنه . قال في "العزيزي" : وهي مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار
والخشب، وشرب أهلها من الآبار . قال في "الروض المعطار" : ولها سبعة
أبواب : باب حلب، والباب الكبير، وباب شيث، وباب الجنان، وباب حصص،
وباب كذا^(١) . قال : ويذكر أن قبر شيث بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب
إليه فيها، وداخلها قبر يوشع بن نون عليه السلام، وعلى ميل منها دير سمعان الذي به
قبر عمر بن عبدالعزيز . قال السمعاني : والنسبة إليها معرني . قال : وبالشام بلدة
أخرى تسمى معرة نسر بن النون والسين المهمله ، والنسبة إليها معرني . قال
صاحب حماة : والمشهور في الثانية أنها معرة مصرين بيم وصاد مهمله .

القاعدة الرابعة

(من قواعد المملكة الشامية أطراً بلس، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة ولام
مضمومتين وسين مهمله في الآخر . قال السمعاني : وقد تسقط الألف منها فرقا
بينها وبين أطراً بلس التي في الغرب، وأنكر ياقوت في "المشترك" : سقوطها وعاب
على المتنبي حذفها منها في بعض شعره . قال في "الروض المعطار" : ومعنى أطراً بلس
فيما قيل ثلاث مدن ، وقيل مدينة الناس . وهي مدينة من سواحل حصص واقعة
في الإقليم الرابع . قال في "كتاب الأطوال" : طولها تسع وخمسون درجة وأربعون
دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ، وكانت في الأصل من بناء الروم فلما فتحها
المسلمون في سنة ثمان وثمانين وستمائة في الأيام الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه

(١) هذا هو السادس وكفى عنه ولم يحله ولم يذكر السابع فليعلم .

الله ، نَحَرَّبُهَا وَعَمَّرُوا مَدِينَةَ عَلَى نَحْوِ مِيلٍ مِنْهَا وَسَمَّوْهَا بِاسْمِهَا ، وَهِيَ الْمَوْجُودَةُ الْآنَ ؛ وَلَمَّا بَنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْجَدِيدَةُ كَانَتْ وَخِيمَةً الْبَقْعَةَ ، ذَمِيمَةً السَّكَنِ . فَلَمَّا طَالَتْ مَدَّةَ سَكْنِهَا وَكَثُرَ بِهَا النَّاسُ وَالِدَوَابُّ وَصُرِّفَتِ الْمِيَاهُ الْأَسَنَةُ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَهَا وَعَمِلَتْ بَسَاتِينَ ، وَنُصِبَتْ بِهَا النُّصُوبُ وَالْغُرُوسُ ، خَفَّ ثِقَلُهَا وَقَلَّ وَجْهُهَا .

قَالَ فِي ”مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ“ : وَلَمَّا وَلَّى نِيَابَتَهَا أَسْتَدْمَرَ الْكَرْجِيُّ كَانَ لَا يَنْفِكُ عَنْ كَوْنِهِ وَنَحْمَا فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الْمُتَطَبِّبِ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فِيهَا مِنَ الْإِبِلِ وَسَائِرِ الدَّوَابِّ فَفَعَلَ نَخَفَ وَنَحْمَا . قَالَ : وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عِلَّةِ ذَلِكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَطِبَّاءِ فَلَمْ يَجِيبُوا فِيهِ بِشَيْءٍ .

قُلْتُ : لَا خَفَاءَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي الْإِبِلِ مَا أَشَارَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِ الْعَرَبِيِّينَ حِينَ آسَتَوْنَحْمَا الْمَدِينَةَ ”أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ وَيَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَصَحَّحُوا“ فَكَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَاصَّةِ الْإِبِلِ . وَلَعَلَّ التَّأْثِيرَ فِي ذَلِكَ لِلْإِبِلِ خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ الدَّوَابِّ . وَهِيَ الْآنَ مَدِينَةٌ مُمْتَدَّةٌ كَثِيرَةُ الزَّحَامِ ؛ وَبِهَا مَسَاجِدُ ، وَمَدَارِسُ ، وَزَوَايَا ، وَبِمَارِسْتَانٍ ، وَأَسْوَاقٌ جَلِيلَةٌ ، وَحَمَامَاتُ حَسَنَانٍ ؛ وَجَمِيعُ بَنَائِهَا بِالْحَجَرِ وَالْكَلسِ مَبْنِيٌّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَغُوطَتُهَا مُحِيطَةٌ بِهَا ، وَتَحِيطُ بِغُوطَتِهَا مَزْدَرَعَاتُهَا ؛ وَهِيَ بِدِيعَةُ الْمُشْتَرَفِ ؛ وَلَهَا نَهْرٌ يَحْكُمُ عَلَى دِيَارِهَا وَطَبَاقِهَا يَنْتَحِرِقُ الْمَاءُ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ أَعَالَى بَيْوتِهَا الَّتِي لَا يُرْقَى إِلَيْهَا إِلَّا بِالدرَجِ الْعَلِيِّ ؛ وَحَوْلَهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ، صَحِيحَةُ الْهَوَاءِ ، خَفِيفَةُ الْمَاءِ ، ذَاتُ أَشْجَارٍ وَكَرُومٍ وَمَرْجٍ وَمَوَاشٍ ، وَمِينَاهَا مِينََا جَلِيلَةٌ ، تَهْوِي إِلَيْهَا وَفُودُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَتَرْسُو بِهَا مَرَاكِبُهُمْ ، وَتُبَاعُ بِهَا بِضَائِعُهُمْ . وَهِيَ بَلَدَةٌ مَتَّجِرٌ وَزَرْعٌ ، كَثِيرَةُ الْفَائِدَةِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى عَجَائِبِ الشَّامِ أَنَّ دَاخِلَ الْبَحْرِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا عَلَى نَحْوِ رَمِيَّةٍ حَجَرٌ عَنِ الْبَرِّ عَيْنًا فَوَارَةٌ عَذْبَةُ الْمَاءِ تَنْفُثُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ قَدْرَ ذِرَاعٍ أَوْ أَكْثَرَ ، يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ عِنْدَ سَكُونِ الرِّيحِ .

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "التعريف" : وحدّها من القبلة جبل لُبْنَان ممتدّا على ما يليه من مَرَج الأسد، حيث يمتدّ النهر العاصي، وحدّها من الشّمال قِلَاع الدَّعْوَة، وحدّها من الغرب البحر الرومي . وأعمالها على قسمين :

القسم الأول

(الأعمال الجبّار التي يكتبّ نوابها عن الأبواب السلطانية، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(مضافاتها نفسها ، وهي ست ثيابات)

الأوّل - (عمل حصن الأكراد) - بإضافة حصن واحد الحصون إلى الأكراد الطائفة المشهورة ، وهي قلعة من جُنْدِ حِمَص ، موقعها في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال في "المشارك" : وهي قلعة حصينة مقابل حصن من غربيها، على الجبل المتصل بجبل لُبْنَان نحو مرحلة من حصن . قال في "التعريف" : وهي حصن جليل وقلعة شَمَاء، لا تبعد منها السماء . قال : وكانت محل النياية ومقرّ العسكر قبل فتح طَرَّا بُلُس .

الثاني - (عمل حصن عكّار) - بإضافة حصن إلى عكّار - بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وبعدها ألف ثم راء مهملة - وهي قلعة على مرحلة من طَرَّا بُلُس في جهة الشرق بوسط جبل لُبْنَان في وادٍ والجبل محيط بها، وشرب أهلها من عين تجري إليها من ذيل لُبْنَان المذكور، ولها رَبَض ليس بالكبير .

الثالث - (عمل بلاطُس) - بفتح الباء الموحدة وبعدها لام ألف ثم طاء مهملة ونون مضمومتان وسين مهملة في الآخر - وهى قلعة بالقرب من مدينة مصياف في جهة الغرب منها على نصف مرحلة ، وفي جهة الشمال من طرابُلُس على نحو مرحلتين .

الرابع - (عمل صَمِيُون) - بفتح الصاد المهملة وسكون الهاء وضم الياء المثناة تحت^(١) وسكون الواو ثم نون في الآخر - وهى قلعة من جُند قَنَسَرِينَ في الإقليم الرابع . قال في "الزيج" : طولها ستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى من القلاع المشمورة ، ذات حصانة ومنعة ، مبنية على صخر أصم ، في ذيل جبل يظهر من اللاذقية وبينهما نحو مرحلة ، وهى في الشرق عن اللاذقية بميلة إلى الجنوب ، وبها المياه الكثيرة حاصلية من الأمطار .

الخامس - (عمل اللاذقية) - بألف ولام لازمتين وذال معجمة وقاف مكسورتين وياء مثناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في آخرها . وهى مدينة من سواحل الشام واقعة في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها ستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وعدّها في "الغريزى" من أعمال حِمص ثم قال : وهى مدينة جليلة بل هى أجَلْ مدينة بالساحل منعة وعمارة ، ولها مينا حسنة ، ومنها إلى أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا ، وقد عدّها في "التعريف" : في جملة ولايات طرابُلُس على ما كانت عليه إذ ذاك ، ثم استقرت بعد ذلك نيابة ، وهى الآن أعظم نيابات طرابُلُس .

السادس - (عمل المَرْقَب) - بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وباء موحدة في الآخر . وهى قلعة بالقرب من ساحل البحر الرومى ، وموقعها في الإقليم

(١) ضبطها ياقوت والمجد بكسر الصاد وفتح الياء المثناة تحت .

الرابع . قال في "الزيج" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ونحس وأربعون دقيقة ، وهي قلعة حصينة حسنة البناء مشرفة على البحر وعلى نحو فرسخ منها مدينة (يَلْنِيَّاس) بكسر الباء الموحدة واللام وسكون النون وياء مثناة تحت وألف وسين مهملة - وفي الغالب تضاف إليها فيقال المَرْقَبُ وَيَلْنِيَّاسُ ، وهي مدينة حسنة على الساحل ، ذات مياه وأعين تجرى وفواكه كثيرة . قال في "العزري" : وبينها وبين أَنْطَرُطُوسَ اثْنَا عَشَرَ ميلاً ، ولم يتعرض لذكر المَرْقَبِ في "التعريف" : ولا في "مسالك الأبصار" .

الضرب الثاني

(قِلَاعُ الدَّعْوَةِ ، بفتح الدال)

سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشيعة المتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهاديّة ، وهؤلاء هم المعروفون في ديوان الإنشاء بالقُصَّاد ، وبين العامة بالفداوية ، وسيأتي الكلام على معتقدهم في الكلام على القُصَّاد ، ثم في الكلام على تخليف أهل البدع في باب الإيمان إن شاء الله تعالى - وهي سبع قلاع ، عظيمة الشأن ، رفيعة المقدار ، لا تُسمّى منعة ولا تُرام حصانةً ، وكانت أولاً كلها مضافة إلى طَرَابُلُسَ ثم نقلت مضافاً منها إلى دِمَشْقَ على ما تقدّم ذكره ، والبقية على ما كانت عليه من إضافتها إلى طَرَابُلُسَ . وهي ستة أعمال .

الأول - (عمل الرضاة) - بألف ولام لازمتين في أولها وراء مهملة مضمومة وصاد مفتوحة بعدها ألف ثم فاء وهاء - وهي قلعة بالقرب من مِصْيَافَ ، وبالشّام

بلدة أخرى يقال لها الرُصَافَةُ أيضا وتعرف بِرُصَافَةِ هِشَام ، على أَقَلِّ من مسافة يوم من الجانب الغربى من القُرَاتِ .

الثانى - عمل (الخَوَائِي) - بفتح الخاء المعجمة والواو ثم ألف وباء موحدة مكسورة وياء فى الآخر - وهى قلعة فى جهة الشمال من طَرَأْبُلَسَ على نحو مرحلتين ، وقد تقدّم فى الكلام على خواصّ الشام أن بسورها مكانا لا ينظره ملمسوع أو رسوله إلا براً ذلك الملمسوع ولم يضره السم .

الثالث - (عمل القَدْمُوسِ) - بفتح القاف والdal المهملة وضم الميم وسكون الواو وسين . مهملة فى الآخر - وهى قلعة بالقرب من الخَوَائِي المقدمة الذكر ، وقد تقدّم فى الكلام على خواصّ الشام أن بها حماماً يظهر منه أنواع من الحيات وتمشى بين الناس ولا تضر أحدا البتة .

الرابع - (عمل الكَهْفِ) - بفتح الكاف وسكون الهاء وفاء فى الآخر . وهى قلعة بالقرب من القَدْمُوسِ على نحو ساعة على نَسْرَ جبل مرتفع عال يرى على بعد .

الخامس - (عمل المَيْنَةِ) - بفتح الميم وسكون الياء المشناة تحت وفتح الزون والقاف وهاء فى الآخر - وهى قلعة بالقرب من الكَهْفِ على نحو ساعة على جبل مرتفع أيضا .

السادس - (عمل العَلِيْقَةِ) - بضم العين المهملة وفتح اللام المشددة وسكون الياء المشناة تحت وفتح القاف وهاء فى الآخر - وهى قلعة على الجبل المذكور على نحو ساعة من المَيْنَةِ .

القسم الثانى

(من أعمال طَرَأْبُلَسَ الأعمال الصغار؛ وهى ستة أعمال)

قال فى "التعريف" : سوى ما نقل فى تلك القلاع مما له ولاية .

الأول - (عمل أَنْطَرُطُوسَ) . قال في "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء المهملتين وضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . قال في "كتاب الأطوال" : وموضعها حيث الطول ستون درجة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى بلدة بالساحل . قال في "تقويم البلدان" : وهى تَقَرُّ لأهل حص فتحها المسلمون وخربوا أسوارها ، وهى الآن أهلة . قال : وكان بها مُصَحَّفُ عثمان بن عفَّان رضى الله عنه .

الثانى - عمل جُبَّةِ المُنَيْطَرَةِ بإضافة جُبَّةٍ (بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وناء التأنيث) إلى المُنَيْطَرَةِ (بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المثناة تحت وفتح الطاء المعجمة والراء المهملة وهاء في الآخر) .

الثالث - (عمل الظَّنَّينَ) - بألف ولام لازمتين وطاء معجمة مفتوحة مشددة ونون مشددة مكسورة وياء مثناة تحت مكسورة بعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون - وهى كُورَة بين مصياف وفَاميَّة ، وليس بها مقتر ولاية .

الرابع - (عمل بُشْرِيَّة) - بضم الباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة المشددة وسكون الياء المثناة تحت وهاء في الآخر - هكذا مكتوب في "التعريف" : والجارى على الألسنة بشرى بآبدال الهاء ياء مثناة تحت .

الخامس - (عمل جَبَلَة) - بفتح الجيم والباء الموحدة واللام ثم هاء في الآخر - وهى بلدة صغيرة بساحل البحر الرومى من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "العزيزى" : ولها أعمال واسعة ،

(١) أوردتها في "معجم البلدان" ونص على إهمال الطاء وأنها بصيغة التصغير .

وبينها وبين اللاذقية اثنا عشر ميلا ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا ،
وبها مقام إبراهيم بن أدهم رحمه الله .

السادس - (عجل آفة) - بفتح الهمزة المقصورة والنون والفاء وبهاء فى الآخر -
وهى بلدة على البحر الرومى تردها المراكب بقلة .

القاعدة الخامسة

(من قواعد الملكة الشامية صفد، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فى حاضرته)

وهى بفتح الصاد المهملة والفاء وتاء مثناة فوق فى آخرها . هكذا ضبطه
فى "تقويم البلدان" . ثم قال : والمشهور على السنة الداس أن مكان التاء دالا
مهملة ؛ وهى مدينة من جند الأردن ، واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .
قال فى "الزريح" . طولها سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها
أثذان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى بلدة متوسطة
بين الكبر والصغر ، وذكر العثمانى فى "تاريخ صفد" : أنه كان مكانها أولا قرية
وأصل الصفد فى لغتهم العطية ، سميت بذلك لأن الفرنج أعطتها للطائفة الدموية منهم
لا يشاركون فيها أحد . قال : وقد تكون سميت بذلك أخذنا من الصفد ، وهو الغل
لأن صاحب الغل يمتنع من الحركة ويلزم موضعه ، وكذلك هذا البلد لأنها فى جبل
عال لا يتمكن ساكنه من الحركة فى كل وقت ، إن ركب تعب وإن مشى على قدمه
أخطأ لجمه بدمه لصعود الربوة وهبوط الوهدة ، فيستقر فى مكانها ويقنع بالنظر
وربضها منتشر العماره على ثلاثة أجبل ، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادى لقلة

الماء بها وسوء بناء حماماتها، وبساتينها تحتها في الوادى إلى جهة بحيرة طَبْرِيَّةَ، وكل ما يوجد في دِمَشْقَ يوجد فيها : إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دِمَشْقَ، ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر الأمراء المقدمين، ولها قلعة حصينة ذات بساتين تُشْرِفُ على بحيرة طَبْرِيَّةَ، يُحْفُّ بها جبال وأودية. قال ابن الواسطى : بنتها الفريج سنة خمس وتسعين وأربعمائة . ولما فتحها الظاهر بيبرس رحمه الله عظم شأنها ورفع مقدارها . قال في "مسالك الأبصار" : وهى جديرة بالتعظيم فقل أن يوجد لها شبيه ، ولا يعلم لها نظير . وهذه القاعة نائب مستقل من قِبَلِ السلطان يوثى من الأبواب الشريفة بمرسوم شريف ، وعادته أن يكون من أمراء الطبلخاناه، ولا حكم لنائب السلطنة بالبلد عليه بل هو مستقل بنفسه كما فى نائب قلعتى دِمَشْقَ وحلب .

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها)

قال فى " التعريف " : وحدّتها من القبلة الغورُ حيث جَسَرَ الصَّنْبَرَةِ من وراء طَبْرِيَّةَ، وحدّتها من المشرق المَلّاحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حوَلَةِ بانياس، وحدّتها من الشمال نهر ليطا، وحدّتها من الغرب البحر . وليس فى أعمالها نيابة أصلا . وقد ذكر لها فى "مسالك الأبصار" : أحد عشر عملا .

الأوّل - (عمل برّها) - كما فى دِمَشْقَ وحلبَ وغيرهما من القواعد المتقدمة .
 الثانى - (عمل النَّاصِرَةِ) - بالألف واللام اللازمتين ونون مفتوحة بعدها ألف ثم صاد مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر - وهى بليدة صغيرة قال فى "الروض المعطار" : على ثلاثة عشر ميلا من طَبْرِيَّةَ . قال : ويقال : إن المسيح عليه السلام ولد بها ، وأهل القُدُسِ ينكرون ذلك ويذكرون أنها ولدته

بالْقُدْس ، والمعروف أن أمه حين عادت به من مصر إلى الشام وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة نزلت به القرية المذكورة ، وهى اليوم منبع الطائفة النصيرية . والذى ذكره العثماني في "تاريخ صَفَد" : أن أهل هذه البلاد منسوبون إلى الدين .

الثالث - (عمل طَبْرِية) - بفتح الطاء المَهْمَلَة والباء الموحدة وكسر الراء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وتشديدها ودااء في الآخر - وهى مدينة من جُند الأَرْدن بناها طبريون أحد ملوك اليونان البطالسة فعُرِفَتْ به ثم عربت طبرية ، والنسبة إليها طبراني للفرق بينهما وبين طَبْرِسَآن من نواحي بلاد الشرق حيث ينسب إليها طَبْرِى ، وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعَرْضُها اثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال فى "رسم المعمور" : طولها سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعَرْضُها اثنتان وثلاثون درجة ، وتبعه ابن سعيد على ذلك . وقال فى "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعَرْضُها اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهى فى العَوْرِ فى سفح جبل على بحيرتها المتقدمة الذكر فى بُحَيْرَات الشام . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عملها قَدْس . قال : وكان معها قديما السَّوَادُ وَيَسَّانُ ثم خرجا عنها . قال العثماني فى "تاريخ صَفَد" : ومن ولايتها البَطِيحَة وكَفَرُ عاقب .

الرابع - (عمل تَبْنِين وهُونين) - بعطف الثانى على الأول .

فأما تَبْنِينُ ، فبناء مشاة فوق مكسورة وباء موحدة ساكنة ونون مكسورة وياء مشاة تحت ساكنة ونون فى الآخر .

وأما هُونَيْنٌ ، فهما مضمومة وأوسا كنة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت سا كنة ونون في الآخر . قال في ”مسالك الأبصار“ : وهما حصنان بُنيَا بعد الخمسمائة بين صُورَ وبانياسَ بجبل عاملةً المتقدم ذكره في جبال الشام المشهورة ، وجعل العثمانيّ في ”تاريخ صَفَدَ“ قامة هُونَيْنَ من عمل الشَّقِيف ، وأهل هذا العمل شِيعَةٌ رافضة .

الخامس - (عمل عَثَلِيثَ) - بفتح العين المهملة وإسكان الثاء المثناة وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وطاء مثناة في الآخر - وهي كورة بين قاقُون وعَكَّا ، فيها قَرْيٌ متسعة وليس بها مقرّ ولاية معلوم . قال العثمانيّ في ”تاريخ صَفَدَ“ : وفي آخر هذا العمل بلاد قاقُون وهو آخر الأعمال الصفديّة .

السادس - (عمل عَكَّا) - بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وألف في الآخر - وهي مدينة من سواحل الشام . قال العثمانيّ في ”تاريخ صَفَدَ“ : بناها عبد الملك بن مَرْوَان ، ثم غلبت عليها الفرنج ، ثم آتتْهَا منهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم غلبوا عليها ثانياً ، ثم أَسْتَرْجَعَتْ . وهي واقعة في الإقليم الثالث . قال في ”الأطوال“ : طولها ثمان وخمسون درجة وخمسون وعشرون دقيقة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال في ”تقويم البلدان“ : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة ، وقيل غير ذلك ؛ وقد خربت بعد أن أَسْتَرْجَعَهَا المسلمون من الفرنج في سنة تسعين وستمائة في الدولة الأشرفية ”خليل بن قلاوون“ ؛ وبها مسجد ينسب لصالح عليه السلام ، وبينها وبين طَبْرِية أربعة وعشرون ميلاً ؛ وكانت هي قاعدة هذا الساحل قبل صَفَدَ . فلما خربت أُقيمت صَفَدُ مقامها وصارت هي ولاية .

السابع - (عمل صُور) - بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر -
وهي مدينة قديمة بساحل دِمَشْق، واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" :
طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون
درجة وثلثان وثلاثون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها
سبع وخمسون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمس دقائق . وبنائها
من أعظم أبنية الدنيا ، وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر ، فلما
فتحها المسلمون في سنة تسعين وستمائة مع عكَّا خربوها خوفا أن يتحصن بها العدو ،
وهي خراب إلى الآن . ويقال إنها أقدم بلد بالساحل ، وإن عامة حكماء اليونان
منها . قال الشريف الإدريسي : وكان بها مرسى ، يدخل إليه من تحت قطرة عليها
سلسلة تمنع المراكب من الدخول . قال في "التعريف" : وبصور كنيسة يقصدها
ملوك من البحر عند تملكهم فيملكون ملوكهم بها ، إذ لا يصح تملكهم إلا منها .
قال : وشرطهم أن يدخلوها عنوة ، ولذلك لا يزال عليها الرقبة ، ومع ذلك يأتونها
مباغطة فيقضون أربهم منها ثم ينصرفون ، وسكان هذا العمل رافضة لا يشهدون
جمعة ولا جماعة .

الثامن - (عمل الشَّاعُورِ) - بألف ولام لازمتين وشين معجمة مشددة مفتوحة
بعدها ألف ثم غين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وراء مهملة في الآخر - وهي
كُورَة بين عكَّا وصفد والناصرة ، بها قرى متسعة ، وليس بها مقر ولاية معروف ،
وعدها العثماني في "تاريخ صفد" شاعورين .

أحدهما - شاعور البعة . وهو جبل به قري عامرة . قال : وبالبيعة ديره^(٢)
مصطبة إذا بات عليها من به جنون شفي بإذن الله .

(١) في الضوء "وجعلها" وهي أوضح .

(٢) كذا في الأصل باهمال حروفها - وفي الضوء "البيعة" ولم نجد لها بعد البحث .

والناني - شاغور غرابية، وفيه عدة قرى، وبه مقام أولاد يعقوب عليه السلام، وهو من المزارات المشهورة .

التاسع - (عمل الإقليم) - بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام وسكون الياء المشاة تحت وميم في الآخر - وهي كورة بين دِمَشْقَ والشَّغَرِ والخُرْبَةِ، بها قرى متسعة وليس بها مقر ولاية .

العاشر - (عمل الشَّقِيفِ) - بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون الياء المشاة تحت ثم فاء - ويُعرف بِشَقِيفِ أَرْنُونَ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ثم نون في الآخر) . قال في "المشترك" : وهو اسم رجل أضيف الشَّقِيفُ إليه ، ويُعرف أيضا بِالشَّقِيفِ الكبير . وهو حصن بين دِمَشْقَ والساحل، بعضه مغارة منحوتة في الصخر، وبعضه له سور . وهو في غاية الحصانة وعلى القرب منه شَقِيفِ آخر يُعرف بِشَقِيفِ تَبْرُونِ (بكسر التاء المشاة فوق وسكون الياء المشاة تحت وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون في الآخر) وهي قلعة حصينة من جُندِ الأَرْدَنِّ على مَسِيرَةِ يومٍ من صَفَدَ في سَمْتِ الشمال . قال في "مسالك الأبصار" : وليست من بلاد صَفَدَ، وأهل هذا العمل رافضة .

الحادي عشر - (عمل جِينِينَ) - يجيم مكسورة وياء مشاة تحت ساكنة ونون مكسورة ومثناة تحت ثانية ساكنة ونون في الآخر - وهي بلدة قديمة متسعة، وهي مُرَكَّبَةٌ على كَتِفِ وادٍ لطيف به نهر ماء يجري؛ وهي في الشمال عن قَاقُوقَ على نحو مرحلة، في رأس مَرَجِ بنى عامر، وبها مقام دِحْيَةَ الكلبي : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ومن أعمالها (الْبَلْبُونُ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح اللام المشددة وضم الجيم المشددة . وهي قرية قديمة في جهة الغرب عن بَيْسَانَ، على نصف مرحلة منها .

قال في "كتاب الأطوال" : موضعها حيث الطول سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة، وبالبحر مقام الخليل عليه السلام، وبها ينزل الملوك على مصطبة هناك معدة لذلك . قال في "مسالك الأبصار" : ومن عملها (قدس) . وكان معها قديما (السَّوَادُ وَيَسَارُ) وخرجا عنها ، ثم قال : ومما يذكر فيها (حيفا) . وهي خراب على الساحل ، و (قلعة كوكب) . وهي التي يقول فيها العباد الأصفهاني : راسية راسخة ، شماء شامخة . وقلعة (الطور) وهي مفردة على جبل الطور، بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غلبه عليها الفرنج فهدمها .

قلت : وأقتصر في "التعريف" : على ولاية برصدد وولاية الشقيف ، وولاية جينين ، وولاية عكا ، وولاية الناصرة ، وولاية صور ، من غير زيادة على ذلك .

القاعدة السادسة

(من قواعد الملكة الشامية الكرك، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية، والألف واللام في أولها غير لازمتين . وتعرف برك الشوبك لمقاربتها لها . قال في "تقويم البلدان" : وهي من البلقاء وهما ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : وطولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخميس دقائق . وهي مدينة محدثة البناء كانت ديرا يتديره رهبان ، ثم كثروا فكبروا بناءه وأوى إليهم من يجاورهم من النصارى ، فقامت

لهم به أسواق ودرت لهم فيه معاش، وأوت إليه الفرنج فأداروا أسواره فصارت مدينة عظيمة، ثم بنوا به قلعة حصينة من أجل المعامل وأحصنها، وبقى الفرنج مستولين عليه حتى فتحه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" رحمه الله على يد أخيه العادل أبي بكر.

قال في "التعريف" : وكانوا قد عملوا فيه مراكب ونقلوها إلى بحر القلزم لقصد الحجاز الشريف لأمر سؤلها لهم أنفسهم ، فأوقع الله تعالى بهم العزائم الصلاحية، والهزم العادلية، فأخذوا، وأمر بهم السلطان صلاح الدين فحملوا إلى منى ونحروا بها على جمر العقبة حيث تُنحر البدن بها، واستمرت بأيدي المسلمين من يومئذ وأتخذها ملوك الإسلام حرزا، ولأموالهم كنزا، ولم يزل الملوك يستخلفون بها أولادهم ويُعدونها لمخاوفهم، وهو بلد خصب، وبواديه حمام وبساتين كثيرة وفواكه مفضلة . قال البلاذري في "فتوح البلدان" : وكانت مدينة هذه الكورة في القديم الغرندل .

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "التعريف" : وحدها من القبلة عقبة الصّوّان، وحدها من الشرق بلاد البلقاء، وحدها من الشمال بحيرة سدوم المتقدم ذكرها، وحدها من الغرب تيه بنى إسرائيل . ولها أربعة أعمال .

الأول - (عمل برّها) المختص ببلادها كما في غيرها من القواعد المتقدمة .
 الثانى - (عمل الشّوبك) - بألف ولام لازمتين وفتح الشين المعجمة المشددة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وكاف فى الآخر . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من جبل الشّرة، وموقعها فى الإقليم الثالث . قال ابن سعيد : طولها ست وخمسون

درجة، وعَرْضُها إحدى وثلاثون درجة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ثمانٌ وخمسون درجة ، وعَرْضُها إحدى وثلاثون درجة . وهى بلدة صغيرة أكثر دخولا في البر من الكرك، ذاتُ عيون وجداول تجرى ، وبساتين وأشجار ، وفواكه مختلفة . قال في "العزيزى" : ولها قلعة مبنية بالحجر الأبيض على تلٍّ مرتفع أبيض مطلٌّ على الغور من شرقيه . قال في "تقويم البلدان" : وينبع من تحت قلعتها عينان : إحداهما عن يمينها والأخرى عن يسارها كالعينين للوجه يجران للبلد ، ومنهما شرب أهلها وبساتينها . قال : وكانت بأيدى الفرنج مع الكرك وفتحت بفتحها ، وأقطعها السلطان صلاح الدين مع الكرك لأخيه العادل فأعطاهما لابنه المعظم عيسى ، فأعنى بأمرهما وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تضاهى دمشق في بساتينها وتدفع أنهارها وتزيد بطيب مائها .

قلت : وذكر في "مسالك الأبصار" : لها عملين آخرين .

الثالث - (عمل زغر) - بضم الزاى وفتح الغين المعجمتين وفي آخرها راء مهملة - وهى مدينة قديمة متصلة بالبادية سميت زُغرَ بنت لوط عليه السلام . قال في "تقويم البلدان" : وهى حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق، والعرض ثلاثون درجة وكسر .

الرابع - (عمل مَعان) بضم الميم وفتح العين المهملة وألف ثم نون . قال ابن حوقل : وهى مدينة صغيرة كان يسكنها بنو أمية ومواليهم . قال في "مسالك الأبصار" : وقد خربت هى وعملها ولم يبق بها أحد ، وتعرف بمَعان بن لوط عليه السلام . قال في "كتاب الأطوال" : وهى حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وبينها وبين الشوبك مرحلة .

(١) ضبطها ياقوت بالفتح ثم قال "والحدثون يروونه بالضم" .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(من الفصل الثاني، من الباب الثالث، من المقالة الثانية، فيمن ملك البلاد الشامية وملوكها على قسمين)

القسم الأول

(ملوكها قبل الإسلام)

ولم يزل مجموعا قبل الإسلام لملك واحد : إما بمفرده وإما مع غيره .
وملوكه في الجاهلية على أربع طبقات ^(١) .

الطبقة الأولى

(ملوكها من الكنعانيين)

وهم بنو كنعان بن مازيع بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل هم من ولد سام ابن نوح . وكان كنعان قد نزل الشام بجهة فلسطين عند تبليد الألسنة بعد الطوفان ، وتوارثها بنوه بعد ذلك ، وكان كل من ملك منهم يلقب بجالوت إلى أن انتهت الملك إلى رجل منهم اسمه كلياذا ، وهو جالوت الذي قتله داود عليه السلام ، وبقتله تفرق بنو كنعان وبأد ملكتهم وزال . وكان في خلال ذلك بتياء من أطراف الشام ملوك من العمالقة ، وهم بنو عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، آنتقلوا إليه من الحجاز ، وهم الذين قاتلهم موسى عليه السلام ، وكان آخر من ملك منهم الشام والحجاز الأرقم بن الأرقم الذي قتله بنو إسرائيل حين وجههم موسى عليه السلام في آخر عمره إلى الحجاز على ما سيأتي ذكره في الكلام على ملوك المدينة إن شاء الله تعالى .

(١) المعدود خمس .

(٢) في القاموس "لاوذ بن إرم بن سام" .

الطبقة الثانية

(ملوكها من بنى إسرائيل)

وأولهم (طالوت) الذي ذكره الله تعالى في القرآن بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(١) واسمه شاول بن قيس، ولم يكن لهم قبل ذلك ملك بل حكام وقضاة يحكمون؛ ويبقى حتى قتل في قتال الفلسطينيين .

وملك بعده (داود عليه السلام) وكانت دار ملكه بالقدس؛ وفتح فتوحات كثيرة من أرض فلسطين وعمان ومارب وحلب ونصيبين وغير ذلك، فأقام في الملك أربعين سنة .

وتوفي ذلك بعده ابنه (سليمان عليه السلام) وعمره اثنتا عشرة سنة، وعمر بيت المقدس وفرغ منه في سبع سنين، وتوفي لأربعين سنة من ملكه .

وملك بعده ابنه (رحبعم) على سبطين من بنى إسرائيل خاصة، وخرج عنه عشرة أسباط فلما كانوا عليهم غيره، وبقي في الملك سبع عشرة سنة .

[وملك بعده ابنه (أبيا) وهلك لثلاث سنين]^(٢) .

وملك بعده ابنه (أسا) إحدى وأربعين سنة وتوفي .

فلما ملك بعده ابنه (يوشافاط) خمساً وعشرين سنة وتوفي .

فلما ملك بعده ابنه (يهورام) ثمان سنين وتوفي .

فلما ملك بعده ابنه (أخزيا هو) ستين سنة، وتوفي فبقي الملك شاغراً فحكمت فيه امرأة ساحرة اسمها غثليا فقامت في الملك سبع سنين^(٣) .

(١) كذا في حاشية الجبل أيضاً في "مروج الذهب" "ساود بن بشر" وهو تصحيف .

(٢) الزيادة عن ابن خلدون في العبر (ج ٢ ص ١٠١) .

(٣) أفاد في العبر أنها أم أخزيا هو .

- ثم ملك بعدها (يُوَاش) فأقام في الملك أربعين سنة ومات .
- فملك بعده أبنه (أَمَصِيَاهُ) تسعا وعشرين سنة وتوفى .
- فملك بعده (عُزِّيَاهُ) اثنتين وخمسين سنة وتوفى .
- فملك بعده أبنه (يُوشَم) ^(١) ست عشرة سنة ؛ ويقال إن يونس عليه السلام كان في زمنه .
- ثم ملك بعده أبنه (أَحَاز) ست عشرة سنة أيضا ، وكانت الحرب بينه وبين ملك دِمَشق ؛ وفي زمنه كان شُعَيْبٌ عليه السلام ، وتوفى .
- فملك بعده أبنه (هُوَحَرِيَّا) وأنقاد له بقية الأسباط فملك جميعهم ، وأقام في الملك تسعا وعشرين سنة ثم توفى .
- فملك بعده أبنه (مَنْشَا) خمسا وخمسين سنة ثم توفى .
- فملك بعده أبنه (أَمُون) ستين [وقيل ثلثي عشرة] سنة وتوفى ^(٢) .
- فملك بعده أبنه (يُوشِيَا) إحدى وثلاثين سنة ، وجدّد عمارة بيت المقدس ، ثم توفى .
- فملك بعده أبنه (يهوياحور) ثلاثة أشهر ، وغزاه فرعون مصر فأخذه أسيرا .
- وملك بعده أخوه (يهوياقيم) إحدى عشرة سنة ودخل تحت طاعة بُحْتَنَصَّر ،
- ثم استخلف بُحْتَنَصَّر مكانه أبنه (يُحِيُو) بن يهوياقيم فأقام مائة يوم .
- ثم استخلف مكانه عمه (صَدَقِيَا) إحدى عشرة سنة ، فأقام على طاعة بُحْتَنَصَّر تسع سنين ، ثم عضى عليه فجهر إليه جيشا ففتح المقدس بالسيف وحرّقه وهدم بيت المقدس الذى بناه سليمان عليه السلام وأخذ صدقيا المذكور أسيرا ، وهو آخر من ملك منهم . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ الآية .

(١) في العبر "يُوَاش" . (٢) الزيادة عن ابن خلدون في "العبر" .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من الفُرس)

قد تقدّم في الكلام على ملوك مصر أن بُحِتَ نَصْرَ كان نائبا لبهراسف ملك الفُرس إلى حين غلبته على الشام فأستقرّ الشام في مملكة الفُرس مع مصر من لدن بهراسف المذكور إلى غلبة الإسكندر على دارا ملك الفُرس على ما تقدّم في الكلام على ملوك مصر، وفي خلال ذلك عُمر بيت المقدس بعد أن بقى سبعين سنة خرابا من تحريب بُحِتَ نَصْر . وأختلف فيمن عمّره، فقيل أردشير، وقيل آبنه دارا، واليهود تسمي الذي عمّره من الفُرس كيرش ويقال كورش .

الطبقة الرابعة

(ملوكها من اليونان)

وأول من ملك الشام منهم الإسكندر بن فيلبس حين ظهر على ملوك الفُرس مضافا إلى مصر، وبقى على ذلك حتى مات، فملك بعض الشام مع العراق انطاخس، وملك بعضه مع مصر البطالسة من ملوك اليونان من ولد بطليموس المنطبق إلى حين أنقراضهم بقتل أغشطش ملك الروم قلوبطرا آخر ملوكهم بمصر على ما تقدّم ذكره في الكلام على ملوك الديار المصرية .

الطبقة الخامسة

(ملوكها من الروم)

وأول من ملكها منهم أغشطش المقدم ذكره حين غلب على قلوبطرا آخر ملوكهم، وبقى بأيدي الروم إلى حين الفتح الإسلامي، يتداولونه مع مصر ملكا بعد ملك على ما تقدّم في الكلام على ملوك الديار المصرية .

القسم الثاني

(من ملوك الشام ملوكه في الإسلام؛ وهم عليّ ضربين)

الضرب الأول

(عُمّال الصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم من نواب الخلفاء
إلى حين استيلاء الملوك عليه)

وأول من وليه في الإسلام (أبو عبيدة بن الجراح) رضى الله عنه ، عند فتحه في خلافة
أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم صُرف عنه ووليه (معاوية بن أبي
سفيان) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، فبقى إلى أن سلم الحسنُ إليه الأمرَ
ونزل له عن الخلافة في سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، وتوالت عليه خلفاء بني أمية ،
وأختاروه دارا لخلافتهم من لدن معاوية وإلى أنقراض دولتهم بقتل (مرّوان بن محمد)
آخر خلفائهم على ما تقدّم ذكره في الكلام على من ولى الخلافة .

ثم كانت دولة بنى العباس فولّوها في خلافة السفّاح عمّه (عبد الله بن عليّ بن
عبد الله بن عباس) في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فبقى أيام السفّاح وبعض أيام
المنصور بعده ، ثم صرفه المنصور بولاية (أبي مسلم الخراساني) الشام ومصر في سنة
سبع وثلاثين ومائة ، ثم قتله المنصور بعد ذلك في السنة المذكورة . وتوالى عليه بعد
ذلك عُمّال خلفاء بنى العباس إلى أن وليها (عبد الصمد) بن عليّ ، ثم عزله الرشيد
ووثّى مكانه (إبراهيم بن صالح بن عليّ) ثم توالى عليه العُمّال إلى أن غلب عليه
(أحمد بن طولون) مع مصر على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(مَنْ وَلِيَهَا مُلْكًا)

قد تقدّم أن القواعد العظام بالشام ست قواعد : وهى دِمَشْقُ ، وَحَلَبُ ، وَحَمَاةُ ، وَأَطْرَابُلُسُ ، وَصَفَدُ ، وَالكَرْكُ . وكل قاعدة من القواعد الست تشتمل على مملكة .

فأما (دِمَشْقُ) فأقول ملوكها (أحمد بن طُولُون) صاحب مصر بعد موت مُقْطَعْمَا أماجور فى سنة أربع وستين ومائتين ؛ وذلك أول اجتماع مصر والشام لملك واحد فى الإسلام ؛ ثم ملكها بعده مع مصر ابنه (نُحَارَوِيَّة) ؛ ثم (هارون بن نَحَارَوِيَّة) ، وكان طنج بن جف نائباً عنهما بها ، وفى أيام هارون تغلبت القرامطة على دِمَشْقُ ؛ ثم أترعها منهم (المكتفى بالله) خليفة بَغْدَاد فى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وأقام عليها (أحمد بن كيغلف) أميراً ، فبقي بها بقية أيام المكتفى ، ثم أيام المقتدر ، ثم أيام الظاهر . فلما ولي الراضى الخلافة ، عزله عنها فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وولى عليها (الأخشيذ) وهو محمد بن طنج بن جف ، وذلك قبل أن يلى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فاستناب على دِمَشْقُ بدر الأخشيذى ، فآتزعها منه (محمد بن رائق) فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، وأستخلف عليها (أبا الحسين أحمد بن على بن مقاتل) فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، ثم آتزعها منه (الأخشيذ) المقدم ذكره بعد ذلك وبقيت معه حتى مات فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، فولىها بعده ابنه (أَنُوجُور) وهو صغير ، وقام بتدبير دولته كافور الأخشيذى الخادم ، ثم آتزعها منه (سيف الدولة بن حمدان) صاحب حلب الآتى ذكره ، ثم آتزعها منه (كافور الأخشيذى) المقدم ذكره وولى عليها بدر الأخشيذى الذى كان بها أولاً ، فأقام بها سنة ؛ ثم وليها (أبو المظفر

(١) لعله سقط قبله "جيش بن نَحَارَوِيَّة" فان ابن طنج كان نائباً عن جيش وهارون كما يؤخذ مما سياتى له فى الكلام على حلب .

أبن طنج)؛ ثم لما مات أنوجور بن طنج، ملكها مع مصر أخوه (على بن طنج) ثم (كافور) بعده، ثم (أحمد بن على بن الأخشيد) بعده، وهو آخر من ملك منهم على ما تقدم في الكلام على ملوك مصر.



ثم كانت الدولة الفاطمية بمصر: فملكها (جوهراً) قائد المعز الفاطمي وخطب بها لمولاه المعز وأذن بحج على خير العمل في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وقطعت الخطبة العباسية منها، وأقام بها جعفر بن فلاح نائباً، ثم تغلبت القرامطة عليها في سنة ستين وثلاثمائة، ثم أقتلها منهم (المعز) وولى عليها ريان الخادم؛ ثم غلب عليها (افتكين) مولى معز الدولة بن بويه الديلمي، وقطع الخطبة منها للمعز الفاطمي، وخطب خليفة بغداد في سنة أربع وستين وثلاثمائة؛ ثم انتزعها (المعز الفاطمي) بعد ذلك وقبض عليه وأحضره معه إلى مصر؛ ثم بعد موت المعز وولاية أبنه العزيز تغلب عليها شخص اسمه (قسام) إلا أنه كان يخطب فيها للعزيز؛ ثم انتزعها منه (العزيز) وقرر فيها (بكتكين) في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة؛ ثم انتزعها منه (بكتجور) مولى قرعويه صاحب حلب بأمر العزيز الفاطمي صاحب مصر في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة؛ ثم انتزعها منه وقرر فيها (منيرا الخادم) في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة؛ ثم استعمل الحاكم بن العزيز الفاطمي عليها (أبا محمد الأسود) في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، ثم انتزعها منه (أنوش تكين) الدزيري^(١) بأمر المستنصر الفاطمي في سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ثم أمر بالخروج عن طاعته في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، فخرج عنها وفسد أمرها بذلك؛ ثم تغلب عليها (أتسز بن أرتق) الخوارزمي أحد أمراء السلطان

(١) الضبط عن أبي الفداء، ونسبه إلى دزير بن رويتم الديلمي.

(٢) أي أمر المستنصر أهل دمشق بالخروج عن طاعة الدزيري.

ملكشاه السَّلْجُوقِيّ في سنة ثمان وستين وأربعمائة، وقطع الخطبة بها للمستنصر الفاطميّ وخطب للقتدى العباسيّ، ومنع من الأذان بحىّ على خير العمل، ولم يخطب بعد ذلك بالشام لأحد من الفاطميين، ثم غلب عليها (نُتُش بن ألب أرسلان) بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق، وملكها في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وتوفى بملكها بعده ابنه (دقاق) وأشرك معه في الخطبة أخاه رضوان صاحب حلب مقدما لرضوان في الذكر في الخطبة بعد حربٍ جرت بينهما، وتوفى دقاق سنة تسع وتسعين وأربعمائة، فخطب طغتكين أتابك دولته لابن دقاق، وهو طفل عمره سنة واحدة، ثم قطع الخطبة له وخطب لعمه بلتاش بن نُتُش، ثم قطع الخطبة لبلتاش وأعاد الخطبة للطفل، وهو آخر من خطب له بِدِمَشْق من بني سلجوق؛ ثم استقر (طغتكين) المقدم ذكره في ملك دِمَشْق بنفسه، وبقي حتى توفى في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة؛ وملك بعده ابنه (تاج الملوك توري) بعهد من أبيه، وتوفى سنة ست وعشرين وخمسمائة؛ وملك بعده ابنه (شمس الملوك إسماعيل) بعهد من أبيه .

ثم ملك بعده أخوه (شهاب الدين محمود بن توري) فبقي حتى قتل في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وملك بعده ابنه (مجير الدين أرتق) وفي أيامه تغلب الفرنج على ناحية دِمَشْق .

ثم أترعها منهم الملك العادل (نور الدين محمود بن زنكي) المعروف بنور الدين الشهيد وملكها في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، واجتمع له ملك سائر الشام معها، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام حين وقعت بالزلازل كدِمَشْق وحمّة وحِصّ وحلب وشَيزَر وبعلبك وغيرها؛ وتوفى فملك بعده ابنه (الملك الصالح إسماعيل) وعمره إحدى عشرة سنة، وبقي بها حتى أترعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) صاحب مصر في سنة سبعين وخمسمائة، وقرر فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب؛

ثم استخلف عليها السلطان صلاح الدين بعد ذلك ابن أخيه عز الدين (فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب) في سنة ست وسبعين وخمسمائة ؛ ثم صرفه عنها وقرّر فيها ابنه الملك الأفضل (نور الدين عليا) ؛ وهو الذي وُزّر له الوزير ضياء الدين بن الأثير صاحب "المثل السائر" .

ثم آتت عندها منه أخوه الملك العزيز (عثمان ابن السلطان صلاح الدين) صاحب مصر بعد وفاة أبيه بمعاوضة عمه العادل أبي بكر في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، والخليفة يومئذ ببغداد الناصر لدين الله . وكان يميل إلى التشيع ، فكتب إليه الأفضل على يستجيشه على أخيه العزيز عثمان وعمه العادل أبي بكر ، من شعره :

مَوْلَايَ ! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبَهُ * عُثْمَانٌ قَدْ غَضِبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلَيَّ !
فَانْظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْأَسْمِ كَيْفَ لَنِي * مِنَ الْأَوَّحِرِ مَا لَاقَى مَنْ الْأَوَّلِ !

فكتب إليه الناصر لدين الله في جوابه :

غَضَبُوا عَلَيَّ حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ يَسْتَرْبِ نَاصِرُ
فَاصْبِرْ فَإِنَّ عَدَا عَلَيَّكَ حَسَابُهُمْ * وَأَبَشِّرْ فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ !

ولكنه لم يجاوز القول إلى الفعل ؛ ثم سلمها العزيز بعد ذلك لعمه (العادل أبي بكر) فقرّر فيها ابنه الملك المعظم عيسى مضافة إلى ما بيده من الكرك والشوبك ، وكان يخطب فيها لأبيه العادل ، ثم لأخيه الكامل محمد صاحب مصر ، وبقى حتى توفى في سنة أربع وعشرين وستمائة ؛ وملك بعده ابنه (الملك الناصر صلاح الدين داود) ، وهو صغير .

ثم آتت عندها منه الملك الناصر (محمد بن العادل أبي بكر) صاحب مصر واستخلف فيها أخاه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل أبي بكر ، فبقى حتى توفى في سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وملكها بعده أخوه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر) بعهد منه [فأنتزعها منه الملك الكامل بن العادل أبي بكر] ^(١) في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة ^(٢) وتوفى في السنة المذكورة .

فملك بعده الملك الجواد (يونس بن مودود) بن العادل أبي بكر . ^(٣)

ثم أنتزعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن العادل أبي بكر في سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم أقام فيها الملك المغيث فتح الدين عمر نائباً عنه .

ثم أنتزعها منه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر) صاحب بعلبك في سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم أنتزعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل محمد صاحب مصر وتسلمها له (معين الدين بن الشيخ) في سنة ثلاث وأربعين وستمائة وتوفى قبل أن يتسلمها فتسلمها له حسام الدين بن أبي علي في السنة المذكورة، ولم تزل بيد نواب الصالح أيوب حتى مات في سنة سبع وأربعين وستمائة .

ثم ملكها بعد وفاته (الملك الناصر يوسف) بن العزيز محمد صاحب حلب في سنة ثمان وأربعين وستمائة، فبقى بها إلى أن غلب عليها هولاكو في سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان آخر أمر الناصر المذكور أنه لحق بهولاكو المذكور فأقام عنده مدة ثم قتله .



ثم كانت الدولة التركية فملكها منهم (الملك المظفر قطز) صاحب مصر حين غلبته التتار على عين جالوت، ثم توالى عليها نواب ملوك الترك من لدن المظفر قطز وإلى

(١) الزيادة عن أبي الفداء ليستقيم الكلام .

(٢) أى الملك الكامل .

(٣) أى نائباً عن العادل بن الكامل .

سلطنة (الناصر فرج) بن الظاهر برقوق في زماننا على ما تقدم ذكره في الكلام على ملوك الديار المصرية ؛ ولم أقف على أسماء نوابها لطول المدة وقلة اعتناء المؤرخين بذكر أسمائهم .



وأما حلب فقد تقدم أن منزل الجند في ابتداء الإسلام كان بقتشرين ، ثم طرأت عليها حلب بعد ذلك وأضعفتها . ولعل ابتداء أمرها كان في ابتداء الدولة الطولونية ، وقد كان أحمد بن طولون استولى عليها حين استيلائه على دمشق وصارت في ملكه تبعا للديار المصرية كدمشق . وكان بها نوابه ثم نواب ابنه نهارويه ، ثم نواب جيش ابن نهارويه ، ثم هارون بن نهارويه في نيابة طنج بن جف عن هارون وجيش المذكورين ؛ ثم كانت مع دمشق في نيابة أحمد بن كيغغ ، ثم في نيابة الأخشيدي محمد ابن طنج بن جف قبل أن يلى مصر ، ثم في نيابة بدر الأخشيدي على ما تقدم في الكلام على مملكة دمشق .

ثم آتتزعها من بدر الأخشيدي (سيف الدولة بن حمدون) التغلبي الربيعي ؛ وملكها في سنة ثلاث وثلثمائة ، وبق بها حتى توفي في سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ وملكها بعده ابنه (سعد الدولة أبو المعالي شريف) .

ثم آتتزعها منه (قرعويه) غلام أبيه في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ثم غلب عليها (بكجور) غلام قرعويه المذكور بعد ذلك وأقتلها منه .

ثم آتتزعها منه (سعد الدولة) المقدم ذكره ، ثم تقلد بها أبو علي بن مروان من الخليفة الفاطمي يومئذ بمصر في سنة ثمانين وثلثمائة ولم يدخلها ، وبقيت بيد سعد الدولة المذكور حتى توفي بالفالج في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

ثم ملك بعده ابنه (أبو الفضل) مكانه .

ثم آتزرعها منه (أبو نصر بن لؤلؤ) وخطب بها للحاكم الفاطمي، ثم أمره الحاكم بتسليمها إلى نوابه بها فتسلموها منه وأستقرت بأيديهم حتى آتته إلى نائب من نوابه اسمه (عزيز الملك) فبقى بها بقية أيام الحاكم وبعض أيام ابنه الظاهر، ثم وليها عن الظاهر رجل يقال له (أبن شعبان) ثم تغلب عليها (صالح بن مرداس) أمير بني كلاب في سنة أربع وعشرين وأربعمائة؛ ثم قتل في أيام الظاهر الفاطمي فملكها بعده (شبل الدولة نصر بن صالح).

ثم آتزرعها منه (أنوش تكين الدزيرى) بأمر المستنصر العلوى في شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وبقى حتى توفي في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة؛ وملكها بعده (معز الدولة شمال بن صالح بن مرداس) ثم ملك قلعتها بعد ذلك في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة؛ ثم تسلمها منه مكين الدولة (الحسن بن على بن ملهم) في سنة تسع وأربعين وأربعمائة بصلح وقع بينه وبين الفاطميين على ذلك.

ثم آتزرعها منه (محمود بن شبل الدولة) بن صالح المتقدم ذكره، وملك قلعتها في سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

ثم آتزرعها منه (معز الدولة شمال بن صالح) في ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتى توفي في ذى القعدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وملكها بعده أخوه (عطية بن صالح) في السنة المذكورة.

ثم آتزرعها منه ابن أخيه (محمود بن شبل الدولة) المتقدم ذكره في رمضان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتى توفي في ذى الحجة سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وملكها بعده ابنه (نصر بن محمود) ثم قتله التتركان.

وملكها بعده أخوه (سابق بن محمود).

ثم آتَرَعَهَا مِنْهُ شَرَفُ الدَّوْلَةِ (مُسلم بن قُرَيْش) صَاحِبُ المَوْصِلِ، وَقَتَلَ فِي صَفَرِ
سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعَاةٍ .

وَمَلَكَهَا بَعْدَهُ أَخُوهُ (إِبْرَاهِيمُ بْنُ قُرَيْشٍ) .

ثُمَّ آتَرَعَهَا مِنْهُ (نُتْشُ بْنُ أَلْبِ أَرْسَلَانَ) السَّلْجُوقِيُّ صَاحِبُ دِمَشْقَ فِي السَّنَةِ
الْمَذْكُورَةِ .

ثُمَّ آتَرَعَهَا مِنْهُ (السُّلْطَانُ مَلِكُ شَاهِ السَّلْجُوقِيِّ) وَسَلَّمَهَا إِلَى قَسِيمِ الدَّوْلَةِ أَقْسَنْقَرُ؛
ثُمَّ اسْتَعَاذَهَا (نُتْشُ بْنُ أَلْبِ أَرْسَلَانَ) الْمَقْدَمُ ذَكَرَهُ بَعْدَ مَوْتِ مَلِكُ شَاهِ وَأَسْتَضَافَهَا إِلَى
دِمَشْقَ، وَأَنْبَسَطَ مَلِكُهُ حَتَّى مَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَذْرَبَيْجَانَ، وَبَقِيَ حَتَّى قَتَلَ فِي صَفَرِ سَنَةِ
ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعَاةٍ .

وَمَلَكَهَا بَعْدَهُ ابْنُهُ (رِضْوَانُ) فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعَاةٍ، وَبَقِيَ حَتَّى تَوَفَّى فِي سَنَةِ
سَبْعٍ وَخَمْسِمَاةٍ .

وَمَلَكَهَا بَعْدَهُ ابْنُهُ (سُلْطَانُ شَاهِ بْنِ رِضْوَانِ) .

ثُمَّ آتَرَعَهَا مِنْهُ (إِيلْغَازِيُّ بْنُ أَرْتُقٍ) صَاحِبُ مَارِدِينَ وَسَلَّمَهَا إِلَى وَلَدِهِ حَسَامِ الدِّينِ
تِمْرَتَاشَ؛ ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهَا (سُلَيْمَانُ بْنُ أَرْتُقٍ) وَعَصَى بِهَا عَلَى أُنْبِيَاءِ فَاتَرَعَهَا أَبُوهُ مِنْهُ وَسَلَّمَهَا
إِلَى ابْنِ أَخِيهِ (سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَرْتُقٍ) فِي رَمَضَانَ سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةٍ وَخَمْسِمَاةٍ .

ثُمَّ آتَرَعَهَا مِنْهُ عَمُّهُ (بَلَكُ بْنُ بَهْرَامِ بْنِ أَرْتُقٍ)، وَبَقِيَ بِهَا حَتَّى قَتَلَ فِي سَنَةِ سَبْعِ
عَشْرَةٍ وَخَمْسِمَاةٍ؛ وَمَلَكَهَا بَعْدَهُ ابْنُ عَمِّهِ (تِمْرَتَاشُ بْنُ إِيلْغَازِيٍّ) فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ
الْمَذْكُورَةِ؛ ثُمَّ حَاصَرَهَا الْفَرَنْجُ، وَهِيَ فِي يَدِهِ نَخْلَصَهَا مِنْهُمْ أَقْسَنْقَرُ الْبَرْسُوقِيُّ صَاحِبُ
الْمَوْصِلِ، وَمَلَكَهَا مَعَ مَارِدِينَ فِي السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَبَقِيَ حَتَّى قَتَلَتْهُ الْبَاطِنِيَّةُ فِي سَنَةِ
عَشْرِينَ وَخَمْسِمَاةٍ .

وملكها بعده أبنه (عز الدين مسعود) وأستخلف بها أميرا من أمرائه أسمه قايمار،
ثم أستخلف عليها بعده رجلا أسمه كيغلغ .

ثم أترعها منه (سليمان بن عبد الجبار) بن أرتق المقدم ذكره .

ثم أترعها منه (عماد الدين زنكى) : صاحب الموصل في المحرم سنة اثنتين وعشرين
 وخمسمائة ، وملك معها حماة وحصص وبلبك ، وبقى حتى قتله غلمائه في ربيع الأول
 سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ثم ملك بعده أبنه الملك العادل (نور الدين محمود) وبقى إلى أن توفى .

وملك بعده أبنه (الصالح إسماعيل) فبقى بها بعد ملك السلطان صلاح الدين يوسف
 ابن أيوب دمشق حتى توفى بها في سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

وملكها بعده بوصية منه ابن عمه (عز الدين مسعود) بن مودود بن زنكى بن
 مودود في السنة المذكورة .

ثم أترعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) في سنة تسع وسبعين
 وخمسمائة ، وقرز فيها أبنه الظاهر غياث الدين غازى .

ثم أترعها منه وسلمها لأخيه (العادل أبى بكر بن أيوب) في السنة المذكورة ،
 ثم أعاد إليها أبنه الظاهر غازى المقدم ذكره في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، فبقى
 بها حتى توفى في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة .

وملكها بعده أبنه (الملك العزيز محمد) فبقى بها حتى توفى في ربيع الأول سنة
 أربع وثلاثين وستمائة .

ثم ملكها بعده أبنه الملك (الناصر يوسف) وعمره سبع سنين ولم تزل بيده حتى
 أستولت عليها التتار في سنة ثمان وخمسين وستمائة .



ثم كانت الدولة التركية . فكان أول من ملكها من ملوك الترك (المظفر قُطُز) حين كسر التتار على عين جالوت على ما تقدم ذكره في الكلام على مملكة دِمَشْق ؛ ثم توالى عليها ثواب ملوك الترك من لدن المظفر قطز وإلى زماننا في سلطنة الناصر فرج بن الظاهر برقوق على ما تقدم ذكره في الكلام على مملكة الديار المصرية .



وأما حماة . فقد تقدم في الكلام على قواعد الشام أن الذكر في القديم إنما كان لِمَحْصٍ ، وإنما تنبّهت حماة في الذكر في الدولة الأتابكية : عماد الدين زنكي . وذلك أن حماة كانت تبعاً لغيرها من الممالك ، تارة تضاف إلى دِمَشْق ، وتارة إلى حَلَب . فكانت مع دِمَشْق بيد (طُغْتِكِين) أتابك دولة رضوان بن نُتُش السلجوقي في سنة تسع وخمسمائة .

ثم أترعها منه السلطان (محمد بن ملكشاه السلجوقي) في السنة المذكورة ، وسلمها للأُمير (فيرخان بن قراجا) .

ثم ملكها (تورى بن طُغْتِكِين) وقرر بها أبنه سونج فبقيت بيده حتى أترعها منه عماد الدين زنكي في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة .

ثم أترعها منه بعد ذلك (تاج الملوك إسماعيل بن تورى) بن طُغْتِكِين السلجوقي في سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

ثم ملكها (العاذل نور الدين محمود بن زنكى) مع دِمَشْق وحَلَب وغيرهما في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ؛ ثم صارت بعده مع غيرها من البلاد الشامية إلى أبنه (الصالح إسماعيل) فبقيت بيده حتى أترعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف)

آبن أيوب) في سنة سبعين وخمسمائة، وقرر فيها خاله شهاب الدين الحارمي، ثم قرر فيها أخاه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، فبقيت بيده حتى توفي في سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

فوليها بعده آبنه الملك المنصور (ناصر الدين محمد) فبقي بها حتى آنتزعها منه أخوه (الملك المظفر محمود) في سنة ست وعشرين وستمائة، فبقي بها حتى توفي في سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ووليها بعده آبنه (الملك المنصور محمد) فبقي حتى غلب عليها هولاكو ملك التتار مع ديمشق وحلب وغيرهما، فقرّر بها المظفر قطز صاحب مصر بعد هزيمة التتار، فبقي بها حتى توفي في سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

فوليها بعده آبنه (المظفر شادي) عن المنصور قلاوون صاحب مصر بعهد منه، وبقى بها حتى توفي في سنة ثمان وتسعين وستمائة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية.

فولي الملك الناصر مكانه (قراسنقر) أحد أمرائه نائبا عليها، وكان العادل كتبغا بعد خلعه من السلطنة قد آستقر نائبا بصرخد فنقله الملك الناصر محمد بن قلاوون إليها بعد هزيمة غازان ملك التتار، وجعله نائبا بها في سنة آثنتين وسبعمائة، ومات بعد ذلك.

فولي الملك الناصر مكانه في نيابتها (قبيجق) أحد أمرائه ثم صرفه عنها.

وولي مكانه (أستدر الكرجي) ثم صرفه عنها بعد عوده من الكرك.

وولي فيها الملك المؤيد (عماد الدين إسماعيل) بن الأفضل على، بن المظفر عمر سلطنة على عادة من تقدمه فيها من الملوك الأيوبية، وكتب له بذلك عهدا عنه، فبقي بها إلى أن توفي في سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة.

فولى السلطان الملك الناصر مكانه آبنه (الملك الأفضل محمد) وكتب له بذلك عهداً أيضاً، فبقى بها حتى أزاله قُوصُون أتابك العساكر فى سلطنة المنصور أبى بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة إحدى وأربعين وسبعائة .

وولى مكانه الأمير (طقزدمر) نائباً بها، واستقرت نيابةً إلى الآن، وتوالى عليها نواب ملوك مصر نائباً بعد نائب إلى زماننا كغيرها من الممالك الشامية، وأتقطعت مملكة بنى أيوب من الشام بذلك .



وأما أطرابُلسُ، فكان قد تغلب عليها قاضيا أبو على بن عمَّار وملكها وطالت مدته فيها .

ثم آتزعها منه (المستنصر الفاطمى) خليفة مصر مع غيرها من السواحل الشامية، فبقيت بيده حتى غلب عليها القُومص فملكها فى سنة ثلاث وخمسمائة، فبقيت فى أيدي الفرنج من حينئذ إلى أن فتحها "الملك المنصور قلاوون" أحد ملوك الديار المصرية فى سنة ثمان وثمانين وستمائة بعد أن مضى عليها فى يد الفرنج مائة وخمس وثمانون سنة وأعجز فتحها من مضى من ملوك بنى أيوب فمن بعدهم . ومن حين فتحها جعلت نيابة، وتوالى عليها نواب ملوك مصر من لدنه إلى زماننا .



وأما صَقَد، فقد تقدّم فى الكلام على قواعد الممالك الشامية أنها كانت فى القديم قريةً وأن الفرنج الدّموية باتها واستحدثت حصنها فى سنة خمس وسبعين وأربعمائة . ثم فتحها (الظاهر بيبرس) بعد ذلك فى رابع عشر شوال سنة أربع وستين وستمائة، وقزرها الأمير كيغلى العلأى نائباً، وتوالى عليها بعد ذلك نواب ملوك مصر من لدن الظاهر بيبرس وإلى زماننا فى سلطنة الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق .



وأما الكرك، فقد تقدّم أن قلعها كانت ديراً لرهبان، وكانت بيد الفرنج، وأن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة أربع وثمانين وخمسمائة فتحها، وقصر فيها أخاه (الملك العادل أبا بكر بن أيوب) فبقيت بيده إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فقرر فيها أبنه (الملك المعظم عيسى) فبقيت في يده إلى أن آستضاف إليها دمشق، وتوفى في سنة أربع وعشرين وستمائة .

وملكها بعده أبنه (الملك الناصر صلاح الدين داود) في سنة ست وعشرين وستمائة، وبقى إلى سنة سبع وأربعين وستمائة، فاستخلف عليها أبنه (الملك المعظم عيسى) بعد أن أخذ منه غالب بلاده وقر بنفسه .

ثم أترع (الصالح نجم الدين أيوب) الكرك من المعظم عيسى بن الناصر داود في السنة المذكورة، وأقام بها بدر الدين الصوابي نائبا عنه، وبقى الناصر داود بعد ذلك مشردا في البلاد إلى أن مات في سنة خمس وخمسين وستمائة، وكان من أهل العلم والورع، وله شعر رائق، منه :

أَلَا لَيْتَ أُمِّي أَيْمٌ طَوَّلَ دَهْرَهَا * وَلَمْ يَقْضِهَا رَبِّي لِمَوْتِي وَلَا بَعْلِي !
وَيَا لَيْتَهَا لَمَّا قَضَاهَا لَسِيدٌ * لَيْبَ أَرِيْبٍ طَيْبِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ ،
قَضَاهَا مِنَ اللَّاتِي حُلِقْنَ عَوَاقِرًا * وَلَا بُشِّرْتُ يَوْمًا بِأُنْتِي وَلَا فَحْلٍ
وَيَا لَيْتَهَا لَمَّا غَدَتْ بِي حَامِلًا * أُصِيبَ مِنِّي أَحْتَفَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمْلِ
وَيَا لَيْتَنِي لَمَّا وُلِدْتُ وَأَصْبَحْتُ * تُشَدُّ إِلَى الشَّدَقِمِيَّاتِ بِالرَّحْلِ ،
لَحِقْتُ بِأَسْلَافِي فَكُنْتُ ضَجِيعَهُمْ * وَلَمْ أَرِ فِي الْإِسْلَامِ مَا فِيهِ مِنْ نُكُلٍ

وكان الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب معتقلاً بالشَّوْبَك ، فأخرجه الصوابي نائب الملك الصالح وملكه الكرك فبقي بها حتى قبض عليه الملك الظاهر بيبرس وقتله في سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وهو آخر من ملكها من بني أيوب .

قلت : وأما غير هذه الممالك كَحِمَصَ وَبَعْلَبَكْ فإنما كانت في الغالب تبعا لغيرها حتى إن حِمَصَ وَبَعْلَبَكْ حين آستولت التتار على الشام في آخر الدولة الأيوبية كانتا مضافتين إلى دِمَشْقَ .

وأعلم أن غالب أطراف البلاد الشامية ومضافاتها كانت بأيدي ملوك متفرقة من قديم الزمان وبعضها حدث آنفراده ، ثم تنقلت بها الأحوال حتى آستولى على كثير منها أهل الكُفْر ، وصارت بأيديهم إلى أن قِيَضَ الله تعالى لها من فتحها ، ثم آستعاد أهل الكفر منها ما آستعادوا ، ثم فُتِحَ ثانيا على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . فمن ذلك القُدُس - كانت بيد نُتُشْ بن ألب أرسلان السلجوقي صاحب دِمَشْقَ المتقدم ذكره . كان قد أقطعها للأمير أرتق جد ملوك ماردين الآن . فلما توفى أرتق المذكور صار القُدُس لولديه أيلغازي وسُقْمَان ، وبقي بيديهما إلى أن آنتزعه منهما (المستنصر الفاطمي) في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، وبقي بيده إلى أن ملكه الفرنج منه في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، بعد أن بذلوا السيف في المسلمين نحو سبعة أيام وقتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على تسعين ألف نفس ، وبقي بيديهم حتى فتحه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ثم آستعاده الفرنج من الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بمهادنة جرت بينهم في سنة ست وعشرين وستمائة .

ثم آنتزعه منهم (الملك الناصر داود) صاحب الكرك في سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم سلمه (الصالح إسماعيل) صاحب دِمَشْق (والناصر داود) صاحب الكرك المتقدم ذكره للفرنج بعد ذلك ليكونوا عوناً لهما على الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر في سنة إحدى وأربعين وستمائة .

ثم فتحه الصالح (نجم الدين أيوب) صاحب مصر وأقتلعه من أيديهم في سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فأستمر بأيدي المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك بلاد السواحل الشامية كانت بأيدي أناس متفرقة .

فأما أطرابلس وصفد ، فقد تقدم الكلام عليهما في الكلام على ملوك الممالك الشامية . وأما غيرهما من بلاد السواحل وما والاها ، فإن غالبها كان بيد الفاطميين خلفاء مصر إلى أن ضعفت دولتهم في أيام المستنصر أحد خلفائهم ، فقصدت الفرنج هذه السواحل من كل جهة وأستولوا على بلادها شيئاً فشيئاً .

فأستولوا على عكا وجبيل في سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وعلى صيدا في سنة أربع وخمسمائة ، وأستشروا فسادهم حتى ملكوا بيروت وعسقلان وصور وأنطرسوس والمرقب وأرسوف والألاذقية ولدا والرملة ويافا ونابلس وغزة وبيت لحم وبيت جبريل ، وغير ذلك من بلاد السواحل وما جاورها ، فبقيت في أيديهم حتى فتحها السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" فيما بين الثلاث والثمانين والخمسمائة إلى الثمان والثمانين والخمسمائة .

ثم عقد الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين على أن تكون يافا وأرسوف وعكا وقيسارية وأعمالها بيد الفرنج ، وأن تكون لُد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين . ثم أستولوا على بيروت في سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ثم وقعت الهدنة بعد ذلك بين الفرنج وبين العادل أبي بكر بن أيوب في سلطته في سنة إحدى وستمائة على أن تستقر بيد الفرنج يافا وترك لهم مناصفة لُد والرملة .

ثم استعاد الفرنج عكا في سنة أربع عشرة وستمائة في أيام العادل أبي بكر المذكور .
ثم استولوا على صيدا وما معها في أيام آبنه الكامل محمد في سنة ست وعشرين
وستمائة قبل تسليمه القدس لهم .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل صاحب دمشق صفد والشقيف على أن يعاونوه على
الصالح أيوب صاحب مصر في سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل المذكور والناصر داود صاحب الكرك عسقلان وطبرية
حين سلماهم القدس في سنة إحدى وأربعين وستمائة .

ثم فتح "الصالح أيوب" صاحب مصر غزة وأستولى عليها في سنة اثنتين وأربعين
وستمائة .

ثم فتح (الظاهر بيبرس) في سنة اثنتين وستين وستمائة قيسارية وأرسوف، وصفد
ويافا في سنة أربع وستين وستمائة . وفتح صهيون في سنة ست وستين وستمائة ،
وأطرابلس في سنة ثمان وثمانين .

ثم فتح آبنه (الأشرف خليل) عكا في سنة تسعين وستمائة، واتبعت فتوحه ففتح
صيда ويروت وعثليت في السنة المذكورة . وبنفوحه تكاملت بلاد السواحل
بأجمعها . ولما فُتحت هُدمت جميعها خوفا أن يملكها الفرنج ثانيا وبقيت بأيدي
المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك أنطاكية - التي هي قاعدة العواصم . فإنها كانت بيد باغي سيان بن محمد
أبن ألب أرسلان السلجوقي إلى أن غلب عليها الفرنج في سنة إحدى وتسعين
وأربعائة، وقتلوا باغي سيان المذكور، وقتل فيها ما يزيد على مائة ألف نفس بعد
حصار تسعة أشهر، وما كوا معها كفر طاب، وصهيون، والشعر وبكاس، وسرمين

وَالدَّرْبَسَاكَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ حَلَبَ ، وَبَالِغُوا حَتَّى جَاوَزُوا الْفَرَاتَ إِلَى بِلَادِ الْجَزِيرَةِ ؛
وَمَلَكَوا الرُّهَّا وَسَرُوجَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ بِلَادِهَا حَتَّى فَتَحَ السُّلْطَانُ صَالِحُ الدِّينِ يَوْسُفُ
أَبْنَ أَيُّوبَ الشُّغْرَ وَبَكَاسَ وَسَرْمِينَ وَغَيْرَهَا فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ .

ثُمَّ اسْتَعَادَهَا الْفَرَنْجُ بَعْدَ فَتْحِهِ ؛ ثُمَّ فَتَحَ أَنْطَاكِيَّةَ "الظَّاهِرُ بَيْرَسُ" فِي سَنَةِ سِتٍّ
وَسِتِينَ وَسَمِائَةٍ ، فَبَقِيَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْآنَ .

وَمِنْ ذَلِكَ - بَاقِي بِلَادِ الثُّغُورِ وَالْعَوَاصِمِ كَأَيَّاسَ وَأَذَنَةَ وَالْمَصِصَةِ وَطَرَسُوسَ
وَبَغْرَاسَ وَبَهْسَنِيَّ وَالدَّرْبَسَاكَ وَسَيْسَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الثُّغُورِ . فَإِنَّ الْأَرْمَنَ وَثَبُّوا عَلَيْهَا
قَبْلَ الْأَرَبِجَاءِ وَأَسْتَوْلَوْا عَلَى نَوَاحِيهَا وَمَنْعُوا مَا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ مِنَ الْإِتَاوَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ،
وَاسْتَضَافُوا إِلَى ذَلِكَ قَلْعَةَ الرُّومِ وَمَا قَارِبَهَا ، فَبَقِيَتْ فِي أَيْدِيهِمْ حَتَّى فَتَحَ الظَّاهِرُ
بَيْرَسَ بَغْرَاسَ وَبَهْسَنِيَّ وَالدَّرْبَسَاكَ وَغَيْرَهَا ، وَأَنْتَرَعَهَا مِنَ الْأَرْمَنِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ
وَسِتِينَ وَسَمِائَةٍ .

وَفَتَحَ الْأَشْرَفُ "خَلِيلُ بْنُ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ" قَلْعَةَ الرُّومِ ، وَأَنْتَرَعَهَا مِنْ يَدِ خَلِيفَتِهِمْ
فِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَمِائَةٍ ، وَسَمَّاها قَلْعَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى
الْأَعْمَالِ الْحَلَبِيَّةِ .

وَفَتَحَ "النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ" فِي سُلْطَنَتِهِ الثَّالِثَةِ أَيَّاسَ^(١) ، وَمَا وَالَاهَا فِي سَنَةِ ثَمَانٍ
وِثْلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

وَفَتَحَ "الْأَشْرَفُ شُعْبَانُ بْنُ حُسَيْنَ" بْنُ النَّاصِرِ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ سَيْسَ وَسَائِرَ بِلَادِ
الْأَرْمَنِ عَلَى يَدِ قَشْتَمَرِ الْمَنْصُورِيِّ نَائِبِ حَلَبَ .

وَمِنْ ذَلِكَ - قِلَاعُ الدَّعْوَةِ ، الَّتِي هِيَ الْآنَ مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُسَ : وَهِيَ مِصْيَافُ
وَالْعَلِيقَةِ وَالْمِنْقَةِ وَالْكَهْفِ وَالْقُدْمُوسَ وَالْحَوَاكِي . فَإِنَّهَا كَانَتْ بِأَيْدِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

(١) ضَبَطَهَا صَاحِبُ "الْقَامُوسِ" كَسَجَابَ وَنَصَّ عَلَى مَدِّ الِهْمْزَةِ صَاحِبُ "التَّقْوِيمِ" .

المعروفين الآن بالفداوية، قبل دخولهم في طاعة ملوك الديار المصرية، فبقيت بأيديهم حتى آتت عندها منهم الملك "الظاهر بيبرس" في سنة ثمان وستين وستمائة، وآتت عندهم العليقة في سنة تسع وستين .

ثم آتت عندهم باقي القلاع في سنة إحدى وسبعين ودخلوا تحت طاعة ملوك مصر من حينئذ، وصاروا شيعَةً لهم .

وهذا آخر ما يحتمله الكتاب مما يحتاج إلى معرفته .

الطَّرَفُ الثالث

(من الفصل الثاني، من الباب الثالث، من المقالة الثانية في ذكر أحوال المملكة الشامية ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ترتيب نياباتها على ما هي مستقرة عليه)

قد تقدم أن الممالك المعتبرة بالبلاد الشامية ست ممالك في ست قواعد، وكلُّ مملكة منها قد صارت نيابةً سلطنة مضاهيةً للملكة المستقلة .

النيابة الأولى

(١) نيابة دِمَشْقَ، وفيها جملتان

الجملة الأولى

(في ذكر أحوالها في المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعامل بها فيها، فعلى ما تقدم في الكلام على معاملات الديار المصرية من المعاملة بالدنانير المصرية ونحوها وزناً، والدنانير الاقزنية عدداً، والدراهم النُّقْرة وزناً

لا تختلف النقود في ذلك، إلا أن الصَّنَجَةَ في أوزان الذهب بالديار المصرية تخالف الصنجة الشامية في ذلك، فتتقص الصنجة الشامية عن المصرية كل مائة مثقالٍ مثقالٌ وربع مثقالٍ، وتتقص صنجة الدراهم الشامية عن الصَّنَجَةِ المصرية كل مائة درهم درهمٌ، والمعاملة فيها بفلوس صِغار، وكان يتعامل بها في الديار المصرية في الزمن الأول قبل ضرب الفلوس الجُدِّد، حساباً عن كل درهم أربعة وستون فلساً، وكل أربعة فلوس منها يُعبر عنها عندهم بحبة، ثم راجت الفلوس الجُدِّد عندهم بعد سنة ثنتين وثمانمائة. إلا أن كل^(١) بدرهم بخلاف ما تقدّم في الديار المصرية من أن كل أربعة وعشرين فلساً منها بدرهم.

وأما رطلها الذي يعتبر به موزوناتها فستمائة درهم بدرهمهم المتقدم تقديره، وأوقية اثنتا عشرة أوقية، كلُّ أوقية خمسون درهماً.

وأما كيلها الذي يعتبر به مكيلاتها فالغِراة، وهي اثنا عشر كيلاً، كلُّ كيل ستة أمداد، يتقص قليلاً عن رُبُع الوِيَّةِ المصريّ، ونسبة الإردب من الغِراة أن كل غِراة ومدّ ونصف ثلاثة أمداد بالكيل المصريّ تحريراً على الدمشقيّ. ثم قال^(٢): لكن كيل دِمَشَق ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع.

وأما قياس قُماشها فبذراع يزيد على ذراع القماش بالقاهرة بنصف سدس ذراع وهو قيراطان.

وأما قياس أرض الدُّور بها وما في معناها، فإنه يعتبر بذراع العمل المتقدم الذكر في الديار المصرية.

(١) بياض في الأصل بتدريكة.

(٢) لم يقدم لنا ما يعود عليه الضمير ولعله صاحب "المسالك".

وأما سعرها فقال في "مسالك الأبصار" : سعر اللحم بها أرخص من مصر والدجاج والإوز أغلى من مصر، وكذلك السكر؛ ولم يتعترض لغير ذلك . ولا خفاء في أن الفاكهة فيها أرخص من مصر بالقدر الكبير، والقمح والشعير والبقلاء نحو من سعر مصر؛ وذلك كله عند اعتدال الأسعار . أما حالة الغلاء فيختلف الحال بحسبه .

الجملة الثانية

(في ترتيب مملكتها ، وهو ضربان)

الضرب الأول

(في ترتيب حاضرتها)

أما جُيُوشها ، فعلى ما تقدم في الديار المصرية في اجتماعها من الترك والخراس والروم والروس والآص ، وغير ذلك من الأجناس المضاهية للترك في الزي ، ويزيد بها التُّركمان المتميزون عن صفة الترك وزِيَّهم ، وجندها ينقسمون إلى ما تقدم في الديار المصرية : من الأمراء المقدمين والطلبخانات والعشرات ، ومن بين المقدمين والطلبخانات : كأمرء السبعين والخمسين ، وما بين العشرات والطلبخانات كالعشرينات ونحوهم ؛ وكذلك مقدمو الحلقة وجندها ، ولا وجود فيها للممالك السلطانية لأنهم لا يكونون إلا بحضرة السلطان . وقد أخبرني من له خبرة بحال مملكتها أن الأمراء المقدمين بها كانوا في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون عشرة غير النائب بها ، وربما نقصوا الآن عن ذلك ، وأن أمراء الطلبخانات بها كانوا إذ ذاك أربعين وأنهم الآن نيف وخمسون ، وأن أمراء العشرات كانوا بها ألفين ومائة وخمسين بما فيهم من البحرية .

وأما إقطاعاتها - فقال في "مسالك الأبصار" : إن إقطاعاتها لا تقارب إقطاعات مصر ، بل تكون على الثلثين منها ، إلا في أكابر الأمراء المقربين بحضرة السلطان ، فإن إقطاعاتهم خارجة عن العادة فلا يُعتدُّ بها . قال : ولا أعرف بالشام ما يقارب ذلك إلا ما هو لنائب دِمَشْق .

وأما بيوتاتها السلطانية - فقال في "مسالك الأبصار" : بها خزانة تخرج منها الإناعام والخيل ، وخزائن سلاح ، وزرَدَخَانَاهُ ، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة ، حتى لو جهز السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته . قال : وكل أمير أمر فيها أو في غيرها من الشام أو ربّ وظيفة أو وظيفة من عادة متوليها لبس خلعة أو خدم أحد خدمة في مهم من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب خلعة أو إنعاما ولم يُخلع عليه من مصر كان من دِمَشْق خلعته وإنعامه ، ومنها تخرج أعلام الإمرة وطلائعهن وشعار الطبلخاناه . وفي خزائن السلاح بها تُعمل المجانيق والسلاح ، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع ، ومن قلعتها تجرّد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام ، وتنسحب في التجاريد والمهمات .

قلت : أما باقى البيوت كالفرّاش خاناه والإصطبلات السلطانية وما شاكلها ، فلا وجود لها فيها مما ينسب إلى السلطان ، بل يكون ذلك للنائب قائما مقام السلطان لأنه في الحقيقة السلطان الحاضر ؛ وكان بها مطابخ السكّر السلطانية فأضيفت إلى من يتحدّث في الأغوار من النائب أو غيره من الأمراء الأكابر .

الضرب الثاني

(في بيان أرباب الوظائف بدمشق على تباين مراتبهم ، ووظائفها
المعتبرة على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(وظائف أرباب السيوف)

وهي مضاهية لوظائف أرباب السيوف بالحضرة السلطانية في كثير منها ،
وهي عدة وظائف .

(منها) نيابة السلطنة بها - وهي أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة ،
ونائبها يضاهي النائب الكافل بالحضرة السلطانية في الرتبة والألقاب والمكاتب ، ويعبر
عنه في المكاتبات السلطانية وغيرها " بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس "
ويكتب له من الأبواب السلطانية تقليد شريف من ديوان الإنشاء الشريف ،
وهو قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه
التواقيع الكريمة ، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب
الشريفة فيشملها الخط الشريف السلطاني ، ويترب حكم المربعات المصرية والمناشير
على حكمها كما سيأتي في الكلام على المناشير في موضعها إن شاء الله تعالى ، وهو يكتب
على كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد ، ومعه يكون
نظر البيارستان النوري بدمشق كما يكون نظر البيارستان المنصوري بالقاهرة مع
أتاك العساكر ، وكذلك يكون معه نظر الجامع الأموي بها .

(ومنها) نيابة القلعة بها - وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة ، ليس لنائب السلطنة
عليها حديث ، ولايتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف يكتب من ديوان

الإنشاء الشريف . قال في "التنقيف" : وكان عادة نائبيها في الأيام المتقدمة مقدّم ألف ، ثم استقرت بعد ذلك طبلخاناه ، وهي على ذلك إلى الآن . ومن شأنه حفظ القلعة وصونها ، ولا يسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه أولم يأمره السلطان بتسليمه له . ولنائبيها أجناد بحرية مقيمون في القلعة لخدمته ، ولا يحضر هو ولا أحد منهم دار النيابة بالمدينة ، ولا يركبون في الغالب . وقد أخبرني بعض أهل المملكة أن بالقلعة طبلًا مرتبًا لاستعلام أوقات الليل إذا أُذّن للعشاء الآخرة ضرب عليه عند مضى كل أربع درج ضربة واحدة إلى أن ينقضى ثلث الليل الأول . فإذا دخل الثلث الثاني ضرب عليه عند مضى كل أربع درج ضربتين إلى أنه قضاء الثلث الثاني . فإذا دخل الثلث الثالث ضرب عليه عند مضى كل أربع درج ثلاث ضربات إلى أن يؤذّن للصبح . قال : وهكذا شأن سائر القلاع بالممالك الشامية .

(ومنها) المجبوبة - وكان بها في الأيام الناصرية آبن قلاوون فيما يقال ثلاثة محجّاب ، أحدهم حاجب المحجّاب ، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب ؛ وعادته أن يكون مقدّم ألف من الزمن القديم وهلمّ جرّاً ، وهو الرتبة الثانية من النائب ؛ ومن شأنه الجلوس بدار العدل ، ولا يقف كما يقف حاجب المحجّاب بين يدي السلطان بالديار المصرية ، وإذا خرج النائب عن دمشق في مهمّ أو غيره ، كان هو نائب الغيبة عنه . وإذا برز مرسوم السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها ، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن أو غيره ، ويقوم بأمر البلد إلى أن يُقام نائب آخر . والحاجبان الآخران طبلخانتان أو طبلخاناه عشرة ، وربما كانوا أربعة : حاجب المحجّاب وثلاث طبلخانات أو طبلخانتان وعشرون أو عشرة أو غير ذلك ؛ ورُتبهم في المراكز أن يكون حاجب المحجّاب والذي يليه في الرتبة مميّنة والثاني ميسرة . ثم صاروا في الأيام الظاهرية برقوق خمسة أو ستة .

ولم تجر العادة بأن يكتب لأحد منهم مرسوم شريف من الأبواب الشريفة عند ولايته، ولا مدخل للنائب بها في كتابة ما يوقع لأحد منهم .

(ومنها) شد المهّمات - وهي رتبة جليلة ، وموضوعها التحدث في أمور الاحتياجات السلطانية، وتارة لنائب السلطنة بدمشق، وتارة لحاجب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء من المقدمين والطلبخانات بحسب ما يقتضيه رأى السلطان .

(ومنها) نقابة القلعة بها - وهي إمرة عشرة مرسوم شريف ، يكتب له من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نقابة النقباء - وهما نقيبان : نقيب لليمنة ونقيب لليسرة .

(ومنها) الحزندارية - وموضوعها التحدث على الخلع والتشريف السلطانية بالقلعة وعادتها أربعة طواشية خضيان بعضهم أعلى رتبة من بعض ، أحدهم في رتبة أمير طلبخاناه أو أمير عشرين ، والثاني دونه ، والثالث دونه ، والرابع دونه ، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته .

(ومنها) نقابة الجيش - وفيها ثلاثة نفر ، أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء ، تارة يكون أمير طلبخاناه ، وفي غالب الأوقات أمير عشرة ، ودونه آتنان من جند الحلقة . ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .

(ومنها) شد الدواوين - وموضوعها التحدث في استخراج الأموال السلطانية رفيقا للوزير كما في الديار المصرية ، وكانت في الأيام المتقدمة إمرة طلبخاناه ، ثم استقرت إمرة عشرة . وهي الآن جندي من أجناد الحلقة ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شد الأوقاف - وموضوعها التحدث على أوقاف المسلمين بدمشق ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما كانت طلبخاناه ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ الحاصّ - وعادته طبخاياه أو عشرة أيضا .

(ومنها) شدّ الزكاة - وموضوعها التحدّث على متجّر الكارم ونحوه ، وكانت في الزمن المتقدم إمرة عشرة ، وهي الآن جندى ، ويكتب لتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ العُشر - وموضوعها التحدّث في واصل الفرنج ، وكانت إمرة عشرة ، وهي الآن جندى ، ويكتب لتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ دار الطّعم - وهي بمثابة الوكالة بالديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وعادتها إمرة عشرة أو مقدّم حلقة أو جندى ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) ولاية المدينة - وموضوعها التحدّث في أمر الشرطة كما في سائر الولايات ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما وليها جندى ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) المهنداريّة - وموضوعها تلقى الرُّسل الواردين ، في أمور أخرى كما في الديار المصرية . وقد أخبرني بعض أهل المملكة أنه كان بها في الأيام الناصرية ابن قلاوون في نيابة الأمير تنكر مهندار واحد مقدّم ألف ، ثم استقرّت في الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" نفرين ، وهي على ذلك إلى زماننا ، وهما الآن أمير عشرة ، وجندى ، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .

(ومنها) أمير اخورية البريد - وموضوعها التحدّث على خيول البريد بدمشق ونواحيها . وأخبرني بعض أهل هذه المملكة أنه لم يزل بها أمير عشرة من الأيام الناصرية ابن قلاوون وإلى الآن .

(ومنها) تقدمة البريد - وموضوعها التحدّث على جماعة البريدية بدمشق . وأخبرني بعض أهل المملكة أنها كانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون منحصرة

في واحد من جملة البريدية، ثم أستقر فيها الآن آثنان إما إمرة عشرة وإمرة خمسة، أو إمرة خمسة وجندى، أو نحو ذلك؛ ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر مرتبته .

(ومنها) سُود صغار متعددة، يوثى بها أجناد بتوقيع لهم عن النائب : كشدار البطيخ والفاكهة ، وشدة المسابك من الحديد والنحاس والزجاج وغير ذلك ، وشدة الموارث الحشرية ونحو ذلك . وكان لمطابخ السكر شدة مفرد يوثى بتوقيع كريم عن النائب ، ثم أستقر ذلك مضافا لمن يتحدث على الأغوار من النائب أو غيره .

قلت : أما سائر أرباب الوظائف من الأمراء المستقر مثلهم بالحضرة السلطانية : كرأس نوبة ، وأمير مجلس ، وأمير سلاح ، وأمير اخور ، وأمير جاندار ، وأستادار المباشرة ، وأستادار الصحبة ، وشاة الشراب خاناه ، والباشكير ، ومقدم المالك ونحوهم ، فلا وجود لهم هناك . وإنما يكون للنائب مثلهم من أجناده كغيره من سائر الأمراء .

الصنف الثاني

(الوظائف الديوانية ؛ وهي عشر وظائف)

(منها) الوزارة - وهي تارة تلورتبة صاحبها بأن يكون جليل القدر، كما إذا كان قد تقدمت له ولاية وزارة بالديار المصرية أو نحو ذلك فيصرح له بالوزارة ، وتارة تقصُر رتبته عن ذلك فيطلق عليه ناظر المملكة الشامية ، ولا يُسمع له من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية باسم الوزارة ، وإن كان الجارى على السنة العامة إطلاق لفظ الوزير عليه . وكيفما كان فإنما يوليه السلطان من الأبواب الشريفة . إن كان وزيرا كتب له تقليد، وإن كان ناظرا للملكة كتب له مرسوم . قلت : وقُلَّ أن

يلبها أرباب السيوف، فإن وقع ذلك آحتاج معه إلى ناظر مملكة كما يكون ناظر الدولة مع الوزير ربّ السيف بالديار المصرية .

(ومنها) كتابة السرّ - ويعبر عن متوليها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس، ولا يقال فيه : صاحب دواوين الإنشاء كما في الديار المصرية . على أنها تضاهي كتابة السر بالديار المصرية في الرئاسة ورفعة القدر . وموضوعها على نحو ما تقدّم في الديار المصرية . وكيفما كان فإنما يؤتى من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ويحترز السلطان فيها على أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم ليطلع به بخصيات أمور المملكة وما يحدث بها مما لعل النائب قد يخفيه عن السلطان . وبديوانه تُكتب الدست وتُكتب الدّرج كما بالديار المصرية، ويقال إنه كان عدّة تُكتب الدست في الأيام الناصرية ابن قلاوون نفرين وتُكتب الدّرج جماعة يسيرة، ثم زاد الأمر كما في الديار المصرية . وولايات تُكتب الدست وتُكتب الدّرج بتواقيع كريمة عن النائب دون الأبواب الشريفة .

وأخبرني بعض أهل دمشق العارفين بأحوال المملكة أن كاتب السرّ في الزمن المتقدم لم يكن يحضر دار العدل مع النائب، وإنما كان يحضر تُكتب الدست فقط فيوقعون بما يحتاج إليه في المجلس وينصرفون إلى كاتب السرّ فيخبرونه بما أتفق، وكاتب السرّ يجتمع بالنائب في أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط، وكان كاتب السرّ ربما دأب على الموقّعون فيما يقع بدار العدل فيلحقه بعض الخلل . فلما ولي كتابة السرّ القاضي ^(١) سعى السعي العظيم حتى أذن له في الحضور بدار العدل والتوقيع فيه، واستمر ذلك إلى الآن .

(ومنها) نظر الجيش - وموضوعه التحدث في الإقطاعات : إما في كتابة مِرَبَّعات تُكْتَب بما يعينه النائب من الإقطاعات المتوفرة عن أربابها بالموت ونحوها وتكملها بخطوط ديوانه، ويجهزها النائب إلى الأبواب الشريفة ليضمها الخط الشريف السلطاني، وتحمل إلى ديوان الجيوش بالديار المصرية فتجعل شاهداً محمداً فيه، وتكتب منه مِرَبَّة، بمقتضاها يخرج المنشور على نظيرها كما تقدمت الإشارة إليه . وإما في إثبات المناشير الشريفة التي تصدر إليه من الأبواب السلطانية بديوانه حفظاً لحسابات المقطعين . وليس بالشام كتابة مناشير أصلاً، بل ذلك مختص بالأبواب السلطانية، فإن كان فيه كتابة الدست وقَّع بدار العدل في جملة الموقعين وإلا فلا . وإذا كان موقعا جلس مجلس ناظر الجيش وإن كان متأخرا في القُدْمَة عن غيره من الموقعين، وولاية هذا الناظر من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف . وبديوانه عدة مباشرين من صاحب ديوان وكتاب وشهود، ولا يتم عن النائب بتوقيع كريمة . وناظر الجيش هو الذي يحكم في المحاكمات الديوانية كما يحكم فيها مستوفى المرتجع بالديار المصرية .

(ومنها) نظر المهمات الشريفة - وهي وظيفة جلييلة يكون متوليها من أرباب الأقلام رفيقا لشاد المهمات المتقدم ذكره من أرباب السيوف : من النائب أوحاجب الحجاب أو غيرهما . وهي تارة تضاف إلى الوزارة، وتارة تفرد عنها بحسب ما يراه السلطان . وولايتها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف . وبهذا الديوان عدة مباشرين من كتاب وشهود، فيوليم النائب بتوقيع كريمة .

(ومنها) نظر الخاص - وموضوعه هناك التحدث فيما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار وما يجري مجراها، وربما أضيف نظرها للوزير .

(ومنها) نظر الخزانة، ويعبر عنها بالخزانة العالية . ومتوليها يكون رفيقا للخازندارية من الطواشيّة المتقدم ذكرهم . فيكون متحدثا في أمر التشاريف والخلع وما معها، وهى وظيفة جليلة يوليها النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان النورى - وقد صار النظر عليه معدوقا بالنائب، يقوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأعلام .

(ومنها) نظر الجامع الأموى - وفي الغالب يكون مع قاضى القضاة الشافعى .

(ومنها) نظر خزائن السلاح - وموضوعها كما فى الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيوت - وموضوعها على ما تقدم فى الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وأخبرنى بعض الدمشقيين أن هذه الوظيفة آسم على غير مسمى لا حقيقة لها ولا مباشرة، لعدم البيوت السلطانية هناك .

(ومنها) نظربيت المال - وحكمها كما فى الديار المصرية .

(ومنها) نظردىوان الأسرى - وهو التحدث فى الأوقاف التى تُقدى بها الأسرى .

(ومنها) نظر الأسواق - وموضوعها كما تقدم فى الديار المصرية من التحدث

على سوق الرقيق والخليل ونحوها، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظرمراكز البريد - ومتوليها يكون رفيقا لأمير اخور البريد المتقدم ذكره، وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الحوطات - وهو على نحو من استيفاء المرتجع بالديار المصرية فى تحصيل الأموال السلطانية .

أما الحكم فى المحاكمات الديوانية، فيختص بناظر الجيش كما تقدم ذكره .

(ومنها) نظر المسابك - ومتولىه يكون رفيقا لشاد المسابك المتقدم ذكره في أرباب السيوف، وولايته عن النائب بتوقيع كريم . قلت : ويضم إلى كل نظر من هذه الأنظار مباحثرون : من شهود وغيرهم ، يكتب لذوى الصوب منهم تواقع كريمة عن النائب بوظائفهم ، في أنظار أخرى لا يسع استيفائها : كنظر المواريث الحشرية وغيرها . ومما أهمل من الأنظار بها نظر مطابخ السكر كما أهمل شدها لإضافتها إلى المتحدث في الأغوار على ما تقدم ذكره في الكلام على وظائف أرباب السيوف .

الصف الثالث

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية ؛ وهى عدة وظائف أيضا)
 (منها) قضاء القضاة - وبها أربع قضاة من المذاهب الأربعة على الترتيب المتقدم في الديار المصرية . فأعلام الشافعى وهو المتحدث على الموازع الحكيمة والأوقاف وأكثر الوظائف ؛ ويختص بتولية التواب في النواحي والأعمال بجميع أعمال دمشق حتى في غزّة ، ويليه في الرتبة الحنفى ، ثم المالكى ، ثم الحنبلى . وكان استقرار القضاة الأربعة بها بعد حدوث ذلك بالديار المصرية ، لكن لم تستقر الأربعة دفعة واحدة كما وقع في الديار المصرية في الدولة الظاهرية ببيرس ، بل على التدرج . وأقدمهم فيها الشافعى ؛ وولاية الأربعة من الأبواب الشريفة بتواقيع شريفة .
 (ومنها) قضاء العسكر - وموضوعه كما تقدم في الديار المصرية ، وبها قاضيا عسكر شافعى ، وحنفى ، وليس بها مالكى ، ولا حنبلى ؛ وولايتهما من الأبواب الشريفة السلطانية بتواقيع شريفة .

(ومنها) إفتاء دار العدل - وهى على ما تقدم في الديار المصرية أيضا ، وبها مفتيان شافعى وحنفى ؛ كما في قضاء العسكر ، وولايتهما عن النائب بتواقيع كريمة .

(ومنها) وكالة بيت المال - وموضوعها ما تقدم في الديار المصرية ، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ووكالته مشبوة على^(١) الحكام مُنْقَذَة . ولكن لاجلوس له بدار العدل كما يجلس وكيل بيت المال بالديار المصرية ، إلا أن يكون كاتب دست فيجلس بواسطتها في جملة الموقعين لا بالوكالة .

(ومنها) رقابة الأشراف - والأمر فيها كما في الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وقد تقدم في الكلام عليها في الديار المصرية أنه كان من حقها أن تُورَد في جملة وظائف أرباب السيوف إذ يكتب في توقيع متوليها "الأميرى" وإن كان متعما ، وإنما التغليب العرفي اقتضى ذكرها في جملة وظائف أرباب الأقلام .

(ومنها) مشيخة الشيوخ - وموضوعها كما في الديار المصرية : من التحدث على جميع الخوانق والفقراء بدمشق وأعمالها ، والعادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه الشميصاتية بدمشق ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) الحسبة - وهي كما تقدم في الديار المصرية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . ولا مجلس لمتوليها بدار العدل كما يجلس محتسب القاهرة بدار العدل في الديار المصرية ، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق .

(ومنها) الخطابات المعدوقة بنظر النائب - فيولى فيها بتواقيع كريمة حتى إنه ربما كتب عنه التواقيع بخطابة الجامع الأموى ، وإن كان الغالب أنها لاتولى إلا من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ، وقد صارت مضافة لقاضى القضاة الشافعى .

(ومنها) التداريس - وتختلف باختلاف حال من يتولاها في الرقعة وغيرها ، وولايتها عن النائب بتواقيع كريمة غالبا والله أعلم .

(١) الأولى ثابتة ، وقد جرى في التعديل العرف العامى .

الصنف الرابع

(من الوظائف بِدِمَشْقَ وظائف أرباب الصناعات)

(فمنها) رئاسة الطَّبِّ ، ورئاسة الكَحَّالِينَ ، ورئاسة الجِرائِحية - وكلُّها على نحو ما تقدّم في الديار المصرية ؛ وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب . أما مهتارية البيوت وما في معناها ، فهناك تختص بالنائب لقيامه مقام السلطان واختصاص البيوت به .

الصنف الخامس

(وظائف زعماء أهل الذمة بها)

وفيها بطرك النصارى اليَعاقِبة ، وبَطْرُكُ النصارى المَلِكانيّة ، ورئيس اليهود القرآيين والربّانيين ، ورئيس السامرة ، ولكنه مقيم بمدينة نَابِلُس التي هي مدينتهم المعظمة عندهم ، وإلى طُورها حَجَّهم ، وله نائب مقيم بِدِمَشْقَ . قلت : وربما كتب عن السلطان من الأبواب الشريفة بتواقيع ومراسيم بالحل^(١) على ما تصدر ولايته عن النائب ، وربما كتب به عنه ابتداء .

الجملة الثالثة

(في ترتيب النيابة بها)

وتوافق ترتيب السلطنة في الديار المصرية في بعض الأمور، وتخالفها في بعض . وكان عادة النائب بها في المواكب أن يركب في العسكر من الأمراء ومقدمي الحلقة وأجنادها في كل يوم آشين ونخيس ، ويخرجون إلى سُوق الخيل تحت القلعة فيسيرون

(١) المراد بثبيت ما يصدر عن النائب كما تفيد البقية .

خيولهم ، وتعرض عليهم خيول المنادة وغيرها من آلات السلاح ونحوها ، وينادى بينهم على العقار من الدور والضّياح وغيرها ، ولا يتعدون سوق الخيل إلى غيره . أما الآن فإنهم قد رفضوا التسيير بسوق الخيل ، وصار النائب يخرج بالسكر إما إلى ميدان ابن أتابك ، وإما إلى قبة يلغا : قبل دِمَشق ، وإما إلى المزة غربى دِمَشق ، وإما إلى القابون شمالى دِمَشق على حسب ما يختاره ، فيسيرون هناك بدلا من تسييرهم بسوق الخيل ، ولا يسيرون بسوق الخيل إلا في يوم مهم من حضور رُسل من بعض الملوك الغرباء ونحو ذلك . فإذا فرغوا من التسيير عند ارتفاع النهار، عاد النائب في موّكه حتى يأتى باب الحديد من أبواب القلعة ، ويقف الأمراء على ترتيب منازلهم ، وينادى بينهم على العقار والدور وغيرها ، وكذلك الخيول والسلاح . ثم يسير النائب إلى دار النيابة ، فإن كان فى الموكب سَمَاط تقدم الأمراء فى خدمته ، ويترجل مماليكه من سوق الخيل ، ثم الأمراء على القرب من دار النيابة على ترتيب منازلهم حتى يكون ترجل المقدمين على باب دار النيابة ، ويبقى النائب راكبا وحده حتى ينتهى إلى قاعة عظيمة معدة للجلوس فى الموكب بمثابة الإيوان الذى يجلس فيه السلطان بقاعة الجبل بالديار المصرية ، ويصدر بها كرسي من خشب مغشى بغشاء من الحرير الأطلس الأصفر ، وعليه سيف نمجاه ، مسند إلى صدره ، فيجلس النائب بصدر القاعة على مقعد مختص به ، لا يشاركه أحد فى الجلوس عليه ، وخلفه بثميمخ منصوب وراء ظهره كعادة الأمراء ، ويكون الكرسي المذكور على شماله على نحو ثلاثة أذرع منه ، ويجلس قاضى القضاة الشافعى عن يمين النائب على نحو ثلاثة أذرع منه ، مسندا ظهره إلى جدار صدر القاعة ، ويجلس قاضى القضاة الحنفى عن يمينه ، وقاضى القضاة المالكى عن يمين الحنفى ، وقاضى القضاة الحنبلى عن يمين المالكى ، وقاضى العسكر الشافعى عن يمين قاضى القضاة الحنبلى ، وقاضى العسكر

الحنفى عن يمين قاضى العسكر الشافعى ، صفًا مساويا للنائب فى صدر القاعة ؛ ويجلس كاتب السر من جهة يسار النائب ملاصقا لمقعده الذى هو جالس عليه ، جاعلا يمينه إلى جدار صدر القاعة وظهره إلى جهة الكرسى . بانحراف قليل لمواجهة النائب ؛ وكتب الدست بالميسرة تحته بالتدريج على حسب القدمة صفًا ممتدًا من كاتب السر إلى جهة باب القاعة ؛ ويجلس الوزير مقابل كاتب السر من الجانب الآخر على سمت يمين قاضى القضاة الحنبلى ؛ ويجلس ناظر الجيش تحته ، وكتب الدست بالميمنة تحت ناظر الجيش على الترتيب بالقدمة أيضا ، آخذا من الوزير إلى جهة باب القاعة ، فيصير كاتب السر والوزير ومن يسامتهما صفين متقابلين ؛ ويجلس أتابك العساكر من الأمراء فى رأس الميمنة خلف الوزير على بعد ، وبقية الأمراء المقدمين تحته على الترتيب بحسب القدمة ، وأمراء الطليخاناه بالميمنة تحتهم كذلك حتى يصيروا صفًا آخر كصف الوزير ومن معه ؛ ويجلس المتقدمون من أمراء الميسرة خلف كاتب السر ومن معه وتحتهم الطليخاناه على الترتيب المتقدم صفًا آخر مقابلا لصف الميمنة ، بحيث يكون أوله خارجا عن يسار الكرسى . ويكون بين النائب ورأس الميمنة نحو خمسة أذرع ، وبينه وبين رأس الميسرة نحو عشرة أذرع ، وتقف طائفة من أمراء العشرات والخمسات ومقدمى الحلقة بالميمنة صفًا مستقيما خلف الأتابك والأمراء الجلوس فى صفه على ترتيب منازلهم ، ويقف مماليك النائب عن يسار الكرسى صفا آخذا من خلف أول مقدمى الميسرة بانحراف فيه إلى خلف ، وطائفة من مقدمى الحلقة خلف الأمراء الجالسين فى الفرجة الواقعة بينهم وبين مماليك النائب ؛ ويجلس حاحب الحجاب أمام النائب فى آخر صفى الموقعين الممتدين من كاتب السر والوزير بميلة إلى صف الميمنة ؛ ويقف بقية الحجاب خلفه ، وتقبأ الجيش خلفهم . وترفع القيص فيتناولها تقبأ الجيش ويوصلونها إلى

حاجب الحجاب فيتناولها ويقوم فيوصلها إلى كاتب السر فيفترقها على الموقعين ،
ويبتدئ هو بالقراءة فيقرأ ما بيده من القصص ويوقع عليها بما يرسم به النائب ،
ثم يقرأ الذى يليه ، ثم الذى يليه إلى آخر صفه . فإذا فرغ ذلك الصف من القراءة ،
قرأ من هو أول الصف الذى فى جانب الوزير ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه إلى آخر
الصف . فإذا انتهت القراءة ، قام القضاة ومن فى صفهم وكاتب السر والوزير وناظر
الجيش وسائر أرباب الأقاليم فينصرفون . فإذا آنقضى المجلس وأنصرف القضاة
ومن معهم ، مد السباط ، ويجلس النائب على رأس السباط والأمراء ومقدمو الحلقة
على ترتيب منازلهم فيما يكون ، ثم يرفع السباط ويتحول النائب إلى طرف الإيوان
فيجلس فيه ، ويجلس قدامه كاتب السر وناظر الجيش وتأتى المحاكمات فيفصلها ،
ويقرا عليه كاتب السر ما يرفع فى ذلك المجلس من القصص ، ويتكلم مع ناظر الجيش
فيما يتعلق بأمر الجيش والإقطاعات ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف كاتب
السر وناظر الجيش .

قال فى "مسالك الأبصار" : وتزيد عساكر الشام على غيرها ركوب يوم السبت .
قلت : وهو ركوب مجتدد ليس فيه دار عدل ولا سباط . على أنه ربما أهمل
حضور دار العدل ومد السباط فى يومى الاثنين والخميس أيضا كما فى الديار المصرية .

المقصود الثانى

(فى ترتيب ماهو خارج عن حاضرة دمشق ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ماهو خارج عن حاضرتها من النيابات والولايات)

قد تقدم أن لدمشق أربع صفقات : غربية (وهى الساحلية) . وقبيلية .
وشمالية . وشرقية . ففى الصفقة الأولى وهى الغربية نيابتان وخمس ولايات .

فأما النيابةان :

فالأولى - (نيابة غزّة) أو مقدمة العسكر بها على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .
ومعاملاتها بالدنانير والدرهم النقرة، وصنّجتها في الذهب والفضة كصنّجة الديار المصرية . وكان بها فلوس كل ثمانين منها بدرهم ، ويعبر عن كل أربعة منها بحبة ، ثم راجت بها الفلوس الجدد في أوائل الدولة الناصرية "فرج بن برقوق" ولكن كل ستة وثلاثين فلساً منها بدرهم ، ورطلها سبعمائة وعشرون درهما بالدرهم المصري ، وأواقيّه اثنتا عشرة أوقية ، كل أوقية ستون درهما . ومكيلاتها معتبرة بالغرارة . وكل غرارة من غرائرها ثلاثة أراذب بالمصري ، وقياس قماشها بالذراع المصري ، وأرضها معتبرة بالفدان الإسلامي والفدان الرومي على ما تقدّم في دمشق ، وجيوشها مجمعة من الترك ومنّ في معنّاهم ومن العرب والتركمان ، وبها من الوظائف النيابة ، ثم تارة يصرح لنائبها بنبابة السلطنة . وبكل حال فنائبها أو مقدّم العسكر بها لا يكون إلا مقدّم ألف ، وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومنّ في معنّاهم ، وفيها من وظائف أرباب السيوف الحويية ، وحاجبها أمير طبلخاناه ، وولاية المدينة وولاية البر ، وشدّ الدواوين ، والمهمندارية ، ونقابة النقباء وغير ذلك .
وبها من الوظائف الديوانية كاتب درّج ، وناظر جيش ، وناظر مال ، وولايتهم من الأبواب السلطانية ؛

ومن الوظائف الدينية قاض شافعي ، وولايته من قبيل قاضي دمشق إذا كانت غزّة تقدّمة عسكر وإلا فهي من الأبواب السلطانية ، وقاض حنفي قد استحدث ، وولايته من الأبواب السلطانية ، وبها المحتسب ، ووكيل بيت المال ومنّ في معنّاهم ، وكلهم نواب لأرباب هذه الوظائف بدمشق كما في القاضي الشافعي ، وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل .

الثانية - (نيابة القدس) - وقد تقدّم أنها كانت في الزمن المتقدم ولايةً صغيرة . وأن النيابة استحدثت فيها في سنة سبع وسبعين وسبعائة ، ونيابتها إمرة طبلخاناه ، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السلام ، ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدّم في معاملة دمشق ، ورطلها ^(١) وكيلها معتبر بالغرارة ، وغرارتها ^(١) وقياس قماشها بذراع ^(١) ، وبها من الوظائف غير النيابة ولاية قلعة القدس ، وواليها جندي ، وكذلك ولاية المدينة ، وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشق ، ثم أخبرني بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والي القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقرّ نيابة ، وكذلك ولاية بلد الخليل عليه السلام . وبها قاض شافعيّ ومحتسب نائبان عن قاضي دمشق ومحتسبها ، وكذلك جميع الوظائف بها نيابات عن أرباب الوظائف بدمشق .

وأما الولايات :

فالأولى - (ولاية الرملة) - وكانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصغار بها جندي ، ثم استقرّ بها في دولة الظاهر برقوق كاشف أمير طبلخاناه ، ثم حدثت مكاتبته عن الأبواب السلطانية بعد ذلك .

الثانية - (ولاية لد) - وقد كانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون ولايةً صغيرة بها جندي ، ثم أضيفت إلى الرملة حين استقرّ بها الكاشف المقدم ذكره .

الثالثة - (ولاية قاقون) - وكان بها في الأيام الناصرية جندي ، ثم أضيفت إلى كاشف الرملة عند استقراره .

الرابعة - (ولاية بلد الخليل عليه السلام) - وكان في الأيام الناصرية بها جندي ، ثم أضيفت إلى القدس حين استقرّ النائب به .

(١) بياض بالأصل في هذه المواضع ولعلها مثل الذي تقدّم في غرة لتقارب الأمكنة .

الخامسة - (ولاية نابلس) - وهي باقية على حالها في الانفراد بالولاية ، وواليتها تارة يكون أمير طبلخاناه ، وتارة أمير عشرين ، وتارة أمير عشرة .
وأما الصفقة الثانية وهي القبلية ، فيها نيابتان وثمان^(١) ولايات .
فأما النيابتان :

فالأولى منهما (نيابة قلعة صرّخد) - قال في " التعريف " : قد يجعل فيها من ينحطّ عن رتبة السلطنة أو تكون نيابة معظمة ، وذكر نحوه في " مسالك الأبصار " وكأنه يشير إلى ما كانت عليه في زمانه ، فإنه من جملة من كان نائباً بها العادل كتبغا بعد خلعه من السلطنة ، ثم أنتقل منها إلى نيابة حماة . وأعلم أن صرّخد المذكورة قلعة لها وِالٍ خاص . قال في " التثقيف " : وهي من القلاع التي يستقل نائب الشام بالتولية فيها .

الثانية - (نيابة عجلون) - وقد أشار في " التثقيف " إلى أنها نيابة حيث قال : وعجلون إن كانت نيابة فإن نائب الشام يستقل بالتولية فيها ، ولم تجرله عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة .

وأما الولايات :

فالأولى - (ولاية بيسان) - وواليتها جُندى .
الثانية - (ولاية بانياس) - وواليتها جُندى تارة ، وتارة إمرة عشرة .
الثالثة - (ولاية قلعة الصبيّة) - وكانت ولاية صغيرة وبها جندى ثم أضيفت إلى بانياس .

الرابعة - (ولاية الشعرا) - وكانت في الأيام الناصرية مضافة إلى بانياس ، وهي الآن ولاية مفردة ، وواليتها جُندى .

(١) أى ان جعلت الصلت ولاية مفردة وإلا فسبعة .

الخامسة - (ولاية أَدْرَعَات) - قال في "التعريف" : وبها مقر ولاية الحاكم على جميع الصفقة ؛ ثم الحاكم على جميع الصفقة تارة يكون طبلخاناه وتكون ولايته عن نائب الشام ، وتارة يكون مقدم ألف فتكون ولايته من الأبواب السلطانية . أخبرني بعض كتّاب دَسْت دِمَشَق أنه إن كان مقدم ألف ، سُمِّي كاشف الكُشَاف وإن كان طبلخاناه سُمِّي إلى الولاية وهو الغالب .

السادسة - (ولاية حُسْبَان والصَّلْت) - من البقاء . أخبرني القاضي ناصر الدين ابن أبي الطيب كاتب السريدِمَشَق أنها إن جمعا لوال واحد كان أمير طبلخاناه أو أمير عشرة ، وإن أفرد كل منهما لوال كان جُنْدِيَا .

السابعة - (ولاية بَصْرَى) - ووالها جُنْدِيَا أيضا .

الصفقة الثالثة الشمالية . وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات .

فأما النيابة (فنيابة بَعْلَبَك) - وقد كانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون إمرة عشرة ، ثم صارت الآن إمرة طبلخاناه ، وبكل حال فنياب الشّام هو الذي يستقل بولايتها ، وربما وليت من الأبواب السلطانية . قال في "التعريف" : ولها ولاية خاصة يعنى غير ولاية المدينة ؛ وقد كانت في الدولة الأيوبية مفردة في الغالب بملك بمفردها .

وأما الولايات :

فالأولى - منها (ولاية البَقَاع البَعْلَبَكِي) - قال في "التعريف" : وهاتان الولايتان^(١) الآن منفصلتان عن بَعْلَبَك ، وهما مجموعتان لوال واحد جليل مفرد بذاته ؛ وهما على ما ذكره من جمعهما لوال واحد إلى الآن ، إلا أنه تارة يليهما مقدم حلقة وتارة جندى .

(١) أى ولاية "البقاع البعلبكى" و"البقاع العزىزى" فكان المناسب أن يذكر البقاع العزىزى أيضا كما سبق له ذكرهما في الأعمال وعقبهما بعبارة التعريف هذه فتنبه .

الثانية - (ولاية يَروُت) - وولايتها الآن إمرة طبلخاناه .

الثالثة - (ولاية صَيِّدا) - قال في "مسالك الأبصار" : وهي ولاية جليلة ، وهي على ما ذكره إلى زماننا ، تارة يليها أمير طبلخاناه ، وتارة أمير عشرة .

الصفقة الرابعة الشرقية . وبها ثلاث نيابات وأربع ولايات .

فأما النيابات :

فالأولى - (نيابة حِصَص) - وهي نيابة جليلة ، وقد كانت في الأيام الناصرية فما بعدها مقدمة ألف . قال في "التتيف" : ثم استقرت طبلخاناه بعد ذلك . قال :

ونائب قلعتها من الممالك السلطانية . وقد تقدم أن الذِّكر في الزمن القديم كان لها دون حماة ، وقد كانت في الدولة الأيوبية مملكة منفردة تارة ، وتضاف إلى غيرها أخرى .

الثانية - (نيابة مِصْياف) - وقد تقدم أنها كانت أولا من مضافات أطربُلُس في جملة قلاع الدعوة ، ثم أضيفت بعد ذلك إلى دِمَشْق ، واستمرت على ذلك إلى الآن . ونيابتها تارة تكون إمرة طبلخاناه ، وتارة تكون إمرة عشرة ، وبكل حال فتوليها من الأبواب السلطانية . ونائبها لا يكتب له إلا في المهمات دون خلاص الحقوق أيضا .

الثالثة - (ولاية صَيِّدا)^(١) - والغالب في نيابتها أن تكون مقدمة ألف ، وأشار في "التتيف" إلى أنها قد تكون طبلخاناه . قال في "التعريف" : وبقليتها بحرية وخیالة وكشافة وطوائف من المستخدمين .

(١) تقدمت في "الصفقة الثالثة الشمالية" . على أنه لم يتكلم على الولايات الأربع التي ذكرها في ترجمة هذه الصفقة ، وقد ذكر في التعريف الجملة التي نقلها عنه في الكلام على الرحلة التي دلهها من الصفقة الرابعة وجعل ولاياتها أربعا ولاية حصص ، وولاية سلية ، وولاية قارا ، وولاية تدمر . وبالجملة فهذا الموضع يحتاج إلى تحرير .

الضرب الثاني

(من الخارج عن حاضرة دمشق العربان؛ والإمرة بها في بطون من العرب)

البطن الأولى

(آل ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية)

وهم بنو ربيعة بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دغفل، بن جراح؛ وقد تقدم نسبه مستوفى مع ذكر الاختلاف فيه في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى. قال في "العبر": وكانت الرياسة عليهم في زمن الفاطميين: خلفاء مصر لبني جراح، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح، وكان من إقطاعه الرملة. ومن ولده حسان وعلي ومحمود وحرار، وولي حسان بعده فعظم أمره وعلا صيته، وهو الذي مدحه الرباعي الشاعر في شعره. قال الحمداني: وكان مبدأ ربيعة أنه نسا في أيام الأتابك زنكي صاحب الموصل، وكان أمير عرب الشام أيام طغتكين السلجوقي صاحب دمشق. ووفد على السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأكرمه وشاد بذكره. قال: وكان له أربعة أولاد، وهم فضل، ومرا، وثابت، ودغفل. ووقع في كلام المسيحي أنه كان له ولد اسمه بدر. قال الحمداني: وفي آل ربيعة جماعة كثيرة أعيان لهم مكانة وأبهة، أول من رأيت منهم مائع بن حديثة وغنام بن الطاهر، على أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب. قال: ثم حضر بعد ذلك منهم إلى الأبواب السلطانية في دولة المعز أيك وإلى أيام المنصور قلاوون زامل ابن علي بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن علي، وأحمد بن حمي وأولاده وإخوته، وعيسى ابن مهنأ وأولاده وأخوه؛ وكلهم رؤساء أكابر وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم، إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم.

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلَّ : لَا قَيْتُ سَيِّدَهُمْ * مثلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا السَّارِي
ثم قال : إلا أنهم مع بُعْدِ صِيَّتِهِمْ قَلِيلٌ عَدْدُهُمْ . قال في "مسالك الأبصار" :
لكنهم كما قيل :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا * فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّا الْكَرَامُ قَلِيلٌ
وَمَا ضَرًّا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزُ وَجَارٍ أَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

ولم يزل لهم عند الملوك المكانة العلية والدرجة الرفيعة، يحلُّونهم فوق كيوان،
ويُنَوِّعون لهم أجناس الإحسان . قال الحمداي : وقد فرج بن حية على المعز أبيك
فأنزله بدار الضيافة وأقام أياماً، فكان مقدار ما وصل إليه من عينٍ وقاش وإقامة - له
ولمن معه - ستة وثلاثين ألف دينار. قال : وأجتمع أيام "الظاهر بيبرس" جماعة
من آل ربيعة وغيرهم فحصل لهم من الضيافة خاصة في المدة السيرة أكثر من هذا
المقدار، وما يعلم ما صُرف على يدي من بيوت الأموال والخزائن والغلال للعرب
خاصة إلا الله تعالى .

وَأَعْلَمُ أَنَّ آلَ ربيعة قد آنقسوا إلى ثلاثة أنفاذ، هم المشهورون منهم ومن عداهم
أتباعهم وداخلون في عددهم، ولكل من الثلاثة أمير مختص به .

الفخذ الأول - (آل فضل) - وهو فضل بن ربيعة المقدم ذكره، وهم رأس
الكل وأعلامهم درجة وأرفعهم مكانة . قال في "مسالك الأبصار" : وديارهم من
حِمَصَ إلى قلعة جَعْبَرٍ، إلى الرَّحْبَةِ، آخذين على شِقِّ الفرات وأطراف العراق حتى
ينتهي حدّهم قبلة بشرق إلى الوشم، آخذين يسارا إلى البصرة، ولهم مياه كثيرة
ومناهل مورودة :

وَلَهَا مَنَهْلٌ عَلَى كُلِّ مَاءٍ * وَعَلَى كُلِّ دِمْنَةٍ آثَارٌ

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : نقلا عن محمود بن عرام ، من بنى ثابت بن ربيعة : أن آل فضل تشعبوا شعبا كثيرة ، منهم آل عيسى ، وآل فرج ، وآل سميطة ، وآل مسلم ، وآل علي . قال : وأما من ينضاف إليهم ويدخل فيهم ، فرعب ، والحريث ، وبنو كلب ، وبعض بنى كلاب ، وآل بشار ، وخالد حمص ، وطائفة من سنيس وسعيدة ، وطائفة من بربر وخالد الحجاز ، وبنو عقيل من كدر ، وبنو رميم ، وبنو حن ، وقران ، والسراجون . ويأتيهم من البرية من عريه غالب ، وآل أجود ، والبطنين ، وساعدة ، ومن بنى خالد آل جناح ، والصبيات من مياس ، والجبور ، والدغم ، والقرسة ، وآل منيحة ، وآل بيوت ، والعامرة ، والعلمجات من خالد ، وآل يزيد من عابد ، والدوامر ، إلى غير هؤلاء ممن يخالفهم في بعض الأحيان . قال المقر الشهابي بن فضل الله : على أنى لا أعلم في وقتنا من لا يؤثر صحبتهم ويظهر محبتهم . وسيأتى ذكر قبائل أكثر هذه العربان التي تنضاف إليهم في مواضعها إن شاء الله تعالى .

قال في "مسالك الأبصار" : وأسعد بيت في وقتنا آل عيسى ، وقد صاروا بيوتا : بيت مهنّا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى ، وبيت حارث بن عيسى ، وأولاد محمد ابن عيسى ، وأولاد حديثه بن عيسى ، وآل هبة بن عيسى . قال : وهؤلاء آل عيسى في وقتنا هم ملوك البر فيما بعد وأقرب ، وسادات الناس ولا تصلح إلا عليهم العرب . وأما الإمرة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولى من الأبواب السلطانية ، ويكتب له تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفا أطلس أسوة النواب إن كان حاضرا ، أو يجهز إليه إن كان غائبا ، ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام أمير عليهم ، وتصدر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب له تقليد ولا مرسوم . قال في "مسالك الأبصار" : ولم يصرح لأحد منهم بإمرة على العرب

يتقليد من السلطان إلا من أيام العادل أبي بكر : أنحى السلطان صلاح الدين يوسف
 ابن أيوب ، أمر منهم حديثه يعنى ابن عتبة^(١) بن فضل بن ربيعة ، والذي ذكره
 قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون في تاريخه أن الإمرة عليهم في أيام العادل
 أبي بكر بن أيوب كانت لعيسى بن محمد بن ربيعة ، ثم كان بعده ماتع بن حديثه
 ابن عتبة بن فضل^(١) ، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة ، وولي عليهم بعده ابنه مهنا ، وحضر
 مع المظفر قطز قتال هولاكو ملك التتار وانتزع سلمية من المنصور بن المظفر
 صاحب حماة وأقطعها له ؛ ثم ولي الظاهر بيبرس عند مسيره إلى دمشق لتشييع
 الخليفة المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن ماتع ووفر له الإقطاعات على حفظ
 السابلة وبقى حتى توفي سنة أربع وثمانين وستمائة ؛ فولى المنصور قلاوون مكانه ابنه
 مهنا بن عيسى ، ثم سافر الأشرف " خليل بن قلاوون " إلى الشام فوفد عليه مهنا
 ابن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليهم ، وبعث بهم إلى قلعة الجبل بمصر فأعتقلوا
 بها وبقوا في السجن حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عند جلوسه على تخت سنة
 أربع وتسعين وستمائة ورجع إلى إمارته ؛ ثم كان له في أيام الناصر بن قلاوون نصرة
 واستقامة تارة وتارة ، وميل إلى التتر بالعراق ، ولم يحضر شيئا من وقائع غازان ؛ ووفد
 أخوه فضل بن عيسى على السلطان الملك الناصر سنة اثنتي عشرة وسبعائة فولاه
 مكانه وبقى مهنا مشردا ، ثم لحق سنة ست عشرة بخدابندا ملك التتار بالعراق فأكرمه
 وأقطعه بالعراق وهلك خدابندا في تلك السنة فرجع مهنا إلى الشام ، وبعث ابنه
 مجدا وموسى وأخاه محمد بن عيسى إلى الملك الناصر ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، ورد
 مهنا إلى إمارته وإقطاعه ؛ ثم رجع إلى موالة التتر فطرد السلطان الملك الناصر آل
 فضل بأجمعهم من الشام وجعل مكانهم آل علي ، وولي منهم على أحياء العرب محمد

(١) في الأصل هنا غيبة ، والذي في الجزء الأول (ص ٣٢٥) عتبة ، فليتنبه .

أَبْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى، وَصَرَفَ إِقْطَاعَ مَهْنَا وَأَوْلَادَهُ إِلَيْهِ وَإِلَى أَوْلَادِهِ، وَأَقَامَ الْحَاسِبَ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً . ثُمَّ وَفَدَ مَهْنَا عَلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَحْبَةَ الْأَفْضَلِ بْنِ الْمُؤَيَّدِ صَاحِبِ حِمَاةٍ فَرَضَى عَنْهُ السُّلْطَانُ وَأَعَادَ إِمَارَتَهُ إِلَيْهِ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَتَوَفَّى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ؛ وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ سُلَيْمَانُ فَبَقِيَ حَتَّى تَوَفَّى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ عَقِبَ مَوْتِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ؛ وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ سَيْفُ بْنُ فَضْلٍ فَبَقِيَ حَتَّى عَزَلَهُ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْكَامِلُ "شُعْبَانَ بْنِ قَلَاوُونَ" سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ ، وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَحْمَدُ بْنُ مَهْنَا بْنِ عَيْسَى فَبَقِيَ حَتَّى تَوَفَّى فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ فِي سُلْطَنَةِ النَّاصِرِ "حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ" الْمَرَّةَ الْأُولَى ؛ وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ فَيَاضُ فَبَقِيَ حَتَّى مَاتَ سَنَةَ سِتِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ جَبَّارُ بْنُ جَهَّةِ النَّاصِرِ حَسَنُ فِي سُلْطَنَتِهِ الثَّانِيَةِ ، ثُمَّ حَصَلَتْ مِنْهُ نَفَرَةٌ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ سِتِينَ إِلَى أَنْ تَكَلَّمَ بِسَبِيهِ مَعَ السُّلْطَانِ نَائِبُ حِمَاةٍ يَوْمُئِذٍ فَأُعِيدَ إِلَى إِمَارَتِهِ ؛ ثُمَّ حَصَلَ مِنْهُ نَفَرَةٌ ثَانِيَةَ سَنَةِ سَبْعِينَ فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ "شُعْبَانَ بْنُ حُسَيْنٍ" فَوَلَّى مَكَانَهُ آبَنُ عَمِّهِ زَامِلُ بْنُ مُوسَى بْنِ عَيْسَى فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ ، قُتِلَ فِي بَعْضِهَا قَشْتَمِرُ الْمَنْصُورِيُّ نَائِبُ حَلَبٍ فَصَرَفَهُ الْأَشْرَفُ وَوَلَّى مَكَانَهُ آبَنُ عَمِّهِ مُعِقَّلُ بْنُ فَضْلٍ بْنِ عَيْسَى ، ثُمَّ بَعَثَ مُعِقَّلٌ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ يَسْتَأْمِنُ لَجَبَّارِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ مِنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ فَأَمَّنَهُ ، وَوَفَدَ جَبَّارُ عَلَى السُّلْطَانِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ فَرَضَى عَنْهُ وَأَعَادَهُ إِلَى إِمَارَتِهِ فَبَقِيَ حَتَّى تَوَفَّى سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ ، فَوَلَّى مَكَانَهُ أَخُوهُ قَنَارَةُ ، وَبَقِيَ حَتَّى مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ ، فَوَلَّى مَكَانَهُ مُعِقَّلُ بْنُ فَضْلٍ بْنِ عَيْسَى وَزَامِلُ بْنُ مُوسَى بْنِ عَيْسَى الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُمَا شَرِيكَيْنِ فِي الْإِمَارَةِ ؛ ثُمَّ عَزَلَا فِي سَنَتِهِمَا وَوَلَّى مَكَانَهُمَا

(١) ذَكَرَ فِي الْعَرَبِيِّينَ هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مَقَافِرُ الدِّينِ مُوسَى وَوَفَاتَهُ فِي ٤٢ وَذَكَرَ أَنَّ سُلَيْمَانَ تَوَفَّى فِي ٤٣

وَبَعْدَهُ شَرَفُ الدِّينِ عَيْسَى بْنُ فَضْلٍ وَوَفَاتَهُ فِي ٤٤ .

محمد بن جبار بن مَهْنَأ وهو نَعِيرٌ ، ثم وقعت منه نُفْرَةٌ في الدولة الظاهرية برقوق ، فولى مكانه بعض آل زامل ، ثم أعيد نَعِيرُ المذكور إلى إمرته وهو باق على ذلك إلى الآن ، وهو محمد بن جبار بن مَهْنَأ بن عيسى بن مَهْنَأ بن مَاتِع بن حديثه بن عقبة^(١) ابن فضل بن ربيعة .

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أمراء آل فضل في زمانه ، فذكر أن أمير آل عيسى وسائر آل فَضْلٍ أحمد بن مَهْنَأ ، وأمير بيت فضل ابن عيسى سيف بن فضل ، وأمير بيت حارث بن عيسى قناة بن حارث . ثم قال : أما أولاد محمد بن عيسى ، وأولاد حديثه بن عيسى ، وآل هبة بن عيسى فأتباع .

وذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الجليش في "التشقيف" : أنهم صاروا بيتين : وهما بيت مَهْنَأ بن عيسى وفضل بن عيسى . وذكر من أكابرهم عَسَاف بن مَهْنَأ وأخاه عتقا ، وزامل بن موسى بن مَهْنَأ ، ومحمد بن جبار وهو نَعِيرٌ قبل الإمرة ، وعَوَاد ابن سليمان بن مَهْنَأ ، وعلي بن سليمان بن مَهْنَأ ، وأما بنو فضل بن عيسى فذكر منهم فضل بن عيسى ، ومُعَيْقِل بن فضل ، وقال : كان قبلهما سيف وأبو بكر . ثم قال : ومن لم يكاتب أولاد قِيَاض وبقية أولاد جبار ورقية بن عمر بن موسى ونحوهم .

الفخذ الثاني - (من آل ربيعة آل مرا) - نسبة إلى مرا بن ربيعة ، وهو أخو فضل المتقدم ذكره . قال في "التعريف" : ومنازلهم حَوْرَان . وقال في "مسالك الأبصار" : ديارهم من بلاد الحَيْدُور والجَوْلَان إلى الزرقاء والضليل إن بُصْرَى ، ومُشَرَّقًا إلى الحِترَة المعروفة بحِرَّة كشت قريباً من مَكَّة المعظمة إلى شَعْبَاء إلى نِيرَان مَزِيد إلى الهَضْب المعروف بهضب الرائق ، وربما طاب لهم البر وأمتد بهم المرعى أو أن خَصْب الشتاء فتوسعوا في الأرض وأطالوا عدد الأيام والليالي حتى تعود مَكَّة

المعظمة وراء ظهورهم ، ويكاد سهيل يصير شامهم ، ويصيرون مستقبليين بوجوههم الشام . وقد تشعب آل مرا أيضا شُعباً كثيرة ، وهم آل أحمد بن حمي وفيهم الإمرة ، وآل مسخر ، وآل نبي ، وآل بقرة ، وآل شماء .

ومن ينضاف إليهم ويدخل في إمرة أمراءهم حارثه ، والخاص ، ولأم ، وسعيدة ، ومُدبج ، وقرير ، وبنو صخر ، وزبيد حوران : وهم زبيد صرخد ، وبنو غني ، وبنو عمر قال ، ويأتيهم من عرب البرية آل ظفير ، والمفارقة ، وآل سلطان ، وآل غزى ، وآل برجس ، والحرسان ، وآل المغيرة ، وآل أبي فضيل ، والزرقاق ، وبنو حسين الشرفاء ، ومطين ، وخشم ، وعدوان ، وعنزة . قال : وآل مرا أبطال مناجيد ، ورجال صناديد ، وأقوال قل كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا ، لا يعد منهم عترة العبيسي ، ولا عرابة الأوسى ، إلا أن الحظ يحظ بنى عمهم [بأكثر] مما يحظهم ، ولم تزل بينهم نوب الحرب ، ولهم في أكثرها الغلب . قال الشيخ شهاب الدين أبو التناء محمود الحلبي رحمه الله : كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالسا على سطح باب الإصطبل السلطاني دمشق إذ أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة ، والحياد المطهمة ، وعليهم الكرغندات الحمر الأطلس المعدني ، والديباج الرومي ، وعلى رؤوسهم البيض ، مقلدين بالسيوف ، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور ، وأمامهم العبيد تميل على الركائب ، ويرقصون براقص المهارى ، وبأيديهم الجنايب ، التي إليها عيون الملوك صورا ، ووراءهم الطعان والحول ، ومعهم مغنية لهم تعرف بالحضرمية طائرة السمعة ، سافرة من الهودج وهي تغنى :

وَكَمَا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءٍ شَحْمَةً * لَيَالِي لَاقِينَا جُدَامًا وَحَمِيرًا
وَلَمَّا لَقِينَا عُصْبَةً تَغْلِيَّةً * يَقُودُونَ جُرْدًا لِلنِّسَةِ ضَمْرًا
فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّعْجَ بِالنَّعْجِ بَعْضُهُ * بَعْضُ أَبْتَعِيدَانُهُ أَنْ تَكْسُرَا
سَقَيْنَاهُم كَأْسًا سَقُونَا بِمِثْلِهِ * وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

وكان الأمر كذلك ، فإن الكسرة أولا كانت على المسلمين ثم كانت لهم الكرة على التتار ، فسبحان منطق الألسنة ومُصَرَّف الأقدار .

الفخذ الثالث - من آل ربيعة (آل علي) - وهم فرقة من آل فضل المقدم ذكرهم ينتسبون إلى علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال في "مسالك الأبصار" : وديارهم مرج دِمَشَقْ وِغُوطُهَا ، بين إخوتهم آل فضل وبني عمهم آل مرا ، ومتنهم إلى الحوف والجأبنة ، إلى السكة ، إلى البرادع . قال في "التعريف" : وإنما نزلوا غُوطَةَ دِمَشَقْ حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا وبقي جار الفرات في تلايب التتار . قال في "مسالك الأبصار" : وهم أهل بيت عظيم الشأن مشهور السادات ، إلى أموال جمة ونعم ضخمة ومكانة في الدول عليه . وأما الإمرة عليهم فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنه كان أميرهم في زمانه رَمْلَةَ بن جمار بن محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ثم قال : وقد كان جده أميرا ثم أبوه . قلد الملك الأشرف "خليل بن قلاوون" جده محمد بن أبي بكر إمرة آل فضل ، حين أمسك مهنا بن عيسى . ثم تقلدها من الملك الناصر أخيه أيضا حين طرد مهنا وسائر إخوته وأهله . قال : ولما أمر رَمْلَةُ كان حَدَثَ السن ففسده أعمامه بنو محمد بن أبي بكر ، وقدموا على السلطان بتقاديمهم وتراموا على الأمراء ، وخواص السلطان ، وذوى الوظائف فلم يحضرهم السلطان إلى عنده ولا أدنى أحدا منهم ، فرجعوا بعد معاينة الحين ، بَحْثِي حِينٍ ، ثم لم يزالوا يتربصون به الدوائر وينصبون له الحبال والله تعالى يقيه سيئات ما مكروا حتى صار سيد قومه ، وفرقد دهره ، والمُسَوَّد في عشيرته ، المبيّض لوجوه الأيام بسيرته . وله إخوة ميامين كبار ، هم أمراء آل فضل وآل مرا . وقد ذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الجيش في "التثقيف" : أن الأمير عليهم في زمانه في الدولة الظاهرية برقوق كان عيسى بن زيد بن جمار .

البطن الثانية

جَرَم (بفتح الجيم وسكون الراء المهملة) . قال الحمداني : وأسمه ثعلبة وجَرَمَ أَسْمَ أمه ، وقد تقدّم ذكر نسبه في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى .
قال في "مسالك الأبصار" : وهم ببلاد غَزَّةَ والدَّارُوم مما يلي الساحل إلى الجبل وبلد الخليل عليه السلام . قال الحمداني : وجَرَمُ المذكورة شَمِجَان ، وقهران ، وجِيَّان . قال : والمشهور منهم الآن جذيمة ، ويقال إن لهم نسباً في قريش ، وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم . وقال آخرون : بل من جذيمة بن مالك بن حنبل ابن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر . ثم قال : وجذيمة هذه هم آل عَوْسَجَةَ ، وآل أحمد ، وآل محمود ، وكلهم في إمارة شاور بن سنان ثم في بنيه ، وكان لسنان المذكور أخوان فيهما سُودْدٌ : وهما غانم وخضر . ومن جذيمة جابع (؟) الرايديين وبنو أَسْلَمَ ، ويقال إن أَسْلَمَ من جُدَام لا من جذيمة ولكنها اختلطت بها ؛ ومن جذيمة أيضاً شبل ، ورضيعة جَرَمَ ونيفور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفثة وكور جرم ، وموقع . وكان كبيرهم مالك الموقعي ، وكان مقدماً عند السلطان صلاح الدين بن أيوب وأخيه العادل ؛ ومنهم بنو غور ، ويقال إنهم من جرم بن جرمن من سنيس ؛ ومن هؤلاء العاجلة ، والصمان ، والعبادلة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ؛ ومن بنو جميل بنو مقدم ؛ ومن بنو غور آل نادر ؛ ومن بنو غوث بنو بها ، وبنو خولة ، وبنو هرماس ، وبنو عيسى ، وبنو سهيل . وأرضهم الدَّارُوم ، وكانوا سفراء بين الملوك ، وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببني فهيد ثم اختلطوا بهم . قال الحمداني : فهذه جرم الشام وحلفاؤهم ، ومن جاورهم ولادهم .

وأما الإمرة عليهم . فقد ذكر في "التعريف" : أن الإمرة على عرب غَزَّةَ في زمانه كانت لفضل بن حجي ، وعرب غَزَّةَ هم جَرَمُ المذكورون ، والمعروف أن

جَرْمًا يَكُونُ لَهُمْ مَقْدَمٌ لَا أَمِيرَ . وَعَلَيْهِ جَرَى الْقَاضِي تَقِيَّ الدِّينِ بْنُ نَاطِرٍ الْجَيْشِ
فِي "التَّثْقِيفِ" وَذَكَرَ أَنَّ مَقْدَمَهُمْ فِي زَمَانِهِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِرُقُوقِ كَانَ عَلَى
أَبْنِ فَضْلٍ .

البطن الثالث

تَعْلَبَةٌ مِنْ طَيِّئٍ أَيْضًا . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَدِيَارَهُمْ مِمَّا يَلِي مِصْرَ إِلَى
الْحَرُوبَةِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سِيَاقَةِ الْكَلَامِ عَلَى جَرْمٍ أَنَّ تَعْلَبَةَ هَذِهِ مِنْ بَقَايَا تَعْلَبَةِ الْمُتَقَلِّينَ
إِلَى مِصْرَ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى عَرَبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّ تَعْلَبَةَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ تَعْلَبَةُ
أَبْنِ سَلَامَانَ ، وَأَنَّ سَلَامَانَ بَطْنٌ مِنْ بَطُونِ طَيِّئٍ ، وَأَنَّ تَعْلَبَةَ الْمَذْكُورِينَ بَطْنَانِ :
وَهُمَا دَرَمًا وَزُرَيْقٌ أَبْنَا عَوْفِ بْنِ تَعْلَبَةَ وَقِيلَ أَبْنَا تَعْلَبَةَ لَصُلْبِهِ ، وَأَنَّ أَسْمَ دَرَمًا عَمْرُو ،
وَدَرَمًا أَسْمَ أُمِّهِ فُغْلَبَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ مِنْ دَرَمًا الْجَوَاهِرَةِ وَالْحَنَابِلَةَ وَالصُّبَيْحِيِّينَ .
قَالَ الْحِمْدَانِيُّ : وَتَعْلَبَةُ الشَّامِ مِنْ دَرَمًا آلُ غِيَاثِ الْجَوَاهِرَةِ وَمِنْ الْحَنَابِلَةِ وَمِنْ بَنِي وَهْمٍ
مِنَ الصُّبَيْحِيِّينَ ، وَمِنْ أَخْلَافِهِمْ فِرْقَةٌ مِنَ النِّعَمِيِّينَ وَمِنْ الْعَارِ وَالْجَمَانَ ؛ وَتَقَدَّمَ
فِي الْكَلَامِ عَلَى تَعْلَبَةِ مِصْرَ أَيْضًا أَنَّ بِكُلِّ مِنْ تَعْلَبَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ قَوْمًا مِنْ خِنْدِفٍ وَقَيْسٍ
وَمُرَادٍ وَبَيْنَ .

قُلْتُ : وَلَمْ يَكُنْ فِي "التَّعْرِيفِ" وَلَا "التَّثْقِيفِ" لِتَعْلَبَةِ الْمَذْكُورِينَ ذِكْرٌ لِعَدَمِ
مَنْ يَكْتُبُ مِنْهُمْ إِذْ لَمْ يَكُونُوا فِي مَعْنَى مَنْ تَقَدَّمَ .

البطن الرابع

بَنُو مَهْدِيٍّ (بِفَتْحِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْهَاءِ وَالْدَالِ الْمَهْمَلَةِ) قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى
عَرَبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّهُمْ أَخُو نَحْمٍ وَهُوَ جُدَامُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ
الْعَارِبَةِ ، إِمَّا مِنْ عَمْرٍو بْنِ سَبِيٍّ مِنَ الْقَحْطَانِيَّةِ كَمَا يَقْتَضِيهِ كَلَامُ "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ"

وإما من عُدرة من قُضاعة من حِيز بن سبأ من القحطانية أيضا كما صرح به في "التعريف" . قال في "التعريف" : ومنازلهم البلقاء . وقال في "مسالك الأبصار" : منازلهم البلقاء إلى ناس إلى الصوان ، إلى علم أعفر . قال الحمداني : ومن بني مهدي المشابطة الذين منهم أولاد عسكر ، والعناترة ، والنترات ، واليعاقبة ، والمطارنة ، والعفير ، والرؤيم ، والقطاربة ، وأولاد الطائية وبنو دوس ، وآل يسار ، والمحاربة ، والسماعة ، والعجاردة من بني طريف ، وبنو خالد والسلمان والقرانسية والدرالات والجمالات والمساهرة والمعاورة ، وبنو عطاء ، وبنو مياد وآل شبل ، وآل رويم ، وهم غير الرويم المتقدم ذكرهم ، والمحارقة وبنو عياض ، ومنهم طائفة حول الكرك يأتي ذكرهم في الكلام على عرب الكرك . قال الحمداني : ويجاورهم بالبقاء طائفة من حارثة ولهم نسب بقرى بني عقة .

وأما الإمرة عليهم فقد ذكر في "التعريف" أن إمرتهم مقسومة في أربعة منهم ، لكل واحد منهم الربع ، ولم يسم أمراء زمانه منهم . وذكر في "التثقيف" مثل ذلك ، وسمى أمراءهم في زمانه . فقال : وهم بربوب ذئب بن محفوظ العنسي ، وسعيد بن بحري بن حسن العنسي ، وزامل بن عبيد بن محفوظ العنسي ، ومحمد بن عباس بن قاسم بن راشد العسري .

البطن الخامسة

زبيد (بضم الزاي) . قال في "مسالك الأبصار" : وهم فرق شتى . وذكرهم بالشام وغيره ولم يتعرض لنسبهم في أي أحياء العرب . وذكر الجوهرى أن زبيداً اسم قبيلة ، ولم يزد على ذلك . قلت : والموجود في كتب التاريخ عد زبيد من

بطون سعد العَشيرة من مَدَجِّ بن كَهْلان بن سبيل من العرب العاربة، وهم عرب اليمن على ما تقدّم ذكره . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن بالشام منهم فِرْقَةٌ بَصْرَخَدَ، وفِرْقَةٌ بَغُوطَةُ دِمَشْقَ . وذكر في "التعريف" : منهم زُبَيْدُ المَرَجِ وزُبَيْدُ حَوْرَانَ وزُبَيْدُ الأحلاف . وذكر مثله في "التثقيف" : ومقتضى الجمع بين كلامه في "المسالك" و"التعريف" : أن تكون زُبَيْدٌ خمسَ فِرَقٍ : زُبَيْدُ المَرَجِ ، وزُبَيْدُ الغوطة ، وزُبَيْدُ صَرَخَدَ ، وزُبَيْدُ حَوْرَانَ ، وزُبَيْدُ الأحلاف وليس كذلك ، بل زُبَيْدُ الغوطة وزُبَيْدُ المَرَجِ واحدة ، فإن المراد غوطة دِمَشْقَ ومَرَجُهَا ، وهما متصلان والتازلون فيما كالفرقة الواحدة ، وزُبَيْدُ صَرَخَدَ هي زُبَيْدُ حَوْرَانَ كما صرح به في موضع آخر من "مسالك الأبصار" : إذ صَرَخَدُ من جملة بلاد حَوْرَانَ . أما زُبَيْدُ الأحلاف فديارهم بالقرب من الرّجبة بجوار آل فَضْل . قال الحمداني : والذين بَصْرَخَدَ منهم آل مَيَّاسَ ، وآل صِفْيَى ، وآل بَرَّةَ ، وآل محسن ، وآل جحش ، وآل رجاء . والذين بالمَرَجِ والغوطة آل رجاء ، وآل بدال ، والدوس ، والحريث ، وهم في عداد آل ربعة المتقدم ذكرهم وذكر معهم المشاركة جيرانهم . ثم قال : وإمارة زُبَيْدَ هؤلاء في نَوَفَلٍ ، وليس للمشاركة إمارة ، ولكن لهم شيوخ منهم ، وأمر الفريقين إلى نواب الشام ليس لأحد من أمراء العرب عليهم إمارة ، وديارهم متصلة من المَرَجِ والغوطة إلى أُمٍّ أو عَالٍ إلى الدريشدان ، وعليهم الدرك وحفظ الأطراف .



وأما العرب المستعربة ، (وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ! على ما تقدّم بيانه في الكلام على عرب الديار المصرية) ، فالمشهور بأعمال دِمَشْقَ منهم قبيلة واحدة ، وهم بنو خالد عَرَبُ حِصَصَ . قال الحمداني : وهم يدعون النسب إلى خالد

أَبْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالنِّسْبِ عَلَى اقْتِرَاضِ عَقِبِهِ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَلَعَلَّهُمْ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ مِنْ مَخْزُومٍ، وَكَفَاهُمْ ذَلِكَ نَفَارًا أَنْ يَكُونُوا مِنْ قَرِيْشٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نِسْبِ مَخْزُومٍ فِي قَرِيْشٍ فِي الْكَلَامِ عَلَى بَنِي خَالِدٍ فِي جُمْلَةِ عَرَبِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا .

قُلْتُ : وَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ عَدَّهُ فِي "التَّعْرِيفِ" مِنْ عَرَبِ الشَّامِ غَزِيَّةً، وَلَمْ يَتَحَذَّرْ لِي هَلْ هِيَ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَابَةِ أَوْ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ . فَلِذَلِكَ ذَكَرْتُهَا بِمَفْرَدِهَا . وَقَدْ ذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَبَغْدَادَ، وَفِيَا بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ، وَلَمْ يَذْكُرْ وَاحِدًا مِنْهُمَا مَنَازِلَهُمْ مِنَ الشَّامِ، بَلْ ذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ مَنَازِلَهُمْ بِالْبَرِّيَّةِ وَالْعِرَاقِ خَاصَّةً . وَقَالَ : هُمْ بَطُونٌ وَأَنْخَازٌ، وَلَهُمْ مَشَايِخُ مِنْهُمْ مَنْ وَقَدَّ عَلَى السَّلَاطِينِ فِي زَمَانِنَا، وَأَشَارَ فِي "التَّعْرِيفِ" إِلَى أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ عَدَمُ الطَّاعَةِ، وَمِنْهُمْ أَحْلَافٌ لآلِ فَضْلِ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ وَهُمْ غَالِبٌ وَآلُ أَجُودَ وَالْبُطَيْنِ، وَسَازَكْرَهَا بِبَطُونِهَا وَمَنَازِلِهَا وَمِيَاهِهَا مِنَ الْبَرِّيَّةِ فِي جُمْلَةِ عَرَبِ الْحِجَازِ .

النِّيَابَةُ الثَّانِيَّةُ

(مِنْ نِيَابَاتِ السُّلْطَنَةِ بِالْمَمْلُوكِ الشَّامِيَّةِ، نِيَابَةُ حَلَبَ، وَفِيهَا جَمَلَتَانِ)

الْجُمْلَةُ الْأُولَى

(فِي ذِكْرِ أَحْوَالِهَا فِي الْمَعَامَلَاتِ وَنَحْوِهَا)

أَمَّا الْأَثْمَانُ الْمُتَعَامَلُ بِهِمَا مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالْدِرَاهِمِ وَالصَّنَجَةِ، فَعَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ، وَلَمْ تُرْجَ الْفُلُوسُ الْجُدُدُ فِيهَا إِلَى الْآنَ وَإِنَّمَا يُتَعَامَلُ فِيهَا بِالْفُلُوسِ الْقَدِيمَةِ، وَرِطْلُهَا سَبْعُمِائَةٍ وَعِشْرُونَ دِرْهَمًا، وَأَوَاقِيُّهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ أَوْقِيَّةً، كُلُّ أَوْقِيَّةٍ سِتُونَ دِرْهَمًا، وَفِي أَعْمَالِهَا رَبْعًا زَادَ الرُّطْلُ عَلَى ذَلِكَ، وَتَعْتَبَرُ مِكْيَلَاتُهَا بِالْمَكْوُكِ

في حاضرتها وسائر أعمالها؛ والمكوك المعبر في حاضرتها سبع وبيات بالكيل المصري،
وأما في نواحيها وبلادها، فيختلف اختلافًا متباينًا في الزيادة والنقص . قال
في "مسالك الأبصار" : والمعتدل منها أن يكون كل مكوكين ونصف غرارة^(١)،
وما بين ذلك كل ذلك تقريبًا، ويقاس القماش بها بذراع يزيد على ذراع القماش
المصري سُدس ذراع، وهو أربعة قراريط؛ وتعتبر أرض دورها بذراع العمل
كما في الديار المصرية وأرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في دمشق؛
ونحارج أرض الزراعة بها كما في دمشق؛ وأسعارها على نحو سعر دمشق إلا في الفواكه
فإنها في دمشق أرخص لكثرتها بها .

الجملة الثانية

(في ترتيب مملكتها، وهي على ضربين)

الضرب الاول

(ترتيب حاضرتها)

أما جيوشها فعلى ما تقدم في دمشق من آشتال عسكرها على الترك والجرس
والروم والروس وغير ذلك من الأجناس المشابهة للترك، وأنقسامها إلى الأمراء
المقدمين والطبلخانات والعشرات ومن في معناهم من العشرينات والخمسات، وكذلك
أجناد الحلقة ومقدموها؛ وإقطاعاتها على نحو ما تقدم في دمشق في المقدار؛ وربما
زاد إقطاع الحلقة بها على إقطاع الحلقة بالديار المصرية بخلاف إقطاعات الأمراء
بها فإنها لا تساوى إقطاعات الأمراء بالديار المصرية .

وأما وظائفها فعلى أربعة أصناف .

(١) تقدم ذلك في (ص ١١٨) من هذا الجزء فأنظره .

الصنف الأول

(وظائف أرباب السيوف؛ وهي عدة وظائف)

(منها) نيابة السلطنة - وهي نيابة جليلة في الرتبة الثانية من نيابة دمشق ، ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنائب السلطنة الشريفة ، ولا يقال فيه كافل السلطنة كما يقال لنائب دمشق ، ويكتب عن نائبها التواقيع الكريمة بأكثر وظائف حلب وأعمالها ، وكذلك يكتب عنه المربعات الجيشية بالديار المصرية ، والمناشير الإقطاعية على حكمها كما تقدم في دمشق ، وكذلك يكتب على كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد ، ويزيد على نائب دمشق بسرحين يسرحهما للصيد ، الأولى منهما يسرحها في بلاد حلب من جانب الفرات الغربي يتصيد فيها الغزلان ، يقيم فيها نحو عشرة أيام ، والثانية وهي العظمى يعبر فيها الفرات إلى بر الجزيرة شرق الفرات ، ويتنقل في نواحيها مما هو داخل في مملكة الديار المصرية وما حولها ، يتصيد فيها الغزلان وغيرها من سائر الوحوش ، وقيم فيها نحو شهر .

(ومنها) نيابة القلعة بحلب - وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة بها ، وليس لنائب السلطنة على القلعة ولا على نائبها حكم كما تقدم في قلعة دمشق ، وعادة نائبها أن يكون أمير طبابخانه ، وتوليتهما من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف ، وفيها من الأجناد البحرية المعدن لحراستها نحو أربعين نفسا ، مقيمون بها لا يظعنون عنها بسفر ولا غيره ، يجلس منهم في كل نوبة عدة في الباب الثاني منها من حين فتح الباب في أول النهار وإلى حين قفله في آخر النهار ، وبها الحرس في الليل ، وضرب الطبل على مضى كل أربع درج كما تقدم في قلعة دمشق .

(ومنها) المَجُوبِيَّة - والعادة أن يكون بها أربعة مُجَّاب. أحدهم مقدّم ألف: وهو حاجب المَجَّاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة في المكاتب وغيرها بأمر حاجب بحلب كحاجب المَجَّاب بدمشق، وهو ثاني نائب السلطنة في الرتبة ولا يدخل أحد دار النيابة راكبا غير النائب وغيره، وهو نائب الغيبة إذا خرج نائب السلطنة في مهمٍّ أو متصدِّد أو غير ذلك؛ وإليه تَرُدُّ المراسيم السلطانية بقبض نائب السلطنة إذا أراد السلطان القبض عليه، ويكون هو المتصدّي لحال البلد إلى أن يُقام لها نائب، والثلاثة الباقون إما ثلاث طبليخانات، أو طبليخانتان وعشرة، أو ما في معنى ذلك، وولاية حاجب المَجَّاب والحاجب الثاني من الأبواب الشريفة السلطانية بغير تقليد ولا مرسوم، ومن عداهما ولايته عن نائب حلب، وفيها آثنان واحد بالميمنة وواحد بالميسرة، فالذي في الميمنة في الغالب يكون أمير عشرة وربما كان أمير خمسة، والذي بالميسرة جنديّ من أجناد الحلقة، وولايتهما عن النائب كل منهما بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ الأوقاف - وهي بها رتبةٌ جليّة أعلى من شدّ الأوقاف بدمشق، وعادتها مقدمة ألف أو طبليخاناه، تُؤلّى من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف. كذا أخبرني بعض أهلها؛ ومتوليها يتحدّث على سائر أوقاف المملكة الحلبية.

(ومنها) المهمندارية - وموضوعها على ما تقدّم في الديار المصرية ودمشق، وبها آثنان: فأحدهما تارة يكون أمير طبليخاناه وتارة يكون أمير عشرة، والآخر جنديّ حلقة، وولاية كل منهما بكل حال عن النائب بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ الدراوين - وموضوعها كما تمّ - تم في الديار المصرية ودمشق، وعادته إمرة عشرة، وربما وليها جنديّ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ مراكر البريد - وموضوعها كما تقدّم في دِمَشْقَ ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما كان مقدّم حلقة أو جنديا ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) ولاية المدينة - وموضوعها التحدّث في الشرطية كما تقدّم في الديار المصرية ودِمَشْقَ ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما وليها مقدّم حلقة ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) شدّ الأقواد - وموضوعها التحدّث على الأموال التي تُساق قوداً من المملكة في كل سنة ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما وليها مقدّم حلقة ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

قلت : وسائر وظائف الأمراء أرباب السيوف المستقرّ مثلهم بالحضرة السلطانية كرأس نوبة وأمير مجلس ومن في معنهما ممن يجرى هذا المجرى المختص بالنائب يكون له مثلها من أجناده لقيامه مقام السلطان هناك كما تقدّم في دِمَشْقَ .

وأما الوظائف الديوانية بها لأرباب الأقلام .

(فمنها) الوزارة - ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنظر المملكة ليس إلا ، ولا يصرح له بأسم الوزارة بحال ، وإن كان الجارى على السنة العامة تلقب متوليا بالوزير ، ولم تجر العادة بأن يتولاها إلا أرباب الأقلام ، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ، ولديوان هذا النظر عدّة مباشرين أتباعاً لناظرها كصاحب الديوان والمستوفى والكاتب والشهود وسائر فروع الوزارة ، والنائب يولّى كلّاً من هؤلاء المباشرين بتواقيع كريمة .

(ومنها) كتابة السر - ويعبر عن متوليا في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بصاحب ديوان المكاتبات بحلب ، ولا يُسمَح له بصاحب ديوان الإنشاء بحلب

كما في دِمَشْقَ، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ؛ وبديوانه كُتَاب
الدست و كُتَاب الدَّرَج كما في دِمَشْقَ والديار المصرية .

(ومنها) نظر الجيش - والحكم فيه كما تقدم في دِمَشْقَ من كتابة المربعات بما
يُعَيِّنُه النائب من الإقطاعات وتجهيزها للأبواب الشريفة لَتُشْمَلْ بالخط الشريف
وتخلَّد شاهدًا بديوان الجيوش بالديار المصرية ، وكذلك إثبات ما يصدر إليه من
المناشير من الأبواب الشريفة ؛ وولايته من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نظر المال - وهو بمعنى الوزارة كما في دِمَشْقَ إلا أنه لا يطلق على متوليه
وزير البتة ، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ولديوانه كُتَاب أَتْبَاعُ
له : كصاحب الديوان والكُتَاب والشهود وغيرهم ؛ وولاية كل منهم عن النائب
بتواقيع لهم كما في دِمَشْقَ .

(ومنها) نظر الأوقاف - وحكمها التحدث على الأوقاف بمدينة حَلَبَ وأعمالها
كما في دِمَشْقَ ؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .
(ومنها) نظر الجامع الكبير - ومتوليها يكون رفيقا للنائب في التحدث فيه ؛
وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان - وقد تقدم في الكلام على مدينة حَلَبَ أن بها بيمارستانين
أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يُحْصُهُ ؛ وولاية كل منهما
عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الأقواد - ومتوليها يكون رفيقا لشاذ الأقواد المتقدم ذكره في أرباب
السيوف ؛ وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

الصنف الثانى

(الوظائف الدينية)

(فمنها) القضاء - وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما فى دِمَشْق ، إلا أن استقرار الأربعة بها كان بعد استقرارها بدمشق ، وولاية كل منهم من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ويختص الشافعى منهم بعموم تولية التواب بالمدينة وجميع أعمالها ، ويقتصر من عداه على التولية فى المدينة خاصة كما تقدم فى دِمَشْق والديار المصرية .

(ومنها) قضاء العسكر - وبها قاضيا عسكرا: شافعى وحنفى كما فى دِمَشْق ، وولايتهما من الأبواب الشريفة ، ويكتب لكل منهما توقيع شريف .

(ومنها) إفتاء دار العدل - وبها أشان أيضا: شافعى وحنفى كما فى دِمَشْق ، وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) وكالة بيت المال - وولايتها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ، ووكالته عن السلطان بمصر مشبوتة فتنفذ بالملكة كما تقدم فى دمشق .

(ومنها) نقابة الأشراف - والأمر فيها على ما تقدم فى دِمَشْق والديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) مشيخة الشيوخ - والحكم فيها كما فى دِمَشْق ، وعادتها أن يكون متوليا هو شيخ الخانقاه المعروفة بالقديم ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وربما كانت من الباب الشريف .

(ومنها) الحسبة - وهى على ما تقدم فى دِمَشْق والديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، ومتوليا يولى نواب الحسبة بسائر الأعمال الحلية .

(ومنها) الخطابة بالجامع الكبير - وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .
 (ومنها) التداريس والتصدير المعدوقة بنظر النائب - وولايتها عنه بتوقيع كريمة
 على قدر مراتب أصحابها .

الصنف الثالث

(وظائف أرباب الصناعات)

(فمنها) رئاسة الطب ، ورئاسة الكحالين ، ورئاسة الجراحية كما في دمشق
 والديار المصرية ، وولاية كل منهم بتوقيع كريم عن النائب . أما مهتارية البيوت
 ومن في معناهم ففقودون هناك لفقد البيوت السلطانية ، وإنما مهتارية البيوت
 بها للنائب خاصة لقيامه مقام السلطان بها كما في دمشق .

وأما ترتيب النيابة بها فعلى نحو ما تقدم في دمشق ، وعادة النائب بها أن يركب
 في المواكب في يومى الاثنين والخميس من دار النيابة ، ويخرج من باب يقال له باب
 القوس ، في وسط البلد على القرب من القلعة ، ويمر منه إلى سوق الخيل ، ويخرج من
 سور البلد من باب النرب ، ويتوجه إلى مكان يعرف بالميدان ويعرف بالقبة أيضا
 على القرب من المدينة بطريق القرية المعروفة بجبريل ، في جهة الجنوب عن المدينة ،
 ثم يعود من حيث ذهب ، وقد وقف الأمراء في أنتظاره بسوق الخيل ، وآخر
 خيولهم إلى القلعة ورءوس خيولهم إلى الجهة التي يعود منها أمراء الخمسات ، ثم أمراء
 العشرات ومن في معناهم على ترتيب منازلهم ، ثم أمراء الطبلخانات ، ثم الأمراء
 المقدمون . فإذا حاذى النائب في عوده أمراء الخمسات والعشرات في طريقه ، سلم
 وهو سائر فيسلمون عليه ، وهم وقوف في أمكتهم لا يتحركون ولا يرحون عنها . فإذا
 حاذى أمراء الطبلخانات ، سلم عليهم فيتقدمون بخيولهم إليه نحو قصبتى قياس فيسلمون

عليه ثم يعودون إلى أمكنتهم فيقفون فيها . فإذا حاذى الأمراء المقدمين سلم عليهم فيفعلون كما فعل أمراء الطبلخانات من التقدم إليه والسلام عليه ثم يعودون إلى أمكنتهم ، ويمر النائب حتى ينتهي إلى آخر سوق الخيل فيعطف رأس فرسه ويقف مستقبلاً للجهة التي عاد منها في الجنوب والعسكر ، واقفون على حالهم ، وينادى بينهم على العقارات من الأملاك والضياح وكذلك الخيول والسلاح قدر خمس درج ، ثم يمر إلى دار النيابة : فإن كان ذلك الموكب فيه سباط ، سار في خدمته إلى دار النيابة من كان معه في ركوب الموكب من الأمراء الأكابر والأصاغر من الحجاب وغيرهم ، ويمر بباب القلعة وقد نزل نائب القلعة إلى بابها فوقف فيه ممالك في خدمته من الأجناد البحرية المقيمين بالقلعة ، فإذا مر بهم النائب ، سلم على نائب القلعة فيسلم عليه ، ويطلع نائب القلعة إلى قلعته ، ويمر النائب في طريقه إلى دار النيابة ، ويكون ممالك النائب قد ترجلوا عن خيولهم ، ویترجل أمراء الخمسات والعشرات بعدهم ، ثم يترجل الطبلخانات على القرب من دار النيابة ، ثم الأمراء المقدمون على باب دار النيابة ، كل منهم على قدر منزلته ، ويستمر النائب راجعاً حتى يأتي المقعد المذكور^(١) ، وهو مقعد مربع مرتفع عن الأرض عليه قبة مرتفعة ودرازين من خشب دائر ، وفيه دكة من خشب صغيرة في جانبه مرتفعة عن المقعد قدر ذراع ، تسع جالساً فقط معدة لجلوس النائب ، فينزل النائب على باب من أبواب المقعد الثلاثة مخصوص به ، ويجلس حاجب الحجاب على مصطبة لطيفة أعلى السلم خارج الدرازين معدة لجلوسه عن يمين النائب ، ويكون القضاة الأربعة وقاضيا العسكر ومفتيا دار العدل وكاتب السر وكاتب الدست وناظر الجيش قد حضروا قبل حضور النائب وحاجب الحجاب وطلعوا من سلم مخصوص بهم وأخذوا مجالسهم وجلسوا في انتظار النائب ، فإذا حضر قاموا

(١) أى في غير هذه النيابة .

وجلسوا بجلوسه ، ويكون جلوسهم بترتيب خاص يوافق دِمَشْقَ في بعض الأمور ويخالف في بعضها : فيجلس عن يسار النائب قاضي القضاة الشافعيّ ، و يليه قاضي القضاة الحنفيّ ، و يليه قاضي القضاة المالكيّ ، و يليه قاضي القضاة الحنبليّ ، و يليه قاضي العسكر الشافعيّ ، و يليه قاضي العسكر الحنفيّ ، و يليه مفتي دار العدل الشافعيّ ، و يليه مفتي دار العدل الحنفيّ ، و يليه الوزير ، صفّاً مستقيماً ، و يجلس كاتب السر أمام النائب على القرب منه ، و يليه عن يمينه ناظر الجيش ، و يليه كُتّاب الدّست على ترتيب منازلهم حتّى يساؤوا في المقابلة الصفّ الذي فيه قضاة القضاة ومنّ معهم ، و يجلس باقي الموقعين بين الصّفين مقابل حاجب الحُجّاب حتّى يصلوهما فيصيرون كالْحَلَقَةِ المستديرة ، و يقف الحُجّاب الصغار أسفل السُّلّم الذي يَصْعَدُ منه ، و حاجب الحجاب و تُقْبَاء الجيش خلفهم ، والولاة خلف تقبَاء الجيش . فإن كان الأمراء قد حضروا لأجل السّماط ، جلس المقدمون والطبلخاناه على مصاطب معدّة لهم على القرب من المقعد الذي يجلس فيه النائب ومنّ معه من أرباب الأقلام المتقدم ذكرهم ، و تُرَفِّع القِصَصُ فيتناولها تقبَاء الجيش ويتناولونها الحُجّاب فيتناولونها لحاجب الحجاب فيتناولها لكاتب السر فيفرّقها على الموقعين ويُنَقِّي بعضها معه ، فيقرأ ما معه ثم يقرأ من بعده على الترتيب إلى آخر الموقعين . فإذا آنقضت قراءة القصص قام من المجلس القضاة ومنّ في معانهم وكُتّاب الدست فانصرفوا . فإذا آنقضى المجلس ، فإن كان في الموكب سماء قام النائب والأمراء من أما كن جلوسهم فدخلوا إلى قاعة عظيمة قد وضع بصدرها كرسيّ سلطنةٍ مغطّى بالحرير الأطللس الأصفر وعليه نُمُجَاه مسندة إلى صدره كما تقدّم في دِمَشْقَ ، وقد مدّ السّماط السلطانيّ فيجلس النائب على رأس السّماط والأمراء على ترتيب منازلهم في الإمرة والقُدُمة وياً كلون ويرفع السّماط ، ثم يقوم الأمراء فينصرفون ، و يقوم النائب ومعه كاتب السر و ناظر الجيش

فيدخل إلى قاعة صغيرة فيها شباك مطل على دوار بإصطبل النائب، فيجلس في ذلك الشباك، ويجلس كاتب السر وناظر الجيش فينصرفان^(١).

قلت : ويخالف دمشق في أمور :

أحدها - أن كرسي السلطنة ليس بدار العدل حيث يجلس النائب والمتعممون كما في دمشق بل في مكان آخر .

الثاني - أن الأمراء لا يجلسون مع النائب بدار العدل كما في دمشق بل في مكان منفرد .

الثالث - أن النائب يجلس على دكة مرتفعة عن جلسائه بخلاف دمشق، فإنه يجلس مساويا لهم، وكأن المعنى فيه عدم جلوس الأمراء في مجلس النائب بحلب بخلاف دمشق .

الرابع - أن الوزير بحلب يجلس في آخر صف القضاة ومن في معناهم تحت مفتحي دار العدل، وبدمشق يجلس في رأس صف يقابل كاتب السر، وكأن المعنى فيه أن كاتب السر بحلب يجلس أمام النائب فلو جلس الوزير فوفقه لخالف قاعدة جلوس كاتب السر، أو جلس تحته لكان نقصا في رتبته . ولا شك أنه يجلس فوفقه القضاة ومن في معناهم لرفعة رتبة الشرع .

الخامس - أن السباط بحلب لا يمد بدار العدل كما في دمشق بل في مكان آخر مخصوص .

السادس - أن النائب بحلب له موضع مخصوص يجلس فيه للحاكيات ومد السباط، وفي دمشق يجلس على طرف الإيوان بدار العدل بعد رفع السباط منه .

(١) لعله ثم ينصرفان .

الجملة الثانية

(في ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب ؛ وهو ثلاثة أنواع ^(١))

النوع الأول

(ولاية الأمور من أرباب السيوف ؛ وهو ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(النواب ؛ وهم على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو داخل في حدود البلاد الشامية ، وهي إحدى عشرة نيابة)

الأولى - (نيابة قلعة المسلمين المسماة في القديم بقلعة الروم) - وعادة نائبا أن يكون مقدّم ألف يولّي من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .
الثانية - (نيابة الكُحْنا) - ونيابتها تارة تكون طبلخاناه وتارة عشرة ؛ وتوليها من نائب حلب .

الثالثة - (نيابة كَرْكِر) - ونيابتها تارة طبلخاناه وتارة عشرة ؛ وتوليها من نائب حلب .

الرابعة - (نيابة بهسُنْ) - وقد ذكر في " التثقيف " ما يقتضى أن نيابتها طبلخاناه ، لكن أخبرني بعض كُتّاب السربحَلَب أنها ربما كانت مقدمة ألف . وقد ذكر في " التعريف " ما يقتضى ذلك فقال : ولنايها مكانة جليّة ، وإن كان لا يلتحق بنائب البيرة ؛ وبكل حال فتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الخامسة - (نيابة عيّناب) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة أمراء العشرات وذكر أنه رأى بخط ابن النشائي ما يقتضى أنها كانت طبلخاناه . وقد أخبرني

(١) لم يذكر الا نوعين فتنبه .

بعض كُتَّاب سر حلب أنها استقرت مقدمة ألف في أواخر الدولة الظاهرية بقوق، واستقرت توليتها من الأبواب السلطانية .

السادسة - (نيابة الرأوندان) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة نيابات العشرات . وقد أخبرني بعض كُتَّاب السرب بحلب أنها استقر بها آخر جندي، وتوليتها من نائب حلب .

السابعة - (نيابة الدر بساك) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة العشرات . وأخبرني بعض كُتَّاب سر حلب أنها ربما أضيفت لنائب بغراس الآتى ذكرها وأنها الآن بيد ابن صاحب الباز التركاني، وتوليتها من نائب حلب .

الثامنة - (نيابة بغراس) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة العشرات ؛ وولايتها من نائب حلب . وهى بيد أولاد داود الشيباني التركاني من تقادم السنين ؛ وولايتها من نائب حلب .

التاسعة - (نيابة القصير) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة العشرات . وأخبرني بعض كُتَّاب سر حلب أن بها الآن جندياً .

العاشرة - (نيابة الشغروبكاس) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة العشرات ، وقد أخبرت أنها استقر بها آخر جندي، وتوليتها من نائب حلب .

الحادية عشرة - (نيابة شيزر) - كانت في الزمن المتقدم إمرة عشرة يستقل نائب حلب بتوليتها فلما تسلطت عليها العربان بعد وقعة منطاش والناصرى استقرت مقدمة بولاية من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الضرب الثاني

(النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية، وهي قسمان)

القسم الأول

(بلاد الثغور والعواصم وما والاها، والمعتبر فيها ثمان نيابات)

الأولى - (نيابة مَلْطِيَّة) - ونيابتها طبلخاناه، وتوليها من الأبواب السلطانية.

الثانية - (نيابة دَبْرَكِي) - وقد ذكر في "التثقيف" أنها تارة تكون طبلخاناه وتارة تكون عشرة، وبكل حال فولايتهما من نائب حلب.

الثالثة - (دَرَنْدَة) - ونيابتها في الغالب إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، وولايتهما في الحالتين من نائب حلب.

الرابعة - (نيابة الأَبْلُسْتَيْن) - ونيابتها مقدمة ألف من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

الخامسة - (نيابة آيَاس) - وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية - ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

السادسة - (نيابة طَرَسُوس) - ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

السابعة - (نيابة أَدَنَة) - ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

الثامنة - (نيابة سِرْفَنْدْ كَار) - ونيابتها إمرة عشرة، ووقع في "التثقيف" نقلاً عن ابن النشائي ما يقتضي أنها كانت أولاً طبلخاناه، وبكل حال فولايتهما من نائب حلب.

(١) التاسعة - (نيابة سيسى) - وقد تقدم أن فتحها قريب في الدولة الأشرفية "شعبان
 ابن حسين" ولم تزل نيابتها منذ فتحت مقدمة ألف ، وكانت قد جعلت نيابةً
 مستقلةً عند الفتح ثم جعلت بعد ذلك مقدمة عسكر كغزة إلا أن مقدم العسكر بها
 لا يكاتب في خلاص الحقوق بخلاف مقدم العسكر بغزة .

قلت : وبعد ذلك نيابات صغار يولى بها نائب حلب أجنادا ، ولا مكاتب لها
 من الأبواب السلطانية : وهي نيابة قلعة باري كروك ، ونيابة كاورا ، ونيابة كولاك ،
 ونيابة كرزال ، ونيابة كومي ، ونيابة تل حمدون ، ونيابة الهارونيتين ، ونيابة قلعة
 نجة ، ونيابة حيمص ، ونيابة قلعة لؤلؤة .

القسم الثاني

(ما هو في حدود بلاد الجزيرة شرق الفرات ، والمعتبر فيها ثلاث نيابات)

الأولى - (نيابة البيرة) - ونيابتها مقدمة ألف ، وتوليها من الأبواب السلطانية
 بمرسوم شريف .

الثانية - (نيابة قلعة جعبر) - ونيابتها طبلخاناه ، وتوليها من الأبواب السلطانية
 بمرسوم شريف .

الثالثة - (نيابة الرها) - قال في "التثقيف" : وقد جرت العادة أن تكون نيابتها
 طبلخاناه ، ثم استقر بها في الدولة المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعائة
 مقدم ألف .

الصنف الثاني

(من أرباب السيوف بخارج حلب الولاية، وولاية جميعها من نائب حلب

بتواقيع كريمة ، والمشهور منها اثنتا عشرة ولاية)

الأولى - (ولاية برّحلب كما في دمشق) - إلا أن والى برحلب هو والى الولاية .

الثانية - (ولاية كفر طاب) - وواليها جندي .

الثالثة - (ولاية سرمين) - وواليها في الغالب جندي ، وربما كان أمير عشرة .

الرابعة - (ولاية الجبول) - وواليها جندي .

الخامسة - (ولاية جبل سمعان) - وواليها جندي ، وهو مقيم بمدينة حلب ، يحضر

المواكب مع والى المدينة ووالى البر : لقربه منها .

السادسة - (ولاية عزاز) - وواليها جندي ، وربما كان أمير عشرة .

السابعة - (ولاية تلّ باشر) - وكان لها والٍ بمفردها جندي ، ثم أضيفت آحرا

لعيّتاب .

الثامنة - (ولاية منبج) - وواليها جندي .

التاسعة - (ولاية تيزين) - وهى تارة تفرد بوال يكون جنديا ، وتارة تضاف

إلى حارم ، ويقال والى حارم وتيزين .

العاشرة - (ولاية الباب وبزّاعا) - وواليها جندي .

الحادية عشرة - (ولاية دركوش) - وواليها جندي .

الثانية عشرة - (ولاية أنطاكية) - وواليها تارة يكون جنديا وتارة أمير عشرة ،

وأخبرنى بعض كتّاب السرب بحلب أنها ربما أضيفت إلى نائب القصير .

قلت : ووراء ذلك ولايات أحر بلاد الرمن ونحوها لم يتحررلى حالها ، والظاهر أن ولاية جميعها أجناد .

النوع الثاني

(مما هو خارج عن حاضرة حلب العربان)

واعلم أنه قد تقدم في الكلام على آل فضل من عربان دِمَشَق أن منازلهم ممتدة بأراضي الشام إلى الرّجبة وجعبر في جانب الفرات ، وتقدم في الكلام على قواعد الشام المستقرة نقلا عن المقرّ الشهابيّ ابن فضل الله في "التعريف" أن جعبر كانت في زمانه من مضافات دِمَشَق ، وأن الواجب أن تكون من مضافات حلب ، فإنها أضيفت بعده إلى حلب ، وحينئذ فيكون في بلاد حلب بعض عرب آل فضل المتقدم ذكرهم هناك .

والمختص بأعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان .

القبيلة الأولى - (بنو كلاب) . قال في "مسالك الأبصار" : وهم عرب أطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد ، ولا تزال تباع بنات الروم وأبناؤهم من سبائهم ، ويتكلمون بالتركية ويركبون الأكاديش ، وهم عرب غزو ، ورجال حروب ، وأبطال جيوش ، وهم من أشد العرب بأسا ، وأكثرهم ناسا . قال : ولإفراط نكايتهم في الروم صُنفت السيرة المعروفة "بدلمة والبّال" ^(١) منسوبة اليهم بما فيها من ملّح الحديث ولّمح الأباطيل ؛ ولكنهم لا يدينون لأمر منهم يجمع كلمتهم ، ولو أنقادوا لأمر واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقة .

(١) هي السيرة المشهورة الآن "بذات الهمة" وقد طبعت أخيرا بالمطبعة "الحسينية" وانتشرت

في أيدي العامة وهي في بابها لا بأس بها .

قال الحمداني : وكان بنو كلاب قد ظهوروا على آل ربيعة ، وذلك أن الملك الكامل كان طلب من ماتع بن حديشة وغنم بن الطاهر جمالاً يحمل عليها غلاًلاً إلى خلاط يقيوتها بها ، فأحتج بغيبة جماله في البرية ، وكان بعض بني كلاب حاضراً فتكفل له بحاجته من الجمال ووفى له بذلك ، فخذ بها الملك الكامل على ماتع بن حديشة وغنم بن الطاهر وأستوحشاً منه ثم أتياه عند أخذه آمداً ، فوبخهما فخرجا خائفين منه إلى أن فتح دمسق فأتياه بأنواع التقدّم وتقرباً إليه بالخدمة . قال : وكانت بنو كلاب تخدم الملك الأشرف موسى وتصحبه لمتاخمة بلاد الروم .

قال في "مسالك الأبصار" : وكان سلطاننا يعني الناصر محمد بن قلاوون لا يزال ملتفتاً إلى تألف بني كلاب هؤلاء ، وكان أحمد بن نصير المعروف بالثري قد عاث في البلاد والأطراف وأشتد في قطع الطريق ، فأمنه وخلع عليه وأقطعه فأنقادت بنو كلاب للطاعة ، وكان الملك الناصر قد أمر عليهم سليمان بن مهنّا وجعل عليه حفظ جعبر وما جاء رها .

القبيلة الثانية - (آل بشار) - قال في "مسالك الأبصار" : وديارهم الجزيرة والأحص^(١) ببلاد حلب . قال : والأحلاف منهم حالم في عدم الانقياد لأمر واحد حال بني كلاب . ولو اجتمعوا لما أمن بأسهم نقيم على تفرق كلمتهم ، وبسبب جماعتهم لا يزال آل فضل منهم على وجل ، وطالما باثوا وقلوبهم منهم ملأى من الحذر ، وعيونهم وسنى من السهر ، وبينهم دماء ، وهم وبنو ربيعة وبنو عجل حيران ، وديارهم من سنجار وما يدانيها إلى البصرة أو قريب الجزيرة العمرية إلى أطراف بغداد .

(١) هو بهذا الضبط موضع . أنظر معجم البلدان (ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٣) .

النيابة الثالثة

(نيابة أطرابلس، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في ذكر أحوالها ومعاملاتها)

أما معاملاتها فبالدينار والدراهم النقرة على مامر في الديار المصرية ودمشق وحلب؛ وصنعتها كصنعة دمشق في الذهب والفضة؛ وبها الفلوس العتق (١) فلسا بدرهم؛ ورطلها ستمائة درهم كما في دمشق، وأواقه اثنتا عشرة أوقية كل أوقية خمسون درهما. وتعتبر مكيلاتها بالمشوك كما في حلب؛ ويقاس القماش بها بذراع كل عشرة أذرع منه إحدى عشرة ذراعا بالمصري؛ وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما في الديار المصرية وغيرها من البلاد الشامية؛ وتعتبر أرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في دمشق وغيرها من البلاد الشامية؛ ونحارجها على ماتقدم في دمشق وغيرها من بلاد الشام.

وأما جيوشها فن الترك ومن في معناهم على ماتقدم في غيرها من الممالك الشامية، وبها أمير واحد مقدّم ألف غير النائب، وباقي أمراءها طبلخاناه وعشرات وخمسات ومن في معناهم من العشرينات وغيرها؛ وبها من وظائف أرباب السيوف نيابة السلطنة: وهي نيابة جليلة، نائبها من أكبر مقدّمى الألوف، وهو في الرتبة الثانية من حلب كما في حماة؛ وليس بها قلعة يكون لها نائب بل نائب السلطنة هو المتسلم لجميعها والمتصرف فيما لديها من أمر العسكر وغيره.

ومنها المجبوية، وبها ثلاثة حجاب أكبرهم طبلخاناه وهو حاجب الحجاب، والحاجبان الآخران كل منهما أمير عشرة.

(١) بياض في الأصل.

ومنها المهندارية، وشدة الدواوين، وشدة الخصاص، وشدة مراكر البريد، وشدة
المنياء، وتقابة النقباء، وأمير اخورية، وشدة الأوقاف، وتقدمة البريدية، وأمير اخورية
البريد، وولاية المدينة، وتقدمة التريكان وغير ذلك، وكلها يوليها النائب بها .

وبها من أرباب الوظائف الديوانية ناظر المملكة، وناظر الجيش، وصاحب
ديوان المكتبات ؛ وولاية الثلاثة من الأبواب السلطانية بتواقيع شريفة، وكُتَّاب
دست، وكُتَّاب درج، ولايتهم من نائبها .

وبها من الوظائف الدينية قضاء القضاة من المذاهب الأربعة، وقاضيا عسكري
شافعي وحنفي، ومفتيا دار عدل كذلك، ومحتسب، ووكيل بيت المال . إلى غير
أولئك من أرباب الوظائف .

وأما ترتيب النيابة بها فإن النائب يركب في يومى الاثنين والخميس من دار
النيابة، ويخرج في مواعيد من الأمراء والأجناد حتى يأتى ساحل البحر، ثم يعود إلى
دار النيابة ومعه جميع الأمراء والأجناد، خلا الأمير المقدم فإنه لا يحضر معه إلى دار
النيابة . وإذا حضر النائب إلى دار النيابة جلس في دار العدل بصدر الإيوان
وليس بها كرسي سلطنة، ويجلس قاضيان : شافعي وحنفي عن يمينه، ومالكى وحنبل
عن يساره، ووكيل بيت المال تحت القاضي المالكى، ويجلس كاتب السر أمامه
على القرب من يساره وكُتَّاب الدست خلفه، وحاجب الحجاب جالس أمام النائب
على القرب منه، ويأخذ الحجاب الصغار القصص ويناولونها إلى حاجب الحجاب
فيدفعها لكاتب السر، ويفصل المحاكمات، ثم ينفض المجلس ويمتد السَّمَاطُ فيأكلون
وينصرفون كما في غيرها .

الجملة الثانية

(فيا هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضريين)

الضرب الأول

(النواب، وهم على قسمين)

القسم الأول

النيابات بمضافات نفس أطرابلس، وبها خمس نيابات كلهم يكتبون عن الأبواب السلطانية في المهمات ونحوها، دون خلاص الحقوق. فإنه يختص بنائب السلطنة بها.

- الأولى - (نيابة حصن الأكراد) - ونيابته إمرة عشرة.
- الثانية - (نيابة حصن عكار) - ونيابته إمرة عشرة.
- الثالثة - (نيابة بلاطنس) - ونيابتها إمرة عشرة.
- الرابعة - (نيابة صهيون) - ونيابتها إمرة عشرة.
- الخامسة - (نيابة اللاذقية) - ونيابتها إمرة عشرة.

القسم الثاني

(نيابات قلاع الدعوة، وهي ست نيابات خارجا عن مضاف

حيث أضيفت إلى دمشق)

- الأولى - (نيابة الرصافة) - وأصل نيابتها إمرة عشرة.
- الثانية - (نيابة الخواري) - وأصل نيابتها إمرة عشرة.
- الثالثة - (نيابة القُدُوس) - وأصل نيابتها إمرة عشرة.

- الرابعة - (نيابة الكهف) - وأصل نيابتها إمرة عشرة .
 - الخامسة - (نيابة المنيقة) - وأصل نيابتها إمرة عشرة .
 - السادسة - (نيابة القلعة) - وأصل نيابتها إمرة عشرة .
- قلت : وقد أخبرني بعض كتّاب المملكة أن هذه النيابات كلّها آستقر فيها أجناد؛ وبالجملة فإنما يولّى فيها نائب طرابُلُس بكل حال .

الضرب الثانى

(الولاية)

- وبها ولايات ست ، وولاية جميعها أجناد، عن نائب طرابُلُس .
- الأولى - ولاية أنطَرطوس .
- الثانية - ولاية جبة المنيطرة .
- الثالثة - ولاية الظنّين .
- الرابعة - ولاية بُشريه .
- الخامسة - ولاية جبلة .
- السادسة - ولاية أنفة .

النيابة الرابعة

(نيابة حماة، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فى ذكر أحوالها ومعاملاتها)

أما معاملاتها فعلى ما تقدّم فى غيرها من الممالك الشامية من المعاملة بالدنانير والدرهم، وصنّجتها كصنّجة دمشق وحلب وطرابُلُس، تنقص عن الصنّجة المصرية

كل مائة مثقال مثقال وربع ، وكل مائة درهم درهم وربع ، ورطلها سبعة وعشرون درهما بصنعتها ، ومكيلاتها معتبرة بالمشوك كما في حلب وبلادها ، ومكوكها مقدر كل مكوكين وربع مكوك غرارة بالدمشقي ، وقياس قماشها بذراع ^(١) وقياس أرضها بذراع العمل المعروف .

الجملة الثانية

(في ترتيب نيابتها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما بحاضرتها)

أما جيوشها فمن الترك ومن في معناهم ، وبها عدة من أمراء الطبلخانة والعشرات والخمسات ومقدمي الحلقة وأجنادها ، وليس بها مقدم ألف . وقد تقدم في الكلام على قواعد الشام المستقرة أنها كانت بيد بقايا الملوك الأيوبيية إلى آخر الدولة الناصرية " محمد بن قلاوون " في سلطنته الأخيرة . قال في " مسالك الأبصار " : إن صاحبها كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وتكاتب السروسائر الوظائف بها ، وتكتب المناشير والتواقيع من جهته ولكنه لا يمتضى أمرا كبيرا في مثل إعطاء إمرة أو وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر ، وهو لا يجيبه إلا بأن الرأي مآثره ومن هذا ومثله ، وربما كتب له مرسوم شريف بالتصرف في مملكته . قال في " مسالك الأبصار " : ومع ذلك فصاحب مصر متصرف في ولاية صاحبها وعزله ، من شاء ولآه ومن شاء عزله ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن خلع الأفضل ^(٢) محمد بن المؤيد المتقدم ذكره من سلطنتها ، بعد موت

(١) بياض في الأصل .

(٢) أى وأسدت نيابتها في ذلك الحين إلى ملوك أبيه " سيف الدين طغتمش " كما في تاريخ أبي الفداء .

السلطان الملك الناصر وملك آبنه أبي بكر؛ ونائبها من أكابر الأمراء المقدمين، ولكنه في الرتبة دون نائب طرابلس وإن كان مساويا له في المكتبة من الأبواب السلطانية؛ ويظهر ذلك في كتابة المطلقات الجار حيث يذكر نائب طرابلس قبله .
وبها من وظائف أرباب السيوف الحجوبية؛ وبها حاجبان : الكبير منهما طبلخاناه والثاني عشرة؛ والمهندارية ، وبها آثنان وهما جنديان ؛ وشد مراكر البريد، وبه جندي؛ وأمير اخورية البريد ، ومتوليها جندي؛ وولاية المدينة، واليه جندي؛ ونقابة العساكر، وبها آثنان وهما جنديان أحدهما أكبر من الآخر . وجميع أرباب الوظائف يوليهم النائب بها بتوقيع كريمة، وليس بها قلعة لها نائب .

وبها من الوظائف الدينية من أرباب الأقلام أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، وولايتهم من الأبواب السلطانية بتوقيع شريفة، وقاضي عسكر حنفى ، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثلاثة الأخر ولا مفتو دار عدل؛ وبها وكيل بيت المال ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووكالة شرعية ؛ ومحتسب بولاية عن النائب بتوقيع كريم .

وبها من الوظائف الديوانية من أرباب الأقلام كاتب سر، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بصاحب ديوان المكاتبات بحجة المحروسة ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كتّاب الدست وكتّاب الدّرج وولايتهم عن النائب بتوقيع كريمة؛ وبها ناظر المملكة القائم مقام الوزير، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كتّاب وشهود، وولايتهم عن النائب بتوقيع كريمة .
إلى غير ذلك من وظائف صغار يوليهما النائب بتوقيع كريمة .

وترتيب المؤكّب بها أن النائب بها يركب من دار النيابة في يوم الخميس والأثنين وصحبته العسكر من الأمراء وأجناد الحلقة، ويخرج إلى خارج المدينة من قبلها

ويسير في الموكب إلى ضيعة تسمى بقرين على القرب من حماة ، ثم يعود في موكبِهِ حتى يقف بسوق الخيل بمكان خارج المدينة يعرف بالموقف ، وينادى بينهم على الخيول ، وربما نودى على بعض العقارات ، ثم تصيح الجاويشة ، وينصرف عن ذلك المكان ويدخل المدينة ، ويأتى دار النيابة ويدخل أوّل العسكر من داخل باب يعرف باب العُسرة^(١) ، ثم يترجل الناس على الترتيب على قدر منازلهم حتى لا يبقى راكب سوى النائب بمفرده ، ولا يزال راكبا حتى يترجل بشباك بدار النيابة معدّ للحكم فيجلس فيه ويجلس عنده داخل الشباك القضاة الأربعة : الشافعى والحنفى عن يمينه ، والمالكى عن يساره والحنبلّى يليه ، ويجلس الأمراء على قدر منازلهم ، وكاتب السر وناظر الجيش أمام النائب خارج الشباك ، ويقف هناك الحاجبان والمهمندار ونقيب النقباء ، وتُرفع القصص فيقرأها كاتب السر عليه ويرسم فيها بما يراه ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف القضاة ويدخل إلى قبة معدّة لجلوسه ومعه كاتب السر وناظر الجيش والأمراء فيفصل بقية أموره مما يتعلق بالجيش وغيره ، ثم يد السباط بعد ذلك فيأكلون وينصرفون .

الضرب الثانى

(ماهو خارج عن حاضرتها)

وليس بخارجها نيابات ، بل يقتصر فيه على ثلاث ولايات ، ولانها أجناد يوليهـم النائب بها .

الأولى - ولاية برها كما في دِمَشق وحلب .

الثانية - ولاية بارين .

الثالثة - ولاية المعرة . وليس بها عرب ولا تُركان تنسب إليها .

(١) فى الضوء "باب العزة" .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فكما في دِمَشق وغيرها من البلاد الشامية؛ وصنجاتها كصنجاتها ورطلها^(١) وأواقيه اثنتا عشرة أوقية كل أوقية ...^(١) وتعتبر ميكالاتها ...^(١) وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما في غيرها، وتعتبر أرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في غيرها من البلاد الشامية .

وأما جيوشها ووظائفها الديوانية ووظائفها الدينية، فكما في طَرَابُلُس . وأما ترتيب النيابة بها ...^(١)

الجملة الثانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها)

وليس بأعمالها نيابة بل كلها ولايات، يليها أجناد من قبل نائب صَفَد، وهي إحدى عشرة ولاية .

الأولى - ولاية بَرِّها كما في غيرها من الممالك المتقدمة .

الثانية - ولاية الناصرة .

الثالثة - ولاية حَبْرِيَّة .

الرابعة - ولاية تَبْنين وهونين .

الخامسة - ولاية عَثْلِيَّة .

(١) بياض في الأصل في المواضع الأربعة .

- السادسة - ولاية عكا .
- السابعة - ولاية صور .
- الثامنة - ولاية الشاغور .
- التاسعة - ولاية الإقليم .
- العاشرة - ولاية الشقيف .
- الحادية عشرة - ولاية جينين .

النيابة السادسة (نيابة الكرك ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى (فيما هو بمحاضرتها)

أما معاملاتها فكما في غيرها : من المعاملة بالدنانير والدرهم ، وصنعتها ^(١) ورطلها ^(١) وأواقيسه اثنتا عشرة أوقية كل أوقية ^(١) ويقاس قماشها بذراع ^(١) وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما في غيرها ، وتعتبر أرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في غيرها من بلاد الشام ، وكذلك نحراج أرضها .

وأما جيوشها فعلى ما تقدّم في غيرها من الممالك من اجتماعها من الترك ومن في معناتهم ؛ وبها من الأمراء الطليخانات والعشرات والخمسات ومن في معناتهم ، وليس بها مقدّم ألف غير النائب كما تقدّم والمجوية والمهمندارية وتقدمة البريد ، وولاية القلعة ؛ وبها من الوظائف الديوانية ناظر المال وناظر الجيش وكتب درج ؛ وولاية هؤلاء الثلاثة من الأبواب السلطانية .

(١) بياض في الأصل .

(١) وأما ترتيب الموكب بها .

الجملة الثانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضريين)

الضرب الأول

(الولايات، وفيها أربع ولايات)

الأولى - ولاية برها كما في غيرها .

الثانية - ولاية الشوبك .

الثالثة - ولاية زغر .

الرابعة - ولاية معان .

الضرب الثاني

(العرب)

وعرب الكرك فيما ذكره في "مسالك الأبصار" : بنو عتبة، وعقبة من جذام .

قال في "مسالك الأبصار" : وكان آخر أمرائهم شطى بن عتبة (؟) وكان سلطاننا

(١) بياض بالأصل بقدر ستة أسطر .

الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أقبل عليه إقبالا أحله فوق السما كين وألحقه بأمرآء آل فضل وأمرآء آل مرا ، وأقطعه الإقطاعات الجليلة ، وألبسه التشريف الكبير ، وأجرل له الجباء ، وعمر له ولأهله البيت والجباء . وكذلك ممن ينسب إلى عرب الكرك بنو زهير عرب الشؤبك ، وآل عجبون ، والعطويون ، والصونيون وغيرهم .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من المقالة الثانية
(في المملكة الحجازية ، وفيه سبعة أطراف)

الطَّرَفُ الأوَّل

(في فضل الحجاز وخواصه وعجائبه)

أما فضله ففي "صحيح مسلم" من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ! قال : " غَلِظَ الْقُلُوبَ وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ ، وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ " .

قلت : وفي ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه ، وذلك أن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء ، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفات وأحوالا تخصهم ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن أهل الحجاز بالرفقة كما أخبر عن أهل المشرق بالغلظة والجفاء ، وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مهبط الوحي ومنبع الرسالة ، وبه مكة والمدينة اللتين هما أشرف بلاد الله تعالى وأجل بقاع الأرض ، ولكل منهما فضل يخصه يأتي الكلام عليه عند ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأما خواصه فيختص من جهة الشرع بأمرين :

أحدهما - أنه لا يستوطنه مشرك من ذمى ولا معاهد، وإن دخله لم يمكن من الإقامة في موضع منه أكثر من ثلاثة أيام ثم يُصَرَف إلى غيره، فإن أقام بموضع أكثر من ثلاثة أيام، عُرِّر إن لم يكن له عُذر. قال أصحابنا الشافعية: ولو عقد الإمام عقداً لكافر على الإقامة بالحجاز على مسمى بطل العقد ووجب المسمى.

الثاني - أنه لا تُدفن فيه موتاهم وإن دفن أحد منهم فيه نقل إلى غيره.

وأما عجائبه فمنها مقام إبراهيم عليه السلام، وهو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء البيت فأثرت فيه قدماه وصار أثرهما فيه ظاهراً كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو باق على ذلك أمام البيت من جهة الباب إلى الآن.

(ومنها) ما ذكره في "الروض المعطار" من أن أثر قدم إسماعيل عليه السلام بمسجد بنى في حجر فيه أثر عقبه حين رَفَس إبليس برجله عند اعتراضه له في ذهابه مع أبيه للدُّبْح.

(ومنها) حصي الحمار، وهو أنه في كل سنة يرعى الحجاج عند الجمرات الثلاث في أيام منى ما تحصل منه التلألؤ العظيمة على طول المدى، ومع ذلك لم يكن موجوداً بنى منها إلا الشيء القليل على تطاول السنين، يقال إن مهما تُقبِل منها رفع والباقي منها ما لم يتقبل.

الطرف الثاني

(في ذكر حدوده، وأبّداء عمارته، وتسميته حجازاً)

أما حدوده فأعلم أن الحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة ومخاليقها على خلاف في بعض ذلك، يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى، وهو يجملته قطعة من جزيرة العرب، وهي ما بين بحر القلزم وبحر الهند وبحر فارس والفرات وبعض بادية الشام.

قال المدائني: جزيرة العرب خمسة أقسام: تِهَامَةٌ، وَنَجْدٌ، وَالْحِجَازُ، وَالْعَرُوضُ، وَالْيَمَنُ. وزاد ابن حوقل في أقسامها بادية العراق وبادية الجزيرة فيما بين دِجْلَةٍ وَالْفَرَاتِ وبادية الشام، وفيها خلاف يطول ذكره.

قال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات": وسميت جزيرة العرب جزيرةً لانتهاز الماء عنها حيث لم يمد عليها وإن كان مطيفا بها. والحجاز عندهم عبارة عن جبل السَّراة - بالسين والراء المهملتين - على ما أورده في "الروض المعطار"؛ وَضُبِطَ في "تقويم البلدان" في الكلام على البلقاء من الشام بالشين المعجمة، وهو جبل يُقْبِلُ من اليمن حتى يتصل ببادية الشام، وهو أعظم جبال العرب. وحده من الجنوب تِهَامَةٌ: وهي ما بينه وبين بحر الهند في غربي بلاد اليمن؛ وحده من الشرق بلاد اليمن وهي بينه وبين فارس؛ وحده من الشَّمال نَجْدٌ، وهو ما بينه وبين العراق؛ وحده من الغرب بحر القلزم وما في جنوبيه من بادية الشام.

الطرف الثالث

(في ابتداء عمارته وتسميته حجازا)

أما ابتداء عمارته فإنه لما أنبت أولاد سام بن نوح عليه السلام وهم العرب في أقطار هذه الجزيرة حين قسم نوح الأرض بين بنيهِ، نزل الحجاز منهم من العرب البادية طَسْمٌ وَجَدَيْسٌ [ومنزهم] السَّامَةُ ومنزلة جرهم على القرب من مكة فكان ذلك أول عمارة الحجاز بعد الطوفان؛ ثم بادت هذه العرب وهلكوا عن آخرهم، ودرست أخبارهم وأتقطعت آثارهم. وعمر الحجاز بعدهم جرهم الثانية، وهم بنو جرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ولما أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ولده إسماعيل بمكة كما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي

أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ۖ كَانَتْ جَرْهَمُ الثَّانِيَةِ نَازِلِينَ بِالقَرَبِ مِنْ مَكَّةَ فَاتَّصَلُوا بِإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ وَكَثُرَ وَلَدُهُ وَتَنَاسَلُوا فَعَمَّرُوا الْحِجَازَ إِلَى الْآنَ .

وأما تسميته حجازاً، فقال الأصمعيّ : سُمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حِجْزٌ بَيْنَ نَجْدٍ وَتِهَامَةٍ وَلَا مَتَدَادَهُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ : سُمِيَ بِذَلِكَ لِمَا أَحْتَجِزُ بِهِ مِنَ الْجِبَالِ . قُلْتُ : وَوَهُمْ فِي "الرَّوَضِ الْمُعْطَارِ" فَقَالَ : سُمِيَ حِجَازاً لِأَنَّهُ حِجْزٌ بَيْنَ الْعَوَرِ وَالشَّامِ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ حِجْزٌ بَيْنَ نَجْدٍ وَالسَّرَّاءِ، وَمَا أَعْلَمُ مَا الَّذِي أَوْقَعَهُ فِي ذَلِكَ .

الطَّرَفُ الرَّابِعُ

(فِي ذِكْرِ مِيَاهِهِ وَعَيُونِهِ وَجِبَالِهِ الْمَشْهُورَةِ)

أما مياهه وعيونه، فقال المتكلمون في المسالك والممالك : لَيْسَ بِالْحِجَازِ بِلِ بَحْرِيزَةٍ الْعَرَبِ جَمَلَةً نَهْرٌ يَجْرِي فِيهِ مَرَكَبٌ، وَإِنَّمَا فِيهِ الْعَيُونُ الْكَثِيرَةُ الْمُتَفَجِّرَةُ مِنَ الْجِبَالِ الْمُعْتَصِدَةِ بِالسِّيُولِ وَالْأَمْطَارِ، الْمُتَمَدِّدَةِ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ، وَعَلَيْهَا قُرَاهِمُ وَحْدَانَتِهِمْ وَبَسَاتِينِهِمْ مِمَّا لَا يَحْصَى ذَلِكَ كَثَرَةً، كَمَا فِي الطَّائِفِ وَبَطْنِ مَرٍّ، وَبَطْنِ نَحْلٍ، وَعُصْفَانَ وَبَدْرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وأما جباله المشهورة، فأعلم أن جميع أرض الحجاز جبال وأوديةٌ لَيْسَ فِيهَا بِسَيْطٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَجِبَالُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ الْعَدَّ أَوْ يَأْخُذَهَا الْحَصَرُ، وَقَدْ ذَكَرَ الْأَزْرَقِيُّ فِي "تَارِيخِ مَكَّةَ" أَنَّ لِمَكَّةَ ^(١) اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ جَبَلٍ لِكُلِّ جَبَلٍ مِنْهَا أَسْمٌ يَخْصُهُ وَلَكِنْ قَدْ شَهَرَتْ جِبَالُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْيَنَبُعِ .

فمن جبال مكة المشهورة (جبل أبى قُبَيْس) وهو الجبل الذى فى جنوبى مكة ممتداً على شرقها . قال الأزرقى : وهو أول جبل وُضِع بالأرض ولذلك كان أقرب الجبال إلى البيت .

(ومنها) جبل قَيْنَقَاعُ^(١) - بقاف مفتوحة وياء مثناة تحت ساكنة ونون مضمومة وقاف ثانية مفتوحة بعدها ألف وعين مهملة - وهو الجبل الذى غربى مكة، سُمى بذلك لمكان سلاح تُبِع منه ، والقعقة صوت السلاح ، كما سُمى جِيَاد جِيَاداً لمكان خيله منها .

(ومنها) جبل حِرَاءٍ - بحاء مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف - وهو جبل يُشْرِف على مكة من شرقها يرى البيت من أعلاه ، وفيه الغار الذى كان يتعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفيه جاءه جبريل عليه السلام فى أول النبوة .

(ومنها) جبل ثَوْرٍ - بفتح التاء المثناة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر - وهو جبل مشرف على مكة من جنوبها ، وفيه الغار الذى آخفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

(ومنها) جبل تَيْيَرٍ^(٢) - بفتح التاء المثناة فوق وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وراء مهملة فى الآخر - وهو جبل مشرف يرى من منى والمزدلفة .

الطَّرَفُ الْخَامِسُ

(فى زُرُوعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره)

أما زُرُوعه ففيه من الحبوب المزدرة البر والشعير والذرة والسلت ، وجميعها تُزَرَع على المطر ، وربما زُرِع بعضها على ماء العيون ، والشعير والذرة أكثر الحبوب

(١) صوابه قَيْنَقَاعٌ . أنظر معجم البلدان ومعجم ياقوت . (٢) صوابه تَيْيَرُ التاء المثناة .

وجودا، ويُزَرَع فيه على العيون البَطِيخُ : الأخضر والأصفر، والقِنَّاء، والبَازِجَان،
والدَّبَّاءُ، والملوخيا، والهِندَبَا، والفُجْل، والكُرَّاث، والبَصَل، والثُّومُ .

وأما فواكهه ففيه الرُّطْبُ، والعِنَبُ، والمَوْزُ، والتَّفَّاحُ، والسَّفَرَجُلُ، وَاللِّيمُونُ
وغير ذلك .

وأما رياحيته ففيه التامر حنّاء، ويسمى عندهم القَاغِيَة : بالقاء وغين معجمة وباء
مشناة تحت وهاء في الآخر .

وأما مواشيه ففيه الإِبِلُ، والضَّائُنُ، والمعزُّ بكثرة، والبقر بقلّة . وبه من الخيل
ما يفوق الوصف حسنه، ويُعجز البرق إدراكه .

وأما وحوشه ففيه الغِرْلَانُ، وحُرُّ الوحش، والدَّثَاب، والضَّبَاع، والثعالب،
والأرانب وغيرها .

وأما طيوره ففيه الحمام، والدجاج، والحِدَاةُ، والرَّخَمُ .

الطرف السادس

(في قواعده وأعماله ؛ وفيه ثلاث قواعد)

القاعدة الأولى

(مكة المشرفة ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وقد ذكر العلماء رحمهم الله لها ستة عشر اسما . ”مَكَّة“ بفتح الميم وتشديد
الكاف المفتوحة وهاء في الآخر. كما نطق به القرءان الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي
كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ ﴾ ، سميت بذلك لقلة ماءها أخذًا من

قولهم أَمَتَكَ الفَصِيلُ ضَرَعَ أُمَّهُ إِذَا أَمْتَصَهُ ، وقيل لأنها تَمُكُّ الذنوب بمعنى أنها تَذْهَبُ بها ، ويقال لها أيضا (بَكَّةٌ) بإبدال الميم باء موحدة . وبه نطق القرءان أيضا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ قال الليث : سميت بذلك لأنها تَبْكُ أعناق الجبارة أُنًى تَدْقُهَا والْبَكُّ الدَّقُّ ، وقيل بالميم الحرم كله وبَكَّةُ المسجد خاصة ، حكاه الماوردي عن الزهرى - وزيد بن أسلم - وقيل بالباء اسم لموضع الطواف ، سمي بذلك لأزدحام الناس فيه والْبَكُّ الأزدحام . ومن أسمائها أيضا (أُمُّ الْقُرَى) و (الْبَلَدُ الْأَمِين) و (أُمُّ رُحْم) بضم الراء وإسكان الحاء المهملتين لأن الناس يتراحمون فيها ويتوادعون ، و (صَلَاح) مبنى على الكسر كَقَطَامٍ ونحوه ، و (الْبَاسَّة) لأنها تَبْسُ الظالم أى تحطمه ، و (النَّاسَةُ) بالنون لأنها تَنْسُ المالح فيها أى تطرده ، و (النَّسَاسَةُ) لذلك أيضا ، و (الْحَاطِمَةُ) لأنها تحطِمُ الظالم كما تقدم ، و (الرَّأْس) و (كُوْنِي) بضم الكاف وفتح المثناة ، و (الْقُدْس) و (القادس) و (المَقْدَسَةُ) . قال النووى : وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ولذلك كثرت أسماء الله تعالى وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم ! وقد تقدم أنها من جملة الحجاز . وحكى ابن حوقل عن بعض العلماء أنها من تِهَامَةَ ورجحه في "تقويم البلدان" . وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال في "كتاب الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وثلاث عشرة دقيقة ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة . وقال في "القانون" : طولها سبع وستون درجة فقط ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وقال في "رسم المعمور" : طولها سبع وستون درجة ، وعرضها إحدى وعشرون . وقال كوشيا وطولها سبع وستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة . وقال ابن سعيد : طولها سبع وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهى مدينة فى بطن وادٍ والجبال

مَحْفَقَةً بِهَا ، فَأَبُو قُبَيْسٍ مَشَرَفَ عَلَيْهَا مِنْ شَرْقِيَّهَا وَأَجْيَادٌ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ مَشَرَفٌ عَلَيْهَا مِنْ غَرْبِيَّهَا . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : سَمِيَ بِذَلِكَ لِمَوْضِعِ خَيْلٍ تَبَعَ مِنْهُ . قَالَ فِي "الروض المعطار" : وَسَعَتْهَا مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ نَحْوَ مِائِلَيْنِ ، وَمِنْ أَسْفَلِ أَجْيَادٍ إِلَى ظَهْرِ جَبَلٍ قُعَيْقَعَانَ مِثْلَ ذَلِكَ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : وَلَمْ يَكُنْ بِهَا مَنَازِلُ مَبْنِيَّةٍ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ ؛ وَكَانَتْ جُرْهُمُ وَالْعَمَالِقَةُ حِينَ وَلَّيْتَهُمْ عَلَى الْحَرَمِ يَنْتَجِعُونَ جِبَالَهَا وَأَوْدِيَّتَهَا يَنْزِلُونَ بِهَا ؛ ثُمَّ جَاءَتْ قَرِيشٌ بَعْدَهُمْ فَشَوْا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ صَارَتِ الرِّيَاسَةُ فِي قَرِيشٍ لَقُصَى بْنِ كَلَابٍ فَبْنَى بِهَا دَارَ النَّدْوَةِ ، يَحْكُمُ فِيهَا بَيْنَ قَرِيشٍ ؛ ثُمَّ صَارَتْ لِمَشَاوَرَتِهِمْ وَعَقْدِ الْأُلُويَّةِ فِي حُرُوبِهِمْ ؛ ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ : فَبَنَوْا دُورًا وَسَكَنُوهَا ، وَتَزَايَدَ الْبِنَاءُ فِيهَا حَتَّى صَارَتْ إِلَى مَا صَارَتْ . وَبَنَآؤُهَا بِالْحَجَرِ وَعَلَيْهَا سُورٌ قَدِيمٌ قَدْ هُدِمَ أَكْثَرُهُ وَبَقِيَ أَثَرُهُ وَالْمَسْجِدُ فِي وَسْطِهَا . وَقَدْ ذَكَرَ الْأَزْرَقِيُّ فِي "تَارِيخِ مَكَّةَ" أَنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ تُدْحَى الْأَرْضُ رَابِعَةً حُمْرَاءَ مَشْرِفَةٍ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَلَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَاءَ إِلَى مَكَّةَ ، اسْتَوْحَشَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ قُبَّةً مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ دُرَّةٍ بِيضَاءَ لَهَا بَابَانِ فَوُضِعَتْ مَكَانَ الْبَيْتِ فَكَانَ يَتَأَنَسُّ بِهَا ، وَجَعَلَ حَوْلَهَا مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهَا مِنْ أَنْ يَقَعَ بِبَصَرِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهَا . قَالَ فِي "الروض المعطار" : وَكَانَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ كَرَسِيًّا يَجْلِسُ عَلَيْهِ . قَالَ : وَطُولُهُ ذِرَاعٌ . وَالَّذِي ذَكَرَهُ الْمَآوَرِدِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمَّا قَالُوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ لَادُّوا بِالْعَرْشِ خَوْفًا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى فَطَافُوا حَوْلَهُ سَبْعًا فَرَضَى عَنْهُمْ وَقَالَ : آبَنُوا فِي الْأَرْضِ بَيْتًا يَعُودُ بِهِ مِنْ تَخِطُّطٍ عَلَيْهِ مِنْ بَنَى آدَمَ فَبَنَوْا هَذَا الْبَيْتَ ، وَهُوَ أَوَّلُ بَنَائِهِ ؛ ثُمَّ بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ قَالَ فِي "الروض المعطار" : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا سَقْفًا . قَالَ : ثُمَّ أَنْهَدَمَتِ الْكَعْبَةُ فَبَنَتَهَا الْعَمَالِقَةُ ، ثُمَّ أَنْهَدَمَتِ فَبَنَتَهَا جُرْهُمُ ، ثُمَّ أَنْهَدَمَتِ فَبَنَاهَا قُصَى بْنُ كَلَابٍ وَسَقَفَهَا بِخَشَبِ

الدَّوْمُ وجريد النخل، وجعل ارتفاعها خمسا وعشرين ذراعا، ثم استهدمت وكانت فوق القامة فأرادت قُرَيْشٌ تعليتها فهدمتها وبنتها، والنبي صلى الله عليه وسلم عمره خمس وعشرون سنة، وشهد بناءها معهم، وكان بابها بالأرض فقال أبو حذيفة ابن المغيرة: يا قوم أرفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل إلا مسلم ففعلوا ذلك وسقفوها بخشب سفينة ألقاها البحر إلى جدة .

قال في "الروض المعطار": وكان طولها ثمانى عشرة ذراعا، ثم أحترق البيت حين حوَّصر ابن الزبير بمكة وتأثرت حجارته بالنار، فهدمه ابن الزبير وأدخل فيه ستة أذرع من الحجر، وقيل سبعة، وجعل له بايين ملصقين بالأرض: شرقيا وغربيا يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر، وجعل على بابها صفائح الذهب، وجعل مفاتيحه من ذهب . قال في "الروض المعطار": وبلغ بها في العلو سبعا وعشرين ذراعا . فلما قتل ابن الزبير كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره بإعادته على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من بناء قريش فهدم جانب الحجر وأعادته إلى ذلك، وسد الباب الغربى ورفع الشرقى عن الأرض إلى حده الذى هو عليه الآن، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول: "وَدِدْتُ أَنى كُنْتُ حَمَلْتُ ابْنَ الزبير من بناء الكعبة ماتمَّحَلَّ" .

ثم جدَّد المتوكل رُخَام الكعبة فأزَّرها بفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب، وهو على ذلك إلى الآن . وهو مبنى بالحجر الأسود مستطيل البناء على التربع، فى ارتفاع خمسة وعشرين ذراعا . وله أربعة أركان .

الأول - ركن الحجر الأسود . وهوما بين الشرق والجنوب، ومنه يتبدأ الطواف .

(١) عبارة ياقوت "ورفعوا بابها مخافة السيل وأن لا يدخل فيها إلا من أحبوا" .

الثاني - الشامي . وهو ما بين الشرق والشمال ، سمي بذلك لمسامته بعض بلاد الشام ، وداخله باب المَطْلَع إلى سطح الكعبة .

الثالث - الغربي . وهو ما بين الشمال والغرب ، سمي بذلك لمسامته بلاد المغرب ، ولو سمي بالمصري لكان جديرا به لمسامته بلاد مصر .

الرابع - اليماني . وهو ما بين الغرب والجنوب ، سمي بذلك لمسامته بلاد اليمن ولذلك خففت الياء في آخره نسبة إلى اليمن . وقال ابن قتيبة : سمي بذلك لأنه بناه رجل من اليمن يقال له **أَبْنُ أَبِي سَالَمٍ** ، وقد يُطْلَق عليه وعلى ركن الحجر الأسود **اليمانيان** ، وعلى الشامي والغربي **الشاميان** تغليبا .

ثم بين ركن الحجر الأسود وبين الركن الشامي أربعة وعشرون ذراعا ، وبالقرب من الركن الأسود في هذا الحدّار باب الكعبة على أربعة أذرع وشيء من الأرض يُرْقَى إليه بَدَرَج من خشب توضع عند فتح الباب ، والمُلْتَرَم بين الركن الأسود والباب الشرقي ، وبالقرب من الركن الشامي منه مصلى آدم عليه السلام .

وهذا الحدار مقسوم ثلاث جهات .

الأولى - من الركن الأسود إلى باب الكعبة . وهي في جهة القبلة لأهل البصرة ، والأهواز ، وفارس ، وأصبهان ، وكرمان ، وسجستان ، وشمال بلاد الصين وما على سمت ذلك .

الثانية - من الباب إلى مصلى آدم عليه السلام . وهي جهة القبلة لأهل الكوفة ، وبغداد ، وحُلوان ، والقادسيّة ، وهمدان ، والرّي ، ونيسابور ، ومرو ، وخوارزم ، وبخارا ، ونسا ، وفرغانة ، والشاش ، ونحرأسان ، وما على سمت ذلك .

الثالثة - من مصلى آدم عليه السلام إلى الركن الشامي . وهي جهة القبلة لأهل الرها ، والموصل ، ومطية ، وشمشاط ، والحيرة ، وسنجار ، وديار بكر ، وأرمينية إلى باب الأبواب ، وما على سمت ذلك .

وبين الركن الشامى والركن الغربى أحد عشر ذراعا ، وبأعلى هذا الجدار الميزاب فى الوسط منه وخارجه الحجر (بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم) مستديرا به على سمت الركنين ، يفصل بينه وبين البيت فرجتان .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا .

الأولى - من الركن الشامى إلى دواب الميزاب . وهى جهة القبلة لدمشق ، وحماة ، وسامية ، وحلب ، ومنبج ، وميافارقين ، وماسامت ذلك .

الثانية - وسط الجدار من الميزاب وما إلى جانبه . وهى جهة القبلة للمدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) وجانب الشام الغربى ، وغزة ، والرملة ، وبيت المقدس ، وفلسطين ، وعكا ، وصيدا .

الثالثة - ما يلى هذه الجهة إلى الركن الغربى . وهى جهة القبلة لمصر بأسرها من أسوان إلى دمياط ، والإسكندرية ، وبرقة ، وكذلك طرابلس الغرب ، وصقلية ، وسواحل الغرب ، والأندلس وما على سمت ذلك . وبين الركن الغربى والركن اليمانى فى هذا الجدار الباب المسدود تجاه الباب المفتوح . وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا .

الأولى - من الركن الغربى إلى ثلث الجدار . وهى جهة القبلة لأهل الشمال من بلاد البجاة ، والنوبة ، وأوسط الغرب من جنوب الواحات إلى بلاد الجريد إلى البحر المحيط وما على سمت : ذلك من عيذاب ، وسواكن ، وجنوب أسوان ، وجدة ، ونحو ذلك .

الثانية - من ثلث الجدار إلى دواب الباب المسدود . وهى جهة القبلة لأهل الجنوب من بلاد البجاة ودهلك وسواكن والنوبة والتكرور ، وما وراء ذلك وعلى سمتة .

الثالثة - من دون الباب المسدود إلى الركن اليماني . وهي جهة القبلة لأهل الحبشة ، والزنج ، والزليج ، وأكثر بلاد السودان وما والاها من البلاد أو كان على سمتها .

وبين الركن اليماني وركن الحجر الأسود عشرون ذراعاً ، أنقص من مقابله بذراع ، وبالقرب من ركن الحجر الأسود من هذا الجدار مصلّى النبي صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات .

الأولى - الركن اليماني إلى سبعة أذرع من الجدار . وهي جهة القبلة لتدمر ، وحضرموت ، وعدن ، وصنعاء ، وعمان ، وصعدة ، والشحر ، وسبأ ، وزيد وما والاها أو كان على سمتها .

الثانية - من حدّ الجهة المتقدمة إلى دون مصلّى النبي صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة . وهي جهة القبلة لجنوب بلاد الصين ، والسند ، والتّاهم ، والبحرين ، وما سامت ذلك .

الثالثة - من مصلّى النبي صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة إلى ركن الحجر الأسود . وهي جهة القبلة لأهل واسط ، وبلاد الصين ، والهند ، والمِرجان ، وكابل ، والقنڊهار ، والمعبر ، وما والاها من البلاد أو كان على سمتها .

ويقابل الجدار الشرقي من البيت مما يلي ركن الحجر الأسود زَمْزَمُ وسِقَايَةُ الْعَبَّاس ، ويقابله مما يلي الركن الشاميّ مَقَامُ إِبْرَاهِيم عليه السلام . وقد تقدّم الكلام عليه في عجائب الحجاز فيما مرّ ، ويسمى ما بين الكعبة وزَمْزَمَ والمقام الحطيم (بالحاء والطاء المهملتين) . قال في "الروض المعطار" : سمي بذلك لأنه كان من لم يجد من الأعراب

ثوباً من ثياب أهل مكة يطوف فيه رمي ثيابه هناك وطاف عريانا. وخارج المسجد الصفا والمروة اللذان يقع السعي بينهما.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الحرم ومشاعر الحج الخارجة عن مكة)

أما الحرم فهو ما يطيف بمكة مما يحرم صيده وقطع شجره وحشيشه ونحو ذلك ، وقد تقدم أن الله تعالى جعل ملائكة يحرسون القبة التي أنزلها الله تعالى إلى آدم من الجنة ووضعت له مكان الكعبة وجعلت الملائكة حرسا لها كي لا يقع عليها بصر الشياطين ، فكانت مواقف الملائكة هي حدود الحرم . قال ابن حوقل : وليس بمكة والحرم شجريٌّ ثم إلا شجر البادية ، أما خارج الحرم ففيه عيون وثمار .

وأعلم أن مقادير جهات الحرم تتفاوت في القرب والبعد عن مكة ، وعلى حدوده أعلام منصوبة في كل جهة تدل عليه . قال في "الروض المعطار" : قال الزبير : وأول من وضع علامات الحرم ونصب العمدة عليه عدنان بن أد ، خوفا من أن تدرس معالم الحرم أو تتغير . قال : وحده من التنعيم على طريق سرف إلى مَرَّ الظُّهْرَانِ خمسة أميال ، وذكر في موضع آخر أنها ستة أميال ؛ وحده من طريق جدة عشرة أميال ؛ ومن طريق اليمن ستة أميال ، ودوره سبعة وثلاثة وثلاثون ميلا .

ثم بحدود هذا الحرم أما كن مشهورة ، يخرج إليها من مكة من أراد أن يهل بعمره فيحرم منها .

أحدها - (التَّعِيمُ) - بآلف ولام لازمتين وفتح التاء المشناة فوق وسكون النون وكسر العين المهملة وسكون الياء المشناة تحت وميم في الآخر - وهو موضع على حد الحرم على طريق السالك من بطن مَرٍّ وإلى مكة . قال في "الروض المعطار" : سُمِّيَ التعيم لأن الجبل الذي عن يمينه أسمه نُعَيْم والذي عن يساره أسمه نَاعِمٌ والوادي الذي هو فيه أسمه نَعْمَانٌ ، ومنه اعتمدت عائشة رضي الله عنها مع عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهناك مسجدٌ يعرف بمسجد عائشة إلى الآن .

الثاني - (الحُدَيْيَّةُ) - بضم الحاء وفتح الدال المهملتين وسكون الياء المشناة تحت وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المشددة وفي آخرها تاء - ونقل في "الروض المعطار" عن الأصمعيّ تخفيف الياء الثانية . قال في "تقويم البلدان" : وهو موضع/بعضه في الحِلِّ وبعضه في الحَرَم ، وفيه صَدَّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت ؛ وهي أبعد أطراف الحرم عن البيت ؛ وهي على مسيرة يوم ؛ وهي في مثل زاوية للحرم . وذكر في "الروض المعطار" أن الحديبية أسم لبئر في ذلك المكان ، ومذهبُ الشافعيّ أن العمرة منه أفضل من التعيم .

الثالث - (الجِعْرَانَةُ) - بكسر الجيم والعين المهملة وفتح الراء المهملة المشددة بعدها ألف ونون مفتوحة وهاء في الآخر - ونقل في "الروض المعطار" عن الأصمعيّ سكون العين وتخفيف الراء . قال : وهو مكان بين مكة والطائف ولكنه إلى مكة أقرب ، ومنه أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة في وجهته تلك ، ومذهب الشافعيّ أن العمرة منه أفضل من الحُدَيْيَّة .

وأما مشاعر الحج الخارجة عن مكة فثلاثة .

(١) أي مرجعه من غزاة حنين وقسم فيها غنائم هوازن . أنظر "معجم البلدان" .

أحدها - مَنَى بكسر الميم وفتح النون وألف مقصورة - سميت بذلك لما يَمْنَى فيها من الدماء أى يراق . قال فى "المشترك" : وبينها وبين مكة ثلاثة أميال - وهى تشبه القرية مبنية على ضفتى الوادى . وبها مسجد الخيف - بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المشناة تحت وفى آخره فاء - وهو مسجد عظيم متسع الأرجاء بغير سقف .
الثانى - (الْمُزْدَلِفَةُ) - بنم الميم وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وكسر اللام وفتح الفاء وآخرها هاء - وهى موضع على يسرة الذهاب من منى إلى عرفة . قال النووى : سميت بذلك من التزلف والأزدلاف وهو التقرب ، لأن الحجاج إذا أفاضوا من عَرَفَاتٍ أزدلّفُوا إليها أى تقربوا ومضوا إليها ، وتسمى جمعا أيضا بفتح الجيم وسكون الميم وعين مهملة - لأنه يجمع بها بين المغرب والعشاء ، وبها مسجد متسع . قال فى "الروض المعطار" : طوله ثلاثة وستون ذراعا ، وعرضه نحسون ذراعا ، وأرتفاع جداره عشرة أذرع .

الثالث - (عَرَفَة) - بفتح العين والراء المهملتين والفاء وهاء فى الآخر - ويقال فيه أيضا عَرَفَاتٌ على الجمع ، وبه جاء القرآن فى قوله تعالى : ﴿إِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ وهو موقف الحج ، وسمى عرفات لتعارف آدم عليه السلام وحواء به . قال كعب الأحبار : أهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواء بعرفة ، وإبليس بجدة ، والحية بأضهان ، وأمر الله تعالى آدم بحج البيت فحج ، فكان حيث وضع قدمه نتفجر الأنهار وتبنى المساجد . فلما وصل إلى عرفة ، وجد بها حواء فتعارفا بها .

الضرب الثانى

(قُراها ومخالفها)

وأعلم أن أكثر جبال مكة وأوديتها مسكونة معمورة إلا أنه ليس بها قرية مُقَرَّة إلا حيث المياه والعيون البخارية والحدائق المحدقة ، والمشهور من ذلك عشرة أماكن .

الأول - (جُدَّة) - بضم الجيم وتشديد الدال المهملة ثم هاء - وهى فُرْصَةُ مكة على ساحل بحر القلزم ، وموقعها فى أول الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة ، وهى فى الغرب عن مكة بمسلة إلى الشمال . قال فى "الأطوال" : طولها ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . ووافقه على ذلك فى "القانون" . وقال فى "رسم المعمور" : طولها خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها على ما تقدم . وهى مينا عظيمة محل حط وإقلاع ، إليها تنتهى المراكب من مصر واليمن وغيرهما ، وعنها تصدر من مكة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من مكة على مرحلتين . وقال الإدريسى : بينهما أربعون ميلاً ، وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب إليها .

الثانى - (بَطْنُ نَخْلٍ) - وضبطه معروف ، ويقال فيه أيضاً وادى نَخْلَةٍ على التوحيد ونخلة بإسقاط لفظ وادى . قال الجوهري : وبه كانت العزى التى هى أحد طواغيت قُرَيْشٍ ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليها خالد بن الوليد فهدمها ، وهى الآن بيد هُدَيْلٍ ، وهى قَرْيٌ مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزدرع . أخبرنى بعض أهل الحجاز أن بها نحو أربعة عشر نهراً على كل نهر قرية ، وغالب فواكه مكة وقطانيها وبقولها منها ، ومنها يصب الماء إلى بطن مرة الآتى ذكره .

الثالث - (الطَائِفُ) - بألف ولام لازمتين فطاء مهملة مشددة مفتوحة بعدها ألف وياء مثناة تحت مكسورة ثم فاء - وهو بلد شرقى بطن نخل المتقدم ذكرها ، وبطن نخل بينه وبين مكة . قيل سميت الطائف لأنها فى طوفان نوح آنقطعت من الشام وحملها الماء وطافت بالأرض حتى أرسَتْ فى هذا الموضع . وقال فى "الروض المعطار" : أسَمَها القديم وَجٌّ يعنى بواو مفتوحة وجيم مشددة - سميت برجل من العالقة ، ثم سكنها ثقيف فبنوا عليها حائطاً مطيفاً بها فسميت الطائف .

قال : وهى إحدى القريتين المذكورتين فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من الحجاز تقريبا ، وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى . وقال ابن سعيد : طولها ثمان وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، وهوبلد خصب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها ، وهى طيبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتى إنه ربما جمد الماء بها لشدة بردها .

الرابع - (بَطْنُ مَرٍّ) - بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة ونون بعدها ثم ميم مفتوحة وراء مهملة مشددة - وهو واد من أودية الحجاز فى الشمال عن مكة على مرحلة منها على طريق حُجَّاج مصر والشام . قال فى "الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى بقعة بها عدة عيون ومياه تجري ونخيل كثير ، والنخل والمزدرع متصل من وادى نخلة إليها . وذكر غيره أن بها نحو أربعة وعشرين نهرا على كل نهر قرية ، ومنها تُحمل الفواكه والبُقُولات إلى مكة كما تحمل من نخلة والطائف ، وهى بيد بنى حسن أمراء مكة .

الخامس - (الْهَدَّة) - بألف ولام ثم هاء ودال مهملة مفتوحين وهاء ساكنة فى الآخر - وهو واد على القرب من بطن مَرٍّ ، على مرحلة ونصف من مكة ، به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية ، وهى بيد بنى جابر .

السادس - (عُسْفَانٌ) - بضم العين وسكون السين المهملتين وفتح الفاء ثم ألف ونون - وهو واد معروف على طريق حُجَّاج مصر ، على ثلاث مراحل من مكة ، كان بها حدائق ومياه تنصب إليها من الهده المذكورة ، وهى الآن خراب ليس بها عمارة .

السابع - (الْبَرْزَةُ) - بألف ولام ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وهاء فى الآخر - وهى واد بالقرب من عُسْفَانَ على مرحلتين من مكة؛ به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية؛ وهى الآن بيد بنى سَلُولَ وبنى مُعَبِّدٍ بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة .

الثامن - (خُلَيْصٌ) - بضم الخاء المعجمة وفتح اللام وإسكان الياء المثناة تحت والصاد المهملة - وهو واد على طريق مُجَجَّاج مصر على أربع مراحل من مكة؛ به نحو تسعة أنهر على كل نهر قرية .

التاسع - (وَادِى كُليَّة) - بضم الكاف وفتح اللام وتشديد الياء المثناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر - وهو واد بالقرب من خُلَيْصٍ به نحو سبعة أنهر على كل نهر قرية، وكان بيد سَلِيمٍ، وقد خرب من مدّة قريبة بعد الثمانين والسبعائة .

العاشر - (مَرُّ الظُّهْرَانِ) - بفتح الميم وتشديد الراء المهملة ثم ألف ولام وظاء معجمة مفتوحة وهاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف ونون - وهو موضع بينه وبين مكة نحو ستة عشر ميلا، وهو الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ! عند صلحه مع قريش، كان به ضياع كثيرة وهو الآن خراب . قال فى "الروض المعطار" : وبه حصن كبير؛ كان يسكنه شُكْرُ بن الحسن بن على بن جعفر الحسنى يعنى أمير مكة الآتى ذكره فى جملة أمرائها .

الطرف السابع

(في ذكر ملوك مكة ، وهم على ضربين)

الضرب الأول

(ملوكها قبل الإسلام)

اعلم أن مكة بعد الطوفان كان ملوكها في عاد ، وكان بها منهم معاوية بن بكر بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان مع معاوية بن بكر (وهو عاد الآخرة فيما يقال) يعرب ثم غلبهم العماقية عليها . فلما غلب ابن قحطان بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح عادا على اليمن وفرق ملك اليمن في إخوته ، استولى على الحجاز وأخرج العماقية منه وولى أخاه جرهم بن قحطان على الحجاز ، فبقي به حتى مات . فملك بعده ابنه عبد ياليل . ثم ملك من بعده ابنه جرهم ، ثم ملك بعده ابنه عبد المدان ، ثم ملك بعده ابنه بقلّة ، ثم ملك بعده ابنه عبد المسيح ، ثم ملك بعده ابنه مضاض ، ثم ملك بعده ابنه الحرث ، ثم ملك بعده عمرو بن مضاض أخوه بشر بن الحرث ، ثم ملك بعده مضاض بن عمرو بن مضاض .

قال ابن سعيد : وجرهم هذه هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوج فيهم ، وكانت قبلهم جرهم أخرى مع عاد . قال في "الروض المعطار" : وفي ذلك يقول عمرو بن الحرث بن مضاض ، وهو التاسع من ملوك جرهم المتقدم ذكرهم :

وصاهرنا من أكرم الناس والدًا * فأبناؤه منا ونحس الأصاهر!

قال صاحب حمة في "تاريخه" : وقد اختلف المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبين إسماعيل ، فبعضهم يقول : كان الملك في جرهم ، ومقاتيح الكعبة وسداتها في يد ولد إسماعيل ، وبعضهم يقول : إن قي دار بن إسماعيل توجهت أخواله من جرهم وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز .

وأما سِدَانَةُ الْبَيْتِ ومفاتيحه فكانت مع بنى إِسْمَاعِيلَ بلا خلاف حتى آتَتْهُ ذَلِكَ إِلَى نَابِيتٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، فَصَارَتْ السِّدَانَةُ بَعْدَهُ جُرْهُمَ، وَيدل على ذلك قول عمرو بن الحرث :

وَكُنَّا وَلَاةَ الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِيتٍ * نَطُوفُ بِذَلِكَ الْبَيْتِ وَالْأَمْرُ ظَاهِرُ !
 وذكر في "الروض المطار" : أنه كان مع جُرْهُمَ بِمَكَّةَ قَطُورًا ، وَجُرْهُمَ وَقَطُورًا
 أَخْوَانُ ، وَكَانَ مَنَزَلُ جُرْهُمَ أَعْلَى مَكَّةَ بِقُعَيْقَعَانَ فَمَا حَازَ ، وَمَنَزَلُ قَطُورًا أَسْفَلَ مَكَّةَ
 بِأَجْيَادِ فَمَا حَازَ ، وَأَتَتْهُ رِيَاةُ قَطُورًا فِي زَمَنِ مُضَاضِ بْنِ عَبْدِ الْمَسِيحِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ
 إِلَى السَّمِيدِ ، وَكَانَ مُضَاضُ يُعَشِّرُ مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ مِنْ أَعْلَاهَا ، وَالسَّمِيدُ عَشْرَ
 مِنْ دَخْلِهَا مِنْ أَسْفَلِهَا ، ثُمَّ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَتَنَافَسُوا الْمَلِكَ وَأَقْتَتَلُوا فَقُتِلَ
 السَّمِيدُ ، وَأَسْتَقْلَّ مُضَاضٌ بِالْأَمْرِ ، وَبَقِيَ جُرْهُمُ وَلَاةَ الْبَيْتِ نَحْوَ ثَلَاثَةِ سِنِينَ
 فَأَكَلُوا مَالَ الْكَعْبَةِ الَّذِي يَهْدَى إِلَيْهَا وَاسْتَحْلَوْا حَرَمَهَا ، وَبَلَغَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا
 لَمْ يَجِدْ مَكَانًا يَزِنِي فِيهِ (٢) الْكَعْبَةُ فَزَنَى فِيهَا ، وَلَمْ يَتَنَاهَوْا حَتَّى يُقَالَ إِنَّ إِسَافَ
 أَبْنَ سَهِيلٍ زَنَى بِنَائِلَةَ بِنْتِ عَمْرِو بْنِ ذُوَيْبٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ فَسَخَا حَجْرَيْنِ ، وَنَضَبَ
 مَاءً زَمَزَمَ لِكَثْرَةِ الْبَغْيِ وَدَرَسَتْ مَعَالِمُهَا ، ثُمَّ جَاءَ عَمْرِو بْنُ لُحْيٍ فَغَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ
 عَلَيْهِ السَّلَامَ وَبَدَّلَهُ وَبَعَثَ الْعَرَبَ عَلَى عِبَادَةِ التَّمَاثِيلِ ، وَعُمَرُ ثَلَاثَةَ سِنِينَ وَخَمْسًا
 وَأَرْبَعِينَ سِنِينَ ، وَبَلَغَ مِنَ الْوَلَدِ وَوَلَدِ الْوَلَدِ أَلْفَيْنِ .

ثُمَّ صَارَتْ سِدَانَةُ الْبَيْتِ وَمِفَاتِيحُهُ إِلَى نُحْرَاعَةَ بْنِ الْأَزْدِ مِنْ بَنِي كَهْلَانَ بْنِ سَبَّاحٍ مِنَ
 الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ ، وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ مِنْ حِينَ تَفَرَّقَ عَرَبُ الْيَمَنِ بِسَبَبِ سَيْلِ الْعَرَمِ بِيْطْنَ
 مَرَّ عَلَى الْقَرَبِ مِنْ مَكَّةَ ، وَصَارَتْ لَهُمُ الرِّيَاةُ بِسِدَانَةِ الْبَيْتِ ، وَبَقِيَ السِّدَانَةُ بِيَدِهِمْ

(١) فِي "السَّيَالِكُ" وَ"الْعَبَرُ" بِدُونِ أَلْفٍ .

(٢) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ ، وَلَعَلَّ أَصْلَهُ "دَخَلَ" كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

إلى أن آتته إلى أبي غبشان: سليمان بن عمرو الخزازي في زمن بهرام جور بن يزدجرد من ملوك الفرس؛ ورئيس قريش يومئذ قصي بن كلاب، فأجتمع قصي مع أبي غبشان على شراب بالطائف، فلما سكر أبو غبشان اشترى قصي سداثة البيت منه بزق نحره وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنه عبد الدار بها إلى البيت فرفع صوته وقال: يامعشر قريش! هذه المفاتيح: مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، قد ردها الله عليكم من غير عار ولا ظلم^(١). فلما صحا أبو غبشان ندم حيث لا ينفعه الندم. ويقال "أخسر من صفقة أبي غبشان" وأكثر الشعراء القول في ذلك حتى قال بعضهم:

بَاعَتْ خُرَاعَةُ بَيْتِ اللَّهِ إِذْ سَكِرْتُ * بَزَقَ نَحْرِي، فَبُئِستَ صَفْقَةُ الْبَادِي
بَاعَتْ سِدَاتَهَا بِالزَّرِّ وَأَنْصَرَفَتْ * عَنِ الْمَقَامِ وَظِلِّ الْبَيْتِ وَالنَّادِي

ولما وقع ذلك عدت خراعة على قصي فظهر عليهم وأجلاهم عن مكة؛ وكان بمكة عرب يميزون الحجيج إلى الموقف، وكان لهم بذلك رياسة فأجلاهم قصي عن مكة أيضا وأنفرد بالرياسة. قال العسكري في "الأوائل": وكان أول من نال الملك من ولد النضر بن كنانة.

ولما تم لقصي ذلك بنى دار الندوة بمكة، فكانت قريش تقضى فيها أمورها فلا تنجح ولا تشاور في أمر حرب ولا غيره إلا فيها؛ ولم تزل الرياسة فيه وفي بنيه بعد ذلك. فولد له من الولد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى.

ثم انتقلت الرياسة العظمى بعد ذلك لبنى عبد مناف، وكان له من الولد هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل؛ وكان هاشم أرفعهم قدرا وأعظمهم شأنا، وإليه آتته سيادة قومه؛ وكانت إليه الرقادة وسقاية الحجيج بمكة؛ وكانت قريش تجارا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها فخرج هاشم إلى الشام حتى تزل بقيصر

ملك الروم فسأله كتابة أمان لتجار قريش ، فكتب له كتابا لكل من مر عليه ، فخرج هاشم فكلما مر بجي من العرب أخذ من أشرافهم أمانا لقومه حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به قط بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معهم حتى أوردتهم الشام ، وخرج أخوه المطلب إلى اليمن فأخذ لهم أمانا من ملكه ، وخرج أخوهما عبد شمس إلى ملك الحبشة فأخذ لهم أمانا كذلك ، وخرج أخوه نوفل إلى كسرى ملك الفرس فأخذ لهم منه أمانا . وكانت قريش يرحلون في الشتاء للشام وفي الصيف لليمن ، وآتست معاشهم بسبب ذلك ، وكثرت أموالهم حتى آمن الله عليهم بذلك بقوله : ﴿ لِيُثْلِفَ قُرَيْشٌ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ والإيلاف الأمان .

ثم ولد لهاشم عبد المطلب وبقيت الرياسة فيه ، وكانت بر زمزم قد أنظمت ونصب مأوها فخرها عبد المطلب ، حتى أكل الله تعالى بنبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ! .

وأما سدانة البيت ومفاتيحه ، فبقيت بيد بني عبد الدار بن قصي المتقدم ذكره من حين تسلمها عبد الدار عند أخذها من أبي غبشان الخزاعي حتى صارت لبني شيبه من بني عبد الدار ، وأتته في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة بن عبد الدار . فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح ، أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه ، وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه ، فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح إلى

عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان : أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق ؟ فقال له عليّ :
لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرءانا وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فهبط جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم
فأخبره أن السّدانة في أولاد عثمان أبداً ، فهي باقية فيهم إلى الآن .

الضرب الثاني

(ملوكها في الإسلام ، وهم على طبقات)

الطبقة الثالثة^(١)

(عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين)

هاجر منها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل وفاته ، وحجّ حجة الوداع في السنة
العاشرة من الهجرة ، وتوفي سنة إحدى عشرة من الهجرة وعلى مكة عثمان بن أُسيد ،
وتوالى عليها عمّال الخلفاء بعده إلى آخر أيام الحسن بن عليّ بن أبي طالب كرم
الله وجهه .

الطبقة الرابعة

(عمال بني أمية من لدن معاوية رضى الله عنه إلى أنقرضهم)

ثم ولى عليها معاوية بن أبي سفيان في خلافته في سنة اثنتين وأربعين من الهجرة
(خالد بن العاص بن هشام) ثم أضيفت إلى عمّال المدينة إلى أيام الوليد بن عبد الملك
فكان من وليها منهم (الوليد بن عتبة) ثم (عمرو بن سعيد الأشدق) ثم (الوليد بن عتبة)

(١) هكذا في الأصل بهذا العنوان وصوابه الأولى والذي يظهر أن هذا من النسخ فإن المقام لا يحتمل
السقط . ومن جهة أخرى لم يترك في الأصل بياض حتى كان يخيل أن المؤلف ترك الكلام عليه للعود إليه
فحق ما هنا "الطبقة الأولى" وما بعدها "الطبقة الثانية" وهكذا حتى تسلسل الطبقات .

ثانياً؛ ثم (مُصْعَب بن الزبير) من جهة أخيه عبد الله بن الزبير لما بُويع له بالخلافة؛
ثم (جابر بن الأسود) ثم (طلحة بن عبد الله بن عوف) ثم (طارق بن عمرو بن عثمان)
ثم (الحجاج بن يوسف الثقفي) ثم (أَبَانُ بن عثمان) ثم (هشام بن إسماعيل المخزومي)
ثم (عُمَرُ بن عبد العزيز) .

ثم أفردوا الوليد بن عبد الملك عن المدينة ووُلِّي عليها (خالد بن عبد الله القسري)
بعد عمر بن عبد العزيز؛ ثم وليها (عبد العزيز بن خالد بن أُسَيْد) أيام سليمان
أَبْن عبد الملك؛ ثم عزله يزيدُ سنة ثلاث ومائة وأضافها مع المدينة إلى (عبد الرحمن
أَبْن الضحَّاك) ، ثم عزله عن مكة والمدينة لثلاث سنين من ولايته ووُلِّي مكانه
(عبد الواحد النضري) ، ثم عزله هشام بن عبد الملك في خلافته ووُلِّي مكانه
على مكة والمدينة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل) ثم عزله هشام سنة أربع عشرة ومائة
ووُلِّي مكانه على مكة والطائف دون المدينة (محمد بن هشام المخزومي)؛ ثم وُلِّي
الوليدُ بن يزيد في خلافته خالَهُ (يوسف بن محمد الثقفي) على مكة مع سائر أعمال
الحجاز؛ ثم وُلِّي مروانُ على مكة وِبَرَّ الحجاز (عبد العزيز بن عمرو، بن عبد العزيز)
ثم عزله في سنة تسع وعشرين ومائة ووُلِّي مكانه على مكة والحجاز (عبد الواحد)
ثم توالى عليها عُمَّالُ بني أمية إلى أن انقرضت دولتهم .

الطبقة الخامسة

(عُمَّالُ بني العباس)

وأولهم أبو العباس السَّفَّاح ، فوُلِّي عليها وعلى المدينة وسائر الحجاز عمُّه (داود) ثم توفى
سنة ثلاث وثلاثين ومائة ؛ فوُلِّي مكانه في جميع ذلك (زياد بن عبد الله بن عبد
الدار الحارثي) .

ثم وثى السَّفَّاحُ على ذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة (السَّريُّ بن عبد الله ابن الحارث بن العباس) .

ثم عزله أبو جعفر المنصور سنة ست وأربعين ومائة ووثى مكانه عمه (عبد الصمد ابن علي) ثم عزله عنها سنة تسع وأربعين ومائة ووثى مكانه (محمد بن إبراهيم الإمام) ثم عزله ووثى مكانه (إبراهيم ابن أخيه) ثم وثى على مكة وسائر الحجاز واليمامة (جعفر بن سليمان) ؛ ثم توالى عليها العمال إلى أن وثى الرشيد في خلافته على مكة واليمن (حمادا اليزيدي) سنة أربع وثمانين ومائة .

ثم وليها في زمان الأمين (داود بن عيسى) .

ثم وليها (محمد بن عيسى) ثم عزله المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وولى مكانه ابنه (المتنصر) بن المتوكل .

ثم وليها (علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور) ثم عزله المتوكل سنة سبع وثلاثين ومائتين ووثى مكانه (عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى) ثم عزله المتوكل سنة ثنتين وأربعين ومائتين ووثى مكانه (عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام) ثم توالى عليها العمال من قبل خلفاء بني العباس إلى أن غلب عليها السُّلَيمانِيُّونَ الآتِي ذَكرهم آنفا .

الطبقة السادسة

(السليمانيون من بنى الحسن)

نسبة إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط .

وكان سليمان هذا في أيام المأمون بالمدينة وحدثت الرئاسة فيها لبنيه بعد أيام، وكان كبيرهم آخر المائة الثالثة محمد بن سليمان الربذي .

قال البيهقي: خلع طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة في سنة إحدى وثلاثمائة في خلافة المقتدر؛ ثم أعترضه أبوطاهر القرمطي في سنة ثلثي عشرة وثلاثمائة، فأقطع الحجج العراق بسبب ذلك.

ثم أنفذ المقتدر الحجج من العراق في سنة سبع عشرة وثلاثمائة فوافاهم القرمطي بمكة فمهمهم، وخطب لعبيد الله المهدي صاحب إفريقية وقلع الحجر الأسود وباب الكعبة وحملهما إلى الأحساء، وتعطل الحج من العراق إلى أن ولي الخلافة القاهرة في سنة عشرين وثلاثمائة فحج بالناس أميره في تلك السنة.

ثم أقطع الحج من العراق بعدها إلى أن صولحت القرامطة على مال يؤديه الحجج إليهم، فحجوا في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وخطب بمكة للراضي بن المقتدر، وفي سنة تسع وعشرين لأخيه المتقي من بعده.

ثم أقطع الحج من العراق بسبب القرامطة إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فخرج ركب العراق بمهادنة القرامطة في خلافة المستكني؛ ثم خطب بمكة لمعز الدولة ابن بويه مع المقتدر في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ثم تعطل الحج بسبب القرامطة؛ ثم برز أمر المنصور الفاطمي صاحب إفريقية لأحمد بن أبي سعيد أمير القرامطة بعد موت أبي طاهر بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه فأعاده في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة. وفي سنة ثنتين وأربعين وثلاثمائة حاول أمير الركب المصري الخطبة لابن الأخشيد صاحب مصر فلم يأت له ذلك وخطب لابن بويه، وأتصلت وفود الحج من يومئذ.

وفي سنة ثلاث وخمسين خطب للقرمطي بمكة مع المطيع.

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة خطب بمكة لبيختيار بن معز الدولة بعد موت أبيه.

ثم في سنة ستين وثلاثمائة جهز المعز الفاطمي عسكراً من إفريقية لإقامة الخطبة له بمكة وعاضدهم بنو الحسين أهل المدينة فمنعهم بنو الحسن أهل مكة من ذلك وأستولوا على مكة .

فلما ملك مصر المعز كان الحسن بن جعفر بن الحسن بن سليمان بالمدينة فبادر فملك مكة ودعا للمعز وكتب له المعز بالولاية ؛ ثم مات الحسن فولّى مكانه أخوه عيسى . ثم ولى بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم ؛ ثم الحسن بن محمد بن سليمان بن داود سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ؛ ثم جاءت عساكر عضد الدولة بن بويه ففتر الحسن وترك مكة . ولما مات المعز وولى ابنه العزيز ، بعث إلى مكة أميراً علويّاً فخطب له بالحرمين وأستمزت الخطبة بمكة للعلويين إلى سنة سبع وستين وثلاثمائة . وفي سنة ثمان وستين خطب لعضد الدولة بن بويه ؛ ثم عادت الخطبة بمكة إلى الخلفاء الفاطميين بمصر ؛ ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعين وأربعمئة إلى عمّاله بالبراءة من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأذكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة وحمله ذلك على أن آتبد بالأمر في مكة وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، وقطع الحاكم الميرة عن الحرمين فرجع أبو الفتوح إلى طاعته فأعاده إلى إمارته بمكة .

وفي سنة ثنتي عشرة وأربعمئة خطب بمكة للظاهر بن الحاكم ؛ ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمئة للمستنصر بن الظاهر ؛ ثم توفى أبو الفتوح أمير مكة المتقدم ذكره سنة ثلاثين وأربعمئة لست وأربعين سنة من إمارته .

وولى بعده إمارة مكة ابنه شكر وملك معها المدينة وأستضافها لمكة ، وجمع بين الحرمين كله^(١) ثلاثاً وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة . قال ابن حزم : وكانت وفاته عن غير ولد وأنقرضت بموته دولة بنى سليمان بمكة .

الطبقة السابعة

(الهواشم)

نسبة إلى أبي هاشم : محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام
أبن موسى الجون بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط .

كان رئيس الهواشم لما مات شكر آخر أمراء السليمانيين (محمد بن جعفر) بن أبي
هاشم المذكور فاستولى على إمارة مكة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة بعد موت
شكر، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، ثم خطب لبني العباس في سنة
ثمان وخمسين وأربعمائة فقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله على ذلك فأعاد
الخطبة للمستنصر الفاطمي، ثم آسأله القائم العباسي وبذل له الأموال فخطب له
سنة ثنتين وستين بالموسم فقط، وكتب للمستنصر بمصر يعتذر إليه، ثم بعث إليه
السلطان ألب أرسلان السلجوقي بأموال كثيرة في سنة ثلاث وستين فخطب له بنفسه .
ثم جمع محمد بن جعفر المتقدم ذكره وزحف إلى المدينة فأخرج منها بني الحسين
وملكها وجمع بين الحرمين .

ثم مات القائم وأقطع ما كان يصل إلى أمير مكة منه فقطع الخطبة للعباسيين .
ثم أرسل المقتدى بالله العباسي بمال فأعاد الخطبة للعباسيين فاستمرت الخطبة
لهم إلى أن مات السلطان ملكشاه السلجوقي سنة ست وثمانين وأربعمائة فآقتطعت
الخطبة بمكة للعباسيين وبطل الحاج من العراق، ومات المقتدى وبويع آبنه
المستظهر، ومات المستنصر العبيدي بمصر وبويع آبنه المستعلي فخطب له بمكة .

ثم مات محمد بن جعفر أمير مكة المتقدم ذكره سنة سبع وثمانين وأربعمائة لثلاث وثلاثين سنة من إمارته ، وولى بعده ابنه (قاسم) فكثير اضطرابه ، ثم توفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة لثلاثين سنة من إمارته .

وولى بعده ابنه أبو فُلَيْتَةَ فَأَفْتَحَ بِالْخُطْبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَحَسُنَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةَ لِعَشْرِ سَنِينَ مِنْ إِمَارَتِهِ وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ قَاسِمٌ وَالْخُطْبَةُ مَسْتَمِرَّةٌ لِلْعَبَّاسِيِّينَ .

ثم صنع المقتنى بابا للكعبة وأرسله إليها في سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وحمل الباب العتيق إليه فَأَتَّخَذَهُ تَابُوتًا يَدْفَنُ فِيهِ ، وَأَتَّصَلَتْ الْخُطْبَةُ لِبْنِي الْعَبَّاسِ إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ ، وَبَوَّعَ الْمُسْتَنْجِدُ فَخُطِبَ لَهُ كَمَا كَانَ يُحْطَبُ لِأَبِيهِ الْمُقْتَنَى .

ثم قتل قاسم بن أبي فليته سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وولى بعده ابنه (عيسى) في أيام العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وتوفي المستنجد وبعث المستضىء بالركب العراقيّ وَاتَّقَضَتْ دَوْلَةُ الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ ، وَوَلَّيَهَا السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ فَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ .

والذى ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" أن عيسى عم قاسم سِرَّ الْحَاجَّ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةَ وَقَامَ مَكَانَ ابْنِ أَخِيهِ قَاسِمِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ عَادَ قَاسِمٌ فَمَلَكَ مَكَّةَ ، ثُمَّ هَرَبَ وَعَادَ عَمَّهُ عَيْسَى فَمَلَكَهَا وَهَرَبَ قَاسِمٌ إِلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ فَوَقَعَ عَنْ فَرَسِهِ فَأَمْسَكَهُ عَيْسَى وَقَتْلَهُ .

ثم مات المستضىء وبويع ابنه الناصر وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ ، وَحُجَّتْ أُمُّهُ وَعَادَتْ فَأَنْهَتْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ عَيْسَى بْنِ قَاسِمٍ أَمِيرَ مَكَّةَ مَا عَزَلَهُ بِهِ ، وَوُلِّيَ مَكَانَهُ أَخَاهُ (مكث بن قاسم) وكان جليل القدر ، وهو الذى بنى القلعة على جبل أبي قُبَيْسٍ ، ومات سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبموته انقرضت دولة الهواشم بمكة .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" أن أمير حاج العراق في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة توجه من عند الخليفة بعزله ، فغزى بينهما حرب انتهى الأمر فيها إلى انهزام أكثر المذكور ، وأقيم أخوه داود مكانه . وما زالت الإمرة فيه تارة ، وفي أخيه أكثر تارة حتى مات داود في سنة تسع وثمانين وخمسمائة . وقال : إنه داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم .

الطبقة الثامنة

(بنو قتادة)

نسبة إلى قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان السبب في ولايته مكة أنها لما كانت مع الهواشم كان بنو حسن مقيمين بنهر العاقمية من وادي ينبع ، فجمع قتادة قومه بنو مطاعن وأسالف بنو أحمد وبنو إبراهيم وتأمر عليهم وملك ينبع ، ثم ملك الصفراء ، وسار إلى مكة فأتزعها من الهواشم المتقدم ذكرهم وملكها ، وخطب للناصر لدين الله العباسي : خليفة بغداد ، وتعظم أمره حتى ملك مع مكة والينبع أطراف اليمن وبعض أعمال المدينة وبلاد نجد ، ولم يفد على أحد من الخلفاء ولا من الملوك ، وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة ، وولي مكانه ابنه الحسن فامتعض لذلك أخوه راجح بن قتادة ، ثم قدم الملك المسعود أقسر بن الكامل صاحب اليمن سنة عشرين وستمائة من اليمن إلى مكة وملك مكة وقتل جماعة من الأشراف ونصب رايته وأزال راية أمير الركب الذي من جهة الخليفة ، فكتب الخليفة من بغداد إلى أبيه الكامل يعاتبه في ذلك ، فكتب الكامل

إلى أبنه أفسز برئت يا أفسز من ظهر العادل إن لم أقطع يمينك ! فقد نبذت وراء
ظهرك دنياك ودينك ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! ، وذهب حسن
أبن قتادة إلى بغداد صريخاً فمات بها سنة ثنتين وعشرين وستمائة ، ومات أفسز بمكة
سنة ست وعشرين ودفن بالمعلّى ، وبقي على مكة قائده نحر الدين بن الشيخ ، وقصد
راجح بن قتادة مكة مع عساكر عمر بن رسول فملكها من يد نحر الدين بن الشيخ
سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم جاءت عساكر مصر سنة ثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل فلكوا مكة وهرب
راجح إلى اليمن ، ثم عاد ومعه عمر بن رسول صاحب اليمن بنفسه فهربت عساكر
مصر ، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد الخليفة المستنصر .

ثم غلب على مكة سنة سبع وأربعين وستمائة أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة
ولحق راجح باليمن ، وسار جمّاز بن حسن بن قتادة سنة إحدى وخمسين وستمائة إلى
الناصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدمشق مستجيشاً على أبي سعد أن يقطع
ذكر صاحب اليمن ، فجهرله عسكراً وسار إلى مكة فقتل أبا سعد في الحرم وملك
مكة ، ثم وصل راجح من اليمن إلى مكة وهو شيخ كبير السن وأخرج منها جمّاز بن
حسن فلاحق باليمن .

ثم دار أمر مكة بين أبي نعيم محمد بن أبي سعد علي بن قتادة وبين غالب بن راجح
أبن قتادة ، ثم استبد أبو نعيم بإمرة مكة ونفى قبيلة أبيه أبي سعد إلى اليمن ،

ولما هلك أبو نعيم قام بأمر مكة من بعده أبناء رميثة وحميضة ونازعهما أخوهما
عطيفة وأبو الغيث فأعتقلاهما ، ووافق ذلك وصول بيارس الجاشنكير كافل المملكة
المصرية في الأيام الناصرية فأطلق عطيفة وأبا الغيث وولاهما ، وأمسك رميثة
وحميضة وبعث بهما إلى مصر ، ثم ردّ السلطان رميثة وحميضة إلى إمارتهما بمكة

مع عسكره وبعثا إليه بعطيفة وأبى الغيث، وبقي التنازع بينهم، وهم يتعاقبون في إمرة مكة مرة بعد أخرى وهلك أبو الغيث في بعض حروبهم بطن مرة.

ثم تنازع حميضة ورميثة وسار رميثة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر سنة خمس عشرة وسبعائة فأمدّه بعساكر وجه بها إلى مكة وأصلحوا.

ثم خالفهم عطيفة سنة ثمان عشرة وسبعائة ووصل إلى السلطان فأمدّه بالعساكر فملك مكة وقبض على رميثة فسجن ثم أطلق سنة عشرين وأقام بمصر، وبقي حميضة مشردا إلى أن آستأمن السلطان فأمنه، ثم وثب بجحيضة ممالك كانوا معه وقتلوه، وأطلق رميثة من السجن وأستقر شريكا لأخيه عطيفة في إمارتها.

ثم مات عطيفة وأقام أخوه رميثة بعده مستقلا بإمارة مكة إلى أن كبر وهرم. وإلى ذلك أشار في "التعريف" بقوله: وأول إمرة في رميثة وهو آخر من بقي من بيته، وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها، وكان أبناءه بقية وعجلان قد أقسما معه إمارة مكة برضاه، ثم أراد الرجوع فلم يوافقاه عليه وأستمر معه في الولاية.

ولما مات رميثة تنازع ولدها: بقية وعجلان، وخرج بقية وبقي عجلان بمكة، ثم غلبه عليها بقيّة، ثم اجتمعوا بمصر سنة ست وخمسين وسبعائة فوّلّى السلطان عجلان، وفتر بقية إلى الحجاز فأقام هناك منازعا لعجلان من غير ولاية. وعجلان هو المستبّد بها مع سلوك سيرة العدل والإنصاف والتجافى عن أموال الرعية والتعرض للجائرين إلى أن توفي سنة سبع وسبعين وسبعائة.

وولّى بعده ابنه أحمد، وكان قد فوّض إليه الأمر في حياته وقاسمه في أمره، فقام أحمد بأمر مكة جاريا على سنن أبيه في العدل وحسن السيرة، ومات في رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعائة في الدولة الظاهرية برقوق.

(١) عبارة التعريف "وهي الآن في رميثة وهو الخ."

فولّى مكانه ابنه محمد، وكان صغيراً في كفالة عمه كيش بن عجلان فبقى حتى وثب عليه فداوى عند ملاقة الحمل فقتله ؛ ودخل أمير الركب إلى مكة فولّى عنان ابن مغامس بن رميثة مكانه .

ثم لحق على بن عجلان بالأبواب السلطانية بمصر فولاه الظاهر برقوق سنة تسع وثمانين وسبعائة شريكاً لعنان، وسار مع أمير الركب إلى مكة فهرب عنان ودخل على بن عجلان مكة فاستقل بإمارتها ؛ ثم وفد على بن عجلان على السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأفرده بالإمارة وأنزل عنان بن مغامس عنده وأحسن إليه ، ثم أعتقه بعد ذلك وبقي على بن عجلان في إمارة مكة حتى قتل بطن مرّ في سنة سبع وتسعين وسبعائة .

فولّى السلطان ابن أخيه حسن بن أحمد مكانه وأستبدّ بإمارة مكة وهو بها إلى هذا العهد . وهو حسن ، بن أحمد ، بن عجلان ، بن رميثة ، بن أبي نميّ محمد ، بن أبي سعد على ، بن أبي عزيز قتادة ، بن إدريس ، بن مطاعن ، بن عبد الكريم ، بن موسى ، ابن عيسى ، بن سليمان ، بن عبد الله ، بن أبي الكرام ، بن موسى الجون ، بن عبد الله ، ابن حسن ، بن الحسن السبط ، بن على بن أبي طالب رضى الله عنه .

الطرف السابع

(في ترتيب مكة المشرفة ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فعلى ما تقدّم في الديار المصرية والبلاد الشامية من المعاملة بالدنانير والدرهم النقرة ؛ وصنّجتها في ذلك كصنّجة الديار المصرية ، ويعبر عن الدرهم النقرة فيها بالكامل ، نسبة إلى الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب صاحب مصر ،

وعندهم درهم آخر من فضة خالصة، مربع الشكل، زنته نحو نصف، ثم نقص حتى صار نحو سدس، يعبرون عنه بالمسعودى نسبة إلى الملك المسعود صاحب اليمن، وهو في المعاملة بثلاثي درهم كاملي،

ولم يكن بها في الزمن المتقدم فلوس يتعامل بها ثم راجت الفلوس الجدد بها في أيام الموسم فيما قبل الدولة الظاهرية برقوق. ثم راجت في سائر الأوقات آخرها، إلا أن كل درهم بها ثمانية وأربعون فلساً على الضعف من الديار المصرية، حيث كل درهم فيها أربعة وعشرون فلساً، ويعبر عن كل خمسة قراريط من الدرهم الكامل فيها بجائز، وعن الربع والسدس منه بجائزين، وتعتبر أوزانها بالبن : وهو مائتان وستون درهماً، وأواقيـه عشرة، كل أوقية عشرة دراهم، ويكيلها بالغرارة، وكل غرارة من غرائرها (١) وقياس قماشها بالذراع المصرى، وأسعارها في الغالب مرتفعة عن سعر مصر والشام. وأما إمرتها فإنها إمرة أعرابية يمشى أميرها في إمرته على قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك في المواكب وغيرها، وأتباعه عرب، وأكثرهم من بنى الحسن أشراف مكة، ويعبر عن أكابرهم بالقواد، وهم بمثابة الأمراء للملوك، وربما استخدم المماليك الترك ومن في معانهم.

وأكثر متحصله مما يؤخذ من التجار الواردين إلى مكة من الهند واليمن وغيرهما. وأما تجهيز ركب الحجيج إليها ففي كل سنة يجهز إليها المحمل من الديار المصرية بكسوة البيت مع أمير الركب ويكسى البيت بالكسوة المجهزة مع المحمل، ويأخذ سدنة البيت الكسوة التي كانت على البيت، فيهادون بها الملوك وأشراف الناس، وداخل البيت كسوة أخرى من حرير منقوش لا تحتاج إلى التغير إلا في السنين المتطاولة لعدم وصول الشمس ولس الأيدي إليها.

(١) بياض في الأصل.

ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته، فإذا وافاه
ترجل عن فرسه وأتى الجمل الحامل للمحمل فقلب خفَّ يده اليمنى وقبَّله خدمةً
لصاحب مصر . وقد روى ابن التجار في تاريخ المدينة النبوية من طريق الحافظ
أبي نعيم إلى حسين بن مُصعب أنه أدرك كسوة الكعبة يؤتى بها المدينة قبل أن
تصل إلى مكة فتشتر على الرضراض في مؤخر المسجد، ثم يُخرج بها إلى مكة . وذلك
في سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ومائة .
وأعلم أن كسوة الكعبة لها حالان :

الحال الأولى - ما كان الأمر عليه في الجاهلية . قد روى الأزرق في "أخبار
مكة" : بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ! "نهى
عن سَبِّ أسعدَ الحِميريِّ وهو تبعٌ" وكان أول من كسا الكعبة . وذَكَرَ ابن إسحاق
عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسا الكعبة كُسوةً كاملةً تبعٌ وهو أسعدُ
أرى في منامه أن يكسوها فكساها الأنطاع ، ثم أرى أن آكسها فكساها الوصائل
ثياب حبرة من عَصَبِ الين ، وعن ابن جريج نحوه .

وعن ابن أبي مليكة أنه قال : بلغني أن الكعبة كانت تَكْسَى في الجاهلية كُسى
شئ . كانت البدنُ تُجَلَّلُ الحبرَ والبرود والأكسية وغير ذلك من عَصَبِ الين ، وكان
يُهدى للكعبة هدايا من كُسى شئ سوى جلال البدن : حبر وخز وأنماط فتكسى منه
الكعبة، ويجعل ما بقى في خزانة الكعبة . فإذا بلى منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب
آخر، ولا يُنزع بما عليها شيء .

وعن عبد الجبار بن الورد قال : سمعت ابن أبي مليكة يقول : كانت قریش
في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة، فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها، من عهد
قُصَيِّ بن كلاب حتى نسا أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان

يختلف إلى الين يتجر فيها فأثرى في المال، فقال لقريش : أنا أكسو الكعبة وحدي سنةً وجميع قُريش سنةً، فكان يفعل ذلك حتى مات : يأتي بالحجر الحنّدي من الجند فيكسو الكعبة ، فسمته قريش العدل لأنه عدل فعله بفعل قريش .

وروى الواقدي عن النّوّار بنت مالك أم زيد بن ثابت رضي الله عنه أنها قالت : رأيت قبل أن ألد زيد بن ثابت على الكعبة مطارف نحر أخضر وأصفر ، وكرار وأكسية الأعراب وشقاق شعر .

وعن ابن جريح أن الكعبة فيما مضى إنما كانت تكسى يوم عاشوراء إذا ذهب آخر الحاج ، حتى كان بنو هاشم فكانوا يعلّقون القميص يوم التروية من الديباج لأن يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فإذا كان يوم عاشوراء علّقوا عليها الإزار .

وعن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم قال : نذرت أمي بدنة تحرها عند البيت وجللتها شقّتين من شعر ووبر فنحرت البدنة وسيرت للكعبة بالشقّتين ، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة لم يهاجر ، فنظرت إلى البيت يومئذ وعليه كُسى شئ من وصائل وأنطاع وكرارٍ وخز وتمرّاقٍ عراقية ، كل هذا قد رأيته عليه .

قلت : حاصل الأمر أن الذي كُسيته الكعبة الأنطاع وحبرأت الين والبرود والكرار والأنماط والتمارق ومطارف الخبز الأخضر والأصفر والأكسية وشقاق الشعر والوبر وغير ذلك .

الحال الثانية - ما كان الأمر عليه في صدر الإسلام وهلم جرا إلى زماننا .

أما في صدر الإسلام فقد روى الواقدي عن إبراهيم بن أبي حبيبة عن أبيه أن البيت كان في الجاهلية يُكسى الأنطاع فكساه النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ، ثم كساه عمر وعثمان رضي الله عنهما القباطي . وعن ابن أبي نجيح أن عمر

أَبْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَسَا الْكَعْبَةَ الْقَبَاطِيَّ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، كَانَ يَكْتَبُ فِيهَا إِلَى مِصْرَ ، ثُمَّ عُثْمَانُ مِنْ بَعْدِهِ . فَلَمَّا كَانَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ كَسَاهَا كِسْوَتَيْنِ : كِسْوَةَ عُمَرَ الْقَبَاطِيَّ وَكِسْوَةَ دِيْبَاجٍ ، وَكَانَتْ تَكْسَى الدِّيْبَاجُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ، وَتَكْسَى الْقَبَاطِيَّ فِي آخِرِ شَهْرِ رَمَضَانَ .

وَرَوَى الْأَزْرَقِيُّ عَنْ نَافِعٍ قَالَ : كَانَ أَبُو عَمْرِو بْنُ كَسُو بَذَنَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحْرِمَ الْقَبَاطِيَّ وَالْجَبَرِ ، وَفِي رِوَايَةِ الْأَنْمَاطِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ أَلْبَسَهَا إِيَّاهَا وَإِذَا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ نَزَعَهَا عَنْهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ الْحَجَّيِّ فَنَاطَهَا عَلَى الْكَعْبَةِ . وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَنْذِرُونَ كِسْوَةَ الْكَعْبَةِ وَيُهْدُونَ إِلَيْهَا الْبُذْنَ عَلَيْهَا الْحَبْرَاتُ ، فَيَبِيعُ بِالْحَبْرَاتِ إِلَى الْبَيْتِ كِسْوَةَ . فَلَمَّا كَانَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ كَسَاهَا الدِّيْبَاجَ الْخُسْرَوَانِيَّ ، فَلَمَّا كَانَ أَبُو الزَّيْرِ أَتَبَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ يَبِيعُ إِلَى أَخِيهِ مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْرِ يَبِيعُ بِالْكِسْوَةِ كُلِّ سَنَةٍ وَكَانَتْ تَكْسَى يَوْمَ عَاشُورَاءَ .

قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَقَدْ قِيلَ إِنَّ ابْنَ الزَّيْرِ أَوَّلَ مَنْ كَسَاهُ الدِّيْبَاجَ . قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ "الْأَوَائِلُ" : وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ عَنْ أَشْيَاخِهِ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ كَانَ يَبِيعُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِالدِّيْبَاجِ مِنَ الشَّامِ فَيَمْرُ بِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ فَيُنْشَرُ يَوْمًا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأَسَاطِينِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ، ثُمَّ يَطْوَى وَيَبِيعُ بِهِ إِلَى مَكَّةَ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ أَوَّلَ مَنْ كَسَا الْكَعْبَةَ الدِّيْبَاجَ . قَالَ الْمَاورِدِيُّ : وَكَسَاهُ بَنُو أُمَيَّةٍ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِمُ الْحُلَّالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أَهْلِ نَجْرَانَ فِي جَزَيْتِهِمْ ، وَالدِّيْبَاجِ مِنْ فَوْقِهَا .

قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمَّا جَاءَ الْمُهَدِيُّ فِي سَنَةِ سِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ ، رُفِعَ إِلَيْهِ أَنَّ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ قَدْ أَثْقَلَتْهَا وَيَخَافُ عَلَى جُذْرَانِهَا مِنْ ثِقَلِ الْكِسْوَةِ ، فَخَرَّجَهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ

الكسوة، ثم أفرغ عليها ثلاث كُسَى : قباطى وخزوديباج . ولما غلب حسينُ
 ابن حسن الطالبي على مكة في سنة مائتين ، وجد ثيابها قد ثقلت عليها أيضا فخرّدها
 في أول يوم من المحرم وكساها كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء
 مكتوب بينهما .

”بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلّى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار .“
 ”أمر أبو السرايا الأصغر بن الأصغر راعية آل محمد صلوات الله عليه وسلامه بعمل“
 ”هذه الكسوة لبیت الله الحرام“ .

وذكر الأزرق عن جدّه أن الكعبة كانت تكسى في كل سنة كسوة ديباج يعنى
 أحمر وكسوة قباطى . فأما الديباج فتكساه يوم التروية ، فيعلق القميص ويدلّ
 ولا يخط ، وإذا صدر الناس من منى خيط القميص وترك الإزار حتى يذهب الحاج
 لثلا يخترقوه . فإذا كان يوم عاشوراء علق عليها الإزار يوصل بالقميص ، وكأن المراد
 بالإزار ما تدركه الأيدي في الطواف وبالقميص ما فوق ذلك إلى أعلى الكعبة ،
 فلا تزال هذه الكسوة الديباج عليها حتى يوم سبع وعشرين من شهر رمضان
 فتكسى القباطى القطن .

فلما كانت خلافة المأمون رفع إليه أن الديباج يبلّ ويتخزق قبل أن يبلغ الفطر ،
 فسأل المأمون صاحب بريد مكة في أى الكسوة الكعبة أحسن ؟ فقال له :
 فى البياض ، فأمر بكسوة من ديباج أبيض ، عملت سنة ست ومائتين وبعث بها إلى
 الكعبة ، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كسى : تكسى الديباج الأحمر يوم التروية ،
 وتكسى القباطى يوم هلال رجب ، وتكسى الديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من
 شهر رمضان للفطر .

ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض يتخرق وييل في أيام الحج من مسّ الحاج قبل أن يُحاط عليها إزار الديباج الأحمر في عاشوراء ، فزادها إزار ديباج أبيض تُكسَاه يوم التَّروِيَةِ ، فيستر به ما تخرق من الإزار الذى كسيته .

ثم رفع إلى المتوكل في سنة أربعين ومائتين أن إزار الديباج الأحمر ييل قبل هلال رجب من مسّ الناس ومسحهم بالكعبة ، فزادها إزارين مع الإزار الأول ، فأذال قميصها الديباج الأحمر وأسلبه حتى بلغ الأرض ، ثم جعل الإزار فوقه ، في كل شهرين إزار ، ثم نظر المجبة فإذا الإزار الثانى لا يحتاج إليه ، فوضع في تابوت الكعبة وكتبوا إلى المتوكل أن إزارا واحدا مع ما أذيل من قميصها ، فصاريعث بإزار واحد فتكسى بعد ثلاثة أشهر ، فيكون الذيل ثلاثة أشهر .

ثم في سنة ثلاث وأربعين ومائتين أمر المتوكل بإذالة القميص القباطى حتى بلغ الشاذروان الذى تحت الكسوة . قال الماوردى : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباج .

وقد حكى المؤيد صاحب حماة في "تاريخه" أن الفاطميين خلفاء مصر في إمارة أبى الحسن جعفر من السليمانيين على مكة في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة كسوا الكعبة البياض .

قلت : ثم رفع الأمر في خلفاء بنى العباس ببغداد إلى شعارهم من السواد ، فألبسوا الكعبة الديباج الأسود ، ثم جرى ملوك مصر عند استيلائهم على الحجاز على إلباسها السواد .

والذى جرى عليه الحال في زماننا إلى آخر الدولة الظاهرية برقوق وأوائل الدولة الناصرية ولده أن الكعبة تُكسى الديباج الأسود كسوة مسبلة من أعلى

الكعبة إلى أسفلها مرقوما بأعلىها طراز رقم بالبياض من أصل النسيج مكتوب فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآيات، وعلى الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض ... (١) ... ثم في سنة ... (١) ... وثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة، فصار الرقم في السواد بحري أصفر مقصَّب بالذهب، ولا يخفى أنه أنفُس من الأول والثاني أبهج منه لشدة مضادة ما بين البياض والسواد، ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجا أسود على العادة، وبعضها كمخا أسود بجامات مرقوم فيها بالبياض "لا إله إلا الله محمد رسول الله". ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسة وعلا قيمة. ثم في سنة أربع عشرة وثمانمائة جعل واجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ... (٣) ... والله العالم ما كان وما يكون.

قلت : وحاصل ما تقدم أن الذي أشتملت عليه أصناف الكسوة في الإسلام الثياب اليمانية، والقباطى المصرية، والحبر والأنماط والحلل التجرانية، والديباج الأبيض، والديباج الأحمر، والديباج الأخضر، والديباج الأصفر، والديباج الأسود، والديباج الأزرق.

وأما تجريد الكعبة من ثيابها، فقد ذكر الأزرق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينزع كسوة البيت في كل سنة فيقسمها على الحاج. وعن ابن أبى مليكة أنه قال : كانت على الكعبة كُسى كثيرة من كسوة أهل الجاهلية : من الأنطاع والأكسية والكرار والأنماط، فكانت رُكاماً بعضها فوق بعض.

(١) في الأصل بياض بهذا المقدار.

(٢) لعله وإن كان أبهج منه لشدة الخ تأمل.

(٣) في الأصل بياض بهذا المقدار.

فلما كسيت في الإسلام من بيت المال، كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء إلى أن كانت أيام معاوية فكتب إليه شيبه بن عثمان المحبب يرغب إليه في تخفيفها من كسئ الجاهلية حتى لا يكون عليها شيء مما مسته أيديهم لنجاستهم، فكتب إليه معاوية أن جردها، وبعث إليه بكسوة من ديباج وقباطى وحريرة، فجردها شيبه حتى لم يبق عليها شيء، وكساها الكسوة التي بعث بها معاوية، وقدم الثياب التي كانت عليها بن أهل مكة؛ وكان ابن عباس حاضرا في المسجد وهم يجردونها فلم ينكر ذلك ولا كرهه .

وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت على شيبه ذلك، وقالت له بعها وأجعل ثمنها في سبيل الله، وكذلك ابن عباس .

وروى الواقدي عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : إذا نزع عن الكعبة ثيابها فلا يضرها من لبسها من الناس من حائض أو جنب . وقد تقدم أن المهدي جردها حين حج في سنة ستين ومائتين؛ وحسين الطالبي جردها في سنة مائتين .

قلت : والذي استقر عليه الحال في زماننا أنها لا تلبس في كل سنة غير كسوة واحدة على ما تقدم بيانه، وذلك أن الكسوة تعمل بمصر على النمط المتقدم، ثم تحمل صلبة الركب إلى مكة فيقطع ذيل الكسوة القديمة على قدر قامة من جدار الكعبة ويظهر من الجدار ما كان تحته، ويبقى أعلاها معلقا حتى يكون يوم فتخلع الكسوة العتيقة وتعلق الجديدة مكانها، ويكسئ المقام من نسبة كسوة الكعبة، يأخذ بنو شيبه الحجة الكسوة العتيقة فيهدونها للججاج ولأهل الآفاق . وقد زاد رفدهم فيها من حين حصلت المغالاة في كسوة الكعبة وبرقعها على ما تقدم .
” اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما، وتكريما ومهابة “ .

(١) صوابه ومائة . أنظر تاريخ خلافة المهدي .

(٢) بياض في الأصل .

وَأَعْلَمُ أَنَّ جِدَارَ الكَعْبَةِ كَانَ عَزِيزَ الرُّوْيَةِ حِينَ كُنْتَ الكِسْوَةُ تَتْرَاكُمْ عَلَيْهَا وَلَا يَجُزُّدُ عَنْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِنْ الْأَزْرَقُ حَكَى عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ تَبَجَّحَ بِرُؤْيَةِ جِدَارِهَا حِينَ جُرِّدَتْ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، وَأَنَّهُ رَأَى جِدَارَ الْبَابِ الْمَسْدُودِ الَّذِي كَانَ عَمَلُهُ ابْنُ الزَّيْدِ فِي ظَهَرِهَا وَسَدَّهُ الْحَجَّاجُ، وَشَبَّهَ لَوْنَ جِدَارِهَا بِالْعَبْرِ الْأَشْهَبِ .

الجملة الثانية

(فَمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَاضِرَتِهَا)

أَكْثَرُ مَنْ هُوَ بِبَادِيَتِهَا وَأَوْدِيَتِهَا الْقَرْيَةُ مِنْهَا بَنُو الْحَسَنِ الْأَشْرَافِ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ" مِنْ عَرَبِ الْمُحْجَازِ لَامٌ، وَخَالِدٌ، وَالْمُتَفَقُّ، وَالْعَايِدُ، وَزَادَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ": ذَكَرُ زَيْدٌ، وَبَنُو عَمْرٍو، وَالْمَضَارِجَةُ، وَالْمَسَاعِيدُ، وَالزَّرَاقُ، وَآلُ عَيْسَى، وَآلُ دَعَمٍ، وَآلُ جَنَاحٍ، وَالْحَبُورُ . ثُمَّ قَالَ : وَدِيَارَهُمْ يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَشَرْقَى مَكَّةَ حَلِيجَةٌ، وَبَنُو هَزْرٍ وَمَنَازِلُهُمْ بَيْشَةُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ خَنَعُوا بَنُو مُنَبِّهٍ، وَبَنُو فَصِيلَةَ، وَمَعَاوِيَةَ، وَآلُ مَهْدِيٍّ، وَبَنُو نَصْرٍ، وَبَنُو حَاتِمٍ، وَالْمَوْرَكَةُ، وَآلُ زِيَادٍ، وَآلُ الصَّعَافِيرِ، وَالشَّامَاوِ بُلُوسَ . ثُمَّ قَالَ : وَمَنَازِلُهُمْ غَيْرُ مُتَبَاعِدَةٍ .

أَمَّا الْعُرْبَانُ بِالْدَرْبِ الْمَصْرِيِّ إِلَى مَكَّةَ، فَمِنْ بَرَكَةِ الْحَجَّاجِ إِلَى عَقَبَةِ أَيْلَةَ لِلْعَائِدِ مِنْ عَرَبِ الشَّرْقِيَّةِ، وَمِنْ الْعَقَبَةِ إِلَى الدَّامَاءِ دُونَ عُيُوفِ الْقَصَبِ لِبْنِي عُقْبَةَ، وَمِنْ الدَّامَاءِ إِلَى أَكْدَى لَيْلٍ، وَمِنْ أَكْدَى إِلَى آخِرِ الْوَعَرَاتِ لِحُيَّيَّةَ، وَمِنْ آخِرِ الْوَعَرَاتِ إِلَى نِهَازَةِ بَدْرٍ إِلَى نِهَازَةِ الصَّفَرَاءِ، وَتَقَبَّ عَلَى لِبْنِي حَسَنِ أَصْحَابِ الْيَنْبُغِ؛ وَيْلَهُمْ مِنْ أَقَارِبِهِمْ مِنْ بَنِي حَسَنِ أَصْحَابِ بَدْرٍ إِلَى رَمْلَةِ عَالِجٍ فِي طَرَفِ قَاعِ الْبَزْوَةِ، وَمِنْ

الصفراء إلى المحفة ورابع لزبيد، ومن المحفة على قديد وما حولها إلى الثنية المعروفة بعقبة السويق لسليم، ومن الثنية على خليص إلى الثنية المشرفة على عسفان إلى الفج المسما بالمحاطب لبني جابر، وهم في طاعة صاحب مكة، ومن المحاطب إلى مكة المعظمة لصاحب مكة وبني الحسن .

القاعدة الثانية

(المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أشرف الخلق محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، وفيها ثلاث جبل)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

المدينة ضبطها معروف، وهو أسم غلب عليها، وبه نطق القراءان الكريم في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ . وأسماها القديم يثرب وبه نطق القراءان في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ .

قال الزجاجي : وهو يثرب، بن قانية، بن مهلائيل، بن إرم، بن عييل، بن عوص، ابن إرم، بن سام، بن نوح، هو الذي بناها، وورد ذكره في الحديث أيضا . قال الشيخ عماد الدين بن كثير في " تفسيره " وحديث النبي عن تسميتها بذلك ضعيف، وسماها الله تعالى الدار بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة (فتحت الطاء المهملة وسكون الياء وفتح الباء الموحدة بعدها هاء) وطابة بإبدال الياء بعد الطاء بألف . قال النووي : وهما من الطيب وهو الرائحة الحسنة، وقيل من الطيب خلاف الرديء، وقيل من الطيب بمعنى

الظاهر ، وقيل من طيب العيش . وزاد السهيلي في أسماؤها الحارّة بالجم والباء الموحدة ، والمحبّة ، والمحبوّة ، والقاصّة ، والمحبورة ، والعذراء ، والمرحومة ؛ وكانت رعى في الجاهلية غلبة لأن اليهود غلبوا عليها العالقي ، والأوس والخزرج غلبوا عليها اليهود . قال صاحب حماة : وهى من الحجاز ، وقيل من نجد ، وموقعها قريب من وسط الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى كتاب "الأطوال" : وطولها خمس وستون درجة وثلاث ، وعرضها إحدى وعشرون درجة . وقال فى "القانون" : طولها سبع وستون درجة ونصف ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وثلاث . وقال ابن سعيد : طولها خمس وستون درجة وثلاث ، وعرضها خمس وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة . وقال فى "رسم المعمور" : طولها خمس وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها خمس وعشرون درجة .

وقد ذكر صاحب "الهناء الدائم ، بولد أبى القاسم" أن أول من بناها تبع^ص الأول ، وذكر أنه مّر بمكانها وهى يومئذ منزلة بها أعين ماء ، فأخبره أربعائة عالم من علماء أهل الكتاب لهم عالم يرجعون إليه أن هذا موضع مهاجر نبي يخرج فى آخر الزمان من مكة اسمه محمد ! وهو إمام الحق ، فأمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ! وبني المدينة ، وأزلهم بها وأعطى كلا منهم ما لا يكفيه وكتب كتابا فيه :

"أما بعد يا محمد فإني آمنت بك وبربك ، وبكل ما جاء من ربك"
 "من شرائع الإسلام والإيمان ، وإني قلت ذلك فإن أدركك فيها"
 "ونعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لى يوم القيامة ، ولا تنسني فإني من"
 "أمتك الأولين ، وتابعتك قبل مجيئك ، وقبل أن يرسلك الله ، وأنا على"
 "ملة أبيك إبراهيم !"

وختم الكتاب ونقش عليه : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ .

وكتب عنوانه .

”إلى محمد بن عبد الله خاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين ، صلى الله
”عليه وسلم ! من تبع الأول حمير ، أمانة الله في يد من وقع إليه أن يدفعه“
”إلى صاحبه“

ودفع الكتاب إلى رئيس العلماء المذكورين ، وتداوله بنوه بعده إلى أن هاجر
النبي صلى الله عليه وسلم ! إلى المدينة فلتقاه به بعض أولاد ذلك العالم بين مكة
والمدينة ، وتاريخ الكتاب يومئذ ألف سنة بغير زيادة ولا نقص . وقيل في بنائها غير
ذلك ، وهي مدينة متوسطة في مستو من الأرض ، والغالب على أرضها السباخ ،
وفي شمالها جبل أحد ، وفي جنوبها جبل عير ، وكان عليها سور قديم وبخارجها
خندق محفور ، وهو الذي حفره النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب .

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين بنى عليها إسحاق بن محمد الجعدي سورا منيعا ،
وجدد عضد الدولة بن بويه الديلمي في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، وهو باق عليها
إلى الآن ، ولها أربعة أبواب : باب في الشرق يُخرج منه إلى البقيع ، وباب في الغرب
يُخرج منه إلى العقيق وقبائ ، وبين يدي هذا الباب جداول ماء جارية ، وبوسطها
مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ! وهو مسجد متسع إلا أنه لم يبلغ في القدر مبلغ
مسجد مكة .

قال ابن قتيبة في ”كتاب المعارف“ : وكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم !
مبنيًا باللبن وسقفه الجريد وعمده النخل ، ولم يزد فيه أبو بكر شيئا ، وزاد فيه عمر ،

ثم غيّر عثمان وزاد فيه عثمان زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة وبالْقَصَّة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، ووسعه المهدي سنة ستين ومائة؛ وزاد فيه المأمون زيادة كبيرة في سنة اثنتين ومائتين؛ ولم تزل الملوك تتداوله بالعِمارة إلى زماننا .

وبه الحُجْرَة الشريفة التي بها قَبْر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما . بمجمرته الشريفة دائرٌ عليه مقصورةٌ مرتفعة إلى نحو السقف، عليه ستر من حرير أسود؛ وخارج المقصورة بين القبر والمنبر الروضة التي أخبر صلى الله عليه وسلم ! أنها روضة من رياض الجنة .

وقد ذكر أهل الأثر : أن المنبر كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ! ثلاث درجات بالمقعد، وارتفاعه ذراعان وثلاث أصابع، وعرضه ذراع راجح، وارتفاع صدره وهو الذي يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ذراع، وارتفاع رُمانتيه اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم ! بيديه الكريمتين إذا جلس شبراً وأصبعان، وفيه خمسة أعواد من جوانبه الثلاثة؛ وبقي على ذلك إلى أيام معاوية فكتب إلى مروان : عامله على المدينة أن أرفعه عن الأرض فزاد من أسفله ست درجات ورفعها عليها فصار له تسع درجات بالمجلس . قيل : وصار طوله أربعة أذرع وشبراً .

ولما حج المهدي بن المنصور العباسي سنة إحدى وستين ومائة، أراد أن يعيده إلى ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بتركه خشية التهاوت فتركه ؛ ويقال : إن المنبر الذي صنعه معاوية ورَفَعَ منبر النبي صلى الله عليه وسلم عليه، تهاوت على طول الزمان، وجدده بعض خلفاء بني العباس وأتخذ من بقايا أعواد منبر النبي صلى الله عليه وسلم أمشاطاً للتبرك، ثم احترق هذا المنبر لما احترق المسجد في مستهل رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أيام المستعصم بالله، وشغل المستعصم عن عمارته بقتال

التار، فعمل المظفر صاحب اليمن المنبر، وبعث به إلى المدينة سنة ست وخمسين وستمائة، فنصب في موضع منبر النبي صلى الله عليه وسلم! فبقى إلى سنة ست وستين وستمائة، فأرسل الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر المنبر الموجود الآن فأزيل ذلك ووضع هذا وطوله أربعة أذرع، ومن رأسه إلى عتبته سبعة أذرع تزيد قليلا، ودرجاته سبع بالمقعد والأمر على ذلك إلى الآن.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها، وهي على ضريين)

الضرب الأول

(جهاها ومرافقها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ لَلْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ حِمَى، حَمَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَرَّمَهُ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَّةَ. قَالَ فِي "الرَّوْضِ الْمَطَارِ": جِهَاهَا اثْنَا عَشْرَ مِيلًا؛ وَخَارِجَ بَابِهَا الشَّرْقِيِّ الْبَقِيعُ الْمَتَقَدِّمُ ذَكَرَهُ، وَهُوَ مَدْفَنُ أَكْثَرِ أَمْوَاتِهَا، وَهُوَ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ فِي أَوَّلِهِ، وَيُسَمَّى بِقِيعِ الْغَرْقَدِ - بَفَتْحِ الْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَسَكُونِ الرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْقَافِ وَدَالِ مَهْمَلَةٍ فِي الْآخِرِ. قَالَ "الْأَصْمَعِيُّ": سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ قُطِعَ مَابِهِ مِنْ شَجَرِ الْغَرْقَدِ يَوْمَ مَاتَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَبِهِ قَبْرُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! مِنْ مَارِيَةِ الْقِبْطِيَّةِ، وَقَبْرُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ وَإِلَى جَانِبِهِ قَبْرُ الْعَبَّاسِ: عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَقَبْرُ عُمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قُبَّةٍ دُونَهُمَا، وَقَبْرُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ إِمَامِ الْمَذْهَبِ الْمَعْرُوفِ؛ وَحَوْلَ الْمَدِينَةِ حَدَائِقُ النَّخْلِ الْأَنْيَقَةُ؛ وَثَمَرُهَا مِنْ أَطْيَبِ الثَّمَرِ وَأَحْسَنِهِ، وَغَالِبُ قُوَّتِ أَهْلِهَا مِنْهُ.

الضرب الثاني

(في مخالفتها وقراها ، والمشهور منها ثمانية أما كن)

الأول - (قُبَاء) - بضم القاف وفتح الباء الموحدة وألف في الآخر - ويروى بالمد والقصر والمد أشهر . قال في "الروض المعطار" : ومن العرب من يذكره فيصرفه ، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه . قال : وسميت قُبَاءً بئر كانت بدار توبة بن الحسن ابن السائب بن أبي لبابة يقال لها قُبَاء ، وهي قرية غربي المدينة على ميلين منها ، وبها مسجد التقوى الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي قُبَاء كل يوم سبت راكباً وماشيئاً ، ومُصَلِّاً بها مشهور .

الثاني - (خير) - بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وراء مهملة في الآخر - قال الزجاجي : سميت بخَيْرٍ بن قانية وهو أول من نزلها ، وهي بلدة بالقرب من المدينة الشريفة . قال ابن سعيد : طولها أربع وستون درجة وست وخمسون دقيقة ، وعرضها سبع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهي بلدة عامرة أهلة ذات نخيل وحدائق ومياه تجري . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة بنى عنزة من اليهود ، والخير في لغة اليهود الحصن ، وهي في جهة الشمال والشرق عن المدينة على نحو ست مراحل وقيل أربع مراحل . قال الإدريسي : وهي ذات نخيل وزرع ، وكانت في صدر الإسلام دارا لبني قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ ، وبها كان السَّمُوعِل بن عاديّا الشاعر المشهور .

الثالث - (قَدَك) - بفتح الفاء والdal المهملة وكاف في الآخر - قال الزجاجي : سميت بقَدَك بن حام ، وقيل : سميت بَقِيد بن حام ، وهو أول من نزلها . قال

في "الروض المعطار": وبينها وبين المدينة يومان، وحَصْنُها يقال له الشمروخ على القرب من خير، وكان أهلها قد صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم! على النصف من ثمارها في سنة أربع من الهجرة، ولم يُوجِف عليها المسلمون بخيل ولا رِكَّاب فكانت له صلى الله عليه وسلم خالصةً، وكان معاوية بن أبي سفيان قد وهبها لمروان بن الحكم، ثم آرتجعها منه لمَوجِدة وجدها عليه. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، ردّها إلى ما كانت عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تُغلّ في أيام إمرته عشرة آلاف دينار، يتجافى عنها.

الرابع - (الصُّفراء) - مؤنث أصفر - وهو واد على ستّ مراحل من المدينة كثير المزارع والمياه والحدائق. أخبرني بعض أهل الحجاز أن به أربعة وعشرين نهراً على كل نهر قرية، ووعيونُه تصب فضلها إلى يَنْبَعٍ، وهو بيد بنِ حَسَن الشرفاء.

الخامس - (ودّان) - بفتح الواو وتشديد الدال المفتوحة وألف ثم نون - وهو واد به قرى خراب لا تحصى كثرة.

السادس - (الْفُرْع) - بضم الفاء وسكون الراء المهملة وبالعين المهملة - وهو واد في جنوبى المدينة على أربعة أيام منها يشتمل على عدّة قرى أهلة، أخبرني بعض أهل الحجاز أن به أربعة عشر نهراً على كل نهر قرية، وماؤها يصب في رابع حيث يُحرم حجاج مصر، وعليها طريق المُشاة من مكة إلى المدينة. قال في "الروض المعطار": ويقال إنها أول قرية مارَت إسماعيل عليه السلام التمر بمكة، وهى الآن بيد بنى حرب.

السابع - (الجار) - قال في "اللباب": بفتح الجيم وألف وراء مهملة - وهى قُرْضة المدينة الشريفة على ثلاث مراحل منها. قال ابن حوقل: وبينها وبين ساحل الجُحفة نحو ثلاث مراحل، منه عن أيلة على نحو عشرين مرحلة.

الثامن - (وَادِي الْقَرْيَ) - بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف في الآخر جمع قرية . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة كثيرة النخيل والبساتين والعيون ، وبها ناس من وَلَدِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهم الغالبون عليها ، وتُعرف بالوَادِيَيْنِ ؛ والذي أخبرني به بعض أهل الحجاز أنه كان بها عيون كثيرة عليها عدّة قُرَى غُربت لِإختلاف العرب ، وهي الآن خراب لا عامر بها ولو عمرت أغنت أهل الحجاز عن الميرة من غيرها .

قلت : وبالحق الإدريسي في "نزهة المشتاق" فعَدَّ مِنْ مَخَالِفِهَا تَيْمَاءَ وَدُومَةَ الْجَنْدَلِ ، وَمَدْيَنَ ، والتَّحْقِيقُ خِلَافَ ذَلِكَ .

فَأَمَّا تَيْمَاءُ - بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الياء المثناة من تحت وميم ثم ألف في الآخر - فقد عُدَّهَا فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : مِنْ بَادِيَةِ الشَّامِ تَقْرِيبًا . قَالَ فِي "الْعَزِيزِي" : وَهِيَ حَاضِرَةٌ طَيِّئٌ وَبِهَا الْحَصْنُ الْمَعْرُوفُ بِالْأَبْلَقِ الْمُنْسُوبُ إِلَى السَّمَّوَلِ بْنِ عَادِيَا . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَهِيَ الْآنَ أَعْمَرُ مِنْ تَبُوكَ ، وَبِهَا نَخِيلٌ قَائِمَةٌ .

وَأَمَّا دُومَةُ الْجَنْدَلِ فَقَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : هُوَ مَوْضِعٌ فَاصِلٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ عَلَى سَبْعِ مَرَاحِلٍ مِنْ دِمَشْقَ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ ثَلَاثُ عَشْرَةَ مَرَحَلَةً . وَأَمَّا مَدْيَنُ فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْكَلَامِ عَلَى كُورِ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ ، وَوَقَعَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا هُنَاكَ وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ أَنَّهَا مِنْ سَاحِلِ الْحِجَازِ .

الجملة الثالثة

(في ذكر ملوك المدينة وأمرائها، وهم على ضربين)

الضرب الأول

(من قبل الإسلام، وهم ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(التبابعة)

قد تقدم في الكلام على بناءها نقلا عن صاحب "الهماء الدائم" : أن تبعاً الأول هو الذى بناها وأسكنها جماعة من علماء أهل الكتاب، وكتب كتاباً وأودعه عندهم^(١) ليوصله من أدركه من أبنائهم إليه، وبنى الكتاب عندهم يتوارثونه حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فتلقاه من صار إليه الكتاب منهم وأوصل الكتاب إليه . وحينئذ فيكون أول من ملكها التبابعة .

الطبقة الثانية

(العائلة من ملوك الشام)

قال السهيلي : وأول من نزلها منهم يثرب، بن عييل، بن مهلائيل، بن عوص، ابن عملاق، بن لاوذ، بن إرم، بن سام، بن نوح عليه السلام فسميت به . قال في "الروض المعطار" : وكانت هذه الأمة من العالقي يقال لها جاسم، وكانوا قد استولوا على مكة وسائر الحجاز، وكانت قاعدة ملكهم تيماء، وكان آخر ملوكهم الأرقم بن أبي الأرقم .

(١) أى إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم قريباً .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بنى إسرائيل وَمَنْ أَنْضَمَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزَرَجِ)

قال في "الروض المعطار": لما ظهر موسى عليه السلام على فِرْعَوْنَ، بعثَ بَعْثًا من بنى إسرائيل إلى الحجاز وأمرهم أن لا يَسْتَبِقُوا مِنْهَا أَحَدًا بَلِغَ الْحُلُمِ، فقتلوه^(١) حتى أَتَوْهَا إلى ملكهم الأرقم بَنِيَاءَ فقتلوه وأبقوا له أبنا صغيرا ليرى موسى عليه السلام فيه رأيه . فلما رجعوا به إلى الشام وجدوا موسى عليه السلام قد تَوُفَّى ، فقال لهم الناس : عَصَيْتُمْ وخالفتم أمر نبيكم، وحالوا بينهم وبين الشام، فقال بعضهم لبعض : خَيْرٌ مِنْ بَلَدِكُمُ الْبَلَدُ الَّذِي خَرِجْتُمْ مِنْهُ ، فعادوا إلى الحجاز فقتلوه، فكان ذلك أَوَّلَ سُكْنَى اليهود الحجاز ، فظل جمهورهم بمكان يقال له يَثْرِبُ يجتمع السيول وتآخذوا الآطام والمنازل ، ونزل معهم جماعةٌ من أحياء العرب من بَلَى وَجُهَيْنَةَ .

وكانت يثرب أمَّ قرى المدينة وهى ما بين طرف قُبَاءَ إلى الجُرْفِ؛ ثم لما كان من سبيل العَرَمِ باليمن ما كان ، تفرَّق أهل مَارِبَ ، فأتى الأَوْسُ والخَزَرَجُ يثرب لليهود فحاربوهم ، وكان آخر الأمر أن عقدوا بينهم وبينهم جَوَارًا وأشتركوا وتحالفوا ، فلم يزلوا على ذلك زمانا طويلا ، فصارت للأَوْس والخَزَرَجُ ثروة ومال وعز جانبهم فخافهم اليهود ، فقطعوا الحِلْفَ ، وخافهم الأَوْس والخَزَرَجُ فبعثوا إلى مَنْ لَهُمْ بِالشَّامِ فَأَعَانُوهُمْ حَتَّى أَذَلُّوا الْيَهُودَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وبقيت بأيديهم حتى جاء الإسلام وهاجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا وَهُمْ رُؤَسَاؤُهَا وَحُكَّامُهَا .

(١) أى من العماليق والأوضح منهم .

(٢) فى المعجم "أبنا شابا جميلا" وهو الأنسب .

الضرب الثاني

(من في زمن الإسلام، وهم أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(من كان بها في صدر الإسلام)

كان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن توفى في سنة إحدى عشرة من الهجرة. ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن توفى سنة اثنتي عشرة من الهجرة. ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن قتل في سنة ثلاث وعشرين. ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أن قتل في سنة خمس وثلاثين. ثم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أن قتل سنة أربعين. ثم الحسن بن علي بن أبي طالب إلى أن سلم الأمر لمعاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية.

الطبقة الثانية

(عمال الخلفاء من بني أمية)

وُلِّيَ عليها معاوية سنة اثنتين وأربعين من الهجرة (مروان بن الحكم). ثم عزله سنة تسع وأربعين وولِّيَ مكانه (سعيد بن العاص). ثم عزله سنة أربع وخمسين وردَّ إليها (مروان بن الحكم). ثم عزله سنة تسع وخمسين وولِّيَ مكانه (الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان).

ثم عزله يزيد بن معاوية عن المدينة والحجاز وولِّيَ مكانه (عمرو بن سعيد الأشدق) ثم عزله سنة إحدى وستين وأعاد (الوليد بن عتبة).

ثم استعمل ابن الزبير عند غلبته على المدينة أخاه (مُضْعَبًا) سنة خمس وستين؛ ثم نقله إلى البصرة وولّى مكانه (جابر بن الأسود) بن عوف الزهرى؛ ثم ولّى مكانه (طلحة بن عبد الله) بن عوف .

ثم غلب عبد الملك بن مروان على الخلافة فبعث على المدينة (طارق بن عمرو) فغلب عليها طلحة بن عبد الله وأتترعها منه . ثم أنفرد عبد الملك بالخلافة وولّى على المدينة والحجاز واليمن واليمامة (الحجاج بن يوسف) وعزل طارقا عن المدينة وجعله من جُنْدِه . ثم ولّى عليها سنة سبع وسبعين (أبان بن عثمان) . ثم عزله فى سنة اثنتين وثمانين وولّى مكانه (هشام بن إسماعيل المخزومى) .

ثم كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فعزل هشام بن إسماعيل وولّى مكانه (عثمان ابن حيان) .

ثم تولى عليها (أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم) أيام سليمان بن عبد الملك . ثم استعمل عليها عمر بن عبد العزيز فى خلافته (عبد العزيز بن أرتاة) . ثم عزله يزيد بن عبد الملك سنة ثلاث ومائة وولّى مكانه (عبد الرحمن بن الضحاك) وأضاف إليه مكة؛ ثم عزله لثلاث سنين من ولايته وولّى مكانه على مكة والمدينة (عبد الواحد النضرى) .

ثم عزله هشام بن عبد الملك وولّى عليها وعلى مكة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى) . ثم عزله هشام سنة أربع عشرة ومائة وولّى مكانه بالمدينة خاصّة (خالد ابن عبد الملك بن الحرث بن الحكم) . ثم عزله سنة ثمان عشرة ومائة وولّى مكانه (محمد بن هشام بن إسماعيل) .

ثم ولّى الوليد بن يزيد فى خلافته خاله (يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى) على المدينة وسائر الحجاز فى سنة أربع وعشرين ومائة . ثم عزله يزيد فى خلافته فى سنة

ست وعشرين ومائة وولّى مكانه (عبد العزيز بن عمرو بن عثمان) . ثم ولى مروان^(١) على المدينة وسائر الحجاز . ثم عزله في سنة سبع وعشرين ومائة وولّى مكانه (عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز) . ثم عزله في سنة تسع وعشرين ومائة وولّى مكانه على المدينة وسائر الحجاز (عبد الواحد) .

الطبقة الثالثة

(عُمّالها في زمن خلفاء بني العباس)

لما ولى السّفاح الخلافة ولى على المدينة والحجاز واليمن واليمامة عمّه (داود) . ثم توفّي داود سنة ثلاث وثلاثين ومائة فولّى مكانه في جميع ذلك (زياد بن عبد الله ابن عبد المدّان الحارثي) . ثم ولى سنة ثلاث وأربعين ومائة على المدينة (محمد بن خالد ابن عبد الله القسري) . ثم آتهم في أمر فعزله وولّى مكانه (رياح بن عثمان المزي) فقتله أصحاب محمد المهدي ؛ فولّى مكانه (عبيد الله بن الربيع الحارثي) . ثم عزله المنصور سنة ست وأربعين ومائة وولّى مكانه على المدينة (جعفر بن سليمان) . ثم عزله في سنة خمسين ومائة وولّى مكانه (الحسن بن زيد بن الحسن) . ثم عزله المنصور في سنة خمس وخمسين ومائة وولّى مكانه عمّه (عبد الصمد بن علي) . ثم عزله المهدي في خلافته سنة تسع وخمسين ومائة وولّى مكانه (محمد بن عبد الله الكثيري) . ثم عزله وولّى مكانه (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان) . ثم عزله وولّى مكانه (زفر بن عاصم) . ثم تولّى على المدينة والحجاز (جعفر ابن سليمان) . ثم كان بها (محمد بن عيسى) بعد مدّة ،

(١) لم يذكر من ولاة ولعل الصواب ثم ولاة مروان [أي أقره] على المدينة الخ وأنظر الكلام على مكة

فيما سبق . (٢) في الكامل "محمد بن عبيد الله الخ" .

وعزله المتوكل وولّى مكانه (المستنصر بن المتوكل) . وتوالى عليها عمّال بنى العباس إلى عشر السنين والمائة .

الطبقة الرابعة

(أمراء الأشراف من بنى حُسين الذين منهم الأمراء المستقرون في إمارتها إلى الآن)

كانت الرياسة بالمدينة آنحرا لبنى الحسن بن عليّ .

وكان منهم أبو جعفر عبد الله ، بن الحسين الأصغر ، بن عليّ زين العابدين ، ابن الحسين السبط ، بن عليّ ، بن أبي طالب رضى الله عنه .

وكان من جملة ولده جعفر حجة الله ، ومن ولده الحسن ، ومن ولد الحسن يحيى الفقيه النّسابة ، كانت له وجّاهة عظيمة ونفّر ظاهر ، وتوفى سنة ست وسبعين ومائتين ، ومن ولده أبو القاسم طاهر بن يحيى ، ساد أهل عصره وبنى دارا بالعقيق ونزلها ، وتوفى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة .

وكان من ولده الحسن بن طاهر رحل إلى الأخشيدي بمصر ، وهو يومئذ ملكها ، فأقام عنده وأقطعه الأخشيدي ما يُعْلَى في كل سنة مائة ألف دينار وأستقر بمصر ، وكان له من الولد طاهر بن الحسن ، وتوفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وخلف أبنه محمدا الملقب بمسلم ، وكان صديقا لكافور الأخشيدي صاحب مصر ، ولم يكن في زمنه بمصر أوجه منه . ولما آختل أمر الأخشيدي دعا مسلم هذا للغز صاحب إفريقية يومئذ . ولما قدم المعز إلى الديار المصرية بعد فتح جوهر القائد لها ، تلقاه مسلم بالجمال بأطراف برقة من جهة الديار المصرية ، فأكرمه وأركبه معدلا له واختص به ، ثم توفى سنة ست وستين وثلثمائة فصلى عليه المعز ، وكانت له جنازة عظيمة .

وكان من ولد مسلم هذا طاهر أبو الحسين فليحق طاهر بالمدينة الشريفة
فقدّمه بنو الحسين على أنفسهم وأستقلّ بإمارتها سنين ، وكان يلقب بالمليح ، وتوفى
سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، وولى بعده أبنه (الحسين بن طاهر) وكنيته أبو محمد .
قال العتبي : وكان موجودا في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وغلبه على إمارتها بنوعم أبيه
أبي أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر حجة الله وأستقلوا بها .
وكان لأبي أحمد القاسم من الولد داود ويكنى أبا هاشم . وقال العتبي : الذي
ولى بعد طاهر بن مسلم صهره وأبن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر ،
وكناه أبا عليّ .

وقال ابن سعيد : ملك أبو الفتوح الحسن بن جعفر من بنى سليمان إمرة مكة
والمدينة سنة تسعين وثلاثمائة بأمر الحاكم العبيدي وأزال إمرة بنى الحسين منها ،
وحاول الحاكم نقل الجسد الشريف النبويّ إلى مصر ليلا فهاجت بهم ريح عظيمة
أظلم منها الجوّ ، وكادت تقتلع المباني من أصلها ، فردّهم أبو الفتوح عن ذلك وعاد
إلى مكة ورجع أمراء المدينة إليها .

وكان لداود بن القاسم من الولد مهنّا وهانيّ والحسن . قال العتبي : ولى هانيّ
ومهنّا وكان الحسن زاهدا .

وذكر الشريف الحرّانيّ النسابة هنا أميرا آخر منهم وهو أبو عمارة مدّة كان
بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة . قال : وخلف الحسن بن داود أبنه هاشما وولى المدينة
سنة ثمان وعشرين وأربعمائة من قبل المستنصر .

قال : وخلف مهنّا بن داود عبيد الله والحسين وعمارة فولى بعده أبنه عبيد الله
وكان بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة وقتله موالى الهاشميين بالبصرة ، ثم ولى الحسين وبعده
أبنه مهنّا بن الحسين .

قال الشريف الخزانى : وكان لمهنا بن الحسين من الولد الحسين وعبد الله وقاسم فولى الحسين المدينة وقتل عبد الله في وقعة نخلة . وذكر صاحب حجة من أمرائها منصور بن عمارة الحسينى وأنه مات في سنة خمس وتسعين وأربعمائة وقام ولده مقامه ولم يسمه ، ثم قال وهم من ولد مهنا . [وذكر منهم أيضا القاسم بن مهنا ^(١)] حضر مع صلاح الدين بن أيوب فتح أنطاكية سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وذكر ابن سعيد عن بعض مؤرخى الحجاز أنه عد من جملة ملوكها قاسم بن مهنا وأنه ولده المستغنى فأقام خمسا وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وولى ابنه سالم بن قاسم .

قال السلطان عماد الدين صاحب حجة في "تاريخه" : وكان مع السلطان ^(٢) صلاح الدين يوسف بن أيوب في فتوحاته يتبرك به ويتمن بصحبته ويرجع إلى قوله . وبقى إلى أن حضر إلى مصر للشكوى من قتادة فمات في الطريق قبل وصوله إلى المدينة . وولى بعده ابنه شيعة وقتل سنة سبع وأربعين وستمائة ، وولى ابنه عيسى مكانه . ثم قبض عليه أخوه جهمّاز سنة تسع وأربعين وستمائة وملك مكانه ، وهو الذى ذكر المقر الشهابى بن فضل الله في "التعريف" : أن الإمرة في بيته إلى زمانه . قال ابن سعيد : وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة ، كان بالمدينة أبو الحسين بن شيعة بن سالم . وقال : غيره كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

وولى أخوه جهمّاز فطال عمره وعمى ومات سنة أربع أو خمس بعد السبعائة .

وولى بعده ابنه منصور بن جهمّاز ، ثم وفد أخوه مقبل بن جهمّاز على الظاهر بيبرس بمصر ، فأشرك بينهما فى الإمرة والإقطاع ، ثم غاب منصور عن المدينة وأستخلف ابنه

(١) أى المكنى بأبى فليته ، والزائدة عن ابن خلدون ليستقيم الكلام . (٢) أى قاسم المكنى بأبى فليته .

(٣) أى سالم بن قاسم .

كبيشة فهجم عليه مقل وملكها من يده ولحق كبيشة بأحياء العرب فاستجاشهم وهجم المدينة على عمه مقل فقتله سنة تسع وسبعائة، ورجع منصور إلى إمارته، وبقي ماجد ابن مقل يستجيش العرب على عمه منصور بالمدينة ويخالفه إلى المدينة كلما خرج منها، ثم زحف ماجد سنة سبع عشرة وسبعائة، وملكها من يد عمه منصور، فاستصرخ منصور بالملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، فأنجده بالعساكر وحاصروا ماجدا بالمدينة ففر عنها وملكها منصور، ثم سخط عليه السلطان الملك الناصر فعزله، وولى أخاه ودي بن جمار أياما، ثم أعاد منصورا إلى ولايته، ثم هلك منصور سنة خمس وعشرين وسبعائة، فولى ابنه كبيشة مكانه فقتله عسكر ابن عمه ودي وعاد ودي إلى الإمارة، ثم توفي ودي، فولى طفيل بن منصور بن جمار وأنفرد بإمرتها، وهو الذي ذكر المقر الشهابي في "التعريف": أنه كان أميرها في زمانه، وبقي إلى سنة إحدى وخمسين وسبعائة فوقع النهب في الركب، فقبض عليه الأمير طاز أمير الركب، وولى مكانه سيفاً من عقب جمار، ثم ولى بعده فضل من عقب جمار أيضاً، ثم ولى بعد فضل ماتع من عقب جمار، ثم ولى جمار بن منصور، ثم قتل بتيد الغداوية أيام الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وأنفق أمراء الركب على تولية ابنه هبة إلى حين يرد عليهم من السلطان ما يعتمدونه، ثم ورد أمر السلطان بتولية هبة من عقب ودي فعزل ودي وولى مكانه، ثم ولى بعده عطية بن منصور بن جمار، فأقام سنين، ثم عزل وولى هبة بن جمار، ثم عزل وأعيد عطية، ثم توفي عطية وهبة وولى جمار بن هبة بن جمار، ثم عزل وولى نُعير بن منصور بن جمار، ثم قتل، فوثب جمار بن هبة على إمارة المدينة وأستولى عليها، فعزله السلطان، وولى ثابت بن نُعير، وهو بها إلى الآن في سنة تسع وتسعين وسبعائة. وهو ثابت،

أَبْنُ جَمَازٍ، بَنُ هُبَيْةٍ، بَنُ جَمَازٍ، بَنُ مَنْصُورٍ، بَنُ جَمَازٍ، بَنُ شَيْحَةَ، بَنُ سَالِمٍ، بَنُ قَاسِمٍ،
 أَبْنُ جَمَازٍ، بَنُ قَاسِمٍ، بَنُ مَهْنَأٍ، بَنُ الْحُسَيْنِ، بَنُ مَهْنَأٍ، بَنُ دَاوُدَ، بَنُ الْقَاسِمِ،
 أَبْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، بَنُ طَاهِرٍ، بَنُ يَحْيَى، بَنُ الْحُسَيْنِ، بَنُ جَعْفَرِ حُجَّةِ اللَّهِ، بَنُ عَبْدِ اللَّهِ،
 أَبْنُ الْحُسَيْنِ الْأَصْغَرِ، بَنُ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، بَنُ الْحُسَيْنِ السَّبْطِ، بَنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي
 طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ .

وإمرتها الآن متداولة بين بني عطية وبين بني جَمَازٍ، وهم جميعاً على مذهب
 الإمامية الرافضة يقولون بإمامة الأئني عشر إماماً وغير ذلك من معتقدات الإمامية،
 وأمرء مكة الزيدية أخف في هذا الباب شأناً منهم .

الجملة الثالثة

(في ترتيب المدينة النبوية)

أما معاملاتها فعلى ما تقدم في الديار المصرية من المعاملة بالدنانير والدرهم، والأمر
 في الفلوس على ما تقدم في مكة؛ ويعتبر وزنها في المبيعات بالمثل وهو مائتان وستون درهماً
 على ما تقدم في مكة؛ ويعتبر كيلها بالمد، وقياس قماشها بالذراع الشامي؛ وأسعارها
 نحو أسعار مكة، بل ربما كانت مكة أرخص سعراً منها لقربها من ساحل البحر بمجدة .
 وأما إمارتها فإمارة أعرابية كما في مكة من غير فرق .

وأما وفود الحجج عليها، فقد جرت العادة أن كل من قصد السبق في العود إلى
 الديار المصرية من الجند وغيرهم يزور النبي صلى الله عليه وسلم! عند ذهاب الركب
 إلى مكة ثم يعود بعد الحج إلى مصر من غير تعريض على المدينة، وبقي الحجج وأمر
 الركب لا يأتونها للزيارة إلا بعد أنقضاء الحج .

وأعلم أن كسوة الحجرة الشريفة ليست مما يحدّد في كل سنة كمّ في كسوة الكعبة، بل كلّما بليت كسوة جدّدت أخرى، ويقع ذلك في كل نحو سبع سنين أو ما قاربها، وذلك أنها مَصُونَةٌ عن الشمس، بخلاف كسوة الكعبة فإنها بارزة للشمس فيسرع بِلَاؤها .

وقد حكى ابن النجار في "تاريخ المدينة" أن أول من كسا الحجرة الشريفة الثياب الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح طلائع بن رزيك وزير العاضد، والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين، عمل لها ستارة من الديبقي الأبيض عليها الطرز والجامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر، مكتوب عليها سورة يس بأسرها، والخليفة العباسي يومئذ المستضيء بأمر الله .

ولما جهزها إلى المدينة، أمتنع قاسم بن مهنا أمير المدينة يومئذ من تعليقها حتى يأذن فيه المستضيء فنقذ الحسين بن أبي الهيجاء قاصدا إلى بغداد في استئذانه في ذلك فأذن فيه، فعُلقت الستارة على الحجرة الشريفة نحو سنتين . ثم بعث المستضيء ستارة من الإبريسم البَفْسَجِيّ عليها الطرز والجامات البيض المرقومة، وعلى دَوَر جاماتها مرقوم "أوبكر، وعمر، وعثمان، وعلى" وعلى طرازها اسم الإمام المستضيء بالله، فقلعت الأولى ونفذت إلى مشهد أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه بالكوفة، وعُلقت ستارة المستضيء مكانها . ثم عمل الناصر لدين الله في خلافته ستارة أخرى من الإبريسم الأسود فُعُلقت فوق تلك . ثم عملت أم الخليفة الناصر بعد حجها ستارة على شكل ستارة ابنها المتقدمة الذكر فعُلقت فوق الستارتين السابق ذكرهما .

قال ابن النجار : ولم يزل الخلفاء في كل سنة يُرْسِلُونَ ثوبا من الحرير الأسود عليه علم ذهب يكسّى به المنبر . قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستورا

على أبواب الحرم ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى حين انقراض الخلافة من بغداد ، فتولى ملوك الديار المصرية ذلك كما تولّوا كسوة الكعبة على ما تقدّم ذكره .

قلت : والستارة الآن من حرير أسود عليها طرز مرقوم بحرير أبيض ، وآخر من عملها في العشر الأول من الثمانمائة السلطان الملك الظاهر برقوق .

وقد ذكر ابن النجار في "تاريخ المدينة" أيضا أن الناصر لدين الله العباسي كان يرسل في كل سنة أربعة آلاف دينار للصدقة وألفا وخمسمائة ذراع قطن لتكفين من يموت من الفقراء ، خارجا عما يجهزه للعمارة ، وما يُعده من القناديل والشيرج والشمع والنّد والغالية المرّبة والعود : لأجل تبخير المسجد .

وذكر عن يوسف بن مسلم أن زيت قناديل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ! كان يُحمل من الشام حتى آتقطع في ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة على المدينة فجعله على سوق المدينة . ثم لما ولي داود بن عيسى في سنة ثمان وسبعين ومائة ، أخرجه من بيت المال ، ثم ذكر أنه كان في زمانه في خلافة الناصر لدين الله يصل الزيت من مصر من أوقاف بها سبعة وعشرين قنطارا ، كل قنطار مائة وثلاثون رطلا بالمصري ، ومائة وستون شمعة ما بين كبيرة وصغيرة ، وعُلبَة فيها مائة مثقال نَد .

الباب الرابع

من المقالة الثانية

(في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية ؛ وفيه أربعة فصول)

الفصل الأول

(في الممالك والبلدان الشرقية عنها ، وما يخرط في سلكها من شمال
أو جنوب ؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأول

(في الممالك الصائرة إلى بيت جنكرخان ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في التعريف باسم جنكرخان ومصير الملك إليه ، وما كان له

من الأولاد ، وتقسيمه الملك فيهم)

أما اسمه فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني
أن اسمه في الأصل تمرجين ، وأنه لما عظم شأنه سمي جنكرخان . وقد ذكر
في "مسالك الأبصار" عن بعضهم : أن الصواب في النطق به جنكص خان بالصاد
بدل الزاي .

وأما نسبه فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أيضا أنه جنكرخان ، بن بيسوكي ، بن
بهادر ، بن تومان ، بن برتيل خان ، بن تومنيه ، بن بادستقر ، بن تيدوان ديوم ، بن بغا ،
ابن بودنجه ، بن ألانقوا ، وألانقوا هذه امرأة من قبيلة من التتر تسمى قبات من
أعظم قبائلهم شمزة ، كانت متروجة بزواج أولدها ولدين اسم أحدهما بكتوت ، والآخر

بلكتوت ، ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة إلى الآن ؛ ثم مات زوج ألانقوا أبو هذين الاثنين وبقيت ألانقوا أيمًا فحملت فأُنكر عليها الحمل ، وحملت إلى ولي أمرهم حينئذ فسألها ممن حملت ؟ فقالت : إني كنت جالسة وفرجى مكشوف ، فترل نور ودخل في فرجى ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل ، وأنا حامل بثلاثة ذكور ، كل مرة من دخول ذلك النور بذكر ، فأمهلوني حتى أضع . فإن وضعت ثلاثة ذكور فأعلموا صدقي ، وإلا فدونكم وما ترون ؛ فأمهلوها حتى ولدت فأتت بثلاثة ذكور ، فسَمَّتْ أحدهم يوقن قوتاغي ، والثاني بوسن ساغي ، والثالث بودنجر ، وهو جد جنكرخان . وأولاد هذه الثلاثة يعرفون بين التتر بالنورانين نسبة إلى النور الذي زعمت أنه دخل فرجها فحملت منه . قال في "مسالك الأبصار" : "وهذه أكذوبة قبيحة ، وأحدوثه غير صحيحة ؛ وإن صحت عن المرأة فلعلها كانت قد سمعت بقصة مريم البتول عليها السلام ، فأحتالت لسلامة نفسها بالتشبه بشأنها" .

وأما مصير الملك إليه فقد اختلف فيه على مذهبين .

أحدهما - ما حكاه في "مسالك الأبصار" عن صاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجويني : أنه كان يملك الترك ملك من عطاء الملوك يدعى أربك خان ، فتردد إليه جنكرخان في حال صغره وخدمته ، فتوسم فيه النجابة فقرّبه وأدناه وزاده في الارتقاء على أقاربه ، فحسدوه فوشوا به إلى الملك حتى غيروه عليه فأضمر له المكاييد ؛ وكان بالقرب من أربك خان ملكهم صغيران يخدمانه فأطلعا على ما أضمره الملك لجنكرخان وعرفاه ما أضمره الملك له وحدّراه ؛ وكان جنكرخان قد لَفَّ لفيفا عظيمًا فجمع لفيفه من قبائل التتر وقصد ذلك الملك في جيوشه ، وكان من أعظم القبائل المحيية لدعوته قبيلتان : إحداهما تدعى إديرات والأخرى فيقورات . مع قبيلته قبات المقدّم ذكرها ،

(١) وجد في العبر (ج ٥ ص ٥٢٥) فرق في الأسماء ولم نعلم الصواب لجمعتهما فليتنبه .

بفرد العساكر لأزبك خان وجرت الحرب بينهما فقتل أزبك خان وملك جنكرخان وقرب كلاً من الصغيرين وجعل كلاً منهما ترخانا، وكتب لهما بفراغهما من جميع المئون والكلف إلى سبعة أبطن من أولادهما .

والثاني - ماحكاه السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" : عن محمد بن أحمد بن علي المنشئ : كاتب إنشاء السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه : أن مملكة الصين كانت منقسمة من قديم الزمان إلى ستة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر، يتولى أمر كل جزء منها خان نيابة عن خانهم الأعظم بطمغاج قاعدة الصين .^(١) إلى أن كان خانهم الأكبر في زمان السلطان خوارزم شاه يسمى الطرخان، وكان من جملة الخانات الستة الذين ينوبون عنه شخص يسمى دوشي خان ، وكان متزوجاً بعمة جنكرخان فمات دوشي خان زوج عمة جنكرخان ، فحضر جنكرخان إلى عمتة معزياً ، وكان يجاور دوشي خان من الخانات الستة يسمى أحدهما كشلوخان والآخر قلان ، فأرسلت زوجة دوشي خان إليهما بنعى زوجها إليهما وتلاطفانهما في استقرار جنكرخان ابن أخيها مكانه في الخانية على أن يكونا معاضدين له ، فأجابها إلى ذلك . فاستقر جنكرخان في الخانية مكان دوشي خان زوج عمتة ، فبلغ ذلك الخان الأعظم الطرخان فأنكر ذلك على كشلوخان وقلان المذكورين ، فاتصل ذلك بهما فاجتمعا هما وجنكرخان وخلعوا طاعة الطرخان ، ثم مات أحد الخانين وخلف أبنا اسمه كشلوخان فغلب جنكرخان على ملكه ، ثم مات الخان الآخر وأستقل جنكرخان بالملك ، ثم غلب على خوارزم شاه ، ثم على ابنه جلال الدين وأستقل بما وراء النهر .

(١) في تاريخ أبي الفدا "بطوغاغ وهي واسطة الصين" .

وأما أولاد جنكرخان فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : عن الصاحب علاء الدين الجويني المتقدم ذكره أنه كان له عدة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسراري ، وكان أعظم نسائه أوبولي ، من تينكي ، ومن رسم المغل تعظيم الولد بنسب والدته ، وكان له من هذه أربعة أولاد معدين للأولاد^(١) الخطيرة ، هم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم ؛ وهم توشي وجفطاي ، وهو أصغرهم ، وأوكداي ، وأوتكين نويان ، وأنه جعل موضعه نقطة دائرة ملكه وبنيه حوله كمحيط الدائرة ، بفعل ابنه أوكداي وليّ عهده ورتبه لما يتعلق بالعقل والرأى والتدبير والولاية والعزل واختيار الرجال والأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها ، وكان موضعه في حياة أبيه حدود ايمك وقرباق . فلما جلس بعد أبيه على تخت الملك ، أنتقل إلى الموضع الأصلي بين الخطا وبلاد الايغور ، وأعطى ذلك الموضع لولده كيوك . وجعل لابنه أوتكين حدود بلاد الخطا ؛ وعين لابنه الكبير توشي حدود قياتق (؟) إلى أقصى سفسفين (؟) وبلغار ، ورتبه على الصيد والقنص ؛ وجعل لابنه جفطاي حدود بلاد الأيغور إلى سمرقند ونبخارا ، ورتبه لتنفيذ النابات والأمور والمقابلات وما أشبه ذلك . قال ابن عطاء ملك : وكانت أولاده وأحفاده تزيد على عشرة آلاف .

وذكر عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني أن جنكرخان أولد أربعة أولاد ، وهم جوجي : وهو أكبرهم ، وكداي ، وطولي ، وأوكداي ، فقتل جوجي في حياة أبيه وخلف أولادا . قال ابن الحكيم الطياري : وهم باتو ويقال : باطو ، وأورده ، وبركه ، وتولي ، وجمتي . قال الشيخ شمس الدين المذكور : والمشهور باتو وبركه ، وأوصى بأن يكون تحتَه لولده الصغير أوكداي وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر كداي ؛ وجعل لابنه جوجي دشت القبيحاق وما معه وأضاف إليه إيران وتبريز وهمذان

(١) لعله معنون للأحوال .

ومراغة، ولم يحصل لطولى شيء . فلما مات جنكرخان أستقل أوكداى بتخت أبيه ،
وأستقل جوجى بدشت القبجاق وما معه ، وأستقل باتو بن جوجى فيما جعله جدّه
جنكرخان لأبيه جوجى من إيران وتبريز وما مع ذلك ، ولم يتمكن كداى من مملكة
ماوراء النهر، ثم مات أوكداى مالك التخت وملك بعده ولده كيوك، وكان جبارا
قوى النفس فحكم على بنى أبيه فقهرهم وأنزع ما بيد باتو بن جوجى من إيران
وسائر مامعها، وأقام بها أميرا اسمه الجكرأى . ثم جرى بينهم اختلاف كان آخر
الأمر فيه أن أُمسك الجكرأى وقتل وحمل إلى باتو بن جوجى وطبخه وأكله، فبلغ
ذلك كيوك صاحب التخت فشق عليه وجمع ستمائة ألف فارس، وجمع باتو للقائه
وسار كل منهما لمحاربة الآخر حتى كان بينهما عشرة أيام مات كيوك فكتب
خواتينه إلى باتو يعلمونه بموته ويسألونه فى أن يكون عوضه على تخت جنكرخان،
فلم يرض ذلك وميزله منكوتان بن تولى بن جوجى بن جنكرخان، وجهاز معه إخوته
قبلاى خان وهولاكو : ولدا تولى، ووجه معهم باتو أخاه بركة بن جوجى فى مائة ألف
فارس للجلسة على التخت ثم يعود ، فتوجه بركة بمنكوتان فأجلسه على التخت ،
ثم عاد فتر فى طريقه ببخارا، فأجتمع فيها بالشيخ شمس الدين الباخرزى من أصحاب
شيخ الطريقة نجم الدين كيزى وحادثه فحسن موقع كلامه منه فأسلم على يده ، وهو
أول من أسلم من بيت جنكرخان، وأشار الباخرزى على بركة بموالاته المستعصم خليفة
بنى العباس ببغداد يومئذ، فكتبه وهاداه وترددت الرسل والمكاتبات بينهما . ثم إن
منكوتان بعد أستقلاله بتخت جدّه جنكرخان ملك أولاد جفطأى مملكة ماوراء النهر
تنفيذا لما كان جنكرخان أوصى به لأبيهم جفطأى كما تقدّم ومات دونه، وعلت كلمة
منكوتان صاحب التخت ووصلت إليه كتب أهل قزوین وبلاد الجبال يشكون
من سوء مجاورة الملاحدة : وهم الإسماعيلية فجهاز إليهم منكوتان أخاه مكوقان لقتال

الملاحدة وأخذ قلاعهم ، وأن يضم إلى ذلك بلاد الخليفة المستعصم فبلغ ذلك بركة
 ابن جوجى فشق عليه لصداقته مع الخليفة ، وكلم أخاه باتو فى ذلك فكتب باتو
 إلى هولاكو بمنعه من التعرض لممالك الخليفة ، فوافاه الكتاب قبل أن يعبر نهر
 جيحون ، فأقام هناك سنتين حتى مات باتو وتسلطن أخوه بركة بعده فكتب هولاكو
 إلى أخيه منكوتان يستأذنه فى إنفاذ ما كان عزم عليه من أخذ ممالك الخليفة
 وحسن له ذلك فلم يأذن له فيه فأصر هولاكو على عزمه فأوقع بالملاحدة وقتل جماعة
 آتهمهم بمالأة بركة ، وأشتد فى البلاد وقصد دشت القبيجاى بلاد بركة فدهمه بركة
 بعساكره فكانت الدائرة على هولاكو فكرر راجعا ودخل بلاد الخليفة وقبض عليه
 وقتله وملك بلاده . وكان أمر الله قدرا مقدورا !

الجملة الثانية

(فى عقيدة جنكرخان وأتباعه فى الديانة إلى أن أسلم من أسلم منهم وما جرت

عليه عادتهم فى الآداب وحالهم فى طاعة ملوكهم)

أما عقيدتهم فقد قال الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجوينى : إن الظاهر
 من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالى ، وأنه خالق السموات والأرض ،
 وأنه يُحيى ويميت ، ويعفى ويفقر ، ويعطى ويمنع ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن منهم
 من دان باليهودية ، ومنهم من دان بالنصرانية ، ومنهم من أطرح الجميع ، ومنهم من
 تقرب بالأصنام . قال : ومن عادة بنى جنكرخان أن كل من اتحل منهم مذهباً لم ينكره
 الآخر عليه ، ثم الذى كان عليه جنكرخان فى التدبىر وجرى عليه أعقاباً بعده الجرى
 على منهاج ياسة التى قررهما ، وهى قوانين خمها من عقله وقررها من ذهنه ، رتب فيها
 أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية ، وأكثرها مخالف

لذلك سماها الياسة الكبرى، وقد آكتبها وأمر أن تجعل في خزانته تُتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته .

منها أن من زنى قتل ، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل ، ومن بال في الماء قتل ، ومن أعطى بضاعة نخسر ثم أعطى ثانيا نخسر ثم أعطى ثالثا نخسر قتل ، ومن وقع حملهُ أو قوسه فمتر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل ، ومن وجد أسيرا أو هاربا أو عبدا ولم يرده قتل ، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنه قتل ، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مدام دائنون به إلى الآن ، وربما دان به من تحلّى بحلية الإسلام من ملوكهم . ومن معتقدهم في ذبح الحيوان أن تُلقَّ قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيمرسه بيده حتى يموت أو يخرج قلبه . ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح .

وأما عاداتهم في الأدب فكان من طريق جنكرخان أن يعظم رؤساء كل ملة ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلى الله تعالى ، ومن حال التتر في الجملة إسقاط المؤن والكلف عن العلّوين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والمؤذنين والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم ومن جرى هذا الجرى .

ومن آدابهم المستعملة أن لا يأكل أحد من يد أحد طعاما حتى يأكل المُطعمُ منه ولو كان المُطعمُ أميرا ولا يأكل أسيرا ، ولا يختص أحد بالأكل وحده بل يطعم كل من وقع بصره عليه ، ولا يمتاز أمير بالشَّيع من الزاد دون أصحابه بل يقسمونه بالسوية ، ولا يخطو أحد موقد نار ولا طبقا رآه ، ومن آجّاز يقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير إذن ، وأن لا يدخل أحد يده في الماء بل يأخذ منه ملء فيه

(١) في الخطط للقرى (ص ٢٢٠ ج ٢) ما نصه " ولا يخطى أحد نارا ولا مائدة ولا طبق الذي يؤكل عليه " .

(١) ويغسل يديه ووجهه، ولا يبول أحدٌ على الرماد . ويقال إنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس .

ومن طرائفهم أنهم لا يتعصبون لمذهب ، وأن لا يتعزّضوا لمال ميت أصلاً، ولو ترك ملء الأرض، ولا يدخلونه حرّانة السلطان .

ومن عاداتهم أنهم لا يُفخّمون الألقاظ، ولا يعظّمون في الألقاب حتى يقال في مراسيم السلطان ”القان بكذا“ من غير مزيد ألقاب .

وأما حالهم في طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلطانهم، لا مال ولا لجاء بل ذلك دأب لهم حتى إنه إذا كان أمير في غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنباً يوجب عقوبة وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه مَنْ يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه، ولو كان فيه القتل .

ومن طريق أمرائهم أنه لا يتردد أمير إلى باب أمير آخر، ولا يتغير عن موضعه المعين له . فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، وإذا عرضوا آلات الحرب على أمرائهم وقوا في العرض حتى بالخيط والإبرة، ورعاياهم قائمون بما يُزَمون به من جهة السلطان طيبةً به نفوسهم، وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بما عليهم .

(١) عبارة الخطوط ”وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغرغه به“ .

المهـمـيـع الثاني^(١)

(في ذكر ممالك بني جنكروخان على التفصيل، وهي مملكتان)

المملكة الأولى

(مملكة أيران)

^(٢) بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت والراء المهملة وألف ثم نون . وهي مملكة الفرس، وتعرف بأيران بن آشور بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أول من ملكها وأضيفت إليه وعرفت به . قال في "التعريف" : وهي مملكة الأكاسرة . ثم قال : وهي من الفرات إلى نهر جيحون حيث بلخ، ومن البحر الفارسي وما صاقبه من البحر الهندي إلى البحر المسمى بالقززم بحر طبرستان، وهي المملكة الصائرة إلى بيت هولوكو . قال : وقد دخل فيها مملكة الهياطلة، وهي مملكة مازندران وما يليها إلى آخر كيلان، وطبرستان واقعة بين مازندران وكيلان، ومازندران الآخذة شرقا، وكيلان الآخذة غربا .

وقال في "مسالك الأبصار" : هذه المملكة طولاً من نهر جيحون المحيط بآحر نحرسان إلى الفرات القاطع بينها وبين الشام، وعرضها من كرمان المتصل بالبحر الفارسي المنقسم من البحر الهندي، إلى نهاية ما كان يديقياً الملوك السلجوقية بالروم على نهاية حدود العلّايا وأنطاليا من البحر الرومي . قال : ويفصل في الجانب الشمالي بين هذه المملكة وبين بلاد القبحاق النهر المجاور لباب الحديد المسمى باللغة التركية دقربو، وبحر طبرستان المسمى بحر الخزر . ثم قال : وأخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضل يحيى بن الحكيم الطياري أن هذه المملكة تكاد تكون مربعة، فيكون

(١) لعله المقصد الثاني فإن التقسيم كان بالمقاصد .

(٢) ضبطه ياقوت بالكسر .

طولها بالسير المعتاد أربعة أشهر ، وعرضها أربعة أشهر . وهي من أجل ممالك الأرض ، وأوسطها في الطول والعرض ، متوسطة في الطول والعرض . وإذا أنصفت كانت هي قلب الدنيا على الحقيقة ، ذات أقاليم كثيرة ومدن كبيرة ، مشتملة على رساتيق وأعمال وخطط وجهات ، وهي ممتدة من بلاد الشام وما على سمتها إلى بلاد السند والهند وما والاها .

ولها جانبان : جنوبي وشمالي .

الجانب الأول

(الجنوبي)

ويشتمل على ستة أقاليم :

الإقليم الأول

(الجزيرة الفراتية)

وهي أقرب أقطار هذه المملكة لمملكة الديار المصرية والشامية لمجاورتها بلاد الشام . قال في "تقويم البلدان" : ويحيط بها الفرات من حدود بلاد الروم ، وهو طرف الحد الغربي الجنوبي للجزيرة . فيمتد الحد الجنوبي الغربي مع الفرات إلى مَلْطِيَّة ، إلى شِمَاش ، إلى قلعة الروم ، إلى البيرة ، إلى قُبالة مَنبِج ، إلى السِّن ، إلى الرِّقَّة ، إلى قَرْقِيسِيَا ، إلى الرَّحْبَة ، إلى هَيْت ، إلى الأنبار . ثم يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة ويعطف الحد من الأنبار إلى تَكْرِيت ، وهي على نهر دَجَلَة ، إلى بَالِس ، إلى الحَدِيثَة على دجلة إلى المَوْصِل . ثم يعطف من الموصل إلى جزيرة ابن عمر ، إلى آمِد . ثم يصير الحد غربيا ممتدا بعد أن يتجاوز آمِد على حدود إرمينية ، إلى حدود بلاد الروم ، إلى الفرات عند مَلْطِيَّة من حيث وقع الابتداء . قال : فعلى هذا يكون بعض إرمينية وبعض الروم غربى الجزيرة ، وبعض الشام وبعض البادية جنوبيها ، والعراق شرقيها ، وبعض

إرْمِينِيَّةَ شَمَالِيهَا . قال في "تقويم البلدان" : وتشتمل الجزيرة على ديار ربعة وديار مَضَر (يعنى بالضاد المعجمة) وبعض ديار بكر ، وهم القبائل الذين كانوا ينزلونها في القديم على ما تقدم ذكره في الكلام على أحوال العرب في المقالة الأولى .

قال في "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه الجزيرة مجموعها مملكة جليلة باقية بذاتها في الدولة الأتابكية يعنى دولة الأتابك زنكى صاحب المَوْصِل والد نور الدين الشهيد صاحب دِمَشق ، وقاعدتها (المَوْصِل) . قال في "اللباب" : بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة ولام في الآخر - وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبعٌ وثلاثون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى على دِجَلَة من الجانب الغربى ، ويقابلها من الجانب الشرقى مدينة تَنْوَى التى بُعثَ يونس عليه السلام إلى أهلها . وهى الآن خراب . وفى جنوبى الموصل مَصَبُّ الزَّابِ الأصغر فى دِجَلَة ، وهى فى مستوٍ من الأرض ؛ ولها سوران قد خرب بعضهما ، وسورها أكبر من سور دِمَشق . قال المؤيد صاحب حماة : والعامر منها فى زماننا نحو ثلثيها ، ولها قلعة قد صارت فى جملة الخراب . قال قاضى القضاة ولّى الدين بن خلدون : وهى قاعدة ملك قديم يُعرف قديما بمملكة الجَرَامِقة ، وكانت قد صارت إلى عماد الدين زنكى : والد نور الدين الشهيد ، ثم آتفق بها الحال إلى أن دخلت فى مملكة التتر من بنى هُولاكو . قال ابن خرداذبه فى كتابه فى المسالك والممالك : ومن أقام بها سنة (١) ثم ... عقله وجده قد نقص ، وبها حاكم يكتبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكرها فى "التتيف" وذكر أنه كان بها الأمير أردبغا قبل أن يحصل عليها من بيرم خواجا ثم أبو القان أويس .

(١) بياض فى الأصل . وأنظر معجم البلدان فانه يؤخذ منه أن من أقام بها سنة تبين فى بدنه فضل قوة .

ثم بها عدة مُدُن وقلاع مشهورة .

(منها) مَارِدِينَ . قال في "اللباب" : بفتح الميم وسكون الألف وكسر الراء والبدال المهملتين ثم ياء مثناة من تحتها ونون - وهي قلعة بديار ربيعة من هذه الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي على جبل عال ، من الأرض إلى ذروتِه نحو فرسخين . قال ابن حوقل : وهي قلعة منيعة لا يستطاع فتحها عنوة ، ويجبلها جواهر الزجاج ، وبه حيات تفوق غيرها بسرعة القتل .

وأعلم أن ماردين هذه بيد ملوكها من بني أرتُّق ، لها بيدهم الأمد الطويل ، لم تزل أيديهم عنها مذ ملكوها . قال القاضي وليّ الدين بن خلدون في "تاريخه" : وأول من ملكها منهم ياقوق بن أرتُّق بعد السبع والأربعائة ، تملكها من يد مغنّ كان ملكشاه ابن ألب أرسلان السلجوقي أقطعها له ، ثم ملكها بعد ياقوق المذكور أخوه عليّ ، ثم عمه سقمان ، ثم أخوه إيلغازي ، ثم ابنه حسام الدين تمر تاش ، ثم ابنه قطب الدين اليّ ، ثم ابنه نظام الدين إيلغازي ، ثم ابنه حسام الدين بولق أرسلان ، ثم أخوه ناصر الدين أرتُّق أرسلان بن إيلغازي ، ثم ابنه نجم الدين غازي ، ثم أخوه قرا أرسلان ، ثم ابنه شمس الدين داود ، ثم أخوه نجم الدين غازي ، وتلقب بالمنصور . وهو أول من تلقب بالقباب السلطنة منهم ، ثم ابنه شمس الدين صالح وتلقب بالصالح ، ثم ابنه أحمد وتلقب بالمنصور ، ثم ابنه محمود وتلقب بالصالح ، ثم ابنه نحر الدين داود ، وتلقب بالمظفر ، ثم ابنه نور الدين عيسى ، وتلقب بالظاهر ، وهو القائم بملكها إلى الآن ، وهو الظاهر عيسى ، بن المظفر داود ، بن الصالح [محمود] ، بن المنصور أحمد ، بن الصالح^(١) ، بن المنصور غازي ، بن المظفر قرا أرسلان ، بن المنصور أرتُّق أرسلان [ابن بولق أرسلان^(١)] بن إيلغازي ، بن أليّ ، بن تمر تاش ، بن إيلغازي ، بن أرتُّق .

(١) الزيادة عن تاريخ ابن خلدون (ص ٢٢٠ ج ٥) .

ولما ملك هولاء كوف بغداد وأعمالها كان القائم بملك ماردين يومئذ المظفر قرا أرسلان فأعطاه الطاعة وخطب له في جميع أعماله ، وتبعه على ذلك من بعده من ملوكها إلى حين موت القان أبي سعيد من بقايا الملوك الهولاء كوية ، فقطع الخطبة لصاحب بغداد وما معها وخطب لنفسه ، والأمر على ذلك إلى الآن ، وملوكها مؤادون للملوك الديار المصرية والمكاتبات بينهم متواصلة .

(ومنها) حصن كيفا . قال في "تقويم البلدان" : بحاء وصاد مهملتين ثم نون ثم كاف وياء مشاة من تحت وفاء وألف - وهي مدينة من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي من ديار بكر . قال في "المشارك" : وهي على دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين ميا فارقين . قال في "اللباب" : والنسبة إليها حصكفي - بفتح الحاء وسكون الصاد وفتح الكاف وفاء ثم ياء النسب . قال في "التعريف" : وملوكها من بقايا الملوك الأيوبيين ومن ينظر إليه ملوك مصر يعين الإجلال ، لمكان ولائهم القديم لهم ، وأستقرار الوداد الآن . قال في "التثقيف" : وأخبرني المقر السيقي منجك كافل الممالك الشريفة أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يعظم سلفه فإنه كان أستاذ قلاوون والده . قال في "التعريف" : وكان آخروقت منهم الملك الصالح قصد الأبواب السلطانية . فلما أتى دمشق عقبته الأخبار بأن أخاه قد ساور سريه ، وقصد بسلطانه سلطانه . ففكر راجعا ولم يعقب ، فما لبثت الأخبار أن جاءت بأنه حين صعد قلعته ، وكر نحو سريه رجعت ، وثب عليه أخوه المتوثن فقتله وسفك دمه ، ثم أظهر عليه ندمه . وكتب إلى السلطان فأجيب بأجوبة دالة على عدم القبول لأعذاره والسرائر مكذرة ، والخواطر بعضها من بعض منقره . وذكر في "التثقيف" أن الذي أتضح له

آخرًا في رمضان سنة ست وسبعين وسبعائة أن صاحبها الملك الصالح سيف الدين أبو بكر، ابن الملك العادل شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل مجد الدين محمد، ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الموحد تقي الدين عبد الله، ابن الملك المعظم سيف الدين توران شاه، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد، بن العادل أبي بكر بن أيوب . ثم قال : وما يبعد أن الصالح المذكور هو ابن عم العادل مجد الدين محمد، وأن العادل غازي لاحققة له . ثم قال : وهو غلط لأن المستقر إلى آخر سنة ثنتين وستين وسبعائة وما بعدها بمدة هو العادل مجد الدين، وكتبت إليه في هذه المدة بهذا الاسم واللقب، ولم يبلغنا أنه استقر بعده سوى ولده، ثم نقل أنه الصالح ونقل الناقل أنه ابن العادل وهو صحيح لكنه قال : إن اسمه شهاب الدين غازي بن العادل مجد الدين وفيه بعد : كون الولد يلقب بلقب والده الملوكي . انتهى كلامه .

قلت : والذي أخبرني به بعض قُصَّاد صاحبها في سنة تسع وتسعين وسبعائة أن الملك القائم بها يومئذ اسمه سليمان بن داود، وذكر لي لقبه الملوكي فنسبته، وذكر أنه يقول الشعر، وأحضر معه بيتا مفردا من نظمه وهو :

وَجَارِيَةٍ تُعِيرُ الْبَدْرَ نُورًا * وَلَوْلَا نُورُهَا عَادَ الظَّلَامُ !

فنظمت له أبياتا وبعثت بها إليه صحبة قاصده أولها :

سُلَيْمَانُ الزَّمَانِ يَحْضِنُ كَيْفَا * لَهُ فِي الْمُلْكِ آثَارُ كِرَامٍ
زَكَ أَصْلًا فَطَابَ الْفَرْعُ مِنْهُ * وَطَابَ الْغُصْنُ إِذْ طَابَ الْمِكَامُ
بَنُو أَيُّوبَ أَبْقَوْا مِنْهُ ذُخْرًا * وَنِعَمَ الذُّخْرُ وَالْقَيْلُ الْهَمَامُ

وأثبت البيت الذي قاله في آخر هذه .

(ومنها) حَرَّانُ . قال في "المشترك" : بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وفي آخرها نون بعد الألف - وهي مدينة من ديار مُضَرَ من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول ثلاث وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وكانت حَرَّانُ مدينةً عظيمةً أما اليوم نخراب . قال ابن حوقل : وهي مدينة الصابئين ، وبها سَدَتُهُمُ السبعة عشر ، وبها تَلٌّ عليه مصلى للصبايين يعظمونه وينسبونه إلى إبراهيم عليه السلام ، وهي قليلة الماء والشجر . قال في "العزيزي" : والجبل منها في سمت الجنوب والشرق على فرسخين ، وترتبطا حمراء ، وشرب أهلها من قناة تجرى من العيون خارج المدينة ومن الآبار ، وحاكمها يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتى في المكاتبات إن شاء الله تعالى .

(ومنها) شِمَشَاط . قال في "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون الميم وفتح الشين الثانية ثم ألف فطاء مهملة - وهي بلدة من ديار مُضَرَ ، وقيل من ديار بكر من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع . قال في "رسم المعمور" حيث الطول اثنتان وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي بلدة الثغور الجزيرية بين آمد وبين نَحْرَتِ بَرْت . وقال ابن حوقل : هي بنجر الجزيرة^(١) ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حَيْرَانُ . قال في "اللباب" : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الزاي المعجمة وألف ونون - وهي مدينة من ديار بكر من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها خمس وستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي كثيرة

(١) في التقويم . هي نجر .

الأشجار خصوصا شجر البُنْدُق . قال : وهى بين جبال ، ولها مياه سارحة ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكر فى "التثقيف" أنه كان اسمه فى زمانه عز الدين ، ثم استقر بعده أبنه أسد الدين .

(ومنها) رَأْس عَيْن . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الراء المهملة ثم سين وعين مفتوحة مهملتان ومثناة تحت ونون فى الآخر - وتسمى عين ورْدَة أيضا ، وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة فى مستو من الأرض . قال ابن حوقل : يخرج منها فوق ثلثائة عين كلها صافية ، ويصير من هذه العين نهر الخابور ، وهم السمعاني فجعلها منبع دجلة . قال فى "العزيزى" : وهى أول مدُن ديار ربيعة من جهة ديار مُضَرَ ، وذكر السمعاني أنها من ديار بكر ، وأنكره ابن الأثير وقال : ليست من ديار بكر [بل هى] من الجزيرة . قال فى "اللباب" : وهى على يومين من حرّان والنسبة إليها رَسْعَنِيٌّ ، وإليها ينسب الرَّسْعَنِيُّ المُفسِّر .

(ومنها) مِيَا فَارِقِينَ . قال فى "اللباب" : بفتح الميم وتشديد المثناة من تحتها وسكون الألفين بينهما فاء مفتوحة وبعدهما راء مهملة ثم قاف وياء آخر الحروف ونون . وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" : حيث الطول خمس وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى قاعدة ديار بكر . وقال ابن حوقل : هى بين الجزيرة وبين إرمينية . قال فى "اللباب" : وعليها سورٌ حجرٍ دائرٌ ، وهى دون حماة فى القدر ، وهى فى ذيل جبل ، فى شمالها وهى فى ذيله . قال فى "اللباب" : والمياه والبساتين محدقة بها ، ولها نهر صغير دلى شوط فرس منها ، من عين تسمى عين حَنْبُوصَ بين الغرب والشمال ، تنحرق دُورَهَا

وتسقى بساتينها ، وبينها وبين الموصِلِ على حصن كيفا نحو ستة أيام وعلى ماردين نحو ثمانية أيام ، والنسبة إليها فَارِقِيٌّ . قال في "اللباب" : أسقطوا بعضها لكثرة حروفها ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قَرْقِيسِيَا . قال في "تقويم البلدان" : المشهور بفتح القاف الأولى وكسر الثانية وبينهما راء مهملة ساكنة ثم ياء آخر الحروف ساكنة ثم سين مهملة ثم ياء ثانية وألف - وهى مدينة من ديار مَضَرَ من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول أربع وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في "اللباب" : وهى على الفُرات والخابور ، على القرب من الرِّقَّة . قال في "العزيزى" : وهى شرق الفرات والخابور الخارج من رأس عين فيصب فى الفرات على القرب منها . قال : وهى مدينة الرِّبَاء صاحبة جَدِيمة الأبرش ، يعنى التى قتله . قال في "اللباب" : وبها مات جَرِير بن عبد الله البجليّ الصحابى رضى الله عنه . قال : والنسبة إليها قَرْقِيسِيَانِي وقد تحذف النون وتجعل الياء عوضها .

(ومنها) مَاكِسِينُ . قال في "اللباب" : بفتح الميم وسكون الألف وكسر الكاف والسين المهملة وسكون المثناة من تحت ونون فى الآخر - وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "اللباب" : وهى على الخابور . قال في "العزيزى" : وبينها وبين قَرْقِيسِيَا سبعة فراسخ ، وبينها وبين سِنْجَارَ أَثْنَان وعشرون فرسخا .

(ومنها) نَصِييْنُ . قال في "اللباب" : بفتح النون وكسر الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها ثم باء موحدة وياء ثانية ونون - وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال ابن سعيد : وهى قاعدة ديار ربيعة . قال :

وهي مخصوصة بالوَرْد الأبيض لا يوجد فيها وردة حمراء ، وفي شمالها جبل عظيم يقال إنه الجُودَى الذى آسَقرت عليه سفينة نوح عليه السلام ، منه ينزل نهرها حتى يَمر على سُورها وعليه بساطينها ، ونهرها يسمى الهَرْماس ، وبها عقارب قتالة .

(ومنها) جزيرة ابن عُمر - وضبطها معروف - وهي مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " القانون " : حيث الطول ست وستون درجة وعشر دقائق ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في " تقويم البلدان " : وهي مدينة صغيرة على دجلة من غربها ذات بساطين كثيرة . وقال في " المشترك " : هي في شمالي الموصل ودجلة محيطة بها مثل الهلال ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) سِنْجَار . قال في " اللباب " : بكسر السين المهملة وسكون النون وفتح الجيم وألف وراء مهملة - وهي مدينة من ديار ربعة من الجزيرة ، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " تقويم البلدان " : والقياس أنها حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي في جنوبي نصيبين - وهي من أحسن المَدُن وجبلها من أخصب الجبال . قال ابن حوقل : وهي في وسط برية ديار ربعة بالقرب من الجبل والجبل في عاليها ، وليس بالجزيرة بلد فيه نخيل سواها . وهي في جهة الغرب عن المَوْصِل على ثلاث مراحل عنها ، وهي على قدر المَعَرَّة من البلاد الشامية ؛ ولها قلعة وبساطين كثيرة ؛ وشربها من القُفَى ؛ وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) تَلُّ أَعْفَر - وضبط التل معروف ، وأَعْفَرُ بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الفاء وراء مهملة في الآخر - وهي من الجزيرة من الإقليم الرابع من

الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "المشترك" : وتَلْ أَعْفَرَقْلَعَةُ بَيْنَ سِنْجَارَ وَبَيْنَ الْمَوْصِلِ . وذكر في "تقويم البلدان" عن بعض أهلها أنها غربي المَوْصِلِ فيما بينها وبين سِنْجَارَ ، وربما تكون إلى سِنْجَارَ أَقْرَبَ . وذكر في "العزيزي" أن بينها وبين سِنْجَارَ خمسة فراسخ ، ولها أشجار كثيرة ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) الحَدِيثَةُ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الحاء وكسر الدال المهملتين ثم مشاة من تحت وئاء مثثة وهاء في الآخر وهي مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "المشترك" : وهي في وَسَطِ الْفُرَاتِ والماء محيطٌ بها ، وتعرف بحديثه النُّورَة . وهي غير حديثه المَوْصِلِ : بليدة صغيرة إلا أن لها ذكرا في القديم . قال في "المشترك" : وهي على فراسخ من الأنبار ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) عَانَة . قال في "اللباب" : بفتح العين المهملة وألف ونون وهاء في الآخر . وهي بلدة من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة . وهي بلدة صغيرة على جزيرة في وَسَطِ الْفُرَاتِ . قال في "اللباب" : وهي تقارب الحَدِيثَةَ . وقال ابن حوقل : يطوف بها خليج من الفرات . قال ابن سعيد : وتحررها مذكور في الأشعار ، وأستشهد بقول بعض الشعراء :

* وَمِنْ عَانَةٍ أَمَّ مِنْ مَرَّاشِفِكَ الْخَمْرُ ؟ *

وكثيرا ما تُقَرَّن في الذِكر مع الحديشة لقربها فيقال عانة والحديشة ، وبها حاكم يكتّاب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) آمِد . قال في ” الباب “ : بمدّ الألف وكسر الميم وفي آخرها دال مهملة . وهي مدينة من ديار بكر ، من الجزيرة ، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في ” الأطوال “ حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال في ” تقويم البلدان “ : وهي مدينة أزيلية على الدجلة . قال ابن حوقل : وعليها سور في غاية الحصانة . قال في ” العزيزي “ : وسورها من الحجارة السود التي لا يعمل فيها الحديد ، ولا تضرّها النار ، وهو مشتمل عليها وعلى عيون ماء ، ولها بساتين ومزارع كثيرة . قال ابن حوقل : وهي كثيرة الخصب . (ومنها) سِعْرَتُ . قال في ” تقويم البلدان “ نقلا عن صالح : بكسر السين والعين وسكون الراء المهملات وفي آخرها مشناة من فوق ، وقيل إسْعَرْد بكسر الهمزة وسكون السين وكسر العين وسكون الراء المهملات ودال مهملة في الآخر . وهي مدينة من ديار ربيعة ، من الجزيرة ، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في ” تقويم البلدان “ : وهي مبنية على جبل تحيط بها الوطاة ، على القرب من شطّ دجلة من جهة الشمال والشرق ، وهي في المقدار أكبر من المعرة ، وبها الأشجار الكثيرة من التين والرمان والكروم ، جميع ذلك عذّي لا يسقي ، وشرب أهلها من بئار قريبة من وجه الأرض ، وهي عن مياّفارقين على مسيرة يوم ونصف في جهة الجنوب ، وعن أمِد على مسيرة أربعة أيام في جهة الشمال منها ، وعن الموصل على خمسة أيام في جهة الشرق والشمال عنها .

(ومنها) تِكْرِيتُ . قال في ” الباب “ : بكسر المشناة من فوق وسكون الكاف وكسر الراء المهملة ثم ياء مشناة من تحت في آخرها تاء مشناة من فوق - وهي مدينة

(١) ضبطها المجد بالفتح وكذا ياقوت وقال : وكسرها العامة .

من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث
الطول تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأثنتا
عشرة دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي آخر مدُن الجزيرة مما يلي العراق
على غربي دِجْلَة في بَرِّ المَوْصِل . قال في "اللباب" : وسميت تِكْرِيتُ تِكْرِيتُ بنت
وائل أخت بكر بن وائل .

أما قلعتها فبناها سابور بن أردشير بن بَابَك ، وهي الآن خراب . قال ابن سعيد :
وفي جنوبها وشرقيها النهر الإِسْحَاقُ ، حفره إِسْحَاقُ بن إبراهيم صاحب شُرْطَة
الموكل ، وهو أول حدود سَوَادِ العراق ، وبها حاكم يكتِّب عن الأبواب السلطانية
بالديار المصرية .

(ومنها) بَرَقِيدُ - بفتح الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وكسر العين
المهملة وسكون المثناة من تحتها ودال مهملة في الآخر . قال في "العزيزى" :
وهي [مدينة] لها سور وأسواق كثيرة .

(ومنها) العِمَادِيَّة - بكسر العين المهملة وفتح الميم وبعدها ألف ثم دال مهملة
مكسورة وياء مثناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" :
وهي قلعة عامرة على ثلاث مراحل من المَوْصِل في الشرق والشمال ، وهي على جبل من
الصخر ، وتحتها مياه جارية وبساتين ، وهي في جهة الشمال عن إِرْبِل ، بناها عماد الدين
زنكى صاحب المَوْصِل فنسبت إليه ، وبها حاكم يكتِّب عن الأبواب السلطانية
بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة كُشَاف . قال في "تقويم البلدان" : بضم الكاف وبالشين المعجمة
ثم ألف وفاء في الآخر . وهي قلعة عامرة بين الرّابِّ والسَّطِّ ، قريبة من مصبه في الشط
[وهي في الشرق] والجنوب عن الموصل . قلت : وقد ذكرها في "تقويم البلدان" أولاً

في جملة بلاد الجزيرة ووصفها بهذا الوصف ولم يضبطها ، ثم ذكرها في بلاد الجبل .
المعروفة بعراق العجم بهذا الوصف أيضا وضبطها على ما تقدم ، والظاهر أنها من
بلاد الجزيرة ؛ وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة فنك . قال في "تقويم البلدان" : نقلا عن أبي المجد في "كتاب
التمييز" : بفتح الفاء والنون - وهي قلعة حصينة فوق جزيرة ابن عمر .

(ومنها) الشوش . قال في "المشترك" : بضم الشين المعجمة وسكون الواو
ثم شين ثانية . قال : وهي قلعة مشهورة من أعمال الموصل في الجبال شرق
دجلة ، وإليها ينسب حب الرمان الشوشى .

(ومنها) عقر الحميدية . قال في "المشترك" : بفتح العين المهملة وسكون
القاف ثم راء مهملة - وهي قلعة حصينة مشهورة ، والحميدية قبيلة من الأكراد
بتلك البلاد .

(ومنها) الهتاخ . قال في "مزيل الارتباب" : بفتح الهاء وتشديد التاء المثناة
من فوقها وفتحها وبعد الألف خاء معجمة . قال في "تقويم البلدان" : وهي
قلعة حصينة .

(ومنها) حاني . قال في "اللباب" : على وزن داعي ، يعنى بفتح الحاء المهملة
وبعدها ألف ثم نون مكسورة وياء مثناة تحت في الآخر . قال : هذا ما تعرف به
الآن ، ولكن السمعاني قد قال فيها حنا ، بفتح الحاء المهملة والنون ؛ وهي مدينة
من ديار بكر من الجزيرة [من الإقليم الرابع] من الأقاليم السبعة ، وبها حاكم يكتب
عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية معدود في الأكراد .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مَجَاوِرَةٌ لِمَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ مِنْ حَيْثُ اتَّصَلَتْهَا بِالْبِلَادِ
الشَّامِيَةِ مِنَ الْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَعْضَ بِلَادِهَا دَاخِلَةٌ فِي أَعْمَالِ حَلَبَ

من ممالك الديار المصرية كالرُّها وقلعة جَعْبَر وما والاها، والمسافة ما بين حلب والرُّها معلومة ؛ ومن الرُّها إلى حَرَّان يوم واحد ؛ ومن حَرَّان إلى رأس عين ثلاثة أيام ، ومن رأس عين إلى نَصِيبين ثلاث مراحل ؛ ومن نَصِيبين إلى المَوْصِل أربع مراحل . وقد تقدّم أن المَوْصِل هي قاعدة الجزيرة في القديم، ومن الموصل إلى تَكْرِيت سبعة أيام، وقد تقدّم أن تكريت هي آخر مُدُن الجزيرة مما يلي العراق ، ومن الموصل أيضا إلى آمَد أربعة أيام ؛ ومن آمَد إلى شِمَشَاط ثلاثة أيام .

الإقليم الثاني (العراقُ)

قال في "الباب" : بكسر العين وفتح الراء المهملتين ثم ألف وقاف . قال الجوهري : وهو يذكَر ويؤنَّث . قال أبو المجد إسماعيل الموصلي في كتابه المسمّى "بالتّمييز والفصل" : وإنما سمي عراقا لأنه سفل عن نَجْدٍ ودَنَا من البحر، أخذنا من عراق القرْبَة، وهو الخَرْزُ الذي في أسفلها ؛ ويعرف بعراق العرب لأن العرب كانت تنزله لقربه من بلادهم . قال في "تقويم البلدان" : ويحيط به من جهة الغرب الجزيرة والبادية ؛ ومن الجنوب البادية وبحر فارس وحدود خُوَزِسْتان ؛ ومن الشرق حدود بلاد الجبال إلى حُلُوان ؛ ومن الشَّمال من حلوان إلى الجزيرة من حيث وقع الابداء .

قال : والعراق على ضَفْتَي دجلة مثل ما بلاد مصر على ضَفْتَي النيل، ويجرى دجلة من الشمال بميلة إلى الغرب، إلى الجنوب بميلة إلى الشرق، وامتداد العراق طولا وشمالا وجنوبا من الحَدِيثَةِ على دجلة إلى عَبَّادَانَ على مصبّ دجلة في بحر فارس، وامتداده غربا وشرقا من القادِسِيَّة إلى حُلُوان . فالحدِيثَة في وسط الحدّ الشماليّ

بميلة إلى الغرب، والقادسية في وسط الحد الغربي بميلة إلى الجنوب، وعبادان في وسط الحد الجنوبي بميلة إلى الشرق، وحلوان في وسط الحد الشرقي بميلة إلى الشمال، ووسط العراق الذي من القادسية إلى حلوان هو أعرض ما في العراق .
وأما رأس العراق الذي عند عبادان، فيدق عن ذلك . ثم قال : والذي يستدير على العراق - يعني والعراق على شماله - إذا ابتدأ من تكريت من بلاد الجزيرة المتقدمة، يمر منها إلى حدود شَهْرزُور؛ وهي بين الشرق والشمال عن العراق، ثم إلى السَّيْرَوَان، وهي في الشرق، إلى حدود جُبَّا، وهي في الشرق والجنوب، ثم إلى البحر يعني بخر فارس، وهو في الجنوب عن العراق . وفي هذا الحد من تكريت إلى البحر تقويس، ثم من البحر إلى البصرة، وهي في الجنوب عن العراق، ثم من البصرة إلى البادية على سَوَاد البصرة، ثم إلى بَطَائِح البصرة، ثم إلى واسط، ثم إلى سَوَاد الكوفة وبطائعها، ثم على ظهر الفرات إلى الأنبار، ثم من الأنبار إلى تَكْرِيت حيث وقع الابتداء .

(١)
ثم للذن قواعد ومدن .

القاعدة الأولى

(بَابِل)

بفتح الباء الموحدة ثم ألف وباء موحدة ثانية مكسورة ولام في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي أقدم أبنية العراق، وإليها ينسب إقليم بابل لقِدَمَها، وكانت ملوك الكِنَعَانِيِّينَ

(١) لعل الصواب "ثم للعراق قواعد ومدن" .

وغيرهم يقيمون بها . قال في "تقويم البلدان" : وبها آثار أبنية أحسبها أن تكون في قديم الأيام مصرا عظيما ، ويقال إنها من بناء الضحَّاك : أحد ملوك الفرس الذي ملك الأقاليم السبعة . قال : وفيها ألقي إبراهيم الخليل عليه السلام في النار ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أن بها هَارُوتَ وَمَارُوتَ الْمَلَكَيْنِ اللذين يعلمان الناس السَّحر ، ويقال إنهما بها في بئر وإن البئر ظاهرة بها إلى الآن . قال صاحب حماة : وهي اليوم مدينة خراب ، وقد صار في موضعها قرية صغيرة .

القاعدة الثانية

(المَدَائِن)

جمع مدينة وضبطها معروف . قال في "تقويم البلدان" : وآسما بالفارسية طَيْسَفُونُ - بفتح الطاء المهملة وسكون المثناة التحتية وفتح السين المهملة وضم الفاء وبعدها واو وونون - ثم قال : وكل ذلك سمعا وقد تبدل الفاء باء . وهي واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبعون درجة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق . قال في "تقويم البلدان" : وهي على دجلة من شرقها تحت بغداد على مرحلة منها . قال في "العزيزي" : والمدائن في جنوبي بغداد ، وكان بالمدينة الكبرى منها إيوان كسرى في شرقي دجلة ارتفاعه ثمانون ذراعا . ونقل في "تقويم البلدان" عن بعض الثقات في سَعته من ركنه إلى ركنه خمسة وتسعون ذراعا . وكانت هي قاعدة ملوك الفرس ، فلما وُلِدَ النبي صلى الله عليه وسلم ، آنشَقَ هذا الإيوان ثم خرب هو وسائر المدائن في الإسلام .

القاعدة الثالثة

(بَغْدَادُ)

قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفتح الدال المهملة وفي آخرها ذال معجمة . وموقعها في آخر الإقليم الثالث . قال في "القانون" : حيث الطول سبعون درجة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وسميت بغداد بهذا الاسم لأن كسرى أهدى إليه خصى من المشرق فأقطعه بغداد ، وكان له صنم يعبد به المشرق يقال له البغ فقال ذلك الخصى بغ داد يعني أعطاني الصنم ، وكان عبد الله بن المبارك يكره أن يقال لها بغداد بالذال المعجمة في آخرها ، فإن بغ شيطان وداد عطية فعناه عطية الشيطان وهو شرك . قال : وإنما يقال بغداد بالذالين المهملتين . وقد قال بعضهم : إن بغ بالفارسية البُستان وداد بإهمال الأولى وإعجام الثانية آسم رجل ومعناه بستان داد ؛ ويقال فيها أيضا بَغْدان بإبدال الدال الأخيرة نونا ؛ ومَغْدان بإبدال الباء الأولى ميما . وكان المنصور يسميها مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام . وبغداد على جانبي دجلة من الشرق والغرب ، والجانب الغربي منها يسمى الكرخ ، وبه كان سكنى أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ، والجانب الشرقي منها بناه المهدي بن المنصور المقدم ذكره وسكنه بعسكره فسمى عسكر المهدي ، ثم بنى فيه الرشيد بن المهدي قصرا سماه الرصافة فأطلق على الجانب كله الرصافة ، ويسمى جانب الطاق أيضا نسبة إلى رأس الطاق ، وهو موضع السوق الأعظم منها . وبهذا الجانب محلة تسمى (الحريم) يعني حريم دار الخلافة . قال في "المشرك" : بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين ثم مثناة من تحتها ساكنة وفي آخره ميم . قال : وهي قريب من ثلث الجانب الشرقي ، وعليه سور ابتدأه من دجلة وآتاهؤه إليها أيضا

كهيسة الهلال أو كنصف دائرة؛ وله أبواب أولها باب الغربية، وهو على دجلة، ثم يليه باب سوق التمر، وهو باب شاهق ولكنه أغلق في خلافة الناصر لدين الله، ثم آسَمَزَ غَلَقَهُ، ثم باب البَدْرِية، ثم باب النُوبى . وفيه العتبة التي كانت تقبلها الملوك والرُّسل، ثم باب العاقمة، ويقال له أيضا باب عُمُورِيَّة . ثم يمتد السور نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان تحت المنطرة التي تتحرّ تحتها الضحايا، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو رميتي سهم .

وبهذا الحريم محال وأسواق ودُور كثيرة للرعية وهو كأكبر مدينة تكون . قال :
وبين دُور الرعية التي داخل هذا السور وبين دجلة سور آخر، وداخل السور الثاني دُور الخلافة لا يدخلها شيء من دور العاقمة . قال في "مسالك الأبصار" : وبين الحائنين جسران منصوبان على دجلة شرقا بغرب على سُفْرٍ وزوارق أوقفت في الماء ومدّت بينها السلاسل الحديد المكعبة بالمكعبات الثقال، وفوقها الخشب الممدود، وعليها التراب يمر عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالجر والجمال والحمول، وعلى ضَفَقَي دجلة قُصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية بالشبابيك والطاقات المطلة على دجلة، وبنّاؤها بالآجر .

ومن بيوتها ما هو مفروش بالآجر أيضا ملصق بالقيرو هو الزفت، ولهم الصنائع العجيبة في الترويق بالآجر، وبها وجوه الخير من الجوامع والمساجد والمدارس والخَوَاقق والرُّبُط والبيمارستانات والصدقات الجارية ووجوه المعونة، وناهيك أنها كانت دار الخلافة ومقرّ ملوك الأرض . ومنها قلائد الأعناق، ورايها لى القُبل وإئِمدُ الأحداق .

قال في "مسالك الأبصار" : قال الحكيم نظام الدين بن الطياري : وأوقفها جارية في مجاريها، لم تعترضها أيدي العُدوان في دولة هولاكو ولا فيما بعدها، بل

كل وقف مستمرٌ بيد متوليهِ، ومن له الولاية عليه، وإنما نقصت الأوقاف من سوء ولاة أمورِها لا من سواها. وبها البساتين الموقَّعة، والحدائق المحذَّقة، وبها ثمر النخل المفضلة على ما سواها من الرطب والتمر، وبها أنواع الرياحين والخضراوات والغلال، وسعرها متوسط في الغالب لا يكاد يَرُخَّص. قال المقر الشهابي بن فضل الله: سألت الصدر مجد الدين بن الدوري عن السبب في قلة الغلال ببلاد العراق مع امتداد سَوَادِها، فقال: قلة الزرع مع ما آستهلكه القتل زمن هولاء كو وحيزه للعراق وما جاوره من البلاد.

قلت: وبغداد وإن كانت أم الممالك ودار الخلافة، فقد أغفل ملوك التتر الالتفات إليها، وصرفوا عنايتهم إلى تبريز والسُّلْطانية وصيروها قاعدتين لهذه المملكة على ما سيأتي ذكره في الكلام على إقليم أذربيجان فيما بعد إن شاء الله تعالى

القاعدة الرابعة

(سُرَّ مَنْ رَأَى)

من السرور والرؤية، ثم خففها الناس فقالوا سَامَرًا. قال في "اللباب": بفتح السين المهملة وسكون الألف وفتح الميم وفي آخرها راء مهملة مشددة - وهي مدينة واقعة في الإقليم الرابع. قال في "القانون" حيث الطول ثمان وستون درجة ونحس وأربعون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة. قال في "العزيزي": وهي على شاطئ الدجلة من الشرق. قال ابن سعيد: بناها المَعْتَصِمُ، وأضاف إليها الواثق المدينة المارونية، والمتوكل المدينة الجعفرية فعظم قدرها. قال في "اللباب": ثم خربت عن قريب من عمارتها. قال في "العزيزي": ولم يبق فيها عامر سوى مقدار يسير كالتقريّة.

(١) بمعنى حوزة وامتلاكه، لغة نقلها الفيومي في مصباحه.

وأما المَدُن التي بالعراق :

(فمنها) هَيْتٌ . قال في "المشترك" : بكسر الهماء وسكون المثناة تحت وتاء مثناة من فوق في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمان وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "العزيزي" : وهي من حدود العراق . قال ابن سعيد : وإليها ينتهي حدّ الجزيرة . قال في "تقويم البلدان" : وهي على شماليّ الفرات ، ووهم في "العزيزي" : فجعلها غربيّ الفرات . قال في "المشترك" : وهي من أعمال بغداد . قال في "اللباب" : وهي فوق الأنبار . قال صاحب "التهذيب" : وسمّيت هيت لكونها في هوة من الأرض . قال في "اللباب" : وبها قبر عبد الله بن المبارك رحمه الله ؛ وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حِيرةٌ . قال في "اللباب" : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة وهاء في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" : حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . [والحيرة مدينة جاهلية كثيرة الأنهار ، وهي عن الكوفة على نحو فرسخ . وقال في "العزيزي" : مدينة قديمة على ثلاثة أميال من الكوفة ؛ وكانت منازل آل النعمان بن المنذر ، وبها تنصر المنذر بن امرئ القيس وبنى بها الكنائس العظيمة . والحيرة على موضع يقال له النَّجْفُ ، زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصل به ؛ وبينهما اليوم مسافة بعيدة . قال في "اللباب" : والحيرة مدينة قديمة عند الكوفة ، وبها الخورنق . قال في "الترتيب" : إن تبعاً لما سار من اليمن إلى خراسان وآتمى إلى موضعها ليلاً فتحير ونزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة .

(ومنها) الأنبار . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون النون ثم باء
 موحدة مفتوحة وراء مهملة بعد الألف - وهي من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم
 السبعة . طولها تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمان وثلاثون
 درجة وخمس عشرة دقيقة . قال في "المشترك" : والأنبار عن بغداد ^(١) على عشر
 فراسخ منها . قال في "المشترك" : وهي من نواحي بغداد على شاطئ الفرات .
 قال ابن حوقل : وهي أول بلاد العراق ، وبها كان مقام السفاح : أول خلفاء
 بني العباس حتى مات ، ويقال إن أول ما نقلت الكتابة العربية إلى مكة من الأنبار
 على ما تقدم في المقالة الأولى في الكلام على الخط .

(ومنها) الكوفة . قال في "اللباب" : بضم الكاف وسكون الواو ثم فاء وهاء -
 وهي مدينة إسلامية بنيت في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،
 واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول
 ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ،
 وهي على ذراع ^(٢) من الفرات خارج منه جهة الجنوب والمغرب . قال في "الترتيب" :
 وسميت كوفة لاستدارتها ، أخذاً من قول العرب رأيت كوفانا إذا رأوا رملة مستديرة ،
 وقيل لأجتماع الناس ، أخذاً من قولهم تكوَّف الرمل إذا ركب بعضه بعضاً .
 وهي واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث
 الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون
 دقيقة . قال في "العزيرى" : وهي قدر نصف بغداد ، وعلى القرب منها مشهد
 أمير المؤمنين على كرم الله وجهه حيث دفن ، يقصده الناس من أقطار الأرض .

(١) وقع في الأصل سقط من النسخ في أثناء الكلام على الحيرة والأنبار . وقد استوفينا من كتاب
 تقويم البلدان ، وأثبتناه بين دائرتين مربعيتين هكذا [] .

(٢) في معجم البلدان "شعبة" وهي المراد بالذراع .

(ومنها) البَصْرَةُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد وفتح الراء المهملتين - وهى مدينة إسلامية بنيت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة ، وسميت بالبَصْرَةَ أخذًا من البَصْرَةَ ، وهى الحجارة السود ، وفى جنوبيّها وغربيّها البرية ، وليس فى بريّتها ماء ، يزرع على المطر . قال فى "المشترك" : وبالبصرة محلة يقال لها المِرْبَدُ - بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح الباء الموحدة ثم دال مهملة - وهى محلة عظيمة من جهة البرية كانت العرب تجتمع فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون .

(ومنها) واسِطُ . قال السمعانيّ فى "الأنساب" : بفتح الواو وسكون الألف وكسر السين المهملة وطاء فى الآخر - وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : سميت واسط لتوسطها بين مَدَن العراق إذ منها إلى البَصْرَةَ خمسون فرسخًا ، ومنها إلى الكوفة خمسون فرسخًا ، ومنها إلى الأهواز خمسون فرسخًا ، ومنها إلى بغداد خمسون فرسخًا . وهى نصفان على جانبى دجلة بينهما جسرٌ من السفن كما تقدّم فى بغداد . قال فى "المشترك" : وهى من بناء الحجاج آخطها بين الكوفة والبصرة فى سنة أربع وسبعين من الهجرة ، وفرغ منها فى سنة ست وسبعين .

(ومنها) حُلَوَانٌ . قال فى "المشترك" : بضم الحاء المهملة وسكون اللام . قال فى "اللباب" : ثم ألف وواو ونون - وهى مدينة من أوّل الإقليم الرابع . قال فى "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة ، والعرض أربع وثلاثون

(١) فى تقويم البلدان ومعجم البلدان : أربع وسبعون .

درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي آخر مدُن العراق، ومنها يُصعد إلى الجبال، وقيل هي من الجبال ، وليس بالعراق مدينة بالقرب من الجبل غيرها . قال ابن حوقل : وبها شجر النخل والتين الموصوف، وأكثر ثمارها التين، والثلج يسقط على جبلها دائماً، وهو منها على مرحلة، وبينها وبين بغداد خمس مراحل .

(ومنها) الحِلَّة . قال في "المشارك" : بكسر الحاء المهملة وتشديد اللام - وهي واقعة في الإقليم الثالث . قال في "تقويم البلدان" حيث الطول ثمان وستون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ياقوت الحموي : وتعرف بحِلَّة بنى مزَيْد . وأول من أخطط بها المنازل وعمرها سيف الدولة صدقة بن دُبَيْس بن عليّ بن مَزَيْد الأسدى في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وكان موضعها قبل ذلك يسمى بالجامعين .

(ومنها) النَّهْرَوَانُ . قال في "اللباب" : بفتح النون وسكون الهاء وضم الراء المهملة وفتح الواو وبعد الألف نون . وهي مدينة في آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ضفَى نهر . قال في "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : النَّهْرَوَانُ اسم للمدينة والنهر الذى يشقها، وهي مدينة صغيرة على أربعة فراسخ من بغداد. قال في "اللباب" : ولها عدّة [نَوَاحٍ] خرب أكثرها . وقال السمعاني في "الأنساب" : هي على أربعة فراسخ من دجلة، والنَّهْرَوَانُ هذه هي التي أنحاز إليها الخوارج عند فراقهم لعلّ بعد وقعة صفين على ما تقدم ذكره في الكلام على النحل والمِلل في المقالة الأولى .

(ومنها) الأُبُلَّة . قال في "تقويم البلدان" : بضم الهمزة والباء الموحدة وتشديد اللام وهاء في الآخر - وهي مدينة في فُرْدَتْهَا نهر طوله أربعة فراسخ بينها وبين البصرة

على جانبيه قصور وبساتين ومُدُن على خط واحد كأنها بستان واحد ، وهو أحد متزهات الدنيا .

(ومنها) القادسية - بفتح القاف ثم ألف ودال مهملة مكسورة وياء مثناة من تحت ثم هاء . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وهى مدينة صغيرة ذات نخيل ومياه ، وهى على حافة البادية وحافة سواد العراق ، البادية من جهة الغرب والسواد من جهة الشرق . قال فى "المشترك" : وبينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا فى طريق الحاج . قال فى "تقويم البلدان" : وسميت القادسية لتزول أهل قادس بها ، وقادس قرية بمرور الرود ، وعليها كانت الوقعة المعروفة بوقعة القادسية .

(ومنها) عبّادان - بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة ثم دال مهملة بين ألفين وفى آخرها نون - وهى بلدة من آخر العراق من الإقليم الثالث . قال فى "الزيج" : حيث الطول خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وعَبَّادَانُ على بحر فارس ، وهو محيط بها لا يبقى منها فى البر إلا القليل ، وعندها مَصْبٌ دجلة فى جنوبى عبّادان وشرقيها ، وهى عن البصرة على مرحلة ونصف ، وفى جنوبها وشرقيها علامات للراكب يعبر فارس لا تتجاوزها المراكب ، وهى خُشْبٌ منصوبة حيث يكون البحر عند الجزر فى بعض البحر . قال فى "العزيزى" : فى طريق العراق من الغرب القادسية وهيت ، ومن الشرق حُلوان ، ومن الشمال سَرَمَن رَأى ، ومن الجنوب الأبله .

الإقليم الثالث (خُوزُسْتَانُ والأَهْوَاَزُ)

بضم الخاء وسكون الواو وضم الزاي المعجمة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وألف ثم نون . قال في "المشارك" : ويقال لها أيضا الخُوزُ بضم الخاء المعجمة ثم واو وزاي معجمة . قال : وخُوزُسْتَانُ إقليم واسع بين البصرة وفارس يشتمل على مَدُن كثيرة . قال في "تقويم البلدان" : والذي يُحيط به من الغرب رُسْتاقُ واسطَ ودُورِ الراسيِّ ، ومن جهة الجنوب من عبادان على البحر إلى مَهْرُوبَانَ ، إلى الدَّورَقِ ، إلى حدود فارس ؛ ومن الجهة الشرقية التي إلى جهة الجنوب حدود فارس ؛ ومن الجهة الشرقية التي إلى جهة الشمال حدود أصفهان وبلاد الجبل ؛ ومن جهة الشمال حدود الصَّيْمَرِ ، والكرجة ، وجبال اللُّورِ ، وبلاد الجَبَلِ إلى أصفهان . قال : وخُوزُسْتَانُ في مستوٍ من الأرض ليس بها جبال ، وهي كثيرة المياه الجارية ، وتجتمع مياهه وتعرض وتصل ببحر فارس عند حصن مَهْدِيٍّ .

وقاعدتها على ما ذكره صاحب حماة في "تاريخه" (تُسْتَرُ) . قال في "اللباب" : يضم المثناة من فوق وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية وفي آخرها راء مهملة ، والعامية تسميها شُسْتَرِ بإبدال التاء الأولى شينا - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" : حيث الطول خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وجعلها في "تقويم البلدان" من الأهواز ، ولها نهر معروف بها ؛ بنى فيه سابور : أحد ملوك الفرس بناء عظيمًا حتى ارتفع الماء إلى المدينة ، على مرتفع من الأرض ؛ ويقال إنه ليس على وجه الأرض مدينة أقدم منها . قال في "اللباب" : وبها قبر البراء بن مالك الصحابي رضي الله عنه .

وقد ذكر في "تقويم البلدان" : بخوزستان عدة مَدُن .

(منها) السُّوس . قال في "المشترك" : يضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية . قال أبو الرِّيحان : وهي بالفارسية معجمة . وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "المشترك" : وهي بلدة قديمة ، قال : وبها قبر دانيال النبي عليه السلام . قال في "تقويم البلدان" : ولها بساتين وفيها ترمج كالأصابع .

(ومنها) الطَّيْبُ . قال في "المشترك" : بكسر الطاء المهملة وسكون المشاة من تحتها وفي آخرها باء موحدة ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "المشترك" : وهي بلدة بين واسط وبين الأهواز . ثم قال : وفيها عجائب ولم يذكر ما هي ؛ وإلى الطَّيْب هذه ينسب الطَّيْبِيُّ صاحب الحواشي على "كشاف الزمخشري" .

(ومنها) جُبِّي . قال في "المشترك" : يضم الجيم وتشديد الباء الموحدة وياء آخر الحروف في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم العرفية . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي كثيرة النخل . قال : وإليها ينسب أبو علي الجبائي المعتزلي .

(ومنها) مَهْرُوبَانُ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وضم الراء المهملة وسكون الواو ثم باء موحدة وألف ونون . وعدّها ابن حوقل وآبن

(١) في معجم البلدان "بالضم ثم التشديد والقصر" .

(٢) أى على غير قياس والقياس جبوي .

سعيد من فارس ؛ وهي مدينة من فَارِس صغيرة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في ” القانون “ حيث الطول ست وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة . وهي فرضة أَرْجَان وما والاها . قال في ” العريزي “ : وهي على البحر .

(ومنها) أَرْجَان . قال في ” اللباب “ : بفتح الألف وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وفي آخرها نون بعد الألف . وقال ابن الجوالقي في المعرّب من العجمية للعربية : إنها بتشديد الراء . وقال ابن حوقل : هي من آخر فارس من جهة خُوزُستان . وقال في ” العريزي “ : هي أول مُدُن فارس - وهي مدينة كبيرة كثيرة الخير ، وبها النخل والزيتون بكثرة ، بَرِيَّةٌ بحرية ، سُهْلِيَّةٌ جَبَلِيَّةٌ ، على مرحلة من البحر . قال في ” العريزي “ : وهي مدينة جليلة لها كورة وأعمال نفيسة ؛ وإليها ينسب القاضي الأَرْجَانِيّ الأديب الشاعر .



وأما الأهواز . فقال في ” اللباب “ : هي بفتح الألف وسكون الهاء وفي آخرها زاي معجمة . وهي كورة من كُور خُوزُستان المقدم ذكرها كما ذكره في ” تقويم البلدان “ وإن كان قد ذكر في أول الكلام على إقليم فارس أن خُوزُستان هي الأهواز إلا أنها غلب ذكرها فصارت كالإقليم المنفرد بذاته . ولها عدة مُدُن تعرف بها .

(منها) سُوق الأهواز - وهي مدينتها ، فقد قال في ” المشترك “ : وسوق الأهواز هي مدينة الأهواز ، وذكر مثله في ” العريزي “ . قال في ” المشترك “ : وقد حَرِبَ أكثرها . قال في ” العريزي “ : ومنها إلى أَصْفَهَان ثمانون فرسخا .

(ومنها) قَرْقُوبٌ . قال في "اللباب" : بضم القافين وبينهما راء مهملة ثم واو وفي الآخرباء - وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث ، قال فى "القانون" حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . وهى مدينة مشهورة . قال فى "اللباب" قرية من الطَّيِّبِ قال فى "العزيزى" : وبينهما سبعة فرائخ ومنها إلى مدينة السُّوس عشرة فرائخ .

(ومنها) جَنْدَى سَابُورَ . قال فى "اللباب" : بضم الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة بعدها مثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف وباء موحدة وواو وراء مهملة . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس دقائق ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى مدينة خَصْبَةٌ كثيرة الخير . قال ابن حوقل : وبها نخيل وزروع كثيرة ومياه . قال فى "العزيزى" : منها إلى تُسْتَرِ ثمانية فرائخ ، ومنها إلى السُّوس ستة فرائخ .

(ومنها) عَسْكَرٌ مُكْرَمٌ . قال فى "اللباب" : بفتح العين وسكون السين المهملتين وفتح الكاف وفى آخرها راء مهملة . قال فى "تقويم البلدان" : عن الثقات أن مكرم بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة ثم ميم - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة وثمان دقائق ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة مُحَدَّثَةٌ ، وكانت قرية ينزلها مكرم بن الفُزَرِ أحد بنى جَعُونَةَ بعسكر كان قد أنفذه به الحجاج لمحاربة خُرْدَاز بن بارس ، فأقام بها مدةً وأبَتى بها البناءات فسميت عَسْكَرٌ مُكْرَمٌ . قال : وليس بالأهواز مدينة مُحَدَّثَةٌ سواها ، وبها عقارب صغار مشهورة بالقتل .

(ومنها) رَامَهُرْمَز . قال في "اللباب" : بفتح الراء المهملة والميم وضم الهاء وسكون الراء المهملة وضم الميم الثانية وفي آخرها زاي معجمة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" " حيث الطول ست وسبعون درجة والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي كُورَة من كُور الأهواز . قال ويقال إن سَلْمَان الفارسيّ رضى الله عنه منها . قال المهلبيّ : وبينها وبين سُوق الأهواز تسعة عشر فرسخا .

(ومنها) الدَّورْق . قال في "المشترك" : بفتح الدال المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وفي آخرها قاف - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" " حيث الطول خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة . قال في "العزيزيّ" : ومنها إلى أَرْجَان ثمانية عشر فرسخا .

(ومنها) حِصْنُ مَهْدِيٍّ . وضبطه معروف ، وموقعه في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" " حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وهو حِصْنٌ تجتمع فيه مياه خُورُستان ثم تصير نهرا وتصب في بحر فارس ، وبينه وبين البصرة خمسة عشر فرسخا .

(ومنها) جُرْحَانُ . قال في "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وخاء معجمة ثم ألف ونون . قال : وهي بلدة بقرب السُّوس .

(ومنها) جِبَالُ اللُّور . قال في "اللباب" : بضم اللام وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة . قال : وبها جبال يقال لها لُورُستان من بلاد خُورُستان . وقال ابن حوقل : غالبُ بلاد اللُّور جبال وكانت قديما من خُورُستان . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلاد خِصْبَةٌ والغالب عليها الجبال ، وهي متصلة بخوزستان ولكن

أُفردت عنها . قال في "الأطوال" : وهى بين تُسْتَرُ وأُصْبَهَان ، وأمتدادها طولاً نحو ستة أيام ، وفيها خَلْقٌ عظيم من الأكراد . قال : وهى حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال في "مسالك الأبصار" : وهم طائفة كثيرة العدد ومنهم فِرَقٌ مفرقة فى البلاد ، وفيهم مُلُوك وإمارة ، ولهم خِفَّةٌ فى الحركات يقف الرجل منهم إلى جانب البناء المرتفع ويلصق بطنه باحدى زواياه القائمة ثم يصعد فيه إلى أن يرتقى صَوْتُهُ العُلَى .

ومما يحكى أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حضره رجل منهم وصعد فى جدار كذلك ، فأنعم عليه الإنعام الجزيل وأمره أن يُحْضَرَ كل من قدر عليه من أصحابه فأحضر منهم جماعة ، وهو يُحْسِن إليهم إلى أن لم يبقَ منهم أحدٌ قتلهم عن آخرهم خشيةً مما لهم من قوة التسور ؛ ومن هؤلاء طوائف بمصر والشام يعرفون بالنورة ، يجالس أحدهم الرجل فيسرق ماله وهو لا يدري ، ويمشون على الجبال المرتفعة ولنسائهم فى ركوب الخيل القروسية العظيمة .

الإقليم الرابع

(فارس)

بقاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة مكسورة وسين مهملة فى الآخر . قال فى "تقويم البلدان" : ويحيط ببلاد فارس من جهة الغرب حدودُ خُورُسْتَانَ ، وتنام الحد الغربى إلى جهة الشمال حدودُ أَصْفَهَانَ والجبال ؛ ويحيط بها من جهة الجنوب بحر فارس ، ومن جهة الشرق حدودُ كَرْمَانَ ، ومن جهة الشمال المفازة التى بين فارس وخراسان ، وتنام الحد الشمالى حدودُ أَصْفَهَانَ وبلاد الجبال ؛ قال فى "العزى" : وعلى نهاية فارس الشرقية ناحية يَزْدَ ، وعلى نهايتها من الجنوب سِيرَاف والبحر ؛ وحدها

من الشمال الرّى . قال ابن حوقل : وقاعدتها فيما ذكره صاحب حماة فى تاريخه : (شيراز) . قال فى "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفى آخرها زاي معجمة بعد الألف - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض ثمان وعشرون درجة وست وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة إسلامية محدثة، بناها محمد بن القاسم بن أبى عقيل الثقفى^(١)، وهو ابن عم الحجاج بن يوسف . قال : وسميت بشيراز تشبهاً بجوف الأسد لأن عامة الميرة بتلك النواحي تحمل إلى شيراز ولا يحمل منها شئ إلى غيرها . قال المهلبى : وهى مدينة واسعة سرية كثيرة المياه؛ وشربهم من عيون تتخرق البلد وتجرى فى دؤورهم، وليس تكاد تخلو دار بها من بستان حسن ومياه تجرى، وأسواقها عامرة جليلة؛ وإليها ينسب الشيخ أبو إسحاق الشيرازى صاحب "التنبيه" رحمه الله؛ وبها قبر سيديوه النحوى، وبينها وبين أصبهان آثان وسبعون فرسخاً؛ وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) جُور . قال فى "اللباب" : بضم الجيم ثم واو وراء مهملة - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من قواعد فارس . قال ابن حوقل : وعليها سور من طين وخندق؛ ولها أربعة أبواب وفيها المياه جارية - وهى مدينة زهرة كثيرة البساتين جداً ويرتفع منها ماء ورد يعم البلاد، وهى فى ذلك كدمشق . قال "العزى" : ومنها إلى شيراز أربعة وعشرون فرسخاً، وقال فى موضع آخر عشرون فرسخاً .

(١) كذا فى التقويم أيضاً وفى معجم البلدان ابن عقيل .

(ومنها) كَازَرُونُ . قال في "اللباب" : بفتح الكاف وسكون الألف وفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة وواو ساكنة وفي آخرها نون - وهى مدينة من كُورة سابور واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أعظم مدينة فى كُورة سابور . وقال المهلبى : هى مدينة لطيفة صالحة العمارة . قال ابن حوقل : وهى صحيحة التربة والهواء وماؤها من الآبار . قال فى "اللباب" : وخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) فِيرُوزَابَاد . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء وكسرهما وسكون المثناة من تحت وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وزاى معجمة ثم ألف وباء موحدة وألف ^(١) ثانية وذال - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وعشر دقائق . قال فى "المشترك" : وكانت تسمى فى القديم جُور ثم غيرَ اسمها ، وهى بلدة مشهورة على القرب من شيراز ، وهى أصل بلد الشيخ أبى إسحاق الشيرازى المقدم ذكره فى شيراز .

(ومنها) سِيرَاف . قال فى "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفاء فى الآخر - وهى بلدة على البحر واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض ست وعشرون درجة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى أعظم فُرْضة لفارس ، وليس لها زرع ولا ضرع بل هى مدينة حطّ وإقلاع للراكب ؛ وهى مدينة أهلة ، ولهم عناية بالبُنْيَان حتى إن الرجل من التجار ينفق فى عمارة داره ثلاثين ألف

(١) أى معجمة كما فى التقويم والمعجم .

دينار؛ وليس حولها بساتين ولا أشجار؛ وبنائهم بالساج والخشب، يحمل إليهم من بلاد الزنج؛ وهي شديدة الحر.

(ومنها) البَيْضَاء - بفتح الموحدة وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الضاد المعجمة وألف في الآخر. وهي مدينة من عمل إصطخر واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال في "القانون": حيث الطول ثمان وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة. قال ابن حوقل: وهي من أكبر مدُن كورة إصطخر. قال: وسميت البيضاء لأن لها قلعة بيضاء ترى من بُعد، وأسمها بالفارسية نسانك، ويقال إن الحسين الحلاج منها، وإليها ينسب القاضي ناصر الدين البيضاوي صاحب "المنهاج" في أصول الفقه، و"الطوابع" في علم الكلام وغير ذلك. قال المهلب: وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ.

(ومنها) إصطخر. قال في "اللباب": بكسر الألف وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وفي آخرها راء مهملة قبلها خاء معجمة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد حيث الطول تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وأثنتان وثلاثون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي من أقدم مدُن فارس، وبها كان سرير الملك في القديم؛ وبها آثار عظيمة من الأبنية حتى يقال إنها من عمل الجن كما يقال عن تدمر وبعلبك من بلاد الشام. قال في "العزري": وبينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخاً. قال [وينسب إليها] أبو سعيد الإصطخري أحد أصحابنا الشافعية.

(ومنها) بَسَا. قال في "اللباب": بفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف - وهي مدينة من كورة داراً بجرد واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال

(١) الزائد مأخوذ بالمعنى من "معجم البلدان".

في "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ،
والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهي تقارب شيراز في الكبر وأكثر
خشب أبنيتها السَّروُ، ويختص فيها النَّجَجُ (؟) والرَّطْبُ والجوز والأترجُ ، وإليها ينسب
البَّسَّاسيرى الذى خطب لخلفاء مصر في بغداد .

(ومنها) يَزْدُ . قال السمعاني في "الأنساب" : بفتح المشناة التحتية وسكون الزاى
المعجمة وفي آخرها دال مهملة - وهي مدينة من كورة إصطخر . قال في "الأطوال"
حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . خرج منها
جماعة من العلماء وإليها ينسب القُماش اليزدي .

ومنها - (داراً بجرد) . قال في "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون الألفين
بينهما راء ثم باء موحدة وجيم مكسورة وراء مهملة ساكنة وفي آخرها دال مهملة -
وهي مدينة من فارس واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" حيث الطول
ثمان وسبعون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : ومعنى
دارا بجرد عمل دارا ، وهي مدينة لها سور وخندق تتولد المياه فيه ، وفيه حشيش
يلتف على السابج فيه حتى لا يكاد يسلم من الغرق ، وفي وسط المدينة جبل كالثَّبَّة
ليس له اتصال بشيء من الجبال ، وبنواحيها جبال من الملح الأبيض والأسود
والأصفر والأحمر والأخضر ، ينحت منه ويحمل منها إلى البلاد . قال في "المشترك" :
وعملها من أجل كُور فارس . قال في "العزيزى" : وبأعمالها معدن مومياً
ومعدن زئبق .

الإقليم الخامس (كُرمَان)

كما قاله في "مسالك الأبصار" : قال في "المشترك" : بفتح الكاف، ومنهم من يكسرهما . قال : وهو صُقع كبير بين فارس وِسِجِسْتَانَ ومُكْرَانَ من بلاد الهند . ويحيط به من جهة الغرب حدود فارس ؛ ومن جهة الجنوب بحر فارس ؛ ومن جهة الشرق أرض مُكْرَانَ من وراء البَلُوص إلى البحر ؛ ومن الشمال المَفَازة التي هي فيما بين فارس وكُرمَانَ وبين خُرَاسَانَ . قال في "تقويم البلدان" : وأرض كُرمَانَ داخلة في البحر ، وللبحر ساعدان قد آعتنقا أرض كُرمَانَ ، فالبحر على ساحل كُرمَانَ قطعة قوس من دائرة . وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة في "تاريخه" السَّيرجَان . قال في "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها والراء المهملة وفتح الجيم وبعد الألف نون - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول ثلاث وثمانون درجة ، والعَرْضُ اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي أكبر مدينة بكُرمَانَ ، وأبنيتها أقباءٌ لقلعة الخشب بها وداخلها قُبَى الماء . قال في "اللباب" : وهي مما يلي فارس .

وتشتمل كُرمَانَ على عِدَّة مُدُن .

(١) (منها) جِزْفُت . قال في "اللباب" : بكسر الجيم وسكون المثناة تحت وضم (١)
الراء المهملة وسكون الفاء وفي آخرها تاء مثناة من فوق - وموقعها في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثلاث وثمانون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة مجمع للتجار الواصلين من خُرَاسَانَ وِسِجِسْتَانَ ،

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء .

وهي حصينة للغاية . قال المهلبى : وهي من أعظم مدينة بكرمان كثيرة النخل والأترج وبينها وبين السيرجان مرحلتان .

(ومنها) زَرَنْدُ . قال في "المشترك" : بفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وسكون النون وفي آخرها دال مهملة - وموقعها في الإقليم الثالث . قال في "القانون" : حيث الطول ثلاث وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال في "المشترك" : وهي مدينة مشهورة . قال "المهلبى" : وبينها وبين مدينة السيرجان تسعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) بَم . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وتشديد الميم - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "العزى" : وهي من كبار مدن كَرْمَانَ ، وهي مصر من الأمصار . قال ابن حوقل : وهي أكبر من جِرْفَتَ ، وهما ثلاثة جوامع .

(ومنها) هُرْمُزُ . قال في "المشترك" : بضم الهاء وسكون الراء المهملة وضم الميم وفي آخرها زاي معجمة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي فُرْضة كَرْمَانَ . قال في "المشترك" : تدخل إليها المراكب من بحر الهند في خليج . قال صاحب جملة : وهي مدينة كثيرة النخل شديدة الحر . ثم قال : أخبرنى من رآها في زماننا يعنى في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أن هُرْمُزَ العتيقة خربت من غارات التتروا أن أهلها انتقلوا عنها إلى جزيرة في البحر تسمى زَرُونَ - بفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة ثم واو وفي الآخرون - وهي جزيرة قريبة من البرغبي هُرْمُزَ العتيقة ،

ولم يبق بهرمز العتيقة إلا قليل من أطراف الناس ؛ ومنها إلى أول حدود فارس نحو سبع مراحل .

قلت : وفي سنة ثلاث عشرة وثمانمائة كُتِبَ إلى صاحبها عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية في الدولة الناصرية أبي السعادات فرج بن السلطان الشهيد الظاهر برقوق ، وسيأتى الكلام على صورة المكتبة إليه في المكتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الإقليم السادس (سجستان والرَّخَج)

أما سَجِسْتَانُ فقال في ” المشترك “ : بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون السين الثانية ثم مثناة من فوقها وألف ونون . قال : وسَجِسْتَانُ إقليم عظيم بين نُرَّاسَانَ وبين مَكْرَانَ والسند وبين كَرْمَانَ . قال ابن حوقل : ويحيط بسَجِسْتَانَ من جهة الغرب نُرَّاسَانُ ، ومن جهة الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكَرْمَانَ ، ومن جهة الشرق مَفَازَةٌ بين سجستان وبين مَكْرَانَ ، وهي المفازة الواصلة بين مَكْرَانَ والهند ^(١) ، وتنام الحدَّ الشرقي في شيء من عمل المُلتان من الهند ، ومن جهة الشَّمال أرض الهند ، وفيما يلي خراسان والغور والهند تقويس . وقال في ” العزيزي “ : سجستان شرقي كَرْمَانَ إلى الشمال . قال ابن حوقل : وأراضى سَجِسْتَانَ بها الرمال والتخيل ، وهي أرض سهَّلة لا يُرى فيها جبل ، وتشتدُّ بها الريح وتدوم ، وبها أُرْجِيَةٌ تطحن بالريح ، والرياح تنقل رمالهم من مكان إلى مكان ، وإذا أرادوا نقل الرمل عن مكانٍ ، عملوا هناك حائطا من خشب أو غيره وجعلوا في أسفله طوقا وأبوابا

(١) في ” تقويم البلدان “ والسند وهو الضواب بدليل ماسيأتى .

فتدخل فيها الريح من تلك الأبواب وتطير الرمل وترميه بعيداً، وسجستان خصبة كثيرة الطعام والتمر والأعنان وأهلها ظاهر واليسار . وقال في "اللباب" : والنسبة إلى سجستان سَجَرِيٌّ بكسر السين المهملة وسكون الجيم ثم زاي معجمة على غير قياس . قال : وينسب إليها سَجِسْتَانِيٌّ أيضاً يعني على الأصل .

وقاعدتها (زَرْجُجٌ) . قال في "اللباب" : بفتح الزاي المعجمة والراء المهملة وسكون النون وجيم في الآخر - وهي مدينة كبيرة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وثمانون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وقد يطلق على زَرْجُجٍ نفسها سَجِسْتَانُ . قال في "المشترك" : بل أنسب اسم زرنج وأطلق اسم الإقليم وهو سجستان على المدينة . وجعل في "اللباب" : زَرْجُجٍ ناحية بسجستان . قال ابن حوقل : ولها سُورٌ وَخَنْدَقٌ يَنْبُعُ فيه الماء، وأبنيتها عقود لأن الخشب فيها يسوس ولا يثبُت . وفيها مياه تجري في البيوت والأزقة وأرضها سبخة . قال في "اللباب" : وخرج منها جماعة من العلماء منهم محمد بن كَرَّام الزَّرْجِيّ صاحب المذهب المشهور . ولها مَدَنٌ .

(منها) حِصْنُ الطاق - وضبطه معروف . قال ابن سعيد : وهو حصن واقع في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول ثمان وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة، على جبل عند آلتواء النهر في غاية المنعة لا يرام يحصار . قال وبه يعتصم ملوك هذه البلاد ويجعلون فيه خزائنهم . أما الطاق المضاف إليها فمدينة صغيرة لها رُستاق، وبها أعنان كثيرة يتسع بها أهل سَجِسْتَان .

(ومنها) سَرَوَانُ . قال في "تقويم البلدان" : قال بعض الثَّقَاتِ - بفتح السين وسكون الراء المهملتين وفتح الواو ثم ألف ونون - وهي مدينة من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة صغيرة بها فواكه كثيرة ونخيل وأعناب .

(ومنها) بُسْتُ . قال في "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفي آخرها تاء مشناة من فوقها - وهي مدينة على شط نهر الهندَمَنْدُ . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة وثمان وثلاثون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة خصبّة كثيرة النخل والأعناب . وقال في "اللباب" : هي مدينة حسنة كثيرة المياه والخضرة . وقال في "العريزي" : مدينة جليّة بها عدّة منابر وريّابات كثيرة عظيمة . وذكر في "اللباب" : أنها من بلاد كابل بين هراة وغزنة . قال ابن حوقل : وبينها وبين غزنة نحو أربع عشرة مرحلة .

وأما (الرُّخَج) فقال في "اللباب" : بضم الراء المهملة وفتح الخاء المعجمة المشدّدة وفي آخرها جيم . قال ابن حوقل : وهو إقليم عظيم متصل بسجستان فيه عدّة مدُن وهي على غاية الخصب والسعة . قال : ومن مدنها بنجوان (٩) ولم يزد على ذلك .

الجانب الثاني

(من مملكة إيران الشماليّ)

ويشتمل على عدّة أقاليم من الأقاليم العرفية .

الإقليم الأول (إرمينية)

قال ياقوت : بكسر الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون الياء آخر الحروف وكسر النون ثم ياء ثانية مخففة وقد تشدد - وضبطها في "الباب" : بفتح الهمزة . قال في "تقويم البلدان" : وقد جمع أرباب المسالك والممالك إرمينية وأزان وأذر بيجان لعُسر أفراد إحداها عن الأخرى . قال : ويحيط بها على سبيل الإجمال من الغرب حدود بلاد الروم وشيء من حدود الجزيرة ؛ ومن جهة الجنوب بعض حدود الجزيرة وحدود العراق ؛ ومن جهة الشرق بلاد الحيل والدليم ، إلى بحر الخزر ؛ ومن جهة الشمال بلاد القتيق ؛ ثم أفرد أذر بيجان بحدود تخصها فقال : يحدها من جهة الشرق بلاد الحيل وتام الحد الشرق بلاد الدليم ، ويحدها من جهة الجنوب العراق عند ظهر حلوان وشيء من حدود الجزيرة . وذكر في "مسالك الأبصار" نحوه إلا أنه ذكر أن حدها الغربي إلى بلاد الأرمن . قال ابن حوقل : والغالب على إرمينية الجبال .

وقاعدتها (الدَّيْل) فيما ذكره ابن حوقل والمهلبى . قال في "المشترك" : وهى بفتح الدال المهملة وكسر الباء الموحدة ثم مشنة من تحتها ساكنة وفى آخرها لام - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول اثنتان وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة والنصارى فيها كثيرة ، وبها جامع للمسلمين إلى جانب كنيسة النصارى . قال فى "العزى" : وهى من أجَلّ البلاد وأنفسها وهى مستقر سلطانها . وبها عدة مدن .

(منها) أَرَزْنَجَانُ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الجيم ثم ألف ونون، ويقال بالكاف أيضا عوضا عن الجيم - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى بين سيواس وبين أَرَزْنِ الروم، وبينها وبين كل واحدة منهما أربعون فرسخا ، وما بينها وبين أَرَزْنِ كله مروج ومرعى ، وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) أَرَزْنُ . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاى المعجمة ثم نون في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهى من أطراف إرمينية - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهى غير أَرَزْنِ الروم، وهى عن خلاط على ثلاثة أيام . قال : وهى في "اللباب" فجعلها من ديار بكر من الجزيرة ، والصحيح ما تقدم . وصاحبها يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ماسياتى ذكره في الكلام على المكاتبات فى المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(ومنها) بِدْلِسُ . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الباء الموحدة ثم دال مهملة ساكنة ولام وياء مثناة من تحت ساكنة وسين مهملة . قال : وعن بعضهم أنها بفتح الباء الموحدة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة

(١) الذى فى "تقويم البلدان" أنها من آخر الرابع .

ونخمس وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهل تلك البلاد أنها بين مياً فارقين وبين خلّاط . قال : وهي مدينة مسورة ، وقد خرب نصف سورها ، والمياه تخرق المدينة من عيون في ظاهرها ، ولها بساتين في وادٍ وهي بين جبال تحفُّ بها . قال وهي دون حماة في القدر . وقال ابن حوقل : بلد صغير عامر خصب كثير الخير ، وهي شديدة البرد كثيرة الثلوج ، وصاحبها يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتى ذكره في الكلام على المكتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

(ومنها) أخلاط . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح اللام ثم ألف وطاء مهملة ، ويقال فيها خلّاط بفتح الخاء من غير همز - وموقعها في الإقليم الخامس . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وستون درجة ونخسون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : عن بعض أهلها إنها في مستو من الأرض ، ولها بساتين كثيرة ، وبها عتة أنهار على شبه أنهار دِمَشَق ، وليس يدخل المدينة منها إلا الشيء اليسير ، ولها سور خراب ، وهي قدر دِمَشَق ، والجبال عنها على أكثر من مسيرة يوم ، وبردها شديد . قال ابن سعيد : وهي أجل مدينة بإرمينية ، وذكرها حليل الشهرة . وقال ابن حوقل : وهي بلدة صغيرة عامرة كثيرة الخير . قال في "الغريزي" : وبينها وبين بَدْلِس سبعة فراسخ .

(ومنها) خرت برت - بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وتاء مشناة فوق ثم باء موحدة مكسورة بعدها راء مهملة ساكنة وتاء مشناة فوق في الآخر ، وتعرف

بِحَصْن زِيَاد . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة بإرمينية على القرب من
خِلَاط ، وحاكمها يكتّاب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الإقليم الثاني (أذربيجان)

قال ابن الجوالقي في "المعرب من العجمة إلى العربية" بقصر الألف وإسكان
الذال المعجمة . قال ابن حوقل : الغالب عليها الجبال أيضا . قال في "مسالك
الأبصار" : وهي أجل الأقاليم الثلاثة ، وهي كانت قَرَارَ ملوك بني جنكروخان .
وبها ثلاث قواعد .

القاعدة الأولى (أردبيل)

قال في "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهملتين وكسر الباء
الموحدة وسكون الباء المثناة من تحت ولام في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من
الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمسون
دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال في "اللباب" : لعله بناها أردبيل بن
أردميني بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال في "العزى" : وهي في الجهة
الشمالية من أذربيجان . قال : وهي مدينة كثيرة الحُصْب ، وعلى فرسخين منها جبل
عظيم الارتفاع لا يفارقه الثلج . قال المهلب : وأهلها غليظو الطبع شرسو الأخلاق .
قال : وبينها وبين تبريز خمسة وعشرون فرسخا . قال في "مسالك الأبصار" :
وأعمالها تكون ثلاثين فرسخا . قال : وبها كانت دار الإمارة في صدر الإسلام .

(١) كذا في التقويم أيضا وضبطه باقوت بفتح الدال وهو المشهور .

القاعدة الثانية

(تَبْرِيزُ)

قال في "اللباب": بكسر المثناة من فوق وسكون الباء الموحدة وكسر الراء المهملة ثم مشاة من تحت وفي آخرها زاي معجمة ، والجاري على السنة العامة توريز بالواو بدل الموحدة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي قاعدة أذربيجان في عصرنا . قال في "اللباب" : وهي أشهر بلدة بأذربيجان ، وبها كان كرسي بيت هولاكو من التتر ، ثم انتقل بعد ذلك إلى السلطانية الآتية ذكرها . ومبانيها بالقاشاني والحص والكس ، وبها مدارس حسنة ولها غوطة رائقة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة أعرفت في السعادة أنسابها ، وثبتت في النعمة قواعدها . قال : وهي مدينة غير كبيرة المقدار ، والماء منساق إليها ، وبها أنواع الفواكه لكن ليست بغاية الكثرة ، وأهلها من أكبر الناس حشمة ، وأكثرهم تظاهرا بنعمه ، ولهم الأموال المديدة ، والنعم الوفرة ، والنفوس الأبية ، ولهم التجميل في زيهم : من المأكول والمشروب ، والملبوس والمركوب ، وما منهم إلا من يأنف أن يذكر الدرهم في معاملته ، بل لا معاملة بينهم إلا بالدينار . وسيأتى ذكر مقدار دينارهم في الكلام على معاملة هذه المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى - وهي اليوم أم إيران جميعا لتوجه المقاصد من كل جهة إليها ، وبها محط رحال التجار والسفار ، وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحين لسلطانها لقربها من أرجان محل مشتاهم . قال : ويشتد البرد بتوريز كثيرا ، وتتوالى الثلوج بها حتى إن سروات أهلها يحدون في أدريهم ، ليس فيها فرجة ولا يدخلها ضوء إلا ما يروونه من طاقات حيطانها من وراء الزجاج المركب عليها .

القاعدة الثالثة

(السلطانية)

نسبة إلى السلطان ، وأسمها قُنُغْرُلَان . قال في ”تقويم البلدان“ : بضم القاف وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الراء المهملة ولام ألف ونون - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في ”تقويم البلدان“ : والقياس أنها حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال : وهي عن توريز في سمت المشرق بميلة يسيرة إلى الجنوب على مسيرة ثمانية أيام منها - وهي مدينة مُحَدَّثَةٌ ، بناها خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، على القرب من جبال كِلَان ، على مسيرة يوم منها ، وجعلها كرسى مملكته ، وهي في مستو من الأرض ، ومياها قُنْيٌ ، قليلة البساتين والفواكه ، وإنما تجلب إليها الفواكه من البلاد المُصَاقِبَةِ لها . قال في ”مسالك الأبصار“ : وهي مدينة قد رُفِعَ بناؤها ، وأتسع فِئَاؤها ، وأُتْقِنَتْ قسمتها في الخطط والأسواق ، وجَلَبَ إليها الناس من أقطار مملكته ، وأستجلبهم إليها بما بسط لسكانها من العدل والإحسان . قال : وهي الآن عامرة أهلة كأنما مر عليها مئوت سنين لكثرة من آستوطنها وتأهل بها وأولد من الولد فيها ، وقد مضت عليها مدة بنوها مبالغ الرجال ، وفيهم من جاز إلى الآكتها^(١١) .

وبها عدة مدُن غير هذه القواعد .

(منها) سَلَمَاسُ . قال في ”اللباب“ : بفتح السين المهملة واللام والميم وفي آخرها سين مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في ”القانون“ حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة ونحو عَشْرُونَ دقيقة . قال المهلبي : وهي على آخر حدود أذربيجان من الغرب ، وهي مصر من الأمصار جليل والمتاجر بها وإليها متصلة .

(١) لعله ”حتى بلغ بنوها“ أو نحو ذلك .

(ومنها) حُوى . قال في "اللباب" : بضم الخاء وفتح الواو وتشديد المشنة من تحت - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول تسع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي آخر مُدُن أذربيجان، وبينها وبين سَلْمَاسَ أحد وعشرون ميلا .

(ومنها) أُرْمِيَّة . قال في "اللباب" : بضم الألف وسكون الراء المهملة والميم في آخرها هاء بعد ياء مشناة من تحتها . قال ابن الجوالقي في "المعرب" : ويجوز في قياس العربية تخفيف الياء منها وتشديدها - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال المهلبى : وهي آخر حدود أذربيجان، وهي مدينة جليلة . قال : ويقال إن زرادشت نبى المجوس منها . قال في "تقويم البلدان" : ^(١) وعن بعض أهلها أنها مدينة وَسْطَى عامرة، وهي في أول الجبال وآخر الوطاة، في الغرب عن سَلْمَاسَ على ستة عشر فرسخا منها، وبينها وبين الموصل قاعدة الجزيرة أربعون فرسخا، والموصل في سمت الغرب عنها، ولأُرْمِيَّة قلعة على جبل تسمى قلعة تلا في غاية الحصانة، كان هولاكو قد جعل أمواله فيها لحصانتها والنسبة إلى أُرْمِيَّة أُرْمَوَى .

(ومنها) مَرَاغَة . قال في "المشترك" : بفتح الميم والراء المهملة وألف وغين معجمة وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال المهلبى : وهي مدينة مُحَدَّثَة كانت قرية، فنزل بها مَرَوَّان بن محمد وكان

(١) الذى في "تقويم البلدان" وهي في آخر الجبال وأول الوطاة التى خلف جبال العجم .

هناك سِرْجِينٌ فَمَرَّغَ النَّاسُ فِيهِ دَوَابَّهُمْ فَبَنَاهَا مَدِينَةً فَسُمِّيَتْ مَرَاغَةَ . قَالَ أَبُو حَوْقَلٍ :
 وَهِيَ مِنْ قَوَاعِدِ أَدْرَبِجَانَ ، وَهِيَ حَصِينَةٌ ، نَزْهَةٌ كَثِيرَةُ الْبَسَاتِينِ وَالرَّسَاتِيقِ .^(١)

(ومنها) مَيَانُجٌ . قَالَ فِي "الْمَشْتَرَكِ" : بَفَتْحِ الْمِيمِ وَالْمِثْنَةِ مِنْ تَحْتِهَا وَسُكُونِ الْأَلْفِ
 وَكُسْرِ النُّونِ وَفِي آخِرِهَا جِيمٌ - وَمَوْقِعُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ . قَالَ
 فِي "الْقَانُونِ" : حَيْثُ الطُّولُ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ دَرَجَةً ، وَالْعَرْضُ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً .
 قَالَ فِي "الْمَشْتَرَكِ" : وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنْ مَرَاغَةَ . وَسَمَّاها
 فِي "الْبَابِ" : مَيَانَهُ بَفَتْحِ الْمِيمِ وَالْمِثْنَةِ مِنْ تَحْتِهَا وَأَلْفٌ وَنُونٌ وَهَاءٌ . وَقَالَ : خَرَجَ
 مِنْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

(ومنها) مَرَنْدٌ . قَالَ فِي "الْبَابِ" : بَفَتْحِ الْمِيمِ وَالرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ النُّونِ وَفِي آخِرِهَا
 دَالٌ مَهْمَلَةٌ - وَمَوْقِعُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ . قَالَ فِي "الْقَانُونِ" : حَيْثُ
 الطُّولُ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ دَرَجَةً ، وَالْعَرْضُ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً . قَالَ فِي "الْبَابِ" :
 وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ تَبْرِيزَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ عَنْهَا بِمِيلَةٍ يَسِيرَةٌ إِلَى الشَّمَالِ . وَقَالَ الْمَهْلِيُّ :
 هِيَ عَنْ تَدْمَرَ عَلَى أَرْبَعَةِ عَشَرَ فَرَسًا . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَذَكَرَ مَنْ رَأَاهَا
 أَنَّهَا بَلَدَةٌ صَغِيرَةٌ ذَاتُ أَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ .

الإقليم الثالث

(أَرَان)

· قَالَ فِي "الْمَشْتَرَكِ" : بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ ثُمَّ أَلْفٌ وَنُونٌ .
 وَلَهَا قَاعَدَتَانِ .

(١) فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" عَنْ أَبِي حَوْقَلٍ "خَصْبَةٌ" .

القاعدة الأولى

(بَرْدَعَةُ)

قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهملتين ثم عين مهملة وهاء في الآخر - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قاعدة مملكة أَرَان . وقال في "اللباب" : هي من أقاصي أذربيجان . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة كثيرة الحُصْب نَزْهَة . قال : وعلى أقل من فرسخ منها موضع [يسمّى الأندراب يكون ^(١) مسيرة يوم في يوم بساتين مشتبكة كلها فواكه . قال المؤيد صاحب حماة : هذا ما كانت عليه في زمان ابن حوقل ، أما في زماننا فأخبرني من رآها أنها خربت ولم يبق منها معمور إلا دون المعرة في القدر ، وهي في مستو من الأرض ، ذات بساتين ومياه ، وهي على القرب من نهر الكرّ .

القاعدة الثانية

(تَقْلَيْسُ)

قال في "اللباب" : بفتح المثناة فوق وسكون الفاء وكسر اللام وسكون المثناة التحتية وفي آخرها سين مهملة - وموقعها في آخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : وهي قَصَبَة كرجستان . وقال في "اللباب" : هي آخر بلدة من أذربيجان . قال ابن حوقل : وهي مدينة مسورة عليها سُورَان ، ولها ثلاثة أبواب ، وبها حمامات مثل حمامات طَبْرِيَّة مَأْوَاهَا يَنْبَعُ سَخْنَا بَغِير نَار ، وهي كثيرة

(١) الزيادة عن "تقويم البلدان" .

الْحِصْبِ . قال ابن سعيد : وكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها مدة طويلة ، وخرج منها جماعة من العلماء ، ثم أسترجمها الكُرْج وهم نصارى ، وهى بأيدى الكُرْج إلى الآن ؛ وملك الكُرْج صاحبها يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سأتى ذكره فى الكلام على المكاتب فى المقالة الرابعة فيما بعد إن شاء الله تعالى . وبها عدة مدن .

(منها) تَسْوَى . قال السمعاني فى " الأنساب " : بفتح النون والشين المعجمة وفى آخرها واو ثم ياء آخر الحروف . وسماها ابن سعيد تَقْجَوَان - بفتح النون وسكون القاف وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وهى من المدن المذكورة فى شرق أَرَان . " قال السمعاني " : وهى بلدة متصلة بإرمينية وأذربيجان . قال ابن سعيد : وهى فى شمالى نهر الكر . قال فى " الأنساب " : وبينها وبين تبريز ستة فراسخ . قال ابن سعيد : وقد نحر بها التتر وقتلوا جميع أهلها .

(ومنها) مُوقَان . قال فى " الباب " : بضم الميم وسكون الواو وفتح القاف وسكون الألف وفى آخرها نون ، والعامة تُبَدِّل القاف غينا معجمة فيقولون مُوْغان . قال فى " الأطوال " حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال السمعاني : وهى بَدَرْبَنْد فيما أظن ، وقال المهلبى : هى من عمل أردبيل . وقال المهلبى : مُوقَانُ فى نهاية بلاد كِلَانَ فى جهة الغرب . قال ابن حوقل : وبينها وبين باب الأبواب يومان . قال فى " تقويم البلدان " : لم يبق لمدينة مُوقَان فى هذا الزمان شهرة بل المشهور أراضى مُوقَان ، وهى أراضٍ كثيرة المياه والأفصاب والمراعى

في ساحل بحر طَبْرِسْتَانَ على القرب من البحر، وهى في سَمْت الشَّمال والغرب، عن تَبْرِيز على نحو عشر مراحل منها، وبها يشقى أَرْدو التتر في غالب السنين .

(ومنها) شَمْكَورُ . قال في ”اللباب“ : بفتح الشين المعجمة وسكون الميم وضم الكاف وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في ”الأطوال“ حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمسون دقيقة . قال في ”اللباب“ : وهو حصن من أعمال أَرَّان . قال في ”تقويم البلدان“ : وشَمْكَورُ بَقْرُب بَرْدَعَة، وبها منارة في غاية الارتفاع والشُّمُوق .

(ومنها) أَيْلَقَان . قال في ”اللباب“ : بفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت وفتح اللام والقاف ثم ألف ونون . قال في ”القانون“ حيث الطول أربع وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى عند شَرَوَان . قال : ولعلها بناها بَيْلَقَان بن أرميني بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال في ”اللباب“ : وهى مدينة من دَرَبَنْدِ خَرَّان . قال في ”المشترك“ : وهى من مشاهير البلدان . قال ابن حوقل : وهى كثيرة الخير .

(ومنها) كَنْجَة . قال في ”تقويم البلدان“ : بفتح الكاف وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء ساكنة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وعشر دقائق . قال في ”المشترك“ : وهى من مشاهير بلاد أَرَّان . قال المؤيد صاحب حماة : وأخبرنى مَنْ أقام هناك أنها على مرحلتين من بَرْدَعَة، وبردعة عنها في جهة الغرب بِمَيْلَة يسيرة إلى الشمال، وهى قصبة تلك الناحية، وهى في مستو من الأرض وفيها بسايتين كثيرة، وبها التين الكثير . وقد شهر أن من أكل من ذلك التين حُمَ .

(ومنها) شَرَوَان . قال في ”الاباب“ : بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح الواو ثم ألف ونون في الآخر - وهى واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وستون درجة وست وخمسون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وثلاث وأربعون دقيقة . قال في ”اللباب“ : بناها أَوْ شَرَوَان فأسقطوا أُنو للتخفيف وبق شَرَوَان . قال ابن سعيد : وهى من أَرَان ، وكانت قاعدةً لبلادها ، ثم صارت مملكتها مضافة إلى أَدَرَبِيْجَان . قال : وبَشَرَوَان الدَّرَبَنْد المشهور . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وهو المعروف فى زماننا بِدَرَبَنْد باب الحديد . قال ابن الأثير : وقد نرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) باب الأبواب . قال فى ”تقويم البلدان“ : بإضافة الباب المفرد الذى يَدْخُلُ منه إلى جمعه . قال فى ”القانون“ : ويعرف باب الأبواب بِدَرَبَنْد خَزْرَان . قال فى ”تقويم البلدان“ : ويعرف هذا المكان فى زماننا بباب الحديد بإضافة الذى يغلُق إلى الذى يتطَرَّق . قال ابن حوقل : وهى على بحر طَبْرِسْتَان ، وتكون فى القدر أصغر من أَرْدُبَيْل . قال : ولهم الزرع الكثير وثمار قليلة تحمل إليهم من النواحي . قال : وهى فُرْضَة الخَزَر والسَّرِير وسائر بلاد الكفر ، وهى أيضا فُرْضَة جُرْجَان والدَّيْلَم وطَبْرِسْتَان ، ويحلب إليها الرقيق من سائر الأجناس . قال فى ”تقويم البلدان“ : وهذه الصفات التى ذكرها ابن حوقل على ما كانت فى زمانه ؛ أمّا اليوم فعن بعض المسافرين أن باب الحديد بَلْدَة هى بالقرى أشبه ، على بحر الخَزَر وهى كالحَدَّ بين التتر الشماليين المعروفين ببيت بَرَكَة وبين التتر الجنوبيين المعروفين ببيت هُولَاكُو ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتى ذكره فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الإقليم الرابع (بلاد الجبل)

يفتح الجيم والباء الموحدة ولام في الآخر، وصاحب "مسالك الأبصار" يسميها بلاد الجبال على الجمع، والعاملة تسميها عراق العجم. قال في "تقويم البلدان": ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن جهة الشمال بلاد الديلم وقزوین والرّي عند من يخرجهما عن بلاد الجبل ويضمهما إلى الديلم من حيث إن جبال الديلم تحفّ بهما.

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة في "تاريخه" (أصبهان). قال في "الباب": بكسر الألف وفتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة والهاء وألف ثم نون في الآخر. قال في "تقويم البلدان": وقد تبدل الباء فاء. قال السمعاني: وسمعت من بعضهم أنها تسمى بالعجمية سباهان. قال وسبا العسكر، وهان الجمع. وذلك أن عساكر الأكاسرة كانوا إذا وقع لهم بيكار يجتمعون بها فعبرت فقيس أصفهان - وموقعها في الإقليم الثالث. قال في "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة وخمسون دقيقة. والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. قال ابن حوقل: وهي في نهاية الجبال من جهة الجنوب. قال: وهي مدينتان وإحدهما تعرف باليهودية، وهي من أخصب البلاد وأوسعها خطّة، وبها معدن الكحل الذي لا يسمّى، مصاقبا لفارس، وإلى أصبهان ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير.

قلت: وقد تقدّم في الكلام على أعمال الديار المصرية من أول هذه المقالة عند ذكر الأعمال القليوبية أنه ينسب إلى بلدتنا قلّسندة أيضا وأنه كان له دار بها،

فيحتمل أنه كان أولاً بأصْبَهَانَ، ثم لما رحل عنها إلى مصر نزل قَلْقَشْدَةَ فنسب إليها على عادة من ينتقل من بلد إلى آخر .
ولها عدة مدن .

(منها) إِرْبِل . قال في "المشترك" : بكسر الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة ولام في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهى قاعدة بلاد شَهْرزُور، وموقعها في الإقليم الرابع . قال ابن سعيد حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهى مدينة مُحَدَّثة . قال في "المشترك" : بين الزَّائِيَيْنِ، فيما بين المشرق والجنوب عن المَوْصِلِ، على مسيرة يومين خفيفين . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهلها أنها مدينة كبيرة قد حَرِبَ غالبها، ولها قلعة على تَلٍّ داخل السور مع جانب المدينة فى مستوٍ من الأرض، والجبال منها على أكثر من مسيرة يوم، ولها قُفًى تدخل منها اثنتان إلى المدينة للجامع ودار السلطان؛ وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) شَهْرزُور . قال فى "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وضم الراء المهملة والزاي المعجمة وسكون الواو فى الآخراء مهملة - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى بلدة بين المَوْصِلِ وبين هَمْدَانَ بناها زُور بن الضَّحَّاك (١) ف قيل شهرزور، يعنى مدينة شهر . قال ابن حوقل : وهى مدينة صغيرة . قال فى "العزيزى" : وهى خِصْبَةٌ كثيرة المتاجر فى عُرْلَةٍ إلا أن فى أهلها غِلْظَةً وجفاء . قال : وبينها وبين المَرَاغَةَ ست مراحل .

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء وهو المشهور . (٢) فى تقويم البلدان "مدينة زور" وهو الصواب .

(ومنها) الدِّيْنُورُ . قال في "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح النون والواو ثم راء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي غربيّ هَمْدَان بِمِيلةٍ إلى الشَّمال ، وهي مدينة كثيرة المياه والمنازله كثيرة الثمار خُصْبَة . قال في "العريزي" : وبينها وبين المَوْصِل أربعون فرسخا ، وبينها وبين مراغة كذلك .

(ومنها) مَاسَبَدَان - بفتح الميم وبعد الألف سين مهملة وباء موحدة وذال معجمة بفتح الجميع وبعد الألف نون . وهي مدينة من سِيَرَوَانَ - بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الراء المهملة وواو وألف ونون . كورة من كُورِ عِراق العجم . قال أحمد بن يعقوب الكاتب : وهي مدينة قديمة بين جبال وشِعَاب . قال : وهي في ذلك تشبه مكة شرفها الله تعالى وعَظَمَها ، وفيها عيون ماء تجري في وسطها . قال ابن خَلِّكَانَ : وكان المهديّ العباسيّ يسكنها وبها مات ودفن .

(ومنها) قصر شِيرِينَ - بإضافة قصر إلى شِيرِينَ - بكسر الشين المعجمة ثم ياء آخر الحروف وراء مهملة ثم ياء ثانية بعدها ونون في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "المشترك" : وهو قصر شِيرِينَ حَظِيَّة كسرى أبرويز . وقال الإدريسيّ : شِيرِينَ امرأة كسرى . قال : وبهذا الموضع آثارُ لملوك الفُرس عجيبة ، ومنه إلى شَهْرزُور عشرون فرسخا ، ومنه إلى حُلُوان من بلاد العراق خمسة فراسخ .

(ومنها) الصَّيْمَرَةُ . قال في "المشترك" : بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الميم والراء المهملة وهاء في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون" :

حيث الطول إحدى وسبعون درجة وخمسون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة. قال ابن حوقل: وهي مدينة صغيرة نزهة ذات زروع وأشجار، والمياه تجري في دورها ومحالها. قال أحمد بن يعقوب: وهي في مَرِجْ أَفْجَحَ، فيه عيون وأنهار.

(ومنها) قَرْمِيسِيْنُ. قال في "اللباب": بكسر القاف وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون المثناة من تحتها وكسر السين المهملة ومثناة تحتية ثانية ونون في الآخر. قال في "تقويم البلدان": ووجدناها في كثير من الكتب بإبدال الياء الأولى ألفا. قال في "اللباب": وهي مدينة يجبال العراق - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. قال في "اللباب": ويقال لها كَرْمَانِشَاه. قال في "العزيزي": وهي من أجل مدُن الجبل وأعظمها خطرا، وهي عامرة غاصّة بالناس. قال: وينبت بها الزعفران.

(ومنها) سَهْرَوَرْدُ. قال في "اللباب": بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الواو وسكون الراء الثمانية وفي آخرها دال مهملة. قال في "تقويم البلدان": كذا ضبطها ولم يذكر الراء الأولى - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة. قال ابن حوقل: وهي مدينة صغيرة، والغالب عليها الأكراد.

(ومنها) زَنْجَانُ. قال في "اللباب": بفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الجيم وألف ونون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. قال ابن حوقل: وهي أقصى مدُن الجبال

في الشمال . قال في " الباب " : وهى على حدٍّ أذربيجان من بلاد الجبل ، ينسب إليها جماعة من أهل العلم .

(ومنها) نُهاوَنَدُ . قال في " الباب " : بضم النون وفتح الهاء وسكون الألف (١) وفتح الواو وسكون النون وبعدها دال مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة على جبل ، ولها أنهار وبساتين ، وهى كثيرة الفواكه ، وفواكهها تحمل إلى العراق لجودتها . قال في " الباب " : ويقال إنها من بناء نوح عليه السلام ، وإنه كان اسمها نوح أو نند ، فأبدوا الحاء هاء .

(ومنها) هَمَدَانُ . قال في " الأنساب " : بفتح الهاء والميم والذال المعجمة وبعد الألف نون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى وسط بلاد الجبال ، ومنها إلى حُلَوَانَ : أول بلاد العراق سبعة وستون فرسخا . قال : وهى مدينة كبيرة ، ولها أربعة أبواب ، ولها مياه وبساتين وزروع كثيرة . قال في " الأنساب " : وهى على طريق الحاج والقوافل .

(ومنها) أَهْرَ . قال في " المشترك " : بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وفتح الهاء ثم راء مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في " المشترك " : وهى مدينة بين قزوین وزَنْجَان . قال ابن خردادبه : ومنها إلى زَنْجَان خمسة عشر فرسخا .

(١) قال ياقوت : " بفتح النون الأولى وتكسر " .

(ومنها) سَاوَة . قال في "اللباب" : بفتح السين المهملة وبعدها ألف ثم واو وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وسبعون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال "المهلبّي" : وهى مدينة جليلة على جادة حُجَّاج خُرَّاسَانَ ؛ وبها الأسواق الحسنة، وبها المنازل الحسنة .

(ومنها) قَزْوِينُ . قال في "اللباب" : بفتح القاف وسكون الزاى المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت وفى آخرها نون - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون" و "رسم المعمور" : حيث الطول خمس وسبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى مدينة لها حصن ومائها من السماء والآبار، ولها قنّاة صغيرة للشرب فقط . وهى مدينة حصينة، وبها أشجار وكروم كلّها عذوّ لا تسقى، وليس بها ماء جار سوى ما يشرب ويجرى إلى المسجد . قال ابن حوقل : وماء قناتها وبيء .

(ومنها) آبَة . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الألف ثم باء موحدة وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع . قال : والعامة تسميها آوَة . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال المهلبّي : وهى مدينة فى الشرق بآخفاف إلى الشمال عن هَمْدَان ، وبينهما سبعة وعشرون فرسخا . قال في "المشترك" : وبينها وبين ساوَة خمسة أميال .

(ومنها) قُمْ . قال في "اللباب" : بضم القاف وتشديد الميم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" : حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وكان بناؤها فى سنة ثلاث وثمانين للهجرة، بناها عبد الله بن سعد

والأحوص وإسحاق ونعيم وعبد الرحمن بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعريّ من أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عند أنهرامهم من الحجّاج، وكان مكانها سبع قرى فأهلكوا أهلها وبنوها مدينة، كل قرية محلة من محلات المدينة. قال ابن حوقل: وهي مدينة غير مسورة حصينة البناء، وماؤها من الآبار، وبها البساتين على السواني، وبها شجر الفستق والبندق، وأهلها شيعة. قال المهلبيّ: وهي في مرج تقدّر سَعَتُهُ عشرة فراسخ في مثلها ثم تفضى إلى جبالها، وبها من الفستق ما ليس بغيرها.

(ومنها) الطَّلَقَان. قال في "المشترك": بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون. وقال في "اللباب": بتسكين اللام - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "المشترك": وهو مدينة وكُورة بين توريز وأبهر. قال ابن حوقل: وهي أقرب إلى الدَّيْلَم من قَزْوِينَ. وقد أوردتها في "كُتَاب الأَطْوَال" المنسوب للفرس مع بلاد الدَّيْلَم. قال أحمد الكاتب: وهي بين جبلين عظيمين، وهي تَمَس الطالِقَان بلاد خُرَّاسَان. (١)

(ومنها) قَاشَان. قال في "اللباب": بفتح القاف وسكون الألف وبالشين المعجمة وبعد الألف نون. قال: ويقال بالسين المهملة أيضا - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال": حيث الطول ست وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة. قال المهلبيّ: وهي مدينة لطيفة. قال ابن حوقل: هي أصغر من قُم وغالب بنائها بالطين، وهي خِصْبَةٌ، وقد خرج منها جماعة من العلماء. قال في "اللباب": وأهلها شِيعَةٌ.

(١) في تقويم البلدان، بين قزوين وأبهر.

(٢) لذا في الأصل بالاهمال، ولعله وهي غير الطالقان ببلاد الخ.

(ومنها) الرّى . قال فى "اللباب" : بفتح الراء وتشديد الياء آخر الحروف . قال فى "القانون" حيث الطول ثمانٌ وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة ، قدر عمارتها فرسخ ونصف فى مثله ، وفيها نهران يجريان ، وبها قُنيّ تجرى غير ذلك . وعدّها فى "اللباب" من الدّيلم ، ويخرج منها قُطنٌ كثير للعراق ، وبها قبر محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة ، والكسائى أحد القراء السبعة ، والنسبة إليها رازى على غير قياس ، وإليها ينسب الإمام نخر الدين الرازى الإمام المشهور .

(ومنها) الكرج . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف والراء المهملة وفى آخرها جيم - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى مدينة متفرقة البناء ليس لها اجتماع المَدُن ؛ وتعرف بكرج أبى دُلَف . قال فى "المشترك" : لأن أول من مَصَرَّها أبودُلَف القاسم بن عيسى العجليّ وقصده الشعراء . قال ابن حوقل : ولها زروع ومواشٍ ، ولكن ليس لها بساتين ولا متنزّهات ، والفواكه تجلب إليها .

(ومنها) خوار . قال فى "المشترك" : بضم الخاء المعجمة وتخفيف الواو وسكون الألف وراء مهملة فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثمانٌ وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة من نواحى الرّى تخترقها القوافل . قال فى "القانون" : وقامًا يذكر إلا منسوباً إلى الرّى فيقال خوار الرّى .

(ومنها) جبال الأكراد . قال في "مسالك الأبصار" : والمراد بهذه الجبال الجبال الحاضرة بين ديار العرب وديار العجم ، دون أما كن من توغل من الأكراد في بلاد العجم . قال : وأبتداؤها جبال همذان وشهرزور ، وأتتهاؤها صياصي الكفرة من بلاد التكفور ، وهي مملكة سيس وما هو مضاف إليها مما بأيدي بيت لاون ، ثم ذكر منها عشرين مكانا في كل مكان منها طائفة من الأكراد .

الأول - (دياوشة) . من جبال همذان وشهرزور ، وهو مقام طائفة من الأكراد ولهم أمير يخصهم .

الثاني - (درانتك) . وهو مقام طائفة ثانية من الكورانية أيضا ، ولهم أمير يخصهم . قال في "مسالك الأبصار" : والطائفتان جميعا لا تزيد عدتهن على خمسة آلاف رجل .

الثالث - دانترك وناهوند إلى قرب شهرزور . وهي مقام طائفة منهم تعرف بالكلالية ، يعرفون بجماعة سيف ، عدتهن ألف رجل مقاتلة ، ولهم أمير يخصهم ، وهو يحكم على من جاورهم من الأكراد .

الرابع - مكان بجوار ديار الكلالية المقدم ذكرهم بجبال همذان . وهو مقام طائفة من الأكراد يقال لهم زنكلية ، وعدتهن نحو ألفين ذوو شجاعة وحيلة ، ولهم أمير يخصهم ، يحكم على بلاد كيكور وما جاورها من البقاع والكور .

الخامس - نواحي شهرزور . قال في "مسالك الأبصار" : كان يسكنها طوائف من الأكراد طائفتان إحداهما يقال لها اللوسة والأخرى يقال لها الباسرية ، رجال حرب ، وأقبال طعن وضرب ، نزحوا عنها بعد واقعة بغداد ، ووفدوا إلى مصر والشام ، وسكن في أما كنهم قوم يقال لهم الخوسة ليسوا من صميم الأكراد .

السادس - مكان بين شهرزور وبين أشنه من أذربيجان، به طائفة من الأكراد يقال لهم السولية، يبلغ عددهم نحو ألفى رجل، وهم ذوو شجاعة وحمية، وهم طائفتان لكل طائفة منهم أمير يخصهم .

السابع - بلاد بسقاد - وهي مقام طائفة من الأكراد يقال لهم القرياوية . ويدهم من بلاد أذربك أماكن أخر، قال : وعددهم يزيد على أربعة آلاف، ولهم أمير يخصهم .

الثامن - بلاد الكركار - وهي مقام طائفة منهم يقال لها الحسانية، وهم على ثلاثة أبطن : أحدها طائفة عيسى بن شهاب الدين، ولهم خفر قلعة برى والحامى، وثانيها طائفة تعرف بالتلية، وثالثها طائفة تعرف بالحاكية . وجميعهم نحو الألف رجل، ولكل طائفة منهم أمير يخصهم .

التاسع - دربند قراير - وهو مقام الطائفة القرياوية، ولهم خفارة الدربند المذكور، وصاحبه يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وقد ذكر في "التقيف" أن صاحبه كان سيف الدين بن سير الحسانى .

العاشر - بلاد الكرجين ودقوق الناقة - وبه طائفة منهم عدتهم تزيد على سبعمائة ولهم أمير يخصهم .

الحادى عشر - بين الجبلين، من أعمال إربل . قال في "مسالك الأبصار" : وبها قوم كانوا يُدَارُون التتر وملوك الديار المصرية . وفى الشتاء يعاملون التتر بالمجاملة، وفى الصيف يعينون سرايا الشام فى المجاملة . قال : وعددهم كعدد الكلالية، ولهم أمير يخصهم . وذكر أنه كان لهم فى الدولة المنصورية قلاوون أمير يُسمى الخضر ابن سليمان، كاتب شجاع، وأنه وفد إلى الديار المصرية فاخرتمه المنية قبل عودته، وكان معه أربعة أولاد فعادوا بعد موته فى الدولة الزينية كتبغا .

الثاني عشر - مازنجان ، وبيروه ، وسحمة ، والبلاد البرانية - وهي مقام طائفة منهم يقال لها المازنجانية لا تزيد عدتهم على خمسمائة ، وهم طائفة ينتسبون إلى المحمدية ، والمازنجانية هم طائفة المبارز كك الموجود اسمه ورسم المكتبة إليه في دساتير المكتبات القديمة . وقد أضيف إليهم الحميدية ، وهم طائفة من الأكراد لا تنقص عدتهم عن ألف مقاتل ، لأن أميرهم مبارز الدين كك ، كان من أمراء الخلافة في الدولة العباسية ، ومن ديوان الخلافة لُقّب بمبارز الدين ، وكك اسمه . قال : وكان يدعى الصلاح وتذره النذور ، فإذا حلت إليه قبلها وأضاف إليها مثلاً من عنده وتصدق بهما معا . وذكر نحوه في "التعريف" . ثم كان له في الدولة الهولاء كويّة المكانة العلية ، وأستنابوه في إربل وأعمالها ، وأقطعوه عقرشوش بكالها وأضافوا إليه هرة وتل حفتون وقدموه على خمسمائة فارس ، وتولى الإمرة وقوانين (؟) نحو عشرين سنة ، وبقي حتى جاوز التسعين وهمته همة الشبان ، ثم مات وخلفه ولده عز الدين ، فكان من أبيه نعم الخلف ، وجرى على نهج أبيه في ترتيب المملكة وعلت رتبته عند ملوك التتروملوك الديار المصرية ، ثم خلفه أخوه نجم الدين خضر بجرى على سميت أبيه وأخيه . ثم قال : وكانت ترد على الأبواب السلطانية بمصر وتواب الشام كتب تهلل بماء الفصاحة كالشج ، وتسرح من أجنابها الأبرار العرب . ثم خلفه ولده بجرى على سنه وبقيت الإمارة في بنيه . والأمير القائم منهم هو المعبر عنه في الدساتير بصاحب عقرشوش ، وله مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالث عشر - بلاد شعلاباد إلى خفتيان ، وما بين ذلك من الدشت والدربند الكبير - وهو مقام طائفة منهم تعرف بالشهرية معروفون باللصوصية ، وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفاً وجبالهم عاصية ، ودربندهم بين جبلين شاهقين يسقيهما الزاب

الكبير . قال في "مسالك الأبصار" : وعليه ثلاث قناطر : اثنتان منها بالجمر والطين ، والوسطى مضفورة من الخشب كالخصير ، علوها عن وجه الماء مائة ذراع في الهواء ، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعا في عرض ذراعين ، تمر عليها الدواب بأحمالها ، والخليل برجلها . وهي ترتفع وتنخفض ، يخاطر المجتاز عليها بنفسه ، وهم يأخذون الخفارة عندها ، وهم أهل غدر وخديعة لا يستطيع المسافر مدافعتهم ، ولهم أمير يخصهم ، ولصاحبها مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الرابع عشر - ما ذكره والريستاق ، ومرت ، وجبل جنجرين المشرق على أشنه من ذات اليمين - وهو مقام طائفة منهم يقال لهم الزرزارية ، ويقال إنهم ممن تكرّد من العجم ، ولهم عدد جم ، يكاد يبلغ خمسة آلاف مائتين أسراء وأغنياء وفقراء وأكّارين وغيرهم ، وجبلهم في غاية العلو والشهوق في الهواء ، شديد البرد ، بأعلاه ثلاثة أحجار طول كل حجر منها عشرة أشبار في عرض دون الثلاثة ، متخذة من الحجر الأخضر المائع ، وعلى كل منها كتابة قد أضحت لطول السنين ، يقال إنها نصبت لمعنى الإنذار والإخبار عن أهل كه التليج والبرد هناك في الصيف ، وهم يأخذون الخفارة تحته . قال في "مسالك الأبصار" : وكان لهم أمير جامع لكلمتهم اسمه نجم الدين باشاك ، ثم تولاهم من بعده أبنة جيدة ، ثم أبنة عبد الله . قال : وكان لهم أسراء آخرون منهم الحسام شير الصغير ، وأبنة باشاك وغيرهم . قال : وينضم إلى الزرزارية شردمة قليلة تسمى باسم قريتها بالكان نحو ثلثمائة رجل منفردين بمكان مشرف على عقبة الحان يأخذون عليها الخفارة ، ولصاحبها ما ذكره مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . ثم قال في "التثقيف" : وهو حنش بن إسماعيل .

الخامس عشر - جولرك - وهو مقام طائفة تسمى الجولركية ، وهم قوم نسبوا إلى مكانهم ذلك فعرفوا به ، ويقال : إنهم طائفة من العرب من بني أمية اعتصموا

بهذه الجبال عند غلبة بنى العباس عليهم ، وأقاموا بها بين الأكراد فأخترطوا في سلكهم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم الآن في عدد كثير، يزيدون على ثلاثة آلاف، كان ملكهم في أوائل دولة التتر أسد بن مكلان، ثم خلفه آبنه عماد الدين، ثم آبنه أسد الدين . وبيلاده معدن الزرنيخين : الأحمر والأصفر، ومنها ينقل إلى سائر الأقطار. قال : وكان قد ظهر عنده معدن لا زورد فأخفاه لئلا يسمع به ملوك التتر فيطلبونه، ومعه من أمتع المعاقل، على جبل مقطوع بذاته، والزاب الكبير مُحْدِق به، لا يحط للجيش عليه، ولا وصول للسهم إليه، وسطحه متسع للزراعة، وفي كل ضلع من أضلاعه كهف مرتفع يأوى إليه من أراد الامتناع، وأعلاه مغمور بالثلج، والصعود إليه في بعض الطريق يستدعى العبور على أوتاد مضروبة . ومن لا يستطيع التساق جرباً بالجبال، وكذلك بغال الطواحين . وملكهم معتمد عند الأكراد، وهو يأخذ الحفارة من جميع الطرقات من تبريز إلى خوى ونقجوان، وهذا هو المعبر عنه في "التعريف" وغيره من الدساتير في المكتابات بصاحب جولرك؛ وهو يكتب من الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

السادس عشر - بلاد مراكوان . على القرب من الجولركية، كثيرة الثلوج والأمطار، بلاد زرع وضرع - وهي متاخمة لأرمية من بلاد أذربيجان، وبها طائفة من الأكراد تبلغ عدتهم ثلاثة آلاف، وهم أحلاف للجولركية .

السابع عشر - بلاد كوردات - وهي بلاد مجاورة لبلاد الجولركية من جهة بلاد الروم، وهي بلاد خصبة، وبها طائفة من الأكراد ينتسبون إليها لا إلى قبيلة، وعدتهم نحو ثلاثة آلاف، ولهم أمير يخصهم .

الثامن عشر - بلاد الدينار - وهي بلاد تلي بلاد الجولركية، وبها طائفة من الأكراد يقال لهم الدينارية نسبة إلى بلدتهم، وعددهم نحو خمسمائة، ولهم سوق وبلد،

وكان لهم أميران ، أحدهما الأمير إبراهيم بن الأمير محمد ، كان له وجه عند الخلفاء ، والثاني الشهاب بن بدر الدين ، توفي أبوه وخلفه كبيرا خلفه في إمرته ، وكان بينهم وبين المازنجانية حروب .

التاسع عشر - بلاد العِمَادِيَّة وقلعة هارون . وهي بالقرب من بلاد الجولمركية ، وبها طائفة منهم يقال لهم الهَكَارِيَّة يزيد عددهم على أربعة آلاف مقاتل ، ولهم إمارة تخصهم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم يأخذون الخِفَارَةَ في أماكن كثيرة من بخارا إلى بلد الجزيرة . وصاحب هارون يكتأب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

العشرون - القمرانية وكهف داود - وبها طائفة منهم يقال لهم التنبكية . قال في "مسالك الأبصار" : وقليل ما هم لكنهم حماة رماة وطعامهم مبدول على خصاصة .

وأعلم أنه بعد أن ذكر في "مسالك الأبصار" ما تقدم ذكره عقب ذلك بذكر جماعة من الأكراد تفرقوا في الأفطار بعد اجتماع ، منهم التحتية ، وهم قوم كانوا يضاهون الحميدية كان لهم أعيان وأمراء وأكابر ، فهلك أمراؤهم ونسيت كبرائهم ، ولم يبق منهم إلا شردمة قليلة تفرقت بين القبائل والشعوب . ثم قال : وشعبهم كثيرة : منهم السندية وهم أكثر شعبهم عددا ، وأوفرهم مددا ، كانوا يبلغون ثلاثين ألف مقاتل . ومنهم المحمدية ، وكان لهم أمير لا يزيد جمعه على ستمائة رجل . ومنهم الراسنية ، كانوا أوفى عدد وعدد ، وجمع ومدد ، ثم تشتت شملهم ، وتفرقت جمعهم ، وعادت عنتهم في بلد الموصل لا تزيد على ألف رجل ، وكان لهم أمير يقال له علاء الدين كورك بن إبراهيم في بلد العقر ، ولا ينقص عن خمسمائة ، ومنهم الدنيكية ، وهم متفرقون في البلاد لا يزيد عددهم على ألف رجل .

قلت : وقد ذكر في " التثقيف " عدّة أماكن من بلاد وقلاع يكاتب أصحابها من الأكراد سوى من تقدّم ذكره، وهي خمسة وعشرون موضعا .

أحداها - برجو . الثانية - البلهيشة . الثالثة - كرم ليس . الرابعة - اندشت .
الخامسة - حردقيل . السادسة - سكراك . السابعة - قبلين . الثامنة - جرموك .
التاسعة - شنكوس . العاشرة - بهرمان . الحادية عشرة - حصن أَرَّان وهو
حصن الملك . الثانية عشرة - الثالثة عشرة - سُونج . الرابعة عشرة - اكريسا .
الخامسة عشرة - يزاركد . السادسة عشرة - الزَّاب . السابعة عشرة - الزيثية .
الثامنة عشرة - الدَّرَبَنْدات العرابلية . التاسعة عشرة - قلعة الجليلين .
العشرون - سيدكان . الحادية والعشرون - صاحب زامادان .
الثانية والعشرون - الشَّعبانية . الثالثة والعشرون - نمرية . الرابعة والعشرون -
المحمدية . الخامسة والعشرون - كرليك .

الإقليم الخامس

(بلاد الديلم)

بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم في الآخر . وهم
جِيلٌ من الأعاجم سكَنُوا هذه البلادَ فَعُرِفَتْ بهم ، وبعض الناس يزعم أنهم من
العرب من بنى ضَبَّةً ، ومنهم كان بنو بُوَيَّه القائمون على خُلَفَاءِ بنى العبَّاس ببغداد .
قال ابن حوقل : وهي جبال متسعة إلى الغاية ، وبها غياض ومياه مشتبكة في الوجه
الذي يقابل طَبْرِسْتَانَ والبحر ، وبين ذيل الجبل وبين البحر مسيرة يوم ، وربما
نقص عن ذلك ، وربما زاد حتى بلغ يومين .

وقاعدتها (رُودَبَار) . قال في "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو وفتح الدال المعجمة والباء الموحدة ثم ألف وراء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدى وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وبه مقام ملوكهم .

ومن بلادها (كَلَار) . قال في "تقويم البلدان" : بكاف ولام وألف وفي الآخر راء - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال المهلبى : وهى مدينة الديلم ، وهى فى جهة الشرق والجنوب عن لَاهْجَان من بلاد كِلَان .

الإقليم السادس (الجيل)

قال في "المشترك" : بكسر الجيم وسكون المثناة من تحت ثم لام - وهو اسم لَصْفَعٍ واسع مجاور لبلاد الديلم ، ليس فيه قرى كثيرة ، وليس فيه مدينة عظيمة . وقال في "اللباب" : الجيل اسم لبلاد متفرقة وراء طَبْرِسْتَانَ . قال : ويقال لها أيضا كِلَان وكِل ، فلما عُرِّبَت قيل جِلَان وجِل ، ومنها كُوشِيَار الحكيم الجيلى فيما ذكره ياقوت ، وإليها ينسب الشيخ عبد القادر الكيلانى ، وبالجمله فهما صُغْعَان متلاصقان يعسر تمييز أحدهما عن الآخر . قال في "مسالك الأبصار" عن الشريف محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد الجيلى : إن بلاد كِلَان فى وطة من الأرض ، وإنه يحيط بها أربعة حدود ، من الشرق إقليم مَازَنْدَرَان ، ومن الغرب مُوقَان ، ومن الجنوب عراق العجم ، يفصل بينهما جبل يعرف بأشناده ، ومن الشمال بحر

الْقَلْزِمُ يَعْنِي بَحْرَ طَبْرِسْتَانَ . قَالَ : وَطُولُ مَجْمُوعِ كِلَانٍ مِمَّا بَأْيَدِي مُلُوكِهَا ، وَهُوَ شَرْقُ
بَغْرَبٍ نَحْوَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ، وَعَرْضُهَا وَهُوَ جَنُوبُ بَشْمَالٍ نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تَزِيدُ وَتَقْصُرُ ،
وَهِيَ شَدِيدَةُ الْأَمْطَارِ ، كَثِيرَةُ الْأَنْهَارِ ، كَثِيرَةُ الْفَوَاكِهِ خِلَا النَّخْلِ وَالْمَوْزِ وَقَصَبِ السُّكَّرِ
وَالْمَشْمَشِ ، وَيَجِبُ إِلَيْهَا الْحَمَضَاتُ مِنْ مَازَنْدَرَانَ . قَالَ : وَمُدُنُ كِلَانَ غَيْرُ مَسُورَةٍ ،
وَلِلْمُلُوكِ قُصُورٌ عَلِيَّةٌ ، وَجَمِيعُ مَبَانِيهَا بِالْأَجْرِ مَفْرُوشَةٌ بِهِ أَيْضًا كَمَا فِي بَغْدَادٍ ، مَسْقُفَةٌ
بِالْخَشْبِ ، وَبَعْضُهَا مَعْقُودَةٌ أَقْبَاءً وَعَلَيْهَا قَشٌّ مَضْفُورٌ ، وَفِي غَالِبِ دِيَارِهَا آبَارٌ قَرِيبَةٌ
الْمُسْتَقَى نَحْوَ ذَرَاعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَقَلٍّ ، وَالْأَنْهَارُ حَاكِمَةٌ عَلَى مُدُنِهَا ، وَبِهَا حَمَامَاتٌ
يَجْرِي إِلَيْهَا الْمَاءُ مِنَ الْأَنْهَارِ ، وَبِهَا الْمَسَاجِدُ وَالْمَدَارِسُ وَتُسَمَّى بِهَا الْخَوَانِقُ ، وَغَالِبُ
أَقْوَاتِهِمُ الْأَرْزُ يَعْمَلُ مِنْهُ الْخُبْزُ وَالرَّقَاقُ مَعَ تَيْسَرِ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ عِنْدَهُمْ ، وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ
عِنْدَهُمْ بِكَثْرَةٍ ، وَأَسْعَارُهُمْ مُتَوَسِّطَةٌ إِلَى الرَّخْصِ ، وَبِهَا الْحَرِيرُ الْكَثِيرُ ، وَلَهَا حِصُونٌ
فِي نَوَاحِي مَازَنْدَرَانَ وَجَزَائِرُ فِي بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ ، بِهَا الرِّمَانُ وَالْبَلُوطُ وَالْفَوَاكِهُ ، وَفِيهَا
تَحَصُّنُهُمْ عِنْدَ مَغَالِبَةِ الْعَدُوِّ لَهُمْ ، وَلِبَاسُهُمُ الْأَفْيَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الضَّيْقَةُ الْأَكْمَامُ وَتَخَافِفُ
صَغَارُ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَيَشْدُونَ الْمَنَاطِقَ وَالْبُنُودَ ، وَخِيْلُهُمْ بِرَازِينَ ، وَفِي سُرُوجِهِمُ الْحُلِيُّ
بِالْفِضَّةِ وَغَيْرِهِ ، وَلِلْمُلُوكِ زِيٌّ جَمِيلٌ عَلَى ضَيْقِ بِلَادِهِمْ وَقِلَّةِ مَتَحَصِّلِهَا ، وَيَرْكَبُ
الْمَلِكُ بِالرَّقَبَةِ السَّلْطَانِيَّةِ وَالْمُجَّابِ وَالسَّلَاحِ دَارِيَّةٍ وَالْجَمْدَارِيَّةِ وَالْجَنَائِبِ الْمَجْرُورَةِ ،
وَيَتَّخِذُ بَظَوَاهِرِ قُصُورِ مُلُوكِهِمْ مِيَادِينَ خُضْرَ ، فِي أَوْسَاطِهَا قُصُورٌ صَغَارٌ مِنَ الْخَشْبِ
فِيهَا جُلُوسُهُمْ لِلْخِدْمِ وَالْمِظَالِمِ . وَلَا يَزَالُ بَيْنَ مُلُوكِهِمُ الْخُلْفَ ، فَإِذَا قَصَدَهُمْ عَدُوٌّ خَارِجِيٌّ
عَنْهُمْ تَأْلَفُوا وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، حَتَّى إِنْ هُوَ لَا كُوْجَهْزُ إِلَيْهِمْ جَيْشًا عِدَّتُهُ سَبْعُونَ أَلْفًا
صَحْبَةً نَائِبَهُ قَطْلُوشَاهُ فَلَمْ يَنْلِ مِنْهُمْ قَصْدًا ، وَكَانَ آخِرَ الْأَمْرِ أَنْ قُتِلَ قَطْلُوشَاهُ وَهَلَكَ
جُلٌّ مِنْ مَعِهِ . وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي ” مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ “ أَنَّ بَهَا ثَمَانِ قَوَاعِدَ بِكُلِّ قَاعِدَةٍ
مِنْهَا مَلِكٌ ، بَعْضُهُمْ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ ، وَمَوْقِعُ جَمِيعِهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ .

فأما الكبار فأربع ^(١)قواعد .

القاعدة الأولى

(بُومِن)

قال في "تقويم البلدان" : بضم الباء الموحدة التي بين الفاء والباء الموحدة وسكون الواو وكسر الميم ثم نون في الآخر . قال : وهي قرية من البحر، وبها فيما يحاذيها معدن حديد، وبها من معمولات القماش . قال في "مسالك الأبصار" : وصاحبها شافعي المذهب دون غيره من ملوك الجليل، مذهب نشأ عليه ملوكها . قال : وعسكره يزيد على ألف فارس، وبلاده قليلة ولكن غالب دخله من التجار، والحرير بها كثير . قال : وصاحبها يدعى النسبة إلى بيت الشرف، وله اعتناء بأهل العلم والفضل، ولباس الملك والجند بها نوع من لباس التتر، ولباس غلمانها قريب من زى التجار، ولهم عذبات كالصوفية قدامهم، وعامة أهلها كغيرهم ممن جاورهم .

القاعدة الثانية

(تُولُم)

قال في "تقويم البلدان" : بضم المثناة الفوقية وواو ولام وميم، وصاحب "مسالك الأبصار" يثبت فيها ياء مثناة تحتيّة بين اللام والميم - وهي قرية من البحر أيضا . قال في "مسالك الأبصار" : وأمر صاحبها قريب من صاحب بُومِن ولكن لا حريّ في بلاده، وهو حنبلي المذهب، وعدة عسكره نحو ألف فارس وهم أفرس إخوانهم، ولهم على ملوك الجليل استظهار لما ظهر من نكايتهم في عسكر التتر . قال : وزيّها كرى بُومِن .

(١) لم يذكر إلا ثلاثا . ولعل الرابعة دولاب .

القاعدة الثالثة

(كسكُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح الكافين وسكون السين المهملة بينهما وراء مهملة في الآخر. وقد ذكر أنها دُولَابُ - بضم الدال المهملة وسكون الواو ولام ألف وباء موحدة في الآخر. قال: وعن السمعاني فتح الدال وأنه أفصح وأنها من حدود الديلم. وذكر في "اللباب" أنها قرية من أعمال الرّي. قال في "مسالك الأبصار": وصاحبها له صَوْلَةٌ في ملوك تُولَم، وجيشه أكثر عددا من غيره من ملوك الجبل، وبلاده أوسع، وأرضه أخصب وأكثر حَبًّا وفاكهةً وأغناما وأبقارا مما حولها، وهي كثيرة السمك والطير. ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلاني قدس الله روحه.

وأما الصغار فأربع أيضا.

القاعدة الأولى

(لَاهَجَانُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح اللام وبعدها ألف وهاء وجيم مفتوحتان ثم ألف بعدها نون، ثم قال: وهي من الديلم أو كيلان. قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة قال في "تقويم البلدان": ومنها يجلب الحرير المشهور إلى البلاد. قال في "مسالك الأبصار": وهي في حال الحرير كما في يومن بخلاف غيرهما من سائر بلاد الجبل.

القاعدة الثانية - (سَخَامُ) .

القاعدة الثالثة - (مَرَسْتُ) .

القاعدة الرابعة - (تَنَفَسُ) .

ولها عدة مدُن غير القواعد .

(١) (منها) كُوتُم . قال في "تقويم البلدان" : بضم الكاف وواو ساكنة ثم تاء مثناة فوقية مضمومة ثم ميم في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : قال من رآها إنها مدينة لها بساتين ، وهى ناقلة عن البحر مسيرة يوم . قال المهلبى : وهى مدينة كبيرة للجبل .

(ومنها) سألوس . قال في "تقويم البلدان" : المشهور بالسين المهملة وألف ولام مضمومة وواو ساكنة ثم سين ثانية - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى على البحر ولها منعة وهى صعبة المسلك . قال المهلبى : وهى آخر حد طبرستان من جهة الغرب .

الإقليم السابع

(طبرستان)

(٢) بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء المهملة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وألف ثم نون . قال في "تقويم البلدان" : وهى فى جهة الشرق عن بلاد الديلم وكيلان . قال : وإنما سميت طبرستان لأن طبر بالفارسية القاس ، وهى من كثرة أشتبك أشجارها لا يسلك فيها الجيش إلا بعد أن تقطع الأشجار بالطبر من بين أيديهم ، وأستان بالفارسية الناحية ، فسميت طبرستان أى ناحية

(١) ضبطها ياقوت بفتح الكاف والتاء .

(٢) ضبطه ياقوت بكسر الراء ، وقد تابعناه فى ضبط ما تقدم .

الطَّابِر . قال في "العزيزي" : وهي في غاية المنعة والحصانة بالجبال المنيرة المحيطة بها من كل جانب، وفي وسط الجبال الأراضى السهلة، وفيها من كثرة المياه والفياض ما لا يساويها فيه بلد آخر، وهي عن قزوین في الشرق بانحراف إلى الشمال . قال ابن حوقل : وهي بلاد كثيرة المياه والأشجار والغالب عليها الفياض، وأبنيتها بالخشب والقصب، وهي بلاد كثيرة الأمطار . ويرتفع منها حريز عم الآفاق، وغالب حُبُزهم الأرُز . قال : وليس بجميع طَبَرَسْتَان نهر تجرى فيه السفن ، إلا أن البحر قريب منهم على أقل من يوم . قال ابن خلكان : والنسبة إليها طَبَرِيّ .

وقاعدتها (أمل) . قال في "المشترك" : بهمزة مفتوحة بعدها ألف ثم ميم مضمومة ولام في الآخر - وهي مدينة من طَبَرَسْتَان واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "القانون" : وهي قَصْبة طَبَرَسْتَان، وهي أكبر من قزوین، مشتبكة بالعمارة لا يعلم على قدرها أعمر منها في تلك النواحي . قال أحمد الكاتب : وهي على بحر الديلم . وقال في "المشترك" : هي أكبر مدينة بطَبَرَسْتَان . ومنها أبو جعفر محمد بن جرير الطَّابِرِيّ الإمام الكبير المشهور . ولها عدة مدن .

(منها) رُويَان . قال في "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو ثم ياء مشاة من تحت وألف ونون - وهي مدينة من طَبَرَسْتَان واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" : حيث الطول ست وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال في "المشترك" : وهي مدينة كبيرة في جبال طَبَرَسْتَان، ولها كورة عظيمة وعمل . قال في "اللباب" : ونخرج منها جماعة كثيرة من العلماء .

(ومنها) مَاطِيرُ . قال في "اللباب" : بفتح الميمين وكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة في الآخر . قال في "اللباب" : وهي بلدة من عمل أَمَل ، خرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) دِهِسْتَانُ . قال في "اللباب" : بكسر الدال المهملة والهاء وسكون السين المهملة وفتح المثناة من فوق ثم ألف ونون . قال ابن حوقل : وهي مدينة من طَبَرَسْتَان ، وقيل هي من خُرَاسَانَ - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول إحدى وثمانون درجة وعشر دقائق ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة مشهورة عند مَازَنْدَرَان ، بناها عبد الله بن طاهر ، ومعناها بالفارسية موضع القرى ، وهي آخر حد طَبَرَسْتَان بين جُرْجَانَ وَخُوارَزْمَ .

الإقليم الثامن

(مَازَنْدَرَانُ)

بفتح الميم وبعدها ألف وفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين وألف ثم نون ، وهو إقليم على القرب من طَبَرَسْتَان وقاعدتها (جُرْجَانُ) . قال في "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وجيم ثانية وألف وفي آخرها نون . قال في "المشترك" : والعجم تسميها كُرْكَانَ بضم الكاف وسكون الراء المهملة . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة ونحسون دقيقة . قال "المهلب" : وهي

مدينة جليلة بين خُراسَانَ وبين طَبَرِسْتَانَ . فَخُورَزْمُ منها في جهة الشرق وطَبَرِسْتَانُ منها في جهة الغرب . قال : وهي بلدة كثيرة الأمطار، متصلة الشتاء، وفي وسطها نهر يجري ، وهي قريبة من بحر الخزر، والجبال مُحْتَفَةٌ بها فهي سُهْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ، يجتمع فيها فواكه العُور والنَّجد . قال : وبها من خشب الخَلَنْج ما ليس في بلد آخر مثله .
ولها مُدُنٌ أخرى .

(منها) سَارِيَّةٌ . قال في "اللباب" : بفتح السين المهملة وألف وراء مهملة ومثناة من تحتها وهاء . قال في "اللباب" : وهي مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقال ابن سعيد : من طَبَرِسْتَانَ - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . وفي شرقها خُور الرِّيّ وبينهما نحو ثمانين ميلاً .

(ومنها) أُسْتَرَبَازِد . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة . وقال في "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وكسر المثناة من فوق وفتح الراء المهملة وبالباء الموحدة بين ألفين وفي آخرها ذال معجمة . قال في "اللباب" : وقد يُلْحَقُونَ فيها ألفاً أخرى بين التاء والراء . قال في "المشترك" : أُسْتَرَأْسَمَ رجل وَاَبَازِدَ أَسَمَ عمارة ، فكأنه قال عمارة أُسْتَر . وهي مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقيل من خُراسَانَ . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول تسع وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس دقائق . قال في "العزيزي" : وهي على حَدِّ طَبَرِسْتَانَ ، وبينها وبين أَمَلٍ : قَصْبَةُ طَبَرِسْتَانَ تسعة وثلاثون فرسخاً .

(١) الذي في تقويم البلدان عن اللباب بكسر الألف .

(٢) ضبطها ياقوت بالفتح .

(١) (ومنها) أَبْسُكُونُ . قال في "اللباب" : بفتح الألف الممدودة وضم الباء الموحدة
 وسكون السين المهملة وضم الكاف وفي آخرها نون - وهي بلدة على ساحل بحر
 الخَزَرِ واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول
 تسع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشر
 دقائق . قال في "القانون" : وهي فُرْضة جُرْجَان . قال ابن حوقل : وإليها ينسب
 بحر أَبْسُكُون ، ومنها يركب إلى الخَزَرِ وإلى باب الأبواب والجيل والدَّيْلَم وغير ذلك .

الإقليم التاسع (قُومُسُ)

(٢) قال في "اللباب" : بضم القاف وسكون الواو وفتح الميم وفي آخرها سين
 مهملة . قال : ويقال لها بالفارسية كُومَسْ بإبدال القاف كافا . قال : وهي من
 بَسْطَامَ إلى سَمَنان ، وهما من قُومَسْ بين خُرَاسَانَ وبين الجبال ، أولها من ناحية الغرب
 سَمَنان . قال أحمد الكاتب : وقُومَسُ بلدٌ واسع جليل القدر . وقال في "المشترك" :
 قُومَسُ موضع كبير فيه بلاد كثيرة وقُرَى - وقاعدتها (سَمَنانُ) . قال في "المشترك" :
 بكسر السين المهملة وسكون الميم ونونين بينهما ألف . قال في "القانون" حيث
 الطول تسع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة .
 قال في "المشترك" : وهو بلد مشهور بين الرِّيّ والدَّامَغَانَ .
 وبها مُدُنٌ أيضا .

(منها) الدَّامَغَانُ . قال في "اللباب" : بفتح الدال المهملة وألف وفتح الميم
 والغين المعجمة وألف ثانية ثم نون - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون"

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء . (٢) ضبطها ياقوت بكسر الميم .

حيث الطولُ تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

(ومنها) بَسْطَامُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وفي الآخر ميم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "اللباب" : وهي بلدة مشهورة . قال ابن حوقل : ولها البساتين الكثيرة ، وهي كثيرة الفواكه ، وإليها ينسب أبو يزيد البَسْطَامِيُّ الزاهد .

الإقليم العاشر (خُرَّاسَانُ)

قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألف ثم سين مهملة وألف ونون - وهي بلاد كثيرة . قال : وأهل العراق يقولون إنها من الرّى إلى مَطْلَعِ الشمس ، وبعضهم يقول من حُلْوَانَ إلى مَطْلَعِ الشمس ، ومعنى خُرَّاسَمُ للشمس ، واسان موضعُ الشيء ومكانه ، وقيل معنى خُرَّاسَانُ كُلُّ بِالرَّافِيَةِ . قال في "تقويم البلدان" : ويحيط بها من جهة الغرب المفازة التي بينها وبين بلاد الحِمْيَلِ وَجُرْجَانٍ ، ومن جهة الجنوب مفازة فاصلة بينها وبين قَارِسَ وَقُومَسَ ، ومن الشرق نواحي سِجِسْتَانَ وبلاد الهند ، ومن جهة الشّمال بلاد ماوراء النهر وشيءٌ من تَرْكِسْتَانَ . قال : وَخُرَّاسَانُ تشتمل على عدّة كُور كل كُورَةٍ منها نحو إقليم .

ومن كورها المشهورة (جَوِينُ) بضم الجيم وفتح الواو وسكون المشناة من تحت ونون في الآخر . (وَقُوهُسْتَانُ) بضم القاف وسكون الواو وفتح الهاء وسكون السين المهملة وفتح المشناة فوق وألف ثم نون . (وَبَغْسُورُ) بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة

الساكنة ثم شين معجمة وواو وراء مهملة في الآخر. و(مَرَوْ) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وواو في الآخر. و(طُوسُ) بضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر. و(يَهْقُ) بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح الهاء وقاف في الآخر. و(بَاخْرُزُ) بفتح الباء الموحدة ثم ألف وخاء معجمة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة ؛ وإليها ينسب الباخْرَزِيُّ الذى أسلم على يديه بركة .

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة في تاريخه (نَيْسَابُورُ) . قال في "اللباب" :
 بفتح النون وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وسكون الألف وضم الباء الموحدة وبعدها واو وراء مهملة . قال في "اللباب" : وسميت نَيْسَابُورَ لأن سابور الملك لما رآها ، قال : يصلح أن يكون ها هنا مدينةً ، وكانت قَصَبًا فأمر بقطع الْقَصَبِ وأن تبنى مدينة ، ف قيل نيسابور والنبي هو الْقَصَبُ . قال ابن سعيد :
 والعجم تسميها نَسَاور . قال في "تقويم البلدان" : وأسمها الآن نَسَاوَرُ ؛ يعنى بفتح النون والشين المعجمة وألف وفتح الواو وراء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة مشهورة فى أرض سهلة ، وهى مفترشة البناء مقدار فرسخ فى فرسخ ، وبها قنّى ماء ، وهى صحيحة الهواء . قال فى "اللباب" : وهى أحسن مَدُنِ خُرَاسان وأجمعها للخير . قال أحمد بن يعقوب الكاتب : وبينها وبين كلِّ من مَرَوْ ومن هَرَاةَ ومن جَرْجَانَ ومن الدَّامَغَانَ عشر مراحل .
 وبها مدن عديدة .

(منها) الطَّابَرَانُ . قال فى "اللباب" : بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء المهملة وبعد الألف نون . قال فى "القانون" : وهى قصبة طُوسَ من كُورِ

خُرَّاسَانَ - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "العريزي" : "وهي من أجلّ مدن خُرَّاسَانَ .

(ومنها) نَوَقَانُ . قال في "اللباب" : ^(١) بفتح النون وسكون الواو وفتح القاف وبعد الألف نون - وهي مدينة من أعمال طُوس من خُرَّاسَانَ، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول اثنتان وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال المهلبي : وهي من أجلّ مدن خُرَّاسَانَ وأعمرها ، وبظاهرها قبر الإمام عليّ بن موسى بن جعفر الصادق، وقبر هارون الرشيد خليفة العباسي ؛ وبها معدن الفيروزج والذهنج .

(ومنها) إِسْفَرَايُنُ . قال في "اللباب" : ^(٢) بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الفاء والراء المهملة وكسر المثناة التحتية ونون في الآخر - وهي بلدة بناوحي نيسابور من خُرَّاسَانَ - موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وتسمى المِهْرَجَانُ أيضا بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الراء المهملة والجيم وألف ونون في الآخر . يقال إن كسرى سماها بذلك تشبيها بالمِهْرَجَانِ أحد أعياد الفُرس : لأن المِهْرَجَانَ أطيب أوقات الفصول، شبهها بذلك لخضرتها ونفّارتها، وإليها ينسب الأستاذ أبو إسحاق الإسفَرَايِنِيُّ الإمام الكبير المشهور .

(ومنها) خُسْرُو جَرْدُ . قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وسكون السين وفتح الراء المهملتين وسكون الواو وكسر الجيم ثم راء ودال مهملتان - وموقعها

(١) ضبطها ياقوت بالضم .

(٢) ضبطها ياقوت بالفتح ، ثم قال وياء مكسورة وياء أخرى ساكنة .

في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وثمانون درجة وخمس دقائق، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في "المشترك" :
وهي قَصَبَة ناحية يَهَقَّ من خُرَّاسَانَ . وقال في "اللباب" : كانت قَصَبَتَهَا ثم صارت القصبَة سبروار .

(ومنها) نَسَا . قال في "المشترك" : بفتح النون والسين المهملة وألف مقصورة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد حيث الطول اثنتان وثمانون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال في "المشترك" :
وهي مدينة من خُرَّاسَانَ بين أَيْبُورَدَ وسَرَخُسَ . قال آبن حوقل : وهي مدينة خَصْبَة ، ومنها الإمام أحمد النسائي صاحب السُّنَنِ .

(ومنها) أَرَاذَوَار . قال في "تقويم البلدان" : بالهمزة والزاي المعجمة ثم ألف وذال معجمة وواو مفتوحتين وألف وراء مهملة في الآخر . وهي قَصَبَة جَوَيْنَ من خُرَّاسَانَ . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ؛ ومنها إمام الحرمين الإمام الشافعي المشهور .

(ومنها) قَايْنُ . قال في "اللباب" : بفتح القاف وبعد الألف ياء مثناة تحية مكسورة ثم نون . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس وثلاثون دقيقة [والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة^(١)] . قال آبن حوقل : وهي قَصَبَة قُوَهْسْتَانَ ، من خُرَّاسَانَ على مفازة . قال : وهي مثل سَرَخُسَ في الكِبَرِ، وماؤها من القَيْنِ ، وبساتينها قليلة ، وقراها متفرقة . قال في "اللباب" : وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(١) الزيادة عن تقويم البلدان نقلا عن القانون .

(ومنها) سَرَحْس . قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين والراء المهملتين ثم خاء معجمة ساكنة وسين مهملة ساكنة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة بين نَيْسَابُورَ وبين مَرَوَ في أرض سهلة ، وليس لها ماء جارٍ إلا نهر يجري في بعض السنة ، وهو فضلة مياه هَرَاةَ ، والغالب على نواحيها المراعى ، ومعظم مال أهلها الجمال ، وماؤهم من الآبار ، وأرجيتهم على الدواب . قال المهلب : والرمال مُحْتَفَةٌ بها .

(ومنها) بُوشَنَج . قال في "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وسكون النون وجيم في الآخر . قال في "اللباب" : ويقال لها أيضا فُوشَنَج بالفاء بدل الباء . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها أيضا بُوشَنَكُ بالكاف بدل الجيم . قال ابن حوقل : وهي مدينة على نحو النصف من هَرَاةَ في مستوٍ من الأرض ، ولها مياه وأشجار كثيرة ، وماؤها من نهر هَرَاةَ ، وهو يجري من هَرَاةَ إلى بُوشَنَج إلى سَرَحْس .

(ومنها) هَرَاةَ . قال في "اللباب" : بفتح الهاء والراء المهملة ثم ألف وهاء في الآخر . قال في "التعريف" : ولا يسمع عجمي يقول إلهري - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي من خُرَّاسَانَ ، ولها أعمال ، وداخلها مياه جارية ، والجبل منها على نحو فرسخين ، ومنه تعمل حجارة الأرحية وغيرها ، وليس به محتطب ولا مَرَعَى ، وعلى رأسه بيت نار كان للفرس ، وخارج هَرَاةَ المياه والبساتين . قال في "المشترك" : وكانت مدينة عظيمة فخر بها التتر . قال في "اللباب" : وكان فتحها في خلافة أمير المؤمنين

عثمان رضى الله عنه . قال : والنسبة إليها هَرَوِيٌّ . قال فى "مسالك الأبصار" :
ومن الناس من يعدُّ هَرَاة مفردة بذاتها عن خُرَّاسَانَ ؛ وصاحبها يكتبُ عن الأبواب
السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) مَرَوُ الرُّوذِ . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهملّة
وفى آخرها واو . وقال فى "اللباب" بفتح الواو وألف ولام وضم الراء الثانية
وسكون الواو وذال معجمة ، والرُّوذُ بالعجمة النهر ، ومعناه مَرَوُ النهر . وموقعها
فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وثمانون
درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال
أبن حوقل : وهى أكبر من بوشنج ، ولها نهر كبير وعليه البساتين ، وهى طيبة التربة
والهواء ، والجبل عنها فى جهة الغرب على ثلاثة فراسخ . قال فى "اللباب" : وهى
من أشهر مدُن خُرَّاسَانَ ، والنسبة إليها مَرَوْرُوذِيٌّ ومَرَوْذِيٌّ أيضا .

(ومنها) مَرَوُ الشَّاهِجَانِ . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهملّة
وواو فى الآخر ، وهو مضاف إلى الشَّاهِجَانِ بفتح الشين وألف بعدها هاء ثم جيم
وألف ونون - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "المشترك" :
ومَرَوُ الشَّاهِجَانِ معناه رُوح الملك . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع
وثمانون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال أبن حوقل :
وهى مدينة قديمة يقال إنها من بناء طهمورث : أحد ملوك الفُرس . قال فى "مسالك
الأبصار" : ويقال إنها من بناء ذى القرنين . قال : وهى فى أرض مستوية بعيدة
عن الجبال لا يرى منها الجبل ، وأرضها كثيرة الرمل وفيها سُبوخة ، ويجرى على بابها
نهرٌ يدخل منه الماء إلى حياض المدينة ، ومنه شرب أهلها ؛ ولها ثلاثة أنهار أخرى
وبها الفواكه الحسنة تقدّد وتملأ إلى البلاد ؛ وبها الزبيب الذى لا نظير له ؛ ولها من

النظافة وحسن الترتيب وتقسيم الأبنية والغُرُوس على الأنهار، وتميز كل سوقٍ عن غيره ما ليس لغيرها من البلاد . قال في "المشترك" : والنسبة إليها مَرَوَزِيٌّ . قال في "تقويم البلدان" : وبها كان مقام المأمون لما كان بخُرَّاسَانَ ؛ وبها قُتِلَ يَزْدَجَرْدُ آخرُ ملوك الفُرسِ ؛ ومنها ظهرت دولة بني العباس ، وبها صُبِغَ أوَّلُ سواد لبسته المسوَّدة ؛ ومنها يرتفع الحرير الكثير والقطن . قال في "المشترك" : وبينها وبين كُلِّ من نَيْسَابُورَ وَهَرَّاءَ وَبَلَّخَ وَبُخَّارَا مسيرة اثْنِي عَشَرَ يَوْمًا .

(ومنها) الطَّالْقَانُ . قال في "المشترك" : بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون . وقال في "اللباب" : بتسكين اللام - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة نحو مَرَوَزِيٍّ الرُّوْدُ في الكُبرِ ؛ ولها مياه جارِية وبساتين قليلة ؛ وهى في جبل ، ولها رُستاق في الجبل ، وهى غير الطَّالْقَانِ المقدم ذكرها في عراق العجم .

(ومنها) بَلَّخُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفى آخرها خاء معجمة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" و "القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدى وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة فى مستوٍ من الأرض ، بينها وبين أقرب جبل إليها أربعة فراسخ ؛ والمدينة نصف فرسخ فى مثله ؛ ولها نهر يسمى ^(١) الدهاش يجرى فى ربضها ، وهو نهر يدعى عَشْرَ أَرْحِيَّةٍ ؛ والبساتين تحتف بها من جميع جهاتها ؛ وبها الأَثْرُجُ وَقَصَبُ السُّكَّرِ ؛ وتقع فى نواحيها الثلوج . قال فى "اللباب" :

(١) وقع فى التقويم بإهمال السين ، ولم نعثريه فى المعجم ولا فى القاموس .

فتحها الأحنف بن قيس التيمي في خلافة عثمان رضي الله عنه؛ وخرج منها مالا يحصى من الأئمة والعلماء والصلحاء .

(ومنها) شَهْرَسْتَانُ . قال في "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وفتح الراء وسكون السين المهملين وفتح التاء المثناة من فوق وبعد الألف نون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال" و "القانون" : حيث الطول إحدى وتسعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدى وأربعون دقيقة . قال في "المشترك" : شهر بلغة الفرس المدينة ، واستان الناحية ، فعني أسمها مدينة الناحية . قال : وهي مدينة مشهورة بين نيسابور وخوارزم في آخر حدود خراسان وأول حدود رمال خوارزم .

الإقليم الحادي عشر (زَابُلِسْتَانُ)

بفتح الزاي المعجمة ثم ألف بعدها باء موحدة ولام مضمومتان وسين مهملة ساكنة وتاء مثناة فوق مفتوحة ثم ألف ونون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة لها بلاد وأعمال ، وهي عن بلخ على عشر مراحل ، وعندها نهر كبير يجري ؛ وليس لها بساتين بل هي مدينة على جبل ، والقواكه تأتيها مجلوبة . قال في "اللباب" : وبها قلعة حصينة .

ولها مدن غيرها .

(منها) غَزَنَةُ . قال في "اللباب" : بفتح الغين وسكون الزاي المعجمتين وفتح

النون - وموقعها في آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " و " القانون " حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة ونحو ثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : هي من عمل الباميان ؛ وقد تقدم أن الباميان من رَابُلُسْتَانَ . وقال في " اللباب " : هي من أول بلاد الهند . وقال في " مزيل الأرتياب " : هي في طرف خُرَّاسَانَ وأول بلاد الهند ، وهي كالحد بينهما . قال ابن حوقل : وهي فُرْضة الهند وموطن التجار ، ولها دَرَبَنْد مشهور .

(ومنها) بَجْهَرُ . قال في " اللباب " : بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الجيم وكسر الهاء وسكون المثناة تحت وراء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " القانون " حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة من أعمال الباميان على جبل ، والغالب على أهلها العيثُ والفساد . قال في " اللباب " : وبها جبل الفضة ، والدراهم بها كثيرة ، لا يشترون ولو باقة بقل بأقل من درهم ، وقد جعلوا السوق كهية الغربال لكثرة الحفر . قال : وإنما يتبعون عروقا يجدونها تُفْضِي إلى الفضة ، فإذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى أن يصيروا إلى الفضة ، والرجل منهم يُنْفِقُ الأموال الكثيرة في الحفر ، وربما خرج له من الفضة ما يستغني به هو وعقبه ، وربما خاب عمله لقلة المال وغير ذلك ، وربما وقف رجل على العرق ووقف آخر عليه في موضع آخر فإخذان جميعاً في الحفر ، والعادة عندهم أن من سبق فاعترض على صاحبه فقد استحق .

الإقليم الثاني عشر (الغور)

قال في "اللباب" : بضم الغين المعجمة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر .
قال : وهي بلاد في الجبال بخراسان قريبة من هرة ، وهي مملكة كبيرة ، وغالبها جبال
عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار ، وهي بلاد حصينة منيعة ، وتحيط بها خراسان
من ثلاث جهات ولذلك حُصيت من خراسان ، والحد الرابع لها قبلي سجستان .

وقاعدتها فيما قاله في "تقويم البلدان" (بيروزكوه) . قال في "المشترك" :
بكسر الباء الموحدة وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ثم زاي معجمة
وضم الكاف وواو وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال
في "المشترك" : معنى 'بيروزكوه' الجبل الأزرق ؛ وهي قلعة حصينة دار مملكة
جبال الغور . قال : وبها كان مستقرًا بنو ساجان ملوك الغور^(١) .

قلت : وبلاد الغور وغزنة وما والاها وإن عدها في "مسالك الأبصار" من
مملكة التورانيين ، فإنها ليست من أصل مملكة توران ، وإنما تغلب ملوكها عليها
من مملكة إيران ، فلذلك أثبتتها في مملكة إيران ؛ وما غلب عليه بنو هولاكو من مملكة
الروم ، وهو قونية وما معها ليس من مملكة إيران بل هو مملكة مستقلة بذاتها كما
سيأتي ، ولذلك لم أثبتها في مملكة إيران والله أعلم .

(١) كذا في الأصل على هذه الصورة ، والذي في التقويم "بها كان مستقر آل سام الخ" وفي معجم البلدان

"بناها بنو سام ملوك الغورية" .

الجملة الثالثة

(في الأنهار المشهورة)

واعلم أن هذه المملكة عدّة أنهار، والمشهور منها ثلاثة عشر نهرًا :

الأول - الفُرات وما يصب فيها ويخرج منها ^(١) . فأما نهر الفرات فأوله من شماليّ مدينة أرزن الروم وشرقيها ، وأرزن هذه آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق ؛ ثم يأخذ إلى قرب ملطية ثم إلى شمشاط ؛ ثم يأخذ مشرقًا ويتجاوز قلعة الرّوم ويمرّ مع جانبها من شماليها وشرقيها ؛ ثم يسير إلى البيرة ، ويمرّ من جنوبها ؛ ثم يمرّ مشرقًا حتى يتجاوز بالسّ وقلعة جعبر ويتجاوزها إلى الرّقة ؛ ثم يمرّ مشرقًا ويتجاوز الرّحبة من شماليها ويسير إلى عانة ثم إلى هيت ؛ ثم يسير إلى الكوفة . فإذا جاوز نهر كوثي بستة فراسخ أنقسم نصفين ، وممرّ الجنوبيّ منهما إلى الكوفة ويجاوزها ويصبّ في البطائح . ويمرّ القسم الآخر وهو أعظمهما ويعرف بنهر سورا ، ويمرّ بإزاء قصر ابن هُبيرة ، ويتجاوزها إلى مدينة بابل القديمة ، ويتفرّع منه عدّة أنهر ويمرّ عمودُه إلى النيل ويسمّى من بعد النيل نهر الصّراة ؛ ثم يتجاوز النيل ويصب في دجلة .

وأما الأنهار التي تصب فيه ، فمنها نهر شمشاط ، ونهر البليخ ، ونهر الخابور ، ونهر الهرماس ، وغيرها .

وأما الأنهار التي تخرج من الفرات ، فمنها نهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك ، ونهر كوثي وغير ذلك .

الثاني - دجلة وما يصب إليها ويخرج منها . فأما دجلة فقال في "المشترك" :

بكسر الدال المهملة وسكون الجيم . قال : وهي نهر عظيم مشهور مخرجه من بلاد

(١) كذا في التّقديم أيضًا بالتّأنيث والأولى التذكير .

الرُّومَ ؛ ثم يَمُرُّ عَلَى أَمَدَ ، وَحِصْنِ كَيْفَا ، وَجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ ، وَالْمَوْصِلَ ، وَتِكْرِيتَ ، وَبَغْدَادَ ، وَوَاسِطَ ، وَالْبَصْرَةَ ؛ ثُمَّ يَصُبُّ فِي بَحْرِ قَارَسَ . وَذَكَرَ فِي "الْعَزِيزِي" : أَنَّ رَأْسَ دِجْلَةَ شِمَالِي مِثْفَارِقَيْنِ مِنْ تَحْتَ حِصْنٍ يَعْرِفُ بِحِصْنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ . وَيَجْرِي مِنَ الشَّمَالِ وَالْغَرْبِ إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ ؛ ثُمَّ يَشْرِقُ وَيَرْجِعُ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ ؛ ثُمَّ يَغْرُبُ بِمِيلَةٍ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى مَدِينَةِ أَمَدَ ؛ ثُمَّ يَأْخُذُ جَنُوبًا إِلَى جَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ ؛ ثُمَّ يَأْخُذُ شَرْقًا وَجَنُوبًا إِلَى مَدِينَةِ بَلَدَ ؛ ثُمَّ يَشْرِقُ إِلَى الْمَوْصِلِ ، ثُمَّ يَسِيرُ مَشْرُقًا إِلَى تِكْرِيتَ ؛ ثُمَّ يَأْخُذُ مَشْرُقًا نَصَبًا إِلَى سُرْمَنْ رَأَى ؛ ثُمَّ يَأْخُذُ جَنُوبًا عَلَى عُنْكَبَرَى ؛ ثُمَّ يَأْخُذُ مَشْرُقًا إِلَى الْبَرْدَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ جَنُوبًا بِمِيلَةٍ إِلَى الشَّرْقِ إِلَى بَغْدَادَ ؛ ثُمَّ يَسِيرُ جَنُوبًا إِلَى كَلَّوَاذَا ، وَيَأْخُذُ إِلَى الْمَدَائِنِ وَيَتَجَاوَزُ إِلَى دِيرِ الْعَاقُولِ ؛ ثُمَّ يَسِيرُ مَشْرُقًا إِلَى النُّعْمَانِيَّةِ ؛ ثُمَّ يَسِيرُ جَنُوبًا وَمَشْرُقًا إِلَى فَمِ الصَّلْحِ ؛ ثُمَّ يَسِيرُ مَغْرِبًا إِلَى وَاسِطَ ؛ ثُمَّ يَشْرِقُ إِلَى بَطَائِحِ وَاسِطَ ؛ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَطَائِحِ وَيَسِيرُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْجَنُوبِ حَتَّى يَتَجَاوَزَ الْبَصْرَةَ ، وَيَمُرُّ عَلَى فُوهَةِ الْأُبُلَّةِ ، ثُمَّ يَسِيرُ إِلَى عَبَادَانَ وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ قَارَسَ .

وَأَمَّا الْأَنْهَارُ الَّتِي تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ : فَهِيَ نَهْرُ أَرْزَنَ ، وَنَهْرُ التَّرْنَارِ ، وَنَهْرُ الْفَرَاتِ الْأَعْلَى وَهُوَ الْأَكْبَرُ ، وَنَهْرُ الزَّابِ الْأَصْغَرُ ، وَغَيْرُهَا .

وَأَمَّا الْأَنْهَارُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ دِجْلَةَ فَعِدَّةُ أَنْهَارَ ؛ مِنْ أَشْهَرِهَا نَهْرُ الْأُبُلَّةِ ، وَنَهْرُ مَعْقِلِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُمَا فِي الْكَلَامِ عَلَى مَتَرَهَاتِ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ .

الثَّالِثُ - دِجْلَةُ الْأَهْوَازِ . وَهُوَ نَهْرٌ يَنْبُعُ مِنَ الْأَهْوَازِ ، وَيَمُرُّ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ إِلَى عَسْكَرِ مُكْرَمَ ، وَهُوَ قَرِبَ دِجْلَةَ بَغْدَادَ فِي الْمَقْدَارِ ، وَعَلَيْهِ مَزَارِعٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَصَبِ الشُّكَّرِ وَغَيْرِهِ .

(١) الرابع - نهر شيرين . وهو نهر يخرج من جبل دينار من ناحية بازرع ويخترق بلاد فارس ويقع في بحر فارس عند جنابة ، من بلاد فارس .

الخامس - نهر المسرقان . وهو نهر عظيم في بلاد خوزستان ، يجري من ناحية شستر ، ويمر على عسكر مكرم ، ويسقي بجميع مائه النخل والزرع وقصب السكر ، ولا يضيع شيء من مائه .

السادس - نهر شستر . وهو نهر يخرج من وراء عسكر مكرم ، ويمر على الأهواز ؛ ثم ينتهي إلى نهر السدرة إلى حصن مهدى ، ويصب في بحر فارس .

السابع - نهر طاب . وتجره من جبال أصفهان من قرب المرج ، وينضم إليه نهر آخر ويسير حتى يمر على باب أرجان ، ويقع في بحر فارس عند شينير .

(٢) الثامن - نهر سگان . وهو نهر يخرج من رستاق الرونجان من قرية تدعى ساركري ، ويسقي شيئاً كثيراً من كور فارس ؛ ثم يصب في بحر فارس ؛ وعليه من العمارة ما ليس على غيره .

التاسع - نهر زندورذ ، بفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة والواو ثم راء مهملة ساكنة وذال معجمة في الآخر . وهو نهر كبير على باب أصفهان .

العاشر - نهر الهندمند . قال ابن حوقل : وهو أعظم أنهار سجستان ، ويخرج من ظهر القور ، ويمر على حدود الرخج ؛ ثم يعطف ويمر على بشت ، حتى يصير على مرحلة من سجستان ؛ ثم يصب في بحيرة زره ؛ وإذا تجاوز بشت يتشعب منه أنهار كثيرة ؛ وعلى باب مدينة بشت على هذا النهر جسر من السفن كما في دجلة .

(١) في التقويم "نازنج" ولم نعثر في المعجم على كلا اللفظين .

(٢) في التقويم "الرويجان ساذفري" .

الحادى عشر - نهر الرّس . وهو نهر يخرج من جبال قَالِقَلَا ، ويمتد إلى وَرَثَانَ ، ثم يلتقى مع نهر الكُرِّ الآتى ذكره بالقرب من بحر الخَزَرِ فيصيران نهرا واحدا ويصبان في بحر الخَزَرِ المذكور . قال في "تقويم البلدان" : وخلف نهر الرّس فيما يقال ثلثمائة وستون مدينة خراب ، يقال إنها المراد في القرآن بقوله تعالى ﴿ وَأَصْحَابُ الرّسِّ ﴾ .

الثانى عشر - نهر الكُرِّ . وهو نهر فاصل بين أَزَانَ وَأَذَرَبَيْجَانَ كالحُدَّ بينهما ، وأوله عند جبل بابِ الأبواب ، ويخترق بلادَ أَرَانَ ويصب في بحر الخَزَرِ . وذكر ابن حوقل أن نهر الكُرِّ يمتد على ثلاثة فراسخ من بَرْدَعَةَ . وبقَارِسَ أيضا نهر يقال له نهر الكُرِّ إلا أنه دون هذا في القدر والشهرة .

الثالث عشر - نهر جُرْجَانَ . ومخرجه من جبل جرجان ، ويسير غربا نحو جنوب إلى أَبْسُكُونَ ثم يفترق من أَبْسُكُونَ نهرين ويصب في بحر الدَّيْلَمِ .

الجملة الرابعة

(في الطرق الموصلة إلى قواعد هذه المملكة ، وذكر شىء

من المسافات بين بلادها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ آخرَ المملكة المضافة إلى الديار المصرية من جهة الشرق مملكة حَلَبَ ، فتعين الابتداء منها . ونحن نورد ذلك على ما يقتضيه كلام عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة في كتابه "المسالك والممالك" مقتصرًا على ذكر مشاهير البلاد .

(الطريق من حَلَبَ إلى المَوْصِلِ) - من حَلَبَ إلى مَنبِجَ ، ومن مَنبِجَ إلى الرّسِّينَ ، ومن الرّسِّينَ إلى الرّقَّةِ إلى رأس عين سبعة عشر فرسخًا ، ومن رأس عين إلى كَفَرْتَوْنَا سبعة فراسخ ، ومن كَفَرْتَوْنَا إلى دارا خمسة فراسخ ، ومن دارا إلى نَصِيبِينَ أربعة فراسخ ، ثم إلى بَلَدَ ثَلَاثُونَ فرسخًا ، ثم إلى المَوْصِلِ سبعة فراسخ .

(الطريق من المَوْصِلِ إِلَى بَغْدَادَ) - من الموصل إلى الحَدِيثَةِ أحد وعشرون فرسخًا ،
ثم إلى السَّنِّ خمسة فراسخ ، ثم إلى سُرَّ مَنْ رَأَى ثَلَاثَةَ فراسخ ، ثم إلى القَادِسِيَّةِ تسعة
فراسخ ، ثم إلى عُبَيْرَى ثَمَانِيَةَ فراسخ ، ثم إلى الْبَرْدَانِ أَرْبَعَةَ فراسخ ، ثم إلى بَغْدَادَ خَمْسَةَ
فراسخ [. وأخبرني بعض أهل تلك البلاد أن الطريق من حَلَبَ إلى الْبِيرَةِ يَوْمَان ،
ومن الْبِيرَةِ إلى الرُّهَا يَوْمَان ، ومن الرُّهَا إلى مَارِدِينَ أَرْبَعَةَ أَيَّام ، ثم من مَارِدِينَ إلى
جَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ ثَلَاثَةَ أَيَّام ، ثم من جَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ إِلَى المَوْصِلِ يَوْمَان ، ومن الموصل
إلى تَكْرِيتَ يَوْمَان ، ومن تَكْرِيتَ إِلَى خُوَيَّ يَوْمَان ، ومن خُوَيَّ إِلَى بَغْدَادَ يَوْمَان .
(الطريق إلى نَيْسَابُورَ : قَاعِدَةُ خُرَّاسَانَ) - من بغداد إلى النَّهْرَوَّانِ أَرْبَعَةَ فراسخ ،
ثم إلى الدَّسَكِرَةِ اثْنَا عَشَرَ فرسخًا ، ثم إلى جَلُولَاءَ سَبْعَةَ فراسخ ، ثم إلى خَافِقِينَ سَبْعَةَ
فراسخ ، ثم إلى قَصْرِ شِيرِينَ سِتَّةَ فراسخ ، ثم إلى حُلَوَّانَ خَمْسَةَ فراسخ ، ثم إلى مَرَجِ
الْقَلْعَةِ عَشْرَةَ فراسخ ، ثم إلى قَصْرِ زَيْدٍ أَرْبَعَةَ فراسخ ، ثم إلى قَصْرِ عَمْرٍو ثَلَاثَةَ عَشَرَ
فرسخًا ، ثم إلى قَصْرِ اللُّصُوصِ سَبْعَةَ عَشَرَ فرسخًا ، ثم إلى قَرْيَةِ الْعَسَلِ ثَلَاثَةَ فراسخ ،
ثم إلى هَمْدَانَ خَمْسَةَ فراسخ ، ثم إلى الْأَسَاوِرَةِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ فرسخًا ، ثم إلى سَاوَةَ
خَمْسَةَ عَشَرَ فرسخًا ، ثم إلى الرِّىِّ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ فرسخًا ، ثم إلى قَصْرِ الْمَلْحِ أَحَدَ
وِثَلَاثُونَ فرسخًا ، ثم إلى رَأْسِ الْكَلْبِ سَبْعَةَ فراسخ ، ثم إلى سِمْنَانَ ثَمَانِيَةَ فراسخ ،
ثم إلى بُومَنَ سَبْعَةَ عَشَرَ فرسخًا ، ثم إلى أَسَدَابَادَ أَرْبَعُونَ فرسخًا ، ثم إلى خُسْرُوحَرَدَ
اثْنَا عَشَرَ فرسخًا ، ثم إلى نَيْسَابُورَ خَمْسَةَ عَشَرَ فرسخًا .

(الطريق من نَيْسَابُورَ إِلَى بَلْخَ ثم إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ) - من نَيْسَابُورَ إِلَى طُوسِ ثَلَاثَةَ
عَشَرَ فرسخًا ، ثم إِلَى مَرَوِ الرُّودِ أَحَدَ عَشَرَ فرسخًا ، ثم إِلَى سَرْخَسَ ، ثم إِلَى قَصْرِ النِّجَارِ
ثَلَاثَةَ فراسخ ، ثم إِلَى مَرَوِ الشَّاهْجَانَ سَبْعَةَ وَعِشْرُونَ فرسخًا ، ثم إِلَى الْقَرْيَتَيْنِ خَمْسَةَ

وعشرون فرسخًا، ثم إلى أسدآبادَ على النهر سبعة فراسخ، ثم إلى قصر الأحنف على النهر عشرة فراسخ، ثم إلى مرو الرُود خمسة فراسخ، ثم إلى الطالقان ثلاثة وعشرون فرسخًا، ثم إلى اربعين تسعة فراسخ، ثم إلى العاديات عشرة فراسخ، ثم إلى السدرة من عمل بلخ أربعة وعشرون فرسخًا، ثم إلى الغور تسعة فراسخ، ثم إلى بلخ ثلاثة فراسخ، ثم إلى شطّ جيحون اثنا عشر فرسخًا. فذات اليمين كورة خُتل ونهر الضرغام؛ وذات اليسار خوارزم، وسيأتي ذكرهما في الكلام على مملكة توران فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(الطريق إلى شيراز قاعدة فارس) - قد تقدّم الطريق من حلب من مضافات الديار المصرية إلى بغداد، ومن بغداد إلى واسط خمسة وعشرون سكة، ومن واسط إلى الأهواز عشرون سكة، ثم إلى النوبدجان تسع عشرة سكة، ثم إلى شيراز اثنتا عشرة سكة.

(الطريق من شيراز إلى السيرجان: قاعدة كرمان) - من شيراز إلى إصطخر خمس سِكك، ثم من إصطخر إلى البحيرة ثلاثة عشر فرسخًا، ثم إلى شاهك الكبرى سبعة عشر فرسخًا، ثم إلى قرية الملح تسعة فراسخ، ثم إلى مرزبانة ثمانية فراسخ، ثم إلى اروان ثلاثة فراسخ، ثم إلى المрман وهو آخر عمل فارس إلى السيرجان ستة عشر فرسخًا.

(الطريق إلى أصهبان) - من بومن المقدم ذكرها إلى الرباط ثلاثة عشر فرسخًا، ثم إلى أصهبان أربعة عشر فرسخًا.

(الطريق إلى البصرة) - قد تقدّم الطريق من حلب إلى بغداد، ثم إلى واسط، ثم إلى الفاروث، ثم إلى دير العمال، ثم إلى الحوانيت، ثم يسير في البطائح، ثم إلى نهر أبي الأسد، ثم في دجلة العورا، ثم في نهر معقل، ثم يمضي إلى البصرة.

(الطريق إلى تبريز^(١)) - قد تقدم الطريق من حلب إلى مَردِين، ثم من مَردِين إلى حصن كَيْفَا يومان، ومن الحصن إلى سِعْرَت يومان، ومن سِعْرَت إلى وان يومان، ومن وان إلى وَسْطَان ثلاثة أيام، ومن وَسْطَان إلى سَلْمَاس يومان، ومن سَلْمَاس إلى تَبْرِيز أربعة أيام؛ فيكون بين حلب وتَبْرِيز ثلاثة وعشرون يوما .

(الطريق إلى السُلْطَانِيَّة) - من تَبْرِيز إليها سبعة أيام؛ فيكون من حلب إلى السُلْطَانِيَّة ثلاثون يوما .

الجملة الخامسة

(في بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة)

(بعض مسافات بلاد الجزيرة) - من الأَنْبَار إلى تِكْرِيت مرحلتان، ومن تِكْرِيت إلى المَوْصِل ستة أيام، ومن المَوْصِل إلى أَمَد أربعة أيام، ومن أَمَد إلى سَمِيسَاط ثلاثة أيام؛ ومن المَوْصِل إلى نَصِييْن أربع مراحل، ومن نَصِييْن إلى رأس عين ثلاث مراحل، ومن رأس عين إلى الرِّقَّة أربعة أيام، ومن رأس عين إلى حَرَّان ثلاثة أيام، ومن حَرَّان إلى الرُّها يوم واحد .

(بعض مسافات خُورُسْتَان) - من عَسْكَر مُكْرَم إلى الأهواز مرحلة، ومن الأهواز إلى الدَّورَق أربع مراحل، [وكذلك من عَسْكَر مُكْرَم إلى الدَّورَق^(٢)] ومن عَسْكَر مُكْرَم إلى سُوْق الأَرِبَاء مرحلة، ومن سُوْق الأَرِبَاء إلى حصن مهدي مرحلة، ومن السُّوس إلى بَصْنِي مرحلة خفيفة، ومن السُّوس إلى مَتُوْث مرحلة .

(بعض مسافات فارس) - قال ابن حوقل : من شِيرَاز إلى سِيرَاف نحو ستين فرسخا، ومن شِيرَاز إلى إِصْطَخَر نحو اثني عشر فرسخا، ومن شِيرَاز إلى كَازَرُون

(١) في القاموس "تبريز. وقد تكسر"

(٢) الزيادة عن "تهويم البلدان" ليم البيان .

نحو عشرين فرسخا ، ومن كازرون إلى جنابة أربعة وأربعون فرسخا ، ومن شيراز إلى أصبهان أثنان وسبعون فرسخا ، ومن شيراز مغربا إلى أول حدود خوزستان ستون فرسخا ، ومن شيراز إلى بسا سبعة وعشرون فرسخا ، ومن شيراز إلى البيضاء ثمانية فراسخ ، ومن شيراز إلى دارابجرد خمسون فرسخا ، ومن مهرובان إلى حصن ابن عمارة نحو مائة وستين فرسخا .

(بعض مسافات كerman) - من السيرجان إلى المفازة مرحلتان ، ومن السيرجان إلى جيرفت مرحلتان ، ومن السيرجان إلى مدينة الزرند تسعة وعشرون فرسخا .

(بعض مسافات إرمينية وأران وأذربيجان) - قال ابن حوقل : من بردعة إلى شمشور أربعة عشر فرسخا ، ومن بردعة إلى تفليس ثلاثة وأربعون فرسخا ، ومن أردبيل إلى المراغة أربعون فرسخا ، ومن المراغة إلى أرمية أربع مراحل ، ومن أرمية إلى سلماس مرحلتان ، ومن سلماس إلى خوى سبعة فراسخ ، ومن خوى إلى بركري ثلاثون فرسخا ، ومن بركري إلى أرجيش يومان ، ومن أرجيش إلى خلط ثلاثة أيام ، ومن خلط إلى بدليس ثلاثة أيام ، ومن بدليس إلى ميا فارقين أربعة أيام .

[ذكر الطريق من المراغة إلى أردبيل ؛ من مراغة إلى أرمية ثلاثون فرسخا ^(١) ، ومن أرمية إلى سلماس أربعة عشر فرسخا ، ومن خوى إلى نشوى ^(١) ثلاثة أيام ، ومن نشوى ^(١) إلى دبيل أربع مراحل ؛ ومن المراغة إلى الدينور ستون فرسخا ، ومن خونج ^(١) إلى مراغة ^(١) ثلاثة عشر فرسخا ، ومن بردعة إلى ورنان سبعة فراسخ ، ومن ورنان إلى بيلقان سبعة فراسخ ، ومن شروان إلى باب الأبواب نحو سبعة أيام ، ومن بردعة إلى تفليس نحو اثنين وستين فرسخا .

(١) الزائد من تقويم البلدان عن ابن حوقل ليستقيم الكلام .

(بعض مسافات عراق العجم) - من همدان إلى الدينور ما ينيف على عشرين فرسخا ، ومن همدان إلى ساوة ثلاثون فرسخا ، ومن ساوة إلى الرى ثلاثون فرسخا أيضا ؛ ومن همدان إلى زبجان على شهرزور ثلاثون فرسخا ؛ ومن همدان إلى أصبهان ثمانون فرسخا ؛ ومن همدان إلى أول خراسان نحو سبعين فرسخا ، ومن ساوة إلى قم نحو اثني عشر فرسخا ، ومن قم إلى قاشان نحو اثني عشر فرسخا أيضا ، ومن الرى إلى قزوین ثلاثون فرسخا ، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل ، ومن أصبهان إلى قاشان ثلاث مراحل .

(بعض مسافات طبرستان ومازندران وقومس) - قال ابن حوقل : بين أمل وسارية مرحلتان ، ومن سارية إلى استراباذ نحو أربع مراحل ، ومن استراباذ إلى جرجان نحو مرحلتين ؛ ومن أمل إلى ما مطير مرحلة ، ومن ما مطير إلى سارية مرحلة ، ومن جرجان إلى بسطام مرحلتان .

(بعض مسافات خراسان) - قال في "تقويم البلدان" : من أول أعمال نيسابور إلى وادی جیحون ثلاث وعشرون مرحلة ، ومن سرخس إلى نسا سبعة وعشرون فرسخا ، ومن هرة إلى نيسابور أحد عشر يوما ، ومن هرة إلى مرو كذلك ، ومن هرة إلى سجستان كذلك ، ومن مرو الروذ إلى مرو الشاهجان أربعة أيام ، ومن بلخ إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مشرقا ، ومن بلخ إلى الرى ثلاثون مرحلة مغربا ، ومن بلخ إلى سجستان ثلاثون مرحلة جنوبا ، ومن بلخ إلى کرمان ثلاثون مرحلة ، ومن بلخ إلى خوارزم ثلاثون مرحلة .

الجملة السادسة

(فيما بهذه المملكة من النفائس العلية القدر، والعجائب الغريبة الذكر،

والمنتزهات المرتفعة الصيت)

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : بها عدة نفائس وعجائب .

أما النفائس فإن بها مفاص اللؤلؤ ببحر فارس بجزيرة كيش وعمان، وهما من أحسن المفاصات وأشرفها وأعلاها قدرا في حسن اللؤلؤ على ما تقدم ذكره في الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى .

وبالدَّامَّانَ في جبلها معدن ذهب . قال الشيخ شمس الدين الأصفهاني : وهو قليل المتحصّل لكثرة ما يحتاج إليه من الكلف حتى يُستخرج ويذخشان شرقاً^(١) عراق العجم البازهر الحيواني الذي لا يباريه شيء في دفع السموم يوجد في الأيايل التي هناك ، وقد مرّ ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى .

وبها الإثمّد الأصفهاني الذي لا يساوى رتبة، وقد مرّ ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى، ولكنه قد عرّ الآن حتى لا يكاد يوجد . قال المقر الشهابي بن فضل الله : سألت الشيخ شمس الدين الأصفهاني عن سبب قلته، فقال : لأنقطاع عرقه فما بقي يوجد منه إلا ما لا يرى . قال في "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة مستعملات التماس الفاجر من النخ ، والخمّل ، والكمخا، والعتابي، والنصافي ، والصوف الأبيض المارديني ، وتعمل بها البسط الفاخرة في عدة مواضع مثل شيراز وأقصرا وتوزن إلى غير ذلك من الأشياء النفيسة التي لا يضاهاها غيرها فيها .

(١) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل .



وأما العجائب ، فقد ذكر الشيخ شمس الدين الأصفهاني أن بمدينة قشِيرَ على ثلاثة أيام عن أَصفَهان عين ماء سارحة يسمى ماؤها بماء الجراد ، إذا حمل ماؤها في إناء وعلق في تلك الأرض على عال ، أتاها طير يقال له سار فأكل ما فيها من الجراد حتى لا يدع منه شيئاً بشرط أن لا يوضع على الأرض حتى يؤتى به إلى مكان الجراد فيعلق . وحكى محمد بن حيدر الشيرازي في مصنف له : أن بين الدماغان وأستِراباذ من خراسان عينا ظاهرة إذا أُلقيت فيها نجاسة فار ماؤها وأزبدت شيئاً تبعته دودة طول أتملة الإنسان حتى لو حمل الماء تسعة وكان معهم عاشر لم يحمل الماء ، تبع كل واحد من حمل الماء دودة ، ولم يتبع الآخر منها شيء ، فلو قتل واحد منهم تلك الدودة استحال الماء مرا لوقته ، وكذلك ماء كل من هو وراءه ، ولا يستحيل ماء من هو إلى جانبه مرّاً . قال ابن حوقل : وبكورة سَابُورَ من بلاد فارس جبل فيه صورة كل ملك وكل مرزبان معروف للعجم وكل مذكور من سدنة النيران . وفي كورة أرجان في قرية يقال لها طبريان [بئر^(٢)] يذكر أهلها أنهم أمتحنوا قعرها بالمشقات فلم يلحقوا لها قعرا ، ويفور منها ماء بقدر ما يدير رَحَى تسقى أرض تلك القرية . قال : وفي كورة رُستاق [بئر^(٢)] تعرف بالهنديجان بين جبلين يخرج منها دخان لا يستطيع أحد أن يقربها ، وإذا طار عليها طائر سقط فيها وأحرق . وبناحية داذين نهر ماء عذب يعرف بنهر أخشين ، يشرب منه الناس وتسقى به الأرض ، وإذا غسلت به الثياب خرجت خضراً .

(١) لعله ولو حمل واحد من مائها شيئاً الخ .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .



وأما المنتهات فيها نهر الأبلّة وشعب بَوَّانَ - وهما نصف منتهات الدنيا الأربعة : وهى نهر الأبلّة وشعب بَوَّانَ المذكوران وصُغد سَمَرْقَنْدَ وُغُوطَة دِمَشْقَ . وقد تقدّم أن نهر الأبلّة نهر شقّه زيادٌ مقابلةً نهر مَعْقِلَ ، وبينهما البساتين والقصور العالية والمباني البديعة ، يتسلسل مجراه ، وتهلّل بكَرّه وعشاياه ، ويُظِلّه الشجر وتغنى به زمر الطير . وفيه يقول القاضى التنوخى من أبيات :

وإذا نظرتَ إلى الأبلّة خلتها * من جنة الفردوس حين تحيل !
كم منزل في نهرها إلى السرو * ربّانّه في غيرها لا ينزل !
وكأنّما تلك القصور عرائس * والروض حلى وهى فيه ترفل !

وشعب بَوَّانَ - وهو عِدّة قُرَى مجتمعة ومياه متصلة ، والأشجار قد غطّت تلك القرى فلا يراها الإنسان حتّى يدخلها ، وهو بظاهر هَمْدَان يشرف عليها من جبل ، وهو فى سفح الجبل والأنهار تحطّ عليه من أعلى الجبل ، وهو من أبداع بقاع الأرض منظرًا . قال المبرد : أشرفت على شعب بَوَّانَ فنظرت فإذا بماء ينحدر كأنه سلاسل فضة ، وتربة كالكاפור ، وثريّة كالثوب الموشى ، وأشجار متهادلة ، وأطيّار متجاوبة . وفيه يقول أبو الطيّب المتنبى حين مرّ به :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى * بمنزلة الربيع من الزمان !
ولكنّ الفتى العربى فيها * غريب الوجه واليد واللسان !

الجملة السابعة

(في ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية وإسلاما)

وهم عليّ ضربين :

الضرب الأول

(ملوكها قبل الإسلام)

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ لَمْ تَزَلْ بِيَدِ مُلُوكِ الْفُرْسِ لِأَبْتَدَاءِ الْأَمْرِ وَإِلَى حِينَ انْقِرَاضِ دَوْلَتِهِمْ بِالْإِسْلَامِ عَلَيَّ مَاسِيَّاتِي ذِكْرُهُ . قَالَ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاةٍ : وَهُمْ أَعْظَمُ مُلُوكِ الْأَرْضِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَدَوْلَتُهُمْ وَتَرْتِيبُهُمْ لَا يَمِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ . وَهُمْ عَلَيَّ أَرْبَعُ طَبَقَاتٍ :

الطبقة الأولى

(الفيشدازية)

سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ فَيْشْدَاذٌ وَمَعْنَاهُ سِيرَةُ الْعَدْلِ . وَأَوَّلُ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ (أَوْشَهْنِج) وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عُقِدَ عَلَيَّ رَأْسُهُ التَّاجُ وَجَلَسَ عَلَيَّ السَّرِيرِ وَرَتَّبَ الْمُلُوكَ وَنَظَّمَ الْأَعْمَالَ وَوَضَعَ الْخَرَاجَ . وَكَانَ مُلْكُهُ بَعْدَ الطُّوفَانِ بِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَتِي بَابِلَ وَالسُّوسَ ، وَكَانَ مَجْمُودَ السَّيْرِ ، حَسَنَ السِّيَاسَةِ . ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ (طَهْمُورْث) وَهُوَ مِنْ عَقَبِ أَوْشَهْنِجِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ ، وَبَيْنَهُمَا عِدَّةُ آبَاءَ ، وَسَلَكَ سِيرَةَ جَدِّهِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ بِالْفَارْسِيَةِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ (جَمَشِيد) وَمَعْنَاهُ شُعَاعُ الْقَمَرِ ، وَسَارَ سَيْرُهُ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَزَادَ عَلَيْهَا ، وَمَلَكَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ ، وَرَتَّبَ طَبَقَاتِ الْمُجَابِّ وَالْكُتَّابِ وَنَحْوَهُمْ ؛ وَهُوَ الَّذِي أَحْدَثَ التَّيْرُوزَ وَجَعَلَهُ عِيدًا ؛ ثُمَّ حَادَ عَنْ سِيرَةِ الْعَدْلِ فَقَتَلَهُ الْفُرسُ .

(١) في تاريخ أبي الفدا (بماتق) بالثنائية .

وملك بعده (بيوراسب) ويعرف بالدهَّاك^(١)، ومعناه عشر آفات، والعامة تسميه الضحاك، وملك جميع الأرض فسار بالجوَّ والعسف، وبسط يده بالقتل، وأحدث المكوس والعشور، واتخذ المغنَّين والملاهي. وسيأتي خبر هلاكه مع كابي الخارج عليه في الكلام على النحل والملل، ويقال إنه هو ومن قبله كانوا قبل الطوفان. ثم ملك بعده (إفريدون) ويقال إنه التاسع من ولد "جمشيد" المقدم ذكره، وفي أول ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضا وقسمها بين بنيهِ ومات.

فملك بعده ابنه (إيراج) بعهد من أبيه، ثم ملك بعده أخوه (شرم) و(طوج) ثم غلبهما على الملك (منوَجهر بن إيراج) وفي أيامه ظهر موسى عليه السلام. ويقال إن فرعون موسى كان عاملا له على مصر داخلا تحت أمره.

ثم تغلب على المملكة (فراسياب بن طوج) فأفسد ونحَّب؛ ثم غلبه عليها (زوبن طهماسب) من أولاد منوَجهر، فأحسن السيرة وعمر البلاد، وشقَّ نهر الزَّاب وبني مدينة على جانبه.

ثم ملك بعده (كرشاسف) من أولاد طوج بن إفريدون، وهو آخر ملوك هذه الطبقة.

الطبقة الثانية

(الكَيانية)

سُمُّوا بذلك لأن في أول أسم كل واحد منهم لفظة كي، ومعناه الروحاني وقيل الجبار. وأول من ملك منهم بعد كرشاسف المقدم ذكره (كيقباز) بن زو، فسار سيرة أبيه في العدل ومات؛ فملك بعده (كيكاؤوس) بن كينيه بن كيقباز ومات؛ فملك

(١) كذا في المختصر أيضا وفي العبر "الازدهاك بصاد بين السين والزاي وحاء قرية من الهاء وكاف قرية من القاف" وفي المسعودي "الده آك".

بعده أبنه (كيخسرو بن سياووس بن كيكائوس) بولاية من جدّه ، ثم أعرض عن الملك .

وملك بعده (كيهراسف بن أنخي كيكائوس) وأتخذ سريرا من ذهب مرصعا بالجوهر ، كان يجلس عليه ، وبني مدينة بلخ بأرض خراسان وسكنها لقتال الترك ، وفي زمنه كان يُحتنصر فجعله نائبا له ثم مات .

وملك بعده (كيهشتاسف) وبني مدينة نسا ، وفي أيامه ظهر زرادشت صاحب "كتاب المجوس" الآتي ذكره في الكلام على النحل والملل ، وتبعه كيهشتاسف على دينه ثم فقد .

وملك بعده (أردشير بهمن) ومعنى بهمن الحسن النية ابن إسفنديار بن كيهشتاسف ، وأسمه بالعبرانية كورش ، وملك الأقاليم السبعة ، وهو الذي أمر بعمارة البيت المقدس بعد أن خربه مُحتنصر .

ثم ملك بعده أبنه (دارا بن أردشير) وفي زمنه ملك (الإسكندر بن فيلبس) وغلب دارا على ملك فارس ، وأستتاب به عشرين رجلا ، وهم المسمون بملوك الطوائف ، فأقاموا على ذلك خمسمائة وأثنتي عشرة سنة ، ثم بطل حكم ذلك .

الطبقة الثالثة

(^(١) الإشغانية ، يقال لكل منهم اشغا)

وأول من ملك منهم بعد ملوك الطوائف (اشغا بن اشغان) . ثم ملك بعده أبنه (^(٢) سابور بن اشغان) عشر سنين . ثم ملك بعده (بسين بن اشغا) ستين سنة . ثم ملك بعده (جور بن اشغان) عشر سنين . ثم ملك بعده (بيرن الاشغاني) إحدى وعشرين

(١) في العبر "الاشكانية وكافها أقرب إلى الغين" فتنبه .

(٢) هنا مخالفة لما في كتابي مختصر أبي الفداء والعبر فراجعهما .

سنة ومات . فملك بعده (جودرز الاشغاني) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (نرسي الاشغاني) أربعين سنة ومات . فملك بعده (هرمز الاشغاني) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (اردوان الاشغاني) اثنتي عشرة سنة ومات . فملك بعده (خسرو الاشغاني) أربعين سنة ومات . فملك بعده (بلاش الاشغاني) أربعاً وعشرين سنة ومات . فملك بعده (اردوان الأصغر) وهو آخر ملوكهم من هذه الطبقة .

الطبقة الرابعة

(الأكاسرة)

وأول من ملك منهم (أردشير بن بابك) من عقب ساسان بن "أردشير بهمن" قتل "اردوان" وأستولى على ملكه ، فأقام أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكتب عهداً بالملك في عقبه ومات . فملك بعده أبنه (سابور) إحدى وثلاثين سنة وستة أشهر ، وفي أيامه ظهر "ماني الزنديق" وأدعى النبوة ، وأعتنى بنقل كتب الفلسفة من اللغة اليونانية إلى اللغة الفارسية ، ويقال إن العود الذي يتغنى به حدث في أيامه ومات . فملك بعده أبنه (هرمز) سنة واحدة وستة أشهر ومات . فملك بعده أبنه (بهرام) ثلاث سنين وثلاثة أشهر ومات ؛ فملك بعده أبنه (بهرام بن بهرام) سبع عشرة سنة ومات . فملك بعده أبنه (بهرام بن بهرام بن بهرام) أربع سنين ثم مات . فملك بعده أخوه (نرسي بن بهرام) تسع سنين ثم مات . وملك بعده أبنه (هرمز) تسع سنين أيضاً ومات . فملك بعده أبنه (سابور) وهو الذي عمل الجسر الثاني لدجلة ليكون أحد الجسرين للذاهبين ، والآخريين^(١) . وفي زمنه كان قُسْطَنْطِينُ ملك الروم ومات . فملك بعده أخوه (أردشير) بوصية منه ، ثم مات . فملك بعده أبنه (سابور)^(٢)

(١) قال في العبر "ضبطه الدارقطني بالراء المهملة" .

(٢) صوابه ابن أخيه .

أبن سابور) ثم ملك بعده أخوه (بهرام بن سابور) ثم ملك بعده أبنه (يزدجرد) المعروف بالأئيم؛ ثم ملك بعده (كسرى) من ولد "أردشير" [ثم ملك بعده (بهرام جور بن يزدجرد الأئيم) وكانت مدة ملكه^(١) ثلاثا وعشرين سنة ومات . فملك بعده أبنه (يزدجرد) ثمانيا وعشرين سنة ومات . فملك بعده أبنه (هرمز) ثم مات . فملك بعده أخوه (فيروز) سبعا وعشرين سنة ، وظهر في أيامه غلاء شديد . ثم ملك بعده أبنه (بلاش) أربع سنين ومات . فملك بعده أخوه (قباد) ثلاثا وأربعين سنة "وفي أيامه ظهر مردك الزنديق وادعى النبوة" ثم خلع . وملك بعده أخوه (جاماسف) [ثم تغلب عليه قباد واستمر في الملك^(٢)] ثم مات . وملك بعده (أنوشروان) ثمانيا وأربعين سنة ، وقتل مردك الزنديق وأتباعه وجماعة من المانوية ، وغلب على اليمن وأتزعها من الحبشة . وفي زمانه ولد عبدالله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ! ثم ولد النبي صلى الله عليه وسلم ! في آخر أيامه ؛ ثم مات . وملك بعده أبنه (هرمز) نحو ثلاث عشرة سنة ونصف . ثم ملك (أبرويز بن هرمز) ؛ ثم غلبه على الملك (بهرام جوين) من غير أهل بيت الملك ؛ ثم عاد أبرويز إلى الملك وملك ثمانيا وثلاثين سنة ، وتزوج شيرين المغنية وبنى لها القصر المعروف بقصر شيرين . ثم ملك بعده أبنه (شيوه) تغلبا على أبيه ثمانية أشهر . ثم ملك بعده أبنه (أردشير) سنة وستة أشهر . ثم ملك بعده (شهريران) من غير بيت الملك ثم قتل . وملك بعده (بوران) بنت أبرويز سنة وأربعة أشهر . ثم ملك بعدها (خشنشده) من بنى عم أبرويز أقل من شهر . ثم ملك بعده (أزميدخت) بنت أبرويز أخت بوران . ثم قتلت ؛ وملك بعدها (كسرى بن مهر خشنش) ؛ ثم قتلوه بعد أيام ؛ ثم ملك بعده

(١) الزيادة من تاريخ أبي الفداء ليم الكلام ويستقيم .

(٢) » » » بالمعنى لتتم الكلام .

فرخ زاد خسرو [من أولاد أنو شروان وملك ستة أشهر وقتلوه؛ ثم ملك] (١١) (يزدجرد) وهو آخرهم .

الضرب الثاني

(ملوكها بعد الإسلام، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(عُمال الخلفاء)

قد تقدم أن فتحها كان في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فتوالت عليها عُمال الخلفاء في بقية خلافة عمر ، ثم في خلافة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ومُقامهما يومئذ بالمدينة النبوية ؛ ثم لما بويع أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه بالخلافة بعد قتل عثمان ، جعل إقامته بالعراق ؛ ثم كان بعده ابنه الحسن السبط رضى الله عنه ، فأقام بالعراق إلى أن سَلَّمَ الأمر إلى (مُعاوية بن أبي سُفيان) وصارت الخلافة إلى بنى أُمية ، وجعلوا دار إقامتهم بالشَّام وتوالت على هذه المملكة نوابهم في خلافة معاوية ؛ ثم (ابنه يزيد) ؛ ثم (ابنه معاوية بن يزيد) ؛ ثم (مروان بن الحكم) ؛ ثم (عبد الملك بن مروان) ؛ ثم (الوليد ابن عبد الملك) ؛ ثم (سليمان بن عبد الملك) ؛ ثم (عُمَر بن عبد العزيز) ؛ ثم (يزيد ابن عبد الملك) ؛ ثم (هشام بن عبد الملك) ؛ ثم (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ؛ ثم (يزيد بن الوليد بن عبد الملك) ؛ ثم (إبراهيم بن الوليد) ؛ ثم (مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم) وهو آخرهم .

(١) أى ابن شهریار . وبقية نسبه في تاريخ أبي الفداء والزيادة منه ليم الكلام .

الطبقة الثانية

(خلفاء بني العباس)

وقد تقدم في أول هذه [المقالة] أن دار مقامهم كانت بالعراق، وأن أول من ولي منهم الخلافة (أبو العباس السفاح)، فبنى المدينة الهاشمية ونزلها، ثم انتقل منها إلى الأنبار فكانت دار مقامه إلى أن مات؛ ثم كان بعده أخوه (أبو جعفر المنصور) فبنى بغداد وسكنها؛ ثم سكنها بعده آبنه (المهدى) بن المنصور؛ [ثم آبنه (الهادى) ^(١)]؛ ثم أخوه (هارون الرشيد) بن المهدى؛ ثم آبنه (الأمين)؛ ثم أخوه (المأمون)؛ ثم أخوه (المعتصم) بن الرشيد؛ ثم (الواثق) بن المعتصم؛ ثم أخوه (المتوكل)؛ ثم آبنه (المنتصر)؛ ثم (المستعين بن المعتصم)؛ ثم (المعتز بن المتوكل)؛ ثم (المهتدي) ابن الواثق؛ ثم (العميد بن المتوكل)؛ ثم (المعتضد بن الموفق طليحة) بن المتوكل؛ ثم آبنه (المكتفي) بن المعتضد؛ ثم أخوه (المقتدر)؛ ثم (المرتضى) بن المعتز؛ ثم أخوه (القاهر)؛ ثم (المقتدر) المقدم ذكره؛ ثم أخوه (القاهر) المقدم ذكره؛ ثم ابن أخيه (الراضى)؛ ثم أخوه (المتقي)؛ ثم ابن عمه (المستكفي)؛ ثم ابن عمه (المطيع)؛ ثم آبنه (الطائع)؛ ثم (القادر)؛ ثم آبنه (القائم)؛ ثم ابن آبنه (المقتدى)؛ ثم آبنه (المستظهر) ثم آبنه (المسترشد)؛ ثم آبنه (الراشد)؛ ثم (المقتفي) بن المستظهر؛ ثم آبنه (المستنجد)؛ ثم آبنه (المستضيء)؛ ثم آبنه (الناصر)؛ ثم آبنه (الظاهر)؛ ثم آبنه (المستنصر)؛ ثم آبنه (المستعصم) وقتله هولاكو ملك التتار الآتى ذكره، في العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة، وهو آخرهم ببغداد.

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَ الْخِلَافَةِ كَانَ قَدْ وَهِيَ وَضَعُفٌ، وَتَنَاهَتْ فِي الضَّعْفِ أَيَّامُ الرَّاضِي، وَتَغْلَبَ عُمَالُ الْأَطْرَافِ عَلَيْهَا، فَاسْتَوْلَى مُحَمَّدُ بْنُ رَاقٍ مِنَ الْفَرَاتِ عَلَى الْبَصْرَةِ،

(١) سقط من قلم الناسخ فأثبتناه ليم الكلام وينظم.

والبريدى على خوزستان، وعماد الدولة بن بويه على فارس، ومحمد بن الياس على
 كرمان، وركن الدولة بن بويه على الري وأصفهان، وبنو حمدان على الموصل وديار
 بكر وديار مضر وديار ربيعة، وغير أقطار هذه المملكة مع ملوك آخر. ولم يبق للخليفة
 غير بغداد وأعمالها، وأستولى ابن رائق على جميع الأمور وخطب باسمه على المنابر،
 وأقام سنة وعشرة أشهر، ثم صار الأمر بعده إلى (يحكم) مملوك وزير (ماكان) بن كاكى
 الديلمى وأستمر أيام الراضى فقتل؛ وأستقر (البريدى) بمده فى أيام المتقى وأيام
 المستكنى، وضربت ألقابه على الدنانير والدرهم، وخطب باسمه على المنابر، وأستمر
 ذلك لذويه من بعده؛ ثم ملك بعده (بختيار)؛ ثم ابن عمه (عضد الدولة) بن ركن
 الدولة حسن بن بويه؛ ثم ابنه (صمصام الدولة) بن عضد الدولة، ثم أخوه (شرف
 الدولة شيرزبك) بن عضد الدولة؛ ثم أخوه (بهاء الدولة أبو نصر) بن عضد الدولة؛
 ثم ابنه (سلطان الدولة أبو شجاع)؛ ثم ابنه (بهاء الدولة)؛ ثم أخوه (مشرف الدولة
 ابن بهاء الدولة)؛ ثم أخوه (جلال الدولة) أبو الطاهر بن بهاء الدولة؛ ثم ابن أخيه
 (أبو كالجار) بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة؛ ثم ابنه الملك الرحيم (خسرو فيروز)
 ابن كالجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه.
 وبنو بويه هؤلاء ينسبون إلى يزيد جرد ملك الفرس.

ثم كانت دولة السلجوقية. وهى من أعظم الدول الإسلامية، ونسبتهم إلى
 سلجوق بن دقاق أحد مقدّمى الأتراك، وبهم زالت دولة بنى بويه عن بغداد
 وأعمال الخلافة.

وأول من ملك منهم (طغرل بك) بن ميكائيل بن سلجوق فى سنة اثنتين وثلاثين
 وأربعمائة؛ ثم ملك بعده ابن أخيه (ألب أرسلان) بن داود بن ميكائيل؛ ثم ابنه

(١) فى الأصل "ثم ابنه" وهو خلاف الواقع.

(٢) أجمعت التواريخ على إسقاط هذا من البين، وهو ما تقتضيه عبارة المؤلف.

(ملكشاه) بن ألب أرسلان ، ثم آبنه (محمود بن ملكشاه) ، ثم أخوه (بريكرق) آبن ملكشاه ، ثم أخوه (محمد بن ملكشاه) ، ثم آبنه (محمود بن محمد) ، ثم آبنه (داود بن محمود) ، ثم عمه (طغرليك) بن محمد ، ثم أخوه (مسعود) بن محمد ، ثم آبن أخيه (ملكشاه) بن محمود ، ثم أخوه (محمد بن محمود) . ثم قام منهم ثلاثة : وهم (ملكشاه بن محمود) أخو محمد المذكور ، و (سليمان شاه) بن محمد بن ملكشاه ، وهو عم محمد المذكور ، و (أرسلان شاه) بن طغرليك بن محمد بن ملكشاه . ثم قبض على سليمان شاه ، ومات ملكشاه ، وأنفرد أرسلان شاه بن طغرليك بالسلطنة . ثم ملك بعده آبنه (طغرليك) بن أرسلان شاه وبقى حتى قتله علاء الدين تكتش صاحب خوارزم وبعض خراسان والرّي وغيرها ، في خلافة الناصر لدين الله في سنة تسعين وخمسة ، واشتغل (خوارزم شاه) عن فصل العراق فبقى بيد الخلفاء من لدن الناصر لدين الله ، ومن بعده إلى أن انقرضوا بفعله هولاكو ملك التتر الآتى ذكره .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بني جنكزخان)

وأول من ملكها منهم (هولاكو) بن طولی بن جنكزخان المقدم ذكره ، قصدها بأمر أخيه منكوقان بن طولی صاحب التخت في سنة خمسين وستمائة ، وقتل المستعصم آخر الخلفاء ببغداد ، وأستولى على جميع المملكة . قال في "مسالك الأبصار" : قال شيخنا العلامة شمس الدين الأصفهاني : إلا أن هولاكو لم يملك ملكا مستقلا بل كان نائبا عن أخيه منكوقان ، ولم يضرب بأسمه سكة درهم ولا دينار ، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان . قال : وكان يكون لصاحب التخت أمير لا يزال مقيا في مملكة إيران مع هولاكو ، ومات في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين

وستمائة ؛ وملك بعده (أبنة أبغا) . قال الشيخ شمس الدين الأصفهاني : ولما ملك أضاف اسمه في السكة إلى اسم صاحب التخت ، وكان قد وجه أخاه منكوتمر إلى الشام وآلتقى مع الجيوش الإسلامية على حمص ، وأنكسر عليها ؛ ومات سنة إحدى وثمانين وستمائة ؛ وملك بعده أخوه (بوكدار بن هولاءكو) وأسلم وحسن إسلامه وتلقب أحمد سلطان ، وحمل العسكر على الإسلام فقتلوه ؛ وملك بعده ابن أخيه (أرغون) بن أبغا بن هولاءكو في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وتوفي في ربيع الأول سنة تسعين وستمائة ؛ وملك بعده أخوه (كيتخو) نخرج عن الياسة وأخس في الفسق بنساء المغل وأبناءهم ، فوشب عليه بنو عمه فقتلوه في ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وستمائة ؛ وملك بعده (بيدو بن طرغاي) ابن هولاءكو ، وبقي حتى قتل في ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ وملك بعده (محمود غازان) بن أرغون بن أبغا بن هولاءكو ، ودخل إلى الشام ، وكان بينه وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون وقعات بجمص وغيرها آخرها على شقحب ، كسر فيها كسرة فاحشة ، هلك فيها معظم عسكره في سنة اثنتين وسبعائة ، وبقي حتى توفي في ثالث عشر شوال سنة ثلاث وسبعائة ؛ وملك بعده أخوه (خدابندا) والعامية تقول خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاءكو في الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وسبعائة ؛ ثم ملك بعده (أبو سعيد بن خدابندا) وهو آخر من ملك من بني هولاءكو ، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتبات ومراسلات وتودد بعد وحشة ، وبموته تفرقت المملكة بأيدي أقوام ، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفرس .

قال في "مسالك الأبصار" بعد ذكر أبي سعيد : ثم هم بعده في دهماء مظلمة ، وعمياء مقتمة ؛ لا يُفَضَّى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولا فسادهم إلى

صَلَّاحُ ؛ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ هَاتِفٌ ، يَدْعِي بِاسْمِهِ ، وَخَائِفٌ ، أَخَذَ جَانِبًا إِلَى قَسَمِهِ ؛ وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَتَغَلَّبُ وَتَقِيمُ قَائِمًا تَقُولُ هُوَ مِنْ أَبْنَاءِ الْقَانِ ، وَتَنْسِبُهُ إِلَى فَلَانٍ ؛ ثُمَّ يَضْمَحَلُّ أَمْرُهُ عَنْ قَرِيبٍ ، وَلَا تَلْحَقُ دَعْوَتُهُ حَتَّى يَدْعِيَ فَلَا يَجِيبُ ، وَمَا ذَلِكَ مِنَ الدَّهْرِ بِعَجِيبٍ . وَذَكَرَ نَحْوَهُ فِي "التَّعْرِيفِ" وَزَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ : "وَكَانَ الْعَهْدُ بِهِذِهِ الْمَمْلَكَةِ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ وَسُلْطَانٍ فَرْدٍ مَطَاعٍ ، وَعَلَى هَذَا مَضَتْ الْأَيَّامُ إِلَى حِينِ وَفَاةِ أَبِي سَعِيدٍ ، فَصَاحَ فِي جَنَابَاتِهَا كُلِّ نَاعِقٍ وَقَطَعَ رِءَاةَهَا كُلِّ جَاذِبٍ ، وَتَفَرَّدَ كُلُّ مَتَغَلَّبٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ ؛ فَهِيَ الْآنَ تُهْبِي بِأَيْدِيهِمْ .

فَأَمَّا عِرَاقُ الْعَرَبِ وَهُوَ بَغْدَادُ وَبِلَادُهَا وَمَا يَلِيهَا مِنْ دِيَارِ بَكْرٍ ، وَرَبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، فَبِيدُ الشَّيْخِ حَسَنِ الْكَبِيرِ ، وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ أَقْبَعَا مِنْ طَائِفَةِ التُّورَانِيِّينَ ، كَانَ جَدُّهُ نَوَكْرًا لِهَوْلَاكُو بْنِ طُولِي بْنِ جَنْكِرْخَانَ ، وَالنَّوَكْرُ هُوَ الرِّفِيقُ .

وَأَمَّا بَقِيَّةُ دِيَارِ بَكْرٍ ، فَبِيدُ إِبْرَاهِيمَ شَاهِ بْنِ بَارَنْبَايَ بْنِ سُونَايَ .

وَأَمَّا مَمْلَكَةُ أَذَرْبَيْجَانِ وَهِيَ قُطْبُ مَمْلَكَةِ إِيرَانَ ، وَمَقَرُّ كُرْسِيِّ مُلُوكِهَا مِنْ بَنِي جَنْكِرْخَانَ ؛ فَهِيَ الْآنَ بِيْدُ أَوْلَادِ جَوَابَانَ ، وَبِهَا الْقَانُ الْقَائِمُ بِهَا (سَلِيمَانُ شَاهٍ) . قَالَ : وَلَا أَعْرِفُ صَحَّةَ نَسَبِهِ وَلَا سِيَاقَتَهُ بِالْدَّعْوَى .

وَأَمَّا خِرَاسَانُ ، فَبِيدُ الْقَانِ طَغَيْمَرِيَارٍ . وَهُوَ صَحِيحُ النِّسَبِ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْ أَسْمَ آبَائِهِ .

وَأَمَّا بِلَادُ الرُّومِ ، فَقَدْ أُضْيفَتْ إِلَى إِيرَانَ مِنْهَا قِطْعَةٌ صَالِحَةٌ ، وَبِلَادُ نَازَحَةٍ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَهِيَ الْآنَ بِيْدُ أَرْتَا ، وَقَدْ نَبِهَ عَلَى ذَلِكَ لِيَعْرِفَ .

قُلْتُ : ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ عَنْ ذَلِكَ .

الجملة الثامنة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها فالمعتبر فيها معاملة ثلاث قواعد .

الأولى - (بَغْدَاد) . قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن ببغداد دينارين . أحدهما يسمى العوال ، عنه أثنا عشر درهما ، الدرهم بقيراط وحتين . وذلك أن الدينار عشرون قيراطا ، كل قيراط ثلاث حبات ، كل حبة أربعة فلوس من الدرهم النقرة ، عن كل فليس فلسان أحران . والثاني الدينار المرسل ، عنه عشرة دراهم ، وبه أكثر مبيعاتهم ومعاملات تجّارهم . وقد اختلف أصحاب الشافعية في رطل بَغْدَاد ، فذهب الرافعي إلى أنه مائة وثلاثون درهما وهو الموجود فيها الآن ، وعليه أقصر في "مسالك الأبصار" . وذهب الشيخ محي الدين النووي إلى أنه مائة وسبعة وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم ، والمن بها رطلان بالتوراني . ومكاييلها أكبرها الكُرْ ، وهو ثلاثون كارة ، كل كارة قفيزان ، فيكون الكُرْ [ستين] قفيزا ، والقفيز مكوّن كل مكوّن خمس عشرا^(١) . وتختلف الكارة في الغلال ، فالقمح كارته مائتان وأربعون رطلا ، وكارة الأرز ثلثمائة رطل ، وكارة كل من الشعير والجمّص والعدس والمُرطمان مائة رطل ، وكارة الحبة السوداء ، وهي الشونيز مائة رطل .

الثانية - (تَوْرِيْز) قاعدة أذربيجان وسائر المملكة غير بغداد وخراسان . فمعاملاتها بدينار يسمى عندهم بالراج ، عنه ستة دراهم .

الثالثة - (نَيْسَابُور) قاعدة خراسان . فدينارها أربعة دراهم ، وفي بعضها الدينار الراج المقدم ذكره . قال في "مسالك الأبصار" : ولا يساع بتوريز وبلادها

(١) كذا في الأصل ، وقد تكلم على المكوّن صاحب القاموس وصاحب اللسان بأوضح مما هنا .

في الغالب قُحَّ ولا شعير ونحوهما إلا بالميزان، وليس لهم إلا المن، وهو بتوريز رطلان بالبغدادى، فتكون زنته مائتين وستين درهما، وبالسلطانية المن ستمائة درهم .

وأما أسعارها فنقل في "مسالك الأبصار" عن يحيى بن الحكيم الطيارى في السعر ببغداد : أن كُرَّ القمح بتسعة وثلاثين دينارا ونصف دينار، والشعير بنجسة عشر دينارا، كلاهما من العوال . ثم قال : ولعل هذا هو السعر المتوسط، لا يكاد يميل فيه القانون عن معدله . وذكر أن الأسعار بتبريز والسلطانية إذا لم ينزل عليها السلطان، فأسعارها رَخِيَّة لا إلى غاية، وكل بلد نزل عليه السلطان غلت أسعاره، ولعل هذا قد تغير كل في زماننا كما تغير غيره من الأحوال .

الجملة التاسعة

(في ترتيب هذه المملكة على ما كانت عليه في زمن نبي هولاكو، آخر أيام
أبى سعيد : من الأمراء والوزراء وأرباب الوظائف)

أما الأمراء . فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنهم عندهم على أربع طبقات أعلاها النوين ، وهو أمير عشرة آلاف، ويعبر عنه بأمير تومان، إذ التومان عندهم عبارة عن عشرة آلاف ، ثم أمير ألف ، ثم أمير مائة ، ثم أمير عشرة . قال في "التعريف" : (وحكام دولة هذا السلطان أمراء الألوس، وهم أربعة، أكبرهم بكلارى بك : وهو أمير الأمراء، كما كان قطلوشاه عند غازان، وجوبان عند خدابندا، ثم عند أبى سعيد). قال : وهؤلاء الأمراء الأربعة لا يُفصل جليل أمر إلا بهم، فمن غاب منهم كتب في اليرالغ : وهى المراسيم كما يكتب لو كان حاضرا، ونائبه يقوم عنه، وهم لا يُمضون أمرا إلا بالوزير، والوزير يمضى الأمور دونهم ويأمر توابهم فتكتب أسماءهم، والوزير هو حقيقة السلطان، وهو المنفرد بالحديث في المال ،

والولاية، والعزل، حتّى في جلائل الأمور كما كانت بكلارى بك يتحدّث في أمر
العسكر بمفرده. فأما الاشتراك في أمور الناس فبهم أجمعين، وليس للأمرءاء في غالب
ذلك من العلم إلا ما علم نوابهم .

قال في "مسالك الأبصار" نقلا عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى : وأمر
الجيوش والعساكر إلى كبير أمرءاء الألوُس المسمّى بكلارى بك، كما كان قتلوشاه مع
السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابندا، وجوبان مع خدابندا، ثم بعده مع ولده
السلطان أبى سعيد بهادرخان، والشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع خانة السلطان
محمد بن طشتمر بن اشتمر بن غبرجى، وإليه يقطع أمر كل ذى سيف. قال : وأمر
متحصّلات البلاد ودخلها ونخرجها إلى الوزير، وإليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب
شرعى، وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع، لا يُساور السلطان
إلا فيما جَلَّ من المهمات وما قَلَّ من الأمور، وهو السلطان حقيقةً وصاحب البلاد
معنى، وإليه ترجع الأمور كلها، وإليه عقدها وحلّها. أما السلاطين بها فلا آلتفات
لهم لأمر ولا نهى ولا نظر في متحصّل ولا دخل ولا خرج. قال : وعدة جيشهم
المنزلة في دواوينهم لا تبلغ عشرين تومانا. أما إذا أرادوا فإنهم يركبون ثلاثين تومانا
وما يزيد عليها، وعامة العسكر لا تزال أسماءهم في دواوينهم على الأفراد، وكل طائفة
منهم عليهم في الديوان فارس معين، إذا رسم لهم بالركوب ركب العدة المطلوبة. قال :
وقد ذكر أنه كان في هذه المملكة عدّة ملوك كصاحب هراة، وحلول الجبل هم كالعبيد
لقائنا الأكبر متقادون إليه وداخلون تحت طاعته .

وأما القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها في صحبة السلطان قاضى قضاة الممالك،
وهو الذى يولّى القضاة في جميع المملكة على تناسل أقطارها إلا العراق، فإن لبغداد
قاضى قضاة مستقلّ بها يولّى فيها وفي بلادها من جميع عراق العرب .

وأما الكُتَّاب وأصحاب الدَّواوين : من ديوان الإنشاء ودواوين الأموال ، فعلى
أتمَّ نظام وأعدلِ قاعدة .

الجملة العاشرة

(فيما لأرباب المناصب والجُند من الرزق على السلطان)

قد نقل في "مسالك الأبصار" عن نظام الدين الطيارى : أن المقرَّر للأمرء
في القديم من زمن هولاكو لكل نوين (أمير) تومان : وهو عشرة آلاف دينار راجح ،
عنها ستون ألف درهم ، ثم تزايد الحال بهم حتى لا يقع النوين فيهم إلا بخمسين
ألف^(١) تومان ، وهي خمسمائة ألف دينار راجح ، عنها ثلاثة آلاف ألف درهم ، ومن
خمسين توماناً إلى أربعين توماناً . وكان قد استقر لجوبان ، وهو يومئذ بكلارى بك
ثم لمن بعده ثلثمائة تومان ، وهي ثلاثة آلاف ألف دينار راجح ، عنها ثمانية عشر
ألف ألف درهم مع ما يحصل لكل من أمرء الألوس الأربعة من الخدم الكثيرة
في البلاد جميعها عند تقريرات الضمان بها على صُمنائها . قال : وأما أمير ألف ومن
دونه ، فلا يتجاوز أحد منهم تقريره القديم في الديوان : وهو لأمرء الألف ألف دينار
راجح ، عنها ستة آلاف درهم . وأما أمير المائة وأمير العشرة وكل واحد من العسكرية
إلى الجند فمائة دينار راجح ، عنها ستمائة درهم لا تفاوت بينهم ، وإنما تبقى منزلة أمير
المائة أو العشرة أنه يأخذ لنفسه شيئاً مما هو للعسكرية ، ولكل طائفة أرض لتزولهم ،
توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو البلاد ، فيها منازلهم ، ولهم بها من درع
لأقواتهم ، لكنهم لا يعيشون بالحرق والزرع .

وأما الخواتين فإنه يبلغ ما للخاتون الواحدة في السنة مائتي تومان ، وهو ألف ألف^(٢)

(١) لعل لفظ ألف من زيادة النسخ كما يستفاد من الفذلكة بعد فتأمل .

(٢) كذا في الأصل ، ولعل الصواب ألفاً ألفاً بالثنية ليستقيم الحساب .

دينار راجح، عنها اثنا عشر ألف ألف درهم، وما دون ذلك إلى عشرين تومانا، وهو مائتا ألف دينار، عنها ألف ألف ومائتا ألف درهم .

وأما الوزير فله مائة وخمسون تومانا، وهو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار راجح، عنها تسعة آلاف ألف درهم، ولا يقنع بعشرة أضعاف هذا في تقادير البلاد .

وأما الخواجكية من أرباب الأقاليم، فمنهم من يبلغ في السنة ثلاثين تومانا، وهي ثلثمائة ألف دينار، عنها ألف ألف وثمانمائة ألف درهم . ثم قال : والذي للأمرء والعسكرية لا يكتب به مرسوم، لأن كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها، وهم على الجهات التي قررها لهم هولا كولو لم تتغير بزيادة ولا نقص، إلا أكابر الأمرء الذين حصلت لهم الزيادات فإنه في ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان أصدرها الوزراء عنه، ومن الخواتين من أخذ بماله أو ببعضه بلادا فهي له . قال : وفي هذه المملكة ما لا يحصى من الإدارات والرسومات حتى إن بعض الرواتب يبلغ ألف دينار .

وأما الإدارات من المبلغ أو القرى، فإنها تبقى لصاحبها كالمملك يتصرف فيه كيف شاء من بيع وهبية ووقف لمن أراد .

الجملة الحادية عشرة

(في ترتيب أمور السلطان بهذه المملكة على ما كان الأمر عليه)

حكى في "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن أهل هذه المملكة من التتر كانوا قد داخلوا العجم وزوجوهم وتزوجوا منهم، وخلطوهم بالنفوس في الأمور، فتفخمت قواعدهم، وجرت على عوائد الخلفاء والملوك في غالب الأمور قوانينهم .

ثم للسلطان بهذه المملكة مَشَقَّى ومَصِيف :

فأما مَشَتَاه فبأوجان بظاهر تبريز ، وهو مكان متسع ذو مُرُوج ومياه على ماتقدم ذكره ، وبه قُصُور لأكابر الأمراء والخواتين . أما عامة الأمراء والخواتين ، فإنهم يتخذون زُرُوبا من القصب كالحظائر يتردّون بها ، وينصبون معها الخركوات والخيام ، فتصير مدينة متسعة الجوانب ، فسيحة الأرجاء ، حتى إذا خرجوا لمصيفهم راحلين عنها ، أحرقوا تلك الحظائر لكثرة ما يتولد فيما بقي منها من الأفاعى والحيات ، ولا يبالون بما يُغرم عليها من كثير الأموال .

وأما مَصِيفه فمكانٌ يعرف بقراباغ ، ومعناه البستان الأسود ، وفيه قُرَى ممتدة ، وهو صحيح الهواء ، طيب الماء ، كثير المرعى . وإذا نزل به الأردوا ، وهو وطاق السلطان وأخذت الأمراء والخواتين منازلهم ، نُصِب هناك مساجد جامعة ، وأسواق متنوعة ، يوجد بها من كل ما فى أمهات المدن الكبار حتى يكون بها أسواق لا ينكر أحد على أحد ، بل كل أحد وما آستحسن ، إلا أن الأسعار تغلو حتى يصير الشيء بقيمة مثليه أو أكثر لكلفة الحمل ومشقة السفر . وذكر أنه كان من عادة سلطانهم أنه لا يعمل موكبا ، ولا يجلس لخدمة ولا لقراءة قصص حكيمة وإبلاغ مظالم إليه ، بل له من أبناء الأمراء خاصة له يقال لهم الإينافية ، يكونون حوله لا يكاد منهم من يفارقه .

فأما الأمراء فإنهم يركبون فى غالب الأيام على نحو عشرين غلوة سهم منها إلى باب الكرباس ، وتتصب لهم هناك كراسى صندلية ، يجلس كل أمير منهم على كرسى منها بحسب مراتبهم : الأعلى ثم الأدنى ، ويدخل الوزير فى بكرة كل يوم على القان ، ويبقى الأمراء على باب الكرباس ، فإذا خرج لهم القان ، وإما أن يأذن لهم فى الدخول ، أو لا هذا ولا هذا . فإذا حضر طعام القان بعث إلى كل أمير منهم شيئا للأكل بمفرده يأكله هو ومن أنضم معه ، فياكلون ثم يتفرقون ويذهبون إلى حالهم ، ومن تأخر منهم عن الحضور لم يطلب بحضور إلا أن تدعو الحاجة .

أما الظَّلَامَات فإن كانت متعلّقة بالعسكرية، فإلى أمير الألوس. وإن كانت متعلقة بالبلاد والأموال أو الرعايا، فإلى الوزير. بل أكثر الظَّلَامَات لا يفصلها إلا الوزير لملازمته باب القان، بخلاف أمير الألوس لقلة ملازمته. ثم قال: وليس في هذه البلاد قاعدة محفوظة، بل كل من أنصوى إلى خاتون من الخواتين أو أمير من الأمراء أو كبير من الخواجكية، قام بأمره إما في قضاء حاجة يطلبها، أو إزالة ظُلّامة يشكوها، حتّى إن من الخواتين والأمراء من يقتل ويُسّط بيده بغير أمر القان ولا أمير الألوس.

الجملة الثانية عشرة

(فيما يتعلق بترتيب ديوان الإنشاء بهذه المملكة)

أما اليرالغ: وهى المراسيم، فالمتعلق بالأموال تسمى الطن طمغا ويكون صدورها عن رأى الوزير، وكذلك المتعلق بالبريد. والمتعلق بالعسكرية صادر عن أمير الألوس، وليس لأحد على الجميع خطّ إلا الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرى، ثم تؤخذ خطوط المتحدثين فيما يكتب، ثم تحرر مسودة وتعرض على الوزير فيأمر بتبديضها، فإذا بيّضت كتب عليها اسم السلطان، ثم تحته اسم الأمراء الأربعة، ويخلى تحته مكان لخط الوزير، ثم يكمل اليرلغ ويختتمه بالتاريخ شخص معدّ لذلك غير من يكتب، ثم يكتب الوزير في المكان الخالى "فلان سورى" أى هذا كلام فلان يسمى نفسه.

ثم إن كان متعلقا بالمال أثبت بالديوان المتعلق به، وإلا فلا. وأما المتعلق بالعسكر، فنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس يأمرهم على بقية الترتيب، ولا خطّ لأمر الألوس بيده. وعادة أصحاب الدواوين عندهم كما هو بمصر والشام لا يعلم صاحب علامة حتّى يرى خط نائبه عليه أولا ليَعْلَم أنه قد ثبت عنده.

قلت: وقد اختلفت الأحوال بعد ذلك وتغيرت عما كانت عليه في جُل الأمور.

المملكة الثانية

(مما بيد بني جنكرخان مملكة تُورَان)

قال في "المشترك" : يضم المنشأة من فوق وسكون الواو ثم راء مهملة وألف ونون . قال في "التعريف" : وهى من نهر يُلخ إلى مطلع الشمس على سمت الوسط ، فما أخذ عنها جنوبا كان بلاد السُّند ثم الهند ، وما أخذ عنها شمالا كان بلاد الخفجاخ ، وهى طائفة القَبجاق ، وبلاد الصَّقَب ، والجهار كس ، والروس ، والمجار ، وما جاورهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال . قال : ويدخل فى تُورَان ممالك كثيرة ، وبلاد واسعة ، وأعمال شاسعة ، وأمم مختلفة لاتكاد تحصى ، تشتمل على بلاد غَزَنَة ، والبَليان ، والغُور ، وما وراء النهر الذى هو نهر جِيحُون ، نحو بُخارا وسمَرْقند والصَّفد وتُجند وغير ذلك ، وبلاد تُرْكُستَان وأشروسنة وفَرَغانة ، وبلاد سَاغُون وأطَرار وصر يوم ، وبلاد الخِطَا نحو بشالق والمالِق إلى قَراقُوم ، وهى قرية جنكرخان التى أخرجته ، وعِريستَه التى أدرجته . إلى ما وراء ذلك من بلاد الصِّين وصين الصِّين . ثم قال : وكل هذه ممالك جليله ، وأعمال حفيله . أما فى "المشترك" : فإنه قد جعل تُورَان أسما لمجموع ما وراء النهر من مملكة الهياطلة ، وهى جزء مما تقدّم ذكره .

وقد قسم فى "التعريف" ^(١) : مملكة تُورَان إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول - منها غزنة وبخارا وسمَرْقند وعامة ما وراء النهر وتُرْكُستَان .

قال فى "مسالك الأبصار" : وما بعده ومامعه . قال : وهى من أجل الممالك وأشهرها . ثم قال : وهى ممالك طائفة السَّمْعَة ، طائفة البُقْعَة ، أَسْرَة ملوك ، وأُفُق عُلَمَاء ، ودائرة أكابر ، ومَعْقِد أَلَوِيَّة وبنود ، ومجرى سوابق وجنود ، كانت

(١) عبارة "التعريف" وأما مملكة توران فهى منقسمة ثلاثة أقسام وبها سلطانان مسلمان و سلطان كافر . ثم تكلم على المكاتبه إلى الجميع .

بها سلطنة الخانية وآل سامان وبني سُبُكْتِكِين والغورية؛ ومن أُنْفَقَهَا بَزَغَتْ شَمْسُ
 آل سَلْجُوق، وَاُمْتَدَّتْ فِي الْإِشْرَاقِ وَالشُّرُوقِ؛ وَغَيْرَ هَذِهِ الدُّوَلِ مِمَّا طَمَّ سَهْوَلُ هَذِهِ
 الْمَمَالِكِ عَلَى قَرَبِهَا. كَانَتْ قَبْلَ أَنْتَقَالِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، فِي مَلُوكِ التَّرْكِ لَا تَرَامِي وَلَا
 تَرَامٍ، وَلَا يَشِقُّ لَهَا سَهَامٌ؛ حَتَّى [إِذَا] خِيَمَ بِهَا الْإِسْلَامُ وَحَازَ مَلِكُهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ، بَرَقَتْ
 بِالْإِيمَانِ أَسْرَتُهَا، وَتَطَرَّزَتْ بِالْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ قَرَاهَا؛ ثُمَّ بَنِيَتْ بِهَا الْمَدَارِسُ وَالْخَوَانِقُ
 وَالرُّبُطُ وَالزَّوَايَا، وَأَجْرِيَتْ الْأَوْقَافُ عَلَيْهَا، وَكَثُرَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَهْلِهَا، وَسَارَتْ لَهَا
 التَّصَانِيفُ الْمَشْهُورَةُ فِي الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْأَصُولِ وَالْخِلَافِ، وَكَانَ فِيهِمُ الرُّؤَسَاءُ
 وَالْأَعْلَامُ، وَالْكِبَرَاءُ أَهْلُ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ. ثُمَّ قَالَ: وَهِيَ فِي أَوَاسِطِ الْمَعْمُورِ وَأَوْسَعِ
 الْأَرْضِ إِذَا قِيلَ إِنَّهَا أَخْضَبَ بِلَادَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْثَرَهَا مَاءً وَمَرْعًى، لَمْ يُغَيِّرِ الْقَائِلُ
 الْحَقُّ فِي أَوْصَافِهَا؛ ذَاتَ الْأَنْهَارِ السَّارِحَةِ، وَالْمَرْوَجِ الْمَتَدَّةِ؛ كَأَنَّمَا نَشَرْتَ الْحُلَّ عَلَى
 آفَاقِهَا، وَنَثَرْتَ الْحُلَّ عَلَى خَضَبَاتِهَا.

وَيَرْجِعُ الْمَقْصُودُ مِنْهَا إِلَى سَبْعِ جُمَلٍ.

الجملة الأولى

(فِي ذِكْرِ حُدُودِهَا، وَطُولِهَا وَعَرْضِهَا، وَمَوَاقِعِهَا مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ)

أَمَّا حُدُودُهَا وَطُولُهَا وَعَرْضُهَا، فَقَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ": وَهِيَ وَاقِعَةٌ بِشَرْقِ
 مُحِيطِ آخِذَةٍ إِلَى الْجَنُوبِ؛ يَحْدُهَا السَّنْدُ مِنْ جَنُوبِهَا، وَالصَّيْنُ مِنْ شَرْقِهَا، وَخَوَارَزْمُ
 وَإِيرَانُ مِنْ جَنُوبِهَا، وَطُولُهَا مِنْ مَاءِ السَّنْدِ إِلَى مَاءِ أَيْلَا الْمُسَمَّى قَرَاخُوجَا، وَهِيَ
 تَلِي بِرِ الْخَطَا، وَعَرْضُهَا مِنْ وَتَجٍّ وَهُوَ مَنَبِعُ نَهْرِ جَيْحُونٍ إِلَى حُدُودِ كُرَّكَانَجٍ قَاعِدَةُ
 خَوَارَزْمٍ؛ وَحَدُّهَا مِنَ الْجَنُوبِ جِبَالُ الْبَتِّ وَمَاءُ السَّنْدِ الْفَاصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّنْدِ؛
 وَمِنَ الشَّرْقِ أَوَائِلُ بِلَادِ الْخَطَا؛ وَمِنَ الشَّمَالِ مَرَاغِي بَارَانَ وَكَنْدُ وَبَعْضُ خِرَاسَانَ

إلى بحيرة خُوارزَمَ، ومن الغرب بعض خُراسَانَ إلى خُوارزَمَ إلى مجرى النهر أخذنا على الخُتَل . ثم حكى عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن بلاد هذه المملكة متصلة بخُراسَانَ متداخلة بعضها ببعض، لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا مَفَاذَة، بل بينها وبين خُراسَانَ أنهار جارية ومزارع متصلة .

الجملة الثانية

(فيما يدخل فى هذه المملكة من الأقاليم العرفية، وهى سبعة أقاليم)

الإقليم الأول منها

(ما وراء النهر)

قال فى "تقويم البلدان" : والذى ظهر لنا فى تحديد ما وراء النهر أنه يحيط به من جهة الغرب حدود خُوارزَمَ، ومن الجنوب نهر جِيحُون من لَدُنْ بَدْخَشَانَ إلى أن يتصل بحدود خُوارزَمَ، فإن جِيحُون فى الجملة يجرى من الشرق إلى الغرب، وإن كان يعرض فيه عَطَفَات تجرى جنوبا مرة وشمالا أخرى . ثم قال : أما حدوده من الشرق والشمال فلم تتضح لى . قال صاحب "كتاب أشكال الأرض" : وما وراء النهر من أخصب الأقاليم منزلة، وأنزهها وأكثرها خيرا، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير، وأستجابة لمن دعاهم، مع قلة غائلة، وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعدة وعدة، وآلة وكراع وبسالة وعلم وصلاح، وليس من إقليم إلا ويَحْطُ أهله مرارا قبل أن يُحْطَ ما وراء النهر مرة واحدة، ثم إن أحسوا يبرد أو يجراد أو بآفة تأتى على زروعهم وغلاتهم، ففى فضل ما يسلم فى عروض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا به عن شئ ينقل إليهم من غير بلدهم . قال : وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مُدُنْ

أَوْ قَرَى أَوْ مَرَّاجَ لِسَوَائِهِمْ؛ وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ لَا بَدَّ لِلنَّاسِ مِنْهُ إِلَّا وَعِنْدَهُمْ مِنْهُ مَا يَقِيمُ
أَوَدَّهُمْ وَيَفْضُلُ عَنْهُمْ لَغَيْرِهِمْ؛ وَمِيَاهُهُمْ أَعَذَّبَ الْمِيَاهَ وَأَبْرَدَهَا وَأَخَفَّهَا، وَقَدْ عَمَّتْ
جِبَالُهَا وَضَوَائِحُهَا وَمُدْنُهَا إِلَى التَّمَكُّنِ ^(١) مِنَ الْحَدِّ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِهَا، وَالتَّلَوُّجِ مِنْ جَمِيعِ
نَوَاحِيهَا؛ وَالْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ بِهَا صَرْفُ الْمَالِ فِي عَمَلِ الْمَدَارِسِ وَبِنَاءِ
الرُّبُطِ وَعِمَارَةِ الطَّرِيقِ، وَالْأَوْقَافِ عَلَى سُبُلِ الْجِهَادِ وَوَجْهِهِ الْخَيْرِ، وَعَقْدِ الْقَنَاطِرِ،
إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْ ذَوِي الْبَطَالَةِ .

وَفِيهَا مِنَ الدَّوَابِّ الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ وَالْإِبِلُ الْبُخْتُ وَالْبَقَرُ، وَالْغَنَمُ أَكْثَرُهَا
فَإِنَّهَا كَمَا يُقَالُ أَعُوْزَهَا لِلزَّرَائِبِ، وَفِيهَا مِنَ الْمَبَاحِ مَا فِيهِ كِفَايَتُهُمْ، وَلَهُمْ مِنْ تَنَاجِ الْغَنَمِ
الْكَثِيرِ وَالسَّائِمَةِ الْمَفْرُطَةِ . وَذَكَرَ أَنَّهُ يَوْجَدُ عِنْدَ أَحَادِ الْعَامَةِ مِنْ عَشْرِينَ دَابَّةً إِلَى
خَمْسِينَ دَابَّةً لَا كُفَّةَ عَلَيْهِ فِي أَقْتِنَائِهَا لِكثَرَةِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى .

وَفِيهَا مِنَ الْحَبُوبِ الْقَمْحُ وَالشَّعِيرُ وَالْحَمْصُ وَالْأَرْزُ وَالذُّخْنُ وَسَائِرُ الْحَبُوبِ خِلَا
الْبَاقِلَاءِ؛ وَبِهَا مِنَ الْفَوَاكِهِ الْمَتَوَعَّةِ الْأَجْنَاسِ الْعِنَبُ، وَالتَّيْنُ، وَالرُّمَانُ، وَالتَّفَاحُ،
وَالْمَكْمَرِيُّ، وَالسَّفَرَجَلُ، وَالْخَوْخُ، وَالْمِشْمِشُ، وَالتُّوتُ، وَالْبِطِّيخُ الْأَصْفَرُ، وَالْبِطِّيخُ
الْأَخْضَرُ، وَالْحِيَارُ، وَالْقَنَاءُ .

وَفِيهَا مِنَ الْبَقُولِ اللَّفْتُ وَالْجَزْرُ وَالْكُرْبُ وَالْبَازِنْجَانُ وَالْقَرَعُ وَسَائِرُ أَنْوَاعِ الْبَقُولِ .
وَفِيهَا مِنَ الرِّيحَيْنِ الْوَرْدُ وَالْبَنْفَسَجُ وَالْآسُ وَاللَّيْنُوفُ وَالْحَبَقُ؛ وَلَا يَوْجَدُ بِهَا الْإِتْرَجُ
وَالنَّارَنْجُ وَاللَّيْمُونُ وَاللِّيمُ، وَلَا الْمَوْزُ وَلَا قَصَبُ السُّكَّرِ، وَلَا الْقُلُقَاسُ، وَلَا الْمُلُوخِيَا،
فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ عَارِيَةُ الْحَدَائِقِ، خَالِيَةُ الْمَرْوَجِ؛ إِلَّا مَا أَتَى بِهِ إِلَيْهَا مِنَ الْحَمَضَاتِ مَجْلُوبَا .
وَفِيهَا أَصْنَافُ الْمَلْبُوسِ : مِنَ الْقَزِّ وَالصُّوفِ، وَطَرَائِفُ الْبَزِّ .

وَفِيهَا مِنَ الْمَعَادِنِ مَعْدَنُ زَبَقٍ لَا يَعَادِلُهُ مَعْدَنٌ فِي الْغَزَارَةِ .

(١) لَعَلَّهُ فَكَانَ ذَلِكَ دَاعِيَةً إِلَى التَّمَكُّنِ الْخ .

وقد أشتمل ما وراء النهر على عدة كور .

(منها) السُّغْد . قال في "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الغين المعجمة ودال مهملة في الآخر، ويقال الصُّغْد بالصاد بدل السين، ويضاف إلى سَمَرْقَنْدَ، فيقال سُغْد سَمَرْقَنْدَ، وهو أحد منتهات الدنيا الأربعة التي هي غوطة دِمَشْقَ، ونهر الأَبْلَهَ، وشعب بَوَّانَ، وسُغْد سَمَرْقَنْدَ . قال ابن حوقل : وهو أنزه الأربعة لأنه ممتد نحو ثمانية أيام، مشتبك الخُضرة والبساتين، لا ينقطع ذلك في موضع منه، وقد حُفَّت تلك البساتين بالأنهار الدائم جريها، ومن وراء الخُضرة من الجانبين مزارع، ومن وراء المزارع مَرَاغَى السوائم . ثم قال : وهي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا .

ومنها أُسْرُوشَنَةُ . قال في "اللباب" : بضم الألف وسكون السين وضم الراء المهملتين وسكون الواو وفتح الشين المعجمة ثم نون . قال ابن حوقل : والغالب عليها الجبال، ويحيط بها من الشرق بعض فَرَّغَانَةَ، ومن الغرب حدود سَمَرْقَنْدَ، ومن الشمال بعض فَرَّغَانَةَ أيضا، ومن الجنوب بعض حدود كَشَّ والصَّغَايَانَ . قال أحمد الكاتب : ولها عدة مَدُن، ويقال إن بها أربعائة حصن .

(ومنها) فَرَّغَانَةُ . قال في "المشترك" : بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ونون . قال ابن حوقل : وفيها مَدُن وكُور، وإليها ينسب جماعة من العلماء، منهم أبو سعيد الفَرَّغَانِيُّ شارح "تائية ابن الفارض" قال ابن حوقل : ويجبال فَرَّغَانَةُ معادن الذهب والفضة والفيروزج والحديد .

وقاعدتها بُخَارَا . قال في "اللباب" : بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة ثم ألف وراء مهملة مفتوحة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض

تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة خارجها نزه كثير البساتين . قال : وليس بتلك البلدان بلد أهلها أحسن قياما على عمارة قراهم منهم ، ويحيط بها وبقرأها ومزارعها سور واحد اثنا عشر فرسخا ، ولها كورة عظيمة تصاقب جيحون على معبر خراسان ، وبها يتصل سعد سمرقند . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى أم الأقاليم ويم التقاسيم ، وقد كانت [مستقرا] للدولة السامانية ومركز أفلاكهم الدائرة ، وكانت تلك الممالك كلها تبعها لها . قال صاحب "أشكال الأرض" : ثم لم أر ولم أسمع بظاهر بلد أحسن من بخارا ، لأنك إذا علوت لم يقع نظرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتراس التبنية ، أو الحنف اللطيفة ، أو الكواكب العلوية ، بين أراض وضياح مقسومة بالاستواء ، ممهدة كوجه المرأة فى غاية الهندسة ، ولها سبعة أبواب حديد : وهى باب المدينة ، وباب يون ، وباب خضرة ، وباب الحديد ، وباب قهندر ، وباب بنى أسد ، وباب بنى سعد . وليس فيها ماء جار لأرتفاعها ، ومياههم من النهر الأعظم الجارى من سمرقند ، وإليها ينسب الإمام الحافظ (أبو عبد الله البخارى) صاحب الجامع الصحيح فى الحديث .

ولها عدة مدن :

(منها) الطواويس . قال فى "اللباب" : بفتح الطاء المهملة والواو وبعد الألف واو ثانية مكسورة ومثناة تحت ساكنة وسين مهملة فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطول سبع وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة من مضافات بخارا داخل الحائط الدائر على أعمال بخارا ، كثيرة البساتين والماء الجارى . قال : وقد تحربت الآن . وقال فى "اللباب" :

هى قرية من قرى بخارا خرج منها جماعة من العلماء، وبينها وبين بخارا سبعة فراسخ، وإليها ينسب الطاووسى صاحب "المصباح على الحاوى الصغير" فى فقه الشافعية، ردّا لها فى النسب إلى المفرد وهو الطاوس .

(ومنها) نَخْشَبُ . قال فى "اللباب" : بفتح النون وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين ثم باء موحدة . قال فى "تقويم البلدان" : فلما عربت قيل نَسَفَ - يعنى بفتح النون والسين المهملة وفاء فى الآخر . قال ابن حوقل : وهى فى مستوٍ من الأرض، والجبال منها على نحو مرحلتين مما يلى كَشَّ، وبينها وبين جِيحُونَ مفازة، ولها نهر يجرى فى المدينة وينقطع فى بعض السنة، والغالب عليها الحِصْبُ . قال المهلبى : وهى وَبِيَّةُ .

(ومنها) كَشَّ . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف ثم شين معجمة مشددة - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطول تسع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة قدرها ثلث فرسخ فى مثله، وهى خَصْبَةٌ وفواكهها تُذْرِكُ قبل فواكه غيرها من بلاد ما وراء النهر؛ وطول عملها أربعة أيام فى نحوها . قال المهلبى : ولها رستاق جليل، ولها نهران، وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(ومنها) سَمَرْقَنْدُ . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح السين المهملة والميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وسكون النون ثم دال مهملة - وموقعها فى الإقليم الخامس . قال فى "القانون" : حيث الطول ثمان وثمانون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربعون درجة . قال ابن حوقل : وهى قَصَبَةُ السُّغْدِ، وهى مبنية على صَفَّةِ واديه، وهى مرتفعة عن الوادى؛ وحول سُورِها رُسمُ خندق عظيم، ولها نهر يدخل إليها على حمالات فى الخندق معمول بالرصاص، وهو نهر جاهلى يُسَمَّى السوق

بموضع يعرف برأس الطاق . قال ابن حوقل : ورأيت على باب من أبوابها يسمى باب كَشَّ صفحة من حديد وعليها كُتِبَتْ يزعم أهلها أنها بالحِميرية ، وأن الباب من بناء تُبَعِّع ملك اليمن ، وأن من صَنَعَاء إلى سَمَرْقَنْد ألف فرسخ ، وأن ذلك مكتوب من أيام تُبَعِّع . قال : ثم وقعت فتنة بها في أيام مُقَامَى بها وأُحرق البابُ وذهبت الكتابة ، ثم أعاد عمارة الباب محمد بن لُقْمَان بن نصر الساماني ولم يُعِد الكتابة . قلت : والمراد تبع المسمى بأسعد أبا كَرِب ، وقد أشرت إلى قضية تُبَعِّع في بناء سَمَرْقَنْد في الكتاب الذي أنشأته لأن يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى تمرلنك عند إرساله بالمفاوضة في الصلح بعد واقعة دِمَشْق والقبيض على ابن عثمان صاحب برسا من بلاد الروم بقولى بعد الدعاء : ” ولا زال بالنصر تَقْضَى قواضيه ، وبالظفر وحسن الأثر تَمْضَى مَقَانِيهِ وتشاع مناقبه ، وبلسان دولته القاهرة يُصاح بتبع سَمَرْقَنْد أن تبلغ هذه الرتبة حتى نَظَّمَ الحِزْع ثاقبُهُ ” . على ما سيأتى ذكره في الكلام على مكتبة القان صاحب ما وراء النهر ، في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

قال في ” مسالك الأبصار “ : وسَمَرْقَنْد مدينة مرتفعة يُشْرِفُ الناظر بها على شجر أخضر ، وقُصُور تُزْهِر ، وأنهار تَطْرُد ، وعمارة نَتَقْد ، لا يقع الطُرف بها على مكان إلا ملأه ، ولا بستان إلا آستحسنه . قال صاحب ” أشكال الأرض “ : وقد نصصت أسفار السير ، وتشبهت بطوائف الحيوان : من الفيلة والإبل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض . قال : وبها حصن ولها أربعة أبواب : باب مما يلي المَشْرِق يعرف بباب الصَّين ، مرتفع عن وجه الأرض يتزل إليه (؟) بدرج كثيرة ، مطل على وادى السُغْد ، وباب مما يلي المغرب يعرف بباب الثُّوبهار على نَشْر من

(١) كذا في الأصل والمراد المدينة بالتقدم والارتقاء .

الأرض؛ وباب مما يلي الشمال يعرف بباب بُحَارَا، وباب مما يلي الجنوب يعرف بباب كَشَّ . قال: وفيها مافى المدن العِظَام من الأسواق الحسان والحمامات والخانات والمساكن؛ وبنائوها من طين وخشب؛ والبلد كله: طُرُقُه وَسِكِّكُه وأسواقه وَأَزَقَّتُه مفروشة بالحجارة .

(ومنها) بِنَكْتُ . قال في "اللباب" : بكسر الباء الموحدة وسكون النون وفتح الكاف وفي آخرها ثاء مثلثة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . ولها سُورٌ وَرَبَضٌ وبساتين كثيرة .

(ومنها) نوبكت - بنون وواو وباء موحدة ثم كاف ومثناة من فوق . قال ابن حوقل : ^(١) وهى قصبة ناحية إيلاق، وعليها سُورٌ ولها عدة أبواب، وفيها مياه وبساتين كثيرة .

(ومنها) مُجَنَّدَةٌ . قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح الجيم وسكون النون ثم دال مهملة - وهى مدينة على طرف سِيحُون مضمومة إلى فَرَاغَانَةٍ، واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول تسعون درجة، والعرض أربعون درجة وخمسون دقيقة . قال في "اللباب" : وهى مدينة كبيرة، وهى فى مستوٍ من الأرض، ولها بساتين كثيرة . قال أحمد الكاتب : ومنها إلى سَمَرْقَنْدَ سبع مراحل، ومنها إلى الشاش كذلك .

(ومنها) تُسَكْتُ . قال في "اللباب" : بضم المثناة من فوق وسكون النون وفتح الكاف وفي آخرها ثاء ثانية - وهى مدينة من مدن الساحل، وقيل هى قصبة إيلاق؛

(١) الذى فى "تقويم البلدان" عن ابن حوقل أن عاصمة إيلاق تسمى تونكت، وكذا فى "معجم البلدان" لياقوت، إلا أنه نص على أن آخرها ثاء مثلثة، وهى تبكت الآتية بعد فليتنه .

وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وتسعون درجة، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال في "اللباب" : ولها نهر ودار إمارة، ونخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) أَخْسِيَكْتُ . قال في "اللباب" : بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الكاف وفي آخرها ثاء مثلثة . وهي مدينة من بلاد فَرَغَانَةَ ، واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي على شَطِّ نهر الشاش في أرض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ .

(ومنها) تَرِمِذ . قال في "اللباب" : قيل بفتح التاء ثالثة الحروف وقيل بضمها وقيل بكسرها . قال : والمتداول على لسان أهلها فتح التاء وكسر الميم ، والمشهور في القديم كسر التاء والميم جميعاً ؛ وقيل بضم التاء والميم وبينهما راء ساكنة وفي آخرها ذال معجمة - وهي مدينة على شَطِّ جَيْحُونَ ، واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : ومعظم مساكنها وأسواقها مفروشة بالآجر ، وهي قَصَبَة تلك النواحي ، وأقرب الجبال إليها على مرحلة ، وليس لُقْراها شُرْب من جَيْحُونَ بل من نهر الصَّغَانِيَّان . قال : ولها مَدَن كثيرة وكُوَر مضافة إليها . قال في "اللباب" : وهي مدينة قديمة .

(ومنها) الصَّغَانِيَّان . قال في "اللباب" : بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة وألف ونون ومثناة تحتية ونون في الآخر، جميع ذلك بالتخفيف . قال : ويقال لها بالعجمية جَغَانِيَّان - وهي مدينة موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أكبر من ترمذ إلا أن ترمذ أكثر أهلا . ثم قال : وهى كورة كبيرة كثيرة الماء والشجر، والنسبة إليها صغاني وصاغاني .

الإقليم الثانى (تُرْكُستَانُ)

بضم التاء المثناة من فوق وسكون الراء المهملة وضم الكاف وسكون السين المهملة وألف بعدها نون، ومعناه ناحية الترك . قال في "مسالك الأبصار" : وهى مملكة لو انفردت لكانت ملكا كبيرا وسلطنة جليلة (زهرة الدنيا، وطرار الأرض بلاد الترك) وحقيقةً من كَنَاسِها رتعت غِزْلَانِها، ومن غابها أَصْحَرَتْ لِيُوثُهم . وهى إقليم فسيح المدى، قديم الذكر، منشأ حماء، ومَنَسَبُ كُجَاه . قال : وهو المراد بقولهم بلاد الأتراك؛ ولم تزل الملوك تلحظُها لانتفاء بوادرها، واللقاء ذواخرها؛ فأشد ما نكَّرت الأيام معالمها، وغيرت الغير أحوالها . قال : ولقد صادفت حدة التتار، فى أوّل التيّار، بجأّت قدامهم فى سورة غضبهم ، ونفحة نارهم؛ فأملت السيوف حصائد أحبالهم ، ولم يبق إلا من قلّ عديده . ثم قال : حكى لى من جال فى رساتيقها ، وجاز فى قُرَاها، أنه لم يبق من معالمها إلا رسومٌ دائرة، وأطلال ناتئة، يرى على البعد القرية مُشَيَّدة البناء، مُحَضَّرَة الأكاف، فيأنس لعله يجد بها أنيسا ساكنا، فإذا جاءها وجدها عالية البنيان، خاليةً من الأهل والسكّان؛ إلا أهل العمل وأصحاب السائمة . ليست بذات حرث ولا زرع، وإنما خضرتها مُرُوج أطلعها باريها بها من النباتات البريّة، لا بذرها بأذرٍ، ولا زرعها زارع. ويوجد بها خلف من بقايا العلماء، ويجزئ التيمم فيها بالتراب بعد الماء .

ومن نواحيا (فَارَابُ) . قال في "المشترك" : بفتح الفاء والراء المهملة بين ألفين وفي آخرها باء موحدة . وقال في "مسالك الأبصار" : الصواب إبدال الفاء باء موحدة لأنه ليس في اللغة التركية فاء . قال ابن حوقل : وهي ناحية لها غياض ، ولهم مزارع ، ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم . قال في "تقويم البلدان" : وتسمى أطرار .

وقاعدتها (قَاشَغَر) . قال في "اللباب" : بفتح القاف وسكون الألف ثم سكون الشين المعجمة أيضا وفتح العين المعجمة وفي آخرها راء مهملة . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها كَاشَغَر بإبدال القاف كافا - وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ست وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال المهلب : وهي مدينة عظيمة أهلة عليها سُورٌ وأهلها مسلمون . قال في "القانون" : وتسمى أزدو كند .

قال في "مسالك الأبصار" : أما الآن فقاعدتها (قرشي) بقاف وراء مهملة وشين معجمة ثم ياء مثناة من تحت في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : وهي على نهر قراخوجا في نهاية الحد . قال : وهي وإن لم تكن شيئا مذكورا ، ولا لها على اختلاف حالات الزمان شهرة تُذكر ، لكن قد شملها في دولة ملوكها الآن من نظر السعادة لنسبتها إلى أنها سكن لهم ، وإن كانوا ليسوا بسكَّانِ جِدَار ، ولا متديرين في ديار ، ولكن لاسم وسمت به . وبها عدة مدن أيضا :

(منها) كدر . قال في "الأطوال" : وهي قَصَبَة فَارَاب . قال في "مسالك الأبصار" : وإليها ينسب فيلسوف الإسلام أبو نصر الفارابي .

(ومنها) حُتَن . قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح المشاة من فوق ونون في الآخر - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ست وثمانون درجة ، والعرض ثنتان وأربعون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي أقصى تُرْكُستَان . قال في "العزيزي" : وهي مدينة خصبة أهلة عامرة ، بها أنهار كثيرة .

(ومنها) جَنَدُ . قال في "اللباب" : بفتح الجيم وسكون النون وفي آخرها دال مهملة - وهي بلدة واقعة في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وأربعون درجة . قال في "اللباب" : وهي في حدود التُّرك على طَرَف سَيِّحُون ، خرج منها جماعة من الفضلاء .

(ومنها) إِسْفِيَجَابُ . قال في "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وكسر الفاء وسكون المشاة من تحت وفتح الجيم وفي آخرها باء موحدة بعد الألف - ووقع في "مسالك الأبصار" إبدال الفاء بَاءً موحدة - وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال في "اللباب" : وهي بلدة كبيرة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من تغور الترك .

(ومنها) طَرَّازُ . قال في "اللباب" : بفتح الطاء والراء المهملتين وألف وزاي معجمة - وهي مدينة على حد بلاد التُّرك واقعة في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وحولها حصون منسوبة إليها .

(ومنها) نيلي . قال في "مسالك الأبصار" : وهي أربعة مُدُن بين كل مدينة والأخرى فرسخ واحد ، ولكل واحدة منها اسم يخصها : فالأولى نيلي ، والثانية نيلي مالتق ، والثالثة بكك ، والرابعة تلان . قال : وبينها وبين سمرقند عشرون يوما .

(ومنها) المَلَاتُ - بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم وألف بعدها ثم لام مكسورة وقاف في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : وبينها وبين نيلي عشرون يوما . ونقل عن الشيخ محمد أَلْجَنْدِيّ الصوفيّ وغيره أن بها من الخيل والأغنام مالولاً موتانٌ يقع فيها في بعض السنوات ، لما بيعت ولا وجد من يشتريها لكثرتها وبركات نتائجها .

الإقليم الثالث (طُخَارِسْتَانُ)

قال في "اللباب" : بضم الطاء المهملة وفتح الحاء المعجمة وألف وضم الراء وسكون السين المهملتين وفتح المثناة من فوق وألف ونون . قال : وهي ناحية مشتملة على بلدان في أعلى نهر جِيحُون . وقال ابن حوقل : هو إقليم له مُدُن كثيرة من مضافات بلخ . وقاعدتها فيما ذكره في "القانون" - ولَوَاج . قال في "تقويم البلدان" : بواوين بينهما لام ساكنة ثم ألف ولام وجيم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "القانون" : وهي مقرُّ مملكة المَيَاطَلَة في القديم . قال المهلبيّ : وهي في مستوٍ من الأرض . ولها مُدُن .

(منها) إِسْكَلَكَنْدُ . قال في "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الكافين ، بينهما لام ساكنة ثم نون كذلك ودال مهملة في الآخر . قال : وقد تحذف الألف من أولها . وهي مدينة صغيرة موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي مدينة صغيرة كثيرة الخير .

(ومنها) رَاوُنُ . قال في "اللباب" : بفتح الراء المهملة والواو ونون في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي مدينة من طَخَارِسْتَانَ ولم يزد .

الإقليم الرابع (بَذَخْشَانُ)

قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة والذال وسكون الخاء وفتح الشين المعججات ونون في الآخر . قال ابن حوقل : وهو أسم للمدينة والإقليم معاً . قال في "اللباب" : وهي في أعلى طَخَارِسْتَانَ متاخمةً لبلاد التُّرك . وقال في "مسالك الأبصار" : هي مع مملكة ما وراء النهر وليست حقيقة منها ولا من تُرْكُسْتَانَ ، بل هو إقليم قائم بذاته ، معدود المجاورة مع أخواته ، قد حوى كل بديع من حيوانه ومعدنه ونباته .

ثم حكى عن محمد المُجَنْدِيُّ الصوفي وغيره أن بها معدنَ البَلَّخَشِ ، ومعدنَ اللَّازُورِدِ ، وهما في جبل بها ، يُحْفَرُ عليهما في معادنهما ، فيوجد اللَّازُورِدُ بسهولة ، ولا يوجد البَلَّخَشُ إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب الشديد

والإنفاق الكثير . ولذلك عَزَّ وجوده، وعلت قيمته، وكثر طالبيه ، وآلتفت الأعناق إلى التحلِّي به . وقد تقدّم ذكره في المقالة الأولى في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته ليصفه عند ذكر الأحجار النفيسة . وقد تقدّم هناك أن أنفس قطعة وصلت إلى بلاد الشام منه قطعة زنتها خمسون درهما . وقد ذكر في "اللباب" أن بها معدن البلّور أيضا، وقد تقدّم ذكره هناك في الكلام على الأحجار النفيسة .

الجملة الثالثة

(في الطرق الموصلة إليها، وبعض المسافات الواقعة بين بلادها)

قد تقدّم في الكلام على مملكة إيران الطريق إلى أُمَل الشطّ بشطّ جِيحُون . قال ابن خرداذبه : ومن أُمَل إلى بُخَّارَا تسعة عشر فرسخا، ومن بُخَّارَا إلى سَمَرْقَنْد سبعة وثلاثون فرسخا، ومن سَمَرْقَنْد إلى الشَّاش آثنان وأربعون فرسخا، ثم إلى باب الحديد مِيلَان، ثم إلى كَار فرسخان، ثم إلى إِسْفِيْجَاب عشرة فراسخ، ومن إِسْفِيْجَاب إلى أَطْرَار وهي قَارَابُ ستّة وعشرون فرسخا. قال في "تقويم البلدان" : ومن سَمَرْقَنْد إلى مُجَنْدَة سبع مراحل، ومن مُجَنْدَة إلى الشَّاش أربع مراحل .

الجملة الرابعة

(في عِظَام الأنهار الواقعة في هذا القسم من مملكة تُوْرَان، وهي نهران)

الأوّل - نهر جِيحُون - بفتح الجيم وسكون الياء المنشأة تحت وضم الحاء المهملة وسكون الواو ثم نون؛ ويسمى نهر بَلْخ أيضا، إضافة إلى مدينة بَلْخ من بلاد فَارِس المقدم ذكرها . قال في "تقويم البلدان" : وقد اختلف النقل فيه، وأقربُه ما نقله ابن حَوْقَل أن عمود نهر جِيحُون يخرج من حدود بَدْخْشَان، ثم تجتمع إليه أنهار

كثيرة، ويسير غربا وشمالا حتى يصل إلى حدود بلخ، ثم يسير إلى ترمذ، ثم غربا وجنوبا إلى زم وأسمها أمويه، ويجرى كذلك غربا وشمالا إلى خوارزم. قال في "رسم المعمور": ويخرج جنوبا ويمرّ قرب حُجَندة ويتجاوزها ويصب في البحر الأخضر. الثاني - نهر سِيحُون. قال في "تقويم البلدان": وقد اختلف النقل فيه أيضا. قال: والمختار ما ذكره ابن حوقل، لأنه يحكي ذلك عن مشاهدة. فقال: إن نهر الشاش بقدر الثلثين من نهر جِيحُون، وهو يجري من حدود بلاد الترك ويمرّ على أخسيك، ثم يسير مغربا بميلة إلى الجنوب إلى حُجَندة، ثم يجري إلى فاراب إلى يَنْغِي كَنْت ثم يقع في بحيرة خوارزم على مرحلتين من يَنْغِي كَنْت.

الجملة الخامسة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها بالدينار الرابع، وهو ستة دراهم كما في معظم مملكة إيران، وفي بعضها بالدينار الخراساني وهو أربعة دراهم. قال في "مسالك الأبصار": ودراهمهم نوعان، درهم بثمانية فلوس، ودرهم بأربعة فلوس. قال: ودراهمها فضة خالصة غير مغشوشة، وهي وإن قل وزنها عن معاملة مصر والشام فإنها تجوز مثل جوازها. وأما أسعارها فأسعارها جميعها رخيصة حتى إذا غلت الأسعار فيها أعلى الغلو، كانت مثل أرخص الأسعار بمصر والشام.

الجملة السادسة

(في من ملك هذا القسم من مملكة توران)

قد تقدم في الكلام على أصل مملكة توران أنها كانت مملكة الترك في القديم،

وأنه كان بها افراسياب^(١) بن شبك بن رستم بن ترك بن كوبر بن يافث بن نوح عليه السلام على الخلاف السابق فيه ، وكانت تعرف بمملكة الخانية .
أما في الإسلام فملوكها على طبقتين :

الطبقة الأولى

(ماهو عقيب الفتح ، وهم على ضرين)

الضرب الأول

(ملوك ماوراء النهر)

وكانت بيد نواب الخلفاء برهةً من الزمان في صدر الإسلام ، ثم تغلب عليها الملوك بعد ذلك وحازوها ، وتوالت عليها أيديهم إلى الان . وأول من تغلب عليها من الملوك السامانية ، وهم بنو سامان بن جثمان بن طمغان بن بوشرد بن بهرام چوین المذكور في أخبار كسرى أبرويز أحد ملوك الفُرس .

وأول من ملكها منهم أولاد أسد بن سامان في خلافة المأمون في سنة أربع ومائتين . فتولى (أحمد بن أسد) فرغانة ، و (يحيى بن أسد) الشاش وأُشروسنة (نوح ابن أسد) سمرقند ، ثم مات نوح بن أسد بسمرقند ، ثم مات أحمد بفرغانة وأستخلف ابنه نصر على أعماله ، وكان إسماعيل بن أحمد يُخدم أخاه نصرا فولاه نصر بحارا في السنة المذكورة . وكان إسماعيل رجلا خيرا يحب أهل العلم ويكرمهم ، فاستقرت قدمه ببخارا وملك جميع ماوراء النهر . وملك إسماعيل المذكور خراسان مع ماوراء النهر في سنة سبع وثمانين ومائتين .

(١) في ” الأخبار الطوال “ للدينوري ابن تودل بن الترك بن يافث ، وفي أبي الفداء ” ابن طوج “ وفي غيرها غير ذلك . نهنا على ذلك ليعلم أن بين المؤرخين اختلافا ، ولم يتقدم للتؤلف في توران شيء من هذا النسب ، فتنبه .

ثم ملك بعده ماوراء النهر وخراسان (أبنة أحمد بن إسماعيل) حتى قتل في سنة إحدى وثلاثمائة؛ وولى بعده ماوراء النهر وخراسان أبنة (أبو الحسن نصر بن أحمد) وتوفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة .

وولى بعده ماوراء النهر وخراسان أبنة (نوح بن نصر) وتوفي في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة .

وولى بعده ماوراء النهر وخراسان أبنة (عبد الملك بن نوح) وبق حتى قبض عليه إيلك خان ملك الترك، وحبس هو وجميع أقاربه، ومات في الحبس في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وأنقرضت بموته دولة بني سامان، وكانت دولتهم من أحسن الدول وأعدها، وكانت ولايتهم إمارة لأملاك .

وملك بعدهم ماوراء النهر (إيلك خان) المتقدم ذكره، وتوالت بأيديهم حتى ملكها منهم رجل اسمه (أحمد خان) فبقيت بيده حتى ملكها منه (ملكشاه السلاجوقي) في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، وأطاعه صاحب تركستان فخطب له وضرب السكة باسمه، ثم خرج عنها وعاد أحمد خان إليها، فبقى حتى ثبتت زندقته وضرب عنقه في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وملك بعده ابن عمه (مسعود)، ثم أقيمت الخطبة بما وراء النهر (لبريكارق)، ثم خطب بريكارق فيما بيده مما وراء النهر وغيره لأخيه محمد بن ملكشاه. ثم غلب عليها الخطا الكفار في سنة ست وثلاثين وخمسمائة وأنزعوها من يد سنجر بن ملكشاه. ثم صارت بيد الغز: وهم طائفة من الترك مسلمون .

ثم استولى عليها بنو أنوشته بن ملوك خوارزم الآتي ذكرهم، إلى أن غلب عليها جنك خان في سنة ست عشرة وستمائة .

وأما غَزْنَةُ وما معها فكانت بيد بنى سامانَ ، ثم غلب عليها سُبُكْتُكَيْن : وهو أحد مماليك أبي إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة للسامانية المقدم ذكره في سنة ست وستين وثلاثمائة بعد موت أبي إسحاق المذكور ، ثم مات وقام بالأمر بها بعده ابنه إسماعيل ، ثم غلبه عليها أخوه محمود بن سُبُكْتُكَيْن ، واستضاف إليها بعض نحرَاسَانَ في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وقطع الخطبة السامانية ، وبقي حتى توفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة .

وملك بعده ابنه (محمد بن محمود) بعهد من أبيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه أخاه (مسعود بن محمود) وملكوه عليهم ، وبقي حتى قتل في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة . ثم ملك بعده أخوه محمد المقدم ذكره وقتل من عامه ، وملك بعده ابن أخيه (مودود بن مسعود) وتوفى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة .

وملك بعده عمه (عبد الرشيد بن محمود) وقتل في سنة أربع وأربعين وأربعمائة . وملك بعده أخوه ^(١) (فرخزاد بن مسعود بن محمود) ، وتوفى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة . وملك بعده أخوه الملك المؤيد (إبراهيم بن مسعود) ، وتوفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة . وملك بعده ابنه (مسعود بن إبراهيم) ، وتوفى سنة ثمان وخمسمائة . وملك بعده (أرسلان شاه بن مسعود) .

ثم ملك بعده (بهرام شاه بن مسعود) ثم توفى . وملك بعده ابنه (خسرو شاه بن بهرام) ، وتوفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة . وملك بعده ابنه (ملكشاه بن خسرو شاه) بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سُبُكْتُكَيْن ، وهو آخرهم . ثم انتقل الملك إلى الغورية .

(١) الضمير راجع إلى مودود والأولى أن يقال " ابن أخيه " ليعود الضمير إلى عبد الرشيد .

فأول من ملك منهم علاء الدين (الحسين بن الحسين)، ملك عند أنقراض الدولة السبكتكية، وأستضافها إلى الغور في سنة خمس وخمسين وخمسة، وتلقب بالملك المعظم، وتوفى سنة ست وخمسين وخمسة .

وملك بعده غياث الدين (محمد بن سام بن الحسين) ، ثم أستولى عليها الغزنوي خمس عشرة سنة ، ثم ملكها (شهاب الدين) أخو غياث الدين المقدم ذكره سنة تسع وسبعين وخمسة، وقتل سنة اثنتين وستمائة، وفي أيامه كان الإمام نضر الدين الرازي وكان يغشاه ويعظه .

ثم ملك بعده علاء الدين (محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين) ، ثم غلبه عليها (يلدز) ملوك غياث الدين أنحى شهاب الدين ، ثم غلبه عليها علاء الدين المذكور ، ثم غلب عليها يلدز أيضا ، ثم غلب عليها علاء الدين (محمد بن تكش) بن خوارزم شاه في سنة اثنتي عشرة وستمائة، وبقي حتى غلبه عليها جنكرخان الآتي ذكره في سنة سبع عشرة وستمائة .

الطبقة الثانية

(ملوكها من بني جنكرخان)

قال في "مسالك الأبصار" : كان جنكرخان قد أوصى بمملكة ماوراء النهر لولده جدای، ويقال له جفطای فلم يتمكن من ذلك .

ثم ملك بعده آبنه قراهورلاوو، ثم ولده مبارك شاه ، ثم غلب عليه قیدو بن قاشي آبن يكبوك بن أوكداي بن جنكرخان ، ثم غلب عليه براق بن بسنطو بن منقوقان ابن جفطای بن جنكرخان .

ثم ملك بعده آبنه دوا بن براق، ثم أخوه كنتجك، ثم أخوه اسبنغا، ثم أخوه كيوك، ثم أخوه الجكدای، ثم أخوه دراتمر، ثم أخوه ترما شیرين .

ثم ملك بعده رجل ليس من أولاد دوا آسمه توزون بن أويا كان . قال : وتخال في خلال ذلك مَنْ وثب على الملك ، ولم ينتظم له حال ولاصلت له أعلام دولة ، وبقي الملك بعد ترماشيرين غير منتظم حتى قام جنفصوبن دراتمر بن حلوبن براق بن بسنطو آين منكوقان بن جنفطاي بن جنكرخان . إلى هنا آتقضى كلامه في ”مسالك الأبصار“ .

وأول من أسلم من ملوك هذه المملكة ”ترماشيرين“ المقدم ذكره سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فأسلم وحسن إسلامه وأخلص في إسلامه وأيد الإسلام ، وقام به حق القيام ، وأمر به أمراءه وعساكره ، ففهم من كان سبق إسلامه ومنهم من أجاب دأعيه فأسلم ، وفشأ فيهم الإسلام ، وعلا لواؤه حتى لم تمض عشرة أعوام ، حتى أشتمل فيها بلاءته الخاص والعام ، وأعان على ذلك من في تلك البلاد من الأئمة العلماء والمشايخ الصلحاء . وصارت التجار من مصر والشام مترددة إلى تلك الممالك ، وهو يكرمهم أتم الإكرام ، على أن رعايا هذه المملكة من قدماء الإسلام ، السابقين إليه كانوا مع كفر ملوكهم في جانب الإعزاز والإكرام ، لا يتطرق إليهم منهم أذية في دين ولا حال ولا مال .

الجملة السابعة

(في ترتيب هذه المملكة وحال عساكرها)

أما ترتيبها فقد أشار في ”مسالك الأبصار“ إلى أنها على نحو ما تقدم في مملكة إيران لاتفاق ملوك بني جنكرخان في الترتيب على طريقة واحدة .

وأما عساكرهم فذكر أن عساكرهم من أهل النجدة والبأس ، لا يحدد ذلك من طوائف الترك جاحد ، ولا يخالف فيه مخالف ، حتى حكى في ”مسالك الأبصار“ عن مجد الدين إسماعيل السلمي أنه كان إذا قيل في بيت هو لا كُو : العساكر ،

تَحَرَّكَتْ مِنْ خُوَارَزْمَ وَالْقَبْجَاقِ، لَا يَجْعَلُ لَذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ هَمًّا . وَإِذَا قِيلَ : إِنْ الْعَسَاكِرُ تَحَرَّكَتْ مِمَّا وَرَاءَ النِّهَرِ، تَأَثَّرُوا لَذَلِكَ غَايَةَ التَّأَثُّرِ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَقْوَى نَاصِرًا وَإِنْ كَانَ أَوْلَئِكَ أَكْثَرَ عِدْدًا ، لِأَنَّهُ يُقَالُ : إِنْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ بَمَائَةٍ مِنْ أَوْلَئِكَ، وَلَذَلِكَ كَانَتْ نُحْرَاسَانُ عِنْدَهُمْ تَغَرًّا لِأَيِّهْمَلِ سِدَادِهِ، وَلَا يَزَالُ فِيهِ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِيرَاثَ التَّخْتِ أَوْ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، لَمَّا وَقَرَ فِي صُدُورِهِمْ لِهَؤُلَاءِ مِنْ مَهَابَةٍ لَا يُقَلِّقُ طَوْدُهَا، لِأَنَّهُمْ طَالَمَا بَلَّوْهُمْ فِي الْحَرْبِ وَابْتَلَوْهُمْ فِيهَا .

القسم الثاني

(من مملكة توران خوارزم والقَبْجَاقِ)

قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : حَدَّثَنِي الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ بْنِ الشَّحَامِ الْمَوْصِلِيُّ : أَنَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ مَتَسَعَةٌ الْجَوَانِبِ طَوْلًا وَعَرْضًا، كَبِيرَةُ الصَّحَرَاءِ، قَلِيلَةُ الْمُدُنِ، وَبِهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَدٍّ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ كَثِيرٌ نَفْعَ لِقَلَةِ السِّلَاحِ وَرِدَاءَةِ الْخَيْلِ، وَأَرْضُهُمْ سَهْلَةٌ قَلِيلَةُ الْحَجَرِ، لَا تُطَبِّقُ خَيْلٌ رُبَيْتٍ فِيهَا الْأَوْعَارَ، فَلَذَلِكَ يَقِلُّ غَنَاؤُهَا فِي الْحُرُوبِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ زَمَانِ الْخُلَفَاءِ وَمَا قَبْلَهُ تَعْرِفُ بِصَاحِبِ السَّرِيرِ . قَالَ فِي "الرُّوضِ الْمَعْطَارِ" : وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ يَجْلِسُ عَلَيْهِ مَلُوكُهَا نَقْلُهُ إِلَيْهَا مَلُوكُ الْفُرْسِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَكَانَ صَاحِبُهَا فِي الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ (يَعْنِي أَبْنَ قَلَاوُونَ) السُّلْطَانُ أَرْبُكَ خَان . قَالَ : وَقَدْ خُطِبَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ فَرَزُوجُهُ بِنْتًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ : وَمَا زَالُ بَيْنَ مَلُوكِ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ، وَبَيْنَ مَلُوكِ قَدِيمِ اتِّحَادٍ، وَصِدْقٍ وَدَادٍ، مِنْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِبَيْرُوسَ وَإِلَى آخِرِ وَقْتِ .

وَيَحْصُلُ الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ فِي ثَمَانِ جُمَلٍ :

الجملة الاولى

(في ذكر حدود هذه المملكة ومساقفها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" نقلا عن الشيخ علاء الدين بن النعمان الخوارزمي أن طول هذه المملكة من بحر أصطنبول إلى نهر أريس ستة أشهر، وعرضها من بلغار إلى باب الحديد أربعة أشهر تقريبا . ثم ذكر عنه في موضع آخر : أن مجموع هذه المملكة من ورعات خوارزم من الشرق إلى باشقرد، وعرضا من خوارزم إلى أقصى بلاد سير، وهي منتهى العمارة في الشمال . و ذكر في موضع آخر عن ابن النعمان أن مبدأ عرض هذه المملكة من ديمو، وهي مدينة من بناء الإسكندر، كان عليها باب من حديد قديما، إلى بلاد بوعره (٩)، وطولها من ماء أريس، وهو أعظم من نيل مصر بكثير من ناحية بلاد الخطأ، إلى أصطنبول يعني القسطنطينية . قال : ويتجاوز هذا الطول قليلا إلى بلاد تسمى كنج مشتركة بين الروس والفرنج . و ذكر في موضع آخر أن خوارزم إقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر، والمقارور محيطة به من كل جانب، وحده متصل بغزنة مما يلي الشمال والغرب وجنوبه وشرقه، وهو على جانبي جيحون . قال ابن حوقل : وبلاد خوارزم من أبرد البلاد، ومنها يتبدى الجمود في نهر جيحون . قال في "العزري" : وبلاد خوارزم في جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خوارزم، وبينهما نحو ست مراحل . قال في "مسالك الأبصار" : وأول حد خوارزم بلدة تسمى الظاهرية مما يلي أمل، وتمتد العمارة في جانبي جيحون معا . وحكى عن حسن الرومي التاجر السفار أن طولها من مدينة باكو المعروفة بالباب الحديد إلى حدود بلاد الخطأ، فيكون بسير القوافل خمسة أشهر، وعرضها من نهر

(١) كذا في الأصل، ولعلها درعان الآتية قريبا .

جِيحُونَ إلى نهر طُونا . وقال في "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة واقعة في الشمال
أخذة إلى الشرق ، تحدها أطراف الصين من شرقها ، وبلاد الصَّقَاب وما يليها من
شمالها ، وخراسان وما سامتها من جنوبها ، والخليج القاطع من بحر الروم من غربها .

الجملة الثانية

(فما أشملت عليه من الأقاليم العُرفية)

إِعلم أن هذه المملكة قد أشملت على عدة أقاليم :

الإقليم الأول (خوارزم)

بضم الخاء المعجمة وفتح الواو وألف بعدها راء مهملة ثم زاي معجمة ساكنة
وميم في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهو إقليم منقطع عن خراسان وعن
ماوراء النهر، والمفاوز محيطة به من كل جانب . قال : ويحيط به من الغرب بعض
بلاد الترك؛ ومن جهة الجنوب خراسان؛ ومن الشرق بلاد ماوراء النهر؛ ومن الشمال
بلاد الترك أيضا . قال : وإقليم خوارزم في آخر جيحون، وليس بعده على النهر
عمارة إلى أن يقع جيحون في بحيرة خوارزم، وهو على جانبي جيحون . قال
ابن حوقل : (وبلاد خوارزم من أبرد البلاد، ويتدنى الجمود في نهر جيحون من
جهة خوارزم) . وقال المهلب : بلاد خوارزم في جهة الجنوب والشرق عن بحيرة
خوارزم إلى أمل نحو اثنتي عشرة مرحلة، ومن خوارزم إلى بحيرة خوارزم نحو ست
مراحل . قال في "مسالك الأبصار" : وبخوارزم جبل يقال له جبل الخير به عين
تعرف به ، يقصدها دَوُو الأمراض المزمنة ، ويقيمون عندها سبعة أيام ، في كل يوم

(١) تقدّمت هذه الجملة بتمامها في الصفحة التي قبل هذه ، فإعادتها غير مفيدة .

يغتسلون بها بكرة وعشية، ويشربون منها عقب كل اغتسال حتى يتضلّعوا، فيحصل البرء . قال : وخَوَارِزْمٌ عَلَى جَيْحُونَ بَيْنَ شُعْبَتَيْنِ مِنْهُ مِثْلُ السَّرَاوِيلِ . قال : وَيَلِ خَوَارِزْمَ أَرْضٌ مَدَوْرَةٌ تَسْمَى قِسْلَاعَ ، طَوَّلَهَا خَمْسَةُ أَشْهُرَ ، وَعَرَضَهَا كَذَلِكَ كُلِّهَا صَحْرَاءَ ، يَسْكُنُهَا أُمٌّ كَثِيرَةٌ مِنَ الْبَرْجَانِ ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَهْرِ جَيْحُونَ جَبَلٌ أَسْمُهُ أَوِيلْغَانُ شِمَالِيٌّ نَخْرَاسَانَ . وَلَهَا قَاعِدَتَانِ .

القاعدة الأولى

(القديمة مدينة كاث)

بكاف وألف وئاء مثلثة . قال ابن حوقل : وهو اسمها بالخوارزمية ، وهي مدينة واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وست عشرة دقيقة . قال في "القانون" : وهي في شرقي جَيْحُونَ . قال المهلبى : وبينها وبين القرية الحديثة من بلاد الترك خمسون فرسخا . قال : وهي من أجل مدُن خَوَارِزْمَ . قال ابن حوقل : وقد خربها التتر وبني الناس لهم مدينة وراءها . قال : وكانت هذه المدينة في الجانب الشمالى عن جيحون . قال في "مسالك الأبصار" : وبها مائة بيت من اليهود ، ومائة بيت من النصارى ، لا يسمح لهم بأكثر من ذلك .

القاعدة الثانية

(كُرْكَنْج)

قال في "المشترك" : بضم الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف ثانية وألف ونون ساكنة وفي آخرها جيم . قال : ويلتقى فيها ساكنان (يعنى الألف والنون) ولذلك يكتبونها كُرْكَنْج بغير ألف ، وتعرف بكُرْكَنْج الكبرى ، والعرب تسميها

الجرجانية - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" و"القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة ودقيقة واحدة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال في "المشترك" : وهى على صَفَّة جَيْحُونَ . قال في "القانون" من غربيه . وبها عدة مدن أيضا :

(منها) كُرْكَنْج الصغرى . وتعرف بالجرجانية أيضا - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة أيضا . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس دقائق ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "المشترك" : وهى مدينة قريبة من كُرْكَنْج الكبرى ، بينهما عشرة أميال ، وهى في غربي جَيْحُونَ .

(ومنها) زَمَحْشُر . قال في "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة والميم وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين وراء مهملة فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وإليها ينسب الإمام أبو القاسم محمود الرَّمَحْشَرى صاحب "الكشاف" فى التفسير وغيره من المصنفات الفائقة النافعة .

(ومنها) هَزَارَاسَبُ . قال فى "اللباب" : بفتح الهاء والزاى المعجمة وسكون الألف وفتح الراء وسكون السين المهملتين وباء موحدة فى الآخر - وهى قلعة بجوارزَمَ موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . قال السمعانى : ويقال لها بالفارسية هَزَارَاسُف . قال : وهى قلعة حصينة . قال المهلبى غربى جَيْحُونَ ، وبينها وبين مدينة كَاتَستة فراسخ .

(١١) (ومنها) دَرَعَان ، بدال وراء وعين مهملات وألف ثم نون - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في ”الأطوال“ حيث الطول ست وثمانون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقة . قال في ”تقويم البلدان“ : وهي آخر حدود خُوارزَم إلى جهة مَرَوْ . قال المهلب : وبينها وبين هَزَارَاسَب أربعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) فَرَبْرُ . قال في ”اللباب“ : بفتح الفاء والراء المهملة وسكون الباء الموحدة . وقال في ”مزيل الأرتياب“ : بفتح الفاء وكسرها ، كل منهما مسموع - وهي مدينة على طرف جَيَّحُون مما يلي بُخَّارَا - موقعها في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في ”الأطوال“ حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في ”القانون“ : وهي المعبر من بلاد ما وراء النهر إلى خُرَاسَانَ . وجعلها آبن حَوْقَل من أعمال بُخَّارَا . فتكون مما وراء النهر ، وهي خَصْبَةٌ ولها قرى عامرة .

الإقليم الثاني (الدَّشْتُ)

بفتح الدال المهملة وسكون الشين المعجمة وتاء مثناة فوق في الآخر - وهي صحارى في جهة الشمال ، وتضاف إلى القَبَجَاقِ بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح الجيم وألف بعدها ثم قاف - وهم جنس من التُّرك يسكنون هذه الصحارى ، اهل حَلٍّ وَرَحَاٍ على عادة البدو .

وقاعدة المملكة بها (صراى) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الصاد والراء المهملتين وألف وباء مثناة تحمية . ووقع فى "مسالك الأبصار" بالسين المهملة بدل الصاد - وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى مدينة عظيمة فى مستو من الأرض على شطّ نهر [الأئِل] ^(١) من الجانب الشمالى [الشرقى] ^(١) غربى بحر الخزر وشماله على مسيرة نحو يومين ، وبحر الخزر شرقها بجنوبيها ، ونهر الأئِل عندها يجرى من الشمال والغرب إلى الشرق والجنوب حتى يصب فى بحر الخزر . وهى فُرْضة عظيمة للتجار ورقيق التُّرك . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن عبد الرحمن الخوارزمى الترمجان : أنها بناء بركة بن طوحى بن جنكرخان ، وأنها فى أرض سبخة بغير سور ، ودار الملك بها قصرٌ عظيم على عليائه هلالٌ من ذهب زنته قنطاران بالمصرى ، ويحيط بالقصر سورٌ وأبراج فيها الأمراء ، وبهذا القصر يكون مَشْتَاهم ، والسراى مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه برّ ، مقصودة بالإجلاب ، وفى وسطها بركةٌ مأوها من نهر الحل مأوها للاستعمال . أما شرّهم ^(٢) فن النهر يسقى لهم فى حرّار فَخَّار ، وتُصَنَّف على العجالات وتجرّ إلى المدينة وتباع بها . قال : وبعدها عن خوارزم نحو شهر ونصف . قال فى "تقويم البلدان" : وقد بنى بها السلطان أربك مدرسةً للعلم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم فى جهْد من قَشَف العيش لأنهم ليسوا أهل حاضرة ، وشدّة البرد تُهلك مواشيهم . قال : وهم لشدّة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لحماً صلّقه ولم يُنِضْجِه وشرب مرّقه ، وترك اللحم ليأكله مرة أخرى ، ثم يجمع العظام ويعاود صلّقها مرة أخرى ويشرب مرّقها ، وقس على هذا بقية عيْشهم . ونقل عن جمال الدين عبد الله الحصنى التاجر : أن لبس كثير منهم الجلود : مَدَكَاة كانت أو مَيْتة ، مدبوعة أو غير مدبوعة ، من حيوان

(١) الزيادة عن تقويم البلدان . (٢) لعل هذا اللفظ زائد من النسخ .

طاهر أو غيره، ولا يعرفون في المآكل ما يُعاف مما لا يُعاف، ولا التحريم من التحليل؛ وأنهم يبيعون أولادهم في بعض السنين لضيق العيش . قال : ومع ذلك فليس لهم تمسك بدين ولا رزانه في عقل؛ ثم عقب ذلك بأن قال : ومع ذلك فهم من خيار الترك أجناسا لوفائهم وشجاعتهم وتجنّبهم القدر، مع تمام قاماتهم وحسن صُورهم وظرفاة شمائلهم . ثم قال : ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمراءها وجُندها؛ إذ لما رغب الملك الصالح (نجم الدين أيوب) في مشترى الممالك منهم، ثم صار من ممالكه من انتهى إلى الملك والسلطنة، فالت الجنسية إلى الجنسية، ووقعت الرغبة في الاستكثار منهم حتى أصبحت مصرُ بهم أهلة العالم، محمية الجوانب؛ منهم أقارُ مواكبها، وصدور مجالسها، وزعماء جيوشها، وعطاء أرضها . وحمد الإسلام موافقهم في حماية الدين، حتى إنهم جاهدوا في الله أهليهم . قال : وكفى بالنصرة الأولى يوم عين جالوت في كسر الملك المظفر قطز صاحب مصر إذ ذاك في سنة ثمان وخمسين وستمائة عساكر هولاكو ملك التتر بعد أن عجز عنهم عساكر الأقطار، وأستأصلوا شأفة السلطان (جلال الدين محمد بن خوارزم شاه) وقتلوا عساكره؛ مع أن الجيش المصري بالنسبة إلى العساكر الجلالية كالنقطة من الدائرة، والنغمة من البحر، والله يؤيد بنصره من يشاء .

أما في زماننا هذا فإنه منذ قام السلطان الملك الظاهر برقوق من جنس الجركس، رغب في الممالك من جنسه وأكثر من الممالك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند، وقّلت الممالك الترك من الديار المصرية حتى لم يبقَ منهم إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

الإقليم الثالث

(بلاد أنخر)

بفتح الخاء والزاي المعجمتين وراء مهملة في الآخر .

وقاعدته مدينة (بلنجر) . قال في "الباب" : بفتح الباء الموحدة واللام ونون ساكنة وجيم مفتوحة ثم راء مهملة - وهى مدينة بدر بند خزان، واقعة في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "كتاب الأطوال" : وهى إتل . قال في "الباب" : وهى داخل الباب والأبواب، قيل إنها نسبت إلى بلنجر بن يافت .

الإقليم الرابع

(القرم)

قال في "تقويم البلدان" : بكسر القاف والراء المهملة وميم في الآخر . قال : وهو اسم لإقليم يشتمل على نحو أربعين بلدا .

وقاعدتها (صلغات) . قال في "تقويم البلدان" : بضم الصاد المهملة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف وتاء مشناة فوقية في الآخر - وقد أطلق الناس اسم القرم عليها حتى إذا قالوا القرم لا يريدون إلا صلغات - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق والعرض خمسون درجة . قال : وهى عن البحر على نصف يوم؛ وهى عن الأزق في الغرب والشمال .

وبصرآى بلاد مضافة إليها .

(منها) الأَكْكُ . قال في "تقويم البلدان" : بضم المهملة وفتح الكاف الأولى ثم كاف ثانية - وهي بلدة من بلاد الصَّرَاى ، موقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : القياس حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض تسع وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وهي على جانب نهر إرتل من الجانب الغربى بين صَرََاى وبَلَّار ، على قرب منتصف الطريق بينهما ؛ وهي عن كل واحدة منهما على نحو خمس عشرة مرحلة . وإلى الأَكْكِ هذه ينتهى أردو القان صاحب هذه المملكة ؛ ولها مَدُنٌ أخر كما تقدّم . وهي عن الكَفَا شَمَالٌ بغرب ، وعن صُودَاقَ شَمالٌ بشرق ، وبين كل منهما مسيرة يوم ؛ وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) صُودَاقُ . قال في "تقويم البلدان" : بضم الصاد المهملة وواو، وفتح الدال المهملة وألف وقاف في الآخر، والعامّة يقولون : سُرداق ، فيبدلون الصَّادَ سِيناً مهملة والواو راءً مهملة - وموقعها في آخر الإقليم السابع من الأقاليم السبعة أو في الشمال عنه . قال ابن سعيد حيث الطول ست وخمسون درجة ، والعرض إحدى وخمسون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي في ذيل جبل على شَطِّ بحر القِرم ، وأرضها محجروهي مسورة ، وهي فُرْضة للتجار ؛ ويقابلها من البرّ الآخر مدينة سَامُوسَ ، من سواحل بلاد الروم الآتى ذكرها . قال : وأهلها مسلمون . وقال ابن سعيد : أهلها أخلاط من الأمم والأديان ، والأمر فيها راجع إلى النصرانية . وإليها يُنسب الجلد السُّرداق المعروف .

(ومنها) كَفَا . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الكاف والفاء وألف مقصورة . وهي فُرْضة القِرم - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض خمسون درجة ، وهي في وطاة

من الأرض؛ وهى على ساحل بحر القرم، ويقابلها من البر الآخر مدينة طرابزون من سواحل بلاد الروم، وهى شرقى صوداق، وعليها سور من لينة، ومن شمالها وشرقيها صحراء القبحاق؛ وهى عن صوداق فى سمت الشرق، والكفا وصوداق وصلغات كالأنافى.

الإقليم الخامس (بلاد الأزق)

قال فى "تقويم البلدان": بفتح الهمزة والزاي المعجمة وقاف فى الآخر. وقاعدته مدينة الأزق بالضبط المعروف - موقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة. قال فى "تقويم البلدان": والقياس أنها حيث الطول خمس وستون درجة، والعرض ثمان وأربعون درجة. قال: وإليها ينسب بحر الأزق المعروف فى الكتب القديمة ببحر مانيطش، وهى فُرصة على بحر الأزق فى مستو من الأرض عند مَصَبِّ نهر "تان" فى بحر الأزق، وبنائها بالخشب، وبينها وبين القرم نحو خمس عشرة مرحلة، وهى فى الشرق والجنوب عن القرم. ولها مدن أخر.

(منها) الكرّش. قال فى "تقويم البلدان": بفتح الكاف وسكون الراء المهملة وشين معجمة فى الآخر - وهى بلدة صغيرة على ساحل بحر الأزق، واقعة فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة. قال فى "تقويم البلدان": القياس حيث الطول ستون درجة، والعرض سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة. وهى بلدة صغيرة بين الكفا والأزق على فَمِ بحر الأزق، ويقابلها من البر الآخر الطامان من سواحل أرمينية وبلاد الروم، وأهلها قَبجاق كُفار.

الإقليم السادس

(بلاد الجركس)

بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الكاف وسين مهملة في الآخر. قال المؤيد صاحب حماة في "تاريخه": وهو على بحر نيطش من شريقه، وهم في شَطَف من العيش . قال : وقد غلب عليهم دين النصرانية ، وقد صار في زماننا منهم أكثر عسكر الديار المصرية من لدن ملك الظاهر برقوق فإنه أكثر الإجلاب منهم .

الإقليم السابع

(بلاد البلغار)

بضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة في الآخر . وهم جنس معروف أيضا . قال صاحب حماة في "تاريخه" : وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها .

وقاعدتها مدينة (بَلَّار) بضم الباء الموحدة وفتح اللام وألف وراء مهملة في الآخر. قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها بالعربي بُلْغَار - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة ، أوفى الشمال عنه . قال في "الأطوال" وطولها ثمانون درجة ، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وهي بلدة في نهاية العمارة قريبة من شَطَّ نهر إرتل من البر الشمالي الشرقي ، وهي وصراى في بر واحد ، وبينهما فوق عشرين مرحلة ، وهي في وطاة والجبال عنها أقل من يوم ، وأهلها مسلمون حنيفة ، وليس بها شيء من الفواكه ولا أشجار الفواكه لشدة بردها ، والفجل الأسود في غاية الكبر . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد حكى لى بعض أهلها أن في أول الصيف لا يغيب الشفق عنها ويكون ليها في غاية القصر . ثم قال .

وهذا الذى حكاه صحيح موافق لما يظهر بالأعمال الفلكية ، لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف يتبدى عدم غيوبة الشفق في أول فصل الصيف ، وعرضها أكثر من ذلك ، فصح ما تقدم على كل تقدير . قال في "مسالك الأبصار" : وحكى على الحسن الإربلى أن أقصر ليلا أربع ساعات ونصف ، وهو غاية نقصان الليل . قال حسن الرومى : وسألت مسعودا المؤقت بها عن هذا فقال : جربناه بالآلات الرصدية فوجدناه كذلك تحريرا . قال في "مسالك الأبصار" : وقد ذكر المسعودى في "مروج الذهب" أنه كان في السرب والبغار من قديم دار إسلام ومستقر إيمان . فأما الآن فقد تبدلت بإيمانها كُفراً ، وتداولها طائفة من عبّاد الصليب ، ووصلت منهم رُسُلٌ إلى حضرة مصر سنة إحدى وثلاثين وسبعائة من صاحب السرب والبغار ، يعرض نفسه على مودته ، ويسأله سيفاً يتقلده وسنجقاً يقهر أعداءه به ، فأكرم رُسُلَهُ ، وأحسن نُزْلَهُ ، وجهز له معه خلعة كاملة : طرد وحش بقصب بسنجاب مقدس على مقرح سكندرى وكلوته زركش بطرفين ، ومنطقة ذهب ، وكلايب ذهب وسيف محلى ، وسنجق سلطاني أصفر مُذهب . قال : وهم يدارون سلطان القبحاق لعظيم سلطانه عليهم ، وأخذة بخناقهم لقرّبهم منه . وذكر في "التعريف" قريباً منه ؛ ولصاحب السرب مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتي ذكرها في المكتبات إن شاء الله تعالى .

وبين السرب والبغار وبلاد الترك بلاد :

(منها) أَقْجَا كَرْمَانَ - بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الحيم وألف وفتح الكاف والراء المهملة والميم وألف والنون في الآخر - وهى بليدة على بحر نيطش المعروف ببحر القريم ، واقعة في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول خمس وأربعون درجة ، والعرض خمسون درجة ، وهى

في مستوٍ من الأرض ، وأهلها أخلاط من مسلمين وكُفَّار ، وعلى القرب منها يصب نهر طُرْلُو .

(ومنها) صَارِي كَرْمَانَ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الصاد المهملة وألف وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحتيه - وَكَرْمَانُ على ما تقدم ، منخرطة في أَقْجَا كَرْمَانَ ، وهي بلدة أصغر من أَقْجَا كَرْمَانَ - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" حيث الطول خمس وخمسون درجة ، والعرض خمسون درجة قياساً ، ويقابلها من البر الآخر مدينة سَنْوَبَ من سواحل بلاد الروم ، وهي شرقي أَقْجَا كَرْمَانَ المقدم ذكرها ، وبينهما نحو خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين صَلَغَات نحو خمسة أيام .

الإقليم الثامن (بلاد الأولاق)

بضم الهمزة وسكون الواو ولام ألف بعدها قاف ، ويقال لهم البرغَال بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام ، وهم جنس معروف . وقاعدتها مدينة (طُرْنُو) . قال في "تقويم البلدان" : بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو في الآخر - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . قال : وهي غربي صَقْجِي على ثلاثة أيام منها ، وأهلها كُفَّار من الجنس المذكور . ولهم بلاد أخرى :

(١) صَقْجِي . قال في "تقويم البلدان" : قال بعض الفقهاء : بفتح الصاد المهملة وسكون القاف وكسر الجيم المشربة بالشين المعجمة وفي الآخرياء مثناة تحتيه -

(١) الذي في تقويم البلدان "عن بعض أهلها" .

وهي من أولات بلاد القُسْطَنْطِينِيَّة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وأربعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة، وهي متوسطة بين الصَّغَرِ والكِبَرِ في مستوٍ من الأرض، عند مصب نهر طُنَّا في بحر نيطش المعروف ببحر القِرْمِ في الجانب الجنوبي الغربي منه . وهي عن أَقْبَا كَرْمَانَ على مسيرة خمسة أيام، وبينها وبين القُسْطَنْطِينِيَّة في البحر عشرون يوما، وغالب أهلها مسلمون .

الإقليم التاسع (بلاد الآص)

بفتح الهمزة الممدودة وضاد مهملة - وهم جنس معروف . وقاعدته (قِرْقِرْ) . قال في "تقويم البلدان": بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية (؟) وكسر الراء المهملة في الآخر . ومعنى اسمها بالتركية أربعون رجلا، وموقعها في آخر الإقليم السابع . قال في "تقويم البلدان" : القياس أنها حيث الطول خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة . قال : وهي قلعة عاصية على جبل لا يقدر أحد على الطلوع إليه، ووسط ذلك الجبل وطاء تسع أهل البلاد، وهي بعيدة عن البحر في شمالي صَارِي كَرْمَانَ على نحو يوم، وعندها جَبَلٌ عظيم شاهق في الهواء يقال له (جَاطُوطَاغ) بفتح الجيم وألف وطاء مكسورة وووا ساكنة وطاء مهملة وألف وغين معجمة، يظهر للراكب من بحر القِرْمِ .

الإقليم العاشر (بلاد الروس)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . وهم جنس معروف . قال في "تقويم البلدان" : في شمالي مدينة بَلَار المذكورة . قال صاحب حماة

في "تاريخه" : ولهم جزائر أيضا في بحر نيطش وبلار في شماله . قال : وقد غلب عليهم دين النصرانية . قال في "مسالك الأبصار" : وإذا سافر المسافر على غربي جولمان وصل إلى بلاد الروس ، ثم إلى بلاد الفرج وسكان البحر الغربي . قال في "تقويم البلدان" : وفي شمالي الروس الذين يبيعون مغاية . ونقل عن بعض من سافر إلى تلك البلاد أنهم يتصلون بساحل البحر الشمالي ، فإذا وصلوا إلى تخومهم ، أقاموا حتى يعلموا بهم ، ثم يتقدمون إلى المكان المعروف بالبيع والشراء ، ويحيط كل تاجر بضاعته معلمة ويرجعون إلى منازلهم ، فيحضر أولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمور والثعلب والوشق وما شا كل ذلك ، ويدعونه ويمضون ، ثم يحضر التجار فن أعجبه ذلك أخذه ، وإلا تركه حتى يتفصلوا على الرضا .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين بن النعمان : أن البلاد التي يجلب منها السمور والسنجاب هي بلار المقدمة الذكر . قال ابن النعمان : وتجار بلادنا لا يتعدون بلاد البلغار ، وتجار البلغار يسافرون إلى بلاى جقطاي ، وتجار جولمان يسافرون إلى بلاد بوغزه ، وهي في أقصى الشمال ليس بعدها عمارة سوى برج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المنارة العالية ، ليس وراءه مذهب لأحد إلا الظلمات ، فسئل عن الظلمات فقال : صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ، ولا تطلع عليها الشمس ، ولا ينبت فيها نبات ، ولا يعيش فيها حيوان ، متصلة ببحر أسود لا يزال يطر الغيم منعقد عليه .

وأعلم أن صاحب "تقويم البلدان" : قد ذكر عدة أماكن من هذه المملكة سوى ما تقدم ولم ينسبها إلى إقليم .

(منها) كوماجر - بضم الكاف وسكون الواو والميم المشددة وألف وجيم وراء مهملة - وهي مدينة قريبة من الوسط ما بين باب الحديد والأزق ، شرقي الأزق وغربي باب الحديد .

(ومنها) مدينة لَكْر - بفتح اللام وسكون الكاف وفي آخرها زاي معجمة -
وهي مدينة يسكنها جنس من الترك يقال لهم اللكرى ، وهم في الجبل الفاصل بين
تتر مملكة بَرَكَّة ، وتتر مملكة هُولا كُو .

(ومنها) بلاد القَيْتَق - بفتح القاف وسكون المشاة تحت وفتح المشاة من فوق وفي
آخرها قاف ثانية ، وهم جنس من الترك يسكنون الجبل المتصل باللكر من شماليه .
قال في "تقويم البلدان" وهم قُطَاع طريق ، وجبلهم متحكم على باب الحديد .
قلت : وهذه المملكة أوسع من أن يحاط ببلادها ، وفيما ذكرناه مَقْنَع لمن تأمله .

الجملة الثالثة

(في ذكر الأنهار العظام والبحيرات الواقعة في هذه المملكة)

أما الأنهار فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة سَيْحُونٌ وَجِيحُونُ
المقَدَّم ذكرهما في مملكة ماوراء النهر ، وذلك أنهما يمتدان من هذه المملكة إلى تلك ،
فيصدق وجودهما في الملكين جميعا . وقد تقدم ذكرهما هناك فأغنى عن إعادته هنا .
ثم المشهور مما يختص بهذه المملكة خمسة أنهار .

أحدها - نهر أَيْل - بفتح الهمزة وكسر المثلثة ولام في الآخر - فعرف بأئل ،
وهي مدينة بَدَجَر المقَدَّم ذكرها ، ويقال فيه نهر الأئل بالألف واللام أيضا ، وهو
من أعظم الأنهار بتلك البلاد وأشهرها . ذكر في "مسالك الأبصار" عن الفاضل
شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أنه يكون قدر النيل ثلاث مرات
أو أكثر . قال : وأصله من بلاد الصَّقَلَب . قال في "تقويم البلدان" : وهو يأتي
من أقصى الشمال والشرق من حيث لا عماراة ، ويمر بالقرب من مدينة بَلَار ، وهي

(١) كذا في "التقويم" ونص ياقوت على أنه بالمشاة الفوقية وأنه بوزن إيل .

بُلْعَارُ، ويستدير عليها من شمالها وغربها، ويجرى منها إلى بُلَيْدَةٍ عَلَى شَطِّهِ يُقَالُ [لَهَا أَوْكُكُ ثُمَّ يَتَجَاوَزُهَا إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ ^(١) لَهَا بُلْجَمَنُ، ويجرى جنوباً ثم يعطف، ويجرى إلى الشرق والجنوب، ويمر على مدينة صَرَاىَ من جنوبها وغربها، فإذا تجاوز مدينة صَرَاىَ أَفْتَرَقَ، ويصير على مَاقِيلِ أَلْفِ نَهْرٍ وَنَهْرٍ، ويصب الجميع في بحرِ الْخَزَرِ. قال في "مسالك الأبصار": وتجرى فيه السفن الكبار، ويسافر فيه المسافرون إلى الرُّوسِ والصَّقَلَبِ .

الثنائي - نهر طُنَا . قال في "تقويم البلدان" : بضم الطاء المهملة وفتح النون وألف . قال في "تقويم البلدان" : وهو نهر عظيم يكون أكبر من دجلة والفُراتِ إذا اجتمعَا بكثير . قال : ويجرى من أقصى الشمال إلى جهة الجنوب، ويمر في شرقيّ جبل يسمّى (قشغا طاغ) . ومعناه الجبل الصَّعبُ ، وهو جبل فيه أجناس مختلفة من أمم الكُفَرِ مثل الأولاق والماجار والسَّرب وغيرهم، فيمرُّ في شرقيه، وكلما جرى جنوباً قرب من بحرِ نِيَطُش المعروف الآن ببحر القِرْمِ، ولا يزال يتقارب منه ويقرب ما بين الجبل والبحر المذكور حتى يصب فيه في شماليّ مدينة صَفَجِيّ في شماليّ القُسْطَنْطِينِيَّةِ بميلة إلى الغرب .

الثالث - نهر أزو . قال في "تقويم البلدان" : بالزاي المعجمة [المفخمة] ^(٢) بعد الألف وواو في الآخر . قال : وهو نهر عظيم يأتي من الشمال شرقيّ نهر طُنَا المقدم ذكره، ويمر مغرباً، ثم يعطف ويمر مشرقاً حتى يصب في خور من بحر القِرْمِ بين صَارِي كَرْمَانَ وَأَقْبَا كَرْمَانَ المقدم ذكرهما .

الرابع - نهر تان . قال في "تقويم البلدان" : بتاء مثناة من فوق وألف ^(٢) [مملة] ونون في الآخر . قال : وهو نهر عظيم شرقيّ أزو المقدم ذكره وغربيّ نهر

(١) الزيادة عن "التقويم" . (٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

الأثل يجرى من الشمال إلى الجنوب، ويصب في بحيرة مانيطش المعروفة في زماننا
ببحر الأزق عند مدينة الأزق من غربيها .

الخامس - نهر طرلو . قال في "تقويم البلدان" بضم الطاء وسكون الراء
المهملتين ولام وواو . قال : وهو نحو عاصى حمأة ، ويصب على القرب من
أقحج كرمآن في بحر نيطش المعروف ببحر القريم .



وأما البحيرات فالمشهور بها بحيرة خوارزم : وهي بحيرة كبيرة ماؤها ملح . قال
ابن حوقل : دورها مائة فرسخ ، وفيها يصب نهر جيحون في جانبها الجنوبي ، وفيها
يصب نهر الشاش أيضا ، وبينها وبين البحر عشرون مرحلة ، وبينها وبين خوارزم
ست مراحل .

الجملة الرابعة

(في الطرق الموصلة إلى هذه المملكة)

ولها طريقان : طريق في البر ، وطريق في البحر .

فأما طريق البر فقد تقدم في الكلام على مملكة إيران الطريق إلى شط جيحون .
وقد ذكر في "تقويم البلدان" أن بين أمل الشط وبين خوارزم نحو أمتي عشرة
مرحلة . وذكر في "مسالك الأبصار" أن بين خوارزم ومدينة صراى نحو شهر
ونصف ، وأن بين خوارزم ومدينة صراى مدينة وجق ومدينة قطلود .

وأما طريق البحر فهو أن يركب المسافر إليها في بحر الروم من مدينة الإسكندرية
أو مدينة دمياط من شمالي الديار المصرية ، ويسير إلى خليج القسطنطينية المتصل
ببحر الروم من جهة الشمال ، ويركب فيه ويحاذره إلى بحر نيطش المعروف ببحر القريم ،
ثم إلى بحر مانيطش المعروف ببحر الأزق وينتهي إلى آخره .

الجملة الخامسة

(في الموجود بها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" أن فيها من الحبوب القمح، والشعير، والدخن، ويسمى عندهم الأرزن، والماش، والجاورس، وهو شبيه بحب البرسيم، على إقالة في القمح والشعير. أما القول فلا يكاد يوجد عندهم، وأكثر حبوبهم الدخن ومنه أكلهم، وبها من الفواكه جميع أنواع الفواكه إلا النخل، والزيتون، وقصب السكر، والموز، والأترج، والليمون، والتارنج. وذكر عن بلاد القباقي أنها كانت قبل استيلاء التتار عليها معمورة الجوانب، وأنها في بقايا تلك العمارات والغراس، وأن فيها من الفواكه العنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والكثير من المشمش، والخرنوب، والجوز، وفاكهة تسمى بلغة القباقي بانيك شبيهة بالتين، وأن الفواكه كثيرة الوجود في جبالهم مع كثرة ما بآد منها. قال: وأما البطيخ فينجب عندهم نجابة خاصة الأصفر، وهو في غاية صدق الحلاوة يقدونه ويحفظونه فيبقى عندهم من السنة إلى السنة، وربما استخرجوا ماءه وصنعوا منه الحلوى، وعندهم من الخضراوات اللفت، والجزر، والكرب، وغير ذلك. ثم قال: وكذلك مدن الجركس والرؤس والآص، وبها العسل الكثير الأبيض اللون اللذيذ الطعم الخالي من الحدة.

الجملة السادسة

(في المعاملات والأسعار بها)

أما المعاملات فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن عبد الرحمن الخوارزمي الترمي أن دينارهم رايج كما في غالب مملكة إيران، وهو الذي عنه ستة دراهم، وأن الحبوب تباع كلها عندهم بالرطل، وذكر أن رطل خوارزم زنته ثلثمائة وثلاثون درهما.

وأما الأسعار فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر أن الأسعار في جميع هذه المملكة رَخِيَّةٌ إلى الغاية إلا كُرْكُنَجَ أُمَ إقليم خُوارزَمَ فإنها متماسكة في أسعار الغلات قَلَّ أن تَرُخَّصَ، بل إما أن تكون غَلِيَّةً أو متوسطة لا يعرف [بها] الرُّخْصُ أبداً. ثم ذكر عن شجاع الدين عبد الرحمن الخُوارزَمِي التَّرجَمَانُ: أن الأسعار في خُوارزَمَ والسَّرايَ لا يكاد يتباين ما بينهما . قال : والسعر المتوسط عندهم القَمْحُ بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين، وكذلك الدخن والجاوَرُسُ، وربما زاد، والغالب أن يكون سعره مماثل سعر القمح؛ واللحم الضأن على السعر المتوسط كل ثلاثة أرطال بدرهم. وذكر ابن مسافر أن اللحوم بها رخيصة، وأكثر ما يذبح بها الخيل .

وأما سُكَّانُ البر فإن اللحم لا يباع لديهم ولا يُشْتَرَى لكثرتِه، وغالب أكلهم لحوم الطير واللبن والسمن، وإن تَلَفَ لأحد منهم دابةً من فَرَسٍ أو بقرة أو شاة أو غير ذلك، ذبحها وأكل هو وأهلُه منها، وأهدى لجيرانه. فإذا تلف عند مَنْ أهدى إليه شيءٌ من ذلك، ذبحه أيضاً وأهدى لجيرانه، فلهذا لا تكاد بيوتهم تخلو من اللحم .

الجملة السابعة

(في ذكر ملوك هذه المملكة)

قد تقدم أنها قسم من مملكة تُورَانَ، ومملكة تُوران كانت في القديم بيد افراسياب ملك التُّركِ، وتداولها ملوك الترك بعده إلى الفتوح الإسلامية، وأسلم مَنْ أسلم من ملوكهم .

أما خُوارزَمُ فتوالت عليها الأيدي حتى صارت إلى (محمود بن سُبُكْتِكِين) المتقدم ذكره في ملوك غَزَنَةِ من القسم الأول من هذه المملكة؛ ثم صارت (لمسعود) آبنه،

واستتاب فيها خوارزم شاه هارون بن الطيطاش؛ ثم قتله غلمانه عند خروجه إلى الصيد؛ وأستولى عليها رجل يقال له (عبد الجبار)، ثم وثب غلمان هارون بعبد الجبار فقتلوه، وولّوا مكانه (إسماعيل بن الطيطاش) أخا هارون؛ ثم غلبه عليها (شاه ملك) ابن علي؛ ثم غلبه عليها (طغرليك) بن ميكائيل بن سلجوق، وبقيت بيد السلجوقية المقدم ذكرهم في مملكة إيران، إلى أن صارت منهم إلى (بريكارق) بن ملكشاه بن أرسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فأستتاب فيها علاء الدين محمد أنوشتكين في أيام بريكارق بن ملكشاه بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقي، ولقب خوارزم شاه في سنة تسعين وأربعمائة .

ثم ولي بعده آبنه (أطسز) بن محمد؛ ثم غلبه على ذلك (سنجر) بن ملكشاه أخو علاء الدين محمد، وأقام بها من يحفظها في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، [ثم غلبه عليها أطسز بن محمد المقدم ذكره^(١)]، وبقى بها حتى توفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . وملك بعده آبنه (أرسلان بن أطسز) وتوفي سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (سلطان شاه محمود) صغيرا، وقامت أمه بتدبير دولته؛ ثم غلب على الملك أخوه (علاء الدين تكش) ثم غلبه أخوه (سلطان شاه) وطرده، ثم مات سلطان شاه وأنفرد (تكش بالملك) ثم مات في سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وولى بعده آبنه (محمد بن تكش) وكان لقبه قُطْبُ الدين فتلقب علاء الدين، وبقى حتى غلبه جنكرخان وهزمه في سنة تسع عشرة وستمائة، ثم مات بعد ذلك . ولى ملك جنكرخان أوصى بدشت القبجاق، وما معه لآبنه طوجي، ويقال له دوجي أيضا، فمات طوجي في حياة أبيه جنكرخان . فلما مات جنكرخان آستقر في مملكة ماوراء النهر، وما معه باتو بن طوجي بن جنكرخان، ثم مات باتو .

(١) الزبادة عن تاريخ أبي الفدا ليوافق الواقع .

وملك بعده أخوه (بركة بن طوجي) وهو الذي تنسب هذه المملكة إليه، فيقال فيها بيت بركة، بمعنى هذه مملكة بيت بركة، كما يقال في مملكة إيران هي مملكة بيت هولاكو. قال صاحب "الذيل على الكامل" وكانت المكتبة بينه وبين الظاهر بيبرس لا تنقطع، وبقي حتى توفي سنة خمس وستين وستمائة عن غير ولد.

وملك بعده ابن أخيه (منكوتمر بن طغان) بن باطون بن دوجي خان، ابن جنكرخان، وتوفي سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وملك بعده أخوه (تدان منكوتمر) بن طغان بن باطون بن دوجي خان، ابن جنكرخان وقيل سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وكان صاحب مصر قد جهز إلى منكوتمر هدية^(١) فلم تصل إليه حتى مات، وأستقر (تدان منكو) فقدمت إليه فابتهج بها، وعادت الرسل بجوابه بذلك، وبقي إلى سنة ست وثمانين وستمائة فأظهر الولة وتخلّى عن المملكة وأتمى إلى المشايخ والفقراء.

وملك بعده (تلابغا) بإشارته [ابن منكوتمر بن طغان بن باطون] بن دوجي خان ابن جنكرخان، وبقي حتى قتل في سنة تسعين وستمائة.

وملك بعده (طقطغا) بن منكوتمر بن طغان بن باطوخان ابن جنكرخان.

والذي ذكره قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون في "تاريخه" أنه ملك بعد باطوخان أخوه طرطو، ثم أخوه بركة، ثم منكوتمر بن طغان خان ابن باطوخان ابن دوشي خان، ثم ابنه تدان منكو، ثم أخوه تلابغا، ثم أخوه جفطاي، ثم ابن أخيه أربك، وهو الذي كان في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية. قال في "التعريف": وخطب إليه السلطان فزوجه بنتا تقرب إليه، ثم ابنه جاني بك، ثم ابنه بردي بك، ثم ابنه طقتمش، ثم نائبه ماماي، ثم عبد الله بن أربك،

(١) في تاريخ أبي الفدا "سنة ثمانين". (٢) الزيادة عن تاريخ أبي الفدا.

ثم قطلقتم، ثم ماماي ثانيا، ثم حاجي جركس، ثم أيك خان، ثم آبنه قاني بك خان، ثم أرس خان، ثم طقتمش خان آبن بردى بك خان. قال: ومنه آتزعها تمرلنك وقتله. قلت: المعروف أن تمرلنك لم يملك هذه المملكة أصلا ولا قتل طقتمش، وما ذكره وهم فيه.

وأول من أسلم من ملوك هذه المملكة من بني جنكرخان بركة بن طوحي آبن جنكرخان، وكان إسلامه قبل تملكه حين أرسله أخوه باطوخان لإجلاس منكوخان على كرسى جدّه جنكرخان، فأجلسه، وعاد فتر في طريقه على الباخرزى شيخ الطريقة، فأسلم على يديه وحسن إسلامه، ولم يملك بعد أخيه باطوخان إلا وهو مسلم، وتلاه من تلاه من ملوكهم بهذه المملكة في الإسلام حتى كان أزبك خان منهم، فأخلص في الإسلام غاية الإخلاص، وتظاهر بالديانة والتمسك بالشرعية، وحافظ على الصلاة وداوم على الصيام.

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن زين الدين عمر بن مسافر أن ملوك هذه الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكرخان التي قترها لهم وقوف غيرهم من أتباعه، مع مؤاخذه بعضهم بعضا أشد المؤاخذه في الكذب والزنا ونبيذ الموائيق والعهود. وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم، أخذوا ماله وباعوا أولاده، وأن في سلطان هذه المملكة طوائف الجركيس والروس والآص، وهم أهل مدن عامرة أهلة، وجمال مشجرة مثمرة؛ ينبت عندهم الزرع، ويدّر لهم الصرع؛ وتجري الأنهار، وتنجى الثمار؛ وهم وإن كان لهم ملوك فهم كالرعايا، فإن داروه بالطاعة والتخف كف عنهم، وإلا شق عليهم الغارات، وضايقهم، وحاصرهم،

(١) لعله فهم ملك مصر أو نحو ذلك كالرعايا لينتظم الكلام.

وقتل رجالهم ، وسبى نساءهم ، وذراريهم ، وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض .
ثم قال : والقسطنطينية مجاورة لأطراف ملك القبجاق ، وملك الروم معه في كلب دائم ،
وأقترحات متعددة في كل وقت ، وملك الروم على توقد جمرته ، وكثرة حمايته وأنصاره ،
يخاف غارته وشره ، ويتقرب إليه ، ويداريه ، ويدافع معه الأيام من وقت إلى وقت
منذ تدير ملوك بني جنكخان هذه المملكة . وما تخلو بينهم مدة عن تجديد عهود
ومسألة إلى مدة تؤجل بينهم ، وأشياء تحمل من جهة ملك الروم إلى ملكهم .

الجملة الثامنة

(في مقدار عسكر هذه المملكة ، وترتيبها ، ومقادير الأرزاق)

الجارية عليهم ، وزيتهم في اللبس)

أما مقدار عسكرها ، فقد ذكر في " مسالك الأبصار " عن الشيخ علاء الدين
ابن النعمان أن عساكرها كثيرة تفوت الحصر ، لا يعلم لها مقدار إلا أنه خرج مرة
عليه وعلى القان الكبير اسنبغا سلطان ما وراء النهر خارج ، فجوز إليه من كل عشرة
واحدا فبلغ عدة المجردين مائتين وخمسين ألفا ممن دخل تحت الإحصاء سوى من
أنضم إليهم ، وألزم كل فارس منهم بغلامين وثلاثين رأسا من الغنم وخمسة رؤوس
من الخيل وقدرين نحاس وعجلة .

وأما ترتيب مملكتهم فحكى عن الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلي أن ترتيب
هذه المملكة في أمر جيوشها وسلطانها كما في ترتيب مملكة العراق والعجم في عدة
الأمراء والأحكام والخدم ، ولكن ليس لأمر الألووس والوزير بها تصرف أمير
الألووس والوزير بتلك المملكة ، ولا لسلطان هذه المملكة نظير ما لذلك السلطان من
الدخل والمجاني وعدد المدين والقرى ، ولا مشي أهل هذه المملكة على قواعد الخلفاء
مثل أولئك ، ولخواتين هؤلاء مشاركة في الحكم معهم وإصدار الأمور عنهم مثل

أولئك وأكثر ، إلا ما كانت عليه بغداد بنت جويان امرأة أبي سعيد بهادر بن خدابندا ، فإنه لم ير من يحكم حكمها . قال المقر الشهابي بن فضل الله : وقد وقفت على كثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بركة وما بعده ، وفيها ” وأنفقت آراء الخواتين والأمرء على كذا “ أو ما يجري هذا المجرى .

وحكى عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر عن أربك خان سلطان هذه المملكة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون أنه لا ألثفات له من أمور مملكته إلا إلى جُمليّات الأمور دون تفصيل الأحوال ، يَقَعُ بما حَمَلَ إليه ، ولا يبحث عن وجوه القبض والصرف ، وأن لكل امرأة من خواتينه جانباً من الحمل ، وأنه يركب كل يوم إلى امرأة منهم ، يقيم ذلك اليوم عندها ، يأكل من بيتها ويشرب ، وتلبسه بدلة قماش كاملة ، ويخلع التي كانت عليه من اللبس على من يتفق ممن حوله . ثم قال : وقماشه ليس بفائق الجنس ولا غالى الثمن ، مع قربه من الرعايا القاصدين له ، إلا أن يده ليست مبسوبة بالعطاء ، ولو أراد هذا لما وفى به دخل بلاده ، فإن غالب رعاياه أصحاب عمَلٍ في الصحراء ، أقواتهم من مواشيهم . ونقل عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن لسلطان هذه المملكة على جميعهم خراجاً يستأديه منهم ، وأنهم ربما طُوبوا بالخراج في سنة مُمِحِلَة لوقوع المُوتان بدوابهم ، أو سقوط الثلج ونحوه ، فباعوا أولادهم لأداء ما عليهم من الخراج .

وأما مقادير أرزاق جُنْدِهم ، فقد حكى عن شجاع الدين عبد الرحمن أن كل من كان بيد آبائه شيء من الإقطاع فهو بيد أبنائه . ثم قال : والأمرء لهم بلاد ، منهم من تُعَلُّ بلاده في السنة مائتي ألف دينار راجح وما دون ذلك إلى مائة ألف دينار راجح . أما الجند فليس لأحد منهم إلا نقود تؤخذ ، كلهم فيها على السواء ، لكل واحد منهم في السنة مائتا دينار راجح .

وأما زَيْهَمُ في اللبس ، فحكى عن شجاع الدين الترحمان أيضا أنه كان زيهم زِيَّ
عسكر مصر والشام في الدولة الإسلامية وما يناسب ذلك ، ثم غلب على زيهم زِيَّ التتر
إلا أنهم بعائم صغار مُدَوَّرَة .

القسم الثالث

(من مملكة تُورَان مملكةُ القان الكبير)

قال في ” التعريف “ : وهو أكبر الثلاثة ، (يعنى ملوك الأقسام الثلاثة المتقدمة
الذكر) . وهو صاحب الصَّينِ والحِطَا ووارث تحت جنكرخان . قال : وقد تواترت
الأخبار بأنه أسلم ودان بدين الإسلام ، ورَقَمَ كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام .
قال : وإن صحَّ وهو المؤمل ، فقد ملأت الأمة الحمديَّةُ الخلفيين ، وعمرتِ المشرقَ
والمغربَ ، وأمتدت بين ضَفَقَي البحر المحيط . قال في ” مسالك الأبصار “ : وهو
القائم مقام جنكرخان والجالسُ على تخته . قال : وهو كالخليفة على بنى عمه من بقية
ملوك تُوران : من مملكة إيران ، وصاحب القَبَجَاقِ ، وصاحب ما وراء النهر .
فإذا تجدد في مملكة أحد منهم مُهمٌّ كبير ، مثل لقاء عسكر ، أو قتل أمير كبير بذنب ،
أو ما يناسب ذلك ، أرسل إليه وأعلمه به ، وإن كان لا أفتقار إلى استئذانه ،
ولكنها عادة مَرَعِيَّةٌ بينهم .

وقد ذكر في ” مسالك الأبصار “ عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أنه لم
يزل يكتبُ إلى كلِّ من القانات الثلاثة ، يأمرهم بالاتِّحاد والألفة ، وإذا كتب إليهم
بدأ باسمه قبلهم ، وإذا كتبوا إليه بدأ باسمه قبلهم . قال : وكلهم مُدْعِنون له بالتقدُّم
عليهم . قال في ” مسالك الأبصار “ : وأهل هذه المملكة هم أهل الأعمال اللطيفة ،
والصنائع البديعة ، التي سامت إليهم فيها الأمم . وقد تكتبُ الكُتُبُ ^(١) من أحوالهم
بما أغنى عن ذكره . قال : ومن عادة المجيدين في الصنائع أنهم إذا عملوا عملا

(١) لعله ” وقد تكفلت الكتب الخ “ .

يديعا، حملوه إلى باب الملك، وعلّق عليه ليراه الناس، ويبقى سنةً، فإن سلم من عائب أسدى إلى صاحبه الإحسان، وإن عيب عليه وتوجّه العيب، وضع قدر الصانع ولم يوجه العيب [على] من عابه.

وقد حكى المسعودي في "مروج الذهب" أن صانعا منهم صور عصفورا على سنبلة في نقش ثوب كحها وعلقه، فاستحسنه كل من رآه، حتى مرّ به رجل فعابه باستقامة السنبلة، لأن العصفور من شأنه أنه إذا وضع على السنبلة أمالها.

وحكى في "مسالك الأبصار" عن بدر الدين حسن الإسعدي أن بعض صنّاعهم عمل ثيابا من الورق وباعها على أنها من الكخاوات الخطائية، لا يشك فيها شاك، ثم أظهرهم على ذلك فمجبوا منه.

وحكى عن الشريف حسن السمرقندي أنه كان بهذه البلاد، فشكا ضرسه، فأراه لرجل من الخطا، فوضع يده عليه، فأخرج منه قطعة متأكلة، ووضع مكانها قطعة من ضرس أجنبي، ودهنه بدهن وأمره أن لا يشرب ماء يومه، فالتصق حتى صار كأنه من أصل الحلقة، إلا أن لون الأول يبين من اللون الثاني. وذكر المقر الشهابي أنه أراه له بحضرة الشيخ شمس الدين الأصفهاني وجماعة من أهل العلم. قال بدر الدين حسن الإسعدي: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما يتجار فيه العقل. ويحصل الغرض منه في خمس جمل:

الجملة الأولى

(فما أشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وأعلم أن هذه المملكة هي أوسع ممالك بني جنكرخان وأفسحها جوانب، وأكثرها أقاليم، وأوفرها مدنا، غير أنها بعيدة المسافة، منقطعة الأخبار، فجّهلت لذلك أسماء

أقاليمها، وتعذرت الإحاطة بأقطارها؛ ونحن نورد منها ماشاع ذكره في سائر الآفاق
وأنتشر، ونَقْنَع من التفصيل بالجملة، ونكتفى من البحر بالنُغْبَة .

والقول الجملى فى ذلك أنه يشتمل على إقليمين عظيمين :

الإقليم الأول (الصين)

بكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر. قال فى "تقويم
البلدان" : ويحيط به من جهة الغرب المفاوِزُ التى بينه وبين الهند، ويحيط به من
جهة الجنوب البحر (يعنى بحر الهند) ، ويحيط به من جهة الشرق البحر المحيط،
ويحيط به من جهة الشمال أرض يأجوج ومأجوج وغيرها من الأراضى المنقطعة
الأخبار عنا . ثم قال : وقد ذكر أصحاب المسالك والممالك فى كتبهم بلادا كثيرة،
ومواضع وأنهارا وغيرها فى إقليم الصين؛ ولم يقع لنا ضبط أسمائها، ولا تحقيق
أحوالها، فصارت كالمجهولة لنا لعدم من يصل من تلك النواحي من المسافرين إلينا
لنستعلم منه أخبارها فأضربنا عن ذكرها .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين حسن بن الجلال
السمرقندى، وهو من السفّار، ومن جال الآفاق، ودخل الصين وجال بلاده، وجاب
آفاقه، وجاس خلاله، وجال فى أقطاره : أن بالصين ألف مدينة، وأنه دار الكثير
منها . قال : وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد، ومن قرية إلى قرية .

وقاعدة هذه المملكة (خان بالى) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الخاء المعجمة
ثم ألف ونون ساكنة وباء موحدة مفتوحة ثم ألف ولام مكسورة وقاف فى الآخر.
قال : وهى مدينة من أقاصى الشرق عند بلاد الخطا، واقعة فى الإقليم الرابع من
الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة، والعرض

خمسة وثلاثون درجة وخمسة وعشرون دقيقة . وهى قاعدة مشهورة على ألسنة التجار وأهلها من جنس الخطا ، وعندهم معادن الفضة . قال ابن سعيد : ويذكر عن عظيم هذه المدينة ما يستبعد العقل . قال فى "مسالك الأبصار" نقلا عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندى : إن مدينة خان بالى المذكورة مدينتان ، قديمة وجديدة ، والحديدة منهما اسمها ديدو ، بناها (ديدو) آخر ملوكها فسميت باسمه ، والقان الكبير ينزل بوسطها فى قصر عظيم يسمى كوك طاق ، ومعناه بلغة المغل القصر الأخضر ، لأن طاق معناه عندهم القصر ، وكوك معناه الأخضر ، ومنازل الأمراء حوله خارج القصر ، قال : وهى مدينة طيبة ، واسعة الأقوات ، رخيصة الأسعار ، ويحدها الماء فى زمن الشتاء فيصير كالثلج ، فيرفع إلى أيام الصيف حتى يبرد به الماء كما يبرد بالثلج . ويشق مدينة ديدو المذكورة نهر .

وبها أنواع الفواكه إلا العنب فإنه قليل بها ، وليس بها نارنج ولا ليمون ولا زيتون ، ثم يعمل بها السكر . وبها من الزرع والحمل والخيل والبقر والغنم ما لا يدخل تحت الإحصاء . وبالصين مدن مشهورة سواها .

(منها) قراقوم . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح القاف والراء المهمله ثم ألف وقاف مضمومة وواو ساكنة وميم . قال : وهى مدينة فى أقصى بلاد الترك الشرقية ، ومعنى قراقوم باللغة التركية الرمل الأسود ، لأن قرا فى لغتهم بمعنى الأسود ، وقم بمعنى الرمل ، ويقع فى كثير من الكتب قراقوم بإبدال الواو وراء وهو خطأ ، وإنما كتبت الواو بها بعد القاف دليلا على الضمة على عادتهم فى ذلك - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وست وخمسون درجة ، والعرض خمسة وثلاثون درجة وخمسة وعشرون دقيقة . قال : وهى كانت قاعدة التتر ، وفى جهاتها بلاد المغل : وهم خالصة التتر . ومنها خاناتهم . قال الشريف

حسن بن الجلال السمرقندى : وفيها غالب عساكر القان الكبير . وبها يعمل القماش الفاهر ، والصنائع الفاتقة ، وغالب ما يحتاج إليه القان يُستدعى منها لأنها دار استعمال ، وأهلها أهل صنائع فائقة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي قرية جنكرخان التي أخرجته ، وعمر يسته التي أدرجته .

(ومنها) الخنساء . قال في "تقويم البلدان" : بالخاء المعجمة والنون والسين المهملة وألف . وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : حيث الطول مائة وخمس وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وعن بعض المسافرين من بلادنا أن الخنساء في هذا الزمان أعظم فرض الصين ، وإليها ينتهى وصول التجار المسافرين من بلادنا . قال الشريف السمرقندى : وطول الخنساء يوم كامل ، وعرضها نصف يوم ، وفي وسطها سوق واحد ممتد من أولها إلى آخرها ، وأسواقها مبلطة بالبلاط ، وبنائها خمس طبقات بعضها فوق بعض ، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير ، وشرب أهلها من الآبار ، وأهلها في قشيف عظيم ، وغالب أكلهم لحم الجاموس والإوز والدجاج . وفيها الأرز ، والموز ، وقصب السكر ، والليمون ، وقليل الرمان ، وأسعارها متوسطة ، وتجلب إليها الغنم والقمح على قلة ، ولا يوجد فيها من الخيل إلا ما قل عند أعيانها . وأما الجمال فلا توجد فيها البتة ، فإن دخلها حمل تعجبوا منه . ونقل في "مسالك الأبصار" أن بينها وبين خالق بالق أربعين يوما . وحكى عن الصدر صدر الدين عبد الوهاب بن الحداد البغدادى أنه وصل إلى الخنساء ووصف عظمة بنائها ومنعة رفعة مدينتها مع تسطح الأقوات بها ووفور المكاسب فيها ورخص التدقيق الجيد فيها ^(١) وفي جميع تلك البلاد . قال : وأهلها يتفاحرون بكثرة الجوارى السرارى ، حتى إنه ليوجد لأحد التجار وآحاد الناس أربعون سرية فما زاد على ذلك .

(١) لعله الرقيق بالراء فتأمل .

(ومنها) الزَّيْتُونُ . قال في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين الثقات : هي بلفظ الزيتون الذي يعتصر منه الزيت ، وهي فُرْصَةٌ من فُرْصِ الصِّين - موقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة ، والعرض سبع عشرة درجة . قال : وهي مدينة مشهورة على ألسنة التجار المسافرين إلى تلك البلاد ؛ وهي على خَوْرٍ من البحر ، والمراكب تدخل إليها من بحر الصِّين في الخَوْر المذكور ، وقدره نحو خمسة عشر ميلاً ، ولها نهر عند رأس الخور المذكور . وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشريف السمرقندي أن مدينة الزَّيْتُون على البحر المحيط وهي آثر العمار . قال : وبينها وبين جالق بالق شهر واحد .

(ومنها) السَّيْلِي . قال في "تقويم البلدان" : بالسَّيْنِ المهملة والياء المثناة التحتية ولام وياء ثانية . ثم قال : هكذا وجدناه في الكتب . قال : ويقال لها سَيْلاً يعني باللام ألف ، ورأيت في بعض الكتب سَيْلان بزيادة نون بعد اللام ألف . قال : وهي مدينة في أقصى الصِّين الشرق ، خارجة عن الإقليم الأول إلى الجنوب . قال في "القانون" : حيث الطول مائة وسبعون درجة ، والعرض خمس درج ، وهي في أعلى الصِّين من الشرق بجزائر الخالدات في بحر الغرب ، لكن هذه معمورة في خُصْبٍ بخلاف تلك .

(ومنها) جمكوت . قال في "تقويم البلدان" : بالجيم والميم والكاف ثم واو وتاء مثناة فوقية في الآخر . قال : كذا وجدناها مكتوبة ، وأسماها عند الفُرسِ جما كرد . قال : وهي مدينة في أقصى العمار الشرقية ، خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال في "الأطوال" : وهي على خط الاستواء لاعرض لها . قال في "تقويم البلدان" : وهي على النهاية الشرقية مثل ما يحكى عن الجزائر الخالدات في النهاية الغربية . قال : وليس شرقاً جمكوت عمار أصلاً .

(ومنها) مدن أخرى مذكورة في الكتب مجهولة الضبط .

إحداها مدينة (ينجو) - وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول مائة وخمس وعشرون، والعرض اثنتان وعشرون . وقد ذكر في "القانون" أنها مستقر ملكهم الأكبر الملقب بطمفاج .

(ومنها) مدينة خانقو . بحاء معجمة وألف ونون وقاف ثم واو - وهي مدينة على النهر واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول مائة وستون درجة، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أبواب الصين . قال ابن سعيد : وموقعها على شرق نهر خمدان . قال ابن خردادبه : وهي المرفأ الأكبر، وفيها القواكه الكثيرة، والبقول، والحنطة، والشعير، والأرز، والعنب، والسكر .

(ومنها) مدينة خانجو - بإبدال القاف من المدينة السابقة جيا - وهي مدينة على النهر، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول مائة واثنتان وستون درجة، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "القانون" : وهي من أبواب الصين .

(ومنها) مدينة سوسة - بسينين مهملتين بينهما واو ساكنة وفي الآخر هاء . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة مشهورة كثيرة التجار متصلة العمار، وبها يُصنع الفخار الصيني الذي لا يفوقه ولا يعدله شيء من أعمال الصين . قال : وهي على شرق نهر خمدان .

الإقليم الثاني (بلاد الخطأ)

بكسر ائحاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر، وهم جنس من الترك بلادهم في متاخمة بلاد الصين .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" مدينة (قمجوهي) بقاف وميم وجيم وواو ثم هاء وراء آخر الحروف . وقال : إنها أول بلاد الخطأ، وإن منها إلى جالق بالقي أربعين يوماً، بل ذكر أن مدينة جالق بالقي التي هي قاعدة هذه المملكة من بلاد الخطأ .

الجملة الثانية

(في معاملة هذه المملكة وأسعارها)

أما معاملتها فقال في "مسالك الأبصار" : حدثني الفاضل نظام الدين آبن الحكيم أن معاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت مطبوعة باسم القان، فإذا عتق ذلك حمله صاحبه إلى ثواب هذا القان وأخذ عوضه مع خسارة لطيفة، كما يؤخذ في دار الضرب مما يُحمل إليها من الذهب والفضة ليُضرب بها . وذكر عن الشريف حسن السمرقندي أن فيها بكرا وفيها صفارا، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها ما يقوم مقام درهمين، ومنها ما يقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة . وقد تقدم في الكلام على جالق بالقي والخسَاء ذكر ما بهما من الحيوان والحبوب والبقول وغير ذلك .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصل إلى هذه المملكة)

قد حكى في "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين السمرقندي : أن من سمرقند من بلاد ما وراء النهر إلى سيلي عشرين يوماً، ومن سيلي المذكورة إلى المالق عشرين يوماً، ومن المالق إلى قرا خوجا إلى قمجوهي إلى خان بالقي أربعين يوماً . ثم قال : ومن خان بالقي إلى الخسَاء طريقان : طريق في البر، وطريق في البحر،

(١) كذا في الأصل ، وسبق له مثله مرارا عن "المسالك" ولكن الذي ضبطه فيما تقدم عن "التقويم"

خان بالقي بالخاء المعجمة والنون .

وفي كل من الطريقين من خان بالق إلى الخنساء أربعون يوما . وذكر في الكلام على مملكة بيت بركة عن حسن الإربلي أن المسافر إذا سافر من جولان على شريقها وصل إلى مدينة قراقوم .

الجملة الرابعة

(في ذكر ملوكها)

قد ذكر المسعودي في "مروج الذهب" عدة ملوك من ملوك الصين قبل الإسلام وبعده، أسماؤهم أعجمية لأحاجة بذكرها، والمقصود معرفة حالها في أيام بني جنكرخان القائمين بها إلى الآن .

قد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب الكلام على مبتدأ أمر جنكرخان وكيفية مصير الملك إليه فأغنى عن إعادته هنا .

ثم لما ملك جنكرخان أوصى بتخته المستولى فيه على هذا القسم من المملكة لولده الصغير أوكداى، ومات جنكرخان فأستقر ولده أوكداى، [ثم أستقر] في هذه المملكة مكانه أبنة كيوك ثم مات .

فملك بعده (منكوقان) بن طولى بن جنكرخان، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة .

فملك بعده (أرى بك) ^(١)، ثم قبلى خان، ثم دمرياق، ثم قرماى، ثم ترقاى كيزى، ثم قيان قان، ثم سند مرقان بن طولى بن جنكرخان، وهو الذى كان في الأيام الناصرية بمحمد ابن قلاوون صاحب الديار المصرية، ثم أقطع خبرهم فلم يعلم من ملك منهم . وملوك هذه المملكة من بني جنكرخان كفار يدينون بتعظيم الشمس، واقفون في الأحكام مع ياسة جدّهم جنكرخان المقدم ذكرها في الفصل الأول . قال في "مسالك الأبصار":

(١) وجدنا في "العبر" ج ٥ ص ٣٠ اختلافًا في الأسماء فاتبعنا الأصل وأجلنا في التنبيه .

(٢) في العبر "سند مرقان بن طرمالا بن جنكر بن قبلاى بن طولى" .

ذكر لى الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطيارى الكاتب البوسعيدى أنهم على ما هم عليه من الجاهلية على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكتهم ومن يرد إليها . قال الشريف السمرقندى : ومن عجائب ما رأيت فى مملكة هذا القان أنه مع كُفره فى رعاياه من المسلمين أُمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ، ومتى قتل أحد من الكفار مسلماً ، قُتِلَ القاتل الكافر هو وأهل بيته ونُهبت أموالهم ، وإن قتل مسلمٌ كافراً لا يُقتل به ، بل يُطلب بدية ، ودية الكافر عندهم حمار لا يطلب بغيره .

الجملة الخامسة

(فى عسكره)

قال بدر الدين حسن الإسعردى التاجر : وهذا القان ذو عسكر مديد . قال : والذي أعلم من حاله أن له اثني عشر ألف بازدار يركبون الخيل ، وعساكره من المغل عشرون تومانا ، وهى مائتا ألف فارس ، أما من الخطأ فما لا يحصى .

الجملة السادسة

(فى ترتيب هذه المملكة)

قال الشريف تاج الدين السمرقندى : وترتيب هذه المملكة أن لهذا القان أميرين كبيرين هما الوزراء ، يسمّى كل من يكون فى هذه الرتبة جنكصان ، ودونهما أميران آخران يسمّى كل منهما بنجار ، ودونهما أميران آخران يسمّى كل منهما زوجين ، ودونهما أميران آخران يسمّى كل منهما بوجين . قال : وله كاتب هو رأس كُتابه يسمّى لنجون ، وهو بمنزلة كاتب السر فى بلادنا ، والقان يجلس فى كل يوم فى صدر دار فسيحة تسمى شن ، بمثابة دار العدل عندنا ، ويقف الأمراء المذكورون حوله عن اليمين وعن الشمال على مقادير رُتبهم ، ورأس الكُتاب المسمى لنجون ، فإذا

شكا أحد شكوى أو سأل حاجة ، أعطى قصته رأس الكتاب المذكور فيقف عليها ، ثم يوصلها إلى أحد الأميرين اللذين يليانه وهما أصغر الكل فيقف عليها هو ومن معه ، ثم يوصلانها إلى من يليهما في الرتبة ، وهكذا إلى أن تصير إلى القان ، فيأمر فيها بما يراه . وذكر عن الشريف أبي الحسن الكربلاي وكان ممن اجتمع بالقان في هذه البلاد أن لهذا القان أربعة وزراء يُصدرون الأمر في مملكته كلها ، ولا يُراجع القان إلا في القليل النادر . قال : وإذا أراد القان أن يركب ركب في محفة ولا يظهر للناس إلا في يوم واحد ، وهو مثل يوم مولده في كل سنة ، فإنه يركب فرسا ويخرج إلى الصحراء ويعمل بها من الأطعمة والسّماتات ما يغمّر الناس ، ويكون مثل يوم العيد عندهم .

تم الجزء الرابع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس .

وأوله المقصد الثاني

في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ،

وآله وصحبه والتابعين وسلامه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرست

الجزء الرابع

من کتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الحالة الثالثة — من أحوال المملكة ما عليه ترتيب المملكة من ابتداء
 ٥ الدولة الأيوبية وإلى زماننا
 ٦ ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد
 المقصد الأول — في ذكر رسوم الملك وآلاته ؛ وهو أنواع كثيرة الخ ... ٦
 المقصد الثاني — في حواصل السلطان ٩
 المقصد الثالث — في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب ، الذين بهم
 ١٤ انتظام المملكة وقيام الملك ؛ وهم على أربعة أضرب
 الضرب الأول — أرباب السيوف ؛ والنظر فيهم من وجهين ١٤
 الوجه الأول — مراتبهم على سبيل الاجمال ؛ وهي على نوعين ١٤
 النوع الأول — الأمراء ؛ وهم على أربع طبقات ١٤
 النوع الثاني — الأجناد ؛ وهم على طبقتين ١٥
 الوجه الثاني — في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدم
 ١٦ ذكرهم ؛ وهم على نوعين
 النوع الأول — من هو بحضرة السلطان ١٦
 النوع الثاني — ما هو خارج عن الحضرة السلطانية ؛ وهم
 ٢٤ على ثلاث طبقات
 الطبقة الأولى — نواب السلطنة ٢٤
 الطبقة الثانية — الكشاف ٢٥
 الطبقة الثالثة — الولاة بالوجهين : القبلى ، والبحرى ٢٦
 الضرب الثاني — من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملة الأقاليم ؛
 ٢٨ وهم على نوعين

صفحة

- النوع الأول — أرباب الوظائف الديوانية ٢٨
- النوع الثاني — أرباب الوظائف الدينية؛ وهم صنفان ٣٤
- الصنف الأول — من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ٣٤
- الصنف الثاني — من لا مجلس له بالحضرة السلطانية ٣٧
- المقصد الرابع — في زى أعيان المملكة؛ وهم أربع طوائف ٣٩
- الطائفة الأولى — أرباب السيوف ٣٩
- الطائفة الثانية — أرباب الوظائف الدينية: من القضاة وسائر العلماء ... ٤١
- الطائفة الثالثة — مشايخ الصوفية ٤٣
- الطائفة الرابعة — أرباب الوظائف الديوانية ٤٣
- المقصد الخامس — في هيئة السلطان في ترتيب الملك؛ وله ثلاث
- (سبع) هيئات ٤٤
- الهيئة الأولى — هيئته في جلوسه بدار العدل، لخلاص المظالم ... ٤٤
- الهيئة الثانية — هيئته في بقية الأيام ٤٥
- الهيئة الثالثة — هيئته في صلاة الجمعة والعيد ٤٦
- الهيئة الرابعة — هيئته للعب الكرة، بالميدان الأكبر ٤٧
- الهيئة الخامسة — هيئته في الركوب لكسر الخليج، عند وفاء النيل ... ٤٧
- الهيئة السادسة — هيئته في أسفاره ٤٨
- الهيئة السابعة — في النوم ٤٩
- المقصد السادس — في عاداته في إجراء الأرزاق؛ وهو على ضربين ... ٥٠
- الضرب الأول — الجارى المستمر، وهو على نوعين ٥٠
- النوع الأول — الإقطاعات ٥٠

صفحة

- التوع الثانى — رزق أرباب الأقلام ٥١
- الضرب الثانى — الإنعام وما يجرى مجراه، مما يقع فى وقت دون وقت؛ وهو على خمسة أنواع ٥٢
- النوع الأول — الخلع والتشريف ٥٢
- النوع الثانى — الخيول ٥٤
- النوع الثالث — الكسوة والحوائص ٥٥
- النوع الرابع — الإنعام والأوقاف ٥٥
- النوع الخامس — المأكول والمشروب ٥٦
- المقصد السابع — فى اختصاص صاحب هذه المملكة بأماكن داخلية فى نطاق مملكته يمتاز بها على ملوك الأرض من المسلمين، وغيرهم ٥٧
- المقصد الثامن — فى انتهاء الأخبار اليه؛ وهو على ثلاثة أنواع ٥٨
- النوع الأول — أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم ٥٨
- النوع الثانى — الأخبار التى ترد عليه من جهة نوابه ٥٩
- النوع الثالث — أخبار حاضرتة ٦٠
- المقصد التاسع — فى هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم ٦٠
- المقصد العاشر — فى ولاية الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية؛ وهم على أربع طبقات ٦٣
- الطبقة الأولى — النواب ٦٣
- الطبقة الثانية — الكشف ٦٥
- الطبقة الثالثة — الولاية بالوجهين: القبلى والبحرى ٦٦
- الطبقة الرابعة — أمراء العربان بنواحي الديار المصرية ٦٧

صفحة

- الفصل الثاني — من المقالة الثانية في المملكة الشامية ، وما يتصل بها من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة مما هو مضاف الى هذه المملكة ؛ وفيه أربعة أطراف ... ٧٢
- الطرف الأول — في فضل الشام وخواصه وعجائبه ، وفيه مقصدان ... ٧٢
- المقصد الأول — في فضل الشام ... ٧٢
- المقصد الثاني — في خواصه وعجائبه ... ٧٣
- الطرف الثاني — في حدوده ، وابتداء عمارته ، وتسميته شاما ؛ وفيه مقصدان ٧٥
- المقصد الأول — في حدوده ... ٧٥
- المقصد الثاني — في ابتداء عمارته ، وتسميته شاما ، وما يلتحق بذلك ٧٨
- الطرف الثالث — في أنهاره ، وبحيراته ، وجباله المشهورة ، وزروعه ، وفواكهه ، ورياحينه ، ومواشيه ، ووحوشه ، وطيوره ؛ وفيه ستة مقاصد ... ٧٩
- المقصد الأول — في ذكر الأنهار العظام بالشام ... ٧٩
- المقصد الثاني — في ذكر بحيراته ... ٨٣
- المقصد الثالث — في ذكر جباله المشهورة ... ٨٥
- المقصد الرابع — في ذكر زروعه وفواكهه ورياحينه ... ٨٦
- المقصد الخامس — في ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره ... ٨٨
- المقصد السادس — في ذكر النفيس من مطعوماته ... ٨٨
- الطرف الرابع — في ذكر جهاته وكوره القديمة وقواعده المستقرة وأعمالها ؛ وفيه مقصدان ... ٨٨

صفحة

- المقصد الأول — في ذكر جهاته وكوره القديمة ٨٨
- المقصد الثاني — في ذكر قواعده المستقرة وأعمالها ؛ وهي ست قواعد ٩١
- القاعدة الأولى — دمشق ؛ وفيها جملتان ٩١
- الجملة الأولى — في حاضرتها ٩١
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها وتشتمل على بر وأربع صفحات ٩٧
- الصفقة الأولى — الساحلية والجبليّة ؛ ولها جهتان ٩٨
- الجهة الأولى — الساحلية ؛ وهي التي بساحل بحر الروم ٩٨
- الجهة الثانية — الجبلية ١٠٠
- الصفقة الثانية — القبلية ١٠٣
- الصفقة الثالثة — الشمالية ١٠٨
- الصفقة الرابعة — الشرقية ؛ وهي على ضريين ١١٢
- الضرب الأول — ما هو داخل في حدود الشام ١١٢
- الضرب الثاني — ما هو من بلاد الجزيرة ١١٥
- القاعدة الثانية — حلب ؛ وفيها جملتان ١١٦
- الجملة الأولى — في حاضرتها ١١٦
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها ؛ وهي على ثلاثة أقسام ١١٨
- القسم الأول — ما هو داخل في حدود بلاد الممالك الشامية ١١٩
- القسم الثاني — البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقدم ذكرها من الشمال ؛
وهي المعروفة ببلاد الأرمن ؛ وهو على ضريين ١٣٠
- الضرب الأول — الأعمال الكبار ؛ وهي ساحلية وجبليّة ... ١٣١
- الضرب الثاني — الأعمال الصغار ١٣٥

صفحة

- القسم الثالث — البلاد المجاورة للفرات من شرقيه ... ١٣٧
- القاعدة الثالثة — من قواعد المملكة الشامية حماة؛ وفيها جملتان ... ١٣٩
- الجملة الأولى — في حاضرتها... ١٣٩
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها... ١٤١
- القاعدة الرابعة — من قواعد المملكة الشامية أطرابلس؛ وفيها جملتان... ١٤٢
- الجملة الأولى — في حاضرتها... ١٤٢
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها؛ وهي على قسمين... ١٤٤
- القسم الأول — الأعمال الجبار؛ وهي على ضربين... ١٤٤
- الضرب الأول — مضافاتها نفسها ... ١٤٤
- الضرب الثاني — قلاع الدعوة... ١٤٦
- القسم الثاني — الأعمال الصغار ... ١٤٧
- القاعدة الخامسة — من قواعد المملكة الشامية صفد؛ وفيها جملتان ... ١٤٩
- الجملة الأولى — في حاضرتها... ١٤٩
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها ... ١٥٠
- القاعدة السادسة — من قواعد المملكة الشامية الكرك؛ وفيها جملتان ... ١٥٥
- الجملة الأولى — في حاضرتها... ١٥٥
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها... ١٥٦
- الطرف الثاني — من الفصل الثاني من الباب الثالث من المقالة الثانية فيمن
- ملك البلاد الشامية؛ وملوكها على قسمين ... ١٥٨
- القسم الأول — ملوكها قبل الإسلام؛ وهم على أربع (خمس) طبقات ... ١٥٨
- الطبقة الأولى — ملوكها من الكنعانيين... ١٥٨

صفحة

الطبقة الثانية — ملوكها من بني إسرائيل	١٥٩
الطبقة الثالثة — ملوكها من الفرس	١٦١
الطبقة الرابعة — ملوكها من اليونان	١٦١
الطبقة الخامسة — ملوكها من الروم	١٦١
القسم الثانى — من ملوك الشام ملوكه فى الإسلام، وهم على ضربين	١٦٢
الضرب الأول — عمال الصحابة فمن بعدهم من نواب الخلفاء الى حين	
استيلاء الملوك عليها	١٦٢
الضرب الثانى — من وليها ملكا	١٦٣
الطرف الثالث — من الفصل الثانى من الباب الثالث من المقالة الثانية	
فى ذكر أحوال المملكة الشامية؛ وفيه مقصدان	١٨٠
المقصد الأول — فى ترتيب نياباتها	١٨٠
النيابة الأولى — نيابة دمشق؛ وفيها جملتان (ثلاث جمل)	١٨٠
الجملة الأولى — فى ذكر أحوالها	١٨٠
الجملة الثانية — فى ترتيب مملكتها؛ وهو ضربان	١٨٣
الضرب الأول — فى ترتيب حاضرتها	١٨٣
الضرب الثانى — فى بيان أرباب الوظائف بدمشق على تباين	
مراتبهم؛ والوظائف على خمسة أصناف	١٨٤
الصف الأول — وظائف أرباب السيوف	١٨٤
الصف الثانى — الوظائف الديوانية	١٨٨
الصف الثالث — الوظائف الدينية	١٩٢
الصف الرابع — وظائف أرباب الصناعات	١٩٤

صفحة

- الصف الخامس — وظائف زعماء أهل الذمة بها ... ١٩٤
- الجملة الثالثة — في ترتيب النيابة بها ... ١٩٤
- المقصد الثاني — في ترتيب ماهو خارج عن حاضرة دمشق ؛ وهو
- على ضريين ... ١٩٧
- الضرب الأول — ماهو خارج عن حاضرتها من الولايات والولايات ... ١٩٧
- الضرب الثاني — من الخارج عن حاضرة دمشق العربان، والإمارة بها
- في بطون من العرب ... ٢٠٣
- البن الأول — آل ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ... ٢٠٣
- البن الثانية — جرم ... ٢١١
- البن الثالثة — ثعلبة ... ٢١٢
- البن الرابعة — بنو مهدي ... ٢١٤
- البن الخامسة — زبيد ... ٢١٣
- النيابة الثانية — من نيابات السلطنة بالممالك الشامية نيابة حاب ؛
- وفيهما جملتان ... ٢١٥
- الجملة الأولى — في ذكر أحوالها في المعاملات ونحوها ... ٢١٥
- الجملة الثانية — في ترتيب مملكتها، وهي على ضريين ... ٢١٦
- الضرب الأول — في ترتيب حاضرتها ؛ ووظائفها على أربعة
- (ثلاثة) أصناف ... ٢١٦
- الصف الأول — وظائف أرباب السيوف ... ٢١٧
- الصف الثاني — الوظائف الدينية ... ٢٢١
- الصف الثالث — وظائف أرباب الصناعات ... ٢٢٢

صفحة

- الجملة الثانية — (الثالثة) في ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب ؛
 وهو ثلاثة أنواع (نوعان) ... ٢٢٦
- النوع الأول — ولاية الأمور من أرباب السيوف ؛ وهم
 ثلاثة أصناف ... ٢٢٦
- الصف الأول — النواب ؛ وهم على ضرين ... ٢٢٦
- الضرب الأول — ما هو داخل في حدود البلاد الشامية ... ٢٢٦
- الضرب الثاني — النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية ؛
 وهي على قسمين ... ٢٢٨
- القسم الأول — بلاد الثغور والعواصم وما والاها ... ٢٢٨
- القسم الثاني — ما هو في حدود بلاد الجزيرة شرق الفرات ... ٢٢٩
- الصف الثاني — من أرباب السيوف بخارج حلب الولاية ... ٢٣٠
- النوع الثاني — مما هو خارج عن حاضرة حلب العربان ... ٢٣١
- النيابة الثالثة — نيابة أطرابلس ، وفيها جملتان ... ٢٣٣
- الجملة الأولى — في ذكر أحوالها ومعاملاتها ... ٢٣٣
- الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ؛ وهو على ضرين ... ٢٣٥
- الضرب الأول — النواب ؛ وهم على قسمين ... ٢٣٥
- القسم الأول — النيابات بمضافات نفس أطرابلس ... ٢٣٥
- القسم الثاني — نيابات قلاع الدعوة ... ٢٣٥
- الضرب الثاني — الولاية ... ٢٣٦
- النيابة الرابعة — نيابة حماه ؛ وفيها جملتان ... ٢٣٦
- الجملة الأولى — في ذكر أحوالها ومعاملاتها ... ٢٣٦
- الجملة الثانية — في ترتيب نياباتها ؛ وهي على ضرين ... ٢٣٧

صفحة	
الضرب الأول — ما بحاضرتها	٢٣٧
الضرب الثاني — ما هو خارج عن حاضرتها	٢٣٩
النيابة الخامسة — نيابة صفد؛ وفيها جملتان	٢٤٠
الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها	٢٤٠
الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها	٢٤٠
النيابة السادسة — نيابة الكرك؛ وفيها جملتان	٢٤١
الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها	٢٤١
الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها؛ وهو على ضربين	٢٤٢
الضرب الأول — الولايات	٢٤٢
الضرب الثاني — العرب	٢٤٢
الفصل الثالث — من الباب الثالث من المقالة الثانية في المملكة الحجازية؛	
وفيه سبعة أطراف	٢٤٣
الطرف الأول — في فضل الحجاز وخواصه وعجائبه	٢٤٣
الطرف الثاني — في ذكر حدوده، وأبتهاء عمارته، وتسميته حجازا	٢٤٤
الطرف الثالث — في أبتهاء عمارته وتسميته حجازا	٢٤٥
الطرف الرابع — في ذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة	٢٤٦
الطرف الخامس — في زروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره	٢٤٧
الطرف السادس — في قواعده وأعماله؛ وفيه ثلاث قواعد	٢٤٨
القاعدة الأولى — مكة المشرفة؛ وفيها جملتان	٢٤٨
الجملة الأولى — في حاضرتها	٢٤٨
الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها؛ وهي على ضربين	٢٥٥

صفحة

- الضرب الأول — الحرم ومشاعر الحج الخارجة عن مكة ... ٢٥٥
- الضرب الثانى — قراها ومخالفها ... ٢٥٧
- الطرف السابع — فى ذكر ملوك مكة ؛ وهم على ضربين ... ٢٦١
- الضرب الأول — ملوكها قبل الإسلام ... ٢٦١
- الضرب الثانى — ملوكها فى الإسلام ؛ وهم على طبقات ... ٢٦٥
- الطبقة الثالثة — (هكذا) عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ... ٢٦٥
- الطبقة الرابعة — عمال بنى أمية ... ٢٦٥
- الطبقة الخامسة — عمال بنى العباس ... ٢٦٦
- الطبقة السادسة — السليمانيون من بنى الحسن ... ٢٦٧
- الطبقة السابعة — الهواشم ... ٢٧٠
- الطبقة الثامنة — بنو قتادة ... ٢٧٥
- الطرف السابع — (الثامن) فى ترتيب مكة المشرفة ؛ وفيه جملتان ... ٢٧٥
- الجملة الاولى — فيما هو بحاضرتها ... ٢٧٥
- الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ... ٢٨٤
- القاعدة الثانية — المدينة الشريفة النبوية ؛ وفيها ثلاث جمل (أربع) ... ٢٨٥
- الجملة الأولى — فى حاضرتها ... ٢٨٥
- الجملة الثانية — فى نواحيها وأعمالها ؛ وهى على ضربين ... ٢٨٩
- الضرب الأول — حماها ومراقفها ... ٢٨٩
- الضرب الثانى — فى مخالفها وقراها ... ٢٩٠
- الجملة الثالثة — فى ذكر ملوك المدينة وأمرائها ؛ وهم على ضربين ... ٢٩٣

صفحة

الضرب الأول — من قبل الإسلام ؛ وهم ثلاث طبقات ... ٢٩٣

الطبقة الأولى — التبابعة ... ٢٩٣

الطبقة الثانية — العالقة من ملوك الشام ... ٢٩٣

الطبقة الثالثة — ملوكها من بنى اسرائيل ، ومن انضم اليهم من

الأوس والخزرج ... ٢٩٤

الضرب الثانى — من فى زمن الإسلام ؛ وهم أربع طبقات ... ٢٩٥

الطبقة الأولى — من كان بها فى صدر الإسلام ... ٢٩٥

الطبقة الثانية — عمال الخلفاء من بنى أمية ... ٢٩٥

الطبقة الثالثة — عمالها فى زمن خلفاء بنى العباس ... ٢٩٧

الطبقة الرابعة — أمراء الأشراف من بنى حسين ... ٢٩٨

الجملة الثالثة — (الرابعة) فى ترتيب المدينة المنورة ... ٣٠٢

الباب الرابع — من المقالة الثانية فى الممالك والبلدان المحيطة بمملكة

الديار المصرية ؛ وفيه أربعة فصول ... ٣٠٥

الفصل الأول — فى الممالك والبلدان الشرقية عنها ، وما ينحرف فى سلكها

من شمال أو جنوب ؛ وفيه أربعة مقاصد ... ٣٠٥

المقصد الأول — فى الممالك الصائرة إلى بيت جنكرخان ؛ وفيه جملتان ... ٣٠٥

الجملة الأولى — فى التعريف باسم جنكرخان ومصير الملك اليه ... ٣٠٥

الجملة الثانية — فى عقيدة جنكرخان وأتباعه فى الديانة إلى أن أسلم من

أسلم منهم ... ٣١٠

المهيع الثانى — (لعله المقصد الثانى) فى ذكر ممالك بنى جنكرخان على

التفصيل ؛ وهى مملكتان ... ٣١٣

صفحة

- ٣١٣ المملكة الأولى — مملكة إيران ولها؛ جانبان : جنوبي وشمالي
- ٣١٤ الجانب الأول — الجنوبي، ويشتمل على ستة أقاليم
- ٣١٤ الإقليم الأول — الجزيرة الفراتية
- ٣٢٧ الإقليم الثاني — العراق؛ وله قواعد ومدن
- ٣٢٨ القاعدة الأولى — بابل
- ٣٢٩ للقاعدة الثانية — المدائن
- ٣٣٠ القاعدة الثالثة — بغداد
- ٣٣٢ القاعدة الرابعة — سرّ من رأى
- ٣٣٨ الإقليم الثالث — خوزستان والأهواز
- ٣٤٣ الإقليم الرابع — فارس
- ٣٤٨ الإقليم الخامس — كرمان
- ٣٥٠ الإقليم السادس — سجستان والرخج
- ٣٥٢ الجانب الثاني — من مملكة إيران — الشمال، ويشتمل على عدة أقاليم
- ٣٥٣ الإقليم الأول — أرمينية
- ٣٥٦ الإقليم الثاني — أذربيجان؛ وبها ثلاث قواعد
- ٣٥٦ القاعدة الأولى — أردبيل
- ٣٥٧ القاعدة الثانية — تبريز
- ٣٥٨ القاعدة الثالثة — السلطانية، وأسمها قنغرلان
- ٣٦٠ الإقليم الثالث — أزان؛ ولها قاعدتان
- ٣٦١ القاعدة الأولى — بردعة

صفحة	
٣٦١	القاعدة الثانية — تفليس
٣٦٥	الإقليم الرابع — بلاد الجبل
٣٧٩	الإقليم الخامس — بلاد الديلم
٣٨٠	الإقليم السادس — الجبل ، وفيه قواعد
٣٨٢	القاعدة الأولى — پومن
٣٨٢	القاعدة الثانية — تؤلم
٣٨٣	القاعدة الثالثة — كسكر
٣٨٤	الإقليم السابع — طبرستان
٣٨٦	الإقليم الثامن — مازندران
٣٨٨	الإقليم التاسع — قومس
٣٨٩	الإقليم العاشر — خراسان
٣٩٦	الإقليم الحادى عشر — زابلستان
٣٩٨	الإقليم الثانى عشر — الغور
٣٩٩	الجملة الثالثة — فى الأثمار المشهورة
٤٠٢	الجملة الرابعة — فى الطرق الموصلة إلى قواعد هذه المملكة
٤٠٥	الجملة الخامسة — فى بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة
	الجملة السادسة — فيما بهذه المملكة من النفائس العلية القدر، والعجائب الغريبة الذكر، والمتزهات المرتفعة
٤٠٨	الصيت
	الجملة السابعة — فى ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية وإسلاماً
٤١١	وهم على ضربين

صفحة

- الضرب الأول — ملوكها قبل الإسلام، وهم على أربع طبقات ٤١١
- الطبقة الأولى — الفيشدازية ٤١١
- الطبقة الثانية — الكيانية ٤١٢
- الطبقة الثالثة — الاشغانية ٤١٣
- الطبقة الرابعة — الأكاسرة ٤١٤
- الضرب الثاني — ملوكها بعد الإسلام، وهم على ثلاث طبقات ٤١٦
- الطبقة الأولى — عمال الخلفاء ٤١٦
- الطبقة الثانية — خلفاء بني العباس ٤١٧
- الطبقة الثالثة — ملوكها من بني جنكركخان ٤١٩
- الجملة الثامنة — في معاملاتها وأسعارها ٤٢٢
- الجملة التاسعة — في ترتيب هذه المملكة، على ما كانت عليه، في زمن
بني هولاكو ٤٢٣
- الجملة العاشرة — فيما لأرباب المناصب والجند، من الرزق على
السلطان ٤٢٥
- الجملة الحادية عشرة — في ترتيب أمور السلطان، بهذه المملكة ... ٤٢٦
- الجملة الثانية عشرة — فيما يتعلق بترتيب ديولن الإنشاء بهذه المملكة ٤٢٨
- المملكة الثانية — مما بيد بني جنكركخان، مملكة توران، وفيها سبع حمل ٤٢٩
- الجملة الأولى — في ذكر حدودها وطولها، وعرضها وموقعها من الأقاليم
السبعة ٤٣٠
- الجملة الثانية — فيما يدخل في هذه المملكة من الأقاليم العرفية، وهي
سبعة ٤٣١

صفحة	
٤٣١	الإقليم الأول — ماوراء النهر
٤٣٩	الإقليم الثاني — تركستان
٤٤٢	الإقليم الثالث — طخارستان
٤٤٣	الإقليم الرابع — بدخشان
	الجملة الثالثة — في الطرق الموصلة إليها ، وبعض المسافات
٤٤٤	الواقعة بين بلادها
	الجملة الرابعة — في عظام الأنهار الواقعة في هذا القسم من مملكة
٤٤٤	توران
٤٤٥	الجملة الخامسة — في معاملاتها وأسعارها
	الجملة السادسة — في من ملك هذا القسم من مملكة توران، وملوكها
٤٤٥	في الإسلام على طبقتين
٤٤٦	الطبقة الأولى — ما هو عقيب الفتح
٤٤٩	الطبقة الثانية — ملوكها من بني جنكخان
٤٥٠	الجملة السابعة — في ترتيب هذه المملكة، وحال عساكرها
٤٥١	القسم الثاني — من مملكة توران خوارزم والقبجاق، وفيه ثمان جمل
٤٥٢	الجملة الأولى — في ذكر حدود هذه المملكة ومساقها
٤٥٣	الجملة الثانية — فيما آشتات عليه من الأقاليم
٤٦٧	الجملة الثالثة — في ذكر الأنهار العظام والبحيرات الواقعة في هذه المملكة
٤٦٩	الجملة الرابعة — في الطرق الموصلة الى هذه المملكة
٤٧٠	الجملة الخامسة — في الموجود بها
٤٧٠	الجملة السادسة — في المعاملات والأسعار بها

صفحة

الجملة السابعة — في ذكر ملوك هذه المملكة...	٤٧١
الجملة الثامنة — في مقدار عسكر هذه المملكة	٤٧٥
القسم الثالث — من مملكة توران مملكة القان الكبير؛ وفيها خمس	
(ست) جمل	٤٧٧
الجملة الأولى — فيما اشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم	٤٧٨
الإقليم الأول — الصين	٤٧٩
الإقليم الثاني — بلاد الخطا	٤٨٣
الجملة الثانية — في معاملة هذه المملكة وأسعارها	٤٨٤
الجملة الثالثة — في الطريق الموصل إلى هذه المملكة	٤٨٤
الجملة الرابعة — في ذكر ملوكها	٤٨٥
الجملة الخامسة — في عسكره	٤٨٦
الجملة السادسة — في ترتيب هذه المملكة	٤٨٦

(تم فهرست الجزء الرابع من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الخامس

وأوله المقصد الثاني

في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

صنعة الأربعة

الجزء الخامس

تَارُ الْكِتَابِ الْخَيْرِ

كِتَابُ

صُنْحُ الْأَسَدِ

نَالِفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلْقَشَنِيِّ

الجزء الخامس

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

س ١٣٢٢ هـ
م ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصود الثاني

(في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية)

قد تقدّم في الكلام على مملكة الديار المصرية ومُضافاتها ذكرُ جزيرة العرب، وأنه يحدها: من جهة الغرب بحر القلزم، ومن جهة الجنوب بحر الهند، ومن جهة الشرق بحر فارس، ومن جهة الشمال الفُرات. وأنها تحتوى الحجاز ونجداً وتهامة واليمن واليمامة والبحرين، وقطعةً من بادية الشام، وقطعةً من بادية العراق.

وتقدّم هناك الكلام على ما هو مضاف إلى مملكة الديار المصرية منها. منها مكة، والمدينة، على الحالّ بها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، واليُسُوع، وما هو من بادية الشام كتدّم ونحوها.

والمقصود هنا الكلام على باقي أقطارها، التي لم تدخل في مضافات الديار المصرية.

ويتوجه المقصد منها إلى ثلاثة أقطار:

القَطْرُ الأول

(الْيَمَنُ)

قال في "اللباب" : بفتح المثناة التحتية والميم وفي آخرها نون . قال : وينسب إليه يَمَنِيٌّ وَيَمَانِيٌّ . وهو قطعة من جزيرة العرب : يَحُدُّهَا من الغرب بحر القلزم ، ومن الجنوب بحر الهند ، ومن الشمال بحر فارس ، ومن الشرق حدود مكة حيث الموضع المعروف بطلحة الملك ، وما على سَمْتِ ذلك إلى بحر فارس .

وقد وردت السَّنة بتفضيله بقوله صلى الله عليه وسلم : "الإِيْمَانُ يَمَانِيٌّ" .

وَأُخْتَلِفَ في سبب تسميته باليمن ف قيل : سمي يَمَنٍ بن قحطان . وقيل : إن قحطان نفسه كان يسمى يَمَنٍ . وقيل : سمي يَمَنٍ بن قِدَار . وقيل : سمي بذلك لأنه عن يمين الكعبة . قال "أبن الكلبي" : سميت بذلك لتيامنهم إليها . قال "أبن عباس" ^(١) : استتب الناس وهم العرب فتيامنوا إلى اليمن فسميت بذلك . وقيل : تيامنت بنو يَقْطَنَ إليها فسميت بذلك . وقيل : لما كثرت الناس بمكة وتفرقوا عنها ، التأمت بنو يَمَنٍ إلى اليمن وهو أَيْمَنُ الأرض .

وهو إقليم متسع له ذِكْرٌ في القديم ، وبه كان قومٌ سبياً المنصوص خبرهم في سورة "سبأ" ، وَيُقْبِسُ المذكور عرشها في سورة "النمل" .

وقد ذكر "البكري" : أن عَرْضَهُ ست عشرة مرحلة ، وطولُهُ عشرون مرحلة . قال في "مسالك الأبصار" : وله ذكر قديم . قال : وهو كثير الأمطار ، ولكن لا تَشَأُ منه السَّحْبُ ، ويمطر المطر في الغالب من وقت الزوال إلى أخريات النهار .

(١) عبارة "ياقوت" عن أبن عباس تفرقت العرب فن تيامن منهم سميت اليمن .

قال الحكيم "صلاح الدين محمد بن البرهان": وأكثر مطره في أخريات الربيع إلى وسط الصيف . وهو إلى الحر أميل ؛ وبه الأنهار الجارية ، والمروج الفيح ، والأشجار المتكاثفة في بعض أماكنه ؛ وله ارتفاع صلاح من الأموال ؛ وغالب أمواله موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة ، مع مالها من دخل البلاد .

وذكر عن الحكيم صلاح الدين المذكور ، أن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة ، وسعادات عندهم ملحوظة ؛ ولأكابرها حظ من رفاهية العيش والتنعيم والتفنن في المأكل : يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ، ويعمل فيها السكر والقلوب ، وتطيب أوانيها بالعطر والبحور ؛ ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ؛ وفي بيته العدد الصالح من الإماء ؛ وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، ولهم الديارات الجميلة ، والمباني الآتقة ، إلا الرخام ودهان الذهب واللازورد ، فإنه من خواص السلطان ، لا يشاركه فيه غيره من الرعايا . وإنما تفرش دور أعيانهم بالخافق ونحوه ؛ على أن ابن البرهان قد غص من اليمن في أثناء كلامه فقال : وأسم اليمن أكبر منه ، لا تعد في بلاد الخصب بلاده .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة ، إنما يقام لها سوق يوم الجمعة : تجلب فيه الأجلاب ، ويخرج أرباب الصنائع والبضائع بضائعهم وصنائعهم : فيبيع من يبيع ، ويشترى من يشتري ، من أعوزه شيء في وسط الجمعة لا يكاد يجده إلا المأكل .

ثم اليمن على قسمين :

القسم الأول

(التَّهائم)

وهي المنخفض من بلاده . قال في "مسالك الأبصار" : وهي باردة الهواء
طيبة المسكن . وفيه أربع جُمَل :

الجملة الأولى

(في ذكر ما أشتمل عليه من القواعد والمُدن)

قال في "مسالك الأبصار" : وهو يشتمل على عدة بلاد ، وقلاع ، وحصون حصينة ،
ولكن يفصل البر ما بين بعضها عن بعض . وبه قاعدتان :

القاعدة الأولى

(تعز)

وهي مصيَّف صاحب اليمن . قال في "تقويم البلدان" : بكسر المشاة من فوق^(١)
والعين المهملة وزاي معجمة في الآخر . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم
السبعة . قال : والقياس حيث الطول خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض
ثلاث عشرة درجة وأربعون دقيقة . قال : وهي في زماننا هذا مقر ملوك اليمن
(يعني من أولاد رسول الآتي ذكرهم في الكلام على ملوكه) .

ثم قال : وهي حصن في الجبال ، مُطل على التهائم وأراضي زبيد ، وفوقها منبره
يقال له مهلة ، قد ساق له صاحب اليمن الميساء من الجبال التي فوقها ، وبني فيها
أبنية عظيمة في غاية الحسن في وسط بستان هناك .

(١) ضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح التاء وكسر العين وقال المجد كَقِيلُ .

قال في "الروض المعطار" : ولم تزل حصنا للملوك . قال : وهو بلد كثير الماء ، بارد الهواء ، كثير الفاكهة . قال : ولسطانهم بستان يعرف بالينعات ، فيه قبة ملوكية ، ومقعد سلطاني ، قرشهما وأزرهما من الرخام الملوّن ، وبهما عمدة قليلة المثل ، يجري فيها الماء من ثغرات تملأ العين حسنا ، والأذن طربا ، بصفاء نيرها ، وطيب حريرها ، وترى شبابيكهما على أشجار قد نُقلت إليه من كل مكان : تجمع بين فواكه الشام والهند ، لا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعا ، ولا أجمع منه حسنا ، ولا أتم صورة ولا معنى .

القاعدة الثانية

(زَيْد)

وهي مشققة صاحب اليمن من بنى رسول . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الزاي المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت ودال مهملة . وهي مدينة من تهائم اليمن . قال في "العبر" : بناها محمد بن إبراهيم ، بن عبيد الله ، بن زياد ، ابن أبيه في خلافة المأمون . وموقعها في أوائل الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض أربع عشرة درجة وعشر دقائق . قال في "العبر" : وهي مدينة مسورة ، وبها كان مقام بنى زياد ملوك اليمن ، وهم الذين بنوها ، ثم غلب عليها بنو الصليحي . ثم صارت قاعدة بنى رسول . وهي قصبة التهائم ، وهي مبنية في مستو من الأرض ، عن البحر على أقل من يوم ، وماؤها من الآبار ، وبها نخيل كثيرة ، وعليها سور ، وفيها عمانية أبواب .

قال البيروني : وهي فُرْضة اليمن ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة ،
ومنها تخرج بضائع الهند والصين . قال المهلب : ولها ساحل يعرف بقلقة ،
وبينهما خمسة عشر ميلا .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي شديدة الحر لا يبرد مأوها ولا هواؤها ، وهي
أوسع رقعة وأكثر بناء ، ولها نهر جارٍ بظاهرها ، ومساكن السلطان فيها في نهاية
العظمة من فرش الرخام والسقوف .

وباليمن عدة مدن سوى القواعد المتقدمة الذكر .

منها (عدن) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح العين والدال المهملتين ونون
في الآخر . وهي من تهائم اليمن . قال : وهي خارجة إلى الجنوب عن الإقليم الأول
من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة ،
والعرض تسع عشرة درجة . قال في "الروض المطار" : وأول من نزلها عدن
أبن سبأ فعرفت به . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها عدن أنين - بفتح الهمزة
وسكون الباء الموحدة وفتح المثناة التحتية ثم نون - وقال في "المشترك" : عن سيبويه
بكسر الهمزة ، وهو رجل من حمير أضيف إليه عدن . قال في "العبر" : وهو أنين
ابن زهير ، بن الغوث ، بن أيمن ، بن الهميسع ، بن حمير .

وذكر "الأزهري" أن سبب تسميتها بذلك أن الحبشة [عبرت^(١)] في سفنهم إليها ،
ونخرجوا منها فقالوا (عدونه) يريدون خرجنا ، فسميت عدن لذلك . وقيل مأخوذة
من قولهم عدن بالمكان إذا أقام به . وهي على ساحل البحر ذات حط وإقلاع .
قال في "مسالك الأبصار" : وهي أعظم المراسي باليمن ، وتكاد تكون ثلاثة أعز

(١) الزيادة عن "معجم البلدان" لياقوت .

وَزَيْدٌ فِي الذِّكْرِ، وَبِهَا قَلْعَةٌ حَصِينَةٌ مَبْنِيَّةٌ، وَهِيَ خِرَانَةُ مَالِ مَلُوكِ أَيْمَنَ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِهَا زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ، وَهِيَ فُرْصَةُ الْيَمَنِ، وَمَحْطُ رِحَالِ التُّجَّارِ، لَمْ تَزَلْ بِلَدَ تِجَارَةٍ مِنْ زَمَنِ التَّبَاعَةِ وَإِلَى زَمَانِنَا، عَلَيْهَا تَرِدُ الْمَرَكَبُ الْوَاصِلَةُ مِنَ الْحِجَازِ وَالسَّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصَّيْنِ وَالْحَبْشَةِ، وَيَتَارَأْهُلُ كُلُّ إِقْلِيمٍ مِنْهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِقْلِيمُهُمْ مِنَ الْبَضَائِعِ .
 قَالَ "صَلَّاحُ الدِّينِ بْنِ الْحَكِيمِ": وَلَا يَخْلُو أَسْبُوعٌ مِنْ عِدَّةِ سَفُنٍ وَتُجَّارٍ وَارِدِينَ عَلَيْهَا، وَبَضَائِعُ شَتَّى وَمَتَاجِرَ مَنْوَعَةٍ، وَالْمَقِيمُ بِهَا فِي مَكَاسِبِ وَافِرَةٍ، وَتُجَّارٌ مُرْهِجَةٌ، وَلِحَظَّ الْمَرَكَبِ عَلَيْهَا وَإِقْلَاعُهَا مَوَاسِمٌ مَشْهُورَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ نَاقُودَةُ السَّفَرِ مَرَكَبًا إِلَى جِهَةٍ مِنْ الْجِهَاتِ، أَقَامَ فِيهَا عَامِلًا بَرَنَكَ خَاصًّا بِهِ، فَيَعْلَمُ التُّجَّارُ بِسَفَرِهِ، وَيَتَسَامَعُ النَّاسُ فَيَبْقَى كَذَلِكَ أَيَّامًا، وَيَقَعُ الْإِهْتِمَامُ بِالرَّحِيلِ، وَتُسَارِعُ التُّجَّارُ فِي ثَقْلِ أَمْتَعَتِهِمْ، وَحَوْطِهِمْ الْعَبِيدَ بِالْقَهَاشِ السَّرِيِّ وَالْأَسْلِحَةَ النَّافِعَةَ، وَتُنْصَبُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَسْوَاقُ، وَيُخْرَجُ أَهْلُ عَدَنَ لِلتَّفَرُّجِ هُنَاكَ .

قَالَ فِي "الْعَبَرِ": وَيُحِيطُ بِهَا مِنْ جِهَةٍ شَمَالِيهَا عَلَى بُعْدِ جَبَلٍ دَائِرٍ إِلَى الْبَحْرِ يَنْتَقِبُ فِيهِ مِنْ طَرَفِيهِ ثَقْبَانِ كَالْبَابَيْنِ، بَيْنَهُمَا عَلَى ظَهْرِ الْجَبَلِ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَلَيْسَ لِأَهْلِهَا دُخُولٌ وَلَا خُرُوجٌ إِلَّا عَلَى هَذَيْنِ الثَّقْبَيْنِ أَوْ مِنَ الْبَحْرِ . وَكَانَ مُلْكُهَا لِبَنِي مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ، ثُمَّ لِبَنِي زِيَادَ: أَصْحَابِ زَيْدٍ، ثُمَّ أَتَرَعَهَا مِنْهُمْ أَحْمَدُ بْنُ الْمَكْرَمِ الصَّلَاحِيُّ، وَصَفَا الْمُلْكَ فِيهَا لِبَنِي الزَّرِيعِ مِنْهُمْ، وَبَقِيَتْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى مَلَكَهَا مِنْهُمْ (تُورَانُ شَاه) .
 أَبُو أَيُّوبَ: أَوَّلُ مَلُوكِ الْيَمَنِ مِنَ الْإِيُوثِيَّةِ، وَمِنْ الْإِيُوثِيَّةِ أَتَتْ قَلْتُ لِبَنِي رَسُولِ مَلُوكِ الْيَمَنِ الْآنَ .

وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" عَنْ الْحَكِيمِ "صَلَّاحِ الدِّينِ بْنِ الْبَرْهَانَ" أَنَّهُ أَقَامَ بِهَا مَدَّةً، وَقَالَ إِنَّ الْمَقِيمَ بِهَا يَحْتَاجُ إِلَى كُلْفَةٍ فِي الثَّقَاتِ: لِرُتْفَاعِ الْأَسْعَارِ بِهَا فِي الْمَالِ كُلِّ

(١) فِي مَادَّةِ (ن خ ذ) مِنَ الْقَامُوسِ "النَّوَاحِلَةُ مَلَائِكَةُ سَفْنِ الْبَحْرِ أَوْ كَلَّافُهُمْ مَعْرَبَةً لِوَحْدَةِ نَاقِدَةٍ" فَانْظُرْهُ .

والمشارب ، ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبدد به في اليوم مرات في زمن قوة الحر .
قال : ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ، ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية .

ومنها (ظفار) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الظاء المعجمة والفاء وألف وراء
مهملة . قال : وهي من تهائم اليمن ، من أوائل الإقليم الأول من الأقاليم السبعة .
قال في "القانون" : حيث الطول سبع وستون درجة ، والعرض ثلاث عشرة
درجة وثلاثون دقيقة .

قال السهيلي : وهي مدينة عظيمة ، بناها مالك بن أبرهة ذي المنار . وذكر
في "العبر" أنها كانت دار ملك التبابعة ، وحرّبا أحمد الناخوذة سنة تسع عشرة
وستائة (١) لأنها لم يكن لها مرسى ، وبني على الساحل مدينة ظفار بالضم ،
وسمّاها الأحديّة .

قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة على ساحل خور قد خرج من البحر
الجنوبي وطعن في البر في جهة الشمال نحو مائة ميل ، ومدينة ظفار على طرفه ،
ولا تخرج المراكب من ظفار في هذا الخور إلا بريح البر ، ويقطع منها في الخور المذكور
إلى الهند . قال : وهي قاعدة بلاد الشحر ، ويوجد في أرضها كثير من نبات الهند
كالرايح والتنبّل ، وسمّى ظفار رمال الأحقاف التي كان بها قوم عاد ، وهي المذكورة
في القرآن ، وبينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخا . قال : وعن بعضهم أن لها
بساتين على السواني .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي في زماننا لأولاد الواثق ابن عم صاحب اليمن .
قال : وهم وإن أطلق عليهم اسم الملك ثواب له . وذكر أن البضائع منها تُثقل

(١) عبارة "العبر" (ج ٤ ص ٢٢٦) مدينة ضفا بضم الضاد المعجمة اه .

في زوارق حتى تخرج من خورها، ثم تُوسق في السفن . قال في "العبر" : وكانت منزلة الملوك في صدر الدولتين .

ومنها (حَلْيُ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الحاء المهملة وسكون اللام ثم ياء مشاة من تحت . وهي بلدة من اليمن ، واقعة في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض ثلاث عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أطراف اليمن من جهة الحجاز وتعرف بحلي ابن يعقوب .

ومنها (المَهْجَم) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وجميم . وهي مدينة من تهائم اليمن ، واقعة في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض ست عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أجل مدن اليمن ، وهي عن زبيد ثلاثة أيام [وهي] في الشرق والشمال عن زبيد ، وعن صنعاء على ست مراحل . قال الإدريسي : ومن عدن على ست مراحل .

ومنها (حصن التملوة) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الدال المهملة وسكون الميم ثم لام وواو وهاء في الآخر . وهو حصن من حصون اليمن ، واقع في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال أبو العقول : حيث الطول أربع وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهو حصن في شمال عدن في جبال اليمن . قال ابن سعيد : وهو على الجبل الممتد من الجنوب إلى الشمال ، وهو خزانة صاحب اليمن ، ويُضرب بامتاعه وحصانته المثل .

(١) ضبطها ياقوت في معجمه فقال - بضم أوله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو .

ومنها (الشَّرْحَةُ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وجيم وهاء . وهي مينا على ساحل البحر ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض سبع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي صغيرة وبيوتها أخصاص .

ومنها (جُبْلَةُ) . قال في "تقويم البلدان" : بضم الجيم وسكون الباء الموحدة ولام مفتوحة وهاء . وهي مدينة بين عَدَنَ وصنعاء ، واقعة في الإقليم الأول . قال : وقياس قول أبي العقول أنها حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض ثلاث عشرة درجة وعشر دقائق . قال : وهي على نهرين ولذلك يقال لها مدينة النهرين . قال بعض الثقات : وبينها وبين تَعَزَّ دون يوم ، وهي عن تَعَزَّ في الشرق بِمِثْلَةِ يَسِيرَةٍ إِلَى الشَّامِ .

ومنها (الجَنَدُ) . قال في "اللباب" : بالجيم والنون المفتوحتين ودال مهملة في الآخر . وهي مدينة شمالي تَعَزَّ ، على نحو نصف مرحلة منها ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . وهي عن صنعاء على ثمانية وأربعين فرسخاً ، وعن ظفار على أربعة وعشرين فرسخاً .

وقال الشريف الإدريسي : هي بين دَمَارَ وبين زَيْدَ . وهو بلد جليل به مسجد جامع يُنسَبُ لمُعَاذِ بْنِ جَبَلِ الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وعلى القرب من الجَنَدِ وادى سَكُولٍ ، ومنه يسير في صحارى إلى جبل عَرَضُهُ أحد وعشرون فرسخاً ، ثم يسير في صحراء ورمال إلى مدينة زَيْدَ . والجَنَدُ بلد وَخَمٍ في غاية الوَحَامَةِ ، وأهلُه شِيعَةٌ .

ومنها (سَرَيْنَ) . قال في "اللباب" : بكسر السين المهملة وفتح الراء المهملة المشددة وسكون المثناة من تحت ونون في الآخر . وهي بلدة على تسعة عشر فرسخا من حَلِيٍّ ، في جهة الشمال منها ، واقعة في آخر الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول ست وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض عشرون درجة . وقال المهلب : هي مدينة على ساحل البحر على أربعة أيام من مكة . قال الإدريسي : وهي على القرب من قرية يَمَلَمَ : ميقات أهل اليمن للإحرام .

ومنها (مِرْبَاطُ) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الميم وسكون الراء المهملة ثم باء موحدة وألف بعدها طاءً مهملة . وهي بليدة على ساحل خور طَفَارِ المقدم ذكره . قال : وهي خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب أومنه . قال في "الأطوال" : حيث الطول اثنتان وسبعون درجة ، والعرض اثنتا عشرة درجة . قال ابن سعيد : وهي في الشرق والجنوب عن طَفَارِ . قال الإدريسي : وقبر هود عليه السلام منها على خمسة أيام . قال في "نزهة المشتاق" : ويجبال مِرْبَاطُ ينبت شجرُ اللبان ، ومنها يجهز إلى البلاد .

ومنها (بلاد مَهْرَةَ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم ثم هاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . والمراد بمَهْرَةَ بنو مَهْرَةَ بن حيدان : قبيلة من قبائل اليمن ، وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسعى "بهاية الأرب في معرفة قبائل العرب" . وموقعها في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : وآخرها حيث الطول خمس وسبعون درجة ، والعرض ست عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وليس بها نخيل ولا زرع وإنما أموال أهلها الإبل . قال : وألستهم مستعجمة لا يكاد يُوقَف عليها ، ويُنسَب إليها البُحْتُ المفضلة ، ويحمل منها اللبان إلى الآفاق .

ومنها (الشَّحْر) بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة وراء مهملة في الآخر.
قال ياقوت الحموي : وهي بليدة صغيرة، ولم يزد على ذلك . والذي يظهر أن لها
إقليما ينسب إليها، وإليها ينسب العنبر الشَّحْرِيُّ على ما تقدم القول عليه في الكلام على
ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في المقالة الأولى .

الجملة الثانية

(في ذكر حيوانه ، وحبوبه ، وفواكهه ، ورياحينه ومعاملاته ، وأسعاره)
وأنا أذكر جملة من ذلك على ما ذكره في "مسالك الأبصار" عن أبي جعفر أحمد
ابن محمد المتوسمي المعروف بابن غانم كاتب الإنشاء بها، وأبي محمد عبد الباقي بن
عبد المجيد اليمني الكاتب

أما حيوانه - فيه من الحيوان الخيل العربية الفائقة ، والبغال الجيدة للركوب
والحل ، والحمر ، والإبل ، والبقر ، والغنم ، ومن الطير الدجاج ، والإوز ، والحمام ،
وفيها من الوحوش الزرافة والأسد ، والفيلان ، والقردة ، وغير ذلك .

وأما حبوبه - فيه من الحبوب الحنطة والشعير والذرة والأرز والسَّمْسِم ، وغالب
قوتهم الذرة وأقله الحنطة والشعير .

وأما فواكهه فيه العنب ، والرمان ، والسفرجل ، والتفاح ، والخوخ ، والتوت ،
والموز ، والليمون ، والأترج ، في أنواع أخرى من الفاكهة قليلة المقدار ، وبه البطيخ
الأخضر والأصفر .

قال ابن البرهان : وغالب ما يوجد بمصر من الفواكه يوجد بالين ، إلا أنه بالغ في وصف السفرجل به .

وأما أسعاره فرخيّة في الغالب . وذكر ابن البرهان أن الحنطة فيه تغلّو، والحبّوم فيه رخيصة .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصلة إلى اليمن)

وله طريقان : طريق في البرّ، وطريق في البحر .

أما طريقه في البرّ، فالطريق من مصر إلى مكة معروفة . قال في "تقويم البلدان" : ومن مكة إلى عدن نحو شهر . قال : ولها طريقان : أحدهما على ساحل البحر، وهو الأبعد . والثاني على تجران، وجرش، وصعدة، وصنعاء، وهو الأقرب .

وأما في البحر، فن مصر إلى السويس ثلاثة أيام في البرّ، ثم يركب في البحر إلى زبيد وعدن . وربما عدل المسافرون عن السويس إلى الطور فتطول الطريق في البرّ، وتقصر في البحر، وربما وقع السفر إلى قوص في النيل أو في البرّ، ثم من قوص إلى عيذاب أو إلى القصير، فيركب في البحر إلى زبيد أو عدن .

الجملة الرابعة

(في ذكر ملوكه : جاهليّة وإسلاما)

أما ملوكه في الجاهلية فعلى عشر طبقات :

الطبقة الأولى

(العادية)

وهم بنو عاد بن عوص ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح عليه السلام .
وكانت منازلهم بالأحقاف من اليمن ، وعُمان من البحرين إلى حضرموت
والشحر .

وأول من ملكها منهم (عاد) المقدم ذكره . ويقال : إنه أول من ملك
من العرب وطال عمره وكثر ولده ، حتى يقال إنه ولد أربعة آلاف ولد ذكرٍ
لصلبه ، وتزوج ألف امرأة ، وعاش ألف سنة ومائتي سنة . وقال البيهقي :
عاش ثلثمائة سنة .

ثم ملك بعده ابنه (شديد) بن عاد .

ثم ملك بعده ابنه الثاني (شدّاد) بن عاد وسار في الممالك ، وأستولى على كثير من
بلاد الشام والعراق والهند ويقال إنه ملك مصر أيضا .

ثم ملك بعده ابنه (إرم) بن عاد .

والذي ذكره المسعودي أنه ملك بعد عاد بن عوص ابنه عاد بن عاد وأن جيرون
ابن سعد بن عاد كان من ملوكهم ، وأنه الذي أختط مدينة دمشق ومصرها ، وإليه
ينسب باب جيرون بها كما تقدم في الكلام عليها في مضافات الديار المصرية .

وذكر ابن سعيد : أن شدّاد بن بدّاد ، بن هداد ، بن شدّاد بن عاد غلب
قبط بن قبط على أسافل الديار المصرية ، ثم هلك هناك ، ويقال إن ملكهم على عهد

هود عليه السلام كان اسمه الخَلْجَان بن عاد، بن رقيم، بن عاد الأكبر، ولقمان بن عاد
ابن عاديا بن صداقا بن لقمان، وكفر الخلدجان، وأهلك الله من كفر منهم بالريح العقيم .
وأنقل ملك لقمان إلى ولده (لُقَيْم) وأنصل ملك لقمان ورهطه ألف سنة أو أكثر
إلى أن غلبهم عليه يعرب بن قحطان الآتي ذكره .

الطبقة الثانية

(الْقَحْطَانِيَّة)

وأول من ملك منهم (قَحْطَانُ) بن عابر، بن أرغشذ، بن سام، بن نوح عليه
السلام . قال المؤيد صاحب حماة : وهو أول من ملك اليمن وليس التاج .
ثم ملك بعده أبنته (يَعْرُبُ) بن قحطان، وغلب عادا على اليمن، وعظم ملكه .
وهو أول من حيّاه قومه بتحية الملك، وولى أخاه حَضْرَمَوْتَ بن قحطان على بلاد
حَضْرَمَوْتَ فعرفت به، وولى أخاه عُثْمَانَ بن قحطان على بلاد عُثْمَانَ من البحرين
فُعُرفت به .

ثم ملك بعده أبنته (يَشْجُبُ) بن يعرب .

ثم ملك بعده أبنته (عَبْدُ شَمْسٍ) وأكثر الغزو والسبي، فسمى سبأ، وبني قصر
سبأ ومدينة مأرب باليمن . ويقال : إنه غزا مصر، وبني بها مدينة عين شمس،
التي أثرها بالقرب من المطرية الآن .

ثم ملك بعده أبنته (حَمِيرُ) خمسين سنة، وهو أول من نتوج بالذهب .

ثم ملك بعده أبنته (وائِلُ) . وقيل : بل ملك بعده أخوه (كَهْلَانُ) .

ثم ملك بعد وائل ابنه (السَّكْسَكُ) .

ثم ملك بعده ابنه (يَعْقُرُ) بن السَّكْسَكِ .

ثم غلب على المُلْكِ (عامر) بن باران ، بن عوف ، بن حمير ، ويعرف
بذى رِيَّاش .

ثم ملك بعده ابنه (المُعَاوِر) وأسمه النعمان بن يَعْقُرِ المقدم ذكره .

ثم ملك بعده ابنه (أَسْمَحُ) ^(١) بن النعمان ، فاضطرب أمر حمير ، وصار ملكهم
في طوائف إلى أن ظهرت ملوك التَّبَايَعَةِ .

ويقال : إنه ملك منهم (أَبِينُ) بن زُهَيْر ، بن الغوث ، بن أَيْمَن ، بن الهميسع ،
وإليه تنسب عدنُّ أَبِينِ على ما تقدم ذكره .

وملك منهم أيضا (عبد شمس) بن وائل ، بن الغوث ، بن حيدان ، بن قَطَن ،
أبن عَرِيب ، بن زُهَيْر ، بن أَيْمَن ، بن الهميسع ، بن حمير .

وملك منهم أيضا (حَسَّانُ) بن عمرو ، بن قيس ، بن معاوية ، بن جُشَم ،
أبن عبد شمس .

ثم ملك بعده أخوه (أُقْمَانُ) . ثم أخوه (ذو شدد) : وهو ذو مَرَّانْد . ثم ابنه
(الصَّعْبُ) ويقال : إنه ذو القرنين . ويقال : إن بني كَهْلَانَ بن سبأٍ داوُلُوا
بني حمير في الملك .

وملك منهم (جَبَّارُ) بن غالب ، بن زيد ، بن كَهْلَانَ ، وأنه ملك من شعوب قَطَانَ
أيضا (نَجْرَانُ) بن زيد ، بن يَعْرُب ، بن قَطَانَ ، وبه عرفت نَجْرَانُ المقدم ذكرها .

(١) في "العبر" : أَسْمَحُ بتقديم الحاء على الميم .

الطبقة الثالثة

(البابمة)

إِذَا بَعْنَى أَنَّ النَّاسَ يَتَّبِعُونَهُمْ كَمَا قَالَ السَّهِيلِيُّ وَالزُّنْحَشَرِيُّ ؛ وَإِذَا بَعْنَى أَنَّهُ يَتَّبِعُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا قَالَ أَبُو سَيْدَةَ . قَالَ فِي " الْعَبَرِ " : وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ ظَفَارِ .

وَأَوَّلُ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ (الْحَارِثُ) بْنُ ذِي شَدَدٍ ، بْنُ الْمِلْطَاطِ ، بْنُ عَمْرٍو ، بْنُ
ذِي يَقْدَمَ ، بْنُ الصَّوَارِ ، بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ ، بْنُ وَائِلٍ ، بْنُ الْغَوْثِ ، بْنُ حِيدَانَ ، بْنُ قَطْنٍ ،
أَبْنُ عَرَبِ بْنِ زُهَيْرٍ ، بْنُ الْغَوْثِ بْنُ أَيْمَنَ بْنِ الْهَمَيْسَعِ ، بْنُ حَمِيرٍ ، بْنُ سَبِيلٍ . وَاسْمُ
الرَّائِسِ لِأَنَّهُ لَمَّا مَلَكَ النَّاسَ رَاشَهُمْ بِالْعِطَاءِ . قَالَ السَّهِيلِيُّ وَكَانَ مُؤْمِنًا .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (أَبْرَهَةُ ذُو الْمَنَارِ) مِائَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً قَالَ الْمَسْعُودِيُّ . وَقَالَ
أَبْنُ هِشَامٍ هُوَ أَبْرَهَةُ بْنُ الصَّعْبِ ، بْنُ ذِي مَرَائِدٍ ، بْنُ الْمِلْطَاطِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ ، وَاسْمُ
ذَا الْمَنَارِ لِأَنَّهُ رَفَعَ مَنَارًا يُنَادِي بِهِ

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (إِفْرِيقُشُ) بْنُ أَبْرَهَةَ مِائَةً وَسِتِّينَ سَنَةً .

وَقَالَ هِشَامُ ابْنُ الْكَلْبِيِّ هُوَ إِفْرِيقُشُ ، بْنُ قَيْسٍ ، بْنُ صَيْفِيٍّ أَخِي الْحَارِثِ الرَّائِسِ
وَسَارَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَفَتَحَ أَفْرِيقِيَّةَ فَعُرِفَتْ بِهِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ (عَمْرٍو الْعَبْدُ) بْنُ أَبْرَهَةَ الْمَعْرُوفِ بِذِي الْأَذْعَارِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ
سَنَةً . قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَاسْمُ ذَا الْأَذْعَارِ لِكَثْرَةِ دُغْرِ النَّاسِ مِنْهُ . قَالَ وَكَانَ عَلَى
عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : عَمْرٍو بْنُ أَبْرَهَةَ ذِي الْمَنَارِ ، بْنُ الْحَارِثِ الرَّائِسِ ، بْنُ قَيْسٍ ،
ابْنُ صَيْفِيٍّ ، بْنُ سَبِيلِ الْأَصْغَرِ .

ثم ملك بعده (الهدّاد) بن شُرْحَيْل ، بن عمرو ذى الأذعار ست سنين
أو عشر سنين ، وهو ذو الصّرح .

ثم ملك بعده أبنته (بَلْقِيسُ) بنت الهدّاد بن شُرْحَيْل سبع سنين وهى صاحبة
القصة مع سليمان عليه السلام .

وقال الطبرى : بَلْقِيسُ هى يَلَقَمَةُ بنت لَيْشَرَخ بن الحارث بن قيس .

ثم ملك بعدها (سليمان) عليه السلام . ثم أقاموا فى ملكه وملك بنه أربعا
وعشرين سنة .

ثم ملك (ناشر) بن عمرو ذى الأذعار . ويقال له ناشر نعم ، وربما قيل ناشر أنعم ،
سمى بذلك لإنعامه عليهم . وقال السهيلي : ناشر بن عمرو . ثم قال : ويقال له
ناشر النعم . وقال المسعودي : ناشر بن عمرو ذى الأذعار . وقيل ناشر بن عمرو ،
ابن يعفر ، بن شُرْحَيْل ، بن عمرو ذى الأذعار ، وسار إلى وادى الرمل بأقصى
الغرب ، فلم يجد وراءه مدّبا ، فنصب صيّبا من نحاس ، وزبر عليه بالمُسْنَدِ
”هذا الصنم لناشر أنعم ، ليس وراءه مدّبا ، فلا يتكفّف أحد ذلك فيعطّب“ .

ثم ملك بعده ابنه (شمر) ^(١) مائة وستين سنة . ويقال له شمر مرعش ، سمي بذلك
لأرتعاش كان به . وقال السهيلي : شمر بن مالك ، ومالك هو الأمّوك . ويقال
إنه وطئ أرض العراق وفارس وخراسان وأفتح مدائنها ، ونحرب مدينة الصفد
وراء نهر جيحون ، فقالت العجم : شمر كند أى شمر نحرب ، وبني هناك مدينة
فسميت بذلك ، ثم عُزِّيت سمرقند . ويقال : إنه الذى بنى الحيرة بالعراق . وملك
بلاد الروم واستعمل عليها ماهان قيصر .

(١) كذا فى ”العبر“ أيضا وفى ”السبائك“ ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (تَبَعَ الْأَقْرَن) ثلاثا وخمسين سنة ، وقيل ثلاثا وستين سنة
وأسمه زيد ، قال المسعودي : وهو ابن شمر مرعش ، وقال الطبري : ابن عمرو
ذى الأذعار . قال السهيلي : وسمى الأقرون لشامة كانت في قرنه .

ثم ملك بعده ابنه (كَلْبُكِرَب) .

ثم ملك بعده (تَبَانَ) أسعد أبو كرب ، بن قيس ، بن زيد الأقرون ، بن عمرو
ذى الأذعار ، وهو تَبَعَ الْآخِر . ويقال له الرائد ، وكان على عهد يستأسف أحد ملوك
الفرس الكيانية وحافده أردشير ، وملك اليمن والحجاز والعراق والشام ، وغزا بلاد
الترك والتبت والصين ، ويقال : إنه ترك ببلاد التبت قوما من حمير ، هم بها إلى
الآن ، وغزا القسطنطينية ومر في طريقه بالعراق فتحير قومه فبنى هناك مدينة
سمها الحيرة ، وقد مر الكلام عليها مع العراق في الكلام على مملكة إيران ، ويقال
إنه أول من كسا الكعبة الملاء وجعل لبابها مفتاحا وأوصى ولاتها من جرهم بتطهيرها
ودام ملكه ثلاثمائة وعشرين سنة .

ثم ملك من بعده (رَبِيعَةُ) بن نصر ، بن الحارث ، بن نمارة ، بن لحم . ويقال ربعة ،
ابن نصر ، بن أبي حارثة ، بن عمرو ، بن عامر . وبعضهم يعكس فيقول نصر بن ربعة ،
ثم رأى رؤيا هالته فسار بأهله إلى العراق وأقام بالحيرة ، ومن عقبه كان النعمان
ابن المنذر ملك الحيرة وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى بن ربعة بن نصر .

ثم ملك بعده (حَسَّانُ ذُو مَعَاهِر) بن تَبَانَ أسعد أبي كرب .

ثم ملك بعده أخوه (عمرو) بن تَبَانَ أسعد أبي كرب ويسمى الموثنان ثلاثا
وستين سنة ، ومات عن أولاد صغار وأكبرهم قد آسثوته الجن ، فوثب على ملك
التبابعة (عبد كلال) بن مثوب ، فملك أربعا وتسعين سنة وهو تَبَعَ الأصغر ، وله
مغاز وآثار بعيدة .

ثم ملك بعده اخوه لأمه (مرثد) بن عبد كلال سبعا وثلاثين سنة .

[ثم ملك من بعده أبنة وليعة بن مرثد^(١) .

ثم ملك بعده (أبرهة بن الصَّباح) بن لحيعة ، بن شيبه ، بن مرثد ، بن نيف
أبن مبدى كرب ، بن عبد الله ، بن عمرو ، بن ذى أصبح الحارث ، بن مالك ،
وقيل إنما ملك تهمامة فقط .

ثم ملك بعده (حسن بن عمرو) بن تبع ، بن كليكب سبعا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (لحيعة) بن يئوف ذو شناتر سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده (ذو نواس زُرعة) تبع بن تبان أسعد أبي كرب ثمانين سنة ،
ويسمى يوسف ، وكان يدين باليهودية وحمل الناس عليه .

ثم ملك بعده (ذو جدن) وأسمه علس بن زيد ، بن الحارث ، بن زيد الجمهور .
وقيل : علس بن الحارث ، بن زيد ، بن الغوث ، بن سعد ، بن عوف ، بن عدي ،
ابن مالك ، بن زيد الجمهور ، وهو آخر ملوك اليمن من العرب . وقيل غير ذلك من
تقديم وتأخير وتبديل أسم بأسم .

وبالجملة فأخبار التَّابِعة غير مضبوطة ، وأمورهم غير محققة . قال المسعودي : ولا
يسمى أحد منهم تبعاً حتى يملك اليمن والشَّحر وحضر موت ، على أن الطبري قد
ذكر أن الملك من ملوك اليمن لا يتجاوز محلافه ، وإن تجاوزه فبمسافة يسيرة .

الطبقة الرابعة

(الحبشة)

وأول من ملك منهم (أرياط) بعثه صاحب الحبشة مقدما على جيوشه حين تهود ذو نواس وأحرق الإنجيل ، ففتح اليمن واستقر في ملكه .

ثم ملك بعده (أبرهة الأشرم) وهو صاحب الفيل الذي جاء به لتخريب الكعبة .
ثم ملك بعده ابنه (يكنوم) .

ثم ملك بعده أخوه (مسروق) وهو آخر ملوك اليمن من الحبشة .

الطبقة الخامسة

(الفرس)

وأول من ملك منهم (وهزّر) وذلك أن سيف بن ذي يزن ، بن عابر ، بن أسلم ،
ابن زيد ، بن غوث ، بن سعد ، بن عوف ، بن عدي ، بن مالك ، بن زيد الجمهور
الحميري ، استجاش كسرى أنوشروان : ملك الفرس على مسروق بن أبرهة آخر
ملوك الحبشة باليمن فأسعه بجيش ، ففتح به اليمن وأستتابه فيه ، فقتله بعض
من أستخلصه من الحبشة ، فولّى كسرى (وهزّر) مكانه وهلك ، فأقام كسرى مكانه
أبنة (المرزبان) ثم هلك ، فأقام مكانه (خذخسرو) بن السيجان بن المرزبان ، ثم عزله
وولى على اليمن (بادان) فلم يزل به إلى أن كانت البعة فأسلم وفشا الإسلام باليمن ،
وتتابع الوفود منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطبقة السادسة

(عُمَّالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخُلَفَاءُ بَعْدَهُ)

لَمَّا أَسْلَمَ (بِإِذْنِ) نَائِبِ كَسْرَى، وَلَآهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ خَلَائِفِ الْيَمَنِ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ بِصَنْعَاءَ: دَارَ مَمْلَكَةِ التَّبَاعَةِ، وَبَقِيَ حَتَّى مَاتَ بَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَوَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْنَهَ (شَهْرَ) بْنِ إِذْنَانَ عَلَى صَنْعَاءَ، وَوَلَّى عَلَى كُلِّ جِهَةٍ وَاحِدًا مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ خَرَجَ (الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ) فَقَتَلَ شَهْرَ بْنَ إِذْنَانَ، وَأَخْرَجَ سَائِرَ عُمَّالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ. فَلَمَّا قُتِلَ الْعَنَسِيُّ رَجَعَ عُمَّالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَاسْتَوْلَى (قَيْسُ بْنُ عَبْدِ يَعْنُوثَ) الْمُرَادِيُّ عَلَى صَنْعَاءَ، وَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ وَلَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيَّ).

ثُمَّ وَلَّى بَعْدَهُ (الْمُهَاجِرَ) بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَ(عُكْرَمَةَ) بْنَ أَبِي جَهْلٍ، عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَّةِ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ الْيَمَنِ فِي وَلايَةِ (يَعْلَى بْنِ مُنْبَهٍ).

ثُمَّ وَلَّى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ (عُبَيْدَ اللَّهِ) بْنَ عَبَّاسٍ، ثُمَّ أَخَاهُ (عَبْدَ اللَّهِ).

ثُمَّ وَلَّى مُعَاوِيَةُ عَلَى صَنْعَاءَ (فَيْرُوزَ الدَّيْلَمِيَّ)، وَمَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ.

ثُمَّ جَعَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْيَمَنِ فِي وَلايَةِ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ، حِينَ بَعَثَهُ لِقِتَالِ ابْنِ الزَّيْرِ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَسَبْعِينَ.

ثُمَّ كَانَ بِهِ (يَوْسُفَ) بْنُ عَمْرِو سَنَةَ ثَمَانٍ وَمِائَةٍ.

ثم لما جاءت دولة بني العباس ، ولّى السفّاح : أوّل خلفائهم على اليمن عمّه (داود) وتوفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فوّلّى مكانه (عمر) بن زيد ، بن عبد الله ، ابن عبد المدان ، وتوفى سنة أربع وثلاثين ومائة ، فوّلّى السفّاح مكانه (علي بن الربيع) ابن عبيد الله .

ثم في سنة ثلاث وخمسين ومائة كان عليها (يزيد) بن منصور ، ثم عزله المهدي في خلافته ، ووّلّى مكانه (رجاء بن رَوْح) .

ثم ولى بعده (علي بن سليمان) ثم عزله سنة اثنتين وستين ومائة ، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان) . ثم عزله سنة ثلاث وستين ومائة ، وولى مكانه (منصور بن يزيد) . ثم عزله في سنة ست وستين ومائة ، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان الربعي) . ثم ولى سليمان بن يزيد ^(١) ثانياً .

ثم ولى الرشيد سنة أربع وثمانين ومائة حمّادا اليزيدي .

الطبقة السابعة

(ملوكها من بني زياد)

لم تزل تَوَابُ الخلفاء متوالية على اليمن إلى أيام المأمون ، فاضطرب أمر اليمن ، فوجه المأمون إليه (محمد بن إبراهيم) بن عبيد الله ، بن زياد ، بن أبيه ، ففتح اليمن وملكه ، وبني مدينة زَيْد في سنة أربع ومائتين ، ووّلّى مولاه جعفرًا على الجبال ، فعُرفت بخلاف جعفر إلى الآن .

ثم ملك اليمن بعده أبْنه (إبراهيم) بن محمد [ثم أبْنه زياد بن إبراهيم] ^(٢) .

(١) كذا في الأصول ولم يسبق ذكر سليمان بن يزيد في ولايتها فقلعه من زيادة الناصح وأن ثانيا راجع إلى عبد الله بن سليمان الخ كما يؤخذ من الكامل .

(٢) الزيادة عن "العبر وأبي الفداء" ليستقيم الكلام .

ثم ملك بعده أخوه (أبو الجَيْش) إِسْحَاقُ بن إبراهيم وطالت مدته، وتوفي سنة إحدى وتسعين وثلثمائة، وخلف طفلاً فتولت أخته هند بنت أبي الجَيْش كفالته، وتولت معها عبد لأبي الجَيْش اسمه رشيد فبقى حتى مات، فتولت مكانه حسين بن سلامة (وسلامة اسم أمه) وصار وزيراً لهند وأخوها حتى ماتا .

ثم ملكوا عليهم طفلاً اسمه (إبراهيم) وقيل (عبد الله) بن زياد، وقام بأمره عمته وعبد من عبيد حسين بن سلامة اسمه (مرجان) ثم قبض (قيس) عبد مرجان على الطفل وعينه في سنة سبع وأربعمئة وأستبد بالملك، ثم قتل قيس بن يزيد .

وملك بعده (نجاح) عبد مرجان أيضاً وعظم شأنه، وركب بالمظلة وضربت السكة باسمه، وبقي حتى توفي سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة .

وملك بعده ابنه (سعيد الأحول) بن نجاح .

ثم غلب على الملك المكرم (أحمد بن علي الصليحي) في سنة إحدى وثمانين وأربعمئة . وقيل سنة ثمانين، وأقام بن يزيد .

ثم ملكها (جياش بن نجاح) في بقايا سنة إحدى وثمانين، ومات سنة ثمان وتسعين وأربعمئة .

(١) [ثم ملك بعده ابنه فاتك] ثم ملك بعده (منصور بن فاتك) بن جياش بن نجاح .

ثم ملك بعده ابنه (فاتك) بن منصور بن فاتك .

ثم ملك بعده ابن عمه (فاتك بن محمد) بن فاتك، بن جياش، بن نجاح في سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة، وقتل في سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة . وهو آخر ملوك بني نجاح .

الطبقة الثامنة

(ملوكها من بنى مهديّ)

لما قُتِلَ فاتك، ملك بعده (علي بن مهديّ) واستقرّ في دار الملك بزيد في رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ومات بعد شهرين وأحد وعشرين يوماً، وكان مذهبه التكفير بالمعاصي وقتل من خالف مذهبه.

ثم ملك بعده أبنه (مهديّ بن عليّ) بن مهديّ.

ثم ملك بعده أبنه (عبد النبيّ) بن مهديّ.

ثم ملك بعده عمه ^(١) (عبد الله) بن مهديّ.

ثم عاد (عبد النبيّ) ثانياً، وهو آخرهم.

الطبقة التاسعة

(ملوكها من بنى أيوب ملك مصر)

وأول من ملكها منهم (شمس الدولة ثوران شاه بن أيوب) سيّره إليها أخوه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" صاحب الديار المصرية في سنة تسع وستين وخمسمائة، ففتح زبيد وأسر صاحبها (عبد النبيّ). ثم ملك عدن وأسر صاحبها (ياسر) واستولى على اليمن لأخيه صلاح الدين، ثم استتاب ثوران شاه عليّ زبيد حطّان بن كامل بن متقد الكنانيّ، ورجع إلى الشام في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، فأضاف إليه أخوه السلطان صلاح الدين الإسكندرية، وبقيت نوابه باليمن يحملون إليه الأموال من زبيد إلى أن توفّي بالإسكندرية في سنة ست وسبعين

(١) صوابه "أخوه"، كما في تاريخي أبي الفداء والقرماني.

ونخسائة ، فاضطرب أمرُ اليمين ، فوجهَ السلطانُ صلاح الدين إليه أميرا ، فعزل عنه حطّان بن كامل وتولّى مكانه ، ثم توفى الأمير فعاد حطّان إلى ولايته .

ثم بعث السلطان صلاح الدين أخاه (سيف الإسلام طغتكين) بن أيوب إلى اليمين فقبض على حطّان وأستقرّ في مملكة اليمين ، وبقي به حتى مات بزبيد في سنة ثلاث وتسعين وخمسائة .

ثم ملك بعده ابنه (الملك العزيز إسماعيل) فأساء السيرة فقتله أمراؤه .

وملك بعده أخوه (الناصر) صغيرا ، فقام بتدبير مملكته ستمر مملوك أبيه أربع سنين ثم مات ، فترّج أمّ الناصر غازي بن جبريل : أحد أمراء دولته وقام بتدبيرها ، ثم مات الناصر وبقي (غازي) في المملكة فقتله جماعة من العرب ، فغلبت أمّ الناصر على زبيد .

وكان (سليمان بن شاهنشاه) بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد خرج فقيرا ، فاتفق أن وافى اليمين فترّج أمّ الناصر وملك اليمين فأساء السيرة ، فبعث إليه عمّه الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر ، ابنه (الملك المسعود) أطلس المعروف بأقيس ، في جيش فملك اليمين من سليمان ، ثم كره المقيم فيه فسار قاصدا الشام فتوفى بمكة ، وهو آخر ملوكها من بني أيوب .

الطبعة العاشرة

(دولة بني رسول . وهم القائمون بها الآن)

وأوّل من ملكها منهم علي بن رسول . وذلك أنه لما توفى الملك المسعود أقيس ابن الملك الكامل محمد ، كان معه أمير خورلايه اسمه رسول ، فلما خرج الملك

المسعود يريد الشام ، استخلف على اليمن (علي بن رسول) المذكور ، فاستقر نائباً باليمن لبني أيوب حتى مات سنة ثلاثين وستمائة ، ووقع في " التعريف " :
أن المستقر في اليمن أولاً هو رسول والد علي المذكور ، ولم أره في تاريخ .

ثم استقر بعد علي بن رسول المذكور في النيابة ولده الملك المنصور (عمر ابن علي) . ثم تغلب على اليمن وخرج عن طاعة بني أيوب ملوك مصر ، واستقل بملك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور ، ثم قُتل في سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وملك بعده ابنه الملك المظفر شمس الدين (يوسف بن عمر) بن علي بن رسول ، وصفاً له ملك اليمن وطالت مدته ، وأرسل إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية حينئذ هدية نفيسة ، وسأل أن يكتب له أماناً ، فقبلت هديته وكتب له بالأمان ، وقررت عليه إتاوة الملوك مصر ، وأعيدت رسله في سنة ثمانين وستمائة . ومات بقلعة تيز سنة أربع وتسعين وستمائة .

وملك بعده ابنه الأشرف محمد الدين (عمر بن المظفر يوسف) وبقي حتى مات سنة ست وتسعين وستمائة .

ثم ملك بعده أخوه الملك المؤيد (هنري الدين داود) واستمر على مواصلة ملوك مصر الهدايا والتحف والضريبة المقررة عليه . وتمذهب بمذهب الشافعي رضي الله عنه واشتغل بالعلم وأعتنى بجمع الكتب ، حتى أشتمت خزائنه على مائة ألف مجلد ، وبر العلماء ، وكانت تحفه تصل إلى الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله في كل وقت ، وتوفي سنة إحدى وعشرين وسبعائة .

وملك بعده ابنه الملك المجاهد (سيف الدين علي) وكان في الايام الناصرية

”محمد بن قلاوون“ صاحب الديار المصرية ، فأساء السيرة ، فقبض عليه وخُلِعَ وحُيِسَ في سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة .

وملك بعده عمه الملك المنصور (أيوب بن المظفر يوسف) ثم قتله شيعة المجاهد ، وأعادوا الملك المجاهد . وكان الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بحصن الدملوة المقدم ذكره فعصى عليه ، وملك عدن وغيرها . وبعث الملك المجاهد للناصر ”محمد بن قلاوون“ يستصرخه على الظاهر عبد الله . فجهز إليه العساكر فوصلت إليه سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فأوقعوا الصلح بينهما على أن تكون الدملوة للظاهر المذكور ، وتمهد اليمن للجاهد ، واستنزل الظاهر عن الدملوة ، ثم قبض عليه وقتله .

ثم حج المجاهد سنة إحدى وخمسين وسبعمائة في أيام الملك ”الناصر حسن“ ابن محمد بن قلاوون صاحب مصر .

وكان الأمير طاز أحد أكبر أمراء الديار المصرية قد حج ، وأشيع أن المجاهد يريد كسوة الكعبة في تلك السنة ، ف وقعت الفتنة بين العسكر المصري والمجاهد ، فانهزم المجاهد ونهبت عساكره وسائر أهل اليمن ، وأسرى المجاهد صاحب اليمن وحمل إلى مصر فاعتقل بها ، ثم أطلق سنة ثنتين وخمسين وسبعمائة في دولة الصالح ، ووجه معه بالأمير قشتمر المنصوري ليوصله إلى بلاده ، فلما بلغ به الينبع ، آرتاب منه في الحرب ، فرجع به إلى مصر ، فحُيِسَ في الكرك من بلاد الشام ، ثم أطلق وأعيد إلى ملكه ، وأقام على مداراة صاحب مصر إلى أن توفي سنة ست وستين وسبعمائة .

(١) عبارة ”العبر“ فرده وحجسه بالكرك .

وملك بعده أبنه الملك الأفضل (عباس) بن المجاهد على ، فاستقام له مُلك اليمن وبقى حتى مات سنة ثمان وسبعين وسبعائة .

وملك بعده أبنه الملك المنصور (محمد) ومات .

وملك أخوه الملك الأشرف (إسماعيل) بن الأفضل عباس ، فاستقام أمره بها ، ثم مات .

وولى بعده أبنه ^(١) وهو بن الأشرف إسماعيل ، بن الأفضل عباس ،
أبن المجاهد على ، بن المؤيد داود ، بن المظفر يوسف ، بن المنصور عمر ، بن على ،
أبن رسول ، وهو باق باليمن إلى آخر سنة اثنتى عشرة وثمانائة .

وله مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتي ذكرها في المكتبات
إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(في ترتيب هذه المملكة على ما هي عليه في زمن بنى رسول :

ملوكها الآن : في مقدار عساكرها ، وزى جُندها ، وبيان أرباب

وظائفها ، وحال سلطانها)

أما مقدار عساكرها . فقد قال في "مسالك الأبصار" : أخبرنى القضاة ،

أبو الربيع : سليمان بن محمد ، بن الصدر سليمان (وكان قد توجه إلى اليمن ، وخدم
في ديوان الحيوش به) أن جمع جُند اليمن لا يبلغ ألفى فارس . قال : وينضاف
إليهم من العرب المدافعين في طاعته مثلهم ، وأراني جريدة للجيش تشهد بما قال .

(١) بياض في الاصل .

وذكر أن غالب جُنْدِه من الغُرباء . ونَقَلَ عن الحَكِيم "صَلاح الدين بن البرهان" أن الإمرة عندهم قد تُطْلَق على من ليس بأمير ، وأما الإمرة الحقيقية التي ترفع بها الأعلام والكُؤوسات ، فإنها لمن قَلَّ ، وربما أنه لا يتعدى عدَّةُ الأمراء بها عشرة نفر .

وأما زِيُّ السلطان والجُنْدُ بها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن لِبَاسَ السلطان وعامة الجند باليمن أَقْبِيَّةٌ إسلامية ، ضِيْقَةُ الأَكْمام ، مَزْنَدَةٌ على الأيدي ، وفي أوساطهم مَنَاطِقُ مشدودة ، وعلى رؤوسهم تَخَافِيفُ لانس ، وفي أرجلهم الدلا كسات ، وهي أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعَتَّابِي وغير ذلك .

قال المقر الشهابي بن فضل الله : وقد حضر علي بن عمر بن يوسف الشهابي : أحدُ أمراء الملك المجاهد باليمن إلى الديار المصرية ، في وحشة حصلت بينه وبين سلطانه ، وهو بهذا الزِّيَّ خلا الدلا كس فإنه قلعه ولبس الخُفَّ المعتاد بالديار المصرية ، وكان يحضُرُ المُرْكَب السلطاني بالديار المصرية ، وهو على هذا الزِّيَّ .

وأما شعار السلطنة ، فقد ذكر عن الحَكِيم بن البرهان أيضا أن شعار سلطان اليمن وَرْدَةٌ حمراء في أرض بيضاء . قال المقر الشهابي بن فضل الله : ورأيت أنا السَّنَجَقَ اليمنِيَّ ، وقد رُفِعَ في عَرَافَاتِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ ، وهو أبيض فيه وردات حمراء كثيرة .

وأما أرباب الوظائف ، فنقل عن ابن البرهان أن باليمن أرباب وظائف : من النائب ، والوزير ، والحاجب ، وكاتب السر ، وكاتب الجيش وديوان المال . وبها وظائف الشاذ والولاية ، وأنه يتشبه بالديار المصرية في أكثر أحواله . قال : أما كُتَّابُ الإنشاء ثُمَّ ، فإنه لا يجتمعهم رئيس يرأس عليهم يقرأ ما يرد على السلطان

وَيُجَآوِبُ عَنْهُ وَيَتَلَقَّى الْمَرَاسِمَ وَيَنْفِذُهَا ، وَإِنَّمَا السُّلْطَانُ إِذَا دَعَتْ حَاجَتُهُ إِلَى كِتَابَةِ كُتُبٍ ، بَعَثَ إِلَى كُلِّ مِنْهُمْ مَا يَكْتُبُهُ . فَإِذَا كَتَبَ السُّلْطَانُ مَارَسَمَ لَهُ بِهِ ، بَعَثَهُ عَلَى يَدِ أَحَدِ الْخِصْيَانِ فَقَدَّمَهُ إِلَيْهِ ، فَيَعْلَمُ فِيهِ وَيَنْفِذُهُ .

قَالَ الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ : وَعَادَةُ مَا يَكْتُبُ عَنْهُ فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ كَعَادَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي الْمِصْطَلَحِ . قَالَ : وَرَأَيْتُ عَلَامَةَ الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ دَاوُدَ عَلَى تَوْقِيعِ مِثَالِهَا "الشَّاكِرُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَائِهِ" فِي سَطْرٍ ، وَتَحْتَهُ "دَاوُدُ" فِي سَطْرِ آخَرَ .

وَأَمَّا تَرْتِيبُ أَحْوَالِ السُّلْطَانِ ، فَقَدْ ذَكَرْتُ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : أَنَّ صَاحِبَ الْيَمَنِ قَلِيلٌ التَّصَدُّي لِإِقَامَةِ رُسُومِ الْمَوَآكِبِ وَالْخِدْمَةِ وَالْإِجْتِمَاعِ بِوَلَاةِ الْأُمُورِ بِبَابِهِ ، فَإِذَا أَحْتَاجَ أَحَدُ مِنْ أَمْرَائِهِ وَجَنَدِهِ إِلَى مُرَاجَعَتِهِ فِي أَمْرٍ ، كَتَبَ إِلَيْهِ قِصَّةَ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا ، فَيَكْتُبُ عَلَيْهَا بِخَطِّهِ مَا يَرَاهُ ، وَكَذَلِكَ إِذَا رُفِعَتْ إِلَيْهِ قِصَصُ الْمَظَالِمِ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ عَلَيْهَا بِخَطِّهِ بِمَا فِيهِ إِنْصَافُ الْمَظْلُومِ .

وَنَقَلَ عَنْ ابْنِ الْبَرَهَانَ : أَنَّ مَلُوكَ الْيَمَنِ أَوْقَاتُهُمْ مَقْصُورَةٌ عَلَى لَدَائِهِمْ ، وَالْخُلُوعِ مَعَ حَظَايَاهُمْ وَخَاصَّتِهِمْ مِنَ التَّدْمَاءِ وَالْمُطَرِّينَ ، فَلَا يَكَادُ السُّلْطَانُ يُرَى ، بَلْ وَلَا يَسْمَعُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ خَبْرًا لَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَأَهْلُ خَاصَّتِهِ الْمُقَرَّبُونَ الْخِصْيَانُ ؛ وَلَهُ أَرْبَابٌ وَظَائِفٌ لِلْوُقُوفِ بِأُمُورِهِ ، وَهُوَ يَنْحَوِي فِي أُمُورِهِ مَنَحِيَّ صَاحِبِ مِصْرَ : يَتَسَمَّعُ أَخْبَارَهُ ، وَيَحَاوِلُ اقْتِنَاءَ آثَارِهِ فِي أَحْوَالِهِ ، وَأَوْضَاعِ دَوْلَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَلَا تَحْقِيقُ عَلَيْهِ تِلْكَ الرَّايَةِ ؛ لِتَقْصُورِ مَدَدِ بِلَادِهِ ، وَقَلَّةِ عَدَدِ أَجْنَادِهِ ؛ وَلِلتَّجَارِ عِنْدَهُمْ مَوْضِعٌ جَلِيلٌ ، لِأَنَّ غَالِبَ مَتَحَصَّلاتِ الْيَمَنِ مِنْهُمْ وَبَسْبِهِمْ ، وَغَالِبَ دَخْلِهِ مِنَ التَّجَارِ وَالْجَلَّابَةِ بَرًّا وَبَحْرًا . وَلِذَلِكَ كَانَتْ مَمْلَكَةُ بَنِي رَسُولِ هَذِهِ أَكْثَرَ مَا لَا مِنْ مَمْلَكَةِ الشَّرَفَاءِ بِصَنْعَاءَ وَمَا وَالَاهَا لِجَبَاوَرَةِ مَمْلَكَةِ بَنِي رَسُولِ الْبَحْرِ .

وصاحب اليمن لا ينزل في أسفاره إلا في قصور مبنية له في منازل معروفة من بلاده ،
 حيث أراد النزول بمنزلة وجد بها قصرًا مبنياً ينزل به . قال : وإنما تجتمع لهم
 الأموال لقلة الكلف في الخرج والمصاريف والتكاليف ، ولأن الهند يمددهم
 بمراكبه ، ويواصلهم ببضائعها .

قال في "مسالك الأبصار" : ولا تزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام
 طوائف من أرباب الصناعات والبضائع ببضائعهم على اختلافها . قال اقصى
 القضاة أبو الربيع سليمان بن الصدر سليمان : وصاحب هذه المملكة أبدا يرغب
 في الغرباء ، ويحسن تلقّيهم غاية الإحسان ، ويستخدمهم بما يناسب كلاً منهم ،
 ويتقدمهم في كل وقت بما يأخذ به قلوبهم ويوطنهم عنده .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن ملوك هذه المملكة : أنهم لم يزالوا مقصودين
 من آفاق الأرض ، قل أن يبقى حفيد في صنعة من الصنائع إلا ويصنع لأحدهم
 شيئاً على اسمه ، ويحيد فيه بحسب الطاقة ، ثم يجهزه إليه ويقصده به فيقدمه
 إليه ، فيقبل عليه ويقبل منه ، ويحسن نزله ، ويسني جائزته ، ثم إن أقام في بابه ،
 أقام مكرماً محترماً ، أو عاد محبواً محبوراً ، يحزلون من نعمهم العطايا ، ويثقلون
 بكرمهم المطايا ، ما قصدهم قاصد إلا وحصل له من البر والإيناس وتوزيع الكرامة
 ما يسليهم عن الأوطان ، ولكنهم لا يسمعون بعود غريب ، ولا يصفحون في زل
 عن بعيد ولا قريب ، فإن أراد الارتحال عن دارهم ، مكثوه من العود كما جاءهم ،
 وخرج عنهم على أسوأ حال ، مسلواً ما استفاد عندهم من نعمة ، عقاباً له على
 مفارقتها لأبوابهم لا بئحلاً بما جادوا به . أما من قدم إليهم القول بأنه أتاهم راحلاً

لأُمِّيَّاءَ ، وزائراً لِمُسْتَدِيَّاءَ ، فإنهم لا يُكَلِّفُونَهُ المَقَامَ لَدَيْهِمْ ، ولا دَوَاماً في النزول عليهم ، بل يُجْزِلُونَ إِفَادَتَهُ ، وَيُجَمِّلُونَ إِعَادَتَهُ .

ثم بعد أن ذكر ما بين صاحب اليمن هذا وبين إمام الزيدية بايمن من المشاجرة والمهادنة تارةً والمفاسخة أخرى ، قال : وصاحبُ اليمن لا عدوَّ له ، لأنه محبوب ببحر زاهر وبرٍّ منقطع من كل جهة ، وللسالمة بينه وبينهم ، فهو لهذا قريُّ العَيْنِ ، خالي البال ، لا يُهَيِّمُهُ إِلَّا صَيْدٌ ، ولا يَهَيِّجُهُ إِلَّا بَلْبَالٌ . قال : وهم مع ذلك على شِدَّةِ ضَبْطٍ لبلادهم ومَنْ فيها ، وأحترازهم على طُرُقها برًّا وبحراً من كل جهة ، لا يخفى عليهم داخل يدخل إليها ، ولا خارج يُخْرِجُ منها ؛ ومع ذلك فهو يُدَارِي صاحبَ مصر ويهاديه ، لمكان إمكان تسلُّطه عليه من البر والبحر الحجازي ؛ ولذلك آكَتَبَ الملك "المؤيد داود" وصيةً أوصى فيها الملك الناصر "محمد بن قلاوون" صاحب الديار المصرية على أبنه الملك المجاهد على . فلما مات المؤيد نجم على أبنه المجاهد نجم ، فبعث بوصية أبيه إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجهز معه عسكرياً إلى اليمن فمنعه من عدوه الناجم عليه ، ومكَّن له في اليمن وبسط يده فيه .

القسم الثاني

(من اليمن النجود)

وهي ما أرتفع من الأرض ؛ وبها مستقرُّ أئمة الزيدية الآن . قال في "مسالك الأبصار" : وهي شديدة الحرِّ ، وقد أنطوى فيها جزء من اليمن ، وإن كان ما بيد أولاد رسول هو الجزء الوافر الأعظم . وفيه أربع جمل :

الجملة الأولى

(فما أشتمت عليه من النواحي، والمدن، والبلاد)

قال في "مسالك الأبصار" حدثني الحكيم صلاح الدين بن البرهان : أن اليمن منقسم إلى قسمين : سواحل ، وجبال ، وأن السواحل كلها لبني رسول ، والجبال كلها أو غالبها للأشراف . قال : وهي أقل دخلا من السواحل : لمدد البحر لتلك واتصال سبيلها عنه ، وانقطاع المدد عن هذه البلاد لانقطاع سبيلها من كل جهة .

قال : وحدثني أبو جعفر بن غانم : أن بلاد الشرفاء هؤلاء متصلة ببلاد السراة ، إلى الطائف ، إلى مكة المعظمة .

قال : وهي جبال شامخة ، ذات عيون دافقة ومياه جارية ، على قرى متصلة ، الواحدة إلى جانب الأخرى ، وليس لواحدة تعلق بالأخرى بل لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم ، لا يضمهم ملك ملك ، ولا يجمعهم حكم سلطان ، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش وذوات فواكه أكثرها العنب واللوز ، ولها زروع أكثرها الشعير ، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب ، وضائق بها الحظائر .

قال : وأهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشرعية ووقوف معها ، يعضون على دينهم بالتواجد ، ويقرون كل من يتر بهم ، ويضيّقونه مدة مقامه حتى يفارقهم . وإذا دبحوا لضيفهم شاة ، قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكبدتها وقلبها وكرشها ، فيأكل ويحبل معه ما يحبل . ولا يسافر أحد منهم من قرية إلى أخرى إلا برفيق يسترفقه منها فيخفّره ، لوقوع العداوة بينهم .

ثم هي تشمل على عدة حصون وبلاد مُحَصَّبة .

وقاعدتها مدينة (صَنَعَاء) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الصاد المهملة وسكون النون وعين مهملة وألف ممدودة . وهى مدينة من نُجُود اليمن ، واقعةً فى أوائل الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال فى "الاطوال" حيث الطول سبع وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "الروض المعطار" : وأسمها الأول « أَوَال » ^(١) . يعنى بضم الهمزة وفتح الواو من الأولية بلغتهم . فلما واقفها الحبشة ونظروا إلى بنائها ، قالوا : هذه صنعة ، ومعناه بلغتهم حصينة فسميت صنعاء من يومئذ . قال : والنسبة إليها صَنَعَانِيٌّ عَلَى غير قياس . ويقال : إنها أول مدينة بُنِيَتْ باليمن .

ثم اختلف : ف قيل بناها سَامُ بن نوح عليه السلام ؛ وذلك أنه طلب مكانا معتدلاً الحرارة والبرودة فلم يجد ذلك إلا فى مكان صنعاء فبنى هذه المدينة هناك . وقيل بَنَاهَا عَادٌ .

قال فى "تقويم البلدان" : وهى من اعظم مُدُن اليمن ؛ وبها اسواق ومتاجر كثيرة ؛ ولها شبه بدمشق : لكثرة مياهها وأشجارها ؛ وهواؤها معتدل ؛ وتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف ؛ وفى أطول يوم فى السنة يكون الشاخص عند الاستواء لا ظل له .

وقال فى موضع آخر : تُشَبِّه بِعَلَبَكَّ فى الشام ، لتماها الحسن وحُسْنُهَا التَّام ؛ وكثرة الفواكه ، تقع بها الأمطار والبرد . وهى كرسى ملوك اليمن فى القديم ، ويقال إنها كانت دار ملك التَّبابعة . قال فى "الروض المعطار" : وهى على نهر صغير يأتى

(١) كذا فى "العبر" أيضا والذي فى معجم البلدان والقاموس فى مادة أزل أن أسم صنعاء "أزال" كسحاب أى بالزأى المعجمة فتأمل .

إليها من جبل في شمالها، ويمتدُّ مُنَحْدِرًا إلى مدينة دَمَارَ، ويصب في البحر الهندي،
وعمارتها متصلة؛ وليس في بلاد اليمن أقدم منها عمارَةً، ولا أوسع منها قُطْرًا .

قال في "تقويم البلدان" : وكانت في القديم كرمى مملكة إين . قال : وبها
تلٌ عظيم يعرف بعمدان، كان قصرا يترله ملوكها . قال في "الروض المعطار" :
وهو أحد البيوت السبعة التي بُنيت على اسم الكواكب السبعة ، بناه الضحَّاك على
اسم الزهرة ؛ وكانت الأمم تحجُّه فهدمه عثمانُ رضى الله عنه فصار تَلًّا عظيمًا .
قال في "تقويم البلدان" : وهي شرقيَّ عدنَ بشمال في الجبال .

ولها عدة بلاد وحصون مضافة إليها، جارية في أعمالها .

منها (كحلان) - بفتح الكاف وسكون الحاء المهملة ثم لام ألف ونون
في الآخر . وهي قلعة من عمل صنعاء على القرب منها . قال ابن سعيد : كان بها
في أول المائة الرابعة بنو يعفر من بقايا التباينة . قال : ولم يكن لها نبأهة
في الملوك إلى أن سكنها بنو الصليحي ، وغلب عليها الزيدية ، ثم السليانيون بعد
بنى الصليحي .

ومنها (نجران) . قال في "اللباب" : بفتح النون وسكون الجيم وراء مهملة
وألف ونون في الآخر . قال الأزهرى : وسميت بنجران بن زيد ، بن سبيل ،
ابن يشجب ، بن يعرب ، بن قِطان . وهي بلدة من بلاد قبيلة همدان ، واقعة
في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة ،
والعرض تسع عشرة درجة .

قال في "تقويم البلدان" : وهي بليدة فيها نخيل ، بين عدنَ وحَضْرَمَوْتِ ،
في جبال بين قرى ومدائن وعمائر ومياه ؛ تشتمل على أحياء من إين ؛ وبها يُنَحَّدُ

الآدم ؛ وهى شرقى صنعاء بشمال ؛ وبها أشجار ، وبينها وبين صنعاء عشر مراحل ، ومنها إلى مكة عشرون يوماً فى طريق معتدل . وجعلها صاحب الحكام صقعا مفردا عن اليمن .

ومنها (صعدة) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ودال مهملة وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : والنسبة إليها صاعدى على غير قياس . قال فى "القانون" : وتسمى (عَيْل) أيضا . وهى بلدة على ستين فرسخا من صنعاء ، وموقعها فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست عشرة درجة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة عامرة أهلة خصبة ، وبها مدايح الآدم وجلود البقر ، التى تُتخذ منها النعال .

ومنها (خِيَوَان) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الخاء المعجمة وسكون المشاة من تحت وفتح الواو ، ثم ألف بعدها نون . وهى صقع معروف باليمن ، واقع فى الإقليم الأول . قال فى "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة وإحدى وعشرون دقيقة ، والعرض خمس عشرة درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى بلاد تشتمل على قرى ومزارع ومياه ، معمورة بأهلها ، وبها أصناف من قبائل اليمن . قال المهلبى : وهى طرف منازل بنى الضحاك من بنى يعفر من بقايا التبابعة ، وماؤها من السماء . قال الإدريسى : وبينها وبين صعدة ستة عشر فرسخا . وقال المهلبى : بينهما أربعة وعشرون ميلا .

ومنها (جَرْش) . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الجيم وفتح الراء المهملة وشين (١) [معجمة] فى الآخر . وهى بلدة باليمن ، موقعها فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وستون درجةً ونحسون دقيقةً ، والعرضُ سبعَ عشرةَ درجة . وهي بلدة بها نخيل ، مشتملةٌ على أحياء من اليمن ، ويُتخذ بها الأدمُ الكثير . قال في "العزيزي" : وهي بلدة صالحة ، وحولها من شجر القرظ مالا يُحصى ، وبها مَدابغ كثيرة . قال الإدريسيّ : وهي مدينة تجران متقاربتان في المقدار والعمارة ، ولهما مزارعٌ وضياحٌ وبينهما ستُّ مراحل .

ومنها (مأربُ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وهمزة ساكنة وراء مهملة مكسورة وفي آخرها باء موحدة . وذكر أنه رآها مكتوبةً في الصحاح كذلك ؛ ثم قال : والمشهور فتح الهزمة ومدّها . وهي مدينة على ثلاثِ مراحلٍ من صنعاء ، واقعةٌ في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيثُ الطولُ ثمانٌ وستون درجة ، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي في آخر جبال حَضْرَمَوْت ، ويقال لها مدينة سَبَا ، تسمية لها باسم بانيها ، وبها كان السُّد . قال : وكانت قاعدة التبابعة وهي اليوم خرابٌ .

ومنها (حَضْرَمَوْت) . قال في "اللباب" : بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وفتح الراء المهملة ، وبعدها ميم مفتوحة وواو ساكنة وتاء مثناة من فوقها في الآخر . وهي ناحية من نواحي اليمن ، وأعمالها أعمال عريضة ، ذاتُ شجر ونخل ومزارع .

(١) قال الأزهرى : وسُميت حَضْرَمَوْت بحاضر ، بن سنان ، بن إبراهيم ، وكان أول من نزلها .

(١) كذا في تاريخ أبي الفدا أيضا . وفي معجم ياقوت "سُميت بحاضرميت وهو أول من نزلها" .

قال صاحب "العبر" : وكانت بلاد حَضْرَمَوْتِ لعادٍ مع البحرين وعمان ،
ثم غلبهم عليها بنو يعرب بن قطاب ، حين وثى أولاده البلاد أعطى هذه أبنة
حَضْرَمَوْتِ فعُرِفَتْ به . والنسبة إليها حَضْرَمِيٌّ ، وقصبتها مدينة "شِبَامَ" . قال
في "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف وميم ، وهم
أبن الأثير في "اللباب" ^(١) : فجعل شِبَامَ قبيلة لا بلدا . قال في "تقويم البلدان" :
وهي خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال في "الأطوال" :
وهي حيثُ الطول إحدى وسبعون درجة ، والعرض اثنتا عشرة درجة وثلاثون
دقيقة ، وهي قلعة فوق جبل منبع فيه قُرَى ومزارع كثيرة . قال في "الغريزى" :
وفيه سَكَن كثيرة . قال : وفيه معدن العقيق والجَنْزَع . وبينها وبين صنعاء أحد
وعشرون فرسخا ، وقيل إحدى عشرة مرحلة ، وبينها وبين ذمار مرحلة واحدة .

الجملة الثانية

(في الطرق الموصلة إلى هذه المملكة)

قد تقدم أن الطريق من مصر إلى مكة معروفة . قال ابن خرداذبه : ثم من
مكة إلى بئر ابن المرتفع ، ثم إلى قَرْن المَنَازِل : قرية عظيمة ، وهي ميقات أهل
اليمن للحج منه يُحْرَمُونَ ، ثم إلى القُتُق : وهي قرية كبيرة ، ثم إلى صَقْر ، ثم إلى
ثُرْبَة : وهي قرية كبيرة ، ثم إلى كُدَى ، وفيها نخيل وعيون ، ثم إلى رَنْيَة ، وفيها نخيل
وعيون أيضا ، ثم إلى تَبَالَة ، وهي مدينة كبيرة فيها عيون جارية ، ثم إلى جَسَدَاء
وفيها بئر ولا أهل فيها ، ثم إلى كَشَة ، وهي قرية عظيمة فيها عيون وحرس ، ثم إلى

(١) عبارة "معجم البلدان" وغلط ابن الأثير في تغليطه للسماعاني حيث قال شِبَامَ قبيلة وليست بمكان
[فلعل لفظ في اللباب من زيادة الناح]

بِشَّة يَقْطَان ، وفيها ماءٌ ظاهر وكَرَم ، والحرس منها على ثلاثة أميال ؛ ثم إلى المَهْجَرَة ، وهى قرية عظيمة فيها عيون وفيها بين سروم راح والمَهْجَرَة طَلْحَة المَلِك : وهى شجرة عظيمة . وهناك حَدٌّ ما بين عَمَل مكة المشرفة وعَمَل اليمن ؛ ثم منها إلى عَرِيقَة ، وماؤها قليل ولا أهل فيها ؛ ثم إلى صَعْدَة ، وقد تقدّم ذكرها ؛ ثم إلى الأَعْمَشِيَّة ، وفيها عين صغيرة ولا أهل فيها ؛ ثم إلى خِيَوَان ، وقد تقدّم ذكرها ؛ ثم إلى أثَافَت ، وهى مدينة فيها زرع وكَرَم وعيون ؛ ثم إلى مدينة صَنْعَاء ، وهى قاعدة هذه المملكة على ما تقدّم .

الجملة الثالثة

(فَيَمُنْ ملك هذه المملكة إلى زماننا)

قد تقدّم فى الكلام على صنعاء أنها كانت قاعدة مُلْك التَّابِعة ، وقد مرَّ القولُ عليهم فى الكلام على ملوك اليمن فى مملكة بنى رَسُول ، فى القسم الأول من اليمن .

أما حَضْرَمَوْتُ ، فقد قال على بن عبد العزيز الجُرْجَانِي : ^(١) إنه كان لهم فى الجاهلية ملوك يُقَارِبُونَ مُلُوكَ التَّابِعة فى عُلُوِّ الصَّيْتِ وَنَبَاهَةِ الدَّكْرِ . ثم قال : وقد ذكر جماعة من العلماء أن أول من أنبسط يده منهم ، وأرتفع ذكره (عَمْرُو بْنُ الْأَشْثَبِ) أبْنُ رَبِيعَة ، بن يرام ، بن حَضْرَمَوْتُ ، ثم خلفه ابنه (نَمِرُ الْأَزْجِ) فملكهم مائة سنة ، وقاتل العاقلة .

ثم ملك بعده ابنه (كُرَيْبٌ ، ذُو كَرَابِ) بن نمر الأزج مائة وثلاثا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده (مَرْثَدُ ذُو مِرَانِ) بن كُرَيْب مائة وأربعين سنة ؛ وكان يسكن مَأْرِبَ ، ثم تحوّل إلى حَضْرَمَوْتُ .

(١) نقل فى "العبر" ج ٢ ص ٣٠ هذه العبارة بزيادة فى الملوك وبعض تغيير فى أسمائهم فارجع اليه .

ثم ملك بعده أبنه (عَلَقْمَة ، ذَوْقِيْقَان) بن مرثد ذى مُرَّان ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أبنه (ذَوْعِيل) بن ذى قيقان عشرين سنة . ثم تحوّل من حضرموت إلى صنعاء وأشتدت وطأته . وهو أوّل من غزا الرُّوم من ملوك اليمن ، وأدخل الحرير والديباج اليمن .

ثم ملك بعده أبنه (بدعيل بن ذى عيل) أربع سنين ، وبني بها حصونا وخلف آثارا .

ثم ملك بعده أبنه (يدنو ذو حمار) بن بدعيل بحضرموت وبحر فارس ، وكان في أيام سابور ذى الأكثاف من ملوك الفرس ، ودام ملكه ثمانين سنة ؛ وهو أوّل من اتخذ الحجاب من ملوكهم .

ثم ملك بعده أبنه (لِشْرَح) ذو الملك ، بن ودب ، بن ذى حمار ، بن عاد من بلاد حضرموت مائة سنة ، وهو أوّل من رتب المراتب ، وأقام الحرس من ملوكهم .

ثم ملك بعده (ينعم) بن ذى الملك دثار بن جذيمة .

ثم ملك بعده (ساجي) بن نمر ، وفي أيامه تغلبت الحبشة على اليمن ، وقد مرّ القول على ملكهم ثم ملك الفرس بعدهم إلى ظهور الإسلام في الكلام على ملوك اليمن في القسم الأوّل من اليمن ، فأغنى عن إعادته هنا .

وأما تجران وجرش ، فإنهما [كانا] بيد جرهم من القحطانية ، ثم غلبهم على ذلك بنو حمير ، وصاروا ولاية للتبابعة ، فكان كلّ من ملك منهم يسمى أفعى . ومنهم كان الأفعى الذى حكم بين أولاد نزار بن معد بن عدنان في قصتهم المشهورة .

ثم نزل تجران بنو مدحج ، وأستولوا عليها ، ثم نزل في جوارهم الحارث بن كعب الأزدي فغلبهم عليها ، وأنتهت رياسة بنى الحارث فيها إلى بنى الديان ، ثم صارت

إلى بنى عبد المَدَّان ، إلى أن كان منهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يزيد ، فأسلم على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكان منهم زياد بن عبد الله بن عبد المَدَّان خال السَّفَّاح ، ولَّاه نجران واليمامة ، وخلف ابنه محمدا ويحيى ، ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبنى أبي الحُود بن عبد المَدَّان ، واتَّصل مجيئهم وكان آخرهم عبد القيس الذى أخذ على بن مهدي الملك من يده .

أما فى الإسلام ، فقد تقدّم فى الكلام على القسم الأوّل من اليمن أيضا أنه لما ظهر الإسلام أسلم باذان نائب الفُرس على اليمن ، وتتابع أهل اليمن فى الإسلام ، وولى النبي صلى الله عليه وسلم على صنعاء شهر بن باذان المذكور ، فلما خرج الأسود العنسى ، أخرج عمّال النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن على ما تقدّم ، وزحف إلى صنعاء فملكها وقتل شهر بن باذان وتزوج امرأته . فلما قُتل العنسى ورجع عمّال النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، استبد بصنعاء قيس بن عبد يعقوث المرادى ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمر على ذلك .

ثم كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فولى على اليمن (فيروز الديلمي) ثم ولى بعده (المهاجر بن أبى أمية) . ثم توالى عمّال الخلفاء على اليمن على ما تقدّم فى الكلام على القسم الأوّل من اليمن . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن كان أوّل المائة الرابعة بعد الهجرة أو ما قاربها ، فغلب على صنعاء وما والاها بنو يعفر من بقايا التباغة . قال ابن سعيد : وكان دار ملكهم كحلان ، وهى قلعة من عمل صنعاء بالقرب منها ، ولم أقف على تفاصيل أحوالهم وأسماء ملوكهم .

ثم كانت دولة أئمة الزيدية القاسمين بها إلى الآن ، وهم بنو القاسم الرّسى ،

(١) ابن إبراهيم طباطبا، بن إسماعيل الديباج، بن عبد الله، بن الحسن المشي، بن الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان مبدأ أمرهم أن محمد بن إبراهيم طباطبا خرج بالكوفة في خلافة المأمون ، في سنة تسع وتسعين ومائة ودعا إلى نفسه ، وكان شيعته من الزيدية وغيرهم يقولون : إنه مستحق للإمامة بالتوارث من آبائه عن جده إبراهيم الإمام ، وغلب على كثير من بلاد العراق ، ثم نحدت سورتته ، فطلب المأمون أخاه القاسم الرسي فهرب إلى الهند ، ولم يزل به حتى هلك سنة خمس وأربعين ومائتين ، فرجع ابنه الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا إلى اليمن ، فكان من عقبه هؤلاء الأئمة .

وأول من خرج منهم باليمن (يحيى بن الحسين الزاهد) بن القاسم الرسي ودعا لنفسه بصعدة وتلقب بالهادي ، وبويع بالإمامة سنة ثمان وثمانين ومائتين في حياة أبيه الحسين ، وجمع الشيعة وغيرهم وحارب إبراهيم بن يعفر ، ويقال أسد بن يعفر ، القائم من أعقاب التبابعة بصنعاء وكلان ، وملك صنعاء ونجران وضرب السكة باسمه .

قال في "مسالك الأبصار" : واستجاب الناس لدعائه ، وصلوا بصلاته وأمنوا على دعائه ، وقام فيهم مقاما عظيما ، وأثر فيهم من الصلاح أثرا مشهودا . قال : وفي ذلك يقول :

بَنِي حَسَنِ إِنِّي نَهَضْتُ بِأَرْكُمُ * وَثَارَ كِتَابِ اللَّهِ وَالْحَقِّ وَالسَّنَنِ
وَصَيَّرْتُ نَفْسِي لِلْحَوَادِثِ عُرْضَةً * وَغَبْتُ عَنِ الْإِخْوَانِ وَالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ

ثم أرتجعهما بنو يعفر منه ورجع هو إلى صعدة ، فتوفي بها سنة ثمان وتسعين ومائتين ، لعشر سنين من بيعته . قال ابن المحاب : وله مصنفات في الحلال

(١) في "كامل" ابن الأثير إبراهيم بدل عبد الله .

والحرام . وقال غيره ، كان مجتهداً في الأحكام الشرعية ؛ وله في الفقه آراء غريبة ،
وتأليف بين الشيعة مشهورة . قال ابن حزم : ولم يبعد في الفقه عن الجماعة
كل البعد .

قال الصوليّ : ثم ولي بعده ابنه (محمد المرتضى) وتمت له البيعة ؛ فاضطرب
الناس عليه . قال في "أنساب الطالبين" : وأضطرب إلى تجريد السيف فجرده .
وفي ذلك يقول :

كدر الورْد علينا بالصّدْر * فِعْلٌ مَنْ بَدَّلَ حَقًّا أَوْ كَفَرَ
أَيُّهَا الأُمَّةُ عُدِيْ لِلْهُدَى * وَدَعِيْ عَنْكَ أَحَادِيثَ البَشَرِ
عَدِمَتِي البَيْضُ والسُّمُرُ معاً * وَتَبَدَّلْتُ رُقَادًا بَسَهْرَ
لَأَجْرَتٍ عَلَى أَعْدَائِنَا * نَارَ حَرْبٍ بِضَرَامٍ وَشَرَرِ

ومات سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة لثنتين وعشرين سنة من ولايته .
وولي بعده أخوه (الناصر) فاستقام ملكه .

ثم ولي بعده ابنه (الحسين) المنتجب (بالجم) ومات سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .
وولي بعده أخوه (القاسم المختار) بعهد من أخيه المذكور ، وقتله أبو القاسم بن
الضحاك الهمداني سنة أربع وأربعين وثلاثمائة .

وولي بعده صاعدة (جعفر الرشيد) ثم بعده أخوه (المختار) ثم أخوه (الحسن
المنتجب) ثم أخوه (محمد المهدي) .

قال "ابن الحباب" : ولم تزل إمامتهم بصاعدة مطردة إلى أن وقع الخلاف بينهم
وجاء السليمانيون أمراء مكة حين غلبة الهواشم عليهم فغلبوا على صاعدة في المائة
السادسة .

قال ابن سعيد : وقام بها منهم (أحمد بن حمزة) بن سليمان ، بن داود ،
ابن عبد الله ، بن الحسن المثنى ، بن الحسن السبط ، وغلب على زييد وملكها من
بنى مهدي ، ثم أترعها بنو مهدي منه ، وغاد إلى صعدة ومات .

فولى بعده ابنه المنصور (عبد الله) بن أحمد بن حمزة ، وأمدت يده مع الناصر
لدين الله خليفة بنى العباس ببغداد ، وبعث دُعائه إلى الديلم والحبلى ، فخطب
له بهما وأقيم له بهما ولاية . وكان بينه وبين سيف الإسلام بن أيوب ، ثم الملك
مسعود ابن الملك الكامل حروب باليمن . وبقي حتى توفي سنة ثلاثين وستمائة
عن عمر طويل .

وولى بعده ابنه (أحمد) بن المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة ، ولقب بالمتوكل
صغيرا ولم يُخطب له بالإمامة لصغر سنه .

وكان بنو الرسي حين غلب عليهم السليمانيون بصعدة أووا إلى جبل شرق
صعدة ، فلم يرحوا عنه ، والخبر شائع بأن الأمر يرجع إليهم ، إلى أن كان المتوكل
أحمد من السليمانيين ، فبايع الزيدية أحمد الموطئ ، بن الحسين المنتجب ، بن أحمد
الناصر ، بن يحيى الهادى ، بن الحسين ، بن القاسم الرسى ، بن إبراهيم طباطبا ،
المقدم ذكره في سنة خمس وأربعين وستمائة .

وكان الموطئ فقيها أدبيا عالما بمذهبهم ، قواما صواما ، فأهمَّ عمر بن علي بن رسول
صاحب زييد شأنه ، فحاصره بحصن ملا سنة فلم يصل إليه ، وتمكن أمر الموطئ
وملك عشرين حصنا ، وزحف إلى صعدة فغلب السليمانيين عليها ، فترل أحمد
المتوكل : إمام السليمانيين إليه ، وبايعه في سنة تسع وأربعين وستمائة ، وجمع سنة
خمسين وستمائة وبقي أمر الزيدية بصعدة في عقبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابيّ بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أنه سأل تاج الدين عبد الباقي اليانيّ أحد كتّاب اليمن عن تفاصيل أحوال هذه الأئمة فقال : إن أئمة الزيديين كثيرون ، والمشهور منهم المؤيّد بالله ، والمنصور بالله ، والمهديّ بالله ، والمطهر يحيى بن حمزة . قال : ويحيى بن حمزة هو الذي كان آخرًا على عهد الملك المؤيّد داود بن يوسف صاحب اليمن ، وكانت الهدنة تكون بينهما .

وذكر في "التعريف" أن الإمامة في زمانه كانت في بني المطهر . ثم قال : وآسم الإمام القائم في وقتنا حمزة . ثم قال : ويكون بينه وبين الملك الرسوليّ باليمن مُهادنات ومُفاسّحات تارةً وتارةً . قال قاضي القضاة وليّ الدين بن خلدون في تاريخه : وقد سمعت بمصر أن الإمام بصّعة كان قبل الثمانين والسبعائة على ابن محمد من أعقابهم ، وتوفي قبل الثمانين ، وولى ابنه صلاح ، وبايعه الزيدية . وكان بعضهم يقول فيه : إنه ليس بإمام لعدم اجتماع شروط الإمامة ، فيقول : أنا لكم على ما شئتم : إمام أو سلطان .

ثم مات صلاح آخر سنة ثلاث وتسعين وسبعائة ، وقام بعده ابنه (نجّاح) وأمّتنع الزيدية من بيعته . فقال : أنا محتسب لله تعالى .

قلت : وقد وهم في "التعريف" : بفعل هذه الأئمة من بقايا الحسينيين القائمين بأمل الشطّ من بلاد طبرستان ، وأن القائم منهم بأمل الشطّ بطبرستان هو الداعي المعروف بالعلويّ من الزيدية ، وهو الحسن ، بن زيد ، بن محمد ، بن إسماعيل ، بن الحسن السبط ، بن عليّ ، بن أبي طالب رضى الله عنه . خرج سنة خمس وخمسين ومائتين أو مايقاربها ، فملك طبرستان وجرّجان وسائر أعمالهما ثم مات ، وقام أخوه (محمد بن زيد) مقامه . وكان لشيعته من الزيدية دولةً هناك ، ثم انقرضت وورثها

الناصر الأطروش ، وهو (الحسن) بن عليّ ، بن الحسين ، بن عليّ ، بن عمر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين السبط ، بن عليّ ، بن أبي طالب ، وكان له دولة هناك . ثم خرج عليّ الأطروش من الزيدية الداعية الأصغر ، وهو (الحسن) بن القاسم ، ابن عليّ ، بن عبد الرحمن ، بن القاسم ، بن محمد البطحائيّ ، بن القاسم ، بن الحسن ، ابن زيد ، بن الحسن السبط ، وجرى بينه وبين الأطروش حروب إلى أن قتل سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، ويجمع الداعية الأصغر مع الداعية الأكبر في الحسن ابن زيد ، وليس بنو الرسيّ الذين منهم أئمة اليمن من هؤلاء بوجه .

الجملة الثالثة

(في ترتيب مملكة هذا الإمام)

قال في "التعريف" بعد أن ذكر إمام زمانه : وهذا الإمام وكلّ من كان قبله على طريقة ما عدوها ، وهي إمارة أعرابية ، لا كبر في صدورهما ، ولا شتم في عرائنها ، وهم على مسكة من التقوى ، وتردّ بشعار الزهد ، يجلس في ندى قومه كواحد منهم ، ويتحدّث فيهم ويحكم بينهم ، سواءً عنده المشروف والشريف ، والقوى والضعيف . قال : وربما اشترى سلعته بيده ، ومشى بها في أسواق بلده ، لا يغلظ الحجاب ، ولا يكلّ الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسّع ، ولا تكثر [غير مشبع] ^(١) . هكذا هو وكل من سلف قبله ، مع عليل شامل ، وفضل كامل .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن تاج الدين عبد الباقي اليماني الكاتب نحو ذلك ، فقال : وأئمتهم لا يحبّون ولا يحبّون ، ولا يروّن التفخيم والتعظيم ، الإمام

(١) الزيادة عن التعريف .

كواحد من شيعته : في مأكله ومشربه وملبسه ، وقيامه وقعوده ، وركوبه ونزوله ، وعامة أموره ؛ يجلس ويحلس ، ويعود المرضى ، ويصلي بالناس وعلى الجنائز ، ويسمع الموتى ، ويحضر دفن بعضهم . قال : ولشيعته فيه حسن اعتقاد ، ويستشفون بدعائه ، ويمتزون يده على مرضاهم ، ويستسقون المطر به إذا أجذبوا ، وبياغوث في ذلك مبالغه عظيمة . قال "المقر الشهابي بن فضل الله" : ولا يكبر لإمام هذه سيرته (في التواضع لله وحسن المعاملة لخلقه ، وهو من ذلك الأصل الطاهر ، والعنصر الطيب) أن يُجاب دعاؤه ، ويتقبل منه . وينادى ببلاد هذا الإمام في الأذان "بحي على خير العمل" بدل الحيعلتين ، كما كان ينادى بذلك في تأذين أهل مصر في دولة الخلفاء الفاطميين بها . قال في "التعريف" : وأمرأ مكة تسر طاعته ، ولا تفارق جماعته . قال ابن غانم : هذا الإمام يعتقد في نفسه ويعتقد أشياء فيه انه إمام معصوم ، مفترض الطاعة ، تتعقد به عندهم الجمعة والجماعة ؛ ويرون أن ملوك الارض وسلاطين الأقطار يلزمهم طاعته ومبايعته ، حتى خلفاء بني العباس ؛ وأن جميع من مات منهم مات عاصيا بترك مبايعته ومتابعته . قال : وهم يزعمون ويزعم لهم أن سيكون لهم دولة يُدال بها بين الأمم ، وتملك منتهى الهمم ؛ وأن الإمام الحجة المنتظر في آخر الزمان منهم .

وذكر عن رسول هذا الإمام ، الواصل إلى مصر : أن الأئمة في هذا البيت أهل علم يتوارثونه : إمام عن إمام ، وقائم عن قائم . وذكر عن بعض من مر بهم انه فارقه في سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة وهم لا يشكون أنه قد آن أو أن ظهورهم ، وحين ملكهم . ولهم رعايا تختلف إلى البلاد ، وتجتمع بمن هو على رأيهم . يتربصون ضعف الدولة في أقطار الأرض .

وحكى "المقر الشهابي بن فضل الله" عن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن الزمكاني قاضي حلب : أنه مات رجلٌ من شيعتهم بحلب ، فُوجِدَ عنده صندوقان ، ضمَّهما كُتِبَ من أمة هذه البلاد إلى ذلك الرجل وإلى سلفه ، يستعرفون فيها الاخبار ، وأحوال الشيعة ، والسؤال عن أناس منهم ؛ وأن في بعضها : ولا يؤخر مدد من هنا من إخوانكم المؤمنين في هذه البلاد الشاسعة ، وهو حق لله فيه تركية أموالكم ، ومدد إخوانكم من الضعفاء وآتقوا الله و﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

ونقل عن الشيخ شهاب الدين بن غانم : أنه حدّثه عند وصوله من اليمن أن هذا الإمام في منعة منيعه ، وذروة رفيعه ؛ وأنه يركب في نحو ثلاثة آلاف فارس ، وأن عسكره من الرحالة ، خلق لا جسم . وذكر عن أقام عندهم : أنهم أهل نجدة وبأس ، وشجاعة ورأى ؛ غير أن عددهم قليل ، وسلاحهم ليس بكثير : لضيق أيديهم ، وقلة دخل بلادهم . ونقل عن تاج الدين عبد الباقي اليمني : أن قومه معه على الطوعية والالتقياد ، لا يخرج أحد منهم له عن نص ، ولا يشاركه فيما يُمَيِّز به .

قال ابن غانم : وزى هذا الإمام وأتباعه زى العرب في لباسهم والعمامة والحنك ؛ بخلاف ما تقدّم من زى صاحب اليمن من بنى رسول . قال الشيخ شهاب الدين بن غانم : وهذا الإمام لا يزال صاحبُ اليمن يرعى جانبَه ، وفي كل وقت تُعقد بينهما العقود ، وتكتب الهدن ، وتوثق الموائيق ، وتُستَطر الشروط .

قال في "التعريف" : وقد وصل إلينا بمصر في الأيام الناصرية (سقى الله تعالى عهدها) رسولٌ من هذا الإمام بكتاب اطلال فيه الشكوى من صاحب اليمن ، وعدد قبائحه ، وتشر على عيون الناس فضائحه ؛ وأستنصر بمسدد يأتي تحت الأعلام

المنصورة لإجلاله عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا في تعجيل دماره .
وقال : إنه إذا حضرت الحيوش المؤيدة قام معها ، وقاد إليها الأشراف والعرب
أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه ، وأعطى منه ما هو إلى جانب
أرضه . قال : فكتبتُ إليه مؤذنا بالإجابة ، مؤذيا إليه ما يقتضى إعجابه ، وضمن
الجواب أنه لا رغبة لنا في السلب ، وأن النصرة تكون لله خالصة وله كل البلاد
لاقدر ما طلب .

وسياتى ذكر المكتبة إلى هذا الإمام عن الأبواب السلطانية ، في الكلام على
المكتبات ، في المقالة الرابعة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القُطْرُ الثَّانِي

(مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية
”بلاد البحرين“ تثنية بحر)

قال في ”تقويم البلدان“ : بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وفتح الراء
المهملة وسكون المثناة من تحت ثم نون . وهى قطعة من جزيرة العرب المذكورة .
قال في ”تقويم البلدان“ : وهى ناحية من نواحى نجد ، على شطّ بحر فارس ،
ولها قرى كثيرة . قال : وهى (هجر) ونهايتها الشرقية الشمالية قال فى ”الأطوال“
ونهايتها من الشمال فى الإقليم الثانى حيث الطول أربع وسبعون درجة وعشرون
دقيقة ، والعرض خمس وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

قال فى ”المشترك“ : ويقال للبحرين هجر أيضا - بفتح الهاء والجيم ثم راء
مهملة وليست هجر مدينةً بعينها . قال الأزهري : وإنما سميت هجر بالبحرين
ببحيرة بها عند الاحساء وبالبحر الملح يعنى بحر فارس ، والنسبة إلى البحرين

بجُرَانِي . قال الجوهرى : والنسبة إلى هجر هاجرٍ على غير قياس . قال الأزهري :
وسميت هجر بهجر بنت المكنف ، وهى التى بنتها .
وفى ثلاث جمل :

الجملة الأولى

(فما تشتمل عليه من المدن)

وقاعدتها (عَمَّانُ) قال فى "الباب" : بضم العين المهملة وفتح الميم ونون
فى الآخر بعد الألف . قال الأزهري : وسميت بعمان بن نعان بن إبراهيم
عليه السلام ، وموقعها فى الإقليم الأول . قال : وهى على البحر تحت البصرة .
قال المهلبى : وهى مدينة جليلة ، بها مرسى السفن من السند والهند والزيج ، وليس
على بحر فارس مدينةً أجل منها ، وأعمالها نحو ثلثمائة فرسخ . قال : وهى ديار الأزد
قال فى "تقويم البلدان" : وهى بلدة كثيرة النخيل والقواكه ، ولكنها حارة جداً .
وكانت القصبة فى القديم مدينةً صُحَّار . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الصاد
وفتح الحاء المهملتين كما فى الصحاح . قال : وهى اليوم نحراب .
وبها بلاد أخرى غير ذلك .

منها (الأحساء) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح
السين المهملتين وألف فى الآخر . قال فى "المشترك" : والأحساء جمع حصى ،
وهو رمل يغوص فيه الماء ، حتى إذا صار إلى صلالة الأرض أمسكته فتحفر
عنه العرب وتستخرجه . وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .
قال فى "الأطوال" : حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ،

(١) فى معجم ياقوت "يفشان" وفى "العبر" سميت بعمان بن لخطان أول من نزلها بولاية أخيه يعرب .

وَالْعَرَضُ اثْنَتَانِ وَعَشْرُونَ دَرَجَةً . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : ذَاتُ نَخِيلٍ كَثِيرٍ ، وَمِيَاهٍ جَارِيَةٍ ، وَمَنَابِعُهَا حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ ، وَنَخِيلُهَا بِقَدْرِ غُوطَةِ دِمَشْقَ ، وَهُوَ مُسْتَدِيرٌ عَلَيْهَا ، وَهِيَ فِي الْبَرِيَّةِ ، فِي الْغَرْبِ عَنِ الْقَطِيفِ بِمِيلَةٍ إِلَى الْجَنُوبِ ، عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ مِنْهَا . قَالَ : وَتَعْرِفُ بِأَحْسَاءِ بْنِ سَعْدٍ .

وَمِنْهَا (الْقَطِيفُ) . قَالَ فِي "الْبَابِ" : بَفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْمَشْنَاءِ مِنْ تَحْتِ وَفَاءٍ فِي الْآخِرِ . وَهِيَ بَلَدَةٌ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ مِنَ الْأَحْسَاءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ ، وَاقْعَةٌ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَالْقِيَاسُ أَنَّهَا حَيْثُ الطُّولُ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ دَرَجَةً وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ دَقِيقَةً ، وَالْعَرَضُ اثْنَتَانِ وَعَشْرُونَ دَرَجَةً وَخَمْسٌ وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَهِيَ عَلَى شَطِّ بَحْرِ فَارَسَ ، وَبِهَا مَغَاصُ لُؤْلُؤٍ ، وَبِهَا نَخِيلٌ دُونَ نَخِيلِ الْأَحْسَاءِ . قَالَ : وَعَنْ بَعْضِ أَهْلِهَا أَنَّ لَهَا سُورًا وَخَنْدَقًا وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ ، وَالْبَحْرُ إِذَا مَدَّ يَصِلُ إِلَى سُورِهَا وَإِذَا جَزَرَ يَنْكَشِفُ بَعْضُ الْأَرْضِ ؛ وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَحْسَاءِ . قَالَ : وَلَهَا خَوْرٌ فِي الْبَحْرِ تَدْخُلُ فِيهِ الْمَرَائِبُ الْكِبَارُ الْمَوْسِقَةُ فِي حَالَةِ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَصْرَةِ سِتَّةُ أَيَّامٍ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ عُثْمَانَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ .

وَمِنْهَا (كَاطِمَةُ) . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : بِكَافٍ وَأَلْفٍ وَطَاءٍ مَعْجَمَةٌ مَكْسُورَةٌ وَمِيمٌ وَهَاءٌ . قَالَ : وَهِيَ جَوْنٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْقَطِيفِ ، فِي سَمْتِ الْجَنُوبِ عَنِ الْبَصْرَةِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَصْرَةِ مَسِيرَةُ يَوْمَيْنِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَطِيفِ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ .

الجملة الثانية

(في ذكر ملوكها)

قد ذكر صاحب "العبر" : أنها كانت في القديم لعاد مع حضر موت والشحر وما والاها، ثم غلب عليها بعد ذلك بنو يعرب بن قحطان .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصّل إليها)

قد تقدّم في الكلام على مملكة إيران الطريق من مملكة مصر إلى البصرة . قال ابن خرداذبه : ثم من البصرة إلى عبّادان، ثم إلى الحدودة^(١)، ثم إلى عرّفاء، ثم إلى الزابوقة، ثم إلى المغز، ثم إلى عصا، ثم إلى المعرس، ثم إلى خليجة، ثم إلى حسان، ثم إلى القرى، ثم إلى مسيلحة، ثم إلى حمض، ثم إلى ساحل هجر، ثم إلى العفّير، ثم إلى القطن، ثم إلى السبخة، ثم إلى عُمان .

وذكر لها طريقا أخرى من مكة إليها على الساحل : وهي من مكة، إلى جدة، إلى منزل، ثم إلى الشعيبة، ثم إلى المرجاب، ثم إلى أغيار، ثم إلى السرين، ثم إلى مرسى حلى، ثم إلى مرسى صنكان، ثم إلى سجين، ثم إلى مخلاف الحكم، ثم إلى الجودّة، ثم إلى مخلاف عك، ثم إلى غلافة، ثم إلى مخلاف زبيد، ثم إلى المندب، ثم إلى مخلاف الركب، ثم إلى المنجلة، ثم إلى مخلاف بنى مجيد، ثم إلى مغاص اللؤلؤ، ثم إلى عدن، ثم إلى مخلاف لحج، ثم إلى قرية عبد الله بن مدحج، ثم إلى مخلاف كندة، ثم إلى الشحر، ثم إلى ساحل همّاه، ثم إلى عوكلان، ثم إلى فرق، ثم إلى عُمان . وهي طريق بعيدة .

(١) لم ينفق نسخ "ابن خرداذبه" في بعض الأماكن فنقولنا في كثير منها على الأصل .

ولعربها مكاتبات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، على ما سيأتى ذكره
فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

القُطْر الثالث

(مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية "اليَمَامَة")

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح المثناة من تحت والميم وألف وميم وهاء
فى الآخر . وهى قِطْعَةٌ من جزيرة العرب من الحجاز ، وعليه جرى الفقهاء فحكوا
بتحريم مُقام الكُفْرِ بها كما بسائر أقطار الحجاز ؛ وهى فى سَمْت الشرق عن مكة
المُشْرِفة . قال البيهقى : وهى مُلك منقطع بعمله ؛ ويُحَدِّثُها من جهة الشرق
الْبَحْرَيْنِ ، ومن الغرب أطراف اليمن والحجاز ، ومن الجنوب نَجْرَان من نواحي اليمن ،
ومن الشمال نَجْد والحجاز ؛ وأرضها تسمى العُرُوض : لاعتراضها بين الحجاز والبحرين ؛
وطولها عشرون مرحلة . وهى فى جهة الغرب عن القَطِيف ، وبينهما نحو أربع
مراحل ، وبينها وبين مكة أربعة أيام . وسميت اليمامة باسم امرأة : وهى اليمامة
بنت سَهْم بن طَسَم ، كانت تنزلها إلى أن قتلها عبد كلال وصلبها على بابها فسميت
بها ، سَمَّاها بذلك تَبَعُ الْآخِر . قال فى "تقويم البلدان" : وكان اسمها فى القديم
جَوْا بفتح الجيم وسكون الواو . قال فى "تقويم البلدان" : وهى عن البصرة على
ست عشرة مرحلة ، وعن الكوفة مثل ذلك . قال فى "تقويم البلدان" : وبها
من القُرب عين ماء مَتَسَعَةٌ ومأواها سَارْحٌ ، وذكر أنها [أكثرُ نَحِيلًا من] سائر الحجاز ،

(١) لعل الصواب وشد الواو .

(٢) بياض فى الأصل والصحيح من التقويم .

(١)
ثم نقل عن رآها في زمانه أن بها آبارا وقليل نخل، وكأنه حكى عما كانت
عليه في القدم، وبها واد يسمى - الخرج - بجاء معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة
وجيم في الآخر، كما هو مضبوط في الصحاح .
وفيه ثلاث جمل :

الجملة الاولى

(فما آثمت عليه من البلدان)

قد ذكر في "تقويم البلدان" عن أخبره من رآها في زمانه أن بها عدة قرى :
وبها الحنطة والشعير كثير . وقاعدتها دون مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، واقعة
في أوائل الإقليم الثاني . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وسبعون درجة
ونحس وأربعون دقيقة، والعرض إحدى وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

ومن بلادها (سجبر) قال في "المشارك" : بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم
وراء مهملة في الآخر . وهي في الغرب عن مدينة اليمامة، على مرحلتين منها،
وبعضهم يجعلها قاعدة اليمامة . وموقعها في أوائل الإقليم الثاني . قال في "تقويم
البلدان" : والقياس أنها حيث الطول إحدى وسبعون درجة وعشر دقائق ،
والعرض اثنتان وعشرون درجة . قال : وبها قبور الشهداء الذين قتلوا في حرب
مسيامة الكذاب .

(١) يراى في الأصل ولعله حكى ذلك معبرا عما الخ .

الجملة الثانية

(في ذكر ملوكها)

قال صاحب "العبر" : كانت هي والطائف بيد بنى هزان بن يعفر بن السكسك ، إلى ان غلبهم عليها (طسم) . ثم غلبهم عليها (جديس) ، ومنهم زرقاء اليمامة . ثم استولى عليها (بنو حنيفة) وكان منهم هوزة بن علي ، وهو الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام . ثم ملكها من بنى حنيفة (ثمامة) بن أثال على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأسر ثم أسلم . ثم كان بها منهم (مسيلمة الكذاب) زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقتل في حرب المسلمين معه . وكان لبني (الأخيضر) من الطالبيين بها دولة .

وأول من ملكها منهم (محمد بن الأخيضر) بن يوسف ، بن إبراهيم ، بن موسى الجون ، بن عبد الله ، بن الحسن المثنى ، بن الحسن السبط ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وكان استيلاؤه عليها أيام المستعين الخليفة العباسي . ثم ملكها بعده ابنه (يوسف) ثم (ابنه الحسن) ثم ابنه (أحمد) ولم يزل ملكها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة على ما تقدم ذكره في الكلام على بلاد البحرين .

قال ابن سعيد : وسألت عرب البحرين في سنة ^(١) لمن اليمامة اليوم ؟ فقالوا لعرب من قيس عيلان وليس لبني حنيفة بها ذكر .

قلت : ولم أقف لعربها على ذكر في المكاتبات السلطانية بالديار المصرية .

(١) في "العبر" بدل قوله في سنة "وبعض مدح" .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصّل إليها)

قد تقدّم أنها في جهة الشرق عن مكة ، وأنّ بينهما أربعة أيام ، وطريق مكة معروف على ما تقدّم .

أما ما ذكره ابن خرداذبه من طريقها على البصرة - فن البصرة إلى المنجشانية ، ثم إلى الكُفَيْر ، ثم إلى الرُّحَيْل ، ثم إلى الشَّجِي ، ثم إلى الحَفَر ، ثم إلى ماوِيّة ، ثم إلى ذات العُشْر ، ثم إلى الينسوعة ، ثم إلى السَّمِينَة ، ثم إلى النَّبَاج ، ثم إلى العمومية ، ثم إلى القَرْنَيْن ، ثم إلى سُوَيْقَة ، ثم إلى صِداة ، ثم إلى السُّد ، ثم إلى السقي ، ثم إلى المنبئية ، ثم إلى السَّفْح ، ثم إلى المريقة ، ثم إلى اليمامة ، والبصرة قد تقدّم أكثر الطريق إليها في الكلام على مملكة إيران .

القُطْر الرابع

(مملكة الهند ومضافاتها)

قال في "مسالك الأبصار" : وهي مملكة عظيمة الشأن ، لا تُقَاس في الأرض بمملكة سواها : لا لتساع أقطارها ، وكثرة أموالها وعساكرها ، وأبهة ساطانها في رُكوبه ونُزوله ، ودَسّت مُلكه ، وفي صِيبتها وُسْمعتها كفاية . ثم قال : ولقد كنت أسمع من الأخبار الطائفة والكتُب المصنّفة ما يملأ العين والسمع ، وكنت لا أقف على حقيقة أخبارها بُعدها منا ، وتَسَائِي ديارها عَنَّا ، ثم تَبَعَت ذلك من الرواة ، فوجدت أكثر مما كنت أسمع ، وأجل مما كنت أظن . وحسبك ببلاد في بحرها الدرّ ، وفي برّها الذهب ، وفي جبالها الياقوت والماس ، وفي شعابها العود والكافور ،

(١) اختلفت نسخ "ابن خرداذبه" في أسماء البلدان فأثبتها طابعه في هامشه ولكنّا عوّلنا في الكثير على ما في الأصل .

وفي مُدُنْهَا أَسْرَةُ الملوِك ، ومن وُحُوشِهَا الفَيْسَلُ وَالكَرْكَدَنْ ، ومن حديدِهَا سُيُوفُ الهند ؛ وأسعارُهَا رَخِيَّةٌ ، وعساكرُهَا لَا تُعَدُّ ، وممالكُهَا لَا تُحَدُّ ؛ ولأهلُهَا الحِكْمَةُ وَوُفُورُ العقل ، وهم أَمْلَكُ الأُمَمِ لَشَهَوَاتِهِمْ ، وَأَبْذَلُهَا لِلنَّفُوسِ فِيمَا يُظَنُّ بِهِ الزُّلْفَى .

قال : وقد وصف محمد بن عبد الرحيم الاقليشي هذه المملكة في كتابه "تحفة الألباب" فقال : المُلْكُ العَظِيمُ ، وَالْعَدْلُ الكَثِيرُ ، وَالنِّعْمَةُ الجَزِيلَةُ ، وَالسِّيَاسَةُ الحَسَنَةُ ، وَالرِّضَا الدَّائِمُ ، وَالْأَمْنُ الَّذِي لَا خَوْفَ مَعَهُ فِي بِلَادِ الهِنْدِ . وَأَهْلُ الهِنْدِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَنْوَاعِ الحِكْمَةِ وَالطَّبِّ وَالْمُهَنْدَسَةِ وَالصَّنَاعَاتِ الْعَجِيبَةِ . ثم قال : وفي جبالهم وجزائرهم يَنْبُتُ شَجَرُ العُودِ وَالْكَافُورِ وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الطِّيبِ : كَالْقَرَنْفُلِ وَالسَّنْبُلِ وَالِدَارِصِينِي ، وَالْقِرْقِفَةِ ، وَالسَّلِيلِيخَةِ ، وَالْقَاتِلَةِ ، وَالْجَبَابَةِ ، وَالْبَسْبَاسَةِ ، وَأَنْوَاعِ العَقَاقِيرِ . وَعِنْدَهُمْ غَزَالُ الْمِسْكِ وَسِنُورُ الزَّبَادِ ؛ هَذَا مَعَ مَا هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ اتِّسَاعِ الْأَقْطَارِ ، وَتَبَاعُدِ الْأَرْجَاءِ ، وَتَنَائِي الْجَوَانِبِ .

فقد حكى في "مسالك الأبصار" : عن الشيخ مبارك بن محمود الأنباري : أَنَّ عَرَضَ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ مَا بَيْنَ سُومَنَاتٍ وَسَرَنْدِيبَ إِلَى غَرْزَةِ ، وَطُولُهَا مِنَ الْقُرْصَةِ الْمُقَابِلَةِ لَعَدَنَ إِلَى سَدِّ الْإِسْكَندَرِ عِنْدَ مَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الْحَمِيطِ ، وَأَنَّ مَسَافَةَ ذَلِكَ ثَلَاثُ سَنِينَ فِي مِثْلِهَا بِالسَّيْرِ الْمُعْتَادِ ، كُلُّهَا مُتَّصِلَةٌ الْمُدُنِ ذَوَاتِ الْمَنَابِرِ وَالْأَسْرَةِ ، وَالْأَعْمَالِ ، وَالْقُرَى ، وَالضِّيَاعِ ، وَالرَّسَاتِيقِ ، وَالْأَسْوَاقِ ؛ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهَا خَرَابٌ . بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ ثِقَةٌ ثَبَّتَ عَارِفٌ بِمَا يَحْكِيهِ إِلَّا أَنَّهُ آسْتَبَعَدَ هَذَا الْمُقْدَارَ ، وَقَالَ : إِنْ جَمِيعُ الْعَمُورِ لَا يَبْقَى بِهَذِهِ الْمَسَافَةِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّ هَذِهِ مَسَافَةٌ مِنْ يَتَسَقَّلُ فِيهَا حَتَّى يَحِيطَ بِجَمِيعِهَا مَكَانًا مَكَانًا ، فَيَحْتَمِلُ عَلَى مَا فِيهِ .

وفيه إحدى عشرة جملة :

الجملة الأولى

(فيما أشتمت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وتحتوى هذه المملكة على إقليمين عظيمين :

الإقليم الأول

(إقليم السِّند وما آنحط في سلكه من مكران، وطوران ،

والبدهة، وبلاد [القُفس] والبُلوص)

فأما السِّند، فبكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر . قال
ابن حوقل : ويحيط به من جهة الغرب حدود كُرمَان، وتأم الحد مفازة سِسْتَان؛
ومن جهة الجنوب مفازة هي فيما بين كُرمَان والبحر الهندي، والبحر جنوبي
المفازة؛ ومن جهة الشرق بحر فارس أيضا : لأن البحر يتقوس على كُرمَان والسِّند،
حتى يصير له دُخلة شرق بلاد السِّند؛ ومن جهة الشمال قطعة من الهند . قال
ابن خردادبه : وبالسند القُسط، والقنّاء، والخيزران .

وقاعدته (المنصورة) — قال في ” تقويم البلدان “ : بفتح الميم وسكون النون
وضم الصاد المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة
بالسِّند واقعة في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول
خمسة وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وعشرون درجة وأثنان
وأربعون دقيقة . قال في ” القانون “ : وأسمها القديم يَمْهُو وإنما سميت المنصورة
لأن الذي فتحها من المسلمين قال نُصْرْنَا . وقال المهلبى : إنما سميت المنصورة
لأن عُمر بن حنّص المروفي بهزار مرّد بناها في أيام أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء
بني العباس وسمّاها بلقبه .

قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة يحيط بها خليج من نهر مهران (وهو نهر يأتى من الملتان) فهى كالجزيرة ولكنها بلدة حارة وليس بها سوى النخيل ؛ وبها قصب السكر، وبها أيضا تمر على قدر التفاح شديد الحموضة، يسمى اليمومة .
وبها عدة مدن وبلاد أيضا .

منها (الديئل) — قال فى ” اللباب “ : بفتح الدال المهملة وسكون المشاة من تحتها وضم الباء الموحدة ولام فى الآخر . وهى بلدة على ساحل البحر، واقعة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وعشرون درجة وعشرون دقيقة .
قال فى ” تقويم البلدان “ : وهى بلدة صغيرة على ساحل ماء السند شديدة الحر .
قال ابن حوقل : وهى شرقى مهران، وهى فرضة تلك البلاد . وقال فى ” اللباب “ : إنها على البحر الهندى قريبة من السند . قال ابن سعيد : وهى فى دخلة من البر فى خليج السند؛ وهى اكبر فرض السند وأشهرها ؛ ويجلب منها المتاع الديئلي .
قال فى ” تقويم البلدان “ : وبها سمس كثير، ويجلب إليها التمر من البصرة، وبينها وبين المنصورة ست مراحل .

ومنها (البيرون) . قال فى ” اللباب “ : بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء المهملة وبعدها واو ونون فى الآخر . وهى مدينة من أعمال الديئل بينها وبين المنصورة ، واقعة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى ” القانون “ : حيث الطول أربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى من فرض بلاد السند التى عليها خليجهم المسالخ الخارج من بحر فارس . قال فى ” العزيزى “ :

وأهلها مسلمون ، ومنها إلى المنصورة خمسة عشر فرسخا . قال ابن سعيد : وإليها ينسب أبو الريحان البيروني ، يعني صاحب "القانون" في أطوال البلاد وعروضها . ومنها (سدوسان) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين وضم الدال المهملتين وواو ثم سين مهملة ثانية مفتوحة وألف ونون . وهي مدينة غربي نهر مهران ، واقعة في أوائل الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول أربع وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وعشر دقائق . قال ابن حوقل : وهي خصبة كثيرة الخير وحولها قرى ورستاق ، وهي ذات أسواق جليلة .

ومنها (المولتان) قال في "تقويم البلدان" : بضم الميم وسكون اللام ثم تاء مشاة فوقية وألف ونون . قال : وهي في أكثر الكتب مكتوبة بواو . وهي مدينة من السند فيما ذكره أبو الريحان البيروني ، وإن كان ابن حوقل جعلها من الهند وعليه جرى في "مسالك الأبصار" لأن البيروني أقعد بذلك منه : لأن السند بلاده فهو بها أخبر ، واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول ست وتسعون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي أصغر من المنصورة .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن بعض المصنفات أن قرى الملتان مائة ألف قرية وستة وعشرون ألف قرية . قال المهلب : وأعمال الملتان واسعة من قرب حد مكران من الجنوب إلى حد المنصورة ، وبينها وبين غزنة ثمانية وستون فرسخا .

ومنها (أزور) . قال ابن حوقل : وهي مدينة تقارب الملتان في الكبر ، وعليها سوران وهي على نهر مهران . وقال في "العنبري" : هي مدينة كبيرة وأهلها

مسلمون في طاعة صاحب المنصورة وبينهما ثلاثون فرسخاً ، قال في ” القانون “ :
حيث الطول خمس وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون
درجة وعشر دقائق .



وأما مكران ، فقال في ” اللباب “ : بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة
وألف ونون . قال ابن حوقل : وهي ناحية واسعة عريضة ، والغالب عليها المفاوز
والقحط والضيق . وقد اختلف كلام صاحب تقويم البلدان فيها فذكر في الكلام
على السند أنها منه ، وذكر في كلامه على مكران في ضمن بلاد السند أنها من كرمان .

وقاعدتها (التيز) قال في ” اللباب “ : بالتاء المثناة الفوقية الممالئة ثم ياء آخر
الحروف وزاى معجمة في الآخر ، وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة
قال ابن سعيد : حيث الطول ست وثمانون درجة ، والعرض ست وعشرون درجة
وخمس عشرة دقيقة . قال ابن حوقل : وهي فُرْضة مكران وتلك النواحي ، وهي على
شَطْ نهر مهران في غربيّه بقرب الخليج المفتوح من مهران على ظهر المنصورة .



وأما طوران . فناحية على خمس عشرة مرحلة من المنصورة . قال في ” القانون “ :
وقصبتها (قندايل) قال : وهي حيث الطول خمس وتسعون درجة ، والعرض
ثمان وعشرون درجة .

وذكر ابن حوقل أن قصبة طوران (قُزْدَارُ) قال في ” اللباب “ : بضم
القاف وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وألف وراء مهملة . وقد نقل
في ” تقويم البلدان “ عن إخبار من رآها أنها قُلَيْعة . قال في ” تقويم البلدان “ :

وهي كالقرية لصغرها، وهي في وِطَاءَةٍ من الأرض على تِلِيلٍ، وحولها بعض بساتين .
وذكر في "اللباب" أن قُزْدَارَ نَاحِيَةٍ من نواحي الهند . قال في "تقويم البلدان" :
وبينها وبين المُلتان نحو عشرين مرحلة .



وأما البُدْهة ، فقال ابن حوقل : وهي مفترشة ما بين حدود طُورانَ ومُكرانَ
والمُلتان ومُدن المنصورة ؛ وهي في غربِ نهرِ مِهْرانَ وأهلها أهل إبل كالبادية ،
ولهم أخصاصٌ وآجامٌ . قال في "تقويم البلدان" : ومن المنصورة إلى أول البُدْهة
خمس مراحل ، ومن أراد البُدْهة من المنصورة احتاج إلى عبور نهر مِهْران .

الإقليم الثاني

(إقليم الهند)

قال في "الأنساب" : بكسر الهاء وسكون النون ودال مهملة في الآخر . قال
في "تقويم البلدان" : والذي يُحيط به من جهة الغرب بحرُ فارس ، وقامه حدود
السند ؛ ومن جهة الجنوب البحرُ الهندي ؛ ومن جهة الشرق المَفَاوِزُ الفاصلة بين
الهند والصين ؛ ولم يذكر الحد الذي من جهة الشمال . وذكر في "مسالك الأبصار"
أن حده من جهة الشمال بلادُ التُّرك . وذكر عن الشيخ مبارك الأتباتي : أنه ليس
في هذه المملكة خراب سوى مسافة عشرين يوما مما يلي غَزَنَةَ ، لتجاذب صاحب
الهند وصاحب تُرْكُستانَ وما وراء النهر بأطراف المنازعة ، أو جبال معطلة ،
أو شعواء^(١) مشتبكة .

(١) كذا في الأصل بالواو وصوابه بالراء كما في المسالك والشعراء الأرض ذات الشجر أو كثيرته .

قال صاحب "مسالك الأبصار" : وسألت الشيخ مبارك الأنباتي عن برّ الهند وضواحيه فقال : إن به انهاراً تمتدّة تقارب ألف نهر كبار وصغار، منها ما يضاهاى النيل عظمًا ، ومنها ما هو دونه ، ومنها ما هو مثل بقية الأنهار . وعلى صغار الأنهار القرى والمدن ؛ وبه الأشجار الكثيفة والمروج الفيح . قال : وهى بلاد معتدلة لا تتفاوت حالات فصولها ، ليست مفرطة في حر ولا برد ؛ بل كأن كل أوقاتها ربيع ؛ وتهب بها الأهوية والنسيم اللطيف ، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر ؛ وأكثرها في أخريات الربيع إلى ما يليه من الصيف .

ثم لملكة الهند قاعدتان :

القاعدة الأولى (مدينة دلي)

قال فى "تقويم البلدان" : بدال مهملة ولام مشددة مكسورة ثم مشاة تحتية ، ولم يتعرّض لضبط الدال والناس ينطقون بها بالفتح والضم . وسمّاها صاحب "تقويم البلدان" فى تاريخه دهلي بابدال اللام هاء . وهى مدينة ذات إقليم متسع ، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطول مائة وثمان وعشرون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى مدينة كبيرة فى مستوي من الأرض ، وتربتها مختلطة بالحجر والرمل ، وعليها سور من آجر ، وسورها أكبر من سور حماة ، وهى بعيدة من البحر ، ويمر على فرسخ منها نهر كبير دون الفرات ، وبها بساتين قليلة وليس بها عنب ، وتطر فى الصيف ؛ ويجمعها منارة لم يعلم فى الدنيا مثلها ، مبنية من حجر أحمر ودرجها نحو ثلثمائة درجة ؛ وهى كبيرة الأضلاع ، عظيمة الارتفاع ، واسعة الأسفل وارتفاعها يقارب منارة الإسكندرية .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ برهان الدين بن الخلال البزى الكوفي :
أن علوها فنحو ستمائة ذراع . وذكر عن الشيخ مبارك الأنباتى أن دَلَى مدائنُ جمعت
ولكل مدينة منها اسم يخصها ودَلَى واحدة منها . قال الشيخ أبو بكر بن الخلال :
وجملة ما يطلق عليه الآن اسم دَلَى إحدى وعشرون مدينةً .

قال الشيخ مبارك : وهى مَمْلَعة طولاً وعرضاً ، يكون دَوْر عُمرانها أربعين ميلاً ،
وبناؤها بالحجر والأجر ، وسقوفها بالخشب ، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه
بالرخام ، ولا يبنى بها أكثر من طبقتين وربما أقتصر على طبقة واحدة ، ولا يفرش
دَوْره فيها بالرخام إلا السلطان . قال : وفيها ألف مدرسة ، منها مدرسة واحدة
للشافعية وبقية الخنقية ، وبها نحو سبعين عيادة ، وتسمى بها دَوْر الشفاء ،
وبها وببلادها من الرُّبُط والخوانق نحو ألفين ، وفيها الزيارات العظيمة ، والأسواق
المتنعة ، والحمامات الكثيرة ، وشرب أهلها من ماء المطر ، تجتمع الأمطار فيها
فى أحواض وسبعة كل حوض قطره غلوة سهم أو أكثر . أما مياه الاستعمال وشرب
الدواب فمن آبار قرية المستقى ، أطول ما فيها سبعة أذرع . وقد صارت دَلَى قاعدةً
لجميع الهند [ومُسْتَقَرَّ السلطان] وبها قصور ومنازل خاصة بسكنه وسكن حريمه ،
ومقاصير جواريه وحظاياهم وبيوت خدمه ومماليكه ، لا يسكن معه أحد من الخانات
ولا من الأمراء ، ولا يكون بها أحد منهم إلا إذا حضر للخدمة ثم ينصرف كل واحد
منهم إلى بيته . ولها بساكنين من جهاتها الثلاث : الشرق ، والجنوب ، والشمال
على استقامة ، كل خط اثنا عشر ميلاً ، أما الجهة الغربية فعاطلة من ذلك لمقاربة
جبل هابة . ووراء ذلك مدُن وأقاليم متعددة .

القاعدة الثانية

(مدينة الدواكير)

ومدينة الدواكير بفتح الدال المهملة والواو وألف بعدها كاف مكسورة ثم ياء
 مشناة تحتية وراء مهملة في الآخر . وهي مدينة ذات إقليم متسع . وقد ذكر
 في "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأنباتي : أنها مدينة قديمة جدها السلطان
 محمد بن طغلقشاه، وسمّاها "قبة الإسلام" . وذكر أنه فارقها ولم تتكامل بعد،
 وأن السلطان المذكور كان قد قسمها على أن تبنى محلات لأهل كل طائفة محلة :
 الجند في محلة ، والوزراء في محلة ، والحكّاب في محلة ، والقضاة والعلماء في محلة ،
 والمشايخ والفقراء في محلة ، وفي كل محلة ما يحتاج إليه من المساجد ، والأسواق ،
 والحمامات ، والطواحين ، والأفران ، وأرباب الصنائع من كل نوع حتى الصوّاغ
 والصّبّاغين ، والدّبّاغين ، بحيث لا يحتاج أهل محلة إلى أخرى في بيع ولا شراء ،
 ولا أخذ ولا عطاء : لتكون كل محلة كأنها مدينة مفردة قائمة بذاتها .

واعلم أن صاحب "تقويم البلدان" : قد ذكر عن بعض المسافرين إلى الهند
 أن بلاد الهند على ثلاثة أقسام :

القسم الأول — بلاد الجزرات

قال في "تقويم البلدان" : بالبحيم والزاي المعجمة والراء المهملة ثم الف وتاء
 مشناة فوق . وبها عدّة مدن وبلاد .

منها (نَهْلُوارة) بالنون والهاء واللام والواو ثم ألف وراء مهملة وهاء . وقال
 ابن سعيد : نَهْرُوالة ، فقدم الراء وأثر اللام ، وكذلك نقله في "تقويم البلدان"

عن بعض المسافرين . وفي " نزهة المشتاق " نهروارة براءين . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في " القانون " : حيث الطول ثمان وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي غربي إقليم المنيبار الآتي ذكره . قال : وهي أكبر من كنبات ، وعمارتها مفرقة بين البساتين والمياه ، وهي عن البحر على مسيرة ثلاثة أيام . قال صاحب حماة في " تاريخه " : وهي من أعظم بلاد الهند .

ومنها (كنبات) قال في " تقويم البلدان " : بالكاف ونون ساكنة وباء موحدة ثم ألف وياء مثناة تحتية وتاء مثناة من فوقها ، ومقتضى ما في " مسالك الأبصار " : أن يكون اسمها أنبات بإبدال الكاف همزة ، فإنه ينسب إليها أنباتي . وهي مدينة على ساحل بحر الهند ، موقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في " القانون " : حيث الطول تسع وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض اثنتان وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وذكر في " تقويم البلدان " عن سافر إليها أنها غربي المنيبار على خور من البحر طوله مسيرة ثلاثة أيام . قال : وهي مدينة حسنة ، أكبر من المعرة من بلاد الشام في المقدار ، وأبنيتها بالآجر ، وبها الرخام الأبيض ، وبها بساتين قليلة .

ومنها (تانه) . قال في " تقويم البلدان " : قال أبو العقول نقلا عن عبد الرحمن الريان الهندي - بفتح المثناة الفوقية ثم ألف ونون وهاء . وهي بلدة على ساحل البحر ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في " القانون " : حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة وعشرون دقيقة ، والعرض تسع عشرة درجة وعشرون دقيقة . قال في " تقويم البلدان " : وهي من مشارق الجزرات . قال ابن سعيد : وهي مشهورة على السن التجار . قال : وأهل هذا الساحل جميعهم

كُفَّار يعبدون الأنداد ، والمسلمون ساكنون معهم . قال الإدريسي : وأرضها وجبالها تُنبت القنأ والطباشير ويحمل منها إلى الآفاق . قال أبو الرِّيحان : والنسبة إليها تانِشِي ومنها الثياب التانِشِيَّة .

ومنها (صُومَنَاتُ) قال في "تقويم البلدان" : بالصاد المهملة ويقال بالسين المهملة ثم واو ساكنة وميم ونون مفتوحتين ثم ألف وتاء مثناة فوقية في الآخر ، وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيثُ الطولُ سبع وتسعون درجة وعشر دقائق ، والعرضُ اثنتان وعشرون درجة وخمسة عشرة دقيقة . قال في "القانون" : وهي على الساحل في أرض البَوَازِيج . قال ابن سعيد : وهي مشهورة على ألسنة المسافرين ، وتعرف ببلاد اللار ، وموضعها في جهة داخلية في البحر فيَنطَحُّها كثير من مراكب عدن لأنها ليست في جَوْن ؛ ولها خَوْر ينزل من الجبل الكبير الذي في شماليها إلى شرقيها ، وكان بها صنم تعظمه الهندو يُضاف إليها ، فيقال : "صنم صُومَنَات" فكسره يمين الدولة "محمود بن سُبُكْتِكِين" عند فتحها كما هو مذكور في التواريخ .

ومنها (سَنَدَانُ) بالسين المهملة والنون والdal المهملة والألف والنون ، هكذا ذكره في "تقويم البلدان" : ونقل لفظه عن المهلبِي في "العزيزي" . وقال بعض المسافرين إنها (سَنَدَابُور) بالسين المهملة والنون والdal المهملة وألف وباء موحدة وواو وراء مهملة في الآخر . وهي مدينة على ثلاثة أيام من تانَّة ، موقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيثُ الطولُ مائة وأربع دَرَج وعشرون دقيقة ، والعرضُ تسع عشرة درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين : وهي على جَوْن في البحر الأخضر ، وهي آخر إقليم الجزُرَات . قال في "القانون" : وهي على الساحل . قال في "العزيزي" :

وبينها وبين المنصورة خمسة عشر فرسخاً، وهى تجمع الطرق . قال : وهى بلاد القسطنطينية والقيصرية، وهى من أجل القرض التى على البحر .

ومنها (ناكور) قال فى "تقويم البلدان" : بفتح النون وألف وكاف مضمومة وواو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة على أربعة أيام من دلى .

ومنها (جالور) بفتح الجيم ثم ألف ولام مضمومة وواو وراء مهملة . وهى على تل تراب نحو قلعة مصيف بين ناكور وبين نهر والة . ويقال إنه لم يعص على صاحب دلى من الجزرات غير جالور .

(١) ومنها (منورى) . قال فى "القانون" : وهى بين القرصة وبين المعبر إلى سرنديب حيث الطول مائة وعشرون درجة، والعرض ثلاث عشرة درجة .

القسم الثانى — من إقليم الهند بلاد المنىبار

(٢) قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الميم وكسر النون وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة ثم ألف وراء مهملة فى الآخر . وهى إقليم من أقاليم الهند فى الشرق عن بلاد الجزرات المقدم ذكرها . قال : والمنىبار هى بلاد الفلفل . ثم قال : والفلفل فى شجرة عناقيد كعناقيد الدخن، وشجره ربما ألف على غيره من الأشجار كما تلتف الدوالي، وبها بلاد ... (٣) ... وجميع بلاد المنىبار مخضرة كثيرة المياه والأشجار الملتفة .

(١) وقعت فى "التقويم" بالبدال المهملة بدل الواو ولم يضبطها .

(٢) ذكرها ياقوت باللام بدل النون .

(٣) بياض فى الأصل ولعله "كثيرة" .

منها (هَنَوْر) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهاء والنون المشددة والواو وراء مهملة . وهي غربي سَندأبور من بلاد الجزرات المقدم ذكرها، فتكون أول بلاد المنيبار من الغرب . قال : ولها بساين كثيرة .

ومنها (بَاسِرُور) بالباء الموحدة وبالسين المفتوحة والراءين المهملات . وهي بلدة صغيرة شرقي هَنَوْر المقدمة الذكر .

ومنها (مَنَجَرُور) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وراء مهملة . وهي شرقي بَاسِرُور المقدمة الذكر . قال : وهي من أكبر بلاد المنيبار، ومليكها كافر، ووراءها بثلاثة أيام جبل عظيم داخل في البحر، يرى للمسافرين من بُعد، يسمى "رأس هيلي" بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر اللام ثم ياء مثناة تحتية في الآخر .

ومنها (تَندُور) بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة وسكون النون ثم دال مهملة وياء آخر الحروف مضمومة وواو وراء مهملة . وهي بلدة شرقي "رأس هيلي" لها بساين كثيرة .

ومنها (الشَّالِيَات) بفتح الشين المعجمة وألف ولام مكسورة وياء آخر الحروف ثم ألف وتاء مثناة فوقية .

ومنها (الشَّنْكِلي) بالشين المعجمة المكسورة [وسكون النون ^(١)] وكاف ولام وياء آخر الحروف . وهي بلدة بالقرب من الشَّالِيَات .

ومنها (الكَوْلَم) قال في "تقويم البلدان" : بالكاف المفتوحة والواو الساكنة

(١) الزيادة من تقويم البلدان .

ثم لام مفتوحة وميم في الآخر . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال" : حيث الطول مائة وعشر درجات ، والعرض ثمان عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي آخر بلاد الفلفل من الشرق ، ومنها يُقلع إلى عدن . قال صاحب "تقويم البلدان" : وحكى لي بعض المسافرين أنها على خور من البحر في مستوي من الأرض وأرضها مُرملة ، وهي كثيرة البساتين ، وبها شجر البَقَم : وهو شجر كشجر الرمان ، وورقه يُشبه ورق العناب ، وفيها حارة للمسلمين وبها جامع .

القسم الثالث — من إقليم الهند بلاد المعبر

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدة ثم راء مهملة . وهي شرقي بلاد الكوالم بثلاثة أيام أو أربعة . قال في "تقويم البلدان" : وينبغي أن تكون بميلة إلى الجنوب . قال ابن سعيد : وهو مشهور على الألسن ، ومنه يُجلب اللانِس ، وبها يُضرب المثل في قصارها . قال : وفي شماليها جبال متصلة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند ، وفي غربيها يُصبُّ نهر الصوليان في البحر . وذكر في "مسالك الأبصار" عن قاضي القضاة سراج الدين الهندي : أن بلاد المعبر تشتمل على عدة جزائر كبار .

وبه عدة مدن وبلاد .

منها (بيرداول) قال في "تقويم البلدان" : بكسر الباء الموحدة وتشديد الياء المثناة التحتية وسكون الراء وفتح الدال المهملة وألف وواو ولام . قال : وهي قسبة بلاد المعبر ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد :

حيث الطول مائة وأثنان وأربعون درجة ، والعرض سبع عشرة درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهى مدينة سلطان المعبر ، وإليه تُجلب الخيول من البلاد .

ثم أعلم أن وراء ما تقدم بلاداً أخرى ذكرها في "تقويم البلدان" .

منها (ماهورة) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم والألف والهاء والواو ثم راء مهملة وهاء . وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول مائة درجة وأربع درج ، والعرض سبع وعشرون درجة . قال ابن سعيد : وهى على جانبى نهر كُنْكَ فى آنحداره من قَنُوج إلى بحر الهند . قال فى "تقويم البلدان" : وهى بلد البراهمة ، وهم عبَاد الهند ينسبون إلى البرهمن أول حكمائهم . قال ابن سعيد : وقلائعهم بها لا تُرام .

ومنها (لَوْهَوْر) قال فى "اللباب" : بفتح اللام وسكون الواوين بينهما هاء مفتوحة وفى الآخر راء مهملة . قال : ويقال لها أيضاً لَهَّأُور . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيث الطول مائة درجة والعرض إحدى وثلاثون درجة . قال فى "اللباب" : وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير ، خرج منها جماعة من أهل العلم .

ومنها (قَنُوج) قال فى "تقويم البلدان" : بكسر القاف وفتح النون المشددة والواو ثم جيم . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول مائة وإحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . وذكر فى "الأطوال" الطول بنقص سبع وعشرين درجة ، والعرض بزيادة ست درج . قال ابن سعيد : وهى قاعدة لَهَّأُور ، وهى بين ذراعين من نهر

كنك . وقال المهلبى : هى فى أقاصى الهند فى جهة الشرق عن الملتان على مائتين وأثنين وثمانين فرسخا . قال : وهى مِصر الهند وأعظم المُدن بها . ثم قال : وقد بالغ الناس فى تعظيمها حتى قالوا : إن بها ثلثمائة سوق للجوهر ، ولملكها ألفان وخمسمائة فيل ؛ وهى كثيرة معادن الذهب . قال فى ” نزهة المشتاق “ : هى مدينة حسنة ، كثيرة التجارات ، ومن مدنها قشِيرُ الخارجة ، وقشِيرُ الداخلة . قال : وملكها يسمى القنوج باسمها .

ومنها (جبال قامرون) قال فى ” تقويم البلدان “ : بفتح القاف وألف وميم وراء مهملة ثم واو ونون . وهى حجاز بين الهند والصين ، وعدّها فى ” القانون “ من الجزائر . قال : وهى خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب قال فى ” القانون “ و ” الأطوال “ : حيث الطول مائة وخمس وعشرون درجة ، والعرض عشر درج ، ومدينة الملك شرقياً ، وبها معدن العود القامرونى .

قلت : وذكر فى ” مسالك الأبصار “ عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أن فى مملكة صاحب الهند ثلاثة وعشرين إقليما ، عد منها بعض ما تقدم ذكره ، وهى : إقليم دهلي ، وإقليم الدواكير ، وإقليم الملتان ، وإقليم كهران ، وإقليم سامانا ، وإقليم سبوستان ، وإقليم وجا ، وإقليم هاسى ، وإقليم سرستى ، وإقليم المعبر ، وإقليم تلك ، وإقليم بكرات ، وإقليم بدلون ، وإقليم عوض ، وإقليم القنوج ، وإقليم لكونتى ، وإقليم بهار ، وإقليم كره ، وإقليم ملاوه ، وإقليم لهاور ، وإقليم كلافور ، وإقليم جاجنكر ، وإقليم تلنج ، وإقليم دور سمند .

ثم قال : وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتى مدينة ، كلها مدن ذوات نيايات : كبار وصغار ، وجميعها الأعمال والقرى العامرة الأهلة . وقال إنه لا يعرف

عَدَّ قُرَاهَا ، إِلَّا أَنْ إِقْلِيمَ الْقِنُوجِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ لُكَّا ، كُلُّ لُكٍّ مِائَةُ أَلْفِ قَرْيَةٍ ، فَتَكُونُ أَسْتَى عِشْرَ أَلْفِ أَلْفِ قَرْيَةٍ ، وَإِقْلِيمُ تَلَنَكْ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ لُكَّا ، فَيَكُونُ ثَلَاثَةُ أَلْفِ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفِ قَرْيَةٍ ، وَإِقْلِيمُ مَلَاوَه أَكْبَرُ مِنْ إِقْلِيمِ الْقِنُوجِ فِي الْجُمْلَةِ .

وَحَكَى عَنِ الشَّيْخِ مَبَارَكِ الْأَنْبَاتِيِّ : أَنَّ عَلِيَّ لِكُنُوتِي مِائَتِي أَلْفِ مَرَكَبٍ صَغَارِ خِفَافٍ لِلسَّيْرِ ، إِذَا رَمَى الرَّامِي فِي إِحْدَاهَا سَهْمًا وَقَعَ فِي وَسْطِهَا لِسُرْعَةِ جَرَّيَانِهَا . وَمَنْ الْمَرَاكِبُ الْبَكَارُ مَا فِيهِ الطَّوَّاحِينُ وَالْأَفْرَانُ وَالْأَسْوَاقُ ، وَرَبَّمَا لَمْ يَعْرِفْ بَعْضُ رُكَّابِهِ بَعْضًا إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ لَا تَتَسَاعَى وَعِظْمُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا الْعَهْدَةُ فِيهِ عَلَيْهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ بَحْرَ الْهِنْدِ جَزَائِرٌ عَظِيمَةٌ مَعْدُودَةٌ فِي أَعْمَالِهِ ، يَكُونُ بَعْضُهَا مَمْلَكَةً مُنْفَرَدَةً . مِنْهَا (جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبِ) قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : بِفَتْحِ السِّينِ وَالرَّاءِ الْمَهْمَلَتَيْنِ وَسُكُونِ النُّونِ وَكَسْرِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ الْمُثْنَاةِ مِنْ تَحْتِ ثَمَّ بَاءٍ مُوَحَّدَةٍ . قَالَ : وَيُقَالُ لَهَا جَزِيرَةُ سِنْكَادِيبِ ، كَأَنَّهُ بِاللِّسَانِ الْهِنْدِيِّ ، وَمَوْقِعُهَا خَارِجٌ عَنِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ إِلَى الْجَنُوبِ قَالَ "فِي الْأَطْوَالِ" : حَيْثُ الطُّوْلُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً ، وَالْعَرْضُ عِشْرُ دَرَجَةٍ . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : وَيُسَمَّى هَذِهِ الْجَزِيرَةُ جَبَلٌ عَظِيمٌ عَلَى خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ ، أَسْمُهُ جَبَلُ الرَّهُونِ ، يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلَيْهِ هُبُوطَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ أَبُو خَرْدَاذِبَةَ : وَهُوَ جَبَلٌ ذَاهِبٌ فِي السَّمَاءِ ، يَرَاهُ أَهْلُ الْمَرَاكِبِ عَلَى مَسِيرَةِ عِشْرِينَ يَوْمًا وَأَقَلَّ وَأَكْثَرَ .

وَذَكَرَتِ الْبَرَاهِمَةُ : أَنَّ عَلِيَّ هَذَا الْجَبَلِ أَثَرُ قَدَمِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قَدَمٌ وَاحِدَةٌ مَغْمُوسَةٌ فِي الْحَجَرِ ، وَأَنَّهُ خَطَا الْخَطْوَةَ الْأُخْرَى إِلَى الْهِنْدِ ، وَهُوَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ . قَالَ : وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ شَبِيهٌ بِالْبَرْقِ أَبَدًا ، وَعَلَيْهِ الْعُودُ وَسَائِرُ الْعِطْرِ وَالْأَفَاوِيهِ ، وَعَلَيْهِ وَحَوَالِيهِ الْيَاقُوتُ وَالْوَانُ كَلُّهَا ، وَفِي وَادِيهِ الْمَسَّاسُ وَالسَّنْبَادِجُ ،

وغزال المسك ، وسنور الزباد ، وفي أنهار هذه الجزيرة اللؤلؤ ، وحولها في البحر مَخَاصِئُ اللؤلؤ ، ونهرها هو المعظم عند الهنود . قال ابن سعيد : ومدينتها تسمى أغنا . وهي حيث الطول مائة وأربع وعشرون درجة .

ومنها (جزيرة الرانج) . قال في " تقويم البلدان " : والظاهر أنها بالراء المهملة والألف والنون ثم جيم في الآخر ، وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول . قال في " الأطوال " : وطولها مائة وثلاث عشرة درجة ، ولا عرض لها ، وفيها عمارة وزرع ونارجيل وغير ذلك . قال في " كتاب الأطوال " : وجبالها ترى من جبال اليمن ، وبها جبال تشتعل النار فيها دائماً ، وترى تلك النار في البحر من مسيرة أيام ، وبها حيات تبتلع الرجل والخاموس ، وفي البحر عند لهاور " دور " وهو مكان يدور فيه الماء ، ويخشى على المراكب عنده . قال ابن خردادبه : وفيها حيات عظام تبتلع الرجل والخاموس والفيل ، وفيها شجر الكافور ، تظل الشجرة منه مائة إنسان وعجائب لا تحصى .

ومنها (جزيرة لامري) قال في " تقويم البلدان " : بلام وألف وميم وراء مهملة ثم ياء آخر الحروف ، وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول قال في " الأطوال " : حيث الطول مائة وست وعشرون درجة ، والعرض تسع درج . قال في " تقويم البلدان " : وهي معدن البقم والخيزران .

ومنها (جزيرة كلة) قال في " تقويم البلدان " : بالكاف واللام وهاء في الآخر . وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول قال في " القانون " : حيث الطول مائة وثلاثون درجة ، ولا عرض لها . قال في " تقويم البلدان " : وهي فُرْضة ما بين عُمان والصين . قال المهلب : وفيها مدينة عاهرة يسكنها المسلمون وغيرهم

وبها معادن الرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور ، وبينها وبين جزائر المهراج عشرون عَجْرَى .

ومنها (جزيرة المهراج) . قال في "تقويم البلدان" : الظاهر أنها بالميم والهاء والراء المهملة ثم ألف وجيم في الآخر . قال في "كتاب الأطوال" : وهي جزيرة سَريرة ، وموقعها في الجنوب من خطِّ الاستواء قال في الأطوال : حيث الطول مائة وأربعون درجة ، والعرض في الجنوب درجة واحدة . قال ابن سعيد : وهي عِدَّة جزائر ، وصاحبها من أغنياء ملوك الهند وأكثرهم ذهباً وِفِيلَةً . وجزيرته الكبيرة هي التي فيها مقرُّ ملكه ، وعندها المهلبى في جزائر الصين ، وقال : إنها عامرة أهلة ، وإنه إذا أقلع المركب منها طالباً للصين واجهه في البحر جبالٌ ممتدة ، داخله في البحر مسيرة عشرة أيام ، فإذا قُرب المسافرون منها وجدوا فيها أبواباً وفُرَجاً في أثناء ذلك الجبل ، يُمَضَّى كلُّ باب منها إلى بلد من بلدان الصين . وعدَّ ابن سعيد سَريرة من جزائر الرانج ، وقال : إن طولها من الشمال إلى الجنوب أربعمائة ميل ، وعرضها في كلِّ طَرَف من الجنوبيِّ والشمالِيِّ نحو مائة وستين ميلاً ، وسَريرة مدينة في وسطها ، ثم يدخل منها جَوْن إلى البحر وهي على نهر .

ومنها (جزيرة أندراي) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة وفي الأخرى مشتاة من تحتها .

ومنها (جزيرة الجَاوَة) . قال في "تقويم البلدان" : وهي جزيرة كبيرة مشهورة بكثرة العنقاير . قال : وطرف هذه الجزيرة الغربيُّ حيثُ الطول مائة وخمس وأربعون درجة ، والعرض خمس درج . قال : وفي جنوبيِّ جزيرة الجاوة مدينة

فَنُصُور ، التي ينسب إليها الكافور الفَنُصُورى ؛ وهي حيث الطول مائة وخمس وأربعون درجة ، والعرض درجة واحدة ونصف .

ومنها (جزيرة الصَّنْف) . التي يُنسب إليها العود الصَّنْفى . وهي من أشهر الجزائر الموجودة في الكُتُب ؛ وطولها من الغرب إلى الشرق نحو مائتى ميل ، وعرضها أقل من ذلك ، ومدىنتها حيث الطول اثنتان وستون درجة .

ومنها (جزيرة قِمَار) التي يُنسب إليها العود القِمَارى وهو دون الصَّنْفى ، ومدىنتها قِمَار حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض درجتان ، وشرقها جزائر الصين . ومنها (جزيرة الرامى) . قال ابن خرداذبه : وبها الكرَّكْدَن وجواميس لأذنان لها ، وبها البَقَم ، وفيها ناس عِراء في غياض لا يُفهم ما يقولون ، كلامهم صَفير ، يستوحشون من الناس ، طول كل إنسان منهم أربعة أشبار ، للرجل منهم ذكر صغير ، وللرأة فرج صغير ، وشعر رؤوسهم زغب أحمر ، يتسلقون على الأشجار بأيديهم . وفي البحر هناك ناس بيض ، يلحقون المراكب سباحة والمراكب في شدة جريها ، يبيعون العنبر بالحديد يحملونه في أفواههم ؛ وجزيرة فيها ناس سود يأكلون الناس أحياء ، وجبل طينه فضة تظهر بالنار .

الجملة الثانية

(في حيوانها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأتباتى : أنَّ بها الخيل على نوعين : عِراب وبراذين ، وأكثرها ما لا يحد فعله . قال : ولذلك تجلب الخيل إلى الهند من جميع ماجاوره من بلاد الترك ، وتقادله العِراب من البحرين وبلاد اليمن والعراق ، وإن كان في داخل الهند خيل عِراب يتعالى في أثمانها ولكنها

قليلة. قال : ومتى طال مُكثُ الخيل بالهند انحلت . وعندهم الغال والحير، ولكنها مذمومة الركوب عندهم ، حتى لا يَسْتَحْسِنَ فقيه ولا ذو علم ركوب بغلة .

أما الحمار فإن ركوبه عندهم مَذَلَّةٌ وعارٌ عظيم ، وخاصَّتهم تحل أثقالهم على الخيل ، وعامتهم تحل على البقر من فوق الأنف ، وهي عندهم كثيرة ، وبها الجمال قليلة لا تكون إلا للسلطان وأتباعه : من الخانات ، والأمراء ، والوزراء ، وأكابر الدولة ، وبها من المواشي السائمية ما لا يحصى : من الجواميس والأبقار والأغنام والمعز ، وبها من دَوَاجِنِ الطير الدجاج والحمام والإوز وهو أقل أنواعه ، وإن الدجاج عندهم في قدر خلق الإوز . وبها من الوحوش الفيل ، والكَرَّكْدُن . وقد تقدّم ذكرهما في الكلام على الوحوش فيما يحتاج الكاتب إلى وصفه من الحيوان في المقالة الأولى ، في غير ذلك من الوحوش التي لا تُعَدُّ .

الجملة الثالثة

(في حبوبها ، وقوا كهها ، ورأحينها ، وخضرواتها ، وغير ذلك)

أما الحبوب فقد ذُكر عن الشيخ مبارك الأنباري أن بها الأرز على أحد وعشرين نوعاً ، وبها من سائر الحبوب الحنطة ، والشعير ، والقمح ، والعدس ، والماش ، واللوبياء ، والسَّمْسِم ، أما الفول فلا يوجد عندهم . قال في "مسالك الأبصار" : ولعل عدمه من حيث إنهم قوم حكماء ، والفول عندهم مما يفسد جوهر العقل ، ولذلك حرمت الصابئة أكله .

وأما الفواكه ففيه التين ، والعنب على قلة ، والرمان الكثير : من الحلو ، والمز ، والحامض إلى غير ذلك من الفواكه : كاللوز ، والخوخ ، والتوت المسمى بالفِرْصاد ،

(١) لعله مصحف عن الكنف .

وبها فواكه أخرى لا يُعهد مثلها بمصر والشام ، كالعنباء وغيرها ، والسفرجل على قلة ، والكُمثرى ، والثَّقَاحُ ، وهما أقل من القليل ، ولكنهما والسفرجل تُجلب إليه . وبها من الفواكه المستحسنة الرائحة ، وهو المسمى عندهم بالنارجيل ، والعامّة تسميه جوز الهند . وبه البطيخ الأخضر والأصفر ، والخيار ، والقثاء ، والعجور ، وبه من الحمضات الأترج ، والليمون ، والليم ، والنَّارَنج . أما الحمر وهو التمر الهندي فكثير بباديتها .

وأما الخضراوات فقصب السكر بلادها كثير للغاية ، ومنه نوع أسود صلب المعجم ، وهو أجوده للإمتصاص لا الاعتصار ، ولا يوجد في غيرها ، ويعمل من بقية أنواعه السكر الكثير : من التّبات وغيره ، ولكنه لا يجذب بل يكون كالسّميد الأبيض . وعندهم من الخضراوات اللّفت ، والجَزَر ، والقرع ، والباذنجان ، والهليون ، والزنجبيل ، والسلق ، والبصل ، والقوم وهو الثوم ، والشمار ، والصمغ . وأما الرياحين ، فيها الورد ، والينفور ، والبنفسج ، والبان ، والخلاف ، والعبر ، والنرجس ، والفاغية وهي التامر حنّاء .

وأما غير ذلك فعندهم العسل أكثر من الكثير ، والشّيرج ومنه وقودهم ، والزيت يأتهم مجلوبا . أما الشمع فلا يوجد إلا في دور السلطان ، ولا يُسمح فيه لأحد ، والحلوى على خمسة وستين نوعا ، والفقاع ، والأشربة ، والأطعمة على ما لا يكاد يوجد في غير ما هنا لك . وبه من أرباب الصنائع صنائع السيوف ، والقسي ، والرّماح ، والرّد ، وسائر أنواع السلاح ، والصّواع ، والزراكية ، وغيرهم من سائر أرباب الصنائع .

وللسلطان يدِّي دارِ طراز ، فيها أربعة آلاف قَرَّاز ، تَعْمَلُ الأَقَشَةُ المتَّوَعَةُ لِلخَلْعِ
وَالْكَسَاوِى (١) والإطلاقات ، مع مايجمل إليه من قُمَاشِ الصين والعراق والإسكندرية .

الجملة الرابعة

(في المعاملات)

أ. نقودهم ، فقد ذكر الشيخ مبارك الأنباتي : أن لهم أربع دراهم يتعاملون بها .
أحدها — الهشتكاني . وهو وزن الدرهم النُّقْرة بمعاملة مصر ، وجَوَّازه جَوَّازه ،
لايكاد يتفاوت ما بينهما ، والدرهم الهشتكاني المذكور عنه ثمان جتيلات ، كل
جتيل أربعة أفلس ، فيكون عنه آشين وثلاثين فلساً .

الثاني — الدرهم السلطاني . ويسمى وكاني ، وهو رُبْعُ درْهَمٍ من الدراهم
المِصرِيَّةِ ، وكل درهم من السلطانية عنه جتيلان ، ولهذا الدرهم السلطاني نِصْفُ
يسمى جتيل واحد .

الثالث — الششتكاني . وهو نصفُ ورْبُعِ درهم هشتكاني ، ويكون تقديره
بالدراهم السلطانية ثلاثة دراهم .

الرابع — الدرهم الدرازد هكاني . وجَوَّازه بنِصْفِ ورْبُعِ درهم هشتكاني أيضاً ،
فيكون بمقدار الششتكاني ، ثم كل ثمانية دراهم هشتكانيَّة تسمى تنكه .

أما الذهب عندهم فالمِثْقَالُ ، وكل ثلاثة مثاقيل تسمى تنكه ، ويعبر عن تنكه
الذهب بالتنكه الحمراء ، وعن تنكه الفِضَّةِ بالتنكه البيضاء ، وكل مائة ألف تنكه

(١) جاري العامة في هذا الجمع والاختصاص كسأه كما في القاموس .

من الذهب أو الفضة تسمى لُكّا ، إلا أنه يعبر عن لك الذهب باللُكّ الأحمر ، وعن لك الفضة باللك الأبيض .

وأما رطلهم فيسمى عندهم ستر ، وزنته سبعون مثقالا ، فتكون زنته بالدرهم المصرية مائة درهم ودرهمين وثلاثي درهم ، وكل أربعين سترًا من واحد ، وجميع مبيعاتهم بالوزن أما الكيل فلا يعرف عندهم .

الجملة الخامسة

(في الأسعار)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" أسعار الهند في زمانه نقلا عن قاضي القضاة سراج الدين الهندي وغيره فقال : إن الحارّية الخدامة لا تتعدى قيمتها بمدينة دهلي ثمان تنكات ، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش خمس عشرة تنكة . وفي غير دهلي أرخص من ذلك حتى قال القاضي سراج الدين : إنه اشترى عبدا مراهما نقاءا بأربعة دراهم . ثم قال : ومع هذا الرخص إن من الحواري الهنديّات من تبلغ قيمتها عشرين ألف تنكة وأكثر لحسنهن ولطفهن .

ونقل عن الشيخ مبارك الأنباري (وكان فيما قبل الثلاثين والسبعائة) فقال : إن أوساط الأسعار حينئذ أن تكون الحنطة كل من بدرهم ونصف هشتكاني ، والشعير كل من بدرهم واحد هشتكاني ، والأرز كل من بدرهم ونصف وربع هشتكاني ، إلا أنواعا معروفة من الأرز فإنها أغلى من ذلك ، والحمص كل منين بدرهم هشتكاني ، ولحم البقر والمعز كل أربعة أستار بدرهم سلطاني ، والإوز كل طائر بدرهمين هشتكانية ، والدجاج كل أربعة أطيّار بدرهم هشتكاني ، والسكر كل

خمسة أستار بدرهم هشتكاني ، والرأس الغنم الجيدة السمينة بتنكة (وهي ثمانية دراهم هشتكانية) والبقرة الجيدة بتنكتين (وهما ستة عشر درهما هشتكانية) وربما كانت بأقل ، والجاموس كذلك .

أما الحمام والغُصُفُور وأنواع الطير فبأقل ثمن ، وأنواع الصيد من الوحش والطير كثيرة ، وأكثر ما كلهم لحم البقر والمغز مع كثرة الضأن عندهم إلا أنهم اعتادوا أكل ذلك .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن الخجندى أنه قال : أكلت أنا وثلاثة نفر رفاق في بعض بلاد دليّ لحماً بقرياً وخبزاً وسمناً حتى شبعنا بجيتل : وهو أربعة افلس كما تقدم .

الجملة السادسة

(في الطريق الموصلة إلى مملكتي السند والهند)

اعلم أن لهذه المملكة عدة طرق :

الطريق الأول — طريق البحر، قد تقدم في الكلام على الطريق الموصلة إلى اليمن ذكر الطريق من سواحل مصر : من السويس ، والطور ، والقصير ، وعيداب إلى عدن من اليمن في هذا البحر ، ومن عدن إلى أن يركب في بحر الهند المتصل ببحر القلزم ، إلى سواحل السند والهند ، ويخرج إلى أي البلاد أراد من القرض الموصلة إليها .

الطريق الثاني — طريق بحر فارس ، قد تقدم في الكلام على مملكة إيران ذكر الطريق الموصلة من حبّ إلى بغداد ، ثم من بغداد إلى البصرة . قال ابن خردادبه :

ثم من البصرة إلى عبادان اثنا عشر فرسخاً ، ثم إلى الخشبات ^(١) فرسخان ، ومنها يُركب في بحر فارس :

فمن أراد طريق البر إلى السند والهند ، جاز هذا البحر إلى هُرمز : مدينة كُرمَان ، ومنها يتوصل إلى السند ثم الهند ثم الصين .

ومن أراد الطريق في البحر ، فقد ذكر ابن خردادبه : أن من أبلّة البصرة في نهر الأبلّة إلى جزيرة خارك في نخل فارس سبعين فرسخاً ، ومنها إلى جزيرة لابن ثمانين فرسخاً ، ثم إلى جزيرة أبرون سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة حَيْن سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة كيش سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة أبركاوان ثمانية عشر فرسخاً ، ثم إلى جزيرة أرموز سبعة فراسخ ، ثم إلى بار سبعة أيام ، وهي الحد بين فارس والسند ، ثم إلى الديك ثمانية أيام ، ثم إلى مصب مهْران في البحر فرسخان ، ثم من مهْران إلى بكين أول أرض الهند أربعة أيام ، ثم إلى المسند فرسخان ، ثم إلى كُول فرسخان ، ثم إلى سندان ثمانية عشر فرسخاً ، ثم إلى ملي خمسة أيام ، ثم إلى بلين يومان . ثم يفترق الطريق في البحر :

فمن أخذ على الساحل — فمن بلين إلى باس يومان . ثم إلى السنجلي وكَبَشْكَان يومان ، ثم إلى كودا مصب نهر فريد ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كيلكان يومان ، ثم منها إلى سمندر ، ومن سمندر إلى أورسير اثنا عشر فرسخاً ، ثم إلى أبينه أربعة أيام ، ثم إلى سرنديب يومان .

(١) الخشبات علامات في البحر لراكب تنهى إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر لتلا تلحق الأرض .

أنظر التقويم (ص ٣٠٩) .

ومن أراد جهة الصين عدل من بلّين وجعل سرّنديب عن يساره . فمن جزيرة سرّنديب إلى جزيرة لنجالوس عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً ، ثم إلى جزيرة كلة ستة أيام . وعن يسارها جزيرة بالوس على يومين ، ثم على خمسة عشر يوماً بلاد تنبت العطر .

الجملة السابعة

(في ذكر ملوك الهند)

(١) جماعة منهم ملوك الكُفر ، أسماؤهم أعجمية لا حاجة إلى ذكرهم ، فأضر بنا عنهم .

وأما في الإسلام فأقول من أخذ في فتح ما فتح من الهند بنو سُبُكْتِكِين : ملوك غزنة ، المتقدم ذكرهم في مملكة خوارزم والقبچاق وما مع ذلك .

ففتح يمين الدولة (محمود بن سُبُكْتِكِين) منه مدينة بهاطية . وهي مدينة حصينة عالية السور وراء الملتان ، في سنة ست وتسعين وثلثمائة ، وسار إلى بيده ملك الهند ، فهرب منه إلى مدينته المعروفة بكاليجار ، فحاصره فيها حتى صالحه على مال ، فأخذ المال وألبسه خلعتة ، واستغنى من شدّ وسطه بالمنطقة فلم يُعِفّه من ذلك ، فشدها على كُره .

ثم فتح (إبراهيم بن مسعود) منهم حصوناً منه في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة .

(١) بياض في الأصل ولعله أما قبل الإسلام فلعلها جماعة من الخ .

(٢) ذكر أبو الفداء فتحها في حوادث سنة ٩٥ ومسيره إلى ملكها في سنة ٩٦ .

(٣) عبارة أبي الفدا "قلعتة" .

ثم كانت دولة الغورية بغزنة أيضا . ففتح شهاب الدين أبو المظفر (محمد بن سام) ابن الحسين الغوري منه مدينة لكهنؤور في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وأتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، وبلغ من النكاية في ملوكهم ما لم يبلغه أحد من ملوك الإسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلي التي هي قاعدة الهند ، وبعث أيبك المذكور عساكره ، فملك من الهند أمانا كن مادخلها مسلم قبله حتى قاربت جهة الصين .

ثم فتح (شهاب الدين محمد) المذكور أيضا بعد ذلك نهرواله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وتوالت ملوك المسلمين وفتوحاتهم في الهند إلى أن كان (محمد بن طغلقشاه) في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوى سلطانه بالهند ، وكثرت عساكره ، وأخذ في الفتوح حتى فتح معظم الهند .

قال في "مسالك الأبصار" قال الشيخ مبارك الأنباقي : وأول ما فتح منه مملكة تلك ، وهي واسعة السواد ، كثيرة القرى ، عدة قراها تسعمائة ألف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكر ، وبها سبعون مدينة جليلة كلها على البحر ، دخلها من الجواهر والقمّاش المنوع ، والطيب ، والأفاوية ، ثم فتح بلاد لكتوتى ، وهي كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دواكير . ويقال لها دكير ، ولها أربع وثمانون قلعة جليات المقدار . ونقل عن الشيخ برهان الدين أبي بكر بن الخلال البزى : أن بها ألف ألف قرية ومائتي ألف قرية . ثم فتح بلاد دور سمند ، وكان بها السلطان بلال الدبو وخمسة ملوك كُفار . ثم فتح بلاد المعبر : وهو إقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر ، يجي من دخلها الطيب ، والألانس ، والقمّاش المنوع ، ولطائف الآفاق .

(١) الذي في العبر وتاريخ ابن الأثير أنه فتحها في سنة سبع وسبعين وخمسمائة وهو الصواب .

وذكر أنه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التي فتحها مالا يكاد السامع يصدقه . فحكى عن الشيخ برهان الدين أبي بكر بن الخلال المتقدم ذكره : أنه حاصر ملكاً على حد بلاد الدواكير ، فسأله أن يكف عنه على أن يرسل إليه من الدواب ما يختار ليحمله له مالا ، فسأله عن قدر ما عنده من المال فأجابه فقال : إنه كان قبلى سبعة ملوك ، جمع كل واحد منهم سبعين ألف صهرج متسعة من المال ، فأجابه إلى ذلك ، وختم على تلك الصهاريج باسمه وتركها بحالها ، وأقر الملك باسم ذلك الملك ، وأمر بإقامته عنده ، وجعل له ثلثاً بثلث الملكة .

وحكى عن علي بن منصور العقيلي من عرب البحرين أنه تواتر عندهم من الأخبار أن هذا السلطان فتح مدينة بها بحيرة ماء ، في وسطها بيت بر معظم عندهم يقصدونه بالنذر ، وكلما أتى له بنذر رُمي في تلك البحيرة ، فصرف الماء عنها وأخذ ما كان بها من الذهب ، فكان وسق مائتي فيل وآلاف من البقر ، إلى غير ذلك مما يكاد العقل أن ينكره ، ولذلك حصل عنده من الأموال مالا يأخذه الحصر ، وآتست أموال عساكره حتى جاوزت الوصف ، حتى حكى الشيخ تاج الدين بن أبي المجاهد السمرقندي : أنه غضب على بعض خاناته لشربه الخمر فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جملة ما وجد له من الذهب ألف ألف مثقال وسبعة وثلاثين ألف مثقال ، ومقدار ذلك ثلاثة وأربعون ألف قنطار وسبعون قنطاراً ، وهو مع ذلك يعطى العطاء الجزيل ويصل بالأموال الجمّة .

فقد حكى ابن الحكيم الطياري : أن شخصاً قدم له كتباً ، فحسب له حصة من جوهر كان بين يديه ، قيمتها عشرون ألف مثقال من الذهب .

وحكى الشريف السمرقندي : أن شخصاً قدم له اثنتين وعشرين حبة من البطيخ الأصفر ، حملها إليه من بخارى ، فأمر له بثلاثة آلاف مثقال من الذهب .

وحكى الشيخ أبو بكر بن أبي الحسن الملتاني أنه استفاض عنه أنه التزم أنه لا ينطق في إطلاقاته بأقل من ثلاثة آلاف مثقال، إلى غير ذلك من العطاء الذي يخرق العقول .

وحكى عن قاضي القضاة سراج الدين الهندي : أنه مع كثرة البذل وسعة العطاء في هباته وما يُنفقه في جيوشه وعساكره لا يُنفق نصف دخل بلاده .

قلت : ثم بعد محمد شاه ولي هذه المملكة من أقاربه سلطان اسمه (فيروزشاه) وبقي في الملك نحو أربعين سنة . ثم تنقلت المملكة في يدهم إلى أن كان من ثمرلنك ما كان من فتح دلي ونهبها .

ثم آل الأمر بعده إلى سلطان من بيت الملك ، اسمه (محمود خان) وهو القائم بها إلى الآن . وقد صارت الدواكير منها لسلطان بمفرده ، وأسمه اليوم السلطان (غياث الدين) .

الجملة الثامنة

(في ذكر عساكر هذه المملكة ، وأرباب وظائفها على ما ذكره في "مسالك الأبصار" عن دولة السلطان محمد بن طغلقشاه المتقدم ذكره ، نقلا عن الشيخ مبارك الأنباتي وغيره)

أما عساكره ، فقد ذكر أنها تشتمل على تسعمائة ألف فارس : منهم من هو بحضرته ، ومنهم من هو في سائر البلاد ، يحرق عليهم كلهم ديوانه ، وأن عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الأجناس . وكلهم بالخيال المسومة ، والسلاح الفائق ، والتجمل الظاهر ، وأن أعلى عسكره الخانات ، ثم الملوك ، ثم الأمراء ، ثم الاصفهسلارية ، ثم الجنند .

وذكر أن في خدمته ثمانينَ خاناً أو أكثرَ ، وأن لكل واحد منهم من الأتباع مايناسبه : لثان عشرة آلاف فارس ، ولثلاث ألف فارس ، ولأُمير مائة فارس ، وللأصفهسلاوية دون ذلك . وأن الأصفهسلاوية لا يؤهل أحد منهم للقرب من السلطان ، وإنما يكون منهم الولّاءة ومن يجرى مجراهم ، وأن له عشرة آلاف مملوك أترك ، وعشرة آلاف خادم خصى ، وألف خزندار ، وألف بشمقدار ، وله مائتا ألف عبد ركابية ، تلبس السلاح وتمشي في ركابه ، وتقاتل رجالة بين يديه ، وأن جميع الجُند تختص بالسلطان ، ويجري عليهم ديوانه حتى من في خدمة الخانات والمملوك والأمرء ، لا يجري عليهم إقطاع من جهة من هم في خدمته كما في مصر والشام .

وأما أربابُ الوظائف من أرباب السيف ، فله نائبٌ كبير ، يسمَّى بـلغتهم امرئ
وأربعة نوابٍ دونه ، يسمَّى كل واحد منهم شق ، وله الحُجَّاب ومن يجرى مجراهم
من سائر أرباب الوظائف . وأما من أرباب الأقاليم ، فله وزيرٌ عظيم ، وله أربعة
كُتَّاب سر ، يسمَّى كل واحد منهم بـلغتهم ديران ، ولكل منهم تقدير ثلثائة كاتب .
وأما القضاة فله قاضى قضاةٍ عظيم الشأن ، وله خمسٌ وشيخٌ شيوخ ، وله ألف
طبيب ومائتا طبيب .

وأما غير هؤلاء فله ألف بازدار، تحمل الطيور الجوارح للصيد راكبة الخيل، وثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد، وخمسمائة نديم، وألفان ومائتان من الملاحى غير مماليكه الملاحى، وهى ألف مملوك يرسم تعليم الغناء خاصة، وألف شاعر بالعربية، والفارسية، والهندية، من ذوى الذوق اللطيف. يجرى على جميع أولئك ديوانه مع طهارة الذل والعفة فى الظاهر والباطن.

الجملة التاسعة

(في زيّ أهل هذه المملكة)

أما أربابُ السُّيوفِ فنُقِلَ عن الشيخِ مُباركِ الأنباري : أن لبسَ السلطانِ والخاناتِ والملوكِ ، وسائرِ أربابِ السُّيوفِ تَتَرِيَّاتٌ ، وتَكَلَّوَاتٌ ، وأَقِيَّةٌ إسلاميةٌ ، مُحَصَّرةٌ الأوساطِ خُوارزميةٌ ، وعمائمٌ صغارٌ لا تتعدى العمامةَ منها خمسةٌ أذرعٌ أو ستةٌ ، وأن لبسَهم من البياضِ والجُوخِ .

وحكى عن الشريفِ ناصر الدين محمد الحسيني الأدمي أن غالبَ لبسَهم تَتَرِيَّةٌ مُزَرَّكَشَةٌ بالذهبِ ، ومنهم مَنْ يلبسُ مطرَّزَ الكمينِ بِزَرَكِشٍ ، ومنهم من يعملُ الطَّرازَ بين كتفيه مثلَ المُغلِّ ، وأقباعُهم مربعةٌ الأَنبساطِ ، مُرَصَّعةٌ بالجواهرِ ، وغالبُ ترصيعِهم بالياقوتِ والماسِ ، وَيَضْفِرُونَ شعورَهم ذوائبَ ، كما كان يُفَعِّلُ بمصرَ والشامِ في أولِ الدولةِ التركيةِ ، إلا أنهم يجعلون في الذوائبِ شَرَارِيِبَ من حَرِيرٍ ، وَيُسْتَدُونَ في أوساطِهم المَنَاطِقَ من الذهبِ والفضَّةِ ، وَيَلْبَسُونَ الأَخفافَ والمَهَامِيزَ ، ولا يُسْتَدُونَ السُّيُوفَ في أوساطِهم إلا في السَّفَرِ خاصَّةً .

وأما الوُزراءُ والكَتَّابُ ، فزيُّهم مثلُ زيِّ الجُنْدِ ، إلا أنهم لا يُسْتَدُونَ المَنَاطِقَ ، وربما أَرخى بعضهم العَدَبَةَ الصَّغِيرَةَ من قُدَامِهِ كما تفعلُ الصُّوفِيَّةُ .

وأما القُضاةُ والعلماءُ ، فلبسُهم فَرَجِيَّاتٌ شَيِّهَاتٌ بالجنداتِ ودَرَارِيْعُ .

وحكى عن قاضي القضاة سراج الدين الهندى أنه لا يلبسُ عندهم ثيابَ الكَنَّانِ المجلوبةَ من الرُّوسِ والإسكندريةِ إلا مَنْ ألبسه له السلطانُ ، وإنما لبسَهم من القُطنِ الرقيقِ الذى يَفُوقُ البَغْدَادِيَّ حُسْنًا ، وأنه لا يَرَكَّبُ بالسُّروجِ الملبَّسةَ والمُحَلَّاةَ بالذهبِ إلا مَنْ أُنعمَ عليه بها السلطانُ .

الجملة العاشرة

(في أرزاق أهل دولة السلطان بهذه المملكة)

أما الجُندُ ، فتُقل من الشيخ مبارك الأنباتي أنه يكون للخانات والملوك والأمراء والاصفهلارية بلادٌ مقررة عليهم من الديوان إقطاعاً لهم .

وذكر أن إقطاع النائب الكبير المسمى بأمرت يكون إقلياً عظيماً كالعراق . ولكل خان لُكَّان ، كلُّ لك مائة ألف تنكة ، كل تنكة ثمانية دراهم ، ولكل ملك من ستين ألف تنكة إلى خمسين ألف تنكة ، ولكل أمير من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة ، وللصفهلارية من عشرين ألف تنكة إلى ما حولها ، ولكل جُندى من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة ، ولكل مملوك من الممالك السلطانية من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة ، مع الطعام والكسوة وعَلِيق الخيل لجميعهم على السلطان . ولكل عبد من العبيد السلطانية في كل شهر عشر تنكات بيضاء ، ومَنان من الحنطة والأرز ، وفي كل يوم ثلاثة أَسْتار من اللحم ، وفي كل سنة أربع كساوٍ .

وأما أرباب الأقلام ، فإن الوزير يكون له إقليم عظيم نحو العراق إقطاعاً له ، ولكل واحد من كُتَّاب السر الأربعة مدينة من المُدن البَآدِر العظيمة الدَّخْل ، ولأَكْبَرُ كُتَّابِهِم قُرَى وضياع . ومنهم من يكون له خمسون قرية . ولكل من الكُتَّاب الصَّغار عشرة آلاف تنكة . ولقاضي القضاة المعبر عنه بصدرجهان عشر قُرَى ، يكون متحصلاًها نحو ستين ألف تنكة ، ولشيخ الشيوخ مثله ، ولحَسِبَ قرية يكون متحصلاًها نحو ثمانية آلاف تنكة .

وأما غير هؤلاء من سائر أرباب الوظائف ، فذكر أنه يكون لبعض النُدماء قريتان ولبعضهم قرية ، ولكل واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة

إلى عشرين ألف تنكة على مقادير مراتبهم ، مع الكساوى والخالّج والإفئادات ،
وليُقَسَّ على ذلك .

الجملة الحادية عشرة

(فى ترتيب أحوال هذه المملكة)

وتختلِفُ الحال فى ذلك باختلاف أحوال السلطان .

أما الخِدْمَةُ ، فخدمتان : إحداهما الخِدْمَةُ اليَوْمِيَّةُ ، فإنه فى كل يوم يَمِدُّ الخِوَانُ
فى قصر السلطان : ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات ، والملوك ، والأمراء ،
والاصفهلارية ، وأعيان الجُند ، ويمدُّ للسلطان خِوَانٌ خاصٌّ ، ويحضُرُهُ معه
من الفقهاء مائتا فقيه فى الغداء والعشاء لياكلوا معه ويبحثوا بين يديه .

وحكى عن الشيخ أبى بكر بن الخلال : أنه سأل طبّاخ هذا السلطان عن ذبيحته
فى كل يوم - فقال : ألفان وخمسمائة رأس من البتر ، وألفاً رأس من الغنم ، غير
الخيل المسمّنة وأنواع الطير .

والثانية - الجُمُعِيَّةُ ، فحكى عن الشيخ محمد الخجندى : أن لهذا السلطان يوم
الثلاثاء جلوساً عاماً فى ساحة عظيمة متسعة إلى غاية ، يضرب له فيها حيرٌ كبير
سلطانى ، يجلس فى صدره على تحت عالٍ مصقّق بالذهب ، وتقف أرباب الدولة
حوله يميناً وشمالاً ، وخلفه السلاح دارية وأرباب الوظائف قيام بين يديه على
منازلهم ؛ ولا يجلس إلا الخانات وصدرجهان « وهو قاضى القضاة » والديبران
« وهو كاتب السر الذى تكون له التوبة » ويقف الحجاب أمامه ، وينادى مناداة
عامّة : إن من كان له شكوى أو حاجة فليحضُرْ ؛ فيحضُر من له شكوى أو حاجة ،
فيقف بين يديه فلا يمنع حتى ينهى حاله ، ويأمر السلطان فيه أمره .

ومن عادته أن لا يدخل عليه أحدٌ ومعه سلاحُ البتّةِ حتّى ولا سيّكين صغيرةً ، ويكون جلوسه داخلَ سبعة أبواب ، ينزل الداخلون عليه على الباب الأوّل ، وربما أذن بعضهم بالركوب إلى الباب السادس . وعلى الباب الأوّل منها رجل معه بوق ، فإذا جاء أحدٌ من الخانات أو المملوك أو أكابر الأمراء ، نفخ في البوق إعلماً للسلطان أنه قد جاءه رجل كبير : ليكون دائماً على يقظة من أمره . ولا يزال ينفخ في البوق حتّى يقارب الداخل الباب السابع ، فيجلس كلّ من دخل عند ذلك الباب حتّى يجتمع الكل ، فإذا تكاملوا أذن لهم في الدخول ، فإذا دخلوا جلس من له أهليّة الجلوس ووقف الباقيون ، وجلس القضاة والوزير وكاتب السرّ في مكان لا يقع فيه نظر السلطان عليهم ، ومُدّ الخوان . ثمّ يُقدّم الحجاب قصص أرباب المظالم وغيرهم ، ولكل قوم حاجب يأخذ قصصهم ، ثم يرفعون جميع القصص إلى حاجب مُقدّم على الكل ، فيعرضها على السلطان ويسمع ما يأمر فيها . فإذا قام السلطان جلس ذلك الحاجب إلى كاتب السرّ فأدّى إليه الرسائل في ذلك فينفذها . ثم يقوم السلطان من مجلسه ذلك ويدخل إلى مجلس خاصّ ، ويدخل عليه العلماء فيجالسهم ويحدّثهم ويأكل معهم ، ثم ينصرفون ، ويدخل السلطان إلى دُوره .

أما حاله في الركوب ، فإنه كان في قصوره يركب وعلى رأسه اِطّتر والسلاح داريّة وراءه محمولا بأيديهم السلاح . وحوله قريبُ آتني عشر ألف مملوك ، جميعهم ليس فيهم راكبٌ إلا حامل اِطّتر والسلاح داريّة والحمداريّة حملة القماش إن كان في غير قصوره . وعلى رأسه أعلامٌ سودٌ في أوساطها تينّ عظيم من الذهب ، ولا يحل أحدٌ أعلاماً سوداً إلا له خاصّة . وفي ميسرته أعلامٌ حمراء ، فيها تينتان ذهب أيضاً . وطبوله الذي يدق بها في الإقامة والسفر على مثل الإسكندر .

وهو مائتا حمل نقارات ، وأربعون حملا من الكؤسات الجكار ، وعشرون بوقاً ،
وعشرة صنوج .

قال الشيخ مبارك الأنباتي : ويحمل على رأسه الجتر إن كان في غير الحرب ،
فإن كان في الحرب حمل على رأسه سبعة جتورة ، منها آثنان مرصعان لا يقومان
لنفاستهما . قال : ولدسته من الفخامة والعظمة والقوانين الشاهنشاهية ما لا يكون
مثله إلا لاسكندر ذي القرنين أو لملك شاه بن ألب أرسلان .

ثم إن كان في الصيد فإنه يخرج في خف من اللباس في نحو مائة ألف فارس ،
ومائتي فيل ، ويحمل معه أربعة قصور على ثمانية جمال ، كل قصر على مائتي جمال
ملبسة جميعها بستور الحرير المذهبة ، وكل قصر طبقتان غير الحليم والخركاوات .
فإن كان يتنقل من مكان إلى مكان للتنزه وما في معناه ، فيكون معه نحو ثلاثين ألف
فارس ، وألف جنيب مسرجة ملجمة ، مابين ملبس بالذهب ومطوق وفيها المرصع
بالجواهر والياقوت .

وإن كان في الحرب ، فإنه يركب وعلى رأسه سبعة جتورة ، وترتيبه في الحرب
على ما ذكره قاضي القضاة سراج الدين الهندي : أن يقف السلطان في القلب
وحوله الأئمة والعلماء ، والرماة قدامه وخلفه ، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة
بالجناحين ، وأمامه الفيلة الملبسة بالبركصطوانات الحديد وعليها الأبراج المسترة فيها
المقاتلة ، وفي تلك الأبراج منافذ لرمي الشباب وقوارير النفط ، وأمام الفيلة العبيد
المشاة في خف من اللباس بالسُّتور والسلاح ، فيسحبون حبال الفيلة والخيول
في الميمنة والميسرة ، تضم أطراف ... (١) ... من حول الفيلة ومن ورائها حتى
لا يجد هارب له مقراً .

(١) بياض بالأصل ولعله تضم أطراف " الجيش من الخ " .

أما غير السلطان من عساكره ، فقد جرت عادتهم أن الخانات والملوك والأمراء لا يركب أحد منهم في السفر والحضر إلا بالأعلام ، وأكثر ما يحمل الخان معه سبعة أعلام ، وأقل ما يحمل الأمير ثلاثة ، وأكثر ما يحمل الخان في الحضر عشر جنائب ، وأكثر ما يحمل الأمير في الحضر جنبيان ، وفي السفر يتعاطى كل أحد منهم قدر طاقته .

وأما اتصال الأخبار بالسلطان ، فذكر قاضي القضاة سراج الدين الهندي : أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال : فأحوال الرعية له ناس يخاطبون الرعية ، ويطاعون على أخبارهم ، فن أطلع منهم على شيء أنهاه إلى من فوقه ، وينهيه الآخر إلى من فوقه حتى يتصل بالسلطان . وأحوال البلاد النائية لاتصال الأخبار منها من السرعة ما ليس في غيرها من الممالك ، وذلك أن بين أمهات الأقاليم وبين قصر السلطان أماكن متقاربة ، مشبهة بمراكز البريد بمصر والشام إلا أن هذه الأماكن قريبة المدى بعضها من بعض ، بين كل مكانين نحو أربع غلوات سهم أو دونها ، في كل مكان عشرة ساعة من له خفة وقوة ، ويحمل الكتب بينه وبين من يليه ، ويعدو بأشد ما يمكنه إلى أن يوصله إلى الآخر ليعدو به كذلك إلى مقصده ، فيصل الكتاب من المكان البعيد في أقرب وقت . وفي كل مكان من هذه الأمكنة مسجد وسوق وبركة ماء . وبين دلي وقبة الإسلام اللتين هما قاعدتا المملكة طبول مرتبة في أمكنة خاصة ، فحيثما كان في مدينة وفتح باب الأخرى أو أغلق يدق الطبل ، فإذا سمعه ما يحاوره دق ، فيعلم خبر فتح المدينة وفتح باب الأخرى وغلقه .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من المقالة الثانية

(فى الممالك والبُلدان الغريبة عن مملكة الديار المصرية ، وما سامت
ذلك ووالاه من الجهة الشمالية . وفيه أربع ممالك)

المملكة الأولى

(مملكة تُونُس وما أُضيف إليها . وفيه اثنتان وعشرون جملة)

الجملة الأولى

(فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة [وحدودها])

[أما موقعها من الأقاليم السبعة] فإن أكثرها واقع فى الإقليم الثالث ، وبعضها واقع فى أواخر الثانى .

وأما حدودها فعلى ما أشار إليه فى " التعريف " : حدّها من الشرق العقبة الفاصلة بينها وبين الديار المصرية ؛ ومن الشمال البحر الرومى ؛ ومن الغرب جزائر بنى مَرْغَنان الآتى ذكرها ؛ ومن الجنوب آخر بلاد الجريد والأرض السَّوَاخة إلى ما يقال إن فيه المدينة المسماة بمدينة النحاس .

قال فى " مسالك الأنصار " : وحدّها من الجنوب الصحراء الفاصلة بينها وبين بلاد جباوة المسكونة بأئم من السودان . وحدّها من الشرق آخر حدود أطرابلس ، وهى داخلة فى التحديد . وحدّها من الشمال البحر الشامى : وهو الرومى . وحدّها من الغرب آخر حدود بدليس المجاورة لجزائر بنى مَرْغَنان ، آخر عمالة صاحب برّ العدو .

وقد نقل في "تقويم البلدان" في الكلام على بونة عن ابن سعيد أن آخر سلطنة
بجاية من الشرق مدينة بونة الآتي ذكرها، وأنها أول سلطنة أفريقية من الغرب .
قال في "مسالك الأبصار": وطولها خمس وثلاثون يوما، وعرضها عشرون يوما .

الجملة الثانية

(في بيان ما أشتملت عليه هذه المملكة من الأعمال
وما أنطوى عليه كل عمل)

وهذه المملكة تشتمل على عمالين :

(١)
العمل الأول — أفريقية . قال في "تقويم البلدان": بفتح الهمزة وسكون
الفاء وكسر الراء المهملة وسكون الياء المشناة تحت وكسر القاف ومثناة تحت بعدها
هاء في الآخر . وقد اختلف في سبب تسميتها أفريقية . ف قيل إن أفريقس أحد
تباعه اليمن أفتحها وأستولى عليها فسميت بذلك . وقيل إنما سميت بفارق بن
[بيمصر بن حام بن نوح عليه السلام] .^(٣)

وكانت قاعدتها القديمة (سُبيطلة) بضم السين المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون
المثناة من تحتها وفتح الطاء المهملة واللام وفي آخرها هاء . وهي مدينة أزلية في الإقليم
الثالث من الأقاليم السبعة، حيث الطول ثلاثون درجة ، والعرض ثلاثون درجة
وثلاثون دقيقة . وبها آثار عظيمة تدل على عظم أمرها .

-
- (١) ضبطها ياقوت بكسر الهمزة وتبعناه فيما تقدم ويظهر أن فيه لغتين .
(٢) في المعجم والسننك أفريقس بياء بعد القاف وسين مهملة في الآخر . وفي العبر كالأصل إلا أنه
بالمعجمة وقد تقدم بها كثيرا .
(٣) بياض بالأصل والتصحيح عن معجم البلدان لياقوت .
(٤) في معجم ياقوت وطاء مكسورة .

قال الإدريسي^(١) : وكانت قبل الإسلام مدينة أفريسيس ملك الروم الأفارقة ، فتحها المسلمون في صدر الإسلام وقتلوا ملكها المذكور .

ثم صارت قاعدتها في أول الإسلام (القيروان)^(٢) . بفتح القاف وسكون المشنة تحت وفتح الراء المهملة وواو وألف وفي آخرها نون . وهي مدينة في الإقليم الثالث أيضا حيث الطول ثمان وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة ، بنيت في صدر الإسلام بعد فتح أفريقيا في جنوبي جبل شماليا ، وهي في صحراء ، وشرب أهلها من ماء الآبار وقال في "العزيزي" : من ماء المطر ، وليس لها ماء جار ، ولها واد في قبلة المدينة به ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجونه . قال في "العزيزي" : وهي أجل مدن الغرب (يعني في القديم) . وكان عليها سور عظيم هدمه زيادة الله بن الأغلب . قال الإدريسي : وبينها وبين سيطة سبعون ميلا .

ثم صارت قاعدتها بعد ذلك (المهدية) بفتح الميم وسكون الهاء وكسر الدال المهملة نسبة إلى المهدي . وهي مدينة بناها عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين بمصر في سنة ثلاث وثلثمائة ، وموقعها في الإقليم الثالث أيضا من الأقاليم السبعة حيث الطول ثلاثون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة فيما ذكره ابن سعيد . وهي على طرف داخل في البحر كهيئة كف متصل بزند ، والبحر محيط بها غير مدخلها ، وهو مكان ضيق كما في سبتة . ولها سور حصين شاهق في الهواء ، مبنى بالحجر الأبيض بأبراج عظام . وبها القصور الحسنة المطلة على البحر .

(١) في التقويم "جرجيس" وفي المعجم جرجير .

(٢) من هنا الى الكلام على الطبقة الثانية من القياسرة قبل ظهور دين النصرانية مقابل أيضا على قطعة وجدت بدار الكتب الأزهرية .

(٣) لم يذكر العرض ، وذكر في "تقويم البلدان" عن ابن سعيد أنه إحدى وثلاثون درجة .

ثم صارت قاعدتها بعد ذلك (تُونُس) بضم المثناة من فوق وسكون الواو وضم النون وفي آخرها سين مهملة ، وهى قاعدة هذه المملكة الآن ، ومُسْتَقَرَّ سلطانها . وهى مدينة قديمة البناء ، واقعة فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة . وهى على بُحيرة مالحة خارجة من البحر الرُّومى ، طولها عشرة أميال وتُونُس على آخرها .

قال البكرى : ودور هذه البحيرة نحو أربعة وعشرين ميلا . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة ، لها مياهٌ ضعيفةٌ جاريةٌ يُزْرَعُ عليها ، وفيها الخصب وكثرة الغلات . وهى فى وطأةٍ من الأرض فى سفح جبل يُعرف بأَمِّ عَمْرُو ، يَسْتَدِيرُهَا خَنْدَقٌ وَسُورٌ حَصِينٌ ، ولها ثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها ، وأرضها سيخة ، وجميع بنائها بالحجر والأجر ، وأبنيتها مسقفة بالأخشاب ، ودور أكبرها مفروشة بالرخام . وزم فى "الروض المعطار" بيوتها فقال هى كما يقال : ظاهرها رُخَامٌ ، وباطنها سُخَامٌ . وشرب أهلها من الآبار ، وبيوتها صهاريجٌ يُجْمَعُ فيها ماء المطر لغسل القماش ونحوه ، وبها الحمامات والأسواق الجليلة ، وبها ثلاث مدارس : وهى الشامية والفرضية ، ومدرسة الهواء ، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها ، والبساتين محيطة ببحيرتها المقدم ذكرها من جنوبيها .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومنذ خلا الأندلس من أهله ، وأووا إلى جناح ملوكها ، مَصْرُوا إقليمها ، ونوعوا بها الغراس ، فكثرَت مستنزهاتها ، وأمتد بسِيط بساتينها . قال : وبها يُعْمَلُ القُمَاشُ الأَفْرِيقُ : وهو ثياب رفّاع من القطن والكَنّان معا ومن الكَنّان وحده ، وهو أمتع من النّصافى البغدادى وأحسن ، ومنه جُلُّ كساوى أهل المغرب . وللسلاطان بها قلعةٌ جليلة يسكنها ، يعبرون عنها بالقصبة كما هو

مصطلح المغاربة في تسمية القلعة بالقصبة ، وللساطن بها بستانان : أحدهما ملاصق
أرباض البلد يسمى برأس الطابية ، والثاني بعيد من البساتين يسمى بأبي فهور ،
بينه وبين البلد نحو ثلاثة أميال ، والماء مُنْسَق إليهما من ساقية بجبل يعرف
بجبل زَغْوَان بفتح الزاى وسكون الغين المعجمتين ونون في الآخر ، على مسيرة يومين
من تُونُس .

وأما ما أَشْمَلْتُ عليه من المُدُن سوى القواعد المتقدمة الذكر .

فمن مشارق تُونُس (سُوْسَة) بضم السين المهملة وسكون الواو وفتح السين
الثانية ثم هاء . وهى مدينة على ساحل البحر ، واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم
السبعة ، حيث الطول أربع وثلاثون درجة وعشر دقائق ، والعرض اثنتان وثلاثون
درجة وأربعون دقيقة . وهى في جنوبى تُونُس وشرقيها في طرف داخل في البحر .
قال في "العزى" : وهى مدينة أزلية بها سوق وفنادق وحمامات . قال الإدريسي :
وهى عامرة بالناس ، كثيرة المتاجر ، والمسافرون إليها قاصدون وعنها صادرون ،
وعليها سور من حجر حصين .

وذكر في "مسالك الأبصار" : أن عليها سورا من لبن ، وأنها قليلة العارة
لأستلاء العرب عليها .

ومنها (صَفَاقُس) بفتح الصاد المهملة ثم فاء وألف وقاف مضمومة وفي آخرها
سين مهملة . وهى مدينة على ساحل البحر شرقى المهدية ، واقعة في الإقليم الثالث
قال ابن سعيد حيث الطول خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض
إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهى مدينة
صغيرة في مستوي من الأرض ، وجنوبيها جبل يسمى جبل السبع بفتح السين المهملة

والباء الموحدة وعين مهملة في الآخر . يستدير عليها سُورٌ ، وشُرْبٌ أهلها من الآبار ؛ ولها بسايتُن قليلة ؛ ومن بحرها يُستَخْرَجُ الصُّوفُ المعروفُ عند العامة بصُوفِ السَّمَكِ المتَّخِذُ منه الثيابُ النَّفِيسَةُ . قال ابن سعيد : أنا رأيته كيف يُخْرَجُ ، يفوص الغَوَاصون في البحر فيُخْرِجونَ كجائِمٍ شبيهةً بالبصل بأعناق ، في أعلاها زُويرةٌ ، فتُشْرِفُ الشمسُ فتَنْفُخُ تلكَ الكجائِمُ عن وِبرَةٍ فيَمْشِطُ ويؤْخَذُ صوفُه فيُغْزَلُ ، ويعملُ منه طعمة لقيام من الحرير ، وتُتَسَّجُ منه الثيابُ .

ومنها (قَابِسُ) بفتح القاف وألف ثم باء موحدة وفي آخرها سينٌ مهملة . وهي مدينة في الإقليم الثالث ، حيثُ الطولُ اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ، والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة ، على ثلاثة أميال من البحر . قال في " العزيرى " : وعليها سُورٌ وخَنْدُقٌ . قال في " تقويم البلدان " : وهي في أفريقية كدِمْشَقٍ في الشام ، يُتْرَلُ إليها نهران من الجبل في جنوبيها ، يَخْتَرِقَانِ في غُوطِهَا . قال : وقد خُصَّتْ من بلاد أفريقية بالمُوزِ وَحَبِّ العزيرى والخيار .

ومنها (أَطْرَابُلسُ) بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين وألف وباء موحدة بعدها لام مضمومتان وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة شرقي تَوْسٍ على البحر ، واقعةٌ في الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيثُ الطولُ ثمان وثلاثون درجة ، والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في " تقويم البلدان " : وهي آخرُ المُدُن التي شرقي القَيْرَوَانِ ، وإذا فارقها المسافر مشرقاً لا يجد مدينةً فيها حَمَامٌ حتى يصل الإسكندرية . وبنائها بالصَّخَرِ ، وهي واسعة الكورة ، وبها الخِصْبُ الكثير ، وليس بها ماءٌ جارٍ ، بل بها جَبَابٌ عليها سواق . قال في " العزيرى " : وبها مَرْتَبَتَانِ للراكب .

ومنها (قَصْرُ أَحْمَدَ) وضبطه معروف ، وموقعه في أوّل الإقليم الرابع ، حيث الطول إحدى وأربعون درجة وأثنان وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وسبع وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهو حدّ أفريقيا من الشرق وحدّ برقة من الغرب . وهو قرية صغيرة ، وحولَه قصور نحو اثني عشر ميلا ، وهي بلاد زيتون ونخيل ، وأهلها يجلبون الخيل للإسكندرية ، ومنها يركب المسافر البرية إلى الشرق .

ومن مغارب تونس على مسيرة يومين (باجة) قال في "المشترك" بفتح الباء الموحدة وألف وتخفيف الجيم ثم هاء . وهي مدينة بالإقليم الثالث قال في "الأطوال" حيث الطول تسع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة . وهي مدينة كبيرة ، ولها بساتين قليلة وعيون ماء ، وعليها سور حصين ، مبنية في مستوى من الأرض ، على نحو يوم من البحر ، ويقابلها على البحر مرسى الحرز .

ومنها (نَبْرَت) بفتح النون وسكون الباء الموحدة وفتح الزاي المعجمة والراء المهملة وفي آخرها تاء مثناة من فوق ، وقيل هي بتقديم الموحدة على النون . وهي مرسى تونس ، وموقعها في الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي مدينة على نهر يجري في شرقيها وعليه مستترهاة . قال في "تقويم البلدان" : ولها بحيرة حلوة في جنوبيها ، وبحيرة مالحة في شرقيها ، تصب كل واحدة منهما في الأخرى ستة أشهر ، فلا الحلوة تفسد بالمالحة ولا المالحة تعذب بالحلوة . قال الشيخ عبد الواحد : أما زيادة الحلوة فبكثره السيول أيام الشتاء ، وتقل عنها السيول في أيام الصيف فتعلو عليها المالحة .

ومنها (بُونة) قال في "اللباب" بضم الباء الموحدة وسكون الواو ثم نون وهاء .
 قال في "مسالك الأبصار" : وهي المسماة الآن بَلَدُ الْعُنَاب ؛ وهي مدينة على ساحل
 البحر في أول الإقليم الرابع قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وعشرون درجة ،
 والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "العزيزى" : وهي مدينة
 جليسة عامرة خصبه الزرع ، كثيرة الفواكه ، رحية ، بظاها معادن الحديد ،
 ويزرع بها الكتان الكثير . قال : وحديث بها عن قريب مغاص مرجان ، ولكن
 ليس كمرجان مرسي الحرز .

ومن قبلى تونس للجنوب (بلاد الحريد) .

ومنها (توزر) . قال في "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بضم المثناة
 من فوق وسكون الراو وفتح الزاى المعجمة وراء مهملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم
 الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ست وثلاثون درجة وسبع دقائق ، والعرض
 تسع وعشرون درجة وثمان دقائق . وهى قاعدة بلاد الحريد ، وبها بساتين
 ومحمضات ونخيل وزيتون ، ولها نهر يسمى بساتينها ، والمطر بها قليل ، ويزرع
 بها الكتان والحناء . قال فى "تقويم البلدان" : وبذلك وقيلة المطر تشبه مصر .
 وقد عابها فى "الروض المعمار" بأن أهلها يبيعون ما يتحصل فى مراحيضهم من رجميع
 الناس ، فيحلون به بقولهم وبساتينهم ؛ ولكنهم لا يرغبون فيه إلا إذا كان جافاً ،
 فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء فى مراحيضهم ، ويخرج أحدهم من بيته حتى
 يأتى القناة فيستنجى من ماءها ، وربما أخذ أحدهم المراحيض على قارة الطريق
 للواردين عليها ليأخذ ما يتحصل من ذلك فيبيعه .

ومنها (قَفْصَة) بفتح القاف وسكون الفاء ثم صاد مهملة وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم الثالث قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وثلاثون درجة ، والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي قاعدة مشهورة من بلاد الجريد بها النخيل والفستق . قال : ولا يكون الفستق ببلاد المغرب إلا في قَفْصَة . وبها من الفواكه والمشومات أنواع كثيرة ؛ ومنها يُحَلَب دهن البنفسج وخل العنصل ؛ وإليها ينسب جلد الأروى المتخذ منه النعال الشديدة اللبونة .

ومنها (المَسِيلَة) قال في "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بكسر الميم والسين المهملة وسكون المثناة من تحت وفي آخرها لام ألف ، والجاري على الألسنة فتح الميم وهاء في الآخر . وهي مدينة من بلاد الجريد ، موقعها في الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ثلاث وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "العزيزي" : وهي مدينة مُحَدَّثة ، بناها القائم الفاطمي سنة خمس عشرة وثلثمائة . قال ابن سعيد : ولها نهر يمر بغربها ويغوص في رمال الصحارى .

ومنها (بَسْكِرَة) قال في "اللباب" بكسر الباء الموحدة وقيل بفتحها وسكون السين المهملة وكاف وراء مهملة بعدها هاء . وهي مدينة من بلاد الجريد ، في أواخر الإقليم الثاني قال ابن سعيد حيث الطول أربع وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي قاعدة بلاد الزاب ، ولها بلاد ذات نخيل وفواكه وزروع كثيرة ؛ ومنها يُحَلَب الثمر الطيب إلى تونس وبجاية .

ومنها (طُرَا) قال في "تقويم البلدان" عن عبد الواحد : بضم الطاء وتشديد
الراء المهملتين وفي آخرها ألف ، ونُقِلَ عن بعضهم إبدال الألف هاءً . وهي مدينة
من بلاد الجَرِيد في الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطول سبع وثلاثون درجة
وعشرون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . قال في "تقويم البلدان" :
وبها يُعْمَل الزُّجَاج الصَّافِي وتفاصيل الصوف ، ومنها يُحَلَب إلى الإسكندرية .

(١)
ومنها (غَدَامُسُ) بفتح الغين والذال المعجمتين وألف وميم مكسورة وسين
مهملة . وهي مدينة في الصحراء جنوبي بلاد الجَرِيد ، على طريق السودان المعروفين
بِالْكَاثِم . قال : في "العزيزي" : وهي مدينة جليلة عامرة ، في وسطها عينٌ أَزَلِيَّةٌ
عليها أثرُ بَنِيانٍ رُومِيٍّ عجيب ، يَفِيضُ الماءُ منها ويَقْتَسِمُهُ أَهْلُ المدينة بأقسام
معلومة وعليه يَزْرَعُونَ . وأهلها قوم من البربر مسلمون . قال في "تقويم البلدان" :
وبها الجلود المفضلة ، وليس لهم رئيس سوى مشايخهم .

ومنها (قلعة سِنَان) . قال في "مسالك الأبصار" : وهو قصر لا يُعْرَف على وجه
الأرض أَحْصَنُ منه ، على رأس جبل منقطع عن سائر الجبال في غاية العُلُوِّ ، بحيث
يَقْصُرُ سَهْمُ الْعَقَّارِ عن الوصول إليه ، يرتقى إليه من سَلَمٍ نُقِرَ في الحجر طوله مائة
وتسعون درجة ، وبه مَصَانِعُ يَجْتَمِعُ فيها ماء المطر ، وبأسفله عينُ ماء عليها أشجار
كثيرةُ الفواكه .

(١) أوردتها ياقوت باهمال دالها ونص على فتح الغين وضمها ونحوه في القاموس .

العمل الثاني

(بلاد بجاية)

وبجاية بكسر الباء الموحدة وفتح الجيم وألف ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر مدينة من مدن الغرب الأوسط ، واقعة في أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : هي قاعدة الغرب الأوسط ، وهي مقابل طرطوشة من الأندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة قديمة مسورة ، أضيف إلى جانبها ربض أدير عليه سور ضام لِنطاق المدينة فصارا كالشيء الواحد . قال : والربض في وطاة ، والمدينة القديمة في سفح جبل ، يدخل إليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب إليها . قال في "تقويم البلدان" : ولها نهر في شرقها ، على شاطئه البساتين والمتار . قال في "مسالك الأبصار" : وبها عينان من الماء : إحداها كبيرة ومنها تُشرب أهلها ، ولها نهر جار على نحو ميلين منها ، تحف به البساتين والمناظر على ضفتيه ممتدة نحو آثي عشر ميلا ، متصلا بعضها ببعض لا انفصال بينها إلا ما يسلك عليه إلى البساتين ، إلى أن يصب في بحر الروم . وبضفتيه للسلطان بستانان متقابلان شرقا وغربا الشرق منهما يسمى الربيع .

وغربي بجاية (جزار بنى مرغان) بفتح الميم وسكون الزاي وكسر الغين المعجمتين ثم نون بينهما ألف الأولى منهما مشددة ، كما في "تقويم البلدان" عن الشيخ شعيب ، وبعضهم يسقط النون الأخيرة . وفي "مسالك الأبصار" : مرغانة بزيادة هاء في الآخر . وهي فُرْضة مشهورة هناك . قال في "مسالك الأبصار" :

وهي بلدة حسنة على ساحل البحر، تقابل (ميورقة) من بلاد الأندلس، بانحراف يسير، وبعدها عن بجاية ستة أيام.

ومن المُنْدَن التي بأعمال البجاية (قُسْطِينَةُ) قال في "تقويم البلدان": بضم القاف وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون المثناة من تحت ثم نون وهاء. قال: وعن بعض المتأخرين أن بعد السين وقبل الطاء نونا، وحينئذ فتكون بضم السين وسكون النون. وهي مدينة من الغرب الأوسط في أواخر الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وأثنتان وعشرون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي على آخر مملكة بجاية وأول مملكة أفريقية. قال الإدريسي: وهي على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض استدارة، لا يتوصل إليه إلا من جهة باب في غربها ليس بكثير السعة، ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها. قال في "تقويم البلدان": ولها نهر يصب في خندقها يُسمَع له دوى هائل، ويرى النهر في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لشدة ارتفاع البلد عن الخندق. قال الإدريسي: وهي مدينة عامرة، وبها أسواق وتجارات. قال: وتقيم الخنطة في مطايرها مائة سنة لا تفسد.

وشرق قُسْطِينَةُ في آخر مملكة بجاية (مرسى الحرز) بفتح الحاء المعجمة والراء المهملة وزاي معجمة في الآخر. ومنه يستخرج المرجان من قعر البحر على ما تقدم في الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى وصفه من المقالة الأولى.

ومنها (سَطِيف) بفتح السين وكسر الطاء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة بعدها فاء. وهي مدينة من الغرب الأوسط في الإقليم الثالث قال في "الأطوال" حيث الطول سبع وعشرون درجة، والعرض إحدى وثلاثون درجة. وهي مدينة

حصينة ، بينها وبين قُسْطَيْنَةَ أربع مراحل ، ولها حصن في جهة الجنوب ، عن بحاية على مرحلتين منها ؛ ولها كُورَةٌ تشتمل على قُرَى كثيرة غزيرة المياه كثيرة الشجر المثمر بضروب من الفواكه ؛ وبها الجُوز الكثير ، ومنها يُجَل إلى سائر البلاد .

ومنها (تَاهَرْتُ) - قال في "الباب" : بفتح التاء المشناة فوق وألف وهاء وسكون الراء المهملة وفي آخرها تاء ثانية . قال في "تقويم البلدان" : وقلْتُ من خط ابن سعيد عوض الألف ياء مشناة تحت قال وهو الأصح لأن ابن سعيد مغربي فاضل . وهي مدينة من الغرب الأوسط ، وقيل من أفريقية في الإقليم الثالث قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة خصبة ، كثيرة الزرع ، كانت قاعدة الغرب الأوسط وبها كان مقام ملوك "بنى رستم" حتى انقرضت دولتهم بدولة الفاطميين خلفاء مصر . وذكر الإدريسي أنها كانت في القديم مدينتين : القديمة منهما على رأس جبل ليس بالعالى . قال في "العزيزي" : وتاهرت القديمة تسمى "تاهرت عبد الخالق" وهي مدينة جليلة كانت قديماً تسمى "بغداد المغرب" وتاهرت الجديدة على مرحلة منها ، وهي أعظم من تاهرت القديمة ، والمياه تحترق دور أهلها . وهي ذات أسواق عامرة ، وبأرضها مزارع وضياع جمّة ، ويمر بها نهر يأتيها من جهة المغرب ، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع فيه ، منه شرب أهلها ، وبها البساتين الكثيرة الموثقة ، والفواكه الحسنة ، والسفرجل الذي ليس له نظير : طعماً وشماً ؛ ولها قلعة عظيمة مشرفة على سوقها . وتاهرت كثيرة البرد ، كثيرة الغيوم والتّج ، وسورها من الحجر ، ولها ثلاثة أبواب : باب الصفا ، وهو باب الأندلس ؛ وباب النازل ؛ وباب المطاحن .

(١) في "المعجم" أربعة أبواب باب الصفا وباب الأندلس الخ .

وأما الطريق الموصل إليها ، فقد ذكر صاحب "الذيل" على كامل ابن الأثير في التاريخ عن ايدغدى التليلى وايدغدى الخوارزمى ، حين توجهها رسولين إلى الغرب في سنة ست وسبعائة : أن من إسكندرية إلى طلمينا ، ومنها إلى سرت ، ومنها إلى سراتة ، ومنها إلى طهيجورة ، ومنها إلى طرابلس ، ومنها إلى قابس ، ومنها إلى صفاقس ، ومنها إلى المهدية ، ومنها إلى سوسة ، ومنها إلى تونس .

وأما طريقها في البحر ، فمن إسكندرية إلى تونس .

الجملة الرابعة

(في ذكر زروعها ، وحبوبها ، وفواكهها ، وبقوطا ، ورياحينها)

أما زروعها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنها تُزرع على الأمطار ، وأن بها من الحبوب القمح ، والشعير ، والحص ، والفول ، والمدس ، والذرة ، والدخن ، والجلبان ، واليسلا ، وأسمها عندهم البسين . أما الأرض فمحبوب إليها .

وأما فواكهها ، فيها من الفواكه العنب والتين ، كل منهما على أنواع مختلفة والرمان : الحلو والمز والحامض ، والسفرجل ، والتفاح ، والكمثرى ، والخاب ، والزعرور ، والحوخ ، والمشمش على أنواع ، والتوت الأبيض ، والفِرصاد ، وهو التوت الأسود ، والقراصيا ، والزيتون ، والأترج ، واللّيمون ، والليم ، والنارج . أما الحوز بها فقليل ، وكذلك النخيل ، والفستق ، والبندق مفقود بها وكذلك الموز . قال في "مسالك الأبصار" : وبها فاكهة تسمى مصغ فوق قدر البندقة ، لونها بين الحمرة والصفرة ، وطعمها بين الحموضة والقبض شبيه بطعم السفرجل ، يوجد في الشتاء ، يقطع من شجرة غصا فيدنى ، ويثقل كما يفعل بالموز فينضج ويؤكل

حينئذ . ويوجد بها قصب السكر على قلة ولا يعتصر بها . وبها البطيخ الأصفر على أنواع ، والبطيخ الأخضر مع قلة ، وأسمه عندهم الدلاع ، وكذلك الحيار والقنأ . وبها اللوبيا ، والألف ، والباذنجان ، والقنيط ، والكرنب ، والرجلة ، والبقلة اليمانية ، وأسمها عندهم بلندس ، والحس ، والهندباء على أنواع ، وسائر البقول والملوخيا على قلة ، والحليون ، والصعتر .

وبها من الرياحين الآس ، والورد ومعظمه أبيض ، والياسمين ، والنرجس ، والليثوفر الأصفر والترنجاني ، والمنثور ، والمرزنجوش ، والبنفسج ، والسوسن ، والزعفران ، والحبق ، والنمام .

الجملة الخامسة

(في مواشها ، ووحوشها ، وطورها)

أما مواشها ، ففيها الخيل العراب المشابهة لخيول برقة ، والبغال ، والحمير ، والإبل ، والبقرة ، وغنم الضأن والمعز .

وأما وحوشها ، ففيها الغزلان ، وبقرة الوحش وحمرة ، والنعام ، وغير ذلك .

وأما طورها ، ففيها الدجاج ، والحمم كثيرا ، والإوز بقلة ، وبها الكراكي ، وهي صيد الملوك كما بمصر ، وكذلك غيرها من طيور الصيد .

الجملة السادسة

(فيما يتعلق بمعاملاتها : من الدنانير ، والدراهم ،

والأرطال ، والمكايل ، والأسعار)

(١)

أما الدنانير ، فإنها تُضْرَبُ باسمِ مَلِكِهِمْ ، وَزِنُهُ كُلُّ دِينَارٍ مِنْ دَنَانِيرِهِمْ
ويعبرون عنه بالدينار الكبير ، وذهبهم دُونُ الذهبِ المصريِّ في الجَوْدَةِ ، فهو ينقُصُ
عنه في السَّعْرِ .

وأما الدراهم ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن أبي عبد الله بن القُويَّعِ :
أن دراهمهم على نوعين : أحدهما يُعرَفُ بالقديم ، والآخر بالجديد ، ووزنهما واحد
إلا أن الجديد منهما خالِصُ الفِضَّةِ والقديم مغشوشٌ بالنحاسِ للعاملة ، وتفاوتُ
ما بينهما أن كل عشرة دراهم عتيقة بثمانية دراهم جديدة ؛ وإذا أُطْلِقَ الدرهمُ عندهم
فالمراد به القديمُ دُونَ الجديد ؛ ثم مُصْطَلَحُهُمْ أن كل عشرة دراهم عتيقة بدينار ،
وهذا الدينار عندهم مسمًى لا حقيقة له ، كالدينار الجَيْشِيِّ بمصر ، والرائج بآيزان .
وأما أرطالها ، فزنة كُلِّ رِطْلٍ سِتُّ عَشْرَةَ أَوْقِيَّةً ، كل أَوْقِيَّةٍ أحد وعشرون درهما
من دراهمها .

وأما كيلها ، فلهم كيلان : أحدهما يسمى القفيز ، وهو سِتُّ عَشْرَةَ وَبَيَّةً ، كل
وَبَيَّةٍ اثْنَا عَشْرَ مِئَةً قَرَوِيًّا ، وهو يقارب المِئَةَ النبويَّةَ ، على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام والتحية والإكرام . وهو أيضا ثمانية أمدادٍ بالكيل الحَفِصِيِّ : وهو كيل
قدّره ملوكها الحَفِصِيُّونَ : آباء ملوكها القائمين بها الآن ، بقدر مِئَةٍ ونصف من المِئَةِ
المقدّم ذكره . والثاني يسمى الصَّحْفَةُ ، وكل صَحْفَةٍ اثْنَا عَشْرَ مِئَةً بالحَفِصِيِّ .

(١) بياض بأصل المكتبة الخديوية والمكتبة الأزهرية .

الجملة السابعة

(في ذكر أسعارها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن أوسط الأسعار بها في غالب الأوقات أن يكون كل قفيز من القمح بخمسين درهما ، والشعير دون ذلك . قال : وغالب سعر اللحم الضأن عندهم كل رطل أفريق بدرهم قديم ، وبقية اللحوم دونه في القيمة ، وفي الربيع ينحط السعر عن هذا القدر . وذكر أن الدجاجة الجيدة عندهم بدرهمين جديدين . ثم قال : وأحوالها مقارنة في ذلك للديار المصرية لقرب المجاورة . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن تونس وبجاية في المعاملة والسعر متقاربتان .

الجملة الثامنة

(في صفات أهل هذه المملكة في الجملة)

قال في "مسالك الأبصار" : ولأهل أفريقية لطف أخلاق وشمالك بالنسبة إلى أهل بلاد المغرب : يجاورتهم مصر وقربهم من أهلها ، ومخالطتهم إياهم ، ومخالطة من سكن عندهم من أهل إسبيلية من الأندلس . وهم من هم ! خفة روح ، وحلاوة بادرة . قال : وهم على كل حال أهل انطباع ، وكرم طباع ، وناهيك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبي العباس قوله :

مَوَاطِنًا فِي دَهْرِهِنَّ عَجَائِبُ * وَأَزْمَانُنَا لَمْ تَعْدُنَّ الْغَرَائِبُ
مَوَاطِنُ لَمْ تَحْكِ التَّوَارِيخُ مِثْلَهَا * وَلَا حَدَّثَتْ عَنْهَا اللَّيَالِي الذَّوَاهِبُ

وقوله :

أَنْظُرْ إِلَيْنَا [تَجِدُنَا] مَا بِنَا دَهْشُ ، * وَكَيْفَ يَطْرُقُ أَسَدُ الْغَابَةِ الدَّهْشُ ؟
لَا تَعْرِفُ الْحَادِثَ الْمَرْهُوبَ أَنْفُسَنَا ! * فَاثْنَا بَارْتِكَابِ الْمَوْتِ نَنْتَعِشُ !

وقوله :

عَسَى اللَّهُ يَدُنِي لِلْمُحِبِّينَ أَوْبَةً * فَتُشْفَى قُلُوبُ مِنْهُمْ وَصُورُ
وَكَمْ مِنْ قِصَى الدَّارِ أَمْسَى بِحُزْنِهِ ، * فَأَعَقَبَهُ عِنْدَ الصَّبَاحِ سُورُ
وَإِذَا كَانَ هَذَا رِقَّةَ طَبَعِ السُّلْطَانِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ ؟ .

الجملة التاسعة

(في ذكر مَنْ مَلَكَهَا جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا)

أما مُلُوكُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّ بِلَادَ الْمَغْرِبِ كُلَّهَا كَانَتْ مَعَ الْبَرْبَرِ ، ثُمَّ
غَلِبَهُمُ الرُّومُ الْكَيْتَمُ عَلَيْهَا ، وَافْتَتَحُوا قَاعِدَتَهَا (قَرْطَاجَنَةَ) وَمَلَكَوْهَا ، ثُمَّ جَرَى بَيْنَ الرُّومِ
وَالْبَرْبَرِ قِتْنٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ آخِرُهَا أَنْ وَقَعَ الصُّلْحُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ تَكُونَ الْمُدُنُ وَالْبِلَادُ
السَّاحِلِيَّةُ لِلرُّومِ ، وَالْجِبَالُ وَالصَّحَارَى لِلْبَرْبَرِ ، ثُمَّ زَاخَمَ الْفَرَنْجُ الرُّومَ فِي الْبِلَادِ ، وَجَاءَ
الْإِسْلَامُ وَالْمُسْتَوَلِيُّ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجَةِ "حَرْجِيس" مَلَكَهُمْ ، وَكَانَ
مُلْكُهُ مُتَّصِلًا مِنْ طَرَابُلُسَ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ ،
وَكُرْسَى مُلْكِهِ بِمَدِينَةِ (سَبِطَلَةَ) ، وَبَقِيَتْ فِي يَدِهِ حَتَّى أَتَتْهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ فِي سَرِيَّةِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ ، فِي خِلَافَةِ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ .

وَأَمَّا مُلُوكُهَا فِي الْإِسْلَامِ ، فَعَلَى أَرْبَعِ طَبَقَاتٍ :

الطبقة الأولى

(الخلفاء)

قد تقدم أن أول من أفتتحها (عبد الله بن أبي سرح) في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة و بكار العرب ، ففرق جموع النصرانية الذين كانوا بها : من الفرنجة ، والروم ، والبربر ، وهدم سبيلها : قاعدتها وخزنها ، وعاشت خيول العرب في ديارهم إلى أن صالحوا عبد الله بن أبي سرح بثلاثة قطار من الذهب ، وقفل عنهم سنة سبع وعشرين من الهجرة ، بعد فتح مصر بسبع سنين أو ثمان .

ثم أغزاه معاوية بن أبي سفيان (معاوية بن حديج السكوني) سنة أربع وثلاثين . ثم ولي معاوية (عقبة بن نافع) بن عبد قيس النهري سنة خمس وأربعين ، فبنى عقبة القيروان .

ثم استعمل معاوية على مصر وأفريقية (مسلمة بن مخلد) فعزل عقبة عن أفريقية ، وولى عليها (مولاة أبا المهاجرين) سنة خمس وخمسين . ولما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة ، رجع عقبة بن نافع إلى أفريقية سنة ثنتين وستين .

[ثم ولي عبد الملك بن مروان عليها زهير بن قيس البلوي في سنة سبع وستين إلى أن قتل في سنة تسع وستين فولى عليها ^(١) (حسان بن النعمان) الغساني ، فسار ودخل القيروان ، وأفتتح قرطاجنة عنوة وحرباً ، فخرجت عليه الكاهنة ملكة

(١) الزيادة عن ابن الأثير في مواضع منه ليستقيم الكلام .

الغرب فهزمته ، ثم عاد إليها وقتلها ، وأستولى على بلادها [ثم رجع إلى عبد الملك وأستخلف على أفريقية رجلا اسمه صالح .

ثم وثى الوليد بن عبد الملك ^(١) [موسى بن نصير) بضم النون ، فقدم القيروان وبها صالح . ثم قفل موسى إلى المشرق وأستخلف على أفريقية أبنه عبد الله .

ثم عزله سليمان بن عبد الملك في خلافته ، ووثى مكانه (محمد بن يزيد) .

ثم وثى عمر بن عبد العزيز في خلافته (إسماعيل) بن عبيد الله بن أبي المهاجر .

ثم وثى يزيد بن عبد الملك (يزيد بن أبي مسلم) مولى الحجاج وكتبه ، فقدمها سنة إحدى ومائة فقتله البربر ، وردوا محمد بن يزيد الذي كان عليهم قبله إلى ولايته ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك بذلك فأقره عليهم .

ثم وثى يزيد بن عبد الملك (بشر بن صفوان الكلبي) فقدمها سنة ثلاث ومائة ، ومات سنة تسع ومائة .

ثم عزله هشام بن عبد الملك ^(٢) ، ووثى مكانه (عبيدة بن عبد الرحمن السلمي) فقدمها سنة عشر ومائة ، ثم عزل هشام عبيدة ، ووثى مكانه (عبد الله بن الحبحاب) مولى بني سلول ، فقدمها سنة أربع عشرة ومائة ، وبني جامع تونس ، وأتخذ بها دار الصناعة للراكب البحرية .

ثم عزله هشام بن عبد الملك ووثى مكانه (كلثوم بن عياض) ثم قتل فبعث هشام ابن عبد الملك على أفريقية (حنظلة بن صفوان الكلبي) فقدمها سنة أربع وعشرين

(١) الزيادة عن ابن الاثير .

(٢) كذا في " العبر " أيضا وعبارة " الكامل " فاستعمل هشام بعده عبيدة الخ وهو المناسب .

ومائة، ونُحِرَ عليه (عبد الرحمن بن حبيب) سنة ست وعشرين ومائة، فقفِلَ حنظلُهُ إلى المشرق سنة سبع وعشرين، وأستقل عبد الرحمن بملك أفريقية .

وولي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فكتب له بولايتهما .

ثم كانت دولة بني العباس فأقزَه عليها السَّفَّاح، ثم المنصور، ثم قُتِلَ سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته وأشترك في إمارتها (حبيب بن عبد الرحمن، وعمه عمران بن حبيب، وأخوه إلياس بن عبد الرحمن) ثم قتله عبد الملك بن أبي الجعد ثم غلب عليها (عبد الأعلى بن السَّمَحِ المعافري) .

ثم ولي أبو جعفر المنصور (محمد بن الأشعث) الحِزَاعِي، فقدم القيروان سنة خمس وأربعين ومائة، وبني سُورها .

ثم ثارت عليه المضَرِّيَّة وأخرجوه منها سنة ثمان وأربعين، وولوا عليهم (عيسى بن موسى) الحِزَاسَانِي .

ثم ولي أبو جعفر المنصور عليها (الأغلب بن سالم) بن عقال بن خفاجة بن سَوَادَةَ التِّيمِي بعده، فقدم القيروان وسَكَنَ الناس، ثم قُتِلَ سنة خمسٍ ومائة، وقام بأمر أفريقية المخارق بن غفار .

ولما بلغ المنصور قتل الأغلب، بعث مكانه عمر بن حفص بن قبيصة، ابن أبي صُفْرَةَ التِّيمِي أخى المهلب، فقدمها سنة إحدى وخمسين . ثم آتَتْ قُتِلَ عليه البربر فضَعَفَ أمره، فولَّى (يزيد بن حاتم) بن قبيصة بن المهلب، ابن أبي صفرة التِّيمِي، ودخل القيروان متصِفَ سنة خمس وخمسين، وهلك سنة سبعين ومائة في خلافة هرون الرشيد، وقام بأمره بعده أبْنُهُ (داود) .

ثم ولى الرشيد أخاه (رَوْحَ بن حاتم) فقدمها منتصف سنة إحدى وسبعين ومائة، ومات في رمضان سنة أربع وسبعين، فقام حبيب بن نصر مكانه، وسار ابنه (الفضل) إلى الرشيد فولّاه مكان أبيه، فعاد إلى القيروان في المحرم سنة سبع وسبعين ومائة، ثم قتله ابن الجارود في منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة فولّى الرشيد مكانه (هرّمة بن أعين) فسار إلى القيروان، وقدمها سنة تسع وسبعين ومائة، ثم استعفى فأعفاه الرشيد لسنتين ونصف من ولايته.

وولى مكانه (محمد بن مقاتل الكعبي) فقدم القيروان في رمضان سنة إحدى وثمانين، وكان سيئ السيرة.

ثم ولى الرشيد (إبراهيم بن الأغلب) فقدم أفريقية منتصف سنة أربع وثمانين ومائة، وأبنتى مدينة العباسية بالقرب من القيروان وانتقل إليها. وفي ولايته ظهرت دعوة الأدارسة من العلوية بالمغرب الأقصى. ثم مات إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين ومائة بعد أن عهد لابنه أبي العباس (عبد الله بن إبراهيم) بن الأغلب بالولاية، فقدم القيروان في صفر سنة سبع وتسعين ومائة. ثم مات في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين.

وولى مكانه أخوه (زيادة الله بن إبراهيم) وجاءه التقليد من قبل "المأمون"، وفي ولايته كان ابتداء فتح صقلية على يد أسد بن الفرات، وتوفي في رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته.

وولى مكانه أخوه (أبو عقال الأغلب) بن إبراهيم بن الأغلب، وتوفي في ربيع سنة ست وعشرين ومائتين.

وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَغْلَبِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ) فَدَانَتْ لَهُ أَفْرِيقِيَّةٌ ، وَبَنَى مَدِينَةً بِقُرْبِ تَاهَرْتَ وَسَمَّاها الْعَبَّاسِيَّةَ ، سَنَةَ سَبْعِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ ، وَبَنَى قَصْرَ سُوسَةَ وَجَامِعَهَا سَنَةَ سِتِّ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ .

وَوَلِيَ مَكَانَهُ ابْنُهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ (أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَغْلَبِ) فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَكَانَ مُوَلَّعًا بِالْعِمَارَةِ ، فَبَنَى بِأَفْرِيقِيَّةٍ نَحْوًا مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ حِصْنَ ، وَتَوَفَّى آخِرَ سَنَةِ تِسْعِ وَأَرْبَعِينَ لَثَمَانَ سِنِينَ مِنْ وِلَايَتِهِ .

وَوَلِيَ مَكَانَهُ ابْنُهُ (زِيَادَةُ اللَّهِ الْأَصْغَرُ) بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ أَحْمَدَ ، وَتَوَفَّى آخِرَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَمِائَتِينَ .

وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ (مُحَمَّدُ أَبُو الْغَرَانِيقِ) بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ أَحْمَدَ ، فَفَتَحَ جَزِيرَةَ مَالِطَةَ سَنَةَ خَمْسِ وَخَمْسِينَ وَمِائَتِينَ ، وَبَنَى حُصُونًا وَمَحَارِسَ عَلَى مَسِيرَةِ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ بَرْقَةِ فِي جِهَةِ الْمَغْرِبِ وَهِيَ الْآنَ مَعْرُوفَةٌ بِهِ . وَفِي أَيَّامِهِ كَانَ أَكْثَرُ فُتُوحٍ صَقْلِيَّةٍ . فَلَمَّا مَاتَ حَمَلَ أَهْلُ الْقَيْرَوَانِ أَخَاهُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَحْمَدَ أَخِي أَبِي الْغَرَانِيقِ عَلَى الْوِلَايَةِ عَلَيْهِمُ الْحُسْنُ سِيرَتُهُ فَامْتَنَعَ ، ثُمَّ أَجَابَ وَانْتَقَلَ إِلَى قَصْرِ الْإِمَارَةِ وَقَامَ بِالْأَمْرِ أَحْسَنَ قِيَامٍ . وَكَانَ عَادِلًا حَازِمًا فَقَطَعَ أَهْلَ الْبَغْيِ وَالْفُسَادِ وَجَلَسَ لِسَمَاعِ الظُّلَامَاتِ ، وَبَنَى الْحُصُونِ وَالْمَحَارِسِ بِسَوَاحِلِ الْبَحْرِ ، حَتَّى كَانَتْ النَّارُ تُوقَدُ فِي سَاحِلِ سَبْتَةَ لِلْإِنْذَارِ بِالْعَدُوِّ فَيَتَصَلُّ بِإِقَادِهَا بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَبَنَى سُورَ سُوسَةَ وَانْتَقَلَ إِلَى تُؤُسُ فَسَكَنَهَا . وَفِي أَيَّامِهِ ظَهَرَتْ دَعْوَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِالْمَغْرِبِ ، ثُمَّ مَاتَ سَنَةَ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَمِائَتِينَ .

وَوَلِيَ ابْنُهُ أَبُو الْعَبَّاسِ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ) أَخِي مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْغَرَانِيقِ ، وَكَانَ عَادِلًا ،

حَسَنَ السَّيْرَةِ ، بصيرا بالحروب ، فنزل تُرُوسَ مَكَانَ أَبِيهِ ودخلوا في أمره جملةً
وجرى بينه وبينه حروب ، ثم قتل في شعبان سنة تسعين ومائتين .

وولى ابنه أبو مضر (زيادة الله) فأقبل على اللذات واللّهو، وأهمل أمور الملوك ،
وقتل أخاه وعمومته وأخواته ، وقوى حال الدعاة لعبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين
بمصر فحمل زيادة الله أمواله وأثقاله ولحق بمصر ، فمنعه عاملها من الدخول إليها إلا
بأمر المقتدر الخليفة ، فسار إلى العراق فاستأذن عليه ، فأتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلى
القيروان وإظهار الدعوة ، فوصل إلى مصر فأصابه بها علة سقط منها شعره ، ورجع
إلى القدس فمات بها ، وأنقرضت دولة بني الأغلب بالمغرب .

الطبقة الثانية

(٢)
(العبيديون)

وكان مبدأ أمرهم أن محمدا الحبيب بن جعفر المصّدق ، بن محمد المكتوم ، بن
إسماعيل الإمام ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن
الحسين السبط ، بن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، كان مقبياً بسلامية من أعمال
حِصص ، وكان أهل شيعتهم بالعراق واليمن وغيرهما يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبر
الحسين عليه السلام ، فلما أدركته الوفاة عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له : أنت
المهدي وثّاجر بعدى هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة ، وشاع خبر ذلك في الناس ،

(١) في الكلام سقط أو اختصار نخل والذي يؤخذ من "العبر" أن أبا عبد الله الشيعي استولى في عهد
أبي العباس هذا على تكامة ودخلوا في أمره كافة وحصلت بينه وبين أبي العباس حروب كانت نهايتها انهزام
الشيعي وهدم قصره . ثم إن زيادة الله بن أبي العباس هذا صانع بعض الخدم على قتل أبيه فقتل ناماً
في شعبان سنة تسعين ومائتين ١٥ ملخصاً من ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٢) في نسخة المكتبة الأزهرية زيادة [من الفاطميين وأتباعهم] .

وَاتَّصَلَ بِالْمَكْتَفَى خَلِيفَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادَ فَطْلَبَهُ فَفَرَّ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ ، ثُمَّ لَحِقَ بِمِصْرَ وَمَعَهُ ابْنُهُ أَبُو الْقَاسِمِ غُلَامًا حَدَثًا وَخَاصَّةً ، وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيُّ قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ يُخْبِرُهُ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبِلَادِ الْغَرِيبَةِ ، فَعَزَمَ عَلَى التَّوَلُّوْكَ بِهِ ، وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ فِي زَيْ التُّجَّارِ ، وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى سِجِلْمَاسَةَ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، فَوْرَدَ عَلَى عَامِلِهَا كِتَابٌ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَحَبَسَهُ هُوَ وَابْنَهُ أَبُو الْقَاسِمِ . وَلَمَّا اسْتَفْجَلَ أَمْرُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ ، اسْتَخْلَفَ عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ أَخَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ وَارْتَحَلَ إِلَى سِجِلْمَاسَةَ ، فَأَخْرَجَ الْمَهْدِيَّ وَابْنَهُ مِنَ الْحَبْسِ وَبَايَعَ لِلْمَهْدِيِّ ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَنَزَلُوا رُقَادَةَ فِي رَبِيعِ سَنَةِ سَبْعٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَبُوعٍ لِلْمَهْدِيِّ الْبَيْعَةَ الْعَامَّةَ وَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ وَبَعَثَ الْعُمَّالَ عَلَى النَّوَاحِي .

وَوُلِيَ عَهْدَهُ ابْنُهُ (اَبَا الْقَاسِمِ مُحَمَّدًا) وَيُقَالُ نَزَارَ ، وَبَنَى مَدِينَةَ الْمَهْدِيَّةِ ، وَجَعَلَهَا دَارَ مُلْكِهِ . وَلَمَّا فَرِغَ مِنْهَا صَعِدَ عَلَى سُورِهَا وَرَمَى بِسَهْمٍ فِي جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، وَقَالَ :
إِلَى هُنَا يَنْتَهِي صَاحِبُ الْحِمَارِ [فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ بِالْمَغْرِبِ خَارِجِيَّ اسْمُهُ أَبُو يَزِيدَ يَعْرِفُ بِصَاحِبِ الْحِمَارِ وَتَبِعَهُ النَّاسُ فَقَصَدَ مَدِينَةَ الْمَهْدِيَّةِ يَرِيدُ فَتْحَهَا فَاتَمَّهَى إِلَى حَيْثُ انْتَهَى سَهْمُ الْمَهْدِيِّ ثُمَّ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى فَعَظَّمَ أَمْرَ الْمَهْدِيِّ] (١) .
وَأَسْتَوْلَى عَلَى فَاسَ ، وَدَخَلَ مَلُوكُهَا مِنَ الْأَدَارِسَةِ تَحْتَ طَاعَتِهِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ ، وَمَهْدِ الْمَغْرِبِ ، وَدَوَّخَ أَقْطَارَهُ ، وَتُوفِيَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَعِشْرِينَ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ خِلَافَتِهِ .

وَوُلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (الْقَائِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَبُو الْقَاسِمِ) الْمُتَقَدِّمُ ذَكَرَهُ ، وَفِي أَيَّامِهِ خَرَجَ أَبُو يَزِيدَ صَاحِبُ الْحِمَارِ . وَتُوفِيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِينَ ، وَكَانَ قَدْ عَهِدَ إِلَى ابْنِهِ الْمَنْصُورِ بِاللَّهِ إِسْمَاعِيلَ ، فَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ ، وَكَتَمَ مَوْتَ أَبِيهِ فَلَمْ يَتَسَمَّ بِالْخَلِيفَةِ وَلَا غَيْرَ

(١) الزيادة من النسخة الأزهرية .

السَّكَّةَ وَالْخَطْبَةَ وَالْبُنُودَ؛ وَتُوْفِّي سَلَحَ رَمْضَانَ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِينَ لِسَبْعِ سَنِينَ مِنْ خِلَافَتِهِ .

وَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (الْمُعْزُ لِدِينِ اللَّهِ مَعَدَّ) فَاسْتَقَامَ لَهُ الْأَمْرُ ، وَانْتَهَتْ مَمْلَكَتُهُ بِالْغَرْبِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ، وَافْتَتَحَ مِصْرَ عَلَى يَدِ قَائِدِهِ "جَوْهَر" فِي مَتَصَفِّ شَعْبَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِينَ ، وَاخْتَطَّ لَهُ الْقَاهِرَةُ ، ثُمَّ قَدِمَ الْمُعْزُ إِلَى مِصْرَ ، وَدَخَلَ الْقَاهِرَةَ لِحَمْسٍ مِنْ رَمْضَانَ سَنَةِ ثَنَيْنِ وَسَتِينَ وَثَلَاثِينَ عَلَى مَا سَبَقَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بنى زيرى)

كَانَ الْمُعْزُ مَعَدَّ الْفَاطِمِيَّ حِينَ قَدِمَ مِصْرَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ اسْتَخْلَفَ عَلَى أُفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ (بُلْكَيْنَ بْنِ زِيرَى) بْنُ مِيَّادِ الْبَرْبَرِيِّ ، وَيُقَالُ : الْحَمِيرِيُّ وَأَنْزَلَهُ الْقَيْرَوَانَ ، وَسَمَّاهُ يُوسُفَ ، وَكَانَ أَبُو الْفَتْوحِ ، وَلَقَّبَهُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَ حَتَّى تُوْفِيَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ وَمَاتَ الْمُعْزُ بِالْقَاهِرَةِ ، وَأَنْتَقَلَتِ الْخِلَافَةُ بَعْدَهُ إِلَى ابْنِهِ الْعَزِيزِ نَزَارَ ، فَوُلَّى عَلَى أُفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ بَعْدَ بُلْكَيْنِ ابْنَهُ (الْمَنْصُورَ بْنِ بُلْكَيْنِ) بُولَايَةَ عَهْدٍ مِنْ أَبِيهِ وَبَقِيَ حَتَّى تُوْفِيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ .

وَقَامَ بِأَمْرِهِ بَعْدَهُ (ابْنُهُ بِادِيسُ) بْنُ الْمَنْصُورِ فَبَقِيَ حَتَّى تُوْفِيَ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ بِمَعْسَكِهِ فَجَاءَ وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ أَصْحَابِهِ .

وَبَوَّعَ ابْنَهُ (الْمُعْزُ بْنُ بِادِيسِ) وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي سَنِينَ ، وَاسْتَمَرَّ مُلْكُهُ بِأُفْرِيقِيَّةَ وَعَظُمَ مُلْكُهُ بِهَا ، وَكَانَ الْمُعْزُ مُتَحَرِّفًا عَنِ الرَّفْضِ وَالتَّشْيِيعِ ، مُتَحَدِّثًا لِلْسُّنَّةِ ، وَأَعْلَنَ بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ وَلَايَتِهِ ، ثُمَّ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ أَنْ خَلَعَ طَاعَةَ الْعَبِيدِيِّينَ ، وَقَطَعَ الْخَطْبَةَ لَهُمْ

بأفريقية سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر العبيدي خليفة مصر، وخطب للقائم بن القادر الخليفة العباسي ببغداد، فاضطرب لذلك ملكه، وثارَت عليه الثوار، وملكوا منه التواحي، ومات المعز سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وقام بأمره من بعده ابنه (تيم بن المعز بن باديس) وغلبه العرب على أفريقية، فلم يكن له إلا ماضية الشور، واستمرت الثوار في أيامه وبقي حتى هلك سنة إحدى وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (يحيى بن تيم) فراجع طاعة العبيديين خلفاء مصر، ووصلته منهم المخاطبات والهدايا والتحف، وأكثر في غزو النصارى من الفرنجة وغيرهم، حتى لقبوه بالجرية من وراء البحر، ومات فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (علي بن يحيى) وقام بالأمر على طاعة خلفاء العبيديين بمصر، ومات سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (الحسن بن علي) وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وقام بأمره مولاة صندل، ثم مولاة موفق، وغلبه النصارى على المهديّة وبلاد الساحل كلها إلى أن استنقذها منهم عبد المؤمن شيخ الموحدين، ولحق الحسن بالجزائر ونزل بها إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخمسمائة بعد ملكهم المغرب والأندلس، فخرج إلى عسد المؤمن فأحسن إليه وبقي معه حتى أفتتح المهديّة فأنزله بها، فأقام بها ثمانين سنين، ثم سار إلى مرّاكش فمات في طريقه، وأنقرضت دولة بني باديس من أفريقية في أيامهم عند وقوع الفتن .

(١) في قطعة المكتبة الازهرية بدل هذه الكلمات [وزالت بها دعوة العبيديين] .

الطبقة الرابعة

(الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت، وهم القائمون بها إلى الآن)

وكان أول من أفتتحها منهم (عبد المؤمن بن علي) أحد أصحاب ابن تومرت والخليفة بعده . وذلك أنه لما وقع بها ما تقدم من الاضطراب وقيام الثوار واستيلائهم على النواحي ، وكان الموحدون قد استولوا على الأندلس والغرب الأقصى والغرب الأوسط إلى بجاية ، بعث عبد المؤمن المذكور العساكر إلى أفريقية مع ابنه عبد الله في سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فافتتح أفريقية ، واستكمل فتحها سنة ست وخمسين . وولّى عليها ابنه السيد أبو موسى (عمران بن عبد المؤمن) وأسرّه علي بن يحيى المعروف بابن غانية عند فتحه بجاية ، واعتقله بها في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

ولما ولي (المنصور يعقوب بن عبد المؤمن) بعد أبيه عبد المؤمن ، وليّ علي أفريقية في أول ولايته أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص عمر ، ثم غلب ابن غانية على أكثر بلاد أفريقية واستولى على تونس ، وخطب للخليفة العباسي ببغداد ، ثم جهّز الناصر أبو المنصور بن عبد المؤمن الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص من مرّاكش إلى أفريقية سنة ثنتين وستمائة فانتزعها من ابن غانية ، ثم وصل الناصر ابن المنصور إلى أفريقية بعد ذلك ودخل تونس ، وأقام بها إلى منتصف سنة ثلاث وستمائة ، وعزم على الرحيل إلى مرّاكش فرؤى نظره فيمن يوليه أمرها فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ، ورحل الناصر إلى المغرب وقعد مقعد الإمارة بقصبة تونس يوم السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة وبقي حتى توفى مفتوح سنة ثمان عشرة وستمائة .

وولى بعده أبنه الأمير (أبو زيد عبد الرحمن) وقعد بمجلس أبيه في الإمارة، وورد كتاب المستنصر بن الناصر خليفة بني عبد المؤمن بعزله لثلاثة أشهر من ولايته .

وولى المستنصر مكانه السيد أبا العلي (إدريس بن يوسف) بن عبد المؤمن ، ودخل إلى تونس في ذى القعدة من السنة المذكورة ، فنزل بالقصبة ورثب الأمور ، ومات بتونس سنة عشرين وستمائة .

ثم مات المستنصر وصار الأمر (لعبد الواحد المخلوع) ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فبعث بولاية أفريقية إلى (أبي زيد) بن أبي العلي .

ثم صار الأمر إلى العادل فولى (أبا محمد عبد الله) بن أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، ودخل تونس سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وأقام في إمارته إلى أن ثار عليه أخوه الأمير (أبو زكريا يحيى) بن أبي محمد عبد الواحد وولى مكانه ، ودخل تونس في رجب سنة خمس وعشرين وستمائة ، وأفتح قسنطينة وبجاية سنة ست وعشرين وأنتزعهما من بني عبد المؤمن .

ثم ملك تلمسان من يدهم بعد ذلك وبايعه أهل الأندلس ، ومات ببونة لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لثنتين وعشرين سنة من ولايته .

وبويع بعده أبنه وولى عهده المستنصر بالله (أبو عبد الله محمد) ودخل تونس في رجب من السنة المذكورة ، فجدد بيعته بها وهو أول من تلقب من الحفصيين بالقب الخلافة كما سيأتى . وأنتمى أمره إلى أن بويع له بمكة المعظمة ، وبعث بالبيعة إليه ، وأستولى على ما كان بيد أبيه من الغرب الأوسط ببجاية وقسنطينة ، وفتح الجزائر ، وبقي حتى مات يوم الأضحى سنة خمس وسبعين وستمائة .

وَبُيِّعَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (الوَائِقُ يَحْيَى) بْنُ الْمُسْتَنْصِرِ لَيْلَةَ مَوْتِ أَبِيهِ ، فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَبَسَطَ فِي الرِّعَاةِ الْعَدْلَ وَالْعَطَاءَ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ أَهْلَ بَحَايَةِ الْبَيْعَةِ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ عُمُهُ (أَبُو إِسْحَاقَ) أَخُو الْمُسْتَنْصِرِ وَدَخَلَ بَحَايَةَ ، وَبَايَعَهُ أَهْلُهَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَاسْتَوْلَى عَلَى قُسْطَنْطِيْنَةَ ، وَقَوَّى أَمْرَهُ بِبَحَايَةِ وَمَا مَعَهَا ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الْوَائِقُ بْنُ الْمُسْتَنْصِرِ ، فَتَيَقَّنَ ذَهَابَ الْمَلِكِ مِنْهُ فَانْخَلَعَ عَنِ الْأَمْرِ لِعَمِّهِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَحْيَى ، وَمِنْ هُنَاكَ عُرِفَ بِالْمَخْلُوعِ وَأَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ ربيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَبَلَغَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ أَبَا إِسْحَاقَ فَسَارَ إِلَى ثُوْنُسَ ، وَدَخَلَهَا فِي نِصْفِ ربيعِ الْآخِرِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْمَمْلَكَةِ جَمِيعَهَا ، وَأَعْتَقَلَ الْوَائِقَ وَبَنِيهِ ، ثُمَّ دَسَّ عَلَيْهِمْ مَنْ دَبَّحَهُمْ فِي اللَّيْلِ فِي صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَبَقِيَ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ (أَحْمَدُ بْنُ رَوْقٍ) ^(١) بْنُ أَبِي عِمَارَةَ مِنْ بَيُوتَاتِ بَحَايَةِ الطَّارِئِينَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَسِيْلَةِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَكَانَ شَبِيهًا بِالْفَضْلِ ابْنِ يَحْيَى الْمَخْلُوعِ فَعُرِفَ بِالْدَّعِيِّ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى ثُوْنُسَ بَعْدَ خُرُوجِ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقَ مِنْهَا ، وَلَحِقَ أَبُو إِسْحَاقَ بِبَحَايَةِ فَفَنَعَهُ ابْنُهُ الْأَمِيرُ أَبُو فَارِسَ (عَبْدُ الْعَزِيزِ) مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهَا فَانْخَلَعَ لَهُ عَنْهَا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى بَيْعَتِهِ فِي آخِرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ فَبَايَعُوهُ وَتَلَقَّبَ بِالْمُعْتَمِدِ ، ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الدَّعِيِّ وَالْأَمِيرِ أَبِي فَارِسَ وَاقِعَةٌ قَتَلَ فِيهَا الْأَمِيرُ أَبُو فَارِسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَخَرَجَ السُّلْطَانُ أَبُو إِسْحَاقَ فَلَحِقَ بِتِلْمِسَانَ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْأَمِيرُ أَبُو زَكَرِيَا ، وَدَخَلَ أَهْلُ بَحَايَةِ فِي طَاعَةِ الدَّعِيِّ .

ثُمَّ خَرَجَ عَلَى الدَّعِيِّ الْأَمِيرُ (أَبُو حَفْصَ عُمَرُ بْنُ يَحْيَى) بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا حَرْبٌ أَنْهَزَمَ الدَّعِيُّ فِي آخِرِهَا . وَاسْتَوْلَى أَبُو حَفْصَ عَلَى ثُوْنُسَ وَسَائِرِ

(١) فِي "الْعَبْرَ" أَحْمَدُ بْنُ مَرْزُوقٍ وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

المملكة ، وتلقب بالمستنصر وأختني الدعي ، ثم ظفر به أبو حفص بعد ذلك وقتله ، وبايعه أهل تلمسان وطرابلس وما بينهما .

ونرح الأمير (أبو زكريا يحيى) ابن السلطان أبي إسحاق على بجاية وقسطنطينة فلكهما وأقطعهما عن مملكة أفريقية ، وقسم دولة الموحدين بدولتين ، ولم يزل السلطان أبو حفص في ملكه إلى أن مريض في ذي الحجة سنة أربع وستين وستمائة ومات آخر ذي الحجة من السنة المذكورة .

وكان الواقف بن المستنصر لما قُتل هو وأبوه ترك جارية حاملاً ، فسماه الشيخ محمد المرحاني « محمد » وأطعم الفقراء يومئذ عَصِيدَةً من عَصِيدَةِ الْبَرِّ فلقب بأبي عَصِيدَةٍ ، فلما مات السلطان أبو حفص بايع الناس (أبا عَصِيدَةٍ) المتقدم ذكره . ومات الأمير أبو زكريا صاحب بجاية وما معها على رأس المائة السابعة . وقام بعده في تلك الناحية وليّ عهده ابنه (أبو البقاء خالد) فاستمر في تلك الناحية ، وبقى السلطان أبو عَصِيدَةٍ في مملكة أفريقية حتى مات في ربيع الآخر سنة تسع وسبعائة ولم يخلف ابناً .

وكان بالقصر (أبو بكر بن عبد الرحمن) بن أبي بكر ، بن يحيى ، بن عبد الواحد ، ابن أبي حفص في كفالة السلطان أبي عَصِيدَةٍ فلما مات أبو عَصِيدَةٍ بايعه أهل تُونُس ، ثم ارتحل السلطان أبو البقاء خالد : صاحب بجاية إلى جهة تُونُس طالبا مُلْكُهَا بعد أبي عَصِيدَةٍ ، فخرج (أبو بكر الشهيد) في أهل تُونُس للقاءه فانهمزوا عنه ، وقبض على أبي بكر الشهيد وأعتقل ثم قُتل بعد ذلك فسمى الشهيد ، وأستقل السلطان أبو البقاء خالد بملك تُونُس وبجاية وحاز جميع المملكة ، وتلقب الناصر لدين الله وبقى حتى بويع (أبو يحيى زكريا بن أحمد) بن محمد اللخاني ، بن عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص : فبويع بطرابلس ، وخرج على أبي البقاء خالد نخافه فخلع نفسه

فاعتقل وجاء السلطان أبو يحيى على أثره في رجب سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، فبُويع البيعة العامة ودخل تُوُس وأستولى عليها ، ثم اضطرب عليه أمره ، فخرج من تُوُس إلى قابس أول سنة سبع عشرة وسبعمائة بعد أن استخلف تُوُس ، وأنهى إلى قابس فأقام بها وصرف [العمال] في جهاتها ، وقصد السلطان أبو بكر صاحب بجاية تُوُس ، وكان بينه وبين أهلها وقعة انتهت الحال في آخرها إلى أن السلطان أبو بكر رجع إلى بجاية . وبايع أهل تُوُس محمدا المعروف (بأبي ضربة) ابن السلطان أبي يحيى في سنة سبع عشرة المذكورة .

ثم قصد السلطان أبو بكر صاحب بجاية تُوُس ^(١) ، وبها أبو ضربة فغلبه عليها ، ودخلها في ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وبُويع بها البيعة العامة . ولحق السلطان أبو يحيى الحلياني بصر في أيام الملك الناصر "محمد بن قلاوون" فأحسن نزله وأقام عنده إلى أن مات ، ولحق ابنه أبو ضربة بتيمسان فأقام بها إلى أن مات ، وأستقل السلطان أبو بكر بأفريقية وبجاية إلى أن غلبه على تُوُس (ابراهيم بن أبي بكر) الشهيد المتقدم ذكره أولا ، ودخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

ثم غلبه عليها السلطان أبو بكر وأتبعها من يده في شوال من السنة المذكورة ، وأستقر في يده ملك أفريقية وبجاية إلى أن مات فجأة في جوف الليل في ليلة الأربعاء ثاني رجب القرد سنة سبع وأربعين وسبعمائة بمدينة تُوُس .

وبُويع ابنه (أبو حفص عمر) بن أبي بكر من ليلته ، وجلس من الغد وبُويع البيعة العامة . وكان أبوه قد عهد إلى ابنه الآخر أبي العباس أحمد ، وكان ببلاد الجريد فاستجاش على أخيه وقدم عليه تُوُس ، وكانت بينهما واقعة قتل فيها أبو العباس وأستقر السلطان أبو حفص على ولايته . وكان السلطان أبو بكر حين عهد

(١) في الأصل أبو زكريا والتصحيح من "العبرج ٦ ص ٣٢٤" .

لأبنة أبي العباس أرسل العهد إلى السلطان أبي الحسن المُرَيْنيّ : صاحب تلمسان
وسأله في الكتابة عليه ، فلما قُتِلَ أبو العباس المذكور ثَقُلَ ذلك على السلطان أبي الحسن
وخرج إلى أفريقية في سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، ووصل إلى بجاية ثم إلى قسنطينة
فملكهما ، ثم سار إلى تُونُسَ فلقيه السلطان أبو حفص عمر ، وكانت بينهما واقعة
قُضِيَ فيها على أبي حفص ثم قُتِلَ . ودخل السلطان أبو الحسن إلى تُونُسَ وأستولى
على جميع المملكة مضافاً إلى مملكته ، وكل له بذلك ملك جميع المغرب .

ثم غلب (أبو العباس الفضل) بن السلطان أبي بكر على بجاية وقسنطينة وملكهما ،
وسار السلطان أبو الحسن إلى المغرب وأستخلف على تُونُسَ أباه الفضل فسار
الفضل ابن السلطان أبي بكر من بجاية إلى تُونُسَ فخرج منها أبو الفضل بن أبي الحسن
فأثراً إلى أبيه بالمغرب ، ودخلها الفضل ابن السلطان أبي بكر وملكها سنة تسع وأربعين
وسبعائة وأستولى على جميع المملكة ، وبقي إلى أن قُضِيَ عليه في جمادى الأولى
سنة إحدى وخمسين وسبعائة .

وبويع بعده أخوه (أبو إسحاق إبراهيم) ابن السلطان أبي بكر ، وهو يومئذ غلام
قد ناهز الحُلُمَ ، وقُتِلَ الفضل في جوف الليل من الليلة القابلة خنقاً ، وأستولى على
أفريقية وبجاية وقسنطينة ، وبقي حتى غلبه بنو مَرِينٍ على بجاية وقسنطينة ، وملكهما
منه أبو عَنان سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

ثم أستولى السلطان (أبو العباس أحمد) بن محمد بن أبي بكر على قسنطينة سنة
ثلاث وخمسين وسبعائة وبويع بها .

ثم غلبه عليها أبو عَنان وقفل إلى المغرب سنة سبع وخمسين وقد أستخلف بها ،
فتجهز إليها (أبو إسحاق إبراهيم) صاحب تُونُسَ وملكها من يد عامل أبي عَنان

سنة إحدى وستين ، ثم قوى أمر السلطان أبي العباس وعاد إلى قسطنطينة وملكها في السنة المذكورة .

ثم استولى (أبو عبد الله محمد) بن محمد ابن السلطان أبي بكر في رمضان سنة خمس وستين وسبع مائة فأساء السيرة بها ، فسار إليه السلطان "أبو العباس" من تونس فقتله ودخل بجاية تاسع عشر شعبان سنة سبع وستين وسبع مائة وملكها ، وبقيت بيده وتونس بيد السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي بكر إلى أن توفي السلطان أبو إسحاق فجأة في الليل في سنة سبع وسبعين وسبع مائة .

وبويع بعده ابنه (أبو البقاء خالد) واستبد عليه منصور مولى أبيه ، وابن الباقي حاجب أبيه فلم يكن له في الدولة تحكم .

ثم رحل السلطان أبو العباس من بجاية إلى تونس وقبض على السلطان أبي البقاء خالد بن إبراهيم بعد حصاره أياما واعتقله وملك تونس وانتظم في ملكه أفريقية وبجاية وقسطنطينة وأعمالها ، وبقي حتى مات في شعبان سنة ست وثمانين وسبع مائة . وكان أبو العباس هذا له شعر رائع ، طلب مرة كاتب إنشاء يحيى بن أجاد ، وكان يحيى ثملا ، فخافه على نفسه إن هو طلع إليه على تلك الحالة فكتب إليه :

أصبح العبد يحيى * كصباح ابن أكرم

شغلته الحميا * وهو بالأمر مهم

فخشى من رقيب * فرأى الدار أكرم

فلما قرأها وقع بخطه تحت خطه :

قر عينا بعيش * صفوه بك قد تم

أنت أركى عيادي * ها هنا كنت أو ثم

فكان ذلك سبب توبة يحيى .

وبويع بعده ابنه أبو فارس (عزّوز) في رابع شعبان من السنة المذكورة وأستولى على تُوُسّ وبجاية وقسنطينة وسائر أعمالها . وهو السلطان أبو فارس عزّوز ابن السلطان أبي العباس أحمد ، ابن السلطان أبي بكر بن يحيى ، بن إبراهيم ، بن عبد الواحد ، ابن الشيخ أبي حفص .

قلت : وهو باقٍ إلى زماننا في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وقد شاع ذكر شجاعته وعدله حتى إنه دَوَّخَ البلاد ومهدّها وقتل العرب وأبادهم ، ودخل من بقي منهم في طاعته بعد أن لم يدينوا لطاعة غيره ، وقطع المكوس من بلاده ، وأزال الحانات من تُوُسّ ، مع تواضع وقرب من الفقراء ، وأخذ بيد المظلومين ، ووجوه رتبها وقررها لم تُعهد لأحد من قبله ، إلى غير ذلك من صفات الملوك المحموده التي أمتاز بها عن الملوك ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

الجملة العاشرة

(في متمي ملوك هذه المملكة القائمين بها الآن ، من الموحّدين في النسب ، ودعواهم الخلافة ، وبيان أصل دولتهم ، وتسميتهم الموحّدين)

أما منتاهم في النسب ، فقد ذكر في " التعريف " : أن الملك القائم بها في زمانه يدعى النسب إلى أمير المؤمنين : عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، ومن أهل النسب من ينكر ذلك : فمنهم من يجعله من بني عدى بن كعب رهط عمر ، وليس من بني عمر ، ومنهم من يقول بل من هتاتة وليسوا من قبائل العرب [في شيء] . وهم الحفصيون نسبة إلى أبي حفص : أحد العشرة أصحاب ابن تومرت . وهم بقايا

الموحدين إذ كان من تقرير ابن تومرت أن الموحدين هم أصحابه ، ولم يبق ملك الموحدين إلا في بني أبي حفص هذا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّسَائِينَ قَدْ اختلفوا في نسبته على ثلاثة أقوال .

أحدها — نسبته إلى أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهؤلاء يقولون : هو أبو حفص عمر بن يحيى ، بن محمد ، بن وأثودين ، بن علي ، بن أحمد ، ابن وآلال ، بن إدريس ، بن خالد ، بن اليسع ، بن إلياس ، بن عمر ، بن وافق ، ابن محمد ، بن نجيه ، بن كعب ، بن محمد ، بن سالم ، بن عبد الله ، بن عمر بن الخطاب . قال قاضى القضاة : ”ولى الدين بن خلدون“ ويظهر أن هذا النسب القرشي وقع في المصامدة من البربر ، والتحم بهم وأشتملت عليه عصبيتهم ؛ شأن الأئساب التي تقع من قوم إلى قوم .

الثاني — نسبته إلى بنى عدى بن كعب : رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى ينتسب فيه ، وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب جد النبي صلى الله عليه وسلم وباقي نسبه إلى عدنان معروف .

الثالث — نسبته إلى هنتاة ، وهنتاة — بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المشناة فوق وبعدها ألف ثم تاء مشناة فوق مفتوحة ثم هاء قبيلة من قبائل المصامدة من البربر ، بجبال درن المتاخمة لمرأش ، وهى قبيلة واسعة كبيرة ، ويقال لها بالبربرية ”يلتي“ وكان أبو حفص هذا هو شيخهم وكبيرهم ، وهو الذى دعاهم إلى اتباع ابن تومرت والجل على طاعته .

وأما دعواهم الخلافة ، فقد قال في ”التعريف“ عند ذكر سلطان زمانه منهم : لا يدعى إلا الخلافة ويتلقب باللقاب الخلفاء ، ويخطب بأمر المؤمنين فى بلاده .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّبَ مِنْهُمْ الْمُسْتَنْصَرُ بِاللَّهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي زَكَرِيَّا
يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ الشَّيْخِ أَبِي حَفْصٍ ، عَلَى أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَمْتَنِعُ مِنَ التَّلَقُّبِ بِالْقَابِ
الْخِلَافَةِ ، وَيَمْنَعُ مَنْ يُخَاطَبُهُ بِهَا مُقْتَصِرًا عَلَى التَّلَقُّبِ بِالْأَمِيرِ خَاصَّةً حَتَّى إِنْ بَعْضُ
شُعْرَائِهِ رَفَعَ إِلَيْهِ قَصِيدَةً مَدَحَهُ بِهَا أَوَّلَهَا :

أَلَا جُلُّ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْعَالَمِينَ

فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا حَمَلَ الْمُسْتَنْصَرُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْخِلَافَةَ فِي زَمَنِهِ قَدْ تَعَطَّلَتْ
فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْخِلَافَةَ الْأُمَوِيَّةَ وَدَعَاوَى بَنَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ قَدْ زَالَتْ عَنْهَا
فِي الْمَغْرِبِ بَغْلَبَةُ بَنِي مَرْينَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَرَاعُهُمُ الْأَمْرُ مِنْهُمْ ، وَخِلَافَةُ الْعَبِيدِيِّينَ قَدْ زَالَتْ
مِنْ مِصْرَ ، وَخِلَافَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ زَالَتْ مِنْ بَغْدَادَ بِاسْتِيلَاءِ التَّتَرِّ عَلَيْهَا .

وَأَمَّا مَبْدَأُ دَوْلَتِهِمْ وَمَصِيرُ آخِرِهَا إِلَى بَنِي أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةَ ، فَإِنْ أَصْلَ قِيَامِهَا
أَبْنُ تَوْصَرْتِ : وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ تَوْصَرْتِ ، بْنُ وَجْدٍ ، بْنُ يَامِصَالٍ ، بْنُ حَمْزَةَ ،
أَبْنُ عَيْسَى فِيمَا ذَكَرَهُ مُحَقِّقُو الْمُؤَرِّخِينَ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : مُحَمَّدُ بْنُ تَوْصَرْتِ ، بْنُ
نَيْطَاوَسَ ، بْنُ سَافَلَا ، بْنُ مَسِيْعُونَ ، بْنُ أَيْكَلْدِيسَ ، بْنُ خَالِدٍ ، أَصْلُهُ مِنْ هَرَّغَةَ مِنْ
بَطْنِ الْمَصَامِدَةِ مِنَ الْبَرْبَرِ . وَبَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ يَجْعَلُ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَيَقُولُ :
هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بْنُ هُوْدَ ، بْنُ خَالِدٍ ، بْنُ تَمَامٍ ، بْنُ عَدْنَانَ ،
أَبْنُ سُفْيَانَ ، بْنُ صَفْوَانَ ، بْنُ جَابِرٍ ، بْنُ عَطَاءٍ ، بْنُ رَبَاحٍ ، بْنُ مُحَمَّدٍ ، مِنْ وَلَدِ سُلَيْمَانَ
أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، بْنُ حَسَنِ ، بْنُ الْحَسَنِ ، بْنُ عَلِيٍّ ، بْنُ أَبِي طَالِبٍ . وَسُلَيْمَانُ هَذَا
أَخُو إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ لَبْنِيهِ الدَّوْلَةُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَا صَرَفَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبَةِ
صَاحِبِ بَرِّ الْعُدُوَّةِ .

ويقال إن سليمان هذا لحق بالمغرب إثر أخيه إدريس . وقيل : بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب ويكون على هذا المقتضى نسبُه قد اتَّحَمَ بنسب المصامدة ، وأتصل بهم وصار في عدادهم كما تقدَّم في نسب أبي حفص .

وكان أهل بيته أهل دين وعبادة ، وشبَّ محمدٌ هذا فيهم قارئاً محبباً للعلم ، وأرتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومَرَّ بالأندلس ، ودخل قرطبة وهي إذ ذاك دارُ علم ، ثم لحق بالإسكندرية وجَّ ، ودخل العراق ، ولقي أكابر العلماء به يومئذ وفُحُول النُّظار ، ولقي أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ بقولهم في تأويل المتشابه . ويقال إنه لقي أبا حامد الغزالي رحمه الله واستشاره فيما يُريده من قيام الدولة بالمغرب .

ورجع إلى المغرب وقد حصَّل على جانب كبير من العلم ، وطعن على أهله في الوقوف مع الظاهر وحمَلهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية في جميع العقائد ، وألَّف العقائد على رأيهم مثل المرشدة وغيرها . وكان مع ذلك يقول بعصمة الإمام على مذهب الإمامية من الشيعة . وأنهى إلى بحاية فأقام بها يدرِّس العلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهناك لقيه عبد المؤمن أحد أصحابه وأرتحل معه إلى المغرب وصار إلى بلاد هرَّغة من البربر ، فاجتمع إليه الطلبة ونَشَرَ العلم ، وأظهر مذهب الأشعرية .

وكان الكُهان والمنجِّمون يتحدَّثون بظهور ملك بالمغرب من البربر ، وشاع في الناس أنه ذلك الملك ، وأختار من أصحابه عشرة فجعلهم خاصته : وهم عبد المؤمن بن علي ، وأبو حفص عمر بن علي ، ومحمد بن سليمان ، وعمر بن تافركين ، وعبد الله بن ملوآت وغيرهم . ودعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسمين ، فبايعوه على ذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة .

ولما تكاملت له البيعة لقبوه بالمهدي، وكان قبل ذلك يلقب بالامام، وكان عبد المؤمن أخص أصحابه به، وكان يلقبه بالخليفة، وأبو حفص بعده في الخصوصية، وكان يلقبه بالشيخ، وكان يسمى أتباعه الموحدين تعريضا بمن يجح عن التأويل ويقف مع الظاهر فيوقعه في التجسيم وغيره، ولم تحفظ عليه بدعة إلا ما وافق فيه الإمامية من القول بعصمة الإمام. وقد مر ذكر مدة ولايته ثم استخلاف عبد المؤمن بعده في الكلام على مكتبة صاحب بر العدة. وقد تقدم آتداء انتقال مملكة إفريقية إلى بني أبي حفص وأنسحابها فيهم إلى زماننا على الترتيب.

الجملة الحادية عشرة

(في ترتيب المملكة بها : من زى الجند، وأرباب الوظائف : من أرباب

السيوف والأقلام، ومقادير الأرزاق الجارية عليهم، وزى

السلطان، وترتيب حاله في الملك)

أما الجند، فقد نقل في "مسالك الأبصار" عن أبي عبد الله بن القويح : أن الذي قرره لهم مهديهم ابن تومرت، ثم عبد المؤمن وأبناءؤه بعده أنه ليس لهم أمراء ولا أتباع يطلب بعدهم كعدة الأمراء بمصر، وإنما لهم أشياخ من أعيانهم لعدة لهم ولا جند، بل المرء منهم بنفسه فقط، ولكل طائفة منهم رئيس يتولى النظر في أحوالهم يسمونه الزوار.

أما الجند فن الموحدين والأندلسيين وقبائل بها من المضافة إليهم ومن قبائل العرب ومن هاجر إليهم من العرب القدماء، الذين هاجروا في مدة بني عبد المؤمن، والممالك الترك المتباعدة من الديار المصرية، ومن الفرنج وغيرهم.

(١) لم يتقدم شيء من ذلك وسقطت هذه الجملة من القطعة الازهرية.

وحاصل ما ذكره في "مسالك" أن الجند عندهم على سبع طبقات .

الطبقة الأولى — الأشياخ البكار من الموحدين الذين هم بقايا أتباع المهدي بن تومرت . قال في "مسالك الأبصار" : وهم بمثابة أمراء الألوف بمصر، وبمناوبة الثوينات أمراء التوامين بمملكة إيران .

الطبقة الثانية — الأشياخ الصغار من الموحدين أيضا : وهم دون من تقدم منهم في الرتبة .

الطبقة الثالثة — الوقافون . قال في "مسالك الأبصار" : سألت ابن القويغ عن معنى الوقافين ما هو ؟ فقال : هم قوم لهم خاصية بالسلطان يسكنون معه في القسبة : وهي القلعة، بمنزلة الأمراء الخاصكية . قال : وهم طبقتان : وقافون بكار، ووقافون صغار، وكلهم يقفون بين يديه في أوقات جلوسه إذا جلس للناس .

الطبقة الرابعة — عاقمة الجند .

الطبقة الخامسة — الجند من قبائل العرب .

الطبقة السادسة — الصبيان : وهم جماعة من الشباب بمثابة المماليك الكمانية بالديار المصرية، يكونون في خدمة السلطان .

الطبقة السابعة — الجند من الإفرنج، ويعبر عنهم بالعلوج، وهم لخاصة السلطان لا يطمئن إلا إليهم .

وأما عدة العسكر . ففي "مسالك الأبصار" عن ابن القويغ أنها لا تبلغ عشرة آلاف وإنما العدد الجم في العرب أهل البادية ولهم قوة شوكية .



وأما أرباب الوظائف فعلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(أرباب السيوف، وهم ثمانية)

الأول — الوزراء : وهم ثلاثة وزراء : وزير الجند وهو المردود إليه الحديث في أمر الجند . قال في "مسالك الأبصار" : وهو بمثابة الحاجب بالديار المصرية ؛ ووزير المال : وهو المتحدث في أمر المال ، ويعبر عنه بصاحب الأشغال ؛ ووزير الفضل وهو كاتب السر .

الثاني — شيخ الموحدين . قال ابن القويح : وشيخ الموحدين كأنه نائب السادة ، ويسمى الشيخ المعظم وهو الذى يتولى عرض الموحدين وأمورهم .
الثالث — أهل المشورة : وهم ثلاثة من أشياخ الموحدين يجلسون بمجلسه للرأى والمشورة .

الرابع — صاحب الرقاعات . قال ابن سعيد : وهو الذى يتولى إبلاغ الظلمات إلى السلطان وإيصال قصصهم إليه وعرضها عليه ثم يخرج بجوابها عنه . قال في "مسالك الأبصار" : وهذا بمثابة الدواidar (يعنى بالديار المصرية) .

الخامس — صاحب العلامات : وهو المتولى أمور الأعلام ، وهو بمثابة أمير علم بالديار المصرية . وفى معناه آخر إليه أمر دق الطبول ، يأمر بدق الطبول عند ركوب السلطان فى الموكب .

السادس — الحافظ : وهو صاحب الشرطة ، وعنه يعبر المصريون بوالى المدينة .

السابع — محركو الساقة : وهم قوم يكون بأيديهم العصى ، يرتبون الناس فى الموكب ، بمنزلة النقباء بالديار المصرية .

الثامن — صاحب الطعام : وهو بمنزلة إستاددار الصعبة .

الضرب الثاني (أرباب الأقلام)

وقد ذكر منهم ثلاثة :

الأول — قاضى الجماعة : وهو مثل قاضى القضاة بالديار المصرية .

الثانى — المحتسب : وهو معروف .

الثالث — صاحب كُتُب المَظالم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو الموقَّع على القِصص وكأنه بمثابة موقَّع الدِّست بمصر والشام .

الجملة الثانية عشرة

(فى ذكر الأرزاق المُطلَّقة من جهة السلطان)

ويختلف الحال فيها باختلاف أحوال أربابها .

فأما أشياخ الموحِّدين الكبار ، فقد نقل فى "مسالك الأبصار" عن القاضى أبى القاسم بن بنون أنَّ لهم أرضاً يزرعونها أو يحكِّرونها ويكون لهم عشر ما طلع منها . وهذه الأرض بمثابة الإقطاع بمصر ، ولكل واحد منهم فى كل سنة حرث عشرة أزواج بقرا ، كل زوج بشُعْبَتَيْن ، كل شُعْبَة رأسان من البقر فيكون لكل واحد عشرون شعبة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الشعبة هى المسماة فى بلاد دمشق بالفدان . ولهم مع ذلك راتب يفرق عليهم فى طول السنة ، يسمونه البركات ، بمثابة الجوامك بمصر ، يفرق أربع مرَّات فى السنة : فى عيد الفطر تفرقةً ، وفى عيد الأضحى تفرقةً ، وفى ربيع الأول تفرقةً ، وفى رجب تفرقةً ، يُصِيبُ كُلَّ واحد منهم من ذلك أربعون ديناراً مسماةً ، تكون بثلاثمائة درهم عتيقة ، والسلطان يأخذ معهم بسهم كواحد منهم على السواء ، فيكون جملة مال كُلِّ واحد منهم فى كل سنة مائةً وعشرين ديناراً

سَمَاءٌ ، عنها أَلْفٌ ومائتا درهم مَغْرِبِيَّةٌ ، عنها من نقد مصر والشام سِتْمِائَةٌ ونحسون درهما ، وما يَتَحَصَّلُ من مَعَلٍّ عشرين فَدَّانا بقدر مثلها . قال في "مسالك الأبصار" :
فيكون تقدير ما لأحد المشايخ الكبار الذين بمثابة أمراء الألو ف بمصر والشام في كل سنة أَلْفٌ وثلثمائة وعشرة دراهم نُقْرَةً بمعاملة مصر في كل سنة .

وأما الأشياخ الصغار ، فلكل واحد منهم حَرْثٌ خمسة أزواج من البقر ، على النصف من الأشياخ الكبار ، والبركات في كل سنة على ما تقدم في الكبار . قال ابن بَنُون :
ولعامة الأشياخ الكبار والصغار والوفّاقين والجند شيء آخر يُفَرِّقه السلطان عليهم ، يُسمّى المواساة : وهي غلة تفرّق عليهم عند تحصيل الغلات في المخازن ، وشيء ثالث يُقال له الإحسان ، وهو مبلغ يفرّق عليهم . قال [وكلاهما ^(١)] من السنة إلى السنة ليس لها قَدْر مضبوط ولا قَدْر مخصوص ، بل على قدر ما يراه السلطان وبحسب أقدار الناس . ومقادير العطايا بينهم متفاوتة . قال : وكذلك القبائل ومزاويرهم على هذا النحو . قال ابن القويّج : والجند الغرباء يتميزون في الأعطيات على الموحدّين . قال : وللعرب أهل البادية إقطاعات كثيرة ، ومنهم من يخرج مع السلطان إذا استدعاهم السلطان للخروج معه .

الجملة الثالثة عشرة

(في ليس سلطان مملكة توتس ، وليس أشياخه ، وسائر جنده ،
وعامة أهل بلده)

أما ليسه فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن سلطان زمانه بأفريقية : أن له عمامة ليست بمفردة في الكبير ، بحنك وعدبة صغيرة . وقال ابن سعيد : له عمامة

(١) بياض بالاصل بقدر كلفة والتصحيح من المسالك .

كبيرة من صُوفٍ وَكَانَ فِيهَا طِرَازٌ من حرير . ولا يتعمَّم أحدٌ من أهل دَوْلَتِهِ قَدَرَهَا في الكِبَر . وذكر أن عَذْبَةَ عِمَامَتِهِ تَكُونُ خَلْفَ أُذُنِهِ الْيُسْرَى ، وَأَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِهِ وَأَقَارِيهِ ؛ وَلَهُ جَبَابٌ تَلِيمًا ، وَلَا يَلْبَسُ هُوَ وَلَا عَامَّةُ جُنْدِهِ وَأَشْيَاخُهُ خُفًّا إِلَّا فِي السَّفَرِ .^(١) وغالب لِبْسُهُ وَلِبْسُ أَكْبَرِ مَشَايِخِهِ مِنْ قُمَاشٍ عِنْدَهُمْ يَسْمَى السِّفْسَارِي ، يَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ حَرِيرٍ وَقُطْنٍ أَوْ حَرِيرٍ وَصُوفٍ رَفِيعٍ جِدًّا ، وَقُمَاشٍ يُعْرَفُ بِالتِّلْمَسَانِي يَعْمَلُ بِتِلْمَسَانَ ؛ إِمَّا صُوفٌ خَالِصٌ أَوْ حَرِيرٌ خَالِصٌ : مُحْتَمٌّ وَغَيْرُ مُحْتَمٍّ . قَالَ ابْنُ بَنُوْنَ : وَالسُّلْطَانُ يَمْتَازُ بِلِبْسِ الْخَزِّ ، وَلَوْنُهُ لَوْنُ الْخُضْرَةِ وَالسَّوَادِ . قَالَ : وَهَذَا اللَّوْنُ هُوَ الْمُسَمَّى بِالْخَوْزِي ، وَبِالْغِيَارِ ، وَبِالنَّفِطِيِّ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَهُوَ مَا يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ بِصَفَاقُسَ .

قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَهُوَ الْمُسَمَّى بِوَبْرِ السَّمَكِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ يَعْنِي الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِصُوفِ السَّمَكِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ عِنْدَ ذِكْرِ صَفَاقُسَ مِنْ بِلَادِ أَفْرِيْقِيَّةِ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَهِيَ أَفْخَرُ ثِيَابِ السُّلْطَانِ بَتُونِسَ وَتَقَلُّ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" عَنْ ابْنِ سَعِيدٍ : أَنَّهُ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الصُّوفَ الرَفِيعَةَ ، ذَوَاتِ الْأَلْوَانِ الْبَدِيعَةِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَلْبَسُ الْحَتَمُ الْمُتَرَجُّ مِنَ الْحَرِيرِ وَالصُّوفِ ، بِكَمِينَ طَوِيلِينَ مِنْ غَيْرِ كَثْرَةِ طُولٍ ، ضَمِيقِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَا مَرْنَدِينَ . وَثِيَابُهُ دُونَ شِدَّةِ نِطَاقٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّهُ يُشَدُّ الْمِنْطَقَةَ ، وَيَلْبَسُ الْأَقْمِيَّةَ ، وَلَهُ طَلِيسَانُ صُوفٍ فِي نِهَآةِ اللَّطَافَةِ ، كَانَ يَرْتَدِي بِهِ وَلَا يَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ .

[وَأَمَّا لِبْسُ الْأَشْيَاخِ وَالِدَوَاوِينِ وَالْوَقَافِينِ وَالْجُنْدِ وَالْقَضَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَعَامَّةِ النَّاسِ فَمِنْ زِيٍّ وَاحِدٍ ، لَا تَكَادُ تَتَفَاوَتُ الْعِمَامُ وَالْجَبَابُ وَلَا يَمْتَازُ الْأَشْيَاخُ وَالْوَقَافُونَ

(١) لَعَلَّهُ يَلْبَسُهَا .

والجند إلا بشيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صغر العائم وضيق القماش ، ولباس عامة أهل أفريقية من الجوخ ومن الثياب الصوف ومن الأقبية ومن الثياب القطن ، فمن لبس غير هذا مما يجب من طرائف الاسكندرية والعراق كان نادرا شاذاً^(١) .

الجملة الرابعة عشرة

(في شعار الملك بما يتعلق بهذا السلطان)

نقل في "مسالك الأبصار" : عن ابن القويح أن له علماً أبيض يسمى العلم المنصور، يُحمل معه في المواكب ، وذكر أن الأعلام التي تحمل معه في المواكب سبعة أعلام : الأوسط أبيض وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر . قال : ولا أتحقق كيف ترتيبها وأن ذلك غير أعلام القبائل التي تسير معه فلكل قبيلة علمٌ تمتاز به بما عليه من الكتابة ، والكتابة مثل لا إله إلا الله ، أو الملك لله ، وما أشبه ذلك ، وأن له الطبول والبوقات والنفير .

الجملة الخامسة عشرة

(في جلوس سلطان هذه المملكة في كل يوم)

قال ابن سعيد : عادة هذا السلطان في مدينة مملكته تونس : أنه يخرج باكراً كل يوم إلى موضع يُعرف بالمدرسة ، ويبعث خادماً صغيراً يستدعي وزيراً الجند من موضعه المعين له ، فيدخل عليه رافعاً صوته "بسلام عليكم" عن بُعد من غير أن يؤمى برأسه ، ولا يقوم له السلطان ، فيجلس بين يدي السلطان ، ويسأله السلطان عما يتعلق بأمور الجند والحروب ، ثم يأمره باستدعاء من يريد من أشياخ الجند

(١) الزيادة من القطعة الأثرية وهي في "مسالك الأبصار" أيضاً .

أو العَرَب أو مَنْ لَهُ تَعَلُّقٌ بِوَزِيرِ الْجُنْدِ؛ ثُمَّ يَأْمُرُ بِاسْتِدْعَاءِ وَزِيرِ الْمَالِ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ فَيَأْتِي مَعَهُ وَيُسَلِّمَانِ جَمِيعًا مِنْ بَعْدِ عَلِيٍّ السُّلْطَانِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ سَلامُ وَزِيرِ الْجُنْدِ؛ ثُمَّ يَتَقَدَّمُ وَزِيرُ الْمَالِ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْ السُّلْطَانِ وَيَتَأَخَّرُ وَزِيرُ الْجُنْدِ إِلَى مَكَانٍ لَا يَسْمَعُ فِيهِ حَدِيثَهُمَا؛ ثُمَّ يَخْرُجُ وَزِيرُ الْمَالِ وَيَسْتَدْعِي مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ؛ ثُمَّ يَحْضُرُ صَاحِبُ الطَّعَامِ بِطَّعَامِ الْجُنْدِ وَيَعْرِضُهُ عَلَى وَزِيرِهِمْ لئَلَّا يَكُونَ فِيهِ تَقْصِيرٌ؛ ثُمَّ يَقُومُ السُّلْطَانُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ إِلَى مَوْضِعٍ مَخْصُوصٍ وَيَسْتَدْعِي وَزِيرَ الْفَضْلِ؛ وَهُوَ كَاتِبُ السَّرِّ، وَيَسْأَلُهُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ مِنَ الْبِلَادِ، وَعَمَّا تَحْتَاجُ خِزَانَةُ الْكُتُبِ إِلَيْهِ، وَعَمَّا تَجَدَّدُ فِي الْحَضَرَةِ وَفِي الْبِلَادِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَرْبَابِ الْعِلْمِ وَسَائِرِ فُنُونِ الْفَضْلِ وَالْقُضَاةِ، وَيَأْمُرُ بِاسْتِدْعَاءِ مَنْ يُحْصِيهِ مِنَ الْكُتَّابِ وَيُمِيلِي عَلَيْهِ وَزِيرُ الْفَضْلِ مَا أَمَرَ بِكُتَابَتِهِ، وَيَعْلَمُ عَلَيْهِ وَزِيرُ الْفَضْلِ بِحُطَّه؛ ثُمَّ يَسْتَدْعِي السُّلْطَانُ مَنْ شَاءَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفَضَلَاءِ وَيَتَحَاضَّرُونَ مُحَاضَرَةً خَفِيفَةً، وَإِنْ كَانَ وَزِيرُ الْفَضْلِ قَدْ رَفَعَ قَصِيدَةً لِشَاعِرٍ وَافِدٍ أَوْ مَرْتَبٍ فِي مَعْنَى اسْتِحْجَادِهِ، أَمَرَهُ السُّلْطَانُ بِقِرَاءَتِهَا عَلَيْهِ، أَوْ يَأْمُرُ بِحَضُورِ الشَّاعِرِ لِيُنْشِدَهَا قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ رُتَبَتُهُ، وَيَتَكَلَّمُ السُّلْطَانُ مَعَ وَزِيرِ الْفَضْلِ وَمَنْ حَاضَرَ مِنَ الْفَضَلَاءِ فِي ذَلِكَ وَيَكْتُبُ عَلَى كُلِّ قَصِيدَةٍ بِمَا يَرَاهُ.

الجملة السادسة عشرة

(فِي جُلُوسِهِ لِلظَّالِمِ)

قَالَ الشَّيْخُ شَرْفُ الدِّينِ عَيْسَى الزَّوَاوِيُّ: إِذَا جَلَسَ السُّلْطَانُ جُلُوسَ حَوْلِهِ ثَلَاثَةً مِنْ كِبَارِ أَشْيَاخِ الْمُوَحِّدِينَ لِلرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ، وَيَجْلِسُ مَعَهُمْ وَزِيرُ الْجُنْدِ إِنْ كَانَ كَبِيرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَبِيرًا وَقَفَّ بِإِزَاءِ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةِ، وَيَجْلِسُ دُونَهُمْ عَشْرَةٌ مِنْ أَكْبَرِ أَشْيَاخِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ الثَّلَاثَةُ الْمُخْتَصُّونَ بِالرَّأْيِ مِنْ جَمَلَةِ الْعَشْرِ الْمَذْكُورِينَ؛ وَيَقِفُ

نحسون وَّقَافَا وراءَ وزير الجُند . فإذا أمر السلطان بأمر بلغه وزير الجُند لآخر واقِف وراءه ، وبلغه الآخر لآخر ، وبلغه الآخر لآخر ، حتى ينتهي إلى مَنْ هو خارج الباب بنقل ناسٍ عن ناس ، ويقف دون الخمسين المذكورين جماعة تسمى بالوَقَّافين بأيديهم السيوف حَوْلَه ، وهم دون الخمسين المذكورين في الرتبة . وقد ذكر ابن سعيد : أن يوم السبت مخصوصٌ عنده بأن يقعد في قبة كبيرة في القَصبة : وهي القلعة ، ويحضر عنده أعيان دولته وأقاربه والأشياخ ، ويجلس أقاربه عن جانبه الأيمن ، والأشياخ عن جانبه الأيسر ، ويجلس بين يديه وزير الجُند ، ووزير المال ، وصاحب الشرطة ، والمحتسب ، وصاحب كُتُب المَظالم : وهو الموقَّع على القِصص . ويقرأ الكاتب المعينُ موقَّع له على قِصص المظالم ، ويردّ كل ما يتعلق بوظيفة إلى ربّ تلك الوظيفة ويتقدّم الباقي .

الجملة السابعة عشرة

(في خروجه لصلاة الجمعة)

قال ابن سعيد : من عادة السلطان بأفريقية أنه لا يجتمع يوم الجمعة بأحد ، بل يخرج عند ما يُنادى المنادى بالصلاة ، ويشقّ رحبة قصره ما بين خواص من الممالك الأتراك ، فعند ما يُعانيونه ينادون "سلام عليكم" نداءً عاليًا على صوت واحد يسمعه مَنْ يكون بالمسجد الجامع ، ثم يتقدّمه وزير الجند بين يديه في ساباط يخرج هناك للجامع ، عليه باب مُذهب سلطاني ، ويسبقُ الوزيرُ فيفتح الباب ، ويخرج منه السلطان وحده ، ويخرج له جماعة الوقَّافين من أعيان الدولة فلا يقوم له في الجامع غيرهم ، وليس له مقصورةٌ مخصوصةٌ للصلاة . فإذا انفصل عن الصلاة قعد في قبة كبيرة له في صدر الرحبة وحضر عنده أقاربه ، ثم يدخل قصره .

الجملة الثامنة عشرة

(في رُكوبه لصلاة العيدين أو للسفر)

قال القاضي شرف الدين عيسى الزواوي : وعادته في ذلك أن يركب السلطان ، وعن يمينه فارس وعن يساره فارس من أكابر أشياخه من العشرة المتقدم ذكرهم ، ويمشي إلى جانبه رجلان مقلدان سيقين رجالة إلى جانبه : أحدهما ممسك بركابه الأيمن ، والثاني ممسك بركابه الأيسر ، ويلهما جماعة رجالة من أكابر دولته : مثل الثلاثة أصحاب الرأي ، والعشرة الذين يلونهم ، ومن يجري مجراهم من أعيان الجند ، وتسمى هذه الجماعة ايربان ، يمشون حوله بالسيوف وبأيديهم عكاكيز . قال : وربما مشى في هؤلاء قاضي الجماعة : وهو قاضي القضاة . وأمام هؤلاء الجماعة المشائين نفر كثير من الموحدین أقارب السلطان بسيوف ومزاريق ، ويسمون بالمشائين . وقد أمهم جماعة يقال لهم جفاوة : وهم عبيد سود بأيديهم حراب في رؤوسها رايات من حرير ، وهم لابسون جبأبا بيضا مقلدون بالسيوف . وأمام هؤلاء قوم يعبر عنهم بعبيد المخزن ، وهم عوام البلد وأهل الأسواق ، وبأيديهم الدرق والسيوف ، ومعهم العلم الأبيض المسمى بالعلم المنصور المتقدم ذكره في شعار السلطنة .

وعادتهم أن ينادي فيهم لیسلة العيد أو رُكوب السلطان لسفر ، فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، ويكون خلف السلطان صاحب العلامات ، وهو أمير علم راكب ، ووراءه أعلام القبائل ، ووراء الأعلام الطبول والبوقات ، وخلفهم محركو الساقة الذين هم بمثابة الثقباء بأيديهم العصي يرتبون العساكر ، وخلف هؤلاء العسكر . والفارس الذي عن يمين السلطان إليه أمر دق الطبول يقول : دق فلان باسم كبيرهم ، ويستمر من حول السلطان من المشاة يمشون ثم يركبون ، ويطيف

بالسلطان جماعة يقرعون حزبا من القرآن الكريم . ثم يقف السلطان ويدعو ويؤمن
وزير الجند على دعائه ، ويؤمن الناس على تأمينه ، ويحد الناس والسلطان السير . فإن
كانوا في فضاء كان مشيهم على هذا الترتيب ، وإن ضاق بهم الطريق مشوا كيف جاء
على غير ترتيب إلا أن الجند لا يتقدمون على السلطان . فإذا قربوا من المنزلة وقف
السلطان ودعا وأمن على دعائه كما تقدم . وإن كان في صلاة العيد ذهب في طريق
وعاد في أخرى .

الجملة التاسعة عشرة

(في خروج السلطان للتنزه)

قد تقدم في الكلام على مدينة تونس أنها على طرف بحيرة خارجة من البحر
الرومي تحديق بها البساتين من كل جانب ، وفي تلك البحيرة جزيرة يقال لها سكة
لا ساكن بها ربما ركب السلطان في السفن وصار إليها في زمن الربيع ، وتضرب
بها أخبية ويقيم بها للتنزه أياما ثم يعود . على أنه لا ماء فيها ولا مرعى ، ولكن
لما تشرف عليه من البساتين المستديرة بتلك البحيرة وما قبلها من الحواشى المشرفة
ومنظر البحر . وقد ذكر ابن سعيد : أنه ربما خرج إلى بستانه ، فيخرج في نحو
مائتي فارس من الشباب المعروفين بالصبيان الذين هم بمثابة الممالك الكانية
بالديار المصرية ، يوصلونه إلى البستان ويرجعون ، ويبقى وزراؤه الثلاثة نوابا له .
وكل ما تجدد عند كل واحد منهم من الأمر طالع به وجاوبهم بما يراه . قال
في "مسالك الأبصار" : وركوبه إلى البستان في زقاق من قصبته إلى البستان ،
محبوب بالحيطان لا يراه فيه أحد .

الجملة العشرون

(في مكاتبات السلطان)

قال في "مسالك الأبصار" : قال ابن سعيد : قال العلامة أبو عبد الله بن القويّ : إن هذا السلطان لا يعلم على شيء يكتب عنه ، وإنما يعلم عنه في الأمور الجكار صاحب العلامة الكبرى ، وهو كاتب السرفى الغالب ، والعلامة "الحمد لله" أو "الشكر لله" بعد البسملة . قال : ومن خاصية كتب هذا السلطان أن تكتب في ورق أصفر . ومن عادته وعادة سائر المغاربة أن لا يطيلوا في الكتب ولا ياعدوا بين السطور كما يفعل في مصر وما ضاهاها . أما في الأمور الصغار فإنما تكون الكتابة فيها عن وزير الجند ، ويكتب عليها صاحب العلامة الصغرى اسم وزير الجند ، وتكون هذه الكتب في غير الورق الأصفر .

الجملة الحادية والعشرون

(في البريد المقرر في هذه المملكة)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنه إذا كتب كتاب إلى نواحى هذه المملكة ليوصل إلى بعض نوابها ، جهّز مع من يقع الاختيار عليه من النقباء أو الوصفان : وهم عميد السلطان ، ويركب على بغل إما ملك له أو مستعار ، ويسافر عليه إلى تلك الجهة . فإن أعياناً في مكان تركه عند الوالى بذلك المكان وأخذ منه بغلاً عوضه ، إما من جهة الوالى أو يسخره له من الرعايا ، إلى أن ينتهى إلى جهة قصده ثم يعود كذلك .

الجملة الثانية والعشرون

(في الحَلَج والتَّشَارِيف في هذه المملكة)

قال القاضي أبو القاسم بن بَنُون : ليس من عادة سلطان أفريقية إلباس مَنْ وَلَّى ولاية خُلَعَة كما في مصر ، وإنما هي كُسوة : وهو قماش غير مُفَصَّل يتصرَّف فيه كيف شاء .

المملكة الثانية

(من ممالك بلاد المغرب مملكة تِلِمَسَان)

وهي مملكة الغرب الأوسط . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في ذكر حُدُودها ، وقاعدتها ، وما آسَمت عليه من المُدن ،

والطريق الموصلة إليها)

أما حدودها ، فحُدُّها من الشرق حُدُود مملكة أفريقية وما أُضيف إليها من جهة الغرب ؛ وحُدُّها من الشمال البحر الرومي ؛ وحُدُّها من الغرب حُدُود مملكة فاس الآتي ذكرها من الشرق ؛ وحُدُّها من جهة الجنوب المفاوِزُ الفاصلةُ بين بلاد المغرب وبلاد السودان . وذكر في " العبر " : أن حُدُّها من جهة الغرب من وادي مَكْوِيَّة الفاصل بينها وبين الغرب الأقصى إلى وادي مَجْمَع في جهة الشرق الفاصل بينها وبين أفريقية .



وأما قاعدتها ، فمدينة (تِلِمَسَان) بكسر المشاة من فوق واللام وسكون الميم وفتح السين المهملة وألف ونون . وهي مدينة من الغرب الأوسط . وقال

في "تقويم البلدان": من الغرب الأقصى متاحة للغرب الأوسط شرقي فاس بميلة إلى الشمال . وموقعها في أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتا عشرة دقيقة . وهي مدينة في سفح جبل ، ولها ثلاثة عشر بابا ، وماؤها محبوب من عين على ستة أميال منها ، وفي خارجها أنهار وأشجار ، ويستدير بقبليها وشرقيها نهر يصب في بركة عظيمة من آثار الأول ، ويسمع لوقعه فيها خرير على مسافة ، ثم يصب في نهر آخر بعد ما يمر على البساتين ، ثم يصب في البحر ، وعليه أرواء دائرة تدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر ، وتبعثها شريفة كثيرة المرافق . ولها حصون كثيرة وفرض عديدة .

منها (هنيئ) و(وهران) و(مستغانم) . فهنن تقابل المريّة من الأندلس ووهران في شرقي تلمسان بشمال قليل ، على مسيرة يوم من تلمسان ، ومستغانم تقابل دانية من الأندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار ونصف مجرى . قال الإدريسي في "كتاب رجّار" : وبها آثار الأول ، ولها أسواق ضخمة ومساجد جامعة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي على ما بلغ حدّ التواتر أنها في غاية المنعة والحصانة مع أنها في وطأة من الأرض ولكنها محصنة البناء . وبلغ من حصانتها أن أبا يعقوب المريّني صاحب فاس حاضرها عشر سنين ، وبني عليها مدينة سماها فاس الجديدة وأحجزه فتحها ولها ثلاثة أسوار ، ومن جهة القصبة وهي اتلمعة ستة أسوار ، وبها أنهار وأشجار ، وبها شجر الجوز على كثرة ، ومشمشها يقارب في الحسن مشمش ديمق . قال في "مسالك الأبصار" : زكية الزرع والضرع ، ويقصدها تجار الآفاق للتجارة . قال : ويطول مكث المخزونات فيها حتى إنه ربما مكث القمح والشعير في مخازنها ست سنين ثم يخرج بعد ذلك فيزرع فينبت .



وأما مدنها الداخلة في مملكتها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن لها ثمان عشرة مدينة : وهي تلمسان ، وجده ، ومدْيُونَة ، وتَدْرُومَة ، وهِنَن ، ووَهْرَان ، وتيَزْغَرَان ، وبرسك ، وشرشال ، وتونت ، ومنسْتَعَانِم ، وتَنَس ، والجزائر ، والقَصَبَات ، ومازونة ، وتاحمجت ، ومليانة ، والمريّة .



وأما الطريق الموصل إليها ، فقد تقدم في الكلام على مملكة تُونُس الطريق من الديار المصرية إلى تُونُس . وقد ذكر في "الذيل على الكامل" أن من تُونُس إلى بَاجَة ، ومنها إلى تغريه وهي آخر بلاد أفريقية ، ومنها إلى قُسْطِطِينَة وهي أول بلاد بِجَايَة ، ومنها إلى أول بلاد تِلْمَسَان ، ومنها إلى قُلَيْدِيَة ، ومنها إلى البُقَيْعَة ، ومنها إلى تِلْمَسَان .

الجملة الثانية

(في حال مملكتها)

لم أفق على شيء من ترتيب مملكتها ، والظاهر أنها تشبه مملكة تُونُس في الحال والترتيب أو قريب من ذلك . فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بِجَايَة ثَانِيَة تُونُس في الرتبة والحال ، والموجودات ، والمعاملات . وقد تقدم أن بِجَايَة من أقرب الاوسط ، فتكون تِلْمَسَان في معناها ، وإن وقعت مخالفة في ترتيب المملكة فإنما تكون في القدر اليسير . قال في "مسالك الأبصار" وهي مملكة كبيرة ، وسلطنة جائلة ، قريب الثلاثين من مملكة بر العُدوة . وهي وسيعة المدى ، كثيرة الخيرات ، ذات حاضرة وبادية ، وبر وبحر .

المملكة الثالثة

(من بلاد المغرب — الغرب الأقصى ،
ويقال له برّ العدو ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في بيان موقعها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها
وما اشتملت عليه من المدن والجبال المشهورة . وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في بيان موقعها من الأقاليم السبعة)

فوقِعتها في الإقليم الثالث كما في مملكة تونس ، وبعضها في الإقليم الثاني ، وبعضها
في أوائل الإقليم الرابع على ما سيأتي ذكره .

وأما حدودها . فقد ذكر صاحب "العبر" : أنه من مدينة آسفي حاضرة البحر
المحيط إلى وادي ملوية ومدينة تازا من جهة الشرق ، يحيط به البحر المحيط من جهة
الغرب ، وجبال درن وما يليها من جنوبيّة ، وجبال تازا من شرقيّة ، والبحر الرومي
من شماليّه . ثم قال : وهو ديار المصامدة وغيرهم من البربر . وذكر في "مسالك
الأبصار" نقلا عن أبي عبد الله محمد بن محمد السلاحي ^(١) : أن حدّها من الجنوب
الصحراء الكبيرة الآخذة من بلاد البربر إلى جنوب أفريقيا ؛ ومن الشرق جزائري
مرغانة وما هو آخذ على حدّها إلى الصحراء الكبيرة ؛ ومن الشمال البحر الشامي ؛
ومن الغرب البحر المحيط .

(١) في المسالك السلاحي ، وقد تكرر .

وحكى عنه : أن طُولَ هذه المملكة من جزائر بني مرغانة ، وهى جزائر بنى مرغانان المقدم ذكرها فى بلاد بجاية من مملكة تُونُس إلى البحر المحيط ، وعرضها من بحر الرقاق بسبته إلى نهاية بلاد البربر المتصلة بالصحراء الفاصلة بين هذه المملكة وبين بلاد السودان ثلاثون يوما .

الجملة الثانية

(فى بيان قواعدها وما أشتملت عليه هذه المملكة

من الأعمال وما أنطوت عليه من المَدُن)

أما قواعدها فخمس : ^(١)

القاعدة الأولى

(فاس)

بفتح الفاء ثم ألف وسين مهملة . وهى مدينة بالغرب الأقصى ، واقعة فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول عَشْرُ دَرَجٍ وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال : وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا فى حفر أساسها ، وجدوا فأسا فى موضع الحفر . قال فى "تقويم البلدان" : وهى مدينتان يشق بينهما نهر . الأولى (فاس القديمة) والمياه تجرى بأسواقها وديارها وحماتها ، حتى يقال إنه ليس بالمشرق ولا بالمغرب مدينة تضاهيها فى ذلك ؛ إلا أن أرضها ذات ارتفاع وانخفاض ، وفيها عدة عيون . قال أبو عبد الله العسلى : عدتها ثلثمائة وستون عينا . قال ابن سعيد : لم أرقط حمامات فى داخلها عين تنبع إلا فى فاس . قال : وهى أكثر مياهها من دمشق . قال ابن سعيد فى "المغرب"

(١) لم يذكر إلا أربعة .

وهي مدينتان : إحداهما بناها إدريس بن عبد الله : أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب ، وتُعرف بِعُدُوَّة الأَنْدَلُس . والأُخرى بنيت بعدها وتعرف بِعُدُوَّة القَرَوِيَّين . قال في "الروض المعطار" : وكان بناء عُدُوَّة الأَنْدَلُسِيَّين في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبناء عُدُوَّة القَرَوِيَّين في سنة ثلاث وتسعين ومائة . وعُدُوَّة القَرَوِيَّين أَكْثَرُ عِمُونًا وبساتين وأشجارًا من عُدُوَّة الأَنْدَلُسِيَّين . ورجال عُدُوَّة الأَنْدَلُسِيَّين أَشْجَعُ . ورجال عُدُوَّة القَرَوِيَّين أَجْمَلُ . ونساء عُدُوَّة الأَنْدَلُسِيَّين أَجْمَلُ . وبُعْدُوَّة الأَنْدَلُسِيَّين تُفَاح حَسَن طَيِّب الطَّعْم يُعْرَف بِالطَّرَابِلُسِيِّ لَا يُفْلِح بِعُدُوَّة القَرَوِيَّين . وبُعْدُوَّة القَرَوِيَّين أَتْرَجٌ حَسَنٌ لَا يُفْلِح بِعُدُوَّة الأَنْدَلُسِيَّين مع التقارب على ضَفَّة النهر الغربية ؛ وهي في مستوٍ من الأرض ، وهي في علوٍ لا يحكمُ النهر عليها . والثانية (فاس الجديدة) وهي ثلاث مُدُنَ بناها آباء ملوكها القائمين بها الآن حين ملكوا الغرب الأقصى . ولما نزلوها بنوا معها ثلاث مُدُنَ على ضَفَّة النهر الغربية .

أولها (المدينة البيضاء) وتُعرف بِالْجَدِيدَةِ . بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق أول من آستقل بالملك بعد الموحِّدين .

الثانية (مدينة حمص) ويُعرف موضعها بِالْمَلَّاح . بناها ولده أبو سعيد : عثمان ابن أبي يوسف إلى جانب المدينة البيضاء المقدم ذكرها .

الثالثة (ربض النصارى) وهي المتخذة لِسُكْنَى النصارى من الفريق المستخدمين بخدمة السلطان . وهذه المتجددات الثلاث على ضَفَّة النهر الغربية : فربض النصارى يقابل فاس القديمة على بُعد من ضَفَّة النهر . والبيضاء وهي فاس الجديدة آخذة من شمالي ربض النصارى إلى ضَفَّة النهر . وأول عمارة فاس الجديدة آخر عمارة فاس العتيقة . وحمص راکبة على النهر بشمال على جانب فاس الجديدة آخذة إلى ربض

النصارى، ينصبُّ من الجنوب إلى الشمال، ثم ينعطف على زاويةٍ أخذاً من الغرب إلى الشرق حتى يصير كأنه يتحدَّر من الغرب، ويحصُّ على مجراه هناك؛ ثم يمرَّ آخذاً إلى الشرق على حاله فوق فاس الجديدة . ثم ينعطف عليها بزواية إلى الجنوب ثم ينعطف إلى الشرق جائزاً بها؛ وهناك فاس العتيقة على الضَّفة الشماليَّة، والقَصبةُ وهى القلعة بها فى غربها مرجلة على الأرض لا تميز على المدينة برفعة ولا ببناء عال؛ ويصير النهرُ مستديراً بفاس الجديدة من جانب الشمال على المجرى المَرَكَّب عليه حصص، ومن الشرق حيث أنعطف النهرُ عند فاس العتيقة .

قال فى "مسالك الأبصار": وهذا النهر متوسط المقدار . عرضُه فى المكان المتسع نحو أربعين ذراعاً، وفى الضيق دونَ ذلك؛ وربما تضائق إلى خمسة عشر ذراعاً فما دونها؛ وعمقه فى الغالب تقديرُ قامة رجل . وتتل فى "مسالك الأبصار" عن ابن سعيد: أن نهرها يلاقى وادى سبو، وهو من أعظم أنهار المغرب، يصبُّ فى البحر المحيط بين سلا وقصر عبد الكريم . قال فى "تقويم البلدان" قال ابن سعيد: وعلى أنهارها داخل المدينة نحو ستمائة رحاً تدور بالماء دائماً . قال فى "مسالك الأبصار": وأعلىها ناعورة ترفع الماء إلى بستان السلطان . وبناء فاس العتيقة بالأبحر والجبال مكتنفة بها، وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرية محصنة ذات بروج وبدانات، وجميع أبنيتها بالحجر والأبحر والكس مؤنقة البناء مشيدة الأركان . وتزيد فاس الجديدة على فاس العتيقة فى الحصانة والمنعة؛ والعتيقة بسور واحد من الحجارة والجديدة بسورين من الطين المقرغ بالقلب من التراب والرمل والكس المضروب وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه، وكذلك غالب أبنيتها، وسقوف جميعها الخشب وربما غشيت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة،

(١) يؤخذ من عبارة ياقوت أن نهرها يتفرق داخلها إلى أنهار وعليها من الأرحاء ذلك المقدار .

وأرض دور رؤسائها مفروشة بالزَّيْتِج . وهو نوع من الآجر مدهون بدهان ملون كالقاشاني بالأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر وما يركب من هذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلي وربما أخذ منه الزرات بجيطان الدور؛ قال في "مسالك الأبصار": وسألت السلاطيني عن مقدار عمارة فاس عتيقها وجديدها . فقال: تكون قدر ثلث مصر والقاهرة وحواضرهما . قال في "تقويم البلدان"^(١): وللايتين ثلاثة عشر باباً ، وفي القديمة مخازن الغلال ، وهي مكان يستدير عليه سور منيع عليه بابٌ وعَلَقَ دَاخِلُهُ المطامير . وبفاس العتيقة داخل سورها جنانٌ ورياض ذات أشجار ورياحين في دور الكبراء وبيوت الأعيان . ثم قال : وبكل من فاس القديمة وفاس الجديدة المعروفة بالبيضاء وخص الجوامع والمساجد والمآذن والحمامات والأسواق . أما المدارس والخوانق والرُّبُطُ فما حَلَّتْ صحائف أهل المغرب من أجورها إلا التَّزْرَ اليسير جداً . وبفاس العتيقة مارستانٌ ، ودور فاس مجالسٌ متقابلةٌ على عمد من حجر أو آجرٍ ورَفَافٍ تُطَلُّ على صحن الدار ، وفي وسط صحن الدار بركة يَصْبُ بها الماءُ ويعبر عنها عندهم بالصَّهْرِيح ، ولهم عناية باتخاذ القباب في بيوتهم ، حتى يوجد في دار الكبير قبتان فأكثر ، وحماماتهم صحن واحد لا خلاوى فيها ، ولذلك يَتَّخِذُ غالب رؤسائهم الحمامات في بيوتهم ، فوارا من مخالطة العامة في الحمام .

قال ابن سعيد : ومدينة فاس متوسطة بين مُلْك الغرب ، بينها وبين مَرَّاكُش عشرة أيام وبينها وبين تلمسان عشرة أيام ، وبينها وبين سبتة عشرة أيام ، وبينها وبين

(١) الزيادة من القطعة الأثرية .

(٢) أى ينسكب بها وصب يكون لازماً ومتعدياً إلا أن اللازم من باب ضرب والمتعدى من باب نصر كما نص عليه في تاج العروس والمصباح

(٣) مراده أن حماماتها ليس بها حجر للخواص . وقد جرى العامة في جمع الخلوة على خلاوى .

وبين ساجسة عشرة أيام . قال في "مسالك الأبصار" . ولذلك صَلَحَتْ أَنْ تكون قاعدة الملك . وهى تشبه الإسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المُنْكَر والقيام بالناموس ، وتُسَبَّه بِدِمَشْق في البساتين .

وقد ذكر ابن مُنْقِذ: رسول السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلى بلاد المغرب : أنهم أخرجوا إلى بستانٍ بفاس يقال له البحيرة متحصّله في كل سنة خمسة وأربعون ألف دينار ، وبه بركةٌ ذرع كل جانب منها مائتان وستة عشر ذراعا ، يكون دورها ثمانمائة ذراع وأربعة وستين ذراعا . قال : وبها ما هو أكبر من ذلك . قال في "تقويم البلدان" : وأهلها مخصّوصون برفاية العيش . قال في "مسالك الأبصار" : ولأهلها حُسن الصنعة في المخروطات من الخشب والنحاس . قال أبو عبد الله السلاحي : ولكنها وثجة ثقيلة الماء ، تعلو وجوه سكّانها صفرة ، وتحدث في أجسادهم كسلا وفُتورا .

القاعدة الثانية

(سَابِئَةُ)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة وتاء مثناة فوق وهاء في الآخر . قال في "الروض المعطار" : والنسبة إليها سَبِئِي بكسر السين . وهى في دَخْلَةٍ في البحر . قال في "تقويم البلدان" : وهى مدينة بين بحرَيْن : بين البحر المحيط وبحر الرُّوم . ومدخلها من جهة المغرب وهو مدخل ضيق ، والبحر محيط بأكثرها ، ولو شاء أهلها لوصلوا البحر حَوْلَهَا وجعلوها جزيرة . ولها أسوار عظيمة من الصخر ، وعليها أبراج كثيرة ، والماء يُجْلَب إليها في الشواني حتى للحمات

التي بها ، وبها صهاريج من ماء المطر . ويقال إنها أوّل ما بنى ببرّ العدوّة . قال في "الروض المعطار" : وهي سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض معمورة ؛ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ميل . وقال في "مسالك الأبصار" : طولها من السور الغربي المحيط برّضها إلى آخر الجزيرة خمسة أميال . قال في "الروض المعطار" : ولها بابان من جهة البرّ ، ويتصل بها على ميلين من جهة الغرب جبل يعرف بجبل موسى ، وهو موسى بن نصير الذي فتح الأندلس ، ويجاوره بساتين وأشجار وقرى كثيرة ؛ وهناك يُزرع قصب السكر ويحمل إلى ما جاورها من البلدان ؛ ولها نهر عذب في البحر ؛ وكان بها كنيسة جعلت جامعاً ؛ وبها يستخرج من البحر شجر المرجان الذي لا يعدله مرجان . ويقابلها من الأندلس الجزيرة الخضراء وبحر الروم بينهما ضيق ، حتى إنه إذا كان الصحو ريثت إحداهما من الأخرى ، ولذلك يسمى بحر الرّق ، وميناءا شرفيّها ؛ وغالب طرف الدنيا موجودة فيها ؛ والخطة مجلوبة إليها إذ لا يزكونبائها فيها ؛ ويصاد بها أسماك مختلفة على نحو مائة نوع . ويتأبل هذه المينة من برّ الأندلس الجزيرة الخضراء .

وكانت هذه المدينة قاعدة لهذا القطر قبل الإسلام ، وهي يومئذ يار عمارة من المصامدة ، والحاكم عليها ملك الأندلس من القوط ، وكان ملك عمارة بها في زمن الفتح يقال له يليان ؛ ولما زحف إليه موسى بن نصير المذكور أمير أفريقية في زمن الفتح جاء معه بالهدايا ، وأذعن لأداء الجزية فأقرّه عليها ، وأسّرهنّ ابنه وأبناء قومه ، وأنزل طارق بن زياد بطنجة بالعساكر إلى أن أجاز البحر لفتح الأندلس كما سيأتي في الكلام على مكتبة صاحب الأندلس .

ولما هلك يُلْيَانُ استولى المسلمون من العرب على مدينة سَبْتَةَ بالصُّلَح من أهلها فعمروها إلى أن كانت فتنة مَيْسَرَةَ الخفير وما دعا إليه من مذهب الخوارج وأخذ به الكثير من البربر من غمارة وغيرهم ، فزحف بَرَابَرَةُ طَنْجَةَ إلى سَبْتَةَ فأخرجوا العرب منها ونحروها ، وبقيت خالية إلى أن عمَّرها ما جكس من وجوه غمارة من البربر وبنها وأسلم وصحب أهل العلم ، فرجع الناس إليها ومات .

فقام بأمره من بعده أبنه (عصام) فأقام بها زمنا إلى أن مات .
فولى بعده أبنه (مجير) فأقام بها إلى أن مات .

فوليا أخوه (الرَضَى) ويقال أبنه ، وكانوا يُعْطَوْنَ الطاعة لبني إدريس من العلوية ملوك فاس ؛ ولما سَمَا الناصر الأمويّ صاحب الأندلس إلى ملك المغرب وتناول أكثره من يد الأدارسة ببلاد غمارة وغيرها حين أخرجوا من فاس وقاموا بدعوة الناصر في جميع أعمالهم ، نزلوا للناصر عن سَبْتَةَ ، فبعث إليها العساكر فارتعها من يد الرَضَى بن عصام سنة تسع عشرة وثلاثمائة ؛ وأنقرض أمر بني عصام وصارت سَبْتَةُ للناصر ومن بعده من بني أمية خلفاء الأندلس . وكان عليّ والقاسم أبنا حمود بن ميمون ، بن أحمد ، بن عليّ ، بن عبيد الله ، بن عمر ، بن إدريس العلويّ قد لحقا بالأندلس لما أخرج المستنصر الأمويّ الأدارسة من المغرب ، وبقيّا بالأندلس إلى أن كانت أيام المستعين سليمان بن الحكم فأختص بقاسم وعليّ أبني حمود ، وعقد لعليّ بن حمود على طنجة وأعمال غمارة فنزلها ، ثم خرج عن طاعته ودعا لنفسه ، وعاد إلى الأندلس وولى الخلافة بقرطبة كما سيأتي في مكتبة صاحب الأندلس ، وولى على عمله بطنجة أبنه يحيى بن عليّ .

ثم أجاز يحيى بعد موت أبيه إلى الأندلس واستقلّ أخوه إدريس بن عليّ بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه من مواطن غمارة .

ثم أجاز إلى الأندلس بعد مَوْلِكَ أَخِيهِ يَحْيَى ، وعقد حَسَنُ بْنُ أَخِيهِ يَحْيَى عَلَى
عملهم بِسَبْتَةَ وَطَنْجَةَ وَأَرْسَلَ مَعَهُ نَجَا الْخَادِمَ لِتَدْيِيرِ دَوْلَتِهِ .

ثم أجاز (نَجَا) الْخَادِمُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَمَعَهُ حَسَنُ بْنُ يَحْيَى الْمَذْكُورُ ؛ ثُمَّ عَقَدَ حَسَنُ
لِنَجَا الْخَادِمِ عَلَى عَمَلِهِمْ فِي بِلَادِ عُمَّارَةَ .

فلما هَلَكَ حَسَنُ بِالْأَنْدَلُسِ ، أَجَازَ (نَجَا) إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْعَمَلِ مَنْ
وَثِقَ بِهِ مِنَ الْمَوَالِي الصَّقَالِبَةِ ، وَاسْتَبْرَزَتْ فِي الْمَوَالِي وَاحِدًا بَعْدَ آخَرٍ إِلَى أَنْ اسْتَقَلَّ
بِسَبْتَةَ وَطَنْجَةَ مِنْ مَوَالِي بَنِي حَمُودِ الْحَاجِبِ (سَكُوتِ الْبَرْغُوطِيِّ) فَاسْتَقَلَّ بِسَبْتَةَ
وَطَنْجَةَ وَأَطَاعَتْهُ قِبَائِلُ عُمَّارَةَ ؛ وَاتَّصَلَتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَنْ كَانَتْ دَوْلَةُ الْمُرَاطِينِ ، وَغَلَبَ
أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ «يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ» عَلَى مَغْرَاوَةِ بَقَاسَ ، وَسَارَ إِلَى بِلَادِ عُمَّارَةَ
وَنَازَلَ سَكُوتَ الْحَاجِبِ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا وَاقِعَةٌ قُتِلَ فِيهَا سَكُوتُ ؛ وَلَحِقَ ضِيَاءُ الدَّوْلَةِ
أَبْنُ سَكُوتِ بِسَبْتَةَ فَأَقَامَ بِهَا إِلَى أَنْ نَازَلَهُ الْمُعْزُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ بِهَا فَقَبِضَ عَلَيْهِ
ثُمَّ قَتَلَهُ ؛ وَانْقَرَضَتْ دَوْلَةُ بَنِي حَمُودٍ مِنْ بِلَادِ عُمَّارَةَ وَصَارَتْ فِي مَلِكِ الْمُرَاطِينِ إِلَى أَنْ فَجَحَ
بَنُو عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مَرًّا كُشَّ ، فَدَخَلَ أَهْلُ سَبْتَةَ وَسَائِرُ عُمَّارَةَ فِي طَاعَتِهِمْ ؛
وَأَقَامَتْ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ ضَعُفَتْ دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ : ثَارَ فِي عُمَّارَةَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ
اللَّثَامِيُّ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الطَّوَّاجِنِ ، وَكَانَ لَهُ يَدٌ فِي السَّيْمِيَاءِ ، وَارْتَحَلَ إِلَى سَبْتَةَ فَتَزَلَّ
عَلَيْهَا وَادَّعَى النُّبُوَّةَ وَأَظْهَرَ أَنْوَاءَ مِنَ السَّيْمِيَاءِ فَاتَّبَعَهُ جَمَاعَةٌ ؛ ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ حَقِيقَةُ
أَمْرِهِ فَرَجَعُوا عَنْهُ ، وَقَتْلَهُ بَعْضُ الْبَرْبَرِغِيلَةِ ، إِلَى أَنْ كَانَتْ أَيَّامُ بَنِي مَرْيَنٍ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ
عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِمْ سَبْتَةُ ، وَقَامَ بِأَمْرِهَا الْفَقِيهُ أَبُو الْقَاسِمِ الْعَزْفِيُّ مِنَ
مَشِجَّتِهَا فَبَقِيَتْ بِيَدِهِ وَيدُ بَنِيهِ إِلَى أَنْ مَلَكَهَا مِنْهُمْ بَنُو مَرْيَنٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ
وَسَبْعِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ، فَصَارَتْ تَابِعَةً لِفَاسِ دَارِ مُلْكِ بَنِي مَرْيَنٍ
جَارِيَةً فِي يَدِ مَلُوكِهَا ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى زَمَانِنَا بَعْدَ الْعَشْرِ وَالثَّمَانِيَةِ .

القاعدة الثالثة

(مدينة مَرَّأَكُش)

بفتح الميم وتشديد الراء المهمله وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة .
وهى مدينة واقعة فى أول الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث
الطول إحدى عشرة درجة ، والعرض تسع وعشرون درجة . بناها أمير المسلمين
« يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين فى أرض صحراويّة ، وجلب إليها المياه .
قال ابن سعيد : وأول ما بُنى بها القصر المعروف (بقصر الحجر) ثم بنى الناس حوله ؛
ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن ، وكبرها ومصرها ، وفتحها وصحّمتها ، وجلب إليها
المياه والغراس . قال فى « تقويم البلدان » : ودورها سبعة أميال ، ولها سبعة عشر
بابا . قال فى « الروض المطّار » : وبنى سورها على بن يوسف بن تاشفين فى سنة
ستّ وعشرين وخمسمائة ، وقيل سنة أربع عشرة وخمسمائة . قال : وطولها
مائة وعشرون ميلاً ، وعرضها قريب من ذلك ؛ وهى فى وطأة من الأرض ليس
حولها جبال إلا جبل صغير منه قُطع الحجر الذى بنى منه على بن يوسف بن
تاشفين قصره ، وعامة بنائها بالطين والطوب .

قال ابن سعيد : وهى مما سكنتُ بها وعرفتُها ظاهراً وباطناً ، ولا أرى عبارة
تفى بما تحتوى عليه ، ويكفى أن كل قصر من قُصورها مستنقلاً بالديار والبساتين
والحمام والإصطبلات والمياه ، وغير ذلك حتى إن الرئيس منهم يُغلق بابه على
جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه ، ولا يخرج من بابه إلى خارج داره لحاجة
يحتاجها ، ولا يشتري شيئاً من السوق لما كَل ، ولا يُقرئ أولاده فى مكتب ،
ويخرج من بابه راجعاً فلا تقع عليه العين راجلاً . قال : ولا أدري كيف أصل إلى

غاية من الوصف اِصْفُ بها ترتيب هذه المدينة المُحدَّثة ؟ فإنها من عجائب هِمَّات السلاطين ، ذات أسوار صَحْمَة وأبواب عالية .

وبظاهاها مدينة آخَظَظَها المنصور "يعقوبُ بن عبد المؤمن" له ولخواصه تعرف بـتَامَرَاكش ، وبها قصر الخلافة الذي بناه به دورٌ عظيمة ، وبها بستانٌ يعرف بالبحيرة طوله اثنا عشر ميلاً ، به بركة عظيمة لم يُعَمَلْ مثلها قال العقيلي : طولها ثلثمائة وثمانون باعاً ، على جانبها الواحد أربعمائة شجرة نارنج ، بين كل آثنتين منها ليمونة أو ريحانة . وهي أكثر بلاد الغرب بساتين ، وشجرها أكثر منها ، وبساتينها تسقى بالبئار وبئارها قريبة الرشاء على نحو قامتين من وجه الأرض ، وهي كثيرة الزرع والضرع ، وبها دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة . وفيها يقول محمد بن محمد البربري من أبيات يمدحهم ويصفها :

خَيْرُ قَوْمٍ دُعُوا إِلَى خَيْرِ دَارٍ ، * هِيَ لِلْمَلِكِ نَضْرَةٌ وَكِامَةٌ

عَالَمُ السَّبْعَةِ الْأَقَالِيمِ فِيهَا ، * وَهُمْ فِي فَنَائِهَا كَالْقَلَامِ

وبمَرَاكش جامعٌ جليل يُعرف بالكُتَيْبِيِّين ، طوله مائة وعشرة أذرع ، وعلى بابه ساعاتٌ مرتفعة في الهواء خمسين ذراعاً ، كان يُرْمَى فيها عند انقضاء كل ساعة صَنْجَةٌ زيتها مائة درهم ، تَتَحَرَّكُ لتزولها أجراسٌ تُسَمَّعُ على بُعد ، تسمى عندهم بالبحانة . قال في "تقويم البلدان" : إلا أنَّ الناس أكثرُوا فيها البساتين فكثُرَ ونَحَمَها . قال في "الروض المعطار" : وقد هَجَّأها أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد ابن أيوب بن نُوح الغافقي من أهل بَلَنْسِيَّةَ بأبيات أبلغ في ذمِّها ، فقال :

مَرَّاكُشُ إِنْ سَأَلْتَ عَنْهَا ، * فَإِنَّهَا فِي الْبِلَادِ عَارُ !

هَوَاؤُهَا فِي الشِّتَاءِ ثَلْجٌ ، * وَحَرُّهَا فِي الْمَصِيفِ نَارُ !

وكلُّ ما ثمَّ وهو خَيْرٌ * من أهلها عَقَرُ وفَارُ!

فَإِنْ أَكُنْ قَدْ مَكَثْتُ فِيهَا ، * فَإِنَّ مُكْثِي بِهَا أَضْطَرُّ!

وكانت هذه المدينة دارَ مُلْكِ المرابطين من الملثمين الذين ملكوا بعد بني زيري ،
ثم الموحدين من بعدهم . قال ابن سعيد : وبينها وبين فاس عشرة أيام . وقال
في "الروض المعطار" : نحو ثمانية أيام . قال : وبينها وبين جبال درن نحو
عشرين ميلا .

القاعدة الرابعة

(سِيْلَمَاسَةُ)

بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون اللام وفتح الميم ثم ألف وسين مهملة
مفتوحة وهاء في الآخر، وهي مدينة في جنوب الغرب الأقصى في آخر الإقليم الثاني
من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول ثلاث عشرة درجة وأثنان
وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة .

وهي مدينة عظيمة إسلامية ، وبينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة ،
وليس قبليها ولا غربيها عمران ، وبينها وبين غانة من بلاد السودان مسيرة شهرين
في رمال وجبال قليلة المياه ، لا يدخلها إلا الإبل المصبرة على العطش . أختطها
يزيد بن الأسود من موالى العرب ، وقيل : مدرار بن عبد الله . وكان من أهل
الحديث ، يقال إنه لقي عكرمة مولى ابن عباس بأفريقية وسمع منه . وكان صاحب
ماشية ، وكان يذبح موضع سيْلَمَاسَة بالصحرَاء ليرعى به ماشيته ، فكان يجتمع إليه
أهل تلك الصحرَاء من مكحاسة والبربر ، وكانوا يدينون بدين الصفرية من الخوارج ،

(١) كذا في الأصل وفي "العبر ج ٦ ص ١٣٠" عيسى بن يزيد الأسود .

فاجتمع عليه جماعة منهم فلما بلغوا أربعين رجلاً قَدَّمُوا عليهم يزيد بن الأسود وخلصوا طاعة الخلفاء ، وأختطوا هذه المدينة سنة أربعين ومائة من الهجرة . ولها اثنا عشر باباً ، وهي كثيرة العمارات ، كثيرة البساتين ، رائقة البقاع ، ذات قصور ومنازل رفيعة وعمارات متصلة ، على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء ، يزيد في الصيف كزيادة النيل ، ويُزْرَع على مائه كما يُزْرَع على ماء النيل ، والزَّرْع عليه كثير الإصابات ، والمطرُ عندهم قليل : فإذا كانت السنة كثيرة الأمطار ، نبت لهم ما حصدوه في العام السابق من غير بُدْر ، وربما حصدوه عند تناسله وتركوا أصوله فتنبت ثانياً . ويقال : يُزْرَع بها عما ويُحصَد ثلاثة أعوام ، وذلك أن أرضها مشقة ، وهي بلدة شديدة الحر فإذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد ودخل في الشقوق ، فإذا كان العام الثاني وعلاه ماء النهر وخرج عنه حرثوه بلا بُدْر فينبت ما في الشقوق ، ويبقى كذلك ثلاث سنين .

وقد حكى ابن سعيد : أن هذا الزرع في السنة الأولى يكون قمحاً ، وفي باقي السنين سُلتاً . وهو حب بين القمح والشعير . وبها الرطب ، والتمر ، والعنب الكثير ، والفواكه الحامضة ، وليس فيها ذئاب ولا كلاب لأنهم يسمنونها ويأكلونها ، وقبلما يوجد فيها صحيح العينين ، ولا يوجد بها مجذوم ، ولها ثمانية أبواب من أي باب منها خرجت ترى النهر والتخيل وغير ذلك من الشجر ، وعليها وعلى جميع بساتينها حائط يمنع غارة العرب مساحته أربعون ميلاً ، وثمرها يفضل ثمر سائر بلاد المغرب ، حتى يُقال : إنه يضاهي الثمر العراقي ، وأهلها مياسير ، ولها متاجر إلى بلاد السودان ، يخرجون إليها بالملح والنحاس والودع ، ويرجعون منها بالذهب التبر . قال ابن سعيد : رأيت صكاً لأحدكم على آخر مبالغه أربعون ألف دينار .

ولَمَّا قَدَمُوا عَلَيْهِمْ عِيسَى بْنُ الْأَسودِ الْمُقَدِّمَ ذَكَرَهُ ، أَقَامَ عَلَيْهِمْ أَيَّامًا ثُمَّ قَتَلُوهُ سَنَةَ
خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةً ، وَاجْتَمَعُوا بَعْدَهُ عَلَى كِبَرِهِمْ (أَبِي الْقَاسِمِ سَمَكُو) ، بَنُ وَاسُولِ
أَبْنِ مِصْلَانَ ، بَنُ أَبِي يَزُولَ ، بَنُ تَافُرسِينَ ، بَنُ فَرادِيسَ ، بَنُ وَنِيفَ ، بَنُ مَكَّاسَ ،
أَبْنِ وَرِصْطَفَ ، بَنُ يَحْيَى ، بَنُ تَمَصِّيتَ ، بَنُ ضَرِيرَيسَ ، بَنُ رَجِيكَ ، بَنُ مَادِغَشَ ،
أَبْنِ بَرَبَرِ . كَانَ أَبُوهُ سَمَكُو مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ (عَلَى سَاكِنِهَا
أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ) فَأَدْرَكَ التَّابِعِينَ ، وَأَخَذَ عَنْ عِكْرَمَةَ مَوْلَى
أَبْنِ عَبَّاسَ ، وَمَاتَ بِجَنَّةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ لَثْنَتِي عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ وِلَايَتِهِ .

وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى مَذْهَبِ الصُّفَرِيَّةِ ، وَخَطَبَ فِي عَمَلِهِ لِلنَّصُورِ وَالْمَهْدِيِّ مِنْ
خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

وَلَمَّا مَاتَ وَلَّى مَكَانَهُ ابْنُهُ (إِلْيَاسُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ) [وَكَانَ يُدْعَى بِالْوَزِيرِ
ثُمَّ انْتَقَضُوا عَلَيْهِ] سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ [خَلْعُوهُ] ^(١) .

وَوَلَّى مَكَانَهُ أَخُوهُ (الْيَسَعَ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ) وَكَنِيَّتُهُ أَبُو مَنْصُورٍ ، فَبَنَى سُورَ
سِجِّيلْمَاسَةَ ، وَشَيَّدَ بُيُنَانَهَا ، وَأَخْطَطَ بِهَا الْمَصَانِعَ وَالْقُصُورَ لِأَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ
وِلَايَتِهِ . وَعَلَى عَهْدِهِ اسْتَفْجَلَ مُلْكُهُمْ بِسِجِّيلْمَاسَةَ ، وَسَكَنَهَا آخِرَ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ
أَنْ كَانَ يَسْكُنُ الصَّحْرَاءَ وَهَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَمِائَتَيْنِ .

وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ (مِذْرَارُ) وَلَقَّبَ الْمَتَصِرَ وَطَالَ أَمْدُ وِلَايَتِهِ . وَكَانَ لَهُ وَلَدَانِ
أَسْمَ كُلِّ مَنِهَا مَمِيوْنٌ ، فَوَقَعَ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِمَا أَنْ
غَلَبَ أَحَدُهُمَا أَخَاهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ سِجِّيلْمَاسَةَ ، ثُمَّ خَلَعَ أَبَاهُ وَأَسْتَقَلَّ بِالْأَمْرِ ، وَسَاءَتْ
سَيْرَتُهُ فِي الرِّعْيَةِ خَلْعُوهُ ، وَأَعَادُوا مِذْرَارًا أَبَاهُ .

(١) الزيادة من "العبر" ج ٦ ص ١٣٠ ليستقيم الكلام .

ثم حدث نفسه بإعادة ابنه ميمون المخلوع فخاموه وولّوا ابنه (ميمونا) الآخر، وكان يعرف بالأمير، ومات مدرار^(١) إثر ذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين . [ومات ميمون سنة ثلاث وستين ومائتين] .

وولي مكانه ابنه (محمد) فبقى إلى أن توفى سنة سبعين ومائتين .

فولي مكانه (اليسع) بن المنتصر . وفي أيامه وفد عبيد الله المهدي^(٢) الفاطمي وأبنته أبو القاسم على سجلماسة في خلافة المعتضد العباسي ، وكان اليسع على طاعته فبعث المعتضد إليه فقبض عليهما وأعتقلهما إلى أن غلب أبو عبد الله الشيعي داعي المهدي بني الأغلب أصحاب أفريقية ، فقصده سجلماسة فخرج إليه اليسع في قومه مكثاسة ، فهزمه أبو عبد الله الشيعي وأفتح عليه البلد ، وقتله سنة ست وتسعين ومائتين ، وأستخرج عبيد الله وأبنته من محبسهما ، وبيع (لعبيد الله المهدي) .

وولي المهدي على سجلماسة (إبراهيم بن غالب المزاني) وأنصرف إلى أفريقية ، ثم انتقض أهل سجلماسة على واليهم إبراهيم ومن معه من مكثاسة سنة ثمان وتسعين ومائتين . وبيعوا (الفتح بن ميمون) الأمير ابن مدرار المتقدم ذكره ، ولقبه واسول ، وهلك قريبا من ولايته على رأس المائة الثالثة .

وولي مكانه أخوه (أحمد بن ميمون) الأمير ، وأستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حيوس في جموع كُثامة ومكثاسة إلى المغرب سنة تسع وثلاثمائة ، فافتتح سجلماسة وقبض على صاحبها أحمد بن ميمون .

وولي عليها ابن عمه (المعتر بن محمد) بن يادن بن مدرار ، فلم يلبث أن استبد وتلقب المعتر ، وبقى حتى مات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة قبل موت المهدي^(٢) .

(١) التسم من "العبر" ج ٦ ص ٣١ ليستقيم الكلام .

(٢) في العبر ج ٦ ص ١٣١ "ساور" .

وَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ أَبُو الْمُتَصَرِّ (مُحَمَّدُ بْنُ الْمُعْتَرِّ) فَأَقَامَ عَشْرًا ثُمَّ هَلَكَ .
وَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ (الْمُتَصَرِّ سَمَكُو) شَهْرَيْنِ ، وَدَبَّرَتْهُ جَدَّتُهُ إِصْغَرُهُ .
ثُمَّ ثَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ (مُحَمَّدُ بْنُ الْفَتْحِ) بْنُ مَيْمُونِ الْأَمِيرِ وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَشَغِلَ عَنْهُ
بَنُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِفِتْنَةِ ابْنِ أَبِي الْعَافِيَةِ وَغَيْرِهَا ، فَدَعَا لِنَفْسِهِ مُمُوًّا بِالْإِدَاءِ
لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَتَلَقَّبَ الشَّاكِرَ لِلَّهِ ، وَأَخَذَ بِمَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَرَفَضَ الْخَارِجِيَّةَ ،
وَكَانَ جَمِيعُ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ سَلَفِهِ عَلَى رَأْيِ الْأَبَاضِيَّةِ وَالصُّفَرِيَّةِ مِنَ الْخَوَارِجِ ، وَضَرَبَ
السَّكَّةَ بِاسْمِهِ وَلِقَبِهِ ، وَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى فَرَّغَ بَنُو عَبْدِ اللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ ، فَزَحَفَ الْقَائِدُ
جَوْهَرُ أَيَّامِ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللَّهِ مَعَدًّا إِلَى الْمَغْرِبِ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِينَ ، فَغَلَبَ عَلَى
سِجِلْمَاسَةَ وَمَلِكُهَا وَفَرَزَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَتْحِ عَنْهَا ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَيْهِ جَوْهَرُ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَمَلَهُ
إِلَى الْقَيْرَوَانِ . فَلَمَّا أُنْتَقِضَ الْمَغْرِبُ عَلَى الْعَبِيدِيِّينَ وَفُشَّتْ فِيهِ دَعْوَةُ الْأُمَوِيِّينَ
بِالْأَنْدَلُسِ ، ثَارَ بِسِجِلْمَاسَةَ قَائِمٌ مِنْ وَلَدِ الشَّاكِرِ ، وَتَلَقَّبَ (الْمُتَصَرِّ بِاللَّهِ) ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهِ
أَخُوهُ (أَبُو مُحَمَّدٍ) سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ فَقَتَلَهُ وَقَامَ بِالْأَمْرِ مَكَانَهُ ، وَتَلَقَّبَ (الْمُعْتَرِّ بِاللَّهِ)
وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً ، وَأَمْرٌ مِثْلَاسَةَ يَوْمًا قَدْ تَدَاعَى إِلَى الْأَنْحِلَالِ ، وَأَمْرٌ زِنَانَةٌ قَدْ
أَسْتَفْجَلَ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ زَحَفَ خَزْرُونُ بْنُ فَلْفُلٍ مِنْ مَلُوكِ مَغْرَاوَةَ إِلَى سِجِلْمَاسَةَ
سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِينَ وَثَلَاثِينَ ، وَبَرَزَ إِلَيْهِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمُعْتَرِّ فَهَزَمَهُ خَزْرُونُ وَقَتْلَهُ وَأَسْتَوْلَى
عَلَى بَلَدِهِ ، وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى قُرْطُبَةَ مَعَ كِتَابِهِ بِالْفَتْحِ ، وَكَانَ ذَلِكَ لِأَوَّلِ حِجَابَةِ الْمَنْصُورِ
أَبْنِ أَبِي عَامِرٍ بِقُرْطُبَةَ ، فَعَقَدَ لَخَزْرُونِ عَلَى سِجِلْمَاسَةَ ، فَأَقَامَ دَعْوَةَ هِشَامٍ فِي نَوَاحِيهَا ،
فَكَانَتْ أَوَّلَ دَعْوَةٍ أُقِيمَتْ لَهُمْ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، وَأَتَقَرَضَ أَمْرٌ مِثْلَاسَةَ
مِنَ الْمَغْرِبِ أَجْمَعَ .

وَأَنْتَقَلَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى مَغْرَاوَةَ وَبَنَى يَفْرَنْ وَعَقَدَ هِشَامُ (لَخَزْرُونِ) عَلَى سِجِلْمَاسَةَ
وَأَعْمَاهَا ، وَجَاءَهُ عَهْدُ الْخَلِيفَةِ بِذَلِكَ ، وَضَبَطَهَا وَقَامَ بِأَمْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكَ .

فولى أمر سجلماسة من بعده ابنه (وأثودين بن خزرون) إلى أن غلب زيرى
 ابن مباد على المغرب ، فعقد على سجلماسة (الحيد بن فضل) المكنى ، وفز وأثودين
 ابن خزون عنها ، ثم أعاده عبد الملك إلى سجلماسة بعد ذلك على قِطِعة يؤدّيها إليه ؛
 ثم استقل بها من أول سنة تسعين وثلاثمائة مقيا للدعوة الأموية بالأندلس ، ورجع
 المعز بن زيرى بولاية المغرب عن المظفر بن أبي عامر ، وأستثنى عليه ولاية سجلماسة
 لكونها بيد وأثودين ، وأستفحل ملك وأثودين ، وأستضاف إلى سجلماسة بعض
 أعمال المغرب ومات .

فقام بالأمر من بعده ابنه (مسعود بن وأثودين) إلى أن خرج (عبدالله بن ياسين)
 شيخ المرابطين ، فقتل ابن وأثودين سنة خمس وأربعين وأربعمائة ؛ ثم ملك سجلماسة
 بعد ذلك سنة ست وأربعين ، ودخلت في ملك المرابطين لأول أمرهم ، وأنقرضت
 دولة بنى خزرون منها ، وتداولها من بعدهم من ملوك الموحدين ، ثم ملوك بنى مرين
 على ما سيأتى ذكره في الكلام على ملوك الغرب الأقصى إن شاء الله تعالى .



وأما ما آشتلت عليه هذه المملكة من المدن المشهورة .

(١)
 فمنها مدينة (أسفي) بفتح الهمزة ومدّها وكسر السين المهملة والفاء وياء مثناة تحت
 في آخرها . وهى مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد :
 حيث الطول سبع درج ، والعرض ثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" :
 وهى من عمل دكالة ، وهى كورة عظيمة من أعمال مرّاكش ، قال ابن سعيد :
 وهى على جوف من البحر داخل في البر ، في مستو من الأرض . وهى فُرْضة مرّاكش ،
 وبينها وبين مرّاكش أربعة أيام ، وأرضها كثيرة الحجر ، وليس بها ماء إلا من

(١) ضبطها ياقوت فقال : بفتحين وكسر الفاء .

المطر، وهاؤها النبع غير عذب، وبساتينها تُسقى على الدواليب، وكرومها على باب البلد. قال الشيخ عبد الواحد: وهي تُشبه حماة ودونها في القدر، ولكن ليس لها نهر يجري.

ومنها (سلا) بفتح السين واللام وفي آخرها ألف، وهي مدينة من الغرب الأقصى في آخر الإقليم الثالث قال ابن سعيد: حيثُ الطول سبعُ درج وعشر دقائق [والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة] ^(١) وهي مدينة قديمة في غربها البحر المحيط وفي جنوبها نهر عظيم يصب في البحر المحيط والبساتين والكروم. وبني «عبد المؤمن» أمامها من الشط الجنوبي على النهر والبحر المحيط قصرا عظيما، وبني خاصته حوله المنازل فصارت مدينة عظيمة سماها المهديّة. وسلا متوسطة بين بلاد المغرب الأقصى قريبة من الأندلس؛ وهي مدينة كثيرة الرخاء، ولها معاملة كبيرة يقال لها تَامَسْتَا، كثيرة الزرع والمرعى، وفيها مدُن كثيرة.

ومنها (لمطة) بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة. وهي مدينة من الغرب الأقصى واقعة في آخر الإقليم الثاني قال بعضهم: حيثُ الطول سبعُ درج وثلاثون دقيقة، والعرض سبع وعشرون درجة؛ على ثلاث مراحل من البحر المحيط؛ ولها نهر كبير يتزل من جبل في شرقها على مرحلتين منها، يجري على جنوبها غرباً بميلة إلى الشمال حتى يصب في البحر المحيط.

ومنها (السوس) بضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية. وهي مدينة من أقصى المغرب في الإقليم الثاني قال ابن سعيد: حيثُ الطول ثمان درج والعرض

(١) الزيادة عن "التقويم" نقلا عن ابن سعيد.

(٢) في ياقوت "تامت" بناء مشاة من فوق في آخرها.

سِتْ وعشرون درجة وعشرون دقيقة ، وهى على طَرْفٍ من البر داخلٍ فى البحر أربعين ميلاً ، وفى جانبها الشمالى نهر يأتى من الشرق من جبل لَمْطَة .

ومنها (قَصْر عبد الكريم) وضبطه معروف . وهى مدينة من الغرب الأقصى فى أوائل الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمانُ دَرَجٍ وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وهى مدينة على نهر من جهتها الشمالية ، وهو نهر كبير تَصْعَدُ فيه المراكبُ من البحر المحيط ، وجانباه مخفوفان بالسائين والكروم . وكان قاعدةُ تلك الناحية قبلها مدينةً أسمها (البَصْرَة) يسكنها الأُداسَة ، فلما عُمرت هذه المدينة صارت هى القاعدة .

ومنها (طَنْجَة) بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء فى الآخر . وهى مدينة من أقصى المغرب واقعةٌ فى الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمان درج وإحدى وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى مدينة على بحر الزقاق ، واتساعُ البحر عندها ثلثُ بحَرى ، فإذا شَرِقَ عنها اتَّسعَ عن ذلك . وهى مدينة أزلية ، وأستحدث أهلها لهم مدينةً على ميل منها على ظهر جبل لِيَمْتَنِعُوا بها ، والماء ينساق إليها فى قُتْنَى . قال فى "مسالك الأبصار" : وكانت دار مُلْكٍ قديم . وهى التى كانت قاعدة تلك الجهات قبل الإسلام إلى حين فتح الأندلس ، وهى مُحِطُ السُّفُنْ ، وهى كثيرة الفَوَاكه ، لاسيما العنبُ والكُمثرى ، وأهلها مشهورون بقلّة العقل وَضَعْفِ الرأى ، على أن منها أبو الحسن الصَّنْجَحَى الطَّنْجَجَى ، تَرَجَّمْ له فى قلائد العقيان وأثنى عليه ، وأنشد له أبياتا منها :

وقد تَحَيَّى الدُّرُوعُ من العوَالى ، * ولا تَحَيَّى من الحَدَقِ الدُّرُوعُ !

وكذلك أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الحَضْرَمَى القائل :

وَصَنُّوا بَتُودِيعَ ، وجادُوا بَتَرِكِهِ ، * وَرُبَّ دِواءٍ ماتَ مِنْهُ عَليُّ !

ومنها (دَرَّة) بفتح الدال وسكون الراء وفتح العين المهملات وهاء في الآخر . وهى مدينة من جنوبى المغرب الأقصى واقعة فى الإقليم الثانى . نقل فى "تقويم البلدان" عن بعضهم أن طولها إحدى عشرة درجة وست دقائق ، وعرضها خمس وعشرون درجة وعشر دقائق . قال فى "نزهة المشتاق" : وهى قُرَى متصلة ، وعمارات متقاربة ، وليست بمدينة يحوط بها سور ولا حفير . ولها نهر مشهور فى غربها ينزل من ربوة حمراء عند جبل درن ، وتنبث عليه الحناء ، ويغوص ما يفضل منه بعد السقى فى صحارى تلك البلاد .

ومنها (أغمات) قال فى "اللباب" : بفتح الألف وسكون الغين المعجمة وفتح الميم وألف وتاء مشاة من فوق فى آخرها . وهى مدينة من الغرب الأقصى ، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها إحدى عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمسون دقيقة . وهى مدينة قديمة فى الجنوب بميلة إلى الشرق عن مرأكش ، فى مكان أفح طيب التربة ، كثير النبات والعشب ، والمياه تحترقه يمينا وشمالا . قال ابن سعيد : وهى التى كانت قاعدة ملك أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » قبل بناء مرأكش . قال الإدريسى : وحولها جنات مُحْدَقَة ، وبساتين وأشجار ملتفة ، وهوؤها صحيح ، وفيها نهر ليس بالكبير ، يُسْقَى المدينة يأتيا من جنوبيها ويخرج من شماليها ، وربما جمد فى الشتاء حتى يجتاز عليه الأطفال .

ومنها (تادلّا) قال فى "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بفتح المشاة من فوق ثم ألف ودال مهملة مكسورة ولام ألف . ثم قال : وفى خط ابن سعيد تادلّة فى آخرها هاء ، وهى مدينة بالمغرب الأقصى فى جهة الجنوب فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتا عشرة درجة ، والعرض ثلاثون درجة . قال

أَبْنُ سَعِيدٍ : وَهِيَ مَدِينَةُ بَيْنَ جِبَالِ صِنْهَاجَةَ ، وَيُقَالُ هِيَ قَاعِدَةُ صِنْهَاجَةَ ؛ وَغَرِيبُهَا جَبَلُ دَرْنٍ مُمْتَدٌّ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ، وَهِيَ بَيْنَ مَرَّأَكُشَ وَبَيْنَ أَعْمَالِ فَاسَ ، وَلَهَا عَمَلٌ جَلِيلٌ ، وَأَهْلُهَا بَرَبَرٌ يَعْرِفُونَ بِجَرَاوَةِ .

وَمِنْهَا (أَزْمُورُ) قَالَ الشَّيْخُ شُعَيْبٌ : يَفْتَحُ الْهَمْزَةُ وَالزَّيَّ الْمَعْجَمَةَ وَتَشْدِيدُ الْمِيمِ ثُمَّ الْوَوَاءَ مَهْمَلَةً فِي الْآخِرِ . وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى مِيلَيْنِ مِنَ الْبَحْرِ أَكْثَرُ سُكَّانِهَا صِنْهَاجَةُ . وَمِنْهَا (الْمَزْمَةُ) وَهِيَ فُرْصَةُ بَرِّ الْعُدُوَّةِ تَقَابِلُ فُرْصَةِ الْمَنْكَبِ مِنْ بَرِّ الْأَنْدَلُسِ مِنْ سَاحِلِ غَرْنَاطَةِ . وَالْمَزْمَةُ فِي الشَّرْقِ عَنْ سَبْتَةٍ بَيْنَهُمَا مِائَتًا مِيلًا .

وَمِنْهَا (مَدِينَةُ بَادِيَسَ) وَهِيَ فُرْصَةُ مَشْهُورَةٌ مِنْ فُرْصِ عُمَّارَةٍ فِي الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ عَنْ سَبْتَةٍ بَيْنَهُمَا نَحْوُ مِائَةِ مِيلٍ . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَهِيَ قِيَاسًا حَيْثُ الطُّولُ عَشْرُ دَرَجٍ وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً ، وَالْعَرْضُ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَخَمْسٌ وَعَشْرُونَ دَقِيقَةً .

وَمِنْهَا (أَوْدَغَسْتُ) قَالَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْوَاحِدِ : يَفْتَحُ الْهَمْزَةَ وَسُكُونُ الْوَوَاءِ وَفَتْحُ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَالْغَيْنِ الْمَعْجَمَةَ وَسُكُونُ السَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَفِي آخِرِهَا تَاءٌ مِثْنَاةٌ فَوْقَ . وَهِيَ مَدِينَةٌ فِي الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى فِي الْجَنُوبِ فِي الصَّحْرَاءِ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي قَالَ فِي "الْأَطْوَالِ" : حَيْثُ الطُّولُ ثَمَانُ دَرَجٍ وَثَمَانُ دَقَائِقَ . قَالَ فِي "الْقَانُونِ" : وَالْعَرْضُ سِتٌّ وَعَشْرُونَ دَرَجَةً . قَالَ : وَهِيَ فِي بَرَارِيِّ سُودَانَ الْمَغْرِبِ . قَالَ فِي "الْعَزِيزِيِّ" : وَهِيَ جَنُوبِيَّةٌ سَحْلِيَّةٌ وَبَيْنَهُمَا سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ مَرَحَلَةً فِي رِمَالٍ وَمَقَاوِزَ عَلَى مِيَاهٍ مَعْرُوفَةٍ ؛ وَلَهَا أَسْوَاقٌ جَلِيلَةٌ ، وَالسُّفُنُ تَصِلُ إِلَيْهَا فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ ، وَسُكَّانُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَخْلَاطُ مِنَ الْبَرَبَرِ الْمَسَامِينِ ، وَالرِّيَاسَةُ فِيهَا لِصِنْهَاجَةَ . قَالَ فِي "الْعَزِيزِيِّ" : وَلَا أَوْدَغَسْتَ أَعْمَالًا وَاسِعَةً ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ ، وَأَمْطَارُهَا فِي الصَّيْفِ ؛ وَيَزْرَعُونَ

(١) ضَبَطَهَا بِأَقْوَتٍ فَقَالَ : ثَلَاثُ ضَمَاتٍ مَتَوَالِيَاتٍ وَتَشْدِيدُ الْمِيمِ .

(٢) فِي الْمَعْجَمِ وَفَتْحُ الدَّالِ الْمَعْجَمَةِ .

عليها الحنطة ، والذرة ، والدخن ، واللؤيا ، والكرسنة ، وبها النخل الكثير وليس فيها فاكهة سوى التين ، وبها شجر الجرازكله : من السنت والمقل وغيرها .

قلت : وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عدة مدن غير هذه غير مشهورة يطول ذكرها .

الجملة الثالثة

(في ذكر جبالها المشهورة . وهي عدة جبال)

منها (جبل درن) بفتح الدال والراء المهملة ونون في الآخر . قال ابن سعيد : وهو جبل شاهق مشهور لا يزال عليه الثلج ، أوله عند البحر المحيط الغربي في أقصى المغرب ، وآخره من جهة الشرق على ثلاث مراحل من إسكندرية من الديار المصرية ، ويسمى طرفه الشرقي المذكور رأس أوثان ، فيكون امتداده نحو خمسين درجة ، وفي غربيه بلاد تينملك من قبائل البربر ، وشرقيها بلاد هتاتة من البربر أيضا وشرقيها بلاد مشكورة منهم ، وشرقيها بلاد المصامدة .

ومنها (جبل كزولة) وهي قبيلة من البربر . قال ابن سعيد : وأبتدأه من البحر المحيط الغربي ، ويمتد مشرقا إلى حيث الطول اثنتا عشرة درجة ، وموقعه بين الإقليم الثاني والإقليم الثالث ، وبه مدينة أسمها تاعجست .

ومنها (جبل غمارة) . بضم الغين المعجمة وفتح الراء بعد الألف . وهي قبيلة من البربر أيضا ، وهو جبل ببر العدو فيه من الأمم ما لا يحصىه إلا الله تعالى ، وهو ركن على البحر الرومي ، فإن بحر الرقاق إذا جاوز سبته إلى الشرق تعطف جنوبا إلى جبل غمارة المذكورة ، وهناك مدينة باديس المقدم ذكرها .

ومنها (جبل مَدْيُونَة) بفتح الميم وسكون الدال المهملَة وضم المشاة من تحت وواو ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر : وهو جبل بَرِّ العُدوة شرقيَّ مدينة فاس ، يمتد إلى الجنوب حتى يتصل بجبال دَرَن ، ومَدْيُونَة قبيلة من البربر واطُنون به .

ومنها (جبال مَدَغْرَة) وهى شرقيَّ مَدْيُونَة ، ومعظم أهلها كُومِيَّة - بضم الكاف وكسر الميم وفتح المشاة تحت وهاء في الآخر . وهى قبيلة من البربر ، منها « عبد المؤمن » أحد أصحاب المهديّ بن تُوَمَرْت .

ومنها (جبل يُسْر) بضم الياء المشاة تحت وسكون السين المهملَة . وهو جبل شرقيَّ مَدْيُونَة أيضا منه ينبع نهر يُسْر المذكور .

ومنها (جبل ونَسْرِيش) وهو جبل يتصل بجبل يُسْر من شرقيه ، وفيه تعمل البُسْط الفائقة ، ومنه ينبع نهر سَلَف المشهور . قال ابن سعيد : وهو نهر كبير يزيد عند نقص الأنهار كينيل مصر .

الجملة الرابعة

(في ذكر أنهارها المشهورة ، وهى عدّة أنهار)

منها (نهر السُّوس الأقصى) وهو نهر يأتي من الجنوب والشرق من جبل يُعْرَف بجبل لَمْطَة ، ويجرى إلى الشمال ، ويمر على مدينة السُّوس من شماليها ، ويُرْع على جانبيه قَصَب السُّكَّر والحِنَاء وغير ذلك كما يزرع في مصر ، ويجرى حتى يصب في البحر المحيط الغربيّ .

ومنها (نهر سِيْهَامَة) ^(١) الآتى ذكرها ، وهو نهر منبؤه من جنوبيّ سِيْهَامَة بمسافة بعيدة ، ويمر من شرقيها ويجرى حتى يصب في نهر مَلَوِيَّة الآتى ذكره .

(١) صوابه كما في القطعة الأثرية المتقدم ذكرها فانها تقدمت في القواعد .

ومنها (نهر ملوية) قال ابن سعيد : وهو نهر كبير مشهور في المغرب الأقصى ،
يصب إليه نهر بيلماسة ويصيران نهرا واحدا ، يجري حتى يصب في بحر الروم
شرقي سبتة .

ومنها (نهر فاس) وهو نهر متوسط يشق مدينة فاس كما تقدم قال في "تقويم البلدان"
ومخرجه على نصف يوم من فاس ، يجري في مروج وأزاهر حتى يدخلها .

المقصود الثاني

(في ذكر زروعها ، وحبوبها ، وفواكهها ، وبقولها ورياحينها ومواشيتها ،
ومعاملاتها ، وصفات أهلها . وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في ذكر زروعها ، وحبوبها ، وفواكهها ، وبقولها ، ورياحينها)

أما زرعها فعلى المطر كما تقدم في أفرقية .

وأما حبوبها ، ففيها من أنواع الحبوب : القمح ، والشعير ، والفلو ، والحبص ،
والعدس ، والدخن ، والشلت وغير ذلك . أما الأرض فإنه عندهم قليل ، بعضه يزرع
في بعض الأماكن من بلاد العدو ، وأكثره مجلوب إليهم من بلاد الفرنج . على أنهم
لأنهم لم يأكلوه ولا عناية به . وبها السمسم على قلة ، ولا يختص منه بالمغرب
شئ يرجح لاستغنائهم عنه بالزيت حتى مزورات الضعفاء وكذلك يعملون الحلو
بالعسل والزيت ، وإنما يستعمل الشئ عندهم في الأمور الطيبة .

وأما فواكهها ، فيها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المختلفة الأنواع : بين
النخل ، والعنب ، والتين ، والرمان ، والزيتون ، والسفرجل ، والتفاح على أصناف ،

(١)
وكذلك الكمثرى ، وتسمى عندهم الإنبجاص كما بدمشق ، وبها المشمش والتين ،
والبرقوق ، والقراصيا ، والحوخ ؛ وغالب ذلك على عدة أنواع ؛ والتوت على قلة ،
والجوز ، واللوز . ولا يوجد بها الفستق والبندق إلا مجلوبا . وبها الأترج ،
والليمون ، والليم ، والنارنج ، والزنبوع ، وهو المسمى بمصر والشام الجاد . وبها
البطيخ الأصفر والأخضر وأسمه عندهم الدلاع كما في سائر بلاد المغرب على قلة ،
والموجود منه غير مستطاب . وبها الحيار ، والقنأ ، واللقت ، والباذنجان ، والقرع ،
والجزر ، واللوبياء ، والكُرْب ، والشمار ، والصغتر وسائر البقول . والموز موجود بها
في بعض المواضع نادراً ، والقُلُقاس لا يُزرع عندهم إلا للتفرج على عُروقه لا لأن
يؤكل ، وبها قصب السكر يجزأ بنى من غنآن وبسلا كثير ، ويعصر ثم يعمل منه
القند ومن القند السكر على أنواع لاسيما بمرأ كش ، فإنه يقال إن بها أربعين معصرة
للسكر ، وإن حمل حمار من القصب يساوي درهما من دراهمهم : وهو ثلث درهم من
الدرهم المصرية ؛ ويعمل منه المكرر الفائق ، ومع ذلك فليس لهم به اهتمام لا كنفائهم
عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم ، وميلهم إليه أكثر من السكر ، حتى يقال إنه
لا يستعمل السكر عندهم إلا الغرائب أو المرضى .
وأما رباحيتها ، فهنا الورْد ، والبَنَفْسَج ، والياسمين ، والآس ، والترجس ،
والسوسن ، والبهار ، وغير ذلك .

الجملة الثانية

(في مواشيتها ، ووحوشها ، وطيورها)

أما مواشيتها ، ففيها من الدواب الخيل ، والبغال ، والحُمير ، والإبل ، والبقر ،
والغنم ؛ أما الجوامس فلا يوجد عندهم .

وأما الطير، فبها منه الإوز، والحمام، والدجاج ونحوها، والكركي عندهم كثير على
بعد الدار، وأسمه عندهم الغرنوق، وهو صيد الملوك هناك كما بمصر والشام.

وأما وحوشها، ففيها من أنواع الوحش الحمر، والبقرة، والنعام، والغزال، والبهما
وغير ذلك.

الجملة الثالثة

(فما نتعامل به من الدنانير، والدراهم، والأوزان، والمكايل)

أما مثاقيل الذهب فأوزانها لا تختلِف، وأما الدراهم فذكر في "مسالك الأبصار"
عن السلاحي : أن مُعاملتها درهمان : درهم كبير، ودرهم صغير، فالدرهم الكبير
قدر ثلث درهم من الدراهم الثَّقرة بمصر والشام، والدرهم الصغير على النصف من
الدرهم الكبير يكون قدر سدس درهم ثقرة بمصر والشام. وعند الإطلاق يُراد الدرهم
الصغير دون الدرهم الكبير إلا بمرأ كُش وما جاورها، فانه يُراد بالدرهم عند الإطلاق
الدرهم الكبير. قال : وكلُّ مثقال ذهب عندهم يساوي ستين درهما بكارا، تكون
بعشرين درهما من دراهم الثَّقرة بمصر.

وأما رطلها فعلى ما تقدّم من رطل أفريقية، وهى كلُّ رطل ستّ عشرة أوقية،
كل أوقية أحد وعشرون درهما من دراهمها.

وأما كيلها فأكثره الوسق (ويسمى الصَّحفة) وهو ستون صاعا بالصاع النبويّ
على السواء.

الجملة الرابعة

(في ذكر أسعارها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن السلاحي أيضا عن سَعْر زمانه المتوسط في غالب الأوقات ، (وهي الدولة الناصرية محمد بن قلاوون وما قاربها) : أن سعر كل وَسْق من القمح أربعون درهما من الدراهم الصغار : وهو ثلاثة عشر درهما وثلاث درهم من نُقْرة مصر ، والشعير دُون ذلك . وكل رِطْل لحم بدرهم واحد من الدراهم الصغار ، وكل طائر من الدجاج بثلاثة دراهم من الصغار ، وعلى نحو ذلك .

الجملة الخامسة

(في صفات أهلها في الجملة)

قد تقدّم أن معظم هذه المملكة في الإقليم الثالث . قال ابن سعيد : والإقليم الثالث هو صاحب سَفْك الدماء ، والحسد ، والحقد ، والغِل ، وما يتبع ذلك . ثم قال : وأنا أقول : إن الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام الرّيجيّة على زعمهم ، فإن للغرب الأقصى من ذلك الخطّ الوافر ، لاسيّما في جهة السّوس وجبال درن ، فإن قتل الإنسان عندهم كذب العصفور ، قال وَكَمْ قَتِيل قَتِلَ عندهم على كلمة وهم بالقتل ينتخرون . ثم قال : إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التناؤس المفرط ، والمحاqqة ، وقلة التغاضي ، والتهور ، والمفاتنة .

أما البخل فإنما هو في أراذلهم ، بخلاف الأغنياء ، فإن في كثير منهم السّاحة المفرطة والمفاخرة بإطعام الطعام والاعتناء بالمفضول والفاضل .

المقصود الثالث

(في ذكر ملوكها، وما يندرج تحت ذلك : من انتقال الملك من الموحدين إلى بنى مرين والتعريف بالسلطان أبي الحسن الذى أشار إليه في كلامه فى "التعريف". وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(ملوكها قبل الإسلام)

قد تقدم أن بلاد المغرب كلها كانت مع البربر، ثم غلبهم الروم الكيتم عليها ثم أفتحوا قرطاجنة وملكوها، ووقع بين البربر والروم فتن كثيرة كان آخرها أن وقع الصلح بينهم على أن تكون البلاد والمدن الساحلية للروم، والجبال والصحارى للبربر، ثم زاحم الفرنج الروم فى البلاد، وجاء الإسلام والمستولى عليها من ملوك الفرنجة جرجيس ملكهم، وكان ملكه متصلاً من طرابلس إلى البحر المحيط، وكرسى ملكه بمدينة سيطة، ومن يده أترعها المسلمون عند الفتح.

الطبقة الثانية

(نواب الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس)

كان كرسى الممكة بعد الفتح بأفريقية، وكان نواب الخلفاء يقيمون بها وينزلون القيروان، وكانوا يؤثرون على ما فتح من بلاد المغرب من تحت أيديهم. فبقى الأمر على ذلك أيام عبد الله بن أبي سرح، الذى أفتحها فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ثم أيام معاوية بن صالح، ثم أيام عقبة بن نافع، ثم أيام أبي المهاجر، ثم أيام عقبة بن نافع ثانياً، ثم أيام زهير بن قيس، ثم أيام حسان بن النعمان، ثم أيام

موسى بن نصير، ثم أيام محمد بن يزيد، ثم أيام إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر،
ثم أيام يزيد بن أبي مسلم، ثم أيام بشر بن صفوان الكلبي، ثم أيام عيسى بن
عبد الرحمن السلمي، ثم أيام عبد الله بن الحبحاب، ثم أيام كلثوم بن عياض،
ثم أيام حنظلة بن صفوان، ثم أيام عبد الرحمن بن حبيب، ثم أيام حبيب بن
عبد الرحمن، ثم أيام عبد الملك بن أبي الجعد، ثم أيام عبد الأعلى بن السمح المعافري،
ثم أيام محمد بن الأشعث، ثم أيام الأغلب بن سالم، ثم أيام عمرو بن حفص،
ثم أيام يزيد بن حاتم بن قبيصة، ثم أيام روح بن حاتم، ثم أيام الفضل بن روح،
ثم أيام هرثمة بن أعين، ثم أيام محمد بن مقاتل، ثم أيام إبراهيم بن الأغلب،
ممن تقدم ذكره في ملوك أفريقية في خلافة هارون الرشيد. وفي أيامه ظهرت دعوة
الأدارسة الآتي ذكرهم بعد هذه الطبقة. وسيأتي بسط القول فيهم بعض البسط
في الكلام على مكاتبة صاحب تونس.

الطبقة الثالثة

الأدارسة

(بنو إدريس الأكبر، بن حسن المثلث، بن حسن المثنى، بن الحسن

السيط، بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم)

وكان مبدأ أمرهم أنه لما خرج حسين بن علي بن حسن المثلث بمكة سنة سبعين
ومائة أيام الهادي واجتمع عليه قرابته وفيهم عمه إدريس وقتل الحسين، فرادريس
ولحق بالمغرب، وصار إلى مدينة وكيلى من المغرب الأقصى، فاجتمع إليه قبائل
البربر وبايعوه وفتح أكثر البلاد، وبقي حتى مات سنة خمس وسبعين ومائة،
وأقاموا الدعوة بعده لابنه إدريس الأصغر.

وكان أبوه قد مات وترك أمّه حاملاً به فكفّلوه حتى شبّ ، فبايعوه سنة ثمانٍ
وثمانين ومائة ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وأفتح جميع بلاد المغرب وكثّر عسكره ،
وضاقت عليهم وليلي فاخطّ لهم مدينة فاس سنة ثنتين وتسعين ومائة على ما تقدّم
وانتقل إليها ، واستقام له الأمر وأستولى على أكثر بلاد البربر ، وأقطع دعوة
العباسيين ، ومات سنة ثلاث عشرة ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه (محمد بن إدريس) ومات سنة إحدى وعشرين ومائتين
بعد أن استخلف في مرضه ولده (عليشا بن محمد) وهو ابن تسع سنين ، ومات سنة
أربع وثلاثين ومائتين لثلاث عشرة سنة من ولايته .

وكان قد عهد لأخيه (يحيى بن محمد) فقام بالأمر بعده ومات .

فولى مكانه ابنه (يحيى بن يحيى) ثم مات فاستدعوا ابن عمه (علي بن عمر) بن
إدريس الأصغر فبايعوه بفاس ، وأستولى على جميع أعمال المغرب ، وقتل سنة ثنتين
وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (يحيى بن إدريس) بن عمر ، بن إدريس الأصغر ، وملك جميع
المغرب وخُطب له على منابر ، وبقي حتى وافته جيوش عبيد الله المهديّ الفاطميّ ،
فغلبوه على ملكه وخلع نفسه من الأمر وأنفذ بيعته إلى المهديّ سنة خمس وثلاثمائة
وأستقرّ عاملاً للمهديّ على فاس وعملها خاصّة ، وبقيّة المغرب بيد موسى بن أبي
العافية كما سيأتي .

الطبقة الرابعة

(ملوك بني أبي العافية من مكناسة)

كانت مكناسة من قبائل البربر لأوّل الفتح بنواحي (آرا^(١)) من أوساط المغرب الأقصى والأوسط وكانوا يرجعون في رياستهم إلى بني أبي باسل بن أبي الضحّاك وكانت الرياسة في المائة الثالثة لمصالة - بن حيوس ، بن منازل ، بن أبي الضحّاك ، ابن يزول ، بن تافرسين ، بن فراديس ، بن ونيف ، بن مكناس ، بن ورصطف ، بن يحيى ، بن تمصيت ، بن صريش ، بن رجيك ، بن مادغش ، بن بربر ، وموسى بن أبي العافية ، بن أبي باسل ، بن أبي الضحّاك المتقدم ذكره .

ولما استولى عبيد الله المهديّ على المغرب صار مصالة بن حيوس من أكبر قوّاده وولّاه مدينة تاهرت والمغرب الأوسط .

ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة واستولى على ناس ثم على سجلماسة واستنزل يحيى بن إدريس بناس إلى طاعة عبيد الله المهديّ وأبقاه أميراً على فاس على ما تقدّم ، عقد لابن عمّه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره مضافة إلى عمله من قبل : تسول وتازا وماعهما وقفل مصالة إلى القيروان .

فقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب ، وعاود مصالة غزو المغرب سنة تسع وثلاثمائة : أغراه موسى بن أبي العافية يحيى بن إدريس ، فقبض عليه وأخذ ماله وطرده ، فلحق بني عمه بالبصرة والريف ، ووثى مصالة مكانه على فاس ريجاناً الكامي وقفل إلى القيروان فمات ، وعظم ملك موسى بن أبي العافية بالمغرب .

(١) لعله بنواحي تازا وغيرها من أوساط الخ وفي "البرج ٦ ص ١٣٤" بنواحي تازا وتسول والكل يرجعون الخ .

ثم ثار بناس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة (الحسن بن محمد) بن القاسم ، بن إدريس الملقب بالحجّام ، ودخل فاس على حين غفلة من أهلها وقتل ريحاناً والياً ، واجتمع الناس على بيعته ، ثم خرج لقتال ابن أبي العافية وآتقوا ، فهلك جماعة من مكّاسة ثم كانت الغلبة لهم . ورجع الحسن مهزوماً إلى فاس فغدر به عامله على عدوة القرويين : حامد بن حمدان الهمداني ، فقبض عليه واعتقله وأمكن ابن أبي العافية من البلد ، وزحف إلى عدوة الأندلسيين فملكها وقتل عاملها ، وولى مكانه أخاه محمداً ، وأستولى ابن أبي العافية على فاس وجميع المغرب وأجلّ الأدارسة عنه .

ثم استخلف على المغرب الأقضى ابنه (مدين) وأنزله بعدوة القرويين ، وأستعمل على عدوة الأندلسيين طوال بن أبي زيد ، وعزل عنه محمد بن ثعلبة . ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها ، وغلب عليها صاحبها الحسن بن أبي العيش ابن عيسى ، بن إدريس ، بن محمد ، بن سليمان : من قَبِ سليمان بن عبد الله : أنحى إدريس الأكبر الداخل إلى المغرب بعده ، ورجع بعد فتحها إلى فاس وخرج عن طاعة العبيدين ، وخطب للناصر الأموي خليفة الأندلس على منابر عمّله ، فبعث عبيد الله المهديّ قائده حميداً المكاسي ابن أخى مصالّة إلى فاس ، ففرّ عنها مدين بن موسى بن أبي العافية إلى أبيه فدخلها حميد ، ثم أستعمل عليها حامد بن حمدان ورجع إلى أفريقية ، وقد دوّخ المغرب .

ثم أنتقض أهل المغرب على العبيدين بعد مهلك عبيد الله ، وثار (أحمد بن بكر) بن عبد الرحمن بن سهل الجنداحي على حامد بن حمدان عامل فاس ، فقتله وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافية ، فبعث به إلى الناصر الأموي بالأندلس وأستولى على المغرب ، وزحف (ميسور الخصى) قائد أبي القاسم بن عبيد الله المهديّ سنة ثلاث

(١) كذا في القطعة الأثرية أيضاً وفي العبرج ٦ ص ١٣٥ طول بن أبي زيد وهو تصحيف .

وعشرين وثلاثمائة إلى فاس وحاصرها فأحجم ابن أبي العافية عن لقاءه ، وأستزل ميسور أحمد بن بكر عاملها وقبض عليه وبعث به إلى المهدية .

ثم خرج أهل فاس عن طاعته ، وقدموا على أنفسهم (حسن بن قاسم اللواتي) ، ثم حاصره ميسور فدخلوا تحت طاعته ، وأشترطوا على أنفسهم الإتاوة ، فقيل ميسور ذلك منهم ، وأقر حسن بن قاسم على ولايته بفاس ، وأرتحل إلى حرب ابن أبي العافية ، فكانت بينهم حروب آخرها أن ظهر ميسور على ابن أبي العافية ، وأجلاه عن أعمال المغرب إلى بلاد الصحراء ، ثم قفل ميسور إلى القيروان سنة أربع وعشرين وثلاثمائة . ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله بالمغرب ، وزحف إلى تلمسان ، فقرعها أبو العيش ولحق بتكور ، وأستفحل أمر ابن أبي العافية بالمغرب الأقصى وأتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط ، وبثوا دعوة الأموية في أعمالها ، وبعث ابنه مدين إلى منازلة فاس فحاصرها ، وهلك موسى في خلال ذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .

وقام ابنه (مدين) بأمره ، وعقد له الناصر الأموي على أعمال أبيه بالمغرب ، ثم قسم أعماله بينه وبين أخويه البوري وأبي منقذ ، وأجاز البوري إلى الناصر بالأندلس سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فعقد له ثم هلك سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وهو محاصر لأخيه مدين بفاس ، فعقد الناصر لأخيه (منصور) على عمله .

ثم توفي مدين ، فعقد الناصر لأخيه أبي منقذ على عمله ، ثم غلب مغراوة على فاس وأعمالها ، وأستفحل أمرهم بالمغرب ، وأزاحوا مكثاسة عن ضواحيه وأعماله ، وأجاز إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبدالله بن مدين إلى الأندلس ، فترلا بها إلى أن أجازوا مع واضح أيام المنصور بن أبي عامر عند ما خرج زيري بن عطية عن طاعتهم سنة ست وثمانين وثلاثمائة .

الطبقة الخامسة

(بَنُو زِيْرِى بنِ عطية من مَغْرَاوة من البربر)

وهو زِيْرِى بن عطية ، بن عبدالله ، بن خَزْر ، بن محمد ، بن خَزْر ، بن حَفْص ،
 ابن صولات ، بن رومان ، من بطون زَنَاتَة من البربر . وكان أولية أمره أن زِيْرِى
 هذا كان أميرَ بَنِي خَزْر في وقته ، وأتمت إليه رِياسَتُهُمْ وإمارَتُهُمْ في البَدَاوة .
 ولما غلب بُلْكِين بن زِيْرِى الصَّنْجِيُّ صاحبُ أَفْرِيقِيَّة وقومُه صِنْهَاجَةً على المغرب
 الأوسط سنة تسع وستين وثلاثمائة وأجلوا عنه مَغْرَاوة الذين كانوا به من تَقَادُم السنين
 وصار المغرب الأوسطُ جميعه لِصِنْهَاجَةٍ ، لحق مَغْرَاوةُ فِيمَنْ بَقِيَ من بَنِي خَزْر ، بالمغرب
 الأقصى ، وأمرأَهُمْ يومئذ محمدُ بن الخير ، ومقاتلُ زِيْرِى ابْنَا عطية بن عبد الله ،
 وخَزْرُون بن فَلَنُول ، ووصلوا إلى سَبْتَة وأميرُهُم المنصورُ بنُ أَبِي عامر حاجب ^(١) .

وبعث العزيزُ بنُ زِيَار العَبِيدِيُّ من مصر الحسنَ بن كَثُون من الأُدَارسة لِاستِرجاع
 مُلكه بالمغرب ، فبعث المنصورُ لِحَرْبه أبا الحَكَمَ عَمْرُو بنَ عبد الله بن أبي عامر
 الملقَّب بعسكلاجة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ، وأنحاش إليه زِيْرِى بن عطية ومن
 معه من بَنِي خَزْر في جموع مَغْرَاوة ، وزحفوا إلى الحسن بن كَثُون حتى أُلْحِشُوهُ إلى
 الطاعة ، ثم أنصرف أبو الحَكَمَ بنُ أَبِي عامر إلى الأندلس ، فعقد المنصورُ بنُ
 أَبِي عامر على المغرب الأقصى للوزير (حسين بن أحمد) بن عبد الوُدود السُّلَمِي ،
 وأنفذه إليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة ، وأوصاه بملوك مَغْرَاوة خصوصا زِيْرِى ،
 فسار الحسن بن أحمد حتى نزل بفاس وضبط أعمال المغرب . ومات مقاتلُ بنُ
 عطية سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، وأستقل أخوه زِيْرِى بن عطية برياسة مَغْرَاوة ،
 وبقي الحسنُ بنُ أحمد إلى أن قُتِل في بعض الحروب سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ،

(١) لعله حاجب هشام بن عبد الملك خليفة الأندلس كاسياتي وهو كذلك في القطعة الأزهرية على تصليح .

وبلغ الخبر المنصور بن أبي عامر فعقد على المغرب (لزيري بن عطية) المذكور، وكتب إليه بعهدته وأمره بضبط المغرب، فاستفحل ملكه وغلب على تلمسان. فملكها من يد أبي البهار الصنهاجي، وبعث بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر بخدد له العهد، وأختط مدينة (وعدة) سنة أربع وثمانين، وأنزل بها عساكره.

ثم فسد ما بين المنصور بن أبي عامر وبين زييري بن عطية، فعقد المنصور لمولاه واضح على المغرب، وعلى حرب زييري بن عطية، وجهزه إليه في عساكره؛ ثم أتبعه المنصور أبنته المظفر عبد الملك فأجتمعا على زييري بن عطية، ودارت بينهم الحرب فكانت الهزيمة على زييري وجرح في المعركة وقر إلى فاس فامتنع عليه أهلها، فالحق بالصحراء جريحا، وكتب عبد الملك بن المنصور بالفتح إلى أبيه فاستبشر به وكتب إلى أبنته (عبد الملك) بعهدته على المغرب.

وكان زييري بن عطية لما قر إلى الصحراء صرف وجهه إلى حرب صنهاجة بالمغرب الأوسط فقصده وفتح تاهرت وتلمسان وأعمالها، وأقام الدعوة فيها لهشام ابن عبد الملك خليفة الأندلس وحاجبه المنصور من بعده، وبقي على ذلك حتى مات سنة إحدى وتسعين وثلثمائة.

وبويع من بعده أبنته (المعز بن زييري) بخري على سنن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصور من بعده؛ ومات المنصور في خلال ذلك.

وقام بأمره من بعده أبنته المظفر (عبد الملك) وبعث المعز بن زييري يرغب إلى المظفر في عمل فاس والمغرب الأقصى فأجابته إلى ذلك، وكتب له عهدته بذلك، خلا سجنه أسة فإنها كانت بيد خزون^(١)، وبقي المعز في ولايته إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعائة.

(١) الذي في العبرج ٧ ص ٣٤ أنها كانت بيد واندن بن خزون.

وولى من بعده ابن عمه (حماسة) بن المعز بن طيبة وأستفحل مملكه ؛ ثم نازعه الأمير أبو الكمال (تيم بن زيرى) بن يعلى اليفرنى سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، وأستقل بملك المغرب وبقي حتى مات سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة .

وولى من بعده ابنه (دوناس) المعروف بأبى العطاف ، وأستولى على فاس وسائر عمل أبيه ، فاستقامت دولته ؛ وأحتفل بعامة فاس وأدار السور على أرباضها ؛ وبني بها المصانع ، والحمامات ، والفنادق ؛ وبقي حتى مات سنة إحدى وخمسين وأربعمائة .

وولى من بعده ابنه (الفتوح بن دوناس) ونازعه أخوه الأصغر عجيسة وأستولى على عدوة القرويين من فاس ؛ وبقي الفتوح بعدة الأندلسيين ، وأفترق أمرهما ووقعت الحرب بينهما ؛ وأبنتى الفتوح بعدة الأندلسيين (باب الفتوح) المعروف به إلى الآن ، وأبنتى عجيسة بعدة القرويين (باب الحيسة) المعروف به إلى الآن ، وحذفت العين منه لكثرة دورانه على الألسنة ؛ وبقي الأمر على ذلك حتى ظفر الفتوح بأخيه عجيسة ، وقتله سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ؛ ودهم المغرب على إثر ذلك مادهم من أمر المرابطين من لمتونته ؛ وخشي الفتوح عاقبة أمرهم ، فرحل عن فاس وتركها .

وزحف صاحب التلعة (بكين) بن محمد بن حماد إلى المغرب سنة أربع وخمسين ، فدخل فاس وآسره بعض أشرافيهم على الطائفة ورجع إلى عمله ؛ وولى على المغرب بعد الفتوح (معتصر) بن حماد ، بن معتصر ، بن المعز ، بن زيرى .

وزحف (يوسف بن تاشفين) إلى فاس فملكها صلحا سنة خمس وخمسين وأربعمائة وملك عليها ناهله ، وآرتحل إلى غمارة نخالقه معتصر إلى فاس وملكها

وقتل العامل ومن معه من لَمْتُونَةَ ، وبلغ الجبرُ يوسفَ بن تاشفين فأرسل العساكر إلى فاس وحاصرها ، وخرج منصرفاً للقضاء عساكره ، فكانت الدائرةُ عليه وقُتل في المعركة سنة ستين وأربعمائة .

وباع أهل فاس من بعده ابنه (تميم بن معتصر) فكانت أيامه أيامَ حصار وفتنةٍ وشدةٍ وغلاء .

ولما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر عُمارَة سنة ثنتين وستين وأربعمائة قصد فاس لحاصرها أياماً ثم أفتحتها عنوةً وقتل بها نحو ثلاثة آلاف من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وقبائل زنانة وهلك تميم بن مُعْتَصِر في جملتهم . وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلةً بين العُدوتين وصيرهما مصراً واحداً وأدار عليهما سوراً واحداً ، وفرَّ مَنْ خَلَصَ من القتل من مغراوة من فاس إلى تلمسان^(١) ، وأنقرض ملكهم من الغرب الأقصى ، وتصاريف الأمور بيد الله تعالى .

الطبقة السادسة

(المرابطون من الملتئمين من البربر)

كان الملتئمون من البربر من صنهاجة قبل الفتح الإسلامي متوطنين في القفار وراء رمال الصحراء : ما بين بلاد البربر وبلاد السودان ، في جملة قبائل صنهاجة على دين المجوسية ، قد اتخذوا الأثنام شامرا يميز بينهم وبين غيرهم من الأمم ، والرياسة فيهم يومئذٍ لَمْتُونَةَ ، ولم يزلوا على ذلك إلى أن كان فتح الأندلس واستمر ملكهم أيام عبد الرحمن أول خلفاء بني أمية بالأندلس .

(١) في الأصل من تلمسان إلى فاس وهو خطأ من النسخ والتصحيح من "العبرج ٧ ص ٣٦"

قال ابن أبي زرع : أول من ملك الصحراء من لمتونة (يَتْلُونان) وكان يركب في ألف نجيب وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

وملك بعده (يُلْتان) فقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين .

وقام بأمرهم بعده ابنه (تميم) إلى سنة ست وثلاثمائة وقتله صنهاجة .

ثم أفرق أمرهم بعد تميم مائة وعشرين سنة إلى أن قام فيهم (أبو عبد الله بن نيفأوت) المعروف بتادشت اللاتوني ، وحج ومات لثلاثة أعوام من رياسته عليهم .

وقام بأمرهم صهره (يحيى بن إبراهيم) فخرج في سني أربعين وأربعمائة ، وعاد وصحبته عبدالله بن ياسين الجزولي ليعلمهم الدين ، فلما مات يحيى بن إبراهيم أطرحوا عبدالله ابن ياسين واستعصوا عليه وتركوا الأخذ بقوله فاعتزلهم ، ثم اجتمع عليه رجال من لمتونة فخرج فيهم وقاتل من استعصى عليه منهم حتى أنابوا إلى الحق وسمّاهم " المرابطين " وجعل أمرهم في الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر ، بن واركوت ، بن ورتنطق ، بن المنصور ، بن مرصالة ، بن منصور ، بن فرصالة ، بن أميت ، بن راتمال ، بن تاميت ، وهو لمتونة ، فافتحوا درعة وحملة ، واستعملوا عليها منهم ، وعادوا إلى الصحراء ، وهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

وولى مكانه أخوه (أبو بكر بن عمر) ثم افتحوا بلاد الشوس سنة ثمان وأربعين ثم مدينة أغمات سنة تسع وأربعين ، ثم بلاد المصامدة وجبال درن سنة خمسين ، ثم استشهد عبدالله بن ياسين في بعض الغزوات سنة خمسين ، واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه ، وافتتح مدينة آوأة سنة ثنتين وخمسين ، ثم ارتحل إلى الصحراء لجهاد السودان واستعمل على المغرب ابن عمه (يوسف بن تاشفين) بن إبراهيم ابن واركوت ، فسار يوسف في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب ، وأخط مدينة مراکش سنة أربع وخمسين .

ثم أترع جبال زَنَاتَةَ بالمغرب من أيديهم ؛ ثم أفتح ناس صلحا سنة خمس وخمسين
ثم استعبدت بعد فتحها ؛ ثم فتحها عنوة سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، وأمر بهدم
الأسوار التي كانت فاصلة بين عدوتي القرويين والأندلسيين وصيرهما مصرا واحدا ؛
ثم أفتح بعد ذلك مدينة تلمسان وأستولى على الغرب الأقصى والغرب الأوسط ؛
ثم صار إلى الأندلس وأستولى على أكثر ممالكها كما سيأتي في ذكر مكتبة صاحب
الأندلس ؛ ثم توفي يوسف بن تاشفين على رأس المائة الخامسة .

وقام بالأمر بعده ابنه (علي بن يوسف) ناستولى على ما كان بيد أبيه من
العدوتين ، وسار فيهم بأحسن السيرة . ولأربع عشرة سنة من ولايته كان ظهور
المهدي بن تومرت صاحب دولة الموحدين . ومات علي بن يوسف سنة سبع
وثلاثين ، وقد ضعفت كلمة المرابطين بالأندلس لظهور الموحدين .

وقام بالأمر بعده ولده (تاشفين بن علي) وأخذ بطاعته وبعثه أهل البدوتين ؛
وقد استنحل أمر الموحدين وعظم شأنهم ، ونزل تلمسان فقصده الموحدون ،
ففرّ إلى وهران وأتبعه الموحدون ، ففقد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وأستولى
الموحدون على الغرب الأوسط .

ثم بويع بمراكش (إبراهيم بن تاشفين) ، بن علي ، بن يوسف بن تاشفين ،
فألنوه عاجزا فخلعوه .

وولى مكانه عمه (إسحاق بن علي) بن يوسف بن تاشفين ، وقد ملك الموحدون
جميع بلاد المغرب وقصدوه في مراكش ، فخرج إليهم في خاصته فقتلوه ، وأجاز
عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس ، فملكوه سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وفرّ
أمرء المرابطين في كل وجه .

الطبقة السابعة

(ملوك الموحدین)

كان أول أمرهم أن المهدي محمد بن تومرت، كان إماما متضلعا بالعلوم، قد حجَّ (١) ودخل العراق واجتمع بأئمنه من العلماء والنظار، كالغزالي [واليك المراسي] وغيرهما، وأخذ بمذهب الأشعرية أهل السنة، ورجع إلى الغرب وأهله يومئذ على مذهب أهل الظاهر في منع التأويل، فاجتمع إليه قبائل المصامدة من البربر وجعل يثبت فيهم عقائد الأشعرية، وينهى عن الجؤود على الظاهر، وسعى أتباعه الموحدین، تعريضا بتكفير القائلين بالتجسيم الذي يؤدي إليه الوقوف على الظاهر.

وكان الكهان يتحدّثون بظهور دولة بالمغرب لأمة من البربر، وصرفوا القول في ذلك إليه؛ ودعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسمين سنة خمس عشرة وخمسمائة فبايعوه على ذلك.

ولما كملت بيعته لقبوه المهدي، وكان قبل ذلك يلقب الإمام، وأخذوا في قتال المرابطين من أمتونه حتى استقاموا على الطاعة. وتوفي المهدي سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة.

وقام بالأمر بعده (عبد المؤمن) بن علي بعهدده إليه. فكان من أمره ما تقدم من استيلائه على العدوتين وانقراض ملك المرابطين بهما، وكان ذلك من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين. ثم صرف همه إلى بجاية وأفريقية فافتتحهما، واستخلص المهدية والبلاد الساحلية التي كانت النصارى قد استولوا عليها من أيديهم واستولوا على سائر بلاد أفريقية، وعاد إلى الغرب في سنة ست وخمسين وخمسمائة. وتوفي بسلا من الغرب الأقصى في جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين.

(١) بياض الأصل، والتصحيح عن تاريخ ابن الأثير وهو كذلك في القطعة الازهرية.

وبُويع بعده أبْنُه أَبُو يَعْقُوبَ (يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ) فَاسْتَوْلَى عَلَى مَا كَانَ بِيَدِ
أَبِيهِ مِنَ الْمُدُونِ وَأَفْرِيقِيَّةَ ٥ وَاشْتَمَلَ بِإِصْلَاحِ الْمَالِكِ وَجِهَادِ الدُّقْوَ، وَأَجَازَ إِلَى
الْأَنْدَلُسِ لِجِهَادِ النَّصَارَى، وَقُتِلَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فِيهِ بِسَبْعِ أَصَابِهِ ٥ وَقِيلَ مَرَضَ
فَمَاتَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ٥

وَبُوَيْعَ أَبْنُه (يَعْقُوبُ بْنُ يُوسُفَ) بِإِشْبِيلِيَّةَ حَتَّى مَاتَ وَتَلَقَّبَ بِالْمَنْصُورِ،
فَاسْتَوْلَى عَلَى مَا كَانَ بِيَدِ أَبِيهِ مِنَ الْمَمَالِكِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ لَهُ مَعَ الْعِدُوِّ وَقَائِعٌ،
وَمَرَضَ بِالْأَنْدَلُسِ فَمَاتَ سَنَةَ نَحْمَسَ وَتَسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ٥

وَبُوَيْعَ أَبْنُه (مُحَمَّدٌ) وَلَى عَهْدَهُ وَتَلَقَّبَ النَّاصِرَ لِدِينِ اللَّهِ، وَرَجَعَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ ٥
وَفِي أَيَّامِهِ ثَارَ (أَبْنُ غَانِيَّةَ) عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَتَغْلِبَ عَلَيْهَا، وَوَلَّى أَبَا مُحَمَّدَ ابْنَ الشَّيْخِ
أَبِي حَفْصَ عَلَيْهَا، فَاسْتَقَرَّتْ بِهَا قَدَمُ بَنِيهِ إِلَى الْآنَ ٥ وَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَنَزَلَ
إِشْبِيلِيَّةَ، وَالتَّمَّى مَعَ الْعِدُوِّ فِي صَفَرِ سَنَةِ تِسْعَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَأَبْتَلَى الْمُسْلِمُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَرَجَعَ إِلَى مَرَاكُشَ فَمَاتَ فِي شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ٥

وَبُوَيْعَ أَبْنُه (يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ) سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَهُوَ أَبْنُ سِتِّ عَشْرَةَ
سَنَةً، وَتَلَقَّبَ الْمُسْتَنْصَرَ بِاللَّهِ، وَتَأَخَّرَ أَبُو مُحَمَّدُ ابْنُ الشَّيْخِ أَبِي حَفْصَ عَنْ بَيْعَتِهِ لِصِغَرِ
سَنِهِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ مَشِيخَةُ الْمُوَحِّدِينَ فَقَامُوا بِأَمْرِهِ ٥ وَبَقِيَ الْمُسْتَنْصَرُ حَتَّى مَاتَ يَوْمَ
الْأَضْحَى سَنَةَ سِتِّ وَعَشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ (١) ٥

وَبُوَيْعَ بَعْدَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ (عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ يُوسُفَ) بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَهُوَ أَخُو الْمَنْصُورِ
وَيُعْرَفُ (بِالْمُخْلُوعِ) ٥ وَكَانَ الْوَالِيَّ الْحُرْسِيَّةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَعْقُوبَ
أَبْنِ الْمَنْصُورِ، بْنُ يُوسُفَ، بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ٥ فَتَارَ بِالْأَنْدَلُسِ وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَتَلَقَّبَ

(١) فِي الْعَرَبِ ج ٦ ص ٢٥١ يَوْمَ الْأَضْحَى مِنْ سَنَةِ عَشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَهُوَ الصَّوَابُ ٥

(العدل). وأتصل الخبر بمراكش فاضطرب الموحدون على (الخلوغ) وبعثوا ببيعتهم إلى العدل بالأندلس ، وبادر العدل إلى مراكش فدخلها وبقي حتى قُتل بها أيام الفطر سنة أربع وعشرين وستمائة .

وكان أخوه (إدريس بن المنصور) بإشبيلية من الأندلس فدعا لنفسه وبويع وبعث الموحدون ببيعتهم إليه ، ثم قصد مراكش فهلك في طريقه بوادي أم ربيع مُفتتح سنة ثلاثين وستمائة ، وتغلب ابن هود على سبته .

وبويع بعده ابنه (المأمون عبد الواحد بن إدريس) فلقب الرشيد ، ودخل إلى مراكش فبايعوه ، وبقي حتى توفى سنة أربعين وستمائة .

وبويع بعده أخوه (أبو الحسن على السعيد) ولقب المعتضد بالله ، وقام بالأمر ثم سار إلى تلمسان فكان بها مهلكاً على يد بني عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين وستمائة ، وكان فيها استيلاء النصارى على إشبيلية .

ثم اجتمع الموحدون على بيعة (أبي حفص) عمر بن أبي إسحاق بن يوسف ، ابن عبد المؤمن ، فبايعوه ولقب (المرتضى) وكان بسلا فقدم إلى مراكش . وفي أيامه استولى أبو يحيى بن عبد الحق الميرني جد السلطان أبي الحسن على مدينة فاس سنة سبع وأربعين وستمائة ، وأستبد العزفي بسبته .

ثم انتقض على المرتضى قائد حروبه (أبو العلاء) الملقب بأبي دبوس ، بن أبي عبد الله محمد ، بن أبي حفص ، بن عبد المؤمن ، ففر منه واجتمع عليه جموع من الموحدين وقصد مراكش وبها المرتضى فغلبه عليها ، وألتقيا وقر المرتضى إلى أزمور

(١) لقبه في العبر بالمأمون .

(٢) صوابه ابنه عبد الواحد فإن المأمون لقب أبيه إدريس كما في العبر وغيره .

(١)
فقبض عليه واليها وأعتقله إلى أن ورد أمر [أبي دبوس] بقتله فقتله ، وأستقل
أبو دبوس بالأمر وتلقب (الوائق بالله) والمعتمد على الله .

ثم جمع يعقوب بن عبد الحق وقصده مرأش نخرج إليه أبو دبوس ، فكانت
الجزية على أبي دبوس ، ففر هاربا فأدرك وقتل ، ودخل يعقوب بن عبد الحق
مرأش وملكها سنة ثمان وستين وستمائة ، وفر مشيخة الموحدين إلى معاقلهم بعد
أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس ولقبوه المعتصم ، فأقام خمسة أيام ، وخرج
في جملتهم ، وأنقرض أمر بني عبد المؤمن ، ولم يبق للموحدين ملك إلا بأفريقية لبني
أبي حفص على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثامنة

(٢)

(ملوك بني عبد الحق من بني مرين ، القائمون بها إلى الآن)

وهو عبد الحق بن يحيى ، بن أبي بكر ، بن حمامة ، بن محمد ، بن ورزيز ، بن
فكوس ، بن كوماط ، بن مرين ، بن ورتاجن ، بن ماخوخ ، بن جديج ، بن فاتن ،
أبن بدر ، بن نجفت ، بن عبد الله ، بن ورتليص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رجيك ،
أبن واشين ، بن بصلتن ، بن مشد ، بن إيكما ، بن ورسيك ، بن أديدت ، بن جانا ،
وهوزناته .

كانت منازل بني مرين فيك إلى صا وملويه ، وكانت الرئاسة فيهم (لحمد)
أبن ورزيز بن فكوس .

(١) في الاصل المرتضى وهو خطأ .

(٢) هو بوزن أميركا ضبطه السيد مرتضى في كتابه " تاج العروس " في مادة م ر ن .

ولما هلك محمد قام بأمره من بعده أبوه (حماسة) ثم من بعده أخوه (عسكر)
ولما هلك قام برياسته فيهم أبوه (الخضب) فلم يزل أميراً عليهم إلى أن قُتل في حرب
الموحدين في سنة أربعين وخمسة .

وقام بأمرهم من بعده (أبو بكر ابن عمه حماسة بن محمد) وبقي حتى هلك .
فقام من بعده أبوه (محيو) ولم يزل حتى أصابته جراحة في بعض الحروب ،
وهو في عداد المنصور بن عبد المؤمن ، هلك منها بعد مراحته إلى الزاب سنة إحدى
وتسعين وخمسة .

وقام برياسته أبوه (عبد الحق بن محيو) وكان أكبر أولاده ، وهو الذي تنسب
إليه ملوك فاس الآن . فأحسن السير في إمارته إلى أن كانت أيام المستنصر يوسف
ابن الناصر : خامس خلفاء بني عبد المؤمن فنارت الفتنة بينه وبين بني مرين ،
وكانت بينهم حروب هلك في بعضها عبد الحق بن محيو .

ونصب بنو مرين بعده أبوه (عثمان بن عبد الحق) وشهرته بينهم
ادرغال ، ومعناه بلغتهم الأعور ، وقوى سلطانه وغلب على ضواحي المغرب ، وضرب
الإتاوة عليهم وتابعه أكثر القبائل ، وفرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازا
وغيرها ضريبة معلومة في كل سنة على أن يكف الغارة عنهم . ولم يزل على ذلك إلى
أن قتله عالج من علوجه سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وقام بأمر بنو مرين من بعده أخوه (محمد بن عبد الحق) فخرى على سنن أخيه
في الاستيلاء على بلاد المغرب ، وضرب الإتاوة على بلاده ومدنه إلى أن كانت أيام
السعيد بن المأمون من بني عبد المؤمن ، فجهز عساكر الموحدين لقتال بني مرين ،
فخرجوا إليهم في جيش كثيف في سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، ودارت الحرب
بينهم فكانت الهزيمة على بني مرين ، وقتل محمد بن عبد الحق .

(١)
 وقام بأمرهم من بعده أبْنُه أبو يحيى (زكريّا بن عبد الحق) وقسم جبايته ببلاد
 المغرب في عشائر بني مرّين، ودارت الحرب بينهم وبين الموحدّين، إلى أن مات
 السعيد بن المأمون من بني عبد المؤمن، وانتقل الأمر بعده إلى أبْنِه عبد الله،
 فضعفت دولة بني عبد المؤمن. واستولى (أبو يحيى) بن عبد الحق على أكثر بلاد
 المغرب، وقصد فاس وبها بعض بني عبد المؤمن فأناخ عليها وتلطّف بأهلها، ودعاهم
 إلى الدّعوة الحفصيّة بأفريقيّة، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه خارج باب الفتوح.
 ودخل إلى قصبة فاس لشهرين من موت السعيد في أوّل سنة ستّ وأربعين وستمائة،
 وبايعه أهل تازا وأهل سلا ورباط الفتح، واستولى على نواحيها، وأقام فيها
 الدّعوة الحفصيّة، واستبدّ بنو مرّين بملك المغرب الأقصى، وبنو عبد الواد بملك
 المغرب الأوسط.

وملك سبعمائة سنة ثلاث وخمسين وستمائة من أيدي عمّة الموحدّين وبقي حتى
 هلك بفاس في رجب سنة ستّ وخمسين وستمائة، ودُفن بمقبرة باب الفتوح.
 وتصدّى للقيام بأمره أبْنُه (عمر) ومال أهل الحلل والعقد إلى عمّه أبي يوسف
 يعقوب بن عبد الحق، وكان ذا ثباتاً فقدم ثم وقع الصلح بينهما على أن ترك
 يعقوب الأمر لابن أخيه عمر على أن يكون له تازا وبلادها، ثم وقع الخلف بينهما
 والتقياً فهزم عمر ثم نزل لعمه يعقوب عن الأمر.

ورحل السلطان أبو يوسف (يعقوب بن عبد الحق) فدخل فاس مملّكاً، ثم هلك
 عمر بعد سنة، فكفّى يعقوب شأنه واستقام سلطانه، وأخذ في افتتاح أمصار
 المغرب. وافتتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى، ثم قصد إلى
 مرّاكش فخرج إليه الخليفة المرتضى من بني عبد المؤمن، وكانت بينهما حرب

(١) الأظهر أخوه وهم جميعاً أولاد عبد الحق.

هُزِمَ فِيهَا الْمُرْتَضَى وَقُتِلَ ؛ وَبَاعَ الْمُوَحِدُونَ أَخَاهُ (إِسْحَاقَ) ثُمَّ قُبِضَ عَلَيْهِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ وَسَمَائَةَ فَقُتِلَ فِيْمَنْ مَعَهُ ، وَأَتَقَرَضَ أَمْرَ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمَغْرِبِ .

وَوَصَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يُوسُفَ إِلَى مَرَّاكُشٍ أَوَّلَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِينَ وَسَمَائَةَ فَدَخَلَهَا ، وَوَرِثَ مُلْكُ الْمُوَحِدِينَ بِهَا ؛ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى فَاسَ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَفَ عَلَى مَرَّاكُشٍ فِي شَوَّالٍ مِنْ سَنَتِهِ ؛ وَشَرَعَ فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الَّتِي اسْتَجَدَّهَا مُلَاصِقَةً لِمَدِينَةِ فَاسَ فِي ثَالِثِ شَوَّالٍ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسَمَائَةَ ، وَنَزَلَ فِيهَا بِحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ ؛ وَغَزَا فِي خِلَالِ ذَلِكَ النَّصَارَى بِالْأَنْدَلُسِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ حَتَّى أَذْعَنَ لَهُ شَانِجَةُ بْنُ أَدْفُونَشَ ، وَسَأَلَهُ فِي عَقْدِ السَّلَامِ لَهُ فَعَقَدَ لَهُ عَلَى شُرُوطٍ اشْتَرَطَهَا عَلَيْهِ ، وَعَادَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ فَمَرِضَ وَمَاتَ فِي آخِرِ الْحَرَمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَسَمَائَةَ .

وَبُويعَ بَعْدَهُ ابْنُهُ وَلِيُّ عَهْدِهِ أَبُو يَعْقُوبَ (يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ) فَجَرَى عَلَى سَنَنِ أَبِيهِ فِي الْعَدْلِ وَالْغُرُوحِ ، وَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَجَدَّدَ السَّلَامَ مَعَ شَانِجَةِ مَلِكِ النَّصَارَى . وَغَزَا تِلْمِيسَانَ مَرَّاتٍ وَبَقِيَ حَتَّى طَعَنَهُ خَصِيٌّ مِنْ خَدَمِهِ ، وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَمَاتَ سَابِعَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ .

وَبُويعَ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَبُو ثَابِتَ (عَامِرُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ يُونُسُ) وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ النَّوَاحِي ؛ ثُمَّ اسْتَقَامَ أَمْرُهُ وَبَقِيَ حَتَّى انْتَقَضَ عَلَيْهِ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَلَاءِ ، بَنُوَاحِي طَنْجَةَ مِنْ أَقْصَى الْغَرْبِ ، فَخَرَجَ لِقِتَالِهِ وَمَرِضَ فِي طَنْجَةَ وَمَاتَ فِي ثَامِنِ صَفَرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ .

وَبُويعَ بَعْدَهُ أَخُوهُ (أَبُو الرَّبِيعِ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ يُونُسُ) فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَأَجَزَلَ الصَّلَاتِ ، وَسَارَ بِسَيْرَةِ آبَائِهِ وَبَقِيَ حَتَّى مَاتَ بِمَدِينَةِ تَارَا فِي سَلَخِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِينَ وَدُفِنَ بِصَخْنِ جَامِعِهَا .

وبويع بعده اخوه أبو سعيد (عثمان بن أبي يعقوب يوسف) فلما استقام أمره بالغرب الأقصى سار إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعائة فانتزعها من موسى بن عثمان ابن يغمراسن : سلطان بني عبد الواد بها ، وانتقض عليه محمد بن يحيى العزفي صاحب سبتة فسار إليه في سنة ثمان وعشرين وسبعائة فأذعن للطاعة ، وأحضر عبد المهيم بن محمد الحضرمي من سبتة وولاه ديوان الإنشاء والعلامة .

وفي أيامه قصد بطرة وجوان ملك النصارى بالأندلس غرناطة . فاستغاثوا به ، فأجاز البحر إليهم ولقي عساكر النصارى فهلك بطرة وجوان في المعركة وكانت النصرة للمسلمين . وتوفي في ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وسبعائة .

وبويع بعده ابنه ولي عهده أبو الحسن (علي بن عثمان) وهو الذي كان في عصر «المقر الشهابي بن فضل الله» . وسار إلى تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعائة ، فملكها من أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد بها بعد أن قتله بقصره . وملك تونس من يد أبي يحيى سلطان الحفصيين بها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، وأتصل ملكه ما بين برقة إلى الشوس الأقصى والبحر المحيط الغربي ، ثم أسترجع الحفصيون تونس بعد ذلك . وملك بعد ذلك سيجلماسة قاعدة بلاد الصحراء بالغرب الأقصى ، وبقي حتى مات في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين وسبعائة بجبل هتاتة .

وبويع بعده ابنه (أبو عنان بن أبي الحسن) وكان بنو عبد الواد قد استعادوا تلمسان في أيام أبيه فارتجعها منهم في سنة ثلاث وخمسين ، ونزل له الأمير محمد ابن أبي زكريا صاحب بجاية عنها فانتظمت في ملكه . وملك قسنطينة من الحفصيين بعد ذلك بالأمان . ثم ملك تونس من أيديهم سنة ثمان وخمسين ، ورجع

إلى المغرب فارتجع الحفصيون ثونس وسائر بلاد أفريقيا وبقي حتى توفى في ذي الحجة سنة تسع وخمسين .

وكان أبوه (أبو زيّان) وليّ عهده فعُدل عنه إلى ابنه (السعيد بن أبي عنان) وآستولى عليه الحسن بن عمر وزير أبيه فحبسه في داره، واستقل بالأمور دونه .

وتغلب أبو حمو سلطان بني عبد الواد على تلمسان فاتترعها من يده في سنة ستين وسبعائة .

ثم خرج على السعيد بن أبي عنان عمّه أبو سالم (إبراهيم بن أبي الحسن) وكان بالأندلس بغاء إليه بالأساطيل ، واجتمع إليه العساكر ، ووصل إلى فاس ، وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر ، وأسلمه إلى عمّه أبي سالم وخرج إليه فبايعه ، ودخل فاس في منتصف شعبان سنة ستين وسبعائة ، وآستولى على ملك المغرب ، وقصد تلمسان فأجفل عنها أبو حمو سلطان بني عبد الواد فدخلها بالأمان في رجب سنة إحدى وستين وسبعائة ، فأقر بملكها حفيدا من أحفاد بني عبد الواد يقال له أبو زيّان ، ورجع إلى فاس في شعبان من سنته . وعاد أبو حمو إلى تلمسان فملكها من أبي زيّان . وبني إيوانا فبحا بفاس بجانب قصره ، وانتقل إليه ، وفوض أمر القلعة إلى عمر بن عبد الله بن عليّ من أبناء وزرائهم ، فعمد إلى أبي عمر (تاشفين الموسوس) ابن السلطان أبي الحسن فأجلسه على أريكة الملك ، وبايعه في ذي القعدة سنة ثنتين وستين وسبعائة ، وأفاض العطاء في الجند . وأصبح السلطان أبو سالم فوجد الأمر على ذلك فقر بنفسه ، فأرسل عمر بن (عبد الله بن عليّ في أثره من قبض عليه وأحترّ رأسه وأتى بها إلى فاس .

ثم أنكر أهل الدولة على عُمر بن عبد الله ما وقع منه من نصب أبي عمر المذكور لضعف عقله ، فأعمل فكره فيمن يصلح للملك فوقع رأيه على (أبي زيّان محمد بن الأمير عبد الرحمن) بن السلطان أبي الحسن . وكان قد فزع إلى ملك النصارى بإشبيلية من الأندلس ، فأقام عنده خوفاً من السلطان أبي سالم ، فبعث إليه من أتى به ، وخلع أبا عُمر من الملك ، وبعث إليه بالآلة والبيعة من تلقاه بطنجة . ورحل إلى فاس في منتصف شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعائة ، ودخل إلى قصر الملك ، فأقام به والوزير عُمر بن عبد الله مستبداً عليه لا يكل إليه أمراً ولا نهياً وحجراً من كل وجه ، فتقل ذلك على السلطان أبي زيّان ، ووامر بعض أصحابه في الفلك بالوزير عُمر ، فبلغ الخبر الوزير فدخل على السلطان من غير إذن على ما كان اعتاده منه ، وألقاه في بئر وأظهر للناس أنه سقط عن ظهر فرسه وهو نعل في تلك البئر .

واستدعى من حينه (عبد العزيز) ابن السلطان أبي الحسن من بعض الدور بالقلعة ، فحضر القصر وجلس على سرير الملك ، ودخل عليه بنو مَرِين فبايعوه وكل أمره . وذلك في المحرم سنة ثمان وستين وسبعائة ، وأستبد عليه كما كان مستبداً على من قبله ، فحجّره ومنعه من التصرف في شيء من أمره ، ومنع الناس أن يسألوه في شيء من أمورهم ، فتقل ذلك عليه غاية الثقل ، وأكّنه في نفسه إلى أن أستدعاه يوماً فدخل عليه القصر ، وكان قد أئتمن له رجالاً بالقصر ، فخرجوا عليه وضربوه بالسيوف حتى مات . وأستقل السلطان عبد العزيز بمملكته ، وقصد تلمسان فملكها من يد أبي حمو سلطان بني عبد الواد بالأمان بعد إجحاف أبي حمو عنها . ودخلها يوم عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وسبعائة . وأرتحل عنها آخر المحرم إلى الغرب ووصل

إلى فاس ، ثم عاد إلى تلمسان وخرج منها يريد المغرب ، ففرض ومات في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعائة .

وبويع بعده ابنه (سعيد بن عبد العزيز) وهو طفل ، وقام أمره وزيره أبو بكر بن غازي ورجعوا به إلى المغرب ودخل إلى فاس وجددت له البيعة بها ، وأستبد عليه الوزير أبو بكر ، وحجّره عن التصرف في شيء من أمره لصغره . ورجع أبو حمو سلطان بني عبد الواد إلى تلمسان فملكها في جمادى سنة أربع وسبعين وسبعائة .

وخرج عليه (أبو العباس أحمد بن أبي سالم) وكان بالأندلس فأجاز البحر وسار إلى فاس فملكها . ودخلها أول المحرم سنة ست وسبعين وسبعائة ، وأستقل بملك المغرب ، وكان ذلك بموالة ابن الأحمر صاحب الأندلس فاتصلت بينهما بذلك الصّحبة ، وتأكدت المودة ، وتخلّى عن مرأئش لعبد الرحمن ، وكان بينهما صلح وانتقاض تارة وتارة ، وقصد تلمسان فملكها من أبي حمو بعد فراره عنها ، وأقام بها أياما وهدم أسوارها وخرج منها في أتباع أبي حمو .

وخالفه السلطان (موسى) ابن عمه أبي عينا إلى فاس فملكها ، ونزل دار الملك بها في ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعائة ، وقدم السلطان أبو العباس إلى فاس ، فوجد موسى ابن عمه قد ملكها ففر عنها إلى تازا ، ثم أرسل إلى السلطان موسى بالطاعة والإذعان ، فأرسل من أتى به إليه ، فقيده وبعث به إلى الأندلس وأستقل السلطان موسى بملك المغرب ، وتوفي [ثلاث سنين من خلافته]^(١) .

(١) الزيادة من "العبرج ٧ ص ٣٥٢" .

وبويع بعده (المتنصرُ ابنُ السلطان أبي العباس) فلم يلبث أن خرج عليه (الوائق محمد بن أبي الفضل) ابنُ السلطان (أبي الحسن) من الأندلس، فسار إلى فاس ودخلها وحلّ بدار الملك بها، وبُيع في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعائة .

وبعث المتنصر إلى أبيه أبي العباس بالأندلس فأجاز السلطان أبو العباس من الأندلس إلى سبتة، فملكها في صفر سنة تسع وثمانين وسبعائة، ثم استنزله عنها ابنُ الأحمر صاحبُ الأندلس وانتظمها في ملكه، ثم ظهرت دعوة السلطان أبي العباس بمراكش واستولى جنده عليها، ثم سار إليها ابنُ المتنصر وملكها، وسار السلطان أبو العباس إلى فاس فملكها ودخل البلد الجديد بها خامسَ رمضان سنة تسع وثمانين وسبعائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه، وبعث بالوائق إلى الأندلس ثم أمر بقتله فقتل في طريقه بطنجة .

وكان أبو حمو صاحبُ تلمسان قد مات واستولى عليها بعده ابنه (أبو تاشفين) قائماً بدعوة أبي العباس صاحبِ فاس، ومات أبو تاشفين وأقيم ابنه طفلاً فيها، ثم قتله عمه يوسف بن أبي حمو، وجهز السلطان أبو العباس ابنه (أبا فارس عثمان) فملكها وأقام فيها دعوة أبيه، وتوفي السلطان أبو العباس بمدينة تازا في المحرم سنة ست وتسعين وسبعائة، واستدعوا ابنه أبا فارس فبايعوه بتازا، ورجعوا به إلى فاس، وأطلقوا أبازيان بن أبي حمو من الاعتقال وبعثوا به إلى تلمسان . وبقي أبو فارس في مملكة الغرب إلى الآن : وهو السلطان أبو فارس : عثمان ابن السلطان أبي العباس أحمد، ابن السلطان أبي سالم إبراهيم، ابن السلطان أبي الحسن علي، ابن السلطان أبي سعيد عثمان، ابن السلطان أبي يوسف يعقوب، ابن عبد الحق .

المَقْصِدُ الرَّابِعُ

(في بيان ترتيب هذه المملكة ، وفيه تسعُ (عشر) جمل)

الجملة الأولى

(في ذكر الجُند ، وأرباب الوظائف : من أرباب السيوف والأفلام ، ومقادير

الأرزاق الجارية عليهم ، وزىّ السلطان ، وترتيب حاله في الملك)

أما الجُند ، فأشياخ كبار وأشياخ صغار ، وهم القائمون مقام الأمراء الطليخانات بمصر على ما تقدم في أفريقية ، ولا يُعرف بها أمير له عدة كما بمصر والشام وإيران ، ولا يُطلق اسم الإمرة عندهم على أحد من الجُند بحال . ثم بعد الأشياخ عامة الجُند من الأندلسيين وغيرهم ، والعُلوج من الفرج ، على ما تقدم في مملكة أفريقية من غير فرق في الترتيب ، والوزراء والقضاة وأرباب الوظائف على نحو ما تقدم في أفريقية .

الجملة الثانية

(في زىّ السلطان والأشياخ وأرباب الوظائف في اللبس)

أما زىّ السلطان والأشياخ وعامة الجُند ، فإنهم يتعمّمون بعمائم طوال ، قليلة العرض من كنان ، ويعمل فوقها إحرامات يلقونها على أكفافهم ، ويتقلّدون السيوف تقليدا بدوياً ، ويلبسون الخفاف في أرجلهم (وتسمى عندهم الأئمة) كما في أفريقية ، ويشدون المهايمز فوقها ، ويختدون المناطق وهي (الحوائص) ويعبرن عنها بالمضّمات من فضة أو ذهب . وربما بلغت كلّ مضمة منها ألف مثقال ، ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو يوم التميز : وهو يوم عرضهم على السلطان . ويختص السلطان

يَلْبَسُ الْبُرُوسَ الْأَبْيَضَ الرَّفِيعَ ، لَا يَلْبَسُهُ ذُو سَيْفٍ غَيْرُهُ . أما العلماء وأهل الصَّلاح فإنه لا حَرَجَ عليهم في ذلك ، ولا حَرَجَ في غير المَلُونِ^(١) البِيضِ من البرانس على أحد .
وأما زِي الْقُضَاةِ والعلماء والحُجَّابِ وعامةِ النَّاسِ ، فقريبٌ من لبسِ الجُنْدِ .
إلا أنَّ عمامتهم خُضْرٌ ؛ ولا يَلْبَسُ أحدٌ منهم الأَمَمَةَ : وهي الأَخْفَافُ في الحَضَرِ ولا يُنَمِّعُ أحدٌ منهم من لبسها في السَّفَرِ .

الجملة الثالثة

(في الأرزاق المطلقة من قِبَلِ السلطان على أهل دولته)

أما رِزْقُ الأَجَادِ ففي "مسالك الأبصار" عن السَّلاحي : أن للأشياخ الكبار الإقطاعاتِ الجاريةَ عليهم : لكلِّ واحدٍ منهم في كلِّ سنةٍ عشرون ألفَ مثقالٍ من الذهب ، يأخذها من قبائل ، وقرى ، وضياع ، وقلاع ، ويتحصَّلُ له من القمح والشعير ، الحبوب من تلك البلاد نحو عشرين ألفَ وِسْقٍ . ولكل واحدٍ مع الإقطاع الإحسان في رأس كل سنة وهو حصانٌ بَسْرَجُهُ ولِحَامُهُ ، وسيفٌ ورمحٌ مَحْلِيَانِ ، وسَبْدَةٌ : وهي بُقْجَةٌ قماش فيها ثوبٌ طَرْدٌ وحشٍ مُدْهَبٌ سَكَنْدَرِيٌّ ، ويعبرون عن هذا الثوب بالزرد خاناه ، وثوبانِ بياض من الحَنَّانِ عملِ أفريقية ، وإحرامٌ وشاشٌ طوله ثمانون ذراعاً ، وقصبتان من ملف وهو الجوخ . وربما زيد الأكابر على ذلك ، وربما نقص من هو دون هذه الرتبة . وللأشياخ الصغار من الإقطاع والإحسان نصفُ مالِ الأشياخ الجبار مع الحصان المُسَرَّجِ المُنَمَّجِ والسيِّفِ والرَّحْجِ والكُسوةِ ؛ ومنهم من لا يَلْحَقُ هذه الرتبةَ فيكون أنقص . ومن عدا الأشياخ من الجُنْدِ على طبقات : فالقربون إلى

(١) لعله في الملون غير البيض من البرانس

السلطان يكون لكل واحد منهم سِتُون مثقالا من الذهب في كل شهر، وقليل ما هم؛ ومن دُون ذلك يكون له في الشهر ثلاثون مثقالا ثم مادونها، إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات وهي ستة مثاقيل في كل شهر . وإيس لأحد منهم بلد ولا مُزْدَرَع .

وأما قاضي القضاة، فله في كل يوم مثقال من الذهب، وله أرض يسيرة، يُزْرَع بها ما تنجى منه مؤنته وتليق دوابه .

وأما كاتب السر، فله في كل يوم مثقالان من الذهب، وله محيّران (يعني قريتين) يتحصّل له منهما متحصّل جيّد، مع رسوم كثيرة له على البلاد ومنايع وإرفاقات؛ ولكل واحد من كاتب السر وقاضي القضاة في كل سنة بغلة بسرجهما ولجامهما، وسبينة فُماش برسم كُسوته كما للأشياخ .

الجملة الرابعة

(في جلوس السلطان في كل يوم)

قال السلاوي: من عادة سلطانهم أن يجلس في بكرة كل يوم، ويدخل عليه الأشياخ الكبار فيسلموا عليه، فيمدّ لهم السباط ترأّد في جفان حولها طرافير؛ وهي الخافي، فيها أطعمة ملوّنة منوعة؛ ومع ذلك الحلوى: بعضها مصنوع بالسكر، ومعظمها مصنوع بالعسل والزيت، فيأكلون ثم يتفرّقون إلى أماكنهم . وربما ركب السلطان بعد ذلك والعسكر معه وقد لا يركب . أما أخريات النهار فإن الغالب أن يركب بعد العصر في عسكره ويذهب إلى نهر هناك، ثم يخرج إلى مكان فيسيح من الصّخرات، فيقف به على نشز من الأرض، وتتطارد الخيل قدامه، وتتطاعن الفرسان، وتتداعى الأقران، وتُمثّل الحرب لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأنها يوم الحرب حقيقة؛ ثم يعود في موكبِهِ إلى قصره، وتنفّر العساكر؛

وتحضرُ العلماء وفضلاء الناس وأعيانهم إلى مُحَاضَرَتِهِ حينئذٍ ، فيمدُّ لهم سِمْطٌ بين يديه فيأْكُلُون ويُواكِلُهُمْ . ثم يأخذ كاتبُ السِرِّ في قراءة القِصَصِ والرِّقَاعِ والكلامِ في المهمَّاتِ ، ويَبَيِّنُ عنده مَنْ يُسَامِرُهُ من الفضلاء في بعض الليالي ، وربما أَقْصَتِ الحالُ مَيِّتَ كاتبِ السِرِّ فيبيِّت عنده .

الجملة الخامسة

(في جلوسه للظالم)

قال السلايحي : قد جرت عادة مَنْ له ظُلامة أن يرتقب السلطانَ في رُكوبه في مَوْكبِهِ (يعني يومَ جلوسه للظالم) فإذا أَجْتَازَهُ السلطانُ صاح من بُعدٍ «لا إله إلا الله أَنصُرْنِي نَصْرَكَ اللهُ!» فتُؤَخَذُ قِصَّتُهُ وتُدْفَعُ لكاتبِ السِرِّ ، فإذا عاد جلسَ في قُبَّةٍ معيّنة للجلوسه ، ويجلس معه أكابرُ أشياخه مقلِّدين السُّيُوفَ ، ويقفُ مَنْ دونهم على بُعدٍ ، مصطَفَيْنَ متكئين على سُيُوفِهِمْ ، ويقرأ كاتبُ السِرِّ قِصَصَ أصحابِ المَظَالِمِ وغيرها فيُنْظَرُ فيها بما يراه .

الجملة السادسة

(في شِجَارِ السلطان بهذه المَمْلَكَةِ)

منها عَلمٌ أبيضٌ حريرٌ مكتوبٌ فيه بالذهب نَسِيجاً بأعلى دائره آياتٌ من القرآن ، يسمُّونه العَلمَ المنصُورَ كما في أفريقيَّة . وربما عبَّرَ عنه هؤلاء بسَعْدِ الدولة ، يحملُ بين يديه في المواكب .

ومنها - أعلامٌ دُونُهُ مختلفةُ الألوان تحملُ معه أيضا .

ومنها - سِيفٌ ورُخٌّ ودَرَقَةٌ . يُحْمَلَنَّ بين يديه في المواكب أيضا : يحملُها ثلاثةٌ من خاصَّته من وُصَفَانِهِ أو من أبناءِ خَدَمِ سَلَفِهِ .

ومنها - أطبار تحمل حوله . ويعبرون عنها بالطَّبرِ زينات ، يحملها أكابر قواد علوجه من الفرج ورجال من الأندلسيين خلفه وقدامه .

ومنها - رِمَاح طَوَال وقِصَار . يحملها خمسون رجلاً مشاة بين يديه مشدودى الأوساط بيد كل واحدٍ منهم رُحان : رُحٌّ طَوِيل وريح قصير ، وهو متقلد مع ذلك بسيف .
ومنها - الجَنَائِب . وهى حَيْلٌ تُقادُ أمامه ، عليها سُروج مخروزة بالذهب كالزركش وركبها ذهب كل رِكَّاب زنته ألف دينار ، وعليها ثياب سُروج من الحرير مرقومة بالذهب ، ويعبرون عن الجَنَائِب بالمَقَادَات ، وعن ثياب السُروج بالبراقع .

ومنها - الطبول تدق خلف ساقته وهى من خصائص السلطان ليس لأحد من الناس أن يضرب طبلة غيره حتى يمنع من ذلك أصحاب الحلقى .
ومنها - البوقات مع الطبل على العادة .

الجملة السابعة

(فى ركوبه لصلاة العيد)

قال السلايحي : وفى ليلة العيدين يُنادى والى البلد فى أهلها بالمسير ، ويخرج أهل كل سُوقٍ ناحيةً ، ومع كل واحد منهم قَوْس أو آلة سلاح ، متجمعين بأحسن الثياب ، ويبعث الناس تلك الليلة أهل كل سُوق بذاتهم خارج البلد ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رَنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم . فإذا ركب السلطان بُكرة أصطفوا صُفُوفاً يمشون قدامه ، ويركب السلطان ويركب العسكر معه مَيِّمة وميسرة والعلوج خلفه ملتقون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفها حتى يصلّى ثم يعود ، فيصرف أرباب الأسواق إلى بيوتهم ، ويحضر طعام السلطان خواصه وأشياخه .

الجملة الثامنة

(في خروج السلطان للسفر)

من عادة هذا السلطان إذا سافر أن يخرج من قصره وينزل بظاهر بلده، ثم يرتحل من هناك فيضرب له طبل كبير قبيل الصبح إشعاراً بالسفر، فيتأهب الناس ويستغل كل أحد بالاستعداد للرحيل . فإذا صلى صلاة الصبح ركب الناس على قبائلهم في منازلهم المألوفة، ووقفوا في طريق السلطان صفًا إلى صف، ولكل قبيل رجل علم معروف به ومكان في الترتيب لا يتعداه، فإذا صلى السلطان الصبح قعد أمام الناس، ودارت عليه عبيده ووصفائه ونقباؤه، ويجلس ناس حوله يعرفون بالطلبة يجري عليهم ديوانه، يقرءون حزبًا من القرآن، ويذكرون شيئًا من الحديث النبوي، على قائله أفضل الصلاة والسلام! . فإذا أسفر الصبح ركب وتقدم أمامه العلم الأبيض المعروف بالعلم المنصور، وبين يديه الرجال بالسلح والخيال المحنوبة، بثياب السروج الموشية، ويعبرون عن ثياب السروج بالبراقع. وإذا وضع السلطان رجله في الركاب، ضرب على طبل كبير يقال له تريال ثلاث ضربات إشعارًا بركوبه. ثم يسير السلطان بين صفي الخيل ويسلم كل صف عليه بأعلى صوته «سلام عليكم» ويكتفانه يمينا وشمالا، وتضرب جميع الطبول التي تحت البناد الكبار الملقوة خلف الوزير على بُعد من السلطان، ولا يتقدم أمام العلم الأبيض إلا من يكرن من خواص علوج السلطان، وربما أمرهم بالجولان بعضهم على بعض، ثم يتقطع ضرب الطبول إلى أن يقرب من المنزل .

وإذا ركب السلطان لا يسايره إلا بعض كبار الأشياخ من بني مرين أو بعض عظماء العرب، وإذا استدعى أحدا لا يأتيه إلا ماشيا، ثم ربما حدثه وهو يمشي، وربما

أكرمهم فأكرمهم بالركوب . فاذا قَرُبَ السلطانُ من المنزلِ تقدّمت الرّمالّة : وهم القراشون ، ويضربون سُقَّةً من الكنان في قلبها جلود يقوم بها عصيّ ورجال من القصب في أوتاد ، وتستدير على كثير من الأخيَّة وبيوت الشعرا الخاصة به وبعياله وأولاده الصغار ، تكون هذه السُّقَّة كالمدينة لها أربعة أبواب في كل جهة باب ، وهذه السُّقَّة هي المعبر عنها في الديار المصرية بالحوش ، ويخف به عبيده وعلوجه ووصفائه ، ويضرب للسلطان أمام ذلك قبة كبيرة مرتفعة من كنان تسمى قبة الساقفة لجلوس الناس فيها وحضورهم عنده بها ، وهذه هي التي تسمى بمصر المدورة .

وإذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه ضربت البشائر سبعة أيام ، وأطعم الناس طعاما شاملا في موضع يسع كافهم .

الجملة التاسعة

(في مقدار عسكر هذه المملكة)

قال في "مسالك الأبصار" : سألت أبا عبد الله السلاحي عن عدّة هذا العسكر في سلطنة أبي الحسن المريني ، وكان ابن جرّار قد قال إن عسكره مائة ألف وأربعون ألفا - فقال : الذي نعرفه قبل فتحه تلمسان أن جريدته المثبتة في ديوانه لا تزيد على أربعين ألف فارس غير حفظة المدن والسواحل ، إلا أنه [يمكنه] إذا استجاش لحرب عليه أن يخرج في جموع كثيرة لا تكاد تنحصر ، وأنه يمكن أن يكون قد زاد عسكره بعد فتح تلمسان مثل ذلك .

الجملة العاشرة

(في مكاتبات السلطان)

قال في "مسالك الأبصار": جرت العادة أنه إذا انتهى الكاتب إلى آخر الكتاب وكتب تاريخه، كتب السلطان بخطه في آخره ماصورته "وكتب في التاريخ المؤرخ به". ونقل عن السلاحي: أن ذلك مما أحدثه أبو حفص «عمر الميرني» عم السلطان أبي الحسن في سلطته، وتبعه السلطان أبو الحسن على ذلك مع وثوقه بكاتب سره حينئذ: الفقيه الفاضل أبي محمد عبد المهيمن بن الحضرمي وأعماده عليه ومشاركته له في كل أمر.

المملكة الخامسة

(من بلاد المغرب جبال البربر)

قال في "مسالك الأبصار": في جنوب الغرب بين مملكة بر العُدوة وبين بلاد مالي وما معها من بلاد السودان ثلاثة ملوك من البربر يص مسلمون: وهم سلطان (أهير) وسلطان (دمونسة) وسلطان (تادمكة) كل واحد منهم ملك مستقل بنفسه لا يحكم أحد منهم على الآخر، وأكبرهم ملك (أهير) وزعيم نخوزي المغاربة: يلبسون الدَّراريح إلا أنها أضيق، وعمائم بأحناك، وركوبهم الإبل، ولا خيل عندهم ولا للبربري [عليهم حكم ولا لصاحب مالي^(١) ولا خبز عندهم، وعيشهم عيش أهل البر من اللحم واللبن. أما الحبوب عندهم فقليلة، وهم في قلة أقوات.

ونقل عن الشيخ عيسى الزواوي أن لهم جبالا عامرة، كثيرة الفواكه. وذكر أن ما بأيدي الثلاثة تقديراً نصف ما ملك مالي من ملوك السودان أو أرجح بقليل؛

(١) الزيادة من "مسالك الأبصار" ليستقيم الكلام.

ولكن صاحب مالى أكثر في تحصيل الأموال لاستيلائه على بلاد الذهب وما يُباع
بملكته من السلع ، وما يَنْمُسه في الغزوات من بلاد الكُفَّار لمجاورته لهم بخلاف
هؤلاء فإنه ليس لهم يد تمتد إلى كَنْس ، بل غالب أرزاقهم من دوابهم . ثم قال :
ودون هؤلاء فيما بينهم وبين مرَّاكش من بلاد المغرب جبال المصَّامدة ، وهم خلق
لا يبعد ، وأمم لا تُحصى ، وهم يفتخرون بالشجاعة والكرم .

ثم ذكر أنهم كانوا لا يدينون لسلطان إلا أنهم دانوا للسلطان أبي الحسن المَرِينِيَّ
ودخلوا تحت ذيل طاعته . على أنهم لا يملكون أحدا قيادهم ، ولا يسلمون إليه
بلادهم . وبكل حال فهم معه بين صحَّة واعتلال .

المملكة السادسة

(من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الألف والdal المهملة وسكون النون بينهما
وضمَّ اللام ثم سين مهملة . وهى مقابل برَّ العدو من بلاد المغرب ، وبينهما بحر
الزقاق الذى هو فم بحر الروم ، وقد تقدَّم ذكره فى الكلام على الأبحر فى أول
هذه المقالة .

وقد اختلف فى سبب تسمية الأندلس بهذا الاسم : ف قيل ملكته أمة بعد
الطوفان يقال لها الأندلس بالشين المعجمة فسمى بهم ثم عرب بالسين المهملة ؛
وقيل خرج من رومة ثلاثة طوالم فى دين الروم ، يقال لأحدهم القندلش بالقاف^(١)
فى أوله وبالشين المعجمة فى آخره ؛ فترل القندلش هذه الأرض فعرفت به ، ثم

(١) لعله فى زمن الروم .

عُربت ببدال القاف همزةً والشين المعجمة سينا مهملة . ويقال : إن اسمه القديم أفارية ، ثم سُمي باطقة ، ثم سُمي أشبانية ، ثم سُمي الأندلس باسم الأمة المذكورة . قال في "تقويم البلدان" : وسميت جزيرة لإحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب ، وإن كان جانبُه الشمالي متصلًا بالبر كما سيأتى بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .
وفيه ست جمل :

الجملة الأولى

(في ذكر سمك أرضه وحدوده)

قال في "تقويم البلدان" : وجزيرة الأندلس على شكل مثلث : ركنٌ جنوبي غربي ، وهناك جزيرة قádiz وفهم بحر الزقاق . وركنٌ شرقي بين طرُكونه وبين برشلونة ، وهي في جنوبيه ، وبالقرب منه بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة . وركنٌ شمالي بميلة إلى البحر المحيط ، حيث الطول عشر درجات ودقائق ، والعرض ثمان وأربعون . وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة شنتياقوه ، وهي على البحر المحيط في شمالي الأندلس وغربيها . قال : والضلع الأول من الركن الجنوبي الغربي - وهو الذي عند جزيرة قádiz - إلى الركن الشرقي الذي عند ميورقة ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الجنوبي الممتد على بحر الزقاق . والضلع الثاني من الركن الشرقي المذكور إلى الركن الشمالي الذي عند شنتياقوه ، وهذا الضلع هو حد الأندلس الشمالي ، ويمتد على الجبل المعروف بجبل البرت الحاجر بين الأندلس وبين أرض تُعرف بالأرض البكية ، وعلى ساحل الأندلس الممتد على بحر برديل . والضلع الثالث من الركن الشمالي المذكور إلى الركن الجنوبي المتقدم الذكر ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الغربي الممتد على البحر المحيط .

(١) لعله شكل كما يفيد ما بعده وفي القطعة الازهرية تشكيل أرضه .

قال ابن سعيد : قال الحجارى : وطول الأندلس من جبل البرت الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة وهو نهاية الأندلس الشرقية إلى أشبونة : وهى فى نهاية الأندلس الغربية ألف ميل ، وعرض وسطه من بحر الرقاق إلى البحر المحيط عند طليطلة وجبل البرت ستة عشر يوماً . قال فى "تقويم البلدان" : وقد قيل : إن طوله غربا وشرقا من أشبونة : وهى فى غرب الأندلس إلى أربونة : وهى فى شرق الأندلس مسيرة ستين يوماً ، وقيل : شهر ونصف . وقيل : شهر . قال : وهو الأصح .

وأعلم أن جبل البرت المقدم ذكره متصل من بحر الرقاق إلى البحر المحيط وطوله أربعون ميلا ، وفيه أبواب فتحها الأوائل ، حتى صار للأندلس طريق فى البر من الأرض الكبيرة ، وقبل فتحها لم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة طريق . وفى وسط الأندلس جبل ممتد من الشرق إلى الغرب يقال له جبل الشارة ، يقسمه بنصفين : نصف جنوبى ونصف شمالى .

الجملة الثانية

(فيما أشتمل عليه من المدن)

وهو يشتمل على عدة قواعد ومضافاتها :

القاعدة الأولى

(غرناطة)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح النون وألف وطاء مهملة وهاء فى الآخر . ويقال : أغرناطة بهمزة مفتوحة فى أولها . وهى مدينة فى جنوب الأندلس ، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال

أَبْنُ سَعِيدٍ : حَيْثُ الطُّولُ إِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً ، وَالْعَرْضُ سَبْعَ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : وَمَمْلَكَتُهَا فِي الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ عَنْ مَمْلَكَةِ قُرْطُبَةَ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ نَحْوُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ . قَالَ : وَغَرْنَاطَةُ فِي نِهَايَةِ الْحَصَانَةِ وَغَايَةِ التَّرَاهَةِ ، تُشَبَّهُ دِمَشْقَ مِنَ الشَّامِ ، وَتُفَضَّلُ عَلَيْهَا بِأَنَّ مَدِينَتَهَا مُشْرِفَةٌ عَلَى غُوطَتِهَا وَهِيَ مَكْشُوفَةٌ مِنَ الشَّمَالِ ؛ وَأَنْهَارُهَا تَنْصَبُّ مِنْ جَبَلِ الثَّلْجِ الَّذِي هُوَ مِنْ جَنُوبِهَا وَتَخْرُقُ فِيهَا ، وَعَلَيْهَا الْأَرْضُ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ ؛ وَلَهَا أَشْجَارٌ وَثِمَارٌ وَمِيَاهُ مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ تَقَعُ تَحْتَ مَرَأَى الْعَيْنِ لَا يُحِجُّهَا شَيْءٌ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" وَلَهَا ثَلَاثَةُ عَشَرَ بَابًا : بَابُ الْبَيْرَةِ وَهُوَ أَضْخَمُهَا ؛ وَبَابُ الْكُحْلِ ؛ وَبَابُ الرَّخَاءِ ؛ وَبَابُ الْمَرَضَى ؛ وَبَابُ الْمَصْرَعِ ؛ وَبَابُ الرَّمْلَةِ ؛ وَبَابُ الدَّبَاغِينَ ؛ وَبَابُ الطَّوَّائِينَ ؛ وَبَابُ الْفَخَّارِينَ ؛ وَبَابُ الْخَنْدَقِ ؛ وَبَابُ الدِّفَافِ ؛ وَبَابُ الْبُنُودِ ؛ وَبَابُ الْأَسَدَرِ . وَحَوْلَهَا أَرْبَعَةُ أَرْبَاضٍ : رِبْضُ الْفَخَّارِينَ ؛ وَرِبْضُ الْأَجْلِ ، وَهُوَ كَثِيرُ الْقُصُورِ وَالْبَسَاتِينِ ؛ وَرِبْضُ الْبِيزَانِينَ بِنَاحِيَةِ بَابِ الدِّفَافِ ، وَهُوَ كَثِيرُ الْعِمَارَةِ يُخْرَجُ مِنْهُ نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ مَقَاتِلَ ، وَهُوَ رِبْضٌ مُسْتَقِلٌّ بِحُكَّامِهِ وَقُضَاتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَجَامِعُهَا مِنْ أَوَّلِ الْجَوَامِعِ وَأَحْسَنُهَا مَنْظَرًا ، وَهُوَ مُحْكَمُ الْبِنَاءِ لَا يَلَاصِقُهُ بِنَاءٌ ، تَخْفُفُ بِهِ دَكَكِيْنُ الشُّهُودِ وَالْعَطَّارِينَ ، وَقَدْ قَامَ سَقْفُهُ عَلَى أَعْمَدَةٍ حَسَنَةٍ ، وَالْمَاءُ يَجْرِي دَاخِلَهُ ، وَمَسَاجِدُهَا [وَرِبَاطَاتُهَا] لَا تَكَادُ تُحْصَى لِكَثَرَتِهَا .

وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : أَنَّهَا قَلِيلَةُ مَهَبِّ الرِّيحِ ، لَا تَجْرِي بِهَا الرِّيحُ إِلَّا نَادِرًا لِأَكْتِنَافِ الْجِبَالِ إِيَّاهَا . ثُمَّ قَالَ : وَأَصْلُ أَنْهَارِهَا نَهْرَانِ عَظِيمَانِ (شَنْيَلُ) وَ (حَادِرُهُ) .

(١) لم يذكر إلا ثلاثة وأسقط رِبْضَ الرَّمْلَةِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي الْمَسَالِكِ .

(٢) كَذَا فِي "التَّقْوِيمِ" ، أَيْضًا وَالَّذِي فِي "المعجم" سَنَجَلُ وَهُوَ الْإِظْهَرُ .

أما سَنِيل، فينحدر من جبل شُكَيْرٍ بِجَنُوبِهَا ويمرّ على غَرْناطَةٍ إلى فَحَصَها، يُشَقُّ فيها أربعين ميلاً بين بساتين وُقُرَى وضياع كثيرة البيوت والغلال وأبراج الحمام وغير ذلك . قال : ويتنهي فحَصُها إلى (لَوْشَة) حيث أصحاب الكهف على قول، وجبل شُكَيْرٍ المذكور هو طُودُ شاخ لا ينفك عنه الثلج شتاءً ولا صيفاً، فهو لذلك شديد البرد، ويؤثر برده بغَرْناطَةٍ في الشتاء : لقربه منها إذ ليس بينه وبينها سوى عشرة أميال . وفي ذلك يقول ابن صدره الشاعر قاتله الله :

أَحِلَّ لَنَا تَرْكُ الصَّلَاةِ بِأَرْضِكُمْ ، * وَشُرْبُ الْحَمِيَاءِ وَهُوَ شَيْءٌ مُحَرَّمُ !
فِرَارًا إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ لِأَنَّهُمَا * أَرْقُ عَلَيْنَا مِنْ شُكَيْرٍ وَأَرْحَمُ !
لَئِنْ كَانَ رَبِّي مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ ، * فَفِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمُ !

وأما حَدْرُهُ ، فينحدر من جبل بناحية (واديّاش) شرقيّ شُكَيْرٍ فيمرّ بين بساتين ومزارع وكُرُوم إلى أن يتنهي إلى غَرْناطَةٍ ، فيدخلها على باب الدفاف بشرقيّها، يُشَقُّ المدينة نصفين، تَطْحَنُ به الأرحاء بداخلها، وعليه بداخلها خمسُ قناطر : وهى قنطرة ابن رَشِيْقٍ، وقنطرة القاضي، وقنطرة حَمَامِ جاس، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الفود؛ وعلى القناطر سواقٍ ومبانٍ محكمة . والماء يجري من هذا النهر في جميع البلد : في أسواقه وقاعاته ومساجده، يبرز في أما كنّ على وجه الأرض، وتخفى جداوله تحتها في الأكثر، وحيث طَلَبَ الماءُ وَجِدَ؛ وبالمدينة جبالان يُسَقَّانِ وَسَطُهَا، يعرف أحدهما بالخزّة ومَوْزُور . والثاني بالقصبة القديمة، وبالز . وبهما دُور حِسان ، وعَلَالِيّ مُشْرِفَةٌ على فحَصَها ، فيرى منهما منظرا بديعا من فروع الأنهار والمزروعات وغير ذلك مما يقصر عنه التخييل والتشبيه . وقد صارت قاعدة مُلْك الإسلام بالأندلس بيد ملوكها من بنى الأحمر الآتى ذكرهم في الكلام على ملوكها .

قال في "مسالك الأبصار" : وبها من الفواكه التّفاح ، والقَراصيا البعلبكية التي لا تكاد تُوجد في الدنيا منظرًا وحلاوةً حتى إنها ليعصر منها العسل . وبها الجوز ، والقُسطل ، والتين ، والأعناب ، والخوخ ، والبَلُوط ، وغير ذلك . ويجعل سُكَّر المقدم ذكره عقاقير كعقاقير الهند وعُشب يستعمل في الأدوية ، يعرفها الشجّارون لا تُوجد في الهند ولا في غيره .

قال في "التعريف" : ومقرّر سلطانها منها (القصبه الحمراء) قال : ومعنى القصبه عندهم القلعة ، وتسمى حمراء غرناطة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة عالية شديدة الاتّناع . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بديعةٌ متّسعة كثيرةُ المباني الضخمة والقصور ظريفةٌ جدًا ، يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة ، فلا يخلو منه مسجدٌ ولا بيتٌ ، وأعلى بُرج منها عين ماءٍ ، وجامعُها من أبدع الجوامع حُسناً ، وأحسنها بناءً ، وبه الثُّرَيَّاتُ الفِضِّيَّةُ معلّقةٌ ، وبجائط محرابه أحجارٌ ياقوت مُرَصَّفة في جملة ما تمقّ به من الذهب والفضّة ، ومنبره من العاج والآبنوس . قال في "تقويم البلدان" في الكلام على الأندلس : ولم يبق للمسلمين بها غير غرناطة وما أُضيف إليها ، مثل الجزيرة الخضراء ، والمرية . قال في "مسالك الأبصار" : وطولها عشرة أيام ، وعرضها ثلاثة أيام . وهي ممتدة على بحر الرّقاق وما يلي ذلك . ثم قال : وأولها من جهة المشرق المَرِيَّة ، وهي أول مَراسي البلاد الإسلامية . قال في "تقويم البلدان" : وكانت القاعدة قبل غرناطة حصنٌ إليّرة ، فخرّب في زمن الإسلام ، وصارت القاعدة غرناطة .

وقد عدّ في "مسالك الأبصار" من هذه المملكة عدّة بلاد مُضافة إلى مملكة غرناطة الآن .

منها (المريّة) قال في "المشترك" : بفتح الميم وكسر الراء المهملّة وتشديد المشنة من تحت وفي آخرها هاء . وهي مدينة بين مملكتيّ مَلَقَّة ومُرسِيّة ، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول أربع عشرة درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأثنتان وأربعون دقيقة . قال : وهي مدينة مسوّرة على حافة بحر الرّزّاق ، وهي باب الشّرق ، ومفتاح الرّزق ، ولها برّ فضيّ ، وساحل تَبْرِيّ ، وبحر زَبْجَدِيّ ، وأسوارها عالية ، وقلعتها منيعة شامخة ، وهواؤها معتدل ، ويعمل بها من الحرير ما يفوق الجمال .^(١)

قال في "مسالك الأبصار" : والمريّة ثلاثُ مُدن .

الأولى — من جهة الغرب تعرف بالحوّض الداخليّ . لها سور محفوظ من العدو بالسّمار والحُرّاس ، ولا عمارة فيها ؛ ويلبها إلى الشرق المدينة القديمة ؛ وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلّى المريّة ، وهي أكبر الثلاث . ولها قلعة بجوار القديمة من جهة الشّمال ، وتسمّى القصبة في عرفهم . قال : وهما قضبتان في غاية الحسن والمنعة . وساحل المريّة أحسن السّواحل ، وحولها حصون وقرى كثيرة وجبال شامخة . وجامعها الكبير بالمدينة القديمة ، وهو من بديع الجوامع . وهي مدينة كثيرة الفواكه ، وأكثر زرعها بالمطر وعليه يترتب الخصب وعدمه ؛ وإليها تُجلب الحنطة من برّ العدوة ؛ وبها دار صناعة لعمارة المراكب ؛ وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة أيام . وكانت في الزمن الأوّل قبل إضافتها إلى غرناطة مملكةً مستقلةً . ويقال : إن وادي المريّة من أبدع الأودية على أن ماءه يقلّ في الصيف حتى يُقسّط على البساتين .

(١) الذي في تقويم البلدان "ويعمل بها من الحرير ما يفوق معمول غيرها" .

قال في "مسالك الأبصار" : وعلى وادى المَريّة (بجَانَة) . قال : وهى الآن قرية عظيمة جدًا ، ذات زيتونٍ وأعنابٍ وفواكهٍ مختلفةٍ ، وبساتينٍ ضخمةٍ كثيرة الثمرات .

(١) ومنها (شَلُوبِينَ) بفتح الشين المعجمة وضم اللام وسكون الواو وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المشناة تحت ونون فى الآخر. وسمّاها فى "تقويم البلدان" : شلوبينية . ثم قال : وهو من حصون غرناطة البحرية على بحر الرقاق ، ومنه أبو على عمر بن محمد الشلوبينى إمام نحاة المغرب . قال صاحب حماة : وقد غلط من قال الشلوبينى هو الأشقر بلغة الأندلس . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها يُزرع قصب السكر ، وهى معدة لإرسال من يغضب عليه السلطان من أقاربه .

ومنها (المُنكَب) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة على القرب من شَلُوبِينَ دُونَ المَريّة ، بها دارُ صناعةٍ لإنشاء السفن ، وبها قصب السكر ، ومنها يحمل السكر إلى البلاد ، وبها الموز ، ولا يوجد فى بلد من البلاد الإسلامية [هناك] إلا بها إلا مالا يعتبر ، وبها زبيب مشهور الأسم .

ومنها (بَلَش) . وهى مدينة تلى المنكَب من جهة الغرب ، كثيرة التين والعنب والفواكه . قال أبو عبد الله بن السديد : ليس بالأندلس أكثر عنبًا وتينًا يابسًا منها .

(٢) ومنها (مالِقة) قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الميم وألف وكسر اللام وفتح القاف وهاء فى الآخر . وهى مدينة من جنوب الأندلس موقعها فى الإقليم الرابع

(١) ضبطه ابن خلكان فى "الوفيات" بفتح اللام وهو المشهور .

(٢) ضبطها ياقوت فى معجمه بفتح اللام وهو الأشهر .

من الأقاليم السبعة . قال : وقياس ابن سعيد أنها حيث الطول عشر درج وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة : وكانت في القديم مملكة مستقلة ، ثم أضيفت الآن إلى غرناطة وملكها حتى مملكة قرطبة ، وهي بين مملكتي إشبيلية وغرناطة ، وهي على بحر الزقاق ، وبها الكثير من التين واللوز الحسن المنظر ، ومنها يُنقل يابساً إلى جميع غرب الأندلس . قال في "مسالك الأبصار" : ولها ربضان عامران : أحدهما من علوها والآخر من سفلها وجامعها بديع ، وبصحنه نارنج ونخلة نابتة ، وبها دار صناعة لإنشاء المراكب ، وهي مختصة بعمل صنائع الجلد : كالأغشية ، والحزم ، والمدورات ، وبصنائع الحديد : كالتسكين والمقص ونحوهما . وبها الفخار المذهب الذي لا يوجد مثله في بلد . قال ابن السديد : وبها سوق ممتد لعمل الخوص من الأطباق وما في معناها ، ولها عدة حصون في أعمالها ، وفي أعمالها يوجد الحرير الكثير .

(١١) ومنها مدينة (مربلّة) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الباء الموحدة وفتح اللام المشددة وهاء في الآخر . وهي مدينة صغيرة مما يلي مالقة من الغرب على الساحل ، وبها الفواكه الكثيرة والسبك .

ومنها (أشبونة) . وهي مما يلي مربلّة من جهة الغرب على الساحل ، وهي نظيرها في كثرة الفواكه .

ومنها (جبل الفتح) . وهو الذي نزل طارق عند فتح الأندلس في أول الإسلام ، منبعٌ جداً ، يخرج في بحر الزقاق ستة أميال ، وهو أضيّق ما يكون عنده ، وقد كان هذا

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء وضم اللام .

الجل في مملكة الفرنج وأقام بيدهم عدة سنين ، ثم أعاده الله تعالى إلى المسلمين في أيام السلطان أبي الحسن المريني ، صاحب الغرب الأقصى في زمن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية .

ومنها (الجزيرة الخضراء) . وهي مما يلي جبل الفتح من الغرب على الساحل ؛ وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في « تقويم البلدان » : والقياس أنها حيث الطول تسع درج ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال : وهي مدينة أمام سبتة من بر العدو من بلاد الغرب . وهي مدينة طيبة نزهة ، توسطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ؛ ومرساها من أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ؛ وخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة ؛ ونهرها يعرف بوادي العسل ، وعليه مكان نزهة يشرف عليه وعلى البحر يعرف بالحاجية ؛ ومن مستنزهاتها مكان يعرف بالنقاء . قال ابن سعيد : وهي من أرشق المدن وأطيبها وأرققها بأهلها وأجمعها خير البر والبحر . قال في « المشترك » : والنسبة إليها جزيري ، للفرق بينها وبين إقليم الجزيرة فإنه ينسب إليه جزري . قال في « مسالك الأبصار » : وهي آخر البلاد البحرية الإسلامية للأندلس وليس بعدها [لهم بلاد] . ثم قال : وهي الآن بيد النصارى أعادها الله تعالى وقصمهم ؛ وقد عدها في « تقويم البلدان » : من كور إشبيلية مما يلي جانب نهرها من الجنوب .

ومنها (رنذة) بضم الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر . وهي بعيدة عن البحر . وعدها في « تقويم البلدان » من كور إشبيلية . ثم قال : وبها معقل تعمم بالسحاب ، وتوشح بالأنهار [العذاب ^(١)] وذكر أنها من كبار البلدان ؛ ثم قال :

(١) الزيادة عن التقويم .

وهى بلدة جليسة ، كثيرة الفواكه والمياه والحِث والمَاشِية ، وأهلها موصوفون بالجمال ورقّة البشرة واللّطافة ؛ وبينها وبين الجزيرة الخضراء مسيرة ثلاثة أيّام .

ومنها (مدينة لَوْشَة) . قال فى "تقويم البلدان" : وهى عن غرناطة على مرحلة بين البسائين والرياض .

ومنها (واديّاش) بفتح الواو وألف ثم دال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية وألف ثم شين معجمة . ويقال : (واديّاش) بإبدال الياء همزة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بلدة حسنة ، بدّية ، منيرة جدّا ، كثيرة الفواكه والمزارع ؛ والمياه تُشَقُّ أمام أبوابها كما فى غرناطة ، قريبة من جبل شُكَيْر المقدم ذكره مع غرناطة ، لذلك هى شديدة البرد بسبب ما على الجبل المذكور من الثلج . قال : وهى بلدة مُملِقة ، وأهلها موصوفون بالشّعْر ، ويحكم بها الرؤساء من أقارب صاحب غرناطة أو مَنْ يَسْتَقِلُّ بها سلطانا أو مَنْ حُلِعَ من سلطان لنفسه .

ومنها (بَسْطَة) . وهى بلدة تلى واديّاش المقدم ذكرها . وعدّها فى "تقويم البلدان" من أعمال جَيّان . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى كثيرة الزّرع وأختصّت بالزعفران ، فيها منه ما يكفى أهل المِلّة الإسلامية بالأنْدَلُس على كثرة ما يستعملونه منه .

ومنها (أندراش) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة ظريفة ، كثيرة الخصب ، وتخصّ بالفَخَّار الجودّة تُرَبَّتْها ، فليس فى الدنيا مثل فخّارها للطَّبْخ . إلى غير ذلك من البلدان مثل أرحضونة وأنْتَقيرة وبرجة وغيرها . قال فى "مسالك الأبصار" : وحصون هذه المملكة كثيرة جدّا ، فليس بها من بلد إلا وحوله حصون كثيرة محفوظة بؤلاة السلطان ورجالٍ تحت أيديهم .

القاعدة الثانية

(أشْبُونَة)

قال في "تقويم البلدان" : بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة وضم الباء الموحدة ثم واو ونون وفي آخرها هاء . قال : وعن بعض المسافرين أن أولها لام . وهي مدينة في غرب الأندلس ، وموقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول ست درج وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قاعدة مملكة على البحر المحيط في غربي إشبيلية وشماليها ، وغربي باجة . وهي مدينة أزليّة ولها البساتين والثمار المفضّلة على غيرها . قال ابن سعيد : وبينها وبين البحر المحيط ثلاثون ميلا . وهي على جانب نهر يودانس . قال في "تقويم البلدان" : وبزاتها خيار البراة . قال : وكانت في آخر وقت مضافة إلى بطليوس وملكها ابن الأفطس . وذكر في "العبر" : أنها الآن قاعدة مملكة من ممالك النصراني بالأندلس يقال لها مملكة البرتقال ، وأنها عمالة صغيرة ، وقد أضيفت الآن إلى أعمال جليقية كما سيأتي ذكره في الكلام على ملوك الأندلس .

ولها مضافات :

منها (شَنْتَرِين) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون النون وكسر المثناة من فوق والراء المهملة وسكون المثناة من تحت وفي آخرها نون فيما هو مكتوب بخط ابن سعيد . وهي مدينة كانت في القديم من جليقية شمالي الأندلس ، ثم استقرت من أعمال أشبونة المقدم ذكرها . موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول ثمان درج وعشر دقائق ، والعرض

أثنتان وأربعون درجة وخمسة وثلاثون دقيقة ، وهى على بحر برطانية : وهو بحر برديل الخارج من البحر المحيط المقدم ذكره فى الكلام على البحور ، وهى على نهر يصب فى البحر وأرضها طيبة .

ومنها (شنترة) . وهى مدينة ذكرها فى "تقويم البلدان" مع أشبونة أستطرادا ونسبها إلى عملها ، ولم يتعرض لضبطها ولا لطولها وعرضها . وقال : إن بها ثقافا مُقرطا فى الكبر والنباله .

ومنها مدينة (باجة) بفتح الباء الموحدة وألف ثم جيم مفتوحة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البلدان" : وهى شرق أشبونة ، وهى من أقدم مدائن الأندلس ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وعسلها فى نهاية الحُسن ، ولها خاصية فى حُسن دباغ الأدم ، وكانت مملكة مستقلة .

القاعدة الثالثة

(بَطْلْيُوسُ)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح المشاة التحتية وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . وهى مدينة من غرب الأندلس موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ تسع درج ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : ومملكتها فى الشمال والغرب عن مملكة قُرطبة . وهى فى الغرب بميلة إلى الجنوب عن مملكة طليطلة . وهى مدينة عظيمة فى بَسيط من الأرض مخضر على جانب نهر . قال : وهى مدينة عظيمة إسلامية كانت بيد المتوكل بن عُمر الأَفْطَس ، وبنى بها المباني العظيمة وفيها يقول ابن الفلاس :

بَطْلَيْوُسُ لَا أَنْسَاكَ مَا أَتَّصِلُ الْبُعْدُ ! * فَلِلَّهِ غُورٌ مِنْ جَنَابِكَ أَوْ نَجْدُ !

وَلِلَّهِ دَوَّاحَاتٌ تَحْفُكُ بَيْنَهَا ، * تَفْجَرُ وَادِيَهَا كَمَا شَقَّ الْقُرْدُ !

وبينها وبين قُرْطَبَةَ سِتَّةَ أَيَّام .

ولها مضافات من أعمالها .

منها (مَارِدَةٌ) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم ثم ألف وراء مهملة مكسورة ودال مهملة وهاء في الآخر كما هو في خط ابن سعيد . وهي مدينة على جَنُوبِ نهر بَطْلَيْوُسَ ، موقعها في أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطولُ تسعُ درج ونحس ونحسون دقيقة ، والعرض تسع عشرة ^(١) درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة أَرِزِيَّةٌ ، ولها ماءٌ مجلوبٌ تحير صنعته . قال ابن سعيد : قال الرازي : وهي إحدى القواعد التي بنتها ملوك العجم للقرار . قال : وكان قد آتَّخَذَهَا سلاطينُ الأندلس قبل الإسلام سريراً لملك الأندلس ، وكانت في دولة بنى أُمَيَّةَ يليها عظماءُ منهم ؛ ثم صار الكرسيُّ بعد ذلك بَطْلَيْوُسَ ، وقد صارت الآن للنصارى .

ويحكى أنه كان بكنيستها حجر يُضَيءُ الموضعُ من نوره ، فأخذته العرب أول دخولها .

ومنها (بَابَةٌ) بياء آخر الحروف وألف وباء موحدة وراء مهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة ذكرها في "تقويم البلدان" بعد ذكر بَطْلَيْوُسَ استطراداً .

(١) في تقويم البلدان أن عرضها تسع وثلاثون درجة .

القاعدة الرابعة

(إشيلية)

قال في "تقويم البلدان" : بكسر الألف وسكون الشين المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت ولام وياء ثانية تحتية وفي آخرها هاء . قال : ومعنى اسمها المدينة المنبسطة . وهي مدينة أزيلية في غرب الأندلس وجنوبية على القرب من البحر المحيط ، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول تسع درج وعشر دقائق ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي على شرقي نهرها الأعظم وجنوبية ، ولها خمسة عشر بابا ، ومملكتها غربي مملكة قرطبة ، فطول مملكتها من الغرب من عند مصب نهرها في البحر المحيط إلى أعلى النهر من الشرق مما يلي مملكة قرطبة نحو خمس مراحل ، وعرضها من الجزيرة الخضراء على ساحل الأندلس الجنوبي إلى مملكة بطليوس في الشمال نحو خمسة أيام ، وبينها وبين قرطبة أربعة أيام ، وهي الآن بيد ملوك النصارى . ولها عدة كور في جنوبي نهرها وشمالية .

فأما كورها التي في جنوبي نهرها وهي الأكثر :

فمنها (كورة أركش) قال في "تقويم البلدان" : بالراء المهملة معقل في غاية المنعة .

ومنها (كورة شريش) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وشين معجمة في الآخر ، وإليها ينسب « الشريشي » شارح "المقامات الحيرية" .

ومنها (كورة طريف) بفتح الطاء وكسر الراء المهملتين وسكون المثناة التحتية وفاء في الآخر .

وأما التي شماليّ النهر فكورتان : إحداهما (كورة أوتّة) ^(١) . وهي أشهرها وأوتّة مدينة جليّة .

قال في "تقويم البلدان" : ومن الممالك المضافة لإشيلية مملكة شلب . وهي كورة ومدينة في غربيّ إشيلية وشماليّها على ساحل البحر المحيط ، بينها وبين قرطبة تسعة أيام ، وشلب هذه قصر يعرف "بقصر الشراخيب" وهو الذي يقول فيه بعض شعرائهم :

وسلم على "قصر الشراخيب" عن قتي * له أبداً شوق إلى ذلك القصر !

القاعدة الخامسة

(قرطبة)

قال في "الباب" : بضم القاف وسكون الراء وضم الطاء المهملتين وباء موحدة وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : هذا هو المشهور . وقال ابن سعيد : هي بلسان القوط بالطاء المعجمة ونقله عن جماعة . وهي مدينة غربيّ نهر إشيلية في غرب الأندلس بجنوب ، وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول عشر درج ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : ومملكة قرطبة شرقيّ مملكة إشيلية . وهي في الجنوب والشرق عن مملكة بطليوس ، وفي الجنوب عن مملكة طليطلة ، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع ، وهي أعظم مدن الأندلس ، وعليها سور ضخم من الحجر ، ولها سبعة أبواب ، وبلغت عدة مساجدها ألفاً وسمائة مسجد ،

(١) أي والثانية كورة شلب .

وَحَمَامَاتِهَا تَسْعَاءُ حَمَام . وهى مدينة حصينة . وقد آستولت عليها ملوك النصرانية ،
وهى بأيديهم إلى الآن .

ولها مضافات :

منها (مدينة الزَّهْرَاء) . وهى مدينة بناها الناصر الأمويُّ فى غربى قُرْطُبَة ،
فى سفح جبل .

ومنها (القَصِير) . وهو حِصْن فى شرقى قُرْطُبَة على النهر ، وله كُورَة من
أشهر كورها .

ومنها (حِصْن المَدُور) . وهو المَعْقِل العظيم المشهور ، وللروم به اعتناء عظيم .

ومنها (حِصْن مُرَاد) . وهو حِصْن فى غربى قُرْطُبَة .

ومنها (كُورَة غَافِقِ) . وهى معاملة كبيرة .

ومنها (كُورَة إِسْتِجَة) . وغير ذلك .

القاعدة السادسة

(طَلَيْطَالَة)

قال فى " تقويم البلدان " : بضم الطاء المهملة وفتح اللام وسكون المثناة من
تحت وكسر الطاء الثانية ثم لام وهاء فى الآخر . وموقعها فى آخر الإقليم الخامس
قال ابن سعيد : حيث الطول خمس عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث
وأربعون درجة وثمان عشرة دقيقة . وهى مدينة أزلية كانت قاعدة الأندلس
فى القديم ، وبها كان كُرْسَى مُلْك « لَدْرِيق » : آخر ملوك القوط الذى أترعها

المسلمون منه . وهى الآن قاعدة مُلْك « الادفونش » أكبر ملوك النصرانية بالأندلس المعروف بالفنش . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من امنع البلاد وأحصنها ، مبنيةً على جبل عال ، والأشجار مُحْدَقَة بها من كل جهة ، ويصير بها الجُلنار بقدر الرمانة من غيرها ، ويكون بها شجرُ الرمان عدّة أنواع ، ولها نهر يمر بأكثرها ينحدر من جبل الشارة من عند حصن هناك يقال له (باجة) وبه يعرف نهر طليطلة . فيقال : نهر باجة ، ومنها إلى نهاية الأندلس الشرقية عند الحاجز الذى هو جبل البرت نحو نصف شهر ، وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شلب .

ولها مضافات :

منها (مدينة وكيد) بفتح الواو وكسر اللام وسكون المشاة من تحت ودال مهمة فى الآخر . وموقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطول إحدى عشرة درجة وأثنى عشرة دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وثلاث دقائق . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من أحسن المُدن . وهى فى الغرب من طليطلة فى جنوبى جبل الشارة الذى يقسم الأندلس بنصفين . قال : ويحلّها الفنش ملك الفرنج فى أكثر أوقاته .

(١) ومنها (مدينة الفرج) [بفتح الفاء والراء المهمة ثم جيم] وهى مدينة شرقى طليطلة . وشرقيها مدينة سالم . قال ابن سعيد : ويقال لنهرها وادى الحجارة .

ومنها (مدينة سالم) قال ابن سعيد : وهى بالجهة المشهورة بالشعر من شرقى الأندلس . قال : وهى مدينة جليلة . قال فى "تقويم البلدان" : وبها قبر « المنصور بن أبى عامر » .

(١) ضبطناها من التقويم لثم الفائدة .

القاعدة السابعة

(جاء)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الجيم وتشديد المثناة من تحت وألف ونون في الآخر . وموقعها في أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطول إحدى عشرة درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : ومملكتها بين مملكتي غرناطة وطليطلة . وهي في نهاية من المنعة والحصانة . وهي عن قرطبة في جهة الشرق وبينهما خمسة أيام ، وهي من أعظم مدُن الأندلس وأكثرها خصبا ، وكانت بيد بني الأحمر أصحاب غرناطة فأخذتها الفرنج منهم بالسيف بعد حصار طويل ، وبلادها كثيرة العيون ، طيبة الأرض ، كثيرة الثمار ، وبها الحرير الكثير .

ولها مضافات :

منها (مدينة قَبْجَاطَة) . وهي مدينة زَرْهَة كثيرة الخصب ، أخذها النصارى بالسيف أيضا .

ومنها (بَيَّاسَة) بفتح الباء الموحدة وتشديد المثناة التحتية وألف ثم سين مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . وهي مدينة على نهر إشبيلية فوق إشبيلية ، طيبة الأرض ، كثيرة الزرع ، وبها الزعفران الكثير ، ومنها يحمل إلى الآفاق .

ومنها (مدينة آدَة) بمد الهمزة المفتوحة وكسر الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة إسلامية أُحْدِثَتْ في دَوْلَة بَنِي أَمِيَّة بِالْأَنْدَلُس بِجَوَار بَيَّاسَة إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى النهر ، ولها عين تَسْقِي الزَّعْفَرَان .

(١)
ومنها (جبل سَمْتَان) . وهو جبل به حصُون وُقُرَى كثيرة .
ومنها (مَعْقِلُ شَقُورَة) و (حصن بَرشَانَة) .

القاعدة الثامنة

(مُرْسِيَة)

قال في "تقويم البلدان" : بضم الميم وسكون الراء وكسر السين المهملتين ثم ياء
مثناة من تحتها وهاء في الآخر . وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة
قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمان عشرة درجة ، والعرض تسع وثلاثون درجة
وعشر دقائق . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة إسلامية مُحَدَثَة ، بُنِيَتْ
في أيام الأمويين الأندلسيين ، قال وهي من قواعد شرق الأندلس . وهي تُشَبَّه إشبيلية
في غرب الأندلس بكثرة المنازله والبساتين ، وهي في الذراع الشرقى الخارج من عين
نهر إشبيلية .

ولها عدة منزهات .

(٢)
منها [(الرَّشَاقَة) و (الزَّيْتَات) و (جبل إيل) وهو] جبل تحته البساتين ، وبَسَطَ
تسرح فيه العيون .

ولها مضافات :

منها (مدينة مُوَلَة) . وهي في غربى مُرْسِيَة .

ومنها (مدينة أَرْيُولَة) وغير ذلك .

(١) كذا في التقويم ص ١٧٧ ولم نعر عليه .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

القاعدة التاسعة

(بَلَنْسِيَّةُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح الباء الموحدة واللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح المثناة من تحت وهاء في الآخر. وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول عشرون درجة، والعرض ثمان وثلاثون درجة وست دقائق. قال في "تقويم البلدان": وهي من شرق الأندلس، شرقي مرسية وغربي طرطوشة. وهي في أحسن مكان؛ وقد حُفَّتْ بالأشجار والحنان، فلا ترى إلا مياهها تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارا تسجع. وهي على جنب بحيرة حسنة على القرب من بحر الزقاق، يصب فيها نهر يجري على شمالي بلنسية. ولها عدة منازله.

منها (الرصاصية) و(منية ابن عامر) وحيث خرجت منها لالتقى إلا منازله. قال ابن سعيد: ويقال إن ضوء مدينة بلنسية يزيد على ضوء بلاد الأندلس، وجوها صقيل أبدا، لا يرى فيه مايكدرة.

ولها مضافات: وقد صارت الآن من مضافات برشلونة في جملة أعمال صاحبها من ملوك النصارى -.

منها (مدينة شاطبة) بفتح الشين المعجمة وألف بعدها طاء مهملة مكسورة ثم باء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر. وهي مدينة عظيمة، ولها معقل في غاية الأمتناع وعدة مستنزهات: منها (البطحاء) و(الغدير) و(العين الكبيرة). وإليها ينسب الشاطبي صاحب "القصيدة" في القراءات السبع؛ وقد صارت الآن مضافة إلى ملك برشلونة في يد صاحبها.

(١) هذه الجملة ساقطة من القطعة الأثرية.

ومنها (دانية) بفتح الدال المهملة وألف ثم نون مكسورة ومشاة تحتية مفتوحة وهاء في الآخر . وهى من شرق الأندلس ، وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ تسعَ عشرةَ درجةً وعشرُ دقائقُ ، والعرضُ تسعُ وثلاثونَ درجةً وستُ دقائقُ . وهى غربى بِلَنْسِيَّةَ على البحرِ عظيمةُ القدرِ كثيرةُ الخيراتِ ، ولها عدَّةُ حصون . وقد صارت الآن من مُضافاتِ بَرَشْلُونَةِ مع بِلَنْسِيَّةَ ، على ماسياتى ذكره في الكلام على ملوك الأندلس إن شاء الله تعالى .

القاعدة العاشرة

(سَرَقُشْطَةُ)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين والراء المهملتين وضم القاف وسكون السين الثانية وفتح طاء المهملة وهاء في الآخر . وهى مدينةٌ من شرق الأندلس ، وموقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى وعشرونَ درجةً وثلاثونَ دقيقةً ، والعرضُ اثنتانِ وأربعونَ درجةً وثلاثونَ دقيقةً . قال في "تقويم البلدان" : وهى قاعدة الثغر الأعلى . وهى مدينة أَرْلِيْسَةُ بيضاءُ فى أرض طيِّبة ، قد أحْدَقَتْ بها من بسائنها زُمُرُدة خضراء ، وأتَفَّ عليها أربعة أنهار فأضحت بها مُرَصَّعةً مُجَزَّعةً .

ولها متنزّهات :

منها (قَصْرُ السُّرور) و(مجلس الذهب) . وفيهما يقول ابن هُوْدٍ من أبيات :
قَصْرَ السُّرورِ وَمَجْلِسَ الذَّهَبِ ، * يَكْمَا بَلَغَتْ نِهَايَةَ الطَّوْبِ !

القاعدة الحادية عشرة

(طُرطُوشَة)

(١) قال في "تقويم البلدان" : يضم الطائين المهملين وبينهما راء ساكنة مهملة ثم واو ساكنة وشين معجمة وهاء في الآخر . وهي مدينة في شرق الأندلس ، موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربعون درجة . قال : وهي من كراسى ملك شرق الأندلس . وهي شرقي بلنسية في الجهة الشرقية من النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة ويصب في بحر الزقاق ، على نحو عشرين ميلا من طرطوشة . قال : وشرقي طرطوشة (جزيرة مأرقة) في بحر الزقاق ؛ وإلى طرطوشة هذه ينسب «الطرطوشي» صاحب "سراج الملوك" .

القاعدة الثانية عشرة

(بَرَشُونَة)

قال في "تقويم البلدان" : يفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الشين المعجمة وضم النون وسكون الواو ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر . ويقال (بَرَشُونَة) ببدال النون الأولى لما قال في "تقويم البلدان" : وهي خارجة عن الأندلس في بلاد الفرنج ، وموقعها في أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول أربع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون

(١) ضبطها ياقوت بفتح الطاء الأولى وضم الثانية وقال المجد بالضم وقد تفتح .

درجة . وهى الآن قاعدة مُلْك النصارى بِشَرْقِ الأندلس ، وقد أضيف إليها أرغون ، وشاطِبة ، وسَرْقُسْطَة ، وبلَنْسِيَة ، وجزيرة دَانِيَة ، ومِيورْقَة ، وغير ذلك . على ما يأتى ذكره فى الكلام على ملوك الأندلس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثالثة عشرة

(يَنْبُلُونَة)

قال فى ” تقويم البلدان “ : بفتح الياء المثناة من تحت وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واو ساكنة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطول اثنتان وعشرون درجةً وخمس عشرة دقيقة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال فى ” تقويم البلدان “ : وهى مدينة فى غرب الأندلس خلف جبل الشَّارَة . قال : وهى قاعدة النَّبَرَى : أحد ملوك الفرنج . وتعرف هذه المملكة بمملكة نَبَرَة - بفتح النون وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر . وهى ملكة فاصلة بين مملكتي قَشْتَالَة وبرشْلُونَة ، وهى مما يلي قَشْتَالَة من جهة الشرق ، وسيأتى ذكرها فى الكلام على ملوك الأندلس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(فى ذكر أنهاره)

اعلم أن بالأندلس أنهارا كثيرة قد تقدّم ذكر الكثير منها ، وأعظمها نهران : الأول (نهر إشبيلية) . قال ابن سعيد : وهو فى قَدَرِ دِجْلَة ، وهو أعظم نهر بالأندلس ، ويسميه أهل الأندلس النهر الأعظم . قال فى ” تقويم البلدان “ ومخرجه

من جبال شقورة حيث الطول خمس عشرة درجة ، والعرض ثمان وثلاثون وثلثان ، وهو يجري في أبتدائه من الشرق إلى الغرب ؛ ثم يصب إليه عدة أنهر .

منها (نهر شنيل) الذي يمر على غرناطة . ونهر (سوس) الذي عليه مدينة إستجة ، ويسير من جبال شقورة إلى جهات جيان ، ويمر على مدينة بياسة ، ومدينة آبدة ؛ ثم يمر على قرطبة ، ثم إذا تجاوز قرطبة وقرب من إشبيلية ينعطف ويجرى من الشمال إلى الجنوب ، ويمر كذلك على إشبيلية ، وتكون إشبيلية على شريقه وطريانه على غربيته مقابل إشبيلية من البر الآخر ؛ ثم ينعطف فيجری من الشرق إلى الغرب ، ثم يجاوز حتى يصب في البحر المحيط الغربي عند مكان يعرف ببر المائدة ، حيث الطول ثمان درج وربع ، والعرض ست وثلاثون وثلثان ، وتكون جزيرة قادس في البحر الرومي على يسار مصبه ؛ ويقع في هذا النهر المد والجزر من البحر كما في دجلة عند البصرة ، ويبلغ المد والجزر فيه سبعين ميلا إلى فوق إشبيلية عند مكان يعرف بالأرخی ، ولا يملح ماؤه بسبب المد عند إشبيلية بل يبقى على عذوبته ؛ وبين إشبيلية وبين مصب النهر في البحر خمسون ميلا ، فالمد يتجاوز إشبيلية بعشرين ميلا ؛ والمد والجزر يتعاقبان فيه كل يوم وليسلة ، وكلما زاد القمر نورا زاد المد ، والمراكب لا تزال فيه متحدة مع الجزر صاعدة مع المد ، وتدخل فيه السفن العظيمة الإفريقية بوسقها من البحر المحيط حتى تحط عند سور إشبيلية . قال ابن سعيد : وعلى هذا النهر من الضياع والقرى ما لا يبلغه وصف .

الثاني (نهر مرسية) . قال في "تقويم البلدان" : وهو قسم نهر إشبيلية ، يخرج من جبال شقورة فيمتد نهر إشبيلية مغربا على ماتقدم ويصب في البحر المحيط . ويمر نهر مرسية مشرقا حتى يصب في بحر الروم عند مرسية .

(١) المراد أن مد النهر وجزره من مد البحر وجزره .

الجملة الرابعة

(في الموجود بالأندلس)

والظاهر أن كل ما يوجد ببلاد المغرب أو غالبه يوجد به . وقد ذكر في "تقويم البلدان" أنه يوجد به من الوحش : الإيل ، والغزال ، وحمار الوحش . ولا يوجد به الأسدُ البتّة . وقد تقدّم ذكر ما يُبلّدانه من الفواكه والثمار في الكلام على بلاده فأغنى عن إعادته هنا . قال في "تقويم البلدان" : وبه عدّة مقاطع رخام من الأبيض والأحمر والخمرى والمجزع وغير ذلك .

الجملة الخامسة

(في ذكر ملوك الأندلس : جاهليّة ، وإسلاماً . وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(ملوكها بعد الطوفان)

قال الرازي في كتاب "الاستيعاب" في تاريخ الأندلس : أول من ملكها بعد الطوفان على ما ذكره علماء عجمها قوم يُعرفون بالأندلس بالشين المعجمة ، وبهم سُمّي الأندلس ، ثم عرب بالسين المهملة ؛ وكانوا أهل تَجَشُّس فحس الله عنهم المطر حتى غارت عيونها وبيست أنهارها فهلك أكثرهم ، وفرّ من قدر على الفرار منهم ، فأفقرت الأندلس وبقيت خالية مائة عام .

وقال « هرودوتوس » مؤرخ الروم : أول من سكنها بعد الطوفان قوم يقال لهم الأباريون ، وهم من ولد طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام سكنوها بعد الطوفان . قال في "الروض العطار" ويقال : إن عدد ملوكهم الذين ملكوا الأندلس مائة وخمسون ملكاً .

الطبقة الثانية

الأشبانة

(ملكوا بعد طائفة الأندلس المتقدم ذكرهم)

قال الرازي : وأول من ملك منهم أشبان بن طيطش ، وهو الذي غزا الأفرقة وحصر ملكهم بطارقة ، ونقل رُخامها إلى إشبيلية وأخذها دار مُلكه ، وبه سميت ، وكثرت جموعه فعلا في الأرض ، وغزا من إشبيلية إيلياء : وهي بيت المقدس بعد سنتين من مُلكه : خرج إليها في السفن فهدمها وقتل من اليهود مائة ألف ، وأسترق مائة ألف ، وفترق في البلاد مائة ألف ، ونقل رُخام إيلياء وآلاتها وذخائرها إلى الأندلس .

ويحكى أن الخضر (عليه السلام) وقف على أشبان هذا وهو يحرق أرضاً له أيام حدثه ، فقال له : يا أشبان ، إنك لذو شان ! وسوف يحطيك زمان ، ويُعليك سلطان . فإذا أنت تعلّبت على إيلياء ، فارفق بورثة الأنبياء ! - فقال له أشبان : أسأجركم رحمك الله ؟ أتى يكون هذا وأنا ضعيف مهين ، فقير حقير ؟ - فقال : قدّر ذاك من قدر في عصاك اليابسة ماتراه ، فنظر أشبان إلى عصاه فرأها قد أورقت ، فأرتاع لذلك ، وذهب الخضر عنه وقد وقر ذلك في نفسه ، ووثق بكونه ، فترك الامتحان ، وداخل الناس ، وصحب أهل الباس ، وسمّا به جدّه فارتقى في طلب السلطان حتى نال منه عظيماً ، ودام ملكه عشرين سنة ، وأتصلت المملكة في بنيه إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً .

الطبقة الثالثة

(١)

(الشبونات)

وهي طائفة ثارت على الأندلس من رومة في زمن مبعث المسيح عليه السلام ،
وملكوا الأندلس والإفرنجة معها ، وجعلوا دار ملكتهم ماردة ، واتصل ملكهم
إلى أن ملك أربعة وعشرون ملكا . ويقال : إن منهم كان ذو القرنين . والذي
ذكره « هرشيوش » مؤرخ الروم أن الذي خرج عليهم من رومة ثلاث طوابع
من الغريقيين . وهم : الأئيون ، والشوانيون ، والقندلس ، واقتسموا ملكها :
فكانت جليقية لقندلس ، ونشبونة وماردة وطليطلة وعربية للشوانيين ، وكانت
إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة للأئيين ، حتى زحف عليهم القوط من رومة كما سيأتي .

الطبقة الرابعة

(القوط)

خرجوا على الشبونات فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب رومة ،
وأنفردوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طليطلة دار ملكهم (دخشوش) ملك القوط ،
وهو أول من تنصر من هؤلاء بدعاء الحواريين ودعا قومه إلى النصرانية ، وكان
أعدل ملوكهم وأحسنهم سيرة .

وقال « هرشيوش » : إنه كان قد ولي عليهم ملك يقال له (اطفالش) .

ثم ولي عليهم بعده ملك اسمه (طشريك) وقتله الرومانيون .

(١) في "فتح الطيب ج ١ ص ٧٠" البشونقات .

(٢) في "فتح الطيب ج ١ ص ٧٠" سبعة وعشرون .

ثم وَلِي مكانه ملك اسمه (تالبه) ثلاث سنين، وزوج أخته من طودشيش ملك الرومانيين، وصالحه على أن يكون له ما يفتح من الأندلس؛ ثم مات .

وولى مكانه ملك اسمه (لُذْرِيق) ثلاث عشرة سنة فزحف على الأندلس وقتل ملوئها، وطرده الطوائف الذين كانوا بها، وبقي الحال على ذلك نحوًا من ثمانين سنة؛ ثم هلك لُذْرِيق .

وولى مكانه ابنه (وَرِيقش) سبع عشرة سنة، وانتقض عليه البشكنس إحدى طوائف القوط فقهرهم وردّهم إلى طاعته؛ ثم هلك .

وولى بعده (الريك) ثلاثا وعشرين سنة؛ ثم قُتل في حرب الفرنج .

وولى عليهم (أشتريك بن طودريك) وهلك بعد خمس سنين من ملكه .

وولى عليهم بعده (بشليقش) أربع سنين .

ثم ملك بعده ملك آخر اسمه (طوذريق) إحدى وستين سنة وقتله بعض أصحابه بإشيبيلية .

وَوَلِي بعده ملك اسمه (املريق) خمس سنين .

ثم ولى بعده ملك اسمه (طودش) ثلاث عشرة سنة .

ثم وَلِي بعده (طودشكل) سنتين .

ثم ملك بعده ملك اسمه (ايلة) خمس سنين، وانتقض عليه أهل قرطبة فخاربهم وردّهم إلى طاعته .

(١) في "العبرج ٢ ص ٢٣٥" طودوشيش .

(٢) في "العبر" الديك بالبدال المهملة .

(٣) في "العبرج ٢ ص ٢٣٦" إبرليق . وفيه في هذا الموضع خلاف لما بيدنا من الاصل في كثير من الاسماء .

ثم ولي بعده ملك اسمه (طنجاد) خمس عشرة سنة .

ثم ولي بعده ملك اسمه (ليوية) سنة واحدة .

ثم ولي بعده ملك اسمه (لَوَيْلَه) ثمانى عشرة سنة ، وانتقضت عليه الأطراف
فاربهم وسكنهم ؛ ثم قُتل .

وولى ابنه (رُذْرِيق) ست عشرة سنة ، وهو الذى بنى البلاط المنسوب إليه
بقرطبة .

ولما هلك ولي بعده ملك اسمه (ليوية) ستين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (بَثْرِيق) سبع سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (عندمار) ستين .

ثم ملك بعده ملك اسمه (شَشِيُوط) ثمان سنين ؛ وعلى عهده كان (هرقل) ملك
قسطنطينية والشام ، ولعهده كانت الهجرة .

ثم ملك بعده ملك اسمه (رُذْرِيق) ثلاثة أشهر .

ثم ملك بعده ملك اسمه (شَتْلَه) ثلاث سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (شَشِنَادَش) خمس سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (خَشُونَد) سبع سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (جَشُونَد) ثلاثا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ملك اسمه (بَانِيَه) ثمان سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (لورى) ثمان سنين .

ثم ملك بعده رجل اسمه (آيَهَه) ست عشرة سنة .

ثم ولى بعده رجل اسمه (غَطْسَه) أربع عشرة سنة .

ثم ولى بعده رجل اسمه (لذريق) ستين ، وهو الذى غلبه المسلمون على الأندلس وفتحوها منه ، وهو آخر من ملك منهم . قال صاحب "الروض المِعْطَار" : وعدد من ملك منهم إلى آخرهم وهو (لذريق) ستة وثلاثون ملكا .

الطبقة الخامسة

(ملوكها على أثر الفتح الإسلامى)

وكان فيُحْمَا في خلافة الوليد بن عبد الملك : أحد خلفاء بنى أمية في سنة اثنتين وتسعين ، وكان من أمر فتحها أن طَلِيْطَلَة كانت دار الملك بالأندلس يومئذ ، وكان بها بيت مُغَلَقٌ مُتَحَامِي الفتح ، يلزمه من ثِقَاتِ القُوط قومٌ قد وُكِّلُوا به كي لا يَفْتَحَ ، يعهد الأول بذلك للآخر ، كلما ملك منهم ملك زاد على ذلك البيت قُفْلا . فلما ولى «لذريق» الأخير، عزم على فتح الباب والأطْلَاع على ما فى البيت ، فأعظم ذلك أكارهم وتضرعوا إليه فى الكَفِّ ، فأبى وظن أنه بيت مال ، ففَصَّ الأقفال عنه ودخله ، فأصابه فارغا لاشئ فيه إلا تابوتا عليه قُفْلٌ ، فأمر بفتحه فألفاه أيضا فارغا ليس فيه إلا سُفَّةٌ مُدْرَجَةٌ قد صُورَتْ فيها صُورُ العَرَبِ على الخيول ، وعليهم العمام متقلدو السيوف متنكبوا القسي ، رافعوا الرايات على الرماح ، وفى أعلاه كتابة بالعجمية فقرئت فإذا هى "إذا كُسِرَتْ هذه الأقفال عن هذا البيت ، وُفِّتِحَ هذا التابوت ، فظُرَ ما فيه من هذه الصور فإن الأئمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها" فوجم لذريق وعظم غمُّه وغم الأعاجم ، وأمر برَدِّ الأقفال ، وإقرار الحرس على حالهم .

وكان من سير الأعاجم أن يبعث أكابرهم بأولادهم ذكورا كانوا أو إناثا إلى بلاط الملك، ليتأدّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافا لأبائهم . وكان للذريق عامل على سبّعة من برّ العدوّة يسمى يُلْيَان ، وله ابنة فائقة الجمال ، فوجّه بها إلى دار للذريق على عادتهم في ذلك ، فوقع نظر للذريق عليها فأعجبته ، فاستكرهها على نفسها فاحتالت حتى أعلمت أباهَا بذلك سرا ، فشقّ ذلك عليه ، وحلف ليزيلن سلطان للذريق ، ثم تلطف حتى اقتلع بنته من بيت للذريق ، ثم لم يلبث يُلْيَان [أن كتب] إلى موسى بن نصير أمير أفرقيّة من جهة « الوليد بن عبد الملك » يحرضه على غزو الأندلس ، وحثّه على ذلك ، ووصف له من حُسْنها وفوائدها مادعاها إلى ذلك وهوّن عليه أمر فتحها . فتوثّق منه موسى بن نصير بذلك ، ودعا مولاه كان على مقدّماته ، يقال له « طارق بن زياد » فعقد له وبعثه إليها في سبعة آلاف ، وهيا لها يُلْيَان المراكب ، فعبّر البحر وحلّ بجبل هناك يُعرف الآن (بجبل طارق) فوجد محجوزا من أهل الأندلس - فقالت له : إنه كان لي زوج عالم بالحدّثان ، وكان يحدث عن أمير يدخل بلدنا هذا ، ويصفه بأنه صخّم الهامة وأنت كذلك ، وكان يقول : إنه بكتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة كما ذكرت العجوز ، فاستبشر بذلك .

ويحكى أنه رأى (وهو في المركب) النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة يمشون على الماء حتى مروا ، فبشّره النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، فاستيقظ مستبشرا ، وتيقن الفتح ، وهم البلد فلكها . وكان عسكره قد انتهى إلى أثني عشر ألفا إلا ستة عشر ، وللذريق في ستمائة ألف ، « والله يؤيد بنصره من يشاء » . وأقام طارق بالأندلس حتى قدّم إليها مولاه موسى ابن نصير المتقدّم ذكره في رجب من السنة المذكورة . وأقام موسى فيها سنتين

ثم أنصرف إلى القيروان ، واستخلف عليها ابنه (عبد العزيز) فنزل قرطبة وأخذها دار إماره لهم ، وتوجه موسى سنة ست وتسعين بما سباه وما غنمه إلى الوليد ابن عبد الملك ، ثم دس سليمان بن عبد الملك على عبد العزيز المذكور من قتله بالأندلس لآتمامه بموالة أخيه الوليد .

ثم وليها بعده (عبد العزيز) ^(١) بن عبد الرحمن القيسي سنتين وثلاثة أشهر .

ثم وليها (السَّمُحُ بن مالك) الحولاني سنتين وتسعة أشهر .

ثم وليها (عَبَسَةُ بن سُحَيْم) الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر .

ثم وليها (يحيى بن مسلمة) سنتين وستة أشهر .

ثم وليها (حذيفة بن الأحوص) القيسي سنة واحدة .

ثم وليها (عثمان بن أبي نُسَعة) الخثعمي خمسة أشهر .

ثم وليها (الهيثم بن عبيد) خمسة أشهر .

ثم وليها (عبد الرحمن بن عبد الله) الغافقي سنتين وثمانية أشهر .

ثم وليها (عبد الملك) بن [قَطَن الفهري] ^(٢) أربع سنين .

ثم وليها (عُقْبَةُ بن الججاج) خمس سنين وشهرين .

ثم وليها (مُفْلِح بن بشر القيسي) ^(٣) أحد عشر شهرا .

ثم وليها (حُسَّام بن ضَرَّار) الكلبي سنتين .

(١) لعله وليها بعد عبد العزيز أيوب بن حبيب النخعي كما يؤخذ من نقح الطاييب والعبر .

(٢) في الاصل قطار، والتصحيح عن العبر ج ٤ ص ١١٩ .

(٣) في "العبر ج ٤ ص ١١٩" باخ بن شروفيه في هذا المكان زيادة ونقص وتقديم وتأخير في الولاة .

ثم وليها (نوابة الجُدَامَى) ^(١) سنة واحدة .

ثم وليها (يوسفُ بنُ عبد الرحمن) الفُهرىّ تسع سنين وتسعة أشهر .

ثم كانت دولةُ بنى أمية بالأندلس ، على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

الطبقة السادسة

(بنو أمية ، وكانت دارُ ملكهم بها مدينة قُرطُبة)

وأول من ملكها منهم (عبدُ الرحمن بنُ معاوية) بن هشام ، بن عبد الملك ،
 ابن مروان ، بن الحكم ، ويُعرف (بعبد الرحمن الداخل) . وذلك أن بنى العبّاس
 لما نتبّعوا بنى أمية بالقتل ، هرب عبد الرحمن المذكور ، ودخل الأندلس وأستولى
 عليها فى سنة تسع وثلاثين ومائة من الهجرة ، وقصده بنو أمية من المشرق والتجّؤوا
 إليه . وتوفّى فى ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة . ^(٢)

وملك بعده ابنه (هشام) وتوفّى سنة ثمان وسبعين ومائة . ^(٣)

وأستخلف بعده ابنه (الحكم) وفى أيامه استعاد الفَرَجُ مدينةَ برشلونة فى سنة
 خمس وثمانين ومائة ، وتوفّى لأربع بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين .
 وأقام فى الملك بعده ابنه (عبدُ الرحمن) وتوفّى فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين
 ومائتين .

وملك بعده ابنه (محمد) وتوفّى فى سلخ صفر سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وعمره
 خمس وستون سنة . ^(٤)

(١) فى "العبر" و"فتح الطيب" ثعلبة بن سلامة الجُدَامَى .

(٢) فى "الكامل ج ٦ ص ٤٠" وقيل سنة ثنتين وسبعين ... وهو الاصح .

(٣) فى "العبر والكامل" سنة ثمانين ومائة .

(٤) فى "الكامل ج ٦ ص ١٥٣" ثلاث وسبعين .

وملك بعده أبنه (المُنْدَر) وتوفى لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين .

وبويع أخوه (عبد الله) يوم موته ، وتوفى في ربيع الأول سنة ثمانمائة .

وولى بعده ابن أبنه (عبد الرحمن) بن محمد المقتول ابن عبد الله المتقدم ذكره ، وخوِط بأمر المؤمنين ، وتلقب بالناصر بعد أن مضى من ولايته تسع وعشرون سنة ، عند ما بلغه صَعْفُ خلفاء العباسيين بالعراق وظهور الخلفاء العلويين بأفريقية ، ومحاطبتهم بأمر المؤمنين ؛ وتوفى في رمضان سنة خمسين وثمانمائة .

وولى الأمر بعده أبنه (الحكم) وتلقب بالمستنصر ، وتوفى سنة ست وستين وثمانمائة .

وعهد إلى أبنه (هشام) ولقبه المؤيد ، وبايعه الناس بعد موت أبيه ، فأقام إلى سنة تسع وتسعين وثمانمائة .

ثم غلبه (محمد بن هشام) بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المتقدم ذكره ، وتلقب بالمهدي في جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ثم غلبه (سليمان بن الحكم) بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتقدم ذكره ، فهرب محمد بن هشام المذكور وأستولى على الخلافة في شوال من السنة المذكورة .

ثم غلبه (محمد بن هشام) المهدي المذكور في منتصف شوال من السنة المذكورة .

ثم عاد (هشام بن الحكم) المتقدم ذكره في سابع ذى الحجة من السنة المذكورة .

ثم عاد (سليمان بن الحكم) المتقدم ذكره في منتصف شوال سنة ثلاث وأربعمائة ، ولقب بالمستعين .

ثم غلبه (المهدي محمد) بن هشام المتقدم ذكره في أثنائات السنة المذكورة .

ثم غلبه (المستعين) على قُرْطُبَةَ ، ثم قُتِلَ المهديُّ محمدُ بنُ هشام المذكور وعاد [هشام المؤيد^(١)] إلى خلافته ، هذا كله والمستعين محاصر لقُرْطُبَةَ ، إلى أن أفتتحها عَنْوَةً سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتلوا المؤيدَ هشامًا .

ثم جاء (علي بن حمّود) وأخوه (قاسم) من الأدارسة : ملوك الغرب في عساكر من البربر فملكوا قُرْطُبَةَ سنة سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين وأزالوا ملك بني أمية من الأندلس ، وأتصل ذلك في خلفهم سبع سنين .

ثم غلب علي بن حمّود ، المرتضى بالله عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ، ابن المرتضى عبد الرحمن بن الناصر أمير المؤمنين .

ثم اجتمعوا على رد الأمر لبني أمية ، ثم ولي بعد ذلك المستظهر بالله (عبد الرحمن) ابن هشام بن عبد الجبار في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة .

ثم غلب عليه المستكني بالله (محمد بن عبد الرحمن) بن عبيد الله ، بن عبد الرحمن ، الناصر أمير المؤمنين .

ثم رجع الأمر إلى (يحيى بن علي) بن حمّود سنة ست عشرة وأربعمائة .

ثم بويع للعتمد بالله (هشام بن محمد) أخى المرتضى من بني أمية سنة ثمان عشرة وأربعمائة^(٢) . وتوفي بها سنة ثمان وعشرين ، وأتقطعت دولة الأموية من الأندلس ، والله وارث الأرض ومن عليها .

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٥١ لتوضيح المقام .

(٢) في "العبرج ٤ ص ١٥٢" ... وفرا إلى لاردة فهلك بها

الطبقة السابعة

(ملوك بني حمود من الأدارسة: ملوك الغرب)

كان في جملة جماعة المستعين: سليمان بن الحكم الأموي المتقدم ذكره القاسم وعليّ
أبنا حمود، بن ميمون، بن أحمد، بن عليّ، بن عبيد الله، بن عمر، بن إدريس بعد
انقراض دولتهم بفاس وانتقالهم إلى تخارمة وقيام رياستهم بها، فعقد المستعين للقاسم
عليّ الجزيرة الخضراء من الأندلس، وعليّ عليّ طنجة وعملها من برّ العدوة. وطمعت
نفس عليّ بن حمود صاحب طنجة في الخلافة، وزعم أن المؤيد هشاماً من بني أمية
عند حصارهم إياه كتب له بعهد الخلافة، فبايعوه بالخلافة وأجاز إلى مالقة فملكها،
ودخل قرطبة سنة سبع وأربعمئة، وتلقب بالناصر لدين الله وأتصلت دولته إلى أن
قتله صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمئة.

فولي مكانه أخوه (القاسم) بن حمود الذي كان بطنجة وتلقب بالمأمون.

ثم غلبه عليّ ذلك (يحيى ابن أخيه عليّ) وزحف إلى قرطبة فملكها سنة
ثنتي عشرة وأربعمئة وتلقب بالمعتلي، وكانت له وقائع كان آخرها أن اتفقوا على تسليم
المدائن والحصون له، فعلا سلطانه، واشتد أمره، وأخذ في حصار ابن عباد
بإشبيلية فحبا به فرسه وقُتل، وأتقطعت دولة بني حمود بقرطبة.

ثم استدعى قومه أخاه (إدريس) بن عليّ بن حمود من سبتة وطنجة فبايعوه عليّ
أن يولي سبتة (حسن ابن أخيه يحيى) فقم له الأمر بمالقة وتلقب بالمؤيد بالله، وبايعه
أهل المرية وأعمالها ورندة والجزيرة، ومات سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة.

وبايع البربر بعده (حسن بن يحيى) المعتلي، ولقبوه المستنصر، وبايعته غرناطة
وجملة من بلاد الأندلس، ومات مسموماً سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة.

وكان (إدریس بن یحیی) المعتلى معقلاً ، فَأَخْرَجَ وَبُوعَ لَهُ سَنَةَ تِسْعَ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ ، وَأَطَاعَتْهُ غَرْ نَاطَةُ وَقَرْمُونَةُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَلُقَّبَ الْعَالِي ، ثُمَّ قَتَلَ مُحَمَّدًا وَحَسَنًا ابْنَيْ عَمِّهِ إِدْرِيسَ ، فَثَارَ السُّودَانُ بِدَعْوَةِ أَخِيهِمَا مُحَمَّدٍ بِمَالَقَةِ فَأَسْلَمُوهُ .

وَبُوعَ (مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ) الْمَتَائِدَ بِمَالَقَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَلُقَّبَ بِالْمُهْدِي ، وَأَقَامَ بِمَالَقَةِ ، وَأَطَاعَتْهُ غَرْ نَاطَةُ وَجَيَّانُ وَأَعْمَالُهُمَا ، وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ .

وَبُوعَ (إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى) بْنُ إِدْرِيسَ الْمَتَائِدَ وَلُقَّبَ الْمَوْفِقَ وَلَمْ يُحْطَبْ لَهُ ، وَزَحَفَ إِلَيْهِ إِدْرِيسُ الْخَلُوعُ الْمَلْقَبُ بِالْعَالِي ابْنُ يَحْيَى الْمَعْتَلَى مِنْ قَسَارِشَ فَبُوعَ لَهُ بِمَالَقَةِ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ .

وَبُوعَ (مُحَمَّدُ الْأَصْغَرُ) ابْنُ إِدْرِيسَ الْمَتَائِدَ وَلُقَّبَ الْمُسْتَعْلَى ، وَحُطِبَ لَهُ بِمَالَقَةِ وَالْمَرْيَةِ وَرُنْدَةَ ، وَهَلَكَ سَنَةَ سِتِينَ وَأَرْبَعِينَ .

وَكَانَ (مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ) بْنُ حَمُودٍ قَدْ لَحِقَ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءَ سَنَةَ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِينَ فَلَمَّا كَانَتْهَا وَلُقَّبَ بِالْمُعْتَصِمِ ، وَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ .

ثُمَّ مَلَكَهَا مِنْ بَعْدِهِ (أَبْنَةُ الْقَاسِمِ) وَلُقَّبَ الْوَائِقَ ، وَهَلَكَ سَنَةَ خَمْسِينَ ، وَصَارَتْ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ لِلْعَتَصِدِّ بْنِ عَبَّادٍ ، وَأَنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ بَنِي حَمُودٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

الطبقة الثامنة

(ملوك الطوائف بالأندلس)

لَمَّا أَصْحَلَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي حَمُودٍ بَعْدَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَثَبَ الْأُمَرَاءُ عَلَى الْجِهَاتِ ، وَتَفَرَّقَ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ فِي طَوَائِفَ مِنَ الْمَوَالِي ، وَالْوُزَرَاءِ ، وَبِكَارِ الْعَرَبِ وَالْبُرْبَرِ ، وَقَامَ كُلُّ مِنْهُمْ بِأَمْرِ نَاحِيَةٍ ، وَتَغَلَّبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَضَعُفَ

أمرهم حتى أعطوا الإناوة للملك الفرّنجية من بنى أدفونش حتى أدركهم الله بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين .



فأما إشبيلية وغرب الأندلس فاستولى عليهما بنو عبّاد .

كان أولهم القاضي أبو القاسم (محمد بن ذى الوزارتين) أبى الوليد، بن إسماعيل، ابن قرّيش، بن عبّاد، بن عمرو، بن أسلم، بن عمرو، بن عطّاف، بن نعيم النخعي، وأستبد بإشبيلية بعد فرار القاسم بن حمّود عن قرطبة، أنترعها من ابن زيرى وكان والياً عليها من جهة القاسم بن حمّود المذكور، وبقي بها إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

ولما مات قام بأمره ابنه (عبّاد) وتلقب المعتضد، وطالت أيامه، وتغلب على أكثر الممالك بغرب الأندلس، وبقي حتى مات سنة إحدى وستين وأربعمائة .

وولى مكانه ابنه (أبو القاسم محمد) الملقب بالمعتد، بخرى على سنن أبيه وأستولى على دار الخلافة بقرطبة من يد ابن جهّور، وفترق أبناءه على قواعد الملك، وأستفحل ملكه بغرب الأندلس، وغلب على من كان هناك من ملوك الطوائف، وبقي حتى غلب أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » على الأندلس فقبض عليه، ونقله إلى أغمات : قرية من قرى مراکش سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأعتقله بها إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .



وأما قرطبة فاستولى عليها بنو جهّور . وكان رئيس الجماعة بقرطبة أيام فتنة (١) بنى أمية، أبو الحزم (جهّور بن محمد) بن جهّور، بن عبد الله، بن محمد، بن الغمر،

(١) فى العبرج ٤ ص ١٥٩ "المعمر" وهو تصحيف .

أبن يحيى ، بن أبي المَعَاوَر ، بن أبي عبيدة الكلبي . وأبو عبيدة هذا هو الداخل إلى الأندلس ، وكانت لهم وزارة بقرطبة بالدولة العاصرية . ولما خلع الجند « المقتدر بالله » ^(١) آخر خلفاء بني أمية بالأندلس ، استبدَّ جَهْور بالأمر وأستولوا على المملكة بقرطبة سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان على سَنَن أهل الفضل ، فأسندوا أمرهم إليه إلى أن يوجد خليفة ، ثم أقتصروا عليه فدبّر أمرهم إلى أن هلك في المحترم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة .

وولي مكانه ابنه (أبو الوليد محمد بن جهور) فخلعه أهل قرطبة سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وأخرجوه [ثم فوض التدبير إلى ابنه عبد الملك بن أبي الوليد فأساء السيرة فأخرجوه] ^(٢) عن قرطبة ، فاعتقل [بشلطيش] ^(٣) إلى أن مات سنة ثنتين وستين .

وولي ابن عباد على قرطبة ابنه (سراج الدولة) وقتله ابن عكاشة سنة سبع وستين ، ودعا لابن ذى النون (يحيى بن إسماعيل) وقدمها ابن ذى النون من بلنسية ^(٤) وقتل بها مسموما .

وزحف المعتمد بن عباد بعد مهلكه إلى قرطبة ، فلكها سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

(١) في "العبرج ٤ ص ١٥٩" المعز وتقدم للؤلؤف أن آخرهم المعتمد .

(٢) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٣) الزيادة من العبرج ٤ ص ١٥٩ .

(٤) يؤخذ من "العبرج ٤ ص ١٥٩" أن الذى قتل مسموما هو سراج الدولة .



وأما بَطْلَيْوُسُ ، فكان بها عند فِتْنَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ أَبُو مُحَمَّدٍ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ) التَّجِيبِيُّ المعروف بِابْنِ الْأَفْطَسِ ، وَاسْتَبَدَّ بِهَا سَنَةً إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعًا مِائَةً ، ثُمَّ هَلَكَ .

فَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْمُظَفَّرُ (أَبُو بَكْرٍ) وَعَظُمَ مُلْكُهُ . وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ، وَمَاتَ سَنَةَ سِتِينَ وَأَرْبَعًا مِائَةً .

وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ الْمُتَوَكَّلُ (أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ) بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِسَاجَةِ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهَا إِلَى أَنْ قَتَلَهُ «يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ» سَنَةَ ثَمَانِينَ وَأَرْبَعًا مِائَةً بِأَغْرَاءِ ابْنِ عَبَّادَ بِهِ .



وأما غَرْنَاطَةُ^(١) ، فَلَمَّا كَانَتْ أَيَّامَ الْفِتْنَةِ (زَارِي بْنُ زِيْرِ) بْنُ مِيَادَ ، ثُمَّ أَرْتَحَلَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى غَرْنَاطَةِ ابْنَهُ ، فَبَدَأَ لِأَهْلِ غَرْنَاطَةِ أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى ابْنِ أَخِيهِ (حِيُوسُ بْنُ مَاكُسٍ) بْنِ زِيْرِ مِنْ بَعْضِ الْحَصُونِ ، فَوَصَلَ وَمَلِكُ غَرْنَاطَةِ وَاسْتَبَدَّ بِهَا ، وَتَوَقَّى سَنَةَ ثَمَانِينَ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعًا مِائَةً .

وَوَلَّى مَكَانَهُ ابْنُهُ (بَادِيسُ) وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ عَبَّادَ حُرُوبٌ ، وَتَوَقَّى سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِينَ وَأَرْبَعًا مِائَةً .

وَوَلَّى حَافِدُهُ الْمُظَفَّرُ أَبُو مُحَمَّدٍ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُلْكَيْنَ بْنِ بَادِيسٍ) وَوَلَّى أَخَاهُ تَمِيمًا بِمَالَقَةِ بَعْدَهُ جَدَّهُ إِلَى أَنْ خَلَعَهُمَا «يُوسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ» سَنَةَ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعًا مِائَةً .

(١) من هنا إلى قوله وأما طليطلة مضرب عاينه في القطعة الأزهرية وأقتصر على ما سيأتى في الكلام على غرناطة قبيل الطبعة التاسعة .



وأما طَلِيْطَلَةُ ، فاستولى عليها بنو ذى النون . وذلك أن الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون الهواري [تغلب] أيام الفتنة على حصن أفلنتين سنة تسع وأربعمائة ، وكانت طَلِيْطَلَةُ ليعيش بن محمد بن يعيش وليها في أول الفتنة ، فلما مات سنة سبع وعشرين مضى إسماعيل الظافر إلى طَلِيْطَلَةَ فلما ملكها ، وأمتد مُلْكُهُ إلى جنجالة من عمل مُرْسِيَّة ، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين .

فولى مكانه أبْنُه المأمون (أبو الحسن يحيى) فاستفحل مُلْكُهُ ، وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، ثم غلب على بلنسية وقرطبة ، ومات مسموما سنة سبع وستين وأربعمائة .

وولى بعده على طَلِيْطَلَةَ حافده (القادر يحيى) بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون ،

وكان الطاغية أدفونس ملك الفرنج بالأندلس قد استفحل أمره عند وقوع الفتنة بين ملوك الأندلس فضايق ابن ذى النون حتى تغلب على طَلِيْطَلَةَ وخرج له عنها (القادر يحيى) سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وشرط عليه أن يظهره على أخذ بلنسية ، فقبل شرطه وتسلمها الأدفونس ملك الفرنج ، وبقيت معه إلى الآن أعادها الله تعالى إلى نطاق الإسلام .



وأما شاطِبَةُ وما معها من شرق الأندلس ، فاستولى عليها العاصريون . بويه للنصور (عبد العزيز) بن الناصر عبد الرحمن بن أبي عاصم بشاطبة سنة إحدى عشرة

(١) الزيادة عن العبر ج ٤ ص ١٦١

(٢) لها جنجال .

وأربعائة، أقامه الموالي العامريون عند الفتنة البربرية في زمن بني أمية، فاستبد بها، ثم ثار عليه أهل شاطبة ففرك شاطبة ولحق ببلنسية فملكها، وفوض أمره للوالي .

وكان (خيران العامري) من مواليم قد تغلب قبل ذلك على أربونة سنة أربع وأربعائة، ثم ملك مرسية سنة سبع، ثم جيان والمريّة سنة تسع، وبايعوا جميعا للنصور عبد العزيز . ثم انتقض خيران على المنصور وسار إلى مرسية وأقام بها ابن عمه (أبا عامر محمد بن المظفر) بن المنصور بن أبي عامر، وجمع الموالى على طاعته، وسماه (المؤمن) ثم (المعتصم) ثم أخرجه منها، ثم هلك خيران سنة تسع عشرة وأربعائة .

وقام بأمره بعده الأمير (عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري) وزحف إلى غرناطة فبرز إليه باديس بن حيوس فقتله بظاهرها سنة تسع وعشرين وأربعائة، وصار ملكه للنصور (عبد العزيز) صاحب بلنسية .

وكان قائده ضمادح وأبنة معن يتوليان حروبه مع مجاهد العامري صاحب دانية، فولّى على المريّة (معن بن ضمادح) سنة ثلاث وثلاثين وأربعائة، وغزا الموالى العامريين بشاطبة فغلبهم عليها .

وولّى على بلنسية أبنة (عبد الملك) فقام بأمره وجاهد المأمون بن ذى النون فغلبه على بلنسية وانزعها منه سنة سبع وخمسين .

ولما مات المأمون وولى حافده القادر على ما تقدم ذكره ولّى على بلنسية (أبا بكر) ابن عبد العزيز بقيقه وزراء ابن أبي عامر، فحسن له ابن هود الانتقاض على القادر، ففعل وأستبد بها سنة ثمان وستين وأربعائة حين تغلب المقتدر على دانية، ثم هلك لسنة ثمان وسبعين لعشر سنين من ولايته .

ووليَّ ابنه القاضي (عثمان) فلما سلم القادرُ بنُ ذى النون طليطلةَ للأدفونش وزحف إلى بلنسية، خلعوا القاضي عثمانَ خوفاً من استيلاء ملك الفرنج عليها .

ثم ثار على القادر سنة ثلاث وثمانين القاضي (جعفر بن عبد الله) بن حجاج، فقتله وأستبد بها، ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وثمانين وقتلوه، ثم جاءهم (يوسف بن تاشفين) .

وأما معن بن صمّاح قائد عبد العزيز بن أبي عامر، فإنه أقام بالمريّة لما ولّاه المنصور سنة ثلاث وثلاثين، وتسمى ذا الوزارتين، ثم خلعه .

ووليَّ ابنه (المعتصم أبا يحيى محمد بن معن بن صمّاح) سنة أربع وأربعين، ولم يزل بها أميراً إلى أن مات سنة ثمانين وأربعمائة .

ووليَّ ابنه (أحمد) وبقي حتى خلعه يوسف بن تاشفين .



وأما سرقسطة والثغر فاستولى عليهما بقية بنى هود، إذ كان مُنذر بن يحيى بن مطرف، بن عبد الرحمن، بن محمد، بن هاشم التّجيبى صاحب الثّغر الأعلى بالأندلس، وكانت دار إمارته سرقسطة . ولما وقعت فتنة البربر آخر أيام بنى أمية، استقل (مُنذر) هذا بسرقسطة والثغر، وتلقب بالمنصور، ومات سنة أربع عشرة وأربعمائة .

ووليَّ مكانه ابنه (يحيى) وتلقب بالمظفر .

وكان أبو أيوب (سليمان بن محمد) بن هود بن عبد الله بن موسى، مولى أبي حذيفة الحُدّامى من أهل نسبهم مستقلاً بمدينة (طليطلة) و (لاردة) من أول الفتنة . وجدّهم

هُودٌ هو الداخل إلى الأندلس ، فتغلب سليمان المذكور على المظفر يحيى بن المنذر وقتله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، وملك سرقسطة والنغر من أيديهم ، وتحول إليها ، وتلقب بالمستعين واستفحل ملكه ، ثم ملك بلنسية ودانية . وولى على لاردة آبنه (أحمد المقتدر) ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

فولى آبنه (أحمد) الملقب بالمقتدر سرقسطة وسائر النغر الأعلى ، وولى آبنه (يوسف) الملقب بالمظفر لاردة . ومات أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه .

فولى بعده آبنه (يوسف المؤتمن) وكان له اليد الطولى في العلوم الرياضية ، وألف فيها التأليف الفائقة ، مثل ” المناظر ” و ” الاستكمال ” ^(١) وغيرهما ، ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وولى بعده آبنه (أحمد) الملقب بالمستعين ، ولم يزل أميرا بسرقسطة إلى أن مات شهيدا سنة ثلاث وخمسمائة في زحف ملك الفرنج إليها .

وولى بعده آبنه (عبد الملك) وتلقب عماد الدولة ، وزحف إليه الطاغية أدفونش ملك الفرنج فملك منه سرقسطة وأخرجه منها ، وأستولى عليها سنة ثلثي عشرة وخمسمائة ، ومات سنة ثلاث عشرة .

وولى آبنه (أحمد) وتلقب سيف الدولة والمستنصر ، وبالغ في النكاية في الطاغية ملك الفرنج ، ومات سنة ست وثلاثين وخمسمائة .

وكان من ممالك بنى هود هؤلاء طرطوشة ، وقد كان ملكها (مقاتل) أحد الموالى العاصرين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ومات سنة خمس وأربعين .

(١) الذى فى العبرج ٤ ص ١٦٢ ” الاستهلال ” .

وملكها بعده (يَعْلَى العامري) ولم تَطُل مدته .

(١) وملكها بعده (نَيْل) أحدهم إلى أن نزل عنها لعماد الدولة (أحمد بن المستعين) سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة ، فلم تزل في يده ويد بنيه بعده إلى أن غلب عليها العدو المخذول فيما غلب عليه من شرق الأندلس .



وأما دانية وميُورقة ، فاستولى عليهما (مُجاهد بن علي) بن يوسف مولى المنصور ابن أبي عامر ، وذلك أنه بعد الفتنة كان قد ملك طُرطُوشة ثم تركها وسار إلى دانية واستقر بها ، وملك ميُورقة [وميُورقة] وبياسة ، وأستقل بملكها سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، وولى عليها ابن أخيه (عبدالله) ثم ولى عليها بعد ابن أخيه مولاه (الأغلب) سنة ثمان وعشرين وأربعمائة . وهلك مجاهد سنة ست وثلاثين وأربعمائة .

وولى ابنه (علي) وتلقب إقبال الدولة ، ودام ملكه ثلاثا وثلاثين سنة ، ثم غلبه المقتدر بن هُود على دانية سنة ثمان وستين وأربعمائة ونقله إلى سرقسطة ، فساق قريبا من [وفاة المقتدر] سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وبقي الأغلب مولى مجاهد على ميُورقة ، وكان كثير الغزو في البحر فاستأذن علي بن مجاهد في الغزو ، وأستخلف على ميُورقة صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه فأقام سليمان خمس سنين ثم مات فولى علي بن مجاهد مكانه (مبشرا) وتسمى ناصر الدولة فأقام خمس سنين ، وأنقرض ملك علي بن مجاهد وتغلب عليه المقتدر بن هُود ناستقل (مبشر) بميُورقة ولم يزل يردد الغزو إلى بلاد العدو حتى جمع له طائفة برشلونة وحاصره بميُورقة عشرة

(١) في "العبرج" ٤ ص ١٦٣ "شيدل .

(٢) الزيادة من "العبرج" ٤ ص ١٦٥ " .

أشهر، ثم أقتلها منه واستباحها سنة ثمان وخمسمائة؛ وكان مبشر قد بعث بالصريح إلى (علي بن يوسف) صاحب المغرب، فلم يواف أسطوله بالمدد إلا بعد تغلب العدو عليها وموت مبشر؛ فلما وصل العساكر والأسطول دفعوا عنها العدو وولى علي بن يوسف عليها من قبله (وانود بن أبي بكر اللتوني) ثم عسف بهم فولى عليها (يحيى بن علي بن إسحاق) بن غانية صاحب غرب الأندلس فبعث إليها أخاه (محمد بن علي) فأقام في ولايتها عشر سنين إلى أن هلك أخوه يحيى، وسلطانهم علي بن يوسف واستقرت ميورقة في ملك بني غانية وكانت لهم بها دولة ثم ملكها الموحدون وأقرض أمر بني غانية وبقيت في أيدي الموحدين حتى ملكها القرنج من أيديهم آخر دولتهم.

وأما غرناطة فاستولى عليها (زاري بن زيري) بن مياد الصنهاجي، ثم عن له أن قدم علي المعز بن باديس صاحب أفريقية وهو حفيد أخيه بلكين، فقدم عليه وأستخلف مكانه بغرناطة ابناً له فأساء السيرة فيهم فأرسلوا إلى آبن عمه حيوس بن ماكس بن زيري فغضر إليهم فبايعوه، وعظم فيها سلطانه إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وولى من بعده آبنه (باديس بن حيوس) وتلقب بالمظفر، وهو الذي مصر غرناطة وأختط قصبتها وشيد قصورها وحصن أسوارها، ومات سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وقد ظهر أمر المرابطين بالمغرب.

وولى من بعده حافده (عبد الله بن بلكين) بن باديس فبقى بها إلى أن أجاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فقبض على عبد الله المذكور.

الطائفة التاسعة

(ملوك المرابطين من لمتونة : ملوك الغرب المتغلبين على الأندلس)

لما غلب أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين على بلاد المغرب وأستولى عليها، وكان الأندلس قد تقسم بأيدي ملوك الطوائف كما تقدم، وكان الطاغية ابن الأدفونس ملك الجلالة قد طمع في بلاد الأندلس، بعث أهل الأندلس إلى أمير المسلمين يستصرخون به فلبى دعوتهم وسار إلى الأندلس .

ونزل الجزيرة الخضراء في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ودفع الأدفونس، وسارتارة بلاد المغرب وتارة ببلاد الأندلس، وملك إشبيلية وبلنسية، وأستقل (عبد الله بن بلكين) عن غرناطة وأخاه تيمنا عن مالقة وغلب المعتمد بن عباد على جميع عمله وأستزل ابنه المأمون عن قرطبة وأبناه الراضي عن رندة وقرمونة، وأنتزع بطليوس من صاحبها عمر بن الأفطس، وأنتزع عامة حصون الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود، وأنتظمت بلاد الأندلس في ملكه وأتقرض ملك الطوائف أجمع منها، وأستولى على العدوتين وخاطب المستظهر الخليفة العباسي ببغداد في زمنه فمقد له على المغرب والأندلس وكتب له بذلك عهدا وأرسله إليه، ولم يزل الأمر على ذلك حتى توفي سنة خمسماية .

وقام بالأمر بعده ابنه (علي بن يوسف) وفي أيامه تغلب الأدفونس على سرقسطة وأستولى عليها .

وعقد علي بن يوسف لولده (تاشفين) على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وخمماية وأزله قرطبة وإشبيلية، وعقد (لأبي بكر بن ابراهيم) على شرق الأندلس وأزله بلنسية، وعقد (لأبن غانية) على الجزائر الشرقية : دانية وميورقة ومنورقة .

وبقي الأمر على ذلك إلى أن غلب الموحدون على بلاد المغرب وأتزعجوها من يد تاشفين
أبن علي في سنة إحدى وخمسين وملكوها .

ثم عقد عبد المؤمن أمير الموحدين لابنه (أبي يعقوب) على إشبيلية ، ولابنه
(أبي سعيد) على غرناطة ثم كانت أيام يوسف بن عبد المؤمن فغزا الأندلس ،
ثم رجع إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وولّى عمّه (يوسف) على بلنسية ، وعقد
لأخيه (أبي سعيد) على غرناطة ، وعقد على قرطبة لأخيه (الحسن) وعلى إشبيلية
لأخيه (عليّ) . ثم عقد (لأبي زيد) ابن أخيه أبي حفص على غرناطة ولابن
أخيه أبي محمد عبد الله بن أبي حفص على مالقة . ثم عقد لابنه أبي إسحق على
إشبيلية ولابنه يحيى على قرطبة ، ولابنه أبي يزيد على غرناطة ولابنه أبي عبد الله
على مرسية . وقتل في قتال النصارى في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وولي ابنه (أبو يعقوب) ورغب ابن أدفونس في مهادنته فهادنه . وعقد
على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة ، وعلى بطليوس لأبي الربيع بن أبي حفص ،
وعلى غرب الأندلس لأبي عبد الله بن أبي حفص . ورجع إلى مرّاكش سنة أربع
وتسعين وخمسمائة ومات بعدها .

وولي ابنه الناصر (محمد بن المنصور) ونزل إشبيلية ، وذلك في صفر سنة تسع
وستمائة ثم رجع إلى مرّاكش فمات بها .

وولي بعده ابنه (المستنصر يوسف) وكان والي مرسية أبا محمد عبد الله بن
المنصور فدعا لنفسه ، وتسمى بالعدل ، وكان أخوته أبو العلاء صاحب قرطبة
وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرّاً وخرج من

مُرْسِيَّةً إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ فَدَخَلَهَا وَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُوَحِّدُونَ بِالْبَيْعَةِ ، وَدَخَلَ مَرَّأَشَ فَكَانَتْ
بِالْأَنْدَلُسِ قَتْنٌ آخَرُهَا أَنْ ثَارَ ابْنُ هُوْدٍ عَلَى الْأَنْدَلُسِ وَأَسْتَوْلَى [عَلَيْهِ] وَأَخْرَجَ مِنْهُ
الْمُوَحِّدِينَ .

الطائفة العاشرة

(بنو الأحمر ملوك الأندلس إلى زماننا هذا)

وقد تعرّض القاضي شهاب الدين بن فضل الله إلى الذي كان في زمانه منهم
وهو (يوسف) ولم ينسبه غير أنه قال : إنه من ولد قَيْس بن سعد بن عبادة .
ثم ذكر أنه فاضل ، له يد في الموشّحات .

وأعلم أن بنى الأحمر هؤلاء أصلهم من أَرْجُونَةَ من حصون قُرْطُبَةَ وَيَنْتَسِبُونَ
إِلَى سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ سَيِّدِ الْخَرْجِ ، ولم أقف على نسبهم إليه ، ويعرفون بِبَنِي نَصْرٍ ،
وكان كبيرهم آخِرُ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ الشَّيْخُ أَبُو دَبُّوس (مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ) بْنُ نَصْرِ
المعروف بابن الأحمر وأخوه إِسْمَاعِيلُ ، وكان لهما وَجَاهَةٌ وَرِيَاسَةٌ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ .

ولما ضَعُفَ أَمْرُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَسْتَقْلَلَ بِالْأَمْرِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ هُوْدٍ
النَّائِبُ بِمُرْسِيَّةَ وَقَامَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَتَغَلَّبَ عَلَى جَمِيعِ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ،
ثَارَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ نَصْرِ : جَدُّ بَنِي الْأَحْمَرِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ هُوْدٍ ، وَبُوِيَ
لَهُ سَنَةٌ تِسْعٌ وَعَشْرِينَ وَسَمَائَةً ، عَلَى الدَّعَاءِ لِلْأَمِيرِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةَ
مِنْ بَقِيَّةِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَأَطَاعَتْهُ جَيَّانٌ وَشَرِيشٌ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ مَبَايَعَتِهِ . ثُمَّ بَايَعَ
لِابْنِ هُوْدٍ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ عِنْدَ وَصُولِ تَقْلِيدِ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَغْدَادَ لِابْنِ هُوْدٍ . ثُمَّ
تَغَلَّبَ عَلَى إِشْبِيلِيَّةَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِينَ ، وَاسْتَعِيدَتْ مِنْهُ بَعْدَ شَهْرٍ وَرَجَعَتْ لِابْنِ هُوْدٍ

(١) [ثم تغلب] على غرناطة سنة خمس وثلاثين، وبأيعوه وهو بجيان، فقدم إليها ونزلها وأبنتى بها حصن الحمراء منزلاً له، وهو المعبر عنه بالقصبة الحمراء: وهي القلعة، ثم تغلب على مالقة وأخذها من يد عبد الله بن زنون الناصر بها بعد مهلك ابن هود، ثم أخذ المريّة من يد محمد بن الرميي وزير ابن هود الناصر بها سنة ثلاث وأربعين. ثم بايعه أهل لورقة سنة ثلاث وستين [وأنترعها] من كانت بيده. وفي أيامه وأيام ابن هود الناصر استعاد العدو المخذول من المسلمين أكثر بلاد الأندلس وحصونه، وهي بيدهم إلى الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبقي حتى مات سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وقام بأمره من بعده ابنه الفقيه (محمد) ابن الشيخ محمد بن يوسف، وأستجاش بنى مرين ملوك المغرب على أهل الكفر فلبّوه بالإجابة، وكان لهم مع طاغية الكفر وقائع أبلفت فيهم التأثير، وبلغت فيهم حد النكابة، وبقي حتى هلك سنة إحدى وسبعائة.

وولي من بعده ابنه (محمد المخلوع) ابن محمد الفقيه.

ثم غلب عليه أخوه (أبو الجيوش نصر بن محمد) الفقيه، وأعتقله سنة ثمان وسبعائة، وأستولى على مملكته، فأساء السيرة في الرعية، والصحبة لمن عنده من غزاة بنى مرين.

فبايعوا (أبا الوليد إسماعيل) ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ابن نصر، وزحف من مالقة إلى غرناطة، فهزم عساكر أبي الجيوش، فصالحه على الخروج إلى واديّاش ولحق بها، فجدد له بها ملكاً إلى أن مات سنة ثنتين وعشرين

(١) وسبعائة ، فدخل أبو الوليد إلى غرناطة وملكها ، وكان بينه وبين ملك قشتالة من ملوك النصارى واقعة بظاهر غرناطة ظهرت فيها معجزة من معجزات الدين لغلبة المسلمين مع قتلهم المشركين مع العدد الكثير ، وغدر به بعض قرابته من بنى نصر فطعنه عند ما انفض مجلسه بباب داره فقتله .

وبويع لابنه (محمد بن أبي الوليد إسماعيل) فاستولى عليه وزيره محمد بن المحروق ، وغلب عليه حتى قتله بمجلسه غدا في سنة تسع وعشرين وسبعائة ، وأستبد بأمر ملكه ، وأستجاش بني مرسين على طاعة الكفر حتى أسترجع جبل الفتح من أيديهم سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة ، وغدروا به بعد رجوعه من الجبل المذكور إلى غرناطة فقتلوه بالرماح .

وقدموا مكانه أخاه (أبا المجاج يوسف) بن أبي الوليد إسماعيل وهو الذى ذكر فى التعريف أنه كان فى زمانه . وفى أيامه تغلب النصارى على الجزيرة الخضراء ، وأخذوها صلحا سنة ثلاث وأربعين بعد حروب عظيمة ، قُتل ولد السلطان أبى الحسن المرينى فى بعضها وكان هو بنفسه فى بعضها . ولم يزل حتى مات يوم الفطر سنة خمس وخمسين وسبعائة ، طعن فى سجوده فى صلاة العيد ، وقُتل للبحر قاتله .

وولى مكانه ابنه (محمد بن يوسف) وقام بأمره مولاهم رضوان الحاجب [فغلبه عليه وحجبه . وكان أخوه إسماعيل ببعض قصور الحمراء وكانت له ذمة وصهر من محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبى سعيد ، فسلط محمد هذا بعض الزعانة فتسور حصن الحمراء على الحاجب فقتله ، وأخرج صهره إسماعيل ونصبه

(١) للملك [وخلع أخاه السلطان محمداً ، وكان بروضة خارج الحمراء ففر إلى السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المريني : ملك المغرب فأحسن نزلهُ وأكرمه .

وَأَسْتَقِلَّ أَخُوهُ (إِسْمَاعِيلُ بْنُ يُوسُفَ) بِالْمُلْكِ فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ قَدْرُهُ ، سَنَةِ سِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَأَقَامَ السُّلْطَانُ إِسْمَاعِيلَ فِي الْمُلْكِ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَى أَنْ مَاتَ أَوَّلَ سَنَةِ ثَلَاثَ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

(٢) وَوَقَّيْمَ مَكَانَهُ أَبُو الْحَجَّاجِ (يُوسُفُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ) وَبَايَعَهُ النَّاسُ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعَ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

وبويع ابنه (محمداً) وهو محمد بن يوسف بن محمد الخلويع بن يوسف بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ، وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من جماعة أبيه ، وقد شغل الله طاغية الكفر بما وقع بينه وبين أخيه من الفتن المستأصلة ، فامتنع صاحب الأندلس عما كان يؤديه من الإتاوة للنصارى في كل سنة ، وامتنع ذلك من استقبال سنة ثنتين وسبعين وسبعمئة وإلى هذا الوقت . ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ .



وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا أَقْتَتَحَ الْمَسَامُونُ الْأَنْدَلُسَ ، أَجْفَلَتْ أُمُّ النُّصْرَانِيَةِ أَمَامَهُمْ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ الْجَوْفِ ، وَتَجَاوَزُوا الدُّرُوبَ مِنْ وَرَاءِ قَشْنَالَةٍ ، وَاجْتَمَعُوا بِجَلْقِيَّةٍ وَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ (بَلَايَةَ بْنِ قَاظِلَةَ) فَأَقَامَ فِي الْمُلْكِ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَهَلَكَ سَنَةَ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ .

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٧٤ باختصار ليستقيم الكلام . وفي القطعة الأزرهية ... رضوان صاحب أبيه وعمه فأقام خمس سنين ، ثم داخل أخوه إسماعيل من قتل رضوان الحاجب وخلع الخ (٢) لعله يوسف بن محمد كما يؤخذ من اسم ولده الآتي .

ووليَّ ابنُه (قائلة) سنين ثم هلك ، فولَّوا عليهم بعده (أدفونش بن بطرة) من الجلالقة أوالقُوط ، وأتصل الملك في عقبه إلى الآن ، فجمعهم أدفونش المذكور على حامية ما بقي من أرضهم بعد ممالك المسلمين عامتها ، وأتَّهوا إلى جليقية ، وهلك سنة ثنتين وأربعين ومائة ثمان عشرة سنة من ملكه .

وولي بعده ابنُه (فرويلة) إحدى عشرة سنة قوَّى فيها سلطانه ، وقارنه اشتغال « عبد الرحمن الداخل » : أول خلفاء بني أمية بتمهيد أمره ، فاسترجع مدينة لك ، وبرتقال ، وسمورة ، وسامنقة ، وشقوبية ، وقشتالة ، بعد أن فتحها المسلمون وصارت في ملكتهم ، وهلك سنة ثنتين وخمسين .

ووليَّ ابنُه (أور بن فرويلة) ست سنين ، وهلك سنة ثمان وخمسين .
ووليَّ ابنُه (شبلون) عشر سنين ، وهلك سنة ثمان وستين .
فولَّوا من بني أدفونش مكانه رجلا اسمه (أدفونش) فوثب عليه (مورفاط) فقتله وملك مكانه سبع سنين .

ثم ولي منهم آخر اسمه (أدفونش) ثنتين وخمسين سنة ، وهلك سنة سبع وعشرين ومائتين .

فوليَّ ابنُه (ردمير) وأتصل الملك في عقبه على التوالي إلى أن ولي منهم (ردمير) بن أردون آخر ملوكهم المستبدين بأمرهم . قال ابن حيان : في " تاريخ الأندلس " : وكانت ولايته بعد ترهب أخيه أدفونش الملك قبله ، وذلك سنة تسع عشرة وثلثمائة في زمن الناصر الأموي الخليفة بالأندلس ، وتنبأ للناصر الظهور عليه إلى أن كانت وقعة الحندق سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وحصل للمسلمين فيها الابتلاء العظيم ، وهلك ردمير سنة تسع وثلاثين وثلثمائة .

وولي أخوه (شانجة) وكان مُعجبا بتيارها فوهن مُلكه ، وَضعف سلطانه ، ووثب عليه قَوَامِسُ دَوْلته - وهم ولاةُ الأعمال من قِبَل الملك الأعظم - فلم يَنْتِظِمُ لِنِي أدفونش بعدها مُلكٌ مُستَقِلٌ في الجَلَالَةِ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ ، وصاروا كَجُوكِ الطوائف . قال ابن حيان : وذلك أن فُرْدُلَنْدَ قَوْمَسُ أَلِيَّةَ وَالِقِلَاعِ - وكان أعظم القَوَامِسِ - أُنْتَقِضَ عَلَى شَانِجَةِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ ، وَنَصَّبَ لِلْمَلِكِ مَكَانَهُ ابْنُ عَمِّهِ (أردون بن أدفونش) وَأَسْتَبَدَّ عَلَيْهِ ، فَالَتِ النُصْرَانِيَّةُ عَنْ شَانِجَةِ إِلَيْهِ ، وَظَاهَرَهُمْ مَلِكُ الْبَشْكَنِسِ عَلَى شَانِجَةِ ، وَوَفَدَ شَانِجَةُ عَلَى النَّاصِرِ الْأُمَوِيِّ بِقُرْطُبَةِ صَرِيحًا ، بِفَهْرٍ مَعَهُ عَسَاكِرَ وَأَسْتَوَلَى عَلَى سَمُورَةَ فَلَمَكَهَا وَأَنْزَلَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا ، وَأَتَصَلَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَ شَانِجَةِ وَفُرْدُلَنْدَ الْقَوْمَسِ . وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ وَلِيَ الْحَكَمَ الْمُسْتَنْصِرُ الْأُمَوِيُّ ، ثُمَّ هَلَكَ شَانِجَةُ بْنُ أَدْفُونَشَ بِبَطْلَيْوَسَ .

وَقَامَ بِأَمْرِهِمْ بَعْدَهُ ابْنُهُ (رَدْمِير) وَهَلَكَ أَيْضًا فُرْدُلَنْدَ قَوْمَسُ أَلِيَّةَ وَالِقِلَاعِ ، وَقَامَ بِأَمْرِهِ بَعْدَهُ ابْنُهُ غَرِيْسَةُ ، وَمَاتَ الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ فَقَوَّى سُلْطَانُ رَدْمِير ، وَعَظُمَتْ نِكَايَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ قَبِضَ اللَّهُ لَهُمُ الْمَنْصُورَ بْنَ أَبِي عَاصِرٍ حَاجِبَ هِشَامَ ، فَأَتَحْنُ فِي عَمَلِ رَدْمِيرِ وَغَزَاهُ مَرَارًا وَحَاصِرَهُ ، وَأَفْتَتَحَ (سَنْتَ مَانَكْسَ) وَخَرَّبَهَا فَتَشَاءَمَتِ الْجَلَالَةُ بِرَدْمِيرٍ ، وَرَجَعَ إِلَى طَاعَةِ الْمَنْصُورِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثًا ، وَهَلَكَ عَلَى أَثَرِهَا ، فَأَطَاعَتْ أُمَّهُ .

وَأَتَفَقَتِ الْجَلَالَةُ عَلَى (بُرْمَنْدَ بْنَ أَرْدُونِ) فَعَقَدَ لَهُ الْمَنْصُورُ عَلَى سَمُورَةَ وَلِيُونَ وَمَا أَتَصَلَ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالٍ غَلِيْسِيَّةٍ إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ فَقَبِلَ ، ثُمَّ أُنْتَقِضَ فِغْزَاهُ الْمَنْصُورُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثًا ، فَافْتَتَحَ لِيُونَ وَسَمُورَةَ ، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهَا لِلْجَلَالَةِ

(١) جمع قومس وهو الأمير .

(٢) أى ردمير كما يؤخذ من عبارة العبري ج ٤ ص ١٨١ .

إلا حُصُونٌ يسيرة بالجبل الحاجر بينهم وبين البحر الأخضر ، ولم يزل المنصورُ به حتى ضرب عليه الحزِيَّةَ وأنزل المسلمين مدينة سَمُورَةَ سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وولى عليها أبا الأَحْوَصَ (مَعْنَى بن عبد العزيز) التَّجِيبِيَّ ، وسار إلى (غرسية بن فُردُلُنْد) صاحب أَلِيَّةَ فملك عليه لَشُبُونَةَ قاعدة غليسية وخرَّبها ، وهلك غرسية .

فولى أبنه (شانجة) فضرب عليه الحزِيَّةَ ، وصارت الجَلَالَةُ بأجمعهم في طاعة المنصور وهم كالعُمَلَاءِ له . ثم آتَقَضَ برمند بن أردون فقزاه المنصور حتى بلغ شَتَّ يَأْقَبَ ، مكان حَجِّ النصارى ومدَفَنَ يعقوب الخوَارِيَّ من أَقْصَى غليسية ، فأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قُرْطُبَةَ ، فجعلها في نصف الزيادة التي أضافها إلى المسجد الأعظم . ثم أَفْتَتَحَ قاعدتهم (شَتَمَرِيَّةَ) سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، ثم هلك برمند بن أردون ملك بني أدفونش .

وولى أبنه (أدفونش) وهو سبط غرسية بن فُردُلُنْد صاحب أَلِيَّةَ ، وكان صغيرا فكفله (منند بن غند شلب) قومس غليسية ، إلى أن قُتِلَ منند غيلة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة فاستقلَّ أدفونش بأمره ، وطلب القَوَامِيسَ المتعذِّرين على أبيه وعلى مَنْ سلف من قومه مثل بني أرغومس وبني فُردُلُنْد المتقدم ذكرهم بالطاعة فأتاعوا ودخلوا تحت أمره . ثم جاءت الفتنَةُ البربريَّةُ على رأس المائة الرابعة فَضَعُفَ أمرُ المسلمين ، وتغلب النصارى على ما كان المنصور تغلب عليه بقشتالة وجَلِيْقِيَّةَ ، ولم يزل أدفونش بن برمند مَلِكًا على جَلِيْقِيَّةَ وأعمالها . ثم كان المَلِكُ من بعده في عَقْبِهِ إلى أن كان ملوك الطوائف ، وتغلب المُرَابِطُونَ ملوك الغرب من لَمْتُونَةَ على ملوك الطوائف بالأندلس ، على ما سيأتى في الكلام على مكتبة ابن الأحمر ملك المسلمين بالأندلس .

وفي بعض التواريخ أن ملك قشتالة الذي ضرب الجزية على ملوك الطوائف في سني خمسين وأربعمائة هو (البيطيين) وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فردلند ، وغرسية ، وردمير . وولى أمرهم (فردلند) ثم هلك ، وخلف شانجة وغرسية والفنش فتنازعوا ، ثم خلاص الملك للفنش ، وأستولى على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وعلى بلنسية سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، ثم أرتجعها المرابطون من يده حتى أستعادها النصارى سنة ست وثلاثين وستمائة . وهلك الفنش سنة إحدى وخمسمائة .

وقام بأمر الجلالقة (بنه) ^(١) وتزوجت ردمير ، ثم فارقت وتزوجت بعده قطا من اقماطها فأنت منه بولد كانوا يسمونه (السليطين) . وأوقع ابن ردمير بـابن هود سنة ثلاث وخمسمائة الواقعة التي أستشهد فيها ، وملك منه سرقسطة .

وفي بعض التواريخ أن أمر النصارى في زمن المنصور أبي يعقوب ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن كان دائرا بين ثلاثة من ملوكهم الفنش ، واليبوح ، وابن الزند ، وكبيرهم الفنش .

ولما فشت ريح بني عبد المؤمن في زمن المستنصر بن الناصر ، أستولى الفنش على جميع ما فتحه المسلمون من معقل الأندلس ، ثم هلك الفنش .

وولى ابنه (هراندة) وكان أحول وبذلك يلقب ، فارتجع قرطبة وإشبيلية من أيدي المسلمين .

وزحف ملك أرغون في زمنه فاستولى على ماردة ، وشاطبة ، ودانية ، وبلنسية ، وسرقسطة ، والزهاء ، والزاهرة ، وسائر القواعد والثغور الشرقية ، وأحاز المسلمون

(١) في العبرج ٤ ص ١٨٢ "زوجته" .

إلى سيف البحر ، وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولاية ابن هود . وكان استرجاع الطاغية ماردة سنة ست وعشرين وستمائة ، وميوزقة سنة سبع وعشرين ، وبلنسية سنة ست وثلاثين ، وسرقسطة وشاطبة قبل ذلك بزمان طويل . ثم هلك هيراندة ، وولي ابنه [شانجة] ^(١) ثم هلك [سنة ثلاث وتسعين] ^(١) .

وولي ابنه (هيراندة) وكان بينه وبين عساكر يعقوب بن عبد الحق : سلطان الغرب الواصلة إلى الأندلس حروب متصلة ، القلب فيها لعساكر ابن عبد الحق ، ثم خرج على هيراندة هذا ابنه (شانجة) فوفد هيراندة على السلطان يعقوب بن عبد الحق فقبل يده ، وأستجاشه على ولده شانجة ، فقبل وفادته ، وأمده بالمال والعساكر ، ورهن عنده على المال التاج المعروف من ذخائر سلفهم ، فهو عند بني عبد الحق إلى الآن .

ثم هلك هيراندة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وأستقل ابنه (شانجة) بالملك ، ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب بن عبد الحق وعقد معه الهدنة ، ثم نقض وأستولى على مدينة طريف سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، ثم هلك سنة ثلث عشرة وسبعائة .

فولي ابنه (بطرة) صغيرا ، وكفله عمه جوان وهلكا جميعا على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعائة .

فولي ابنه (الهنشة بن بطرة) صغيرا وكفله زعماء دولته ، ثم آستقل بأمره وهلك محاصرا جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعائة في الطاعون الجارف .

(١) الزيادة من العبرج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) في العبرج ٤ ص ١٨٣ "ثلاث وثمانين" .

ووليّ (أبْنُه بطرة) وفرّ أبْنُه القمط إلى برشأونة فاستجاش صاحبها على أخيه بطرة فأجابه ، وزحف إليه بطرة فاستولى على كثير من بلاده ، ثم كان الغلب للقمط سنة ثمان وستين وسبعائة ، واستولى على بلاد قشتالة ، وزحفت إليهم أمم النصرانية ، ولحق بطرة بأمم الفرنج الذين وراء قشتالة في الجوف بجهات الليمانية وبرطانية إلى ساحل البحر الأخضر وجزائره فروّج بنته من ابن ملكهم الأعظم المعروف بالبسن غالس ، وأمدّه بأمم لأخصى فملك قشتالة والقرنتيرة ، واتصلت الحرب بعد ذلك بين بطرة وأخيه القمط ، إلى أن غلبه القمط وقتله سنة ثنتين وسبعين وسبعائة ، واستولى القمط على ملك بني أدفونش أجمعه ، واستقام له أمر قشتالة ، ونازعه البسن غالس ملك الإفرنجية بأبنه الذي هو من بنت بطرة ، وطلب له الملك على عادتهم في تملك ابن البنت ، واتصلت الحرب بينهما ، وشغله ذلك عن المسلمين فامتنعوا عن أداء الإتاوة التي كانوا يؤدونها إلى من كان قبله ، وهلك القمط سنة إحدى وثمانين وسبعائة .

فوليّ أبْنُه (دُنْ جُوان) وفرّ أخوه غريس ولحق بالبرتغال ، واستجاش على أخيه بمجموع كثيرة ، ثم رجع إليه وأصطلح عليه ، ثم هلك دُنْ جُوان سنة إحدى وتسعين وسبعائة ، ونصب قومه في الملك أبْنُه بطرة صبيا صغيرا لم يبلغ الحلم وقام بكفالاته وتدير دولته اليركيش خال جدّه القمط بن المنشيه والأمر على ذلك إلى الآن ، وقتنهم مع البسن غالس ومع الفرنج متصلة ، وأيديهم عن المسلمين مكفوفة ((والله من وراءهم محيط)) .

قلت : والممالك القائمة بجزيرة الأندلس الآن من ممالك النصرانية أربع ممالك .

المملكة الأولى

(مملكة قشتالة)

التي عليها سياقة الحديث إلى أن صارت إلى بطرة بن دُن جُوان المتقدم ذكره .
وهي مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طيطة ، واشبيلية ، وقشتالة ،
وغليسية والقرنيرة وهي بسط من الغرب إلى الشرق ويقال للملكها الأدفونس والعامه
تسميه الفنش .

المملكة الثانية

(مملكة البرتغال)

وهي في الجانب الغربي من قشتالة ، وهي عمالة صغيرة تشتمل على أشبونة وغرب
الأندلس ، وهي الآن من أعمال جليقية ، إلا أن صاحبها مميّز بسمته ومملكه .

المملكة الثالثة

(مملكة برشلونة)

وهي بجهة شرق الأندلس ، وهي مملكة كبيرة ، وعمالات واسعة ، تشتمل على
برشلونة ، وأرغون ، وشاطبة ، وسرقسطة ، وبلنسية ، وجزيرة دانية ، وميورقة ،
وكان ملكهم بعد العشرين والسبعائة اسمه بطرة وطال عمره ، وهلك سنة سبع
وثمانين وسبعائة ، وأنفرد أخوه الدك بملك سرقسطة مقاسماً لأخيه ثم سار بعد ذلك
في أسطول فلك جزيرة صقلية من أيدي أهلها وصارت داخلة في أعمالهم .

المملكة الرابعة

(مملكة نبرة مما يلي قشتالة من جهة الشرق ، فاصلاً بين عمالات

ملك قشتالة وعمالات ملك برشلونة)

وهي عمالة صغيرة ، وقاعدتها مدينة إينبلونة ، وملكها ملك البشكنس . أما ما وراء
الأندلس من الفرنج فأهم لا تحصى ، وسيأتى الكلام على ذكر ملكهم الأكبر
ريدفرنس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(في ترتيب هذه المملكة)

أما مملكة المسلمين فلا يخفى أنها في معنى بلاد المغرب . [وفي كثير من الأوقات
يملكهم ملوك المغرب الأقصى ، فبالضرورة إن ترتيبهم جار على ترتيب بلاد الغرب ^(١) .
وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن أهل الأندلس في الجملة لا يتعممون ، بل
يتعمدون شعورهم بالتنظيف والحناء ما لم يغلب الشيب ؛ ويتطيلسون فيلقون
الطيلسان على الكتيف أو الكتيفين مطوياً طياً ظريفاً [والمتعمم فيهم قليل ^(١)] ،
ويلبسون الثياب الرفيعة الملقونة من الصوف والكأن ونحو ذلك ، وأكثر لباسهم
في الشتاء الجوخ وفي الصيف البياض . قال : وأرزاق الجند به ذهب بحسب
مراتبهم ، وأكثرهم من برّ العدو من بنى مرين وبنى عبد الواد وغيرهم .
والسلطان مسكنه القصور الرفيعة ، ويقعد السلطان للناس بدار العدل في مكان
يعرف بالسبيكة من القصبية الحمراء التي هي القلعة يوم الاثنين ويوم الخميس

(١) الزيادة من القطعة الأثرية .

صباحاً ، ويحضر معه المجلس الرؤساء من أقاربه ونحوهم ، ويُقرأ مجلسه عشر من القرآن وشيء من الحديث النبوي ، يأخذ الوزير القصص من الناس فتقرأ عليه .
وأما الحرب فإنهم فيها سجال : تارة لهم وتارة عليهم ، والنصر في الأغلب للمسلمين على قتلهم وكثرة عدوهم بقوة الله تعالى . وبالبلاد البحرية أسطول الحراريق المفترق في البحر الشامي ، يركبها الأتجاد من الرماة والرؤساء المهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون في الغالب ، ويُغيرون على بلاد النصارى بالساحل وما هو بقربه فيأسرون أهلها ذكورهم وإناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين ، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويهدي ويبيع .

وقد كانت لهم وقعة في الإفرنج سنة تسع عشرة وسبعائة على مرج غرناطة قتل فيها من الإفرنج أكثر من ستين ألفاً ومليكان : هما بطرة وجوان عمه فقُتِلت جيفة جوان بأموال عظيمة ، وحملت جثة بطرة إلى غرناطة ، فعلقَت على باب قلعتها في تابوت ، واستمرت معلقةً هناك ، وحاز المسلمون غنيمةً من أموالهم قلما يُذكر مثلها في تاريخ ، ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ .

وقد تقدّم في المقالة الأولى في الكلام على النوع الرابع مما يحتاج إليه الكاتب : وهو حفظ كتاب الله تعالى : أن بعض ملوك الفرنج كتب إلى ابن الأحمر : صاحب غرناطة كتاباً يهدده فيه ، فكان جوابه أن قلبه وكتب على ظهره ﴿ارجع إليهم فلنأينهم بخنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ .

وأما ملوك الفرنج به فعلى ترتيب سائر ممالك الفرنج مما هو غير معلوم لنا .

الفصل الثالث

من المقالة الثانية

في الجهة الجنوبيّة عن مملكة الديار المصرية : من مصر والشام والحجاز ،
ومضافاتها مما هو واقع في الثاني والثالث والرابع من الأقاليم السبعة)
اعلم أنه قد دخل في جهتي الشرق والغرب المتقدمتين ذكرًا ما كنّ مما هو في جهة
الجنوب عن مملكة الديار المصرية ومضافاتها ، أنساق الكلام إليها استطرادا
واستنباعا : كأطراف اليمن ، والهند ، والصين الجنوبيّة الخارجة عن الإقليم الثاني
إلى جهة الجنوب مما استتبعته ممالك الشرق ، والمقصود الآن الكلام على ما عدا
ذلك ، وهو بلاد السودان .

وهي بلاد متسعة الأرجاء ، رَحْبَة الجَوَاب ، حدّها من الغرب البحر المحيطُ
الغربيّ ؛ ومن الجنوب الحَرَاب مما يلي خطّ الاستواء ؛ ومن [الشرق] بحر القلزم
مما يُقابل بلاد اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرق بلاد الزنج في جنوبيّ البحر
الهنديّ ؛ ومن الشمال البراريّ الممتدة فيما بين الديار المصرية وأرض بركة ، وبلاد
البربر ، من جنوبيّ المغرب إلى البحر المحيط .
والمشهور منها ست ممالك :

المملكة الأولى

(بلاد البجا)

والبجا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر . وهم من أقصى السودان
لونا . قال ابن سعيد : وهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان ؛ ومواطنهم

في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق، فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل، على القُرب من الديار المصرية .

وقاعدتهم (سَوَاكُنْ) بفتح السين المهملة والواو وكسر الكاف ونون في الآخر . قال في ” تقويم البلدان “ في الكلام على بحر القلزم : وهي بليدة للسودان، حيث الطول ثمان وخمسون درجة، والعرض إحدى وعشرون درجة .

قلت وقد أخبرني من رآها أنها جزيرة على طرف بحر القلزم من جهته الغربية قريبة من البريسكنها التجار. وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحدارية - بالحاء والdal المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر، وله مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ويقال في تعريفه الحُدُرِيّ بضم الحاء وسكون الدال وضم الراء، على ماسياتى ذكره في الكلام على المكتبات في المقالة الرابعة فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

وقد عُدَّ في ” تقويم البلدان “ من مُدُنُ البَجَا (العَلَّاقِي) بفتح العين المهملة واللام المشددة ثم ألف وقاف مكسورة ثم ياء مشناة من تحت . من آخر الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في ” الأطوال “ : حيثُ الطول ثمان وخمسون درجة، والعرض ست وعشرون درجة . قال في ” تقويم البلدان “ : وهي بالقُرب من بحر القلزم ، ولها مَغَاصٌ ليس بالجيد، ويجلبها مِدُنٌ ذهب ، يتَحَصَّلُ منه بقدر ما يُنْفَقُ في استخراجه . قال المهلبى : إذا أخذت من أسوان في سمت المشرق تصل إلى العَلَّاقِي بعد اثنتى عشرة مرحلة . قال : وبين العَلَّاقِي وعِيدَاب ثمان مراحل ومن العَلَّاقِي يُدْخَلُ إلى بلاد البَجَا .

المملكة الثانية

(بلاد النوبة)

بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وهاء في الآخر . ولون بعضهم يميل إلى الصفاء ، وبعضهم شديد السواد . قال في "مسالك الأبصار" : وبلادهم مما يلي مصر في نهاية جنوبيها مما يلي المغرب على ضفتي النيل الجارى إلى مصر . قال في "تقويم البلدان" في الكلام على الجانب الجنوبي : وبينها وبين بلاد النوبة جبال منبجة .

وقاعدتها مدينة (دقّة) . قال في "تقويم البلدان" : الظاهر أنها بضم الدال المهملة وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء في الآخر . وما قاله هو الجارى على السنة أهل الديار المصرية ، ورأيها في "الروض المعطار" مكتوبة (دمقّة) ببدال النون ميما ، مضبوطة بفتح الدال ، وباقي الضبط على ما تقدم . وأنشد بيت شعر شاهدا لذلك . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق ، والعرض أربع عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة . قال : وفي جنوبيها وغربيها مجالات زنج النوبة الذين قاعدتهم (كوشة) خلف الخط ، وفي غربي دقّة وشمالها مدنها المذكورة في الكتب . قال الإدريسي : وهي في غربي النيل على ضفته وشرب أهلها منه . قال : وأهلها سودان لكنهم أحسن السودان وجوهاً ، وأجلهم شكلاً ، وطعامهم الشعير والذرة والتمر يجلب إليهم ، واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل : طرية ومقددة ، ومطبوخة .^(١) وفي بلادهم القبيلة ، والزرايف ، والغزلان .

(١) في التقويم "ومطحونة" وهو تصحيف .

قال في "مسالك الأبصار" : ومِنْهَا أَشْبَهُ بِالْقَرْيِ وَالضِّيَاعِ مِنَ الْمَدْنِ ، قَلِيلَةٌ الْخَيْرِ وَالْخِصْبِ ، يَابِسَةُ الْهَوَاءِ . قال : وَحَدَّثَنِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ دَخَلَ النُّوبَةَ : أَنَّ مَدِينَةَ دَنْقَلَةَ مُمْتَدَّةٌ عَلَى النَّيْلِ ، وَأَهْلُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ الْعَيْشِ ، وَالْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ قَائِلَةٌ إِلَّا الدُّرَّةَ ، وَإِنَّمَا تَكُنُّ عِنْدَهُمُ الْخَوْمُ وَالْأَبَانُ وَالسَّمَكُ . وَأَخْشَرُ أَطِيعَتِهِمْ أَنَّ تُطَيِّخَ اللَّوْبِيَا فِي مَرَقِ اللَّحْمِ ، وَيُثْرَدُ وَيُصَفِّ اللَّحْمُ وَاللُّوبِيَا عَلَى وَجْهِ الثَّرِيدِ . وَرَبَّمَا عَمِلَتِ اللَّوْبِيَا بَوْرَقَهَا وَعُرُوقَهَا . قال : وَلَهُمْ أَنَّهُمَا عَلَى الشُّكْرِ بِالْمِزْرِ وَمِثْلٍ عَظِيمٍ إِلَى الطَّرَبِ .

ولما خاف بنو أيوبَ نورَ الدين الشهيد صاحبَ الشامِ على أنْفُسِهِمْ حِينَ هَمَّ بِقَصْدِهِمْ ، بَعَثَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ أَخَاهُ شَمْسَ الدَّوْلَةِ إِلَى (النُّوبَةِ) لِيَأْخُذَهَا لِتَكُونَ مَوْثِقًا لَهُمْ إِذَا قَصَدَهُمْ ، فَرَأَوْهَا لَا تَصْلُحُ لِمَثَلِهِمْ ، فَعَدَلُوا إِلَى الْيَمَنِ وَأَسْتَوَلُوا عَلَيْهَا ، وَجَعَلُوهَا كَالْمَعْقِلِ لَهُمْ . قال ابنُ سَعِيدٍ : وَدَيْنُ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ النَّصْرَانِيَّةُ . قال في "مسالك الأبصار" : وَمِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ نَجْمٌ "لَقْمَانُ الْحَكِيمِ" ثُمَّ سَكَنَ مَدِينَةَ أَيْلَةَ ، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ . وَمِنْهَا أَيْضًا "دُو النَّوْنِ الْمِصْرِيُّ" الزَّاهِدُ الْمَشْهُورُ ، وَإِنَّمَا سَمِيَ الْمِصْرِيُّ لِأَنَّهُ سَكَنَ مِصْرَ فَنُسِبَ إِلَيْهَا . وَكَانَ مَلُوكُهَا فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ وَسَاءَ أَهْلُهَا عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، فَلَمَّا فَتَحَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِصْرَ غَزَاهُمْ . قال في "الروض المِعْطَارِ" : فَرَأَاهُمْ يَرُونِ الْحَدَقَ بِالنَّيْلِ ، فَكَفَّ عَنْهُمْ ، وَقَرَّرَ عَلَيْهِمْ إِيَّائِهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ . قال صاحبُ "العبر" : وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى مَلُوكُ مِصْرَ بَعْدَهُ ، وَرَبَّمَا كَانُوا يَمْتَاطُونَ بِذَلِكَ وَيَمْتَنِعُونَ مِنْ أَذَاهُ ، فَغَزَوْهُمْ عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى يُطِيعُوا ، إِلَى أَنْ كَانَ مُلْكُهُمْ فِي أَيَّامِ الظَّاهِرِ سَيِّئًا رَحِمَهُ اللَّهُ ، رَجُلًا اسْمُهُ (مَرْفَشْتَكُز) وَكَانَ لَهُ ابْنٌ اسْمُهُ (دَاوُد) فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَاتَّرَعَ الْمَلِكُ مِنْ يَدِهِ ، وَأَسْتَفْجَلَ مُلْكُهُمَا ، وَتَجَاوَزَ حُدُودَ مُلْكِهِ قَرِيبَ (أُسْوَان) مِنْ آخِرِ صَعِيدِ

الديار المصرية ؛ فقدم (مرقشكز) المذكور على الظاهر ببرس بالديار المصرية ،
وأستنجده على ابن أخيه (داود) المذكور ؛ فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة ،
فانهزم (داود) ولحق بمملكة الأبواب من بلاد السودان ، فقبض عليه ملكها
وبعث به مقيدا إلى الظاهر ببرس ؛ فاعتقل بالقلعة حتى مات ؛ وأستقر (مرقشكز)
في ملك النوبة على جزية يؤديها في كل سنة ، إلى أن كانت دولة المنصور (قلاوون)
ثم أستقر بمملكة دنقلة في الدولة المنصورية (قلاوون) رجل اسمه سيماون وغزته
عساكر قلاوون سنة ثمانين وسبعمائة .

ثم ملكهم في أيام الناصر "محمد بن قلاوون" رجل اسمه (أحى) وبقي حتى توفي
سنة ست عشرة وسبعمائة .

وملك بعده دنقلة أخوه (كرنيس) .

ثم خرج من بيت الملك منهم رجل اسمه (نشلي) فهاجر إلى مصر ، وأسلم وحسن
إسلامه ، وأقام بمصر بالأبواب السلطانية ، وأجرى عليه السلطان الملك الناصر
رزقا ، ولم يزل حتى أمتنع (كرنيس) من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعمائة ،
فجهز إليه السلطان العساكر مع نشلي المقدم ذكره ، وقد تسمى عبد الله ففتر كرنيس
إلى بلاد الأبواب ، فاستقر (عبد الله نشلي) في ملك دنقلة على دين الإسلام ،
ورجعت العساكر إلى مصر ، وبعث الملك الناصر إلى ملك الأبواب في أمر كرنيس
فبعث به إليه ، فأسلم وأقام بباب السلطان ، وبقي نشلي في الملك حتى قتله أهل
ملكته سنة سبع عشرة وسبعمائة ، فبعث السلطان كرنيس إليهم فملكهم وأنقطعت
الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم . قال في "العبر" : ثم أنتشرت أحياء جهينة
من العرب في بلادهم وأستوطنوها ، وعاثوا فسادا ؛ وعجز ملوك النوبة عن مدافعتهم ،

فصاهروهم مصانعةً لهم ، وتفرق بسبب ذلك مُلكُهم حتى صار لبعض جُهينة من أمهاتهم على رأى العجم فى تملك الأخت وابن الأخت ، فتمزق مُلكُهم واستولت جُهينة على بلادهم ، ولم يُحسنوا سياسة المُلك ، ولم ينقذ بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعاً ولم يبقَ لهم رسم مُلك ، وصاروا رحالة بادية على عادة العرب إلى هذا الزمان .

وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن ملكها الآن مُسلم من أولاد (كتر الدولة) قال : وأولاد الكتر هؤلاء أهل بيتٍ ثارت لهم ثوائرٌ مرّات . فيحتمل أن أولاد الكتر من جُهينة أيضاً جمعاً بين المقاتلين .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن سلطانهم كواحد من العاقبة ، وأنه يؤوى الغرباء إلى جامع دُنقلة فيُرسل إليهم ، فيأتونه فيُضيفهم ويُنعِم عليهم هو وأمراؤه ، وأن غالب عطائهم الدّكاديك : وهى أكسيةٌ غلاظ غالبها سود . وربما أعطوا عبداً أوجاريةً .

(وقد ذكر فى "الروض المعطار" : أن عمرو بن العاص رضى الله عنه قصد قتال النوبة فراهم يرمون الحندق بالنبل فكف عنهم ، وقدر عليهم إتاوة من الرقيق (١) فى كل سنة) ، ولم تزل ملوك مصر تأخذ منهم هذه الإتاوة فى أكثر الأوقات حتى ذكر فى "مسالك الأبصار" أنه كان عليهم فى زمنه مُقرّرٌ لصاحب مصر فى كل سنة من العبيد ، والإماء ، والحِرَاب ، والوحوش النوبة -

قلت : أمّا الآن فقد انقطع ذلك . (وربك يخلق ما يشاء ويختار) .

(١) هذه الجملة مضرب عليها فى القطعة الأزهرية إشارة الى الاستغناء عنها .

المملكة الثالثة

(بلاد البرنو)

وبلاد البرنو - بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو .
 وهم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد قال في " التعريف " : وبلاده تحُدُّ بلاد
 التَّكُّور من الشرق ، ثم يكون حدّها من الشّمال بلادَ أفريقيّةٍ ، ومن الجنوب المَمَج .
 وقاعدتهم مدينة (كَا كَا) بكناين بعد كلّ منهما ألف فيما ذكر لي رسولُ سلطانهم
 الواصلُ إلى الديار المصرية صحبةَ الحجيج في الدولة الظاهرية (برقوق) . وقد
 تعرّض إليها في " مسالك الأبصار " في تحديد مملكة ماليّ على ما يأتي ذكره
 إن شاء الله تعالى .

ومن مدنها أيضا مدينة (كُنْسِكِي) بكاف مضمومة وناء مثناة فوقية ساكنة
 ونون مكسورة وسين مهملة ساكنة وكاف مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية . وهي
 شرقيّ (كَا كَا) على مسيرة يوم واحدٍ منها .

قلت : وقد وصل كتاب ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر
 فيه أنه من ذرية " سيف بن ذي يزن " إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من
 قريش وهو غلط منهم فان " سيف بن ذي يزن " من أعقاب تبابعة الين من حمير .
 على ما يأتي ذكره في الكلام على المكتّبات ، في المقالة الرابعة فيما بعد ، إن شاء
 الله تعالى .

ولصاحب البرنو هذا مكتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتي ذكرها
 هناك إن شاء الله تعالى .

المملكة الرابعة

(بلاد الكانم)

والكانم بكاف بعدها أَلَف ثم نون مكسورة وميم في الآخر. وهم مسلمون أيضا والغالب على ألوانهم السَّوَادُ . قال في "مسالك الأبصار" : وبلادهم بين أفريقية وبرقة ، مُتَنَدَّة في الجنوب إلى سَمْت القَرَب الأوسط . قال : وهي بلاد حُطِّط ، وشَطَف ، وسوء مزاج مستولٍ عليها . وغالب عيشهم الأرز ، والقمح ، والذرة ، وبلادهم التين ، والليمون ، واللّفت ، والباذنجان ، والرطب . وذكر عن أبي عبد الله السلاحي ، عن الشيخ عثمان الكانمي وغيره أن الأرز ينبت عندهم من غير بذر . ومما اشتهر بهم بُقَاش يُنْسَج عندهم أسمه دندى ، طول كل ثوب عشرة أذرع فأكثر . قال : ويتعاملون أيضا بالودع ، والخرز ، والنحاس المكسور ، والورق ، لكنه جميعه يسعر بذلك القماش .

وذكر ابن سعيد : أن في جنوبيها صحارى فيها أشخاص متوحشة ، كالغول أقرب الحيوانات إلى الشكل الآدمي ، تؤذى بنى آدم ولا يلحقها الفارس .

وذكر أبو عبد الله المرأكشي في كتابه "النكلة" عن أبي إسحاق إبراهيم الكانمي الأديب الشاعر : أنه يظهر ببلاد الكانم في الليل أمام الماشى بالقرب منه قُلل نار تُضيء ، فإذا مشى بعدت منه ، فلا يصل إليها ولو جرى ، بل لا تزال أمامه . وربما رماها بحجر فأصابها ، فيتشظى منها شرارات . قال في "مسالك الأبصار" : وأحوالها وأحوال أهلها حسنة ، وربما كان فيهم من أخذ في التعليم ، ونظر من الأدب نظرة النجوم فقال إنى سقيم ، فما يزال يداوى عليل فهمه ، ويديرى جامع علمه ، حتى تشرق عليه أشعتها ، ويطرز بديباجه أمتعتها .

وقاعدتها (مدينة جيمى) . قال فى "تقويم البلدان" : بكسر الجيم وبالياء المشاة تحت الساكنة وكسر الميم ثم ياء منناة تحية فى الآخر. حسب مادو فى خط ابن سعيد . وموقعها فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول ثلاث وخمسون درجة ، والعرض تسع درج ، وبها مقرة سلطانهم . قال فى "مسالك الأبصار" : ومبدأ هذه المملكة من جهة مصر بلدة اسمها (دلا) وأخرها طولاً بلدة يقال لها (كاكا) وبينهما نحو ثلاثة أشهر . وقد تقدم أن كاكا هى قاعدة سلطان البرنو . وبينها وبين جيمى أربعون ميلاً . قال وبها فواكه لا تشبه فواكه بلادنا ، وبها الرمان ، والخبوخ ، وقصب السكر . قال فى "مسالك الأبصار" : وسلطان هذه البلاد رجل مسلم . قال فى "تقويم البلدان" : وهو من ولد «سيف بن ذى يزن» . قال فى "مسالك الأبصار" : وأول من بث الإسلام فيهم الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد «عثمان بن عفان» رضى الله عنه وملكها ، ثم صارت بعده لليزينيين . وذكر فى "التعريف" : أن سلطان الكاتم من بيت قديم فى الإسلام ، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوى فى بنى الحسن . ثم قال : وتمذهب بمذهب «الشافعى» رضى الله عنه . قال فى "مسالك الأبصار" : وملكهم على حقارة سلطاناه ، وسوء بقعة مكانه ، فى غاية لا تدرك من الكبرياء ، يمسح برأسه عنان السماء ، مع ضعف أجناده ، وقلة متحصلى بلاد ، لا يراه أحد إلا فى يوم العيسدين بكرة وعند العصر . أما فى سائر السنة فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم فى بلادهم ، ويتمذهبون بمذهب الإمام «مالك» رضى الله عنه ، وهم ذوو اختصار فى اللباس ، يلبسون فى الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسةً لالكية بالقسطاط . ينزل بها وفودهم .

المملكة الخامسة

(بلاد مالى ومضافاتها)

و(مالى) بفتح الميم وألف بعدها لامٌ مشددة مَفَحْمة وياء مشاة تحتُ في الآخر .
وهى المعروفة عند العامة ببلاد (التَّكُور) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة
فى جنوب المغرب ، متَّصلةٌ بالبحر المحيط . قال فى "التعريف" : وحدَّها فى الغرب
البحرُ المحيطُ ، وفى الشرق بلاد البرنو ، وفى الشمال جبال البربر ، وفى الجنوب المصح .
ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أنها تقع فى جنوب مَرَّاكُش ودواخل بَرِّ العُدوة
جنوبا بغرب إلى البحر المحيط . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى شديدةُ الحرِّ ،
قَسِقةُ المعيشة ، قليلةُ أنواعِ الأقواتِ ، وأهلها طَوَالٌ فى غاية السواد وتفلقل
الشُّعور ، وغالب طُول أهلها من سُوقهم ، لا من هَيَاكل أبدانهم . قال ابن سعيد :
والتَّكُور قسيمان : قسم حَصَر يسكنون المَدَن ، وقسم رَحَّالة فى البَوَادى .

وقد حكى فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدكالى : أن هذه المملكة
مُرَبَّعة ، طولها أربعة أشهر أو أزيد ، وعرضها مثل ذلك ، وجميعها مسكونة
إلا ماقل ، وهذه المملكة هى أعظم ممالك السودان المسلمين .
وتشتمل على ثمانِ جُمَل :

الجملة الأولى

(فى ذكر أقاليمها ومُدُنِها)

وقد ذكر صاحب "العر" : أنها تشتمل على خمسة أقاليم كل إقليم منها
مملكةٌ بذاتها .

الإقليم الأول

(مالى)

وقد تقدم ضبطه . وهو إقليم واسطة الأقاليم السبعة الداخلة في هذه المملكة ، واقع بين إقليم صوصو وإقليم كوكو : صوصو من غربيه ، وكوكو من شرقيه .

وقاعدته على ما ذكره في "مسالك الأبصار" : مدينة (بنى) ^(١) قال في "مسالك الأبصار" : بالباء الموحدة والنون ثم الباء الموحدة أيضا . قال : وهي ممتدة تقدير طول برید في عرض مثل ذلك ، ومبانيها متفرقة ، وبنائها بالبالستا . وهو أنه يبنى بالطين بقدر ثلثي ذراع ، ثم يترك حتى يجف ، ثم يبنى عليه مثله ، وكذلك حتى ينتهى ، وسقوفها بالخشب والقصب ، وغالبا قباب أو جملونات كالأقباء ، وأرضها تراب مرميل ، وليس لها سور ، بل يستدير بها عدة فروع من النيل من جهاتها الأربع ، بعضها يحاض في أيام قلة الماء ، وبعضها لا يعبر فيه إلا في السفن . وللك عدة قصور يدور بها سور واحد .

الإقليم الثانى

(صوصو)

بصادين مهملتين مضمومتين ، بعد كل منهما واو ساكنة . وربما أبدلوا الصاد سينا مهملة سمي بذلك باسم سكانه . قال في "العبر" : وهم يسمونها الانكارية . وهو في الغرب عن إقليم مالى المتقدم ذكره فيما ذكره في "العبر" عن بعض القلة .

(١) في القطعة الأزهرية "مدينة بنى بكسر الياء المشاة تحت وسكون اليا . الثانية وكسر المشاة فوق وياه مشاة تحت في الآخر" .

الإقليم الثالث (بلاد غانة)

بفتح الغين المعجمة وألف ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر . وهى غربى إقليم
صُوصو المقدم ذكره تجاور البحر المحيط الغربى .

وقاعدته (مدينة غانة) التى قد أضيف إليها . قال فى "تقويم البلدان" :
وموقعها خارج الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال ابن سعيد : حيث
الطول [تسع وعشرون درجة ^(١)] والعرض عشر درج . قال فى "تقويم البلدان" :
وهى محل سلطان بلاد غانة .

وقد حكى ابن سعيد : أن لغانة نبلاً شقيق نيل مصر ، يصب فى البحر المحيط
الغربى عند طول عشر درج ونصف ، وعرض أربع عشرة . وإليها تسير التجار
المغاربة من سبلماسة فى بر مقفر ومفاوز عظيمة فى جنوب الغرب نحو خمسين يوماً ،
فيكون بين غانة وبين مصبة نحو أربع درج . وهى مبنية على ضفتى نيلها هذا .
قال فى "العبر" : وكان أهلها قد أسلموا فى أول الفتح الإسلامى .

وقد ذكر فى "تقويم البلدان" : أنها مدينتان على ضفتى نيلها ، إحداهما يسكنها
المسلمون والثانية يسكنها الكفار .

وقد ذكر فى "الروض المبطر" : أن لصاحب غانة معلقين من ذهب ، يربط
عليهما فرسان له أيام مقعده .

(١) الزيادة عن التقويم نقلاً عن ابن سعيد .

الإقليم الرابع

(بلاد كوكو)

وهي شرق إقليم مالى المتقدم ذكره . قال في "الروض المعطار" : ومليكها قائم بنفسه ، له حشم وقواد وأجناد وزى كامل ، وهم يركبون الخيل والجمال ، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم . قال : وبها ينبت عود الحية : وهو عود يشبه العاقِر قرحا ، إلا أنه أسود ، من خاصته أنه إذا وُضع على بُحجر الحية خرجت إليه بسرعة ، ومن أمسكه بيده أخذ من الحيات ما شاء من غير جزع يُدركه أو يقع في نفسه . ثم قال : والصحيح عند أهل المغرب الأقصى أن هذا العود إذا أمسكه مُمسِك بيده أو علّقه في عنقه لم تقربه حية البتة .

وقاعدته (مدينة كوكو) بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها . وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول قال ابن سعيد : حيث الطول أربع وأربعون درجة ، والعرض عشرين درجة . قال : وهي مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غربيته من مسلمي غانة ومن شرقيته من مسلمي الكانم .

وذكر المهلب في العزيزي أنهم مسلمون ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة كبيرة على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال ، يمر بها ويجاوزها بأيام كثيرة ، ثم يغوص في الصحراء في رمال كما يغوص الفرات في بطائح العراق . قال ابن سعيد : وكوكو في شرق النهر ، ولباس عامة أهلها الجلود يسترون بها عورتهم ، ويُجَارهم يلبسون الأكسية ، وعلى رؤوسهم الكرازين ، وليس خواصهم الأزرق . قال في "مسالك الأبحار" : وسكانها قبائل يرنان من السودان .

الإقليم الخامس

(بلاد تَكَوْر)

وهي شرق إقليم (كَوْكَو) المقدم ذكره ، ويليه من جهة الغرب مملكة (البرنو) المتقدمة الذكر ، وبها عُرِفَت هذه المملكة على كبرها واشتهرت .

وقاعدته (مدينة تَكَوْر) بفتح التاء المشناة فوق^(١) وسكون الكاف وضم الراء المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة على النيل على القرب من ضفافه أكبر من مدينة سَلا من بلاد المغرب ، وطعام أهلها السمك ، والذرة ، والألبان ، وأكثر مواشيهم الجمال ، والمعز ، ولباس عامة أهلها الصوف ، وعلى رؤوسهم كرازين صوف ، ولباس خاصتهم القطن والمآزر . قال : وبينها وبين سِيَّهَمَاسَة من بلاد المغرب أربعون يوما يسير القوافل ، وأقرب البلاد إليها من بلاد لَمْتُونَة الصحراء آسَفِي بينهما خمس وعشرون مرحلة . قال : وأكثر ما يسافر به تجار الغرب الأقصى إليها الصوف ، والنحاس ، والخربز ، ويخرجون منها بالتبر ، والخدَم . قلت : وذكر في "مسالك الأبصار" : أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليما . وهي غانة ، وزافون ، وترنكا ، وتَكَوْر ، وسنغانة ، وبانبغو ، وزرنطابنا ، وبيترا ، ودمورا ، وزاغا ، وكابرا ، وبراغودي ، وكَوْكَو ، ومالِي . فذكر أربعة من الأقاليم الخمسة المتقدمة الذكر ، وأسقط إقليم صُوصو ، وكأنها قد أضحلت وزاد باقي ذلك ، فيحتمل أنها أنضافت إلى صاحبها يومئذ بالفتح والاستيلاء عليها . قال في "مسالك الأبصار" : وفي شمالي بلاد مالِي قبائل من البربر يرض تحت حكم سلطانها : وهم نيتصر ، ونيغراس ، ومدوسة ، ولَمْتُونَة ، ولهم أشياخ تحكم عليهم

(١) ضبطه المحمد بالضم ولم يتعقبه شرحه فقيه لغتان .

إلا ينتصر ، فإنهم يتداوهم ملوك منهم تحت حكم صاحب مالى . قال : وكذلك فى طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحم الآدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أن فى طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب . وهم بلاد حمج ، وعليهم إتاة من التبر تحمل إليه فى كل سنة ، ولو شاء أخذهم ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه ما فتحت مدينة من هذه المدن وفشا بها الإسلام ، ونطق بها داعى الأذان ، إلا قل بها وجود الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فوضوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قُرر عليهم . وذكر نحو ذلك فى " التعريف " فى الكلام على غانة .

الجملة الثانية

(فى الموجود بهذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدكالى : أن بها الخيل من نوع الأكاديش التريية . قال : وتجب الخيل العرب إلى ملوكهم ، يتقانون فى أثمانها ، وكذلك عندهم الغل ، والحجير ، والبقر ، والغنم ، ولكنها كلها صغيرة الجثة ، وتلد الواحدة من المعز عندهم السبعة والثمانية ، ولا مرعى لمواشيهم ، إنما هى جلالة على القمامات والمزابل . وبها من الوحوش الفيلة ، والأساد ، والثور ، وكلها لا تؤذى من بنى آدم إلا من تعرض لها . وعندهم وحش يسمى (ترمى) بضم التاء المشناة والراء المهملة وتشديد الميم ، فى قدر الذئب ، يترلد بين الذئب والضبع لا يكون إلا خنى : له ذكر وفرج ، متى وجد فى الليل آدمياً صغيراً أو مراهقاً أكله . ولا تعرض إلى أحد فى النهار ، وهو يتعر كالثور ، وأسنانه متداخلة . وعندهم تما سيح عظام منها ما يكون

(١) نسبة إلى دكالة قال فى القاموس كمانة . وفى المعجم بالفتح بلد بالمغرب

طوله عشرة أذرع وأكثر، ومرارته عندهم ثم قاتل تحمل إلى خزانة ملكهم .
وعندهم بقر الوحش ، وحير الوحش ، والفزلاء . وفيما يسامت سيئاتهم من بلادهم
جواميس متوحشة تصاد كما يُصاد الوحش . وبها من الطيور الدواجن الإوز ،
والدجاج ، والحمام . وبها من الحبوب الأرز ، والذوئ : وهو ذق مرغ ، يُدرس
فيخرج منه حب أبيض شبيه بالخردل في المقدار أو أصغر منه ، فيخل ثم يطحن
ويعمل منه الخبز ، وهذا الحب هو والأرز هما غالب قوتهم ، وعندهم الدرة وهي
أكثر حبوبهم ، ومنها قوتهم ولبق خيوطهم ودوابهم ، وعندهم الحنطة على قلة فيها ،
أما الشعير فلا وجود له عندهم البتة ، وعندهم من الفواكه البستانية الجميز وهو
كثير لديهم ، وعندهم أشجار برية ذوات ثمار ما كولة مستطابة ، منها شجري يسمى
تادموت يحمل شيئاً مثل القواويس كبراً في داخلها شيء شبيه بدقيق الحنطة ، ساطع
البياض ، طعمه من لذيذ يأكلون منه ، وإذا جف جعلوه على الخناء فيسوده
كالنوشادر ، ومنها شجري يسمى زيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخروب فيخرج منها
شيء شبيه بدقيق الترمس حلو لذيد الطعم ، له نوى . ومنها شجري يسمى قومي ،
يحمل شبيه السفرجل ، لذيد الطعم يشبه طعم الموز ، وله نوى شبيه بغضروف العظام ،
يأكله بعضهم معه . ومنها شجر اسمه فارتي ، حمله شبيه بالليمون وطعمه يشبه طعم
الكمثرى بداخله نوى ملحم ، يؤخذ ذلك النوى وهو طري ، فيطحن فيخرج منه شيء
شبيه بالسمن يجمد ، وتبيض به البيوت ، وتوقد منه السرح ، ويعمل منه الصابون ،
وإذا أُصِد أكله وضع في قدر على نار لينة ، ويسقى الماء حتى يقوى ذليانه وهو
مغطى الرأس ، ويسارق كسف النطاء في آفتقاده ، فانه متى كُشف القدر فار ولحق
بالسقف . وربما آتقده منه نار فأحرق البيت ، فإذا اضج برد ، وجعل في ظروف
القرع ، وصار يستعمل في المأكول كالسمن . ومتى جعل في غير ظروف القرع

من الآنية خرّقتها . ويوجد بها من الثمرات البرية ما هو شبيه بكل الفواكه البستانية على اختلاف أنواعها ، ولكنها حريفة لا تستطاب ، يأكلها الحمّج من السودان ، وهي قوت كثير منهم .

وبها من الخضراوات اللوبياء ، واللفت ، والثوم ، والبصل ، والباذنجان ، والكرنب ، أما الملوخية فلا تطلع عندهم إلا برية ، والقرع عندهم بكثرة . وعندهم شيء شبيه بالقلقاس إلا أنه ألد من القلقاس ، يزرع في الخلاء فإن سرق منه سارق ، قطع الملك رأسه وعلقه مكان ما قطع منه ، عادة عندهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، لا توجد فيها رخصة ، ولا تنفع فيها شفاعاة .

وجبالها ذوات أشجار مشدكة ، غليظة السوق إلى الغاية ، تظل الواحدة منها خمسمائة فارس . وفيها بغانة وما وراءها في الجنوب من بلاد السودان الحمّج معادن الذهب .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن الأمير أبي الحسن علي بن أمير حاجب عن السلطان (منسا موسى) سلطان هذه المملكة : أنه سأله عند قدومه الديار المصرية حاجا عن معادن الذهب عندهم — فقال : توجد على نوعين : نوع في زمان الربيع ينبت في الصحراء ، له ورق شبيه بالنجيل ، أصوله التبر . والثاني يوجد في أماكن معروفة على ضفّات مجارى النيل ، تحفر هناك حفائر فيوجد فيها الذهب كالنجارة والحصى ، فيؤخذ . قال : وكلاهما هو المسمى بالتبر . ثم قال : والأول أخف في العيار ، وأفضل في القيمة . وذكر في "التعريف" نحوه . وذكر عن الشيخ عيسى الزواوى عن السلطان (منسا موسى) المقدم ذكره أيضا أنه يخفر في معادن الذهب كل حفيرة عمق قامة أو ما يقاربها ، فيوجد الذهب في جنباتها . وربما وجد مجتمعا في سفلى

(١) في الأصل والأول أ ... في الخيار والتصحيح عن "التعريف" و "المسالك" .

الحفيرة؛ وأنَّ في مملكته أُمَمًا من الكُفَّار لا يأخذ منهم جزيةً، إنما يستعملهم في إخراج الذهب من مَعَادِنِهِ . ثم قد ذكر في ”مسالك الأبصار“ : أن النوع الأول من الذهب يُوجَد في زمن الربيع عَقِيب [الأمطار]^(١) يَنْبُتُ في مواقعها، والثاني يوجد في جميع السنة في ضَفَاتٍ جَارَى النِّيل . وذكروا في ”التعريف“ : أن نبات الذهب بهذه البلاد يبدأ في شهر (أغشت) حيثُ سلطانُ الشمس قاهرٌ، وذلك عند أخذ النِّيل في الارتفاع والزيادة . فإذا انْخَطَّ النِّيلُ تَتَبَعَ حيثُ رَكِبَ عليه من الأرض؛ فيوجد منه ما هو نباتٌ يُشَبِّه النجيل وليس به . ومنه ما يوجد كالخضى . فجعل الجميع مما يحدث في هذا الزمن في أماكن النيل خاصةً، وفيه مخالفة لما تقدّم . بل قد قال : إن شهر (أغشت) الذي يطلُع فيه الذهب وهو من شهور الروم ، ويقع - والله أعلم - أنه يُرَكَّب من (تَمُوز) و(آب) يعنى من شهور السريان، وهذا غلط فاحش . فقد تقدّم في المقالة الأولى أن شهور الروم منطبقة على شهور السريان في الابتداء وال انتهاء، دون ابتداء أول السنة؛ وشهر (أغشت) من شهور الروم هو شهر (آب) من شهور السريان بعينه .

ثم قد حكى في ”مسالك الأبصار“ عن والى مصر عن (منسا موسى) المقسّم ذكره : أن الذهب ببلادهم حَمَى له ، يجمع له متحصّله كالتقطيعه ، إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السَّرِقَةِ .

وحكى عن الشيخ سعيد الدكّالى : أنه إنما يهادى بشيء منه كالمصانعة، وأنه يتكسّب عليهم في المبيعات لأنّ بلادهم لا شيء بها . ثم قال : وكلام الدكّالى أثبت وعليه ينطبق كلامه في ”التعريف“ حيث ذكر غانة ثم قال : وله عليها إتاوة مقرّرة .

(١) بياض بالاصل والتصحيح من ”المسالك“ .

تَحْمَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ . وَهَذِهِ الْبِلَادُ أَيْضًا مَعْدَنُ نُحَاسٍ وَلَيْسَ يُوجَدُ فِي السُّودَانِ إِلَّا عِنْدَهُمْ . قَالَ الشَّيْخُ عَيْسَى الزَّوَاوَى : قَالَ لِي السُّلْطَانُ مُوسَى : إِنْ عِنْدَهُ فِي مَدِينَةٍ أَسْمَاهَا (نَكْوَا) مَعْدَنُ نُحَاسٍ أَحْمَرٍ ، يَجْلِبُ مِنْهُ قُضْبَانٌ إِلَى مَدِينَةِ بَنِي قَاعِدَةَ مَالِي فَيَبْعُثُ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ الْكُفَّارَ ، فَيُبَاعُ وَزَنٌ مِثْقَالُ بَثْنَى وَزَنُهُ مِنَ الذَّهَبِ ؛ يُبَاعُ كُلُّ مِائَةِ مِثْقَالٍ مِنْ هَذَا النُّحَاسِ بِسِتَّةِ وَسْتَيْنِ مِثْقَالًا وَثَلَاثِي مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ .

وَهَذِهِ الْبِلَادُ (مَعْدِنُ مِلْحٍ) وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ السُّودَانِ الْوَالِجِينَ فِي الْجَنُوبِ وَالْمُسَامِتِينَ لِسَجْلِمَاسَةَ وَمَا وَرَاءَهَا مِلْحٌ سِوَاهُ . قَالَ "الْمَقَرُّ الشَّهَابِيُّ" بْنُ فَضْلِ اللَّهِ : حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الصَّائِغِ ، أَنَّ الْمِلْحَ مَعْدُومٌ فِي دَاخِلِ بِلَادِ السُّودَانِ ، فَنَاسٌ مِنْ يُغَرَّرُ وَيَصِلُ بِهِ إِلَى أَنْاسٍ مِنْهُمْ يَبْدَأُونَ نَظِيرَ كُلِّ صُبْرَةٍ مِلْحٍ مِثْلَهُ مِنَ الذَّهَبِ . قَالَ ابْنُ الصَّائِغِ : وَحَدَّثْتُ أَنَّ مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ الدَّاخِلَةِ مَنْ لَا يُظَاهِرُ لَهُمْ بَلْ إِذَا جَاءَ التَّجَارُ بِالْمِلْحِ وَضَعُوهُ ثُمَّ غَابُوا ، فَيَجِيءُ السُّودَانُ فَيَضَعُونَ إِزَاءَهُ الذَّهَبَ ، فَإِذَا أَخَذَ التَّجَارُ الذَّهَبَ ، أَخَذَ السُّودَانُ الْمِلْحَ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : قَالَ لِي الدَّكَّالِيُّ : وَأَهْلُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ كَثِيرٌ فِيهِمُ السَّحَرُ ، وَلَهُمْ بِهِ عِنَايَةٌ حَتَّى إِنَّهُمْ فِي بِلَادِ الْكُفَّارِ مِنْهُمْ يَصِيدُونَ الْفِيلَ بِالسَّحَرِ حَقِيقَةً لَا مَجَازًا ، وَفِي كُلِّ وَقْتٍ يَتَحَاكُمُونَ عِنْدَ مُلْكِهِمْ بِسَبَبِهِ ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : إِنْ فَلَانًا قَتَلَ أَخِي أَوْ وَلَدِي بِالسَّحَرِ ، وَالسُّلْطَانُ يَحْكُمُ عَلَى الْقَاتِلِ بِالْقِصَاصِ وَقَتْلِ السَّاحِرِ .

وَحَكَى عَنْهُ أَيْضًا : أَنَّ السُّمُومَ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ كَثِيرَةٌ ، فَإِنْ عِنْدَهُمْ حَشَائِشٌ وَحَيَوَانَاتٌ يَرْتَكِبُونَ مِنْهَا السُّمُومَ الْقَتَالَةَ ، وَلَا سِيَّمَا مِنْ سَمَكٍ يَوْجَدُ عِنْدَهُمْ . قَالَ الشَّيْخُ سَعِيدُ الدَّكَّالِيُّ : وَمِنْ خِصَاصَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ أَنَّ لِسَرَعَ فِيهَا فُسَادُ الْمَدَنَاتِ لَا سِيَّمَا السَّمْنُ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ وَيُنِينَ فِيهَا فِي يَوْمَيْنِ .

الجملة الثالثة

(في معاملة هذه المملكة)

ذكر في "مسالك الأبصار" عن ابن أمير حاجب : أن المعاملة عندهم بالودع وأن التجار تجلبه إليهم كثيراً ، فترج فيه الربح الكثير . وكان هذا في المعاملات النازلة من مثل المأكول وما في معناها ، وإلا فالذهب عندهم على ما تقدم من الكثرة .

الجملة الرابعة

(في ذكر ملوك هذه المملكة)

قد تقدم أن هذه المملكة قد اجتمع بها خمسة أقاليم ؛ وهي : إقليم مالى ، وإقليم صوصو ، وإقليم غانة من الجانب الغربى عن مالى ، وإقليم كوكو ، وإقليم تكورور من الجانب الشرقى عن مالى ؛ وأن كل إقليم من هذه الخمسة كان مملكة مستقلة ، ثم اجتمع الكل في مملكة صاحب هذه المملكة ، وأن مالى هى أصل مملكته . قال في "مسالك الأبصار" : وهو وإن غلب عليه عند أهل مصر اسم سلطان التكرور فإنه لو سمع هذا انف منه ، لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته ، والأحب إليه أن يقال (صاحب مالى) لأنه الإقليم الأكبر ، وهو به أشهر . وتقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أنه ليس بمملكته من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة وهو كالدائب له وإن كان ملكاً . وكأنه إنما بقى اسم الملك على صاحب غانة دون غيره لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء كلياً . فقد قال في "التعريف" : وأما غانة فإنه لا يملكها وكأنه مال لهما ، يتركها عن قُدرة عليها : لأن بها وبما وراءها جنوباً منابت الذهب . وذكر ما تقدم من أن بلاد منابت الذهب متى فشا فيها الإسلام

(١) فى الاصل سبعة ، وهو سهو من النسخ لان المعداد هنا والمتقدم هناك خمسة .

والأذان، عُدِمَ فيها نبات الذهب، وصاحب مالى يتركها لذلك لأنه مسلم، وله عليها إتاوة كبيرة مقررة تحل إليه فى كل سنة .

وقد ذكر صاحب "البر" : أن هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة، وكان من أعظمها مملكة غانة . فلما أسلم الملتزمون من البربر، تسلطوا عليهم بالغزو حتى دان كثير منهم بالإسلام، وأعطى الجزية آخرون، وضعف بذلك ملك غانة وأضمحل، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم، وملكوا غانة من أيدي أهلها. وكان ملوك مالى قد دخلوا فى الإسلام من زمن قديم .

قال: ويقال إن أول من أسلم منهم ملك اسمه (برمندانة) بيا موحد وراء مهملة مفتوحين وميم مكسورة ونون ساكنة ودال مهملة بعدها ألف ثم نون مشددة مفتوحة وهاء فى الآخر فى ضبطه بعض علمائهم . ثم حجَّ بعد إسلامه، فاقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده .

ثم جاء منهم ملك اسمه (مارى جازاة) ومعنى (مارى) الأمير الذى يكون من نسل السلطان ومعنى (جازاة) الأسد، فقوى ملكه وغلب على صوصو، وانتزع ما كان بأيديهم من مملكتهم القديمة ومُلِك غانة الذى يليه إلى البحر المحيط . ويقال : إنه ملك عليهم خمساً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ابنه (منسا ولى) ومعنى (منسا) باقتهم السلطان، ومعنى (ولى) على، وكان من أعظم ملوكهم، وحجَّ أيام الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك من بعده أخوه (والى) .

ثم ملك من بعده أخوه (خليفة) وكان أحق، يغلب عليه الحمق فيرمى الناس بالسَّهام فيقتلهم، فوثب به أهل مملكته فقتلوه .

وملك بعده سبط من أسباط « ماري جازطة » المقدم ذكره، اسمه (أبو بكر) على قاعدة العجم في تملك البنت وابن البنت .

ثم تغلب على الملك مولى من موالهم اسمه (ساكبورة) . ويقال (سيكره) فاتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو واستضافها إلى مملكته ، واتصل ملكه من البحر المحيط الغربى إلى بلاد التكرور ، فقوى سلطانه ، وهابه أمم السودان ورحل إليه التجار من بلاد الغرب وأفريقية . وجَّأ أيام السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ورجع فقتل في أثر عوده .

وملك بعده (قو) بن السلطان « ماري جازطة » .

ثم ملك من بعده (محمد بن قو) ثم انتقل الملك من ولد ماري جازطة إلى ولد أخيه أبى بكر .

فولى منهم (منسا موسى) بن أبى بكر . قال فى "العبر" : وكان رجلا صالحا ، ومليكا عظيما ، له أخبار فى العدل تؤثر عنه ، وعظمت المملكة فى أيامه إلى الغاية ، وأفتتح الكثير من البلاد .

قال فى "مسالك الأبصار" : حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، أنه فتح بسيفه وحده أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع . قال فى "مسالك الأبصار" : قال ابن أمير حاجب : سأله عن سبب انتقال الملك إليه - فقال : إن الذى قبل كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، ففهمين سفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض

لها في البحر في وسط الجُتَّةِ وادٍ له حُرِّيَّةٌ عظيمةٌ ، فابتلع تلك المراكب وكنتُ آحِرَ القوم فرجعت بسفينتي ؛ فلم يصدِّقه : فجَهَّزَ أَلْفَ سَفِينَةٍ أَلْفًا لِلرَّجَالِ وَأَلْفًا لِلزُّوَادِ ، وَأَسْتَخَفَّنِي وَسَافَرَ بِنَفْسِهِ لِيَعْلَمَ حَقِيقَةَ ذَلِكَ ، فَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهِ وَبَيْنَ مَعَهُ . قَالَ فِي " الْعَبَرِ " : وَكَانَ حُجَّةً فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعَائِهِ فِي الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ » .

قَالَ فِي " مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ " : قَالَ لِي الْمِهْمَنْدَارُ خَرَجْتُ لِمُتَقَاهُ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ فَأَكْرَمَنِي إِكْرَامًا عَظِيمًا ، وَعَامَلَنِي بِأَجْمَلِ الْأَدَابِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يَحْدِّثُنِي إِلَّا بِتَرْجُمَانٍ مَعَ إِجَادَتِهِ الْإِسَانِ الْعَرَبِيَّ . قَالَ : وَلَمَّا قَدِمَ ، قَدَّمَ لِلخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ حِمْلًا مِنْ التَّبَرِّ ، وَلَمْ يَتْرِكْ أَمِيرًا وَلَا رَبَّ وَظِيفَةً سُلْطَانِيَّةً إِلَّا وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالذَّهَبِ . وَكُنْتُ أَحَاوِلُهُ فِي طُلُوعِ الْقَلْعَةِ لِلِاجْتِمَاعِ بِالسُّلْطَانِ حَسَبِ الْأَوَامِرِ السُّلْطَانِيَّةِ فَيَأْتِي خَشْيَةً تَقْبِيلِ الْأَرْضِ لِلْسُّلْطَانِ وَيَقُولُ : جِئْتُ لِحُجِّ لَا لغيرِهِ ، وَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى وَافَقَ عَلَيَّ ذَلِكَ .

فَلَمَّا صَارَ إِلَى الْخِصْرَةِ السُّلْطَانِيَّةِ . قِيلَ لَهُ : قَبَّلِ الْأَرْضَ ، فَتَوَقَّفْ وَأَبِإْ ظَاهِرًا . وَقَالَ : كَيْفَ يَجُوزُ هَذَا ؟ فَأَسْرَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ إِلَى جَانِبِهِ كَلَامًا . فَقَالَ : أَنَا أَسْجُدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَفَطَرَنِي ثُمَّ سَجَدَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَقَامَ لَهُ بَعْضُ الْقِيَامِ وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ وَتَحَدَّثَا طَوِيلًا ؛ ثُمَّ قَامَ السُّلْطَانُ مُوسَى فَبَعَثَ إِلَيْهِ السُّلْطَانِ بِالْخَلْعِ الْكَامِلَةِ لَهُ وَالْأَصْحَابِ ، وَخِيَلًا مُسَرَّجَةً مُلْجَمَةً . وَكَانَتْ خَلْعُهُ طَرْدَ وَحْشٍ بِقَصَبٍ كَثِيرٍ ، بِسِنِّجَابٍ مُقَدَّسٍ ، مَطَرَزَ بَزْرُكُشٍ ، عَلَى مَفْرَجِ إِسْكَندَرِي ، وَكُلُوتَةٍ زَرْكُشٍ ، وَكَلَالِيْبٍ ذَهَبٍ ، وَشَاشٍ بِحَرِيرٍ ، وَرَقَمَ خَلِيقَتِي ، وَمِنْطَقَةٌ ذَهَبٍ مَرَصَّعَةٌ ، وَسَيْفٌ مُحَلَّى ، وَمَنْدِيلٌ مُذَهَّبٌ نَحْرًا ، وَفَرَسَيْنِ مُسَرَّجَيْنِ مُلْجَمَيْنِ بِمَرَكَبٍ بَغْلٍ مُحَلَّلَةٍ وَأَعْلَامٍ ؛ وَأَجْرَى عَلَيْهِ الْأَنْزَالَ وَالْإِقَامَاتِ الْوَافِرَةَ مَدَّةَ مُقَامِهِ .

ولما آن أوان الحج بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهُجِنَ جليلة كاملة الأكوار
والعُدّة لمركبه ، وهُجِنَ أتباع لأصحابه وأزواجه ، ورَكَرله العليق في الطُّرق ،
وأمر أمير الركب بإكرامه واحترامه .

ولما عاد ، بعث إلى السلطان من هدية الحجاز تبركا ، فبعث إليه بالحلج الكاملة
له ولأصحابه ، والتَّحَف والألطف من البزَّ السَّكندري والأمتعة الفاخرة ،
وعاد إلى بلاده .

وذكر عن ابن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائة حُل ذهباً أنفقها
في سَفَرته تلك على مَنْ بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز
توجُّهاً وعوداً حتَّى احتاج إلى القَرْض ، فاستدان على ذِمّته من تُجَّار مصر بما لهم
عليه فيه المَكاسبُ الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كُلِّ ثَلَاثَةِ دينارٍ سَبْعُمائة دينارٍ
رِجْجاً ؛ وبعث إليهم بذلك بعد توجُّهه إلى بلاده . قال في ”العبر“ ويقال : إنه كان
يَحْمِلُ آلَهُ اثنا عشر ألفَ وصيفةٍ لابساتٍ أَقْبِيَةَ الدِّياج .

قال في ”مسالك الأبصار“ : وذكر لي عنه ابن أمير حاجب : أنه حكى له
أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نَشَأَ لأحدٍ منهم بنتٌ حسناء ، قَدَّمَهَا له أُمّةٌ
موطوءة ، فيملكها بغير تزويج مثل ملك أيمن - فقلت له : إن هذا لا يحل لمسلم
شَرعاً - فقال : ولا لللوك ؟ - فقلت : ولا للملوك وآسأل العلماء . فقال :
والله ما كنت أعلم ذلك ! وقد تركته من الآن . قال في ”العبر“ : ودام ملكه
عليهم خمساً وعشرين سنة ومات .

فملك بعده أبْنه (منسأ مَغَا) ومعنى مَغَا عندهم محمد ، يعنون السلطان محمداً ،
ومات لأربع سنين من ولايته .

وملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبي بكر، وهو أخو منسا موسى المقدم ذكره. قال في "مسالك الأبصار": واجتمع له ما كان أخوه أفتحه من بلاد السودان وأضافه إلى يد الإسلام، وبخا به المساجد والجوامع والمنارات، وأقام به الجمع والجماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وتفقه في الدين. قال في "العبر" ودام ملكه أربعاً وعشرين سنة، ثم مات.

وولى بعده ابنه (قنبتا بن سليمان) ^(١) ومات لتسعة أشهر من ملكه.

وملك بعده (مارى جازاه) بن منسا مغا بن منسا موسى فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة، وأفسد ملكهم، وأتلف ذخائرهم بسرّفه وتبذيره، حتى انتهى به الحال في السرف أنه كان بخزائهم حجر ذهب، زنته عشرون قنطاراً منقولاً من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار. وكانوا يرونه من أنفاس ذخائرهم لندور وجود مثله في المعدن، فباعه على تجار مصر المترددين إليه بأجنس ثمن، وصرف ذلك كله في الفسوق، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد لا سيما الرؤساء منهم، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يقيق، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة.

وملك بعده ابنه (موسى) فنكّب عن طريق أبيه، وأقبل على العدل وحسن

السيرة.

وتغلب على دولته وزيره (مارى جازاة) فججّره وقام بتدبير الدولة، وكان له فيها أحسن تدبير، وبقي منسا موسى حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائة.

وملك بعده أخوه (منسا مغا) وقُتل بعده بسنة أو نحوها.

(١) وقع في العبر ج ٦ ص ٢٠١، ٢٠٢ "قنبتا".

وملك بعده (صندكى) زوج أم موسى المقدم ذكره، ومعنى (صندكى) الوزير؛
ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت مارى جازطة .

ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه (محمود) يُنسب إلى (منسا قو)
أبن منسا ولى، بن مارى جازطة، ولقبه منسا مغابا، وغلب على الملك فى سنة ثلاث
وتسعين وسبعمائة .

قال فى "التعريف" : وصاحب التكرور هذا يدعى نسباً إلى عبد الله بن صالح،
أبن الحسن، بن على بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله
أبن موسى، بن عبد الله أبى الكرام، بن موسى الجون، بن عبد الله، بن حسن المثنى،
أبن الحسن السبط، أبن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد ذكر فى "تقويم البلدان" : أن سلطان غانة يدعى النسب إلى الحسن بن على
عليهما السلام، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة لأن من جملة من هو فى طاعته
غانة، أو من كان بها فى الزمن القديم قبل استيلاء أهل الكفر عليها .

الجملة الخامسة

(فى أرباب الوظائف بهذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة : الوزراء، والقضاة، والكتّاب،
والدواوين، وأن السلطان لا يكتب شيئاً فى الغالب، بل يكمل كل أمر إلى صاحب
وظيفته من هؤلاء فيفصله . وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة .

الجملة السادسة

(في عساكر سلطان هذه المملكة ، وأرزاقهم)

أما مقدار العساكر، فقد ذكر الشيخ سعيد الدكالي : أن مقدار عسكره مائة ألف نفر، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس ، وباقيهم رجالة لا خيل لهم .
وأما الإقطاعات لأمرأء هذا السلطان وجنده والإنعامات عليهم ، فقد قال الدكالي : إن من أكابرهم من يبلغ جملة ماله على الملك في كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب ، وأنه يتفقدهم مع ذلك بالخيال والتمش ، وإن همته كلها في تجميل زيهم وتمصير مدبرهم .

الجملة السابعة

(في زى أهل هذه المملكة)

قال الدكالي : لبائهم عمائم بحنك مثل الغرب ، وقشائم بياض من ثياب قطن تنسج عندهم في نهاية الرقة واللفظ تسمى الكصيا ويلبسهم شبيه بلبس المغاربة جباب ودراريغ بلا تقريغ والأبطال من فرسانهم تلبس أساور من ذهب ، فمن زادت فروسيته ليس معها أطواقا من ذهب فإن زادت ليس مع ذلك خلاخل من ذهب ، وكلما زادت فروسيته البطل ألبسه الملك سراويل متسعة وسراويلاتهم ضيقة أحكام الساقين متسعة الشرج ، وأهل هذه المملكة يركبون بالسروج وهم في غالب أحوالهم في الركوب كأنهم من العرب ، إلا أن هؤلاء يبدئون في الركوب بأرجلهم اليمنى بخلاف غيرهم من سائر الناس جميعا ، ولا يعرف عندهم ركوب جمل بكور .

الجملة الثامنة

(في ترتيب هذه المملكة)

أما جلوس السلطان في قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة، على دكة كبيرة من أنبوس، كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع، عليها أنياب الفيلة في جميع جوانبها، الباب إلى الباب، وعنده سلاح له من ذهب كله : سيف، وحرار، وقوس، وتركاش، ونشاب، وعليه سراويل كبيرة، مفصل من نحو عشرين نصفية، لا يلبس مثله أحد منهم، بل هو من خصوصيته، ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا من الترك وغيرهم ممن تبتاع له من مصر، بيد واحد منهم حتر من حرير عليه قبة، وطائر من ذهب صفة بازى يحمل على يساره، وأمرأه جلوس حوله يمينا وشمالا، ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخص يغنى له وهو سيافه، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وتنتهى إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه، ولا يكتب شيئا في الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه، وحوله أناس بأيديهم طبول يدقون بها، وأناس يرقصون وهو يضحك منهم، وخلفه صنجقان منشوران، وأمامه فرسان مشدودان محصلان لركوبه متى أحب، ومن عطس في مجلسه ضرب ضربا مؤلما، لا يسأح أحد في مثل ذلك، فإن بغت أحدا منهم العطاس، أنبطح في الأرض وعطس حتى لا يعلم به. أما الملك فإنه إذا عطس ضرب الحاضرون بأيديهم على صدورهم. ولا يدخل أحد دار السلطان متعلا كائنا من كان، ومن لم يخلع نعليه قتل بلا عفو: عامدا كان أو ساهيا، وإذا قدم عليه أحد من أمرائه أو غيرهم، وقف أمامه زمانا، ثم يومى القادم بيده اليمنى مثل من يضرب الجوك بلاد توران وإيران من بلاد المشرق. وصفة ذلك أن يكشف مقدم رأسه ويرفع

الذى يضربُ الجحوكَ يده اليمنى إلى قريبِ أذنه ، ثم يضعها وهي قائمة متصبئة ، ويلقيها بيده اليسرى فوق فخذه ، واليد اليسرى مبسوطة الكف لتلقى مرفق اليمنى مبسوطة الكف مضمومة الأصابع بعضها إلى جانب بعض كالمشط ، ثمَّاس شحمة الأذن . قال ابن أمير حاجب : وقد رأيت هذا عند خدمتهم للسلطان « موسى » لما قدم الديار المصرية . فإذا أنعم على أحد بإنعام أو وعده وعدا جميلا أو شكره على فعل ، تتمرغ المنعم عليه بين يديه من أول المكان إلى آخره ، فإذا وصل إلى آخر المكان ، أخذ غلمان المنعم عليه أو من هو من أصحابه من رماذ يكون موضوعا في آخر مجلس الملك معدا لهذا الشأن ، فيدز في رأس المنعم عليه ، ثم يعود ويتمرغ ، إلى أن يصل بين يدي الملك ، ويضرب جوكا آخر بيده ثم يقوم .

وأما في الركوب فقد جرت عادة سلطان هذه المملكة أنه إذا قدم من سفر أن يحل على رأسه الجلتر راكب ، ويشتر على رأسه علم ، وتضرب أمامه الطبول ، والطناير ، والبوقات بقرون لهم فيها صناعة محكمة . قال ابن أمير حاجب : وشعار هذا السلطان أعلام وألوية كبار جدا ، ورنكه أصفر في أرض حمراء .

وأما غير ذلك من سائر أموره ، فقد ذكر الشيخ سعيد الدكالي : أن من عادة هذا السلطان أنه إذا عاد إليه أحد ممن بعثه في شغل له أو أمر مهم أن يسأله عن كل ما حدث له من حين مفارقتها له وإلى حين عودته مفصلا . قال ابن أمير حاجب : وقد رأيت السلطان موسى وهو بمصر لا يأكل إلا منفردا وحده ، لا يحضره عند الأكل أحد البتة .

المملكة السادسة

(من ممالك بلاد السودان ، مملكة الحبشة)

يفتح الحاء المهمة والباء الموحدة والشين المعجمة وهاء في الآخر .

وهي مملكة عظيمة جليلة المقدار ، متسعة الأرجاء ، فسيحة الجوانب . قال في "مسالك الأبصار" : وأرضها صعبة المسلك : لكثرة جبالها الشاخنة ، وعظم أشجارها ، وأشتباك بعضها ببعض ، حتى إنَّ ملكها إذا أراد الخروج إلى جهة من جهاتها ، تقدّمه قوم مرصّدون لإصلاح الطرق بآلات لقطع الأشجار وإحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ، ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الإنساني ، لأنهم أجبر بني حام ، وأخبر بالتوغّل في القتال والإقتحام ، طول زمنهم في الأسفار ، وصيد الوحش ، وقتالهم إنما يكون عرياً من غير لامة تدفع عنهم ولا عن خيالهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف أولاً ما هم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب بني آدم : فذكر أن المشهور عنهم مع ما هم عليه من المجاعة أنهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم . ومن عاداتهم أن من رمى سلاحه في القتال حرم قتاله ، ويكرمون الضيف ، ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه ، وإذا أحبوا أظهروا المحبة ، وإذا أبغضوا أظهروا البغض ، والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس ، ولهم علوم وصناعات خاصّة بهم ، ولهم قلم يكتبون به من اليمن إلى الشمال كما في العربي ، عدّة حروفه ستة عشر حرفاً ، لكل حرف منها سبعة فروع ، فيكون عدتها مائة وأثنين وثمانين حرفاً ، سوى حروف آخر مستقلة بذاتها لا تنفقر إلى حرف من الحروف المذكورة ، مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لا منفصلة عنه . ومع كونهم جنساً واحداً

(١) كذا في المسالك أيضاً غير أنه قال : الجملة من ذلك مائة ومائون فتأمله .

فَأَعَانَهُمْ تَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ لِسَانًا، وَيَمِيلُ الْكَثِيرُ مِنْ أُلُوَانِهِمْ إِلَى الصَّفَاءِ، وَلِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ وَسْمٌ فِي وَجُوهِهِمْ يَعْبُرُ عَنْهُ بِالتَّلْعِيطِ، بَعْضُهُمْ يَسْمَى فِي الْخُدَيْنِ وَشِمًا خَفِيفًا، وَأَمْحَرًا يَسْمُونُ فِي الْخُدَيْنِ وَالْجَبْشَةِ إِلَى الْأَنْفِ خُطُوطًا طَوَالًا. وَيَقَالُ: إِنْ أَوَّلَ بِلَادِهِمْ مِنَ الْجَهَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ التَّكْوَرِ مِمَّا بِلَى جَهَةَ الْيَمَنِ، وَأَوَّلَهَا مِنَ الْجَهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَائِلَةِ إِلَى بَعْضِ الْجَهَةِ الشَّمَالِيَّةِ بَحْرُ الْهِنْدِ وَالْيَمَنِ، وَفِيهَا يَمُرُّ النَّهْرُ الْمُسَمَّى سَيْحُونَ الَّذِي يَرُودُ مِنْهُ نَيْلُ مِصْرَ. ^(١) وَقَدْ عَدَّ مِنْهَا أَحَدَ عَشَرَ إِقْلِيمًا مِنْ جَهَةِ الْغَرْبِ بِمَفَازَةِ بَمَكَانٍ يُسَمَّى (وَادِي بَرَكَهَ) يُتَوَصَّلُ مِنْهُ إِلَى إِقْلِيمٍ يُسَمَّى (سَحَرَت) وَيُسَمَّى قَدِيمًا تِكْرَايَ، وَكَانَ بِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ مَدِينَةٌ أَسْمَاهَا (أَحْسَرَم) بِلُغَةٍ أُخْرَى مِنْ لُغَاتِهِمْ، وَتُسَمَّى أَيْضًا (زَرْفَرَتَا). بِهَا كَانَ كَرَمِيٌّ مُلْكُ النَّجَاشِيِّ، وَكَانَ مُسْتَوَلِيًا عَلَى أَقْلَامِ الْجَبْشَةِ. وَيَلِيهِ مِنْ جَهَةِ الشَّرْقِ إِقْلِيمُ (أَمْحَرَا) الَّذِي بِهِ الْآنَ مَدِينَةُ الْمَمْلُكَةِ، ثُمَّ إِقْلِيمُ شَاوَةَ، ثُمَّ إِقْلِيمُ دَامُوتَ، ثُمَّ إِقْلِيمُ لَامْنَانَ، ثُمَّ إِقْلِيمُ السَّيْهَوِ، ثُمَّ إِقْلِيمُ الزُّلْخِ، ثُمَّ إِقْلِيمُ عَدْلَ الْأَمْرَاءِ، ثُمَّ إِقْلِيمُ حَمَانَا، ثُمَّ إِقْلِيمُ بَارِيَا، ثُمَّ إِقْلِيمُ الطَّرَازِ الْإِسْلَامِي. قَالَ: وَبِهَا أَقْلَامٌ كَثِيرَةٌ الْعِدَدِ، مَجْهُولَةٌ الْأَسْمَاءِ، غَيْرُ مَشْهُورَةٍ وَلَا مَعْلُومَةٍ.

ثُمَّ هِيَ عَلَى قَسْمَيْنِ:

القسم الأول

(بِلَادُ النَّصْرَانِيَّةِ)

وَهِيَ الْقِسْمُ الْأَوْفَرُ عَدَدًا، الْأَوْسَعُ مَجَالًا، وَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُهُ مَلِكُ (أَمْحَرَا) بَفَتْحِ الْأَلْفِ وَسُكُونِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْحَاءِ وَالرَّاءِ الْمَهْمَلَتَيْنِ وَأَلْفٍ فِي الْآخِرِ. وَهُمْ جَنْسٌ مِنَ الْجَبْشَةِ.

وَيَشْتَمِلُ عَلَى سِتِّ جُمَلٍ:

(١) فِي الْقِطْعَةِ الْإِزْمَرِيَّةِ مَصْلُحَةٌ هَكَذَا [وَأَوَّلَهَا مِنْ جَهَةِ الْغَرْبِ مَفَازَةُ الْخ].

الجملة الأولى

(في ذكر قواعدها)

وقاعدتها مدينة (مَرَعْدَى) بفتح الميم وكسر الراء وسكون العين وكسر الدال المهملتين وياء مشاة تحت في الآخر. وهي مدينة بإقليم أَمْحَرَا المتقدم ذكره فيا ذكره في "مسالك الأبصار" إلا أنه لم يذكر صفتها، والذي ذكره في "تقويم البلدان": أن قاعدة الحبشة (مدينة جَرْمِي) بالجميم المفتوحة والراء المهملة الساكنة ثم ميم مكسورة ثم ياء مشاة تحتية في الآخر كما ضبطه ابن سعيد. وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال": حيث الطول خمس وخمسون درجة، والعرض تسع درج وثلاثون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي مدينة ذكرها أكثر المصنفين في كُتُب المسالك والممالك والأطوال والعروض، وأنها كرمى مملكة الحبشة وقاعدتهم، ولم يزد على ذلك، فيحتمل أنها قاعدة قديمة، ويحتمل أنها القاعدة المستقرة.

الجملة الثانية

(في الموجود بها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار": أن بها من المَوَاشِي ذوات الأربع: الخيل، والبغال، والبقرة، والغنم وما في معناها، وأغنامهم تُسَبِّهُ أَغْنَامَ عِيْدَابَ وَالْيَمَن. ومن الوَحُوشِ الأَسَد، والثمر، والفهد، والفيل، والزرافة، والغزال، وبقرة الوحش، وحمار الوحش، والقردة، وغيرها من الوحوش.

وبها من الطيور الخويّة : الصقورة ، والبزاة بكثرة ، والنسور البيض والسود ، والغراب ، والحجل ، وطير الواجب بجمته ، والحمام ، والعصفور ، وغير ذلك مما لم يوجد بالديار المصرية . ومن الطيور البرية دجاج الحبش وأمثالها . ومن الطيور المائية البط ، وعندهم بنهرهم سمك يشبه البوري ، وسمك يشبه الثعبان ، يطول إلى مقدار ذراعين ونصف ، وينلظ إلى مقدار كبار الخشب ، وبنهرهم أيضا السمك وفرس البحر ، وغير ذلك .

وبها من الحبوب : الحنطة ، والشعير ، والحمص ، والعدس ، والبسلا ، والذرة ، وبعض الباقلا ، وحبوب أخرى غير ذلك منها حب يسمى (قناحول) يستعملونه قوتاً كالحنطة . والحنطة عندهم على مثال الحنطة الشامية ، والشعير حبة عندهم أكبر من حب الشعير بالديار المصرية والشامية ، ومنه ضرب يسمى طمجة . ولون الحمص عندهم إلى الحمرة . والباقلا عندهم عزيز الوجود في أكثر البلاد ، ولكنهم لا يفتقرون إليه للعلف لكثرة المراعى ببلادهم .

وعندهم حب يسمى (طافي) على قدر الخردل ، ولونه إلى الحمرة ، ومكسره إلى السواد ، يتخذون منه الخبز . وعندهم ببعض الأقاليم حب شبيه بالحنطة إلا أن له قشرين ، ينزع قشره بالهرس كالآرز ، ويخزنونه طعاما يكون مغنياً عن الحنطة . وعندهم بزر الحنّان وحب الرشاد ، وهم يزرعون على المطر في كل سنة مرتين : مرة في الصيف ، ومرة في الشتاء ، تتحصل في كل مرة الغلات .

ونقل البطرك (بنيامين) أنه يقع عندهم المطر الكثير ، وتحصل مع المطر الصواعق العظيمة .

وعندهم من أصناف المقاتي القرع ، وفي بعض الأقاليم بطيخ صغير .

وعندهم من البقول : الثُّوم ، والبَصَل ، والكُرْبَةُ الخضراء ، ومن الرياحين
الرَّيْحَان ، والْقَرْنَفُل ، ونباتٌ أبيضٌ يسمى بَعْتَرَان . وعندهم الياسمين البرِّي ،
ولكنه ليس بمشعومٍ لهم .

وعندهم من الفواكه العنبُ الأسودُ على قِلَّةٍ ، والتينُ الوزيريُّ ، وأصنافُ
الحوامض خلا النَّارَنْج .

وعندهم شجرٌ يسمى (چان) يجيم بين الجيم والشين لا ثمر له ، وإنما له قلوب
نُسيه قلوب النَّارَنْج تُؤكل فتريد في الذكاء والفهم ، وتُفرِّج ، إلا أنها تقلل الأكل ،
والنَّوم ، والجَماع . وعنايتهم به عناية أهل الهند بالنَّبيل وإن كان بينهما مِياينة .
وأى نفع فيما فائدته تقليل النَّوم والأكل والجَماع ، اللاتي هي لذات الدنيا ، حتى
يحكى أنه وُصف لبعض ملوك اليمن - فقال : أنا لا يذهب متحصِّلٌ مُلكي إلا على
هذه الثلاث ، فكيف أسمى في ذهابها بأكل هذا ؟

ومن أشجارهم الزَّيتون ، والصَّنوبر ، والجَميز ، وفي بعض بلادهم الآبنوس ،
وفي بعضها المقل ، وفي بعضها القنا المحوِّف والمسدود . ومأكَلهم شحومُ البقر والمعز ،
وبعضُ شحوم الضأن ، ومشروئهم اللبنُ البقريُّ ، وفي ضعفهم يتداوون باللبن
المُداف بالماء وسمن البقر .

وعندهم غسل النحل بكثرة في جميع الأقاليم ، تختلف ألوانه باختلاف المراعى :
منه ما يوجد في الجبال فيؤخذ من غير شجر على أخذه . ومنه ماله خلايا من خشب
منقورة ، له مَلَأٌ يخبئون به . ووقود مصابيحهم شحومُ البقر . أما الزيت الطيب
فيجلب إليهم . وإدهانهم بالسَّمْن . وأواني طعامهم فخارٌ مدهون أسود . وأغسلهم
بالماء البارد ، وربما استعملوا الحار منه .

وحكى البطرك (بنيامين) أن عندهم من المعادن معدن الذهب ، ومعدن الحديد .
وحكى عن الشريف عز الدين التاجر : أن في بعض بلادهم يوجد معدن الفضة .
ومصاغهم الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، كل أحد منهم بحسبه .

الجملة الثالثة

(في ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم)

أما معاملاتهم ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن معاملاتهم مقايضة بالأبقار
والأغنام والحبوب وغير ذلك . وأما الأسعار فالقمح والشعير اللذان هما أصل
المطعمات ليس لهما عندهم قيمة تذكر ، لاستغنائهم عن ذلك باللحم واللبن . وسيأتى
ذكر معاملة الطراز الإسلامى فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الرابعة

(في ذكر زيئهم وسلاحهم)

أما زيئهم ، فقد ذكر في "المسالك" أن لباسهم في الشتاء والصيف واحد : لكل
واحد منهم ثوبان غير مخيطين : أحدهما يثد به وسطه ، والآخر يلتحف به ،
ولا يعرفون لبس المخيط جملةً ، إلا أن الخواص والأجناد يفضلون في اللبس ،
فيلبسون الحرير والأبراد اليمنية ، والعوام يلبسون ثياب القطن على ما تقدم .

وأما سلاح المقاتلة منهم ، فالسيوف ، والخرباب ، والمزاريق ، والقسي ، يرمون
عنها بالنبل : وهو نشاب صغير ، وربما رمى بعضهم النبل عن قوس طويل يشبه
قوس البندق ، ولهم درق مدورة ، ودراق طوال يتقون بها .

الجملة الخامسة

(في ذكر بطارقة الإسكندرية، الذين عن توليتهم تنشأ ولاية ملوك الحبشة)

اعلم أنه قد تقدم في المقالة الأولى في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب عند ذكر النحل والملل أن البطارقة عند النصارى عبارة عن خلفاء الحواريين الذين هم أصحاب المسيح عليه السلام، وأنه كان لهم في القديم أربعة كرسي : كرسي برومية : قاعدة الروم ، وكرسي بالإسكندرية من الديار المصرية ، وكرسي بأنطاكية : قاعدة العواصم من بلاد الشام ، وكرسي بيت المقدس . وأن كرسي رومية قد صار لطائفة الملكانية وبه بطركهم المعبر عنه بالبابا إلى الآن . وكرسي الإسكندرية قد صار آخرًا لبطرك اليعاقبة تحت ذمة المسلمين بالديار المصرية من لدن الفتح الإسلامي وهلم جرا إلى زماننا . وأن كرسي بيت المقدس وكرسي أنطاكية قد بطلا باستيلاء دين الإسلام عليهما . ثم كرسي الإسكندرية بعد مصادره إلى اليعاقبة قد تبع البطرك القائم به على مذهب اليعاقبة الحبشة والنوبة وسائر متنصرة السودان ، وصار لديهم كاخليفة على دين النصرانية عندهم ، يتصرف فيهم بالولاية والعزل ، لاتصح ولاية ملك منهم إلا بتوليته ، حتى قال في "التعريف" في الكلام على مكتبة ملك الحبشة : ولولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعهد معمودي إلا باتصال من البطريك ، وأن كرسي البطريك كنيسة الإسكندرية ، فيحتاج إلى أخذ مطران [بعد مطران ^(١)] من عنده ، وإلا كان شتم بأفقه على المكتبة ، لكنه مضطر إلى ذلك . قال : ولأوامر البطريك عنده ما لشريعته من الحرمة ، وإذا كتب إليه كتابا فاتى ذلك الكتاب إلى أول ملكته ، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس

(١) الزيادة عن "التعريف" .

علم ، ولا يزال يحمله بيده حتى يخرجَه من أرضه وأرباب الدولة في تلك الأرض
كأنفسوس والشَّامِسة حوله مُشاةً بالأدخنة ، فإذا خرجوا من حدّ أرضهم تلقَّاهم
من يليهم أبداً كذلك في كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى أنحرا ، فيخرج
صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفيل الأول ، إلا أن المطران هو الذى يحمل
الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك ، ثم لا يتصرف الملك فى أمر ولا نهى ولا قليل
ولا كثير حتى يُنادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد فى الكنيسة ، ويُقرأ والملك
واقف ، ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

ولما تعذر الوقوف على معرفة تواريخ ملوكهم ، أكتفينا بذكر البطارقة الذين
عنهم تنشأ ولاياتهم ، فكانوا هم ملوكهم حقيقة .

اعلم أن أول من ولي من البطارقة كنيسة الإسكندرية مرقس الإنجيلي : تلميذ
بطرس الحواري ، الذى أرسله المسيح عليه السلام إلى رومية . وإنما سُمي بمرقس
الإنجيلي لأن بطرس الحواري حين كتب إنجيله كتبه بالرومية ونسبه إلى مرقس
المذكور فتلقب بالإنجيلي ، وأقام مرقس المذكور في بطركية الإسكندرية سبع سنين
يدعو إلى النصرانية بالإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب ثم قتله نيرون قيصر
أبن اقليوديش قيصر سادس القياصرة .

وولي مكانه (حنانيا) ويسمى بالعبرانية أنانيو ثم مات لسبع وثمانين سنة للمسيح .
وولي مكانه (فلبو) ^(١) فأقام ثلاث عشرة سنة ثم مات .

فولي مكانه (كرتيانو) ومات لإحدى عشرة سنة من ولايته فى أيام (طرنش
قيصر) .

(١) فى الخط المقيزي ج ٢ ص ٤٨٤ مينو .

وولي مكانه (إيريمو) ثلثي عشرة سنة .

ثم ولي بعده (نسبطس) في أيام (أندريانوس قيصر) ، وكان حكيما فاضلا فأقام في البطركية إحدى عشرة سنة ثم مات .

وولي مكانه (أرمانيون) إحدى عشرة سنة أيضا [ومات] في أيام (أندريانوس) قيصر أيضا .

وولي بعده (موقيانو) فلبث تسع سنين وومات في أيام (أنطونيس قيصر) في الخامسة من ملكه .

وولي بعده (كلوتيانو) فأقام أربع عشرة سنة في أيام أنطونيس قيصر وومات .

وولي بعده (أغريتوس) فبقي أثنتي عشرة سنة وومات .

وولي بعده (بليانس) في أيام [أوراليانس] ^(١) قيصر فلبث عشر سنين وومات .

فولي مكانه في أيام أوراليانس (ديمتريوس) فأقام ثلاثا وثلاثين سنة .

وولي بعده (تاوكلا) فأقام ست عشرة سنة وومات .

فولي بعده (دونوشوش) فلبث تسع عشرة سنة [ومات] .

وولي مكانه (مكسيموس) فأقام ثلثي عشرة سنة وومات .

وولي مكانه (ثاونا) فلبث عشر سنين [ومات] وكان النصراني إذ ذاك يقيمون

الدين خفية فلما صار بطركا صانع الروم ولاطفهم بالهدايا فأذنوا له في بناء كنيسة مريم ، وأعلنوا فيها بالصلاة .

ثم ولي بعده (بطرس) فلبث عشر سنين وقتله (ديقلاديانوس قيصر) .

(١) ببض له في الأصل والتكيل عن المقرري وفي القطعة الأثرية [في أيام طرغش] ولكنه ضب عليها بالشطب .

وولي مكانه تلميذه (إسكندروس) وكان كبير تلامذته فلبث ثلاثاً وعشرين سنة .
وقيل ثنتين وعشرين سنة ، وقيل ست عشرة سنة ، وكسر صم النحاس الذي
كان في هيكل زحل بالإسكندرية وبني مكانه كنيسة ، وبقيت حتى هدمها العبيديون
عند ملكهم الإسكندرية ، ومات لإحدى وعشرين سنة من ملك (قسطنطين)
ملك الروم .

وولي مكانه تلميذه (إيناسيوس) ووثب عليه أهل إسكندرية ليقتلوه لانتحاله
مذهبا غير مذهبهم فهرب .

وتولى مكانه (لوقيوس) ثم ردّ (إيناسيوس) المتقدم ذكره إلى كرسيه بعد خمسة أشهر
وطرد لوقيوس ، وأقام إيناسيوس بطركا إلى أن مات .

فتولى بعده تلميذه (بطرس) سنتين ووثب عليه أصحاب لوقيوس فهرب وردّ
لوقيوس إلى كرسيه ، فأقام ثلاث سنين ، ثم وثبوا عليه وردّوا بطرس ومات
لسنة من إعادته ، وقيل إنه حبس وأقيم مكانه (أريوس) من أهل سُمِيساط .

ثم ولي (طيماناواس) أخو بطرس ، فلبث فيهم سبع سنين ومات . ويقال :
إن إيناسيوس المتقدم ذكره ردّ إلى كرسيه ثم مات .

(١)
فولى مكانه كاتبه (تاوفينا) [فأقام سبعا وعشرين سنة] ومات .

(١)
وتولى مكانه (كيرلس) ابن أخته [فأقام ثنتين وثلاثين سنة] ومات .

فولى مكانه (ديسقرس) فأحدث بدعة في الأمانة التي يعتقدونها فأجمعوا
على نفيه .

وَوَلَّوْا مَكَانَهُ (بِطَارِس) وَأَفْتَرَقَتِ النَّصَارَى مِنْ حَيْثُ نَزَّحُوا إِلَى يَهُدَا وَمَلَكَايَا .

وَوَثَبَ أَهْلُ الإسْكَندَرِيَّةِ عَلَى بِطَارِسَ الْبَطْرِكِ فَقَتَلُوهُ لِسِتِّ سِنِينَ مِنْ وِلَايَتِهِ
وَأَقَامُوا مَكَانَهُ (طِيمَانَاوَس) وَكَانَ يَهُدِيًّا ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَلَّى الْبَطْرِكِيَّةَ مِنَ الْيَهُاقِبَةِ
بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ فَأَقَامَ فِيهَا ثَلَاثَ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَ قَائِدٌ مِنَ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ فَنَفَاهُ وَأَقَامَ مَكَانَهُ
(سُورِيَس) مِنَ الْمَلِكِيَّةِ ، فَأَقَامَ تِسْعَ سِنِينَ . ثُمَّ عَادَ (طِيمَانَاوَس) الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرَهُ إِلَى
كُرْسِيِّهِ بِأَمْرِ لَآوَنَ قَيْصَرَ . وَيُقَالُ أَنَّهُ بَقِيَ فِي الْبَطْرِكِيَّةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ سَنَةً وَمَاتَ .
فَوَلَّى مَكَانَهُ (بِطَارِس) وَهَلَكَ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ .

وَوَلَّى مَكَانَهُ (أَثَاسِيُوس) وَهَلَكَ لِسَبْعِ سِنِينَ ، وَكَانَ قِيَمًا بِبَعْضِ الْبَيْعِ فِي بَطْرِكِيَّةِ
بِطَارِسَ وَمَاتَ .

فَوَلَّى مَكَانَهُ (يُوحَنَّا) وَكَانَ يَهُدِيًّا ، وَمَاتَ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ .

وَوَلَّى مَكَانَهُ (يُوحَنَّا الْحَمِيْس) وَمَاتَ بَعْدَ إِحْدَى عَشْرَةِ سَنَةٍ .

فَوَلَّى مَكَانَهُ (دِيَسْقُرُسُ الْحَدِيد) وَمَاتَ بَعْدَ سِتِّينَ وَنِصْفٍ .

ثُمَّ وَلَّى مَكَانَهُ (طِيمَانَاوَس) وَكَانَ يَهُدِيًّا ، فَكَثُرَ فِيهِمْ ثَلَاثَ سِنِينَ ، وَقِيلَ
سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثُمَّ نَفَى .

وَوَلَّى مَكَانَهُ (بُولُص) وَكَانَ مَلِكِيًّا فَلَمْ يَقْبَلْهُ الْيَهُاقِبَةُ ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ سِتِّينَ .

ثُمَّ وَلَّى قَيْصَرَ قَائِدًا مِنْ قَوَّادِهِ اسْمُهُ (أَنُؤْلِينَارِيُوس) فَدَخَلَ الْكَنِيسَةَ عَلَى زِيَّ
الْجُنْدِ ، ثُمَّ لَيْسَ زِيَّ الْبَطَارِكَةِ وَحَلَّاهُمْ عَلَى رَأْيِ الْيَهُدِيَّةِ ، وَقَتَلَ مِنْ أَمْتِنَعٍ وَكَانُوا
مِائَتَيْنِ ، وَمَاتَ لِسَبْعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ مِنْ وِلَايَتِهِ .
(١)

(١) فِي خَطِّ الْمَقْرِيزِيِّ مِائَتَا أَلْفِ إِنْسَانٍ .

وولي مكانه (يوحنا) وهلك لثلاث سنين .

وأنفرد اليعاقبة بالإسكندرية وكان أكثرهم القبط وقدموا عليهم طودوشوش بطركا، فمكث فيهم ثنتين وثلاثين سنة . ثم جعل الملكية بطركهم داقيانوس وطردها طودوشوش عن كرسيه ستة أشهر ؛ ثم أمر قيصر بأن يُعاد فأعيد ؛ ثم نفاه بعد ذلك .

وولي مكانه (بولس التَّيسِّي) فلم يقبله أهل الإسكندرية ولا ماجاء به ؛ ثم مات وغُلقت كنائس القبط اليعقوبية ، ولَقُوا شِدَّة من الملكية ، ومات (طودوشوش) الذي كان قد نُفِيَ .

وتولى البطركية (بطرس) ومات بعد سنتين .

وولي مكانه (داميانو) فمكث سِتًّا وثلاثين سنة ، وخرِبَت الدِّيرة في أيامه .

ثم ولي على الملكية بالإسكندرية ومصر (يوحنا الرَّحوم) وهو الذي عمِل البجارتان للرضى بالإسكندرية ، ولمَّا سَمِع بمسير الفُرس إلى مصر هرب إلى قُبُرس فمات بها لعشر سنين من ولايته ، وخَلَا كرسيُّ الملكية بعده بالإسكندرية سبع سنين .

وكانت اليعاقبة بالإسكندرية قدّموا عليهم (انسطانيوس) فمكث فيهم ثلثي عشرة سنة ، وأسَرَدَ ما كانت الملكية آسَولُوا عليه من كنائس اليعقوبية ومات .

ثم ولي (اندرانيكون) بطركا على اليعاقبة فأقام ست سنين خَرِبَت فيها الدِّيرة ، ثم مات .

وولي مكانه لأوّل الهجرة (بنيامين) فمكث تسعا وثلاثين سنة . وفي خلال أيامه غَلَبَ هِرَقْلُ ملك الروم على مصر وملِكها .

وولي أخاه (منانيا) بطركا على الاسكندرية وواليا وكان ملكيا . ورأى بنيامين
البطرك في نومه من يأمره بالاختفاء فاختفى . ثم غضب (هرقل) على أخيه (منانيا)
لمعتقد في الدين فأحرقه بالنار ثم رمى بجثثته في البحر ، وبقى (بنيامين) مختفيا إلى
أن فتح المسلمون الإسكندرية فكتب له عمرو بن العاص بالأمان ، فرجع إلى
الإسكندرية بعد أن غاب عن كرسيه ثلاث عشرة سنة ، وبقى حتى مات في سنة
تسع وثلاثين من الهجرة ، واستمرت البطركية بعده في اليعقوبية بمفردهم وغلبوا
على مصر ، وأقاموا جميع كراسيهم أساقفة يعاقبة ، وأرسلوا أساقفتهم إلى النوبة
والحبشة فصاروا يعاقبة .

وخلفه في مكانه (أغاثوا) فحك سبع عشرة سنة ، ثم مات في سنة ست وخمسين
من الهجرة ، وهو الذي في أيامه قد انتزعت كنائس الملكية من اليعاقبة ، وولي عليهم
بطرك بعد أن أقاموا من لدن خلافة عمر بغير بطرك نحوًا من مائة سنة ورياسة
البطرك لليعاقبة وهم الذين يبعثون الأساقفة إلى النواحي . ومن هنا صارت النوبة
ومن وراءهم من الحبشة يعاقبة ، وهو الذي بنى كنيسة مرقص وبقيت حتى
هدمت أيام العادل أبي بكر بن أيوب .

وولي مكانه بطرك اسمه (يوحنا) .

ثم ولي البطركية بعده (ايساك) فأقام سنتين وأحد عشر شهرا [ومات] ،
وكانت تقدمته في الثامنة عشرة ليوشطيان ملك الروم ، وتقرر أن لا يقدم بطرك
إلا يوم الأحد .

(١) عبارة "العبرج ٢ ص ٢٢٧" وفي أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدي اليعاقبة وولى
عليهم الخ .

وقُدِّمَ عوضه (سيمون السرياني) فأقام سبعة سنين ونصفا ، ومات في الرابع والعشرين من ألب سنة أربعائة وست عشرة للشهداء في خلافة عبد الملك ابن مروان .

ويقال : إنه وصل إليه رسول من الهند يطلب منه أن يقدم لهم أسقفاً وقُسوساً فامتنع إلى أن يأمره صاحب مصر ، ففضى إلى غيره ففعل له ذلك .

وقُدِّمَ بعده في البطركية (الاسكندروس) في سنة إحدى وثمانين من الهجرة في يوم عيد مرقص الإنجيلي سنة أربعائة وعشرين للشهداء ، فسكت أربعاً وعشرين سنة ونصفا ، وقيل خمساً وعشرين سنة ، وقاسى شدة عظيمة ، وصودر دفعتين ، أخذ منه في كل دفعة ثلاثة آلاف دينار ، ومات في سنة ثمان ومائة ، وكانت وفاته بالإسكندرية .

وقُدِّمَ عوضه (قسيسا) فأقام خمسة عشر شهرا ومات .

فقدَّم مكانه (تادرس) في سنة تسع ومائة فأقام إحدى عشرة سنة ومات .

فقدَّم مكانه (ميخائيل) ^(١) في سنة عشرين ومائة فأقام ثلاثاً وعشرين سنة ولقى شداً من عبد الملك بن موسى نائب مروان الجعدي على مصر ثم من مروان لما دخل إلى مصر إلى أن قُتل في أبي صير وأطلق البطرك والنصارى نائب أبي العباس السفاح .

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة رُسم بإعادة ما استولى عليه اليعاقبة من كنائس الملكية بالديار المصرية إليهم ، فأعيدت وأقيم لهم بطرك ، وكانت الملكية قد أقاموا بغير بطرك سبعاً وتسعين سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين الفتح الإسلامي إلى خلافة هشام بن عبد الملك .

(١) في الأصل جاتيل والتصحيح عن المقرئ .

وفي سنة سبع وأربعين ومائة هـ رف أبو جعفر المنصور (ميخائيل) بطرك اليعاقبة ،
وأقام عوضه (مينا) فأقام تسع سنين ، ومات في خلافة الهادي «محمد بن المهدي» .
وقدّم مكانه (يوحنا) فأقام ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات سادس عشر طوبة سنة
خمسائة وخمس عشرة للشهداء .

ثم في سنة اثنتين وسبعين ومائة في خلافة الرشيد قدّم في البطركية (مُرْقُص الجليلي)
فأقام عشرين سنة وسبعين يوماً . وفي أيامه رسم الرشيد بإعادة كنائس الملكية التي
استولى عليها اليعاقبة ثانياً إليهم ، وثارَت العربان والمغاربة وحرّبوا الديرة بوادي هيب
ولم يبق فيها من الرهبان إلا اليسير ثم مات في سنة إحدى عشرة ومائتين .

وقدّم عوضه في البطركية (يعقوب) قيل في السنة الثالثة من خلافة المأمون .
وفي أيامه حُمِرت الديارات وزادت الرهبان إليها ، ومات في سنة اثنتين وعشرين
ومائتين .

وقدّم عوضه (سيماون) في السنة المذكورة في خلافة المعتصم فأقام سنة واحدة .
وقيل سبعة شهور وستة عشر يوماً . وخلا الكرسي بعده سنة واحدة وتسعة
وعشرين يوماً .

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين قدّم في البطركية (بطرس) ويقال (يوساب)
وكانت تقدمته في دير (يومقار) بوادي هيب حادي عشرى هاتور سنة خمسائة
وسبعة وأربعين للشهداء . وقيل : إنه قدّم في أيام المأمون ، وإنه أقام ثمانى عشرة
سنة ، وسير أساقفة إلى أفريقية والقيروان ، ومات سنة اثنتين وأربعين ومائتين ،
وخلا الكرسي بعده ثلاثين يوماً .

(١) وقُدِّمَ عوضه (جاتيل) في السنة العاشرة من خلافة المتوكل . ويقال : إنه كان قسًّا بدير بوحنس ، فأقام سنةً واحدةً وخمسة أشهر ، ثم مات ودفن بدير بومقار ، وهو أول من دُفِنَ [فيه] من البطارقة . وخلا الكرسي بعده أحدا وثمانين يوما .
وقُدِّمَ عوضه (قسما) في سنة أربع وأربعين ومائتين من الهجرة ، وهي الثانية عشرة من خلافة المتوكل ، وكان شماسا بدير بومقار ، فأقام سبع سنين وخمسة شهور ثم مات ودفن بدوشر ، وخلا الكرسي بعده أحدا وخمسين يوما .

وقُدِّمَ مكانه بطرك اسمه (اساسو) ويقال (سالوسو) في أول سنة من خلافة المعتز وأحمد بن طولون بمصر ، فأقام إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ومات ، وهو الذي عمل بجاري المياه التي تجري تحت الأرض من خليج الإسكندرية إلى أدريها .

ولما مات قُدِّمَ مكانه (ميخائيل) في خلافة المعتمد في سنة ثلاث وستين ومائتين ، فأقام خمسًا وعشرين سنة . وصاحبه أحمد بن طولون في عشرين ألف دينار ، فباع في المصادرة رباع الكنائس بالإسكندرية ، وبركة الحبش بظاهر مصر ، ومات .

فبقي الكرسي بعده أربع عشرة سنة شاغرا إلى سنة ثلثمائة . [وفي يوم الاثنين ثالث شوال سنة ثلثمائة^(٢)] احترقت الكنيسة العظمى بالإسكندرية التي كانت بنتها (كلا بطره) ملكة مصر هيكلًا لزلزل .

ثم قُدِّمَ البطرك (غبريال) في السنة السابعة من خلافة المقتدر ، وهي سنة إحدى وثلثمائة ، فأقام إحدى عشرة سنة ومات .

(١) في المقرئ ميكايل .

(٢) الزيادة عن المقرئ ليوضح الكلام .

فُقِّدَ مكانه البطرك (قسيسا) فأقام آنَتَيَّ عشرة سنة ومات . وفي السنة الأخيرة من رياسته (وهي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة) أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها وتبعوا كنائس اليعاقبة والنساطرة .

ولما مات قسيسا المذكور قَدِّموا عليهم بطركا لم أقف على اسمه ، فأقام عشرين سنة ، ثم مات .

وقُدِّمَ في البطركية (تاوفانيوس) من أهل إسكندرية في السنة الحادية عشرة من خلافة المطيع فأقام أربع سنين وستة أشهر ، ومات مقتولا في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة .

وقُدِّمَ مكانه البطرك (ميناء) في السنة الخامسة عشرة من خلافة المطيع ، والأخشيذ نائب بمصر ، فأقام إحدى عشرة سنة ثم مات . وخلا كرسي اليعاقبة بعد موته سنة واحدة .

ثم قُدِّمَ مكانه بطرك اسمه (أفراهام السرياني) في سنة ست وستين وثلاثمائة ، فأقام ثلاث سنين وستة أشهر ، ومات في أيام العزيز الفاطمي بمصر مسموما من بعض كُتَّاب النصارى : لإنكاره عليه التسري ، وقُطِعَ يدُ ذلك الكاتب بعد موته ، ومات لوقته . وخلا الكرسي بعده ستة أشهر .

وقُدِّمَ عوضه بطرك اسمه (فيلايوس) في سنة تسع وستين وثلاثمائة . وقيل : في السنة الخامسة للعزيز الفاطمي فأقام أربعاً وعشرين سنة وسبعة أشهر ومات .

وقُدِّمَ بعده بطرك اسمه (دخريس) في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم الفاطمي ، فأقام ثماناً وعشرين سنة ، ثم مات ودفن ببركة الحبش . وخلا كرسي

اليَعاقبة بعده أربعة وسبعين يوما . [ثم قَدِمَ اليَعاقبة بعده (سابونين) بطركا في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ، فأقام خمس عشرة سنة ومات ؛ فخلفا الكرسي بعده سنة (١) ونحسة أشهر] .

ثم قُدِّمَ بعده بطرك اسمه (افرستوديس) في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة في خلافة المستنصر الفاطمي ، فأقام ثلاثين سنة ، ومات في السنة الحادية والأربعين من خلافة المستنصر المذكور بالكنيسة المعلقة بمصر . وهو الذي جعل كنيسة بومر قورة بمصر وكنيسة السيدة بحارة الروم بطركية . وخلفا الكرسي بعده اثنين وسبعين يوما .

ثم قُدِّمَ بعده البطرك (كيرلس) فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف ، ومات بكنيسة المختارة بجزيرة مصر سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة . وخلفا الكرسي بعده مائة وأربعة وعشرين يوما .

وقدَّم عوضه بطرك اسمه (ميخائيل) في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، في أيام المستنصر الفاطمي صاحب مصر ، وكان قبل ذلك حبسا بسنجار ، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر ، ومات في المعلقة بمصر .

وقدَّموا عوضه بطركا اسمه (مقاري) سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بدير بومقار ، ثم كل بالإسكندرية ، وعاد إلى مصر وقُدِّس بدير بومقار ثم في الكنيسة المعلقة . وفي أيامه هدم الأفضل بن أمير الجيوش كنيسة بجزيرة مصر كانت في بستان اشتراه .

ولما مات قُدِّمَ عوضه بطرك اسمه (غبريال) أبو العلا صاعد ، سنة خمس وعشرين وخمسمائة في أيام الخافض الفاطمي ، وكان قبل ذلك شماسا بكنيسة بومر قورة ؛ فُقِّدَمَ

(١) الزيادة عن المقرئ ، وهي لازمة بها يتم الكلام .

بالمعلّقة، وكُمِّل بالإسكندرية، فأقام أربع عشرة سنة، ومات بكنيسة بومرقورة .
وخلا الكرسي بعده ثلاثة أشهر .

وقُدِّم بعده بطرك اسمه (ميخائيل) بن التقدوسي في السنة الخامسة عشرة من
خلافة الحافظ أيضا ، وكان قبل ذلك راهبا بقلّاية دنشري ، قُدِّم بالمعلّقة وكُمِّل
بالإسكندرية ، ومات بدير بومقار في رابع شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .
وخلا الكرسي بعده سنة واحدة وسبعين يوما .

وقُدِّم عوضه بطرك اسمه (يونس) بن أبي الفتح بالمعلّقة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية ،
فأقام تسع عشرة سنة ، ومات في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى
وخمسين وخمسمائة . وخلا الكرسي بعده ثلاثة وأربعين يوما .

وقُدِّم بعده بطرك اسمه (مرقص) أبو الفرج بن زرعة في سنة إحدى وستين
 وخمسمائة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية ، فأقام اثنين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة
وعشرين يوما ، وفي أيامه أُحرقت كنيسة بومرقورة بمصر ، ثم مات . وخلا الكرسي
بعده سبعة وعشرين يوما .

وقُدِّم بعده بطرك اسمه (يونس) بن أبي غالب في عاشر ذي الحجة سنة أربع وثمانين
 وخمسمائة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية ، وأقام سنًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا
 وثلاثة عشر يوما ، ومات في رابع عشر رمضان المعظم قدره ، سنة ثلثي عشرة وستمائة
 بالمعلّقة بمصر ، ودُفِن ببركة الحبش .

وقُدِّم بعده بطرك اسمه (داود) بن يوحنا ، ويعرف بابن لقلق بأمر العادل بن
 الكامل ، فلم يُوافق عليه المصريون فأبطلت بطركيته ، وبقى الكرسي بغير بطرك
 تسع عشرة سنة .

ثم قُدِّم بطرك اسمه (كيرلس) ^(١) داود بن لقاق في التاسع والعشرين من رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فأقام سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، ومات في السابع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين وستمائة ، ودُفِنَ بدير الشَّعْبَ بالجيزة . وخلا الكرسي بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما .

وقُدِّم بعده بطرك اسمه (سيوس) بن القسّ أبي المكارم ، في رابع رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة وكَمَل بالأسكندرية ، وأقام إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات في ثالث المحرم سنة ستين وستمائة . وخلا الكرسي من بعده خمسة وثلاثين يوما ^(٢) .

ثم قُدِّم بعده في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون البطرك (بنيامين) وهو الذي كان معاصرا للمقر الشهابي بن فضل الله ، ونقل عنه بعض أخبار الحبشة . ثم قُدِّم بعده المؤتمن (جرجس) بن القسّ مفضّل في شهور سنة أربع وستين وسبعمائة .

ثم قُدِّم بعده البطرك متى وطالت مدّته في البطركية ثم مات في شهور سنة اثنتي عشرة وثمانمائة .

وأستقر بعده الشيخ الأجدد (رفائيل) في أواخر السنة المذكورة ، وهو القائم بها إلى الآن .

(١) عبارة المقرئ بعد ما تقدم "ثم قدم هذا القس" يعنى به داود بن لقاق المتقدم فانه بعد أن منع عنها المدة المذكورة قدم اليها في التاريخ المذكور .

(٢) في الأصل إحدى وعشرين وهو خطأ ، والتصحيح عن المقرئ .

(٣) في المقرئ خمسة وثمانين يوما .



أما ملوكهم القائمون ببلادهم ، فلم يتَّصلُ بنا تفاصيل أخبارهم ؛ غير أنَّ المشهور أنَّ ملكهم في الزمن المتقدم كان يلقَّب النَجَاشِيَّ ، سَمَةً لِكُلِّ مَنْ ملك عليهم ؛ إلى أن كان آخِرُهُم (النجاشي) الذي كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وكتب إليه بإسلامه ، ومات وصلى عليه صلاة الغائب ؛ وكان اسمُه بالحِمْشِيَّة (أَصْحَمَةَ) ويقال (صَحْمَةَ) ومعناه بالعربية عَطِيَّة .

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أن الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمَّى بلغتهم (الحَطِّي) بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مشاة تحت في الآخر . ومعناه السلطان اسمًا موضوعًا لكل مَنْ قام عليهم ملكًا كبيرًا . ثم قال : ويقال : إن تحت يده تسعة وتسعين ملكًا ، وهو لهم تمام المائة . وذكر أن الملك القائم بمملكته في زمانه اسمُه (عَمْدَسِيُون) ومعناه ركن صهيون . قال : وصهيون بيعة قديمة البناء بالإسكندرية معظمة عندهم . قال : ويقال : إنه من الشجاعة على أوفر قسم ، وإنه حسن السيرة ، عادل في رعيته . قال في "التعريف" : وقد بلغنا أن الملك القائم عليهم أسلم سرًّا ، وأستمر على إظهار دين النصرانية إبقاءً للملكة . فيحتمل أنه (عَمْدَسِيُون) المقدم ذكره ، ويحتمل أنه غيره . قال في "التعريف" : ومُدبَّر دولته رجل يقرب إلى بني الأرشى الأطباء بدمشق . قال في "مسالك الأبصار" : ومع ما هم عليه من سعة البلاد ، وكثرة الخلق والأجناد ، مفتقرون إلى العناية والملاحظة من صاحب مصر . لأن الماطران الذي هو حاكم شرعهم في جميع بلادهم من أهل النصرانية لا يُقام إلا من الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية ، بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر

للبطرك المذكور بارسال مطرانٍ إليهم . وذلك بعد تقدّم سؤال ملك الحبشة الذى هو الحطّى وإرسال رُسُلِهِ وهَدَاياه . قال : وهم يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدِر إلى مصر، ويُساعدون على إصلاح سُلوَكه تقرباً لصاحب مصر .

وقد ذكر أبْن العميد مؤرّخ النصارى فى تاريخه : أنه لما توقف النيل فى زمن المستنصر بالله الفاطمى ، كان ذلك بسبب فسادِ مجاريه من بلادهم ، وأنَّ المستنصر أرسل البطرك الذى كان فى زمانه إلى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجاريه . لكن قد تقدّم فى الكلام على النيل عند ذكر مملكة الديار المصرية من هذه المقالة ما يخالف ذلك .

الجملة السادسة

(فى ترتيب مملكتهم)

قال فى "مسالك الأبصار" : يُقال إن الحطّى المذكور وجيشه لهم خيامٌ يتقلونها معهم فى الأسفار والتّزهات ، وإنه إذا جلس الملك يجلس على كرسيّ ، ويجلس حول كرسيّه أمراء مملكته وكبّراؤها على كرسيّ من حديد : منها ما هو مُطعم بالذهب ، ومنها ما هو ساذج على قدر مراتبهم . قال : ويُقال إن الملك مع نفاذ أمره فيهم يتثبّت فى أحكامه . ولم يزد فى ترتيب مملكتهم على ذلك .

ولمّا ملك الحبشة هذا مكتبةً عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، أتى ذكرها فى الكلام على المكتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني

(من بلاد الحبشة ما بيد مسلمي الحبشة)

وهي البلادُ المُقابلَةُ لِبَرِّ الْيَمَنِ عَلَى أَعَالَى بَحْرِ الْقُزُومِ ، وما يتصلُّ به من بحر الهند ، ويعبرُ عنها ” بِالطَّرَازِ الْإِسْلَامِيِّ “ لأنها على جانب البحر كالطَّرَازِ لَهُ . قال في ” مسالك الأبصار “ : وهي البلاد التي يُقال لها بِمِصْرَ وَالشَّامِ بلادُ الزَّيْلَعِ . قال : والزَّيْلَعُ إنما هي قريةٌ من قُراها ، وجزيرةٌ من جزائرها ، غلب عليها اسمُها . قال الشيخ عبد المؤمن الزَّيْلَعِيُّ الفقيه : وطولُها بَرًّا وبحرًا خاصًّا بها نحو شهرين ، وعرضُها يمتدُّ أكثر من ذلك ، لكن الغالب في عرضها أنه مُقْفَرٌ ، أما مقدار العمارة فهو ثلاثة وأربعون يومًا طولًا ، وأربعون يومًا عرضًا . قال في ” مسالك الأبصار “ : ويؤنَّهم من طين وأحجار وأخشاب ، مسقَّفةٌ بِجَمْلُونَاتٍ وَقِيَابٍ ، وليست بذوات أسوار ولا لها نخامة بناء ، ومع ذلك فلها الجوامعُ ، والمساجدُ ، وتقام بها الخطبُ والجمع والجماعاتُ ، وعند أهلها محافظةٌ على الدِّينِ ، إلا أنه لا تُعرف عندهم مدرَّسةٌ ، ولا خانقاهُ ، ولا رباطٌ ، ولا زاويةٌ . وهي بلادٌ شديدةُ الحرِّ ، وألوانُ أهلها إلى الصَّفَاءِ ، وليست شعورهم في غاية التَّفَلُّلِ كما في أهل مالئ وما يليها من جنوب المغرب ، وفِطْمُهُمْ أَنَبَسُهُ من غيرهم من السودان ، وفِطْرُهُمْ أَذْكَى ، وفيهم الزُّهادُ ، والأبرارُ ، والفُقهاءُ والعلماءُ ، ويمتدُّهُيُونَ بِمَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ ، خلا وفات فان ملكها وغالب أهلها شافعيةٌ .

وتشتمل على ستِّ جمل :

الجملة الأولى

(فما اشتملت عليه من القواعد والأعمال)

مقتضى ما ذكره في "مسالك الأبصار" و"التعريف" أن هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد ، كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل :

القاعدة الأولى

(وفات)

قال في "تقويم البلدان" : بالواو المفتوحة والفاء ثم ألف وتاء مشناة فوق في الآخر ، والعامة تسميها (أوفات) . ويقال لها أيضا (جيرة) بفتح الجيم والباء الموحدة والراء المهملة ثم هاء في الآخر ، والنسبة إلى جيرة جبرتي . وموقعها بين الإقليم الأول وخط الاستواء . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض ثمان درج . قال : وعن بعض المسافرين أنها من أكبر مدن الحبشة . وهي على نثر من الأرض ، وعمارتها متفرقة ، ودار الملك فيها على تل والقلعة على تل ، ولها وادٍ فيه نهر صغير ، وتطر في الليل غالباً مطراً كثيراً ، وبها قصب السكر . قال في "مسالك الأبصار" : وقال الشيخ عبد الله الزبلي : وطول مملكتها خمسة عشر يوماً وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد . قال : وكلها عامرة أهلة بقرى متصلة ، وهي أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى السواحل المسامنة لليمن ، وهي أوسع الممالك السبع أرضاً ، والإجلاب إليها أكثر لقربها من البلاد . قال في "مسالك الأبصار" : وعسكرها خمسة عشر ألفاً من الفرسان ، ويتبعهم عشرون ألفاً أكثر من الرجال ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها عند ذكر أحوال سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن مضافاتها (زَيْلَعٌ) . قال في "تقويم البلدان" : الظاهر أنها بفتح الزاي المعجمة وسكون الياء المشناة التحتية وفتح اللام ثم عين مهملة في الآخر . وهي فُرْضة من فَرَضَ هذه البلاد ، وموقعها بين الإقليم الأول وَخَطَّ الاستواء . قال في "القانون" : حيث الطول إحدى وستون درجة ، والعرض ثمان درج . قال في "تقويم البلدان" : وهي في جهة الشرق عن (وَقَاتِ) وبينهما نحو عشرين مرحلة . قال ابن سعيد : وهي مدينة مشهورة وأهلها مسلمون ، وهي على رُكْنٍ من البحر في وَطَاءَةٍ من الأرض . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض مَنْ رآها أنها مدينة صغيرة نحو عِيَذَابٍ في القَدَرِ ، وهي على الساحل والتَّجَارُ تَزِلُ عندهم فَيُضِيفُونَهُمْ وَيَتَأَعَوْنَ لَهُمْ . قال ابن سعيد : وهي شديدة الحرِّ ومأواها عذبي من جفارات ، وليس لهم بسايتن ، ولا يَعْرِفُونَ الفَوَاكِهَ . قال في "القانون" : وفيها مغاصٌ لُؤْلُؤِيٌّ . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنها في مملكة صاحب أَوْفَاتِ . وذكر في "تقويم البلدان" عن بعض مَنْ رآها أن فيها شيوخاً يَحْكُمُونَ بين أهلها ، وقال : إن بينها وبين عَدَنَ من اليمن في البحر ثلاث مجاري ، وهي عن عَدَنَ في جهة الغرب بميلة إلى الجنوب .

القاعدة الثانية

(دَوَارُو)

بفتح الدال المهملة وواو ثم ألف وراء مهملة وواو وهي مدينة ذكرها في "مسالك الأبصار" و "التعريف" : ولم يتعرَّضَ لصفحتها . وذكر في "مسالك الأبصار" : أنها تلي أوفات المقدمة الذكر ، وإن مملكتها طولها

خمسة أيام ، وعرضها يومان . ثم قال : وهى على هذا الضيق ذات عسكرٍ جمٍّ ،
نظير عسكر أوقات فى الفارس والراجل . وسيأتى الكلام على تفصيل أحوالها
مع أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثالثة

(أرابينى)

وهى مدينة ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" أيضا ، ولم يذكر شيئا من
صفتها . ثم ذكر أن مملكتها مربعة : طولها أربعة أيام ، وعرضها كذلك ؛ وعسكرها
يقارب عشرة آلاف فارس . أما الرحالة فكثيرة للغاية .

القاعدة الرابعة

(هندية)

قال فى "تقويم البلدان" : بالهاء والذال المهملة والياء المشنة التحتية ثم هاء
فى الآخر على ما ذكره بعض من رآها . وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة
وبين خطّ الاستواء . قال : والقياس أنها حيثُ الطول سبع وخمسون درجة ،
والعرض سبعُ درج . وذكر عن بعض المسافرين أنها جنوبيّ (وَقَات) . قال
فى "مسالك الأبصار" : وهى تلى أرابينى المقدم ذكرها ، وطولُ مملكتها ثمانية أيام ،
وعرضها تسعة أيام ، وصاحبها أقوى إخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة ،
وأكثر خيلا ورجالا ، وأشدُّ بأسا على ضيق بلاده عن مقدار أوقات . قال :
ولملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرحالة ، فإنهم خلق كثير مثل
الفرسان مرتين أو أكثر . قال فى "تقويم البلدان" : ومنها تُجلب الخُدام ، وذكر

أنهم يَخْصُونَهُمْ بَقْرِيَّةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا . وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : أَنَّ الْخُدَّامَ تُجَلِّبُ إِلَيْهَا مِنْ بِلَادِ الْكُفَّارِ . ثُمَّ حَكَى عَنِ الْحَاجِّ فَرَجِ الْقَوَى التَّاجِرِ : أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ مَلِكَ أَمْحَرَا يَمْنَعُ مِنْ خَصِي الْعَبِيدِ وَيُنْكَرُ ذَلِكَ وَيُسَدِّدُ فِيهِ . وَإِنَّمَا السَّرَاقُ تَقْصِدُ بِهِمْ مَدِينَةَ أَسْمَهَا (وَسَلُّوْ) بَفَتْحِ الْوَاوِ وَالشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَاللَّامِ ، أَهْلُهَا هَمَجٌ لِأَدِينٍ عِنْدَهُمْ فَتُخْصَى بِهَا الْعَبِيدُ ، لَا يُقَدِّمُ عَلَى هَذَا فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْخَبَشَةِ سِوَاهُمْ . قَالَ : وَلِلَّذَلِكَ التَّجَّارُ إِذَا اشْتَرَوْا الْعَبِيدَ يُخْرِجُونَ بِهِمْ إِلَى (وَسَلُّوْ) فَيَخْصُونَهُمْ بِهَا لِأَجْلِ زِيَادَةِ الثَّمَنِ ؛ ثُمَّ يَجْهَلُ مَنْ خُصِيَ مِنْهُمْ إِلَى مَدِينَةِ (هَدْيَةٍ) لِقَرَبِهَا مِنْ (وَسَلُّوْ) فَتُعَادُ عَلَيْهِمُ الْمَوْسَى مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَنْفَتَحَ مَجْرَى الْبُولِ لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ آسَدَ عِنْدَ الْخَصِيِّ بِالْقَيْحِ ، فَيُعَاجِلُونَ بِهِدْيَةً إِلَى أَنْ يَبْرَأُوا ، وَلِأَنَّ أَهْلَ (وَسَلُّوْ) وَإِنْ كَانَ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْخَصِيِّ فَلَيْسَ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْعِلَاجِ ، بِخِلَافِ أَهْلِ هَدْيَةٍ فَإِنَّهُمْ قَدْ دَرَبُوا [عَلَى] ذَلِكَ وَعَرَفُوهُ . ثُمَّ قَالَ : وَمَعَ هَذَا فَالَّذِي يَمُوتُ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي يَعِيشُ ؛ وَأَضُرُّ مَا عَلَيْهِمْ حُلُمُهُمْ بِلَا مَعَالِجَةَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، فَإِنَّهُمْ لَوْ عَوَّلُوا فِي مَكَانٍ خَصَّيْهِمْ كَانَ أَرْفَقَ بِهِمْ .

القاعدة الخامسة

(شَرْحًا)

بَفَتْحِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَسَكُونِ الرَّاءِ الْمُهْمَلَةِ وَحَاءِ ثُمَّ أَلْفٌ .

وَهِيَ مَدِينَةُ تَلِي (هَدْيَةٍ) الْمَقْدَمَةِ الذِّكْرُ . ذَكَرَهَا فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" وَ"التَّعْرِيفِ" وَلَمْ يَصْرِّحْ لَهَا بِوَصْفٍ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَطَوَّلَ مَمْلَكَتَهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَعَرَضُهَا أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ . قَالَ : وَعَسَكَرَهَا ثَلَاثَةَ آلَافِ فَارِسٍ ، وَرَجَالَةٍ مِثْلَ ذَلِكَ صَرَتَيْنِ فَأَكْثَرُ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى سَائِرِ أَحْوَالِهَا مَعَ سَائِرِ أَخَوَاتِهَا فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

القاعدة السادسة

(بالي)

بفتح الباء الموحدة وألف ثم لام وياء آخر الحروف .

وهي مدينة تلي شرحاً المقدمة الذكروها في "المسالك" و "التعريف" قال في المسالك : ولكنها أكثر خصباً ، وأطيب سكناً ، وأبرد هواء ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة السابعة

(دارة)

بفتح الدال المهملة وألف بعدها راء ثم هاء . وهي مدينة تلي (بالي) المقدمة الذكر، ذكرها في "المسالك" و "التعريف" . قال في "المسالك" : وطولها ثلاثة أيام ، وعرضها كذلك . وهي أضعف أخواتها حالاً ، وأقلها خيلاً ورجالا . قال : وعسكرها لا يزيد على ألفي فارس ، ورجالة كذلك ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها في الكلام على سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في الموجود بهذه الممالك ، على ما ذكره في "مسالك الأبصار")

قد ذكر أن عندهم من المواشي الخيل العرب ، والبغال ، والحمر ، والبقر ، والغنم بكثرة . أما المعز فقليل عندهم . ومن الوحش : البقر ، والحمر ، والغزلان ،

والمها، والإيل، والكركدن، والفهد، والأسد، والضبعة العرجاء، وتسمى عندهم
مرعيف، وعندهم جواميس برية تُصاد كما تقدم في إقليم مالى. وعندهم من الطيور
الدواجن الدجاج، ولكن لا رغبة لهم في أكله استقذاراً له: لأكله القمامات والزبالات،
ودجاج الحبش يصيدونه ويأكلونه، وهو عندهم مُستطاب. وعندهم من الحبوب
الحنطة، والشعير، والذرة، والطافي: وهو حُبُّ نحو الخردل أحمر اللون على ما تقدم
ذكره في الكلام على القسم الأول من بلاد الحبشة. وعندهم الخردل أيضاً. وعندهم
من الفواكه العنب الأسود على قلة، والموز، والرمان الحامض، والتوت الأسود
على قلة فيه، والجوز بكثرة. وعندهم من الحمضات: الأترج، والليمون، والقليل
من النارج. وعندهم تين برى، وخوخ برى، ولكنهم لا يأكلون الخوخ دون
التين. وعندهم فواكه أخرى لا تعرف بمصر والشام والعراق، منها شجر يسمى
كشباد، ثمره أحمر على صفة البسر، وهو حلو ماوى، وشجر يسمى كوشى، ثمره مستدير
كالبرقوق، ولونه أصفر خلوقي كالشمس، وهو من ماوى، وشجر يسمى طانة، ثمره
أصفر من البسر، وفي وسطه شبه النوى، وهو حلو صادق الحلاوة ونواه يؤكل معه
لعدم صلابته. وشجر اسمه أوجاق - بفتح الواو والجيم - ثمره أكبر من حب الفلفل
وطعمه شبيه به في الحرافة مع بعض حلاوة. وعندهم شجر حان المقسّم ذكره
في القسم الأول من بلاد الحبشة، وهو الذى يؤكل عندهم للدّكاء والفطنة، ولكنه
يقل النوم والنكاح على ما تقدم ذكره هناك. وعندهم من أنواع المقائى البطيخ
الأخضر، والخيار، والقرع. ومن الخضروات اللوبيا، والكُرنب، والباذنجان،
والشمار، والصعتر. أما الملوخيا فإنها تطلع عندهم برية.

الجملة الثالثة

(في معاملاتهم وأسعارهم)

أما معاملاتهم فعلى ثلاثة أنواع . منها ما هو بالأعراض مُقايضةً : تباع البقر بالغنم ونحو ذلك كما في القسم الأول من بلاد الحبشة . ومنها ما هو بالدنانير والدرهم كمصر والشام ونحوهما ، وهو (وقات) وأعمالها خاصة . قال في "مسالك الأبصار" : وليس بأوقات سكة تضرب بل معاملاتهم بدنانير مصر ودرهمها الواصلة إليهم صبة التجار . وذلك أنه لو ضرب أحد منهم سكة في بلاده لم ترج في بلد غيره . ومنها ما هو بالحككات ، جمع حكنة - بفتح الحاء المهملة وضم الكاف والنون - كما ضبطه في "مسالك الأبصار" وهي قطع حديد في طول الإبرة ، ولكنها أعرض منها بحيث تكون في عرض ثلاث إبر ، يتعامل بها في سائر هذه البلاد سوى ما تقدم ذكره . قال : وليس لهذه الحكنة عندهم سعر مضبوط بل تباع البقرة الجيدة بسبعة آلاف حكنة ، والشاة الجيدة بثلاثة آلاف حكنة . وتكال غلتهم بكيل أسمه الرابضة ، بمقدار ونية من الكيل المصري . وزنة أوطالهم اثنتا عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم بصنجة مصر .

وأما الأسعار فكلها رخيصة حتى قال في "مسالك الأبصار" : إنه يُباع بالدرهم الواحد عندهم من الحنطة بمقدار حمل بغل ، والشعير لاقيمة له . وعلى هذا فقيس .

الجملة الرابعة

(في ملوكهم)

قد تقدّم في الكلام على القسم الأول من بلاد الحبشة أن الحطّي الذي هو
سلطانهم الأكبر تحت يده تسعة وتسعون ملكاً وهو لهم تمام المائة . وقد ذكر
في "التعريف" : أن هذه السبعة من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يده .
قال في "مسالك الأبصار" : والمُلك منهم في بيوت محفوظةٍ إلّا بآلِي اليوم ،
فإن المُلك بها صار إلى رجل ليس من أهل بيت المُلك ، تقرب إلى سلطان أحمرا
حتى ولّاه مملكة بالي فاستقلّ ملكاً بها . على أنه قد وليها من أهل بيت المُلك
رجال أكفاء ، ولكنّ الأرض لله يُورثها مَنْ يشاء . قال : وجميع ملوك هذه
الممالك وإن توارثوها لا يستقلّ منهم بملكٍ إلّا مَنْ أقامه سلطان أحمرا ، وإذا
مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جميعهم سلطان أحمرا ، وتقربوا إليه جهداً
الطاقة ، فيختار منهم رجلاً يُولّيه ، فإذا ولّاه سمع البقية له وأطاعوا ، فهم له كالنواب ،
وأمرهم راجع إليه . ثم كلّهم متفقون على تعظيم صاحب أوقات ، مُنقادون إليه .
ثم قال : وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء ، لضعف تركيب أهلها ،
وقلة محصول بلادهم ، وتسلط الحطّي سلطان أحمرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة
الدين ، ومباعدة ما بين النصاري والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كلهم متفرقة ،
وذات بينهم فاسدة .

ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزبائني وغيره : أنه لو أنفقت هذه الملوك السبعة
وأجتمعت ذات بينهم ، قدّروا على مدافعة الحطّي أو التماسك معه ، ولكنهم مع
ماهم عليه من الضعف وأفتراق الكلمة بينهم تنافس . قال : وهم على ما هم عليه

من الدلة والمسكنة للخطى سلطان أمحرا عليهم قطائع مقررة، تحمل إليه في كل سنة من القماش الحرير والكتان، مما يُجلب إليهم من مصر واليمن والعراق . ثم قال : وقد كان الفقيه « عبد الله الزيلعي » قد سعى في الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا إلى مصر في تنجز كتاب البطريك إليه ، بكف أذنيه عن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم . وبرزت المراسم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن نفسه كتابا بليغا شافيا ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال ، وأنه حرم هذا على من يفعله ، بعبارات أجاد فيها ، ثم قال : وفي هذا دلالة على الحال .

قلت : وقد كتبت في أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتاب عن السلطان في معنى ذلك ، وقرينه كتاب من البطريك (متى) بطريك الإسكندرية يومئذ بمعناه . وتوجه به إلى الخطى سلطان الحبشة ، « برهان الدين الدماطي » فذهب وعاد بالحياء من جهة الملك ؛ لكن ذكر عنه أنه أتى أمورا هناك تقدر في عقيدة ديانتهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وستأتى الإشارة إلى المكتبة إلى هؤلاء الملوك السبعة في المقالة الرابعة في الكلام على المكتبات إن شاء الله تعالى .

الجملة الخامسة

(في زي أهل هذه المملكة)

أما لبسهم ، فإنه قد جرت عادتهم أن الملك يعصب رأسه بعصابة من حرير ، تدور بدائر رأسه ، ويبقى وسط رأسه مكشوقا ، والأمراء والجنود يعصبون رؤوسهم كذلك بعصائب من قطن ، والفقهاء يلبسون العائم ، والعامة يلبسون كوافي بيضا

طاقيات ؛ والسُلطان والجند يترزون بثياب غير مخيطة : يُشَدُّ وسطه بثوبٍ ، ويترَّر
بآخره ؛ ويلبسون مع ذلك سراويلاتٍ . ومنَ عداهم من الناس يقتصرُون على شَدِّ
الوَسَطِ والأَتَازِ خاصَّةً بلا لبس سراويل . وربما لبس القمصان منهم بعضُ
الفقهاء وأرباب النعم .

وأما ركوبهم الخيل ، فإنهم يركبونها بغير سروج ، بل يوطأ لهم على ظهورها يجلود
مِرْعَزَى حَتَّى ملوكهم .
وأما سلاحهم فغالبة الحِراب والنَّشاب .

الجملة السادسة

(في شعار الملك وترتيبه)

أما شعار الملك ، فقد جرت عادتهم أن الملك إذا ركب تقدَّم قُدَّامَهُ الحُجَّاب
والنُّقباء لطرد الناس ، ويضرب بالشَّبابَة أمامه ، ويضرب معها بنبوقات من خشب ،
في رءوسها قرون مجوفة ، ويدقُّ مع ذلك طبولٌ معلقة في أعناق الرجال تسمى عندهم
الوَطَواط . ويتقدَّم أمام الكل بوقٌ عظيم يسمى الجنباء ، وهو بوق ملوَّى من قرن
وحش عندهم من نوع بقر الوحش اسمه (عجَزين) في طول ثلاثة أذرع ، مجوف
يُسمَعُ على مسيرة نصف يوم ، يَعْلَمُ من سمعه ركوبَ الملك ، فيبادر إلى الركوب
معه من له عادةً به .

وأما ترتيب الملك عندهم ، فإن من عادتهم أن الملك يجلس على كرسيٍّ من حديد
مُطَّعَمٍ بالذهب ، علوه أربعة أذرع من الأرض ، ويجلس أكابرُ الأمراء حوله

على كراسى أخفض من كرسية ، وبقية الأمراء وقوف أمامه ، ويحمل رجلان السلاح على رأسه . ويختص صاحب (وفات) بأنه إذا ركب حمل على رأسه حتر على عادة الملوك .

ثم إن كان الملك راكبا فرسا ، كان حامل الحتر ماشيا بازائه والحتر بيده ، وإن كان راكبا بغلا ، كان حامل الحتر رديفه والحتر بيده على رأس الملك .

وبالجملة فإنه يعتد من حشمة الملك أو الأمير عندهم أنه إذا كان راكبا بغلا أن يُرَدَف غلامه خلفه ، بخلاف ما إذا كان راكبا فرسا فإنه لا يُرَدَف خلفه أحدا . ومما يعتد بـ (وفات) من حشمة الملك أو الأمير أنه إذا مشى يتوكل على يدي رجلين . وملوكهم تنصلي للحكم بأنفسهم وإن كان عندهم القضاة والعلماء . وليس لأحد من الأمراء ولا سائر الجند إقطاعات على السلطان ولا نقود كما بمصر والشام ، بل لهم الدواب السائمة . ومن شاء منهم زرع واستغل ولا يعارض في ذلك . وليس لأحد من ملوكهم سباط عام ، بل إنما يمد سباطه له ولخاصته ، ولكنه يفرق على أمرائه بقرا عوضا عن أمر أكلهم على السباط . وأكثر ما يعطى الأمير الكبير منهم مائتا بقرة .

قلت : وأهمل المقتز الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" و"التعريف" عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين .

منها (جزيرة دهلك) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الدال المهملة وسكون الهاء ثم لام مفتوحة وكاف . وهي جزيرة في بحر القلزم ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول إحدى وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي جزيرة مشهورة على

طريق المسافرين في بحر عِيَذَاب إلى اليَمَن . قال ابن سعيد : غَرْبِيَّ مدينة (حَلِي) من بلاد اليَمَن ، فطولها نحو مائتي ميل ، وبينها وبين بَرِّ اليَمَن نحو ثلاثين ميلاً [وَمَلِكْ دَهْلَك من الحبش المسلمين] وهو يُدَارَى صاحب اليَمَن .^(١)

ومنها (مدينة عَوَان) بفتح العين المهملة والواو وألف ثم نون . وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مقابل (شَهَامَةِ اليَمَن) حيثُ الطولُ ثمانٌ وسبعون درجة ، والعرضُ ثلاث عشرة درجةً ونصف درجة . قال في "تقويم البلدان" : وإذا كان وقت الضحى ظهر منها (الجَنَاح) وهو جبل عالٍ في البحر .

ومنها (مدينة مَقْدَشُو) بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة ثم شين^(٢) معجمة وواو في الآخر كما نقله في "تقويم البلدان" عن ضبطه في "مُزِيل الأرتياب" بالشكل . وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وَحَطَّ الأستواء . قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتان وسبعون درجةً ، والعرض درجتان . قال في "مُزِيل الأرتياب" : وهي مدينة كبيرة بين الزَنْج والحَبْشَة . قال : وهي على [بحر] الهند ، ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر في زيادته في الصَّيف . قال : وقد ذكر أنه شقيقٌ لنيل مصر في مَحَرَّجه من مَجِيئِهِ كوراء ، ومَصْبِهِ ببحر الهند على القُرْب من مَقْدَشُو .

قلت : وقد أتى الخطي ملك الحبشة النصارى على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخرَّبها وقتل أهلها وحرَّق ما بها من المصاحف وأكره الكثير منهم على الدخول في دين النصرانية ، ولم يبق من ملوكها سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دَهْلَك تحت طاعة الخطي ملك الحبشة وله عليه إتاوة مقررة ، والسلطان سعد الدين

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

(٢) ضبطها ياقوت بفتح الدال .

صاحب زباج وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته بينه وبينه الحروب لا تنقطع ،
وللسلطان سعد الدين في كثير من الأوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد نصره
من يشاء .



وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنْ مَمَالِكِ السُّودَانِ هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْهَا ، وَإِلَّا فَوْرَاءَ ذَلِكَ
بِلَادُ نَائِيَةِ الْجَوَانِبِ بَعِيدَةُ الْمَرْمَى مِنْتَقِطَعَةِ الْأَخْبَارِ .

مِنْهَا (بِلَادُ الزَّيْجِ) . وَهِيَ بِلَادُ شَرْقِيِّ الْخَلِيجِ الْبَرْبَرِيِّ الْمَقْدَمُ ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ
عَلَى الْبَحَارِ ، تُقَابِلُ بِلَادِ الْخَبَشَةِ مِنَ الْبَرِّ الْآخَرِ .

وَقَاعَدَتْهَا (سُقَالَةُ الزَّيْجِ) . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" بِالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ وَالْفَاءِ ثُمَّ أَلْفٍ
وَلَامٍ وَهَاءٍ فِي الْآخِرِ . وَمَوْقِعُهَا جَنُوبِيَّ خَطِّ الْأَسْتَوَاءِ . قَالَ فِي "الْقَانُونِ" :
حَيْثُ الطَّوْلُ نَحْسُونُ دَرَجَةً ، وَالْعَرْضُ فِي الْجَنُوبِ دَرَجَتَانِ . قَالَ فِي "الْقَانُونِ" :
وَأَهْلُهَا مُسْلِمُونَ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَأَكْثَرُ مَعَايِشِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَلِبَاسُهُمْ
جُلُودُ الثَّمُورِ . وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَنَّ الْخَلِيلَ لَا تَعِيشُ عِنْدَهُمْ ، وَعَسْكَرُهُمْ رَجَالَةٌ ، وَرَبَّمَا
قَاتَلُوا عَلَى الْبَقَرِ .

وَمِنْهَا (بِلَادُ الْهَمَجِ) جَنُوبِيَّ بِلَادِ التَّنْكَرُورِ . فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ سَعِيدٍ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى أَصْنَافِ
السُّودَانِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ [الدَّمَامِدُ] ^(١) يُشْبِهُونَ التَّنَرَّ ، خَرَجُوا فِي زَمَنِ خُرُوجِهِمْ
فَأَهْلَكُوا مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبُلْدَانِ . وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" عَنْ ابْنِ أَمِيرٍ حَاجِبٍ
وَالِي مِصْرَ عَنْ مَنْسَا مُوسَى مَلِكِ التَّنْكَرُورِ أَنَّهُمْ كَالْتَّنَرِّ فِي تَدْوِيرِ وُجُوهِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَكُونُ
خُيُولًا مُشَقَّقَةً الْأَنْوَفِ كَالْأَكْدِيشِ ، وَأَنَّ هَمَجَ السُّودَانِ عَدَدُ لَا يَسْتَوِعُهُمُ الزَّمَانُ
وَأَنَّ مِنْهُمْ قَوْمًا يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من مسالك الأبصار .

الفصل الرابع

من الباب الرابع من المقالة الثانية

(في الجهة الشمالية عن ممالك الديار المصرية ومضافاتها، خلا ما تقدم ذكره
 مما انضم إلى ممالك المشرق من شمالي الشرق، نحو أرمينية، وأران،
 وأذربيجان، وشمالي خراسان، وشمالي مملكة توران: من خوارزم،
 وما وراء النهر، وبلاد الأذق، وبلاد القرم، وما إلى ذلك
 وما انضم إلى ممالك المغرب من شمالي الغرب،
 وهو الأندلس)

وينقسم ذلك إلى قسمين :

القسم الأول

(ما بيد المسلمين مما في شرقي الخليج القسطنطيني فيما بينه وبين أرمينية
 وهي البلاد المعروفة ببلاد الروم)

قال في "التعريف": وتعرف الآن ببلاد الدربندات . وقد سماها في "التعريف"
 و "مسالك الأبصار" بلاد الأتراك، وكأنه يريد بالأتراك التركمان، فإنهم هم الذين
 أنضاف ملكها بعد ذلك إليهم، على ما سيأتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .
 وقد ذكر في "تقويم البلدان" أنه يحيط بهذه البلاد من جهة الغرب بحر الروم،
 وعامة الخليج القسطنطيني، وبحر القرم . ومن جهة الجنوب بلاد الشام والجزيرة .
 ومن جهة الشرق أرمينية . ومن جهة الشمال بلاد الكرچ وبحر القرم . وذكر

في "التعريف" ما يخالف ذلك فقال : إنها منحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني ، تنتهي من شرقها إلى بحر القرم المسمى ببحر نيطش وما نيطش ، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني ، وتنتهي متشاملة إلى القسطنطينية ، وتنتهي جنوبا إلى بلاد لاؤن : وهي بلاد الأرمن يحدها البحر الشامي . وبالجملة فإنها مفارقة مايسامت شرقها من بلاد الأرمن المضافة إلى بلاد الشام من ممالك الديار المصرية . والحاصل أن هذه البلاد مبندوها من الشرق مما يلي المغرب حدود أرمينية في شمالي بلاد الجزيرة وما والاها من بلاد الأرمن المضافة الآن إلى مملكة حلب ، وتأخذ في جهة الغرب إلى بحر الروم ، فيصير البحر في جانبها من الجنوب ويمتد عليها حتى يتصل بالخليج القسطنطيني ، فيدور عليها الخليج وما يتصل به من بحر القرم من جهة الغرب ثم من جهة الشمال كالجزيرة ويحيط بها البحر من جميع جوانبها خلا جهة الشرق .

وقد كانت هذه البلاد في زمان الروم من مضافات القسطنطينية وأعمالها . قال في "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه البلاد على عهد الروم تحت الأعنة ، ومشتبك الأسنة ، دار القياصرة ، ومكسر الأكاسره . ثم وصفها بأتم الأوصاف ، فقال بعد أن ذكر أنها أترى البلاد : تحورها نتفجر ماء ، وجوها يسخر أنواع ، تعقد دون السماء سماء ، فيخصب زرعها ، ويخصم المحل ضرعها ، ويخصف ورق الجنة على الحدائق ثمرها وينعمها ، ويطرب ورقها منظرها البديع ، ويحبرها من صناعة صنعاء الربيع ، فلا تسمع إلا كل مطربة تنجي النجي ، وتشجي الشجي ، وتخلب قلب الحلي ، وتهب الغواني ما في أطواقها من الحلي ، يعجب ثوبها السندسي ، ونباتها المتعلق بذيل البهار بسجافها القندسي . فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ، ولا تنظر

إلا نساء كالحُور العين وولَدانا كالملائكة . ثم قال بعد كلام طويل : وهى شديدة البرد لا يوصف شتاؤها ، إلا أن سُكَّانها تستعدُّ للشتاء بها قبل دُخُوله ، وتحصِّل ما تحتاج إليه ، وتدخِرُه فى بيوتها ، وتستكثر من القديد والأدهان والخمور ، فتأكل وتشرَبُ مدَّةَ أيام الشتاء ، ولا تخرج من بيوتها ، ولو أرادت ذلك لم تقدرُ عليه ، حتَّى تَذُوبَ الثَّلُوج . قال وهذه الأيام هى بلهنية العيش عندهم .
ويُحصِرُ المقصودُ من ذلك فى خمس جمل :

الجملة الأولى

(فيما أشملت عليه من القواعد ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(القواعد المستقرَّة بها الملوك والحُكَّام)

من يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية)

فأما ما ذكره المقر الشهابى بن فضل الله من ذلك فى " التعريف " و " مسالك الأبصار " ، فست عشرة قاعدة عبَّر عنها فى " مسالك الأبصار " :
بمالك . ونحن نُوردها على ما أوردها وإن كان قد أخلَّ بها فى الترتيب .

القاعدة الأولى - (كرميان) بكسر الكاف وسكون الراء المهملَة والميم وفتح المشاة تحت وألف ثم نون فى الآخر . وهى مدينة فى شرق هذه البلاد ، متوسطة فى المقدار ، مبنية بالجر ، عليها سُور دائر . وبها مساجد وأسواق وحمامات ، وبوسطها قلعة حصينة على جبل مرتفع ، وخارجها أنهار تجري وبساتين ذات أشجار وفواكه متنوعة ، وأراضٍ مزدرة .

القاعدة الثانية — (طَنْغَزَلُو) بضم الطاء المهملة وسكون النون وضم النين المعجمة وسكون الزاي المعجمة وضم اللام وواو في الآخر . وهى مدينة متوسطة فى أوساط هذه البلاد ، وبنائها بالحجر ، وليس لها سور . وبها المساجد والأسواق والجمامات ، وخارجها أنهار تجرى وبساتين محدقة ذات فواكه وثمار .

القاعدة الثالثة — (تَوَازَا) بضم التاء المشبهة فوق وواو مفتوحة بعدها ألف ثم زاي معجمة وألف فى الآخر وهى مدينة عظيمة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة تقع شرقى كرمان محضاً ، وموقعها ما بين جنوبى بركى إلى قوله ، وكرسيه تَوَازَا . قال : ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية ، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل . وقد عدّها فى "مسالك الأبصار" من جملة مضافات كَسْطُمُونِيَّةِ الآتى ذكرها . وذكر أنه كان بها إزاء ذلك أميرٌ من قبل صاحبها اسمه (مراد بك) . وذكر فى "التعريف" أن اسمه أرينة .

القاعدة الرابعة — (حميدلى) . قال فى "مسالك الأبصار" وحميدلى اسم للإقليم ، وقاعدته مدينة (بركو) وموقعها من قوله إلى قرصار . قال : ولصاحبها أيضاً إقليم بلواج وإقليم قراغاج وإقليم اكرى دوز . قال : وهذه البلاد مدنها قليلة وقراها كثيرة ، وبها خمس عشرة قلعة ، وعسكر صاحبها خمسة عشر ألف فارس ومثلهم رجالة وهى نهاية ما أخذ إلى الشمال وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها كان اسمه فى زمانه دندار . قال : وهو أخو يونس صاحب أنطاليا ، وحينئذ فتكون من مملكة بنى الحميد .

القاعدة الخامسة — (قَسْطُمُونِيَّة) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح القاف وسكون السين وبالطاء المهملتين وضم الميم وسكون الواو وكسر النون وبالياء المشبهة

من تحت وهاء في الآخر، وربما أبدلوا القاف كافًا، وعليه جرى في "التعريف"
 و"مسالك الأبصار": وهي مدينة في شرق هذه البلاد داخلية في حدودها، موقعها
 في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول خمس وخمسون
 درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ست وأربعون درجة وثمان وأربعون دقيقة.
 قال: وهي قاعدة التركمان، وترأكتها يغزون (القسطنطينية) وهي شرق (هرقلة)
 وفي الجنوب عن سنوب على ثلاث مراحل منها، وقيل خمس مراحل. وهي
 في الشرق عن أنكورية على خمسة أيام منها. وقد أخبرني بعض أهل تلك النواحي
 أنها مدينة متوسطة المقدار، مبنية بالحجر، ذات مساجد وأسواق وحمامات، وليس
 عليها سور، وخارجها أنهر وبساتين ذات فواكه. قال في "مسالك الأبصار":
 وبها الأكاديش الرومية الفاتكة، المفضل بعضها على كل سابق من الخيل العرب،
 ولها أنساب محفوظة عندهم نكيل العرب، يتغالي في أمانها لا سيما في بلادها، حتى
 تبلغ قيمة الواحد منها ألف دينار فما فوقه، بل لا يستكثر فيها من يعرفها بذل مال.
 قال في "التعريف": وكانت آخر وقت (لسليمان باشاه) وكان أميرا كبيرا كثير العدد،
 موفور المدد، ذا هيئة وتمتع، ثم مات

وورث ملكه ابنه (إبراهيم شاه) وكان عاقا لأبيه، خارجا عن مراضيه، وكان
 في حياته ينفرد بملكه سنوب. قال: وهي الآن داخلية في ملكه، متخرطة
 في سلكه. قال: وعسكره على ما يقال لنا ويبلغنا نحو ثلاثين ألف فارس.

القاعدة السادسة — (فاويا). قال في "مسالك الأبصار": ومملكته تجاور
 سمسون من غربها. قال: ولصاحبها عشر مدن ومثلها قلاع، وعسكره نحو سبعة
 آلاف فارس أما الرجال فكثر عددهم ودرهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها

ستة عشر رطلا بالمصرى ، ومدها نحو إردب بالمصرى ، وأسعارها رخيصة وقد ذكر في "التعريف" : أن أسم صاحبها في زمانه (مراد الدين حمزة) . قال : وهو ملكٌ مضعوف ، ورجل يجالس أنسه مشغوف .

القاعدة السابعة — (برسا) بضم الباء الموحدة وسكون الراء وفتح السين المهملتين وألف في الآخر . وربما أبدلت السين صاداً مهملةً . والموجود في "التعريف" و"مسالك الأبصار" وغيرهما إثبات السين دون الصاد . وهى مدينة كبيرة فى شمالي هذه البلاد ، مبنية بالطوب والججر ، وسقوفها من الخشب ، وغالبها بجلونات ، وبها مساجد وأسواق وحمامات ، وبعض حماماتها من أعين حارة تنبع من الأرض كذلك كما فى طبرية بالشام ، ولها سور عظيم ، وبوسطها قلعة شاهقة مرتفعة البناء بها سكن سلطانها ، وفيها قصور عظيمة متعددة ، وجامع وثلاث حمامات .

وخارج ربح المدينة نهران :

أحدهما — يسمى (ككدرآ) بضم الكاف الأولى وسكون الثانية وفتح الدال والراء المهملتين وألف فى الآخر . ومعناه وادٍ أزرق ، سُمى بذلك لأنه يخرج من جبل أزرق ، وتقطع منه الحجارة بشدة جريه ، فتجرى منه بجران الماء ، فيأخذها من عليه من أهل تلك النواحي فيعمر بها ، ومعظم عمارة برسا منها .

والنهر الثانى — يسمى (منرباشى) فى قدر الفرات ، يُشق المدينة ويمر فى جامعها ، وبها جبل عظيم اسمه (كش) به معدن فضة سُمى باسم الفضة .

وبرسا هذه هى مقر مملكة أولاد (عثمان جق) الذين هم الآن رؤوس ملوك تلك البلاد ، وإليهم أنقياد جميعهم على ماسياتى ذكره فى الكلام على ملوكها . وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها فى زمانه كان أرخان بن عثمان . وذكر فى "مسالك

الأبصار“ عن الشيخ حيدر العريان : أن عسكره نحو خمسة وعشرين ألفاً ، وأن بيده وبين صاحب القسطنطينية الحروب ، وأيامها بينهم تارات ، له في غالبها على صاحب القسطنطينية الغلب ، وملك الروم يُداريه على مال ، يحمله إليه في كل هلال . قال : ولقد جاز الجزيرة إلى بلاد النصارى وعث في نواحيها ، وشهد على بطارقها لاعلى فلاحيا ، وألقى علوجها بحيث تقتلج سيول الدماء ، وتقتلج سيوف النصر من الأعداء ، وسيأتي ذكر ما انتهى إليه فتحه من بر القسطنطينية بعد هذا في الكلام على ملوك هذه المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثامنة — (أكيرا) . قال في ”مسالك الأبصار“ : وهي تجاور مملكة برسا آخذة إلى الشمال وجبل القسيس جنوبها وسنوب شمالها وهي طريق من طرق سنوب وقلاعها وعساكرها كثيرة . ومنها يخرج الحرير الكثير واللاذن إلى غيرها من البلاد ، ورطلها ثمانية أرتال بالمصرى ، ومدها نحو إردب ونصف وأسعارها رخيصة وقد ذكر في ”التعريف“ : أن صاحبها في زمانه كان (صاروخان بن قرآسى) ولم يبين من أى طوائف التتر كان هو .

القاعدة التاسعة — (مرمرأ) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الميم الثانية والراء المهملة الثانية وألف في الآخر . وهي مدينة في شمالي هذه البلاد ، بها جبل فيه مقطع رخام . قال في ”الروض المعطار“ : والروم تسمى الرخام مرمرأ ، فسميت بذلك . وذكر في ”التعريف“ : أن صاحبها في زمانه كان اسمه (بنجشى بن قرآسى) ولم يبين من أى طوائف التتر كان هو . وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنها قد حُرِبَت ودُثِرَت ، ولم يبق بها عمارة .

القاعدة العاشرة — (مغنيسيا) بفتح الميم وسكون الغين المعجمة وكسر النون وسكون الياء المشددة تحت وكسر السين المهملة وفتح الياء الثانية وألف في الآخر .

وهى مدينة فى أوساط هذه البلاد، متوسطَّةٌ فى المقدار، مبنيةٌ بالبحر، وعليها سورٌ دائرٌ وبها مساجد وأسواق وحمامات وبساتين ومروج. وقد ذكر فى "التعريف": أنه كان اسمُ صاحبها فى زمانه (صاروخان) ولم يزد على ذلك.

القاعدة الحادية عشرة — (نَيْف) بكسر النون وسكون الياء المثناة تحت وفاء فى الآخر. وهى مدينة لطيفةٌ بأوساط هذه البلاد، بالقرب من (مَغْنِسِيَا) المقدم ذكرها على نحو مرحلتين منها. وهى مبنيةٌ بالبحر، وبها المساجد والأسواق والحمامات وخارجها الأنهار والزروع والبساتين المختلفة الفواكه.

القاعدة الثانية عشرة — (بَرَكِي) بفتح الباء الموحدة وكسر الراء المهملة وكسر الكاف وياء مثناة تحت فى الآخر. وهى مدينة متوسطَّةٌ القدر على القرب من نَيْف المقدم ذكرها على نحو مرحلتين منها؛ وبها المساجد والأسواق والحمامات والمياه والبساتين والزروع.

القاعدة الثالثة عشرة — (فُوكه). وقد ذكر فى "التعريف": أن صاحبها فى زمانه كان اسمه (أرخان بن منتشا) واقتصر على ذلك.

القاعدة الرابعة عشرة — (أَنْطَالِيَا). قال فى "تقويم البلدان": بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهملة وألف ولام مكسورة وهاء فى الآخر. وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "تقويم البلدان": والقياس أنها حيثُ الطول أربع وخمسون درجةً وأثنان وثلاثون دقيقةً، والعرض إحدى وأربعون درجةً وأربعون دقيقةً. قال ابن سعيد: وهى بلدة مشهورة. وقال ابن حوقل: هى حصن [لرّوم على شَطِّ البحر منيعٌ واسعُ الرستاق كثيرُ الأهل] ^(٢). قال

(١) الذى فى التقويم وألف فى الآخر.

(٢) الزيادة عن التقويم.

في "تقويم البلدان" : وهي على دَخْلَة في البحر، وسُورُها من حجر في غاية الحَصَانَة، ولها بابان : بابٌ إلى البحر، وبابٌ إلى البر . وأخبرني من رآها أنها ذاتُ أشجار وبساتين ومياهٍ تجري ، وبها قلعة حصينة بوسطها ، وبها نهر يُعرف بالصَّبَاب . قال في "تقويم البلدان" : وهي كثيرة الحمضات : من الأترج، والنارنج، والليمون، وما أشبه ذلك . قال ابن سعيد : وكانت للروم فاستولى عليها المسلمون في عصرنا . قال : وبها أسطول صاحب الدروب، ومينأها غير مأمونة في الأنواء . قال في "تقويم البلدان" : وكان الحاكم بها شخصاً من أهل تلك البلاد نخرج منها إلى بعض جهاتها، فكبسها التركان وملكوها ثم أمسكوه فقتلوه . قال : وصاحبها في زماننا واحد من بني الحميد ملوك التركان . وقد ذكر في "التعريف" : أن صاحبها في زمانه كان اسمه (خضر بن يونس) . وذكر في "مسالك الأبصار" : أن صاحبها في زمانه كان اسمه (خضر بن دندار) من أولاد (منتشا) . وقال : إن عسكره نحو أربعين ألف فارس . ثم قال : إن لبني دندار هؤلاء إلى ملوك مصر آتباءً ، وكان بمصر منهم من له إمرةٌ ثم عاد إلى بلاده .

القاعدة الخامسة عشرة — (قَرَاصار) بفتح القاف والراء المهملة وألف ثم صاد مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة في الآخر . وتُعرف بقراصار التكا بفتح التاء المشناة فوق . وهي قلعة على جبل مرتفع يحفُّ بها ربضٌ بأعلى الجبل ، وحول الربض في الجبل زراعاتهم وبساتينهم . وقد ذكر في "التعريف" : أن اسم صاحبها في زمانه (زكريا) ولم يزد على ذلك . وهي غير مدينة قَرَاصار الصاحب . وهي مدينة لطيفة بأوساط بلاد الروم في الغرب عن قَرَاصار هذه وفي الشمال عن أنطاليا .

القاعدة السادسة عشرة — (أَرَمَناك) بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وفتح النون وألف ثم كاف في الآخر . وهي مدينة في مَشارِق الروم ، مبنية

بالبحر غير مسورة ؛ وبها مساجد واسواق وحمامات ؛ وبها بساتين كثيرة وفواكه
جمّة إلا أنها شديدة البرد . وقد ذكر في " التعريف " : أنها بيد أولاد قرمان .
وذكر في " مسالك الأبصار " : أن الملكة كانت ببسد (محمد بن قرمان) . وذكر
في " التثقيف " : أن آخر من أسستقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة
(علاء الدين على بك) بن قرمان .



وأما ما زاد ذكره في " التثقيف " : فخمس قواعد :

القاعدة الأولى — (العَلَايَا) بفتح العين المهملة واللام وألف بعدها ثم ياء
مشناة تحت وألف في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة .
قال في " تقويم البلدان " : والقياس أنها حيث الطول اثنتان وخمسون درجة ،
والعرض تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهي بلدة محدثة أنشأها
(علاء الدين على) بعض ملوك بني سلاجوق بالروم فنُسبت إليه . وقيل لها (العَلَايَا)
على النسب ، ثم خففها الناس ، فقالوا : (العَلَايَا) ثم قال : والذي تحقّق عندي
من جماعة قدّموا منها أنها بليدة صغيرة أصغر من أنطاليا على دخلة في بحر الروم .
وهي من فرض تلك البلاد . وذكر أنها في الجنوب عن أنطاليا على مسيرة يومين ،
وعليها سور دائري وأنها كثيرة المياه والبساتين . وقد ذكر في " التثقيف " : أن الحاكم
بها في زمانه كان اسمه (حسام الدين محمود) بن علاء الدين . وقال : إنه كتب إليه
عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية في شوال سنة سبع وستين وسبعائة ، ولم يبين
من أي طوائف التتركان هو . وذكر في " مسالك الأبصار " : أنها في ساحل بلاد
بني قرمان ، وأن الحاكم بها من قبلهم حينئذ كان اسمه (يوسف) .

القاعدة الثانية — (بَلَّاط) بفتح الباء الموحدة واللام وألف ثم طاء مهملة في الآخر . وهي بلدة بأوساط الروم على نحو ثمان مراحل من برّسّا ، وهي مدينة صغيرة غير سور ، وبها قلعة خراب كانت مبدئة بالرّخام ، وبها مساجد وأسواق وأربع حمامات . ذكر لي بعض أهل تلك البلاد أنها بيد أولاد (منتشا) من ملوك التّرْكمان .

القاعدة الثالثة — (أَكْرَدُور) بفتح الهمزة والكاف وسكون الراء وضم الدال المهملتين وسكون الواو وراء مهملة في الآخر . قال في "التثقيف" : ويقال أكردون بالنون بدل الراء الأخيرة . وهي بلدة غير مسورة بها قلعة عظيمة على جبل شاهق ، وبها مساجد وأسواق وحمامات ، إلا أن بساينها قليلة ، وبها برج عظيم .

القاعدة الرابعة — (أَيَّاسُ لُوقُ) بفتح الهمزة والياء المشناة تحت وألف ثم سين مهملة ساكنة ولام مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف في الآخر . وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الرومي ، بها المساجد والأسواق والحمامات ، وبها أعين وأنهار تجري وبساين ذات فواكه . وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنها في ملك بني أيدين .

القاعدة الخامسة — (سنوب) . قال في "تقويم البلدان" : بالسين المهملة والنون والواو وباء موحدة في الآخر ولم يقيدها بالضبط . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض ست وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قُرْضة مشهورة (يعني على بحر القريم) . ثم قال : وهي في الشمال عن كسطنطينية وفي الغرب عن سامسُون . قال : وعن بعض الثقات أن بسنوب سوراً حصيناً ، يضرب البحر في بعض أبراجه . ولها بساين كثيرة إلى الغاية ، وبينها وبين سامسُون نحو

(١)
أربع مراحِل . ثم قال : وصاحب سنوب في زماننا من ولد البرواناه ، وله شوانٍ
يغزوها في البحر ولا يكاد أن ينقهر . وذكر في ” مسالك الأبصار “ : أنها من
مضافات كَسْطُمُونِيَّة المقدم ذكرها ، وأنه كان بها في زمانه نائب من جهة (إبراهيم
ابن سليمان باشاه) صاحب كَسْطُمُونِيَّة اسمه غازي چلي . وقال في ” التثيف “ :
يقال إن بها إبراهيم بك بن سليمان باشاه ، فإن كان يريد الذي كان في زمن صاحب
” مسالك الأبصار “ : بكَسْطُمُونِيَّة ، فقد أبعد المرمى . وإن كان آخر بعده كان
سُمِّي باسمه ، فيحتمل أنه في ” التعريف “ قد ذكر صاحبها في جملة ملوك الكُفَر
وكان ذلك كان قبل أن تُفتح .

الضرب الثاني

(من هذه البلاد ما لم يَسْبِقْ إلى صاحبه مكتبةٌ
عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، ممن هو بصدد أن تطرأ له
مكتبةٌ ، فيحتاج إلى معرفته)

وهي عدة قواعِد :

منها (سيواس) . قال في ” تقويم البلدان “ : بكسر السين المهملة وسكون الياء
المشناة تحت وفتح الواو ثم ألف وسين مهملة في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس
من الأقاليم السبعة . قال في ” الأطوال “ : حيثُ الطولُ إحدى وسبعون درجةً
وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ أربعون درجةً وعشر دقائق . قال ابن سعيد : وهي من
أُمّهات البلاد مشهورة على ألسنة التجّار ، وهي في بَسِيط من الأرض . قال
في ” تقويم البلدان “ : وهي بلدة كبيرة مسورة ، وبها قلعة صغيرة ذات أعينٍ ، والشجر

(١) في التقويم سامسون ، والصواب ما هنا .

بها قليل ، ونهرها الكبير بعيدٌ عنها بمقدار نصف فرسخ . قال : ويقول المسافرون :
 إن فيها [أربعا^(١)] وعشرين خاناً للسبيل ، وهى شديدة البرد ، وبينها وبين قيسارية
 ستون ميلاً ، وكانت سيواس هذه قد غلب عليها فى الأيام الظاهرية « برقوق »
 صاحب الديار المصرية قاضيا (القاضى إبراهيم) وملكها .

ومنها (أماسية) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة والميم وألف وكسر
 السين المهملة ثم ياء مثناة تحتية مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس
 من الأقاليم السبعة قال فى "رسم المعمور" : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة
 وثلاثون دقيقة ، والعرضُ خمس وأربعون درجة . قال فى "تقويم البلدان" : ذكر
 بعض من رآها أنها بلدة كبيرة ذات سور وقلعة ، وفيها بساتين ونهر كبير عليه
 نواعير ، يمر عليها ثم يصبُ فى بحر سنوب يعنى بحر القريم . قال ابن سعيد :
 وهى من مَدَن الحكماء ، وهى مشهورة بالحسن وكثرة المياه والبساتين والكروم ، وهى
 فى الشرق عن سنوب وبينهما ستة أيام . ثم قال : وذكر بعض من رآها أن بها
 معدن فضة .

ومنها (هراقلة) . قال فى "تقويم البلدان" : بكسر الهمزة وفتح الراء المهملة
 وسكون القاف وفتح اللام ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم
 السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة وعشرون دقيقة ،
 والعرضُ إحدى وأربعون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى فى شرق
 نهر يتزل من جبل العالايا إلى نحو سنوب وهراقلة عليه فى قرب البحر . قال :
 وهى التى هدمها الرشيد . قال : وفى شرقها جبل الكهف .

وقد حكى ابن خردادبة في كتابه "المسالك والممالك" عن بعضهم أنه سار إلى هذا الكهف ودخل بمساعدة صاحب الروم فوجد به أمواتاً برواق في كهف في جبل عليهم مسوح قد طال عليها الزمن حتى صارت تنفرك باليد ، وقد طليت أجسادهم بالمرّ والصبر فلم يبلّوا ، ولصقت جلودهم بعظامهم ، وجفت ، وعندهم سادئ يخدمهم ، وأنه أنكر أن يكون أولئك هم أهل الكهف المذكورون في القرآن ، للاختلاف في محل الكهف هل هو في هذه البلاد أو غيرها .

ومنها (أَقْسَرَا) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح السين والراء المهملتين وألف في الآخر، وربما أبدلت السين صاداً مهملة . قال : ويقال إن أصلها (أَخْ سَرَا) يعني بالحاء المعجمة بدل القاف . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وسبعون درجة ، والعرض أربعون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة ذات أشجار وفواكه ، ولها نهر كبير ينبجّر وسط البلد ويدخل الماء منه بعض بيوتها ، ولها قلعة حصينة في وسطها . قال ابن سعيد : وبها تعمل البسط الأقصرية الفائقة ، ومنها إلى قونية ثمانية وأربعون فرسخاً ، وكذلك بينها وبين قيسارية .

ومنها (قَيْسَارِيَّةُ) . قال في "اللباب" : بفتح القاف وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف ثم راء مهملة وياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة وهاء في الآخر قال في "تقويم البلدان" : وتقال بالصاد المهملة بدل السين . قال ابن سعيد : وهي منسوبة إلى قيسر ، وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ستون درجة والعرض أربعون درجة . قال ابن سعيد : وهي مدينة جليلة يحلّها سلطان البلاد . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة كبيرة

ذاتُ أشجار وبساتين ونواكه وعيون تدخل إليها . ودخلها قلعة حصينة ،
وبها دار للسلطنة .

وقيسارية هذه كان بها تحت السلطنة لبنى سلجوق هذه البلاد . ولما ملك التتر
هذه البلاد بقوا ببقاياهم في الملك إلى أن دخلها السلطان الملك (الظاهر بيبرس)
صاحب الديار المصرية ، وجلس على تحت آل سلجوق بها ، ثم عاد إلى الديار
المصرية فزال ملك السلجوقية منها من حينئذ ، على ما سأتى ذكره في الكلام على
ملوك هذه البلاد .

ومنها (قونية) . قال في " تقويم البلدان " : بضم التاف وسكون الواو وكسر
النون وبعدها ياء مشناة من تحت مفتوحة وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس
من الأقاليم السبعة قال في " الأطوال " : حيث الطول ست وخمسون درجة ،
والعرض تسع وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وهي مدينة مشهورة ، وبها دار
للسلطنة ، والجبال مطيفة بها من كل جانب ، وتبعد عنها من جهة الشمال . وينزل
من الجبل الجنوبي منها نهر يدخل إليها من غربيها ، وبها البساتين من جهة الجبل
على نحو ستة فراسخ ، ونهرها يسمى بساتينها ، ثم يصير بحيرة ومروجاً ، وبها الفواكه
الكثيرة ، وفيها يوجد الشمس المعروف بقمر الدين ، وهي ثاني قاعدة مملكة
السلجوقية ببلاد الروم ، كان الملك ينتقل منها إلى قيسارية ، ومن قيسارية إليها .
قال ابن سعيد [وبتلعتها تربة ^(١)] أفلاطون الحكيم .

ومنها (أقي شهر) بفتح الهمزة ثم قاف ساكنة وشين معجمة مفتوحة وهاء
ساكنة وراء مهملة في الآخر ، كما في " تقويم البلدان " : عمن يؤتى به من

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن تقويم البلدان .

أهل المعرفة ، وربما أبدلوا الهاء ألفا فقالوا (أَقْشَار) . وفي كتاب ” الأطوال “ :
(أَخْ شَهْر) بابدال القاف خاء معجمة . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم
السبعة ، قال في ” الأطوال “ : حيث الطول خمس وخمسون درجة ، والعرض
إحدى وأربعون درجة . قال ابن سعيد : وهي من أتره البُلْدَان ، وبها بساتين
كثيرة وفواكه مفضلة . قال في ” تقويم البُلْدَان “ : وأخبرني من رآها أنها على
ثلاثة أيام من قونية شمالاً بغرب .

ومنها (عُمُورِيَّة) . قال في ” تقويم البُلْدَان “ : بفتح العين المهملة وميم مشددة
مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة وهاء
في الآخر . قال : وهي بلدة كبيرة ، ولها قلعة داخلها حصينة ، وأكثر ساكنيها
التركان وبها بساتين قليلة ، ولها نهر وأعين جارية ، وهي التي فتحها « المعتصم
أبْنُ الرشيد » : أحد خلفاء بني العباس ، وكان المتحمسون قد زعموا أنها لا تفتح
إلا في زمان التين والعنب ، فلما فتحها أشده أبو تمام قصيدته التي أولها :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ !

ومنها (أَنْكُورِيَّة) . قال في ” تقويم البُلْدَان “ : بفتح الهمزة وسكون النون وضم
الكاف وسكون الواو وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحتية مكسورة وهاء في الآخر .
ويقال لها (أَنْقَرَة) أيضا بفتح الهمزة وسكون النون ثم قاف وراء مهملة وهاء
في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في ” الأطوال “ :
حيث الطول أربع وخمسون درجة ، والعرض إحدى وأربعون درجة . قال ابن

(١) كذا في التقويم أيضا مضطبا عليه بعلامة التوقف ولعله مصحف عن مفتوحة ونظائرها كثيرة منسل
أرمينية وعمورية وانطاكية الخ .

سعيد : وهى بلدة لها قلعة على تل عالٍ ، وهى بين الجبال ، وليس بها بساتين ولا ماء ، وشرب أهلها من الآبار ، وهى عن قسطنطينية فى جهة الغرب على خمسة أيام .

ومنها (فلک بار) . قال فى "تقويم البلدان" : الفلک معروف ، وبار بباء موحدة وألف وراء مهملة فى آخرها . قال : وهى مدينة أنشأها ملك من ملوك بنى الحميد اسمه (فلک الدين) وهى فى مستوٍ من الأرض فى وسط الجبال على قريب من منتصف الطريق بين قونية والعلايا ، فى الغرب من قونية على مسيرة خمسة أيام ، وهى فى الشرق عن أنطاليا على مسيرة خمسة أيام . قال : وليس فى تلك الجبال الآن مدينة أكبر منها ، وقد صارت قاعدةً لبنى الحميد : ملوك التتركان بتلك الناحية .

ومنها (لارندة) . قال فى "تقويم البلدان" : بلام وألف وراء مهملة مفتوحة ونون ساكنة ثم دال مهملة وهاء فى الآخر . قال : وهى قرية من قونية على مسافة يوم من الشرق والشمال ، حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقة .

وقد تقدم فى الكلام على مملكة الشام من مضافات الديار المصرية أن مدينة ملطية دخلت فى مملكة مصر ومضافاتها فصارت فى معاملة حلب .

والعلم انه قد تقدم أن خليج القسطنطينية وما اتصل به من بحر نيطش - المعروف ببحر المرم - يطيف بهذه البلاد من غربيها وشماليها ، وعلى ساحل هذا البحر عدة فرض منتظمة فى سلك هذه البلاد قد ذكرها فى "تقويم البلدان" فى الكلام على مملكة أرمينية وماعها ، وأشار إليها فى الكلام على هذا البحر عند ذكره له فى جملة البحار على ما تقدمت الإشارة إليه فى الكلام على البحار فى أول هذه المقالة ، غالبها فى مملكة ابن عثمان صاحب برسا .

أولها (الجرون) . وهي قلعة خراب عند قِمِ الخليج القسطنطيني من الجهة الشمالية مقابل القُسْطَنْطِينِيَّةَ ، حيثُ الطول خمسون درجة ، والعرضُ خمس وأربعون درجة وعشر دقائق .

ويليها من جهة الشمال بِمَيْلَةٍ إلى الشرق مدينة أسمها (كِرِي) بكاف وراء مهملة ثم باء موحدة وياء مشاة تحت في الآخر .

ويليها في الشرق مدينة أسمها (بَنْتَر) بباء موحدة ونون وتاء مشاة فوق وراء مهملة .

ويليها في الشرق والشمال بلدة أسمها (سامصري) بسين مهملة وألف ثم ميم وصاد وراء مهملتين وألف في الآخر .

ويليها في الشرق أيضا مدينة أسمها (كُتْرُو) بكاف وتاء مشاة من فوق ثم راء وواو في الآخر وهي آخر أعمال قسطنطينية .

ويليها في الشرق مدينة أسمها (كِينُولِي) بكسر الكاف وسكون المشاة التحتية وضم النون وسكون الواو وكسر اللام وياء مشاة من تحت في الآخر .

ويليها في جهة الغرب (فُرْضَة سَنُوب) المقدم ذكرها في الكلام على ما زاده في "التقييف" .

ويليها من جهة الشرق مدينة (سَامْسُون) المقدم ذكرها في الكلام على الضرب الثاني من هذه البلاد .

ويليها في جهة الشرق أيضا مدينة (أَطْرَايُون) بألف وطاء وراء مهملتين وباء موحدة بعدها زاي معجمة ثم واو ونون . وهي آخر مدن هذه البلاد على الساحل ، ومنها ينتهي إلى ساحل بلاد الكُرْج على ما تقدم الكلام عليه في الكلام على بحر نيطش .

الجملة الثانية

(في ذكر الموجود بهذه البلاد)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ حيدر العريان الرومي : أن بها من المواشي الخيل ، والبقر ، والغنم ما لا يقع عليه عدد ولا يدخل تحت الإحصاء ، ونتاج بلادهم من الخيل هي البراذين الرومية الفائقة . وقد تقدم الكلام على القسطنطينيات منها في الكلام على قسطنطينية ؛ وتُحلب إليهم العربيات من بلاد الشام وغيرها ؛ وأكثر مواشيهم نتاجاً الغنم . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مما يُسَط فرش الأرض [منها] . قال : ومنها المعز المرعزي ، ذوات الأوبار المضاهية لأنعم الحرير . ثم قال : وغالب قنية أهل الشام وديار بكر والعراق وبلاد العجم وذبايحهم مما يفضل عنها ويُحلب إليها منها ، وهي أطيب أغنام البلاد تحماً ، وأشهاها شحماً ؛ ويترتب على ذلك في كثرة الوجود الألبان وما يتحصّل عنها من السمن والحبن وغير ذلك . وبها من الحبوب القمح ، والشعير ، والباقل ونحوها ؛ ويزرع بها الكتان ، والقطن الكثير ؛ وبها من الفواكه كل ما يوجد بمصر والشام من التفاح ، والسفرجل ، والكمثرى ، والقراصيا ، والإجاص ، والرمان : الحلو والمز والحامض ، وغير ذلك . أما الحمضات فلا توجد إلا ببلاد السواحل من بلادهم على ما تقدم ذكره ؛ والموز والتخيل لا يوجد ببلادهم ؛ وبها من العسل ما يُضاهي الثلج بياضاً والسكر لذّة وطعماً ، لا حدّة فيه ولا إفراط حلاوة تُوقِف الأكل عنه ، إلى غير ذلك من الأشياء التي يطول ذكرها . وقد تقدم أن بها معدن فضة بمدينة بُرسا ، ومعدن فضة بأماسية . وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ حيدر العريان أن بها ثلاثة معادن فضّة مستمرة العمل : معدن بمدينة ركوة ، ومعدن بمدينة كش ، ومعدن بأراضي مدينة تانرت .

الجملة الثالثة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ حيدر العريان أن ملوك
التركيان هؤلاء نقودا ولكن لا يروج نقد واحد منهم في بلاد الآخر. قال : ودرهمهم
في الغالب تقدير نصف وربع درهم من نقد مصر، وأرطالهم مختلفة، وأكثرها
بالتقريب زنة اثني عشر رطلا بالمصري، وأقلها ثمانية أرطال، ويكلمهم الذي تباع
به الغلات يسمى الوط تقدير إردب ونصف بالمصري.

وأما أسعارها، فقد ذكر أنها رخيصة رخيصة الأسعار للغاية لقلة المكوس وكثرة
المراعى واتساع أسباب التجارة واكتناف البحر لها من كل جانب بحيث يحمل
إليها على ظهره كل شيء مما لا يوجد فيها. قال : وقيمة الغلات بها دون قيمتها بمصر
والشام أو مثلهما في الغالب. والأغنام في غاية الرخص، حتى إن الرأس الغنم الجيد
لا يتجاوز اثني عشر درهما من درهمهم، يكون بنحو تسعة دراهم من دراهم مصر إلى
ما دون ذلك، ويترتب على ذلك رخص اللحم. أما اللبن وما يعمل منه فإنه لا يكاد
يوجد من يشتريه : لاستغناء كل أحد بما عنده من لبن مواشيه، لا سيما في زمن
الربيع. قال : والعسل لا يتجاوز الرطل منه ثلاثة دراهم برطلهم ودرهمهم، وهو
(ذلك الرطل الكبير والدرهم الصغير) والقواكه في أوانها في حكم اللبن وما في معناه
في زمن الربيع، في عدم وجود من يشتريه. ثم قال : وبالجملة فبلاد الروم إذا غلت
وأخضت كانت كسعر الشام إذا أقبل وأرخص.

الجملة الرابعة

(في ذكر مَنْ ملك هذه البلاد)

قد ذكر ابن سعيد : أن هذه البلاد كانت بيد اليونان ، وهم بنو يونان بن علجان ابن يافت بن نوح عليه السلام من جملة ما بيدهم قبل أن يغلب عليهم الروم ؛ ثم غلب عليها الروم بعد ذلك فيما غلبوهم عليه ، واستمرت بأيديهم في مملكة صاحب القُسطنطينية على ما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة القُسطنطينية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وكان كُلُّ مَنْ ملك هذه البلاد التي شرقيّ الخليج القُسطنطيني يسمى (الدستق) بضم الدال المهملة وفتح الميم وسكون السين المهملة والتاء المثناة فوق وقاف في الآخر ، وله ذكر في حروب الإسلام . قال في "العبر" : وكان تُعور المسلمين حينئذ من جهة الشام (مَلَطِيَّة) ومن جهة أذربيجان (أرمينية) إلى أن دخل بعض قرابة (طغرل بك) أحد ملوك السَّلاجُوقية في عسكر إلى بلاد الروم هذه فلم يظفروا منها بشيء .

ثم دخلها بعد ذلك (ماني) أحد أمراءهم بعد الثلاثين وأربعمائة ، ففتح وغنم وأنتهى في بلادهم حتى صار من القُسطنطينية على خمس عشرة مرحلة ، وبلغ سبيله مائة ألف رأس ، والغنائم عشرة آلاف عجلة ، والظهر مالا يُحصى .

ثم فتح (قطامش) بن إسرائيل بن سَاجُوق قونية ، وأقصرًا ، وأعمالها ، ثم وقعت الفتنة بين قطامش وبين (ألب أرسلان) السَّاجُوق بعد طغرل بك ، وقُتِل قطامش في حربه في سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وملك البلاد من بعده (أبنة سليمان) ثم كان بين سليمان ومسلم بن قريش صاحب الشام حروباً انهزم سليمان في بعضها وطعن نفسه بخنجر فمات في سنة ثمان وسبعين وأربع مائة .

وملك بعده أبنة (قليج أرسلان) تلك البلاد ، ثم قُتل قليج أرسلان في بعض الوقائع .

وولي مكانه بقونية وأقصرًا وسائر بلاد الروم أبنة (مسعود) واستقام له ملكها ، ثم توفي مسعود بن قليج أرسلان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده أبنة (قليج أرسلان) .

ثم قسم قليج أرسلان المذكور هذه البلاد بين أولاده : فأعطى قونية وأعمالها لأبنة (غياث الدين كيخسرو) وأقصرًا وسيواس لأبنة (قطب الدين) ودوفاط لأبنة (ركن الدين سليمان) وأنكورية لأبنة (محيي الدين) وملطية لأبنة (عز الدين قيصر شاه) والأبلستين لأبنة (غياث الدين) وقيسارية لأبنة (نور الدين محمود) وأعطى أماسية لأبنة أخيه . ثم ندم على هذه القسمة ، وأراد أنتراع الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته إلا أبنة غياث الدين كيخسرو صاحب قونية فإنه بقي معه . وحاصر أبنة محمودا في قيسارية فتوفي وهو محاصر لها في منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وأستقل (غياث الدين كيخسرو) بقونية وما والاها .

ثم ملكها من يده أخوه (نور الدين محمود) .

ثم ملك (قطب الدين) صاحب أقصرًا وسيواس قيسارية من يد أخيه محمود غندرا ، ثم مات قطب الدين في آخر ذلك .

فملك أخوه (ركن الدين سليمان) صاحب دُوقا ما كان بيد أخيه قطب الدين من سيواس وأقصرًا وقيسارية . ثم ملك قونية بعد ذلك من يد أخيه غياث الدين . ثم ملك أماسية ، ثم سار إلى ملطية ، فملكها من يد عز الدين قيصر شاه سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ثم ملك أنكورية بعد ذلك في سنة إحدى وستمائة ، واجتمع لركن الدين سليمان سائر أعمال إخوته وتوفي عقب ذلك .

وتولى بعده ابنه (قليج أرسلان) فأقام يسيرا ثم قبض عليه أهل قونية وملكوا عمه غياث الدين كيخسرو مكانه فقوى ملكه وعظم شأنه ، وبقي حتى قُتل في حرب صاحب القسطنطينية سنة سبع وستمائة .

وملك بعده ابنه (كيكاوس) وتلقب الغالب بالله ، وبقي حتى مات سنة ست عشرة وستمائة ، وخلف بنين صغارًا .

وملك بعده أخوه (علاء الدين كيقيباد محمد شاه) وبقي حتى توفي سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وملك بعده ابنه (غياث الدين كيخسرو) وتوفي سنة أربع وخمسين وستمائة .
وملك بعده ابنه (علاء الدين كيقيباد) بعهد من أبيه . وفي أيامه أرسل القان (منكوقان بن جنكخان) صاحب التخت بقرافوم عسكرا فاستولوا على قيسارية ومسيره شهر معها ورجعوا إلى بلادهم . ثم عادوا في سنة خمس وخمسين وستمائة واستولوا على ما كانوا استولوا عليه أولا وزادوا عليه ، فسار علاء الدين كيقيباد إلى القان بهدايا استصحبها معه مضانًا له فمات في طريقه ، فوصل رفقة بهما معهم من الهدايا إلى القان ، فأخبروه الخبر ، ورغبوا إليه في ولاية (عز الدين كيكاوس) أنخى كيقيباد المذكور فكتب القان إليه بالولاية ، ثم أشرك بعد ذلك بينه وبين أخيه

(ركن الدين قليج أرسلان) على أن يكون من سيواس إلى نُحُوم القسطنطينية غرباً
لعز الدين كيكائوس . ومن سيواس إلى أرزن الروم شرقاً متصلاً ببلاد التتر ،
لركن الدين قليج أرسلان ، على إتاقية تُجمل إلى القان بقرأقوم ، وجهاز القان من
أمرائه أميراً اسمه (بيدو) على أن يكون شحنة له ببلاد الروم ، لا ينفذون في شيء
إلا عن رأيه ، ورجعوا إلى بلادهم ، وقد حملوا معهم جثة كيكباد إلى قونية فدفنوه
بها . ولم يزل الأمر على ذلك حتى سار هولاكو بن طولى بن جنكخان بعد استيلائه
على بغداد إلى الشام في سنة ثمان وخمسين وستائة ، بعث إلى عز الدين كيكائوس ،
وركن الدين قليج أرسلان المذكورين بالطلب ، فحضرأ إليه وحضرأ معه فتح حلب ،
ومعهما معين الدين سليمان البرواناه صاحب دقلم ، فاختار هولاكو أن يكون
البرواناه المذكور سفيراً بينه وبينهما ، ثم هلك بيدو الشحنة ببلاد الروم .

وولى بعده ابنه (صفغان) ثم غلب ركن الدين قليج أرسلان على أخيه (عز الدين
كيكائوس) وبقي في الملك وحده ، وفر كيكائوس إلى (مبخائيل الشكري) صاحب
القسطنطينية ، فأقام عنده حتى بلغه عنه ما غير خاطره عليه فقبض عليه وأعتقله
حتى مات .

وأستبد ركن الدين قليج أرسلان بسائر بلاد الروم ، فغلب على أمره معين الدين
سليمان البرواناه المقدم ذكره ، ولم يزل حتى قتله .

وأقام ابنه (غياث الدين كيخسرو) بن قليج أرسلان مكانه وأستولى عليه وحجّره ،
وصار البرواناه هو المستولى على بلاد الروم والقائم بملكها .

ثم دخل (الظاهر بيبرس) صاحب الديار المصرية إلى بلاد الروم في سنة خمس
وسبعين وستائة ، ولقيه صفغان بن بيدو الشحنة من جهة التتار على بلاد الروم

في جيش التَّسَرَّ، فهزَّمهم وقتل وأسَر، وسار إلى قيسارية فملكها وجلس على تخت آل سَلْجُوق بها، ثم رجع إلى بلاده .

وبلغ ذلك (أبغا) بن هولاكو صاحب إيران، فسار في جموعه إلى قيسارية ورأى مصارع قومه فشق عليه، وآتهم البرواناه في مملأة الظاهر، فقبض عليه وقتله .

وأستقلَّ (غياث الدين كيخسرو) بن ركن الدين قليج أرسلان بالملك بعده .

ثم لما وليَ (أرغون) بن أبغا مملكة إيران بعد أبيه، قبض على غياث الدين كيخسرو وقتله في سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وأقام مكانه (مسعودا) ابن عمه كيكاؤس، وعزل صفغان بن بيدو الشحنة .
وولي مكانه أميرا أسمه (أولاكو) وبقى مسعود بن كيخسرو في الملك وليس له منه سوى الأسم، والمتحدث هو الشحنة الذي من جهة التتر إلى أن مات في سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأستقلَّ الشحنة بالمملكة . وبقى أمراء التتر يتغالبون على الشحنة واحدة بعد واحد إلى أن كان منهم الأمير (سلامش) وبقى بها مدة .
ثم انحرف عن طاعة بيت هولاكو صاحب إيران، وكتب إلى الملك المنصور لاجين صاحب الديار المصرية يطلب تقليدا بأن يكون حاكما بجميع بلاد الروم، وأن يكون (أولاد قرمان) ومن عداهم في طاعته، فكتب له تقليد بذلك بإنشاء الشيخ شهاب الدين «محمود الحلبي» على ماسياتي ذكره في الكلام على التقاليد فيما بعد إن شاء الله تعالى في المقالة الخامسة .

ثم خاف على نفسه من (غازان) صاحب إيران، ففر إلى الديار المصرية في الدولة المنصورية لاجين، ثم عاد إلى بلاد الروم لإحضار من تأخر من أهله فقبضت عليه

عساکر غازان وحملته إليه فقتله . ولم يزل أمرهم على التنقل من أمير إلى أمير من أمراء التتر إلى أن كان منهم الأمير (برغلي) وهو الذى قتل هيتوم ملك الأرمن صاحب سيس . ثم كان بعده فى سنة عشرين وسبعائة الأمير (إبشغا) .

ثم وثى أبو سعيد صاحب إيران بعد ذلك على بلاد الروم هذه (دِمرداش) ابن جوبان سنة ثلاث وعشرين وسبعائة فقوى بها ملكه . ثم قتل أبو سعيد جوبان والد دِمرداش المذكور ، فهرب دِمرداش إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية . وكان سُمنقر الأشقر أحد أمراء الملك الناصر قد هرب إلى السلطان أبى سعيد فوقع الصلح بين السلطانين على أن كلا منهما يقتل الذى عنده ففعل ذلك .

وكان قد بقي ببلاد الروم أمير من أمراء دِمرداش اسمه (أرتنا) فبعث إلى أبى سعيد بطاعته ، فولاه البلاد فملكها ، فنزل سيواس وأخذها كرسيا لملكه ، ثم خرج عن طاعة أبى سعيد وكتب إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصرية ، وسأله كتابة تقليد بالبلاد ، فكتب إليه بذلك وجّهت إليه الخلع ، فأقام دعوة الخطبة الناصرية على منابر البلاد الرومية ، وضرب السكة باسمه ، وجّه بعض الدراهم المضروبة إلى الديار المصرية ، وصارت بلاد الروم هذه من مضافات الديار المصرية ، ولم يزل (أرتنا) على ذلك إلى أن توفى سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

وأستولى على الروم أولاده من بعده إلى أن كان بها (محمد بن أرتنا) فى سنة ست وستين وسبعائة ، وبقي حتى توفى فى حدود الثمانين والسبعائة وخلف أبنا صغيرا . فاستولى عليه الأمير (قليج أرسلان) أحد أمراء دولتهم وكفله .

ثم غدر به (القاضي إبراهيم) صاحب سيواس وقتله في سنة اثنتين وتسعين وسبعائة وأستولى على مملكة سيواس .

قال في "العبر" : وكان من طوائف التُّركان بلاد الروم جموعٌ كثيرة ، كانوا يستعِينون بهم في حروبهم على أعدائهم ، وكان كبيرهم في المائة الرابعة أميراً من أمراءهم اسمه (جق) فلما ملك سليمان بن قطلمش المقدم ذكره قونيةً وأقصرًا بعد أبيه على ماتقدم ذكره ، خرج جق هذا مع « مسلم بن قریش » صاحب المَوْصل على سليمان بن قطلمش . فلما آلتى الجمعان مال (جق) بمن معه من التُّركان إلى سليمان بن قطلمش ، فانهزم مسلم بن قریش وقُتِل ، وأقام أولئك التُّركان أيامَ سليمان بن قطلمش بجمال تلك البلاد وسواحلها . فلما ملك التتر هذه البلاد وصار الملك لقليج أرسلان بعد غلبة أخيه كيكائوس ، كان أمراء التُّركان يومئذ (محمد بك) وأخوه (إلياس بك) وصهره (على بك) وقرينه (سويج) فخرجوا عن طاعة قليج أرسلان وبعثوا بطاعتهم إلى هولاكو صاحب إيران وتقرير إتاقية عليهم على أن يبعث إليهم بلواء الملك على عادة الملوك ، وأن يبعث شحنةً من التتر تختص بهم ، فأجابهم إلى ذلك وقلدهم الملك وبعث إليهم بلواء . فلكوا عليهم (محمد بك) .

ثم أرسل هولاكو يطلب محمد بك ، فامتنع عليه وخالفه صهره على بك فقدم على هولاكو فقدمه على قومه مكان محمد بك . ثم جاء محمد بك إلى قليج أرسلان صاحب بلاد الروم مستأمنًا فأمنه ثم قتله ، وأستقر على بك في إمرة التُّركان .

ولما تناقص أمر التتر وضعف بلاد الروم المذكورة وأستقر بنو أرتنا بسيواس وأعمالها ، غلب هولاكو على ما وراء الدروب وما كان فتحه التتر من نواحي الشمال إلى خليج القسطنطينية^(١) .

وأشتهر من ملوكهم ست طوائف :

(١) في الأصل «ثم غلب هولاكو الخ» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه نقلاً عن "العبر ج ٥ ص ٥٦٢" .

الطائفة الأولى

(أولاد قرمان)

وهم أصحاب أزمناك وقسطمونية وما والاها من شرق هذه البلاد كما تقدم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم أهل بيت توارثوا هذه البلاد ، ولا يخاطب قائم منهم إلا بالإمارة . قال في "التعريف" : وهم أجل من لدى ملوكنا من التتر : لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكابتهم في ممالك سبى وأهل بلاد الأرمن ، وأجتياحهم لهم من ذلك الجانب ، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب . قال : وأكبرهم قدرا ، وأفتكهم نابا وظفرا ، الأمير (بهاء الدين موسى) وحضر إلى باب السلطان وتلقى بالإجلال ؛ وأحل في متمد الظلال ، وأورد موارد الزلال ، وأرى ميامن أسعد من طلعة الهلال ؛ وجمع مع الركب المصرى وقضى المناسك ، وأسبل في ترى تلك الربا بقيسة دمه المتناسك ؛ وشكر أمراء الركب دينه المتين ، وذكروا ما فيه من حسن اليقين ، وعاد إلى الأبواب السلطانية ، وأجلس في المرتين مع أمراء المشورة ، فأشرك في الرأي وسأل السلطان في منشور يكتب له بما يفتح بسيفه من بلاد الأرمن ليقاتل بعلمه المنشور ، ويحتني من شجر المران حتى عسله المنشور ، فكتبه له .

ثم قال : وهم على ما هم عليه يدارون ملوك التتر ، وهو ومن سلف من أهل بيته مع ملوك مصر لأنغب المكاتبات بينهم ، ولا يتقطع بذل خدمته لهم ، وإقبالهم عليه ، واعتدادهم بمولاته .

قال في "مسالك الأبصار" : وهم عصابة ذات أيد ويد ، وجيوش كثيرة العدد ، وهم أصحاب الحروب التي ضعفت الحبال ، ولهم مع الأرمن وبلاد التكهفور وقائع

لَا يَحْدُهَا إِلَّا الْكَفُورُ ؛ نَخْطِفُهُمْ عِقَابَهُمُ الْقَسَاحِمَ [وَتَلْتَرِمُهُمْ] ^(١) أَسُودَهُمُ الضَّرَاحِمَ .
 قَالَ : وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِ أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَحَبَّةً مِنْهُ ، وَإِذَا شَاءَ أَمِيرُهُمْ جَمَعَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا .
 ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِكَلَامِ طَوِيلٍ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَلْفَوْا بَيْنَ سَلَامِشَ وَبَيْنَ الْمَنْصُورِ
 لَاجِينَ ، وَأَنَّ هُمُ الَّذِينَ لَا يُرْتَابُ فِي رَأْيِهِمْ ، وَلَا يُطْعَنُ فِي دِينِهِمْ ، بَلْ مَهْمَا وَرَدَ
 مِنْ جَهَتِهِمْ تَلَقَّى بِالْقَبُولِ ، وَحَمَلَ عَلَى أَحْسَنِ الْحَامِلِ . ثُمَّ قَالَ : وَحِكْمِي عَمَّنْ تَرُدُّ
 إِلَيْهِمْ وَعَرَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ رَجَالُ صِدْقٍ ، وَقَوْمٌ صَبْرٍ ، لَا تُسْتَخَفُّ لَهُمْ حَفِيزُهُ ،
 وَلَا تُرَدُّ بِحَقَّتِهَا لَهُمْ صُدُورُ مَنَيزِلِهِ ؛ وَلِهَذَا أَمْرَاءُ الرُّومِ لَا يَطْئُونَ لَهُمْ مَوْطِنًا يَغِيزُ ،
 وَلَا يُوَاطِئُونَ لَهُمْ عِدَّةَ شُهُورٍ فِي مَسْتَقًى وَلَا مَقِيزٍ ؛ وَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْسُدُهُمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ إِلَّا مَنْ يَسْتَجِيشُ عَلَيْهِمْ بِالتَّنَارِ ، وَيَعْتَدُّ عَلَيْهِمْ عِظَامَ الذُّنُوبِ الْكِبَارِ ؛
 وَوَقَايَةُ اللَّهِ تَكْفِيهِمْ ، وَحَيَاظَتُهُ عَنْ عِيُونِ الْقَوْمِ مُخْفِيهِمْ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ السُّلْطَانُ
 (مُحَمَّدُ غَازَانُ) يَقُولُ : أَنَا أَطْلُبُ الْبَاغِيَ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَالْبَاغِيَ فِي ثَوْبِي ، يَرِيدُ
 أَوْلَادَ قَرْمَانَ وَتُرْكُمَانَ الرُّومِ [وَمَعَ هَذَا لَمْ يَسْلُطْ عَلَيْهِمْ] ^(٢) .

وَحَكَى عَنِ الصَّدْرِ شَمْسِ الدِّينِ عَبْدِ الْلطِيفِ أُنْحَى التَّجِيبُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا : لَوْلَا
 الْأَكْرَادُ وَأَوْلَادُ قَرْمَانَ وَتُرْكُمَانَ الرُّومِ ، دُسْتُ بِحَيْلِي مَغْرِبَ الشَّمْسِ .

الطائفة الثانية

(بنو الحميد)

وَهُمْ أَصْحَابُ أَنْطَلِيَا وَفَلَكْ بَارِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ ، وَهُمْ مِنْ عِظَاءِ مَلُوكِ التُّرْكُمَانِ .

(١) بياض بالاصل والتصحيح عن "مسالك الابصار".

(٢) الزيادة من المسالك .

الطائفة الثالثة

(بنو أيدين)

وهم أصحاب بركي وما معها، على ما تقدم ذكره . قال في "مسالك الأبصار" وقد ذكر محمد بن أيدين صاحب بركي المذكورة : وهذا ابن أيدين ما أعرف أن له بمن حوله من ملوك الممالك الماء، ولا أن له أخباراً تردّ طروقاً ولا الماء، بل هو في عزلة من كل جانب، لا مخالطة ولا مجانب .

الطائفة الرابعة

(بنو منتشا . وهم أصحاب فولة وما معها)

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن منهم أولاد دندار . ثم قال : ولهمؤلاء بني دندار إلى ملوك مصر آنتماء، ولهم من تحف سلاطينها نعاء . قال : وكان بمصر منهم من له إمرة فيها ثم عاد إلى بلاده بعد مهلك تمرناش بن جوبان ، لأنه كان قد ترك بلاده لأجله ، وفترها رباً من يده لعداوة كان قد اضطربت بينهما شروها، واضطربت أمورها، فلما خلت من مجاورة تمرناش تلك البلاد، عاد . ويقال : إنه قُتل ولم يصل إلى بلاده .

الطائفة الخامسة

(بنو أورخان بن عثمان جق)

وهو صاحب برسا على ما تقدم ذكره . قال في "العبر" : وكان قد اتخذ برسا داراً للملكة ، ولكنه لم يفارق الحيام إلى القصور ، وإنما كان ينزل بخيامه في بسيتها وضواحيها ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

وملك بعده أبْنُه (مراد بك) وتوغل في بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القُسْطَنْطِينِيّ في الجانب الغربيّ ، وفتح بلادهم إلى أن قُرب من خليج البنادقة ، وجبال جنوة ، وصير أكثرهم أمراء ورعايا له ، وعاش في بلاد الكُفَّار بما لم يُعهد قبله من مثله ؛ وأحاط بالقُسْطَنْطِينِيَّة من كل جانب حتى أعطاه صاحبها الحزبية . ولم يزل على ذلك حتى قُتل في حرب الصَّقالبة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة .

وملك بعده أبْنُه (أبو يزيد) فخرى على سَنَنِ أبيه ، وغلب على قِطْعَةٍ من بلاد الروم هذه فيما بين سيواس وأنطاليا والعلايا ، بساحل البحر إلى قريب مدينة بنى قَرْمَان ؛ ثم تزوج في بنى قَرْمَان بنت أحدهم وغلب على ما بيده من تلك النواحي ؛ ودخل بنو قَرْمَان وسائر التُّركمان في طاعته ، ولم يبق خارجاً عن مُلكه إلا سيواس التي كانت بيد قاضيا (إبراهيم) المتغلب عليها ومَطْيَعة الداخلة في مملكة الديار المصرية ومضافاتها على ما تقدم . ولم يزل على ذلك حتى قصده ثُمرك بعد تخريب الشام في سنة ثلاث وثمانمائة وقبض عليه ، فبقى في يده حتى مات .

وملك بعده أبْنُه (سليمان جلي) وبقى حتى مات .

فلما بعده أخوه (محمد بن أبي يزيد) بن مُراد بك بن عثمان جق ، وهو القائم بمملكتهما إلى الآن .

قال في "مسالك الأبصار" : ولو قد اجتمعت هذه البلاد لسلطان واحد ، وكُفَّت بها أْكُفُّ المفاصد ؛ لما وسع ملوك الأرض إلا اتّجاعُ سَحَابِه ، وأرتجاع كل زمانٍ ذاهِبٍ في غير جَنَابِه ، ثم قال : الله أكبر إن ذلك لَمُلْكٌ عَظِيمٌ ، وسِلْكٌ نَظِيمٌ ؛ وسلطنة كبرى ودنيا أخرى ﴿ ذَاكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

الجملة الخامسة

(في زى أهل هذه المملكة ، وترتيب الملك بها)

أما زى أهلها فإن ليس السلطان والأمراء والجند أقيّة تربية ضيقة الأكام ،
منزلة على الأكف ، والأمراء منهم يلبسون فوق ذلك أقيّة قصار الأكام من رقيق
الخام مضربة تضريباً واسعاً ، وعلى رؤوسهم عمام من لانس متوسطة المقدار بين الكبر
والصغر ، مكورة تكويراً خاصاً ، حسن الصنعة ، متداخل بعض اللقات في بعض ،
ويلبسون خفافاً من آدم ، وقد شاهدت أميراً من أمراءهم وردّ رسولاً عن أبي يزيد
أبن مراد بك بن عثمان إلى الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية وهو على هذه
الهيئة ، وكثير من الجند يلبسون الطرايطير البيض والحمر المتخذة من اللبد .



وأما ترتيب مملكتهم فلم تتحرر لي كيفية ذلك إلا أنه قد تقدّم نقلاً عن صاحب
« العبر » أنهم كانوا يسكنون الخيم ثم نزّوا المدن بعد ذلك ، فلا يبعد أن يكون
ترتيب ملكهم على نحو من ترتيب التتروا لله أعلم .

القسم الثاني

(من الجهة الشمالية عن الديار المصرية ، ما بيد ملوك النصارى)

وهو ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(جزائر بحر الروم)

وهو البحر الشاميّ الممتد من البحر المحيط الغربيّ ، المسمى (بحر أوقيانوس) إلى
ساحل الشام وما على شمته من بلاد الأرمن الممتد ساحله الجنوبيّ على ساحل

الديار المصرية، ثم على ساحل بَرْقَة، ثم على ساحل أفرِيقِيَّة، ثم على ساحل الغرب الأوسط، ثم على ساحل الغرب الأقصى إلى البحر المحيط. وساحله الشمالي على بلاد الروم التي شرقيّ الخليج القسطنطينيّ، ثم على سواحل بلاد الروم والفرنجية من غربيّ الخليج المذكور إلى ساحل الأندلس إلى البحر المحيط، على ما تقدّم ذكره في الكلام على البحار في أوّل هذه المقالة.

وبه إحدى عشرة جزيرة:

إحداها — جزيرة (قُبْرُس) . قال في ”اللباب“ : بضم القاف وسكون الباء الموحدة وضم الراء المهملة وفي آخرها سين مهملة . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال في ”الأطوال“ : حيث الطول سبع وخمسون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة . وهي جزيرة في مشارق هذا البحر . قال ابن سعيد : على القُرب من ساحل الشام بينها وبين الكُرك^(١) (بضم الكاف وسكون الراء المهملة من بلاد الأرمن) نحو نصف مجرى . قال : وطولها من الغرب إلى الشرق مائتا ميل، ولها ذنب دقيق في شرقها . قال الإدريسي : ودورها مائتان وخمسون ميلا، ولصاحبها مكتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ماسياتي ذكره في الكلام على المكتبات، في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الثانية — (جزيرة رُودِس) . قال في ”تقويم البلدان“ : بضم الراء المهملة ثم واو ساكنة ودال مهملة ويقال معجمة مكسورة ثم سين مهملة . وموقعها في الإقليم^(٢) [الرابع] من الأقاليم السبعة قال في ”الأطوال“ : حيث الطول إحدى وخمسون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في ”تقويم البلدان“ : وهي

(١) كذا في التقويم أيضا بالكاف في الآخر ولعله بالميم .

(٢) بياض بالأصل، والصحيح عن ”تقويم البلدان“ .

على حيال الإسكندرية، بين جزيرة المصطكى وجزيرة أقریطش . قال : وأمتدادها من الشمال إلى الجنوب بانحراف نحو خمسين ميلا ، وعرضها نصف ذلك . وبين هذه الجزيرة وبين ذنب جزيرة أقریطش مجرى واحد ، وهى فى الغرب عن جزيرة قُبرس بانحراف إلى الشمال . قال : وبعضها للفرنج ، وبعضها لصاحب اصطنبول (وهى القُسْطَنْطِينِيَّة) ومن رُودس يُجَلَّب العسل الطيب العديم النخير ، ولصاحبها مكتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالثة — (جزيرة أقریطش) . قال فى " اللباب " : بفتح الألف وسكون القاف وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وكسر الطاء وشين معجمة فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : سميت بذلك لأن أول من عمرها كان اسمه (قراطى) قال : وتسمى أيضا (أقریطش البترليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة . وهى على سمت برقة ، وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة ، قال ابن سعيد : ومدينتها حيث الطول سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى جزيرة عظيمة مشهورة ، وأمتدادها من الغرب إلى الشرق ودورها ثلثمائة وخمسون ميلا . وقيل : هذه الأيال إنما هى طولها شرقا بغرب لادورها ، وذكر فى "كتاب الأطوال" أن دورها سبعة عشر يوما . قال فى "تقويم البلدان" : ومنها يجلب إلى الإسكندرية العسل والجبن وغير ذلك . قال فى "الروض المعطار" : وهى جزيرة عامرة ، كثيرة الخصب ، ذات كروم وأشجار ، وبها معدن ذهب . وأكثر مواشيتها المعز ، وليس بها إبل ؛ ولم يكن بها سبع ولا ثعلب ولا غيرها من الدواب الدابة بالليل ، وكذلك ليس بها حية ، وإن دخلت إليها حية ماتت فى عامها . ويقال : إن صناعة الموسيقى أول ما ظهرت بها ، وبينها وبين ساحل برقة يوم وليلة ، وبينها وبين قبرس أربعة مجاري ،

وإليها ينسب الأتيمون الأقريطشي المستعمل في الأدوية . وكان « عبد الله بن أبي سرح » أمير مصر قد أفتتحها في زمان إمارته في خلافة « عثمان » رضى الله عنه ، وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة خمس وأربعين وثلثمائة . قال في « الروض المطار » : وهي بيد صاحب القسطنطينية .

الرابعة - (جزيرة المصطكى) بفتح الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة والكاف وألف في الآخر . سميت بذلك لأنه ينبت بها شجر المصطكى . قال في « تقويم البلدان » : وهي جزيرة بالقرب من فم الخليج القسطنطيني . وقال ابن سعيد : هي داخلية في بحر الروم على مائة وخمسين ميلا من فم الخليج القسطنطيني . قال : وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ستين ميلا . قال : وهي شرقى (جزيرة التفرير) وبينهما نحو ثلاثين ميلا . قال في « تقويم البلدان » : وبها ديرة وفري ، ومنها تجلب المصطكى إلى البلاد ، وهي صمغ شجر ينبت بها يشبه شجر الفستق الصغار ، يُسَرَط في فصل الربيع بمشاريط فتسيل منها المصطكى ، ثم تجدد على الشجر ، وربما قَطَر منه شيء على الأرض ، والأول أجود .

الخامسة - (جزيرة التفرير ^(١)) بالطاء المثناة فوق المفتوحة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحت وباء موحدة في الآخر . قال في « تقويم البلدان » : وهي من الغربية ، وموقعها في أواخر الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : وطرفها الشرقى حيث الطول ثمان وأربعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وهي جزيرة كبيرة في الغرب عن جزيرة المصطكى المقدم ذكرها ، وامتدادها من المغرب إلى المشرق بانحراف إلى

(١) سماها في تقويم البلدان « جزيرة التفرير » وذكر أن في بعض النسخ « التفرير » كما هنا .

الجنوب مائة وخمسون ميلا ، وفي العرض من عشرين ميلا إلى نحو ذلك . قال في "تقويم البلدان" : وهي معروفة بخروج الشوانى والقطائع منها .

السادسة — (جزيرة لَمْرِيَا) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح اللام وسكون الميم وكسر الراء المهملة ثم ياء مشناة تحتية وألف في الآخر . قال : وعن بعض المسافرين أن بعد المشناة هاء . قال ابن سعيد : وتعرف في الكتب بجزيرة بلونس ، وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : ووسطها حيث الطول خمس وأربعون درجة وأثنان وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة . قال : وهي أكبر جزائر الروم ودورها على التحقيق سبع مائة ميل ، وفيها أخوار وتعريجات ، ومديتها في وسطها .

السابعة — (جزيرة صَقْلِيَّة) . قال في "اللباب" : بفتح الصاد المهملة والقاف (١) . ولام وياء مشناة من تحت وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة ، وبين ذنبها الغربى وبين تونس جَرَى وستون ميلا ، ودورها خمسمائة ميل . وهي على صورة شكل مثلث حاد الزاوية : فالزاوية الأولى شمالية ، وهناك المجاز الضيق إلى الأرض الكبيرة (يعنى التى وراء الأندلس) وهو نحو ستة أميال . والزاوية الثانية جنوبية ، وهي تقابل برطرابلس من أفريقية من بلاد الغرب . والزاوية الثالثة غربية ، وهناك (بركان النار) في جزيرة صغيرة منقطعة شمالى الزاوية المذكورة ، وشمالى صَقْلِيَّة بلاد قلفرية الآتى ذكرها في الكلام على الضرب الثانى . قال في "تقويم البلدان" : وصاحب صَقْلِيَّة في زماننا هذا فرنجى من الكيتلان اسمه الريد افريك .

(١) ضبطها ياقوت بثلاث كرات وتشديد اللام والياء ثم قال وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام .

وقاعدتها مدينة (بَلَزَم) بفتح الباء الموحدة واللام وسكون الزاي المعجمة وميم في الآخر . قال ابن سعيد : وهي حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً ، والعرضُ ست وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة . وبها عدةُ مدُن غير هذه القاعدة .

منها مدينة (مازَر) . قال في "المشترك" : بفتح الزاي المعجمة وبعدها راء مهملة ، وإليها ينسب "الإمام المازريُّ المالكي" شارح "موطأ مالك" وغيره . ومنها (قَصْرُ يَانَّة) بلفظ قصر المعروف ، ويَانَّة بفتح الياء المثناة تحت وألف ونون مشددة ، وهي مدينة كبيرة على سَنِّ جبل .

الثامنة — (جزيرة سُردانية) . قال في "تقويم البلدان" : بضم السين وكسر الراء وفتح الدال المهملات ثم ألف ونون مكسورة وياء مثناة تحت مفتوحة وهاء في الآخر . قال : وأسمها بالقرنيجية صُرْدَانِي ، يعني ببدال السين صادًا مهملةً وحذف الهاء من الآخر . وهي غربيّ الجزر المتقدمة الذكر . وموقعها في الإقليم الرابع بين مَرَسِيّ الحَرَز من البر الجنوبيّ وبين مملكة يَزَة من البر الشماليّ . قال في "الأطوال" : وطولها إحدى وثلاثون درجة ، وعرضها ثمان وعشرون درجة . قال ابن سعيد : وأمتدادها من الطول من الشمال إلى الجنوب مجزئ ونصف ، وفي غربيها مَغَاص المَرْجَان الفائق الذي ليس له نظيرٌ، وبها معدِنُ فِضَّة ، وهي الآن بيد الفَرَنْج الكَيْتَلَانِيين ، ولَمَلِك الكَيْتَلَان نائِبٌ بها .

التاسعة — (جزيرة قَرْسَقَة) بفتح القاف وسكون الراء المهملة وفتح السين المهملة والقاف وهاء في الآخر . وهي مقابل (جَنَوَة) الآتي ذكرها في الضرب الثاني ؛

(١) في المعجم بفتح أوله وسكون ثانيه .

وبينها وبين سَرْدَانِيَّةِ المتقدمة الذكر مجاز نحو عشرة أميال ، وامتدادها من الشمال إلى الجنوب مجرى ونصف ، ووسطها متسع ، ورأسها من جهة جَنَوَة ضيق .

العاشرة — (جزيرة أنكلطرة) بألف ونون ساكنة وكاف مفتوحة ولا م مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . قال ابن سعيد : ويقال (أنكلترة) ببدال الطاء تاء مثناة من فوق . قال : وطول هذه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بانحراف قليل أربع مائة وثلاثون ميلا ، وآتساعها في الوسط نحو مائتي ميل ، وفيها معدن [الذهب] ^(١) والفضة والنحاس [والقصدير] ^(١) وليس فيها كروم أشدة البرد بها ، وأهلها يحملون الذهب إلى بلاد الفرنج ، ويعتاضون عنه الخمر لمدمه عندهم .

وقاعدتها (مدينة لندرس) بلام ونون ودال وراء وسين مهملات . وصاحب هذه الجزيرة يسمى (الانكتار) بنون وكاف وتاء مثناة فوقية وألف وراء مهملة في الآخر . وهو الذي عقد الهدنة بينه وبين الملك العادل « أبى بكر بن أيوب » في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، والملك العادل على عسقلان . وكان من أمره أنه لم يخلف على الهدنة بل أخذت يده وعاهدوه ، واحتج بأن الملوك لا يحلفون ، وكانت الهدنة بينهما ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها كانون الأول الموافق لحادى عشرى شعبان من السنة المذكورة .

الحادية عشرة — (جزيرة السناقر) . جمع سُقَر وهو الجراح المعروف المقدم ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في المقالة الأولى . وهى جزيرة على القُرب من (جزيرة أنكلترة) المقدمة الذكر ، قال ابن سعيد : وامتدادها في الطول شرقا بغرب سبعة أيام ، وفي العرض أربعة أيام . قال في "تقويم البلدان" : ومنها

(١) الزيادة عن التقويم .

ومن الجزائر التي شمالها تجلب السناقر التي هي أشرف أنواع الجوارح ، وإلى ذلك أشار في "التعريف" في الكلام على أوصاف السناقر بقوله وهي مجلوبة من البحر الشامي . قلت : وجزيرة حربة تقدم ذكرها مع بلاد أفريقية . وجزيرة ميورقة وجزيرة يانسة وجزيرة قادس تقدم ذكرها مع جزيرة الأندلس .

الضرب الثاني

(ماشمالاً بحر الروم المقدم ذكره من غربي الخليج القسطنطيني مما يمتد غرباً إلى البحر المحيط الغربي ، وما يتصل بذلك مما شمالاً بحر نيطس المعروف بحر القرم إلى أقصى الشمال ، وهو جهتان)

الجهة الأولى

(ما هو في جهة الغرب عن الخليج القسطنطيني . وهو قطران)

القطر الأول

(ما بين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلس ، وما على سمت ذلك .

ويشتمل على ممالك كبار وممالك صغار)

فأما الممالك الكبار ، فالمشهور منها خمس ممالك :

المملكة الأولى

(مملكة القسطنطينية)

قال في "اللباب" : بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانية وسكون المشاة من تحت ثم نون (يعني مفتوحة) ثم هاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وتسمى بوزنطيا يعني بالباء الموحدة والواو

والزأى المعجمة والنون والطاء المهملة ثم ياء مشناة من تحت وألف في الآخر .
وربما قالوا : بُوزَظِيَّةٌ ببدال الألف هاء . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم
السبعة قال في "رسم المعمور" : حيث الطرل ثمان وأربعون درجة ، والعرض
خمس وأربعون درجة ، وواقفه على ذلك صاحب "الأطوال" وصاحب "القانون"
وأبن سعيد : وهي قاعدة الروم بعد رومية وعمورية ، وهي المستقرة قاعدة ملك
لهم إلى الآن .

قال في "الروض المعطار" : نزل رومية من ملوك الروم عشرون ملكاً ، ثم نزل
عمورية منهم ملكان ، ثم عادت المملكة إلى رومية فترها منهم ملكان ، ثم ملك
(قُسطنطين) بن هيلاني ، فجدد بناء بُوزَظِيَّةَ وزاد في بنائها ، سماها قُسطنطينية نسبة
إليه ونزل بها فصارت دار ملك للروم بعده إلى الآن . قال : وهي على ضفة الخليج
المنصب من بحر نيطش ومانيطش إلى بحر الروم ، وقد صار هذا الخليج مشهوراً بها .
فيقال فيه (الخليج القُسطنطيني) كما تقدم . وجهاؤها الثلاث من الشرق والغرب
والجنوب إلى البحر ، والجهة الرابعة وهي الشمال إلى البر ، وقطرها من الشرق إلى
الغرب ثمانية وعشرون ميلاً ، ولها سوران من حجارة بينهما فضاء ستون ذراعاً ،
وعرض السور الداخل اثنا عشر ذراعاً ، وارتفاعه اثنا وسبعون ذراعاً ، وعرض
السور الخارج ثمانية أذرع ، وارتفاعه اثنا وأربعون ذراعاً ، وفيما بين السورين
نهر يسمى (قُسطنطينيانوس) مغطى ببلاط من نحاس ، يشتمل على اثنين وأربعين
ألف بلاطة ، طول كل بلاطة ستة وأربعون ذراعاً ، وعمق النهر اثنا وأربعون
ذراعاً . ولها نحو مائة باب أكبرها باب الذهب : وهو باب في شمالها ، طوله
أحد وعشرون ذراعاً ، وهو مضرب بالحديد ، وبه أعمدة من ذهب ، وبها قصر
في غاية الكبر والعلو ، وطريقه الذي يتوصل إليه منه يعرف بالبدندون . وهو من

عجائب الدنيا، يُعْشَى فيه بين سَطْرَيْن من صُور مفرَّغة من النحاس البديع الصَّناعة على صُور الآدميين وأنواع الخيل والسَّباع وغير ذلك ، وفي القصر ضروب من عجائب المصنوعات .

قال في "تقويم البلدان" : وحكى لي بعض من سافر إليها أن داخلها مزدرع وبساتين ، وبها خراب كثير ، وأكثَر عمارتها في الجانب الشرقى الشَّمالى ، وكنيستها مستطيلة ، وإلى جانب الكنيسة عمود عالٍ دَوْرُهُ أَكْثَر من ثلاثة باعات ، وعلى رأسه فارسٌ وفرسٌ من نُحاس ، وفي إحدى يديه حُرْبَةٌ كبيرة ، وقد فتح أصابع يده الأخرى وهو مشير بها . قيل : إن ذلك صورة (قُسْطَنْطِين) باني المدينة . قال في العريزي : ولها أربع عشرة معاملة .

وَأَعْلَم أن هذه المملكة كانت أولاً بيد اليونان . قال البيهقي : وهم بنو يونان بن علجان ، بن يافث ، بن نوح عليه السلام . وفي التوراة أن يونان ابن يافث لصلبه ، وأسمه فيها (ياثان) بفاء تقرب من الواو . وخالف الكندي فنسبهم إلى عابر بن فالغ فجعل يونان أحاً لقحطان ، وذكر أنه خرج من اليمن بأهله وولده مغاضباً لأخيه قحطان فقتل ما بين إفرنجة والروم ، فاختلط نسبه بنسبهم . ورد عليه أبو العباس^(١) الناشي في ذلك بقوله :

[و] تَخَلَّطَ يُونَانًا بِقَحْطَانَ ضَلَّةً * لَعَمْرِي لَقَدْ بَاعَدْتَ بَيْنَهُمَا جِدًّا !

(١) هو عبد الله بن محمد الناشي وأوّل الأبيات :

أبا يوسف إني نظرت فلم أجِد * على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكما عند قوم إذا أمرؤ * بلاهم جميعا لم يحمد عندهم عندا
أتقرن الحادا بدين محمد * لقد جئت شيئا بأكأ كندة إذا

وتخلط الخ اه من مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٨) .

وقيل إنهم إنما نَجُّوا من رجل يقال له (الكن) وُلِدَ سنة سبع وأربعين لوفاة موسى عليه السلام .

وكانت قاعدة ملكهم الأولى (مدينة أغريقية) . وهي مدينة بناها (أغريقش) ابن يونان المتقدم ذكره على الجانب الغربى من الخليج القُسْطَنْطِينِيّ ، وهي أول مدنها ، ثم هدمها هيلوس أحد ملوكهم وبنى (مدينة مقدونية^(١)) في وسط المملكة بالجانب الغربى أيضا ونزلها فصارت منزلا لملوكهم من بعده ، وإليها ينسب ملوكهم فيقال ملوك مقدونية ، وقد كان يقال للإسكندر بن فيلبس المقدونى نسبة إلى مقدونية هذه . ومن طائفة اليونان كان معظم الحكماء الذين عنهم أخذت علوم الفلسفة ، ومنهم بقراط وسقراط وأفلاطن وأرسطوطاليس وإقليدس وغيرهم من الحكماء .

وكان لهم عدة ملوك ، أولهم (يُونانُ) بن يافث بن نوح .

ثم ملك بعده ابنه (أغريقش) وهو الذى بنى مدينة أغريقية المتقدم ذكرها . وتوالى الملك فى ولده ، وقهروا اللطيين ودال ملكهم فى أرمينية .

ثم ملك (هرقل الجبار) بن ملكان ، بن سلقوس ، بن أغريقش .

ثم ملك بعده ابنه (بلاق) وإليه تُنسب الأمة البلاقية التى هى الآن على بحر سوداق ، واتصل الملك فى عقب بلاق المذكور إلى أن ظهر عليهم إخوانهم الروم واستبدوا بالملك .

فكان أولهم (هردوس) بن مطرون ، بن روى ، بن يونان ، فملك الأئم الثلاثة ، وصار اسمه لقباً لكل من ملك بعده .

(١) قال ياقوت : بفتح أوله وثانية وضم الدال المعجمة الخ .

ثم ملك بعده أبْنُه (هرمس) وحاربه الفُرس فقهروه وضربوا عليه الإتاوة .

ثم ملك بعده أبْنُه (مطرنوس) فحمل الإتاوة للفرس .

ثم ملك بعده (فيلبوس) فظهر على الأعداء وهدم مدينة أغريقية ، وبني مدينة مقدونية المتقدم ذكرها ، وكان محباً في الحكمة فكثر الحكماء في دولته .

ثم ملك بعده أبْنُه (الإسكندر) فاستقام له الأمر وملك الشام ، وبيت المقدس ، والهند ، والسند ، وبلاد الصين ، والتبت ، وخراسان ، وبلاد الترك ، وذلك له سائر الملوك ، وهاداه أهل المغرب والاندلس والسودان ، وبني مدينة الإسكندرية بالديار المصرية عند مصب النيل على ساحل البحر الرومي ، وبني بالسند أيضا مدينة سماها الإسكندرية ، ورجع إلى بابل فمات بها ، وعرض الملك على أبْنِه إسكندروس فأبى واختار الرهبانية .

ثم ملك بعده (لوغوس) من بيت الملك ، وتلقب (بطليموس) فصار ذلك علما على كل من ملك منهم . وقيل : هو بطليموس بن لاوى صاحب عسكر الإسكندرية ، وهلك لأربعين سنة من ملكه .

وملك بعده أبْنُه (فلديش) فأقام ثمانيا وثلاثين سنة ، وترجمت له التوراة من العبراني إلى الرومي .

(١) ثم ملك بعده أبْنُه (أنطريطش) فأقام ستا وعشرين سنة وهلك .

(٢) فملك بعده أخوه (قلوباظر) فأقام سبع عشرة سنة وهلك .

فملك بعده أبْنُه (أيفانث) فأقام أربعا وعشرين سنة .

(١) في "العبرج ٢ ص ١٨٩" انطريس .

(٢) في "العبرج ٢ ص ١٨٩" قلوباذي .

وملك بعده ابنه (قلو، اظر) فأقام خمسا وثلاثين سنة . وكان مقره الإسكندرية وهلك .

فملك بعده ابنه (إبرياطش) فأقام سبعا وعشرين سنة . وعلى عهده استفحل ملك رومة، وملكوا الأندلس وأفريقية وهلك .

فملك بعده ابنه (شوطا) ^(١) فأقام سبع عشرة سنة، وهلك .

فملك بعده أخوه (الإسكندر) فأقام عشر سنين وهلك .

فملك بعده (دئونشيش) بن شوطا، فأقام ثمانيا وثلاثين سنة، وفي أيامه ملك الروم بيت المقدس وأنطاكية، وهلك .

فملك بعده بنته (كلاطرة) فأقامت سنتين، وكان سكنها الإسكندرية . وكان الملك على الروم يومئذ أغسطس قيصر ملك الروم، فقصدتها، فاحتالت بأن اتخذت حية توجد بين الحجاز والشام، فلمست الحية فيست مكانها، وبقيت الحية في رياحين حولها، وحضر أغسطس فوجدها جالسة ولم يشعر بموتها، فتناول من الرياحين ليشمها فاسعته الحية فمات ^(٢) . وزالت دولة اليونان بزوالها .

هكذا رتبهم (هرشيوش مؤرخ الروم) وسبب ذلك أن الروم واليونان كانوا متجاورين متلاصقين لعلاقة النسب فقد نقل ابن سعيد عن البيهقي أن الروم من ولد رومي بن يونان المتقدم ذكره . وقيل هم بنو لطين بن يونان أخى رومي المذكور، ولذلك يقال لهم اللطينيون . وقيل هم من بنى كيثم بن ياثان وهو يونان . وقيل بل هم من بنى عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

(١) في "البرج ٢ ص ١٩٠" شوطار .

(٢) في القطعة الأثرية لإصلاح على هذا الوجه [فبطل شقه ولم يمت إذ كانت الحية قد أفرغت سمها في كلاطرة قبله] .

قال صاحب حماة في تاريخه : وكان أول ظهورهم في سنة ست وتسعين وثلاثمائة
 لوفاة موسى عليه السلام . قال : وهم يعرفون بنى الأصفر ، والأصفر هو رؤيم
 ابن العيص . قال في "العبر" : وذلك أنه لما خرج يوسف عليه السلام من مصر
 بأبيه يعقوب ليُدْفَنَ بالشَّامَ عند الخليل عليه السلام ، أَعترضه بنو عيصو فخار بهم
 وهزمهم ، وأسر منهم صفوا بن إليفار بن عيصو ، وبعث به إلى أفريقية ، فأقام بها
 وأتصل بملكها وأشتهر بالشجاعة ، ثم هرب من أفريقية إلى أسبانية ، فزوجه
 وملكوه عليهم ، فأقام في الملك خمسا وخمسين سنة ، وبقي الملك في عقبه إلى أن كان
 منهم ملك اسمه (رؤيمش) فبنى مدينة رومية وسكنها فعرفت به . وبالجملة فإنهم كانوا
 مجاورين لهم : الروم في المغرب ، واليونان في المشرق ، ف وقعت الحرب بينهم ، وكانت
 الغلبة للروم على اليونان مرة بعد أخرى إلى أن كانت غلبة أعشطش على قلوبطرا
 على ما تقدم ذكره .

ثم ملوك الروم على طبقات :

الطبقة الأولى

(من ملك منهم قبل القيامة)

قال "هروشيوش" مؤرخ الروم : وأول من ملك منهم (بيقش) بن شطونش^(١)
 ابن يوب ، في آخر الألف الرابع من أول العالم على زمن تيه بنى إسرائيل .
 ثم ملك بعده ابنه (بريامش) وأتصل الملك في عقب بيقش المذكور وإخوته
 إلى أن كان منهم كرمش بن مرسية بن شبين بن مُزركة ، بعد أربعة آلاف وخمسين

(١) في العبرج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

لأول العالم في زمن بار بن كلعاد من ملوك بني إسرائيل ، وهو الذى ألف حروف اللسان اللطيني ولم تكن قبله .

ثم كان منهم (أناش) من عقب بريامش بن بيقش المتقدم ذكره لأربعة آلاف ومائة وعشرين للعالم .

وفى أيامه حرب الأغريقيون مدينة طروبة المتقدم ذكرها فى قواعد مملكتهم .

ثم ملك بعده أبنه (أشكانيش) وهو الذى بنى مدينة ألبا ، ثم اتصل الملك فيهم إلى أن أفرق أمرهم ؛ ثم كان من أعقابهم برقاش على عهد عزيا بن أمصيا من ملوك بني إسرائيل . واتصل الملك لأبنه ثم لحافديه روملش وراملش لأربعة آلاف وخمسمائة سنة للعالم . وهما اللذان اختطا مدينة رومية ، وكان الروم بعد روملش وراملش وأقراض عقبهم قد سئمو ولاية الملوك عليهم ، فصيروا أمرهم شورى بين سبعين وزيرا . وقال ابن العميد : كانوا يقدمون شيئا بعد شيخ ، ولم يزل أمرهم على ذلك مدة سبعمائة سنة ، تقترع الوزراء فى كل سنة ، فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية على ما توجه القرعة ؛ فيحاربون الأثم والطوائف ، ويفتحون الممالك حتى ملكوا الأندلس وأنخوا فى الجلالقة ، وملكوا سمورية مدينة القوط ، وأستولوا على الشام وأرض الحجاز ، وأفتحو بيت المقدس وأسروا ملكها ، وكانت الحرب بينهم وبين الفرس سجالا إلى أن كانت القياصرة كما سياتى إن شاء الله تعالى .

(١) فى العبرج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

(٢) فى القاموس والمعجم سمورة أى بدون ياء فلعلها من النسخ .

الطبقة الثانية

(القياصرة قبل ظهور دين النصرانية فيهم)

قال ابن العميد: لم يزل تديير المشايخ الذين رتبوهم نافذاً فيهم، إلى أن كان آحرهم أغانيوش فدبرهم أربع سنين وتسمى قيصر، وهو أول من تسمى بذلك من ملوكهم، ثم صار سمة لمن بعده. وسيأتى الكلام على معنى هذه اللفظة.

ثم ملك بعده (بواوش قيصر) ثلاث سنين.

ثم ملك بعده (أوغشطش قيصر) بن مونوخس، وهو وشيوش يسميه (أكتيان قيصر) وهو الثاني من القياصرة، وهو الذى سلب ملك كلابطرا آخر ملوك اليونان المقدم ذكرها. واستولى على مصر والإسكندرية وسائر ممالك اليونان الروم. ويقال: إنه كان آحر قواد الشيخ مدبر رومة، وإنه توجه بالعساكر لفتح الأندلس ففتحها ثم عاد إلى رومة فملكها وطرده الشيخ عنها، ووافقه الناس على ذلك؛ ثم قتل نائبه بناحية المشرق واستولى عليها لثقتى عشرة سنة من ملكه [ولثنتين وأربعين سنة من ملك أغشطش ولد المسيح بعد مولد يحيى بثلاثة أشهر وذلك] (٢) لتنام خمسة آلاف وخمسمائة سنة شمسية للعالم.

ثم ملك من بعده ابنه (طباريش قيصر) فاستولى على النواحي، وفى أيامه كان رفع المسيح عليه السلام وأقترأ الحواريين فى الآفاق لإقامة الدين وحمل الأمم على عبادة الله تعالى. ومات لثلاث وعشرين سنة من ملكه بعد أن جدد مدينة طبرية وأشتق اسمها من اسمه.

(١) هنا انتهت القطعة الأزهرية وتوحد الأصل والله المستعان.

(٢) الزيادة من "العبرج ٢ ص ٢٠٠" ليم الكلام وفيه فى بعض أسماء الملوك مغايرة لما فى الأصل.

ثم ملك من بعده (غابيش قيصر) وهو الرابع من القياصرة . وقال هر وشيوش :
وهو أخو طباريش ، وسماه غابيش قليفة بن أكتيان . قال ابن العميد : ووقعت
في أيامه شدة على النصارى ، وقتل يعقوب أخاه يوحنا من الحواريين ، وحبس
بطرس رأسهم ، ثم وثب عليه بعض قواده فقتله .

وملك من بعده (فلوديش قيصر) وهو الخامس من القياصرة . قال هر وشيوش :
هو ابن طباريش المتقدم ذكره فيكون أخا غابيش^(١) ، وعلى عهده كتب متى الحوارى
إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ، ونقله يوحنا بن زندي إلى الرومية ، وكتب
بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض أكابر الروم ، وهلك
فلوديش قيصر لأربع عشرة سنة من ملكه .

وملك بعده ابنه (نيرون قيصر) وهو السادس من القياصرة ، وكان غشوما فاسقا ،
فأنكر على من أخذ بدين المسيح وقتلهم ، وقتل بطرس وبولس الحواريين ،
وقتل مرقس الإنجيلي : بطرك الإسكندرية لثنتي عشرة سنة من ملكه . وفي أيامه
هدم اليهود كنيسة النصارى بالقدس ، ودفنوا خشبة الصليب بزعمهم في الزبالة .
قال هر وشيوش : وقتله جماعة من قواده لأربع عشرة سنة من ملكه ، وأنقطع
ملك آل يوليوش قيصر لمائة وست عشرة سنة من أول ملكهم . قال هر وشيوش :
وكان نيرون قيصر قد وجه قائدا إلى جهة الأندلس فافتتحها وعاد إلى رومة بعد مهلك
نيرون قيصر فملكه الروم عليهم . وكان لنيرون قيصر صهر على أخته يسمى
(يشبشيان) وابن العميد يسميه (إشباشيانس) وكان نيرون قيصر قد وجه لفتح
بيت المقدس ففتحه وعاد فقتل ذلك القائد الذي استولى على المملكة بعد نيرون

(٢) لعل الصواب فيكون ابن أخى غابيش .

قيصر، ومَلِك مكانه، وتسمى قيصر كمن كان قبله وأستقام له الملك، هكذا ذكره هرشيوش .

والذي ذكره ابن العميد أنه لما هلك نيرون قيصر وإشباشيانس الذي سماه هرشيوش يشبشيان [محاصر للقدس^(١)] مَلِك الروم عليهم غلياش قيصر، فأقام تسعة أشهر وكان ردىء السيرة فقتله بعض خدَمه .

ثم مَلِكُوا عَوْضَه (أنون) ثلاثة أشهر، ومَلِكُوا (بطالس) ثمانية أشهر، وسار إليه اشباشيانس الذي يسميه هرشيوش يشبشيان فقتله، وهلك اشباشيانس المذكور لتسع سنين من مَلِكِهِ .

وملك بعده ابنه (طيطش قيصر) لأربعمائة سنة من مَلِك الإسكندر، فأقام فيهم ستين وقيل ثلاثا وقيل أربعا، وكان حسن السيرة متفنا في العلوم .

ثم ملك بعده أخوه (دومريان قيصر) وقيل اسمه دوسطيانوس، وقيل دوماطيانوس، فأقام خمس عشرة سنة، وقيل ست عشرة سنة، وقيل تسع سنين، وهو ابن أخت نيرون قيصر المتقدم ذكره، وكان ظلوما غاشيا فحبس يوحنا الحواري، وأمر بقتل النصارى ونفيهم، وقتل اليهود من نسل داود حذار أن يملكوا، وهلك في حرب الفرنج .

وملك بعده (نربا) ابن أخيه طيطش، وقيل اسمه تاوداس، وقيل قارون، وقيل : برسطوس، فأقام نحواً من ستين أو سنة ونصفاً، فأحسن السيرة وأمر برء من نقي من النصارى وخلاهم ودينهم، ولم يكن له ولد .

(١) الزيادة من الأبرج ٢ ص ٢٠٢ يستقيم الكلام .

فَعَهْدَ الْمَلِكِ إِلَى (طريانش) من عطاء قواده . وقيل : اسمه أنديانوش ، وقيل
طرينوس ، فملك بعده وتسمى قيصر ، فأقام تسع عشرة سنة ، ولقى النصراني
في أيامه شدة وتبع أئمتهم بالقتل واستعبد عآمتهم . وفي زمنه كتب يوحنا إنجيله
برومة في بعض الجزائر ، وهلك طريانش المذكور لتسع عشرة سنة من ولايته .

(١)
وملك بعده (أندريانوس) فأقام إحدى وعشرين سنة ، وقيل عشرين سنة
وهو الذي بنى مدينة القدس وسماها إيليا ، وكان شديداً على النصراني وقتل منهم
خلقا كثيرا ، وأخذ الناس بعبادة الأوثان ، وألزم أهل مصر حفر خليج من النيل
إلى القلزم فخفروه وأجروا فيه ماء النيل ثم آرتدم بعد ذلك .

ولما جاء الفتح الإسلامي ألزمهم عمرو بن العاص رضى الله عنه حفره فخفروه
وجرى فيه الماء ثم آرتدم أيضا ، وبقي على ذلك مردوما إلى زماننا . ومات
أندريانوس لاحدى وعشرين سنة من ملكه .

فملك بعده ابنه (أنطونيش) وتسمى (قيصر الرحيم) فأقام اثنين وعشرين سنة ،
وقيل إحدى وعشرين سنة وهلك .

فملك بعده أخوه (أوراليانس) وقيل اسمه أورالش ، وقيل اسمه أنطونيش
الأصغر ، وأصاب الأرض في زمنه قحط ووباء عظيم ، وأصاب النصراني في أيامه
شدة عظيمة ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وهلك لتسع عشرة سنة من ملكه .

وملك من بعده ابنه (كودة) ويقال بالثقاف بدل الكاف ، فأقام ثلاث عشرة
سنة ، وقيل ثلثي عشرة سنة . وفي عاشرة ملكه ظهر « أردشير بن بابك » أول

(١) في الأصل إحدى عشرة والتصحيح من العبرج ٢ ص ٢٠٤ .

ملوك الساسانية من الفُرس . وفي زمنه كان «جالينوس» اليوناني المشهور بالطب ، و«بقراطس» الحكيم ، ومات كمودة المذكور .

فملك بعده (ورميتلوش قيصر) وقيل اسمه برطنوش ، وقيل اسمه فرطيوخوس ، وقيل برطانوس ، وقيل أليش بن طنحيش فأقام ثلاثة أشهر ، وقيل شهرين ، وقيل سنة ، وقتله بعض قواده .

فملك بعده (يوليانوس قيصر) فأقام شهرين ومات .

فملك بعده (سوريانوس قيصر) وقيل اسمه سورس ، وقيل طباريش ، فأقام تسع عشرة سنة ، وقيل ثمان عشرة ، وقيل ست عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ، وقيل ست سنين ، واشتد على النصاري وقتل فيهم وسار إلى مصر والإسكندرية فقتلهم ، وهدم كنائسهم وشردهم في البلاد ، وهلك .

فملك من بعده (أنطونيش قيصر) وقيل أنطونيش قسطنطس لخمس وعشرين سنة ونحسبائة لعلبة الإسكندر ، فأقام ست سنين ، وقيل سبع سنين ، وضعف عن مقاومة الفُرس فغلبوا على أكثر مدن الشام ونواحى أرمينية ، وهلك في حروبه .

فملك بعده (مقرين قيصر) بن مركة ، وقيل اسمه مقرونيوس ، وقيل مرقيانوس ، فأقام سنة وقتله قواد رومة .

ثم ملك من بعده (أنطونيش) قيل ثلاث سنين ، وقيل أربع سنين ، وفي أول سنة من ملكه بُنيت مدينة عمّاس^(١) بأرض فلسطين من الشام وملك سابور ابن أردشير مدناً كثيرة من الشام ، ومات .

(١) وقع في العبرج ٢ ص ٢٠٦ عمان والصواب ما في الأصل لأن عمّاس هي التي من أرض فلسطين أنظر معجم ياقوت .

فملك من بعده (اسكندروس) فأقام ثلاث عشرة سنة ، وقيل عشرين سنة ، وكانت أمه نصرانية ، فكانت النصراني معه في سعة من أمرهم . قال هرودشوش : ولعشر من ملكه غزا فارس وقتل سابور بن أردشير ملك الفرس ، وثار عليه أهل رومة فقتلوه .

وملك بعده (مخشميان) بن لوجيه ، وقيل اسمه نقيموس ، فأقام ثلاث سنين ولقي النصراني منه شدة عظيمة . قال ابن العميد : وفي ثالثة ملكه مات سابور ابن أردشير ، وهو خلاف ما تقدم من كلام هرودشوش أنه قتله [اسكندروس] في العاشرة من ملكه ، وهلك .

فملك بعده (يونيوش) وقيل اسمه لوكيوش قيصر ، وقيل بلينايوس ، فأقام ثلاثة أشهر وقُتل .

ثم ملك بعده (غرديانوس قيصر) وقيل اسمه فودينوس ، وقيل فرطانوس وقيل غرديان بن بلنسيان ، فأقام ست سنين ، وقيل سبع سنين ، وطالت حروبه مع الفرس ، وقتله أصحابه على نهر الفرات .

وملك بعده (فلنش قيصر) بن أوليان بن أنطونيش ، فأقام سبع سنين ، وقيل ست سنين ، وقيل تسع سنين ، ودان يدين النصرانية . وهو أول من تنصر من ملوك الروم ، وقتله قائد من قواده .

وملك ذلك القائد الذي قتله مكانه ، وكان من أولاد الملوك . وأسمه داجية ابن مخشميان فأقام خمس سنين ، وقيل ستين ، وقيل سنة ، وكان يعبد الأصنام ولقي النصراني منه شدة ، قيل وفي أيامه كانت قصة أهل الكهف مع ملكهم ، وهلك .

فملك من بعده (غالش قيصر) فأقام سنتين ، وقيل ثلاث سنين ، واستتبع في قتل النصراني . وكان في أيامه وباءٌ عظيمٌ أقفرت منه المدن ، ومات .

فملك بعده (والاريانس) لسبعين وخمسمائة لعلبة الإسكندر ، وقيل اسمه غاليوش ، وقيل أقيوس وغاليوش ابنه ، وقيل أورليوس ، وقيل غليوش ، وقيل أدرياليانوس ، فأقام إحدى عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة سنة ، وقيل أربع عشرة سنة ، وقيل خمس سنين ، وكان يعبد الأصنام فلقى النصراني منه شدة عظيمة ، ووقع في أيامه وباءٌ عظيم فرفع الطلب عن النصراني بسببه . وفي أيامه خرج القوط من بلادهم وتغلبوا على بلاد مقدونية وبلاد الببط وأقتلعوها منه ، وقتله بعض قواد رومة .

وملك بعده (افلوديوش قيصر) لثمانين وخمسمائة للإسكندر ، فأقام سنة واحدة ، وقيل سنة وتسعة أشهر ، وقيل هو فلوديش بن بلاريان ولم يكن من بيت الملك وأقام سنتين ، وقيل ملك [بعده أخوه ^(١)] قنطل فأقام سبعة عشر يوما ، ودفع القوط عن مقدونية وأرمينية ، وقتله بعض قواده .

ثم ملك (أوريليانس) وقيل اسمه أوراليوس ، وقيل أورينوس ، وقيل أورليوس ، وقيل أوراليان بن بلنسيان ، فأقام ست سنين ، وقيل خمس سنين ، وأشتد على النصراني وجدد بناء رومة ، وفي سادسة ملكه ولد قسطنطين ، ثم قتل .

وملك بعده (طافيش بن اليش) وقيل اسمه طافسيوس ، وقيل طافساس ، فأقام نحو سنة ، وقيل تسعة أشهر ، وقيل ستة أشهر .

ثم ملك بعده (فروفش قيصر) وقيل اسمه فرويس ، وقيل برويش ، وقيل
ولاكيوش ، وقيل ارفيون ، فأقام خمس سنين ، وقيل ست سنين ، وقيل سبع
سنين ، وقتله قواد رومة .

ثم ملك بعده (قاريوش قيصر) وقيل اسمه قوروش ، وقيل قاروش الخمسائة
وثنتين وتسعين للإسكندر في زمن سابور ذى الأكتاف : أحد ملوك الساسانية
من الفرس ، فأقام سنتين ، وقيل ثلاث سنين ، وتغلب على كثير من بلاد الفرس ،
وأشتد على النصارى وقتل منهم خلقا كثيرا وهلك في الحرب .

فملك بعده ابنه (مناريان) وقيل لوقته .

ثم ملك من بعده (ديقلاديانوس) الخمسائة وخمس وتسعين سنة للإسكندر ،
وقيل اسمه دقلطيانوس ، وقيل غرنيطا ، فأقام إحدى وعشرين سنة ، وقيل عشرين
سنة ، وقيل ثمان عشرة ، ولقى النصارى منه شدة وأمر بغلق الكنائس ، وقتل جملة
من أعيان النصارى ، وهلك .

فملك بعده ابنه (مقسيمانوس قيصر) فأقام سبع سنين ، وقيل سنة واحدة .

وكان شريكه في الملك (مفطوس) وهو أشد كفرا منه ، ولقى النصارى منهما شدة
عظيمة وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووقع في كلام هر و شيوش ما يخالف هذا الترتيب ،
ولا حاجة بنا إلى ذكره .

الطبقة الثالثة

(القياصرة المنتصرة إلى الفتح الإسلامي)

وكانوا يدينون أولاً يدين الصابئة ، ثم دانوا بدين المجوسية ، ثم بعد ظهور
الحواريين وتسلطهم عليهم مرة بعد أخرى أخذوا بدين النصرانية . وكان أول من
أخذ منهم به قسطنطين بن قسطنش بن ولينتوش ، وكان قد خرج على مقسيانوس
قيصر : آخر القياصرة من الطبقة الثانية ، فهزمه ورجع مقسيانوس إلى رومة ، فزاد
عسكره على الجسر فغرق فيمن غرق ، ودخل قسطنطين رومة وملكها فبسط
العدل ، ورفع الجور ، وتنصر لثلاثي عشرة سنة من ملكه ، وهدم بيوت الأصنام ،
وتوجهت أمه (هالانة) ^(١) إلى القدس واستخرجت خشبة الصليبوت بزعمهم من تحت
القمامات ، وبنت مكانها كنيسة قمامة ، وذلك لثلاثمائة وثمان وعشرين سنة من مولد
المسيح عليه السلام . وفي السنة التاسعة عشرة من ملكه كان جمع الأساقفة بيقية .
ولما تنصر قسطنطين وخرج عن دين المجوسية ، خاف من قومه فارتحل من رومة
إلى مدينة بوزنطية فجدها وزاد فيها وسمّاها القسطنطينية باسمه ، وأقام في الملك
خمسین سنة : منها بوزنطية ست وعشرون سنة قبل غلبة مقسيانوس ، وأربع وعشرون
بعد أسبيلائه على الروم ، وهلك لستمائة وخمسين للإسكندر .

وملك بعده ابنه (قسطنطين الأصغر) بن قسطنطين ، بن قسطنش ^(٢)
فأقام أربعاً وعشرين سنة ومات .

(١) الذي في تاريخ أبي الفداء أن اسمها "هيلاني" .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم النسخ .

فملك بعده آبن عمه (يوليائش) فأقام سنة واحدة، وقيل سنتين، فكان على غير دين النصرانية : فقتل النصاري وعزّ لهم عن الكائس وأطرحهم من الديوان، وسار لقتال الفرس فمات من سهم أصابه، وقيل ضلّ في مفازة فقتله أعداؤه .

وملك بعده (يليان) بن قسطنطين سنة واحدة وهلك .

فملك بعده (بوشانوش) فأقام سنة واحدة، وقيل إنما هو بلنسيان بن قسطنطين، وقيل واليطينوش، وأنه ملك ثلثي عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ثم هلك بالفالج .

وملك بعده أخوه (واليش) وقيل اسمه وآلاش فأقام أربع سنين، وقيل ثلاث سنين، وقيل سنتين، وقيل إنه كان شريك واليطينوش المتقدم ذكره في المُلّا، ثم خرج على واليش خارج من العرب وقُتل في حربه .

وملك بعده (اغراديانوس قيصر) وهو أخو واليش، ويقال إن ولنطيانش ويقال والنطوش بن واليش كان شريكاً له في الملك فأقام سنة واحدة، وقيل سنتين، وقيل ثلاث سنين، ومات اغراديانوس وآبن أخيه في سنة واحدة .

وملك بعدهما (تاوداسيوس) ويقال إنه طودوشوش لستائة وتسعين من مُلك الإسكندر، فأقام سبع عشرة سنة، وفي الخامسة عشرة من ملكه ظهر أهل الكهف وأفاقوا من نومهم، فأرسل في طلبهم فوجدهم قد ماتوا فأمر أن تبنى عليهم كنيسة ويُتخذ يوم ظهورهم عيداً . وفي أيامه كان المجمع بقسطنطينية لِمائتين وخمسين سنة من [مجمع] نيقية .

ثم ملك (اركاديش) بن تاوداسيوس، فأقام ثلاث عشرة سنة، ووُلِد له ولد سماه طودوشوش، فلما كبر هرب إلى مصر وترهب، وأقام في مغارة في الجبل المُقطم ومات، فبنى الملك على قبره كنيسة وديرا يسمى دير القصير، وهو دير البغل، وهلك .

فملك بعده أبنيه (طودوشيش قيصر) الأصغر، فأقام ^{ثنتين} وأربعين سنة .
 وفي أيامه كان المجمع الثالث للنصارى بمدينة أفسس، وولى أخاه أنوريش على رومة
 وأقسما الملك بينهما، وقيل إن أركاديش بن طودوشوش ولى أخاه أنوريش على
 رومة وأقسما الملك وإنه لما هلك أركاديش استبد أخوه أنوريش قيصر بالملك
 خمس عشرة سنة؛ وإنه لما هلك ملك من بعده طودوشيش المقدم ذكره .

ثم ملك (مريقان قيصر) ويقال بالكاف بدل القاف، فأقام ست سنين .
 وفي أيامه كان المجمع الرابع بخلقدونية وأنقسم النصارى إلى يعقوبية وملكية،
 ونسطورية . وفي أيامه سكن شمعون الحنيس الصومعة بأنطاكية وترهب فيها
 وهو أول من فعل ذلك من النصارى؛ ثم مات مريقان .

وملك بعده (لاون قيصر) ويعرف بلاون الكبير لسبعماية وسبعين سنة من ملك
 الإسكندر، وقيل اسمه ليون بن شميخية، وكان ملكاً فأقام ست عشرة سنة ومات .
 وملك بعده (لاون قيصر) ويعرف بلاون الصغير، وكان يعقوبياً فأقام سنة
 واحدة وهلك .

فملك بعده (زينون قيصر) وقيل اسمه سينون بالسين المهملة بدل الزاي، وكان
 يعقوبياً فأقام سبع عشرة سنة وهلك .

فملك بعده (نسطاش قيصر) لثلاثمائة وثلاث سنين للإسكندر، فأقام سبعاً
 وعشرين سنة، وكان يعقوبياً، وسكن حماة من الشام، وأمر أن تُشاد وتُحصن
 فُبُيت في سنتين؛ وأمر بقتل كل امرأة قارئة كاتبة؛ وهلك .

(١) تقدم أن اسمه "تاوداسيوس" .

فلك بعده (يشطيانش قيصر) لثمانائة وثلاثين للإسكندر ، وكان ملكاً فأقام تسع سنين ، وقيل سبع سنين ، ويقال إنه كان معه شريك في ملكه يقال له يشطيان ، وهلك .

فلك بعده (يشطيناش قيصر) لثمانائة وأربعين للإسكندر ، وكان ملكاً وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله ، وقيل كان شريكه فأقام أربعين سنة ، وقيل ثلاثاً وثلاثين سنة ، وأمر بأن يتخذ عيد الميلاد في الرابع والعشرين من كانون ، والفطاس في ست منه ، وكانا قبل ذلك جميعاً في سادسه ، وكانت كنيسة بيت لحم بالقدس صغيرة فزاد فيها ووسّعها حتى صارت على ما هي عليه الآن . وفي أيامه كان التجمع الخامس للنصارى بالقسطنطينية ، وهلك .

فلك بعده (يوشطونش قيصر) لثمانائة وثمانين سنة للإسكندر في زمن كسرى أنوشروان فأقام ثلاث عشرة سنة ، وقيل إحدى عشرة سنة ، وهلك .

فلك بعده (طباريش قيصر) لثمانائة وثلثين وتسعين للإسكندر ، فأقام ثلاث سنين ، وقيل أربع سنين ، وهلك .

فلك بعده (موريكش قيصر) لثمانائة وخمس وتسعين للإسكندر ، فأقام عشرين سنة ، وكان حسن السيرة ، ووثب عليه بعض ممالিকে فقتله .

وملك بعده (قوقاص قيصر) قريب موريكش الملك قبله ، وكان هو الذي بعث مملوكه على قتله . وفي أيامه ثار كسرى أبرويز على بلاد الروم ، وملك الشام ومصر ، فأقاما في مملكة الفرس عشر سنين ، وحاصر القسطنطينية طلباً لثار موريكش لمصاهرة كانت بينهما ، فثار الروم على قوقاص فقتلته بسبب ما جابهه إليهم من الفتنة .

وملك بعده (هَرَقل) بن أنطونيش ، وقيل هَرَقل بن هَرَقل بن أنطونيش
لستمائة وإحدى عشرة من تاريخ المسيح ، ولألف ومائة من بناء رومة ، ولستمائة
وثنتين وعشرين سنة للإسكندر ، ولأول سنة من الهجرة ، وقيل لإحدى عشرة
سنة منها ، وقيل لتسع سنين . فارتحل أبرويز عن القُسطنطينية راجعا إلى بلاده ،
وأقام هَرَقل في الملك إحدى وثلاثين سنة ونصفا ، وقيل ثنتين وثلاثين سنة ، وثار
على بلاد الفرس نحرها في غيبة كسرى ، وضعفت مملكة الفرس بسبب ذلك ،
وآستولى هَرَقل على ما كان كسرى آستولى عليه من بلاده : وهو مصر والشام ،
وأعاد بناء ما كان تحرب من الكنائس فيهما ، وكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم
يدعوه للإسلام .

قال المسعودي ، وقيل إن مولد النبي صلى الله عليه وسلم كان في أيام يوشطيانس ،
وإن ملكه كان عشرين سنة . ثم ملك (هَرَقل بن نوسطيونس) خمس عشرة سنة ،
وإليه تُنسب الدراهم الهِرَقْلِيَّة . ثم ملك بعده (مورق بن هَرَقل) . قال : والمشهور
بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان مُلك الروم لهَرَقل . قال : وفي كتب السير
أن الهجرة كانت على عهد قيصَر بن مورق ، ثم كان بعده قيصَر بن قيصَر [أيام أبي بكر
ثم هَرَقل بن قيصَر^(١) أيام عمر ، وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام .

(١) الزيادة من (العبرج ٢ ص ٢٢٢) .

الطبقة الرابعة

(ملوك الروم بعد الفتح الإسلامي إلى زماننا)

قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وهاجر هِرَقْلَ ملك الروم، وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام . وبقي هِرَقْلُ إلى أن أفتح المسلمون الشام في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . فلما غلب المسلمون على أكثر بلاد الشام ، خرج إلى الرها ، ثم علا على نسي من الأرض وألقت إلى الشام وقال : ” السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومي بعدها إلا خائفاً “ وسار حتى بلغ القسطنطينية فأقام بها ، وأستولى المسلمون على الشام ومصر والإسكندرية وأفريقية والأندلس ، وأستولوا على جزائر البحر الرومي : مثل صقلية ، ودانية ، وميورقة وغيرها مما كان بيد الروم . وأقام في الملك إحدى وثلاثين سنة ، وهلك لإحدى وعشرين سنة من الهجرة .

وملك بعده على الروم بقسطنطينية ابنه (قسطنطين) بن هِرَقْلَ فأقام ستة أشهر وقتله بعض نساء أبيه .

وملك بعده أخوه (هِرَقْلُ) بن هِرَقْلَ ، فنشأ به الروم فخلعوه وقتلوه . وملكوا عليهم (قسطينو بن قسطنطين) فأقام ست عشرة سنة . وفي أيامه غزا معاوية ابن أبي سفيان بلاد الروم وهو أمير على الشام من قبل عمر بن الخطاب في سنة أربع وعشرين من الهجرة فدوخ البلاد وفتح منها مدناً كثيرة ، ثم أغزى عساكر المسلمين إلى قبرص في البحر في سنة سبع وعشرين ، ففتح منها حصونا ، وضرب الجزية على أهلها . ومات قسطينو سنة سبع وثلاثين من الهجرة .

فملك بعده آبنه (يوطيانس) فأقام اثنتي عشرة سنة ، ومات سنة ثمان وأربعين من الهجرة .

(١)

وملك بعده آبنه (لاون) فأقام ثلاث سنين ، ومات سنة خمسين من الهجرة .

فملك بعده (طيباريوس قيصر) فكث سبع سنين . وفي أيامه غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في عساكر المسلمين وحاصرها مدة ، ثم أفرج عنها واستشهد أبو أيوب الأنصاري في حصارها ودُفن في ساحتها ، وقُتل طيباريوس المذكور سنة ثمان وخمسين من الهجرة .

وملك بعده (أغسطس قيصر) فذبحه بعض عبيده .

وملك بعده آبنه (إصطفانيوس) في أيام عبد الملك بن مروان ثم خلع .

وملك بعده (لاون) ومات سنة ثمان وسبعين من الهجرة .

وملك بعده (طيباريوس) سبع سنين ، ومات سنة ست وثمانين من الهجرة .

وملك بعده (سطينيوس) في أيام الوليد بن عبد الملك باني الجامع الأموي بدمشق .

ثم ملك بعده (تداوس) في سنة إحدى ومائة من الهجرة ، فأقام سنة ونصفا .

ثم ملك بعده (لاون) فأقام أربعاً وعشرين سنة .

وملك بعده آبنه (قسطنطين) . وفي أيامه غزا هشام بن عبد الملك الصائفة اليسرى من بلاد الروم ، وأخوه سليمان الصائفة اليمنى في سنة ثلاث عشرة ومائة ، فلقبهم قسطنطين المذكور في جموع الروم فانهزم وأخذ أسيراً ثم أطلق .

(١) كذا في العبر أيضاً إلا أنه جعله تاريخاً لوفاة يوطيانس وأسقط لاون من البين .

ثم ملك بعده رجل اسمه (جرحس) من غير بيت الملك فبقى أيام السَّاقح،
والمنصور وأمره مضطرب ثم مات .

وملك بعده (قسطنطين) بن لاون، وبني المَدُن وأسكنها أهل أرمينية وغيرهم،
ثم مات .

وملك بعده ابنه (لاون) وهلك .

فملك بعده (نقفور) وهلك في خلافة الأمين بن الرشيد .

وملك بعده ابنه (استيراق قيصر) وأقام إلى خلافة المأمون . وفي أيام المأمون
غلب قسطنطين [بن قلفط^(١)] على مملكة الروم، وطرد ابن نقفور، هكذا رتبته ابن
العميد . وفي كلام المسعودي ما يخالفه .

قال المسعودي : ثم ملك بعد قسطنطين (نوفيل) أيام المعتصم .

ثم ملك من بعده (ميخائيل) بن نوفيل أيام الواثق، والمتوكل، والمتنصر،
والمستعين .

ثم تنازع الروم وملكو عليهم (نوفيل بن ميخائيل) أيام المعتز، والمهتدي، وبعض
أيام المعتصم .

ثم ملك من بعده ابنه (أليون) بن نوفيل [بقية] أيام المعتصم وصَدْرًا من أيام
المعتضد .

ثم ملك من بعده (الإسكندروس) بن أليون، فتَقَمَّوا سيرته، فخلَعوه .

وملَّكوا عليهم أخاه [لاوى^(١)] بن أليون، فأقام [بقية] أيام المعتضد والمكتفي،
وصدرا من أيام المقتدر ثم هلك .

(١) الزيادة عن "العبرج ٢ ص ٢٢٩ نقلا عن المسعودي" : لثم الفائدة .

وملك أبْنَه (قسطنطين) صغيراً ، وقام بتدبير دولته أرمنوس بِطريق البحر ، وزوجه أبنته وتسمى بالدمستق ، والدمستق هو الذى يلى شرق الخليج القسطنطيني^١ وأتصل ذلك أيامَ المقتدر ، والقاهر ، والراضى ، والمتقى . ثم آفترق أمرُ الروم .

ثم ظاهرُ كلام ابن الأثير أن أرمنوس المتقدم ذكره صار إليه الملك بعد قسطنطين . قال : وكان الـدمستق على عهده قوقاس فملك مَلَطِيَّة من يد المسلمين بالأمان فى سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وولى تقفور ديمستقا ، وهلك أرمنوس وترك ولدين صغيرين وكان تقفور الـدمستق غائباً ببلاد المسلمين فلما رجع اجتمع إليه زعماء الروم وقدموه لتدبير أمر الصغيرين وألبسوه الناج ، ثم دسَّت عليه^(١) أم زوجة أرمنوس أم الصغيرين ، فقتلته فى سنة ستين وثلاثمائة .

وقام أبْنُها الأكبر وهو (بسيل بن أرمنوس) بتدبير ملكه فطالت مدته ، وأقام فى الملك نيّفاً وسبعين سنة ، وهلك بسيل سنة عشر وأربعمائة .

وملك بعده أخوه (قسطنطين) فأقام تسع سنين ، ثم هلك عن ثلاث بنات .

فملك الروم عليهم الكُبرى منهم ، وقام بأمرها ابنُ خالها (أرمانوس) وتزوجت به فاستولى على مملكة الروم ، ثم مالت زوجته إلى المتحكّم فى دولته ، وأسمه ميخائيل فدسّته عليه فقتله وأستولى على الأمر ، ثم أصابه الصرع ودام به .

فعُهِد لابْنِ أخت له أسمه (ميخائيل) فأحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تحلّ نفسها عن الملك فأبّت فنفاها إلى بعض الجُرُر ، وأستولى على المملكة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وأنكر عليه البطرك خلّع المرأة فهم بقتله ، فنادى البطركُ

(١) لعل لفظ أم زائد ، أنظر العبر .

في النصراني بخلعه نخلعوه، واستدعى المديكة التي خلعها وأعادها إلى الملك، ونفت ميخائيل كما نفاها، ثم اتفق البطريرك والروم على خلعه خفية .

وملكوا عليهم أختها (ندورة) وسموا ميخائيل فوق الحلف بسبب ذلك، فأقروا بين المترشحين للملك منهم فخرجت على رجل منهم اسمه (قسطنطين) فملكوه عليهم وزوجوه بندورة الملكة في سنة أربع وثلاثين وأربعائة ، ثم توفي قسطنطين المذكور سنة ست وأربعين وأربعائة .

وملك على الروم (أرمانيوس) وذلك لأول دولة السلجوقية، وخرج لبلاد الإسلام [فزحف إليه ألب أرسلان من أذربيجان فهزمه وحصل في أسره ، ثم فاداه على مال يعطيه وأجروه عليه وعقد معه صلحا ^(١)] .

فوثب (ميخائيل) بعده على مملكة الروم . فلما أنطلق من الأسر وعاد إلى قسطنطينية ، دفعه ميخائيل عن الملك ، وألتم لألب أرسلان ما انعقد عليه الصلح . وترهب أرمانيوس وترك الملك . إلى هنا انتهى كلام ابن الأثير .

ثم توالى عليها ملوك الروم واحداً بعد واحد إلى آخر المائة السادسة . وكان ملك القسطنطينية يومئذ قد تزوج أخت الفرئيس ملك القرنجة ، فولد له منها ابن ذكر .

ثم وثب بالملك أخوه فسمله وملك مكانه ، ولحق الابن بخاله الفرئيس ، فوجده قد جهز الأساطيل لارتجاع بيت المقدس وفيها ثلاثة من ملوك القرنجة وهم كيدقليس : أحد ملوكهم ، وهو أكبرهم ، ودوقس البنادقة ، والمركين مقدم الفرئيس . فأمرهم الفرئيس بالجواز على القسطنطينية ليصالحوا بين ابن أخته

(١) الزيادة عن العبرج ٢ ص ١٣١ لينضج المقام .

وبين عمه ملك الروم . فلما وصلوا إلى مرسى القسطنطينية خرج إليهم عمه وحاربهم فهزموه ودخلوا البلد ، وأجلسوا الصبي على سرير الملك ؛ وساء أمرهم في البلد ، وصادروا أهل النعم ، وأخذوا أموال الكنائس ، وثقلت وطأتهم على الروم ؛ فغفلوا الصبي وأخرجوهم من البلد ، وأعادوا عم الصبي إلى الملك . ثم هجم الفرنج البلد واستباحوها ثمانية أيام حتى أقبرت ، وقتلوا من بها من القسيسين والرهبان والأساقفة ، وخلصوا الصبي ، وأقترع ملوك الفرنج الثلاثة على الملك ، فخرجت الفرقة على كيد قليس كبيرهم فلكوه على القسطنطينية وما يجاورها . وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية : مثل أفریطش ورودس وغيرهما ، وللمركين البلاد التي في شرقي الخليج : مثل أرسوا ولارتو في جوار سليمان بن قايح أرسلان ، فلم يحصل لأحد منهم شيء من ذلك إلا لمن أخذ شرقي الخليج . ثم تغلب على القسطنطينية بطريق من بطارقة الروم شهرته لشكري واسمه (ميخائيل) فدفع عنها الفرنج وملكها وقتل الذي كان ملكا قبله ، وعقد معه الصلح الملك المنصور « قلاوون الصالح » صاحب مصر والشام ، وتوفي سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وملك بعده ابنه (ياندر) وتلقب الدوقس ، وشهرتهم جميعا الشكري ، وبقي بنوه في ملكها إلى الآن . ولم أقف على تفاصيل أخبارهم غير أنه لم يبق بيدهم سوى قسطنطينية وبعض أعمالها المجاورة لها . وقد استولى الفرنج على جهاتها الغربية ، واستولى المسلمون على ما هو شرقي الخليج القسطنطيني وعلى أعمال كثيرة من غربيته إلى ما يقارب خليج البنادقة على ما تقدم بيانه في الكلام على القسم الأول من هذا المقصد ، مع تسلط صاحب السراي ملك تتر الشمال من بني جنكرخان عليه بالبعوث والسرايا قبل ذلك ، حتى إن « القان أزبك » صاحب هذه المملكة قرر عليه إتاوة تُحْمَلُ إليه في كل سنة ليُكْف عنه ، كما أشار إليه في " التعريف " في الكلام على

مكتبة صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة . قال ابن سعيد : ومنتهى حكم الشكرى صاحب القسطنطينية الآن إلى إيشية . قال في "تقويم البلدان" : بالهمزة والياء المثناة التحتية والياء المثناة ونون ثم ياء مثناة تحتيّة ثانية وهاء في الآخر . قال ابن سعيد : وهى غربى الخليج القسطنطينى بَشَمَال . قال ابن حوقل : وهى مدينة بها جمع النصارى بقرب البحر، وهى دار حكمة اليونان فى القديم ، وبها تُحَفِّظُ علومهم ، وحكهم .

ولصاحب القسطنطينية المستقر بها مكتبة تخصه من الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، على ما يأتى بيانه فى الكلام على مكاتبات ملوك الكفر فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

المملكة الثانية

(مملكة الألمان)

قال المؤيد صاحب حِصَّة فى تاريخه : وهم من أكبر أُمم النصارى ، يسكنون فى غربى القُسْطَنْطِينِيَّة إلى الشَّمال ، وملِكهم كثيرُ الجنود . قال : وهو الذى سار إلى الشَّام فى زمن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، فهلك قبل وصوله إلى الشام . وكان قد خرج بمائة ألف مقاتل فسلط الله عليهم الغلاء والوباء فمات أكثرهم فى الطريق ، ولما وصل إلى بلاد الأرمن نزل يغتسل فى نهر هناك فغرق فيه ، وبقي من عسكره قدر ألف مقاتل لا غير فعادوا إلى بلادهم . (وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَغْضِبُهُمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) .

وقاعدتهم فيما ذكر ابن سعيد (مدينة برّشان) . قال في "تقويم البلدان" : يضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح السين المعجمة ثم ألف ونون في الآخر . قال : ويقال لها أيضا (برّجان) بالميم وذكر ابن سعيد : أنه كان بها الأمة المسماة برّجان في قديم الزمان فاستولت عليهم الألمانية وأبادوهم حتى لم يبق منهم أحد ، ولم يبق لهم أثر . وهؤلاء البرّجان هم الذين كان يقاتلهم قسطنطين ورأى في منامه أعلاما عليها صلبان فتصرّ .

المملكة الثالثة

(مملكة البنادقة)

وهم طائفة مشهورة من القرّنج ، وبلادهم شرق بلاد (الأندرية) الآتي ذكرهم . وقاعدة مملكتهم (البندقية) . قال في "تقويم البلدان" : يضم الباء الموحدة وسكون النون ثم دال مهملة وقاف ومثناة تحتية وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال ابن سعيد : وهي على طرف الخليج المعروف بجوّن البنادقة ، وقد تقدّم الكلام عليه عند ذكره في الكلام على بحر الروم . قال : وعمارتها في البحر ، وتخرق المراكب أكثرها ، تتردد بين الدور ، ومركب الإنسان على باب داره ، وليس لهم مكان يمشون فيه إلا السباط الذي فيه سوق الصّرف ، صنعوه لراحتهم إذا أرادوا التمشي ، وملّكهم من أنفسهم يقال له الدوك ، يعني يضم الدال المهملة وسكون الواو وكاف في الآخر . ودنانيرهم أفضل دنانير القرّنجة ، وقد تقدّم في الكلام على معاملة الديار المصرية في أوّل هذه المقالة أن دينارهم

يقال له (دوكات) نسبة الى الدوك الذى هو ملكهم ، وإليها يُنسب الجوخ البندقيّ .
الفاثى لكل نوع من الجوخ .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه : وهى قرية من جنوة
فى البر ، وبينهما نحو ثمانية أيام . أما فى البحر فينبهما أمد بعيد أكثر من شهرين ،
وذلك أنهم يخرجون إلى بحر الروم فى جهة الشرق ثم يسرون فى بحر الروم إلى
جهة الغرب .

قال فى "تقويم البلدان" : ومن أعمال البندقية (جزائر التقربنت) بفتح النون
وسكون القاف والراء المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون النون وتاء مثناة فوقية
فى الآخر . قال : وكثيرا ما يَكُن بين تلك الجزائر شوانى الحرّامية .

ثم قال : وفى شمالى هذه الجزائر مملكة (أستيب) بفتح الهمزة وسكون السين
المهملة وكسر المثناة فوقية وسكون المثناة التحتية وباء موحدة فى الآخر . وفى مملكة
أستيب هذه يعمل الأطلس المعدنى .

المملكة الرابعة

(مملكة الجنوين)

وهم طائفة من الفرنج مشهورة أيضا .

وقاعدة مملكتهم (مدينة جنوة) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الجيم والنون
والواو ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد :
حيث الطول إحدى وثلاثون درجة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون
دقيقة . قال : وهى على غربى جَوْن عظيم من البحر الرومى ، والبحر فيما بينها وبين

الأندلس يدخل في الشمال . وهي غربي (بلاد البازنة) . قال الشريف الإدريسي :
وبها جئات وأودية ، وبها مرسى جيد مأمون ، ومدخله من الغرب . قال
في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهلها أنها في ذيل جبل عظيم ، وهي على حافة
البحر ، ومينائها عليها سور ، وأنها مدينة كبيرة إلى الغاية ، وفيها أنواع الفواكه ،
ودور أهلها عظيمة ، كل دار بمنزلة قلعة ، ولذلك آغتنوا عن عمل سور عليها ، ولها
عيون ماء ، منها شربهم وشرب بساكنيهم . قال المؤيد صاحب حماة في تاريخه :
ولها بلاد كثيرة .

المملكة الخامسة

(بلاد رومية)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وكسر الميم وفتح الياء المشناة تحت المشددة وهاء
في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها أيضا رومية (يعني بضم الراء وسكون
الواو وفتح الميم وهاء في الآخر) . وهي مدينة عظيمة واقعة في الإقليم الخامس من
الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول خمس وثلاثون درجة وعشرون
دقيقة ، والعرض أربعون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي مدينة
مشهورة في جنوبي جون البادية على جانبي نهر يعرف بنهر الصفر .

وقد ذكر «هروشيوش» مؤرخ الروم أنها بنيت لأربعة آلاف وخمسمائة سنة
من أول العالم ، على زمن حرقيا بن احاز رابع عشر ملوك بني إسرائيل . وذكر ابن
كريون : أنها بنيت في زمن داود عليه السلام ، وبينهما تفاوت كثير في المدة . قال

(١) ضبطها ياقوت بخفيف الياء ونقل عن الأصمعي أنها مثل أنطاكية وأفامية إلى أن قال وهو كثير
في كلام الروم وبلادهم فانظره ج ٢ ص ٨٦٦ .

في "الروض المعطار": وهي من أعظم المدن وأحفاها . يقال : إنه كان طولها من الشمال إلى الجنوب عشرين ميلا ، وعرضها من الشرق إلى الغرب اثني عشر ميلا . وقيل : دورها أربعون ميلا ، وقطرها اثنا عشر ميلا ، وارتفاع سورها ثمانية وأربعون ذراعا . وقيل اثنا وسبعون ذراعا ، في عرض اثني عشر شبرا مبنى بالحجر ، وهي في سهل من الأرض تحيط بها الجبال على بُعد ، وبينها وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلا ، ويُشقُّها نهر ينقسم داخلها قسمين ثم يلتقيان آخرها ، وأرضه مفروشة بالثحاس الأصفر مسافة عشرين ميلا ، وفي وسطها صحن في حجرة مرتفعة لم يظفر به عدوّ قط .

وفي داخلها كنيسة طولها ثلثمائة ذراع وارتفاعها مائتا ذراع ، لها أربعة ابواب من فضة سبكا واحدا ، مسقفة بالثحاس الأصفر المُلصق بالقصدير ، وحيطانها ملبسة بصفايح الثحاس ، وبها كنيسة أخرى بها بُرج طوله في الهواء مائة ذراع ، وعلى رأس ذلك البرج قبة مبنية بالرصاص ، وعلى رأس القبة زُرُور من نحاس إذا أدرك الزيتون انحشرت إليه الزرايزر من الأقطار البعيدة ، في منقار كل زُرُور زيتونة وفي رجله زيتونتان ، فيطرحها على ذلك البرج فيعصر ويؤخذ زيتته ، فيستصَبَح به في الكنيسة جميع السنة . قال : وأهل رومية أجبن خلق الله تعالى ، ومن سنتهم أنهم لا يدفنون موتاهم ، وإنما يدخلونهم في مغائر^(١) ويتركونهم فيها فيستوي هواؤهم ويقع الدباب على الموتى ، ثم يقع على ثمارهم فيفسدها ، ولذلك هم أكثر بلاد الله تعالى طواغين ، حتى إن الطاعون يقع فيها ولا يتعداها إلى غيرها فوق عشرين ميلا ، وجميع أهلها يحلقون لحاهم ، ويزعمون أن كل من لا يحلق لحيمته

(١) لعل الصواب "منارات" أو "مغاور" فإن وزنها مفعلة لا فعالة حتى تجمع هذا الجمع ولم يبه عليها اللغويون في الشواذ .

فليس نصرانياً كاملاً ، زاعمين أن سبب ذلك أن شمعون الصفا والحواريين جاءوهم وهم قومٌ مساكينٌ ليس مع كل واحد منهم إلا عصا وجرابٌ ، فدعَوْهم إلى النصرانية فلم يُحييهم ، وأخذوهم فعدَّبُوهم وحلَّقوا رؤوسهم وحلَّاهم . فلما ظهر لهم صدقُ قولهم وأسوَّهم بأن فعلوا بأنفسهم مثل ذلك .

ولم تزل روميةُ هي القاعدةُ العظمى للروم حتى بنيت القُسطنطينية وتحوَّل إليها قُسطنطين ، وصارت قسطنطينيةُ هي دار ملك الروم على ما تقدَّم ذكره في الكلام عليها ، مع بقاء روميةَ عندهم على رفعة المحلِّ وعِظَم الشأن إلى أن غلب عليها الفرنج وأتزعواها من أيديهم ، ورفعوا منها قواعدهم وآستولوا على ما وراءها من النواحي والبلدان والجزائر : بجنوة ، والبندقية ، وأفريطش ، ورودس ، وآسترجعوا كثيراً مما كان المسلمون آستولوا عليه من بلاد الروم كغالب الأندلس . ثم حدثت الفتنُ بينهم وبين الروم بالقُسطنطينية ، وعظمت الفتنُ بينهم ودامت نحواً من مائة سنةٍ «وملك الروم بالقُسطنطينية معهم في تناقص» حتى إن رجلاً صاحب جزيرة صقلية صار يغزو القسطنطينية بأساطيله ويأخذ ما يحب في مينائها من سفن التجار وشواني المدينة ، وأتتهى أمره أن جرجا بن ميخائيل صاحب أساطيله دخل إلى ميناء القسطنطينية في سنة أربع وأربعين وخمسة ورحى قصر الملك بالسَّهام ، فكان ذلك أنكى على الروم من كل نكابة . ثم ترايد الحال إلى أن آستولى الفرنج على القسطنطينية نفسها في آخر المائة السادسة ، وأوقعوا بأهلها وقتلوا وخرَّبوا على ما تقدَّم بيانه في الكلام على ملوك القسطنطينية . وبالجملة فروميةُ اليوم من قواعد الفرنج ، وهي مقتر (بابهم) الذي هو خليفة النصارى المِلِكانيَّة وإليه مرجعهم في التحليل والتحرير .

ولهذا الباب مكتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المكتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .



وأما الممالك الصغار فسبع ممالك :

الأولى

(مملكة المراء)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الميم والراء المهملة وألف . وهى مملكة تبتدى من الخليج القسطنطينى من الغرب على ساحل بحر الروم وتمتد مغرباً [وتشتمل على^(١) قطعة من] ساحل بحر الروم وعلى بلاد وجرال خارجة عن البحر . قال : وهذه المملكة مناصفة بين صاحب قسطنطينية وبين جنس من الفرنج يقال لهم (القيتلان) بالقاف والياء الساكنة آخر الحروف والمثناة الفوقية ولام ألف ونون ، ويقال (الكيتلان) بإبدال القاف كافاً، وهذا هو الجارى على ألسنة الناس فى النطق بهم .

الثانية

(بلاد الملفجوط)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون اللام وفتح الفاء وضم الجيم وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر . وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به ، وبلادهم من أعمال قسطنطينية على ساحل بحر الروم مما يلي مملكة المراء المقدم ذكرها من جهة الغرب فى مقابلة مشاريق برقة من البر الآخر ، على ما تقدم ذكره فى الكلام على بحر الروم فى أول هذه المقالة .

(١) الزيادة من التقويم ص ١٩٨ ليستقيم الكلام .

الثالثة

(بسلاد إقْلِرْس)

قال في "تقويم البلدان": بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام والراء المهملة وسكون النون وسين مهملة في الآخر . وهى بلاد على ساحل بحر الروم غربى بلاد المَلَفْجُوط المَقْدَم ذكراها وشرقى بلاد الباسليسة الآتى ذكرها ، وهم فى مملكة الباسليسة المذكورة .

الرابعة

(مملكة بُولِيَة)

بضم الباء الموحدة وسكون الواو ولام وياء آخر الحروف وهاء . قال : ويقال لها أَنْبُولِيَة أيضا يعنى بزيادة همزة فى أولها ونون ساكنة بعدها . وهى مملكة على بحر الروم عند فَم جَوْن البنادقة من غربيّه ، فى مقابل مملكة الباسليسة من برالجَوْن المذكور من الجهة الشرقية ، وببُولِيَة هذه يُعرف الزيت المعروف بالبُولِيَة . قال فى "تقويم البلدان" : وملك بُولِيَة هذه فى زماننا يقال له الريدشار .

الخامسة

(بلاد قَلْفَرِيَة)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح القاف واللام وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وفتح المشناة تحت وهاء فى الآخر . قال : ويقال لها قَلْوَرِيَة أيضا بإبدال الفاء واوا . وهى من جملة بُولِيَة المقسّمة الذكر ، واقعة فى غربيها وشرقى مملكة رُومِيَة المتقدمة الذكر ، وقد تقدّم فى الكلام على بحر الروم أنه يقابلها طرابُلُس الغرب من البر الآخر .

السادسة

(بلاد التُّسْقَانِ)

قال في "تقويم البلدان" : بضم المثناة الفوقية وسكون السين المهملة وقاف وألف ونون . قال : وهم جنس من الفرنج ليس لهم ملكٌ بعينه يحكم عليهم بل لهم أكايرٌ يحكون بينهم ، ثم قال : وبتلك البلاد يكون نباتُ الزعفران ، وقد تقدّم في الكلام على البحر الرومي أنه يقابلها مدينة تونُس من البر الآخر .

السابعة

(بلاد البِيَازِنَةِ)

بفتح الباء الموحدة والياء المثناة تحت وألفٍ ثم زاي معجمة مكسورة ونون مفتوحة وهاء في الآخر . وهم فرقة من الفرنج . وقاعدة ملّكهم (مدينة بيزّة) . قال في "تقويم البلدان" : بباء موحدة مكسورة وياء آخر الحروف ساكنة وزاي معجمة يعنى وهاء في الآخر . قال : وقد تُبدل الزاي شينا معجمة . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ اثنتان وثلاثون درجةً ، والعرضُ ستُّ وأربعون درجةً وسبعٌ وعشرون دقيقةً . وقد ذكر في "تقويم البلدان" أنها على الركن الشمالي من بلاد الأندلس في مقابل جزيرة سِرْدَانِيَّة المقدّمة الذكر . وهى غربى بلاد روميّة ؛ وليس لهم ملك وإنما مرجعهم إلى الباب : خليفة النصارى ؛ وإلى بيزّة هذه تُنسب الفرنج البِيَازِنَةُ والحديد البِيَزَانِيّ . وقد تقدّم في الكلام على البحر الرومي أنه يقابلها من البر الآخر مرسى الحرز .

القطر الثاني

(مما غربي الخليج القسطنطيني الأرض الكبيرة)

قال صاحب حماة : وهي أرض متسعة في شمالي الأندلس ، بها ألسن كثيرة مختلفة . وقد ذكر في " التعريف " أنها في شرق الأندلس ، ولا يصح ذلك إلا أن يريد منها ما هو شرق شمالي الأندلس .

ويتعلق الغرض منها بثلاث ممالك :

المملكة الأولى

(مملكة الفرنج القديمة)

وقاعدتها (مدينة فرنجية) بالفاء والراء المهملة المفتوحتين وسكون النون وفتح الجيم وهاء في الآخر، وقد تبدل الجيم منها سينا مهملة فيقال فرنسة . ويقال للملكهم ريد إفرنس ، ومعناه ملك إفرنس ، والعامة تقول الفرئيس . وهو الذي قصد ديار مصر وأخذ دمياط وأسره المسامون ثم أطلقوه . يشير بذلك إلى قضية تاريخية ، وهي أن الفرنج في سنة خمس عشرة وستمائة وهم مستولون على سواحل الشام يومئذ سار منهم نحو عشرين ملكاً من عكا وقصدوا دمياط في أيام الملك العادل «أبي بكر بن أيوب» رحمه الله ، وسار العادل من مصر إليهم فنزل مقابلهم ، وأقاموا على ذلك أربعة أشهر ، ومات العادل في أثناء ذلك ، وآستقر بعده في الملك ابنه الملك «الكامل محمد» فوقع في عسكره اختلاف تشاغل به ، فهجم الفرنج دمياط وملكوها عنوة في سنة ست عشرة وستمائة ، وطمعوا بذلك في ملكة الديار المصرية ، فبنى الملك الكامل بلدة عند مفرق النيل : الفرقة الذاهبة إلى دمياط ، والفرقة الذاهبة إلى أشموم طناح ، وسماها (المنصورة) ونزلها بعساكره ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى

أن دخلت سنة ثمان عشرة وستائة، وقد اشتد طمع الفرنج في الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى المنصورة وضايقوا المسلمين إلى أن سألهم الملك الكامل في الصلح على أن يكون لهم القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبله، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من سواحل الشام، خلا الكرك والشوبك؛ فأبوا إلا أن يكون لهم الكرك والشوبك أيضا، وأن يعطوا مع ذلك ثلثمائة ألف دينار في نظير ما حاربوه من سور القدس؛ فأعمل المسلمون حينئذ الحيلة في إرسال قرع من النبل في إبان زيادته، حال بين الفرنج وبين دمياط، أقطع بسببه الميرة عنهم، وأشرفوا على الهلاك؛ وكان آخر أمرهم أن أعرضوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الاماكن المتقدمة الذكر ونزلوا عن دمياط للمسلمين، وتسلمها الملك الكامل منهم؛ ثم عاد إلى مصر وبقيت دمياط بيد المسلمين إلى أن قصدها الفرنسيس في خمسين ألف مقاتل، ومعه الأدفونس صاحب طليطلة في أيام الملك «الصلاح أيوب» بن الكامل محمد، بن العادل أبي بكر، بن أيوب في سنة سبع وأربعين وستائة، وهجم دمياط وملكها عنوة؛ وسار الملك الصالح فنزل بالمنصورة، وسار الفرنج فتلوا مقابله؛ ثم قصدوا دمياط فتبعهم المسلمون وبدلوا فيهم السيف، فقتلوا منهم نحو ثلاثين ألفا، وأسر الفرنسيس وحبس بالمنصورة بدار الصاحب «نحر الدين إبراهيم بن لقمان» صاحب ديوان الإنشاء، ووكل به الطواشي صبيح «المعظمي» ومات الصالح في أثناء ذلك، وأستقر ابنه الملك المعظم مكانه في الملك؛ ثم قتل عن قريب، وفوض الأمر إلى «شجرة الدر» زوجة الملك الصالح، وقام بتدبير الملكة معها «أيبك التركماني» ثم تسلم المسلمون دمياط من الفرنسيس وأطلقوه فسار إلى بلاده فيمن بقي معه من جماعته . وفي ذلك يقول جمال الدين يحيى بن مطروح الشاعر :

(١) قُلْ لِلرَّئِيسِ إِذَا حُتِّه * مَقَالَ صَدِيقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوح :
 أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا * تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرَ يَاطِلُ رِيحُ
 وَكُلَّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعْتَهُمْ * بِحُسْنِ تَدْيِيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحِ !
 خَمْسِينَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَتِيلٍ أَوْ أُسِيرٍ جَرِيحِ !
 وَفَقَّكَ اللَّهُ لَأَمْنًا لَهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يُسْتَرِيحُ
 أَحْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عِبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً ، * لِأَخْذِ ثَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَحِيحِ !
 دَارُ «أَبْنِ ثَمَانَ» عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ ، وَالطَّوْاشِي صَبِيحِ !

وقد تعرض في "التعريف" للإشارة لهذه الواقعة في الكلام على مكتبة الأدفونش صاحب طليطلة من الأندلس، وأقتصر من هذه الأبيات على الأول والأخير فقط.

المملكة الثانية

(مملكة الخلافة)

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه : وهم أمة كالبهايم ، يغلب عليهم الجهل والحقاء . ومن زعيمهم أنهم لا يفسلون ثيابهم ، بل يتركونها عليهم إلى أن تتلى ، ويدخل أحدكم دار الآخر بغير إذن . قال : وهم أشد من القرنج ، ولهم بلاد كثيرة شمالي الأندلس ، ونسبتهم إلى مدينة لهم قديمة تسمى جليقية . قال في "اللباب" : بكسر الجيم واللام المشددة وبعدها ياء آخر الحروف وقاف . قال في "تقويم البلدان" : [ثم ياء ثانية^(٢)] وهاء .

(١) في تاريخ أبي الفداء وخطط المقرئ "قول نصيح وفي ابن عباس فصيح" .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

وقاعدتها (مدينة سُمُورَة) بسين مهملَة وميم مشددة مضمومة وراء مهملَة مفتوحة وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ عشرُ درَج ، والعرضُ ستُّ وأربعون درجة . قال في ”اللباب“ : وهى من بلاد الروم المتاخمة للأندلس ؛ وكأنه يريد أنها كانت للروم أولاً . قال في ”تقويم البلدان“ : وعن بعضهم أنها مدينةٌ جليلةٌ معظمةٌ عندهم . قال ابن سعيد : وهى قاعدة جليقية ، أكبر مدُن الفش ، فى بحيرة بين فرعين من نهر يُعرف بها . قال : وكان المسلمون قد ملكوها ثم أسترجعها الجلائقة زمن الفتنة ، ونهرها يُصبُّ فى البحر المحيط الغربى حيثُ الطولُ خمسُ درج وثلاثون دقيقةً من الجزائر الخالدات ، والعرضُ ستُّ وأربعون درجة .

المملكة الثالثة

(مملكة اللُنْبَرْدِيَّة)

قال فى ”تقويم البلدان“ : باللام المشددة المضمومة والنون الساكنة والياء الموحدة المفتوحة والراء المهملَة الساكنة والداال المهملَة والياء المثناة التحيّة والهاء . قال : ويقال لها اللُنْبَرْدِيَّة ، والأُنْبَرْدِيَّة . وموقعها فى أوّل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثلاثون درجةً وسبعٌ وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ ثلاث وأربعون درجة وخمسون دقيقةً . قال فى ”تقويم البلدان“ : وهى ناحية من الأرض الكبيرة ، وبلادها تُحيط بها جبالٌ إلى حدِّ جنوة . قال : ومليكتها فى زماننا صاحبُ القُسْطَنْطِينِيَّة ، ورثها من خاله المريكش .

ثم قال : وغربي هذه البلاد (الريدراقون) بكسر الراء المهملة وسكون المشنة التحتية ثم دال مهملة وراء مهملة ^(١) [وألف] وقاف مضمومة وواو ونون في الآخر . ومعناه ملك راقون ، وقد تبدل القاف غينا معجمة . فيقال ريدراغون وهو الموجود في مكاتبات أهل الأندلس وهذهم .

الجهة الثانية

(مائمالى مدينة القسطنطينية وبحر نيطش وما نيطش إلى نهاية المعمور في الشمال) ويشتمل على عدة ممالك وبلاد :

منها (بلاد الحركس) : قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه : وهم على بحر نيطش من شريقه ، وهم في شطيف من العيش . قال : والغالب عليهم دين النصرانية .

قلت : وقد جلب منهم « الظاهر برقوق » صاحب الديار المصرية من الممالك أيام سلطنته ما يربو على العدد حتى صار منهم معظم جند الديار المصرية ، وصار بهم جمال مواكبها ، والمملك باقى فيهم بالديار المصرية إلى الآن .

ومنها (بلاد الآص) ^(٢) : بفتح الهمزة الأولى والثانية وصاد مهملة في الآخر . وهم طائفة ، وبلادهم على بحر نيطش .

وقاعدتهم (مدينة قرقر) . قال في « تقويم البلدان » : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية وكسر الراء المهملة في الآخر . وموقعها في الشمال

(١) الزيادة من التقويم .

(٢) تقدم له ضبطه بمد الهمزة وبالصاد وهو الصواب .

عن الإقليم السابع أو في آخره . قال : والقياس أنها حيث الطول خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . وهى قلعة عاصية منيعة فى جبل لا يقدر أحد على الطلوع إليه ، وفى وسط الجبل وطاءة تسع ^(١) [أهل] تلك البلاد ؛ وعندها جبل عظيم شاهق يقال له (جاطر طاغ) يظهر لأهل السفن من بحر القرم . وهى فى شمالى صارى كرمان على نحو يوم منها .

ومنها (بلاد البرغال) بضم الموحدة وسكون الراء وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام فى الآخر . ويقال لهم أولائق أيضا بقاف فى الآخر .

وقاعدتهم (مدينة طرنو) . قال فى " تقويم البلدان " : بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السابع . قال : والقياس أنها حيث الطول ست وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . وهى غربى صقجى على ثلاثة أيام وأهلها كفار . قال بعض المسافرين وهى على خور البرغال .

ومنها (بلاد البلغار والسرب) . وهما طائفتان على بحر نيطش .

فأما البلغار فبضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة . قال المؤيد صاحب حماة فى تاريخه : وهم منسوبون إلى المدينة التى يسكنونها . وقد سماها فى كتابه " تقويم البلدان " بلار بضم الباء وفتح اللام وألف وراء مهملة فى الآخر . ثم قال : ويقال لها بالعربية (بلغار) .

وأما السرب فبفتح السين وسكون الراء المهملتين وباء موحدة فى الآخر . وهم فى مملكة صاحب البلغار . وقاعدة ملكهم مدينة بلغار المذكورة ، وموقعها فى الشمال

(١) بياض بالاصول والتصحيح عن تقويم البلدان .

عن الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيثُ الطول ثمانون درجة ، والعرضُ خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهي بلدة في نهاية العارة الشمالية قريبةً من شطِ إئيل من الجانب الشمالي الشرقي ، وهي وصراى في بر واحد ، وبينهما فوق عشرين مرحلةً ، وهي في وطاءة ، والجبل عنها أقل من يوم ، وبها ثلاثُ حَمَامَات ، ولا يكون بها شيء من الفواكه ولا أشجار الفواكه من العنب وغيره لشدة بردها ، وبها الفُجَل الأسود في غاية الكِبَر . قال المؤيد صاحبُ حماة : وحكى لي بعضُ أهلها أنَّ في أول فصل الصيف لا يغيب الشَّقَق عنها ويكون ليكها في غاية القصر . ثم قال : وهذا الذي حكاه صحيحٌ موافق لما يظهر بالأعمال الفلكية ، لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف يتبدى [عدم ^(١)] غيبوبة الشَّقَق في أول فصل الصيف ، وعرضها أكثر من ذلك ، فصَحَّ ذلك على كل تقدير .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن حسن الرومي عن مسعود الموقت بها : أنَّ أقصر ليها أربع ساعات ونصف تحريراً ، وأنهم جربوه بالآلات الرصدية فوجدوه كذلك . قال صاحب حماة في تاريخه : وكان الغالبُ عليهم النصرانية ثم أسلم منهم جماعة . وذكر في "تقويم البلدان" : أنَّ أهلها مسلمون حنيفة . وذكر المسعودي في "مروج الذهب" : أنه كان بالسَّرب والبُغار دأراً إسلام من قديم . قال في "مسالك الأبصار" : أما الآن فقد تبدلت بآيمانها كُفراً ، وتداولها طائفة من عبَاد الصَّليب ، ووصلت منهم رُسُلٌ إلى صاحب مصر سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة بكتاب من صاحب السَّرب والبُغار ، يعرضُ نفسه على مودته ويسأله سيفاً يتقلده ، وسَنَجَقاً يقهر أعداءه به ، فأكرم رسوله ، وأحسن نُزله ، وجَهَّز له معه خِطَّةً كاملة :

(١) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .

طَرَدَ وَحَشَ بَقَصَبٍ بِسِنَجَابٍ مُقَدَّسٍ ، عَلَى مَفَرَّجِ إِسْكَندَرِي ، وَكَلُوتِهِ زَرْكَشَ ،
وَشَاشَ بَطْرَفَيْنِ رَقْمَ ، وَمِنْطَقَةَ ذَهَبَ ، وَكَلَالِيْبَ كَذَلِكَ ، وَسَيْفٍ مُحَلَّى ، وَسَنْجَقِ
سُلْطَانِيٍّ أَصْفَرٍ مُدْهَبٍ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَجَهْزَلُهُ أَيْضًا الْخَيْلَ الْمُسَرَّجَةَ الْمَلْجَمَةَ .
وَرَبَّمَا أَنَّهُ يُظْهِرُ لِصَاحِبِ السَّرَايِ الْإِنْتِقَادَ وَالطَّاعَةَ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" :
وَذَلِكَ لِعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَخَذَهُ بِخِنَاقِهِمْ لِقَرَبِهِمْ مِنْهُ .

وَلِصَاحِبِ السَّرْبِ وَالْبُلْغَارِ مَكَاتِبَةٌ تَخْصُهُ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْأَبْصَارِ الْمَصْرِيَّةِ .
وَمِنْهَا (بِلَادُ أَفْتَكُونُ) بِأَلْفِ وَفَاءٍ وَتَاءٍ مِثْلَةَ ثَمَّ كَافٍ وَوَاوٍ وَنُونٍ . وَهِيَ بِلَادُ
تَلِي بِلَادِ الْبُلْغَارِ فِي جِهَةِ الشَّامِ .

وَقَاعِدَتُهُمْ مَدِينَةٌ تَسْمَى (قَصَبَةُ أَفْتَكُونُ) . وَالْقَصَبَةُ فِي مَصْطَلَحِهِمُ الْمَدِينَةُ الصَّغِيرَةُ .
قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبُلْغَارِ مَسَافَةٌ عَشْرِينَ يَوْمًا بِالسَّيْرِ الْمَعْتَادِ .
وَحَكِيٌّ عَنْ مَسْعُودِ الْمَوْقُتِ بِالْبُلْغَارِ أَنَّهُ حَرَّرَ لَيْلَهَا فَوَجَدَ أَقْصَرَ لَيْلَهَا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ
وَنِصْفٍ ، أَقْصَرُ مِنْ لَيْلِ الْبُلْغَارِ بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَمِنْهَا (بِلَادُ الصَّعَالِيَّةِ) بَفَتْحِ الصَّادِ الْمَهْمَلَةِ وَالْقَافِ وَأَلْفٍ وَكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِ الْبَاءِ
الْمُوَحَّدَةِ وَهَاءٍ فِي الْآخِرِ . وَيُقَالُ لِبَعْضِ بِلَادِهَا بِلَادُ سَبْرَاوِيرَ . وَهِيَ تَلِي بِلَادَ أَفْتَكُونِ
فِي جِهَةِ الشَّامِ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَهِيَ بِلَادٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ ، لَا يَفَارِقُهَا
التَّلَاجُ مَدَّةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ لَا يَزَالُ يَسْقُطُ عَلَى جِبَالِهِمْ وَيُبُوتِهِمْ ، وَلِهَذَا تَقْلُ الْمَوَاشِي عَنْهُمْ .
وَحَكِيٌّ عَنِ الْفَاضِلِ شِجَاعِ الدِّينِ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْخَوَارِزْمِيُّ التَّرْجَمَانُ أَنَّ مِنْهَا يُحَلَبُ
السَّمُورُ وَالسَّنَجَابُ . ثُمَّ قَالَ : وَلَيْسَ بَعْدَهُمْ فِي الْعِبَارَةِ شَيْءٌ . وَذَكَرَ أَنَّهُ جَاءَ جَدُّهُ
قُتَيْبًا مِنْ بَعْضِ أَهْلِهَا يُسْأَلُ فِيهَا كَيْفَ تَكُونُ صَلَاةُ أَهْلِ بِلَادِهِ لَا يَغِيبُ عَنْهُمْ الشَّفَقُ

حتى يطلع الصبح ؟ لسرعة انقضاء الليل وهذا ظاهر في أن هذه البلاد مسلمون أو فيهم المسلمون .

ومنها (بلاد جُولْمَان) بجيم وواو ولام ثم ميم وألف ونون . وهي تلي بلاد سبراوير المقدمة الذكر في جهة الشمال . وهي على مثل حال بلاد سبراوير في شدة البرد وكثرة الثلج وأشد من ذلك . قال في "مسالك الأبصار" قال حسن الرومي : وهؤلاء هم سُكَّان قلب الشَّمال ، والواصل إليهم من الناس قليل ، والأقوات عندهم قليلة حتى يحكى عنهم أن الإنسان منهم يجمع عظام أي حيوان كان ، ثم يغلي عليه بقدر كفايته ثم يتركها ، وبعد سماع مرات لا يبقى فيها شيء من الودك . قال : وهم مع ضيق العيش ليس في اجناس الرقيق أنعم من أجسامهم ، ولا أحسن من بياضهم ؛ وصورتهم تامة الخلقة في حسن وبياض ونعومة عجبية ، ولكنهم زُرُقُ العيون . وإذا سافر المسافر من جُولْمَان إلى جهة الشرق ، وصل إلى مدينة قَرَأُوم قاعدة القان الكبير القديمة . قال : وهي من بلاد الصين ، وإذا سافر منها إلى جهة الغرب وصل إلى بلاد الرُّوس ، ثم إلى بلاد الفَرَنْج .

ومنها (بلادُ الرُّوس) بضم الراء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بلادٌ واغلة في الشَّمال ، في غربي بلاد جُولْمَان المقدمة الذكر . قال صاحب حماة في تاريخه : ولهم جزائر أيضا في بحر نيطش .

ومنها (بلادُ الباشقرد) . قال صاحب حماة في تاريخه : وهم أمة كبيرة ما بين بلاد الباب وبلاد فرَنْجَة . قال : وغالبهم نصارى وفيهم مسلمون ، وهم شِرْسُو الأخلاق . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مُصَاقِبَة لبلاد جُولْمَان . ثم قال : وفي باشقرد قاض مسلمٌ معتبر .

ومنها (بلاد البرجان) بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وألف ونون، وقد تبدل الجيم شينا . قال صاحب حماة في تاريخه : وهم أمم كثيرة طاغية قد فشا فيهم التثليث . قال : وبلادهم واغلة في الشمال ، وأخبارهم وسير ملوكهم منقطعة عنا لبعدهم وجفاء طباعهم . وقد تقدم أن البرجان غلب على مكاثرهم الألبانية ، فيحتمل أنهم هؤلاء ، ويحتمل أنهم طائفة أخرى منهم غير هؤلاء .

ومنها (بلاد بَمَخ) بباء موحدة وميم ثم خاء معجمة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بلاد مشتركة بين بلاد الروس والفرنج .

ومنها (بلاد بُوغَزَة) بباء موحدة ثم واو وغين وزاى ثم هاء في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : قال الشيخ علاء الدين بن النعمان الخوارزمي : وهي بلاد في أقصى الشمال ، وليس بعدها عمارة غير بُرج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المنارة العالية ، ليس وراءه مذهب إلا الظلمات ؛ وهي صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ، ولا تطلع عليها الشمس ، ولا ينبت فيها نبات ، ولا يعيش فيها حيوان أصلا ، متصلة ببحر أسود لا يزال يُمطر والغيم منعقد عليه ، ولا تطلع عليه الشمس أبدا . قال ابن النعمان : ويقال إن الإسكندر مرَّ بأطراف أوائل جبال الظلمات الغربية من العارة فرأى فيه أناسا من جنس الترك أشبه شيء بالوحوش لا يعرف أحد بلغتهم ، وإذا أمسكهم أحد فروا من يده ، يأكون من نبات الجبال المجاورة لهم فإذا ألقوا أكل بعضهم بعضا ، فتر بهم ولم يعترضهم .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ فِي "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين بن النعمان أن التجار المترددين إلى بلاد الديار المصرية لا يتعدون في سفرهم بلاد البلغار ، ثم يرجعون من هنالك ؛ ثم تجار بلغار يسافرون منها إلى بلاد جُولمان ، وتجار جُولمان

يسافرون إلى بلاد بُوغْزَة التي ليس بعدها عمارة . وقد ذكر في "تقويم البلدان" أن شمالي بلاد الروس مما هو متصل بالبحر المحيط الشمالي قوماً يبيعون مغايبةً . وذكر عن بعض من سافر إلى تلك البلاد أنه إذا وصل التجار إلى ثُحُومهم ، أقاموا حتى يعلموا بهم ، ثم يتقدمون إلى مكانٍ معروفٍ عندهم بالبيع والشراء ، فيضع كل تاجر بضاعته ، ويعلمها بعلامة ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، ثم يحضر أولئك القوم ويضعون مقابل تلك البضائع السمور ، والوشق ، والثعلب ، وما شاكل ذلك ، ويدعونه ويمضون ، ثم يحضر التجار من الغد فن أعجبه ذلك أخذه وإلا تركه ، حتى يتفصلوا على الرضا . وقد تقدم ذكر مثل ذلك عن قوم بالهند وعن قوم ببلاد السودان في الكلام على مملكة مالي .

قلت : وقد تقدم في الكلام على مملكة خوارزم والقبيحاق من مملكة التورانيين في القسم الثاني منها أن الجركس والروس والآص أهل مدن عامرة أهلة ، وجبال مشجرة مثمرة ، ينبت عندهم الزرع ، ويدر الضرع ، وتجري الأنهار ، وتجنّي الثمار ، ولا طاقة لهم بسلطان تلك البلاد . وإن كان فيهم ملوك فهم كالرعايا لصاحب السراي إن داروه بالطاعة والتخف والطرف كف عنهم والإشن عليهم الغارات وضايقتهم وحاصرتهم .

المقالة الثالثة

(في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات ، والولايات ، وغيرهما من الأسماء ، والكنى ، والألقاب ، ومقادير قطع الورق ، وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ، ومقادير البياض في أول الدرج وحاشيته ، ومقدار بُعد ما بين السطور في الكتابات ، وبيان المستندات التي يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء بهذه المملكة : من مكاتبات ، وولايات ، وكتابة الملخصات ، وكيفية تعيين صاحب الديوان لها ، وبيان القوائم ، والحوادث . وفيه أربعة أبواب) .

الباب الأول

(في الأسماء والكنى والألقاب ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في الأسماء والكنى ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الأسماء)

والأسم عند النحاة ما دلّ على مسمى دلالة إشارة ، واشتقاقه من السمة وهي العلامة لأنه يصير علامة على المسمى يميزه عن غيره ؛ أو من السمو لأن الاسم يعالو المسمى باعتبار وضعه عليه .

ثم المراد هنا بالاسم أحد أقسام العلم : وهو ما ليس بكنية ولا لقب ؛ وفيه جملتان :

الجملة الأولى

(في أصل التسمية والمقصود منها ، وتنويع الأسماء ،
وما يُستحسن منها ، وما يُستقبح)

أما أصل التسمية فهي لا تخرج عن أمرين :

أحدهما أن يكون الاسم مُرتجلاً : بأن يضعه الواضع على المسمى ابتداءً ، كأدَد اسم رجل ، وسُعَادَ اسم امرأة ، فإنهما ليسا بمسبوقين بالوضع على غيرهما . والرجوع في معرفة ذلك إلى النقل والاستقراء .

والثاني أن يكون الاسم منقولاً عن معنى آخر ، كاسدٍ إذا سُمي به الرجل نقلاً عن الحيوان المفترس ، وزيدٍ إذا سُمي به نقلاً عن معنى الزيادة وما أشبه ذلك . وهذا هو أكثر الأسماء الأعلام وقوعاً ، والرجوع في معرفته إلى النقل والاستقراء أيضاً كما تقدم في المرتجل .



وأما المقصود من التسمية ، فتمييز المسمى عن غيره بالاسم الموضوع عليه ليتعرف .



وأما تنويع الأسماء ، فيختلف باختلاف المسمين وما يدور في خرائن خيالهم مما يألّفونه ويحاورونه ويخالطونه .

فالعرب - أكثر أسمائهم منقولة عما لديهم مما يدور في خرائن خيالهم إما من أسماء الحيوان كَبُكْر : وهو ولد الناقة ، وأَسَد : وهو الحيوان المفترس المعروف ، وإما من

أَسْمَاءُ النَّبَاتِ كَحَنْظَلَةٌ : وهو أَسْمُ لَوَاحِدَةِ الْحَنْظَلِ الَّذِي هُوَ النَّبَاتُ الْمَعْرُوفُ مِنْ نَبَاتِ
الْبَادِيَةِ ، وَطَلْحَةٌ : وهو أَسْمُ لَشَجَرَةٍ مِنْ شَجَرِ الْغَضِي ، وَعَوْسَجَةٌ : وهو أَسْمُ لَشَجَرَةٍ
مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ . وإِما مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ كَحَزَنٌ : وهو الْغَلِيظُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَصَخْرٌ :
وهو الصَّخْرُ مِنَ الْحِجَارَةِ . وإِما مِنْ أَسْمَاءِ الزَّمَانِ كَرَبِيعٌ : وهو أَحَدُ فُصُولِ السَّنَةِ
الْأَرْبَعَةِ . وإِما مِنْ أَسْمَاءِ النُّجُومِ كَسِيَاكُ : أَسْمُ لِنَجْمٍ مَعْرُوفٍ . وإِما مِنْ أَسْمَاءِ
الْفَاعِلِينَ : كَحَارِثٍ فَاعِلٍ مِنَ الْحَرْثِ ، وَهَمَّامٍ فَاعِلٍ مِنْ هَمٍّ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا ، إِلَى غَيْرِ
ذَلِكَ مِنَ الْمَقُولَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى .

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْأَنْبَاءِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا فِيهِ الْبَأْسُ وَالشَّدَّةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ :
كَمُحَارِبٍ ، وَمُقَاتِلٍ ، وَمُزَاحِمٍ ، وَمُدَافِعٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَلِمَوَالِيهِمْ مَا فِيهِ مَعْنَى 'التَّقَاؤِ' :
كَفَلَّاحٍ ، وَنَجَّاحٍ ، وَسَلَامٍ ، وَمُبَارَكٍ ، وَمَا أَشْبَهَهَا ؛ وَيَقُولُونَ : أَسْمَاءُ أَنْبَاءُنَا لِأَعْدَائِنَا ،
وَأَسْمَاءُ مَوَالِينَا لَنَا ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَكْثَرُ مَا يَدْعُو فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ مَوَالِيَهُ لِلْإِسْتِخْدَامِ
دُونَ أَنْبَاءِهِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ فِي وَقْتِ الْقِتَالِ وَنَحْوِهِ .

وَالْتَّرَكَ - رَاعَوْا فِي أَسْمَائِهِمْ مَا يُدِلُّ عَلَى الْجِلَادَةِ وَالْقُوَّةِ مِمَّا يَأْلَقُونَهُ وَيُجَاوِرُونَهُ ،
وْغَالِبُ مَا يُسَمُّونَ بِاسْمِ بَغَا ، وَمَعْنَاهُ بَلَعْتُهُمْ الْفَحْلُ : إِمَّا مُفْرَدًا كَمَا تَقْدِّمُ وَهُوَ قَلِيلٌ ،
وَإِمَّا مُوصُوفًا بِحَيَوَانَاتٍ ، مُقَدِّمِينَ الصِّفَةَ عَلَى الْمَوْصُوفِ عَلَى قَاعِدَةِ لُغَتِهِمْ
فِي ذَلِكَ ، كَطَيِّبًا بِمَعْنَى 'فَحْلٍ مُهْرٍ' . وَإِمَّا بِمَعْنَى مِنَ الْمَعَادِنِ : كَالطَّبْيِغَا بِمَعْنَى 'فَحْلٍ'
ذَهَبٍ ، وَكُشْبِغَا بِمَعْنَى 'فَحْلٍ فُضِيَّةٍ' ، وَتَمْرَبَغَا بِمَعْنَى 'فَحْلٍ حَدِيدٍ' . وَرَبَّمَا أَبْدَلَ أَسْمُ الْفَحْلِ
بِاسْمِ الْحَدِيدِ ، وَأَسْمُهُ بِلُغَتِهِمْ دُحْرُ كَبِي دُحْرُ بِمَعْنَى 'أَمْسِيرِ حَدِيدٍ' ، وَطِي دُحْرُ بِمَعْنَى 'مُهِرٍ'
حَدِيدٍ . وَرَبَّمَا أَفْرَدُوا الْأَسْمَ بِالْوَصْفِ كَدُحْرُ بِمَعْنَى 'حَدِيدٍ' ، وَأَرْسَلَانُ بِمَعْنَى 'أَسَدٍ' ،
وَتُسْكُرُ بِمَعْنَى 'بَحْرٍ' ، وَنَحْوُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَفْرَدَاتِ وَالْمُرَكَّبَاتِ الَّتِي لَا يَأْخُذُهَا

حصر . وكذلك كلُّ أمة من أمم الأعاجم تُراعى في التسمية ما يدور في خزانة خيالها
مما يخاطونه ويخاورونه .

وأما الأمم المتديّنة فإنهم راعوا في أسمائهم التسمية بأسماء أنبيائهم وصحّابهم .

فالمسلمون — تسمّوا باسمي النبيّ صلى الله عليه وسلم الواردين في القرآن
وهما ”مجد“ و”أحمد“ إذ يقول صلى الله عليه وسلم ، تسمّوا باسمي . وكذلك
تسمّوا باسم غيره من الأنبياء عليهم السلام : إما بكثرة : كإبراهيم ، وموسى ،
وهارون ، وإما بقسّة : كآدم ، ونوح ، ولوط . وأخذوا بوافر حظ من أسماء
الصّحابة رضوان الله عليهم : كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وحسن ، وحسين ،
وما أشبه ذلك .

والنصارى — تسمّوا باسم عيسى وغيره من الانبياء عليهم السلام ممن يعتقدون
نبوّته : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وموسى ، وكذلك أسماء
الحواريّين : كبطرس ، ويوحنا ، وتوما ، ومثي ، ولوقا ، وسمعان ، وبرتلوما ،
وأندراوس ، ونحوها : كمرقص ، وبولص ، وغيرهما .

واليهود — تسمّوا باسم موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين يعتقدون
نبوّتهم : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، ولم يتسمّوا باسم عيسى
عليه السلام لإنكارهم نبوّته .



وأما ما يستحسن من الأسماء فما وردت الشريعة بالتّنب إلى التسمية به : كاسماء
الأنبياء عليهم السلام ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، ففي سنن أبي داود والترمذي من

رواية أبي وهب الجشمي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَحِبُّوا الْأَسْمَاءَ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَأَصْدُقُهَا حَارِثٌ ، وَهَمَامٌ ، وَأَفْجَحُهَا حَرْبٌ ، وَهَمْرَةٌ » .



وأما ما يُسْتَقْبَحُ فما وردت الشريعة بالنهي عنه : إما لكرَاهَةِ لفظه كحَرْبٍ وَهَمْرَةٍ ، وإما للتطير به كَرَبَاحٍ ، وَأَفْلَحَ ، وَنَجَّحَ ، وَرَاجِحَ ، وَرَافِعَ ، وَنَحْوَهَا . ففي صحيح مسلم وغيره النهي عن التسمية بمثل ذلك معللاً بأنك تقول : أَتَمَّ هُوَ ؟ فيقال لا ، وإما لعَظَمَةٍ فِيهِ : كالتسمية بشَاهِنْشَاهٍ ، ومعناه بالفارسية مَلِكُ الْأَمْلاَكِ . ففي الصحيحين من رواية أبي هريرة أنه أَخْنَعَ أَسْمَ . وقد ورد في جامع الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها ، « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُغَيِّرُ الْأِسْمَ الْقَبِيحَ » .

الجملة الثانية

(في مواضع ذكر الأسماء في المكاتبات والولايات)

أما المكاتبات ، فالأسماء التي تذكر فيها على أربعة أنواع :

النوع الأول

(اسم المكتوب عنه)

وذكره إنما يقع في المكاتبات في موضع الخُصُوع والتواضع ، إذ من شأن المكتوب عنه ذلك ؛ وله مَحَلَّان :

المحل الأول — في نفس المكتبة وذلك فيما إذا كانت المكتبة بصورة « من فلان إلى فلان » كما كان يُكْتَبُ عن النبي صلى الله عليه وسلم : من محمد رسول الله إلى

فلان ، وكما كان يُكْتَب عن الخلفاء : من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان ، وكما يُكْتَب الآن في المكاتبات السلطانية إلى ملوك المغرب ، وما يكتب عنهم إلى الأبواب السلطانية ونحو ذلك .

المحل الثاني — العلامة في المكاتبات كما يكتب الملوك فلان ، أو أخوه فلان ، أو شاكركه فلان ، أو فلان فقط ، ونحو ذلك على اختلاف المراتب الآتية على ماسياتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني

(أسم المكتوب إليه ، وله محلان)

المحل الأول — ابتداء المكتوبة كما يُكْتَب في بعض المكاتبات « من فلان إلى فلان ، أو إلى فلان من فلان » ونحو ذلك ؛ وكما يكتب في مكاتبات القانات ، فلان خان ؛ وكما يذكر أسم ملوك الكُفَر في مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية ونحو ذلك . وفيما عدا ذلك من المكاتبات المصدرة بالتقيل والدعاء وغيرهما من المصطلح عليه في زماننا وما قاربه لا يُصَرَّح باسم المكتوب إليه غالبا تعظيما له عن التفؤ به ذكره ، إذ ترك التصريح بالأسم دليل التعظيم والتوقير والتبجيل ، بخلاف الكنية واللقب ، فإنهما يصدد التعظيم لللقب أو المكنى على ماسياتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى ولذلك لم يخاطب الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز باسمه تشريفا لمقامه ، ورفعاً لمحلّه ، فلم يقل يا محمد أو يا أحمد كما قال يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، ياموسى ، ياعيسى . بل قال ﴿ يَسْأَلُكَ الرَّسُولُ . يَسْأَلُكَ النَّبِيُّ ﴾ وقد صرح أصحابنا الشافعية وغيرهم أنه لا يجوز ندأؤه صلى الله عليه وسلم باسمه احتجاجا بالآية الكريمة .

وفي كتاب ابن السني عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً معه غُلامٌ فقال للغلام : مَنْ هذا ؟ - قال أبي - قال : فلا تَمْشِ أَمَامَهُ ولا تَسْتَسِيبْ لَهُ ، ولا تَجْلِسْ قَبْلَهُ ، ولا تَدْعُهُ بِاسْمِهِ . »

المحل الثاني - العنوان من الأدنى إلى الأعلى . كما يكتب في عنوان بعض المكاتبات « مُطالعة المملوك فلان » على ماسياتي في الكلام على العنوان . وإذا كان من تعظيم المخاطب أن لا يُخاطب باسمه فكذلك في مكاتباته : لأن المكاتبه الصادرة إلى الشخص قائمة مقام خطابه ، بل المكاتبه أجدر بالتعظيم لأصطلاحهم في القديم والحديث على ذلك .

النوع الثالث

(اسم المكتوب بسببه)

وهو مما لا نقص فيه بسبب ذكره ، إذ لا بُد من التصريح باسمه ليُعرف ، اللهم إلا أن يشتهر حتى تغني شهرته عن ذكر اسمه ، وله محلان :

المحل الأول - في الطرة بأن يقال « هذا ماعهد به فلان » إما الخليفة في عهده بالخلافة أو السلطنة ، أو السلطان في عهده بالسلطنة على ماسياتي بيانه . وفي معنى ذلك البيعات بأن يقال « مبايعة شريفة لفلان » ونحو ذلك .

المحل الثاني - صدر الولاية حيث يقال : هذا ماعهد عبد الله ووليّه فلان ، أو من عبد الله ووليّه فلان ، ونحو ذلك على اختلاف المذاهب في الابتداء على ماسياتي .

النوع الرابع

(أسم من تصدر إليه الولاية، وله محلان)

المحل الأول — في الطرة إما في العهود حيث يقال : هذا ماعهد فلان إلى فلان .
وإما في التقاليد والتواقيع والمراسيم ، حيث يقال : أن يفوض إلى فلان ، أو أن
يستقر فلان ، أو أن يرتب فلان .

المحل الثاني — أثناء الولاية حيث يقال : أن يفوض إلى فلان ، أو أن يستقر
فلان ، أو أن يرتب فلان ، على نظير ما في الطرة ، أما المولى عليه فقل أن يذكركما
في التحدث على شخص معين ونحوه .

الطرف الثاني

(في الكنى)

والكنية عند النحاة أحد أقسام العلم أيضا ، والمراد بها ما صدر باب أو أم ، مثل
أبي القاسم ، وأم كلثوم وما أشبه ذلك . وقد كان للعرب بالكنى أتم العناية ، حتى
إنهم كنوا جملة من الحيوان بكنى مختلفة : فكنوا الأسد بأبي الحارث ، والثعلب
بأبي الحصين ، والديك بأبي سليمان ، وكنوا الضبع بأم عامر ، والدجاجة بأم حفصة ،
والحرادة بأم عوف ونحو ذلك . وفيه ثلاث جمل :

الجملة الأولى

(في جواز الكُنية ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(كُنى المسلمين)

قال الشيخ محي الدين النووي رحمه الله في كتابه "الأذكار" : وجواز التكني أشهر من أن نذكر فيه شيئاً منقولاً ، فإن دلائله يشترك فيها الخواص والعوام .
قال : والأدب أن يُخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكُنية ، وكذلك إن كتب إليه رسالة ، أو روى عنه رواية . فيقال : حدثنا الشيخ أو الإمام أبو فلان فلان بن فلان وما أشبهه .

وأعلم أن الأولين أكثر ما كانوا يعظمون بعضهم بعضاً في المخاطبات ونحوها بالكُنى ، ويرون ذلك في غاية الرفعة ونهاية التعظيم حتى في الخلفاء والملوك : فيقال : أبو فلان فلان ، وبالعوا في ذلك حتى كنوا من أسمه في الأصل كُنية فقالوا في أبي بكر « أبو المناقب » اعتناءً بشأن الكُنية ، وربما وقف الأمر في الزمن القديم في تسمية خاصة الخليفة وأمرائه على ما يكتبه به الخليفة ، فيكون له في الرفعة منتهى ينتهى إليه ، ثم رجع أمرهم بعد ذلك إلى التعظيم بالألقاب . على أن التعظيم بالكُنى باقٍ في الخلفاء والملوك فمن دونهم إلى الآن على ما استقف عليه في مواضعه إن شاء الله تعالى ، وكذلك القضاة والعلماء ، بخلاف الأمراء والجُند والحُكَّاب ، فإنه لا عناية لهم بالكُنى .

ثم لا فرق في جواز التكنّي بين الرجال والنساء، فقد كانت «عائشة» أم المؤمنين رضى الله عنها تكنّي «بأمّ عبد الله» وكذلك غيرها من نساء الصحابة والتابعين كان هنّ كنّي يكتنّين بها .

النوع الثاني

(كنّي أهل الكُفر والفَسَقَة والمبتدِعين)

قال الترمذی : والكافر والفاسق والمبتدع إن كان لا يُعرف إلا بالكُنية جاز تَكْنِيَّتُهُ . قال تعالى ﴿ تَبْتَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وأسمه عبد العزى ، قيل : إنه ذكر تَكْنِيَّتَهُ لكونه كان لا يُعرف إلا بها ، وقيل : كراهةً لأسمه حيث جعل عبداً للصنم ؛ وقد تكرر في الحديث ذكر أبي طالب بكنيته ، وأسمه عبد مناف . وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم «لَمَّا مَرَّ بِأَرْضِ الْحِجْرِ مِنَ الشَّامِ ، قَالَ هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ» لعاقِرِ الناقةِ من قومِ ثمود . قال : وكذلك إذا خيف من ذكره باسمه فتنه ، كما ثبت في الصحيحين «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمارٍ ليعود سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فمَرَّ فِي طَرِيقِهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ الْمُنَافِقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ بَدَأَتِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ مَرَّ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ ؟ (يريد عبد الله بن أبي ابن سلول) قَالَ كَذًا وَكَذَا . وَذَكَرَ الْحَدِيثَ . قَالَ : فَإِنْ كَانَ يُعْرَفُ بِغَيْرِ الْكُنيةِ وَلَمْ يُخَفَّ فتنه لَمْ يُدْرَ عَلَى الْأَسْمِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ «مَنْ مَحَدَّ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى

هَرَقَل « فسمّاه باسمه ولم يكنّه ولا لقّبه بمليك الروم . قال : ونظائر هذا كثيرة ، وقد أمرنا بالإغلاظ عليهم ، ولا يذنبني لنا أن نكنّيهم ، ولا نرقّق بهم ، ولا نأين لهم قولاً ، ولا نظهر لهم ودّاً ولا مؤالفة .

الجملة الثانية

(فيما يُكنّى به ، وهو على نوعين)

النوع الأول

(كُنّي الرجال ، ولها حالان)

الحال الأول — أن يكون للرجل ولدٌ أو أولادٌ . قال النووي : فإن كان له ولدٌ يُكنّى به ، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الولد ذكراً أو أنثى ، فيجوز تكنية الرجل بأبي فلانة كما يجوز بأبي فلان . فقد تكنّى جماعة من أفاضل السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بأبي فلانة ، فمن الصحابة أبو ليلى : والد عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وأبو فاطمة الليثي ، وأبو صريم الأزدي ، وأبو رقية تميم الداري ، وأبو زرعة المقداد بن معدى كرب . ومن التابعين أبو عائشة مسروق بن الأجدع وخلائق لا يحصون . وإن كان له أولادٌ يُكنّى بأكثرهم : فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكنّى بأبي القاسم ، وكان القاسم أكبر بيته .

وفي سنن أبي داود والنسائي عن شريح الحارثي أنه وقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه فسمعهم يُكنّونه بأبي الحكم ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله هو الحكم وإليه الحكم ! فلم تُكنّى أبا الحكم ؟ — فقال : إن قومي

اختلفوا في شيء فأتوني فحكمت بينهم فريضى كلا الفريقين - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن هذا ! فما لك من الولد؟ - قال : شريح ، ومسلم ، وعبد الله - قال : فمن أكبرهم؟ - قال - شريح - قال : فأنت أبو شريح «
فلو تكني بغير أولاده فلا بأس به قاله النووي . ثم قال : وهذا الباب واسع لا يحصى من يتصف به .

وقد اختلف في جواز التكني بأبي القاسم : فنص الشافعي رضي الله عنه على أنه لا يجوز التكني بذلك مطلقاً لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال «تسموا بأسمي ولا تكنوا بكنتي» . وذهب ذاهبون إلى تخصيص ذلك بحياته صلى الله عليه وسلم احتجاجاً بأن المنع فيه كان لعلته : وهي أن اليهود كانوا ينادون بأبا القاسم ! فإذا التفت النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : لم نعنك ، قصداً لإيذائه صلى الله عليه وسلم وقد زالت هذه العلة بوفاة صلى الله عليه وسلم ، واختاره النووي من أصحابنا الشافعية . وذهب آخرون إلى تخصيص المنع بما إذا جمع لواحد بين الأسم والكنية ، بأن يتسمى محمداً ويتكنى بأبي القاسم ، بخلاف ما إذا لم يكن اسمه محمداً فإنه يجوز ، وهو وجه قوي .

الحال الثاني - أن لا يكون للرجل ولد بأن لم يولد له ولد أصلاً ، قال النووي : فيجوز تكنيته حتى الصغير . ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً ، وكان لي أخ يقال له أبو عمير (قال الراوي) : أحسبه فطياً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء يقول يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ لنغير كان يلعب به » . قال النووي : وكان من الصحابة رضوان الله عليهم جماعات لهم كني قبل أن يولد لهم ،

كأبي هريرة وخلائق لا يُحصون من التابعين فمن بعدهم . قال : ولا مكرهة فيه بل هو محبوب بشرطه .

وأعلم أن الرجل قد يكون له كُنيَتانِ فأكثر ، فقد كان لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ثلاثُ كُنى : أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو كَيْلى .

النوع الثانى

(كُنى النساء)

والحلال فيه أنه إن كان للمرأة وَلَدٌ تَكَنَّتْ به ذكرًا أو أنثى ، كما تقدم في الرجل . وإن كان لها أولاد تَكَنَّتْ بأكبرهم مع جواز الكُنية بغير أولادها كما في الرجل أيضا . قال النووي : ويجوز تَكْنِيَتُها ولو لم يُولَدْ لها ، ففي سُنَنِ أبى داود وغيره بأسانيد صحيحة عن عائشة رضى الله عنها قالت : « يارسول الله كُلُّ صَوَاحِي هُنَّ كُنًى » قال : فَاكُنِّى بِابْنِكَ عَبْدُ اللَّهِ - يعنى عبد الله بن الزبير ، وهو ابن أختها أسماء ، وكانت عائشة رضى الله عنها تَكْنِي ' أمَّ عبد الله » قال : هذا هو الصحيح المعروف . وما رواه ابن السني عن عائشة أنها قالت « أَتَسَقَطُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِقْطًا فسمَّاهُ عَبْدُ اللَّهِ » فحديث ضعيف . ثم كما تجوز تَكْنِيَةُ الرجل بأبى فلانة ، يجوز تَكْنِيَةُ المرأة بأُمَّ فلانة من باب أولى .

الجزء الثالثة

(في التكني في المكاتبات والولايات)

فأما الكنية في المكاتبات فعلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول

(تكني المكتوب عنه)

قال محمد بن عمر المدايني في كتاب " القلم والدواة " : أول من آكنى في كُتبه « الوليد بن عبد الملك » . قال النووي في " الأذكار " : والأدب أن لا يذكر الرجل كنيته في كتابه ولا في غيره إلا أن لا يعرف إلا بكنته ، أو كانت الكنية أشهر من اسمه . وقال أبو جعفر النحاس : إذا كانت الكنية أشهر ، يكنى على نظيره ويسمى لمن فوقه ثم يَأْحَقُ « المعروف أبا فلان ، أو بابي فلان » .

ثم الكنية من المكتوب عنه قد تكون في صدر الكتاب كما يكتب عن الخلفاء « من عبد الله ووليّه أبي فلان فلان أمير المؤمنين » أو في موضع العلامة كما يكتب في الطغرة من السلطان لملوك الكُفَر بعد سِياقة ألقاب السلطان « أبو فلان فلان » أو في العنوان كما كان يكتب في المصطلح القديم « من أبي فلان فلان إلى فلان » .

النوع الثاني

(تَكْنِيَّةُ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ)

وبه كان الاعتناء في الزمن المتقدم لاسيما إذا كان المكتوب إليه ممن يستحق التعظيم بالكنية . وكنية المكتوب إليه تارة تكون في عنوان الكتاب كما يكتب « إلى أبي فلان فلان » وتارة تكون في صدر الكتاب كما كان يكتب « من فلان إلى أبي فلان فلان » .

النوع الثالث

(تَكْنِيَّةُ الْمَكْتُوبِ بِسَبَبِهِ)

وهي تارة تذكر في طرة الكتاب فيقال فيمن قصد تعظيمه « بما قصده أبو فلان فلان » وأستعمله قليل . وتارة تذكر في أثناء الكتاب حيث يجري ذكره .



وأما الكنية في الولايات فلها محلان :

أحدهما - في طرة الولاية، حيث يقال : « عهد شريف [لأبي فلان^(٢)] فلان » أو « تقليد شريف بأن يفوض إلى [أبي فلان^(٢)] فلان » .

والثاني - في أثناء الولايات حيث يجري ذكره على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل عنه ، وهو غير مناسب ، والتصحيح عن الضوء للؤلؤف .

(٢) الزيادة عن الضوء .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الثالثة

(في الألقاب ، وفيه طرفان)

الطَّرَفُ الأول

(في أصول الألقاب ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في معنى اللَّقَبِ والنَّعْتِ ، وما يجوز منه ويمتنع)

أما اللقب فأصله في اللغة النَّبَرُ - بفتح الباء . قال ابن حاجب النعمان في "ذخيرة الكتاب" : والنَّبَرُ ما يَخاطَبُ به الرجلُ الرجلَ من ذكر عيوبه وما ستره عنده أحبُّ إليه من كشفه ، وليس من باب الشَّمِّ والقَدْفِ .



وأما النعتُ فأصله في اللغة الصِّفَةُ . يقال : نَعَتَهُ يَنْعِتُهُ نَعْتًا إذا وصفه . قال في "ذخيرة الكتاب" : وهو مُتَّفَقٌ على أنه ما يختاره الرجل ويؤثره ويزيد في إجلاله ونباهته ، بخلاف اللَّقَبِ . قال : لكن العامة أَسْتَعْمَلَتِ اللَّقَبَ في موضع النعت الحسن ، وأوقعوه مَوْقِعَهُ لكثرة استعمالهم إياه ، حتى وقع الاتفاق والأصطلاحُ على استعماله في التشريف والإجلال والتعظيم والزيادة في النبأة والتَّكْرِمَةِ .

قلت : والتحقيق في ذلك أن اللَّقَبَ والنعت يُسْتَعْمَلَانِ في المَدْحِ والذمِّ جميعاً : فمن الألقاب والنُّعُوت ما هو صفةٌ مدحٍ ومنها ما هو صفةٌ ذمٍّ . وقد عرِّفت النجاة اللَّقَبَ بأنه ما أدَّى إلى مَدْحٍ أو ذمٍّ ، فالْمُؤَدَّى إلى المدح كأمير المؤمنين ،

وَزَيْنِ الْعَابِدِينَ ؛ وَالْمُؤَدَّى إِلَى الدَّمِّ كَانْفِ النَّاقَةِ وَسَعِيدِ كُرْزٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .
وَالنَّعْتُ تَارَةً يَكُونُ صِفَةً مَدْحٍ ، وَتَارَةً يَكُونُ صِفَةً ذَمٍّ ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا
مِنَ اللَّقَبِ وَالنَّعْتُ مَا أُدْخِلَ إِلَى الْمَدْحِ دُونَ الدَّمِّ . وَقَدْ أَصْطَلَحَ الْكُتَّابُ عَلَى أَنْ سَمَّوْا
صِفَاتِ الْمَدْحِ الَّتِي يُورَدُونَهَا فِي صُدُورِ الْمَكَاتِبَاتِ وَنَحْوِهَا بِصِیْغَةِ الْإِفْرَادِ كَالْأَمِيرِ
وَالْأَمِيرِيِّ وَالْأَجَلِّ وَالْأَجَلِّيِّ وَالْكَبِيرِ وَالْكَبِيرِيِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَلقَابًا ؛ وَصِفَاتِ الْمَدْحِ
الَّتِي يُورَدُونَهَا عَلَى صُورَةِ التَّرَكِيبِ كَسَيِّفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَظَهِيرِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ
وَنَحْوِ ذَلِكَ نَعْوَاتًا ؛ وَلَا مَعْنَى لِتَخْصِیصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْأَسْمِ الَّذِي سَمَّوْهُ بِهِ إِلَّا مَجْرَدُ
الْأَصْطِلَاحِ ؛ وَلَا نِزَاعَ فِي إِطْلَاقِ اللَّقَبِ وَالنَّعْتِ عَلَيْهِمَا بِاعْتِبَارَيْنِ : فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا
صِفَاتٌ مُؤَدِّيَةٌ إِلَى الْمَدْحِ يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَسْمُ اللَّقَبِ ، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا صِفَاتٌ لِدَوَائِ
قَائِمَةٌ بِهَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَسْمُ النَّعْتِ .



وَأَمَّا مَا يَجُوزُ مِنْ ذَلِكَ وَيَمْتَنِعُ ، فَالْجَائِزُ مِنْهُ مَا أُدْخِلَ إِلَى الْمَدْحِ مِمَّا يَحِبُّهُ صَاحِبُهُ
وَيُؤَثِّرُهُ ، بَلْ رُبَّمَا أَسْتَحَبَّ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ النَّوَوِيُّ فِي «الْأَذْكَارِ» لِلْإِطْبَاقِ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ
قَدِيمًا وَحَدِيثًا . وَالْمَمْتَنِعُ مِنْهُ مَا أُدْخِلَ إِلَى الدَّمِّ وَالنَّقِیْصَةِ مِمَّا يَكْرَهُهُ الْإِنْسَانُ وَلَا يُحِبُّ
نَسِبَتَهُ إِلَيْهِ . قَالَ النَّوَوِيُّ : وَهُوَ حَرَامٌ بِالْإِتِّفَاقِ ، سِوَاءِ كَانُ صِفَةً لَهُ : كَالْأَعْمَشِ ،
وَالْأَجْلَحِ ، وَالْأَعْمَى ، وَالْأَحْوَلِ ، وَالْأَبْرَصِ ، وَالْأَشَّجِ ، وَالْأَصْفَرِ ، وَالْأَحْدَبِ ،
وَالْأَصَمِّ ، وَالْأَزْرَقِ ، وَالْأَشْتَرِ ، وَالْأَثَرَمِ ، وَالْأَقْطَعِ ، وَالزَّمَنِ ، وَالْمُقْعَدِ ، وَالْأَشْلَلِ ،
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . أَوْ كَانَ صِفَةً لِأَبِيهِ : كَابْنِ الْأَعْمَى ، أَوْ لَأُمِّهِ : كَابْنِ الصُّورَاءِ وَنَحْوِ
ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾

قال: وأنفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لا يعرفه إلا بذلك؛ ودلائل ذكره كثيرة مشهورة، وهو أحد المواضع التي تجوز فيها الغيبة.

الجملة الثانية

(في أصل وضع الألقاب والنعوت المؤدية إلى المدح)

وأعلم أن ألقاب المدح ونعوتها لم تزل واقعة على أشرف الناس وجملة الخلق في القديم والحديث؛ فقد ثبت تلقيب إبراهيم عليه السلام بـ«الحليل» وتلقيب موسى عليه السلام بـ«الكليم» وتلقيب عيسى عليه السلام بـ«المسيح» وتلقيب يونس عليه السلام بـ«ذي النون» وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقب قبل البعثة بـ«الأمين» ووردت التواريخ بذكر ألقاب جماعة من العرب في الجاهلية: كـ«ذي النون» و«ذي نواس» و«ذي رعين» و«ذي جدين» وغيرهم مما هو مشهور شائع. وكذلك وقعت ألقاب المدح على كثير من عظماء الإسلام وأشرفه كالصحابه رضوان الله عليهم فمن بعدهم من الخلفاء والوزراء وغيرهم: فكان لقب أبي بكر «عتيقاً» ثم لقب بـ«الصدّيق» بعد ذلك، ولقب عمر «الفاروق» ولقب عثمان «ذا النورين» ولقب علي «حيدر» ولقب حمزة بن عبدالمطلب «أسد الله» ولقب خالد بن الوليد «سيف الله» ولقب عمرو بن عمرو «ذا الدين» ولقب مالك بن النّيمان الأنصاري «ذا السيفين» ولقب خزيمة بن ثابت الأنصاري «ذا الشهادتين» ولقب جعفر بن أبي طالب بعد استشهاده «ذا الجناحين».

وأما الخلفاء، فخلفاء بني أمية لم يتلقب أحد منهم، فلما صارت الخلافة إلى بني العباس وأخذت البيعة لإبراهيم بن محمد، لقب بـ«الإمام» ثم تلقب من بعده من

(١) في كتب اللغة والحديث أن اسمه الخرباق فلعل فيه خلافاً.

خلفائهم : فتلقَّب محمد بن عليّ بـ «السَّفَّاح» لكثرة ماسَفَح من دماء بني أُمَيَّة .
وأختلِف في لقبه بالخِلافة : ف قيل «القائم» وقيل «المهتدي» وقيل «المرتضى»
واللقاب الخلفاء بعده وإلى زماننا معروفة مشهورة على ماصر ذكره في المقالة الثانية .
وعلى ذلك كانت ألقاب خلفاء بني أُمَيَّة بالأندلس إلى حين آنقراضهم على ما هو
مذكور في مكَتَبَة صاحب الأندلس ، على ماسياتى في المكتبات في المقالة الرابعة
إن شاء الله تعالى .

ثم تعدت ألقاب الخِلافة إلى كثير من ملوك الغُرب بعد ذلك ، وتلا الخلفاء
في الألقاب الوزراء لآستقبال الدولة العباسية وما بعد ذلك : فتلقَّب أبو سلمة خلَّال
وزير السَّفَّاح بـ «وزير آل محمد» ولقَّب المهديُّ وزيره يعقوب بن داود بن طهمان
«الأخ في الله» ولقَّب المأمونُ الفضل بن سهل حين استوزره «ذا الكفائتين»
ولقَّب أخاه الحسن بن سهل «ذا الرِّاستين» ولقَّب المعتمد على الله وزيره صاعد
أبن مخلد «ذا الوزارتين» إشارة إلى وزارة المعتمد والموفق ، وكان لقب إسماعيل
أبن بلبل الشكور «الناصر لدين الله» كألقاب الخلفاء .

وكذلك وقع التلقيب لجماعة من أرباب السيوف وقواد الجيوش : فتلقَّب
أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة بـ «أمير آل محمد» . وقيل «سيف آل محمد»
وتلقَّب أبو الطيب طاهر بن الحسين بـ «بذى اليمينين» ولقَّب المعتصم بالله حيدر
أبن كاووس بـ «الأفشين» لأنه أشروسني ، والأفشين لقب على الملك بأشروسنة
ولقَّب إسحاق بن كسداح أيام المعتمد بـ «بذى السيفين» ولقَّب مؤنس في أيام
المقتدر بـ «المظفر» ولقَّب سلامة أخو مُجَّح أيام القاهرة بـ «المؤتمن» ولقَّب أبو بكر
أبن محمد بن طُغج الراضي بالله بـ «الأخشيدي» والأخشيدي لقب على الملك بفرغانة .

(١) ثم وقع التلقيب بالإضافة إلى الدولة في أيام المكفي بالله : فَلَقَّبَ الْمَكْفِي
أَبَا الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ عُمَيْدٍ اللَّهِ « وَلِيَ الدَّوْلَةَ » ، وهو أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِالْإِضَافَةِ
إِلَى الدَّوْلَةِ ، وَلَقَّبَ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ عَلَى بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ الْمُتَقَدِّمُ ذَكَرَهُ « عُمَيْدُ الدَّوْلَةِ » .

ووافت الدولة البويهية أيام المطيع لله والأمر جارٍ على التلقيب بالإضافة للدولة ،
فافتُتِحَتْ ألقاب الملوك بالإضافة إلى الدولة ، فكان أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِذَلِكَ مِنَ الْمُلُوكِ
بَنُو بُوَيْهِ السَّلاَةِ : فَلُقِّبَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَى بْنُ بُوَيْهِ بِ« عِمَادِ الدَّوْلَةِ » وَلُقِّبَ أَخُوهُ
أَبُو عَلَى الْحَسَنِ بِ« رُكْنِ الدَّوْلَةِ » وَأَخُوهُمَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بِ« مُعِزِّ الدَّوْلَةِ » ثُمَّ وَافَى
« عَضُدُ الدَّوْلَةِ » مِنْ بَعْدِهِمْ فَاقْتَرَحَ أَنْ يَلْقَّبَ بِ« تَاجِ الدَّوْلَةِ » فَلَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ وَعُدِلَ
بِهِ إِلَى « عَضُدِ الدَّوْلَةِ » ؛ فَلَمَّا بَذَلَ نَفْسَهُ لِلْعَاوَنَةِ عَلَى الْأَتْرَافِ ، اخْتَارَ لَهُ أَبُو إِسْحَاقَ
الصَّابِي صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنِّشَاءِ « تَاجَ الْمِلَّةِ » مُضَافًا إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ ؛ فَكَانَ يُقَالُ
« عَضُدُ الدَّوْلَةِ وَتَاجُ الْمِلَّةِ » وَلُقِّبَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ حَمْدَانَ أَيَّامَ الْمُتَّقِي لِلَّهِ
« نَاصِرُ الدَّوْلَةِ » وَلُقِّبَ أَخُوهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلَى بْنُ حَمْدَانَ « سَيْفُ الدَّوْلَةِ » .

وَبَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى التَّلْقِيبِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الدَّوْلَةِ إِلَى أَيَّامِ الْقَادِرِ بِاللَّهِ فَافْتَتَحَ التَّلْقِيبُ
بِالْإِضَافَةِ إِلَى الدِّينِ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ أَبُو نَصْرِ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ بْنُ
عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، زَيْدٌ عَلَى لَقْبِهِ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ « نِظَامُ الدِّينِ » فَكَانَ يُقَالُ
« بَهَاءُ الدَّوْلَةِ وَنِظَامُ الدِّينِ » قَالَ ابْنُ حَاجِبٍ النِّعَمَانُ : ثُمَّ تَزَايَدَ التَّلْقِيبُ بِهِ وَأَفْرَطَ ،
حَتَّى دَخَلَ فِيهِ الْكُتَّابُ وَالْجُنْدُ وَالْأَعْرَابُ وَالْأَكْرَادُ ، وَسَائِرُ مَنْ طَلَبَ وَأَرَادَ ،
وَكَرِهَ (٢) حَتَّى صَارَ لِقَبَا عَلَى الْأَصْلِ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ فِي زَمَانِنَا قَدْ خَرَجَ عَنِ الْحَدِّ

(١) لم يذكر في الضوء لفظ الاب في المحليين .

حتى تعاطاه أهل الأسواق ومن في معناهم ، ولم تصر به مزية لكبير على صغير ،
حتى قال قائلهم :

طَلَعَ الدِّينُ مُسْتَفِئًا إِلَى اللَّهِ * وَقَالَ : الْعِبَادُ قَدْ ظَلَمُونِي !
يَتَسَمَّوْنَ بِي ، وَحَقَّكَ لَا أَعْرِفُ مِنْهُمْ شَخْصًا وَلَا يَعْرِفُونِي !

أما الديار المصرية فكان جريهم في الألقاب على ما ينتهي إليهم خبره من ألقاب
الدولة العباسية ببغداد ، فتلقب خلفاء الفاطميين بها بنحو ألقاب خلفاء بني العباس
ببغداد ، فكان لقب أول خلفائهم بها « المعز لدين الله » وثانيهم بها « العزيز بالله »
وعلى ذلك إلى أن كان لقب آخرهم « العاضد لدين الله » على ما تقدم في المقالة الثانية
في الكلام على ملوك الديار المصرية .

وتلقب وزراؤهم وكُتَّابهم بالإضافة إلى الدولة ، ومن لقب بذلك في دولتهم
« ولي الدولة » بن أبي كدينة وزير المستنصر ، وأيضا « ولي الدولة » بن خيران
كاتب الإنشاء المشهور . ولما صارت الوزارة لبدر الجمالي تلقب بـ « أمير الجيوش » .
ثم تلقب الوزراء بعده بنحو « الأفضل » و « المأمون » . ثم تلقبوا بالملك الفلاني ،
كـ « الملك الأفضل » و « الملك الصالح » ونحو ذلك على ما سيأتي بيانه إن شاء
الله تعالى .

وكان الكُتَّاب في أواخر الدولة الفاطمية إلى أثناء الدولة الأيوبية يلقبون
بـ « الفاضل » و « الرشيد » و « العماد » وما أشبه ذلك ، ثم دخلوا في عموم التلقب
بالإضافة إلى الدين ، واختص التلقب بالإضافة إلى الدولة كولي الدولة بكُتَّاب
النصارى ، والأمر على ذلك إلى الآن .

الطرف الثاني

(في بيان معاني الألقاب ، وفيه تسعٌ جميل)

الجملة الأولى

(في الألقاب الخاصة بأرباب الوظائف المعتبرة التي بها انتظامُ أمور

المملكة وقوامها ؛ وهي قسمان)

القسم الأول

(الألقاب الإسلامية ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(الألقاب القديمة المتداولة الحُكم إلى زماننا ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ألقاب أرباب السيوف ، وهي سبعة ألقاب)

الأول — الخليفة . وهو لَقِبَ على الزعيم الأعظم القائم بأمور الأمة ؛ وقد اختلف في معناه ، ف قيل : إنه فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، كجَرَّحَ بمعنى مجروح ، وقَتِيلٌ بمعنى مقتول ويكون المعنى أنه يَحْلِفُ من بعده ، وعليه حمل قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ على قول من قال : إن آدم عليه السلام أول من عمّر الأرض وخلفه بنوه من بعده . وقيل : فَعِيلٌ بمعنى فاعل ، ويكون المراد أنه يَحْلِفُ من بعده ، وعليه حمل الآية من قال إنه كان قبْلَه في الأرض الحِشُّ وإنه خلقهم فييا ، واختاره النحاس

(١) كذا في الضوء أيضا وفي نسخة أخرى والأظهر من قبله .

في "صناعة الكتاب" : وعليه اقتصر البغوي في "شرح السنة" ، والمأوردى في "الأحكام السلطانية" . قال النحاس : وعليه خُوطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بخليفة رسول الله .

وقد أجازوا أن يُقال في الخليفة « خليفة رسول الله » لأنه خلفه في أمته . واختلفوا هل يجوز أن يُقال فيه خليفة الله : بفوز بعضهم ذلك لقيامه بحقوقه في خلقه محتجين بقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك محتجين بأنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت والله تعالى باقٍ موجود إلى الأبد لا يغيب ولا يموت . ويؤيد ما نقل عن الجمهور بما روى أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه : يا خليفة الله - فقال : لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا خليفة الله - فقال : ويلك ! لقد تناولت متناولا بعيدا ! إن أُمِّي سَمَّيَنِي عُمَرُ ، فلو دعوتني بهذا الاسم قُلتُ ، ثم كُبرت فكنيتُ بأحفص ، فلو دعوتني به قُلتُ ، ثم وَلَيْتُمُونِي أُمُورَكُمْ فَسَمَّيْتُمُونِي أمير المؤمنين ، فلو دعوتني به كفك . وخصَّ البغوي جواز إطلاق ذلك بآدم وداود عليهما السلام ، محتجا بقوله تعالى في حق آدم : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) وقوله في حق داود : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) ثم قال : ولا يسمى أحد خليفة الله بعدهما . قال في "شرح السنة" : ويسمى خليفة وإن كان مخالفا لسيرة أئمة العدل .

ثم قد كره جماعة من الفقهاء منهم « أحمد بن حنبل » إطلاق اسم الخليفة على ما بعد خلافة « الحسين بن علي » رضي الله عنهما فيما حكاه النحاس وغيره ، محتجين بحديث « الخِلافة بعدى ثلاثون » يعني ثلاثين سنة ، وكان انقضاء الثلاثين بانقضاء

خليفة الحسن ، ولما انتقضت الخلافة صارت ملكاً . قال المعافى بن إسماعيل في تفسيره : وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل طلحة والزبير وكعباً وسلمان عن الفرق بين الخليفة والمليك - فقال طلحة والزبير لا ندري - فقال سلمان : الخليفة الذى يعدل فى الرعية ، ويقسم بينهم بالسوية ، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله والوالد على ولده ، ويقضى بينهم بكتاب الله تعالى - فقال كعب : ما كنت أحسب أن فى هذا المجلس من يفرق بين الخليفة والمليك ، ولكن الله أهدى سبلهم حكماً وعلماً ! .

وآخلف فى الهاء فى آخره : فقيل أدخلت فيه للبالغة كما أدخلت فى رجل داهية وراوية وعلامة ونسابة وهو قول الفراء ، واستحسنه النحاس ناقلاً له عن أكثر النحويين وخطأه على بن سليمان محتجاً بأنه لو كان كذلك لكان التأنيث فيه حقيقياً . وقيل : الهاء فيه لتأنيث الصيغة . قال النحاس : وربما أسقطوا الهاء منه وأضافوه فقالوا « فلان خليف فلان » يعنون خليفته .

ثم الأصل فيه التذكير نظراً للغنى لأن المراد بالخليفة رجل وهو مذكر ، فيقال أمر الخليفة بكذا على التذكير ، وأجاز الكوفيون فيه التأنيث على لفظ خليفة فيقال أمرت الخليفة بكذا ، وأنشد الفراء .

* أبوك خليفة ولدته أخرى *

ومنع البصريون محتجين بأنه لو جاز ذلك لجازت طلحة فى رجل اسمه طلحة وهو ممتنع . فإن ظهر اسم الخليفة تعين التذكير باتفاق فتقول قال أبو جعفر الخليفة أو قال الراضى الخليفة ونحو ذلك . ويجمع على خلفاء ككريم وكرماء ، وعليه ورد قوله تعالى : « وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » وعلى خلاف كصحيفة

وَصَحَائِفَ ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ والنسبة إليه خَلْفَى كما يُنسَب إلى حنيفة حَنْفَى . وقول العامة درهم خَلِيقَتِي ونحوه خطأ ، إذ قاعدة النسب أن يَحْدَف من المنسوب إليه الياء وهاء التأنيث على ما هو مقرر في علم النحو . ومن وَهَم في ذلك المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله رحمه الله في كتابه " التعريف " حيث قال : وأول ما نبدأ بالمكاتبة إلى الأبواب الشريفة الخليفة الخليفة ، ولعله سبق قلم منه ، وإلا فالمسألة أظهر من أن يجهلها أو تخفى عليه .

الثاني — المَلِك . وهو الرِّعِم الأعظم ممن لم يُطَاق عليه اسمُ الخِلافة ، وقد نطق القراءُ بذكره في غير موضع كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ (وقال المَلِكُ أَتُونِي بِهِ) إلى غير ذلك من الآيات . ويقال فيه مَلِك بكسر اللام ومَلِك بإسكانها ومَلِك بزيادة ياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قال الجوهري : والمَلِك مقصورٌ من مالك أو مَلِك ؛ ويجمع على مُلُوك وأملاك . ويقال لموضع المَلِك المَمْلَكَة .

الثالث — السُّلطان . وهو اسمٌ خاصٌ في العُرف العامِّ بالملوك . ويقال : إن أوَّل من لُقِّب به « خالد بن برمك » وزيرُ الرشيد ، لقَّبه به الرشيدُ تعظيماً له ، ثم أُنقطع التلقب به إلى أيام بني بُوَيَّه فتلقب به مُلُوكُهم فمن بعدهم من الملوك السَّلاجقة وغيرهم وهَلُمَّ جراً إلى زماننا .

وأصله في اللغة الحُجَّة قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ يعني من حُجَّة . وسمَّى السلطان بذلك لأنه حُجَّة على الرعية يجب عليهم الانقياد إليه .

وأختلَف في اشتقاقه : ف قيل إنه مشتقٌ من السَّلاطَة وهي القهر والغلبة : لقهره الرعية وأنقيادهم له ، وقيل مشتقٌ من السَّليط : وهو الشَّيْرَج في لغة أهل اليمن

لأنه يُستضاء به في خلاص الحقوق ، وقيل من قولهم لسانٌ سَاطِعٌ أى حادٌ ماضٍ لمضى أمره ونُفُوذِهِ . وقال محمد بن يزيد البصري : السُّلْطَانُ جَمْعٌ واحدُه سَلِيطٌ كَقَفِيزٍ وَنُفْرَانٍ ، وَبَعِيرٍ وَبُعْرَانٍ .

وحكى صاحب "ذخيرة الكُتَّاب" : أنه يكون واحداً ويكون جمعاً ، ثم هو يُدَكَّرُ على معنى الرجل ، ويؤنث على معنى الحُجَّة . وحكى الكسائي والفراء على التأنيث عن بعض العرب قَصَّتْ به عليك السلطانُ . قال العسكري في كتابه "الفروق" في اللغة : والفرق بينه وبين المَلِكِ أن المَلِكَ يَخْتَصُّ بالزَّعِيمِ الأعظم ، والسُّلْطَانُ يُطَلَّقُ عليه وعلى غيره . وعلى ما ذكره العسكري عرَّفَ الفقهاء في كتبهم ، إذ يُطَلِّقُونَهُ عَلَى الحَاكِمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ حَتَّى عَلَى الْقَاضِي فيقولون فيمن ليس لها وَلِيٌّ خَاصٌّ يَرْجُحُهَا السُّلْطَانُ ونحو ذلك . ومن حيث إن السلطان أعمُّ من المَلِكِ يُقَدِّمُ عليه في قولهم السلطانُ المَلِكُ الفُلَانِي : ليقع السلطانُ أولاً على المَلِكِ وعلى غيره ثم يخرج غير المَلِكِ بعد ذلك بذكر المَلِكِ .

الرابع — الوزير . وهو المتحدث للمَلِكِ في أمر مملكته . واختلف في اشتقاقه : فقول مستق من الوزر بفتح الواو والزاي وهو المَلْحَأ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَاؤَزَّرَ ﴾ سُمِّيَ بذلك لأن الرعية يَلْجَأُونَ إليه في حوائجهم ، وقيل مشتق من الأوزار وهي الأمتعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ سُمِّيَ بذلك لأنه منقلدٌ بخزان المَلِكِ وأمتعه ، وقيل مشتق من الوزر بكسر الواو وإسكان الزاي وهو الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ سُمِّيَ بذلك لأنه يتحمل أثقال المَلِكِ ، وقيل مشتق من الأزر : وهو الظَّهْر ، سُمِّيَ بذلك لأن المَلِكِ يقوى بوزيره كقوة البدن بالظَّهْر ، وتكون الواو فيه على هذا التقدير منقلبةً عن همزة . وقد

أوضحت القول في ذلك في "النفعات الشرعية في الوزارة البدنية". قال القضاعى في "عيون المعارف في أخبار الخلائف": وأول من لُقّب بالوزارة في الإسلام أبو سلمة: حفص بن سلمان الخلال وزير السفاح. قال: وإنما كانوا قبل ذلك يقولون كاتب. ثم هو إمام وزير تفويض: وهو الذى يفوض الإمام إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على أجهاده كما كانت الوزراء بالديار المصرية من لئذ وزارة بدر الجمالي وإلى حين انقراضها، وإمام وزير تنفيذ: وهو الذى يكون وسيطا بين الإمام والرعيا معتمدا على رأي الإمام وتديره. وهذه هى التى كان أهل الدولة الفاطمية يعبرون عنها بالوساطة. أما الوزارة فى زماننا فقد تقاصرت عن ذلك كله حتى لم يبق منها إلا الاسم دون الرسم، ولم تزل الوزارة فى الدول تتردد بين أرباب السيف والأقلام تارة وتارة إلا أنها فى زماننا فى أرباب الأقلام.

الخامس — الأمير، وهو زعيم الجيش أو الناحية ونحو ذلك ممن يوليه الإمام. وأصله فى اللغة ذو الأمر وهو فاعل بمعنى فاعل فيكون أمير بمعنى أمر، سمي بذلك لأن مثال قومه أمره. يقال: أمر فلان إذا صار أميرا، والمصدر الإمرة والإمارة بالكسر فيهما، والتأثير تولية الأمير، وهى وظيفة قديمة.

السادس — الحاجب. وهو فى أصل الوضع عبارة عن يبلغ الأخبار من الرعية إلى الإمام ويأخذ لهم الإذن منه، وهى وظيفة قديمة الوضع كانت لأبتداء الخلافة فقد ذكر القضاعى فى "عيون المعارف" لكل خليفة حاجبا من أبتداء الأمر وإلى زمانه: فذكر أنه كان حاجب أبي بكر الصديق رضى الله عنه «شديدا» مولاه، وحاجب عمر «يرفا» مولاه، وحاجب عثمان «حمران» مولاه، وحاجب على «قنبرا» مولاه، وعلى ذلك فى كل خليفة، ماعدا الحسن بن على رضى الله عنهما فإنه لم يذكر له حاجبا. وسى الحاجب بذلك لأنه يحجب الخليفة أو الملك عن

يدخل إليه بغير إذن . قال زياد لحاجبه : « وَلَيْتَكَ حِجَابِي وَعَزَمْتُكَ عَنْ أَرْبَع :
هذا المُنَادِي إِلَى اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ وَالْفَلَاحِ فَلَا تَعُوجِّنَّهُ عَنِّي وَلَا سُلْطَانٌ لَكَ عَلَيْهِ ،
وطَارِقُ اللَّيْلِ فَلَا تَحْجُبْهُ فَشَرٌّ مَا جَاءَ بِهِ وَلَوْ كَانَ خَيْرًا مَا جَاءَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ،
ورَسُولُ الثَّغْرِ فَإِنَّهُ إِنْ أَبْطَأَ سَاعَةً أَفْسَدَ عَمَلَ سَنَةٍ فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ وَإِنْ كَسَتْ فِي حِجَابِي ،
وصاحبُ الطَّعَامِ فَإِنَّ الطَّعَامَ إِذَا أُعِيدَ تَسَخِيْنُهُ فُسِدَ » .

ثم تصرّف النَّاسُ فِي هَذَا اللَّقَبِ وَوَضَعُوهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، حَتَّى كَانَ فِي أَعْقَابِ
خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ رَجُلًا أُطْلِقَ عَلَى مَنْ قَامَ مَقَامَ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَمْرِ ، وَكَانُوا
فِي الدَّوْلَةِ الْفَاتِمِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِصَاحِبِ الْبَابِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ
فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ دَوْلَتِهِمْ . أَمَّا فِي زَمَانِنَا فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ مَنْ يَقِفُ
بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ فِي الْمَوَاقِبِ ، لِيَبْلُغَ ضَرُورَاتِ الرِّعَايَةِ إِلَيْهِ ، وَيَرْكَبُ أَمَامَهُ
بَعْضًا فِي يَدِهِ ، وَيَتَصَدَّى لِفَضْلِ الْمَظْلَمِ بَيْنَ الْمُتَدَاعِيَيْنِ خُصُوصًا فِيمَا لَا تَسْوَعُ الدَّعْوَى
فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدِّيَوَانِيَّةِ وَنَحْوِهَا . وَلَهُ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ أَوْضَاعٌ تَخْصُهُ
فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبَتِهِمْ فِي الْمَقَالَةِ الرَّابِعَةِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

السَّابِعُ — صَاحِبُ الشَّرْطَةِ . بَضْمُ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَإِسْكَانُ الرَّاءِ : وَهُوَ الْمَعْبَرُ
عَنْهُ فِي زَمَانِنَا بِالْوَالِي ، وَتَجْمَعُ الشَّرْطَةُ عَلَى شَرْطٍ بَضْمُ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَفَتْحُ الرَّاءِ .
وَفِي أَشْتِقَاقِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّرْطِ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَالرَّاءِ وَهِيَ الْعَلَامَةُ ،
لَأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَأَنْفُسِهِمْ عِلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا ، وَمِنْهُ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ يَعْنِي غِلَامَاتِهَا ،
وَقِيلَ مِنَ الشَّرْطِ بِالْفَتْحِ أَيْضًا : وَهُوَ رُدَّالُ الْمَالِ ، لَأَنَّهُمْ يَتَخَدُّثُونَ فِي أَرَاذِلِ النَّاسِ
وَسَيْفَتِهِمْ عَنْ لَامَالٍ لَهُ مِنَ الْأَلْصُوصِ وَنَحْوِهِمْ .

الصِّنف الثاني

(ألقاب أرباب الأقاليم، وفيه ثلاثة ألقاب)

الأول - القاضي . وهو عبارة عن يتولى فصل الأمور بين المتداعين في الأحكام الشرعية . وهي وظيفة قديمة كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم . فقد ذكر القضاة أنه صلى الله عليه وسلم ولي القضاء بايمن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ، وأن أبا بكر رضي الله عنه ولي القضاء عمر ابن الخطاب رضي الله عنه .

ثم هو مشتق من القضاء ، وأختلف في معناه فقال أبو عبيد : هو إحكام الشيء والفراغ منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أي أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه . قال أبو جعفر النحاس : سمي القاضي قاضياً لأنه يقال قضى بين الخصمين إذا فصل بينهما وفرغ ، وقيل معناه القطع ، يقال قضى الشيء إذا قطعه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ وسمي القاضي بذلك لأنه يقطع الخصومة بين الخصمين بالحكم . على أن كتاب الزمان يطبقون هذا اللقب واللقاب المتفرعة منه كالتضائي والقاضوي على أرباب الأقاليم في الحملة ، سواء كان صاحب اللقب متصدياً لهذه الوظيفة أو غيرها ، كسائر العلماء والكتاب ومن في معانهم ، وعلى ذلك عرف العامة أيضاً .

الثاني - المحتسب . وهو عبارة عن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحدث في أمر المكاييل والموازين ونحوهما . قال الماوردي في " الأحكام السلطانية " : وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى اكف ، سمي بذلك لأنه يكفي

(١) عبارة الضوء نقلاً عن الماوردي هكذا (وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى اكف لأنه يكف عن الظلم وقال النحاس من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفي الخ) وبه تعلم ما في الأصل .

النَّاسَ مُؤَنَّةً مِنْ يَحْسَبُهُمْ حَقُّوقَهُمْ . قال النحاس : وحقيقته في اللغة المجتهد في كفاية المسلمين ومنفعتهم إذ حقيقة أفتل عند الخليل وسيبويه بمعنى اجتهد . وأوَّلُ مَنْ قام بهذا الأمر وصنَّ الدَّرةَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه في خلافته . وقد كانوا في الأيام الفاطمية بالديار المصرية يُضيفونها إلى الشُّرطة في بعض الأحيان ، كما هو موجود في تقاليد الحسبة في زمانهم .

الثالث — الكاتب . وقد تقدَّم استقافُه ومعناه في مقدِّمة الكتاب ، وأنه كان في الزمن الأوَّل عند الإطلاق إنما يُراد به كاتبُ الإنشاء ثم تغيَّر الحال بعد ذلك إلى أن صار في العُرف العامَّ بالديار المصرية عند الإطلاق يراد به كاتبُ المال ومن في معناه . وهو من الألقاب القديمة فقد تقدَّم في الكلام على الوِزارة من كلام القضاة أنهم قبل التلقيب بالوِزارة في الدولة العباسية في خلافة السفاح إنما كانوا يقولون كاتب .

قلت : ووراء ما تقدَّم من الألقاب القديمة المتداولة ألقابٌ أخرى كانت مستعملة في الأيام الفاطمية ثم رُفِضت الآن وتُرِكَت .

كـ «صاحب المظالم» وهو المتحدِّث في فصل الخصومات .

وصاحب الصلابة : وهو المتحدِّث في أمر المساجد والصلوات .

وكلتحدِّث في الوساطة ، وهي القيام بوظيفة الوِزارة ممن لم يؤهَّل لإطلاق اسم الوِزارة عليه .

وصاحب الباب كنعو الحاجب .

وداعي الدعاة للشيعة ونحو ذلك .

النوع الثاني

(الألقاب المحدثنة)

وهي إما عَرَبِيَّةٌ ، وإما عَجَمِيَّةٌ . والعجمية منها إما فارسية ، وإما تركية ، وأكثرها الفارسية . والسبب في استعمال الفارسي منها وإن كانت الفرس لم تلها في الإسلام أن الخلافة كانت ببغداد وغالب كلام أهلها الفارسية ، والوظائف منقولة عنها إلى هذه المملكة ، إما مضاهاة كما في الدولة الفاطمية على قلة ، كما في الاسفهرسار ، وإما تبعا كما في الدولة الأيوبية فابعدا .
وهي أربعة أصناف :

الصنف الأول

(المفردة ، وهي ضربان)

الضرب الأول

(مالفظه عَرَبِيٌّ ، وهو ثلاثة ألقاب)

الأول — النائب : وهو لقبٌ على القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها ، والألف فيه متقلبة عن واو . يقال : ناب فلان عن فلان ينوب نوبا ومنابا إذا قام مقامه فهو نائب . ويطلق هذا اللقب في العرف العام على كل نائب عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجا عنها في قرب أو بُعد ، إلا أن النائب عن السلطان بالحضرة يُوصف في عرف النُكَّاب بالكافل : فيقال « النائب الكافل » وفي حال الإضافة « كافل المالك الإسلامية » على ما سيأتي ذكره في التبعوت إن شاء الله تعالى ،

(١) مراده المهمة التي هي عين فاعل .

والنائب عنه بِدَمَشَقْ يُقال فيه «كَافِلُ السَّلْطَنَةِ» وَمَنْ دُونَهُ مِنْ أَكْبَرِ النُّوَابِ :
 كَتَّابُ حَلَبَ وَنَائِبُ طَرَابُلُسَ وَنَائِبُ حَمَّاءَ وَنَائِبُ صَفَدَ وَنَائِبُ الكَرْكَ مِنْ المَمَالِكِ
 الشَّامِيَةِ ، وَنَائِبُ الإسْكَندَرِيَّةَ وَنَائِبِي الوُجْهَيْنِ : القِبْلَى وَالبَحْرَى بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ .
 [يُقال فيه نَائِبُ السَّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ بِكَذَا لَيْسَ إِلَّا] ^(١) وَيُقال فِيمَنْ دُونَهُمْ مِنَ النُّوَابِ
 بِالمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ نَائِبُ حُصْنِ وَنَائِبُ الرَّحْبَةِ وَخِيَرُهَا «النَّائِبُ بِفُلَانَةٍ» .

الثَّانِي - السَّاقِي . وَهُوَ لَقَبٌ عَلَى الَّذِي يَتَوَلَّى مَدَّ السَّهَاطِ وَتَقْطِيعَ اللَّحْمِ وَسَقَى
 المَشْرُوبَ بَعْدَ رَفْعِ السَّهَاطِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَكَأَنَّهُ وُضِعَ فِي الْأَوَّلِ لِسَقَى المَشْرُوبِ فَقَطْ
 ثُمَّ أَسْتُحْدِثَ لَهُ هَذِهِ الْأُمُورُ الْأُخْرَى تَبَعًا . وَيُجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَقَبٌ بِذَلِكَ لِأَنَّ سَقَى
 المَشْرُوبِ آخِرُ عَمَلِهِ الَّذِي يَخْتِمُ بِهِ وَظِيفَتُهُ .

الثَّالِثُ - المُشْرِفُ . وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرَ المَطْبَخِ وَيَقِفُ عَلَى مِشَارَفَةِ
 الْأَطْبَاطِ فِي خِدْمَةِ إِسْتَادَارِ الصُّحْبَةِ الْآتِي ذِكْرُهُ ، وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ .

الضرب الثاني

(مَا لَفْظُهُ عَجْمِيٌّ وَهُوَ لَقَبٌ وَاحِدٌ)

وَهُوَ «الْأَوْجَاقِي» وَهُوَ لَقَبٌ عَلَى الَّذِي يَتَوَلَّى رُكُوبَ الْخَيُْولِ لِلتَّنْسِيرِ وَالرِّيَاضَةِ ،
 وَلَمْ أَقِفْ عَلَى مَعْنَاهُ .

(١) الزيادة من الضوء، ص ٢٤٢ ليم الكلام .

الصنف الثانى

(المركبة ، وهى ثلاثة اضراب)

الضرب الأول

(ماتمحص تركيبه من اللفظ العربى ، وفيه سبعة ألقاب)

الأول — مَلِكُ الأُمَرَاء . وهو من الألقاب التى أصطلح عليها لكُفَّالُ الممالك من نُوابِ السلطنة ، كأكابر النُوابِ بالممالك الشامية وَمَنْ فى معناهم . وذلك أنه قام فيهم مقامُ المَلِكِ فى التصرف والتنفيذ ، والأُمَرَاءُ فى خِدْمَتِهِ تَحْدُمَةُ السَّاطَانِ . وأكثر ما يُخاطَبُ به النُوابُ فى المكاتبات ، وذلك مختصٌ بغير المخاطبات السلطانية ، أما السلطان فلا يُخاطَبُ عنه أحدٌ منهم بذلك .

الثانى — رَأْسُ نَوْبَةٍ . وهو لَقَبُ عَلَى الذى يَتَحَدَّثُ عَلَى مَمَالِكِ السَّاطَانِ أو الأُمير ، وتنفيذُ أَمْرِهِ فيهم ، ويجمع عَلَى رُءُوسِ نَوْبٍ . والمراد بالرأس هنا الأعلى أخذاً من رأس الإنسان لأنه أعلاه . والنَّوْبَةُ واحدةُ النُّوبِ وهى المُرَّةُ بعد الأُخْرَى ، والعامَّةُ تقول لأعلامهم فى خِدْمَةِ السَّاطَانِ « رَأْسُ نَوْبَةٍ النُّوبِ » وهو خطأ لأن المقصود علوُّ صاحبِ النَّوْبَةِ لا النَّوْبَةُ نفسها ، والصواب فيه أن يقال : « رَأْسُ رُءُوسِ النُّوبِ » أى أعلامهم .

الثالث — أُميرُ مَجْلِسٍ . وهو لَقَبُ عَلَى مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ مَجْلِسِ السَّاطَانِ أو الأُمير فى الترتيب وغيره ، ويجمع عَلَى أُمَرَاءٍ ، ومعناه ظاهر ، والأحسنُ فيه أن يقال أُميرُ المَجْلِسِ بتعريف المضاف إليه ، وتكون الألف واللام فيه للعهد الدَّهْنِي ، إما مجلسُ السَّاطَانِ أو غيره .

الرابع — أمير سلاح . وهو لقبٌ على الذى يتولى أمرَ سلاح السلطان أو الأمير . ويجمع على أمراء سلاح ، والسلاح آلة القتال . قال الجوهري : وهو مدَّكر ويجوز تأنيثه .

الخامس — مُقدّم الممالك . وهو لقبٌ على الذى يتولى أمر الممالك للسلطان أو الأمير . من الخُدّام الخِصيان المعروفين الآن بالطواشيّة . ومقامه فيهم نحو مقام رأس النوبة ، ولفظ المُقدّم والممالك معروف .

السادس — أمير علم . وهو لقبٌ على الذى يتولى أمرَ الأعلام السلطانية والطَّبْلَخَانَه وما يجرى مجرى ذلك . والعلم فى اللغة يطلق بإزاء معانٍ أحدها الرأية^(١) ، وهو المراد هنا .

السابع — نقيب الجيش . وهو الذى يتكفل بإحضار مَنْ يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم ، والنقيب فى اللغة العريف الذى هو ضمّين القوم وفى التتريلى حكاية عن بنى اسرائيل : « وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » ويقال : نَقَب على قومه يَنْقُب نَقْبًا مثل كَتَب يَكْتُب كِتْبًا . والجيش العسكر ويجمع على جيوش . أما بالممالك الشامية فإنه يقال فى مثله نَقِيب النقباء .

الضرب الثانى

(ما تمحّص تركيبه من اللفظ العجمي)

وقاعدة اللغات العجمية تقديم المضاف إليه على المضاف ، والصّفة على الموصوف ،^(٢) بخلاف اللغة العربية . ولهذا الضرب حالتان :

(١) فى الأصول التروية ، والتصحيح عن الضوء .

(٢) فى الاصول " المضاف على المضاف اليه " وهو سبق قلم .

الحالة الأولى

(أن تكون الإضافة إلى لفظ دار)

وهي لفظة فارسية معناها مُسِكَ فاعل من الإمساك . وكثير من كُتّاب الزمان أو أكثرهم بل كلُّهم يظنون أن لفظ دار في ذلك عربي بمعنى المحلة ، كدار السلطان أو الأمير ونحو ذلك ، وهو خطأ كما سيأتي بيانه في الكلام على إستدار ، ونحو زدار وغيرهما .

والمضاف إلى لفظ دار من وظائف أرباب السيوف تسعة ألقاب :

الأول — الإِستدار . بكسر الهمزة وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرقه ، ومثله أو امرؤه فيه . وهو مركب من لفظتين فارسيتين : إحداهما إِستد ، بهمزة مكسورة وسين مهملة ساكنة بعدها تاء مشناة من فوق ثم ذال معجمة ساكنة ، ومعناها الأخذ . والثانية دار ، ومعناها المُسِكَ كما تقدم ، فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة فصار إِستدار . والمعنى المتولى للأخذ ، سمي بذلك لما تقدم من أنه يتولى قبض المال . ويقال فيه أيضا : سِتدار بإسقاط الألف من أوله وكسر السين ، والمشتقون من الكُتّاب يضمون الهمزة في أوله ويحقنون فيه ألفا بعد التاء ، فيقولون : «أُستادار» وربما قالوا : «أُستاذ الدار» بادخال الألف واللام على لفظ الدار ظنا منهم أن المراد حقيقة الدار في اللفظ العربي ، وأن أستاذ بمعنى السيد أو الكبير ، ولذلك يقولون «أُستاذار العالية» : أو «أُستاذ الدار العالية» وهو خطأ صريح لما تقدم بيانه . على أن العامة تنطق به على الصواب ، من كسر الهمزة وحذف الألف بعد التاء . ثم قد يزداد في هذا اللقب لفظ الصُحبة ، فيصير «إِستدار الصُحبة» ويكون لقباً على متولى أمر المطبخ ، وكأنه لقب بذلك للازمته الباب سقراً وحضراً .

الثانى — الجُوكَانْدَار . وهو لقب على الذى يحمل الجُوكَان مع السلطان فى لعب الكُرَّة ، ويجمع على جُوكَان دَارِيَّة ، وهو مركب من لفظتين فارسيتين أيضا : إحداهما جوكان ، وهو المَحْجَن الذى تُضْرَب به الكُرَّة ، ويعبر عنه بالصُّوْلَحَان أيضا : والثانية دار ، ومعناه مُسِك كما تقدم . فيكون المعنى 'مسك الجُوكَان' . والعامة تقول : « جُكَنْدَار » بحذف الواو بعد الجيم والألف بعد الكاف .

الثالث — الطَّبَرْدَار . وهو الذى يحمل الطَّبَر حَوْلَ السلطان عند ركوبه فى المَوَاقِب وغيرها . وهو مركب من لفظين فارسيتين : أحدهما طَبَر ومعناه الفأس ، ولذلك يقولون فى الشُّكْرِ الصُّلْب الشديد الصَّلابة طَبَرَزْد بمعنى 'يكسر بالفأس' . والثانى دار ومعناه مُسِك كما تقدم ، فيكون المعنى 'مُسِك الطَّبَر' .

الرابع — السَّنَجَقْدَار . وهو الذى يحمل السَّنَجَق خلف السلطان . وهو مركب من لفظتين : أحدهما تَرْكِي وهو سَنَجَق ، ومعناه الرُّح وهو فى لغتهم مصدر طَعَن ، ويعبر به عن الرُّح الذى يُطَعَن به . والثانى دار ومعناه مُسِك كما تقدم ، ويكون المعنى 'مُسِك السَّنَجَق' وهو الرُّح . والمراد هنا العلم الذى هو الراية كما تقدم ، إلا أنه لما كانت الراية إنما تُجْعَل فى أعلى الرُّح عبر بالرُّح نفسه عنها .

الخامس — البَنْدَقْدَار . وهو الذى يحمل جِراوة البَنْدَق^(١) خلف السلطان أو الأمير . وهو مركب من لفظتين فارسيتين إحداهما بَنْدُق ، وإن كان الجوهرى قد أطلق ذكره فى الصحاح من غير تعرُّض لأنه معرَّب فقال : والبَنْدُق الذى يُرْمَى به . ثم هو منقول عن البَنْدُق الذى يؤكَّل وهو الحِلْوَز بكسر الجيم والزى المعجمة فى آخره .

(١) كذا فى الأصل ولعله مصحف عن غرارة أو نحوه .

فقد قال أبو حنيفة في كتاب "النبات" الجَلَوَزُ عربيٌّ وهو البُنْدُق والبُنْدُقُ فارسيٌّ .
اللفظة الثانية دار ومعناها ممسك كما تقدم ، ويكون المعنى 'ممسك البُنْدُق' .

السادس — الجَمَدَار . وهو الذي يتصدى للإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .
وأصله جامًا دار فُجِدَتْ الألف بعد الجيم وبعد الميم استتقلا وقيل جَمَدَار .
وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما ، ومعناه الثوب . والثاني دار ،
ومعناه ممسك كما تقدم فيكون المعنى 'ممسك الثوب' .

السابع — البَشْمَقْدَار . وهو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير ، وهو مُرَكَّبٌ
من لفظين : أحدهما من اللغة التركية وهو بَشْمَق ومعناه النعل . والثاني من
اللغة الفارسية وهو دار ومعناه مُمَسِّكٌ على ما تقدم . ويكون المعنى 'ممسك النعل' .
على أن صاحب « الأنوار الضوئية في إظهار غلط الدرّة الماضية في اللغة التركية »
قد ذكر أن الصواب في النعل بصمق بالصاد المهملة بدل الشين المعجمة ، وحينئذ
فيكون صوابه على ما ذكر بصْمَقْدَار . والمعروف في السنة الترك بالديار المصرية
ما تقدم .

الثامن — المَهْمَقْدَار . وهو الذي يتصدى لتلقي الرُّسُل والعُرَبان الواردين على
السلطان ويُزِيلُ دَارَ الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم . وهو مركب من لفظين
فارسيين : أحدهما مَهْمَن بفتح الميم ومعناه الضيف ، والثاني دار ومعناه ممسك
كما تقدم ، ويكون معناه ممسك الضيف ، والمراد المتصدى لأمره .

التاسع — الزَنَانُ دار المعبر عنه « بالزَّمام دار » . وهو لقب على الذي يتحدث
على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخُتَّام الخَصِيان . وهو مُرَكَّبٌ من لفظين
فارسيين : أحدهما زَنَان بفتح الزاي ونونين بينهما ألف ، ومعناه النساء .

والثاني دار، ومعناه ممسك كما تقدم فيكون معناه ممسك النساء، بمعنى أنه الموكَّل بحفظ الحريم إلا أن العامة والخاصة قد قبلوا النونين فيه بيمينين فعبَّروا عنه بالزَّمام دار كما تقدم، ظناً أن الدار على معناها العربي والزَّمام بمعنى القائد، أخذاً من زِمَام البعير الذي يُقاد به .

الحالة الثانية

(أن تكون الإضافة إلى غير لفظ دار، وفيها لقبان)

الأول — الجَسَّاشُ كَبِير . وهو الذي يتصَدَّى لِدَوَقَانِ الْمَأْكُولِ والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يَدَسَّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه . وهو مركَّب من لفظين فارسيين : أحدهما چاشنا بحيم في أوَّلِهِ قَرِيبَةٌ في اللفظ من الشين ، ومعناه الدَّوقُ، ولذلك يقولون في الذي يذوق الطعام والشراب الشَّيشِيَّ . والثاني كِير وهو بمعنى المتعاطي لذلك ، ويكون المعنى الذي يذوق .

الثاني — السَّرَاخُور . وهو الذي يتحدَّثُ على عَلفِ الدَّوَابِّ من الخيل وغيرها . وهو مركَّب من لفظين فارسيين : أحدهما سَرَا ومعناه الكبير . والثاني خُور ، ومعناه العَلفُ ، ويكون المعنى كبيرُ العَلفِ والمراد كبير الجماعة الذين يتولَّون عَلفَ الدَّوَابِّ . والعامة يقولون سَرَاخُورِيٌّ بآثبات ياء النسب في آخره ولا وجه له . ومتشبهون الكُتَّابُ يبدلون الراء فيه لآما فيقولون سَلَاخُورِيٌّ وهو خطأ .

(١) مصدر ذاق الذوق والمذاق والدواق فسا في الأصل جاري في لغة العامة .

(٢) خالف في هذا قاعدة اللغة العجمية من تقدم المضاف إليه على المضاف . ووجد بهامش بعض النسخ " السراخور مركب من سرا فارسي بمعنى الرأس واخور بمعنى اصطبل فعبَّراهما رأس الاصطبل السلطاني " .

الضرب الثالث

(ما تَرَكَب من لفظ عربيّ ولفظٍ عجميّ ، وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن يصمّر بلفظ أمير وهو لفظٌ عربيّ كما تقدّم

في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف ، وفيها أربعة ألقاب)

الأول — أمير آخوَر . وهو الذي يتحدّث على إصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولّى أمرَ مافيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل في حكم الإصطبلات ، وهو مرَّكَب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو أمير ، والثاني فارسيّ وهو آخوَر بهمة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المَعْلَف ، والمعنى أمير المَعْلَف : لأنه المتولّى لأمر الدواب على ما تقدّم وأهمُّ أمورها المَعْلَف .

الثاني — أميرُ جائدار . وهو لقب على الذي يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام الموكب عند الجلوس بدار العدل . وهو مرَّكَب من ثلاثة ألفاظ : أحدها عربيّ وهو أمير وقد تقدّم معناه . والثاني جان يجسم وألف ونون ، ومعناه الروح بالفارسية والتركية جميعا . والثالث دار ، ومعناه ممسك كما تقدّم ، فيكون المعنى « الأمير الممسك للروح » ولم يظهر لي وجه ذلك إلا أن يكون المراد أنه الحافظ لدم السلطان فلا يادّن عليه إلا لمن يأمن عاقبته .

الثالث — أميرُ شكار . وهو لقب على الذي يتحدّث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد . وهو مرَّكَب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو أمير والثاني فارسيّ وهو شكار بكسر الشين المعجمة وكاف وألف ثم راء مهملة في الآخر ، ومعناه الصيد فيكون المراد « أمير الصيد » .

الرابع — أمير طَبَر . وهو لَقَب علي الذي يتحدث علي الطَّبَرْدَارِيَّة الذين يحملون الأَطْبَارَ حول السلطان في المواكب ونحوها . وهو مرَّكَب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو أمير ، والثاني طَبَر وهو بالفارسية النَّاسُ كما تقدّم في الكلام علي الطَّبَرْدَار .

الحالة الثانية

(أن لا يُصدّر اللَّقَبُ بلفظ أمير، وفيها خمسة ألقاب)

الأوّل — الدَّوَادَار . وهو لقب علي الذي يحمل دَوَاة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولّى أمرها مع ما ينضمّ إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حُكْم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال . وهو مرَّكَب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو الدَّوَاة ، والمصادر التي يُكتب منها . والثاني فارسيّ وهو دار، ومعناه مُسك كما تقدّم . ويكون المعنى « مُسك الدَّوَاة » وحذفت الهاء من آخر الدَّوَاة استتمالا . أما في اللغة العربية فإنه يقال لحامل الدَّوَاة « دَاوٍ » علي وزن قاض ، فنثبت الياء فيه مع الألف واللام فتقول جاء الدَّاوي ورأيت الدَّاوي ومررت بالدَّاوي، ويجوز حذفها كما في سائر الأسماء المنقوصة .

الثاني — السِّلَاح دَار . وهو لقب علي الذي يحمل سِلَاح السلطان أو الأمير ويتولّى أمر السِّلَاح خَآنَه وما هو من توابع ذلك . وهو مرَّكَب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو السِّلَاح ، وقد تقدّم معناه في الكلام علي أمير سِلَاح . والثاني فارسيّ وهو دار ومعناه مُسك كما تقدّم، ويكون المعنى « مُسك السِّلَاح » .

الثالث — الخِزَنَدَار بكسر الخاء وفتح الراء المعجمتين . وهو لَقَب علي الذي يتحدث علي خِزَانَةِ السلطان أو الأمير أو غيرهما . وهو مرَّكَب من لفظين : أحدهما

عربيّ وهو خزانة : وهى ما يُخزَن فيه المال . والثانى فارسىّ وهو دار، ومعناه مُمسك كما تقدّم خذفت الألف والهاء من خزانة استتقلا فصار خزاندار ويكون المعنى «مُسك الخزانة» والمراد المتولّى لأمرها ، ومتشبقو الكتاب يُسقطون الألف والهاء من خزانة على ما تقدّم ويُلحقون بعد الخاء ألفا فينقلون لفظ خزانة إلى خازن فاعل من الخزن ويضيفونه إلى دار، ظنا منهم أن الدار على معناها العربىّ كما تقدّم فى الإستمدار والزّان دار ، وهو خطأ كما تقدّم بيانه هناك . على أن العامة تنطق بحروفه على الصواب إلا أنهم يكسرون الزاى بعد الخاء والصواب فتحها .

الرابع — العلم دار . وهو لقب على الذى يحمل العلم مع السلطان فى المواكب . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو العلم ، وقد تقدّم أن معناه الراية . والثانى فارسىّ وهو دار ومعناه مُمسك كما تقدّم ، ويكون المعنى « ممسك العلم » .

الصف الثاني^(١)

(ألقاب أرباب الأعلام ، وهى على خمسة أضرب)

الضرب الأول

(ألقاب أرباب الوظائف من العلماء ، وفيه خمسة ألقاب)

الأول — الخطيب . وهو الذى يُخطب الناس ويُذكّرهم فى الجمع والأعياد ونحوهما . وقد كان ذلك فى الزمن المتقدّم مختصّا بالخلفاء والأمراء بالنواحي على ما تقدّم فى الكلام على ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية .

(١) كذا فى الأصل ولعله الثالث ومع ذلك لم يذكر الصف الرابع وقد جعل فى الضوء هذا القسم من نوع ألقاب أرباب الوظائف الدينية وهو الموافق .

الثاني — الْمُقَرِّئ . وهو الذي يُقَرِّئُ القرآنَ العظيمَ ، وقد غلبَ اختصاصُه في العُرْفِ على مشايخِ القِرَاءَةِ من قُرَّاءِ السبعة المُحَيِّدين المتصدين لتعليمِ عِلْمِ القِرَاءَةِ .

الثالث — المُحَدِّث . والمراد به مَنْ يتعاطى عِلْمَ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريقِ الرَّوَايَةِ والدَّرَايَةِ ، والعِلْمِ بِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ وطُرُقِ الْأَحَادِيثِ ، والمعرفةِ بِالْأَسَانِيدِ ونحو ذلك .

الرابع — المُدَرِّس . وهو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية : من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والتصريف ونحو ذلك . وهو مأخوذ من دَرَسَ الكتابَ دِرَاسَةً إِذَا كَرَّرْتَهُ لِلحِفْظِ .

الخامس — المُعَيِّد . وهو ثاني رتبةِ المدرِّس فيما تقدّم ، وأصلُ موضوعه أنه إِذَا أُلْقِيَ المدرِّسُ الدرسَ وأنصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرِّس إليهم ليفهموه ويُحَسِّنُوهُ .

الضرب الثاني

(ألقابُ الكُتَّاب ، وهي مَظَان)

المنط الأول

(ألقابُ أربابِ الوظائف من كُتَّابِ الإنشاء . وفيه ثلاثة ألقاب)

الأول — كاتبُ السَّر . وهو صاحبُ ديوانِ الإنشاء وقد تقدّم الكلامُ عليه مستوفى عند الكلام على الكِتَابَةِ والكُتَّابِ في مقدّمة الكتاب .

الثاني — كاتبُ الدَّسْت . وهو الذي يجلس مع كاتبِ السَّر بدار العدل أمامَ السلطانِ أو النائبِ بمملكة من الممالك ، ويوقع على القِصَصِ . وهم جماعة وقد تقدّم الكلامُ عليهم في المقدّمة أيضا .

الثالث — كاتب الدَّرج . وهو الذى يَكْتُبُ المَكْتَبَاتِ وَالوَلَايَاتِ وغيرها
فى الغالب وربما شاركه فى ذلك كُتَّابُ الدَّستِ ، ويعبرُ الآنَ عنه بالمُوقَّعِ ، وقد تقدَّم
الكلام عليه هناك أيضا .^(١)

الضرب الثالث

(ألقاب أرباب الوظائف من كُتَّابِ الأموال ونحوها ، وفيه تسعة ألقاب)
الأول — الوزير إذا كان من أرباب الأقاليم ، وقد تقدَّم الكلام عليه
فى ألقاب أرباب السُّيوف فى الصَّنِيفِ الأوَّلِ .^(٢)

الثانى — الناظر . وهو من ينظر فى الأموال وينقذ تصرفاتها ويرفع إليه
حسابها لينظر فيه ويتأمله فيُمضِى ما يُمضى ويرُدُّ ما يرُدُّ . وهو مأخوذ إما من
النظر الذى هو رأى العين : لأنه يُدير نظره فى أمور ما ينظر فيه ، وإما من النظر
الذى هو بمعنى الفكر : لأنه يفكر فيما فيه المصلحة من ذلك . ثم هو يختلف باختلاف
ما يُضاف إليه كـ (ناظر الحَيْشِ) وهو الذى يتحدَّث فى أمر الحَيْشِ وضبطها .
أو (ناظر الخِصَّاصِ) وهو الذى ينظر فى خاصِّ أموال السلطان . أو (ناظر الدَّواوين)
وهو الذى يعبر عنه بناظر الدَّولة ويُشارِكُ الوزير فى التصرف . أو (ناظر النُّظارِ
بِدَمْشَقَ) وهو الذى يقومُ بها مقامُ الوزير بالديار المصرية . أو (ناظر المَمْلُوكَةِ)
بحلب ، أو طرابُلس ، أو حماة ونحوها . أو (ناظر أوقافِ أوجهاتِ برٍّ) وما يجرى
مجرى ذلك .

(١) لم يذكر النمط الثانى من هذا الضرب ولعله سهو من النسخ . وهو كذلك فى نسخة أخرى .

(٢) أى من الألقاب الإسلامية القديمة وقد تقدم فى ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

الثالث - صاحب الديوان . وكانوا في الزمن الاول يعبرون عنه بمتولى الديوان ، وهو ثاني رتبة الناظر في المراجعة . وله أمور تخصه لترتيب الدرج ونحو ذلك .

الرابع - الشاهد . وهو الذي يشهد بمتعلقات الديوان نفيا وإثباتا .

الخامس - المستوفي . وهو الذي يضبط الديوان ، وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ولعظم موقعه أشار إليه الحريري في مقاماته بقوله : « منهم المستوفي الذي هو قُطْبُ الديوان » إلى آخره . ثم في بعض المباشرات قد ينقسم إلى مستوفي أصل ومستوفي مباشرة ، ولكل منهما أعمال تخصه .

السادس - العامل ، وهو الذي ينظم الحسابات ويكتبها . وقد كان هذا اللقب في الاصل إنما يقع على الأمير المتولى العمل ثم نقله العرف إلى هذا الكاتب وخصه به دون غيره .

السابع - الماسح . وهو الذي يتصدى لقياس أرض الزراعة ، وهو فاعل من مسح الأرض يمسحها مساحا إذا ذرعاها .

الثامن - المعين . وهو الذي يتصدى للكتابة إعانة لأحد من المباشرين المذكورين ، ومعناه واشتقاقه ظاهر .

التاسع - الصيرفي . وهو الذي يتولى قبض الأموال وصرفها . وهو مأخوذ من الصرف : وهو صرف الذهب والفضة في الميزان . وكان يقال له فيما تقدم الجيهدي .

الضرب الرابع

(ألقابُ أربابِ الوظائفِ من أهلِ الصَّناعاتِ ، وفيه خمسةُ ألقابِ)

الأول — مَهْنَدِسُ الْعِمَارِ . وهو الذى يتولَّى ترتيبَ العمارِ وتقديرها ويحكم على أربابِ صناعاتها . والهندسةُ علمٌ معروفٌ فيه كتبٌ مفردةٌ بالتصنيف .

الثانى — رئيسُ الأطِبَاءِ . وهو الذى يحكم على طائفةِ الأطِبَاءِ ويأذنُ لهم فى التطبيبِ ونحو ذلك . وسيأتى الكلامُ على ضَبْطِ ذلك ومعناه فى الكلامِ على الرئيسِ فى الألقابِ المفردة فى حرفِ الراء فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الثالث — (رئيسُ الكَحَّالِينَ) . وحكمه فى الكلامِ على طائفةِ الكَحَّالِينَ حُكْمُ رئيسِ الأطِبَاءِ فى طائفةِ الأطِبَاءِ .

الرابع — رئيسُ الجِرَّائِيَّةِ . وحكمه فى الكلامِ على طائفةِ الجِرَّائِيَّةِ والمجبرين كالرئيسين المتقدمين .

الخامس — رئيسُ الحِرَّاقَةِ . وهو الذى يحكم على رجالِ الحِرَّاقَةِ السلطانية ويتولَّى أمرها . وكان فى الزمنِ المتقدمِ يقالُ له رئيسُ الخِلافةِ جَرِيًّا على ما كان الأمرُ عليه فى الخلافةِ الفاطمية بالديارِ المصرية .

الضرب الخامس

(ألقاب أرباب الوظائف من الأتباع والخواشي والخدم، وهم طائفتان)

الطائفة الأولى

(الأعوان، وهم نمطان)

النمط الأول

(ما تمحضت ألفاظه عربية، وفيه ثلاثة ألقاب)

الأول — مُقَدِّمُ الدَّوْلَةِ . وهو الذى يتحدَّث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد المقدم على الدولة، والدولة لفظ قد خصه العرف بمتعلقات الوزارة . كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة على ما تقدم ذكره .

الثانى — مُقَدِّمُ الخَاصِّ . وهو المتحدِّث على الأعوان والمتصرفين بديوان الخاص المختص بالسلطان، كمقدم الدولة بالنسبة إلى أعوان الوزارة .

الثالث — مُقَدِّمُ التُّرُكَّانِ . ويكون بالبلاد الشامية والحلبية متحدثاً على طوائف التُّرُكَّان الذين يمدُّ عليهم .

النمط الثانى

(ما تمحض لفظه عجمياً، وفيه لقب واحد)

وهو (البرددار) . وهو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه ، كما فى مقدم الدولة والخاص المقدم ذكرهما . وأصله

(فَرْدَادَار) بقاء في أوله وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما فَرْدَا ، ومعناه الستارة . والثاني دار ، ومعناه ممسك ، والمراد «ممسك الستارة» وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة ثم نقل إلى الديوان .

الطائفة الثانية

(أرباب الخدم ، وهم نَمَطَان)

النمط الأول

(ما يُضَاف إلى لفظ الدار كما تقدّم في أرباب الشيوف ، وهي سبعة ألقاب)
الأول — الشَرَبْدَار . وهو لقب على الذي يتصدّى للخدمة بالشراب خاناه ، التي هي أحد البيوت . وهو مركب من لفظين : أحدهما شَرَاب وهو ما يُشْرَب من ماء وغيره ، فحذفوا الألف فيه استئقلا ، والثاني دار ، ومعناه ممسك على ما تقدّم ، والمعنى «ممسك الشراب» .

الثاني — الطُسْتِ دَار . وهو لقب على بعض رجال الطشت خاناه . وهو مركب من لفظين أحدهما طُسْتِ بفتح الطاء وإسكان السين المهملة في اللغة العربية ، وهو الذي يُغْسَل فيه ، ويجمع على طُسُوس بسينين من غير تاء ، ويقال فيه أيضا طُسُ بإسقاط التاء ، إلا أن العامة أبدلوا السين المهملة فيه بشين معجمة . والثاني دار ومعناه ممسك على ما تقدّم ، فيكون معناه «ممسك الطشت» .

الثالث — البَاَزْدَار . وهو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده . وخُصَّ بإضافته إلى الباز الذي هو أحد أنواع الجوارح دون غيره لأنه هو المتعارف بين الملوك في الزمن القديم ، على ما سيأتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابع — الحَوْنَدَار . وهو الذى يتصدى لخدمة طُيُور الصيد من الكَرَايِّ والبَشُونات ونحوها ، ويحملها إلى موضع تعليم الجَوَارِح . وأصله « حَيَوَانُ دَار » أطلق الحيوان فى عرفهم على هذا النوع من الطيور ، كما أطلق على مَنْ يتعانى معامل الفُرُوج الحَيَوَانِيَّ .

الخامس — المَرْقَدَار . وهو الذى يتصدى لخدمة ما يحوز المَطْبَخُ وحفظه . سُمي بذلك لكثرة معاطاته لمرق الطعام عند رفع الحَيَوَان ونحو ذلك .

السادس — المِحَقَّدار بكسر الميم . وهو الذى يتصدى لخدمة المِحَقَّة . وهو مركب من لفظين . أحدهما مِحَقَّة فحذفت التاء منها استنقلا ، والثانى دار ، ومعناه ممسك على ما تقدم ، فيكون بمعنى « ممسك المِحَقَّة » .

النمط الثانى

(مالا يتقيّد بالإضافة إلى دار ولا غيرها ، وفيه خمسة ألقاب)

الأول — المِهْتَارُ . وهو لقب واقع على كبير كل طائفة من ذلهم البيوت ، كِمِهْتَار الشَّرَاب خاناه ، ومِهْتَار الطَّسْت خاناه ، ومِهْتَار الرِّكَّاب خاناه . ومِه بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير ، وتار بمعنى أفعل التفضيل ، فيكون معنى المِهْتَار الأكبر .

الثانى — أَلْبَابَا . وهو لقب عام لجميع رجال الطَّسْت خاناه ممن يتعاطى الفسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى ، ومعناه أبو الآباء على ماسيأتى بيانه فى لقب الباب فى الكلام على ألقاب أهل الكُفَر . وكأنه لُقّب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدمه : من تنظيف قُشاشه وتحسين هيئته أشبه الأب الشفيق فُلُقّب بذلك .

الثالث — الرَّخْتَوَان . وهو لقبٌ لبعض رجال الطُّسْتِ خاناه يتعاطى الدُّمَاشَ ،
والرَّخْتُ بالفارسية اسمٌ للقماش ، والواو والألف والنون بمعنى ياء النسب ، ومعناه
«المتولَّى لامر القماش» .

الرابع — الْخَوَانِ سَلَار . وهو لقبٌ مختصٌّ بكبير رجال المَطْبَخِ السلطاني ،
القائم مقام المهتار في غير المَطْبَخِ من البيوت . وهو مركَّبٌ من لفظين : أحدهما
خَوَان ، وهو الذي يؤكَّل عليه . قال الجوهري : وهو معرَّب . والثاني سَلَار ، وهي
فارسية ومعناها المقدم وكأنه يقول مقدِّم الْخَوَان . والعامة تقول : «إخوان سَلَار»
بألف في أوَّله وهو لحن .

الخامس — الْمِهْمَرْد . وهو الذي يتصدَّى لحفظ قُماشِ الحِمالِ أو قُماشِ
الإصطبل والسقائين ونحو ذلك . ومعناه باللغة الفارسية «الرجل الكبير» . فله اسمٌ
للكبير ، ومَرْدٌ اسمٌ للرجل .

السادس — (الغلام) . وهو الذي يتصدَّى لخِدمة الخيل ، ويجمع على غِلْمَانٍ
وغيَلمَةٍ بكسر الغين وسكون اللام . وهو في أصل اللغة مخصوصٌ بالصبي الصغير
والمملوك ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخِدم ، وكانهم سمَّوه بذلك لصغره
في النفوس . وربما أُطلق على غيره من رجال الطُّسْتِ خاناه ونحوهم .

القسم الثاني

(من ألقاب أرباب الوظائف ألقابُ أرباب الوظائف من أهل الكُفَر؛
والمشهور منهم طائفتان)

الطائفة الأولى النصارى

(والمشهور من ألقاب أرباب وظائفهم ثمانية ألقاب)

الأول — الباب — بياعين موحدتين مفخمتين في اللفظ . وهو لقب على القائم
بأمور دين النصارى المِلِكانيَّة بمدينة رُومِيَّة . وما ذكره في "التثقيف" من أنه عندهم
بمثابة القان عند التتار خطأ ظاهر : لأن الباب قائم في النصارى مقام الخليفة ،
بل به عندهم يَنَاطُ التحليل والتحریم ، وإليه مرجعهم في أمر دِياناتهم بخلاف القان
فإن أمره قاصر على أمر الملك ، وأصله البابا بزيادة ألف في آخره ، والكتاب يُثَبِّتونها
في بعض المواضع ويحذفونها في بعض ، وربما قيل فيه البابا ببدال الألف هاء .
وهي لفظة رُومِيَّة معناها أبو الآباء . وأول ما وُضِعَ هذا اللقب عندهم على بطرك
الإسكندرية الآتى ذكره فيما بعد ، وذلك أن صاحب كل وظيفة من وظائفهم
الآتى ذكرها كان يَخَاطَبُ مَنْ فوقه منهم بالآب ، فالتبس ذلك عليهم فاخترعوا
لبطرك الإسكندرية البابا دفعا للاشتراك في اسم الباب ، وجعلوه أبا لكل ، ثم رأوا
أن بطرك رُومِيَّة أحق بهذا اللقب : لأنه صاحب كرسي بطرس كبير الحواريين
ورسول المسيح عليه السلام إلى رُومِيَّة ، وبطرك الإسكندرية صاحب كرسي
مُرْقُص الإنجيلي تلميذ بطرس الحواري المتقدم ذكره فنقلوا اسم البابا إلى بطرك
رُومِيَّة ، وأبقوا اسم البطرك على بطرك الإسكندرية .

الثانى - البَطْرَك - بىاء موحدة مفتوحة ثم طاء مهملة ساكنة وبعدها راء مهملة مفتوحة ثم كاف فى الآخر . وهو لقب على القائم بأمر دين النصرانية . وكراسى البطاركة عندهم أربعة : كرسى برومية وهو مقر الباب المقدم ذكره ، وكرسى^(١) بأنطاكية من بلاد العواصم ، وكرسى بالقدس ، [وكرسى بالإسكندرية] وقد غلب الآن بالديار المصرية على رئيس النصارى اليعقوبية بالديار المصرية وهو المعبر عنه فى الزمن القديم ببطرك الإسكندرية ، ومقره الآن بالكنيسة المعلقة بالقسطنطين على ما سياتى ذكره فى موضعه ان شاء الله تعالى .

وأصله البَطْرِيْكُ بزيادة ياء مشناة تحت مفتوحة بعدها راء ساكنة وهو لفظ رومى معناه ... (٢) ... ورأيت فى ترسل العلاء بن موصلاً كاتب القائم بأمر الله العباسى فى تقليد أنشأه "الفطرك" ببدال الباء الموحدة ذاء . وقد تقدم أن هذا البطرك هو الذى كان يدعى أولاً بالبايا ثم نُقِلَ ذلك إلى بابا رومية ، على أن بطرك الإسكندرية لم يكن فى الزمن المتقدم مختصاً ببطرك اليعقوبية بل كان تارة يكون يعقوبياً وتارة يكون ملكانياً وإنما حدث اختصاصه باليعقوبية فى الدولة الإسلامية على ما سياتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثالث - الأسقف - بضم الهَمْزة والقاف . وهو عندهم عبارة عن نائب البَطْرَك .

الرابع - المطران - بكسر الميم . وهو عبارة عن القاضى الذى يفصل الخصومات بينهم .

الخامس - القسيس - بكسر القاف . وهو القارئ الذى يقرأ عليهم الإنجيل والمزامير وغيرها .

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول .

السادس — الجَائِلِقُ — يحيم بعدها ألف ثم تاء مشناة فوق ولام ثم ياء مشناة تحت^(١)
وقاف في الآخر . وهو عندهم عبارة عن صاحب الصلاة .

السابع — الشَّاس — شين معجمة في الأول وسين مهملة في الآخر وميم
مشددة . وهو عبارة عندهم عن قِيم الكَنِيسة .

الثامن — الراهِبُ . وهو عبارة عن الذي حبس نفسه على العبادة
في الخلوة .

الطائفة الثانية اليهود

(والمشهور من ألقاب ارباب وظائفهم ثلاثة ألقاب)

الأول — الرئيس . وهو القائم فيهم مقام البطرك في النصارى ، وقد تقدم
الكلام على لفظ الرئيس وأنه يقال بالهمز وتشديد الياء .

الثاني — الحَزَّان — بحاء مهملة و زاي معجمة مشددة وبعد الألف نون .
وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم .

الثالث — الشَّيْخَصَبُور — بكسر الشين المعجمة واللام وفتح الياء المشناة تحت
وبعدها حاء مهملة ساكنة ثم صاد مهملة مفتوحة وباء موحدة مشددة مضمومة
بعدها راء مهملة . وهو الإمام الذي يصلي بهم .

(١) نص في القاموس على: جواز الفتح والكسر فيه وأورده بالشاء المثناة فاعل ما أثبت في الاصل

تصحيف أولته .

الجملة الثانية

(في ذكر الألقاب المرتبة على الأصول العظام من ألقاب أرباب
الوظائف المتقدمة ، وهي نوعان)

النوع الأول

(ألقاب الخلفاء المرتبة على لقب الخليفة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ماجرى منها مجرى العموم ، وهو لقبان)

الأول — أمير المؤمنين . وهو لقب عام للخلفاء . وأول من لقب به منهم عمر
أبن الخطاب رضى الله عنه في أثناء خلافته ، وكانوا قبل ذلك يدعون أبا بكر الصديق
رضى الله عنه بخليفة رسول الله ، ثم دعوا عمر بعده لابتداء خلافته بخليفة
رسول الله .

وأختلف في أصل تلقيبه بأمر المؤمنين فروى أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب"
بسنده إلى أبي وبرة ، أن أصل تلقيبه بذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا
يجلذان في الشراب أربعين ، قال فبعثنى خالد إلى عمر في خلافته أسأله عن الجلدة
في الشراب فجئته ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن خالدًا بعثنى إليك — قال فيم ؟ قلت :
إن الناس قد تخافوا العقوبة وأنهم كوا في الخمر فما ترى في ذلك فقال عمر إن حوله
ما ترون في ذلك فقال علي بن أبي طالب أول من لقبه بذلك .

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أن أصل ذلك أن عمر رضي الله عنه بعث إلى عامله بالعراق أن يرسل إليه رجلين عارفين بأمور العراق يسألهما عما يريد فأنفذ إليه لبيد بن ربيعة وعدى بن هشام^(١) فلما وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا له : استأذن لنا على أمير المؤمنين - فقال لهما عمرو : أنتما أصبتما اسمه ! ثم دخل على عمر فقال السلام على « أمير المؤمنين » - فقال : مابدا لك يا ابن العاص ؟ لتخرجن من هذا القول ! فقص عليه القصة فأقره على ذلك ، فكان ذلك أول تلقيسه بأمر المؤمنين ، ثم استقر ذلك لقباً على كل من ولي الخلافة بعده أو ادّعاها خلا خلفاء بني أمية بالأندلس فإنهم كانوا يخاطبون بالإمارة فقط إلى أن ولي منهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، بن عبد الرحمن ، وهو الثالث عشر من خلفائهم إلى زماننا .

الثاني - عبد الله ووليه . وهو لقب عام للخلفاء أيضا ، إذ يكتب في نعت الخليفة في المكاتبات ونحوها « من عبد الله ووليه أبي فلان فلان أمير المؤمنين » فأما عبد الله فأول من تلقب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضا ، فكان يكتب في مكاتباته « من عبد الله عمر » ولزم ذلك من بعده من الخلفاء حتى إن المأمون كان اسمه عبد الله فكان يكتب من « عبد الله عبد الله بن هارون » مكرراً لعبد الله على الأسم الخالص واللقب العام ، وأما إردافها بقوله « ووليه » فأحدث بعد ذلك .

(١) كذا في الأصول ومثله في الضوء وفي مروج الذهب عدى بن حاتم وهو الصواب .

الـصـنـف الثاني

(ألقابُ الخلافة الخاصةُ بكل خليفة)

والمتلقَّبون بألقاب الخلافة خمس طوائف :

الطائفة الأولى

(خلفاء بني العباس)

قد تقدّم في الجملة الثانية من الطّرف الأول من هذا الفصل في الكلام على أصل وضع الألقاب والنُّعوت أن خلفاء بني أميّة لم يتلقَّب أحدٌ منهم بألقاب الخلافة ، وأن ذلك ابتدئ بابتداء الدولة العبّاسية فتلقب إبراهيم بنُ محمّد حين أخذت له البيعة بـ «الإمام» وأن الخُلُف وقع في لقب السَّقّاح : فقبل «القائم» وقيل «المهتدي» وقيل «المرتضى» ، ثم تلقب أخوه بعده بـ «المنصور» واستقرت الألقاب جارية على خلفائهم كذلك إلى أن ولي الخلافة أبو إسحاق إبراهيم بنُ الرشيد بعد أخيه المأمون فتلقَّب بـ «المتعصم بالله» فكان أول من أضيف في لقبه من الخلفاء اسمُ الله . وجرى الأمر على ذلك فيما بعده من الخلفاء كـ «الواثق بالله» و «المتوكل على الله» و «الطائع لله» و «القائم بأمر الله» و «الناصر لدين الله» وما أشبه ذلك من الألقاب المتقدمة في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية .

وكان من عادتهم أنه لا يتلقَّب خليفة بلقب خليفة قبله إلى أن صارت الخلافة إلى الديار المصرية فترادفوا على الألقاب السابقة ، واستعملوا ألقاب من سلف من الخلفاء على ما تقدمت الإشارة إليه في الكلام على ترتيب الخلفاء ، إلى أن تلقب أمير المؤمنين محمّد بنُ أبي بكر خليفة العصر بـ «المتوكل على الله» وهو من أوائل ألقاب الخلافة العبّاسية .

الطائفة الثانية

(خلفاء بني أمية بالأندلس)

(حين غلب بنو العباس على الأمر بالعراق ، وأنزعوا الخلافة منهم)

وأول من ولي الخلافة منهم بالأندلس « عبد الرحمن » بن معاوية ، بن هشام ،
 ابن عبد الملك ، بن مروان ، المعروف (بالداخل) لدخوله الأندلس في سنة تسع وثلاثين
 ومائة على ماسياتي ذكره في مكتبة صاحب الأندلس . ولم يتلقب بالقب من
 أئتاب الخلافة جرياً على قاعدتهم الأولى في الخلافة . وجرى على ذلك من بعده من
 خلفائهم إلى أن ولي منهم « عبد الرحمن » بن محمد ، المعروف بـ « المقبول » فتلقب
 بـ « الناصر » بعد أن مضى من خلافته تسع وعشرون سنة ، وتبعه من بعده منهم
 على ذلك إلى أن ولي عبد الرحمن بن محمد ، بن عبد الملك ، بن الناصر عبد الرحمن
 المتقدم ذكره ، فتلقب بـ « المرتضى بالله » وهو أول من أضيف في لقبه بالخلافة منهم
 أسم الله ، مضاهةً لبني العباس ، وذلك في حدود الأربعائة . وبقى الأمر على ذلك
 في خلفائهم إلى أن كان آخرهم هشام بن محمد فتلقب بـ « المعتمد بالله » وأنقرضت
 خلافتهم من الاندلس بعد ذلك بانقراضه في سنة ثمان وعشرين وأربعائة .

الطائفة الثالثة

(الخلفاء الفاطميون ببلاد الغرب ثم بالديار المصرية)

وأول ناجم نجم منهم ببلاد الغرب (أبو محمد عبيد الله) في سنة ست وتسعين
 ومائتين من الهجرة ، وتلقب بـ « المهدي » ثم تلقب بنوه من بعده بألقاب الخلافة
 المضاف فيها أسم الله كـ « القائم بأمر الله » و « المنصور بالله » إلى أن كان منهم

المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو الذي انتزع الديار المصرية من أيدي الأخشيدة، وصار إليها في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة. وتداول خلفاؤهم بها مثل هذه الألقاب إلى أن كان آخرهم العاضد لدين الله عبد الله وأتقرضت خلافتهم بالدولة الأيوبية على ما تقدم ذكره في المقالة الثانية في الكلام على ملوك الديار المصرية.

الطائفة الرابعة

(الخلفاء الموحدون الذين ملوك أفريقية بتونس الآن من بقاياهم)

وأولهم في التلقب بألقاب الخلافة إمامهم محمد بن تومرت البربري، القائم ببلاد الغرب في أعقاب الفاطميين المتقدم ذكرهم، تلقب بـ «المهدي» وآل الأمر من جماعته إلى الشيخ أبي حفص أحد أصحابه، ومن عقبه ملوك تونس المتقدم ذكرهم فلم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة إلى أن ولي منهم أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى فتلقب بـ «المستنصر بالله» وتبعه من بعده من ملوكها على التلقب بألقاب الخلافة إلى زماننا. ولذلك قال المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه «التعريف» في الكلام على مكتبة صاحب تونس «لا يدعى إلا الخلافة» وشبهتهم في ذلك أنهم يدعون أنسابهم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو من صميم قریش.

الطائفة الخامسة

(جماعة من ملوك الغرب ممن لا شبهة لهم في دعوى الخلافة)

كمولك الطوائف القائمين بالأندلس بعد اتقراض الدولة الأموية منها: من بنى عبّاد وبنى هود وغيرهم حيث كانوا يلقبون بـ «المعتمد» وغيره.

النوع الثاني

(ألقابُ الملوك المختصةُ بالملك ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(الألقابُ العامة ، وهي التي تقع بالعموم على ملوك ممالك مخصوصة
تصدق على كل واحد منهم ، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الألقابُ القديمة ، والمشهور منها ألقاب ست طوائف)

الطائفة الأولى

(التَّابِعَةُ لملوك اليمن)

كان يقال لكل منهم «تبع» . قال السَّهيليُّ في «الروض الأُنْف» : سُمُّوا بذلك
لأنَّ الناسَ يَدَّجُونَهُمْ ، وواقفته الزُّخَيْرِيُّ على ذلك . وقال ابن سيده في «المحكم» :
سُمُّوا بذلك لأنَّهم يَتَّبَعُ بعضهم بعضاً . قال المسعوديُّ في «مروج الذهب» :
ولم يكونوا لِيُسَمُّوا أحداً منهم تَبَعاً حتَّى يملك اليمنَ والشَّحَرُ وحَضْرَمَوْت . وقيل :
حتَّى يتبعه بنو جُشَمَ بن عبد شمس ، أما إذا لم يكن كذلك فإنَّما يسمَّى ملكاً . وأقول
من لُقِّبَ منهم بذلك «الحارث بن ذى شمر» وهو الرَّائِسُ . ولم يزل هذا اللقب واقفاً
على ملوكهم إلى أن زالت مملكتهم بملك الحبشة اليمن .

الطائفة الثانية

(ملوك القُرس ، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى — الفيشدادية . كان يقال لكل من ملك منهم قيشداد ، ومعناه « سيرة العئل » وأولهم كيومرث ، والقُرس كلهم مطبقون على أنه مبدأ نسل البشر ، وكانهم يريدون به آدم عليه السلام .

وحكى الغزالي في "نصيحة الملوك" : أن كيومرث أبن آدم لصلبه ، وأن آدم عهد إلى شيث بأمر الدين وإلى كيومرث بأمر الملك . وبعضهم يقول إنه كامر ابن يافث بن نوح عليه السلام .

الطبقة الثانية — (الكينية) ^(١) . سُموا بذلك لأن في أول أسم كل واحد منهم لفظ كي ، وأولهم (كيتاند) .

الطبقة الثالثة — (الاشعائية) . كان يقال لكل منهم « أشخان » ^(٢) . قال المسعودي : بالغين المعجمة ويقال بالكاف .

الطبقة الرابعة — (الأكاسرة) . كان يقال لكل منهم « كسرى » بكسر الكاف وفتحها ، وربما قيل فيهم « الساسانية » نسبة إلى جدّهم ساسان بن أردشير بن كي بهمن . وأولهم أردشير بن بابك وآخرهم يزديجرد الذي أنقضى ملكهم بانتراع المسلمين الملك من يديه في خلافة عثمان رضى الله عنه .

(١) في العبرج ٢ ص ١٥٩ "الكينية"

(٢) في الاصول بدون نون والتصحيح من المسعودي .

الطائفة الثالثة

(ملوك مصر من بعد الطوفان من القبط)

كان كلُّ مَنْ ملكها منهم يسمى « فِرْعَوْنَ » قال إبراهيم بن وصيف شاه في « كتاب العجائب » : والقبط تزعم أن الفراعنة من ملكها من العالقة دون القبط ، كالوليد بن دؤمغ ونحوه . ويقال : إن أول من تسمى بهذا الاسم منهم (فرعان) آخر ملوكها قبل الطوفان ثم تسمى من بعده بـ « فِرْعَوْنَ » . قال المؤيد صاحب حاة في تاريخه : ولم أدر لأى معنى سَمِيَ بذلك . والمذكور في الفرعان منهم هو الذى بعث موسى عليه السلام فى زمانه .

الطائفة الرابعة

(ملوك الروم ، وهم طبقات)

الطبقة الأولى منهما ليس لهم لقبٌ يعمُّ كلَّ ملك ، بل لكلِّ ملك منهم اسمٌ يخصُّه .

الطبقة الثانية — القياصرة . كان يقال لكلِّ مَنْ ملك منهم قيصر . وأصل هذه اللفظة فى اللغة الرومية جاشربجيم وشين معجمة فمرتبها العرب قيصر ولها فى لغتهم معنيان : أحدهما الشعر ، والثانى الشئ المشقوق .

وآخِلَف فى أول مَنْ تلقب بهذا اللقب منهم : فقيلى أغانيوش أول ملوك الطبقة الثانية منهم . سَمِيَ بذلك لأن أمه ماتت وهو حَلٌّ فى بطنها فسُقَّ جوفُها وأُخرج فأُطلق عليه هذا اللفظ أخذًا من معنى السُقِّ ، ثم صار علمًا على كلِّ مَنْ ملكهم بعده ، وقيل أول مَنْ لقب بذلك يوليوش الذى ملك بعد أغانيوش المذكور ، وقيل

أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِهِ أَغْشَطُشُ ، وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ : فَقِيلَ لِأَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ وَهُوَ فِي جَوْفِهَا فَشُقَّ عَنْهُ وَأُخْرِجَ كَمَا تَقْدَمُ الْقَوْلُ فِي أَغَانِيُوشَ ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ وَلَدَ وَلَهُ شَعْرٌ تَأَمُّ فَلُقِّبَ بِذَلِكَ أَخْذَا مِنْ مَعْنَى الشَّعْرُ كَمَا تَقْدَمُ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا اللَّقْبُ جَارِيًا عَلَى مُلُوكِهِمْ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْهُمْ هِرَقْلُ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَزَعَمَ الْقَاضِي شَهَابُ الدِّينِ بْنُ فَضْلٍ أَنَّ اللَّهَ فِي كِتَابِهِ "التَّعْرِيفُ" فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبِ الْأَدْفُونِشَ أَنَّ هِرَقْلَ لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ نَفْسَهُ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَسَلِّمًا الشَّامَ لِقَيْصَرَ ، وَقَيْصَرُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ لَمْ يَرْمُ ، وَإِنَّمَا كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ لِقُرْبِهِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَبَقِيَ هَذَا اللَّقْبُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُ مَنْ تَلَقَّبَ بِهِ مِنْهُمْ (إِسْتِيرَاقُ قَيْصَرَ) مَلِكُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ بْنِ الرَّشِيدِ .

الطائفة الخامسة

(ملوك الكنعانيين بالشام)

كَانَ كُلُّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ يُقْبَضُ بِ«بِجَالُوتَ» إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُهُمْ جَالُوتَ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ .

الطائفة السادسة

(ملوك الحبشة)

كَانَ كُلُّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ يُقْبَضُ بِ«النَّجَاشِيِّ» وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ لِقَبْلِ عَلَى مُلُوكِهِمْ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْهُمْ النَّجَاشِيُّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَهُوَ الَّذِي هَاجَرَ إِلَيْهِ مَنْ هَاجَرَ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الْمُهْجَرَةُ الْأُولَى . وَاسْمُهُ صَخْمَةُ وَيُقَالُ أَخْخَمَةُ ، وَمَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ عَظِيمَةٌ .

الضرب الثاني

(الألقاب المستحدثة، والمشهور منها ألقاب ست طوائف)

الطائفة الأولى

(ملوك فرغانة)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم يلقَّب «الأخشيدي» ولذلك لَقَّبَ الرَّاظي بالله العباسيُّ مُحَمَّدَ بْنَ طُفَّجٍ صاحبَ الديار المصرية والبلاد الشامية بـ«الأخشيدي» لأنه كان فرغانياً.

الطائفة الثانية

(ملوك أشروسنة)

كان كلُّ مَنْ ملكها يقال له «الأفشين» . قال في «ذخيرة الكتاب» :
وبه لَقَّبَ المعتصم بالله حيدر بن كاوس بـ«الأفشين» لأنه أشروسني .

الطائفة الثالثة

(ملوك الجلائقة من الفرنج)

الذين قاعدة ملكهم طليطلة وبرشالونة من الأندلس . يقال لكلِّ مَنْ ملك منهم «أدْفُونَس» بدال مهملثة ثم فاء بعدها واو ثم نون مفتوحة وشين معجمة في آخره . وهذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى زماننا ، وهو الذي تُسمِّيه العامة «الْفُنْش» .

الطائفة الرابعة

(ملوك فرنسة، ويقال فرنجة بالجيم)

وهو ملك الأرض الكبيرة بظاهر الأندلس . يقال لكل من ملكها «ريدافرنس» ومعنى ريد بلغتهم الملك، والأفرنس اسم للجنس الذين يملك عليهم . والمعنى ملك الأفرنس . وهو الذى تسميه العامة «الفرنسيس» وهذا اللقب جار على ملوكهم إلى الآن .

الطائفة الخامسة

(ملوك البندقية من بلاد الفرنج)

كل من ملك منهم يسمونه «دوك» بالكاف المشوبة بالجيم فيقال : «دوك البندقية» . وهذا اللقب جار على ملوكهم إلى آخر وقت .

الطائفة السادسة

(ملوك الحبشة فى زماننا)

كل من ملك منهم يقال له «حطى» بفتح الحاء المهملة وكسر الطاء المهملة المشددة . وهذا اللقب يذكر فى مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية على ماسياتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(من النوع الثاني الألقاب الخاصة)

وهي التي يُحَصُّ كُلُّ مَلِكٍ مِنْ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ مِنْهَا بِلقبٍ ، وهو المعبر عنه عند الكُتَّاب بِاللقب المُلُوكِيِّ . ويختلف الحال فيه باختلاف البلاد والزمان .

فأما بلاد المشرق فأول افتتاح تلقب مَلُوكُهُم بِالإضافة إلى الدولة ، وكان أول من تلقب منهم بذلك بنو حَمْدَانَ مَلُوكُ حَلَبَ ، فتلقب أبو محمد الحسن بن حَمْدَانَ في أيام المُنْتَقى لله « نَاصِر الدولة » وتلقب أخوه أبو الحسن علي « سيف الدولة » وعلى ذلك جرى الحال في مَلُوكِ بَنِي بُويْهِ عَلَى ما تقدم ذكره في الكلام على أصول الألقاب ، وتوالى ذلك فيهم إلى انقراض دولتهم . ثم وقع التلقب بالسلطان فيما بعدهم من الدُول كدولة بَنِي سُبُكْتِكِينَ ، وبَنِي سَاسَانَ ، وبَنِي سَلْجُوقَ ، إلى أن غلبت التتار على بلاد المشرق فحُرَّتْ مَلُوكُهُم في التلقب بألقاب على عادة مَلُوكِهِمْ .

وأما بلاد المغرب : فأوائل مَلُوكِهِمْ عَلَى عَموْمِ مَلُوكِهِمْ لِجَمِيعِهَا وَخُصُوصِهِ بَعْضُهَا مَا بَيْنَ مَدَنِيٍّ لِلخِلافةِ ، كِبَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَأَتَبَاعِ الْمُهَدِيِّ بْنِ نُومَرْتِ ، فَيَلِدُورِ أَمْرٍ أَحَدُهُمْ بَيْنَ التلقب بِاللقاب الخِلافةِ وَالْاقتِصَارِ عَلَى اسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ ، وَمَا بَيْنَ غَيْرِ مَدَنِيٍّ لِلخِلافةِ ، فَيَقْتَصِرُ عَلَى اسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ فَقَطْ إِلَى أَنْ غَلَبَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ فِي أَوَائِلِ دَوْلَةِ الْمُرَاطِينِ مِنَ الْمُتَشَمِّينَ مِنَ الْبَرْبَرِ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَدَانَ بِطَاعَةِ الْخِلافةِ الْعَبَاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ، فَتَلَقَّبَ بِـ « أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ » خُضُوعًا عَنْ أَنْ يَتَلَقَّبَ بِـ « أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » الَّذِي هُوَ مِنْ خُصَائِصِ الْخِلافةِ ، وَتَبِعَهُ عَلَى ذَلِكَ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ مَلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْبَرْبَرِ : فَتَلَقَّبَ بِهِ بَنُو مَرْيَمَ : مَلُوكُ فَاَسَ ، وَبَنُو عَبْدِ الْوَادِ مَلُوكُ تَلِمَسَانَ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ مَلَكَ فَاَسَ وَمَا مَعَهَا مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ

أبو عَنان من أحفاد السلطان أبي الحسن، فلقب بـ «أمير المؤمنين» وصارت مكاتباته تردُّ إلى الديار المصرية بذلك، وتبعه من بعده من ملوكهم على ذلك .

أما ملوك تونس من بقايا الموحِّدين، فلم يزالوا يلقَّبون باللقاب الخليفة على ما سبق ذكره في الكلام على ألقاب الخلفاء .

وأما الديار المصرية، فخصي الأمر فيها على نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامي وإلى انقراض الدولة الأُخشيديَّة ولم يتلقَّب أحد منهم بلقب من الألقاب المملوكية . ثم كانت دولة الماطميين فتلقَّبوا باللقاب الخلفاء على ما مر ذكره . ولم يتلقَّب أحد من وزرائهم أرباب السيوف لأبداء أمرهم بالألقاب المملوكية إلى أن ولي الوزارة المستنصر بدر الحليّ وعظم أمر الوزارة، وصارت قاعة مقام السلطنة الآن فتلقب بـ «أمير الجيوش» وتلقب أبنته في وزارته بعده بـ «الأفضل» وتلقب ابن السلا بعد ذلك بـ «العاذل» وتلقب ابن البطاحي وزير الأمر بـ «المأمون» ثم وُزِّر بعد ذلك الحافظ بهرام الأرميني النصراني فتلقب بـ «تاج الدولة» ثم وُزِّر بعده وزير اسمه رضوان، فلقبه بـ «الملك الأفضل» . قال المؤيد صاحب حماة : وهو أوَّل من لقب من وزرائهم بالملك، وجرى الأمر على ذلك في وزارتهم حتى كان منهم الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد، ثم وُزِّر للعاضد أخرا أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وُلِّقَ بـ «الملك المنصور» ثم وُزِّر له بعده ابن أخيه صلاح الدين، فلقب بـ «الملك الناصر» ثم استقلَّ بالملك بعد ذلك، وبقى في السلطنة على لقبه الأوَّل . وتداول ملوك الدولة الأيووية بعده مثل هذه الألقاب : كالملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين، والملك العادل أبي بكر بن أيوب، والملك الكامل محمد أبنته، والأفضل صاحب دمشق، والمعظم صاحب الكرك، وغيرهم إلى حين انقراض دولتهم ودخول الدولة التركيَّة . فتلقب أيك التركمان أوَّل ملوكهم

بـ«الملك المُعِزِّ». واستمرّ التلقب بمثل ذلك في الدولة التركية إلى أن صارت المملكة
أحرّاً إلى الظاهر برقوق، ثم آتته الناصر فرج، وهم على ذلك. وعلى نحو ذلك ملوك
البلاد المجاورة لهذه المملكة : كإردين، وحصن كُفّا ونحوهما .

الجملة الثالثة

(في الألقاب المفعّرة على الأسماء، على ما استقرّ عليه الحال من التلقب
بالإضافة إلى الدين، وهي على أربعة أنواع)

النوع الأول

(ألقاب أرباب السُّيوف، وهم صنفان)

الصنف الأول

(ألقاب الجُند من التُّرك ومن في معناهم)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغَالِبَ فِي أَلْقَابِ التُّرْكِ مِنَ الْجُنْدِ التَّلْقِيبُ بـ«سَيْفِ الدِّينِ» لِمَا فِيهِ مِنْ
مُنَاسَبَةٍ حَالِهِمْ وَأَنْتَسَابِهِمْ إِلَى الْقُوَّةِ وَالشَّجَرَةِ : كَيَبْغَا، وَمَنْكَلِي بَغَا، وَبِي نَجَا،
وَأَسْنِ حَجَا، وَتَغْرِي بَرْدِي، وَتَغْرِي بِرْمَشْ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَقَدْ يُخْرَجُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ
الْأَسْمَاءِ فَلَقَّبَ بِأَلْقَابٍ خَاصَّةٍ، كَمَا يَلْقَبُونَ طَبِغَا، وَالطَّبِغَا، وَقَرَابِغَا «عِلَاءَ الدِّينِ»
وَأَيْدَمَرُ وَيَيْدَمَرُ «عَزَّ الدِّينِ» وَلَا حِينَ «حُسَامَ الدِّينِ» وَأَرْسَلَانُ «بِهَاءَ الدِّينِ»
وَأَقُوشُ «جَمَالَ الدِّينِ» وَسَنْجَرُ «عَلَمَ الدِّينِ» وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَفِي الْمَوْلَدِينَ يَقُولُونَ
فِي لَقَبِ مُحَمَّدٍ : «نَاصِرُ الدِّينِ» وَلَقَّبَ أَبُو بَكْرٍ «سَيْفُ الدِّينِ» وَلَقَّبَ عُمرُ
«رُكْنُ الدِّينِ» وَلَقَّبَ عَلِيٌّ «عِلَاءُ الدِّينِ» وَلَقَّبَ إِبْرَاهِيمُ «صَارِمُ الدِّينِ» وَلَقَّبَ
إِسْمَاعِيلُ «تَاجُ الدِّينِ» وَلَقَّبَ حَسَنُ وَحُسَيْنُ «حُسَامَ الدِّينِ» وَلَقَّبَ خَالِدُ
«شُجَاعُ الدِّينِ» وَنَحْوُ ذَلِكَ .

الصف الثاني

(ألقاب الخُدَّامِ الخِصْيَانِ المعبر عنهم الآن بالطَوَاشِيَّة ،

وفي زمن الفاطميين بالأَسْتَاذِينَ)

ولهم ألقابٌ تخصهم : فيقولون في هلال ومرجان « زَيْنُ الدِّين » وفي دينار
« عِزُّ الدِّين » وفي بشير « سَعْدُ الدِّين » وفي شاهين « فارسُ الدِّين » وفي جوهري
« صَفِيُّ الدِّين » وفي مثقال « سابقُ الدِّين » وفي عنبر « شُجَاعُ الدِّين » وفي أولؤ
« بَدْرُ الدِّين » وفي صواب « شمسُ الدِّين » وفي مُحْسِن « جمالُ الدِّين » ونحو ذلك .

النوع الثاني

(ألقابُ أرباب الأَقْلَامِ ، وهي على صنفين)

الصف الأول

(ألقابُ القضاة والعلماء)

قد كان في الزمن الأول لغالب أسمائهم ألقابٌ لا يتعدونها ، كقولهم في محمد :
« شمسُ الدِّين » وفي أحمد « شهابُ الدِّين » وفي أبي بكر « زَيْنُ الدِّين » وفي عمر
« سراجُ الدِّين » وفي عثمان « نَجْمُ الدِّين » وفي علي « نُورُ الدِّين » وفي يوسف
« جمالُ الدِّين » وفي عبد الرحمن « زَيْنُ الدِّين » وفي إبراهيم « برهانُ الدِّين » ونحو ذلك .
ثم ترك أعيانهم ذلك لاجتماعه بكثرة الاستعمال ، وحدثوا إلى ألقابٍ آخرَ ابتدعوها على
حَسَبِ أغراضهم فقالوا في محمد « بَدْرُ الدِّين » و « صدرُ الدِّين » و « عِزُّ الدِّين »
ونحوها ، وفي أحمد « بهاءُ الدِّين » و « صدرُ الدِّين » و « صلاحُ الدِّين » وفي علي
« تقيُ الدِّين » وفي عبد الرحمن « جلالُ الدِّين » ونحو ذلك ، ولم يتوقفوا في ذلك على
لقبٍ مخصوص ، بل صاروا يقصدون المخالفة لما عليه جادَّة من تقدمهم في ذلك .

الصف الثاني

(ألقاب الكتاب من القبط)

ولهم ألقاب تخصهم أيضا : فيقولون في عبد الله « شمس الدين » وفي عبد الرزاق « تاج الدين » وربما قالوا « سعد الدين » وفي إبراهيم « علم الدين » وفي ماجد « محمد الدين » وفي وهبة « تقي الدين » ونحو ذلك .

النوع الثالث

(ألقاب عامة الناس من التجار والعلماء السلطانية ونحوهم)

وهم على سنن الفقهاء في ألقابهم ، وربما مال من هو منهم في الخدم السلطانية إلى التلقب بألقاب الخند .

النوع الرابع

(ألقاب أهل الذمة من الكتاب والصيارف)

ومن في معانهم من اليهود والنصارى)

وقد اصطلاحوا على ألقاب يتلقبون بها غالبا مصدرية بالشيخ ؛ ثم منهم من يحرق على الرسم الأول في التلقب بالإضافة إلى الدولة فيتلقب بولي الدولة ونحوه ؛ ومنهم من يحذف المضاف إليه في الجملة ويعترف اللقب بالألف واللام فيقولون

(١) نعل هذا بعد اسلامهم كما يدل عليه ما بعد في النوع الرابع .

« الشيخ الشمسى » و « الشيخ الصفى » و « الشيخ الموفق » وما أشبه ذلك . فإذا أسلم أحدهم أسقطت الألف واللام من أول لقبه ذلك ، وأضيف إلى لفظ الدين . فيقال فى الشيخ الشمسى « شمس الدين » وفى الصفى « صفى الدين » وفى ولى الدولة « ولى الدين » وما أشبه ذلك . وربما كان لقب الذمى ليس له موافقة فى شىء مما يضاف إلى الدين من ألقاب المسلمين ، فيراعى فيه إذا أسلم أقرب الألقاب إليه ، مثل أن يقال فى الشيخ السعيد مثلاً إذا أسلم « سعد الدين » ونحو ذلك .

الجملة الرابعة

(فى أصل وضع الألقاب الجارية بين الكُتَّاب ، ثم آتائها إلى غاية التعظيم ومجاورتها الحد فى التكثير)

أما أصل وضعها ثم آتائها إلى غاية التعظيم فإن ألقاب الخلافة فى ابتداء الأمر - على جلالة قدرها وعظم شأنها - كانت فى المكاتبات الصادرة عن ديوان الخلافة وإليه ، والولايات الناشئة عنه « عبد الله ووليه الإمام الفلانى أمير المؤمنين » ولم يزل الأمر على هذا الحد فى الألقاب إلى أن استولى بنو بويه من الديلم على الأمر ، وغلبوا على الخلفاء ، واستبدوا عليهم واحتجبت الخلفاء ولم يبق إليهم فيما يكتب عنهم غالباً سوى الولايات ، وفوض الأمر فى غالب المكاتبات إلى وزراءهم ، وصارت الحال إذا اقتضت ذكر الخليفة كفى عنه به « المواقف المقدسة » و « المقامات الشريفة » و « السرة النبوية » و « الدار العزيزة » و « المحل المجد » يعنون « بالمواقف » الأماكن التى يقف فيها الخليفة ، وكذلك المقامات ، وبالسرة الأعماط التى يجلس عليها الخليفة ، و « بالدار » دار الخلافة ، و « بالمحل » محل الخليفة . قال فى « ذخيرة الكُتَّاب » : ولت شعري أى شىء قصص من كفى عن أمير المؤمنين

(١) كذا هو بالراء المهملة فى الأصول وهو اصطلاح لهم .

بهذه الكليات ، وبمثل نعوته وصفاته المعظمة المكرمة بهذه الألفاظ المحقرات ؟
 وإذا أُسْتَجِيزَ ذلك ورضي به وأغضى عنه كان لآخر أن يقول «المجالس الطاهرة»
 و«المقاعد المقدسة» و«المراكب المعظمة» و«الأسرة المحمّدة» وما يجري هذا الجري
 مما ينبو عنه السمع وينكره لاستحداثه واستجداده ، على أنه لو توالى على الأسماع
 كتوالى تلك الألفاظ لم تنكره بعد إذ لا فرق . قال : ولم يستسنه النبي صلى الله
 عليه وسلم ولا آختره لنفسه ، ولا استحدثه الخلقاء من بعده . فما وجه العمل
 بموضعه والاقتفاء لأثره ؟ وكيف يجوز أن يكنى عن الجادات ، بما يكنى به
 عن الإنسان الخي الناطق الكامل الصفات . ولما انتهى الحال بالخلقاء إلى التعظيم
 بهذه الألقاب والنعوت المستعارة ، تداعى الأمر إلى تعظيم الملوك والوزراء بالتلقب
 بـ«المجلس العالي» و«الحضرة السامية» وما أشبه ذلك . قال : وهذا مما لم يكن
 في زمان ، ولا جرى في وقت ، ولا كتب به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا استعمله
 الخلقاء بعده ، ثم ترايد الحال في ذلك إلى أن كتبوا بـ«المقام» و«المقر»
 و«الجناب» و«المجلس» ونحو ذلك على ما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .



وأما مجاوزتها الحد في الكثرة ، فقد تقدم أن اللقب الواحد كان يُلقب به الشخص
 دون تعدد ألقاب ، إلى أن وافى أيام القادر بالله والتلقب بالإضافة إلى الدولة
 فزيد في لقب عضد الدولة بن بويه (تاج الملة) فكان يقال «عضد الدولة وتاج الملة»
 وكان أول من زيد في لقبه على الأفراد ، وإن أئنه «بهاء الدولة» زيد في لقبه
 في الأيام القادرية أيضا «نظام الدين» فكان يقال : «بهاء الدولة ونظام الدين»

ويقال : إنه زاده من بعد بهاء الدولة لفظ « في الأمة » فكان يقال : « بهاء الدولة في الأمة ونظام الدين » ثم لُقّب محمود بن سُبُكْتِكِين في الأيام القادرية أيضا « يمين الدولة ، وأمين الملة ، وكهف الإسلام والمسلمين ، ولي أمير المؤمنين » وتزايد الأمر بعد ذلك في تكثير الألقاب حتى جاوز الحد وبلغ النهاية ، وصارت الكُتُب في كل زمن يَقترِحون ألقابا زيادةً على ما سبق إلى أن صارت من الكثرة في زماننا على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى فيما بعد .

الجزء الخامسة

(في بيان الألقاب الأصول وذكر معانيها وأشتقاقها ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ما يقع في المكاتبات والولايات ، وهي ثمانية ألقاب)

الأول — الجانب . وهو من ألقاب ولاية العهد بالخلافة ومن في معناهم : كإمام الرّيدية باليمن في مكاتبته عن الأبواب السلطانية . وربما وقع في الخطاب في أثناء الكتابة فيقال « الجانب الأعلى » و « الجانب الشريف العالي » [والجانب الكريم العالي ^(١)] و « الجانب العالي » مجزّدا عنهما ، رتبة بعد رتبة .

ثم الجانب في أصل اللغة اسمٌ للناحية ، والمراد الناحية التي صاحب اللقب فيها ، كُنِيَ بها عنه تعظيما له عن أن يُنفَوْه بذكره ، وكذا في غيره مما يحرى هذا المجزّئ من الألقاب المكتوبة : كالمقام والمقر ونحوهما .

الثاني — المقام بفتح الميم . وهو من الألقاب الخاصة بالملوك . وأصل المقام في اللغة اسمٌ لموضع القيام ، أحداً من قام يقوم مَآماً . وقد ورد [في] التثنية بمعنى موضع القيام في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد موضع قدميه

(١) الزيادة ساقطة من النسخ يحتاج إليها الكلام .

في الصخرة التي كان يقوم عليها لبناء البيت ، ثم توسع فيه فأطلق على ما هو أعم من موضع القيام من محلة الرجل أو مدينته ونحو ذلك ، ومن ثم قال الزحشرى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَتِّينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ إنه خاص يستعمل في معنى العموم ، يعنى أنه يستعمل في موضع الإقامة في الجملة . أما المقام بالضم فاسم لموضع الإقامة أخذاً من أقام يقيم ، إذ الفعل متى جاوز الثلاثة فالوضع منه مضموم كقولهم في المكان الذي يدرج فيه مدرج كما نبه عليه الجوهري وغيره . وقد قرئ قوله تعالى : ﴿ يَا هَلْ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ بالفتح والضم جميعاً على المعنيين . قال الجوهري : وقد يكون المقام بالفتح بمعنى الإقامة والسقام بالضم بمعنى موضع القيام . وجعل من الثانى قوله تعالى : ﴿ حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى موضعاً . وبالجملة فلذى يستعمله الحُكَّاب في المقام الفتح خاصة ، يكونون بذلك عن السلطان تعظيماً له عن القوة باسمه . قال المقرئ الشهابى بن فضل الله في "عرف التعريف" : ويقال فيه «المقام الأشرف» و «المقام الشريف العالى» ورُبَّما قيل فيه «المقام العالى» ولم يتعرض لذكر «المقام الكريم» ولو عمل عليه تأسيّاً بالنظ القرءان الكريم حيث قال تعالى : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ لكان حسناً .

الثالث - المقرئ - بفتح الميم والقاف . قال في "عرف التعريف" : ويختص بكبار الأمراء ، وأعيان الوزراء ، وكُتَّاب السرومن يحوى مجراهم : كناظر الخاّص ، وناظر الحشيش . وناظر الدولة ، وكُتَّاب الدست ومن في مناهم . قال : ولا يُكْتَب لأحد من العلماء والقضاة ، وكأنه يريد العرف العام . والتحقيق في ذلك أن الحال فيه يختلف بحسب المكتوب عنه ، فلا يقال فيما يُكْتَب عن السلطان إلا لأكابر الأمراء وبعض الملوك المكاتبين عن هذه المملكة : كصاحب ماردین ونحوه .

بل قد ذكر ابن شَيْثٍ في "معالم الكتابة" أن المَقَرَّ من أجل ألقاب السلطان .
وقد رأيت ذلك في العهد المكتَب بالسلطنة للنصور قلاوون من إنشاء القاضي
محي الدين بن عبد الظاهر . أما عَمَّن عدا السلطان كالألقاب ونحوهم فإنه يُكْتَب به
لأكابر أرباب السيوف والأقلام : من القضاة والعلماء والكُتَّاب . على أن ابن شَيْثٍ
في "معالم الكتابة" قد جعله من الألقاب الملوكة كالمقام ، بل جعلهما على حدٍّ
واحد في ذلك . قال في "عرف التعريف" : ويقال فيه « المَقَرُّ الأشرف »
و« المَقَرُّ الشريف العالى » و« المَقَرُّ الكريم العالى » و« المَقَرُّ العالى » مجزداً عن ذلك .
وأصله في اللغة لموضع الاستقرار ، والمراد الموضع الذى يستقرُّ فيه صاحبُ ذلك
اللقب . ولا يخفى أنه من الخاص الذى استعمل في العموم كما تقدّم في لفظ المقام
عن الزحشمى . إذ يجوز أن يقال فلان مقَرّه محلة كذا وبلدة كذا ، كما يقال مقامه
محلة كذا وبلد كذا .

الرابع — الحَنَاب . وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعاً فيما يكتب
به عن السلطان وغيره من النواب ومن في معانهم . قال في "عرف التعريف" :
وهو أعلى ما يكتب للقضاة والعلماء من الألقاب . قال : ويكتب لمن لا يؤهل للقر
من الأمراء وغيرهم ممن يجرى مجرى الوزراء ، ويزيد على ما قد ذكره أنه يكتب به
لبعض الملوك الحكّامين عن الأبواب السلطانية . قال في "عرف التعريف" :
ويقال فيه « الحَنَاب الشريف العالى » و« الحَنَاب الكريم العالى » و« الحَنَاب العالى »
مجزداً عنهما . وأصل الحَنَاب في اللغة الفناء أو ما قرب من محلة القوم ، ومنه قوطم :
لَدُنَّا بِحَنَابِ فُلَانٍ وفلانٌ خَصِيب الحَنَاب ، فيعبر عن الرجل بفنائه وما قرب من
محله تعظيماً له ، ويجمع على أَجْنِيَةٍ كمكانٍ وأمكنة وعلى جَنَابَاتٍ جَمَادٍ وَجَمَادَاتٍ .

الخامس — المجلس . وهو من ألقاب أرباب السُّيوف والأقلام أيضا ممن لم يُؤهل لرتبة الجَنَاب ، وربما نُقِبَ به بعضُ الملوك في المكتبات السلطانية . على أنه كان في الدولة الأيوبية لا يُلقَّب به إلا الملوك ومن في معناهم . ومكتبات القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وغيرهما من كُتَّاب الدولة الأيوبية ومن عاصرها مشحونةٌ بذلك ، حتى قال صاحب "معالم الكُتَّابة" : وقد كانوا لا يكتبون المجلس إلا للسلطان خاصَّةً . قال : ولم يكن السلطان يُكاتب به أحدا من الداخلين تحت حكمه والمنسحب عليهم أمره . ثم ذكر أنه كان يُكاتب به في زمانه إلى كبار الأمراء والوزراء وولاة العهد بالسلطنة .

أما في زماننا فقد صار في أدنى الرُّتب وجُعِلَ الجَنَاب والمَقَرُّ فوقه على ما تقدَّم . ويقال فيه : « المجلس العالي » و« المجلس السامي » رتبةٌ بعد رتبة . ويقال في المجلس السامي السامي بالياء ، والسامي بغير ياء ، رتبةٌ بعد رتبة .

وأعلم أن العالي والسامي اسمان منقوصات كالتقاضى والوالى وقد تقرَّر في علم النحو أنه إذا دخلت الألف واللام على الاسم المنقوص جاز فيه إثبات الياء وحذفها فيقال القاض والقاضى ونحو ذلك ، وحينئذ فيجوز في العالي والسامي إثبات الياء وحذفها ولكن الكُتَّاب لا يستعملونها إلا بالياء .

فأما في العالي فيجوز أن تكون الياء التي تُثبتها الكُتَّاب في آخره هي الياء اللاحقة للاسم المنقوص على ما تقدَّم وتكون حينئذ ساكنة ، ويجوز أن تكون ياء النسب نسبة إلى العالي وتكون مشددة ، وكذلك في السامي بالياء .

أما السامي بغير ياء فيجوز أن يكون المراد حذف ياء النسب لا الياء اللاحقة للاسم المنقوص ، لما تقدَّم من أن الكُتَّاب لم يستعملوها إلا بإثبات الياء ، وحينئذ

فُتَحَذَفَ الياء من الألقاب التي تُشَعَّتْ بها . ويحتمل أن يكون المراد حذف الياء
اللاحقة للأسم المتقوص وهو بعيد .

وأصل المجلس في اللغة لموضع الجلوس ، ويشار بذلك إلى الموضع الذي يجلس
فيه تعظيماً له على ما تقدّم في غيره . ولا يخفى أنه ليس للمجلس ما للمقرّ والمقام
من العموم حتى يعم ما فوق موضع الجلوس ، إذ لا يحسن أن يقال مجلس فلان محلة
كذا ولا بلد كذا كما يحسن أن يقال : مقرّه أو مقامه محلة كذا أو بلد كذا .

السادس — مجلس — مجزّداً عن الألف واللام مضافاً إلى ما بعده بـ وله
في الاصطلاح أربع حالات :

الأولى أن يُضاف إلى الأمير : فيقال « مجلس الأمير » وهو مختصّ بأرباب
السيوف على اختلاف أنواعهم من الترك والعرب وغيرهم .

الثانية أن يُضاف إلى القاضي : فيقال « مجلس القاضي » وهو مختصّ بأرباب
الأقلام من القضاة والعلماء والكتّاب ومن في معنائهم .

الثالثة أن يُضاف إلى الشيخ : فيقال « مجلس الشيخ » ويختصّ ذلك بالصوفيّة
وأهل الصلاح ومن في معنائهم .

الرابعة أن يُضاف إلى الصّدر : فيقال « مجلس الصّدر » وهو مختصّ بالتّجار
وأرباب الصّنائع ومن في معنائهم ، وربما كُتِبَ به في الدولة الناصرية « محمد بن
قلاوون » وما قاربها لكتاب الدرّج ومن في معنائهم . والمراد بالصّدر صدر المجلس
الذي هو أعلى أماكنته وأرفعها ، والمضاف والمضاف إليه فيه كالمعنيين ، والتقدير
صدر المجلس .

السابع — أن يُقْتَصَر على المضاف إليه من مجلس الأمير، أو مجلس القاضي، أو مجلس الشيخ، أو مجلس الصدر ويقال فيه: «الأمير الأجل» و«القاضي الأجل» و«الشيخ الصالح» و«الصدر الأجل».

الثامن — الحضرة . والمراد بها حضرة صاحب اللقب . قال الجوهري : وحضرة الرجل قرينه وفأوه . قال ابن قتيبة في «أدب الكاتب» : وتقال بفتح الحاء وكسرهما وضمها وأكثر ما تستعمل في المكاتبات . وهي من الألقاب القديمة التي كانت تستعمل في مكاتبات الخلفاء . وكان يقال فيها «الحضرة العلية» و«الحضرة السامية» ، وتستعمل الآن في المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى بعض الملوك . ويقال فيها : «الحضرة الشريفة العلية» و«الحضرة الكريمة العلية» و«الحضرة العلية» بحسب ما تقتضيه الحال . قال ابن شيث في «معالم الكتابة» : وكانت مما يكتب بها لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم ، ولم يكن السلطان يكتب بها أحدا من الداخلين تحت حكمه والمنسحب عليهم أمره . وتستخدم أيضا في مكاتبات ملوك الكفر ، ويقال فيه بعد الدعاء للحضرة : «حضرة الملك الحليل» ونحو ذلك على ما سيأتي بيانه في موضعه . وقد تستخدم في الولايات في نحو ما يكتب للبترك . فيقال : «حضرة الشيخ» أو «حضرة البترك» ونحو ذلك . قلت : وكثير من كتاب الزمان يطنون أن هذه الألقاب الأصول أو أكثرها أحدثها القاضي شهاب الدين بن فضل الله وليس كذلك ، بل المجلس المذكور في مكاتبات القاضي الفاضل ومن عاصره بكثرة بل لا تكاد مكتبة من مكاتبات الملوك تخلو عن ذلك . ومقتضى كلام ابن حاجب النعمان في «ذخيرة الكتاب» أنه أول ما ابتدع في أيام بني بويه ملوك الديلم . والحناب موجود في مكاتبات القاضي الفاضل أيضا بقلّة .

وقد ذكره ابن شيث في مصطلح كتابة الدولة الأيوبية . والمقر موجود في كلام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر . والمقام موجود في مكاتبات من قبل القاضي شهاب الدين المذكور ، نعم هذا الترتيب الخاص : وهو جعل أعلاها المقام ، ثم المقر ، ثم الحناب ، ثم المجلس ، ثم مجلس الأمير أو القاضي أو الشيخ ، لم أره إلا في كلام المقر الشهابي المشار إليه ومتابعيه ، ولا أدري أهو المقترح لهذا أم سبقه إليه غيره ؟ وقد أُلِغَ الفضلاء بالسؤال عن وجه هذا الترتيب ، بل أخذوا في إنكاره على مرتبة من حيث إن هذه الألقاب متقاربة المعاني في اللغة ، فلا يتجه تقديم بعضها على بعض في الرتبة ، ولا يخفى أن واضع ذلك من المقر الشهابي أو غيره لم يضعه عن جهل على سبيل التسمي إذ لا يليق ذلك بمن عنده أدنى مُسْكَة من العلم . وقد ظهر لي عن ذلك أجوبة يستحسنها ذهن السليم إذا تُلْقِيَتْ بالإنصاف . ولا بد من تقديم مقدمة على ذلك : وهي أن تعلم أن الخطاب في المكاتبات ، والوصف في الولايات ، مبني على التفضيم والتعظيم ، على ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى . ومن ثم أتى فيهما بالألقاب المؤدية إلى الرِّفْعَة كما تقدمت الإشارة إليه في أول الكلام على الألقاب . ثم أثبتوا هذه الألقاب بمعنى الأماكن كناية عن أصحابها من باب مجاز التجاورة ، وجعلوها رتبة بعد رتبة بحسب ما تقتضيه معانيها اللائحة منها على ما سيأتي بيانه ، فجعلوا أدناها رتبة الأمير والقاضي والشيخ ، التي وقع فيها التصريح بذكر الشخص ، وجعلوا فوق ذلك المجلس لتجرده عن الإضافة إلى ما هو في معنى القريب من التصريح ، وجعلوا فوق ذلك الحناب الذي هو الفناء من حيث إن فناء الرجل أوسع من مجلسه ضرورة ، بل ربما أشتمل على المجلس واستضافه إليه ، وجعلوا فوق ذلك المقر الذي هو موضع الاستقرار مع ما يقتضيه من شمول جميع المحلة أو البلد الذي هو مقيم فيه ، من حيث إنه يسوغ أن يقال مقره محلة كذا أو بلد كذا ، وتضمنه

معنى 'القرار الذي هو ضد الزوال على ما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ وجعلوا فوق ذلك المقام لاستعماله في المعنى العام، الذي هو أعم من موضع القيام كما أشار إليه الزمخشري، مع ما في معنى 'القيام من النهضة والشهامة الزائدة على معنى الاستقرار، من حيث إن القعود دليل العجز والقصور . قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا أَوْ اطَّاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ فكان المقام باعتبار ذلك أعلى من المقتر، ويوضح ما ذكرناه أنهم جعلوا المجلس أدنى المراتب والمقام أعلاها .

أما تخصيصه خطاب الخليفة بالديوان فليبعد تعلقه ، مع كونه عنه تصدر مخاطبات وعليه ترد ، على ماسياتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(من الألقاب الأصوي ما يختص بالمكاتب دون الولايات، وفيه تسعة ألقاب)

الأول — الديوان . وقد تقدم الكلام على ضبطه ومعناه في الكلام على ترتيب ديوان الإنشاء في مقدمة الكتاب ، ويصدر بالدعاء له في المكتبة إلى أبواب الخلافة المقدسة ، ويقال فيه «الديوان العزيز» على ماسياتي في الكلام على المكاتب فيما بعد إن شاء الله تعالى . قال المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه "التعريف" : والمعنى به ديوان الإنشاء إذ الكتب وأنواع الخطابات إليه واردة، وعنه صادرة . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخضعان عن خطاب الخليفة نفسه . ثم كُتب الزمان قد يستعملون ذلك في غير المكاتب مثل أن يكتب عن السلطان منشور إقطاع للخليفة فيقال : « أن يجري في الديوان العزيز » ونحو ذلك على ماسياتي في الكلام على المناشير في موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانى — الباسِط . وهو ما يُستعمل فى المكاتبات بالتقبيل على ما سأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وأصله فى اللغة فاعلٌ من البَسَط ، والمراد بَسَطَ الكَفِّ بالبَدَل والعطاء . ومنه قوله تعالى : « **لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** » وهو من ألقاب اليد ، ويشترك فيه أرباب السيوف والأقلام وغيرهم . قال فى « عرف التعريف » : ويقال فيه « **الباسِطُ الشَّريفُ العالى** » و « **الباسِطُ الكريمُ العالى** » .

الثالث — الباسِطة بلفظ التأنيث . وهو بمعنى الباسِطِ إلا أن الباسِطة دُونَ الباسِطِ فى الرتبة لميزة التذكير على التأنيث .

الرابع — اليَدُ . وهى فى معنى الباسِطة إلا أنها دُونُها لقوات الوصف بالبَسَطِ فيها . قال فى « عرف التعريف » : ويقال فيها « **اليَدُ الشريفةُ العالِيَةُ** » و « **اليَدُ الكريمةُ العالِيَةُ** » واليد العالِيَةُ مجردة عنهما .

الخامس — الدَّارُ . وهى معروفة . وتجمع على آدِرٍ ، ودِيَارٍ ، ودُورٍ ، والمراد دار المكتوب إليه ، تزيهاً له عن التصريح بذكره كما فى الجَنَاب وغيره . وكانت مما يكتب به فى الزمن القديم فى ألقاب الخُلَفَاء ويقال : « **الدارُ العزيزةُ** » وما أشبه ذلك ، وربما كُتِبَ بها فى القديم أيضاً للخَوَاتِمِ من نساء الملوك وغيرهم . ومن كُتِبَ به لمن العلاء بن موصلاً صاحب ديوان الإنشاء فى أيام القائم العباسيِّ ، وعلى ذلك الأمر فى زماننا فى الكُتُب الصادرة إليهن من الأبواب السلطانية وغيرها ، وإنما كُتِبَ إليهن بذلك إشارةً إلى الصَّوْن لملازمتن الدَّورَ ، وعدم البروز عنها .

السادس — السَّتَّارة . وكتاب الزمان يستعملونها فى نحو ما تُستعمل فيه الدَّارُ ، ويَكُونُ بها عن المرأة الحليَّة القَدْر ، التى هى بصَدَد أن تُصَبَّ على بابها السَّتَّارةُ حجاباً .

السابع — الْجِهَةُ . وهو مستعمل في معنى الدار والسَّارة من المكتبات ، ويُعنى بها المرأة الجليلة القدر . وهى فى أصل اللغة اسمٌ للناحية ، فكُنُوا بها عن المرأة الجليلة ، كما كُنُوا عن الرجل الجليل بالجناب .

الثامن — الباب . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان فى جليل المكتبات ، وأصل الباب فى اللغة لما يتوصل منه إلى المقصود ، ويجمع على أبواب : كحال وأحوال ، وعلى بيان : بكارٍ وجيرانٍ ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه ، وكأنه أجلُّ صاحبِ اللَّقب عن الوصول إليه والقرب منه ، لعلَّ مكانه رفعةً محلَّة . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجزئاً عنهما ، واستعمله بلفظ الجمع على أبواب أعلى منه بلفظ الأفراد لما فى معنى الجمع من الشرف . أما الجمع على بيانٍ فلا يستعمله الكتابُ أصلاً .

التاسع — الْمُخِيَم . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان للسافر ، والمراد المكان الذى تُضرب فيه خيامُ المكتوبِ إليه ، أخذنا من قولهم خيمَ بالمكان إذا أقام به ، أو خيمه إذا جعله كأنخيمة . والخيمة فى أصل اللغة اسمٌ لبيتٍ تُنشئه العرب من عيدانٍ ثم تُوسَّع فيه فاستعمل فيما يُنخَد من الجلود والقطن المنسوج ونحوه ، ويوصف بما يوصف به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالى .

قلت : وقد يستعمل بعضُ هذه الألقاب كالدار والسَّارة والجهة فى غير المكتبات من الولايات وغيرها ولكن بقلَّة ، والغالب استعمالها فى المكتبات ، فلذلك خصَّصناها بها .

الجملة السادسة

(في بيان الألقاب المقررة على الأصول المتقدمة ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في بيان أقسامها ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(المفردة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المجردة عن ياء النسب)

كالسلطان ، والملك ، والأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصدر ، والأجل ،
والكبير ، والعالم ، والعامل ، والأوحد ، والأكل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثاني

(الملحق بها ياء النسب)

كالسلطاني ، والملكي ، والأميري ، والقضائي ، والشيخ ،
والصدر ، والأجلى ، والكبرى ، والعالم ، والعامل ، والأوحد ، والأكل ،
ونحو ذلك .

ثم الألقاب الملحقة بها ياء النسب تارة يراد بالنسب فيها النسب الحقيقي على بابه :
كالقضائي ، لأنه منسوب إلى القضاء الذي هو موضوع الوظيفة التي من أجلها فصل

الحُكُومات الشرعية على ما تقدم؛ وتارة يُراد به المبالغة كالتقاضى، فإنه منسوب إلى القاضي نفسه مبالغة. وفي معناه الأمير نسبةً إلى الأمير، والوزير نسبةً إلى الوزير، والشيخ نسبةً إلى الشيخ، والكبير نسبةً إلى الكبير، والعالم نسبةً إلى العالم، وما أشبه ذلك.

والأصل فيه أن عادة العرب أنهم إذا أرادوا المبالغة في وصف شيء أدخلوا عليه ياء النسب في آخره للمبالغة في وصفه فيقولون في الأحمر إذا قصدوا المبالغة في وصفه بالحرارة أحمرى ونحو ذلك على ما هو مقرر في كتب النحو المبسوطة كالتهليل ونحوه. ثم منها ما يستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها: كالعالم، والعالمى؛ ومنها ما يستعمل مجرداً عنها فقط كالتَّطَبُّب والغوث من ألقاب الصُّوفية؛ ومنها ما يستعمل بإثباتها فقط كالغياث. وبكل حالٍ فالألقاب التي قد تثبت ياء النسب في آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميرى إن كانت من ألقاب المجلس السامى بالياء فما فوقه من المجلس العالى والجناب العالى، والمقر والمقام على مراتبها تثبت الياء في آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامى بغير ياء فما دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضي، ومجلس الشيخ، ومجلس الصدر؛ والأمير، والقاضي، والشيخ، والصدر، لم تثبت الياء في آخرها. والألقاب المضافة إلى الدين، مثل «ناصر الدين» و«شمس الدين» و«نور الدين» و«عز الدين» و«ولي الدين» و«سيف الدين» وما أشبه ذلك إن كانت في ألقاب من تثبت الياء في ألقابه من المجلس السامى بالياء فما فوقه حذف المضاف إليه وأدخلت الألف واللام على المضاف وأُلحِقَتْ به ياء النسب، فيقال في ناصر الدين «النَّاصِرِي» وفي شمس الدين «الشَّمْسِي» وفي نور الدين «النُّورِي» وفي عز الدين «العَزِّي» وفي ولي الدين «الْوَلَوِي» وفي سيف الدين «السَّيْفِي» وما أشبه ذلك.

النوع الثانى

(المركبة)

وهى المعبر عنها بالتعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ، ثم تارة تكون
 بإضافة واحدة نحو « مَهْدُ الدُّول » وتارة تكون بإضافتين نحو « سَيِّدُ أَمْرَاءِ الْعَالَمِينَ »
 وتارة تكون بثلاث إضافات نحو « حَاكِمُ أُمُورِ وُلَاةِ الرِّمَانِ » وربما زيد على ذلك ،
 وتارة تكون بوصف المضاف ، نحو « بَقِيَّةُ السُّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ » وتارة تكون بالعطف
 على المضاف إليه : إما بعطف واحد ، نحو « سَيِّدُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ » وإما بأكثر ،
 نحو « نَاحِ الْمَالِكِ وَالْأَقَالِمِ وَالْأَقْطَارِ » وتارة تكون بجارٍّ ومحجورٍ بعد المضاف إليه ،
 نحو « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ » وربما توسط التعتُّ بين المضاف إليه والجارِّ
 والمحجور ، نحو « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ الْأَشْرَافِ فِي الْعَالَمِينَ » . وقد يكون التركيب بغير
 الإضافة إما بالجارِّ والمحجور ، نحو « الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وإما بغير ذلك
 مثل الْمُعَفَّى آلِ سَاسَانَ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

[وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِقَبُ الْأَصْلِ مُفْرَدًا نَحْوَ الْمَقَرِّ وَالْجَنَابِ ، جَاءَتْ أَلْقَابُهُ وَنَعْوَتُهُ
 مُفْرَدَةً فَيَقَالُ « الْمَقَرُّ الشَّرِيفُ » وَ « الْجَنَابُ الشَّرِيفُ » وَ « الْمَقَرُّ الْكَرِيمُ » وَفِي نَعْوَتِهِ
 « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ » وَنَحْوُ ذَلِكَ .

ثم إن كان مدَّكَرًا جاء بصيغة التذكير ، كما تقدَّم في ألقابِ الْمَقَرِّ ^(١) .

وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنَّثًا كَالْجِهَةِ فِي أَلْقَابِ النِّسَاءِ ، أُمْتُ أَلْقَابُهُ وَنَعْوَتُهُ
 مُؤَنَّثَةٌ تَبَعًا لَهُ ، فَيَقَالُ فِي أَلْقَابِ الْجِهَةِ « الْجِهَةُ الشَّرِيفَةُ أَوْ الْجِهَةُ الْكَرِيمَةُ الْعَالِيَةُ »
 وَفِي النِّعَاتِ « سَيِّدَةُ الْخَوَاتِمِينَ فِي الْعَالَمِينَ » وَنَحْوُ ذَلِكَ .

(١) هذه الجملة التى بين القوسين غير موجودة فى الاصول ، فنقلناها عن الضوء للؤلؤ لم الفائدة .

وإن كان اللقب في الاصل مجموعاً ، نحو « مجالس الأمراء » كما يكتب في المطلقات ، جاءت الألقاب والنعوتُ مجموعةً في الألقاب الأجلاء الأكارِ وما أشبه ذلك ، وفي النعوت إن كان ذلك اللقب اسم جنس نحو « عضد الملوك والسلطين » أو مصدرًا ، نحو « عون الأمة » جاز إبقاؤه على الأفراد كذلك : لأن المصدر واسم الجنس لا يتنَّان ولا يُجمَعان ؛ وإن أُوحِظ فيه معنى التعدد ، جاز الجمع فيقال « أعوان الأمة » و « أعضاء الملوك والسلطين » ونحو ذلك . وقد أشار إلى ذلك المقرر الشهابي بن فضل الله في كتابه " التعريف " في الكلام على كتابة المطلقات فقال ونحو عضد وأعضاء .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

بأوله المهيع الثاني

(في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومن يقع عليه كل واحد منها من أرباب السيوف وغيرهم ، وهي نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(۲۰۰۰/۱۹۱۴/۵۴۹۶/۲۰۲)

السابع — الجهة . وهو مستعمل في معنى الدار والستارة من المكاتب ، ويعني بها المرأة الخلية القدر . وهي في أصل اللغة اسمٌ للناحية ، فكُنُوا بها عن المرأة الخلية ، كما كنُوا عن الرجل الخليل بالجناب .

الثامن — الباب . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان في جليل المكاتب ، وأصل الباب في اللغة لما يتوصل منه إلى المقصود ، ويجمع على أبواب : كحال وأحوال ، وعلى بيان : كجارٍ وجيران ، والمراد باب دار المکتوب إليه ، وكأنه أجل صاحب اللقب عن الوصول إليه والقرب منه ، لعل مكانه رفعة محله . ويقال فيه « الباب الشريف العالی » و « الباب الكريم العالی » و « الباب العالی » مجزأً عنهما ، وأستعمله بلفظ الجمع على أبواب أعلى منه بلفظ الإفراد لما في معنى الجمع من الشرف . أما الجمع على بيان فلا يستعمله الكتاب أصلاً .

التاسع — المخيم . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان للسافر ، والمراد المكان الذي تُضرب فيه خيام المکتوب إليه ، أخذنا من قولهم خيم بالمكان إذا أقام به ، أو خيمه إذا جعله كالخيمة . والخيمة في أصل اللغة اسمٌ لبيت تُشْثه العرب من عيدان ثم توسع فيه فاستعمل فيما يتخذ من الجلود والقطن المنسوج ونحوه ، ويوصف بما يوصف به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالي .

قلت : وقد يستعمل بعض هذه الألقاب كالدار والستارة والجهة في غير المكاتب من الولايات وغيرها ولكن بقلّة ، والغالب استعمالها في المكاتب ، فلذلك خصصتها بها .

الجملة السادسة

(في بيان الألقاب المنفردة على الأصول المتقدمة ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في بيان أقسامها ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(المفردة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المجردة عن ياء النسب)

كالسلطان ، والملك ، والأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصدر ، والأجل ،
والكبير ، والعالم ، والعاقل ، والأوحد ، والأكل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثاني

(الملحق بها ياء النسب)

كالسلطاني ، والملكي ، والأميري ، والقضائي ، والقاضي ، والشيخ ،
والصدري ، والأجلي ، والكبيري ، والعالمي ، والعاقلي ، والأكلي ،
ونحو ذلك .

ثم الألقاب الملحق بها ياء النسب تارة يُراد بالنسب فيها النسب الحقيقي على بابه :
كالقضائي ، لأنه منسوب إلى القضاء الذي هو موضوع الوظيفة التي منأطها فصل

السابع — الجهة . وهو مستعمل في معنى الدار والسَّتارة من المكاتبات، ويعني بها المرأة الجليلة القدر . وهي في أصل اللغة اسمٌ للناحية ، فكَنُوا بها عن المرأة الجليلة ، كما كَنُوا عن الرجل الجليل بالحناب .

الثامن — الباب . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان في جليل المكاتبات ، وأصل الباب في اللغة لما يتوصل منه إلى المقصود ، ويجمع على أبواب : كحال وأحوال ، وعلى بيان : كجارٍ وجيران ، والمراد باب دار المكتوب إليه ، وكأنه أجل صاحب اللقب عن الوصول إليه والقرب منه ، لعلَّ مكانه رفعة محله . ويقال فيه « الباب الشريف العالي » و « الباب الكريم العالي » و « الباب العالي » مجزّدا عنهما ، وأستعمله بلفظ الجمع على أبواب أعلى منه بلفظ الأفراد لما في معنى الجمع من الشرف . أما الجمع على بيان فلا يستعمله الكتاب أصلاً .

التاسع — المقيم . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان للسافر ، والمراد المكان الذي تُضرب فيه خيام المكتوب إليه ، أخذاً من قولهم خيم بالمكان إذا أقام به ، أو خيمه إذا جعله كالحيمة . والحيمة في أصل اللغة اسمٌ لبيت تُنشئه العرب من عيدان ثم تُوسّع فيه فاستعمل فيما يتخذ من الجلود والقطن المنسوج ونحوه ، ويوصف بما يوصف به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالي .

قلت : وقد يستعمل بعض هذه الألقاب كالدار والسَّتارة والجهة في غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقلّة ، والغالب استعمالها في المكاتبات ، فلذلك خصصتها بها .

الجملة السادسة

(في بيان الألقاب المنفردة على الأصول المتقدمة ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في بيان أقسامها ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(المفردة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المجردة عن ياء النسب)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصَّدر ، والأجل ،
والكبير ، والعالم ، والعامل ، والأوحد ، والأكل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثاني

(الملحق بها ياء النسب)

كالسلطاني ، والملكي ، والأميري ، والفضائي ، والقاضي ، والشيخ ،
والصَّدري ، والأجل ، والكبير ، والعالم ، والعامل ، والأوحد ، والأكلي ،
ونحو ذلك .

ثم الألقاب الملحقة بها ياء النسب تارة يُراد بالنسب فيها النسب الحقيقي على بابه :
كالفضائي ، لأنه منسوب إلى القضاء الذي هو موضوع الوظيفة التي منأطها فصل

الحكومات الشرعية على ما تقدم، وتارة يراد به المبالغة كالقاصوي، فإنه منسوب إلى القاضي نفسه مبالغة. وفي معناه الأمير نسبة إلى الأمير، والوزير نسبة إلى الوزير، والشيخ نسبة إلى الشيخ، والكبير نسبة إلى الكبير، والعالم نسبة إلى العالم، وما أشبه ذلك.

والأصل فيه أن عادة العرب أنهم إذا أرادوا المبالغة في وصف شيء أدخلوا عليه ياء النسب في آخره للمبالغة في وصفه فيقولون في الأحمر إذا قصدوا المبالغة في وصفه بالحمرة أحمرى ونحو ذلك على ما هو مقرر في كتب النحو المبسوطة كالتهليل ونحوه، ثم منها ما يستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها: كالعالم، والعالمى؛ ومنها ما يستعمل مجزئاً عنها فقط كالتطب والتوث من ألقاب الصوفية؛ ومنها ما يستعمل بإثباتها فقط كالغياثي. وبكل حال فالألقاب التي قد ثبتت ياء النسب في آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميري إن كانت من ألقاب المجلس السامي بالياء فما فوقه من المجلس العالي والجناب العالي، والمقر والمقام على مراتبها تثبت الياء في آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامي بغير ياء فما دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضي، ومجلس الشيخ، ومجلس الصدر، والأمير، والقاضي، والشيخ، والصدر، لم تثبت الياء في آخرها. والألقاب المضافة إلى الدين، مثل «ناصر الدين» و«شمس الدين» و«نور الدين» و«عز الدين» و«ولي الدين» و«سيف الدين» وما أشبه ذلك إن كانت في ألقاب من تثبت الياء في ألقابه من المجلس السامي بالياء فما فوقه حذف المضاف إليه وأدخلت الألف واللام على المضاف وألحقته به ياء النسب، فيقال في ناصر الدين «الناصري» وفي شمس الدين «الشمسي» وفي نور الدين «النوري» وفي عز الدين «العزي» وفي ولي الدين «الولي» وفي سيف الدين «السيفي» وما أشبه ذلك.

النوع الثاني

(المرتبّة)

وهي المعبر عنها بالنعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ؛ ثم تارة تكون
 بإضافة واحدة نحو «ممهّد الدّول» وتارة تكون باضافتين نحو «سيدّ أمراء العالمين»
 وتارة تكون بثلاث إضافات نحو «حاكم أمور ولاية الرّمان» وربما زيد على ذلك ،
 وتارة تكون بوصف المضاف ، نحو «بقية السّلالة الطاهرة» وتارة تكون بالعطف
 على المضاف إليه : إما بعطف واحد ، نحو «سيدّ الملوك والسلاطين» وإما بأكثر ،
 نحو «فاتح الممالك والأقاليم والأقطار» وتارة تكون بجارٍّ ومجرور بعد المضاف إليه ،
 نحو «سيدّ الأمراء في العالمين» وربما توسط النعت بين المضاف إليه والجار
 والمجرور ، نحو «سيدّ الأمراء الأشراف في العالمين» . وقد يكون التركيب بغير
 الإضافة إما بالجارّ والمجرور ، نحو «المجاهد في سبيل ربّ العالمين» وإما بغير ذلك
 مثل المعنى آل ساسان وغير ذلك مما يجري هذا المجرى .

[وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِقَبُ الْأَصْلِ مَفْرَدًا نَحْوَ الْمَقَرِّ وَالْجَنَابِ ، جَاءَتْ أَلْقَابُهُ وَنَعْوَتُهُ
 مَفْرَدَةً فَيَقَالُ «الْمَقَرُّ الشَّرِيفُ» وَ«الْجَنَابُ الشَّرِيفُ» وَ«الْمَقَرُّ الْكَرِيمُ» وَفِي نَعْوَتِهِ
 «سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ» وَنَحْوُ ذَلِكَ .

ثم إن كان مدّكراً جاء بصيغة التذكير ، كما تقدّم في ألقاب المقرّ ^(١) .
 وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنثاً كالجهة في ألقاب النساء ، أتت ألقابه ونعوته
 مؤنثَةً تبعاً له ، فيقال في ألقاب الجهة «الجهة الشريفة أو الجهة الكريمة العالية»
 وفي النعوت «سيدة الخواتين في العالمين» ونحو ذلك .

(١) هذه الجملة التي بين القوسين غير موجودة في الأصول ، فنقلناها عن الضوء لأؤلف لتم الفائدة .

وإن كان اللقب في الاصل مجموعاً ، نحو « مجالس الأمراء » كما يكتب في المطلقات ، جاءت الألقاب والنعوت مجموعةً في الألقاب الأجلاء الأكابر وما أشبه ذلك ، وفي النعوت إن كان ذلك اللقب اسم جنس نحو « عضد الملوك والسلطين » أو مصدرًا ، نحو « عون الأمة » جاز إبقاؤه على الأفراد كذلك : لأن المصدر واسم الجنس لا يثنان ولا يُجمعان ؛ وإن أُوحِظ فيه معنى التعدد ، جاز الجمع فيقال « أعوان الأمة » و « أعضاء الملوك والسلطين » ونحو ذلك . وقد أشار إلى ذلك المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه « التعريف » في الكلام على كتابة المطلقات فقال ونحو عضد وأعزاد .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

وأوله المهيم الثاني

(في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كتاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومن يقع عليه كل واحد منها من أرباب السيوف وغيرهم ، وهي نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(٣٠٠٠/١٩١٤/٥٤٩٦/م٠م)

صنح الأكسدة
٢٠١٢
١٤٤٧

الجزء الخامس

فهرست

الجزء الخامس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشنديّ

صفحة

- المقصد الثاني — في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية، ويتوجه المقصد منها إلى ثلاثة أقطار ... ٥
- القطر الأول — اليمن ... وهو على قسمين ... ٦
- القسم الأول — التهام، وفيه أربع جمل (والصواب خمس) ... ٨
- الجملة الأولى — في ذكر ما أشتمل عليه من القواعد والمدن، وبه قاعدتان ٨
- القاعدة الأولى — تعز ... ٨
- » الثانية — زبيد ... ٩
- الجملة الثانية — في ذكر حيوانه، وحبوبه، وفواكهه، ورياحينه، ومعاملاته وأسعاره ... ١٦
- الجملة الثالثة — في الطريق الموصلة إلى اليمن ... ١٧
- » الرابعة — في ذكر ملوكه جاهلية وإسلاماً، أما ملوكه في الجاهلية فعلى عشر طبقات ... ١٧
- الطبقة الأولى — العادية ... ١٨
- » الثانية — القحطانية ... ١٩
- » الثالثة — التبابعة ... ٢١
- » الرابعة — الحبشة ... ٢٥
- » الخامسة — الفرس ... ٢٥
- » السادسة — عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده ... ٢٦
- » السابعة — ملوكها من بني زياد ... ٢٧
- » الثامنة — من بني مهدي ... ٢٩
- » التاسعة — من بني أيوب ملوك مصر ... ٢٩
- » العاشرة — دولة بني رسول ... ٣٠

صفحة

الجملة السادسة — (والصواب الخامسة) في ترتيب هذه المملكة على ما هي

عليه في زمن بنى رسول الخ ... ٣٣

القسم الثانى — من اليمن النجود وفيه أربع جمل ... ٣٧

الجملة الأولى — فيما آشتلت عليه من النواحي والمدن والبلاد ... ٣٨

» الثانية — في الطرق الموصلة إلى هذه المملكة ... ٤٣

» الثالثة — فيمن ملك هذه المملكة إلى زمن المؤلف ... ٤٤

» الرابعة — (وكتبت الثالثة) في ترتيب مملكة هذا الإمام ... ٥١

القطر الثانى — مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار

المصرية "بلاد البحرين" وفيه ثلاث جمل ... ٥٤

الجملة الأولى — فيما تشتمل عليه من المدن ... ٥٥

» الثانية — في ذكر ملوكها ... ٥٧

» الثالثة — في الطريق الموصل إليها ... ٥٧

القطر الثالث — مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار

المصرية "اليامامة" وفيها ثلاث جمل ... ٥٨

الجملة الأولى — فيما آشتلت عليه من البلدان ... ٥٩

» الثانية — في ذكر ملوكها ... ٦٠

» الثالثة — في الطريق الموصل إليها ... ٦١

القطر الرابع — مملكة الهند ومضافاتها وفيه إحدى عشرة جملة ... ٦١

الجملة الأولى — فيما آشتلت عليه هذه المملكة من الأقاليم ... ٦٢

الإقليم الاول — إقليم السند وما انحدرت في سلطته ... ٦٣

» الثانى — الهند وفيه قاعدتان ... ٦٧

صفحة

القاعدة الأولى — مدينة دلي	٦٨
» الثانية — مدينة الدواكير	٧٠
الجملة الثانية — في حيوانها	٨١
» الثالثة — في حبوبها وفواكهها ورياحينها وخضرها وأتيا وغير ذلك	٨٢
» الرابعة — في المعاملات	٨٤
» الخامسة — في الأسعار	٨٥
» السادسة — في الطريق الموصلة إلى مملكتي السند والهند	٨٦
» السابعة — في ذكر ملوك الهند	٨٨
» الثامنة — في ذكر عساكر هذه المملكة وأرباب وظائفها	٩١
» التاسعة — في زى أهل هذه المملكة	٩٣
» العاشرة — في أرزاق أهل دولة السلطان بهذه المملكة	٩٤
» الحادية عشرة — في ترتيب أحوال هذه المملكة	٩٥
الفصل الثانى — من الباب الرابع من المقالة الثانية في الممالك والبلدان	
الغربية عن ملكة الديار المصرية؛ وفيه أربع (ست) ممالك	٩٩
المملكة الأولى — ملكة تونس؛ وفيها آثنتان وعشرون جملة	٩٩
الجملة الأولى — في بيان موقعها من الأقاليم السبعة	٩٩
» الثانية — في بيان ما أشتملت عليه هذه المملكة من الأعمال؛	
وهو عملاقان	١٠٠
العمل الاثرل — أفريقية	١٠٠
» الثانى — بلاد بجاية	١٠٩
الجملة الرابعة — في ذكر زروعها وحبوبها وفواكهها وبقولها ورياحينها ^(١)	١١٢

(١) كذا في الأصول وحقيقتها الثالثة ثم يتسلسل العدد .

صفحة

- الجملة الخامسة — في مواشيا ووحوشها وطيورها ... ١١٣
- » السادسة — فيما يتعلق بمعاملاتها من الدنانير والدرهم والأرطال ... ١١٤
- والمكايل والأسعار ... ١١٤
- » السابعة — في ذكر أسعارها ... ١١٥
- » الثامنة — في صفات أهل هذه المملكة في الجملة ... ١١٥
- » التاسعة — في ذكر من ملكها جاهلية وإسلاما ... ١١٦
- الطبقة الأولى — الخلفاء ... ١١٧
- » الثانية — العبيديون ... ١٢٢
- » الثالثة — ملوكها من بنى زيرى ... ١٢٤
- » الرابعة — الموحدون ... ١٢٦
- الجملة العاشرة — في مسمى ملوك هذه المملكة القائمين بها من الموحدين ... ١٣٣
- » الحادية عشرة — في ترتيب المملكة بها من زى الجند وأرباب ... ١٣٣
- الوظائف ... ١٣٧
- الجملة الثانية عشرة — في ذكر الأرزاق المطلقة من جهة السلطان ... ١٤٠
- » الثالثة عشرة — في لبس سلطان مملكة تونس ولبس أشيخه ... ١٤٠
- وسائر جنده وعامة أهل بلده ... ١٤١
- » الرابعة عشرة — في شعار الملك بما يتعلق بهذا السلطان ... ١٤٣
- » الخامسة عشرة — في جلوس سلطان هذه المملكة في كل يوم ... ١٤٣
- » السادسة عشرة — في جلوسه للظالم ... ١٤٤
- » السابعة عشرة — في خروجه لصلاة الجمعة ... ١٤٥
- » الثامنة عشرة — في ركوبه لصلاة العيدين أو للسفر ... ١٤٦
- » التاسعة عشرة — في خروج السلطان للتنزه ... ١٤٧

صفحة

- الجملة العشرون — في مكاتبات السلطان ... ١٤٨
- « الحادية والعشرون — في البريد المقتر في هذه المملكة ... ١٤٨
- « الثانية والعشرون — في الخلع والتشريف في هذه المملكة ... ١٤٩
- المملكة الثانية — من ممالك بلاد المغرب مملكة تلمسان ، وفيها جملتان ١٤٩
- الجملة الأولى — في ذكر حدودها وقاعدتها وما آشتلت عليه من المدن
- والطريق الموصلة إليها ... ١٤٩
- « الثانية — في حال مملكتها ... ١٥١
- المملكة الثالثة — من بلاد المغرب الغرب الأقصى ، ويقال له بر
- العدوة ، وفيه ثلاثة [أربعة] مقاصد ... ١٥٢
- المقصد الأول — في بيان موقعها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها
- وما آشتلت عليه من المدن والجبال المشهورة ، وفيه
- أربع جمل ... ١٥٢
- الجملة الأولى — في بيان موقعها من الأقاليم السبعة ... ١٥٢
- « الثانية — في بيان قواعدها وما آشتلت عليه هذه المملكة من
- الأعمال الخ ... ١٥٣
- القاعدة الأولى — فاس ... ١٥٣
- « الثانية — سبتة ... ١٥٧
- « الثالثة — مدينة مراکش ... ١٦١
- « الرابعة — سجلماسة ... ١٦٣
- الجملة الثالثة — في ذكر جبالها المشهورة ... ١٧٣
- « الرابعة — في ذكر أنهارها المشهورة ... ١٧٤
- المقصد الثاني — في ذكر زروعها وحبوبها وفواكهها الخ ، وفيه خمس جمل ١٧٥

صفحة

- الجملة الأولى — في ذكر زروعها وجوبها الخ ... ١٧٥
- » الثانية — في مواشيها ووحوشها وطيورها ... ١٧٦
- » الثالثة — فيما تتعامل به من الدنانير والدرهم والأوزان والمكييل ... ١٧٧
- » الرابعة — في ذكر أسعارها ... ١٧٨
- » الخامسة — في صفات أهلها في الجملة ... ١٧٨
- المقصد الثالث — في ذكر ملوكها وما يندرج تحت ذلك ؛ وهم على طبقات ... ١٧٩
- الطبقة الأولى — ملوكها قبل الإسلام ... ١٧٩
- » الثانية — نواب الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ... ١٧٩
- » الثالثة — الأدارسة ... ١٨٠
- » الرابعة — ملوك بنى أبي العافية من مكاسة ... ١٨٢
- » الخامسة — بنو زيري بن عطية ... ١٨٥
- » السادسة — المرابطون من المثلثين من البربر ... ١٨٨
- » السابعة — ملوك الموحيدين ... ١٩١
- » الثامنة — ملوك بنى عبد الحق من بنى مرين ... ١٩٤
- المقصد الرابع — في بيان ترتيب هذه المملكة ؛ وفيه عشر جمل ... ٢٠٣
- الجملة الأولى — في ذكر الجند وأرباب الوظائف الخ ... ٢٠٣
- » الثانية — في زى السلطان والأشياخ الخ ... ٢٠٣
- » الثالثة — في الأرزاق المطلقة من قبل السلطان على أهل دولته ... ٢٠٤
- » الرابعة — في جلوس السلطان في كل يوم ... ٢٠٥
- » الخامسة — في جلوسه للظالم ... ٢٠٦
- » السادسة — في شعار السلطان بهذه المملكة ... ٢٠٦

صفحة

- الجملة السابعة — في ركوبه لصلاة العيد... ٢٠٧
- » الثامنة — في خروج السلطان للسفر ... ٢٠٨
- » التاسعة — في مقدار عسكر هذه المملكة... ٢٠٩
- » العاشرة — في مكاتبات السلطان ... ٢١٠
- المملكة الخامسة — من بلاد المغرب جبال البربر ... ٢١٠
- » السادسة — من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس؛ وفيها ست جمل ٢١١
- الجملة الأولى — في ذكر سمك أرضه وحدوده ... ٢١٢
- » الثانية — فيما أشتمل عليه من المدن؛ ويشتمل على عدة قواعد ٢١٣
- القاعدة الأولى — غرناطة ... ٢١٣
- » الثانية — أشبونة ... ٢٢٢
- » الثالثة — بطليوس ... ٢٢٣
- » الرابعة — إشبيلية ... ٢٢٥
- » الخامسة — قرطبة ... ٢٢٦
- » السادسة — طليطلة ... ٢٢٧
- » السابعة — جيان ... ٢٢٩
- » الثامنة — مرسية ... ٢٣٠
- » التاسعة — بلنسية ... ٢٣١
- » العاشرة — سرقسطة ... ٢٣٢
- » الحادية عشرة — طرطوشة ... ٢٣٣
- » الثانية عشرة — برشونة ... ٢٣٣
- » الثالثة عشرة — ينبلونة ... ٢٣٤

صفحة

الجملة الثالثة — في ذكر أنهارها ... ٢٣٤

» الرابعة — في الموجود بالأندلس ... ٢٣٦

» الخامسة — في ذكر ملوك الأندلس ؛ وهم على طبقات ... ٢٣٦

الطبقة الأولى — ملوكها بعد الطوفان ... ٢٣٦

» الثانية — الاشبانية ... ٢٣٧

» الثالثة — الشبوتقات ... ٢٣٨

» الرابعة — القوط ... ٢٣٨

» الخامسة — ملوكها على أثر الفتح الإسلامي ... ٢٤١

» السادسة — بنو أمية ... ٢٤٤

» السابعة — ملوك بني حمود من الإدارة ... ٢٤٧

» الثامنة — ملوك الطوائف بالأندلس ... ٢٤٨

الطائفة (وصوابه الطبقة) التاسعة ملوك المرابطين من لتونة ... ٢٥٨

» () العاشرة بنو الأحمر ... ٢٦٠

مملكة قشتالة ... ٢٧٠

» البرتغال ... ٢٧٠

» برشلونة ... ٢٧٠

» نبرة مما يلي قشتالة ... ٢٧١

الجملة السادسة — في ترتيب هذه المملكة (مملكة الأندلس) ... ٢٧١

الفصل الثالث — (أى من الباب الرابع) من المقالة الثانية في الجملة

الجنوبية عن مملكة الديار المصرية : من مصر والشام

والبحار ومضافاتها والمشهور منها ست ممالك ... ٢٧٣

صفحة

٢٧٣	المملكة الأولى — بلاد البجا
٢٧٥	» الثانية — النوبة
٢٧٩	» الثالثة — البرنو
٢٨٠	» الرابعة — الكام
٢٨٢	» الخامسة — مالى ومضافاتها وفيها ثمان جمل
٢٨٢	الجملة الأولى — فى ذكر أقاليمها ومدنها
٢٨٧	» الثانية — فى الموجود بهذه المملكة
٢٩٢	» الثالثة — فى معاملة هذه المملكة
٢٩٢	» الرابعة — فى ذكر ملوك هذه المملكة
٢٩٨	» الخامسة — فى أرباب الوظائف بهذه المملكة
٢٩٩	» السادسة — فى عساكر سلطان هذه المملكة وأرزاقهم
٢٩٩	» السابعة — فى زى أهل هذه المملكة
٣٠٠	» الثامنة — فى ترتيب هذه المملكة
	المملكة السادسة — من ممالك بلاد السودان ملكة الحبشة
٣٠٢	وهى على قسمين
٣٠٣	القسم الأول — بلاد النصرانية ويشتمل على ست جمل
٣٠٤	الجملة الأولى — فى ذكر قواعدهما
٣٠٤	» الثانية — فى الموجود بها
٣٠٧	» الثالثة — فى ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم
٣٠٧	» الرابعة — زعيم وسلاحهم
	» الخامسة — بطارقة الإسكندرية الذين عن توليتهم تنشأ
٣٠٨	ولاية ملوك الحبشة

صفحة

- الجملة السادسة — في ترتيب مملكتهم ... ٣٢٣
- القسم الثاني — من بلاد الحبشة ما بيد مسلمى الحبشة؛ ويشتمل على ست جمل ... ٣٢٤
- الجملة الأولى — فيما أشتملت عليه من القواعد والأعمال ... ٣٢٥
- » الثانية — في الموجود بهذه الممالك (أى ممالك السودان) ... ٣٢٩
- » الثالثة — في معاملاتهم وأسعارهم ... ٣٣١
- » الرابعة — في ملوكهم ... ٣٣٢
- » الخامسة — فى زى أهل هذه المملكة ... ٣٣٣
- » السادسة — فى شعار الملك وترتيبه ... ٣٣٤
- الفصل الرابع — من الباب الرابع من المقالة الثانية فى الجهة الشمالية عن ممالك الديار المصرية ومضافاتها خلا ما تقدم ذكره؛ وينقسم إلى قسمين ... ٣٣٨
- القسم الأول — ما بيد المسلمين مما فى شرق الخايج القسطنطينى فيما بينه وبين أرمينية وهى البلاد المعروفة ببلاد الروم؛ وفيه خمس جمل ... ٣٣٨
- الجملة الأولى — فيما أشتملت عليه من القواعد؛ وهى على ضربين ... ٣٤٠
- الضرب الأول — القواعد المستقرّة بها الملوك والحكام ... ٣٤٠
- » الثانى — من هذه البلاد ما لم يسبق إلى صاحبه مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ... ٣٤٩
- الجملة الثانية — فى ذكر الموجود بهذه البلاد ... ٣٥٦
- » الثالثة — فى معاملاتها وأسعارها ... ٣٥٧

صفحة

- الجملة الرابعة — في ذكر من ملك هذه البلاد ؛ وأشتهر من ملوكهم
طوائف ... ٣٥٨
- الطائفة الأولى — أولاد قرمان ... ٣٦٥
- » الثانية — بنو الحفيد ... ٣٦٦
- » الثالثة — بنو أيدين ... ٣٦٧
- » الرابعة — بنو منتشا ... ٣٦٧
- » الخامسة — بنو أورخان بن عثمان جق ... ٣٦٧
- الجملة الخامسة — في زى أهل هذه المملكة وترتيب الملك بها ... ٣٦٩
- القسم الثانى — من الجهة الشمالية عن الديار المصرية مايد ملوك
النصارى ؛ وهو ثلاثة أضرب ... ٣٦٩
- الضرب الأول — جزائر بحر الروم ... ٣٦٩
- » الثانى — ماشمالى بحر الروم ؛ وهو جهتان ... ٣٧٦
- الجهة الأولى — ماهو فى جهة الغرب عن الخليج القسطنطينى ؛
وهو قطران ... ٣٧٦
- القطر الأول — ماين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلس ؛ ويشتمل
على ممالك كبار وممالك صغار ... ٣٧٦
- المملكة الأولى — (من الممالك الكبار) مملكة القسطنطينية ؛
وملوكها طبقات ... ٣٧٦
- الطبقة الأولى — من ملك منهم قبل القياصرة ... ٣٨٢
- » الثانية — القياصرة قبل ظهور النصرانية فيهم ... ٣٨٤

صفحة

- الطبقة الثالثة — القياصرة المنتصرة إلى الفتح الإسلامي ... ٣٩٢
- » الرابعة — ملوك الروم بعد الفتح الإسلامي ... ٣٩٧
- المملكة الثانية — مملكة الألمان ... ٤٠٣
- » الثالثة — مملكة البنادقة ... ٤٠٤
- » الرابعة — » الجنويين ... ٤٠٥
- » الخامسة — بلاد رومية ... ٤٠٦
- المملكة الأولى — (من الممالك الصغار) مملكة المرا ... ٤٠٩
- » الثانية — بلاد الملفجوط ... ٤٠٩
- » الثالثة — بلاد إققرنس ... ٤١٠
- » الرابعة — مملكة بولية ... ٤١٠
- » الخامسة — بلاد قلقرية ... ٤١٠
- » السادسة — بلاد التسقان ... ٤١١
- » السابعة — بلاد اليازنة ... ٤١١
- القطر الثاني — مما غربى الخليج القسطنطيني الأرض الكبيرة ؛
وفيه ثلاث ممالك ... ٤١٢
- المملكة الأولى — مملكة الفرنج القديمة ... ٤١٢
- » الثانية — » الجلائقة ... ٤١٤
- » الثالثة — » اللبردية ... ٤١٥
- الجهة الثانية — ماشمالى مدينة القسطنطينية وبحر نيطش الخ ... ٤١٦

المقالة الثالثة

في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتب والولايات؛ وفيها أربعة أبواب ... ٤٢٣

الباب الأول — في الأسماء والكنى والألقاب؛ وفيه فصلان ... ٤٢٣

الفصل الأول — في الأسماء والكنى؛ وفيه طرفان ... ٤٢٣

الطرف الأول — في الأسماء؛ وفيه جملتان ... ٤٢٣

الجملة الأولى — في أصل التسمية والمقصود منها وتوزيع الأسماء

وما يستحسن منها وما يستقبح ... ٤٢٤

» الثانية — في مواضع ذكر الأسماء في المكاتب والولايات؛

وفيها أربعة أنواع ... ٤٢٧

النوع الأول — اسم المكتوب عنه ... ٤٢٧

» الثاني — » إليه ... ٤٢٨

» الثالث — » بسببه ... ٤٢٩

» الرابع — » من تصدر إليه الولاية ... ٤٣٠

الطرف الثاني — في الكنى؛ وفيه ثلاث جمل ... ٤٣٠

الجملة الأولى — في جواز الكنية؛ وهي على نوعين ... ٤٣١

النوع الأول — كنى المسلمين ... ٤٣١

» الثاني — كنى أهل الكفر والفسقة والمبتدعين ... ٤٣٢

الجملة الثانية — فيما يكنى به؛ وهو على نوعين ... ٤٣٣

النوع الأول — كنى الرجال ... ٤٣٣

» الثاني — كنى النساء ... ٤٣٥

صفحة

الجملة الثالثة — في التكني في المكاتب والولايات به وهو على ثلاثة

أنواع ... ٤٣٦

البوع الأول — تكني المكتوب عنه ... ٤٣٦

» الثاني — تكني المكتوب إليه ... ٤٣٧

» الثالث — » » بسببه ... ٤٣٧

الفصل الثاني — من الباب الأول من المقالة الثالثة في الألقاب

وفيه طرفان ... ٤٣٨

الطرف الأول — في أصول الألقاب به وفيه جملتان ... ٤٣٨

الجملة الأولى — في معنى اللقب والنعت وما يجوز منه وما يمتنع ... ٤٣٨

» الثانية — في أصل وضع الألقاب والنوع المؤدية إلى المدح ... ٤٤٠

الطرف الثاني — في بيان معاني الألقاب به وفيه تسع جمل ... ٤٤٤

الجملة الأولى — في الألقاب الخاصة بأرباب الوظائف المعبرة التي بها

انتظام أمور المملكة وقوامها به وهي قسمان ... ٤٤٤

القسم الأول — الألقاب الإسلامية به وهي نوعان ... ٤٤٤

النوع الأول — » القديمة المتداولة الحكم إلى زمان المؤلف به

وهي صنفان ... ٤٤٤

الصنف الأول — ألقاب أرباب السيوف ... ٤٤٤

» الثاني — » أرباب الأقلام ... ٤٥١

النوع الثاني — الألقاب المحدثه به وهي أربعة أصناف ... ٥٥٣

الصنف الأول — المفردة به وهي ضربان ... ٥٥٣

الضرب الأول — ما لفظه عربي ... ٤٥٣

» الثاني — » عجمي ... ٤٥٤

صفحة

- الصف الثاني — المركبة ؛ وهي ثلاثة أضرب ... ٤٥٥
- الضرب الأول — ما تمحض تركيبه من اللفظ العربي ... ٤٥٥
- » الثاني — » » » العجمي ؛ ولهذا الضرب
- حالتان ... ٤٥٦
- الحالة الأولى — أن تكون الإضافة إلى لفظ دار ... ٤٥٧
- » الثانية — » » إلى غير لفظ دار ... ٤٦٠
- الضرب الثالث — ما تركب من لفظ عربي ولفظ عجمي ؛ وله حالتان ... ٤٦١
- الحالة الأولى — أن يصدر بلفظ أمير ... ٤٦١
- » الثانية — أن لا يصدر اللقب بلفظ أمير ... ٤٦٢
- الصف الثاني — ألقاب أرباب الأقلام ؛ وهي على خمسة أضرب ... ٤٦٣
- الضرب الأول — » » الوظائف من العلماء ... ٤٦٣
- » الثاني — » » الكتاب ... ٤٦٤
- » الثالث — ألقاب أرباب الوظائف من كتاب الأموال ... ٤٦٥
- » الرابع — » » » من أهل الصناعات ... ٤٦٧
- » الخامس — » » » من الأتباع والحواشي
- والخدم ؛ وهم طائفتان ... ٤٦٨
- الطائفة الأولى — الأعوان ، وهم نبطان ... ٤٦٨
- التمط الأول — ما تمحضت ألفاظه عربية ... ٤٦٨
- » الثاني — ما تمحض لفظه عجميا ... ٤٦٨
- الطائفة الثانية — أرباب الخدم ؛ وهم نبطان ... ٤٦٩
- التمط الأول — ما يضاف إلى لفظ الدار ... ٤٦٩
- » الثاني — ما لا يتقيد بالاضافة إلى دار ولا غيرها ... ٤٧٠

صفحة

القسم الثانى — من ألقاب أرباب الوظائف ألقاب أرباب الوظائف

من أهل الكفر، والمشهور منهم طائفتان ... ٤٧٢

الطائفة الأولى — النصارى ... ٤٧٢

» الثانية — اليهود ... ٤٧٤

الجملة الثانية — فى ذكر الألقاب المرتبة على الأصول العظام، وهى نوعان ٤٧٥

النوع الأول — ألقاب الخلفاء المرتبة على لقب الخليفة، وهى صنفان ٤٧٥

الصف الأول — ماجرى منها مجرى العموم ... ٤٧٥

» الثانى — ألقاب الخلافة الخاصة بكل خليفة، وهى خمس طوائف ٤٧٧

الطائفة الأولى — خلفاء بنى العباس ... ٤٧٧

» الثانية — خلفاء بنى أمية بالأندلس ... ٤٧٨

» الثالثة — الخلفاء الفاطميون ببلاد الغرب ثم بالديار المصرية ٤٧٨

» الرابعة — الخلفاء الموحدون الذين ملوك إفريقية بتونس من

بقاياهم على عهد المؤلف ... ٤٧٩

» الخامسة — جماعة من ملوك الغرب من لاشبهة لهم فى دعوى

الخلافة ... ٤٧٩

النوع الثانى — ألقاب الملوك المختصة بالملك، وهى صنفان ... ٤٨٠

الصف الأول — الألقاب العامة، وهى ضربان ... ٤٨٠

الضرب الأول — الألقاب القديمة، والمشهور منها ألقاب ست طوائف ٤٨٠

الطائفة الأولى — التبابعة ملوك اليمن ... ٤٨٠

» الثانية — ملوك الفرس ... ٤٨١

» الثالثة — مصر من بعد الطوفان من القبط ... ٤٨٢

صفحة

٤٨٢	الطائفة الرابعة — ملوك الروم
٤٨٣	» الخامسة — » الكنعانيين بالشام
٤٨٣	» السادسة — » الحبشة
		الضرب الثاني — الألقاب المستحدثة ؛ والمشهور منها ألقاب
٤٨٤	ست طوائف
٤٨٤	الطائفة الاولى — ملوك فرغانة
٤٨٤	» الثانية — » أشروسنه
٤٨٤	» الثالثة — » الجلالقة
٤٨٥	» الرابعة — » فرنسة
٤٨٥	» الخامسة — » البندقية
٤٨٥	» السادسة — » الحبشة في زماننا
٤٨٦	الصف الثاني — من النوع الثاني الألقاب الخاصة
٤٨٨	الجملة الثالثة — في الألقاب المفترعة على الأسماء ؛ وهي أربعة أنواع
٤٨٨	النوع الأول — ألقاب أرباب السيوف ؛ وهم صنفان
٤٨٨	الصف الأول — ألقاب الجند من الترك ومن في معنائهم
٤٨٩	» الثاني — » الخدام الخصيان
٤٨٩	النوع الثاني — ألقاب أرباب الأقلام ؛ وهي على صنفين
٤٨٩	الصف الأول — ألقاب القضاة والعلماء
٤٩٠	» الثاني — » الكتاب من القبط
٤٩٠	النوع الثالث — ألقاب عامة الناس من التجار والعلماء السلطانية ونحوها
٤٩٠	» الرابع — » أهل الذمة من الكتاب والصيارف

صفحة

الجملة الرابعة — في أصل وضع الألقاب الجارية بين الكتاب ثم انتهاءها	
إلى غاية التعظيم ومجاورتها الحذف في التكميل	٤٩١
» الخامسة — في بيان الألقاب الأصول، وذكر معانيها وأشقاقها؛	
وهي صنفان	٤٩٣
الصنف الأول — ما يقع في المكاتبات والولايات	٤٩٣
» الثاني — من الألقاب الأصول ما يختص بالمكاتبات دون	
الولايات	٥٠٠
الجملة السادسة — في بيان الألقاب المفترعة على الأصول المتقدمة؛	
وفيهما مهيجان	٥٠٣
المهيح الأول — في بيان أقسامها؛ وهي على نوعين	٥٠٣
النوع الأول — المفردة؛ وهي صنفان	٥٠٣
الصف الأول — المجردة عن ياء النسب	٥٠٣
» الثاني — الملحق بها ياء النسب	٥٠٣
النوع الثاني — المركبة	٥٠٥

استلغات للقارئ — وقع في ص ٣٣ س ٦ من هذا الجزء بياض وحقيقته كما ذكره في "بغية المستفيد"
(وولي بعده ابنه الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف الح)

(تم فهرست الجزء الخامس من كتاب صبح الأعشى)

صَبْحُ الْأَسْبَحِ

الجزء السادس

بَارَ الْبَيْتِ الْخَدِوِيَّةِ

كِتَابُ

صُنْحُ الْأَسْبَةِ

نَالِيفَةُ

الْشَيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدَكِيِّ

الجزء السادس

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

المَهْيَعُ الثَّانِي

في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان، وبيان معانيها،
وَمَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَغَيْرِهِمْ
(وهي نوعان)

النوع الأول

(الألقاب الإسلامية، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المذكَّرة، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الألقاب المفردة المختصة في اصطلاح الكُتَّاب باسم الألقاب)

وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم ليسهل استخراجها .

حرف الألف

(الأتابكي) وهو من ألقاب أمير الجيوش وَمَنْ فِي مَعْنَاهُ، كالنائب الكافِل ونحوه،
وهو بالأتابك أخص . وقد تقدّم معنى الأتابك في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف،

وَأَنَّ أَصْلَهُ بِالطَّاءِ فَقُلِبَتْ تَاءٌ فِي الْأَسْتِعْمَالِ ، وَأَنْ مَعْنَاهُ « الْأَبُ الْأَمِيرُ » وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ النِّسْبَةُ فِيهِ لِلْبَالِغَةِ . نَعَمْ إِنْ نُسِبَ إِلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ كَانَتْ النِّسْبَةُ إِلَيْهِ حَقِيقَةً عَلَى بَابِهَا .

(الْأَنْثَى) مِنْ أَلْقَابِ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ الَّتِي يُكْتَبُ إِلَيْهِمْ بِهَا مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ ، مِثْلَهَا لَمَّا يُوجَدُ فِي مَكَاتِبَاتِهِمْ مِنَ الْأَلْقَابِ . وَهُوَ أَفْعُلُ التَّفْضِيلِ مِنَ النَّقْوَى .

(الْأَمِيرُ) بِالنَّاءِ الْمَثْلُثَةُ مِنْ أَلْقَابِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ : مِنَ الْقَضَاةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْكَتَّابِ وَنَحْوِهِمْ ، وَرَبَّمَا اسْتُعْمِلَ فِي أَلْقَابِ الصُّلَحَاءِ أَيْضًا . وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ الْمُخَالِصِ ، وَحِينَئِذٍ فَيُصْلَحُ أَنْ يَكُونَ لِقَبَا لِكُلِّ مَنْ نُسِبَ إِلَى الْمُخَالِصَةِ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ جَمِيعًا ، وَالْأَمِيرُ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ .

(الْأَيْلُ) بِالْمَثْلُثَةِ أَيْضًا مِنْ أَلْقَابِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ كَالْأَمِيرِ ، وَمَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ الْأَصِيلُ ، وَمِنْهُ قِيلَ مَجْدٌ مُؤْتَلٌ وَأَيْلُ أَيْ أَصِيلٌ . وَحِينَئِذٍ فَيُصْلَحُ أَنْ يَكُونَ لِقَبَا لِكُلِّ ذِي أَصَالَةٍ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ، وَالْأَيْلُ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ .

(الْأَجَلُ) يَكُونُ فِي الْأَصْطِلَاحِ مِنْ أَلْقَابِ السُّلْطَانِ كَمَا يَقَالُ السُّلْطَانُ السَّيِّدُ الْأَجَلُ وَيَكُونُ مِنْ أَلْقَابِ السَّامِيِّ بِغَيْرِ يَاءٍ فَمَا دُونَهُ فَيَقَالُ : « السَّامِيُّ الْأَمِيرُ الْأَجَلُ » وَنَحْوُ ذَلِكَ ، وَهُوَ مِمَّا يُنْكَرُ عَلَى كُتَّابِ الزَّمَانِ : لِاسْتِعْمَالِهِ فِي الْأَعْلَى وَالْأَدْنَى عَلَى مَاسِيَاتِي بَيَانِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . عَلَى أَنَّ هَذَا اللَّقَبَ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاتِمِيَّةِ كَانَ هُوَ أَعْلَى الْأَلْقَابِ وَأَرْفَعَهَا قَدْرًا ، حَتَّى قَالَ ابْنُ شَيْثٍ فِي « مَعَالِمِ الْكِتَابَةِ » : إِنَّهُ مُحْظُورٌ عَلَى غَيْرِ الْوَزِيرِ . وَقَدْ كَانَتْ الْوِزَارَةُ فِي زَمَانِهِمْ بِمَثَابَةِ السُّلْطَانَةِ فِي زَمَانِنَا ، فَتَصَرَّفَ فِيهِ الْكَتَّابُ حَتَّى اسْتَعْمَلُوهُ فِي أَدْنَى الرُّتَبِ أَيْضًا ، وَالْأَجَلُ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ .

(الأخَصُّ) من ألقاب أرباب السُّيُوف ، والحُجَّابُ يستعملونه في أدنى الألقاب مما تَسْقُط فيه ياء النسب : من السامى بغير ياء فإدونه ، على أن معناه رفيع : لأخذه من الخُصُوصية : وهى الانفراد بالشيء ، وكان الأحق أن يكون مختصاً بالآلزام المقرين دون غيرهم ؛ والأخصى نسبة إليه للبالغة .

(الأخَوِيُّ) من الألقاب المختصة في الغالب بالمكاتب الإخوانية ، وربما وقعت في المكاتب الملوكية إذا كان قدر المالكين المتكاتبين متقارباً ، وهو نسبة إلى الأخوة ، وكأنه جعله أخاه حقيقة .

(الأريب) من ألقاب أرباب الأقلام . وهو فى اللغة العاقل ، ومنه قيل للدَّهَّاء إرب بكسر الهمزة وإسكان الراء لأنَّ الدَّهَّاء من جملة العقل ، والأريبى نسبة إليه للبالغة .

(الأرقى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من الرقى : وهو الارتفاع والعلو فى الدرج .

(الأزكى) من ألقاب ملوك المغرب أيضا . وهو مأخوذ من الزكاة : وهى الزيادة ، كأنه نسبته إلى الزيادة فى الرفعة ونحوها .

(الأسرى) بالسين المهملة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من السرو وهو سَخَاء فى مروءة ، ومنه قيل لمن أشتمل على ذلك سرى ، وبه لقب من لقب «سرى الدين» .

(الأسفَهْسِلَاز) بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء من ألقاب أرباب السيوف ، وكان فى الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلى صاحب الباب ، على ما تقدم

بيانه في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية . ومعناه «مُقَدَّم العَسْكَر» وهو مُرَكَّب من لفظين : فارسيّ ، وتُرْكِيّ ، فأَسَفَهُ بالفارسية بمعنى 'المقدم' ، وسِلَّار بالتركية بمعنى 'العسكر' ، والعامة تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان : (أسپاسلار) بالباء الموحدة ، وكأنهم راعوا فيه معنى 'المقدم' في الجملة ، والباء تعاقب الفاء في اللغة الفارسية كثيرا ؛ ولذلك قالوا : أَصِيْهَان وَأَصْفِهَان بالباء والفاء جميعا ؛ والأَسْفَهْسِلَارِيّ نسبةٌ إليه للبالغة . وقد ذكر المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله في بعض دَسَائِيْرِهِ أن هذا اللقب يختصُّ بأمراء الطَّبَلْخَانَاةِ ، على أنه قد تُرِكَ أَسْتَعْمَالُهُ في زماننا ، وكأنهم كرهوا مشاركة بعض الأعوان فيه فأضربوا عنه لذلك ، أو لم يفهموا معناه فتركوه .

(الْأَسْنَى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من السَّناء بالمدّ : وهو الرفعة ؛ ويجوز أن يكون من السَّنا بالقصر : وهو الضياء .

(الْأَشْرَفُ) من ألقاب المَقَامِ والمَقَرِّ في مصطلح كُتَّاب الزَّمان على ما تقدّم ذكره ؛ وربما وقع أيضا في ألقاب ملوك المَغْرِبِ . وهو أَفْعَلُ التفضيل من الشَّرَف بمعنى 'العلو' .

(الْأَضْعَدُ) من ألقاب ملوك المَغْرِبِ ، وهو أَفْعَلُ التفضيل من الضُّعُودِ ضِدَّ الهَبُوطِ .

(الأَصِيلُ) من ألقاب أرباب الأفلام غالباً ، وربما وقع في ألقاب أرباب السُّيُوف إذا كان لصاحب اللقب عَرَاقَةُ نَسَبٍ ؛ وهو فَعِيلٌ من الْأَصْل بمعنى 'الحَسَب' ، والأَصِيلُ نسبةٌ إليه للبالغة . قال في "عرف التعريف" : ويختصُّ بمن له ثلاثة في الرِّياسة ، أبْنٌ عن أبٍ عن جدٍّ .

(الأختم) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو مأخوذ من الضخامة ؛ والمراد بها هنا العظمة . وهي في أصل اللغة الغلظ واستعملت في العظمة تجوزاً .

(الأعز) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وقد يستعمل في ألقاب من لم يثبت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه كالأخص : فيقال « الأعز الأخص » ونحو ذلك ؛ وهو أفعل التفضيل من العز .

(الأعظم) من ألقاب السلطان ، يقال فيه « السلطان الأعظم » ويقع في ألقاب ملوك المغرب أيضاً . وهو أفعل التفضيل من العظمة : وهي الكبرياء .

(الأعلى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعل التفضيل من العلو : وهو الارتفاع .

(الأعلم) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعل التفضيل من العلم الذى هو خلاف الجهل .

(الأفخم) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعل التفضيل من الفخامة : وهي العظمة والقوة .

(الأفضل) من ألقاب السلطان ؛ ويستعمل في ألقاب ملوك المغرب أيضاً . وهو أفعل التفضيل [من الفضل] بمعنى الزيادة ، والمراد الزيادة في الفضيلة .

(الأكمل) من ألقاب السلطان أيضاً ؛ ويستعمل في ألقاب ملوك المغرب وفى القاب من لم تثبت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه ؛ والأكمل نسبة إليه للبالغة .

(الإمام) من ألقاب الخلفاء كما يقال في المكاتبات عنهم « من عبد الله ووليه الإمام القلانى » وقد تقدم أن أول من تلقب به « إبراهيم بن محمد » أول من بويع له

بالخلافة من بنى العباس، ويقع أيضا في ألقاب أكابر العلماء . وأصل الإمام في اللغة الذي يُقْتَدَى به ؛ ولذلك وقع على المجتهدين كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة : وهم الشافعي، ومالك، وأبو حنيفة، وأحمد . والإمامي نسبة إليه للبالغة .

(الأجد) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وربما كُتِبَ به للتجار ونحوهم في ألقاب الصَّدر الأجل . وهو أفعُل التفضيل من المجد : وهو الشرف أو الأصالة .

(الأميري) من ألقاب أرباب السيوف . قال في "عرف التعريف" : وَيُكْتَبَ به لِكِبَار ... (١) ... وإن كانوا من أرباب الأقاليم . وذَكَر في دُستورِه آخَر أنه يكتب به لِنَقِيب الأشراف ولا يُكْتَب له القَضَائِي أصلا وإن كان من أرباب الأقاليم ؛ وقد تقدّم لقب الأمير مجرّداً عن ياء النسب وأصله المأخوذ منه في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف فأغنى عن إعادته هنا . وأعلم أنهم لم يستعملوا فيه النسبة لنفس الإمرة فلم يقولوا في النسبة إليه الإمري كما قالوا في النسبة إلى القضاء القَضَائِي .

(الأمين) من ألقاب التجّار الخَوَاجِكَة وألقاب الخُدّام المعروفين في زماننا بالطَوَاشِيَّة ، حُصِّوا بذلك لِأَثْمَان التجّار على الجَوَارِي والمماليك في حال جلبهم إلى الملوك، وأَثْمَان الخُدّام على الحَرِيم والمماليك بأبواب الملوك، وهو مأخوذ من الأمانة ضدّ الخيانة ؛ والأَمِينُ نسبة إليه للبالغة .

(الأوحد) يقع في الألقاب السلطانية ، ويكون من ألقاب أرباب الأقاليم لمن لا تثبت الياء في ألقابه من السامعي بغير ياء فإدونه، وفيه ما تقدّم في الكلام على

(١) يياض بالأصول ولعله لكبار الأمراء، أو الوزراء .

الأجل من الاعتراض على الكُتاب في جمعهم الأعلى والأدنى في لقب واحد؛
والأوحدى نسبة إليه للبالغة .

حرف الباء

(البارِعُ) من ألقاب أرباب الأفلام، وهو فاعلٌ من البراعة : وهى النهضة
بالشئ والتقدم فيه ؛ والبارِعُ نسبة إليه للبالغة .

(البلِغُ) من ألقاب أرباب الأفلام ، وأحسن ما يقع فى ألقاب ذوى البلاغة
من الكُتاب ونحوهم ، وهو فاعل من البلاغة : وهى تأديهُ كُنْهِ المراد بإيجازٍ لا يُخل ،
وإطنابٍ لا يُمل ؛ والبلِغُ نسبةٌ إليه للبالغة .

حرف التاء

(التَّقِىُّ) من ألقاب ملوك المَغْرِبِ يقال التقى الزكى ونحو ذلك ؛ وربما استعمل
بالديار المصرية فى ألقاب أرباب الأفلام وأهل الصلاح ؛ وهو مأخوذ من التقوى
كما تقدم فى الأتى .

حرف الجيم

(الجَلِيلُ) من ألقاب مَنْ يُكْتَبُ له الحاج كقَدِّمى الدولة ونحوهم ، ويقال فيه :
«الحاجُّ الجليلُ» ونحو ذلك ؛ والجَلِيلُ فى أصل اللغة العَظِيمُ ، وكان مقتضى الوضع
أن يكون لأعلى من هذه الرتبة .

حرف الحاء المهملة

(الحاجُّ) من ألقاب مقدِّمى الدولة ومِهناريَّة السيوت وَمَنْ فى معناهم وإن لم
يكن قد حجَّ ، وإن كان موضوعُ الحاجِّ فى العرف العام إنما هو لمن حجَّ البيت
وإنما أصطليح لهم على ذلك حتى صار كالعلم عليهم .

(الحافظ) من ألقاب المحدثين ؛ وأصله من الحفظ ضدَّ النسيان ، واختصَّ بالمحدثين لأحتياجهم إلى كثرة الحفظ لمتون الأحاديث وأسماء الرجال ونحو ذلك ؛ والحافظي نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحافل) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه الكثير الجمع ، أخذاً من قولهم وادِّ حافلٌ إذا كثر سبله .

(الحاكم) من ألقاب القضاة . قال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" : وأصله من الحكمة بفتح الكاف : وهي حديدةٌ مستديرةٌ في اللِّجَامِ تمنع الدابة من الجري والشباب ؛ سُمِّيَ بذلك لأنه يرّد الناس عن الظُّلْم ؛ وأكثر ما يستعمله كُتَّاب الزمان في عنوان المكاتبات في تعريف المكتوب إليهم ، وفي أثنائها في وصف المكتوب بسببه ؛ والحاكمي نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحائز) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعل من الحِيازَة : وهي الحِياطة ، والمراد الحائز للملك ، أو الحائز للفضائل ونحو ذلك .

(الحبر) من ألقاب أكابر العلماء - وهو بفتح الحاء وكسرهما لغتان ، والذي اختاره ابن قتيبة في "أدب الكاتب" الكسر ، وبه سُمِّيَ الحبر الذي يُكْتَبُ به ، ولكن الجارى على ألسنة الناس الفتح ؛ والحبري نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحجّجى) بضم الحاء وكسر الجيم المشددة وفي الآخرياء النسب من ألقاب أكابر القضاة والعلماء ، وهو منسوب إلى الحجّة بحذف تاء التانيث منه على قاعدة النسب ، كما تُحذف من طلحة ونحوه على ما هو مقتّر في علم النحو . وبعض جهلة الكُتَّاب يثبت فيه تاء التانيث مع النسب فيقولون الحجّجى وهو خطأ ؛ ثم النسبة فيه

حقيقةً لأن المنسوب إليه وهو الحجة غير من له اللقب، ويجوز أن تكون للبالغة بأن يجعل صاحب اللقب هو نفس الحجة تجوزاً وهو أبلغ.

(الحسيب) من ألقاب الشرفاء من ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة رضى الله عنها، أخذاً من الحسب: وهو ما يعلّمه الإنسان من مفاخر آباءه على ما ذكره جماعة من أهل اللغة ولذلك اختص في الاصطلاح بالشرفاء، إذ كان آباؤهم أعظم الناس مفاخر، لكن قد ذكر ابن السكيت في "إصلاح المنطق" أن الحسب يكون في الرجل وإن لم يكن له آباء لهم شرف؛ وعلى هذا فلا يختص هذا اللقب بذوى الأنساب التي فيها عراقة؛ والحسيب نسبة إليه للبالغة.

حرف الخاء المعجمة

(الخاشع) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وربما استعمل في العلماء، بل ربما استعمل في أرباب السيوف إذا كان المكتوب له متصفاً بذلك، بل ربما استعمل في ألقاب بطارقة النصارى من الباب وغيره، على ما سياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. والخاشع في اللغة الخاضع والمتذل، والخاشع نسبة إليه للبالغة.

(الخواج) من ألقاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم. وهو لفظ فارسي، ومعناه السيد، والخواجي زيادة كاف نسبة إليه للبالغة، وكان الكاف في لغتهم تدخل مع ياء النسب.

(الخير) بفتح الخاء وتشديد الياء المشناة تحت، من ألقاب أهل الدين والصلاح. وهو في أصل اللغة خلاف الشرير، ثم غلب استعماله فيمن غلب عليه الخير؛ والخير نسبة إليه للبالغة، وقيل أن يستعمله الكتاب إلا بإثبات الياء في آخره.

حرف الذال المعجمة

(الذَّخْر) بضم الذال وإسكان الخاء من ألقاب أرباب السيوف ، وربما أُطْلِقَ على غيرهم . وأصله في اللغة لما يُذَخَّرُ من النفائس ، وهو مصدر دَخَرْتُ الشَّيْءَ أَذَخَرَهُ ، وكثيرا ما يُغْلَطُ فيه فيجعل بالذال المهملة . ومَنْ وقع له الوَهْمُ في ذلك الشيخُ جمالُ الدين الأَسْنَوِيُّ في ” طَبَقَاتِ الْفُقَهَاءِ “ فأورد صاحب ” الذَّخَائِرِ “ في الدال المهملة ؛ والذَّخْرِيَّ نسبةً إليه للبالغة ، وأكثر ما يستعمله الكُتَّابُ كذلك .

حرف الراء المهملة

(الرَّبَّانِيَّ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهلِ الصَّلَاحِ ، وربما لُقِّبَ به العالمُ فيقال : « العالمُ الرَّبَّانِيَّ » قال الجوهريُّ ، وهو المَتَّالُهُ والعارِفُ بالله تعالى . قال تعالى : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ .

(الرُّحْلَةُ) بضم الراء من ألقاب أكابر العلماء والمُحَدِّثِينَ ، والرُّحْلَةُ في اللغة ما يُرْحَلُ إليه ، لُقِّبَ بذلك لأنه في حَيِّزٍ أَنْ يُرْحَلَ إليه للأخذ عنه . أما الرُّحْلَةُ بالكسر فالأَرْتَحَالُ ، والرُّحْلَى بالضم أيضا نسبةً إليه للبالغة .

(الرَّيِّسُ) بالهمزة على وزن فَعِيلٍ من ألقاب عِلْيَةِ النَّاسِ وأشرافِهِمْ ، ويقال : فيه رَيْسٌ على وزن قِيمَ قاله الجوهريُّ . وأصله من الرِّيَاسَةِ وهي رِفْعَةُ الْقَدْرِ وَعُلُوُّ الرُّتْبَةِ ، والرَّيِّسِيُّ نسبةً إليه للبالغة ، وذالِب ما يستعمله الكُتَّابُ كذلك ، وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّابِ .

حرف الزاي

(الزَّاهِدُ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهلِ الصَّلَاحِ ، وهو في اللغة خلافُ الرَّاغِبِ ، والمراد هنا مَنْ أَعْرَضَ عن الدنيا فلم يَلْتَفِتْ إليها ، والزَّاهِدِيُّ نسبةً إليه للبالغة .

(الرَّعِيمِيُّ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كتُواب السلطنة ومن في معناهم؛ وهو نسبة إلى الرِّعِم بمعنى 'السيد والكافل' وكأنَّه بولايته على القوم سادهم أو كفَّلهم وتولَّاهم ولم يستعملوا فيه الرِّعِم بغير ياء : لأنه إذا كان مختصا بكار أرباب السيوف دون أذانيهم، وجب إثبات الياء للبالغة .

(الزَّكِيُّ) من ألقاب المتدينين من أرباب الأقلام وغيرهم، يقال التقى الزكى ونحو ذلك . وهو في أصل اللغة بمعنى 'الزكى' وهو الزائد وقد تقدّم مثله في الأزكى في حرف الألف .

حرف السين المهملة

(السالِك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من السلوك، والمراد سلوك سبيل الرشاد الموصل إلى الله تعالى، والسالكي نسبة إليه للبالغة .

(السامي) من ألقاب المجلس، وقد تقدّمت الإشارة إليه في الكلام على الألقاب الأصول وأنه ينقسم إلى السامى بالياء والسامى بغير ياء فليراجع منه .

(السَّفيرى) قال في "عرف التعريف" : وهو من الألقاب الخاصة بالدَّوَّادار، على أنى قدر أيتّه في بعض الدساتير الشامية قد كُتب به لبعض التجار الخواجكة لسفارتهم بين الملوك وترددهم في الممالك بلحلب الممالك والجوارى ونحو ذلك وهو منسوب إلى السفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم نسبة مبالغة ولم يستعمله الكتاب مجزّدا عن الياء : لأنه إذا كان خاصا بهدين ورتبتهما عليه لا يليق بها حذف الياء لم يناسب استعماله مجزّدا عنها .

(السلطانيّ) من ألقاب الملوك فيثبت في ألقاب المقام الشريف ونحوه، فيقال المقام الشريف العالى السلطانيّ ونحو ذلك ؛ وهو منسوب إلى السلطان وقد تقدّم الكلام عليه في الكلام على أرباب الوظائف .

(السيد) من الألقاب السلطانية يقال السلطان السيد الأجل ونحو ذلك ؛ ويقع في اللغة على المالك والزعيم ونحوهما ؛ والسيد نسبة إليه للبالغة ، وهو من الألقاب الخاصة بالجناب الشريف فما فوقه . قال في "عرف التعريف" ولا يكتب به عن السلطان لأحد .

حرف الشين المعجمة

(الشاهنشاه) من الألقاب الملوكة المختصة بالسلطان وأكابر الملوك . وهو لفظ فارسي معناه بالعربية «ملك الأملاك» وقد ورد النهي عن التسمي به ؛ وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ أَخْنَعَ آسِمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلَاقِ ، لَا مَلِكَ الْأَمْلَاقِ إِلَّا اللَّهُ" . قال سفيان بن عيينة : معناه شاهنشاه ؛ ولذلك يحذفه المتدينون من الكتاب من الألقاب السلطانية ؛ وقد أشار إلى ذلك في "التتيف" في مكتبة صاحب المغرب .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي تَلْقِيبِ الْمُلُوكِ بِهَذَا اللَّقَبِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي سَلْطَنَةِ السُّلْطَانِ "جَلَّالِ الدَّوْلَةِ" السَّلْجُوقِيِّ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعَشْرِينَ وَأَرْبَعِينَ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَارِيخِهِ "الْكَامِلِ" وَذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ جَلَّالَ الدَّوْلَةِ كَانَ قَدْ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (الْقَائِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ) الْخَلِيفَةَ يَوْمَئِذٍ فِي أَنْ يُخَاطَبَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ فَاذْنَعُ ، فَكَتَبَ قَتَوَى لِلْفَقْهَاءِ فِي ذَلِكَ ؛ فَكَتَبَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ الطَّبْرِيُّ ، وَالْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الصَّيْغَرِيُّ . وَالْقَاضِي أَبُو الْبِيضِ الْبِيضَاوِيُّ ، وَأَبُو الْقَاسِمِ الْكَرْنِيُّ بِجَوَازِهِ ؛ وَمَنْعَ مِنْهُ أَقْضَى الْقَضَاةِ أَبُو الْحَسَنِ الْمَاوَرْدِيُّ ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ أَقْبَى بِجَوَازِهِ مَرَاجَعَاتٌ ؛ وَخُطِبَ لِحَلَالِ الدَّوْلَةِ بِ«مَلِكِ الْمُلُوكِ» وَكَانَ الْمَاوَرْدِيُّ مِنْ أَخْصِ النَّاسِ بِجَلَالِ الدَّوْلَةِ ، وَكَانَ يَتَرَدَّدُ إِلَى دَارِ الْمَمْلُوكَةِ كُلِّ يَوْمٍ فَلَمَّا أَقْبَى فِي ذَلِكَ بِالْمَنْعِ ، انْقَطَعَ وَلَزِمَ بَيْتَهُ خَائِفًا ،

وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم النحر؛ فاستدعاه جلال الدولة، فحضر خائفاً فأدخله عليه وحده، وقال له: قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالاً وجاهاً وقرباً منا وقد خالفتهم فيما خالف دواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحابة منك وآتباع الحق، وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم، وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إلى وحدك، وجمعت إذناً الحاضرين إليك، ليتحققوا عودى إلى ما يجب. فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر للخدمة بالانصراف.^(١)

(الشریف) من ألقاب المقرّ والحنّاب، من حيث إنه يقال المقرّ الشريف والحنّاب الشريف، وذكر في "عرف التعريف" أنه مختص بالأشراف أبناء فاطمة من على رضي الله عنهما، وكأنه يريد في الألقاب المطلقة التي لا تلي المقرّ والحنّاب وهو فعيل من الشرف وهو العلو والرفعة، قال ابن السكيت: ولا يكون إلا لمن له آباء يتقدمونه في الشرف بخلاف الحسيب ومن هنا جعله الدّاب أعلى رتبة من الكريم لأشتماله على قدر زائد لا يعتبر في الكريم من عرافة الأصل وشرف الحنّاب، والشريف نسبة إليه للبالغة.

(الشهير) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه المشهور الظاهر، والمراد هنا من أشهر علو قدره ورفعته.

(الشيخ) من ألقاب العلماء والصلحاء وأصله في اللغة الطاعن في السن، ولقب به أهل العلم والصلاح توقيراً لهم كما يوقر الشيخ الكبير، والشيخى نسبة إليه للبالغة.

حرف الصاد المهملة

(الصاحب) من ألقاب الوزراء. قال في "عرف التعريف": وهو مختص بأرباب الأنلام منهم دون أرباب البُيُوف. وهو في أصل اللغة اسم للصديق،

(١) أورد ابن الأثير هذه العبارة في كتابه الكامل (ج ٩ ص ١٧١).

وأول مَنْ لُقِّبَ به من الوزراء كافي الكُفَاةِ إسماعيلُ بنُ عَبَّادٍ، وذلك أنه كان يصحب الأستاذَ ابنَ العميدِ، فكان يقال له بذلك «صاحبُ ابنِ العميد» ثم غلب عليه حتى استُعْمِلَ فيه بالألف واللام، ثم صار لُقِّباً على كل مَنْ وَلِيَ الوزارة بعده . على أن كُتِّبَ الإنشاء بالممالك الشامية يلقَّبون العلماء من قضاة القضاة ومَنْ في معناهم بذلك، وهم على ذلك إلى الآن ، بخلاف كُتِّب الديار المصرية ، فإنهم يَقْصُرُونَهُ على الوزراء دون غيرهم كما تقدمت الإشارةُ إليه . والصاحِبِيُّ نسبةٌ إليه للبالغة . وهو المستعمل عند كُتِّب الإنشاء، وبغير الياء في العرف العام .

(الصالح) من ألقاب أهل الصَّلاح والصُّوفية يقال الشيخُ الصالحُ ونحو ذلك . وهو مأخوذ من الصَّلاح ضدَّ الفساد، ولم يستعملوه بأثبات ياء النسب فلم يقولوا الصالحِيّ ، وكأنهم تركوا ذلك خوفاً من الالتباس بالنسبة إلى البلد المعروف أو غيره .

(الصِّدْر) من ألقاب التُّجَّار ونحوهم . والمراد مَنْ يكون صَدْرًا في المجالس؛ وصدرُ كلِّ شيء في اللغة أوَّلُهُ، وعُبرَ عن صَدْر المجلس بأوله لأنه في الحقيقة أوَّلُ المجلس وكل جانب من جانبيه تَلَوُّهُ، والصِّدْرِيُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

حرف الطاء

(الظاهر) من ألقاب ملوك المَغْرِب، والمراد المتَّزِّع عن الأندلس .

حرف الظاء

(الظَهيريّ) من ألقابِ بَارِ أرباب السُّيُوف كأعيانِ الأمراء من نُوَّاب السلطنة وغيرهم ؛ وهو نسبةٌ إلى الظَّهير بمعنى العَوْن للبالغة، ومنه قوله تعالى :

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولم يستعملوه مجزدا عن ياء النسب لاختصاص المظاهرة بأكابر أرباب السيوف ، وهو بغير الياء لا يقع إلا على الأدوان منهم .

حرف العين

(العابد) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، وهو فاعل من العبادة وهي الطاعة . وربما استعمل في أرباب السيوف والأقلام أيضا : لانتصاف متصفيهم بذلك أو وقوعه أولا على متصفي به منهم ثم لزومه من بعده من أهل تلك المرتبة كما في نائب الشام ، حيث كتب لبندمر الخوارزمي في نيابته بذلك ؛ ثم لزم من بعده من نواب الشام والنائب الكافل على ما سيأتي ذكره في المكاتبات إن شاء الله تعالى .

(العادل) من ألقاب السلطان ، وهو خلاف الجائر ، وذلك أعلى ما وُصف به الملك ونحوه من ولادة الأمور : لأن العدل به تقع عمارة الممالك ، والعدل نسبة إليه للبالغة ؛ وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف من الثواب ونحوهم .

(العارف) من ألقاب أكابر أهل الصلاح ، وهو خلاف الجاهل ؛ ومنهم من يفرق بينه وبين العالم بأن المعرفة قد يتقدمها جهل والعلم لا يتقدمه جهل ، ولذلك لم يطلق اسم العارف على الباري سبحانه وتعالى بخلاف العالم فإنه يطلق عليه ؛ والعارف نسبة إليه للبالغة .

(العاضد) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وهو في أصل اللغة اسم للمعين ، يقال عَضَدْتُهُ أَعَضَدْتُهُ إِذَا أَعْتَمْتُهُ .

(العالم) من ألقاب السلطان ، وهو خلاف الجاهل . ثم هو في الحقيقة إنما هو من ألقاب العلماء إلا أنهم نعتوا به الملوك تعظيما ، إذا علم كل أحد يلاحم على

الأنصاف به ؛ والعالمى نسبة إليه للبالغة . وهو من الألقاب المشتركة في الاصطلاح بين أرباب السيوف والأقلام وإن كان المختص بها في الحقيقة العلماء .

(العالى) من الألقاب التى يشترك فيها أرباب السيوف والأقلام ، ويُوصف به المقام والمقر والجناب والمجلس فى إحدى حالاته ؛ وهو من العلاء بالمد وهو الشرف . يقال على بكسر اللام يعلى بفتحها إذا شرف ، ومنه قيل فى على ونحوه «علاء الدين» ويحتمل أن يكون من العلو فى المكان يقال فيه علا بفتح اللام يعلو علوا ؛ وسيأتى معنى الفرق بينه وبين السامى وإن كان بمعناه فى اللغة .

(العامل) من ألقاب أهل الصلاح ، والمراد المحيّد فى العمل المجتهد فى العبادة ؛ والعالمى نسبة إليه للبالغة ، وهو من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام كالعالمى .

(العريق) من ألقاب ذوى الأصالة ، وأكثر ما يقع على أرباب الأقلام ، والمراد من له عراقة فى كرم الأصل ؛ والعريق نسبة إليه للبالغة .

(العزیز) من ألقاب ديوان الخلافة ، يقال فيه «الديوان العزیز» على ما سيأتى بيانه فى المكتبة إلى أبواب الخلافة ، وربما استعملوه فى الولد فقالوا الولد العزیز ، ولم يستعملوه مضافا إلى ياء النسب .

(العُضد) من ألقاب أرباب السيوف ؛ وهو فى الأصل اسمٌ للمساعد : وهو ما بين المرفق والكف ، واستعمل فى المعين والمساعد لقيامه فى المساعدة مقام العضد الحقيقى من الإنسان ؛ ثم الأفضح فيه فتح العين مع ضم الضاد ، ويجوز فيه كسر الضاد وإسكانها مع الفتح أيضا وضم العين مع إسكان الضاد ؛ والعُضدى نسبة إليه للبالغة .

(العَوْنُ) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف، وهو نسبة إلى العَوْن وهو الظهير على الأمر المعاوَن عليه . ولم يستعملوه مجزئاً عن ياء النسب لوقوع العَوْن على الواحد من أعوان صاحب الشرطة ونحوه .

(الْعَلَامَةُ) بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء . قال الجوهري : وهو العالم للغاية ، وَقَلَّ أن يُستعملوه إلا في ألقاب المكتوب بسببه ونحو ذلك ، وحذف الهاء منه لغةً ، وليست بمستعملة بين الكتّاب أصلاً ؛ والعلامى نسبة إلى العلام أو العلامة للبالغة . قال في "عرف التعريف" : ويختص بالمفتي .

حرف الغين المعجمة

(الغازى) من ألقاب أرباب السيوف، وهو من الأسماء المنقوصة كالفاضى ونحوه، وَقَلَّ أن يُستعمل إلا في ألقاب السامى بغير ياء فى دونه .

(الغَوْتُ) بالثاء المثلثة من ألقاب الصوفية، وهو عندهم لقب على القطب الذى هو رأس الأولياء؛ وأصله فى اللغة من قول الرجل واغوثاه، وَقَلَّ أن تستعمله الكتّاب بل لم يستعملوه مضافاً إلى ياء النسب أصلاً .

(الغِيَاثُ) من ألقاب أرباب السيوف ، وأكثر ما يُستعمل فى الملوك ، وهو فى اللغة الأسم من استغاثني فأغثته ، وأصله الغواثى بالواو فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

حرف الفاء

(القاتح) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعلٌ من الفتح بمعنى النصر ، والمراد فتح الأمصار وتملكها .

(الفاضل) من ألقاب أرباب الأعلام ، وأكثر ما يقع في ألقاب العلماء ، وربما وقع في ألقاب الحُجَّاب ، وهو خلاف الناقص ، والمراد زائد الفضل ، وبه لُقِّب القاضي الفاضل « عبد الرحيم اليَسَّانِي » الكاتب المشهور ، والفاضل نسبة إليه للبالغة .

(الفائز) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعِلٌ من الفوز بمعنى النِّجاة أو الظَّفَر ، وقد يُسَاحَّح في التلقيب به فإن الفوز يطلق على الهلاك أيضا على ما هو مقرَّر في كتب اللغة ، ومثل ذلك يجبُ اجتنابه لما فيه من الاشتراك بين المحمود والمذموم ، إلا أنه غلب استعماله في النِّجاة حتى إنه لم يرد في القرآن إلا بمعناها ، ولذلك عول الحُجَّاب على استعماله .

(الفقيه) من ألقاب العلماء وهو اسم فاعِلٍ من فقهه بضم القاف إذا صار الفقه له سَجِيَّةً ، ككرم إذا صار الكرم له سَجِيَّةً . قال المسيلي^(١) في "شرح مختصر ابن الحاجب" : وإنما يقع على المجتهد دون المقلِّد ، أما إطلاقه على فقهاء المكاتب ونحوهم فعلى سبيل المجاز . على أن الحُجَّاب بالديار المصرية لم يستعملوا هذا اللَّقب إلا في القليل النادر ، بل كثير من جهلة الحُجَّاب وغيرهم يستصغرون التلقيب به ويعُدونه نقصاً ، وإنما يُعَظَّم به جِدُّ التعظيم أهل المغرب ، والفقيهيُّ نسبةٌ إليه للبالغة ، وهو مستعمل في ألقاب العلماء .

(الفريدي) من ألقاب أكابر العلماء ، وهو نسبةٌ إلى الفريد بمعنى المنفرد للبالغة ، والمراد المنفرد بما لم يُسَارِكْه فيه غيره ، ولم يستعملوه مجرّداً عن ياء النسب .

(١) كذا بالأصول ولله السبكي انظر شرح مختصر ابن الحاجب في كشف الظنون .

حرف القاف

(القاصوى) من ألقاب أرباب الأفلام ، وهو نسبة إلى القاضى للبالغة ، ثم فى الحقيقة كان يجب أن يختص بالقضاة الذين هم حكام الشريعة دون غيرهم ، إلا أنه توسع فيه حتى استعمل فى غيرهم من ألقاب أرباب الأفلام .

(القُدوة) بكسر القاف وضمة لغة من ألقاب العلماء والصالحاء ، وهو بمعنى الأسوة . يقال : فلان قُدوة يُقتدى به ؛ والقُدوى نسبة إليه للبالغة ، وحذفت منه تاء التانيث المبدلة من الهاء على قاعدة النسب عند النحاة ، وكثير من جهالة الكتاب يُثبتون فيه تاء التانيث مع النسب فيقولون القُدوتى ، وهو خطأ كما تقدم فى الكلام على المجمة فى حرف الحاء .

(القَضاميرى) من الألقاب التى يستعملها بعض الكتاب فى ألقاب من اجتمع له رئاسة السيف والقلم ، وهو نسبة إلى القضاء والأمير تشبيها بمذهب من يرى النسبة إلى المضاف والمضاف إليه جميعا فيقول فى النسبة إلى عبد شمس عبشمى ، وإلى عبد الدار عبدرى ، ونحو ذلك ، وهو مذهب مرجوح على ما تقدم بيانه فى المقالة الأولى فى الكلام على النحو ، والأحسن فيه النسبة إلى كل منهما على أنفراده ، فيقال القضاى الأميرى ، أو الأميرى القضاى ؛ وعلى العمل به فاللائق بعلو الرتبة أن يقال القاضيرى ليكون مرجبا من القاضوى والأميرى ، إذ كان القاضوى فى المعنى أبلغ من القضاى لما فى القاضوى من البالغة على ما تقدم بيانه .

(القضاى) من ألقاب أرباب الأفلام ، وهو نسبة إلى القضاء فلا مبالغة فيه . (القطب) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، وهو عندهم عبارة عن رأس الأولياء الذى عليه مدارهم كما تقدم فى الغوث ، وقيل أن يستعمله الحباب ؛

ولم يستعملوه مضافاً إلى ياء النسب فيما وقفت عليه أصلاً . والقُطْبُ في أصل اللغة كَوَكَبٌ بين الجدَى والفرَقْدَيْنِ يدور عليه الفَلَكُ فيما قاله الجوهري . والتحقيق أنه نقطة متوهمة بالقرب من هذا الكوكب على ما هو مقرر في علم الهيئة ، ولذلك قيل لسيّد القوم الذي عليه مدار أمرهم قُطْبُ بنى فُلَانٍ ، وَمِنْ هُنَا جَبَرُوا عَنْ مَدَارِ الْأَوْلِيَاءِ بِالْقُطْبِ . وَقُلَّ أَنْ يَسْتَعْمَلَهُ الْخُطَّابُ ، ولم يستعملوه مضافاً إلى ياء النسب فيما وقفت عليه .

(القَوَامِي) بفتح القاف من ألقاب أرباب السيوف . وهو نسبة إلى القَوَام وهو العدل . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ولم يستعملوه مجزئاً عن ياء النسب .

حرف الكاف

(الكافِلُ) من الألقاب المختصة بنائب السلطنة بالحضرة ، يقال فيه النائب الكافل ونحو ذلك ، والكافل في اللغة الذي يَكْفُلُ الإنسانَ وَيَعُولُهُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ولُقِّبَ بذلك لأنه يكفل الرعية ويعولهم ، والكافلي نسبة إليه للبالغة . قال في "عرف التعريف" : وهو مختص بنائب سلطان أو وزير كبير . وذكر في دستور آخر أنه لا يكتب به لغيرهما .

(الكبير) من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأفلام ، وهو في الأصل خلاف الصغير ، والمراد هنا الرفيع الرتبة ، والكبيرى نسبة إليه للبالغة .

(الكريم) من ألقاب المقرّ والجنّاب ، ويشترك فيه أرباب السيوف والأفلام ، والكريمُ خلاف اللئيم فيما يقتضيه كلام الجوهري حيث قال : الكَرَمُ نقيضُ اللُّؤْمِ ، وحينئذ فيكون المراد بالكريم الخالص من اللؤم ، ومن ثم جعل دون الشريف

في الرتبة، إذ في الشرف قدر زائد على ذلك، وهو اعتبار ثبوت رفعة القدر، بل اعتبار ذلك في آبائه أيضاً كما قاله ابن السكيت على ما تقدم ذكره في الكلام على لقب الشريف، ويوضح ذلك أن الفقهاء قالوا يستحب في الزوجة أن تكون نسبية فعمله بعضهم على الصحيحة النسب احتراماً بذلك عن بنت الزنا، وحمله آخرون على العراقة في النسب، والأول في معنى الكرم الذي لم يعتبر فيه سوى خلوصه من اللؤم، والثاني بمعنى الشريف الذي اعتبر فيه قدر زائد؛ ثم هو فعيل من كرم بضم الراء إذا صار الكرم له سجيّة كما تقدم في الفقيه.

(الكفيلي) من ألقاب أكابر نواب السلطنة، وهو أدلى من الكافل، لأن صيغة فعيل أبلغ من صيغة فاعل على ما هو مقرر في علم النحو والتصريف.

حرف اللام

(الليبي) من ألقاب أرباب الأقاليم، وهو فعيل من اللب وهو العقل؛ والليبي نسبة إليه للباغة.

(اللوزدي) بالذال المعجمة من ألقاب أرباب الأقاليم، وهو الذكي القلب.

حرف الميم

(الماجد) من ألقاب أرباب الأقاليم غالباً، وربما أطلق على غيرهم، وهو مختص بذوى الأصالة فقد قال ابن السكيت إن المجد لا يكون إلا بالآباء، والماجد نسبة إليه للباغة.

(المالك) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف والأقاليم. قال في "عرف التعريف": ولا يكتب به عن السلطان لأحد، وهو نسبة إن المالك الذي هو خلاف المملوك للباغة، ولم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب.

(المُناغِرُ) بالثاء المثلثة من ألقاب السلطان، والمراد القائمُ بسدِّ الثغور : وهى البلادُ التى فى نَحْرِ العدو، أخذًا من الثَغْر وهو السِّنّ، لأنه كالإِصْبَاحِ على الحلق الذى يمتنع الوصول إليه إلا منه ؛ والمُناغِرُ نسبةٌ إليه للبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُنُوب السلطنة ونحوهم .

(المتَصَرِّفُ) من ألقاب الوزراء وَمَنْ فى معناهم ، والمراد مَنْ ينفذ تصرفه فى الأمور، ولم يستعملوه مجزداً عن ياء النسب .

(المجاهِدُ) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ المجاهدُ فى سبيل الله تعالى، وربما استُعمل فى ألقاب السامى من غير ياء فى دونه كما تقدّم فى الغازى ؛ والمُجاهِدُ نسبةٌ إليه للبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُنُوب السلطنة ونحوهم .

(المُجتهدُ) من ألقاب العلماء ، والمرادُ به فى الأصل مَنْ يَسْتَنْبِطُ الأحكامَ الشرعيةَ من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وقيل أن يستعمله الكُتّابُ والمُجتهدُ نسبةٌ إليه للبالغة . وأكثرُ استعماله كذلك .

(المُحْتَرَمُ) من ألقاب العامة ممن يلقَّبُ بالصَّدرِ الأجل . فيقال : «الصَّدرُ الأجلُّ الكبيرُ المحترمُ» ونحو ذلك .

(المُحَقِّقُ) من ألقاب العلماء ، وربما استُعمل فى ألقاب الصُّوفية ، والمراد أنه يأتى بالأشياء على حقائقها لحدة ذهنه وصحة حدسه ؛ والمُحَقِّقُ نسبةٌ إليه للبالغة .

(المُختارُ) من ألقاب أرباب السيوف غالبا ، ويختص بالسامى بغير ياء فى دونه ، وهو اسمٌ مفعولٍ من الاختيار ، بمعنى أن الملوكة وأرباب الأمور يختارونه ، على أن اسمَ الفاعل منه أيضا المختارُ كلفظ المفعول على السواء وإنما تُرشد إليه القرائن .

(المَخْدُوم) من الألقاب المختصة بالمكاتبات، والمراد مَنْ هُوَ فِي رُتْبَةٍ أَنْ يَكُونَ مَخْدُومًا لِعَلْوِ رَتْبَتِهِ وَسُمُوِّ مَحَلِّهِ ؛ وَالْمَخْدُومِيّ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ . قَالَ فِي "عَرَفِ التَّعْرِيفِ" : وَلَا يُكْتَبُ بِهِ عَنِ السُّلْطَانِ لِأَحَدٍ .

(الْمَدَبِّرِيّ) من ألقاب الوزراء وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ كُتَّابُ السِّرِّ وَنَحْوُهُمْ ، وَهُوَ نِسْبَةٌ إِلَى الْمَدَبِّرِ بِكسر الباء الموحدة : وَهُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ وَمَا تَوَلَّى إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُ ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلُوهُ مَجْرَدًا عَنْ يَأِ النَّسَبِ .

(الْمَدَقِّقُ) من ألقاب العلماء، وهو الَّذِي يُنْعَمُ النَّظَرُ فِي الْمَسَائِلِ وَيَدَقِّقُهُ ؛ وَالْمَدَقِّقِيّ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ .

(الْمُرَابِطُ) من الألقاب السلطانية، وهو مُفَاعِلٌ مِنَ الرِّبَاطِ : وَهُوَ مُلَازِمَةٌ تُغَرِّبُ الْعَدُوَّ ؛ وَالْمُرَابِطِيّ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ . وَهُوَ مِنْ أَلْقَابِ أَكْبَرِ أَرْبَابِ السِّيُوفِ ، كَنُزَابِ السُّلْطَانَةِ وَنَحْوِهِمْ .

(الْمُرَبِّيّ) من ألقاب الصوفية، والمراد مَنْ يَرْبِيّ الْمُرِيدِينَ وَيَسَلِّكُهُمْ وَيَعْرِفُهُمْ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

(الْمُرْتَضَى) من ألقاب أرباب السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ، وَيَخْتَصُّ بِالسَّامِيِّ بِغَيْرِ يَاءٍ فَمَا دُونَهُ ، وَالْمُرَادُ مَنْ يَرْضَاهُ وَلَأَةُ الْأُمُورِ وَيَخْتَارُونَهُ .

(الْمُرْشِدُ) من ألقاب ملوك المغرب، وربما اسْتَعْمِلَ فِي أَلْقَابِ الصُّوفِيَّةِ ، وَالْمُرَادُ مَنْ يُرْشِدُ النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمُ السَّبِيلَ ؛ وَالْمُرْشِدِيّ نِسْبَةً إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ .

(الْمُسَدِّدِيّ) من ألقاب أرباب السُّيُوفِ وَأَلْقَابِ الزُّرَّاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، وَهُوَ بَفَتْحِ الدَّالِ الْمَشْدَدَةِ نِسْبَةً إِلَى الْمُسَدِّدِ ، وَهُوَ اسْمٌ مَفْعُولٌ مِنَ السَّدَادِ بِالْفَتْحِ : وَهُوَ

الصَّوَابُ والقَصْدُ من القول والعمل . ويجوز أن يكون بالكسر على أنه اسمُ فاعِلٍ منه بمعنى أنه يُسَدَّدُ غيره ، ولم يستعملوه مجرِّداً عن ياء النسب .

(المسلِّك) بتشديد اللام المكسورة من ألقاب الصوفيَّة ، وهو اسمُ فاعِلٍ من تسليك الطريق وهو تعريفُها ، والمراد تعريفُ المريدين الطريقَ إلى الله تعالى ؛ وأصل التسليك إدخالُ الشيء في الشيء ، ومنه قيل للخيط سلك ، لقب بذلك لإدخاله المريدين في الطريق ، والمسلِّك نسبة إليه للبالغة .

(المُشيدي) بتشديد الياء المكسورة من ألقاب أكابر أرباب السيوف ، كُنُوب السلطنة ونحوهم ، وهو نسبةٌ إلى المشيد فاعِل من التشديد وهو رفعُ البناء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَصِّرْ مَشِيداً ﴾ أى مرتفع ، والمراد أنه يُشَيِّد قواعد المملكة ويرفعها ، ولم يستعملوه مجرِّداً عن ياء النسب إذ لا يليق بالأدنين .

(المُشيرى) من ألقاب الوزراء وأكابر الأمراء ومن ضاهاهم من يؤخذ رأيه في الأمور . قال في "عرف التعريف" : ولا يُسمَحُ به لأحدٍ من أرباب السيوف ما لم يكن مقدِّم ألف ، وهو نسبةٌ إلى المُشير : وهو الذى يؤخذ رأيه . وأختلف في أصله المأخوذ منه فقيل : من شُرْتُ العسل إذا استخرجته من كَوَّارة النحل ، لأنَّ الرأى يُستخرجُ من المُشير . وقيل من شُرْتُ الناقة إذا عرضتها على الحوض لأنَّ المستشار يعرض ما عنده على المُشير ، ولم يستعملوه مجرِّداً عن ياء النسب لانتحاطه عن رتبة الأكابر .

(المُظَاهِر) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه المُعاون أخذاً من المُظَاهرة : وهى المُعَاوَنَة .

(المُظَفَّر) من الألقاب السلطانية ، أخذاً من الظَّفَر وهو النَّصْر ، والمُظَفَّرى نسبة إليه للبالغة ، وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف .

(المُعْرَق) بضم الميم وإسكان العين وكسر الراء من ألقاب ملوك المغرب، والمراد به من أَعْرَقَ في الكَرَم . على أن المُعْرِق قد يُطْلَق في اللغة على المُعْرِق في اللُّؤْم أيضا فهو من الأضداد، ومثل ذلك يُجْتَنَب في التلقيب .

(المُعَزَّز) بزائين معجمتين الأولى منهما مشددة مفتوحة من ألقاب ملوك المغرب، وهو آسمُ مفعول من العَزَّ خلاف الدَّلَّ، ومنه قراءة من قرأ (ويعزِّروه ويوقِّروه) بزائين معجمتين .

(المُعَظَّم) بفتح الظاء المشددة من ألقاب ملوك المغرب أيضا، وهو آسمُ مفعول من العَظْمَة وهي الجلالة، وربما أَسْتَعْمِلَ في ألقاب بعض ملوك الكُفَر على ماسياتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(المُفَحِّم) بفتح الخاء المعجمة المشددة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذ من الفَحَامَة وهي الضَّخَامَة .

(المُفَوِّه) بفتح الواو المشددة من ألقاب البُلَفاء من الكُتَّاب وغيرهم . وهو البليغ اللسن، والمُفَوِّه نسبة إليه للبالغة .

(المُفِيد) من ألقاب العلماء، وهو آسمُ فاعِلٍ من الإفادة وهي إنالة الشخص مالم يكن حاصلًا عنده؛ والمُفِيد نسبة إليه للبالغة .

(المُقَدَّم) بفتح الدال المشددة من ألقاب أرباب السيوف . ويختص بمقدمي الألوف من الأمراء، والمراد أنه مُقَدَّم على مضاهيه من الأمراء والأجناد، ولم يستعملوه مجزدا عن ياء النسب .

(المُقَرَّب) بفتح الراء المشددة من ألقاب الخُدَّام والخَوَاجِكَةِ ، والمراد أنه مقربٌ عند الملوك وَمَنْ في معناهم ، وهو من القُرْب خلاف البُعد ؛ والمُقَرَّبُ نسبة إليه للبالغة .

(المُكَرَّم) بفتح الراء المشددة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من الكرامة .

(المَلِكِيّ) بفتح اللام من ألقاب المَلِك وألقاب أتباعه المنسوبين إليه من الأمراء والوزراء وَمَنْ في معناهم ؛ وهو نسبةٌ إلى المَلِك بكسر اللام وإنما فُتِحَتْ لأمه في النسب جَرًّا على قاعدة النسب في تَمَرُّقائه ينسب إليه تَمَرُّقِيّ بفتح الميم على ما هو مقرر في علم النحو . على أن كثيرا من كُتَّاب الزمان يَغْلَطون فيه فيكسرون لأمه في النسب أيضا وهو خطأ . ثم النسبةُ إن كانت في حق المَلِك نفسه كقولهم في ألقاب المَلِك المَلِكِيّ ، فالنسبة فيه للبالغة ، وإن كانت في حق أحدٍ من أتباعه كقولهم في حق بعض الأمراء ونحوهم المَلِكِيّ الفلاني فالنسبة فيه على حقيقة النسب .

(المُجَدِّد) بفتح الجيم المشددة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من المجد وهو الشرف . وقد تقدّم في الكلام على الماجد عن ابن السكيت أنه يكون المجد^(١) للرجل وإن لم يتقدّمه شرف آباء .

(المُهْدِيّ) بكسر الهاء المشددة من ألقاب أكابر أرباب السيوف ، نسبةٌ إلى المِهْد : وهو الذي يمهّد الممالك ويُدَوِّخها ، والنسبة فيه للبالغة ، ولم يستعملوه مجزأ عن ياء النسب .

(١) المنقول في كتب اللغة عن ابن السكيت أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء والحسب والكرم يكونان للرجل وإن لم يكن له آباء كرام وقد نقل المؤلف نفسه هذا المعنى في غير هذا الموضع فنبه .

(الْمُنْتَخَب) من ألقاب التُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ : وهو المختار ؛ والمتَّخَى نسبةً إليه للبالغة .

(الْمُنْفِذِي) بكسر الفاء المشددة وبالذال المعجمة من ألقاب الوزراء ومن في معنهم نسبة إلى المنفذ : وهو الذي له معرفة بتنفيذ الأمور ووضع الأشياء في مواضعها ، والنسبة فيه للبالغة ؛ ولم يستعملوه مجزداً عن ياء النسب .

(الْمُنْصِفِي) من ألقاب الوزراء وولاة الأمور نسبةً إلى الْمُنْصِف : وهو الذي يُنْصِفُ المظلوم من الظالم ، والنسبة فيه للبالغة ؛ ولم يستعملوه مجزداً عن ياء النسب .
(الْمَنْصُورُ) من الألقاب السلطانية ، يقال منه « المؤيد المنصور » ونحو ذلك ، ومعناه ظاهر ، والمنصورى نسبة إليه للبالغة ؛ وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُنُوبِ السلطنة ونحوهم .

(الْمُؤْتَمِنُ) من ألقاب الخُدَّامِ والتُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ ، والمراد أن الخُدَّامَ يُؤْتَمِنُونَ على الحرم والممالك في الحضر ، والتُّجَّارُ يُؤْتَمِنُونَ على الممالك والجواري في السفر ، أو يُؤْتَمِنُونَ على أخبار الممالك وأحوالها ، فلا يُخْبِرُونَ عن مملكة بمملكة أخرى إلا بما فيه السَّداد .

(الْمَوْلَى) من ألقاب الكُتَّابِ ، وأكثر ما يجري ذلك في تعيين كاتب السر ونحوه . فيقال : « المولى فلان الدين » والمراد هنا السيد ، والمولوى نسبةً إليه للبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف والأقلام . قال في « عُرف التعريف » : ولا يُكْتَبُ به عن السلطان لأحد . على أن المولى لفظٌ مشتركٌ يقع في اللغة على السيد كما تقدم ويعبر عنه بالمولى من أعلى ؛ ويقع على المملوك والعتيق ويعبر عنه بالمولى من أسفل ؛ ويقع على المنضم إلى القبيلة من غير أنفسهم ، كما يقال في الإمام

لِلْبَحَارِيِّ « الْجُعْفَى مَوْلَاهُمْ » بمعنى أنه ليس من صُلب القبيلة ؛ وَيُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ أَيْضًا . وَإِذَا كَانَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمَوْلَى مِنْ أَعْلَى وَالْمَوْلَى مِنْ أَسْفَلِ فَكَانَ الْأَحْسَنُ الْإِضْرَابَ عَنْهُ .

(المؤيد) بفتح الياء المشددة من الألقاب السلطانية ، وبالكسر من ألقاب السامية بالياء فمادونه ، والمراد أنه يؤيد الملك وينصره ، وكلاهما مأخوذ من الأيد وهو القوة ، والمراد أن الله تعالى يؤيده ويؤويه ، ومنه قولهم في الدعاء : « أيد الله تعالى » أى قواه ؛ والمؤيدى بالفتح من الألقاب الملوكية نسبة إلى المؤيد بالفتح للبالغة ؛ وبالكسر من ألقاب أكابر أرباب السيوف نسبة إلى المؤيد بالكسر للبالغة .

(الملاذى) بالذال المعجمة من ألقاب الوزراء ومن في معناهم من ولاية الأمور . وهو منسوب إلى الملاذ بمعنى الملجأ نسبة مبالغة ؛ ولم يستعملوه مجزأ عن ياء النسب .

حرف النون

(الناسك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، ومعناه العابد أخذًا من الشك وهو العبادة ؛ والناسكى نسبة إليه للبالغة . وهو من ألقاب الصلحاء أيضا ، وربما كتبت به لأرباب السيوف والأقلام إذا كان فيهم من ينسب إلى الصلاح .

(النوى) من ألقاب ديوان الخلافة وما في معناه من متعلقاتها ، يقال فيه : « الديوان العزيز النوى » ونحو ذلك . ويقع أيضا في ألقاب ولاية العهد بالخلافة ؛ وربما وقع في ألقاب الأشراف . وهو نسبة إلى النبوة لانتساب الخلافة العباسية إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتساب الأشراف إلى أخته فاطمة رضي الله عنها .

(النَّسَبُ) من ألقاب الشُّرفاء أبناءِ فاطمةَ من عليّ بن أبي طالب رضى الله عنهما، والمراد العريق في النَّسَب؛ لُقِّبوا بذلك لأنهم أعرقُ الناس نسباً، لانتسابهم إلى بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم جوازُ نسبة أولاد بناته إليه بخلاف غيره، على ما هو مقرر في كُتُب الفقه. وقد أوضحت ذلك في كتابي المسمَّى بـ «الغُيُوثُ الهوامع»، في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع» في أوائل النكاح؛ والنَّسَبُ نسبةٌ إليه للبالغة.

(البَصِير) من ألقاب أرباب السيوف للجلس السامى بالياء فن دونه. وهو بمعنى الناصر إلا أنه أبلغ منه، لأن صيغة فَعِيل أبلغ من صيغة فاعِل على ما تقدّم؛ والنَّصِيرى نسبةٌ إليه للبالغة في نصره.

(النَّظَامِي) من ألقاب الوزراء ومن في معنهم، وهو نسبة إلى النَّظَام وهو صورة الاجتماع والائتنام، ومنه نظم اللؤلؤ وغيره، والمراد أنه يكون به انتظام الأمور والائتنامها، وحينئذ يكون النسب فيه على حقيقته، لأنه نسبة إلى غير صاحب اللَّقَب؛ ويجوز أن تكون النسبة فيه للبالغة على معنى أن صاحب اللقب قد جعل^(١) عن النظام تجوزاً؛ ولم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب.

(النُّونِي) بضم النون وفتح الواو وسكون الياء المشناة تحت ونون في الآخر من ألقاب كُفَّال الممالك بالممالك القانية: كآب السلطنة، وأمراء الألوس، والوزير ونحوهم فيما كان عليه مملكة إيران إلى آخر مملكة أبي سعيد؛ والنُّونِي نسبةٌ إليه للبالغة. قال في «التثقيف»: وهو بمثابة الكافلي في ألقاب الثَّواب. قال: وهو نعت يستعمل دائماً لأهل تلك البلاد ولا يستعملون الكافلي أصلاً.

(١) أى أطلق عليه النظام.

حرف الهاء

(الهُمَام) من ألقاب أرباب السيوف ، والمراد الشُّجَاعُ ؛ والهُمَامِيُّ نسبة إليه للبالغة .

حرف الواو

(الوالِدِيّ) من ألقاب المُسَنِّين من الأكابر ، وهو نسبة إلى الوالد ، وكأنه جعله والدًا له فتكون النسبةُ إليه على حقيقة النسب ، لأن النسبة فيه ليست إلى صاحب اللقب نفسه ، وربما قصد بذلك الوالد حقيقة ؛ وأكثر ما يقع هذا اللقب في المكاتبات .

(الوَرِيع) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ واهل الصلاح ، وربما لُقِّب به أربابُ السيوف والأقلام أيضا إذا آتصفوا بذلك ؛ والمراد من يَتَرَّه عن الوقوع في الشُّبُهَات . وهو في اللغة التَّقَيُّ ، يقال منه وَرِيعَ يَرِيعُ بكسر الراء فيهما وَرَعًا فهو وَرِيعٌ ؛ والوَرِيعِيّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الْوَزِيرِيّ) من الألقاب الخاصة بالوزراء من أرباب السيوف والأقلام . وهو نسبة إلى الوزير ، وقد تقدّم معناه واشتقاقه في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف .

(الْوَلَدِيّ) من ألقاب الأحداث من الرؤساء ، وهو نسبة إلى الولد ، كأنه جعله ولداً له ، وربما وقع على الولد حقيقة ؛ وأكثر ما يقع في المكاتبات كما تقدّم في الوالِدِيّ .

حرف اللام ألف

(الْأَلَمَعِيُّ) من ألقاب الأذكياء . قال الجوهري : ومعناه الذكي المتوقد .

حرف الياء

(الْيَمِينِيُّ) من ألقاب الدّوّادار وكاتب السرّ والحاجب . قال في "عرف التعريف" ولا يقال لغيرهم ، وهو نسبة إلى اليمين كأنه يمين السلطان الذي يتناول به الأشياء ، وإلا فجلّس كاتب السرّ بدار العدل عن يسار السلطان ، والدّوّادار والحاجب قائمان أمامه .

الضرب الثاني

(المرْكَبَةُ المعبر عنها في اصطلاح الكتّاب بالنعوت)

(وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم أيضا)

حرف الألف

(أَتَابِكُ الْعَسَاكِر) من نعوت الأمير الأتابك وَمَنْ في معناه كالنائب الكافل وَمَنْ في رُبَّتِهِ . وذكر في "عرف التعريف" أنه مما يختص بالنائب الكافل . وقد تقدّم ذكر معنى الأتابك في الكلام على الألقاب الأصول ؛ والعساكر جمع عسكر وهو الجيش .

(إِسْكَندَرُ الزَّمَانِ) من الألقاب السلطانية ، والمراد بالإسكندر هنا الإسكندر ابن فيلبس اليوناني ، وهو الذي يؤرخ بظهوره على الفرس وغلبته إياهم على ماسياتي في الكلام على التاريخ في أواخر هذه المقالة .

كَانَ مَلِكًا عَظِيمًا مَلِكَ الشَّامِ، وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَالْعِرَاقَيْنِ، وَالسُّنْدَ، وَالْهِنْدَ،
وَبِلَادَ الصِّينِ، وَالثَّبَّتَ، وَحِرَاسَانَ، وَبِلَادَ التُّرْكِ؛ وَذَلَّتْ لَهُ سَائِرُ الْمُلُوكِ؛ وَهَادَاهُ أَهْلُ
الْغَرْبِ، وَالْأَنْدَلُسِ، وَالسُّودَانِ؛ وَهُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ الْإِسْكَانَدْرِيَّةِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ
ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ. قَالَ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاةٍ فِي تَارِيخِهِ:
وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ مَلِكٌ عَظِيمٌ كَانَ قَبْلَ الْإِسْكَانْدَرِ بَزْمَنٍ طَوِيلٍ.

(أَيْبُرُ الْإِمَامِ) مِنْ أَلْقَابِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ غَالِبًا، وَهُوَ أَتْيَرُ بِمَعْنَى مَأْتُورٍ، وَالْمُرَادُ
أَنَّ الْإِمَامَ يُؤَثِّرُهُ عَلَى غَيْرِهِ فَيَقْدِّمُهُ عَلَيْهِ.

(اعْتِضَادُ صِنَادِيدِ الزَّمَانِ) مِنْ أَلْقَابِ أَرْبَابِ السُّيُوفِ؛ وَقَدْ يَكْتُبُ بِهِ لِبَعْضِ
الْمُلُوكِ. وَالْاعْتِضَادُ الْإِسْتِعَانَةُ، يُقَالُ: اعْتَضَدْتُ بِفُلَانٍ إِذَا اسْتَعَنْتُ بِهِ، وَالصَّنَادِيدُ
جَمْعُ صِنْدِيدٍ وَهُوَ الشُّجَاعُ.

(أَكْرَمُ تُجَبَّاءِ الْأَبْنَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) مِنْ أَلْقَابِ الرُّؤَسَاءِ مِنْ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ، وَأَكْرَمُ
أَفْعُلُ التَّفْضِيلِ مِنَ الْكَرَمِ خِلَافِ اللَّؤْمِ، وَالتُّجَبَّاءُ جَمْعُ تَجَبَّبٍ وَهُوَ الْكَرِيمُ.
(أَجْمَلُ الْبُلَغَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) مِنْ أَلْقَابِ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ مِنَ الْكُتَّابِ وَغَيْرِهِمْ،
وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ.

(الذَّابُّ عَنْ حَوْزَةِ الْمُؤْمِنِينَ) مِنْ أَلْقَابِ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ، وَيَصْلُحُ لِكُلِّ مَلِكٍ
مُسْلِمٍ يَقُومُ بِفَرْضِ الْجِهَادِ. وَالذَّابُّ الدَّافِعُ، وَالْحَوْزَةُ بَفَتْحِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالزَّيْ
الْمَعْجَمَةُ النَّاحِيَةُ.

(الْقَائِمُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ) مِنْ أَلْقَابِ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ. ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ"
أَنَّهُ يُكْتُبُ بِهِ إِلَى صَاحِبِ تُونِسَ، وَيَصْلُحُ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِذَلِكَ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ،
وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ.

(المجاهد عن الدين) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه ظاهر أيضا .
 (المعنى ملوك آل ساسان ، وبقايا فراسياب وخاقان) من ألقاب عظماء ملوك الأعاجم .
 وقد ذكره في " التعريف " في ألقاب صاحب الهند . والمعنى بتشديد الفاء المكسورة
 الماحي للأثر ، يقال غفَّ الریح كذا بالتشديد إذا درسته ومحت أثره ، وشدد للبالغة .
 وآل ساسان ملوك الأكرسة وهم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس
 الساسانية إلى أن غلبهم الإسلام وانتزع الملك من أيديهم ، يُنسبون إلى جدّهم
 ساسان : وهو ساسان بن أردشير بهمن بن كيستاسف من ملوك الطبقة الثانية
 فيهم ، على ما سيأتي بيانه في الكلام على مكتبة ملوك إيران ، في المقالة الرابعة
 إن شاء الله تعالى .

وفراسياب بقاء في أوله ثم سين مهملة بعدها ياء ثم ألف وباء موحدة ملك عظيم
 من ملوك الترك ، ويقال إن أصله من أبناء ملوك الفرس ، وهو فراسياب بن طوج
 ابن أفريدون ، من الطبقة الأولى من ملوك الفرس ، وإن ابن عمه منوهر غلب
 عليه بعد أن قتل أباه طوجا ففر إلى بلاد الترك وتزوج منهم ، وآتته به الحال
 إلى أن ملكهم وعظم ملكه فيهم .

وخاقان بجاء معجمة وقاف ونون ملك من ملوك الترك أيضا كان في زمن
 كسرى أنوشروان فيما يقتضيه كلام أبي هلال العسكري في كتابه " الأوائل " حيث
 ذكر أنه كان بينه وبينه حرب .

(المواقف المقدسة) من ألقاب الخلفاء في مخاطباتهم في المكتبات ونحوها ،
 والمراد الأماكن التي يقف فيها الخليفة ، كني بها عن الخليفة تنويها عن التصريح
 بذكره ، والمقدسة المطهرة ، والمراد طهارتها عن الأدناس المعنوية .

(إمامُ الأئمةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «إمامُ الأئمةِ في العالمين» .

(إمامُ البلغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب ومن في معناهم

(إمام المتكلمين) من ألقاب العلماء ، وهو بأهل المعقول أليق لإطلاق علم الكلام على أصول الدين ، وإنما سُمِّيَ بذلك لأنه لما وقع القولُ بخلق القرآن في صدر الإسلام ممن وقع كثر الكلام والخوض في ذلك فأُطلق على أصول الدين علم الكلام وبقي علماً عليه .

(أُوحدُ الأشراف) من ألقاب الشرفاء ، وربما قيل «أُوحدُ الأشراف في العالمين» أو «أُوحدُ الأشراف الطاهرين» أو «أُوحدُ الأشراف المساجدين» ونحو ذلك .

(أُوحدُ الأصحاب) من ألقاب الوزراء من أرباب الأقلام ومن في معناهم ككاتب السر ونحوه وإن كان صاحبُ يختص بالوزير في عُرف [كُتَّاب الديار المصرية^(١)] على ما تقدم .

(أُوحدُ الأكابر) من ألقاب التجار الخوارجية ، وربما كُتِبَ به لغيرهم من الرؤساء ، وربما قيل «أُوحدُ الأكابر في العالمين» .

(أُوحدُ الأمة) من ألقاب العلماء ، وربما أُطلق على غيرهم .

(أُوحدُ الأئمة في العالمين) من ألقاب الكُتَّاب ، والأئمة جمع أميين وهو خلاف الخائن .

(أُوحدُ الأئمة العلماء في العالمين) من ألقاب العلماء ، وربما اقتصر على أُوحد العلماء .

(١) بياض بالاصول والتصحيح من لقب صاحب المتقدم في الألقاب المفردة .

(أَوْحَدُ الْبُلْغَاءِ) من ألقاب أرباب الأَقْلَامِ، وربما قيل «أَوْحَدُ الْبُلْغَاءِ فِي الْعَالَمِينَ» ونحو ذلك والْبُلْغَاءُ جمعُ بَلِيغٍ وقد تقدّم معناه .

(أَوْحَدُ الرُّؤَسَاءِ) وربما قيل «أَوْحَدُ الرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ» أو «أَوْحَدُ الرُّؤَسَاءِ فِي الْأَنَامِ» ونحو ذلك، ومعناه ظاهر .

(أَوْحَدُ الْحِفَاطِ) من ألقاب المَحْدِّثِينَ، وربما قيل «أَوْحَدُ الْحِفَاطِ فِي الْعَالَمِينَ» ونحو ذلك .

(أَوْحَدُ الْخُطَبَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب الْخُطَبَاءِ .

(أَوْحَدُ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ) من ألقاب العلماء، وربما قيل «أَوْحَدُ الْعُلَمَاءِ فِي الْعَالَمِينَ» .

(أَوْحَدُ الْفُضَلَاءِ) من ألقاب العلماء، وربما أَسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِهِمْ مِنْ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ، وربما قيل «أَوْحَدُ الْفُضَلَاءِ الْمُفِيدِينَ» أو «أَوْحَدُ الْفُضَلَاءِ الْعَارِفِينَ» ونحو ذلك .

(أَوْحَدُ الْكُبَرَاءِ) من ألقاب التُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ، ويمحوز أن يُسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِهِمْ .

(أَوْحَدُ الْكُتَّابِ) من ألقاب الْكُتَّابِ سواءُ كُتَّابُ الْإِنْشَاءِ وَغَيْرِهِمْ .

(أَوْحَدُ الْمُتَصَرِّفِينَ) من ألقاب الْوُزَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(أَوْحَدُ الْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السُّيُوفِ .

(أَوْحَدُ الْمُحَقِّقِينَ) من ألقاب العلماء .

(أَوْحَدُ الْمُتَكَلِّمِينَ) من ألقاب العلماء، وهو بَعْلَمَاءُ الْمَعْقُولِ أَنْسَبُ .

(أَوْحَدُ الْمُفِيدِينَ) من ألقاب العلماء .

(أَوْحَدُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ) من الْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةِ .

(أَوْحَدُ الْوُعَاطِ) من ألقاب أهل التذكير والْوَعْظِ .

(أَوْحُدُ الْوَقْتُ) من ألقاب أرباب الأقاليم، وربما قيل «أَوْحُدُ الْوَقْتُ وَالْأَوَانُ» والوقت معروف، والأَوَانُ الْحَيْنُ، ويجمع على أَوْنَةٍ مثل زَمَانٍ وَأَزْمَنَةٍ .

حرف الباء

(بِرْكَةُ الْأَنَامِ) من ألقاب الصّالحاء، وقد تُسْتَعْمَلُ للعلماء أيضا .

(بِرْكَةُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الصّالحاء أيضا، وقد يقال «بِرْكَةُ الدَّوْلِ» على الجمع، وربما كُتِبَ به لأرباب الأقاليم من العلماء وغيرهم . والمراد بالدولة المملكة القائمة، وأصلها من الدَّوْلَةُ في الحرب وهي النَّصْر والغلبة .

(بِرْكَةُ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب الصّالحاء، وقد تُسْتَعْمَلُ لأهل العلم أيضا .

(بَقِيَّةُ الْأَكْبَارِ) من ألقاب بَقَايَا الْبُيُوتِ الرَّئِيسَةِ من أهل الأقاليم وغيرهم، وربما قيل «بَقِيَّةُ الْأَكْبَارِ فِي الْعَالَمِينَ» .

(بَقِيَّةُ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ) من ألقاب الأشراف، وبه يُكْتَبُ إِلَى إِمَامِ الزَّيْدِيَةِ بِالْيَمَنِ .

(بَقِيَّةُ السَّلَفِ) من ألقاب العلماء والصّالحاء، وربما قيل «بَقِيَّةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ» أو «بَقِيَّةُ السَّلَفِ الْكَرَامِ» والمراد بالسَّلَفِ الْآبَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِمْ سَلَفَ إِذَا مَضَى، وربما أُطْلِقَ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ .

(بَقِيَّةُ السَّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف، وقد يقال فيه بَقِيَّةُ السَّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ الزَّكِيَّةِ، وربما أُطْلِقَ عَلَى غَيْرِهِمْ . وبذلك يُكْتَبُ لِصَاحِبِ تُوسٍ لِأَدْعَائِهِ أَنَّهُ مِنْ نَسْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَالسَّلَالَةُ فِي الْأَصْلِ مَا اسْتُلِّتَ مِنَ الشَّيْءِ، وَالْمُرَادُ هُنَا النُّطْفَةُ لِأَنَّهَا مُسْتَلَّةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ .

(بَقِيَّةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب مَنْ له سَلَفٌ في الْمُلْكِ ، كصاحبِ حِصْنٍ كَيْفًا من بَقَايَا الْمُلُوكِ الْإِيُوبِيَّةِ .

(بَقِيَّةُ الْأَصْحَابِ) من ألقاب الْوُزَرَاءِ أربابِ الْأَقْلَامِ وَمَنْ في معنائهم .

(بَقِيَّةُ شَجَرَةِ الْفَخَّارِ) من ألقاب ذَوِي الْأَصَالَةِ الْعَرِيقِينَ في النَّسَبِ ، وبه يُكْتَبَ لِابْنِ الْأَحْمَرِ صاحبِ الْأَنْدَلُسِ .

(بَهَاءُ الْأَعْيَانِ) من ألقاب أربابِ الْأَقْلَامِ ، وَبِهَاءِ الْحُسْنِ ، وَالْأَعْيَانُ جَمْعُ عَيْنٍ تَجْمَعُ عَلَى أَعْيُنٍ وَعُيُونٍ وَأَعْيَانٍ ، والمراد هنا الْخِيَارُ ، إِذْ عَيْنُ كُلِّ شَيْءٍ خِيَارُهُ .

(بِهَاءُ الْأَنْامِ) من ألقاب أربابِ السِّيُوفِ غَالِبًا ، وَرَبْمَا أُطْلِقَ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَالْأَنْامُ الْخَلْقُ .

(بِهَاءُ الْعِصَابَةِ الْعَلَوِيَّةِ) من ألقاب الْأَشْرَافِ ، وبه يُكْتَبُ لِأَمِيرِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ الْمُشَرِّفِينَ ، وَالْعِصَابَةُ بِالْكَسْرِ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ وَتَجْمَعُ عَلَى عَصَائِبَ . وَالْعَلَوِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حرف التاء المثناة من فوق

(تاجُ الْعِلْمَاءِ وَالْحُكَّامِ) من ألقاب الْقُضَاةِ ، وَالتَّاجُ مَا يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ .

(تاجُ الْأُمْنَاءِ) من ألقاب التُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ ، وَيَصْلَحُ لِكُتَابِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا .

(تاجُ الْمُتَصَرِّفِينَ) من ألقاب الْوُزَرَاءِ وَمَنْ في معنائهم .

(تاجُ الْفُضَلَاءِ) من ألقاب أربابِ الْأَقْلَامِ . وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الدَّسَاتِيرِ الشَّامِيَّةِ

« تاجُ الْفُضَلَاءِ الْمُتَشَيِّينَ » وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِمَنْ هُوَ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِ وَأَبْتَدَاءِ رِيَاسَتِهِ ، وَحَدَاثَةِ سَنَتِهِ .

(تاج المِلَّة) من الألقاب التي يشترك فيها أربابُ السيوف والأقلام جميعاً .
والمِلَّة في أصل اللغة الدينُ والشريعة ، والمراد هنا مِلَّةُ الإسلام ، والألف واللام فيها
للعهد الذهني .

حرف التاء المثلثة

(نِقَّةُ الدُّوَل) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجِكَةِ ، وربما قيل « نِقَّةُ الدُّوَلَتَيْنِ » والنِّقَّةُ
في اللغة الأَمِينُ وُحْصَ ذلك بالتُّجَّار لترددهم في الممالك ، ويحسُنُ أن يلقَّبَ به
المرتدِّدون في الرسائل بين المملوك .

حرف الجيم

(جامعُ كلمةِ الإيمان) من الألقاب السلطانية .

(جامعُ طُرُق الواصفين) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصِّلَاح ، وربما قيل
« جامعُ الطُّرُق » ويصلحُ أن يكون من ألقاب العلماء أيضا .

(جمالُ الإسلام) من ألقاب العلماء ، وربما قيل جمال الأكابر من ألقاب التُّجَّار
الخَوَاجِكَةِ ، وقد يستعملُ لأرباب الأقلام ، والجمال في اللغة الحُسْنُ .

(جمالُ الذَّرِّيَّةِ) والمراد ذُرِّيَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الذَّرِّيَّةَ تشمل أولاد
البنات ، وقد عدَّ اللهُ تعالى عيسى عليه السلام [من ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام]^(١)
وهو ابن بنته .

(جمالُ الصُّدُور) من ألقاب أربابِ الأقلام ، والصُّدُور جمع صَدْر ، والمراد
صُدُور المَجَالِسِ .

(١) الزيادة لتبسيم الكلام وسقوطها سهو من الناسخ .

- (جمال الأئمة) من ألقاب العلماء، وربما قيل «جمال الأئمة العارفين» .
- (جمال البارعين) من ألقاب أرباب الأقلام، والبارعين جمع بارع وهو الناهض .
- (جمال البلغاء) من ألقاب كتّاب الإنشاء ونحوهم .
- (جمال الطائفة الهاشمية) من ألقاب الشرفاء، والطائفة في أصل اللغة اسم للقطعة من الشيء . قال ابن عباس وتطلق على الواحد في فوقه ، والهاشمية نسبة إلى هاشم : وهو هاشم بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم .
- (جمال العترة الطاهرة) من ألقاب الشرفاء أيضا، وربما اقتصر على جمال العترة فقط . وعترة الرجل نسله وأهله الأذنون، والمراد عترة النبي صلى الله عليه وسلم .
- (جمال العصبة الفاطمية) من ألقاب الشرفاء أيضا، والعصبة بفتح العين والصاد واحدة العصابات ، وهي في أصل اللغة البنون والقراة للأب . قال الجوهري : سموا عصبة لأنهم عصبوا بالشخص بمعنى أنهم أحاطوا به : فالأثم طرف، والأب طرف ، والثم جانب ، والأخ جانب . والمراد هنا أبناء فاطمة رضي الله عنها وهم أحد أفراد العصبة . ولا يجوز أن يقال العصبة بضم العين وإسكان الصاد : لأن المراد بذلك الرجال ما بين العشرة والأربعين كما قاله الجوهري . وبنو فاطمة رضي الله عنها قد أربوا عن العدد في الشرق والغرب .
- (جمال العلماء) من ألقاب أهل العلم .
- (جمال الفضلاء) من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكتّاب، وربما قيل «جمال الفضلاء المفيدين» ونحو ذلك ويختص حينئذ بالعلماء .
- (جمال الكتّاب) من ألقاب كتّاب الإنشاء وغيرهم من الكتّاب .
- (جمال المملكة) من ألقاب الكتّاب .

(جَمَالُ الْوَرَعَيْنِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصَّلَاحِ .

(جمالُ أهل الإِفْتَاءِ) من ألقاب أكابر العلَّماء .

(جَلالُ الإسلامِ) من ألقاب أرباب الأَقْلَامِ، ويَصْلُحُ أن يكون لَقَباً لبعض

الملوك، وبه يُكْتَبُ لإمام الزَّيْدِيَّةِ باليمن، وربما قيل «جَلالُ الإسلامِ والمسلمين» .

(جَلالُ الأصْحَابِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَمَنْ في معناهم .

(جَلالُ الأكابرِ) من ألقاب أرباب الأَقْلَامِ، وبه يُكْتَبُ لنظر الخالص .

(جَلالُ الحُكَّامِ) من ألقاب أكابر القُضاةِ، والجَلالُ في اللغة العَظَمَةُ .

(جَلالُ العِترَةِ الطاهِرَةِ) من ألقاب الشرفاء، وبه يُكْتَبُ لأميرِ مَكَّةَ والمدينة

المشرقتين .

(جَلالُ العلَّماءِ في العالمينِ) من ألقاب أهل العلم، وربما قيل «جلالُ العلَّماءِ

العالمين» ونحو ذلك .

(جلالُ الكُبراءِ) من ألقاب أكابر أرباب الأَقْلَامِ .

(جلالُ الأُسرةِ الزاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف . والأُسرة بضم الهمزة الرَّهْطُ،

والمراد رَهْطُ بنى هاشِمٍ، والزاهرة المُضِيئَةُ، وبه سَمِيَ الكَوَكَبُ المعروف بالزُّهْرَةِ .

(جَهْدُ الحُدَّاقِ) من ألقاب الكُتَّابِ، وربما قيل «جَهْدُ الحُدَّاقِ للمتصَرِّفينِ»

والجَهْدُ بفتح الجيم وإسكان الهاء وفتح الموحدة النَّقْدُ لِلدَّهَبِ والفِضَّةِ، ولذلك

يقال للصيرفي جَهْدٌ، والمراد هنا أنه يَنْقُدُ الأمور فيستخرج جيدها من رديها كما

يفعل الصيرفي .

(١) ضبط في القاموس الفيروزبازي بالكسر ثم قال شارحه كزبرج .

حرف الحاء المهملة

(حَاكِمُ الْحُكَّامِ) من ألقاب قُضاة القضاة .

(حَاكِمُ أُمُورِ وِلَاةِ الزَّمانِ) من ألقاب أرباب السُّيُوفِ ، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك .

(حَافِظُ الْأَسْرَارِ) من ألقاب كُتِبَ السِّرُّ .

(حُجَّةُ الْأُمَّةِ) من ألقاب قُضاة القضاة وأكابر العلماء ، والحُجَّةُ في اللغة البرهان ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ والأُمَّةُ في أصل اللغة الجماعة ، والمراد هنا أُمَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والمعنى أنه تقوم به الحجة لأهل الإسلام على غيرهم .

(حُجَّةُ الْأُمَّةِ) من ألقاب أكابر العلماء ، والأُمَّةُ جمع إمام ، وقد تقدّم أنه الذي يقتدى به .

(حُجَّةُ الْبَلَاءِ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وهو بالكُتَابِ أَمْسٌ .

(حُجَّةُ الْعَرَبِ) من ألقاب النُّحاة واللُّغَوِيِّينَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، كأنهم يحتجُّونَ به لِلْعَرَبِ .

(حُجَّةُ الْمَذَاهِبِ) من ألقاب أكابر العلماء ، وربما قيل « حُجَّةُ الْمَذْهَبِ » إذا أُريدَ مَذْهَبُهُ خَاصَّةً ، وهو دون الأول .

(حُجَّةُ الْمُفْتِينَ) من ألقاب أكابر العلماء ، والمراد بِالْمُفْتِينَ مَنْ هُمْ أَهْلُ الْفَتْوَى فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ .

(حِرْزُ الإِمَامِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ من حَفَظَةَ الأَمْوَالِ . وَالْحِرْزُ فِي اللُّغَةِ الْمَوْضِعُ الْحَصِينُ ، وَالْمُرَادُ بِالْإِمَامِ السُّلْطَانُ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُ .

(حُسَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أرباب السيوف كُتُوبُ السُّلْطَنَةِ وَنَحْوُهُمْ . وَالْحُسَامُ مِنْ أَسْمَاءِ السَّيْفِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ أَخْذًا مِنَ الْحَسْمِ وَهُوَ الْقَطْعُ .

(حَسَنَةُ الْيَأَمِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من الوُزَرَاءِ وَالْقُضَاةِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ . وَالْحَسَنَةُ خِلَافُ السَّيِّئَةِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْيَأَمَ أَحْسَنَتْ بِالْأَمْتَانِ بِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي «شَهَابُ الدِّينِ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ» فِي بَعْضِ دَسَاتِيرِهِ أَنَّهُ يَصْلَحُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ سَلَفٌ فِي الْكِتَابَةِ ، وَهُوَ بَعِيدُ الْمَأْخَذِ .

(حَكَمُ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ) من ألقاب قُضَاةِ الْقُضَاةِ ، وَالْحَكَمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ .

حرف الخاء المعجمة

(خَادِمُ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ) من الألقاب السلطانية ، وَالْمُرَادُ حَرَمُ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ ، وَالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الْعِمْلَةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ .

(خَالِصَةُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ ، وَالْخَالِصَةُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْخَاصَّةِ . يُقَالُ هَذَا لِي خَالِصَةٍ يَعْنِي خَاصَّةً . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِنَ الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَعَلَيْهِ [حَمَلٌ] قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ .

(خَالِصَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ) من ألقاب أرباب الأقلام . قَالَ فِي "عُرْفِ التَّعْرِيفِ" : وَهُوَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا فِي مَقَامِ حَكَمِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ لَمَنْ هُوَ حَاكِمٌ .

(خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أرباب الأقلام .

(خَالِصَةُ الْإِمَام) من ألقاب الصُّوفِيَّة ، وربما جعل من ألقاب العلماء أيضا ،
والمراد بالإمام الخليفة أو السلطان .

(خَالِصَةُ سَلَفِ الْأَنْصَار) من الألقاب التي يُكْتَب بها لأَبْنِ الْأَحْمَرِ صاحب
الْأَنْدَلُس : لأنه يَذْكُر أنه من ذُرِّيَّة « سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ » الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
وَيُصْلَحُ لِكُلِّ مَنْ وَافَقَهُ فِي ذَلِكَ ، وَكَانَ الْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ خُلَاصَةُ بَدَلِ خَالِصَةِ ،
لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَالِصَةِ الْخَاصَّةِ . وَالْمُرَادُ بِالْأَنْصَارِ أَنْصَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ الَّذِينَ هَاجَرَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ .
(خَطِيبُ الْخُطَبَاءِ) من ألقاب أكابر الخطباء ، وربما كُتِبَ بِهِ لِقُضَاةِ الْقُضَاةِ ،
إِذَا أُضِيفَ لَهُ خَطَابَةٌ جَلِيلَةٌ ، كَخَطَابَةِ جَامِعِ الْقَلْعَةِ بِالْأَزْهَرِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَخَطَابَةِ الْجَامِعِ
الْأَمَوِيِّ بِدِمَشْقَ .

(خَلَفُ الْأَوْلِيَاءِ) من ألقاب أولاد الصالحين .

(خَلِيفَةُ الْأَئِمَّةِ) من ألقاب الشَّيْعَةِ ، وَالْمُرَادُ مَنْ يَعْتَقِدُونَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمَعْصُومِينَ
كَالْإِمَامِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ . وَبِهِ يُكْتَبُ لِإِمَامِ الزَّيْدِيَّةِ بِالْيَمَنِ .

(خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أولاد السلطان ، وربما كُتِبَ بِهِ لِبَعْضِ
الْمُلُوكِ ، وَالْخَلِيلُ بِمَعْنَى الصَّدِيقِ .

(خُلَاصَةُ الْخِلَافَةِ الْمَعْظَمَةِ) من ألقاب بعض الملوك ، وَالْخُلَاصَةُ الَّذِي خَلَّصَ
مِنَ الثَّقَلِ وَنَحْوِهِ . وَيُقَالُ فِيهِ خِلَاصٌ أَيْضًا بِغَيْرِ هَاءٍ .

(خُلَاصَةُ سَلَفِ الْقَوْمِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ ، وَالْقَوْمُ يُخْتَصُّ
فِي اللَّغَةِ بِالرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ :
﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ .

(خَيْرَةُ الْإِسْلَام) من ألقاب أهل الصَّلاح فيما ذكره في "عُرف التعريف" :
ويصلح لأهل العلم أيضا . والخيرة الأسم من قولك آختر فلان فلاناً ، والمراد أنَّ
الإسلام آختره .

حرف الدال المهملة

(دليل المریدین إلى أوضح الطرائق) من ألقاب مشايخ الصُّوفية ، والمراد بالمریدین
طُلابُ الطَّريق إلى الله تعالى .

(داعی الدعاة بالبراهین الظاهرة إلى استِعْلام الحقائق) من ألقاب العلماء .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْرُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ) من ألقاب المُلُوك ، وبه يُكْتَب لصاحب تُوس
وملك التُّكرور . والذُّخْر في اللغة مصدر ذَنَحْت الشيءَ أَذْنَحُهُ بفتح الحاء إذا جعلته
ذخيرةً .

(ذُخْرُ الْأُمَّةِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُواب السلطنة ونحوهم .
(ذُخْرُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب أرباب السيوف ، وقد يقع في ألقاب الصُّلحاء
والعلماء .

(ذُخْرُ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السيوف أيضا .
(ذُخْرُ الطَّالِبِينَ) من ألقاب الصُّلحاء والعلماء ، والمراد طالِبو الوصول إلى الحق
أو نحو ذلك .

(ذُخْرُ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب المُلُوك ، وبه يُكْتَب لإمام الزيدية باليمن فيما ذكره
في "التعريف" .

(دُنْحَرِ الْمِلَّةِ) من ألقاب أرباب السيوف ، وقد تقدم معنى الْمِلَّةِ .

(دُنْحَرِ الْمَمَالِكِ) من ألقاب بعض الملوك . وربما قيل دُنْحَرِ الْمَمْلَكَةِ .

(دُنْحَرِ الْمُوحِّدِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه ، وجعله في "عرف التعريف" خاصاً بالكافل دُونَ غيره .

(دُنْحَرِ أُمِّهِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب الملوك ، وهو دُونَ خَلِيلِ أمير المؤمنين .

حرف الراء المهملة

(رَأْسُ الْبُلْغَاءِ) من ألقاب أكابر كتّاب الإنشاء ككاتب السرّ ومن يجرى مجراه .

(رَأْسُ الصُّدُورِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام في الجملة من أهل العلم والكتّاب ومن يجرى مجراه . والمراد رأس صدور المجالس .

(رَأْسُ الْعُلِيَاءِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من العلماء والوزراء . ومن في معانهم ، ويصلح لكلّ على القدر في الجملة ، وبه يُكْتَبُ إلى إمام الزيدية باليمن .
(رُحْلَةُ الْحُقَاطِ) من ألقاب المُحَدِّثِينَ ، وقد تقدّم أن الرُّحْلَةَ بضم الراء ما يُرْحَلُ إليه ، والحُقَاطُ جمع حَافِظٍ ، والمراد حِفْظُ الْحَدِيثِ .

(رُحْلَةُ الْقَاصِدِينَ) من ألقاب كبار أرباب الأقلام ، وهو باهل الكرم والجود أخَصَّ ، والمراد مَنْ يُقْصَدُ بِالْتَّرَحُّالِ إليه .

(رُحْلَةُ الْمُحْصِلِينَ) من ألقاب العلماء ، والمراد مَنْ يُرْحَلُ إِلَيْهِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ بالأخذ عنه .

(رُحْلَةُ الْوَقْتِ) من ألقاب العلماء والمراد مَنْ أَنْفَرَدَ فِي الْوَقْتِ بِالرَّحِيلِ إِلَيْهِ لِأَخْذِ الْعِلْمِ عَنْهُ .

(رَضِيَ الدَّوْلَةُ) من ألقاب الكُتَّاب، والمراد من يُرْضِيهِ أعيانُ الدولة بالتقريب .
ثم الظاهر أنه بكسر الصاد بمعنى مَرْضَى عند أعيان أهل الدولة . ويجوز أن يكون
بفتح الصاد على جعله هو نفس الرضا تجوزا .

(رَضِيَ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام . والكلام فيه كاللّلام
في الذي قبله .

(رُكِّنُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف . وبه كان يُكْتَب
للنائب الكافل على ما هو مذكور في "التعريف" والركن واحد الأركان وهو معروف .
(ركن الأمة) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب للملك التُّكُور .

(ركن الملوك والسلطين) من الألقاب الملوكية وما في معنى ذلك من أرباب
السيوف . ونقل في "التثقيف" أنه كُتِبَ به لبعض مشايخ التصوف ثم أنكره
وقال : الأولى أن يكون بدله (بركة الملوك والسلطين) وما ذكره واضح . على أنه
في "عرف التعريف" قد أورده في ألقاب الصلحاء، وكأنهم راعوا في ذلك أنه
رُكِّن لهم من حيث البركة والدعاء إلا أن الأول أظهر .

(رُكِّن الأولياء) من ألقاب أهل الصلاح على أن المراد أولياء الله تعالى ويحذف
أن يكون من ألقاب أرباب السيوف وأرباب الأقلام أيضا على معنى أن المراد
أولياء الدولة .

(رئيس الكبراء) من ألقاب الوزراء من أرباب الأقلام ومن في معناهم . وأهل
الشام يستعملونه في أكابر أرباب الأقلام من قضاة القضاة ونحوهم، وقد تقدم
المراد بالصاحب في الكلام على الألقاب المفردة .

حرف الزاى المعجمة

(زَعِيمُ الْجُنُودِ) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كالنائب الكافل ، والزَّعِيمُ الكَفِيل . والمراد هنا التَّكْفُل بالجنود والقيامُ بأمرها . ويجوز أن يكون بمعنى السيّد ، يُقال لسيّد القوم زَعِيمُهُمْ ، والأوّل أليقُّ بالمقام ، والجنُود جمع جُنْد وهم الأعوان على ما تقدّم .

(زَعِيمُ الْجِيُوشِ) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كُتُوب السلطنة ونحوهم ، والجيُوش جمع جيش وهو العسكر .

(زَعِيمُ الموحِّدين) من ألقاب صاحب تُوسُّ على تخصيص الموحِّدين ، والمراد بالموحِّدين فيه أتباع المهديّ بن تومرْت الذين من بقاياهم ملوكُ تُوسُّ ، كان المهديُّ المذكور قد سباهم الموحِّدين تعريضا بدّم من كان قبله ببلاد المغرب ممن يدعى التجسيم على ما سيأتى ذكره فى الكلام على مكتبة صاحب تُوسُّ فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى . ويجوز أن يراد بالموحِّدين هنا عامةُ أهل الإيمان ويكون المراد بالموحِّدين جميع المؤمنين . ويصح وقوعُ هذا اللقب حينئذ على غير صاحب تُوسُّ من الملوك ونحوهم ، ولذلك يُكْتَب به لملك التُّكرور على ما ذكره فى "التعريف" .

(زَعِيمُ المؤمنين) من الألقاب التى يُكْتَب بها لإمام الزيدية بايمن . ويصحُّ وقوعه على غيره من ملوك المسلمين أيضا كما فى « زعيم الموحِّدين » إذا جعل عامًّا فى حق كل موحد على ما تقدّم بيّنه .

(زَعِيمُ جُيُوشِ الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف ، كُتُوب السلطنة مجلَّب ، وبه يُكْتَب لصاحب حصن كَيْفا فيما ذكره فى "التعريف" .

(زَيْنُ الْإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ) من ألقاب أرباب الأعلام ، والزَّيْنُ في اللغة تَقِيصُ الشَّيْنِ .

(زَيْنُ الْأَعْيَانِ) من ألقاب أرباب الأعلام ، والأَعْيَانُ جَمْعُ عَيْنٍ ، وقد تقدم الكلام عليه .

(زَيْنُ الْأَكْبَرِ) من ألقاب الثَّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(زَيْنُ الْأَنَامِ) من ألقاب صِغَارِ أرباب السيوف ، وربما كُتِبَ به لغيرهم .

(زَيْنُ الْأُئِمَّةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «زَيْنُ الْأُئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ» .

(زَيْنُ الْبُلَغَاءِ) من ألقاب الْكُتَّابِ ونحوهم .

(زَيْنُ الْحُكَّامِ) من ألقاب القضاة .

(زَيْنُ الدَّوَائِبِ الْمَهَشِمَةِ) من ألقاب الشرفاء ، والدَّوَائِبُ بالذال المعجمة جمعُ ذَوَابَةٍ بالهمز : وهي مَا يُرْخَى مِنَ الشَّعْرِ . قال الجوهري : وكانت الْأَصْلُ ذَاتِبٌ [لِأَنَّ الْأَلْفَ الَّتِي فِي ذَوَابَةٍ ^(١) كَالْأَلْفِ الَّتِي فِي رِسَالَةٍ حَقَّقَهَا أَنْ تُبَدَّلَ مِنْهَا هَمْزَةٌ فِي الْجَمْعِ ، وَلَكِنْهُمْ اسْتَقْبَلُوا أَنْ تَقَعَ أَلْفُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْهَمْزَتَيْنِ فَأَبْدَلُوا مِنَ الْأَوَّلَى وَآوَا . وَإِنَّمَا اخْتَصَّ هَذَا اللَّقْبُ بِالشَّرَفَاءِ لِأَنَّهُمْ مِنْ صَمِيمِ عَرَبِ الْحِجَازِ ، وَعَادَةُ عَرَبِ الْحِجَازِ إِرْخَاءُ الرِّجَالِ الدَّوَائِبِ .

(زَيْنُ الزُّهَادِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ .

(زَيْنُ الْعِبَادِ) من ألقاب أَهْلِ الصَّلَاحِ أَيْضًا .

(زَيْنُ الْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ) من ألقاب الشُّرَفَاءِ ، وَبِهِ يُكْتَبُ لِأَمِيرِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ . وقد تقدم معنى 'العِتْرَةِ' .

(زَيْنُ الْكُتَّابِ) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء وغيره .
 (زَيْنُ الْمَجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل « زَيْنُ الْأُمَرَاءِ الْمَجَاهِدِينَ » وربما كُتِبَ به لبعض صغار الملوك ، كصاحب دُنْقَلَةَ ونحوه .
 (زَيْنُ الْمُنْشِيِّينَ) رأيتُه في بعض الدساتير الشامية في ألقاب الكُتَّاب ونحوهم ، وهو صالح لكل حَدِيثٍ مَرَقٍّ في العلوِّ .

حرف السين المهملة

(سِدَادُ الثُّغُورِ) من ألقاب الوزراء ، وهو بكسر السين وتخفيف الدال بعدها ، بمعنى أنه الذي تُسَدُّ به الثُّغُورُ ، أخذًا من سِدَادِ الْقَارُورَةِ وهو ما يُسَدُّ به قُمْهَاءُ وَمِنْهُ قول الشاعر :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ قَتَّى أَضَاعُوا * لَيَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

وَيُحْكِي أَنْتَ الْمَامُونُ نَطَقَ بِمَثَلِ ذَلِكَ بفتح السين بمحضرة التضربن تُثْمِيلُ فَوَدَّه عليه فأمر له بثمانين ألف درهم ، فكان التضرب يتخبر بذلك ويقول : أَخَذْتُ بِإِفَادَةِ حَرْفٍ وَاحِدٍ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ .

(سَفِيرُ الْأُمَّةِ) من ألقاب الدُّوَادَارِ وكاتب السرِّ ، وقد تقدّم معنى السِّفِيرِ .

(سَفِيرُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب المذكورين .

(سَفِيرُ الْمَمَالِكِ) من ألقاب من تقدّم ، وربما قيل « سَفِيرُ الْمَلِكَةِ » .

(سَفِيرُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) كذلك .

(سُلْطَانُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ) من الألقاب السلطانية .

(سُلْطَانُ الْأَوَانِ) من الألقاب السلطانية الجليلة .

(سُلْطَانُ الْبَيْسِطَةِ) من الألقاب السلطانية، والبَيْسِطَةُ الأرض أخذًا من البَسْطَةِ وهي السَّعَة ومنه قيل : تَبَسَّطَ فلانٌ في البلاد إذا سار فيها طولًا وعَرْضًا .

(سُلْطَانُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ) من الألقاب السلطانية أيضًا . وهو غير مخزٍ الوضع لأن الْعَجَمَ في اللغة يقع على مَنْ عدا العربَ في الجملة ولا يختص بالْفُرسِ على ما هو المعروف بين العامة وهو مقصودهم هنا، فالتُّرْكُ من جملة الْعَجَمِ فكان يَكْنَى أن يقال سلطان الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وإنما حملهم على ذلك زيادةُ الإطراء والمدح .

(سَلِيلُ الْأَطْهَارِ) من ألقاب الثِّرفاء، والسَّلِيلُ الولدُ، والمراد بالأطهار المبرءون عن الأدناس .

(سَلِيلُ الْأَكْبَرِ) من ألقاب أولاد الأكابر والرؤساء .

(سَلِيلُ الطَّيِّبِينَ) من ألقاب أرباب الأقلام من دَوَى الأصالة .

(سَلِيلُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ) من ألقاب أولاد الملوك ومن مَضَى له سَلَفٌ في الْمُلْكِ .

(سَيِّدُ الْأُمَرَاءِ الْمُقَدَّمِينَ) من ألقاب الأمراء مقدَّمي الألوف، في الرتبة المتوسطة .

(سَيِّدُ الْأُمَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُنُوبِ السُّلْطَانَةِ ونحوهم، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك عن الأبواب السلطانية .

(سَيِّدُ الرُّسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب أكابر أصحاب الأقلام ككاتب السرِّ ونحوه .

(سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَّامِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب القُضَاةِ .

(سَيِّدُ الْكِبَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام كمنظر الخصاص ونحوه .

(سيد الوزراء في العالمين) من الألقاب الخاصة بالوزراء .
 (سيدُّ أمراء العالمين) من ألقاب النُّواب المتوسطين .
 (سيفُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما كُتِبَ به
 لبعض الملوك .

(سيفُ الحقِّ) من ألقاب العلماء وأهل النَّظر .
 (سيفُ الخِلافة) من الألقاب الملوكية ، وبه يُكْتَبُ لملك التُّكُور .
 (سيفُ المناظرين) من ألقاب العلماء ، والمراد بالمُناظرين أهلُ البحثِ
 والجدل ، أخذًا من النَّظر وهو الفكر المؤدَّى إلى الدليل .
 (سيفُ النَّظر) بمعناه أيضا .

(سيفُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كُنُوب السلطنة ، وهو
 في الرتبة المتوسطة .

(سيفُ جماعة الشاكرين) من الألقاب الخاصة بصاحب تُوُس ، وهذا اللَّقب
 رأيتُه واردا في "التتقيف" ولم أعرف له معنًى ، وسألتُ «قاضي القضاة وليَّ الدين
 آبن خلدون» هل يَعْرِفُ لذلك معنًى ؟ فقال : لا .

حرف الشين المعجمة

(شَرَفُ الأصفياء المقرَّين) من ألقاب كبار التُّجَّار الخَوَاجِكَةِ .
 (شَرَفُ الدُّول) من ألقاب بعض الملوك ، ويصلح لغير الملوك أيضا .
 (شَرَفُ الأمراء في العالمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل شَرَفُ
 الأمراء الأشراف في العالمين إذا كان شريفا ، أو شَرَفُ الأمراء العُربان في العالمين

إذا كان غير أمير عرب ، وربما قيل «شرفُ الأُمراءِ المُقدِّمين» إذا كان مُقدِّم ألف ، وقد يُقتصر على شرف الأُمراء فقط .

(شرفُ الرؤساءِ في العالمين) من ألقاب أكابر أرباب الأقاليم كوزير الشام ونحوه ، وربما أقتصر على «شرف الرؤساء» ويكون من ألقاب التجَّار الخواجكة ونحوهم .

(شرفُ الصَّالحاءِ في العالمين) من ألقاب أهل الصَّلاح .

(شرف العلماء العالمين) من ألقاب أكابر العلماء كقضاة القضاة ونحوهم ، وربما قيل «شرف العلماء في العالمين» .

(شرفُ الكُتَّابِ في العالمين) من الألقاب الكتابية .

(شرف الملوك والسلطين) من الألقاب الملوكية .

(شمس الأفق) من ألقاب أكابر أرباب الأقاليم ، وهو بالعلماء أليق ، لأن بهم يحصل النور كما يحصل بالشمس . وهو ما يُتَخَيَّلُ انطباقُ السماء على الأرض بالنظر في كل ناحية فيه . وأصل الأفق الناحيةُ ومنه قيل للنواحي آفاق ، وإنما خُصَّ الشمس هنا بالإضافة للأفق لأنها عند مطلعها تكون في النظر أعظم صورةً .

(شمس الشريعة) من ألقاب أكابر العلماء ، والمراد بالشريعة هنا شريعة الإسلام ، استعيرت الشمس لها لمشابتها لها في النور .

(شمس العصر) من ألقاب العلماء والصَّالحاء ونحوهم .

(شمس المذاهب) من ألقاب العلماء الأكابر ، والمذاهب جمع مذهب وهو ما يذهب إليه المجدد ، وأصله في اللغة لموضع الذهاب .

(١) الظاهر أن لفظ غير زائد من الناصح .

(شيخ المشايخ) من ألقاب العلماء وأهل الصَّلاح، وربما قيل «شيخ شيوخ الإسلام» .

(شيخ الملوك والسلاطين) من ألقاب المُسنِّين من الملوك . وهذا اللقب رأيته في كتاب وقَّف عن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيُّوب، بعث به نجم الدين أيُّوب والدُّ السلطان صلاح الدين يوسف .

(شيخ شيوخ العارفين) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصَّلاح، ومرادهم بالعارفين العارفون بالله تعالى .

حرف الصاد المهملة

(صالح الأولياء) من ألقاب إمام الزيدية باليمن، ويصالح لأهل الصَّلاح أيضا .

(صَدْر المدرِّسين) من ألقاب العلماء .

(صَدْر مِصر والشام) من ألقاب أكابر العلماء كقضاة القضاة ونحوهم، وإنما خُصَّ هذان القَطْران بالذكر لكثرة علمائهما، وربما قيل «صَدْر مِصر والعِراق والشام» وربما أَقْصِر على صَدْر الشام فقط إذا كان برسم وظيفة في الشام ونحو ذلك .

(صَفْوَة الدَّولة) من ألقاب مَنْ في معنى الوزراء كناظر الخاص ونحوه .

(صَفْوَة الصُّلحاء) من ألقاب أهل الصَّلاح .

(صَفْوَة الأتقياء) من ألقاب الصُّلحاء أيضا .

(١) (صَفْوَة المُلوك والسلاطين) من ألقاب أرباب الأقاليم كناظر الشام ونحوه، وربما كتب به للتَّجار الخَوَاجِكَة .

(صَلاح الإسلام) من ألقاب الصُّوفية والعلماء .

(١) لعله كَناظر الخاص أو ناظر الجيش .

(صلاح الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب الأقاليم، كأوزراء
ومن في معانهم .

(صَلَّاحُ الدَّوْل) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُوس .
ويصلح أيضا لأكابر أرباب الأقاليم من الوزراء وغيرهم .
(صَلَحُ الْمِلَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

حرف الضاد المعجمة

(ضِيَاءُ الْإِسْلَام) من ألقاب العلماء والصلحاء، ور بما قيل «ضياء الإسلام والمسلمين»
والضياء خلاف الظلام . وهو مخصوص بما كان مُضِيئًا لِدَاتِهِ ، بخلاف النور فإنه يقع
على ما هو مكتسب النور، ولذلك قال تعالى : ﴿ جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا ﴾
فخص الضياء بالشمس لأن نورها لِدَاتِهَا ، والنور بالقمر لأن نوره مكتسب من
الشمس ، على ما هو مقدر في علم الهيئة .

(ضِيَاءُ الْأَنْام) من ألقاب من تقدم ذكره .

حرف الطاء المهملة

(طِرَازُ الْعِصَابَةِ الْعَلَوِيَّةِ) من ألقاب الأشراف كأميرى مكة والمدينة المشرفين .
والطراز في أصل اللغة علم الثوب . قال الجوهري : وهو فارسى معرب، كأن
صاحب اللقب جعل علما لتلك الطائفة كما جعل الطراز علما للثوب .

حرف الظاء المعجمة

(ظِلُّ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ) من الألقاب السلطانية ، والظل ما يحصل عن الشاخص
في ضوء الشمس ، والمراد أن الخلق يستظلون بالسلطان من حر الجور كما يستظل

المستظِّل يظلَّ الشجرة ونحوها من حرِّ الشمس . وقال ابن قتيبة في "أدب الكاتب" أصل الظِّل السَّتر ومنه قولهم : أنا في ظِلِّك أي في سِتْرِكَ ، ثم أَسَمُ الظِّلَّ مخصوصاً بما قبل الزوال ؛ أما بعد الزوال فإنه يسمَّى فيئاً لأنه يَرْجِعُ من جهة الغرب إلى جهة الشرق أخذاً من قولهم فَأَءِ إذا رجع .

(ظهيرُ الملوك والسلاطين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُنُوب السلاطنة .

(ظهيرُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف أيضاً ، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك كصاحب الأندلس ونحوه .

(ظهير الإمامة) من ألقاب بعض الملوك ، وبه يُكْتَبُ إلى صاحب التُّكُور .

حرف العين المهملة

(عاقِدُ البُنُود) من ألقاب النائب الكافل ونحوه ، والعاقِدُ فاعل من العَقْدَ تقيض الحَلَّ ، والبُنُود جمع بُنْد - بفتح الباء وإسكان النون - وهو العَلَمُ الكبير قال الجوهري - وهو فارسيٌّ معرب .

(عِزُّ الإسلام) من ألقاب بعض الملوك ، وبه يُكْتَبُ إلى ملك التُّكُور .

(عِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقاب الرُّتبة الوُسْطَى من نُوَاب السلاطنة ومَنْ في معنائهم ، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك .

(عُدَّة الدنيا والدين) من ألقاب الملوك ، وبه يُكْتَبُ لصاحب تُوس .
والعُدَّة بالضم في اللغة ما أعدته لحوادث الدهر من المال والسَّلاح ونحو ذلك وهو المراد هنا ، وربما أُطْلِقَ على نَفْس الاستعداد .

(عُدَّة الملوك والسلاطين) من ألقاب أصاغِر أرباب السُّيُوف .

(عَضُدُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب متوسّطي أرباب السيوف ، وقد تقدّم
أن أصل العَضُد لما بين الساعد والكُتِف .

(عَضُدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف من نواب السلطنة
وغيرهم . وربما كُتِبَ به إلى بعض الملوك كملك التُّكُور .

(عَلَمُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الأمراء والوزراء وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ . وقد تقدّم معنى
الْعَلَمِ ومعنى الدَّوْلَةِ .

(عَلَمُ الزَّهَادِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ ، وقد تقدّم أن المراد بِالْعَلَمِ
الرَّايَةُ وبِالزُّهْدِ الإِقْلَاعُ عَنِ الدُّنْيَا .

(عَلَمُ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ) من ألقاب أكابر أهل العلم ، وربما قيل «عَلَمُ الْمُقْسِرِينَ»
أو «عَلَمُ النُّجَاةِ» ونحو ذلك .

(عَلَمُ الْهَدَاةِ) من ألقاب إمام الزيدية باليمن ، ويصْلُحُ لِأكابر العلماء والصلحاء .
والهَدَاةُ جَمْعُ هَادٍ وَهُوَ الْمُرْشِدُ .

(عَلَمُ الْأَعْلَامِ) من ألقاب العلماء والصلحاء ، ويصْلُحُ لِأرباب السيوف أيضا .

(عِمَادُ الْحُكَّامِ) من ألقاب أكابر القضاة ، وربما قيل «عِمَادُ الْحُكَّامِ الْبَارِعِينَ»
أو «عِمَادُ الْحُكَّامِ فِي الْعَالَمِينَ» ونحو ذلك . وأصلُ الْعِمَادِ فِي اللُّغَةِ الْأَبْنِيَّةِ الرِّقْعَةُ وَاحِدُهَا
عِمَادَةٌ ، وَمِنْهُ قِيلَ فَلَنْ طَوِيلُ الْعِمَادِ كَأَنَّ بِنَاءَهُ بِالْإِرْتِفَاعِ صَارَ عَلَمًا لِزَائِرِيهِ .

(عِمَادُ الْعَرَبِ) من ألقاب أكابر أمراء العربان ، كَأَمِيرِ آلِ فَضْلِ وَنَحْوِهِ .

(عِمَادُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الأمراء وأكابر الوزراء وَنَحْوِهِمْ .

(عَمَّادُ الْمَلَّةِ) كذلك .

(عَمَّادُ الْمَمْلَكَةِ) نحوه ، وهو دونه في الرتبة .

(عِمَّادُ الْمُحَدِّثِينَ) من ألقاب علماء الحديث النبويّ على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، وبه يُكْتَبُ لِقُضَاةِ الْقُضَاةِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(عُمْدَةُ الْمَمْلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب صغار أرباب السيوف ، وهو دُونَ عُمْدَةِ الْمَمْلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْعُمْدَةُ فِي اللُّغَةِ مَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ .

(عَوْنُ الْعَسَاكِرِ) من ألقاب نَازِرِ الْجَيْشِ وَنَحْوِهِ ، وَالْعَوْنُ فِي اللُّغَةِ الظَّهِيرُ وَالْمَعَاوُنُ .

(عَوْنُ جِيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ) من ألقاب بعض المملوك ، وبه يُكْتَبُ لِمَلِكِ التُّكُورِ ، وَيَصْلُحُ لِكَبَارِ أَرْبَابِ السِّيُوفِ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَيْضًا .

(عِلَاءُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ) من ألقاب العلماء والصلحاء ويصلح لأرباب السيوف أيضا .

وَالْعِلَاءُ بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ مُصْدَرُ عَلَا فِي الشَّرَفِ وَنَحْوِهِ يَعْلِي بِفَتْحِ اللَّامِ .^(١)

(عَيْنُ الْمَمْلَكَةِ) من ألقاب أرباب الأقلام ونحوهم .

(عَيْنُ الْأَعْيَانِ) نحوه .

حرف الغين المعجمة

(غُرَّةُ الزَّمَانِ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وَالْغُرَّةُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ بَيَاضٌ فِي جَبْهَةِ

الْفَرَسِ فَوْقَ الدَّرْهِمِ ، شُبَّ بِالْغُرَّةِ فِي وَجْهِ الْفَرَسِ لظهورها وتحسين الفرس بها .

(غَوْتُ الْأَنَامِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْغَوْتُ .

(١) قوله بفتح اللام أى فيهما وهي لغة فى على يعلى من باب تعب أنظر المختار .

(غِيَاثُ الْأَنَامِ) من ألقاب أكابر الملوك كصاحب الهند ونحوه . وقد تقدم معنى الغِيَاث .

(غِيَاثُ الْأُمَّةِ) نحوه .

حرف الفاء

(فَاتِحُ الْأَفْطَارِ) من الألقاب السلطانية ، والفَاتِحُ فاعِلٌ من الفتح وهو معروف ، والأَفْطَارُ جمع قُطْر وهو الناحية والجانب ، والمراد نواحي الممالك .

(فَارِسُ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف ، ذكره ابن شيث من كُتُب الدولة الأيوبية في ” معالم الكتابة “ .

(نَخْرُ الْأَنَامِ) من ألقاب أرباب الأقلام ، ويجوز أن يكون من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(نَخْرُ الْأُسْرَةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الشرفاء كأميرى مكة والمدينة المشرفتين ، وأُسْرَةُ الرجل بضم الهمزة رهطه .

(نَخْرُ الْأَعْيَانِ) من ألقاب التجّار الخَوَاجِكَةِ ، ويصلح لغيرهم من الرُؤَسَاءِ أيضا .

(نَخْرُ الرُّؤَسَاءِ) من ألقاب التجّار الخَوَاجِكَةِ .

(نَخْرُ السَّلَاطَةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف ، كأميرى مكة والمدينة المشرفتين ، والسَّلَاطَةُ الزَاهِرَةُ تقدّم الكلام على معناها .

(نَخْرُ الصُّدُورِ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وربما كُتِبَ به للتجّار الخَوَاجِكَةِ .

(نَخْرُ الصُّلَحَاءِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ واهل الصَّلَاح .

- (فَخْرُ الْعُبَاد) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .
- (فَخْرُ الْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السيوف .
- (فَخْرُ الْمُحَدِّثِينَ) من ألقاب أصحاب الحديث .
- (فَخْرُ الْمُدَرِّسِينَ) من ألقاب العلماء ، وبه يُكْتَبَ لِقُضَاةُ الْقُضَاةِ ونحوهم .
- (فَخْرُ الْمُفِيدِينَ) من ألقاب العلماء أيضا .
- (فَخْرُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب بعض الملوك .
- (فَخْرُ الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ) من ألقاب الشرفاء ، والمراد شَجَرَةُ نَسَبِهِمُ الشَّرِيف .
- (فَخْرُ النَّسَبِ الْعَلَوِيِّ) من ألقاب الشرفاء أيضا ، وبه يُكْتَبَ لِإِمَامِ الزَّيْدِيَّةِ بِالْيَمَنِ .
- (فَرْدُ السَّالِكِينَ) من ألقاب أهل الصلاح .
- (فَرْدُ الزَّمَانِ) من ألقاب العلماء والصلحاء .
- (فَرْدُ الْوُجُودِ) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح .
- (فَرْعُ الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ) من ألقاب الشرفاء .

حرف القاف

(قَامِعُ الْبِدْعَةِ) من ألقاب أكابر العلماء ، وربما قيل « قَامِعُ الْبِدْعِ » وقد يقال « قَامِعُ الْبِدْعِ وَمُخَفِّى أَهْلِهَا » والقامع فاعلٌ من قَمَعَهُ إِذَا ضَرَبَهُ بِالْمِقْمَعَةِ : وهى مِخْجَنٌ من حديد يُضْرَبُ بِهِ عَلَى رَأْسِ الْفِيلِ ، وَالْبِدْعَةُ وَاحِدَةُ الْبِدْعِ : وهى خِلَافُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَمَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ .

(قُدْوَةُ الْأَوْلِيَاءِ) من ألقاب أهل الصلاح .

(قُدْوَةُ الْبَارِعِينَ) من ألقاب أرباب الأقسام، وهو بالكُتَّاب أليق، والبارِعُ الماهر .

(قُدْوَةُ الْبُلَغَاءِ) من ألقاب أرباب الأقسام . وهو بكُتَّاب الإنشاء ومن في معناهم أخص .

(قُدْوَةُ الْخَلَفِ) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح، والخلَفُ في اللغة الذي يلي بعد غيره ويقوم مقامه، والمراد خَلَفُ مَنْ سَلَفَ من علماء الأمة أو صالحها .

(قُدْوَةُ الْعِبَادِ) من ألقاب أهل الصلاح، وربما قيل «قُدْوَةُ الْعِبَادِ وَالزُّهَّادِ» أو نحو ذلك .

(قُدْوَةُ الْعُلَمَاءِ) من ألقاب أكابر أهل العلم، وربما قيل «قُدْوَةُ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ» ونحو ذلك .

(قُدْوَةُ الْفِرَقِ) من ألقاب العلماء، والمراد فِرَقُ أَهْلِ الْحَقِّ من أرباب المذاهب والعقائد الصحيحة، والفِرَقُ جمع فِرْقَةٍ .

(قُدْوَةُ الْفُضَّلَاءِ) من ألقاب أكابر العلماء، والْفُضَّلَاءُ جمع فاضل وهو خلافُ الناقص .

(قُدْوَةُ الْكُتَّابِ) من ألقاب أكابر الكُتَّاب كالوزراء من أرباب الأقسام ومن في معناهم من كاتب السر ونحوه .

(قُدْوَةُ الْمُجْتَهِدِينَ) من ألقاب كبار العلماء، وقد تقدّم في الألقاب أَنَّ الْأَجْتَهَادَ عبارة عن استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

(قُدْوَةُ الْمُحَقِّقِينَ) من ألقاب أكابر العلماء، وقد تقدّم معنى التحقيق .

(قُدوةُ المُسلِّكين) من ألقاب الصُّوفيةِ وأهل الصَّلاح، والمراد بالمُسلِّكين المعترفون الطريقَ إلى الله تعالى كما تقدّم بيانه .

(قُدوةُ المُستغنين) من ألقاب أهل العلم، والمرادُ الاشتغالُ بالعلم .

(قُدوةُ الموحِّدين) من الألقاب الخاصّة بصاحب تُوسّ : لوقوع الموحِّدين في اصطلاحهم على أتباع المهديّ بن تومرت؛ وصاحب تُوسّ الآن من بقاياهم كما تقدّم .

(قَسيمُ أمير المؤمنين) من الألقاب السلطانية ، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ فيكون معناه يُقاسِمُ أمير المؤمنين، والمراد مقاسمته الأمر .

(قُطْب الزهّاد) من ألقاب أهل الصلاح ؛ والقُطْب تقدّم معناه .

(قُطْب الأولياء) من ألقابهم أيضا ، والأولياءُ جمع وَلِيٍّ وهو خلاف العَدُوِّ ، والمرادُ أولياء الله تعالى .

(قَوّام الأمة) من ألقاب الوزراء ومَن في معناهم ، والقَوّام بالكسر نظام الشيء وعمادُه ومِلاكُه ، يقال فلانٌ قَوّامُ أهل بيته ، ومنه قَوّام الأمر بمعنى نظامه .

(قَوّام الجُهور) قال في "عرف التعريف" : هو من ألقاب الوزراء ؛ والجُهور من الناس جُلُهم ، أخذًا من الجُهور وهي الرملة المجتمعةُ المشرفة على ماحولها .

(قَوّام الدّولة) من ألقاب الكُتّاب وهو بالكسر أيضا .

(قَوّام المصالح) من ألقاب أكابر الكُتّاب من الوزراء ومَن في معناهم ، وهو بالكسر أيضا، والمصالح جمع مَصْلَحة وهي خلاف المَفْسَدة .

(قَوّام الإسلام) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو بالكسر كالذي قبله .

حرف الكاف

(كَافِلُ السُّلْطَنَةِ) من ألقاب بَكَارِ النُّوَابِ كُنَائِبِ دِمَشْقَ ، وقد تقدّم معنى الكافل في الكلام على ألقابِ أربابِ الوظائف .

(كَافِلُ المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ) من ألقاب النَّائِبِ الكافل : وهو النَّائِبُ بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ .

(كَافِي الدَّوْلَةِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، والكافي أَسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْكِفَايَةِ .

(كَثْرُ الثَّقَى) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصِّلَاحِ ، وَكَثُرَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْمَالُ الْمَدْفُونُ ، استعير لصاحب اللَّقَبِ لِأَنَّهُ كَالشَّيْءِ الْمَكْنُوزِ لِذَلِكَ الْبَابِ .
(كَثْرُ الطَّالِبِينَ) من ألقاب العلماء .

(كَثْرُ الْعُلَمَاءِ) من ألقاب أهل العلم وربما قيل « كَثْرُ الْمُفَسِّرِينَ » أو « كَثْرُ الْمُتَفَقِّهِينَ » ونحو ذلك .

(كَثْرُ الْمُسْلِكِينَ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصِّلَاحِ .

(كَهْفُ الْأُسْرَةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الشُّرَفَاءِ ، وَكَهْفُ الْمَلْجَأِ ، ومنه قولهم : فُلَانٌ كَهْفٌ . والأصل في الكهف الْبَيْتُ الْمَتَّقُورُ فِي الْجَبَلِ وَيَجْمَعُ عَلَى كُهُوفَ ، وقد تقدّم الكلام على الْأُسْرَةِ وَالزَاهِرَةِ .

(كَهْفُ الْكُتَّابِ) من ألقاب أَكْبَرِ الْكُتَّابِ كالوزير من أرباب الأقسام وكاتب السرِّ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

- (كَوْفُ الْمَلَّةِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُتُوب السلطنة ونحوهم .
 (كَوْكَبُ الْأُسْرَةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف كأميرى مكة والمدينة المشرقتين
 وَالْكَوْكَبُ واحد الكواكب وهو يقع على النجوم والشمس والقمر .
 (كَوْكَبُ الذَّرِّيَّةِ) من ألقاب الشرفاء أيضا، والمراد الذَّرِّيَّةُ الْعُلَوِيَّةُ .

حرف اللام

- (لِسَانُ الْحَقِيقَةِ) من ألقاب الصوفية ، واللسان هنا جارحة الكلام ، والحقيقة
 خلاف المجاز ، وهى فى الأصل عين الحق ، والمراد هنا معرفة الأمر على ما هو عليه .
 (لِسَانُ الْحِفَاطِ) من ألقاب المحدثين والوعاظ ، والمراد المتكلم عنهم ، يقال فلان
 لسان القوم إذا كان متكلماً عنهم ، ويجوز أن يكون المراد اللسان الذى هو جارحة
 الكلام ويكون المعنى آلتهم للكلام كما أن اللسان آلة الكلام للمتكلم ، ويجوز أن يكون
 من اللسان بمعنى اللغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾
 ويكون المعنى أنه المترجم عنهم والمتكلم بلغاتهم المختلفة .
 (لِسَانُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب كاتب السرّ ومن فى معناه ، واللسان فيه يحتمل
 المعنيين .

(لِسَانُ السُّلْطَانَةِ) من ألقاب كاتب السرّ .

- (لِسَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ) من ألقاب العلماء ، والمتكلمون يجوز أن يراد بهم كل متكلم
 فى الجملة تعميماً للدخول ، ويجوز أن يراد العلماء بعلم الكلام وهو أصول الدين ،
 لأن أصحابه هم أرباب النظر الدقيق والبحث لدقة متعلّقه ، وهو الظاهر .

(لِسَانُ الْمَمَالِكِ) من ألقاب كُتَّاب السِّرِّ، والممالك جمع مملكة وهو موضع المُلْك، والمعنى أنه يتكلم بلسان ملوك الممالك .
(لِسَانُ ملوك الأُمصارِ) من ألقاب كاتب السِّرِّ .

حرف الميم

(مَالِكُ زِمَامِ الْأَدَبِ) من ألقاب البُلغاء من الكُتَّاب ونحوهم، ويصلح لكاتب السِّرِّ ومَنْ في معناه .
(مانحُ الممالكِ والأقاليمِ والأُمصارِ) من الألقاب السلطانية، والمَانحُ الْمُعْطَى، والممالكُ تقدّمُ بَيَانُهُ، والأقاليمُ جمع إقْلِيمٍ، وله معنيان أحدهما واحدُ الأقاليمِ السبعة التي تُسمِّيها الحكماء، ممتدة في طول الأرض ما بين المغرب والمشرق . والثاني الواحد من الأقاليم العُرفِيَّة : كمصر والشَّام والعِراق وما أشبه ذلك وقد مرَّ القولُ فيهما .
(متعمّد المَصالحِ) من ألقاب الوزراء ومَنْ في معنَاهم، والمراد بالمتعمّد المتقصد .
(مجدُّ الإسلامِ) من ألقاب صغار أرباب السيوف .
(مجدُّ الإسلامِ والمسلمين) من ألقاب متوسطيهم .
(مجدُّ الأُمراءِ) من ألقاب أصاغر أرباب السيوف كأُمراء العِشرين ونحوهم .
(مجدُّ الرُّؤساءِ) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجِكِيَّة .
(مُجَلَّى الْغِيَاهِبِ) من ألقاب أكابر العلماء، والمُجَلَّى بالتشديد الكاشِفُ، يقال : جَلَا الأَمْرَ إذا أَوْضَحَهُ وكَشَفَهُ، ومنه جَلَوْتُ السِّيفَ ونحوه إذا كَشَفْتَهُ من الصِّدَأِ، والغِيَاهِبُ جمع غَيْبٍ وهو الظُّلْمة الشديدة، يقال : فرَسٌ أَدْهَمُ غَيْبًا إذا أَشْتَدَّ سَوَادُهُ .

(مَجْدُ الصُّدُور) من ألقاب التُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ .

(مُجَمِّلُ الْأَمْصَارِ) من ألقاب أكابر أربابِ الأَقْلَامِ ، والمُجَمِّلُ فاعِلُ الجَمَالِ ،
والأَمْصَارُ جمعُ مَصِيرٍ وهو الإقْلِيمُ .

(مُجْهِدٌ نَفْسَهُ فِي رِضَا مَوْلَاهُ) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح [والمرادُ به]
المُعْمِلُ نَفْسَهُ لِلْغَايَةِ . يقال : أَجْهَدُ جَهْدَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَيْ أَيْلِغُ غَايَتَكَ ، والمراد
بِالْمَوْلَى هُنَا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

(مُحْيِي السُّنَّةِ) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(مُحْيِي الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ) من الألقاب السلطانية .

(مُدَبِّرُ الْجُيُوشِ) من ألقاب ناظر الجيش .

(مُدَبِّرُ الْمَمَالِكِ) من ألقاب الوزراء ، وربما قيل «مُدَبِّرُ الدَّوْلَةِ» والمُدَبِّرُ فاعِلُ
التدبيرِ ، وقد تقدّم معناه في الكلام على المُدَبِّرِيِّ فِي جُمْلَةِ الْأَلْقَابِ الْمَفْرَدَةِ .

(مُدَبِّرُ أُمُورِ السُّلْطَانَةِ) من ألقاب الوزراء وَكُتِّبَ السِّرُّ وَغَيْرُهُمْ .

(مُذَكِّرُ الْقُلُوبِ) من ألقاب الخطباءِ وَالْوُعَاظِ ، والمُذَكِّرُ فاعِلُ التذكير وهو الآخِذُ
بِالذِّكْرِ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(مُذِلُّ الْبِدْعَةِ) من ألقاب علماء السنة ، والمُذِلُّ تَقْيِيزُ الْمُعِزِّ .

(مُذِلُّ حَزْبِ الشَّيْطَانِ) من ألقاب العلماء والصلحاء ، وَالْحِزْبُ الطَّائِفَةُ ،
وَحَزْبُ الرَّجُلِ أَصْحَابُهُ .

(مُرَبِّي الْمُرِيدِينَ) من ألقاب الصلحاء .

- (مُرْتَبِ الْجُيُوشِ) من ألقاب ناظر الجيش .
- (مُرْتَضَى الدَّوْلَةِ) من ألقاب الكُتَّاب، والمُرْتَضَى بمعنى المَرْضَى المقبول .
- (مُرْتَضَى المُلُوكِ والسُّلاطِينِ) من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعاً .
- (مُسْتَحْدِمُ أربابِ الطُّبْلِ والعِلْمِ) من ألقاب النائب الكافل ونحوه .
- (مُشِيدُ المَمَالِكِ) من ألقاب الوزراء وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ، والمُشِيدُ فاعلُ التشييد وهو رَفَعَ البناء .
- (مُشِيرُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الوزراء وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ، والمُشِيرُ الذي يُشِيرُ عَلَى غَيْرِهِ بِالرَّأْيِ .
- (مُشِيرُ السُّلْطَانَةِ) مثله .
- (مُشِيرُ المُلُوكِ والسُّلاطِينِ) مثله .
- (مُظْهِرُ أَنْبَاءِ الشَّرِيعَةِ) من ألقاب العلماء، وهو بضم الميم وإسكان الظاء على أنه فاعِلٌ من الظُّهُورِ، ^(١) والأَنْبَاءُ جَمْعُ نَبَأٍ وهو الْخَبْرُ، والمراد أنه يُظْهِرُ أَخْبَارَ الشَّرِيعَةِ وَيُدَيِّعُهَا، ويجوز أن يكون بفتح الميم على أنه هو نفس المَظْهِرِ وهو أبلغ .
- (مُعِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ) من ألقاب النائب الكافل وَمَنْ فِي مَعْنَاهُ .
- (مُعِزُّ السُّنَّةِ) من ألقاب العلماء، والسُّنَّةُ خلافُ الْبِدْعَةِ .
- (مُعِينُ الْحَقِّ وَنَاصِرُهُ) من ألقاب الْحُكَّامِ من أرباب السيوف وغيرهم .
- (مُفَقِّهِ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب العلماء .
- (مُفِيدُ الْبُلْغَاءِ) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرهم .

(مُفِيد الطَالِبِينَ) من ألقاب العلماء .

(مُفِيد المَنَاجِح) من ألقاب الوُزَرَاءِ ، والمَنَاجِح جمع مَنَجَح أخذنا من النَّجَاح وهو الظَّفَر بالحوائج .

(مُفِيد أهل مِصْرَ والعِراقِ والشَّامِ) من ألقاب العلماء .

(مُفِيد كُلِّ غَادٍ وَرَاحٍ) من ألقابهم أيضا .

(مُقَرَّبُ الحَضْرَتَيْنِ) من ألقاب التُّجَّارِ الحَوَاجِكِيَّةِ إذا كان مترددا بين مملكتين .

(مُقَرَّبُ الدُّوَلِ) من ألقاب التُّجَّارِ الحَوَاجِكِيَّةِ ، وهو أعمُّ من الأوَّلِ .

(مَلَجَأُ الفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ) من ألقاب النَّائِبِ الكَافِلِ وَنَائِبِ الشَّامِ على ما أَسْتَقَرَّ عليه الحالُ آنَحَا .

(مَلَجَأُ المُرِيدِينَ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصِّلاحِ .

(مَلِكُ البَحْرَيْنِ) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ بِبَحْرِ الرُّومِ وبِحْرِ القُلُومِ : لأنَّهما يتقاربان بين مِصْرَ والشَّامِ على القُرْبِ من العَرِيشِ .

(مَلِكُ البُلْغَاءِ) من ألقاب أهل البلاغة من السُّكَّابِ وغيرهم .

(مُمَلِّكُ المَمَالِكِ والتُّخُوتِ والتَّيْجَانِ) من الألقاب السلطانية أيضا ، والمرادُ بالتُّخُوتِ هُنَا نُخُوتُ المَلِكِ ، يريد أنه مُمَلِّكُ المَمْلُوكِ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ .

(مُمَهِّدُ الدُّوَلِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُتُوبِ السُّلْطَنَةِ ونحوهم ،

وربما كُتِبَ به لبعض المملوك أيضا ، وقد تَقَدَّمَ الكلام على التمهيد عند الكلام على المُمَهِّدِ فِي جَمَلَةِ الألقاب المفردة .

(مُنْبَه الخَوَاطِر) من ألقاب الخطباء والوعاظ ، والمُنْبَه الموقِظُ ، والخَوَاطِر جمع خَاطِرٍ .

(مُنْجِد المملوك والسلاطين) من ألقاب النائب الكافل ، وبه يُكْتَب لإمام الزيدية باليمن . والمُنْجِد المَعِين أَخْذاً من قولهم أَسْتَجِدُنِي فَلانُ فَأُنْجِدُهُ أَيْ أَسْتَعَانَ بِي فَأَعِثَّهُ .

(مُنْشَى العلماء والمُفْتِينَ) من ألقاب أكابر العلماء .

(مُنْصِف المظلومين من الظالمين) من الألقاب السلطانية .

(مَوْرِد الجود) من ألقاب الكرماء .

(مُوَصِّل السالكين) من ألقاب الصوفية والصلحاء .

(مُوَضِّح الطريقة) من ألقاب الصوفية والصلحاء أيضاً ، وربما قيل «مُوَضِّح الطرائق» وقد تقدم أن المراد الطريقُ إلى الله تعالى .

(مُبُولِي الإحسان) من الألقاب السلطانية ، والمراد بالمُبُولِي المُنِيل .

(مُؤَمِّن الأرض المحيطة) من الألقاب السلطانية أيضاً ، وكأنهم يريدون الأرض المحيطة لآتساعها ، ويكون المراد أرض المملكة ، وإلا فالأرض محوطة من حيث استدارة الماء عليها لا مُحِيطَةٌ بغيرها .

(مَلَاذُ الطالِبِينَ) من ألقاب العلماء والصلحاء ، والمراد المَلَجَأُ .

(مَلَاذُ الْعُبَاد) من ألقاب الصلحاء ، وفيه نظر لأن العباد لا يلوذون إلا بالله تعالى ولا يَلْجَأُونَ إلا إليه .

(مَلَاذُ الْكُتَّاب) من ألقاب أكابر الكُتَّاب ، ككاتب السر ونحوه .

(مُؤَيِّدُ الْحَقِّ) من ألقاب أرباب السيوف وغيرهم ، والمُؤَيِّدُ الْمُقَوِّى أَخْذاً من الأَيْدِ وهو الْقُوَّة .

(مُؤَيِّدُ الْمِلَّةِ) من ألقاب العلماء .

(مُؤَيِّدُ أُمُورِ الدِّينِ) كذلك . وبه يُكْتَبُ لإمام الزيدية باليمن .

حرف النون

(نَاصِحُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ) من ألقاب التُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ .

(نَاصِرُ السُّنَّةِ) من ألقاب العلماء .

(نَاصِرُ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك كملك التُّرُكُورِ ونحوه .

(نَاصِرُ الشَّرِيعَةِ) من ألقاب العلماء، والشريعة ما شرعه الله تعالى من الدين . يقال شَرَعَ لَهُمْ شَرْعاً، وأصله من الشريعة التي هي مَوْرِدُ الْمَاءِ .

(نَاشِرُ لَوَاءِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) من الألقاب السلطانية .

(نَجَلُ السُّلْطَنَةِ) من ألقاب أولاد الملوك ، والمراد أنه وُلِدَ فِي السُّلْطَنَةِ .

(نَجَلُ الْأَكْبَرِ) من ألقاب ذَوِي الْأَصَالَةِ ، والنجل النسل . يقال نَجَلَهُ أَبُوهُ إِذَا وَلَدَهُ .

(نَسِيبُ الْإِمَامِ) من ألقاب الشرفاء كاميرى مكة والمدينة المشرفين ، والنَّسِيبُ الْقَرِيبُ . يقال فلان نَسِيبُ فلان أى قَرِيبُهُ ، وذلك أن مَرْجِعَ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعَلَوِيِّينَ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ .

(نَسِيبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) مثله .

(نَصْرُ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُنُوبِ السُّلْطَانَةِ ونحوهم ، وهو عندهم [فَوْقَ] نَاصِرِ الْغَزَاةِ .

(نَصِيرُ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) كذلك ، وهو عندهم دُونَ الْأَوَّلِ وَفَوْقَ الثَّانِي ، وفيه كلامٌ يَأْتِي ذِكْرُهُ .

(نِظَامُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف وَكُتَّابِ السُّلْطَانِ ، وقد تقدّم الكلامُ عَلَى النَّظَامِ فِي الْأَلْقَابِ الْمَفْرَدَةِ .

(نِظَامُ الْمَمَالِكِ) من ألقاب الْوُزَرَاءِ وَكُتَّابِ السِّرِّ وَنَحْوِهِمْ .

(نِظَامُ الْمَنَاجِحِ) من ألقابهم أَيْضًا .

(نُورُ الزُّهَادِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ .

حرف الهاء

(هُمَامُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب أرباب السيوف وقد تقدّم فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَلْقَابِ الْمَفْرَدَةِ أَنَّ الْهُمَامَ بِمَعْنَى الشَّجَاعِ .

حرف الواو

(وَارِثُ الْمُلْكِ) من الألقاب السُّلْطَانِيَّةِ .

(وَلِيّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من الألقاب الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا أَرْبَابُ السِّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ : كَالْوُزَرَاءِ وَقُضَاةِ الْقَضَاةِ وَكُتَّابِ السِّرِّ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، وَالْوَلِيُّ فِي اللُّغَةِ خِلَافُ الْعَدُوِّ .

حرف اللام ألف

(لَا يُسُّ ثَوْبِ الْفَخَّارِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(لَا فِتُّ الْغَوَاةُ إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ) من ألقاب الصلحاء والوعاظ، واللافِتُّ

الصارف، يقال لَفَتَ وَجْهَهُ عَنِ إِذَا صَرْفَهُ، وأصل اللَّفَتِ اللَّيَّ، والغَوَاةُ جمع غَاوٍ وهو الضَّالُّ، يقال غَوَى يَغْوِي غَيًّا إِذَا ضَلَّ فهو غَاوٍ .

حرف الياء

(يَمِينُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ) قال في "عرف التعريف" : يَخْتَصُّ بِالذُّوَادَارِ

وكتب السِّرِّ، وقد تقدّم الكلامُ على معنى ذلك في الكلام على اليمين في الألقاب

المفردة، وأن المراد يمينُ السلطان التي يتناولُ بها، وإلا فمجلس كاتب السِّرِّ عن يسار

السلطان والذُّوَادَارُ واقِفٌ أمامه .

(يَمِينُ الْمَمْلَكَةِ) مثله .

(يَمِينُ الدَّوْلَةِ) كذلك .

الضرب الثاني

(من الألقاب المفردة المؤنثة ؛ ولأنَّها سببان)

السبب الأول

(الجمع)

بأن يجمع شيء من الألقاب المذكورة المفردة أو المركبة، فننقل من التذكير إلى

التأنيث، فإنَّ الجموع كلها مؤنثة على ما هو مقرر في علم النحو . ويتأتَّى ذلك

في المُطَلَّقات، مثل أن يجمع في صدر المُطَلَّق بين المَقَرِّ الكريم والجناب الكريم والجناب العالى والمجلس العالى؛ ثم يُتَّبَعُهَا بالألقاب التى تليق بها مما يأتى ذكره، فيأتى بتلك الألقاب مجموعة بلفظ التانيث مفردة ومركبة . مثل أن يكتب إلى المقر والجناب الكريمين، والجنابات العاليتين، والمجلس العالى الأميرية، الكبيرة، العالمية العادلة، المؤيدية، الزعيمية، العونية، الغياثية، المناغرية، المرابية، المهدية، المشيدية، الظهيرية، الكافلية، الفلانية، إعزاز الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصار الغزاة والمجاهدين، زعماء الجيوش، مقدّمى العساكر، مُمَهِّدِى الدُول، مَشِيدِى المَالِك، عمادات المِلَّة، أعوان الأُمَّة، ظَهيرِى المُلُوك والسلاطين، سُيوف أمير المؤمنين، ونحو ذلك .

وأعلم أن هذه الألقاب كلّها من جملة الألقاب المفردة والمركبة المتقدم ذكرها، فيستغنى عن بيان مُشْكَلِها وتعريف أحوالها هنا آكتفاءً بما تقدّم، إلا أن من الألقاب المجموعة ما يقوم لفظ الأفراد مقامه بأن يكون اللقب اسم جنس، مثل عَضُدٌ ومَجْدٌ ونحو ذلك مما لا يجوز جمعه لأنه يُقَصَّدُ به الجنس . فيجوز للكاتب حينئذ أن يأتى بذلك بلفظ الجمع ولفظ الأفراد الذى معناه الجمع . وقد أشار إلى ذلك القاضى شهابُ الدين بن فضل الله فى "التعريف" فى الكلام على المطلقات . فقال عند ذكره أعضاد الملوك والسلطين : ويجوز فيه أعضاد الملوك وعَضُدُ الملوك، إطلاقاً للأفراد على الجمع .

السبب الثاني

(تأنيث اللقب الأصل الذي نتفرع عليه الألقاب الفروع . وله حالتان)
الحالة الأولى -- أن يكون اللقب الأصل لمؤنث غير حقيق كالْحَضْرَة وَالْيَدِ
والبَاسِطَة . فتأني الألقاب المفترعة عليها مؤنثة بناء على أن الصفة تتبع الموصوف
في تذكيره وتأنيثه ، على ما هو مقترن في علم النحو . أما نعوت الحضرة فمثل أن
يقال : « الْحَضْرَةُ الشَّرِيفَةُ ، الْعَلِيَّةُ ، السَّنِدِيَّةُ ، الْعَالِمِيَّةُ ، الْعَامِلِيَّةُ ، الْعَادِلِيَّةُ ، الْأَوْحِدِيَّةُ ،
الْمُؤَيَّدِيَّةُ ، الْمُجَاهِدِيَّةُ ، الْمُرَابِطِيَّةُ ، الْمُتَاغِيرِيَّةُ ، الْمُظْفَرِيَّةُ ، الْمُنْصَوْرِيَّةُ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ »
وأما نعوت الباسطة فمثل أن يقال : « الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ ، الْعَالِيَّةُ ، الْمَوْلَوِيَّةُ ،
الْأَمِيرِيَّةُ ، الْكَبِيرِيَّةُ ، الْعَالِمِيَّةُ ، الْعَادِلِيَّةُ ، الْمُؤَيَّدِيَّةُ ، الْحَسَنِيَّةُ ، السَّيِّدِيَّةُ ، الْمَالِكِيَّةُ ،
الْفَلَانِيَّةُ » وفي معناها نعوت اليد . وألقاب هذه الحالة كلها في معنى ما تقدم من
الألقاب المذكورة لا تختلف الحال فيها إلا في التذكير والتأنيث ، وأنه ليس فيها ألقاب
مركبة ، فيستغنى بما تقدم عن ذكر معانيها وأحوالها أيضا .

الحالة الثانية -- أن يكون اللقب الأصل لمؤنث حقيق ، كالْأَدَارِ وَالسَّتَارَةِ
وَالْجِهَةِ إِذَا كُنِيَ بِهَا عَنْ الْمَرْأَةِ فِي الْكِتَابَةِ إِلَيْهَا مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : « الدَّارُ الْكَرِيمَةُ »
و « السَّتَارَةُ الرَّفِيعَةُ » و « الْجِهَةُ الْمَصُونَةُ » ونحو ذلك ، فتنبه الألقاب المنزعة
عليها أيضا في التأنيث إلا أن لها معاني تخصها . وهي على ضربين : مفردة ومركبة
كما تقدم في المذكورة ، وإن لم تبلغ شأوها في الكثرة . فأما المفردة فكالشَّريفة ،
وَالْكُبْرَى ، وَالْعَالِيَةِ ، وَالْمُعَظَّمَةِ ، وَالْمَكْرَمَةِ ، وَالْحَجَّجَةِ ، وَالْمَصُونَةِ ، وَالْخَاتُونِيَّةِ ،
وَالْخَوْنَدِ . وربما قيل الوالدية إذا كانت والدّة حقيقة أو في مقامها ، والولدية إذا كانت
بنات حقيقة أو قائمة مقامها ، والحاجية إذا كانت حاجة ونحو ذلك .

ثم الألقاب المفردة تارة تكون مجردة عن ياء النسب ، كالألقاب المتقدم ذكرها ؛ وقد تلحقها ياء النسب للبالغة في التعظيم فيما تدخل فيه ياء النسب في المذكر ، مثل أن يقال : المعظمية والمكرمية ، والمحجبة ، وما أشبه ذلك . وهذه الألقاب أكثرها منقول عن المذكر ، فيستغنى عن ذكر معانيها وأحوالها ؛ وفيها ألقاب لم يتقدم ذكر مثلها في المذكر كالمحجبة ، وهو مأخوذ من الحجاب كأنها محجوبة عن أن يراها الناس ؛ ومنها المصونة وهو مأخوذ من الصيانة ، وهي جعل الشيء في الصون وقاية له عن مثل النظر والمس ونحو ذلك ؛ ومنها الخاتون ، وهو لفظ تركي معناه السيدة ؛ ومنها الخوند ، وهي لفظة عجمية بمعنى السيادة أيضا .

وأما المركبة فمثل جلال النساء ، وسيدة الخواتين في العالمين ، وشرف الخواتين ، وجميلة المحجبات ، وجميلة المصونات ، وقرينة الملوك والسلطين ، وسليمة الملوك والسلطين ، إذا كانت بنتا لسلطان أو في معناها ، وكريمة الملوك والسلطين إذا كانت أخت سلطان . ومعاني هذه الألقاب ظاهرة معلومة .

الصنف الثاني^(١)

(من الألقاب المفردة على الأصول ألقاب من يكتب إليه)

من أهل الكفر ، مما أصطلح عليها لمكاتباتهم)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْكُفْرِ مَنْ يُكْتَبُ لَهُ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ غَيْرُ النَّصَارَى : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لغيرهم من أهل الملل بالقرب من هذه المملكة مملكة نائمة ، بل اليهود ليس لهم مملكة قائمة في قطر من الأقطار بعد غلبة الإسلام ، إنما يؤدون الجزية حيث حلوا ، إذ يقول تعالى في حقهم : ﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْمَانًا يَقُولُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْبَاسِ ﴾ .

(١) لعل الصواب "النوع الثاني" وبالجملة فالترجم كثيرا ما يقع فيها السهو مما من الناسخ أو المؤلف فتنبه .

ثم مَنْ يَلَقَّبُ من أهل الكفر في المكاتبات إن كان من متديتتهم كالساي
والبطرك، ناسبه من الألقاب ما فيه معنى التنسك والتعبد؛ وإن كان من الملوك
ناسبه ما فيه معنى الشجاعة والرياسة والقيام بأمر دينه وتحمُّله أعباء رعيته
وما في معنى ذلك . فقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب
إلى هرقل : ” مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ “ وفي كتب السيرة أنه
صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى : ” مِنْ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ “
وأنه كتب إلى المقوقس : ” مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُقَوِّسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ “ فعبر
عن كلٍّ من الملوك الثلاثة بعظيم قومه لمناسبة ذلك لهم .

وبالجملة فالألقاب التي تُكْتَبُ إليهم على ضربين :

الضرب الأول

(الألقاب المدكَّرة ، وهي نَمَطَانِ)

النمط الأول

(المفردة)

وأكثر ما تُبْنَى على صفات الشجاعة وما في معناها . وهذه جملة منها مرتبة على
حروف المعجم أيضا ، مَقْفَاةً عليها .

حرف الألف

(الأسد) من الألقاب التي أُصْطُلِحَ عليها بمعنى الشجاعة ، وهو في الأصل للحيوان
المفتريس ، ثم أَسْتُعْمِلَ في الرجل الشجاع مجازاً لعلاقة ما بينهما من الشجاعة .

(الأَصِيل) من الألقاب التي أُصْطِلِحَ عليها لملوكهم أيضا، وقد تقدّم في الكلام على الألقاب الإسلامية نقلا عن "عرف التعريف" أنه يَخْتَصُّ بِكُلِّ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ فِي الرِّبَاسَةِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ هُنَا مَخْتَصًّا بِمَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ فِي الْمُلْكِ، عَلَى أَنَّهُمُ الْآنَ لَا يَقِفُونَ مَعَ ذَلِكَ بَلْ يُرَاعُونَ مَنْ لَهُ أَدْنَى نَسَبٍ .

(الْأَنْجَالُوس) من الألقاب التي أُصْطِلِحَ عليها لملوكهم ، وهي لفظة يُونَانِيَّةٌ معناها الْمَلِكُ وَاحِدُ الْمَلَائِكَةِ ، وَإِنَّمَا كُتِبَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ مُضَاهَاةً لَكُتُبِ الْوَارِدَةِ عَنْهُمْ ، وَلَعَلَّ الْكَاتِبَ لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَى ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي فِي مَعْنَاهَا .

حرف الباء

(الْبَالُولُغِس) من الألقاب التي أُصْطِلِحَ عليها لملوكهم ، وهي لفظة يُونَانِيَّةٌ أَصْلُهَا الْبَالَى لَوُغِس ، وَمَعْنَاهَا «الْكَلِمَةُ الْقَدِيمَةُ» .

حرف الجيم

(الْجَلِيل) من الألقاب التي أُصْطِلِحَ عليها لملوكهم ، ومعنى الْجَلِيلُ فِي اللُّغَةِ الْعَظِيمُ ، لَكِنْ قَدْ اسْتُعْمِلَ فِي أَلْقَابِهِمْ فِي الْمَكَاتِبَاتِ لَمُلُوكِهِمْ . فَيَقَالُ «الْمَلِكُ الْجَلِيلُ» وَالْمُرَادُ الْجَلِيلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُلُوكِ الْكُفْرِ ، وَإِلَّا فَالْكَافِرُ لَا يُوصَفُ بِالْعَظَمَةِ . وَكَانَ الْأَحْسَنُ أَنْ لَا يَكْتُبَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، لِأَسْمَاءٍ وَهُوَ أَسَمُ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى .

حرف الخاء المعجمة

(الْخَاشِعُ) من الألقاب التي أُصْطِلِحَ عليها لمتديّنتهم : كَالِيبِ وَالْبَطْرِكِ . وَقد تقدّم في الألقاب الإسلامية أنه يكون من ألقاب الصّالحاء والصوفية ، وَأَنْ مَعْنَى الْخَاشِعِ الْمَتَدَلِّلُ .

(الْخَطِير) من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم ، والخطير في اللغة الكبير الجليلُ القدير ، ومنه قولهم : أمرُّ له خطرُ أي مقدار كبير .

حرف الدال المهملة

(الدُّوقِس) بضم الدال وكسر القاف من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم . وقد يقال (الضُّوقِس) بالضاد بدل الدال ، وهي لفظة يونانية أصلها دقستين ، ومعناها المشكور .

حرف الراء المهملة

(الرُّوحَانِيّ) من الألقاب التي أصطلح عليها للتدنيين منهم ، وهو بضم الراء نسبة إلى الروح التي بها منأط الحياة للخلوقين ، ومنه نُسب إلى الملائكة والحنَّ رُوحَانِيّ ، وبالفتح نسبةٌ إلى الرُّوح بمعنى الرائحة ، والمعنى الأول أقرب إلى مراد الكتاب .

حرف السين

(السَّيْدَع) من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم . قال الجوهري : وهو بضم السين وقال في "كفاية المتحفِّظ" بفتحها ، ومعناه السيِّد ، وكأن المراد سيِّد قومه وزعيمهم .

حرف الضاد المعجمة

(الضَّرْغَام) من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم ، وهو من أسماء الأسد ، لقَّب به ملوكهم لما فيه من معنى الشجاعة .

حرف الغين المعجمة

(الغَضَنَفَرُ) بفتح الغين والضاد المعجمتين وسكون النون وفتح الفاء من أسماء الأسد، أَصْطَلَحَ الْكُتَّابُ عَلَى تَلْقِيهِمْ بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الشَّجَاعَةِ كَالْأَسَدِ وَالضَّرْغَامِ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الرَّجُلِ الْغَلِيظِ كَمَا حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ . وَلَا بَأْسَ بِاسْتِعْمَالِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَهَا كَامِلٌ بَارِلُهُ فِي الْمَكَاتِبَاتِ إِلَى الْكُفَّارِ .^(١)

حرف القاف

(الْقَدِّيسُ) بكسر القاف من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِمُتَدَيِّتِهِمْ مِنَ الْبَابِ وَالْبَطْرِيرَكَ وَنَحْوَهُمَا، وَأَصْلُهُ مِنَ التَّقْدِيسِ وَهُوَ التَّزْيِينُ .

حرف الكاف

(الْكِرَارُ) بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ مِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِمُلُوكِهِمْ، وَالْكَتَرَارُ صِغَةُ مِبَالِغَةٍ مِنَ الْكَتَرِ خِلَافِ الْفَتْرِ . وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَرْجِعُ فِي الْحَارَبَةِ عَلَى قِرْنِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ وَلَا يَنْهَزِمُ عَنْهُ .

(الْكَمِينِيوسُ) مِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِمُلُوكِهِمْ، وَهُوَ لَفْظٌ رُومِيٌّ مَعْنَاهُ^(٢) .

حرف الميم

(الْمَتَبَتِّلُ) مِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِمُتَدَيِّتِهِمْ، وَمَعْنَاهُ الْمُنْقَطِعُ عَنِ الدُّنْيَا .
(الْمَتَخَّخْتُ) بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ الْمَشْدُدَةِ مِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِمُلُوكِهِمْ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ مَنْ يَجْلِسُ مِثْلَهُ عَلَى تَحْتَ الْمَلِكِ لِاسْتِحْقَاقِهِ لَهُ .
(الْمَتَوَّجُ) بِفَتْحِ الْوَاوِ الْمَشْدُدَةِ مِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِمُلُوكِهِمْ وَالْمُرَادُ أَنَّهُ مَنْ يَلْبَسُ التَّاجَ لِاسْتِحْقَاقِهِ لَهُ .

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ بِالْإِهْمَالِ مَعَ إِشَارَةِ التَّوَقُّفِ وَالْمُرَادُ الْأَلْفَاظُ الَّتِي تَحْتَمِلُ التَّعْظِيمَ وَغَيْرَهُ .

(٢) بَيَضَ لَهُ فِي الْأَصُولِ وَأُورِدَ فِي الضُّوْءِ وَلَمْ يَفْسَرْهُ .

(الْمُحْتَشِم) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لُتْجَارُ الروم والفرنج ، والمراد بالاحتشيم هنا الرئيس الذي له حَشَمٌ وهم خَوَلُهُ وَخَدَمُهُ . وأصل الحِشْمَةِ في اللغة الغَضَبُ ، وسمى خَوَلُ الرجل وَخَدَمَهُ حَشَمًا لأنهم يَغْضَبُونَ له ؛ وبعضهم يُطْلَقُ المحتشيم على المستحجي وعليه عُرِفَ العامة وهو المراد هنا ، وأنكره ابن قتيبة وغيره حتى قال النحاس إنه لا يُعْرَفُ أَحْتَشَمٌ إلا بمعنى غَضِبَ وإن كان الجوهرى قد حكاه .

(الْمُعَزَّز) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لملوكهم [وهو اسم مفعول من العز] خلاف الذل .

(المجد) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لملوكهم ^(١) [وهو مُفْعَلٌ من المجد] . وقد تقدّم الكلام عليه في الألقاب الإسلامية .

حرف الهاء

(الهام) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لملوكهم ، وقد تقدّم في الألقاب الإسلامية ان معناه الشجاع .

الخط الثاني

(من الألقاب التي يُكْتَبُ بها لملوك الكفر الألقاب المركبة)
وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم أيضا .

حرف الألف

(آحر ملوك اليونان) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لملوكهم ، وهي تصلح لكل ملك ينتسب إلى اليونان أو قام مقامهم في الملك . واليونان أمةٌ معروفة مشهورة ، وكانت مملكتهم أولا في الجانب الشرق من الخليج القُسْطَنْطِينِي المعروف الآن ببلاد

(١) الزيادة يقتضيها الكلام كما لا يخفى على المتأمل .

الرُّوم ثم ملكوا بعدها العِراق، والأُتُرك، والهند، وبلاد أرمينية، والشام، ومصر، والإسكندرية. ومنهم أكثر الحكماء والفلاسفة. وكانت دولتهم من أعظم الدُول؛ وأختلف في نسبهم: فنقل ابن سعيد عن البيهقي وغيره من المحققين أنهم من ولد أفريقش بن يُونان، بن عَلْجان، بن يافث، بن نُوح عليه السلام. والمنقول عن التوراة أن يُونان هو ابن يافث لصلبه، وأسمه فيها ياقان بقاء تقرب في اللفظ من الواو فعزبت يُونان. وخالف كثير من المؤرخين فنسبوا يُونان إلى عابر بن فالغ، فجعله أخا لَقْطَطان جد العرب العاربة، وأنه خرج من اليمن مغاضبا لأخيه قَطحان فنزل ما بين الأفرنجية والروم واختلط نسبه بنسبهم. وقيل: بل اليونان من جملة الرُّوم من ولد صوفر بن العيص، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام.

(أُسوة الملوك والسلاطين) من الألقاب التي أصطلح عليها للملوكهم، والإسوة بكسر الهمزة وضمها بمعنى القدوة ومنه قولهم: لى فى فلانٍ إسوةٌ يعنى قُدوةً، وكأنهم جعلوه إسوةً للملوك الكفريقتدون به وإلا فلا يجوز إطلاق ذلك على الملوك من حيث هم لدخول ملوك الإسلام فيهم.

(العادل فى ملته) من الألقاب التي أصطلح عليها للملوكهم، وقد تقدّم معنى العادل والمِلّة فى الكلام على الألقاب الإسلامية.

(العادل فى مملكته) من الألقاب التي أصطلح عليها للملوكهم، وقد تقدّم معنى العادل، والمملكة فى الأصل موضعُ الملك ثم أطلقت على الرعية مجازا.

(الرّيد أرغون) من الألقاب التي أصطلح عليها لبعض ملوكهم ممن يملك البلاد المعروفة بأرغون، وقد ذكر فى "الروض المعطار" بلاد أرغون، وقال: هو آسم بلاد غرسية بن شانجة، تشتمل على بلاد ومنازل وأعمال، ولم يذكر فى أيّ حيز هى

ولا في أى قُطر . وقد رأيت هذا اللقب في ” التعريف “ : للقرن الشَّهابيِّ بن فضل الله في ألقاب صاحب القُسطنطينية وفي ” التثقيف “ لابن ناظر الجيش ، في ألقاب الأُدُنُوش صاحب طُلَيْطَلَة من الأندلس ، ويحتاج إلى تحقيق من يملك هذه الطائفة منهما فيكتب به إليه . والرَّيد في لغتهم بمعنى الملك كما تقدّم في الكلام على ريد أفرنس في ألقاب الملوك .

(المُنْصِف لرعيته) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، والرعيّة من يسوسه الملك ، سُمُوا بذلك تشبيها لهم بالغنم وله بالراعى .

(أوحدُ الملوك العيسويّة) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، ويصلح للملكانيّة واليعقوبية جميعا : لأنه لم يقيد بمذهب من مذاهب النصارى .

(أوحد ملوك اليعقوبية) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوك الحبشة : لأن ملكها من طائفة اليعقوبية .

حرف الباء

(بطلُ النصرائية) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهو صالح لكل واحد منهم ؛ ومعنى البطل في اللغة الشجاع ، سُمي بذلك لأنه يُبطل حركة قرنه .

(بقيّة أبناء التُّخُوت والتَّيجان) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهى تصلح لكلّ منهم أيضا من الملكانية واليعاقبة جميعا .

(بقيّة الملوك الأغرقيّة) من الألقاب التي أصطلح عليها لبعض الملوك من بقايا طائفة الأغرقيّة من اليونان ، وهم طائفة من اليونان تنسب إلى أغريقش بن يونان المقدم ذكره ، وهم اليونان الأول . وقد ذكره في ” التعريف “ في ألقاب ملك الكُرج ، ولعله أطلع على أنه من بقايا هذه الطائفة ، وهو مما يحتاج إلى تحرير .

(بَقِيَّةُ سَلَفٍ قَيْصَرٍ) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لبعض ملوكهم من
 أَنْتَسَبَ إِلَى الْقِيَاصَةِ ملوكِ الرومِ أَوْ قامَ مَقَامَهُمْ . وَقَيْصَرُ اسْمٌ قَدِيمٌ لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ
 الرومَ ، وأصل هذه اللفظة في اللغة الرومية جَاشَرِيْجِيمَ وشين معجمة فُعِرَّتْ قَيْصَرُ ،
 ولها عندهم معنيان : أحدهما الشيء المشقوقُ عنه ، والثاني الشَّعَرُ . وأختلف
 في أَوَّلِ مَنْ لُقِّبَ بِذَلِكَ منهم فقيل : أَغَانِيُوشُ قَيْصَرُ ، أَوَّلُ الطبقة الثانية من
 ملوك الروم : ماتت أمّه وهو حَمَلٌ فَشَقَّ بَطْنُهَا وأُخْرِجَ فَسَمِيَ بِذَلِكَ لما فيه من الشق
 عليه ، وقيل يوليوش قَيْصَرُ ، وهو الذي ملك بعد أَغَانِيُوشَ المُقَدَّمُ ذكره ، وقيل
 أَغَشَطُشُ قَيْصَرُ وهو الذي وُلِدَ الْمَسِيحُ عليه السلام في زمانه ، فقد قيل إنه الذي
 ماتت أمّه وهو حَمَلٌ فَشَقَّ جَوْفُهَا وَأُخْرِجَ فَسَمِيَ بِذَلِكَ ، وقيل لأنه وُلِدَ لَهُ شَعَرٌ تَامٌ
 فَسَمِيَ قَيْصَرُ لَوْجُودِ الشَّعْرِ فِيهِ حِينَئِذٍ .

حرف الجيم

(جَامِعُ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ) من الألقاب التي تَصْلُحُ لِكُلِّ مَلِكٍ [مَمْلَكَةٍ] مُتَّسِعَةٍ
 عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كصاحب القُسْطَنْطِينِيَّةِ ونحوه .

حرف الحاء المهملة

(حَافِظُ الْبِلَادِ الْجَنُوبِيَّةِ) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لِمَلِكِ الْحَبَشَةِ من
 النصارى . عَلَى أَنَّهُ يَصْلُحُ لِغَيْرِهِ من ملوك السُّودَانِ أَيْضًا مِمَّنْ أَخَذَ فِي الْجَنُوبِ
 من المسلمين وغيرهم .

(حَامِلُ رَايَةِ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لِمُلُوكِهِمْ ، وَهِيَ تَصْلُحُ
 لِكُلِّ مَلِكٍ كَبِيرٍ من ملوك النصارى ، والمراد بِالْمَسِيحِيَّةِ الْمِلَّةُ الْمَسِيحِيَّةُ ، فَخُذَفَ

الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، يريدون ملة المسيح وهو عيسى عليه السلام .
وأخْتَلَفَ في [سبب] تسميته بالمسيح : فقليل لأنه كان ممسوح القدمين بمعنى أنه لا يَخْصُصُ
له . وقيل لأنه مَسَحَ الأرضَ بالسَّيَّاحَةِ ، وقيل غير ذلك . أما تسمية الدَّجَالِ بالمسيح
فلأنه ممسوح العين لأنه أعور . وقيل لأنه يَمَسَحُ الأرضَ بالسيف فيها .

(حَامِي الْبَحَارِ وَالْخُلُجَانِ) من الألقاب التي تصلح لكل مَنْ مملكته منهم على
البحر ، والْبَحَارُ جمع بَحْرٍ ، وأصله في اللغة الشَّقُّ ، ومنه سُمِّيَتِ الْبَحِيرَةُ المذكورة
في القرآن : وهى الناقة التي تُشَقُّ أذنُها فتُرْسَلُ فلا تُعَارِضُ ؛ وَالْخُلُجَانُ جمع خَلِيجٍ
وهو الجَدُولُ الصَّغِيرُ ، والمراد ما يتشعب من البحر تَخْلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَجَوْنُ
الْبَنَادِقَةِ ونحوهما .

(حَامِي حُمَاةِ بَنِي الْأَصْفَرِ) من الألقاب التي تصلح لملوك الرُّومِ وَالْفَرَنْجِ بِأَمْثَالِ
الْعِظَامِ : كصاحب الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وغيره ، والمراد ببنِي الْأَصْفَرِ الرُّومُ فإنهم من ولد
صوفر بن العيص ، بن إِسْحَاقَ ، بن إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ، والمؤرِّخون يعبرون عن
صوفر بالأصفر . وإنما خَصَّه بِحُمَاةِ الْحُمَاةِ تَفْخِيماً لَهُ فإنه إذا حُمِيَ الْحُمَاةُ كَانَ بِحُمَاةِ
غيرهم أَجْدَرُ .

حرف الخاء المعجمة

(خَالِصَةُ الْأَصْدِقَاءِ) من الألقاب التي أَصْطَلَحَ عليها لملوكهم ، والمراد بِالْخَالِصَةِ
هنا مَنْ لَيْسَ فِي صِدَاقَتِهِ شَائِبَةٌ .

(خُلَاصَةُ مَلُوكِ السُّرِّيَّانِ) من الألقاب التي تصلح لكل مَنْ يُنْسَبُ إِلَى بَقَايَا
السُّرِّيَّانِيَّينَ مِنَ الْمُلُوكِ . وَالسُّرِّيَّانُ أَقْدَمُ الْأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ ، وَكَانُوا يَدِينُونَ بِدِينِ
الصَّابِئَةِ ، وَيَتَسَبَّوْنَ إِلَى صَابِيٍّ بْنِ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ أَبُو حَزْمٍ : وَدِينُهُمُ

أقدم الأديان على وجه الأرض، ومدار مذاهبهم على تعظيم الرُوحانيّات والكواكب، وكانت منازلهم أرض بابل من العراق . قال المسعودي : وهم أول ملوك الأرض بعد الطوفان .

حرف الذال المعجمة

(ذُخر ملوك البحار والخلج) من الألقاب التي تصلح لكل ملك منهم على ساحل البحر، وقد تقدّم معنى الذُخر والبحار، والخلج هي الخلجان؛ وقد تقدّم معناها .

(ذُخر الأمة النصرانية) من الألقاب التي تصلح لجميع ملوك النصرانية من الملكانيّة واليعاقبة ، وقد تقدّم معنى الذُخر والأمة في الكلام على الألقاب الإسلامية .

حرف الراء المهملة

(رَضِيَ الباب باباً روميّة) يجوز أن يكون بفتح الراء وكسر الضاد بمعنى مَرْضَى الباب ، ويجوز أن يكون بكسر الراء وفتح الضاد بمعنى أنه يُجعل نفس رضا الباب وهو أبلغ . وهو من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم؛ وقد تقدّم في الألقاب الأصول معنى البابا، وروميّة اسم لروميّة التي بها الباب مقيم، إضافة إليها لإقامته بها، وقد مرّ القول عليها في الكلام على المسالك وأمالك في المقالة الثانية؛ وتأتي الإشارة إليها في الكلام على مكتبة الباب في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

(رُكنُ الأمة العيسويّة) من الألقاب التي أصطلح عليها ليُكابر ملوكهم كملك الحبشة ونحوه، ويصلح للملكانيّة واليعاقبة جميعاً .

حرف الشين المعجمة

(شَيْهِ مَرِيحًا مَعْمَدَان) من الألقاب التي تصلح لكار ملوكهم، ومَرِيحًا بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحت وبعدها حاء مهملة ونون . ومعنى 'مر السيد'، ويَحَنَّا بلغتهم يحيي'، والمراد شبيه السيد يحيي'، والمَعْمَدَانُ بيمين مفتوحتين بينهما عين مهملة صفة عندهم ليحيي' فهم يزعمون أن مريم عليها السلام خرجت بعيسى عليه السلام من الشام إلى مصر وعادت به إلى الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فتلقاه يحيي' عليه السلام وهو ابن خالته، فغمسه في نهر الأردن، وهو عندهم أصل ماء المعمودية الذي لا يصح عندهم تنصّر نصراني إلا به فأطلقوا على يحيي' عليه السلام المَعْمَدَانُ لمعنى ذلك، وكأنه شبهه به من حيث إنه أصل المعمودية بزعمهم .

حرف الصاد المهملة

(صَدِيقُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، والمراد أن فيه صداقةً ووداً لملوك الإسلام وسلاطينهم .

حرف الضاد المعجمة

(ضَايِطُ الْمَمَالِكِ الرُّومِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لصاحب القُسْطَنْطِينِيَّةِ، وهو نظير حافظ البلاد الجنوبيَّة لملك الحبشة .

حرف الظاء المعجمة

(ظَهِيرُ الْبَابِ بَابًا رُومِيَّةً) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، وقد تقدم معنى 'الباب والبابا' .

حرف العين المهملة

(عِزُّ الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لأكابر ملوكهم .

(عِمَادُ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لكبار ملوكهم، والعماد في اللغة الأبنية الرفيعة، يذكَرُ وَيُؤْتَى . وقد مرَّ بيانُ معنى المعمودية في حرف الشين .

حرف الفاء

(فَارِسُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) يصلح لمن يكون مجاوراً للبر والبحر من الملوك كأصحاب الجزائر، وقد يصلح لغيرهم أيضاً .

(فَخْرُ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، وتصلح للإكائنة واليعاقبة منهم .

حرف الميم

(مُتَبِعُ الْحَوَارِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ الرَّبَّانِيِّينَ وَالْبَطَارِكَةِ الْقِدِّيسِينَ) من ألقاب عظماء ملوكهم ، والمراد بالحواريين أصحاب عيسى عليه السلام الذين بعثهم إلى أقطار الأرض للبشارة به وللدعاة إلى الله تعالى ، وعنهم أخبر تعالى بقوله : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ وهم اثنا عشر نفساً أسمائهم يُونَانِيَّةٌ .

أحدهم — بَطْرُس ، ويقال له سَمْعُون الصِّفَا ، وهو الذي بَشَّرَ بِالْقُدُسِ وَأُنْطَاكِيَّةَ وَمَا حَوْلَهَا .

والثاني — أُنْدَرَاوَس . وهو الذي بَشَّرَ بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالسُّودَانِ .

(١)

والثالث — يَعْقُوبُ بْنُ زَيْرِي . وهو الذي بَشَّرَ بِمَدِينَةِ

- والرابع — يُوَحَّنَا الْإِنْجِيلِيّ . وهو الذى بَشَّرَ ببلاد أِفْسُس وما معها .
- والخامس — فِيلِبَس . ولم أَقِفْ على موضع بشارته .
- والسادس — بَرْتُولُومَا . وهو الذى بَشَّرَ فى الواحات والبَرَر .
- والسابع — تُوْمَا ويعرف تُوْمَا الرسول . وهو الذى بَشَّرَ فى السِّند والهند .
- والثامن — مَتَّى . وهو الذى بَشَّرَ بأرضِ فَلسَطِين ، وَصُور ، وَصَيْدَا ، ومصر ، وَقَرْطَاجَنَّة من بلاد المغرب .
- والتاسع — يَعْقُوب بن حلفا . وهو ممن بَشَّرَ ببلاد الهند أيضا .
- والعاشر — سِمْعَانَ ويقال شَعْعُون الصَّفَا . وهو الذى بَشَّرَ بِشِمَشَاط وَحَلَب وَمَنْبِيج وَبَرْنَطِيَّة : وهى الْقُسْطَنْطِينِيَّة .
- والحادى عشر — بُولُس ويقال له تداوس ، وهو الذى بَشَّرَ بِدِمَشْق وبالقُدس أيضا وبلاد الروم والجزائر ورومية .
- والثانى عشر — يَهُوذَا الْأَنْطَحْرِيُوطِيّ : وهو الذى خرج عن طاعة الْمَسِيح ودَلَّ عليه اليهود لِيَقْتُلُوهُ فَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى شَبَهَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ فَأَمْسَكَهُ الْيَهُودُ وَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ ورفع الله تَعَالَى الْمَسِيحَ إِلَيْهِ ، وليس هذا من المراد بالحواريين هنا : لأنه قد خرج عن دائرتهم . فلفظ الحواريين مأخوذ من الحَوَر وهو شِدَّةُ الْبَيَاض ، سُمُّوا بِذَلِكَ لِصَفَائِهِمْ وَتَفَانِيهِمْ فِي اتِّبَاعِ الْمَسِيحِ عَنِ الدَّخَلِ ، وَقِيلَ لَهُمْ كَانُوا فِي الْأَوَّلِ قَصَّارِينَ يَدْيُضُونَ الثِّيَاب .
- والأخبار جمع حَبَر — بفتح الحاء وكسرها وهو العالم .
- والرَّبَّانِيُّونَ جمع رَبَّانِيّ وقد تقدّم معناه فى الألقاب الإسلامية .
- والبَطَارِكَةُ جمع بَطْرِك وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الأصول وأن أصله بَطْرِيْرُك ، وأنه يقال فيه فَطْرُك بالفاء بدل الباء ، وكان لهم خمسة كراسى : كرسى برومية ،

وهو الذى قعد فيه الباب ، وكرسى الإسكندرية : وهو الذى استقر لبطرك يعقوبية الآن ، وكرسى بيزنطية وهى القسطنطينية ، وكرسى أنطاكية وكان فيه بطرك النسطورية ، وكرسى بالقدس وهو أصغرهما عندهم .

(محي طرق الفلاسفة والحكماء) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية لأن مملكته منبع حكمة اليونان وفلاسفتهم . والفلاسفة جمع فيلسوف بكسر الفاء وهى لفظ يونانى مركب من مضاف ومضاف إليه ، معناه محب الحكمة ، فلفظ فيل بمعنى محب ، وسوف بمعنى الحكمة ، وهم يطلقون الفلسفة على من يحيط بالعلوم الرياضية . وهى : الهيئة والهندسة والحساب واللحون وغيرها . والحكماء جمع حكيم ، وهو من يُحسن دقائق الصناعات ويَتقنها أو من يتعاطى الحكمة ، وهى معرفة أفضل الأشياء وأفضل العلوم ، وأول ما صارت الحكمة فيهم فى زمن ^{مؤخر} بختنصر ، ثم اشتهرت فيهم بعد ذلك ، ولذلك عبر بالفلاسفة القدماء إشارة إلى أول زمن الحكماء .

(محوّل الثخوت والتيجان) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية لعظم مملكته فى القديم والحديث ، والمحوّل المملك ، والثخوت جمع تحت وهو كرسى الملك الذى يجلس عليه الملك فى مجلسه العام ، والتيجان جمع تاج وهو الذى يوضع على رأس الملك إذا جلس على تخته ، والمعنى أنه يُعطى الملوك الممالك من تحت يده لسعة مملكته وعظمتها ، وقد كانت القسطنطينية قبل غلبة الفرنج وقوة شوكتهم ملوكا عظيما .

(مسيح الأبطال المسيحية) من الألقاب التى أصطلح عليها لأكابر ملوكهم كصاحب القسطنطينية . أضاف المسيح إلى الأبطال ثم وصفها به جمعا له بين رتبتي الشجاعة والتدين بدينه .

(مُصَافِي الْمُسْلِمِينَ) من الألقاب التي أَصْطُلِحَ عليها لملوكهم، والمُصَافِي مفاعل من الصِّفاء، والمراد أنه صافي النية للمسلمين والمسلمون صافو النية له .

(مُعِزَّ النَّصْرَانِيَّةِ) من الألقاب التي أَصْطُلِحَ عليها لأكابر ملوكهم، والمراد بالنصرانية ملة النصرانية، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، والنصرانية في الأصل منسوبة إلى الناصرة وهي القرية التي نزلها المسيح وأمه عليهما السلام من بلاد القُدُس عند عودهما إلى مصر، وقيل مأخوذة من قوله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ .

(معظم البيت المقدس) من الألقاب التي أَصْطُلِحَ عليها لملوكهم، وربما زيد فيها فقيل «معظم البيت المقدس بعقد النية» لموافقة الروى في السجعة التي تقارنها، ويصلح لكل ملك من ملوكهم لأن جميعهم يعتقدون تعظيم البيت المقدس، والبيت المقدس معروف، والتقدیس التنزيه والتطهير .

(معظم كنيسة صهيون) من الألقاب المختصة بملك الحبشة لأنه يعقوبى، وكنيسة صهيون بالإسكندرية : وهي كنيسة بطرك اليعاقبة الآن، ومعتقدهم أنه لا يصح ولاية ملك منهم الا باتصال من هذا البطرك، على أنه في ابتداء البطركية في زمن الخواريين لم يكن بكرسى الإسكندرية أحد من الخواريين، إنما كان بها مرقص الإنجيلي تلميذ بطرس الخوارى صاحب كرسى رومية، والنصارى يومئذ على طريقة واحدة قبل ظهور الملكية واليعقوبية، فلما افترق دين النصرانية إلى الملكية واليعاقبة وغيرهم، كانت بطركية الإسكندرية يتداولها الملكية واليعقوبية تارة وتارة بحسب انتقال الملوك والميل إلى كل من المذهبين، ثم استقرت آخرًا في بطرك اليعاقبة إلى زماننا، وتبعه ملوك الحبشة لأنتحلهم مذهب اليعاقبة، كما تبع الروم والفرنجية الباب

برومية : لانتحالم مذهب المِلْكانية ، وسيأتى الكلام على طَرَف من ذلك فى الكلام على مكتبة ملك الحبشة إن شاء الله تعالى .

(مَلِكُ مُلُوكِ السُّرْيَانِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية لعظّمته عندهم ، وقد تقدّم ذكر السُّرْيَانِ فيما قبل .

(مُؤَادُ الْمُسْلِمِينَ) من الألقاب التى أصطلح عليها للملوكهم ، وهو بتشديد الدال أخذًا من المَوَدّة .

(مُؤَيِّدُ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التى أصطلح عليها للملوكهم ، والمُؤَيِّدُ المَقْوَى ، والمراد بالمسيحية الملة المسيحية كما تقدّم بيانه ، وربما قيل «مُؤَيِّدُ الْعِيسَوِيَّةِ» : والأمر فيهما كذلك .

حرف النون

(نَاصِرُ الْمِلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لأَكْبَرِ ملوكهم ، وقد تقدّم معنى هذه الألقاب فى مواضعها .

حرف الواو

(وَارِثُ التَّيْجَانِ) من الألقاب التى أصطلح عليها للملوكهم . وقد تقدّم معنى التَّيْجَانِ ، والمراد أنه أنتقل إليه الملكُ وراثته من آبائه .

(وَارِثُ آبَائِهِ فِي الْأَسِرَّةِ وَالتَّيْجَانِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لمن يكون عَرِيقًا فى المُلْكِ ، وهو قريب من اللَّقَبِ الذى قبله .

(وَارِثُ الْقِيَاصَةِ الْعُظْمَاءِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية التى هى قاعدة القِيَاصَةِ ، وقد تقدّم أوّل مَنْ سُمِّيَ قيصر فيما سَلَفَ من الألقاب .

الضرب الثاني

(من ألقاب أهل الكفر الألقاب المؤنثة: بأن يكون اللقب الأصل مؤنثاً
فتبعه الألقاب الفروع في التأنيث. ولها حالتان)

الحالة الأولى — أن يكون اللقب الأصل لمؤنث غير حقيق كالْحَضْرَة مَثَلًا ،
فترد ألقابه مؤنثة ، وفي الغالب إنما يقع التأنيث في اللقب الأول ثم ينتقل إلى
الألقاب المذكورة ، مثل أن يقال : « الحَضْرَة العَالِيَة أو السَامِيَة أو الْعَالِيَة ، حَضْرَة
الملك الجليل » ويؤتى بما يناسبه من الألقاب بعد ذلك ، وربما أتى للحَضْرَة بِلَقَبَيْنِ
فأكثَر طلباً للتفخيم ، ثم يُعَدَّل إلى الألقاب المذكورة ، مثل «الحَضْرَة الْعَالِيَة الْمَكْرَمَة»
ثم يقال « حَضْرَة الْمَلِكِ الْجَلِيل » وما أشبه ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون اللقب الأصل لمؤنث حقيق بأن يكون لأمراة كما إذا
كانت ملكة في بعض ممالكهم ، على قاعدة الأعاجم في إسناد الملك إلى بنات الملوك ،
فيؤتى بألقابها المفردة والمركبة مؤنثة ، فيكتب مثلاً « الْمَلِكَة الْجَلِيلَة الْمَكْرَمَة الْمَبْجَلَة
الموقرة المفخمة المعززة فلانة العادلة في مملكتها ، كبيرة دين النصرانية ، نصرته الأمة
العيسوية ، حامية الثغور ، صديقة الملوك والسلاطين » وما أشبه ذلك ، ومعاني هذه
الألقاب معلومة مما تقدم .

قلت : قد أتيت من ألقاب أهل الإسلام وألقاب أهل الكفر : المفردة
والمركبة على ما تضمنه "التعريف بالمصطلح الشريف" للمقر الشهابي بن فضل الله ،
و"عرف التعريف" في الإخوانيات له ، و"تثقيف التعريف" للقاضي تقي الدين
أبن ناظر الجليش إلا ما شرد عنه القلم ، مع ما ضممته إلى ذلك مما وجدته في غيرها من

الدينايات المجموعة في السلطانيات والإخوانيات المصرية والشامية جارياً على عُرفهم مما استعمله أهل الزمان ومن قاربه ، والكاتب الماهر إذا فهم أصلها وعرف طرقها ، اخترع ماشاء من الألقاب والنعوت ، والضابط في وضع الألقاب أن يراعى فيها أحوال المكتوب له ، فيؤتى منها بما يناسب حاله في الوظيفة والرياسة وسائر أوصاف المدح اللاتقة به ، فيؤتى لصاحب السيف بالألقاب المقتضية للشجاعة والبسالة : مثل المجاهدى والمناغرى والمرابطى وما أشبه ذلك . وربما أضيف له بعض الألقاب المقتضية للعلم والصلاح ، كالعالمى والعاملى ونحو ذلك ، لأشتراك الناس في المدح بمثل ذلك . ويؤتى للعالم والقاضى ونحوهما بالألقاب المقتضية للعلم كالعالمى والمحقق والمدقق ونحو ذلك . وربما أضيف إليها الألقاب المقتضية للصلاح لتمدح العلماء به . ويؤتى للصوفية وأهل الصلاح بالألقاب المقتضية للصلاح والتعبد كالعابدى والزاهدى ونحوهما . ويؤتى لكُتّاب الإنشاء بالألقاب المقتضية للبلاغة كالبلّغ والمفوهى ونحوهما . ويؤتى للنساء بالألقاب المقتضية للصيانة والعفة كالمصونة والمحجبة وما أشبههما . ويؤتى لأهل الكفر من الملوك ونحوهم بما لارج فيه على الكاتب : كالشجاعة وما في معناها ، والتقدم على ملوك طائفته وأهل ملته وما في معنى ذلك . فإن اجتمع في شخص واحد أوصاف متعددة من المآدح جُمعت له . على أن أكثر ما يستعمله الكُتّاب من الألقاب غير موجودة في صاحبها ، وإنما هي ألقاب حفظوها لرتب معينة لا يسمعهم الإخلال بشئ منها وإن كانت كذبا محضاً و﴿ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . وقد كان في القديم قاعدة مستقرّة : وهو أنه لا يلقّب أحد بلقب ولا يُكنى بكنية إلا أن يكون الخليفة هو الذى يلقّب بذلك أو يكنى .

الجملة السابعة

(في تفاوتِ الألقابِ في المراتب ، وهى قسمان)

القسم الأول

(ما يقع التفاوتُ فيه بالصُّعودِ والمُهبوطِ ، وهو نوعان)

النوع الأول

(ما يقع التفاوتُ فيه بحسبِ القِلَّةِ والكثرة ، وله حالتان)

الحالة الأولى — أن يكون المكتوبُ إليه من أتباع المكتوبِ عنه ، كُتُوبُ السلطنة فيما يُكْتَبُ عن الأبواب السلطانية من مكاتباتِ وولايات ، فزيادة الألقاب وكثرتها في هذه الحالة علُوٌّ وشرفٌ في حقِّ المكتوبِ إليه ، لأنها من باب المدح والإطراء ، ولا شك أن كثرة المدح من المتبوع للتابع أعلى من قِلَّتِهِ ، ولذلك تقع الإطالةُ في ألقابِ كبارِ الثُّوابِ والاختصارُ في صغارهم ، وتأتى في غاية الاختصار في نحو ولاة النواحي ومَن في معناهم .

الحالة الثانية — أن يكون المكتوبُ له أجنبيًّا عن المكتوبِ عنه ، كالمملوك الذين تُكْتَبُ إليهم المكاتباتُ عن السلطان ، فقلة الألقاب في حقِّه أرفعُ لأن الإكثار من ذلك يُرى أنه من باب الملقى المذموم بين الأَكابرِ في المكاتباتِ فوجب تجنبه كما يجب تجنب المدح وكثرة الدعاء ، ولذلك يقع الاختصارُ في الألقابِ فيما يُكْتَبُ لهم عن السلطان إجلالا لقدرهم عن رتبةِ رعاياه الذين يُكثَرُ من ألقابهم .

النوع الثاني

(ما يقع فيه التفاوت في العلو والهبوط بحسب ما يقتضيه جوهْر اللفظ
أو ما وقع الاصطلاح عليه . وهو صنفان)

الصنف الأول

(الألقاب المفردة . وهي على أربعة أنماط)

النمط الأول

(التوابع)

وهي التي تلي الألقاب الأصول كالتي تلي المقام والمقر والجناب والمجلس ؛ فيلي
المقام لفظ الأشرف ولفظ الشريف ولفظ العالی ، فالمقام يقال فيه « المقام
الأشرف العالی » و « المقام الشريف العالی » و « المقام العالی » . ويلى المقر
لفظ الأشرف ولفظ الشريف ولفظ الكريم ولفظ العالی ، فيقال « المقر الأشرف
العالی » و « المقر الشريف العالی » و « المقر الكريم العالی » و « المقر العالی » .
ويلى الجناب لفظ الكريم ولفظ العالی ، فيقال « الجناب الكريم العالی »
و « الجناب العالی » . ويلى المجلس لفظ العالی والسامى ، فيقال « المجلس العالی »
و « المجلس السامى » . والألفاظ التي تتبع وهي الأشرف والشريف والكريم
والعالی والسامى بعضها أرفع من بعض على الترتيب . فالأشرف أرفع من الشريف ،
لأن أشرف أفضل تفضيل يقتضى الترجيح على غيره كما هو مقرر فى علم النحو ؛
والشريف أرفع رتبة من الكريم لما تقدم عن ابن السكيت أن الكرم يكون فى الرجل
وإن لم يكن له آباء شرفاء ، والشرف لا يكون إلا لمن له آباء شرفاء . ومقتضى ذلك
ترجيح الشريف على الكريم لاقتضائه الفضل فى نفس الشخص وفى آبائه ، بخلاف

الكرم ؛ ولذلك اختير الشرف لأبناء فاطمة رضى الله عنها دون الكرم . والكريم
أرفع رتبة من العالى ، لأن الكريم يحتمل أن يكون من الكرم الذى هو خلاف اللؤم
ويحتمل أن يكون من الكرم الذى هو خلاف البخل وكلاهما مقطوع بأنه صفة
مدح ، وإن الأقرب إلى مراد الكتاب المعنى الأول . والعالى يحتمل أن يكون
من على بكسر اللام يعلى بفتحها علاء بفتح العين والمد إذا شرف ؛ ويحتمل أن
يكون من علا يعلو علوا إذا ارتفع فى المكان ، وليس العلو فى المكان مما يدل على
صفة المدح إلا أن يستعار للارتفاع فى الشرف فيكون صفة مدح حينئذ على
سبيل المجاز وإن كان مراد الكتاب هو المعنى الأول ؛ وما كان مقطوعا فيه بالمدح
من الجانبين أعلى مما يكون مقطوعا فيه بالمدح من جانب دون جانب . وقد
أصطلحوا على أن جعلوا العالى أرفع رتبة من السامى ، وهو مما أنكر على واضعه ،
إذ لا فرق بينهما من حيث المعنى ، لأن السمو بمعنى العلو . والذى يظهر أن الواضع
لم يحتمل ذلك ولعله إنما جعل العالى أرفع رتبة من السامى وإن كان بمعناه لأن
العالى لفظ واضح المعنى يفهمه الخاص والعام ، فيكون المدح به أعم باعتبار من
يفهمه ، بخلاف السامى فإنه لا يفهم معنى العلو منه إلا الخاصة ، فيكون المدح به
أخص لأقتصار الخاصة على معرفته دون العامة .

النمط الثانى

(ما يقع التفاوت فيه بحسب حقوق ياء النسب وتجرده منها)

قد تقدم أن الألقاب المفردة منها ما تلحق به ياء النسب ومنها ما يتجرده عنها ،
وأن الذى تلحقه ياء النسب منها ما هو منسوب إلى شىء خارج عن صاحب
اللقب كالقضائى فإنه منسوب إلى القضاء الذى هو نفس الوظيفة ، فيكون النسب

فيه على بابه؛ ومنه ما هو منسوب إلى صاحب اللقب نفسه كالأمرى فإنه نسبة إلى الأمير وهو عين صاحب اللقب فدخلت فيه ياء النسب للمبالغة، كما في قولهم لشديد الحمرة أحمرى على ما تقدم بيانه .

وبالجملة فقد اصطَلَحُوا على أن يكون ما حِلَقَتْ به ياء النسب أرفع رتبة مما تجرد عنها، سواء كان منسوباً إلى نفس صاحب اللقب أو غيره، فيجعلون الأمرى أعلى رتبة من الأمير، والقضائى أرفع رتبة من القاضى؛ ثم يجعلون المنسوب إلى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من المنسوب إلى شيء خارج عنه؛ ومن أجل ذلك جعلوا القاضوى أرفع رتبة من القضائى. أما كون ما حِلَقَتْ به ياء النسب أرفع رتبة من المجرد عنها فظاهر: لأن المبالغة تقتضى الرفعة ضرورة؛ وأما كون المنسوب إلى شيء آخر غير المنسوب إليه يقتضى الرفعة وإن لم يكن فيه مبالغة، فللاحاق بما فيه المبالغة استطراداً، لئلا يلتبس الحال في النسبتين على الضعيف الفهم فلا يفرق بين ما هو منسوب إلى هذا وبين ما هو منسوب إلى ذاك. على أنهم لم يَقِفُوا مع الحكم في كون ما دخلت عليه ياء النسب أرفع مما لم تدخل عليه فقد استعملوا الأجل ونحوه في الألقاب السلطانية التي هي أعلى الألقاب، فقالوا «السلطان الأجل العالم العادل» إلى آخر ألقابه المفردة من غير إلحاق ياء النسب بها؛ ثم استعملوا مثل ذلك في ألقاب السامى بغير ياء فما دونه مما هو أدنى الألقاب رتبة. وكأنهم اكتفوا بمكانة السلطان من الرفعة عن المبالغة في ألقابه بإلحاق ياء النسب، من حيث إن المعروف لا يحتاج إلى تعريف .

(١) أى التي للمبالغة كما يفيد التحليل بعد .

النمط الثالث

(ما يقع التفاوت فيه بصيغة مبالغة غير باء النسب)

فيكون أرفع رتبةً بمعنى المبالغة كما في الكَفِيلِ فإنه أرفع رتبةً من الكافِلِ ، لأن صيغةَ فَعِيلٍ أبلغ في المعنى من صيغةِ فاعِلٍ من حيث إن فَعِيلًا لا يصاغ إلا من فَعَل بضم العين إذا صار ذلك الفعل له سجيّةً ، كما يقال كَرُمَ فهو كريم وعَظُمَ فهو عظيم وحَلُمَ فهو حليم ، بخلاف فاعِلٍ ، ومن أجل ذلك كان لفظُ فَعِيهِ أبلغ من لفظ فاقِه لأن فاقِه يُصاغ من فَعِه بكسر القاف إذا فهم ، ومن فَعِه بفتحها إذا سبق غيره إلى الفهم . وفَعِيهِ إنما يُصاغ من فَعِه بضمها إذا صار الفَعِه له سجيّة كما مرّ القول عليه في الكلام على الفَعِيهِ والفَعِيهِ في الألقاب الإسلامية المفردة .

النمط الرابع

(ما يقع فيه التفاوت بحسب ما في ذلك اللَّقب من اقتضاء

التشريف لعلو متعلّقه ورفعته)

كالمهْدِيّ والمُشَيّدِيّ ، فإن المراد ممهد الدول ومشيّد الممالك على مامرّ في الألقاب المركّبة ؛ فإن من ينتهى في الرتبة إلى تمهيد الدُول وتشيد الممالك فلا نزاع في أنه من علو الرتبة بالمكان الأرفع ، وكذلك ما يجرى هذا المجرى كالمَدْبَرِيّ بالنسبة إلى الوزراء ومن في معناهم ، والمحَقَّق بالنسبة إلى العلماء ، والأَصِيل بالنسبة إلى العَرِيق في كَرَم الأصل ونحو ذلك .

الصف الثاني

(الألقابُ المَرْكَبَةُ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(ما يترتب بعضه على بعض لَقَبًا بعد لَقَب، وله اعتباران)

الاعتبار الأول

(أن يشترك فى رعاية الترتيب أربابُ السيوف والأقلام وغيرهم،

وهو على ثلاثة أنماط)

النمط الأول

(ما يُضاف إلى الإسلام، وله ثلاثة أحوال)

الحال الأول - أن يكون ذلك فى ألقاب أرباب السيوف . وقد اضطلَحَ المقرُّ الشَّهَائِيّ بنُ فضل الله على أن جعل أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين فذكر ذلك فى المكتبة إلى النائب الكافِل، ومكاتبته يومئذ بالجناب الكريم؛ ثم أبدل الكُتَّاب ذلك بعده بِعِزِّ الإسلام والمسلمين، وجعلوه مع المكتبة إليه بالمقرِّ الكريم على ما استقرَّ عليه الحال آنحرا فى المكتبة إلى النائب الكافِل ونائب الشام؛ وجعلوا دُونَ ذلك عِزَّ الإسلام والمسلمين فأوردوه مع الجناب الكريم والجناب العالى على ما استقرَّ عليه مصطلحهم فى السلطانيات . وجعل فى "عرف التعريف" فى الإخوانيات عِزَّ الإسلام والمسلمين أعلى الألقاب فأورده فى ألقاب المقرِّ الشريف، ثم طَرَدَه فيما بعد ذلك من المقرِّ الكريم والمقرِّ العالى ولم يَعهْدَه إلى ما بعد؛

ثم جعل دُونَهُ مجد الإسلام والمسلمين ، فأورده مع المجلس العالى مُطلقاً مع الدعاء وصَدَرَتْ ؛ ثم جعل دُونَ ذلك مجد الإسلام فقط من غير عطف المسلمين عليه ، فأورده في المجلس السامى بالياء والسامى بغير ياء ، ولم يَعُدْهُ إلى مجلس الأمير بل أعاضه بمجد الأمراء على ما سيأتى ذكره ، وتابعه على ذلك في التنقيف .

الحال الثانى — أن يكون ذلك في ألقاب الوزراء من أرباب الأقاليم ومن في معناتهم ككاتب السر ، وناظر الجيش ، وناظر الخاَص فمن دُونَهُم من الكُتَّاب . وقد ذكر المقتّر الشَّهابى بن فضل الله في بعض دساتيره السامية أن أعلاها لهم ركن الإسلام والمسلمين ، وجعل في "عرف التعريف" أعلاها للوزراء صلاح الإسلام والمسلمين ، ولمن في معنى الوزراء عز الإسلام والمسلمين ، ووجلال الإسلام والمسلمين وأورد ذلك مع المَقَرِّ الشريف وما بعده : من المَقَرِّ الكريم ، والمَقَرِّ العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، وجعل دُونَ ذلك مجد الإسلام مجرداً عن عطف المسلمين عليه ، وأورده مع المجلس العالى ، والمجلس السامى .

أما تخصيص صلاح الإسلام والمسلمين بالوزراء ، وعز الإسلام والمسلمين ووجلال الإسلام والمسلمين بمن في معناتهم فلا أن الصلاح فيه معنى السِّداد والقصد ، والعز والجلال فيهما معنى العِظْمة والهيبة ، ولا شك أن وظيفة الوزارة التى مَنَاطُهَا تدبير المُلْك بالصلاح أجدر ؛ على أنه اذا حصل الصلَاح تبعته العِظْمة والهيبة ضرورة . وأما كون جلال الإسلام والمسلمين أعلى من مجد الإسلام ، فلا مَرين أحدهما أن الجلال بمعنى العِظْمة والمجد بمعنى الشرف والعِظْمة أبلغ من الشرف لما في العِظْمة من نَفَاز الكلمة . والثانى أن الإضافة في جلال الإسلام والمسلمين في المعنى إلى شيئين وفى مجد الإسلام إلى أحدهما .

الحال الثالث — أن يكون في ألقاب القضاة والعلماء ، وقد جعل في "عُرف التعريف" أعلاها حُجَّة الإسلام أوضياء الإسلام ، فأوردهما مع الجَنَاب الشريف الذى هو عنده أعلى الرُتَب لهذه الطائفة ، وجعل دُونَ ذلك بهاء الإسلام فأورده مع الجَنَاب الكريم ، وجعل دُونَهُ مَجْد الإسلام فأورده مع المجلس العالى والسامى بالياء وبغير ياء .

أما كون حجة الإسلام وضياء الإسلام أعلى رتبة من مجد الإسلام فلأن الحجة فى اللغة بمعنى البرهان وهو الدليل القاطع ، وبه تتقرر قواعد الإسلام ومبانيه ؛ والضياء فى أصل اللغة خلاف الظلمة ؛ ثم استعير للهداية وما فى معناها ، ولا شك أن الوصف بهذين الأمرين أبلغ من الوصف بالمجد الذى هو بمعنى الشرف .

الحال الرابع — أن يكون فى ألقاب الصلحاء ، وقد جعل فى "عُرف التعريف" أعلاها صَلَاح الإسلام وأورده مع الحَضرة ، ومع الجَنَاب الشَّريف ، والجَنَاب الكريم ، وجعل دُونَهُ جَلال الإسلام وأورده مع الجَنَاب العالى ، ودونه ضياء الإسلام وأورده مع المجلس العالى ، وجعل دونه جلال الإسلام فأورده مع المجلس السامى بالياء فى دُونَهُ .

أما كون صَلَاح الإسلام والمسلمين أعلى من جَلال الإسلام والمسلمين فقد تقدّم بيانه . وأما كون جلال الإسلام والمسلمين أعلى من ضياء الإسلام والمسلمين فلأنَّ الجَلال معناه العَظْمَة وهى أعلى من الضياء على ما فيه من التعسُّف .

النمط الثانى

(من الألقاب المركبة ما يُضاف إلى الأمراء والوزراء ونحوهم ،
من أرباب المراتب السنية ، وهو على الأحوال الأربعة
المتقدمة الذكر فيما يُضاف إلى الإسلام)

الحال الأول — أن يكون فى ألقاب أرباب السيوف . قد جعل
فى "عرف التعريف" أعلاها سيد الأمراء فى العالمين ، وأورده مع المقتر الشريف ،
والمقتر الكريم ، والمقتر العالى . وجعل دونه سيد الأمراء المقدمين ، وأورده
مع الجنب الشريف ، والجنب الكريم ، والجنب العالى . ودونه شرف الأمراء
المقدمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء . ودونه شرف الأمراء فى الأنام ،
وأورده مع السامى بالياء . ودونه زين الأمراء المجاهدين ، وأورده مع السامى
بغير ياء . ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير .

والذى فى "التثقيف" بعد سيد الأمراء فى العالمين سيد أمراء العالمين ، وأورده مع
الجنب العالى . ودونه شرف الأمراء فى العالمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء .
ودونه شرف الأمراء المقدمين ، وأورده مع صدرت العالى . ودونه شرف الأمراء
فقط ، وأورده مع السامى بالياء . ودونه نحر الأمراء ، وأورده مع السامى بغير ياء .
ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير . ولا يخفى ما بينهما من الاختلاف .
ولا مشاحة فى الاصطلاح بعد فهم المعنى ، ولا نزاع فى أن الترتيب الذى
فى التثقيف أحسن . وإذا تأملت ذلك وعرضته على ما تقدم من التوجيه فى النمط
الأول ظهر لك حقيقة ذلك .

الحال الثانى — أن يكون فى ألقاب الوزراء ومن فى معناهم . فقد ذكر
فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيد الوزراء فى العالمين ، ولمن فى معناهم

من كاتب السر ونحوه سيّد الكبراء في العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ،
والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ،
وجعل دونه لمن دون هؤلاء من الكُتّاب نحر الأنام ، وأورده في المجلس العالى
والدعاء مع ما بعده .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء .

وقد جعل في "عرف التعريف" : أعلاها شرف الأنام . وأورده مع الجناب
الشريف الذى جعله أعلى المكاتبات لهم ، ومع الجناب الكريم والجناب العالى
وجعل دونه نحر الأنام ، فأورده مع المجلس العالى بالدعاء . ودونه بهاء الأنام ، وأورده
مع صدرت والعالى ، ومع السامى بالياء والسامى بغير ياء .

الحال الرابع — أن يكون من ألقاب الصلحاء وقد جعل في "عرف التعريف"
أعلاها خالصة الأنام ، وأورده مع الحضرة الشريفة التى جعلها أكبر رتبهم ،
ومع الجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ، وجعل دونه شرف الأنام
وأورده مع المجلس العالى . ودونه زين الأنام ، وأورده مع السامى بالياء وبغير ياء .

النمط الثالث

(من الألقاب المركبة ما يُضاف إلى الملوك والسلاطين ،

وهو على الأحوال الأربعة المتقدمة الذكر)

الحال الأول — أن يكون من ألقاب أرباب السيوف . وقد ذكر
في "عرف التعريف" أن أعلاها ظهير الملوك والسلاطين ، وأورده مع المَقَرّ الشريف
والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ؛

وجعل دُونَهُ عَضْدَ الملوك والسلاطين ، وأورده مع المجلس العالى والمجلس السامى بالياء . ودُونَهُ عُمْدَةَ الملوك والسلاطين ، وجعله مع مجلس الأمير . والذى فى ”التثقيف“ لإيراد ظهير الملوك والسلاطين مع المقتر الكريم وما بعده إلى آخر المجلس العالى ؛ وجعل عَضْدَ الملوك والسلاطين مع السامى بالياء ، وعُمْدَةَ الملوك والسلاطين مع السامى بغير ياء ، وعُدَّةَ الملوك والسلاطين مع مجلس الأمير .

والحاصل أنه فى ”التثقيف“ زاد رُتبتين فى ظهير الملوك والسلاطين ، فجعله فى المجلس السامى مع الدعاء ومع صدرت ، على أن التحقيق أن عَضْدَ الملوك والسلاطين أعلى فى الحقيقة من ظهير الملوك والسلاطين ؛ لأن العَضْدَ عَضُو من أعضاء الإنسان : وهو ما بين المرفق والكُتِف ، والظهير خارجٌ عنه ، وما كان من نفس الإنسان كيف يُجعل ما هو خارجٌ عنه أرفع منه بالنسبة إلى ذلك الشخص ؟ .

الحال الثانى — أن يكونَ من ألقاب الوزراء وَمَنْ فى معناهم . وقد جعل فى ”عرف التعريف“ أعلاها ظهير الملوك والسلاطين أيضاً ، وأورده مع المقتر الشريف ، والمقتر الكريم ، والمقتر العالى ؛ والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ؛ وجعل دُونَهُ صَفْوَةَ الملوك والسلاطين ، وأورده مع المجلس العالى فما دُونَهُ .

الحال الثالث — أن يكونَ من ألقاب القضاة والعلماء . وقد جعل فى ”عرف التعريف“ أعلاها للقضاة حَكَمَ الملوك والسلاطين ، ولغيرهم من العلماء خالصة الملوك والسلاطين ، وهو عنده للجناب الشريف فما فوقه . ودُونَهُ بركة الملوك والسلاطين ، وأورده مع الجناب الكريم ، والجناب العالى ، والمجلس العالى ، مع الدعاء . وجعل دُونَهُ صَفْوَةَ الملوك والسلاطين ، وأورده فى صدرت والعالى فما دُونَ ذلك .

الحال الرابع — أن يكون في ألقاب الصّالحاء . ولم يزد في ”عرف التعريف“ على أنه يُكتَب لهم بركةُ الملوك والسلاطين ، وحينئذ فيقتصر عليها لجميعهم ممن يستحق ذلك بحسب ما يقتضيه حال المكتوب بسببه .

النمط الرابع

(من الألقاب المركبة ما يضاف لأمر المؤمنين ، وهو على الأحوال^(١) الأربعة المتقدم ذكرها)

الحال الأول — أن يكون من ألقاب أرباب السيوف ، وأعلامها قسيمُ أمير المؤمنين ، وهو من الألقاب الخاصة بالسلطان كما تقدم ذكره في موضعه . ودونه خليل أمير المؤمنين ، وهو من ألقاب أولاد الملوك وألقاب بعض الملوك الأجانب المكتوب إليهم عن الأبواب السلطانية . ودونه عضد أمير المؤمنين ، وهو أعلى ما يُكتَب لنواب السلطنة عن الأبواب السلطانية ؛ وجعله في ”عرف التعريف“ مع المقرّ الشريف خاصّة . ودونه سيف أمير المؤمنين ، وأورده مع المقرّ الكريم والمقرّ العالی ؛ ودونه حسام أمير المؤمنين ، وجعله في ”عرف التعريف“ مع الجناب الشريف والجناب الكريم والجناب العالی ؛ ولم يورد بعد ذلك لقباً بالإضافة إلى أمير المؤمنين بل اقتصر على ما يضاف إلى الملوك والسلاطين . وأما في التثقيف فجعله مع المقرّ الكريم والمقرّ العالی . ودونه حسام أمير المؤمنين ، وأورده مع المجلس العالی والدعاء ، ولم يورد فيما بعد ذلك لقباً بالإضافة إلى أمير المؤمنين .

والحاصل أنه في ”عرف التعريف“ زاد رتبةً فيما يضاف إلى أمير المؤمنين ، وهي حسام أمير المؤمنين .

(١) كذا في الاصول ولم يذكر الحال الرابع وهو ألقاب الصلحاء فتأمل .

الحال الثاني — أن يكونَ من القاب الوزراءِ ومنَ في معناهم . ولم يزد في ”عُرِف التعريف“ على وليّ أمير المؤمنين ، وأورده مع المقرّ الشريف ، والمقرّ الكريم ، والمقرّ العالى والجناب الشريف ، ويحسن أن يجيء مع الجناب الكريم خالصة أمير المؤمنين ، ومع الجناب العالى صفى أمير المؤمنين أو صفوة أمير المؤمنين ، ولا يُضاف إلى أمير المؤمنين مع المجلس العالى فادونه شيء من الألقاب اكتفاء بما يُضاف إلى الملوك والسلاطين كما تقدم في أرباب السيوف .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء . فقد جعل في ”عُرِف التعريف“ أعلاها وليّ أمير المؤمنين ، وجعله مع الجناب الشريف فما فوقه ، ويحسن أن يجيء مع الجناب الكريم خالصة أمير المؤمنين ، ومع الجناب العالى صفى أمير المؤمنين أو صفوة أمير المؤمنين ، كما تقدم في الوزراء ومنَ في معناهم ومنَ دونهم من الكُتّاب .

الاعتبار الثاني

(في الألقاب المرتبة أن يختصّ الترتيب في الألقاب بنوع من المكتوب لهم ، وهو أربعة أنماط)

النمط الأول

(ما يختصّ بأرباب السيوف ، وله حالان)

الحال الأول — أن تقع الإضافة فيه إلى الغزاة والمجاهدين . وقد جعل المقرّ الشهابي بن فضل الله في ” التعريف “ ناصر الغزاة والمجاهدين أعلاها ، فأورده في المكتبة إلى نائب الشام ، والمكتبة إليه يومئذ دون المكتبة إلى النائب الكافل ؛

وهو خلاف مقتضى تركيب لغة العرب لما تقدم من أن صيغة فَعِيلُ أعلى من صيغة فاعل ، ولذلك جعلوا الكَفِيلُ أعلى من الكافل على ما تقدم بيانه . وحينئذ فيكون نصير الغزاة والمجاهدين أعلى من ناصر الغزاة والمجاهدين على خلاف ما ذكره .

أما في ”عُرف التعريف“ فإنه أعرَضَ عن ذكر الألقاب المضافة إلى الغزاة والمجاهدين مع المَقَرَّ الشريف الذى هو أعلى الألقاب لأرباب السيوف من الثواب ومَن في معنَاهم ، وأتى بعده مع المَقَرَّ الكريم بنصير الغزاة والمجاهدين ، ثم أتى بعده مع الجَنَابِ الشريف إلى آخر المجلس العالى بُنْصَرَةِ الغزاة والمجاهدين ، فجعل نصير الغزاة أبلغ من نُصْرَةِ الغزاة : لما فى نصير من لفظ التذكير وفى نُصْرَةِ من لفظ التأنيث ، والتذكير أعلى رتبة من التأنيث ؛ ثم أتى مع السامى بالياء بُذُخِرَ الغزاة والمجاهدين ، ثم مع السامى بغير ياء بَزَيْنَ الأمراء المجاهدين على وَصَفِ الأمراء بالمجاهدين ، ثم مع عَطَفِ المجاهدين على الأمراء ؛ ثم مع مَجْلِسِ الأمير بَزَيْنَ المجاهدين .

وجعل في ”التثقيف“ أعلاها ناصر الغزاة والمجاهدين تبعاً ”للتعريف“ وأورده مع المَقَرَّ الكريم ؛ ودونه نُصْرَةِ الغزاة والمجاهدين ، وأورده مع الجَنَابِ الكريم وما بعده إلى آخر المجلس العالى ؛ ثم أتى مع السامى بالياء بأوْحَدَ المجاهدين ، ومع السامى بغير ياء ومجلس الأمير بَزَيْنَ المجاهدين ، والحال فى ذلك قريب .

الحال الثانى — أن يكون اللقب مضافاً إلى الجيوش . وقد جعل في ”التعريف“ أعلاها أَتَايَكِ الجيوش ، وأورده فى ألقاب النائب الكافل ؛ وجعل دُونَهُ زَعِيمَ الجيوش وأورده فى ألقاب نائب الشام ، وهو يومئذ دُونِ النائِبِ الكافل ؛ ثم جعل دُونَهُ زَعِيمَ جيوش الموحدين ، وأورده فى ألقاب نائب حَلَبَ . وعلى نحو من ذلك جرى فى ”عرف التعريف“ فجعل أعلاها زَعِيمَ الجيوش وأورده مع المَقَرَّ الشريف ،

والمَقَرَّ الكَرِيمَ والمَقَرَّ العَالِي ، ودُونَهُ زَعِيمَ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ ، وأوردته مع الجَنَابِ الشَّرِيفِ والجَنَابِ الكَرِيمِ والجَنَابِ العَالِي ، ولم يُورَدْ شَيْئًا فِي هَذَا المَعْنَى فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَعَلَى نَحْوِ ذَلِكَ جَرَى فِي التَّثْقِيفِ .

النمط الثاني

(ما يختص بالوزراء ومن في معانهم : من كاتب السر ونحوه
فمن دونهم من الكُتَّاب)

وقد ذكر في "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيّد الوزراء في العالمين ، ولن في معانهم سيّد الكُبراء في العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرَّ الشَّرِيفِ والمَقَرَّ الكَرِيمِ والمَقَرَّ العَالِي والجَنَابِ الشَّرِيفِ والجَنَابِ الكَرِيمِ والجَنَابِ العَالِي ، وجعل دُونَهُ لِمَنْ دُونَهُم مِنَ الكُتَّابِ شَرَفَ الرُّؤَسَاءِ ، وأوردته مع المَجْلِسِ العَالِي ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَجِيءُ بَعْدَهُ أَوْحَدُ الكُتَّابِ أَوْ شَرَفُ الكُتَّابِ مَعَ المَجْلِسِ السَّامِيِّ بِأَلْيَاءِ ، ثُمَّ جَمَالَ الكُتَّابِ لِلْسَّامِيِّ بِغَيْرِ أَلْيَاءٍ فَمَا دُونَهُ .

النمط الثالث

(ما يختص بالقضاة والعلماء)

وقد جعل في "عرف التعريف" أعلاها سيّد العلماء والحُكَّام ، ولغيرهم أَوْحَدُ العلماء الأعلام ، وجعله للجَنَابِ الشَّرِيفِ فَمَا قَوْفَهُ ، ثُمَّ لِلْجَنَابِ الكَرِيمِ ، والجَنَابِ العَالِي ، وجعل دُونَهُ تَاجَ العُلَمَاءِ والحُكَّامِ ، أَوْ شَرَفَ العلماء والحُكَّامِ ، وأوردته مع المَجْلِسِ العَالِي ، ودُونَهُ جَمَالَ العلماء أَوْحَدَ القُضَلَاءِ ، وأوردته مع السَّامِيِّ بِأَلْيَاءِ ، ودُونَهُ جَمَالَ الأَعْيَانِ مَعَ السَّامِيِّ بِغَيْرِ أَلْيَاءٍ فَمَا دُونَهُ .

المَطَرُ الرابع

(ما يَحْتَصُّ بِالصَّلَاحِ)

وقد جعل في "عرف التعريف" أعلاها لهم شيخُ شيوخ العارفين، وأورده مع الحضرة الطاهرة، وجعل دُونَ ذلك أَوْحَدَ المحققين، فأورده مع الجَنَابِ الكريم؛ ودُونَهُ أَوْحَدَ النَّاسِكين، فأورده مع الجَنَابِ العالى .

قلت : وليس وَضَعُ هذه الألقاب على الترتيب في العلُو والهَبُوط راجعاً إلى مجزء التَّشَمُّى من غير تَقْصُّ لعلُّو أو هَبُوط يدلُّ عليه جوهرُ اللفظ ، بل لا بد أن يكون لتقدُّم كلِّ لقبٍ منها على الآخر وَرِفْعَتُهُ عليه في الرُّتْبَةِ سببٌ يقتضيه اللفظُ وتوجُّبُهُ دلالتُهُ الظاهرةُ أو الخفيةُ . وما وقع فيها مما يخالف ذلك فلعدم تأمل الواضع لذلك ، أو وقوعه من بعض المدَّعين الظانِّين أن القلم في ذلك مطلق العنان ، يتصرَّف في وضعه كيف شاء من غير نظرٍ إلى ما يوجب تقدُّماً ولا تأخيراً . ومما يوضح ذلك ويبيِّن أنه إذا اعتبرت الألقاب المضافة إلى الإسلام المتقدمة الذكرى في أرباب السيوف مثلاً ، رأيت أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين ، على ما هو مذكور في "التعريف" وغيره من سائر دساتير المَقَرَّ الشَّهابيِّ بن فضل الله ، وأعلاها على ما ذكره في "التنقيف" مُعِزَّ الإسلام والمسلمين ، ودُونَ ذلك في الرتبة عِزَّ الإسلام والمسلمين ، ودُونَهُ مُجَدِّ الإسلام والمسلمين ، ودُونَهُ مجد الإسلام فقط من غير عَطْف ، على ما تقدَّم ذكره .

أمَّا كَوْنُ رُكْنِ الإسلام والمسلمين أعلى من عِزِّ الإسلام والمسلمين ، فلأنَّ رُكْنَ الشيء في اللغة جانبُهُ الأقوى ، وقد قال الأصوليون : إن الرُّكْنَ ما كان داخل المساهية ، وحينئذ فيكون رُكْنُ الشيء بعضاً منه بخلاف العِزِّ فإنه معنى من المعاني خارج عنه ، وما كان بعضاً للشيء كان أَحْصَّ به مما هو خارج عنه .

وأما وجه إبدالهم رُكن الإسلام والمسلمين بمعز الإسلام والمسلمين فلأن
 في الرُّكن معنى العِزِّ والقُوَّة ، وقد فسر قوله تعالى حِكَايَةً عن لُوطٍ عليه السلام :
 ﴿ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ بالعِزِّ والمَنَعَةِ ، فجعل المعز لهذا الاعتبار في الألقاب قائماً
 مقام الركن .

وأما كَوْنُ عِزِّ الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام والمسلمين ، فلأن العِزَّ
 أجدى في النَّفْعِ من المَجْد ، فقد تقدّم أن أَبَنَ السَّكِّيتِ قال : إن المَجْد لا يكون
 إلا بِشَرَفِ الآبَاءِ ، ولا نِزَاعَ في أن العِزَّ في تَعَارُفِ المُلُوكِ أَكْثَرُ جَدْوًى وَأَوْفَرُ نَفْعاً
 في تحصيل المَقَاصِدِ . وقد ذكر أبو جعفر النحاس في "صناعة الكُتَّاب" أن الكُتَّاب
 في الزمن القديم كانوا يجعلون الدَّعَاءَ بالعِزِّ عَقِبَ الدَّعَاءِ بِطُولِ البَقَاءِ ، فإنه يكون بالعِزِّ
 مَصُوناً عَالِياً آمِناً غَنِيّاً .

وأما كَوْنُ مَجْد الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام ، فلأنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا تَعَدَّى
 فَعْلُهُ إِلَى غَيْرِهِ كَانَ أَرْفَعَ رَتَبَةً ، ومَجْدُ الإسلام والمسلمين يَتَعَدَّى إِلَى شَيْئَيْنِ : وهما
 الإسلام والمسلمين ، ومَجْدُ الإسلام لا يَتَعَدَّى إِلَّا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ : وهو الإسلام .
 فذلِكَ إِذَا أُعْتَبِرَتِ الألقاب المضافة إلى أمير المؤمنين ، رَأَيْتَ أَعْلَاهَا فِي أَرْبَابِ
 السُّيُوفِ قَسِيمَ أمير المؤمنين ، ودُونَهُ خَلِيلَ أمير المؤمنين ، ودُونَهُ عَضُدَ أمير المؤمنين
 ودُونَهُ سَيْفَ أمير المؤمنين ، ودُونَهُ حُسَّامَ أمير المؤمنين .

أما كَوْنُ قَسِيمِ أمير المؤمنين أعلى من خَلِيلِ أمير المؤمنين ، فلأنَّ القَسِيمَ بِمَعْنَى
 المُقَاسِمِ ، والمراد أنه قَاسَمَ أمير المؤمنين المُلْكَ وسأهمه في الأمر فصارا فيه مُشْتَرِكَيْنِ ،
 وخَلِيلُ أمير المؤمنين مأخوذ من الخُلَّةِ بضم الخاء وهي الصَّدَاقَةُ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يُقَاسِمُ

(١) كذا في الاصول والأظهر وكذلك إذا اعتبرت الخ عطفاً على أنك إذا اعتبرت الخ المتقدم

في الصفحة قبل .

الخليفة فيصير عديله في الامر ، وبين من يكون خليله وصاحبه . على انه قد تقدم أن الملوكة قد أربت بأنفسها ^(١) عن هذا اللقب لاستبدادهم بالملك واستيلائهم عليه .

وأما كون خليل أمير المؤمنين أعلى من عضد أمير المؤمنين ، فلا أن العضد ليس المراد منه العضو الحقيقي الذي هو بين الكتف والمرفق ، وإنما استعير للناصر وكأنه ينصره بنفسه كما ينصره عضده ، ومثل هذا الوصف لا يكون إلا للاتباع ، بخلاف الخليل والصديق فإنه لا تكاد رتبته عند الشخص تحط عن رتبة نفسه .

وأما كون عضد أمير المؤمنين أعلى من سيف أمير المؤمنين ، فلا أن العضد وإن قصد به الناصر فإنه منقول عن العضو للناصر كما تقدم وعضو الإنسان عنده في العزة وقوة النصر فوق سيفه في ذلك .

وأما كون سيف أمير المؤمنين أعلى من حسام أمير المؤمنين - وإن كان الحسام متضمنًا لوصف القطع الذي هو المقصود الأعظم من السيف من حيث إنه مأخوذ من الحسم : وهو القطع - فلا أن السيف مأخوذ من ساف إذا هلك كما صرح به الشيخ "جمال الدين بن هشام" في شرح قصيدة كعب بن زهير ، ولا شك أن معنى الإهلاك أبلغ من معنى القطع : لأن القطع قد يقع في بعض البدن مما لا يتضمن الإهلاك ، وهذا مما يجب التنبيه له فإنه ربما توهم أن الحسام أبلغ من السيف لتضمن وصف القطع كما تقدم .

وبالجملة فلا سبيل إلى استيعاب جميع ما يرد من هذا الباب بالتوجيه : لأن ذلك يؤدي إلى الإسهاب والممل . والقول الجامع في ذلك أنه يُنظر إلى الألفاظ الواقعة في الألقاب وما تقتضيه من أصناف المدح ، وما تنتهي إليه رتبها فيه من أعلى

(١) لعله ربأت بأنفسها أي ترفعت أو زمت بأنفسها أي شمت .

الدرجات أو أوسطها أو أدناها فيرتبها على هذا الترتيب ، ويوجَّهها بما يظهر له من التوجيه على نحو ما تقدّم . كما إذا اعتبرت رتبة الجلال والجمال فإنك تجد الجلال أعلى رتبة : لأن معنى الجلال العظمة ، ومعنى الجمال الحسن ، ولا نزاع في أن العظمة أبلغ وأعلى موقعاً من الحسن . وكما إذا اعتبرت الضياء والبهاء ، فإن الضياء يكون أبلغ لأن الضياء معناه النور الذاتي وهو متعدّد النفع عام الفضيحة ، والبهاء معناه الحسن وهو قاصر على صاحبه . وفيما ذكر إرشاداً إلى ما لم يذكر .

القسم الثاني

(مما تتفاوت فيه مراتب الألقاب ما يقع التفاوت فيه بالتقديم

والتأخير ، وهو نوعان)

النوع الأول

(الألقاب المفردة ، وهي على ستة أنماط)

النمط الأول

(الألقاب التي تلي الألقاب الأصول)

وهي التي تلي المقام والمقر والجناب والمجلس : كالأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى : فالأشرف يلى المقام والمقر ، فيقال : المقام الأشرف ، والمقر الأشرف ، والشريف يلى المقام والمقر والجناب ، فيقال : المقام الشريف ، والمقر الشريف ، والجناب الشريف . والكريم يلى المقر والجناب ، فيقال : المقر الكريم ، والجناب الكريم . والعالى يلى المقام والمقر والجناب والمجلس ، فيقال : المقام العالى ، والمقر

العالى ، والجناب العالى ، والمجلس العالى . والسامى إلى المجلس خاصة ، يقال :
المجلس السامى . والعالى إلى الأشرف والشریف والكریم ، يقال : الأشرف العالى ،
والشریف العالى ، والكریم العالى .

النمط الثانى

(ما إلى العالى أو السامى من الألقاب)

وهو اللقب الذى يميز نوع المكتب له ، كالأميرى لأرباب السيوف ،
والصاحبى للوزراء من أرباب الأقلام ، والقضائى والقاضوى لسائر أرباب الأقلام ،
والشيعى للصوفية وأهل الصلاح ، والصدرى للتجار ومن فى معناهم . مثل أن
يقال : المقر الكريم العالى [الأميرى] ^(١) والجناب العالى الصاحبى ، أو الجناب العالى
القاضوى ، أو المجلس العالى ، أو المجلس السامى الشيعى ، أو المجلس السامى
الصدرى ، وما أشبه ذلك . والمعنى فى وضع هذه الألقاب فى هذا الموضع أن يدل
أول لقب يذكر بعد اللقب الأصل وتابعه على الوظيفة كما تدل براءة الاستهلال
على صورة الحال فى المكتبة أو الولاية أو غيرهما ، وربما كان المحل مما يقتضى
التلقب بالمولوى فيقدم لقب المولوى على لقب الوظيفة . مثل أن يقال : المقر
الشریف العالى المولوى الأميرى ، فإن كان اللقب الأصل مضافاً لمجلس الأمير
أو مجلس القاضى أو مجلس الشيخ أو مجلس الصدر ، قام المضاف إليه مقام لقب
الوظيفة ، فيقوم الأمير من مجلس الأمير مقام الأميرى ، والقاضى من مجلس القاضى

(١) الزيادة متعينة وقد أخذناها من الضوء للولف .

مقام القضاة ، والشيخ من مجلس الشيخ مقام الشيخ ، والصدر من مجلس الصدر مقام الصدر . ثم لا يُنعت بعد ذلك في هذه الحالة إلا بالأجل ، ويؤتى بعده بما يناسبه من الألقاب .

النمط الثالث

(مايلي لقب الوظيفة)

وهو الكبير أو الكبير ، فيؤتى به تلو اللقب الدال على الوظيفة مثل أن يقال : المقتزى العالى الأميرى الكبير ، أو الجنب العالى القضاة الكبير ، أو المجلس السامى الكبير إذا كان بالياء ، أو الكبير إذا كان بغير الياء .

النمط الرابع

(مايقع قبل لقب التعريف الذى هو الفلانى أو فلان الدين)

وهو اللقب الدال على الوظيفة دلالة خاصة ، كالكافلى والكفيل للتواب ، والوزيرى للوزراء ، والحاكمى للقضاة . فإن كان المكتوب له نائب سلطنة كتب له قبل الفلانى الكافلى أو الكفيل بحسب ما يقتضيه الحال ، وإن كان حاكماً كتب الحاكم . قال فى "التثقيف" : وإن كان وزيراً كتب فى آخر ألقابه الوزير . والذى ذكره فى "عرف التعريف" أن الوزيرى يلى لقب الوظيفة ، فإذا كان الوزير من أرباب السيوف كتب الأميرى الوزيرى ، وإن كان من أرباب الأقلام كتب الصاحبى الوزيرى . وما ذكره فى "التثقيف" متجه فيما إذا كان الوزير صاحب قلم ، فإن التعريف فى الوظيفة يُعرف أولاً من قوله الصاحبى .

وما ذكره في "التعريف" ظاهرٌ فيما إذا كان الوزيرُ من أرباب السيوف ، فإنه يتعين تقديم الوزيرِ فيذكر بعد الأميرِ ليدل من الابتداء على الوظيفة ، إذ مطلق الإمرة لا يدل على وزارة ولا عدها ، فلو أُخِّر إلى آخر الألقاب لما عُرف أنها ألقاب وزيرٍ إلى حين ذكر هذا اللقب ، وإنما رُتب هذا الترتيب ليدل باللقب الذي هو أول الألقاب بعد العالي أو السامي على حال صاحب تلك الألقاب هل هو من أرباب السيوف أو الأقلام أو غير ذلك ، وباللقب الذي هو آخر الألقاب المفردة على وظيفته الخاصة به .

النمط الخامس

(ما يقع فصلاً بين الألقاب المفردة والمركبة)

وهو لقب التعريف كالثَّقَلَانِي وفُلَان الدين ، فقد جعلوه فاصلاً بينهما .

النمط السادس

(ما ليس له موضعٌ مخصوص من الألقاب المفردة)

وهو ما بين اللقب الذي يقع به التمييز بين الأميرِ ونحوه ، وبين اللقب الذي قبل لقب التعريف كالعالمى والعادلى ونحوهما ، فالقلم في ذلك مطلق العنان بالتقديم والتأخير على ما يقتضيه الحال بحسب ما يراه الكاتب .

النوع الثاني

(مما تتفاوت فيه مراتب الألقاب بالتقديم والتأخير الألقاب المركبة المعبر عنها بالثعوث ، وهي على ثلاثة أنماط)

النمط الاول

(ما يلي لقب التعريف الذي هو الفلاني أو فلان الدين)

وهو ما يضاف إلى الإسلام مثل ركن الإسلام والمسلمين وعز الإسلام والمسلمين وما أشبه ذلك ، فقد اصطَلَحُوا على أن يكون ذلك أول الألقاب المركبة ، وتوجيهه ظاهر لأن المضاف يُشرف بشرف المضاف إليه ، ولا أشرف عند أهل الإسلام من الإسلام فوجب تقديم ما يضاف إليه على غيره .

النمط الثاني

(ما يقع في آخر الألقاب المركبة)

ويختلف الحال فيه باختلاف حال المكتوب له ، فإن كان ممن يُكْتَب له المجلس السامي بغير ياء فإدونه جعل آخر الألقاب فيه ما يضاف إلى الملوك والسلاطين ، مثل أن يقال : صفوة الملوك والسلاطين ، أو اختيار الملوك والسلاطين وما أشبه ذلك . وإن كان ممن يُكْتَب له السامي بالياء فما فوقه جعل آخر الألقاب فيه ما يضاف إلى أمير المؤمنين : مثل عضد أمير المؤمنين ، وولي أمير المؤمنين ، وخاصة أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك على ما تقتضيه رتبة المكتوب له . والمعنى فيه أن حُسْن الاختتام بالإضافة إلى الملوك والسلاطين الذين هم ثاني رتبة الخلافة .

النمط الثالث

(مايين أول الألقاب المركبة وبين آخرها)

فقد أصطلحوا على أن يكون المقدّم منها مما يقتضى تقديم المكتوب له على أبناء جنسه . مثل : سيّد الأمراء في العالمين ، وسيّد العلماء والحكّام في العالمين ، وما أشبه ذلك ؛ ثم في حقّ كل أحد من أرباب الأقاليم والسيوف بحسب ما يقتضيه حاله على نحو ما تقدّم في الكلام على ما تتفاوت رتبته بالعلو والهبوط .

الجملة الثامنة

(في بيان محلّ اللَّقب المضاف إلى الملك ولقب التعريف الخاصّ به الواقع تلوّ اللقب الملوّى ، مثل المَلِكِيّ الناصريّ الزيّنيّ وما أشبه ذلك ؛ وله ثلاثة أحوال)

الحالة الاولى — أن يكون ذلك في ألقاب السلطان نفسه ، كما يقع في التقاليد والمناسير ونحوهما . فوضعه بعد رُسم بالأمر الشريف ، أو خرج الأمر الشريف ، مثل أن يُكتب رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطانيّ المَلِكِيّ الناصريّ الزيّنيّ ، أو — فلذلك رُسم بالأمر الشريف الفلانيّ الفلانيّ ، أو خرج الأمر الشريف العالي المولويّ السلطانيّ المَلِكِيّ الفلانيّ الفلانيّ ، وما أشبه ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون اللقب المضاف إلى الملك في ألقاب المكتوب له ، كما لو كتبت في تقليد أو نحوه . ومحلّه بعد ذكر اسم المكتوب له بعد الألقاب ، مثل أن يقال بعد انتهاء الألقاب : فلان الظاهريّ أو الناصريّ ونحو ذلك ، ولا يقال له المَلِكِيّ حينئذ .

الحالة الثالثة — أن يكون في ألقاب المكتوب عنه كما يُكْتَب في أوّل المُكْتَابِ
الْمَلِكِيّ الْفُلَانِيّ، وقد أَصْطَلَحُوا على أن يُكْتَب ذلك تحت جَرَّةِ الْبَسْمَلَةِ على مَاسِيَاتِي
بيانه إن شاء الله تعالى .

الجملة التاسعة

(في ترتيب جملة الألقاب الفروع على الألقاب الأصول
على قدر طبقاتها، وهي قسمان)

القسم الأول

(الألقاب الإسلامية)

واعلم أن ترتيب الألقاب تارة يكون في السُّلْطَانِيَّاتِ ، وتارة يكون
في الإِخْوَانِيَّاتِ وما يُكْتَب عن النُّوَابِ . وقد كانوا في الأيام الناصرية
« محمد بن قلاوون » يستعملون في الإِخْوَانِيَّاتِ وما يُكْتَب عن النُّوَابِ النُّعُوتَ
المركبة كما في السُّلْطَانِيَّاتِ، لا يفرق بينهما إلا ما في الإِخْوَانِيَّاتِ وما في معناها من
الألقاب التي لا تصلح للسلطانيات، كالمَوْلَوِيّ والسَيِّدِيّ والمُخْدُومِيّ ونحوها .
أما الآن فقد وقع الاختصارُ فيها على المُفْرَدَاتِ دُونَ المَرْجَّاتِ، وصارت المَرْجَّاتُ
مُخْتَصَّةً بِالسُّلْطَانِيَّاتِ .

ثم الألقاب الإسلامية الفروع المرتبة على الألقاب الأصول على سبعة
أضرب :

الضرب الأول

(الألقاب المتعلقة بالخلافة وما يلتحق بها، ومبناها على الاختصار؛
وهي ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ألقاب الخلفاء، وهي صنفان)

الصنف الأول — أن تكون لنفس الخليفة . فكان يقال فيها في الزمن القديم « عبد الله فلان أمير المؤمنين » [فإن كان اسم الخليفة عبد الله كالمؤمن كُرِّر الاسم مرتين : مرة للاسم العلم ومرة للقب الخلافة ، فيقال : « عبد الله عبد الله أمير المؤمنين »] ثم زيد فيها الكنية بعد ذلك ، ف قيل « عبد الله فلان أبو فلان أمير المؤمنين » ثم زيد لفظ الإمام ف قيل « عبد الله فلان أبو فلان [الإمام] الفلاني — بلقب الخلافة مثل المتوكل على الله ونحوه — أمير المؤمنين » ثم زيد ووليّه بعد عبد الله ، ف قيل : « عبد الله ووليّه فلان أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين » وهو ما استقر عليه الحال آنحرا .

الصنف الثاني — أن تكون الألقاب للديوان في مكتبة أو غيرها . والذي أصطلح عليه أن يقال « الديوان العزيز المولوي السيدي النبوي الإمامي الفلاني » بلقب الخلافة .

النوع الثانى

(ألقابُ وُلاةِ العهد بالخلافة)

وهى « الجَانِبُ الشَّرِيفُ ، المَوْلَوِىُّ ، السَّيِّدِىُّ ، النَّبَوِىُّ ، الفَلَانِىُّ » بَلَقِبَهُ الْمُنَسُوبُ إِلَى الْخِلَافَةِ . وَرَبَّمَا قِيلَ فِيهِ الْجَنَابُ بَدَلَ الْجَانِبِ ، وَبَقِيَّةُ الْأَلْقَابِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

النوع الثالث

(ألقابُ إمام الزيدية باليَمَنِ)

وهى « الْجَنَابُ الْكَرِيمُ ، الْعَالِىُّ ، السَّيِّدِىُّ ، الْإِمَامِىُّ ، الشَّرِيفِىُّ ، النَّسَبِىُّ ، الْحَسِبِىُّ ، الْفَلَانِىُّ » بَلَقِبَ التَّعْرِيفُ « سَلِيلُ الْأَطْهَارِ ، جَلَالُ الْإِسْلَامِ ، سَيْفُ الْإِمَامِ ، بَقِيَّةُ الْبَيْتِ النَّبَوِىُّ ، نَخْرُ الْحَسَبِ الْعُلَوِىُّ ، مُؤَيِّدُ أُمُورِ الدِّينِ ، خَلِيفَةُ الْأُمَّةِ ، رَأْسُ الْعَلَمَاءِ ، صَالِحُ الْأَوْلِيَاءِ ، عِلْمُ الْهُدَاةِ ، زَعِيمُ الْمُؤْمِنِينَ ، ذُخْرُ الْمُسْلِمِينَ ، مُنْجِدُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ » .

الضرب الثانى

(الألقابُ المُلُوكِيَّةُ ، وهى نوعان)

النوع الأول

(الألقابُ الَّتِى أَصْطَلَحَ عَلَيْهَا لِلسُّلْطَانِ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِىَّةِ عَلَى مَا الْحَالُ مُسْتَقَرٌّ

عَلَيْهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيهَا فِي التَّعْرِيفِ مَذْهَبَيْنِ)

الْمَذْهَبُ الْأَوَّلُ — أَنْ يُقَالَ « السُّلْطَانُ السَّيِّدُ الْأَجَلُّ الْمَلِكُ الْفَلَانِىُّ الْعَالِمُ الْعَادِلُ الْمَجَاهِدُ الْمُرَاطُ الْمُنَافِرُ الْمُؤَيَّدُ الْمُظَفَّرُ الْمَنْصُورُ الشَّاهِنشَاهُ فَلَانُ الدُّنْيَا

والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، إسكندر الزمان، مملك أصحاب المنابر والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأمصار، ميسد الطغاة والبغاة والكفار، حامى الحرمين الشريفين والقبليتين، جامع كلمة الإيمان، ناشر لواء العدل والإحسان، سيد ملوك الزمان، أبو فلان فلان، ابن السلطان الشهيد الملك الفلاني، والد الملوك والسلاطين، أبي فلان فلان» .

أما في "التثقيف" فإنه ذكر ذلك بزيادة وتغيير، وتقديم وتأخير - فقال : «السلطان الأعظم، المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل المؤيد المجاهد المرباط المثار المظفر شاه ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، مانح الممالك والأمصار، إسكندر الزمان، مولى الإحسان، جامع كلمة الإيمان، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان، ملك البحرين، مسلك سبل القبليتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة، مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين، أبو فلان فلان بن فلان» . وذكر أن الغالب أن تُحذف الشاهنشاه، لأن معناها ملك الأملاك، وقد تقدم النهي عن التسمي بذلك. ثم قال : والواجب أن يكون بدل ولي أمير المؤمنين، قسيم أمير المؤمنين .

المذهب الثاني - أن يكتب المقام الشريف أو الكريم أو العالی مجرداً عنهما، ويُقتصر على المفردة دون المركبة . مثل أن يكتب «المقام الشريف العالی،

المُولَوِيّ، السُلْطَانِيّ، المَلِكِيّ، الفَلَانِيّ، ابو فُلَانٍ فُلَانٍ . قال في "التعريف" :
وإلى هذا ذهب المتأخرون من الكُتّاب ؛ ثم قال : وأنا على الأول أعمل .

النوع الثاني

(الألقاب التي يُكْتَبُ بها عن السلطان لغيره من الملوك ،
وهي على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(ألقابُ وُلاة العهد بالسلطنة)

« وهي المَقَامُ العَالِي ، العَالِمِيّ ، العَادِلِيّ ، المَلِكِيّ ، الفَلَانِيّ ، الفُلَانِيّ - بلقبِ
الملك واللقبِ المتعارف » . قال في "التثقيف" : فإن كان أَخًا للسلطان زيد فيه
الأَخَوِيّ ، أو ولدا زيد فيه الولَدِيّ .

الصنف الثاني

(ألقابُ الملوك المستقلين بصغار البلدان)

كما كان صاحبُ حماة في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وكان يُكْتَبُ له :
«المَقَامُ الشريف العَالِي السُلْطَانِيّ المَلِكِيّ الفَلَانِيّ ، بلقبِ المَلِكِ» . وربما كُتِبَ
له قبل لقب الملك «الأَصِيلِيّ» لعزاقته في المُلْك .

الصنف الثالث

(ألقاب المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية، وهي نمطان)

النمط الأول

(ما يُصدّر بالألقاب المذكّرة. وهي على أربع طبقات)

الطبقة الأولى — ما يُصدّر بالمقام. وأعلىها «المقام الأشرف» كألقاب صاحب الهند، وهي: «المقام الأشرف العالى المولوى السلطانى الأعظمى الشاهنشاهى العالمى العادلى المجاهدى المثناعبرى المظفرى المؤيدى المنصورى إسكندر الزمان، سلطان الأوان، منبع الكرم والإحسان، المعنى آل ساسان، وبقايأ فراسياب وخاقان، ملك البسيطة، سلطان الإسلام، غياث الأنام، أوحده الملوك والسلاطين».

ودونه «المقام الشريف» كألقاب الشيخ حسن الكبير صاحب بغداد كان، وهي: «المقام الشريف العالى الكبيرى السلطانى العالمى العادلى المجاهدى المؤيدى المرابطى المنصورى الملكى الفلانى الفلانى — بلقى الملك والتعارف».

ودونه «المقام العالى» كألقاب القان ببلاد أزبك فيما ذكره فى «التتيف» وهي: «المقام العالى السلطانى الكبيرى الملكى الأكرمى الفلانى — بلقب التعريف — فلان الدنيا والدين مؤيد الغزاة والمجاهدين قاتل الكفرة والمشركين، ولي أمير المؤمنين» . وكألقاب صاحب المغرب فيما ذكره فى «التعريف» وهي: «المقام العالى السلطانى السيد الأجل العالم العادل المجاهد المرابط المثناعبر المؤيد المظفر المنصور على أعداء الله أمير المسلمين، قائد الموحدين، مجهز الغزاة والمجاهدين، مجند الجنود، عاقد البنود، مالى صُدور البرارى والبحار،

مُرْعِزِعِ اسِرَّةِ الْكُفَّارِ ، مُؤَيِّدِ السَّنَةِ ، مُعَزِّمِ الْمَلِكِ ، شَرَفِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، بَقِيَّةُ السَّلَفِ الْكَرِيمِ ، وَالنَّسَبِ الصَّامِمِ ، رَبِيبِ الْمُلْكِ الْقَدِيمِ ، أَبُو فُلَانٍ فُلَانٍ .

الطبقة الثانية — مَا يُصَدَّرُ بِالْمَقَرِّ ، وَأَعْلَاهَا فِيمَا رَأَيْتُ «الْمَقَرُّ الْكَرِيمُ» كَأَلْقَابِ صَاحِبِ هَرَّاءَ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التَّعْرِيفِ" وَهِيَ : «الْمَقَرُّ الْكَرِيمُ ، الْعَالِي الْعَالِي الْعَادِلِي الْمَجَاهِدِي الْمُؤَيِّدِي الْمُرَاطِي الْمُتَاغِرِي الْأَوْحَدِي الْفُلَانِي ، شَرَفِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» . وَكَأَلْقَابِ صَاحِبِ كَرْمِينَانَ ^(١) [مِنْ بِلَادِ الرُّومِ] فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التَّنْقِيهِ" وَهِيَ : «الْمَقَرُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي الْمَلِكِي الْأَجَلِّي الْعَالِي [الْعَادِلِي] الْمَجَاهِدِي الْمُؤَيِّدِي الْمُرَاطِي الْمُتَاغِرِي الْمُظَفَّرِي الْمَنْصُورِي الْفُلَانِي ، عَزَّزِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ ، نَحَرَ الْمُلُوكَ وَالسَّلَاطِينِ ، نَصَرَ الْغُرَاةَ وَالْمَجَاهِدِينَ ، زَعَمَ الْجِيُوشَ مَقَدَّمَ الْعَسَاكِرَ ظَهَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» .

وَدُونَهُ «الْمَقَرُّ الْعَالِي» كَأَلْقَابِ صَاحِبِ مَالِي مِنْ بِلَادِ التُّكُرُورِ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التَّعْرِيفِ" وَهِيَ : «الْمَقَرُّ الْعَالِي السَّلْطَانِي الْخَلِيلُ الْكَبِيرُ الْعَالِمُ الْعَادِلُ الْمَجَاهِدُ الْمُؤَيِّدُ الْأَوْحَدُ ، عَزَّزِ الْإِسْلَامَ ، شَرَفَ مُلُوكِ الْأَنْامِ ، نَاصَرَ الْغُرَاةَ وَالْمَجَاهِدِينَ ، زَعَمَ جِيُوشَ الْمُوَحِّدِينَ ، جَمَالَ الْمُلُوكَ وَالسَّلَاطِينِ ، سَيْفُ الْخِلَافَةِ ، ظَهَرَ الْإِمَامَةِ ، عَصُدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» .

الطبقة الثالثة — مَا يُصَدَّرُ بِالْجَنَابِ . وَأَعْلَاهَا «الْجَنَابُ الْكَرِيمُ» كَأَلْقَابِ مَلِكِ التُّكُرُورِ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التَّنْقِيهِ" أَنَّهُ اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ ، وَهِيَ : «الْجَنَابُ الْكَرِيمُ ، الْعَالِي الْمَلِكُ الْخَلِيلُ الْعَالِمُ الْعَادِلُ الْمَجَاهِدُ الْمُؤَيِّدُ الْمُتَاغِرُ الْمُرَاطِي الْعَادِلُ الْخَاشِعُ النَّاسِكُ الْأَوْحَدُ فُلَانٍ ، دُحِرَ الْإِسْلَامَ» . وَكَأَلْقَابِ مَلِكِي الْبَرْزَوِ وَالْكَانَمِ فِيمَا ذَكَرَهُ

في "التعريف" وهي : «الجناب الكريم العالى الملك الحليل الكبير العالم العادل الغازى المجاهد الهمام الأوحد المظفر المنصور عز الإسلام». ثم بقية الألقاب من نسبة ألقاب ملك التكرور .

الطبقة الرابعة - ألقاب المجلس . وأعلاها « المجلس العالى » كألقاب صاحب حصن كيفا فيما ذكره في "التعريف" وهو : «المجلس العالى الملكى الفلانى الأجل العالمى العادل المجاهدى المؤيدى المريبى المناصرى الأوحدى الأصلى الفلانى - بلقب التعريف - عز الإسلام والمسلمين ، بقية الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، شرف الدول ، دحر الممالك ، خليل أمير المؤمنين أو عضد أمير المؤمنين» على مخالفة فيه فيما أورده في "التثقيف" تأتى في المكتبة إليه .

ودونه المجلس السامى بالياء - كألقاب صاحب أرزن ، وهي «المجلس السامى الملكى الفلانى - بلقب الملك - الأصلى الكبيرى العالمى المجاهدى المؤيدى المريبى الأوحدى الفلانى - بلقب التعريف - عز الإسلام ، شرف الملوك فى الأنام ، بقية السلاطين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ، ولي أمير المؤمنين» .

ودونه المجلس بغير ياء فى ألقابه كألقاب صاحب دثقلة إذا كان مسلما ، فيما ذكره في "التعريف" وهي : «المجلس الكبير الغازى المجاهد المؤيد الأوحد العضد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلاطين» ولم يذكر فيه السامى ولا لقباً مضافاً إلى الملك ، وهو الملكى إلا أنهم أوردوه فى عدة الملوك .

قلت وأكثر هذه الألقاب يؤتى فيها بالألقاب المختصة بالملك : إما في المفردة كالملكى الفلانى ، وإما في المركبة مثل « بقية الملوك والسلاطين » ونحو ذلك ، لتدل على أن المكتوب له ملك فيمتاز عن غيره . وربما أتى فيها بالألقاب الإمارية دون الملوكة لوقوع اصطلاح أهل تلك المملكة على ذلك . كما يكتب في ألقاب صاحب تونس « أمير المؤمنين » لادعائه الخلافة ، وفي ألقاب صاحب فاس « أمير المسلمين » أتباعا ليوسف بن تاشفين صاحبها في القديم ، إذ كان أول من تلقب بذلك خضوعاً عن أن يتلقب بأمير المؤمنين ، لاختصاصه بالخلافة كما سيأتى الكلام عليه في المكتبة إليه إن شاء الله تعالى .

النمط الثانى

(ما يصدر بالألقاب المؤنثة ، وهى الحضرة)

ويختلف الحال فيها باختلاف الممالك . فاللقاب القان بمملكة إيران على ما كان عليه الحال فى أيام السلطان أبى سعيد وما قبله « الحضرة ، الشريفة ، العالمة ، السلطانية ، الأعظمية ، الشاهنشاهية ، الأوحديّة ، القانية ، الفلانية » . قال فى " التعريف " ولا يخلط فيها الملكية لهوانها لديهم وإن كان صاحب " التثقيف " قد أثبت فيها الملكية أيضاً على ما سيأتى فى الكلام على المكتبة إليه فى موضعه إن شاء الله تعالى . وألقاب صاحب تونس فيما ذكره فى " التثقيف " « الحضرة ، العلية ، السنية ، السرية ، المظفرية ، الميمونة ، المنصورة ، المصونة ، حضرة الأمير العالم » إلى آخر الألقاب المذكورة .

الضربُ الثالثُ

(من الألقاب الإسلامية للألقاب العامة لسائر الطوائف مما يُكتب به
عن الأبواب [السلطانية^(١)] ، وهي ثمانية أنواع)

النوع الأول

(ألقابُ أربابِ السيوف من أهل المملكة وغيرهم : من الأمراء والعُربان
والأكراد والتركمان . وهي على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرّ ، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المَقَرّ الشريف . وهو مختصّ في عُرف الزمان
بما يُكتب عن نواب السلطنة .

وصورتها على ما أورده في "عُرف التعريف" : « المَقَرّ الشريف ، العالى ،
المُولَوَى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المهدى ، المشيدى ، الزعيمى ،
المقدّمى ، الغوثى ، الغياثى ، المربطى ، المُنَاغِرَى ، الظّهيرى ، المالكى ، المخدومى ،
الفلانى ، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء فى العالمين ، زعيمُ الجيوش ، مُقدّم
العساكر ، عونُ الأمة ، غياثُ الملّة ، ممهدُ الدّول ، مشيدُ الممالك ، ظهيرُ الملوك
والسلاطين ، عضدُ أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المَقَرّ الكريم . وهي مستعملة فى السُّلْطانيات وما يُكتب
عن الثّواب .

فأما في السُّلْطَانِيَّاتِ فصورتها على ما أورده في "التثقيف" في الألقاب المستقرة للنائب الكافل ونائب الشام : «المَقَرُّ الكَرِيم ، العَالِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، الرَّعِيمِي ، الغَوْثِي ، الغِيَاثِي ، المُنَاغِرِي ، المُرَاطِي ، المَهْدِي ، المَشِيدِي ، الظَّهيري ، العَابِدِي ، النَّاسِكِي ، الْأَتَابِكِي ، الكَفِيلِي ، الْفُلَانِي ؛ مُعِزُّ الْإِسْلَام والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ أُمَرَاءِ الْعَالَمِينَ ، نَاصِرُ الْغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، زَعِيمُ جُيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ ، مَهْدِدُ الدَّوَلِ ، مَشِيدُ الْمَالِكِ ، عِمَادُ الْمِلَّةِ ، عَوْنُ الْأُمَّةِ ، ظَهِيرُ الْمُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، عَضُدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .



وأما فيما يكتب عن الثَّوَابِ فقد ذكر في "التعريف" أن ألقابها من نسبة ما تقدم في ألقاب المقر الشريف .

وصورتها على ما أورده شهاب الدين الفاروق في دُستوره عن نائب الشام : «المَقَرُّ الكَرِيم ، العَالِي ، المَوَلَوِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، المَهْدِي ، الغَوْثِي ، المَقْدَمِي ، الذَّنْحَرِي ، الغِيَاثِي ، الْفُلَانِي ؛ عِزُّ الْإِسْلَام والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الْأُمَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، زَعِيمُ جُيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ ، مَقْدَمُ الْعَسَاكِرِ الْمُجَاهِدِينَ ، دُخْرُ الدَّوَلَةِ بِهَاءِ الْمِلَّةِ ، مَهْدِدُ الْمَمْلَكَةِ ، ظَهِيرُ الْمُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، عَضُدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

وصورتها على ما أورده الصَّلَاحُ الصَّفَدِي فِي دُستوره عن نائب الشام أيضا : «المَقَرُّ الكَرِيم ، العَالِي ، المَوَلَوِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، الْمُجَاهِدِي ، الذَّنْحَرِي ، الْعَضُدِي ، النَّصِيرِي ، المَقْدَمِي ، الغَوْثِي ، الغِيَاثِي ، الْفُلَانِي ؛ رُكْنُ الْإِسْلَام والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الْأُمَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، نُصْرَةُ الْغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، غِيَاثُ الْمِلَّةِ ، كَهْفُ الْأُمَّةِ ، دُخْرُ الْمُلُوكِ والسُّلَاطِينِ » .

ثم قال : وإن كان المكتوبُ إليه نائبَ سلطنة زيد في ألقابه « المَهْدِيّ » ،
المَشِيدِيّ ، الرَّعِيمِيّ ، المَدْبَرِيّ ، الكافِيّ ، الفَلَانِيّ » .

وصورتها على ما أورده غيره : « المَقَرّ الكريم ، العالِي ، المَوَلَوِيّ ، الأَمِيرِيّ ،
الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العادِلِيّ ، الغَوْثِيّ ، الغِيَاثِيّ ، الذُّنْحَرِيّ ، الرَّعِيمِيّ ، الفَلَانِيّ ،
عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سَيِّدُ الأمراء في العالمين ، جَمَالُ الدولة ، دُخْرُ الملة ، زَيْنُ
المملكة ، عَيْنُ السلطنة ، سَفِيرُ الأُمة ، ظَهِيرُ الملوك والسلاطين ، عَضُدُ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير عن نائب حلب : « المَقَرّ الكريم ، العالِي ،
المَوَلَوِيّ ، الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَدْلِيّ ، المؤَيَّدِيّ ، الذُّنْحَرِيّ ، المَشِيدِيّ ،
الرَّعِيمِيّ ، الظَّهِيرِيّ ، الفَلَانِيّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سَيِّدُ الأمراء في العالمين ،
نَاصِرُ الغُرّة والمجاهدين ، زَعِيمُ الجيوش ، مَقْدَمُ العساكر ، عَوْنُ الأُمة ، ظَهِيرُ الملوك
والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مَرْتَبَةُ المَقَرّ العالِي . وقد ذكر في "عرف التعريف" أن
ألقابها من نسبة ما تقدّم في المَقَرّ الشريف . وذكر الصّلاح الصّفديّ في دُستوره
عن نائب الشام في ألقابه ما تقدّم له في ألقاب المَقَرّ الكريم ثم قال : إلا أنه لا يقال
فيه الذُّنْحَرِيّ .

وصورتها على ما رأيته في توقيع نقيب الأشراف بحلب عن النائب بها : « المَقَرّ
العالِي ، الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، النَّقِيبِيّ ، الشَّرِيفِيّ ، الحَسِينِيّ ، النَّسِيبِيّ ، العَرِيقِيّ ،
الأَصِيلِيّ ، الفاضِلِيّ ، العَلَامِيّ ، الحُجِّيّ ، القُدْوِيّ ، النَّاسِكِيّ ، الزَّاهِدِيّ ، العَايِدِيّ ،
الفَلَانِيّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، جلالُ العلماء العالمين ، جَمَالُ الفضلاء البارعين ،
مُجَبَّةُ الأمراء الحاكِمين ، زَيْنُ العِترَةِ الطاهرة ، شرفُ الأُسرة الزاهرة ، مُجَبَّةُ العِصَابَةِ

الهاشمية، قُدوة الطائفة العلوية، نُجبة الفرقة الناجية الحسينية، شرف أولى المراتب،
نقيب أولى المناقب، ملاذ الطلاب الراغبين، بركة الملوك والسلاطين .

الدرجة الثانية

(درجة الجَنَاب، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة الجَنَاب الشريف . وليست مستعملة في السلطانيات،
وهي مستعملة فيما يُكْتَب عن النُّوَاب .

وصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" : « الجَنَاب الشريف العالى،
المولوى، المجاهدى، المؤيدى، الممهّدى، الذُخرى، الأُوحدى، العونى،
الظّهيرى، الفلانى؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء المقدمين، نُصرة الغُزاة
والمجاهدين، عمادُ الملة، عونُ الأمة، ذخرُ الملة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ
أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية — مرتبة الجَنَاب الكريم . وهي مستعملة في السلطانيات
وما يُكْتَب عن النُّوَاب .

فأما في السلطانيات فصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب النائب
الكافل في الزّمن المتقدم : « الجَنَاب الكريم العالى، الأميرى، الأجلّى، الكيرى،
العالمى، العادلى، المؤيدى، الممهّدى، المشيّدى، الزعيمى، الذُخرى، المقدمى،
العونى، الغيائى، المرابطى، المُشاعِرى، المظفرى، المنصورى، الأتابكى؛ رُكنُ
الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين، أتابكُ الحيوش، مقدّمُ العساكر،
زعيمُ الجنود، عاقدُ البُود، ذُخرُ الموحّدين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، غياثُ الأمة،

عون الملة ، مشيد الدول ، كافل الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب النائب الكافل أيضا على ما كان الحال عليه أولا : «الحناب الكريم العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغياثى، المُنَاغِرَى، المُرَايِطَى، الممهّدى، المشيدى، الظهيرى، الكافلى، الفلانى، مؤيد الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحّدين، مقدّم العساكر، مُمهد الدول، مشيد الممالك، عمادُ الملة، عون الأمة، كافل السلطنة، ظهير الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب نائب الشام على ما كان الحال عليه أولا : «الحناب الكريم العالى، الأميرى، الأجلّى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الممهّدى، المشيدى، العونى، الغياثى، الذخرى، الزعيمى، المقدّمى، الظهيرى، الكافلى، الفلانى، عزّ الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نصرَةُ الغزاة والمجاهدين، زعيمُ الجيُوش، مقدّم العساكر، عونُ الأمة، غياثُ المِلَّة، مُمهد الدول، مشيد الممالك، ظهير الملوك والسلاطين، عضدُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" فى المكاتبه لنائب الشام على ما كان عليه الحال أيضا : «الحناب الكريم العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغياثى، المُنَاغِرَى، المُرَايِطَى، الممهّدى، المشيدى، الظهيرى، الكافلى، الفلانى، عزّ الاسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نصرَةُ الغزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحّدين، مقدّم العساكر،

ممهّد الدول ، مشيّد الممالك ، عمادُ الملّة ، عونُ الأئمة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في المكتبة إلى أحد الأمراء الألوّس بمملكة إيران في دولة السلطان أبي سعيد : «الجنّاب الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيّدى ، الزعيمى ، العونى ، الغياثى ، المُنَاغِرِى ، المُرَابِطِى ، الممهّدى ، المشيّدى ، الثوينى ، الفلانى ؛ عونُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، ناصرُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، ممهّدُ الدول ، عمادُ الملّة ، عونُ الأئمة ، كافى الدولة القانيّة ، كافل الممّلكة الشرقية ، أمير التّوامين ، أمير الألوّس ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، عضدُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" فى ألقاب ابن المظفر اليزدى : «الجنّاب الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيّدى ، العونى ، الزعيمى ، الممهّدى ، المشيّدى ، الظّهيرى ، الغياثى ، المُنَاغِرِى ، المُرَابِطِى ، الثوينى ، الفلانى ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، ناصرُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، مقدّمُ العساكر ، ممهّدُ الدول ، مشيّدُ الممالك ، عمادُ الملّة ، عونُ الأئمة ، حاكمُ أمور ولاة الزمان ، موصّحُ قوانين العدل والإحسان ، اعتضادُ صناديد الأوان ، مستنّيبُ ملوك العجم ، مستخدمُ أرباب الطّبلى والعلم ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين .



وأما فيما يكتب عن النّوَاب وما كان يكتب به فى الإخوانيات فى الزمن المتقدّم ، فقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نسبة ما تقدّم فى ألقاب الجنّاب الشريف .

وصورتها على ما أورده القاضي شهاب الدين الفارقي في دُستوره عن نائب الشام :
« الجَنَابُ الكَرِيمُ العَالِي ، المَوْلَوِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ،
العَضْدِي ، النَّصِيرِي ، المؤَيَّدِي ، المَقْدَمِي ، الذُّخْرِي ، الفَلَانِي ؛ جَدُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ،
شَرَفُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، نُصْرَةُ الغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينَ » .

وصورتها على ما أورده الصَّلاح الصفدي في دُستوره عن نائب الشام : « الجَنَابُ
الكَرِيمُ العَالِي ، المَوْلَوِي ، الأَمِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، العَوْنِي ، الغِيَاثِي ،
الظَّهِيرِي ، المَقْدَمِي ، الفَلَانِي ؛ عَزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، شَرَفُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ،
نَاصِرُ الغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينَ » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَابِ العَالِي ، وهي مستعملة في السلطانيات وما يكتب
عن التَّوَابِ وما كان في الإِخْوَانِيَّاتِ قديمًا .

فأما في السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولى — مع الدِّعَاءِ بِمُضَاعَفَةِ النِّعْمَةِ .

وصورتها على ما أورده في " التعريف " في ألقاب نائب حلب على ما كان الحال
عليه أولاً : « الجَنَابُ العَالِي ، الأَمِيرِي ، الأَجَلِّي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ،
المُهَيَّدِي ، المَشِيدِي ، العَوْنِي ، الذُّخْرِي ، الرَّعِيمِي ، المَقْدَمِي ، الظَّهِيرِي ، المُرَاطِي ،
المُتَاغِرِي ، الفَلَانِي ؛ عَزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، نَصِيرُ الغَزَاةِ
والمُجَاهِدِينَ ، زَعِيمُ جِيُوشِ المُوَحِّدِينَ ، غَمَادُ الأُمَّةِ ، دُخْرُ الدَّوْلَةِ ، ظَهِيرُ المُلُوكِ
والمُسْلِمِينَ ، سَيِّفُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ » .

وصورتها على ما أورده في " التثقيف " في ألقاب نائب طَرَابُلسَ وَمَنْ فِي رُتْبَتِهِ :
« الجَنَابُ العَالِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، العَوْنِي ،

الزَّعِيمِيّ، الممَّهْدِيّ، المَشِيدِيّ، الظَّهيريّ، الكافِيّ، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيّدُ أمراء العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحّدين مقدّمُ العساكر، ممهّدُ الدَّول، مَشِيدُ الممالك، عمادُ المِلَّة، عونُ الأُمّة، ظهيرُ الملوك والسلطين، سيفُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب قطلوبغا إيناق أحد امراء الأُلوس بلاد أذربك : «الجناب العالي، الأميريّ، الكبيريّ، العالميّ، العادليّ، المؤيّدِيّ، العَوْنِيّ، الزَّعِيمِيّ، الممَّهْدِيّ، المَشِيدِيّ، الظَّهيريّ، التَّوْنِيّ، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيّدُ الأمراء في العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ الجيوش، مقدّمُ العساكر، كَهْفُ المِلَّة، دُخْرُ الدَّولَة، ظهيرُ الملوك والسلطين، سيفُ أمير المؤمنين .

الرتبة الثانية — مع الدعاء بدوام النعمة .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب مقدّم العسكر بغزة ومن في رتبته : «الجنابُ العالي، الأميريّ، الكبيريّ، العالميّ، العادليّ، المؤيّدِيّ، الأُوحدِيّ، النَّصِيرِيّ، العَوْنِيّ، الهَمَامِيّ، المَقْدَمِيّ، الظَّهيريّ، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيّدُ الأمراء في العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين، مقدّمُ العساكر، كَهْفُ المِلَّة، دُخْرُ الدَّولَة، عمادُ المملكة، ظهيرُ الملوك والسلطين، حُسامُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب مامى : أحد الحُكَّام ببلاد أذربك كان : «الجناب العالي، الأميريّ، الكبيريّ، العالميّ، المُجَاهِدِيّ، المؤيّدِيّ، الدُّخْرِيّ، النَّصِيرِيّ، الهَمَامِيّ، المَقْدَمِيّ، التَّوْنِيّ، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيّدُ الأمراء في العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين، مقدّمُ العساكر، دُخْرُ الدَّولَة، عَضُدُ الملوك والسلطين، حُسامُ أمير المؤمنين .



وأما ما يكتب عن الثَّوَاب وما كان يكتب في الإخوانيات قديماً، فقد ذكر في "عرف التعريف" أن ألقابه من نسبة ما تقدم في ألقاب الجَنَاب الشريف .

وصورتها على ما أورده الصَّلاح الصَّفَدِيُّ في دُستوره عن نائب الشام في الرتبة الأولى منها: «الجَنَابُ العَالِي، الأَمِيرِي، الأَجَلِي، الكَبِيرِي، المؤَيَّدِي، المَجَاهِدِي، العَوْنِي، المَقْدَمِي، الاسْفَهَسَلَارِي، الظَّهِيرِي، الفَلَانِي، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَفُ الأمراء المَقْدَمِينَ، نُصْرَةُ الغُزَاة والمجاهدين، عَضُدُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التذكرة الأَمِدِيَّة" عن نائب الشام أيضاً في الرتبة الثانية من هذه المرتبة: «الجَنَابُ العَالِي، الأَمِيرِي، الكَبِيرِي، العَضُدِي، الذُّخْرِي، النَّصِيرِي، المؤَيَّدِي، المَقْدَمِي، الظَّهِيرِي، الفَلَانِي، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَفُ الأمراء في العالمين، نُصْرَةُ الغُزَاة والمجاهدين، ظهيرُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(مرتبة المجلس العالي)

وهي مستعملة في السلطانيات وما يكتب عن الثَّوَاب وما كان يكتب في الإخوانيات قديماً .

فأما في السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولى — مع الدعاء للجلس .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب نائب الكرك : «المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المقدمى ، الأوحدي ، النصيرى ، الهمامى ، الظهيري ، الفلاني ؛ عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، مقدم العساكر ، كهف الملّة ، دُخر الدولة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حُسام أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" أيضا في ألقاب وزير القان ببلاد أذرب : «المجلس العالى الأميرى ، الكبيرى ، الذخري ، الأوحدي ، الاكلى ، المتصرفى ، العونى ، الوزيري ، الفلاني ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء والوزراء في العالمين ، جمال المتصرفين ، أوجد الأولياء المقربين ، دُخر الدولة ، مُشير الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" أيضا في ألقاب حافظ أنحى على باشاه : «المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الأوحدي ، النصيرى ، العونى ، الهمامى ، المقدمى ، الظهيري ، التوينى ، الفلاني ؛ عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، كهف الملّة ، عماد الأمة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حُسام أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب أمير مكة المشرفة : «المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الشريفي ، الحسيني ، النسيبي ، العالمى ، المجاهدى ،

المُقَدَّمى ، الأُوَحْدى ، النِّصْرِى ، العَوْنى ، الهَمَامى ، الظَّهْرِى ، الأَصِيلى ،
العَرِيقى ، الشَّهَابى ؛ عِزَّ الإسلام والمسلمين ، شَرُفُ الأُمراء الأشراف فى العالمين ،
نُصْرَةُ الغَزاة والمجاهدين ، كَهْفُ المِلَّة ، عَوْنُ الأُمَّة ، نَحْرُ السُّلالة الزاهرة ، زَيْنُ العِترَةِ
الطاهرة ، بَهَاء العِصَابَةِ العَلَوِيَّة ، جَمَالُ الطائفة الهاشمية ، ظهير الملوك والسلاطين ،
سَيِّبُ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب أمير آل فضل من عرب
الشام : « المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيِّدى ،
الأُوحدى ، النِّصْرِى ، العَوْنى ، الهَمَامى ، المُقَدَّمى ، الظَّهْرِى ، الأَصِيلى ، الفلانى ،
عِزُّ الإسلام والمسلمين ، شَرُفُ الأُمراء العُرَبان فى العالمين ، نُصْرَةُ الغَزاة والمجاهدين ،
مُقَدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، دُحْرُ الدولة ، عمادُ العرب ، ظهير الملوك والسلاطين ،
حُسامُ أمير المؤمنين » .

الرتبة الثانية — المجلس العالى مع صدرت .

وصورتها على ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب نائب الرِّحبة ومَنْ فى رُتبته :
« المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العضدى ، الذَّخْرِى ، النِّصْرِى ، الأُوحدى ،
المؤيِّدى ، العَوْنى ، الهَمَامى ، المُقَدَّمى ، الظَّهْرِى ، الفلانى ، مجدُّ الإسلام والمسلمين ،
شَرُفُ الأُمراء المُقَدَّمين ، نُصْرَةُ الغَزاة والمجاهدين ، مُقَدَّمُ العساكر ، دُحْرُ الدولة ،
كَهْفُ المِلَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .



وأما فيما يكتب عن الثَّواب وما كان يُكْتَب فى الإخوانيات أولا ، فصورتها على
ما أورده فى " عُرف التعريف " : « المجلسُ العالى ، الأميرى ، الاسفَهْسلارى ،

الأجلّي ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، النصيرى ، الظهيرى ، الفلانى ،
مجد الإسلام والمسلمين ، زينُ الأمراء المقدمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ،
عَضُدُ الملوك والسلاطين .

وصورتها على ما أورده الصلاح الصفدى فى دُستوره عن نائب الشام " المجلس
العالى ، الأميرى ، الأجلّي ، الكبيرى ، المؤيدى ، المجاهدى ، الاسفَهْسلارى ،
العونى ، الظهيرى ، الفلانى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدمين
نُصرةُ الغزاة والمجاهدين ، عَضُدُ الملوك والسلاطين .

وصورتها على ما أورده فى "التذكرة الآمدية" عن نائب الشام : « المجلس العالى ،
الأميرى ، الكبيرى ، العضدى ، النصيرى ، المؤيدى ، المجاهدى ، الذخرى ،
مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدمين ، ذُخرُ الغزاة والمجاهدين ،
عَضُدُ الملوك والسلاطين .

المرتبة الثانية

(مرتبة المجلس السامى بالياء)

وهو مستعمل فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره المقر الشهابى بن فضل الله فى بعض
دساتيره فى توقيع نقيب الأشراف : « المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ،
العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الشريفى ، الحسينى ، النسيبى ، الذخرى ،
النصيرى ، الأوحدي ، الأصلى ، عزُ الإسلام ، زينُ الأنام ، نسيب الإمام ،
شرفُ الأمراء ، نقيبُ النقباء ، جمالُ العترة الطاهرة ، جلالُ الأسرة الزاهرة ، ذُخرُ
الغزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، ولى أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الكُشَاف بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : « المجلس السامي ، الأميري ، الكبيرى ، الذُخْرى ، النَّصِيرى ، الأُوحدى ، المؤيِّدى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأَنام ، شرفُ الأُمراء ، أُوحدُ المجاهدين ، عضدُ الملوك والسلطين » .

وصورتها على ما رأيته في بعض المراسيم لأُمير آل مرا من عَرَب الشام : « المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيِّدى ، العَضدى ، الذُخْرى ، النَّصِيرى ، الأُوحدى ، الأَصِلى ، العَرِيقى ، مجد الإسلام ، بهاء الأَنام ، شرفُ الأُمراء ، زينُ القبائل ، نَحر العِشائر ، مَلأدُ العرب ، عضدُ الملوك والسلطين » .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب وزير الشيخ أويس ببغداد : « المجلس السامى ، الأَجَلّى ، الكبيرى ، الأُوحدى ، المقَدِّمى ، المتخَيى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأَنام ، شرفُ الرؤساء ، أُوحدُ الأعيان ، صَفوةُ الملوك والسلطين » .

وصورتها في ألقاب أمراء العرب : « المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، الذُخْرى ، المؤيِّدى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأَنام ، زينُ القبائل ، نَحر العِشائر ، عِمادُ الملوك والسلطين » .



وأما فيما يكتَب عن الثَّواب ونحوهم ، فصورتها على ما أورده في "عُرف التعريف" : « المجلس السامى ، الأميرى ، الأَجَلّى ، الكبيرى ، المؤيِّدى ، العَضدى ، النَّصِيرى ،

الأوحدى، الهمامى، الفلانى؛ مجد الإسلام، زين الأمراء فى الأنام، دُخر الغزاة والمجاهدين، عضد الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده شهاب الدين الفارقى فى دُستوره عن نائب الشام : «المجلس السامى، الأميرى، الأجلّى، الكبيرى، العضدى، النصيرى، المؤيدى، الفلانى؛ مجد الإسلام، جمال الأمراء، نصرة الغزاة والمجاهدين، عضد الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده الصّلاح الصفدى فى دُستوره عن نائب الشام أيضا : «المجلس السامى، الأميرى، الأجلّى، الكبيرى، المؤيدى، المجاهدى، العضدى، النصيرى، الهمامى، الفلانى؛ مجد الإسلام، شرف الأمراء، نصرة الغزاة، عمدة الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة

(مرتبة المجلس السامى بغير ياء)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الولاية الطبلخاناه بالوجهين القبلى والبحرى : المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المؤيد، الأوحد، المرتضى؛ فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، نحر الأمراء، زين المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته فى بعض نُسَخ التّواقيع : ترتيب الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي : «المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الحسيب، النسيب،

الطاهر، الكامل، العالم، العامل، الفاضل، الزاهد، الورع، الزكي، التقى؛
 فلان الدين، جلال الإسلام، شرف السادة الأشراف، نحر العترة الطاهرة،
 زين السلالة الزاهرة، نقيب نقباء الشرفاء، مجد العصبة العلوية، جمال العصبة الفاطمية،
 صدر الأئمة العلماء، محتجى الدولة، بهاء الملة، خالصة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما في ألقاب النائب بالينبع : « المجلس السامى، الأمير، الأجل،
 المجاهد، المؤيد، الشريف، الحبيب، النسيب، مجد الإسلام، بهاء الأنام،
 زين العترة، نحر الأشره، جمال الدرّيه، نحر الشجرة الزكية، عمدة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التتيف" في ألقاب أكابر عربان آل فضل من
 عرب الشام: « المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المؤيد،
 الأوحّد، الأصيل، فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، فخر القبائل،
 زين العشائر، عماد الملوك والسلاطين» .



وأما فيما يكتب عن النّوَاب وَمَنْ في معنهم، فصورتها على ما أورده
 في "عرف التعريف" : « المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى،
 المجاهد، المؤيد، فلان الدين، مجد الإسلام، زين الأمراء، نحر الأنام، دُحر الغزاة
 والمجاهدين، عضد الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التذكرة الآمدية" عن نائب الشام: « المجلس السامى،
 الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، المجاهد، العضد، النصير، فلان الدين، مجد الأمراء،
 شرف الخوّاص، زين الغزاة، عدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعة (درجةُ مجلس الأمير)

وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها على مرتبة واحدة .

فأما في السلطانيات، فصورُها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الولاية العشرات بالوجهين القبلي والبحري: « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، الغازي، المجاهد، المؤيد، الأوحّد، المرتضى؛ فلان الدين، مجدّ الأمراء، زين المجاهدين، عدّة الملوك والسلاطين » .



وأما فيما يُكتب عن النُواب ومن في معناهم، فصورُها على ما أورده في "عرف التعريف": « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، الغازي، المجاهد، المرتضى؛ فلان الدين، فخر الأمراء، زين المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده الفارقي في دُستوره عن نائب الشام: « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، الأخصّ، الأكل، الغازي، المجاهد، المرتضى، المختار؛ فلان الدين، مجدّ الأمراء، زين الغزاة، عدّة الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده في "الذاكرة الأميدية": « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، المجاهد، الأعزّ، الأخصّ، الأكل، المجتبي، المختار؛ فلان الدين، مجدّ الأمراء، زين الغزاة، عدّة الملوك والسلاطين » .

الدرجة الخامسة

(درجة الأمير مجزدا عن مضاف إليه)

وأكثر ما يأتي ذلك في الولايات أو فيمن يُكْتَبُ بسببه كُتُبٌ وما أشبه ذلك .
 وصورتها في السلطانيات : « الأميرُ الأجلُّ » وربما زيد على ذلك فقيل :
 « الكبيرُ الغازي » .

وصورتها في غير السلطانيات على ما أورده في " التذكرة الآمديّة " : « الأميرُ ،
 الأجلُّ ، الأخصُّ ، الأكلُّ » .

النوع الثاني

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ الديوانية . وهي أيضا على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرَّ)

وليست مستعملةً في السلطانيات جملةً لأنه لا يُكْتَبُ لأحدٍ من هذا النوع
 عن السلطان بالمَقَرَّ ، وهي مستعملةٌ فيما يكتب عن النُوابِ ومن في معناهم ،
 ولها ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى — مَرْتَبَةُ المَقَرَّ الشريف . وصورتها على ما أورده
 في "عرف التعريف" في ألقاب الوزراء من أرباب الأعلام ، : « المَقَرَّ الشريف ،
 العالى ، المَوْلَوِيّ ، الصاحي ، الوزيري ، المنقذِي ، العالمِي ، الممهدي ، المشيّدِي ،

العَوْنِيّ، الغِيَاثِيّ، المَالِكِيّ، المَخْدُومِيّ، الفَلَانِيّ؛ صَلَاحُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ،
سَيِّدُ الوُزَرَاءِ فِي العَالَمِينَ، رَئِيسُ الأَصْحَابِ، قَوَامُ الأُمَّةِ، نِظَامُ المِلَّةِ، مَدَبَرُ الدَوْلَةِ،
ذُنُرُ المَمَالِكِ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينَ، وَلِيّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ .

وصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" أيضا في ألقاب غير الوزراء
من الكُتَّابِ : «المَقَرَّ الشَّرِيفُ، العَالِي، المَوَلَوِيّ، القَضَائِيّ، السَّيِّدِيّ،
العَالِمِيّ، العَادِلِيّ، المَهْدِيّ، المَشِيدِيّ، العَوْنِيّ، الغِيَاثِيّ، المَالِكِيّ، المَخْدُومِيّ،
الفَلَانِيّ؛ صَلَاحُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ الرُّؤَسَاءِ فِي العَالَمِينَ، رَئِيسُ الأَصْحَابِ،
قَوَامُ الأُمَّةِ، نِظَامُ المِلَّةِ، زَيْنُ الدَوْلَةِ، ذُنُرُ المَمَالِكِ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينَ،
وَلِيّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير عن نائب الشام في ألقاب بعض كُتَّابِ
السَّرِّ العِلْمَاءِ : «المَقَرَّ الشَّرِيفُ، العَالِي، المَوَلَوِيّ، القَاضِيّ، الكَيَّرِيّ، العَالِمِيّ،
العَامِلِيّ، العَلَّامِيّ، الأَكْمَلِيّ، الأَفْضَلِيّ، المُفِيدِيّ، الفَرِيدِيّ، القُدْرِيّ، المُحَقِّقِيّ،
المُسَلِّكِيّ، الأَصِيلِيّ، العَرِيقِيّ، المَدَبَرِيّ، المُشِيرِيّ، الِيمِينِيّ، السَّفِيرِيّ، المَالِكِيّ،
المَخْدُومِيّ، الشَّيْخِيّ، العَلَّامِيّ؛ ضِيَاءُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ العِلْمَاءِ والرُّؤَسَاءِ
والمَشَاحِجِ فِي العَالَمِينَ، رَئِيسُ الأَصْحَابِ، نَفَرُ الكُتَّابِ، حَسَنَةُ الأَيَّامِ، بَقِيَّةُ السَّلَفِ
الكَرَامِ، صَدْرُ مَصْرَ والشَّامِ، لِسَانُ السُّلْطَانَةِ، سَفِيرُ المَمْلَكَةِ، شَيْخُ شُيُوخِ العَارِفِينَ،
جَامِعُ طُرُقِ الوَاصِفِينَ، صَدْرُ المُدَرِّسِينَ، مُشِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينَ، وَلِيّ أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ .

المرتبة الثانية — مَرْتَبَةُ المَقَرَّ الكَرِيمِ . قال في "عرف التعريف" : والألقاب
فيها من نِسْبَةٍ ما تَقَدَّمَ فِي ألقَابِ المَقَرَّ الشَّرِيفِ .

وصورتها على ما أورده الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ في دُستوره عن نائب الشام :
« المَقَرَّ الكَرِيم ، العَالِي ، المَوْلَوِي ، القَضَائِي ، العَالِمِي ، القَوَامِي ، النَّظَامِي ، المَدْبَرِي ،
المُسِيرِي ، المَلَاذِي ، الفَلَانِي ، جَلَالُ الإِسْلَام والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الأَكْبَارِ فِي الْعَالَمِينَ ،
عَوْنُ الأُمَّة ، ذُنُورُ المِلَّة ، مَدْبَرُ الدُّوَل ، حَمَالُ المَالِك ، حَسَنَةُ الوجود ، خَالِصَةُ
المُلُوكِ والسُّلَاطِين » .

المرتبة الثالثة — مَرْتَبَةُ المَقَرَّ العَالِي . وقد جعلها في ” عرف التعريف “ من
نسبة ما تقدم من ألقاب المَقَرَّ الشريف أيضا .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير عن نائب الشام فيما كُتِبَ به للقاضي
شرف الدين عبد الوهَّاب بن أبي الطيب كاتب السرِّ بالشام : « المَقَرَّ العَالِي ،
المَوْلَوِي ، القَضَائِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، الفَاضِلِي ، الكَامِلِي ، البَارِعِي ، الأَوْحَدِي ،
المَاجِدِي ، القَوَامِي ، النَّظَامِي ، المُفَوِّهِ ، الرَّئِيسِي ، الأَمِيرِي ، الأَيْمَلِي ، الأَصِيلِي ،
العَرِيقِي ، الفَلَانِي ، عِزُّ الإِسْلَام والمُسْلِمِينَ ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، أَوْحُدُ
الْفَضَلَاءِ المَاجِدِينَ ، حُجَّةُ المُتَنَشِّئِينَ ، صَدْرُ الرُّؤَسَاءِ ، رَأْسُ الصُّدُورِ ، عَيْنُ الأَعْيَانِ ،
خَالِصَةُ المُلُوكِ والسُّلَاطِين » .

الدرجة الثانية

(درجة الجَنَاب ، وفيها ثلاثُ مراتب)

المرتبة الأولى — مَرْتَبَةُ الجَنَابِ الشريف . وهي مستعملةٌ ^(١) في غير السلطان دون
السُّلْطَانِيَّات . قال في ” عرف التعريف “ : وهي من نسبة الألقاب المتقدمة
في المَقَرَّ الشريف .

(١) عبارة الضوء ج ١ ص ١٨٠ « وهي مخصصة بما يكتب عن التَّوَابِ دون السُّلْطَانِيَّات » وهي أوضح .

المرتبة الثانية — مرتبةُ الجَنَابِ الكَرِيمِ . وجعلها في "عرف التعريف" من نسبة ماتقدم في المقرّ الشريف .

وصورتها على ما أورده الصّالِحُ الصّفْدِيُّ في دُستوره عن نائب الشام : « الجَنَابِ الكَرِيمُ العَالِي ، المَوْلَوِيّ ، القَضَائِيّ ، العَالِمِيّ ، الأَوْحَدِيّ ، الرَّئِيسِيّ ، الأَجَلِّيّ ، الأَثِيرِيّ ، البَارِعِيّ ، المَاجِدِيّ ، الفَلَانِيّ ، مُجْدُ الإسلام والمسلمين ، شَرُفُ الرؤساء في العالمين ، جَمَالُ الأكابر ، نَفَرُ الأعيان ، أَوَحْدُ الكُتَّاب ، خَالِصَةُ المُلُوكِ والسلاطين » .

وصورتها على ما رأيتُهُ في بعض الدّساتير عن نائب الشام في توقيعٍ باسمِ شِهَابِ الدِّينِ أَبْنِ أَبِي الطَّيْبِ بَكْتَابَةِ الدّست بالشام : « الجَنَابِ الكَرِيمِ ، العَالِي ، المَوْلَوِيّ ، القَضَائِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَامِلِيّ ، البَارِعِيّ ، الكَامِلِيّ ، المَاجِدِيّ ، القَوَامِيّ ، النّظَامِيّ ، الرَّئِيسِيّ ، الأَصِيلِيّ ، العَرِيقِيّ ، الأَوْحَدِيّ ، الفَلَانِيّ ، جَلالُ الإسلام والمسلمين ، أَوَحْدُ الرؤساء في العالمين ، تَاجُ الفضلاء المُنتَشِئين ، جِهْدُ الحُدّاقِ المتصرّفين ، سُلالةُ الأتقياء العارفين ، خَالِصَةُ المُلُوكِ والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبةُ الجَنَابِ العَالِي ، وهي مستعملةٌ في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الوزارة بالديار المصرية : « الجَنَابُ العَالِي ، الصّاحِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَادِلِيّ ، الأَوْحَدِيّ ، الأَكْبَلِيّ ، القَوَامِيّ ، النّظَامِيّ ، الأَثِيرِيّ ، البَلِغِيّ ، المُنْتَفِذِيّ ، المَسْدِدِيّ ، المتصرّف ، الممهّديّ ، العَوْنِيّ ، المَدْبُرِيّ ، المُشِيرِيّ ، الوَزِيرِيّ ، الفَلَانِيّ ، صَلاحُ الإسلام والمسلمين ، سَيِّدُ الوزراء في العالمين ، رَئِيسُ الكُبراء ، كَبِيرُ الرؤساء ، أَوَحْدُ الأصحاب ، مَلَأْدُ الكُتَّاب ، قِوَامُ الدُّوَل ، نِظَامُ المُلُوكِ ، مُفِيدُ

المتاجح، معتمد المصالح، مرتب الجيوش، عماد الملة، عون الأمة، مشير الملوك والسلطين، ولى أمير المؤمنين .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيتها في بعض الدساتير عن نائب الشام في ألقاب كاتب دسْت بالشام : « الجنا ب العالى ، القضا ئى ، الكبرى ، العالمى ، الفاضلى ، الأكلى ، البارعى ، الأوحدى ، القوامى ، النظامى ، المقو هى ، الرئيسى ، الماجدى ، الفلانى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الرؤساء فى العالمين ، أوح د الفضلاء الماجدين ، قُدوة البلاء ، جمال الكُتاب ، زين المنتشين ، خالصة الملوك والسلطين » .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس ، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها على ما أورده فى "التتقيف" فى ألقاب كاتب السرّ بالأبواب السلطانية : « المجلس العالى ، القاضوى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، العالمى ، الأفضلى ، الأكلى ، البليغى ، المسددى ، المنقذى ، المشيدى ، العونى ، المشيرى ، اليمينى ، السفيرى ، الأصلى ، العريقى ، الفلانى ، صلاح الإسلام والمسلمين ، سيد الرؤساء فى العالمين ، قُدوة العلماء العالمين ، جمال البلاء ،

أوحد الفضلاء ، جلال الأصحاب ، كهف الكُتّاب ، بين المملكة ، لسان السُّطنة ،
سفير الأمة ، سليل الأَكابر ، مشيرُ الملوك والسلاطين ، وليّ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب ناظر الخواص الشريفة :
« المجلس العالی ، القاضی ، الکبیری ، العالی ، الفاضلی ، الأوحدی ، الأکلی ،
الرئیس ، البلیغی ، البارعی ، القوامی ، النظامی ، الماجدی ، الأمیری ، المنفّذی ،
المسدّدی ، المتصرّفی ، الفلانی ، جمال الإسلام والمسلمین ، سید الرؤساء فی العالمین ،
قوام المصالح ، نظام المناجیح ، جلال الأکابر ، قدوة کُتّاب ، رئیس الأصحاب ،
عماد الملة ، صفوة الدولة ، خالصة الملوك والسلاطين ، وليّ أمير المؤمنين . »

وصورتها على ما أورده في ألقاب وزير دمشق إذا صُرح له بالوزارة : « المجلس
العالی ، الصاحبی ، وزیری ، الأصیل ، الکبیری ، العالی ، العادلی ، المؤیدی ،
الأوحدی ، القوامی ، النظامی ، الماجدی ، الأثیری ، المُشیری ، الفلانی ،
صلاح الإسلام والمسلمین ، سید الوزراء فی العالمین ، رئیس الکبراء ، کبر الرؤساء ،
بقية الأصحاب ، ملاذ کُتّاب ، عماد الملة ، خالصة الدولة ، مشير الملوك والسلاطين ،
خالصة أمير المؤمنين . »

وصورتها على ما أورده في ألقابه إذا لم يُصرَّح له بالوزارة ، بل كان ناظر النظار
بالمملكة الشامية : « المجلس العالی ، القضاة ، الکبیری ، العالی ، العاملی ،
الأوحدی ، الرئیس ، الأثیری ، القوامی ، النظامی ، المنفّذی ، المتصرّفی ، الفلانی ،
مجد الإسلام والمسلمین ، شرف الأمراء فی العالمین ، أوحد الفضلاء ، جلال الکبراء ،
حجة کُتّاب ، صفوة الملوك والسلاطين ، خالصة أمير المؤمنين . »



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التذكرة الآمدية" في بعض التواقيع من ترتيب المقرّ الشهابي بن فضل الله بكتابة الدست بالشام : « المجلس العالى ، القضائى ، الأجلّى ، الكبيرى ، الرئيسى ، العالمى ، العالمى ، البارعى ، الأوحدى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأئبلى ، الأفضلى ، الأصلى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الرؤساء ، أوجد الكبراء ، صدر الأعيان ، جمال الكُتاب ، جلال الحُساب ، صفوة الدولة ، خالصة الملوك والسلطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى بالياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يذكر صورتها فى "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيتُ فى بعض الدساتير : « المجلس السامى ، القضائى ، الأجلّى ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكافلى ، الرئيسى ، الأوحدى ، الأصلى ، الأثيرى ، البليغى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، شرف الرؤساء ، نحر الأنام ، زين البلغاء ، جمال الفضلاء ، أوجد الكُتاب ، نحر الحُساب ، صفوة الملوك والسلطين » .



وأما فى غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيتُ فى "التذكرة الآمدية" فى توقيع بكتابة الدرّج عن نائب الشام : « المجلس السامى ، القضائى ، الأجلّى ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، البليغى ، الأصلى ، الرئيسى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، شرف الرؤساء ، أوجد الكُتاب ، جمال البلغاء ، مرتضى الملوك والسلطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات، فلم يذكر لها صورة في "التثقيف" أيضا .

وصورتها على ما رأيته في "التذكرة الآمدية" في توقيع شريف بكتابة الدرج :
المجلس السامي، القاضي، الأجل، الكبير، الصدر، الرئيس، الأوحّد، البارّع،
الكامل، الأصيل، الفاضل، فلان الدين، جمال الإسلام، بهاء الأنام،
شرف الأكاير، زين الرؤساء، أوحّد الفضلاء، زين الكُتاب، صفوة الملوك
والسلاطين» .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيته في "التذكرة الآمدية" في توقيع
كريم عن نائب الشام بكتابة الدرج بالشام، ترتيب مؤلف "التذكرة" المذكورة :
«المجلس السامي، القاضي، الأجل، الكبير، الفاضل، البارّع، الكامل، الأوحّد،
الرئيس، الأثير، فلان الدين، مجد الإسلام، شرف الصدور، أوحّد الفضلاء،
زين الكُتاب، جمال الحُساب، صفوة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعة

(درجة مجلس القاضي، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات، فلم يُورد لها في "التثقيف" أيضا صورة .

وصورتها على ما يقتضيه عرف الديوان : «مجلس القاضي، الأجل، الكبير،
الفاضل، الأوحّد، الأثير، الرئيس، البليغ، العريق، الأصيل، فلان الدين،
مجد الإسلام، بهاء الأنام، شرف الرؤساء» .



وأما في غير السلطانيات، فعلى نحو ذلك .

الدرجة الخامسة

(١)

(درجة القاضي، وهي مستعملة في السلطانيات [وغيرها])

وصورتها فيهما : « القاضي الأجل » وربما زيد في تعظيمه فتيل « الكبير
الصدر الرئيس » ونحو ذلك .

النوع الثالث

(من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الوظائف الدينية،

وهي على خمس درجات أيضا)

الدرجة الأولى

(درجة المقر)

وهي مختصة بغير السلطانيات، لأنه لا يكتب لأحد من أهل هذا النوع
عن السلطان بالمقر أيضا، بل قال في «عرف التعريف» : إنه لا يكتب به لأحد
من هذا النوع في غير السلطانيات أيضا ولكن رأيت مستعملا فيما يكتب عن
النواب بالملك . وهي على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى — مرتبة المقر الشريف .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير في توقيع عن نائب الشام للقاضي
جمال الدين إبراهيم بن العديم بعض الأنظار والتدريس بالشام : «المقر الشريف،
العالى، المولى، القاضى، الكبيرى، العالمى، العادلى، الأصلى، العريق،
القوامى، النظامى، الإمامى، العلمى، القدوى، المفيدى، الشيخى، الصاحى،

الحاكمي، المُحْسِنِي، الفلاني؛ جمال الإسلام والمسلمين، سيد الفضلاء العاملين،
قُدوة العلماء في العالمين، لسان المتكلمين، برهان المناظرين، صدر المدرسين،
جلال الطالبين، بقية السلف الكرام الدارجين، بركة الملوك والسلاطين، خالصة
أمير المؤمنين .

المرتبة الثانية — مرتبة المقرّ الكريم .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير عن نائب الشام في توقيع ببعض الوظائف
الدنيّة بدمشق : « المقرّ الكريم العالی، المولوي، القضائي، الصاحبي، الإمامي،
العالمی، العالمی، العلّامي، المفیدی؛ الفريدي، البليغي، الأوحدي، المحققي،
القوامي، النظامي، العريقي، الحاكمي، المُحْسِنِي، الفلاني؛ جمال الإسلام
والمسلمين، جلال العلماء العاملين، أوجد المتكلمين، أكمل البلغاء في العالمين، قُدوة
المحققين، بركة الملوك والسلاطين .

المرتبة الثالثة — مرتبة المقرّ العالی .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير عن نائب حلب بتدريس بها : « المقرّ
العالی، المولوي، الشيخی، الكبيری، الإمامي، العالمی، العلّامي، المفیدی،
القُدوي، الفريدي، المحققي، القوامي، النظامي، الحاكمي، الفلاني؛ علاء الإسلام
والمسلمين، أوجد الفضلاء العارفين، رُحلة الطالبين، نُجبة المحققين، جمال العلماء
في العالمين، خالصة الملوك والسلاطين .

الدرجة الثانية

(درجة الجَنَاب)

وقد جعلها في "عرف التعريف" أعلى ما يُكْتَب لهذا النوع ، وهي على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى — مرتبة الجَنَاب الشريف . وهي مختصة بغير السلطانيات .
 وصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" « الجَنَاب الشريف العالى ،
 المولوى ، القضائى ، السيدى ، الإمامى ، العالمى ، العالمى ، العلامى ، الكاملى ،
 الأصلى ، الأوحدي ، المفيدى ، القدوى ، الفريدى ، الحجى ، المجتهدى ، الفلانى ،
 حجة الإسلام (أوصياء الإسلام) شرف الأنام ، أمير الإمام ، صدر الشام ، سيد العلماء
 والحكام ، أو أوحده العلماء الأعلام ، بقية السلف الكرام ، شيخ المذاهب ، مجلى
 الغيايب ، قدوة الفرق ، رئيس الأصحاب ، مفى السنة ، مؤيد الملة ، شمس الشريعة ،
 سيف النظر ، مفيد الطالبين ، لسان المتكلمين ، ولئى أمير المؤمنين » .

فإن كان حاكما قبل الفلانى « الحاكى » وقبل ولئى أمير المؤمنين « حاكم
 الملوك والسلطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة الجَنَاب الكريم . وهي مختصة بغير السلطانيات أيضا .
 وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية في توقيع القاضى جمال الدين
 ابن أبى جرادة الحنفى ببعض الوظائف الدينية : « الجَنَاب الكريم العالى ، المولوى ،
 القضائى ، الكبيرى ، الصاحبى ، الإمامى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأريبى ،
 اللببى ، الأصلى ، العريقى ، القوامى ، النظامى ، الفلانى ، جمال الإسلام والمسلمين ،
 أوحده الفضلاء فى العالمين ، أكمل نجباء الأبناء العالمين ، خالصة الملوك والسلطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَابِ العالى . وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .
فأما فى السلطانيات ، فصورتها على ما استقر عليه الحال فى ألقاب قاضى القضاة
الشافعى بالديار المصرية : « الجَنَابِ العالى ، القاضوى ، الشيخى ، الكبيرى ،
العالمى ، العالمى ، الأفضلى ، الأكمل ، الأوحدى ، البليغى ، الفريدى ، المفيدى ،
النَّجيدى ، القُدوى ، الحُجّى ، المحققى ، الورعى ، الخاشعى ، النَّسكى ، الإمامى ،
العَلَامى ، الأصيلى ، العريقى ، الحاكِمى ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ،
شرفُ العلماء العاملين ، أُوحدُ الفضلاء المُفِيدين ، قُدوةُ البلغاء ، مُجَّةُ الأئمة ، عمدةُ
المحققين ، نَحْرُ المدرسين ، مفتى المسلمين ، جلالُ الحُكَّام ، بركةُ الدولة صَدْرُ مصر
والشام ، مُعزُّ السنة ، مؤيِّدُ الملة ، شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب ، لسانُ المتكلمين ،
حَكَمُ الملوك والسلاطين ، وَلِىُّ أمير المؤمنين » .



وأما فى غير السلطانيات ، فصورتها على ما رأيتُه فى بعض الدساتير فى توقيع عن
نائب الشام ببعض الوظائف الدينية لبعض العلماء : « الجَنَابِ العالى ، الشيخى ،
الكبرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، الماجدى ، القَوَامى ، النَّظامى ،
الفلانى ؛ ضياءُ الإسلام والمسلمين ، أُوحدُ الفضلاء العارفين ، جلالُ الأئمة
فى العالمين ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - مرتبة المجلس العالى، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .
 فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "التتيف" في ألقاب القضاة
 الثلاثة بالديار المصرية غير الشافعى : « المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى ،
 العالمى ، العاملى ، الأفضلى ، الأكلى ، الأوحدي ، البليغى ، الفريدى ، المفيدى ،
 النجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الإمامى ، الأصيلى ، العريقى ، الحاكى ،
 الفلانى ، جمال الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء العاملين ، أوحى الفضلاء المفيدين ،
 قدوة البلغاء ، حجة الأمة ، عمدة المحدثين ، نحر المدرسين ، مفتي المسلمين ، جلال
 الحُكَّام ، حَكَم الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" : « المجلس
 العالى ، القضاى ، الأجلى ، الإمامى ، الصدى ، الرئيسى ، الفقيهى ، العالمى ،
 العالمى ، الكاملى ، الفاضلى ، الأوحدي ، الفلانى ، مجدى الإسلام ، نحر الأنام ،
 تاج العلماء والحكَّام (أو شرف العلماء والحكَّام) جمال الأئمة ، أوحى الأئمة ، صدر
 المدرسين ، خالصة الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثانية - مرتبة المجلس السامى بالياء ، وهى مستعملة في السلطانيات
 وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فلم يذكر لها في "التتيف" صورة .

وصورتها على ما رأيته في بعض التواقيع : « المجلس السامى ، القضاى ،
الكبرى ، العالمى ، الفاضلى ، الأوحدى ، الرئيسى ، المفيدى ، البليغى ، القدوى ،
الأثيرى ، مجد الإسلام والمسلمين ، جمال العلماء العاملين ، أوجد الفضلاء ، صدر
المدرسين ، عمدة المفتين ، خالصة الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما رأيته في بعض تواقيع بعض الخطباء « المجلس السامى ، القضاى ،
الشيخى ، الإمامى ، العالمى ، العالمى ، العابدى ، الزاهدى ، الخاشعى ، الناسكى ،
الخطيبى ، الفلانى ، ضياء الإسلام والمسلمين ، أوجد الخطباء في العالمين ، جمال الأئمة
القُصحاء البارعين ، لسان البيان ، ترجمان الزمان ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "عُرف التعريف" :
« المجلس السامى ، القضاى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدرى ، الفقيهى ، العالمى ،
الكاملّى ، الفاضلى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، جمال العلماء ، أوجد
الفضلاء ، شرف النبلاء ، صفوة الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغيرياء ، وهي مستعملة في السلطانيات
وغيرها .

فأما في السلطانيات فلم يذكر لها صورة في "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيته في بعض التواقيع : « المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ،
الكبرى ، الصّدر ، الرئيس ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، فلان الدين ، مجد الصدور ،
زين الأعيان ، مُرضى الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره في "عرف التعريف" :
«المجلس السامي ، القاضي ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ،
الأمير ، البارئ ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، نحر الصدور ،
جمال الأعيان ، مرتضى الدولة ، صفوة الملوك والسلطين» .

الدرجة الرابعة

(درجة مجلس القاضي ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات فلم يذكر لها صورة في "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع : «مجلس القاضي ، الأجل ، الكبير ،
العالم ، الفاضل ، الأوحد ، الكامل ، الصدر ، الرئيس ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ،
زين الأعيان ، نحر الصدور ، مرتضى الملوك والسلطين» .



وأما في غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الخامسة

(درجة القاضي ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : «القاضي ، الأجل» وربما زيد في التعظيم نحو «الكبير الصدر
الرئيس» ونحو ذلك .

النوع الرابع

(من الألقاب الإسلامية ألقاب مشايخ الصوفية وأهل الصلاح ،
وهي على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المقر، وليس لها استعمال في السلطانيات ؛ وفي غير السلطانيات
لها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المقر الشريف .

وصورتها : « المقر الشريف ، العالى ، المولى ، الشيخ ، السيد ، الإمامي ،
العالى ، العالمى ، الكافى ، الفاضل ، الورع ، الزاهد ، العابد ، الناسك ،
السالك ، الخاشع ، المسلم ، المحقق ، المدقق ، الفلانى ؛ صلاح الإسلام
والمسلمين ، جمال الأصفياء العاملين ، خالصة الأنام ، صفوة الأتقياء ، قطب العباد ،
المملوك على الحقيقة ، والمالك لأزمة الطريقه ، بقية السلف ، قدوة الخلف ،
مفيد الطالبين ، أوجد المحققين ، ركن الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين » .
وقد تقدم أن الأحسن فى اللقب المضاف إلى السلاطين هنا « بركة الملوك
والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المقر الكريم ، وألقابها من نسبة الألقاب المتقدمة .

المرتبة الثالثة — مرتبة المقر العالى ، وألقابها نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(دَرَجَةُ الْجَنَابِ ، وفيها ثلاثُ مراتبِ)

المرتبة الأولى — مرتبةُ الجَنَابِ الشريفِ . وهي مختصةٌ بغيرِ السلطانيات .

وصورتها : « الجَنَابُ الشريفُ ، العَالِي ، المَوْلَوِي ، الشَّيْخِي ، الإِمَامِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ، الْكَافِلِي ، الْفَاضِلِي ، الزَّاهِدِي ، الْعَابِدِي ، الْخَاشِعِي ، النَّاسِكِي ، الْوَرَعِي ، جَلَالُ الْإِسْلَامِ ، سَيْفُ الْإِمَامِ ، قُطْبُ الزَّهَادِ ، عِلْمُ الْعِبَادِ ، أَوْحَدُ النَّاسِكِينَ ، فَرْدُ السَّالِكِينَ ، بَرَكَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ » .

المرتبة الثانية — مرتبةُ الجَنَابِ الْكَرِيمِ . وهي مختصةٌ بغيرِ السلطانيات أيضا .

وصورتها على ما رأيته في بعض التواقيع عن نائبِ الشام : « الجَنَابُ الْكَرِيمُ ، الْعَالِي ، الشَّيْخِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ، الْعَلَّامِي ، الْأَوْحَدِي ، الْقُدُّوِي ، الْعَابِدِي ، النَّاسِكِي ، الْخَاشِعِي ، الْمَسْلُوكِي ، الْمَرْبِي ، الرَّبَّانِي ، الْأَصِيلِي ، الْفَلَاحِي ، مُجْدُ الْإِسْلَامِ ، حُسْنُ الْأَيَّامِ ، قِدْوَةُ الزَّهَادِ ، مَلَاذُ الْعِبَادِ ، جَمَالُ الْوَرَعِيْنَ ، مَرْبِيُّ الْمُرِيدِينَ ، أَوْحَدُ الْمَسْلُوكِينَ ، خَلْفُ الْأَوْلِيَاءِ ، بَرَكَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ » .

المرتبة الثالثة — مرتبةُ الجَنَابِ الْعَالِي . وهي مختصةٌ بغيرِ السلطانيات .

وصورتها على ما رأيته في بعض التواقيع عن نائبِ الشام : « الجَنَابُ الْعَالِي ، الشَّيْخِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ، الْأَوْحَدِي ، الْعَابِدِي ، النَّاسِكِي ، الْوَرَعِي ، الزَّاهِدِي ، الْخَاشِعِي ، الْمَسْلُوكِي ، الْأَصِيلِي ، الْفَلَاحِي ، مُجْدُ الْإِسْلَامِ ، بَهَاءُ الْأَنَامِ ، قِدْوَةُ الْعِبَادِ ، جَمَالُ الزَّهَادِ ، أَوْحَدُ الْمَسْلُوكِينَ ، بَرَكَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ » .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالى، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .
فأما في السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب شيخ
الشيوخ بخانقاه سرياقوس : « المجلس العالى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ،
العالمى ، السالكى ، الأوحدي ، الزاهدي ، العايدى ، الخاشعى ، الناسكى ،
المفيدى ، القدوى ، الإمامى ، النظامى ، الملاذى ، جلال الإسلام والمسلمين ،
شرف الصلحاء في العالمين ، شيخ شيوخ الإسلام ، أوجد العلماء في الأنام ،
قدوة السالكين ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" : « المجلس
العالى ، الشيخى ، الأجلّى ، الإمامى ، العالمى ، العايدى ، الزاهدي ، العايدى ،
الورعى ، الخاشعى ، الناسكى ، القدوى ، الفلانى ، خيرة الإسلام ، شرف الأنام ،
زين العباد ، نور الزهاد ، دُخر الطالبين ، كنز التقي ، ملجأ المريدين ، بركة الملوك
والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى بالياء، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .

أما في السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الشيخ
شمس الدين الطوطى ممن كان يكتب إليه قديما : « المجلس السامى ، الشيخى ،
الأجلّى ، العالمى ، العالمى ، الكاملى ، الفاضلى ، الزاهدي ، الورعى ، العايدى ،
الخاشعى ، الناسكى ، القدوى ، الأوحدي ، الفلانى ، مجد الإسلام ، ضياء الأنام ،

بقية السلف الكرام ، نخر الصلحاء ، أوجد الكبراء ، زين الزهاد ، عماد العباد ،
قدوة المتورعين ، ذكر الدول ، ركن الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع الشريفة : « المجلس السامى ، الشيخى ،
الكبرى ، الأوحدي ، الأكلى ، العايدى ، الخاشعى ، الناسكى ، جمال الإسلام ،
زين الأنام ، صفوة الصلحاء ، نخر العباد ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره المقر الشهابى بن فضل الله
في بعض التواقيع عن نائب الشام : « المجلس السامى ، الإمامى ، العالمى ، العالمى ،
الخاشعى ، الورعى ، الناسكى ، السالكى ، العارفى ، القدوى ، البلىخى ، الأصبلى ،
الشيخى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، شرف العلماء ، قدوة الفضلاء ، نخر الصلحاء ،
جمال النساء ، قدوة السالك ، أوجد العارفين ، بركة الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء ، وهى مستعملة في السلطانيات
وغيرها .

فأما في السلطانيات فلم يُورد لها صورة في "التحقيق" .

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع الشريفة : « المجلس السامى ، الشيخ ،
الصالح ، الزاهد ، العابد ، الورع ، الخاشع ، الناسك ، السالك ، فلان الدين ،
مجد الصلحاء ، زين المشايخ ، قدوة السالكين ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على نحو من ذلك .

الدرجة الرابعة

(درجة مجلس الشيخ)

وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

ولم يورد لها صورة في "التثقيف" . وصورتها على ما في بعض الدساتير: «مجلس الشيخ، الصالح، الزاهد، العابد، الناسك، السالك، فلان الدين، مجد الصلحاء، زين المشايخ، بركة الملوك والسلطين» .

الدرجة الخامسة

(درجة الشيخ)

وهي «الشيخ، الصالح، الورع، الزاهد» ونحو ذلك .

النوع الخامس

(ألقاب التجار الخوارجية، والمستعمل فيه أربع درجات)

الدرجة الأولى

(درجة الجَنَاب)

ولم أرف فيها غير مرتبة الجَنَاب العالى فيما عدا السلطانيات .

وصورتها على ما رايته في بعض الدساتير الشامية فيما كتب به لبعض الخوارجية: «الجَنَابُ العالى، الصَّدرى، الكبيرى، المحترى، المؤتمنى، الأوحدي، الأكلى، الرئيسى، العارفى، المقرَّبى، الخوارجى، الفلانى، مجد الإسلام والمسلمين،

شرف الأَكابر في العالمين، أَوْحُدُ الأَمْناءِ المقَرَّبِينَ، صَدْرُ الرُّؤساءِ، رَأْسُ الصُّدُورِ، عَيْنُ الأَعْيَانِ، كَبِيرُ الخَوَاجِكَةِ، ثِقَّةُ الدَّوْلَةِ، مُؤْتَمَنُ المُلُوكِ والسُّلاطِينِ. . فإنَّ اتَّفَقَ أنْ يُكْتَبَ لِاحِدٍ مِنَ الخَوَاجِكَةِ بأَعْلَى مِنَ الجَنابِ العَالِي، كُتِبَ لَهُ مِنْ نَظِيرِ هَذِهِ الأَلْقَابِ وَأَعْلَى مِنْهَا .

الدرجة الثانية

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالی، وهي مخصصة بغير السلطانيات .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية : « المجلس العالی ، الصِّدْرِيّ ، الرَّئِيسِيّ ، الكَبِيرِيّ ، المُحْتَرَمِيّ ، المُؤْتَمَنِيّ ، الأَوْحَدِيّ ، الأَكْمَلِيّ ، المقَرَّبِيّ ، الخَوَاجِكِيّ ، الفَلَانِيّ ؛ مَجْدُ الإِسْلامِ ، شَرَفُ الأَكابرِ ، أَوْحُدُ الأَمْناءِ ، صَدْرُ الرُّؤساءِ ، زَيْنُ الأَعْيَانِ ، ثِقَّةُ الدَّوْلَةِ ، مُؤْتَمَنُ المُلُوكِ والسُّلاطِينِ » .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامي بالياء، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات، فصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب خَوَاجَا عَسَافِ بْنِ مُسَافِرٍ، ونظام الدين الإسعديّ : « المجلس السامي ، الصِّدْرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، الكَامِلِيّ ، المَاجِدِيّ ، الأَوْحَدِيّ ، المقَرَّبِيّ ، المُتَخَيّ ، الأَمِينِيّ ، الأَمِيرِيّ ، الخَوَاجِكِيّ ، الفَلَانِيّ ؛ مَجْدُ الإِسْلامِ ، زَيْنُ الأَنامِ ، شَرَفُ الرُّؤساءِ ، أَوْحُدُ الكُبراءِ ، تَاجُ الأَمْناءِ ، نَخْرُ الأَعْيَانِ ، مُقَرَّبُ الحَضَرَتَيْنِ ، مُؤْتَمَنُ الدُّوَلِ ، صَفْوَةُ المُلُوكِ والسُّلاطِينِ » .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على نحو من ذلك .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامي بغيرياء، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التثيف" في ألقاب بعض الخوارجية: «المجلس السامي، الصدر، الأجل، الكبير، الكامل، الماجد، الأوحى، المقرب، المنتخب، الأمين، الأثير، الخوارج، فلان الدين، مجد الرؤساء، زين الأكاير، مجد الصدور، جمال الأعيان، مقرب الدولة، صفوة الملوك والسلاطين» .



وأما في غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الثالثة

(درجة مجلس الصدر، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات، فصورتها على ما ذكره في "التثيف": «مجلس الصدر، الأجل، الكبير، المحترم، المقرب، الأوحى، فلان الدين» .



وأما في غير السلطانيات، فلا تخرج عن ذلك .

الدرجة الرابعة

(درجة الصدر ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات فصورتها على ما أشار إليه في "التتقيف" : « الصدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المقرب ، الأوحد ، فلان الدين » .



وأما في غير السلطانيات ، فلا تبعُد من ذلك .

النوع السادس

(من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية ،

كرئاسة الطب ، ورئاسة الكهّالين ، ورئاسة الجراحية ،

ونحو ذلك ، والمستعمل فيه درجتان)

الدرجة الأولى

(درجة المجلس ، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الاولى — مرتبة المجلس العالي ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فكألقاب رئيس الأطباء ، وهي « المجلس العالي » . [القضائي^(١) ،

العالمي ، الفاضلي ، الكاملي ، الأوحدي ، الفلاني ، جمال الإسلام والمسلمين ،

سيد الرؤساء في العالمين ، أوحد الفضلاء المقربين ، خاصة الملوك والسلاطين^(١)] .

(١) بيض لهذه العبارة في الاصول ، فنقلناها من ضوء الصبح للؤلؤف .



وأما في غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامى ، الصدرى ، الأجلّ ، الكبيرى ، الرئيسى ، القلانى » .



وأما فى غير السلطانيات فعلى نحو منه .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغيرياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامى ، الصدرى ، الأجلّ ، الكبيرى ، الرئيسى ، المحترم » .



وأما فى غير السلطانيات ، فعلى نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(درجة الصدر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « الصدر الأجلّ » فإن زيد فى تعظيمه ، قيل : « الكبير المحترم » .

النوع السابع

(من الألقاب الإسلامية ألقاب الحاشية السلطانية ، كمهتارية البيوت ،
ومهندس العائر ، ورئيس الحواقة ونحوهم ، وفيه درجتان)

الدرجة الأولى

(درجة مجلس الصدر ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره في " التتقيف " في ألقاب المهندس
والرئيس : « مجلس الصدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المؤمن ، فلان الدين » .
وفي ألقاب مهتارية البيوت : من مهتار الشراب خاناه ، والطشت خاناه ، والفراش
خاناه ، وإخوان سلارونحوهم : « مجلس الصدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المؤمن ،
الحاج فلان » .



وأما في غير السلطانيات ، فكذلك أو أزيد .

الدرجة الثانية

(درجة الصدر ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « الصدر الأجل » فإن زيد في رعايته قيل بعد ذلك :
« الكبير المحترم » .

النوع الثامن

(من الألقاب الإسلامية ألقاب النساء ، وفيه درجتان)

الدرجة الأولى

(درجة الجهة ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — مرتبة الجهة الشريفة ، وصورتها على ما ذكره في "التثقيف"^(١) في ألقاب إلى بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون عن والدتها : «الجهة الشريفة ، العالية المحجبة ، المصونة ، الولدية ، العظمية ، عصمة الدين ، جلال النساء ، شرف الخواتين ، سليله الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" أيضا في المكتبة إلى أم آتوك : زوجة السلطان الملك الناصر عنه : «الجهة الشريفة ، العالية ، المعظمة ، المحجبة ، المصونة ، الكبرى ، خوند خاتون ، جلال النساء في العالمين ، قرينة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في المكتبة إلى أخت السلطان الملك الناصر حسن عنه : «الجهة الشريفة ، العالية ، المكرمة ، المحجبة ، المصونة ، الكبرى ، الخاتون ، جلال النساء في العالمين ، بحيلة المحجبات ، جليلة المصونات ، كريمة الملوك والسلاطين» .

(١) سقط لفظ إلى من الضوء وهي أوضح .

وصورتها على ما ذكره في ألقاب الستِّ حَدَقَ : «الجهة الشريفة، العالية، الكبيرة، المحجَّبة، المصُونَة، الحاجَّة، الوالديَّة؛ جلالُ النساء في العالمين، بركة الدولة، والدَةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير في ألقاب والدَةِ الأشرافِ شعبانِ ابنِ حسين : «الجهة الشريفة، العالية، الكُبرى، المعظَّمة، المحجَّبة، العِصْمَى، الخاتُونى؛ جلالُ النساء في العالمين، سيِّدةُ الخواتين، جميلةُ المحجَّبات، جليَّةُ المصُونات، والدَةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة الجهة الكريمة .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب دلشاه : زوج الشيخ حسن الكبير ببغداد : الجهة الكريمة، المحجَّبة، المصونة، العِصْمِيَّة، الخاتُونِيَّة، المعظَّمة؛ سيِّدةُ الخواتين، زينةُ النساء في العالمين، جميلةُ المحجَّبات، جليَّةُ المصُونات، قرينةُ نَوْنِ الملوك والسلاطين .

الدرجة الثانية

(درجة الدار. وهي على نحو المرتبتين المتقدمتين في الألقاب السابقة)

الدرجة الثالثة

(درجة الستارة وهي لانكادُ تخرُج عما تقدّم من المرتبتين المتقدمتين)

القسم الثانى

(من الألقاب المرتبة ألقاب أهل الكُفر ، وهى على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(ألقاب متدينتهم ، وهى نوعان)

النوع الأول

(ألقاب بطارقة النصارى)

وصورتها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الباب بُرومية : «الباب ، الجليل ، القديس ، الروحاني ، الخاشع ، العامل ، باباً رُومية ، عظيم الملة المسيحية ، قُدوة الطوائف العيسوية ، مملك ملوك النصرانية ، حافظ البحار والحُلجان ، ملاذُ البطارقة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالى الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب البطريرك بالديار المصرية : «البطريرك الجليل ، القديس ، الخاشع ، قُدوة النصرانية» . ثم قال : ومن نسبة ذلك . وصورتها على ما رأيت فى بعض التواقيع له : «الحضرة السامية ، الشيخ ، الرئيس ، المبجل ، المكرم ، الكافى ، المعزز ، المفخر ، القديس ، شمس الرئاسة ، عماد بنى المعمودية ، كثر الطائفة الصليبية ، اختيار الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيت فى بعض الدساتير الشامية عن نائب الشام للبطريرك بها : «البطريرك ، المحتشم ، المبجل ، العارف ، الحبر ، فلان ، العالم بأمور دينه ، المعلم لأهل ملته ، دُخر الملة المسيحية ، كثر الطائفة العيسوية ، المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين» .

النوع الثاني

(ألقاب رؤساء اليهود)

وصورتها على ما رأيته في بعض التواقيع لرئيس اليهود بالشام من إنشاء القاضي محي الدين بن الزكي في سنة ست وعشرين وثمانئة : «الرئيس، الأوحد، الأعز، الأخص، الكبير، شرف الطائفة الإسرائيلية فلان» .

الضرب الثاني

(ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارى ، وهو نمطان)

النمط الأول

(الألقاب المذكورة ، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ما يُصَدَّر بالألف واللام ، وهي على خمس مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة الحضرة العالية .

وصورتها على ما أورده في " التعريف " في ألقاب ملك الحبشة : « الحضرة العالِيَّة ، حضرة الملك الجليل ، الهمام ، الضُّرغام ، الأسد ، الفضُّفَر ، الخطير ، الباسل ، السَّمِيدَع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المُنْصِف لرعيته ، المُتَّبِع لما يجب في أقضيته ، عز الأمة النصرانية ، ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة العيسويَّة ، عماد بنى المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبيَّة ، مُتَّبِع الحواريين ، والأخبار السُّرْيَانِيَّين ،

والبطارقة القديسين، معظم كنيسة صهيون، أوحده ملوك اليعقوبية، صديق الملوك والسلاطين .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" أيضا في ألقاب صاحب القسطنطينية :
« الحضرة العلية ، المكرمة ، حضرة الملك الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ،
الفضنفر ، الباسل ، الضرغام ، المعرق ، الأصيل ، المجد ، الأئيل ، البلاوس ،
الريدارغون ، ضابط الممالك الرومية ، جامع البلاد الساحلية ، وارث القياصرة القداماء ،
مُحيي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأمور دينه ، العادل في ممالكه ، مُعزّ النصرانية ،
مؤيد المسيحية ، أوحده ملوك العيسوية ، مُحول الثخوت والتيجان ، حامى البحار
والخلجان ، ملك ملوك الشريان ، عماد بني المعمودية ، رضى الباب بابا رومية ، ثقة
الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلاطين فلان » .

المرتبة الثانية — مرتبة الحضرة العلية .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب ملك الكرج : « الحضرة العلية ،
حضرة الملك الجليل ، الهمام ، الباسل ، الضرغام ، السמידع ، الكرّار ، الفضنفر ،
المتخت ، المتوج ، العالم في ملته ، العادل في رعيته ، بقية الملوك الاغريقية ، سلطان
الكرج ، دُخر ملوك البحار والخلج ، حامى حمى الفرسان ، وارث آبائه في الأسرة
والتيجان ، ساج بلاد الروم وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك الشريان ،
بقية أبناء الثخوت والتيجان ، مُعزّ النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ،
معظم البيت المقدس بعقد النية ، عماد بني المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية ،
مواد المسلمين ، خالصة الاصدقاء المقربين ، صديق الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الحضرة السامية .

وصورتها على ما أورده في " التعريف " في ألقاب الأدفونش صاحب طليطلة وإشيلية من الأندلس : « الحضرة السامية ، الملك الجليل ، الهمام ، الأسد ، الباسل ، الضرغام ، الغضنفر ، بقية سلف قيصر ، حامي حماة بني الأصفر ، المنع السلوك ، وارث لذريق وذرايرى الملوك ، فارس البر والبحر ، ملك طليطلة ومايلها من البلاد الأندلسية ، بطل النصرانية ، عماد بني المعمودية ، حامل راية المسيحية ، وارث التيجان ، شبه مريخنا المعمدان ، محب المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين » .

المرتبة الرابعة — مرتبة الحضرة المكرمة .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير الشامية في ألقاب صاحب قبرس : « الحضرة المكرمة ، حضرة الملك الجليل ، البطل ، الباسل ، الهمام ، السميدع ، الضرغام ، الغضنفر ، القمقام ، مؤيد الملة المسيحية ، عماد بني المعمودية ، دحر الملة النصرانية ، حامي الجزائر القبرسية ، مؤاد المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ، الملك فلان » .

المرتبة الخامسة — مرتبة الحضرة الموقرة .

وصورتها على ما ذكره في " التثقيف " في ألقاب الأدفونش المقدم ذكره : « الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، الريد أرغون ، نصر النصرانية ، دحر الأمة العيسوية ، دحر الملة المسيحية ، حامي الثغور ، ممالك السواحل والبحور ، عماد بني المعمودية ، ظهير بابا رومية ، ملاذ الفرسان ، جمال النخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين » .

النوع الثاني

(ما يُصَدَّر بحضرة مع الإضافة)

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب صاحب القُسطنطينية :
«حضرة الملك، الجليل، المكرم، المبجل، الأسد، الخطير، البطل، الباسل، الهمام،
الضرغام، فلان، العالم في ملته، العادل في أهل مملكته، عز الأمة المسيحية، كنز
الطائفة الصليبية، جمال بني المعمودية، صمصام الملوك اليونانية، حسام المملكة
المالوصية، صاحب أمصار الروس والعلان، معز اعتقاد الكرج والسريان، وارث
الأسرة والتيجان، الحاكم على الثغور والبحور والخلجان، الدوقس الانجالوس
الكينوس البالالوغس، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب ملك الكرج : «حضرة الملك
الجليل، المكرم، الخطير، الباسل، القمقام، القديس، الروحاني، فلان، عز الأمة
المسيحية، كنز الطائفة الصليبية، فخر دين النصرانية، ملك الجبال والكرج والخرجان،
صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير في ألقاب ملك الكرج أيضا : «حضرة
الملك الجليل، العالم في ملته، العادل في مملكته، المتوج من الله فلان، سيد ملوك
النصرانية، أكبر زعماء الملة المسيحية، ضابط الممالك الكرجية، خليل^(١)
الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التعريف" في ألقاب مملك سيس قبل فتحها :
«حضرة الملك الجليل، البطل، الباسل، الهمام، السמידع الضرغام، الغضنفر

(١) يياض بالاصول بقدر كلمة .

فلان؛ فخر الملة المسيحية، دُحر الأمة النصرانية، عماد بن المعمودية، صديق الملوك والساطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب ممتلك سيس المذكور أيضا :
 «حضره الملك الجليل، المكرم، المبجل، المعزز، الهام، الباسل، فلان، عز دين النصرانية، كبير الطائفة الصليبية، عماد بن المعمودية، صديق الملوك والساطين» .
 وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" أيضا في ألقاب صاحب البندقية :
 «حضره الدوك الجليل، المكرم، الخطير، الباسل، الموقر، المفخم، فلان، فخر الملة المسيحية، جمال الطائفة الصليبية، دوك البندقية والمائسة، فلان، زين بن المعمودية، صديق الملوك والساطين» .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب ملك السرب والبغار : «حضره الملك الجليل، المكرم، المبجل، الهمام، الضرغام، الباسل، الدوقس، الأنجالوس، الكينوس، فلان، عماد النصرانية، مالك السرب والبغار، فخر الأمة العيسوية، دُحر الملة المسيحية، فارس البحور، حامى الحصون والثغور» .

وصورتها على ما أورده في ألقاب ملك موفراد : «حضره الملك الجليل، المكرم، البطل، الهام، الأسد، الضرغام، فلان، مجد النصرانية، فخر العيسوية، عماد بن المعمودية، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية، ملك منفرد، وارث التاج، معز الباب» .

وصورتها على ما أورده في ألقاب لدوك البندقية غير ما تقدم : «حضره المحتشم، الجليل، المبجل، الموقر، المكرم، المفخم، الباسل، الضرغام، فلان، عز الملة المسيحية، جمال الطائفة العيسوية، دُحر الملة الصليبية، صديق الملوك والساطين» .

النوع الثالث

(ما يُصَدَّر بِالْمَلِكِ وما في معناه)

وصورته على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب ملك الحبشة : «الملك الجليل ،
المكرم ، الخطير ، الأسد ، الضرغام ، الباسل ، فلان ؛ العالم في ملته ، العادل في مملكته ،
حطى ملك أممرا ، أكبر ملوك الحبشان ، نجاشي عصره ، سند الملة المسيحية ،
عضد دين النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكر في "التثقيف" في ألقاب دوك البندقية غير ماتقدم : «الدوك
الجليل ، المكرم ، المبجل ، الموقر ، البطل ، الهام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير ؛
مجد الملة النصرانية ، فخر العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز بابا رومية ، صديق
الملوك والسلاطين فلان» .

النمط الثاني

(من ألقاب ملوك الكُفر [الألقاب المؤنثة])

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب صاحبة بابل : «الملكة الجليلة ،
المكرمة ، المبجلة ، الموقرة ، المفخمة ، المعززة ، فلانة ؛ العالمة في ملتها ، العادلة
في مملكتها ، كبيرة دين النصرانية ، نصيرة الملة العيسوية ، حامية الثغور ، صديقة
الملوك والسلاطين» .

الضرب الثالث

(ألقابُ نواب ملولهم وكناصلتهم ومن في معنى ذلك . وهو على نوعين)

النوع الأول

(ألقاب النواب)

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب النائب بالأبواب : «النائب الجليل ،
المبجل ، الموقر ، القديس ، الروحاني» والنعوت من نسبة ألقاب متملك سيس .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب صاحب دُنُقلة : «النائب الجليل ،
المبجل ، الموقر ، الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملة المسيحية ، كبير الطائفة
الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين» .

النوع الثاني

(ألقاب الكناصل)

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب الكُنُصُل بالكفا كألقاب متملك^(١)
سيس المنقولة عن التثقيف فيما تقدم .

وصورتها على ما أشار إليه في "التثقيف" في ألقاب المُطْران نائب الباب بالانسة :
وهي قُبُرس نحو ما تقدم في ألقاب البطرک بالديار المصرية . قال : ويُرَاد عليه
«المُطْران فلان» ويقال في نُعوته «ناصر الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير الشامية في ألقاب إبراهيم كرى : أحد كُتاب
الفرنج عن نائب دمشق : « المُحتشم ، الكبير ، المخول ، الأسد ، الهمام ، الغصنفر ،

(١) كذا في الأصول بدون نقط .

مواد المسلمين، متبع الحواريين، جمال العيسويّة، أوحّد بنى المعمودية، صاحب الملوك والسلاطين» .

قلت : قد تبين بما تقدّم من الألقاب والتعوت الإسلامية وألقاب أهل الكفر وتعتهم أنها ليست وافقة عند حدّ، بل هي راجعة إلى اصطلاح الكتاب واختيارهم في زيادة الألقاب وتقصها، والإتيان بلقب دون لقب، مع رعاية المناسبة لكل مقام وما يحتمله من الألقاب، إلا أن لذلك (أصولاً يرجع إليها) وقوانين يوقف عندها، إذا اعتمدها الكاتب ومشى على نهجها ونسج على منوالها، أصاب سواء الثغرة من الصناعة، وطبق المفصل بالمفصل في الإتيان بالمعصّد، ومتى أهملها وفرط في مراعاتها ضلّ سواء السبيل، وخرج عن جادة الصواب : «ومن يضلّل الله فإله من هاد» .

الأصل الأول — أن يقف على ما رتبته البلغاء من أرباب الصنعة من الألقاب والتعوت لكل صنف من دوى الألقاب والتعوت : لأهل الإسلام وأهل الكفر . ويجرى ذلك منه مجرى الحفظ والاستحضار، ليسهل عليه إيرادُهُ في موضعه، ولا يشدّ عنه شيء منها عند الاحتياج إليه . وقد تقدّم من ذلك جملة مستكثرة يهتدى بتجمها، ويستضاء في ظلمة اللبس بضوئها .

الأصل الثاني — أن يعرف ماهو من الألقاب والتعوت حقيقة لصاحب اللقب الذي يستعمله فيه : كالعالمى لأهل العلم، والعايدى لأهل الصلاح، والعايدى للحكام من أرباب السيوف وغيرهم، وما هو منها مجازى : كالعالمى لأرباب السيوف والكتاب حيث لا أتصاف لصاحب اللقب بالعلم، والأصيل لمن ليس له آباء في الرياسة ولا عرافة في النسب، ونحو ذلك مما يجرى هذا الجرى .

الأصل الثالث — أن يعرف الألقاب الخاصة ببعض دون بعض، كالشريفى، والحسيبى، والنسبى، للأشراف أولاد فاطمة رضى الله عنها، والكافى لنائب

السلطنة أو وزير كبير، والتَّوَيْنِيُّ لِأَمِيرِ التَّوَامِينَ بِالشَّرْقِ، والمَدَبَّرِيُّ لِلوَزِيرِ ونحوه من ناظر الخِلاصِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُ، والمُشِيرِيُّ لِمَنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ مِنْ أَكْبَرِ أَرْبَابِ السِّیُوفِ والأَقْلَامِ، والسَّفِيرِيُّ لِلْحَاجِبِ والدَّوَادَارِ وَكَاتِبِ السِّرِّ، واليَمِينِيُّ للدَّوَادَارِ وَكَاتِبِ السِّرِّ، والعَرِيقِيُّ لِذِي العَرَاقَةِ فِي النِّسَبِ، والأَصِيلِيُّ لِمَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ فِي الرِّيَاسَةِ .

وكذلك النُّعُوتُ كَوَالِدِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِمَنْ يَكُونُ لَهُ أَوْلَادٌ مِنَ المُلُوكِ ، وولَدِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لأَوْلَادِ المُلُوكِ ، وَعَضُدِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِلْأَمْرَاءِ ونحوهم ، وكَافِلِ المَمَالِكِ لِلنَّائِبِ الكَافِلِ ، وَسَفِيرِ الدَّوْلَةِ وَلِسَانِ المَمْلَكَةِ للدَّوَادَارِ وَكَاتِبِ السِّرِّ ، وَيَمِينِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لَهَا أَيْضًا ، ووالِدَةِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِمَنْ يَكُونُ مِنْ أَوْلَادِهَا مَلِكًا ، وَكَرِيمَةِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِمَنْ يَكُونُ مِنْ إِخْوَتِهَا سُلْطَانًا ، وَقَرِينَةِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِمَنْ تَكُونُ زَوْجَةً مَلِكًا ، وَصَدِيقِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، أَوْ مُوَادِّ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِلْمُلُوكِ الكُفْرِ ، وَقَرِينِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ لِنُؤَابِهِمْ ، ونحو ذلك مِمَّا يَجْرِي هَذَا المَجْرَى : فَيُوقَعُ كُلُّ لَقَبٍ أَوْ نَعْتٍ مِنْهَا فِي مَوْضِعِهِ وَلَا يُجَاوِزُهُ إِلَى غَيْرِهِ . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ مَا سَلَفَ مِنْ تَرْتِيبِ الأَلْقَابِ والنُّعُوتِ عَلَى الأَصُولِ المُنْتَقِمَةِ ، ظَهَرَ لَكَ مِنْهَا مَا تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَإِقَاعِهَا مَوَاقِعَهَا .

الأصل الرابع — أَنْ يَعْرِفَ الأَلْقَابَ والنُّعُوتَ الرِّفْعَةَ المِقْدَارَ ، فَيُلْحِقَهَا بِمَا نَسَبَهَا مِنَ الأَلْقَابِ الأَصُولَ ؛ كِلِ الحَاقِ العَالِيَّ والعَادِلِيَّ وَمُهَّدِ الدَّوْلَ وَمُشِيدِ المَمَالِكِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ بِالْمَقَرِّ والجَنَابِ الكَرِيمِ ونحو ذلك . وَيَعْرِفُ الأَلْقَابَ النَّازِلَةَ ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا مَا يَجُودُ عَنْ الْبَاءِ وَيُلْحِقُهُ بِالسَّامِيِّ بِغَيْرِ الْبَاءِ فَمَا دُونَهُ كَالْعَضُدِ والدُّخْرُومِ أَشْبَهَ ذَلِكَ .

الأصل الخامس — أَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ الأَلْقَابِ فِي التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ ، مِثْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الشَّرِيفَ والكَرِيمَ يَلِيَانِ المَقَرَّ والجَنَابَ ، والعَالِيَّ يَلِيَهُمَا ؛ ثُمَّ الْعَالِيَّ يَلِيُ المَقَرَّ

والجَنَابَ والمَجْلِسَ ، والسَّامِيَّ إِلَى المَجْلَسِ حيث لا يُلِيهِ العَالِي . وأن النعتَ المضاف إلى أمير المؤمنين مثل عَضُدِ أمير المؤمنين ، وسيفِ أمير المؤمنين ، وحُسامِ أمير المؤمنين ، يكون آخرَ الثُّعُوتِ . وأن المضاف إلى الملوك والسلاطين مثل عَضُدِ الملوك والسلاطين ، وظَهِيرِ الملوك والسلاطين ، يكونُ قبله المضاف إلى أمير المؤمنين إن كان في رتبةٍ يثبت فيها ما يُضَافُ إلى أمير المؤمنين ، وإلا يكون المضاف إلى الملوك والسلاطين هو آخر الألقاب . وأن يعلم أن لقبَ التعريف : وهو القُلَائِيُّ أو قُلَانُ الدين يكون واسطةً بين الألقاب والثُّعُوتِ ، فاصلاً بينهما . وأن لقبَ الوظيفة كالكَافِيّ والحَاكِمِيّ وما أشبههما يكون قبل لقبِ التعريف غالباً على ما تقدّم بيّنه ، فيضع هذه الألقاب في مواضعها ولا يخرجها عنها ، بخلاف ما يجوز فيه التقديم والتأخير من الألقاب والثُّعُوتِ .

الجملة العاشرة

(في ذكر ألقاب تقع على أشياء متفرقة قد جرت في عُرف الكتاب . وهى على ضربين)

الضرب الأول

(فيما يجرى من ذلك مجرى التفاضل ، ويختلف باختلاف الأحوال والوقائع ، ويتنوع إلى أنواع)

النوع الأول

(ما يوصف بالنصر ، كالجُيُوش والعساكر والقلاع والبريد ونحو ذلك)

فيقال في الجيوش والعساكر : «الجُيُوش المنصورة ، والعساكر المنصورة» ويقال في القلاع المنصورة «وقلعة دمشق المنصورة وقلعة حلب المنصورة» ونحو ذلك ،

وكذلك يقال « القلاع المنصورة » على الجمع تَقَاوُلًا بحصول النَّصْر لها ؛ ويقال في البريد : « البريد المنصور » على ما أَصْطَلَحَ عليه كُتَّابُ الزمان . على أن في وصف البريد بالمنصور نظرا : لأنه إنما وُضِعَ ليُوَصِّلَ الأخبارَ ونحو ذلك ، وكان الأحسن أن يوصف بالسَّعيد ونحوه اللهم إلا أن يُراد أنه ربما وصل به خبر النصر على العدو ، وهو من أهم المهمَّات ، وكأنه وُصِفَ بأشرف متعلقاته .

النوع الثاني

(ما يُوصف بالحِراسَة ، كالمُدُن والثغُور)

فيقال في المُدُن « مِصر المحروسة » و « القاهرة المحروسة » و « دِمَشقُ المحروسة » و « حَلَبُ المحروسة » ونحو ذلك . ويقال في الثغُور « الثغر المحروس » و « ثغر الإِسْكَندَرِيَّةِ المحروس » و « ثغر رَشِيدِ المحروس » و « ثغر دِمياطِ المحروس » و « ثغر أسوانِ المحروس » ونحو ذلك تَقَاوُلًا بوقوع الحِراسَة فيها . على أنه لو وُصِفَت القلاع أيضا بالحِراسَة فقل « القلعة المحروسة » و « القلاع المحروسة » ونحو ذلك لكان له وَجْهٌ ظاهر . وبكل حال فكل ما كان محلَّ خوف مما ينبغي حِراسَتَهُ والاحتفاظ به ، حَسُنَ وصفه بالحِراسَة . وقد رأيت مَنْ يذكُر ضابطا لذلك في البلاد : وهو أن كل مدينة مُسَوَّرة يُقال فيها محروسة وإلا فلا ، وهو بعيد ، والظاهر ما قدَّمنا ذِكرَه .

النوع الثالث

(ما يُوصَف بالعمارة، كالداوين)

وهى المواضع التى يجلس فيها الكُتَّاب على ما تقدم بيانه فى مقدِّمة الكتاب وغير ذلك . فيقال : « الدَّيوان المعمور » و « الدَّواوين المعمورة » تفاؤلا بأنها لا تزال معمورة بالکُتَّاب ، أو بدوام عِزِّ صاحبها وبقاء دولته .

النوع الرابع

(ما يوصف بالسَّعادة ، كالداوين أيضا)

فيقال : « الدَّيوان السعيد » و « الدَّواوين السعيدة » تفاؤلا بدوام سعادتها بدوام سعادة صاحبها .

النوع الخامس

(ما يُوصَف بالقَبُول)

كالضَّحايا المقبولة تفاؤلا بأن الله تعالى يتقبَّلها ، وهو فى الحقيقة بمعنى الدعاء ، كأنه يقال تقبَّلها الله تعالى .

النوع السادس

(ما يُوصَف بالبرِّ ، كالصَّدقة والأُحباس)

فيقال فى الأُحباس : « الأُحباسُ المبرورة » وفى الصَّدقة « الصدقة المبرورة » تفاؤلا بأنها تكون جاريةً مجرى البرِّ الذى يلحقُ به الثواب . وكُتَّاب الجيش ونحوهم يستعملون ذلك فى وصف الرِّزقة أيضا : وهى القطعة من الأرض تُرصد لمصالح المسجد أو الرِّباط أو الشخص المعين . فيقولون : « الرِّزقة المبرورة » لجرَّانها مجرى الصدقة .

النوع السابع

(ما يوصف بالخذلان ، كالعَدُو ونحوه)

فيقال : « العَدُو المخذول » على الإجمال و « فلانُ المخذول » بالتصريح باسمه
 « وأهل الكُفر المخذولون » ونحو ذلك تفاؤلا بأن الله تعالى يُوقع بالعَدُو الخذلان
 ويَرميه به .

الضرب الثاني

(ما يجرى من ذلك مجرى التشریف ، ويختلف أيضا
 باختلاف الأحوال ، ويتنوع أنواعا)

النوع الأول

(ما يُوصَف بالعِزِّ ، كالكَتَاب بمعنى القرآن)

فيقال فيه : « الكِتَاب العزيز » ومن ثمَّ يقولون في قارئ القرآن : « من حَمَلَة
 كِتَاب الله العزيز » وربما وُصِف بذلك الديوان أيضا ، كما يقال في ديوان الخلافة :
 « الديوانُ العزيزُ » على ما تقدّم ذكره في الكلام على الألقاب .

النوع الثاني

(ما يُوصَف بالشریف ، كالمُصَحَّف والعِلْم)

فيقال في المُصَحَّف : « المصحفُ الشريف » وفي العلم « العِلْم الشريف » ولذلك
 يقولون « فلانٌ من طَلَبَة العلم الشريف » ونحو ذلك ، وكذا في الأماكن الرفيعة ،

مَكَّةَ والمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وَالْقُدْسَ . فيقال : «مَكَّةُ الْمُشْرِفَةُ» و «المَدِينَةُ الشَّرِيفَةُ» و «الْقُدْسُ الشَّرِيفُ» وَالْحَرَمُ الشَّرِيفُ تَارَةً لِحَرَمِ مَكَّةَ وَتَارَةً لِحَرَمِ الْمَدِينَةِ . فإذا جُمِعَا قِيلَ : «الْحَرَمَانِ الشَّرِيفَانِ» وَرَبَّمَا أُطْلِقَ فِي عُرْفِ الْكُتُبِ الْحَرَمَانِ عَلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَمَقَامِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ مُرَادُ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «التَّعْرِيفُ» فِي قِسْمِ الْوَصَايَا بِنَظَرِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ دُونَ حَرَمِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ الْمُشْرِفَتَيْنِ . وَقَدْ أَصْطَلَحَ كُتَّابُ الزَّمَانِ عَلَى أَنْ وَصَفُوا أَكْثَرَ مَا يُضَافُ إِلَى السُّلْطَانِ بِالشَّرِيفِ ، فيَقُولُونَ فيما يَصْدُرُّ عَنِ السُّلْطَانِ مِنْ عَهْدٍ وَتَقْلِيدٍ وَتَوْقِيعٍ وَمَرْسُومٍ وَمِثَالٍ وَتَذَكُّرَةٍ : «عَهْدُ شَرِيفٍ» وَ«تَقْلِيدُ شَرِيفٍ» وَ«تَوْقِيعُ شَرِيفٍ» وَ«مَرْسُومُ شَرِيفٍ» وَ«مِثَالُ شَرِيفٍ» وَ«تَذَكُّرَةُ شَرِيفَةٍ» وَنَحْوُ ذَلِكَ .

النوع الثالث

(مَا يُوصَفُ بِالْكَرِيمِ ، كَالْقِرَاءَانِ)

فيقال : « الْقِرَاءَانُ الْكَرِيمُ » وَالْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ وَقَدْ أَصْطَلَحَ كُتَّابُ الزَّمَانِ عَلَى أَنْ جَعَلُوهُ دُونَ الشَّرِيفِ فِي الْوَصْفِ ، فَوَصَفُوا بِهِ مَا يَصْدُرُّ عَمَّنْ دُونَ السُّلْطَانِ مِنْ أَكْبَارِ الدَّوْلَةِ مِنَ الثُّوَابِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ : مِنْ تَوْقِيعٍ وَمَرْسُومٍ وَمِثَالٍ وَتَذَكُّرَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فيَقُولُونَ : « تَوْقِيعُ كَرِيمٍ » وَ« مَرْسُومُ كَرِيمٍ » وَ« مِثَالُ كَرِيمٍ » وَ« تَذَكُّرَةُ كَرِيمَةٍ » . وَقَدْ تُوصَفُ بِهِ الْمَكَاتِبَةُ أَيْضًا فيَقَالُ : « إِنَّ مَكَاتِبَتَهُ الْكَرِيمَةَ وَرَدَّتْ » وَنَحْوُ ذَلِكَ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ : ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَرْفَعَ رَتَبَةً مِنَ الشَّرِيفِ لَوُرُودِ التَّنْزِيلِ بِوَصْفِ الْقِرَاءَانِ بِهِ .

النوع الرابع

(ما يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ ، وهو في معنى الكَرَمِ في اصطلاحهم)

فيقال : « تَوْقِيعٌ عَالٍ » و « مَرْسُومٌ عَالٍ » ونحو ذلك ، وقد يُوصَفُ به الرَّأْيُ .
فيقال : « الرَّأْيُ الْعَالِي » وقد يُوصَفُ به أَمْرُ السُّلْطَانِ أَيْضاً مِنْ ذِي الرُّتْبَةِ الرَّفِيعَةِ ،
مثل كِتَابَةِ الْوَزِيرِ عَلَى الْمَرَّاسِمِ الشَّرِيفَةِ ونحوها « أَمْتِلُ الْأَمْرِ الْعَالِي » .

النوع الخامس

(ما يُوصَفُ بِالسَّعَادَةِ)

كـ « الرَّأْيُ السَّعِيدُ » و « الْآرَاءُ السَّعِيدَةُ » وربما وصف بذلك الدِّيوانُ فَقِيلَ
« الدِّيوانُ السَّعِيدُ » ونحو ذلك .

النوع السادس

(ما يُوصَفُ بِالْبَرَكَةِ ، كَالْكَعْبِ)

فيقال : « كَعْبٌ مُبَارَكٌ » وقد يُوصَفُ به الْمَنْزِلُ فيقال : « مَنَزِلٌ مُبَارَكٌ »
وقد يوصف به الْأَمْرُ لِمَنْ دُونَ الْعَالِي ، فيقال : « يَتَقَدَّمُ أَمْرُهُ الْمُبَارَكُ » وكذلك
الْمَكْتَابَةُ ، فيقال : « إِنَّ مَكَاتِبَتَهُ الْمُبَارَكَةَ وَرَدَتْ » ونحو ذلك .

الباب الثاني

من المقالة الثالثة

(في مقادير قطع الورق ، وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ،
ومقادير البياض في أول الدرَج وحاشيته ، وبعْد ما بين السطور
في الكتابات ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في مقادير قطع الورق ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في مقادير قطع الورق في الزمن القديم)

قد ذكر محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" أن الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها من عهد معاوية بن أبي سفيان . وذلك أنه يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار ، وإلى الأمراء من نصف طومار ، وإلى العمال والكتاب من ثلث ، وإلى التجار وأشباههم من ربع ، وإلى الحُساب والمُساح من سدس . فهذه مقاديرُ لقطع الورق في القديم : وهي الثلثان والنصف والثلث والرُّبع والسدس ، ومنها أستخرجت المقاديرُ الآتي ذكرها . ثم المراد بالطومار الورقة الكاملة ، وهي المعبر عنها في زماننا بالفرخة ؛ والظاهر أنه أراد القطع البغدادى لأنه الذى يحتمل هذه المقادير ، بخلاف الشامي ، لاسيما وبغداد إذ ذاك دار الخلافة ، فلا يحسن أن يقدر بغير ورقها مع أشتماله على كمال المحاسن . وقد تقدّم في الكلام على آلات الكتابة في المقالة الأولى بيان الخلاف في أول من صنّع الورق .

الطرف الثاني

(في بيان مقادير قَطْع الورق المستعمل في زماننا، وفيه ثلاث جملٍ)

الجملة الأولى

(في مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية

بالديار المصرية، وهي تسعة مقادير)

المقدار الأول — قَطْع البَغْدَادِيّ الكامل . وعَرَضُ دَرَجِه عَرْضُ البَغْدَادِيّ بأكمله : وهو ذراعٌ واحد بذراع القُمَاشِ المِصْرِيّ، وطولُ كُلِّ وصل من الدَّرَجِ المذكور ذراعٌ ونصفٌ بالذراع المذكور. وفيه كان تُكْتَبُ عُهُودُ الخلفاء وبيعاتهم . وفيه تُكْتَبُ الآن عُهُودُ أكابر الملوك ، والمكاتباتُ إلى الطبقة العليا من الملوك ، كأكابر القانات من ملوك الشرق .

المقدار الثاني — قَطْع البَغْدَادِيّ الناقص . وعَرَضُ دَرَجِه دون عَرْضِ البَغْدَادِيّ الكامل بأربعة أصابع مطبوقَةٍ . وفيه يُكْتَبُ للطبقة الثانية من الملوك ، وربما كُتِبَ فيه [للطبقة العليا] لإعواز البَغْدَادِيّ الكامل .

المقدار الثالث — قَطْع الثلثين من الورق المِصْرِيّ . والمراد به ثُلثا الطُّومار من كامل المنصوريّ ، وعَرَضُ دَرَجِه ثُلثا ذراع بذراع القُمَاشِ المِصْرِيّ أيضا . وفيه تُكْتَبُ مناشيرُ الأمراء المقدمين ، وتقاليِدُ التُّوابع الكبار والوزراء وأكابر القضاة ومن في معانهم . ولم تَجِرْ العادةُ بكتابة مكاتبةٍ عن الأبواب السلطانية فيه .

المقدار الرابع — قطع النصف . والمراد به قطع النصف من الطومار المنصوري ؛ وعرض درجه نصف ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتب مناشيرُ الامراءِ الطبلخاناه ، ومراسيمُ الطبقة الثانية من الثواب ، والمكاتبُ إلى الطبقة الثانية من الملوك .

المقدار الخامس — قطع الثلث . والمراد به ثلث القطع المنصوري ؛ وعرض درجه ثلث ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتب مناشيرُ امراءِ العشرات ، ومراسيمُ صفار الثواب ، والمكاتبُ إلى الطبقة الرابعة من الملوك .

المقدار السادس — القطع المعروف بالمنصوري . وعرضه تقديرُ ربع ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتب مناشيرُ الممالك السلطانية ومقدمي الحلقة ، ومناشيرُ عشرات التركمان بعض الممالك الشامية ، وبعض التواقيع وما في معنى ذلك .

المقدار السابع — القطع الصغير ، ويقال فيه قطع العادة . وعرض درجه تقدير سدس ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتب عامة المكاتب لأهل المملكة وحكامها ، وبعض التواقيع والمراسيم الصفار ، والمكاتبُ إلى حكام البلاد بالممالك ، وما يجري هذا المجرى . وقد كان هذا القطع والذي قبله في أول الدولة التركية طول كل وصل منه شبران وأربعة أصابع مطبوعة فما حوّل ذلك .

المقدار الثامن — قطع الشامي الكامل . وعرض درجه عرض الطومار الشامي في طوله ؛ وهو قليل الاستعمال بالديوان ، إلا أنه ربما كُتب فيه بعض المكاتب ، كما كتب فيه عن الأشرف شعبان بن حسين لوالدته حين سافرت إلى الحجاز الشريف .

المقدار التاسع — القطع الصغير . وهو في عرض ثلاثة أصابع مطبوعة من الورق المعروف بورق الطير، وهو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية . وفيه تُكتب ملطّفات الكتب وبطاقق الحمام .

الجملة الثانية

(في مقادير الورق المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية :

دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، والكرك .

في المكاتب والولايات الصادرة عن النواب بالممالك،

وهي لاتخرج عن أربعة مقادير)

المقدار الأول — قطع الشامي الكامل : وهو الذي يكون عرضه عرض الطومار الشامي الكامل في طوله على ما تقدّم فيه . وفيه يُكتب عن النواب لأعلى الطبقات من أرباب التّواقيع والمراسيم ليس إلا .

المقدار الثاني — قطع نصف الحموي . وعرض درجه عرضه نصف الطومار الحموي ، وطوله بطول الطومار . وفيه يُكتب للطبقة الثانية من أرباب التواقيع والمراسيم الصادرة عن النواب .

المقدار الثالث — قطع العادة من الشامي . وعرض درجه سدس ذراع بذراع القماش المصري في طول الطومار أو دونه . وفيه يُكتب للطبقة الثالثة من أرباب التواقيع والمراسيم الصادرة عن النواب وعامة المكاتب الصادرة

عن التَّوَابِ إِلَى السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَّا أَنْ نَائِبَ الشَّامِ وَنَائِبَ الْكَرْكِ قَدْ جَرَتْ عَادَتُهُمَا بِصُدُورِ الْمَكَاتِبَاتِ عَنْهُمَا فِي الْوَرَقِ الْأَحْمَرِ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنَ التَّوَابِ .

المقدار الرابع — قَطْعُ وَرَقِ الطَّيْرِ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ فِي آخِرِ الْمَقَادِيرِ الْمُسْتَعْمَلَةِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ بِالْأَبْوَابِ الْمَصْرِيَّةِ . وَفِيهِ تُكْتَبُ الْمَلَطَّفَاتُ وَالْبَطَائِقُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

قلت : هذه مقادير قَطْعِ الْوَرَقِ بِالْأَبْوَابِ الْمَصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ . أَمَّا غَيْرُ مَمْلَكَةِ الْأَبْوَابِ الْمَصْرِيَّةِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، فَالْحَالُ فِيهَا يَخْتَلِفُ فِي مَقَادِيرِ الْوَرَقِ الْمُسْتَعْمَلِ بِدَوَائِهَا . فَأَمَّا بِلَادُ الْمَشْرِقِ فَعَلَى نَحْوِ الْمَقَادِيرِ الْمُتَقَدِّمَةِ . وَأَمَّا بِلَادُ الْمَغْرِبِ وَالسُّودَانِ وَبِلَادُ الْفَرَنْجِ ، فَعَادَةُ كِتَابَتِهِمْ فِي طُومَارٍ وَاحِدٍ ، يَزِيدُ طَوْلُهُ عَلَى عَرْضِهِ قَلِيلًا ، مَا يَنْبَغِي صَغِيرًا وَكَبِيرًا بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُ الْمَكْتُوبِ .

الجملة الثالثة

(فِي مَقَادِيرِ قَطْعِ الْوَرَقِ الَّتِي تَجْرَى فِيهَا مَكَاتِبَاتُ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ)

مِنْ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ بِالْأَبْوَابِ الْمَصْرِيَّةِ

وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ)

وَهُوَ قَطْعُ الْعَادَةِ مِنَ الْبَلَدِ بِالْأَبْوَابِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَمِنْ الشَّامِ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الثالثة

(فى بيان ما يُناسبُ كلَّ مقدار من مقادير قَطْع الورق المتقدمة الذِّكر
من الأقلام ، ومقادير البَيَاض الواقع فى أعلى الدَّرَج وحاشيته ،
وبعد ما بين السُّطور فى الكتابة . وفيه طَرَفَان)

الطرف الأول

(فيما يناسبُ كلَّ مقدار منها من قَطْع الورق من الأقلام)

قد ذكر المقرُّ الشَّهابىُّ بنُ فضل الله فى كتابه ” التعريف ” فى آخر القسم الثانى
ما يناسبُ كلَّ مقدار من مقادير الورق المستعملة بديوان الإنشاء بالديار المصرية
من أقلام الخَطِّ المنسوب فقال : إن لِقَطْع البَغْدادى قَلَمٌ مختَصِر الطُّومار ، ولِقَطْع
الثلاثين قَلَمٌ الثلث الثقيل ، ولِقَطْع النِّصْف قَلَمٌ الثلث الخفيف ، ولِقَطْع الثلث قَلَمٌ
التوقيعات ، ولِقَطْع العادة قَلَمٌ الرَّقَاع . ومن ذلك يُعلم ما يناسب كلَّ قَطْع من مقادير
القطع المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية . فيناسبُ الشامى الكامل قَلَمُ
التوقيعات : لأنه فى مقدار قطع الثلث البَلَدى أَوْ قَرِيبٌ منه ؛ ويناسبُ نصفُ
الحوى والعادة من الشامى قَلَمُ الرَّقَاع ، لأنهما فى معنى القَطْع المنصورى والعادة
بالديار المصرية . أما قَلَمُ الجَنَاح لكتابة بطائق الحمام به . وأما ما كان يَكُتَبُ به الخلفاءُ

(١) عبارة الضوء لأولف ج ١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ” ويناسب قطع الحوى والعادة من الشامى قلم الرقاع

لأنهما فى معنى العادة ، ويناسب ورق الطير الذى تكتب فيه البطائق والمطلقات قلم الغبار ولذلك يسميه بعض
الكتاب قلم الجناح الخ ” وهى واضحة .

أسماءهم في الزمن القديم وبه يكتُب الملوك أسماءهم الآن ، فقلَم الطومار : وهو القلمُ
الجليلُ الذي لاَ قلمُ فوقه . وقد تقدّم الكلام على هذه الأقلام في بيان ما يحتاج إليه
الكاتب في أواخر المقالة الأولى .

الطرف الثاني

(في مقادير البياض الواقع في أول الدّرج ، وحاشيته
وبعد ما بين السطور في الكتابة)

أما مقدار البياض قبل البسملة ، فيختلف في السلطانيات باختلاف قطع الورق ،
فكلّما عظم قطع الورق ، كان البياض فيه أكثر : فقطع البغدادى يُترك فيه ستة أوصالٍ
بياضا ، وتُكتب البسملة في أول السابع ، وقطع الثلثين يُترك فيه خمسة أوصال ،
وقطع النصف يُترك فيه أربعة أوصال ، وقطع الثلث يُترك فيه ثلاثة أوصال ، وقطع
المنصورى والعادة تارة يُترك فيه ثلاثة أوصال ، وتارة يُترك فيه وصلان ، بحسب
ما تقتضيه الحال . وقطع الشامى الكامل في معنى قطع الثلث ، وقطع نصف الحموى
والعادة من الشامى في معنى القطع المنصورى والعادة في البلدى . وربما اجتهد
الكاتب في زيادة بعض الأوصال وتقصانها بحسب ما تقتضيه الحال . وفي المكاتبات
الصادرة عن سائر أرباب الدولة مصرّا وشامّا يُترك في جميعها قبل البسملة وصل
واحد فقط . وفي كتابة الأدنى إلى الأعلى يُترك بعض وصل .



وأما حاشية الكتاب ، فبحسب اجتهد الكاتب فيه في السّعة والضيق . وقد رأيت
بعض الكُتّاب المعتبرين يقدّر حاشية الكتاب بالربيع من عرض الدّرج ، وهو اعتبار
حسن لا يكاد يخرج عن القانون .



وأما بُعد ما بين السطور ، فيختلف باختلاف حال المكتوب واختلاف قطع الورق : ففي السلطانيات كلها على اختلاف قطع الورق فيها تكتبُ البسملة في أول الفصل بعد ما يُترك من أوصال البياض في أعلى الدَّرج بحسب ما تقتضيه الحال ؛ ثم يُكتب تحت البسملة سطرٌ ملاصقٌ لها بحسب ما يقتضيه وضعُ القلم المكتوب به في القُرب والبُعد ، بحسب الدقة والغاظ ؛ ثم يُكتب السطر الثاني في آخر الوصل الذي كُتبت البسملة في أوله ، بحيث يبقى من الوصل ثلاثة أصابع مطبوعة أو نحوها في القطع الكبير ، وقدرُ إصبعين في القطع الصغير ، وما بينهما بحسبه .

وقد قدر صاحبُ «موادِّ البيان» البياض الباقي بين السطر الأول والثاني أيضا .^(١) وهذا إنما يُقارب في القطع الكبير . وقد ذكر ابن شيث في «معالم الكتابة» . - وكان في آخر الدولة الأيوبية فيما أُظنَّ - أن مقدار ما بين كلِّ سطرين يكون ثلاثة أصابع أو أربعة أصابع . والذي جرت به عادةُ الكُتَّاب في زماننا أنه يكون في قطع العادة والمنصوري في كلِّ وصل من أوصال الزمان ثلاثة أسطر ، وفيما عداه سطران . وربما وقع التفاوت في القطع الصغير بحسب الحال حتى يكون في التواقع التي على ظهور القصص ونحوها بين كلِّ سطرين بُعد بيت العلامة قدرُ إصبعين ؛ وربما تواصلت الأسطر كما في الملطفات ونحوها .

أما ما يُكتب عن النواب من الولايات والمكاتبات من سائر أعيان الدولة ، فدُونَ السلطانيات في مقدار خُلُو موضع العلامة ، وهو ما بين قدر خمس أصابع مطبوعة ونحوها ؛ وقدرُ [بُعد] السطور فيما بُعد بيت العلامة من قدر إصبعين إلى مادونهما .

(١) عبارة الضوء نقلا عن مواد البيان "بين السطر الأول والثاني بقدر شبر" .

(٢) لعله من أوصاله أى العادة أو المنصوري . انظر الضوء ص ٤١٧ .

الباب الثالث

من المقالة الثالثة

(في بيان المستندات ، وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين . وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في بيان المستندات : وهى التوقيع على القصص ومايجرى مجراه ،

وما يحتاج فيه إلى كتابة المستندات ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(السُلْطَانِيَّات ، وهى صنفان)

الصنف الأول

(ما يصدر عن متولى ديوان الإنشاء : كولايات الثواب والقضاة وغيرها

من أرباب الوظائف ، والتواقيع التى تُكْتَب فى المُسَامَحَات

والإطلاقات ، ومكاتب البريد الخاصة بالأشغال السلطانية ،

وأوراق الطريق وما يجرى مجرى ذلك)

وجميعها معدودة بنظر صاحب ديوان الإنشاء . فإكان منها جليل الخطر

كولايات الثواب والقضاة وأكابر أرباب الوظائف والمكاتب المتعلقة بمهمات

السلطنة ، فلا بد من مخاطبة صاحب ديوان الإنشاء فيها واعتماد مايرز به أمره .

وما كان منها حقيراً بالنسبة إلى مخاطبة السلطان فيه أستقل فيه بما يقتضيه رأيه .

ثم من ذلك ما يكتب به صاحب الديوان رقاعاً لطيفة بخطه ويعينها على الكاتب

الذى يكتبها وتدفع إليه لتخلد عنده شاهداً له ، كالولايات والمسامحات والإطلاقات

والمكاتبات المتعلقة بأمور المملكة ونحو ذلك . ومن ذلك ما يبرز به أمر صاحب الديوان مشافهةً فيكتبه من غير شاهد عنده ، وذلك في الأمور التي لا درك فيها على الكاتب ، كتقاليد الثواب وبعض المكاتبات ، إذ لا تُهمّة تلحق كاتب الإنشاء في مثل ولاية نائب كبير أو قاض حفيّل : لأن مثل ذلك لا يخفى على السلطان ، فأشبهه خطاب صاحب الديوان فيها الكاتب خطاب السلطان صاحب الديوان حيث لا شاهد عليه إلا الله تعالى ، بخلاف الأمور التي يلحق كاتبها الدرك ، فإنه لا بُد في كتابتها من تخليد شاهد . وكان الواجب أن لا يكتب حقيراً ولا جليلاً إلا بشاهد من صاحب الديوان ، فإن الأمور تراكم وتكثر ، والإنسان معرض للنسيان ، وربما عرض إنكار بسبب ما يكتبه الكاتب ونسيه صاحب الديوان فيكون الكاتب قد عرض نفسه لأمر عظيم . ولا يقاس الكاتب على صاحب الديوان في عدم أخذه شاهداً بخط السلطان ، فإن صاحب الديوان هو المتصرف حقيقةً ، والسلطان وكلّ جميع أمور المملكة إليه ، فلا يُتهم في شيء منها ، بخلاف الكاتب .

وقد ذكر أبو الفضل الصوريّ في "تذكرته" أن المكتوب من الديوان إن كان مكتبةً فالواجب أن يكون عنوانها بخط متولّي الديوان ، وإن كان منشوراً فالواجب أن يكون التاريخ بخطه ليدلّ على أنه وقف على المكتوب وأمضى حكمه ورضيه ، ويكون ذلك قد قام مقام كتابة اسمه فيه . ثم قال : وقد كان الرسم بالعراق - وفيه الكتاب الأفاضل - أن يكتب الكتاب ما يكتبون ثم يقولون في آخره : « وكتب فلان بن فلان » باسم متولّي ديوان الرسائل . وما ذكره عن أهل العراق قد ذكر نحوه أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" إلا أنه قد جعل بدل اسم متولّي الديوان اسم الوزير [فقال] ويكتب في آخر الكتاب « وكتب فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه . وقد رأيت نسخاً عدّة من سجلات الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية

مستشهداً فيها باسم الوزير على النهج المذكور . على أنه كان الواجب أن يكون
الاستشهاد في آخر كل كتاب باسم كاتبه الذى يكتبه ليُعلم من كتبه ، فإن الخطوط
كثيرة التشابه ، لاسيما وقد كثُر كُتَّاب الإنشاء فى زماننا وخرجوا عن الحد ، حتى إنه
لم يَعْرِف بعضهم بعضاً فضلاً عن أن يَعْرِفَ خَطَّهُ . وقد كان كُتَّابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
عليه وسلم إذا سَجَّلُوا عنه سَجَلًا أو نحوهِ كتب الكاتب فى آخره «وكتب فلان
ابن فلان» . وهذه الرقعة التى كتبها النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم لقيم الدارى بإقطاع
قُرَى من قُرَى الشام موجودةٌ بأيدي التميميين إلى الآن مستشهداً فيها بخط أمير المؤمنين
على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وإنما عدلوا عن اسم الكاتب نفسه إلى اسم
متولى الديوان أو الوزير استصغاراً للكاتب أن يُستشهد للكاتب باسمه فيما يكتب به
عن الخليفة . قال أبو هلال العسكري فى كتابه "الأوائل" : وقد قالوا إن أول
من كتب فى آخر الكتاب «وكتب فلان بن فلان» أبى بن كعب رضى الله عنه .

الصِّنفُ الثَّانِي

(ما يصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء : كالأمر التى يكتب بها من
الدواوين السلطانية غير ديوان الإنشاء وتُلمَسُ الكُتُب من
ديوان الإنشاء على مقتضاها ، كالمكتابات الخاصة بتعلقات
شئ من الدواوين المذكورة ، وبعض التواقيع
التي أصلها من ديوان الوزارة)
ويُخَصِّر ذلك فى أربعة دواوين :

الديوان الأول - ديوان الوزارة : وهو أعظمها خطراً ، وأجلها قدراً .

وقد جرت العادة أنه إذا دعت الضرورة إلى كتابة كتاب من ديوان الإنشاء يتعلّق بديوان الوزارة أن تُكتب به قائمة من ديوان الوزارة في ورقة ديوانية بما مثاله : « رِسم بالأمر الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - أن يُكتب مثلاً شريف إلى فلان الفلاني بكذا وكذا » . وكيفية وضع هذه القائمة أن يكون السطر الأول في رأس الورقة من الوجه الأول منها، وآخره « شرفه الله تعالى وعظمه » وبينه وبين السطر الثاني قدر إصبعين معترّضين بياضاً، وباقي السطور مسترسلة متقاربة بقلم الرّقاع؛ ويكتب الوزير في البياض الذي بين السطر الأول والثاني بقلم الثلث ماثله : « يُكتب » . ويوجّه بالقائمة إلى ديوان الإنشاء صحبة مدير من ديوان الوزارة أو غيره، فيكتب على حاشيتها يُكتب بذلك، ويُعيّن على بعض كتاب الإنشاء فيكتب مثلاً بما فيها، ويخلّد القائمة عنده شاهداً له؛ وربما خلّدت بديوان الإنشاء في حلة ما يخلّد في الأضابير شاهداً لديوان الإنشاء، والأول هو الأليق .

وإن كان الذي يُكتب من ديوان الوزارة توقيعاً باطلاقاً أو نحوه مما أصله من ديوان الوزارة، كتب الوزير على حاشية قصة صاحبه ما مثاله « يكتب بذلك، أو يُوقع بذلك » وتبعث إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب ديوان الإنشاء بالعيين . ثم إن كان التوقيع ملصقاً بقصة فذاك، وإلا خلّد الكاتب القصة شاهداً عنده على ذلك؛ وربما كُتب بالإطلاقات من ديوان الوزارة مَرَبَّاتٍ بخط مُستوفى الصّحبة .

الديوان الثاني - ديوان الخاّص :

وهو في كتابة الأمثلة الشريفة على مامر من كتابة القائمة ليخرج المثال على نظيرها، على ما تقدّم في ديوان الوزارة . فتكتب القائمة على الحكم المتقدم من غير فرق،

ويكتب ناظر الخاص عليها نظير كتابة الوزير السابقة ، ويوجه بها إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليها بالتعيين كما تقدم ، ويخلد الكاتب القائمة عنده شاهداً له ، أو يُخلد بديوان الإنشاء على ما تقدم في ديوان الوزارة . ولا يُكتب من ديوان الخاصّ تواقع بإطلاقات ونحوها بل تُكتب بها مراسيم مربعة في ورق شامى بخط مباشرى ديوان الخاصّ .

الديوان الثالث - ديوان الإستدّارية :

وحكمه في ذلك حكم ديوان الخاصّ من غير فرق ، ويكتب الإستدّار عليها كما يكتب الوزير وناظر الخاصّ ، ويبحث بها إلى ديوان الإنشاء ، فيجرى الحكم فيها على ما تقدم في الديوانين المذكورين .

الديوان الرابع - ديوان الجيش :

والذى يرد إلى ديوان الإنشاء منه ابتداءً هى المربعات التى تُكتب بالإقطاعات لتخرج المناشير على نظيرها .

وصورتها أن يُكتب فى نصف فرجة مكسورة فى القطع البلدى بعد البسملة الشريفة مامثاله « المرسوم بالأمر العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه ، أو أعلاه الله تعالى وأسماءه ، وشرفه وأمضاه ، أن يُقطع باسم فلان الفلانى - أحد الأمراء المقدمين ، أو الطبلخانات ، أو العشرات ، أو النخسات - بالمكان الفلانى ، أو أحد الممالك السلطانية ، أو مقدمى الحلقة ، أو أجناد الحلقة ، بالمكان الفلانى المرسوم استقراره فى أمراء العشرات ، أو الطبلخانات ، أو المقدمين ، أو نحو ذلك - وأرسم له به الآن من الإقطاع » .
فإن كان أميراً قبل بعد ذلك : « لخاصته ولمن يستخدمه من الأجناد الجياد للخدمة الشريفة ، والبرك التام ، والعدة الكاملة ، بمقتضى المثال الشريف ، أو انلخط

العالي الكافلي؛ أو بمقتضى الإشهاد المشمول بالخطّ الشريف ، أو الخط الكافلي على نظير ما تقدّم » أو « بمقتضى المربعة المكتبة من الملكة الفلانية المشمولة بالخط الشريف » إن كان أصله مربعةً من بعض الممالك وما أشبه ذلك . فإن كان أميراً ذُكرت عدته على ما سيأتى فى الكلام على المناشير فى المقالة الخامسة . ثم يقال : « حسب الأمر الشريف » ويكمل التاريخ « والحمد لله ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ويُبعث بها إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعيين على بعض كُتّاب الإنشاء ، فيكتبها ويخلّد المربعة شاهداً عنده .

الضرب الثانى

(ما يتعلق بالكُتب فى المظالم ، والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأول

(فيما يتعلق بالقِصص)

وهى تُرفع إلى ولاة الأمور بحكاية صورة الحال المتعلقة بتلك الحاجة ، وتُسمّى قصصاً على سبيل المجاز ، من حيث إن القصة أسم للحكى فى الورقة لا لنفس الورقة . وربما سُميت فى الزمن القديم رقاعاً لصغر حجمها ، أخذاً من الرقعة فى الثوب .

ثم الذى يجب فى هذه القِصص الإيجاز والاختصار مع تبليغ الغرض المطلوب والقرب من فهم المخاطب ، فإنها متى كانت خارجةً عن الحد فى الطول ، أدّت إلى الإحجار والسامة المنفرّين للرؤساء . وربما كان فى ذلك حرمان الطالب ودفعه عن حاجته : إما للاعراض عنها استئقلاً ، وإما لعدم فهم المقصود منها لطولها واختلاط بعض مقاصدها ببعض . وأما كونها مبلّغة للغرض المطلوب وفهم المخاطب ،

فلانها إذا كانت بصدد الاختصار المصحف والتعقيد، نبأ عنها فهم الرئيس ومجها سمعه :
فلما أن يعرض عنها فيئوت على صاحبها المطلوب ، وإما أن يسأل غيره عن معناها
فيكون سبباً لتزله عن عزّ الرياسة إلى ذلّ السؤال ، وكلاهما غير مستحسن .

وقد جرت العادة في مثل ذلك أن يخلى من أول الورقة قليلاً ، ويجعل لها هامش
بحسب عرضها ، ويبدأ فيها بالبسملة ثم يكتب تحت أول البسملة : « المملوك
فلان يقبل الأرض ، وينهى كذا وكذا » إلى آخر إنهائه : ثم يقال : « وسؤاله كذا
وكذا » فإن كان السؤال للسلطان قال : « وسؤاله من الصدقات الشريفة كذا وكذا »
وإن كان السؤال لغير السلطان قال : « وسؤاله من الصدقات العيمة كذا وكذا » .
ثم إن كان المسئول كتاباً : فإن كان عن السلطان قال : وسؤاله مثال شريف بكذا
وكذا ، وإن كان عن غير السلطان قال : « مثال كريم بكذا وكذا » ثم يقول إن شاء
الله تعالى ، ويحمد الله تعالى ويصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ويحسب . وربما
كتب « المملوك فلان » بحاشية القصّة ، خارجاً عن سمت البسملة . وربما أبدل
لفظ المملوك بلفظ الفقير إلى الله تعالى . ويقال حينئذ بدل « يقبل الأرض »
« يتبرّل إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة » أو « يواصل بالأدعية الصالحة »
ونحو ذلك .

وقد جرت العادة في كتابة القصص أن صاحبها إن كان أميراً ونحوه كتب تحت
البسملة « الملكى الفلانى » بلقب سلطانه ، مخلياً بياضاً من جانبيها . على أنه قد
تصدى لكتابة القصص من لا يفرق بين حسنها وقبيحها ، ولا ينظر في دلالتها ،
ولا يراعى مدلولها . وذلك كسنة الزمان في أكثر أحواله .

قلت : وقد جرت عادة أكثر الناس في القصص أنه إذا فرغ الكاتب من كتابة القصة يقطع قليلا من زاويتها اليمنى من الجهة السفلى ، مستندين في ذلك إلى كراهة التربع .

(١)

ومن غريب ما يُحكى في ذلك أن بعض الوزراء قال يوما يجلس وأنا وليت الوزارة ربيع الأول سنة أربع وأربعين وأربعمائة - فقال له بعض جلسائه : إن تفاءلت أنت به فقد تطيرنا نحن به . ولا شك أن مستندهم في ذلك التشاؤم بالتربع في القرآن التجمي ، ولا يُعول عليه . وقد ورد أن حوض النبي صلى الله عليه وسلم في القيامة زواياه على التربع ، ولولا أن التربع أحسن الأشكال لما وُضع عليه حوض النبي صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثاني

(فيما يتعلق بالنظر في المظالم ، وما يكتب على القصص ،

وما ينشأ عنها من المساءلات وغيرها)

وهو أمر مهم ، به يقع إنصاف المظلوم من الظالم ، وخلاص المحق من المبطل ، ونصرة الضعيف على القوى ، وإقامة قوانين العدل في المملكة . وقد نبه أبو الفضل الصوري في " تذكرته " على جلالته هذا القدر وخطره ، ثم قال : ومن المعلوم أن أكثر المتظلمين يصلون من أطراف المملكة ونواحيها ، وفيهم الحرّم والمنقطعات

والأيتام والصَّعَالِك ، وكلُّ من يَقدُّ منهم معتقداً أنه يصير إلى مَنْ ينصره ويَكْشِف ظلامته ويُعْديهِ على خَصْمِهِ . فيجب أن يُتَلَقَّى كُلُّ منهم بالترحاب واللُّطْف ، ويُندَبَ لهم من يحفظ رِقَاعَهُمْ وَيَنْجِزُ التَّوْقِيعَ فيها من غير التماس رَشْوَةٍ ولا فائدةٍ منهم ، وأن تكون التَّوْقِيعَاتُ لهم شافيةً في معانيها ، مستوعبةً لَكَشْفِ ظَلَامَاتِهِمْ ، مُؤَدِّةً بِإِنجَاحِ طَلِبَاتِهِمْ .

قال أبو هلال العسكري : في كتابه ” الأوائل “ : كان المهديُّ يجلس للظالم وتُدْخِلُ القِصَصُ إليه ، فارتضى بعض أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتاً له شَبَّاكٌ حديدٌ على الطريق تُطْرَحُ فيه القِصَصُ ، وكان يَدْخُلُهُ وحده فيأخذ ما يقع بيده من القِصَصِ أولاً فأولاً فينظر فيه لئلا يُقدِّمَ بعضها على بعض .

قال : وقدم عليه رجل فتظلم فأنصفه فاستخفَّه الفرج حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : ما حسبت أنى أعيش حتى أرى هذا العدل فلما رأته داخلني من السرور مازال معه عَقْلِي - فقال له المهدي : كان الواجب أن تُنْصِفَكَ في بلدك ، وكان قد صَرَفَ في نفقة طريقه عشرين ديناراً فأمر له بخمسين ديناراً وتحلَّ منه .

قال أبو الفضل الصُّورِي : ومهما كان من الرِّقَاعِ يحتاجُ إلى العَرْضِ على السلطان ، عرضه عليه ، وأحسن السَّفَارَةَ والتَّلَطُّفَ فيه ، ووقَّع بما يؤمَّرُ به ، فقد تحدَّثَ في هذه الرِّقَاعِ الأمورَ المهمَّةَ التي تنفعُ بها الدولة ، وتستعزُّ بتأخير النظر فيها ، ويفهم من طيَّ هذه الرِّقَاعِ من جَوْرِ بعض الوُلاَةِ والمستخْدمين ما تُوجِبُ السياسةُ صَرْفَهُمْ عَمَّا وُلُّوه منها . ومهما كان منها مما يَشْكُ السلطان في صحته ، ندب مَنْ يثقُ به للكشف مع رافعه ، فإن صحَّ قوله أنْصِفَ من خَصْمِهِ ، وإن بانَ تمحُّله قُوِيلَ بما

يَرَدُّعُ أمثاله عن الكَذْبِ والتمرُّدِ؛ ويعلمُ الوَلَاةُ والمشارِفُونَ وسائرُ المستخدَمينَ أن السلطانَ متفرِّغٌ للنظرِ في قِصَصِ الناسِ وشكاوِيهِمْ ، وقد نصبَ لذلكَ من يتفرَّغُ له ويطلعه بالمُهَمِّ منه فيُكفِّ أيديهم عن الظلم ، ويحذرونُ سُوءَ عاقبةِ فعلهم ، ويَقُلُّ المنظَّمونَ قولاً واحداً ، وتحسُنُ سُمعةُ الدولة بذلك فيكونُ لها به الجَمالُ الكبيرُ .

قلت : والذي يُرَفَّعُ من القِصَصِ في معنى ذلك في زماننا على ستة أنواع .

النوع الأول

منها

(ما يرفع إلى السلطان في آحاد الأيام)

وقد جرت العادةُ فيه أن يُقرأَ على السلطان : فإمضاء منه كُتِبَ على ظهر القِصَّةِ ما مثاله «يُكْتَبُ» ثم تجل إلى كاتب السر فيعيِّنُها على بعض كُتَّاب الإنشاء ، فيكتبُ بمقتضاها ويخلِّدها عنده شاهداً له .

النوع الثاني

(ما يُرَفَّعُ لصاحب ديوان الإنشاء)

وقد جرت العادةُ في ذلك أن رافع القِصَّةِ والمحتاج إلى الأمثلة الشريفة السلطانية في مُهمَّاته ومتعلَّقاته إن كان من الأعيان والمعتبرين كأحد من الأمراء أو المماليك السلطانية وأكابر أرباب الأقلام ، بَعَثَ بقِصَّتِهِ لـديوان الإنشاء ، فيقف عليها صاحبُ ديوان الإنشاء ويتأمَّلُها وينظر ما تضمَّنَتْه ، فإن كان مما يُحتاج فيه إلى مخاطبة السلطان ومؤامراته ، أخذها ليقراها عليه عند حُضُوره بين يديه ، ويمتثل

ما يأمر به فيها ، فيكتب بمقتضاه ، سواء طابَق سؤال السائل أم لا ، ويعينها على كاتب من كُتَّاب الإنشاء ، فيكتب بمقتضاها ويخلدُ القصةَ شاهداً عنده . وهذه المثلثات ورقها من ديوان الإنشاء من المرتب السلطاني . وإن كان رافعُ القصة من غير المعترين كأحد الناس ، دفعَ القصة إلى مدير من مُدراء ديوان الإنشاء فيجعل عليها علامةً له ، ويجمع كلُّ مديرٍ مامعه من القصص ، وترفع إلى صاحب ديوان الإنشاء ، فما كان منها غير سائق للكتابة عليه قطعهُ أو ردّه ؛ وما كان منها سائغاً كتب عليه وعينه . وربما استشكل بعضها فأحره ليقراه على السلطان وينظر ما يأمر به فيه فيعتمده . وإذا عينا على كاتب من كُتَّاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخلدُ القصة عنده شاهداً .

النوع الثالث

(ما يُرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان للحكم في المواكب)

وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ترتب مجلس السلطان على ما تقدم في ترتيب المملكة أن القصص تُفترق على كاتب السرّ ومن حضر من كُتَّاب الدست ، فيقرأ كاتب السرّ منها ما عنّ له قراءته ، ثم يقرأ الذي يليه من كُتَّاب الدست ، ثم الذي يليه إلى آخرهم ؛ ويشير السلطان برأسه أو يده بإمضاء ما شاء منها ؛ فيكتب كاتب السرّ أو كاتب الدست على تلك القصة بما فيه خلاصُ قلمه ، ثم تُحمل إلى ديوان الإنشاء فيعينها على من يشاء من كُتَّاب الإنشاء فيكتبها ، ويخلدُ تلك القصص عنده شاهداً .

النوع الرابع

(ما يُرَفَّعُ مِنْهَا لِلنَّائِبِ الْكَافِلِ ، إِذَا كَانَ ثُمَّ نَائِبٌ)

وقد جرتِ العادةُ أن النائب يكونُ عنده كاتبٌ من دُكَّاب الدَّسْتِ يجلسُ بين يديه لقراءة القصص عليه ، وتنفيذ ما يُكْتَبُ عنه . فإذا رُفِعت القصةُ إلى النائب الكافل قرأها عليه كاتبُ الدَّسْتِ وأمثل أمره فيها ، وأصلح في القصة ما يجب إصلاحه ، وضرب على ما يجب الضربُ عليه ، وزاد بين سطوره ما تقتضيه الزيادة ؛ ثم تُدفع القصةُ إلى النائب الكافل ، فيكُتَبُ على حاشيتها في الوسطِ أَخْذاً من جهة أسفلها إلى جهة أعلاها بقلمٍ مختصر الطُّومار مأمثاله «يُكْتَبُ» ثم تحلُّ بعد ذلك إلى كاتب السرفيعينها على بعض كُتَّاب الإنشاء فيكتبها .

النوع الخامس

(ما يُرَفَّعُ مِنَ الْقِصَصِ إِلَى الْأَتَاكِ ، إِذَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ)

أَتَاكِ عَسْكَر : وهو الأمير الكبير)

وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طفلاً أو نحو ذلك . وقد جرتِ العادةُ أن يكون عند الأتاك كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْتِ أيضاً ، فإذا رُفِعت القصةُ إلى الأتاك : فإن كان الأمرُ فيها واضحاً تخلص حقٌّ أو نحوه ، كتب كاتبُ الدَّسْتِ على حاشيتها ما تقتضيه الحال في ذلك من غير قراءتها على الأتاك . وإن كان الأمرُ فيها غير واضح كما إذا كان الأمرُ راجعاً إلى مُنازعةٍ خصمين ونحو ذلك ، قرأها على الأتاك وأمثل أمره فيها ، وكتب عليها ما برز به مرسومه . وفي كلتا الحالتين جرتِ العادةُ في زماننا [أنه يَعْمَدُ] إلى أشهر حرفٍ في اسم الأتاك فيرقُّه في آخر ما يكتبه أو تحته ؛ كما كان يُكْتَبُ عن برقوق قبل السلطنة (ق) وعن إيتش (ش) وعن نوروز (ن) ونحو ذلك .

النوع السادس

(ما يُرَفَّعُ منها للدَّوَادِرِ لَتُعَلِّقَ عنه الرسالةُ عن السلطان به)

وأعلم أن العادة كانت جاريةً في الزمن المتقدم أن السلطان إذا أمر بكتابة شيء على لسان أحد من الدَّوَادِرِ ، حملَ بريدٌ من البريدِ الرسالةَ لذلك عن ذلك الدَّوَادِرِ إلى كاتبِ السرِّ فيسمعُ كلامَ البريدِ ويكتبُ على القصَّةِ إن كانت أو ورقةً مفردةً ما مثاله : « حضرت رسالةً على لسان فلان البريدِ بكذا وكذا » ويعيَّنه على من يكتبه من كُتَّابِ الإنشاء . ولم يزل الأمرُ على ذلك إلى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » فأفرد المقرُّ الشَّهابيُّ بن فضل الله صاحبُ ديوان الإنشاء كاتبًا من كُتَّابِ الإنشاء لتعليق الرسالة ؛ فصار يكتب ما كان كاتبُ السرِّ يكتبه من ذلك على القصص أو الورقة المفردة ثم تُرَفَّعُ إلى كاتبِ السرِّ فيكتب عليها بالأمر بكتابتها ؛ ويعيَّنها على من يكتب بمقتضاها ، وتُحَلَّدُ القصَّةُ أو الورقة التي علقت فيها الرسالةُ عنده شاهدًا له . واستمر ذلك إلى مباشرة القاضي فتح الدين بن شاس أحد كُتَّابِ الدست عند الدَّوَادِرِ ؛ والدَّوَادِرُ يومئذ الأميرُ يونس التَّورُوزي ، فأذن له كاتبُ السرِّ في تعليق الرسالة عن الأميرِ يونس الدَّوَادِرِ على ظهور القصص وغيرها ففعل . وكان يكتبُ على حواشي القصص في وسط القصَّةِ آخذًا من جهة اليمين إلى جهة اليسار بميلة إلى الأعلى بقلم دقيق متلاصق الأسطر ما مثاله : « رُسِمَ رسالة الجناب العالي الأميري الكبير الشرفي يونس الدَّوَادِرِ الظاهري - ضاعف الله تعالى نعمته - أن يكتب مثلاً شريف بكذا أو توقيع شريف بكذا » وما أشبه ذلك ، ويؤرخه بيوم الكتابة ، ثم تحمل إلى كاتبِ السرِّ فيكتب عليها بالأمر بالكتابة ، ويعيَّنها

على كاتبٍ من كُتَّاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلدها شاهداً عنده . وجرى الأمرُ على ذلك بعده إلى آخر وقت .

قلت : وقد كان في الدولة الفاطمية كاتبٌ مفرد لتعليق الرسالة عن الخليفة، يسمَّى صاحبَ القلم الدقيق، يعلِّق ما تبرز به أوامر الخليفة في الرِّقاع وحواشي القصص، وتحمل إلى ديوان الوزارة، فيعتمدُها الوزيرُ، ويبرز أمره إلى ديوان الإنشاء باعتمادها وكتابة ما فيها، على ما تقدّم ذكره في ترتيب الخلافة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

الفصل الثاني

(في التعيين وكيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء على الرِّقاع
والقصص، وتعيينها على كُتَّاب الإنشاء)

ويختلف الحال في ذلك باختلاف حال الكاتب المعين عليه وحال الرُّقعة المعينة .
فأما اختلافه باختلاف حال مَنْ يعين عليه . فإنه إن كان المعين عليه كاتباً من كُتَّاب الدَّسْتِ، كتب له كاتبُ السرِّ في التعيين : « المولى ، القاضي ، فلان الدين ، أعزّه الله تعالى » وربما رفع قدره على ذلك فيكتب له : « المولى ، الأخ ، القاضي ، فلان الدين ، أعزّه الله تعالى » . وإن كان من كُتَّاب الدَّرَج : فإن كان كبيراً كتب له : « المولى فلان الدين » . وإن كان صغيراً ، كتب له : « الولد فلان الدين » وربما وقع التمييز لبعض كُتَّاب الدَّسْتِ أو كُتَّاب الدَّرَج للتقدم بالفضل فكتب له : « المولى ، الشيخ فلان الدين » أو « الشيخ فلان الدين » تارة مع الدعاء وتارة دونه .



وأما اختلافه باختلاف حال المكتوب الذى يعين، فإنه إن كان قصةً بظاهرها
خط السلطان «يُكْتَب» فوضع كتابة التعيين تحت خط السلطان بظاهر القصة،
ولا كتابة له عليها غير ذلك .

وإن كان رُفْعَةً جميعها بخط كاتب السرّ، فإنه يكتب فيها «يكتب بكذا وكذا»
ثم يكتب التعيين بأول ذيلها .

وإن كان قصةً رفعت إلى كاتب السرّ، فإنه يكتب على حاشيتها في أعاليها
آخذاً من جهة أسفل القصة إلى أعلاها ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» أو «يكتب
بكذا وكذا» ثم يُكْتَب التعيين بحاشيتها أسفل ذلك في عَرْض الحاشية مُمَيْلاً للكتابة
إلى جهة الأعلى قليلاً .

وإن كان قصةً عليها خطُ النائب الكافل، فإنه يكتب عليها بالتعيين ليس إلا،
وموضع التعيين فيها بحاشية القصة أسفل خط النائب .

وإن كان قصةً قد كتب بهامشها مرسومُ الأتابك أو عُلق بحاشيتها رسالةُ
الدّوادار، كُتِبَ في جهة أعلى القصة : «يكتب بذلك» وعلى القُرب منه التعيين .
وإنما يُكْتَب هنا في جهة أعلى القصة وفيما عليه خطُ النائب الكافل في جهة أسفلها
لأن التعليق الذى على الهامش فيما عُلق عن مرسوم الأتابك أو رسالة الدّوادار بخط
كاتب الدّست الذى فى خدمته ، بخلاف ما عليه خطُ النائب بنفسه .

وإن كان الذى يقع فيه التعيين قائمةً من ديوان الوزارة ، أو ديوان الخِصّ
أو ديوان الإستدار، كتب بهامش القائمة من أعلاها مقابل كتابة المتحدّث على ذلك
الديوان ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» ثم يكتب التعيين تحته على القُرب منه .

وإن كان الذى يَقَع فيه التعيين مَرَبَّعةً إقطاع من ديوان الجيش ، كَتَبَ بالتعيين فى آخرها مقابل التاريخ من الجهة اليمنى ، ولا كِتَابَة له عليها غير ذلك .

قلت : وقد جرت عادة كُتَّاب السِّرِّ فى زماننا أَنه يُكْتَب على القِصَص ونحوها ، ” يُكْتَب بذلك “ أو ” يُكْتَب بكذا وكذا “ على ما تقدّم بيانه بغير لام فى أوّله . وكذلك الوزير وناظر الخاص والإستدار يكتبون بغير لام فى الأوّل . أما القُضاة فى الإذن بكِتابة المحاضر ونحو ذلك فإنهم يكتبون ” لِيُكْتَب “ بأشياء اللام فى أوّله ، وهذه اللام تسمى لام الأمر وقد صرح الإمام أبو جعفر النحاس فى ” صناعة الكُتَّاب “ أَنه لا يجوز حذفها . وعلى ذلك ورد لفظ القراء الكريم كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَقْتَهُمْ وَيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطَّوُّوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ﴾ (١) ونحو ذلك . وحكى جمال الدين ابنُ هشام فى المغنى [جواز حذفها فى الشعر كقوله :

فَلَا تَسْتَطِلُّ مِنِّي بَقَائِي وَمُدَّتِي * وَلَكِنْ يَكُنْ لِلْخَيْرِ مِنْكَ نَصِيبُ !
وقوله :

مُحَمَّدٌ تَقْدِرُ نَفْسَكَ كُلَّ نَفْسٍ * إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالًا ! (٢)] .

(٢) الطَّرَفُ الثَّانِي

(فى كِتابة المُلَخَّصات والإجابة عنها من الدواوين السلطانية)

قد تقدّم فى الكلام على ما ينظر فيه صاحب الديوان أَنه لما كان صاحبُ ديوان الإنشاء يَضِيقُ زَمَنُهُ عن آستيعاب حال الكُتُب الواردة من المملكة لوفورها واتساع

(١) بيض فى الأصول لهذه الجملة ، وقد نقلناها من المغنى (ج ١ ص ٣٢٢) والشاعر يناطب ابنه لما تمّنى موته .

(٢) لم يتقدّم له تقسيم بالأطراف فى هذا الباب ولم يذكر الأوّل حتى يكون هذا ثانيا له نعم قال فى عنوان الباب أَنه يتكلم فيه على كِتابة المُلَخَّصات فهو مما وعد به وجل من لا يدور .

الدولة وكثرة المكاتيب ، ناسب أن يتخذ كاتباً يتصفح الكتب الواردة ويتأملها ، ويلخص مقاصدها ؛ قال أبو الفضل الصوري في "تذكرته" : والرسم في ذلك أن الكاتب الذي يُقيمه صاحب الديوان يتسلم الكتب الواردة ويُخرج معانيها على ظهورها ، ملخصاً الألفاظ الكثيرة في اللفظ القليل ، غير مخلّ بشيء من المعنى ولا محزفٍ له ، مُسقِطاً فضول القول وحشوه ، كالدعاء والتصدير والألفاظ المترددة . قال : ويُخرج أيضاً ما يختص بديوان الخراج ، من الأمور التي تردُّ ضمن الكتب في معنى الخراج في أوراق يُعين فيها الكتب التي وصلت فيها وتاريخها والجهة التي وردت منها ، وينصها على هيئتها ، ويوجهها إلى ديوان الخراج ، فيجاب عنها منه ، ويستدعى من متولّى ديوان الخراج الجواب عنها ؛ ثم يعرض جميع ذلك على الملك ، ويستخرج أمره بإمضاء المكتبة به أو بغيره . فإن كان بخط مخالف للعربيّ : كالروميّ والفرنجيّ والأرمينيّ وغيرها ، أحضر من يعرف ذلك الخطّ ممن يوثق به لترجمه في ظهره ، فإن كان ذلك المترجم يُحسن الخطّ العربيّ ، كتب بخطه في ظهر الكتاب ما مثاله « يقول فلان : إني حضرتُ إلى ديوان الإنشاء وتسلمتُ الرقعة أو الكتاب الذي هذا الخط بظاهره ، وسُئلتُ عن تفسيره فذكرتُ أنه كذا وكذا » ويسرده إلى آخره « وبذلك أشهدتُ على نفسي » ويشهد عليه شاهدان : « هذا الذي ذكره بلا زيادة ولا نقص » .

وإن كان الكتاب مشحوناً بالكلام بطناً وظهراً ، نقله بخطه بالقلم الذي هو مكتوب به ، وترجمه على ظاهره بخطه بالعربيّ . وإن لم يحسن الكتابة بالعربيّ ، كتب عنه الكاتبُ بحضر من الشاهدين وأشهد عليه ليهاب أو يُجيم فيما يقول ، أو بغيره أو يفتّسه لأن أكثر من يترجم على مذهب صاحب الخط ، فربما كتم عنه أوداجي فيه . فإذا خُوف بالإشهاد عليه وخشى أن غيره قد يقرؤه على غير الوجه

الذى أشهد به على نفسه ربما أدّى الأمانة فيه . فإذا لحِصَّتِ المكتبة بظاهرها ،
سُلِّمَتْ إلى متولّى الديوان ليقابل ظاهرها بباطنها : فإن وجده أخلّ فيها بشيء ،
أضافه بخطه وأنكر عليه إهماله ليتنبّه في المستقبل . فإن لم يكن فيها خلل عرضه
على الملك وأعتمد أمره فيه ، وكتب تحت كلّ فصل منها ما يجب أن يكون جوابا
عنه على أحسن الوجوه وأفضلها ؛ ثم يسلمها إلى من يكتب الجواب عنها ممن يعرف
أبطلّاعه بذلك ؛ ثم يقابل الجواب بالتحريج وما وقع به تحته : فإن وجد فيها خللا
سده ، أو مهملا ذكره ، أو سهوا أصلحه . وإن رآها قد كتبت على أفضل الوجوه
وأسدّها ، لم يفوت فيها معنى ولم يزد إلا لفظا يمتق به كتابه ويؤكد به قوله ، عرضها
على الملك حينئذ ليعلّم ؛ ثم استدعى من يتولّى الإصاق فألصقها بحضرته ، وجعل
على كلّ منها بطاقة يُشير فيها إلى مضمونها : لئلا يسأل عن ذلك بعد إصاقها
فلا يعلم ماهو ؛ ثم يسلمها إلى من يتولّى تنفيذها إلى حيث أهلت له ؛ وتسلم النسخ
المخصّصة إلى من يؤهّله لحفظها وترتيبها .

قلت : قد تبيّن بما تقدّم من كلام أبى الفضل الصورى [ما كان عليه الحال
في زمنه] والذى عليه حال الديوان في زماننا فيما يتعلق بذلك أن الكتب الواردة
إلى الأبواب السلطانية من أهل الممكة وغيرها من سائر الممالك يتلقّاها أكبر
الدوادرية : وهو مقدّم ألف على ما تقدّم ذكره في الكلام على ترتيب الدّيار المصرية ؛
ويحضر القاصد المحضّر للكتاب من برّيدى أو غيره ، ثم يتأوله للسلطان فيفرض ختامه ،
وكتب السرّ جالس بين يديه ، فيدفعه السلطان إليه ، فيقرؤه عليه ويستصحبه معه
إلى الديوان : فإن كان الكتاب عربيا دفعه كاتب السرّ إلى نائبه أو من يخصّه
بذلك ليخصّص معناه : فينعم النظر فيه ، ويستوفى فصوله ، وليخصّص مقاصدها ،

(١) في الاصول ثم عرضها ولكن زيادة ثم في الكلام تنقصه والظاهر أنها زيادة من قلم النسخ تأمل .

ويكتب لكل ديوان من الدواوين التي يرفع إليها متعلق ذلك الكتاب ملخصاً بالفصول المتعلقة به في ورقة مفردة، ليجاوب عليها متولى ذلك الديوان بما رُسم له من الجواب عنها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تُكْتَبُ لَهُ الْمَلَخَّصَاتُ فِي زَمَانِنَا مِنَ الدَّوَاوِينِ السُّلْطَانِيَّةِ خَمْسَةٌ دَوَاوِينٍ . وَهِيَ : دِيَاوُنُ الْإِنْشَاءِ ، وَدِيَاوُنُ الْوِزَارَةِ ، وَدِيَاوُنُ الْجَيْشِ ، وَدِيَاوُنُ الْخَاصِّ ، وَدِيَاوُنُ الْإِسْتِدَارِيَّةِ : وَهُوَ الدِّيَاوُنُ الْمَفْرَدُ .

وَالطَّرِيقُ إِلَى كِتَابَةِ الْمَلَخَّصَاتِ أَنْ يَحْذِفَ مَا فِي صَدْرِ الْكُتُبِ مِنَ الْحَشْوِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ أَبِي الْفَضْلِ الصُّورِيِّ ، ثُمَّ يَعْمِدَ إِلَى مَقَاصِدِ الْكِتَابِ فَيَسْتَوْفِي فُصُولَهُ وَيَتَصَوَّرُهَا بِذَهْنِهِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مُتَعَلِّقَاتِ تِلْكَ الْفُصُولِ ، وَيَكْتُبُ لِكُلِّ دِيَاوَانٍ مِنَ الدَّوَاوِينِ الْمَتَقَدِّمَةِ مَلَخَّصًا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْفُصُولِ فِي فَصْلٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ قِلَّةُ الْكَلَامِ وَكَثْرَتُهُ .

وَكَيْفِيَّةُ كِتَابَتِهِ أَنْ يَتْرَكَ مِنْ رَأْسِ الْوَصْلِ قَدْرَ ثَلَاثَةِ أَصَابِعٍ بَيَاضًا ، ثُمَّ قَدْرَ إصْبَعَيْنِ بَيَاضًا عَنْ يَمِينِهِ ، وَقَدْرَ إصْبَعَيْنِ بَيَاضًا عَنْ يَسَارِهِ ، وَيَكْتُبُ فِي صَدْرِهِ مَا مِثَالُهُ : « ذَكَرَ فُلَانٌ فِي مَكَاتِبَتِهِ الْوَارِدَةِ عَلَى يَدِ فُلَانٍ الْمُرُوحَةَ بِكَذَا وَكَذَا » يَمُدُّ لَفْظَ « ذَكَرَ » بَيْنَ جَانِبِي الْوَصْلِ ، وَيَكْتُبُ بَاقِيَ الْكَلَامِ تَحْتَهَا مِنْ أَوَّلِ الْوَصْلِ إِلَى آخِرِهِ فِي الْعَرَضِ مِنْ غَيْرِ خُلُوعِ بَيَاضٍ « أَنَّهُ آتَفَقَ مِنَ الْأَمْرِ مَا هُوَ كَذَا وَكَذَا » أَوْ « أَنَّهُ سَأَلَ فِي كَذَا وَكَذَا » . ثُمَّ يَخْلُ بَيَاضًا قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعٍ مِثْلًا وَيَكْتُبُ فِي وَسْطِ الدَّرَجِ بِخُلُوعِ بَيَاضٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، « وَذَكَرَ » عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ ، ثُمَّ يَكْتُبُ بَاقِيَ الْكَلَامِ مِنْ أَوَّلِ الْوَصْلِ إِلَى آخِرِهِ ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِكُلِّ فَصْلٍ فِي الْكِتَابِ يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ الدِّيَاوَانِ الْمُخْتَصَّ بِذَلِكَ الْمَلَخَّصِ ، وَيَكْتُبُ فِي آخِرِ كُلِّ فَصْلٍ « وَقَدْ عُرِضَ عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيفَةِ » وَ« مَهْمَا بَرَزَتْ بِهِ الْمَرَاسِيمُ الشَّرِيفَةُ كَانَ الْعَمَلُ بِمَقْتَضَاهُ » وَنَحْوِ ذَلِكَ .

ثم إن كان الملخص لديوان الإنشاء، كَتَبَ بأعلى الوصل من ظاهره من الجانب الأيسر منه مأمثاله «ديوان الإنشاء». وإن كان لديوان الجيش كتب هناك مأمثاله «ديوان الجيش». وكذا ديوان الخاص وسائر الدواوين المتقدمة الذكر. فإذا كتبت الملخصات، وقف عليها كاتب السر: فما كان منها متعلقا بديوان الإنشاء عرضه على السلطان وأستمطر جوابه عنه، فيكتب مقابله في الملخص «يُكْتَبَ بذلك» أو «يكتب بكذا وكذا» أو «رسم بذلك» أو «رسم بكذا وكذا». وما كان منها متعلقا بديوان الوزارة بعث به إلى الوزير؛ وما كان منها متعلقا بديوان الجيش بعث به إلى ناظر الجيش؛ وما كان منها متعلقا بديوان الخاص بعث به إلى ناظر الخاص: ليقرا كل منهم ملخصه على السلطان وينظر ما يأمر به فيه، فما كان كَتَبَ به بجانب الفصل الذي كُتِبَ به في الملخص «أُمِضَ ذلك» أو «لم يمض» أو «رسم بكذا وكذا» ونحو ذلك: وسائر الدواوين على هذا النمط.

وإن كان الكتاب غير عربي: فإن كان بالتركية المغلية ونحوها كالكتب الواردة عن بعض القانات من ملوك الشرق، فإنه يتولى ترجمتها من يوثق به من أخصاء الدولة: من الأمراء أو الخاصكية ونحوهم، ممن يعرف ذلك اللسان؛ ثم يقرأ ترجمته على السلطان، ويعتمد ما يأمر به في جوابه ليكتب به. وإن كان بالرومية أو الفرنجية ونحوهما من اللغات المختلفة، تُرجم على نحو ما تقدم، وتكتب ملخصه وقرئ على السلطان وأُلْمِسَ جوابه؛ وكتب كاتب السر على الملخص بما رسم فيه.

الباب الرابع

من المقالة الثالثة

(في الفَوَاتِحِ وَالْحَوَاتِمِ وَاللَّوَا حِقِ ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في الفَوَاتِحِ ، وفيه ستة أطراف)

الطَّرَفُ الْأَوَّلُ

(في البسملة ، وفيه ثلاث جُمَل)

الجملة الأولى

(في أصل الافتتاح بها)

كانت قريش قبل البعثة تكتب في أول كتبها « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ » والسبب في كتابتهم ذلك ما ذكره المسعودي في « مروج الذهب » عن جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف : كابن دأب ، وأبي عدي ، وأبي مخنف لوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكلبي : أن أُمَيَّةَ بْنَ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيَّ خرج إلى الشام في نفر من ثقيف وقريش في غيرهم ، فلما قفلوا راجعين [نزلوا منزلاً واجتمعوا لعشاءهم ، إذ] أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم فخصبها بعضهم بحجر في وجهها فرجعت ، فشدوا سفرتهم ، ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم ، فلما برزوا من المنزل ، أشرفت

(١) في الاصول وغيرهم ، وهو تصحيح والتصحيح عن المسعودي في مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ .

(٢) الزيادة عن مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ ليتضح الكلام .

(١) عليهم عجوزٌ من كَثِيبٍ رملٍ متوَكِّئَةٌ على عَصَا، فقالت : مامَنَعَكُم أن تُطْعِمُوا رَحِيمةَ
 اليتيمة الصغيرة التي باتت لطعامكم عَليلاً؟ قالوا : وما أنتِ؟ قالت أمُّ العوام، أَرَمَلْتُ
 منذُ أعوام ، أما وربَّ العباد ، ائْتَفِرَّقَنَّ في البلاد ! ثم ضربت بعصاها الأرضَ
 وأثارت بها الرملَ، وقالت : أَطِيلِي لِإِيَابِهِمْ ، وَفَرِّقِي رِكَابَهُمْ ! فوثبت الإبلُ كأنَّ على
 ذِرْوَةِ كُلِّ منها شيطاناً ، ما يَمْلِكُون منها شيئاً حتى أَفْتَرَقَتْ في الوادي ، فجمَعوها
 من آخر النهار إلى غُدْوَةٍ ، فلما أَنَاخُوا الرِّوَّاحِلَ طَلَعَتْ عليهم العجوزُ وفعلتُ
 كما فعلتُ أولاً وعادتُ لمَقَالِهَا الأول ، فخرجتِ الإبلُ كما خرجت في اليوم الأول ،
 فجمَعوها من غَدٍ . فلما أَنَاخوها ليرْحَلوها ، فعلتِ العجوزُ مثلَ فعلها في اليوم الأول
 والثاني ففَرَّتِ الإبلُ ، وأمسوا في ليلة مُقَمَّرَةٍ وَيَسُّوا من ظُهورِهِمْ ، فقالوا لأُمِّيَّةَ
 ابن أبي الصَّلْتِ : أينَ ما كُنْتَ تُخْبِرُنَا به عن نَفْسِكَ وعِلمِكَ ؟ [فقال : أَذْهَبُوا أَتَمَّ
 في طلبِ الإبلِ ودَعُونِي] . فتوجَّهَ إلى الكَثِيبِ الذي كانت تأتي منه العجوزُ حتى هَبَطَ
 من نَبِيئَتِهِ الأُخْرَى ، ثم صَعَدَ كَثِيباً آخَرَ حتى هَبَطَ منه ، ثم رَفَعَتْ له كَنِيسَةً فيها قَنَادِيلُ
 وَرَجُلٌ مُعْتَرِضٌ مُضْطَجِعٌ على بابِها ، وإذا رَجُلٌ جالسٌ أبيضُ الرأسِ واللحية ،
 قال أُمِّيَّةُ : فلَمَّا وَقَفْتُ قال لي : [إِنَّكَ لَمَتَّبِعُوع ، قُلْتُ أَجَلْ ، قال فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِيكَ
 صَاحِبُكَ ؟ قلت : مِنْ أَذُنِي اليُسْرَى . قال : فَبأَيِّ الثَّيَابِ يَأْمُرُكَ ؟ قلت : بالسَّوَادِ .
 قال : هَذَا خَطِيبُ الحَنِّ ، كَدَتَ والله أن تَكُونَهُ ولم تَفْعَلْ . إن صَاحِبَ النُّبُوَّةِ
 يَأْتِيهِ صَاحِبُهُ مِنْ قَبْلِ أَذُنِهِ اليَمْنَى ، فَيَأْمُرُهُ بِلِبَاسِ البَيَاضِ ، فإِذَا [حَاجَتُكَ ؟ فَخَدَّشَتْهُ
 حَدِيثَ العَجُوزِ . فقال : هِيَ أَمْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ هَلَكَ زَوْجُهَا منذُ أعوام ، وإِنها لَن تَزَالَ

(١) في المسعودي ج ١ ص ٣٣ "رحمة الجارية اليتيمة" وفي الاغانى "رحمة" بالجيم .

(٢) الزيادة عن الأغاني .

(٣) الزيادة عن المسعودي ج ١ ص ٣٤ ، وهو على هذا النحو في الاغانى .

تَفْعَلْ بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى تُهْلِكَكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعَتْ - قَالَ أُمِيَّةُ : قُلْتُ فَمَا الْحِيلَةُ ؟ - قَالَ :
 أَجْمَعُوا ظَهْرَكُمْ فَإِذَا جَاءَتْكُمْ وَفَعَلْتَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ ، فَقُولُوا سَبْعًا مِنْ فَوْقُ وَسَبْعًا مِنْ
 أَسْفَلُ ” بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ “ ، فَإِنَّا لَنْ تَضُرَّكُمْ . فَرَجَعَ أُمِيَّةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قِيلَ لَهُ
 وَجَاءَتْهُمْ الْعَجُوزُ فَفَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ فَقَالُوا سَبْعًا مِنْ فَوْقُ وَسَبْعًا مِنْ أَسْفَلُ بِاسْمِكَ
 اللَّهُمَّ فَلَمْ تَضُرَّهُمْ . فَلَمَّا رَأَتْ الْإِبِلَ لَا تَحْرُكُ ، قَالَتْ : قَدْ عَلِمْتُمْ صَاحِبَكُمْ ،
 لِيُبَيِّضَنَّ اللَّهُ أَعْلَاهُ وَلِيَسْوَدَّ أَسْفَلَهُ . وَسَارُوا فَلَمَّا أَدْرَكَهُمْ الصَّبْحُ ، نَظَرُوا إِلَى أُمِيَّةَ
 قَدْ بَرِصَ فِي غُرَّتِهِ وَرَقَبَتِهِ وَصَدْرِهِ وَأَسْوَدَّ أَسْفَلَهُ . فَلَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ ذَكَرُوا هَذَا
 الْحَدِيثَ ، فَكَتَبَتْ قُرَيْشٌ فِي أَوَّلِ كُتُبِهَا ” بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ “ فَكَانَ أَوَّلَ مَا كَتَبَهَا أَهْلُ
 مَكَّةَ وَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

قال إبراهيم بن محمد الشيباني : ولم تزل الكُتُبُ تُفْتَحُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فَاسْتَفْتَحَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَارَتْ سُنَّةً بَعْدَهُ . وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ ،
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَكْتُبُ كَمَا تَكْتُبُ قُرَيْشٌ ” بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ “
 حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ . فَكَتَبَ بِاسْمِ اللَّهِ ،
 حَتَّى نَزَلَ ﴿ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ . فَكَتَبَ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ » حَتَّى نَزَلَ
 ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فَكَتَبَ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .
 وَذَكَرَ فِي ” مَوَادِّ الْبَيَانِ “ نَحْوَهُ .

وعن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَكْتُبَ شَيْئًا حَتَّى يَكْتُبَ
 « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » . وَعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَكْتُبَ

كُتِبَ أَوْ غَيْرِهِ حَتَّى يَبْدَأَ بِـ«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : لَا يَصْلُحُ كِتَابٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَوَّلُهُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

وهذه الأحاديث والآثار كلها ظاهرة في استحباب الابتداء بالبسملة فيما يُكْتَبُ به من أصناف المكاتبات والولايات وغيرها ، وعلى ذلك مصطلح كُتِبَ الإنشاء في القديم والحديث ، إلا أنهم قد اصطَلَحُوا على حذفها من أوائل التواقيع والمراسيم الصغار ، كالتي على ظهور القصاص ونحوها ، وكأنهم أخذوا ذلك من مفهوم ما رواه أبو داود وابن ماجه في سُنَنِهما وأبو عَوَانَةَ الأَسْفَرَايِينِي في مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يَبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ» ، يَعْنِي نَاقِصَ الْبَرَكَةِ ، وَمَا يُكْتَبُ فِي التَّوَاقِيْعِ وَالْمَرَّاسِيمِ الصَّغَارِ لَيْسَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهْمَّةِ فَنَاسَبَ تَرْكُ الْبِسْمِلَةِ فِي أَوَّلِهَا . لَكِنْ قَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْمَدَائِنِي فِي كِتَابِ «الْقَلَمِ وَالِدَوَاءِ» أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ كَرِهُوا حَذْفَ الْبِسْمِلَةِ مِنَ التَّوَاقِيْعِ وَالسَّرَاحَاتِ وَذَمُّوه . وَقَدْ كَانَ الْقَاضِي علاء الدين الكركي كاتب السر في الدولة الظاهرية «برقوق» في أول سلطته الثانية أمر بأن يُكْتَبَ فِي أَوَّلِهَا بِسْمِلَةٌ بِقَلَمٍ دَقِيقٍ ، ثُمَّ بَطَلَ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَبَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا . ثُمَّ قَدْ اخْتَلَفَ فِي كِتَابَتِهَا أَمَامَ الشَّعْرِ : فَذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالزُّهْرِيُّ إِلَى مَنْعِ ذَلِكَ ، وَذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ إِلَى جَوَازِهِ . وَيُرْوَى مِثْلُهُ عَنْ أَبِي عُبَاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ فِي «صِنَاعَةِ الْكُتَابِ» : وَرَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ سَلِيمَانَ يَمِيلُ إِلَيْهِ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْمَدَائِنِي : وَلَا بَأْسَ إِنْ يَكُنْ بَيْنَ الشَّعْرِ وَبَيْنَهَا كَلَامٌ ، مِثْلَ أَنْشَدَنِي فَلَانُ الْفُلَانِيَّ وَشَبَّهُ ذَلِكَ ، فَأَمَا أَنْ يَصْلَهُ بِهَا فَلَا يَجُوزُ .

(١) في الاصول أن يكون ولكن بأباه المعنى وبقيّة الكلام تأمل .

الجملة الثانية

(في الحث على تحسينها في الكتابة وما يجب من ترتيبها في الوضع)

أما الحث على تحسينها في الكتابة، فينبغي للكاتب أن يُبالغ في تحسينها في الكتابة ما استطاع تعظيماً لله تعالى . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَتَبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَحَسَنَهُ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ » . وعن واصل مولى أبي عيينة قال : سمعت حمادا يقول : كانوا يُجِبُّونَ أَنْ يُحَسِّنَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .



وأما ما يجب من ترتيبها ، فأقول ما يجب من ذلك إطالة الباء لتدل على الألف المحذوفة منها لكثرة الاستعمال ، ثم إثبات السين بأسانها الثلاث ، غير مُرسِل لها إرسالاً كما يفعله بعض الكُتَّاب فقد كره ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزيد بن ثابت والحسن وابن سيرين ، حتى يروى أن عمر رضي الله عنه ضرب كتاباً على حذف السين منها - فقليل له : فيم ضربك عمر ؟ - فقال : في سين ، بخرى مثلاً . ويروى أن غلاماً لعمر بن عبد العزيز كتب إليه من مصر كتاباً ولم يجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا ، فكتب إليه عمر يأمره بالقدوم عليه ، فلما قدم قال : أجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا وأنصرف إلى مصر . وكذلك لا يمد الباء قبل السين ثم يكتب السين بعد المدة ، كما يفعله بعض كُتَّاب المغاربة فقد روى محمد ابن عمر المدائني من حديث شعيب بن [أبي] الأشعث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا كَتَبَ أَحَدُكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَلَا يَمُدُّهَا قَبْلَ السَّيْنِ . » يعني الباء وعن ليث عن مجاهد يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم نحوه . ويروى مثله عن ابن عمر ، وابن سيرين . وعن عبد العزيز بن عبد الله وعبد الله بن دينار وغيرهما

أن العلماء كانوا يَكْرَهُونَ ذلك وَيَهْوُونَ عنه أَشَدَّ النَّهْيِ حَتَّى رُوِيَ عن الضَّحَّاكِ
 أَبْنِ مَزَاحِمٍ أَنَّهُ قَالَ : وَدِدْتُ أَنِّي لَوْ رَأَيْتُ الْأَيْدِيَ تُقَطَّعَ فِيهِ . نَعَمْ يَسْتَحَبُّ الْمَدَّيْنِ
 السَّيْنِ وَالْمِيمِ كَمَا هُوَ عَادَةُ كُتَّابِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَهْلِ الْمَشْرِقِ . وَكَذَلِكَ اسْتَحْسَنُوا مَدَّ الْحَاءِ
 مِنَ الرَّحْمَنِ قَبْلَ الْمِيمِ وَقَالُوا : إِنَّهُ مِنْ حُسْنِ الْبَيَانِ ، حَتَّى يَرَوْنَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 كَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ إِذَا كَتَبَ أَحَدُكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَلْيَمُدَّ الرَّحْمَنَ . وَهَذَا مِمَّا
 يَتَعَاطَاهُ كُتَّابُ الْمَغْرِبِ دُونَ كُتَّابِ مِصْرَ وَأَهْلِ الْمَشْرِقِ . أَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ
 التَّحْسِينِ فَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْخَطِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الجملة الثالثة

(فِي بَيَانِ مَوْضِعِهَا مِنَ الْمَكْتُوبِ ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْرَانِ)

الأمر الأول

(تَقَدُّمُهَا فِي الْكِتَابَةِ)

فِيَجِبُ تَقْدِيمُهَا فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ الْمَقْصُودِ : مِنْ مَكَاتِبَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ أَوْ مَنْشُورٍ إِقْطَاعِ
 أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، تَبَرُّكًا بِالْإِبْتِدَاءِ بِهَا وَتَيَمُّنًا بِذِكْرِهَا ، عَمَلًا بِالْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْجُمْلَةِ
 الْأُولَى . عَلَى أَنَّهُ قَدْ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بَلْقَيْسَ حِينَ أُلْقِيَ إِلَيْهَا
 كِتَابُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتَوْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ : فَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ
 ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ مِنْ كَلَامِ بَلْقَيْسَ ، وَإِنَّمَا حَكَتِ الْكِتَابَ بِقَوْلِهَا : وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

(١) قَدْ مَضَى الْكَلَامُ عَلَى الْخَطِّ فِي أَوَائِلِ الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَبَيْنَ هُنَاكَ أَوْضَاعَ الْبَسْمَلَةِ وَكَيْفِيَّةَ

كِتَابَتِهَا أَوْضَحَ بَيَانٌ فَلَعَلَّ مَا هُنَا سَهَوَ عَنْهَا فَات .

الرحمن الرحيم إلى آخر الآية، فيكون ابتداء الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، ويكون ذلك احتجاجاً على وجوب تقديمها . وذهب آخرون إلى أن قوله ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بداية كتاب سليمان، فيكون سليمان عليه السلام قد بدأ في كتابه باسمه . فإن قيل كيف ساع على ذلك تقديم اسمه على اسم الله تعالى في الذِّكْر مع أن الأنبياء عليهم السلام أشد الناس أدباً مع الله تعالى؟ فالجواب ما قيل: إنه كان عادة ملوك الكُفَر أنه إذا ورد عليهم كتاب بما يكرهون ربما مرَّ قوا أعلاه أو تفلَّوا فيه، فجعل سليمان عليه السلام اسمه تَقِيَّةً لِأَسْمِ الله تعالى فذكره أولاً . ومن هنا أصطلح الكُتَّاب في الكُتُب الصادرة عن ملوك الإسلام إلى ملوك الكُفَر بكتابة ألقاب الملوك المكتوب عنه في وصل فوق البسملة، تأسياً بسليمان عليه السلام .

أما ما يُكْتَب في طُرَّة الولايات من العهود والتقاليد وغيرها، فإنه في الحقيقة جُزء من المكتوب، فلا يُوصَف بأنه شيءٌ مقدَّم على البسملة . وأما الطغرة التي كانت تُوضَع في مناشير الإقطاعات في وَصَلٍ بين وصل الطُّرَّة والبسملة فيها ألقابُ السُلطان على ما سيأتى في الكلام على كتابة المناشير في موضعه إن شاء الله تعالى، فإنها كتابةٌ أجنبيةٌ مكتوبةٌ بخطِّ غير الكاتب فلم تُنسَب في الحقيقة إلى التقديم . على أن ذلك قد بطل في زماننا . وهاتان المسئلتان المتعلقتان بالطغرة المكتوبة في المناشير ومكاتبات أهل الكفر مما سأل عنه الشيخُ جمالُ الدين بن نباتة في رسالته التي كتبها إلى كُتَّاب ديوان الإنشاء بالشام، في مباشرة الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، حين بلغه أن بعضهم وقع فيه .

الأمر الثاني

(إفرادها في الكتابة)

قال محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" : ينبغي للكاتب أن يُفرد البسملة في سطر وحدها، تجيلاً لأسم الله تعالى وإعظاماً وتوقيراً له ؛ ثم ساق بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "نهى أن يُكتب في سطرٍ بسم الله الرحمن الرحيم غيرها". وعلى هذه الطريقة جرى دُكَّاب الإنشاء في مكاتبتهم وسائر ما يصدر عنهم . أما النُسخا وكُتَّاب الوثائق فربما كتبوا بعدها في سطرها « الحمد لله » أو « الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم » ونحو ذلك . وكذلك يكتبُ القضاةُ « الحمد لله » في علامات الثبوت في المكاتيب الشرعية .

الطرف الثاني

(في الحمدلة)

لما كان الحمد مطلوباً في أوائل الأمور طلباً للتيمن والتبرك ، عملاً بما رواه الراؤون لحديث البسملة المتقدم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه بحمدِ الله فهو أجَدُّ » . اصطُح الكُتَّاب على الابتداء به في الكثير مما يكتبونه من المكاتبات والولايات وغيرها مما له شأنٌ وبال : كمكاتبات أكثر الملوك من قانات الشرق ، وكل ما تضمن نعمة من المكاتبات ونحو ذلك ، وكالبيعات والعهود والتقاليد على رأي من يرى افتتاحها بالخطب ، وغير ذلك مما يأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . بل ربما كُتِّروا الحمد المرات المتعددة إلى السبع في الخطبة الواحدة ، على ما سيأتي ذكره في موضعه

إن شاء الله تعالى . وأتوا بالحمد لله بعد البسملة تأسيساً بكتاب الله تعالى ، من حيث إن البسملة آية من الفاتحة كما هو مذهب الشافعي رضي الله عنه ، أو فاتحة لها - وإن لم تكن منها - كما هو مذهب غيره . أما سائر المكتبات والولايات المفتحة بغير الحمد ، فإنما حذف منها الحمد استصغاراً لشأنها ، إذ كان الابتداء بالحمد إنمّا يكون في أمرٍ له بال دل عليه الحديث المتقدم ، وسيأتي الكلام على كل شيء من ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى . قال في "الصناعتين" : وإنما أفتتح الكلام بالحمد لأن النفوس تتشوّف للثناء على الله تعالى ، والافتتاح بما تتشوّف النفوس إليه مطلوب . وربما أتى الكتاب بالحمد بعد البسملة : « فكتبوا » أما بعد حمد الله ، أو « أما بعد فالحمد لله » فأما الصيغة الأولى فالحمد مقدّم فيها معنى وإن لم يذكر لفظاً لأن قوله أما بعد حمد الله يقتضى تقدّم حمد الله ، وأما الصيغة الثانية فإنها تقتضى تقدّم شيء على الحمد ، ولا شك أن المقدّم هنا هو البسملة على ما سيأتي في الكلام على أما بعد فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثم قد يستعمل الحمد بصيغة الفعل كقولهم في المكتبات : إني أحمد إليك الله . وقد اختلف في أيّ الصيغتين أبلغ : صيغة الحمد لله ، أو صيغة أحمد الله : فذهب المحققون إلى أن صيغة الحمد لله أبلغ : لما فيها من معنى الاستغراق والثبوت والاستمرار على ما هو مقرر في علم المعاني . وذهب ذاهبون إلى أن صيغة أحمد الله أبلغ : لأن القائل الحمد لله حاكٍ لكون الحمد لله ، بخلاف القائل أحمد الله فإنه حامدٌ بنفسه ، ولذلك يُرتى بالتحميد ثانياً في الخطب بصيغة الفعل .

وله في الاستعمال ثلاث صيغ :

الصيغة الأولى — «يُحْمَدُهُ أمير المؤمنين» فيما إذا كان ذلك صادراً عن الخليفة في مكتبة أو غيرها .

الصيغة الثانية — «نُحْمَدُهُ» إما بنون الجمع الحقيقية كما إذا كان ذلك صادراً عن (١) ... مثل أن يؤتى بذلك في بيعة خليفة أو نحوها، أو بنون الجمع للتعظيم كما إذا كان ذلك صادراً عن السلطان نحو ما يقع في خطب التقاليد والتواقيع في زماننا .

الصيغة الثالثة — «أَحْمَدُهُ» بلفظ الإفراد، كما إذا كان ذلك صادراً عن واحد فقط حيث لا تعظم له .

الطرف الثالث

(في التشهد في الخطب)

قد جرت عادة المتأخرين بالإتيان بالتشهد بعد التمجيد في الخطب ويكون تابعا لصيغة التمجيد : فإن كان قد قيل يحمدُهُ أمير المؤمنين ، قيل بعده : وَيَشْهَدُ ؛ وإن كان قد قيل نُحْمَدُهُ ، قيل بعده : وَنَشْهَدُ ؛ وإن كان بعد حمد الله ، قيل والشهادة له بالجزء عطفًا على حمد . على أن الخطب الموجودة في مكاتبات المتقدمين لا تشهد فيها . ومستند المتأخرين في ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وصححه البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشْهَدُ فِيهِ كَالْيَدِ الْجَدْمَاءُ» .

(١) بياض في الأصول ولعله «عن متعددين» .

الطـرف الرابع

(في الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله

وصحبه في أوائل الكتب)

لا نزاع في أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلوبة في الجملة ، وناهيك في ذلك قوله تعالى في مُحْكَم التَّزِيلِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ والأحاديث الواردة في الحث على ذلك أكثر من أن تُحْصَرَ ، فناسب أن تكون في أوائل الكتب ، تيمناً وتبرُّكاً . وقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أن المعنى ما ذُكِّرْتُ إِلَّا وَذُكِّرْتَ معي . فإذا أُتِيَ بالحمد في أول كتاب ، ناسب أن يُؤْتَى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أوله ، إتياناً بذكره بعد ذكر الله تعالى . وقد روى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الصَّلَاةُ جَارِيَةً لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ ” . قال الشيخ عماد الدين في تفسيره : إلا أنه ضعيف ، ضعفه المحدثون . قال محمد بن عمر المدائني في ” كِتَابِ الْقَلَمِ وَالِدَوَاءِ ” : وقد رأينا بعض الكتب لا يرى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب ، فباءوا بأعظم الوزر مع ما فاتهم من الثواب .

وأما السلام عليه صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة ، فقد قال الشيخ محي الدين النووي في كتابه ” الأذكار ” : وإذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليَجْمَعْ بين الصلاة والتسليم ولا يَقْتَصِرْ على أحدهما فلا يقال صلى الله عليه فقط ، ولا عليه

السلام فقط . قال الشيخ عماد الدين بن كثير : وهذا منتزع من قوله تعالى :
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ الآية .

وأما الصلاة على الآل والصحب بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد
 نقل الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره الإجماع على جواز الصلاة على غير الأنبياء
 عليهم السلام بطريق التبعية ، مثل أن يقال : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله
 وصحبه وأزواجه وذريته ونحو ذلك . ثم قال : وعلى هذا يخرج ما يكتبونه من قولهم :
 وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه فلا نزاع فيه ، وإنما الخلاف في جواز إفراد
 غير الأنبياء عليهم السلام بالصلاة : فأجازه قوم محتجين بنحو قوله تعالى :
 ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : ” اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى “ . ومنعه
 آخرون احتجاجاً بأن الصلاة صارت شعاراً للأنبياء عليهم السلام فلا يلحق بهم
 غيرهم ، فلا يقال : أبو بكر صلى الله عليه وسلم وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال :
 محمد عز وجل ، وإن كان عزيزاً جليلاً .

ثم الصحيح من مذهب الشافعي رضي الله عنه أن ذلك لا يجوز في غير التبعية .
 وحكى النووي في ” الأذكار “ فيه قولاً بأنه كراهة تحريم ، وقولاً بأنه كراهة تنزيه ،
 وقولاً بأنه خلاف الأولى ، ورجح كونه كراهة تنزيه ، لأنه شعار أهل البدع .

وأما السلام على غير الأنبياء ، فحكى النووي عن أبي محمد الجويني منعه في الغائب
 من حي وميت وأنه لا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : على عليه السلام ، بخلاف
 الحاضر فإنه يُحاطَب به .

إذا علمت ذلك فالصلاة وتوابعها في أوائل الكتب قد تكون بعد التحميد في الخطبة
 كما في الولايات [والمكاتبات] المفتحة بالخطب من البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض

والتواقيع والمراسيم وغيرها، وكما في الكتب المفتحة بالخطب. وقد تكون في صدور المكاتبات المفتحة بغير الخطب، كما كان يكتب في القديم في صدور المكاتبات « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وهو مما أحدثه الرشيد في المكاتبات . قال في " ذخيرة الخُطاب " : وكان ذلك من أجل مناقبه . وكان الخلفاء الفاطميون بمصر يقولون عن لسان الخليفة : ويسأله أن يصلى على جدّه محمد، ويخصون الصلاة بعده بأمر المؤمنين على رضى الله عنه على طريقة الشيعة .

الطرف الخامس

(في السلام في أول الكتب)

إنما جعل السلام في ابتداء الكتب وصدورها لأنه تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب ، فكما أنه يفتتح به الكلام طلباً للتأليف كذلك تفتتح به المكاتبات وتصدر طلباً للتأليف ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُنبئُكُمْ بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفسّوا السلامَ بينكم » . قال في " الصناعتين " : وتقول في أول كتابك : « سلامٌ عليك » وفي آخره « والسلامُ عليك » والمعنى فيه أن الأول نكرة إذ لم يتقدم له ذكر والثاني معرفة يشار به إلى السلام الأول على حدّ قوله تعالى : ﴿ كما أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ فأتى في الأول بتذكير الرسول وفي الثاني بتعريفه . وكذلك قال تعالى في سورة مريم في قصة يحيى عليه السلام : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ لعدم تقدم ذكر السلام ؛ ثم قال بعد ذلك في قصة عيسى عليه السلام : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ وإلى ذلك يشير أحمد بن يوسف بقوله : اكتب في أول كتابك

سلام عليك وأَجْعَلُهُ تَحِيَّةً ، وفي آخره « والسلام عليك » وأَجْعَلُهُ وَدَاعًا . وذلك أن سلام التحية يكون ابتداءً فيكون نكزةً ، وسلام الوداع يكون انتهاءً فيكون معرفةً لرجوعه إلى الأول . وقد كره بعض العلماء أن يقال في الابتداء : عليك السلام ، احتجاجاً بما روى عن أبي مُكْحِمٍ الأَسَدِيِّ أنه قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشدته :

يَقُولُ أَبُو مُكْحِمٍ صَادِقًا : * عَلَيكَ السَّلَامُ أَبَا الْقَاسِمِ !

فقال : يا أبا مُكْحِمٍ عليك السلامُ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى . وجعل ابن حاجب النعمان من ذلك قول عَبْدَةَ بْنِ الطَّيِّبِ :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ * وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

قال ابن حاجب النعمان : ويكتبُ السلامُ بأسقاط الألف في صدر الكتاب وعجزه . قال أبو جعفر النحاس : وقولهم في أول الكتاب سلامٌ عليك ، بالرفع ويجوز فيه النصب والاختيارُ الرفع وإن كان النجاة قد قالوا : إِنَّ مَا كَانَ مُشْتَقًّا مِنْ فِعْلٍ فَالْإِخْتِيَارُ فِيهِ النَّصْبُ نَحْوُ قَوْلِكَ سَقِيًّا لَكَ : لِأَنَّ مَعْنَى 'السلام في الرفع أَعْمُ' ، إذ ليس يريدُ أَفْعَلُ فَعَلًا ، فيكون المعنى 'تَحِيَّةٌ عَلَيْكَ بِنَصْبِ تَحِيَّةٍ' . وقيل : سلامٌ عليك بمعنى سلامٌ لك . وسيأتي الكلامُ على إِتِّبَاعِ السَّلَامِ الرَّحْمَةَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْخَوَاتِمِ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطَّرَفُ السَّادِسُ

(في أما بعد)

اعلم أن « أما بعد » تُستعمل في صُذور المكاتبات والولايات وربما استُعملت في ابتدائها . وهي مركبة من لفظين أحدهما أما والثاني بعد . فأما « أما » خرف شرط و « بعد » ظرف زمان إذا أُفرد نبي على الضم ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ وأجاز الفراء أما بعداً بالنصب والتنوين ، وأما بعد بالرفع والتنوين . وأجاز هشام أما بعد بفتح الدال ومنعه النحاس وقال : إنه غير معروف .

ثم أما تقع في كلام العرب لتوكيد الخبر ، والفاء لازمة لها : لتصل ما بعدها بالحرف الملاصق لما قبلها ، فتقول أما بعد أطل الله بقاءك ! فإنني قد نظرت في الأمر الذي ذكرته . ويجوز أما بعد فاطال الله بقاءك إني نظرت في ذلك ، فتثبت الفاء في أطل وإن كان معترضا لقربه من أما ، ويجوز أما بعد فاطال الله بقاءك فإنني نظرت ، ويجوز أما بعد ثم أطل الله بقاءك فإنني نظرت حكى ذلك كله النحاس ، ثم قال : وأجودها الأول وهو اختيار النحويين . قال : وأجود منه أما بعد فإنني نظرت أطل الله بقاءك . فان أضيفت بعد إلى ما بعدها فتحت فتقول أما بعد حمد الله ونحو ذلك . قال في « ذخيرة الكتاب » وإذا كانت بعد البسملة فمعناه أما بعد قولنا « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد كان كذا وكذا .

وقد اختلف في أول من قال أما بعد : فقيل داود عليه السلام ، وبه فُسر فصل الخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَآيَاتُهُ الْحِكْمَةُ وَفَصَلِّ الْخِطَابِ ﴾ على أحد الأقوال ، وقيل أول من قالها كعب بن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل أول من قالها قس بن ساعدة الإيادي . قال سيويه : ومعناها مهما يكن من شيء .

الفصل الثاني

(في الخَوَاتِمِ وَاللَّوَاخِيقِ ، وفيه سبعة أطراف)

الطرف الأول

(في الاستثناء بالمشيئة : بأن يَكْتُبُ إن شاء الله تعالى ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في الْحَثِّ عَلَى كِتَابَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى)

اعلم أنه يُسْتَحَبُّ للكاتب عند آتِهاء ما يَكْتُبُهُ : من مَكَاتِبٍ أَوْ وِلَايَةٍ أَوْ غَيْرِهَا أن يكتب " إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى " تبركا ورغبة في نجاح مَقْصِدِ الْكِتَابِ ، فقد ورد الْحَثُّ عَلَى التَّعْلِيقِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالنَّدْبِ إِلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . وَذَمَّ قَوْمًا [عَلَى تَرْكِ الْإِسْتِثْنَاءِ] فَقَالَ : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْحُنَّ مِنْهَا مُصْحِحِينَ وَلَا يَسْتَنْوُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ . قَالَ أَصْحَابُ السَّيْرِ : كَانَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْخُذُ مِنْهَا قُوَّتَ سَنَتِهِ وَيَتَصَدَّقُ بِالْبَاقِي ، وَكَانَ يَتْرُكُ لِلْسَّاكِينِ مَا أَخْطَأَ الْمِنْجَلُ مِنَ الزَّرْعِ أَوْ الْقَطَافِ مِنَ الْعِنَبِ وَالنَّخْلِ وَمَا بَقِيَ عَلَى الْبَسَاطِ الَّذِي يُسَيِّطُ تَحْتَ النَّخْلَةِ ، فَلَمَّا مَاتَ شَجَّ بَنُوهُ عَلَى الْمَسَاكِينِ بِمَا كَانَ يَتْرُكُهُ أَبُوهُمْ وَحَلَفُوا عَلَى قَطْعِهَا فِي الْغَلَسِ كَيْلًا يُدْرِكُهُمُ الْفُقَرَاءُ ، فَأَصَابَتْهَا نَارٌ فِي اللَّيْلِ فَاحْتَرَقَتْ وَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ يَعْنِي الدَّلِيلَ الْمُظْلِمَ . قَالَ الْمَفْسُورُونَ : وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴾ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . قَالَ الرَّخْمَشَرِيُّ :

وُسِّمَى آسْتِثْنَاءً وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى الشَّرْطِ لِأَنَّهُ يُؤَدِّى مُؤَدِّى الْآسْتِثْنَاءِ مِنْ حَيْثُ إِنْ مَعْنَى قَوْلِكَ لَا تُخْرِجَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا أُخْرِجَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاحِدٌ .


وَأَعْلَمُ أَنَّ الْآسْتِثْنَاءَ لَا يَدْخُلُ عَلَى مَاضٍ فَلَا يَقَالُ مَا فَعَلْتَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَى مُسْتَقْبَلٍ فَتَقُولُ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّوْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا فِيهِ مَعْنَى الْآسْتِثْنَاءِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ .

أَمَّا مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ بِلَفْظِ الْمُخَيِّ مِثْلَ قَوْلِ أَقَائِلٍ لَزَوْجَتِهِ أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَإِنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقْبَلًا لَفْظًا ، فَإِنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ مَعْنَى ، إِذْ مَعْنَاهُ الْإِنْشَاءُ وَإِلَّا مَا وَقَعَ بِهِ الطَّلَاقُ . إِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ ، فَلَفْظُ ”إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى“ فِي آخِرِ الْمَكَاتِبَةِ أَوَّلِ الْوَلَايَةِ وَنَحْوِهِمَا يَكُونُ مَعْلَقًا بِآخِرِ الْمَكْتُوبِ مِمَّا يَنْسَبُ ذَلِكَ ، كَتَعَلُّقِهَا بِالتَّأْيِيدِ مِنْ قَوْلِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

الجملة الثانية

(فِي مَحَلِّ كِتَابَتِهَا وَصُورَةٍ وَضَعَهَا فِي الدَّرَجِ)

لَا نِزَاعَ فِي أَنَّهَا أَوَّلُ خَاتَمَةٍ تُكْتَبُ مِنْ خَوَاتِمِ الْمَكْتُوبِ ، فَحَالُهَا مِنَ الدَّرَجِ أَسْفَلُ الْمَكْتُوبِ ، فِي وَسْطِ الْوَصْلِ ، مَكْتَنَفَةٌ بِلَيَاضٍ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّطْرِ الْآخِرِ مِنَ الْمَكْتُوبِ كَمَا بَيْنَ سَطْرَيْنِ أَوْ دُونَهُ .

وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْكُتَّابِ فِي كِتَابَتِهَا بِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ كَمَا فِي الْقِطْعِ الصَّغِيرِ ، كَتَبَتْ مَعْلَقَةً مُسَلَّسَةً عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ  أَوْ مَا قَارِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَلَمِ

جليل كالثلث ونحوه ، كُتِبَتْ واضحة مبينة ، والغالب فيها أن تكون على هذه الصورة ان شاء الله تعالى قال جمال الدين بن شيث في "معالم الكتابة" : ولا يُضَيَّف الكاتب إليها شيئاً في سطرها ، بل تكون مفردة في سطرٍ واحد .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(في التاريخ ، وفيه ثمانُ جمل)

الجملة الأولى

(في معناه)

وقد اختلف في أصل لفظه : فذهب قوم إلى أنه عربيّ ، وأن معناه نهاية الشيء وآخره ، يقال فلانٌ تاريخُ قومه إذا انتهى إليه شرفهم ، وعليه يدلُّ كلامُ صاحب "موادّ البيان" وابنِ حاجب النعمان في "ذخيرة الكتاب" ونقل الشيخ علاء الدين بن الشاطر في "زيجيه" عن بعض أهل اللغة أن معناه التأخير فيكون مقلوباً منه . وذهب آخرون إلى أنه فارسيّ ، وأن أصله «ماه زور» فعزّب مورخ ، ثم جعل اسمه التاريخ ، وإليه يرجع كلام السلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله في تاريخه ، ويقال منه أرخت وورخت بالهمزة والواو لغتان ، ولذلك قالوا في مصدره تأريخ وتؤريخ ، كما يقال تأكيد وتوكيد . قال في "ذخيرة الكتاب" : أرخت لغة قيس ، وورخت لغة تميم . قال أبو هلال العسكري في كتاب "الأوائل" : ولا تكاد ورخت تستعمل اليوم ، وكأنت الكتاب كانوا قد رفضوا هذه اللغة في زمانه وإلا فهي لغة مستعملة إلى الآن ، إلا أنها لما غلبت في ألسنة العوام

ابْتَدَلْتُ . قال الشيخ « أثير الدين أبو حيان » في شرح التسهيل : والتاريخ هو عدد الليالى والأيام بالنظر إلى ما مضى من السنة أو الشهر وإلى ما تبقى منهما ، قال في ”مواد البيان“ : وهو محقق للخبير ، دالٌّ على قُرب عهد الكتاب وبعده .

الجملة الثانية

(فى وجه الاحتياج إليه)

قال محمد بن عمر المدائنى فى كتاب ” القلم والدواة “ : أجمعت العلماء والحكماء والأدباء والكتّاب والحساب على كتابة التاريخ فى جميع المكتبات . قال صاحب ” نهاية الأرب “ : ولا غنى عنه ، لأن التاريخ يُستدلُّ به على بُعد مسافة الكتاب وقُرْبها ، وتحقيق الأخبار على ما هى عليه . وقد قال بعض أئمة الحديث : لما استعملوا الكذب استعملنا لهم التاريخ . وقد اصطلح الكتّاب على أنهم يؤرّخون المكتبات والولايات ونحوها مما يصدر عن الملوك والثّواب والأمرء والوزراء وقضاة القضاة ومن ضاهاهم ، بخلاف المكتبات الصادرة عن آحاد الناس ، فإنه لم تجرِ العادة فيها بكتابة تاريخ .

الجملة الثالثة

(فى بيان أصول التواريخ)

قال القضاعى فى ” عيون المعارف فى تاريخ الخلائف “ : كانت الأئمة السالفة تُؤرّخ بالحوادث العظام وبملك الملوك : فكان التاريخُ بهبوط آدم عليه السلام ، ثم بمبعث نوح ، ثم بالطوفان ، ثم بنار إبراهيم عليه السلام .

ثم تفرق بنو إبراهيم : فأرخ بنو إسحاق بنار إبراهيم إلى يوسف ، ومن يوسف إلى مبعث موسى عليه السلام ، ومن موسى إلى ملك سليمان عليه السلام . ثم بما كان من الكوائن . ومنهم من أرخ بوفاة يعقوب عليه السلام ، ثم بخروج موسى من مصر بني إسرائيل ، ثم بحراب بيت المقدس .

وأما بنو إسماعيل ، فأرخوا ببناء الكعبة ، ولم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقت بنو معد ، وكان كلما خرج قوم من تهامة أرخوا بخروجهم . ثم أرخوا بيوم الفجار ، ثم بعام الفيل .

وكان بنو معد بن عدنان يؤرخون بغلبة جرهم العالقي وإخراجهم إياهم من الحرم . ثم أرخوا بأيام الحروب : كحرب بني وائل ، وحرب البسوس ، وحرب داحس .

وكانت خمير وكهلان يؤرخون بملوكهم التبابعة ، وبنار ضار : وهي نار ظهرت ببعض حراب اليمن ، وبسيل العرم ، ثم أرخوا بظهور الحبشة على اليمن .

وأما اليونان والروم ، فكانوا يؤرخون بملك مختصر ، ثم أرخوا بملك دقلطيانوس القبطي .

وأما الفرس فكانوا يؤرخون بآدم عليه السلام ، ثم أرخوا بقتل دارة وظهور الإسكندر عليه ، ثم بملك زدرج . والذي ذكره السلطان عماد الدين صاحب حمة في تاريخه في دائرة اتصال التواريخ القديمة بالهجرة عشرون تاريخاً ، ذكر ما بينها وبين الهجرة من السنين ، إلا أنه لم يراع الترتيب في بعضها ، وأهمل منها تاريخ زدرج لوقوعه بعد الهجرة .

وبالجملة فالتواريخ على قسمين :

القسم الأول

(ما قبل الهجرة ، وقد أوردت منه تسعة عشر تاريخاً)

الأول — من هبوط آدم عليه السلام . وقد اختلف فيما بينه وبين الهجرة اختلافًا فاحشًا : فمقتضى ما في التوراة اليونانية على اختيار المؤرخين أن بينهما ستة آلاف سنة ومائتين وست عشرة سنة ، وعلى اختيار المنجمين أن بينهما خمسة آلاف وسبع مائة وتسعا وستين سنة .

ومقتضى ما في التوراة السامرية على اختيار المؤرخين خمسة آلاف ومائة وسبع وثلاثون سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص عن ذلك .

ومقتضى ما في التوراة العبرانية ، على اختيار المؤرخين أن بينهما أربعة آلاف وسبع مائة وإحدى وأربعين سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص مائتين وتسعا وأربعين سنة .

الثاني — من الطوفان . وبينه وبين الهجرة ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وتسعون سنة على اختيار المؤرخين ، وعلى اختيار المنجمين ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسة وعشرون سنة وثلاثمائة وستة أيام .

الثالث — من تبلل الأرض . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وأربع وستون سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنة .

(١) في تاريخ أبي الفداء المطبوع وتسعمائة .

(٢) في تاريخ أبي الفداء المطبوع وأربع سنين .

الرابع — من مولد إبراهيم عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ألفان وثمانيئة وثلاث وتسعون سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنة .

الخامس — من بناء إبراهيم الكعبة . وبينه وبين الهجرة ألفان وسبعائة وثلاث^(١) وسبعون سنة .

السادس — من وفاة موسى عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ألفان وثمانيئة وثمان وأربعون سنة .

السابع — من عمارة سليمان عليه السلام بيت المقدس . وبينه وبين الهجرة ألف^(٢) وثمانمائة وستون سنة .

الثامن — من ابتداء ملك بختنصر . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وتسع وستون سنة . قال صاحب حماة : بلا خلاف .

التاسع — من تخريب بختنصر بيت المقدس . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وخمسون سنة .

العاشر — من ملك فيليبس أبى الإسكندر . وبينه وبين الهجرة تسعمائة وخمسة وأربعون سنة ومائة وسبعة عشر يوماً .

الحادى عشر — من غلبة الإسكندر على ملك فارس وقتل دارا ملك الفرس .^(٣) وبينه وبين الهجرة تسعمائة وأثنتان وثلاثون سنة ومائتان وتسعون يوماً .

(١) فى المختصر وتسعون .

(٢) فى المختصر وقريب سنتين والظاهر أنه تصحيف .

(٣) فى المختصر وأربع وثلاثون .

الثاني عشر — من مولد المسيح عليه السلام . وبينه وبين الهجرة ستمائة وإحدى وثلاثون سنة .

الثالث عشر — من ملك أرديالونص ^(١) . وبينه وبين الهجرة خمسمائة وتسع وستون سنة .

الرابع عشر — من ملك أردشير أول ملوك الأكاسرة من الفُرس . وبينه وبين الهجرة أربعمائة وأثنتان وعشرون سنة .

الخامس عشر — من نحراب بيت المقدس المرة الثانية . وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وست وأربعون سنة ^(٢) .

السادس عشر — من ملك دقلطيانوس : آخر عبدة الأصنام من ملوك الروم على القبط . وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وأحد وعشرون يوما .

السابع عشر — من غلبة أغشطش ملك الروم على قلوبطرا ملكة اليونان ومصر . وبينه وبين الهجرة مائتان وخمسون سنة ومائتان وستة وأربعون يوما ^(٣) .

الثامن عشر — من عام الفيل ، وهو العام الذي وُلِد فيه النبي صلى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاث وخمسون سنة وشهران وثمانية أيام .

(١) في المختصر أدريانس وبالجملة في المختصر المطبوع لابن الفداء ج ١ ص ١٢٥ مخالفة لما في أصولنا المخطوطة فتنبه .

(٢) في مختصر أبي الفداء ج ١ ص ١٢٥ خمسمائة وثمانية وخمسون وكان لمضى أربعين سنة من رفع المسيح .

(٣) في المختصر ستمائة واثنان وخمسون سنة وهو أشبه بالصواب لان غلبة أغشطش على قلوبطرا قبل مولد المسيح بأحدى وعشرين سنة .

التاسع عشر - من مَبِيتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وبينه وبين الهجرة
ثلاث عشرة سنة^(١) وشهران وثمانية أيام .

القسم الثاني

(ما بعد الهجرة)

وفيه تاريخ واحد ، وهو من هلاك يَزْدَجَرْدِ آخرِ ملوك الفُرس . وكان بعد الهجرة
بعشر سنين وثمانية وسبعين يوما .

الجملة الرابعة

(في أصل وضع التاريخ الإسلامي وبنائه على الهجرة دون غيرها)

وقد اختلف في أصل ذلك : فحكى أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" عن محمد بن جرير : أنه روى بسنده إلى ابن شهاب أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قَدِمَ المدينة - وقدمها في شهر ربيع الأول - أمرَ بالتاريخ . وعلى هذا فيكون ابتداء التاريخ في عام الهجرة . قال النحاس : والمعروف عند العلماء أن ابتداء التاريخ بالهجرة كان في خلافة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ثم اختلف في السبب الموجب لذلك : فذكر النحاس أن السبب فيه أن عامَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه باليمن قَدِمَ عليه فقال : أما تَوَرَّخُونَ كُنُوبَكُمْ؟ فاتَّخَذُوا التاريخَ . ووافقته على ذلك صاحب "مواد البيان" . وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أن السبب فيه أن أبا موسى الأشعريَّ كَتَبَ إلى عمر بن الخطاب

(١) في الأصل ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية أيام وهو تحريف والتصحيح من مختصر أبي الفداء .

رضى الله عنه : إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كُتِبَ لاندري على أيها نعمل قد قرأنا [كتابا منها] ^(١) محله شعبان ، فما ندري في أي الشعبانين الماضي أو الآتي ، فأحدث عمر التاريخ . وتبعه على ذلك ابن حاجب النعمان في " ذخيرة الكتاب " . وذكر صاحب حماة في تاريخه : أنه رفع إلى عمر رضى الله عنه صك محله شعبان فقال : أي شعبان ، لاندري الذي نحن فيه أم الذي هو آت ، ثم جمع وجوه الصحابة وقال : إن الأموال قد كثرت ، وما قسمناه منها غير مؤقت فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك ؟ - فقالوا : يجب أن نعرف ذلك من أمور الفرس ، فاستحضر الهرمزان وسأله - فقال : إن لنا حساباً نسميه (مآه زور) ومعناه حساب الشهور والأيام فعمل عمر التاريخ .

الجملة الخامسة

(في بيان صورة ابتدائهم وضع التاريخ من الهجرة)

قال في " ذخيرة الكتاب " : لما أراد عمر التاريخ ، جمع الناس للمشورة ، فقال بعضهم : تؤرخ بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم : بل بوفاته - وقال بعضهم : بل بهجرته من مكة إلى المدينة : لأنها أول ظهور الإسلام وقوته . فصوبه عمر واجتمع رأيهم عليه ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ولد في عام الفيل المقدم ذكره في التواريخ القديمة . قال في " ذخيرة الكتاب " : وكان وقوع ذلك في اليوم الثاني عشر من شباط سنة ثمانمائة واثنين وثمانين لذي القرنين . وبعث النبي صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة من ولادته ، وأقام بمكة بعد النبوة عشر سنين ؛ ^(٢)

(١) بياض بالاصول والصحيح من الضوء للؤلف .

(٢) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

ثم هاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول بعد عَشْرٍ^(١) من النبوة، وقَدِمَ المدينة لاثنتي عشرة ليلةً منه .

ثم بعد اتفاقهم على التأريخ من الهجرة اختلفوا في الشهر الذي تقع البُداء به : فأشار بعضهم بالبُداء برمضان لشرفه وعِظَمه - فقال عمر بن الخطاب بالحرم : لأنه مُنْصَرَفُ الناس من حَجِّهم ، فرجعوا القَهْقَرَى ثمانية وستين يوماً، وهي القدر الذي مضى من أول الحُجَرَم [إلى ذلك الوقت]^(٢) وأستقر تاريخ الإسلام من الهجرة .

قال القضاعي في "عيون المعارف" : وكان ذلك في سنة تسع عشرة أو ثمانين عشرة من الهجرة .

قلت : وأستقرت تواريخ الأمم على أربعة تواريخ ، ابتداء بعضها مقدّم على ابتداء بعض .

أولها - غلبة الإسكندر على الفرس . وعليه تاريخ السريان والروم إلى زماننا .
والثاني - ملك دقلطيانوس ملك الروم على القبط . وعليه تاريخ القبط إلى زماننا .

والثالث - الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وعليها مدار التاريخ الإسلامي .

والرابع - هلاك يزيدجرد آخر ملوك الفرس . وبه تؤرخ الفرس إلى زماننا ، وقد تقدّم بيانُ بعد ما بين تاريخ كلٍّ من غلبة الإسكندر وملك دقلطيانوس وبين الهجرة في القبليّة ، وبعْد ما بين تاريخ يزيدجرد وبين الهجرة في البعديّة في الكلام

(١) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

(٢) الزيادة من الضوء .

على أصول التواريخ، مع ما سبق في المقالة الأولى في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من ذكر مقدار سنة كل منها وعددها من الأيام، وسيأتي الكلام على استخراج بعضها من بعض فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(في كيفية تقسيم التاريخ في الكتابة بزمن معين، وهو ضربان)

الضرب الأول

(التاريخ العربي)

ومدَّاره الليالي دون الأيام: لأن سني العرب قمرية، والقمر أول ما يظهر للأبصار هلالاً في الليل، فتكون الليالي بهذا الاعتبار سابقةً لأيام، إذ اليوم عندهم عبارة عن النهار، وهو إما من طلوع الفجر على ماورده الشرع في الصوم ونحوه، وإما من طلوع الشمس على رأى المتجمين . قال أبو إسحاق الزجاجي في كتابه "المجل": وإنما حُمل على الليالي دون الأيام لأن أول الشهر ليلة، فلو حُمل على الأيام سقطت منه ليلة . قال الشيخ أنير الدين أبو حيان في "شرح التسهيل": واستغنى بالليالي عن الأيام للعلم أن مع كل ليلة يوماً، فإذا مضى عدد من الليالي مضى مثله من الأيام، فيجوز أن يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر . وقد ذكر جمال الدين عبد الرحيم ابن شيث في كتابه "معالم الكتابة": أن كتب السلطان والأعيان تؤرخ بالليالي، والكتب من الأدنى إلى الأعلى تؤرخ بالأيام . ولم أعلم من أين أخذ ذلك ولا مامستنده فيه .

إذا علم ذلك فلكتابه التاريخ ثلاثة اعتبارات :

الاعتبار الأول

(أن يُؤرَّخ ببعض ليالى الشهر، وله ست حالات)

الحالة الأولى

(أن تقع الكتابة في الليلة الأولى من الشهر، أو في اليوم الأول منه)

فإن كانت الكتابة في الليلة الأولى منه فقد ذكر أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" أنه يُكتب «كُتِبَ غَزَّةَ شهر كذا، أو [أول] ليلة^(١) من كذا، أو مُسْتَهَلَّ شهر كذا، أو مُهَلَّ شهر كذا». وحكى الشيخ أنير الدين أبو حيان مثل ذلك عن بعضهم، وزاد أنه يُكتب أيضا «كُتِبَ أول شهر كذا».

قال النحاس : ولا يجوز حينئذ ليلة خلت ولا مضت لأنهم في الليلة بعد^(٢) . قال في "ذخيرة الكتاب" : وربما كتب بعض الكتاب ليلة الاستهلال «ليلة [تخلو]^(٢)» .

وإن كانت الكتابة في اليوم الأول وهو النهار الذى يلي الليلة الأولى من الشهر، كُتِبَ «ليلة خلت أو مضت من شهر كذا» . قال النحاس : ويجوز كُتِبَ «لغزّة الشهر أو لأول يوم من الشهر» ومنع أن يقال حينئذ : أول ليلة من شهر كذا، أو مُسْتَهَلَّ شهر كذا، أو مُهَلَّ شهر كذا، موجهًا لذلك بأن الاستهلال إنما يقع في الليل . وتبعه على ذلك ابن حبيب النعمان في "ذخيرة الكتاب" وصاحب "موادّ البيان" وبه جزم الشيخ جمال الدين بن هشام في ورقاته في الوراقة . وكلام ابن مالك في التسهيل يؤهم جواز ذلك فإنه قد قال : فيقال أول الشهر، كُتِبَ لأول

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن الضوء للؤلؤف .

ليلة منه، أو لغزته أو مهلة أو مستهله . وأول الشهر أعم من اليوم واليلة بل هو إلى الليلة أقرب، لأن الليلة سابقة بالأولية .

قال الشيخ أنير الدين : ومفتتح الشهر أول يوم منه . ومقتضى كلامه أنه يؤرخ بالمفتتح في اليوم الأول من الشهر دون الليلة وفيه نظر، بل الظاهر جواز استعماله فيهما، بل الليلة بالمفتتح أولى لسبقها اليوم كما تقدم، اللهم إلا أن يُراعى فيه موافقة المفتتح لليوم في التذكير دون الليلة لتأنيها . قال في "مواد البيان" : والعرب تسمى أول ليلة من الشهر النخيرة، ولكن لا تستعمله الكُتّاب في التواريخ .

الحالة الثانية

(أن تقع الكتابة فيما بعد مضيّ اليوم الأول من الشهر إلى آخر العشر)

فإن كان قد مضى منه ليلتان ، كُتِبَ « لليلتين خلتا من شهر كذا، أو لليتين مضتا منه » قال في "ذخيرة الكُتّاب" : ولا يُكتب ليوم خلا ولا ليومين خلا : لأن ذكر الليالي في باب التاريخ أغلب، كما تقول ليلة السبت وليلة الأحد، فتُضيف الليلة إلى اليوم لأنها أسبق، ولا تُضيف اليوم إلى الليلة .

وحكى الشيخ أنير الدين أبوحيان أنه إذا مضى من الشهر يوم كُتِبَ «ليوم مضى» وإذا مضى يومان «كُتِبَ ليومين مضيا» . والتحقيق في ذلك أنه يختلف الحال فيه باختلاف الكتابة في الليل والنهار : فإن كُتِبَ في الليلة الثانية، ناسب أن يكتب «ليوم خلا من شهر كذا» لأنه إن كُتِبَ لليلتين خلتا فهو في الليلة الثانية بعد، وإن كُتِبَ لليلة خلت لم يظهر الفرق بينه وبين الكتابة في اليوم الأول من الشهر . وإن كتب في اليوم الثاني من الشهر، ناسب أن يكتب لليلتين خلتا أو مضتا . وإن كان

قد مضى من الشهر ثلاث ليال، كَتَبَ لثلاثِ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ من شهر كذا، أو لثلاثِ ليالِ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ . ويجوز فيه ثلاثِ خَلَتْ أو لثلاثِ ليالِ خَلَتْ على قِلَّةٍ . وكذا في الباقي إلى العشر فتقول : لعشرِ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ ، أو لعشرِ ليالِ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ ، أو لعشرِ ، أو لعشرِ ليالِ خَلَتْ أو مَضَتْ على اللغة القليلة .

الحالة الثالثة

(أن تقع الكتابة فيما بعد العشر إلى النصف)

فَيَكْتُبُ لإحدى عشرة خَلَتْ أو مَضَتْ من شهر كذا . أو لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ أو مَضَتْ ، ويجوز فيه لإحدى عشرة خَلَوْنَ أو لإحدى عشرة ليلة خَلَوْنَ على قلة . وكذا في الباقي إلى النصف من الشهر . قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : فإن صرَّحَ بالميز وكان مدَّكراً ، أُعيد الضميرُ عليه فيقال : لاحدَ عشرِ يوماً خلاً أو مضى ونحو ذلك .

الحالة الرابعة

(أن تقع الكتابة في الخامس عشر من الشهر)

فَيَكْتُبُ « كَتَبَ لِنِصْفِ شهر كذا » . قال النحاس : وأجازوا لخمس عشرة ليلة خَلَتْ أو مَضَتْ . وكلامُ ابنِ مالك في "التسهيل" يُشير إلى جوازِ لخمس عشرة ليلة خَلَتْ أو مَضَتْ [أو بَقِيَتْ^(١)] على رأى من يُجَوِّزُ التاريخَ بالباقي . ولو حَذَفَ ذَكَرَ الليلة فقال : لخمس عشرة خَلَتْ أو مَضَتْ أو بَقِيَتْ صَحَّ . قال في "التسهيل" والتاريخ بالنصف أجود .

(١) الزيادة لازمة ليصح الكلام .

الحالة الخامسة

(أن تقع الكتابة فيما بعد النصف من الشهر إلى الليلة الأخيرة منه)

وفيه لاهل الصناعة مذهبان :

المذهب الأول — أن يؤرخ بالماضي من الشهر كما في قبل النصف ، فيقال : لست عشرة خلت أو مضت ، أو لست عشرة ليلة خلت أو مضت . وكذا إلى العشرين فيقال : لعشرين خلت أو مضت ، أو لعشرين ليلة خلت أو مضت ، وكذا في البواقي إلى آخر التاسع والعشرين ، فيكون التاريخ في جميع الشهر من أوله إلى آخره بالماضي دون الباقي فراراً من المجهول إلى المحقق ، وهو مذهب الفقهاء لأنه لا يعرف هل الشهر تام أو ناقص . قال النحاس : ورأيت على بن سليمان يختاره . قال في ” ذخيرة الكتاب “ : وهو أثبت ومجته أقوى . ثم لاشك أن من يرى التاريخ باليوم يجوز لسته عشر يوماً خلا أو مضى من شهر كذا ، وكذا فيما بعده .

المذهب الثاني — أن يؤرخ بما بقي من الشهر . وللمؤرخين فيه طريقتان :

الطريق الأول — أن يحزم بالتاريخ بالباقي فيكتب لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر كذا ، ثم ثلاث عشرة ليلة بقيت ، وهكذا إلى الليلة الأخيرة من الشهر ، فيكتب لليلة بقيت ، وهو مذهب الكتاب . قال النحاس : ورأيت بعض العلماء وأهل النظر يصوبونه ، لأنهم إنما يكتبون ذلك على أن الشهر تام ، وقد عُرِف معناه وأن كاتبه وقارئه إنما يريد إذا كان الشهر تاماً فلا يحتاج إلى التلطف به . قال محمد بن عمر المدائني : واحتجوا لذلك بأن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه : حين كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم لابن الحضرمي كتب في آخر الكتاب :

« وَكَتَبَ معاويةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لثَلَاثِ لَيَالٍ بِقَيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ » ثُمَّ قَرَأَهُ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ النُّبُوَّةِ . فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ : ” أَلْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ لِسَابْعَةِ تَبَقٍ أَوْ خَامِسَةِ تَبَقٍ “ . وَهَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي اسْتَشْهَدَ بِهِ النَّحَّاسُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ فَلَا زَيْعَ فِي الْعَمَلِ بِهِ .

الطريق الثاني — أَنَّ يُعَلَّقَ التَّارِيخُ بِالْبَاقِي عَلَى شَرْطٍ . فَيَكْتُبُ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ إِنْ بَقِيَتْ ، أَوْ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ إِنْ بَقِيَتْ ، وَعَلَى ذَلِكَ فِي الْبَاقِي ، فِرَارًا مِنْ إِطْلَاقِ التَّارِيخِ بِمَا لَا يُعْلَمُ تَمَامُهُ أَوْ تَقْصُّهُ وَتَعْلِيْقُهُ عَلَى حُكْمِ التَّمَامِ ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ : لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنَ الشَّهْرِ إِنْ كَانَ تَمَامًا . وَمَنْ يَرَى التَّارِيخَ بِالْأَيَّامِ يَجُوزُ لِأَرْبَعَةِ عَشْرِ يَوْمًا تَبَقٍ مِنْ شَهْرٍ كَذَا ، وَكَذَا فِي الْجَمِيعِ .

الحالة السادسة

(أَنَّ تَقَعَ الْكَتَابَةُ فِي اللَّيْلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الشَّهْرِ أَوْ فِي الْيَوْمِ الْأَخِيرِ مِنْهُ)

فَإِنْ كَانَ فِي اللَّيْلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْهُ كُتِبَ « لِأَخْرِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرٍ كَذَا ، أَوْ فِي سَلَخِ شَهْرٍ كَذَا ، أَوْ فِي أَسْلَاحِهِ » . وَإِنْ كَانَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْهُ كُتِبَ « لِأَخْرِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرٍ كَذَا ، أَوْ فِي سَلَخِهِ أَوْ أَسْلَاحِهِ أَيْضًا » . وَلَمْ يَخْتَلَفُوا هُنَا فِي جَوَازِ التَّارِيخِ بِالْيَوْمِ . قَالَ ابْنُ حَاجِبٍ النِّعَمَانُ : وَذَلِكَ أَنَّ الشَّهْرَ يَبْتَدِئُ بِابْتِدَاءِ اللَّيْلِ وَيَنْقُضُ بِانْقِضَاءِ النَّهَارِ . وَذَكَرَ صَاحِبُ ” مَوَازِي الْبَيَانِ “ أَنَّ الَّذِي كَانَ كُتِّبَ مَصْرِيسَتِمْلُونَهُ بِالْأَيَّامِ الْمِصْرِيَّةِ أَنْ يُجْعَلَ شَهْرٌ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَشَهْرٌ تِسْعَةً وَعَشْرِينَ ، وَهَذَا جُنُوحٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِعْتِبَارِ النُّجُومِيِّ ، وَلَا مُعَوَّلَ عَلَى ذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ .

قلت : وَكُتِّبَ زَمَانُنَا قَدْ أَهْمَلُوا النِّظَرَ فِي ذَلِكَ بُحَلَّةً وَعَوَّلُوا عَلَى التَّارِيخِ بِالْأَيَّامِ ،
وَاقِفِينَ عِنْدَ حَدِّ الْيَوْمِ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْعَدَدُ مِنَ الشَّهْرِ عِنْدَ الْكُتَابَةِ فَيَكْتُبُونَ فِي الْيَوْمِ
الْأَوَّلِ : كُتِّبَ فِي مَسْتَهَلِّ شَهْرٍ كَذَا ، ثُمَّ فِي ثَانِي شَهْرٍ كَذَا أَوْ ثَالِثِهِ إِلَى الْعَشْرِ ؛
ثُمَّ فِي حَادِي عَشْرِهِ وَثَانِي عَشْرِهِ إِلَى الْعَشْرِينَ ، ثُمَّ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرٍ كَذَا ،
أَوْ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ ، وَالثَّانِي وَالْعَشْرِينَ إِلَى التَّاسِعِ وَالْعَشْرِينَ . وَفِي الْيَوْمِ الْآخِرِ
مِنَ الشَّهْرِ يَكْتُبُونَ فِي سَلَخِ شَهْرٍ كَذَا لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ ذَلِكَ .

ثُمَّ مِمَّا يُسْتَحْسَنُ فِي التَّارِيخِ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتِ الْكُتَابَةُ فِي يَوْمٍ مَشْهُورٍ - كَأَيَّامِ
الْمَوَاسِمِ - أُرِّخَ بِهِ ، مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ عِدَدِ مَا مَضَى مِنَ الشَّهْرِ أَوْ بَقِيَ مِنْهُ . فَيَكْتُبُ
فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ « كُتِّبَ فِي يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ » وَفِي تَاسِعِ ذِي الْحِجَّةِ
« كُتِّبَ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ » وَفِي عَاشِرِهِ « كُتِّبَ فِي يَوْمِ عِيدِ النَّحْرِ ، أَوْ فِي يَوْمِ
عِيدِ الْأَضْحَى » وَفِي حَادِي عَشْرِهِ « كُتِّبَ فِي يَوْمِ الْقَرِّ » - بَفَتْحِ الْقَافِ ، سَمِيَ بِذَلِكَ
لَأَنَّ النَّاسَ يَسْتَقِرُّونَ فِيهِ بِمَنًى ، وَفِي ثَانِي عَشْرِهِ « كُتِّبَ فِي يَوْمِ النَّفْرِ الْأَوَّلِ » لِأَنَّ
الْحَجَّاجِينَ يَنْفِرُونَ فِيهِ مِنْ مَنًى ، وَفِي ثَالِثِ عَشْرِهِ « كُتِّبَ فِي يَوْمِ النَّفْرِ الثَّانِي » .

الاعتبار الثاني

(أن يؤرّخ بحملة من أيام الشهر)

فإن أُرِّخَ بِعَشْرِ مِنَ الشَّهْرِ ، بَنَاهُ عَلَى التَّأْنِيثِ : فَيَكْتُبُ « كُتِّبَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِي ،
أَوْ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ - بَضْمِ الهمزة وفتح الواو جمع أول^(١) » أَوْ كُتِّبَ فِي الْعَشْرِ الْوُسْطَى
أَوْ فِي الْعَشْرِ الْوُسْطِ - بَضْمِ الواو وفتح السين جمع وُسْطَى ، أَوْ كُتِّبَ فِي الْعَشْرِ الْآخَرِي

(١) لعل الصواب " جمع أولي " .

أوفي العشر الآخر - بضم الحمزة وفتح الخاء جمع آخره . قال الشيخ أثير الدين أبو حيان :
 « ولا يُكْتَبُ العَشرُ الأوَّلُ ولا الأوسطُ ولا الآخرُ . وقال بعض النحويين يُكْتَبُ
 « وكتب في العشر الآخرة أو الأواخر » ولا يُكْتَبُ الأخرى ولا الآخر : لتلايلتس بالآخر
 بمعنى الثاني أو الآخر بمعنى الثواني . وقد تقدّم في الكلام على أيام الشهر أن العرب
 تسمي ليالي الشهر كُلَّ ثلاث منها باسم ، وقد تقدّم ذكر أسمائها هناك . فإذا وقعت
 الكتابة في ثلاثٍ منها ، كالغُرر : وهي الثلاث الأولى من الشهر ، والدَّادى : وهي الثلاث
 الأخيرة منه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بها كما يؤرِّخ بعشر من الاعشار الثلاث ، بل
 الثلاث أقرب لمعرفة التاريخ من العشر . وقد أشار إلى ذلك الشيخ أثير الدين
 في «شرح التسهيل» فقال : وإن أرخ بالثلاث الأخيرة من الشهر كَتَبَ الدَّادى .
 وإذا كان في السَّنة أيام مشهورة ، أرخ بها كالأيام المعلومات : وهي العشر الأولى
 من ذى الحجة ، والأيام المعدودات : وهي أيام التشريق على ما تقدّم ذكره في موضعه ،
 كان للكاتب أن يؤرِّخ بها .

الاعتبار الثالث

(أن يؤرِّخ بأجزاء اليوم أو الليلة)

وأكثر ما يحتاج الكاتب إلى ذلك في تاريخ بطائق الحمام ، وقد سبق في الكلام
 على الأيام أن كل واحد من الليل والنهار اثنتا عشرة ساعة زمانية ، تطول بطول
 أحدهما وتقصّر بقصره ، ولكل ساعة منها اسم يُخصّصها ، كالشروق : وهو أول ساعات
 النهار ، والغروب : وهو آخر ساعاته ، والشفق : وهو أول ساعات الليل ، والصباح
 وهو آخر ساعاته . فينبغي للكاتب إذا كتب بطاقةً من بطائق الحمام أن يكتب

(١) عبارة الضوء ص ٤٠١ « ولا نزاع في أنه يجوز التاريخ بالأيام المشهورة في السنة كالأيام المعلومات الخ »

وهي أوضح .

الساعة التي كُتِبَتْ فيها من ساعات النهار ، أما ساعات الليل فلا يتأتى فيها ذلك ، لأن الحمام لا يُسْرَحُ في الليل ، اللهم إلا أن تدعوَ الضرورة إلى التاريخ بساعةٍ من ساعات الليل في بعض المكتّبات فيؤرّخ بها .

قلت : وهذا الترتيب قد تركه كُتّاب زماننا ، وصاروا يؤرّخون بالساعات المشهورة عندهم ، كالأولى من النهار ، أو الثانية ، أو وقت الظهر ، أو وقت العصر ، ونحو ذلك .

الضرب الثاني

(التاريخ العجمي)

ومداره الأيام دون الليالي ، لأن سنتهم مع اختلافها في الشهور ومبادئها ومقاطعها شمسية ، والشمس محل ظهورها النهار دون الليل ، فذلك أرخوا بالأيام . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : قال أحمد بن يحيى البلاذري : حضرت مجلس المتوكل ، وإبراهيم بن العباس يقرأ الكتاب الذي أنشأه في تأخير النوروز ، والمتوكل يتعجب من حسن عبارته ولطف معانيه والجماعة تشهد له بذلك ، فدخلتني نفاسة ، فقلت : يا أمير المؤمنين في هذا الكتاب خطأ ! فأعادوا النظر ، وقالوا : ما نراه فـا هو ؟ - قلت : أرخ السنة الفارسية بالليالي ، والعجم يؤرّخ بالأيام ، واليوم عندهم أربع وعشرون ساعة تشتمل على الليل والنهار ، وهو جزء من ثلاثين جزءاً من الشهر ، والعرب يؤرّخ بالليالي ، لأن سنينهم وشهورهم قمرية ، وأبتداء الأهل بالليل - قال : فشهدوا بصحة ماقلته ، وأعترف به إبراهيم . وقال : ليس هذا من علمي .

قلت : وأكثُر ما يُحتاج إلى ذلك في تحويل السنين وتَقْل النَّيروز عند دَوْران السنين ، كما في كِتَاب إبراهيم بن العباس المقدم ذكره ، وكذلك في كِتَابَة الهَدَن فسيأتى أنه يَجْعُ فيها بين التاريخ العربى والعجمى جميعاً ، ويجب فيه تقديم العربى على العجمى ، مثل أن يَكْتُب « كُنْتُ لِعَشْرِ خَلَوْنَ من المحرم سنة ثمانمائة » موافقاً للعاشر من ثَوْتٍ من شُهور القِبْط » أو العاشر من تَشْرين الأول من شُهور السريان ، أو العاشر من ينير من شُهور الروم ، أو العاشر من أفرودين ماه ، من شُهور الفُرس ونحو ذلك .

الجملة السابعة

(فى تقييد التاريخ بالسنة)

قد علمت أن فائدة التاريخ إنما تتحقق بذكر السنة بعد اليوم والشهر ، وإلا فلا يُعلم من أى السنين . فإذا كتب يوم كذا من شهر كذا كُتِب بعد ذلك ، سنة كذا ، سواء كان التاريخ عربياً أو عجمياً ، أو مُرجباً منهما ، مثل أن يكتب سنة كذا من الهجرة الموافق لكذا من سِنى الروم أو سِنى الفُرس .

ثم للكاتب فى كِتَابَة تاريخ السنة مصطلحان .

المصطلح الأول — أن يَكْتُب « سنة كذا » فيحتاج إلى حَذْف الهاء من العدد ، على قاعدة حَذْفها من عدد المؤنث ، مثل أن يكتب سنة ست وثمانمائة ونحو ذلك ، وعلى هذا اصطلاح كِتَاب الديار المصرية وبلاد المشرق .

المصطلح الثانى — أن يكتب « عام كذا » فيحتاج إلى إثبات الهاء فى العدد على قاعدة إثباتها فى عدد المذكر ، مثل أن يكتب « عام ستّة وثمانمائة » وعلى نحو ذلك

يَجْرَى كُتَّابُ الْغَرْبِ غالبا ، لما يقال : إن العام يَخْتَصُّ بِالْحِصْبِ والسنة
تَخْتَصُّ بِالْمَحَلِّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى السَّنِينَ فَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ
فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى .

الجملة الثامنة

(في معرفة بعض التواريخ من بعض)

قد ذكر في " موادّ البيان " أن من جملة أدب الكاتب العِلْمُ بتواريخ سِنِي الْعَالَمِ
وَأَسْتَخْرَاجُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ مِنْ كُلِّ
شَهْرٍ وَسَنَةٍ مِنْ سِنِي الْأُمَمِ . وقد تقدّم أيضا أن المستعمل من التواريخ في زماننا بين
الأمم أربعة تواريخ ، بعضها أقدم من بعض .

أولها — تاريخُ غَلْبَةِ الإسكندر . وهو التاريخ الذي تُؤرّخ به السُريان والرومُ
والفرّنجية وَمَنْ فِي معناهم إِلَى الْآنَ ، وهو بعد الطوفان فيما حرّره الشيخ علاء الدين
ابن الشاطر في " زيجهِ " بثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثين سنةً وثلاثمائة
وعشرين يوما .

الثاني — التاريخ من مَلِكِ دَقْلَطِيَانُوس . وهو الذي يُؤرّخ به القبط إلى الآن ،
وربما عبّروا عنه بتاريخ الشهداء ، إشارة إلى تسميتهم الذين قَتَلَهُمْ دَقْلَطِيَانُوسُ
مِنَ الْقَبْطِ شُهَدَاءً ، وهو بعد غَلْبَةِ الإسكندر بِمِائَةِ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةً
وَاثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا .

الثالث — التاريخ من الهجرة ، وعليه تاريخ الإسلام . وهي بعد مَلِكِ دَقْلَطِيَانُوسِ
بِثَلَاثَةِ وَسِتِّ وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةً وَأَحَدٍ وَعَشْرِينَ يَوْمًا .

الرابع — التاريخ من هلاك يَزْدَجَرْد آخر ملوك الفُرس . وقد تقدّم أنه بعد الهجرة بعشر سنين وثمانية وسبعين يوماً .

فأما التاريخ السرياني والرومي وهو الذي مبدؤه من غلبة الإسكندر فقد تقدّم أن شهور السريانيين اثنا عشر شهراً ، وهي : تشرين الأول — تشرين الثاني — كانون الأول — كانون الثاني — شباط — آذار — نيسان — أيار — حزيران — تموز — آب — أيلول . منها سبعة أشهر كل شهر منها أحد وثلاثون يوماً ، وهي : تشرين الأول ، وكانون الأول ، وكانون الثاني ، وأذار ، وأيار ، وتموز ، وآب ، وأربعة أشهر كل شهر منها ثلاثون يوماً ، وهي : تشرين الثاني ، ونيسان ، وحزيران ، وأيلول . ومنها واحد ثمانية وعشرون يوماً : وهو شباط ، فتكون أيام سنيه ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ، ويضاف إليها ربع يوم مراعاةً للسنة الشمسية ، فتصير ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم ينقص جزءاً يسيراً . ومن أجل ذلك يعدّون ثلاث سنين بسائط ^(١) يكون شباط فيها تسعة وعشرين يوماً : لإضافة ربع اليوم في السنين الأربع إليه ، وتكون السنة فيها ثلثمائة وستة وستين يوماً .

وقد تقدّم أيضاً أن شهور السنة الرومية تُضاهى شهور السنة السريانية في عدد الأيام ، بل هي هي ، إلا أن الروم يُسمّون أشهرهم بأسماء غير أسماء شهور السريان ، ويكون أول شهورهم موافقاً لكانون الثاني ، وهو الشهر الرابع من شهور السريان ، ويكون آخر شهورهم موافقاً لكانون الأول .

(١) كذا في الاصول ويظهر أن فيه سقطاً من النسخ والاصل "يعدون ثلاث سنين بسائط" وسنة كيسة يكون الخ كما يؤخذ من نظيره في التاريخ القبطي تأمل .

وأسماء شهورهم : يَنير، فَبْرَير، مارس، ابريل، مايه، يونيه، يوليه، أغشت، شتنبَر، أكتوبر، نونبر، دجنبر . ولا فرق في شيء منها سوى اختلاف الأسماء وأبتداء رأس السنة، وحينئذ فيكون الكلُّ فيها في التاريخ واحدا .



وأما التاريخ القبطي : وهو الذى مبدؤه من ملك دقسطيانوس ، فقد تقدّم أن شهور السنة القبطية اثنا عشر شهراً . وهى : توت، باب، هتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهاث، برمودة، بشنس، بشونه، أبيب، مسرى . وكل شهر منها ثلاثون يوماً من غير اختلاف ، ثم بعد مسرى خمسة أيام يسمونها أيام النسيء، فتكون أيام سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوماً، وتزيد بعد ذلك رُبع يوم في كل سنة كما في التاريخ الرومى، وقد اصطَلَحوا على أن يعدّوا منها ثلاث سنين بسائط، كل سنة منها ثلثمائة وخمسة وستون يوماً لا زيادة فيها، والرابعة كبيسة تكون أيام النسيء فيها ستة أيام وزيادة رُبع يوم، وتصير أيام تلك السنة ثلثمائة وستة وستين يوماً، على نحو ما تقدّم في السريانى والرومى .



وأما التاريخ العربى : وهو الذى مبدؤه الهجرة، فقد تقدّم في الكلام على الشهور في المقالة الأولى أن شهور سنة العرب اثنا عشر شهراً . وهى : المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة . وأنها قمرية مدّارها رؤية الهلال، إلا أن المنجمين اعتمدوا فيها على الحساب دون الرؤية لتصحيح حساب التواريخ ونحوها، وجعلوا فيها شهراً تاماً عدده ثلاثون يوماً، وشهراً ناقصاً عدده تسعة وعشرون يوماً، على ترتيب شهور السنة، فالمحرم عندهم تام، وصفر ناقص، وربيع الأول تام،

وربيع الآخر ناقص، وجمادى الأولى تام، وجمادى الآخرة ناقص، ورجب تام،
 وشعبان ناقص، ورمضان تام، وشوال ناقص، وذو القعدة تام، وذو الحجة ناقص .
 فيكون من السنة ستة أشهر تامة وستة أشهر ناقصة، وتكون السنة حينئذ ثلثمائة يوم
 وأربعة وخمسين يوما؛ ويلحقها بعد ذلك كسر في كل سنة، وهو خمس يوم وسدس
 يوم، فتصير السنة ثلثمائة يوم وأربعة وخمسين يوما وخمس يوم وسدس يوم مفرقة^(١)
 في ثلاثين سنة؛ ويجعلون الكبيسة سنة بعد سنة ثم سنة بعد سنتين، ثم سنة بعد
 سنة، وعلى هذا الترتيب إلى آخر الثلاثين، فتكون الكباشى هي: الثانية، والخامسة،
 والسابعة، والعاشر، والثالثة عشرة، والخامسة عشرة، والثامنة عشرة، والحادية
 والعشرين، والرابعة والعشرين، والسادسة والعشرين، والتاسعة والعشرين . فتكون
 كل سنة منها ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما، ويجعل الزائد فيها في ذى الحجة، فيكون
 فيها ثلاثين يوما وباقي سنى الثلاثين بسائط، كل سنة منها ثلثمائة وأربعة وخمسون
 يوما، وذو الحجة فيها تسعة وعشرون يوما، بناء على الأصل في أن يكون شهر تاما
 وشهر ناقصا .



وأما التاريخ الفارسى : وهو الذى مبدؤه من هلاك زدرج، فقد تقدم فى الكلام
 على الشهور أن سنى الفرس اثنا عشر شهرا ، كل شهر منها ثلاثون يوما . وهى :
 افرودين ماه، أرديهشماه، حرداماه، تيرماه، تردماه، شهريرماه، مهرماه، أبان ماه،

(١) كذا فى الأصول وعبارة الضوء ص ١٥٦ "ويجتمع من هذا الخمس والسادس يوم فى كل ثلاث
 سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما ويبقى من ذلك بعد اليوم الذى اجتمع شئ فيجتمع منه ومن
 خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد وكذلك إلى أن يبقى الكسر أحد عشر يوما عند تمام ثلاثين
 سنة وتسمى تلك السنين كباش العرب" وهى أوضح .

أدرماه، ذى ماه، بهمن ماه، اسفندارماه . وبين ابان ماه وأدرماه خمسة أيام تسمى المسترقة بمثابة أيام النسيء في آخر سنة القبط ، وبمقتضى ذلك تكون سنتهم ثلثائة وخمسة وستين يوما ، وليس فيها زيادة ولا نقص . فلا بد من معرفة هذه الأصول لاستخراج تواريخ بعض السنين المذكورة من بعض .

ثم مما يجب تعرفه بعد ذلك أن تعلم أن التاريخ السريانى والرومى سنونه سريانية أو رومية على ما تقدم ، فيعتبر فيها ما يعتبر في السنين السريانية والرومية من عدد الأيام والكجائس ، والتاريخ القبطى سنونه قبطية فيعتبر فيها ما يعتبر في السنين القبطية من الأيام والكجائس ، والتاريخ العربى سنونه عربية فيكون على ما تقدم في السنين العربية من عدد الأيام والكجائس ، والتاريخ الفارسى سنونه فارسية فيعتبر فيها ما يعتبر في السنين الفارسية من عدد الأيام ، ولا كيسة فيها .

إذا علمت ذلك فإذا أردت استخراج بعض هذه التواريخ من بعض ، فانظر التاريخ المعلوم عندها عندك ، كالتاريخ العربى مثلا عند الإسلاميين فاجعل السنين التسامة من التاريخ المعلوم أياما ، وزد عليها ماضى من السنة المكسورة من الشهور والأيام إلى اليوم الذى تريد أن تعلم موافقته لمثله من التاريخ المجهول ، ثم أنظر : فإن كان التاريخ المعلوم أقدم من التاريخ المجهول ، فانقص من أيام التاريخ المعلوم ما بين التاريخين من الأيام فما بقي فهو أيام التاريخ المجهول . وإن كان التاريخ المجهول أقدم ، فزد ما بين التاريخين من الأيام فما بقي فهو أيام التاريخ المجهول ، فما بلغ فهو أيام التاريخ المجهول . فإذا علمت أيام التاريخ المجهول بزيادة ما بين التاريخين على أيام التاريخ المعلوم أو نقصانها منه على ما تقدم ، فاجعل ما حصل معك من أيام التاريخ المجهول الذى تريد استخراجه ، فما كان فهو السنون التسامة

للتاريخ الذى تريد أستخرجه ، فإن بَقِيَ شَيْءٌ من الأيام بعد السنين التامة ، نخذ منها لكل شهر عددَ أيامه ، ومابقى من الأيام دُونَ شهر فهو الماضى من أيام الشهر الذى يلي ذلك .

مثال ذلك إذا أردت ان تستخرج التاريخ السُريانى أو الرومى الموافق لآخر سنة ثمانمائة من الهجرة ، فقد تقدم لك أن التاريخ السريانى والرومى مبدؤه من غلبة الإسكندر على الفُرس ، وهو قبل الهجرة بتسعمائة سنةٍ وأثنتين وثلاثين سنة ومائتين وسبعة^(١) وثمانين يوما ، وذلك ثلثمائة ألف يوم وأربعون ألف يوم وسبعائة يوم ، فاحفظ ذلك ، ثم أبسط الماضى من سِنى الهجرة وهو ثمانمائة سنة أياما ، بأن تضرب الثمانمائة فى عشرة آلاف وستمائة وأحد وثلاثين يوما ، وهى بسط السنة العربية من حين كسرها الزائد على أيامها ، وهو خمس يوم وسدس يوم ، يكون ثمانية آلاف ألف وخمسمائة ألف وأربعة آلاف وثمانمائة ؛ فاقسمه على ثلاثين وهى مخرج الكسر الذى هو الخمس والسدس ، يخرج بالقسمة مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون ، وهو عدد أيام الثمانمائة سنة ؛ فأضفه على ما بين غلبة الإسكندر والهجرة من الأيام ، وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعائة يوم ، يكون الجميع ستمائة ألف وأربعة وعشرين ألفا ومائة وثلاثة وتسعين ، فاجعل تلك الأيام سنين سُرْيانية ، بأن تضرب تلك الأيام فى أربعة ، يحصل منها ألفا ألف وأربعمائة ألف وستة وتسعون ألفا وسبعائة وأثنان وسبعون يوما ؛ فاقسمه على ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألف وسبعائة وثمانية ، وهى سنون تامة ؛ ويفضل بعد ذلك ألف وثلثمائة وأربعة وثمانون ، فاقسمها على أربعة ،

(١) الذى تقدم له "مائتين وتسعين يوما" .

يخرج ثلثمائة وستة وأربعون يوما ، يكون ذلك أحد عشر شهرا ، من أول تشرين الأول وأحد عشر يوما من الشهر الثاني عشر من الشهور السريانية وهو أيلول ؛ فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة هجرية موافقا لليوم الحادى عشر من أيلول سنة ألف وسبعمائة وتسع من السريانية .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ القبطى لآخر سنة ثمانمائة ، فقد تقدم أن التاريخ القبطى ابتداءه من ملك دقلطيانوس على القبط ، وهو قبل الهجرة بثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وثلثمائة وعشرين يوما ، وجملة أيامه مائة ألف يوم وثلاثة وعشرون ألف يوم وأربعمائة يوم وتسعة أيام ، فأضيف أيام الماضى من سنى الهجرة : وهو مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون على ما تقدم فى التاريخ السريانى [على ما قبل الهجرة^(١)] وهو مائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وأربعمائة وتسعة أيام ، يكون المجموع أربعمائة ألف وستة آلاف وتسعمائة يوم ويومين ؛ فاجعله سنين قبطية ، بأن تضرب ذلك فى أربعة عدد يخرج كسر السنة القبطية ، وهو الربع الزائد على الخمسة وستين ، يكون ألف ألف وستمائة ألف وسبعة وعشرين ألفا وستمائة وثمانية ؛ فاقسمه على ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألف ومائة وأربعة عشر ، وهو عدد السنين القبطية التامة ، ويبقى بعد ذلك أربعة وخمسون ؛ فاقسمه على الأربعة المذكورة يخرج بالقسمة أربعة عشر ، وهى أيام من الشهر الأول من السنة القبطية الناقصة ، فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة للهجرة موافقا لرابع عشر شهر توت سنة ألف ومائة وخمس عشرة من السنين القبطية .

(١) الزيادة لازمة لتوضيح المتام وهى مرادة للألف .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ الفارسي لآخر سنة الثمانمائة المذكورة ، فقد تقدم أن ابتداء التاريخ الفارسي بعد الهجرة بعشرين وثمانين يوما ، وجملة أيامه ثلاثة آلاف يوم وستمائة يوم وأربعة وعشرون يوما ، فأسقطها من الحاصل من أيام النسيء الماضي من الهجرة إلى آخر الثمانمائة ، يكون الباقي بعد ذلك مائتي ألف وتسعة وسبعين ألفا وثمانمائة وتسعة وستين يوما ، فأقسمها على ثلثمائة وخمسة وستين ، يخرج لك سبعمائة وستة وستون سنة ، وهو عدد السنين الفارسية التامة ، ويفضل بعد ذلك مائتان وتسعة وسبعون يوما ، نخذ لكل شهر عدد أيامه : وهو ثلاثون يوما ويبقى تسعة أيام ، منها خمسة أيام في نظير الخمسة الأيام الزائدة في آخر أبان ماه المعروفة بالمسترفة ، يبقى أربعة أيام من شهر ذي ماه : وهو الشهر العاشر من شهورهم ، فيكون آخر يوم من ثمانمائة من الهجرة موافقا لليوم الرابع من ذي ماه من شهور الفرس سنة سبعمائة وسبع وستين .

فلو فرض أنه مضى من سنة إحدى وثمانمائة سنة أشهر مثلا ، فأجعل الأشهر شهرا تاما وشهرا ناقصا على ما تقدم ، تكون أيامها مائة وسبعة وسبعين يوما فأضفها على أيام الثمانمائة ، وأفعل فيها ما تقدم ذكره ، لا يتغير العمل في شيء من ذلك .

مثال ذلك : إذا أردت استخراج التاريخ السرياني في آخر جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة ، فأضف مائة وسبعة وسبعين : وهي أيام ستة أشهر على أيام الثمانمائة ، وهي مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون ، يكون المجموع مائتي ألف وثلاثة وثمانين ألفا وستمائة وستين يوما ، فأضف إليه ما بين الهجرة والتاريخ السرياني : وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة ، يحصل

من ذلك ستمائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وسبعون ، فاضربه في أربعة يخرج لك ألف وستمائة وتسعة ، ويفضل من الأيام مائة وثمانية وخمسون يوماً ، تكون سابع أدار من شهور السريان ، فيكون آخر يوم من جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة موافقاً للسابع من شهر أدار سنة ألف وسبعائة وعشر من سني السريان .

قلت : وفي كُتب الزيجات وغيرها طرق مختلفة للاستخراج التواريخ ، وجدّأول موضوعاً لا يَحتملها هذا الكتاب فليراجعها من أحتاج إلى زيادة على ذلك .

الجملة الثامنة

(في موضع كتابة التاريخ من الكتاب ، وصورة وضعه في الكتابة)

أما موضعه من الكتاب ، فقال محمد بن عمر المدائني في كتاب ” القلم والدواة “ :
رسموا تاريخ الكتب في آخرها ، وجعلته العامة في صُدورها . والتحقيق في ذلك ما ذكره صاحب ” مواد البيان “ وغيره أن الكُتب التي تؤرخ على ضربين :

الضرب الأول — الكتب السلطانية ، ولها حالان :

الحالة الأولى — أن يكون الكتاب في أمر نتشوف النفوس إلى معرفة اليوم الذي وقع ذلك الأمر فيه : كالحوادث العظام ، والفُتوحات والمواسم ونحوها ، فيؤرخ الكتاب في صدره ، مثل أن يكتب في صدر الكتاب « كتاب أمير المؤمنين إليك ، أو كتابنا إليك يوم كذا من سنة كذا » كما كان يُكتب في الزمن المتقدم في مثل ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون الكتاب في أمر لا نتشوف النفوس إلى معرفة اليوم الذي يقع ذلك الأمر فيه ، فيؤرخ الكتاب في آخره .

الضرب الثاني — كُتب الأتباع إلى الرؤساء .

والرسم فيها أن تُؤرَّخ في صدورها . قال في "موادِّ البيان" : وذلك مثل أن يقال :
كتب العبدُ من مَقَرِّ خدمته يوم كذا .

قلت : والذي آسَفتُ عليه حالُ كُتَّاب الزمان كُتَّابُ التاريخ في آخر الكتاب بكل
حال ، سواءً كان المكتوبُ ولايةً أو مكتبةً أو غير ذلك ، ولعلَّ الولاياتِ
وما في معناها لم يقع الاختلافُ في كتابتها في آخر المكتوب في زمن من الأزمان .



وأما صورةُ وضع التاريخ في الكتابة ، فقد أصطلح الكُتَّاب على أن جعلوا التاريخ
بعد كتابة إن شاء الله تعالى في سطرين : فيكتبون « كُتِبَ في كذا من شهر كذا »
في سطرٍ ، ثم يكتبون « سنة كذا » في سطر تحته ، وفي الكُتُب عن قضاة القضاة
يجعل كُتَّابهم جميع التاريخ في سطر واحد .

الطَّرَفُ الثَّالِثُ

(في المستندات ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في صورة ما يُكْتَب ، وهو على ضربين)

الضربُ الأوَّلُ

(أن يُضاف إلى مرسوم السلطان ، وله خمس حالات)

الحالة الأولى — أن يكون بتلقُّ كاتب السرِّ ، إما بما يأمرُ به السلطانُ عند قراءته
القصةَ عليه ، أو بما يكتبه كاتب السرِّ ويُمضيه من نفسه ، كما في خلاص الحقوق
ونحوها ، فيكتب فيه « حَسَبَ المرسوم الشريف » في سطرٍ واحد لا غير .

الحالة الثانية — أن يكون بتلقّي كاتب السرّ أو أحد من كُتّاب الدّست بدار العدل ، عند جلوس السلطان في المواكب بالإيوان وقراءة كاتب السرّ وكُتّاب الدّست قصص المظالم ونحوها عليه . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف من دار العدل الشريف » سطرين أحدهما تحت الآخر ، ويكون في السطر الأول « حسب المرسوم الشريف » والباقي في السطر الثاني .

الحالة الثالثة — أن يكون برسالة الدّوّادار . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف » سطرًا واحدًا ، ثم يكتب تحته « برسالة الجناح العالى الأميريّ الدّوّادار ، الفلانى » باللقب المضاف إلى الملك كالتأصيرى ونحوه « ضاعف الله تعالى نعمته » ويكون آخر السطر الأول « الأميريّ الفلانى » .

الحالة الرابعة — أن يكون من ديوان الخاص . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف من ديوان الخاص الشريف » ويكون « حسب المرسوم الشريف » سطرًا ، وباقي الكلام سطرًا .

الحالة الخامسة — أن يكون بخط السلطان بظاهر قصّة . فيكتب « حسب المرسوم الشريف بالخطّ الشريف » سطرين ، ويكون « حسب المرسوم الشريف » سطرًا على ما تقدّم ، وما بعده سطرًا .

قلت : ومما يجب التنبيه له أنّ لفظ حسب الواقع في المستندات منقول اللغة فيه بفتح السين كما نقول : فعلت ذلك حسب أمرك ، ولا يجوز تسكينها بحال كما أطبق عليه علماء اللغة ، إلا ما حكاه الجوهرى في « صحاحه » من جواز تسكينها في ضرورة الشعر ، على أن جُلّ كُتّاب الزمان يغلطون في ذلك فلا ينطقون بها إلا ساكنة السين ، وربما ضبطوه كذلك في الكتابة .

الضرب الثاني

(أن يجعل مستند الإشارة، وله ثلاث حالات)

الحالة الأولى — أن يكون بإشارة النائب الكافل . فيكتب « بالإشارة العالية الأُميرية الكبيرة الكافلية ، كافل الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى ! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأول الكافلية الفلانية .

الحالة الثانية — أن يكون بإشارة الوزير . فيكتب « بالإشارة العالية الوزيرية الفلانية ، مدبر الممالك الشريفة أعلاها الله تعالى ! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأول الوزيرية الفلانية .

الحالة الثالثة — أن يكون بإشارة الإستدار . فيكتب « بالإشارة العالية الأُميرية الكبيرة الفلانية ، إستدار العالية ، أعلاها الله تعالى ! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأول الكبيرة الفلانية . وقد تقدم في الكلام على الألقاب ما جرى عليه الكتاب في لفظ إستدار من التحريف ، واستعملوه بلفظ إستادار ، أو استاد الدار ، وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأ جريا على المصطلح .

الجملة الثانية

(في موضع كتابة المستند)

وقد أصطلح الكتاب على أن يكتب المستند في الغالب بعد التاريخ ، ويكون الظرف أو الجاز والمجرور فيه متعلقا من التاريخ بلفظ كتب ، وكأنه يقول : كتب في تاريخ كذا ، حسب الأمر الشريف ، أو بالإشارة الفلانية . وربما كتب بحاشية المكتوب في المراسيم الصغار التي تكتب على ظهور القصاص ونحوها ، وكذلك

أوراق الطِّريق؛ وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأولين أخذاً من جهة الأسفل إلى جهة الأعلى بحيث يكون آخرُ كتابة المستند مسامتاً للسطر الأول، فإن كان «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط، كتبه سطراً واحداً، وإن كان «من دار العدل» كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» سطراً، ومن «دار العدل الشريف» سطراً تحته، وكذلك إن كان «من ديوان الخصاص» كما يُكتب في أسفل الكتاب. وإن كان برسالة الدوادار، فقد جرت العادة أن يكتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في أسفل الكتاب تحت التاريخ سطراً واحداً، ويكتب «برسالة الجنب العالي، الأميرى، الكبيرى، الفلافى، الدوادار، الفلافى ضاعف الله تعالى نعمته!» بالهامش في المحل المتقدم سطرين كما كان يُكتب بآخر الكتاب. وإن كان المستند الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب في المحل المقدم ذكره سطرين على ما تقدم بيانه.

الطرف الرابع

(في الجملة في آخر الكتاب، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في الاصل في كتابتها)

والأصل في ذلك أن الله سبحانه كما جعل الحمد مفتاحاً للأمر تيمناً بالافتتاح به، جعله ختاماً لها تيمناً بالاختتام به قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال جلَّتْ قدرته: ﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَنزَلْ دَعْوَاهُمْ إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع من السفر قال: «آيُون تَائِيُون لِرَبِّنَا حَامِدُون». قال السهيلي: ومن ثم سُمي النبي صلى الله عليه وسلم (أحمد) إشارة إلى أنه خاتم الأنبياء وآخر المرسلين.

ولما كان الأمر كذلك ، أصطلح الكُتَّاب على آختام الكُتُب بالحمد تبرُّكا .
قال ابن شيث في "معالم الكتابة" : ولا يُحْتَم بالحمد لله في التواقيع في المَظالم ؛ وربما
خُتم بها في تواقيع الإطلاقات . وقد أصطلح كُتَّاب الزمان على حذفها من آخر
مالا تُكْتَب في أوله البسملةُ : كالتواقيع الصغار ونحوها ، على ما سياتى في موضعه
إن شاء الله تعالى . وكأنهم يُشيرون بذلك إلى أنَّ مثل ذلك لا يُهْتَمُ بشأنه ، فكما حذفوا
البسملة من أولها حذفوا الحمدلة من آخرها إشارة إلى عدم الأهتمام بها كما حُذِفَتْ
من أول الكلام الذي لا يُهْتَمُّ به لأجل ذلك على ما تقدم بيانه .

الجملة الثانية

(في بيان ما يُكْتَب بصورة وضعه في الكتابة)

أما ما يُكْتَب ، فقد أصطلحوا على أن يكتبوا في حمدلة آخر الكتاب « الحمد لله
وحده » وربما كتبوا : « الحمد لله رب العالمين » . على أنهم لو أطبقوا على كتابتها
لكان أولى . فقد ذكر النووى في كتابه "الأذكار" أنها أفضل صيغ الحمد ومن
أجل ذلك أفتتحت بها فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن .



وأما وضعها في الكتابة ، فقد أصطلحوا على أن جعلوها بعد كتابة المستند عن يمينه
الدرج ، على بُعد قدر ما بين إن شاء الله تعالى والسطر الآخر من المكتوب . قال
في "معالم الكتابة" وقد تحمل الخروج عن سَمْت السطور .

الطرف الخامس

(في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الكتاب ،
وما يلحق بذلك ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أصل إثباتها في آخر الكتب)

والأصل في ذلك مع ما تقدم في الكلام على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أول الكتب في الكلام على الفوائخ أنه كما ذكرت في أوائل الكتب تبرُّكا ، كذلك ذكرت في آخرها تبرُّكا . وقد قال تعالى في حقّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فإن معناه ما ذكرتُ إلا ذكرتُ معي ، ولما اخْتُِمَتِ الكتبُ بالحمد لله ، ناسب أن يُقرنَ الحمدُ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم جمعاً بين ذكره وذكر الله تعالى . وقد ذكر ابن هشام في "سيرته" : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب في آخر عهده لعمر بن حزم حين وجهه إلى اليمن «صلى الله على محمد» .

ثم الكلام في الجمع بين الصلاة والسلام ، والصلاة على الآل والصَّحْبِ بعده صلى الله عليه وسلم في آخر الكتاب على ما مرَّ في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في أول الكتاب^(١) .

قلت : فلو كتبت كتاباً لسلطانٍ أو غيره من المسلمين إلى أحد من أهل الكفر ، فهل يؤتى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما يؤتى بها في الكتاب إلى المسلم

(١) في الأصول "آخر" وهو خطأ من النسخ ، وعبارة الضوء على ما مر في الفوائخ ، وهي أظهر .

إرغاماً للكافر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، أولاً يُؤتى بها صيانةً لاسمه صلى الله عليه وسلم عن حصوله في يد كافر ، كما يمنع من السفر بالمصحف إلى بلاد الكفر ؟ لم أر من تعرض له ، والظاهر أنه يُؤتى بها إرغاماً للكافر ، ومواجهةً له بما يذكره .

وقد حكى أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن عبد الملك بن مروان ، حين أحدث كتابة سورة الإخلاص وذكر النبي صلى الله عليه وسلم على الدنانير والدرهم ، كتب إليه ملك الروم : إنكم قد أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم ، فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا ذكر ما تكرهون ؛ فعظم ذلك في صدر عبد الملك ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يستشيره في ذلك ، وكان أديباً عالمياً فقال له خالد : فرِّخ روعك^(١) يا أمير المؤمنين ، حرم دنانيرهم وأضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير ، ففعل .

الجملة الثانية

(في بيان ما يكتب في التصلية في آخر الكتب ، وصورة وضعه في الكتابة)

أما صورة ما يكتب ، فقد أضح الكُتاب على أن يكتبوا في التصلية في آخر الكتاب بعد الحمد لله وحده ما صورته « وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه » . وهي صيغة مستحسنة للإتيان بالصلاة فيها بصيغة الجمع ، والجمع بين الصلاة والسلام ، وإتباع الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم بالصلاة والسلام على الآل والصَّحْب . وربما أتى بعض الكُتاب بالصلاة بلفظ الأفراد ، فيكتب وصلاته .

(١) أى أذهب فزعك وربعك ، ووقع في الأصول فرج بالجم وهو تصحيف .

وأعلم أن الصلاة يجوز كتابتها بالألف على هذه الصورة "الصلاة" ويجوز كتابتها بالواو على هذه الصورة "الصلوة" إلا أن محل ذلك ما إذا لم تُضَف إلى ضمير نحو صلاته وصلاتك . فإن أُضِفَتْ إلى الضمير تعيّن كتابتها بالألف دون الواو ، وربما غلط فيها بعض الكُتّاب فكتبها بالواو .



وأما موضعها في الكتابة ، فقد اصطَحُوا على أن يكتبوا ذلك تِلْوَ الحمد لله وحده ، يفضل بياض بينهما لتكون الحمدلة في أول السطر ، والتصلية في آخره .

الطرف السادس

(في الحسبة في آخر الكتاب ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أصل كتابتها)

والأصل في ذلك ما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنِ اللَّهِ وَقُضِيَ ﴾ فجعل قولهم : حَسْبُنَا اللَّهُ ونعم الوكيل سبباً لحسن المنقلب والصون عن السوء . وقد قيل : مَنْ قَالَ حَسْبُنَا اللَّهُ ونعم الوكيل لم يَحِبْ في قِصده .

الجملة الثانية

(في بيان ما يُكْتَب في ذلك ، وكيفية وضعه في الكتابة)

أما ما يكتب ، فقد اصطَح الكُتّاب على أن يكتبوا « حَسْبُنَا اللَّهُ ونعم الوكيل » بلفظ الجمع ، على أن المتكلم يتكلم بلسانه ولسان غيره من الأمة ، لأن الجمع للتعظيم : لأنه

ليس بلائق بالمَنَام . وكان بعض الكُتَّاب يَسْتَحِبُّ أن يكتب «حَسْبِيَ الله» بلفظ الوحدة فراراً من اللَّبْس في لفظ الجمع بين التَّعْظِيم والجمع الحَقِيق . وقد أشار في «صناعة الكُتَّاب» إلى بعض ذلك . قال ابن شيث في «معالم الحُتَّابة» : وقد ينادب الأَدْنَى مع الأعلى ، فيأتى بالآية على نصها فيقول : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ فراراً من نُون الجمع التي هي للعَظْمَة . قال : وقد يقال في مكانها : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ثم قال : فأما الأعلى إذا كَتَبَ للأَدْنَى فلا يخرج عن «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» . ثم بعض الكُتَّاب قد يكتب مع الحَسْبَلَة أوأا بأن يكتب : وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، ولا معنى للواو هنا ، إذ لا علاقة بين الحَسْبَلَة وما قبلها حتى يسوغ العَطْف عليه ، فالواجب حذفها كما نبه عليه الشيخ جمال الدين بن هشام في «ورقاته في الوراقَة» .



وأما موضع وضعها في الحُتَّابة ، فقد اصطَلَحُوا على أن يكتبوها سطراً واحداً بعد سطر الحمدلة والتَّصَايَة ، ويكون بينهما في البُعد قدر ما بين إن شاء الله تعالى وبين السطر الآخر من البياض . قال ابن شيث : وموضعها ثلث السطر من الجانب الأيمن إلى حيثُ يَنْتَهِي .

وأعلم أن الكُتَّاب قد اصطَلَحُوا على أن يكتبوا تحت الحَسْبَلَة صورة حاء لطيفة منكبة على هذه الصورة «حر» ولا معنى لها ، إذ هي في الأصل إشارة إلى الحَسْبَلَة نفسها ، وكأنَّ بعض الكُتَّاب كان يكتفي بها عن الحَسْبَلَة ، ثم ألْبَس ذلك على بعض الكُتَّاب فأنبتا مع الحَسْبَلَة على ظَنِّ أن فيها قدراً زائداً عليها ، ويحتمل أنها إنما وُضِعَتْ في الأصل لسد البياض كما يُكْتَب بعض التَّوَاتُر لسد البياض أو الفصل بين الكلامين وغير ذلك .

الطرف السابع

(في اللواحق ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في الترتيب ، ويتعلق به أمران)

الأمر الأول

(في النَّزْب إلى الترتيب)

لا نزاع في أن ترتيب الكتاب بعد الفراغ منه بإلقاء الرَّمْل ونحوه عليه مطلوبٌ ، وفيه معنيان :

المعنى الأول — التبرُّك طلباً لِنَجْح القصد ؛ فقد روى محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" بسنده عن إسماعيل بن محمد بن وهب عن هشام بن خالد وهو أبو مروان الأزدي ، عن يَقيَّة بن الوليد ، عن عطاء ، عن ابن جريح ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تَرَبُّوا الْكِتَابَ وَنَحْوَهُ مِنْ أَسْفَلِهِ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْبَرَكَةِ وَأَنْجَحُ لِلْحَاجَةِ" . وفي حديث "إِذَا كَتَبَ أَحَدُكُمْ كِتَابًا فَلْيَتَرَبَّهُ فَإِنَّهُ مُبَارَكٌ وَهُوَ أَنْجَحُ لِحَاجَتِهِ" .

ومن كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ^(١) تَرَبُّوا الْكِتَابَ تَنْجَحُوا . ويؤيد ذلك ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتابين إلى أهل قريتين فترَّب أحدهما ولم يترب الآخر ، فأسلمت القرية التي ترَّب كتابها . وهذا المعنى موجود في المكاتبات والولايات وغيرهما لطلب البركة والنجاح في جميع ذلك .

(١) رواية كتب اللغة "أترَّبوا الكتاب" .

وقد حُكي أن أبادُهمان مريض مَرَضاً أَشْفَى فيه ، فأوصى وأُملى وصيته على ابنه ، فكتبها وأُتربها فقال : نَعَمْ تُرَّبُهَا فَإِنَّهُ أَنْجَحُ لِلحَاجَةِ . ولا فرق في ذلك بين أن يكون المكتوبُ قد جَفَّ أم لا : لأن القصد إنما هو النَجَحُ والبركة .

المعنى الثاني - التجفيف لما كتبه بطرُح التراب عليه كي لا يَمْحَى بما يُصِيبه قبل الجفاف ، وهذا المعنى أضعف من الأول ، ومقتضاه أنه إذا جَفَّ الكتاب لا يُتَرَّب ، وعليه عملُ كُتَّاب الزمان . ومن هنا يَصْعُون التراب على آخر الكتاب من حيث إنه أقرب عهداً بالكتابة فيحتاج إلى التجفيف ، بخلاف أول الكتاب فإنه يكون قد جَفَّ عند نهاية الكتاب غالباً ، لاسيما في الزمن الحار ، أو مع طول الكتاب وامتداد زمن كتابته . على أن صاحب "مواد البيان" وغيره من قدماء الكُتَّاب قد صرَّحوا بأنه يستحبُّ وضع التراب أولاً على البسملة ، ثم يمرُّه الكاتبُ منها على سائر المكتوب ليُعَمَّ الكتابَ بركة البسملة . ولقائل أن يقول إن الترتيب من آخر الكتاب إلى أعلاه لا يخلو أيضاً من بركة ، لملاسة التراب أولاً الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبة . وربما بلغ بالتراب من أسفل الكتاب إلى البسملة ثم أعاده فيجمع فيه بين البركتين .

الأمر الثاني

(فما يُتَرَّب به الكتابُ)

وقد اصطلاح كُتَّاب الزمان على الترتيب بالرمل الأحمر . أما تخصيصهم الترتيب بالرمل فلأنه لا غبار فيه يعلِّق بالكتاب فيذهب بهجة الورق . وأما اختيارهم الأحمر دون غيره فلأنه أبيض إذا لصق بالكتاب . قال محمد بن عمر المدائني : وكرهوا ونهوا

عن تراب الحيطان، ومأوا إلى النشارة والأشنان . قال : وبإغنا أن بعض الأئمة من أهل العلم كان يُتَرَّب الحديث بالصَّنْدَل ويقول : لا أُطْرَحُ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب . وكان حيوة بن شريح يخرج إلى الصحراء فيأخذ الطين الأسود فيدقه ويخله فيترَّب به . وقد صرح الرافعي وغيره من أصحابنا الشافعية أنه يحرم التريب من جدار الغير، ومعناه ظاهر لما فيه من الاغتصاب والاعتداء . وقد سبق في المقالة الأولى في الكلام على الخط ذكر أنواع الرمل، وأن من أحسنه رملاً يُؤْتَى به من صحراء ماريدين ، فيه شُدُورٌ صُفْرُ كَشْدُور الذهب ، يلقى في الرمل الأحمر فيترَّب به الأمراء والوزراء ومن في معاناهم .

الجملة الثانية

(في نظر الكاتب في الكتاب وتأمله بعد الفراغ منه)

قد نصَّوا على أنه إذا فرغ الكاتب من كتابة الكتاب ينبغي له أن يتأمله من أوله إلى آخره ويتتبع ألفاظه ويتأمل معانيه ويصلح منها ما لعله وهم فيه الفكر أو سبق إليه القلم : ليسلم من قدح القادح وطعن الطاعن . وقد تقدم في مقدمة الكتاب أن صاحب الديوان لا يكتفي بنظر الكاتب في ذلك ، بل يكله إلى نظر كاتب كامل ينصبه لذلك ، ثم يتأمله هو بنفسه بعد ذلك ليتقح الكتاب ويتهدب .

المقالة الرابعة

في المكتبات ، وفيها بابان

الباب الأول

(في أمورٍ كُتِبَ في المكتبات ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في مقدمات المكتبات ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في أصول يعتمدُها الكاتبُ في المكتبات)

(١) ويتعلَّقُ المقصود منها بعشرة أصول :

الأصل الأول

(أن يأتي الكاتبُ في أول المكتبة مُحسِّنُ الافتتاح المطلوبِ في سائر أنواع

الكلام : من تَرَوْظُم مما يوجب التحسين : ليكون داعيةً لأستماع

مابعده ، على ما تقدَّم بيَّنه في الكلام على علوم البلاغة في المقالة الأولى)

ويرجعُ حسنُ الافتتاح في المكتبات إلى معنيين .

المعنى الأول — أن يكون الحُسْن فيه راجعاً إلى المبتدئ به . إما بالافتتاح بالحمد لله

كما في بعض المكتبات : لأن النفوس تتشوّف إلى الثناء على الله تعالى ، أو بالسلام الذي

جعله الشارع مفتَحَ الخطاب أو نحو ذلك . وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب

(١) المعداد آثنا عشر كما ستقف عليه .

إليه : من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك ، فإنَّ أمر المكتبات مبنى على التملُّق واستجلاب الخواطر وتألف القلوب ، إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى ، على ما يقتضيه اصطلاح كل زمن في الابتداآت .

المعنى الثانى — أن يكون الحُسْنُ فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين : من سُؤْلَةِ اللفظ ، وصحَّة السبك ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو ، وغير ذلك من موجبات التحسين ؛ كما كتب الأستاذ أبو الفضل بن العميد عن رُكن الدولة بن بويه ، إلى مَنْ عصى عليه ، مفتتحا كتابه بقوله : ” كِتَابِي إِلَيْكَ ، وأنا متردد بين طَمَعٍ فيك وإيَّاسٍ منك ، وإقبالٍ عليك وإعراضٍ عنك ؛ فإنك تُدِلُّ بِسَالِفِ خِدَمِ أَيْسَرُهَا يُوجِبُ رِعَايَهُ ، وَيَقْتَضِي مَحَافِظَةً وَعِنَايَهُ ، ثُمَّ تَسْفَعُهَا بِمُحَادِثِ غُلُولٍ وَخِيَانَةٍ ، وَتُدْنِعُهَا بِأَلْفِ خِلَافٍ وَمَعْصِيَةٍ ، أَدْنَى ذَلِكَ يُحِيطُ أَعْمَالُكَ ، وَيُسْقِطُ كُلَّ مَا يُرْعَى لَكَ “ .

وكما كتب أبو حفص بن برد الأندلسى عن مَلِكِهِ إِلَى مَنْ عصى عليه ثم عاد إلى الطاعة كتاباً أفتتحه بقوله : ” أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْغَلْبَةَ لَنَا وَالظُّهُورَ عَلَيْكَ جَلْبَاكَ إِلَيْنَا عَلَى قَدَمِكَ ، دُونَ عَهْدٍ وَلَا عَقْدٍ يَمْنَعَانِ مِنْ إِرَاقَةِ دَمِكَ ؛ وَلَكِنَّا لِمَا وَهَبَ اللَّهُ لَنَا مِنَ الْإِشْرَافِ عَلَى سَرَائِرِ الرِّيَاسَةِ ، وَالْحِفْظِ لَشَرَائِعِ السِّيَاسَةِ ؛ تَأَمَّلْنَا مِنْ سَاسِ جِهَتِكَ قَبْلَنَا ، فَوَجَدْنَا يَدَ سِيَاسَتِهِ نَحْرَاءَ ، وَعَيْنَ خِدَامَتِهِ عَوْرَاءَ ، وَقَدَمَ مُدَارَاتِهِ شَلَاءَ : لِأَنَّهُ مَالَ عَنْ تَرْغِيكَ فَلَمْ تَرْجُهُ ، وَعَنْ تَرْهِيكَ فَلَمْ تَحْشَهِ ؛ فَأَدَّتْكَ حَاجَتُكَ إِلَى طِلَابِ الْمَطَاعِمِ الدِّينِيَّةِ ، وَقَلَّةِ مَهَابَتِكَ إِلَى التَّهَالُكِ عَلَى الْمَعَاصِي الْوَيْبَةِ “ ونحو ذلك من الافتتاحات البهجة ، والابتداآت الرائقة ، مما ستقف على الكثير منه فى خلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الأصل الثاني

(أن يأتى فى ابتداء المكاتبه ببراعة الاستهلال المطلوبة)

فى كل فن من فنون الكلام)

بان يأتى فى صدر المكاتبه بما يدل على عجزها . فإن كان الكتاب بفتح ، أتى فى أوله بما يدل على التهنئة . أو بتعزية ، أتى فى أوله بما يدل على التعزية . أو فى غير ذلك من المعانى ، أتى فى أوله بما يدل عليه : ليُعلم من مبدئ الكتاب ما المراد منه . كما يحكى أن عمرو بن مسعدة كاتب المأمون أمر كاتبه أن يكتب إلى الخليفة كتابا يعرفه فيه أن بقرة ولدت عجلا وجهه وجه إنسان ، فكتب : ”أما بعد حمد الله خالق الأنام ، فى بطون الأنعام “ . وفُضلاء الكُتّاب وأئمتهم يعتنون بذلك كل الاعتناء ، ويرون تركه إخلالا بالصنعة ، ونقصا فى الكتابة ، حتى إن الوزير ضياء الدين بن الأثير فى المثل السائر قد عاب أبا إسحاق الصابى على جلالة قدره فى الكتابة ، وأعتراه له بالتقدم فى الصناعة ، بكتاب كتبه بفتح بغداد وهزيمة الترك فقال فى أوله :

”الحمد لله رب العالمين ، الملك الحق المبين ، الوحيد الفريد ، العليّ المجيد ، الذى لا يوصف إلا بسلب الصفات ، ولا يُنعت إلا برفع النعوت ، الأزلى بلا ابتداء ، الأبدى بلا انتهاء ، القديم لا منذ أميد محدود ، الدائم لا إلى أجل معدود ، الفاعل لا من مادة امتدّها ، الصانع لا بآلة استعملها ، الذى لا تدركه الأعين بالخطاها ، ولا تحده الألسن بالفاظها ، ولا تُخالفه العصور بمرورها ، ولا تُهرمه الدهور بمرورها ، ولا تُجاريه أقدام النظراء والأشكال ، ولا تُزاحمه منكبُ القراء والأمثال ، بل هو الصمد الذى لا كُفء له ، والفرد الذى لا توأم معه ، والحيّ الذى لا تحترمه المنون ، والقيوم الذى لا تسغله الشئون ، والقدير الذى لا تُؤدّه المعضلات ، والخبير الذى

لا تُعييه المُشكلات“ ثم قال : إن هذه التجميدَ لا تُناسب الكتابَ الذى أفتحه بها، ولكنها تصلح أن تُوضع فى صدر مُصنّف من مصنّفات أصول الدين : كتاب ”الشامل“ للجوينى، أو كتاب ”الاقتصاد“ للغزالى، وما جرى مجراهما . فأما أن تُوضع فى أول كتابٍ فتح فلا .

وَأعلم أن براعة الاستهلال فى المكاتبات قد تقع مع الابتداء بالتحميد ، كما فى كتاب عمرو بن مسعدة المتقدم ذكره ، وكما كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع إلى بعض ولاة الأطراف ، عند زوال الوحشة بينه وبين الأمراء ، ووقوع الصلح والاتفاق : ”أما بعدُ فالحمدُ لله ناظم الشمل ، بعد شتاته ، وواصل الحبل ، بعد بئاته ؛ وجابر الوهن إذا انشلم ، وكاشف الخطب إذا أظلم“ .

وقد تقع مع الابتداء بالتقيل : كما كتبت إلى بعض الرؤساء بئر الإسكندرية ، ملوحاً إلى التعبير عنه بالغر ، وعن الريح التى تهبّ دليه من جانب البحر بالمئم ، وعن مُستنزه من مستزّهاته بالرمل ، وعن المساكن التى به بالقصور مع قُربه من البحر ، ومُناسبة ذكر النسيم بالغر بما صورته : ”يُقبل أرض نغر قد رَقّ مئمه ، وراق مئسمه ؛ بأننا لشكر يعترف الرمل بالقصور عن حدّه ، وتقف أمواج البحر المحيط دُون عدّه“ .

وقد تقع مع الابتداء بالدعاء ، وتكون براعة الاستهلال فى الدعاء المعطوف على مبتدأه : بأن يكون الدعاء مناسباً للحالة المكتوب فيها ، كما نبّه عليه صاحب ”المثل السائر“ وغيره ، وسيأتى الكلام على أمثلة ذلك فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

(١) عبارة الضوء ”و يلوّح بذكر مستنزه لهم على البحر يسمى بالرمل ومساكن لهم فى ذلك المستنزه تسمى القصور“ وهى أوضح .

(١)
ثم من المكاتبات ما عُسِرَ معه الإتيانُ ببراعة الاستهلال فيما يلي ذلك من الكلام
في مقدمة المكاتب قبل الخوض في المقصود ولا يهملها جملة . على أن الشيخ
شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد ذكر في كتابه "حسن التوسل" أنه إن عُسِرَ
عليه براعة الاستهلال، أتى بما يُقاربُ المعنى . وبكل حال فإذا أتى ببراعة استهلال
في أول مكاتبه آستصحبها إلى الفراغ من الخطبة إن كان الكتاب مفتتحاً بخطبة ،
وإلا آستصحبها إلى الفراغ من مقدمة الكتاب الآتى بيانها .

الأصل الثالث

(أن يأتي في المكاتبه المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة يُصدّر بها
تأسيساً لما يأتي به في مكاتبته)

مثل أن يأتي في صدور كُتُب الحثّ على الجهاد بذكر افتراضه على الأمة ،
وما وعد الله تعالى به من نصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ، وإعزاز الموحّدين ، وقمع
المُلاحِدين . وفي صدور كُتُب الفتح بإنجاز وعد الله الذي وعده أهل الطاعة من
النصر والظفر ، وإظهار دينه على الدين كله . وفي صدور كُتُب جباية الخراج ،
يُصدّر بحاجة قيام الملك وأُس السلطنة إلى الاستعانة بما يُستخرج من حقوق السلطان
في عمارة الثغور ، وتحصين الأعمال ، وتقوية الرجال ، ونحو ذلك مما يجري على هذا
النمط مما سيأتى بيانه في مقاصد المكاتبات في الكلام على الابتدآت والجوابات
فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فقد قيل : إنه لا يحسن بالكاتب أن يُخْلِى كلامه - وإن كان وجيزاً - من مُقدمة
يفتتحُ بها وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة ، ليوَقِّ التاليفَ حقّه . قال

(١) لعله الاستهلال في البداءة فيأتى بها فيما يلي ذلك ... الخ كما هو ظاهر من بقية الكلام .

في "موادّ البيان" : وعلى هذا السبيل جرت سنة الكتاب في جميع الكتب : كالفتوح ، والتّهاني ، والتّعازي ، والتّهادي ، والاستخبار ، والاستبطاء ، والإحساد ، والإذمام ، وغيرها : ليكون ذلك بساطا لما يريد القول فيه ، وحجةً يستظهر بها السلطان ؛ لأن كل كلام لأبد له من فرش يُقرش قبله : ليكون منه بمنزلة الأساس من البنيان .

قال : ويرجع في هذه المقدمات إلى معرفة الكاتب ما يستحقّه كل نوع من أنواع الكلام من المقدمات التي تُساكلها . ثم قال : والطريق إلى إصابة المرعى في هذه المقدمات أن تجعل مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض ، وأن يوضع للأمر الخاص مقدمة خاصة ، وللأمر العام مقدمة عامة ، ولا يطول في موضع الاختصار ، ولا يقصر في موضع الإيجاز ، ولا يجعل أغراضها بعيدة المآخذ ، مُعتاصة على المتصفح . وذلك أن الكاتب ربما قصد إظهار القدرة على الكلام والتصرف في وجوه المنطق ، فخرج إلى الإملال والإجبار الذي نتبم منه النفوس ، ولا سيما نفوس الملوك وذوي الأخطار الحليّة .

أما الأمور التي لا تشتمل على المقاصد الحليّة : كرقاع التحف والهدايا ونحوهما . فقد ذكر في "موادّ البيان" أنه لا يجعل لها مقدمة تكون أمامها فإن ذلك غير جائز ولا واقع موقعه . قال : ألا ترى أنهم استحسّنوا قول بعضهم في صدر رُقعة مقترنة بخُفّة في يوم مَهْرَجان أو نحوه : «هذا يوم جرت فيه العادة ، بأن تُهدى فيه العيد إلى السادة» واستظرفوا الكاتب لإيجازه وتقريب المآخذ .

الأصل الرابع

(أن يَعْرِفَ الفرقَ بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات

فيضعها في مواضعها)

قال في "ذخيرة الخُطاب" : يجب على الكاتب الرئيس أن يَعْرِفَ مرتبة الألفاظ ومواقعها : ليرتّبها ويفرق بينها فرقا يَقْفُهُ على الواجب وينتهي به إلى الصواب ، فيخاطب كلّاً في مكاتبتّه بما يَسْتَحِقُّه من الخطاب ؛ فإنه قَبِيحٌ به أن يكونَ خطابُهُ أولاً خطابَ الرئيس للمرءوس ، ويُذَيِّعَ ذلك بخطاب المرءوس للرئيس ، أو يبدأ بخطاب المرءوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرئيس للمرءوس .

قال : ومتى استمرّ الكاتب على هذه المخالفة من الألفاظ والمناقضة ، نقصت المعاني ، ورذلت الألفاظ ، وسقطت المقاصد ، وكان الكاتب قد أخلّ من الصّناعة بمُعْظَمِها ، وترك من البلاغة غايةً مُحْكَمَها . بل يجب أن يبدأ بخطاب رئيس أو نظير أو مرءوس ، ويكون ما يتخلل مكاتبتّه من الألفاظ على اتّساق إلى آخرها وأطرادٍ من غير مخالفة بينها ولا مضادةٍ ولا مناقضةٍ .

فمن ذلك الفرق بين أصدرنا هذه المكاتبة أو أصدرناها ، وبين أصدرت ، وبين صدرت . فأصدرناها أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه : للتصريح فيها بالضمير العائد على الرئيس التي صدرت المكاتبة عنه ، إذ الشئ يُشْرَفُ بِشَرَفٍ متعلّقه . وبلى ذلك في الرتبة أصدرت ، لاقتضاء إصداراً في الجملة ، والإصدار لا بدّ له من مُصْدِرٍ ، وذلك المُصْدِرُ هو الرئيس الصادرة عنه في الحقيقة . وإنما كانت دون الأولى للتصريح بالضمير هناك دون هنا . ودون ذلك في الرتبة صدرت : لاقتضاء الحال صدورها بنفسها دون دلالةٍ على المُصْدِرِ أصلاً .

ومن ذلك الفرق بين «ونبدى لعلمه» وبين «ووضَّح لعلمه» : فنبدى لعلمه أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه : لأن الإبداء يرجع في المعنى إلى إظهار شيء خفى ، والإيضاح يرجع إلى بيان مُشْكِل ، وحصول الإشكال المحتاج إلى الإيضاح ربما دلَّ على بُعد فهم المخاطب عن المقصود ، بخلاف إظهار الخفى فإنه لا يتَّرى إلى هذا الحد .

ومن ذلك الفرق بين «علمه الكريم» وبين «علمه المبارك» فالكريم أعلى من المبارك ، لأن في الكريم عراقة أصل وشرف قد تُوجد في المبارك وقد تختلف عنه .

ومن ذلك الفرق بين «ومرسُومنا لفلان بكذا» وبين «والمرسُوم له بكذا» : فرسومنا أعلى بالنسبة إلى المكتوب عنه لاشتماله على نون الجمع المقتضية للتعظيم ، ولذلك آخِصَّت بالملوك دون ذيرهم ؛ بخلاف المرسُوم له بكذا فإنه دارج عن ذلك . ومن ذلك الفرق بين «والمسؤول» وبين «والمستعد» : فإن المسؤول أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه ^(١) ، فإن المسؤول يتضمَّن نوع ذلَّة بخلاف الاستعداد فإنه لا يستلزم ذلك .

ومن ذلك الفرق بين «بلغنا» وبين «أنهى إلى علمنا» وبين «اتصل بنا» : فاتصل بنا أعلى من أنهى إلى علمنا ، لما في معنى الاتصال من الاصق ، بخلاف الإنهاء ؛ وأنهى إلى علمنا أعلى من بلغنا : لأن البلوغ قد يكون على لسان آحاد الناس .

ومن ذلك الفرق بين «أنهى فلان كذا» وبين «عرفنا كذا» : فعرفنا أعلى بالنسبة إلى رافع الخبر، لأن في التعريف مزية قرب من الرئيس، بخلاف الإنهاء فإنه لا يقتضى ذلك .

ومن ذلك الفرق بين «وردت مكاتبتة» وبين «وردت علينا مكاتبتة» : فوردت علينا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبة الواردة : لتخصيصها بالورود على الرئيس بخلاف الورود المطلق .

ومن ذلك الفرق بين «عُرِضَتْ علينا مكاتبتك» وبين «وَقَفْنَا على مكاتبتك» فوقفنا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبة : لأن الوقوف عليها يكون بنفسه، والعرض يكون من غيره .

ومن ذلك الفرق بين «وشكرتُ الله تعالى على سلامته» وبين «وتوالتُ شكري لله تعالى» : فتوالتُ شكري أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه : لما فيه من معنى التكرار ومزيد الشكر المعْدُوق بالاحتفال .

ومن ذلك الفرق بين «ورَغِبْتُ إلى الله تعالى» وبين «وَضَرَعْتُ إلى الله تعالى» : فَضَرَعْتُ أعلى من رَغِبْتُ : لما في الضراعة من مزيد التأكيد في الطلب ، بخلاف الرغبة فإنها لا تبلغ هذا المبلغ .

ومن ذلك الفرق بين «وقابلتُ أمره بالطاعة» وبين «وَأَمْتَلْتُ أمره بالطاعة» : فَأَمْتَلْتُ أمره أعلى من قابلتُ أمره، لما في الأمثال من معنى الإذعان والالتقياد، بخلاف المُقابلة .

ومن ذلك الفرق بين «وَشَفَعْتُ لَهُ» وبين «وَسَأَلْتُ فِيهِ» : فالسؤال أعلى في حق المسئول من الشفاعة : ^(١) لما في الشفاعة من رفعة المقام المؤدى إلى قبول الشفاعة .
ومن ذلك الفرق بين «وخاطبْتُ فلانا في أمره» وبين «وتحدّثْتُ في أمره» : فتحدّث أشد في تواضع المتكلم من خاطبت ، لأن الخطاب من الألفاظ الخاصة التي لا يتعاطاها كل أحد بخلاف التحدّث .

ومن ذلك الفرق بين «تَشْرِيفِي بكذا» وبين «إِسْعَافِي بكذا» [وبين «إِتْحَافِي بكذا»] ^(٢) فالإسعاف أعلى رتبة من التشريف لما فيه من دعوى الحاجة والفاقة إلى المطلوب ، بخلاف التشريف ؛ وإِتْحَافِي دون تَشْرِيفِي لأن الإتحاف قد لا يقتضى تشريفا .

ومن ذلك الفرق بين قوله : «نَزَلَ عِنْدَهُ» وبين قوله : «نَزَلَ بِسَاحَتِهِ» : فالساحة أعلى لما فيها من معنى الفُسْحَةِ والِاتِّسَاعِ .

ومن ذلك الفرق بين «فُيْحِيطَ عِلْمُهُ بذلك وبين فَعَلِمَ ذلك» : فُيْحِيطَ علمه أعلى من يَعْلَمَ ذلك : لأن في قوله فُيْحِيطَ عِلْمُهُ بذلك نسبته إلى سَعَةِ العلم : لما فيه من معنى الإحاطة بخلاف فَعَلِمَ ذلك .

(١) عبارة الضوء "لما في السؤال من معنى الذلة وما في الشفاعة من معنى الشرف" وهي أوضح .

(٢) الزيادة من الضوء وهي ساقطة من قلم الناسخ بدليل بقية الكلام .

الأصل الخامس

(أن يعرف مواقع الدعاء في المكاتبات ، فيدعو بكل دعاء في موضعه)

ويتعلق النظر فيه بسنة أوجه

الأول — أن يعرف مراتب الدعاء ليوقيها في مواقعها ، ويوردها في مواردِها ، ويتأني ذلك في عتبة أدعية .

(منها) الدعاء بإطالة البقاء ، والدعاء بإطالة العمر : فالدعاء بإطالة البقاء أرفع من الدعاء بإطالة العمر . وذلك أن البقاء لا يدل على مدة تنقضي لأنه ضد الفناء ، والعمر يدل على مدة تنقضي ؛ ولذلك يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر . قال في "مواد البيان" : ومن هنا جعل الدعاء بإطالة البقاء أول مراتب الدعاء وخص بالخلفاء ، وجعل ما يليه لمن دُونهم . ويتلوه الدعاء بالمد في العمر ، فيكون دون الدعاء بالإطالة ، لأن الوصف بطول الزمان أبلغ من الوصف بالمد فيه من حيث إن المد قابل للمدة الطويلة والمدة القصيرة ؛ ولذلك صارت مرتبة الطول أقرب إلى مرتبة البقاء من مرتبة المد .

(ومنها) الدعاء بدوام النعمة ، والدعاء بمضاعفتها : نالدعاء بالمضاعفة أعلى : لأن الدوام غايته استصحاب ما هو عليه ، والمضاعفة مقتضية للزيادة على ذلك .

(ومنها) الدعاء بعز الأنصار ، وعز النصر ، وعز النصرة . وقد أصطلح كتاب الزمان على أن جعلوا أعلاها الدعاء بعز الأنصار ، لأن عز أنصاره عز له بالضرورة مع ما فيه من تعظيم القدر ورفع الشأن ؛ إذ الأنصار لا تكون إلا للملك عظيم أو أمير كبير . والدعاء بعز النصر أعلى من الدعاء بعز النصرة : لما في الأول من

معنى التذكير وهو أرفع رتبةً من التأنيث . على أنه لو جعل الدعاء بعز النصر على من الدعاء بعز الأنصار ، لكان له وجه : لما في عز النصر من الغناء عن عز الأنصار .

(ومنها) الدعاء بعز الأحكام ، والدعاء بتأييد الأحكام : فالدعاء بعز الأحكام على : لأن المراد بالتأييد التقوية ، فقد توجد القوة ولا عز معها .

وينبغي للكاتب أن يحتري في تنزيل كل أحد من المكتوب إليهم منزلته في الدعاء ، فلا ينقص أحدا عن حقه ، ولا يزيده فوق حقه ، فقد قال في ”مواد البيان“ :
إن الملوك تسمح ببدرات المال ولا تسمح بالدعوة الواحدة .

الثاني — أن يعرف ما يناسب كل واحد من أرباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصه به .

فيأتي بالدعاء في المكتبة للملوك بإطالة البقاء ، ودوام السلطان ، وخلود الملك ، وما أشبه ذلك .

ويأتي في المكتبة إلى الأمراء بالدعاء بعز الأنصار ، وعز النصر ، ومضاعفة النعمة ، ومداومتها وما شاكل ذلك . على أن ابن شيث قد ذكر في ”معالم الكتابة“ :
أن الدعاء بعز النصر ومضاعفة الأقدار كان في الدولة الأيوبية مما يختص بالسلطان دون غيره .

ويأتي في المكتبات للوزراء من أرباب الأقلام ومن في معناهم بالدعاء بسبوغ النعماء ، وتخليد السعادة ، ودوام المجد ، وما يضاها ذلك .

ويأتي في المكتبات للقضاة والحكام بالدعاء بعز الأحكام ، وتأيد الأحكام وما يطابق ذلك .

ويأتى فى المكتبة إلى التُّجَّار بالدعاء بمزيد الإقبال ، وخُلُود السعادة وشبه ذلك .
ويأتى فى المكتبة فى الإخوانيات ومكتبات النظراء من الدعاء بما يقتضيه الحال
بينهم من الودِّ والإدلال ، بحسب ما يراه الكاتب ويؤدّى إليه آجتهاده . قال
فى "موادّ البيان" : وقد كانوا يختارون فى الدعاء للأدباء أبقاك الله ، وأكرمك الله .
وفى الدعاء للابن والحُرمة أبقاك الله وأمتع بك .



أما أهل الكُفْرِ فقد أصطلحوا على الدعاء لهم بطول البقاء وما فى معناه . أمّا جواز
اصل الدعاء لهم فلمّا روى أَنَّ النّبىّ صَلَّى الله عليه وسلم آسَسَقْ يَهُودِيّ ،
فقال له : جَحَلَك الله ، فما رَوَى الشَّيْبُ فى وَجْهِهِ حَتَّى مات ، فدلَّ على جواز الدعاء
للكافر بما لا ضَرَرَ فيه على المسلمين ما لم تنضم إليه قُوَّة ونحو ذلك ، بل ربما كان
فى طول بقائه حِمْلُ حَزِيَّة أو غَنِيمة أو ثَوَابٌ جِهَادٍ ونحو ذلك . وقد حكى أبو جعفر
النجاشى فى "صناعة الكُتَّاب" : أَنَّ الشافعى رضى الله عنه قال لنصرانى : أعزَّك
الله ! فَعُوَّتَبَ فى ذلك ، فقال
(١)

وَأَعْلَم أَنَّهُ يَجِبُ مَعَ ذَلِكَ أَن يَعْرِفَ مَرْتَبَةَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ مِنَ الدَّعَاءِ ، فَيَدْعُو بِعِزِّ
الْأَنْصَارِ لِوَاحِدٍ ، وَيَدْعُو بِعِزِّ النُّصَرِ لِمَنْ دُونَهُ : لِأَنَّ عِزَّ الْأَنْصَارِ مُسْتَلْزَمٌ لِعِزِّ النُّصَرِ .
على أَنَّهُ لَوْ قِيلَ : إِنْ عِزَّ النُّصَرِ أَعْلَى لَكُنْهُ دَعَاءٌ لِنَفْسِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ الدَّعَاءِ بِعِزِّ
الْأَنْصَارِ فَإِنَّهُ دَعَاءٌ لَشَيْءٍ خَارِجٍ لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ . وَيَدْعُو بِعِزِّ النُّصَرِ لِمَنْ دُونَ مَنْ
يَدْعَى لَهُ بِعِزِّ النُّصَرِ ، لِأَنَّ النُّصَرَ مَذْكُورُ رَتْبَةٍ التَّذْكِيرِ أَعْلَى مِنْ رَتْبَةِ التَّأْنِيثِ .

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمتين ولم يورده فى الضوء ولعل الشافعى آستدل بالحديث السابق .

ويدعو بدوام النعمة لواحد ويدعو بمضاعفة النعمة لمن دونه ^(١) ، لأن الصيغة تقتضى مزيداً على القدر الحاصل ، بخلاف الدوام فإنه يقتضى استصحاب القدر الحاصل فقط ، وعلى هذا النهج . قال فى "معالم الكتّابة" : ولا يُكتب عن السلطان إلى أحد ممن فى ممالكه بلا زال ، ولا برح ، بل يختص ذلك بملك مثله . قال : ولا حرج فى الكتّابة بذلك عن السلطان إلى ولده إذا كان نائباً عنه فى الملك . قال : وكذلك لا يدعو الأعلى للأدنى بلا زال ، ولا برح .

قلت : والذى استقرّ عليه الحال الكتّابة عن السلطان بذلك لأكابر النواب ، ويكتب به أكابر الدولة بعضهم إلى بعض .

الثالث — أن يعرف مايناسب كلّ حالة من حالات المكاتبات ، فيأتى لكل حالة بما يناسبها من الدعاء . قال فى "موادّ البيان" : ينبغى أن تكون الأدعية دالة على مقاصد الكتّاب : فإن كان فى الهناء كان بما راجت معرفته ، وإن كان فى العزاء كانت مشتقة من وصفه ، وكذلك سائر فنون المكاتبات ، فإنه متى خرج الدعاء عن المناسبة وبأن المقصود ، خرج عن جادة الصناعة وتوجه اللوم على الكتّاب ، لاسيّما إذا أتى بما يضادّ المراد . كما حكى أبو هلال العسكى فى "الصناعتين" أن بعضهم كتب إلى محبوبته : عصمنا الله وإياك مما يؤكّه . فكتبت إليه : يا غليظ الطبع ! إن استجيب لك لم نلتق أبداً .

ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حال المكاتبات : فتارة تكون باعتبار الشئ المكتوب بسببه . كما يكتب فى معنى البشارة بجلوس الملك على تحت الملك : لازال أمره ! وأمتعته من البشائر بما يتوصّع على جبين الصباح بشره ، وما يترجّع على ميزان الكواكب قدره ، وما يفسح من أوقات أمن لا يختلف فيها زيده وعمره .

(١) صوابه "لمن فوقه" كما هو مقتضى التعليل بعد وكما يؤخذ من عبارة الضوء ص ٤٢٣ .

وَمَا يُكْتَبُ فِي الْبَشَرِ بِفَتْحٍ : وَلَا زَالَتْ آيَاتُ النَّصِيرِ تُشْلِي عَلَيْهِ مِنْ مُحْضٍ
الْبَشَائِرِ ، وَنَفَاسُ الظَّفَرِ يُجْلِي عَلَى سِرِّهِ فِي أَسْعَدِ طَائِرٍ ، وَنَوَاطِحُ الْفَتْحِ تُزْهِى بِهِ الْأَسْرَةَ
وَتَرْهَوُ بِوُورِهِ الْمَنَارِ .

وَمَا يُكْتَبُ فِي التَّهْنِئَةِ بِعَافِيَةٍ ، وَلَا بَرَحٍ فِي بُرْدِ الصَّحَةِ رَافِلًا ... بَعَزْمِهِ وَخَزْنِهِ^(١)
كَافِلًا ، وَالْإِنْبَالُ لَجَنَابِهِ الْعَالِي بِالْمَنَاءِ بِعَافِيَتِهِ وَاصِلًا .

وتارة تكون باعتبار حال المكتوب إليه التي هو بصددِها .

كما يكتب لمن خرج إلى الغزو : وَحَقَّهُ بَلُغُهُ فَلَا يَحِيبُ ، وَهَيَّالُهُ النَّصْرَ وَالْفَتْحَ
الْقَرِيبَ ، وَجَعَلَ عَلَى يَدَيْهِ دَمَارَ الْكُفَّارِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ بِشِدَّةٍ بِأَسِهِ مِنَ السَّلَامَةِ
نَصِيبَ .

وَمَا يَكْتُبُ إِلَى مَنْ خَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ : وَأَمْتَعَهُ بِصُيُودِهِ ، وَجَعَلَ الْأَقْدَارَ مِنْ
جُنُودِهِ ، وَأَرَاهُ مِنْ مَصَارِعِ أَعْدَائِهِ بِسُيُوفِهِ وَرِمَاحِهِ ، أَيْرَاهُ مِنْ مَصَارِعِ صَيْدِهِ بِبُرَايَةِ
وُفُوهِهِ .

وَمَا يُكْتَبُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَفَرٍ : وَقَضَى بِقُرْبِ رَجْعَتِهِ ، وَجَعَلَهُ كَالْهَلَالِ فِي مَسِيرِهِ
سَبَبُ رِفْعَتِهِ ، وَسَكَنَ بِقُدُومِهِ أَشْوَاقَ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِي مَحَبَّتِهِ .

وَمَا يُكْتَبُ لِمَنْ خَرَجَ لِتَخْضِيرِ الْبِلَادِ : وَأَلْبَسَ الْبِلَادَ بِقُدُومِهِ أَخْضَرَ الْأَنْوَابِ ،
وَأَحْلَاهُ أَشْرَفَ مَحَلٍّ وَأَخْصَبَ جَنَابٍ .

وتارة تكون باعتبار وظيفة المكتوب إليه التي هو قائم بها

كما يُكْتَبُ إِلَى كَافِلِ الْمَلِكَةِ : وَلَا زَالَتْ كِفَايَةُ كِفَائَتِهِ تَزِيدُ عَلَى الْأَمَالِ ، وَتَتَقَرَّبُ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَتَكْفُلُ مَا يَنْبَغِي أَقْصَى الْجُودِ وَأَقْصَى الشَّمَالِ .

(١) بياض في الأصول بقدر كلمة ولعله ولا زال الزمان .

وكما يكتب إلى قاض : وفصل بين الخصوم بأحكامه المسدده ، وأفضيته التي بها قواعد الإسلام ممهده ، وأبنية الشرع المطهر وأركانه مشيده .

وكما يكتب إلى متصوف : وأعاد من بركات تهجداته ، وأثار اللبالي بصلاح دعواته .

وتارة تكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحيته .

كما يكتب إلى نائب الشام : ولا زال النصر حلية أيامه وشامة شامه ، وعمامة مايجلق على بلده المنصب من غمامه .

وكما يكتب إلى نائب حلب في زمن الحروب : ولا زال يعدّ ليوم تسبب فيه الولدان ، ويصدّ دونه كل محارب بين الشهباء والميدان ، ويعمّ حلب من حلى أيامه مالا يفقد معه إلا أسم ابن حمدان ، ونحو ذلك مما يخطر في هذا السلك .

وتارة تكون باعتبار أسم المكتوب إليه أو لقبه .

كما يكتب إلى من لقبه سيف الدين : ولا زال سيفه في رقاب أعدائه مغمدا ، وحده يذر كل ملحد ملحدا .

وكما يكتب إلى من لقبه عز الدين : ولا زال عزه دائما ، والزمان في خدمته قائما ، وطرف الدهر عن مراقبة سعادته نائما .

وكما يكتب إلى من لقبه شمس الدين : ولا زالت شمس سعادته مشرقة ، وأغصان فضله بالعوارف مورقة ، وعيون طوارق الغير عنه في كل زمن مطرقة .

وكما يكتب إلى من لقبه ناصر الدين : ونصر عزائمه ، وشكر مكارمه ، ووفر من الحسنات مقامه . إلى غير ذلك من الأمور التي ستقف على الكثير منها في الكلام على مقاصد المكاتبات إن شاء الله تعالى .

الرابع — أن يعرف مواضع الدعاء على المكتوب إليه ، ومن الذي يُصرَّح بذلك في المكتوبة إليه . قد ذكر ابن شيث في ” معالم الكتابة “ أن الدعاء على الأعداء في صدور الكتب كان من عوائد مكتبة الأذنى إلى الأعلى . مثل : وقصم ، وأذل ، وقهر ، وخضد . وكذلك المائل والمقارب ، فأما من الأعلى إلى الأذنى فلم يكن ذلك معروفا عند المتقدمين ، لاسيما إذا كان الكتاب عن السلطان . ثم قال : ولكن قد أفلت الحبلى في ذلك الآن [إلى أن] قال : ولا يقال للأذنى غير كبت عدوه ، أو ضده ، أو حسوده خاصة .

(١) ومنها — أن يعرف ما كرهه الكتاب من الدعاء فيتجنبه . وهو على ضربين :

الضرب الأول

(ما كرهوه في المكتبة إلى كل احد)

قال في ” مواد البيان “ : كانت عادتهم جارية أن يتجنبوا من الأدعية ما لا محصول له ، كقولهم : جعلني الله فداك ، وقدمني إلى سوء دونك : لما في ذلك من التصنع والمأل الذي لا يرضاه السلطان ، لأن نفس الداعي لا تسمح باستجابته . ويؤيد ما ذكره ما كتب به ابن عبد كان إلى بعض أصدقائه : جعلت فداك على الصحة والحقيقة ، لا على مجرى المكتبة ومذهب العادة . قال في ” مواد البيان “ : وإنما يحسن ذلك من الخواص الذين يتحققون أن بقاءهم معدوق ببقاء رؤسائهم ، وثبات نعمهم مقرون بثبات أيام سلاطينهم ، لأنه يصدر عن عقائد مستحكمة من بذل الأنفس دونهم . وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل في ” صناعة الكتاب “ مثله عن مالك بن أنس ، واحتج له بما روى عن الزبير رضى الله عنه أنه قال

(١) عدها في الضوء مرتبة خامسة وهو أنسب .

للنبي صلى الله عليه وسلم : « جُعِلَتْ فِدَاكَ - فقال له أما تَرَكَتَ أَعْرَابِيَّتَكَ بَعْدُ ! »
على أن بعضهم قد أجاز ذلك احتجاجاً بقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن مالك يوم
أُحُد : « إِرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » وبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ ؟ قال نعم
جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ! » ولم يُنْكِرْ عليه ، ونحو ذلك ؛ وفي معنى ذلك كل ما يجرى هذا
المجرى ونحوه .

الضرب الثاني

(ماتخص كراهته بالبعض دون البعض ، وهو نوعان)

النوع الأول - ما يخص بالرجال ، فمن ذلك ما ذكره في " مواد البيان " : أنهم
كانوا لا يَسْتَحْسِنُونَ الدِّعَاءَ بِالْإِمْتَاعِ نَحْوَ أَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ وَأَمْتَعْنِي اللَّهُ بِكَ ، في حق
الإخوان . ومما يُحْكِي في ذلك أن محمد بن عبد الملك الزيات ، كتب إلى عبد الله
ابن طاهر في كتاب : وَأَمْتَعَ بِكَ ؛ فكتب إليه عبد الله بن طاهر :

أُحِلَّتْ عَمَّا عَهِدْتُ مِنْ أَدَبِكَ ؟ * أَمْ نِلْتَ مُلْكًا فَتَهْتَ فِي كِتَابِكَ ؟
أَتَعَبْتَ كَفَيْكَ فِي مَكَاتِبِي * حَسْبُكَ مِمَّا يَزِيدُ فِي تَعَبِكَ !
إِنَّ جَفَاءَ كِتَابِ ذِي مَقَّةٍ * يَكُونُ فِي صَدْرِهِ ، " وَأَمْتَعَ بِكَ " .

فأجابه محمد بن عبد الملك الزيات معتذرا بقوله :

كَيْفَ أَخُونُ الْإِخَاءَ يَا أَمَلِي ؟ * وَكُلُّ شَيْءٍ أَنَالُ مِنْ سَبَبِكَ !
إِنَّ يَكُ جَهْلُ أَتَاكَ مِنْ قَبْلِي ، * فَعُدْ بِفَضْلٍ عَلَيَّ مِنْ أَدَبِكَ .

على أن في كراهة الدعاء للإخوان بذلك نظرا فسيأتي في الكلام على ترتيب المكتاتبات على سبيل الإجمال أن أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم [قالت]: اللهم أمتني بزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية - في حديث طويل يأتي ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

أما الدعاء بالإمتاع للاتباع، فقد أجازته جماعة من محققى الكتاب، محتجين على ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم دعا لأبي اليسر: كعب بن عبيد الله بقوله «اللهم أمتنا به» . قال ابن عفير: فكان آخر أهل بذر وفاة، مات سنة خمس وخمسين من الهجرة .

النوع الثانى - ما يختص بالنساء . فقد ذكر «أبو جعفر النحاس» أنه لا يقال في مكاتبتهم «وأدام كرامتك» ولا «وأتم نعمته عليك» ولكن لديك، ولا «فضله عندك» ولا «وأدام سعادتك» . أما منع الدعاء لهم بالكرامة، فلما حكى محمد بن عمر المدائنى أن بعض عمال زبيدة كتب إليها كتابا بسبب ضياع لها فوقعت له على ظهر كتابه: أردت أن تدعونا فدعوت علينا، فأصلح خطاك في كتابك وإلا صرناك عن جميع أعمالك! . فأدركه القلق، وجعل يتصفح الكتاب ويعرضه على الكتاب فلا يجد فيه شيئا، إلى أن عرض له على بعض أهل المعرفة فقال: إنما كرهت دعاءك في صدر كتابك بقولك: وأدام كرامتك: لأن كرامة النساء دفنن - قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم «دفن البنات من المكرمات» فغير ذلك الحرف من كتابه وأعادها إليها فوقعت له على ظهره - أحسنت ولا تعد - . وأما كراهة وأتم نعمته عليك وإبدال ذلك بلفظ وأتم نعمته لديك، فكأنه لما يلح فيه من ذكر العلو على النساء . وأما منع وأتم فضله عندك، أو وأتم سعادتك فيحتاج إلى تأمل .

(١) الذى فى « خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال » للزجرجى (كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو) ونحوه فى تاج العروس مادة س ر .

الخامس — أن يتجنب الخلاف في الدعاء في فصول الكتاب، ولا يؤلى بين دَعَوَتَيْنِ منه [متفتحين] . فأما الخلاف في الدعاء، فقال أبو جعفر النحاس : هو مثل أن يقول أطال الله بقاء سيدي — بلفظ الغيبة ، ثم يقول بعد ذلك : وبلغك أملك — بلفظ الخطاب . وأما الموالاة بين دَعَوَتَيْنِ ولا يأتى بهما متفتحين ، فقال في ”مواد البيان“ : هو مثل حرس الله الأمير أعزّه الله ؛ ثم يقول في الفصل الذى بعده : أعزّه الله تعالى ، وما اشبه ذلك .

السادس — أن يتجنب وقوع اللبس في الدعاء . فإذا ذكر الرئيس مع عدوه مثلا ، لم يدع للرئيس حينئذ ، فإنه لو ذهب يقول وقد كان من عدو سيدي — أبقاه الله — كذا ، لأحتمل عود الدعاء إلى الرئيس وإلى عدوه فيقع اللبس . أما إذا ذكر الرئيس وحده كما إذا قال : وقد كنت عرفت سيدي — أبقاه الله — كذا ، فإنه لا آلتباس .

الأصل السادس

(أن يعرف ما يناسب المكتوب إليه من الألقاب فيعطيه حقه منها)
ويتعلق الغرض من ذلك بثلاثة أمور .

أحدها — أن يعرف ما يناسب من الألقاب الأصول — المتقدمة الذكر في المقالة الثالثة عند الكلام على الألقاب المصطلح عليها بحسب ذلك الزمان : كالمقام ، والمقر ، والحناب ، والمجلس — في زماننا ؛ فيعطى كل أحد من المكتوب إليهم ما يليق به من ذلك ؛ فيجعل المقام لأكابر الملوك . والمقر لمن دونهم من الملوك ، وللرتبة العليا

(١) عبارة الضو. ص ٤٢٦ هكذا ”وأما موالاة دعوتين متفتحين فقل أن يقول أعزّه الله تعالى ثم يقول في الفصل الذى بعده أعزّه الله تعالى“ وهى أوضح .

من أهل المملكة . والجناب للرتبة الثالثة من الملوك والرتبة الثانية من أهل الدولة .
والمجلس للرتبة الرابعة من الملوك والرتبة الثالثة من أهل الدولة . ومجلس الأمير لمن
دون ذلك من أهل الدولة على المصطلح المستقر عليه الحال .

الثاني — أن يعرف ما يناسب كل لقب من الألقاب الأصول من الألقاب
والنوعت التابعة لذلك ؛ فيُتبع كل واحد من الأصول بما يناسبه من الفروع .

الثالث — أن يعرف مقدار المكتوب إليه ، فيؤيه قسطه من الألقاب في الكثرة
والقلة بحسب ما يجري عليه الاصطلاح . فقد ذكر في "معالم الكتابة" أن السلطان
لا يكثر في المكتبة إليه من نوعته ، بل يقتصر على الأشياء التي تكون فيه : مثل العالم
العادل . أما غير ذلك فيقع باللقيين المشهورين : وهما نعت المفرد ، ونعت المضاف
إلى الدين . وأنه في الكتابة عن السلطان كُلما زيد في النوعت كان أميز : لأنها على
سبيل التشريف من السلطان ، ويجعل المضاف إلى الدين متوسطا بين الألقاب
لا في أولها .

الأصل السابع

(أن يرعى مقاصد المكتبات ، فيأت لكل مقصد بما يناسبه)

ومدار ذلك على أمرين :

الأمر الأول — أن يأتي مع كل كلمة بما يليق بها ، ويختار لكل لفظة
ما يشاء كلها . قال ابن عبد ربّه : وليكن ماتختم به فصولك في موضع ذكر البلوى
بمثل : نسأل الله رفع المحذور ، وصرف المكروه ، وأشياء ذلك . وفي موضع ذكر
المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي موضع ذكر النعمة ، الحمد لله خالصا ،

والشُّكْرُ لله واجباً ، وما شاكل ذلك . قال في ” موادِّ البيان “ : وإذا ذَكَرَ الْبَلَوُ شَفَعَهَا بِالْأَسْتِعَانَةِ بالله تعالى والرجوع إليه فيها ، وردَّ الأمر إلى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ . قال ابن عبد ربه : فإن هذه المواضع مما يتعيَّن على الكاتب أن يتفَقَّدها ويَحْفَظَ فيها ، فإن الكاتب إنما يصير كاتباً بأن يَضَع كلَّ معنى في موضعه ، ويُعَلِّق كلَّ لفظ على طَبَقِهِ في المعنى .

ومما يلحق بذلك أيضاً أنه إذا ذَكَرَ الرَّئِيسَ في أثناء المِكاتَبَةِ ، دعا له ، مثل أن يقول عند ذكر السلطان : خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ . وعند ذكر الأمير الكبير : عَزَّ نَصْرُهُ ، أو : أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَهُ . وعند ذكر الحاكم : أَيْدَى اللهُ أَحْكَامَهُ ، وما أشبه ذلك مما يجري هذا المجرى .

الأمر الثاني — أن يتخَطَّى التصريح إلى التلويح والإشارة إذا أَلْجَأَتْهُ الْحَالُ إلى المِكاتَبَةِ بما لا يجوز كَشْفُهُ وإظهاره على صَرَاحَتِهِ ، مما في ذِكْرِهِ على نَصِّهِ هَتَكُ سِتْرِهِ ، أو في حكايته أَطْرَاحُ مَهَابَةِ السُّلْطَانِ ، وإسماعه ما يلزم منه إخلالُ الأدب في حقِّه ؛ كما لو أطلق عُدُوَّهُ لِسَانَهُ فِيهِ بلفظٍ قبيحٍ يُسَوِّءُ سَمَاعَهُ . قال في ” موادِّ البيان “ : فيحتاج المُنشئ إلى أَسْتِعْمَالِ التَّوْرِيَةِ في هذه المواضع ، والتَّلَطُّفِ في العبارة عن هذه المعاني ، وإبرازها في صورةٍ تَقْتَضِي تَوْفِيَةً حَقَّ السُّلْطَانِ في التوقير والإجلال والإعظام ، والتنزيه عن المخاطبة بما لا يجوز إمراره على سَمْعِهِ ، وإيصال المعنى إليه من غير خِيَانَةٍ في طَيِّ ما لا غِنَى به عن علمه . قال : وهذا مما لا يَسْتَقِلُّ به إلا المبرِّز في الصنعة ، المتصرف في تأليف الكلام .

الأصل الثامن

(أن يَعْرِفَ مقدارَ فهم كل طبقة من المخاطبين في المكتابات من اللسان فيخاطب كلَّ أحد بما يناسبه من اللفظ ، وما يَصِلُ إليه فهمه من الخطاب) .
قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : "أول ما ينبغي أن تستعمل في كتابك مكتوبة كل فريق على مقدار طبقتهم في الكلام وقوتهم في المنطق . قال : والشاهد على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس ، كتب إليهم بما يمكنهم ترجمته فكتب إليهم : "من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة" (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ) فأسلم تسلم ، وإن آيتت فأثم الجحوس عليك " فسهل رسول الله صلى الله عليه وسلم الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة بالعربية .

ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب ، نفخ اللفظ لما عرف من قوتهم على فهمه ، وعادت بهم بسماع مثله ؛ فكتب لوائل بن حُجر الحضرمي : "من محمد رسول الله إلى الأقبال العبايلة من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : على التبعة الشاة ، والقيمة لصاحبها ، وفي السيوب الخمس ، لا خلأ ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبني فقد أبرئني ، وكل مسكر حرام" .

وقد ذكر العسكري أيضا في باب الإطناب ما يحسن أن يكون شاهداً لذلك من القرءان الكريم - فقال : قد رأينا أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي كما في قوله تعالى خطاباً لأهل مكة

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلَقُوا ذَبَابًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ وقوله : ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَأْتِ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ في أشباه كثيرة لذلك . وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم ، جعل الكلام مبسوطا ، كما في سورة طه وأشباهها ، حتى إنه قلما تجد قصة لبنى إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة ، لبعد فهمهم ، وتأخر معرفتهم .

قال في "مواد البيان" : فيجب على الكاتب أن يتنقل في استعمال الألفاظ على حسب ما تقتضيه رتب الخطاب والمخاطبين ، وتوجيه الأحوال المتغيرة ، والأوقات المختلفة : ليكون كلامه مشاكلا لكل منها ، فإن أحكام الكلام تتغير بحكم تغير الأزمنة والأمكنة ومنازل المخاطبين والمكاتبين .

قال : ولتحرى الصدر الأول من الكتاب إيقاع المناسبة بين كتبهم وبين الأشياء المتقدمة الذكر أستعمل كتاب الدولة الأموية من الألفاظ العربية الفحلة ، والمتينة الحزلة ، ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية : لأن كتاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذى استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها ، حتى عدت في جملة الفضائل التى يُثابر على اقتنائها ، والأمكنة التى نزلها ملوكهم من بلاد العرب ، والرجال الذين كانت الكتب تصدر إليهم ، وهم أهل الفصاحة واللّسن والخطابة والشعر .

أما زمان بنى العباس ، فإن الهمم تقاصرت عما كانت مقيمة على تطلبه فيما تقدم من العلوم المقدم ذكرها ، وشغلت بغيرها من علوم الدين ، ونزل ملوكهم ديار العراق وما يجاورها من بلاد فارس ، وليس استفاضة لغة العرب فيها كاستيفاضتها في أرض الحجاز والشام . ومن المعلوم أن القوم الذين كانوا يكتبون عنهم لا يجارون تلك الطبقة

في الفصاحة والمعرفة بدلالات الكلام؛ فانتقل كتابها من اللفظ المتين الجزل، إلى اللفظ الرقيق السهل؛ وكذلك انتقل متأخرو الكتاب عن ألفاظ المتقدمين إلى ما هو أعذب منها وأخف، للمعنى المتقدم ذكره .

قال : وحينئذ ينبغي للكتاب أن يراعى هذه الأحوال، ويوقع المشاكلة بين ما يكتبه وبينها، فإذا احتاج إلى إصدار كتاب إلى ناحية من النواحي، فليُنظر في أحوال قاطعتها : فإن كانوا من الأدباء البلغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه، فليودع كتابه الألفاظ الجزلة، التي إذا حُلَّت بها المعاني زادت نغمة في القلوب، وجمالة في الصدور . وإن كانوا ممن لا يفرق بين خاص الكلام وعامه، فليضمن كتابه الألفاظ التي يتساوى سامعوها في إدراك معانيها، فإنه متى عدل عن ذلك ضاع كلامه، ولم يصل معنى ما كتب فيه إلى من كتبه : لأن الكلام البليغ إنما هو موضوع بإزاء أفهام البلغاء والفصحاء . فأما العوام والحشوة : فإنما يصل إلى أفهامهم الكلام العاطل من حلي النظم، العارى من كسوة التأليف، فيجب على الكاتب أن يستعمل في مخاطبة من هذه صورته أدنى رتب البلاغة وأقربها من أفهام العامة والأمم الأعجمية إذا كتب إليهم .

ثم قال : فأما الكتب المعتدة عن السلطان، فإن منها كتب الفتوحات والسلامات ونحوها، وهي محتملة للألفاظ الفصيحة الجزلة، والإطالة القاضية بإشباع المعنى، ووصوله إلى أفهام كافة سامعيه من الخاص والعام . ومنها كتب الخراج وجبايته وأمور المعاملات والحساب، وهي لا تحتمل اللفظ الفصيح، ولا الكلام الوجيز لأنها مبنية على تمثيل ما يعمل عليه، وإفهام من لا يصل المعنى إلى فهمه إلا بالبيان الشافى

في العبارة . ومنها مخاطبته السلطان عن نفسه ، فيجب فيها مخاطبته على قدر مكانه من الخدمة من الألفاظ المتوسطة ، ولا يجوز أن يستعمل فيها الفصيحة التي لا تحتمل من تابع في حق متبوع : لما فيه من تعاطي التفاضح على سلطانه ، وهو غير جائز في أدب الملوك ، وكذلك لا يجوز فيه تعاطي الألفاظ المبتذلة الدائرة بين السوقة ، لما في ذلك من الوضع من السلطان بمقابله إياه بما لا يشبه رتبته .

وأما الكتب الإخوانيات النافذة في التهنأ والتعأى ، فإنها تحتمل الألفاظ الغريبة القوية الأخذ بمجامع القلوب ، الواقعة أحسن المواقع من النفوس : لأنها مبنية على تحسين اللفظ ، وتزيين النظم ، وإظهار البلاغة فيها مستحسن واقع موقعه .

قلت : والذي تراعأ الفصاحة والبلاغة فيه من المكاتبات عن الأبواب السلطانية في زماننا مكاتبات ملوك المغرب : كصاحب تونس ، وصاحب تلمسان ، وصاحب فاس ، وصاحب غرناطة من الأندلس ، وكذلك القانات العظام من ملوك المشرق ومن يجرأ هذا المجرأ ، ممن تستعمل بلاده على العلماء بالبلاغة وصناعة الكتابة . ويظهر ذلك بالاستخبار عن بلادهم ، وبالاطلاع على كتبهم الصادرة عن ملوكهم إلى الأبواب السلطانية . بخلاف من لاعناية له بذلك : كحكام أصاغر البلدان وأصحاب اللغات العجمية : من الروم والفرنج والسودان ومن في معانهم ، فإنه يجب خطابهم بالألفاظ الواضحة ، إلا أن يكون في بعض بلادهم من يتعاطى البلاغة من الكتاب ووردت كتبهم على نهجها فإنه ينبغي مكاتبتهم على سنن البلغاء .

الاصـل التاسع

(أن يُراعَى رتبةُ المكتوب عنه والمكتوب إليه في الخطاب ،

فيُعبّر عن كل واحدٍ منهما في كلِّ مكتوبة بما يليق به ،

ويُخاطَب المكتوبُ إليه بما يقتضيه مقامه)

فأما المكتوب عنه ، فيختلف الحالُّ فيه باختلاف منصبه ورتبته .

فإن كان المكتوبُ عنه خليفةً ، فقد جرت عادةُ مَنْ تقدّم من الكُتّاب بالتعبير عنه في الكُتُب الصادرة عن أبواب الخلافة بأمير المؤمنين ، مثل أن يقال : فَجَرَى أَمْرُ أمير المؤمنين في كذا على كذا وكذا ، وأَوْعَزَ أمير المؤمنين إلى فلان بكذا ، وأَقْتَضَى رَأْيُ أمير المؤمنين كذا ، ونَحَرَجَ أَمْرُ أمير المؤمنين بكذا ، وتَقَدَّمَ أَمْرُ أمير المؤمنين إلى فلان بكذا ، وما شاكل ذلك . وربما عبّر عنه بالسلطان ، مثل أن يقال في حقّ المخالفين : وحارَبُوا عَسَاكِرَ السلطان ، أو وَمَنَعُوا خَرَاجَ السلطان وما أشبه ذلك ، يريدون الخليفة ، على ما ستقف عليه في الكُتُب التي نُوردها في المكاتبات عن الخلفاء فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقال ابن شيث في "معالم الكتابة" : وَيُخاطَبُ بِالْمَوَاقِفِ الْمُقَدَّسَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالْعَتَبَاتِ الْعَالِيَةِ ، وَمَقَرِّ الرَّحْمَةِ ، وَمَحَلِّ الشَّرَفِ . وذكر المَقَرَّ الشَّهَابِيّ بن فضل الله في "التعريف" نحوه . فقال : وَيُخاطَبُ بِالْديوانِ الْعَزِيزِ ، وَالْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، وَالْجَانِبِ الْأَعْلَى أَوِ الشَّرِيفِ ، وَبِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مَجْرَدَةً عَنْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَمَرَّةً غَيْرَ مَجْرَدَةٍ ، مَعَ مِرَاعَاةِ الْمُنَاسَبَةِ ، وَالتَّسْهِيدِ وَالْمُقَارَبَةِ . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخُضْعَانُ عن مخاطبة الخليفة نفسه ، وتزِيلُ الخطاب منزلة مَنْ يُخاطَبُ

نفس الديوان ، والمعنى به ديوان الإنشاء ، إذ الكتب وأنواع المخاطبات إليه واردة عنه صادرة .

وقد سبق في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة نقلاً عن ابن حاجب النعمان في " ذخيرة الكتاب " إنكار هذه الاستعارات والمختبرات ^(١) ، وسيأتي في المكتبة إلى الخلفاء ذكر ترتيبها إن شاء الله تعالى .

وإن كان المکتوب عنه ملكاً ، فقد جرت العادة أن يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال : فعلنا كذا ، وأمرنا بكذا ، وأقتضت آراؤنا الشريفة كذا ، وبرزت مراسيمنا بكذا ، ومرسومنا إلى فلان أن يتقدم بكذا ، أو يتقدم أمره بكذا ، وما أشبه ذلك . وذلك أن ملوك الغرب كانوا يحرون على ذلك في مخاطباتهم ، فجرت الملوك على سننهم في ذلك . وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء : من الأمراء ، والوزراء ، والعلماء ، والكتّاب ، ونحوهم من ذوى الأقدار العلية ، والأخطار الحليسة ، والمراتب السنية في الدين والدنيا ، ممن يصلح أن يكون أمراً وناهياً ، إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأموريهم ، إذ كانت هذه النون مما يختص بذوى التعظيم دون غيرهم . وشاهد ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ فدعاه دعاء المفرد لعدم المشاركة له في ذلك الاسم ، وسأله سؤال الجمع لمكان العظمة ، إلى غير ذلك من الآيات الواردة مودة الاختصاص له كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ وقوله : ﴿ نَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ وغير ذلك من الآيات . قال في " معالم الكتّابة " : وقد أخذ كتّاب المغرب بهذا مع ولادة أمورهم في الجمع بالميم فخطبوا الواحد مخاطبة الجمع مثل : أتم ، وفعلتم ، وأمرتم ، وما أشبه ذلك .

(١) في الأصول والخواص وهو تعبير عرقى .

قلت : والأمرُ في ذلك عندهم مستمِرٌّ إلى الآن . قال ابن شيث : وهو غيرُ مَأْصُورٍ به عند غيرهم .

وإن كان المكتوب عنه مَرُوعُوساً بالنسبة إلى المكتوب إليه كالتابع ومن في معناه ، فقال في "موادِّ البيان" : ينبغي أن يَحْفَظَ في الكُتُبِ النافذة عنه من الإتيان بَنُونِ العظمة وغيرها من الألفاظ التي فيها تعظيمُ شأنِ المكتوب عنه مثل أن يقول : أمرتُ بكذا ، أو نهيتُ عن كذا ، أو أوعزتُ بكذا ، أو تقدّمَ أمرِي إلى فلان بكذا ، أو أنهى إلى كذا ، أو خرجَ أمرِي بكذا ، وما في معنى ذلك مما لا يُخاطَبُ به الاتِّباعُ رؤساءهم ، بل يعدل عن مثل هذه الألفاظ إلى ما يؤدّي إلى معناها مما لا عظمة فيه ، مثل أن يقول : وجدتُ صوابَ الرأي كذا ففعلته ، ورأيت السياسةَ تقتضي كذا فأمضيتُه ، وما أشبه ذلك ، إن كان عُرِفَ الكُتَّابُ على الخطاب بالتاء ، وإلا قال : وجد المملوكُ صوابَ الرأي كذا ففعله ، ورأى السياسةَ تقتضي كذا فأمضاه ، وما يجري هذا المجرى .



وأما المكتوب إليه ، فقال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : ينبغي أن يَعْرِفَ قَدْرَ المكتوب إليه من الرؤساء ، والنُظَرَاء ، والعلماء ، والوُكَلَاء : لِيُفَرِّقَ بين مَنْ يُكْتَبُ إليه «أنا أفعلُ كذا» وَمَنْ يُكْتَبُ إليه «نحن نفعلُ كذا» (فأنا) من كلام الأشباه والإخوان ، (ونحن) من كلام المملوك ؛ ويفرق بين مَنْ يُكْتَبُ إليه «فإن رأيت أن تفعل كذا» وبين مَنْ يُكْتَبُ إليه : (فرائك) . قال في "موادِّ البيان" : وذلك أن قولهم فإن رأيت أن تفعل كذا لفظُ النُظَرَاءِ والمُساوِينَ ، بخلافِ فَرَأَيْكَ ، فإنه لا يكتبه إلا جليلاً ، معظّمٌ : لتضمنها معنى الأمر والتقديرُ فَرَأَيْكَ ، بخلافِ فإن رأيت ، فإنه لا أمر فيه ، إذ يقال : فإن رأيت أن تفعل كذا فافعله . على أن الأخفش

قد أنكر هذا على الكُتَّاب ، لأن أقل الناس يقول للسلطان : أنظر في أمري ، ولفظه لفظ الأمر ومعناه السؤال . وذكر مثله في " صناعة الكُتَّاب " عن النحويين . قال في " مواد البيان " : و حجة الكُتَّاب أن المشافهة تحتمل ما لا تحتمله المكتبة ، لأن المشافهة حاضر يحضر الإنسان لا يمكنه تقييده وترتيبه ، والمكتبة بخلاف ذلك ، فلا عذر لصاحبها في الإخلال بالأدب . قال ابن شيث : وقد أصطلحوا على أن يُكْتَبَ في أواخر الكتب : « وللاراءِ العاليةِ فضلُ السُّمُو والقُدرةِ إن شاء الله تعالى » . ودونَ ذلك : « ولترأى السامى حكمه » ودونه : « والرأى أعلی » . ودونه : « والرأى مُوقِّق » وموفقاً بالرفع والنصب . ودونه : « ورأيه » للجلس : « ورأيتها » للخصرة . قال : وربما قالوا : « فإن رأى مولانا أن يكون كذا وكذا أمر به أو فعل » إلا أنها لا تقوم مقام قوله : والرأى أعلی . فأما لمن دونه فمحتمل . وذكر أنه كان مصطلحهم أن يقال في آخر كُتُب السلطان : « فاعلم ذلك وأعمل به إن شاء الله تعالى » . وأن أعيان أصحاب الأقلام كانوا يكتبونه إلى من دونهم .

قلت : والذي استقرَّ عليه الحال أن يُكْتَبَ في مثل ذلك : « وللاراءِ العاليةِ مزِيدُ العُلُو » وأن تختم الكتابة للأكابر بمثل : « فَنُحِيطَ عِلْمُهُ بِذَلِكَ » ولن دونهم : « فَنُحِيطَ بِذَلِكَ عِلْمًا » وللا صاغر : « فَلْيَعْلَمْ ذَلِكَ وَيَعْتَمِدْهُ » ونحو ذلك . قال محمد ابن إبراهيم الشيباني : إن أحتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكُتَّاب والأدباء والخطباء وأوساط الناس وسوقهم ، فخاطب كلًّا منهم على قدر أهليته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته وأتنبأه . ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كُتُبك ، وتزِن كلامك في مخاطبتهم بميزانه ، وتُعْطِيَه قِسْمَتَهُ ، وتُؤَقِّيه نصيبه ؛ فإنه متى أهملت ذلك وأضعفته ، لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم ، وتسلِّك بهم غير مسلكهم ،

وَتَجَرِي شُعَاعُ بَلَغَتِكَ فِي غَيْرِ تَجَرَاهُ ، وَتَنْظِمُ جَوْهَرَ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ سِلْكِهِ ، فَلَا تَعْتَدُ بِالْمَعْنَى الْجَزَلَ مَا لَمْ تَكُنْهُ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ؛ فَإِنْ إِبَاسَكَ الْمَعْنَى - وَإِنْ صَحَّ إِذَا أُشْرِبَ^(١) - لَفْظًا لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَةُ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ تَهْجِينُ^(٢) لِلْمَعْنَى ، وَإِخْلَالٌ بِقَدْرِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، وَظُلْمٌ يَلْحَقُهُ ، وَنَقْصٌ مِمَّا يَجِبُ لَهُ ؛ كَمَا أَنَّ فِي آتِبَاعٍ مُتَعَارِفِهِمْ ، وَمَا آتَشَرَتْ بِهِ عَادَتُهُمْ ، وَجَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُمْ ، قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ ، وَخُرُوجًا عَنْ حَقِّهِمْ ، وَبُلُوعًا إِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ ، وَإِسْقَاطًا لِحُجَّةِ آدَبِهِمْ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ : فَاثْمِيلُ هَذِهِ الْمَذَاهِبَ وَأَجْرٍ عَلَيْهَا الْقَوْمُ .

قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعَانِيَ الَّتِي يُكْتَبُ فِيهَا وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنِهَا جِنْسًا بَعِينَةً : كَالْتَهْنِئَةِ وَالتَّعْزِيَةِ وَالْإِعْتِذَارِ وَالْعِتَابِ وَالْإِسْتِظْهَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرَجَ الْمَعْنَى لِكُلِّ مُخَاطَبٍ عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ اللَّفْظِ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُخْرَجَ فِي الصِّيغَةِ الْمَشَاكِلَةِ لِلْمُخَاطَبِ ، الْإِثْقَالُ بِقَدْرِهِ وَرُتْبَتِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ خَاطَبْتَ سُلْطَانًا أَوْ زَرِيرًا بِالتَّعْزِيَةِ عَنْ مُصِيبَةٍ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، لَمَا جَازَ أَنْ تَنْبَيَّ الْكَلَامَ عَلَى وَعْظِهِ وَتَبْصِيرِهِ وَإِرْشَادِهِ وَتَذَكِيرِهِ وَحَضُّهُ عَلَى الْأَخْذِ بِحُظٍّ مِنَ الصَّبْرِ ، وَمُجَانِبَةِ الْجَزَعِ ، وَتَلَقُّ الْحَادِثَاتِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرَّضَا ؛ وَلَئِنْ صَوَّبَ أَنْ تَنْبَيَّ الْخُطَابَ عَلَى أَنَّهُ أَعْلَى شَانًا ، وَأَرْفَعُ مَكَانًا ، وَأَصَحُّ حَرَمًا ، وَأَرْجَحُ حِلْمًا ، مِنْ أَنْ يُعْزَى ؛ بِخِلَافِ الْمُتَأَخَّرِ فِي الرُّتْبَةِ ، فَإِنَّهُ لَئِنْ يُعْزَى تَنْبِيْهَا وَتَذَكِيرًا ، وَهَدَايَةً وَتَبْصِيرًا ، وَيَعْرِفُ الْوَاجِبَ فِي تَلَقُّ السَّرَّاءِ بِالشُّكْرِ ، وَالضَّرَّاءِ بِالصَّبْرِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ إِذَا كَاتَبْتَ رَئِيسًا فِي مَعْنَى الْإِسْتِزَادَةِ وَالشُّكْرِ ، لَا يَجُوزُ أَنْ تَأْتِيَ بِمَعْنَاهُمَا فِي أَلْفَاظِهِمَا الْخَاصَّةِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَمْدِدَ عَنْ [أَلْفَاظِ] الشُّكْرِ إِلَى أَلْفَاظِ الشُّكْرِ ،

(١) هذا الشرط غير موجود في الضوء .

(٢) لم يذكر في الضوء لفظ القوم .

وعن ألفاظ الاستِزادة إلى ألفاظ الاستعطاف والسؤال في النظر، لتُكون قد رُبَّتْ
كلامك في رُتبتِه، وانحرجت معنالك مخرج من يستدعي الزيادة لا من يسكو التقصير.

قال ابن شيت في "معالم الكتابة": ولا يخاطبُ السلطانُ في خلال الكتابة إليه
بِسَيِّدنا مكان مَوْلانا، فإن سيدنا كانها خُصِّصَتْ بأرباب المراتب الدينية والديوانية،
ومولانا تُخَصُّ السلطان وحده، وإن كان من نُعوت السلطان السيد الأجل.

قال: على أن ذلك مخالف لمذهب المغاربة: فإنهم يعبرون عن ولاة أمورهم
بالسادة، ويعبرون عن صاحب الأمر بسَيِّدنا، وكأن هذا كان في زمانه،
وإلا فالمعروف عند أهل المغرب والأندلس الآن التعبير عن السلطان بالمولى، يقول
أحدهم مولانا فلان. وأهل مصر الآن يُطلقون السادة على أولاد الملوك.

وكذلك لو وقع واقع للسلطان فنصحته لم يجز أن تُورد ذلك مَوْرِد التنبيه على
ما أغفله، والإيقاظ لما أهمله، والتعريف من الصواب لما جهله: لأن ذلك
من القبيح الذي لا يحتمله الرؤساء من الأتباع، ولكن تبني الخطاب على أن السلطان
اعلى وأجل رأيا، وأصح فِكْرا، وأكثر إحاطة بصدور الأمور وأعجازها، وأن آراء
خَدَمِه جزء من رأيه، وأنهم إنما يتفرسون تحايل الإصابة بما وقفوا عليه من سلوك
مَذْهَبِه، والتأديب بأدبه، والارتياض بسياسته، والتثقل في خدمته، وإن مما يفرضونه
في حكم الإشفاق والاهتمام، وما يُسبِّغ عليهم من الإنعام، المطالعة بما يجري في أوهامهم،
ويحدث في أفكارهم، من الأمور التي يتغلبون أن في العمل بها مصلحة للدولة،
وعِمارة للملكة، ليتصفَّحه بأصالة رأيه التي هي أوفر وأثبت. فإن استصوبه
أمضاه، وإن رأى خلافه ألغاه، وكان الرأي الأعلى ما يراه، إلى غير ذلك مما يجري
هذا المجرى.

قال ابن شيث في "معالم الكتابة" : ولا يقارن الكاتب السلطان في تكرار المواضع التي يقع الالتباس فيها بين الكاتب والمكتوب إليه ، لأن هاء الضمير تعود عليهما معا لما تقدم من ذكرهما ، وإن كان في القرينة ما يدل على ذلك بعد الفكرة وإذا ابتدأ معهم بالملوك لا يقال بعد ذلك العبد ولا الخادم ، وإن كان ذلك جائزا مع غير السلطان .

قال : ولا بأس بتكرار الإشارة إلى السلطان في المواضع التي يجمل فيها الاشتراك بينه وبين المكتوب إليه ، مثل أن يقال : وكان قد ذكر كذا وكذا ، والضمير في كان يصلح لهما معا ، فلا بد هنا من ذكر الملوك ، إن كان الالتباس من جهة الكاتب ، أو مولانا إن كانت الإشارة إلى السلطان .

الأصل العاشر

(أن يُراعى مواقع آيات القرآن والسجع في الكتب ،
وذكر أبيات الشعر في المكتبات)

أما آيات القرآن الكريم ، فقد ذكر ابن شيث في "معالم الكتابة" أنها في صدر الكتب قد يذكرها الأذننى للأعلى في معنى ما يكتب به ، مثل قوله تعالى : ﴿ قَلَمًا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات المناسبة للوقائع وإن كانت في أثناء الكتب ، فقد آستشهد بها جماعة من الكُتَّاب في خلال كتبهم مما رأيته .



وأما السجع ، فقد ذكر ابن شيث : أنه لا يُفَرَّق فيه بين كتابِ الأعلى للأدنى وبالعكس ، وأنه بما يُكْتَب عن السلطان أليق ؛ لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابة بالسجع نقص في حق المكتوب إليه ، وقضيته أنه لا يُكْتَب به إلا من الأعلى للأدنى ، إلا أن الذي جرى عليه مصطلح كُتِب الزمان تخصيصه ببعض الكتب دون بعض من الجانبين .



وأما الشعرُ فيُورِدُه حيثُ يحسنُ إيرادُه ، ويمتنعُ حيثُ يحسنُ منعه ، فليس كلُّ مكتوبة يحسن فيها إيراد الشعر ، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب إليه . فأما المكتوبات الصادرة عن الملوك والصادرة إليهم ، فقد ذكر في ”مواد البيان“ : أنه لا يُمَثَّل فيها بشيء من الشعر ، إجلالاً لهم عن شوب العبارة عن عزائم أو أميرهم ونواهيهم والأخبار المرفوعة إليهم ، بما يخالف تمطها ووضعها ، ولأن الشعر صناعة مغايرة لصناعة الترسُّل ، وإدخال بعض صنائع الكلام في بعض غير مستحسن .

قلت : الذي ذكره عبد الرحيم بن شيث في كتابه ”معالم الكتابة ومَوَاضِع الإصابة“ أنه [يُمَثَّل] بالشعر في المكتوبات الصادرة عن الملوك دون غيرهم ، وهو معارض لما ذكره في ”مواد البيان“ . وكأنه في مواد البيان يريد الكتب النافذة عن الملوك إلى مَنْ دُونهم ، أو مَنْ دُونهم إليهم . أما الملوك والخلفاء إذا كتَبوا إلى مَنْ ضاهاهم في أبهة الملك وقاربهم في علو الرتبة ، فإنه لا يتمتع التمثُّل بأبيات الشعر فيها ، تطريزاً للنثر بالنظم ، وجمعاً بين جنسى الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده .

وما زالت الخلفاء والملوك السالفة يخللون كتبهم الصادرة عنهم إلى نظرائهم في علو الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظ ، البديعة المعاني ، للاستشهاد على الوقائع المكتوب سببها : كما كتب أمير المؤمنين "عثمان بن عفان" رضى الله عنه حين تملاً عليه القوم واجتمعوا على قتله إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه !

فَإِنْ كُنْتُ مَا كُؤَلَا ، فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وَإِلَّا فَأَذْرِ كُنِي وَلِمَا أُمَرِي !

وكما كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! إلى معاوية بن أبي سفيان ، في جواب كتاب له حين جرى بينهما التنازع في الخلافة ، فقال في أثناء كتابه : وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فيكون العذر إليك :

* وَلِيكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارُهَا *

وعلى ذلك جرى كثير من خلفاء الدولتين الأموية والعباسية : كما حكى العسكري في "الأوائل" أن أهل حصّ وثبوا بعاملها فأخرجوه ، ثم وثبوا بعده بعامل آخر ، فأمر المتوكل إبراهيم بن العباس أن يكتب إليهم كتاباً يحذّرهم فيه ويختصر ، فكتب .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله تعالى عليه فيما قوم به من أود أو عدل به من زيف ، أو لم به من شعث ، ثلاثاً يقدم بعضهن أمام بعض : فأولاهن ما يستظهر به من عظة وُحجة ، ثم ما يشفع به من تحذير وتنبيه ، ثم التي لا ينفع حسم الداء غيرها :

أَنَانَةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَبَ بَعْدَهَا * وَعِيدٌ فَإِنْ لَمْ يُجِدْ أَجَدَتْ عَزَائِمُهُ !

(١) أى الصول .

(٢) فى الاصول فى من يقرم به الخ . والنصح من "أدب اللغة" للشيخ أحمد السكندري .

ومن كان يُكثِرُ التَّمَثُّلَ بالشعر في المكاتبات من خُلفاء بني العباس وتصدّر إليه المكاتبات كذلك «الناصر لدين الله» حتّى يُحكى أن الملك الأفضل، على ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب دِمَشْق حين تعصّب عليه أخوه الملك العزيز عثمان وعُمّه الملك العادل أبو بكر، كتب إلى الناصر لدين الله يستجيشه عليهما كتاباً يُشير فيه إلى ما تعتقده الشيعة من أن الحق في الخلافة كان لعلّ، وأن أبا بكر وعثمان رضى الله عنهما تقدّما عليه، إذ كان الناصر يُميل إلى التشيع، وكتب فيه :

مَوْلَايَ ! إِنَّ أبا بَكْرٍ وصاحِبَه * عُثْمَانُ قَدْ غَضَبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلَيَّ !
فَانْظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْإِسْمِ كَيْفَ لِقَى * مِنَ الْأَوَانِحِ مَا لَاقَى مِنَ الْأَوَّلِ !
فكتب إليه الناصر الجواب عن ذلك، وكتب فيه :

وَأَقَى كِتَابَكَ يَا ابْنَ يُوسُفَ نَاطِقًا * بِالْحَقِّ يُخْبِرُ أَنَّ أَصْلَكَ طَاهِرُ !
غَضَبُوا عَلَيَّا حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ بَيْرُ بَنَ نَاصِرُ !
فَاصْبِرْ فَإِنَّ عَلَى الْإِلَهِ حِسَابَهُمْ * وَأَنْبَشِرُ فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ !

وعلى ذلك جرى الملوك القائمون على خُلفاء بني العباس في مكاتباتهم أيضا .
كما كتب أبو إسحاق الصابى عن مُعزّ الدولة بن بويه، إلى عُدّة الدولة أبى تغلب كتابا يذكر له فيه خلاف قرييين له، لم يُمكنه مساعدة أحدهما على الآخر، وأسّشده فيه بقول المتلمس :

وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِنْ مَثَلِ قَاطِعِ كَفِّهِ * بَكَفِّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْدَمَا !
فَلَمَّا اسْتَقَادَ الْكَفَّ بِالْكَفِّ، لَمْ يَجِدْ * لَهُ دَرَكًا فِي أَنْ تَبِينَا فَأَجْمَمَا .

وعلى هذا التهج جرى الحال في التولية الأيوبية بالديار المصرية . كما كتب القاضي
الفاضل عن السلطان صلاح الدين "يوسف بن أيوب" إلى ديوان الخلافة ببغداد ،
عند قتل ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة كتاباً ليسلى الخليفة عنه ، وكان ممن
اساء السيرة وأكثر الفتك ، متمثلاً بالبيتين المقولين في أبي حفص الخلال : وزير
أبي العباس السفاح ، وكان يعرف بوزير آل محمد .

إِنَّ الْمَكَارَةَ قَدْ تَسُرُّ ، وَرُبَّمَا * كَانَ السُّرُورُ بِمَا كَرِهْتَ جَدِيرًا !

إِنَّ الْوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ مُحَمَّدٍ * أَوْدَى ، فَمَنْ يَشْنَاكَ كَانَ وَزِيرًا .

وكما كتب القاضي « محي الدين بن عبد الظاهر » عن « المنصور قلاوون » إلى
صاحب اليمن في جواب تعزية ارسلها إليه في ولده الملك الصالح ، مع تعريضه
في أمره له بأن الحروب مما يشغل عن المصائب في الأولاد ، مستشهداً فيه بقوله :
إذا اعتاد الفتى خَوْضَ المَنَآيَا ، * فَأَهْوَنُ مَا تَمُزُّ بِهِ الْوُحُولُ !

وكما كتب صاحبنا الشيخ علاء الدين اليربوعي رحمه الله عن "الظاهر برقوق" صاحب
الديار المصرية ، جواباً لصاحب تونس من بلاد المغرب ، وأستشهد فيه لبلاغة
الكتاب الوارد عنه بقوله :

وَكَلَامٍ كَدَمَعَ صَبٍّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الْهَوَاءُ يَكْتَفِ عِنْدَهُ !

رَأَقَ لَفْظًا ، وَرَقَّ مَعْنَى ، فَأَضْحَى * كُلُّ سِحْرٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ عَبْدَهُ !

وعلى ذلك جرت ملوك المغرب من بني مرين وغيرهم . كما كتب بعض كتاب
السلطان أبي "الحسن المريني" عنه إلى السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون"
صاحب الديار المصرية كتاباً يُخْبِرُهُ فِي خِلَالِهِ أَنَّ صَاحِبَ بَجَايَةَ نَحْرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ
فَفَزَّاهُ ، وَأَوْقَعَ بِهِ وَيُجِيوشُهُ مَا قَعَهُ ، مستشهداً فيه بقوله :

إِنْ عَادَتِ الْعَقْرُبُ ، عُدْنَا لَهَا * وَكَانَتِ النَّعْلُ لَهَا حَاضِرَهُ !

إلى غير ذلك من المكتبات الملوكة التي لا تُحصى كثرة . بل ربما وقع التمثل بالشعر في المكتبات عن الخلفاء والملوك إلى من دُونهم وبالعكس . كما حكى العسكرى في "الأوائل" أن رافعاً رفع كتاباً إلى الرشيد ، وكتب في أسفله :

إِذَا جِئْتُ عَارَا أَوْ رَضِيتُ بِذِلَّةٍ ، * فَفَقِسْ عَلَى نَفْسِي مِنَ الْكَلْبِ أَهْوَنُ !
فكتب إليه الرشيد دُنياً وكتب في أسفله :

وَرَفَعْتُ نَفْسًا طَالِبًا فَوْقَ قَدْرِهَا * يَسُوقُكَ الْحَتَفُ الْمُعْجَلُ وَالذُّلَا

وبالجملة فذهابُ الناس في التمثل بالشعر في المكتبات الملوكة مختلفة ، ومقاصدهم متباينةٌ بحسب الأغراض ؛ ولذلك أورد الشيخ جمال الدين بن نباتة هذه المسئلة في جملة أسئلته ، التي سأل عنها كُتَّابُ الإنشاء بدمشق ، مخاطباً بها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء بها فقال : وَمَنْ كَرِهَ الْأَسْتِشْهَادَ فِي مَكْتَبَةِ الْمُلُوكِ بِالْأَشْعَارِ؟ وَكَيْفَ تَرَكَهَا عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ؟ أما المكتبات الإخوانيات الواقعة بالتهاني ، والتعازي ، والتراور ، والتهادي ، والمداعبة ، وسائر أنواع الرِّقَاع في فنون المكتبات ، فقد قال في "مواد البيان" إنه يجوز أن تُودَع أبيات الشعر على سبيل التمثل وعلى سبيل الاختراع ، محتجاً بأن الصدر الأول كانوا يستعملون ذلك في هذه المواضع . وهذا الذي ذكره لاحقاً فيه ، وكتب الرسائل المدونة من كلام المتقدمين والمتأخرين من كُتَّاب المشرق والمغرب شاهدةً بذلك ، ناطقةً باستعمال الشعر في المكتبات ، وأثنائها ونهاياتها ، ما بين البيت والبيتين فاكثراً ، حتى القصائد الطوال . وأكثر ما يقع من ذلك البيت المفرد والبيتان فما حوَلَ ذلك . كما استشهد القاضي الفاضل في بعض مكاتباته في الشوق بقوله :

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمْ ، * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي !
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا * وَيَسْتَأْذِنُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْغَلِي !

وكما كتب أيضا لبعض إخوانه في جواب كتاب :

وَكَمْ قُلْتُ حَقًّا : لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَهُ ! * وَمَا قُلْتُ إِجْلَالًا لَهُ : لَيْتَهُ عِنْدِي !

وكما كتب في وصف كتاب ورد عليه مستشهدا بقوله :

وَحَسِبْتُهُ - وَالطَّرْفُ مَعْقُودٌ بِهِ - * وَجَهَ الْحَبِيبِ بَدَأَ لَوْجَهُ مُجِبِّهِ !

وكما كتب في كتاب تعزية بصديقي مستشهدا فيه بقوله :

وَذَلِكَ الَّذِي لَا يَبْرَحُ الدَّشَرُ رُزُّهُ ، * وَلَا ذِكْرُهُ مَا أَرْزَمَتْ أُمُّ حَائِلٍ .

إلى غير ذلك من المكاتبات التي لا يأخذها حصر ، ولا تدخل تحت حد ، مما ستقف على الكثير منه في الكلام على مقاصد المكاتبات ، إن شاء الله تعالى .

الأصل الحادى عشر

(أن يأتي في مكاتباته بحسن الاختتام)

ويرجع إلى معنيين ، كما في حُسن الافتتاح المقدم ذكره .

المعنى الأول - أن يكون الحسن فيه راجعا إلى المعنى المختتم به : إما بمعاطاة الأدب من المرئوس إلى الرئيس ونحو ذلك ، وإما بما يقتضى التعزير والتوقير من الرئيس إلى المرئوس ، كالاختتام بالدعاء ونحو ذلك ، مما يقع في مصطلح كل زمن .

المعنى الثانى - أن يكون الحسن فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ ، وحسن السبك ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو ، وغير ذلك من موجبات

التحسين ، كما كتب الصاحب بن عباد في آخر رسالة له : ” لئن حثت فيما حلفت ، فلا خطوت لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعت إلى مقام نحر ، ولا حرصت على علو ذكر “ . قال أبو هلال العسكري : فهذه اليمين ، لو سمعها عامر بن الظرب ، لقال هي اليمين الغموس لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

قلت : وأعتبر هذه الأصول [الأحد عشر]^(١) بعد ما تقدم اعتباره في الكلام على صنعة إنشاء الكلام وترتيبه في المقالة الأولى ، من أنه لا يستعمل في كلامه ما أتت به آيات القرآن الكريم : من الاختصار ، والحذف ، ومخاطبة الخاص بمخاطبة العام ، ومخاطبة العام بمخاطبة الخاص ، ولا ما يختص بالشعر : من صرف ما لا ينصرف ، وحذف ما لا يحذف ، وقصر الممدود ، ومد المَقْصُور ، والتقديم والتأخير ، والإضمار في موضع الإظهار ، وتصغير الاسم في موضع التعظيم ، مثل دُويبية ، وما شاكل ذلك مما تقدم التنبيه عليه في موضعه ، فلا بد من اعتباره هنا .

الأصل الثاني عشر

(أن يعرف مقادير قطع الورق ، وسعة الطرة والهامش ، وسعة بيت العلامة ومقدار ما بين السطور وما يترك في آخر الكتاب)

أما مقدار قطع الورق ، فقد تقدم في المقالة الثالثة أنه يختلف باختلاف المكتوب إليهم عن السلطان ، فكلمها عظم قدر المكتوب إليه ، عظم مقدار قطع الورق ؛ وربما روعي في ذلك قدر المكتوب عنه والمكتوب إليه جميعا .

(١) في الاصل ” العشرة “ .



وأما طول الطَّرة في أعلى الكتاب ، فقد ذكر في ” معالم الكتابة “ أنها تُطَوَّل فيما إذا كان الكتاب من الأعلى إلى الأدنى ، وتكون متوسطة من الأتباع ، وسيأتي أن المصطلح عليه في زماننا أن المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلى وصلين ، ومن التَّوَاب ومن في معناهم تكون وصلاً واحداً .



وأما مقدار سَعَةِ الهامش فقد سمِعْتُ بعض فضلاء الكتاب يذكر أن الضابط فيه أن يكون ثلث عرض الدَّرَج المكتوب فيه .



وأما بيتُ العَلامَةِ فقد تقدَّم أنه يكون مقدارَ نحو شبرٍ في كُتُب السلطان ، أما في غيره - حيث كانت العَلامَةُ تحت البسملة - فكونُ نحو ثلاثة أصابعٍ أو أربعة .



وأما سَعَةُ ما بين السطور فقد تقدَّم أنها تكون بمقدار نصف بيتِ العَلامَةِ . وذكر ابن شيث : أنها ثلاثة أصابعٍ أو أربعة .



وأما [ما يترك في] آخر الكتاب فقد ذكر ابن شيث أنه لا يترك في آخر المكتوبة شيئاً .



وأما الخطُّ فإنه كلما غُلِظَ القلم واتسعت السطور كان أنقصَ في رُتَبَةِ المكتوبِ إليه وقد ذكر في ” معالم الكتابة “ أن الكتب الصادرة إلى السلطان لا يكونُ بين سَطُورها أكثرُ من إصبعين .

الطَّرْفُ الثَّانِ

(في بيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البَسْط والإيجاز،
وما يلائم كلَّ مكتبة منها من المعاني)

ولتَعَلَّم أن المكاتبات على ثلاثة أقسام :

القسم الأول

(ما يُكْتَب عن السلطان أو مَنْ في معناه من الرؤساء
إلى الأتباع . وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُعْمَل فيه على الإيجاز والاختصار)

وقد آستحسنوا الإيجاز في خمسة مواضع :

أحدها — أن يكون المكتوبُ عن السلطان في أوقات الحُرُوب إلى نُوابِ
الملك . قال في ”حُسن التوسل“ : فيجب أن يتوخى الإيجاز والألفاظ البليغة
الدالة على القصد، من غير تطويل ولا بَسْط يُضِيع المقصدَ ويفُضِل الكلامَ بعضه
من بعض . ولا يعمد في ذلك إلى تهويل لأمر العدو يُضعِف القلوبَ، ولا تهوين
لأمره بحيث يحصل به الاعتذار .

الثاني — أن يكون ما يُكْتَب به عن السلطان خبراً يريد التورية به عنه وسرَّ
حقيقته ، كإعلامهم بالحوادث الحادثة على الملوك ، والنوابِ المُلمَّة بالدولة : من
هزيمة جيش ، أو تغييرِ رَسْم ، أو إحداثه ، أو تكليف الرعية ما لا يَسْمَل عليها تكليفه

وما أشبه ذلك . قال في "مواد البيان" : فيجب أن يقصد في ذلك إلى الاختصار والإيجاز، ويعدّل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى إلى غيرها مما يحتمل التأويل، ولا تتفرّج الأسماع عنه، ولا تُراعِ القلوب به، من غير أن يحتمل كذباً صراحاً، فإنه لاشيء أقبح بالسلطان، ولا أغصّ لشأنه وقدره من أن يضمن كتابه ما ينكشف للعامة بطلانه . قال وينبئ للكتاب أن يتخلّص من هذا الباب التخلّص الجيّد الذي يُزيّن به الأثر، من غير تصريح بكذب، وأن يخرج الباطل في صورة الحق، ويعرّض سلطانه في ذلك للإجماد والتقريظ من حيث يستحقّ التأنيب والإدّمام فإن هذه سبيلُ البلاغة، وطريقة فضلاء الصّناعة، لأن الأمر الظاهر الحسن المجمع على فضله لا يحتاج في التعبير عن حسنه إلى كد الخاطر، وإتاعاب الفكر، إذ الألتكن لا يعجز عن التعبير عنه فضلاً عن اللّسن، وإنما الفضل في تحسين ما ليس بحسن، وتصحيح ما ليس بصحيح، بضروب من التّويه والتّخيل، وإقامة المعاذير، والعَلَل المعقّية على الإساءة والتقصير، من حيث لا يلحق كذبٌ صريحٌ ولا زور مطلق . وليضيق هذا المقام وصعوبة مُرتقاه، أوردته الشيخ جمال الدين بن نباتة في جملة مسائله التي سأل عنها كُتّاب الإنشاء بدمشق - فقال : وما الذي يُكتَب عن المهزوم إلى من هزّمه ؟ .

الثالث - أن يكون المكتوب به عن السلطان أمراً أو نهياً . قال في "مواد البيان" : فحكمها حكم التوقيعات الوجيزة الجامعة للعاني، الجازمة بالأمر أو النهي . اللهم إلا أن يكون الأمر أو النهي مما يحتاج إلى رسوم ومثّل يُعمل عليها، فيحتاج إلى الإطالة والتكرير، بحسب ما يؤمّر به وينهى عنه دون الحذف والإيجاز.

الرابع — أن تكون الكتب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخراج وجباية الأموال وتدير الاعمال . قال في "مواد البيان" : فسيهلها أن ينص فيها على ما رآه السلطان ودبره ، ثم يحتتم بفصل مقصور على التوكيد في أمثال أمره وإنفاذه ، ولا يقتصر على ما تقدم ، إيجاباً للحجة ، وتضييقاً للعذر ، وحسباً لأسباب الاعتذار .

الخامس — أن يكون ما يكتب به عن السلطان إحماداً أو إذماً ، أو وعداً أو وعيداً أو استقصاراً أو عدلاً أو توبيخاً . قال في "مواد البيان" : فيجب أن يشبع الكلام ويمد القول ، بحسب ما يقتضيه أمر المكتوب إليه : في الإساءة والإحسان ، والاجتهاد والتقصير ، لينشرح صدر المشمر المحسن ، وينسط أمله ورجاؤه ، ويرتدع المقصر المسىء ، ويرتجع عما يذم منه ، ويتلافى ما قوط فيه .

الضرب الثاني

(ما يعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحسنا البسط في موضعين :

أحدهما — أن يكون ما يكتب به عن السلطان خبراً يريد تقرير صورته في نفوس العامة ، كالإخبار بالفتوحات المتجددة في إعلاء الدين والسلطان . قال في "مواد البيان" : فيجب أن يشبع القول فيها ، ويتنى على الإسهاب والإطناب وتكثير الألفاظ المترادفة ، ليعرفوا قدر النعمة الحادثة ، وتزيد بصائرهم في الطاعة ، ويعلموا موضع سلطانهم من عناية الله تعالى به ، فتقوى قلوب أوليائه ، وتضعف قلوب أعدائه ؛ لأنه لو كتب كتاباً في فتح جليل لقرأ في المحافل والمشاهد العامة على رؤوس

الأشهاد بين العامة وَمَنْ يَرَادُ تَفْخِيمُ السُّلْطَانِ فِي نَفْسِهِ عَلَى صُورَةِ الْإِخْتِصَارِ، لِأَوْقَعِ كَلَامِهِ فِي غَيْرِ رَتْبَتِهِ ، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى جَهْلِهِ . وَقَدْ أَوْضَحَ الشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مَجْمُودُ الْحَلَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ فِي كِتَابِهِ ”حُسْنُ التَّوَسُّلِ“ فَقَالَ : وَإِذَا كَتَبَ فِي التَّهَانِي بِالْفَتْوحِ فَلَيْسَ إِلَّا بِسُطِّ الْكَلَامِ وَالْإِطْنَابِ فِي شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّبَرُّيِّ مِنَ الْحَوْلِ وَالتَّوَدُّعِ إِلَّا بِهِ ، وَوَصَفَ مَا أُعْطِيَ مِنَ النِّصْرِ . وَذَكَرَ مَا مَنَعَ مِنَ الثَّبَاتِ ، وَتَعْظِيمِ مَا يَسَّرَ مِنَ الْفَتْحِ ؛ ثُمَّ وَصَفَ مَا بَعْدَ ذَلِكَ : مِنْ عَزْمٍ ، وَإِقْدَامٍ ، وَصَبْرٍ ، وَجَلَدٍ ، عَنْ الْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ مِمَّا حَسُنَ وَصْفُهُ وَلَا قَ ذِكْرُهُ ، وَرَاقَ التَّوَسُّعِ فِيهِ ، وَعُدْبَ بَسْطِ الْكَلَامِ مَعَهُ . قَالَ : ثُمَّ كُتِبَ آتَسَعُ مَجَالُ الْكَلَامِ فِي ذِكْرِ الْوَاقِعَةِ وَوَصَفِهَا ، كَانَ أَحْسَنَ وَأَدْلَّ عَلَى السَّلَامَةِ ، وَأَدْعَى لُسُرُورِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، وَأَحْسَنَ لَتَوَقُّعِ الْمِنَّةِ عِنْدَهُ ، وَاشْهَى إِلَى سَمْعِهِ ، وَاشْفَى لَغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَالِ . قَالَ : وَلَا بِأَسْ تَبْهِيلِ أَمْرِ الْعَدُوِّ ، وَوَصَفَ جَمْعَهُ وَإِقْدَامَهُ ، فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيقًا لِلظَّفَرِ بِهِ .

قَالَ فِي ”مَوَادِّ الْبَيَانِ“ : وَلَا يُحْتَجُّ لِلِإِيجَازِ فِي كُتُبِ الْفَتْوحِ بِمَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ إِلَى الْحَجَّاجِ فِي فَتْحِ الْأَزَارِقَةِ ، عَلَى أَرْتِفَاعِ خَطَرِهِ ، وَطُولِ زَمَانِهِ ، وَعِظَمِ صَبِيئَتِهِ ، مِنْ سُؤْلِهِ فِيهِ مَسَلِّكَ الْإِخْتِصَارِ ؛ حَيْثُ كَتَبَ فِيهِ :

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَى بِالْإِسْلَامِ فَقْدَ مَا سِوَاهُ ، وَجَعَلَ الْحَمْدَ مُتَصِلًا بِنُعْمَاهُ ؛ وَقَضَى أَنْ لَا يَنْقَطِعَ الْمَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ ، حَتَّى يَنْقَطَعَ الشُّكْرُ مِنْ خَلْقِهِ . ثُمَّ إِنَّا كُنَّا وَعْدُونَا عَلَى حَالَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، نَرَى مِنْهُمْ مَا يُسِّرُنَا أَكْثَرَ مِمَّا يُسْوِئُنَا ، وَيَرَوْنَ مِنَّا مَا يُسْوِئُهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُسِّرُهُمْ ؛ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبًا وَدَائِبَهُمْ : يَنْصُرُنَا اللَّهُ وَيُخَذِّلُهُمْ ، وَيَمَحِّصُنَا وَيَمَحِّقُهُمْ ؛ حَتَّى بَلَغَ الْكِتَابُ يَدَائِدِهِمْ أَجْلَهُ ﴿ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فإنه إنما حَسُنَ في موضعه لمخاطبة السُّلطان به، ولغرضٍ كانت المكتابَةُ فيه .
قال : فإن كَتَبَ مثل هذا الكتاب عن السلطان في مثل هذا الفتح أو ما يقارِبُهُ ،
ليُورَدَ على العامة ، ويُقرَّرَ في نفوسهم به قدرُ النعمة ، لم يحسُنَ موقعُهُ ، وخرج عن
شَرطِ البلاغة بوضعه لِيَأْه في غير موضعه ، وذكر العسكري "نحو ذلك في" الصناعتين " .

ثم قال في "حسن التوسل" : وإن كان المكتوبُ إليه مَلِكًا صاحبَ مملكة
بمقرَّده ، تعيَّن أن يكون البَسْطُ أكثرَ ، والإطنابُ والتهويلُ أبلغَ ، والشرحُ أتمَّ .
ثم قال : وإن اضْطُرَّ أن يَكْتُبَ مثلَ ذلك إلى ملكٍ غير مسلم لكنه غيرُ محارِبٍ ،
فالحكم في ذلك أن يذكَرَ من أسباب المودَّة ما يقتضى المشاركة في المَسَارِّ ، وأنَّ أمرَ
هذا العدوِّ مع كثرتِه أخذَ بأطراف الأنامل ، وآل أمرُهُ إلى ما آل . ويُعْظَمُ ذِكْرُ
ما جرى عليه من القتل والأُسْرِ . ويقول : إن تلك عوائدُ نصرِ الله تعالى لنا ، وأنَّتَقَامِ
مِنْ عادانا ،

وإن كان المكتوبُ إليه مَتَمًّا بمملاة العدوِّ ، كتب إليه بما يدل على التَّقرِيع
والتَّهْكُم والتَّهْدِيدِ في مَعْرِضِ الإخبار .

الثاني — أن يكون ما يَكْتُبُ به عن السلطان في أوقات حَرَكَاتِ العدوِّ إلى أهل
الشُّعُورِ ، يُعلمهم بالحركة للقاء عدوِّهم . قال في "حسن التوسل" : فيجب أن يُبَسِّطَ
القولُ في وصف العزائم ، وقوَّةِ الهِمَمِ ، وشِدَّةِ الحِمِيَّةِ للدين ، وكثرةِ العساكر والجُيُوشِ
وسُرعةِ الحركة ، وطَيِّ المَرَاحِلِ ، ومعالجةِ العدوِّ ، وتخيلِ أسبابِ النَّصْرِ ، والوُثُوقِ
بعوائدِ الله تعالى في الظُّفْرِ ، وتقويةِ القلوبِ منهم ، وبَسْطِ آمالهم ، وحَثِّهم على التَّيَقُّظِ ،
وحفظِ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك . ويُبرِزُ ذلك في أمثل كلام وأجلَّة وأمَكْنِه ،
وأقْرَبِه من القُوَّةِ والبَسَّالَةِ ، وأبعده من اللَّين والرقَّة . ويُبالغ في وصف الإنابةِ إلى الله
تعالى واستنزالِ نصره وتأْييده ، والرُّجوعِ إليه في تَثْبِيتِ الأقدام ، والاعتصامِ به

في الصبر، والاستعانة به على العدو، والرغبة إليه في خذلانهم وزلزلة اقدامهم وجعل الدائرة عليهم، دون التصريح ببطلان حركتهم، ورجاء تأخيرهم، وانتظار العرضيات في ضعفهم، لما في ذلك من إيها الضعف عن لقاءهم، وأستشعار الوهم والخوف منهم .

القسم الثاني

(ما يكتب به عن الأتباع إلى السلطان والطبقة العليا
من الرؤساء، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُعمل فيه على الإيجاز والاختصار)

وقد استحبوا الإيجاز في ثلاثة مواضع :

احدها — أن يكون ما يكتب به من باب الشكر على نعمة يُسبغها سلطانه عليه، وعارفة يُسديها إليه . قال في "موادّ البيان" : فسيبيله أن لا يبينها على الإسهاب وتجاوز الحد، بل يبينها على اللفظ الوجيز، الجامع لمعانى الشكر، المشتمل على أساليب الاعتراف والاعتداد، فإن إطناب الأصاغر في شكر الرؤساء داخل في باب الإحجار والإبرام، ولا سيما إذا رجعوا إلى خصوصية وتقديم خدمة . وكذلك لا يكثر من الثناء عليه ، لأن ذلك من باب الملق الذي لا يليق إلا بالأبعاد الذين لم يتقدم لهم من الموات والحرم ما يدل على صحة عقائدهم، ولم يُضف عليهم من النعم ما يوجب خلوص نيّاتهم . أما إذا كان المثنى أجنبيا متكسبا بالتقريظ والثناء، فإنه لا يقبَح به الإيغال والإغراق فيها . قال : وكذلك لا ينبغي للخاصة الإكثار من الدعاء، وتكرره في صدور الكتب

عند مايجرى ذكر الرئيس ، فإن في ذلك مشقة وكلفة يستقلها الملوك . والحكم فيما يستعمل من ذلك في الكتب شبيه بما يستعمل شفاها منه . ويقبح من خادم السلطان أن يشغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء وتكريره .

الثاني — أن يكون مايكتب به التابع إلى السلطان ونحوه في سؤال حُسن النظر وشكوى الفقر والخصاصة . قال : في ”موادّ البيان“ : فينبى القول على الإيجاز ويمزج الشكوى بالشكر والاعتداد بالآلاء ، والرغبة في مضاعفة الإحسان والزيادة في البرّ، والإلحاق بالطبقة الرابعة في إيلاء العوارف ، فإن ذلك أعطف لقلب الرئيس ، وأدعى إلى بلوغ الغرض ، ولا يكثر شكوى الحال وراثتها ، وأستلاء الخصاصة والفقر عليه ، فإن ذلك يجمع إلى الإيجار والإبرام شكاية الرئيس بسوء حال مرءوسه ، وقلة ظهور نعمته عليه ، وذلك مما يكرهه الرؤساء ويذمونه .

الثالث — أن يكون مايكتب به التابع إلى المتبوع من باب التنصل والاعتذار عن شيء قُرف به عند رئيسه . قال في ”موادّ البيان“ : فسيبيله أن يبنى كلامه على الاختصار ، ويعيدل عن الإسهاب والإطناب ، ويقصد إلى التكت التي تزيل ماعرض عنده من الشبهة في أمره ، وتمحو الموجدة السابقة إلى ضمير رئيسه ، ولا يصرح ببراءة الساحة عن الإساءة والتقصير ، فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء من أتباعهم ، لأن عادتهم جارية بإيثار اعتراف الخدم لهم بالتقصير والتفريط ، والإقرار بالمقروف به ليكون لهم في العفو عند الإقرار موضع منة مستأنفة تستدعي شكرا ، وعارفة مستجدّة تقتضى نشرا . أما إذا أقام التابع الحجة على براءته مما قُرف به ، فلا موضع للإحسان إليه في إقراره على منزلته والرضا عنه ، بل يكون ذلك قدرا واجبا له ، إن منعه إياه ظلمه وتعدى عليه .

الضرب الثاني

(ما يعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحبوا البسط هنا في موضع واحد : وهو ما إذا كان ما يكتب به التابع إلى السلطان واقعاً في باب الإخبار بأحوال ما ينظر فيه من الأعمال ، وما يجري على يديه من المهمات . قال في "موادّ البيان" فسيبيله أن يوفّق حقّه في الشرح والبيان ، ويسلك فيه طريقةً يجمع فيها بين إيضاح الأغراض من غير هدّر يضجر ويملّ ، ولا اختصار يقصر ويخلّ ، وأن يقصد إلى استعمال الألفاظ السهلة التي تصل معانيها إلى الأفهام من غير كلفة ، ويتجنب ما يقع فيه تعقيد وتوَعير أو إيهام ، إلا أن يعرض له في المكاتب ما يحتاج إلى التورية والكناية كما تقدّم فيما إذا أطلق عدو لسانه في السلطان فإنه يحتاج إلى الكناية عنه على ما مرّ .

القسم الثالث

(ما يكتب به إلى الأكفاء والنظراء ، والطبقة الثانية من الرؤساء)

قال في "موادّ البيان" : وسيل مكاتبتهم أن يؤتى فيها باللفظ المساوي للعنى من غير إيجاز ولا إطناب : لأنها رتبة متوسطة بين الرتبين المتقدمين . ولا يخفى أن ما ذكره إنما هو عند الوقوف مع حقائق المكاتبات . أما الإخوانيات المطلقة ، فإنها تكون في الطول والقصر بحسب ما بين الصديقين من المودة والقرب ، وما يعلمه كل واحد منهما من خلق الآخر ، وما توجه دأله عليه .

وسياتى في مقاصد المكاتبات من أمثلة الأقسام الثلاثة ما يوضح مقاصدها ويقرب ما أخذها إن شاء الله تعالى .

الطَّرَفُ الثَّالِثُ

(في أمور تختص بالأجوبة ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في بيانِ أىِّ الأمرين من الابتداء والجواب أعلى رتبةً وأبلغُ في صناعة الكتابة)
وقد اختلف الكتاب في ذلك : فذهب أكثرُ البلغاء إلى أن الكتب الجَوَابِيَّةُ
أثعبُ مطلبًا وأصعبُ مُرتقى من الكتب الابتدائية ، وأن فيها تظهرُ مهارةُ الكاتب
وَحِدْقُهُ ، لاسيما إذا كان الخطاب محتِمًا للاعتذارِ والاعتلالِ عن امتثال الأوامر
والنواهي ، والتَّورِيَةِ عن نُصوص الأحوال ، والإعراضِ عن ظَوَاهِرِها ، قائداً إلى
استعمالِ المغالطة ، مُوجِباً للانفصال عن الاحتجاج والإلزام ، ونحو ذلك مما يؤدي إلى
الخلاص من المكاره .

واحتجوا لترجيح ذلك بوجوه .

منها — أن المبتدئ مُحَكَّم في كتابه ، يبتدئُ بالفاظه كيف شاء ، وَيَقْطَعُها حيثُ
يشاء ، ويتصرفُ في التقديم والتأخير ، والحذف والإثبات ، والإيجاز والإسهاب ،
ويَبْنِي على أساس يؤسسه لنفسه ، والمحجِبُ ليس له تقديمٌ ولا تأخيرٌ ، وإنما هو
تابعٌ لغرض المبتدئ ، وبأن على أساسه .

ومنها — أنَّ المحجِبَ — إذا كان جوابه محتِمًا للإشباع والتوسُّع — مُضْطَرًّا إلى
أقتصاص ألفاظ المبتدئ واتباعها للإجابة عنها ، وذلك يؤدي إلى تصفُّح كلام
المبتدئ والمحجِبِ ويَصِل ما بين الكلامين : لأنَّ الكلامين يتقابلان فلا تخفى رتبتهما
والفاضلُ منهما من الرُّذْل ، وهذا مرفوعٌ عن المبتدئ .

(١) أى حاملا ومشتبلا .

ومنها - أن تأليف الكلام وانتظامه وأتساقه وألثامه يُقدَّر منها المبتدئ على ما لا يقدر عليه المحيَّب : لأن الجواب يُفَصِّل أجزاء الكلام ويُبدِّد نظامه ويُقسِّمه أقساما ، لمكان الحاجة إلى استئناف القول من الفصل بعد الفصل بقول وأما كذا وأما كذا ، فظهور الصورة المستحسنة في المتصل أكثر من ظهورها في المنفصل .

أما إذا كان الجواب مقتضبا مبنيا على أمثال مأمور ، أو انتهاء عن منهي عنه ، فإنه سهل المرام ، قريب المتناول : لأنه إنما يشتمل على ذكر وُصول الكتاب والعمل بما فيه .

وذهب صاحب "مواد البيان" (١) إلى أن الابتداء والجواب في ذلك على حدٍّ واحدٍ ، وإن كان الكاتب قد يُجيد في الابتداء ولا يجيد في الجواب وبالعكس ، محتجا لذلك بأن كلاً من المبتدئ والمحيَّب ممتاح من جودّة الغريزة ، محتاج من البلاغة والصناعة إلى ما يحتاج إليه الآخر : لأن الكاتب يكون تارة مبتدئا وتارة محيِّبا ، وليست الإجابة بصناعة على حيالها ، ولا البداية بصناعة على حيالها ، بل هما كالنوعين للجنس ، ولا منع من أن يكون الكاتب ماهرا في نوع دون نوع .

قال : والكاتب لا يكون في الأمر الأعم كاتباً عن نفسه وإنما يكون كاتباً عن أمرٍ يأمره بالكتابة في أغراضه ويسألها إليه منثورة ، فيحتاج إلى نظمها وضمها وإبرازها في صورةٍ محيطيةٍ بجميع تلك الأغراض من غير إخلالٍ بشيءٍ منها ، فعلى المبتدئ من المشقة في إيراد أغراض المكتوب عنه في الصورة الجامعة لها مع نظمها

(١) الظاهر أن كان زائدة والاصل وأن الكاتب قد يجيد آخ كما يفيد المعنى وآخر العبارة .

في سلك البلاغة مثل ما على المحيب من المشقة في توفية فصول كتاب المبتدئ حقها من الإجابة والتصرف على أوضاع ترتيبها ، بل كلفة المحيب قريبة ، لأنه يستنيط من نفس معاني كتاب المبتدئ للعاني التي يُحِبُّ بها : لأن الجواب لا يخلو من أن يكون يوافق الابتداء أو يناقضه : فإن وافقه فالأمر سهل ، وإن ناقضه فإن كل نقيض قائم في الوهم على مقابلة نقيضه ، إلا أنه أتعب على كل حال من الموافق ، ولا شك أن الجواب بتجزئته قد خفف تحمله : إذ ليس من يجمع خاطره على الفصل الواحد حتى يخرج عن جوابه كمن يجمع خاطره على الكتاب كله . ثم قال : وليس القصد مما ذكرناه مناقضة مشايخ صناعتنا ، ولكن القصد تعريف الحق الذي يجب اعتقاده والعمل عليه .

الجملة الثانية

(في بيان ترتيب الأجوبة)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجَوَابَ حَالَتَيْنِ :

الحالة الأولى — أن يكون الجواب من الرئيس إلى المرءوس عما كتب به الرئيس إليه ، فالذي ذكره في ” مواد البيان “ أن للرئيس أن يبنى حكاية كتاب مرءوسه إليه في جوابه على الاختصار ، ويجمع معانيه في ألفاظ وجيزة ، محيطية بما وراءها كأن يقول : وصل كتابك في معنى كذا وفهمناه .

الحالة الثانية — أن يكون الجواب من المرءوس إلى الرئيس عما كتب به الرئيس إليه ، قال في ” مواد البيان “ : والواجب في هذه الحالة أن يحكي فصول كتاب

رئيسه على نصّها ويُقصّها على وجهها من غير إخلالٍ بشيءٍ منها ، إعظاماً لقدر الرئيس وإجلالاً لخطابه . قال : وليس للجيب إن مرّ في كتاب الرئيس بلفظة واقعة في غير موضعها أن يُبدّلها بغيرها : لما في ذلك من الإشارة إلى أن هذا أصحّ من كتاب رئيسه في ألفاظه ومعانيه . قال : ولا يجوز الخروج عن حكاية لفظ رئيسه في كتابه بحال ، اللهم إلا أن يكون الكتابُ الواردُ على الجيب في معنى ' الشكر والتّقرّيز من رئيسه له والثناء عليه في قيامه بالخدمة ، فإنه لا يجوز أن يأتي به على نصه : لأنه يصير ذلك مادحاً نفسه ، ومدحُ الإنسان نفسه غير سائغ ؛ ولا يجوز أن يُهمّل ذكره جملةً لأنه يكون قد أخلّ بما يجب من شكره له على ' تشرّيف رتبته بإحماده له والثناء عليه ، بل الواجب أن يُوقع تلك الصفة على جملةٍ تجعل نفسه بعضاً منها ، مثل أن يقول : « فاما ما وصفه من أعتداده بخادِمه في جملة من نهض بحقوق خدمته ، وقام بفرض طاعته ، فأهله لما يرفع الأقدار من إحماده وثنائه ، ويُعلي الأخطار من شكره ودُعائه » وما يضاهي هذا من العبارة التي تشتمل على معاني ألفاظ رئيسه ، فإنه إذا قصد هذا السبيل في حكاية كتاب رئيسه في هذا المعنى ، فقد جمع بين البلاغة والإتيان على معاني ألفاظ رئيسه والأدب في ترك التّفخيم لنفسه بإضافته لها إلى جملة الخاصة دون إيقاع المدح عليها فقط .

قلت : هذا هو الترتيب الذي يجب اعتناؤه في الأجوبة ، فلا يجوز الخروج عنه إلى غيره ؛ على أن تُكتب زماننا قد اطّرحوا النظر في ذلك جملةً ، وصاروا يكتبون الأجوبة بحسب التشبّه : فمنهم من يحكي الكتاب الذي يقع الجواب عنه بنصه مطلقاً ، سواء كان من رئيس أو مرءوس وبالعكس ، مع قطع النظر عما وراء ذلك . فتنبه لهذه الجملة فإنها دقيقةٌ جليّةٌ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الرابعة

(في ذكر أصول المكاتبات وترتيبها، وبيان لواحقها

ولوازمها . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في ذكر أصولها وترتيبها . وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات إلى اهل الإسلام)

وأعلم أن المكاتبات الدائرة بين المسلمين من صدر الإسلام وإلى زماننا لا يأخذها حدٌ، ولا تدخل تحت حصر .

والمشهور استعماله منها في دواوين الإنشاء على اختلاف الأزمان خمسة عشر أسلوباً .

الأسلوب الأول

(أن تفتتح الكتب بلفظ « من فلان إلى فلان »)

قال أبو هلال العسكري في كتابه " الأوائل " : وأول من كتب بذلك قس بن ساعدة الإيادي ؛ وعلى ذلك كانت مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم والسلف من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب : « من محمد رسول الله إلى فلان » . ثم كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته : « من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ثم كتب عمر بعده : « من عمر »

أَبْنِ الْخَطَّابِ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى فُلَانٍ» . فَلَمَّا لُقِّبَ
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ زَادَ فِي ذَلِكَ لَفْظَ «عَبْدِ اللَّهِ» قَبْلَ عُمَرَ، وَلُقِّبَ «أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» بَعْدَهُ ؛
فَكَانَ يَكْتُبُ : «مَنْ عَبْدُ اللَّهِ عُمَرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى فُلَانٍ» . وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ
إِلَى خِلَافَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُزَادَ فِي صُدُورِ الْكُتُبِ بَعْدَ «فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ» . بِجَرَى الْأَمْرِ
عَلَى ذَلِكَ فِي زَمَنِهِ وَمَا بَعْدَهُ . قَالَ أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي «الْأَوَائِلِ» : وَكَانَ ذَلِكَ
مِنْ أَجْلِ مَنَاقِبِهِ . قَالَ صَاحِبُ «ذَخِيرَةِ الْكُتُبِ» : وَكَانَ الرَّشِيدُ قَدْ قَالَ لِيَحْيَى
أَبْنِ خَالِدٍ : إِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي كُتُبِي : «مَنْ عَبْدُ اللَّهِ هَارُونَ الْإِمَامُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» - فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : قَدْ عَرَفَ اللَّهُ
نِيَّتَكَ فِي هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! [وَأَجْزَلَ] لَكَ الْأَجْرُ ، وَالتَّعَبُدُ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا لغيرِهِ - قَالَ : فَأَكْتُبُ «مَنْ هَارُونَ مَوْلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ» - فَقَالَ : إِنْ الْمَوْلَى
رَبَّمَا كَانَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَبْنُ الْعَمِّ ، وَجَزَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا عَنْ هَذِهِ النِّيَّةِ
وَهَذَا الْفِكْرِ .

الأسلوب الثاني

(أَنْ يُفْتَحَ الْكِتَابُ بَلْفِظِ «لِفُلَانٍ مِنْ فُلَانٍ» أَوْ «إِلَى فُلَانٍ مِنْ فُلَانٍ»)

وَبَقِيَّةُ الصَّدْرِ ، وَالتَّخْلُصُ بِ«أَمَّا بَعْدُ» أَوْ غَيْرِهَا ، وَالْإِخْتِمَامُ بِالسَّلَامِ

وغيره على ما تقدم في الأسلوب الأول

وقد اختلف العلماء في جواز الابتداء في المكاتبة باسم المكتوب إليه : فذهب
جماعة من العلماء إلى جواز ذلك ، محتجين بأن الصحابة رضي الله عنهم وبعض الملوك

كانوا يكتبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم كذلك . كما كتب إليه خالد بن الوليد والنجاشي والمقوقس في إحدى الروايات ، على ما سيأتى ذكره في المكاتبات إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إِذَا كَتَبَ أَحَدُكُمْ فليبدأ بنفسه ، إلّا إلى والدٍ أو والدَةٍ أو إمامٍ يخافُ عُقوبَتَه “ وعن نافع قال : كانت لابن عمر إلى معاوية حاجةٌ ، فقال له ولده : أبدأُ به في الكتاب ، فلم يزالوا به حتى كتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى معاوية من عبد الله بن عمر » . وعن الأوزاعي أنه كان يكتب إلى عمر بن عبد العزيز فيبدأ به فلا يُنكر ذلك . وعن سعيد بن عبد العزيز قال : كتب عمر (يعني ابن عبد العزيز) إلى الحجاج ، فبدأ بالحجاج قبل نفسه - فقليل له في ذلك - فقال : بدأتُ به لأحقنَ دَمَ رجلٍ من المسلمين . قال سعيد : فحقن له دمه . وعن بكر بن عبد الله أنه كتب إلى عاملٍ في حاجة ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى فلانٍ من بكرٍ » - فقليل له أتبدأُ باسمه فقال : وما على أن أَرْضَى صاحبي وتُقضى حاجةُ أخى المسلم ؟ قال في ” صناعة الكتاب “ : وعلى ذلك جرى التعارفُ في المكاتبة إلى الإمام .

وذهب قوم إلى كراهة ذلك ، لأنه مأخوذٌ عن ملوك العجم . قال ميمون ابن مهران : كان العجم يبدؤون بملوكهم إذا كتبوا إليهم . وقد روى عن العلاء ابن الحضرمي أنه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبدأ بنفسه . وعن الربيع ابن أنيس قال : ما كان أحدٌ أعظمَ حرمةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يكتبون إليه يبدؤون بأنفسهم . وعلى ذلك جرى في ” نهاية الأرب “ فقال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرأءُ جيوشه يكتبون إليه

كما يكتب إليهم : يبدؤون بأنفسهم . وعن ميمون بن مهران أنه قال : كان ابن عمر إذا كتب إلى أبيه كتب « من عبد الله بن عمر إلى عمر بن الخطاب » . وعن يحيى بن سعيد القطان قال : قلت لسفيان الثوري : اكتب إلى أمير المؤمنين يعني المهدي ، قال : إن كتبت إليه بدأت بنفسى - قلت : فلا تكتب إليه إذن . وهذه الأقوال كلها جانحة إلى ترجيح بدء المكتوب عنه بنفسه . قال أبو جعفر النحاس : وهذا عند أكثر الناس هو الإجماع الصحيح ؛ لأنه هو إجماع الصحابة رضى الله عنهم .

ولتعلم أن الداهيين إلى جواز الابتداء باسم المكتوب إليه اختلفوا : فذهب قوم إلى أنه إنما يكتب « إلى فلان من فلان » كما تقدم في كتاب ابن عمر إلى معاوية ، ولا يكتب « لفلان من فلان » . وأستشهد لذلك بما روى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال : يكتب الرجل « من فلان إلى فلان » ولا يكتب لفلان ؛ وبما روى عن هشيم عن المغيرة عن إبراهيم أنه قال : كانوا يكرهون أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » لكن قد روى أن رجلا كتب عند ابن عمر « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » فقال ابن عمر : مه ! فإن أسم الله هو له إذن . ومقتضى ذلك أن الكراهة إنما هي لإيهام أن البسملة للمكتوب إليه ، لا للابتداء باسم المكتوب إليه .

وذهبت طائفة إلى جواز أن يكتب « لفلان من فلان » واحتج لذلك بما روى عن مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار أن ابن عمر كتب إلى عبد الملك ابن مروان : « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر » وهو ظاهر ، فقد كانت مكاتبة خالد بن الوليد والنجاشي والمقوقس

« لمحمد رسول الله » على ما سيأتى ذكره . وعلى ذلك كانت المكتبة للخلفاء : فكان يُكتب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من عماله وغيرهم « لعبد الله عمر امير المؤمنين » وعلى ذلك جرى الحال فى المكتبة إلى سائر الخلفاء بعده على ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأُسلوب الثالث

(ان يفتح الكتاب بلفظ أما بعد)

وعليه ورد بعض المكاتبات الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الخلفاء من الصحابة فمن بعدهم فى صدر الإسلام على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وكانوا بعد حدوث الدعاء فى المكاتبات يُتبعونها بالدعاء بطول البقاء غالبا ، فيقال : « أما بعد أطل الله بقاءك » ونحو ذلك ؛ ثم أُضرب عنها بعض الكتاب بعد ذلك . قال أبو هلال العسكري : فى كتابه « الصناعتين » : وكان الناس فيما مضى يستعملون فى أوائل فصول الرسائل « أما بعد » وقد تركها جماعة من الكتاب فلا يكادون يستعملونها . قال : وأظنهم أَلَمُوا بقول ابن القريّة - وقد سأله المجاج عما يُنكره من خطابه - فقال : إنك تُكثر الرّد ، وتشير باليد ، وتستعين بأما بعد . فتحاموها لهذه الجهة . ثم قال : فإن استعملتها أتباعا للسلف ورغبة فيما جاء فيها من التأويل أنها فصل الخطاب ، فهو حسن ؛ وإن تركتها توخيا لمطابقة أهل عصرك ، وكرهية للخروج عما أصلوه لم تكن ضائرا . أما الآن فقد ترك الأبتداء فى الكتب بأما بعد

(١) فى الاصل وعلى كل حال وهو سبق قلم كما هو ظاهر .

حتى لا يكاد يُعَوَّل عليها في الابتداء كاتبٌ من كُتَّاب الزمان ، ولا يَفْتَحُ بها مكتبة .
نعم يؤتى بها في أثناء بعض المكتبات على ماسياتي ذكره إن شاء الله تعالى .
وقد تقدّم الكلام على معناها وأوّل مَنْ قالها في الكلام على الفوائح في المقالة
الثالثة ، وكُتَّاب المغاربة ربما أفتتحوا مكاتباتهم بلفظ وبعد .

الأسلوب الرابع

(أن تفتتح المكتبة بِحُطْبَةٍ مَفْتَحَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ)

وأصل هذه المكتبة مختلّس من الأسلوب الأوّل من قولهم : فإني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو . ثم جاء عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد : آخر
خلفاء بني أميّة ، وأطال التّحميدات في صُدُور الكُتُب مع الإتيان بأما بعد ،
وتبعه الكُتَّاب على ذلك ؛ ثم توسّعوا فيه حتى كرّروا الحمد المرّات في الكتاب
الواحد ، لاسيّما في أما كن النعم الحادثة ، كالمفتوحات ونحوها ؛ ثم توسّع بعض
الكُتَّاب في ذلك حتى جعل الحمد لله أفتتاحاً ، واستمرّ ذلك إلى الآن . وعلى ذلك
بعض المكتبات السلطانية في زماننا ، على ما ستقف على ذلك جميعه في مواضعه
إن شاء الله تعالى .

ولا خفاء في أن الحمد أفضل الافتتاحات ، وأعلى مراتب الابتداءات ، وإن لم
يقع الابتداء به في صدر الإسلام ، فهو من المبتدعات المستحسنّة . وحيث أفتتحت
المكتبة بالحمد لله كان التخلّص منها إلى المقصود بأما بعد ؛ وربما وقع التخلّص
بغير ذلك ، ويكون الاختتام فيها تارةً بالسلام ، وتارةً بالدعاء ، وتارةً بغير ذلك . قال
أبن شيث في " معالم الكتابة " : والتّحميد في أوّل الكُتُب لا يكون إلا في الكُتُب

المكتوبة عن السلطان . قال : وغاية عظمة الكاتب أن يكرّر التحييد ثانية وثالثة في الكتاب ، ثم يذكر الشهادتين والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .
قلت : والتكرار في الحمد يكون بحسب مقدار النعمة المكتوب بسببها من فتح ونحوه .

الأسلوب الخامس

(أن تفتّح الكتاب بلفظ « كتابي إليك » أو « كتابنا إليك من موضع كذا ، أو في وقت كذا والأمر على كذا » وتشرح القضية ؛ وتختتم المكتبة « بكتابنا إليك » بنحو قولك : « فإن رأيت أن تفعل كذا فعلت »
والمكتبة « بكتابي إليك » بنحو قولك : « فرأيك
في كذا » وما يجري هذا المجرى)

والأصل في هذه المكتبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب في بعض المكتبات الصادرة عنه : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان ، أو إلى الجماعة الفلانية » . فلما كان أيام بني بويه في أثناء الدولة العباسية ، أستخرج كتابها من هذا المعنى الابتداء « بكتابي إليك » إذا كانت المكتبة إلى النظيف ومن في معناه ، والابتداء « بكتابنا إليك » إذا كانت المكتبة عن له رتبة نون العظمة من الملوك ونحوهم ؛ وكانوا يتبعون ذلك بالدعاء بطول البقاء نحو « كتابي إليك أطال الله بقاءك » أو « كتابنا إليك أطال الله بقاءك » . وربما عبر « بهذه الخدمة »^(١) وما أشبه ذلك ، ويكون التخلص فيه إلى المقصد بواو الحال ، مثل أن يقال : « كتابي إليك والأمر على كذا وكذا » ونحو ذلك ؛ وربما وقع التخلص بخلاف ذلك . ويكون الاختتام فيه

(١) أى عبر بديل كتابي إليك مثلاً بقوله « هذه الخدمة إليك » كما يؤخذ مما يأتي في الأسلوب الحادى عشر

تارةً بالسلام وتارةً بالدعاء ، وتارةً بغير ذلك . وكُتِّبَ المَغْرِبَ عدلوا عن لفظ الأسم
في كُتِّبَ إلى لفظ الفعل . مثل أن يقال : « كُتِّبْنَا إِلَيْكَ » أو « كُتِّبْتُ إِلَيْكَ وَالْأَمْرُ
عَلَيَّ كَذَا ، أو من مَوْضِعِ كَذَا » .

الاسلوب السادس

(أن تقع المكتبة بلفظ « كُتِّبَ » بصيغة الفعل)

وهذه المكتبة كان يُكْتَبَ بها عن الوزراء ومن في معانهم إلى الخلفاء . فيكتب
الوزير ونحوه : « كُتِّبَ عَبْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » أو « كُتِبَ الْعَبْدُ مِنْ مَحَلِّ خِدْمَتِهِ بِمَكَانِ
كَذَا ، وَالْأَمْرُ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا » . وعلى نحو من ذلك يجري كُتِّبَ المغاربة في الكثير
من كُتُبِهِمْ ، مثل « إِنَّا كُتِّبْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ مَحَلِّ كَذَا » أو « كُتِّبْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَحَلِّ كَذَا »
وما أشبه ذلك . وهذه في الأصل مأخوذة من الأسلوب الذي قبل .

الأسلوب السابع

(أن يقع الافتتاح بالدعاء)

والأصل في ذلك ما حكاه أبو جعفر النحاس : ان معاوية بن أبي سفيان كتب
إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند جريان الخلاف ووقوع
الحرب بينهما : « أما بعد عافانا الله وإياك من السوء » . ثم زاد الناس في الدعاء
بعد ذلك .

وقد اختلف في جواز المكتبة بالدعاء في الجملة : فذهب ذاهبون إلى جواز ذلك
كما يجوز الدعاء في غير المكتبة ، سواء تضمن الدعاء معنى الدوام والبقاء أم لا . وهو

الذى ربحه محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" وإليه يميل كلام غيره أيضا، وحكاها النحاس عن أبي جعفر أحمد بن سلامة، وكلامه يميل إلى ترجيحه .
أما ما يتضمن معنى الدوام والبقاء ، فلما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي اليسر كعب ابن علية^(١) : "اللهم أمتعنا به" قال النحاس : وذلك دليل الجواز ، بل حكي عن بعضهم أن الدعاء بطول البقاء أكل الدعاء وأنعمه ، لأن كل نعمة لا ينتفع بها إلا مع طول البقاء . ثم قال : والمعنى في الدعاء في المكاتبات التودد والتعجب ؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يكونوا إخوانا ، ومن أخوتهم ود بعضهم بعضا . وكذلك القول بما يؤكد الأخوة بينهم والمودة من بعضهم لبعض ، وإذا قال له ذلك ، كان قد بلغ من قلبه نهاية مبلغ مثله منه ؛ ويكون من قال ذلك قد علم من قلبه في شأنه ما يكون من قلب مثله . وقد قال الشيخ محي الدين النووي : من قال لصاحبه - حفظا لمودة - : «أدام الله لك النعم» ونحو ذلك فلا بأس به .



وأما ما لم يتضمن معنى الدوام والبقاء : كالعز والكرامة ، فقد روى عن كعب ابن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منك مقتل حمزة ؟ فقلت : أعزك الله ! أنا رأيته » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، فظن الناس بمجالسهم فلم يوسع له أحدا ، فرمى له رسول الله صلى الله عليه وسلم يردته وقال اجلس عليها يا جرير ، فتلقاها بوجهه ونحوه فقبلها ثم ردها على ظهره ، وقال : أكرمك الله

(١) سبق في صفحة ٢٩٢ من هذا الجزء كعب بن عبيد الله والذي في "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال"

للغزرجي ص ٣٢١ أنه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غزية بن سنواد بن غم بن كعب بن سسلبة الانصارى السلى بالفتح أبو اليسر بفتح التحتانية عقي بدرى جليل . فلعلى عليه آمم أمه .

يارسول الله كما أكرمتني» فقد دعا له صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك بالعز، وجرير ابن عبد الله بالكرامة ولم يُنكر ذلك على واحد منهما .

وذهب آخرون إلى أنه لا تجوز المكاتبة بالدعاء، سواء تضمن معنى الدوام والبقاء أم لا : لأنه خلاف ماوردت به السنة وجرى عليه اصطلاح السلف .

وفصل بعضهم فقال : إن كان الدعاء مما لا يتضمن معنى الدوام والبقاء نحو « أكرمك الله بطاعته » و « تولاك بحفظه » و « أسعدك بمعرفته » و « أعزك بنصره » جاز، لحديث كعب بن مالك وجرير بن عبد الله المتقدمين . وإن كان مما يتضمن معنى الدوام والبقاء، نحو « أطل الله بقاءك » و « نساأجلك » و « أمتع بك » وما أشبه ذلك، لم تجز المكاتبة به .

وأحتج لذلك بحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه " أن أم حبيبة بنت أبي سفيان، زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : اللهم أمتني بزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية - فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد دعوت الله لآجال مضروبة، وأرزاق مقسومة لا يتقدم منها شيء قبل أجله ولا يتأخر بعد أجله ! ولو سألت الله أن يقيك عذاب النار لكان خيراً لك " وبما روى أن الزبير بن العوام رضى الله عنه ! قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « جعلني الله فداك » . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أما تركت أعرايتك بعد؟ » فقد أنكر صلى الله عليه وسلم على أم حبيبة والزبير الدعاء بما فيه طول البقاء، وإذا امتنع ذلك في مطلق الدعاء، امتنع في المكاتبة من باب أولى : لخالفه طرقها التي وردت بها السنة . قال حماد بن سلمة : كانت مكاتبة المسلمين « من فلان إلى فلان » أما بعد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله

أن يصلى على محمد عبده وآل محمد « حتى أحدث الزنادقة - لعنهم الله - هذه المكتبة التي أولها « أطال الله بقاءك » .

وعن إسماعيل بن إسحاق أن أول من كتب « أطال الله بقاءك » الزنادقة . وقد قال الإمام الرافعي وغيره من أئمة أصحابنا الشافعية : إن الدعاء بالطلبة - وهي أطال الله بقاءك - لأصل له في الشرع . قال الشيخ محي الدين النووي : وقد نص السلف على كراهته . ونقل النحاس عن بعضهم : أنه استحب تقييده بالإضافة إلى شيء آخر، مثل أن يكتب « أطال الله بقاءك في طاعته وكرامته » أو « أطال الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال » وما أشبه ذلك .

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي صُورَةِ الْإِبْتِدَاءِ بِالدَّعَاءِ : فَالْأَوَّلُونَ - لِإِبْتِدَاعِ الدَّعَاءِ فِي الْمَكْتَابَاتِ - كَانُوا يَفْتَتِحُونَ بِطُولِ الْبَقَاءِ لِلْخُلَفَاءِ وَغَيْرِهِمْ ؛ ثُمَّ تَوَسَّعَتِ الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْكُتَّابِ فِي الْمَكْتَابَةِ فَافْتَتَحُوا بِالدَّعَاءِ لِلْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ بِخُلُودِ الْمُلْكِ ، وَدَوَامِ الْأَيَّامِ ، وَدَوَامِ السُّلْطَانِ وَخُلُودِهِ ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ ؛ وَلَمِنْ دُونِهِمْ بَعْدَ النَّصْرِ وَالنُّصْرَةِ وَالْأَنْصَارِ بِدَوَامِ النِّعْمَةِ وَخُلُودِ السَّعَادَةِ وَمَدِّ الظِّلِّ وَإِسْبَاغِ الظَّلَالِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُصْطَلَحِ كُلِّ طَبَقَةٍ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ثُمَّ لِلْكِتَابِ فِي الْخِطَابِ^(١) بِالدَّعَاءِ مَذْهَبَانِ :

أحدهما - أن يقع الدعاء بلفظ الخطاب ، نحو « أطال الله بقاءك ، وأعزك الله ، وأكرمك الله ، وأدام كرامتك وسعادتك » وما أشبه ذلك .

والثاني - أن يقع بلفظ الدعاء للغائب مثل : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين » و« أطال الله بقاء سيدي » و« أطال الله بقاء مولانا » أو « أعز الله أنصار المقام أو الممقر »

(١) كذا في الأصول ولعله في الاتيان بالدعاء الخ .

أو « ضاعف الله تعالى نعمة الجَنَاب » أو « أدام الله نعمة الجَنَاب أو المجلس » وما أشبه ذلك .

قال في "صناعة الكتاب" : وهو أجل الدعاء فيما أصطلحوا عليه . قال : ورأيتُ عليَّ بن سليمان يُنكر ذلك ويقول : الدعاء للغائب جهلٌ باللغة ، ونحن ندعو الله عز وجل بالمخاطبة .

الأسلوب الثامن

(أن يُفْتَحَ الكُتَابُ بِالسَّلامِ)

ويقع التخلُّص إلى المقصود بلفظ « وَبُئِى لِعَالَمِهِ » أونحو ذلك ، ويقع الاختتام فيه بالسَّلام أيضا ؛ وهو منترَع من قولهم في صدر المكتبة في الأسلوب الأول : سَلامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّى أَحْمَدُ لِيكَ اللهُ ؛ تصرف الكُتَّاب فيه بفعلوا السَّلامَ في ابتداء المكتبة ، وصاروا يبتدئونها بنحو سَلامُ اللهُ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . وقد كانوا يبتدئون المكتبة إلى الخلفاء ببغداد في الدولة الأيوبية بالديار المصرية بالسَّلام في بعض الأحيان ، وعلى ذلك استقرَّت المكتبة عن الخليفة الآن . وبه يُفْتَحُ بعضُ المكتبات إلى مشايخ الصُّوفِيَّة ، على ما سيأتى في الكلام عليه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال في "صناعة الكُتَّاب" : وإنما قدَّموا السَّلامَ على الرحمة لتصرُّفه : لأنه من أسماء الله تعالى أوجعُ سلامة . قال في "موادِّ البيان" : أو أَسْمٌ لِلْجَنَّةِ كما في قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : والسَّلام في هذا الموضع من السَّلامَةِ ، وتقديمُ السَّلامَةِ التي تكونُ في الدنيا أولى من تقديم الرحمة التي تكون في الآخرة .

الأسلوب التاسع (أَنْ يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِقَبْلِ الْأَرْضِ)

ويتخلص إلى المقصود بلفظ « وينهى » ويقع الاختتام بـ « طالع » أو « أنهى » وهذه المكتبة مما هو موجود في بعض مكاتبات القاضى الفاضل ، ولم أرها فيما قبله ؛ وكأنهم لما استعملوا في صدور المكاتبات إلى الخلفاء المكتبة بيقبل الأرض والعتبات ونحو ذلك ، استنبطوا منه ابتداء مكتبة وجعلوها مكتبة الرؤساء من السلطان ومن في معناه بالنسبة إلى المرؤوس . والأصل في ذلك أن تحية الملوك والرؤساء والأكابر في الأمم الخالية كانت بالسجود ، كما يحى المسلمون بعضهم بعضا بالسلام . وقد قال قتادة في قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليهم السلام : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ : كانت تحية الناس يومئذ سجود بعضهم لبعض ، وعليه حمل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ على أحد التفاسير ، وهو المرجح عند الإمام نحر الدين وغيره من المفسرين . قال الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله في تفسيره : وكان ذلك مشروعا في الأمم الماضية ولكنه نُسِخ في ملتنا . قال معاذ « يارسول الله ! إني قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لآسافقتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يسجد لك . فقال : [لا] لو كنت أمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لبعليها من عظم حقه عليها » . وعن صبيب : « أن معاذ [لما] قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال يامعاذ [ماهذا ؟ قال] إن اليهود تسجد لِعُظَمَائِهَا وَعُلَمَائِهَا ، ورأيت النصارى تسجد لقسيسها وبطارقتها ، قلت ماهذا ؟ قالوا تحية الأنبياء - فقال عليه السلام : كذبوا على أنبيائهم » .

(١) الزيادة عن تفسير ابن كثير .

(٢) الزيادة عن مفاتيح الغيب للفيض الرازى .

وعن سفيان الثوري عن سَمَاحِ بْنِ هَانِئٍ قَالَ : دَخَلَ الْجَائِلِيُّ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : أَسْجُدْ لِلَّهِ وَلَا تَسْجُدْ لِي .

فلما وردت شريعة الإسلام بنسخ التحية بالسجود وغلب ملوك العجم على الأقطار، استصحبوا ما كان عليه الأمر في الأمم الخالية، وعبروا عنه بتقيل الأرض فراراً من اسم السجود ولورود الشريعة بالنهي عنه ؛ واستمر ذلك تحية الملوك إلى الآن، فاستعار الكتاب ذلك ونقلوه من الفعل إلى اللفظ ، فاستعملوه في مكاتبتهم إلى الخلفاء والملوك ؛ ثم توسعوا في ذلك فكتبوا به كل من له عظمة بالنسبة إلى المكتوب عنه ، ورتبوه مراتب على ماسياتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى . ولا خفاء فيما في هذه المكتابة من الكراهة .

الأسلوب العاشر

(أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِقَبْلِ الْيَدِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْبَاسِطِ وَالْبَاسِطَةِ)

ويقع التخلُّص منه إلى المقصود بما يقع به التخلُّص في الأسلوب الذي قبله من الإنهاء ؛ ويُحْتَمُّ بالدعاء ونحوه .

والأصل في هذه المكتابة أن يُقْبَلَ الْيَدُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يُؤْذَنُ بِالْعَظِيمِ ، وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَعُلُوُّ الْقَدْرِ وَزِيَادَةُ الرَّفْعَةِ ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ فِي الشَّرِيعَةِ . فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ : « أَنَّهُ لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى بِرَأْيَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَ لَهَا أَبُو هَارٍ : قُومِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبِّلِي يَدَهُ » . وَلَمْ يَكُنِ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَأْمُرَهَا بِمَا هُوَ مَمْنُوعٌ فِي الشَّرِيعَةِ . وَقَدْ نَصَّ الْفُقَهَاءُ

رحمهم الله على أنه يجوز تَقْيِيلُ يَدِ العالم والرجل الصالح ونحوهما ، فاستعار الكُتَّاب ذلك ونقلوه من الفعل إلى الكتابة أيضا ، كما فعلوا في تَقْيِيلِ الأرض ، ورَتَّبوه مراتب على ما سياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . على أن بعض الكُتَّاب قد جعل يُقْبَلُ القَدَم رتبةً بين يُقْبَلُ الأرض ويُقْبَلُ اليد وما في معناها ، وهو ظاهر لكنه لم يشتهر في عُرف الكُتَّاب .

الأسلوب الحادى عشر

(أن يُفْتَحَ الكُتَّابُ بلفظ « صدرتِ المكتبة »)

ويتخلص فيها إلى المقصود بلفظ « وتوضَّح لعلمه » أو « موضَّحة لعلمه » وما أشبه ذلك . ويقع الاختتام فيها بمثل « والله الموفق » ونحو ذلك . وربما قيل فيها : « أُصْدِرَتْ هذه المكتبة » أو « أُصْدِرَناها » .

وأصل هذه المكتبة أنه كان يُكْتَبُ في الدَّولة السَّلْجُوقِيَّة ببغداد ، والدولة الأيوبيَّة بالديار المصرية « صدرت هذه الخدمة » أو « أُصْدِرَتْ هذه الخدمة » . وربما كتب « صدرت هذه الجملة » فعُدل عنه كُتَّاب الزمان بالديار المصرية ومن قاربهم إلى التعبير بقولهم : « صدرت هذه المكتبة » . على أن كُتَّاب الزمان بالديار المصرية إنما أخذوها من صُدُور المكاتبات المفتَّحة بالدعاء : مثل أعزَّ الله أنصار المقرِّ ، حيث يقال في تصديرها « أُصْدِرَناها » ومثل « ضاعف الله نعمة الجَنَاب » و « أدام الله نعمة الجَنَاب أو المجلس » وما أشبه ذلك ، حيث يقال في تصديرها : « صدرت هذه المكتبة » فجعلوا الصُّدُور ابتداء .

الأسلوب الثاني عشر

(أن يفتح الكتاب بلفظ « هذه المكتبة »)

ويتخلص منها إلى المقصود بنحو ما وقع التخلص به في الأسلوب الذي قبله ،
ويقع الاختتام بمثل ما وقع به اختتامه .

وهذه المكتبة مأخوذة في الأصل من ابتدائهم في الأسلوب الخامس بلفظ :
« تكلمي إليك » وما في معناه ، على أن كُتِبَ الزمان إنما أخذوا ذلك من المكتبة التي
قبلها ، فجعلوا بعض الصِّدْر فيها ابتداءً ، كما جعلوا جميع الصِّدْر ابتداءً في الأسلوب
الذي قبلها .

الأسلوب الثالث عشر

(أن يفتح الكتاب بالإعلام)

كما يكتب كُتِبَ الزمان : « يعلم فلان أن الأمر كذا وكذا » والاختتام فيها بمثل
الأسلوبين اللذين قبلها ولا التخلص فيها ، لأن الافتتاح فيها موصل إلى المقصود . على
أن الصواب إثبات اللام في أولها ، بأن يقال : « ليعلم فلان » لأن لام الأمر لا يجوز
حذفها على ما تقرّر في آخر المقالة الثالثة . وعلى ذلك كتب غازان أحد ملوك بني
جنك خان ببغداد وما معها إلى الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار
المصرية ، وكُتِبَ الجواب عن الملك الناصر إليه كذلك ، على ما سيأتي ذكره في موضعه
إن شاء الله تعالى .

الاسلوب الرابع عشر

(أن يفتح الكتاب بلفظ « يُخْدَم »)

مثل « يُخْدَم الجَنَاب » أو « يُخْدَم المجلس » وما أشبه ذلك . ويكون التخلُّص منها بمثل : « وَيُنْهَى » أو « وَيُيَدَّى » ونحو ذلك ؛ ويقع الاختتام فيها بالدعاء . وهذه المكتبة كانت مستعملة في مكاتبات الفاضل بقلّة ، وتداولها الكتاب بعد ذلك إلى أن صارت مستعملة بين الكتاب في المكاتبات الدائرة بين أهل الدولة في زماننا ؛ ثم رُفِضَتْ بعد ذلك وتركت حتى لم يستعملها منهم إلا القليل النادر .

الأسلوب الخامس عشر

(أن يفتح الكتاب بلفظ الخِلافة أو المَقَام الذي شأنه كذا ،

أو الإمارة التي شأنها كذا)

مثل : « خلافة فلان » أو « مقام فلان » أو « إمارة فلان » وما أشبه ذلك . ثم يقع التخلُّص في ذلك بمثل : « معظّم مقامها يُخصّها بسلامِ صِفَتِهِ كذا ويبيدّى لعلمها كذا » وما أشبه ذلك . ويقع الاختتام فيها بالسلام ؛ وهذا الأسلوب مما آتخص به كتاب المغرب لاسيما المتأخرون منهم ، على ما سيأتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

قلت : ووراء هذه الأساليب أساليب أخرى لكتاب أهل الشرق والغرب بالديار المصرية في الأزمنة المتقدمة ، لا يأخذها حصر ، ولا تدخل تحت حدّ ، وأكثر ما تكون في الإخوانيات ، وسيأتى ذكر الكثير من أنواعها في مواضعه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات إلى أهل الكُفر ، وللكُتاب فيه أُسلوبان)

الأُسلوب الأول

(أن تُفتَح المكاتبة بلفظ « من فلان إلى فلان »)

وعلى ذلك كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكُفر ، وكان يُكتب في مكاتباته صلى الله عليه وسلم : « السلام على من أتبع الهدى » بدل « والسلام » ويتخلص فيها بأما بعد تارة ، وبغيرها أخرى ؛ وعلى ذلك جرى الخلفاء من الصحابة رضي الله عنهم ، وخلفاء بني أمية ، وخلفاء بني العباس ببغداد ، ومن شاركهم في الأمر من ملوك بني بويه وبني سنجوق ومن في معناهم . وتُختَم هذه المكاتبة تارة بلفظ « والسلام على من أتبع الهدى » إن لم يذكر السلام في الأول ، وتارة بغير ذلك .

الاسلوب الثاني

(أن تُفتَح المكاتبة بالدعاء)

كما يكتبُ كُتاب الزمان « أطال الله بقاء الحضرة الفلانية : حضرة المليك الفلاني » أو « أطال الله بقاء المليك الفلاني » وما أشبه ذلك . وقد تقدّم الخلاف في أصل جواز المكاتبة بالدعاء ، وما قيل في الدعاء بطول البقاء وما في معناه : من الكراهة ، وأن جماعة من العلماء والكُتاب أجازوه .

فإن قيل : على تقدير جواز ذلك في حق المسلم ، فكيف يجوز في حق الكافر . فالجواب أنه قد ورد « أن النبي صلى الله عليه وسلم استسقى فسقاه يهودي »

فقال له : جَمَلَكَ اللهُ ، فما رُؤِيَ الشَّيْبُ فِي وَجْهِهِ حَتَّى مَاتَ » فقد دعا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليهودىٍّ بِالْجَمَالِ ، وقد لَا يَكُونُ فِي طَوْلِ بَقَائِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ ضَرَرٌ ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ نَفْعٌ ، كَحَمْلِ حِزْبِيَّةٍ وَنَحْوِهِ ، وَإِنَّمَا يُمْنَعُ الدَّعَاءُ لَهُ بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

تنبيه — اعلم أن الأجوبة قد تُفْتَحَ بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْإِبْتِدَاءُ مِنَ الْأَسَالِبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْأَجُوبَةِ فِي أَثْنَائِهَا مِثْلُ أَنْ يَقَالَ : « وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُ الْمَجْلِسِ أَوْ الْجَنَابِ » أَوْ « وَرَدَتْ مَكَاتِبُهُ » أَوْ « عُرِضَتْ مَكَاتِبُهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيفَةِ » وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَقَدْ يُجْعَلُ الْجَوَابُ إِبْتِدَاءً ، فَيُفْتَحَ الْكِتَابُ بِنَحْوِ : « عُرِضَتْ مَكَاتِبُكَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » مِثْلًا كَمَا كَانَ يَكْتُبُ فِي الزَّمَنِ الْمُتَقَدِّمِ ، أَوْ « عُرِضَتْ الْمَكَاتِبُ الْوَاصِلَةُ مِنْ جِهَةِ الْمَجْلِسِ أَوْ الْجَنَابِ الْفُلَانِي عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيفَةِ » أَوْ « وَرَدَتْ مَكَاتِبُهُ » أَوْ « وَصَلَتْ مَكَاتِبُهُ » وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَيُؤْتَى عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ الْمَكَاتِبُ وَمَا أَقْتَضَاهُ الْجَوَابُ عَنْهُ ؛ ثُمَّ يُؤْتَى فِي الْإِخْتِتامِ بِنَظِيرِ مَا يُؤْتَى بِهِ فِي الْمَكَاتِبِ الْمُبْتَدَأَةِ .

الطرف الثاني

(فِي ذِكْرِ لَوَاحِقِ الْمَكَاتِبَاتِ وَلَوَازِمِهَا ، وَفِيهِ سِتُّ جُمُلٍ)

الجملة الأولى

(فِي التَّرْجُمَةِ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ)

أما التَّرْجُمَةُ عَنِ السُّلْطَانِ ، فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ شَيْثٍ أَنَّ مُصْطَلَحَ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ أَنْ يَكْتُبَ لِأَرْبَابِ خِدْمَتِهِ الْعَلَامَةَ فَإِنَّمَا أُلِيَقَ بِهِ مَعَهُمْ . فَإِنْ أَرَادَ تَمْيِيزَ أَحَدِهِمْ مِنْهُمْ ، كَتَبَ لَهُ بِخَطِّهِ شَيْئًا مَكَانَ الْعَلَامَةِ ؛ وَأَنْ تَرْجُمَتَهُ لِلْفُقَهَاءِ وَالْقُضَاةِ وَذَوِي التَّنَسُّكِ « أَخُوهُ »

و «ولده» . وذكر أن الأحسن أن يقال في «ولده» « محل ولده » لقوله تعالى :
 ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أما «أخوه» فلا حرج عليه فيه : لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾
 وقوله : ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وذكر أنه يترجم لهؤلاء من ولي الأمر أيضا :
 «المعترف ببركته» و «المُتبرك بدعائه» و «المرتبن بمودته» . وذكر أن الفقهاء
 والقضاة وذوى التنسك يترجمون عن أنفسهم بـ «الخادم» ودون ذلك «خادمه» .

قال : وربما ترفعوا عن الترجمة بهذه اللفظة مطلقا فقالوا : « الخادِمُ بالدعاء
 الصالح » أو « الخادِمُ بدعائه » . قال : وأهل الورع خاصة يترجمون بـ «الفقير إلى
 رحمة الله» . وربما راعوا المترجم له مثل أن يكون ولي الأمر ، فيقول : «العبد
 الفقير إلى رحمة الله» ويعنى أنه عبد الله ، ويحصل بذلك المقصود من الأدب مع
 السلطان . ومنهم من يكتب : «الداعي لدولته» و «المبتل بدعائه الصالح لأيامه»
 و «المواظب على خدمته بالدعاء» وأمثال ذلك . قال : وأكثر الناس يرى الترجمة
 لولده ، فإن ترجم له لم يسم اسمه لأنه ليس له والدان ، ولا أقل من أن يكون بينه
 وبين من يكتب بوالده غير الأب هذا الفرق ؛ فأما أن يقول : «والده فلان بن
 فلان» بحيث يذكر اسم أبيه فقيح . ثم قد كانوا في الزمن الأول يكتفون بذكر اسم
 المكتوب عنه في صدر الكتاب وعنوانه ، نحو : « من فلان إلى فلان » ثم أحدث
 الكتاب في أيام بنى بويه وما بعدها تراجم ربوها ، بعضها أرفع من بعض .

وقد ذكر في «ذخيرة الكتاب» لذلك مراتب في الصدور والعنوان بعضها أعلى
 من بعض ، فجعل أعلاها بالنسبة إلى المكتوب عنه أن يكتب اسمه ، ودونه
 « صديقه » ودونه « محبه » ودونه « شاكره » ودونه « المعتد به » ودونه « أخوه »
 ودونه « وليه » ودونه « عبده » ودونه « خادمه » ودونه « عبده وخادمه » ودونه

«العبد» ودونه «العبد الخادم» ودونه «الصنيعة» ودونه «مملوكه» ودونه «المملوك» ودونه «المملوك الصنيعة». وهو الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . ثم قال : ويتفرع من هذه الأصول فروع كثيرة لا تحصر مما يختاره الكتاب ويقترحونه ويتكرونها ، ويكتبون به أصدقاؤهم وأوداءهم حسب ما تقتضيه موداتهم وتوجيه مصافاتهم : كصفي مودته ، والمفتخر بمحبته ، والمعتمد على أخوته ؛ وعبد مودته ، وخادم مجده ، وشاكر أياديه ، وحامد تفضله ، والمعتد بتطوله وما يجري هذا المجرى مما هو أوسع من أن يجمع وأكثر من أن يحصر ؛ ولكنه أكثر ما يكون بين النظراء والأقران .

ورتب عبد الرحيم بن شيث في "معالم الكتابة" ترتيباً آخر : فذكر أن الترجمة إلى ديوان الخلافة من ذوى الولايات كلهم «العبد» ومن الملوك كلهم «الخادم» وأن الترجمة إلى الملوك من الأجناد كلهم «المملوك» مع النسبة إلى أشهر ألقاب الملك : كالناصر للناصر ، والعالى للعال ، وما جرى مجرى ذلك . ودون المملوك في الخضوع : «عبد» ، وخادمه «ودونه» «العبد» مفردة . ودونه «مملوكه» ودونه «العبد الخادم» لأن الثانى كأنه ناسخ للأول ؛ ودونه «الخادم» ودونه «عبد» ودونه «خادمه» ودونه «عبد وأخوه» ودونه «أخوه» ودونه «شاكر تفضله» ودونه «شاكر إحسانه» ودونه «شاكر مودته» ودونه «وليّه وصفيّه» ودونه «محبّه وواده وشاكره» . ودونه الاسم ، ودونه العلامة .

ثم قال : أما «أصغر الممالك» وما يجري مجراها ، فلا يليق من الأجانب . ورأيت في دستور صغير في المكاتبات يعزى للقر الشهابى بن فضل الله ، أن أكبر الآداب في أسم المكتوب عنه بالنسبة إلى المكتوب إليه «المملوك» ثم «المملوك الرق» ثم «المملوك الأصغر» ثم «المملوك المحب» ثم «المملوك الداعى» ثم «مملوكه ومحبه» ثم «الخادم»

ثم «خادمه» ثم «أخوه» ثم «مُحبّه» ثم «شاكركه» ثم «الفقيرُ إلى الله تعالى» .
ولا يخفى ما في بعض هذه التراجم من التخالف بين ما ذكره وما تقدم ذكره عن
«ذخيرة الكُتّاب» .

والذي استقر عليه الحال في زماننا في ترجمة العلامة بالقلم الشريف السلطاني
«أخوه» ثم «والده» ثم الأسم؛ وفي حق غيره «المملوك» ثم الأسم . وربما كتب
بعضهم «العبد» بدل الأسم تواضعا . على أنهم قد اختلفوا في جواز الترجمة بالعبد
والمملوك : فذهب بعضهم إلى منع ذلك ، محتجا بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلَا أَمَتِي ، كُلُّكُمْ عِبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ
وَلَكِنْ غُلَامِي وَجَارِيتِي » . والذي عليه العمل جواز ذلك احتجاجا بقوله تعالى :
(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) والاستدلال به لا يخلو من نزاع ؛
وقضاة القضاة يكتبون «الداعي» .

الجملة الثانية

(في العُنوان ، وفيه سبع لغات)

حكّاها صاحب «ذخيرة الكُتّاب» . واقتصر في «صناعة الكُتّاب» على ذكر
بعضها : إحداها عُنوان - بضم العين وواو بعد النون . والثانية عُنيان - بضم العين
وياء تحتيّة بعد الثون . والثالثة عُنيان - بكسر العين . والرابعة علوان - بضم العين
ولام بدل النون . والخامسة علوان - بفتحها . والسادسة علوان - بكسرها .
والسابعة علّيان بالكسر مع إبدال الواو ياء ؛ ويجمع عُنوان على عَنَوينَ ، وعُنوان
على علاوينَ . ويقال : عَنَوْتُ الكُتّابَ عَنُونَهُ وَعَلَوْتُهُ عَلُونَهُ ، وَعَنَنْتُهُ بَنَوْنِ الأُولَى

منهما مشددة تَعْنِينَا، وَعَيْنَيْهِ بنون مشددة بعدها ياء تَعْنِيَّةٌ، وَعَوْنُهُ أَعْنُوهُ عَنُوا بفتح العين وسكون النون، وَعُنُوا بضمهما وتشديد الواو .

وَأَخْتَلَفَ فِي أَشْتِقَاقِهِ : فَمَنْ قَالَ عُنْوَانٌ، جَعَلَهُ مَأْخُودًا مِنَ الْعُنْوَانِ بِمَعْنَى الْأَثَرِ، لِأَنَّ عُنْوَانَ الْكِتَابِ [أَثَرِيَّانٌ] ^(١) مَنْ هُوَ إِلَى مَنْ هُوَ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَأَكْثَرُ الْكُتَّابِ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ هَذَا ؛ وَأَحْتَجُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ يَذْكُرُ قَتْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « عُمَانَ بْنِ عُمَانَ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

صَحُّوا بِأَسْمَاطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ * يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْيِيحًا وَقُرْءَانَا

وَزَعِمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعُنْوَانَ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : عَنَتِ الْأَرْضُ تَعْنُو إِذَا أَنْجَرَتْ النَّبَاتَ، وَأَعْنَاهَا الْمَطَرُ إِذَا أَظْهَرَ نَبَاتَهَا . قَالَ النَّحَّاسُ : فَيَكُونُ عُنْوَانٌ عَلَى هَذَا فُعْلَانًا يَنْصَرِفُ فِي النَّكِرَةِ وَلَا يَنْصَرِفُ فِي الْمَعْرِفَةِ . وَقِيلَ هُوَ مَأْخُودٌ مِنْ عَنْ يَعْنُ، إِذَا عَرَضَ وَبَدَأ . قَالَ النَّحَّاسُ : فَعِلٌ هَذَا يَنْصَرِفُ فِي النَّكِرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُ فُعْلَالٌ .

وَمَنْ قَالَ : عُلوَانٌ ، أَبْدَلَ مِنَ النُّونِ لَامًا ، كَمَا فِي صَيْدَلَانِي وَصَيْدَنَانِي ؛ فَيَكُونُ الْأَشْتِقَاقُ وَاحِدًا . وَقِيلَ عُلوَانٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَانِيَّةِ، لِأَنَّهُ خَطٌّ ظَاهِرٌ عَلَى الْكِتَابِ .

وَمَنْ قَالَ : عُثْيَانٌ وَعِثْيَانٌ، جَعَلَهُ مِنْ عَثَيْتِ فَلَانًا بِكَذَا إِذَا قَصَدْتَهُ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : وَالْعُنْوَانُ كَالْعَلَامَةِ، وَهُوَ دَالٌّ عَلَى مَرْتَبَةِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ . وَالْأَصْلُ ^(٢) فِيهِ الْإِخْبَارُ عَنْ أَسْمِهِمَا حَتَّى لَا يَكُونَ الْكِتَابُ مَجْهُولًا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَكْتُبُ فِيهِ « مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ » أَوْ « لِفُلَانٍ مِنْ فُلَانٍ » قَالَ : وَلَمْ يَزَالُوا يَكْتَابُونَ بِأَسْمَائِهِمْ إِلَى أَنْ وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخِلَافَةَ وَلُقِّبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) الزيادة من الضوء للؤلؤ ص ٤٤١ .

(٢) عبارة الضوء والمعنى فيه وهو مراده بما هنا .

فكتب : « من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . ثم وقع الاصطلاح على العنونة للرؤساء والنظرء والمرؤوسين والأتباع بالأسماء ؛ ثم تغير هذا الرسم أيضا .

وكان المأمون يكتب في أول عنوانات كتبه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكانت تكتب قبل اسم المكتوب إليه والمكتوب عنه . وقد ذكر أبو جعفر النحاس أن ذلك بقي إلى زمانه ، وكان بعد الثلاثمائة . قال في « مواد البيان » : ثم بطل بعد ذلك . قال : والأصل فيه أن يُبتدأ باسم المكتوب عنه ثم باسم المكتوب إليه وهو الترتيب الذي تشهد به العقول : لأن نفوذ الكتاب من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه كمنشئ الشيء وخروجه من ابتداء إلى نهاية . فابتدأه من المكتوب عنه ، وآتمهاؤه إلى المكتوب إليه ؛ ولفظ « من » يتقدم لفظ « إلى » بالطبع : لأن حرف « من » ينبئ عن منشئ الشيء ، و « إلى » حرف يُخبر عن النهاية التي عندها قرار الشيء ؛ والإبتدآت في الأشياء قبل النهايات .

قال : وعلى هذا كانت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سلف من الأئم الماضية ؛ ثم عرّض للناس رأى في تغيير هذا الرسم إلى غيره ، ففرّقوا بين مراتب المكاتب من الرؤساء والعظماء والخدم والأتباع بتقديم اسم المكتوب إليه إذا قصدوا إعظامه وإجلاله وتأخير اسم المكتوب عنه ، وراؤا أنه الصواب الصحيح . على أن كتاب زماننا يقتضون في أكثر عنواناتهم على ذكر المكتوب إليه دون المكتوب عنه ولا يذكرون المكتوب عنه إلا في مكاتبات خاصة قليلة . قال في « صناعة الكتاب » : ولا يتكنى المكتوب عنه على نظيره ، بل يتسمى له ولن فوقه ، ثم يقول : المعروف بأبي فلان . وإن كانت كنيته أشهر من اسمه واسم

(١) أبیه ، جاز أن یکتب کینته بغير ألف ویجرىها مجرى الأسم . قال النحاس : وإن کان الکتاب إلى اثنين أحدهما أكبر من الآخر ، فيقدم الأكبر ، وكذلك لو کان إلى ثلاثة . قال أبو جعفر النحاس : وقد استحسن جماعة أن یصغر اسم المكتوب عنه على عنوانات الكتب ، ورأوا أن ذلك تواضع . وما ذكره هو المستعمل في المكاتبات الجارية عليه حکم الدواوين إلى زماننا . والأصل في ذلك ما ذكره النحاس أن الحاج ابن يوسف كتب إلى عبد الملك بن مروان وهو خليفة في طومار : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين » ثم كتب في طرته بقلم ضئيل : من الحاج بن يوسف ، فجرى الكتاب على أسلوبه فيما بعد .

قال في " معالم الكتابة " : ولا يكثر النعوت ولا الدعاء على العنوان للسلطان ولا للكبراء ، أما من الأعلى إلى الأدنى فحسن . وقد تقدم في مقدمة الكتاب أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذي يعنون الكتب السلطانية ، وأنها كانت لا تعنون قبل كتابة السلطان عليها علامته ؛ والذي استقر عليه الحال في كتب السلطان وما في معناها من المشتملة على الألقاب أن تكتب الألقاب في العنوان ، ويدعى فيها بدعوة واحدة وهي المفتتح بها المكاتبه .

(١) عبارة الضوء « جاز أن يكتب كينته ويجرىها ... الخ » وهي واضحة ولكن قد ورد في مسالك الأبصار في كتاب اقطاع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تميم الداري وذكره المؤلف فيما تقدم أن الكنية فيه بغير ألف ونص على ذلك ، فلعل مراده أن الكنية في هذه الكتب تكتب بغير ألف فيقال في أبي بكر بوبكر .

(٢) لأن ذلك يؤذن بتشريف المكتوب إليه كما تقدم .

الجملة الثالثة

(في طى الكتاب وختمه)

أما طيه فمعروف ، وهو أن يُلفَّ بعضُه على بعض لَفًّا خاصًّا . والطّي في اللغة خلافُ النَّشرِ ؛ ويقال : طوى الكتاب يطويه طيًا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ . والترتيب في ذلك أن تكون الكتابة إلى داخل الكتاب : لأن المقصودُ صَوْنُ المكتوبِ فيه .

ثم للناس في صورة الطّي طريقتان :

الطريقة الأولى - أن يكون لفه مُدَوَّرًا كأنبوبة الرَّخ ، وهى طريقة كُتَّاب الشرق من قديم الزمان وإلى الآن .

والطريقة الثانية - أن يكون طيه مبسوطا في قَدَرٍ عَرِضٍ أربعة أصابع مطبوعة ، وعلى ذلك كان الحال جاريا في الدولة الأيوبية بالديار المصرية . فقد ذكر عبد الرحيم ابن شيث من كُتَّاب دولتهم : أن طى الكُتُب السلطانية يكون عَرِضُ أربعة أصابع ، وكذلك من العليّة إلى دُونِهِمْ ، أما الكُتَاب من الأدنى إلى الأعلى فلا يُجَاوِزُ به عَرِضُ إصبعين ، وهذا ظاهر في أن الطّي يكون عَمِيضا لَمُدَوَّرًا ، وهى طريقة أهل المغرب والروم والفرنج .



وأما ختمه ، فالتختم مصدر تختم ، يقال : ختم الكتاب يَخْتِمُهُ خَتْمًا ، ومعناه الطَّبْعُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ والمراد شدُّ رأس الكتاب والطبْع عليه بالخاتم ، حتّى لا يطلّع أحدٌ على ما فى باطنه حتّى يُفَضَّه المكتوبُ إليه ، على ما سياتى ذكره إن شاء الله تعالى . وهو أمر مطلوبٌ مُرَغَّبٌ فيه ، فن كلام عمر

رضى الله عنه : « طِبْنَةُ خَيْرٌ مِنْ طِنَّةٍ » يعنى أَنَّ خَتَمَ الْكِتَابِ بَطِينَةٌ خَيْرٌ مِنْ طِنَّةٍ تَقَعُ فِي الْكِتَابِ بِالنَّظَرِ فِيهِ أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ تَقْصُصٍ ، وَالطِّبْنَةُ التَّهْمَةُ . وَمِنْ كَلَامٍ غَيْرِهِ : « اخْتِمَ تَسْلِمٌ » . وَمِنْ كَلَامٍ غَيْرِهِ : « إِنْ طَيَّنْتَ وَإِلَّا وَقَعْتَ » يعنى إِنْ طَيَّنْتَ الْكِتَابَ وَإِلَّا وَقَعْتَ فِي الْمَحْذُورِ . وَيُقَالُ : إِنْ فِي خَتَمِ الْكِتَابِ تَعْظِيماً لِلْكِتُوبِ إِلَيْهِ . قَالَ بَزْرَجُ جَهْرَ أَحَدِ مَلُوكِ الْفُرْسِ : مَنْ لَمْ يَخْتِمِ كِتَابًا فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِصَاحِبِهِ ، وَجُهِلَ فِي رَأْيِهِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ أَوَّلَ مِنْ خَتَمِ الْكِتَابِ سَلِيَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بَلْقَيْسَ : « إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ » بِأَنَّهُ مَخْتُومٌ . وَعَلَى نَهْجِهِ فِي ذَلِكَ جَرَتْ مَلُوكُ الْعَجَمِ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : وَلَمْ تَزَلْ كَتَبُ الْعَرَبُ مَنْشُورَةً حَتَّى كَتَبَ عُمَرُ بْنُ هَنْدٍ الصَّحِيفَةَ إِلَى الْمُتَمَلِّسِ ، فَقَرَأَهَا وَلَمْ يُوصِّلَهَا ، فَخَتَمَتِ الْعَرَبُ الْكِتَابَ مِنْ حِينَئِذٍ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى بَعْضِ الْعَجَمِ فَقِيلَ لَهُ يَارَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا غَيْرَ مَخْتُومٍ ، فَأَمَرَ أَنْ يُتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ حَدِيدٌ ، فَوَضَعَهُ فِي إصْبَعِهِ ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ انْبِذْهُ مِنْ إصْبَعِكَ ، فَنَبَذَهُ وَأَمَرَ أَنْ يُتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ نَحَاسٍ فَوَضَعَهُ فِي إصْبَعِهِ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ انْبِذْهُ مِنْ إصْبَعِكَ فَنَبَذَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ ، فَأَتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ مِنْ فِضَّةٍ نَفَخَمَ بِهِ ، وَكَتَبَ إِلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ مِنَ الْأَعَاجِمِ ، وَنُقِشَ عَلَيْهِ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » ثَلَاثَةٌ أَسْطُرٌ ، وَكَانَ الْخَاتَمُ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ تَخَتَّمَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قُبِضَ ، ثُمَّ نَفَخَمَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قُتِلَ ، ثُمَّ تَخَتَّمَّ بِهِ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى بَيْتِ أَرَيْسٍ مِنْ بَنَاتِ الْمَدِينَةِ ، إِذْ عَثَتْ بِالْخَاتَمِ فَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ ، فَتَرَخَّ كُلُّ مَا كَانَ فِي الْبَيْتِ

(١) قَالَ فِي "إِرْشَادِ السَّارِي" شَرْحَ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ج ٨ ص ٣٦٢ لَا يَنْصَرَفُ عَلَى الْأَصْحِ . وَتَقُلُ صَاحِبُ "تَاجِ الْعُرُوسِ" عَنْ أَبِي مَالِكٍ جَوَازَ صَرْفِهِ . وَقَالَ أَبُو فَرَّاسٍ الْهَمَزِيُّ وَالرَّاءُ وَالسِّينُ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً .

من الماء فلم يُوجد ، فلما يئس منه أمر أن يُصاغ له خاتمٌ مثله وينقش عليه
 «مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» ففعل ذلك وتحمم به . هكذا أورده صاحب «ذخيرة الكتاب»
 وبعضه في الصحيح . وقيل : إن نقش الخاتم الذي آتخذه كان « آمَنْتُ بِاللَّهِ
 خَلَقَ قَسَوِي » . وقيل : كان نقشه «لَتَصْبِرَنَّ أَوْ لَتَدَمَنَّ» .

ثم كان لكل من الخلفاء بعد عثمان رضى الله عنه خاتمٌ يختم به ، عليه نقشٌ
 مخصوص : فكان نقشُ خاتم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه
 «الْمَلِكُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارُ» ونقش خاتم ابنه الحسن «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ»
 ونقش خاتم معاوية بن أبي سفيان «لِكُلِّ عَمَلٍ ثَوَابٌ» وقيل : «لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»
 ونقش خاتم يزيد بن معاوية «رَبَّنَا اللَّهُ» ونقش خاتم معاوية بن يزيد «الدُّنْيَا غُرُورٌ»
 ونقش خاتم مروان بن الحكم «اللَّهُ نَفَقَتِي وَرَجَائِي» ونقش خاتم عبد الملك بن مروان ،
 «آمَنْتُ بِاللَّهِ مُخْلِصًا» ونقش خاتم الوليد بن عبد الملك «يَا وَلِيدُ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَمَحَاسَبٌ!»
 ونقش خاتم عمر بن عبد العزيز «عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» ونقش خاتم يزيد بن
 عبد الملك «فِي السَّيِّئَاتِ يَاعَزِيزُ» ونقش خاتم هشام بن عبد الملك «الْحُكْمُ لِلَّهِ
 الْحَكِيمِ» ونقش خاتم الوليد بن يزيد «يَا وَلِيدُ أَحْذِرِ الْمَوْتَ» ونقش خاتم يزيد بن
 الوليد «يَا يَزِيدُ قُمْ بِالْحَقِّ» ونقش خاتم إبراهيم بن الوليد «تَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الْقَيُّومِ»
 ونقش خاتم مروان بن محمد «أَذْكُرُ اللَّهَ يَا غَافِلُ» .

وكان نقش خاتم السفاح : أَوَّلِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ «اللَّهُ ثِقَةُ عَبْدِ اللَّهِ» ونقش خاتم
 المهدي^(١) «حَسْبِيَ اللَّهُ» ونقش خاتم الرشيد «العِظَمَةُ وَالْقُدْرَةُ لِلَّهِ» . وقيل :
 «وَكُنْ مِنْ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ» ونقش خاتم الأمين «مُحَمَّدٌ وَاثِقٌ بِاللَّهِ» ونقش خاتم المأمون

(١) لم يذكر نقش خاتمي المنصور والهادي .

”سَلِ اللَّهَ يُعْطِكَ“ ونقش خاتم المعتصم ”اللَّهُ ثِقَةُ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ الرَّشِيدِ وَبِهِ يُؤْمِنُ“
 ونقش خاتم الواثق ”اللَّهُ ثِقَةُ الْوَائِقِ“ ونقش خاتم المتوكل ”عَلَى الْحَيِّ أَتَّكَلَى“
 ونقش خاتم المنتصر ”يُؤْتِي الْحَدْرُ مِنْ مَأْمِنِهِ“ ونقش خاتم المستعين ”فِي الْإِعْتِبَارِ
 غَنَاءٌ عَنِ الْإِخْتِبَارِ“ ونقش خاتم المعتر ”الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ“
 ونقش خاتم المهتدى ”مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ“ ونقش خاتم المعتمد
 ”السَّعِيدُ مِنْ وَعِظَ بغيره“ ونقش خاتم المعتضد ”الْإِضْطِرَارُ يُزِيلُ الْإِخْتِيَارَ“ ونقش
 خاتم المكتفى ”بِاللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ يَثِقُ“ ونقش خاتم المقتدر بالله ”الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ“ ونقش خاتم القاهرة ”مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ“ ونقش خاتم المتقي ”الْمُتَّقَى اللَّهُ“ كلقبه للخلافة، ونقش خاتم المستكفي
 ”الْمُسْتَكْفَى بِاللَّهِ يَثِقُ“ ولم أقف على نقش خاتم أحد من الخلفاء غير هؤلاء .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِلْخَتَمِ فِي أَيَّامِ الْخُلَفَاءِ دِيْوَانٌ مُفْرَدٌ يَعْبُرُ عَنْهُ بَدِيْوَانُ الْخَاتَمِ .
 وَقَدْ ائْتَمَرْتُ فِي أَوَّلِ مَنْ ائْتَمَدَ دِيْوَانُ الْخَاتَمِ : فَرَوَيْ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْمَدَائِنِيِّ فِي كِتَابِ
 ”الْقَلَمِ وَالِدَوَاةِ“ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عَمْرُ
 يَلْبَسُونَ خَوَاتِمَ وَلَا يَطْبَعُونَ كِتَابًا ، حَتَّى كَتَبَ زِيَادُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ إِلَى عَمْرِو بْنِ
 الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّكَ تَكْتُبُ إِلَيْنَا بِأَشْيَاءَ لَيْسَتْ لَهَا طَوَائِعُ ، فَاتَّخَذَ عِنْدَ
 ذَلِكَ عَمْرُ طَابِعًا يَطْبَعُ بِهِ ، وَنَحَزَمَ الْكُتَّابَ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلُ يُنَحَزَمُ .

وَمُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ أَوَّلُ مَنْ ائْتَمَدَ الْخَتَمَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،
 وَيَكُونَ لِبَسُّهُ خَاتَمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغير الختم . وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ :
 أَنَّ أَوَّلَ مَنْ ائْتَمَدَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ فِي خِلَافَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَ لِعَمْرِو بْنِ

الزبير بمائة ألف من عند زياد، ففتح الكتاب وجعل المائة مائتين؛ فلما رفع زيادُ حسابه أنكر ذلك معاوية؛ وطلب عمرًا فحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله ابن الزبير واتخذ معاوية حينئذ ديوان الختم، ونحرم الكتاب ولم يكن قبل يُحرم. قال القاضي «ولي الدين بن خلدون» في تاريخه: وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على إنفاذ كتب السلطان. قال: وهذا الخاتم خاص بديوان الرسائل، وكان ذلك للوزير في أيام الدولة العباسية. ويشهد لذلك قول الرشيد ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفرًا، ويستبدل به من الفضل أخيه: إني أحول الخاتم من يميني إلى شمالي، فكفى بالخاتم عن الوزارة، لأنضمام ديوان الرسائل إلى الوزير إذ ذاك. ثم اختلف العرف بعد ذلك، فصار ليس إليه الرسائل في الدولة.

ثم الختم ثلاث صور:

الصورة الأولى — أن يُلصق رأس الكتاب بنوع من أنواع اللصاق، كالكمثرى المدافاة بالماء، والنش المطبوع ونحو ذلك. وهذا هو المستعمل بالديار المصرية وبلاد المشرق من قديم الزمان وهلم جرا إلى زماننا؛ والمستعمل بالدواوين هو النش دون غيره، لنصاعة بياضه وشدة لصاقه. قال في «مواد البيان»: ويجب أن يكون اللصاق خفيفا كالدهن لئلا يتكسر ويكثف في جانب الورق. وقد كانت عاداتهم في بلاد المشرق أيام الخلفاء أن يُختم بخاتم الخليفة، بأن يُغرس في طين معد لذلك أحمر الصبغ، ويختم به على طرفي اللصاق، ليقوم مقام علامة الخليفة. وكان هذا الطين يجلب إليهم من سيراك من بلاد فارس، وكأنه مخصوص بها؛ وعلى نهج الخلفاء جرى الملوك حينئذ. والذي استقر عليه الحال الآن بالديار المصرية ونحوها من البلاد الشرقية الاقتصار على مجزء اللصاق أكتفاء بما فيه من الضبط وظهور

فَضَّهُ إِنْ فُضَّ . وهذه المسئلة مما سألها الشيخ جمال الدين بن نباتة كُتَّاب ديوان الإنشاء بدمشق مخاطبا به للشيخ جمال الدين محمود الحلبي - فقال : ومن ختم الكتاب بالطين وربطه ؟ ومن غير الطين إلى النشا وضبطه ؟ . وقد سبق الكلام في النشا وسائر أنواع اللصاق في الكلام على آلات الدواة في المقالة الأولى .

الصورة الثانية - أن يُخَزَم الكُتَّابُ من وَسَطِهِ بالأشعار حتى تنفذ في بعض طَيَّاتِ الكُتَّابِ ثم تخرج من وجه الورق أيضا ، ويدخل فيه دَسْرَةٌ من الورق كالسَّيْرِ الصغير ويُقَطَّ طَرَفُ الدسرة ؛ ثم يُلصَقُ على ذلك بِشَمْعٍ أحمر ؛ ثم يُخْتَمُ عليه بخاتم يظهر نقشه فيه ، ويسمى هذا النوع من الختم الخَزْمَ - بالخاء والزاى المعجمتين - أخذًا من خَزَم البعير ، وهو أن يُثَقَّبَ أنفه ويجعل فيه خيط أو نحوه . ولعل هذه الطريقة من الختم هي التي كان عليها الحال حين أُحْدِثَ الختم في صَدْرِ الإسلام ، ويدل على ذلك قول ابن عمر رضي الله عنه في رواية الطبري المتقدمة : وَخَزَمَ الكُتَّابَ ولم يكن قَبْلَ يُخَزَم . وعلى هذا الآن أهل المغرب والروم والفرنج ومن في معناهم .

الصورة الثالثة - أن يلف على الكُتَّابِ بعد طَيِّهِ قِصَاصَةٌ من الورق كالسَّيْرِ في عرض رأس الخِنْصِرِ ، وتلف على الكُتَّابِ ثم يُلصَقُ رأسها ؛ ويكون ذلك في الرِّقَاعِ الصغيرة المترددة بين الإخوان ، وتسمى القِصَاصَةُ التي يُلصَقُ بها سَحَاءَةٌ - بفتح السين وبالمدة ، وتقال بكسر السين أيضا ، وربما قيل سَحَايَةٌ ؛ ويقال فيه : سَحَوْتُ الكُتَّابَ

(١) مراد المؤلف بالدرسة الدسار أي المسمار أو الخيط من الليف وجارى العامة في تعبيرهم عنه بالدرسرة .

(٢) الذي تقدم عن الطبري أن أول من اتخذ الختم والخزم معاوية وأما رواية ابن عمر التي تفيد أن أول من اتخذ الختم والخزم عمر فقد رواها محمد بن عمر المدائني في الكلام سهواً واشتباه .

أَسْعَوْهُ سَعَاً ، وَتَحَيَّتهُ بِالتَّشْدِيدِ أُسْحِيهٌ تَسْحِيَةٌ فَهُوَ مَسْحُوٌّ وَمَسْحَىٌّ وَمُسْحَىٌّ ؛ وَالْأَمْرُ مِنْ سَحَوْتُ الْتَّابَ أُسْحِ ، وَمِنْ تَحَيَّتهُ بِالتَّشْدِيدِ سَحَّ ، وَأَصْلُهُ مِنَ السَّحْوِ وَهُوَ الْقَشْرُ .
يَقَالُ : سَعَوْتُ اللَّحْمَ عَنِ الْعَظْمِ إِذَا قَشَرْتَهُ .

الجملة الرابعة

(فِي حَمْلِ الْكُتَابِ وَتَأْدِيتِهِ)

وهو من جملة الأمانات الداخلة في عموم قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : من أعظم الأمانة أداء الكتاب إلى أهله . قال محمد بن عمر المدائني : حمل الكتاب أمانة ، وترك إيصاله خيانة . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”مَنْ بَلَغَ كِتَابَ غَايٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَىٰ أَهْلِهِ أَوْ كِتَابَ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ وَأَعْطَاهُ اللَّهُ كِتَابَهُ بِمِثْلِهِ وَكَتَبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ“ . وقد نطق القراءان الكريم بتأدية الهدء كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ، حيث قال حكاية عن سليمان : (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) إلى أن قال : (قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم) .

وقد وردت الأحاديث بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث كُتَبَهُ مع رُسُلِهِ إلى الملوك : فبعثَ عبدَ الله بنَ حُذافَةَ إلى كِسْرَى أبْرُويز ملكِ الفرس ؛ وبعثَ دَحِيَّةَ الكلبيِّ إلى قَيْصَرَ ملكِ الروم ؛ وبعثَ حاطبَ بنَ أبي بلتَعَةَ إلى المُقَوِّسِ صاحبِ مصر ؛ وبعثَ عمرو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ إلى الضَّحَّاكِ ملكِ الحبشة ^(١) ؛ وبعثَ شُجَاعَ بنَ وهبِ الأَسَدِيَّ إلى الحارثِ بنِ أبي شمرِ الغَسَّانِي ؛ وبعثَ سَلِيطَ بنَ عمرو

إلى هُوَذَةَ بنِ عليٍّ صاحب اليمامة ؛ وبعث العلاء بن الحضرميَّ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ؛ وبعث عمرو بن العاص إلى عبيد وجيقر أبي الجُلندى ملكي عُمان .
قال ابن الجوزي : وبعث جرير بن عبد الله البجليُّ إلى ذى الكلاع الحميري .

وأعلم أنه يجب أن يكون حاملُ الكتاب المؤدَّى له عن الملك ونحوه وإفرا العقل ، شديدَ الشَّكِيمة في الجواب ، طالق اللسان في المحاورَة ، فإنه لسانُ ملكه ، وترجمانُ مُرسَله ، وربما سأله المكتوبُ إليه عن شيءٍ أو أورد عليه اعتراضًا فيكون بصدد إجابته . وقد قيل : إنه يُستَدلُّ على عقل الرجل بكتابه ورسوله . ومن غريب ما يُروى في ذلك ما ذكره ابنُ عبد الحَكَم : أن النبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم لما بعث حاطبَ ابنِ أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر ، وبلغه كتابُ النبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم ، قال له : مامنعه أن يدعُو عليَّ فيسلِّطَ عليَّ ؟ - قال له حاطبٌ : مامنع عيسى أن يدعُو عليَّ من أبي عليه أن يفعل ويفعل ؟ فوجم ساعة ثم استعادها ، فأعادها عليه حاطبٌ ، فسكت . ويُروى : أنه حين سأله عن أمر النبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم في حرب قومه ، وذكر له أنَّ الحربَ تكونُ بينهم سجالا : تارة له وتارة عليه ، قال له المقوقس : النبيُّ يغلب ! فقال له حاطب : فالإلهُ يُصلِّب ! - يشير بذلك إلى ما تزعمه النصرانيُّ من أن المسيح عليه السلام صُلب مع دعواهم فيه أنه إله .

وذكر السهيليُّ أن دحية الكلبيَّ حين دخل على قيصر بكتاب النبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم ، قال له دحية : هل تعلمُ أكان المسيحُ يُصلَّى ؟ قال نعم ، قال : فإنِّي أدعوك إلى مَنْ كان المسيحُ يُصلَّى له ، وأدعوك إلى مَنْ دبرَ خلقَ السموات والأرضِ والمسيحُ في بطن أمه . فالزمه من صلاة المسيح أنه عبدُ الله تعالى ، وضَمَّن ذلك بيتًا من أبيات له فقال :

(١) كذا في "المواهب اللدنية" أيضا . والذي في القاموس عبد الله .

فَقَرَّرْتُهُ بِصَلَاةِ الْمَسِيحِ ، * وَكَانَتْ مِنَ الْجَوْهَرِ الْأَحْمَرِ !

وَيُحْكِي أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ الرُّومِ كَتَبَ إِلَى خَلِيفَةِ زَمَانِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ مَنْ يَنَظُرُ عِلْمَاءَ النَّصْرَانِيَّةِ عِنْدَهُ فَإِنْ قَطَعَهُمْ أَسْلَمُوا؛ فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنُ الطَّيِّبِ الْمَالِكِيَّ، وَكَانَ مِنْ أُمَّةِ عِلْمَاءِ زَمَانِهِ؛ فَلَمَّا حَضَرَ الْمَجْلِسَ وَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ عِلْمَاءُ النَّصَارَى، قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : إِنَّ مَعْتَقِدَكُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ فِي الْفِرَاشِ ، وَقَدْ رُمِيَتْ عَائِشَةُ بِمَا رُمِيَتْ بِهِ : فَإِنْ كَانَ مَارُمِيَتْ بِهِ حَقًّا، كَانَ نَاقِضًا لِأَصْلِحِكُمُ الَّذِي أَصْلَحْتُمُوهُ فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْفِرَاشِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ حَقٍّ كَانَ مُؤْثَرًا فِي إِيْمَانِ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ . فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : أَمْرَانِ حَصِينَتَانِ رُمِيَتَا بِالْفِرْيَةِ ، إِحْدَاهُمَا لَهَا زَوْجٌ وَلَا وَلَدٌ لَهَا، وَالْأُخْرَى لَهَا وَلَدٌ وَلَا زَوْجٌ لَهَا - يُشِيرُ بِالْأُولَى إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَبِالثَّانِيَةِ إِلَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَسَجَدُوا لَهُ عَلَى عَادَةِ تَحِيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي لَا تُحْصَى كَثْرَةً .

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ مَتَمِّكًا مِنْ عَقْلِهِ ، عَالِمًا بِمَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ ، كَفَىٰ مَلِكَهُ مَثْوَنَةً غَيْبَتَهُ ، وَأَجَابَ عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ ؛ وَإِذَا كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ أَنْعَكَسَتْ الْقَضِيَّةُ ، وَرَجَعَ عَلَىٰ مُرْسَلِهِ بِالْوَبَالِ . ثُمَّ إِنْ أَقْتَضَىٰ رَأْيُ الْمَلِكِ زِيَادَةَ فِي الرِّسَالَةِ عَلَى الرَّسُولِ الْوَاحِدِ فَعَلَّ : لِيَتَعَاوَنَا عَلَىٰ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ ، وَيَتَشَاوَرَا فِيمَا يَفْعَلَانِ ، فَقَدْ ذَكَرَ السَّهْلِيُّ :^(١)
أَنَّ جَبْرًا مَوْلَىٰ أَبِي ذَرٍّ الْغَفَارِيَّ كَانَ رَسُولًا مَعَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ . وَإِنْ أَقْتَضَى الْحَالُ إِرْسَالَ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْنِ أَيْضًا فَعَلَّ ، فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْخَوْزَمِيِّ أَنَّ أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ بَعَثَ إِلَى قَيْصَرَ ثَلَاثَةَ رُسُلَ ، وَهُمْ : هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ ، وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ آخَرُ .

(١) فِي شَرْحِ الْمَوَاهِبِ الدِّينِيَّةِ ج ٣ ص ٣٩٨ عَنْ السَّهْلِيِّ مَا نَصَّهُ "مَوْلَى أَبِي رَهْمٍ الْغَفَارِيُّ وَهُوَ هَذَا الَّذِي فِي الْأَسْتِعَابِ وَالْإِصَابَةِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ جَبْرًا كَانَ مِنَ الْقَبْطِ وَأَنَّهُ رَسُولُ الْمُقَوْقِسِ بِمَارِيَةِ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" .

ومما يجب التنبيه عليه أنه يحرم على حامل الكتاب النظر فيه ، والأطلاع على ما تضمنه . قال محمد بن عمر المدائني : في فض الكتاب إثم وسوء أدب ، وساق بسنده إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطلع في كتاب أخيه بغير إذنه ، أطلعه طلعة في النار » .

الجملة الخامسة

(في فض الكتاب وقراءته)

أما فضه فالمراد فك ختمه وفتحه ، والفض في أصل اللغة الكسر والتفريق ، ومن الأول ما ثبت في الصحيح من قول القائلة لأبي عبيد الله في قصة الثلاثة الذين دعوا الله بأحب أعمالهم : « أتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه » تريد إزالة بكارتها . ومن الثاني « هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا » . وقد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الرسول أو البريدي الواصل إلى باب السلطان يقدمه الدوادار إلى السلطان ، ثم يتناول الكتاب منه ويمسح به وجهه من حضر على يده ، ثم يدفعه إلى السلطان فيفض ختامه ، ثم يتناوله الدوادار من السلطان ويدفعه إلى كاتب السر ، فيقرؤه على السلطان .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لَفْظَ الْكِتَابِ حَالَتَيْنِ :

الحالة الأولى - أن يكون مختوماً باللصاق بالنشأ على طريقة المشاركة وأهل الديار المصرية ، فيشق ظاهره على القرب من محل اللصاق بسكين ثم يفتح .

الحالة الثانية - أن يكون مخزوماً مسمراً بدسرة من الورق على عادة المغاربة ومن جرى مجراهم ، فيرفع الختم الملصق عليه من الشمع ، وتقطع الدسرة ويفتح الكتاب .



وأما قراءة الكتب فإنه يجب أن يكون من يقرأ الكتب على الملوك ومن في معانهم ماهراً في القراءة، فصيح اللسان في النطق، رقيق حاشية اللسان في حسن الإيراد، قوى الملكة في استخراج الخطوط المختلفة، سريع الفهم في إدراك المعاني الخفية؛ وأن تكون قراءته على رئيسه - من سلطان أو غيره - بحسب ما يؤثر ملكه أو أميره سماعه من السرعة والبطء؛ وأن يكون ذلك بصوت غير خفي بحيث يعسر سماعه، ولا مرتفع بحيث يعد صاحبه خارجاً عن أدب المخاطبة للأكابر؛ وأن يقرب لمن يقرأ عليه فهم المقاصد التي اعتصمت عليه إذا سأله عنها، أو غلب على ظنه أنها لم تصل إلى فهمه، بحسن إيراد، وتلطيف عبارة يحسن موقعها في النفوس ويجعل وقعها في الأذهان .

الجملة السادسة

(في كراهة طرح الكتاب بعد تخزيقه : وهو فضه ،

وحفظه بعد ذلك في الإضارة)

أما كراهة طرحه فقد قال محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة": كرهوا تخزيق الرسائل ورميها في الطرقات والمزابل، خوفاً على اسم الله تعالى أن يداس، أو تلاحقه النجاسة والأدناس . قال : وفي رفع ما طرح من الكتاب أعظم الرغائب وأجل الثواب؛ وساق بسنده إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من كتاب يلقي ببقعة من الأرض فيه

أَسْمُ من أسماء الله إِلَّا بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحْفَوْنَهُ بِأَجْنَحَتِهِمْ وَيَقْدُسُونَهُ ،
حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ إِلَيْهِ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ فَيَرْفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ . وَمَنْ رَفَعَ كِتَابًا مِنَ الْأَرْضِ
فِيهِ أَسْمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، رَفَعَ اللهُ أَسْمَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَخَفَّفَ عَنْ وَالدِيهِ الْعَذَابَ
وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ ” . وَيُرْوَى : ” مَنْ رَفَعَ قِرْطَاسًا مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مَكْتُوبٌ
« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » إِبْجَالًا لَهُ أَنْ يُدَاسَ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ وَشَفَّعَهُ فِي عِشْرِينَ
مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَ لَهُ النَّارُ ” .



وَأَمَّا حِفْظُهُ فِي الْإِضْبَارَةِ فَهُوَ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ ، وَالْإِضْبَارَةُ عِبَارَةٌ عَنْ وَرْقَةٍ تُلْفَ عَلَى
جَمَلَةٍ مِنَ الْكُتُبِ قَدْ جُمِعَتْ فِي دَاخِلِهَا وَيُلَصَّقُ طَرَفُهَا بِالنَّشَا . وَالْقَاعِدَةُ فِيهَا أَنْ
تُلَوَّى الْكِسْرَةُ مِنْ أَسْفَلِهَا ، وَإِنْ طَالَ بَعْضُهَا فِي طَيِّهِ وَقَصُرَ بَعْضُ جَعَلَ التَّفَاوُتُ
فِي الطُّوْلِ وَالْقِصَرِ مِنْ أَعْلَاهَا . قَالَ فِي ” صِنَاعَةِ الْكُتَّابِ ” : وَمَعْنَاهَا الْجَمْعُ ، لِأَنَّهَا
يُجْمَعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ . وَمِنْهُ قِيلَ : تَضَبَّرَ الْقَوْمُ إِذَا تَجَمَّعُوا ، وَرَجُلٌ مَضَبَّرَ الْخَلْقَ
أَيَّ مَجْتَمِعُهُ ، وَنَاقَةٌ مَضَبَّرَةٌ وَمَضْبُورَةٌ ، وَضَبَرَ الْفَرَسُ إِذَا جَمَعَ قَوَائِمَهُ وَوَثَبَ . وَيُقَالُ
لِلْإِضْبَارَةِ أَيْضًا إِضَامَةٌ بِكَسْرِ الِهِمَزَةِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ لَضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَالْمَعْنَى
فِيهَا صِيَانَةُ الْكُتُبِ وَحِفْظُهَا عَنِ الضَّيَاعِ . وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ كُتَّابِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ
بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ شَهْرِ إِضْبَارَةٌ تَجْمَعُ فِيهَا الْكُتُبُ الْوَارِدَةُ عَلَى أَبْوَابِ
السُّلْطَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهَا « شَهْرُ كَذَا » . وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ
فِي مَقْدَمَةِ الْكُتَّابِ أَنَّ الدِّيْوَانَ كَانَ لَهُ فِي زَمَنِ الْفَاتَمِيِّينَ كَاتِبٌ يَكْتُبُ الْكُتُبَ

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ وَالضُّوْءِ وَالَّذِي فِي أَمْهَاتِ اللُّغَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي مَادَّةِ ض م م « إِضَامَةٌ » أَيْ بِكَسْرِ
الِهِمَزَةِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ بَيْنَهُمَا أَلْفَ فَتْحَةٍ .

الواصلَة وَيُسْطَ عَلَيْهَا جَرَانْدَ ، كَمَا يَكْتُبُ الْكَتَبَ الصَّادِرَةَ عَنْ الْأَبْوَابِ السَّلْطَانِيَّةِ
وَيُسْطَ عَلَيْهَا جَرَانْدَ ؛ وَأَنْ ذَلِكَ بَطْلٌ فِي زَمَانِنَا وَصَارَ الْأَمْرُ قَاصِرًا فِيهَا عَلَى حِفْظِ
الْكَتَبِ فِي الْإِضْبَارَاتِ ؛ مَتَى أَحْتِيجَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْ كِتَابٍ مِنْهَا ، أُخِذَ بِالْحَدْسِ
أَنَّهُ وَرَدَ فِي السَّنَةِ الْفُلَانِيَّةِ ، وَتُكْشَفُ إِضْبَارَاتُهَا وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يَقَعَ الْعُثُورُ
عَلَيْهِ ، وَلَا خَفَاءَ فِيمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ لَهَا جَرَانْدٌ مَبْسُوطَةٌ ،
فَإِنَّهُ يَسْهُلُ الْكَشْفُ مِنْهَا ، وَيَسْتَدِلُّ بِتَارِيخِهِ عَلَى إِضْبَارَاتِهِ فَيُخْرِجُ وَيَقَعُ الْكَشْفُ
مِنْهَا ، وَلَكِنْ أَهْمَلُ ذَلِكَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَهْمَلُ .

الباب الثانى

من المقالة الرابعة

(فى مصطلحات المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب أهل الشرق والغرب
والديار المصرية فى كل زمن من صدر الإسلام
وهلمَّ جرًّا إلى زماننا، وفيه ستة فصول)

الفصل الأول

(فى الكُتُب الصادرة عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(فى ذكر ترتيب كُتُبهِ صلى الله عليه وسلم فى الرسائل على سبيل الإجمال)
كان صلى الله عليه وسلم يفتِّح أكثر كُتُبِهِ بلفظ « من محمد رسول الله إلى فلان »
وربما أفتتحها بلفظ « أما بعد » وربما أفتتحها بلفظ « هذا كتابٌ » وربما أفتتحها
بلفظ « سلم أنت » .

وكان يصرِّح فى الغالب بأسم المكتوب إليه فى أول المكاتبات، وربما اكتفى^(١)
بشهرته . فإن كان المكتوبُ إليه ملكًا كتب بعد ذكره اسمه « عَظِيم القوم الفلانيين »
وربما كتب « ملك القوم الفلانيين » وربما كتب « صاحب مملكة كذا » .

وكان يعبر عن نفسه صلى الله عليه وسلم فى أثناء كُتُبِهِ بلفظ الأفراد . مثل : « أنا »
و « لى » و « جاءنى » و « وفد على » وما أشبه ذلك ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل
« بلغنا » و « جاءنا » ونحو ذلك .

(١) أى بما أشهر به كالقبرص ونحوه .

وكان يخاطبُ المكتوبَ إليه عند الأفراد بكاف الخطاب . مثل : « لك »
و « عليك » وتاء المخاطب . مثل : « أنتَ قلتَ كذا وفعلتَ كذا » . وعند الثنية
بلفظها مثل : « أنتمَا » و « لكما » و « عليكما » . وعند الجمع بلفظه . مثل : « أنتم »
و « لكم » و « عليكم » وما أشبه ذلك .

وكان يأتي في صدور كُتُبِهِ بالسَّلام . فيقول في خطاب المسلم « سلامٌ عليك »
وربما قال : « السَّلامُ على مَنْ آمَنَ بالله ورسولِهِ » وفي خطاب الكافر : « سلامٌ
على مَنْ اتَّبَعَ الهدى » وربما أسقط السَّلامَ من صدر الكتاب .

وكان يأتي في صدور الكتب بالتحميد بعد السَّلام . فيقول : « فإني أحمدُ إليك
الله الذي لا إلهَ إلاَّ هو » وربما تركه ، وقد يأتي بعد التحميد بالتشهُد وقد لا يأتي به .

وكان يتخلَّص من صدر الكتاب إلى المقصود تارةً بأما بعد وتارةً بغيرها .

وكان يختمُ كُتُبَهُ بالسَّلام تارةً ، فيقول في خطاب المسلم : « والسَّلامُ عليك ورحمة
الله وبركاته » وربما اقتصر على السَّلام . ويقول في خطاب الكافر : « والسَّلامُ على
مَنْ اتَّبَعَ الهدى » وربما أسقط السَّلامَ من آخر كُتُبِهِ .



أما عنوانُهُ كُتُبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم أقفَ فيها على نصٍّ صريحٍ ، والذي يظهر
أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعَنِّونُ كُتُبَهُ بلفظ : « من محمد رسول الله إلى فلان »
على نحو ما في الصَّدر ، وتكون كتابته « من محمد رسول الله » عن يمين الكتاب ،
و « إلى فلان » عن يساره ، وعليه يدلُّ ما تقدَّم من كلام صاحب ” موادَّ البيان “
في الأصل الثاني عشر من أصول المكاتبات حيث ذكر في الكلام على العُنوان أن
الأصل أن يُبتدأَ باسم المكتوب عنه ويثنَّى باسم المكتوب إليه ، ثم قال : وعلى هذا
كانت كُتُبُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الطرف الثاني

(في كتبه صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام ،
وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن يفتتح الكتاب بلفظ « من محمد رسول الله إلى فلان »)

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ، في جواب كتابه إليه صلى
الله عليه وسلم بإسلام بنى الحارث وهو على ما ذكره ابن إسحاق في سيرته :

” من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد :

سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن كتابك
جاءني مع رسولك ، يُخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تُقاتلهم ، وأجابوا
إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن نبيهم عبده ورسوله ،
وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدكم ، والسلام
عليك ورحمة الله وبركاته .“



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين من جهة
الفرس ، في جواب كتابه إليه صلى الله عليه وسلم . ونسخته على ما ذكره الشيباني
في ”الروض الأنف“ :

”من محمد رسول الله إلى المُنذر بن سَأوى .

سَلامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي أَدَّكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنَّمَا يَنْصَحْ لِنَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِيعْ رُسُلِي وَيَتَّبِعْ أَمْرَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ نَصَحَ لَهُمْ فَقَدْ نَصَحَ لِي ، وَإِنْ رُسُلِي قَدْ أَتَوْا عَلَيْكَ خَيْرًا ، وَإِنِّي قَدْ شَفَعْتُكَ فِي قَوْمِكَ فَاتَّزَكِ لِلسَّامِعِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ ، وَعَقَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ فاقْبَلْ لَهُمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى مَجُوسِيَّتِهِ فَعَلَيْهِ الْحِزْيَةُ“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى فروة بن عمرو الجذامي . ونسخته على ماذكره ابن الجوزي في ”كتاب الوفاء“ .

”من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو .

أما بعد ، فقد قدم علينا رسولك ، وبلغ ما أرسلت به ، وخبر عما قبلكم خيرا ، وأتانا بإسلامك زكراً لله هداك هُداة“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى طهفة النهدي وقومه . ونسخته فيما حكاه ابن الأثير في ”المثل السائر“ :

”من محمد رسول الله إلى بني نهيد .

السَلامُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ فِي الْوَضِيقَةِ الْفَرِيضَةُ ، وَلَكُمْ الْفَارِضُ وَالْفَرِيشُ ، وَذُو الْعِنَانِ الرَّكُوبُ وَالْفُلُوقُ الضَّبِيسُ ، لَا يَمْنَعُ سَرْحَكُمْ ، وَلَا يُعْضِدُ

(١) يروى بالفاء وبالعين فاما بالفاء فيكون المراد بها المريضة وأما بالعين فهي التي أصابها آفة أو كسراه

من شرح الزرقاني للواهب ج ٤ ص ١٩٢ .

طَلَحَكُمْ ، وَلَا يُجَبِّسُ دَرَكُمْ مَالٌ تُضْمِرُوا الْإِمَاقَ ، وَتَاكُلُوا الرِّبَاقَ . مَنْ أَنْزَرَ
[بِمَا فِي هَذَا الْكِتَابِ] فَهُوَ [مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ^(١)] الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ ، وَمَنْ أَبِي
فَعَلَيْهِ الرَّبُوءَةُ .

وهذا الكتاب مما يحتاج إلى شرح غريبه ليفهم . « فالوظيفة » النصاب في الزكاة وأصله
الشيء الراتب . « والفريضة » الحرمة المسنة ، والمراد أنها لا تؤخذ منهم في الزكاة
بل تكون لهم . « والفريش » بالفاء والشين المعجمة ما أنبسط من النبات وفرش
على وجه الأرض ولم يقم على ساق ، وقد يطلق على الفرس إذا حمل عليها بعد التاج
أيضا . « وذو العنان الركوب » الفرس الذلول ، « والفلق » المهر الصغير وقيل القطيم
من جميع أولاد الحافر . « والضبيس » بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة
العسر الصعب الذي لم يرض . « والسرّح » السارحة وهي المواشي ، والمعنى أنها لا تمنع
من المرعى . والعصّد القطع . والطلع شجر عظام من شجر العضاء . والدرّ اللبن ،
والمراد ذوات الدرّ من المواشي ، أراد أنها لا تنحسر إلى المصدق وتمنع المرعى إلى أن
تجتمع الماشية ثم تعدّ لما في ذلك من الإضرار . « الإماق » مخفف ، من أماق الرجل
إذا صار ذامقة وهي الحمية والأنفة ، وقيل مأخوذ من الموق وهو الحق ، والمراد
إضممار النكت والغدر أو إضممار الكفر . « الرّباق » بالراء المهملة والباء الموحدة
والقاف جمع ربيعة ، وهي في الأصل اسم لعروة تجعل في الحبل وتكون في عنق
البيمة أو يدها تمسكها ، والمراد هنا نقض العهد واستعار الأكل لذلك ، لأن البيمة
إذا أكلت الرّبة خلصت من الشد . و« الرّبوة » بكسر الراء الزيادة ، والمراد هنا الريادة
في الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له .

(١) الزيادة من « المثل السائر » . ورواية « الشفا » كما في الأصل .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أُكَيْدِرِ دُومَةَ فيما ذكره أبو عُبيدة، وهو :
 ” من محمد رسول الله لَا أُكَيْدِرِ دُومَةَ حِينَ أَجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ
 وَالْأَصْنَامَ ، مع خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ سَيْفِ اللَّهِ فِي دُومَةِ الْجَنْدَلِ وَاتَّخَفَهَا : إِنَّ لَنَا الضَّاحِيَةَ
 مِنَ الضَّحْلِ وَالْبُورَ وَالْمَعَامِي وَأَغْفَالَ الْأَرْضِ وَالْحَلْقَةَ وَالسَّلَاحَ وَالْحَافِرَ وَالْحِصْنَ .
 وَلَكُمْ الضَّامِنَةُ مِنَ النَّخْلِ ، وَالْمَعِينُ مِنَ الْمَعْمُورِ ، لَا تُعْدِلُ سَارِحَتَكُمْ ، وَلَا تُعَدِّ فَارِدَتُكُمْ ،
 وَلَا يُحْظَرُ عَلَيْكُمُ النَّبَاتُ ، تُقِيمُونَ الصَّلَاةَ لَوَقْتُهَا ، وَتُؤْتُونَ الزَّكَاةَ بِحَقِّهَا ، عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ
 عَهْدُ اللَّهِ وَالْمِيثَاقُ “ .

وهذا الكتاب أيضا مما يحتاج إلى معرفة غريبه : فالأنداد جمع نَدَّ بكسر النون
 وهو ضد الشيء الذي يخالفه في أموره ، ويناديه أي يخالفه ، والمراد ما كانوا يتخذونه
 آلهة من دُونِ اللَّهِ تَعَالَى . والأصنام جمع صَنَمَ : وهو ما أُتخذ إلهًا من دُونِ اللَّهِ ، وقيل :
 ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم ولا صورة فهو وثَنٌ . والأخاف
 بالنون جمع كَنَفٍ بالتحريك وهو الجانب والناحية . والضاحية بالضاد المعجمة والحاء
 المهملة الناحية البارزة التي لاحائل دُونَهَا ، والمراد هنا أطراف الأرض ؛ والضحل
 بفتح الضاد المعجمة وسكون الحاء المهملة القليل من الماء ، وقيل الماء القريب
 من المكان ، وبالتحريك مكان الضحل . والبور الأرض التي لم تُزْرَعْ ، وهو بالفتح
 مصدرٌ ووصف به ، وبالضم جمع بَوَارٍ : وهو الأرض الخراب التي لم تُزْرَعْ . والمعامي
 المجهولة من الأرض التي ليس فيها أثر عِمَارَةٍ ، واحداها مَعْمَى . وأغفال الأرض
 بالغين المعجمة والفاء الأرض التي ليس فيها أثر يعرف كأنها مغفول عنها . والحلقة
 بسكون اللام السِّلَاحَ عامًا ، وقيل الدروع خاصًا ، والسلاح ما أُعد للحرب من آلة

الحديد مما يُقاتل به ، والسيف وحده يسمى سلاحا . والضامنة من النخل بالضاد المعجمة والنون ما كان داخلا في العمارة من النخيل وتضمنته أمصارهم وقراهم ، وقيل سميت ضامنة لأن أربابها ضمنوا عمارتها وحفظها ، فهي ذات ضمان كعيشة راضية بمعنى ذات رضا . والممين من المعمور الماء الذي ينبع من العين في العاصم من الأرض . وقوله : لا تعدل سارحتكم بالذال المعجمة ، أى لا تصرف ما شيتكم وتمأل عن الرعى ولا تمنع . وقوله : ولا تعد فاردتكم أى لا تضم إلى غيرها وتخشى إلى الصدقة حتى تعد مع غيرها وتحسب . والفاردة الزائدة على الفريضة . وقوله : ولا يحظر عليكم النبات بالطاء المعجمة ، أى لا تمنعون من الزرع والمرعى حيث شتتم ، والحظر المنع .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضر موت ، وهو :
 ”من محمد رسول الله إلى الأقبال العبايلة من أهل حضر موت ، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . على التبعة الشاة ، والتيمة لصاحبها ، وفي السيوب الخمس ، لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبي فقد أربى ، وكل مسكر حرام“ .

وذكر القاضي عياض في ”الشفاء“ أن كتابه لهم : « إلى الأقبال العبايلة ، والأرواع المشايب . وفي التبعة شاة ، لأمقورة الألباط ، ولاضناك ، وأنطوا التبعة ، وفي السيوب الخمس ، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة وأستوفضوه علما ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا عمة في فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترقل على الأقبال» .

(١) صوابه بالذال المهملة كما يفيدته المعنى وقد أورده صاحب اللسان ج ١٣ — في مادة ع دل بالذال المهملة فانظرو .

وهذا الكتاب فى معنى ما تقدم من الاحتياج الى شرح غريبه . الأفيال بالقاف والياء المشاة تحث جمع قيل : وهو الملك . والعباهلة الذين أقرؤا على ملكهم لا يزالون عنه ؛ وحضرموت بلدة فى اليمن فى أقصاها ، وقيل هى أحد محاليفها . والتبعة بالمشاة من فوق ثم المشاة من تحث والعين المهملة اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان : كالتمس من الإبل والأربعين من الغنم . قال ابن الأثير : وكأنها الجملة التى للسعاة عليها سبيل من تاع يتبع إذا ذهب إليه . والتبعة بالكسر الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى ، وقيل هى الشاة التى تكون لصاحبها فى منزله يحلبها وليست بسائمة ، وهى بمعنى الداجن . والسيوب الركاى أخذ من السيب وهو العطاء ، قاله أبو عبيدة ؛ وقيل هى عروق الذهب والفضة التى تسبب فى المعدن بمعنى تتلون وتظهر . وقال الزمخشري : هى جمع سيب ، يريد به المال المدفون فى الجاهلية أو المعدن لأنه من فضل الله تعالى لمن أصابه . والخلاط بالكسر مصدر خالط ، يقال : خالطه يخالطه خلاطا ومخالطة ، والمراد أن يخاطب الرجل إبله بإبل غيره أو بقره أو غنمه لينع حق الله تعالى منها ، ويخص المصدق فيما يجب له . والوراط بالكسر أيضا أن يجعل الغنم فى وهدة من الأرض لتخفى على المصدق ، مأخوذ [من الورطة] وهى الهوة من الأرض . والشناق بكسر الشين المشاركة فى الشنق بفتح النون : وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة ، وهو ما زاد من الإبل على الخمس إلى التسع ، وما زاد على العشر إلى أربع عشرة ، والمراد أن لا تؤخذ الزيادة على الفريضة . قال ابن الأثير : ويجوز أن يكون معناه المشاركة فى الشنق والشنقين ، وهو بمعنى الخلاط المتقدم ذكره ، لكن حمله على الأول أولى ، لتعدد المعنى . والشغار بكسر الشين وبالغين المعجمة نكاح معروف فى الجاهلية ، وهو أن يزوجه الرجل أبنته أو أخته على أن يزوجه بنته أو أخته ، ويكون بضع كل

منهما صدقاً للآخرى . والأرواع جمع راع : وهم الحسان الوجوه من الناس .
وقيل : الذين يروعون الناس أى يُفزعونهم بشدة الهيبة . قال ابن الأثير : والأول
أوجه . وقوله : ومن أجبى هو بالجم والباء الموحدة : وهو بيع الزرع قبل بدو
صلاحه . وقيل هو أن يُغيب إبله عن المصدق أخذاً من أجباته إذا واريته .
وقيل هو أن يبيع من الرجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم يشتريها منه بالنقد
بأقل من الثمن الذى باعها به ؛ ومعنى 'أربى' وقع فى الربا . والمشايب السادة الرؤس
الزهر الألوان الحسان المناظر واحداً مشبوب . والمقورة الألياط المسترخية
الجلود لهزأها والاقورار الاسترخاء فى الجلود . والألياط جمع ليط : وهو قشر العود ،
شبه به الجلد لالتزاقه باللحم . والضناك بالكسر الكثير اللحم ، ويقال الذكر والأنثى
فيه سواء ، والمراد أنه لا تؤخذ المفردة فى السمن كما لا تؤخذ الهزيلة . وقوله :
وأنظوا هو بلغة أهل اليمن بمعنى 'أعطوا' ، خاطبهم صلى الله عليه وسلم بلغتهم . والثبجة
بناءً مثلثة بعدها باء موحدة ثم جيم هى الوسط من المال التى ليست من خياره
ولأردأته ، أخذاً من ثبجة الناقة وهو ما بين الكاهل إلى الظهر . وقوله ثم بكر جرى
فيه على لغة أهل اليمن حيث يُبدلون لام التعريف ميماً . قال ابن الأثير : وعلى هذا
فتكون راء بكر مكسورة من غير تنوين لأن أصله من البكر ، فلما أبدلت الألف واللام
ميماً بقيت الحركة بحالها ، ويكون قد استعمل البكر موضع الأبكار . قال : والأشبه
أن تكون بكر متونة ، وقد أبدلت نون من ميماً ، لأن النون الساكنة إذا كان بعدها باء
قلبت فى اللفظ ميماً نحو عنبر ومنبر ، ويكون التقدير ومن زنى من بكر . وقوله
فأصقعه هو بالصاد المهملة والقاف أى أضربوه ، وأصل الصقع الضرب على الرأس ،
وقيل الضرب ببطن الكف . وقوله : وأستوفضوه هو بالفاء والضاد المعجمة أى
أنفوه ، أخذاً من قولهم : استوفضت الإبل إذا تفرقت [فى رعيها] وقوله : فضرّجوه -

بالضاد المعجمة والحميم أى أدْمُوهُ بالضرب، ويطلق الضُّرَج على الشَّق أيضا .
والأضاميم بالضاد المعجمة الحجارة واحدها إضمَامَةٌ، والمراد أَرْجُمُوهُ بالحجارة . والتوصيم
بالصاد المهملة الفَتْرَة والتَّوَانى، أى لَا تَفْتَرُوا فى إقامة الحدود وَلَا تَتَوَانَوْا فيها . وقوله :
وَلَا عُمَّةٌ فى فرائض الله - أصل العُمَّة السَّيْر، أى لَا تُسْتَرْفِرَاضُ الله وَلَا تُخْفَى ،
بَل تُظْهَرُ وَيُجَهَرُ بِهَا وتُعْلَن . وقوله : يَتَرَقَّل - أى يُسَوِّدُ وَيَتَرَأْسُ ، استعارة من
تَرْفِيل الثوب وهو إسْبَاغُهُ وإرساله ؛ والأَقْيَالُ الملوكُ وقد تقدّم الكلامُ عليه .

الأسلوب الثانى

(أن تفتح المكتبة بلفظ « هذا كتاب » ويذكر المقصد فيما بعد ،

وهو قليل الوقوع فى المكتبات)

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لَقِيْلَة هَمْدَان من اليمن ، فيما ذكره أبْن هشام
وهو : ” هذا كتابٌ من محمد رسول الله لمُخْلَافٍ حَارِفٍ وأهل جَنَابِ المَضْبِ وحِقَافِ
الرَّمْلِ ، مع وإفِدها ذى المِشْعَارِ ، لِمَالِكِ بْنِ تَمِطٍ وَلِئِنْ أَسْلَمَ من قَوْمِهِ ، عَلَى أَنْ لَمْ
فِرَاعَهَا وَوِهَاطَهَا [وعَزَاها] مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، يَأْكُلُونَ عِلَافَهَا ، وَيَرْعُونَ
عَافِيَهَا ، لَكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَامُ رَسُولِهِ ، وشَاهِدُكُمْ المِهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ “ .

وذكر القاضى عيَاضٌ فى ”الشفاء“ أن فى كتابه إليهم : ”إِنَّ لَكُمْ فِرَاعَهَا وَوِهَاطَهَا
وعَزَاها ، تَأْكُلُونَ عِلَافَهَا وَتَرْعُونَ عَفَاها ، لَنَا مِنْ دِفْئِهِمْ وَصِرَامِهِمْ مَا سَلَّمُوا بِالْمِيثَاقِ

(١) كذا فى الامهات اللغوية أيضا وفى شرح الزرقانى على المواهب ج ٤ ص ٣٩ أنه ذوالمشغار

بالمعجمتين أو المهملتين .

(٢) فى المواهب مالك بدون لام الجر وأعربه الشارح بدلا مما قبله .

(٣) ضبطه صاحب اللسان بالقصر وضبطه الزرقانى وملا على قارى بالمد .

والأمانة، ولهم من الصَّدقة الثَّلب والنَّابُ والفَصِيلُ والفَارِضُ والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوْرِيّ، وعليهم فيها الصَّالِغُ والقَارِخُ“ .

وهذا من نسبة ما تقدّم مما يحتاج إلى شرح غريبه : فالْفِرَاعُ بالكسر جمع فَرْعة ، وهو ما ارتفع من الأرض . والوِهاط جمع وَهْطَة : وهى ما أطمأنَّ من الأرض ؛ والعِلافُ بالكسر - جمع عَلفَ بجَلَّ وجِبَالُ ، والمراد ما تغلفه الدوابُّ من نبات الأرض ؛ والعَرَاز - ماصِّلُ من الأرض وأشدُّ وخَشُنُ ، ويكون ذلك في أطرافها ؛ والعَقَاءُ العافى - وهو ما ليس لأحد فيه ملكٌ ، من قولهم : عَقَا الأثر إذا دَرَسَ ، والدَّفء - نِتاج الإبل وما يُنتَفَعُ به منها ، سَمِيَ دِفْعًا لأنه يُتَّخَذُ مِنْ أوبَارِهَا ما يُسْتَدْفَأُ به ، والمراد هنا الإبل والغنم . والصَّرام - النخل ، وأصله قَطْع الثَّرة ؛ والثَّلب من ذكور الإبل - الذى هَرِمَ وتكسَّرت أسنانه . والنَّاب - المُسِنَّة من إناثها . والفَصِيل من أولاد الإبل - الذى فُصِلَ عن أمه من الرِّضَاع . والفَارِض - المسنُّ من الإبل ، والمراد أنه لا يُؤخَذُ منهم فى الزكاة . والدَّاجِنُ - الشاة التى يعلِفُها الناس فى منازلهم ؛ والكَبْشُ الحَوْرِيّ منسوب إلى الحَوْر وهى جلود تُتَّخَذُ من جلود الضأن . وقيل : هو مادُبِغ من الجلود بغير القَرظ . والصَّالِغُ بالصاد المهملة والغين المعجمة : وهو من البقر والغنم الذى كُئِلَ وأتَمَّ ، ويكون ذلك فى السنة السادسة ، ويقال : بالسَّين بدل الصَّاد . والقَارِخُ الفرس الذى دخل فى السنة الخامسة .

الأسلوب الثالث

(أن تفتَحَ المَكاتِبُ بلفظ « سَلِّمْ أَنْتَ »)

فمن ذلك كُتَابُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى . وهو فيما ذكره أَبُو عبيد
في « كِتَابِ الْأَمْوَالِ » : « سَلِّمْ أَنْتَ ، فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا ، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ
لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ الرَّسُولِ ؛ فَمَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُجُوسِ فَإِنَّهُ آمِنٌ ، وَمَنْ أَبَى فَإِنَّ
عَلَيْهِ الْجَزْيَةَ » .

الطرف الثالث

(في كُتُبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ لِلدَّعَايَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بلفظ « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى فُلَانٍ »)

كما في الأسلوب الأول من كُتُبِهِ إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ

فمن ذلك كُتَابُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ : وهو قِصْرٌ ، وقيل
نائبه بالشام .

وهو على ما ثبت في الصحيحين . « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ،
سَلَامٌ عَلَى مَنْ آتَبَعَ الْهُدَى » .

أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بإنا مسلمون .

وذكر أبو عبيد في "كتاب الأموال" : أن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كان فيه .

"من محمد رسول الله إلى صاحب الروم، إني أدعوك إلى الإسلام: فإن أسلمت فلك ما لل مسلمين وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية، فإن الله تعالى يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية" .

قال أبو عبيد: وأراد بالفلاحين أهل مملكته، لأن العجم عند العرب كلهم فلاحون لأنهم أهل زرع وحريث .

وفي مسند البزار أنه صلى الله عليه وسلم كتب إليه: « من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم » .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز: ملك الفرس فيما ذكره ابن الجوزي، وهو:

”من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .
سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل
فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ،
وأسلم تسلم فإن توليت فإن إثم الجوس عليك “ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس صاحب مصر . وهو فيما ذكره
أبن عبد الحكم .

(١)

”من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من أتبع الهدى .
أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك
مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا
وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله
فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون “ .

وذكر الواقدي أن كتابه إليه كان بخط أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأن فيه
”من محمد رسول الله إلى صاحب مصر .

أما بعد ، فإن الله أرسلني رسولا وأنزل عليّ قرأنا ، وأمرني بالإعذار والإنذار
ومقاتلة الكفار حتى يدينوا يديني ويدخل الناس في ملتي ، وقد دعوتك إلى الإقرار
بوحدينته ، فإن فعلت سعدت ، وإن أبيت شقيت ، والسلام “ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي: مَلِكِ الحَبَشَةِ . وهو فيما ذكره
أَبْنُ إِسْحَاقَ :

” من محمد رسول الله إلى النجاشي مَلِكِ الحَبَشَةِ ، إني أحمدُ إليك الله الملك
القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحسنة ،
حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ،
وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله
عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي . وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرًا
ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من أتبع الهدى“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هُوَذَةَ بنِ عَلِيٍّ : صاحب اليمامة ، وكان
نصرانياً . وهو فيما ذكره السهيلي .

” من محمد رسول الله إلى هُوَذَةَ بنِ عَلِيٍّ .

سلامٌ على من أتبع الهدى . وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر ،
فأسلم تسلم ، وأجعل لك ماتحت يديك“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نَجْرَانَ . وهو فيما ذكره صاحب
” الهدى المحمدي“ .

(١) هو بفتح الهاء كما في الصحاح ونقل الدميري ضمها والواو ساكنة على كل حال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وِلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وِلَايَةِ الْعِبَادِ ، فَإِنِ ابْتِغَيْتُمْ فِلْخِزْيَةَ ، فَإِنِ ابْتِغَيْتُمْ فَقَدْ آذَنْتُمْ بِحَرْبِ الْإِسْلَامِ .

وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ أَبِي الْجُلَنْدِيِّ مَلِكِي عُثْمَانَ .
وَهُوَ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ أَبِي الْجُلَنْدِيِّ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمُوا تَسْلِمًا ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لَا تُدْرِمُنِي كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَإِنَّكُمْ إِنِ أَقْرَرْتُمْ بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتَكُمْ ، وَإِنِ ابْتِغَا أَنْ تُقْرَأَ بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مُلْكَكُمْ زَائِلٌ عَنْكُمْ ، وَخِيْلِي تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمْ ، وَتُظْهِرُ بُيُوتِي فِي مَالِكِكُمْ . وَكُتِبَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ » .

وفي رواية ذكرها أبو عبيد في "كتاب الأموال" أنه كتب إليهما .

"مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ أَسِيدِ بْنِ مُلُوكِ عُثْمَانَ ، وَأَسِيدِ عُثْمَانَ : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْبَحْرَيْنِ ، إِنْهُمْ إِنْ آمَنُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَعْطَوْا حَقَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسَكَّوْا نُسُكَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُمْ آمَنُونَ ، وَإِنْ لَمْ يَأْمَنُوا عَلَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّ مَالَ بَيْتِ النَّارِ ثَمَنًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ عُشُورَ الثَّمَرِ صَدَقَةً ، وَنِصْفَ عُشُورِ الْحَبِّ ، وَإِنَّ لِلْمُسْلِمِينَ نَصْرَهُمْ وَنُصَحَهُمْ ، وَإِنَّ لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَهُمْ أَرْحَاءٌ يَطْحَنُونَ بِهَا" .

قال أبو عبيد : وبعضهم يرويه لعباد الله الأسيين اسماً اعجمياً نسبهم إليه .
قال : وإنما سُموا بذلك لأنهم نُسبوا إلى عبادة فرس ، وهو بالفارسية أسب فَنُسبوا
إليه ، وهم قوم من الفرس وفي رواية من العرب .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى مُسَيِّمَةِ الكَذَّاب في جواب كتابه إليه
صلى الله عليه وسلم : أنه إن جعل له الأمر بعده آمن به .
وهو : « من مَحِد رسول الله إلى مُسَيِّمَةِ الكَذَّاب : السلام على من أتبع الهدى
أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

الأسلوب الثاني

(أن يُفْتَحَ الكتاب بلفظ « أما بعد » وهو أَقْلُ وقوعاً مما قبله)
فن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل تَجْران ، ودينهم النصرانية .
وهو فيما ذكره ابن الجوزي .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إله إبراهيم وإسمحاق ويعقوب .

أما بعد : فإنني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله
من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب الإسلام . »
(١)

(١) كذا في الأصول والمناسب لما تقدم له في اختتام الكتب ما في "مفتاح الأفكار" وهي "بحر

الأسلوب الثالث

(أن يُفتتح الكتاب بلفظ « هذا كتاب »)

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم مع رفاعه بن زيد إلى قومه . وهو فيما ذكره ابن إسحاق .

« هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ، إني بعثته إلى قومي عامّةً ومن دخل فيهم . يدعّوهم إلى الله وإلى رسوله ، فمن أقبل منهم فني حرب الله وحرب رسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين » .

قلت : وقد كتب صلى الله عليه وسلم إلى جماعة غير من تقدّم ، لم أقف على صورة ما كتب إليهم ، بكبلة بن الأيهم الغساني ، وذى الكلاع الحنيري وغيرهم ، وستأتي كتبه صلى الله عليه وسلم في معنى الولايات والإقطاعات والهدن والأمانات في مواضعها إن شاء الله تعالى .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء ، وهى على قسمين)

القسم الأول

(المكاتبات إلى أهل الإسلام ، وفيه تسعة أطراف)

الطرف الأول

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضى الله عنهم ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى المكاتبات الصادرة عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه)

وكانت تُفتح بلفظ : « من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان »
وباقى الكتاب من نسبة كُتُب النبى صلى الله عليه وسلم من التصدير بالسَّلام
والتَّحْمِيد ، والتَّخْلُص بأما بعد ، والاختتام بالسَّلام وما يجرى هذا المجرى ، مع لزوم
الخطاب بالكاف وتاء المخاطب للواحد ، وبالتثنية للاثنتين ، والجمع للجماعة . وعنوتها
« من أبى بكر خليفة رسول الله » فى الجانب الأيمن ثم « إلى فلان الفلانى »
فى الجانب الأيسر على ما يقتضيه الترتيب المتقدم .

وهذه نسخة كتابه رضى الله عنه إلى أهل الرِّدة حين ارتدوا عن الإسلام بعد
وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وهو على ما ذكره صاحب "نهاية الأرب"

"من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه :

سلام على من أتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ؛ فإني أحد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأقر بما جاء به [وأكفر من أبي وأجاهده^(١)]

أما بعد ، فإن الله أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا ؛ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، يهدي الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعا وكرها ؛ ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأئمة ، وقضى الذي عليه ؛ وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزله ، فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد ، حتى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه بجزبه ، وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيكم من الله ، وما جاء به نبيكم ، وأن تهتدوا بهديه ، وأن تعتصموا ببدين الله ، فإن من لم يهد الله ضل ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم ينصره محذول .

فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ كَانَ مُهْدِيًّا ، وَمَنْ أَضَلَّهُ كَانَ ضَالًّا : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَهُ لِيَالًا مَرِشِدًا﴾ ولم يقبل منه في الدنيا عملٌ حتى يُقَرَّبَ به ، ولم يقبل له في الآخرة صرفٌ ولا عدل .

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقَرَّ بالإسلام وعَمِلَ به ، أغترارًا بالله وجهالةً بأمره ، وإجابةً للشيطان ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ . وقال جل ذكره : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وإني أنفست إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوهُ إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقَرَّ وكف وعَمِلَ صالحًا ، قَبِلَ منه وأعانه عليه ؛ ومن أبى أمرته أن يُقاتله على ذلك ، ولا يُبقَى على أحدٍ منهم قَدَرٌ عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ، ويقتلهم كل قِتْلَةٍ ، ويسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام ؛ فمن آمن فهو خيرٌ له ، ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كلِّ مجمعٍ لكم ، والداعية الأذنان ، فإن أذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا [عاجلوهم ، وإن أذنوا] سلوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قَبِلَ منهم وحملهم على ما ينبغي لهم .

(١) في العبرية ج ٢ ص ٧٠ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٦ "فمن اتبعه" .

(٢) الزيادة من رواية الطبري ج ٣ ص ٢٢٦ .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الصادرة عن بقيّة الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)
وهي على أسلوبيين :

الأسلوب الأول

(أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « من فلان إلى فلان »)

يقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما صارت الخلافة إليه بعد أبي بكر، كان يكتب في كتبه : « من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان » فلما تلقب بأمر المؤمنين على ما تقدم في المقالة الثالثة ، أثبت هذا اللقب في كتبه ، وزاد في ابتدائها لفظ « عبد الله » قبل اسمه ، ليكون اسمه نعتاً له ^(١) ، فكان يكتب : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان » وباقي الكتاب على ما مر في كتب النبي صلى الله عليه وسلم والصدّيق بعده في التصدير والتعبير عن نفسه بلفظ الإفراد ، مثل أنا ولي وعلى ، وعن المكتوب له بكاف الخطاب : مثل لك وعليك ، وتاء المخاطب : مثل قلت وفعلت ؛ وتبعه الخلفاء على ذلك . وعنونتها « من عبد الله فلان أمير المؤمنين » في الجانب الأيمن ، ثم « إلى فلان الفلاني » في الجانب الأيسر كما تقدم ترتيبه .

فمن ذلك ما كتب به أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ أمير مصر ، وهو :

(١) لعله "تبعاله" .

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك .
أما بعد ، فقد بلغني أنه فشئت لك فاشيةً من خيل وإبل وبقير وعبيد ، وعهدى
بك قبل ذلك ولا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال . »



ومن ذلك ما كتب به معاوية بن أبي سفيان في خلافته إلى ابنه يزيد ، وقد
بلغه مفرقه اللذات ، وأنهما كهُ على الشهوات ، وهو :

« من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية . »

أما بعد ، فقد أدت السنة التصريح إلى أذن العناية بك ما جع الأمل فيك ،
وباعد الرجاء منك إذ ملأت العيون بهجةً ، وألغى قلوب هبةً ، وترامت إليك آمال
الراغبين ، وهم المتنافسين ، وتحت بك فتیان قريش وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم
ذكرك إلا على الحرة المهووة ، والكظ الجشء . افتحمت البوائق ، وانقدت للمعاري ،
واعتصمتها من سمو الفضل ، ورفع القدر ، فليتك يزيد إذ كنت لم تكن . سررت يافعاً
ناشئاً ! وأنكلت كهلاً ضالماً ، فواحرزناه عليك يزيد ! ويا حراً صدر المثل بك !
ما أشتت فتیان بنى هاشم ! وأذل فتیان بنى عبد شمس ! عند تفاوض المفار ودراسة
المناقب ! فن لصلاح ما أفسدت ، ورتق ما فتقت ؟ هيئات تَحْمَشُ الذربة وجهه
التصبر بك ، وأبت الحناية إلا تحدرًا على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أريج
فائدة نالوها ، وفرصة آتتهزوها ! ؛ أنتيه يزيد للفظه ، وشاور الفكره ، ولا تكن إلى
سمعك أسرع من معناها إلى عقلك . وأعلم أن الذى وطأك وسوسة الشيطان ،
وزحرفة السلطان ، مما حَسُنَ عندك قُبْحُه ، وأحلولى عندك مُرُه ، أمر شَرَكْكَ فيه

السَّوَادَ وَنَافَسَكَ الْأَعْبُدَ، لِأَلَا تُرْتَدِّعِيهَا أَوْ جَبَّتْهَا لَكَ الْإِمْرَةَ، وَأَضَعْتَ بِهَا مِنْ قَدْرِكَ، فَأَمَكَنْتَ بِهَا مِنْ نَفْسِكَ، فَكَأَنْكَ شَانِي نَفْسِكَ، فَمِنْ لِهَذَا كُلِّهِ ؟ .

إِعلم يَا زَيْدُ أَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ وَأَسِيرُ الْحَيَاةِ ، بَلَّغْنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ الْمَصَانِعَ * وَالْمَجَالِسَ لِلْمَلَاهِي وَالْمَزَامِيرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ وَأَجْهَرْتَ الْفَاحِشَةَ حَتَّى اتَّخَذَتْ سِرِّيَّتَهَا عِنْدَكَ جَهْرًا .

إِعلم يَا زَيْدُ أَنَّ أَوَّلَ مَا سَلَبَكَ الشُّكْرَ مَعْرِفَةُ مَوَاطِنِ الشُّكْرِ لِهَذَا نِعْمَةِ الْمُنَظَّاهِرَةِ ، وَالْآيَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، وَهِيَ الْجُرْحَةُ الْعُظْمَى ، وَالْفَجْعَةُ الْكُبْرَى : تَرُكُ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَحْدُثُ مِنْ آفَاتِهَا ، ثُمَّ اسْتَحْسَانُ الْعُيُوبِ ، وَرُكُوبُ الذُّنُوبِ ، وَإِظْهَارُ الْعَوْرَةِ ، وَإِبَاحَةُ السَّرِّ . فَلَا تَأْمُنُ نَفْسَكَ عَلَى سِرِّكَ ، وَلَا تَعْقِدُ عَلَى فِعْلِكَ . فَمَا خَيْرُ لَذَّةٍ تُعْقِبُ النَّدَمَ ، وَتُعْنِي الْكَرَمَ ؟ وَقَدْ تَوَقَّفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ شَطْرَيْنِ مِنْ أَمْرِكَ ، لَمَّا يَتَوَقَّعُهُ مِنْ غَلَبَةِ الْآفَةِ وَأَسْتِهْلَاكِ الشَّهْوَةِ . فَكُنِ الْحَاكِمَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَجْعَلِ الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ ذِهْنَكَ تَرَشُّدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَلِيَبْلُغْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَرُدُّ شَارِدًا مِنْ نَوْمِهِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ نُصَبَ الْأَعْتَرَالِ مِنْ كُلِّ مُؤَانِسٍ ، وَدُرَاةً^(١) الْأَلْسُنِ الشَّامِتَةِ ، وَفَقَّكَ اللَّهُ فَأَحْسَنَ .

الأسلوب الثاني

(أَنْ يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِلَفْظِ «أَمَّا بعد»)

وَهُوَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ خِلاَ الْإِبْتِدَاءِ وَالتَّصْدِيرِ بِالسَّلَامِ وَالتَّحْمِيدِ ، وَيَكُونُ الْإِفْتِتَاحُ فِيهِ بِالْمَقْصِدِ ، كَمَا كَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ حِينَ خَرَجَ عَلَى الْيَنْبُغِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ عَلَى عُمَانِ .

(١) لَعْلَهُ دَرِيْثَةٌ وَهِيَ الْخَلَقَةُ الَّتِي يَعْلَمُ عَلَيْهَا الطُّعْنُ .

أما بعدُ، فقد بلغ السيلُ الزَّبى [وجاوز] الحِزَامُ الطَّيِّينَ، وطَمَعَ في كُلِّ مَنْ
كان يَضْعَفُ [عن الدَفْعِ] عن نفسه، ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبٍ، فأَقْبِلْ إلى صَدِيقًا
كُنْتَ أو عَدُوًّا :

فَإِنْ كُنْتُ مَا كُوِّلَا، فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلا فَأَذِرْ كُنِي وَلِمَّا أُمَزَّقْ

الطرف الثاني

(في الكُتُبِ الصادرة عن خلفاء بني أُمَيَّة)

وهي على ما تقدّم من الكُتُبِ عن الخلفاء من الصحابة في التصدير والتعيير، إلا
أنه يعبر عن الخليفة بأمر المؤمنين، وربما عبر عنه بلفظ الأفراد . مثل : فعلتُ
وأفعلُ وما أشبه ذلك ؛ أما الخطاب للكتوب له فيكاف الخطاب وتاء المخاطب ،
مثل : إنك أنتَ قلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وما أشبه ذلك . وعنوانها : « من عبد الله
فلان أمير المؤمنين » في الجانب الأيمن ، ثم « إلى فلان الفلاني » في الجانب الأيسر .
ثم هي على أسلوبين :

الأسلوب الأول

(أن يَفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان »)

كما كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف - وقد بلغه تعرّضه لأنس
ابن مالك رضى الله عنه - « من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج
ابن يوسف

أما بعد، فَإِنَّكَ عَبْدٌ عَلَتْ بِكَ الْأُمُورُ فَطَغَيْتَ ، وَعُلُوتَ فِيهَا حَتَّى جُرْتَ حَدَّ قَدْرِكَ ، وَعَدَوْتَ طُورَكَ . وَآيُمُ اللَّهِ لَا تُعْزِمُكَ كِبَعُضِ عَمَزَاتِ اللَّيْثِ الثَّعَالِبِ ! وَلَا رَكُضَتِكَ رَكْضَةً تَدْخُلُ مِنْهَا فِي وَجَعَاءِ أُمَّكَ ، اذْكُرْ مَكَاسِبَ آبَائِكَ فِي الطَّائِفِ ، إِذْ كَانُوا يَنْقُلُونَ الْحِجَارَةَ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ ، وَيَحْفِرُونَ الْآبَارَ وَالْمَنَاهِرَ بِأَيْدِيهِمْ ! ، قَدْ نَسِيتَ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ أَنْتَ وَآبَاؤُكَ مِنَ الدَّنَاءِ وَاللُّؤْمِ وَالضَّرَاعَةِ . وَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتِطَالَةَ مِنْكَ عَلَى أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ جُرَاةً مِنْكَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَغِرَةً بِمَعْرِفَةِ غَيْرِهِ وَنَقَاتِهِ وَسَطَوَاتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَ سَبِيلَهُ ، وَعَمَدَ إِلَى غَيْرِ مَحَجَّتِهِ ، وَنَزَلَ عِنْدَ سُخْطِهِ ، وَأَظْنُكَ أَرَدْتَ أَنْ تَرُوزَهُ بِهَا فَتَعْلَمَ مَا عِنْدَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّنْكِيرِ فِيهَا ، فَإِنْ سُوِّغَتْهَا مَضِيَتْ قُدَمَا ، وَإِنْ غَصِصَتْ بِهَا وَلَيْتَ دُبْرًا أَيُّهَا الْعَبْدُ الْأَخْفَشُ الْعَيْنِينَ ، الْأَصْكُ الرَّجْلِينَ ، الْمَسُوحُ الْجَاعِرَيْنِ ، وَلَنْ يَخْفَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَبْوُكَ ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

الأسلوب الثاني

(أن يفتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويقع الشروع منه في المقصد)

كما كتب يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام - وقد بلغه خلافتهم عليه .

”أما بعد، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . إِنِّي وَاللَّهِ قَدْ لَيْسْتُكُمْ فَأَخْلَقْتُكُمْ ! وَرَفَعْتُكُمْ عَلَى رَأْسِي ، ثُمَّ عَلَى عَيْنِي ، ثُمَّ عَلَى قَمِي ، ثُمَّ عَلَى بَطْنِي ؛ وَآيُمُ اللَّهِ لَنْ وَضَعْتُكُمْ

(١) في مفتاح الأفكار ص ١٨١ ”طمت“ وهي أقرب إلى المعنى وفيه في آخر الكتاب زيادة فراجع .

(٢) في ”مفتاح الأفكار“ فليكن لعنة الله من عبد أخفش الخ .

تحت قَدَمِي لأَطَانَتِكُمْ وطَاةٌ أَقْلُ بِهَا عَدَدُكُمْ ، وَأَتْرُكُكُمْ بِهَا أَحَادِيثُ تُنَسَخُ مِنْهَا
أَخْبَارُكُمْ كَأَخْبَارِ عَادٍ وَمُودٍ .

وكما كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة ، وهو عامله على بعض النواحي .
”أما بعد ، فإذا أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذا كر قدرة الخالق عليك ! وأعلم أن
مالك عند الله مثل ما للرعية عندك“ .

وكما كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص إلى مروان بن محمد - وقد بلغه عنه
تلك في بيعته - .

”أما بعد ، فإني أراك تقدم رجلاً وتوتر أخرى ، فإذا أتاك كلابي فاعتمد على أيهما
شئت والسلام“ .

قلت : ولم يزل الأمر في المكتابات في الدولة الأموية جارياً على سنن السلف ،
إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك ، بفؤد القراطيس ، وجلل الخطوط ، ونعم المكتابات ؛
وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ، إلا عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد
المقدم ذكره ، فإنهما جرياً في ذلك على طريقة السلف ؛ ثم جرى الأمر بعدهما على
ماسنه الوليد بن عبد الملك ، إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم ،
وكتب له عبد الحميد بن يحيى - وكان من اللسن والبلاغة على ما أشتهر ذكره - فأطال
الكتب وأطنب فيها ، حيث أقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها ، حتى يقال :
إنه كتب كتاباً عن الخليفة جاء وقراً جليلاً ، وأستمر ذلك فيما بعده .

الطرف الثالث

(في الكتب الصادرة عن خلفاء بني العباس ببغداد
وولاية العهد بالخلافة ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في بيان ترتيب كتبهم في الرسائل على سبيل الإجمال)

كانوا يفتتحون أكثر كتبهم بلفظ « من فلان إلى فلان » وتارة بـ « أما بعد » وربما أفتتحوها بغير ذلك ؛ فأما أفتتحوها بلفظ من فلان إلى فلان فكان يكتب عنهم في أول دولتهم كما كان يكتب عن خلفاء بني أمية ، وهو « من عبد الله فلان أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو » ثم يتخصّص إلى المقصود بلفظ أما بعد . إلا أنهم زادوا بعد أسم الخليفة لفظ « الإمام الفلاني » بلقب الخلافة ، فكان يقال : « من عبد الله الإمام الفلاني أمير المؤمنين » فلما صارت الخلافة إلى الرشيد زاد بعد التحميد « ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » فلما ولى ابنه الأمين آكتنى في كتبه وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك .

وقد اختلف في تقديم الأسم والكنية واللقب ، والذي رتبّه أبو جعفر النحاس في « صناعة الكتاب » تقديم الأسم على الكنية وتقديم الكنية على اللقب . مثل أن يقال : « من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين » ثم قال : وهذه المكاتبه هي التي أصطلح عليها في الأمور السلطانية التي تُنشأ بها الكتب من الدواوين ، إلا أن بعض العلماء قد خالفهم في هذا ، وقال : الأولى أن يبدأ

باللقب، مثل أن يقال «من الراضى» أو «المتوكل» وما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعز : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ حَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وذلك لأن اللقب لا يشاركه فيه غيره، فكان أولى أن يُبدَأَ به .

وترتيب المكتابة على ما ذكره في "صناعة الكتاب" أن يكتب : «من عبد الله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين، سلامٌ عليك ؛ فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو، ويسأله أن يصلّى على محمد عبده ورسوله» . ثم يفصل ببياض يسير، ويكتب «أما بعد فإن كذا وكذا» ؛ ثم يأتى على المعنى ، فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر، فصل ببياض يسير، ثم يكتب : «وقد أمر أمير المؤمنين بكذا ورأى أن يكتب إليك بكذا» ، فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسبه ؛ ثم يفصل ببياض ويكتب : فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ، وأعمل به ، إن شاء الله تعالى . « وكتب فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه ، يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا . وقد يكتب فى أواخر المكتابة بعد استيفاء المقصد : « هذه مناجاة أمير المؤمنين لك » أو « هذه مفاوضة أمير المؤمنين لك » .

ويقال : فى السلام على أعلى الطبقات من المكتوب إليهم « والسلام عليك ورحمة الله » وربما قيل : « ورحمة الله وبركاته » .



وأما افتتاحها بلفظ أما بعد، فغالب ما يقع فى الكتب المطلقة : كالْبُشْرَى بالفَتْوح وغيرها . ثم تارة يعقب البعدية بالحمد لله ، إما مرة أو أكثر، وغالب ما يكون ثلاث ، وتارة يعقب بغير الحمد .



وأما الافتتاح بغير هذين الافتتاحين، فتارة يكون بالدعاء، وتارة يكون بغيره، ويكون التعبير عن الخليفة في كتبه الصادرة عنه « بأمير المؤمنين » على ما تقدم في خلافة بني أمية .

ثم إن كان المكتوب إليه معينا، فالذي كان عليه الحال في أول دولتهم أن يُكْتَب إليه باسمه؛ ثم لما تغلب بنو بويه على الخلفاء وغلَّبوا عليهم، وعلت كلمتهم في الدولة وتلقَّبوا بفلان الدولة وفلان الملة، فكان يُكْتَب إليهم بذلك في الكتب إليهم؛ ثم لما كانت الدولة السَّلاجُوقِيَّة في أواخر الدولة العباسية ببغداد، آسَتمَلوا كثرة الألقاب للمكتوب إليه عن الخليفة في صدر المكتبة . قال في "موادَّ البيان" : ولا يخاطبُ أحدٌ عن الخليفة إلا بالكاف . وقد يخاطبُ الإمام وزيره في المكتبة الخاصة بما يرفعُه فيه عن خطاب المكتبة العامة الديوانية، ويتصرَّف في ذلك ويزاد ويُنقص على حسب لُطافة محل الوزير ومنزلته من الفضل والحلالة .

قال في " ذخيرة الكاتب " : ويكون الدعاء من الخليفة لمن يكتبه على قدر موضعه من خدمته ومحله عنده؛ وقد تقدَّم أن أعلى الدعاء كان عندهم بإطالة البقاء؛ ولذلك كان يُدعى للملك بنو بويه فمن بعدهم بلفظ : «أطال الله بقاءك» وقد تقدَّم في المقالة الثالثة في الكلام على مقادير قطع الورق وما يناسب كلَّ قطع من الأقلام أنه إن كانت المكتبة عن الخليفة ترك الكاتب من رأس الدَّرج قدر ذراع بياضا؛ ثم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يكتب في سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيرا، من عبد الله إلى آخر التصدير الذي يليه أما بعد، وأن التصدير يكون في سطرين

بينهما فضاءً قدرَ شبر، لا يزيد عن ذلك ولا ينقص؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً بنصف ما بين الأولين فيما ذكره في "موادّ البيان" : وبقدرة فيما ذكره في "ذخيرة الكتاب" ثم يقول : أما بعد، ويأتى على المكتبة إلى آخرها على هذا النحو .

أما عُنُونُهُ كتبهم ، فكانت في أول دولتهم : « من عبد الله فلان الإمام الفلاني » أمير المؤمنين « في الجانب الأيمن ، وفي الجانب الأيسر « إلى فلان بن فلان » . ثم زاد المأمون في أول عُنُونَاتِهِ « بسم الله الرحمن الرحيم » . ولما تَكُنَّى الأُمَيْنُ في كتبه بعد ذلك زيدت الكُنيَةُ في العنوان ، فكان يكتب في الجانب الأيمن « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني » وفي الجانب الأيسر ، « إلى فلان ابن فلان » . وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المكاتبات أن البسملة بقيت في العُنُونَةُ إلى زمن النحّاس في خلافة الرازي ، وأن صاحب "موادّ البيان" ذكر أنها بطلت منه بعد ذلك .

قال النحاس : فإن كان المكتوبُ إليه من مَوَالِي بنى هاشم ، نُسِبَ إلى ذلك ، وإن لم يكن ينسب إليهم تُرِكَ .

الجملة الثانية

(في الكُتُبِ العامّة ، وهى على أسلوبيين)

الأسلوب الأول

(أن يفتح الكتابُ بلفظ « من فلان إلى فلان »)

بأن يكتب « من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين » إلى آخر المكتبة على ما تقدّم ترتيبه .

وهذه نسخة كتاب من ذلك كتب به أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله إلى صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه بسبب كردويه ، الخارج عن الطاعة ، وليس فيه تكتية للخليفة وهو .

من عبد الله « عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين » إلى صمصام الدولة وشمس الملة أبي كالجار بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد - أطلّ الله بقاءك - فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المَزلَّةَ العُلْيَا ، وأنالك من أثره الغاية القُصْوَى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عضد الدولة وتاج الملة رحمة الله عليه من القَدْر والمَحَلّ ، والموضع الأرفع الأجل ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند بَذَلِك أثرًا يكون لك فى الخِدْمَةِ ، ومقامَ حمد تقومه فى حماية البيضة ؛ إنعاماً يظاھرُهُ ، وإكراماً يتابعه ويؤاتره . والله يؤيِّدك من توفيقه وتسدِّده ، ويمدِّدك بمعونته وتأنيده ؛ ويخيّر لأمر المؤمنين فيما رأى مستمراً عليه من مزيدك وتمكينك ، والإبقاء بك وتعظيمك ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك ، وجاحد صنيعته وصنيعتك ، فى الوثبة التى وثبها ، والكبيرة التى ارتكبها ؛ وتقريره أن ينتهز الفرصة التى لم يُمَكِّنْهُ الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دفعه وردّه عنها ؛ ومعاجلتك إياه الحرب التى أصلاه الله نأراها ، وقنّعه عارها وشأرها ؛ حتى أنهزم والأوغاد الذين شَرَّكُوهُ فى إثارة الفتنه على أقبح أحوال الدّلة والقِلّة ، بعد القتل الذّريع ، والإثخان الوجيع ؛ فالحمد لله على هذه النعمة التى جَلَّ موقعها ، وبأن على

الخاصة والعامة أثرها، ولزم أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نشرها، والحديث بها، وهو المسؤول إقامتها وإدامتها برحمته .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم ، والمقام المجيد الكريم ؛ بخلع تامة ، ودابتين ومرَكبين ذهباً من مرَاكبه ، وسَيْفٍ وطَوَّقٍ وسوار مرصع ؛ فتلق ذلك بالشكر عليه ، والأعتداد بنعمته فيه ، وآلبس خلع أمير المؤمنين وتكرّمته ، وسر من بابه على حملاته ، وأظهر ماحباك به لأهل حضرته ، ليعز الله بذلك وإيّه ووليّك ، ويبدلّ عدوّه وعدوك ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
(وكتب أحمد بن محمد لثمان إن يقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة)
أطال الله بقاءك ، وأدام عزك ، وأحسن حفظك وحياطك ، وأمتع أمير المؤمنين بك ، وبالنعمة فيك وعندك .



وهذه نسخة كتاب آخر من ذلك أيضاً ، كتب به عن المقتفى لأمر الله إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في تعزية بولد مات له ؛ وفيه تكنية الخليفة وتقديم الكنية على الأسم وكثرة الألقاب للكتوب إليه وهو .

” من عبد الله أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين ، إلى شاهنشاه المعظم مولى الأمم ، مالك رقاب العرب والعجم ؛ جلال دين الله ، ظهير عباد الله ؛ حافظ بلاد الله ، معين خليفة الله ؛ غياث الدنيا والدين ، ناصر الإسلام والمسلمين ؛ محي الدولة القاهرة ، معز الملة الزاهرة ، عماد الملة الباهرة ، أبى الفتح « مسعود ابن محمد ملكشاه » قسيم أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن
يصلّى على محمد عبده ورسوله ويسلم تسليمًا .

أما بعد ، أطل الله بقاءك ! وأدام عزك وتأييدك وسعادتك ونعمتك ، وأحسن
حفظك وكلاءك ورعايتك ، وأمتع أمير المؤمنين بك ، وبالنعمه الجليله والموهبه
الجزيلة والمِنحة النفيسه فيك وعندك ، ولا أخلاه منك ! ، فإن أولى من أدّرع للحوادث
جُبّة الأصطبار ، ونظر أحوال الدنيا فى قلبها بعين الاعتبار ، ورجع إلى الله تعالى
فى قدره وقضائه ، وسلم لأمره الذى لا رادّ له فى امتحانه وأبتلائه ، وعرف أن له
سبحانه فى كلّ ما يُجْريه على عباده حكمة باطنه ، ومصلحة كامنه ، من خير عاجل
ينشره ، وثواب آجل يُؤخّره لهم إلى يوم الجزاء ويُدّخره ، وفائدة هو أدري بها وأعلم ،
وفعله فيها أتقن وأحكم ، من خصّه بما خصّك الله به من الدين الراجح ، والخلق
الصالح ، والمعتقد الواضح ، والنعم التى جادك فى كلّ يوم مقام سحابها ، وآتسعت
بين يديك عند مضايق الأمور رحابها ، وأنست إذا استوحشت من العاجزين عن
ارتباطها بالشكر صحابها ، والمناقب التى فرّعت بها صهوات المجد ، وتملّكت رِقّ الثناء
والحمد ، وعلوت فيها عن المساجل والمطاول ، وبعد ما حضر لك منها عن أن تناله يدُ
القائم المحاول . وتأدى إلى حضرة أمير المؤمنين - أمتعته الله ببقائك ، ودافع له عن
حوائك - نبأ الحادثة بسيليك الذى اختار الله له كريم جواره ، فأحبّ له الانتقال^(١)
إلى محلّ الفوز ومداره ، فوجد لذلك وجوما موقرا ، وهما للسكون منفرا ، وتوزعا
تقتضيه المشاركة لك فيما ساويته (؟) والمساهمة الحاصلة فى كل ماحلا من الأمور وأمر ،
وأمر عند ورود هذا الخبر بالتصدى للعزاء ، وإعلان ما يعلن عن مقاسمتك فى الصّراء
- دفعها الله عنك - والصّراء ، ونذب جمعا من الخدم المظيفين بشريف سُدته ،

المختصين بعزیز خدمته ؛ بتعزیتصونه لباس التعزیه ، ویستدنی بتقمصه عازب التسلیه ؛ إبانته عن أنصراف الهمم الإمامیه إلیک فیما خصّ وعمّ من حالک ، وأستجلایه لک دواعی المسارّ فی حلّک وترجالک ؛ وکون الأفكار الشریفه موکله بكل ماحمی من الروائع قلبک ، وأعذب شربک ؛ وأنت حقیق بمعرفة هذه الحال من طویته لک ونیته ، ورأیه فیک وشفقته ، ورعاية مصلحتک منه بعین کالیه ، ورجوعه من المحافظة فی حقّک إلی ألفة بالصفاء حالیه ؛ وتلقی الرزیه الّتی أرادها الله وقضاها ، وأنفذ مشیئته فیها وأمضاها ؛ بالصبر المأمور به والاحتساب ، والتسليم الموعود علیه یجزیل الثواب ؛ علما أن الأقدار لا تغالب ، وغریمها لا یطالب ؛ وإن الله تعالى إذ قال لنبيه صلی الله علیه وسلم - وهو سید البشر - ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ فلا سبیل لأحد من خلقه إلی البقاء ، ولا وجه للخلود فی دار الفناء ؛ ولا دافع لحکمه جلّت عظمته فیما قدره من الآجال ، وسبق فی علمه من الروائع فی دار الابتلاء والأحوال ؛ وما یزال التطلع واقعا إلی وصول جوابک الدالّ علی السّلوۃ الّتی هی الألیق بک ، والأدعی إلی حصول بغیتک من قضاء الله وأدبک ؛ لتخطّ الأتسه مع وصوله فی رحالها ، وتؤدّن لصرف الغموم الجاریه لأجلک بارتحالها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين لک ، أدام الله تأییدک ! وأمتع بک ! إن شاء الله تعالى ، والسلام علیک ورحمة الله .

الأسلوب الثاني

(أن يكون الافتتاح بلفظ «أما بعد» وهو على نوعين)

النوع الأول

(أن يعقب البعديّة «الحمد لله» ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يتعدد الحمد في أول الكتاب)

و يكون ذلك في الكتب المؤدّنة بحصول نعمة ظاهرة : كالفتوح ونحوها . ويقع التعدّد فيها بحسب ما تقتضيه النعمة ؛ وغالب ما يكون ثلاث مرات ، وربما وقع التعميد في أول الكتاب وآخره .

وهذه نسخة كتاب من هذا النوع كُتِبَ بها عن المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الأَفْشِين على بابك ملك الروم ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لِدِينِهِ ، والعِصْمة لأُولِيائِهِ ، والعِزَّ لمن نصره ، والفُلْج لمن أطاعه ، والحق لمن عَرَفَ حَقَّهُ ؛ وجعل دائرة السوء على من عصاه وصَدَفَ عنه ، ورَغِبَ عن رُبُوبِيَّتِهِ ، وآبَتَغَى إلها غيره . لا إله إلا هو وحده لا شريك له . يحمّده أمير المؤمنين حمداً من لا يعبد غيره ، ولا يتوكّل إلا عليه ، ولا يفوّض أمره إلا إليه ؛ ولا يرجو الخير إلا من عنده ، والمزيد إلا من سَعَةِ فضله ؛ ولا يستعين في أحواله كلّها إلا به . ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وصفوته من عباده ، الذي آرتضاه لنبوته ، وآبَتَعْتَه بوحيه وأَخْصَصَه بكرامته ؛ فأرسله بالحق شاهداً ومبشّراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . والحمد لله الذي توجه

لأمير المؤمنين بصنعه ، فيسر له أمره ، وصدق له ظنه ، وأمنح له طلبته ، وأنفذ له
 حيلته ، وبلغ له محبته ، وأدرك المسلمون بثارهم على يده ، وقتل عدوهم ، وأسكن
 روعتهم ، ورحم فاقتهم ، وآتس وحشتهم ، فأصبحوا آمنين مطمئنين مقيمين
 في ديارهم ، متمكنين في أوطانهم ؛ بعد القتل والخوف والتشريد وطول العناء ، وتتابع
 البلاء ؛ من آمن الله عز وجل على أمير المؤمنين بما خصه به ، وصنعاً له فيما وفقه لطلبه ،
 وكرامة زادها فيما أجرى على يده ؛ فالحمد لله كثيراً كما هو أهله ، وزغب إلى الله
 في تمام نعمة ودوام صنعه ، وسعة ماعنده بمنه ولطفه ؛ ولا يعلم أمير المؤمنين - مع
 كثرة أعداء المسلمين وتكفهم إياه من أقطاره ، والضغائن التي في قلوبهم على أهله ،
 وما يترصدونه من العداوة ، ويتطوون عليه من المكيدة ، إذ كان هو الظاهر عليهم ،
 والآخذ منهم - عدواً كان أعظم بليّة ، ولا أجل خطباً ، ولا أشدّ كلباً ، ولا أبلغ
 مكيدة ، ولا أرمى بمكره ، من هؤلاء الكفرة الذين يغزوهم المسلمون ، فيستعلون
 عليهم ، ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم ، ولا يقبلون لهم صلحاً ، ولا يميلون معهم
 إلى موادعة ؛ وإن كان لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض ما لا يزال
 يكون من فترات ولادة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر وخلسة من خلس
 الحرب ، كان بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغصاً لما تعجلوا من سروره ،
 وما يتوقعون من الدوائر بعد ، مكدراً لما وصل إليهم من فرجة .

فأما اللعين بابك وكفرته ، فإنهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون ، وينالون أكثر
 مما ينال منهم ؛ ومنهم المنحرفون عن الموادعة ، المتوحشون عن المراسلة ؛ ومن
 أدبوا من تتابع الدول ، ولم يخافوا عاقبة تدريكهم ، ولا دائرة تدور عليهم . وكان مما
 وطأ ذلك ومكنه لهم أنهم قوم أبعدوا أمرهم على حال تشاغل السلطان ، وتتابع من
 الفتن ، وأضطراب من الحبل ، فاستقبلوا أمرهم بعزة من أنفسهم ، وضعيف

وَأَسْتَارَةَ مِّنْ بَارَاهِمَ ، فَأَجَلَوْا مَن حَوْلَهُمْ لَتَخْلُصَ الْبِلَادُ لَهُمْ ؛ ثُمَّ أُخْرِبُوا الْبِلَادَ لِعِزِّ مُطْلَبِهِمْ ، وَتَشَدُّدِ الْمُؤْنَةِ وَتَعْظُمِ الْكُفَّةِ ، وَيَقْوُوا فِي ذَاتِ أَيْدِيهِمْ ؛ فَلَمْ يَتَوَافَ إِلَيْهِمْ قُودَادُ السُّلْطَانِ إِلَّا وَقَدْ تَوَافَتْ إِلَيْهِمُ الْقُوَّةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ ، وَعَظُمَتْ شَوْكَتُهُمْ ، وَاشْتَدَّتْ ضَرُورَاتُهُمْ وَاسْتَجْمَعَ لَهُمْ كَيْدُهُمْ ، وَكَثُرَ عَدَدُهُمْ وَاعْتَدَادُهُمْ ، وَتَمَكَّنَتْ الْهَيْبَةُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْهُمْ ، وَتَحَقَّقَ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ كُلَّ مَا بَعْدَهُمُ الْكَافِرُ وَيُمْنِيهِمْ أَخْذٌ بِالْيَدِ . وَكَانَ الَّذِي بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ كَالَّذِي مَضَى ، وَبِدُونِ هَذَا مَا يَتَخَدُّعُ الْأَرِيبَ وَيُسْتَتَرُّ الْعَاقِلُ وَيَعْتَقِلُ الْفَطِنُ ، فَكَيْفَ بَعْدَ لَفِكْرَةٍ لَهُ ، وَلَا رَوِيَّةٍ عِنْدَهُ ؟

هذا مع كل ما يقوم في قلوبهم من حَسَدِ أَهْلِ النِّعَمِ ، وَمَنَافَسَتِهِمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَتَقَطُّعِهِمْ حَسَرَاتٍ فِي إِثْرِ مَا خُصُّوا بِهِ ، وَأَنَّهُمْ إِنْ لَا يَكُونُوا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَحَقَّ بِذَلِكَ ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ .

وَلَمْ يَزَلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ أَنْ تُفْضِيَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ مَاذَا عُنُقُهُ ، مُوجِّهًا هِمَّتَهُ إِلَى أَنْ يُؤَلِّيَهُ اللَّهُ أَمْرَ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ وَيَمْلِكَهُ حَرْبِهِمْ ، وَيَجْعَلَهُ الْمُقَارِعَ لَهُمْ عَنْ دِينِهِ ، وَالْمُنَاجِزَ لَهُمْ عَنْ حَقِّهِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَأْلُو فِي ذَلِكَ حِرْصًا وَطَلَبًا وَاحْتِيَالًا ؛ فَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا بَنِي ذَلِكَ لَضَمَّنَهُ بِهِ ، وَصِيَّانَتِهِ بِقَرْبِهِ ، مَعَ الْأَمْرِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ وَآثَرَهُ بِهِ ؛ وَرَأَى أَنْ شَيْئًا لَا يَفِي بِقِيَامِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الْأَمْرِ .

فَلَمَّا أَفْضَى اللَّهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافَتِهِ وَأَطْلَقَ الْأَمْرَ فِي يَدِهِ ، لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَلَا أَخَذَ بَقَلْبِهِ مِنَ الْمَعَاجِلَةِ لِلْكَافِرِ وَكَفَرَتِهِ ، فَأَعَزَّهُ اللَّهُ وَأَعَانَهُ اللَّهُ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ وَتَيْسَّرِهِ ، فَأَعَدَّ مِنْ أَمْوَالِهِ أَخْطَرَهَا ، وَمِنْ قُودَادِ جَيْشِهِ أَعْلَمَهُمْ بِالْحَرْبِ وَأَنْهَضَهُمُ بِالْمُعْضَلَاتِ ، وَمِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَبْنَاءِ دَعْوَتِهِ وَدَعْوَةِ آبَائِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ

عليهم - أحسنهم طاعة ، وأشدّهم نكايه ، وأكثرهم عدّة . ثم أتبع الأموال بالأموال ، والرجال بالرجال ، من خاصّة مواله وعدّد غلماناه ، وقبل ذلك ما أتكل عليه من صنّع الله جلّ وعزّ ، ووجه إليه من رعيته . فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين ؟ ألم يكذب الله ظنونهم ، ويشفّ صدور أوليائه منهم ؟ يقتلونهم كيف شاءوا في كل موطن ومعترك ، مادامت عند أنفسهم مقاومة .

فلما ذلّوا وقتلوا وكرّها الموت ، صاروا لا يترءون إلا في رؤوس الجبال ومضايق الطرّق وخلف الأودية ومن وراء الأنهار ، وحيث لاتناهم الخيل ، حصنا للطولة وانتظاراً للدوائر ، فكادهم الله عند ذلك وهو خير الكائدين ، وأستدرجهم حتى جمعهم إلى حصنهم معتصمين فيه عند أنفسهم ، فجعلوا اعتصامهم حين لهم ، وصنّع لأوليائه وإحاطة منه به تبارك وتعالى ، فجمعهم وحصرهم لكي لا تبقى منهم بقية ولا ترجى لهم عاقبة ، ولا يكون الدين إلا لله ، ولا العاقبة إلا لأوليائه ، ولا التمس والتكس إلا لمن خذله .

فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم ، سلّطهم الله عليهم كيّد واحدة ، يخطفونهم بسيوفهم ، وينتظمونهم برماحهم ، فلا يجيدون ملجأ ولا مهرباً ، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحرّمهم وصيروا الدار دارهم والمحلة محلّتهم ، والأموال قسماً بينهم ، والأهل إماءً وعبيداً . وفوق ذلك كلّ ما فعل بهؤلاء وأعظامهم من الرحمة والثواب ، وما أعدّ لأولئك من الخزي والعقاب ؛ وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسليم من ذلّ الغلبة ، ولا فيمن نجح فعاين في الحياة بعض العوض ، ولا فيمن أصيب ، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه ، لكنه سبحانه وتعالى أطلقه وسدّ مذهباه ، وتركه ملدداً بين الدلّ والخوف ، والغصة والحسرة ، حتى إذا ذاق

طعم ذلك كله وفهمه ، وعرف موقع المصيبة ، وظنَّ مع ذلك كله أنه على طريق
 من النجاة ، فأضرب الله وجهه ، وأعمى بصره ، وسدَّ سبيله ، وأخذ بسمعه وبصره ،
 وحازه إلى من لا يرقُّ له ، ولا يرى لمصرعه ، فأمثل ما أمر به الأفشين (حيدر بن
 طاوس) مولى أمير المؤمنين في أمره ؛ فبثَّ له الجبال ، ووضع عليه الأرصاد ،
 ونصب له الأشرار حتى أظفره الله به أسيراً ذليلاً مؤثقاً في الحديد ، يراه في تلك
 الحالة من كان يراه رباً ، ويرى الدائرة عليه من كان يظنُّ أنها ستكون له . فالحمد لله
 الذى أعزَّ دينه ، وأظهر حجته ، ونصر أوليائه وأهلك أعداءه ، حمداً يقضى به الحق ،
 وتتمُّ به النعمة ، وتتصل به الزيادة . والحمد لله الذى فتح على أمير المؤمنين وحقَّق
 ظنَّه ، وأنجح سعيه ، وحاز له أجر هذا الفتح ودُّخره وشرَّفه ، وجعله خالصاً لتمامه
 وكماله بأكل الصنع وأحسن الكفاية ، ولم يربوساً فيه ما يقضى عينه ، ولا خلا من
 سرور يراه ، وبشارة تتجدد له عنه ، فما يدري أمير المؤمنين ما متع فيه من الأمل ،
 أو ما ختم له من الظفر ؛ فالحمد لله أولاً ! والحمد لله آخرأ ! والحمد لله على عطاياه التى
 لا تحصى ، ونعمه التى لا تُنسى ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب من هذا الضرب ، كتب به أبو سعيد العلاء بن موصلاً عن
 القائم بالله ، إلى عضد الدولة « ألب أرسلان » إلى مسعود بن محمود صاحب غزنة
 من أوائل بلاد الهند ، بالبشارة بالنصر على البساسيري وهو .

أما بعد ، فالحمد لله منير الحق ومبديهِ ، ومبير الباطل ومُردِّيه ؛ الكافل بإعزاز
 حربه ، وإذلال حربه ، المؤيد في نصرته دينه خصب الدهر بعد إحماله وجديه ،
 الناظم شمل الشرع بعد شتاته وتفريقه ، الحاسم داعي الفساد بعد استيلائه وتطرقه ،
 ذى المشيئة النافذة الماضيه ، والعزة الكاملة الوافرة والعظمة الظاهرة البادية ،

والبراهين الرائعة الرائقة، والدلائل الشاهدة بواحدانيته الناطقة؛ حمدا لا انتهاء
لأُمِّهِ، ولا إحصاء لعدده. والحمد لله الذى آخِصَّ محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته
وَحَبَّاهُ، وأولاده من كرامته ما حاز له به الفضل وَحَوَّاهُ؛ وبعثه على خيرِ قَترَةٍ
من الرُّسل، وخلاء من واضح السُّبُل؛ بفاهد بن أطاعه من غَصَّاهُ، وبلغ في الإرشاد
أقصى غايته ومداه؛ ولم يزل مُبْشِياً أعلام الإعجاز، ومُلهِّقا الهوادي بالاعجاز؛
إلى أن دخل الناس في الدين أفواجا، وسلكوا في نصرته جدداً واضحاً ومنهاجا؛
وغدت أنوار الشرع ضاحكة المبَّاس، وأثارُ الشُّرك واهية الدعائم؛ ومناهل الهدى
عذبة صافية. فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المنتخبين وخلفائه
الأئمة الراشدين، وسلم تسليماً. والحمد لله الذى أصار إلى أمير المؤمنين من ثراث النبوة
ما استوجبه واستحقَّه، وأثار لديه من مطالع الجلال ما تملك به الفخر وأسترقَّه؛
ومنحه من حُسن التمكن والإظفار، وإجراء الأفضية على مُرادِه والأقدار؛ ماردٌ
صَرَفَ الدهر عن حوزته مَقُولَ الحَدِّ، ومَدَّ باع مجده إلى أقصى الغاية والحَدِّ؛
وحَمَّى سَرَبَ إمامته من دَواعِي الخوف والحذر، ووقى مَشْرَبَ خلافته من عَوادي
الرَّيق والكدر؛ وجعل معالم العدل في أيامه مُشْرِقة الأوضح والمُجْول، مُفْتَرَّة النواجد
عن الكمال الضافي الأهداب والذُّيول؛ مُؤَذِّنَةً باستقرار أمداد السعادة، واستمرار
الأحوال على أفضل الرِّسم والعادة؛ وهو يستدِime من لطيف الصُّنع وجميله،
ووافي الطَّول وجَزِيلَه؛ ما يَزِيدُ آراءه سَداداً ورشاداً، وأرُومة عِزِّه اتِّساعاً وأمتداداً؛
ومجاري الأمور لديه اتِّساقاً على المراد وأطراداً؛ وماتوفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه
يتوَكَّلُ وإليه يُنِيبُ ! .

ومعلوم ما أعتمده شاهنشاه المعظم بعد مسيره إلى العراق، في الجيوش التي يضيق
بها الفضاء، ويَجْرَى على مرادها القضاء؛ قاصداً تلبية الدعوة، وخاضداً شوك كلِّ

(١) مَنْ سَدَّ عَنْ الدِّينِ أَسْبَابَ الْمَضَرَّةِ وَالْمَعْرَةِ ، وَمَعْتَمِدًا مَاحِي حَوْزَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الشُّوَابِّ الْمُعْتَرِضَةِ ، وَحَوَى أَقْسَامَ الْفَخَّارِ فِي آتِبَاعِ شُرُوطِ الْخِدْمَةِ الْمُتَرَتِّمَةِ الْمُفْتَرَضَةِ ، مِنْ الْمُبَادَرَةِ لِلْكَيْسِ اللَّعِينِ الْبَسَاسِيِّ وَلَفِيفِهِ الْخَذَائِلِ ، مَدْرِعًا مِنَ الْإِعْتِضَادِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَقْوَى الْجُنَنِ وَأَسْبَغَ السَّرَابِيلَ ، لِيَطْهَرَ الْأَرْضَ مِنْ دَنَسِ كُفْرِهِمْ ، وَيُوقِرَ الْجَدَّ فِي فَضْمِ حُدُودِهِمْ وَحَسْمِ كَيْدِهِمْ ، فَأُطْلَّ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ مُتَطَلِّبًا مِنْ أُلْجَاءِ حِذْرِهِ إِلَى الْإِمْعَانِ فِي الْهَرَبِ ، وَقَطَعَ كُلَّ أَخِيَّةٍ وَسَبَبَ ، وَمَعْتَزَمًا الْإِنْتِمَاءَ إِلَى مِصْرَ لَا تَنْتَرِعُهَا وَبَقِيَّةِ الْأَعْمَالِ ، مِنْ أَيْدِي أَحْلَافِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ ، وَقَرَّبَ الْأَمْرَ فِيمَا حَاطَهُ مِنْ ذَلِكَ وَرَامَهُ ، اعْتِمَادُهُ فِيهِ صُنُوفَ التَّجَدُّدِ وَأَقْسَامَهُ ، فَأَعْتَرَضَهُ مِنْ عِصْيَانِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ آلِ وَعَقُوقِهِ ، وَخُرُوجِهِ عَنْ زُمْرَةِ أَبْنَاءِ الطَّاعَةِ وَمُرُوقِهِ ، بِإِفْسَادِ اللَّعِينِ لِيَأْهُ ، وَإِحَالَتِهِ بِمَكْرِهِ عَنْ مَنَاجِي هُدَاهُ ، مَا أَحْوَجَهُ إِلَى تَرْكِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ وَالْحَقَّ بِأَثَرِهِ حَذَارًا مِنْ أَسْتَفْجَالِ خَطْبِهِ ، وَبِدَارًا إِلَى قَلِّ حُدُودِهِ وَغَرْبِهِ ، فَعَادَ ذَلِكَ بِتَجَمُّعِ الْأَعْدَاءِ وَأَحْتِشَادِهِمْ ، وَسُلُوكِهِمْ الْحِجَّةَ الَّتِي خُصُّوا فِيهَا بِعَدَمِ تَوْفِيقِهِمْ وَرَشَادِهِمْ ، وَإِقْدَامِهِمْ عَلَى فَضْلِ الْإِمَامَةِ الْمَكْرُمَةِ بِالْمَحَارِبَةِ ، وَأَطْرَاحِهِمْ فِي مَنَابَذَتِهَا حُكْمَ الْأَحْتِشَامِ وَالْمِرَاقِبَةِ ، وَوُقُوعِ التَّظَاوُفِ عَلَى الْمَجَاهِرَةِ بِخِلَافِهَا ، وَالتَّظَاهُرِ بِشِعَارِ أَشْيَاعِ الْغَوَايَةِ وَأَحْلَافِهَا ، بِجَرَأَةٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِزَالًا لِعِقَابِهِ ، وَأَطْرَاحًا لِمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْجَنَائِدُ الْعُظْمَى مِنْ تَوَقُّعِ الْعَذَابِ وَارْتِقَائِهِ ، وَأَدْرَاعًا لِمَلَابِسِ الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَآتِبَاعًا لِدَاعِي الضَّلَالَةِ الْمَغْنُوِيَةِ فِي الْبَدءِ وَالْخَاتِمَةِ ، فَاقْتَضَى حُكْمُ الْأَسْتِظْهَارِ الْإِنْتِقَالَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ - بِمَدِينَةِ السَّلَامِ - إِلَى (حَدِيثُهُ عَنْهُ) لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْتِنَاعِ الْجَانِبِ وَشِدَّةِ الْحَصَانَةِ ، إِلَى أَنْ أَسْفَرَ خَطْبُ شَاهِنْشَاهِ رُكْنِ الدِّينِ - أَمَعَ اللَّهُ بِهِ - عَنْ إِدْرَاكِ الْمَطَالِبِ ، وَتَيَسُّرِ الْمَصَاعِبِ ، فَعَادَ بِنُصْرَةِ الدَّوْلَةِ الْعَبَاسِيَّةِ الْإِمَامِيَّةِ الْقَائِمَةِ مُسْتَنْفِدًا فِي ذَلِكَ أَقْسَامَ الْوُسْعِ

والاجتهاد ، ومستنجدا بمَعُونَةِ الله تعالى على إبادة الكُفْرِ بِصُنُوفِ القِرَاعِ والجِهَادِ ؛
ولم يزل ساعيا في إزالة العار ، وانتزاع المغتصَبِ وأرتجاع المستعار ؛ إلى أن صدَّقَ
الله تعالى الأملَ وحَقَّقَهُ ، وأصْفى مَنَهْلَ العِزِّ من كل ما شابهُ ورَقَّه ؛ وأطلع شمسَ
الحقِّ بعد غروبها ، ومنَّ بَخْضِ شوكَةِ الباطلِ وفَلَّ غروبها .

وعاد أمير المؤمنين إلى دار مُلكِهِ ومَقَرِّ مَجْدِهِ في يوم كذا ضافيةً على راياته
جَلَابِيبُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، جاريةً على إرادته تصاريْفُ القِضَاءِ والقَدَرِ ، يَمُنُّ نَقِيبَةً
شاهنشاه الذي أدَّى في الطاعة الفَرَضَ الواجب ، وتمسَّك من المُشَايَعَةِ بأفضل ما تُضَمُّ
عليه الرُّوَابِجُ ؛ وَعَدَا للدولة عَضْداً مُوَفِّياً على الأمثال ، في دَفْعِهِ عن الإسلام وذَبِّهِ ،
ومتقَمِّصاً للجَلَالِ ، بِحُسْنِ إخلاصِهِ في حَالَتِي بَعْدِهِ وَقُرْبِهِ ؛ وما زالت تَقَّةُ أمير المؤمنين
مستَحِكِمَةً بالله تعالى عند ما أَلَمَّ به من تلك الحال ، ودَهَمَ من الخَطْبِ المحتَفِّ به
سَطْوَةُ الاِشْتِدَادِ والاستِفْحالِ ؛ في إجرائِهِ على ما أَلْفَهُ من النَّصْرِ والإِعْزَازِ ، وإظهارِ
آلائِهِ في تَأْيِيدِهِ والإِعْجَازِ ؛ إذ لم يَكُنْ مَاعِرَّاهُ آسَعَادَةُ للحَقِّ المُسَلِّمِ اليه ، والمَوْهَبَةُ التي
ضَفَّتْ جَلَابِيبُهَا عليه ؛ بل جعل الله ذاك إلى آمْتِحَانِ صَبْرِهِ سَبِيلاً ، وعلى وَفُورِ أَجْرِهِ
دَلِيلاً ، وبِإِبَادَةِ كل ناعِقٍ في الفتنَةِ كَفِيلاً ؛ لِتَرْدَادِ أنوارِ عُلَاهِ نَصَارَةِ وَحُسْنِ ، وأَعْلَامِ
جَلَالِهِ سَعَادَةٍ وَيُمْنًا ، ورباعُ عِزِّهِ سُكُونًا وَأَمْنًا ؛ لُطْفًا مِنْهُ جَلَّتْ آلاؤُهُ في ذلك وَمَنَّا .
وتلا هذه النعمة التي جَدَّدَتْ عُهُودَ الشَّرْعِ وافِيَةَ النَّصَارَةِ ، وأزالت عن الدِّينِ
مفاسِدَهُ العَارِضَةَ وَمَضَارَهُ ، ما سَهَّلَهُ اللهُ وَهَنَاهُ ، وأَجْزَلَ بِهِ صَنِيعَهُ الجَزِيلَ وَأَسْنَاهُ ؛
من ظَفَرَ السَّرَايَا التي تورَّدَها لِاصْطِلَامِ اللُّعْنَاءِ وَاجْتِيَا حِمِّهِمْ ، وحسم فسادِهِمْ وهدم
عراصِهِمْ ؛ وإخماد ما أضرَّمُوهُ من نارِ الشَّرْكِ وشَبَّوهُ ، وإبطال ما أَدَّخَلُوهُ من رِسمِ
الجَوْرِ وَسَنُوهُ ؛ وَأَفْضَى الحَالُ إلى النَّصْرِ على الأعداء من كل جانب ، وقَهَرَ كُلَّ مَنْحَرِفٍ
عن الرِّشَادِ وَمُجَانِبٍ ، وحلولِ التَّأْيِيدِ على الرايات المنصورةِ العباسِيَّةِ التي لم تزل مَكْنُوفَةً

على صَرف الدهر أشياعها وأنصارها ؛ وإجلاء الحرب عن قتل اللعين البساسيري
وأخذِ رأسه ، وتكذيب ظَنِّه في آحترازه من طوارق الغيرِ وأحتزاسه ، وإراحة الأرض
وأهلها من دَنَسه وُعْدوانه ؛ وكون من ضامه من طبقات العرب والأكراد والأترك
البغداديين والعوام بين قَتيلٍ مُزملٍ بدمه ^(١) ، وأسيرٍ تلقى المنون بغُصة أسفه ونَدَمه ،
وصريعٍ في بَقِيَّة من ذَمائِه ^(٢) ، وهاربٍ والطلبُ واقعٌ من ورائه . فانجز الله وعده في هذا
المارق ، والعبدِ الآبق ؛ الذي غزاه إمهالُ الله تعالى إياه فَنَسِيَ عواقب الإمهال
في الغَوَايه ، والإمهالِ في الطُّغيان إلى أقصى الحدِّ والغايه ؛ وحملَ رأسه إلى الباب
العزیز فتقدَّم بالتطواف به في جانبي مدينة السلام وشهره ، إبانته عن حاله وإيضاحا
لحليَّة أمره ؛ وكفَى ما يوجبُه إقدامُه على العظائم التي عِلِمَ الله تعالى سوءَ مصيرها
ومآلها ، وحُرِمَ الرشد في التمسُّك والتشبُّث بأذيالها ؛ وتلك عاقبة من بغى وأعتدى ،
وأُتْرِرَ بالغدر وأرتدى ، وأمعن في الضَّلَّة وأعتدى . والحدُّ واقع من بعد في المسير
للاحتواء على بلاد المخالفين الدانِيَةِ والقاصِيه ، والأخذ مع مشيئة الله تعالى بنواصي
كل فئةٍ طاغيةٍ عاصيه .

فالحمد لله على هذه المنحة التي بشرت الإسلام بجبركسره ، وأنقذت الهدى من
ضيق الكُفْر وأسره ؛ وأبدت نجوم العدل بعد أن أفلت وغارت ، وأردت شيعة
الباطل بعد أن أعتدت على الحقِّ وأغارت ؛ وهو المسئول صِلَتها بأمدادٍ لها تقضى
إذ ذاك سائر الأغراض وبلوغها ، وتقضى بكمال رائق الآلاء وسُبُوغها .

(١) أى بالراء المهملة بمعنى ملطخ قال الشاعر :

ان بنى رسولون بالدم * شنتنة أعرفها من أخزم

(٢) الدماء بالذال المعجمة والماء ببقية النفس .

أَقْتَضَى مَكَائِكَ - أَمَتِ اللَّهُ بِكَ - مِنْ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي وَطَّأَ لَكَ مَعَاقِدَ الْعِزِّ وَهَضَابَهُ ، وَكَلَّ لَدَيْكَ دَوَاعِيَ الْفَخْرِ وَأَسْبَابَهُ ؛ وَنَحَلَّكَ مِنْ إِيْجَابِهِ الَّذِي وَصَلَتْ بِهِ إِلَى ذِرْوَةِ الْعِلَاءِ ، وَصُلَّتْ عَلَى الْأَمْثَالِ وَالنُّظَرَاءِ ، إِشْعَارَكَ بِمَا جَدَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي غَدَّتِ السُّعُودَ بِهَا جَمَّةَ الْمَنَاهِلِ ، سَامِيَةَ الْمَرَاتِبِ وَالْمَنَازِلِ ؛ لِنَأْخُذَ مِنْ حِظِّهِ بِهَا ، وَالشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ فِيهَا بِالْقِسْمِ الْأَوْفَى ؛ كِفَاءً مَا يُوجِبُهُ وَلَاؤُكَ الَّذِي أَمْتَطَيْتَ بِهِ كَاهِلَ الْمَجْدِ ، وَأَصْطَفَيْتَ بِهِ كَامِلَ السَّعْدِ ، وَكَوْنَكَ لِدَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَهَابًا مُمَشِّقًا فِي الْحَنَادِسِ ، وَصَفِيًّا الرَّافِلِ مِنْ إِخْلَاصِ مُشَايَعَتِهَا فِي أَنْفِرِ الْحُلَلِ وَالْمَلَابِسِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُحِيلُكَ ، مِنْ كُلِّ مَا تَسْتَدِرُّ بِهِ أَخْلَافَ مَعَالِيكَ ؛ وَلَا يَعْدُمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ السَّيِّرُ ، الرَّشِيدُ الْعَقِيدَةُ وَالسَّرِيرُ ، الشَّدِيدُ الشَّاكِلَةُ وَالْوَتِيرُ .

هَذِهِ مَنَاجَاةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَكَ ، أَجْرَاكَ فِيهَا عَلَى مَا عَوَّدَكَ مِنَ التَّجَمُّلِ وَالْإِكْرَامِ ، وَحَبَاكَ فِيهَا بِمَا هُوَ مَبَشِّرُكَ بِالسَّعَادَةِ الْوَاقِيَةِ الْأَصْنَافِ وَالْأَقْسَامِ ؛ فَتَلَقَّهَا بِالْجَدَلِ وَالْإِسْتِبْشَارِ ، وَوَاصِلْ شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ حَسَنِ مَجَارِي الْأَقْضِيَةِ وَالْأَقْدَارِ ؛ وَطَالِعْ حَضْرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْبَائِكَ ، وَتَابِعْ إِنْهَاءَ مَا يُتَشَوَّفُ نَحْوَهُ مِنْ تَلَقُّائِكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثاني

(أَنْ يَتَّخِذَ التَّحْمِيدَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ ، وَهُوَ أَقْلُ وَقُوعًا مِنَ الضَّرْبِ الَّذِي قَبْلَهُ)
وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كتب به أبو إسحاق الصابى عن « المطيع لله » إلى بعض ولاة الأطراف ، عند طاعة عبد الملك بن نوح أحد ملوك بنى ساسان ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الوليّ بالاستحجاد ، المستحقّ لِكُنْه الإعتباد ، القدير على تأليف الأجساد ، البصير بسبل خفايا الأحقاد ، ذى الحكمة فى تبديل الضغن والسّخيمة ذمّه ، والمناذرة عِصمه ، والقطعية وصله ، والشّحناء خلّه ، والحرّج فرجه ، والشّعث نضارة وبهجه . الذى جعل الصّلح فتحاً هنيئاً ، والسّلم منجاً بهياً ، والمؤادعة منّا جريلاً ، والإرعاء أمناً جميلاً ، والإقالة حرماً لا يضلّ هداة ، ولا تُحسّل قواه ، ولا تخيب عواقبه ، ولا تخفى مأثره ومناقبه ، رافّة منه بالخلق ، وصيانة لأهل الحقّ ، وإمهالاً فى العهد ، ورخصة فى الاختصار دون الحدّ ، ليقرب فيئة المتأمل ، ويسهل رجعة المتحصل ، وتسرع رفاهية المستبصر ، وينخفّ أجتهد المزاويل المشمر ، وقد قال الله عزّ وجلّ ((والصّلح خير)) وهو المسئول عمارة الإسلام بالسلامة ، والأناصم بالاستقامة ، والسلطان بالطاعة ، والملك ^(١) بيجوع الجماعه ، حتى لا تزال الفتنة مهيةة الجناح ، مريشة الاجتياح ، فليلة الشّباة ، قليلة الأدوات ، فتكون النفوس واحده ، والأيدى مترافده ، والمودات صافيه ، والمآرب متكافيه متضاهيه ، فى الشكر الذى يناد به عن النفوس ، ويمجى به حريم الدين ، ويرجى معه التأييد ، ويبتغى بوسيلته المزيّد ، فقد قال الله - وقوله الحق - : ((لئن شكرتم لأزيدنكم)) والله سميع مجيب . وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل !

وقد علمت مافرط من نوح بن نصر فى السهو ، ونقيم منه فى الهفو ، الذى ألهاه عن التقوى ، وأنساه شيمة الرّقى ، فعدل عن سنن القصد ، وزاغ عنه على عمد ، وحال عن آداب آباءه رحمهم الله وهم القدوة ، وسجايهم وبهم الأسوة ، وما كان ينتمى به من الولاء ، ويعتري إليه من الوفاء ، وصار أدنى معنى ممن يحسده على كرم الأصل ، وينافسه فى شرف المحل ، ويدخل على عقله مدخل النصيحة ، ويطلع

(١) أى اقيادها يقال بجع لى بالحق بجوعا انقاد وبذله .

بظاها على آرائه الصريحة؛ وكل ذلك إلحادٌ في أمير المؤمنين وعهده، ومُروق
عن أزمته، وعقوقٌ بالبرية يشقُّ به الباقي، ولن يشقُّ به النازح الماضي. فإن
أمير المؤمنين مازال وإعياً لأوامر سلفه، عارفاً بما أثر خلفه؛ متجافياً لأولئك عما
أبتدعه، متنوّياً لهذا التجاوز عما صنعه؛ فقد كان نُمى إلى أمير المؤمنين أن عبد الملك
أبْن نوح مولى أمير المؤمنين سليم السريه، سديد البصيرة؛ يرجع إلى رأيه وتدبيره،
ولم يجد وشمكير بن زنار، عاجله بالبوار؛ مساعاً إلى ختله، ولا احتيالا في ليه وقته؛
وكان لعبد الملك ركن الدولة بن مالك مولى أمير المؤمنين ظهير صدق، إن وسن
أيقظه، وإن مادأيده؛ خلّة فضل فطره الله عليها، وغريزة تميز أحسن الله إليه فيها؛
فإنه لو قال أمير المؤمنين: إنه لا مثل له استحق هذا الوصف. ولأمن أمير المؤمنين
فيه الخلف. ترك لباس أبيه فزعه، وأعتاض منه وخلعه؛ وتتصل مما كان منه
منتهكا، فعاد عليه محتكا؛ وأتى الأمر من طريقه، ولجأ فيه إلى فريقه؛ ركن الدولة
أبى على مولى أمير المؤمنين، أحسن الله ولايته، ومُعز الدولة أبى الحسين تولى الله
معونته، وأستصلحهما، وكفى، وأستخلصهما، وغنى؛ وراسل في الإنابة وإن لم
يكن حائداً، والاستقالة وإن لم يكن جانبا؛ فما ترك ركن الدولة ومعز الدولة -
كلاهما الله - إكبار قدره، وإجلال أمره؛ والقيام بخلاصه، والنطق عن أمير المؤمنين
بلسان مشاركته؛ وإذكار أمير المؤمنين بما لم ينسَه من تلك الوثائق، التي صدر بها
كتابه، والعلائق، التي وُثِّق بها خطابه؛ إلى أن أجلّ أبا محمد نوحاً وترحم عليه، وقيل
عبد الملك وأحسن إليه؛ وواصل رُسله، وأستمع رسائله؛ وقلده خراسان ونواحيها،
وسائر الأعمال الجارية فيها، وعهد إليه في ذلك عهداً وميزه باللواء، والخلع والحباء؛
بعد أن كتّاه بلسانه، ووفاه حدود إحسانه؛ وألحقه في ذلك بآبائه، ولم يقصر فيه
بشأوه. وكتب أمير المؤمنين هذا وقد أطردت الحال وأستوثقت، وأمتزجت الأهواء

وَأَتَّفَقْتُ ؛ وَخَلَا الْمَشْرِقُ مِنَ الْأَضْطِرَابِ الَّذِي طَالَ أَمْدُهُ ، وَلَمْ يَكْدُرْ أَمْرُهُ ؛ وَصَارَتْ الْعَسَاكِرُ الدَّانِيَةُ وَالنَّائِيَةُ قَوْضَى لَا تَمْتَّازُ ، وَلَا تُتَفَرَّدُ وَتَتَحَازُ ، وَذَلِكَ صَنَعَ اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمْعِ الشَّتَاتِ ، وَتَلَا فِي الْهَنَاتِ ، وَأَمَّ حَلَّ التَّخَاذُلِ ، وَمُدَاوَاةِ نَقْلِ الدَّخَائِلِ ؛ لِتَمَّ الْكَلِمَةُ فِي وِلَايَتِهِ ، وَتَعَمَّ النِّعَمُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا يَكُونَ لِلشَّيْطَانِ سَبِيلٌ عَلَى شِيعَتِهِ ، وَلَا طَرِيقٌ إِلَى مَكِيدَةِ أُنْبَاءِ دَعْوَتِهِ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فَاحْمَدِ اللَّهَ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الَّذِي تَطَوَّقَ بِهِ الْمِقْدَارُ ، وَانْخَبَرَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ ؛ مِنَ الْفَتْحِ الَّذِي لَمْ يُغْضِهِ تَعَبٌ ، وَلَمْ يَكْذُرْهُ عَنَاءٌ وَلَا نَصَبٌ ؛ فَإِنَّهُ تَأْتَى سَهْلًا ، وَآتَى رِسْلًا ؛ وَأَبْتَدَأَ عَفْوًا ، وَانْتَهَى خَالصًا صَفْوًا ؛ فَقَدْ قَعَّ اللَّهُ بِهِ الْعَنْدَةَ ، وَجَمَعَ بَتَيْتَهُ الْعَبْدَةَ ؛ وَأَذَنَ عُقْبَاهُ بِالسَّعَادَةِ ، وَبَشَّرَ فِي سِيَمَاهُ بِاتِّصَالِ الْمَادَةِ ؛ وَأَنْزَلَ أَبَا الْفَوَارِسِ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ نُوحٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَنَزَلَةً مِنْ رَأَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلًا لِلْوُدُوعَةِ ، وَأَمَنَهُ عَلَى الصَّنِيعَةِ ؛ وَرَتَّبَهُ مَرْتَبَةَ الْمُسَبِّحَةِ ، وَاسْتَحْفَظَ اللَّهُ حَسَنَ الْمَوْهَبَةِ بِهِ ، وَمَا قَدْ تَجَدَّدَ بَيْنَ أَبِي الْفَوَارِسِ وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْإِتِّحَادِ ، الْمُتَوَلَّدِ عَنِ الْإِغْتِبَاطِ وَالْإِعْتِدَادِ ؛ فَقَلَّ مِنْ شَاقِّهِمَا فَلَمْ يَنْدَمْ ، وَتَمَزَّدَ عَلَيْهِمَا فَلَمْ يُكَلِّمْ ؛ وَتَمَسَّكَ بِهِمَا فَلَمْ يَتَّسَعِدْ ، وَارْتَبَعَ أَكْفَاهُمَا فَلَمْ يُوْعَدْ ؛ وَأَجَبَ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ بِوَصُولِهِ إِلَيْكَ ، وَمَوْقِعِ مَتَضَمِّنِهِ لَدَيْكَ ؛ وَمَا يُجِدُّهُ لَكَ مِنَ الْجَدَلِ ، وَأَنْفَسَاحِ الْأَمَلِ ؛ مَوْفَقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(أَنْ لَا يَعْقُبَ الْبَعْدِيَّةَ تَحِيدٌ ، بَلْ يَقَعُ الشَّرُوعُ عَقِبَهَا فِي الْمَقْصُودِ)

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كَتَبَ بِهِ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي عَنْ الطَّائِعِ اللَّهِ إِلَى مِنْ بَصْحَارٍ وَسَوَادِيهَا ، وَجِبَالِ عُثْمَانَ وَأَعْمَالِهَا ، وَحَاضِرَتِهَا وَبَادِيَتِهَا ، بِالْأَمْرِ بِالْإِجْتِمَاعِ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَهِيَ :

أما بعد، فإن أمير المؤمنين للذى حمّله الله من أعباء الإمامة، وأهله له من شرف الخلافة، وأستودعه من الأمانة في حياة المسلمين، والاجتهاد لهم في مصالح الدنيا والدين؛ يرى أن يُراعى من بعد منهم ونأى، كما يُراعى من قرب ودنا، وأن يلاحظ جماعتهم بالعين الكالية، ويطلبهم بالعين الوافية؛ ويتصفح ظواهر أمورهم، وبواطن دواخلهم؛ فيحمد من سلك نهج السلامة، ويرشد من عدل عن الاستقامه؛ وينظم شمل الجماعة على الألفة التي أمر الله بها وحض عليها، ويزيلهم عن الفرقة التي ذمها ونهى عنها؛ إذ يقول جل من قائل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فلا يزال أمير المؤمنين يعترفهم ما أقرض الله عليهم من طاعة الأئمة وأولى الأمر الذين لا عصمة لمخالفهم، ولا ذمة لمعايديهم؛ ولا عذر لمسلم ولا معاهد نأى بجانبه عنهم، وضلّ بوجهه عن سبيلهم؛ إذ كان الإمام حجة الله على خلقه، وخليفته في أرضه؛ وكانت الطاعة واجبة له ولبن قلده أئمة أموره، وأستتابه في حمل الأعباء عنه؛ فمن آتس منه الهداية أحمده، ومن أنكر منه الغواية أرشده بالوعظ ما أكتفى به، أو بالبسط إن أحوج إليه. وإن أمير المؤمنين يسأل الله أن يوقفه للرأى السديد، ويمدّه بالصنع والتأييد؛ ويتولاه بالمعونة على كل ما لم الشعث، وسدّ الخلل، وقوم الأود وعدل الميل؛ وأحسن العائدة على المسلمين جميعا في شرق الأرض وغربها، وسهلها وحرثها؛ إنه بذلك جدير، وعليه قدير؛ وماتوفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُتّيب.

وقد علمتم أن أمير المؤمنين أحسن إلى الرعية بما كان فوضه إلى عضد الدولة وتاج الملة - رحمه الله عليه - من سياستهم باديا، ثم أحسن باستخلاف عديله وسليله ضمّام الدولة وشمس الملة ثانياً؛ إذ كان خيرة أمير المؤمنين وصفوته، وحسامه ومجنّه؛ والمؤرد المصدّر عنه بالعهدين المستمرين: من أمير المؤمنين بالنص عليه، ومن

الوالد رحمه الله بالوصية إليه . وإن هذه العقود المؤكدة ، والعهود المشددة ؛ موجبة على الكافة طاعة من حصلت له ، أو استقرت بوثائقها في يده ؛ إذ لا يصح من حاكم حكم ، ولا من عاقد عقد ، ولا من وإل إقامة حد ، ولا من مسلم تأدية فرض حتى يكون ذلك مبنياً على هذا الأصل ، ومداراً على هذا القطب ، وإن كان خارج عنهما وراض بخلافهما ، خرج من دينه ، أثم بربه ، برى من عصمته ؛ وأتم من بين الرعية فقد خصصتم سالفاً بحسن النظر لكم ، وعرفت الطاعة الحسنة منكم ؛ فتقابلت النعمة والشكر ، تقابلاً طاب به الذكر ، وانتظم به الأمر ؛ ثم حدثت الهفوة المعترضة قبيل ، فكان أمير المؤمنين موجباً للمعاقبة الموجبة على الجاهل الموضع في الفتنة ، والمُعاتبة الممضة على الحكيم منكم القاعد عن النصرة ؛ إلى أن وردت كتب أستاذهم من بن الحسن ، حاجب صمصام الدولة ، باستمراركم على كلمة سواء ، في نصرة الأولياء ، والحماية دونهم ؛ ومداغة الأعداء والمُراماة لهم ؛ فوقع ذلك من أمير المؤمنين أحسن مواقع ، ونزل لديه ألطف منازله ؛ وأوجب لكم به رضاه المقتَرَن برضا الله سبحانه ، الموجب للقربة والرفق عنده ؛ وأمير المؤمنين يأمركم بالدوام على ما أتم ، والثبات على ما استأنفتم ؛ والمبادرة إلى كل ما يأمركم به فلان الوالى عليكم من صمصام الدولة بالاستخلاف والتفويض ، ومن أمير المؤمنين ، بالإمضاء لما أمضاه ، والرضا بما يرضاه ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وآتوهما فيه إلى حده ورسمه ؛ وكونوا لفلان الوالى خير رعية ، يكن لكم خير راع ؛ فقد أمر فيكم بحسن السيرة ، وإجمال المعاملة ، وتخفيف الوطأة ، ورفع المؤنة ؛ وجعل إليه عقاب المسيء ، وثواب المحسن ، ومسالمة المسالم ، ومحاربة المحارب ، وأمان المستأمن ، وإقالة المستقيل ، وحمل الجماعة على سواء السبيل ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(في الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء إلى وزراءهم)

قال في "صناعة الكتاب" : وَيُكَاتِبُ الْإِمَامُ الْوَزِيرَ أَوْ مَنْ حَلَّ مَحَلَّهُ «أُمتعني الله بك وبدوام النعمة عندى بك ، وبقاء الموهبة لى فيك» وما جرى هذا المجرى .
 وذكر في "ذخيرة الكتاب" : أن الدعاء للوزير «أُمتعنا الله بك وبدوام النعمة لنا فيك وتجديد الموهبة عندنا بك» . ثم قال : ودعا "المكتفى بالله" للقاسم بن عبد الله لما أمر بتكنيته ، وكان الكتاب بخطه «أُمتعني الله بك وبالنعمة فيك» ووقع المستنصر إلى وزيره أحمد بن الحَصِيب «مد الله في عمرك» . وهو قريب مما ذكره في "صناعة الكتاب" في ذلك كله . والذي رأيت في مكاتبات العلاء ابن موصلاً عن «القائم بأمر الله» التصدير بما فيه تعظيم الوزير وتقريطه ، من غير ضابط في الابتداء ، والدعاء في أثناء ذلك بالحيطة ثم التوصل إلى المقصد .

وهذه نسخة كتاب كتب به العلاء بن موصلاً عن القائم إلى وزيره :

لَمَّا خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الدَّوْلَةَ الْقَاهِرَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ بِأَمْتِدَادِ الرُّوْقِ ، فِي الْعِزِّ وَاتِّسَاعِ النِّطَاقِ ، وَأَجْرَى لَهَا الْأَقْدَارَ بِمَا يَجْمَعُ شَمْلَ الْحَقِّ وَيَمْنَعُ مِنْ نَفَاقِ النَّفَاقِ ؛ وَأَفْرَدَ أَيَّامَهَا بِالْبَهَاءِ الْمُنِيرِ الْأَعْلَامَ ، وَالْإِتِّهَاءَ فِي قُوَّةِ الْأَمْرِ إِلَى مَا يُتَأَدَّى فِي طَاعَتِهَا بَيْنَ الْيَقَظَاتِ وَالْأَحْلَامِ ، وَجَعَلَ الزَّمَانَ وَاقِفًا عِنْدَ حَدِّهَا فِي النِّقْضِ وَالْإِبْرَامِ ، وَتَصَرَّفًا عَلَى حُكْمِهَا فِي كُلِّ مَا حَاوَلَ مِنْ حَالٍ وَرَامَ ؛ وَمَكَّنَ لَهَا فِي الْأَرْضِ حَتَّى أَذَلَّتْ نَوَاصِيَ الْأَعْدَاءِ قَهْرًا

وَقَسْرًا، وَحَسَرْتُ عَنْ قِنَاعِ الْقُدْرَةِ عَلَى رَدِّ الطَّامِعِينَ فِي إِدْرَاكِ مَدَاهَا ظُلْمًا حَسْرَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُخْلِهَا كُلَّ وَقْتٍ مِنْ قَائِلٍ فِي نُصْرَتِهَا فَاعِلٌ، وَقَائِمٌ بِإِقَامَةِ حِشْمَتِهَا مِنْ كُلِّ حَافٍ مِنَ الْأَنَامِ وَنَاعِلٍ؛ وَرَاغِبٍ فِي الذَّبِّ عَنْ حَوَزَتِهَا سِرًّا وَجَهْرًا، وَخَاطِبٍ مِنْ خِدْمَتِهَا مَا يُرْجَى أَنْ يَكُونَ رِضَا اللَّهِ فِي الْمُقَابَلَةِ عَنْهُ أَغْلَى مَهْرًا؛ وَنَاهِجٌ جَدَدَ الرُّشْدِ فِي الْمُنَازَلَةِ عَنْهَا بِسَيْفِهِ وَقَلَمِهِ، وَفَارِجٌ لِلْكَرْبِ الْحَادِثَةِ فِيهَا بِنُطْقٍ فِيهِ وَسْعَى قَدَمِهِ .

وقد منح الله أيام أمير المؤمنين - من كَوْنِكَ الْوَلِيَّ بِمَوَاصِلَةِ الْمَقَامَاتِ الْغُرِّ فِيهَا، وَالْخَلِيِّ مِنْ كُلِّ مَا يُبَيِّنُ صِحَّةَ الْمَوَالَاةِ وَيُنَافِيهَا؛ وَالضَّمِينَ لِمَا عَادَ عَلَيْهَا بِأَسْقَامَةِ النِّظَامِ، وَالضَّمِينَ بِمَا يُوجِدُ لِلْغَيْرِ الطَّرِيقَ إِلَى وَصُولِ الْحَتْفِ إِلَيْهَا وَالْأَهْتِضَامِ؛ وَالْمُتَجَرِّدَ فِي إِمْدَادِ عِزِّهَا بِالْإِحْصَافِ وَالْإِمْرَارِ، وَالْمُتَفَرِّدَ بِإِعْدَادِ أَقْسَامِ الْمُنَازَلَةِ دُونَهَا فِي الْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ؛ وَالْبَازِلَ وَسَّعَهُ فِيمَا تَنَى إِلَيْهَا أَعْنَةَ السَّعْدِ وَلَوَاهَا، وَالْخَاذِلَ كُلَّ مُسْتَنْجِدٍ بِهَا فِيمَا يَخَالِفُ مَحَبَّتَهَا وَهَوَاهَا؛ مَا أَوْفَى عَلَى الْمَالُوفِ فِي أَمْنَالِهَا مِنْ قَبْلِ، وَصَارَ لَكَ بِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ سَلَفَكَ مِنَ الْأَعْضَاءِ التَّقَدُّمُ وَالْفَضْلُ؛ فَهِيَ - بِأَثَارِكَ الْحَمِيدَةِ فِيهَا، وَإِبْكَارِكَ الْحَدِّ فِي تَشْيِيدِ مَبَانِيهَا؛ وَكَوْنِكَ كَافِيًا أَمْرَ الْمَحَامَاةِ مِنْ وَرَائِهَا، كَافًا عَنْهَا مَا يُخْشَى مِنْ حُدُوثِ أَسْبَابِ الْفَسَادِ وَأَعْتَرَائِهَا - مَنِيْعَةٌ الْجَانِبِ مَرِيْعَةُ الْجَنَابِ، سَرِيْعَةٌ فِيهَا السُّعُودُ إِلَى مَا يَلِي نِدَاءَهَا بِأَحْسَنِ التَّلِيَةِ وَالْجَوَابِ .

ثم إنه وإن كانت زُلْفُكَ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَدِيَةِ الْمُجُحِلِ وَالْغُرِّ، غَيْرَ مُحْتَاجَةٍ إِلَى إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهَا بِمَا أَتَّضَحَ مِنْ أَمْرِهَا وَأَشْتَهَرَ، فَإِنْ فَلَانَا يُعِيدُ جِلَآءَهَا دَائِمًا فِي أَهْيِ الْمَلَابِسِ وَأَنْضَرَهَا، وَيُجِيدُ الْحَدَّ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَقَابُلِ تَحْبِيرِهَا فِي الْجَمَالِ وَمَنْظَرِهَا؛ وَيَكْشِفُ مِنْ صَفَاءِ السَّرَائِرِ فِيهَا وَالْبَوَاطِنِ، وَمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مِنْهَا فِي كُلِّ الْمَحَالِ وَالْمَوَاطِنِ؛ مَا يُسَبِّحُ فِي وَصْفِهِ وَيُعْجِبُ سَمَاعُ ذِكْرِهِ وَيُطْرِبُ .

وفى هذه التوبة عاد، وقد زاد، على المعهود من شكره وجزاه، وأبان عن صلته بالوعد فى ضمان التَّجَحُّ منك نَجَازَه؛ وأوجب على نفسه أن لا يَقف عند حدٍّ فيما يؤدى إلى نشر محامدك فى الأرض، وطىَّ الجوانح لك على الإخلاص الصادق المحض .

ولما مثَّل بحضرة أمير المؤمنين على رَسْمه الذى وسم بالجمال جبينه، وأبتسم نغره التوفيق فيه عما أصبح التَّجَحُّ أليف سَعِيهِ وقَرِينَه؛ وبحسب فوزِه من شَرَفِ الحُظُوة برتبة لم ينلها أحد الأقران له فى الزمان، وفوته شأو أبناء جنسه يوم المضمار والرَّهان؛ كفاء ما يستوجه بَعْلَاءَ قيمته فى الكمال، والغناء به فى كل مقام أمن حدٍّ مضائه فيه الكلال؛ أشار بذِكر مقاصدك التى حُرِّتَ بها من غنائم الحمد الصَّفَايا، وشاد مباني محامدك بفضل الإبانة عن السرائر والخفَايا؛ وتابع الشَّاء على كل من أفعالك التى أمسى هلاكك فيها مُقْمِراً، ووضَّح فيها كَوْنُكَ بِشُروط الإخلاص مُحِبّاً مُضْمِراً؛ وشرح من توفرك على كل قُرْبَة غرَاء تُغْرِى الألسنة بحمدك، وتُنبئ عن حُسْنِ مقصدك برفع عماد الحق وعمدك؛ ما قامت عليه الأدلة، وأستقامت به على سَنَنِ الرُّشد الأهواء المِضْلَة؛ وبين من إمضاءك كل عزم فى تهيئة القُرْبَات إلى حضرة أمير المؤمنين حالاً خفلاً، وإبطائك خطا الحَدِّ فيما يُراد بُزْلُكَ البالغة أقصى الغايات لديه سابقاً واتِّصالاً، ما يُضاهى المظنون فى تلك العقيدة التى طالما أُلْفِيَتْ فى نُصرة الدولة القاهرة صافية المَورِدِ والمَنَهِل، حالية من الحُسْنِ بكل حالٍ اتَّضح فيها ما أُلْهِى عن غيرها من الوصف وأذهل؛ فقُوبِلَتْ بما تستحقُّه من إحمادٍ أَشِيعٍ وأذيع، وأتَّسع فيه الواجب وأطيع؛ وتضاعف الاعتدادُ بأفعالك التى أعنت بالْعونِ منها فى الجمال والأبكار، وأعدت بها الأمور فى الصَّلاح إلى ما يؤمنُ بإيضاحه الحمد والإنكار .

ومن أحقَّ منك بكلِّ فعَالٍ تُضَيِّء مصابيحُ الخير فيه، ويتنشرُ جميلُ الذِّكر من مطاويه، وأنت للدولة الوليَّ الأمين!، وبحفظ نظام كلِّ أمرٍ يختصُّ بها الكفيل

الضَّمِين؟ ومن أولى منك بكلِّ حَمْدٍ يَفِدُ إليك إمداده أرسالا، وتَجِدُ منه ضالَّةً تَسُدُّ مثلها آمالُ سِوَاكَ قَابَتْ بِالْحَيِّيةِ عَجَالًا؟ فَكَلِّ مِنَ الْحَقُوقِ مَا لَا يُنْسَى، وَمَا يَلْزَمُ أَنْ يُرْعَى فِي كُلِّ مُصْبَحٍ وَمُمْسَى. فَأَحْسِنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ عَنْ كَوْنِكَ فِي دَوْلَتِهِ ذَابًّا عَنْ الْمَجْدِ حَامِيًا.

فأما ما تُحَدِّدُ فِي مَعْنَى 'الْأَعْمَالِ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي قَبَضِي' بِزَوَالِ الْخُلْفِ وَأَنْحُسَامِهِ، وَأَقْتَضِي رَأْيَكَ لِإِجْرَاءِ الْأَمْرِ عَلَى مَا أَسْتُصَوِّبُ مِنْ أَسْأَاقِهِ وَأَنْتَظِمُهُ، فَقَدْ وَقَفْتُ عَلَيْهِ، وَأُجِيزُ مَا أُشْرْتَ إِلَيْهِ، فَأَعْوِضُ الدُّنْيَا تَهْوَنُ وَتُسَهِّلُ فِي ضَمْنِ مَا يُلَحَظُ مِنْ أَعْتِنَاكَ أَحْكَامَ مَشَايِعِ الدَّوْلَةِ الَّتِي قُمْتَ بِأَعْبَائِهَا فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَغَدَتْ آثَارُكَ فِيهَا بَاقِيَةُ الذِّكْرِ وَالْأَجْرِ عَلَى تَقَضِّي الْأَزْمَانِ، فَأَنْتَ الْمَرْغُوبُ فِي النَّيِّ وَوَلَايَةٍ وَإِنْ شَانَتْ الْأَحْوَالُ، وَالْمُخْلِصُ الَّذِي لَا عِوَضَ عَنْهُ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَمَقَالٍ، فَقَدْ أَحَاطَ الْعِلْمُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَجُمْلَتِهِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْخِيَرَةَ فِي كُلِّ مَا تُشِيرُ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِهِ وَجَدَدَهُ، وَلِذَلِكَ أُجِيبُ فُلَانًا إِلَى الْحُضُورِ وَالْمُسْتَعْدَمُونَ مَعَهُ، وَأُذِنَ فِي الْمَقَابِلَةِ بِالْقَوَائِنِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَاقِي وَالْجَرَائِدِ، وَالْمُوَافَقَةُ عَلَى مَا رَأَيْتَهُ فِي الْبَوَادِي وَالْعَوَائِدِ، وَالتَّنَزُّهُ عَنْ كُلِّ مَا شَدَّ عَنْ الْحِجَةِ الْمُؤَكَّدَةِ بِتَوْفِيقِكَ وَتَوْفُّرِ الْمَوْجُودِ لِهَذِهِ السَّنَةِ فِيهِ عَلَيْهِ، وَحَسْمِ مَوَادِّ اسْتِرَادَتِهِ فِي كُلِّ مَا تَمَسَّكَ بِهِ وَأَشَارَ إِلَيْهِ، وَالثَّقَّةُ مِنْ بَعْدِ مُسْتَحْكَمَةٍ بِتَوْفُّرِكَ عَلَى مَا يُرَادُفُ إِلَيْكَ إِمْدَادَ الْحَمْدِ، وَتَجْدِيدِكَ كُلِّ قُرْبَةٍ تَنْضُمُ إِلَى سَوَابِقِهَا الْمُتَجَاوِزَةِ حَدَّ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ.

فأما ما تَضَمَّنَتْهُ إِشَارَتُكَ فِي حَقِّ السُّتْرِ الرَّفِيعِ، فَهَلِ الصَّلَاحُ إِلَّا مِنْ نَتَائِجِ أَقْوَالِكَ؟، وَهَلِ مَسَاعِيكَ إِلَّا مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَأَفْعَالِكَ؟، وَهَلِ الْمُوَافَقَةُ إِلَّا لَكَ فِي جَمِيعِ آرَائِكَ وَأَبْجَائِكَ، وَبِحَكْمِ آبْتِدَائِكَ لِاسْتِمْقَامَةِ النَّظَامِ فِيمَا قُرْبَ وَبَعْدَ، وَالسُّكُونِ إِلَى إِسْعَافِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْدُثُ وَيَتَجَدَّدُ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَا يُعِيدُ رَوْقَ الْحِشْمَةِ مِنَ الْوَهْنِ، وَيَهْزِ طَاعَتَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُحَقِّقُ التَّقْدِيرَ فِيهَا وَالظَّنَّ، فَإِذَا

تُصَقِّحُ حقوقَ الوكلاء المُجْتَبَاةَ وَجِدْتَ مَوْفِرَةً عَلَى اقْتِنَاءِ الْأَجْرِ، مَصْرُوفَةً فِي وُجُوهِ
الْبِرِّ الَّتِي هِيَ أَنْفَعُ الذُّخْرِ فِي عَدَدٍ . وَهَلِ الْأَعْوَاضُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَظُنُّ الدُّنْيَا بَعَيْنَهَا قِيَمَةً
تَنَافَسَ ، وَهَلِ مَصِيرُهَا إِلَّا إِلَى آتِقِضَاءٍ وَلَوْ أَسْعَفَتْ بِالرَّغَائِبِ وَالنَّفَائِسِ ، غَيْرَ أَنَّ
الْأَحْوَالَ إِذَا كُشِفَ مَسْتَوْرُهَا أُثْبِتَ مَا يَقْتَضِي إِسْبَالَ سِتْرِ الْإِشْفَاقِ ، وَالْبُؤْسِ مَتَى
أُعْرِبَ عَنْهَا أَثْمَتَ ذَلِكَ كُلِّ مُجَابِبٍ لِلدَّوْلَةِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ ، وَأَنْتَ الْمُعْتَمَدُ لِتَدْيِيرِ
مَا يَصُونُ حِشْمَةَ الدَّوْلَةِ عَنِ الْبِدَلَةِ وَالْخَلَالِ ، وَالْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِي تَحْسِينِ الْأَمْرِ فِيمَا وَقَعَ
الْاجْتِهَادُ فِيهِ حَتَّى تَسَّرَ قَدْرَهُ وَتَسَهَّلَ ، وَلِهَذَا تَفْصِيلٌ قَدْ أُوعِزَ إِلَى فَلَانٍ بِاسْتِقْضَاءِ
شَرْحِهِ ، وَإِطْلَاعِكَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَفَصِّهِ ، فَكُنْ بِمِثْلِ الظَّنِّ فِيكَ ، تَجِدُ زَنْدَ جَمَالِكَ
بِذَلِكَ أَوْرَى ، وَتَجِبُ لَكَ بِهِ صُنُوفُ الشُّكْرِ طَوْرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثاني

(ما يكتب عن الخلفاء إلى وزراء الملوك)

وهي مما يؤتى في صدرها بحرف النداء غالباً . كما كتبت عن المسترشد إلى معز الدين
الفضل بن محمود ، وزير معز الدين سنجر بن ملكشاه .

مَقَامُكَ يَا مَعْزَ الدِّينِ - أَحْسَنَ اللَّهِ حَيَاتُكَ وَكُلَّ مَوْهِبَتِهِ عِنْدَكَ - فِي خِدْمَةِ الدَّارِ
الْعَزِيزَةِ الَّتِي مَارَلَتْ لِحُجْهِكَ فِيهَا بِإِذْلًا ، وَفِي جَلَابِيبِ الْمُنَاصِحَةِ رَافِلًا ، لَا يَقْبِضَنَّكَ
أَنْ تُوَاصِلَ حَالًا فَخَالًا بِأَنْبَاءِكَ ، وَتَسْتَدِيمَ مَا خَصِّصْتَ بِهِ مِنْ شَرِيفِ الْآدَابِ
الْمُؤَفِّيَةِ بِكَ عَلَى أَكْفَائِكَ . وَعُرِضَ بِحُضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَرَدَ مِنْكَ دَالًّا عَلَى طَاعَتِكَ
الْمَعْهُودَةِ ، وَمُؤَالَاتِكَ الرَّائِقَةِ الْمَشْهُودَةِ ، وَاسْتِمْرَارِكَ عَلَى الْجَدِّ وَالْمَهِّعِ فِيمَا حَازَ الْمَرَاصِي

الشریفة الإمامیة لك ، وَحَقَّقَ فی الفوز بِجَمیل الآراء أَمَلَك . وَنَاطِقًا بِحَالِ فُلَانِ
 المَارِقِ عَنِ الدِّینِ ، المَجَاهِرِ بِمَعْصِیَةِ اللَّهِ تَعَالَى فی مَخَالَفَةِ أَمِیرِ الْمُؤْمِنِینَ ، وَمَا أَقْتَضَاهُ
 الرَّأْيُ الْمُعْزَى بِحُسْنِ سِفَارَتِكَ ، وَسَدَادِ مَقْصِدِكَ فی الطَّاعَةِ وَصَفَاءِ نِيَّتِكَ . وَأَحَاطَ عِلْمًا
 بِمُضْمُونِهِ الَّذِي لَا رَيْبَ أَنَّهُ ثَمَرَةٌ مُنَاصِحَتِكَ ، وَنَتِیجَةُ سَعْيِكَ الْمُضَاهِي نَصِيحَةَ عَقِيدَتِكَ ؛
 وَمَنْ أَوْلَى مِنْكَ بِهَذِهِ الْحَالِ ؟ وَأَنْتَ الْخَوَلُ الْقُلُوبِ ، ذُو الْخُنْكَةِ الْمَجْرَبِ ؛ الَّذِي تَفْزُدُ
 فِي الْأَنَامِ بِكَلَامِهِ ، وَقَصَّرَ أَكْفَاؤُهُ عَنْ دَرْكِ شَأْنِهِ فِي الْخَيْرِ وَمِثَالِهِ ؛ وَمَا زِلْتَ حَدِيثًا وَقَدِيمًا
 مُوسِمًا ، بِهَذِهِ الْعَزِيمَةِ مَرْفُوعًا ؛ وَبَغِيرِ شَيْءٍ أَنَّكَ تُرَاعَى مَبْدَأَاتُ بِهِ ، وَتُعَصَّدُ مَقَالِكَ
 فِي مَوَارِدِهِ بِمَا تَعْمُدُهُ فِي مَصَادِرِهِ ، وَتَحْرُسُ مَا قَدَّمْتَهُ مِنْ الْأَحْثِيَاظِ بِتَحْرِيكِ
 فِي أَوَانِهِ ؛ وَنُحْضِي الْعَزِيمَةَ لِإِتِمَامِ مَاشَرَعَتِهِ فِيهِ ، كِفَاءً مَا يُوجِبُهُ دِينُكَ وَيَقْتَضِيهِ ؛
 بَحْرًا عَلَى وَتِيرَتِكَ فِيمَا قَضَى لِلْأَحْوَالِ بِالْإِنْتِظَامِ وَالْإِتِّسَاقِ ، وَأَذِنَ لَشَمْسِ الصَّلَاحِ
 بِالْإِضَاءَةِ وَالْإِشْرَاقِ .

وَبَعْدُ فَقَدْ عَرَفْتَ مَا تَكَرَّرَ إِلَيْكَ فِي أَمْرِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْخَبِيثَةِ ، الْمَكَاشِفَةِ بِمَذْهَبِ
 الْإِلْحَادِ ، الْمُبَارِزَةِ بِسُوءِ الْأَعْتِقَادِ ؛ بَعَثْنَا عَلَى جِهَادِهَا ، وَكَفَّ ضَرَرَهَا عَنِ الْإِسْلَامِ
 وَفَسَادِهَا ، وَرَفَعَ سِتْرَ الْمُرَاقَبَةِ عَنْهَا ، وَالْإِتْقَامَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مِنْهَا ؛ وَمَا يُقَنِّعُ مِنْ هِمَّةِ
 مُعِزِّ الدَّوْلَةِ وَالِدِينَ - أَمْتَعَ اللَّهُ بِبَقَائِهِ - وَمِنْ وَافِرِ عَقْلِكَ وَدِينِكَ ، وَصِدْقِ يَقِينِكَ ؛
 إِلَّا بِإِرْهَافِ الْعَزِيمَةِ فِي مُكَاشَفَتِهَا ، وَخَوْضِ الْغِمَارِ فِي مُحَارَبَتِهَا ؛ وَالْقَصْدُ لِمُضَاقِقَةِ مَنْ
 أَعْتَصَمَ مِنْهَا بِالْقَلَاعِ ، وَقَتْلَ كُلِّ مَنْ يُظْفَرُ بِهِ فِي سَائِرِ الْبِقَاعِ ؛ حِمِيَّةً وَأَمْتَعَاضًا لِلدِّينِ ،
 وَأَنْفًا مَا أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ بِهَا مِنَ الضَّرَرِ الْمُؤْمِنِ ؛ فَكُنْ مِنْ وَرَاءِ الْحُبِّ لِمُعِزِّ الدُّنْيَا
 وَالِدِينَ عَلَى تَيَقُّنِكَ هَذَا الْمِثَالِ ، وَالْأَدِّكَارِ بِمَا تُفُوزُ بِهِ مَعَ الْأَمْتِثَالِ لَهُ فِي الْمَالِ ،
 وَأَنْهَضُ فِي تَنْفِيزِ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ نَهْضَةً مِنْ أَتُرَرِضَا اللَّهَ وَأَرَادَهُ ، وَبَذَلِ
 فِي صَلَاحِ مَعَادِهِ أَجْتِهَادَهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يُرْضِي مِنْكَ إِلَّا لِنَتِصَارِ لِدِينِهِ بِالتَّقْصِيرِ ،

وأمر المؤمنين أمركم بالحدّ فيه والتشمير؛ وقد شرفك بحَقّة أمر بجملها إليك من بين يدي سُدّته، وأعرب بها عن مكانك من حضرتها ؛ إنافّة على الأمثال بقدرك ، وإضفاءً لملايس نَحْرُك؛ فاعْرِفْ بمكان النعمة في ذلك ، وأسلك في القيام بشُكْرُها أَوْصَحَ المسالك ؛ وأدِمِ المواصلّة بمطالعتك ، وقَدِّمِ التَّوَقُّعَ من إجابتك ، نفِزْ من المراضى الشريفة بالخط الأسنى ، ويَجْتَمِعُ لك منها الاسمُ والمعنى ، إن شاء الله تعالى .

الطرف الرابع

(في الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس في الديار المصرية)

بعد مصير الخلافة إليها)

وهي على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ «من فلان إلى فلان»)

والحكم فيها على ما كان الأمر عليه في خلافتهم ببغداد ، إلا أنه زاد فيه لفظ « وولّيه » بعد لفظ « عبد الله » في أوّل الكتاب فيقال في افتتاحه : « من عبد الله وولّيه أبى فلان فلان الإمام الفلانى » . ثم يقال : أما بعد حمد الله ، ويؤتى على آخر الخطبة ، ثم يتخلّص منها ويختتم بالأمر بامتثال ما أمر به . ويقال بعد ذلك : موقفاً إن شاء الله تعالى . والخطاب فيه بالكاف ، وربما أفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم مناسبة للمعنى .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن الإمام المستكفى بالله «أبى الربيع سليمان أبى الحاكم بأمر الله أحمد» إلى الملك المؤيد هنزبرالدين داود أبى الملك المظفر صلاح

الدين يوسف بن رسول في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » في سنة سبع وسبعائة ، حين منع صاحبُ اليمن الهديةَ ، التي جرت العادةُ بإرسالها إلى الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، مفتحةً بآية من القرآن ، وهو :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

من عبد الله وولَّيه أبي الربيع سليمان .

أما بعدَ حمدِ الله ما نَحِ القلوب السليمة هُداها ، ومُرشدِ العقول إلى أمرِ معادِها ومبدأها ، وموفقٍ من آخِاره إلى محجة صوابٍ لا يَضِلُّ سالكُها ، ولا تُظَلُّمُ عندِ إخلافِ الأمور العظامِ مسالكُها ، ومُلهمٍ من أصطفاه لأقْناءِ آثارِ السُنَنِ النبويَّةِ ، والعملِ بموجِباتِ القواعد الشرعيَّةِ ، والانتظامِ في سِلْكٍ من طَوَقَتِه الخلافةُ عُقودَها ، وأفاضتْ على سُدَّتِه الجليلةِ برودَها ، وملَّكتْه أقاصي البلاد ، وأناطتْ بأحكامه السديدةِ أمورَ العبادِ ، وسارتْ تحتَ خوافِقِ أعلامه أعلامُ الملوك الأكاسِرِه ، وشيَّدتْ بأحكامه مَنابِحُ الدُّنيا ومَصالِحُ الآخِرِه ، وتبَخَّرَ كُلُّ مِنْبَرٍ من ذِكْرِه في ثوبٍ من السيادةِ مُعَلِّمٌ ، وتهلَّلتْ من ألقابه الشريفةِ أسارى كُلِّ دينارٍ ودرهمٍ .

يَحْمَدُه أمير المؤمنين على أن جعلَ أُمُورَ الخلافةِ بِنِي العباسِ مَنْوطةً ، وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِبِه إلى يومِ القيامةِ بِحُوطِه ، وبِصَلَّى على ابنِ عمه محمَّدٍ الذي أَحْمَدَ الله بِمَبْعَثِه مَنَارِ من الفِتَنِ ، وأطفأَ برسالته ما أَضْطَرَمَ من نارِ الإِحنِ ، صَلَّى الله عليه وعلى آلِه وأصحابِه الذين حَمَوْا حِمِّيَ الخلافةِ وذادُوا عن مَوارِدِها ، وعمدُوا إلى تَهْيِيدِ المَعالمِ الدينيَّةِ فأقاموها على قواعِدِها ، صلاةً دائمةً الغَدُّ والرواحُ ، متصلاً أوْلاً بِطَرَةِ الليلِ وآخِرُها بِجَبِينِ الصُّباحِ .

هذا وإن الدين الذى فرض الله على الكافة الانضمام الى شعبه ، وأطلع فيه شمس هداية تشرق من مشرقه ولا تغرب فى غربه ؛ جعل الله حكمه بأمرنا منوطا ، وفى سلك أحكامنا مخروطا ؛ ولقدنا من أمر الخلافة المعظمة سيفًا طال نجادُه ، وكثر أعوانه وأنجاده ؛ وفوّض إلينا أمر الممالك الإسلامية وإلى حرمانا نُجى ثمراتها ، ويرفع إلى ديواننا العزيز نفى وإثباتها ؛ يخلف الأسد إن مضى فى غايه شبّهه ، ويُلقى فى الخبز والخبر مثله .

ولما أفاض الله علينا حلة الخلافه ، وجعل محلنا الشريف محل الرحمة والرافه ؛ وأقعدنا على سدة خلافة طالما أشرقت بالخلائف من آبائنا ، وآبتهجت بالسادة الغطاريف من أسلافنا ؛ وألبسنا خلعة هى من سواد السؤدد مصبوغة ، ومن سواد العيون وسويداوات القلوب مصبوغة ؛ وأمضينا على سدتنا الشريفة أمر الخاص والعام ، ولقدنا كل إقليم من عملنا من يصلح سياستها على الدوام ؛ وأستكفينا بالكفاة من عملنا على أعمالنا ، واتخذنا مصر دار مقامنا وبها سدة مقامنا ، لما كانت فى هذا العصرية الإسلامية ، وفيئة الإمام وثانية دار السلام ؛ تعين علينا أن نتصفح جرائد عملنا ، ونتأمل نظام أعمالنا ؛ مكانا فكانا ، وزمانا فرمانا ؛ فتصفحناها فوجدنا قطر اليمن خاليا من ولايتنا فى هذا الزمن ؛ عرفنا هذا الأمر من آتخذناه للملك الإسلامية عينا وقلبا ، وصدرنا ولبا ؛ وفوضنا إليه أمر الممالك الإسلامية فقام فيها مقاما أقعد الأضداد ، وأحسن فى ترتيب ممالكها نهاية الإصدار وغاية الإيراد ، وهو السلطان الأجل ، السيد الملك الناصر المبجل ؛ لازالت أسباب المصالح على يديه جارية ، وسحابة الإحسان من أفق راحته سارية ؛ فلم يعد جوابا لما ذكرناه ، ولا عذرا عما أبديناه ، إلا تجهيز شردمة من بحافله المشهورة ، وتعيين أناس من فوارسه المذكورة ؛

يَقْتَحِمُونَ الْأَهْوَالَ ، وَلَا يَعْجُونَ بِتَغْيِرَاتِ الْأَحْوَالِ ؛ يَرَوْنَ الْمَوْتَ مَغْنًا إِنْ صَادَفُوهُ ،
وَشَبَّاهَ الْمُرْهَفِ مَكْسَبًا إِنْ صَافَحُوهُ ؛ لَا يَشْرَبُونَ سِوَى الْمُدَّامِ ^(١) مُدَّامَهُ ، وَلَا يَلْبَسُونَ
غَيْرَ التَّرَانِكِ عِمَامَهُ ؛ وَلَا يَعْرِفُونَ طَرَبًا إِلَّا مَا أَصْدَرَهُ صَلِيلُ الْحُسَامِ مِنْ غَنَاءَ ، وَلَا يَنْزِلُونَ
قَفْرًا إِلَّا وَنَبَتَ سَاعَةَ نَزُولِهِمْ مِنْ قَنَاءَ . وَلَمَّا وَثِقْنَا مِنْهُ بِإِنْفَادِهِمْ رَاجِعُنَا رَأَيْنَا الشَّرِيفَ ،
فَاقْتَضَى أَنْ يُكَاتَبَ مَنْ بَسَطَ يَدَهُ فِي مَمَالِكِهَا ، وَأَخْطَأَ عَلَى جَمِيعِ مَسَالِكِهَا ؛ وَاتَّخَذَ
أَهْلُهَا خَوْلًا ، وَأَبْدَى فِي خِلَالِ دِيَارِهَا مِنْ عَدَمِ سِيَاسَتِهِ خَلًّا . بَرَزَ مَرْسُومُنَا الشَّرِيفَ
النَّبَوِيَّ أَنْ يُكَاتَبَ مَنْ قَعَدَ عَلَى تَحْتِ مَمْلَكَتِهَا ، وَتَصَرَّفَ فِي جَمِيعِ أُمُورِ دَوْلَتِهَا ؛
وَطُوْلِعَ بِأَنَّهُ وَلَدُ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ يَوْسُفَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الَّذِي لَهُ شُبْهَةٌ تَمَسُّكَ بِأَذْيَالِ
الْمَوَاقِفِ الْمُسْتَعْصِمِيَّةِ وَهُوَ مُسْتَصْحِبُ الْحَالِ عَلَى زَعْمِهِ ؛ أَوْ مَا عَلِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ
وَالْأَمْوَاتِ ؟ أَوْ مَا تَحَقَّقَ الْحَالُ الَّتِي بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ؟ ، أَصْدَرْنَا إِلَى الرَّحَابِ
التَّعْزِيَةِ ، وَالْمَعَالِمِ الْيَمِينَةِ تُشْعِرُ مَنْ تَوَلَّى عَنْهَا فَاسْتَبَدَّ ، وَتَوَلَّى كِبَرَهُ فَلَمْ يُعْرِجْ عَلَى أَحَدٍ ؛
أَنْ أَمْرَ الْيَمَنِ مَا بَرَحَتْ تَوَلُّبُنَا تَحَكُّمَ فِيهِ بِالْآيَةِ الصَّحِيحَةِ ، وَالتَّقْوِيضَاتِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ
جَرِيحَةٍ ؛ وَمَا زَالَتْ تَحْمِلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ وَمَا تَمَشَّى بِهِ الْجَمَالُ مَشْيًا وَثِيْدًا ،
وَتَقَذِفُهُ بَطُونُ الْجَوَارِي إِلَى ظُهُورِ الْيَعْمَلَاتِ وَلِيْدًا ، وَيُطَالِعُنَا بِأَمْرِ مَصَالِحِهِ
وَمُفَاسِدِهِ ، وَبِحَالِ دِيَارِهِ وَمُعَاهِدِهِ ؛ وَلَكِ أَسْوَةٌ بِوَالِدِكَ فَلَانْ ، هَلَّا أَقْتَفَيْتَ مَا سَنَّهُ
مِنْ آثَارِهِ ، وَنَقَلْتَ مَا دَوَّنَتْهُ أَيْدِي الزَّمَنِ مِنْ أَخْبَارِهِ .

وَأَتَّصَلَ بِمَوَاقِفِنَا الشَّرِيفَةِ أُمُورٌ صَدَرَتْ مِنْكَ .

مِنْهَا - وَهِيَ الْعِظْمَى الَّتِي تَرْتَّبُ عَلَيْهَا مَا تَرْتَّبُ - قَطْعُ الْمِرَّةِ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ،
وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ وَادٍ غَيْرُ ذِي زَرْعٍ ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ بِمَنْعٍ .

ومنها - انصبا بك إلى تفرغ مال بيت المال في شراء لهُو الحديث، ونقض العهود القديمة بما تُبديه من حديث .

ومنها - تعطيل أجياد المتأبر من عقود آسمنّا، وخلوّ تلك الأماكن من أمور عقدا وحلّا؛ ولواً وضخنا لك ما اتصل بنا من أمرك لطال، ولا تَسَعَتْ فيه دائرة المقال؛ رَسَمنا بها والسيف يودّ لو سبق القلم حده، والعلم المنصور يودّ لو فات العلم وأهتر بتلك الروابي قدّه؛ والكاتب المنصورة تختار لو بدرت عنوان الكتاب، وأهل العزم والحزم يودّون إليك إعمال الركاب، والحوارى المنشآت قد تكوّنت من ليل ونهار، وبرزت كصور الأفيصة ليكنها على وجه الماء كالأطيّار؛ وما عمدنا إلى مكاتبتك إلا للإنداز، ولا احتجنا إلى مخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقْلِع عمّا أنت بصدد من الخيلاء والإعجاب، وأنْتَظِم في سلك من استخلفناه فأخذ يمينه ما أعطى من كتاب؛ ووضن بالطاعة من زعمت أنهم مقيمون تحت لواء علمك، ومنْتَظِمون في سلك أوامر كلك، وداخلون تحت طاعة قلمك؛ فلَسْنَا نَشْنُ الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبه، وأمّثل أوامر الله المطاعة عقله ولبّه؛ ودان بما يجب من الديانة، وتقلّد عقود الصّلاح والتحف مطارف الأمانة؛ ولَسْنَا ممن يأمر بتجريد سيف إلا على من علمنا أنه نخرج عن طاعتنا، ورفض كتاب الله ونزع عن مبايعتنا . فأصدرنا مرسومنا هذا إليه نُقْص عليه من أنباء حلمنا ما أطال مدّة دولته، وشيّد قواعد صولته؛ ونستدعى منه رسولا إلى مواقفنا الشريفة، ورحاب ممالكنا المنيّفة؛ لينوب عنه في قبول الولاية مناب نفسه، وليجنّ بعد ذلك ثمار شفقاتنا إن غرس شجر طاعتها . ومن سعادة المرء أن ينجني ثمار غرسه - بعد أن يُصَحِّبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمة وخفّ حملا، وتعالى رتبة وحسن مثلا؛ وأشْرط على نفسك في كل سنة قطعة ترفعها إلى بيت المال . وإياك ثم إياك! أن تكون على هذا الأمر من مال؛

ورَتَّبَ جيشًا مقيمًا تحتَ عَلمِ السلطانِ الأجلِّ الملكِ الناصرِ للقاءِ العُدُوِّ المخدولِ التَّارِ،
 أَلْحَقَ اللهُ أَوَّلَهُم بِالْهَلَاكِ وَآخَرَهُم بِالْبَوَارِ . وقد علمتَ تفاصيلَ أحوالهم المشهورة ،
 وتواريخِ سيرهم المَنكُورة ؛ فَأَحْرِصْ عَلَى أَنْ يُحَصِّكَ مِنْ هَذَا الْمَشْرَبِ السَّائِغِ أَوْفَرُ
 نَصِيبٍ ، وَأَنْ تَكُونَ مِمَّنْ جَهَّزَ جيشًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَرَمَى بِسَهْمِ فَلِهِ أَجْرُكَانِ مُصِيبَا
 أَوْ [غيرِ] مُصِيبٍ ؛ لِيَعُودَ رَسُولُكَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ بِتَقَالِيدِهَا وَتَشَارِيفِهَا حَامِلًا أَهْلَةً
 أَعْلَامُنَا الْمَنْصُورَةَ ، شَاكِرًا رِمَاقِنَا الْمَبْرُورَةَ ؛ وَإِنْ أَبَى حَالُكَ إِلَّا أَنْ أَسْتَمَرَّتِ عَلَى
 غَيْكِ ، وَأَسْتَمَرَّتِ مَرَعَى غَيْكِ ؛ فَقَدْ مَنَعْنَاكَ التَّصَرُّفَ فِي الْبِلَادِ ، وَالنَّظَرَ فِي أَحْكَامِ
 الْعِبَادِ ؛ حَتَّى تَطَأَ خَيْلُنَا الْعِتَاقَ مَشْمِخَرَاتِ حُصُونِكَ ، وَتَعَجَّلَ حِينَئِذٍ سَاعَةُ مَنُوكَ ؛
 وَمَا عَلَمُنَاكَ غَيْرَ مَا عَلمَهُ قَلْبُكَ ، وَلَا فَهَمُنَاكَ غَيْرَ مَا حَدَسَهُ لُبُّكَ ؛ وَلَا تَكُنْ كَالصَّغِيرِ
 يَزِيدُهُ كَثْرَةُ التَّحْرِيكِ نَوْمًا ، وَلَا مِمَّنْ غَزَاهُ الْإِمَهَالُ يَوْمًا فَيَوْمًا . أَعْلَمْنَاكَ ذَلِكَ فَاعْمَلْ
 بِمَقْتَضَاهُ ، مُوَفِّقًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

الأسلوب الثاني

(أَنْ يُقْتَتَلَ الْكَتَابُ بِخُطْبَةٍ إِمَامِ مُصَدَّرَةٍ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ دُونِهَا)

كَمَا كَتَبَ عَنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ أَبِي الْعَبَّاسِ « أَحْمَدُ بْنُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدُ بْنُ قِلَافُونَ ،
 الرَّبِيعُ سَلِيمَانٌ » إِلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ : أَحْمَدُ بْنُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدُ بْنُ قِلَافُونَ ،
 وَهُوَ بِالْكَرْكِ ، يَسْتَدْعِي حُضُورَهُ إِلَى قَلْعَةِ الْجَبَلِ بِالْقَاهِرَةِ الْحُرُوسَةِ لَتَقْلِيدِ السُّلْطَانَةِ
 الشَّرِيفَةِ ، بَعْدَ خَلْعِ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ نُحْكُ بْنُ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ ، وَإِمْسَاكِ الْأُمِيرِ
 قُوصُونَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ .

وَقَدْ ذَكَرَ صَاحِبُ "الدَّرِّ الْمَلَقَطِ" أَنَّهُ كَتَبَهُ فِي قَطْعِ الْبَغْدَادِيِّ الْكَامِلِ بَيْنَ يَدَيِ
 الْأَمِيرِ قُطْلُوبَغَا الْفَخْرِيِّ كَافِلِ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ . وَهَذِهِ نَسَخَتُهُ :

﴿لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ .

فالحمد لله الذى أسبغ نِعَمَه الظاهرة والباطنة، وألف قلوب أوليائه المتفقة والمُتباينة، وأخذ بنواصي أَعْدَائِهِ المراجعة والبائنة؛ وأعلى جَدَهذه الدولة القاهرة، وأطلع في أَسْنَةِ الْعَوَالِي نُجُومَهَا الزاهرة؛ وحرك لها العزائم فَلَكَتْ والأُمُورُ - بحمد الله - ساكنه، والبلاد - والمِنَّةُ لله - آمنه، والرعايا في مكانها قاطنه، والسيوف في أعماقها مثلُ النيران في قلوب حُسَّادِهَا كَامِنَه . وأقام أهل الطاعة بالفرض، وأستوفى بهم القرض، وقالوا الحمد لله الذى صَدَقْنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ؛ وأعزَّ أنصار المقام الشريف العالى وأعزَّ نَصْرَه، وأعدَّ لَعْدُوهُ حَصْرَه؛ وأتى بدولته الغراء تسمو شُمُوسها، وتُثْمِر غُرُوسها؛ وتَظْهَرُ في حُلَّ الصبَاح المشرق عُرُوسها، وتُجىءُ منه بخير راع للرعية يسوسها؛ وبشَّره بالملك والدوام، وسَرَّه بما آجتماع له من طاعة الأنام، وأقدمه على كُرْسِيِّ مُلْكِهِ تَظَلُّهُ الغمام، وأراه يوم أَعْدَائِهِ وكان لا يُظَنُّ أن يرى في المَنَام؛ ولا يزال مؤيِّدُ الْهِمَمِ، مؤكِّدُ الذَّمِّ، مجدِّدُ الْبَيْعَةِ على رِقَابِ الْأُمَمِ؛ ولا بَرَحَتْ أَيَّامُهُ الْمُقْبِلَةُ مُقْبِلَةً بِالنِّعَمِ، خُضِرَ الْأَكْثَافُ على رَغَمٍ مِنْ كَادٍ وَغَيْظٍ مِنْ رَغَمٍ؛ ولا فُتِنَتْ عُهُودُ سَلَفِهِ الشَّرِيفَةُ تُنْشَأُ لَهُ كَمَا كَانَتْ، ورعاياه تَدِينُ لَهُ بِمَا دَانَتْ، وجنوده تُفَدِّيهِ مِنَ الْنفوسِ بِأَعَزِّ مَا ذَخِرَتْ وما صَانَتْ؛ وسعادةُ سُلْطَانِهِ تَكْشِفُ الْغُيُومَ، وتُشْرِى الذَّمَّ، وتُعِيدُ إِلَى أَتُوفِ أَهْلِ الْإِنْفَةِ الشَّعَمَ، وتحفظُ ما بَقِيَ لِأُولِيَائِهِ مِنْ بَيَاضِ الْوُجُوهِ وَسَوَادِ اللَّحْمِ .

سَطَّرَهَا وَأَصْدَرَهَا وَقَدْ حُقِّقَتْ بِعَوَائِدِ اللَّهِ الظُّنُونُ، وَصَدَّقَتْ الْخَوَاطِرَ الْعُيُونُ؛ وَأُنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَأَتَمَّ سَعْدَهُ؛ وَجَمَعَ عَلَى مَقَامِهِ الْكَرِيمِ قُلُوبَ أُولِيَائِهِ،

وَفَرَّقَ فِرْقَ عَدُوِّهِ وَأَبَاتَهُ بِدَائِهِ ؛ وَوَطَّدَ لِرُقِيهِ الْمَنَابِرَ ، وَرَجَّلَ لَتَرْقِيهِ الْعَسَاكِرَ ، وَهَيَّأَ لِمَقَاتِلِ أَعْدَائِهِ فِي أَيْدِي أَوْلِيَائِهِ السُّيُوفَ الْبَوَاتِرَ . وَأَخَذَ قُوصُونَ وَأُمْسِكَ ، وَنَهَبَ مَالَهُ وَأَسْتَهْلَكَ ؛ وَهَدِمَتْ أُنَيْتُهُ ، وَهَدَّتْ أُنَيْتُهُ ؛ وَخَرِبَتْ دِيَارُهُ ، وَقُلِعَتْ آثَارُهُ ؛ وَأُخْلِيَتْ خَزَائِنُهُ ، وَأُخْرِجَتْ مِنْ بُطُونِ الْأَرْضِ دَفَائِنُهُ ، وَمَا مَانَعَتْ عَنْهُ تِلْكَ الرَّبَائِبُ الَّتِي ظَنَّمَا قَسَاوِرَ ، وَلَا نَاضَتِ تِلْكَ الْقَيْسِيُّ الَّتِي طَبَعَهَا أَسَاوِرَ ؛ وَلَا أَغْنَى عَنْهُ ذَلِكَ الْمَالُ الَّذِي ذَهَبَ ، وَلَا ذَلِكَ الْجَوْهَرُ الَّذِي كَانَ عَرَضًا لِمَنْ نَهَبَ . وَأُعِيدَ إِلَى الْمَهْدِ ذَلِكَ الطِّفْلُ الَّذِي أَكَلَ الدُّنْيَا بِاسْمِهِ ، وَقَهَرَ أَبْنَاءَهَا بِحُكْمِهِ ؛ وَمَوَّهَ بِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَأَخْلَى لَهُ الْغَابَ وَمَا خَرَجَ مِنَ الْكِتَاسِ ؛ وَغَالَبَ بِهِ الْغَلَبَ حَتَّى وَطِئَ الرِّقَابَ ، وَدَاسَ الْأَعْقَابَ ؛ وَخَادَعَ وَدَلَّ الشَّيْطَانُ بَغْرُورَهُ ، وَدَلَّسَ عَلَيْهِ عَاقِبَةَ أُمُورِهِ ؛ فَاعْتَدَّ بَعْتَادَهُ ، وَاعْتَرَّ بِقِيَادِهِ ، وَاعْتَرَّ بِأَنَّ الْأَرْضَ لَهُ وَمَا عَلِمَ أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ؛ فَأُمْسِكَ وَمَعَهُ رُءُوسَ أَشْيَاعِهِ ، وَحَصَرْتَ بِالْخَوْفِ نَفُوسَ أَتْبَاعِهِ - وَمِنْهُمْ الطَّنْبَغَا .

وَقَدْ أَحَاطَ الْعِلْمُ الشَّرِيفُ بِكَيْفِيَةِ وَصُولِهِ وَحَقِيقَةِ الْخَبَرِ ، وَمَا قَاسَاهُ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الْعَبَرِ ، وَدَاسَ عَلَيْهِ حَتَّى وَصَلَ مِنْ وَخَزِ الْإِبْرَةِ ؛ وَكَذَلِكَ مِنْ جَاءَ مَعَهُ ، وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ الْحَقَّ وَتَبِعَهُ ، بَعْدَ الْهَزِيمَةِ الَّتِي أَلْجَأَهُمْ إِلَيْهَا خَوْفُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي قَعَدَتْ لَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمْ بِمَدَارِجِ أَنْفَاسِهِمْ فِي فَمِ الْمَضِيقِ ؛ وَعُبِّتْ لَهُمْ صُفُوفُ الرِّجَالِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ حُتُوفُ الْأَجَالِ ؛ وَحَيَّرَتْهُمْ فِي سَعَةِ الْفِتَاجِ ، وَأَرْتَبَتْهُمْ بِوَارِقِ الْمَوْتِ فِي سُحْبِ الْعَجَاجِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَصِلُوا إِلَّا وَهُمْ أَشْلَاءُ مَمْرَقَةٍ ، وَأَعْضَاءُ مُفَرَّقَةٍ ؛ قَدْ فَنَى تَحْتَهُمُ الظُّهْرُ ، وَقَفَى بِيَوْمِهِمُ الدَّهْرُ ؛ وَسَاقَتْهُمْ سَعَادَةُ سُلْطَانِ الْمَقَامِ الْعَالِي إِلَى شَقَاوَتِهِمْ وَهُمْ رُقُودٌ ، وَعُبِّتْ لَهُمُ الْخَيْلُ وَالْخَلَعُ إِلَّا أَنَّهَا مَلَأْسُ الدَّلِّ . وَهِيَ الْقِيُودُ ؛ فَأَخَذُوا جَمِيعًا مِنْهُمْ وَكَانُوا عَلَى مُوَالَاتِهِ ، وَفَارَقُوا الْجَمَاعَةَ لِمُوَاتَاتِهِ ؛ وَحَمَلُوا إِلَى الْحَبْسِ النَّائِي الْمَكَانِ ؛ وَأُودِعُوا أَحْيَاءً فِي مُلْحَدِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ كَالْأَمْوَاتِ ، وَقَدْ نَالُوا الْمَقْصِدَ إِلَّا أَنَّهُمْ

مَا آمَنُوا الْقَوَاتِ ؛ وَوَكَّلَ بِحِفْظِهِمْ إِلَى أَنْ يُشْرِفَ سَرِيرُ الْمَلِكِ بِقُعُودِ مَقَامِهِ وَعُقُودِ
أَيَّامِهِ الْحَوَالِي ، وَسَعُودِ زَمَانِهِ الَّذِي لَا يَحْتَمُّ بِالنُّجُومِ إِلَّا خَدَمَ اللَّيَالِي .

وَهَذَا النُّصْرُ إِنَّمَا تَهَيَّأَتْ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - أَسْبَابُهُ ، وَهَذَا الْفَتْحُ إِنَّمَا فَتِحَتْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ
أَبْوَابُهُ ؛ بِمِنَّةِ اللَّهِ وَنِيَّةِ الْمَقَامِ الْعَالِي لَا بِمِنَّةِ أَحَدٍ ، وَلَا بِمِنَّةِ بَأْسٍ مِنْ أَقْدَرٍ ، وَلَا بِأَسٍّ
مِنْ حِجْرٍ ؛ وَمَا قَضَى اللَّهُ بِهِ مِنْ سَعَادَةِ هَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَمَضَى بِهِ الْقَدَرُ السَّابِقُ وَعَلَى اللَّهِ
التَّمَامُ ؛ وَبِمُظَافَرَةِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ السَّيْفِيِّ ، قَطْلُوغًا الْفَخْرِيِّ السَّاقِي النَّاصِرِيِّ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
نُصْرَتَهُ لِهَذِهِ الْعَصَابَةِ الْمُؤَيَّدَةِ . وَبِمَضَاءِ عِزِّهِ الَّتِي مَاوَنْتْ ، وَقَضَاءِ قَوَاضِيهِ الَّتِي
مَا آتَنَتْ ؛ وَبِمَوَازَرَةِ مَنْ تَنَفَّ عَلَيْهِ مِنْ أَكْبَرِ الْأَمْرَاءِ ، وَبِمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ مُظَافَرَةِ
الْآرَاءِ ؛ وَنَزُولِهِمْ عَلَى النِّيَّةِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا يُيْهِئُهُمْ مَنْ بَذَلَهُمْ ؛ وَلَا يَبَالُونَ
بِعَسَاكَرِ دِمَشْقِ الْقِيَمَةِ عَلَى حَلْبٍ وَمِنْ مَالِ إِلَيْهِمْ ، وَتَمَلُّأَ مَعَهُمْ عَلَيْهِمْ ؛ وَمَنْ أَنْضَافِ
إِلَيْهِمْ مِنْ جُنُودِ الْبِلَادِ ، وَجِيُوشِ الْعِنَادِ ؛ وَلَا لَوَاهُمْ مَا كَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ الْخَائِنُ مِنْ
وَعِيدِهِ ، وَلَا وَلَاهُمْ مَا كَادَ يَحْطَفُ أَبْصَارَهُمْ مِنْ تَهْدِيدِهِ ؛ وَلَا بَالُوا بِمَا أَلَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْ
جُنْدِ الشَّامِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَصَبَّ عَلَيْهِمْ سُيُولُهُ مِنْ كُلِّ صُوبٍ ؛ وَخَادَعُهُمْ بِالرِّسَائِلِ
الَّتِي مَا تَزِيدُهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا إِبَاءً ، وَلَا تُسَكِّكُهُمْ أَنْ السَّيْفَ أَصْدُقُ مِنْهُ إِنْبَاءً ، حَتَّى وَلَّى
لَا تَنْفَعُهُ الْخِدْعُ ، وَلَا تَنْصُرُهُ الْبِدْعُ ؛ فَمَا أَسْعَدَتْهُ تِلْكَ الْجُمُوعُ الَّتِي جَمَعَهَا ، وَلَا أَجَابَتْهُ
تِلْكَ الْجُنُودُ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا إِلَى مَكَّنٍ أَجَلِهِ ، وَلَا وَقَّتْ تِلْكَ السُّيُوفُ الَّتِي لَمْ يَظْهَرْ لَهُ
مِنْ بَوَاقِيهَا إِلَّا حِمْرَةُ الْخَجَلِ ؛ حَتَّى أَخَذَ مَعَ طَاقَتِهِ بِلِ طَاغُوتِهِ بِمَصْرَ ذَلِكَ الْأَخَذِ
الْوَيْلِ ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَى مَهْوَى هَلَكَةِ سَيْلِ ذَلِكَ السَّبِيلِ ؛ وَقَامَ مِنَ الْبُلْدِيَّاتِ الْمِصْرِيَّةِ
قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَتَنَاقَرُوا عَلَى إِزَالَةِ ذَلِكَ الْكَافِرِ النَّعْمَةِ الْجَاحِدِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَمْرَاءِ
إِلَّا مَنْ بَذَلَ الْجُهْدَ ، وَجَمَعَ قُلُوبَ الرِّعْيَةِ وَالْحُنْدَ ؛ وَفَعَلَ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ مَا لَمْ
يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ ، حَتَّى حُمِدَ الْأَمْرُ وَتَحَدَّ الْجَمْرُ ، وَتَوَارَتْ الْكُتُبُ بِمَا عَمَّتْ بِهِ الْبُشْرَى

من إقامة البيعة باسمه الكريم ، وأنه لم يبق إلا من أعطى اليمين وأعطى اليمين ، وأتم الحلف إتماماً لا يُقدَّر معه ثمين ، وأقيمت له السكّة والخُطبة فُرفع على المنابر اسمه وتهلل به وجوه الثُغود ، وظَهَر على أسارير الوجود ؛ وضربت البشائر ، ونهبت المسرات السرائر ؛ وتشوّقت أولياء هذه الدولة القاهرة أدام الله سلطانها إلى حضور ملكها ، وسُفُور الصّباح لإذهاب ما بَقَّتْه عقابيلُ تلك الليلة من حلكها . والمقام العالى ما يزداد علماً ، ولا يَزَادَ عِزُّ ما ، وهو أدرى بما فى التأخير ، وبما فى بُعْدِهِ من الضرر الكبير ؛ ومثله لا يَعْلَمُ ، ومنه يُتَعَلَّمُ ؛ فهو أعلم بما يجب من مسابقة قُدُومِهِ للبشير ، وما سيعن من معاجلتِهِ لامتطاء جواديه ظهر الخمال وبطن السّيرير ؛ فالله الله ! فى تعجيل حِفْظِ هذا السّوام المُشَرَّد ، وضمّ هذا الشّمل المُشَتَّت ونظّم هذا العِقد المُبدَّد ؛ وجمع كلمة الإسلام التى طالما آفَرتْ ، وآنْتِجَاجَ عارضِ هذه النعمة التى أبرقت ؛ وسرعة المسير فإنّ صبيحة اليوم المبارك الذى يُعرَف من أولِهِ قد أشرقت ؛ فما بَقِيَ ما به يُقْتَدَر ، ولا سِوى مُقَدِّمِهِ السعيد يُنْتَظَر .

وقد كتبناها ويَدُنَا ممدودة لمبايعته ، وقلوبُ الخلق كُلُّها مستعدة لمتابَعَتِهِ ؛ وكرسى المُلك قد أُرْزِلَ له مقعده ، ومؤمّل الظّفَر قد أُنجِزَ له موعده ؛ والدهر مطاوعه والزمان مُسْعِده ، وطوائف أوليائه ليوم لقائه تُرِصُّده ؛ والعهد له قد كُتِبَ ، ولواء المُلك عليه قد نُصِبَ ؛ والمنبرُ باسمه عليه قد حُطِبَ ، والدينار والدرهم هذا وهذا له قد ضُربَ ؛ ولم يبق إلا أن يُقْتَرَبَ ، وترى العيونُ منه ما تَرْتَقِبُ ؛ ويجلس على السّيرير ، ويُزِمُّعُ المبشّر ويعزِمُ على المسير ؛ وتُزَيِّنُ الأقاليم ، ويبين لتسيير شهابه ما كان يُقْرَأُ له فى التّقاويم ؛ لازال جيبُ مُلكه على الأقطار مَزرُورا ، وذيل نِفّاره على السماء مجرُورا ؛ وحبلُ وَلِيّته متّصلاً وقلبه مسرُورا ، ومقدمه يحوزله من إرث آبائه نِعْماً جمة ومُلْكاً كبيراً ؛ إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثالث

(ما استقر عليه الحال في زماننا إلى خلافة الإمام

المتوكل على الله خليفة العصر)

وهو أن تفتتح المكاتبة بالسلام، ويؤتى في ألقاب المكتوب إليه بما يُكتب من الألقاب عن السلطان على ماسياتى ذكره في المكاتبات السلطانيات في الباب الثانى من هذه المقالة، إن شاء الله تعالى .

مثال ذلك : أن تكون المكاتبة إلى نائب الشام مثلاً، فالذى يكتب إليه عن السلطان : « أعز الله تعالى أنصار المَقَرِّ الكريم العالى » إلى آخر الألقاب الآتى ذكرها هناك، ويكتب عن الخليفة « سلام الله تعالى ورحمته وبركاته يُحْص المَقَرِّ الكريم العالى » إلى آخر الألقاب .

قلت : ولو سلكوا سبيل الخلفاء السابقين في المكاتبات الصادرة عنهم : من الابتداء بلفظ « من عبد الله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين إلى فلان على ما تقدم » وأتوا في ألقاب المكتوب إليه بالألقاب المستعملة في [ذلك] الزمان في المكاتبات السلطانية : مثل أن يكتب عن الإمام المتوكل على الله محمد خليفة العصر إلى نائب الشام « من عبد الله ووليه أبى عبد الله محمد الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، إلى المَقَرِّ الكريم العالى الأميرى الكبيرى » إلى آخر الألقاب المقدم بيانها في المقالة الثالثة . ثم يقال : « وسلام على المَقَرِّ الكريم ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليه الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » . ثم يقال : أما بعد، فإن كذا وكذا، ويؤتى على المقصد ويختتم بالدعاء وغيره لكان أذهب مع الصواب، وأوفق لمكاتبة الخلفاء السابقين، وأقرب إلى اقتفاء سبيلهم .

الطرف الخامس

(في الكُتُب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية،

وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في الكُتُب الصادرة عنهم على سبيل الإجمال)

وقد ذكر صاحب "مواد البيان" وكان من كبار دولتهم في المكاتبات الصادرة عنهم نحو المكاتبات الصادرة عن خلفاء بني العباس ببغداد، فقال : وإن كانت المكاتبَةُ من الخليفة فينبغي للكاتب أن يفضل من الدرج قدر ذراع ثم يستفتح بسم الله الرحمن الرحيم في سطر أول : لأنها أولى ما يُستفتح به ، ثم يكتب في سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيراً «من عبد الله ووليه فلان بن فلان إلى فلان» ويبدأ بذكر نعتِه إن كان الإمام شرفه بنعت : «سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ويسأله أن يصلّي على محمّد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الأئمة المهديّين ويسلم تسليماً». ويكون هذا التصدير في سطرين ، يجعل بينهما فضاء قيس شبر، ولا يزيده عن ذلك ولا ينقصه فيخرجه عن حدّه ؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاء نصف الذي بينهما . ثم يقول : أما بعد ، ويقصّ المعاني معني معني ، فإن كان أمراً أمر به الإمام قال بعد أنقضاء الكلام : وأمر أمير المؤمنين بكذا . ثم يقول بعد فصلٍ أوسع من الفصل الأول «فاعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وأعمل عليه بحسبه» . ويقول للخاطبين من الطبقة العالية : والسلام عليك ورحمة الله ، ويفرد بالسلام من دونها .

وقد كانت العادة جارية أن يقال في آخر الكتب النافذة عن الإمام «وكتب فلان بن فلان» باسم الوزير وأسم أبيه ؛ ثم بطل هذا الرسم في الدولة العلوية

ولا يكتب أحد بالتصدير إلا الإمام وولى عهده . وهذه المكتبة عامة للناس جميعا في الأمور السلطانية التى تُنشأ فيها الكتب من الدواوين ، ولا يخاطب أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

الجملة الثانية

(فى الكتب العامة ؛ وهى على أسلوبيين)

الأسلوب الأول

(أن يفتتح الكتاب بلفظ : « من عبد الله ووليه أبى فلانٍ

فلان الإمام الفلانى » على ما تقدم ترتيبه)

وعلى هذا الأسلوب كان الحال فى ابتداء دولتهم وإلى أوساطها .

وهذه نسخة كتاب كتب به الإمام العزيز بالله نزار الفاطمى إلى عامله بمصر يشّره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطى بالشام فى سنة سبع وستين وثلاثمائة ، مما أورده المسبّحى فى تاريخه :

من عبد الله ووليه نزار أبى المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين ، إلى حسين بن القاسم . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جدّه محمد نبيه ورسوله صلى الله عليه ، وعلى الأئمة من عترته الأبرار ، الطاهرين المطهرين وسلّم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الحليم ، ذى الطول الكريم ، والمنّ الجسيم ، والعزّ المديد ، والمحال الشديد ، ولى الحقّ ونصيره ، وماحق الباطل ومبيده ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحصين ، لأوليائه المتقين ، وخلفائه المصطفين الذين

عن دينه ، والقائمين بحَقِّه ، والدالين على توحيدِه ، الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حُجَجِهِمْ وظهورهم على أعدائه المشاقين له ، الضالِّين عن سبيله ، المُلْحِدِينَ في آياته ، الجاحدين نِعَمه ، المتزلِّ رِجْلُهُ ، وقوارع بأسه على من عصاه فحاده ، وصَدَّ عنه فناداه ، القاضى بالعواقب الحُسْنى والفوز والنعماء لمن أسلم وجهه له وتوكل عليه في أمره ، وفوض إليه حُكْمه ، كُلُّ ذلك فضلاً منه وعدلاً ، وقضاءً فصلاً ، وهو الحَكَمُ العَدْلُ الذى لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

فبَارِكَ اللهُ الغَالِبُ على أمره الفردُ في مُلْكِهِ ؛ سبحانه وتعالى علُوًّا كبيراً . والحمد لله الذى آتبعَ عبده المصطفى ، وأمينه المرتضى ؛ من أكرم سِنَخَ وَنَبْعَةٍ ، وأظهر مِلَّةَ وَشَرْعِهِ فى أَفْضَلِ دَهْرٍ وَعَصْرٍ ؛ وأنزل عليه كتاباً من وحيه حكياً غير ذى عِوَجٍ قِيَمًا بَدِيعِ النِّظامِ ، داخلاً فى الأَفْهَامِ ، خارجاً عن جميع الكَلَامِ ، ليس كَسَجْعِ الْكُتَّانِ ، ولا كَتَجْبِيرِ ذَوَى اللِّسَنِ والبيان ؛ وقد تفرقت بالأمم أهواؤهم ، وتوزَّعتهم آراؤهم ، فضَلَّتْ أَحْلَامُهُمْ وَعَمِيَتْ أَفْهَامُهُمْ وَأَسْتَحُوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ ؛ جَهْلًا بعبادة الرحمن ، فدعاهم إلى الإقرار بإِلَهِهِمْ ، وعرفهم وحدانية ربِّهم وكان حريصاً على إرشادهم ، جاداً فى الاجتهاد ، هاجراً للدَّعة والمهاد ، صابراً على تكذيب المُشْرِكِينَ ، وتفنيد المُلْحِدِينَ ؛ يَنْصَحُ لَهُمْ فَيَسْتَكْبِرُونَ ، وَيَهْدِيهِمْ فَيَضِلُّونَ ، وَيَحْذَرُهُمْ فَيَسْتَهْزِئُونَ ؛ حَتَّى ظَهَرَ دِينَ اللهِ فَسَمَا ، وَطُمِسَ الْكُفْرُ فَانْمَحَقَ وَعَقَا ؛ وَعَمَّتْ بَرَكَتُهُ ، وَفُضِّلَتْ عَلَى الْأُمَمِ أُمَّتُهُ ، وَعَلَتْ عَلَى الْمُلَلِّ مِلَّتُهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ صَلَاةِ الْمُصَلِّينَ ، وزاده شرفاً فى العالمين إلى يوم الدين .

والحمد لله الذى حَبَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَخَبَهُ لِحِلَافَتِهِ ، وجعله صَفِيَّةً من خلقه وأَمِينَةً على عِبَادِهِ وَهَادِيًّا إِلَى سَبِيلِهِ ، قَائِمًا بِحَقِّهِ ، مُقْسِطًا فى أَرْضِهِ ؛ ذَابًا عَنِ دِينِهِ ، مُجِيًّا مَا أَمَاتَهُ أَهْلُ الْكُفْرِ من أحكامه ؛ وَأَيَّدَهُ بِنَصْرِهِ ، وَأَمَدَّهُ بِقُوَّتِهِ ؛ وَتَكَفَّلَ لَهُ بِالنَّجْحِ

فِي مَسْعَاهُ ، وَالظَّفَرِ مَبْتِغَاهُ ، وَنَيْلِ طَلِبَتِهِ فِي أُمِّهِ وَأَرْتَاهُ . وَحَكَمَ بَكَّتْ كُلَّ عَدُوِّهِ
وَحَزِيمِهِ ، وَإِذْلَاهُمْ وَمَحَقِّهِمْ وَخَلَّاهُمْ ، وَإِيْهَانِ كَيْدِهِمْ ، وَضَرْبِ الدَّلَّةِ عَلَيْهِمْ حَيْثُ
كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا ؛ فَلَا يَنْعِقُ نَاعِقٌ مِنْهُمْ يَطْلُلُ ، أَوْ يَسْعَى بَفْسُقٍ وَخَبَالٍ ؛ أَوْ يُدْفِعُ
إِلَى أَقْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ أَوْ مُرُوقٍ عَنْ دِينِهِ أَوْ إِذْهَابِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ طَاعَةٍ
إِلَّا أَصْطَلَمَهُ وَأَخْرَاهُ ، وَأَكْبَهَ لَوَجْهِهِ وَأَرْدَاهُ ، وَقَضَى عَلَيْهِ بِالشَّقْوَةِ فِي دُنْيَاهُ ، وَعَذَابِ
الْآخِرَةِ فِي آخِرَاهُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَحَ فَأَجَلَ ، وَأَعْطَى فَأَجَزَلَ ؛ مِنْ نِعْمَةِ السَّابِقَةِ ، وَالْآيَةِ الْمَتَابِعَةِ ؛
الَّتِي لَا يُوَازِيهَا شُكْرٌ ، وَلَا يُدْرِكُ كُنْهَهَا ذِكْرٌ ؛ حَمْدًا يُوجِبُ مِنْهُ الْمَزِيدَ ، وَيَسْتَدْعِي
الْمِنَّةَ وَالتَّجْدِيدَ ؛ وَإِلَيْهِ يَرْغَبُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ خَاضِعًا وَيَسْأَلُهُ رَاغِبًا حُسْنَ الْعَوْنِ عَلَى
مَا بَلَغَ رِضْوَانَهُ ، وَأَمْتَرَى فَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ . وَتَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ بِمَا هَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ
وُصُولِهِ إِلَى مَدِينَةِ الرَّمْلَةِ عَلَى أَجْمَلِ صُنْعٍ وَأَلْطَفِ كِفَايَةٍ ، وَأَتَمِّ أَمْنٍ ، وَأَكْمَلِ عِزٍّ
وَأَوْطَدِ حَالٍ ، وَأَحْسَنِ أَنْتِظَامٍ ، وَأَبْسَطِ يَدٍ ، وَأَظْهَرِ قُدْرَةٍ ، وَأَشْمَلَ هَيْبَةٍ ؛ وَبِمَا أَوْلَى
اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَلِّهِ وَطَعْنِهِ ، وَآرْتِحَالِهِ وَثَوَائِهِ : مِنْ نِعْمَةِ الْعِمِيمَةِ ، وَمَوَاهِبَةِ
الْجَسِيمَةِ ؛ وَمِنْحَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَمِنْنَةِ الْجَزِيلَةِ ؛ وَانَّهُ مِمَّا يَسْتَغْرِقُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ ، وَيَفُوتُ
الإِحْصَاءَ وَالنَّشْرَ ، وَذَكَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَ اللَّعِينِ التَّرْكِيَّ وَهَرَبَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ
يَلُوحِ عَلَى شَيْءٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ طَبَرِيَّةَ لِلَّذِي تَدَاخَلَ مِنَ الْفَرَقِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنَ الْقَلَقِ ؛
وَلَمَّا سَكَنَ قَلْبُهُ مِنَ الرَّعْبِ ، وَحَشَاهُ مِنَ الرَّهْبِ ؛ بِقَصْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُ وَإِعْذَادِهِ
السَّيْرِ فِي طَلْبِهِ وَمَوَاصِلَتِهِ الْأَسْبَابِ ، وَمَتَابِعَتِهِ الْإِدَابِ . وَوَصَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا عَلَيْهِ
عَزْمُهُ فِي تَبَعِهِ وَأَقْتِفَاءِ أَثَرِهِ ، وَالْحُلُولِ بِعَقْوَتِهِ ^(١) حَيْثُ قَصَدَ وَحَلَّ ، لِنِيقَتِهِ بِاللَّهِ رَبِّهِ ،
وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ ، وَتَفْوِيضِهِ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَزَلْ جَلَّ وَعِزُّ يُولِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - بَعْدَ نُفُوزِ

(١) العقوة ماحول الدار والمحلة ، انظر القاموس ، ووقع في الأصول بالفاء بدل القاف وهو تصحيف .

كتابه - من عزَّ يؤيده ، وظفر يؤكده ، ونصر يوطئه ، والآء يحثدها ، ومواهب يتابعها ، وعدو يذلّه ، ومناو يقبله ، وشارد يصرفه إلى طاعته ، ومارق يعيده إلى موالاته ؛ إلى أن تم له من ذلك ما واصل به حمد الله عليه ، وتميّها له ما تواتر شكره له جل وعز فيه وكان مع ذلك مواصلاً إلى اللعين الإعذار ، ومتابعاً للإنذار ؛ ومحدّراً له ما يُعذر ، ومستدعيه إلى ما يُختار ويؤثر ؛ وممّناً له . مما يثني به مثله من العفو عنه ، وتعهد ما جرى منه ؛ والإقالة لعثرته ، والتجاوز عن هفوته ؛ والامتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحية من نواحي الشام ، وإدراج الأرزاق عليه وعلى رجاله وأصحابه ؛ وإشاره بالفضل الجليل ، واختصاصه بالطول الجزيل . فما نجح في الفاسق وعد ، ولا نجح فيه وعظ ، ولا وُفق إلى قبول حظ ؛ ولا أصغى إلى قبول تذكرة ، ولا أناب إلى تبصره . وما زال جاداً في تهوكه ، متادياً على تمهكه ؛ جاريّاً على ضلّاته ، سالكا سبيل عمّايته ؛ متردداً في غوايته ، متلداً في جهّالته ؛ مقدراً أن بأس الله لا يرهقه ، وسطوته لا تلحقه ، ورجزه لا يحقّه ، وذنوبه لا تُزهِقه ، وأجرامه لا تؤيقه . وما زال اللعين في خلال ذلك يَسْطُ آمال العرب ويرجّحها ، ويرغبها ويمنّيها ؛ بأقوال كاذبه ، وآمال خائبه ؛ ومواعيد باطله ؛ حتى أصغى أكثرها إلى غروره ، وقبول إفكّه وزوره ؛ وأجابته طائفة طاغية ، ووصلت إليه متتابعه ؛ فتوفّر جمعه ، وكثّر عدده وأشدت طمعه ، وقوى أمله ؛ وتمكن له باستدراج الله إياه وغضبه عليه أن يورط عُصْبته ومن آخذعه بغيّه وأستفزه معه جهله ؛ ويوردهم جميعاً ونفسه الرذلة مورداً لا صدر له ، ولا علل بعده ؛ فخرج من طبرية وحلّ بيسان ، محلّ الخزيّ والموان ؛ فعندها انتهى إلى أمير المؤمنين خبره وهو يومئذ في المنهل ، الذي حصل فيه بعد رحيله من الرملة وهو الموضع المعروف بالطواحين . فعند ما قرب أستجرا الفاسق اللعين ، واعتمد ما يعود بأطماعه ، أقام في الموضع أياماً ناظراً فيما يحتاج إليه ، متأهباً

لما يُريده ، وكان ذلك هو السبب الذى أطمعه . فبعد ما طمع قاده الحين
الغالب ، والقدر الجالب ؛ وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ،
ومنهل وباله ؛ ورحل من بيسان رحيل من أستعجلته البلية ، وأستدعته الرزية ؛
فحل بموضع يُعرف بكفر سلام ، كافرًا بجُود الإسلام ، متجرئًا على الله محاربًا لنجل
نبيه عليه السلام ؛ وأقام بها متلددًا فى حيزته ، مترددًا فى سكرته ؛ ثم أستجره شومه ،
وقاده حينه ولومه ؛ إلى أن رحل فزل بكفر سبابا البريد ، فأنباه أسمها بما حل به من
السبي المييد والخزى الشديد ؛ ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه الماكولة ، ونصب
أعلامه المخدولة ، وأقام صفوفه المقلولة ؛ وأظهر آلة الحرب إقداما ، و [أخفى]
عن اللقاء إجماما .

فأمر أمير المؤمنين بترين العساكر المنصورة والجيوش المظفرة وتعبئتها على
مراتبها ، وترتيبها على مواكبها ؛ وتقدم إلى قوادها أن لا يمشوا إلا صفًا ،
ولا يسيروا إلا زحفا ، وعرفهم أنه سيسير بنفسه ، ويقصد اللعين بموكبه وجهوره
ومن معه من حاة رجاله ؛ وأنه لا يثنيه عن الفاسق ثان ولا يصرفه عن الاقتحام
صارف ؛ فبدأ من عزائمهم ، وشدة شكائهم ، وخلوص بصائرهم ، وسكون
أفئدتهم ، وثبات أقدامهم ، ما كانت به دلائل النصر واضحه ، وشواهد الفلج لائح ؛
وعلامات الفتح ظاهره ، وآيات التمجج باهره ؛ فمشوا على ما أمروا ، وساروا على
ما سيروا ؛ فعند ما دنوا من عدو الله أصابوه للبلاد مُعدًا ، وفى المحاربة مُجدًا ؛
وأستخاروا الله عز وجل وتدانوا للتلاق ، والأخذ بالنواصي والأعناق ؛ وقامت
الحرب على ساق ، وتجرع منها أمر مَذاق ؛ فاستطار شرارها ، وتأججت نارها ؛
وارتفع دخانها ، وعظم شأنها ؛ والتزم الأقران بالأقران ، واشتد الضرب والطعان ؛

إلى أن مشى أمير المؤمنين بنفسه، وجمهور موكبه، متوكلاً على الله، مائلاً إليه بجده
 محمد صلى الله عليه وسلم، متوسلاً بمتقدم وعده، وسالف إنعامه عنده، وقصد اللعين
 غير متلوم عن مصادمته، ولا معرج عن ملاحمته؛ فقيوت نفوس أوليائه وعبيده،
 ومن أشملت عليه عساكره المنصورة، وجيوشه المظفرة بما تينوه من إقدامه،
 وشاهدوه من اعتزاه به، وحملوا على الفاسق وأحزاه به، وقذف الله في قلوبهم الرعب
 فترزلت أقدامهم، وأرعشت أيديهم ونخبت أفئدتهم، وولوا الدبر منهزمين، ومنحوا
 ظهورهم مؤلّين؛ وأفرقوا ثلاث فرق: فرقة قتلت في المعركة، وصيرت في الملاحمة؛
 فاحترت رؤوسهم، وفرقة أحست وقع السيوف وإرهاق الخوف؛ فاستأمنت تحت
 الدلة والصغار، والغلبة والأقذار، بقيت عليهم الأرواح، وحقت منهم الدماء.
 وفرقة أسرت أسرا، وقيدت قيدا؛ وهرب التركي اللعين رئيس ضلاتهم، وعميد
 كفرهم؛ في شريضة من أصحابه، فظن أن ذلك من بأس الله يُخيه، ومن الأخذ
 بكظمه يؤقيه، هيهات! كما قال الله عز وجل: ﴿هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾:
 ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فاتبعه سرعان الخيل
 وخيف الرجال؛ مع مفرج بن دغفل بن جراح، فأخذه قبضا وأتى به قودا أسيرا
 من غير عهد، وذليلا من غير عقد؛ وأستولى أهل العساكر المنصورة، والجيوش
 المظفرة؛ على مناخه وسواده، وما كان فيه من مال وأثاث وكراع وقناع؛ وقليل
 وكثير، وجليل وحقير؛ فآزوه وأسسعوا به، وأكثروا من حمد الله، وأنصرفوا
 إلى معسكرهم سالمين، بالمغنم والظفر آمينين؛ لم يكلم منهم أحد، ولم ينقص لهم عدد؛
 وكان جملة ما أتوا به معهم من رؤوس الفسقة زائدا على ألف رأس، ومن أسراهم
 ثمانمائة أسير، غير من استؤمن وقت الإيقاع بهم، ولم يقلت من الفسقة إلا من هرب

(١) القناع معانيه كثيرة ومنها السلاح وهو المراد هنا .

بُحْشَاشَةً نَفْسَهُ مَعَ مَنْ لَأَمَ التُّرْكِيُّ اللَّعِينُ ، وَصَاحِبُ عَقْدِهِ وَمُورِطُهُ فِي هَلَاكِهِ ، وَقَائِدُهُ إِلَى تَقَمَّاتِهِ ، وَسَائِقُهُ إِلَى مُوَيْقاتِهِ ، وَهُوَ كَاتِبُهُ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْحَمَارَةِ ، فَلَحِقَ بِطَبَرِيَّةٍ فَقُتِلَ هُوَ وَجُلٌّ مِنْ مَنْ كَانَ مَعَهُ وَاحْتَرَّتْ رَأْسُهُ وَأُتِيَ بِهِ ، فَكَلَّمَتِ النِّعْمَةُ ، وَتَمَّتِ الْمَوْهَبَةُ ، وَتَجَدَّدَ حَمْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاتَّصَلَ شُكْرُهُ ، لَمَّا أَوْلَاهُ مِنْ جَلِيلِ عَطَائِهِ ، وَكَرِيمِ جِبَائِهِ ، وَسَنَى آلَانَهُ . وَكَانَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عَظِيمِ آيَاتِهِ ، وَأَكْبَرِ شَوَاهِدِهِ ، وَاخْتِصَاصِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَاتِّخَاذِهِ لَهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ! ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ ! ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عَطَائِهِ الْهَنِيِّ ، وَجِبَائِهِ السَّنِيِّ ، وَمَا أَيْدَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَعَزَّ الدِّينَ ، وَقَعَ الْمُشْرِكِينَ ، إِذْ كَانَ الْفَاسِقُ اللَّعِينُ ، التُّرْكِيُّ الْعَوِيُّ الْمُبِينُ ، ثَلَاثَةً مِنْ ثَلَاثِهِمْ وَرُكْنًا مِنْ أَرْكَانِهِمْ ، وَحَرْبًا مِنْ أَحْزَابِهِمْ ، وَوَتْنَا مِنْ أَوْتَانِهِمْ ، وَطَاغِيَةً مِنْ طَوَاغِيَتِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بِلَدِ الْمُسْلِمِينَ يَدٌ تَصُدُّ عَنْهُمْ بِأَسَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا عُضْدٌ يَدْفَعُونَ بِهَا سِوَاهُ . وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَرْغُبُ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوزِعَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ ، وَيُوجِدَهُ سَبِيلًا إِلَى بُلُوغِ مُبْتَغَاهُ ، مِنْ إِعْزَازِ الْمِلَّةِ وَالْدِّينِ ، وَإِحْيَاءِ شَرِيعَةِ جَدِّهِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمُجَاهِدَةِ التُّرْكِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَقَعَّ الظَّالِمِينَ وَالْقَانِطِينَ وَالْمَارِقِينَ ، حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَيَجْمَعَ الْقُلُوبُ عَلَى طَاعَتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ .

أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَعْرِيفِكَ ذَلِكَ ، وَتَلْخِصُ الْكِتَابَ إِلَيْكَ ، لَتَقِفَ عَلَيْهِ وَتُنْذِيْعَهُ ، وَتَشَهَّرَهُ فِيمَا قَبْلَكَ ، وَتَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى مَا مَنَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّصْرِ ، وَمَكَّنَهُ مِنَ الظَّفَرِ . فَاعْلَمْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . وَكَتَبَ يَوْمَ الْخَمِيسِ خَمْسَ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثَةَ .

الأسلوب الثاني

(أن يفتح الكتاب بخطبة مفتتحة بالحمد لله)

وعليه كان الحال في أواخر دولتهم . وعليه جرى في "مواد البيان" في الأمثلة التي ذكرها .

وهذه نسخة كتاب مما اورده في "مواد البيان" بشارة بفتح ، وهي :

الحمد لله مُدِيلُ الْحَقِّ وَمُنِيرُهُ ، وَمُنْذِلُ الْبَاطِلِ وَمُبِيرُهُ ، مُؤَيِّدُ الْإِسْلَامِ بِبَاهِرِ
الْإِعْجَازِ ، وَقَصَمَ وَعْدَهُ فِي الْإِظْهَارِ بَوَاشِيكَ الْإِنْجَازِ ؛ أَحْمَدُ كُلِّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفَضَ
كُلِّ شَرٍّ وَأَجْتَبَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ نُورَهُ الْلَامِعَ ، وَظَلَّهُ الْمَاتِعَ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاجَ الْمُنِيرَ ،
وَالْبَشِيرَ النَّذِيرَ ؛ فَأَوْصَحَ مَنَاجِيهَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛
وَسَنَّ حِلَالَهَ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَضَّ عَلَى التَّمَسُّكِ
بِعَصَمِ دِينِهِ ؛ وَشَمَّرَ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مَنْ نَدَّعَنَ سَبِيلَهُ ، وَعِنَدَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَّدَ
الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسِرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَتَمَّلَتْ
خَيْلُ اللَّهِ بِقِبَائِلِ الْهَامِ .^(٢)

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ جَعَلَهُ مِنْ وِلَاةِ أَمْرِهِ ، وَوَفَّقَهُ لَاتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِهِ وَأَقْتِفَاءِ
أَثَرِهِ ؛ وَأَعَانَهُ عَلَى تَمْكِينِ الدِّينِ ؛ وَتَوْهِينِ الْمُشْرِكِينَ ، وَشِفَاءِ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَنْهَضَهُ
بِالْمُرَامَةِ عَنِ الْمَلَّةِ ، وَالْمُحَامَاةِ عَنِ الْحَوْزَةِ ؛ وَإِعْزَازِ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَإِذْلَالِ حِرْبِ
الْكُفْرَانِ . وَيَسْأَلُهُ الصَّلَاةَ عَلَى خَيْرَتِهِ الْمُجْتَبَى ، وَصَفْوَتِهِ الْمُتَّصَى ، مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ ذَبِّ

(١) كذا في الأصول مضبياً عليه بعلامة التوقف ولعله وتم وعده الخ كما يفيد السجع .

(٢) قبائل الرأس أطباقه وفي الأصول "قبائل" بالنون وهو تصحيف يأباه المعنى .

وكاف، وجاهد وناف؛ وحى الذمار، وغزا الكفار. صلى الله عليه وعلى أخيه وآبن
 عمه على بن أبى طالب سيفه القاطع، ومجته الدافع: وسهمه الصارد، وناصره
 العاضد؛ فارس الوقائع، ومعوس (؟) الجماع؛ مبيد الأقران، ومبيد الشجعان. وعلى
 الطهرة من عثرته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجان. وإن أولى النعم بأن
 يرقل فى لباسها، ويتوصل بالشكر إلى لبائها؛ ويتهادى طيب خبرها، ويتفاوض
 بحسن أثرها؛ نعمة الله تعالى فى التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو أولى
 الباطل والإفك؛ والهجوم عليهم فى عقر دارهم، وأجثاث أصلهم وهدم منارهم؛
 واستنزاهم من معاقيلهم، وتشريدهم عن منازلهم؛ وتغميض نواظرهم الشوس،
 وإلباسهم لباس البوس؛ لما فى ذلك من ظهور التوحيد وعزّه، ونحو الإلحاد
 وعزّه؛ وعلوامة المسلمين. وأنخفاض دولة المشركين؛ ووضوح حجة الحق ومجته،
 وقضوح برهانه وآيته.

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد أنكفأ عن ديار الفلانيين والمشركين إلى دس
 خلافته، ومقر إمامته؛ بعد أن غزاهم براً وبحرا، وشردهم سهلاً ووعراً، وجرعهم
 من عواقب كفرهم مرّاً؛ وفرق جمائعهم التى تطبق سهوب الفضاء خيلاً ورجلاً،
 وتضيّق بها المهامه حزناً وسهلاً؛ ومزق كتائبهم التى تلحق الوهاد بالنجاد، وتختطف
 الأبصار بيوارق الأعمد؛ وسبى الداررى والأطفال، وأسر البطاريق والأقوال؛ وأفتتح
 المعاقل والأعمال، وحاز الأسلاب والأموال؛ وأستولى من الحصون على حصن كذا
 وحصن كذا. ومحا منها رسوم الشرك وعفاها، وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها.
 وغيم أولياء أمير المؤمنين ومتطوعة المسلمين من الغنائم ما أقر العيون، وحقق الظنون؛
 وأنفصلوا وقد زادت بصائرهم نقاداً فى الدين، وسراثرهم إخلاصاً فى طاعة أمير المؤمنين؛
 بما أولاهم الله من النصر والإظفار، والإعزاز والإظهار؛ ووضح للمشركين بما أنزله عليهم

من الخذلان، وأنالهم إياه من الهوان ؛ أنهم على مضلة من النجى والعمى ، وبعد من الرشد والهدى ؛ فضرعوا إلى أمير المؤمنين فى السلم والموادعة ، وتحملوا بذلاً بذلوه تفادياً من الكفاح والمقارعة ؛ فأجابهم إلى ذلك متوكلاً على الله تعالى ، وممثلاً بقوله تعالى إذ يقول : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وعاقده طاعتهم على كتاب هدنة كتبه له ، وأقره فى يده ؛ حجة مضمونة .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من الخالصين ، وتعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين ؛ فتحسن ظنك ، وتقر عينك ؛ وتشكر الله تعالى شكر المستمد من فضله ، المعتد بطوله ؛ وتلو كتاب أمير المؤمنين ، على كافة من قبلك من المسلمين ، ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه ، وإذلال عدوهم وتوحيته ؛ فاعلم ذلك وأعمل به .

الجملة الثالثة

(فى الكتب الخاصة ، كالمكتبة إلى الوزير ومن فى معناه)

قال فى " مواد البيان " بعد ذكر صورة المكاتب العامة عنهم : وقد يخاطب الإمام وزيره فى المكتبة الخاصة بما يرفع فيه عن خطاب المكتبة العامة الديوانية ، ويتصرف فى ذلك ، ويزاد ويتنقص على حسب لطافة محل الوزير ومنزله من الفضل والجلالة . قال : وليس لهذه المكتبة الخاصة حدود ينتهى إليها ، ولا قوانين يعتمد عليها ، وطريقها مستفيضة معلومة . وقد تقدم فى المكاتب الخاصة عن خلفاء بنى العباس أن مكتبة الوزير « أمتنى الله بك » فى أدعية أخرى .

الطَّرَفُ السَّادِسُ

(في الكتب الصادرة عن خلفاء بني أمية بالأندلس)

ولم أَقِفْ على شيء من المكاتبات الصادرة عنهم ، وإن ظَفِرْتُ بشيء منها بعد ذلك ألحقته إن شاء الله تعالى .

الطَّرَفُ السَّابِعُ

(في الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحِّدين ، أتباع المهديِّ بن تُوَمَرْتِ المستمِرِّ

بقاياهم الآن بَتُونُسَ وسائر بلاد أفريقيا ، وهي على أسلوبيين)

الأسلوب الأول

(أن تُفَتِّحَ المكاتبَةَ بلفظ « من فلان إلى فلان »)

وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدْعَى له بما يناسبه « إلى فلان » ويُدْعَى له بما يليق به ؛ ثم يُؤْتَى بالسلام ؛ ثم يُؤْتَى بالبعدية والتَّحْمِيدِ والصَّلَاةِ على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والترضية عن الصحابة ، ثم عن إمامهم المَهْدِيِّ ؛ ثم يُؤْتَى على المَقْصُود ، ويُخْتَمَ بالسلام . والخطاب فيه بُنُونُ الجمع عن الخليفة ومِمَّ الجمع عن المكتوب إليه .

كما كُتِبَ عن عبد المؤمن : خليفة المهديِّ إمامهم إلى الشيخ أبي عبد الله محمد ابن سعد :

« من أمير المؤمنين أيَّده الله بنصره ، وأمدّه بمعاونته ؛ إلى الشيخ أبي عبد الله محمد ابن سعد وفقه الله ، ويسره لما يرضاه ، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . »

أما بعدُ فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والإقدار،
 وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة على محمد نبيه
 الذي آتت ببعثته الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم
 بحجته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرين
 والأنصار، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيَّره
 الأغيار، وتقدم الامتعاظ له والانتصار. وهذا كتابنا - كتب الله لكم نظراً يريكم
 المنهج، ويُليقكم الأبهج فالأبهج، وآتاكم الله من نعمة الإيمان، وعصمة الاقباد له
 والإذعان، ما تجدونه به اليقين والتلج - من حضرة مرآة كاش حرسها الله تعالى،
 ولا استظهار إلا بقوته وحوله، ولا استئثار إلا من إحسانه وطوله.

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمةً خلّقه، ومطيّة لرقبه وقرارة لإقامة حقه،
 وحمل حمّله الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه،
 وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبة، وأحكامه المرتبة، ومنجّاته المخلصة
 من الخطوب المهلكة والأحوال المعطّبة - رأينا أن نخاطبكم بكتابنا هذا أخذاً
 بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله،
 وإقامة الحجّة في تبليغ القول وتوصيله، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا،
 وتمسكوا بأمر المهدي - رضى الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا، وأصروا أعنة
 العناية إلى النظر في المال، والتفكر في نواشئ التغير والزوال، وتدبروا جرى هذه
 الأمور وتصرف هذه الأحوال، وأعلموا أنه لا عزّة إلا بإعزاز الله تعالى فهو
 ذو العزة والجلال، ولا يغرنكم بالله الغرور، فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال، وليس
 لكم في قبول النصيحة، وأبداء التوبة الصحيحة، والعمل بثبوت الإيمان في هذه
 العاجلة القسيحة، إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمانة والدعة، والكرامة

المتسعة والمكابة المرفعة، والتنعيم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة؛ فحنن لا تزيد لكم ولسائر من نرجو إنايته، ونستدعي قبوله وإجابته، إلا الصلاح الأعم، والنجاح الأتم؛ وتأملوا - سدّدكم الله - من كان بتلك الجزيرة - حرسها الله - من أعيانها، وزعماء شاتها؛ هل تخلص منهم إلى ما يودّه، وفاز بما يدّخره ويعدّه، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأدوم الأبقى، وتنعّم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقى . وأما من أخلد إلى الأرض وأتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه؛ فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبته، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنقل منه حادث الانتقام أخسر ما تنقل به؛ وحقّ عليكم - وفقكم الله ويسرّكم لما يرضاه - أن تحسنوا الاختيار، وتصلّوا الأدكار والاعتبار، وتبتدروا الابتدار؛ وما حق من أنقطع إلى هذا الأمر الموصول الواصل، وأزعم ما يناله من خيره المحوز الحاصل؛ أن يناله منكم شاغل يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوه ومودوده؛ فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلّثهم بهذا الأمر السعيد ما كان، ثم كان منكم في عقب ذلك ما أعمدئموه في أمر أهل لورقة - وفقهم الله - حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم؛ وليس لذلك وأمثاله عاقبة تمجّد، فالخير خير ما يقصد، والنجاة فيما يترجّح عن الشر ويبتعد؛ وإنا نرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موقّق، ومتاع محقّق، ويحبّذكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد؛ والله يئنّ عليكم بما يُحْيِيكم، ويمكّن لكم في طاعته أسباب تأمليكم وترجيكم، بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

الأسلوب الثاني

(أن تُفْتَحَ المكتبة بلفظ « أما بعد »)

والأمر فيه على نحو ما تقدم في الأسلوب قبله بعد البعدية ، كما كتب أبوالميمون عن المستنصر بالله : أحد خلفائهم إلى بعض نوابه ، وقد نقض العهد على بعض المهادين من النصاري .

« أما بعد حمد الله الأمر بالوفاء بالعهود ، والصلاة على سيدنا محمد المصطفى الكريم سيد الوجود ، وعلى آله وصحبه ليوث البأس وغيوث الجود ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ؛ الآتي بالنعمت الموجود ، في الزمن المحدود ، وعن خلفائه الواصلين بأمره إلى التهايم والتجود ؛ والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسعد تدل له النواصي ، ويهدد الأقطار القواصي ؛ فكتبناه - كتبكم الله ممن إذا هم بأمر تدبر عواقبه ، وإذا عزم على ركوب غرر ألفي معاطبه - من فلانة كلاًها الله تعالى . وقد بلغنا ما كان منكم من أكساح النصاري ، والزيادة على ذلك باختطاف الأسارى ؛ ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلاً ، ونخوة تعقب هواناً ، وذلاً ؛ وقد أخطأتم في فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه : أحدها أنه خلاف ما أمر الله تعالى به من الوفاء بالعهد ، والوقوف مع العقد ؛ والثاني عصيان الأمر العزيز وفيه التغير بالمهج ، وترك السعة للحرج ؛ والثالث أنكم تثيرون على أنفسكم من شر عدوكم - قصمه الله - شراً يستعير ، وضراً يعدم فيه المتصر ، فليتك إذ تحلّيت بالعصيان ، ورضيتم الغدر المحرم في سائر الأديان ؛ ثبتم للعدو إذا دهمكم ، ولقيتموه بالجانب القوي متى رجمكم ؛ بل تدرعون له الفرار ، وتركونه في مخلفكم وما اختار ؛ وقد جرّتم مرات أنكم لا ترزؤنهم ذرة ، إلا رزءوكم ألف بدره ؛ ولا تصيبونهم مرّة ، إلا أصابوكم ألف مرّة ؛ وإلى متى

تَهْوَنُ فَلَا تَنْهَوْنَ ؟ وَحَتَّامُ تَنْهَوْنَ فَلَا تَنْهَوْنَ ؟ فَاذَا وَا فَا كَمْ كَتَبْنَا هَذَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ
فَأَدُّوا مَنْ أَسْرَيْتُمْ إِلَى مَأْمَنِهِ ، وَرُدُّوا مَا آتَيْتُمُ إِلَى مَسْرَحِهِ ؛ وَلَا تُنْسِكُوا مِنَ الْأَسَارَى
بَشْعَرِهِ ، وَلَا مِنَ الْمَاشِيَةِ بَوْبِهِ ؛ وَمَنْ سَمِعْنَا عَنْهُ - بَعْدَ وَصُولِ هَذَا الْكِتَابِ - أَنَّهُ تَعَدَّى
هَذَا الرَّسْمَ ، وَخَالَفَ هَذَا الْحُكْمَ ، أَنْفَذْنَا عَلَيْهِ الْوَاجِبَ ، وَحَكَّمْنَا فِيهِ الْمَهْنَدَ الْقَاضِبَ ؛
فَلْتُسْرِعْ مِنْ نَوْمَةِ الْغَفْلَةِ إِفَاقَتُكُمْ ، وَلَا تُتَعَرَّضُوا مِنَ الشَّرِّ لِمَا تَعْجِزُ عَنْهُ طَاقَتُكُمْ ، وَنَحْنُ
مَتَعَرِّفُونَ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مَنْ تَأَنَّى أَوْ يَدَارَ ، وَمُقَابِلُونَ لَكُمْ بِمَا يَصْدُرُ عَنْكُمْ مِنْ إِقْرَارٍ
وإنكارٍ ؛ وَهُوَ يُرْشِدُكُمْ بِمَنِّهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

قلت : ثم طرأ بعد ذلك الإكثار من ألقاب خلفائهم في المكاتبات الصادرة عنهم ،
والمبالغة في مدحهم ، وإطرائهم على ما سيأتى ذكره في الكلام على المكاتبات الواردة
من ملوك الأقطار إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الطَّرَفُ الثَّامِنُ

(في الأجوبة ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(ما يضيأه الأجوبة في الابتداء ، وهو على أسلوبين)

الأسلوب الأول

(أن يُفْتَحَ الْجَوَابُ بِلَفْظِ « مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ »)

مثل أن يكتب « من عبد الله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين »
إلى آخر الصدر على ما تقدم في الابتداء ؛ ثم يقال : أما بعد ، وينساق منه إلى
ذكر الكتاب الوارد وعرضه على الخليفة ، وما اقتضته آراء الخلافة فيه ، ويكمل

على نحو الابتداء . كما كتب عن المقتفى لأمر الله ، إلى غياث الدين مسعود بن ملكشاه السلجوقي في جواب كتابه الوارد عليه ، يخبره بأن بعض من كان خرج عن طاعته دخل فيها ، وأنحاز إليه ، وهو :

”من عبد الله أبى عبدالله محمد الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين ، إلى فلان بألقابه .

أما بعد - أطل الله بقاءك - فإن كتابك عُرض بحضرة أمير المؤمنين مُعرباً عن أخبار سعادتك ، وجرى الأمور على إرادتك ؛ وبلوغ الأغراض من الوجهة التي توجهت إليها ، والأطراف التي أشرقت سعادتك عليها ، بيمين ما يتق به من الطاعة الإمامية وتضميره ، وتعتقه من الإخلاص وتستشعره ؛ وأن ركن الدين محمداً ومن أنضم إلى جملته وأنظم في سلك موافقته لما ظفروا منك يذمام أطمأنوا إليه وسكنوا ، وأمان وثقوا به وركنوا ، أبصروا الرشد فاتبعوه ، وأستجابوا الداعي إذ سمعوه ؛ وأذعنوا لطاعتك مسرعين ، وأنقادوا إلى متابعتك مهطعين ؛ على استقرار مسيرهم تحت لوائك إلى باب همدان ليكون تقرير القواعد الجامعة للصالح عند وصولها ، والتوفر على تحزى ما تقربه الخواطر مع حلولها ؛ والانفصال إلى من يفد إلى الأبواب العزيزة مؤنساً بقرب الدار ، ومستسعداً بالخدمة الشريفة الإمامية المؤذنة ببلوغ الأوطار . ووقف عليه وعرف مضمونه ؛ وجد ذلك لديه من الابتهاج ، والاعتباط الواضح المنهاج ، ما تقتضيه ثقته بجانبك وأعتقاده ، وتحويله على جميل معتقدك وأعتقاده ؛ وأعتضاده من طاعتك بجميل لا تنقض الأيام مبرمه ، وسكونه من ولائك إلى وزر لا ترزع المخاوف حرمه ؛ وواصل شكر الله تعالى على ما شهدت به هذه النعمة العظيمة ، والموهبة الجسيمة ، من إجابة الأدعية التي مازالت جنودها نخوك مجهزه ، ووعدوه - جلّت عظمتهم - بقبول أمثالها منجزه ؛ وإمدادك منها بأمداد تستدعي

لك النصر وتستنزله ، وتستكمل الحظ من كل خير وتستجزله ؛ وتبلغ الأمل منك
 فيمن هو العدة للبلات ، والحامى لتقرير الأئس من روائع الشتات ، ومن يبقائه تكف
 عن الامتداد أكف الخطوب ، وتطلق وجوه المسار من عقل القطوب ؛ ويأبى الله
 العادل في حكمه وحكمته ، الرؤوف بعباده وخليقته ؛ إلا إعلاء كلمة الحق بالهمم
 الإمامية ، والإجراء على عوائد صنيعة الحفيه ، الكافلة بصلاح العباد والرعية ؛
 وقد أقيمت أسواق التهته بهذه البشرى ، وأفادت جدلاً نتاج وفوده ترى ؛ لاسمياً
 مع الإشارة إلى قرب الآوبة التي تدنى كل صلاح وتجلبه ، وتزيل كل خلل أعب
 القلوب وتذهب . وإلى البارى جل اسمه الرغبة في اختصاصك من عنايته بأحسن
 ما عهده وأجمله ، وصلة آخر وقتك في نجاح المساعي بأوله ؛ وأن لا يخلى الدار
 العزيرة من إخلاصك في ولآئها ، ورغبتك في تحصيل مرضيها وشريف آرائها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين - أدام الله تأييدك - آبتغى الله جزاءك فيها على عادة
 تكريمته ، وأعرب بها عن اعتقاده فيك وطويته ؛ ومكانك الأثيل في شريف
 حضرته ، وآبتهاجه بنعمة الله عندك وخيرته ؛ فتأملها تأملاً يشاكل طاعتك الصافية
 من الشوائب والأقذاء ، وتلقها بصدق الاعتماد عليها وحسن الإصغاء ؛ تفز بالإصابة
 قداحك ، ويقرن بالتوفيق مغداك ومرأحك ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك
 ورحمة الله وبركاته .



وكما كتب بعض كتاب الفاطميين عن الحافظ لدين الله : أحد خلفائهم إلى شمس
 الدولة أبى منصور محمد بن ظهير الدين بن نورى بن طغتكين بعلبك جواباً عن
 كتابه الوارد عنه على الخليفة ، ويذكر أنه حسن لفخر الملك رواج وروده على الخليفة
 بالديار المصرية ، ويذكر نصرته على الفرنج بطرابلس ، وقتله القومص ملكها .

«من عبدالله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين،
إلى الأمير فلان .

أما بعد، فإنه عُرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك من يدفناه ووزيره ، وصفيه
وظهيره؛ السيد الأجل الأفضّل؛ الذي بدّل نفسه في نصرة الدين تُقّى وليّانا، وأوضح
الله للدولة الحافظيّة بوزارته مُجّة وبرهانا ، وأسبغ النعمة على أهلها بأن جعله فيهم
ناظرا ولهم سلطانا؛ ووفقه في حُسن التدبير، والعمل بما يقضى بمصالح الصغير والكبير؛
وبما أعاد المملكة إلى أفضل ما كانت عليه من النُصرة والهَبة، ولم يُخرج المادحون
لها إذا اختلفوا عن التحقيق وصدق اللّهُجة ؛ فقد ساوت سياسته بين البعيد
والقريب ، وأخذ كلّ منهما بأجرل حظّ وأوفر نصيب ؛ وسارت سيرته الفاضلة
في الآفاق مسير المثل ، وأستوجب من خالقه أجر من جمّع في طاعته بين القول
والعمل . وشقّع عرّضه من وصفك وشُكرك ، والثناء عليك وإطابة ذِكرك ؛ وأنهى
ما أنت عليه من الولاء ، وشُكر الآلاء ؛ بما يُضاهي ما ذكرته فيه مما علّم عند تلاوته ،
وأصغى إليه عند قراءته . وقد آسَتنق بحضرة أمير المؤمنين مكانك من المشايخه ،
وموقعك من المُخالصة ؛ وكونك من ولاء الدولة على قضية كسبتك^(١) شرفا تفيّأت
ظلاله ، وأفاضت عليك ملبّسا جرّرت أذياله ؛ وسمّت بك إلى محلّ لا يُباهى من
بلغه ولا يُطاول من ناله ؛ وكنت في ذلك سالكا للمنهج القويم، ومعتمدا ما أهل
بيتك عليه في القديم ؛ لا جرم أنه عاد عليك من حُسن رأى أمير المؤمنين بما تقصّر
عنه كلّ أُمّنيّه ، ويشهد لك بخالصه جمعت فيها بين عملٍ ونيّه ؛ والله يضاعف

(١) في المصباح في مادة كسب "ويعتدى بنفسه إلى مفعول ثانٍ فيقال كسبت زيدا مالا وعلمها أى أنثته .
قال ثعلب وكلهم يقول كسبك فلان خيرا إلا ابن الأعرابيّ فإنه يقول أ كسبك بالآلف ."

أجرك على اعتصامك من طاعة أمير المؤمنين، بالحبل المتين، ويوزعك شكر ما منحك من الاستضاءة بنور الحق المبين .

فأما الأمير الأسفهلار نخر الملك رواج وبعثك له على الوصول إلى الباب، وحضك إياه على التعلق من الخدمة بمحصّد الأسباب؛ فما كان الإذن له في ذلك إلا لأن كتابه وصل بلمتمسه، وعرض فيه نفسه وبذل المناجحة والخدمة، ويسأل سؤال من يعرف قدر العارفة بالإجابة إليه وموقع النعمة؛ فأجيب إلى ذلك إسعافاً له بمراده، وعملاً برأى الدولة فيمن يرغب إلى التحيز إليها من أقطاره وبلادها؛ وإلا فلا حاجة لها إليه ولا إلى غيره، لأن الله تعالى - وله الحمد - وفر حظاً من الأولياء والأشياء، والأنصار والأتباع؛ والعساكر والجيوش والأجناد والأنجاد، والأعوان الأقوياء الشداد؛ وعبيد الطاعة الذين يتبارون في النصيح ويتنافسون في الاجتهاد والحرص، وسعة الأموال، وعمارة الأعمال، وجمع الرجال في العزائم بين الأفعال والأقوال؛ ولو وصل المذكور لكانت المنّة للدولة عليه، والحاجة له في ذلك لا إليه، قال الله عز من قائل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُم لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

وأما توجهه إلى طرابلس وظفره بقومصها وقتله إياه مع من بها، وعظيم أمره فيها؛ فإله تعالى يعز الإسلام وينشر لواءه، ويعلي مناره ويخذل أعداءه؛ وينصر عساكره وأجناده، ويبلغه في أحزاب الكفر والضلال مراده؛ وهو عز وجل يتمتع من الولاء بما منحك، ويملك في دينك ودنياك أملك ومقتحرك؛ فأعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى» .

الأسلوب الثاني

(أن يُفْتَحَ الجواب بلفظ «أما بعد»)

كما كُتِبَ عن المقتنى إلى السلطان محمود بن محمد السَّلْجُوقِ جواباً عن كتابه الوارد بإخباره باجتماعه مع عمه سنجر، ونسخته :

أما بعدُ فإنَّ كتابك عُرِضَ بحضرة أمير المؤمنين ناطقاً بدرك الأوطار ، وحصول المقاصد على الآثار ، وما أنهيته من الاجتماع بعز الدنيا والدِّين جمع الله في طاعته شملكما ! ووصل بالألفة والتوادد حبلكما ! ومن إكرام الوفادة الذى أنت أهله ووليّه ، وحقيق أن يتبع وسميه لَدَيْكَ وَلِيّه ؛ والمواقفة على كل حال آذنت ببلوغ الأغراض وتيسرها ، ونجاز المساعي على أتم وفاق وتقرُّرها ؛ وانتظام الأمور على أجمل معتاد وأكمل مُراد ، وأحسن آتساق وأطراد ؛ واستقرار القواعد على الوصف الجامع أشتات الاتفاق ، الدالّ على صدق المحافظة بينكما وقرط الإشفاق ؛ محفوفاً بالسعادة التى لا تزال ما تُرك في الطاعة الإمامية تملك قيادها ، وتُقلِّدك على الاتصال نجاحها ، فتهللت بهذا النبأ المبجع أسرة البشرى ، وأصبح الحذل بمكانه أفعم عرفاً وأذكى نشراً ، وقامت لأجله في عِراض الدار العزيزة مواسم ، أضحت المسرة بها مُقترنة النغور ضاحكة المباسم ؛ وجدير بمن كان له من الهِمَم الشريفة مددٌ واف ، ومنجدة يدفع في صدر كلّ خطب مؤاف ؛ أن تكتنفه الميامن والسعود ، ويصدق في كل مرمى يُنحوه من النجح الموعود ؛ وتتقادله المصاعب دُلاً ، ويعود بمنّ نقيته كل عافٍ من الصلاح جديداً مُقبلاً ؛ ولا ينفك صنعُ الله جلّ اسمه لطيفاً ، ويربّاه

(١) الولي على فعليل المطر بعد المطر وقد يخفف عن كراع أنظر اللسان ج ٢٠ مادة ول ى .

(٢) لعله ويصادف النجح .

مُحَدِّقاً مُطِيفاً ، والتوفيقُ مصاحِبُهُ أُنْثَى وَثَوَى ، أَوْ ثَنَى عِناهُ إِلَى وَجهِهِ وَلَوَى ؛
والله يَتَعَ أمير المؤمنين منك بِالْعَضْدِ الَّذِي يَذُبُّ عَنْ دَوْلَتِهِ وَيَحَامِي ، وَيَنَاضِلُ دُونَهَا
بِجُنُودِ الْإِخْلَاصِ وَيُرَامِي ؛ وَلَا يُحْلِيكَ مِنْ رَعَايَتِهِ الَّتِي لَا يَزَالُ يَسْتَقِرُّ فِيهَا إِلَيْكَ ،
وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي إِسْبَاغِ لِبَاسِهَا عَلَيْكَ ، حَتَّى تُنْسِنِي لَكَ الْمَطَالِبَ مَعَا ، وَيَعْدُو الزَّمَانُ
فِيهَا يَنْشَأُ مَتَّبِعَا .

هذه مفاوضة أمير المؤمنين إليك ، أدام الله تأييدك ، أجراك فيها على مألوف
العادة ، وجدد لك بها بُرُودَ الْفَخَّارِ وَالسَّعَادَةِ ؛ فَاجِرْ عَلَى وَثَرَتِكَ فِي إِتْحَافِ حَضْرَتِهِ
بَطِيبِ أَخْبَارِكَ ، وَجَارِي الْأُمُورِ فِي إِيْرَادِكَ وَإِصْدَارِكَ ؛ تُهْدِ إِلَيْهَا آتِبَهَا جَاوِافِرَا ،
وَأَبْتَسَامَا يَظُلُّ لثَامُهُ عَنْ حَمْدِ اللَّهِ الْمُسْنَدِ بِهَا سَافِرَا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثاني

(أَنْ يَكُونَ الْإِفْتِتَاحُ فِي الْجَوَابِ مُصَدِّراً بِمَا فِيهِ مَعْنَى وَصُولِ الْمَكْتُوبَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ)
فَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْكُتَّابِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ ذَلِكَ بِلَفْظِ « الْعَرْضُ عَلَى
الْخَلِيفَةِ » وَيُؤْتَى فِيهِ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ الْكِتَابُ الْمَجَابُ عَنْهُ ، ثُمَّ يُحْتَمَمُ كَمَا تُحْتَمَمُ الْإِبْتِدَآتُ .
كَمَا كَتَبَ الْعَلَاءُ بْنُ مُوصَلَايَا عَنْ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ إِلَى « أَنْتَ » عِنْدَ وَرُودِ كِتَابِهِ
عَلَى أَبْوَابِ الْخِلَافَةِ يَتَضَمَّنُ أَنْتِظَامَهُ فِي سِلْكِ الطَّاعَةِ وَغَلَبَتِهِ الْأَعْدَاءِ ، وَهُوَ :

عُرِضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَرَدَ مِنْكَ دَالًّا عَلَى تَمَسُّكِكَ مِنَ الطَّاعَةِ الْإِمَامِيَّةِ
بِمَا لَا تَزَالُ تُجِدُّ فِيهِ مَلَائِسَ التَّوْفِيقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَتَجِدُّ بِهِ مَرَائِرَ السَّعْدِ مُحْصَفَةً
فِي كُلِّ حَلٍّ وَتَرَحَالٍ ؛ مُنْبِئًا عَنْ تَوَفُّرِكَ عَلَى الْمَقَامَاتِ الَّتِي أَنْتَقَمْتَ بِهَا لِلْهُدَى مِنْ
الضَّلَالِ ، وَأَسْتَقَمْتَ فِيهَا حَتَّى أَجَلَّتْ عَنْ كُلِّ صِلَاحٍ مِمَّتِ الظَّلَالِ ؛ شَاهِدًا بِمَا أَنْتَ

عليه من موالاة لا تألؤ جهداً في التزام شروطها بادئاً عائداً ، ولا تخلو فيها من حسن
أثر يكون لدعائم الصواب عامداً ، وتُرى فيه قاصداً لا اجتلاب الخير عائداً . ووقف
عليه وقوف من ارتضى ما يتوالى من قرباتك التي لا تزال في إعذاب ورودها ساعياً .
ولما يُفَضَّى إلى أعشاب مرعاها في طلب الحمد مُراعياً ، وانتضى منك للخدمة بتلك
الأعمال حساماً باترا آجال بقايا الكُفْر هناك ، ماضياً في كل ما يُفَضَّى بأنفساح مجال
آمالك في الدهر ومبارك ، وأعتد لك بما أنناه عنك رسول أمير المؤمنين العائد من
قبلك ، وأوضحه من زلفك التي شفع قولك فيها عملك ، وطالع به الرسول الذي نفذته
معه لقصد بابه ، والمُناب في تأكيد دواعي التُّجَح وتمهيد أسبابه ، وحل كل ذلك
لديه المحل الذي ستجني ثمره كلما يَطِيبُ ويخلو ، ويسلم من كل الاستزادة ويخلو ،
ويعزُّ مهر الفوز به على غيرك ويغلو ، وتأئل لك من الرتبة بحضرته ما يُدِنِي لك كل
مطلب إلى مُرادك آئل ، ويدوي قلب كل متحرف عن وفائك مائل ، وصرت
من أعيان الخُلصاء الذين سَمَت الهدى أفعالهم بالحمد ، سَمَت بالطاعة آمالهم
إلى توَقُل هَضاب المجد ، فما تهم بك الغير إلا وتتقطع دُونك أعناقها ، وترجع في جلباب
الحيَّة وحيضها إليك وإعناقها ، ولا تمتد نحوك يدٌ ضد إلا ردها عنك جميل الآراء
الشريفة فيك وغلها ، وأوجب نهلها عن موارد القصور وغلها ، وكيف لا يكون ذاك
ولك في الطاعة كل موقفٍ أغتذى بلبان الحمد ، وأعنى باشتهاره بلوغ المدى
في وصفه والحد ، فأحسن الله توفيقك فيما أنت بإزائه من إجماد لهب الباطل بتلك
الشعاب ، وإجهاد النفس في إجمال المتاعب وإذلال الصعاب ، وأمدك بالعون
على ما بدأت له من جب فيما يليك ، وطبَّ أدواء الفساد في نواحيك . ومع

(١) كذا في الأصول ولعله من خلال الاستزادة وفي المختار والقاموس "استزادة استقصه" .

(٢) بياض في الأصول بهذا المقدار ولعله من جب أصول العناد الخ .

مافُزَتَ به من هذه المِنحة التي قد جاز قدرُها التقديرَ والظنَّ ، وجادَ لك الدهرُ فيها بما كان نَحَّ به على أمثالك وضنَّ ؛ فيجب أن تستدِيمَها ، وتُحصِّن من النِّغل أديمَها ، بمزيدٍ من الخدمة تنتهز الفُرصَ بالإسراع إليه والبدارَ ، وتنتهج أقومَ الجُدِّ في مقابلة الإيرادِ منه بالإصدار ، وتُنفِد وتُسَعِّك في كل مسعى ينثني إليك عِنانُ الشَّاءِ معه ، وتُتَفِق عُمركَ في كل أمرٍ يجمع لك مرأى الرضا عنك ومُسَمِّعَه ؛ لتجدَ من جدوى ذلك ما ينظِّم في السعادة شَمْلَكَ ، ويضحى به القيادُ فيما يصدِّق أملكَ أملكَ ؛ وأن تُحمد السيرةَ في الرعايا الذين غدوا تحت كَنَفِكَ ، وتجعلَ الاشتغالَ على مصالحهم مُعرباً عن فضل شَغَفِكَ بالخير وكَلَفِكَ ؛ فإنهم ودائعُ الله تعالى يلزم أن تُحْيى من ضياع يتسلط عليها في حال ، وتُحْيَا من درِّ الإحسان برضايع لا يخطرُ الفِطامُ عنه ببال ؛ فلا تَقِفَنَّ عند غاية في إفاضة الفضل عليهم وإسباغ ظِلِّه ، وأعتادهم بتخفيف ثقل الحيف عنهم أو إزالة كُلِّه ؛ ليكونوا في أفياء الأمن راتعين ، ولحرق كل مُلِمٍّ بحُسن ملاحظتك راقعين ؛ فالذى يراه أمير المؤمنين في فرضك حتى يزداد بأعك طُولا ، ولا يترك لك على الزمان اقتراحا ولا سُولا ؛ يقتضى أن يُتَّبِع كُلَّ سابقٍ إليك من الإحسان بلا حِقْ ، ويُبرِّع جَناب النعمى لَدَيْكَ عند ذَرِّ كُلِّ شارق . وكذلك يرى أن يجددَ لك من تشريفه المنور مطالعَ الفجر ، المنوّه بالذِّكر في الدهر ؛ الذى لا تزال الهِمُّ العالية تصبُو إلى الفوز به وتميل ، وتَقِف عند حدِّ الرجاء والتأميل ، ما أصحبَ رسولَكَ المشار إليه لتدريج من خلاله ما الشُّرف الأكبر في مطاويه ، وتمتطى من صهوة العِزِّ فيه ما يبعُد على النظراء إدراكُ مَرَامِيهِ . ويجب أن نتلقَى مقدَمَ ذلك عليك بما يُنْبئُ عن اقتران النعمة الغراء فيه ، واقفِ أراهلَةَ التوفيق عندك بما تَقْصِد في المعنى وتنتجيه ؛ وإذا عاد رسولُكَ إلى باب أمير المؤمنين حسبَ ما ذكرت ، أُصْدِر على يده من ضروب التشريفات ما يُقَرِّ

فِيكَ عُيُونٌ مِّنْ يُّودِكَ ، وَيَقَرُّ فِي مَغَانِيكَ كُلِّ سَعْدٍ يُورِي فِيهِ زَنْدُكَ ، فَاسْكُنْ إِلَى حَبَائِكَ بِالْمَزِيدِ مِنْ كُلِّ رُتْبَةٍ أَهَّلْتَ لَهَا ، وَكُنْ بِحَيْثُ الظَّنُّ فِيكَ تُوقَّرُ عَلَيْكَ أَقْسَامُ الْحَمْدِ كُلُّهَا ، وَثِقْ بِمُتَرَادِفِ آلَاءٍ يَنْضُمُ لَدَيْكَ شَمْلُهَا ، وَيُثْقِلُ كُلَّ كَاهِلٍ حَمْلُهَا ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطرف التاسع

(فِي الْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنْ وِلَاةِ الْعَهْدِ بِالْخِلَافَةِ)

لَمْ أَقِفْ عَلَى مَكْتَابَةٍ صَرِيحَةٍ فِي التَّصْوِيرِ عَنْ وِلَاةِ الْعَهْدِ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِمَامَ أَبَا جَعْفَرَ النَّحَّاسَ فِي "صِنَاعَةِ الْكُتُبِ" بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَنَّ صُورَةَ الْمَكْتَابَةِ عَنِ الْخَلِيفَةِ : «مَنْ عَبْدَ اللَّهِ أَبِي فَلَانٍ فَلَانٍ الْإِمَامَ الْفُلَانِي إِلَى فَلَانٍ» أَتَّبَعَ ذَلِكَ بِأَنْ قَالَ : وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ يُكَاتِّبُ عَنْهُ بِالتَّصْدِيرِ إِلَّا الْإِمَامَ وَوَلِيَّ الْعَهْدِ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَدْ فَسَّرَ أَبُو حَاجِبٍ النَّعْمَانُ فِي "ذَخِيرَةِ الْكُتُبِ" التَّصْدِيرَ بِأَنْ قَالَ : يَكْتُبُ «مَنْ عَبْدَ اللَّهِ أَبِي فَلَانٍ فَلَانٍ» بِاسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ وَنَعْتِهِ . وَيُقَالُ : أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي فَلَانٍ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَى آخِرِهِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

وَذَكَرَ النَّحَّاسُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْعُنْوَانِ مِنَ الرَّئِيسِ إِلَى الْمَرْءِ وَسْ أَنَّهُ يُحْدَفُ مِنَ الْكُتُبِ عَنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ لَفْظُ الْإِمَامِ ، وَلَفْظُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُقَالُ فِيهِ : وَلِيَّ الْعَهْدِ . وَظَاهِرُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَكْتَابَةَ عَنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ مُشَابِهَةٌ لِلْمَكْتَابَةِ عَنِ الْخَلِيفَةِ ، وَأَنَّ لَفْظَ وَلِيِّ الْعَهْدِ فِي الْمَكْتَابَةِ عَنْهُ يَقُومُ مَقَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَكْتَابَةِ عَنِ الْخَلِيفَةِ نَفْسِهِ ، وَحِينَئِذٍ فَيَتَجَهَّ أَنْ تَكُونَ الْمَكْتَابَةُ عَنْهُ «مَنْ عَبْدَ اللَّهِ أَبِي فَلَانٍ فَلَانٍ الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ مِثْلًا وَلِيَّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَىٰ عَجْدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَا بَعْدُ : فَإِنْ كَذَا وَكَذَا»
وَيُؤْتَىٰ عَلَىٰ الْمَقْصِدِ إِلَىٰ آخِرِهِ . وَعَلَىٰ ذَلِكَ يَدُلُّ كَلَامُ صَاحِبِ «ذَخِيرَةِ الْكُتُبِ» .
فَإِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْمَكْتَابَةِ عَنِ الْخَلِيفَةِ : وَكَذَلِكَ الْمَكْتَابَةُ عَنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ . عَلَىٰ أَنَّ
الْمَكْتَابَةَ عَنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ قَدْ بَطَلَتْ فِي زَمَانِنَا جَمَلَةً .

الطَرَفُ الْعَاشِرُ

(من المكاتبات عن الخلفاء المكاتبات إلى أهل الكفر)

وَكَانَ الرَّسْمُ فِيهَا أَنْ يُكْتَبَ « مِنْ فُلَانٍ إِلَىٰ فُلَانٍ » . وَيَقَعُ التَّخْلُصُ فِيهَا
إِلَىٰ الْمَقْصُودِ بـ«أَمَا بَعْدُ» . وَيَخْتَمُ الْكِتَابُ بِلَفْظِ «وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَىٰ» .
فَقَدْ حَكِيَ أَبُو هَالَلٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْأَوَائِلُ» أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ الرُّومِ مَلِكَةٌ ،
وَكَانَتْ تُتَلَاطَفُ الرَّشِيدَ وَلَهَا ابْنٌ صَغِيرٌ ، فَلَمَّا نَشَأَ قَوَّضَتْ الْأَمْرَ إِلَيْهِ فَعَاثَ
وَأَفْسَدَ ، نَخَافَتْ أُمُّهُ عَلَىٰ مُلْكِ الرُّومِ فَقَتَلَتْهُ ، فَخَرَجَ عَلَيْهَا تَقْفُورٌ مَلِكُ الرُّومِ فَقَتَلَهَا
وَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ مُلْكِهَا وَكُتِبَ إِلَىٰ الرَّشِيدِ :

«أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ وَضَعْتَكَ مَوْضِعَ الشَّاهِ ، وَوَضَعْتَ نَفْسَهَا مَوْضِعَ الرَّخِّ ،
وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّي أَنَا الشَّاهُ وَأَنْتَ الرَّخُّ . فَأَدِّ إِلَيَّ مَا كَانَتْ الْمَرْأَةُ تُؤَدِّي إِلَيْكَ » .
فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ ، قَالَ لِكُتَّابِهِ أَجِيبُوا عَنْهُ ، فَكَتَبُوا مَا لَمْ يَرْضَهُ ، فَكُتِبَ هُوَ إِلَيْهِ :

«مَنْ عَبْدُ اللَّهِ هَارُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَىٰ تَقْفُورِ كَلْبِ الرُّومِ . أَمَا بَعْدُ فَقَدْ فُهِمَتْ
كِتَابُكَ ، وَالْجَوَابُ مَا تَرَاهُ لَا مَا تَسْمَعُهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَىٰ» .

وَيَقَالُ : إِنَّهُ كُتِبَ «الْجَوَابُ مَا تَرَاهُ لَا مَا تَسْمَعُهُ ، وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُنِيَ
الِدَارُ» . وَلَا يَنْحَنِي مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَعَ الْإِيحَازِ .

وكتب عن الحافظ لدين الله : أحد خلفاء الفاطميين بمصر إلى صاحب صِقلية^(١) وما معها من ملوك الفرنج :

« من عبدالله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، إلى الملك بجزيرة صِقلية ، وأنكورية وأنطالية وقلورية وسترلو وملف وما أنصاف إلى ذلك ، وفقه الله في مقاصده ! وأرشده إلى العمل بطاعته في مصادره وموارده ؛ سلاماً على من أتبع الهدى ، وأمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلّي على جدّه محمد خاتم النبيّين ، وسيد المرسلين ؛ صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ؛ الأئمة المهديّين ؛ وسلّم تسليماً .

أما بعد : فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك ، ففضّ ختامه وأجّلي ، وقريّ مضمونه وتلى ؛ ووقعت الإصاخة إلى فصوله ، وحصلت الإحاطة بجمّله وتفصيله ؛ والإجابة تأتي على أجمعه ، ولا تخلّ بشيء من مستودعه ؛ أما ما أفتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيعك القول فيما أولاك من إحسانه وكرمه ؛ فإن مواهب الله تعالى ومنّته التي جعل توأليها اختبار شكر العبد وامتحانه على أنه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور عليم ، وهو القائل فيمن أنى عليهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ فُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يزال مضاعفها ومُرَادفها ، ومتبعها سالفها آنفها ؛ وهو يؤليها كلّاً من عبيده بقدر منزلته عنده ، ويخصّ أصفياءه بأوفى مما تمنّاه الآمل المبالغ وودّه ؛ والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين ، وآباءه الأئمة الراشدين ؛ ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأنّحه ، إذ كان أفردهم دون الخليفة بأن أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم معها

(١) في التعبير تساهل والغرض معلوم .

الآخره ؛ وأختصهم من حباته بما لا يحصىه عدد ، وخولهم من آلائه بما لا يقوم بشكره أحد .

وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجزيرة لما شرحته من عدوان أهلها ، وعدوهم عن طرق الخيرات وسبلها ؛ وأجرائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها ؛ وأستعالم الظلم تمردا ، وتماديهم في النقي تباهيا في الباطل وغلوا ، يأسا من الجزاء لما استبطئوه ، فإن من كانت هذه حاله حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخلق أن يأخذه الله من مأمته أخذة راييه ؛ كما أنه من كان من أهل السلامه ، وسالكا سبيل الاستقامه ؛ ومقبلا على صلاح شانه ، وغير متعد للواجب في سره وإعلانه ؛ تعين أن نوفر من الرعاية سهمه ، ونُجزل من العناية نصيبه وقسمه ؛ ويؤمن مما يقلقه ويزعجه ، ويقصد بما يسره ويهجه ؛ ويصان عن أن يناله مكروه ، ويُنحى من أدنى يلُم به ويعروه .

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وعصدها عن الملك وفخره نظام الرياسة ، أمير الأمراء ، فإن من تهذب بهذيبك ، وتحلق بأخلاقك وتأدب بتأديبك ؛ لا ينكر منه إصابته المرامي ، ولا يستغرب عنده نصح المساعي ؛ وواجب عليه أن لا يجعل قلبه إلا متوياً للنصائح ، وأن لا يزال عمره بين غادٍ في المخالصة ورائح .

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيه ذا كرا ما أعتمده مقدم أسطولك من صونه وحمايته ، وحفظه ورعايته ؛ وإعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بأنه جارٍ في الديوان الخاص الحافظي ، ففعل يجل عنك صدره ، ويليق بك أن ينسب إليك ذكره وخبره ؛ ويدل على علم أحبابك برأيك وإحكام معاقدة المودة ، ويعرب عن إيثارك إبرازها كلها تقادم عهدتها في ملابس بهجة مستجدته ؛ وهذا الفعل من

خلائفك الرضية غير مستبدع ، وقد ذخرت منه عند أمير المؤمنين ما حصل في أعز مقرر وأكرم مستودع ، لأجرم أن أوامره خرجت إلى مقدمي أساطيله المظفرة بما يُجنيك ثمرة ما غرسته ، ويُعلي منار ثنائك الذي قزرته على أقوى أصل وأسسته ؛ وقد نفذت مراسيمه بإجرائك على غلاتك المستمرة في المساحة بما وجب للديوان عما وصل برسمك على مرايكك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرك ، والرسولين الواردين عن حق الورود إلى نعر الإسكندرية حماه الله تعالى ، ثم إلى مصر حرسها الله وحق الصدور عنهما ، وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية .

وأما شكرك على الأسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة لرغبتك ، ورسم بتسييرهم إليك محافظة على مرادك وبغيتك ؛ فأوزعنا شعارهم أنهم عتقاء شفاعتك ، وأرقاء ممتك ؛ فذلك من الدلائل على ما ينطوى عليه من جميل الرأي وكريم النية ، ومن الشواهد بأنه يُوجب لك ما لا يُوجب لأحد من ملوك النصرانية .

وأما سؤالك الآن في إطلاق من تجدد أسره ، وإنهاؤك أن ذلك مما يهمل أمره ؛ فقد شفعك أمير المؤمنين بالإجابة إليه على ما ألفت من كريم شيمته ، وسير إليك مع رسولك من تضمن الثبوت ذكر عذته ، وقد علمت ما كان من أمر بهرام ووصوله إلى الدولة الفاطمية خلد الله ملكها شريداً طريداً ؛ قد نبئت به أوطانه ، وقد قنته دياره ؛ لا مال له ولا حال ، ولا عشيرة ولا رجال ؛ فقبلته أحسن قبول ، وبلغت به في الإحسان ما يزيد على السؤل ؛ وعمرته من الإنعام ما يقصر عن اقتراحه كل أمل ، وجعلته فواضلها يقلب الطرف بين الخيل والحوال ؛ وكانت أموره كل يوم في نمو وزيادة ، وأحواله توفى على البغية والإرادة ، إلى أن جرت نوبة أقتضى التدبير في وقتها أن عُدقت به الوزارة ، ونيطت به السفاره ؛ فوسوس له خاطره ما زخره

البَطَر وزَيْنَه ، وصَوْرَه الشَّيْطَانُ وَحَسَنَه ؛ وأَظْهَرَ مَاظْهَرَتْ أَمَارَاتُه ، وَوَضَحَتْ أُدْلَتُه
وَعَلَامَاتُه ؛ فَاسْتَدْعَى قَبِيلَه وَأُسْرَتَه ، وَجَنَسَه وَعَشِيرَتَه ؛ بِمَكَاتِبَاتٍ مِنْهُ سِرِّيَه ،
وَخُطُوطٍ عَثَرَ عَلَيْهَا بِالْأَرْمَنِيه ؛ فَكَانُوا يَصِلُونَ أَوَّلَ أَوَّلٍ ، إِلَى أَنْ أَجْتَمَعَ مِنْهُمْ عَشْرُونَ
أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ ، وَمِنْ جَلَّتْهُمْ أَبْنَا أَخِيهِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِهِ ، فَذَلُّوهُ
بِالْغُرُورِ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى مَا قَضَى بِالْأَسْتِحَاشِ مِنْهُ وَالنُّفُورِ ؛ وَقَوَّوْا عِزَمَه فِيمَا يُوَدَّى
إِلَى أَضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ وَأَخْتِلَالِ الْأُمُورِ ، فَامْتَعَضَ الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ مِمَّا أَسَاءَ بِهِ
سِيَاسَتَهُمْ ، وَأَبَوُا الصَّبْرَ عَلَى مَا غَيَّرَ بِهِ رَسْمَهُمْ وَعَادَتَهُمْ ؛ فَلَمَّا رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ
أَسْتَغْثَمَ الْحَالَ فِيهِ ، وَتَيَقَّنَ أَنَّ التَّغَاوُلَ عَنْهُ يَقْضِي بِمَا يُعْسِرُ اسْتِدْرَاكَهُ وَتَلَافِيهِ ؛
فَكَاتَبَ وَلِيَّهَ وَصَفِيَّهِ الَّذِي رُبِّي فِي حَجَرِ الْخِلَافَةِ ، وَسَمَا بِهِ أَسْتَحْقَاقَهُ إِلَى أَعْلَى دَرَجِ
الْإِنَافَةِ ؛ وَحَصَلَتْ لَهُ الرِّيَاسَةُ بِاِكْتِسَابِهِ وَأَنْتَسَابِهِ ، وَغَدَا النَّظَرُ فِي أُمُورِ الْمَمْلُوكَةِ
لَا يَصْلُحُ لغيرِهِ وَلَا يَلِيْقُ إِلَّا بِهِ ؛ السَّيِّدُ الْأَجَلُ الْأَفْضَلُ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ وَالِى الْأَعْمَالِ
الْغَرِيبَةِ ، وَصَدَرَتْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تُشْعِرُهُ بِهَذَا الْأَمْرِ الصَّعْبِ ، وَتَسْتَكْشِفُ بِهِ
مَا عَرَا الدَّوْلَةَ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ ؛ فَأَجَابَ دُعَاءَهُ ، وَلَبَّى نِدَاءَهُ ؛ وَقَامَ قِيَامَ مِثْلِهِ مِنْ
أَجَزَلِ اللَّهِ حَظَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَجَعَلَهُ جَلًّا وَعِزًّا حَسَنَةً هَذَا الزَّمَانِ ؛ وَأَخْتَصَّه بِعِنَايَةِ
قُوَّتِهِ ، وَأَمَدَهُ بِمَوَادِّ عُلُوِّيَّتِهِ ؛ وَأَيْدَهُ بِاعَانَةِ سَمَاوِيَّتِهِ ، تَخْرُجُ عَنِ الْإِسْتِطَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ؛
بِجَمْعِ النَّاسِ وَقَامَ خُطْبِيًّا فِيهِمْ ، وَبَاعَثْنَا لَهُمْ عَلَى مَا يُزِلُّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَيُخْطِئُهُمْ ؛ وَمَوْضَحًا لَهُمْ
مَا يُخْشِي عَلَى الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَمْرِ الْمُنْكَرِ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ كَاجْتِمَاعِهِمْ يَوْمَ الْحَشْرِ ؛ وَغَصَّتْ
النُّجُودُ وَالْأَغْوَارُ ، وَامْتَلَأَتِ السُّهُولُ وَالْأَوْعَارُ ؛ وَضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى سَمْعَتِهَا
بِالْخَلَائِقِ ، وَارْتَفَعَتْ فِي تَوَجُّهِهِمْ لَطَبُ الْمَذْكُورِ الْأَعْدَارُ وَالْعَوَاقِقُ ؛ وَلَمْ يَبْقَ فِضَاءٌ
إِلَّا وَهُوَ بِهَمِّ شَرِّقٍ ، وَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مَزْعُجٌ بِقَصْدِهِ وَعَلَى تَأَخُّرِ ذَلِكَ قَلَقٍ . وَكَانَ
بِهَرَامٍ وَأَصْحَابُهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِمْ كَالشَّامَةِ فِي اللَّوْنِ الْبَاسِطِ ، وَكَالْقَطْرَةِ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ؛

وسأروا مع السيد الأجلّ الأفضّل نحوه مسارعين ، وعلى الاقتضاض عليهم
متهايتين ؛ فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولاذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ،
ويطوى المراحل ، ويرى الشroud غمًا ، ويعدّ السلامة حلمًا ؛ واستقرت وزارة
أمير المؤمنين لهذا السيد الأجلّ الأفضّل الذي لم تزل فيه رايغبه ، وله خاطبه ؛
ونحو توليه إياها متطلّعه ، وإلى نظره فيها مبادرة متسرّعه ، ولم تنفك لزينة دسّتها
مستبطنه ، وفي التلهّف على تأخر ذلك مديدة مُبدئه ؛ فأحسن إلى الكافة قولاً
وفِعلاً ، وعَمِل في حقّ الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شبهاً ولا في الملوك العُظماء
مثلاً ؛ وغدا لليلة الحنيّفة حُجّة وبرهاناً ، وأولى الأولياء إعزازاً وتكريماً والأعداء
إذلالاً وإهواناً ؛ وصان الخلافة عن نفاذ حيله ، وتام غيله ؛ ومُحادعة ما كره ، ومُخالفة
غادر ؛ فلذلك انتضاه أمير المؤمنين حساماً باتراً ماضى الغرار ، وأجبتاه هُماماً
في المصالح لا يطعم جفنه غير الغرار ؛ وأصطفاه خليلاً وظهيراً لتساوى باطنه
وظاهره في الصفاء ، وأستخلصه لنفسه لمفآخره الجمّة التي ليس بها من خفاء ،
وأنتظمت الأمور بكفّالته في سلك الوفاق ، وعمّت الخيرات بوزارته عموم الشمس
بأنوارها جميع الآفاق ؛ فسعدت بنظره الجُدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسُّعود ؛
وأصبح غُصن المعالي يُمينه مُورِقاً ، وعلى المِلّة من يُمن آرائه تمامٌ من مسّ الحوادث
ورُقّ ، فأماه توفّي على ضياء الصّباح ، وعزّ ماته تُررى بمضاء المهتدة الصّفّاح ، ومآثره
تفوّت شأو الثناء وغاية الإمتداح . فأنّه تعالى يحفظُ النعمة على الخلافة الحافظيّة ،
ويوزع شكره على سُبوغها كافّة البرية ؛ بكرمه وفضله ، ومنّه وطوله .

ولما أمعن بهرام في الهرب ، وجدت العساكر المنصورة وراءه في الطّلب ؛
وضاقت عليه المسالك ، وتيقّن أنه في كل وجهة يقصدها هالك ؛ عاد لمكارم الدولة

وعواظِهَا ، وسأل أماناً على نفسه من متالِفِهَا ؛ فشَمِلَتْهُ الرحمة ، وكُتِبَ لَهُ الأمان
فعَاوَدَتْهُ النِّعَمَةُ ؛ وآخِطَلَتْ بِرِجَالِ العساكر المنصُورَةِ ، وصَارَ حَظُّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ
مَبْخُوساً مِنَ الحُظُوظِ الموفُورَةِ .

وأما اعتذار الكاتب عما وَجَّهَ إليه بَأَنَ مِنَ الكلام ما إِذَا نُقِلَ مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ
أُخْرَى أَضْطَرَبَ مَبْنَاهُ فَأَخْتَلَّ مَعْنَاهُ ، وَلَا سِيَّما إِنْ غُرِسَ فِيهِ لَفْظٌ لَيْسَ فِي إِحْدَى
اللُّغَتَيْنِ سِوَاهُ ؛ فَقَدْ أَبَانَ فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ السَّهْوُ فِيهِ عَنْ وُضُوحِ سَبَبِهِ ، وَقَدْ قُبِلَ عَذْرُهُ
وَلَمْ تُفَكَّ يَدُهُ عَنِ التَّمَسُّكِ بِهِ .

وأما ما سَيَّرَتْهُ إِلَى خَزَائِنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تُحْفَةً وَهَدِيَّةً ، وَأَبْنَتْ بِهِ عَنْ هِمَّةِ بَدَوَاعِي
الْمَجْدِ مِلَّةً ؛ فَإِنَّهُ وَصَلَ وَتَسَلَّمَ كُلَّ صِنْفٍ مِنْهُ مَتَوَلَّى الْخَزَائِنِ الْمُخْتَصِصَةِ بِهِ بَعْدَ عَرَضِهِ
عَلَى الثَّبَتِ الْمَعْطُوفِ كِتَابُكَ عَلَيْهِ وَمَوَاقِفَتِهِ ، وَقَدْ أَجْرَى رَسُولُكَ فِي إِكْرَامِهِ وَمُلَاحَظَتِهِ
عَلَى أَفْضَلِ مَا يَعْتَمَدُ مَعْ ثَلَاثَةٌ بِمِثْلِهِ بِمِثْلِهِ مَنْ وَرَدَ مِنْ جِهَتِهِ ، وَعَلَى قَدَرٍ مَنْ وَصَلَ بِرِسَالَتِهِ ؛
وَقَدْ سَيَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَسْرَاءِ دَوْلَتِهِ ، وَوُجُوهِ الْمُقَدَّمِينَ بِحَضْرَتِهِ ؛ الْأَمِيرَ الْمُؤْمِنَ ،
الْمَنْصُورَ ، الْمُتَخَبَّ ، مَجْدَ الْخِلَافَةِ ، تَاجَ الْمَعَالِي ، نَفَرَ الْمُلُوكِ ، مُوَالِيَ الدَّوْلَةِ وَشُجَاعَهَا ،
ذَا النَّجَابَتَيْنِ ، خَالِصَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبَا مَنْصُورٍ جَعْفَرًا الْحَافِظِيَّ رَسُولًا بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ ،
لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ سَدَادِهِ ، وَمَوْصُوفٌ مِنْ مُسْتَوْفَقِ قَصْدِهِ وَمُسْتَضَوَّبِ اعْتِمَادِهِ ،
وَأُتْقِنَى إِلَيْهِ مَا يَذْكُرُهُ وَيُشْرَحُهُ ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِيمَا يُشَافِهِ بِهِ وَيُوضِّحُهُ ؛ وَأَصْحَبَهُ مِنْ سَجَايَاهُ
وَالطَّافِيهِ ، مَا تَضَمَّنَهُ الثَّبَتُ الْوَاصِلُ عَلَى يَدِهِ ، إِبَانَةً لِحُلُوكِ عِنْدِهِ ، وَمَوْفِقَكَ مِنْهُ ، وَمَكَانَكَ
لَدَيْهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَتَطَلَّعٌ إِلَى وَرُودِ كُتُبِكَ مُتَضَمِّنَةً مِنْ سَارِ أَنْبَائِكَ وَطِيبِ أَخْبَارِكَ
مَا يَسْكُنُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَيَتَّقِي بِعِلْمِ حَقِيقَتِهِ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الفصل الثالث

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معنائهم مما الجارى عليه الحال

في زماننا ، وهو على قسمين)

القسم الأول

(المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى أهل الإسلام ، وفيه أطراف)

الطرف الأول .

(في مكاتباتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في ترتيب كتبهم إليه صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال)

كانت أمراء سراياه صلى الله عليه وسلم ومن أسلم من الملوك تفتح المكاتب إلى
صلى الله عليه وسلم باسمه صلى الله عليه وسلم ، ويُنْتَوْنَ بأنفسهم ، ويأتون بالتحميد
والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، ويتخلَّصون إلى المقصود بأما بعد أو غيرها ،
ويختتمون بالسلام . وملوك الكفر يبدؤون بأنفسهم ، وربما بدؤوا باسمه صلى الله
عليه وسلم . وكان المكتوب عنه منهم يعبر عن نفسه بلفظ الأفراد . مثل : أنا ، ولى ،
وقلت ، وفعلت . وربما عبر بعض الملوك عن نفسه بنون الجمع . ثم إن كان المكتوب
عنه مسلماً ، خاطبه صلى الله عليه وسلم بلفظ الرسالة والنبوة مع كاف الخطاب
وتاء المخاطب ، وإن كان كافراً ، خاطبه بالكاف والتاء المذكورتين ، وربما خاطبه
باسمه . فإن كان المكتوب عنه مسلماً ختم الكتاب بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم .

أما عَونَةُ هذه الكُتُب، فيظهر أنها إن أَفْتِحتْ باسمه صلى الله عليه وسلم، وُتِّيَ باسم المكتوب إليه عُنُونَتٌ كذلك، فيكتب في الجانب الأيمن «لحمدي رسول الله» أو نحو ذلك، وفي الجانب الأيسر «من فلان» وإن كانت ممن يفتتح المكتبة باسم نفسه عُنُونَتٌ على العكس من ذلك .

الجملة الثانية

(في صورة مكاتبتهم إليه صلى الله عليه وسلم)

[وفيه أسلوبات :

الأسلوب الأول

(^(١) أن تفتتح المكتبة باسم المكتوب إليه)

كما كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه إليه صلى الله عليه وسلم بإسلام بني الحارث، بالكتاب الذي تقدمت إجابته صلى الله عليه وسلم عنه، وهو على ما ذكره ابن هشام في "السيرة" .

"لحمدي النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله من خالد بن الوليد :

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعدُ يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قُبلت منهم وعامتهم معالم الإسلام ثلاثة أيام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا

(١) الزيادة ساقطة من الاصول وهي لازمة لانتظام الكلام وانتساقه كما يظهر من الأسلوب الثاني الآتي :

قَاتِلْتَهُمْ . وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَيْهِمْ فَدَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَعَثْتُ فِيهِمْ كِتَابًا ^(١) : يَا بَنِي الْحَارِثِ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا . فَاسْلَمُوا وَلَمْ يُقَاتِلُوا وَأَنَا مُقِيمٌ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، أَمُرُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَأَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَعَلَمَهُمْ مَعَالِمَ الْإِسْلَامِ وَسُنَّةَ النَّبِيِّ حَتَّى يَكْتُبَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ! ” .



وَكَمَا كَتَبَ النَّجَاشِيُّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَوَابِ كِتَابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ .

وَنَسَخْتُهُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ :

” إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ، مِنَ النَّجَاشِيِّ أَصْحَمَةَ ،

سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الَّذِي هَدَانِي

لِلْإِسْلَامِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ عَيْسَى فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ تُفَرُّوقًا ، إِنَّهُ لَكَمَا قُلْتَ ، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بَعَثْتَ بِهِ إِلَيْنَا ، وَقَدِمَ ابْنُ عَمِّكَ وَأَصْحَابُهُ (وَفِي رَوَايَةٍ : وَقَدْ قَرَّبْنَا ابْنَ عَمِّكَ وَأَصْحَابَهُ) وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ [صَادِقًا مَصَدَّقًا] ، وَقَدْ بَايَعْتُكَ وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمِّكَ ، وَأَسَلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِأُنْبِيٍّ ، وَإِنْ شِئْتَ

(١) فِي ” مِفْتَاحِ الْافْكَارِ ” ص ٦٦ وَبَعَثْتُ فِيهِمْ رِجَالًا قَالُوا يَا بَنِي الْحَارِثِ . وَالزِّيَادَةُ الَّتِي فِي آخِرِ

أَتَيْكَ [بِنَفْسِي] ^(١) فَعَلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .



وَكَمَا كَتَبَ الْمُقَوِّسُ صَاحِبُ مِصْرَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَوَابَ كِتَابِهِ الْوَارِدِ عَلَيْهِ مِنْهُ فِي رِوَايَةٍ ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ الْحَكَمِ ، وَهُوَ :

”لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، مِنْ الْمُقَوِّسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ . سَلَامٌ عَلَيْكَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ وَكَنتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِجَارِيَتَيْنِ لِهَمَا مَكَانٌ فِي الْقِبْطِ عَظِيمٌ وَكِسْوَةٌ ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ بَغْلَةً لَتَرْكَبَهَا ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .“

وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا . وَزَادَ غَيْرُهُ أَنَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ : أَنَّ فِي كِتَابِهِ إِلَيْهِ :

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، مِنْ الْمُقَوِّسِ إِلَى مُحَمَّدٍ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ وَأَنْتَ تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ رَسُولًا ، وَفَضَّلَكَ تَفْضِيلًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ قُرْآنًا مُبِينًا ، فَكَشَفْنَا عَنْ خَبْرِكَ فَوَجَدْنَاكَ أَقْرَبَ دَاجٍ دَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَصْدَقَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالصِّدْقِ ، وَلَوْلَا أَنِّي مَلَكَتُ مُلْكًا عَظِيمًا ، لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِكَ ، لِعِلْمِي أَنَّكَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

(١) الزيادة من رواية المواهب ج ٣ ض ٣٩٥ وروايته أتيته . قال شارحه : في موضع المفعول

الأسلوب الثاني

(أن تَفْتَحَ المَكْتَبَةَ بِاسْمِ المَكْتُوبِ عَنْهُ)

كما كتب مسيئة الكَذَّابُ إليه صَلَّى الله عليه وسلم الكِتَابَ الذي تَقَدَّمتْ إجابته صَلَّى الله عليه وسلم في المَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنْهُ، وهو :

«من مُسَيِّمَةِ رَسُولِ اللَّهِ إلى مَحْدِ رَسُولِ اللَّهِ .

أما بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ أَشْرَكْتُ في الأَمْرِ مَعَكَ، إِنَّ لَنَا نِصْفَ الأَرْضِ وَلِقْرِيشَ نِصْفِ الأَرْضِ، وَلَكِنَّ قَرِيشًا قَوْمٌ يَتَّبِعُونَ» .

الجملة الثالثة

(في المَكَاتِبَاتِ التي كُتِبَتْ إليه قَبْلَ ظُهُورِهِ صَلَّى الله عليه وسلم وَبَعْدَ وَفَاتِهِ)

أما الكُتُبُ التي كُتِبَتْ إليه صَلَّى الله عليه وسلم قَبْلَ ظُهُورِهِ، فَقَدْ حَكَى "صاحب الهناء الدائم بمولد أبي القاسم" أن تَبِعًا لأَوَّلِ حِينٍ مَرَّ بِمَوْضِعِ المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ، أَخْبَرَهُ مَنْ مَعَهُ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ أَنَّ هَذَا المَوْضِعَ مُهَاجَرُ نَبِيِّ يُخْرَجُ في آخِرِ الزَّمَانِ، فَعَمَرَ هُنَاكَ مَدِينَةً وَأَسْكَنَ فِيهَا جَمَاعَةً مِنَ العُلَمَاءِ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ كِتَابًا فِيهِ :

«أما بَعْدُ، يَا مُحَمَّدُ فَإِنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَبِّكَ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِكِتَابِهِ الَّذِي يُنَزَّلُ عَلَيْكَ وَأَنَا عَلَى دِينِكَ وَسُنَّتِكَ . آمَنْتُ بِرَبِّكَ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِكُلِّ مَا جَاءَ مِنْ رَبِّكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ . وَإِنِّي قُلْتُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَدْرَكْتُكَ فِيهَا وَنِعِمْتَ، وَإِنْ لَمْ

أَذْرَكَ فَاشْفَعْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا تَنْسَنِي ، فَإِنِّي مِنْ أُمَّتِكَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَابِعْتُكَ قَبْلَ
جَيْئِكَ وَقَبْلَ أَنْ يُرْسَلَكَ اللَّهُ ، وَأَنَا عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ ^(١) .

وَحُتِمَ الْكِتَابُ . وَنُقِشَ عَلَيْهِ «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
بِنَصْرِ اللَّهِ» .

وَكُتِبَ عُنْوَانُهُ : «إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ ، مِنْ تَبَعِ الْأَوَّلِ حَمِيرٍ ، أَمَانَةُ اللَّهِ فِي يَدٍ مَنْ وَقَعَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ» .

وَدَفَعَهُ إِلَى رَئِيسِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ رَتَّبَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، فَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ بَنِيهِ يَتَدَاوَلُونَهُ
وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَقِيَهُ الَّذِي صَارَ
الْكِتَابُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مِنْ بَنِي ذَلِكَ الْعَالَمِ فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ .



وَأَمَّا الْكُتُبُ الَّتِي تُكْتَبُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ
الْأُمَّةِ مِنَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ بِكَاتِبَةِ الرِّسَالِ إِلَى اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِالسَّلَامِ
وَالْتَحِيَّةِ وَالتَّوَسُّلِ وَالتَّشْفُّعِ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ ،
وَتَسْيِيرِهَا إِلَى تَرْبَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَكْثَرُ النَّاسِ مَعَاطَاةً لَذَلِكَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
بَعْدَ بِلَادِهِمْ ، وَزُجُوجُ أَقْطَارِهِمْ .

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا كَتَبَ بِهِ ابْنُ الْخَطِيبِ وَزَيْرُ ابْنِ الْأَحْمَرِ
بِالْأَنْدَلُسِ ، وَصَاحِبُ دِيْوَانِ إِنْشَائِهِ عَنْ سُلْطَانِهِ يُوسُفَ بْنِ قَرَّجَ بْنِ نَصْرٍ :

إِذَا فَاتَنِي ظِلُّ الْحِمَى وَنَعِيمُهُ ، * كَفَانِي وَحَسْبِي أَنْ يَهَبَ نَسِيمُهُ !

وَيَقْنِنِي أَنِّي بِهِ مَتَكَيِّفُ : * فَرَزَمَهُ دَمْعِي ، وَجَسَمِي حَظِيمُهُ !
يَعُودُ فُؤَادِي ذِكْرُ مَنْ سَكَنَ الْغَضَى * فُقِعِدُهُ فَوْقَ الْغَضَى وَيُقِيمُهُ !
وَلَمْ أَرْ شَيْئًا كَالنَّسِيمِ إِذَا سَرَى ، * شَفَى سَقَمَ الْقَلْبِ الْمَشُوقِ سَقِيمُهُ !
نُعَلِّلُ بِالنَّدَاكِ نَفْسًا مَشُوقَةً * نُذِيرُ عَلَيْهَا كَأْسَهُ وَنَدِيمَهُ !
وَمَا شَفَنِي بِالْغُورِ رَنْدٌ مَرَّحٌ ، * وَلَا شَاقَنِي مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٌ رِيمُهُ ،
وَلَا سَهَرَتْ عَيْنِي لِبَرْقِ نَيْثَةٍ * مِنَ التَّغْرِ يَبْدُو مَوْهِنًا فَأَشِيهُ .
بَرَانِي شَوْقٌ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ * يَسُومُ فُؤَادِي بَرَحَهُ مَا يَسُومُهُ !
أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَادَاكَ ضَارِعٌ * عَلَى الْبُعْدِ مُحْفُوظُ الْوَدَادِ سَلِيمُهُ
مَشُوقٌ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رَوَاقَهُ * تَهَمُّ بِهِ تَحْتَ الظَّلَامِ هُمُومُهُ
إِذَا مَا حَدِيثٌ عَنْكَ جَاءَتْ بِهِ الصَّبَا ، * شَجَاهُ مِنَ الشَّوْقِ الْحَدِيثِ قَدِيمُهُ
أَيَّجْهَرُ بِالنَّجْوَى ، وَأَنْتَ سَمِيعُهَا ! * وَيَسْرُحُ مَا يَخْفَى ، وَأَنْتَ عَلِيمُهُ !
وَتَعَوِّزُهُ الشَّقِيَا ، وَأَنْتَ غِيَاثُهُ ! * وَتُثْلِفُهُ الْبَلْوَى ، وَأَنْتَ رَحِيمُهُ !
يُنُورِكَ نُورَ اللَّهِ قَدْ أَشْرَقَ الْهُدَى * فَأَقْفَارُهُ وَضَاحَةٌ وَنُجُومُهُ !
بِكَ أَنْهَلَ فَضْلُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ سَابِغًا * فَأَنَوَّاهُ مُلْتَفَّةً وَغَيُومُهُ !
وَمِنْ فَوْقِ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ بِكَ أَقْدَى * خَلِيلُ الَّذِي أَوْطَاكَهَا وَكَلِيمُهُ !
لَكَ الْخَلْقُ الْأَرْضِيُّ الَّذِي بَانَ فَضْلُهُ * وَمُجِّدٌ فِي الذِّكْرِ الْعَظِيمِ عَظِيمُهُ !
يَجِلُّ مَدَى عَلَيْكَ عَنْ مَدَجِ مَادِحٍ * فَمُوسِرُ دَرْ الْقَوْلِ فِيكَ عَدِيمُهُ !
وَلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيكَ وَرَاثَةٌ ! * وَمُجِّدُكَ لَا يَنْسَى الدَّمَامَ كَرِيمُهُ ،

وَعِنْدِي إِلَى أَنْصَارِ دِينِكَ نِسْبَةٌ * هِيَ الْفَخْرُ لَا يَحْشَىٰ انْتِقَالًا مُقِيمُهُ !
 وَكَانَ يُودِي أَنْ أَزُورَ مَبُوءًا * بِكَ أَتَخَرْتُ أَطْلَالَهُ وَرُسُومُهُ !
 وَقَدْ يُجْهِدُ الْإِنْسَانُ طَرْفَ اعْتِرَافِهِ * وَيُعَوِّزُهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَرُومُهُ .
 وَعُذْرِي فِي تَسْوِيفِ عَزَمِي ظَاهِرٌ * إِذَا ضَاقَ عُذْرُ الْعَزْمِ عَمَّنْ يُلُومُهُ .
 عَدَنِي بِأَقْصَى الْغَرْبِ عَنْ تَرْكِ الْعِدَا ، * جَلَالَتُهُ الثَّغْرِ الْغَرِيبِ وَرُومُهُ ،
 أَجَاهِدُ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِكَ أُمَّةً * هِيَ الْبَحْرُ يُعَيِّ أَمْرُهَا مِنْ يَوْمِهِ !
 فَلَوْلَا أَعْتَنَاءُ مِنْكَ يَا مَلْجَأَ الْوَرَى ! * لَرِيعَ حِمَاهُ ، وَأَسْتَبِيحَ حَرِيمِهِ !
 فَلَا تَقْطَعْ الْحَبْلَ الَّذِي قَدْ وَصَلْتُهُ ، * فَمَجْدُكَ مَوْفُورُ النَّوَالِ عَمِيمُهُ !
 وَأَنْتَ لَنَا الْغَيْثُ الَّذِي نَسْتَدِرُّهُ ، * وَأَنْتَ لَنَا الظِّلُّ الَّذِي نَسْتَدِيمُهُ !
 وَلَمَّا نَأَتْ دَارِي وَأَعْوَزَ مَطْمَعِي * وَأَقْلَقَنِي شَوْقُ تُسَبُّجِ حِمِيمِهِ ،
 بَعَثْتُ بِهَا جُهْدَ الْمُقِلِّ مَعُولًا * عَلَىٰ مَجْدِكَ الْأَعْلَى الَّذِي جَلَّ حِيمُهُ !
 [وَكَلْتُ بِهَا هَمِّي وَصِدْقَ قَرِيحَتِي * فَسَاعَدَنِي هَاءُ الرُّوَى وَمِيمُهُ ^(١)]
 فَلَا تَسْنِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الرَّثَى * فَمِثْلُكَ لَا يُسْنِي لَدَيْهِ خَدِيمُهُ !
 عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ ، * وَمَا رَأَى مِنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ وَسِيمُهُ !

إِلَى رَسُولِ الْحَقِّ ، إِلَى كَافَّةِ الْخَلْقِ ، وَغَمَامِ الرَّحْمَةِ الصَّادِقِ الْبَرِّقِ ، وَالْحَاضِرِ فِي مِيدَانِ
 أَصْطِفَاءِ الرَّحْمَنِ قَصَبِ السَّبْقِ ؛ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِمَامِ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ ، وَمَنْ وَجِبَتْ لَهُ
 النُّبُوَّةُ وَآدَمُ بَيْنَ الطِّينِ وَالْمَاءِ ؛ شَفِيعِ أَرْبَابِ الذُّنُوبِ ، وَطَبِيبِ أَدْوَاءِ الْقُلُوبِ ،
 وَوَسِيلَةِ الْخَلْقِ إِلَى عَلَامِ الْغُيُوبِ ؛ نَبِيِّ الْهُدَى الَّذِي طَهَّرَ قَلْبَهُ ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ؛ وَخَتَمَ بِهِ

الرسالة ربّه، وجرى في النفوس مجرى الانفاس حبه؛ [الشّفع^(١)] المشفع يوم العرض،
المحمود في ملاء السماء والأرض؛ صاحب اللّواء المنشور يوم النّشور، والمؤمن على
سرّ الكتاب المسطور، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ المؤيد بكفاية الله
وعصمته، الموفور حظّه من عنايته وحرّمته، الظّل الخفّاق على أمته؛ من لو حازت
الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقا، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم
إشفاقا؛ فائدة الكون ومعناه، وسرّ الوجود الذي بهر الوجود سناه، وصفيّ حضرة
القدس الذي لا ينأى قلبه إذا نامت عيناه؛ البشير الذي سبق له البشري، ورأى
من آيات ربّه الكبري، ونزل فيه سبحانه الذي أسرى؛ من الأنوار من غنصر نوره
مستعمده، والآثار تخلق وآثاره مستحده؛ من طوى لسط الوحي لفقده، وسد باب
الرسالة والنبوّة من بعده، وأوتى جوامع الكلم فوفقت البلغاء حسرى دون حده؛
الذي آتقل في الفرر الكريمة نوره، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره،
وطيفت الملائكة تحييه وفودها وتزوره؛ وأخبرت الكتب المتزلة على الأنبياء بأسمائه
وصفاته، وأخذ عهد الأنبياء به على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته؛ المفرّج^(٢)
الأمنع يوم الفرّج الأكبر، والسند المعتمد عليه في أهوال المحشر. ذى المعجزات
التي أثبتتها المشاهدة والحس، وأقربها الحنّ والإنس؛ من جماد يتكلم، وجذع لفراقه
يتألم؛ وقبر له ينشق، وشجر يشهد أن ما جاء به هو الحق؛ وشمس بدعائه عن مسيرها
تُحبس، وماء من بين أصابعه يتحبس؛ وغمام باستسقائه يصب، وطوى بصق
في أجاجها فأصبح مأوها وهو العذب المشروب. المخصوص بمناقب الكمال وكمال
المناقب، المسمى بالحاشر العاقب، ذى المجد البعيد المرأى والمراقب؛ أكرم من

(١) الزيادة عن نفع الطيب (ص ١٧٥، ج ٤) المطبوع بالمطبعة الأميرية بيولاق سنة ١٢٧٩ هـ.
وكذا هو في ريحانة.

(٢) في النفع "الإيمان به" وكذا هو في ريحانة الكتاب.

رُفِعَتْ إِلَيْهِ وَسِيلَةُ الْمُعْتَرِفِ الْمُغْتَرِبِ ، وَنَجَحَتْ لَدَيْهِ قُرْبَةُ الْبَعِيدِ وَالْمُقْتَرِبِ ، سَيِّدِ
الرُّسُلِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ ، الَّذِي فَازَ بِطَاعَتِهِ الْمُحْسِنُونَ ، وَاسْتُنْقِذَ
بِشَفَاعَتِهِ الْمُذْنِبُونَ ، وَسَعِدَ بِاتِّبَاعِهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمَعَ بَرَقٌ ، وَهَمَعَ وَدَقٌ ، وَطَلَعَتْ شَمْسٌ ، وَنَسَخَ الْيَوْمُ أَمْسٌ .

من عتيق شفاعته ، وعبد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ، المستشفئ
بذكره كلما تألم ، المفتيح بالصلاة عليه كلما تكلم ، الذى إن ذكرتمثل طلوعه بين
أصحابه وآله ، وإن هبَّ النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاه ، وإن سمع الأذان
تذكر صوت بلاله . وإن ذكر القرآن استشعر تردد جبريل بين معاهده وحلاله ؛
[لا ثم تربه ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحبه ^(١)] المتوسل به إلى رضا ربه ؛
« يوسف بن إسماعيل بن نصر » .

كتبته [اليك] يا رسول الله والدمع ماح ، وخيل الوجده ذات حجاج ؛ عن شوقي
يزداد كلما نقص الصبر ، وأنكسار لا يتأخ له إلا بدؤ مزارك الجبر ؛ وكيف لا يعنى
مشوقك بالأمر ، ويوطئ على كبده الجمر ، وقد مطلت الأيام بالقُدوم على تربتك
المقدسة اللحد ، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد ؛ وأنصرفت الرفق والعين
بنور ضريحك ما آكتحت ، والركائب إليك ما رحلت ، والعزائم قالت وما فعلت ؛
والنواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تسرح ، وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبحر ؛
فيا لها من معاهد فاز من حيّاها ، ومشاهد ما أعطر رايّاها ؛ بلاد نيطت بها عليك
التائم ، وأشرقت بنورك منها التجود والتائم ؛ ونزل فى حجراتها عليك الملك ، وأنجلي
بضياء قرقانك فيها الحلك ؛ مدارس الآيات والسور ، ومطالع المعجزات السافرة

الْعُرْرَ ؛ حَيْثُ قُضِيَتِ الْفُرُوضُ وَحُتِمَتِ ، وَأُفْتُتِحَتِ سُورَةُ الْوَحْيِ وَخُتِمَتِ ؛
وَأَبْتَدِئَتِ الْمَلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ وَتَمَّتْ ، وَنُسِخَتِ الْآيَاتُ وَأُحْكِمَتْ . أَمَا وَالَّذِي بَعَثَكَ
بِالْحَقِّ هَادِيًا ، وَأَطْلَعَكَ لِلخَلْقِ نُورًا بَادِيًا ؛ لَا يُطْفِئُ غُلَّتِي إِلَّا شَرْبُكَ ، وَلَا يُسَكِّنُ لَوْعَتِي
إِلَّا قُرْبُكَ ؛ فَمَا أَسْعَدَ مِنْ أَفَاضَ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ إِلَى حَرَمِكَ ، وَأَصْبَحَ بَعْدَ أَدَاءِ
مَا فَرَضْتَ عَنْ اللَّهِ ضَيْفَ كَرَمِكَ ؛ وَعَقَّرَ الْخَدَّ فِي مَعَاهِدِكَ وَمَعَاهِدِ أَسْرَتِكَ ، وَتَرَدَّدَ
مَا بَيْنَ دَارِي بَيْتِكَ وَهَجْرَتِكَ !

وَإِنِّي لَمَّا عَاقَنِي عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَاقِقُ وَإِنْ كَانَ شُغْلِي عَنْكَ بِكَ ، وَعَدَنِي الْأَعْدَاءُ
فِيكَ عَنْ وَصْلِ سَبَبِي بِسَبَبِكَ ، وَأَصْبَحْتُ مَا بَيْنَ بَحْرِ تِلَاطُمِ أُمُوجِهِ ، وَعَدُوٍّ تَكَاثَفَ
أَفْوَاجُهُ ، وَيَجْجِبُ الشَّمْسَ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ عَجَاجُهُ ؛ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَطَنُوا
عَلَى الصَّبْرِ نَفُوسَهُمْ ، وَجَعَلُوا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ لَبُوسَهُمْ ؛ وَرَفَعُوا إِلَى مُصَارَحَتِكَ
رُءُوسَهُمْ ، وَاسْتَعَذَبُوا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتِكَ بُوسَهُمْ ؛ يَطِيرُونَ مِنْ هَيْعَةٍ
إِلَى أُخْرَى ، وَيَتَلَفَّتُونَ وَالْخَاوِفُ يَمْنَى وَيُسْرَى ، وَيَقَارِعُونَ - وَهُمْ الْفَتَّةُ الْقَلِيلَةُ -
جَمْعًا بِكُمُوعٍ قِصَرٍ وَكُسْرَى ؛ لَا يَلْبِغُونَ مِنْ عَدُوٍّ كَالَّذَرِّ عِنْدَ أَنْتِشَارِهِ ، مِعْشَارَ مِعْشَارِهِ ؛
قَدْ بَاعُوا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، لِأَن تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعُلْيَا ؛ فَيَالَهُ مِنْ
سِرْبِ مَرْوَعٍ ، وَصَرِيحٍ إِلَّا عَنْكَ مَمْنُوعٍ ، وَدَعَاءٍ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكَ مَرْفُوعٍ ؛ وَصِبْغَةِ حُمْرِ
الْحَوَاصِلِ ، تَخَفِيقُ فَوْقَ أَوْكَارِهَا أَجْنَحَةُ الْمَنَاصِلِ ؛ وَالصَّلِيبُ قَدْ تَمَطَّى وَمَدَّ ذِرَاعِيهِ ،
وَرَفَعَتِ الْأَطْلَاعُ بَضْبِعِيهِ ؛ وَقَدْ حُجِبَتْ بِالْقَتَامِ السَّمَاءُ ، وَتَلَاطَمَتْ أُمُوجُ الْحَدِيدِ
وَالْبَاسِ الشَّدِيدِ فَاتَّقَى الْمَاءَ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّمَاءُ ، وَعَلَى ذَلِكَ فَمَا ضَعُفَتِ الْبَصَائِرُ
وَلَا سَاءَتِ الظُّنُونُ ، وَمَا وَعِدَ بِهِ الشَّهْدَاءُ تَعْتِقُهُ الْقُلُوبُ حَتَّى تَكَادَ تَرَاهُ الْعُيُونُ ،
إِلَى أَنْ تَلْقَاكَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ أَبْلَيْنَا الْعُدْرَ ، وَأَرْغَمْنَا الْكُفْرَ ، وَأَعْمَلْنَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَسَبِيلِكَ الْبَيْضَ وَالسُّمْرَ .

استنبت رُفْعِي هذه لِتَطِيرَ إِلَيْكَ [من شوقِي] بِجَنَاحِ خَافِقٍ ، وَتُسَعِّدَ مِنْ نَبِيِّ الَّتِي
تَصْحُبُهَا بِرَفِيقٍ مُوَافِقٍ ؛ فَتُؤَدِّيَ عَنْ عَبْدِكَ وَتَبْلُغَ ، وَتَعْفَرَ الْخَلْدَ فِي تَرْبَتِكَ وَتَمْرُغَ ؛
وَتَطْيِبَ بَرِيًّا مَعَاهِدَكَ الطَّاهِرَةَ وَيُؤْتِكَ ، وَتَقِفَ وَقُوفَ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ تُجَاهَ تَابُوتِكَ ؛
وَتَقُولَ بِلِسَانِ التَّمَلُّقِ ، عِنْدَ التَّشَيُّثِ بِأَسْبَابِكَ وَالتَّعَلُّقِ ، مِنْ كَسْرِ الطَّرْفِ ، حَذِرًا بِهَرَجِهَا
مِنْ عَدَمِ الصَّرْفِ : يَا غِيَاثَ الْأُمَّةِ ، وَغَمَامَ الرَّحْمَةِ ؛ اِرْحَمْ غُرْبَتِي وَأَنْقِطَاعِي ، وَتَعَمَّدْ
بَطُولِكَ قِصَرَ بَاعِي ، وَقُوِّ عَلَى هَيْبَتِكَ خَوَرَ طِبَاعِي ؛ فَكَمْ جُرْتُ مِنْ لُجٍّ مَهُولٍ ، وَجُبْتُ
مِنْ حُزُونٍ وَسُهُولٍ ؛ وَقَايِلَ بِالْقَبُولِ نِيَابَتِي ، وَجَلَّ بِالرِّضَا إِبْجَاتِي . وَمَعْلُومٌ مِنْ كَمَالِ
تِلْكَ الشِّيمِ ، وَسَجَايَا تِيكَ الدِّيمِ ؛ أَنْ لَا تُخَيِّبَ قَصْدَ مَنْ حَطَّ بِفَنَائِهَا ، وَلَا يَظْمَأْ
وَارِدُ أَكْبَّ عَلَى إِيْنَائِهَا .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ جَعَلْتَهُ أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَعْنَى وَآخِرَهُمُ بِالْصُّورَةِ ، وَأَعْطَيْتَهُ لَوَاءَ الْحَمْدِ يَسِيرَ
أَدَمُ فَمِنْ دُونِهِ تَحْتَ ظِلَالِهِ الْمُنْشُورَةِ ؛ وَمَلَكَتْ أُمَّتُهُ مَا زُوِيَ لَهُ مِنْ زَوَايَا الْبَسِيطَةِ
الْمَعْمُورَةِ ، وَجَعَلْتَنِي مِنْ أُمَّتِهِ الْمَجْبُولَةِ عَلَى حُبِّهِ الْمَفْطُورَةِ ؛ وَشَوَّقْتَنِي إِلَى مَعَاهِدِهِ الْمُبْرُورَةِ ،
وَمَشَاهِدِهِ الْمُزُورَةِ ؛ وَوَكَّلْتَ لِسَانِي بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَقَلْبِي بِالْحَيْنِ إِلَيْهِ ، وَرَغَبَتِي
بِالْتِمَاسِ مَا لَدَيْهِ ؛ فَلَا تَقْطَعْ عَنْهُ أَسْبَابِي ، وَلَا تَحْرِمْنِي فِي حُبِّهِ أَجْرَ ثَوَابِي ، وَتَدَارِكُنِي
بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ أَخَذَ كِتَابِي .

هذه يارسول الله وسيلةٌ مَنْ بَعُدَتْ دَارُهُ ، وَشَطَّ مَزَارُهُ ، وَلَمْ يُجْعَلْ بِيَدِهِ آخِيارُهُ ؛
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْقَبُولِ أَهْلًا فَانْتَ لِلْإِغْضَاءِ وَالسَّامِحِ أَهْلًا ، وَإِنْ كَانَتْ أَلْفَاظُهَا وَعَرَّةً بِجَنَابِكَ
لِلْقَاصِدِينَ سَهْلًا ؛ وَإِذَا كَانَ الْحَبُّ يُتَوَارَثُ كَمَا أَخْبَرْتَ ، وَالْعُرُوقُ تَدُسُّ حَسَبَ مَا
إِلَيْهِ أُشْرَتْ ؛ فَلِي بِالنِّسَابِ إِلَى (سَعْدٍ) عَمِيدِ أَنْصَارِكَ مَزِيَّةً ، وَوَسِيلَةً أَثِيرَةً حَفِيَّةً ،
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِي عَمَلٌ تَرْضِيهِ فَلِي نِيَّةٌ ؛ فَلَا تَنْسِنِي وَمَنْ بِهِذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمَفْتَحَةِ بِسَيْفِ

كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ؛ فإنما نحنُ بها ودِعةٌ تحتَ بعضِ أفعالك ، نعوذُ بوجه ربك من إغفالك ؛ ونستشيق من ربحِ عنايتك نفحه ، ونرتقبُ من نورِ محيا قبولك لمحّه ؛ ندافع بها عدوّا طغى وبغى ، وبلغ من مضايقتنا ما آبتغي ؛ فواقف التحيص قد أعيّت من كتب وورخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ؛ والطاغية في العدوان مستبصر ، والعدو مخلّق والوليّ مقصر . ويجاهك ندفع مالا نطيق ، وبعنایتك نعالج سقيم الدين فيفيق ؛ فلا تفرّدنا ولا تهملنا ، ونادِ ربك فينا : ربنا ولا تهملنا ؛ وطوائف أمتك حيث كانوا عنايةً منك تكفيهم ، وربك يقول لك وقوله الحق : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ .

والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعى ، وأجاب داعياً إذا دعا ؛ وصلى الله على جميع أحرابك وآلِكَ ، صلاةً تليقُ بجلالك وتحقُّ لجلالك ؛ وعلى صحبيك وصديقيك ، وحيبيك ورفيقيك : خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جئتك ، وصهرك ذى النورين المخصوص بربك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلوك على حلتك ، بدرِ سمائك ووالد أهلتك ؛ والسلام الكريم عليك وعليهم ^(١) كثيراً بشيراً [ورحمة الله وبركاته .

من حضرة جزيرة الأندلس غرناطة صانها الله ووقاها ، ودفع عنها ببركتك كيدَ عداها .

الطرف الثانى

(فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمرء السرايا ، إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى ترتيب هذه المكاتبات على سبيل الإجمال)

كانت المكتبة إليهم تُفتَح تارةً بلفظ « من فلان إلى فلان » ويؤتى فى الصدر بالسلام والتحميد على نحو ما تقدم فى المكتبة عن الخلفاء . ويقع التخلُّص إلى المقصود بـ « أما بعد » وتارةً يقع الافتتاح بـ « أما بعد » ويؤتى بالمقصود تلو ذلك ؛ ويعبر المكتوب عنه فيها عن نفسه بلفظ الأفراد ، وعن الخليفة بأمر المؤمنين ، وتختتم بالسلام على أمير المؤمنين .

الجملة الثانية

(فى صورة هذه المكاتبات ، وهى على أسلوبيين كما تقدمت الإشارة إليه)

الأسلوب الأول

(أن تُفتَح المكتبة بلفظ « لفلان من فلان »)

وكان الرسم فيها أن يُكتب : « لعبد الله فلان أمير المؤمنين ، سلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فإن كذا » .

كما كتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى جواب الكتاب منه إليه المقدم ذكره فى المكتبة عن الخلفاء من الصحابة ، وهو : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، سلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مالٍ فشأى ، وانه يعرفنى قبل

ذَلِكَ وَلَا مَالَ لِي، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي بَبِلَدٍ السَّعْرُفِيهِ رَخِيسٌ، وَأَنِّي أَعَالِجُ
مِنَ الزَّرَّاعَةِ مَا يُعَالِجُهُ النَّاسُ، وَفِي رِزْقِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَعَةٌ. وَوَاللَّهِ لَوِ رَأَيْتُ خِيَانَتَكَ
حَلَالًا مَا خُتَّكَ، فَأَقْصِرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ فَإِنَّ لَنَا أَحْسَابًا هِيَ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ لَكَ، إِنْ
رَجَعْنَا إِلَيْهَا عِشْنَا بِهَا! . وَلَعَمْرِي إِنَّ عِنْدَكَ مَنْ لَا يَذُمُّ مَعْشِيَةً وَلَا تُدْمُّ لَهُ، فَإِنْ
كَانَ ذَلِكَ فَلَمْ يَفْتَحْ قُفْلَكَ وَلَمْ يَشْرَكَكَ فِي عَمَلِكَ؟

الأسلوب الثاني

(أن تفتَحَ المكتبةَ بلفظ «أما بعد» ويتوصَّل منه إلى المقصود)

كما كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية - وهو على بعض أعماله - يستعفيه
عن العمل .

أما بعد، فقد كبر سنِّي ورقَّ عظمي وأقرب أجلي وسفَّهني سفهاء قريش، فرأى
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَمَلِهِ .

الطرف الثالث

(في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العيال، وأمرء السرايا أيضا
إلى خلفاء بني أمية، وهي في ترتيبها على ما تقدَّم في المكاتبات إلى الخلفاء
من الصحابة رضي الله عنهم . وهي على أسلوبين)

الأسلوب الأول

(أن تُفتَحَ المكتبةُ بلفظ «من فلان إلى فلان» على نحو ما تقدَّم في المكتبة

عنهم إلى الخلفاء من الصحابة مع زيادة الدعاء بطول البقاء)

كما كتب الجراح بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان في جواب كتابه الوارد عليه
منه، في توبيخه له بسبب تعرضه لأنس بن مالك رضي الله عنه على ما تقدَّم ذكره .

«لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، [أصلح الله] ^(١) أمير المؤمنين وأبقاه، وسهل حظه وحاطه ولا عدمناه؛ فقد وصلني كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وجعلني من كل مكروه فداء؛ يذكرك شئى وتويعني بأبائى، وتعييرى بما كان قبل [نزول النعمة بي] ^(٢) من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه، وإحسانه إليه. ويذكرك أمير المؤمنين أستطالة منى على أنس بن مالك، وأمير المؤمنين أحق من أقال عثرتى، وعفا عن ذنبى وأمهلى ولم يعجلنى عند هفوتى؛ للذى جيل عليه من كريم طبائعه، وما قلده الله من أمور عباده؛ فرأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - فى تسكين روعى، وإفراج كربى؛ فقد ملئت رعباً وفرقاً من سطواته، وقيأت نقياته؛ وأمير المؤمنين - أقاله الله العثرات، وتجاوز له عن السيئات؛ وضاعف له الحسنات، وأعلى له الدرجات - أحق من صفح عفا، وتعمد وأبق؛ ولم يثبت بي عدواً مكباً، ولا حسوداً مضباً؛ ولم يجرعنى غصصاً. والذى وصف أمير المؤمنين من صنيعته إلى، وتويعه لى بما أسند إلى من عمله؛ وأوطانى من رقاب رعيته، فصادق فيه مجزئى عليه بالشكر، والتوسل منى إليه بالولاية، والتقرب له بالكفاية؛ وقد خضعت عند كتاب أمير المؤمنين، فإن رأى [أمير المؤمنين] ^(٣) - طوقنى الله بشكره، وأعاننى على تأدية حقه، وبلغنى إلى ما فيه موافقة مرضاته، ومدلى فى أجله - أن يأمر بالكتاب إلى من رضاه، وسلامة صدره، ما يؤمننى به من سفك دمى، ويرد ما شرد من نومي، ويطمئن به قلبي فعل، فقد ورد

(١) فى الأصل "سلام على أمير الخ" والتصحيح عن مفتاح الأفكار (ص ١٨٢) .

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن مفتاح الأفكار . وفيه بعد لفظ أنس بن مالك مانصه .

"خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جأه على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقياته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند خطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من مجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمام الهدى وخاتم النبيين أحق الخ" .

(٣) الزيادة عن مفتاح الأفكار .

على أمر جليل خطبه ، عظيم أمره ، شديد كربه . أسأل الله أن لا يُسَخِّطَ أمير المؤمنين على ، وأن يُنِيلَه في حزمه ، وعزمه ، وسياسته ، وفراسته ، ومواليه ، وحشمة ، وعُمَّاله ، وصنائه ، ما يَجِدُّ به حسنُ رأيه ، إنه وليُّ أمير المؤمنين والذائبُ عن سلطانِه ، والصانعُ له في أمره ، والسلام .

الأسلوب الثاني

(أن يُفَتِّحَ الْكِتَابَ بلفظ «أما بعد» ويُتَوَصَّلَ منه إلى المقصود)

كما كتب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مروان في خلافته :
أما بعد ، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر . سلامٌ عليك فإنِّي
أحمدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، وأمرني بالسمع والطاعة على كتاب الله وسُنَّةِ
نبيه فيما أستطعت .

الطَّرْف الرابع

(في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معانهم إلى خلفاء
بنى العباس ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات العامة من الملوك إلى الخلفاء ، ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه في ابتداء دولة بنى العباس وأوساطها)

أما ابتداء دولتهم ، فكان الأمرُ فيه على ما تقدم في مكاتبات العمال ونحوهم إلى خلفاء
بنى أمية ، وقد تقدم تمثيله . إلا أنه زيد فيه في صُدُور المكاتبات سؤالُ الصلاة

على النبي صلى الله عليه وسلم من حين رتبته المأمون في صدور الكتب، وتكنيه الخليفة من حين أحدثه الأمين في كتبه على ما تقدم بيانه في المكاتبات عن الخلفاء فيما سلف .



وأما أوساط دولتهم من حين ظهور ملوك بني بويه وغلبتهم على الأمر ، فللكتاب فيه أسلوبيان :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بلفظ «لفلان من فلان» وتصدر بالسلام والتحميد وسؤال الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويتخلص إلى المقصود بأما بعد) والرسم فيه على ما ذكره قدامة في كتاب الخراج أن يكتب : «لعبد الله فلان أبي فلان - بأسمه وكنيته ونعته - أمير المؤمنين ، سلام على أمير المؤمنين ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد ، أطل الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه وتأييده وكرامته وحراسته ، وأتم نعمته عليه ، وزاد في إحسانه إليه ، وفضله عنده وجميل بلائه لديه ، وجزيل عطائه له » .

وزاد في «صناعة الكتاب» : في السلام «ورحمة الله وبركاته» . قال في «صناعة الكتاب» : ثم يقال : أما بعد فقد كان كذا وكذا ، حتى يأتي على المعاني التي يحتاج إليها . وتكون المكتبة : - وقد فعل عبد أمير المؤمنين كذا - فإن زادت حاله لم يقل عبد أمير المؤمنين ، فإذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاء وكتب : أتم الله على أمير المؤمنين نعمته وهنائه وكرامته ، وألبسه عفو وعافيته وأمنه وسلامته : والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكتب يوم كذا وكذا من شهر كذا من سنة كذا .

وقال الفضل بن سهل: يُدعى للخليفة :

أما بعد، أطل الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام عزّه وتأييده، وأتم نعمته وسعادته وتوفيقه؛ وزاد في إحسانه إليه وموآبه له . ولا يكتب إليه « وجعلني فداه » ويكون أول فصوله : أخبر أمير المؤمنين - أطل الله بقاءه - أن كذا وكذا . ثم يوالى الفصول بـ «أيده الله وأدام عزّه» . ونحو هذا .

وإن شئت كتبت : أما بعد أطل الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام عزّه وتأييده وكرامته، وأتم نعمته عليه، وزاد فيها عنده وحاطه وكفاه، وتولى له ما ولّاه .

وإن شئت كتبت : أطل الله بقاء أمير المؤمنين في العزّ والسّلامة، وأدام كرامته في السّعادة والزيادة؛ وأتم نعمته في السّبوغ والغبطة، وأصلحه وأصاح على يديه ونصره؛ وكان له في الأمور كلّها ولياً وحافظاً .

وإن شئت كتبت : أطل الله بقاء أمير المؤمنين في أعزّ العزّ، وأدوم الكرامة والسّرور والغبطة، وأتم نعمه في علوّ من الدرجة، وشرف من الفضيلة، ومُتَابِع من العائدة، ووهب له السّلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

والذى كانت عليه قاعدة ملوك بني بويه فمن بعدهم إن كان الكتاب في معنى حدوثِ نعمة من فتح ونحوه، أتى بعد ذلك بالتحميد مابين مرة واحدة إلى ثلاث مرّات . ويعبر المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمر المؤمنين، ويختتم الكتاب بالإنهاء وما في معناه .

وهذه نسخة كتاب كتب به أبو إسحاق الصّابى عن عز الدولة بن بويه إلى المطيع لله عند فتحه الموصل، وهزيمة أبي تغلب بن حمدان صاحب حلب في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وهى :

(١) لعبد الله الفضل [الإمام] المطيع لله أمير المؤمنين، من عبده وصنيعته عز الدولة
أبن معز الدولة مولى أمير المؤمنين . سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله، فإني أحمد
إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد . أطل الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز والتأييد، والتوفيق والتسديد،
والعلو والقدره، والظهور والنصرة . فالحمد لله العلى العظيم، الأزل القديم، المتفرد
بالكبرياء والملكوت، المتوحد بالعظمة والجبروت، الذى لا تتحد الصفات،
ولا تحوز الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تمتثل العيون
بنواظرها، ولا تتخيل القلوب بنواظرها . فاطر السموات وما تظّل، وخالق الأرض
وما تقبل، الذى دلّ بلطف صناعته، على جليل حكيمته، وبين بجلى برهانه، عن
خفى وجدانه، وأستغنى بالقدره عن الأعوان، وأستعلى بالعزة عن الأقران . البعيد
عن كل معادل ومضارع، الممتنع على كل مطاول ومقارع، الدائم الذى لا يزول
ولا يحول، العادل الذى لا يظلم ولا يخور، الكريم الذى لا يظن ولا يتغل، الحليم الذى
لا يعجل ولا يجهل، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين، منزل
الرحمة على كل ولّى توكل عليه، وفوض إليه، وأمر لأوامره، وأزدرج بزواجه،
وحمل النعمة بكل عدو صدّ عن سبيله وسنّه، وصدف عن فرائضه وسنّه، وحاده
فى مكسب يده ومسعاة قدمه، وخائنة عينه وخافية صدره، وهو راتع رتعة النعم
السائمة، فى أكلاء النعم السابعة، وجاهل جهلها بشكر آلائها، ذاهل ذهولها عن
طرق استبقائها، فلا يلبث أن ينزع سرايلها صاغرا، ويتعزى منها حاسرا، ويجعل

الله كَيْدَهُ فِي تَضْلِيلٍ ، وَيُورِدُهُ شَرَّ الْمَوْرِدِ الْوَبِيلِ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ،
وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

والحمد لله الذى اصطفى للنبوة أحقَّ عباده بحمل أعبائها ، وأرتداء رداءها ؛ «مجداً»
صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعظم خطره وكرم ؛ فصَدَعَ بالرسالة ، وبالغ فى الدلالة ؛
ودعاً إلى الهداية ، ونجى من الغواية ؛ ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرحيم ، إلى
طاعة الرحمن الرحيم ؛ وأعلقهم بجبال خالقهم ورازقهم ، وعصمة محيهم وميتهم ؛
بعد استحالة الأَكاذيب والأباطيل ، واستشعار المحالات والأضاليل ؛ والتهوُّك
فى الاعتقادات الذائدة عن النعم ، السائقة إلى العذاب الأليم ؛ فصلَّى الله عليه
من ناطقٍ بالحق ، ومُتَّقِدٍ للخلق ؛ وناصحٍ للرَّبِّ ، ومؤدِّ للقرض ؛ صلاةً زاكية نامية ،
رائحة غادية ؛ تزيد على اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الأعوام والأدوار .

والحمد لله الذى آتجَبَ أمير المؤمنين ^(١) [أطال الله بقاءه] من ذلك السِّنخ الشريف ،
والعُنصر المُتَيْف ؛ والعِترَةُ الثابتِ أصلها ، المتمدِّ ظُلُمها ؛ الطَّيِّبُ جَنَاها ؛ المنوعُ حِمَاها ؛
وحازله مواريتِ آبائه الطاهيرين ، صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وأختصه من بينهم
بتناولِ أمدِ الخلافة واستحْصافِ حبْلها فى يده ؛ ووفقه لإصابة الغرض من كل
مَرَمٍّ يرميه ، ومَقْصِدٍ يَنْتَهِجُه ؛ وهو - جل ثناؤه - الحقيقُ بإتمام ذلك عليه ،
والزيادة فيه لديه . وأحمدُه سبحانه حمداً أبْتَدِئُه ثم أَعِيدُه ؛ وأَكْرَرُه وأَسْتَرِيدُه ؛
على أن أهل ركن الدولة أبا على ، وعُضُد الدولة أبا شجاع مولى أمير المؤمنين ، وأهلنى
للأثرة عنده التى بَدَّدْنَا فيها الأَكْفَاء ، وقُتْنَا فيها القُرْنَاء ؛ وتَقَطَّعتْ دُونها أنفاسُ
المُتَافِسِينَ ، وتَضَرَّمتْ عليها أحشاءُ الحاسدين . وأن أولانى فى كل مَغزًى فى خدمة

أمير المؤمنين أغزوه، ومنحى أخوه، وثأى أراهه، وشعث ألهه، وعدوا رغبه، وزائع أقومه، أفضل ما أولاه عباده السليمة غيوبهم، النقية جيوبهم، المأمونة ضمائرهم، المشحوذة بصائرهم، من تمكين يد، وثبتت قدم، ونصرة راية، وإعلاء كلمة، وتقريب بغية، وإنالة أمنيته، وكذلك يكون من إلى [ولاء] أمير المؤمنين ^(١) اعتراضه، وبشعاره اعتراضه، وعن زناذه قدحه، وفي طاعته كدحه، والله ولي ^(١) [بإدامة] ماخولنيه من هذه المنقبه، وسوغنيه من هذه الموهبه، وأن يتوجه أمير المؤمنين في جميع خدمه الذائين عن حوزته، المتممين إلى دعوته، بمن الطائر، وسعادة الطالع، ونجاح المطلب، وإدراك الأرب، وفي أعدائه الغامطين لنعمته، النافضين موثيق بيعته، بإضرار الخد، وإتعاس الخد، وإخفاق الأمل، وإحباط العمل، بقدرته .

ولم يزل مولانا أمير المؤمنين [أطال الله بقاءه] ينكر قديماً من "فضل الله" بن ناصر الدولة أحوالا حقيقاً مثلها بالإنكار، مستحقاً من ارتكبا الإعراض، وأنا أذهب في حفظ غيبه، وإجمال محضره، وتمثل حججه وتلفيقها، وتأليف معاذيره وتمقيقها، مذهبي الذي أعم به كل من جرى تجراه من ناشئ في دولته، ومعتد بنعمته، ومنسب إلى ولايته، ومشتهر بصنيعته، وأقدر أن أستصلحه لأمر المؤمنين - أطال الله بقاءه - وأصلحه لنفسه بالتوقيف على مسالك الرشد، ومناهج السداد، وهو يريني أن قد قبل وأرعوى، وأبصر وأهتدى، حتى رغبت إلى أمير المؤمنين فيما شفعتي متفضلاً فيه، من تقليده أعمال أبيه، والقناعة منه في الضمان بمسور بذله، وإيثاره به على من هو فوقه من كبراء إخوته وأهله .

فلما بَلَغَ هذه الحال ، أَلَطَّ بِالْمَالِ ، وَخَاسَ بِالْعَهْدِ ، وَطَرَّقَ لَفْسُخَ الْعَقْدِ ؛ وَأَجْرَى إِلَى أُمُورٍ كَرِهَتْهَا ، وَنَفَدَ الصَّبْرَ مِنِّي عَلَيْهَا ؛ وَخِفْتُ أَنْ أَسْتَمِرَّ عَلَى الْإِغْضَاءِ عَنْهَا وَالْمَسَاحَةِ فِيهَا ، فَيَطْلِعَ اللَّهُ مِنِّي عَلَى إِضَاعَةِ الْأَحْتِيَاظِ فِي أَمْرِ قَلْدَنِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ زِيَامَهُ ، وَصَمْنِي دَرَكَهُ ، وَإِرْخَاءِ لَبِّ رَجُلٍ قَبِيلٍ فِي الْأَعْتَادِ عَلَيْهِ رَأْيِي ، وَعَوَّلَ فِي أَخْذِهِ بِمَا يُلْزِمُهُ عَلَى نَظَرِي وَأَسْتَيْفَانِي - فَتَنَاوَلْتُهُ بِأَطْرَافِ الْعَدْلِ مُلَوَّحًا ، ثُمَّ بَأَثَبَاجَهُ مُقْصَصًا مُصَرَّحًا .

وَرَسَمْتُ لِعَبْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِحِ أَبِي طَاهِرٍ أَنْ يُجِدَّ بِهِ وَبُوسَطَائِهِ وَسُفَرَائِهِ فِي حَالٍ ، وَيَدْخُلَ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَشُورَةِ وَالرَّفَقِ فِي أُخْرَى ، وَيَتَّقَلَ مَعَهُ بَيْنَ الْحُسُونَةِ الَّتِي يَقْفُو فِيهَا أَثَرِي ، وَاللَّيْنِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْسِسَهُ مِنِّي ، تَقْدِيرًا لَأَنْتَائِهِ ، وَزَوَالِ أَلْتَوَائِهِ ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى رَسْمِهِ فِي الثَّانِي لِكُلِّ فَاسِدٍ حَتَّى يَصْلُحَ ، وَلِكُلِّ آبٍ حَتَّى يَسْمَحَ ؛ وَلَمْ يَدَعْ التَّنَاهِيَّ فِي وَعْظِهِ ، وَاتَّمَادِيَّ فِي نُصْحِهِ وَتَعْرِيفِهِ سُوءَ عَاقِبَةِ الْجَبَّاحِ ، وَمَغْبَةِ الْإِخْرَاجِ ؛ وَهُوَ يَزِيدُ طَمَعًا فِي الْأُمُورِ وَشَرًّا ، وَعَمَى فِي الرَّأْيِ وَعَمَّهَا ؛ إِلَى أَنْ كَادَ أَمْرُنَا مَعَهُ يَخْرُجُ عَنْ حُدِّ الْأَنْتِظَارِ ، إِلَى حُدِّ الرِّضَا بِالْإِصْرَارِ ؛ فَاسْتَأْنَفْتُ أَدْرَاعَ الْحَزْمِ ، وَأَمْتَطَاءَ الْعَزْمِ ؛ وَنَهَضْتُ إِلَى أَعْمَالِ الْمَوْصِلِ وَعِنْدِي أَنَّهُ يُغْنِينِي عَنِ الْإِتِمَامِ ، وَيَتَلَقَّانِي بِالْإِعْتَابِ وَيُنْقَادُ إِلَى الْمُرَادِ ، وَيَتَجَبَّبُ طَرَقَ الْعِنَادِ .

فَإِنْ عَرَفَ خَبَرَ مَسِيرِي ، وَجَدَّ فِيهِ وَتَسْمِيرِي ؛ بَرَزَ بِرُوزِ الْخَالَفِ الْمَكَاشِفِ ، وَتَجَرَّدَ تَجَرَّدَ الْمَوَاقِفِ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِذَا آزَدَدْتُ مِنْهُ قُرْبًا ، آزَدَادَ مِنِّي رُعْبًا ؛ وَإِذَا دَلَقْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، نَكَّصَ عَنِّي بَاعًا .

وتوافت إلى حضرتي وجوه القبائل من عَقِيلٍ وشِيَّانٍ وغيرهما في الجمع الكَثِيفِ من صَعَالِيكهما ، والعديد الكثير من صَنَادِيدِهما ؛ داخِلِينَ في الطاعة ، متَصَرِّفِينَ في عَوَارِضِ الخِدْمَةِ .

فلما شارفتُ الحَدِيثَةَ ، آنتَقَضَتْ عِزَائِمُ صَبْرِهِ ، وتَقَوَّضَتْ دَعَائِمُ أَمْرِهِ ؛ وبَطَلَتْ أُمَانِيَّتُهُ وَوَسَاوِسُهُ ، وَأَضْمَحَلَّتْ خَوَاطِرُهُ وَهَوَاجِسُهُ ؛ وَأَضْطَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ نِقَاتِهِ وَغِلْمَانِهِ مَنْ كَانَ بِهِمْ يَتَعَصَّدُ ، وَعَلَيْهِمْ يَتَعَمَّدُ ؛ وَبَدَّوْا بِجَذْلَانِهِ وَالْأَخْذِ لِنُفُوسِهِمْ ، وَمُفَارَقَتِهِ وَالطَّلَبِ بِمَحْظُوظِهِمْ ؛ وَحَصَلَ مِنْهُمْ بِحَضْرَتِي إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ زُهَاءُ نَحْمَسَائَةِ رَجُلٍ ذَوِي خَيْلٍ مَخْتَارَةٍ ، وَأَسْلِحَةٍ شَاكِيَةٍ ؛ فَصَادَفُوا عِنْدِي مَا أَمَلُوا مِنْ فَائِضِ الْإِحْسَانِ ، وَغَاوِيِ الْأَمْتِنَانِ ؛ وَذَكَّرُوا عَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ نَظَرَائِهِمُ التَّنَزِّيَ إِلَى الْأَنْجَذَابِ ، وَالْحَرِصَ عَلَى الْأَسْتِمْنَانِ ؛ وَأَنَّهُمْ يَرِدُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ ، وَيُبادِرُونَ وَلَا يَتَلَوَّمُونَ .

ولَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ ، لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ أَنْ مَضَى هَارِبًا عَلَى طَرِيقِ سِنْجَارٍ ، مَنكَشِفًا عَنْ هَذِهِ الدِّيَارِ قَانَعًا مِنْ تِلْكَ الْأَمَالِ الْخَائِبَةِ ، وَالظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ ؛ بِسَلَامَةِ حُشَاشَةٍ هِيَ رَهِينَةُ غِيَّهَا ، وَصَرِيعةُ بَغْيِهَا .

وَكَانَ أَنْهَزَامُهُ بَعْدَ أَنْ فَعَلَ الْفِعْلَ السَّخِيفَ ، وَكَادَنَا الْكِدَّ الضَّعِيفَ ؛ بِأَنْ أُغْرِقَ سُفْنُ الْمَوْصِلِ وَعَمْرُوبِهَا ^(١) ، وَأُحْرِقَ جَسْرُهَا وَأَسْتَدَمَ ^(٢) إِلَى أَهْلِهَا ؛ وَتَزَوَّدَ مِنْهُمْ اللَّعْنُ الْمُطِيفَ بِهِ أَيْنَ يَمُّ ، الْكَائِنُ مَعَهُ حَيْثُ خَيْمٌ .

وَدَخَلَتْهَا يَوْمِي هَذَا - أَيْدِ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - دُخُولَ الْغَانِمِ الظَّافِرِ ، الْمُسْتَعْلِي الظَّاهِرِ ؛ فَسَكَنْتُ نَفُوسُ سُكَّانِهَا ، وَشَرَحْتُ صُدُورَ قُطَّانِهَا ؛ وَأَعْلَمْتُهُمْ مَا أَمَرَنِي

(١) نوع من السفن الرواكد كان في دجلة ولكنه عبر عنها في القاموس بالعربات . أى فواحدها عربة بالتحريك .

(٢) أى فعل ما يذم عليه .

به أمير المؤمنين - [أدام الله عزّه] وأعلى الله أمره - من تأنيس وحشتهم ، ونظم ألفتهم ، وضمّ نشرهم ، ولمّ شعثهم ؛ وإجمال السيرة فيهم في ضروب معاملاتهم وعلقتهم ، وصنوف متصرفاتهم ومعاشيهم ؛ فكثرت منهم الثناء والدعاء ؛ والله سامع ما رفعوا ، ويحيب ما سألوا .

وأجلت حال هذا الجاهل - أيد الله أمير المؤمنين - عن أقبح هزيمه ، وأذل هزيمة ، وأسوأ رأى ، وأنكر اختيار ؛ لأنه لم يلقني لقاء البائع بالطاعة ، المعتذر من سالف التفريط والإضاعة ؛ ولا لقاء المصدق لدعواه في الاستقلال بالمقارعة ، المحقق لزعمه في الثبات للدافعه ؛ ولا كان في هذين الأمرين بالبرّ التقي ، ولا الفاجر الغوي ، بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره ، وفضيحة جبنه وخوره ؛ متنبها للصالح ، عادلا عن الصواب ؛ قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبينه الأسداد ، وأنزله الله منزلة مثله ممن أساء حفظ الوديعة ، وجوار الصنيعة ؛ وأستوجب زعمهما منه وتحويلهما عنه .

وتأملت - أيد الله مولانا أمير المؤمنين - أمره بالتجريب ، وتصفّحته على التقلب ؛ فإذا هو الرجل الذي أطاع أبوه فيه هوى أمه ، ^(١) وعصى دواعي رأيه وحزمه ؛ وقدمه من ولده على من هو آنس رُشدا ، وأكبر سنا ؛ وأثبت جأشا ، وأجرأ جنانا ؛ وأشجع قلبا ، وأوسع صدرا ؛ وأجدر بخايل النجابه ، وشمائل اللبابة .

فلما اجتمعت له أسباب القدرة والثروة ، وأمكنته مناهز الغرة والفرصة ، وثب عليه وثبة السرحان ، في ثلثة الضان ؛ وجزاه جزاء أم عامر لمجيرها ، إذ فرته بأنبيائها وأظافيرها ؛ واجتمع [هو] وأخوه من الأثم ، المرتضع معه لبان الإثم ؛ المكنى

(١) هي فاطمة بنت أحمد الكردية وكانت مالكة أمر ناصر الدولة . من هامش مختارات الصابي المطبوعة .

أبا البركات - وليس بأب لها ، ولا حرى بشيء منها - على أن تَنَزَّرَ عنه وعَقَّاه ،
 وقَبَضَا عليه وأَوْتَقَاه ؛ وأَقْرَاه من قَلْعَتِهِما بحيث تُقَرَّ العُتَاه ، وتُعَاقَب الجُنَاه ؛ ثم أَتَبَعَا^(١)
 ذلك باستحلالِ دمه ، وإفاضة مُهْجَتِهِ ، غير رَاعِيَيْنِ فِيهِ حَقَّ الأَبُوَّة ، ولا حَانِيَيْنِ عَلَيْهِ
 حَقَّ البُتُوَّة ؛ ولا مَتَدَمِّمَيْنِ من الإقدام على مثله ممن تَقَدَّمتْ عِنْدَ سُلْطَانِهِ قَدْمُهُ ،
 وتَوَكَّدَتْ أَوَاصِرُهُ وَعِصْمُهُ ؛ ولا رَاحِمَيْنِ لَهُ من ضَعْفِ شَيْخُوخَتِهِ ، وَذَهَلِ كِبَرَتِهِ ؛
 وَلَا مُضْغِيَيْنِ إِلَى وَصِيَّةِ اللَّهِ إِيَّاهُمَا ، الَّتِي نَصَّهَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ؛ وَكَرَّرَهَا فِي آيَةٍ وَبَيَّنَّاتِهِ
 إِذِ يَقُولُ : ﴿ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ وإذ يَقُولُ : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا
 إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا
 وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
 كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝ ١٧٠ ﴾ .

فَبَأَى وَجْهَ يَلْقَى اللَّهَ قَاتِلُ الْوَالِدِ حَدِيدٌ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَنْهَرَهُ ؟ وَبَأَى لِسَانَ يَنْطِقُ
 يَوْمَ يُسْأَلُ عَمَّا اسْتَجَازَهُ فِيهِ وَقَعْلُهُ ؟ وَتَاللَّهِ ! لَوْ أَنَّ بِمَكَانِهِ عُدُوًّا لَهُمَا قَدِ قَارَضَهُمَا
 الدُّحُولُ ، وَقَارَعَهُمَا عَنِ النَّفُوسِ ؛ لَقَبِحَ بِهِمَا أَنْ يَلُومَا ذَلِكَ اللُّومَ عِنْدَ الظَّفَرِ بِهِ ،
 وَأَنْ يَرْكَبَا تِلْكَ الْخَطِيئَةَ الشَّعْنََاءَ فِي الْأَخْذِ بِنَاصِيَتِهِ ؛ وَلَمْ يَرْضَ « فَضَّلُ اللَّهِ » بِمَا
 أَتَاهُ إِلَيْهِ حَتَّى آسْتَوْفَى حُدُودَ قَطْعِ الرَّحِمِ ، بَأَنْ تَتَّبَعَ أَكْبَارَ إِخْوَتِهِ السَّالِكِينَ خِلَافَ

(١) فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ قَبَضَ أَبُو تَغْلِبِ بْنِ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ بْنِ حُدَّانَ عَلَى أَبِيهِ وَجَسَهُ فِي قَلْعَةٍ
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيَا وَسَاءَتْ أَخْلَاقُهُ وَضَيَّقَ عَلَى أَوْلَادِهِ وَخَالَفَهُمْ فِي أَهْوَائِهِمْ فَضَجَرُوا مِنْهُ
 وَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ مَا خَالَفَهُمْ فِيهِ أَنَّهُ عِنْدَ وَفَاةٍ مَعَ الدَّوْلَةِ وَوَلَايَةِ ابْنِهِ بِخِتَارِ عَزَمُوا عَلَى قَصْدِ الْعِرَاقِ فَنَعِمَهُمْ قَاتِلًا
 أَنْ مَعَ الدَّوْلَةِ قَدْ خَلَفَ لَوْلَاهُ مِنَ الْمَسَالِ مَا يُمْكِنُ مَعَهُ مِنَ الظُّهُورِ فَاصْبَرُوا حَتَّى يَتَفَرَّقَ مَالُهُ فَوُثِبَ عَلَيْهِ أَبُو تَغْلِبِ
 وَوَضَعَهُ فِي مَحْبَسٍ فَفَضَبَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ وَوَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَهُمْ وَانْتَشَرَ أَمْرُهُمْ . وَكَانَ نَاصِرُ الدَّوْلَةِ يَسْتَنْصِرُ بِابْنِهِ
 حُدَّانَ عَلَى أَبِي تَغْلِبِ وَأَبَى بَرَكَاتٍ فَتَقَالَاهُ إِلَى قَلْعَةِ كَوَاشِي وَتَوَفَّى فِي الْإِعْتِقَالِ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ
 وَثَلَاثَةَ أَهْ مِنْ هَامِشِ الْمُخْتَارَاتِ الْمَطْبُوعَةِ .

سَبِيلَهُ ، الْمُتَّبِعِينَ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَظِيمِ مَا كَتَسَبَ ، وَوَحِيمِ مَا أَحْتَقَبَ ؛ لَمَّا غَضِبُوا
لَأَيُّهُمْ ، وَآمَنَعُوا مِنَ الْمُسْتَحَلِّ فِيهِ وَفِيهِمْ : فَقَبِضَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ حِيلَةً
وَعِثْلَةً ، وَغَدَّرًا وَمَكِيدَةً ؛ وَنَابَذَ حَمْدَانَ بْنَ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ مُنَابَذَةً خَارَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا ، بَانَ
أَصَارُهُ مِنْ فَنَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْعَزِيزِ ، وَالْحَرْزِ الْحَرِيزِ ؛ وَأَنْ أُجْرِيَ اللَّهُ عَلَى
يَدِهِ الْحَرْبَ الْوَاقِعَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْرُوفِ بِكُنْيَتِهِ أَبِي الْبَرَكَاتِ ، الَّتِي لَقَّاهُ اللَّهُ فِيهَا نَحْسَهُ ،
وَأَتْلَفَ نَفْسَهُ ؛ وَصَرَعَهُ بِعُقُوقِهِ وَبَغْيِهِ ، وَقَنَعَهُ بِعَارِهِ وَخِرْيِهِ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتَغَطَّبُ ،
وَلَا يَنْزِعُ وَلَا يُقْلَعُ وَلَا يَزْدَحِرُ ؛ إِصْرَارًا عَلَى الْخَرَائِرِ الَّتِي اللَّهُ عَنْهَا حَسِيئُهُ ، وَبِهَا طَلِيئُهُ ؛
وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ مُرْصَدَتَانِ لَهُ بِالْخِزْيَةِ الْمَحْقُوقِ عَلَيْهِ ، وَالْعِقَابِ الْمَسُوقِ إِلَيْهِ .

وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ - أَيْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - خَطْبًا ، وَأَوْعَرُ مَسَلَكًا وَلَحْجًا ، أَنَّ
مِنْ شَرَائِطِ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ عُهُدَ إِلَيْهِ ، وَالْعَقْدِ الَّذِي عُقِدَ لَهُ ؛ وَالضَّمَانِ الْمُخَفَّفِ
مَبْلَغُهُ عَنْهُ ، الْمَأْخُودِ عَقْوُهُ مِنْهُ ؛ أَنْ يَتَنَاهَى فِي ضَبْطِ الثُّغُورِ وَجِهَادِ الرُّومِ وَحِفْظِ
الْأَطْرَافِ ، وَرَمِّ الْأَكْافِ ؛ فَمَا وَفَى بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى الْإِسْتِثْنَاءِ
بِالْأَمْوَالِ وَأَقْطَاعِهَا ، وَإِحْرَازِهَا فِي مَكَامِهَا وَقِلَاعِهَا ؛ وَالضَّنِّ بِهَا دُونَ الْإِنْجَاحِ
فِي وُجُوهِهَا ، وَالْوَضْعِ لَهَا فِي حُقُوقِهَا ؛ وَأَنْ تَرَاحَى فِي أَمْرِ عَظِيمِ الرُّومِ مُهْمَلًا ، وَأَطْرَحَ
الْفِكْرَ فِيهِ مُغْفَلًا ؛ حَتَّى هَجَمَ فِي الدِّيَارِ ، وَأَثَرُ الْآثَارِ ؛ وَنَكَى الْقُلُوبَ ، وَأَبْكَى الْعُيُونَ ؛
وَصَدَعَ الْأَعْيَادَ ، وَأَحْرَّ الصُّدُورَ ؛ فَمَا كَانَ عَنْدَهُ فِيهِ مَا يَكُونُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ الْقَارِئِ لِكِتَابِ
اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ بَلْ صَدَفَ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَاهِيًا ، وَعَدَلَ عَنْ كِتَابِهِ سَاهِيًا ؛ وَاسْتَفْسَخَهُ ذَلِكَ الْبَيْعُ وَالْعَقْدُ ، وَتَجَزَّهَ
الْوَعْدُ لَا الْوَعْدَ ، وَلَا طَفَ طَاغِيَةُ الرُّومِ وَهَادَاهُ ، وَمَارَهُ وَأَعْطَاهُ ؛ وَصَانَعَهُ بِمَالِ

المسلمين الذى يَلْزِمُهُ - إن سَلِمَ دِينُهُ وَصَحَّ يَقِينُهُ - أن يُنْفِقَهُ فى مَرَابِطِهِمْ ، وَيَذَبَّ بِهِ عن حَرِيمِهِمْ ؛ لا أن يَعِكْسَهُ عن جِهَتِهِ ، وَيُلْقِيَهُ عن وَجْهَتِهِ ؛ بِالنَّقْلِ إلى عَدُوِّهِمْ ، وإدخال الوَهْنِ بذلك عليهم . وقَادَ إليه من الخيل العِتَاقِ ما هو الآنَ عَوْنٌ للكُفْرِ على الإيمان ، وَنَجْدَةٌ للطاغية على السُّلْطَانِ ؛ وكان فيما أُتْخِفَهُ به الخمرُ التى حَظَرَ اللهُ عليه أن يَشْرِبَهَا وَيَسْقِيَهَا ، وَتَعَبَّدَهُ بأن يَحْتَنِبَهَا وَيَحْتَوِيَهَا ؛ وَصُلْبَانُ ذهبٍ صَاغَهَا لَهُ وَتَقَرَّبَ بها إليه تَقَرُّبًا قد باعده اللهُ فيه عن الإِصَابَةِ والأَصَالَةِ ، وأَدْنَاهُ من الجَهَالَةِ والضَّلَالَةِ ؛ حَتَّى كَانَهُ عَامِلٌ من عَمَالِهِ ، أو يَطْرُقُ من بَطَارِقَتِهِ .

فَأَمَّا فَشْلُهُ عن مَكَاخِفَتِهِ ، وَلَهْجُهُ بِمَلَاطِفَتِهِ ، فَضَدَّ الذى أَمَرَهُ اللهُ به فى قوله تعالى :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأما نَقْلُهُ مَا نَقَلَ من الخيل من ديار المسلمين إلى ديار أعدائِهِمْ ، فَتَقْيِضُ قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ
 ﴿ وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدَاؤُ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وأما إهداؤه الخمرَ والصُّلْبَانِ ، فَخِلَافٌ عليه تباركَ اسْمُهُ ، إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

كُلُّ ذَلِكَ عِنَادًا لرب العالمين ، وَطُمَسًا لأعلامِ الدِّينِ ؛ وَضَنًا بما يُحَامِي عليه من ذلك الخُطَامِ ، المجموع من الحَرَامِ ، المَثْمَرِ من الآثَامِ ، المُقْتَطَعِ من فِئَةِ الإسلامِ ؛ وقد فعل الآنَ بى وبالعساكر التى مَعِيَ وَمَنْ نَضَمَ من أولياءِ أمير المؤمنين الذين هُمُ إخْوَتُهُ وَصَحْبُهُ - إن كان مُؤْمِنًا ، وَأَنْصَارُهُ وَحِزْبُهُ - إن كان مُؤَقِنًا ؛ من تَوَعِيرِ المسالكِ وَتَغْرِيقِ العُرُوبِ ، وَتَضْيِيقِ الأَقْوَاتِ ، وَأَسْتِهْلَاكِ الأَزْوَادِ ؛ لِيُوصَلَ إلينا الضَّرُّ ، وَيُلْحَقَ بنا الجَهْدُ ؛ فَعَلَّ العَدُوَّ المبين ، المخالف فى الدِّينِ ؛ فهل يَحْتَمِعُ

[في أحد من المسأوى - أيد الله أمير المؤمنين - ما اجتمع^(١) في هذا الناد العائد ، والشاذ الشارد ؟ ، وهل يطمع من مثله في حق يقضيه ، أو فرض يؤدّيه ؛ أو عهد يرعاه ، أو ذمام يحفظه ؛ وهو لله عاص ، وإمامه مخالف ، ولوالده قاتل ، ولرحمه قاطع ؟ كلا والله ! بل هو الحقيق بأن تُثني إليه الأعنة ، وتُشرع نحوه الأسنة ؛ وتُنصب له الأرصاد ، وتُسحذ له السيوف الحداد ؛ ليقطع الله بها دأره ، ويحبب غاربه ؛ ويصرعه مصرع الأئيم المليم ، المستحق للعذاب الأليم ؛ أو يُقنى إلى الحق ، إفاعة الداخل فيه بعد خروجه ، العائد إليه بعد مروقه ، التائب المنيب ، النازع المستقبل ؛ فيكون حُكْمه شبيهاً بحكم الراجع عن الردّة ، المحمول على ظاهر الشريعة ؛ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فالحمد لله الذي هدانا لمرشدنا ، ووقف بنا على السبيل المنجية لنا ؛ والمقاصد المفضية إلى رضاه ، البعيدة من سطاه .

والحمد لله الذي أعز أمير المؤمنين بالنصر ، وأعطاه لواء القهر ؛ وجعل أوليائه العالين الظاهرين ، وأعداءه السافين الهابطين ؛ وهنأه الله هذا الفتح ولا أخلاه من أشكال له تقفوه وتتبعه ، وأمثال نثلوه وتشفعه ؛ واصلها فيها إلى ما وصل فيه إليه من حيازته مهناً ؛ لم يُسفك فيه دم ، ولم يُنتهك محرم ، ولم يُنل جهد ، ولم يمسس نصب . أنهيت إلى أمير المؤمنين ذلك ، ليضيف صنع الله له فيه ، إلى السالف من عوارفه عنده وأياديه ، وليجدد من شكره جلّ وعلا ما يكون داعياً إلى الإدامة والمزيد ، مقتضياً للعون والتأييد ؛ إن شاء الله تعالى .

[وكتب يوم الجمعة لتسع ليل خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة^(٢)

(١) الزيادة عن مختارات رسائل الصابي المطبوعة (ج ١ ، ص ٩١) وهي لازمة لتنظيم الكلام .

(٢) الزيادة من مختارات رسائل الصابي .

الأسلوب الثانى

(أن تفتتح المكتبة بلفظ «كتابى للخليفة والحال على كذا وكذا» ويدعى للخليفة

بطول البقاء فى أثناء ذلك ، ويعبر الملك المكتوب عنه عن نفسه

بلفظ الأفراد مع التصدير بالعبودية ، ويخاطب الخليفة

بأمير المؤمنين ويختم بالدعاء ونحوه)

كما كتب أبو الفرج البغا عن السلطان أبى تغلب بن ناصر الدولة أحد ملوك بنى
حمدان بحلب وما معها ، جواباً للكتاب الوارد عليه من الطائع أو المطيع بالكنية
والخلع ماضوته :

«كتابى - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - وعبد أمير المؤمنين مستديم بشكر الله تعالى
مدد النعم المتظاهرة عليه ، والمنح المتناصرة لديه ؛ بحملى رأيه أدام الله علوه
وتقديمه - معترف بما طوقته به السعادة من عوارف تشريفه ؛ متمسك من الطاعة
بما أحله كنف إحسانه ، متوصل بالطرف إلى الاستزادة من طوله وأمتانه .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد المرسلين ، محمد وآله الطاهرين .

ووصل كتاب أمير المؤمنين - أدام الله نصره - مشتملاً على فوائد الإرشاد
والتوقيف ، مقترنا بخصائص التكرمة والتشريف ؛ فاقتديت من أوامره - أعلاها
الله تعالى ! - بأهدى دليل ، وسلكت فى شكر ما اعتمدنى من إشاره أوضح سبيل ؛
وبرزت لسائر من آخترنى - أيدى الله - لسياسته من الخاصة والعامة فى الحلل
الحالية بسيمات تشريفه وإكرامه ، متدرباً ثوبى هديه وسكنته ، ومختلاً منهما بين كنفى
دفاعه ومعونته ؛ ومتقلداً غضبه الذى هز النصر غراره ، وأطلق المضاء شفاره ؛

وعالياً على عُتق الزمان ، بامتطاء ما حَبَّأَني به من الحملان ؛ مسترِقِّ النية بالرغبة إليه ،
ومستخدِمِ النطق بالثناء عليه ؛ ومقتصفاً أثر أسلافِي في خدمته وخدمة آبائه المؤمنين ،
من الخلفاء الراشدين ، صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وأقتفاء مذهبهم في الذب عن فئة
الخلافة والمُرَامة دُونَ المِلَّة ، والاجتهاد في طاعة الأئمة .

فالحمْدُ لله الذي جعل صنائع أمير المؤمنين مستقرةً عند مَنْ يربطها بعلائق الشكر ،
ويحرُسها بالتوقُّر على ما أفاد الإجماع وجميل الذِّكر ؛ وأدام علو أمير المؤمنين ! وأيدنا
بعزِّ دولته ، وبسَطَ بالتمكين قُدْرته ، وحرَس من الغير سلطانه ، وقرن بنفاذ الأمر يده
ولسانه ؛ ولا أخلاه من ولى ينشيه ويصنعه ، وشكور يُعليه ويرفعه ؛ وعزم يحمّد أثره
ويرتضيه ، ورأي بالتوفيق يُبرمه ويُمضيه . ووفَّقني من القيام بحقوق خدمته ،
والتمسك بفرائض طاعته ، والمعرفة بمواقع أصطناعه وتفضله ، والاعتداد بمنح إنعامه
وتطوُّله ؛ لما يستريذني من أياديهِ وآلائهِ ، ويحرُس على مكاني من جميل آرائهِ ،
إنه جواد كريم .

وقد آذنتُ مَنْ بعد وقُرب برفع أمير المؤمنين - أدام الله بسطته - ذِكْرِي عن
تعريف الاسم بنباهة الكُنية ، وإصدار ذلك إلى الأسماع من شريف عبارته ،
والإذن فيه لسائر مَنْ يذكُرني بحضرته ، زاد الله في جلالها . وتقدّمتُ بإثبات ذلك
على عُنوانات الكتب أمثالاً لأمره ، وأخذاً بإذنه ، ووقُوفاً عند رسمه ؛ عارفاً قدر
النعمة والموهبة فيه . وأعددتُ بما أعلمنيه أمير المؤمنين من نيابة فلان عبده
وما توخَّاه من محمود السَّفارة ، وحسن الوساطة ، ووجدتُ ما يجمعني وإياه من
الإخلاص في ولاء أمير المؤمنين أقرب الأنساب ، وأوكَد الأسباب ؛ في تأكُّد
الألفة ، وتثبيت قواعد الطاعة ؛ والله يحرسُ أمير المؤمنين في كافّة رعيته ، وخاصّة
أوليائه وصنائع دولته ؛ من اختلاف الآراء ، وتشدُّب الأهواء ؛ ويعينني من النهوض

بمفترصات أياديه ، وواجبات ما يُسْديهِ إلى ويُولِيهِ ؛ [على] ما قَرَّبَ منه وإليه ، وأزَلَفَ عنده ولَدَيْهِ ؛ بمنه ومَشِئَتِهِ ، وحَوْلَهُ وقُوَّتِهِ .



الحالة الثانية — من مكاتبات الملوك إلى خُلفاء بنى العباس ما كان عليه الأمرُ في آخر دولتهم ببغداد .

والحال فيه مختلف : فتارةً يَفْتَتِحُ بالدعاء للديوان العزيز ، وتارةً بالدعاء لما يعود عليه ، وتارةً بالصلاة ، وتارةً بالسلام . وربما أَفْتَتَحَتْ المكتابةُ بآية من القرآن الكريم مناسبةً للحال .

قال المقرّ الشهابيُّ بن فضل الله في كتابه " التعريف " : والصدرُ نحو العبد أو المملوك أو الخادم يُقَبَّلُ الأرضَ ، أو العتباتِ ، أو مواطِئَ المواقفِ أو غير ذلك . ويخاطب الخليفة في أثناء الكتاب بالديوان العزيز ، وبالمواقف المقدسة أو المشرفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلى أو الشريف ، وبأمر المؤمنين مجرّدة عن سيدنا ومولانا ، ومرةً غير مجرّدة مع مراعاة المناسبة والتسديد والمقاربه . ويختتم الكتاب تارةً بالدعاء ، وتارةً بطالع أو أنهى أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء .

قال : وأخْتَلِفَ فيما يخاطبُ به المكتوب عنه عن نفسه : فكتب صلاح الدين ابن أيوب « الخادم » وكتب بنوه والعدل أخوه « المملوك » وكتب الكامل بن العدل « العبد » وجرى على هذا أبْنُه الصالح . وكتب الناصر بن العزيز « أقل الممالك » وكتب الناصر داود « أقل العبيد » ؛ وكان علاء الدين خوارزم شاه يكتب « الخادم المطواع » وتبعه على ذلك أبْنُه جلال الدين ، وكانت أم جلال الدين تكتب « الأُمّة الداعية » . هذا على شَمِّ أنوف الخوارزمية وعلو شأنهم .

وعنوان هذه المكاتبات على اختلافها « الديوانُ العزيز، العالى، المولوى،
السيدى، النبوى، الإمامى، الفلانى (بلقب الخلافة) أدامَ الله أيامه، أو خلد
الله أيامه، أو أدامَ الله سلطانه » على مُناسبة ما فى صدر الكتاب .
ثم هو على ستة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بالدعاء للديوان العزيز)

قال فى " التعريف " : والمراد بالديوان ديوانُ الإنشاء، لأن المكاتبات عنه
صادرة وإليه واردة . قال : وسبب مخاطبتهم بالديوان الخُضعان عن مخاطبة
الخليفة نفسه ، ويكون الدعاء للديوان بما فيه معنى دوام العز والسلطان وبسط
الظل وما أشبه ذلك . مثل : أدامَ الله أيامَ الديوان العزيز، أو أدامَ الله سلطان
الديوان العزيز، أو خلدَ الله أيامَ الديوان العزيز، أو خلدَ الله سلطانَ الديوان العزيز،
وأدامَ الله ظلَ الديوان العزيز، وخلدَ الله ظلَ الديوان العزيز، وبسطَ الله ظلَ الديوان
العزيز، وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة كتاب كتب به القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف
أبن أيوب» صاحب الديار المصرية ، إلى الناصر لدين الله الخليفة يومئذ ببغداد ،
بفتح القدس وما معه ، وأقتلاع ذلك من أيدي الفرنج وإعادته إلى ما كان عليه
من الإسلام، وهى :

« أدامَ الله أيامَ الديوان العزيز النبوى الناصرى ، ولا زال مظفر الحُد بكلِّ
جاحد ، [غنى] التوفيق عن رأى كلِّ رائد ، موقوف المساعى على آقتناء مُطلقات^(١)

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية .

الحامد، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقي إلا بشكر واحد، [ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وریش راشد] ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء] أنواء إلى المراج وأنواراً إلى المساجد، وبُعوث رُعبه إلى الأعداء خيالاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلوماصدر عنه مما كان يجرى مجرى التبشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ؛ فإنها بحر للأقلام فيه سجع طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبُشرى للخواطر في شرحها مارب ، ويُسرى للأسرار في إظهارها مسارب ؛ والله في إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يُقال معه هذا مضي . وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، وأستبنت عقائد أهلها على بصائرهما ؛ وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه فلمبا وقع الشرط حصل المشروط ؛ وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه ؛ وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً ، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا ؛ [وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة] فأدبلت السيوف إلى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، وأستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ؛ وأسترد المسلمون تراثنا كان عنهم إقباء ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيقاً على النأي طارقاً ؛ وأستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقى على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما شفى بالماء غلهم .

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ .

ولما قَدِمَ الدينُ عليها عرف منها سُويْدَاءَ قلبه ، وهنَّا كَفُوْهَا المجرُ الأسودُ بَيَّتْ
عِصْمَتِهَا من الكافرِ بِجَرِّه ؛ وكان الخادم لا يَسْعَى سَعِيَه إِلَّا لِهَذِهِ العُظْمَى ، ولا يُقَاسِي
تلك البُؤْسَى إِلَّا رجاءَ هذه النُّعمَى ، ولا يَنَاجِزُ من أَسْتَمَطَلَه في حَرْبه ، ولا يُعَاتِبُ بِأَطْرَافِ
القَنَا من تَمَادَى في عَتَبِه ؛ إِلَّا لَتَكُونَ الكلمةُ مجموعَه ، والدعوةُ إلى سامعِهَا مَرْفُوعَه ؛
فَتَكُونَ كلمةُ الله هِيَ العُلْيَا ، وليفوزَ بِجوهرِ الآخِرَةِ لا بِالْعَرَضِ الأَدْنَى من الدنيا ؛
وكانت الألسنةُ رُبَّمَا سَلَقَتْه فَأَنْصَجَ قُلُوبُهَا بِالْاِحْتِقَارِ ، وكانتِ الْخَوَاطِرُ رُبَّمَا غَلَتْ
عليه مَرَّاجِلُهَا فَأَطْفَأَهَا بِالْاِحْتِمَالِ وَالْأَصْطِبَارِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ خَطِيئَةً خَاطِرًا ، وَمَنْ رَامَ
صَفْقَةً رَاجِحَةً تَجَاسَرَ ، وَمَنْ سَمَّا لَأَنْ يُحِلِّيَ عَمْرَةً غَاصِرًا ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الْقُعُودَ يُلِينُ تَحْتَ نُيُوبِ
الأَعْدَاءِ الْمَعَاجِمِ قَتَعُضُهَا ، وَيُضْعِفُ في أَيْدِيهَا مَهْرَ الْقَوَائِمِ فَتَقُضُّهَا ؛ هَذَا إِلَى
كَوْنِ الْقُعُودِ لَا يَقْضِي فَرَضَ اللَّهِ في الْإِحْهَادِ ، وَلَا يُرْعَى بِهِ حَقُّ اللَّهِ في الْعِبَادَةِ ؛ وَلَا يُوفَى
بِهِ وَاجِبُ التَّقْلِيدِ الَّذِي تَطَوَّقَهُ الْخَادِمُ من أُمَّةٍ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ،
وْخُلَفَاءُ اللَّهِ كَانُوا في مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ لِهَذَا يَسْأَلُونَ ؛ لِأَجَرَمَ أَنَّهُمْ أَوْرَثُوا سُورَهُمْ وَسِرِّيَهُمْ
خَلْفَهُم الْأَطْهَرِ ، وَتَجَلَّاهُمْ الْأَكْبَرُ ؛ وَبَقِيَّتُهُم الشَّرِيفَةُ ، وَطَلَعَتْهُمُ الْمُئِنَّةُ ، وَعُلُوَانُ صَحِيفَةِ
فَضْلِهِمْ لَا عَدِمَ سَوَادُ الْعِلْمِ وَبَيَاضُ الصَّحِيفَةِ ؛ فَمَا غَابُوا لِمَا حَضَرَ ، [وَلَا غَضُّوا] ^(١) لِمَا
نَظَرُوا ، بَلْ وَصَلَهُمُ الْأَجْرُ لِمَا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا ، وَشَاطَرُوهُ الْعَمَلُ لِمَا كَانَ عَنْهُ مَقْبُولًا
وَمِنْهُ مَقْبُولًا ؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْمُضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ جُنُوبُهَا [وَالِإِلَى الصَّفَائِحِ
مَاعَبَقَتْ بِهِ جُيُوبُهَا] ^(١) وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا ، وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا ؛ وَالشَّرْقُ
يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ ، بَلْ إِنْ أَبْدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ بِأَنْ وَارِهِ ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ
لَا تُكْتَنُهُ أَغْشَاقُ السُّدُفِ ، وَذَكَرَ لَأَنْوَارِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية سنة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ .

وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا، وطارت فرقه فرقا، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان؛ وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفه، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفه؛ ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجذعت أنوف رماحه وطالما كانت شاحنة بالمنى أو راعفة بالذنون؛ وأضحيت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرّب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث؛ فبيوت الشرك مهذومه، ونيوب الكفر مهتومه؛ وطوائفه المحاميه، مجتمعة على تسليم البلاد الحاميه، وشجعائه المتوافيه، مدعنة ببذل المطامع الوافيه؛ لا يرون في ماء الحديد لهم عصره، ولا في فناء الأفنية لهم نصره؛ وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنه، وبذل الله مكان السيئة الحسنه، وتقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنه .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركتيه، وأنجده بملائكتيه؛ فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر؛ وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل؛ وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فانه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكار، فنبشوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بشار^(١)]؛ فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالطعاعين؛ وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه، وفقرت تلك القوس فاها فإذا فوها قدنesh القرن

على بُعد المسافة فافترسه ؛ وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ؛ وكان الكُفْرُ مفقودا ، والإسلام مولودا ، وجعل الله ضلوعَ الكُفَّارِ نارَ جهنَّمَ وقودا ؛ وأَسِرَ الملكُ وبَيْدِهِ أوثقُ وثائقِهِ ، وآكُدُ وَصْلِهِ بالَّذِينَ وعلائقِهِ : وهو صليبُ الصَّلْبِوتِ ، وقائدُ أهلِ الجَبْرُوتِ ؛ وما دُهِمُوا قَطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دَهائِمِهِم يَبْسُطُ لَهِم باعَهُ ، ويَحْتَرِضُهُم وكان مَدُّ اليَدَيْنِ في هذه الدَّفْعَةِ ودَاعَهُ ؛ لا جَرَمَ أَنَّهُم تَهافتَ على نارِهِم فَرَأَيتُهُم ، وتَجَمَّعَ في ظِلِّ ظَلَامِهِ خَشائِشُهُم ؛ فيقاتلون تحت ذلك الصَّليبِ أَصْلَبَ قتالٍ وأَصْدَقَهُ ، ويَرُونَهُ ميثاقًا يَبْنُونَ عليه أَشَدَّ عَقْدٍ وأوثقَهُ ، وَيَعِدُونَهُ سُورًا تَحْفِرُ حوافِرُ الخيلِ خَنْدَقَهُ .

وفي هذا اليوم أُسِرَتْ سَرَائِئِهِمْ ، وَذَهَبَتْ دُهائُهُمْ ؛ ولم يُفْلِتْ معروفٌ إلا القَوْمُصْ وكان لعنه الله مِلياً يومَ الظَّفَرِ بالقتالِ ، ويومَ الحِذْلانِ بالأَحْتِيالِ ؛ فَنَجَا وَلَكِنْ كَيْفَ ، وطارَ خَوْفاً من أن يَلْحَقَهُ مِئْسَرُ الرُّيْحِ وَجَنَاحُ السَّيْفِ ، ثم أَخَذَهُ اللهُ بَعْدَ أَيَّامٍ بِيَدِهِ ، وأَهْلَكَهُ لِمَوْعِدِهِ ؛ فَكانَ لِعِدَّتِهِمْ فَذالكَ ؛ وَأَنْتَقَلَ من مَلِكِ المَوْتِ إلى مالِكِ .

وبعد الكَسْرَةِ مرَّ الخادِمُ على البِلادِ فَطَوَّأَها بما نَشَرَ عليها من الراية العَبَّاسِيَّةِ السُّوداءِ صَبْغاً ، البِيضاءِ صُنْعاً ، الخافِقَةِ هي وقلوبُ أعدائِها ؛ الغالِبَةِ هي [وعزائمُ أوليائِها] ^(١) المستَضياءِ بأنوارِها إذا فُتِحَ عَيْنُها اليَشْرُ ، وأشارَتْ بأناملِ العَذَباتِ إلى وجهِ النَّصْرِ ؛ فافتتَحَ بِلَدَ كذا وكذا وهذِهِ أَمْصارُ ومُدُن ، وقد تَسَمَّى البلادُ بلاداً وهي مَزَارِعُ وفُدُنْ ؛ وكلُّ هذه ذِواتُ مَعاقِلٍ ومَعاقِرٍ ، وبِحارٍ وَجَزائِرٍ ، وجَوامِعَ ومَنائِرٍ ، وجُمُوعٍ وعَسائِرٍ ؛ يَتَجَاوِزُها الخادِمُ بَعْدَ أن يُحَرِّزَها ، وَيَتَرَكُها ورأه بَعْدَ أن يَنْتَهِزَها ؛ وَيَحْصِدُ منها كُفْراً وَيَزْرَعُ إيماناً ، وَيَحِطُّ من مَنائِرِ جَوامِعِها صُلْباناً وَيَرْفَعُ أَذاناً ؛ وَيُبَدِّلُ المَذائِحَ

منابر والكائنات مساجد، ويؤى بعد أهل الصلبان أهل القرآن للدب عن دين الله
مقاعد؛ ويقتر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار
ومجور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور.
ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها
كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعهم، وأن كنيستها إلى الله شافعهم؛
فلما نازها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألفت وتألفت
على الموت فنزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته؛ فزاول البلد
من جانب فإذا أودية عميقة، ولجج وعرة غريقه، وسور قد انعطف عطف السوار،
وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار؛ فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع
عليها معرج، ولخيل فيها متوج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرب منها؛ وضربت
خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكفاه؛ وقابلها ثم قاتلها،
ونزلها ثم نازها؛ وبرز إليها ثم بارزها، وحاجرها ثم ناجرها؛ فضمها ضمة أرتقب
بعدها الفتح، وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجدد عن عتق الصفح؛
فراسلوه ببذل قطيعة إلى مده، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجده؛ فعرفهم
في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول؛ وقدم المنجنقات التي تتولى عقوبات
الحصون عصيها وحبالها، وأوترهم قسيها التي تضرب فلا تقارحها سهامها ولا يفارق
سهمها فصالحها؛ فصاحت السور بأكفاه فإذا سهمها في شأيا شرفاتها سواك،
وقدم النصر تسرا من المنجنق ليخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء؛
فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجه، ورفع مئثار عجاجها، فأحلى السور من
السياره، والحرب من النظاره؛ فأمكن الثقاب، أن يسفر للحرب الثقاب، وأن يعيد

الحجر إلى سيرته من التراب؛ فتقدم إلى الصخر فضع سرده، بأنياب مِعُولِهِ، وحلَّ عقده، بضربه الأخرق الدالَّ على لطافة أُمِّهِ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبِّله؛ وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها مؤثقا فلن تبرح الأرض؛ وفتح في السور باب سد من نجاتهم أبوابا، وأخذ ثقب في حجرة قال عنده الكافر: ياليتني كنت ترابا؛ فينشد يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور.

وفي الحال خرج طاغية كُفْرهم وزمام أمرهم ابن بارزان سائلا أن يؤخذ البلد بالسلم باللعنوه، وبالأمان لا بالسطوه؛ وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه دُلَّ الملكة بعد عز الملكة؛ وطرح جبينه في التراب وكان حينئذ لا يتعاطاه طارح، وبذل مبلغا من القطيعة لا يطمح إليه طرف أمل طامح؛ وقال: ها هنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألواف وقد تعاهد الفرنج على أنهم إن هُجِمَت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار؛ بدئ بهم ففعلوا، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا، ثم آستقتلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولم يسَلَّ سيف من يده إلا بعد أن تنقطع أو ينقص؛ وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور، من البلد المأسور؛ فإنه إن أخذ حربا فلا بد أن تقتحم الرجال الأتجاد، وتبذل أنفسهم في آخر أمرٍ قد نبيل من أوله المراد. وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، واعتاق الحركات، فقيل منهم المبدول عن يدهم صاغرون، وأنصرف أهل الحرب عن قُدرة وهم ظاهرون، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سگان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان؛ لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق

وَأَسْخَطَهُمْ، فَإِنَّهُمْ - خَذَلَهُمُ اللَّهُ - حَمَّوْهَا بِالْأَسَلِ وَالصَّفَاحِ [وَبَنَوْهَا بِالْعَمَدِ وَالصَّفَاحِ] ^(١١)
وَأَوْدَعُوا الْكَنَاشَ بِهَا وَبِوَتِ الدَّيُوتِ وَالْإِسْتَبَارِيَةِ مِنْهَا كُلِّ غَرِيبَةٍ مِنَ الرُّحَامِ الَّذِي
يَطْرُدُ مَأْوَهُ، وَلَا يُطْرَدُ لِأَلَاؤِهِ، قَدْ لَطَفَ الْحَدِيدُ فِي تَجْزِيعِهِ، وَتَفَنَّنَ فِي تَوْشِيعِهِ،
إِلَى أَنْ صَارَ الْحَدِيدُ، الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، كَالذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ نَعِيمٌ عَتِيدٌ، فَمَا تَرَى
إِلَّا مَقَاعِدَ [لِلرِّيَاضِ لَهَا مِنْ بَيَاضِ التَّرْخِيمِ رَقْرَاقٌ، وَعَمَدًا كَالْأَشْجَارِ لَهَا مِنْ ^(١٢)
الْغَنِيِّتِ أَوْرَاقٌ] .

وَأَوْزَعَ الْخَادِمُ بَرْدَ الْأَقْصَى إِلَى عَهْدِهِ الْمَعْهُودِ، وَأَقَامَ لَهُ مِنَ الْأَيْمَةِ مَنْ يُوفِّيهِ
وَرَدَّهُ الْمَوْرُودَ، وَأُقِيمَتِ الْخُطْبَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ رَابِعَ شَهْرِ شَعْبَانَ، فَكَادَتِ السَّمَوَاتُ
يَتَقَطَّرْنَ لِلسُّجُومِ لَا لِلْوُجُومِ، وَالْكَوَاكِبُ يَنْثَرْنَ لِلطَّرَبِ لَا لِلرُّجُومِ، وَرُفِعَتْ إِلَى اللَّهِ
كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَكَانَتْ طَرَائِقُهَا مَسْدُودَةً، وَظَهَرَتْ قُبُورُ الْأَنْبِيَاءِ وَكَانَتْ بَيْنَهُمُ النَّجَاسَاتُ
مَكْدُودَةً؛ وَأُقِيمَتِ الْخَمْسُ وَكَانَ التَّثْلِيثُ يُقْعِدُهَا [وَجَهَرَتِ الْأَلْسُنُ بِاللَّهِ أَكْبَرُ وَكَانَ
سِحْرُ الْكُفْرِ يَعْقِدُهَا] ^(١٣) وَجُهِرَ بِاسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قُطْبِهِ الْأَقْرَبِ مِنَ الْمُنْتَبِ، فُرِحَّ بِه
تَرْحِيبَ مَنْ بَرَّجَمَنَ بَرًّا، وَخَفَقَ عِلْمَاهُ فِي حِفَافِيهِ، فَلَوْ طَارَ بِهِ سُرُورًا لَطَارَ بِجَنَاحِيهِ .

وَكُتِبَ الْخَادِمُ وَهُوَ مُجَدِّدٌ فِي اسْتِفْتَاحِ بَقِيَّةِ الثُّغُورِ، وَاسْتِشْرَاحِ مَا ضَاقَ بِتَمَادِي
الْحَرْبِ مِنَ الصُّدُورِ، فَإِنَّ قُوَى الْعَسَاكِ قَدْ اسْتَنْفَدَتْ مَوَارِدَهَا، وَأَيَّامُ الشِّتَاءِ
قَدْ مَرَدَّتْ مَوَارِدَهَا، وَالْبِلَادُ الْمَأْخُودَةُ الْمَشَارُ إِلَيْهَا قَدْ جَاسَتِ الْعَسَاكِ خِلَالَهَا،
وَنَهَبَتْ ذَخَائِرَهَا وَأَكَلَتْ غِلَافَهَا . فَهِيَ بِلَادٌ تُرْفَدُ وَلَا تُسْتَرْفَدُ، وَتُجَمُّ وَلَا تُسْتَفَدُّ،
وَيُنْفَقُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْفَقُ مِنْهَا، وَتُجَهَّزُ الْأَسَاطِيلُ لِبَحْرِهَا، وَتَقَامُ الْمَرَابِطُ لِبَرِّهَا، وَيُدَّابُّ
فِي عِمَارَةِ أَسْوَارِهَا وَمَرَمَّاتِ مَعَاقِلِهَا؛ وَكُلُّ مَشَقَّةٍ فَهِيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نِعْمَةِ الْفَتْحِ

مَحْتَمَلَةٌ ، وَأَطْلَعُ الْفَرَنْجَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ مَذَاهِبُهَا غَيْرُ مُرْجئةٍ وَلَا مُعْتَرِلَةٍ ، فَلَنْ يَدْعُوا دَعْوَةَ
يَرْجُو الخَلاَمُ مِنْ اللَّهِ أَنَّهَا لَا تَسْمَعُ ، وَلَنْ تَزُولَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَطْوَاقِ الْبِلَادِ حَتَّى تُقْطَعَ .
وَهَذِهِ الْبَشَائِرُ لَهَا تَفَاصِيلُ لَا تَكَادُ مِنْ غَيْرِ الْأَلْسِنَةِ نَتَشَخَّصُ ، وَلَا بِمَا سِوَى
الْمُشَافَهَةِ نَتَلَخَّصُ . فَلِذَلِكَ تَفَضَّلْنَا لِسَانًا شَارِحًا ، وَمُبَشِّرًا صَادِحًا ، يَنْشُرُ الْخَبَرَ عَلَى
سِيَاقِهِ ، وَيَعْرِضُ جَيْشَ الْمَسْرَةِ مِنْ طَلِيعَتِهِ إِلَى سَاقَتِهِ .

الأسلوب الثاني

(أَنْ يَفْتَحَ الْكِتَابَ بِالْإِعْدَاءِ لَغَيْرِ الدِّيَوَانِ بِمَا فِيهِ تَعْظِيمُ الْخَلِيفَةِ)

كَمَا كَتَبَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ عَنِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ»
إِلَى دِيَوَانِ الْخِلَافَةِ بِبَغْدَادَ .

أَسْعَدَ اللَّهُ عِظَمَاءَ الْأَمْلَاقِ بِالْإِتِّسَابِ إِلَى الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَأَوْزَعَهُمْ
مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهَا . وَخَلَّدَ مُلْكَ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ النَّبَوِيِّ مَا دَامَتِ الْأَفْلَاقُ قَائِمَةً ،
وَالْتَّجُومُ نَاجِحَةً ، وَنَقَعَ بَعْمَانُهَا غُلَّ الْأَمَالِ الْحَائِمَةِ ، وَفَسَّرَ بِمَكَارِمِهَا حُلْمَ الْأُمَانِيِّ
الْحَائِلَةِ ، وَرَتَّقَ بِتَدْيِيرَاتِهَا الْمَعْصُومَةَ فُتُوقَ النَّوْبِ الْمُتَعَاظِمَةِ ، وَأَظْهَرَ عَلَى أَيْدِي
أَوَّلِيائِهَا مَعْجَزَاتٍ نَصَرَهَا ، وَصَرَّفَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ بَيْنَ الْمَرْضِيِّينَ لِلَّهِ نَهْيًا وَأَمْرًا ،
وَأَوْدَعَ بِرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمُودَعِهَا وَمُسْتَقَرِّهَا .

الْمَمْلُوكُ - وَإِنْ كَانَ قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ مَذْأَطَلِقَتْ عَذْبَةُ لِسَانِهِ خِدْمَةَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ،
فَتَفْسَحُ فِي وَسْيعِ مَآثِرِهَا ، وَتُخَيَّرُ مِنْ بَدِيعِ جَوَاهِرِهَا ، وَامْتِنَاحُ مِنْ نَمِيرِ زَوَاجِرِهَا .
فَإِنَّهُ لَا يَعْتَدِرُ عَنِ الْحَصْرِ الَّذِي اعْتَرَاهُ فِي وَصْفِ الْمَنْعَمِ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْخَطَابِ الشَّرِيفِ ،

(١) أَيْ الْخِدْمَةُ النَّبَوِيَّةُ وَالْمَرَادُ بِهَا الْخِلَافَةُ .

الذى لولا أَنَّ عِصْمَةَ المَوَالاةِ تُثَبِّتُ قُوَادَهُ الخَافِقِ ، وَتَسَدُّ لِسَانَهُ النَّاظِقِ ، لما تَعَاظَى
وَصَفَّ ما أَعْطاه من كِتَابِهِ المَرْقُومِ ، وَسَبَقَ إِلَيْهِ من سَحَابِهِ المَرْكُومِ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يَشْفُ
عَنْهُ الْأَمَلُ نَاكِصًا وَهُوَ كَسِيرٌ ، وَيَقْلِبُ دُونَهُ البَصْرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ، إِلَّا أَنْ الْإِنْعَامَ
الشَّرِيفَ يَبْدَأُ الْأَوْلِيَاءَ بِمَالِهِمْ وَكَلَّهِمْ إِلَى أَمَانِيَّتِهِمْ لَتَهَيَّبَتْ أَنْ تَتَعَاظَى حَظِيَّتَهُ ، وَلَوْ فَوْضَهُ
إِلَى رَاحَتِهِمْ لَنَكَلَتْ عَنْ أَنْ تَتَرَقَّى نِصْبَتَهُ ، وَلَا غَرْوَ لِسَحَابِ أَنْ يُصَافِحَ قَطْرُهُ الثَّرَى ،
وَالْفَجْرِ أَنْ يُشْرِقَ نَوْرُهُ عَلَى عَيْنِ الْكَرَى وَالسَّرَى .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَرَّبَ عَلَى الْمَمْلُوكِ مَنَالَ الْأَمَالِ ، وَثَبَّتَ حَصَاةَ قُوَادِهِ لِمَا لَا تَسْتَقِيلُ
بِحِمْلِهِ صُمُ الْجِبَالِ . وَيَسْتَنْبِئُ عَنْ جَهْرِ الشُّكْرِ بَسْرَ الْأَدْعِيَةِ ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى مَا يُفِضِي بِهِ
إِلَى الْمُحَارِبِ وَإِنْ لَمْ يَقْصُرْ عَمَّا يَقْصُهُ فِي الْأَنْدِيَةِ ، وَيُطَالِعُ بِأَنْ مَمْلُوكِ الْخِدْمَةِ
وَأَبْنِ مَمْلُوكِهَا أَخَذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَشَمَّرَ لَخِدْمَةِ أَشْرَفِ خَلَافَةٍ لِأَشْرَفِ نُبُوَّةٍ ، وَلِقَاءَهُ تَلَقَّى
أَبِيهِ الْأَوَّلِ الْكَلِمَاتِ ، وَرَأَى إِبْطِلَاعَ اللَّهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ طَاعَتِهِ
لِأَحَدٍ مِنَ الْمُعِيزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَسَمِعَ الْمَشَافَهَةَ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهَا بِفَهْمِهِ
سَامِيًا طَرَفُهُ مُتَطَلِّعًا .

وَلَقَدْ أَشْبَهَ هَذَا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ بَيْعَةً أُخِذَتْ عَلَيْهِ ، مَدَّ إِلَيْهَا يَدَهُ أَخْذًا بِكَلْتَا يَدَيْهِ .
وَالْمَمْلُوكُ يَرْجُو بَلَّ يَتَحَقَّقُ أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْمَشَارَ إِلَيْهِ سَيُوفِي عَلَى سَابِقِهِ مِنْ عِبِيدِ الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَةِ فِي الزَّمَانِ ، وَيَكُونُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ أَسْبَقَ مِنْهُمْ بِالْإِحْسَانِ .

وَقَدْ صَدَرَتْ خِدْمَتَانِ مِنْ جِهَتِهِ وَبَعْدَهُمَا تَصَدَّرَ الْخِدْمَ ، وَلَا يَأْلُو جَهْدًا فِي الْخِدْمَتَيْنِ
مُبَاشَرًا بِيَدِهِ السَّيْفِ وَمُسْتَنْبِيًا عَنْهَا الْعِلْمَ ، وَلَهُ نُصْرَةٌ بَاقِيَةٌ فِي الْوَلَاءِ وَهُوَ غَنِيٌّ بِهَا
عَنِ النَّصِيرِ ، وَسِرِّيَّةٌ بَادِيَةٌ فِي الطَّاعَةِ هِيَ إِلَيْهَا أَسْكَنُ مِنْهَا إِلَى كُلِّ مُشِيرٍ . يَعُودُ
الْمَمْلُوكُ إِلَى مَا لَا يَزَالُ يَفْتَحُ بِهِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةَ ، وَيَخْتِمُ بِهَا الْخَتَمَاتِ الْمَعْرُوضَةَ ؛

من الدعاء الصالح الذي [وان] أغنى الله وليه عنه فقد أحوج ذوي العقائد السليمة إليه :
 لأنه مُزَكَّ لأعمالهم ، بل متمم لإسلامهم ، وكيف لا يدعون لمن يدعون به يوم يُرعى
 كل أناس بإمامهم ؛ فيقول : - جمع الله لأُمير المؤمنين طاعة خلقه ! ، وأذل رقاب
 الباطل سيف حقه ! ، وجعل الله ما هو قبضته في الأخرى قبضة أمير المؤمنين
 في الأولى ! من الأرض التي هي موطوءة كالسموات العلى ، وأدام نعمه على
 هذه الأمة بإمامته ، وأظهر كرامة نبيه عليه السلام بما يُظاهره من كرامته ؛ وعجل
 لمن لا يقوم بفرض ولايته إقامة قيامته ، ورد بسؤوفه التي لا تُرد ما الإسلام ممطوّل
 به من ظلامته ، وأقام به مناهج الدين لأهله ، وأظهره بمظاهرتة على الدين كله ،
 حتى يلقى الله وما خلف في الدنيا كافراً ، ولا ضميراً إلا بالتوحيد عامراً ، ولا بلدًا
 إلا وقد بات الإسلام به أهلاً وقد أصبح منه الكفر دائراً ، إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثالث

(أن يبدأ بآية من كتاب الله تعالى تناسب الحال)

كما كتب القاضي الفاضل ، عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب »
 إلى الخليفة المستضيء ببغداد بشرى بفتح بلد من بلاد الثوبة والنصرة عليها :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » :
 « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » : « فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ » . وصلاة يتبعها
 تسليم ، وكأس يمزجها تسنيم . وذكر من الله سبحانه في الملأ الأعلى ورحمة الله وبركاته
 معلومة من النشأة الأولى على مولانا الإمام « المستضيء بالله » المستضاء بأنواره ،
 المستضاف بداره ، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، الراعى للخلق كما يرعى

النسيم النسيم، العام فضله، التام عدله، المطروق مورد فنيته، المصدوق في مورد ثنائه، المحقوق من كل ولي بولائه، ابن السادة العز، والقادة الزهر، والذادة الخمس، والشادة للحق على الأس، سقاة الكوثر وزمزم والسحاب، وولاة الموسم والموقف والكتاب، والموصول الأنساب [يوم] إذا نفخ في الصور فلا أنساب، والصايرون على حساب أنفسهم فهم الذين يؤتون أجرهم بغير حساب .

مملوك العتبات الشريفة وعندها، ومن أشتمل على خاطره ولأوها وودها، وكانت المشاهدة لأنواره العلية التي يودها، ومن يقرن بقرض الله سبحانه فرضها، ويسابق بطاعته إلى جنية وصفها الله تعالى بقوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ﴾ : يلثم وجه ثرابها، ويرى على بعد دارها الأنوار التي ترى بها، ويقف لديها وقوف الخاضع، ويضع أقال الآنام عن ظهره منها بأشرف المواضع للواضع، ويخبت إليها إخبات الطامخ الطائع، ويرجو فضلها رجاء الطامخ الطامع . ولولا أن الكتاب حجاب بينه وبين المهابة التي تحول بين المرء وقلبه، والجلالة التي هو في تعظيمها على نور من ربه، لكان خاطره في قبضة الملعع أسيرا، ولا تقلب إليه البصر خاسئا حسيرا، ولكن قائمه قد تشاجع، أن كان لسانه عن الإبانة قد راجع . فيقول :

إن الله قد رفع ملة الإسلام على الملل، وكفل نصرها وكفى ما كفل، وحمى ملكها وحمل، وجعل لها الأرض في أيدي المخالفين ودائع، ومكن يده من أعناقهم فهي إماء تعقد الأغلال أو تصوغ الصنائع، والحق بها قائم العمود، والسيف الكفاية لازم العمود، والبشائر تسمك الصباح وتخلق الدجى، والخليل على طول ما تشتمل الوحا تنتعل الوجى، والأيام زاهره، والآيات باهره، وعزة أوليائها قاهره، وذلة أعدائها ظاهره، وعنايات الله لديها متوالية متظاهره . إذا تغرب أسمها يوما عن

مِنْبِرٍ أُعِيدَ إِلَى وَطَنِه غَدًا ، وَإِذَا أُوقِدَتْ نَارُ فِتْنَةٍ فِي مَعْصِيَتِهَا أُوقِدَتْ فِي طَاعَتِهَا نَارُ هُدًى .

وقد كان النبلُ قَدَمَا قَرَّتْ عَنِ الْفُرَاتِ أَبْنَاؤُهُ ، وَتَحَصَّنَتْ غُلُلُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ فَلَمْ يَتَغَلَّغَلْ إِلَيْهَا مَأْوُهُ ، وَكَادَتْ السَّمَاءُ لِأُتْعِينَهُ بِمَطَرِهَا ، وَالْأَرْضُ لِأُتُوشِيَهُ بِزَهْرِهَا ، وَالْأَعْنَاقُ قَدْ تَقَاصَرْدُونُ الرَّاجِينَ بَدْوِ مَعْصِهَا ^(١) ، وَالْقُلُوبُ قَدْ لَادَتْ بِأَسْتَارِ الْجِدَارِ مَعْصِهَا ^(١) ، وَالْأَوْتَانُ مَنْصُوبُهُ ، وَالْآيَاتُ مَغْصُوبُهُ ، وَالتَّيْجَانُ بَغِيرُ أَكْفَائِهَا مِنَ الْهَامَاتِ مَعْصُوبُهُ ، وَالَّذِينَ أَدْيَانَا ، وَالْمَذَكَّرُونَ بِالْآيَاتِ يَخْرُونَ عَلَيْهَا صَمًّا وَعُمِيَانَا ، وَالْعَادِلُونَ بِاللَّهِ قَدْ وَطَّنُوا أَلْسِنَةً وَصَرَّحُوا عَقَائِدَ ، وَالْمُعْتَدُونَ قَدْ أَصْلَحُوا فِعَالًا وَضَلُّوا مَقَاصِدَ ، وَكَرَاسِيٌّ خِلَافَةَ اللَّهِ قَدْ أُلْقِيَ عَلَيْهَا أَجْسَادٌ كَانَتْ تَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ ، وَمَنَابِرُ كَلِمَاتِ اللَّهِ قَدْ كَادَ كَيْدُهُمْ يَأْتِي بُنْيَانَهَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، وَبَحَرَتْ عَلَى بَنُو النَّبُوَّةِ أَشَدُّ نَبْوِهِ ، وَقَصُرَتْ الْإَيْدِي فَلَاحِدٌ سَوَاطِيفُهَا وَوَاحِدٌ سَطْوُهُ ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبٌ ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وَغَرَّتِ الْأَيَّامُ وَمَا وَعَدَتْ ، وَأُورِدَتْ الْهِمَمُ وَمَا أَصْدَرَتْ ، وَطَغَى طُوفَانُ الطُّغْيَانِ وَلَا عَاصِمٌ ، وَسَمَا بَنَاءُ الْبُهْتَانِ وَلَا هَادِمٌ ، وَضَاقَتِ الصُّدُورُ ، وَرَحَلَتْ بَغْلِيلُهَا إِلَى الْقُبُورِ ، وَظَنَّ أَنَّ طَى دَوْلَتِهِمْ مَعْدُوقٌ بِالشُّوْرِ ، حَتَّى إِذَا جَلَّاهَا اللَّهُ لَوْفِهَا ، وَأُنْجَزَ جَمُوعَ الضَّلَالِ إِلَى مِيعَادِ شَتَائِهَا ، وَأَرَاهُمْ آيَةَ مَعْدَلَتِهِ ﴿ وَمَا زِيَرُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ ﴿ وَجَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَرِيمٌ ﴾ : ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

كَانَتْ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ يُمْنُهَا عَلَى الْمَمْلُوكِ أَنْ أُنْتَجَبَ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ أَرْضِهِ ، وَأُنْتَجَبَ لِإِقَامَةِ مَأَمَاتِ الْبَاطِلِ مِنْ قَرَضِهِ ، وَيَسَّرَ لِمَا يَسَّرُهُ مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ ، وَبَشَّرَهُ

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ بِهَذَا الرِّسْمِ وَلَمْ نَعْرِ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ فِي الرِّسَالَةِ .

بما بَشَّرَهُ من لواء النصر ومدَّ من ظِلِّهِ ، وألهمه الهِمَّةَ التي أَفْتَرَعَ منها بَكَرًا ، ومنحه النُّصْرَةَ فما يَسْتَطِيع العدوُّ صَرْفًا ولا نَصْرًا . مَكَّنَهُ من صِيَاصِيهِمْ فِجْلَهَا ، ومن دِمَائِهِمْ فِطْلَهَا ، ومن سِيُوفِهِمْ فِغْلَهَا ، ومن أَقْدَامِهِمْ فَاسْتَرْهَهَا ، ومن مَنَارِ دُعَاتِهِمْ فَعَجَّلَ تَدَاعِيَهَا ، ومن أَنْفُسِ أَعْدَائِهِمْ فَأَكْثَرَ تَتَاعِيَهَا ، وَأَبْرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَيَسَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ لَهُمُ الْعَفْوُ إِلَى مَنَافِعِهِمْ ، وَثَرَّ خَرَازِ الْمُلْكِ مِنْ تِيْجَانِيهَا ، وَفَضَحَ عَلَى يَدِهِ وَبِلْسَانِهِ مَا زَوَّرْتَهُ مِنْ أَنْسَابِهَا ، وَحَاسَبَهَا فَأَظْهَرَ زَيْفَ حِسَابِهَا ، وَقَتَّلَهَا مِنْ ظُهُورِ أَسْرَتِهَا إِلَى بُطُونِ تُرَابِهَا ، وَعَمَدَ إِلَى أَهْلِ دَعْوَتِهَا الَّذِينَ بَسَقُوا بِسُقُوقِ النُّخْلِ فَأَعْلَاهُمْ عَلَى جُدُوعِهَا ، وَحَمَلَتْ قُلُوبُهُمْ فُوفَ الْحَقْدِ فَأَخْرَجَهَا مِنْ أَكْجَامِ طُلُوعِهَا ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ مِنْ لَاحِيهِ ، أَوْ تَجِدُ إِلَيْهِمْ مِنْ صَاحِيهِ ، فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ أَوْ مَسَاكِينَهُمْ ، وَحُصِدُوا حَصْدَ الْحَشِيشِ ثُمَّ لَا تُخَافُ سِيُوفَهُمْ وَلَا سَكَائِيَهُمْ ، وَاسْتَزَلُّوا مِنْ عِقَابِ اللُّوحِ ، وَسُجِنُوا فِي الْهَمِّ مِنْ طَوْلِ مُدَاوِمَةِ عِقَابِ الرُّوحِ ، ثُمَّ تَدَارَكُوا إِلَى الدَّرَكِ ، وَاسْتَرْكُوا فِي الشَّرْكِ ، وَأَقْفَرَتْ مِنْهُمْ عِرَاصُ ، وَزَهَدَتْ فِيهِمْ خَوَاصُ ، وَعُلِمَ أَنَّ لَيْسَ لِلَّهِ غَالِبٌ ، وَأَنَّ لَيْسَ يُقُوتهُ طَالِبٌ ، وَأَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ الْوَيْلَ لِمَنْ تَجَاوَزَ أَمْرَهُ وَحْدَهُ .

وَكَانَ الْمَمْلُوكُ مِنْ عَطَلٍ مِنْ أَوْنَانِهِمْ ، وَأَبْطَلَ مِنْ أَدْيَانِهِمْ ، فَائِثًا بِخُسْنَةِ يَنْظُرٍ إِلَى حَسَنَاتِ خَلِيلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَيْدِهِ الْأَصْنَامَ وَتَكْسِيرِهَا ، وَتَضْلِيلِهِ عَابِدِيهَا وَتَكْفِيرِهَا . وَعَمَدَ الْمَمْلُوكُ إِلَى الْحَاضِرِ بِجَمْعِهَا ، وَإِلَى الْمُنَافِرِ بِفَرْقِهَا ، وَالْجَمْعَةِ فَأَطَاعَ مِنْ شَرْعِهَا ، وَأَسْمَاءَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَصَّلَهَا بِاسْمِهِ وَمَا قَطَعَهَا ، وَعَمُومَتِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَتْلَاهَا لَهُ وَأَتْبَعَهَا ، وَأَشَادَ بِاسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَتَكُونَ الصَّلَاةُ جَامِعَهُ ، وَالذِّكْرُ شَامِلَهُ وَالْإِمَامَةُ لِلْجَمَاعَةِ شَارِعَهُ ، وَالْهَدَايَةُ لِلضَّلَالَةِ صَارِعَهُ ، فَعَادَتْ لِلَّهِ أَعْيَادُ ، وَأَخْضَرَتْ لِلنَّبَرِ أَعْوَادُ ، وَأُنْجِزَ لِلْأَمَةِ مِيعَادُ .

وبعد ذلك تحاشدت أولياء الزاهبين وتنادت، وتساعت نحو مستقر الملوك وتعادت
 ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهْمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ
 فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْيَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ وكانوا حمية حامية
 من بنى حام كالجراد أرجلا، إلا أن الله أصلاها بنيرانه، وكلماء مدا إلا أن الله
 أغرقها بطوفانه، وكانمل لونا وطرقا إلا أن الله حطمها بسليمانه، مع من أنضم
 إليهم من ألاف وأطراف، وأوشاب وأوباش: من جندى كسبه سيفه ذلة، وطرده
 عن مواقف الكرام وبمحال الخزي أحله، ومن أرمنى كانوا يفرعون إلى نصره
 نصرانته، ويعتمدون منه على ابن معموديته، ومن عاتى أجابهم لفرط عماءه وتفريط
 عاميته، فملا العيون سوادهم الأعظم، ووراءهم بأس الله الذى لا يرد عن أجرم،
 فأمطرتهم السيوف مطرا كانوا غناء لسيوله الجوارف، وعصفت بهم الأعنة عصفا
 كانوا هباء لوجه العواصف، ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ وعوتبت الأنفس
 والأرؤس ﴿فَقَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وظلت قحاف بنى حام تحت غربان القلا غربانا،
 وشوهدت ظلمات بعضها فوق بعض أفعالا وألوانا، وصفت موارد السلطان
 من القذى، وطفئ ذلك الفحم فلا يجد النفاق بعده ما تتعلق به الحدى، وبلغت
 الغايات فى كشف كل أذى، لا بضرب بموعده يقال فيه إذا.

وكتب الملوك، واسم أمير المؤمنين قد كتب سطره على جبين التقدين، وسمع
 لفظه من قم المنبرين بالبلدين، ومد كل منبريدا بل يدين، فحين سمع الناس قالوا
 حقا ما قاله ذو اليدنين، وصارت تلك الأسماء دبر الآذان ووراء الظهور، وحصلت
 المحبة العباسية سرا من أسرار القلوب إذا حصل ما فى الصدور، والخلائق مباحة
 متابعة وافية بعهد متوافية، داخلون فى الحق أفواجا، سالكون منه شرعة
 ومنهاجا.

والحمد لله الذى جعل أمير المؤمنين إماما خلّقه ، ووارثا لأرضه ولم يذّر فوق الأرض
منازعاً لحقه ، ولا مناهبا لأرضه ، وأرتجع له الحق الذى كان نادا ، وردّ عليه الأمر
الذى لم يكن له غير الله رادا ، وبلغ كلّ مؤمن من إعلاء كلمة الإيمان به ما كان له
وأذا ، وأخذ بيد انتقامه من كان عن سبيله صادّا ، والإسلام قد استنار كنشأته ،
والزمان قد استدار كهيمته ، والحق قد قرّى نصابه ، والأمر قد قرّ عن صوابه .
فقد وفى الله القرار له بضمانه ، وأخذ بيده ما روى عن أبى عمه صلى الله عليه وسلم
وأصفى من لسانه .

فالحمد لله الذى صدّقه وعده ، وأورثه الأرض وحده ، وجدّد علاه وأعلى جدّه ،
وأسعد نجه وأنجم سعده ، ووعده تبحره وأنجح وعده ، وأورده وصفه وأصفى ورده .
المملوك ينتظر الأمثلة ليتمثّلها ، والأمانة ليتحمّلها ، والتقليدات المطاعة ليتلوّها ،
والتشریفات الشريفة ليحلّوها ، والسواد ليحلب الحلاّك عن ضمائر المبطلين ، والسيف
الحالى لحكمه فى رقاب المعطلين ، وللآراء الشريفة فصل برهانها ، وفصل سلطانها ،
وأمرها الذى لا يخرج حين يخرج عن عزّ الملة وتوطيد بُنيانها ، وعزمها الذى يرفع
حين يرفع ظلمة أدرانها . إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الرابع

(أن يتبدأ الكتاب بالصلاة)

كما كتب القاضى الفاضل ، عن الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب"
إلى الخليفة ببغداد ، فى البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة أيضا ، وانهزام ملكها
بمسارحه .

صلواتُ الله التي أعدّها لأوليائه وذخرها ، وتحياته التي قدّف لبشهرها شياطين أعدائه ودحّرها ، وبركاته التي دَعَا بها كلّ موحد فأجاب ، وأنقّش بها عمام الغم وظلام الظلم فانجّاب عن أنجّاب ، وزكاته التي هي لأؤمنين سكّن ، وسلامه الذي لا يعتري الموقنين في ترديده حصّروا لكن - على مولانا عاقد ألوية الإيمان ، وصاحب أدور الزمان ، وساحب ذيل الإحسان ، وغالب حرب الشيطان ، الذي زلّلت إمامته قدم الباطل ، وحلّت خلافته ترائب الدهر العاقل ، واقتضت سيوفه ديون الدين من كل غريم باطل ، وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول وأطلعت غارب نجم كلّ هدى آفل ، وشفعت يقظات استغفاره إلى غافر ذنب كلّ غافل ؛ وعلى آبائه الغاية والمفرع ، والملاذ في وقت الفرع ، والتأمين بحقوق الله إذ قعد الناس ، والحاكين بعدل الله إذ عدم القسطاس ، والمستصيين بأنوار الإلهام الموروثية من الوحي إذا عجز الاقتباس ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ؛ نحران الحكم ، وحفاظها ، ومعاني النعم ، وألفاظها ، وأعلام العلوم المنشورة إلى يوم القيامة ، وكالتي السروح المنتشرة من كلا سيد الإمامة ؛ ومن لا ينفذ سهم عمل إلا إذا شُحِدَ بمواليتهم ، ولا يتألق صبح هداية إلا إذا استصبح السارى بدلالاتهم .

المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ، ومرابع المجد ومعاقله ؛ ومجالس الجود ، ومحال السجود ؛ ومختلف أنباء الرحمة المنزل ، ومرسى أطواد البسيطة المترزله ؛ ومفتر مباسم الإمامة ، ومجرّ مساحب الكرامه ؛ ومكان جُوح أجنحة الملائك ، ومشتجر مناسك المناسك ، حيث يدخلون من كل باب مسلمين ، ويتبعهم ملوك الأرض مستسلمين ؛ ومشاهد الإسلام كيوم أنزل فيه اليوم أكلت لكم دينكم - ويعقد على الولاية فأما غيره فله قوله : قاتلوا الذين يؤنكم ؛ ويتاجها

بلسان جلى الإخلاص الصادق عقيدته، وأنشط الولاء السابق عقيلته، وأرهف الإيمان الناصع مضاربه، وفسح المعتد الناصح مذهبه، فأعرب عن خاطر لم يحظر فيه لغير الولاء خطره، وقلب أعانه على ورود الولاء [أن] صفاء المصافاة فيه فطره - ويخبر أنه ما وهن عما أوجبته الآؤه ولا وهى، ولا أنتهى عزمه عن أن يقف حيث أظلت سدرة المنتهى، ووضحت الآيات لأولى النهى . والله سبحانه يزيل عنه في شرف المثل عوائق القدر وموانعه، ويكشف له عن قناع الأنوار التي ليست همته بما دون نظرها قانعه - وكان توجهه منصورا بجيش دعائه، قبل جيش لوائه، وبعسكر إقباله، قبل عسكر قتاله، وبنصال سلطانه، قبل نصال أجفانه، لاجرم أن كئيب الرعب سارت أمام الكتاب، وقواضب الحذر غمضت في جفونها عيون القواضب - وسار أولياء أمير المؤمنين الذين تجمعوا من كل أمه، وتداعوا بلسان النعمة، وتصرفوا بيد الخدمة، وصالوا بسيف العزمه، متواخية نياتهم في الإقدام، متالفة طوياتهم في طاعة الإمام، كالبنيان المرصوص انتظاما، وكالغاب المشجر أعلاما، وكالنهار المانع حديدا وهاجا، وكالليل الشامل عججا عججا، كالنهر المتدافع أصحبا، وكالمشط المطرد أصطحابا، والأرض تزل برجلهم لما ترفعه الحوافر من غيومها، والسماء تزول نزولهم لما تضعه الدوايل من نجومها، فما أنتشرت رياضها المزهره، وغياضها المشجره، إلا دلت على أن السحاب الذى سقاهم كريم، والإنعام الذى غمرهم عظيم، والدنيا التي وسعته من عزمتهم تظعن وتقيم .

ولما علم العدو أن الخطب المظنون قد صرح خطابه، والأمل المخدوع قد صفر وطابه، راسل ورأى سل السيوف يغمده، وما كرم ما كرم لعلمه أن الخنف يغمده، وأن دفع هاربا هائبا، وخضع كائبا كاذبا، فمضى المملوك قدما، وحمله ظلمه وقد خاب من حمل ظلما، وأجابه بأنه إن وطئ اليساط برجله وإلا وطئه برأسه، وإن قدم

على المملوك بأمله وإلا أقدمه بيأسه، وإن لم يُظهر أثر التوبة وإلا أقام عليه الحدَّ
بسكرة الموت من كأسه؛ فلم يخرج من مراوغة تحتها مغاوره، ومكاسرة وراءها
مكاشره؛ فاستخار الله في طلبه، وأتتهز فيه فرصة شغل قلبه برييه، ولم يغتره ما أملى له
في البلاد من تقلبه؛ وسار ولم يزل مقتحما، وتقدم أوّل العسكر محتدما؛ وإذا الدار
قد ترحل أهلها منها فبانوا، وطمعوا عن ساحتها فكأنهم ما كانوا؛ ولم يبق إلا موافد
نيران رحلت قلوبهم بضرامها، وأثافي دهم أعجلت المهابة مارد سبهم عن طعامها؛
وغربان بين كائنها في الديار ما قُطع من رءوس بني حامها، وعوافي طير كانت تنتظر
من أشلائهم فطر صيامها؛ وعادت الرسل المنقذة لأقتفاء آثارهم وأداء أخبارهم؛
ذاكرة أنهم ليسوا الليل حدادا على النعمة التي خلعت، وغسلوا بماء الصبح أطاع
نفس كانت قد تطلعت؛ وأنهم طلّعوا الأوعار أوعالا والعقاب عقبانا، وكانوا لمهابط
الأودية سيولا ولأعالي الشجر قضبانا - فرأى المملوك أن الكتاب فيهم قد بلغ أجله،
والعزم منهم قد نال أمله، والفتك بهم قد أعمل منصله؛ وأن سيوف عساكر أمير
المؤمنين مزهية أن تريق إلا دماء أكفائها من الأبطال، وأن تلقى إلا وجوه أنظارها
من الرجال؛ وأن المذكورين تملّ حطمه سليمان عليه السلام وجنوده، ورمل أطاره
العاصف الذي يسحقه ويقوده - وأصدر هذه الخدمة والبلاد من معرفتهم عاريه،
والكمة بانخفاضهم غالية عليه؛ ويد الله على أعدائه عادية، وأنفس المخاذيل في وثاق
مهابته العالية عانية - فرأى المملوك أن يرتب بعده الأمير فلانا ليندل الأمانات، لسوقه
أهل البلاد ومزارعيها، ويفصل المحاكمات، بين متابعي السلطنة ومطاويعها، ويفسح
جبال الإحسان لمعاودي المواطنين ومراجعيها؛ فيعمر من البلاد ما قد شغرت، ويشعر
بالأمن من لا شعر؛ فإن مقام المملوك ومن معه من عساكر تمنع الشمس من مطلعها،

(١) هو بالفاء من قولهم صحفت الريح السحاب إذا ذهب به والفاف في الأصول تصحيف .

وتردّ جرية البحر عن موقعها ، مما يضرّ بالفلال ويُسِفها ، ويُحِف بالرعايا ويُسِفها .

فالحمد لله الذى جعل النصرَ لائذاً بأعطافِ أعتارمه ، وأناملَ الرغب السائر إلى الأعداء محرّكةً عذباتِ أعلامه ؛ والعساكرِ المناضلةَ بسلاحِ ولائه ، تُغنى بأسمائها عن مُرهقاتها ، والكثائبِ المقاتلةَ بشعارِ علّائه ، تقرأ كُتُبَ النصر من مُحامتها .

الأسلوب الخامس

(أن يتبدأ الكتاب بالسلام)

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان "صلاح الدين" أيضاً ، يعتذرله عن تأخر الكتب ، ويذكر له خبرَ صاحب قُسْطَنْطِينِيَّةَ وصاحب صِقْلِيَّةَ من ملوك النصرانية من الروم والفرنج :

سلامُ الله الأطيب ، وبركاته التى يستدرّها الحُضْر والغُيْب ؛ وزكواته التى ترفع أوليائه إلى الدَّرَج ، ونعمه التى لم تجعلْ على أهل طاعته فى الدين من حَرَج - على مولانا سيّد الخلق ، وسادّ الخرق ، ومسدّد أهل الحق ؛ ولايسّ الشّعار الأطهر سَوَاداً ، ومستحقّ الطاعة التى أسعد الله من خصّه بها بدءاً ومعاداً ، ومولى الأُمّة الذى تشابه يوم نذاه وبأسه إن ركّض جُوداً أو جواداً ؛ وواحدِ الدهر الذى لا يُتَنى ، وإليه القلوب تُتَنى ؛ ولا يقبلُ الله جمعاً لا يكون لولائه جمعٌ سلامةٍ لا جمعٌ تكسير ، ولا استقبَالَ قبلةٍ ممن لا تكون محبّته فى قلبه تُقيمُ وأسمه فى عمله إلى الله يسير ؛ مولانا أمير المؤمنين ؛ وعلى آبائه المالىّ الأرض عدلاً ، الملاء أهلاً وفضلاً ، والضاريين فيضلاً والقائلين قَصْلاً ، ومن تقول الجنة لأهلها بهم أهلاً ؛ المخصوصين بالعناية الإلهية ،

الحاكين فكلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورةٌ وعن معصيتهم منيةٌ ، والمشرِّ في الأسارى على أسرة الشرف فكم ملأتِ البهو مناظرهم البهية .

المملوك — يخدم الحرم الشريف باحترامه ، والفناء الكريم بإعظامه ، والبساط المقبل بطول استلامه ، والستر الذي أسبله الله على العباد بتحيته وسلامه ؛ ويُنهى أنه آخر الخدم عن أن ينتظم الأوقات المتجددة ، ويقتضب الحالات المتجرِّدة ؛ والرُّسل عن أن تتوارد دراكا ، وتتوالى وشاكا ؛ والإنهاءات عن أن تثبت بالمقامات الشريفة النبوية ، ومجالس العرض عليه ؛ ما انتهت إليه الأقدار ، وما أفضى إليه من كثير المناج وقليل الأعذار ؛ فإن أدب الأمل عن المطالعة كالصوم لا يَفُضْ ختامه ، ولا يحلُّ نظامه ؛ إلا بعيد يطع هلاله مبشرا ، ويبتُّ خبره في الآفاق معطرا ؛ فلو أن متكلِّفا أظفر قبل مواعده ، وورد الماء قبل مَوْرده ؛ لكان مُفسدا لعقده ، ناكثا لعهد .

كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبارُ بجانبه مشتبه ، والحقائقُ لديه غير متوجهة ؛ فإن طاغيتي الكفر بقسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب نارا ، ورفعا لها أوزارا ؛ واتخذتا لها أسطولا جاريا وعسكرا جارا ، وتباريا ولم يزد الله الظالمين إلا تبارا ؛ وكتبا إلى الفرنج بعد أنهما بهم بالنجدة والنصرة ، وتضمنتا لهم الخروج والكه ، ويصفان ما استعدا به بما لا يعبر عنه إلا بالكثرة ؛ واستطارت الشناعة وتداولتها الألسن ، وخرجت من الأفواه حتى لقد كادت تدخل فيما رآته الأعين ؛ وورد إلى المملوك رسول من طاغية القسطنطينية وهو أقدم ملوك النصرانية قدما ، وأكثرهم ملامتا ؛ فعرض عليه مواعدة يكون بها عسكره مودعا ، ويكون له بها مفرعا ، له ولصاحب صقلية الذي زعم أنه أصلٌ للشريكون الشرمنه مفرعا ؛ فلم ين ولم يجب إلى السلم ، ولم يزعه أن عسكره خذله الله مبار في البر وفي اليم ؛ إن شاء الله تعالى .

الأسلوب السادس

(أن تُفتتح المكاتبة بخطبة مفتحة بالحمد لله)

وذلك يختص بالفتوح وغيره مما حدث فيه نعمة ، وربما بدئت بآية من كتاب الله ، كما كتب العباد الأصقّهائي عن السلطان " صلاح الدين يوسف بن أيوب " إلى الناصر لدين الله ببغداد بفتح القدس :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ .
الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ؛ وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما أشتمل على شبهها كرام الصّحائف ، ولم يُجادل عن مثلها في المواقف ؛ في الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غررا وأوضاحا ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا ؛ ومكن سيوفها في كل مازق ، من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدي أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقدف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادي المغارب ومرامي المشارق ؛ ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفتح ، وأطراف أستنها لدماء الأعداء نوازع .

والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيده ، وأظفر جنده الغالب وأنجده ، وجلا به جلايب الظلماء وجدّد جده ؛ وجعل بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ : فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصّحابة ، والأخرى هذه التي عتق فيها من رقّ الكآبه ؛ فهو قد أصبح حرا فالزمان كهينته أستدار ، والحق بمهجته قد آسنار ؛ والكفر قد ردما كان عنده من

المُسْتَعَار ، وَغُسِلَ ثَوْبُ اللَّيْلِ بِمَاجِرِ الْفَجْرِ مِنْ أَنْهَارِ النَّهَارِ ؛ وَأَتَى اللَّهُ بَنِيَّانَ الْكُفْرِ
 مِنَ الْقَوَاعِدِ ، وَشَفَى غَلِيلَ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ بِرُقْرَاقِ مَاءِ الْمَوْرِدَاتِ الْبَوَارِدِ . أَنْزَلَ
 مَلَائِكَةً لَمْ تَظْهَرْ لِلْعُيُونِ اللَّاحِظَةِ ، وَلَمْ تَخَفْ عَنِ الْقُلُوبِ الْحَافِظَةِ ؛ عَزَّتْ سِيَمَا
 الْإِسْلَامِ بِمَسْوَمِهَا ، وَتَرَادَفَ نَصْرُهُ بِمُرْدَفِهَا ، وَأَخَذَتِ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَتَرَى مُتَرَفِهَا
 كَأَنَّ لَمْ تُؤَوِّفِهَا ؛ فَكَمْ أَقْدَمَ بِهَا حَيُّوْمٌ ، وَرَكَضَ فَاتَّبَعَهُ سَحَابٌ عَجَاجٌ مَرْكُومٌ ، وَضَرَبَ
 إِذَا ضَرَبَهُ كِتَابُ حِرَاجِ مَرْقُومٍ ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الْحُرُوبَ إِنَّمَا عُقِدَتْ سِجَالًا ، وَإِنَّمَا جُمِعَتْ
 رِجَالًا ، وَإِنَّمَا دَعَتْ خِيفًا وَثِقَالًا ؛ فِيمَا سَيُوفُ تَقَاتِلِ سَيُوفًا ، أَوْزُحُوفُ تَقَاتِلِ
 زُحُوفًا ؛ فَيَكُونُ حَدُّ الْحَدِيدِ بِيَدٍ مُدْكَرًا وَبِيَدٍ مُؤَنَّثًا ، وَيَكُونُ السَّيْفُ فِي الْيَدِ الْمَوْحِدَةِ
 يُغْنِي بِالضَّرْبَةِ الْمَوْحِدَةِ وَفِي الْيَدِ الْمَثَلَّةِ لَا يُغْنِي بِالضَّرْبِ مَثَلًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي فِتْنَتَيْنِ
 التَّقَاتَا ، وَعُدُوتَيْنِ لِنَفِيرِ مَوَدَّةٍ أَعْتَقَتَا . وَإِنْ هَذِهِ النَّصْرَةُ إِنْ زُوِيَتْ عَنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ
 مُجِدَّتْ كِرَامَتُهُمْ ، وَإِنْ زُوِيَتْ عَنِ الْبَشَرِ فَقَدْ عُرِفَتْ قَبْلُهَا مَقَامَتُهُمْ ؛ فَمَا كَانَ
 سَيْفٌ يَتَّقِظُ مِنْ جَفْنِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْبَهَ الصَّرِيخُ ، وَلَا كَانَ ضَرْبٌ يُطِيرُ الْهَامَ قَبْلَ ضَرْبِ
 يَرَاهُ النَّاطِرُ وَيَسْمَعُهُ الْمُصِيخُ ، فَكَمْ قَرْيَةٍ كَانَتْهَا هِجْرَةُ الْمَوْتِ وَبِهَا التَّارِيخُ ، وَكَمْ طَعْنَةٍ
 تَخْتَرُهَا هَضَابُ الْحَدِيدِ وَلَهَا شِمَارِيخُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَادَ الْإِسْلَامَ جَدِيدًا ثَوْبُهُ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ جَدِيدًا حَبْلُهُ ، مُبَيِّضًا
 نَصْرُهُ ، مُحَضَّرًا نَصْلُهُ ، مَتَسِّعًا فَضْلُهُ ، مُجْتَمِعًا شَمْلُهُ . وَالْخَادِمُ يَشْرُحُ مِنْ نَبَأِ هَذَا الْفَتْحِ
 الْعَظِيمِ ، وَالنَّصْرِ الْكَرِيمِ ؛ مَا يَشْرَحُ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَمْنَحُ الْحُبُورَ لِكَاغَةِ الْمَسْلَمِينَ ؛
 وَيُكَرِّرُ الْبُشْرَى بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ - مِنْ يَوْمِ الْخَمِيسِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ

(١) أى مقطوعا قال الشاعر -

أبى حبي لسلى أن يبيدا * وأمسى حبلا خلقا جديدا

فأبى الأصل والضوء من الحاء المهمله افعال من الناصح .

إلى يوم الخميس منسَلَخه - وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسُومًا سَخَرها الله على الكُفَّار ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾ ورأيَها إلى الإسلام ضاحكةً كما كانت من الكُفْرِ بآكيه ؛ فيومَ الخميس الأول فُتِحَتْ طَبْرِيَّةٌ وفاض رِىُّ النصر من بُحَيْرَتِها ، وقُضِيَ على جَسَرها الفَرَجُ فَقُضِيَ نَجَبُها بِحَيْرَتِها ؛ وفي يوم الجمعة والسبت كُسِرَ الفَرَجُ الكسرة التي مالهم بعدها قائمه ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القُرَى وهى ظالمه . وفي يوم الخميس منسَلَخَ الشهر فُتِحَتْ عَكَّا بالأمان ، وُرِفِعَتْ بها أعلام الإيمان ؛ وهى أم البلاد ، وأختُ إرم ذاتِ الجِمار ؛ وقد أصبحت كأن لم تَغْنُ بالكفر وكأن لم تفتقر من الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليبُ الصَّلْبُوتِ مأسور ، وقلبُ ملكِ الكُفْرِ الأسير جيشُهُ المَكسورُ مَكسور ؛ والحديدُ الكافرُ الذى كان فى الكفر يَضْرِبُ وجهَ الإسلام ، قد صار حديدًا مُسَلِمًا يُفَرِّقُ خُطُواتِ الكُفْرِ عن الأقدام ؛ وأنصارُ الصليبِ وبِكاره ، وكلُّ من المعمودية عُمدته والدير داره ؛ قد أحاطت به يدُ القبضه ، وأخذَ رَهْنا فلا تُقْبَلُ فيه القناطير المَقْنَطَرَةُ من الذهب والفضه ؛ وطَبْرِيَّةٌ قد رُفِعَتْ أعلامُ الإسلام عليها ، ونَكَصَتْ من عَكَّا مِلَّةُ الكفر على عَقِبِها ، وعَمَرَتْ إلى أن شَهِدَتْ يومَ الإسلام وهو خير يومٍها ؛ بل ليس من أيام الكُفْرِ يوم فيه خير ، وقد غُسلَ عن بلاد الإسلام بدماء الشُّرك ما كان يَتَخَلَّلُها فلا ضَرَرَ ولا ضَيْرَ ؛ وقد صارت البيعُ مساجدهم بها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المناخرُ مَوَاقِفَ لُحُطباء المنابر ، وأهتَزَّتْ أرضُها لوقوف المسلمين فيها وطالما اِرْتَجَّتْ لمواقف الكافر ؛ والبأسُ الإماميُّ الناصريُّ قد أَمْضَى مِشْكَاتَهُ على يدِ الخادم حتى بالدِّيِّ فى الكائس ، وإن عَزَّ أول الإسلام بِحِطِّ تاجِ فارِس ، فكم حَطَّتْ سيوفُهُ فى هذا اليوم من تاجِ فارس .

فأما القتلى والأسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فرسان الديوية والاستبارية فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ، ووصل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم ، وقتل بفرنس كافر الكفار ، ومشيد النار ، من يده في الإسلام كما كانت يد الكليم ، وأفترت النصرة عن ثغر عكا بحمد الله الذي يسر فتحها ، وتسلمتها الملة الإسلامية بالأمان وعرفت في هذه الصفة ربها .
وأما طبرية فافترتها يد الحرب فانهت الحرب جرحها .

فالحمد لله حمدا لا تضرب عليه الحدود ، ولا تُزكى بأزكى منه العقود ، وكأنه بالبيت المقدس وقد دنا الأقصى من أقصاه ، وبلغ الله فيه الأمل الذي علم أن يحصيه وأحاط بأجله وأقصاه ، لكل أجل كتاب ، وأجل العدو هذه الكتاب الجامعة ، ولكل عمل نواب ، ونواب من هدى لطاعته جنات نعيمه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب ، والمسئول في إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهب .

وقد توجه من جانبه الأمير رشيد الدين دام تأييده في إهداء هذه البشارة نبأه عن الخادم ، ووصف ما يسه الله لأوليائه من العزائم . والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : « طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، القزله ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة . والولد المظفر تقي الدين بصور وحصن تينين . والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد أوفت (؟) بالوصول من عنده من عنده من العساكر فينزل في طريقه على غزّة وعسقلان ، ويجهز مراكب الأسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير بها إلى ثغر عكا المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها ، والنهوض إلى القدس فهذا أو أن فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الإحسان ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الخاصة، إلى خلفاء بني العباس)

قال أبو جعفر النحاس : وقد يكتب الإمام بغير تصدير إذا لم يكن ذلك في شيء من الأمور التي سبيلها أن تنشأ الكتب بها من الدواوين . كما كتب القاسم بن عبد الله إلى المكتفي مهتئلاً له بالخلافة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وأسأل الله أن يعظم بركة هذا الأمر على أمير المؤمنين وعلى الأمة كافة .

قال : والمستعمل في هذا الوقت في مكتبة الوزير الإمام :

أطال الله بقاء أمير المؤمنين ! وأعزه وأيده ، وأتم نعمته عليه ، وأدام كرامته له .

ثم قال : وربما استحدثت مكتبة المرءوس إلى الرئيس على غير ترتيب الكتاب .

كما كتب إبراهيم بن أبي يحيى إلى بعض الخلفاء يعزيه :

أما بعد فإن أحق من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه ، من عظم حق الله عليه فيما أبواه له ، وأعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون فيه .

الطرف الخامس

(في المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

قد ذكر في "مواد البيان" أن المستعمل في دولتهم أن يقال بعد البسملة : أفضل

صلوات الله وبركاته ، وأشرف رضوانه وتحياته ؛ على مولانا وسيدنا الإمام الفلاني

أمير المؤمنين ، وعلى آبابه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين - إن كان له أبناء - فإن لم

يكن له أبناء قيل مكان الأكرمين : المتظرين . ثم يقال بعد فضاء واسع : كتب عبد الموقف النبوي خلد الله ملكه ، من مقر خدمته بناحية كذا ، وأمر ما عُدق به ورد إلى نظره منتظمة بسعادة مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وعلى جده - والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما . ثم يقال : العبد ينهى كذا وكذا ينص الأغراض التي بُني الكتاب على إنهاؤها وشرح حالها . قال : فإن كان الكتاب مبنياً على المطالعة ببعض الأخبار ، قيل في آخره بعد فضاء يسير : ” أنهى العبد ذلك ليستقر علمه بالموقف الأشرف “ إن شاء الله تعالى . وإن كان مبنياً على الاستمرار في بعض الأحوال ، قيل في هذا الموضع : ” ولولانا أمير المؤمنين صلى الله عليه الرؤى العالى في ذلك “ إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط في جواب عن كتاب ورد من الخليفة بالسؤال عن المكتوب عنه في مرضه ، وهو :

صلوات الله الزاكية ، وتحياته الذكية الداكية ، وسلامه الذى يتنزل على الروح بالروح ، ويؤذن من رضا الله بأشرف موهوب وأكرم ممنوح ، وبركائه التى فيها للمؤمنين سكن ، وبشفاعتها تُتقبل أعمال المؤمن بقبول حسن - على إمام الحق المنظور المغنى عن المتظر ، وحجة الله التى أرسلها نذيراً للبشر ، وخليفة الله الذى نزلت بمده مرثلات السور ، قبل مرتبات السير ، وبعثه الله بالثور الذى لا يمكّن الكافر من إطفائه ، وبرهان الله الذى لا يطمع الجاحد فى إخفائه ، ونائب النبوة ووارثها ، ونحيى القلوب وباعثها ، ومفيض أسرار الأنوار وناقضها ، سيدنا ومولانا الإمام الفلانى : ولا زالت الأقدار له جُنوداً وجُدوداً ، والجديدان يسوقان إليه من أيامهما ولياهما إماءً وعبيداً ، وعلى آباءه الذين سبقَتْ لهم من ربهم الحُسنى ، ورغبوا عن عرض هذا الأدنى ، ولا تتم ولا تتم على الخيان ، ولا يتم للثقلين أن ينفدوا ما لم يكونوا منهم

بُسْطَان - وعلى أبنائه وجوه الهدى البارزة من الأكنة ، وأيدي الندى والأعنة والأسنه .

كتب عبد الموقف النبوى خلد الله ملكه من مقر خدمته بالمكان الفلانى ، وأمور ماعدق به ورد إلى نظره على أتم حال وأكله ، وأحسن نظام وأجمله ؛ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى جدّه وآبائه الطاهرين . العبد ينهى أنه لو أخذ في شكر المنن التى تُرقّيه فى كل يوم لهضاب بعيدة المرتقى ، وتورده بجمات قريبة المستقى ، وتوجب على لسانه أن يبذل جهد من أسترسل وعلى قلبه أن يبذل جهد من آتق ؛ لقصر به الوصف ، وأعياء من ورق الجنة الخصف ؛ وكيف يُجارى من يده ديمة الله بقلبه ، أو كيف يترج بحر الجود الذى يمدّه سبعة أبحر نعمه ، ولما ورد عليه التشرىف بالسؤال الذى أحياء بنسيم روحه ، ونفخ فيه من روحه ؛ فوقع له ساجدا ، وثاب إلى السجود عائدا ؛ وبذل مع ضراعه الالبتهال جاهدا ، وأخلص فرض الولاء معتقدا ورفع لواء الحمد عاقدا ؛ وكشف عنه الضر ، وأطاعت على وجهه النعم الغز ، وتكافأت الأنداد فى محل عيشه فلى الحلو ومرّ المر ؛ وآتهى من الدعوات إلى ما آتهى به المرّ ، وتقلل منه الجوهر الذى عُزل به العرض ، وصاغ بمهجته السهام التى نقد بها الغرض ؛ وكاد يشاهده مرتفعا به الضنى والألم ، وفعلت أنواره فى ظلمته مالا تفعل الأنوار فى الظلم ، ولم يردّ قبله حلو الأكل والآخِر ، مأمون الموارِد والمصادر ، مضمون الشفاء فى الباطن والظاهر ، عادت القلوب على الأجسام بفضله ، وسطت العافية على الأسقام بفضله بل بفضله ؛ والله سبحانه يملكه أعناق البلاد ، كما أجرى على يديه أرزاق العباد ، إن شاء الله تعالى . وكتب فى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا .

الطرف السادس

(في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معانهم

إلى خلفاء بني أمية بالأندلس)

وكانت المكتبة إليهم بالافتتاح بالدعاء بطول البقاء، مع الإطباب في الإطراء في شأن الخليفة ومدحه والثناء عليه والدعاء له ، والخطاب فيه للخليفة بأمر المؤمنين منعوتاً بمولاي وسيدى ونحو ذلك ؛ والتعبير عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة من ناء المتكلم ونحوها . كما كتب أبو المطرف بن المنثى من إنشائه عن المنصور إلى هشام ابن الحكم يخبره بجران الصلح بينه وبين الموفق ، بعد ما كان بينهما من عداوة :

أطال الله بقاء أمير المؤمنين ! مولاي وسيدى وسيد العالمين ، وأبن الأئمة الراشدين ؛ عزيزاً سلطاناً ، مُنيراً زمانه ؛ ساميةً أعلامه ، ماضيةً أحكامه ؛ ظاهراً على من ناواه ، قاهراً لمن عاداه ؛ كما يحبُّ - أيد الله أمير المؤمنين مولاي وسيدى على أحسن ما يكون عليه .

العبدُ المخلص ، والمولى المتخصّص ؛ الذى حسن مُضمره ، وأستوى سِرُّه وجَهْرُه ؛ ولاح استبصاره وجَدُّه ، وتناهى سعيه وجُهدُه ؛ فى مضمار الجرى إلى الطاعة ، وبذل إذعانه وأتقياده ، وأستعبد إمكانه وإجهاده ؛ فيما يقى بتكفين الإمامة المهديّة ، والخلافة المرضيّة ، ويشدُّ مبانى المملكة المصدّقة لتبشير اليمن والبركة ؛ والله سبحانه ولىّ العون والتأييد ، والملىّ بالتوفيق والتسديد ، لاربِّ غيره .

وبعد - أبقى الله أمير المؤمنين - فإن كتابى إليه سلف مُعرباً عن التزغة التى كانت بينى وبين الموفق مملوكة ، وقدما نزع الشيطان بين المرء وصديقه ، والأخ وشقيقه ؛ وضرب ساعيا بالتشتيت والتشغيب ، والتباعد والتقريب ؛ بين الأب الحانى الشفيق ،

والأبن البر الرفيق ؛ ثم يعود ذوو البصائر والنهي ، وأولو الأحلام والحجاء ؛ إلى ما هو
للشحناء أذهب ، وبالتجامل أولى وأوجب . وكتابي هذا وقد نسخ الله بيننا آية
الافتراق ، بالاتصال والاتفاق ؛ ومحاسنة التباين والخلاف ، وبدو التألف والإنصاف ؛
وعادت النفوس إلى صفائها ، وأنطوت على وفائها ؛ وخبث نار الفتنة ، وأمتد رواق
الهدنة ؛ وثبتت الأسباب الراسخة ، والأواصر العاطفة بأزمة قلوبنا إلى معاهد الخلة
القديمة ، ومواطن العشرة الكريمة ؛ والمعروف من الأمتزاج في كل الأحوال والتشابك
وجلاء الشك باليقين ، وقرت بالانتظام العيون ، وصرنا في القيام بدعوة أمير المؤمنين
مولانا وسيدنا رضيي لبنان ، وشريكى عنان ؛ وألفى تناصر ، وحليفى تطافر ؛ فنحن
عن قوس واحدة فى نصرتها نرمي ، ومن ورائها ندود جاheids ونحى ؛ قد فتنا الحياء
فى السبق إلى الطاعة ، وأحرزنا قصب السبق فى المظاهرة والمشايعة ؛ فما نفتأ نسعى
فى تمهيدها ونذهب ، ولا ننفك نكدح لها وننصب ؛ والله الكفيل بانجادنا بعزته
وقدرته ، وحوله وقوته ؛ لا إله إلا هو .

وإن الذى عقده الله تعالى لنا ، وحسمه من دواعى القطيعة عنا ؛ ما أطرد وتأثى ،
وسنح ونهيا إلا بسعد طائر أمير المؤمنين سيدنا ومولانا أعزه الله ، ويمن نقيته ،
فمن تمسك بعروته وعاد بعصمته ، فقد فاز قدحه ، وتبلى فى ظلم الأمور صبحه ؛
وأستدل بأوضح الدليل ، وعرض بالرأى الأصيل ؛ وأستنار بأضواء سراج ، وسلك
على أقصد منهاج ؛ ولم يزل الرشاد آراءه ، وصاحب السداد أنحاءه . والله تقدس اسمه
لا يزال يعترفنا من سعادة الدعوة الزكية ما يصلح به أحوالنا ، ويفسح به آمالنا ، بمنه .

ولما أتاح الله من السلم ما أتاحه ، وأزاح من المكروه ما أراحه ؛ لم أجد فى فسحة
ولا غنى ولا سعة ؛ من إطلاع أمير المؤمنين مولاي وسيدى من ذلك على الجليله ؛

وإعلامه بالصورة؛ فأنهضت إلى حضرته العالية ذا الوزارتين عبد الرحمن بن مطروح
رسولى وعبدى وخاصتى مملوكه لينهى إليه الحال على حقيقتها، ويوفىها بكائتها؛
وأقرن به رسول الموفق، متحملاً مثل ما تحمله رسولى، ومتقلداً كالذى تقلده؛
ولأمير المؤمنين مولاى وسيدى الفضل العميم فى الإصغاء إليهما، والوعى عنهما،
والسماح منهما جميع ما يوردانه ويوصحانه، ويستوفيانه ويشرحانه، والتطول
بالمراجعة فيه، بما يستوجب ويقتضيه، واصلاً لعز مننه وأيديه؛ إن شاء الله تعالى.

الطرف السابع

(فى المكتبة الصادرة إلى خلفاء الموحدين بالمغرب، القائم بقاياهم الآن بتونس
وما معها من سائر بلاد أفريقيا . وفيه ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بالدعاء، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(أن تكون المكتبة من ملك آخر)

والرسم فيه أن تفتح بالدعاء المناسب للحال، ويعبر المكتوب عنه عن نفسه بنون
الجمع ويخاطب المكتوب إليه بأمير المؤمنين . كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان
«صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن :
أحد خلفائهم فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة، يستجيشه على الروم الفرنج القاصدين
بلاد الشام والديار المصرية، وهو :

فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ؛
أبواب الميَّمين ، وأسباب المحاسن ؛ وأحلّه من كفايته في الحرم الآمن ، وأنجزه
من نُصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كلّ رأى عليه الهوى رائئ ؛ ومكّن له
في هذه البسيطة بسطه ، وزاده بالعلم غبطه ؛ حتى يكون للأنياء بالعلم وللأرض
بالعزم وارثاً ، وحتى يُشيد بجادٍ قديماً من مجده الذى لا يزال بفضّ الحديث حادثاً .

كان من أوائل عزّمنّا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا ،
وأن نتيمن بمكاتبها ، ونترنّ بمخاطبتها ؛ ونهض إليها أمائل الأصحاب ، ونستسقى
معرفتها استسقاء السحاب ؛ وننتجعها بالخواطر ونجعل الكتب رسائلها ، وأيدي الرسل
سبلها ؛ ونمسك طرفاً من جبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا العالية طرفه ، ونمسح
غرة سبقي وارثها ووارث نورها سلفه ؛ ونجتاذب أعداء الله من الجانين ، لاسيما
بعد أن نبنا عنه نيايتين في نوبتين : فالأولى تطهير الأرضين المصرية واليمينية من ضلالة
أغضت عيون الأيام على قذائها ، وأنامت عيون الأنام بائعة يقطّنها بكرها ؛ ونياية
ثانية في تطهير بيت المقدس من كان يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ضلاله
تأسيسه ؛ وما كان إلا جنة إسلام فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة ،
وأعقبهم فيها إبليس الكفر وما أجارته مما أعقبه اللعنه ، وما كانت لنا بذلك قوة
بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنّة .

ولما حطّت لدين الكفر تيجان ، وحطّمت لذويه صلبان ؛ وأنّرس الناقوس
الأذان ؛ ونسخ الإنجيل القراء ؛ وفكّت الصخرة من أسرها ، وخفّ ما كان على
قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها ؛ وذلك أن يد الكفر غطّتها وعمرتها .
فله الحمد أن أحرم الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ما طر من دم

الكُفْر وما كان يُطَهِّرُها البحرُ المحيطُ ؛ ^(١)فَهُنَاكَ غُلِبَ الشُّرْكُ وَأَتَقَلَّبَ صَاغِرًا ،
وَأَسْتَجَاشَ كَافِرٌ مِنْ أَهْلِهِ كَافِرًا ؛ وَأَسْتَغْضَبَ أَنْفَارُهُ النَّافِرَهُ ، وَأَسْتَصْرَخَ نَصْرَانِيَّتَهُ
الْمُتَنَاصِرَهُ ؛ وَتَظَاهَرُوا عَلَيْنَا وَإِنَّ اللَّهَ مَوْلَانَا ، وَطَارُوا إِلَيْنَا زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا ؛ فَلَمْ يَبْقَ
طَاغِيَةٌ مِنْ طَوَاغِيهِمْ ، وَلَا أَتْفِيَّةٌ مِنْ أَنْفَائِهِمْ ؛ إِلَّا أَلْجَمَ وَأَسْرَجَ ، وَأَجْلَبَ وَأَرْجَحَ ، وَنَحْرَجَ
وَأَنحَرَجَ ، وَجَادَ بِنَفْسِهِ أَوْ بَوْلَدِهِ ، وَبَعَدَدَهُ وَبَعْدَدَهُ ؛ وَبَذَاتَ صَدْرِهِ وَبَذَاتَ يَدَيْهِ ،
وَبَكَتَابِهِ بَرًّا ، وَبِمَرَآكِبِهِ بَحْرًا ؛ وَبِالْأَقْوَاتِ لِلْخَيْلِ وَالرِّجَالِ ، وَالْأَسْلِحَةِ وَالْجُنَّ لِلْيَمِينِ
وَالشِّمَالِ ؛ وَبِالنَّقْدِينَ عَلَى اخْتِلَافِ صِنْفَيْهِمَا فِي الْجَمْعِ ، وَاتِّلَافِ وَصَفَيْهِمَا فِي النَّفْعِ ؛
وَأَنهَضَ أَبْطَالَ الْبَاطِلِ ، مِنْ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ ؛ وَرَاحَ وَنَابِلٍ ، وَحَافٍ وَنَاعِلٍ ،
وَمُؤَاقِفٍ وَمُقَاتِلٍ ؛ كُلٌّ خَرَجَ مَطْوَعًا ، وَأَهْطَعَ مُسْرِعًا ، وَأَتَى مُتَبَرِّعًا ، وَدَعَا نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ
يُسْتَدْعَى ؛ وَسَعَى إِلَى حَتْفِهَا قَبْلَ أَنْ يُسْتَسْعَى ؛ حَتَّى ظَنَّنَا [أَنْ] فِي الْبَحْرِ طَرِيقًا يَلْسَا ،
وَحَتَّى تَبَيَّنَا أَنَّ مَاوِرَاءَ الْبَحْرِ قَدْ خَلَا وَعَسَا ؛ وَقَلْنَا : كَيْفَ تَتْرُكُ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يُدْرِكُ ؛
وَزَادَتْ هَذِهِ الْحُشُودُ الْمُتَوَافِيَةَ ، وَتَجَافَتْ عَنْهَا الِهْمَمُ الْمُتَجَافِيَةُ ؛ وَكَثُرَتْ إِلَيْنَا أَنْ خَرَجَتْ
مِنْ سِجْنِ حَضَرِهَا ، وَمُسْتَقَرَّ كُفْرِهَا ، وَبَقِيَّةُ نَفَرِهَا - وَهُوَ صُورٌ - فَنَازَلَتْ نَفَرَعَا
فِي أَسْطُولٍ مَلَكَ بَحْرَهُ ، وَجَمَعَ سَلَكَ بَرِّهِ - فَهَضَمْنَا إِلَيْهِ ، وَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ ؛ فَضَرَبَ
مَعَنَا مَصَافً قَتَلَتْ فِيهِ فُرْسَانَهُ ، وَجُدَلَتْ شُجْعَانُهُ ، وَخُذِلَتْ صُلْبَانُهُ ؛ وَسَاوَى الضَّرْبُ
بَيْنَ حَاسِرِ الْقَوْمِ وَدَارِعِهِمْ ، وَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ؛ فَهُنَاكَ
لَاذُوا بِالْخَنَادِقِ يَحْفَرُونَهَا ، وَإِلَى السَّائِرِ يَنْصُبُونَهَا ؛ وَأَخْلَدُوا إِلَى الْأَرْضِ مَتَقِلِينَ ،
وَحَمَلُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ مُتَحَامِلِينَ ، وَظَاهَرُوا بَيْنَ الْخَنَادِقِ ، وَرَاوَحُوا بَيْنَ الْمَجَاقِ ؛
وَكَلَّمَا يُجِنُّ الْقَتْلُ مِنْ عَدَدِهِمْ مِائَةً أَوْ صِلَهَا الْبَحْرُ مِنْ يَصِلُ وَرَاءَهُ بِأَلْفٍ ، وَكَلَّمَا قَلُّوا
فِي أَعْيُنِنَا فِي زَحْفٍ ، قَدْ كَثُرُوا فِيمَا يَلِيهِ مِنَ الزَّخْفِ ؛ وَلَوْ أَنَّ دُرْبَةَ عَسَا كَرْنَا فِي الْبَحْرِ

(١) لعل هذا هو جواب الشرط أول الفقرة .

كدرتها في البر، لعجل الله منهم الانتصاف وأستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالألف؛
وقد أشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجمل، والعدد الدهم، كأنهم إلى نصيب يوفضون،
وعلى نارٍ يعرضون؛ ووصلهم على جهة القسطنطينية - يسر الله فتحها - على عزم الائتام
إلى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل الصيف، والعساكر الإسلامية لهم تستقبل،
وإلى حربهم تنتقل؛ فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم وإليها،
ويفرغ لها ويتسلط عليها؛ والله من ورأيهم محيط. وإذا قُسمت القوة على تلقى
القادم وتوقى المقيم، فربما أضرب بالإسلام انقسامها، وثلمه والعاذ بالله اثلامها.
ولما تحض النظر زبده، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده؛ لم نر لمكثرة البحر إلا
بحراً من أساطيله المنصورة فإن عددها واف، وشطرها كاف؛ ويمكنه - أدام الله
تمكينه - أن يمد الشام منه بعد كثيف، وحد رهيف، ويعهد إلى واليه أن يقيم
إلى أن يرتبع ويصيف؛ ويمكنه أن يكف شطرا لأسطول طاغية صقلية ليحص
جناح قلوبه أن تطير، ويعقل عباب بحره أن يغير، ويعتقله في جزيرته، ويجرى
إليه قبل جريته؛ فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها،
ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها؛ فإذا نفذ طريقه وعلم
الناس بموفده، أوردوا وأصدروا في موره؛ وشخص المسلم والكافر: هذا ينتظر
بشرى الیدار، وهذا يستطلع لمن تكون عقي الدار؛ وخاف وطأة من يصل
من رجال المساء من وصل من رجال النار. ولو بزقت عليهم بازقة غريبة لأغرقهم
طوفانها، ولو طلعت عليهم جارية بحرية لنعقت فيهم بالشتات غربانها.

وما رأينا أهلاً لهذه العزمة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخير فيه؛
(١) إذ كان منحه عادة في الرضى به وقدره على الإجابة، ورغبة في الإجابة؛ ولاية لأمر

(١) كذا في الأصول ولم نثر عليها في رسائل القاضي الفاضل.

المسلمين، ورياسة للدنيا والدين، وقيامًا لسلطان التوحيد القائم بالموحدين؛ وغضبًا لله ولدينه، وبذلًا لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده؛ والآن فقد خلا الإسلام بملائكته، لما خلا الكفر بشياطينه؛ وما أجلت السوابق إلا لإطلاقها، ولا أثلت الذخائر إلا لإنفاقها؛ وقد آستشرف المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشى البحار، وليالي من المراكب تركب من البحر النهار؛ وإذا خفقت قلوها خفقت للقلاع قلوب، وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب؛ فهي بين كفر تكفره وتحصره، وبين ثغر إسلام تخرج عنه وتنصره، يكون بها مصائب عند المسلمين (؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد، ويمضي سيف الله الذي لا يعدم في كل زمان فيعلم معه أن سيف الله خالد؛ أعز الله الإسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها، فيما مد عليها من ظلها، وبما يسكنه من حرزا، فيما يبسط على الأعداء بها من بأسها ويترل بهم من رجزها، وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها.

وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا، وهو الداعي المسمع، والمبلغ المُنفع، والمجمع المستجمع؛ علمناه أمرا يسرا، وبأنه الصدر فكان وجها، وأودعناه السر فكان صدرا.

الضرب الثاني

(أن تكون المكتبة صادرة عن بعض الأتباع)

والرسم فيه أن تُفتح المكتبة بالدعاء بطول البقاء، مثل أن يكتب أحد أتباعه إليه؛ ويعبر المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمر المؤمنين. كما كتب أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلى بعض خلفائهم جواب كتاب ورد بالكشف عن عامل ثغر شقورة.

« أطل الله بقاء أمير المؤمنين ، وناصر الدين والدنيا بفضلہ العَمِيم ؛ ولا برحمت مصالح العباد ببالہ الکریم جائلہ مائلہ ، وسيرته الحميدة لدانيم وقاصيمهم شاملة كافيہ ، ولا زال الله في أرضه بالقسط قائما ، وعلى ماينفع الناس محافظا دائما .

كتبته - أيد الله أمره ! صدر جمادى الأولى ، سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بعد امتثال ماحدثه ، والانتهاى إلى ماوجب الانتهاى عنده ؛ من أمر ثغر شقورة حرسه الله !

على ما أنص مناقله ، وأعرض مراتبه ومنازله ؛ وذلك أن كتابه العزيز وافانى على يد رجل من أهلها فيه فصول رفعها ، وأحاديث سطرها وجمعها ؛ وأندرج الكتاب المرفوع بذلك طيه ، لينظر إليه من أدعى عليهم رفعه ، ويستبين حقيقته أو وضعه ؛

وبإبطاء هذا الرافع سبقته الأبناء ، واستقرت عند جمعها الأفراض والأنحاء ؛ فاجتمعوا إلى عاملهم فلان وفقه الله ، وحضرهم حاكم الجهة أبقاه الله ؛ وتنبعوا تلك الوجوه بالرد لها ، والإنكار على القائم بها ؛ وعقد وافى كل عقد منها عقدا يناقضه ،

وأستظهروا بشهادات تنافيه وتعارضه ؛ وأندرجت العقود ، ثابتة في كتاب الحاكم على السبيل المعهود في إثبات العقود ؛ فثبتت عندى لثبوتها عنده ، وخاطبوني مع ذلك متبرين من هذا الرافع ، واضعين له في عقله ودينه بأحط المواضع ؛ وصرخوا بارتضاءهم بسيرة عاملهم وأغبتاهم بحمايته وسداد نظره ، وعلى ثقة ذلك وصل هذا الرافع بالكتاب العزيز وما أندرج طيه على ما قدمت ذكره ؛ فاستأنفت النظر ، وأعدت العمل ، وخاطبت الحاكم والأعيان والكافة هنالك بما ورد في أمرهم ؛ وأردفت الكتاب المرفوع ليقفوا على نصه ، وينظروا إلى شخصه ؛ فراجعوني أنه لا مزيد عندهم على ما قدموه ، ولا خلاف فيما تقدموه وأحكموه ، وأحالوا على ما تثبت به العقود ،

وهي من الناس المقاطع والحدود ؛ فأقتضى النظر إعلام أمير المؤمنين وناصر الدين أعلى الله أمره ، حسب ما حدثه ، بما وقعت عليه الحال ، ليرفع الإشكال ،

ولا يتعلق بهذه الحبيبة البال ؛ وقد أدرجت إلى حضرته السامية الكتب المذكورة
تعرض عليها ، وتستقر الحلية منها لديها ؛ إن شاء الله .

واندرجت العقود إلى الفقيه فلان قاضي الحضرة وفقه الله ، والله يشكر لأمير المؤمنين
وناصر الدين تحريه واجتهاده ، وتوفيقه وسداده ؛ ويؤالي من والاه ، ويكيد
من عاداه . ولو كانت الحال بشقورة على ماصوره هذا الرفع لما أنطوت عنى أسرارها ،
ولا [خفيت على] على البعد أخبارها ؛ وسفوف إلى فلانة ^(١) بين ، وهو متشرع متدين ،
وعضده على ما هو بسبيله في ذلك الثغرمعين ؛ والله يسر الجميع إلى ما يقضى
حقوق النعمة ، ويقيم فروض الخدمة ؛ بعونه وقدرته ! .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بألقاب الخليفة نفسه ثم يؤتى بالصدر معبرا عن المكتوب
عنه بالعبد . ومخاطبا للخليفة بميم الجمع للتعظيم ، ويختتم الكتاب
بالسلام . وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يوصف الخليفة بالمقام)

كما كتب أبو الميمون أيضا عن بعض أهل دولتهم إلى الناصر لدين الله أحد
خلفائهم :

المقام الأعلى ، المقدس ، المكرم ، الإمامي ، الطاهر ، الزكي ، مقام الخليفة
المؤيد بنصر الله ، الإمام « الناصر لدين الله » كلاً الله جلّالهم ، وفيّاً لظلالهم ، وبوّاً
ووفود السعود ووجود الظهور والصعود موطنهم المقدسة وحلاهم .

(١) كذا في الأصول وعليه علامة توقف ولعله وتعفف وإلى فلانة الخ والمراد براءته مما نسب إليه .

عندهم المتقلب في نعمتهم ، المتقرب إلى الله عز وجل بالمناسبة في خدمتهم ،
المتسبب إلى الزلنى عندهم بالتزام طاعتهم ، والأعتصام بعصيتهم ، فلان .

كتب عبدُ المقام الأعلى ، والندي الذي أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان
وأحتوى على الفضائل وأستولى ، من موضع كذا حماه الله تعالى ؛ وجنّاه لطاغتك
قُطْب ، ولسانه بشكر نعمتك رطب ؛ فبتلك رجاء الفوز ، وبها ابتغاء نيل الآمال
والخوْز ؛ وكيف لا يطاوعه الجنان ، وشكر اللسان مستمدا لإدراك الإحسان ؛ وللمقام
الأسنى عوارف ، لا يتقلص ظلها الوارف ، وقطرات بالرحمة مسطرات بمِدارسها
الواكف ؛ وقد كانت للعبد سهام ، فاضت عليه بها من النعمة رهام ؛ ثم جَزَرَ الماءُ
باسترجاعها الآن ، وسقى العبدُ بآثارها كأسَ الحزن مَلَأَتْ ؛ وردت لك بهذه
الجهة أنقطاع المواساة ، وأمتناع الألسن بالمكابدة لشطف العيش والمقاساة ؛
وإلى المقام الأعلى الأسنى 'نفزع حين نفزع ، ونذهب حين نرجو ونذهب ، ونلجا
فلا نؤخر طلبائنا ولا نترجا ، وخدمة العبد هذه تتوب عنه في تقبيل ذلك المقام الأسنى ،
والتعرض لما عهد لديه من نفحات الرضى ، والتضرع في إدراك ما جَزَرَ من تلك
المنة ، وغِيْض من قِيْض تلك النعمى ؛ ويُنبئ من رغبته في بركة تلك الأدعية ،
التي هي لخيرات كالأوعيه ؛ ما يرجوه بشفاعه تأكد الأمتنان ، ومجرد عوارف الرأفة
والحنان ؛ إن شاء الله تعالى .

والرب تعالى يُبقي المقام الأعلى والنصر له مظاهر ، والخير لديه مظاهر ،
والسعد لوليّه ناصر ، ولعدوه قاهر ، بحول الله تعالى وقوته لا ربَّ غيره ، ولا خير
إلا خيره ؛ والسلام .

الضرب الثاني

(أن يعبر عن الخليفة بالحضرة)

كما كتب أبوالمطرف بن عميرة عن صاحب أرغون من الأندلس إلى المستنصر بالله أحد خلفائهم، يستأذنه في وفادة صاحب أرغون من الأندلس أيضا على أبواب الخلافة مغاضبا لأهل مملكته :

الحضرة الإمامية المنصورة الأعلام، الناصرة للإسلام، المخصوصة من العدل والإحسان بما يحلو نوره متراكم الإظلام؛ حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، أبي يعقوب آبن سادتنا الخلفاء الراشدين؛ وصل الله لها إسعاد القدر، وإنجاد النضر والظفر؛ ولا زال مقامها الأعلى سامي النظر، مبارك الورد والصدور؛ ويفيض منه الجود، فيض المطر، ويحيط به السعود، إحاطة الهالة بالقمر.

نشأة أيامها الغز، وربي إنعامها المواظب على الحمد والشكر، المشرف باستخدامها الذي هو نعم العون على التقوى والبر، عبدها وآبن عبدها فلان.

سلام الله الطيب المبارك وتحياته، تخص المقام الأشرف الأعلى ورحمة الله وبركاته. وبعد فكتب العبد - كتب الله للقام الأعلى فتوحا يعم جميع الأمصار، وسعودا يقضي بقل السمر الطوال والبيض القصار - من بلنسية، وبركاته تظهر ظهور النهار، وتفيض على البلاد والعباد فيض الأنهار، فخالق من وارد في سلسالها المعين، ورايح للذي منها وهو من رجائه على أوضح مراتب اليقين، والله يبق عن الإسلام ببقائه، ويعيننا على أمثال أوامره المباركة معشر عبيده وأرقائه ! بمنه.

(١١)
وقد تقرّر له من المقام الكريم - أدام الله علّوه ، وكبّت عدوّه ؛ أمر بالسك -
وطال ماله في البلاد الأرغونية من زعامة في شأوها برز ، ولغايتها أحرز ؛ وكان
قد كفّل صاحب أرغون في الزمان المتقدم كفالة دار أمرها عليه ، وأُتِيَ زماؤها
إليه ؛ وتفترّد منها بعّء وحمله ، وخطة بلغ منها أمله ؛ ثم إنه حطّ من رُتبته ،
وتأكّدت المبالغة في نكته ؛ لقضية عرضت له مع أهل أرغون ، فلفظته تلك
الجنّات ، وأزعجه أمر لم يمكنه عليه الثبات ؛ ورأى أن يلجأ بحاله إلى المقام الباهر
الأنوار ، العزيز الحوار ؛ فواصل هذا الموضع قبل مقدّم العبد عليه ، مقرراً ما نزل به ،
ومستأذناً في الوجه الذي تعرّض لطلبه ؛ فأذن له في مقصده ، وأنصرف عن التأهب
للحركة من بلده ؛ ثم لما وصل العبد هذه الجهة وفرغ هو من شأنه أقبل متوجّهاً إلى
الباب الكريم ، ومتوسّلاً بأمله إلى فضله العقيم ؛ والظاهر من حقه على أهل أرغون
وشدة عداوته لهم ، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم ؛ أنه إن صادف وقت فتنة
معهم ووجد ما يؤمّله من إحسان الأمر العالی أيّده الله فينتهي من نكائهم والإضرار
بهم إلى غاية غريبة الآثار ، مُفضّية به إلى درك النار ؛ وكثير من زعماء أرغون
ورجالها أقاربهُ وفُرسانه ، وكلّهم في حبله حاطب ، ولا نجاهه متى أمكنه خاطب ؛
وللقام الكريم أعلى الرأي فيه أبقاه الله شافياً للعَلَل ؛ وكافياً طوارق الخطب الجلل ،
مأمولاً من ضروب الأئم وأصناف الملل ، وهو سبحانه يُديم سعادة جدّه ، ويخصّه
من البقاء الذي يسرّ أهل الإيمان ويضعف بهجة الزمان بأطوله وأمدّه ،
والسلام .

الأسلوب الثالث

(أن تُفتَحِ المكتبةُ بأوصافِ الخلافةِ والثناءِ عليها، والخطابُ فيه بأمرِ المؤمنين

وعن المکتوب عنه بنون الجمع)

وهذه المكتبة من المكاتبات البديعة المُسْفِرة عن صُبْحِ البلاغة .

ونسختُها بعد البسملة على ما كتب به ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس إلى المستنصر بالله أبي إسحاق إبراهيم خليفة الموحدين يومئذ بالأندلس . والاستفتاح :

الخلافةُ التي أرتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعدِ الخِلاف ، واستقلت مَباني
نخريها الشائع وعِزّها الذائع على ما أسسه الأسلاف ؛ ووجب لحقها الجازم وفرضها
اللازم الاعتراف ؛ ووسعت الآملين لها الجوانبُ الرحبةُ والأكثاف ، فامتزجنا بعلائها
المنيف ، وولآتها الشريف ، كما أمتزج الماءُ والسلاف ؛ وثأؤنا على مجدها الكريم ،
وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياضُ الأفواف [لَمَّا زارها الغمامُ الوكَّاف^(١)] ودُعَاؤنا بطول
بقائها ، وأتصالِ علامتها ، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العُلا الاستشراق ؛
وحِصْننا على توفية حقوقها العظيمة ، وفواضيلها العميمة ، لا تحصره الحدود ولا تُدرِكه
الأوصاف ؛ وإن عَدَر في التقصير ، عن نبيل ذلك المرام الكبير ، الحق والإنصاف . خلافةُ
وجهة تعظيمنا إذا توجَّهت الوجوه ، ومن نُؤثره إذا همَّنا ما نرجوه ، ونُقدِّيه ونُبديهِ
إذا استُمنح المحبوب وأُستدفع المكروه ؛ السلطان [الخليفة^(١)] الجليل ، الكبير ، الشهير ،
الامام ، الهام ، الأعلى ، الأوحد ، الأصعد ، الأسعد ، الأسمى ، الأعدل ، الأفضل ،
الأسنى ، الأطهر ، الأظهر ، الأرضي ، الأحفل ، الأكل ، أمير المؤمنين أبي إسحاق

(١) الزيادة من كتاب "ريحانة الكتاب" المخطوط المحفوظ بدار الكتب الخديوية تحت نمرة ٤

أَبْنِ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ الْبَاطِلِ الْهَامِ؛ عَيْنِ الْأَعْيَانِ، وَوَاحِدِ الزَّمَانِ؛ الْكَبِيرِ، الشَّهِيرِ؛
الطَّاهِرِ، الظَّاهِرِ؛ الْأَوْحَدِ، الْأَعْلَى، الْحَسِيبِ، الْأَصِيلِ، الْأَسْمَى، الْعَادِلِ،
الْحَافِلِ، الْفَاضِلِ، الْمَعْظَمِ، الْمَوْقُرَّ، الْمَاجِدِ، الْكَامِلِ، الْأَرْضَى، الْمُقَدَّسِ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَبِي يُحْيَى أَبِي بَكْرٍ، أَبْنِ السُّلْطَانِ الْكَبِيرِ، الْجَلِيلِ، الرَّفِيعِ، الْمَاجِدِ، الظَّاهِرِ، الطَّاهِرِ،
الْمَعْظَمِ، الْمَوْقُرَّ، الْأَسْمَى، الْمُقَدَّسِ، الْمَرْحُومِ أَبِي زَكْرِيَّا، أَبْنِ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ، الْمَجَاهِدِ الْهَامِ
[الْكَبِيرِ الشَّهِيرِ، الْخَطِيرِ، بَطْلِ الْمِيدَانِ، مَفْخَرِ الزَّمَانِ، الطَّاهِرِ الظَّاهِرِ، الْأَمْضَى الْمُقَدَّسِ
الْأَرْضَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي إِسْحَاقَ أَبْنِ الْخَلِيفَةِ^(١)] الْهَامِ الْإِمَامِ ذِي الشَّهْرَةِ الْجَاحِجَةِ، وَالْمَقَانِحِ
الْوَاضِحَةِ؛ عِلْمِ الْأَعْلَامِ، نَخْرِالِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ؛ الْمَعْظَمِ، الْمَجْدِ، الْمُقَدَّسِ، الْأَرْضَى،
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكْرِيَّا أَبْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ
أَبْقَاهُ اللَّهُ. وَمَقَامِهِ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ رِزْقًا وَأَمَانًا، لَا يَنْخُسُ جَلْبُ الثَّرَاتِ إِلَيْهِ وَقْتًا وَلَا يُعَيَّنُ
زَمَانًا، وَكَانَ عَلَى مَنْ يَنْخَطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ مُؤَيَّدًا بِاللَّهِ مُعَانًا. مَعْظَمُ قَدْرِهِ الْعَالَى
عَلَى الْأَقْدَارِ، وَمُقَابِلُ دَاوَى حَقِّهِ بِالْإِبْتِدَارِ؛ الْمُتْنِي عَلَى مَعَالِيهِ الْمَخْلَدَةِ الْآثَارِ،
فِي أَصُونَةِ النَّظَامِ وَالنَّثَارِ، ثَنَاءِ الرُّوضَةِ الْمُعْطَارِ عَلَى الْأَمْطَارِ؛ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِطَوْلِ
بَقَائِهِ فِي عِصْمَةِ مُنْسَلِدَةِ الْأَسْتَارِ، وَعِزَّةٍ ثَابِتَةِ الْمَرْكَزِ مُسْتَقِيمَةِ الْمَدَارِ، وَأَنْ يَخْتَمَ لَهُ
بَعْدَ بُلُوغِ غَايَاتِ الْأَجَالِ وَنَهَايَاتِ الْأَعْمَارِ، بِالزُّلْفَى وَعُقْبَى الدَّارِ.

سَلَامٌ كَرِيمٌ كَمَا حَمَلَتْ نَسَمَاتِ الْأَنْشَارِ، أَحَادِيثَ الْأَزْهَارِ، وَرَوَتْ تُغُورُ الْأَقَاحِ
وَالْبَهَارِ، عَنْ مَسَلْسَلَاتِ الْأَنْهَارِ، وَتَجَلَّى عَلَى مَنَصَّةِ الْأَشْتِهَارِ، وَجْهٌ عَرَّسَ النَّهَارِ،
يَخْصُ خِلَافَتَكُمْ الْكَرِيمَةَ النَّجَارَ^(١) [الْعَزِيزَةَ الْجَارَ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَخْفَى حِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ عَنْ أَذْهَانِ الْبَشَرِ، فَعِجَزَتْ عَنْ قِيَاسِهَا،
وَجَعَلَ الْأُرُوحَ كَمَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ، أَجْنَادًا مُجَنَّدَةً تَحْنُ إِلَى أَجْنَاسِهَا. مُنْجِدِ هَذِهِ

الملة ، من أوليائه الحلة ، بمن يروض الآمال بعد شماسها ، ويُيسر الأغراض قبل آتماسها ، ويُعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين إخلاق لباسها ، الملك الحق واصل الأسباب بحوله بعد انتكاث أمراسها ، ومُغنى النفوس بطوله بعد إفلاسها - حمداً يدر أخلاف النعم بعد إنساسها ، ويُشرِّم الآمال من أرماسها ، ويُقدِّس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها ، عند أقتناء الأنوار وأقتباسها ، مطهر الأرض من أوضارها وأدناسها ، ومُصطفى الله من بين ناسها ، وسيد الرسل الكرام ما بين شيئها وإلياسها ، الآتى مهيئنا على آثارها في حين قترتها ، ومن بعد نصرتها وأستئناسها ، مُرغم الضراغم في أخياسها ، بعد أقرارها وأقرارِاسها ، ومعقر أجرام الأصنام ومُصميت أجراسها .

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه حمة شرعته البيضاء وحراسها ، ومُلقحى غراسها ، ليوث الوغى عند احتدام مراسها ، ورهبان الرجاء نتكفل بمناجاة السميع العليم ، في وحشة الليل البهيم ، بإيناسها ، وتقاوح نواسم الأشجار عند الاستغفار بطيب أنفاسها .

والدعاء لخلافكم العلية المستنصرية بالسعادة التي تشعشع أيدي العزة القعساء من أكواسها ، ولا زالت العصمة الإلهية كفيلاً باحترامها واحتراسها ، وأبناء الفتوح ، المؤيدة بالملائكة والروح ، ریحان جلاسها ، وآيات المفاحر ، التي ترك الأول للآخر ، مكتتبة الأسطار بأطراسها ، وميادين الوجود مجالاً لجياد جودها وباسها ، والعز والعدل منسوين لفسطاطها وقسطاسها ، وصفيحة النصر العزيز تُفيض كفها المؤيدة بالله على رياسها ، عند أحتاج أصدادها وشرة إنكاسها ، لآتهاب البلاد وآتماسها ، وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها .

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من كتائب نصره أمدادا تُدْعِي أَعْنَاقُ الْأَنَامِ ،
 لَطَاعَةِ مَلِكِكُمْ الْمَنْصُورِ الْأَعْلَامِ ، عند إحساسها ، وآتاكم من آياتِ الْعِنَايَاتِ آيَةً
 تَضْرِبُ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءَ مِنْ عَصَاهَا بِعَصَاهَا فُتْبَادِرُ بَانْجَاسِهَا - من حمراء غُرْنَاطَةٍ -
 حرسها الله - وأيامُ الْإِسْلَامِ ، بعناية الملك الْعَلَّامِ ، تحتفل وفودُ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ
 لَوْلَائِمْهَا وَأَعْرَاسِهَا ، وطواعينُ الطَّعَانِ ، في عدوِّ الدِّينِ الْمُعَانِ ، تجدد عهدُهَا
 بِعَامِ عَمَوَاسِهَا .

والحمد لله حمداً يُعِيدُ شَوَارِدَ النِّعَمِ ، وَيُسْتَدِرُّ مَوَاهِبَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ، وَيُؤَمِّنُ مِنْ
 اتِّكَابِ الْجُدُودِ وَاتِّكَاسِهَا ، وَلِيَّ الْأَمَالِ وَمِكَاسِهَا . وخلافتكم هي الْمَثَابَةُ الَّتِي
 يُزْهِى الْوُجُودُ بِمَحَاسِنِ مَجْدِهَا زَهْوُ الرِّيَاضِ بَوَرْدِهَا وَآسَمَا ، وَتُسَمِّدُ أَضْوَاءُ الْفَضَائِلِ مِنْ
 مِقْبَاسِهَا ، وَتُرَوِّى رُؤَاةَ الْإِفَادَةِ وَالْإِجَادَةِ غَرِيبَ الْوَجَادَةِ عَنْ صَحَّاحِهَا وَعِبَّاسِهَا ،
 وَإِلَى هَذَا أَعْلَى اللَّهِ مَعَارِجَ قَدْرِكُمْ وَقَدْ فَعَلَ ، وَأَنْطَقَ بِمُجْجَجِ نَفْسِكُمْ مِنْ أَحْتَفَى وَأَنْتَعَلَ ،
 فَإِنَّهُ وَصَلْنَا كِتَابَكُمْ الَّذِي حَسِبْنَاهُ عَلَى صِنَائِعِ اللَّهِ لَنَا تِمِيمَةً لَا تَلْقَعُ بَعْدَهَا عَيْنٌ ، وَجَعَلْنَاهُ
 عَلَى حُلَلِ مَوَاهِبِهِ قِلَادَةً لَا يُحْتَاجُ مَعَهَا زَيْنٌ ، وَدَعَوْنَاهُ مِنْ جَيْبِ الْكِتَابَةِ آيَةً بِيضَاءِ الْكِتَابَةِ
 لَمْ يَبْقَ مَعَهَا شَكٌّ وَلَا مَيِّنٌ ، وَقَرَأْنَا مِنْهُ وَثِيقَةً وَدَّ هُضْمَ فِيهَا عَنْ غَرِيمِ الزَّمَانِ دَيْنٌ ،
 وَرَأَيْنَا مِنْهُ إِنْشَاءً ، خَدَمَ الْيَرَاغُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَشَاءَ ، وَأَخْتَرَعَ بِهِمِيَانُ عُقْدَتَهُ مَشَاءً ، وَسِئِلُ
 عَنْ مَعَانِيهِ الْإِخْتِرَاعُ فَقَالَ : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنْشَاءً ، فَأَهْلًا بِهِ مِنْ عَرَبِيٍّ أَتَى يَصِفُ
 السَّائِحَ وَالْبَانَةَ ^(١) ، وَيُبَيِّنُ فَبِحُسْنِ الْإِبَانَةِ أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَسِئِلُ عَنْ حَيَّةٍ فَاتَمَّتْ إِلَى كِتَابِهِ ،
 وَأَفْصَحَ وَهُوَ لَا يَنْبَسُ ، وَتَهَلَّلَتْ قَسَمَاتُهُ وَلِيلُ حَبْرِهِ يَعْبَسُ ، وَكَأَنَّ خَاتَمَهُ الْمُقْفَلُ عَلَى
 صَوَانِهِ ، الْمُتَحَفِّ بِبَاكَرِ الْوَرْدِ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ ، رَعَفَ مِنْ مَسْكَ عُنُونِهِ . وَلِلَّهِ مِنْ قَلَمٍ

(١) ضُيِّبَ عَلَيْهِ فِي الْأَصُولِ بَعْلَامَةُ التَّوْقُفِ وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَى تَثْقِيفِهِ .

دَبَّجَ تِلْكَ الْحُلَّالَ ، وَنَقَعَ يُجَاهِ الدَّوَاةِ الْمُسْتَمْتَةِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ الْغُلِّ ؛ فَلَقَدْ تَخَارَقَ
فِي الْجُودِ ، مُقْتَدِيًا بِالْخِلَافَةِ الَّتِي خُلِدَ نَخْرُهَا فِي الْوُجُودِ ؛ بِخَادِ بَسْرِ الْيَّانِ وَلُبَّابِهِ ،
وَسَمَحَ فِي سَبِيلِ الْكَرَمِ حَتَّى بَمَاءِ شَبَابِهِ ؛ وَبَجَحَ لِفَرْطِ بَشَاشَتِهِ وَفَهَامَتِهِ ، بَعْدَ شَهَادَةِ
السَّيْفِ بِشَهَامَتِهِ ، فَشَى مِنْ التَّرْحِيبِ فِي الطَّرْسِ الرَّحِيبِ عَلَى أُمِّ هَامَتِهِ .

وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَكِيمٍ أَفْصَحَ بَلَمُغُوزِ الْإِكْسِيرِ ، فِي اللَّفْظِ الْيَسِيرِ ، وَشَرَحَ بِلِسَانِ
الْخَبِيرِ ، سِرَّ صِنَاعَةِ التَّدْيِيرِ ؛ كَأَنَّمَا خَدَمَ الْمَلَكَةَ السَّاحِرَةَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ، قَبْلَ اشْتِجَارِ
الْجِلَادِ ، فَآثَرَتْهُ بِالطَّارِفِ مِنْ سِحْرِهَا وَالتَّلَادِ ؛ أَوْ عَثَرَ بِالْمَعْلَقَةِ ، وَتِيكَ الْقَدِيمَةِ الْمَطْلَقَةِ ؛
بِدَفِينَةِ دَارِ ، أَوْ كَتَرْتَحَتَ جِدَارِ ، أَوْ ظَفِرَ لِبَانِي الْحَنَايَا ، قَبْلَ أَنْ تَقْطَعَ بِهِ عَنْ أَمَانِيَّةِ
الْمَنَايَا ، بِبِدْيَعِهِ ، أَوْ خَلَفَ بِجَرِيرِ الرُّومِ ، قَبْلَ مَنَازِلَةِ الْقُدُومِ ، عَلَى وَدَيْعِهِ ؛ أَوْ أَشْهَمَهُ
أَبْنُ أَبِي سَرِجٍ ، فِي نَشْبِ اللَّفْخِ وَسَرِجٍ ؛ أَوْ حَتَمَ لَهُ رَوْحَ بَنِ حَاتِمٍ بِبُلُوغِ الْمَطْلَبِ ،
أَوْ غَلَبَ الْحُظُوظَ بِخِدْمَةِ آلِ الْأَغْلَبِ ؛ أَوْ خَصَّصَهُ زِيَادَةُ اللَّهِ بِمَزِيدِ ، أَوْ شَارَكَ الشَّيْعَةَ
فِي أَمْرِ أَبْنِ أَبِي يَزِيدٍ ؛ أَوْ سَارَ عَلَى مِنْهَاجِ ، فِي مُنَاصَحَةِ بَنِي صِنْهَاجٍ ، وَفَضَحَ بِتَخْلِيدِ
أُمْدَاحِهِمْ كُلِّ هَاجٍ .

وَأَعْجَبَ بِهِ ! وَقَدْ عُرِّزَ مِنْهُ مِثْنُ الْبَيَانِ بِثَالِثٍ ، بِخَلَبِ سِحْرِ الْأَسْمَاعِ ، وَاسْتَرْقَاقِ الطَّبَاعِ
بَيْنَ مِثْنَى الْإِبْدَاعِ وَمِثَالِثٍ . كَيْفَ أَقْتَدَرَ عَلَى هَذَا الْمُحْيِدِ ، وَنَاصَحَ مَعَ التَّثْلِيثِ مَقَامَ
التَّوْحِيدِ ؛ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَلِيَّ الْعَوْنِ ، عَلَى الصَّمْتِ وَالصَّوْنِ ، فَالْقَلَمِ هُوَ الْمَوْحَدُ قَبْلَ
الْكَوْنِ ، وَالْمُتَصِفُ مِنْ صِفَاتِ السَّادَةِ ، أُولَى الْعِبَادَةِ ، بِضُمُورِ الْجِسْمِ وَصُفْرَةِ
الْلَوْنِ ؛ إِنَّمَا هِيَ كَرَامَةٌ فَارُوقِيَّةٌ ، وَأَثَارَةٌ مِنْ حَدِيثِ سَارِيَّةٍ وَبَقِيَّةٍ ؛ سَفَرٌ وَجْهَهَا
فِي الْأَعْقَابِ ، بَعْدَ طُولِ الْإِنْتِقَابِ ، وَتَدَاوُلِ الْأَحْقَابِ ، وَلِسَانُ مُنَابٍ ، عَنْ كَرِيمِ
جَنَابٍ ؛ وَإِصَابَةُ السَّهْمِ لِسَوَاهِ مُحْسُوبِهِ ، وَإِلَى الرَّامِي الَّذِي سَدَّدَهُ مَنُشُوبِهِ ؛ وَلَا تُشْكِرُ

على الغمام بارقه، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامة خارقه، فما شاءه الفضل من غرائب برّوجده، ومحاريب خلقي كريم ركن الشكر فيها وسجد. حديقه بيان استتارت نواسيم الإبداع من مهبطها، واستترت غمام الطّباع من مصبها، فأتت أكلها مرتين بإذن ربّها؛ لا، بل كتيبة عزّ طاعت بقنا الألفات سطورها، فلا يرومها التقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي الثّوات خطوطها، وأصطفت من بياض الطّرس وسواد النّفس بلق تحوطها.

فكأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير؛ تقامر بند الحباب، عقول ذوى الألباب، وتفرق كسرى في العباب، وتهدى وهى الشّمْطاء نشاط الشّباب؛ وقد أسرج ابن سريج وألجم، وأفصح الغريص بعد ما جمجم، وأعرب النّسائي الأنجم، ووقع معبد بالقضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب؛ وكأنّ الأنايل فوق مثاليّ العود ومثانيه، وعند لغراء الثّقل بثانيه؛ وإجابة صدى الغناء بين مغانيه؛ المراد تشرع في الوشى، أو العناكب تُسرّع في المشي؛ وما الخبر بنيل الرّغائب، أو قدوم الحبيب الغائب؛ لا بل إشارة البشير، بكمّ المشير على العشير. بأجلب للسّرور، من زائره المتلقّ بالبرور؛ وأدعى للخبور، من سفيره المبهج للسّفور؛ فلم نرمثله من كتيبة كتاب يُجنب الجرد [تمرح] ^(١) في الأرسان، وتتشوّف مجالى ظهورها إلى عرائس الفرسان؛ وتهزّ معاطف الأرتياح، من صهيلها الصّراح، بالنّغات الحسان، إذا وجدت الصّريح نازعت أثناء الأعنة، وكاثرت بأسنة آذانها مشرعة الأسنة، فإن أدعى الظلم أشكاه فهو ظالم، أو نازعها الطّبي هو أدبها وأكفاهها فهو هاذي أو حالم، وإن سئل عن عيوب الغرر والأوضاع، قال مشيرا إلى وجوهها الصّباح، جلدة بين العين والأنف سالم؛ من كلّ عبل الشّوى،

مُسَابِقٍ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ، سَامِي التَّلِيلِ ، عَرِيضٍ مَا تَحْتَ الشَّلِيلِ ، مَمْسُوحَةٍ أَعْطَافَهُ
بِمَنْدِيلِ النَّسِيمِ الْبَلِيلِ : مَنْ أَحْمَرَ كَالْمُدَامِ ، تُجَلَّى عَلَى النَّدَامِ عَقِبَ الْفِدَامِ ، أُتْحِفَ
لَوْنُهُ بِالْوَرْدِ ، فِي زَمَنِ الْبَرْدِ ، وَحِيَّ أَفُقُ حَيَّاهُ بِكُوكَبِ السَّعْدِ ، وَتَشَوَّفُ الْوَاصِفُونَ
إِلَى عَدِّ مَحَاسِنِهِ فَأَعَيْتَ عَلَى الْعَدِّ ، بِحَرْكِ سَاجِلِ الْبَحْرِ عِنْدَ الْمَدِّ ، وَرِيحٌ تَبَارَى الرِّيْحَ عِنْدَ
الشَّدِّ ، بِالذَّرَاعِ الْأَشَدِّ ، حَكَمَ لَهُ مَدِيرُ فَلَكِ الْكَفَلِ بِاعْتِدَالِ فَضْلِ الْقَدِّ ، وَمِيزَهُ قَدْرُهُ
الْمُخَيَّرُ يَوْمَ الْأَسْتَبَاقِ ، بِقَصَبِ السَّبَاقِ ، عِنْدَ آعْتِبَارِ الْحَدِّ ، وَوَلَدَ مَخْطُطُ غُرَّتِهِ أَشْكَالَ
الْجَمَالِ ، عَلَى الْكَمَالِ ، بَيْنَ الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ وَتَقَاءِ الْحَدِّ ، وَحَفِظَ رَوَايَةَ الْخَلْقِ الْوَجِيهَ
[عَنْ جَدِّهِ الْوَجِيهَ] ^(١) وَلَا تُتَكَرَّرُ الْوَايَةُ عَلَى الْحَافِظِ بْنِ الْحَدِّ - وَأَشْقَرُ أَبِي الْخَلْقِ وَالْوَجْهَ الطَّلَاقُ
أَنْ يَحْقِرَ كَأَنَّمَا صَبِغَ مِنَ الْعَسَجِدِ ، وَطُرِفَ بِالذَّرِّ وَأُنْعِلَ بِالزَّبْرِجَدِ ، وَوُيِّسَ فِي الْحَدِيثِ
بِسِمَةِ الْيَمْنِ وَالْبَرَكَةِ ، وَأَخْتَصَّ بِفُلْجِ الْخِصَامِ ، عِنْدَ أَشْتِجَارِ الْمَرْكَةِ ، وَأَنْفَرَدَ بِمُضَاعَفِ
السَّهَامِ [الْمُنْكَسِرَةِ عَلَى الْهَامِ] فِي الْفَرَائِضِ الْمَشْتَرَكَةِ ، وَاتَّصَفَ فَلَكُ كَفَلَهُ بِحَرْكَتِي
الْإِرَادَةِ وَالطَّيْعِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَرَكَةِ ، أَصْغَى إِلَى السَّمَاءِ بِأُذُنِ الْمُتْلِمِ ، وَأَعْرَبَ لِسَانُ
الصَّهِيلِ ، عِنْدَ أَلْتِبَاسِ مَعَانِي الْهَمَزِ وَالتَّسْهِيلِ ، بَيَانِ الْمُبْهَمِ ، وَفُتِنَتِ الْعَيُونُ مِنْ ذَهَبِ
جِسْمِهِ ، وَبُلْحَيْنِ نَجْمِهِ بِحُبِّ الدِّينَارِ وَالْدَّرْهِمِ ، فَإِنْ انْقَضَ فَرْجُهُ أَوْ رِيحٌ لَهَا هِجْمٌ ،
وَأِنْ أَعْتَرَضَ فَشَفَقَ لَاحَ بِهِ لِلنَّجْمِ نَجْمٌ - وَأَصْفَرَ قَيْدَ الْأَوَايِدِ الْحَزَّ ، وَأَمْسَكَ الْحَاسِنَ
وَأَطْلَقَ الْغُرَّةَ ، وَسُئِلَ مَنْ أَنْتَ فِي قُودَادِ الْكَتَائِبِ ، وَأُولَى الْأَخْبَارِ الْعَجَائِبِ ،
فَقَالَ أَنَا الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرِهِ ، نَزَجَسَ هَذِهِ الْأَلْوَانِ ، فِي رِيَاضِ الْأَكْوَانِ ،
تَحِيًّا بِهِ وَجْهَ الْحَرْبِ الْعَوَانِ ، أَغَارَ بَخْوَةَ الصَّائِلِ ، عَلَى مُعْصَفَرَاتِ الْأَصَائِلِ فَارْتَدَّاهَا ،
وَعَمَدَ إِلَى خِيُوطِ شُعَاعِ الشَّمْسِ ، عِنْدَ جَانِحَةِ الْأَمْسِ ، فَالْحَمَّ مِنْهَا حُلَّتَهُ وَأَسْدَاها ،
وَأَسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ مَلِكُ الْحَاسِنِ فَا أَعْدَاها ، فَهُوَ أَصِيلٌ تَمَسَّكَ بِذَيْلِ اللَّيْلِ عُرْفُهُ

(١) الزيادة من الرينانة .

وَذَيْلُهُ ، وَكَوَكَبٌ يُطْلَعُهُ مِنَ الْقَتَامِ لَيْلُهُ ، فَيَحْسُدُهُ فَرَقَدَ الْأَفْقَ وَسَهْلُهُ - وَأَشْهَبَ
تَغَشَّى مِنْ لَوْنِهِ مُضَاضُهُ ، وَتَسْرَبَلُ مِنْهُ لَأَمَةٌ فَضْضَاضُهُ ، قَدْ أَحْتَفَلَ زَيْنُهُ ، لَمَّا رُقِمَ
بِالنَّبَالِ بَحْيْنُهُ ، فَهُوَ الْأَشْمَطُ ، الَّذِي حَقُّهُ لَا يُغْمَطُ ، وَالذَّرَاعُ الْمُسَارِعُ ، وَالْأَعْزَلُ
الدَّارِعُ ، وَرَاقِي الْحِضَابِ الْفَارِعُ ، وَمَكْتُوبُ الْكِتَابَةِ الْبَارِعُ ، وَأَكْرَمُ بِهِ مِنْ مُرْتَاضٍ
سَالِكٍ ، وَمُجْتَهِدٍ عَلَى غَايَاتِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مُتَهَالِكٍ ، وَأَشْهَبُ يَرَوِي مِنَ الْخَلِيفَةِ ،
ذِي الشِّيمِ الْمُنِيفَةِ ، عَنْ مَالِكٍ - وَحُبَّارِي كَلَّمَا سَابَقَ وَبَارِي ، أَسْتَعَارَ جَنَاحَ الْحُبَّارِيِّ ،
فَإِذَا أُعْجِلْتَ هَذِهِ الْحِسْبَةَ ، قِيلَ مِنْ هُنَا جَاءَتِ النَّسْبَةُ ، طَرَدَ النَّمِرُ ، لَمَّا عَظُمَ
أَمْرُهُ وَأَمِرُ ، فَنَسَخَ وَجُودَهُ بَعْدَمِهِ ، وَأَبْتَرَهُ الْقُرُوءَ ثُمَّ لَطَّخَهُ بِدَمِهِ ، وَكَأَنَّ مَضَاعِفَ
الْوَرْدِ تُثَرِّ عَلَيْهِ مِنْ طَبَقِهِ ، أَوْ الْفَلَكَ ، لَمَّا ذَهَبَ الْحَلَكُ ، مُزِجَ فِيهِ بَيَاضَ صُبْحِهِ بِحِمْرَةِ
شَفَقِهِ - وَقِرْطَاسِي حَقُّهُ لَا يَجْهَلُ ، حَتَّى مَاتَرَقَى الْعَيْنَ فِيهِ تَشْهَلُ ، إِنْ نُزِعَ عَنْهُ جُلُّهُ ،
فَهُوَ نَجْمٌ كُلُّهُ ، أَفْرَدَ بِمَادَّةِ الْأَلْوَانِ ، قَبْلَ أَنْ تَشُوْبَهَا يَدُ الْأَكْوَانِ ، وَتَمْزِجَهَا أَقْلَامُ
الْمَلَوَانِ ، يَتَقَدَّمُ مِنْهُ الْكِتَابَةُ الْمُقْبِلَةُ لَوَاءً نَاصِعٍ ، أَوْ أَبْيَضُ مِمَاصِعٍ ، لَيْسَ وَقَارَ
الْمَشِيبِ ، فِي رَيْعَانِ الْعُمَرِ الْقَشِيبِ ، وَأَنْصَبَتْ الْأَذَانُ مِنْ صَهْلِهِ الْمُطِيلِ الْمُطِيبِ ،
لَمَّا أَرْتَدَى بِالْبَيَاضِ إِلَى نَعْمَةِ الْخَطِيبِ ، وَإِنْ تَعَتَّبَ مِنْهُ لِلتَّأْخِيرِ الْمُتَعَتِّبُ ،
قَلْنَا الْوَأُولَا لَا تُرْتَّبُ ، مَا يَبِينُ بَخْلَ وَحَرِّهِ ، وَبَهْرْمَانَةِ وَدَرِّهِ ، وَيَا لَلَّهِ مِنْ آبَتْسَامِ غُرِّهِ ،
وَوُضُوحِ يَمِينِ فِي طَرِّهِ ، وَبَهْجَةِ اللَّعِينِ وَقُرِّهِ ، وَإِنْ وَلَّعَ النَّاسَ بِامْتِدَاحِ الْقَدِيمِ ،
وَخَصَّوْا الْحَدِيثَ بِقُرَى الْأَدِيمِ ، وَأَوْجَبَ الْمُتَعَصِّبُ ، وَإِنْ أَبِي الْمَنْصُوبِ ، مَرْتَبَةً
التَّقْدِيمِ ، وَطَمَحَ إِلَى رُتْبَةِ الْخَدُومِ طَرَفُ الْحَدِيدِ ، وَقُرْنِ الْمُثْرَى بِالْعَدِيمِ ، وَبُخْسِ
فِي سُوقِ الْحَسَدِ الْكَيْلِ ، وَدَجَى اللَّيْلِ ، وَظَهَرَ فِي فَلَكِ الْإِنْصَافِ الْمَيْلُ ، لَمَّا تَدَوَّكَرَتْ
الْحَلِيلُ ، بِغَيْءِ بِالْوَجْهِ وَالْخَطَّارِ ، وَالذَّائِدِ وَذِي الْخِمَارِ ، وَدَاحِيسِ وَالسَّكْبِ ،
وَالْأَيْجَرِ وَزَادَ الرُّكْبُ ، وَالْجُوحُ وَالْيَحْمُومُ ، وَالْكُيْتُ وَمَكْتُومُ ، وَالْأَعْوَجُ وَحُلُومُ ،

ولاحِقِ والغَضْبَانِ ، وعَفُورُ (؟) والزَّعْفَرَانِ ، والمحَبَرِ ، واللَّعَابِ ، والأَغْرُ والغُرَابِ ،
 وشُعْلَةُ والعُقَابِ ، والْقِيَّاضِ واليَعْبُوبِ [والمُذْهَبِ واليعسوب ، والصَّمُوتِ
 والقَطِيبِ ، وهَيْدَبِ والصَّبِيبِ وأَهْلُوبِ ^(١)] وَهَدَّاجِ ، والحُرُونِ وَخَرَّاجِ ، وَجَلُوى ،
 والجَنَاحِ والأُخُوى ، وَجَمَاجِ والعَصَا ، والنَّعَامِ ، والبَقَاءِ والحَمَامَةِ ، وَسَكَابِ والجَرَادَةِ ،
 وَحَوْصَاءُ ، والعَرَادَةِ . فكم بين الشاهدِ والغائبِ ، والفُرُوضِ والرَّغَائِبِ ؛ وَفَرَقُ مَا يَبْنِ
 الأَثَرِ والعِيَانِ ، غَيٌّ عن البَيَانِ ؛ وَشَتَانٌ بين الصَّرِيحِ والمُشْتَبِهِ ، والله القائلُ في مثلها
 « خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ » والناسخُ يَخْتَلِفُ به الحكمُ ، وَشَرُّ الدَوَابِّ عند
 التَّفْضِيلِ بين هذه الدَوَابِّ الصَّمُّ البُكْمُ ؛ إلا مَارَكَبَهُ نَبِيٌّ ، أو كَانَ لَهُ يَوْمُ الْإِفْتِخَارِ بِرَهَانِ
 خَبِيٍّ ، وَمُفَضِّلٌ مَا سَمِعَ عَلَى مَا رَأَى غَيٌّ ، فَلَوْ أَنْصَفَتْ مُحَاسِنُهَا الَّتِي وَصَفَتْ
 لِأَقْضَمَتِ حَبَّ الْقُلُوبِ عَلَقًا ، وَأُورِدَتْ مَاءَ الشُّبْنَةِ نَظْفًا ؛ وَأَتَّخَذَتْ لَهَا مِنْ عُذْرِ
 الخُدُودِ المِلاَحِ عُذْرَ مَوْشِيَةٍ ، وَعُلَّتْ بِصَفِيرِ أَلْحَانِ الْقِيَانِ كُلِّ عَشِيَةٍ ؛ وَأُنْعِلَتْ
 بِالْأَهْلَةِ ، وَغُطِّيتْ بِالرِّيَاضِ بَدَلِ الْأَجَلَةِ .

إلى الرقيقِ ، الخَلِيقِ بِالْحُسْنِ الْحَقِيقِ ، تَسْوِقُهُ إِلَى مَثْوَى الرِّعَايَةِ رَوْقَةُ الْقِيَانِ
 رِعَاتُهُ وَيُهْدَى عَقِيقُهَا مِنْ سَبَجِهِ أَشْكَالًا تَشْهَدُ لِلْمُخْتَرَعِ سَبْحَانَهُ بِإِحْكَامِ مُخْتَرَعَاتِهِ ،
 وَقَفَّتْ نَاطِرَ الْأَسْتِحْسَانِ لَا يَرِيْمُ ، لَمَّا بَهَرَهُ مَنَظَرُهَا الْكَرِيمِ ، وَتَخَامَلَ الظُّلُمُ وَتَضَاعَلَ
 الرِّيمُ ، وَأَحْرَسَ مَقُولُهُ اللِّسَانَ وَهُوَ بِمَلَكَاتِ الْبَيَانِ الْحَفِيفِ الْعَلِيمِ ، وَنَابَ لِسَانُ الْحَالِ ،
 عَنْ لِسَانِ الْمَقَالِ ، عِنْدَ الْأَعْتِقَالِ ، فَقَالَ يَخَاطَبُ الْمَقَامَ الَّذِي أَطْلَعَتْ أَزْهَارُهَا غَمَائِمُ
 جُودِهِ [وَأَقْضَتْ أَخْيَارُهَا بَرَكَةُ جُودِهِ ^(١)] : لَوْ عَلِمْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَصِيلُ ،
 الَّذِي كَرَّمَتْهُ مِنْهُ الْإِحْمالُ وَالتَّفْصِيلُ ؛ أَنَّ الثَّنَاءَ يُوزِيهَا لِكُنَّا لَكَ بِكَيْلِكَ ،

أو الشكر يُعَادِلُهَا وَيُجَازِيهَا لَتَعْرِضُنَا بِالْوَشَلِ إِلَى نَيْلِ نَيْلِكَ ، أَوْ قُلْنَا : هِيَ الَّتِي
أَشَارَ إِلَيْهَا مَسْتَصْرِخٌ سَلَفَكَ الْمُسْتَنْصِرُ بِقَوْلِهِ : أَدْرِكَ بِحَيْلِكَ ، حِينَ شَرِقَ بِدْفَعِهِ
الشَّرْقُ ، وَأَنْهَزَمَ الْجَمْعُ وَأَسْتَوَى الْفَرْقُ وَاتَّسَعَ فِيهِ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْخَرْقُ ، وَرَأَى أَنْ
مَقَامَ التَّوْحِيدِ بِالْمَظَاهِرَةِ عَلَى التَّثْلِيثِ ، وَحِزْبِهِ الْحَيِّثِ ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ .
وَالْآنَ قَدْ أَغْنَى اللَّهُ بَتْلَكَ النَّيَّهَ ، عَنْ إِنْجَادِ الطَّوَالِ الرَّدِيئَةِ ، وَبِالدَّعَاءِ مِنْ تِلْكَ
الْمَثَابَةِ الدِّينِيَّةِ إِلَى رَبِّ الْبَيْنَةِ ، عَنْ الْأُمْدَادِ السَّيِّئَةِ ، وَالْأَجْوَادِ تَخَوُّضِ بَحْرِ الْمَاءِ
إِلَى بَحْرِ الْمَنِيِّهَ ، وَعَنْ الْجُرْدِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَقَاوِدِ اللَّيْثِ الْأَبِيَّةِ . وَجَدَّدَ يَرْسَمُ هَذِهِ
الْهَدْيَةَ ، مَرَّاسِيمَ الْعُهُودِ الْوُدِّيَّةِ ، وَالذَّمَّ الْمُوَحَّدِيَّةِ ، لَتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى الْأَصْلِ ،
وَمَكْدَبَةً لِدَعْوَى الْوَقْفِ وَالْفَصْلِ ، وَإِشْعَارًا بِالْأَلْفَةِ الَّتِي لَا تَزَالُ أَلْفُهَا أَلْفَ الْوَصْلِ ،
وَلَا مُهَا حَرَامًا عَلَى النَّصْلِ .

وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْنَا رَسُولُكُمْ فَلَانَ فَقَرَّرَ مِنْ فَضْلِكُمْ ، مَا لَا يُنْكِرُهُ مَنْ عَرَفَ عُلُوَّ
مِقْدَارِكُمْ ، وَأَصَالَةَ دَارِكُمْ ، وَفَلَكَ إِبْدَارِكُمْ ، وَقُطْبَ مَدَارِكُمْ ، وَأَجْبَنَاهُ عَنْهُ يُجْهِدُ مَا كُنَّا
لِنَقْنَعُ مِنْ حَنَاهُ الْمَهْتَصِرِ ، بِالْمَقْتَضَبِ الْمُخْتَصِرِ ، وَلَا تُقَابِلَ طُولَ طَوْلِهِ بِالْقِصَرِ ،
لَوْلَا طُرُوءُ الْحَصْرِ .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْأَسْلَافِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانُهُ - وَدُّ أُرِمَتْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ
مَعَاقِدُهُ ، وَوُثِّرَتْ لِحُلُوصِ ، الْجَلِيِّ النَّصُوصِ ، مُضَاجِعُهُ الْقَازَةِ وَمَرَاقِدُهُ ، وَتَعَاهُدُ
بِالْجَمِيلِ تَوَجَّعَ لِفَقْدِهِ فَاقِدُهُ ؛ أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ ،
وَالْعُطْفُ بِتَوْكِيدِهِ ؛ فَنَحْنُ الْآنَ لَا نَدْرِي أَيُّ مَكَارِمِكُمْ نَذْكُرُ ، أَوْ أَيُّ فَوَاضِلِكُمْ نَشْرَحُ
أَوْ نَشْكُرُ ، أَمْفَاتُحْتُمْ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِيقَةِ فَتَحٌ ، أَمْ هَدِيَّتِكُمْ وَفِي وَصْفِهَا لِلْأَقْلَامِ
سَبْحٌ ، وَلَعَدُوِّ الْإِسْلَامِ بِحِكْمَةٍ حَكْمَتُهَا كَبْجٌ ، إِنَّمَا نَكُلُّ الشُّكْرَ لِمَنْ يُوفِّي جَزَاءَ الْأَعْمَالِ

البرّة، ولا يَخْسُ مثقالَ الذّرة ولا أدنى [من] مثقالِ الذّره، ذى الرحمة الثّرة، والألطف المتصلة المستمرة ، لا إله إلا هو .

وإن تَسَوَّقَم إلى الأحوال الراهنة ، وأسباب الكُفْر الواهية بقدره الله الواهنة ؛ فنحن نُطَرِّفكم بِطَرَفِها ، ونُطْلِعكم على سبيل الإجمال بِطَرَفِها ؛ وهو أننا لمّا أعاد الله من التّحيص ، إلى مثابة التّخصيص ، من بعد المَرَام العويص ؛ كحلّنا بتوفيق الله بَصَر البصيرة ، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القَصِيره ؛ ورأينا كما نُقَل إلينا ، وكرّر على مَنْ قَبْلنا وعلينا ؛ أَنَّ الدنيا - وإن غَزَّ الغُرور ، وأنام على سُرُر الغفلة السُّرور ؛ فلم ينفع الخُطور على أجداث الأحباب والمُرور - جَسْرُيَعْبَر ، ومتاع لا يُعْبِط من حَيّ به ولا يُجْبَر ، إنما هو خبر يُجْبَر ، وأن الحَسرة بمقدارها على تركه تجبر ؛ وأنّ الأعمار أحلام ، وأنّ الناس نِيَام ؛ ورُبّما رَحَلَ الراحل عن الخان ، وقد جَلَّه بالأذى والدَّخان ؛ أو ترك به طِينا ، وشاء يقوم بعده لآتى خَطِيبا ؛ فجعلنا العدل في الأمور مِلّاكا ، والتفقد للثُّغور مِسْواكا ؛ وَصَجِّع المِهَاد ، حديث الجهاد ، وأحكامه مَنَاط الاجتهاد ، وقوله : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ)) من مُجِج الاستشهاد ، وبادرنا من الحصون المضاعة وجنح التّقية دامس ، وسا كُنْها بَأْس ، والأعصم في شَعَفَاتِها من العِصمة يَأْس ؛ فزَيَّنَّا بِيض الشُّرُفَات ، ثنایاها ، وأفعمتنا بالعذب الفُرات ، رَكَاياها ؛ وغَشَّينا بالصّفيح المضاعف أبوابها ، وأحسبنا عند مَوْقِ الأجور ثوابها ، وبيّضنا بناصع الكِلْس أبوابها ؛ فهي اليوم تُوهَم حَس العيان ، أنها قِطْع من بِيض العنان ، تكاد تَتَاوَل قُرْص البدر بالبَنان ، متكفّلة للؤمن من فَرع الدنيا والآخرة بالأمان ؛ وأقْرَضنا الله قَرْضا ، وأوسعنا مَدُونَةَ الجيش عَرْضا ، وفرضنا إنصافه مع الأهله فرضا ؛ وأستندنا من التوكل على الله الغنى الحميد إلى ظِلّ لواء ،

وَنَبِّدْنَا إِلَى الطَّاغِيَةِ عَهْدَهُ عَلَى سَوَاءٍ ، وَقُلْنَا : رَبَّنَا أَنْتَ الْعَزِيزُ وَكُلُّ جَبَّارٍ لِعِزِّكَ ذَلِيلٌ ، وَحِزْبُكَ هُوَ الْكَثِيرُ وَمَا سِوَاهُ قَلِيلٌ [أَنْتَ الْكَافِي ، وَوَعْدُكَ الْوَعْدُ الْوَاقِي ، فَأَقْضِ عَلَيْنَا مَوَازِعَ الصَّابِرِينَ ^(١)] وَكَثُبْنَا مِنَ الْفَائِزِينَ بِحُطُوظِ رِضَاكَ الظَّافِرِينَ ، وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

فَنَحَرْنَا أُولَى الْحَرَكَاتِ ، وَفَاتَحْنَا مُصْحَفَ الْبَرَكَاتِ ، فِي خِيفٍ مِنَ الْحُشُودِ ، وَأَقْتَصَرْنَا عَلَى مَا بَحْضَرْتَنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمَظْفَرَةِ وَالْجُنُودِ ، إِلَى حِصْنِ آشِ الْبَازِي الْمِطْلِ ، وَرَكَابِ الْعُدُوِّ الضَّالِّ الْمِضْلِ ، وَمُهْدَى نَفَثَاتِ الصَّلِّ ، عَلَى أَمْتِنَا وَارْتِفَاعِهِ ، وَسُمُوفِ قَاعِهِ ، وَمَا بَدَّلَ الْعُدُوِّ فِيهِ مِنْ أَسْتَعْدَادِهِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْلِحَتِهِ وَأَزْوَادِهِ ، وَأَنْتَخَابِ أَنْجَادِهِ ، فَصَلَّيْنَا بِنَفْسِنَا نَارَهُ ، وَزَاخْنَا عَلَيْهِ الشُّهَدَاءُ نُصَابِرُ أَوَارِهِ ، وَتَلَقَّيْنَا بِالْجَوَارِحِ الْعَزِيزَةِ سَهَامَهُ الْمَسْمُومَةَ ، وَجَلَامِدَهُ الْمَلُومَةَ ، وَأَحْجَارَهُ ، حَتَّى فَرَعْنَا بِحَوْلٍ مَنْ لَاحَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ أَبْرَاجَهُ الْمُنِيعَةَ وَأَسْوَارَهُ ، وَكَفَفْنَا عَنِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ أَضْرَارَهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَضَفْنَا إِلَيْهِ حِصْنَ السَّهْلَةِ جَارَهُ ، وَرَحَلْنَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ شَتَّاهُ رَابِطَةً وَحَامِيَهُ ، وَأَزْوَادًا نَامِيَهُ ، وَعَمَلْنَا بَيْنَنَا فِي رَمِّ مَائِلَمِ الْقِتَالِ ، وَبَقَرْنَا مِنْ بَطُونِ مَسَالِحِهِ الرِّجَالَ ، وَأَقْنَدَيْنَا بِنَبِينَا صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامِهِ فِي الْخَنْدَقِ لَمَّا حَيَّ ذَلِكَ الْحَجَّالُ ، وَوَقَعَ الْأَرْتِجَازُ الْمُنْقُولُ خَبْرَهُ وَالْأَرْتِجَاجُ ، وَمَا كَانَ لِيَقَرَّ لِلْإِسْلَامِ مَعَ تَرْكِهِ الْقَرَارِ ، وَقَدْ كُتِبَ الْجَوَارِ ، وَتَدَاعَى الدَّعْرَةُ وَتَعَاوَى الشَّرَارُ .

وَكَأَنَّ أَغْرَيْنَا الْجَهْمَةَ الْغَرِيبَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَدِينَةِ بُرْغَةِ الَّتِي سَدَّتْ بَيْنَ الْقَاعَتَيْنِ : مَالَقَةً وَرُنْدَةً الطَّرِيقِ ، وَأَلْبَسَتْ دُلَّ الْفِرَاقِ ذَلِكَ الْفَرِيقَ ، وَمَنْعَتْهُمَا أَنْ يُسَيِّغَا الرِّيقَ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْإِلْسَامِ ، لَطِيفِ الْمَنَامِ فِي الْأَحْلَامِ ، وَلَا رِسَالَةَ إِلَّا فِي أَجْنَحَةِ

هَدَى الْحَمَامُ ، فَيَسَّرَ اللَّهُ فَتَحَهَا ، وَعَجَّلَ مَنَحَهَا ، بَعْدَ حَرْبٍ أُنْبَتَتْ فِيهَا النُّحُورُ ،
وَتَزَيَّنَتْ الْجُورُ ، وَتَبَعَ هَذِهِ الْأُمُّ بَنَاتُ شَهِيدِهِ ، وَبُقِعَ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ خَيْرُهُ ، فَشُنِفِي
النَّغْرَ مِنْ بُوْسِهِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الْإِسْلَامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ بَعْدَ عُبُوسِهِ .

ثُمَّ أَعْمَلْنَا الْحَرَكَةَ إِلَى مَدِينَةِ الْحَزِيرَةِ عَلَى بُعْدِ الْمَدَى ، وَتَعَلَّقَهَا عَلَى بِلَادِ الْعِدَا ،
وَأَقْتَحَمَ هَوْلَ الْفَلَا وَغَوْلَ الرِّدَا ، مَدِينَةً بَنَتْهَا حِمصٌ فَأَوْسَعَتِ الدَّارَ ، وَأَغْلَتِ الشَّوَارَ ،
وَرَاعَتْ الْأَسْتِكْثَارَ ، وَبَسَطَتْ الْأَعْتَارَ ، رَجَّحَ إِلَيْنَا قَصْدَهَا عَلَى الْبُعْدِ ، وَالطَّرِيقِ
الْجَعْدِ ، مَا أَسَفَتْ بِهِ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ اسْتِئْصَالِ طَائِفَةٍ مِنْ أَسْرَاهُمْ مَرُّوا بِهَا آمِنِينَ ،
وَبَطَائِرِهَا الْمَشُومِ مَتِيمِينَ ، قَدْ أَنَهَكَهُمُ الْأَعْتِقَالُ ، وَالْقِيُودُ الثَّقَالُ ، وَأَضْرَعَهُمُ
الْإِسَارُ ، وَجَلَّلَهُمُ الْإِنْكَسَارُ ، بَخَدْلُوهُمْ فِي مَصْرِعٍ وَاحِدٍ ، وَتَرْكُوهُمْ عِبْرَةً لِلرَّائِي
وَالْمُشَاهِدِ ، وَأَهْدُوا بِوَقِيعَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ تُكَلُّ الْوَاحِدُ ، وَتِرَّةُ الْمَاجِدِ ، فَكَبَسْنَاهَا
كَبَسًا ، وَخَفَّانَاهَا بِإِلْهَامٍ مِنْ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى ، فَصَبَّحَتْهَا الْخَلِيلُ ، ثُمَّ تَلَا حَقَّ الرَّجُلِ
كَمَا جَنَّ اللَّيْلُ ، وَحَاقَ بِهَا الْوَيْلُ ، فَأُبَيْحَ مِنْهَا الدَّمَارُ ، وَأَخَذَهَا الدَّمَارُ ، وَخُحِقَتْ
مِنْ مَصَانِعِهَا الْبَيْضُ الْأَهْلَةُ وَخُسِفَتِ الْأَقْفَارُ ، وَشُفِيتِ مِنْ دِمَاءِ أَهْلِهَا الضُّلُوعُ
الْحَرَارُ ، وَسَلَطَتْ عَلَى هَيَاكِلِهَا النَّارُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْأَلْفِ الْعَدِيدَةِ مِنْ سِنِّيهَا
الْإِسَارُ ، وَاتَّهَتْ إِلَى إِشْيِيلِيَّةِ الثَّكْلَى الْمَغَارُ ، بَخَلَّلَ وَجْهَهُ مَنْ بَهَا مِنْ كِبَارِ النُّصْرَانِيَةِ
الصَّغَارُ ، وَاسْتَوْلَتْ الْأَيْدَى عَلَى مَا لَا يَسْعُهُ الْوَصْفُ وَلَا تَقْلُهُ الْأَوْقَارُ .

وَعُدْنَا وَالْأَرْضُ تَمُوجُ سَبِيًا ، لَمْ تَتْرُكْ بَعِثْرَيْنِ شِبْلًا وَلَا بَوْجَرَةً ظِيًّا ، وَالْعَقَائِلُ
حَسْرَى ، وَالْعَيُونُ تَبْهَرُهَا الصُّبْعُ الْأَسْرَى ، وَصُبْحُ الْأَسْرَى قَدْ حُمِدَ مِنْ بَعْدِ بَعْدِ الْمَسْرَى ،
فُسْبَحَانَ الَّذِي أَسْرَى . [وَلِسَانُ الْحَمِيَّةِ يُنَادِي ، فِي تِلْكَ الْكَائِثِ الْخُتْرَةِ وَالنُّوَادِي ،
يَا لِنَارَاتِ الْأَسْرَى] ^(١) .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

ولم يكن إلا أن نُفِلَت الأنفال ، وُوسِمَت بالأرضاخ الأغفال ، وتميزت الهوادى والأكفال ، وكان إلى غزو مدينة جَيَّان الاحتفال ؛ قدنا إليها الجُرد تَلَاعِبَ الظلالِ نَشَاطًا ، والأبطال تَفَتِّحَ الأخطارِ رِضًا بما عند اللهِ وَاعْتِبَاطًا ، والمهَنَدَةُ الزُّرْقُ تَسْبِقُ إلى الرقابِ آسْتِلَالًا واختراطًا ، والرُّدَيْنِيَّةُ السُّمُرُ تسترط حياة النفوسِ آسْطَرَاطًا ، وأزحنا العِلَلَ عَمَّنْ أرادَ جِهَادًا مُنْجِيَا غُبَارِهِ من دُخَانِ جَهَنَّمَ وَرِبَاطًا ؛ ونَادَيْنَا الجِهَادَ الجِهَادَ ، يَا أُمَّةَ الجِهَادِ ، رَايَةَ النَّبِيِّ الْهَادِ ، الْجَنَّةُ الْجَنَّةُ تحت ظلالِ السيوفِ الْحِدَادِ ؛ فَهَزَّ الندَاءُ إلى الله تعالى كُلَّ عامرٍ وغامرٍ ، وَأَثْمَرَ الْجَمُّ من دعوة الحقِّ إلى أَمْرِ أَمْرٍ ، وَأَتَى الناسَ من الفُجُوجِ العميقةِ رِجَالًا وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ؛ وكاثرتِ الراياتُ أَزْهَارَ الْبِطَاحِ لَوْنًا وَعَدَا ، وَسَدَّتِ الحُشُودُ مسالكَ الطريقِ العريضةِ سَدًّا ؛ ومدَّ بِحَرْهَا الزَّاحِرُ مَدًّا ، فلا يجد لها الناظرُ ولا المناظرُ حَدًّا .

وهذه المدينةُ هِيَ الأُمُّ الْوُلُودِ ، وَالْجَنَّةُ الَّتِي فِي النَّارِ لُسُكَّانُهَا من الكُفَّارِ الْخُلُودِ ؛ وَكُرْسِيُّ الْمُلْكِ وَمَجْنِبَتُهُ الْوَسْطَى من الممالكِ بَاءَتْ بِالْمَزَايَا العديدةِ وَنَجَحَتْ ، وَعِنْدَ الْوِزَانِ بغيرِهَا من أُمَمَاتِ الْبُلْدَانِ رَجَحَتْ ؛ غَابَ الْأَسُودُ ، وَجَحَرَ الْحَيَّاتُ السُّودُ ؛ وَمَنْصَبُ التَّمَائِيلِ الْهَائِلُ ، وَمَعْلَقُ النِّوَاقِيسِ الصَّائِلُ .

وَأَدْنَيْنَا إِلَيْهَا الْمَرَاحِلَ ، وَعَيْنًا لَتُجَارِ الْمَحَلَّاتِ الْمُسْتَقْلَاتِ مِنْهَا السَّاحِلُ ؛ وَلَمَّا أَكْثَبْنَا جَوَارَهَا ، وَكِدْنَا نَلْمَحُ نَارَهَا ، تَحَرَّكْنَا وَوَشَّاحُ الْأَفْقِ الْمَرْقُومُ ، بَزَهَرَ النُّجُومُ ، قَدْ دَارَ دَائِرُهُ ؛ وَاللَّيْلُ من خَوْفِ الصَّبَاحِ ، عَلَى سَرَّحِهِ الْمُسْتَبَاحِ ، قَدْ شَابَتْ غَدَائِرُهُ ، وَالنَّسْرُ يَرْفِرُ بِالْيَمَنِ طَائِرُهُ ، وَالسَّمَاءُ الرَّاحُ يَنَارُ تَغْرِ الْإِسْلَامِ نَائِرُهُ ؛ وَالتَّعَائِمُ رَاعِدَةٌ فَرَائِصُ الْجَسَدِ ، من خَوْفِ الْأَسَدِ ؛ وَالْقَوْسُ يُرْسِلُ سَهْمَ السَّعَادَةِ ، بَوْتَرِ الْعَادَةِ ، إِلَى أَهْدَافِ التَّعَمُّعِ الْمَعَادَةِ ؛ وَالْجُوزَاءُ عَابِرَةٌ نَهْرَ الْحَجَرَةِ ، وَالزُّهْرَةُ تَغَارُ من الشَّعْرِى الْعُبُورِ بِالضَّرَةِ ؛

وَعُطَارِدُ يُسَدِّي فِي حَيْلِ الْحُرُوبِ عَلَى الْبَلَدِ الْمَحْرُوبِ وَيُلْحِمُ ، وَيُنَظِرُ عَلَى أَشْكَالِهَا
الْمُهَنْدِسِيَّةِ فَيُفْجِمُ ، وَالْأَحْمَرُ يَبْهَرُ ، وَالْعَلَمُ الْأَبْيَضُ يَقْرَى وَيَنْهَرُ ؛ وَالْمَشْتَرَى يُدِي فِي فَضْلِ
الْجِهَادِ وَيُعِيدُ ، وَيُزَاحِمُ فِي الْخَلْفَاتِ عَلَى مَالِ السَّعَادَةِ مِنَ الصِّفَاتِ وَيَزِيدُ ؛ وَزُحَلُ
عَلَى الطَّالِعِ مَزْحَلُ ، وَعَنْ الْعَاشِرِ مَرْتَحَلُ ، وَفِي زَلَقِ السَّقُوطِ وَحَلُ ، وَالْبَدْرُ
يُطَارِحُ حَجَرَ الْمُنْجِنِقِ ، كَيْفَ يَهْوِي إِلَى النَّيْقِ ؛ وَمَطْلَعُ الشَّمْسِ يَرْقُبُ ، وَجِدَارُ
الْأَفْقِ يَكَادُ بِالْعُيُونِ عَنْهَا يُنْقَبُ .

وَلَمَّا فَشَا سِرُّ الصَّبَاحِ ، وَاهْتَرَّتْ أَعْطَافُ الرِّيَاطِ لِنَحِيَّاتِ مَبَشِّرَاتِ الرِّيَاحِ ؛ أَطْلَلْنَا
عَلَيْهَا إِطْلَالَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْفَرَائِسِ ، وَالْفُحُولِ عَلَى الْعُرَائِسِ ؛ فَنَظَرْنَا مَنَظَرًا يَرُوعُ بِأَسَا
وَمَنَعَهُ ، وَيُرِوقُ وَضْعًا وَصَنَعَهُ ؛ تَلَفَّعَتْ مَعَاقِلُهُ الشَّمَّ لِلْسَّحَابِ بِرُودٍ ، وَوَرَدَتْ مِنْ
غَدِيرِ الْمُزْنِ فِي بُرُودٍ ، وَأَسْرَعَتْ لِاخْتِطَافِ أَزْهَارِ النُّجُومِ وَالذَّرَاعِ بَيْنَ النِّطَاقِ مَعَاصِمُ
رُودٍ ؛ وَبَلَدًا يُعْيِي الْمَاسِجَ وَالذَّرَاعَ ، وَيَنْتَظِمُ الْحَاثِي وَالْأَجَارِعَ ؛ فَقُلْنَا : اللَّهُمَّ نَفْلُهُ أَيْدِي
عِبَادِكَ ، وَأَرَنَا فِيهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ جِهَادِكَ ؛ فَزَلْنَا بِسَاحَتِهَا الْعَرِيضَةِ الْمُتُونِ ، نُزُولَ
الْغَيْثِ الْهَتُونِ ؛ وَتَيَمَّنَّا مِنْ فَحْصِهَا الْأَفْجِجِ بِسُورَةِ التِّينِ وَالزُّرْتُونِ ، مَتَرَبَةً مِنْ أَمَانِ
الرَّحْمَنِ لِلْبَلَدِ الْمَفْتُونِ ؛ وَأَعْجَلْنَا النَّاسَ بِحِمَّةِ نَفُوسِهِمُ النَّفِيسَةِ ، وَسَحِيَّةِ شَجَاعَتِهِمُ الْبَيْيسَةِ ؛
عَنْ أَنْ نُبَوِّئَ لِلْقِتَالِ الْمَقَاعِدَ ، وَنُدْنِي بِإِسْمَاعِ شَمِيرِ النَّفِيرِ مِنْهُمْ الْأَبَاعِدَ ؛ وَقَبْلَ أَنْ يَلْتَقِيَ
الْخَلْدِيمُ بِالْمَخْدُومِ ، وَيَرْكَعَ الْمُنْجِنِقُ رُكْعَتِي الْقُدُومِ ؛ فَدَفَعُوا مَنْ أَصْحَرَالِيهِمْ مِنَ الْقُرْصَانِ ،
وَسَبَقَ إِلَى حَوْمَةِ الْمِيدَانِ ؛ حَتَّى أَجْحَرُوهُمْ فِي الْبَلَدِ ، وَسَلَبُوهُمْ لِبَاسَ الْجِلْدِ ؛ فِي مَوْقِفِ
يُذْهِلُ الْوَالِدَ عَنِ الْوَلَدِ ؛ صَارَتْ السَّهَامُ فِيهِ غَمَامًا ، وَطَارَتْ كَأَسْرَابِ الْحَمَامِ تُهْدِي
حِمَامًا ؛ وَأَضْحَتْ الْقَنَا قَصْدًا ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ شِهَابًا رَصْدًا ؛ وَمَاجَ بَحْرُ الْقِتَامِ بِأَمْوَاجِ
النُّصُولِ ، وَأَخَذَ الْأَرْضَ الرَّجْفَانُ لَزْزَالِ الصَّبَاحِ الْمَوْصُولِ ؛ فَلَا تَرَى إِلَّا شَهِيدًا

تُظَلِّلُ مَصْرَعَهُ الْحُورُ، وَصَرِيحًا تَقْدِفُ بِهِ إِلَى السَّاحِلِ أَمْوَاجُ تِلْكَ الْبُحُورِ، وَنَوَاشِبُ
تَبَائِي بِهَا الْوُجُوهُ الْوَحِيهَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَالنُّحُورُ، فَلَمِيقْضِ، فَوَدَّه يُخَضَّبُ، وَالْأَسْمَرُ،
غُصْنُهُ يَسْتَشْمَرُ، وَالْمَغْفَرُ، حِمَاهُ يَخْفَرُ، وَظُهُورُ الْقِسِيِّ تُقْصَمُ، وَعِصَمُ الْجُنْدِ الْكَوَافِرُ
تُقْصَمُ، وَوَرَقُ الْيَلْبِ، فِي الْمَتَقَلْبِ، يَسْقُطُ، وَالْبُتْرُ تَكْتَبُ وَالسُّمْرُ تَنْقُطُ، فَاقْتَحِمِ
الرَّبِضُ الْأَعْظَمُ لِحِينِهِ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ لَعْيُونَ الْمُبْصِرِينَ وَالْمُسْتَبْصِرِينَ عِزَّةَ دِينِهِ،
وَتَبَرَّأَ الشَّيْطَانُ مِنْ حَدِيثِهِ، وَنُهِبَ الْكُفَّارُ وَخُذِلُوا، وَبُكِّلَ مَرَصِدُ جُدُلُوا، ثُمَّ دُخِلَ
الْبَلَدُ بَعْدَهُ غَلَابًا، وَجُلِّلَ قِتَالًا وَاسْتِلَابًا، فَلَا تَسْلُ، إِلَّا الظُّبَى وَالْأَسْلُ، عَنْ قِيَامِ
سَاعَتِهِ، وَهَوْلِ يَوْمِهَا وَشَنَاعَتِهِ، وَتَخْرِيْبِ الْمَبَائِتِ وَالْمَبَانِي، وَغِيَا الْأَيْدِي مِنْ خَرَائِنِ
تِلْكَ الْمَغَانِي، وَنَقْلِ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ إِلَى الْوُجُودِ الثَّانِي، وَتَخَارُقِ السَّيْفِ بِخَاءِ بَغِيرِ
الْمَعْتَادِ، وَهَلَّتِ الْقَنَا الرُّدَيْنِيَّةُ مِنَ الدَّمَاءِ حَتَّى كَادَتْ تُورِقُ كَالْأَغْصَانِ الْمُعْتَرِسَةِ وَالْأَوْتَادِ،
وَهَمَّتْ أَفْلَاكُ الْقِسِيِّ وَصَحَّتْ، وَأُرْنَتْ حَتَّى بَحَّتْ، وَنَفِدتْ مَوَادُّهَا فَشَحَّتْ
بِمَا أَلَحَّتْ، وَسَدَّتِ الْمَسَالِكَ جُثُثُ الْقَتْلِ فَمَنَعَتِ الْعَايِرَ، وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ مِنْ عَدُوِّهِ
الشَّافَةَ وَقَطَعَ الدَّائِرَ، وَأَزْلَفَ الشَّهِيدَ وَأَحْسَبَ الصَّابِرَ، وَسَبَقَتْ رُسُلُ الْفَتْحِ الَّذِي
لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْغَايِرِ، تَنْقُلُ الْبُشْرَى مِنْ أَفْوَاهِ الْحَايِرِ، إِلَى آذَانِ الْمَنَابِرِ.

أَقْنَاهَا أَيَّامًا نَعْفُرُ الْأَشْجَارَ، وَنَسْتَأْصِلُ بِالتَّخْرِيبِ الْوَجَارَ، وَلِسَانُ الْإِنْتِقَامِ،
مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، يُنَادِي بِالنَّارَاتِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ تَسْفِيًا مِنَ الْفُجَّارِ، وَرَعِيًا لِحَقِّ
الْجَارِ، وَقَفَلْنَا وَأَجْنَحَةُ الرَّايَاتِ، بِرِيَاكِ الْعِنَايَاتِ، خَافَقَهُ، وَأَوْفَاقُ التَّوْفِيقِ،
النَّاشِئَةُ مِنْ خُطُوطِ الطَّرِيقِ، مُوَافَقَهُ، وَأَسْوَاقُ الْعِزِّ بِاللَّهِ نَافَقَهُ، وَحَمَلَاءُ الرِّفْقِ
مُصَاحِبُهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - مُرَافِقَهُ، وَقَدْ ضَاقَتْ ذُرُوعُ الْجِبَالِ، عَنْ أَعْنَاقِ الصُّمْبِ
السَّبَالِ، وَرُفِعَتْ عَلَى الْإِكْفَالِ، رُدَفَاءُ كَرَائِمِ الْأَنْفَالِ، وَقُلِقِلْتُ مِنَ النِّوَاقِيسِ أَجْرَامُ

الجبال بالهندام والاحتفال ، وهلك بمهلك هذه الأم بنات كُنَّ يرضعن نُدِيَّها الحوافل
ويستورن حجَّرها الكافل ؛ شمل التخريب أسوارها ، وعجَّلت النار بوارها .

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح ، وأرسلنا دلاء الإدلال قبل المنح ، فبشرت بالمنح ؛
وقصدنا مدينة أبدَّة وهي ثمانية الجناحين ، وكُبرى الأختين ، ومساهمة جيان
في حين الحين ؛ مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق ، وتمشت فيه أرباضها تمشي
الكتابة الجاححة في المهرق ؛ المشتمة على المتأجر والمكاسب ، والوضع المتناسب ،
والقلج المعني ريعه عمل الحاسب ، وكوارة الدبر اللاسب ، المتعددة اليعاسب ؛
فأناخ العفاء بربوعها العامرة ، ودارت كُوس عقار الحُوف ، بنان السيوف ،
على متديريها المعاقرة ، وصبحتها طلائع الفاقرة ، وأغریت ببطون أسوارها عوج
المعاول الباقرة ؛ ودخلت مدينتها عنوة السيف ، في أسرع من خطرة الطيف ؛
ولا تسأل عن الكيف ؛ فلم يبلغ العفاء من مدينة حافله ، وعقيلة في حلل المحاسن
رافله ؛ ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت لآلهة النيران أبراجها ، وتضاعل بالرغام
معراجها ؛ وضفت على أعطافها ملائس الخذلان ، وأقفر من كنائسها كُاس
الغزلان .

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين الوافرة ، وربَّة الشُّهرة السافرة ؛
[والأنباء المسافرة] ^(١) قُرْطبة وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحالية الكاسية ، والأطواد
الرائحة الراسية ، والمباني المباهية والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية ؛ حيث هالة
بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ؛ ونهر المجرة من نهرها الفيض ،
المسلول حسامه من عمود الفيض ؛ قد لصق بها جارا ، وفلك الدُّولاب المعتدل

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الانقلاب قد استقام مدارا، ورجع الحنين أشيقا إلى الحبيب الأول وأدكارا؛
 حيث الطود كالنّاج، يزدان بلجين العذب المجاج؛ فيزرى بتاج كسرى ودارا؛ حيث
 قسي الجسور المديرة، كأنها عوج المطى الغريرة، تعبر النهر قطارا؛ حيث آثار العامرى
 المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد، شدى منعطارا؛ حيث كرائم السحاب، تزور عرائس
 الرياض الحباب، فتحمل لها من الدرّ نثارا؛ حيث شمول الشمال تدار على الأدواح؛
 بالغدو والرواح، فترى الفصون سكارى وماهى بسكارى؛ حيث أيدي الافتتاح،
 تقتض من شقائق البطاح، أبكارا؛ حيث ثغور الأفاج الباسم، تقبلها بالسحر
 زوار النواسم، فتخفي قلوب النجوم الفيارى، حيث المصلّى العتيق قد رحب مجالا
 وطال منارا، وأزرى ببلاط الوليد احتقارا؛ حيث الظهور المثاره بسلاح الفلاح
 تجب عن مثل أسنمة المهارة، والبطون كأنها لتدميت الغائم بطون العذارى، والأدواح
 العالية تخترق أعلامها الهادية بالحدّاول الخبارا؛ فاشئت من جو صقيل،
 ومعرّس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل. ونحوائل كم فيها للبلابل من قال وقيل،
 وخفيف يحاوب بثقيل. وسنابل تحكى من فوق سوقها، وقضب بسوقها، الهمزات
 فوق الألفات، والعصافير البديعة الصفات، فوق القضب المؤتلفات، تميل بهبوب
 الصبا والجنوب، مائلة الجيوب بذرر الجيوب. وبطاح لا تعرف عين المحل، فتطلبه
 بالدحل؛ ولا تصرف فى خدمة بيض قباب الأزهار، عند افتتاح السوسن والبهار؛
 غير العبدان من سودان النخل، وبحر الفلاحة الذى لا يدرك ساحله، ولا يبلغ
 الطية البعيدة راحله، إلى الوادى، وسمّر النوادى، وقرار دموع الغوادى؛ المتجاسر
 على تخطيه، عند تمطيه، الجسر العادى؛ والوطن الذى ليس من عمرو ولازيد،

والفرا الذى فى جوفه كل صيد؛ أقل كرسى خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر
دار السلام، وما عسى أن تطنب فى وصفه السنة الأقالام، أو تعبّر به عن ذلك الكمال
فنون الكلام .

فأعلمنا إليها السرى والسير، وقُذنا إليها الخيل وقد عقد الله بنواصياها الخير .

ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب، وأصطفقنا بخارجها المنيب المنجب؛
والقلوب تلمس الإعانة من منعم مجزل، وتستزِل مدد الملائكة من مُنجد مُزِل،
والراكب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد فى معاهد الإسلام: قفّا نبك من ذكرى
حبيب ومزِل - برز من حاميتها الحامية، ووقود النار الحامية، وبقية السيف
الوافرة على الحصاد النامية، قطع الغائم الهامية، وأمواج البحور الطامية، وأستجنت
بظلال أبطال المجال أعداد الرجال الناشبة والرامية؛ وتصدى للزَلال، من صناديدها
الصهب السبال، أمثال الحضاب الراسية، تجنّأجنّ السوابغ الكاسية؛ وقواميسها
المفادية للصلبان يوم بوسها بئفوسها المواسية، وخنازيرها التى عدتها عن قبول
مُحجج الله ورسوله ستور الظلم الغاشية، وصُحُور القلوب القاسية؛ فكان بين الفريقين
أمام جسرها الذى فرق البحر، وحلّى بلجينه ولائى زينه منها التحر؛ حرب لم تَسج
الأزمان على منوالها، ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها؛ من قاسها بالفجار
أفك وجرّ، أو مثّلها بجفر الهباءة تحرف وهجر، ومن شَبَّها بحرب داحس والغبراء
فما عرّف الخبر، فليسأل من جرّ وخبر؛ ومن نظَّرها بيوم شعب جبّله، فهو
دوبله؛ أو عادتها بطن عاقل، فغير عاقل؛ أو أحتجّ بيوم ذى قار، فهو إلى المعرفة
ذو افتقار؛ أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه [غير السديد]، إنما كان مقاما غير مُعتاد،
(١)

ومرعى نفوس لم يف بوصفه لسان مُرتاد، وزلزال جبال أوتاد، ومتلف مدخور
 لسلطان الشيطان وعتاد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر وتاود الأسمر العاسل،
 ودوم الجلمد المتكاسل، وأنبت من حذب الحنية إلى هدف الرمية الناصر الناسل،
 ورؤيت لمرسلات السهام المراسل، ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك،
 ونشبت الأسنة في الدروع نشب السمك في الشباك، ثم اختلط المرعى بالهمل،
 وعزل الرديني عن العمل، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا، بعد أن شقت
 عُذر السوانج خلجانا، وأتحدت جداول الدروع فصارت بحرا، وكان التعائق فلا ترى
 إلا نحرًا يلازم نحرًا، عناق وداع، وموقف شمل ذي أنصداع، وإجابة مناد إلى
 فراق الأبد وداع، وأستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفافة، وهبت بريح النصر
 الطلائع المبشرة الحفافة، ثم أمد السيل ذلك العباب، وصقل الاستبصار الأبواب،
 وأستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَأَصْبَحَتْ
 طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، ففارقهم قد رضى حرماتها بالاعقار،
 ورؤسهم مخطوطة في غير معالم الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج
 المستطرفة والأسوار، ورقرق على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار،
 والوقوف عند اختفاء سر المقدار.

ثم عبرنا نهرها، وشدنا بأيدي الله قهرها، وضيقتنا حصرها، وأقننا بها أياما
 نحوم عقبان البؤود على فريستها حياما، وترى الأرواح بيوارها، وتسلط النيران
 على أقطارها، فلولا عائق المطر، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر، فرأينا
 أن نروضها بالأجثاث والانتساف، ونوالى على زروعها ورُبوعها كرات رياح
 الاعتساف، حتى يهتيا للإسلام لوك طعمتها، ويتهتا بفضل الله إرث نعمتها،

ثم كانت عن موقفيها الإفاضة من بعد نحر النحور ، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور ، وتدافعت خلفنا السابقات المستقلات تدافع أمواج البحور .

وبعد أن التحنا على جناتها المصحرة ، وكرومها المشتجرة ، إلحاح الغريم ، وعوضناها المنظر الكريمة من المنظر الكريم ، وطاف عليها طائف من ربنا فأصبحت كالصريم ، وأغرينا حلاق النار بحم الجحيم ، وراكنا في أجواف أجوائها غمام الدخان ، تذكر طيبة البان ، بيوم الغيم ، وأرسلنا رياح الغارات لا تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم ، وأستقبلنا الوادي يهول مدا ، ويروع سيفه الصقيل حدا ، فيسره الله من بعد الإعواز ، وأطلقت على الفرصة [بتلك الفرصة] أيدي الاتهاز ، وسألنا من ساءله أسد بن الفرات فاقى برحمان الجواز فعم الأكتساح والاستباح جميع الأحواز ، فأدبل المصون ، وأتتهب القرى وهدمت الحصون ، واجتثت الأصول وحطمت الفصون ، ولم نرفع عنها إلى اليوم غارة تصالحها بالبوس ، وتطلع عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس ، فهي الآن مجرى السوابق ومجر العوالى ، على التوالى ، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالى ، وكأن بها قد صرعت ، وإلى الدعوة المحمدية قد أسرعت بقدر من لو أنزل القرآن على الجبال لحشعت من خشية الله وتصدعت ، وعزرة من أذعنت الجبابرة لعزّه وخنعت ، وعدنا والبنود لا يعرف ألف بشرها ، والوجوه المجاهدة لا يخاطب التقطيب بشرها ، والأيدى بالعروة الوثقى معتلقة ، والألسن بشكر نعم الله منطلقه ، والسيوف في مضاجع الغمود قلقة ، وسرايل الدروع خلفة ، والحياد من ردها إلى المرباط والأوارى ردّ العوارى حقه ، وبعبرات الغيظ المكظوم محتقة ، تنظر إلينا نظر العاتب ، وتعود من ميادين المراح والأختيال تحت حلل السلاح عود

الصَّبِيانَ إِلَى الْمَكَاتِبِ ، وَالطَّبْلُ بِلِسَانِ الْعِزِّ هَادِرٌ ، وَالْعَزْمُ إِلَى مُنَادَى الْعَوْدِ الْحَمِيدِ
مُبَادِرٌ ، وَوَجُودُ نَوْعِ الرَّمَاحِ ، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِفَاحِ ، نَادِرٌ ، وَالْقَاسِمُ تَرْتَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ
السَّبِي النَّوَادِرِ ، وَوَارِدُ مَنَهْلِ الْأَجُورِ ، غَيْرُ الْمُحَلِّ وَلَا الْمَهْجُورِ ، صَادِرٌ ، وَمُنَاطِرُ الْفَضْلِ
الْآتِي عَقِبَهُ أَخِيهِ الثَّانِي عَلَى الْمَطْلُوبِ الْمَوَاتِي مُصَادِرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى تَيْسِيرِ الصَّعَابِ
وَتَخْوِيلِ الْمَنِّ الرَّغَابِ قَادِرٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَمَا أَجْمَلَ لَنَا صُنْعَهُ الْخَفِيُّ ! وَأَكْرَمَ بِنَا طَفْعَهُ
الْخَفِيُّ ! اللَّهُمَّ لَا تُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، وَلَا نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَلْتَمِسُ خَيْرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ إِلَّا لَدَيْكَ ، فَأَعِذْ عَلَيْنَا عَوَائِدَ نَصْرِكَ يَا مُبْدِيَّ يَامُعِيدَ ، وَأَعِزَّنَا مِنْ وَسَائِلِ
شُكْرِكَ عَلَى مَانْتَالِ بِهِ الْمَزِيدِ ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ .

وَقَارَنْتُ رِسَالَتَكُمْ الْمِيْمُونَةَ مِنْهُ لَدَيْنَا حَدِّقْ فَتَحْ بَعِيدَ صَيْتِهِ ، مَشْرَبٌ لَيْتُهُ ، وَنَخْرُ
مِنْ فَوْقِ التَّجُومِ الْعَوَاتِمِ مَيْتَهُ ، عَجَبْنَا مِنْ تَأْتَى أَمَلِهِ الشَّارِدِ ، وَقَلْنَا الْبَرَكَةَ فِي قُدُومِ الْوَارِدِ ،
وَهُوَ أَنَّ مَلِكَ النَّصَارَى لَا طَفَنًا بِجَهْلَةٍ مِنْ الْحُصُونِ كَانَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ
قَدْ غُصِبَتْ ، وَالتَّمَانِيْلُ فِيهَا يَبُوتُ اللَّهُ قَدْ نَصِبَتْ ، أَدَاهَا اللَّهُ بِمَحَاوِلَتِنَا الطَّيِّبِ مِنْ
الْحَبِثِ ، وَالتَّوْحِيدِ مِنَ التَّثْلِيثِ ، وَعَادَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ عَوْدَةَ الْأَبِ الْغَائِبِ ، إِلَى الْبَنَاتِ
الْحَبَائِبِ ، يَسْأَلُ عَنْ شُؤْنِهَا ، وَيَمْسَحُ دُمُوعَ الرَّقَّةِ عَنْ جُفُونِهَا ، وَهِيَ لِلرُّومِ خُطَّةُ
خَسْفٍ قَلَمًا أَرْتَكُبُوهَا فِيمَا نَعْلَمُ مِنَ الْعُهُودِ ، وَنَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الْوُجُودِ ، وَالِىَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَعَلَيْكُمْ عَوَارِفَ الْجُودِ ! ، وَجَعَلْنَا فِي مُحَارِبِ الشُّكْرِ مِنَ الرَّكْعِ السُّجُودِ ! .

عَرَفْنَاكُمْ بِمَجْمَلَاتِ أُمُورٍ تَحْتَهَا تَفْسِيرٌ ، وَيُمْنٌ مِنَ اللَّهِ وَتَيْسِيرٌ ، إِذَا اسْتِيفَاءُ الْجَزَيَّاتِ
عَسِيرٌ ، لِنَسْرِكُمْ بِمَنْحِ اللَّهِ دِينَكُمْ ، وَتَتَوَجَّعُ بِعِزِّ الْمَلَّةِ الْحَنِيفَةِ جَبِينَكُمْ ، وَنُخْطَبُ بَعْدَهُ
دَعَاكُمْ وَتَأْمِينَكُمْ ، فَإِنَّ دَعَاءَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بَظَهْرِ الْغَيْبِ سِلَاحٌ مَاضٍ ، وَكَفِيلٌ بِالْمَوَاقِبِ
الْمَسْئُولَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ مِيفَاضٌ ، وَأَتَمُّ أَوْلَى مَاسَاهِمٍ فِي بَرٍّ ، وَعَامِلٌ لِلَّهِ بِمُخْلُوصٍ

سِرٍّ ؛ وأين يذهب الفضل عن بَيْتِكُمْ ، وهو صفة حَيْكَمٍ وَثَرَاتٍ مَيْتِكُمْ ؛ ولكم مَرْيَّةُ الْقَدَمِ ، ورسوخُ الْقَدَمِ ؛ والخلافةُ مَقْرُهَا إِيوَانُكُمْ ، وأصحابُ الإمامِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مستَقْرُّهَا قَيْرَوَانُكُمْ ؛ وهجيرُ المنابرِ ذِكْرُ إِمَامِكُمْ ، والتوحيدُ أَعْلَامُ أَعْلَامِكُمْ ؛ والوقائعُ الشَّهِيرَةُ فِي الْكُفْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَيَّامِكُمْ ، والصَّحَابَةُ الْكِرَامُ فَتَحَ أَوْطَانِكُمْ ، وَسُلَالَةُ الْفَارُوقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَائِجُ سُلْطَانِكُمْ ، ونحنُ نَسْتَكْثِرُ مِنْ بَرَكَةِ خَطَائِكُمْ ، وَوَصْلَةِ جَنَابِكُمْ ، وَلَوْلَا الْأَعْذَارُ لَوَالَيْنَا بِالْمُتَرِيدَاتِ تَعْرِيفَ أَبَوَائِكُمْ .

والله عز وجل يتولى عنا من شُكْرِكُمُ الْمُحْتَمِ ، مَا قَصَّرَ الْمَكْتُوبُ مِنْهُ عَنِ الْمَكْتُومِ ؛ وَيُثَقِّقُكُمْ لِإِقَامَةِ الرُّسُومِ ، وَيُجَلِّحُ مَحَبَّتَكُمْ مِنَ الْقُلُوبِ مَحَلَّ الْأَرْوَاحِ مِنَ الْجُسُومِ ؛ وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدُكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدُكُمْ ، وَيُوَالِي نِعْمَةَ عِنْدَكُمْ .

وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ ، الطَّيِّبُ الْبَرْءُ الْعَمِيمُ ؛ يَخْصُكُمْ كَثِيرًا أَثِيرًا ، مَا أَطْلَعَ الصَّبْحُ وَجْهَهَا مُثِيرًا ، بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ النَّسِيمُ سَفِيرًا ، وَكَانَ الْوَمِیْضُ الْبَاسِمُ ، لَا كَوَاسَ الْغَائِمِ ، عَلَى أَزْهَارِ الْكَأَمِّ مُدِيرًا ؛ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطرف الثامن

(فِي الْمَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْأُمَرَاءِ مِنَ الْعَمَالِ وَأُمَرَاءِ السَّرَايَا)

فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ إِلَى مَنْ فِي مَعْنَاهُمْ)

وَكَانَ الْغَالِبُ فِي مَكَاتِبَاتِهِمُ الْإِفْتَاتِحَ بَأَمَّا بَعْدَ وَالتَّعْيِيرَ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ بِلَفْظِ الْوَحْدَةِ ، وَخَطَابَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِالْكَافِ .

كَمَا كَتَبَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُونُسَ إِلَى الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ نَائِبٌ عَنِ الْحَجَّاجِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ وَالْحُرُوبِ .

أما بعد ، فإنك تترأخى عن الحرب حتى تأتيتك رُسلى ويرجعون بعدرك ، وذلك أنك
 تُمسك حتى تبرا الجراح وتُنسى القتلى ويجم الناس ، ولو كنت تلقاهم بذلك الحد
 لكان الداء قد حُسم ، والقرن قد قُصم ، ولعمري ما أنت والقوم سواء ، لأن من
 ورائك رجالا ، وأمامك أموالا ؛ وليس للقوم إلا ما معهم ، ولا يدرك الوجيف
 بالديب ، ولا الظفر بالتعذير .

وكما كتب المهلب إلى المجاج مجيباً له عن ذلك .

أما بعد ، فإننى لم أعطِ رُسلك على قول الحق أجراً ، ولم أحتج فيهم مع المشاهدة
 إلى تلقين . فذكرت أنى أجم القوم ، ولا بد من راحة يستريح فيها الغالب ويحتال
 المغلوب . وذكرت أن فى الجمام تُنسى القتلى وتبرا الجراح ، وهيهات أن يُنسى
 ما بيننا وبينهم ، يابى ذلك قتل من لم يحن ، وقروح لم تعرق ، ونحن والقوم على حالة
 وهم يرقبون منا حالات ، إن طمعوا حاربوا ، وإن ملأوا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ،
 فإن تركتني فالداء بإذن الله محسوم ، وإن أعجلتني لم أطعك ولم أعص وجعلت
 وجهى إلى بابك ، وأنا أعود بالله من سخطه ومقت الناس .

الطرف التاسع

(فى المكاتبِ الصادرة عن الملوك ومن فى معنائهم ، إلى الملوك ومن فى معنائهم ،
 على ما كان عليه مصطلح أهل المشرق ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(أن تكون المكاتبُ عن ملك إلى غير ملك)

ورسمهم أن يفتح الكتاب بلفظ « كتابنا إليك فى يوم كذا ، ومن مكان كذا ،
 والأمر على كذا وكذا » ويذكر الحال التى عليها المكتوب عنه حينئذ وألتي عليها

الخليفة إن كان المكتوب عنه من أتباع الخليفة ، أو التي عليها الملك إن كان من أتباع الملك ونحو ذلك ؛ ويكون التعبير في هذه المكاتب عن المكتوب عنه بنون الجمع ، والخطاب للمكتوب إليه بالكاف . ولا يقال في المكتوب إليه في هذه الحالة : سيدي ومولاي ، ولا سيدنا ولا مولانا . وبذلك يكتب عن الملوك ومن في معناهم من سائر الرؤساء إلى المرءوسين .

ثم هو على مرتبتين :

المرتبة الأولى — أن يرأى جانب المكتوب إليه في الرقة بعض المראה .

كما كتب أبو إسحاق الصابي عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة أبو بويه ، إلى صاحب كافي الكفاة إسماعيل بن عباد وزير نجر الدولة ، في الشفاعة في شخص من بعض الزامه :

كاتبنا — أدام الله تأييد صاحب الجليل كافي الكفاة — وإن وثقنا من المسؤولين بالإيجاب والإجابة ، ومن المأمورين بالامتثال والطاعة ؛ فإننا نخص بكتبنا الصادرة عنا في المآرب العارضة لنا ، من خصت من كلا الفريقين نهضة إليها ، وظهرت متابرة عليها ؛ وإذا آتينا إليه — أدام الله عزه — في ذلك عددنا مع ما قدم الله عندنا من رتبته في الطبقة الأولى ، وميزنا مع ما وفر الله علينا من طاعته عن الطبقة الأخرى ؛ وأنسنا منه عادة مشكورة في اتباع محبوبنا ، والإسعاف بطلوبنا ؛ ليسلس لنا إلى مخاطبته قياد يتقاعس عن سواه ، وتيسر لنا في مكاتبته أنامل نجعد عن لايجري مجراه ؛ ولا سيما إذا كان ذلك في مكرمة يطيب ثأوها ، ومنقبة يئاد بناؤها ؛ والله يمدده ويمدنا فيه من طيب السجايا ، وصالح العطايا ؛ بما هو الولي به ، والحقيق بالشكر عليه .

وكتابتنا هذا - أدام الله عزَّه الصاحب الجليل كافى الكفاة - مبنى على إذكاره بحق لنا رعيته ، وديمام من أجله أوجبناه ؛ وذلك أسد لإحكامه وألزم لإيجابه ، وأوكد لأسبابه ؛ وقد عرّف مكان أبى منصور يزداها دار بن المرزبان من خدمتنا ، وموقعه فى حملتنا ، وتوفّر حظّه من جميل رأينا ، وخالص اعتقادنا ؛ ومن أوجه وسائله لدينا ، التى أوجبت له ذلك علينا ، أنا لانزال عده عليه ، من الاعتداد باحسان الصاحب الجليل كافى الكفاة إليه ، وإلى أبية من قبله ، والاعتراف بأنه أيدّه الله أبو عذرة صنعّه ، والسابق إلى الجذب بضبعه ؛ ولن كان أقرله من ذلك معروف لأينكر ، ودخل من الثناء عليه فى إجماع لا يُحرق ؛ فقد بين عن نفسه أنه ممن يطبق حمل المن ، ويحسن مصاحبة النعم ؛ ويستحق أن تقرّ عنده أسلافها ، وتدرّ عليه أخلافها ؛ إذ لم يذهله الربوع فيها عن التّجيد من اضطرافها وأنصرافها ، ولم يُلْهِهِ التوسّط لها عن حياطة أطرافها وأكفافها ؛ ومن لنا اليوم بالشّكور الذى لا يَمِط ، والذّكور الذى لا ينسى ؟ والعلم بما يلزمه ، والقُوم بما يحقّ عليه . وأعلّنا حال قريين له يقال لهما الفرکان بن حرزاد ، ورستم بن يزد ؛ وأنها تصرفان بعض الخدمة تصرفاً تزيلاً فيه عن نهج السّداد ، وسنن الرّشاد ؛ وأقتضى ذلك أن طلباً بالتقويم والتهذيب ، وولجاً مضيق القصاص والتأديب ؛ وأنه قد مضت لهما فيه مدّة طويلة فى مثلها ما صلح المعاقب ، واكتفى المعاقب ؛ وسؤاله لهما ، ومرادنا له فيهما ، شفاعته الصاحب الجليل كافى الكفاة إلى مولانا الأمير السّيد شاهنشاه نغر الدولة فى أن يسعهما العفو ، ويدركهما العطف إما بأستخدام يتطوّقان به المن ، ويأذن لهما بانصراف إلى الوطن ؛ وقد آستظهرنا بكتاب كتبناه فى أمرهما : هذا الكتاب يشتمل عليه ، حتّى إذا وجب أن يجعله الصاحب الجليل كافى الكفاة ذريعة إلى

(١) كذا فى الأصول ولعله أنه لا يزال يعدّ ما عليه من الاعتداد الخ .

الغرض ، ومطيةً إلى المقصد ؛ أمضى في ذلك رأيه ، وعقد عليه تدبيره . فإن رأى
الصاحب الجليل أن يتوصل في هذا الأمر إلى ما يُشاكل عادته عندنا في الأمور
الواردة عليه فعل ، وتوثق في الجواب أن يكون متضمناً لذكر الفعل دون القول ،
والإنجاز دون الوعد ؛ إن شاء الله تعالى .



وكما كتب الصابى عن صمصام الدولة المقدم ذكره ، إلى الصاحب بن عباد أيضاً
في حالة أخرى ، بسبب ردِّ إقطاع إلى أبي جعفر محمد بن مسعود قرين كتاب
إلى نخر الدولة

كثابنا والسلامة لدينا راهنه ، وعادة الله لإقرارها ضامنه ؛ والحمد لله رب العالمين ،
والصاحب الجليل كافي الكفاة - أدام الله تأييده - يعلم أنه لم يزل لمالكنا أفنيةً
تقام بها أسواق المكارم ، وتحيا بها سنن المحامد ؛ وقد جعله الله بتفضله الحافظ
لجمال ذلك علينا ، والضارب بسهمه فيه معنا ؛ فالحمد لله على أن قرن الحظوظ التي
خولنا ، والمنازل التي تولنا ، بالخلائق الخليفة بها ، الداعية إلى استقرارها ، والطرائق
المطرقة إلى ثباتها واستمرارها ، وأن زان أيماننا هذه الحاضره ، بآثار الصاحب
كافي الكفاة أدام الله عزه فيها الناضره ، ومسايعه الرشيدة ، وأفعاله المستقيمة ،
وأحاديثه الجميلة ؛ وإياه نسأل أن يُجربنا وكل ناصح على أفضل ما عودنا وأحسن
ما أولاه ومنحنا بقدرته .

وإذا كان مولانا الأمير السيد شاهنشاه نخر الدولة ، وفلك الأمة ؛ بالمحل الذي
أهله الله له : من استعذاب الإحسان إلى أوليائه ، وأقراض الإفضال على نصحاءه ؛
وكان الصاحب الجليل بالحال التي هو بها من القيام بما حمل به ألباب فيه عنه ،
(١)

(١) في الاصل « من القيام قد كل له والمناصب الخ » وهو تخليط من الناسخ .

فقد وجب أن تكون الرعاية لدوى الحرمات مستحكمة الأسباب ، ثابتة الأطناب ؛
واضحة الأعلام ، ماضية الأحكام ؛ ولا سيما فيمن تعلّق منّا بالعبادة ، وأخذ
من ذمامنا بالوثيقة ؛ و « أبو جعفر محمد بن مسعود » أيده الله جامع لّلّوات ، التي
يستحقّ بها اجتماع العناية ؛ سالفًا صالحًا في الخدمة ، وسابقة متمكنة في الجملة ؛
وأشتملاً على كلّ ما وجبت به الحقوق ، ولزمت به الرعايات . وذكر أنه كانت له
بنواحي الجبل تسويغات ومعاش أنعم بها مولانا الأمير السيد نحر الدولة عليه
في حال بعد حال ، وشرفه بها في مقام بعد مقام ؛ منها كذا وكذا ، وإذا جُمع الجميع
كان قليلا في جنب ما يفيضه مولانا الأمير السيد شاهنشاه نحر الدولة ، وفلك الأمة
على خدمه : من جليل عوارفه الجارية على يد صاحب الجليل كافي الكفاة أدام الله
تأييده ، والواصله إلى مستحقّها بلطيف توصله ، وجميل معتقده . وكان موقعه
جليلا عند أبي جعفر محمد بن مسعود أيده الله في جنب ما يصلح من شأنه ، ويقيم
من جاهه ، ويرب من معاشه ، ويُلِم من حاله . وقد كتبنا إلى مولانا في ذلك كتابا
بجملنا قصصنا على الرّغبة إليه ، في ردّ هذه المعاش عليه ؛ وعولنا على صاحب الجليل
في إخراج أمره العالی بذلك له ، وإحكام المناشير والوثائق بجميعه ، والتقدم بمكاتبه
العمال والولة بتقوية أيدي أصحابه ، في استيفاء ما يجب من الأسلاف والبّقايا ، على
الأكرّة والمزارعين ، والوكلاء والمعاملين ، وتأكيّد الكتب بغاية ما تؤكّد به أمثالها ،
ويبلغ به أبو جعفر محابه كلّها . فإن رأى صاحب الجليل أن يأتي في ذلك كلّ ما يجده
ويعبده ويرعاه ويحفظه ، جاريا على المألوف من مُتأبرته على ما عاد علينا وعليه معنا
بطيب الذّكر والبشر ، وثناء اليوم والغد ، فقد أنفدنا بهذا الكتاب ركائب لنا دلالة
على خصوص متضمّنه في تعلقه بالأهتمام منّا ، فعل إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(أن تكون المكاتبة من ملك إلى ملك)

ورسمهم في ذلك أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ : كِتَابِي وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا وَكَذَا ، وَيُؤْتَى
 بالتعبير عن المكتوب عنه في أثناء الكتاب بلفظ الأفراد دون الجمع ، وهنا يَفْتَحُ
 شَأْنُ المكتوب إليه ، فيعبر عنه بمولاي وسيدى ، ومولانا وسيدنا ، ونحو ذلك .
 ثم هو على مراتب :^(١)

المرتبة الأولى

(أن يكون المكتوب إليه ملكا أيضا)

فيخطبه على قدر مقامه بالسيادة أو غيرها مع الدعاء بما يناسبه : من طول البقاء
 ونحوه ؛ ثم تارة يَقَعُ التعرُّض فيها بذكر الطلب ويرفع الحال التي هو عليها ، وتارة لا يقع
 التعرُّض إلى ذلك - كما كتب أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ، بن مُعز الدولة ،
 ابن بويه ، إلى عضد الدولة بن بويه في طَلَبِ الصُّلْحِ ، وقد جرى بينهما اختلاف .

كُتِبَ - أطال الله بقاء مولانا الملك الجليل المنصور عضد الدولة - من العسكر
 بظاهر سوق الأهواز ، ومولانا أمير المؤمنين مشمول بالكفاية والتأييد ، مخصوص
 بالعز والتمكين ؛ يجرى على أفضل ما عود الله خُلفاءه في أرضه ، وأجباؤه في رعاية خلقه ؛
 من التكفل لهم بالإظهار والإداله ، وتوليهم بالإعلاء والإنافه ؛ وأنا مستظل بكف
 طاعته ، مستكن في حرم مشايعته ؛ شاكر لله على بلائه ، مثن عليه بالائه ؛ راغب

(١) لم يذكر في الأصول غير الأولى ويظهر أن التقسيم سهو فان المقسم هو الكتابة من ملك إلى ملك وهو
 عين المرتبة الأولى فتأمل .

إليه أن يعصمني في مولانا الملك الحليل المنصور. وفي نفسي من كل مكروه
ومستهجن، ويوفقي وإياه لكل مستحب ومستحسن، ويعيدنا من المقام على
الفرقة، والزوال عن سنن الألفه، وهو المحمود رب العالمين .

والحقوق بين مولانا الملك وبينى فيما قرره منا اللحه، وأكده العضمه، وأثله
الأسلاف، ونشأت عليه الأخلاف، حقيقة بأن لا تسرع إليها دواعي النقض،
ولا تتمكن منها ملهات النسخ، ولا يتم للشيطان عليها ما يحاوله بنزغه، ويتوصل إليه
بكيد، وأن تزاح العوارض عنها، وتضمحل دون التأثير فيها، وأن نعتقد جميعا
أن بتقارضا رعايتها ثبات النعم المتصلة بها، فلا يستنكف مستنكف منا أن
يخفض جناحه لأخيه، ويغض من حماه في مقاربة ذويه، إذ كان ذلك حاميا
له في أهول الأحوال مما هو أشد خفضا، وأبلغ رضا، وأسوأ مغبة، وأنكر عاقبة .

وقد علم مولانا الملك المنصور بالشاقب من تأمله، والصحيح من تمييزه وتدبره،
أن دولتنا - حرسها الله - مبنية على أسس التراقد والتعاضد، موضوعة على قاعدة التوازن
والنظائر، وأن مشيختنا وسادتنا رضوان الله عليهم جعلوا الائتلاف رتاجا بين
الأعداء وبينها، ثم إن مفتاحه هو الخلاف المتطرق لهم عليها، ولو حدث التناقض
في أيام رئاسة أضعفنا منه، وأوهنا عقده، وأحدثنا سنا، وأقلنا حنكة، لكان ذلك
أقل في التعجب من أن يعرض في رئاسة أخصفنا رأيا، وأسدنا تدبرا، وأوفانا
حلمنا، وأكلنا حزما . وقد تكررت - أيد الله مولانا - على ذات بيننا قوارص
أحققناها حتى أمتلأ الإناء من قطرها، وأستقينا منها على العظيمة التي لا تواء بعدها،
وما أعود على نفسي بلوم في ابتداء قبيح ابتدأته، ولا بمركب شنيع ركبته ولا حق
أطرحته، ولا استصلاح تركته، ولا أدفع مع ذلك أنني قابلت لما تضاعف بالأقل

الأيسر، وجازيت لما تَرَادَفَ بِالْأَدُونِ الْأَنْزَرِ ؛ إلا أنى ما آثَرْتُ كَثِيرَهُ وَلَا قَلِيلَهُ ،
وَلَا آخَرْتُ دَقِيقَهُ وَلَا جَلِيلَهُ ؛ لكنه لم يَصْلُحْ فِي السَّيْرَةِ - وقد أَشْفِينَا عَلَى التَّرَاحُفِ
لِلْحَرْبِ ، وَالتَّدَالُفِ لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ - أَنْ أَسْتَعْمَلَ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَوْفِيَةِ الْحَقُوقِ ،
وَإِقَامَةِ الرُّسُومِ ، فِيرَانِي الْأَوْلِيَاءُ الَّذِينَ بِهِمْ تُحْيَى الْبَيْضَةُ ، وَتُحَاطَ الْحَوَازَةُ ، مَتَنَاقِصُ
الْفَعْلِينَ ، مَتَنَافِي الْمَذْهَبِينَ ؛ وَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ الذَّمِيمِ ، وَالرَّأْيِ الَّذِي لَيْسَ
بِمُسْتَقِيمٍ ؛ مُقْتَدِيًّا لَا مُبْتَدِيًّا ، وَمُتَّبِعًا لَا مُبْتَدِعًا . وَلَوْ وَقَفَ بِي مَوْلَانَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ
قَبْلَ أَوَاحِرِ الْحَفَاءِ ، وَعَظَفَ مَعِيَ إِلَى أَوَّلِ شَرَائِعِ الصَّفَاءِ ؛ لَكَانَتْ عَرِيكَتِي عَلَيْهِ أَلَيْنَ ،
وَطَرِيقُهُ إِلَى آرْبَاطِ طَاعَتِي وَوَلَائِي أَقْصَدَ ؛ لَكِنَّهُ أَيْدَهُ اللَّهُ أَقَامَ عَلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ
مِنْ مَجَانِبَتِي وَمَغَالِظَتِي ، وَبَثَّ الْحَبَائِلَ لِي وَدَسَّ الْمَكَايِدَ إِلَيَّ ، وَمَتَابَعَتُهُ الْجَوَاسِيسَ
وَالكُتُبَ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ فِي عَسْكَرِي الَّذِينَ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ ، إِنْ أَنْصَفَ وَعَدَلَ ، وَنَصَحَاؤُهُ ،
إِنْ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ .

وَكَانَ الْأَشْبَهُ بِمَوْلَانَا لَوْ كُنْتُ الْغَالِطَ عَلَيْهِ ، وَالبَاعِثَ لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ إِلَيْهِ ،
أَنْ يَسُوسَنِي سِيَاسَةَ الْحَكِيمِ ، وَيَسْتَخْلِصَنِي اسْتِخْلَاصَ الْكَرِيمِ ؛ إِذْ كُنَّا لَمْ نَقْدِّمُهُ مَعِشَرَ
أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْنَا ، وَنُوَلَّهُ أَرِزَمَةَ أُمُورِنَا ؛ إِلَّا لِيَأْسُو جُرُوحَنَا ، وَيَجْبُرَ كُسُورَنَا ؛ وَيَتَعَهَّدَ
مُسَيِّئَنَا ، وَيَسْتَمِيلَ نَافِرَنَا ؛ فَأَمَّا أَنْ يُحَاوِلَ مِنَّا اسْتِبَاحَةَ الْحَرِيمِ ، وَإِرْكَابَ الْمَرْكَبِ
الْعَظِيمِ ؛ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تُدَوَّمَ عَلَى هَذَا طَاعَهُ ، أَوْ تُصْلَحَ عَلَيْهِ جَمَاعُهُ ؛ أَوْ يُفْضَى
عَلَيْهِ مُغْضٌ ، أَوْ يُصَفَّحَ عَنْهُ صَاحِقٌ ؟ . وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ هَذِهِ الْجَفْوَةِ وَأَقْطَعِهَا ، وَأَقْسَاهَا
وَأَغْلَظَهَا ؛ أَنْ عَادَ رَسُولِي مِنْ حَضْرَتِهِ خَالِيًّا مِنْ جَوَابٍ بِمَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ ، وَمَا أَعْرَفَ
لَهُ أَيْدَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ عَذْرًا يَبْسُطُهُ ، وَلَا سَلَكًا مِنْهُ السَّبِيلَ الَّتِي تَشَبَّهُهُ ؛ وَبِاللَّهِ جُهْدَ الْقَسَمِ
وَمُنْتَهَاهَا ، وَأَجَلَّهَا وَأَوْفَاهَا ؛ لَقَدْ سَارَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَسَرْتُ
إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَاعْتَقَادُنَا لَا يَجَاوِزُ حِفْظَ الْحُدُودِ وَالْأَطْرَافِ ، وَحَيَاطَةَ النِّهَايَاتِ

والأكناف ؛ والأغلب علينا أنّ مولانا الملك - أدام الله تأييده - لا يتجاوز معي
المعاتبَ اللطيفة ، والمحاطبة الجميلة ؛ والاستدعاء متى لما يسوغ له أن يطلبه ولى أن
أبدله ، من تعفية السالف ، وإصلاح المستأنف ، وتوفية للحق في رتبة لا أضنُّ بها
عليه ، ولا أستكثر التزول عنها له ؛ وتقرير أصل بيننا يكونُ أيده الله به معقلا
لى وموثلا ، وأكون نائبا له ومظفرا - إلى أن بدأ الأصحاب بالغيث في هذه البلاد ؛
وألحوا عليها بالغارات ، وأعتمدوها بالنكيات ؛ وكان هذا كالرشاش الذى يؤذن
بالانسكاب ، والوميض الذى يبعد بالاضطرام - وأوجبت قبل المكافحة عليه والشروع
فى مثله فى حقّ مولانا الملك الجليل ، الذى لا أدعُ أن أحفظ منه مادعاى إلى
إضاعته ، وأتمسك بما اضطرنى إلى مفارقتة ؛ أن أقدم أمام الالتقاء على الحرب التى
هى سجال كما يعلم ، إبلاغ نفسى عذرها وإعطاء المقادة منها ؛ داعيا له إلى طاعة الخالق
والإمام ، وصلة ألحم والأرحام ؛ وحقن الدماء والمهج ، وتسكين الذمء والرهج ؛
وثنى العنان عن الموزد الذى لا يذرى وارده كيف يصدر عنه ، ولا يثق بالسلامة منه ؛
وتعريفى ما يريد منى لأتبعه ما لم يكن ثالما لى ، وعائدا بالوهن على ؛ والله الشاهد
على شهادة قد علم إخلاصى فيها ، وسماحة ضميرى بها ؛ وأننى أكره أن أنال منه ،
كما أكره أن ينال منى ؛ وأناألم من أن أظهر عليه ، كما أناألم أن يظهر على ، وأحب أن
يرجع عنى وأرجع عنه ؛ وقد ألتمت قلوبنا ، وتألف على الجليل شملنا ؛ وطرفت أعين
الأعداى عنا ، وأنحسمت مطامعهم فىنا ؛ فإن فعل ذلك فحقيق به الفضل ، وهو لعمرُ
الله له أهل ؛ ولا عذره فى أن لا يفعله ، وقد وسع الله ماله ، ووفر حاله ، وأغناه
عما يلتمسه الصعلوك ، ويخطر له السُّبُوت ؛ وجعله فى جانب الغنى والثروة ،
والحزم والحيلة ؛ وإن أبى فكنا بهذا حجة عند الله الذى تُستزَل منه المعونة وعند
الناس الذين تلتمس منهم العصية ؛ وقد أنفذت به إسفندار بن خسرويه وإبراهيم

أَبْنِ كَالِي ، وَهَمَّا تَقْتَايَ وَأَمِينَايَ ، لِيُؤَدِّيَاهُ وَيُسَافِهَاهُ عَنِّي بِمَثَلٍ مُتَضَمِّنَةٍ وَنَجْوَاهُ ،
وَاللَّهُ يُعِيدُنَا فِي مَوْلَانَا الْمَلِكِ الْجَلِيلِ مَنْ أَنْ يَخْتَارَ إِلَّا أَوْلَى الْأُمْرَيْنِ وَالْيَقَهُمَا بِدِينِهِ
وَمُرُوءَتِهِ ، وَهُوَ أَوْلَى مَا يَرَاهُ فِي الْأَمْرِ بِتَعْجِيلِ الْإِجَابَةِ بِمَا أَعْمَلُ عَلَيْهِ ، وَأَتَهَيَّ
بِالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثالث

(أَنْ تَكُونَ الْمَكْتُوبَةُ عَمَّنْ دُونَ الْمَلِكِ إِلَيْهِ)

وَرَسْمُهُمْ فِيهِ أَنْ يُتَبَدَأَ بِلَفْظِ كِتَابِي ، وَالدَّعَاءُ لِلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِطُولِ الْبَقَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
وَيَخَاطَبُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بِمَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، وَفِي أَثْنَاءِ الْكِتَابِ بِالسَّيِّدِ
وَالْمَلِكِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَيُعْبَرُ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ بِلَفْظِ الْإِفْرَادِ :

كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي عَنْ الْأَمِيرِ نَصْرُخُوزِهِ فِيرُوزِ بْنِ عَصْدُ الدَّوْلَةِ إِلَى
أَبْنِ عَمِّهِ شَرَفِ الدَّوْلَةِ يَذْكُرُ لَهُ حَالَهُ مَعَ أَخِيهِ صَمْعَامِ الدَّوْلَةِ .

كِتَابِي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، شَرَفِ الدَّوْلَةِ ، وَزَيْنِ الْمِلَّةِ ،
وَالسَّلَامَةِ لِي شَامِلَةً بِمَا مَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ مِنْ ظِلِّهِ الظَّلِيلِ ، وَرَأْيِهِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَقَدْ تَأَدَّى إِلَيَّ مَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ مِنْ أَخْبَارِي مَا أَسْتَعْفِي بِهِ
عَنْ تَطْوِيلِ الْمَفْصَلِ ، وَأَكْتَفِي بِهِ عَنْ إِجْمَالِ الْمُجْمَلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَسْفَارَ بَنِ كَرْدُويَةَ
وَعَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ بَرَسَفِ الْكَافِرِينَ لَنَعْمَاءِ اللَّهِ وَنِعْمَةِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ عَصْدُ الدَّوْلَةِ أَبَيْنَا
رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ قَبْلَنَا ، الْغَامِطِينَ لِمَا تَظَاهَرَ عَلَيْهِمَا مِنْ إِحْسَانِنَا وَإِفْضَالِنَا ، هَجَمًا عَلَيْنَا
يُحْدِثُ تَظَاْفَرًا عَلَيْهِمَا ، وَشُبْهَةً جَدْبَانِي إِلَيْهَا ، وَأَبْرَمًا كَذِبًا مِنَ الْقَوْلِ لَمْ أَظْهَرْهُمَا يُقَدِّمَانِ

على مثله ، ولا يتفوهان باطلا به ؛ فأصغيت إليهما إصغاءً واثقٍ بهما لا المنخدع لهما ؛ فلما أنزلاني على حكمهما ، وأوثقاني بحيث لا أستطيع مخالفتهما ؛ ظهرت الحيلة ، ووضحت الغيلة ؛ وفاتني الاختبار ، وغلبني المقدار ؛ فخرى ما كانت عاقبته خذلان الله إياهما ، وإنزاله بأسه وتقمته عليهما ؛ وخلاصي بسلامة الصدر ، واتضح القدر ، من حباثلهما المنصوبه ، وأشراكهما المبثوثة . ولما حصلت في كنف الملك السيد صمصام الدولة أقالني العثره ، وقيل مني المَعْدِرَه ؛ وأحلني من دراه وجهاء بحيث لم أعدم عاده ، ولا أقتطعت عني مآذه ؛ وكانت الحال تُوجب مقامي فيها إلى أن نتفى آثار الفتنة التي أثارها ذانكما الخبيثان الجانيان .

ثم ورد فلان في الرسالة ، وتمم الله على يده عقد الصلح والمسالمة ؛ فأخرجت عن الاحتجاب إلى الظهور ، وعن الاحتجار إلى البروز ؛ وأُزلت من الدار المعمورة في جانب يصل إلى منه سبب وُصوله على العموم دون الخصوص ، وعاملني الملك السيد صمصام الدولة بما يليق بفضله متبعا في ذلك مقاطعة السيف بينه وبينى ؛ وطاعة مولانا الملك السيد الأجل شرف الدولة في أمرى ، وجدد عندي من الإنعام والتوسعة والإيثار والتكرمة آخر ما شفّع تلك الشفقة أولا ؛ ولقيني فلان دَفْعَات ، وشافهني مرّات ؛ وتمحّل عني إلى مولانا الملك موالاتي الشكر كثيرا ، واعتدادا طويلا عريضا ؛ ودعاء الله يسمع مرفوعه ، ويوجب مسؤوعه ؛ بمنّه وقدرته ؛ وحوله وقوته .

والآن فإذا قد جمع الله الكلمه ، ووكد الألفة وحرس النعمه ؛ وحصّن الدولة وأخرج عنها مَنْ كان يُشبّ الفتنة ، ويُسدّي ويُنير في الفرقه ؛ فإني واثق بالله جل وعز وبما تترقى الحال إليه في غاية محبوبي ، ونهاية مطلوبي ؛ وأفاصى ما تبليغه

أُمْنِيَّتِي ، وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمِّي ، وَتَقْتَضِيهِ أُخُوَّتِي وَعِصْمَتِي ؛ وَلِلَّهِ الْمَشِيئَةُ ، وَمِنْهُ الْمَعُونَةُ ؛
فَإِنْ رَأَى مَوْلَانَا الْمَلِكُ السَّيِّدُ أَنْ يَسْكُنَ إِلَى سُكُونِي ، وَيَطْمَئِنَّ إِلَى طُمَأْنِينِي ،
وَيُجَرِّىَ إِلَى غَايَةِ فَضْلِهِ وَطَوْلِهِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَحْسَنَ فِيهِ وَأَجْمَلَ : لِيَشْمَلَنَا إِنْعَامُهُ ،
وَيَتَظَاهَرَ عَلَيْنَا أَمْتِنَانُهُ ؛ وَأَسْتَوْفِي بَقِيَّةَ حَظِّي مِنْ ثَمَرَةِ فَلَكَ وَعَائِدَتِهِ ، وَجَدَّوَاهِ
وَفَائِدَتِهِ ؛ وَيَأْمُرَ بِتَشْرِيفِي بِكَتَابِهِ ، وَتَأْهِيلِي بِجَلِيلِ خُطَابِهِ ؛ وَتَصْرِيفِي بَيْنَ أَمْرِهِ
وَنَهْيِهِ ، فَعَلَّ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

تم الجزء السادس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع

وَأَوَّلُهُ الطَّرْفُ الْعَاشِرُ

(فِي الْمَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنْ مَلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَصَلَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

وَأَلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَامُهُ

وَحُسْبِنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

”استدراك لمافات“

نُبه في صفحة (٥٤) من الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى هذا على بعض كلمات مطموسة بالخبر لم نهند إليها عند طبع ذلك الجزء . أما وقد عُثِر الآن في بعض المكنبات الأهلية على أصل ذلك الجزء فرؤى تكميلاً للقائدة لإثبات المطموس هنا ليصلحه القارئ في مواضعه إن أراد . وتسهيلاً لمعرفة مواضع البياض من أول نظرة قد نقلت الصفحة بتمامها وجعل ما كان ساقطاً لطمسه بين قوسين هكذا () . وهي :

يُجهز بریدی بطلب هذه الأقلام من ولاة الوجه القبلي ، ويُؤتى بها فتحفظ عند كاتب السر ويبرى منها ما يحتاج إليه (في كتابة السلطان و) يوضع في دواته بقدر الحاجة . قال في ”منهاج الإصابة“ : ولا بد فيه (من ثلاثة شقوق أو أكثر) بقدر ما يحتاج إليه في محّ القلم الحبر في القرطاس .

وأعلم أن للكُتّاب فيه طريقتين — إحداهما طريقة الثلث ، فتجرى الحال فيه على الميل إلى (التقوير — و) (الثانية طريقة المحقق ، فجرى الحال فيه على الميل إلى (البسط دون التقوير وسيأتى إيضاح الطر) يقتين وكيفية (تشكيل حروفهما فيما بعد إن شاء الله تعالى) .

وقد ذكر السمرريّ في أرجوزته اختصاص قلم الطومار بأمور : أحدها أن مستداراته كلها تكون بوجه القلم ، والمدات بسنّه ، والتعاريق بوجهه مفتلاً فيها على اليمين — الثاني أن الميم منه تكون مفتوحة مدوّرة (والفاء والقاف فيه (أوساطها محدّدة وجنباها) مدوّرة — الثالث (أن يكون البياض بين الأحرف كمثله بين السطور) — الرابع أن يكون (الفضل من جانبي القرطاس متساوياً في المقدار — الخامس أن لا يكون) فيه صاد مدوّرة (ولا) كاف مشكولة .

وذكر المولى زين الدين شعبان الآثاريّ في ألفيته (أنه يدخل) فيه الترويس في الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (والراء ، والطاء ، والكاف المجموعة) واللام والنون في الأفراد والتركيب عند الابتداء وأنه (لا يجوز فيه) الطمس في شيء من عُقده كالصاد ، والطاء ، والفاء ، والقاف ، والميم ، والهاء ، والواو ، واللام ألف المحققة بحال ، والمعنى فيه أن الطمس لا يليق بالخط الحليل .

فهرس

الجزء السادس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

المهييع الثانى - فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كتاب الزمان

و بيان معانيها ؛ وهى نوعان ٥

النوع الأول - الألقاب الإسلامية ؛ وهى صنفان ٥

الصنف الأول - المذكورة ؛ وهى ضربان ٥

الضرب الأول - الألقاب المفردة المختصة فى اصطلاح الكتاب باسم

الألقاب ٥

» الثانى - المركبة المعبر عنها فى اصطلاح الكتاب بالنعوت ... ٣٥

الصنف الثانى - (وكتب خطأ الضرب الثانى) من الألقاب المفردة المؤنثة ٧٥

» - (لعل الصواب النوع الثانى كما نبه عليه) من الألقاب المفترعة

على الأصول ألقاب من يكتب إليه من أهل

الكفر ... وهى على ضربين ... ٧٨

الضرب الأول - الألقاب المذكورة ؛ وهى نمطان ... ٧٩

النمط الأول - المفردة ... ٧٩

» الثانى - الألقاب المركبة ... ٨٣

الضرب الثانى - من ألقاب أهل الكفر الألقاب المؤنثة ... ٩٥

الجملة السابعة - فى تفاوت الألقاب فى المراتب ؛ وهى قسمان ... ٩٧

القسم الأول - ما يقع التفاوت فيه فى الصعود والهبوط ؛ وهو نوعان ٩٧

النوع الأول - » » » بحسب القلة والكثرة ... ٩٧

» الثانى - ما يقع فيه التفاوت فى العلو والهبوط بحسب ما يقتضيه

جوهر اللفظ أو ما وقع الاصطلاح عليه ؛ وهو صنفان ٩٨

صفحة

- الصف الأول — الألقاب المفردة؛ وهى على أربعة أنماط ... ٩٨
- النمط الأول — التوايع ... ٩٨
- » الثانى — ما يقع التفاوت فيه بحسب لحوق ياء النسب
- وتجزئه منها ... ٩٩
- » الثالث — ما يقع التفاوت فيه بصيغة مبالغة غير ياء النسب ... ١٠١
- » الرابع — » فيه التفاوت بحسب ما فى ذلك اللقب من
- أقتضاء التشريف لعلو متعلقه ورفعته ... ١٠١
- الصف الثانى — الألقاب المركبة؛ وهى على ضربين ... ١٠٢
- الضرب الأول — ما يترتب بعضه على بعض لقبا بعد لقب؛ وله اعتباران
- الاعتبار الأول — أن يشترك فى رعاية الترتيب أرباب السيوف والأقلام
- وغيرهم؛ وهو على ثلاثة أنماط (صوابه أربعة) ... ١٠٢
- النمط الأول — ما يضاف إلى الإسلام ... ١٠٢
- » الثانى — » إلى الأمراء والوزراء ونحوهم ... ١٠٥
- » الثالث — » إلى الملوك والسلطين ... ١٠٦
- » الرابع — » لأمير المؤمنين ... ١٠٨
- الاعتبار الثانى — أن يختص الترتيب فى الألقاب بنوع من المكتوب
- له؛ وهو أربعة أنماط ... ١٠٩
- النمط الأول — ما يختص بأرباب السيوف ... ١٠٩
- » الثانى — » بالوزراء ومن فى معناهم ... ١١١
- » الثالث — » بالقضاة والعلماء ... ١١١
- » الرابع — » بالصلحاء ... ١١٢

صفحة

- القسم الثانى - مما تفتاوت فيه مراتب الألقاب ما يقع التفاوت فيه بالتقديم والتأخير؛ وهو نوعان ... ١١٥
- النوع الأول - الألقاب المفردة؛ وهى على ستة أنماط ... ١١٥
- النمط الأول - » التى تلى الألقاب الأصول ... ١١٥
- » الثانى - ما يلى العالى أو السامى من الألقاب ... ١١٦
- » الثالث - ما يلى لقب الوظيفة ... ١١٧
- » الرابع - ما يقع قبل لقب التعريف ... ١١٧
- » الخامس - » فصلا بين الألقاب المفردة والمركبة ... ١١٨
- » السادس - ما ليس له موضع مخصوص من الألقاب المفردة ... ١١٨
- النوع الثانى - مما تفتاوت فيه مراتب الألقاب بالتقديم والتأخير
- الألقاب المركبة؛ وهى على ثلاثة أنماط ... ١١٩
- النمط الأول - ما يلى لقب التعريف ... ١١٩
- » الثانى - ما يقع فى آخر الألقاب المركبة ... ١١٩
- » الثالث - ما بين أول الألقاب المركبة وبين آخرها ... ١٢٠
- الجملة الثامنة - فى بيان محل اللقب المضاف إلى الملك ولقب التعريف الخاص به ... ١٢٠
- » التاسعة - فى ترتيب جملة الألقاب الفروع على الألقاب الأصول
- على قدر طبقاتها؛ وهى قسمان ... ١٢١

صفحة

- القسم الأول — الألقاب الإسلامية ١٢١
- الضرب الأول — « المتعلقة بالخلافة وما يلتحق بها ؛ وهي
- ثلاثة أنواع ١٢٢
- النوع الأول — ألقاب الخلفاء ١٢٢
- « الثانى — « ولاية العهد بالخلافة ١٢٣
- « الثالث — « إمام الزيدية باليمن ١٢٣
- الضرب الثانى — الألقاب المملوكية ؛ وهي نوعان ١٢٣
- النوع الأول — « التى أصطلح عليها للسلطان بالديار المصرية ١٢٣
- « الثانى — « التى يكتب بها عن السلطان لغيره من الملوكة ؛
- وهي على ثلاثة أصناف ١٢٥
- الصف الأول — ألقاب ولاية العهد بالسلطنة ١٢٥
- « الثانى — « الملوك المستقلين بصغار البلدان ١٢٥
- « الثالث — « المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب
- السلطانية ؛ وهي نمطان ١٢٦
- النمط الأول — ما يصدر بالألقاب المذكورة ١٢٦
- « الثانى — « المؤتة ١٢٩
- الضرب الثالث — من الألقاب الإسلامية، الألقاب العامة لسائر
- الطوائف ؛ وهي ثمانية أنواع ١٣٠
- النوع الأول — ألقاب أرباب السيوف من أهل المملكة وغيرهم ... ١٣٠
- « الثانى — من الألقاب الإسلامية الألقاب الديوانية ... ١٤٦

صفحة

- النوع الثالث - من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الوظائف الدينية ... ١٥٤
- » الرابع - من الألقاب الإسلامية ألقاب مشايخ الصوفية وأهل الصلاح ... ١٦١
- » الخامس - ألقاب التجار الخواجية ... ١٦٥
- » السادس - من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياسة الطب ... ١٦٨
- » السابع - من الألقاب الإسلامية ألقاب الحاشية السلطانية ... ١٧٠
- » الثامن - » » » النساء ... ١٧١
- القسم الثاني - » المرتبة » أهل الكفر؛ وهي على ثلاثة أضرب ... ١٧٣
- الضرب الأول - ألقاب متديتهم؛ وهي نوعان ... ١٧٣
- النوع الأول - » بطارقة النصارى ... ١٧٣
- » الثانى - » رؤساء اليهود ... ١٧٤
- الضرب الثانى - ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارى؛ وهي نمطان ... ١٧٤
- النمط الأول - الألقاب المذكورة ... ١٧٤
- » الثانى - » المؤنثة ... ١٧٩
- الضرب الثالث - ألقاب نواب ملوكهم وكخالصتهم؛ وهي على نوعين ... ١٨٠
- النوع الأول - » النواب ... ١٨٠
- » الثانى - » الكخالصة ... ١٨٠

صفحة

الجملة العاشرة — في ذكر ألقاب تقع على أشياء متفرقة قد جرت
في عرف الكتاب؛ وهي على ضربين ١٨٣

الضرب الأول — فيما يجرى من ذلك مجرى التفاؤل، ويختلف باختلاف
الأحوال والوقائع ويتنوع إلى أنواع ١٨٣

» الثاني — ما يجرى من ذلك مجرى التشريف، ويختلف أيضا
باختلاف الأحوال، ويتنوع أنواعا ١٨٦

الباب الثاني — من المقالة الثالثة في مقادير قطع الورق وما يناسب
كل مقدار منها من الأقاليم؛ وفيه فصلان ١٨٩

الفصل الأول — في مقادير قطع الورق؛ وفيه طرفان ١٨٩

الطرف الأول — « « « في الزمن القديم ١٨٩

» الثاني — في بيان مقادير قطع الورق المستعمل في زماننا
(زمن المؤلف)؛ وفيه ثلاث جمل ١٩٠

الجملة الأولى — في مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب
السلطانية بالديار المصرية ١٩٠

» الثانية — في مقادير الورق المستعملة بدواوين الإنشاء
بالممالك الشامية ١٩٢

» الثالثة — في مقادير قطع الورق الذي تجرى فيه مكاتبات
أعيان الدولة ١٩٣

الفصل الثاني — من الباب الثاني من المقالة الثالثة في بيان ما يناسب
كل مقدار من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر

من الأقاليم الخ؛ وفيه طرفان ١٩٤

صفحة

الطرف الأول — فيما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ... ١٩٤

» الثانى — فى مقادير البياض الواقع فى أول الدرج وحاشيته وبعده

ماين السطور فى الكتابة ... ١٩٥

الباب الثالث — من المقالة الثالثة فى بيان المستندات وكتابة الملخصات

وكيفية التعيين؛ وفيه فصلان ... ١٩٧

الفصل الأول — فى بيان المستندات : وهى التوقيع على القصص

وما يجرى مجراها؛ وهو على ضربين ... ١٩٧

الضرب الأول — السلطانيات؛ وهى صنفان ... ١٩٧

الصنف الأول — ما يصدر عن متولى ديوان الإنشاء ... ١٩٧

» الثانى — ما يصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء ... ١٩٩

الضرب الثانى — ما يتعلق بالكتب فى المظالم؛ والنظر فيه من وجهين ٢٠٢

الوجه الأول — فيما يتعلق بالقصاص ... ٢٠٢

» الثانى — فيما يتعلق بالنظر فى المظالم وما يكتب على القصص؛

... وهو ستة أنواع ... ٢٠٤

النوع الأول — ما يرفع إلى السلطان فى آحاد الأيام ... ٢٠٦

» الثانى — ما يرفع لصاحب ديوان الإنشاء ... ٢٠٦

» الثالث — ما يرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان

للحكم فى المواعيد ... ٢٠٧

» الرابع — ما يرفع منها للنائب الكافل إذا كان ثم نائب ... ٢٠٨

» الخامس — ما يرفع من القصص إلى الأتابك إذا كان فى الدولة

أتابك عسكر وهو الأمير الكبير ... ٢٠٨

» السادس — ما يرفع منها للدوادار ... ٢٠٩

صفحة

الفصل الثانى - فى التعين وكيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء على

الرقاع والقصص ٢١٠

الطرف الثانى - فى كتابة الملخصات والإجابة عنها ٢١٢

الباب الرابع - من المقالة الثالثة فى الفواتح والخواتم واللواحق ؛

وفيه فصلان ٢١٧

الفصل الأول - فى الفواتح ؛ وفيه ستة أطراف ٢١٧

الطرف الأول - فى البسملة ٢١٧

» الثانى - فى الحمدلة ٢٢٤

» الثالث - فى التشهد فى الخطب ٢٢٦

» الرابع - فى الصلاة والسلام على النى صلى الله عليه وسلم

وعلى آله وصحبه فى أوائل الكتب ٢٢٧

» الخامس - فى السلام فى أول الكتب ٢٢٩

» السادس - فى أما بعد ٢٣١

الفصل الثانى - فى الخواتم واللاحق ؛ وفيه سبعة أطراف ٢٣٢

الطرف الأول - فى الاستثناء بالمشيئة بأن يكتب إن شاء الله تعالى ... ٢٣٢

» الثانى - فى التاريخ ٢٣٤

» الثالث - فى المستندات ٢٦٢

» الرابع - فى الحمدلة فى آخر الكتاب ٢٦٥

» الخامس - فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى آخر الكتاب

وما يلتحق بذلك ٢٦٧

الطرف السادس - في الحسبة في آخر الكتاب	٢٦٩
» السابع - في اللواحق	٢٧١

المقالة الرابعة

في المكاتبات ؛ وفيها بابان	٢٧٤
الباب الأول - في أمور كلية في المكاتبات ؛ وفيه فصلان	٢٧٤
الفصل الأول - في مقدمات المكاتبات ؛ وفيه ثلاثة أطراف	٢٧٤
الطرف الأول - في أصول يعتمد عليها الكتاب في المكاتبات	٢٧٤
» الثاني - في بيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز	٣١٥
» الثالث - في أمور تختص بالأجوبة	٣٢٣
الفصل الثاني - من الباب الأول من المقالة الرابعة ، في ذكر أصول	
المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ؛ وفيه طرفان	٣٢٧
الطرف الأول - في ذكر أصولها وترتيبها	٣٢٧
» الثاني - في ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها	٣٤٥
الباب الثاني - من المقالة الرابعة ، في مصطلحات المكاتبات الدائرة	
بين كتاب أهل الشرق والغرب والديار المصرية في كل	
زمن من صدر الإسلام إلى زمننا (زمن المؤلف) ؛	
وفيه ستة فصول	٣٦٥
الفصل الأول - في الكتب الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛	
وفيه ثلاثة أطراف	٣٦٥
الطرف الأول - في ذكر ترتيب كتبه صلى الله عليه وسلم في الرسائل	
على سبيل الإجمال	٣٦٥

صفحة

الطرف الثانى - فى كتبه صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام ... ٣٦٧

» الثالث - » » » » الكفر للدعاية

إلى الإسلام ... ٣٧٦

الفصل الثانى - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب الصادرة

عن الخلفاء ؛ رهى على قسمين ... ٣٨٣

القسم الأول - المكاتبات إلى أهل الإسلام ؛ وفيه تسعة [عشرة]

أطراف ... ٣٨٣

الطرف الأول - فى الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة

رضى الله عنهم ... ٣٨٣

» الثانى - فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية ... ٣٨٩

» الثالث - » » » بنى العباس ببغداد ،

وولاية العهد بالخلافة ؛ وفيه ثلاث جمل ... ٣٩٢

الجملة الأولى - فى بيان ترتيب كتبهم فى الرسائل على سبيل الإجمال ... ٣٩٢

» الثانية - فى الكتب العامة ... ٣٩٥

» الثالثة - فى الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء ... ٤١٥

الطرف الرابع - فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس فى الديار

المصرية بعد مصير الخلافة إليها ... ٤٢١

» الخامس - فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار

المصرية ... ٤٣٢

» السادس - فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية بالأندلس ... ٤٤٣

صفحة

الطرف السابع — في الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ... ٤٤٣

» الثامن — في الأجوبة ... ٤٤٧

» التاسع — في الكتب الصادرة عن ولاية العهد بالخلافة ... ٤٥٦

» العاشر — من المكاتبات عن الخلفاء : المكاتبات إلى أهل الكفر ٤٥٧

الفصل الثالث — من الباب الثاني من المقالة الرابعة في المكاتبات

الصادرة عن الملوك ومن في معناهم مما الجارى عليه

الحال ؛ وهو على قسمين ... ٤٦٤

القسم الأول — المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى أهل الإسلام ؛

وفيه أطراف ... ٤٦٤

الطرف الأول — في مكاتبتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ... ٤٦٤

» الثانى — في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء

السرايا إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ... ٤٧٧

» الثالث — في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء

السرايا أيضا إلى خلفاء بنى أمية ... ٤٧٨

» الرابع — في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معناهم

إلى خلفاء بنى العباس ... ٤٨٠

» الخامس — في المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار

المصرية ... ٥٢١

» السادس — في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معناهم

إلى خلفاء بنى أمية بالأندلس ... ٥٢٤

» السابع — في المكاتبة الصادرة إلى خلفاء الموحدين بالمغرب ٥٢٦

صفحة

الطرف الثامن — في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمرء

السرايا في صدر الإسلام إلى من في معنائهم ... ٥٥٨

» التاسع — في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معنائهم

إلى الملوك ومن في معنائهم على ما كان عليه مصطلح

أهل المشرق ... ٥٥٩



(تم فهرس الجزء السادس من كتاب صبح الأعشى)



صُحُفُ الْأَسْبَعِ
٢٠١٦
١٤٤٧

الجزء السابع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

ثالث

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء السابع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الطَّرَفُ العَاشِرُ

في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية
(ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها في الدولة
الأخشيديّة والطولونيّة وما قبلهما)

والذى وقفتُ عليه من رسم المكاتبة عنهم أن تُفتّح بلفظ: «من فلان إلى فلان». كما كتب ابنُ عبد كان عن أحمد بن طولون إلى ابنه العباس حين عصى^(١) [عليه] بالإسكندرية، منذرًا له وموَبِّخًا له على فعله، وهو:

«من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه، العاصي لربه، المُلمِّ بذنبه، المُفسِد لكسبه، العادى لظوره، الجاهل لقدره، الناكس على عقبه، المَرْكُوس^(١) في فتنته، المَبْخُوس [من] حَظِّ دُنياه وآخرته!» !

سلامٌ على كل مُنيبٍ مستَجيب، تائب من قريب، قبل الأخذ بالكَظْم، وحلُولِ
القُوتِ والنَّدَمِ .

(١) الزيادة من الضوء للزلف ص ٤٦٦، ٤٦٧ .

وأحمدُ الله الذي لا إلهَ إلا هو حمدَ معترفٍ له بالبلاءِ الجميل ، والطَّوْلُ الجليل ؛
وأسأله مسألةً مخْلِصٍ في رَجَائِهِ ، مجتهدٍ في دُعَائِهِ ؛ أَنْ يصليَ على عَهدِ المصطفى ،
وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبي ؛ صَلَّى اللهُ عليه وسلم .

أما بعد ، فإنَّ مَثَلَكَ مِثْلُ البقرةِ تُشِيرُ المُديَّةَ بقرْنَيْهَا ، والنملةُ يَكُونُ حَتْفُهَا في جناحَيْهَا ،
وستَعْلَمُ - هَيْلَتُكَ الهَوَابِلُ ! أَيُّهَا الأحمقُ الجاهلُ ؛ الذي ثَنَى على النِّعَةِ عِطْفُهُ ، وأَعْتَرِ
بِضَجَاجِ المَوَاكِبِ خَلْفَهُ - أَيُّ مَوْرِدَةٍ هَلَكَةٍ بِإِذْنِ اللهِ تَوَرَّدَتْ ، إِذْ على اللهِ جَلٌّ وَعِزٌّ
تَمَرَّدَتْ وَشَرَّدَتْ ، فإنه تَبَارَكَ وتَعَالَى قَدْ ضَرَبَ لَكَ في كِتَابِهِ مِثْلًا : ﴿ قَرِيبَةً كَانَتْ أَمْنَةً
مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وإِنَّا كُنَّا نُقَرِّبُكَ إِلَيْنَا ، وَنَنْسُبُكَ إِلَى بُيُوتِنَا ؛ طَمَعًا فِي إِيَّاتِكَ ، وَتَأْمِيلًا لِفَيْئَتِكَ ؛
فَلَمَّا طَالَ في النِّعَةِ أَنَّهُمَا كُوكُ ، وَفِي عَمْرَةٍ الجَهْلِ أَرْتِبَا كُوكُ ؛ وَلَمْ نَرَ الموعظةَ تَلِينَ كَيْدَكَ ،
وَلَا التَّدْكِيرَ يُقِيمُ أَوْدَكَ ، لَمْ تَكُنْ لِهَذِهِ النِّسْبَةِ أَهْلًا ، وَلَا لِإِضَافَتِكَ إِلَيْنَا مَوْضِعًا
وَحَلًّا ؛ بَلْ لَا تُكْنِي ' أَبَى العَبَّاسِ إِلَّا تَكْرَهًا وَطَمَعًا بِأَنْ يَهَبَ اللهُ مِنْكَ خَلْفًا نَقْلُهُ أَسْمَكَ
وَنُكْنِي ' بِهِ دُونَكَ ، وَنَعْدُكَ كُنْتَ نِسِيَا مَنَسِيَا ، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا مَقْضِيًّا ؛ فَانْظُرْ وَلَا نَظَرَ
بِكَ إِلَى عَارٍ نِسْبَتِهِ تَقَلَّدْتَ ، وَتَخَطَّ مِنْ قَبْلِنَا تَعَرَّضْتَ ؛ وَأَعْلَمُ أَنَّ البلاءَ بِإِذْنِ اللهِ
قَدْ أَظْلَمَكَ ، وَالمَكْرُوهَ إِنْ شَاءَ اللهُ قَدْ أَحَاطَ بِكَ ؛ وَالعَسَا كَرَّ بِحَمْدِ اللهِ قَدْ أَتَتْكَ كَالسَّيْلِ
فِي اللَّيْلِ ، تُؤْذِنُكَ بِحَرْبٍ وَبِوَيْلٍ ؛ فَإِنَّا نُقَسِّمُ ، وَنَرْجُو أَنْ لَا تَجُورَ وَنَظْمٍ ؛ أَنْ لَا تَنْثِي
عَنْكَ عَنَانًا ، وَلَا تُؤْثِرَ عَلَى شَانِكَ شَانًا ؛ وَلَا تُثَوِّلَ ذِرْوَةَ جَبَلٍ ، وَلَا تَلِجَ بَطْنَ وَادٍ ؛
إِلَّا جَعَلْنَاكَ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ فِيهِمَا ، وَطَلَبْنَاكَ حَيْثُ أُمِّتَ مِنْهُمَا ؛ مُتَفَقِينَ فِيكَ كُلِّ
مَالٍ خَطِيرٍ ، وَمُسْتَصْغِرِينَ بِسَيْدِكَ كُلِّ خَطْبٍ جَلِيلٍ ؛ حَتَّى تَسْتَمِرَّ مِنْ طَعْمِ العَيْشِ

ما آسَحَلْتِ ، وَتَسَدِّفَعِ مِنَ الْبَلَايَا مَا آسَدَعَيْتِ ؛ حِينَ لَا دَافِعَ بِحَوْلِ اللَّهِ عَنْكَ ،
وَلَا مُزْجِرَاحَ لَنَا عَنْ سَاحَتِكَ ؛ وَتَعْرِفُ مِنْ قَدْرِ الرَّخَاءِ مَا جَهِلْتَ ، وَتَوَدُّ أَنَّكَ هُبَيْتَ
وَلَمْ تُكُنْ بِالْمَعْصِيَةِ عَجَلَتْ ، وَلَا رَأَى مَنْ أَضَلَّكَ مِنْ عُثَاثِكَ قَبْلَتْ ؛ فَخَيْثُذَ يَتَفَرَّى^(١)
لَكَ اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ ، وَيُسِيرُ لَكَ الْحَقُّ عَنْ مُحَضِّهِ ؛ فَتَنْظُرُ بَعِينِينَ لِأَغْشَاوَةِ عَلَيْهِمَا ،
وَتَسْمَعُ بِأَذِينِ لَا وَفَرَ فِيهِمَا ؛ وَتَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ مَمْتَسِكًا بِجَبَائِلِ غُرُورٍ ، مُتَمَادِيًا
فِي مَقَابِحِ أُمُورٍ : مِنْ عُقُوقِ لَا يَنَامُ طَالِبُهُ ، وَبَغْيِ لَا يَنْجُو هَارِبُهُ ؛ وَغَدْرٍ لَا يَنْتَعِشُ
صَرِيحُهُ ، وَكُفْرَانٍ لَا يُوْدِي قَتِيلُهُ ؛ وَتَقِفُ عَلَى سُوءِ رَوَيْتِكَ ، وَعِظَمِ جَرِيرَتِكَ ؛ فِي نَزْكِكَ
قَبُولِ الْأَمَانِ إِذْ هُوَ لَكَ مَبْدُولٌ ، وَأَنْتِ عَلَيْهِ مَحْمُولٌ ؛ وَإِذَا السَّيْفُ عَنْكَ مَغْمُودٌ ،
وَبَابُ التَّوْبَةِ إِلَيْكَ مَفْتُوحٌ ؛ وَتَتَلَهَّفُ وَالتَّلَهُّفُ غَيْرُ نَافِعِكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أُجِبْتَ إِلَيْهِ
مُسْرَعًا ، وَآتَقَدْتَ إِلَيْهِ مَتَصِحًّا .

وإِنَّ مِمَّا زَادَ فِي ذُنُوبِكَ عِنْدِي مَا وَرَدَ بِهِ كِتَابُكَ عَلَىَّ بَعْدَ نُفُوذِي عَلَى الْفُسْطَاطِ مِنَ
الْتَّمُوهَاتِ وَالْأَعَالِيلِ ، وَالْعِدَاتِ بِالْأَبَاطِيلِ ؛ مِنْ مَصِيرِكَ بِرَعْمِكَ إِلَى إِصْلَاحِ مَا ذَكَرْتَ
أَنَّهُ فَسَدَ عَلَىَّ ، حَتَّى مِلْتُ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، فَأَقَمْتُ بِهَا طَوْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ . وَأَسْتَظْهَرَا
عَلَيْكَ بِالْحُجَّةِ ؛ وَقَطَعَا لِمَنْ عَسَى أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ مَعْذَرَةٌ عِلْمَ أَنَّ الْأَثَاةَ غَيْرَ صَادَّةٍ ، وَلَا أَنَّهُ
خَالَجَنِي شُكٌّ وَلَا عَارِضَنِي رَيْبٌ فِي أَنَّكَ إِنَّمَا أَرَدْتَ التَّزْوُجَ وَالْإِحْتِيَالَ لِلْهَرَبِ ، وَالتَّزْوُجَ
إِلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَعَلَّ قَصْدَكَ إِيَّاهَا يُودِيكَ ، وَلَعَلَّ مَصِيرَكَ إِلَيْهَا يَكْفِينِيكَ ؛
وَيُلْغِي إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْإِرَادَةِ فِيكَ ، لِأَنَّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَقْصِدُ مَوْضِعًا إِلَّا تَلَوَّنَاكَ ،
وَلَا تَأْتِي بَلَدًا إِلَّا قَفَوْنَاكَ ؛ وَلَا تَلُودُ بَعْضُكُمْ تَطْنُ أَنَّهَا تُنْحِيكَ إِلَّا أَسْتَعْنَتْ بِاللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ
فِي جَدِّ حَبْلُهَا ، وَفَضَمَ عُرْوَتَهَا ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يُؤْوِي مِثْلَكَ وَلَا يَنْصُرُهُ إِلَّا لِأَحَدِ أُمُرَيْنِ

(١) أى يفتنى يقال فراه فانقرى وتفرى انظر المختار .

من دينٍ أو دُنْيَا . فاما الدِّينَ فانتَ خارجٌ من جملته لمقامك على العُقُوق ، ومخالفة ربِّك وإسقاطه . وأما الدُّنْيَا فما أراه بقيَ معك من الحطام الذى سرقته وحمَلتَ نفسك على الإيثار به ، مايتبيأ لك مكافئتنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جَزِيلِ النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغبُ إليه فى إنمائها ، إلى ماأنت مقيمٌ عليه من البغى الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالِبُكَ .

وأما ما مَنِّيناه من مَصيرِكَ إلينا فى حُشودك وجموعك ، ومنَ دَخَلَ فى طاعتك ؛ لإصلاح عملنا ، ومكافئة أعدائنا ؛ بأمر أظهرُوا فيه الشَّامة بنا ، فما كان إلا بسببك فأصلحَ أيها الصَّبِيُّ الأحرَقُ أمرَ نفسك قبل إصلاحك عملنا ، وأَحْرِمَ فى أمرِكَ قبل استعمالك الحَزَمَ لنا ؛ فما أَحوجنا الله وله الحمد إلى نُصرتِكَ ومُوازرتِكَ ، ولا اضْطُررنا إلى التَّكثُرِ [بك] على شِقَاقِكَ ومعصيتِكَ : ﴿ وما كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

وليتَ شَعْرَى على مَنْ تُهَوِّلُ بالجنود ، وتَمْخَرُقُ بذكر الحيوش ؛ ومنَ هؤلاء المُسَخَّرُونَ لك ، الباذلون دِمَاعَهُمْ وأموالَهُمْ وأديانَهُمْ دُونَكَ ؟ دُونَ رِزْقِ تَرْزُقُهُمْ إِيَّاهُ ، ولا عطاء تُدْرِهِ عليهم ؛ فقد علمتَ إن كانَ لك تَمييزُ ، أو عندك تَحْصِيلُ ؛ كيف كانتَ حالُكَ فى الوقعة التى كانتَ بناحية أَطْرَابِلسَ ، وكيف خَذَلَكُ أوليائُوكَ والمُرتزِقَةُ معكَ حتى هُزِمْتَ ، فكيف تَغْتَرَّبْنَ معكَ من الجنود الذى لا أَسْمَ لهم معكَ ، ولا رِزْقَ يجرى لهم على يَدِكَ ؟ فإن كانَ يَدْعُوهم إلى نُصرتِكَ هَيْبَتُكَ والمداراةُ لك والخوفُ من سلطانِكَ ، فإنهم لَيَجْذِبُهُمْ أَضْعَافُ ذَلِكَ مِنَّا ، ووجودُهُم من البَسْدَلِ الكثير والعطاء الجَزِيلِ عندنا ما لا يَجِدُونَهُ عندكَ ، وإنهم لأَحرى بِجَذَلِكَ ، والميلِ إلينا دُونَكَ . ولو كانوا جميعا معكَ ومقيمين على نُصرتِكَ ، لرجونا أن يَمَكِّنَ اللهُ مِنْكَ ومنهم ، ويجعلَ دائرةَ السَّوءِ عليك وعليهم ، ويُجْزِيَنَا من عادته فى النَّصْرِ وإِعْزازِ الأمرِ على ما لم يَزَلْ . يتفضَّلُ

علينا بأمثاله ، ويتطوّل بأشباهه . فما دعانى إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خِناقك ،
والإطالة من عِناقك ، طوّل هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك
وأستصغاره ، وقلة الاحتفال والاعتناء به ؛ وإنى أقصرت من عقوبتك على^(١)
ما خلقتك بنفسك من الإباق إلى أقاصى بلاد المغرب شريداً عن منزلك وبلدك ،
فريداً من أهلك ولكدك - والآخرا تى علمت أن الوحشة دعتك إلى الانحياز إلى
حيث انحزت إليه ، فأردت التسكين من نفارك ، والطمأنينة من جأشك ؛ وعملت
على أنك تحن إلينا حين الولد ، وتثوق إلى قربنا توقان ذى الرحم والنسب ؛ فإن
فى رفقنا بك ما يعطفك إلينا ، وفى تأخينا إياك ما يرذك علينا ، ولم يسمع منا سامع
فى خلأ ولا ملائ انتقاصاً بك ، ولا غضا منك ، ولا قدحاً فىك ؛ رقة عليك ، وأستمتما
للىد عندك ؛ وتأملا لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك
وحظك ؛ فاما الآن مع اضطراك إياى إلى ما اضطرتنى إليه من النزاع نحوك ،
وحبسك رُسلى النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك ؛ وأستعالك المواربة والخذاع فيما
يجرى عليه تدبيرك . فما أنت بموضع للصيانة ، ولا أهل للإبقاء والمحافظة ، بل اللعنة
عليك حاله ، والذمة منك بريه ، والله طالبك ومؤاخذك بما أستعملت من العقوق
والقطيعه ، والإضاعة لرحم الأبوه - فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة اللاعنين ،
والملائكة والناس أجمعين ؛ ولا قيل الله لك صرفاً ولا عدلاً ، ولا ترك لك منقلباً
ترجع إليه ، وخذلك خذلان من لا يؤبه له ، وأثلك ولا أمهلك ، ولا حاطك
ولا حفيظك . فوالله لأستعملن لعنك فى دبر كل صلاة ، والدعاء عليك فى آتاء الليل
والنهار ، والغدو والآصال ؛ ولأكتبن إلى مصر ، وأجناد الشامات والثغور ،
وقنسرين ، والعواصم ، والجزيرة ، والحجاز ، ومكة ، والمدينة كتباً تقرأ على منابرها

(١) مراده على ما اخترته لنفسك الخ

فيك، باللعن لك، والبراءة منك، والدلالة على عُقُوقك وقَطِيعتك؛ يَتَنَاقَلُهَا آخِرُ عَنْ
أَوَّلٍ، وَيَأْتِيهَا غَائِرٌ عَنْ مَاضٍ، وَتُحَلَّدُ فِي بَطُونِ الصَّحَائِفِ، وَتَحْمِلُهَا الرُّكَّانُ، وَيُحَدِّثُ
بِهَا فِي الْآفَاقِ، وَتُلْحِقُ بِكَ وَبِأَعْقَابِكَ عَارًا مَا أَطْرَدَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَآخَتَلَفَ الظَّلَامُ
وَالْأَنْوَارُ.

فَإِذَا تَعَلَّمَ أَنَّهَا الْخَالَفُ أَمْرَ أَبِيهِ، الْقَاطِعُ رَحِمَهُ، الْعَاصِي رَبَّهُ؛ أَيْ جَنَایَةِ عَلَى
نَفْسِكَ جَنِيتَ؟ وَأَيَّ كَبِيرَةٍ أَقْتَرْتَ وَاجْتَنَيْتَ، وَتَمَنَّى لَوْ كَانَتْ فِيكَ مُسْكَةٌ،
أَوْ فِيكَ فَضْلٌ إِنْسَانِيَّةٌ؛ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ وَلِدْتَ، وَلَا فِي الْخَلْقِ عُرِفْتَ؛ إِلَّا أَنْ تُرَاجِعَ
مِنْ طَاعَتِنَا وَالْإِسْرَاعِ إِلَى مَا قَبَلْنَا خَاضِعًا ذَلِيلًا كَمَا يَلْزَمُكَ، فَتُقِيمَ الْأَسْتِغْفَارَ مُقَامَ
الْلعْنَةِ، وَالرَّقَّةَ مُقَامَ الْغَاضَةِ؛ وَالسَّلَامَ عَلَى مَنْ سَمِعَ الْمَوْعِظَةَ فَوَعَاهَا، وَذَكَرَ اللَّهَ
فَاتَّقَاهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وَمَا كَتَبَ الْأَخْشِيدُ مُحَمَّدُ بْنُ طُفَّجٍ [صَاحِبُ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ] ^(١) وَمَا مَعَهَا مِنَ الْبِلَادِ
الشَّامِيَةِ، وَالْأَعْمَالِ الْحِجَازِيَّةِ، إِلَى أَرْمَانُوسَ: مَلِكِ الرُّومِ، وَقَدْ أَرْسَلَ أَرْمَانُوسُ إِلَيْهِ كِتَابًا
يَذْكُرُ مِنْ جَمَلَتِهِ بِأَنَّهُ كَاتِبُهُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ أَنْ يَكَاتِبَ إِلَّا الْخَلِيفَةَ، فَأَمَرَ بِكَاتِبَةِ
جَوَابِهِ فَكَتَبَ لَهُ الْكُتَّابُ عِدَّةَ أَجْوِبَةٍ وَرَفَعُوا نَسْخَهَا إِلَيْهِ، فَلَمْ يَرْضَ مِنْهَا إِلَّا مَا كَتَبَهُ
إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّجِيرِيِّ وَكَانَ عَالِمًا بِوُجُوهِ الْكِتَابَةِ:

وَنَسَخْتُهُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو سَعِيدٍ فِي كِتَابِهِ "الْمَغْرِبُ فِي أَخْبَارِ الْمَغْرِبِ":

مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ طُفَّجٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى أَرْمَانُوسَ عَظِيمِ الرُّومِ وَمَنْ يَلِيهِ.

سَلَامٌ بِقَدْرِ مَا أَنْتُمْ لَهُ مُسْتَحِقُّونَ، فَإِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ

يَصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما بعد، فقد تُرجم لنا كتابك الوارد مع نُقولاً وإسحاق رسولك ، فوجدناه مفتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُمى عنا إليك ، وصحَّ من شيننا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخلص الأسرى ، إلى [غير] ذلك مما آشتل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فن سيد القول ، الذى يليق بذوى الفضل والنبل ، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، وإليه راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصون وعاملون . وإياه نسأل التوفيق لمرآشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

وأما مانسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإننا نرغب إلى الله جلّ وعلا الذى تفرد بكمال هذه الفضيلة ، وهبها لأوليائه ثم أنابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويحعلنا من أهلها ، وييسرنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعرة القسوة بها ، ويحعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته ، حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به ، وأحقّ حقاً بما دعوتنا إليه ، ومن يستحقّ الرضى من الله تعالى ، فإننا فقراء إلى رحمته . وحقّ لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطل الله بقاءه ، أن يتّهل إلى الله تعالى في معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْضَرْ اللَّهَ لَهُ نُوراً فَآلَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكتبة لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله ، الباقي على الدهر ، وأنتك إنما خصصتنا بالمكتبة لما تحقّقه من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقاً

وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكتبه ، وكان لك في ترك مكاتبتنا غم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلّك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وحه ولا تقيصة ولا عيبا ، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السأس الفاضل قد يركب الأخطار ، ويخوض الغمار ، ويعرض مهنجه ، فيما ينفع رعيته ، والذي تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تحضكم ، لأن مذهبنا أنتظار إحدى الحسنيين ، فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسيله ، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسروشة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن متقلبه ، وحيد عاقبه ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفنته ، ولم يعذه من أن يتليّه . هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم ، وما توجه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول في الصواب ، أولى بنا من المسامحة في الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا . إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سمّا إلى مكتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتئمسه ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم ، ولا غار على أحد وإن جل قدره في ردهم ، ومن وثق في نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه ، وأدناها إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم . وكذلك كاتب من حل محلّك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا ، فمالكا عدا ، كان يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن .

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطفئ فرعونَ على خَطَرِ أمره، حتَّى آدَعى الإلهية وافتخر على نبيِّ الله موسى بذلك .

ومنها ممالكُ الين التى كانت للتبابعة، والأقيالِ العَبَاهِلَة : ملوكِ حمير، على عظم شأنهم، وكثرة عددهم .

ومنها أجنادُ الشام التى

منها جُنْدُ حِمَصَ، وكانت دارهم ودارِهم قَلَّ عظيمِ الرومِ ومنَ قبله من عظمائها .

ومنها جُنْدُ دِمَشَقَ على جلالته فى القديم والحديث، واختيارِ الملوكِ المتقدمين له .

ومنها جُنْدُ الأُرْدُنِّ على جلالته قدره، وأنه دارُ المَسِيحِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحواريين .

ومنها جُنْدُ فِلَسْطِينَ، وهى الأرض المقدسة، وبها المسجدُ الأقصى، وكرسى النصرانية، ومعتقدُ غيرها، ومَحَجَّجُ النصارى واليهود طُرًّا، ومقرُّ داودَ وسليمانَ ومسجدَهُما . وبها مسجدُ إبراهيم وقبره وقبر إسحاق ويعقوبَ ويوسفَ وإخوته وأزواجهم عليهم السلام، وبها مولدُ المسيح وأمه وقبرها .

هذا إلى ما تنقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة، والدلالات الظاهرة، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها، وعِظَم قدرها، وما حوت من الفضل تُوفى على كل مملكة، لأنها محجَّج آدم ومَحَجَّج إبراهيم وارثه ومُهَاجِرُهُ، ومَحَجَّجُ سائر الأنبياء، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام وداره وقبره، ومنبت ولده، ومَحَجَّجُ العرب على مرِّ الحقب، ومحلُّ أشرافها، ودَوَى أخطارها، على عظم شأنهم، ونخامة أمرهم . وهو البيت

(١) كذا فى "المغرب" أيضا ويظهر أنه مقدم على ما بعده ويكون الضمير فيه عائداً على سيدنا إسماعيل فان مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحترم المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذى يعترف بفضلِهِ وقَدَمِهِ أَهْلُ الشرف ، من مَضَى وَمَنْ خَلَفَ ؛ وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بئرته ، وانها مهبط الوحي ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ، والمهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها ، وتنازع أقطارها ، وكثرة سُكَّانِها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمتها فى وفودها وشدتها ، وصِدْقُ بأسها وتجدتها ؛ وكبر أحلامها ، وبعُدُ مَرَامِها ، وأنْعقاد النصر من عند الله براياتها . وإن الله تعالى أباد خضرَاء كسرى ، وشَرَّدَ قيصَرَ عن داره ومحل عِزِّه ومجْدِهِ بطائفة منها . هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ؛ ونَحَتْ أَمْرنا وَهَيْبنا ثَلَاثَةُ كَراسِيٍّ من أعظم كَراسِيِّكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والإسكندرية . مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بآتم العتاد . وإذا وقَّيت النظر حقَّه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بِمَجْلِ الممالك التى ينتفع الأنام بها ، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دُنْيا وآخرة ، وتحقَّقت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كلِّ مَنزِلَةٍ . والحمد لله ولى كلِّ نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريبا وبعيدا على عِظمتها وسَعَتِها بفضل الله علينا وإحسانه إلينا ومُعُونته لنا وتوفيقه لِيَأْنا كما كتبت إلينا وصَحَّ عندك من حُسْنِ السَّيِّرة ، وبما يؤلِّف بين قُلُوب سائر الطَّبَقَات من الأولياء والرعية ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدَّعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا على نِعَمِهِ التى تفوت عندنا عدَدَ العاديين ، وإحصاء المجتهدين ، ونَشْرُ الناشرين ، وقَوْلَ القائلين ، وشُكْرَ الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدَّث بنعمته عليه شُكْرًا لها ، ونَشْرًا لما منعه الله منها [ومن رضى

اجتهاده في شكرها، ومن أراد الآخرة^(١) وسعى لها سعيها، وكان سعيه مشكورا، إنه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره ، ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقُدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين . لكنك سلكت مسلكا لم يحسن أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا آعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومثرتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان إليهم ، جمع من تقدمك من سلفك . ومن كان محمودا في أمره ، رغب في محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من آتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ، فهذه ممالك عظيمة ، واسعة جمّة ، وهي أجل الممالك التي ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف . فإن الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطل الله بقاءه ، مخصصين بذلك إلى مالنا بقديمتنا وحديثنا وموقعنا . والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعي فيما يرضيه بلطفه . ولم ينطو عنك أمرنا فيما آعتمدناه ،

وإن [كنت] تجرى في المكاتبه على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل محلنا ، ولا أغنى

(١) الزيادة من "المغرب في أخبار المغرب" .

(٢) في المغرب "لم يجز لنا أن نعدل الخ" .

غَنَاءَنَا ، ولا سَاسَ في الأمورِ سياستَنَا ، ولا قَلْدَه مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قَلَدْنَا ، ولا فَوْضَ إليه ما فَوْضَ إلينا ، وقد كُوتِبَ أبو الجَيْشِ نُحَارُويه بن أحمد ابن طُلولون ، وآخر من كُوتِبَ تِيكِين مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مِصرَ وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرا على نِعَمِهِ التي يفوت عندنا عَدَدُهَا عَدَّ العَادِّينَ ، ونُشَرُّ النَاشِرِينَ . ولم نرد بما ذكرناه المفاخرة ، ولكننا قصدنا بما عَدَدْنَا من ذلك حالاتٍ : أَوَّلُهَا التَحَدُّثُ بنعمة الله علينا ؛ ثم الجوابُ عما تَضَمَّنَهُ تَحَابُكُ من ذكر المحلِّ والمُتَرَلِّ في المكتبة ، ولتَعْلَمَ قَدْرَ ما بَسَطَهُ الله لنا في هذه المسالك ، وعندنا قُوَّةٌ تَامَةٌ على المكافأة على جميلِ فِعْلِكَ بالأُسارى ، وشُكْرُ وَاِفٍ لما تُؤَلِّمُهُم وتَتَوَخَّاهُ من مَسَرَّتِهِمْ إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وَفَّقَكَ اللهُ لمواهبِ خيراتِ الدنيا والآخرة ، والتوفيقِ للِسَدَادِ في الأمورِ كلها ، والتيسيرِ لصلاحِ القولِ والعملِ الذي يُحِبُّه ويرضاه ويشيب عليه ، ويرفَعُ في الدنيا والآخرة أَهْلَهُ ، بِمَنَّةٍ وَرَحْمَةٍ .

وأما المُلْكُ الذي ذكرت أنه باقٍ على الدهرِ لأنه موهوبٌ لكم من الله خاصَّةً ، فَإِنَّ الأرضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ من عباده والعاقِبَةُ للَتَّقِينَ . وإن المُلْكَ كُلَّهُ لله يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وإليه المَصِيرُ ، وهو على كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وإن الله عزَّ وجلَّ نَسَخَ مُلْكَ المُلُوكِ وَجَبَرِيَّةَ الجَبَّارِينَ بِبُيُوتِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله أجمعين ، وَشَفَعَ نَبُوْتَهُ بالإمامة وحازها إلى العِترةِ الطاهرة من العُنْصُرِ الذي منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، والشجرة التي منها عُصْنَتُهُ ، وجعلها خالدةً فيهم يتوارثها منهم كابرٌ عن كابرٍ ، وَيُلْقِيهَا ماضٍ إلى غابرٍ ، حَتَّى تَحْزَنَ أَمْرُ اللهِ ووَعْدُهُ ، وبهر نصره وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمودَ الدين بالأمَّة

المهتدين ، وَقَطَعَ دَابَرَ الْكَافِرِينَ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُطِيلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

وإِنَّ أَحَقَّ مُلْكٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَأَوْلَاهُ وَأَخْلَقَهُ أَنْ يَكُنْفَهُ اللَّهُ بِجِرَاسَتِهِ وَحِطَاطَتِهِ ، وَيُخَفِّعَ بَعْزَهُ وَأَيَّدَهُ ، وَيَجَلِّلَهُ بِهَاءِ السَّكِينَةِ فِي بَهْجَةِ الْكَرَامَةِ ، وَيَجْمَلَهُ بِالْبَقَاءِ وَالنَّجَاءِ مَا لَاحَ بَخْرٌ ، وَكَرَّرَ دَهْرٌ ، مُلْكٌ إِمَامَةٍ عَادِلَةٍ خَلَفَتْ نَبَوَّةَ فَجَرَتْ عَلَى رُسْمِهَا وَسَنَنِهَا ، وَارْتَسَمَتْ أَمْرُهَا ، وَأَقَامَتْ شَرَائِعَهَا ، وَدَعَتْ إِلَى سُبُلِهَا ، مُسْتَنْصِرَةً بِأَيْدِهَا ، مُتَجِزَّةً لَوَعْدِهَا ، وَإِنَّ يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ إِمَامَةِ عَادِلَةٍ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عُمْرِ الدُّنْيَا تَمْلُكًا وَجَبَرِيَّةً .

ونحن نسأل الله تعالى أَنْ يُدِيمَ نِعَمَهُ عَلَيْنَا ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْنَا بِشَرَفِ الْوَلَايَةِ ، ثُمَّ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ بِمَا وَفَّرَ عَلَيْنَا خَيْرَهُ وَعُلَاهُ ، وَمَجْدَهُ وَإِحْسَانَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَبِهِ الثِّقَةُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَأَمَّا الْفِدَاءُ وَرَأْيُكَ فِي تَخْلِيصِ الْأَسْرَى ، فَإِنَّا وَإِنْ كُنَّا وَاقِفِينَ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ بِإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ، وَعَلَى بَيْتِهِ لَهْمٌ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَثَبَاتٌ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَعِظَمُ الْمَثُوبَةِ ، عَالِمِينَ بِمَا لَهُمْ ، فَإِنْ فِيهِمْ مَنْ يُؤَثِّرُ مَكَانَهُ مِنْ ضَنْكِ الْأَسْرِ وَشِدَّةِ الْبَأْسَاءِ عَلَى نَعِيمِ الدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا ، سَكُونًا إِلَى مَا يَتَحَقَّقُهُ مِنْ حُسْنِ الْمُنْقَلَبِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ . وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَاذَهُ مِنْ أَنْ يَفْتِنَهُ ، وَلَمْ يُعِذْهُ مِنْ أَنْ يَتْلِيَهُ ، وَقَدْ تَبَيَّنَّا مَعَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْبَابِ مَا شَرَعَهُ لَنَا الْأُئِمَّةُ الْمَاضُونَ ، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُونَ ، فَوَجَدْنَا ذَلِكَ مُوَافِقًا لِمَا آتَمَسْتَهُ ، وَغَيْرَ خَارِجٍ عَمَّا أَحْبَبْتَهُ ، فَسَرَرْنَا بِمَا تَبَسَّرَ مِنْهُ ، وَبَعَثْنَا الْكُتُبَ وَالرُّسُلَ إِلَى عُمَّالِنَا فِي سَائِرِ أَعْمَالِنَا ، وَعَزَمْنَا عَلَيْهِمْ فِي جَمْعِ [كُلِّ مَنْ قَبْلَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ بِمَا وَفَرَ الْإِيمَانُ فِي إِتْقَانِهِمْ ، وَبَذَلْنَا فِي ذَلِكَ] ^(١) كُلِّ مُمْكِنٍ ، وَأَنْخَرْنَا إِجَابَتَكَ عَنْ كِتَابِكَ لِيَتَقَدَّمَ فَعْلُنَا

(١) الزيادة من "المغرب في أخبار المغرب" .

قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموضع منك إن شاء الله .

وأما ما ابتدأنا به من المواصله ، وأستشعرته لنا من المودة والمحبة ، فإن عندنا من مقابلة ذلك ما توجب السياسة التي تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذي يؤلفنا على تباين النحل ، فإن ذلك من الأسباب التي تخصنا وإياك . ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناس رسلك وبسطهم ، والاستماع منهم والإصغاء إليهم والإقبال عليهم ؛ وتلقينا أنبساطك إلينا ، والطافك إيانا بالقبول الذي يحق علينا ؛ ليقع ذلك موقعه . وزدنا في تأكيد ما اعتمدته ما حملناه رسلك في هذا الوقت على استقلالنا إياه من طرائف بلدنا وما يطرا من البلاد علينا ؛ وإن الله ببدله وحكمته أودع كل قرية صنفا ، ليتشوف إليه من بعد عنه ، فيكون ذلك سببا لعمارة الدنيا ومعايش أهلها . ونحن نفردك بما سلمناه إلى رسولك لتقف عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذننا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه وأختاروه ؛ لأننا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة . وعندنا من بسطك وبسط من يرد من جهتك ، والحرص على عمارة مبادئنا به ورعايته ، ورب ما غرسه ، أفضل ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يعين على ما ننويه من جميل ، ونعتقد من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومن ابتدأ بجميل لزمه الجري عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقابه . وقد ابتدأنا بالمؤانسة والمباينة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتدائنا بجوانحك وعوارضك قبلنا ؛ فأبشرب بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمد لله أحق ما ابتدئ به ، وختم بذكره ؛ وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلم تسليما .

الحالة الثانية

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان الحال عليه بعد الدولة الفاطمية في الدولة الأيوبية)

وقد ذكر «عبدالرحيم بن شيث» أحد كتّاب الدولة الأيوبية في أواخر دولتهم مصطلح ما يكتب عن السلطان في خلال كلامه، فقال : إن الناس كانوا لا يكتبون «المجلس» إلا للسلطان خاصة، ويكتبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحضرة» ثم أفرّدوا السلطان بالمقام والمقرّ، وصاروا يكتبون «المجلس» لمن دونه، ولم يسوّغوا مكتبة السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحضرة. قال : ويكتب السلطان إلى ولده المستخلف عنه : «المجلس» دون المقام. وأصطلحوا على الاختصار في نعت الملوك المكتوب إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحت أمر السلطان وتحت حوزته، فإنه كلما كثرت النعت والدعاء له في مكتبة السلطان إليه، كان أبلغ : لأن ذلك في معنى التشريف من السلطان ، وأنه لا يقال في المقام «السامى» بل «العالى» . وأنه إذا كتب السلطان إلى من هو دونه من ذوى الأقدار عبر «بالمجلس السامى» ، ولا يزداد على ذلك ، ثم يفرد عن النسب بعد السامى ، فيقال : الأمير الأجل من غيرياء النسب . وأنه لا يقال العالى مكان السامى في الكتابة عن السلطان ، وقد يجمع بينهما لذوى الأقدار، وأنه يضاف في نعت كل أمير «عمدة الملوك والسلاطين عز الإسلام، أو نصرة الإسلام، أو فارس المسلمين» أو ماشابه ذلك من غير ضبط ولا تخصيص لأحد دون أحد إذا أحرزوا النعت الذى أشتهر به المكتوب إليه . وأنه يقال : «عمدة الملوك والسلاطين» و«عمدة الملوك والسلاطين» و«دُخْر الملوك» ودونها «أختيار الملوك» . وللاقارب «نقر الملوك» و«جمال الملوك» و«عز الملوك» و«زين الملوك» . وللا مائل «معين الملوك» و«نصرة الملوك» وما أشبه ذلك .

وأنه يكتب للأمرء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و«سَيْفُ أمير المؤمنين» .
ولكبراء الدولة من الكُتَّاب : «خَاصَّةُ أمير المؤمنين» و«وَلِيُّ أمير المؤمنين»
و«صَفْوَةُ أمير المؤمنين» . و«ثِقَّةُ أمير المؤمنين» و«صَنِيعَةُ أمير المؤمنين» على
مقدار مراتبهم . وأن نعت الأجلّ يذكر بعد العلوّ والسُّموّ بأن يقال : «المجلس العالى
الأجلّ» أو «السامى الأجلّ» وربما كان بعد ذكر الإمرة أو القضاء فيقال
«الأمير الأجلّ» أو «القاضى الأجلّ» . وأن السلطان لا يتبدى بالدعاء فى كتبه إلى
أحدٍ إلا من ماثله فى المُلْك . وأن السلطان لا يكتب إلى أحد من هو تحت أمره
«بلا زَالَ» «ولا بَرَح» فى الدعاء ، وإنما يكتب بذلك إلى من ماثله من الملوك ،
أو إلى ولده المستخلف عنه فى المُلْك . وأن الدعاء للملوك يكون مثل «أدام الله أيامه»
و«خَلَّدَ سلطانه وثَبَّتَ دولته» وما أشبه ذلك . وأن التَّحْمِيد فى أوائل الكُتُب
لا يكون إلا فى الكُتُب الصادرة عن السلطان . وأن غاية عَظْمَةِ المكتوب إليه أن
يكون الحمدُ ثمانية وثلاثة فى الكتاب ، ثم يؤتى بالشهادتين ، ويصلّى على النبيّ صلى الله
عليه وسلم . وأنه يكتب فى الكتب السلطانية «صدرت» و«أصدرناها» ولا يكتب
«كتبت» . وأن الذى يُخاطَب به الخلافة عن السلطان : «المواقف المقدسة
الشريفة ، والعتبات العالِية ، ومَقَرِّ الرحمة ، ومَحَلِّ الشرف» . والذى يُخاطَب به
الملوك : «المقام العالى ، والمَقَرُّ الأشرف» ولا يقال «المَقَام السامى» . والذى
يُخاطَب به الوزراء : «الجناب العالى ، والمَحَلُّ السامى» . ومن دون ذلك «المجلس
السامى» ودونه «مجلس الحضرة» . ودونه «الحضرة» . وأنه لا يكتب عن السلطان
لمن هو تحت أمره إلا بنون الجمع لدالاتها على العَظْمَةِ ، ولا يُكْتَب «تسعر» إلا عن
السلطان خاصَّةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة
الطرّة ، وتكون بقلم جليل غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين السطور حتى يكون بين كل

سطين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لا يخرج عن سُمّت البسملة في الكتابة ، ولا يحتمل ذلك إلا في الحمْدلة . وأنه لا يكثر النقط والشكل في الكتب الصادرة عن السلطان لاسيما في الألفاظ الظاهرة . وأن الدعاء على العدو كان محظورا في الكتب الصادرة عن السلطان إلى مَنْ دُونه ، ثم أَسْتَعْمَلَ ذلك . وأنه لا تترك فضلة في آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب في حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان في كتبه لمن تحت أمره أعلامهم وأدناهم ، العلامة ؛ فان أراد تمييز أحد منهم كتب له شيئا بخطه في مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلى البسملة من السلطان أقرب ، وأنه لا حرج على السلطان أن يترجم للقضاة والعلماء والعُباد بأخيه وولده . وأن عَنونة الكتاب وختمه مختص بصاحب ديوان الإنشاء ليدل ذلك على وقوفه على الكتاب . وأنه لا يجوز عَنونة الكتاب قبل أن يكتب عليه السلطان ترجمته أو علامته . وأن الكتب لا تبقى مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكتاب ختمه ، ولا أكرم من كتب السلطان ؛ ويكون طي الكتاب الصادر عن السلطان عَرْض ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتبتهم على أربعة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تُفتَح المكتبة بالدعاء للمجلس أو الخُتَاب)

مثل : أدام الله أيام المجلس ، أو أدام الله سلطان المجلس ، أو أدام الله نعمة المجلس ، أو أدام الله آقندار المجلس ، أو أدام الله سعادات المجلس ؛ أو خلد الله أيام المجلس أو سلطان المجلس ، أو ثبّت الله دولة المجلس ، وما أشبه ذلك مما فيه معنى

(١) في الضوء " وأنه يترك " بغير لا النافية وإثباتها أوضح .

الدوام ؛ وربما أبدل لفظ الدوام وما في معناه بالمُضَاعَفَة ، مثل : ضاعفَ الله نعمة المجلس . ويؤتى على الألقاب إلى آخرها ، ثم يقال : تُشعر المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك ، ويؤتى على المقصود إلى آخره ، ويُحتم بالدعاء وقد يُحتم بغيره . وهذه نسخة مكاتبة من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح غزّة وأقتلاعها من الفرنج الديوية ، الذين كانوا مستولين عليها ، وهي :

« أدام الله سعادات المجلس ، وأحسن له التدبير ، وأصفى عيشه من التكدير ، وحقق له وفيه أحسن الرجاء والتقدير ، وجعل وجهه من أهلة الأكابر والتكبير ، وأعاد تأخير أجله من التقديم وتقديم حظه من التأخير .

تُشعر المجلس بما من الله تعالى به من فتح مدينة غزّة يوم الجمعة الجامع لشمّل النصر ، القاطع لحبل الكُفْر ، وهذه المدينة قد علم الله أنها من أوسع المدائن ، وأملأ الكائن ، وأثرى المعادِن ؛ وهي كُرسى الديوية ومهيّط رؤوسهم ، ومحط نفوسهم ، وحى كليهم بل كلامهم ، وظهير صليهم بل أصلابهم ؛ وما كانت الأبصار إليها تطمح ، ولا الأقدار بها قبلنا تسمع ، ولها قلعة أنفها شاخ في الهواء ، وعطفها جامع عن عطفة اللواء ؛ قد أوغلت في الجوّ مرتفعه ، وأومضت في الليل مُتمعه ، ويردء السحاب ملتفعه ؛ قد صاحفتها أيدى الأنام بالسلامة من قوارعها ، وهادتها حوادث الأيام على الأمن من روائعها ، إلى أن أتيح لها من أتاح لها الحين ، وقُيِّض لها من أقتضى منها الدين ؛ فصبّحها بما ساء به صبايحها ، وزعزعها بالزئير الذى خرس له نبأها . وكان من خبرها أننا لما أطلنا عليها مُغيرين ، وأطفنا بها دائرين ، ولُكُؤس الحرب مُديرين ؛ تغلبت الأنجاد والأبطال على الزحف ، وأعجل آرتياح النصر عن انتظام عقد الصف ؛ وأنقضوا عليها ، آنقضاؤ البراة على طرائدها ، وأسرعوا إليها ، إسرار العطاش إلى مواردها ؛

وَرُفِعَتِ الْأُلُويَةُ خَافِقَةً كَذَوَائِبِ الضَّرَامِ ، طَالَعَةً بِرَسَائِلِ الْحِمَامِ ، مُشِيرَةً بِالْعَدَابَاتِ
إِشَارَةً لَمْ يَطْمَئِنُوا إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ ؛ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَمْطَرَتِ الشُّهُبُ
مِنْ كُلِّ سِنَانٍ ؛ فَرَأَوْا مَتَوَاهِمَ الْحَيِيبِ ، وَمَحَلَّهُمُ الْخَصِيبِ ؛ وَقَدْ رَكَضَتْ فِيهِ خِيُولُ
الْغَيْرِ ، وَأَعْتَزَضَتْ فِيهِ سُيُولُ الْعَبَرِ ، وَجُرِّدَتْ فِيهِ نُصُولُ الْقَدَرِ ؛ وَالنَّارُ قَدْ لَعِبَتْ فِيهِ
يُحْدَهُ ، وَأَحْمَرَتْ فِيهِ خَدُودَهَا مُحْدَهُ ؛ وَأَقْوَاتُهُمُ الْمُدَّخَرَةُ ، وَأُمُوهَا لَمْ تَشْمَرْهُ ؛ نَفَلًا
مُبَاحًا ، وَزَبَدًا مُطَاحًا ؛ وَمَغْنَمًا مُشَاعًا ، وَنَهَبًا مُضَاعًا ؛ قَدُمِلْتُ مِنْهُ الرِّحَالُ وَأَخْصَبَتْ ،
وَأَتَّسَعَتْ بِهِ الْأَيْدِي وَضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ .

الأسلوب الثاني

(أن تُفتتح المكتبة بلفظ الإصدار)

مثل : أَصَدَرْنَا هَذِهِ الْمَكْتَابَةَ ، أَوْ أَصْدَرْتُ ، أَوْ صَدَرَتْ ؛ وَيُؤْتَى عَلَى الْمَقْصُودِ
عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل ، عن السلطان
«صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن ، يستقدمه
إليه معاونًا له على قتال الفرنج خذلهم الله ! ويشره بفتح كوكب ، وصفد ، والكرك
في سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو :

«أصَدَرْنَا هَذِهِ الْمَكْتَابَةَ إِلَى الْمَجْلِسِ ، وَمَا تَجَدَّدَ بِحَضْرَتِنَا فُتُوحُ كَوْكَبٍ : وَهِيَ كَرْسِيٌّ
الاستبارية ودار كفرهم ، ومستقر صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرهم ؛
وكان يجمع الطرق قاعداً ، ولمُتَقَى السُّبُلِ راصداً ؛ فتعلقت بفتحجه بلادُ الفتح
وَأَسْتَوَطَنْتْ ، وَسَالَكْتَ الطُّرُقَ فِيهَا وَأَمِنْتَ ، وَعُمِرَتْ بِلَادُهَا وَسَكَنَتْ ؛ وَلَمْ يَبْقَ
فِي هَذَا الْجَانِبِ إِلَّا صُورٌ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْبَحْرَ يُجِيدُهَا ، وَالْمَرَاكِبَ تَرُدُّهَا ؛ لَكَانَ قِيَادُهَا

قد أمكن ، وِحاحُها قد أذعن ؛ وما هم بحمد الله في حِصْن يَحْمِيهم ، بل في سِجْن يَحْوِيهم ؛ بل هم أُسارى وإن كانوا طُلُقَاء ، وأمواتٌ وإن كانوا أحياء ؛ قال الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ ولكلِّ أمرئٍ أجلٌ لا بُدَّ أن يَصْدُقَهُ غائِبُهُ ، وأملٌ لا بُدَّ أن يَكْذِبَهُ خائِبُهُ - وكان نزولنا على كوكبٍ بعد أن فُتِحَتْ صَفْدُ بِلَدِ الدِّيُويَةِ ومَعْقِلُهُمْ ^(١) ، ومَشْتَغَلُهُمْ وعَمَلُهُمْ ، ومَحَلُّهُمُ الأَحْصَنُ ومنزِلُهُمْ ؛ وبعد أن فُتِحْنَا الكَرْكَ وحصونَهُ ؛ والمجلسُ السيفيُّ أَسْمَاءُ الله أعلم بما كان على الإسلام من مُؤْتَنَةِ الْمُثْقَلَةِ ، وقَضِيَّتِهِ المُشْكِلَةِ ، وَعَلَّتِهِ المُعْضِلَةِ ؛ وأن الفَرَجَ - لعنهم الله - كانوا يَقْعُدُونَ مِنْهُ مَقَاعِدَ السَّمْعِ ، ويتَّبِعُونَ مِنْهُ مواضِعَ النَّفْعِ ؛ ويَحْوِلُونَ بَيْنَ قَاتٍ وَرَاكِبِهَا ، فَيَدْلُلُونَ الأَرْضَ بِمَا كَانَ مِنْهُ ثِقَلًا على مَنْاكِبِهَا ؛ وَالْآنَ مَا أُنْ بِلَادِ الْهَرَمَيْنِ ، بأشَدَّ مِنْ أُنْ بِلَادِ الْحَرَمَيْنِ ؛ فَكُلُّهَا كَانَ مُشْتَرِكًا فِي نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْقَلْعَةِ الَّتِي كَانَتْ تُرَامِي وَلَا تُرَامُ ، وَتُسَامِي وَلَا تُسَامُ ؛ وَطَامَا أَسْتَفْرَعْنَا عَلَيْهَا بِيُوتَ الْأَمْوَالِ ، وَأَنْفَقْنَا فِيهَا أَعْمَارَ الرِّجَالِ ، وَقَرَعْنَا الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ إِلَى أَنْ صَحَّتِ النَّصَالُ مِنَ النَّصَالِ ؛ وَاللهُ الْمَشْكُورُ عَلَى مَا أَنْطَوَى مِنْ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَأَنْتَشَرَ مِنْ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ . وَإِنَّ بِلَادَ الشَّامِ الْيَوْمَ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيَلًا سَلَامًا سَلَامًا . وَكَانَ نَزُولُنَا عَلَى كَوْكَبِ وَالشَّتَاءِ فِي كَوْكَبِهِ ، وَقَدْ طَلَعَ بَيْنَ الْأَنْوَاءِ فِي مَوَكِبِهِ ؛ وَالتَّلَوُّجُ تَنْشُرُ عَلَى الْبِلَادِ مُلَاءَهَا الْفَضِيضُ ، وَتَكْسُو الْجِبَالَ عِمَائِمَهَا الْبَيْضُ ؛ وَالْأَوْدِيَةُ قَدْ تَحَجَّتْ بِمَائِهَا ، وَفَاضَتْ عِنْدَ أَمْتِلَانِهَا ؛ وَشَمَخَتْ أَنْوْفُهَا سَيُولًا ، نَحَرَتِ الْأَرْضَ وَبَلَعَتِ الْجِبَالَ طُولًا ؛ وَالْأَوْحَالُ قَدْ آعَقَلَتِ الطَّرِيقَاتِ ، وَمَشَى الْمُطَلَقُ فِيهَا مِشْيَةَ الْأَسِيرِ فِي الْحَلَقَاتِ ؛ فَتَجَشَّسْنَا الْعَنَاءَ نَحْنُ وَرِجَالُ الْعَسَاكِرِ ، وَكَأَثَرْنَا الْعَدُوَّ وَالزَّمَانَ وَقَدْ يُحَرِّزُ الْحِظَّ الْمَكَارِثَ ؛ وَعَلِمَ اللهُ النَّيْصَةَ فَأَمَجَدْنَا بِفَضْلِهَا ، وَضَمِيرَ الْأَمَانَةِ فَأَعَانَ عَلَى حَمْلِهَا ؛ وَنَزَلْنَا مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ بِمَنَازِلَ كَانَ

(١) في "الروضتين" ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الدبوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أصعبَ من ثقلها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من ثقلها ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

والحمد لله الذى ألهمنا بنعمته الحديث ، ونصر بسيف الإسلام الذى هو سيفه وسيف الإسلام الذى هو أخونا الطيب على الحديث ، فذبح السيف ينقسم على حديه ، ومذبح الكريم يتعدى إلى يديه ، والآن فالجلوس - أسماه الله - يعلم أن الفرنج لا يسألون عما فتحنا ، ولا يصبرون على ما جرحنا ، فإنهم - خذلهم الله - أمم لأتخصى ، وجيوش لأتستقى ، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ، ويطمع في كل مدينة كسبا ، ويد الله فوق أيديهم ، والله محيط بأقربهم وأبعدهم ، و﴿سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ ، ﴿لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ .

وما هم إلا كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تفاوت ، وإن لم يقدفوا من كل جانب دحورا ، ويتبعوا بكل شهاب ناقي مدحورا ، آستأسدوا وآستكلبوا ، وتألّبوا وجلبوا وأجلّبوا ، وحاربوا ، وحرّبوا ، وكانوا لباطلهم الداحض ، أنصر منا لحقنا الناهض ، وفي ضلالهم الفاضح ، أبصر منا لهدانا الواضح . والله در جريح حيث يقول :
إِنَّ الْكِرِمَةَ يَنْصُرُ الْكَرَمَ أَبْنَاهُ ، * وَأَبْنُ اللَّيْمَةِ لِلنَّامِ نَصُورُ !

فالبدار إلى النجدة البدار ! والمسارة إلى الجنة فإنها لأشأل إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة ! فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلا الملوك الكبار :

وما هي إلا نهضة تورث العلاء * ليومك ما حنت روارم نيب !

ونحن في هذه السنة - إن شاء الله تعالى - ننزل على أنطاكية ، وينزل ولدنا الملك المظفر - أظفره الله - على طرابلس ، ويستقر الركاب العادلى - أعلاه الله -

بمصر؛ فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تُطْرَق، وأن الطلب على الشام
ومصر تفرّق؛ ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفي - أسماه الله - مجراً في بلاد
الساحل ينحر سلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على ما فتحناه قفلاً ولما لم يفتح بعد مفتاحاً؛
فإنه ليس لأحد ما للأخ من شئمة لها في كل مسمع سمعه، وفي كل روع روعه؛
وفي كل محضر محضر، وفي كل مسجد منبر، وفي كل مشهد محبر؛ فما يدعى العظيم
إلا للعظيم و[لا يرجى] لموقف الصبر الكريم إلا الكريم [هذا] والأقدار ماضيه، وبمشيئة
الله جاريه؛ فإن يشاء الله ينصر على العدو المضعف، بالعدد الأضعف؛ ويوصل إلى
الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى؛ فإننا لا نرتاب بأن الله ما فتح علينا هذه الفتوح ليُعَلِّقها،
ولا يجمع علينا هذه الأمة ليفرقها؛ وأن العدو إن خرج من داره بطراً، ودخل
إلى دارنا كان فيها جزراً؛ وما بقى إن شاء الله إلا أموال تُساق إلى ناهبها، ورقاب
تقاد إلى ضارِبها، وأسلحة تُحمل إلى كاسبها؛ وإنما نُؤثر أن لا تتطوى صحائف الحمد
خالية من اسمه، ومواقف الرشد حاوية من عزمه؛ ونؤثر أن يساهم آل أيوب
في ميراثهم منه مواقع الصبر، ومطالع النصر؛ فوالله إنا على أن نُعطيه عطايا الآخرة
الفائز، أشد منّا حرصاً على أن نُعطيه عطايا الدنيا القاصره؛ وإنا لا يسرنا أن ينقضى
عمره في قتال غير الكافر، وزال غير الكُفء المناظر؛ ولا شك أن سيفه لو اتصل
بلسانٍ ناطقٍ وفم، لقال مادمتُ هناك فلستُ ثم؛ وما هو محمول على خطّة يخافها،
ولا متكلف قضية بحكمتنا يعافها؛ والذي بيده لا تستكثره، بل نستقصيه عن حقه
ونستصغره؛ وما ناولناه لفتح أرضه السلاح، ولا أعرناه لملك مركزه النجاح؛ إلا على
سخاء من النفس به وبأمثاله، على علم منّا أنه لا يقعد عنا إذا قامت [الحرب] بنفسه
وماله؛ فلا نكن به ظناً أحسن منه فعلاً، ولا نرضى وقد جعلنا الله أهلاً أن لا نراه

لَنَصْرِنَا أَهْلًا ؛ وَلَيْسَتْ شَرُّ أَهْلِ الرَّشَادِ فِيهِمْ [لَا يَأْلُونَهُ] ^(١) حَقًّا وَأَسْتَنْهَاضًا ، وَلْيَعِصْ أَهْلَ
 الْغَوَايَةِ فَانْهَمُوا إِنَّمَا يَتَغَالَوْنَ بِهِ لِمَصَالِحِهِمْ أَغْرَاضًا ؛ وَمَنْ بَيْتُهُ يَطْعَنُ ، وَإِلَى بَيْتِهِ يَقْفُلُ ؛
 وَهُوَ يُجِيبُنَا جَوَابَ مِثْلِهِ لِمَثَلُنَا ، وَيَتَوَيَّرُ فِي هَذِهِ الزِّيَارَةِ جَمْعَ شَمْلٍ الْإِسْلَامَ قَبْلَ نِيَّةِ جَمْعِ
 شَمْلُنَا ؛ وَلَا تَقْعُدْ بِهِ فِي اللَّهِ نَهْضَةً قَائِمًا ، وَلَا تَخْذُلْهُ عِزْمَةً عَازِمًا ، وَلَا يَسْتَفْتِ فِيهَا فَوْتَ
 طَالِبٍ وَلَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا ؛ فَإِنَّمَا هِيَ سَفَرَةٌ قَاصِدَةٌ ، وَزَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ؛
 فَإِذَا هُوَ قَدْ بَيَّضَ الصَّحِيفَةَ وَالْوَجْهَ وَالذِّكْرَ وَالسَّمْعَةَ ، وَدَانَ اللَّهُ أَحْسَنَ دَيْنٍ
 فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ إِنْ فَاءَ إِلَى أَرْضِهِ بِالرَّجْعَةِ ؛ وَلْيَتَذَبَّرْ مَا كَتَبْنَاهُ ، وَلْيَتَفَهَّمْ مَا أَرَدْنَاهُ ؛
 وَلْيُقَدِّمِ الْإِسْتِخَارَةَ ، فَإِنَّهَا سِرَاجُ الْإِسْتِنَارَةِ [وَلْيَغْضِبِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَلِدِينَهُ وَلَأَخِيهِ
 فَإِنَّهَا مَكَانُ الْإِسْتِغْضَابِ وَالْإِسْتِشَارَةِ] ^(٢) وَلْيَحْضُرْ حَتَّى يَشَاهِدَ أَوْلَادًا لِأَخِيهِ
 يَسْتَشِيرُونَ لِفُرْقَتِهِ عَمَّا ، وَقَدْ عَاشُوا مَا عَاشُوا لَا يَعْرِفُونَ أَنْ لَهِمْ مَعَ عَمَّتِهِمْ عَمًّا ؛
 وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ يُلْهِمُهُ تَوْفِيقًا ! وَيَسْلُكُ بِهِ إِلَيْهِ طَرِيقًا ؛ وَيُجِدُّنَا بِهِ سَبْقًا لِرَبِيقَةِ الْكَفَرِ
 مَرَقًا وَدَمِهِ مُرِيقًا ؛ وَيَجْعَلُهُ فِي مِضْمَارِ الطَّاعَاتِ سَابِقًا لَا مَسْبُوقًا .

الأسلوب الثالث

(أَنْ تُفْتَحَ الْمَكْتَابَةُ بِلَفْظِ «هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى الْمَجْلِسِ»)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أيلة التي تحت العقبة في ممر
 حجاج مصر . وهي :

هذه المكتبة إلى المجلس الفلاني أعلى الله سلطانه ، وعمر بالنجاح آماله وبالسعادة
 أوطانه ؛ وَلَا زَالَتْ يَدُ النَّصْرِ تُصَرِّفُ يَوْمَ اللَّقَاءِ عِنَانَهُ ، وَيَدُ لَطْفِ اللَّهِ تُفِيضُ عَلَى

(١) في الأصل فانهم يألوه والصواب ما أثبتناه في الصلب .

(٢) كذا في الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضاً لنوال مصالحهم الذاتية .

(٣) الزيادة مما ساقى له في المجمع الثالث من هذا الجزء .

الخلق يومَ العلياءِ عَنانَه ، وتمكَّن من هامِ الأعداءِ وُحُورِهِم سيقَه وسِنانَه ؛ (نُشِعِرَه) أَنه
 لم تزلْ عوائدُ الله سبحانه عندنا متكفِّلةً ما يُوجِبُ أن يُبَدَأَ الحمدُ ويُعادَ ، مقَرَّبَةً لنا من
 الآمالِ كُلِّ ما كان رَهِينَ نائِي وِبِعادَ ، موافقةً لنا بالتوفيقِ فكأننا وإيَّاهِ على مِيعادَ ،
 مُعِينَةً لنا على ما يَعْتَدُه الغاشُّ معاشٍ وعِيدٍ مُعَادَ . وقد كان ما عَلِمَ من غَزَوتنا إلى أَيْلَةٍ
 التي أَخَذَها العُدُوُّ مَعْقِلًا ، وتَدِيرُها مَنزِلًا ، وَعَدَّها مَوْتَلًا ؛ وَغاضَ بها رَوْنُقُ الجملِ ،
 وفاضَ بها أَهلُ القبلِ ؛ وصارتْ على مَدارجِ الأنفاسِ ، وعلى مراصِدِ الأَفْراسِ
 والأَفْراسِ ؛ وَخَصَّتِ الحَرَمينِ بأعظمِ قادِحَ ، وأشدَّ عن حادثِها من لُطْفِ الله أَعظَمُ
 فاتِحَ ؛ ولما توجَّهَنا إليها ، ونزلنا عليها ؛ شاهدنا قلعةً يَحْتَاجُ رامِها إلى الدَّهرِ المَدِيدِ ،
 والأَمَلِ البَعِيدِ ؛ والزادِ العَتِيدِ ؛ والبأسِ الشَّدِيدِ ؛ تَبَوَّعَ بِعُظْفٍ جامِحِ عن الخِطْبِ ، وتُعْرِضُ
 بِذِكْرِ مانِعِ عن الضَرْبِ ؛ وتَعْطِفُ بأنْفٍ على السَّحابِ شاخِ ، وتَطْلُعُ في الصَّباحِ بوجهِ
 شادِخِ ؛ كأَنما بَيْنَها وبين الأَيَّامِ ذِمَامُ ، وكَأَنَّ نارَ الحِوادثِ إِذا بَلَغَتْ ماءَها بَرْدٌ وسلامُ ؛
 فَأَظْفَنَّا بِها مَتَبَصِّرِينَ ، ونزلنا من ناحِيَةِ البرِّ بِها مَفَكِّرِينَ ؛ وَبَيْنَنا نَحْنُ نَأْمُرُ بالحَرْبِ
 أَن يُسَبَّ أَوْرُها ، وبانْخِلالِ أَن تُسِيرَ أَسْرارُها ، وبِنارِ اللِّقاءِ أَن يَسْتَطِيرَ شَرارُها ،
 وَبِقَنائِطِ المِوتِ من القِسيِّ أَن تُعَقَّدَ أوتارُها ؛ وبالمِجانيقِ أَن تُعَقَّدَ حناياها وَتُحَلَّ
 أَزْرارُها ، وبالكِواكِبِ أَن تُذَيِّقَهُم طَعْمَ الصَّغارِ كِبارُها ؛ إِذ نادى مُنادٍ من أَعلى قُتَّتْها ،
 ورَأْسُ قُتَّتْها ؛ مُعَلِّنا بالأَمَانِ ، ناسِخًا لآيَةِ الكُفْرِ بِآيَةِ الإِيْمانِ ؛ فَأَعارتَهُ الأَسْماءُ
 إِنْصاتها ، وَأَسْتَحَقَّتِ القُلُوبُ حِصَّاتِها ؛ وعمدتْ إِلَيْهِ بَنَتْ بِحَرِّ ، عادتْ بابَ نَصْرِ ،
 وساعةً بَدَهرَ ؛ وَبَشَّرَني بِغلامٍ على كِبَرٍ ، وَبَطَفَرَني سَقَرَ على قَدَرٍ ؛ فَأَعْطَى فَرَنْجَها
 ما طَلَبُوا ، وَأَتَى اللُّطْفُ لِلسَّامِينِ بما لَمْ يَحْتَسِبُوا ؛ وَفي الحالِ رُفِعَتْ عَلَياها أُلُويَةُ الإسلامِ
 وَنُشِرَتْ ، وَأَوَّتْ إِلَياها فَئَةُ الحَقِّ وَحُشِرَتْ ، وتَظاهَرَتْ عَلَياها أَوْلِياهُ اللهُ وَظَهَرَتْ ؛
 وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ .

الأسلوب الرابع

(أن تفتح المكتبة بلفظ : « كتابنا » وباقي الأمر على نحو ما تقدم)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهي :

كتابنا هذا إلى الأمير، معزٍ بالرزء الذى كُلت أقسامه وتمت ، ورمت أحداثه
القلوب فأصمت وطرقت أحاديثه الأسماع فأصمت ، وأبى أن تغفوكلومه ، وكاد
لأجله الأفق تنكسف بدوره ونسكدر نجومه ، وتلم جانب الدين لفقد من لولاه
لدرست أعلامه ولم تدرس علومه ، وفجأ فاستولى على كل قلب وجيبه وعلى كل خاطر
وجومه ، بانتقال المولى «نور الدين» إلى سكنى دار السلام ، وقُدومه على ما أعدّه الله
من جزاء ذبّه عن الإسلام ، وبكى أهله على فقد عزائمه التى بها حفظت وحرست ،
وشكت الممالك وحشة بعده وإن أبتهجت الملائكة بقربه وأنست ، فله هو ! من
مصاب أغرى العيون بفيضها ، والنفوس بقيظها ، ونقل الأولياء من ظل المسرة
ونعيمها إلى هجير المساء وقِيظها ، وأوجب تناجى الكفار بالنجاة من تلك السطوة
التي لم تزل تريدّها غمّاً وتردّها بقيظها .

ومهنئين بما أسا الكلم وداواه ، وحوى الحق إلى الجانب الأيمن وآواه ، من جلوس
ولده «الملك الصالح» ذى التصويب والتسديد مشمولاً منّا بالعرف العميم ، والطول
الجسيم ، جارياً على سننه المعهوده ، وعادته المحموده ، فى رفع صالح أديعته عن صفاء
سريته ، وخلوص عقيدته ، مستمراً على جميل تحيته ، فى إمدادنا ببركته ،
إن شاء الله تعالى .

قلت : والمصطلح الجارى عليه الحال فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية فى زماننا مأخوذة من الأساليب الثلاثة : الأولى والثانى والثالث المقدم ذكرها .
على أن فى الدولة الأيوبية أساليب أخرى لا يسع استيعابها ، ويغنى عنها بما تقدم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد انفردوا عن كُتَّاب المشرق وكُتَّاب الديار المصرية بأمور :

منها أن مخاطبة تقع للمكتوب إليه بيمين الجمع مع الانفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الانفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : « كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا » .

ومنها أنهم يترضون عن الخليفة القائم بدعوته فى كتبهم .

ومنها أنهم يذكرون اسم المكتوب إليه فى أثناء الكتاب ، وباقي مكاتباتهم على نحو من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ؛ وكتبهم تُختم بالسلام غالباً ، وربما خُتمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عندهم بلفظ الرئاسة مثل أن يقال : رياستكم الكريمة ونحو ذلك . ولها حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تُفتتحَ المكتبةُ بلفظ "من فلان إلى فلان" ويُدعى للمكتوب إليه ، ثم يقع التخلُّص إلى المقصود بأما بعد ، ويُؤتى عليه إلى آخره ، ويُختم بالسلام)

كما كتب أبو بكر بن هشام عن أبي محمد بن هود ، في قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلدٍ من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة ، أدام الله كرامتهم وآثرهم بتقواه ، وعرفهم عوارف نعمه ؛ وكنفهم في حرمة المنيع وحماه ، وجعلهم ممن وفق إلى رضاه ، وحفَّ بحير ما قدره وقضاه ، بسلام

أما بعد حمد الله على متابع واسع فضله ، هازم الباطل وأهله ، ومورط الجاهل في مهواة جهله ؛ المالى بدعوة الحق ما اتسع من حزن المعمور وسهله ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه المصطفى خاتم رسله ، المؤيد بالقرآن الذى تجزّت الجن والإنس أن يأتوا بمثله ؛ وعلى آله وصحبه الجارين على قويم سنته وواضح سبله ؛ والرضا عن الإمام العباسى أمير المؤمنين ، الذى لا إمام سواه للمسلمين ؛ المفرج من محمّده الكريم وأصله ، المدافع عن حرم أمره بسديد نظره وحديد نضله ؛ والدعاء لمقامه العلى ، ومكانه السنّى ؛ بالسعد المصاحب بمصاحبة ظله ، والعصدي الفاتح مالم يفتح لأحد من قبله ، فإننا كتبناه لكم - كتبكم الله ممن انتفع بقوله وعمله ، وتوجه إلى رضاه بمبسوط أمله ، وجرت له الأقدار بأفضل معتاد وأجمله - من فلانة ، والتوكل على الله سبحانه نتائج تبرزها الأيام ، ويستجدها السعد والحسام ، ويستدنيها التفويض

إلى الله سبحانه والاستسلام ؛ والدعوة العلية - أدام الله أيامها ، وأسعد أعلامها -
 الآثار التي تجلّت بها المذاهب ، والأنوار التي وصّحت بها المساري والمسارب ،
 وأضاءت بها المشارق والمغارب . والحمد لله حمدا كثيرا - المكان الذي تتجدّد
 حرّمته ، وثنا كد ذمّته ؛ ولا تُوضع عن يد الاعتناء والاهتمام أزمته ، وإذا أنهضت
 العزائم لمصالح العباد تقدّمت كلّ العزّات عزّمته ؛ لأنه المكان الذي صرف وجوه
 الأعداء ، وصابر مكابدة الإضرار والاعتداء ؛ وأحتمل مكروه الدواء ، في معالجة
 الشفاء ومعالجة حسم الداء ؛ فكرمت آثاره ، وتعيّن تخصّصه بالمزيد وإيثاره ؛
 وطابت أخباره ، وطالت في مضايق مجال الرجال أسنّته وشفّاره ، فنحن نوجب
 تكريمه ، ونؤثّر تقديمه ؛ ونُتبّع حديثه في الاعتناء قديمه ، والله يتولّى تكميل قصدينا
 الجميل فيه ونُتمّيمه ! .

وقد بلغ - بلغكم الله أملكم ، وأتم نعمته قبلكم - تحرك ذلكم الخائن للإضرار بالبلاد ،
 وإيثاره دواعي الشر والفساد ؛ ومتى احتيج إلى إعلام جهة من الجهات بأحواله ،
 وما يتصوّره بفساد خياله ؛ وتغلّب كبره المردى واختياله ، وما يصدر عنه من قبيح
 آثاره وأعماله ؛ فإنما يُستعلم تحقيقتها منكم ، ويُتعرّف تصديقها من لدنكم ؛ يصدّق
 جواركم ، ودنوّ داركم ، وتداخل آثاره مع آثاركم ؛ فأنتم أقرب أطلاعا على خُبث سرّه ،
 وسوء مكّره ، وما يُضمرّ للمسلمين من إذايته وضرّه ؛ فتى أنصرفت وجوه المسلمين
 إلى جهادهم ، وأشتغلوا بتأمين بلادهم ؛ آتته الفرصة في فساد يُحدّثه ، وعقد ينكّته ،
 وأستعجال ما يعجل عليه ولا يلبّثه ؛ ونحن نُعرض عنه إعراض من يرجو متابه ،
 ويرتقب رجوعه إلى الحق وإيابه ؛ وهو متخبّط في أهوائه ، مستمرّ على غلوائه ، مُصرّ
 على إضراره وأعدائه ؛ لا يكفّ الكفّ عنه من استطالته ، ولا يريه الاستبصار
 وجهة جهالته ؛ فوجب علينا بحكم النظر للبلاد التي لحقها عدوانه ، وأضرّ بها مكانه ،

وتكرّر عليها امتحانه ، أن نعامل حَسْمَ عِلَّه ، ونُسَدَّ مَوَاقِعَ خَلَّه ، ونردّ عليه كلّ
مَضَرَّةٍ لاحِقَةٍ من قِبَلِه ؛ حتّى يَسْتَرِجِ النَّاسُ إلى أَمْنٍ مَبْسُوطٍ ، وَكَنْفٍ مَضْبُوطٍ ،
وَحَوْزٍ بِالْكِفَايَةِ وَالْوَقَايَةِ مُحُوطٍ ؛ وقد كُنَّا عند الْفَرَاغِ من مَصَالِحِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ ،
وَأَتَمَّاءِ الْفَتْحِ فِيهَا إلى مَا لم يَدْرُ بِالْخَاطِرِ ولم يُحَسَّبِ بَالِنِيَّةِ ؛ نَظَرْنَا في إِعْدَادِ جُمُوعٍ من
أَجْنَادِ الْغَرْبِ ، وَتَخَيَّرْنَا مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ دَرَبَ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ؛ وَسَعِدَ لَكُمْ (؟) من جَاهِلِيَّاتِ
الْأَغْرَابِ وَجُرُولَةِ وَسَائِرِ الْقَبَائِلِ النَّازِلِينَ بِالْبِلَادِ ، الْمُتَاهِبِينَ لِمَا يُطْلَبُونَ بِهِ من الْغَزْوِ
وَالْجِهَادِ ؛ وَرَسَمْنَا لَهُمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِنَا عِنْدَ الْإِسْتِدْعَاءِ ، عَلَى مَا جَدَدْنَا لَهُمْ فِي الْإِتِّخَابِ
وَالْإِتِّقَاءِ ؛ لِنَأْخُذَ الْجُمُوعَ كُلَّهَا مِنْ حَوْزِ أَثَرِ هَذَا الْخَائِنِ بِنَصِيبٍ ، وَتَضْرِبَ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ
عَمَلٍ يَعْقِبُهُ ، بِسَهْمٍ مُصِيبٍ ؛ لَكِنْ لَمَّا تَعَجَّلَ حَرَكَتَهُ الَّتِي تَعَجَّلَ بِهَا الْحَيْنُ ، وَسَاقَهُ إِلَيْهَا
الْقَدْرُ الَّذِي أَعْمَى الْبَصِيرَةَ وَالْعَيْنَ ؛ رَأَيْنَا أَنْ نُنْفِذَ إِلَيْهِ قَصْدَنَا ، وَأَنْ نَعَاجِلَهُ بِمَا حَضَرَ
عِنْدَنَا ؛ مُتَوَافِرَةَ الْأَعْدَادِ ، غَنِيَّةً عَنِ الْإِسْتِمْدَادِ ، غَيْرَ مَفْتَقِرَةٍ إِلَى الْإِزْدِيَادِ ؛ وَمَعَ هَذَا
فَقَدْ أَمَرْنَا أَهْلَ الْجِهَاتِ كُلَّهَا بِاللِّحَاقِ بِنَا ، وَأَنْ يَنْهَضَ جَمِيعُ أَعْدَادِهِمْ مِنَ الْخَيْلِ وَالْبَطَلِ
وَالرُّمَاتِ عَلَى سَبِيلِنَا وَمَذْهَبِنَا ؛ لِنَكُونَ الْأَيْدَى فِي هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ الْعَامَّةِ وَاحِدَةً ، وَالْعَقَائِدُ
فِي دَفْعِ هَذَا الضَّرَرِ عَنِ الْكَافَةِ مُتَعَاكِدَةً ، حَتَّى يَذْهَبَ أَثَرُ هَذِهِ النُّكْبَةِ وَعَيْنُهَا ، وَيُزَوَّلَ
عَنْ بَهْجَةِ الْإِحْقَاقِ وَالْإِتِّفَاقِ شَيْنُهَا ؛ وَإِذَا وَجِبَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَنْفِرُوا
فِي هَذِهِ الدَّعَاةِ خَفَافًا وَثِقَالًا ، وَيُيَادِرُوا رُكْبَانًا وَرِجَالًا ؛ كَانِ الْوَجُوبُ فِي حَقِّكُمْ
وَجُوبِينَ ، وَالْفَرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَضِينَ ؛ لِمَا يُخَصُّكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ الَّتِي أَتَمَّ أَوَّلَى مِنْ
يَحْتَمِلُ صُورَهَا ، وَيَحْتَنِي ثَمَرَهَا ، وَيُجِدُّ فِي حَالِهِ وَاسْتِقْبَالِهِ إِثْرَهَا ؛ فَلْيَكُنْ أَسْتِعْدَادُكُمْ
بِحَسَبِ ذَلِكَ ، وَاسْتَوْعِبُوا جَمِيعَ أَنْجَادِكُمْ ، مِنْ خَيْلِكُمْ وَرُمَاتِكُمْ وَرِجَالِكُمْ ؛ وَكُونُوا وَاقِفِينَ
عَلَى قَدَمِ التَّأَهُّبِ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْاجْتِيَازُ مِنْ هُنَاكُمْ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَالسَّلَامُ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ «أما بعد» وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن تُعقب البعديَّةُ بالحمد لله ، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها ، ثم يتخلص

إلى المقصود ويختتم بالسلام على نحو ما تقدم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبي عبد الله بن هُود أيضا إلى أكابر بلده بالرفق بالرعية عند ورود كتابهم عليه بتحسين البلد ، وبلوغه جور المستخدين بها على الرعية ، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مُعَلِّ مَنَارِ الْحَقِّ وَرَافِعِهِ ، وَمَوْلَى مَتَوَالِي الْإِنْعَامِ وَمُتَابِعِهِ ؛
وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَرَسُولِهِ مَشَقَّ الْحَشْرِ وَشَافِعِهِ ، الْمَبْعُوثِ بِبِدَائِعِ الْحِكْمِ
وَجَوَامِعِهِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْمُبَادِرِينَ إِلَى مَقَاصِدِهِ الْعَلِيَّةِ وَمَنَازِعِهِ ، وَالذَّائِبِينَ عَنِ
حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ ، بِمَوَاضِي الْأَعْتَرَامِ ، وَقَوَاطِعِهِ ؛ وَالرِّضَا عَنِ الْخَلِيفَةِ الْإِمَامِ الْعَبَّاسِيِّ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ذِي الْمَجْدِ الَّذِي لَا يُنَالُ سَمُوَ مَطَالِعِهِ .

فإننا كتبنا إليكم - كتب الله لكم عِزَّةً قَدْ حُجِّهَا بِالثَّبُوتِ فَائِزٌ ، وَسَعَادَةً قَسَطَهَا لِلنَّيِّبِ
حَائِزٌ - مِنْ فُلَانَةٍ ، وَكَلِمَةُ الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ لِلْوَلَاءِ ، مَنْشُورَةٌ الْأَضْوَاءِ ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ
فِي الْإِعَادَةِ وَالْإِبْدَاءِ ، وَالتَّسْلِيمُ إِلَيْهِ مَنْطَاطٌ أَمَرْنَا فِي الْإِتِّهَاءِ وَالْإِبْتِدَاءِ ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى
وَشُكْرُهُ وَصَلْنَا إِلَى نَيْلِ مَزِيدِ النِّعَمِ وَالْأَلَاءِ ؛ وَمَكَاتُكُمْ لَدَيْنَا مَكَانَةُ السَّنَنِ الْمُنَاصِبِ ،
الْمُتِمِّمِ إِلَى كِرَامِ الْمُتَمَتِّاتِ وَالْمُنَاسِبِ ، الْمُتَحَلِّ فِي الْغَنَاءِ وَالْاِكْتِفَاءِ ، وَالْخُلُوصِ وَالصَّفَاءِ ،
بِأَكْرَمِ السَّجِيَّاتِ وَالْمُنَاقِبِ ؛ الْمَعْلُومِ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَصَالِحَةِ السَّالِكَةِ بِأَكْرَمِ السَّجِيَّاتِ
فِي الْمَنَاحِي الْحِسَانِ عَلَى الْمَهْمَعِ الْأَوْضَحِ وَالسَّنَنِ اللَّاحِبِ .

وقد وقفنا على كتابكم معلماً بخبر فلانة وما رأيتموه من المصلحة في تحصينها ،
والاجتهاد في أسباب تأمينها ، ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح ، وتوحدون
ما تتوحدون فيه النجاح ؛ لكن أهم الأمور عندنا ، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا ، الرفق
بالرعية ، وحملها على قوانين الإحسان المرعية - وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب
[أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم ، ويتظلمون من متخيفيهم
ومتعسفهم ، وفي هذا ما لا يخفى عليكم ، ولا ترضون به لو انتهى إليكم ؛ فإنه إذا كان
الناظر في خدمة من لا يحسن سياسة الأمور ، ولا يعلم طريقة الرفق الجارية بوفق
الخاصة والجمهور ؛ أعاد التسكين تنفيرا ، والتيسير تعسيرا ؛ وتعلمون أنا لا نقدم
على إظهار العدل في عباد الله المسلمين عملاً ، ولا نبغى لهم باطنة بغير التخفيف
عنهم والإحسان إليهم بدلاً ؛ وأنتم أولى من يُعتقد فيه أنه يكفل هذا المقصد ،
ويتحرى في مصالح الرعايا هذا السنن الأرشد ؛ وقد خاطبنا أهل فلانة بما يذهب
وجلهم ، ويسقط أملهم ؛ وعزفناهم بأنكم لو علمتم من جار عليهم من الخدمة لأخذتم
على يده ، وجازيتموه بسوء معتقده ؛ وأشعرناهم بأننا قد استوصيناكم بهم خيراً ،
ونبهاكم على ما يدفع عنهم ضيماً ويرفع ضيراً ؛ وأنتم - إن شاء الله - تستأنفون
نظراً جليلاً ، وتؤثرون عنهم الخدمة الذين لا يسلكون من السياسة سبيلاً ؛
وتقدمون عليهم من تحسن فيهم سيرته ، وتكرّم في تمشيتة الرفق علانيته وسريته ،
ومثلكم لا يؤكّد عليه في مذهب تحسن عواقبه ، وغرض يوافق القصد الاحتياطي
ويصاحبه ، إن شاء الله تعالى والسلام .

الضرب الثاني

(أن تعقب البعديّة بذكر المقصود من غير خطبة ، ثم يؤتى على المقصود إلى آخره على نحو ما تقدّم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاة ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبي جميل إلى أهل ناحية بولاية والٍ عليهم وهى :

أما بعد ، فالكتاب - كتب الله لكم ملء الجوانب ، قرارا ، وأرسل عليكم سماء المواهب ، مذارا ، من فلانة ، وليس إلا الخير الدائم ، واليسر الملازم ، وقد توالى إعلامكم بالغرض الجميل فيكم ، والاعتناء المتصل بتمهيد نواحيكم ، وأتم اليوم بشغري متحيف ، وجناب متطرف ، يتضاعف الاحتياط عليه ، ويجب تيسير المير إليه ، فالنظر له معمل ، والتهم به لا يهمل ، وهذه السن قد ملك قيادها ، وأوثر بوجوه القرابة إمدادها ، وفلان قد خاطب يستأذن فى القدوم على الباب الكريم ، ويؤكد ما عنده فى الخدمة والتصميم ، والخيرات بسبيل الاتصال ، والمسرات واردة مع البكور والآصال .

والحمد لله الجسيم فضله ، والعظيم نيّله ، فأحمدوا الله على ما يسر لنا ولكم ، وأستوزعوه شكر ما خولنا وخولكم ، وأعلموا أننا نرعاكم ، كما رعى أولنا أولاكم ، وقد عين لموضعكم كذا وكذا فأنفدوا إلينا بعضكم معجلا ، وأستشعروا إتمام الأثرة ، وأطراد النصرة ، حالا ومستقبلا ، والحركة الكبرى - يمنها الله - قد شرع فى أسبابها ، وأتى ما يؤتى بمشيئة الله الفتح القريب من بابها ، ولا غنى بما يدار فى ذلك عن فلان وقد خوطب بالوصول ، ووجه إليكم فلان واليا عليكم ، وثاويا لديكم ، وهو من خبرت كفايته ، وآرتضيت لجبر أحوالكم سياسته ، وشكرهنا فأوثرتم به هنالك ، وقد فوض

(١) إليكم من نظر لخاصّتكم وجمهوركم، وقد بما يستقلُّ أتمّ الاستقلال من تدبير أموركم؛ وأمضى معه من الأجناد طائفةً يحسنون الدفاع والذّيادة، ولا يفارقون الحّد والاجتهاد؛ ووراء هذا من كريم العناية وجميل النظر، ما يقضى لكم بالفلج والظفر، ويديلكم بالأمانة الشاملة من الدّعر والحدّر، إن شاء الله تعالى والسلام.

الأسلوب الثالث

(أن تفتح المكتبة بلفظ « كتابنا إليكم من موضع كذا، والأمر على كذا وكذا »
ويؤتى على المقصد إلى آخره ويختتم بالسلام)

وربما قيل : « هذا كتابنا إليكم » وربما قيل : « كتبنا إليكم » ونحو ذلك .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن ابن هود في البشارة بفتح حصن، وهو :
كتابنا إليكم - أطلع الله عليكم من البشائر أنورها جبيننا، وأوضحها صبحنا مبينا - من
فلانة في يوم كذا .

سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي تكفل بنصر من ينصره، ونصلي على
سيدنا محمد الكريم محمد الزاكي عنصره؛ ونجّده مشفوع الصلوات، ونزدد مرفوع
الدعوات؛ للإمام الخليفة « المستنصر بالله أمير المؤمنين » ذى المتناقب التي لاعاد
يعدّها، ولا حاصر يحصرها .

والحمد لله الذى أنعم علينا بتقليد إمامته، التى لا تُعقد معها إمامه، وأقامنا لإقامة
دعوته، التى لا تجوز على غيرها إقامه؛ وجعلنا نرعى الغرض باسمه الأشرف فنصيبه،
ونستوهب فضل الله سبحانه فيتوقّر قبلنا نصيبه؛ ونستزّل بخلافه المباركة جوامع
النصر، كما استنزل الفاروق بغرة جدّه هوامع القطر؛ فتسير أمام رايته السّوداء بالأثر

(١) لعله "إليه النظر الخ" .

المُبَيَّض ، وَتُرَوَّى هَذِهِ أَوَامَ الْقُلُوبِ كَمَا أَرَوَيْ ذَٰلِكَ أَوَامَ الْأَرْضِ ؛ وَمَا زِلْنَا مِنْذُ كَانَ
الزُّوْلُ عَلَى هَذَا الْحَصَنِ نَتَعَرَّفُ فِيهِ مِنْ مَخَايِلِ النَّجْحِ ، وَدَلَائِلِ الظَّفَرِ وَالْفَتْحِ ؛
مَا أَعْطَانَا فَتَلَجَّ الْيَقِينُ بِأَنَا نَقْصِمُ عُرْوَتَهُ ، وَنَفْرَعُ ذِرْوَتَهُ ، وَلَمْ يَزَلِ الْعَزْمُ يَذَلُّ شِمَاسَهُ ،
وَيَقْلَلُ نَاسَهُ ؛ حَتَّى أَذْعَنُوا لِمَا عُرِّقَتْ بِهِ مِنَ الزُّوْلِ لَوْقَتٍ مَعْدُودٍ ، وَأَمِدَّ مَحْدُودٍ .
ثُمَّ إِنَّهُمْ خَافَرَهُمْ طَارِقُ الْوَجَلِ ، فَعَجَّلُوا أَدَاءَ دَيْنِهِ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجْلِ ؛ وَأَمَكَّنَ اللَّهُ
مِنْ هَذَا الْمَعْقِلِ الْفَدَّ فِي الْمَعَاقِلِ ، وَقَتَلَ الظَّانِينَ لِامْتِنَاعِهِمْ وَالْحَسَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
فِي يَدِ الْقَاتِلِ ؛ وَقَدْ صَعِدَتْ رَايَاتُنَا عَلَى السُّورِ ، وَسَعِدَتْ إِدَارَتُنَا بِالْعَزْمِ الْمَنْصُورِ ؛
وَشَيَّدَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْجَلِيلِ أَقْصَى الْفُتُوحِ بَعْلُو ، وَأَشْجَاهَا لِلْعُدُوِّ ، وَأَدَهَّا عَلَى
نُجْحِ عَمَلٍ مُسْتَأْنِفٍ وَبُلُوغِ أَمَلٍ مَرْجُوٍّ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ حَقَّنَا الْمَغْتَصَبَ ، وَكَفَانَا فِي وَجْهِنَا هَذَا التَّعَبَ وَالنَّصَبَ ؛
وَعَزَّفْنَاكُمْ بِهَذَا الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ غِذَاءٌ لِلرُّوحِ ، وَالْمَنْبَى عَنْ فَتْحِ الْفُتُوحِ : لَتَشْكُرُوا اللَّهَ
عَلَيْهِ شُكْرًا ، وَتُوفِّوهُ حَقَّهُ إِذَاعَةً لَهُ وَنَشْرًا ؛ وَتُجَدِّدُوا بِحَمْدِ اللَّهِ [عَلَى] مَا أَوْلَى مِنْ خَالِصِ
النَّعْمِ ، وَوَافِرِ الْقِسَمِ ؛ مَا يَطِيبُ بِهِ الْمُعَرَّسَ وَالْمَقِيلَ ، وَيُسْتَقْصِرُ بِهِ الْأَمْدَ الطَّوِيلَ .
وَأَكْتُبُوا مِنْ خُطَابِنَا هَذَا تُسَخِّطُوا إِلَى الْجِهَاتِ لِيَأْخُذَ مِنْهَا كُلُّ بِحَظِهِ ، وَيَنْعَمَ الْقَرِيبُ
وَالْبَعِيدُ بِجَلَالَةِ مَعْنَاهُ وَجَرَالَةِ لَفْظِهِ ؛ أَعَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى شُكْرِ إِحْسَانِهِ الْجَزِيلِ ،
وَلَا أُخْلِ مِنْ لُطْفِهِ الْعَمِيمِ وَنَظَرِهِ الْجَمِيلِ ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامِ .

الحالة الثانية

(ما الأمر مستقر عليه الآن مما كان عليه علامة متأخرى ككتاب المغرب

أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير ابن الأحمر : صاحب

حمراء غرناطة من الأندلس)

والأمر فيها على نحو ما تقدم في الحالة الأولى : من التعبير عن المكتوب إليه بيمين الجمع وإن كان واحدا ، والالتزام الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبنا إليكم ونحو ذلك . وعادتهم أن يكتب كتاب السلطان في طومار كامل ، فإن استوعب الكلام جميع الطومار كتب على حاشيته ، ويكتب صاحب العلامة علامة السلطان في آخره ، ويطوى طيا عريضا في نحو ثلاث أصابع معترضة ، ثم يكسر ويطوى نصفين ، ويكتب العنوان بالألقاب التي في الصدر ، ويحزم بدسرة من الورق ، ثم يحتم بخاتم السلطان على شمع أحمر كما تقدم بيانه .

وهي على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة باللقب اللائق بالمكتوب إليه ، وهو على ضرب)

الضرب الأول

(أن يتبدأ بلفظ «المقام» وهو مختص بالكتابة إلى الملك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المقام» وينعت بما يليق به ، ثم يقال : «محل أخينا ، أو محل ولدنا ، أو محل والدنا السلطان» ويؤتى بألقابه ثم يسمى ، ثم يقال : « من فلان » ويقال فيه كذلك إلى منتهى نسبه ، ويدعى له بالبقاء وما يتبعه ،

ثم يقال : معظّم قدره أو معظّم مقامه ، وما أشبه ذلك ، ويذكر اسمُ المكتوب عنه ؛
ثم يقال : أما بعد حمد الله ويُؤتى بالخطبة إلى آخرها ؛ ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم
من موضع كذا ، ويُؤتى على المقصود إلى آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبو عبد الله بن الخطيب المقدّم ذكره عن سلطانه ابن الأحمر المذكور
أعلاه ، إلى السلطان أبي عَينان بن أبي الحسن المرينيّ صاحب فاس ، عند موت
الطاغية ملك قشتالة من إقليم أشبيلية ، وطليلة ، وفُرطبة وما معها بعد نزوله على
جبل الفتح من مملكة المسلمين بالأندلس لمحاربة المسلمين فيه ، ورحيل قومه بعد
موته به ، وهو :

المقام الذى أنارت آياتُ سعده ، فى مسطور الوجود ، وتبارت جياذُ مجده ،
فى ميدان البأس والجود ، وضمنت إيايته لمن بهذه الأقطار الغربية تجديد السُعود ،
وإعادة العهود ، واختلفت كتائبُ تأييد الله ونصره لوقته المشهور فيها ويومه المشهود ؛
مقام محلّ أخينا الذى نُعظّمه ونُرفعه ، ويُوجب له الحقّ العلىّ موضعه ؛ السلطان
أبى عَينان ابن السلطان أبى الحسن ، ابن السلطان أبى سعيد ، ابن السلطان
أبى يوسف ، بن عبد الحق - أبقاه الله يتهلّل للبشرى جنابه ، ويفتح لوارِد الفتح
الإلهى بابُه ، وتُعمل فى سبيل الله مكارمه وعزائمُه وركابُه ، ويتوقّر بالجهاد فيه
مجده وسعده ونفخه وثوابُه ؛ معظّم قدره الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين
أبى الوليد إسماعيل بن فرّج بن نصر ، سلامٌ كريم مشفوعٌ بالبشائر والتّهانى ، محفوف
[الركاب^(١)] ببلوغ الأمانى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله مُطالع أنوار الصنائع العجيبة متألقّة القرر ، ومُنشئ سخائب
الإطاف ، الكريمة الأوصاف ، هامية الدّرر ، الكريم الذى يُجيب دعوة المضطرّ إذا

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

دعاه، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وما أمرُهُ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ؛ حَجَبَ كَامِنُ الطَّافَةِ عَنْ قُوَى الْفِطْنِ وَمَدَارِكِ الْفِطْرِ، ﴿يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ .
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسولِهِ ذِي المعجزاتِ الباهرة والآياتِ الكُبرى، الذى يجاهه الحصينِ نَمْتَسِعُ عندَ اسْتِشْعَارِ الْحَذَرِ، وبنور هُداة نَسْتَضِيءُ عندَ التَّباسِ الْوَرْدِ وَالصَّدَرِ، فنَحْضِلُ على الْخَيْرِ الْعَاجِلِ وَالْمُنْتَظَرِ؛ وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامِ الْأَثَرِ، الَّذِينَ جَنَوْا مِنْ أَفْنَانِ الصَّبْرِ فِي اللَّهِ ثَمَارَ الظَّفَرِ؛ وَفَازُوا مِنْ إِنْجَازِ الْوَعْدِ بِأَقْصَى الْوَطَرِ، وَأَنْتَظَمُوا فِي سِلْكِ الْمِلَّةِ الرَّفِيعَةِ أَنْتَظَامَ الدَّرَرِ؛ وَالدَّعَاءِ لِمَقَامِكُمُ الْأَعْلَى بِاتِّصَالِ الْمَسَرَّاتِ وَتَوَالِي الْبُشْرِ، وَالسَّعْدِ الَّذِي تَجْرِي بِأَحْكَامِهِ النَّافِذَةُ تَصَارِيفُ الْقَدَرِ، وَالصَّنْعِ الَّذِي تُجَلِّى عَجَائِبُهُ فِي أَجَلِ الصُّورِ - فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ -
كُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ حُطُوطِ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ أَجْرَلِ الْأَقْسَامِ، وَعَرَّفَكُمْ عَوَارِفَ نِعْمَةِ الثَّرَةِ وَآلَانَةِ الْجَسَامِ - مِنْ حَمْرٍاءَ غَرْنَاطَةٍ - حَرْسَهَا اللَّهُ - وَالْيُسْرِ بِفَضْلِ اللَّهِ طَارِدُ الْأَزْمَاتِ بَعْدَ مَا قَعَدَتْ، وَكَاشَفُ الشَّدَائِدِ بَعْدَ مَا أَبْرَقَتْ وَأُرْعِدَتْ . ثُمَّ مَا عِنْدَنَا مِنْ الْإِعْتِدَادِ بِإِيَّائِكُمْ الَّتِي أَنْجَزْتُ لَنَا فِي اللَّهِ مَا وَعَدْتُ، وَمَدَدْنَا إِلَيْهَا يَدَ الْإِتِّصَارِ عَلَى أَعْدَائِهِ فَأَسْعَدْتُ؛ إِلَّا الصَّنْعُ الْعَجِيبُ، وَالْيُسْرُ الَّذِي أَتَّاحَ الطَّافَةُ السَّمِيعُ الْحَجِيبُ؛ وَالْيَمْنُ الَّذِي رَفَعَ عِمَادَتَهُ التَّيْسِيرُ الْغَرِيبُ، وَمَدَّ رَوَاقَهُ الْفَرْجُ الْقَرِيبُ؛ وَإِلَى هَذَا أَيْدِيكُمْ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَأَجْزَلَ لَدَيْكُمْ مَوَاهِبَ آلَانِهِ؛ وَحَكَمَ لِلْإِسْلَامِ عَلَى يَدَيْكُمْ بَطْهُورَهُ وَأَعْتَلَانَهُ، وَعَرَّفَكُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْفَتْحِ الْهَنَى الْمَدْفَعِ وَأَنْبَاءَهُ كُلَّ شَاهِدٍ بِرَحْمَتِهِ وَأَعْتَانَتِهِ .
فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ تُحَقِّقُ لَدَيْكُمْ الْبُشْرَى الَّتِي بِمِثْلِهَا تُنْضَى الرِّكَابُ ^(٢)، وَيُخَاضُ الْعُبَابُ؛ وَتُعْرَضُ عَلَيْكُمْ ثَمَرَةُ سَعْدِكُمُ الْجَدِيدِ الْأَثْوَابُ؛ الْمَفْتَحُ لِلْأَبْوَابِ؛ عَلِمًا بِمَا عِنْدَكُمْ

(١) فِي رِيحَانَةِ الْكُتُبِ "مَكَامِنُ" .

(٢) الرِّكَابُ الْمَطِيُّ وَاحِدُهَا رَاحِلَةٌ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهَا .

من فضل الأخلاق، وكرم الأعراق ؛ وأصالة الأحساب ، والمعرفة بمواقع
نعم الله التي لا تجرى خلقه على حساب ، والعناية بأمور هذا القطر الذي تعلق
بأذيال مُلككم السامي الجناب . [وقد تقرر لدى مقامكم الأسنى ما كانت الحال
آلت إليه بهذا الطاغية^(١) الذي غرّه الإمهال والإملاء ، وأقدمه على الإسلام
التحريض المكتوب والابتلاء ؛ فتملأ تيهها وعجبا ، وأرتكب من قهر هذه الأمة
المسامية مَرَكبا صعبا ؛ وسام كلمة الإسلام بأسا وحربا ، فكتائب بره توسع
الأرجاء طعنا وضربا ؛ وكتائب بحره تأخذ كل سفينة غصبا ؛ والخاوي قد تجاوزت
شرقا وغربا ؛ والقلوب قد بلغت الحناجر غما وكربا ؛ وجبل الفتح الذي هو باب
هذه الدار ، وسبب الاستعداد على الأعداء والإنتصار ، ومسلك الملة الحنيفة
إلى هذه الأقطار ؛ قد رماه ببوائقه ، وصير ساحته مجر عواليه ومجرى سوائقه ؛
وأنخذ دَارَ مقامه ، وجعله شغل يقظته وحلم منامه ، ويسرله ما يجاوره من المعامل
إملاء [من الله] لأيامه ؛ فاستقر به القرار، وأطمأنت الدار، وطال الحصار، وعجزت
عن نصره الخيل والأنصار، ورجمت الظنون وساءت الأفكار، وشجر نظار القلوب
الاضطرار، إلى رحمة الله والافتقار، فجز الله الخواطر عظم بها الإنكسار، ودار بإدالة
الإسلام الفلك الدوار، وتمحّض عن عجائب صنع الله الليل والنهار، وهبت نواسم
الفرج ، عاطرة الأرج ، من يخلق ما يشاء ويختار ؛ لا إله إلا هو الواحد القهار .
وبينا نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقل العزيز على الإسلام لحجة مترامية
المعاطب ، وثقتعد صعبا لا يليق بالراكب ؛ ولولا التعلق بأسبابكم في أنواء تلك
الغياب ، وما خلص إلى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المواب ؛ ومواعيدكم الصادقة
ومكارمكم الغرائب ، وكُتبتكم التي تقوم عند العدو مقام الكتائب ؛ وإمدادكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ربحانة الكتاب .

تلاحق العظام الجنايب ، لما رجع الكفر بصفقة الخائب ، إذ تجلى نور الفرج من خلال تلك الظلمة ، وهمت سحاب الرحمة والنعمة على هذه الأمة ؛ ورمى الله العدو بجيش من جيوش قدرته أغنى عن العديد والعده ، وأرانا رأى العيان لطائف الفرج من بعد الشدة ، وأهلك الطاغية حنف أنفه ، وقطع به عن أملة قاطع حنقه ، وغالته أيدي المنون في غيله ، وأنهى إلى حدود القواطع القويّة والأشعة المريخية نصير دليله ، فشفى الله منه داء ، وأخذ أشد ما كان اعتددا واعتداء ، وحى الجزيرة الغربية وقد صارت نهبه طغاته ، وأشرقه بريقه وهي مضغة في كواته ؛ سبحانه لا مبدل لكلماته .

فانتثر سلكه الذى نظمته ، واختل تدبيره الذى أحكمه ؛ ونطقت بتبار محلاته السنة النار ، وعاجلت انتظامها أيدي الانتثار ؛ وركدت ريحه الزعرع من بعد الإعصار ، وأصبح من استظهر به من الأشياح والأنصار ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ﴾ وولوا به يحنون التراب فوق المفارق والثرائب ، ويخبطون تير السبال الضهب بدوب الذواب ؛ قد ليسوا المسوح حزنا ، وأرسلوا الدموع مرنا ؛ وشقوا جيوبهم أسفا ، وأضرمو قلوبهم تلهفا ؛ ورأوا أن حصن استطبونة لا يتأثر لهم به امتناع ، ولا يمكنهم لمن يرومه من المسلمين دفاع ؛ فأخلوه من سكرانه ، وعاد فيه الإسلام إلى مكانه ؛ وهو ماهو من طيب البقعة ، وأنفساح الرقعة ؛ ولو تمسك به العدو لكان ذلك الوطن بسوء جواره مكدودا ، والمسلك إلى الجبل - عصمه الله - مسدودا ؛ فكان الصنيع فيه طرازا على عاتق تلك الحلة الضافية ، ومزيذا حسنى العارفة الوافية ؛ فلما استجلينا غرة هذا الفتح الهى ، والمنح السنى ، قابلناه بشكر الله تعالى وحده ، وضرعنا إليه فى صلة نعمه فلا نعمة إلا من عنده ؛ وعلمنا أنه عنوان على مزيد ملككم الأعلى وعلامة على سعده ، وأثر نبيته

للإسلام وحسن قصده ؛ ونغر ذخره الله لأيامكم لا نهاية لحده ، فإنكم صرفتم وجهه عنايتكم إلى هذا القطر على نأى المحلّ وبعده ؛ ولم تشغلكم الشواغل عن إصلاح شأنه وإجزال رفده .

وأما البلد المحصور ، فظهر فيه من عزمكم الأمضى ما صدق الآمال والطنون ، وشرح الصدور بمقامكم وأقرّ العيون : من صلة الإمداد على الخطر ، وتردد السابلة البحرية على بُعد الوطن وتعذر الوطر ؛ واختلاف الشواني التي تسرى إليه سرى الطيف ، وتخلص سهامها إلى غرضه بعد أذى وكيف ؛ حتى لم تعدم فيه مرفقة يسوء فقداها ، ولا عتة يهيم شأنها ؛ فجزاؤكم عند الله موفور القسم ، وسعيكم لديه مشكور الذم ؛ كافأ الله أعمالكم العالية الهمة ، وخلالكم الزاكية الشيم ؛ فقد سعد الإسلام - والحمد لله - بملكم الميمون الطائر ، وسرت أنباء عنايتكم بهذه البلاد كالمثل السائر ؛ وما هو إلا أن يستتب اضطراب الكفار واختلافهم ، ويتنازع الأمر أصنافهم ؛ فتغتزمون إن شاء الله فيهم الغرة التي ترتبها العزائم الشريفة ، والهمم المنيفة ؛ وتجمع شيمكم العليا ، بين نخر الآخرة والدنيا ، وتحصل على الكمال الذي لا شرط فيه ولا ثنيا ؛ فاهنؤا بهذه النعمة التي حبأها الله إلى أيامكم ، والتحفة التي بعثها السعد إلى مقامكم ؛ فإنما هي بتوفيق الله ثمرة إمدادكم ، وعقبى جهادكم ؛ أوزعنا الله وإياكم شكرها ، وأهمنّا ذكرها .

عرفناكم بما اتصل لدينا ، وورد من البشائر علينا ؛ عملاً بما يجب لمقامكم من الإعلام بالمتريّدات ، والأحوال الواردة ؛ ووجهنا إليكم بكتابنا هذا من ينوب عنا في هذا الهناء ، ويُقرّر ماعدنا من الولاء ، وما يترتّب لدينا بالأبناء ؛ خالصة إنعامنا ، المتميّز بالوسيلة المرعية إلى مقامنا ؛ الحظي لدينا ، المقرب إلينا ؛ القائد الفلاني أبا الحسن عبادا وصل الله عزّته ، ويمن وجهته ؛ ومجدكم ينعم بالإصغاء إليه ، فيا أحلنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ؛ والسلام .



وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبى سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تلمسان، عند بعثه بطعام إلى الأندلس، شاكرًا له على ذلك، ونخبًا له بفتح حصن من حصون الأندلس يسمى حصن قنيط، وهو :

المقام الذى تحدثت بسعادته دولة أسلافه ، وآتفق به قولها من بعد اختلافه ، وعاد العقد إلى انتظامه والشمل إلى استلافه ، مقام ولينا فى الله الذى هيا الله له من جميل صنعه أسبابا ، وفتح به من [مُبهم^(١)] السعد أبوابا ، وأطلع منه فى سماء قومه شهابا . وصفيّا الذى نُسبُ القول فى شكر جلاله ووصف خلاله لإسبابا السلطان أبو سعيد عثمان ، ابن الأمير أبى زيد ، ابن الأمير أبى زكريّا ، ابن السلطان أبى يحيى يغمراسن ، بن زيان ، مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه - أبقاه الله للدولة الزبانية - يزين بالأعمال الصالحة أجيادها ، ويملك بالعدل والإحسان قيادها ، ويجرى فى ميدان الندى والباس ، ووضع العرف بين الله والناس ، جياها . سلام كريم كما زحفت للصباح شهب المواكب ، وتفتحت عن نهر المجرة أزهار الكواكب ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله جامع الشمّل بعد أنصداعه وشتاته ، وواصل الجبل بعد انقطاعه وأثباته ، سبحاته لامبذل لكلماته ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسول الصادع بآياته ، المؤيد بيناته ، الذى أصطفاه لحمل الأمانة العظمى ، وحباه بالقدر الرفيع والمحل الأسمى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه وحجّاته ، المتواصلين فى ذات الله وذاته ، القائمين بنصر دينه وقهر عدّاته . فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سعدًا ثابت الأركان ، وعزًّا اسامى المكان ، ومجدًا

وَثِيقَ الْبُنْيَانِ ، وَصُنْعًا كَرِيمَ الْأَثَرِ وَالْعِيَانِ - مِنْ حَمَاءٍ غَرْنَاطَةَ - حَرَسَهَا اللَّهُ - وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ
سَبْحَانَهُ أَسْبَابُهَا وَثِيقُهُ ، وَأَنْسَابُهَا عَتِيقُهُ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ لَا تَلْتَبِيسَ مِنْ سَالِكِهِ طَرِيقَهُ
وَلَا تَخْتَلُطُ بِالْحَاجِزِ مِنْهُ حَقِيقُهُ ؛ وَعِنْدَنَا مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِكُمْ فِي اللَّهِ عُقُودٌ مُبَرَّمَةٌ ، وَأَيُّ
فِي كِتَابِ الْإِخْلَاصِ مُحْكَمَةٌ ؛ وَلَدَيْنَا مِنَ السُّرُورِ ، بِمَا سَنَّاهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَسْبَابِ الظُّهُورِ ،
الَّذِي حُلَّلَهُ مُعَلِّمُهُ ، وَحُجِّجَهُ بِالْبَالِغَةِ مُسَلِّمُهُ ، مَا لَا نَفِي الْعِبَارَةُ بِبَعْضِ حُقُوقِهِ الْمُتَلَزَّمَةِ ؛
وَالِىَ هَذَا - أَيْدِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ - فَإِنَّا وَرَدَ عَلَيْنَا فَلَانٍ وَصَلَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ ، وَسَنَّى سَلَامَتَهُ ؛
صَادِرًا عَنْ جِهَتِكُمُ الرِّفِيعَةِ الْجَانِبِ ، السَّامِيَةِ الْمَرَاقِبِ ؛ طَلَّقَ اللِّسَانُ بِالنَّشَاءِ بِمَا خَصَّكُمْ
اللَّهُ بِهِ مِنْ فَضْلِ الشَّمَائِلِ وَكَرَمِ الْمَذَاهِبِ ، مُحَدِّثًا عَنْ بَحْرِ مَكَارِمِكُمْ بِالْعَجَائِبِ ؛ فَخَضَرَ
بَيْنَ يَدَيْنَا مُلْقِيًا مَا شَاهَدَهُ مِنْ أَزْدِيَادِ الْمَشَاهِدِ ، بِتِلْكَ الْإِيَالَةِ ، وَاسْتَبَشَرَ الْمَعَاهِدَ ، بِعُودَةِ
ذَلِكَ الْمَلِكِ الرَّفِيعِ الْجَلَالَةِ ، الشَّهِيرِ الْأَصَالَةِ ؛ وَوَصَلَ صُحْبَتَهُ مَا حَمَّتْ جَفْنَتُهُ^(١) مِنَ الطَّعَامِ
بِرِسْمِ إِعَانَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَالْإِمْدَادِ الَّذِي آفَتْحَتْهُ بِهِ دِيَوَانُ أَعْمَالِكُمُ السَّيْنَةِ ،
وَأَعْرَبْتُمْ بِهِ عَمَّا لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ خَالِصِ النَّيَّةِ ؛ وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ رِشَّةٌ
مِنْ عَمَامٍ ، وَطَلِيعَةٌ مِنْ جَيْشٍ هُلَامٍ ؛ وَوَفَّدَ مِنْ عَدَدٍ ، وَبَعْضٌ مِنْ مَدَدٍ ؛ وَأَنَّ عِزَّائِكُمْ
فِي الْإِعَانَةِ وَالْإِمْدَادِ عَلَى أَوَّلَاهَا ، وَمَكَارِمِكُمْ يُنْسَى الْمَاضِي مِنْهَا بِمُسْتَقْبَلِهَا ؛ فَأَثْنَيْنَا عَلَى
قَصْدِكُمُ الَّذِي اللَّهُ أَخْلَصْتُمُوهُ ، وَبِهَذَا الْعَمَلِ الْبَرِّ خَصَّصْتُمُوهُ ؛ وَقَلْنَا : لَا يَنْكَرُ الْفَضْلُ
عَلَى أَهْلِهِ ، وَهَذَا يَرْصَدُ عَنْ مَحَلِّهِ ؛ فَلَيْسَتْ إِعَانَةُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْجِهَادِيَّةِ بِبَدْعٍ مِنْ
مَكَارِمِ جَنَائِكُمُ الرَّفِيعِ ، وَلَا شَاذَّةٌ فِيمَا أَسْدَى عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ حُسْنِ الصَّنِيعِ ؛ فَقَدْ عَلِمَ
الشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ ، وَلَوْ سَكَّتُوا أَثْنَتْ عَلَيْهَا الْحَقَائِبُ ؛ مَا تَقَدَّمَ لَسَلَفِكُمْ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ
مِنْ الْإِرْفَاقِ وَالْإِرْفَادِ ، وَالْأَخْذُ بِالْحِظِّ الْمَوْفُورِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْجِهَادِ ؛ وَأَتَمَّ أَوَّلِيَّ مَنْ
جَدَّدَ عُهْدَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ غَدُهُ فِي الْفَخْرِ أَكْبَرَ مِنْ يَوْمِهِ ؛ وَقَدْ ظَهَرَتْ لَكُمْ فِي حِزِّ تِلْكَ

(١) مراده سفينة أو نحو ذلك .

الإيالة الزبانية نتيجة تلك المقدمات، وعُرفت بركة ما أسلفته من المكرمات. وسنى الله سبحانه بين يدى وصول مابه تفضلتم، وفى سبيله بذلتم، أن فتح جيشنا حصناً من الحصون المجاورة لغربى مالقة يُعرف بحصن قنيط من الحصون الشهيرة المعروفة، والبُقع المذكورة بالخِصْب الموصوفه؛ ودفع الله مضرته عن الإسلام وأهله، ويسره بمعهود فضله؛ فجعلنا من ذلك الطعام الذى وجَّههم طُعْمَةً حُماته، ونفقات رجاله ورُماته، اختياراً له فى أرضى المرافق من سُبُل الخير وجهاته. وأما نحن فإن ذهبنا إلى تقرير ما عندنا من الثناء، على معالى ملككم الأصيل البناء، والاعتداد بمقامكم الرفيع العِماد، والاستناد إلى ولائكم الثابت الإسناد؛ لم نبُغ بعض المُرَاد، ولا وفى اللسان بما فى القوادى؛ فمن الله نسأل أن يجعله فى ذاته، وذريعة إلى مَرْضاته؛ ومرادنا من فضلكم العِميم، وودَّكم السليم؛ أن تحسبوا هذه الجهة بجهتكم فيما يعرض من الأغراض: لنعمل فى نعيمها بمقتضى الودِّ العذب الموارِد، الكريم الشَّاهد؛ والله يَصِل سعدكم، ويحرُس مجدكم، والسلام.

الضرب الثانى

(أن يقع الابتداء بالمقَرَّر)

والرسم فيه أن يقال: المَقَرَّر، ويُنتَع، ثم يقال: مَقَرَّر فلان، ويُنتَع بالألقاب، ثم يُدْكر المكتوب عنه. ثم يقال: أما بعد حمد الله، ويُؤتى على الخطبة إلى آخرها؛ ثم يقال: فإننا كتبناه لكم من موضع كذا، ويُتَخَلَّص إلى المقصد بلفظ: وإلى هذا فإن كذا وكذا، ويُؤتى على المقصد إلى آخره ويُتَمَّ بالسلام.

كما كتب أبْن الخطيب عن سلطانه أبْن الأحمر إلى عَجَلان سلطان مكة شرفها الله تعالى وعظَّمها، وهو:

المَقَرَّ الأشرف ، الذى فَضَّلَ المحالَّ الدينيَّةَ محلَّهُ ، وَكَرَّمَ فى بَرْزَمَزَمَ مُنْبَطَ إسماعيل
صَلَّى الله عليه وسلم نَهْلَهُ وَعَلَّهُ ، وَخَصَّه بِإمرة الحَرَمِ الشريف الأَمِينِ مَنْ بِيده الأَمْرُ
كُلُّهُ ؛ فَاسْقَرَ عن صُبْحِ النصر العزيزِ فَضْلُهُ ، وَأَشْتَمَلَ على خِواصِّ الشَّرَفِ الوَاضِحِ
جَنَسُهُ وَفَضْلُهُ ، وَطَابَتْ فُرُوعُهُ لِمَا آسَمَدَتْ من رِيحَاتِي الجنة أَصْلُهُ .

مَقَرُّ السلطان الجليل ، الكبير ، الشريف ، الطاهر ، الظاهر ، الأَمَجِد ، الأَسْعَد ،
الأَوْحَد ؛ الأَسْمَى الشهيرِ البَيْتِ ، الكَرِيمِ الحَيِّ والمَيِّتِ ، المَوْقَرِّ ، المعظَّم ، ابن الحسين ،
وحافِد سيد الثَّقَلَيْنِ ؛ تاجِ المعالَى ، عزِّ الدنيا والدين ، أَيْ السَّبْقِ عجلان ، ابن السلطان
الكبير ، الشهير ، الرفيع ، الخطير ، الجليل ، المَثِيل ، الطاهر ، الظاهر ، الشريف ، الأَصِيل ،
المعظَّم ، الأَرْضَى ، المقدِّس ، المنعم ، أَسَدِ الدين ، أَيْ الفضل ”رَمِيَّة“ بن محمد بن
أبى سعيد الحسنى - أَبقاه الله ، وجعل أَفئدةً من الناس تهوى إلى قاطِئِ مَثْوَاهُ ، على
بُعْدِ الدار ، وَتَتَقَرَّبُ فيه إلى الله بالتثامِ الترابِ وَاسْتِلَامِ الحِدار ، وَتُجِيبُ أَذَانَ نَبِيِّهِ
إِبْرَاهِيمَ بِالْحَجِّ إجابةً الإِيتِدَار ؛ وَهَنَاهُ المِزِيَّةَ التى خَصَّه بها من بين مُلُوكِ الأَقْطَار ،
وأولى المراتب فى عِبَادِهِ والأَخْطَار ؛ كَمَا رَفَعَ قَدْرَهُ على الأَقْدَار ، وَتَجَلَّلَ له بِسِقَايَةِ الحجِّ
وَعِمَارَةِ المسجد الحرامِ عَقْدَ الفَخَار . وَيُنْهَى إليه أَكْرَمَ التَّحِيَّاتِ تَتَأَرَّجُ عن شَدَا
الروضةِ المِعْطَار ، عَقَبَ الأَمْطَار ، معظَّم ماعظَّم اللهُ من شعائرِ مَثْوَاهُ ، وملتَمَسُ البركةِ
من أبوابِ مِفَاتِحِهِ ولكلِّ أَمْرٍ ما نَوَاهُ ؛ وَمُوجِبُ حَقِّهِ الذى يَلِيقُ بِمَنِ البِتُولُ
وَالرَّضَا أَبَوَاهُ ، الشَّيْقُ إلى الوِفَادَةِ عليه وإن مَطَّلَهُ الدهرُ وَلَوَاهُ ؛ فلان . كان الله له
فى غربته وَأَنفَرادِهِ ، وتولَّى عَوْنَهُ على الجِهَادِ فيه حَقَّ جِهَادِهِ .

أما بعدَ حمدِ الله وَلِيِّ الحَمْدِ فى الأَوَّلَى والآخِرَةِ ، وَمَطْمَحِ النُّفُوسِ العَالِيَةِ والحِمَمِ
الفَاخِرَةِ ؛ مؤيِّدِ العِزائمِ المتعاضدةِ فى سبيله المتناصرة ، وَمُعِزِّ الطائفةِ المؤمنةِ وَمُنِذِّلِ

الطائفة الكافرة ، ومُنيل القياصرة الغلب والأكاسره ، وتارك أرضها عبدةً للآذان السامعة والعيون الباصرة .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله نبي الرحمة الهامية الهامره ، والبركات الباطنة والظاهره ، المجاهد في سبيل الله بالعزائم الماضية والصّوارم الباتره ، مُصمّت الشّفاشق الهادره ، ومُرغم الضلالة المكابره ، المنصور بالرعب من جنود ربّه الناصره ، المحروس بحرس الملائكة الوافره ، الموعد ملك أمته بما روى له من أطراف البسيطة العامره ، حسب ما ثبت بالدلائل المتواتره .

والرضا عن آله وأحزابه ، وعترته وأصحابه ، المجاهدة الصابره ، أولى القلوب المراقبة والألسن الذاكه ، والآداب الحريصة على الاهتداء بهداء المتأثره ، الذين جاهدوا في الله حق جهاده يخوضون لأن تكون كلمة الله هي العليا بخار الرّوع الزاخره ، ويقدمون بالجموع القليلة على الآلاف المتكاثره ، حتى قُتِرَ بظهور الإسلام العيون الناظره ، وحلّت في العدو الفاقره ، فكانوا في الذّب عن أمته كالأسود الخارّه ، وفي الهداية سماء ملته كالنجوم الزاهره .

والدعاء لشرفكم الأصيل المناسب الطاهره ، والمكّارم الزاهية بنبوة الزهراء البتول بضعة الرسول الزاهره ، بالصنع الذي يُسفر عن الغرر المشرقة السافره ، والعزّ الذي يصفو منه الجناح على الوفود الوافره ، والفضلاء من المجاوره ، ولا زال ذِكْرُكم بالجميل هيجري الزكائب الوارده والصادره ، والثناء على مكارمكم يُججل أنفاس الرياض العاطره ، عقيب الغائم الماطره .

فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله لكم عناية تحجب الأسوء ^(١) [بجنتها] الساتره ، ورعاية تجمع الأهواء المختلفة والقلوب المتنافره - من حمراء غرناطة دار الملك الإسلاميّ

(١) الزيادة من ريجانة الكتاب .

بِالْأَنْدَلُسِ - حَرَسَهَا اللَّهُ وَوَفَّرَ جُمُوعَ حَامِيَتِهَا الْمُتَنَافِرَةِ - وَسَدَّدَ بِيَدِ قُدْرَتِهِ مَا هَمَّ بِهَا
 مِنْ أَفْوَاهِ الْعِدَى الْفَافِرَةِ ، وَلَا زَالَتْ سَحَابُ رَحْمَةِ اللَّهِ الْخَائِطَةِ لَهَا الْغَامِرَةِ ، تُظَلِّلُ
 جُمُوعَ جِهَادِهَا الظَّافِرَةِ ، وَتَجُودُ رِمَمُ شُهَدَائِهَا النَّاسِرَةِ ، وَنِعْمَ اللَّهُ تَحَطُّ رُكَّابُ الْمَزِيدِ
 فِي نَوَادِيهَا الْحَامِدَةِ الشَّاكِرَةِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ ، فَلَا فَضْلَ إِلَّا فَضْلُهُ . وَجَانِبُكُمْ مَوْفَى حَقِّهِ مِنَ التَّعْظِيمِ
 الَّذِي أَنْفَأَ وَأَرَبَى ، وَقَدَّرَكُمْ يَعْرِفُهُ مَنْ صَامَ وَصَلَّى فَضْلًا عَنْ حَجٍّ وَلَبَّى ، وَمُسْتَنْدَ
 وَدَّمَ ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وَإِلَى هَذَا - حَرَسَ اللَّهُ مَجْدَكُمْ
 وَمَقَرَّكُمْ الْأَشْرَفَ ، كَمَا سَعَبَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ظِلْمُكُمْ الْأَوْرَفَ - فَإِنَّ الْجِهَادَ وَالْحَجَّ
 أَخْوَانٌ ، يَشْهَدُ بِذَلِكَ الْمَلَوَانِ ، مَرْتَضِعَانِ تَدَى الْمُنَاسِبَةِ ، وَيَكَادَانِ يَتَكَافَأَانِ فِي الْحَاسِبَةِ :
 سَفَرًا وَزَادًا ، وَنِيَّةً وَاسْتِعْدَادًا ، وَإِتْلَافًا لِمُصُونِ الْمَالِ وَإِنْفَادًا ، وَخُرُوجًا إِلَى اللَّهِ لَا يُؤْثِرُ
 أَهْلًا وَلَا وَلَدًا وَإِنْ أَفْتَرَقَا مَحَلًّا فَقَدْ أَجْتَمَعَا جِهَادًا ، وَرَفَعَا لِلْمَلَةِ مَنَارًا سَامِيًّا وَعِمَادًا ،
 وَوُطْنًا - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - عَلَى هَذَا الْعَهْدِ الْمَخْصُوصِ بِكُلِّ هَذِهِ الْمِزْيَةِ ، وَالْقِيَامِ بِفَرْضِ كِفَايَتِهَا
 الْبَحْرِيَّةِ وَالْبَرِّيَّةِ عَنْ جَمِيعِ الْبَرِّيَّةِ ، [السَّالِمَةِ مِنَ الضَّلَالِ الْبَرِّيَّةِ] (١) وَهَذَا النِّسْبُ وَالشَّجَّةُ
 عُرُوقُهُ ، صَادِقَةٌ بُرُوقُهُ ، وَمَتَاتُهُ لَا يَفْضُلُهُ مَتَاتٌ وَلَا يَقُوقُهُ . وَنَحْنُ نَعْرِفُكُمْ بِأَحْوَالِ
 هَذَا الْقَطْرِ الْمُسْتَمْسَكَةِ فُرُوعُهُ بِتِلْكَ الْجُرْثُومَةِ الرَّاسِيَةِ ، الْمُدَوْدَةِ أَيْدِيهِ إِلَى مُتَابَتِهَا
 الْمَتَصَدِّقَةِ بِالْإِعْدَاءِ الْمُوَاسِيَةِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْإِسْلَامَ بِهِ مَعَ الْحَيَاةِ فِي سَفَطِ حَرَجٍ ،
 وَفِي أَمْرِ مَرَجٍ ، وَطَائِفَةُ الْحَقِّ قَلِيلٌ عَدَدُهَا ، مُنْقَطِعٌ إِلَّا مِنْ اللَّهِ مَدَدُهَا ، مُسْتَغْرَقٌ
 يَوْمُهَا فِي الشَّدَةِ وَغَدُهَا ، فَالْطَّلَاعُ فِي قُنَنِ الْجِبَالِ تُورُ ، وَالْمُصْحَرُ مِنْ بَيْتِهِ مَغْرَرٌ ،
 وَالصَّيْحَةُ مَعَ الْأَحْيَانِ مَسْمُوعَةٌ ، وَالْأَعْدَاءُ لَرْدٌ مَا اسْتَخْلَصَهُ الْفَتْحُ الْأَوَّلُ مَجْمُوعَةٌ ،
 وَالصَّبْرُ قَدْ لُبِسَتْ مَدَارِعُهُ ، وَالنَّصْرُ قَدْ أَلْتَمَسَتْ مَشَارِعُهُ ، وَالشُّهَدَاءُ تَتَوَشَّأُ أَشْلَاءُهُمْ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" . (٢) المئات مايت به .

القشاع ، وتحتفل منها للعوافي الولائم والمطاعم ، والصَّيَّاتُ تُدْرَبُ على العمل بالسَّلاح ، وتُعَلَّمُ أحكامَ الجهادِ تعلَّمُ القرءان في الألواح ، وأذانُ الخيل مستشرفة للصَّياح ، ومفارق الطائحين في سبيل الله تعالى تبلى بأيدى الرياح ، والمآذن تُجيبها النواقيسُ مناقضه ، وتراجعها مُغاضبةٌ معارضة ، وعددُ المسلمين لا يبلغ من عدد الكفار ، عُشَرُ المعشار ، ولا وَبَرَةٌ من جلود العِشار ، إلا أن الله عز وجل حلَّ بولائتنا المحنَّ المشدود ، وفتح إلى التيسير المهيَّع المسدود ، وأضفى ظلال اليَمْنِ الممدود ، وألهم - وله الشكرُ على الإلهام ، وتسديد السَّهام . والحمد لله الذي يفوت مدارك الأفهام - إلى اجتِهَادِ قُرْنٍ به التوفيق ، وجِهَادِ نُهْجٍ به إلى النجاة المُنجية الطريق ، سبحانه من كريم يُلهم العمل ليُثيب ، ويأمرنا بالدعاء ليُجيب ، فتحركنا حركات ساعدها - والله المنَّة - السعد ، وتولى أمرها ونصرتها مَنْ له الأمر من قبل ومن بعد .

ففتحنا مدينة بُرْغَةَ الفاصلة كانت بين البلاد المُسلمة ، والشَّجَا المعترض في نحو الكَلِمَة ، وتبعها بناتُ كَنْ يرضعن أخلاف دِرَّتِها ، ويتعلَّفن في الحرب والسَّلم بأرزتها . ثم نازلنا حصنَ آش ركابَ الغارات الكافرة ، ومستقرَّ الشوكة الوافرة ، فرفع الله إصره الثقيل ، وكان من عثرة الدين فيه المقييل .

ثم قصدنا مدينةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر ، وعيرينَ الأسود الغلب وكِئاسَ الظباء العُقر ، فاستبحناها عنوةً أضرمت البلادَ ناراً ، ودارت بأسوارها المنيعَة سِوَاراً ، وأسبأصلنا أهلها قتلاً وإساراً ، وملايت الأيدي من نُقاوة سبي تعددت آلافه ، وموفور غنم شدَّت عن العبارة أوصافه .

ثم كانت الحركة إلى مدينة جَيَّان وشهرتها في المعمور ، وشياعُ وصفها المشهور ، تُقْنِي عن بسط مالها من الأمور ، ففتحها الله على يدينا عنوة وجعلت مقاتلتها نهبا

للسيوف الرقاق، وسيئها ملكة للاسترقاق، وأهله مبانيها البيض دريئة للمحاق،
وأستولت على جميعها أيدي الهدم والإحراق؛ ثم دُكَّت الأسوار، وعُقِرَت الأشجار،
وأستُخِلَف على خارجها النار، فهي اليوم صَفْصَف ينشأ بها الاعتبار، وتعجب
الأبصار.

وغزونا بعدها مدينة أبدة أختها الكبرى، ولديتها ذات المحل الأسرى؛ وكانت
أسوة لها في التدمير، والتبدير، والعفَاء المبير.

ثم نازلنا مدينة قُرطبة وهي أم هذه البلاد الكافرة، ودار النعم الوافرة، وذات
المحاسن السافرة؛ فكُنَّا نستبيح حاماها المنيعة، ونُسَنِّت شملها الجميع، ونُخْتَلِف بفتحها
الذي [هو للدين أجل] صَنِيع^(١)، لولاعوائق أمطار، وأجل متته إلى مقدار؛ فرحلنا عنها
بعد آنتهاك زلزل الطود، ووعدناها العود؛ ونؤمل من فضل الله إنفاذ البشري بفتحها
على بلاد الإسلام، ومُتَاحَفَة مَنْ بها من الملوك الأعلام، بالإخبار به والإعلام.
ويلغ [من] صُنِعَ^(١) الله لنا وهو كافٍ من توكل عليه، وفوض الأمور إليه؛ أن لاطفنا
النصر بمُحْصُون أربعة لم نُوجِف عليها ركابا، ولا تملككتها غلابا؛ فطهرنا بيوت الله
من دَنَس الأوثان، وعوَضنا النواقيس بكلمة الإيمان. والحمد لله على مواهب
الإمتنان، ومنه نستريد عوائد الإحسان.

وهذه المجملات تحتل شرحا، تسبح في بحره سنان الأعلام سبحا؛ من أوصاف
مغائم شذت عن الحصر، ومواقف لتزل السكينة وهبوب النصر؛ وماظهر من جد
المسلمين في آفتتاح تلك المعازل المنيعة المنيعة، ومقارعة الجموع الكشيقة؛ وبركة
الحرم الشريف في كل حال موجوده، وأقطار الإسلام بها مجوده، والوسائل إلى الله
بأهله في القديم والحديث لا تُخْبِئ ولا مَرْدُوده؛ فهو الأصل، والغمد الذي سُلَّ

منه النَّصْل ؛ حتى بلغ التَّخَوُّمَ القاصيه ، وذلك المالك المتعاصيه ، وقاد من تقاعد أو تقاعس بالناسيه .

وقد ظهر لنا أن نوجه الى المدينة المقدسة صلوات الله على من بها وسلامه رسالة نعرفه بهذه البركات الهامية من سماء عنايته المعداد خارقها آية من آياته ، وكلنا جناه ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله بهداه ؛ وأحببنا أشخاصا من نواقيس الفرج مما تأتى حملة ، وأمكن نقله ؛ وما سواه فكانت جبالا ، لا يقبل نقلها احتيالا ؛ فتناول درعها المسخ والتكسير ، وشفى بذهاب رسومها الاقامة والتكبير ، والأذان الجهير ؛ ومرادنا أن تعرض بجمع الوفود تذكرة تستدعى الإمداد بالدعاء ، وتقتضى بتلك المعاهد النصرة على الأعداء ؛ ثم تضحى ركاب الزياره ، الى أبواب النبوة ومطالع الإناره ؛ وأتم تعملون في توفية هذه الأحوال ورعايتها ، وإبلاغها الى غايتها ؛ ما يليق بحسبك الوضاح ، ومجدكم الصراح ، وشرفكم المتبلجة أنواره تبلج الإصباح (فأتم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح) ولكم بذلك الحظ الرغيب في هذه الأعمال البره ، والله سبحانه لا يضيع مثقال الذره ؛ وهو سبحانه يتولاكم بما تولى به من أعز شعاره وعظمها ، ورعى وسائله واحترمها ؛ ويصل أسباب سعدكم ، وينفعكم بقصدكم . والسلام الكريم ، الطيب البر العظيم ؛ يحى معاهدكم الكريمة على الله عهودها ، النامية بغائم الرحمت والبركات عهودها ؛ ورحمة الله وبركاته .

وربما قُدم على لفظ المقر صلة يعتمد عليها في البداءة .

كما كتب عنه أيضا في معنى ذلك إلى أمير المدينة النبوية على ساكنها سيدنا محمد افضل الصلاة والسلام .

يعتمد المقر الأشرف الذى طاب بطيبة نشره ، وجلل بإمارتها الشريفة أمره ، وقدر فى الآفاق شرفه وشرف قسدره ، وعظم بخدمة ضريح سيد ولد آدم نحره ،

(١) [أبقاه الله منشراحاً بجوار روضة الجنة صدره ، مُشرقاً بذلك الأفق الأعلى بدره ،
 ذائِعاً على الألسنِ السَّاحِةِ ، في الأقطار النازحة ، حمده وشُكْرُه ، مُزْرِياً بشدَا المسك
 الأذفر في الجمع الأوفر ذِكْرُه ؛ تحيةً مُعْظَم ما عَظَّم الله من دار الهجرة داره ،
 ومُطْلَع إِبْدَارِه ، الملتَمِس بركة آثاره ، المتقرب إلى الله بحبه وإيثاره . فلان .

أما بعد حمد الله الذي فَضَّل البَقع بخصائصها الكريمة ومَزاياها ، تفضيلَ الرياض
 الوَسيمة بَريَّاتها ، وجعل منها مَنَابِتِ رحمةٍ تُضْرِبُ إليها العبادُ آباطَ مَطَاياها ، مؤمَلةً
 من الله غُفرانَ زَلَّاتِها وَحَطَّ خَطَاياها ؛ وَخَصَّ المدينةَ الأَمِينَةَ بِضَرْحِ سيدِ المرسلين
 فَاسْعَدَ منها مَمَاتِها وَمَحْيَاها ، وَرَفَعَ عَلَيْها .

والصلاة على سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ، الرَّؤُوفِ بِالْمُؤْمِنِينَ الرَّحِيمِ ؛
 مُطْلِعِ أَوَجِّهِ السَّعَادَةِ بِرُوقِ مُحْيَاها ، وَمُوضِّحِ أَسْرَارِ النَّجَاةِ وَمُبَيِّنِ خَفَاياها ؛ الَّذِي
 تَدَارَكَ الْخَلِيقَةَ بِهَيْدِهِ وَكَشَفَ بَلَاياها ، وَرَعَى لِسُنَّةِ اللَّهِ رَدَاياها ، وَجَمَعَ بَيْنَ صَلَاحِ
 دِينِهَا وَدُنْيَاها .

والرضا عن آله وَصَحْبِهِ ، وَعِثْرَتِهِ وَحِزْبِهِ ؛ الَّتِي كَرُمَتْ سَجَاياها ، وَعَظُمَتْ أَطَافُهَا
 الْهَادِيَةُ وَهَدَاياها ؛ وَجَاهَدَتْ بَعْدَهُ طَوَائِفَ الْكُفَّارِ ، تُشْعِشِعُ لَهَا فِي أَكْوَاسِ
 الشِّفَارِ ، مَنَاياها ، وَتُطْلِعُ عَلَيْهَا فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ، سَنَا الصَّبَاحِ الْوَسِيمِ ؛ مِنْ غُرُرِ
 سَرَايَاها ، وَتُسَدُّ بِغَمَامِ الْأَسِنَّةِ وَرِيَّاحِ ذَوَاتِ الْأَعِنَّةِ ثَنَاياها .

والدعاء لِمَقَرِّ أَصَالَتِكُمُ الشَّرِيفَةِ حَيَّاها اللَّهُ وَبَيَّاها ، كَمَا شَرَّفَهَا بِوِلَادَةِ الْوَصِيِّ الَّذِي قَزَرَ
 وَصَاياها ، وَسُلَالَةَ النَّبِيِّ الَّذِي أَعْظَمَ مَوَاهِبَ فَخْرِها مِنْهُ وَعَطَاياها ، بِالسَّعَادَةِ الَّتِي تُبْرِزُ
 أَكْفُ الْأَقْدَارِ عَلَى مَرُورِ الْأَعْصَارِ خَبَاياها ، وَالْعِزِّ الَّذِي يُزَاحِمُ فِرْقَدَ السَّمَاءِ وَثَرَاها .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) كذا في الريحانة أيضاً وأَبْن الخطيب يستعمل هذا الجمع كثيراً ولكن الذي في كتب اللغة أن جمع
 الكاس أكوس وكسوس وجرر .

فانا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من مَوَاهِبِ الصَّنْعِ الجميل أغياها ، كما طَيَّبَ
بَذِكْرِكُمْ أطرافَ البَسِيطَةِ وزَوَاياها ؛ وجعلَ فَخْرَ الحَوَارِ الكريمِ في عَقَبِكُمْ كلمةَ صِدْقٍ
لا تُخْتَلَفُ قَضَاياها ، مامرَّضَتِ الرِّيَاضُ مُورَّسَاتِ عَشَاياها ؛ فجَعَلَتْ من النِّوَاسِمِ
مَشْمُومَهَا ومن الأزهارِ البَوَاسِمِ حَشَاياها . من حَمَاءِ غَرْناطَةِ - حرسها الله -
ونِعْمُ الله يُحَوِّكُ حُلَلَهَا الجهادِ ، والسيوفُ الحِدادِ ، وتلبَّسها البلادُ والعبادُ ، وتزَيَّأها .
وَقُلُوبُ الكُفْرِنا كَصَّةٌ عَلَى الأعقابِ ، من بعدَ شَدِّ الوَثاقِ وَضَرْبِ الرقابِ ، نَحْزَاياها ؛
وبركَاتُ حَرَمِ النَّبِيِّ الوَجِيهِ عَلَى الله يَسْتَظِلُّهَا الإسلامُ وَيَتَقَيَّأها ، وَيَنْقَعُ الغُلَلُ
من رَوَاياها .

والحمد لله كثيرا كما هو أهله ، فلا فضلَ إلا فَضْلُهُ ، ولمعاهدكم الكريمةِ الإِرتِياحِ ،
كَلَمًا أَوْ مَضِيَّتِ البروقُ وخَفَقَتِ الرِّياحُ ؛ وَلِسَنِي عَنائَتِها الأَلَمَاحِ ، إذا أَشْتَجَرَتِ
الرِّماحُ ؛ وفي تَأْمِيلِ المَثُولِ بها تُعْمَلُ الأفكارُ وإنْ هِيَصَ الجَنَاحُ ، وَهَدَاها الأَسْتِنارةُ
إذا خَفِيَ للمُرَاشِدِ الصَّبَاحُ ، وبالأِعتِمَالِ في مَرَضاةٍ من صَمَمَ منها الثَّرَى القَوَاحُ ، والصَّفِيحُ
الذي تُرَاثِ سا كِنه العوالمُ المِجاهِدةِ والصَّفَاحِ والجِهادُ الصُّراحِ ، يَعْظُمُ في الصَّدْرِ
الأَنشراحُ ، وَيَعِزُّ المَعْدَى في سَبِيلِ الله والمَراحِ .

وإلى هذا أَجْزَلَ الله مَسَرَّتكم بظهور الدين ، وأَعْتَلَاءِ صُبحهِ المِئينِ ؛ فاننا نَعزِفُكم
أُنسًا فَتَحَ اللهُ عَلينا وعلى إِخوانكم المؤمنين بهذه الثُّغُورِ المنقطعةِ الغُريَّةِ ، الماتَةِ
على الأَمادِ البعيدَةِ بالذِّمِ العُربِيَّةِ ؛ فَتَوْحًا حَوَزَتْ من مملكةِ الكُفْرِ البلادَ ، وَنَفَلَتْ
الطَّارِفَ والثَّلادَ ؛ حَسَبَ ما تُصْهِه مَخاطِبُنا إلى نَبينا الكَريمِ الذي شَرَّفَكم اللهُ بِخِدمةِ
لِحدِّه ، وأَسْتَخْلِفُكم على دارِ هِجْرَتِهِ من بَعْدِهِ ؛ إِذْ لَاحِاجَةٌ إلى التَّكَرُّارِ بعدَ ما شَرِحتُ
به الصَّدُورُ من الأَخْبارِ ، في الإِيرادِ والإِصدارِ ؛ وَوَجَّهْنا صُحْبَتَها من النِّوَاقِيسِ التي
كانت تُشيعُ نِدَاءَ الضَّلالِ ، وتُعارضُ الأَذانَ بِجِلادِ الحِدادِ ، وتُبادِرُ أَمْرَ التَّشالِ

بالإمتثال ؛ ما يكون تذكرة تحنُّ بها القلوبُ إلى هذه الطائفة المسلمة إذا رأوها ، وتنتظرُ قبولَ الدعاءِ لها من الله كُلِّما نظرتُها ، ونَتَصَوَّرُ الأيديَ المجاهدةَ التي جنتها من أفنانِ المستشرقاتِ العاليةِ وآهتَصَرَّتْها إذا أبصرتُها .

وهذا كُلُّهُ لا يتحصَّلُ على التَّمامِ إلا بمشاركةٍ منكم تُسوِّغه ، وإعانةٍ تؤدِّيه وتُبَلِّغه ؛ تُشِيعُ لكم عندَ تعرُّفِها الثناءَ الدائمَ التَّردادَ ، والدعاءَ بحُسنِ المكافأةِ من ربِّ العبادِ ، وسَمِّهمُكم في أمرِ الجهادِ ؛ وأتمَّ تعملون في ذلك بما يناسبُ مثلكم من الشُّرفاءِ الأنجادِ ، واللهُ عزَّ وجلَّ يوالِكم بِنِعْمَةِ الثَّرةِ العِهَادِ ، ويعرِّفكم عوارفَ السَّعادةِ في المبدأِ والمَعَادِ ، ويختمُ لنا ولكم بسعادةِ المَعَادِ ، والسلامُ الكريمُ يَخْصُكم عوداً على بدءٍ ورحمةُ الله تعالى وبركاته .

الضربُ الثالثُ

(أن تُفتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظِ الإمارةِ)

بأن يقال : الإمارةُ التي نَعَمْتُها كذا وكذا إمارةُ محلٍّ أخينا فلان ، ويُدعى له .
ثم يقال : معظَّمُ إمارته ، أو معظَّمُ أُخُوَّتِهِ فلان . سلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته .
أما بعد حمد الله ، ويُؤتى بخطبة ؛ ثم يقال : فإنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ كذا وكذا من موضع كذا ؛ ثم يُخَلَّصُ إلى المقصود بلفظِ وإلى هذا ، ويُؤتى على القَصْدِ إلى آخره ، ويُختمُ بالسلام على نحو ما تقدَّم في غيره من الضروب ، وبذلك يُكْتَبُ إلى الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم . كما كتب أبو الحسن المُرِّيُّ بفاطمة بنت أبي عليٍّ الناصِرِ ابنِ السلطان أبي الحسن المُرِّيِّ بفاطمة ، عندَ ما أرسله والدُه إلى ناحيةٍ من النواحي لِإِمَارَتِها وإِصْلَاحِ حالِها ، مَهَنَّا لَهُ بما أجزاه اللهُ على يَدَيْهِ من الصَّلاحِ ، وهو :

الإمارة التي لها المكارم الراضية، والعزائم الماضية، والجلالة الراقية، والأعمال
الصالحة الباقية، إمارة محلّ أخينا الذي نُعظم مجده السامى الجلال، ونُثني على شيمه
الطاهرة الحلال، ونعتدّ بوده الكريم الأقوال والأعمال، ونُسرب ما يسّنيه الله لعزّه
الفسيح المحال، من عوائد الإيمان والإقبال.

الأمير الأجل، الأعزّ، الأسنى، الأظهر، الأظهر، الأسنى، الأسعد، الأرشد،
الأرضى، المؤيد، الأمضى، الأفضّل، الأكل، أبو على الناصر ابن محلّ أبينا الذى
نُعظمه ونُجلّه، ونوجب له الحقّ الذى هو أهله، السلطان الحليل الكذا أبو الحسن
ابن السلطان المؤيد، المعان المظفر، صاحب الجود الشهير فى الأقطار، والفضيل
المتألق الأنوار، والمآثر التي هى أبهى من محيّا النهار، أمير المسلمين، وناصر الدين،
المجاهد فى سبيل ربّ العالمين، أبى سعيد ابن أمير المسلمين وناصر الدين، قامع
الكافرين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، أبى يوسف بن عبد الحق. أبقاه الله
والسعود إليه مبتدرة مستيقه، والمسرات لديه منتظمة متسقة، وغرر أيامه واضحة
مشرقة، والأهواء على محبته متفقه. معظم إمارته الرفيعة الجانب، القائم من إجلالها
ونشر خلاها بالحقّ الواجب، المثني على مالها من السير الفاضلة المذهب، والأصالة
الرفيعة المناسب، والبسالة الماضية المضارب، والمكارم التي تشهد بها مواقف
الجهاد، وظهور الجياد، وصحائف الكتب وصفائح الجلال، الأمير عبد الله يوسف
ابن أمير المسلمين، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر. سلام كريم، برّ عظيم،
تتأرجح الأرجاء من طيب نفحته، ويُشرق نور الودّ الأصيل على صفحته، يخص
أخوتكم الفاضله، وإمارتكم الحافله، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي شرح بالتوكل عليه صُدُوراً ، و [جعل الوُدَّ في ذاته كَثْرًا مَذْخُورًا] والأعمال التي تَقَرَّبُ إليه نُورًا ؛ والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي بعثه بالحق هادياً وبالرَّعب منصُوراً ، ورفَّع لدَعْوَتِهِ العالِيَّةِ لَوَاءً من عِنايَتِهِ مَنْشُوراً ، وَاخْتَارَهُ لِإِقَامَةِ دِينِ الْحَقِّ وَالْأَرْضِ قَدْ مَلِكْتُ إِفْكَاً وَزُوراً ، حَتَّى بَلَغَ مُلْكُ أُمَّتِهِ مَا كَانَ مِنْهَا مَعْمُوراً .

وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَحْزَابِهِ الَّذِينَ اتَّسَقُوا فِي قِلَائِدِ مِلَّتِهِ الرَّفِيعَةِ شُدُوراً ، وَطَلَعُوا فِي سَمَائِهَا بُدُوراً ، وَبَذَلُوا نُفُوسَهُمُ النَّفِيسَةَ فِي نَصْرِهِ وَإِعْلَاءِ أَمْرِهِ فَكَانَتْ شِفَاعَتُهُ لَهُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً .

وَالدُّعَاءُ لِإِمَارَتِكُمُ الْعَالِيَةِ بِالسَّعْدِ الَّذِي يُصَاحِبُ مِنْهُ رِكَابُهَا مَدَدًا مَوْفُورًا ، وَالتَّوْفِيقَ الَّذِي يُوسِّعُ عَمَلَهَا تُجْحًا وَأَمَلَهَا سُورًا .

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ سَعْدًا مُتَجَدِّدَ الْإِحْكَامِ ، وَصُنْعًا مُشْرِقَ الْقَسَامِ وَافِرَ الْأَقْسَامِ ؛ وَعَرَفَكُمْ مَا عَوَّدَكُمْ مِنْ عَوَافِ الْإِنْعَامِ ، وَعَوَائِدِ النَّصْرِ الْوَاضِحِ الْأَعْلَامِ - [وَلَا زَائِدَ بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، ثُمَّ بَرَكَتِ سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدُ رَسُولُهُ الَّذِي أَوْضَحَ بَرَهَانَهُ ، ثُمَّ بَمَا عِنْدَنَا مِنَ التَّشْيِيعِ فِي مَقَامِ مَحَلِّ أَبِينَا وَالدِّمِّ السُّلْطَانِ الْجَلِيلِ ، أَسْعَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ! وَمَهَّدَ بِهِ (١) أَوْطَانَهُ ! إِلَّا مَا يَرْجَى مِنْ عَوَائِدِ اللَّهِ الْجَمِيلَةِ ، وَمِنْهُ الْجَزِيلَةِ ، وَالْطَّافَةِ الْكَافِيَةِ الْكَفِيلَةِ] وَعِنْدَنَا مِنَ التَّعْظِيمِ لِنِلِكَ الْإِمَارَةِ الرَّفِيعَةِ مَا هُوَ أَشْهَرُ مِنَ الشَّهِيرِ ، وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى التَّفْسِيرِ ؛ فَلَا نَزَالَ نَعْتَدُ لْجَانِبِ أُخُوَّتِهَا بِالْعَتَادِ الْكَبِيرِ ، وَالدُّنْحِ الْخَطِيرِ ، وَنُثْنِي عَلَى مَكَارِمِهَا بِالْقَلَمِ وَاللِّسَانِ وَالضَّمِيرِ . وَإِلَى هَذَا أَيْدِ اللَّهِ إِمَارَتَكُمْ ، وَسَنَى إِرَادَتَكُمْ ، وَأَسْعَدَ إِدَارَتَكُمْ ؛ فَقَدْ عَلِمَ الْغَائِبُ وَالشَّاهِدُ ، وَالصَّادِرُ وَالْوَارِدُ ؛ مَا عِنْدَنَا لَكُمْ مِنَ الْحُبِّ الَّذِي

صَفَتْ مِنْهُ الْمَوَارِدُ ، وَالْوَلَاءِ الَّذِي تَضَوَّعَتْ مِنْ طِيبِهِ الْمَعَاهِدُ ؛ وَإِنَّا تَعَرَّفْنَا
 مَا كَانَ مِنْ قَدُومِكُمُ السَّعِيدِ عَلَى أَحْوَازِ الْمَرِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَفْطَارِ ، وَطُلُوعِكُمْ عَلَيْهَا بِالْعَرَمِ
 الْمَاضِي وَالْحَيْشِ الْجَزَارِ . وَأَنْ مَحَلَّ وَالدَّنَا وَصَلَ اللَّهُ لَهُ عُلُوقُ الْمَقْدَارِ ، قَدَّمَ مِنْكُمْ بَيْنَ
 يَدَيْهِ مُقَدِّمَةُ الْيَمْنِ وَالْإِسْتِيشَارِ ، وَرَأْدَ السَّعَادَةِ الْمَشْرِقَةِ الْأَنْوَارِ ، بِخِلَالِ مَا يَتْلَاحِقُ بِهَا
 رِكَابُهُ الْعَالِي قُدْرُهُ عَلَى الْأَقْدَارِ ؛ وَأَنْ مَحَايِلَ النَّجْحِ لِإِمَارَتِكُمُ الرِّفْعَةِ قَدْ ظَهَرَتْ ، وَأَدِلَّةُ
 الصَّنْعِ الْجَمِيلِ قَدْ بَهَرَتْ ؛ وَمَنْ بَتَلَكَ الْجَهَاتِ ، مِنْ الْقِبَائِلِ الْخَتَلِفَاتِ ، بِالطَّاعَةِ
 قَدْ أَتَدَرَّتْ ؛ وَأَبَاوَامِرِهَا الْإِمَارِيَّةِ قَدْ أَثْمَرَتْ ؛ وَأَنْكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فِي تَسْكِينِ الْأَوْطَانِ
 وَتَهْمِيدِهَا ، وَأَسْتَنْافِ الْعِزَائِمِ وَتَجْدِيدِهَا ، [وإطفاء نار الفتن وإخمادها] وإِعْلَاءِ أَرْكَانِ
 تِلْكَ الْإِيَالَةِ وَرَفْعِ عِمَادِهَا ؛ فَكَتَبْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْكُتَابَ نَهْنِئُكُمْ بِمَا سَنَاهُ اللَّهُ تَجْدِيدَكُمْ الرِّفْعِ ،
 مِنْ حُسْنِ الصَّنِيعِ ؛ وَتَقَرَّرَ مَا عِنْدَنَا مِنَ الْوُدِّ الْكَرِيمِ ، وَالْحُبِّ الصَّامِمِ ، وَنَسْتَفْهِمُ عَنْ
 أَحْوَالِ أَخُوْتِكُمْ لَنَكُونَ مِنْ عِلْمِهَا عَلَى السَّنَنِ الْقَوِيمِ ؛ وَحَقٌّ لَا تَزَالُ الْأَسْبَابُ مُتَّصِلَةً ،
 وَالْمَوَدَّةُ جَدِيدَةً مُقْتَبِلَةً ؛ وَلَوْلَا الْعَوَائِقُ الْمَانِعَةُ ، وَالشُّقَّةُ الْبَعِيدَةُ الشَّاسِعَةُ ، وَالْأَمْوَاجُ الْمُتَرَامِيَةُ
 الْمَتَدَافِعَةُ ؛ لَمْ نَغِبْ الْخَاطِبَةَ ، وَلَوْصَلْنَا الْمَرَاْسَلَةَ وَالْمَكَاتِبَةَ ؛ وَمَجْدُكُمْ يَقْبَلُ الْأَعْذَارَ الصَّحِيحَةَ
 بِمُقْتَضَى كِمَالِهِ ، وَمَعْهُودِ إِفْضَالِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُصْلِحْ بِكُمْ الْأَحْوَالَ ، وَيَسْكُنِ الْأَهْوَالَ ،
 وَيُبَلِّغَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْأَمَالَ . وَغَرَضُنَا أَنْ تَعْرِفُونَا بِمَا لَدَيْكُمْ مِنَ الْمُتَزَيِّدَاتِ ، وَالصَّنَائِعِ
 الْمُتَجَدِّدَاتِ ، وَبِمَا عِنْدَكُمْ مِنْ أَحْوَالِ مَحَلِّ أَبِينَا وَصَلَ اللَّهُ عَوَائِدَ النَّصْرِ لِسُلْطَانِهِ ، وَتَكَفَّلَ
 بِإِعْلَاءِ أَمْرِهِ وَتَهْمِيدِ أَوْطَانِهِ . وَقَدْ كَتَبْنَا إِلَيْهِ صَحْبَةً هَذَا كِتَابًا غَرَضُنَا مِنْ أَخُوْتِكُمْ
 الطَّاهِرَةِ ، أَنْ يَصَلَ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ تَحْتَ عِنَايَتِكُمْ وَوَصَاتِكُمْ ، وَالرَّعَايَةِ الَّتِي تَلِيْقُ
 بِذَاتِكُمْ ؛ وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدُكُمْ وَيَحْرُسُ مَجْدُكُمْ ، وَيَحْفَظُ وِلَاءَكُمْ الْكَرِيمَ وَوُدَّكُمْ ؛
 وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الاسلوب الثانى

(أن تُفْتَحَ المَكَاتِبَةُ بِاسْمِ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ أَوِ المَكْتُوبِ عَنْهُ ، وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ)

الضرب الأول

(أن تُفْتَحَ المَكَاتِبَةُ بِاسْمِ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ تَعْظِيماً لَهُ)

والرسم فيه أن يقال : إلى فلان ، وَيُنْعَتُ بما يليق به ؛ ثم يُؤْتَى بالسَّلام ، ويقال :
أما بعد وَيُؤْتَى بخطبة ، ثم يقال : فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا ، من موضع
كذا ، وَيُتَخَصَّصُ إِلَى المقصود بلفظ « وإلى هذا » وَيُؤْتَى عَلَى المقصود إِلَى آخره
وَيُخْتَمُ بِالسَّلام .

كما كتب أَبُو الخطيب عن سُلْطَانِهِ ابْنِ الأَحمَرِّ إِلَى الأميرِ يَلْبُغَا العُمَرَى الشَّهِيرِ
بِالْخَاصِكِيِّ : أَتَاكَ العَسَاكِرُ بِالدِّيارِ المِصْرِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الأَشْرَفِيَّةِ «شعبان بن حسين» .
إِلَى الأميرِ الْمُؤْتَمَنِ عَلَى أَمْرِ سُلْطَانِ المُسْلِمِينَ ، المُقَدَّدُ بِتدبيره السَّيِّدِ قِلَادَةِ الدِّينِ ،
الْمُنْتَهَى عَلَى رُسُومِ رِبهِ المُقَامَةِ لِسَانُ الحَرَمِ الأَمِينِ ، الأَوَى مِنْ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ
إِلَى رَبْوَةِ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينِ ، المُسْتَعِينِ مِنْ اللَّهِ عَلَى مَا تَحْمَلُهُ وَأُمْلَهُ بِالْقَوَى الْمُعِينِ ؛
سَيْفِ الدَّعْوَةِ ، رُكْنِ الدَّوْلَةِ ، قَوَامِ المُلْكِ ، مُؤَمِّلِ الأُمَّةِ ؛ تَاجِ الخَوَاصِّ ، أَسَدِ
الجِيُوشِ ، كَافِي الكُفَاةِ ؛ زِينِ الأُمَرَاءِ ، عِلْمِ الكُبرَاءِ ؛ عَيْنِ الأَعْيَانِ ، حَسَنَةِ الزَّمَانِ ؛
الأَجَلِّ ، المُرَفَّعِ ، الأَسْنَى ، الكَبِيرِ ، الأَشْهَرِ ، الأَسْمَى ، الحَافِلِ ، الفَاضِلِ ، الكَامِلِ
المُعْظَمِ ، المَوْقَرِّ ، الأميرِ ، الأَوْحَدِ ، « يَلْبُغَا الخَاصِكِيِّ » وَصَلَّ اللَّهُ لَهُ سَعَادَةً تُشْرِقُ
غُرَّتُهَا ، وَصَنَائِعَ تَسِيحُ فَلَا تَسِيحُ دِرَّتُهَا ، وَأَبْقَى تِلْكَ المَثَابَةَ قِلَادَةَ اللَّهِ وَهُوَ دُرَّتُهَا ؛
سَلَامٌ كَرِيمٌ ، طَيِّبٌ عَمِيمٌ ؛ يَخْصُ إِمَارَتَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ الفَضْلَ عَلَى سَعَادَتِهَا أَمَارَهُ ،

وَالْيُسْرَ لَهَا شَارَهُ ، فَيَسَاعِدُ الْفَلَكَ الدَّوَّارَ مَهْمَا أَعْمَلَتْ إِدَارَهُ ، وَتُمَثِّلُ الرُّسُومَ كُلَّهَا
أَشَارَتْ إِشَارَهُ .

أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ بَعْلَمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، مِنْ قَاصِّ وَدَانٍ ، وَإِلَيْهِ تُوجَّهُ
الْوُجُوهُ وَإِنْ آخْتَلَفَتْ السَّيْرُ وَتَبَاعَدَتِ الْبُلْدَانُ ، وَمِنْهُ يُتَمَسَّ الْإِحْسَانُ ، وَبَذَكَرَهُ
يَنْشُرُ الصَّدْرُ وَيَطْمِئُنُّ الْقَلْبُ وَيَمْرُحُ اللِّسَانُ .

وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ ، وَنَبِيِّهِ الصَّادِقِ
الْبَيِّنِ ، الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ .

وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَعْمَامِهِ وَأَحْزَابِهِ ، أَحْلَاسِ الْخَيْلِ ، وَرُهْبَانِ اللَّيْلِ ،
وَأَسْوَدِ الْمَيْدَانِ .

وَالدُّعَاءَ لِإِمَارَتِكُمُ السَّعِيدَةَ بِالْعَزِّ الرَّائِقِ الْخَبَرِ وَالْعِيَانِ ، وَالتَّوْفِيقِ الْوَثِيقِ الْبَيِّنِ ،
فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ حَقًّا مِنْ فَضْلِهِ وَافِرًا ، وَصَنِيعًا عَنْ مُحْيَا السُّرُورِ
سَافِرًا ، وَفِي جَوْاءِ الْإِعْلَامِ بِالنِّعَمِ الْجَسَامِ مُسَافِرًا . مِنْ حَمْرَاءِ غَرْ نَاطَةِ - حَرَسَهَا اللَّهُ -
دَارِ الْمَلِكِ بِالْأَنْدَلُسِ ، دَافِعِ اللَّهِ عَنْ حَوَزَتِهَا كَيْدِ الْعُدَاةِ ، وَأَتَحَفِ نَصْلَهَا بَيَواكَرَ
النَّصْرِ الْمُهْدَاهِ ، وَلَا زَائِدَ إِلَّا الشُّوقُ إِلَى التَّعَارُفِ بِتِلْكَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي أَنْتُمْ
عُنْوَانُ كِتَابِهَا الْمَرْقُومِ ، وَبَيْتُ قَصِيدِهَا الْمَنْظُومِ ، وَالتَّمَنُّاسُ بِرَكَاتِهَا الثَّابِتَةِ الرُّسُومِ ،
وَتَقْرِيرُ الْمُثُولِ فِي سَبِيلِ زِيَارَتِهَا بِالْأُرُوحِ عِنْدَ تَعَدُّرِهِ بِالْجُسُومِ .

وَالِإِلَى هَذَا فَإِنَّا كُنَّا بَيْنَ سَلَفِنَا - تَقَبَّلَ اللَّهُ جِهَادَهُمْ وَقَدَّسَ نَفُوسَهُمْ وَأَمَّنَ مَعَادَهُمْ -
وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ - أَلْقَى اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ظِلَالَهَا ، كَمَا عَزَّاهُمْ
عَدْلُهَا وَإِفْضَالَهَا - مِرَاسِلَةً نِيَمٌ عَرُفَ الْخُلُوصِ مِنْ خِلَالِهَا ، وَتَسَطَّعَ أَنْوَارُ السَّعَادَةِ
مِنْ آفَاقِ كَمَالِهَا ، وَتَتَلَمَّحَ مِنْ أَسْطَارِ طُرُوسِهَا مُحَاسِنُ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ ، الزَّاكِيَةِ الْمَشَاهِدِ ،

وَتُعَرِّبُ عَنْ فَضْلِ الْمَذَاهِبِ وَكَرَمِ الْمَقَاصِدِ، أَشْتَقْنَا إِلَى أَنْ تُجَدِّدَهَا بِحُسْنِ مَنَائِكُمْ،
وَنَصِلَهَا بِمَوَاصِلَةِ جَنَابِكُمْ، وَنَعْتِمَ فِي عَوْدِهَا الْحَمِيدِ مَكَانَكُمْ، وَنَفْضِلُ لَهَا زَمَانَكُمْ بِخَاطِبِنَا
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ فِي هَذَا الْغَرَضِ بِخَاطِبِيَّةِ نَجْمَةٍ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَجِلَّةٍ مِنَ النَّاقدِ الْبَصِيرِ؛
وَتُؤَمِّلُ الْوُصُولَ فِي خِفَارَةِ يَدَيْكُمْ الَّتِي لَهَا الْأَيَادِي الْبَيْضُ، وَالْمَوَارِدُ الَّتِي لَا تَفْضِيضُ، وَمِثْلُكُمْ
مِنْ لَا تَخِيبُ الْمَقَاصِدَ فِي شِمَائِلِهِ، وَلَا تَضْحِي الْمَآمِلُ فِي ظِلِّ نَحَائِلِهِ؛ فَقَدْ أَشْتَهَرَ مِنْ
عَظِيمِ سَيْرَتِكُمْ مَا طَبَّقَ الْآفَاقَ، وَصَحَّبَ الرَّفَاقَ وَأَسْتَلْزَمَ الْإِصْفَاقَ؛ وَهَذِهِ الْبِلَادُ مَبَارَكُهُ،
مَا أَسْلَفَ أَحَدٌ فِيهَا مُشَارَكَهُ، إِلَّا وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَدِينِهِ وَعِيَالِهِ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ
مَنْ وَفَّى لِأَمْرِي بِمِثَالِهِ، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَيَنْفَعُ بِوَسِيلَةِ
النَّبِيِّ الَّذِي نُعَوِّلُ عَلَى شَفَاعَتِهِ؛ وَيُبْقِي تِلْكَ الْأَبْوَابَ مُلْجَأً لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ،
وِظْلًا لِلَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَإِقَامَةً لَشُعَائِرِ الْحَرَمِ الْأَمِينِ؛ وَيَتَوَلَّى إِعَانَةً لِمَارَاتِكُمْ عَلَى
وِظَائِفِ الدِّينِ، وَيَجْعَلُكُمْ مِنْ أَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يُخَصِّمُ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الضرب الثاني

(أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبَةُ بِاسْمِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ، وَهُوَ عَلَى صَنْفَيْنِ)

الصنف الأول

(مَا يُكْتَبُ بِهِ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ)

وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَقَالَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، بِأَلْقَابِهِ وَنَعْوَتِهِ وَنُعُوتِ آبَائِهِ عَلَى
مَا تَقَدَّمَ؛ ثُمَّ يُقَالُ: بِالسَّلَامِ، وَيَقَالُ أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ، وَيُؤْتَى بِخُطْبَةٍ ثُمَّ يَقَالُ
فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ كَذَا؛ ثُمَّ يَقَالُ: وَإِلَى هَذَا فَإِنْ كَذَا وَكَذَا، وَيُؤْتَى
عَلَى الْمَقْصُودِ إِلَى آخِرِهِ، وَيُخْتَمُ بِالْدَّعَاءِ ثُمَّ بِالسَّلَامِ عَلَى نَحْوِ مَا مَرَّ.

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر إلى بعض ملوك الغرب يهتبه بدخول مدينة نجاية في طاعته ماصورته :

من أمير المسلمين عبد الله محمد، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أيد الله أمره، وأعز نصره؛ إلى محل أخينا الذي نصل له أسباب الإعظام والإجلال، ونثنى عليه بما له من كريم الشيم وحيد الخلال، ونسرله ببلوغ الآمال، ونجاح الأعمال، في طاعة ذي الجلال؛ السلطان فلان ابن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصل الله له سعدًا متصل الدوام دائم الاتصال، وصنعا تجلّ وجوهه من ثنایا القبول والإقبال، وعزّا تنقيا ظلاله عن التمين والشمال؛ سلام كريم، برّعميم؛ يخص سلطانكم الأسنى، ويعتمد مقامكم المخصوص بالزيادة والحسن، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الواهب الفاتح، المانع المانع؛ مظهر عنايته بن خاص إليه قصده، وقصر على مآلديه صدره وورده؛ أبدى من تحيا النهار الواضح . الذي وعد من اتقاه حق ثقافته، على السنة سفرة الوحي وثقافته؛ ينجح الخواتم والقوات .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله المبتعث لدرء المفسد ورعى المصالح، وسعادة الغادي والرائح، منقذ الناس يوم القزع الأكبر وقد طاحت بهم أيدي الطوائح، وهاديهم إلى سواء السبيل بأزمة النصائح، ومظفرهم من السعادة الدائمة بأربع البضائع وأسنى المنائح .

والرضا عن آله وأصحابه، وعثرته وأحزابه، الذين خلفوه امتثالاً لأمر الصحائف وإعمالاً للصفايح؛ وكانوا لأمتهم من بعده في الاقتداء بسنته والمحافظة على سنته كالنجوم اللوائح .

والدعاء لسلطانكم الأسمى ، بالسَّعد الذي يَغْنَى بوثاقه سببه ، ووُضُوح مذهبه ،
عن زَجَر البَارِح والسَّانِح ، والعِزِّ البَعِيد المَطَارِح ، السَّامِي المَطَارِح ، والصَّنْع
الجميل الباهر المَلَامِح ؛ ولا زال توفيقُ الله عائدًا على تديركم السَّعيد بالسَّعي الناجح ،
والتَّجَرُّ الرابع .

فإنَّا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من فضله أوفر الأقسام وأوفأها ، وأوردكم من
موارد عنايته أعذب الحام وأصفأها ، كما أسبغ عليكم أثواب الموابب وأصفأها . .
[وأبدى لكم وجوه اللطائف الجميلة وأحفأها] من حمراء غرناطة - حرسها الله -
وفضل الله هامية ديمه ، وعوائد اللطف يصلها فضله وكرمه ، والإسلام بهذا الثغر
الجهادي مرعية ذمه ؛ وجاه النبوة المحمدية يعمل بين إرغام العدو الكافر ، وإهداء
المسررات والبشائر ، سيفه وقلبه . والسرور بما يبلغ من مزيد سعديكم وميضه
خافق علمه ؛ وودكم ثابت في مواقف الخلوص قدمه .

وقد اتصل بنا ما كان من دخول حضرة بحاية حرسها الله في طاعتكم ، وانتظامها
في سلك جماعتكم ؛ وانقطاعها إلى عصمتكم ، وتمسكها بأزمتكم ؛ وعقدكم منها
ومن أختها السابقة الذمام ، الخليفة بمزيد الاهتمام ؛ على عقيلتي الأقطار التي لا يجمع
بينهما إلا ملك همام ، وخليفة إمام ؛ ومن وصحت من سعاداته أحكام ، وشهرت
بعناية الله له أدلة واضحة وأعلام ؛ ومن جمع الله له بين البر المتراكض الخيول ،
والجيش المتدافع السيول ، والحضب الذي تضي مواجده المستنجرة ظهور الخيول ؛
وبين البحر الشهير بنجدة الأسطول ، وإنجاز وعد النصر الممطول ؛ ومرسى السفن
التي تخوض أحشاء البحار ، وتجلب مرافق الأمطار والأقطار ، وتُخَف على الناس
بطرف الأخبار .

بِحَايَةٍ وَمَا بِحَايَةٍ ! دَارُ الْمُلْكِ الْأَصِيلِ الْعَتِيقِ ، وَكَرْسَى الْعِزِّ الْوَشِيقِ ، وَالْعُدَّةِ ،
 إِذَا تَوَقَّعَتِ الشَّدَّةُ ، كَمَا ثَبَتَتْ عَلَى الزَّلْزَالِ ، وَصَابَرَتْ مَوَاقِفَ الزَّلَالِ ، أَمْطَاكُمُ السَّعْدُ
 صَهْوَتَهَا ، وَأَحْلَاكُمُ التَّوْفِيقُ رَبُّوتَهَا ، مِنْ غَيْرِ مُطَاوَلَةٍ حِصَارٍ ، وَلَا أَسْتِنْفَادِ ذِي
 وَسْعٍ وَأَقْتِنَادٍ ، وَلَا تَسْوِيرِ جِدَارٍ ، فَأَصْبَحَتْ دَوْلَتُكُمُ السَّعِيدَةُ نَتْفِيًا [جَنَى الْجَنَّتَيْنِ ،
 وَتَخْتَالُ فِي حُلَّتَيْنِ ، وَتَجْمَعُ بِقُتْيَا ^(١)] السُّيُوفِ الْمَالِكِيَّةِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْأَخْتَيْنِ ، أَوْزَعَكُمُ
 اللَّهُ شُكْرَهَا مِنْ نِعْمَةٍ جَلَّتْ مَوَاهِبُهَا ، وَوَضَحَّتْ مَذَاهِبُهَا ، وَصَنِيعَةٍ بَهَّرَتْ عَجَائِبُهَا .
 وَإِذَا كَانَتْ عَقَائِلُ النَّعْمِ تَحْطُبُ أَكْفَاءَهَا ، وَمَوَارِدُ الْمَنِّ تَعْرِضُ عَلَى الْوَرَادِ
 صَفَاءَهَا ، فَاتَمَّ أَهْلُهَا الَّذِينَ لَكُمْ تُذَنَّرُ ، وَبِمَنْ دُونَكُمْ تَسْخَرُ ، فَإِنَّكُمْ تَمِيزْتُمْ بِخِصَالِ
 الْعَفَافِ وَالْبَسَالَةِ ، وَالْحَسَبِ وَالْجَلَالَةِ ، وَأَصْبَحْتُمْ فِي بَيْتِكُمْ صَدْرًا ، وَفِي هَالَةِ
 قَوْمِكُمْ بَدْرًا ، مَوَاقِفُكُمْ شَهِيرَةٌ ، وَسِيرَتُكُمْ فِي الْفَضْلِ لَا تَفْضُلُهَا سِيرَةٌ ، وَنَحْنُ نَهْنُكُمُ
 بِمَا مَنَحَكُمُ اللَّهُ مِنْ أَنْفَسَاحِ الْإِبَالَةِ ، وَنُمُوِّ الْجَلَالَةِ ، وَالنَّعْمِ الْمُتَمَثِّلَةِ ، بِسُلْطَانِ أَلْفِي
 عِنَانِهِ إِلَى مِثْلِكُمْ قَدْ آخْتَارَهُ لِقِيَادِهِ ، وَأَرَادَ فَسَعِدَ فِي آرْتِيَادِهِ ، وَتَكْفَلُ الْخَزْمُ بِحِفْظِ
 بِلَادِهِ ، وَصَوْنِ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ، وَكَأَنَّ بِهِ قَدْ أَسْتَوْلَى عَلَى أَمَادِهِ ، وَتَطَاوَلَ لِإِرْثِ
 أَجْدَادِهِ . وَلَنَا فِيكُمْ - عِلْمُ اللَّهِ - وَدٌّ [تَأَسَّسَ بِنَاؤُهُ ، وَكَرُمَتْ أُنْبَاؤُهُ ^(١)] وَحُبٌّ وَجِبَ
 بِالْشَّرْعِ إِنْفَادُهُ إِلَيْكُمْ وَإِنْهَاؤُهُ . وَغَرَضُنَا الَّذِي نُؤَيِّرُهُ عَلَى الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ ، وَنَقْدَمُهُ
 بِمَقْتَضَى الْخُلُوصِ الَّذِي زَكَّتْ مِنْهُ الشُّوَاهِدُ ، أَنْ تَتَّصَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْمَخَاطَبَةُ ،
 وَتُعَاقِبَ الْمَوَاصِلَةُ وَالْمُكَاتِبَةُ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَعِينُ عَلَى مَا يَجِبُ لَوْ دَكَمَ مِنْ رِتْرَتِكُمْ
 وَاجِبُهُ ، وَتَوْضِیحُ مَذَاهِبِهِ ، وَاعْتِقَادِ جَمِيلٍ يَتَسَاوَى شَاهِدُهُ وَغَائِبُهُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ
 سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يُخَصِّصُكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الصنف الثاني

(ما يكتب به إلى الرعايا)

والحكم فيه على نحو ما تقدم في الصنف الذي قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .
كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر أيضًا إلى بعض رعاياه بمدينة المرية
بالأندلس ، بالشارة بموت الطاغية ملك قشتالة ببجل الفتح ، ورحيل قومه به إلى
بلادهم ماصورته :

من الأمير عبد الله يوسف ، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن قرَج
ابن نصر أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عصره ؛ إلى أوليائنا في الله تعالى الذين
نُبادر إليهم بالبشائر السافرة الغرر ، ونجلو عليهم وجوه الصنائع الإلهية كريمة الخُبر والخبر ،
ونعلم ما لهم من الوُد الكريم الأثر : القائِد بالمرية ، والقاضى بها ، والفقهاء ، والأشياخ ،
والوزراء والأمرء والكافة والدُّهماء من أهلها ؛ عرفهم الله عوارِف الأداء ، وأوزعهم
شُكر نعمة هذا الفتح الرباني الذي تفتحت له أبواب السماء ، وأُنشِرت معجزاته ميثَ
الرجاء في هذه الأرجاء . سلامٌ كريم ، طيبٌ برِّعميم ؛ تُنشقُّ منه تفحات الفرج ، عاطرة
الأرج ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله فاتح أبواب الأمل بعد استغلاقيها ، ومُتدارِك هذه الأمة المحمدية
بالصنع الذي تجلَّى لها ملء أحداقها ، والرحمة التي مدت على النفوس والأموال ،
والحرُمات والأحوال ، ضافي رواقها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي دَعَوْتُهُ هي العروة الوثقى لمن
تمسك بامتلاقها ، وأقام على ميثاقها ؛ ذى المعجزات التي بهرت العقول بامتلاقها ،

(١) في الريحانة ج ٢ " من وجوه الغنائم الإلهية كريم " الخ .

الذى لم تَرَعُه في الله الشدائد على اشتداد وثاقها ، وفطاعة مَذَاقها ؛ حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من انتظامها وأتساقها .

والرضا عن آله وصحبه ، وعِترته وحِزبه ؛ الفائزين في ميدان الدنيا والدين بخُصْل سِبَاقها . فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سُكْرًا لِنِعِمِّه ، ومعرفةً بمواقع كرمه . من حمراء غَرْنَاطَة - حرسها الله - ولا زائد بفضل الله سبحانه إلّا ما أَمَّنَ الأَرْجَاءَ ومَهَّدَهَا ، وأنشأ معالم الإسلام وجَدَّهَا ، وأسس أركان الدين الحنيف وأقام أودعها ؛ وأتم الأولياء ، الذين نَعْلَمُ منهم خُلُوصَ الأَهْوَاءِ ، ونَتَحَقَّقُ ما عندهم من الخُلُوصِ والصِّفَاءِ . وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذى جرى في ميدان الأمل جَرَى الجُحُوشِ ، ودارت عليه نعمة النخوة والخِيَلَاءِ مع الغُبُوقِ والصُّبُوحِ ؛ حتى طَفَحَ بِسُكْرِ اغْتِرَارِهِ ، ومُحِصَّ المسلمون على يَدَيْهِ بالوقائع التى تُجَاوِزُ منتهى مقداره ؛ وتوجَّهَتْ إلى استئصال الكلمة مطامعُ أَفْكَارِهِ ، ووثقَ بأنَّه ^(١) [يطفئُ] نورَ الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشَدَّ مَحْتَقَ حِصَّارِهِ ، وأدارَ أَشْيَاعَهُ في البرِّ والبحرِ دَوْرَ السَّوَارِ على أسواره ؛ وانتَهَزَ الفُرْصَةَ بانقطاع الأسباب ، وأنْهَامِ الأبواب ، والأُمُورِ التى لم تَجِرْ للمسلمين بالعُدُوتَيْنِ على مألُوفِ الحِسابِ ؛ وتكالبَ التثليثُ على التوحيد ، وساءتِ الظُّنُونُ في هذا القُطْرِ الوحيد ؛ المتقطِّعِ بين الأُمَمِ الكافرة ، والبُحُورِ الزاهرة ، والمَرَامِ البعيد . وإننا صابِرْنَا بالله تَيَّارَ سَيْلِهِ ، وأَسْتَضْنَا بنُورِ التَّوَكُّلِ عليه في جُنْحِ هذا الحَطْبِ ودُجْنَةِ لَيْلِهِ ؛ وولجْنَا إلى مَنْ بِيَدِهِ نَوَاصِيُ الخَلَائِقِ ، وأَعْتَلَقْنَا من حبله المتين بأوثقِ العَلائِقِ ، وفَسَّحْنَا مَجَالَ الأملِ في ذلك المَيْدَانِ المتضَاقِ ؛ وأَخْلَصْنَا لله مُقِيلَ العِثَارِ ، ومَوْلَى أُولَى الأَضْطِرَارِ ، قُلُوبَنَا ، ورفعْنَا إليه أَمْرَنَا ، ووقفْنَا عليه مَطْلُوبَنَا ؛ ولم نُقْصِرْ مع ذلك في إبرام العزم ، واستِشْعَارِ الحَزْمِ ؛ وإمداد

الثُّغُورُ بِأَقْصَى الْإِمْكَانِ ، وَبَعَثَ الْجِيُوشَ إِلَى مَا يَلِينَا مِنْ بِلَادِهِ عَلَى الْأَحْيَانِ ؛
 فَرَحِمَ اللَّهُ أَنْتَقَاعَنَا إِلَى كَرَمِهِ ، حِينَ لَجَأْنَا إِلَى حَرَمِهِ ؛ فَجَلَّابُ فَضْلِهِ سَبْحَانَهُ ظَلَامَ الشَّدَةِ ،
 وَمَدَّ عَلَى الْحَرِيمِ وَالْأَطْفَالِ ظِلَالَ رَحْمَتِهِ الْمُنْتَدَةِ ، وَعَرَفْنَا عَوَارِفَ الصَّنْعِ الَّذِي قَدَّمَ
 بِهِ الْعَهْدُ عَلَى طَوْلِ الْمُدَّةِ ؛ وَرَمَاهُ بِجَيْشٍ مِنْ جِيُوشِ قُدْرَتِهِ أَغْنَى عَنْ إِيحَافِ الرِّكَابِ ،
 وَأَحْتِشَادِ الْأَحْزَابِ ؛ وَأَظْهَرَ فِينَا قُدْرَةَ مُلْكِهِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الْأَسْبَابِ ، وَأَسْتَخْلَصَ
 الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ مِنْ بَيْنِ الظُّفُرِ وَالنَّابِ ؛ فَقَدْ كَانَ سَدَّ الْحِجَازِ بِأَسَاطِيلِهِ ، وَكَأَثَرِ كَلِمَةِ الْحَقِّ
 بِأَبَاطِيلِهِ ؛ وَرَمَى الْخَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِيَّةَ بِسُؤُوبِ شَرِّهِ ، وَصَيَّرَهَا فَرِيسَةً بَيْنَ غُرَبَانِ بَحْرِهِ
 وَعِقْبَانِ بَرِّهِ ؛ فَلَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ مَرَقَّةٌ إِلَّا عَلَى الْخَطَرِ الشَّدِيدِ ،
 وَالْإِفْلَاتِ مِنْ يَدِ الْعُدُوِّ الْعَنِيدِ ، مَعَ تَوْفُرِ الْعِزَائِمِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - عَلَى الْعَمَلِ الْحَمِيدِ ،
 وَالسَّعْيِ فِيمَا يَعُودُ عَلَى الدِّينِ بِالتَّأْيِيدِ .

وَبَيْنَمَا شَفَقْتُنَا عَلَى جَبَلِ الْفَتْحِ تُقِيمُ وَتُقْعِدُ ، وَكَلَبُ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِ يُبْرِقُ وَيُرْعَدُ ،
 وَالْيَأْسُ وَالرَّجَاءُ خَصَمَانِ هَذَا يَقْرُبُ وَهَذَا يُبْعِدُ ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا الْبَشِيرُ بِانْفِرَاجِ
 الْأُزْمَةِ ، وَحُلِّ تِلْكَ الْعَزْمَةِ ؛ وَمَوْتِ شَاةِ تِلْكَ الرُّقْعَةِ ، وَإِبْقَاءِ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الْبُقْعَةِ ؛
 وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ أَخَذَ الطَّاعِيَةَ أَكْمَلَ مَا كَانَ آغْتِرَارًا ، وَأَعْظَمَ أَنْصَارًا ؛ وَزَلْزَلَ أَرْضَ
 عِزِّهِ وَقَدْ أَصَابَتْ قَرَارًا ؛ وَأَنَّ شِهَابَ سَعْدِهِ أَصْبَحَ آفِلًا ، وَعَلِمَ كِبَرَهُ أَنْقَابُ
 سَافِلَا ؛ وَأَنَّ مِنْ يَيْدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَرَقَهُ بِحَتْفِهِ ، وَأَهْلَكَهُ
 بَرَعَمُ أَنْفِهِ ؛ وَأَنَّ مُحِيطَهُ عَاجِلُهَا التَّيَّابُ وَالتَّيَّارُ ، وَعَاشَتْ فِي مَنَازِلِهِ النَّارُ ، وَتَمَخَّصَ
 عَنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ؛ وَأَنَّ حُمَاتَهَا يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيُنَادِي بِشَنَاتِ
 الشَّمْلِ لِسَانُ مُنَادِيهِمْ ؛ وَتَلَاوَحَقَ بَنَا الْفُرْسَانِ مِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ : الْمَعْقِلِ الَّذِي عَلَيْهِ مِنْ
 عِنَايَةِ اللَّهِ رِوَاقٌ مَضْرُوبٌ ، وَالرِّبَاطُ الَّذِي مَنْ حَارَبَهُ فَهُوَ الْمُخْرُوبُ ؛ فَأَخْبَرَتْ بِانْفِرَاجِ
 الضُّيْقِ ، وَارْتِفَاعِ الْعَاقِقِ لَهَا عَنِ الطَّرِيقِ ؛ وَبُرْءِ الدَّاءِ الَّذِي أَشْرَقَ بِالرَّيْقِ . وَأَنَّ

النصارى دمرهم الله جدت في أرتحالها ، وأسرعت بجيفة طاعتها إلى سوء مآلها ،
وسمحت [للسهب^(١)] والنهب والنار بأسلابها وأموالها ؛ فبهزنا هذا الصنع الإلهي الذي مهد
الأقطار بعد رجفانها ، وأنام العيون بعد سهاد أجفانها ؛ وسألنا الله أن يعيننا على شكر
هذه النعمة التي إن سلطت عليها قوى البشر فضحتنا ورجحتنا ، أوقست بالنعيم
فضلتها ؛ ورأينا سر اللطائف الخفية كيف سرياته في الوجود ، وشاهدنا بالعيان
أنوار اللطف الإلهي والحدود ؛ وقلنا إنما هو الفتح الأول شفيع بئان ، وقواعد الدين
الحنيف أيدت من صنع الله ببيان .

اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة ، ومنك الوافره ، أنت ولينا
في الدنيا والآخرة ، وأمرنا للدين فقلدت لبأت المنابر بهذا الخبر ، وجلت
في جماعات المسلمين وجوه هذا الفتح الرائق بالغرب ؛ وعجلنا تعريفكم به ساعة
استجلائه ، وتحقق أنبائه ؛ لتسحبوا له أبواب الجدل ضافيه ، وتردوا به موارد الأمل
صافيه ؛ فإنما هو ستر الله شمل أنفسكم وحريمكم ، وأمانه كفل ظائعكم ومقيمكم ؛
فقرطوا به الأذان [وبنشروا به الإقامة والأذان] وتملأوا بالعيش في ظله ، وواظبوا
حمد الله ولي الحمد وأهله ؛ وأنشروا فوق أعواد المنابر من خطابه راية ميمونة
الطائر ، وأجعلوا هذه الإشارة سجلا في فرقان البشائر ؛ فشكر الله سبحانه يستدعي
المزيد من نعمه ، ويضمن اتصال كرمه ؛ وعزفوا بذلك من يليكم من الرعية لياخذ
مثل أخذكم ، ويلاحظ هذا الأمر بمنزل الخطم ؛ لتحقيق عليكم أن تسيّدوا بهذا
الخبر في الحاضر والباد ، وتجعلوا يوم عاشوراء الذي تجلّى فيه هذا الصنع ثالث
الأعياد ؛ والله سبحانه يجعله لاسرات عنوانا ، ويطلع علينا وعليكم وجوه صنعه غرا
حسانا ؛ والسلام الكريم يخضعكم ورحمة الله وبركاته .

الأسلوب الثالث

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ «أما بعد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعد حمد الله ، أو أما بعدُ فالحمدُ لله ، ويُؤتى بخطبة .
ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ؛ ثم يُتَخَلَّصُ
إلى المقصود ويُؤتى عليه إلى آخره ، ويُخْتَمَ بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحرر من الأندلس .

(١)
أما بعد حمد الله مُحَسَّنَ الْعَوَاقِبِ ، وَمُحَمَّدَ الْمَنَاقِبِ ؛ وَمُعَلَّى الْمَرَاقِي فِي دَرَجٍ عَلَيْهِ
الْمَرَاقِبِ ، وَمَسَخَّرَ النِّجْمَ الثَّاقِبِ ، فِي الْغَسَقِ الْوَاقِبِ ، وَالْكَفِيلَ بِالْحُسْنَى لِلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ
الْمُرَاقِبِ ، نَاسِخَ التَّمْهِيصِ ، بِالْعَنَايَةِ وَالتَّخْصِيسِ ، لِتَظْهَرُ حِكْمَةُ الْمُثِيبِ وَالْمُعَاقِبِ .
وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْمَاسِحِ الْحَاشِرِ الْعَاقِبِ ،
ذِي الْقَدْرِ الْمُسَامِي لِلزُّهْرِ الْمُصَاقِبِ .

والرضا عن آله الذين كانوا في سماء ملته لهداية أمته كالشهب الثواقب ؛
فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم تَوَالِيَ الْمَوَاهِبِ ، وَوُضُوحَ الْمَذَاهِبِ ؛ وَوُقُوفَ
الدَّهْرِ لَدَيْكُمْ مَوْقِفَ الثَّابِتِ مِنَ الْقَدَحِ النَّائِبِ ؛ وَوَالِيَ لَدَيْكُمْ مُفَاتِحَةَ الْكُتُبِ الْمَهْنَةِ
بِقُتُوحِ الْكُتَّابِ - مِنْ حِمَاءِ غِرْنَاطَةِ - حَرَمِهَا اللَّهُ - وَفَضْلُ اللَّهِ بِتَعَرُّفِ صُنْعِهِ لَكُمْ
هَامِي السَّحَابِ ، وَكَفِيلُ بَيْتِ الرِّغَائِبِ ؛ وَالسُّرُورُ بِمَا سَنَاهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ آسْتِقَامَةِ
أَحْوَالِكُمْ شَأْنُ الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ ، وَالرَّائِحِ وَالْآتِبِ .

والحمد لله على ماتوالي من الألفاظ والعجائب . وقد وصل كتابكم الذي أكد السرور
وأصله ، وأجمل مقتضى البشرى وفصله ، ونظم خبر الفتح ووصله ؛ وراش سهم

(١) في الريحانة في "درج عنايته والمراقب" .

السَّعَادَةُ وَالسَّادَاتُ، وَالْعَنَاءُ وَالْإِمْدَادُ، وَنَصَلَهُ، وَأَحْرَزَ حَظَّ السَّعَادَةِ وَحَصَلَهُ، تَعْرِفُونَ
مَا أَتَاكُمْ لَكُمْ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، وَالْوَلِيُّ النَّصِيرُ، مِنَ الصَّنْعِ الَّذِي آتَسَّقَ نِظَامُهُ، وَالنَّصِيرُ
الَّذِي سُنَّتْ فِي أَمِّ الْكِتَابِ أَحْكَامُهُ، وَالْعَزِيزُ الَّذِي خَفَقَتْ أَعْلَامُهُ، وَالتَّوْفِيقُ الَّذِي
قَرَّطَسَتْ الْغَرَضَ سِهَامُهُ، وَأَنْتُمْ مَنْ بَعْدَ الْكَائِنَةِ الَّتِي رَاشَ لَطْفُ اللَّهِ بِهَا وَجَبَرُ،
وَأَحْسَنَ الْخَيْرِ وَأَدَالَ الْخَبَرَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَى لِمَنْ صَبَرَ، جَهَزْتُمْ الْجِيُوشَ الْمُخْتَارَةَ،
وَالْعَسَاكِرَ الْجَرَّارَةَ، يَقُودُهَا الْخُلَصَانُ مِنَ الْوُزَرَاءِ، وَتَتَقَدَّمُ رَأْيَتَهَا مِيَامِنُ الْآرَاءِ، فَكُتِبَ
اللَّهُ ثَبَاتُ أَقْدَامِهَا، وَتَوَلَّى نَصْرَ أَعْلَامِهَا، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ حَمَى وَطِيسُ النَّزَالِ، وَرَجَفَتْ
الْأَرْضُ لَهْوِ الزَّلْزَالِ، وَتُعَوِّطُ كُتُوشُ الْأَجَالِ، فِي ضَنْكِ الْمَجَالِ، وَدَجَا الْقَتَامِ،
وَتُوهَّمُ مَعَ فَضْلِ اللَّهِ الْإِعْتِنَامِ، وَعَبَسَ الْوَجْهَ الْعَبَّاسُ وَصَحَّكَ النَّصْلُ الْبَسَّامُ، وَأُورِدَ
الْخَيْلَ مَوَارِدَ الطَّعَانِ الْإِقْدَامِ، فَكَانَ لِحَزْبِكُمُ الظُّهُورُ الَّذِي حَكَّمَ الْمَهَنْدَةَ فِي الرَّقَابِ،
وَالشُّمَرِ الطَّوَالَ فِي الثَّغْرِ، وَبَشَّرَتْ بَرْوِيَّةُ هَلَالَ الْفَتْحِ عُمُيُونَ الْإِرْتِقَابِ،
وَحَطَّ عَنْ وَجْهِ الصَّنْعِ الْجَمِيلِ مَارَانٌ مِنَ النَّقَابِ، وَأَنْ بَغَى عَلَيْكُمْ حَسَبَ مَا قَرَّرْتُمْ،
وَعَلَى نَحْوِ مَا أَجَلَّمْتُمْ وَقَسَّرْتُمْ، مِنْ شِيُوخِ الْغَرْبِ الْمُجَلِّهِ، وَوُجُوهِ الْخِدْمِ الْمُسْتِمِيَةِ إِلَى
حَسَنِ الْعَهْدِ الْمُنْتَسِبَةِ، تَحَصَّلَ فِي حُكْمِ اسْتِرْقَاقِكُمْ، وَتَحْتَ شِدَّةِ وَثَاقِكُمْ، وَرَبَّمَا
أَسْفَرَ الْمَكْرُوهَ عَنِ الْمَحْبُوبِ، وَأَنْجَلَى الْمَرْهُوبَ عَنِ الْمَرْغُوبِ، وَاللَّهُ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ،
وَشَيْتَكُمْ فِي آتِلَافِ النَّافِرِ، وَالْأَخْذِ مِنْ فَضْلِ الْعَفْوِ بِالْحِطِّ الْوَافِرِ، كَفِيلَ لَكُمْ بِالصَّنْعِ
السَّافِرِ، وَاللَّهُ يَجْلِسُكُمْ عَلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ، وَيَخَيِّرُكُمْ فِيمَا قَضَاهُ،

فُسِّرْنَا بِمَا آتَصَلَ لَكُمْ مِنَ الصَّنْعِ وَأَطَّرَدَ، وَرَحَّبْنَا بِهَذَا الْوَارِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي وَرَدَ،
وَشَكَرْنَا فَضْلَكُمْ فِي التَّعْرِيفِ بِخَبَرِ الْمُوْدُودِ، وَالشَّرْحِ لِمَقَامِهِ الْمَحْمُودِ، وَكُتِبْنَا نَهْشَكُمْ بِهِ
هَنَاءَ مَشْفُوعَا، وَبِالدَّعَاءِ لَكُمْ مَتَبُوعَا، وَاللَّهُ يُطْلَعُ مِنْ تَوَالِي مَسَرَّتِكُمْ عَلَى مَا يَسُطُّ

الآمال، وَيُنَجِّحُ الْأَعْمَالُ ؛ وَيَفْسَحُ فِي السَّعْدِ الْمَجَالُ . وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنْ وُدِّكُمْ أَعْظَمُ
 مِنْ أَسْتِيفَائِهِ بِالْمَقَالِ ، أَوْ نَهْوِضِ الْيَرَّاعِ بِوُظَائِفِهِ الْبَقَالِ ؛ يَعْلَمُ ذَلِكَ عَالِمُ الْخَفِيَّاتِ ،
 وَالْمَجَازِي بِالنِّيَّاتِ ؛ سُبْحَانَهُ . وَاللَّهُ يَصِلُ سَعْدُكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدُكُمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ
 وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الطَّرْفُ الثَّانِي عَشَرَ

(فِي الْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنْ وُزَرَاءِ الْخُلَفَاءِ الْمُنَفِّذِينَ أُمُورَ الْخِلَافَةِ
 الْإِلَاحِيِّينَ بِشَأْنِ الْمُلُوكِ ، وَفِيهِ جَمَلَتَانِ)

الْجُمْلَةُ الْأُولَى

(فِي الْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنْ وُزَرَاءِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادَ
 وَوُزَرَاءِ مُلُوكِهَا يَوْمَئِذٍ)

أَمَّا وُزَرَاءُ إِقْطَاعَاتِهَا ، فَقَدْ ذَكَرَ أَبُو جَعْفَرِ النَّحَّاسُ فِي "صِنَاعَةِ الْكُتَابِ" أَنَّ الْمَكْتَابَةَ
 مِنَ الْوَزِيرِ إِلَى الْخَلِيفَةِ فِي زَمَانِهِ كَانَتْ : « أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعَزَّهُ وَأَيَّدَهُ
 وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَدَامَ كِرَامَتَهُ لَهُ » .

قَالَ ابْنُ حَاجِبِ النِّعْمَانِ فِي "ذَخِيرَةِ الْكُتَابِ" : وَإِنْ كَانَتْ الْمَكْتَابَةُ مِنَ الْوَزِيرِ
 إِلَى مَنْ دُونَهُ فِدَاعَاؤُهُ لَهُ : « أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ وَأَدَامَ تَأْيِيدَكَ وَتَمْهِيدَكَ وَكَرَامَتَكَ » .
 وَدُونَهُ « أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ وَأَدَامَ عِزَّكَ وَحِرَاسَتَكَ » . قَالَ : وَعَلَى مَقْدَارِ الْمَكَاتِبِ
 يَكُونُ الدُّعَاءُ . وَأَقْسَامُهُ كَثِيرَةٌ . ثُمَّ ذَكَرَ الْأَدْعِيَةَ الْعَامَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى التَّرْتِيبِ ، فَقَالَ :
 إِنْ أَعْلَاهَا يَوْمَئِذٍ « أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ وَأَدَامَ تَمْكِينَهُ وَرَفَعْتَهُ وَبَسَطْتَهُ وَعُلُوَّهُ وَسُمُوَّهُ » ،
 وَكَتَبَتْ أَعْدَاءَهُ وَحَسَدَتَهُ . وَدُونَهُ « أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ تَمْكِينَهُ وَارْتِقَاءَهُ ، وَرَفَعْتَهُ

وسناه ، وتمهيد وكتب أعداءه . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام تأييده ونُجَاه وكتب أعداءه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام تأييده وحرس حَوْبَاه ^(١) » . ودونه « أطل الله بقاءه ، وأدام تأييده ونُجَاه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام نِجَاه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام عِزَّه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام توفيقه وتسديده » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام سدادَه وإرشاده » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام حراسته » . ودونه « أدام الله تأييده وتمهيدَه » . ودونه « أدام الله توفيقه وتسديده » . ودونه « أدام الله عِزَّه وسناه » . ودونه « أدام الله عِزَّه » . ودونه « أدام الله حراسته » . ودونه « أدام الله كرامته » . ودونه « أدام الله سلامته » . ودونه « أدام الله رعايته » . ودونه « أدام الله كفايته » . ودونه « أبقاه الله » . ودونه « حَفِظَه الله » ودونه « أَعَزَّه الله » . ودونه « أَيْدَه الله » . ودونه « حَرَسَه الله » . ودونه « أَكْرَمَه الله » ودونه « وَفَّقَه الله » . ودونه « سَلَّمَه الله » . ودونه « رَعَاه الله » . ودونه « عَافَاه الله » .

ثم المكاتبات الصادرة عنهم على أسلوبيين :

الأسلوب الأول

(أن تُفتَح المكاتب بلفظ «كَلْبِي»)

والرسم فيه أن يقال كَلْبِي - أطل الله بقاء سيدي ، أوبقاء مولانا - والأمر على كذا وكذا ، ومولانا أمير المؤمنين ، أو الجانب الأشرَف ونحو ذلك على حال كذا ؛ ثم يتخلص إلى المقصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويُحْتَم بقوله ورأى حضرة سيدنا أعلی .

(١) في القاموس الحوباء النفس .

كما كتب بعض الكُتَّاب عن الوزير قوام الدين بن صدقة إلى بعض وزراء ملوك زمانه في معنى أمير مكة المشرفة ، وما كان بينه وبين أمير الحاج في بعض السنين ما صورته :

كتابي - أطال الله بقاء حضرة سيدنا - وموَاهِبُ الله سبحانه في أمر مولانا أمير المؤمنين جاريةً على الإرادة ، مقابلةً بالشكر المؤذن لها بالدوام والزيادة ؛ والحمد لله رب العالمين . وقد نتابعت المكاتبات في أمر النوبة المكيّة نتابعا علمه السامي به مُحِيط ، والعذر في الإيجار بها مع إنعام النظر بسببها مبسوط ؛ وبعد ما صدر آثفا في المعنى المذكور وصل كتاب زعيم مكة بما نفذ على جهته يُعلم منه ومما لا ريب أنه أصدره إلى الديوان العالى السلطاني - أعلاه الله - حقائق الأحوال بغير شك : أنه قد أتضح تفريط من فرط في هذه النوبة وعجل ، وتحقيق المثل السائر « رَبِّ وَائْتِ نَجْل » وأسباب ثمرة الهوى الذى مازال يجحُّ براكه ، ويُريه سوء عواقبه ؛ وعلم أنه لم يُخطِ فيما شرع فيه ، واستمرت على الخطأ وأحضره ومبادئه ، إلا بوعد أخلف ، ومالٍ أتلّف ؛ وخطرٍ أرْتِكِب ، وصواب تُتَكَب ؛ وحزم أُضِيع ، وهوى أُطِيع ؛ حتى كان قصاره دَنَعَ الأئمة عنه ، فإنه أوصل التحجيج إلى مقصودهم وأعادهم ، وأحسن التواصّل حتى أدركوا من أداء الفريضة مُرادهم ؛ وهل أعترض دُونَ هذا الأمر مانع ، أو كان عنه دافع ؟ لولا ما صورته من الأسباب التى أفسد بها الأمور ، وأوغر بمكائنها الصدور ؛ وكفل بعد ما قرره من ذلك ومهّده ؛ ماعكسه سَفَهُ الرأى عليه ، وأبعده العجز عن الوصول إليه ؛ وأى عذر في هذا المقام يُستَمع ؟ أم أى لائمة عنه تتدفع ؟ وقد جرت الحال على ما علم ، وتحدث بانخراق حجاب الهيبة كل لسانٍ ناطقٍ وقم ؛ ووقع الاتفاق من كافة الحاج على أن تَمسك نائب مكة بطلب الرضا ، وتكفيل خصمه باستدراك ما تلّف من التفريط في معاشه ومضى ؛

ونظره في العاقبة التي يَنْظُرُ فيها ذُوو الألباب ، وعمله بما أُصدره الديوانُ العزيزُ من
مكاتبةٍ أُمِرَ فيها بالطاعة وخِطَابٍ ، هو الذي لَأَمَ النوبةَ وشعبها ، وسَهَّلَ عسيرها
ومستضعفها ؛ ولو أَفْتَقَرْتُ إلى سَعْيِ أميرِ الحاجِّ واجتهاده ، وإبراقه بعسكره وإرعاده ؛
لكان الحجُّ ممتنعاً والخطرُ العظيمُ متوقعاً ؛ ولم يحصلُ الوَفْدُ إلا على التغيرِ بالنفوسِ ،
والجود منها بكل مَضْنُونٍ به مَنفُوسٍ ؛ ثم عَرَبُ الطريق الذي ما زال أميرُ الحاجِّ
في حقِّهم خاطباً ، وإلا كرامهم بالقولِ المتكرِّرِ طالباً ؛ وجاعلاً ماله على يتأخَّرُ من رسم
أحدهم من دَوَاعِي الخطر في سلوك [الطريق] المُرْدِيهِ ، ومُوجِبَاتِ الفَسَادِ
في المَنَاهِلِ والأودِيهِ ، يتلو من النَّهْبِ والاجْتِياعِ ، والأذى العائد على فاعله بالاعتِرافِ
العظيمِ الوزرِ والاجترارِ ، بما يُؤْلَمُ شجاعةُ القلوبِ ويحرِّقُها ، ويُنْكِي العيونَ ويؤرِّقُها ؛
ولقد آتتهى أن العسكرَ المنقَذَ أمامه كان يَتَنَقَّلُ في هِضَابِ البرِّيَّةِ وغيظانها ، وَيُنْقَبُ
عن منازل العرب وأوطانها ؛ فيستقرى أحياءهم حياً خفياً ، ويتخلَّلُ الفِجَاجَ فجأً فججاً ؛
فاذا شارفوا قبيلةً منهم طلب النجاةَ منهم بالحُشاشاتِ رجالها ، وأسلمت إليهم نسائها
وأطفالها وأموالها ؛ فيتحرَّكون في ذلك تحكُّمٍ من أَسْتَحَلَّ موقِفَه في إباحة محارِمِ الله
ومُقامه ، وأمن مكره الحائِثِ بالظالمين وأنتقامه ؛ ويستديحون حريم كلِّ برىء غافلٍ لم
يُعارِفْ ذنباً ، وطائع لا يَسْتَحِقُّ غارةً ولا نهباً ؛ فأين كان [من] النظر عند هذا الفعل
في حِفْظِ عَرَبِ الطريق ؟ وكيف عَزُبَ عنه في هذا الرأى منهُجُ التوفيق ؟ وهل
تُصَوِّرُ الثَّقةُ بكل قبائل العرب عن إفساد الآبارِ والمَصانِعِ ؟ والعبَثُ بكل مستطاعٍ
في المَنَاهِلِ والمَشَارِعِ ؛ خاصَّةً إذا علموا أن الذي ظلمهم ، وأباح حُرْمَهم ؛ هو السالكُ
لِلطريقِ آتِفاً ، والمتمكِّنُ فيهم من مُعاودة الأذى الذي أضْحَى كلُّ به عارفاً ، وأستدراكُ
الفارِطِ في هذا الأمرِ المهِمِّ متعين ، ووجه الرأى فيه واضحٌ متبيِّنٌ ؛ والإشارة في كتاب
زعيم مكة ، إلى ما جرى من المعاهدةِ وأستقرَّت القاعدةُ عليه [من] إعادة ارتفاعه المأخوذِ

ورسومِهِ على التمام والكمال إليه ، أدلُّ الأدلَّة على بُعد النوبة من الالتئام ، ودخول
 الخلل عليها وأنحلال النِّظام ؛ وتعدُّر الحجِّ في المستقبل . على أن مَنْ أفسدها ، لم
 يتأمل لنفسه طريق الصِّدَر حين أوردَها ؛ والألمعية السامية المعزية حرس الله عزَّها
 اللامحة بديتها العواقب ، المستشفقة سرَّائها بالرأى الثاقب ؛ أهدى إلى تديرها بما
 يستدرك الفارط ، ويتلافى غلط الغالط ؛ ويعيد الأحوال إلى جدِّد الصلاح وسدِّه ،
 ويُجرِّها على أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنه ؛ وما أولاه بالتقديم في هذا المهِّم الذي
 لا أحق منه بالأهتمام ، والحدِّ الصادق التام ؛ بما تطمئنُّ به النفوس إلى صلاحه
 وانتظامه ، وارتفاع كلِّ مخشى من الخلل الداخلي عليه وأنحساره ؛ والإعلام في الجواب
 بما يقع السكون إلى معرفته ، ويحصل الأُنس والشكر في مقابلته ؛ ورأى حضرة
 سيدنا أعلیٰ إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثاني

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ الإصدار)

مثل أن يقال : أُصِدِّرت هذه المكاتبة ، أو هذه الجملة ، والأمر على كذا وكذا ،
 بعد أن يدعى للمكتوب إليه بعد لفظ الإصدار ؛ ثم يتخصَّص إلى المقصود بما يليق
 بالمقام ، ويؤتى على القصد إلى آخره ، ويختم بقوله : ورأى حضرة سيدنا أعلیٰ .
 كما كتبت عن الوزير قوام الدين بن صدقة أيضا إلى ملك سمرقند جواباً عن كتاب
 وصل منه إليه :

(١) أُصِدِّرت هذه الجملة - أطال الله بقاء حضرة مولانا - ومواهب الله سبحانه
 في الجناب الأشرف - لازلَّت مطالعُ سعوده مُنيره ، وأعوادُ علائه مُورقةً

نَظِيرِهِ - أَهْلَةُ الرُّبُوع ، عَذْبَةُ الْيَنْبُوع ، قَارَةٌ لَا يَطْعُنُ رُكْبَهَا ، دَائِرَةٌ لَا يَعْزُ حَلْبَهَا ،
والحمد لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوه الصادر على يد الشيخ الأجل العالم أبي الحسن بن علك
ووقفت عليه وعرفت خَوَاه ، وتضاعف الشكر لله سبحانه بما حَوَاه ؛ من أطْرَادِ
الأمورِ وأتساقها ، وطلوع شمس النُّجُج في سماء مَبَاغِيهِ وإشراقها ؛ وأحدث آتِهَا جَا
بوروده متوَفَّرًا ، وآغْبَاطًا بما أولاه جَلَّتْ آلاؤُهُ من صنعه الذي أصبح ذَنْبُ الْيَأْمِ
معه مَغْتَفَرًا ؛ وعِرِضَتْ خِدْمَتُهُ الْمُقْتَرَنَةُ بِهِ عَلَى مَجَالِسِ الْعَرَضِ الشَّرِيفَةِ قَدَسَهَا اللَّهُ
مَشْفُوعَةً بِذِكْرِ مَا لَبِيتَهُ الْكَرِيمِ وَسَلَفِهِ الزَّاكِي الْأَرْوَمَةِ مِنَ الْمَثَرِ الَّتِي أُخْضِيَ بِهَا
فِي الْفَخْرِ عِلْمًا ، وَعَلَى نَاصِيَةِ الْمَجْدِ مَحْتَوِيًّا مُحْتَكَمًا ؛ فِي ضَمْنِ إِيْضَاحِ الْحَاسَنِ الَّتِي أَصْبَحَ
أَيَّدَ اللَّهُ سَمُوهُ بِهَا مِنْفَرِدًا ، وَلِنِجَادِ الْحَامِدِ بِحَسَبِهَا مَقْلَدًا ؛ وَالْمَوَاقِفِ فِي الطَّاعَةِ الْإِمَامِيَّةِ
الَّتِي أَصْبَحَتْ عُرَّةً فِي جِهَةِ الزَّمَانِ ، وَلَمْ يَسَعْ فِي مِثْلِهَا لِغَيْرِهِ قَدَمَانٌ ؛ وَأَتَتْهُ فِي تَمَكِينِ
الْقَوَاعِدِ وَتَوَطُّيْدِهَا ، وَتَأْكِيدِ الْأَحْوَالِ وَتَهْيِيدِهَا ؛ وَالتَّجَرُّدِ فِي تَحْصِيلِ الْأَرْبِ ،
وَتَيْسِيرِ الْمَطْلَبِ ؛ إِلَى مَا يُوجِبُهُ الْوُدُّ الْمُخَصَّفُ الْأَمْرَاسَ ، وَالْمَصَافَاةُ الْخَالِصَةُ مِنْ
الشَّوَابِ وَالْأَدْنَسِ ؛ فَانْتَسَتْ فِي مَقَابِلَةِ ذَلِكَ مِنَ الْإِنْتِفَاتِ إِلَى مَا أوردته مَمَّا يَبِينُ عَنْ
لُطْفِ مَكَاتِبَتِهِ بِالْمَوْقِفِ الْأَشْرَفِ وَيُعْرَبُ ، وَيَصْفُو مَوْرِدُ الْفَخَارِ بِمِثْلِهِ وَيَعْدُبُ ؛
وَجَدَّدَ مِنَ التَّشْرِيفِ وَالزِّيَادَةِ فِيهِ مَا يُؤَوِّفِي عَلَى الَّذِي تَقْدَمُهُ قَدْرًا ، وَيَجِلُّ طَوْقُهُ عَنْ
أَنْ يَرْضَى عَمْرًا ؛ وَشَفَعَ ذَلِكَ بِتَنْفِيزِ التَّشْرِيفَاتِ لَوْلَاهُ أَيَّدَ اللَّهُ عُلُوَّهُ وَالْمُطْغَفِينَ
بِحَضْرَتِهِ ، وَاللَّاذِينَ بِحَوْزَتِهِ ؛ وَابْتِدَاءَهُمُ بِالْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ ، وَالتَّكْرِمَةِ الْمُؤَوِّفَةِ عَلَى
الْمَرَامِ ؛ إِكْبَارًا لِشَانِهِ ، وَإِبَانَةً عَنْ حِلَّةٍ مِنَ الْآرَاءِ الشَّرِيفَةِ وَمَكَانِهِ ؛ وَإِثَارًا لِإِعْظَامِ
أَمْرِهِ ، وَإِعْلَاءِ قَدْرِهِ ؛ لِيَعْلَمَ - أَيَّدَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - مَكَانَ التَّجَرُّدِ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، وَصَدَّقَ

السعي الذي أَفْتَرَتْ تُغَوِّره عن نُجْحِ الآمال ؛ وأرجو أن يصادِفَ حَسَنُ المَقَامِ في ذلك عنده مَوْقِعُهُ ، وَيَلْقَى لديه اعْتِرَافًا يُوَافِقُ مَرَّاهَ مَسْمَعِهِ .

فأما الإشارةُ إلى المشار إليه في التوزع لتلك الهَنَاتِ الجارية ، التي مازالت الأيامُ بمثلها جَائِيَةً ؛ والاستبشارِ بزوال ما عَرَضَ واضْمَحَلَّه ، وعودِ الرأى الأشرفِ إلى أكلِ أحواله ؛ وقد عَرَفَها بِزَيْدِ الاعتداد والشكر قائلُها ، ولم يكن الذي جرى مما يُسَعِّبُ فِكْرًا ، أو يتوزع سِرًّا ؛ فإنَّ الاعتداد الأشرف كان بحمد الله محفوظًا ، والاجتهاد في الخِدْمَةِ بعين الاعتراف والرضا ملحوظًا ؛ لم يُحْلَهِ حَالٌ متجدِّده ، ولا رَتَعَتِ الحوادثُ موره ؛ وما زالت تُغورُ الأيامُ في كل وقت عن الزيادة باسمه ، وتُحِبُّهُ بِجُحِّ اشتطاط الآمالِ ساحمه ؛ والمندوبُ لتحملِ المشال وما يَقْتَرِنُ به من التشريفِ فلان ، وهو من أعيان العلماء ، وَمَنْ لَهُ في مِيدَانِ السبقِ شَأوُ القُرْناء ؛ وله في الدارِ العزيزة مَجْدُهَا اللهُ الخِدْمَةُ الوافيه ، والمكانةُ الوافره ؛ وما زالت مَذَاهِبُهُ في خِدْمَةِ حَمِيدِهِ ، ومقاصدُهُ على تَقَلُّبِ الحالاتِ مَرَضِيَّةٌ سديدية ؛ وجديرٌ بتلك الأُلَمِيَّةِ الثاقبة أن تتلقى ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النعمَ المسداةَ إليه بالشكر الماطرِ الأنواء ؛ وتُوقِظَ ناظرَ أَهْتَامِهِ للنموض بأعباء الخِدْمَةِ الإمامية ، وحيازةِ المَرَاضِيِ المَكْرَمَةِ النبويه ؛ وتُهمِّهِ عَزِيمَتُهَا فيما يَكُونُ بالإحجامِ الأشرفِ مُحْظِيًا ، ولأمثال هذا العُرفِ المصنوعِ مُسْتَدْعِيًا ؛ ولرأى حَضْرَةَ سيدنا في ذلك علُوُّ رَأْيِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالى .

الجملة الثانية

(في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر علي بن خَلَفٍ من كُتَّابِ دولتهم في كتابه ”موادَّ البيان“ أنه إذا كانت المكتبةُ من الوزير إلى مَنْ دونه ، تكون بغير تصدير ، إلا أن الخطاب فيها يجب أن يُنْثَى على أقدار المخاطبين في مراتبهم في الدولة ، ولم يزد على ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوب واحد: وهو أن يفتتح الكتاب بلفظ «كأننا والأمر على كذا» ويتعرض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة، ثم يتخلص إلى المقصود بما يقتضيه الحال، ويؤتى عليه إلى آخره، ويختم بالدعاء.

كما كتب القاضى الفاضل عن بعض وزراء العاضد: آخر خلفائهم إلى بعض الملوك ماصورته:

كأننا - أطال الله بقاء الملك - عن مودة ظاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، ضافية جلباب الشباب، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها، ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها، ومساعي مساعد لا ينقص معروفها ولا ينفض مسوفا، وسعادة بالخلافة التى علق إليه أمرها وأوضح سرها، وملا سرائرها وسريها، وأطلع شمسها وقمرها. بولانا وسيدنا أمير المؤمنين نوالى ميامنها، وتلا لأحاسنها، وتشرف درجاتها، وتضاعف سعادتها، والكلمة قائمة على أصولها، وأمور الخلق جارية على ما هوها، ونظام الإسلام بسياستها لا يهوى، وسياقة الدوام فى سعادتها لا تنهى، والله الموزع شكر هذه المنن، المسئول فى الإنهاض لما نهضت فيه النية وقصرت عنه المنن، ولم نزل - أدام الله إقبال الملك المعظم - معظمين لأمره، عارفين ببل قدره وجليل نخره، مشيدين بجمل ذكركه وجزيل نصره، معيدين لما تنهذى الألسن من مستطاب نشره، قارئين من صفحات الأيام ما أمدّها به من بشره، غير مستيمين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره، مؤردين مما هو يئله من بارع ضرائبه بالمقامات الشريفة من آثار سلفه وماثرهم، وماثور مكارمهم ومفاحرهم، وأستناد المكرّمات إلى أولهم وآخرهم، ومشهور ذبهم عن الملة، ودفاعهم عن أهل القبله، وسدادهم فى الأمور، وسدادهم الثغور، وسيادتهم الجمهور، وأستقلالهم بالمشقات المتقدمة، وإخمادهم نيران الخطوب المضطرمه، وكفهم سيول السيوف العرمة، ومواليتهم أمور الدولة

العلوية التي اشتهر بها منهم الأكابر، وورثها كابر عن كابر، وحافظوا منها على سيرة معروف لا ينسخ، وعقد صفاء لا يفسخ، وسريرة صدق تستقر في الضمائر وترسخ، ونتوضّع بها غمرة في جباه السبق وتشدخ، وتستهدى عند إيراد هذا الذكر العطر، والثناء المشتهر، من الدعوات الشريفة العاضدية المعصودة بالنجح، المتوضّعة عن مثل فلق الصبح، ما يتهلّل لمساعيه بالميامن المستهله، ولمراميه بالإصابة المتصلة، بينه وبين هذه الدولة العاليه، والخلافة الحاليه، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها اللابح، وأستدعينا به إجابته التي تتأق بالمراحب، وأعلمناه أن تهادى الأيام دون المراسلة وتطاوّلها، وتنقل الأحوال والدول وتناقلها، لا يزيد مودته إلا استحكام معاقده، وانتظام عقائده، ووفاء مواعيده، وصفاء موارد، وأنه لاتباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد، ولا تفرق المسافات القواصي ما بين النيات القواصد. فلما تأخرت الإجابة، تقدّمت الإسترابه، وتناجحت الظنون المعتلجة، وتراجعت الآراء المحتاجه، بأن الرسول عاقته دون المقصد عوائق، وتقسّمته من الأحداث دون الطريق طرائق، فلم ترد المكاتبه إلى جنابه، ولا أسعد السعي بطروق جنابه، الذي تُنال السعادة ونُحى به، وإلا فلو أنه أم له، بلغ ما أمّله، ولو وصله، لأجاب عما أوصله، لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرّع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض، وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض. فجددنا هذه المكاتبه مشتملة على ذلك المراد، وفافوضناه بما يعيره الإصفاء، ويحبّبه الإلغاء، ويحسن له الإنصات، ولا يحتاج فيه إلى الوصّات. ورسمنا أن يكتمه حتى عن لسانه، وأن يطويه حتى عن جنانه، وأن يتمسك بالأمر النبوي في استعانه على أمره بكتمان، فمن حسن الحزم سوء الظن، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت في السجن، وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن،

ونحن نَحْبِبُنَا بِمَا يُعَلِّمُ بِهِ حَسَنُ مَوْقِعِ رِسَالَةِ الْأَسْتِرْسَالِ ، وَبِمَا يَبَيِّنُ بِهِ عَنْ دَلَالَةِ
الْإِدْلَالِ ، وَبِمَا يَرْحُبُ بِمُودَّتِهِ مَجَالُ الْجَمَالِ ؛ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُؤَيِّدُ الْمَلِكَ بِنَصْرٍ تُسْتَخْدَمُ لَهُ
الْأَقْدَارُ ، وَسَعَادَةُ لَا تَنْصَرِفُ فِي تَصْرِيفِهَا أَحْكَامُ الْفَلَكَ الْمُدَّارُ ، وَإِقْبَالُ يُقَابِلُ آرَاءَهُ
وَأَدَابَهُ فِي فَاتِحَةِ الْوَرْدِ وَعَاقِبَةِ الْإِصْدَارِ ، وَعِزٌّ لَا يَزَالُ مِنْهُ مُتَوَقِّلًا فِي دَرَجَاتِ الْاِقْتِدَارِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطرف الثالث عشر

(فِي الْمَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْأَتْبَاعِ ، إِلَى الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ؛
وَفِيهِ ثَلَاثُ جُمَلٍ)

الجملة الأولى

(فِي الْمَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنْ أَتْبَاعِ مُلُوكِ الشَّرْقِ إِلَيْهِمْ
فِي الزَّمَنِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَهِيَ عَلَى أَسْلُوبَيْنِ)

الأسلوب الأول

(أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَةَ بِلَفْظِ : « كِتَابِي »)

وَيَدْعَى لِلْمَكْتُوبِ (١) كَذَا وَكَذَا ، وَيُخَلِّصُ إِلَى الْمَقْصُودِ بِمَا تَقْتَضِيهِ
الْحَالُ ، وَيَخَاطَبُ السَّاطَانَ فِي أَثْنَاءِ الْكُتَابِ بِمَوْلَانَا أَوْ بِمَوْلَانَا الْمَلِكِ ، وَيَعْبُرُ الْمَكْتُوبُ
عَنْهُ عَنْ نَفْسِهِ بِنَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَلَفْظِ الْإِفْرَادِ ، وَيُحْتَمُّ بِقَوْلِهِ : فَإِنْ رَأَى أَنْ يَفْعَلَ كَذَا فَعَلْ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَيَدْعَى لِلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِطُولِ الْبَقَاءِ مَعَ التَّعَرُّضِ لَذِكْرِ الْخَلِيفَةِ
فِي أَثْنَاءِ الْكُتَابِ .

(١) فِي الْأَصْلِ مَحْوُوعِلُهُ وَيَدْعَى لِلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ثُمَّ يَقَالُ وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا الْخ .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب، كتب به أبو إسحاق الصابي عن أبي الفضل الشيرازي: أحد نواب بني بويه إلى عضد الدولة بن بويه، في جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خراسان وطاعة صاحبها، وهو:

كتّابي - أطل الله بقاء مولانا - والأمر التي أخدم فيها جارية على السداد، مستمرة على الأقطار؛ والتعم في ذلك خليفة بالتمام، مؤذنة بالدوام.

والحمد لله حق حمده، وهو المسؤول إطالة بقاء موالينا الأمراء، وحراسة ما خولهم من العز والعلاء؛ وأن لا يُخايهم من صلاح الشان^(١)، وسمو السلطان؛ وظهور الولي، وثبور العدو.

ووصل كتاب مولانا [الأمير أطل الله بقاءه] الصادر من معسكره المنصور^(٢) بكازرين، بتاريخ كذا، مُخبراً بسمول السلامه، مبشراً بعموم الاستقامة؛ موجباً لشكر ما منح الله من فضله وأعطى، مقتضياً [تشر]^(٣) ما أسبغ من طوله وأضفى؛ مشروحاً فيه الحال فيما كان يجري من الخلاف بين مولانا الأمير السيد «ركن الدولة» وبين ولاية خراسان، وجهاده إيّاهم في حياة الدين، وحماية حريم المسلمين؛ والدعاء إلى رضا رب العالمين، وطاعة مولانا أمير المؤمنين؛ وتقدمه مع ذلك من دماء كانت باتّصال الحروب تُسفك، وحرمات باستمرار الوقائع تنتهك؛ وثغور تُهمَل بعد أن كانت ملحوظة، وحقوق تُضاع بعد أن كانت محفوظة؛ وأنه لما جددت العزيمة على قصد جرجان ومنازعة ظهير الدولة أبي منصور بن وشمكير مولى

(١) في المختارات المطبوعة ص ٩٣ من علو الشان.

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة.

(٣) في المختارات «بدارزين» وكلتاها من بلاد فارس.

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين] ^(١) بوسيلة موالينا الأمراء
أدام الله تمكينهم منها ومنازعتهم ومجادبتهم فيها، نهض مولانا [الأمير الجليل عضد الدولة] ^(١)
إلى كرمان على اتفاق كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة وبينه في التوجه إلى
حدود خراسان . فحين عرف القوم الحد في ردهم ، والتجريد في صدهم ، وأنه
لامطاع لهم في جبهة إلى طاعة أمير المؤمنين آتسبها ، وبذمام سادتنا الأمراء
اعتصامها ، آتظوا وآترعوا ، وعرجوا ورجعوا سالكين أقصد مسالكهم ، منتهجين
أزشد مناهجهم ، معتمدين أعود الأمور على المسلمين عموماً وعليهم خصوصاً باجتماع
الشمل ، واتصال الجبل ، وأمن السرب ، وعدوبة الشرب ، وسكون الدهماء ،
وشمول النعماء ، فخطبوا الصلح والوصله ، وجنحوا إلى طلب السلم والألفة ، وأن
مولانا [الأمير عضد الدولة] ^(٢) آثر الأحسن وأختار الأجل : فأجاب إلى المرغوب
فيه إليه ، وتوسط ما بين الأمير السيد ركن الدولة وبين تلك الجنبه فيه ، وتكفل
بتقريره وتمهيده ، وتحقق بتوطيده وتشبيده ، وأخرج أبا الحسن عابد بن علي
إلى خراسان حتى أحكم ذلك وأبرمه ، وأمضاه وتممه ، يجمع من الشيوخ والصلحاء ،
ومشهد من القضاة والفقهاء ، وأن صاحب خراسان عاد على يد مولانا [الأمير عضد
الدولة] ^(٢) إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين ومشايعته ، والإمساك بعلائق ولأئه وعصمته ،
وصار ولياً بعد العداوه ، وصديقاً بعد الوحشه ، ومصافياً بعد العناد ، ومخاطباً بعد
الإنفراد ، وفهمته . وتأمّلت - أيد الله مولانا - ما في ذلك من ضروب النعم المتشعبه ،
وصنوف المنح المتفرعه ، العائدة على الملك بالجمال ، وعلى الرعيه بصلاح الحال ،

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعية إلى الائتلاف والاتفاق، المزيل للخلاف والشقاق؛ فوجدت النفع بها عظيماً، والخط فيها جسيماً؛ وحمدت الله حقَّ حمده عليها، وشكرته أن أجراها على يد أولى الناس بها؛ وأحقهم بالمكارم أجمعها، وأن قرب الله بيمينه [ما كان بعيداً مُعْضِلاً ويسر بركته ^(١)] ما كان ممتنعاً مشكلاً . فأصلح ذات البين بعد فسادها، وأحمد نيران الفتنة بعد تلهبها وأتقدها؛ ووافق ما بين نيات القلوب، وطابق بين نخائل الصدور، وتحت الضلوع يُنْجَح سعيه على التآلف، وأنضمت الجوانح بميمون رآيه على التعاطف؛ وحصل له في ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر، وجيل الفخر، وأريج النشر؛ مالا تزال الرواة تدرسه، والتواريخ تحرسه؛ والقرون تتوارثه، والأزمان تتداوله؛ والخاصة تتحلّى بفضله، والعامة تأوى إلى ظله .

فالحمد لله كثيراً، والشكر دائماً على هذه الآلاء المتواترة، والعطايا المتناصرة؛ والمفاحر السامية، والمآثر العالیه؛ وإياه أسأل أن يعترف مولانا الملك الحية فيما آرتاه وأمضاه، والبركة فيما أولاه وأجراه؛ وأن يهنئه نعمه عنده، ويظهر مواهبه لديه؛ ويسهل عليه أسباب الصلاح، ويفتح أمامه أبواب النجاح؛ ويعكس إلى طاعته الرقاب الآبية، ويذل لموافقة النفوس النائية؛ ولا يُعْدمه ومواليها الأمراء أجمعين المنزلة التي يرى معها ملوك الأرض قاطبة التعلق بحبلهم أمناً، والإمساك بذمامهم حصناً؛ والانتفاء إلى مخالطتهم عزاً، والاعتراء إلى مواصلتهم حرزاً؛ إنه جل وعز على ذلك قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير .

وقد آجتهدت في القيام بحق هذه النعمة التي تلمنني، وتأدية فرضها الذي يجب علىّ : من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعة؛ حتى آشتهرت في أعماله التي

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية وهي مناسبة .

أنافيتها ، وأسستوى خاصتها وعامتها في الوقوف عليها ؛ وأنشروحت صدور الأولياء معها ، وكتب الله الأعداء بها ، وأعددت بالنعمة في المطالعة بها والمكاتبة فيها ؛ وأضفتها إلى ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وسلف من أترابها وأشكالها ، فإن رأى مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمر أعلى الله أمره بأجرأى على أكرم عاداته فيها ، وأعتادى بعوارض أمره ونهيه كلها ؛ فإن وفور حظي من الإخلاص ، يقتضى لى وفور الحظ من الاستخلاص ؛ فعل . إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثانى

(أن يفتح الكتاب بالإصدار)

مثل : أصدر الخادم أو العبد ونحوه ، ويؤتى بالصدر إلى آخره ؛ ثم يتخلص إلى المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختم بقوله : وللراى العالى مزيد العلو ونحو ذلك .
كما كتب عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلى السلطان سنجر السلجوقى ، فى حق قطب الدين أبى منصور أزدشير العبادى : وقد ورد إلى أبواب الخلافة ببغداد رسولا ، وكان أبوه وخاله وسلفه من أهل العلم والزهد ، وهو من الفصحاء البلغاء ما صورته :

أصدر خادم المجلس العالى هذه الخدمة عن ضمير معموير بالولاء ، وإخلاص دواعيه متصلة على الولاء ؛ وعكوف على ما يرجوه حصول المراضى عليه ، والتحقيق لمشايسته الواضحة شواهدا جلية ، والحمد لله رب العالمين .

وبعد ، فما زال الجنب العالى السلطان الشاهنشاهى الأعظمى أعلاه الله لكل خير منبعا ، وحرمة الأمن للفوائد الجمة مغاثا ومربعا ؛ والسعادة والتوفيق مقرونين

بسامى آرائه ، مُطِيفِينَ به من أَمَامِهِ وورائِهِ ؛ فى كلِّ رَأْيٍ يَرْتَبِيهِ ، ومَقَرَّبٍ يَصْطَفِيهِ ؛
وَأَمْرِى يَتَخَيَّرُهُ وَيَقْلُدُهُ ، وَأَمْرٍ يَحُلُّهُ وَيَعْقِدُهُ ؛ وَصُنْعٍ جَمِيلٍ يُصِيبُ مِنَ الِاسْتِحْقَاقِ
مَوْضِعَهُ ، وَيَعِيدُ طِيبَ الذِّكْرِ مَجْهَزَهُ وَمُبْضَعَهُ ؛ مَنَاقِبُ تَفَوُّتِ الْإِحْصَاءِ عَدًّا ، وَتَرَدُّ
مِنَ مَفَاحِرِ الْوَصْفِ مَنَهْلًا عَذْبًا وَتَسِيرَ بِذِكْرِهَا الرَّفَاقُ غَوْرًا وَنَجْدًا ، وَتُجَاوِزُ غَايَاتِ
الْمَدْحِ عِلَاءً وَمَجْدًا ؛ وَكَفَى عَلَى ذَلِكَ دَلِيلًا قَاطِعًا ، وَبِرْهَانًا سَاطِعًا ؛ مَا اقْتَضَتْهُ الْآرَاءُ
الْعَلِيَّةُ مِنَ التَّعْوِيلِ عَلَى فَلَانِ الْعِبَادَى فِي تَحْمُلِ الرِّسَالَةِ الْأَعْظَمِيَّةِ الَّتِي عُدِدَتْ مِنْهُ
بِالنَّبِيِّ الْجَلِيلِ ، الْبَرِّىِّ مِنَ الْعَيْبِ ، الْعَارِىِّ مِنَ دَنَسِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ ؛ فَإِنْ آخِثَارُهُ
لِهَذَا الْأَمْرِ طَبَّقَ مَفْصِلُ الصَّوَابِ ، وَلِشَاكِلَةِ رَمَى الرَّأْيِ أَصَابَ ؛ إِذْ هُوَ الْفَدُّ
فِي عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ ، السَّيِّدُ فِي قَوْلِهِ وَفَعْلِهِ ؛ الْبَارِعُ فِي إِيجَازِ الْخُطَابِ وَفَضْلِهِ ، الْمُعْرِقُ
فِي الزَّهَادَةِ وَالِدِّيَانَةِ الْمَزِينِينَ لِفِرْعِهِ وَأَصْلِهِ .

ولما وصل إلى الأبواب العزيزة الإمامية - ضاعف الله تعالى مجدها - مثل
بالخدمة مؤدياً من فرضها ما يلزم أمثاله من ذوى العقائد الصحيحة ، والموالاة المحضة
الصريحة ؛ وَصَادَفَ مِنَ التَّكْرِمَةِ وَالْإِنْعَامِ مَا يُوجِبُهُ لَهُ مَحَلُّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي لَا تُكَدَّرُ
الدَّلَالَةُ بِحِرْهِ ، وَلَا تُدْرِكُ الْأَرِشِيَّةُ بِطَوْلِهَا قَعْرَهُ ؛ فَهُوَ فِيهِ نَسِيجٌ وَحِيدٌ ، وَنَاسِجٌ بُرْدُهُ ؛
وَنَاشِرٌ عِلْمُهُ ، وَمُسْتَغْزَرٌ دَيْمُهُ . وَأَلْقَى مِنْ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ آخِتَارُ أحواله الشاهدةِ بأنه
مِنْ أَصْحَابِ فِي يَدِهِ قِيَادُ الْفَصَاحَةِ الْأَبْنَى ، وَمَلَكَتُهُ زَمَامُهَا الْمَتَنَعُ عَلَى مِنْ عَدَاهُ الْعَصَى ؛
وَجُمِعَ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا أَصْبَحَ فِي سِوَاهُ مُتَفَرِّقًا ، وَخِيَرَهُ مِنْهَا مَا جَعَلَ جَفْنَ حَاسِدِهِ
لِفِرْطِ الْكَمَدِ مُؤَرِّقًا ؛ إِلَى مَا زَانَ هَذِهِ الْخِصَائِصَ الَّتِي تَفَرَّدَ فِيهَا وَبَرَعَ ، وَطَالَ مَنَاقِبُ
الْأَقْوَانِ وَفَرَعَ : مِنَ الْإِخْلَاصِ الدَّالِّ عَلَى تَمَسُّكِه بِجَلِّ الدِّينِ الْمُتَيْنِ ، وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى
جَدِّهِ الْوَاضِحِ الْمُبِينِ ؛ وَفَصَّلَ عَنِ الْأَبْوَابِ الْعَزِيزَةِ فَائِزًا مِنْ شَرَفِ الْإِرْعَاءِ ، مَا وَفَّرَ
الْحِفْظَ وَالْأَنْصَاءَ ؛ حَاصِلًا مِنْ حَمِيدِ الْآرَاءِ ، عَلَى أَنْفَسِ الْعَطَاءِ وَأَجَزَلِ الْحِبَاءِ .

وقد تمهّد له من الوجاهة والمكانة ما يفخر بمكانه ، وتنقطع دُونَ بلوغ شأوه أنفاسُ
أقرانه ؛ ورسم - أعلى الله المراسيم الإمامية وأمضاها - مطالعة المجلس العالى السلطانيّ
أعلاه الله بهذه الحال ، تقريرا لها عند العلم الكرمي ، واستمدادا للطول والإنعام ،
باختصاص قطب الدين بالاحترام ؛ الذى هو حقيق بمثله ، وخلق أن لا يصح
عن وارف ظله ؛ وما يؤعز به من ذلك يُصادف من دواعى الاستحقاق أوفها ، ويرد
من مناهل الذكر الجميل أعذبها وأصفها ، ويُتلق من شرف المحامد بأطفها وأحفها ،
وللراى العالى علوراى ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهم ،
والمختار منه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتب بالدعاء)

مثل أن يدعى بعزّ الأنصار ، أو إدامة السلطان ، أو تخليده ، أو إدامة بسطة
السلطان ، أو إدامة الأيام ونحو ذلك . ويخاطب السلطان فيه بمولانا ، ويعبر
المكتوب عنه عن نفسه بالملوك ، ويختم بالدعاء . وهى طريقة القاضى الفاضل ومن
تلاه من كتاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية .

قال ابن شيث فى "معالم الكتّابة" : ولا يقال فى مخاطبة السلطان : سيدنا مكان
مولانا ، وإن كان السيد من الألقاب السلطانية ، لأن لفظ سيدنا مما أصطلح عليه
لأكابر المتعممين من الفقهاء والقضاة والكتّاب ، فأجتنب فى حق السلطان كي لا تقع
المشاركة بينه وبين غيره فى الخطاب .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كُتِبَ به إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب في جواب كتاب ورد منه بالبشارة بفتح خِلَاط وهي :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل وزاده من فضله ! ، ومدَّ على خلقه وإرفَ ظله ، وأظهر به دينه على الدين كله ؛ وأوضح إلى مرَضاته ما يسُلكه من سُبُلِه ، ولا عَدِمَتْ يَدُ الإسلام والمسلمين التعلُّقَ بوثيق حبله ؛ وفَرَّجَ به الخَطَطَ المُطْبِيقَه ، وفتح به البلاد المستغْلِقَه ؛ وأخضع لطاعته الأعناق ، ونعمَّ بفتوحه الآفاق ؛ ودَمَّرَ الكُفْرَ بمقامه ، وطوى أيامهم بما ينشره ويُدِيمه من أيامه ، وأنزل النصرَ في مواقف التَّزال بما ترفعه رايَّاته من أعلامه .

وقف المملوكُ على ما أنعم به مولانا : من كتابِ البشارة التي وصلت إلى كلِّ قلبٍ وسمِعَ ، وأمل بها كلُّ مسلم كلَّ خيرٍ ونفعٍ ؛ وعلم ما وراءها من جمع شملٍ كان عزيزَ الجمع ، وعلم ما يتبعها من عواطف مولانا التي عودها منه أكرمُ طبعٍ ؛ وتحقق أن الله سبحانه قد قلَّد الدين منه سيفاً خلَّقه للوصل وخلق السيوفَ للقطع .

وبالحِلمة إن الله سبحانه نظر إلى هذه المِلة بنظر مولانا لها ، وكفَّالته لأهلها ، وسياستهم بشرف السِجِّية وعدلها ؛ وإن كل ما اختلَّس الملكُ الناصرُ رحمه الله فإن الله يُتِمُّه على يديه ، ويَجْبُرُ به تارة بصفحة وتارة بحِديهِ ؛ ويَهَبُ له عُمرًا نُوحِيًّا إلى أن لا يَدْرَ على الأرض من الكافرين ديارًا ، وإلى أن يُورث الإسلامَ بسيفه منهم أرضًا ومالًا وديارًا ؛ وهذه مخايل لا يُخْلِفُ الله بارقمتها ، بل يُرِدُّ إلى جهة الكفر صاعقتها ؛ فما يحسب المملوك أن جانبًا يتلوَّى على طاعة مولانا ولا يُعْرِفُ ، ولا أن كلمةً عليه بعد اليوم تختَلِفُ ، ولا أن ممتنعًا بالأمس يكون معه اليوم إلا أن يرضى عنه مولانا وعليه يَنعُطِفُ .

وعلى هذا فالشام الفرنجي متأخذ بجناح إلى الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال
 صلى الله عليه وسلم لا ثمن لها، والقرص تمر مر السحاب، والمستعاذ بالله من حسرات
 القوت بعد الإمكان (وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) (١) وما يشخص لخطاب الله تعالى
 بالجهاد إلا مولانا : النية خالصة ، والبصيرة ثاقبة ، والعزيمة ماضية ، والشجاعة منحة
 من الله له موهوبه ، والساحة خليقة من خلائقه الكريمة موجودة ، والرجال
 تطأ عقبيه ، والملوك تطيع أمره والشجعان تبذل أنفسهم بين يديه ، والعدو يعرف
 منه خصما طالما خاطبه بلسان السيف منه إليه . وليس كل من قدر عليه أرادته ،
 وعكاً أقرب من خلاط وأنفع للساميين فتحا ، وأعظم في الكفار قدحا ، فوالله لئن أنغلق
 باب الشام في وجه الكفر ، لتقطعن آمال أهل البحر والبر ، وما دام في الشام بقية
 من الكفر فهو يقبل الزيادة ، وينتظر التجدة ويؤمل الاستعادة ، وما كرر الملوك
 هذا الحديث جهلا بما يجب في خدمة الملوك من الأدب في أن لا يتكلم في القضية
 إلا من استشير فيها ، ولا يجترئ على الكلام إلا إذا كان حجييا بما يؤمر بالإجابة
 عنه ، ولكن الملوك غلب على الصبحه ، وأقطع عن الخدمة ، وعلم أنه لو كان حاضرا
 لكان مولانا ينسبطه ولا يقبضه ، ويستشف ما عنده ويستعرضه ، ويشفع قلبه
 في لسانه إذا هفا ، ويمحله على صفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابل بالتكدير من صفا ،
 فقد علم الله أن الملوك يمتحن للساميين أن يرد عليهم حقهم ، وترجع إليهم بلادهم ، وأن
 تكون هذه الأمانة جارية على يد مولانا ومستفادة من عزمته ، ومكتوبة في صحيفته ،
 ومغتنمة فيما يمتد الله في حياته ، فإن الأمور فيما بعد مملوحة ، ولكن أبواب قدرة الله
 مفتوحة ، فالله يجعل منها أن يفتح على مولانا فيه بلاد الساحل ، وأن يأخذ للإسلام به
 أهبة المقيم وللمقيم أهبة الراحل ، وما يخطط الملوك هذا المهيم بغيره ، طالع به ، ولمولانا
 علو الرأي .

(١) لعله وما يختص بخطاب الخ .

الأسلوب الثاني

(أن تُفَتِّحَ المَكاتِبَ بِقَبْلِ الأرضِ مَصَدِّرًا بِالمَمْلُوكِ)

وهي من مصطلحات الدولة الأيوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دُونَ من تَقَدَّمَ .

كما كتب القاضي الفاضل عن نفسه إلى السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب»

يهنئه بمولودٍ وُلِدَ له :

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالى الناصرى نصر الله الإسلام بمقامه ، وأهلك أعداء الحق بانتقامه ، ولا أعدم الأمة المحمدية عقد أعترائه بكفالتها ومضاء أعترامه .

يهنئ المملوك المولى بنعمة الله عنده وعند الإسلام وأهله بمن زاده في ولده ، وكثره في عدده ، وهو الأمير «أبوسليمان داود» أنشأه الله إنشاء الصالحين ، ومن الله بكامل خلقه ، ووسامة وجهه ، وسلامة أعضائه ، وتهلل غرته ، وأبتسام أسرته ، ودل على أن هذا البيت الكريم فلك الإسلام لا يطلع فيه إلا البشور ، كما دل على عناية الله بأبيه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ يَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ بِمَنْ يَشَاءُ لَدُّكُورٌ ﴾ فطريق المولى هذه قد توالَّت فيها البشائر ، ونصر الله فيها بالطاف أغنت بلطف الخواطر عن قوة العساكر ، وآشملت عليه (؟) في الغائب من أمره والحاضر ﴿ وَإِنْ تُعْذِرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ وكيف يُحْصِيها المُحْصِي ويحصيها الحاصر ، أحيط ما يفتنى بما لا ينفد ؟ .

فالحمد لله الذى جعل كتب المولى إلى أوليائه وكتبهم إليه مبتسمة عن المسار ، ناطقة بأطيب الأخبار ، منكشفة أسرارها عما يروح الأسرار ، وهذا الولد المبارك هو الموقى لأئمتي عشر ولدا ، بل أئمتي عشر نجا متوقدا ، فقد زاد الله في أنجيه عن أنجم

يوسف عليه السلام نَجْمًا ، وراهم المولى يقظةً ورأى ذلك الأنجم حلمًا ؛ وراهم
ساجدين له ورأينا الخلق له سُّجودًا ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُودَ المولى إلى أن
يراهم آباءً وجدودًا .

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب إليهم ،
والمختار منه أربعة أساليب)

الأسلوبُ الأول

(أن تفتَحَ المكتبة بقلب المكتوبِ إليه)

مثل : المقامُ أو الجَناب ، ويُنعَت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يؤتى بالسلام
ثم بالبعديَّة ، ويؤتى بخطبة ، ويتخلَّص إلى المقصِّد ، ويؤتى عليه إلى آخره ، ويختم
بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابنُ البَنا عن ابنِ خلاص إلى أمير المسلمين الوائِقِ بالله أبي بكر بنِ هُود ،
في جواب كتابٍ ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلى ، الوائِقِ المعصِمِ ، المبارك السامى السنى ، معدنُ الفضل ومقرّه ،
ومسحَب ذيل الفخر ومجَرّه ، ومَنَاط حمل أمانة المسلمين التى لا يحملها إلا ألبُج الشرف
أغرّه ، ولا يتقلَّد قِلاَدَتَها إلا تقيُّ المنشأ برّه ، مقامُ مولانا جمالِ الملك وبهائِه ،
والباعث فى مَعِطِفه أُرِيحِيَّة النجاة وأزدهائِه ، الأميرِ الأجلِّ المعظم ، المكبرِّ الهام
المكرم ، المبارك الميمون السعيد ، الموقِّ الرشيد ، المظفر المؤيد ، المرفَّع المجَّد ، ولى
العهد ، وواسطة عِقدِ المجد ، والمُلبَّس سراييلَ اليَمْن والسعد ، الوائِقِ بالله ، المعصِم به ،

أبي بكر ابن مولانا محمد الإسلام، وجمال الأنام، ومجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين. أبقاه الله وارداً من مشاريع التأييد أعدبها، متحوّلاً من صنع الله الجميل ما يسدّد أبعاد الأمة وأقربها، ممتداً مد السعادة ماجلت غرة الفجر حنّس الظلماء وغيّبها. عبد بابہ الأشرف، ومملوك إحسانه الأسخ الأذرف، مسترقه الآوى إلى ظل سلطانه الأمد الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص.

سلام الله الطيب الكريم وتحياته، يعتمد الوثائق المعتمنى ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذى له الأمر من قبل ومن بعد، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى تربّت على آجتنبه الشقاوة ووجب باتباعه السعد، وعلى آله وصحبه الذين ناضلوا عن ديانتهم حتى وضع السنن وبان القصّد - والرضا عن خليفته وابن عمه الإمام العباسي أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور المستنصر بالله، وارث شرفه النبوي، ومجده الهاشمي، بخصائصه التي لا تُغنى أنوارها الأبرار، ولا يطمس آثارها المحر. وعن مولانا محمد الإسلام، جمال الأنام، مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين، ذى العزّات التي لا تُغنى غنائها الذّيل التي منبتّها الخطّ، ولا القُصْب التي منشؤها الهند. والدعاء لمقام الثقة والاعتصام، ومقرّ الإحسان والإنعام، بالنصر الذى يؤازره الطّفر، ويظاّهره العصد.

فكتبه عبد المقام الوثائق المعتمنى - كتب الله له تأييداً يحفظ على الدين نظامه، وتخليداً يرث لىلى الدهر وأيامه - من إشبيلية حرسها الله تعالى، وللبركات المتوكلات والوثاقيّات بها آنتيال كما نتابع القطر، وسطوع كما آبتسم فى مطالعه الفجر، وتعهد

(١) لمل الصواب "البكر".

(٢) جمع الذابل ككتب وركم أنظر القاموس.

لا تزال تَقَرُّ به العينُ وينشرح له الصدر، والخدمةُ اللازمةُ لثأبةِ العليةِ الواثقةِ المعتمِيةِ - أعلَى الله مكانها، وشيّد بعضده أركانها - فرضٌ لا يسعُ تأخيرهُ، وحقٌّ لا يعلّقُ به تفریطُ المتقلّد له ولا تقصيرُهُ، ولازمٌ من اللوازم التي لا يُشغَلُ بسواها سرُّ المملوك ولا ضميرُهُ، والله يُجحد من ذلكم على ما يتسوّغُ به صفوُ المنِّ وتميره . وإن الخطاب الكريم الواثقُ شَرَفَ الله منازعه ، وتور بأنوار السعادة مطالعةً ، ورد على العبد مُشيداً بذكره ، مُعلّياً من قدره ، مُسمّياً لرتبةِ نغره ، متضمّناً من واسع الإنعام وغمره ، مالو وُزِعَ على العالمِ لشملهم بأسره ، وأغرقهم بفيضِ يسيرٍ من بحره ، فتناوله المملوكُ بيمينِ إحلاله وإعظامه ، ووفّى الواجبَ من ثَمِّه وأستلامه ، وألغى به رياءً ناقعاً لغيليلِ الشوق المبرجِ إلى آجتلاء غرته الكريمةِ وأوامه ، وجعل يتتبع سُطوره ، ويستقرى فقره وشُدوره ، فلا يقفُ من ذلكم كلّهُ إلا على ما يملأُ حوباءه جدّلاً ، ويحوّله الإبتهاجُ غماً ونَفلاً ، ويؤثّه أسنى مراتبِ التّشريفِ قُنناً وقُللاً ، وهو على ما حكمت به الأقضيةُ من شَحْطه عن المَثابةِ الواثقةِ شرفها الله وشُسوعه ، وإيواءِ مَعَانِي أُنسه لذلكم ورجوعه ، لا يجدُ أنسا إلا ما يتوالى قبْلَه من متعهّدِ آهتاميها ، وتهدّيه إليه ألسنةُ أعلامها ، فكلمّا وفَدَ عليه من صحائفِها المكترمةِ وإفد ، وورد من حضرتها المعظّمةِ وارد ، فقد جدّد الزمانُ عنده يداً غرّاً ، وأطلع عليه بدرا ، وأفاده من الإبتهاجِ ما يعمرُ الحسَدَ ، وينشرُ نسيمَ الإستبشارِ إذا سَكَنَ ورَكَدَ ، وما ينفكُ على نأْيِ المكان ، وبُعْدِ الأوطان ، يحافظُ على رُسْمِهِ مِنْ خَدِيعِها ، ويؤدّي وظائفَ الشكرِ بحسبِ مَنَحِها وعميمِ نِعَمِها ، ويجعل على نفسه المملَكةَ رقيباً من أن يُخِلَّ في سرِّ أو جَهْرَ بعهد من عهودِها أو ذِمّة من ذِمَمِها ، ومهما تجدد صنع يتعين إهداؤه ، ويجب قضاءُ الحقِّ بالدلالةِ عليه وأدأؤه ، لم يَصَحْبِهِ في المطالعة به تَوَانٌ ، ولم يعْبُرْ في جِلاله أوْأنا إلى أوْأنا . وقد كان قدّم مُطالعاتِهِ قَبْلُ إلى البابِ الواثقِ

شرفه الله بأسطًا لتفاصيل الأحوال ، وشارحًا لها على الاستيفاء والكمال ؛ ولم يتجدد بعد ذلك إلا تمكُّن الرجاء في فتح لبلة يسر الله مرآتها عن دُؤر بحول الله وقُرب ، وأنطق لسان الحال بتيسير كل عَصِيٍّ من مُحاولاتها وصَعْب . ولو أنَّ مكانا عَصَبه الدهر من أنياب حَوادِثِه الجُونِ بما به عَصَّها ، وفَضَّ الحصارُ أَقفالها التي فَضَّها منه مافَضَّها ؛ لكان قد ذهب شمسُه ، وخَفِيَ عن أن يُسَمَعَ حَسيسُه ؛ لكن أبا الشقاء الغالب على أهلها إلا أن يَمُدَّ عليهم أمدَ العذاب ، ويُرِجِي لهم طَوَلَ المُهْلَةِ المُشْفِيَةِ بهم كُلَّ يوم على مَهَاوِي الخَسَارِ والتَّبابِ ، حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ فيهم أَجَلَه ، وَيَصِلَ إلى الحَدِّ الذي شاء الله أن يَصِلَه ؛ فَيَأْخُذْهم أَخَذَ من عَمِيٍّ عن إدراك الحق بَصْرَه وبصيرتِه ، وَخَبَّتْ في معاندته سرُّه وسريرتِه ؛ وَيَرْجِي أن الوقتَ في ذلِكَ دَانٍ بإمكان ، والله تعالى يُدِيمُ للمقام الوائِقَ مَاعَوْدَه من توالى السُّعُودَ وَأَطْرَادَها ؛ وإِصْحَابَ الآمالِ وَأَقْيَادِها ؛ وسلامُ الله الطيبُ يَراوِحُها وَيُغَادِيها ، وتحياته ، ورحماته الموصولة وبركاته .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بالحضرة)

وتوصف ويُدعى لها ، ثم يقع التخلُّص إلى المقصد ، ويُختم بالدعاء والسلام .
كما كتب أبو المطرّف بن عميرة إلى المتوكل بن هود القائم بالدعوة العباسية^(١)
بالأندلس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح ... من الأندلس
وقتل الثائر بها ، وهو :

(١) بياض بالأصل ولعله " بفتح المراد وهو حصن قرطبة من الخ " كما يؤخذ من تضاعيف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد في المراد) وفي معجم " يا قوت " المراد حصن قريب من قرطبة بالأندلس .

الحضرة العلية أبق الله ظل ملكها على العباد، وعرفها من تأييده وإنجاءه أفضل المعتاد، وجعل لها من الملجأ إليه والتوكل عليه أكثر الجوع وأكثف الأعداد، ولا زالت أحاديث نصرها سالمة المتون صحيحة الإسناد، وصحائف فتوحها تجمع صلاح العباد، وتطلع صباح البشائر من ليل المراد، عبدها ومملوكها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريق التي يجب سلوكها، فلان .

وبعد : فكتب العبد - كتب الله للقام العلي المجاهد المتوكل سعاداً يرد الصعاب ذلاً، ويسد من المكاره سبلاً، وأمدّه بملائكة رسله جاعل الملائكة رسلاً - من فلانة وبركاته مربية للظاء، وحركاته مسكنة للدهماء، وآثاره في يومئذ سلمه وحربه آثار الأشداء على الكفار والرحماء، والأرض بوضوح محياه، وفتوح أسنته وطبائه، تهرأ أعطافاً، وتعتز مواسط وأطرافاً، وتبرز في أنوارها القشيب فيزداد حسنها أضعافاً، والأيام بالبشائر التي قضت ختامها عفواً على قدر، وقضت مسامها صفواً بلا كدر، لها أنف الشاخي تيه، ووجه الضاحك المتهازل إشادةً بحالها وتوحيها، ودلالة على رُحْب مجالها وتتيها . والحمد لله حمد من عرف قدر نعمائه فوق حق أسمائه تقديساً وتزنيها . وإن الخطاب العلي الكريم ورد راصفاً أجل الدرر، واصفاً أجمل الفتوح الغرر، رافلاً في حلل الأيد والقهر، رافعاً منساة الحوادث بإحدى حسنات الدهر، فياله من كتاب! أودع بدائع الكلم، وجوامع البيان الملتئم المنتظم، لو آستمد سناءه أول الفلقين لم يك كاذباً، ولو أعير محياه ثاني الشفقين كان عن ضوء النهار نائباً، ذكر أيام الله المشهودة بالملائكة والروح، ومد باع الكلام في فتح الفتوح، وأطال ذيول القول مفتاحاً منه للصعب الجموح، فكان الغزير الصيب، والكثير الطيب، والمتبع إن مضى بقلوب وأسماع، والمضاعف حسنه إن كرر إلى غير انقطاع . كيف لا ؟ وقد بشر خبره بالمراد في المراد، وأوقع اليقين بما خرق

العادات من الإِسْعَافِ والإِسْعَادِ، وكان من آحادِ الأخبارِ لا من أخبارِ الآحادِ؛ ومما أَقْتَصَّه ما جرى من أوائلِ الحركةِ السعيدة، وأَعْتَرَضَ من المَتَاعِبِ الشديدة؛ وأنَّ الشِّتَاءَ كان في أَوَّلِ دَوائِهِ، والغَيْمَ سَاحِبٌ لِرِداءِهِ، ساكِبٌ فَضْلُ أُنْدائِهِ . والمِكَارَةُ في طَيِّهَا النَّعَمُ الجِسامُ، والنفوسُ الجِبارُ تُتَعَبُ في مُرَادِهَا الأَجْسامُ؛ ولذلك هانت على المَقَامِ العلى - أيدِه الله - تلك المَشَاقُّ، وربَّحى من عمله ونظره ما جَنَى من ثَمَرَةِ العاقِ؛ فسار إليه بالمُخَفَّلِ الأَحْفَلِ، والعزيمة الزعيمة بِقُصِّ المُقَفَّلِ، ورَضَّ الأَعْلَى والأسْفَلَ؛ وقد أَعْتَرَّ بأَجَلِّ المدائن شانا، وأَوْتَقَّها بُنيانا، وأَبْعَدَها صِينًا ومكانا؛ وهى التى أَعَيَتْ رِياضُها كُلَّ رائضٍ، وسَخِرَتْ بِكُلِّ قاعدٍ بِقُنُونِها رابضٍ؛ وَجُمِعَ إليها مِنْ طَرْدِ الآفاقِ، وأَعْدادِ الأَجْتِماعِ والاتِّفاقِ؛ أَتباعُ كُلِّ ناعقٍ، وأَشْياعُ كُلِّ مارِدٍ مارقٍ؛ فَاسْتَحَلُّوا الدِّماءَ، وَرَكَّبُوها مَضَلَّةَ عَمِيَاءَ، وأَدْرَكَ كُلُّ مَنهم مِمَّا شاءَ للإِسْلامِ ما شاءَ؛ وَعَدَّوْهُ اللهَ يَفْتِلُ لَهُمُ في الذَّرْوَةِ والغارِبِ، وَيَضْرِبُ لَهُمُ سُكَّانَ البَلَدِ ضَرْبَ الغَرائبِ؛ حَتَّى أَبادَ خَضْرَاءَهُمُ، وجعلَهُم شَرَّ خَلْفٍ فِيمَنْ وَراءَهُمْ؛ غَيْرُ مِبالٍ بما أَحْتَقَبَ مِنَ الجَرَّائِرِ، وأَقْتَرَفَ مِنْ إِيّاحَةِ الحَرَّائِرِ؛ فَاجْتَرَأَ مَدَّةَ الجِلاءِ، وَأَزْدَادَ إِثْمًا بالإِمْلاءِ؛ وَحِينَئِذٍ سَمَتْ إِلَيْهِ عَسَاكِرُ الإِسْلامِ، وَناوَلَتْهُ بالموتِ الزُّؤَامُ، ورَأَى عِيانًا ما كان يَطِيرُ إِلَيْهِ قَلْبُهُ لوراءِهِ في المَنامِ؛ وتَدَاوَلَتْهُ المِطاوَلَةُ المُسْتَدْرِجَةُ، والعاجِلَةُ المُزْجِجَةُ؛ وَفي كُلِّ ذاقِ عَذابِ الهُونِ، فَاحَسَّ بِقاصِمَةِ المُتُونِ وقاضِيَةِ المُنُونِ؛ وَأَتَقَسَّمتْ شِدَّتُهُ إلى المُهْلِكِينَ : خَوْفٍ وإِعْدامٍ، وَأَسْتَكَمَتْ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَكانَ الفَتْحُ عِنْدَها تِمَامًا؛ وَإِنَّهُ لِلوَلَدِ الَّذِي هُنَّ بِهِ الإِسْلامُ، وَضُنَّتْ بِمِثْلِهِ الأَيَّامُ، وَأَسْتَبْشَرَ بِوُجُودِهِ

(١) القِنة بالضم الجبل الصغير أو الجبل السهل المنبسط على الأرض جمعة من وقفات وقوتون أنظر

الأنام ؛ فما أعلیٰ مقامه ! وأبهج يومه وأسعد عامه ! ؛ ولا غرو أن تكون غرته
أبهی الغرر، ومفتحه مباركا كالبشر؛ وقد أسفر عن أيمن وجه النجج، وخرج
من عموم الأيام بمخصّص هذا الفتح؛ وانتقم الله فيه من الشقيّ الظالم، العظيم الجرة
على ارتكاب المظالم؛ فطاح بمويق أعماله، وعجل الله به إلى ما أعدّ لأمثاله؛ وكان
دمه شرّ دم أريق، وأديمه أحبّ أديم لاقى التزيق .

والحمد لله الذى نصر الراية العباسية وأعلاها، وأظهر آية عنايته وجلّالها، وأسبغ
نعمه الحسمة والالاها . وحين ورد هذا النبأ العظيم [كان] أندى من قطر الندى
على الأكباد، وسرى فى البلاد سريان الأرواح فى الأجساد؛ وكفّت به الأسماع
والأسمار، وسمّت به وإليه الأمصار والأبصار؛ واستقرّ من ارتجاع البلد، وارتفاع
النفس الذاهبة إلى جرى الأبد؛ حُكّان مدرّكهما الفعل والإقرار، وعملان تمّ بهما
المراد والاختيار؛ فرفعت الأدعية إلى سامعها، وغصّت الأندية بحاضريّ مجامعها؛
وذاع بالبشرى فيأحسن ذائعها وشائعها؛ وأذعنت الآمال لإدناء نازحها وشاسعها؛
وأخذ العبد من المسرة بحظّ أخلص العبيد مشهدا ومغنيا، وأجمعهم لمعالى الحد
تطينيا، ولمعانى الثناء والحمد تطيبا؛ وجدّد من شكر الواهب لحزيرل هذه الهبة،
والفاتح لأعظم المعازل الأشبه (?) ما يستغرق المدد، ولا يبلغ الأمد؛ وأتى [لمثل] أن
يصف البشرى الواصله، أو ينصف المقالة المتطاولة؛ ولو حلب أشطر الإحسان،
وجلب أبحر البيان؛ وكيف والفكر قد قعد حصرا، والمدى لا يؤاخذ التقدير قسرا،
والقول لا يوجب مطولا ولا مختصرا؟ فحسبه دعاء هوله رافع، ولأوقات الخلوات به
قاطع، وإلى الله سبحانه فى قبوله ضارِع؛ والله يوجب فى المقام العلى المتوكلى أفضل
دعاء انخلق، ويضاعف له مع السابقين ثواب السبق، ويجزيه خير الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق ؛ وهو تعالى ينصره يومَ الباس ؛ ويعصمه من الناس ،
ويبقى رفده لاكتساب ونوره لاقتباس ، ويعرفه في كل ما يستنيطه من أصل
التوكل صحة القياس ، بمنه والسلام .

الاسلوب الثالث

(أن تفتح المكتبة بما بعد، ويتخلص إلى المقصد ويختم بما يناسب المقام)

كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى المتوكل بن هود المقدم ذكره ، عن نفسه ،
يهنئه بوصول هدية الخليفة العباسي إليه من بغداد :

أما بعد، فكتب العبد - كتب الله للقام العلي الناصري المتوكل مجدا يحل
الكواكب، وجدا يقل الكتاب . من شاطبة، وبركات دعوته السعيدة قد
طبقت البسيطة ، وكاثرت البحار المحيطة ؛ وأنجزت للإسلام أفضل مواعده ،
وجددت عهده لأهل بيت النبوة الرافعة لقواعده ؛ وفسحت له مجال البشري ،
وأطلعت عليه أنوار العناية الكبرى ؛ فعاد إلى الوطن ، ووجد حال الشهد طعم
الوسن ؛ وأورق عوده ، وأتسقت سعوته ؛ وعاد إلى صحته بالنظر الإمامي الذي
جاء يعوده . وحين صدور رسول دار السلام ، ومثابة أهل الإسلام ؛ ومقعد
الجلالة ، ومضعد إقرار الرسالة ؛ ومعه الكتاب الذي هو غريب ، أنس به الدين
الغريب ، وبعيد الدار نزل به النصر القريب ؛ وآية بأدلتها الصداقة لتبطل الشبه
الآفكة ، وسكنة من ربنا وبقية مما ترك آل نبينا تحمله الملائكة - أطمأنت القلوب ،
وحصل المطلوب ؛ ودرت أخلاف الإيناس ، وأرتفع الخلاف بين الناس ؛ وعلموا
أن السالك قد أضاعت له المحجة ، والحق لا يعدو من بيده الحجة ؛ وأن من أمرته

الخلافة العباسية فطاعته تجب قطعا، وغالفته تحرم شرعا، ولم يبق إلا أن يبين للعيان شخصه، ويرد على الآذان نصه؛ فيكون يومه غرة الليالي المعتكرات، وعلم الأيام المنكرات؛ واليوم الذى به تؤرخ الأيام المستقبله، وترفع فيه الأعمال المتقبله. وبإقبال الركاب السعيد إلى هذه ينزل به من سماء العلاء محكم وحكمه، ويصل به إلى الأنام فضل من الله ونعمه؛ ويقضى دين على الأيام، لا يبقى معه عسره، ويوجد جبر للإسلام، لا يكون بعده كسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حسره.

الأسلوب الرابع

(أن تفتح المكتبة بالخطاب بلفظ «سیدی» أو «مولای»

مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبدالله بن الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب الأندلس عن نفسه إلى السلطان أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن الميرني صاحب فاس، عند ورود كتابه إلى الأندلس بفتح تلمسان، معرضا بأن صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبي الحسن بالأندلس، ما صورته :

مولای! فاتح الأقطار والأمصار، فائدة الأزمان والأعصار، أثيرهبات الله الآمنة من الاعتصار، قوة أولى الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار، مصداق دعاء الأب المولى في الآصال والأشجار. أبقاكم الله! لا تقف إياكم عند حد، ولا تحصى فتوحات الله عليكم بعد؛ ولا يفيق أعداؤكم من كد، ميسرا على مقامكم الكريم ماعسر على كل أب كريم وجد.

عبدكم الذى خَلَصَ إِبْرِيْزُ عِبُوْدِيَّتِهِ لِمَلِكِ الْمَنْصُورِ، الْمُعْتَرِفُ لِأَدْنَى رَحْمَةٍ
 مِنْ رَحْمَاتِكُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِهَا وَالْقُصُورِ، الدَّاعِى إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْصُرَ عَلَيْكُمْ
 سَعَادَةَ الْقُصُورِ، وَيُدْثِّلَ بَعْزَ طَاعَتِكُمْ أَنْفَ الْأَسَدِ الْمَهْصُورِ، وَيُبْقِيَ الْمَلِكَ فِي عَقَبِكُمْ
 إِلَى يَوْمٍ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ . فَلَان .

من الصَّريح المقدس: وهو الذى تعددت على المسلمين حقوقه، ووسطع نوره وتلألأ
 شُرُوقُه، وبلغ مجده السماءَ لما بَسَقَتْ فروعه ورَسَخَتْ عُرُوقُه، وعظمَ بَتُّوْكُمْ خَفَرُه
 فما فوق البسيطة ففخر يفوقه؛ حيثُ الجلالُ قد رَسَتْ هِضَابُه، والمَلِكُ قد سِرَتْ
 بأستار الكعبة الشريفة قِبَابُه، والبيتُ العتيقُ قد أُخِيفَ الملاحِدُ الإِمامية أثوابُه،^(١)
 والقرءان العزيزُ ترتَّلَ أَحْزَابُه، والعملُ الصالحُ يرتفعُ إِلَى اللَّهِ ثَوَابُه، والمستجيرُ يخفى بَاطْنُه
 سُؤْالُه فيَجْهَرُ بَعْرَةُ العِزِّ جَوَابُه؛ وقد تَفَيَّأَ مِنْ أَوْرَاقِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ حَديقُه، وَخَمِلَه
 أَنَيْقُه، وَحَطَّ بِجُودِيٍّ الْحَقِّ نَفْسًا فِي طُوفَانِ الضَّرِّ غَرِيْبُه، وَلَتَحَفَّ بِرَقِّ الْهَيْمَةِ الَّذِي
 لَا تَهْتَدِي لِلنَفْسِ فِيهَا إِلَّا بِهِدَايَةِ اللَّهِ طَرِيقُه، وَأَعْتَرَّ بَعْزَ اللَّهِ وَقَدْ تَوَسَّطَ جَيْشُ الْحَرَمَةِ
 الْمَرِيئِيَّةَ حَقِيقُه، إِذْ جَعَلَ الْمَوْلَى الْمُقَدَّسَ الْمَرْحُومَ أَبَا الْحَسَنِ مُقَدِّمَه وَأَبَاهُ وَجَدَه
 سَقَاهُ الْمَوْلَى الْكَرِيمُ بِهَذَا الْمَجْدِ سَيْبَ رُحْمَاهُ، وَطَنَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّضَا فُسْطَاطًا، وَأَعْلَى
 بِهِ يَدَ الْعَنَايَةِ الْمَرِيئِيَّةَ أَهْتَامًا وَأَغْنَبَاطًا؛ وَحَرَّرَ لَهُ أَحْكَامَ الْحَرَمَةِ نَصَابًا جَلِيًّا وَأَسْتِنَابًا،
 وَضَمَّنَ لَهُ حُسْنَ الْعُقْبَى الْإِتْرَامَا وَأَسْتِرَاطًا؛ وَقَدْ عَقَدَ الْبَصَرَ بِطَرِيقِ رَحْمَتِكُمُ الْمُنْتَظَرَةَ
 الْمُرْتَقَبَةَ، وَمَدَّ الْيَدَ إِلَى اللَّطَائِفِ بِشَفَاعَتِكُمُ الَّتِي تُكَفِّلُ يَعْتَقُ الْمَالَ كَمَا تُكَفِّلُ يَعْتَقُ
 الرَّقَبَةَ، وَشَرَعَ فِي الْمَرَاحِ بِيْدَانِ نِعَمِكُمْ بَعْدَ اقْتِحَامِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ؛ لَمَّا شَفَتِ الْآذَانَ
 الْبَشْرَى الَّتِي لَمْ يَبْقَ طَائِرٌ إِلَّا سَجَعَ بِهَا وَصَدَحَ، وَلَا شِهَابٌ دُجِنَتْ إِلَّا أَقْتَبَسَ مِنْ نُورِهَا
 وَأَقْتَدَحَ، وَلَا صَدْرٌ إِلَّا أَنْشَرَحَ، وَلَا غُصْنٌ عَطَفَ إِلَّا مَرَّحَ؛ بُشْرَى الْفَتْحِ الْقَرِيبِ،

وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب ، ونبا الصنع العجيب ، وهداية السميع المحيب :
فتح تلمسان الذى قلده المناير عقود الإبتهاج ، ووهب الإسلام منيحة النصر غنية
عن الهياج ، وألحف الخلق ظلاً ممدوداً ، وفتح باب الحج وكان مسدوداً ، وأقر
عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وأضرع بسيف الحق جباهاً
أبيةً وخدوداً ، وملكمكم حق أبيكم الذى أهان عليه الأموال ، وخاض من دونه
الأهوال ، وأخلص فى الصراعة والسؤال ، من غير كد يغمز عطف المسره ، ولا جهد
يكد صفو النعم الثره ، ولا حصر ينفض به المنجنيق دوابته ، ويظهر بتكرار
الركوع إنابته .

فالحمد لله الذى أقال العتار ، ونظم بدعوتكم الانتشار ، وجعل ملككم يحدد
الآثار ويأخذ النار . والعبد يبنى مولاه ، بما أنعم الله به عليه وأولاه ، وما أجدده
بالشكر وأولاه ! فاذا أجال العبد قداح السرور فللعبد المعلى والرقيب ، وإذا استهموا
حظوظ الجدل فى القسم الوافرة والنصيب ، وإذا اقتسموا فريضة شكر الله تعالى
فى الحظ والتعصيب ، لتضاعف أسباب العبودية قبلى ، وترادف النعم التى عجز
عنها قولى وعملى ، وتقاصر فى آتغاء مكافأتها وجدى وإن تطاول أملى ، فقامكم
المقام الذى نفس الكربة ، وآنس الغربة ، ورعى الوسيلة والقربة ، وأنعش
الأرماق ، وفك الوثاق ، [وأدر الأرزاق ، وأخذ على الدهر بالاستقالة بالعهد والميثاق]^(١)
وان لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ، ويمثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا
والسناء ، ويمد بسبب الدار إلى تلك السماء ، فقد باشر به اليد التى يمن مولاي
لندكر تقبيلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكملها ، ووقفت بين
يدى ملك الملوك الذى أجال عليها القداح ، ووصل فى طلب وصالها المساء بالصباح .

وكان فتحه إياها أبا عُدْرَةَ الْإِفْتِتَاحِ ، وقلتُ يهنيك يا مولاي رُدُّ ضَالَّتِكَ الْمَنْشُودَةِ ،
 وَخَبْرُ لَقَطَتِكَ الْمَعْرِفَةِ الْمَشْهُودَةِ ؛ [وَدَالَتِكَ الْمُدُودَةِ] ^(١) فَقَدْ أَسْتَحَقَّهَا وَارْتُكَّ الْأَرْضَى ،
 وَسَيُفُكُ الْأَمْضَى ؛ وَقَاضَى دَيْنِكَ ، وَقَرَّةُ عَيْنِكَ ؛ مُسْتَقْدَرِكُ دَارِكَ مِنْ يَدِ غَاصِبِهَا ،
 وَرَادُّ رَتَبَتِكَ إِلَى مَنَاصِبِهَا ، وَعَاصِرُ الْمَشْوَى الْكَرِيمِ ، وَسِرُّ الْأَهْلِ وَالْحَرِيمِ .

مولاي ! هذه تلمسان قد أطاعت ، وأخبار الفتح على وَلَدِكَ الْحَبِيبِ إِلَيْكَ
 قد شاعت ، وَالْأُمُّ إِلَى هَنَائِهِ قَدْ تَدَاعَتْ ؛ وَعُدُوكُ وَعُدُّهُ قَدْ شَرَّدَتْهُ الْخَافَةُ ،
 وَأَنْضَافَ إِلَى عَرَبِ الصَّحْرَاءِ نَفَضَتْهُ الْإِضَافَةُ ؛ وَعَنْ قَرِيبٍ نَتَحَكَّمُ فِيهِ يَدُ أَحْتِكَامِهِ ،
 وَتُسَلِّمُهُ السَّلَامَةُ إِلَى حِمَامِهِ ؛ فَلْتَطِبْ يَا مَوْلَايَ نَفْسُكَ ، وَلْيَسْتَبْشِرْ رَمْسُكَ ، فَقَدْ نَمَتْ
 بَرَكَتُكَ وَزَكَّى غَرَسُكَ . نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُورِدَ عَلَى ضَرِيحِكَ مِنْ أَنْبَاءِ نَصْرِهِ مَا تُنْفِخُ لَهُ
 أَبْوَابُ السَّمَاءِ قُبُولًا ، وَيُرَادِفُ إِلَيْكَ مَدَدًا مَوْصُولًا ، وَعَدَدًا آخِرَتُهُ خَيْرُكَ مِنَ الْأُولَى ،
 وَيَعْتَرِيهِ بَرَكَةُ رِضَاكَ ظَنًّا وَحُلُولًا ، وَيُضْفِي عَلَيْهِ مِنْهُ سِتْرًا مُسْدُولًا .

وَلَمْ يَقْنَعِ الْعَبْدُ بِخِدْمَةِ النَّثْرِ ، حَتَّى أَجْهَدَ الْقَرِيحَةَ الَّتِي رَكَضَهَا الدَّهْرُ وَأَنْضَاها ،
 وَأَسْتَشْفَى الْحَادِثَ الْجَلَلَ وَتَقَاضَاها ؛ فَلَقَّقَ مِنْ خِدْمَةِ الْمَنْظُومِ مَا يَتَغَمَّدُ حُلُمُكَ
 تَقْصِيرَهُ ، وَيَكُونُ إِغْضَاؤُكُمْ إِذَا لَقِيَ مَعَزَةَ الْعُتْبِ وَلِيَّهُ وَنَصِيرَهُ ؛ وَإِحَالَةَ يَا مَوْلَايَ عَلَى
 اللَّهِ فِي نَفْسِ جَبَرِهَا ، وَوَسِيلَةَ عَرَفَهَا بِمَجْدِهِ فَمَا أَنْكَرَهَا ، وَحَرَمَةَ بَصْرِحِ مَوْلَايَ وَالِدِهِ
 شَكَرَهَا ؛ وَيَطَّلَعَ الْعَبْدُ مِنْهُ عَلَى كَمَالِ أَمَلِهِ ، وَتُجْحِ عَمَلَهُ ؛ وَتَسْوِغِ مَقَرَّحَهُ ، وَتُتِمِّ
 مَطْمَحَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى :

[يَا أَبْنَ الْخَلَائِفِ يَا سَيِّدَ مُحَمَّدٍ * يَا مَنْ عَلَاهُ لَيْسَ يَحْصُرُ حَاصِرُ !
 أَبْشِرْ فَاَنْتَ مَجْدُ الْمَلِكِ الَّذِي * لَوْلَاكَ أَصْبَحَ وَهُوَ رَسْمٌ دَائِرُ !

مَنْ ذَا يُعَايِدُ مِنْكَ وَارِثُهُ الَّذِي * بَسُوعُودِهِ فَلَكَ الْمَشِيئَةُ دَائِرًا!
 أَلَقْتَ إِلَيْكَ يَدَ الْخِلَافَةِ أَمْرَهَا * إِذْ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا الْوَلِيُّ النَّاصِرُ!
 هَذَا وَبَيْنَكَ لِلصَّبْرِحِ وَبَيْنَهَا * حَرْبٌ مُضَرَّسَةٌ وَبَحْرٌ زَانِحُ!
 مَنْ كَانَ هَذَا الصَّنْعُ أَوَّلَ أَمْرِهِ * حَسِبْتَ لَهُ الْعُقْبَى وَعَزَّ الْآخِرُ!
 مَوْلَايَ عِنْدِي فِي عِلَاكَ مَحَبَّةٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ضَمَائِرُ!
 قَلْبِي يَحْدِثُنِي بِأَنَّكَ جَائِرٌ * كَسَرِي وَحَظِّي مِنْكَ حَظٌّ وَافِرُ!
 بَثْرَى وَجُودِكَ قَدْ حَطَطْتُ قَرِيحَتِي * وَوَسَّيْلَتِي لِعِلَاكَ نُورٌ بَاهِرُ!
 وَبَذَلْتُ سَعْيِي وَاجْتِهَادِي مِثْلَ مَا * يُلْقَى لِمُلْكِكَ سَيْفُ أَمْرِكَ عَامِرُ!
 وَهُوَ الْمَوْلَى الَّذِي آفَقْتَمَ الرَّدَى * وَقَضَى الْعَزِيمَةَ وَهُوَ سَيْفُ بَاطِرُ!
 وَوَلِيَّ جَدِّكَ فِي الشَّدَائِدِ عِنْدَ مَا * خَذَلَتْ عُيُلَاهُ قِبَائِلٌ وَعِشَائِرُ!
 فَاسْتَهْدَ مِنْهُ الشُّجْعَ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ * فِي كُلِّ مُعْصِلَةٍ طَيْبٌ مَاهِرُ
 إِنْ كُنْتُ قَدْ عَجَلْتُ بَعْضَ مَدَائِحِي * فَهِيَ الرِّيَاضُ وَالرِّيَاضُ بَوَا كَرِ^(١)

الطرف الرابع عشر

(فِيَا يَخْتَصُّ بِالْأَجُوبَةِ الصَّادِرَةَ عَنِ الْمُلُوكِ وَإِلَيْهِمْ)

والرسم فيه أنه إن كان الجواب صادرًا عن ملك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع، وخطابُ المكتوب إليه بالكاف. وإن كان عن بعض أتباع الملك إليه، فالتعبير عن المكتوب عنه بالخدام، أو العبد، أو المملوك ونحو ذلك، ومخاطبةُ الملك بما تليقُ به مخاطبةُ الملوك. ثم الجوابُ تارةً يكون الابتداء [فيه] بنفس وورود

(١) لم يذكر في الأصل ما أشار إليه من النظم وقد عثرنا عليه في "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء

المكتبة ، وقد تقدّم في مثل ذلك في الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكتبة
يبتدأ فيها بلفظ عَرَض . أما الأجوبة المتعلقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض :
وصل ، أو ورد ، أو نحو ذلك .

ثم هي على ضربين :

الضرب الأول

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق ، وفيه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بلفظ : « كتابنا » و « وصل كتابك »)

ويذكر تاريخ الكتاب ، ويشار إلى ما فيه ، ثم يؤتى بال جواب إلى آخره ، ويختتم
بإستراحة الرأي في ذلك الأمر ، كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صمصام الدولة
إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد ، وهو مقيم بنصيبين على محاربة
باد الكردى .

كتابنا ، ووصل كتابك مؤرخا بيوم كذا ، تذكر فيه ماجرى عليه أمرك في الخدمة
التي نيّطت بكفائتك وغنائك ، ووكلت إلى تدبيرك ورأيك : من رد باد الكردى
عن الأعمال التي تطرّقها ، وحدّث نفسه بالغلب عليها ، وتصرفك في ذلك
على موجبات الأوقات ، والتردد بين أخينا وعدتنا أبى حرب زياد بن شهرا كويه
وبينك من المكتبات ، وحسن بلائك في تحيفه ، ومقاماتك في حصّ جناحه ، وآثارك

فى الأتقضاى على فرىق بعد فرىق من أصحابه ؛ وأضطارك إياه بذلك وبضطوب
الرىاضات التى أستعملتها ، والىاسات التى سُسْتُ أمره بها ، إلى أن نزل عن وُورة
المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ؛ وتراجع
عن السُّوم إلى الأقتصار وعن السَّرف إلى الأقتصاد ، وعن الإباء إلى الإتياد ،
وعن الإعتىاص إلى الإذعان . وأن الأمر استقر على أن قِلَّت منه الإنابة ، وبذَلَّت
له فىما طَلَب الإستجابة ؛ وأستُعِيد إلى الطاعة ، وأستضيف إلى الجماعة ، وتصرَّف
على أحكام الخدمه ، وجرى مجرى من تَضَمَّه الجملة ؛ وأخذت عليه بذلك العهود
المستحكمة والأيمان المغلظة ؛ وجُدِّدت له الولاية على الأعمال التى دخلت فى تقليده ،
وضرت عليها حدوده ؛ وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أخينا وعُدَّتْنا أبى حرب [زياد بن شهرأ كويه ^(١)] مولى أميرالمؤمنين
تردُّ علينا ، وتصلُّ إلينا ؛ مشتملة على كُتُبِكَ إليه ، ومطالعائك إياه ؛ فنعرف من ذلك
أحسن أثرِكَ وحزم رأيِكَ ؛ وسداد قولِكَ ، وصواب أعتادِكَ ؛ ووقوع مضارِبِكَ
فى مفاصلها ، وإصابة مراميك أغراضها ؛ وما عدوت فى مذهبِكَ كلَّها ، ومتقلباتِكَ
بأسرها ؛ المطابقة لإيثارنا ، والموافقة لما أمرت به عنا ؛ ولا خلت كتبُ أخينا
وعُدَّتْنا أبى حرب من شكرٍ لسعيِكَ ، وإحمادٍ لأثرِكَ ؛ وثناءٍ جميلٍ عليك ، وتلويح
وإفصاح بالمناصحة الحقيقة بك ، والموالاة اللازمة لك ؛ والوفاء الذى لا يُستغرب
من مثلك ، ولا يُستكثرُ من حلٍّ فى المعرفة محلك ؛ ولئن كنت قصدت فى كل نهج
أستمررت عليه ، ومعدِّل عدلت إليه ؛ مكافئة هذا الرجل ومراعمته ، ومصابرته
ومنازلته ؛ والتماس الظهور عليه فى جميع ماتراجعته من قول ، وتنازعته من حدِّ ؛

فقد اجتمع لك إلى إحمادنا إياك ، وأرتضائنا ما كان منك ، المنة عليه إذ سكتت جاشه ، وأزلت آسئحاشه ، وأستلثته من دنس [لباس] ^(١) المخالفه ، وكسوته من حسن شعار الطاعة ، وأطلت يده بالولاية ، وبسطت لسانه بالحمه ، وأوفيت به على مراتب نظرائه ، ومنازل قُرَناؤه ، حتى هابوه هيبة الولاه ، وأرتفع بينهم عن مطارح العصاه .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعدتنا أبي حرب مشكورا ، وعلى هذا الرجل مانا وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثابا مأجورا ، وإياه نسأل أن يجري علينا عادته الجارية في إظهار رايائنا ، ونصرة أوليائنا ، والحكم لنا على أعدائنا ، وإنزالهم على إرادتنا ، طوعا أو كرها ، وسلمأ أو حربا ، فلا يخلو أحد منهم أن تحيط لنا بعنقه ربة أسر ، أو مئة عفو ، إنه جل شأوه بذلك جدير ، وعليه قدير . ويجب أن تُنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبه على باد الكردى إن كنت لم تُنفذها إلى أوان وصول هذا الكتاب : لتكون في خزانتنا محفوظة ، وفي دواويننا منسوخه ، وأن تُصرف في أمر رسله وفي بقية [ان كانت بقيت من أمره] ^(١) على ما يرئمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حرب ، فرأيك في العمل على ذلك ، وعلى مطالعته بأخبارك وأحوالك ، وما يحتاج إلى عمله من جهتك موقعا ، إن شاء الله تعالى .

الاسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر في ترتيبه على نحو ما تقدم في الأسلوب الذي قبله .

كما كتب أبو إسحاق الصابي عن صمصام الدولة أيضا إلى أبي العلاء عبيد الله ابن الفضل في جواب كتابه الوارد عليه بالظفر بأهل الاقتباس ما صورته :

(١) الزيادة من "مختارات الصابي" .

وصل كتابك - أدام الله عزك - المؤرخ بوقت الظهر من أمسنا وهو يوم كذا ،
تذكر ماسمَّه الله لك ، وأجراه على يدك ؛ ويمن تديرك ، وبركة خدمتك : من الإيقاع
بالعصاة أهل الاقتباس ، وإذاقتهم وبال ما كانوا عليه : من خلع الطاعة ، وشن
الغارة واستباحة المحارم ، وأرتكاب العظام ؛ وإثخانك فيهم قتلا وأسرا ، وتسریدا
وتشتيتا ؛ وفهمناه وحمدنا الله عليه ، وشكرنا ما أولى فيه ، وحسن منا موقع أثرك ،
وتضاعف فيه جميل معتقدنا فيك ولك ؛ وأرضينا فعل الأولياء في الخُفوف إليه ،
والمناصحة فيه ؛ وسبيلك أن تبحث عن أموال هؤلاء القوم وتُمَرَّها ، وتستدرکہا
وتحصِّلها ، وتكتب بما يصح منها ؛ وتقدم بقص أثر المارين حتى تُلحِقَهم بالهالكين ،
وتُشيع الرهبة في سائر شقي الفُرات ، وتوحي طوائف الأشرار والحُرَّاب ، وتُخفي
السبل والساعين في الفساد بالتتبع لهم ووضع اليد عليهم ؛ فإن بحسب النكاية في أهل
الجهل والدعارة سُكون أهل السلامة والاستقامة ؛ فأريك في العمل بذلك والمطالعة
بما يوفِّقك الله له مستأنفا من مثل هذا الفعل الرشيد ، والمقام الحميد ؛ وبسائر
الأُمور التي تَترى عنها وتحتاج إلى معرفة مجاريها ، موقفا إن شاء الله تعالى والسلام .

الجملة الثانية

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية من وزراء الخلفاء الفاطميين

القائمين مقام الملوك الآن من بعدهم)

والذي وقفت عليه منه أسلوب واحد ، وهو الافتتاح بلفظ : «وصل» .

كما كتب بعض كُتَّاب الدولة الفاطمية عن بعض وزراء الحافظ إلى أمين الدولة

زنكي كشنكين ماصورته :

وصل كتابك أيها الأمير الأجل الدال على مصالحته ، المعبّر عن مناصحته ، الشاهد له بمؤنل الحظوة والأثره ، والموضح من أفعاله وخلاله ما لم تزل قضيته مرتسمة في النفوس مصوره ، وعرضنا ما اقترن به من مطالعة المقام المقدس النبوي الحافظي - ضاعف الله أنواره ، وشاد مناره ، وأعز أشياعه وأنصاره - وشفعناه من الثناء على الأمير الاسفهلار بما لم تزل عادتنا جارية به مع من نعلم طاعته ، ونحقق مشايعته ، ونرى باطنه يضاهي ظاهره ، وسره يوافق علانيته ، ووقفنا على ما أنهاه من حال الفرنج المشركين الملعونين ، وما كان من نعم الله تعالى من الظفر بهم ، والإدالة منهم ، والخفض من منارهم ، والتقويض لغمارهم ، والإبادة لفارسهم وراجلهم ، وإرشاد السيوف والسهام إلى مقاتلتهم ، وتطهير الأرض منهم بدمائهم ، والإحاطة بهم عن أيمانهم وشمائلهم ، ومن أمامهم وورائهم ، فابتهجنا بذلك الابتهاج الذي يوجه التوحيد ، وآتته بنا السرور إلى الحد الذي ما عليه مزيد . على أننا كنا نود أن يكون ذلك بصفاحننا وأسنتنا ، وأن يثبتته الله لنا في صحيفتنا ، وإنا لراجون من نعم الله عندنا ، وإحسانه إلينا كما عودنا ، أن يكون من بقي من المذكورين بنا مستأصلا ، ويكون أجر هذه الخاتمة لنا حاصلا . وقد عزم الله لنا عدد وقوفنا على كتابه ، بما خرج به أمرنا إلى جميع من بأعمال الدولة الحافظية خلد الله ملكها . بعيدا ودانها ، وقصصا ونائيا من العساكر المظفرة المؤيدة ، وقبائل العربان المستخلصه ، وكافة الطوائف على اختلاف أنواعها ، وتباين أجناسها ، وتفاوت منازلها ، وتغاير مراتبها ، بأن ينفروا خففا وثقالا ، وربكنا ورجالا ، بقوتهم وتجدتهم ، ووفور عيدهم وعدتهم ، وكثرة آلائهم وأسلحتهم ، وبالغزوات الماضية ، والضامائر الخالصة ، والنيات المستدقة ، والعقائد المتفق ، وفسحنا للتطوعة أن يختلطوا بالمرتقة ، وأمرناهم بمسيرهم متتابعين ، وتوجههم مترادين ، وأن يكونوا كآب متناصرة ، وبحافل متواتره ، وعساكر متواليه ،

لا ترى الأرض منها إلى العدو خالیه ؛ ومن الله نطلبُ مَادَّةَ العون والإسعاد ، ونسأله توفيقاً لما يَقْضِي بتضاعف أجرنا في العاجلة والمعاد . وقد شكرنا الأمير الأسفهم لا ركون ما أنهاه سببا لهذه الغنيمة المتوقعة من فضل الله وإحسانه ، والنصرة لدينه التي تؤملها من جزيل كرمه وأمتنانه ؛ وأضفنا ما اقتضته مطالعته من جَدَانَا وَغِطَّتْنَا ، إلى المستقر عندنا من محبته لنا ، وإيناره الذي لا يُحتاج فيه إلى زيادة على معرفتنا ؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالى .



وكما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى صاحب مكة المشرفة ، جواباً عن كتاب ورد منه عليه في معنى «وصول غلال» بعث بها إلى مكة ماصورته :

وصل كتابك ، أيها الشريف مغرباً عن المشايعة الشائعة أنبأؤها ، والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها ؛ وحسان الخلال ، التي أقسم طرق الحمد إعادتها وإبدائها ، ومكرّمات الآل ، التي تساوى في آقتناء المجد أنبأؤها وآباؤها ؛ وفضائل الإفضال ، التي لا تحف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعبأؤها . ونشر كتابك من محاسنك ما أنطوى ، ووردنا منه منهلأ أروى وأردّه وآرتوى ؛ ووقفنا منه على أثر فضل أشتمل على عين الكرم وأحتوى ، ووقفنا وإياه من الحمد مالا يُخلفه نحن ولا هو مكاناً سوى ؛ فاقتضانا مزيداً في رفع قدره ، واختصاصه من الإنعام بكل غريب الموقع نذره ، وأصرنا كتابه إلى مستقر كاتبه من قلب الودّ وصدره ؛ وكيف لا يكون ذلك وقد أشمخرت لبنته الأنساب ، وخرت الأنصاب ، وسجدت الرقاب ، وردت له بعد ماتوارت بالحجاب ، وشهد بفضل توقيعهم الحرب وبفضل ليلهم المحراب .

فأمّا ما أشار إليه من الشكر على ما سیر من الغلات التي كان الوعد بها علينا نذراً ، وروحنا بإرسالها قلباً وشرحنا بتسييرها صدراً ؛ وأنها حلت ربة الجذب وفكتها ،

وَجَلَّتْ هَبْوَةُ الْقَحْطِ وَكَفَّتْهَا ؛ وَهَوَّنَتْ مَصَابِعَ الْمَسَاغِبِ ، وَخَلَفَتْ سَوَاحِبَ السَّحَابِ ، وَأُطْفِئَتْ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - بَوَارُ النَّوَابِ^(١) ؛ فَقَدْ سُرِّرْنَا بِحَسَنَتِنَا جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ تَسْرِهِ الْحَسَنَةَ ، وَقَدْ نَبَّهْنَا مِنْ سِنَتِنَا لِأَنَّ نَسْتَقِيلَ بِالْحَمْدِ لَوْلَى السَّنَةِ ؛ وَقَدْ قَوَّى النِّيَّةَ وَقَوْمَهَا ، وَأَسْتَرَادَ لَمْ بِلِسَانِ الشُّكْرِ الْفَصِيحِ ، وَتَنَاوَلَ لَمْ بِنَاعِ التَّلَطُّفِ الْفَسِيحِ ، وَأَلْقَحَ لَمْ سَحَابَ مَحَلِّهِ مِنْهَا مَحَلُّ مُلْتَحِجِهَا مِنَ الرِّيحِ ؛ وَأَقْتَضَى مَا يَعْزُضُهُ أَنْ نَحْرَجَ الْأَمْرُ بِأَنْ يَضَاعَفَ الْمَحْمُولُ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَلَا يُحْصَى بِهِ خَاصُّ دُونَ عَامٍ ؛ وَأَمَرْنَا أَنْ يُوَفَّرَ جَلْبُ الْجَلَابِ ، وَتُوَقَّرَ ظُهُورُ الرِّكَابِ ، لِيُجْمَعَ لِلْحَرَمِ الشَّرِيفِ بَيْنَ بَرِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَبَيْنَ حَمْلِ الْبَطْنِ وَالظَّهْرِ ، فَتَظُلَّ السَّنَةُ دُودًا وَلُودًا ، وَيُشَاهَدُ الْمَحَلُّ الشَّرِيفُ وَقَدْ نَأَى عَنْهُ الْمَحَلُّ شَرِيدًا ؛ وَتُحْطَ الْقُلُوعُ عَمَّا يُحْطُ عَنْهُ أَمْثَالُهَا مِنَ السَّحَابِ ، وَتَسْتَرِيحُ الْأَنْفُسُ اللَّوَاغِبِ ، فَأَمَّا مَا أَلْقَاهُ إِلَى رَسُولِهِ ، فَقَدْ أَسْمَعَ مَا أَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ، وَأَعِيدَ بِمَا يُعِيدُهُ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ تَكَاثَرَتْ بَوْلَاءَ الشَّرِيفِ الْأَشْهَادُ ، فَغَنَى عَنِ الْأَسْتِشَادِ ، وَأَغْنَتْهُ الْحُطُوةُ بِجَمِيلِ رَأْيِنَا عَمَّا نَأَى أَخَذَهُ لَشَفْعَةِ الْعِطَاءِ بَلْ لَشَفَاعَةِ الْأَجْتِهَادِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الجملة الثالثة

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك القرب)

وهي على النحو المتقدم ، وربما صُدِّرَ بلفظ : « قد » ونحوها .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم في جواب كتاب ورد عليه بطاعة بلد .

قد وصل كتابكم - وصل الله معونتكم وكلاءكم - تذكروا ما تقرّر عندكم هنالك من أحوال تلك الجهة ، وباشروهم من أمورهم ؛ وأتم عندنا بحلّ الصّدق ، ومكان الإيثار للحق . وقد رسمنا لكم أن تُثبتوا في أهل تِلْكَ الجهاتِ كلّها حميد الرأى

فيهم ، وحسن القبول لإنايتهم ، وقصد الرِّفقِ بخاصَّتِهِم وعامَّتِهِم ؛ وأنا قد تقبَّلنا أوْبتهم ،
واعتفَرنا زِلَّتَهُم ؛ وأولِيكمُ المُتَشَبِّثون بسبب الذَّمِّام ، عَرَّفوهم أنكم رَغِبْتُمْ في شُمُول الصَّفْح
عنهم ، والإقالة لما كان منهم ؛ فَاسْعَفْنَا رَغْبَتَكُمْ فيهم ، وأدخلناهم في العَفْو مع غيرهم ؛
وبذلنا لهم الأمان ، وأغضينا عن جميع ما كان ؛ فعرفوهم بهذا كله ، وأخبروهم عَنَّا
بإعطاء التَّامِينِ لجميعهم وبذله ؛ وإن كان أطيبَ لنفوسهم أن يَصِلَهم مَكْتُوبٌ بِذلك
عرفتمونا ، ووجَّهناه إليكم . وأقيموا أتمَّ هُنالك أياماً خِلالَ ما يَصِلُكم من مُتَشاوِلِ
الأحوال ما تُطالِعُون به ، وتُخاطَبُون بما تَعْتَمِدُونَه إن شاء الله تعالى . أدام الله كرامتكم .
أُشْرتم في خطابكم إلى أنَّ عندكم من تلك الأحوال ما تذكرونه مشافهةً ، وربما
يكون ذلك أمداً يَبْنِي عليه نظر ، أو يتوجَّه بحسبه عَمَل ؛ فمن الجيِّد أن تَكْتُبوا
بشرحه ، إن شاء الله تعالى والسلام .

الضرب الثاني

(الأجوبة الواردة على الملوك)

وهي على نحو ما تقدَّم في الأجوبة الصادرة عن الملوك من الابتداء بلفظ :
«وصل» إلا في الخطاب ، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ «الخادم أو المملوك
أو العبد» . ويخاطبُ الملك المكتوب إليه بمولانا أو مولانا الملك أو نحو ذلك ؛
وربما كتب بَدَل وصل : ورد .

كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» في جواب
كتاب ورد عليه مخبراً فيه بالحركة للقاء العدو ماصورته :

ورَدَ على الملوك - أدام الله أيام المجلس العالی المَلِكِي الناصري - ، ونصره على أعدائه ،
وملكه أرضه بعدل حكم سمائه ، ولا أخلى من نعمتي خيره ونظره قلوب وعيون

أوليائه، وأعزَّ الإسلام ورفع عن أهله البلوى بلوائه . الكتب القديمة التي تسر الناظرين من شعارها الأصفر، وتبشّر الأولياء إن كانوا غائبين مع الغيب بأن حظهم حاضر مع الحضر؛ وقد كانت الفترة قد طالت أيامها، وأستطالت آلامها، والطُرقات قد سبق إلى الأنفُس إيهامها .

فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأولى من النعمة ما أشتري الحمد بلا ثمن؛ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ووعد [الله] سبحانه منتظر، إذ يقول في كتابه : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وصدق صلى الله عليه وسلم في قوله : ”إِنَّ اخْتِبَارَ اللَّهِ لِلْؤَمِنِ خَيْرٌ مِنْ اخْتِيَارِهِ، وَإِنَّ مَوَاضِعَ الْأَمَلِ لِلْعَبْدِ خَيْرٌ مِنْهَا مَوَاقِعُ أَقْضِيَةِ اللَّهِ وَأَقْدَارِهِ“ . فقد كانت حركة أحتاجت إليها البلاد التي انفصل عنها، والبلاد التي قدم عليها . أما المصرية منها فبكونها على عِدَةٍ من تَجْدته آجلا، وأما الشامية فبكونها على ثقة من نصره عاجلا؛ فقد تماسكت من المسلمين الأرماق، وقد آتقطعت من المشركين الأعناق :

تِهَابُ بكَ الْبِلَادُ تُحْمَلُ فِيهَا * وَلَوْلَا اللَّيْثُ مَا هِيبَ الْعَرِينُ !

وعرض المملوك ماوصل إليه من مكاتبات المولى على العلم العادلي وأدركها تحصيلا، واحاط بها جملة وتفصيلا؛ والمولى - خلد الله ملكه - فكل ما أشار إليه من عزيمة أبداه، ونية أمضاها، فهو الصواب الذي أوضح الله له مسالكه، والتوفيق الذي قرب الله عليه مداركه؛ ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، ومن استخاره بين له الرشد من النعْي؛ والله تعالى يجعل له من كل حادثة نَحْوَهُ، ويكتب أبعْرَهُ في كل حركة ونَفْسٍ وخطوه . إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني

(المكاتباتُ الصادرةُ عنهم إلى ملوك الكُفَر، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الابتداءات، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بنى بويه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفتَح المكاتبة بلفظ ”كُتِبَ أَوْ كُتِبْنَا إِلَى فُلَانٍ“ ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك ، ويختم بقوله : فَإِنْ رَأَى ذَلِكَ فَعَلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن القائد أبى الفوارس ختور التركى المعزى ، إلى وردس بن قنبر المعروف بعسقلاروس .

[كُتِبَ إِلَى] ملك الروم الفاضل ، الجليل ، النبيل ، الخطير ، أدام الله كفايته وسلامته ، ونعمته وسعادته ، وعافيته وحراسته . من الحضرة الجليلة بمدينة السلام لثمان ليالٍ خلونَ من ذى الحجة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، وهو اليوم التاسع من آذار ، عن شمول السلامه ، وعموم الاستقامه ، وصلاح حالي في ظل الدولة المنصوره . والحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له ، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما .

ووصل كتاب مولانا ملك الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمرج لارضة بتاريخ التاسع من حريّان ، وفهمته وجلّ عندي موقعه ، وعظم في نفسي خطره ،

وَحَدَّثَ اللهُ عَلَى مَا شَهِدَ بِهِ مِنْ أَنْتِظَامِ أَحْوَالِهِ ، وَأَطْرَادِ أُمُورِهِ ؛ وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَتِمَّ النِّعْمَةُ عَلَيْهِ ، وَيَزِيدَ فِيهَا لَدَيْهِ ، وَيُوَاصِلَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ ، وَيُطِيلَ مَدَّتَهُ ، فِي أَتَمِّ رُشْدٍ وَهَدَايَةٍ ، وَأَرْفَعَ قَدَمَ وَمِثْلَةٍ ، وَأَعْلَى خَطَرٍ وَرَتَبَةٍ ، بِمَنَّةٍ وَطَوْلِهِ ، وَجُودِهِ وَمَجْدِهِ .

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سَيِّدُنَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ : مِنْ مُقَامِهِ عَلَى الْعَهْدِ ، وَافْتِقَارِهِ إِلَى الْمِيلِ وَالْوُدِّ ، فَذَاكَ يَوْجِبُ فَضْلَهُ الْبَارِعَ ، وَكِرَمَهُ الشَّائِعَ ، وَخِلَالَ الْخَيْرِ إِلَى أَهْلِهِ اللَّهُ لَهَا ، وَخَصَّهُ اللَّهُ بِهَا ، وَبِاللَّهِ أَحْلَفَ إِنِّي مَا خَلَوْتُ مِنْذَ أَفْتَرَقْنَا مِنْ مِطَالَعَةِ أَخْبَارِهِ ، وَتَبَعِ آثَارِهِ ، وَاسْتِعْلَامِ جَمَارِي شُؤْنِهِ ، وَالسَّرُورِ بِكُلِّ مَاتَمٍّ لَهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى كَأَنِّي حَاضِرُهُ ، وَضَارِبٌ بِأَوْفَرِ سَهْمٍ فِيهِ ، بَلْ مَخْصُوصٌ بِجَمِيعِهِ . وَاللَّهُ يُجْزِيهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا أَوْلَاهُ وَعَوَّدَهُ ، وَلَا يُخْلِيهِ مِنَ الصَّنْعِ الْجَمِيلِ فِيمَا أَعْطَاهُ وَقَلَّدَهُ ، بِرَحْمَتِهِ .

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَ وُرُودِ رَسُولِي فِي الدَّفْعَةِ الْأُولَى عَلَى غَايَةِ الْغَمِّ وَشُغْلِ الْقَلْبِ بِسَبَبِ الْغَدْرِ الَّذِي لَحِقَهُ مِنْ عَدُوِّهِ الَّذِي أَظْفَرَهُ اللَّهُ بِهِ ؛ وَأَنْهَيْتُ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ إِلَى الْمَلِكِ السَّعِيدِ الْمَاضِي ، شَرَفِ الدَّوْلَةِ ، وَزِينِ الْمُلْكِ ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَاشْتَغَلَ قَلْبُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهِ ، وَعَمِلَ عَلَى إِنْفَازِ الْعَسَاكِرِ لِنُصْرَتِهِ ؛ ثُمَّ أَتَى مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ فِي أَمْرِهِ مَا قَدَّ عَرَفَهُ .

وَلَمَّا اتَّصَبَ فِي الْمَمْلَكَةِ مَوْلَانَا السَّيِّدُ بِهَاءِ الدَّوْلَةِ ، وَضِيَاءُ الْمُلْكِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - شَرَحْتُ لَهُ مَا جَرَى قَدِيمًا عَلَى سِيَاقَتِهِ ، وَمَهَّدْتُ الْحَالَ عِنْدَهُ ، وَوَجَدْتُهُ - أَدَامَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - مُعْتَقِدًا لِسَيِّدِنَا مَلِكِ الرُّومِ الْجَلِيلِ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - أَفْضَلَ آعْتِقَادٍ ، وَسُرَّ بِمَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ أُمُورُهُ ، وَتَجَزَّتْ الْكُتُبُ إِلَى مُوَصِّلِهَا الرُّسُولَ حَفْظُهُ اللَّهُ ؛ وَسَمِعْتُ مِنْهُ مَا كَانَ تَحْمَلُهُ عَنْ سَيِّدِنَا مَلِكِ الرُّومِ أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ ، وَأَخْرَجْتَ مَعَهُ صَاحِبِي أَبَا الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ ، وَحَمَلْتُهُمَا جَمِيعًا مَا يُنْهِيَانِهِ إِلَيْهِ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ الَّتِي يَرَى عَرَضُهَا وَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا .

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل - أدام الله بركته - تعجيل رده إلى ، فانه ثقتي ، ومن أسكنُ إليه في أموري ؛ وأن يتفضل ويكلفني حوائجه ومهماته ، وأمره ونهيه لأقوم في ذلك بالحق الواجب له ، فان رأى سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل ، الخطير النبيل ؛ أن يعتمدني من ذلك بما يتضاعف عليه شكرى ، وتجلُّ النعمة فيه عندي ، ويشاكل الحال بينه وبينى ، فعل إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفتُ عليه من ذلك أسلوب واحد : وهو الابتداء بـ «أما بعد» والخطابُ فيه بالملك ، والاختتامُ بالدعاء .

كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بردويل أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ مستولٍ على بيت المقدس وما معه ، معزياً له في أبيه ومهتئاً له بجلوسه فى الملك بعده ، ماصورته :

أما بعد — خصَّ الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالحدِّ الصاعد ، والسَّعد الساعد ؛ والخطَّ الزائد ، والتوفيق الوارد ؛ وهناه من ملك قومه مأورته ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصا^(١)ديق ، والنَّعي الذى ودَّنا أنَّ قائله غيرُ صادق ؛ بالملك العادل الأعزَّ الذى لقاه الله خيرَ مالقٍ مثله ، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ؛ معزِّ بما يجب فيه العزاء ، ومتأسِّف لفقده الذى عظمَ به الأرزاء ؛ إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ؛ وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه

(١) جمع جمع لصديق مفردة أصدقاء .

النعمتين : الْمَلِكَ وَالشَّبَابَ ، فهنيئاً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده الذي حَقَّ له الفداء لو جاز ؛ ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائماً عنا بإقامة العزاء من لسانه ، وَوَصَفَ ما نالنا من الوَحْشَةِ لفراق ذلك الصديق وَخُلُوْ مَكَانِهِ ؛ وكيف لا يَسْتَوْحِشُ رَبُّ الدار لفرقة جيرانه . وقد آسفتحننا الملك بكتابنا وارتبادنا ، وودنا الذي هو ميراثه عن والده من وِدَادنا ؛ فَلْيَلَقَ التَّحِيَّةَ بِمَثَلِهَا ، وَلْيَأْتِ الحُسْنَةَ لِيَكُونَ من أهلها ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ كَمَا كُنَّا لِأَبِيهِ : مَوْدَّةً صَافِيَةً ، وَعَقِيدَةً وَافِيَةً ؛ وَحُبَّةً ثَبَتَ عَقْدُهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْوَفَاءِ ، وَسِرِّيَّةً حَكَمَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمُؤَاوَاةِ ؛ مَعَ مَا فِي الدِّينِ مِنَ الْمَخَالَفَاتِ . فَلْيَسْتَرْسِلْ إِلَيْنَا أَسْتَرْسَالَ الْوَائِقِ الَّذِي لَا يَجْعَلُ ، وَلْيَعْتَمِدْ عَلَيْنَا أَعْتِمَادَ الْوَلَدِ الَّذِي لَا يَجْعَلُ عَنِ الْوَالِدِ مَا تَحْمَلُ ؛ وَاللَّهُ يُدِيمُ تَعْمِيرَهُ ، وَيَحْرُسُ تَأْمِيرَهُ ؛ وَيَقْضِي لَهُ بِمُوافقة التوفيق ، وَيُلْهِمُهُ تَصَدِيقَ ظَنِّ الصَّدِيقِ .

الجملة الثالثة

(في الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب)

والرسم فيه أن تَفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ : « كَاتِبْنَا » والمخاطبةُ بنونِ الجمعِ عن المَكْتُوبِ عنه وميم الجمعِ عن المَكْتُوبِ إليه ، والاختتامُ بالسلام مع الدعاء بما يليق .
كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن أبي جَمِيلِ زِيَّانَ ، إلى ملك قَشْتَالَةِ من بلاد الأندلس في مُرَاوَدَةِ الصُّلْحِ :

كَاتِبُنَا إِلَيْكُمْ - أَسْعَدَكُمُ اللَّهُ بِرِضَاهُ ، وَأَدَامَ عِزَّتَكُمْ وَكَرَامَتَكُمْ بِتَقْوَاهُ - مِنْ مُرْسِيَّةٍ ، وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا شَيْءَ كَمِثْلِهِ ، وَنُلْجَأُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُوزِعَنَا شُكْرَ إِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ - وَعِنْدَنَا لِحَنَابِكُمُ الْمُرْفَعِ تَكْرِيماً نَسْتَوْفِيهِ ، وَمَبَرَّةً نَنْتَهِي إِلَى الْغَايَةِ فِيهَا ، وَعَلَمُنَا

بِحِلْمِكُمُ الشَّهِيرِ، وَكُتَابِكُمُ الْخَطِيرِ، يَسْتَدْعِي الزِّيَادَةَ مِنْ ذَلِكُمْ وَيَقْتَضِيهَا؛ وَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْمُعْتَادِ، وَجَمِيلِ صُنْعِهِ فِي أَنْتِظَامِ الْكَلِمَةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، مَا أَكْتَفَيْتُهُ الْعِصْمَةَ، وَكُلَّتْ بِهِ النِّعْمَةُ وَالْمِنَّةُ؛ وَتَيَسَّرَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ فَتَحُّ أَقْرَبِ الْعَيُونِ، وَرِضْيَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ مَطَالَعَتُكُمْ بِهِ مِمَّا آمَرْنَا بِتَقْدِيمِهِ، وَرَأَيْنَا أَنْ نَحْفَظَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُرْعِيَّةِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْجَمْلَةِ [حَدِيثِهِ وَقَدِيمِهِ] وَحِينَ تَرْجَحُتُ شَاظِبَتُكُمْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَمُفَاوَضَتُكُمْ فِي هَذَا الشَّانِ؛ رَأَيْنَا مِنْ تَكَلُّمِ الْمَبْرِّ، وَتَوْفِيَةِ الْعَنَاءِ الْبَرِّ، أَنْ نُنْفِذَ إِلَيْكُمْ مِنْ يُشَافِهُكُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَيَذَكِّرُكُمْ مِنْ قَصْدِنَا مَا نُولَعُ بِهِ وَنُعْنِي بِهِ، وَهُوَ فُلَانٌ فِي ذِكْرِ السَّلَامِ وَمَحَاوِلَتِهَا، مَا يَتَأَذَى مِنْ قِبَلِهِ عَلَى الْكَمَالِ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِنْ رَأَيْتُمْ إِذَا أَنْصَرَفَ مِنْ عِنْدِكُمْ، أَنْ تَوَجَّهُوا زِيَادَةً إِلَى مَا تُلْقُونَهُ إِلَيْهِ مِنْ رِجَالِكُمْ وَخَاصَّتِكُمْ؛ فِي مَعْنَى هَذَا الْعَهْدِ وَإِحْكَامِهِ، وَمَحَاوِلَتِهِ وَإِبْرَامِهِ؛ فَعَلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا نَرْجُو أَثَرَهُ، وَنُصَرِّفُ إِلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ أَوْفَاهُ وَأَوْفَرَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ وَهُوَ الْمَوْفُوقُ لِأَرْبٍ سِوَاهُ، وَالسَّلَامُ الْأَتَمُّ عَلَيْكُمْ كَثِيرًا.

الطَّرْفُ الْخَامِسُ عَشَرَ

(الْمَكْتُبَاتُ الصَّادِرَةُ إِلَى الْمُلُوكِ الْكَافِرِ فِي الْأَجُوبَةِ [وَهِيَ] إِمَّا أَنْ تَصْدُرَ بِمَا يَصْدُرُ بِهِ الْإِبْتِدَاءُ وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَإِمَّا أَنْ تَصْدُرَ بِلَفْظٍ وَصَلَ أَوْ وَرَدَ)

كَمَا كَتَبَ بَعْضُ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ عَنِ الْمَلِكِ الْجَوَادِ: أَحَدُ مَلُوكِهِمْ، فِي أَيَّامِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ، جَوَابَ كِتَابٍ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ فِرَانِك: أَحَدُ مَلُوكِ الْفَرَنْجِ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَسِتَّمِائَةٍ:

وَرَدَتِ الْمَكْتَابَةُ الْكَرِيمَةُ الصَّادِرَةُ عَنِ الْمَجْلِسِ الْعَالِي، الْمَوْلَى، الْمَلِكِ، الْأَجَلِ، الْأَعَزِّ
 الْكَبِيرِ، الْمُؤَيَّدِ، الْخَطِيرِ، الْعَالِمِ الْعَامِلِ، الظَّهِيرِ، الْعَادِلِ، الْأَوْحَدِ، الْمُجْتَبَى، شَمْسُ الْمِلَّةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ، جَلَالِ الطَّائِفَةِ الصَّلِيلِيَّةِ، عَضِدِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْجِيَّةِ، نَفِيرِ أَبْنَاءِ الْمَعْمُودِيَّةِ،
 عِمْدَةِ الْمَمَالِكِ ضَابِطِ الْعَسَاكِرِ الْمَسِيحِيَّةِ، قَيْصَرِ الْمُعْظَمِ فَلَانِ مُعَزِّ إِمَامِ رُومِيَّةِ، ثَبَّتَ
 اللَّهُ لَدَيْهِ نَعْمَهُ، وَعَزَّزَ مَوَارِدَ جُودِهِ وَدَيْمَتِهِ، وَأَمْضَى صَوَارِمَ عِزَّتِهِ وَأَعْلَى هِمَمِهِ،
 وَلَا بَرَحَتْ أَنْوَارُ سَعْدِهِ، تَتَلَا، وَأَخْبَارُ مَجْدِهِ، تُبَسِّطُ وَتَتَعَالَى، وَنَحَابُ الْأَلْسِنَةِ
 النَّاطِقَةِ بِمَجْدِهِ تَسْتَهْلُ وَتَتَوَالِي، إِلَى أَنْ يَتَحَيَّ جَيْدُ الضُّحَى بِعُقُودِ اللَّيْلِ، وَتَطْلُعَ
 الشُّعْرَى مِنْ مَطَالِعِ سُهَيْلٍ - بِخَدِّدِ الثَّنَاءِ عَلَى جَلَالِهِ، وَأَتَكَّدُ الْمَدِيحِ لِإِحْسَانِهِ وَإِفْضَالِهِ،
 وَأَنْقَسَ أَسْبَابَ الْمَوَدَّةِ وَالْحَصَافَةِ، وَشَدَّدَ أَوَانِيِ الْإِخْلَاصِ وَالْمُؤَاظَةِ فَاسْتَبَشَّرَتْ
 النُّفُوسُ بُرُودَهُ، وَسَرَّتِ الْقُلُوبُ بُؤُودَهُ، وَوَقِفَ مِنْهُ عَلَى الْإِحْسَانِ الَّذِي نَعْرِفُهُ،
 وَوَجَدَ عِقْدَهُ مُشْتَمَلًا عَلَى جَوَاهِرِ الْوَدَادِ الَّذِي نَأْلِفُهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأَلْفَةِ
 الْمُنْتَظَمَةِ، وَالْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ الْمَكْرَمَةِ. وَالْمَجْلِسِ الْعَالِي الْمَلِكُ الْأَجَلُ أَعْلَى اللَّهِ قَدْرَهُ،
 وَنَشَرَ بِالْخَيْرِ ذِكْرَهُ، أَوْلَى مِنْ أَهْدَى الْمَسَرَّاتِ، بِوُرُودِ الْمَرَاسِمِ وَالْحَاجَاتِ، وَوَصَلَ
 الْأَنْسَ بِكَرِيمِ الْمَكَاتِبَاتِ، مَضْمَنَةَ السَّوَانِحِ وَالْمُهَيَّمَاتِ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الْمَقَامُ الْعَالِي السَّاطِنِيُّ الْمَلَكِيُّ الْكَامِلِيُّ النَّاصِرِيُّ - زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا
 وَعِلْوًا - مِنْ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَمْلَكَتَيْنِ، فَهَذَا هُوَ الْمُعْتَقَدُ فِي صِدْقِ عَهْدِهِ، وَخَالِصِ
 وَدِّهِ، وَلَا زَالَ مَلِكُهُ عَالِيًا، وَشَرْفُهُ نَامِيًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الفصل الرابع

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ، على ما استقر عليه الحال
من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة ، مما أكثره
مأخوذٌ من ترتيب الدولة الأيوبية التي هي أصل
الدولة التركية ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلفاء من بني العباس)

قد تقدّم في الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بني العباس أنها
على أساليب في ابتداء المكاتبات : منها ما يفتتح بآية من القرآن الكريم ثم بالسلام ؛
ومنها ما يفتتح بالسلام ابتداءً ؛ ومنها ما يفتتح بالصلاة على الخليفة على مذهب
من يرى جواز إفراذ غير الأندياء بالصلاة ؛ ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذي ذكره المقرئ الشهابي بن فضل الله في كتابه " التعريف بالمصطلح
الشريف " مما الحال . مستقرّبه أن المكاتب إلى ديوان الخلافة الشريفة : « أدام الله
أيام الديوان العزيز ، المولوى ، السيّدى ، النبوى ، الإمامى ، الفلانى » ثم الدعاء
المعطوف ، والصدر بالتعظيم المألوف ؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو : « أدام
الله سلطان » و « خلد الله سلطان » أو « أيام » أو غير ذلك مما يقتضى العزّ والدوام .
وأن الصدر نحو : « العبد ، أو المملوك ، أو الخادم ، يقبل الأرض أوالعتبات أومواطن
المواقف » أو غير ذلك . وأنّ ختم الكتاب يكون تارةً بالدعاء ، وتارةً بـ « طالع أو أنهى »

أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء . ويخاطب الخليفة في أثناء الكتاب بالديوان العزيز، وبالله أقف المقدسة أو المشرفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف، والجانب الأعلى أو الشريف . وبأمر المؤمنين مجرّدة عن سيدنا ومولانا، ومرة غير مجرّدة، مع مراعاة المناسبة، والتسديد والمقاربه . وأن خطاب المكاتب عنه بحسب من كتب عنه : فكتب بعض ملوك بني أيوب بالديار الشامية « الخادم » . وبعضهم « المملوك » وبعضهم « العبد » وبعضهم « أقل الممالك » وبعضهم « أقل العبيد » . وأن علاء الدين خوارزم شاه : صاحب بلاد خوارزم وما معها ، وأبنة جلال الدين كانا يكتبان « الخادم المطواع » ، وأن أم جلال الدين كانت تكتب « الأمة الداعية » . قال : في « التتقيف » : وعنوانه « الديوان العزيز » إلى آخر الألقاب، ثم الدعاء يعنى من نسبة الصدر، نحو « أدام الله أيامه وخلّد الله سلطانه » وما أشبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه « الخادم » أو « المملوك » أو « العبد » . وكتب بعضهم « أقل الممالك » وبعضهم « أقل العبيد » . يريد أن العلامة تكون مطابقة لما يقع في أثناء المكاتبه عن المكتوب إليه من الخادم وغيره مما تقدّم ذكره، بحسب ما يؤثر الملك المكتوب عنه الخطاب به عن نفسه .

وهذه عدة صدور مختلفات الابتداءات منقولة من التعريف وغيره .

أما قطع الورق الذى يكتب فيه إلى الخليفة ، فقد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق في المقالة الثالثة ، نقلا عن ابن عمر المدائني في « كتاب القلم والدواة » أنه يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار ، وأن المراد بالطومار القرحة الكاملة ، وأن المراد الورق البغدادي ؛ وحينئذ فينبغي أن يمرّ على الأمر على ذلك تعظيماً للخلافة .

صدر : أدام الله أيام الديوان العزيز، ولا زالت سيوف أوليائه في رقاب أعدائه
مُحْكَمَةً، وصُنُوفُ الكُفَّارِ، في أيدي عسكره الجُرَّارِ، بالنَّهَابِ مَقْسَمَةً، وصفوفُ أهل
الشرك مُزَلْزَلَةٌ بخوافِ أعلامه المطهرة وسنابك جياده المطهَّمة؛ ولا بِرَحَتِ ملائكة
النصر من أمداده، وملوك العصر بيض الوجوه بتعظيم شعار سواده .

الخدام ينتهبُ نرى العتبات، الشريفة بالتقيل، وينتهى في قُصارى الطُّلُبَاتِ، على
الوقوف في تلك الربوع، ويكَلِّلُ رُبِّي تلك الساحات، هو وكلُّ آبن سبيل بلالئ
الدُمُوعِ؛ خضوعاً في ذلك المَوْقِفِ الذى تُشْكِرُ القلوب فيه الصدور، وتَلَصَّقُ منه
الترائب بالثُّجُورِ؛ ويُظهِرُ سِمَا الحَلَالَةِ في الوجود، ويُعْطِيقُ على الأولياء فيعرفون
بِسِيَّامِهِمْ من أثر السُّجُودِ . وَيُنْهَى أَنْ وَلَاءَهُ الْقَدِيمِ، وَبَلَاءَهُ الْعَظِيمِ؛ وَأَيَّامَهُ السَّالِفَةِ،
وَأَفْعَالَهُ النَّالِدَةَ والطَّارِفَةَ؛ وَسَوَاقِ خِدْمَةِ فِي أَمْتَالِ الْأَوَامِرِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ
يَتَسَارَعُ إِلَيْهَا، وَيُقَارِعُ عَلَيْهَا، وَيُصَارِعُ غُلْبَ الْأَسُودِ عَلَى تَنْفِيزِ مَرَّاسِمِهَا، وَإِقَامَةِ
مَوَاسِمِهَا؛ وَإِطَارَةِ صِيَّتِهَا، وَدَوَامِ تَثْبِيَّتِهَا، تَحْمِلُ الْخَادِمُ عَلَى الْأَسْتِرْسَالِ، وَتُجْمَلُ لَهُ
السُّؤَالُ، وَالَّذِي يَنْهِيهِ كَذَا وَكَذَا .



صدر آخر من " التعريف " : أدام الله سلطان الديوان العزيز، ولا زالت
الْخِلَائِقُ بِكَرَمِهِ مُصَيِّفَةً [وَالْكَثَائِبُ فِي هَجِيرٍ وَطِيسِهِ مُصَيِّفَةً] ^(١) . وَالْأَبْصَارُ فِي نَصْرِ
أَنْصَارِهِ مُصَيِّفَةً، وَالْمَوَاضِي بِأَوَامِرِهِ فِي قَبَضَاتِ عَسَاكِرِهِ مُصَرِّفَةً، وَالنُّقُودُ إِلَّا مَا تَشَرَّفَ
بِاسْمِهِ مُزَيِّفَةً، وَالْقُلُوبُ فِي صُدُورِ الْأَعْدَاءِ بِخَوَاطِفِ رُغْبِهِ مُسَيِّفَةً، وَالْوَعُودُ إِلَّا بِمَا
تُخْزِيهِ مَوَاهِبُهُ مُسَوِّفَةً، وَالْوَعْيُ لَا تُرَى إِلَّا بِرَمَاحِهِ مُتَقَفَّةً، وَالسَّمَاءُ وَإِنْ عَلَتْ لَا تَكُونُ

(١) الزيادة من " التعريف " .

إلا لأذْيَالِ سَيْوفِهِ مَسَجَّهَةٍ ، وَأَمَاهِبُهُ بَسَطَاهُ ، إِمَّا لِلْعَاقِلِ فَاتِحَةً وَإِمَّا عَمَّا يُطْمَعُ أَنْ تَنَالَهُ
الْأَيْدِي مِنْهَا مُجَحِّفَهُ ، وَالْأُمَمُ عَلَى آخْتِلَافِهَا تَحْتِ رَايَاتِهِ الْمَنْصُورَةِ مَقَاتِلَةً وَأُنْحَرَى لَهُ
مُخَالَفُهُ ، وَالْأَعْلَامُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ بِهِ جَوَارَ الْجُوزَاءِ مُخَلَّفُهُ ، وَالْأَبْطَالُ لِقِتَالِ
الْكَفْرِ بِبَوَارِقِ سَيْوفِهِ ، قَبْلَ مَضَائِقِ صُفُوفِهِ ، وَمُخَانِقِ زُحُوفِهِ مُخَوَّفُهُ .

الْخَادِمُ يُقْبِلُ بَوْلَانِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجَنَابِ ، وَيَقْبِلُ الْأَرْضَ وَكِتَابَهُ يُحَسِّنُ الْمَنَابِ ؛
وَيُقِيلُ عَثَرَاتِهِ إِذْ كَانَتْ بِهِ قَدْ لَازَتْ ، وَيُقِيمُ مَعَاذِيرَهُ إِذْ كَانَ بِهِ قَدْ عَادَ ؛ وَيَتَسَرَّبِلُ
بِطَاعَتِهِ سَرَايِلَ تَقِيهِ إِذَا خَافَ مِنْ سِهَامِ الدَّهْرِ إِلَى مُهْجَتِهِ النَّفَازِ ، وَيَصُولُ بِانْضِمَامِهِ
إِلَى تِلْكَ الْعِصَابَةِ الْمَنْصُورَةِ لَا بِمَا يُطْبَعُ مِنَ الْقَوْلَادِ ؛ وَيُجِلُّ تِلْكَ الْمَوَاقِفَ الْمُقَدَّسَةَ
أَنْ يُسَلَّ مَوَاطِنُهَا بِدَمْعِهِ ، وَأَنْ يُجِلَّ مَوَاطِنُهَا بِقَلْبِهِ قَبْلَ أَنْ يُعَاجِلَ كُلَّ عَدُوِّ بَقَمْعِهِ ؛
وَيَعُدُّ مَا هَدَى إِلَيْهِ مِنَ الْاِعْتِصَامِ بِسَبَبِهَا سَبَبًا لِنُفُوزِهِ ، وَمُوجِبًا لِمَلِكٍ رَقٍّ عَنِ كُلِّ
عَاصٍ وَحَوْزَةٍ ؛ وَيَنْهَى كَذَا وَكَذَا .



صدر آخر : خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَ الدِّيَّوَانِ الْعَزِيزِ ! وَلَا زَالَتْ أَيَّامُهُ شَاخِخَةَ الذَّوَابِّ ،
شَارِخَةَ الصَّبَا [حَتَّى] حَيْثُ يَأْخُذُ الشَّيْبُ الشَّوَابَّ ، رَاسِخَةَ الْفَخَّارِ فِي الطُّهُورِ
بِالْعَجَائِبِ ، نَاسِخَةَ فِي قَحْمِ اللَّيْلِ جَمْرَ الْكَتَائِبِ ، صَارِخَةَ وَالزَّعْدُ تَرْتَعِدُ فَرَائِضُهُ بَيْنَ
السَّحَابِ ، نَاسِخَةَ دَوْلَةَ كُلِّ عَلِيَاءَ بِمَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْفَرَائِبِ ، وَتَبْدُلُهُ مِنَ الرِّغَائِبِ ، فَاسِخَةَ
عَقْدِ كُلِّ خَالِعٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ إِلِيْهَارْدَةَ خَائِبِ ، بِإِذْخَةِ عَلَى مَاضِي كُلِّ زَمَانٍ ذَاهِبٍ مِنْ عُصُورِ
الْخُلَفَاءِ الشُّرَفَاءِ وَآيِبِ ، سَانِخَةَ لِحْدَةٍ كُلِّ أَيْمٍ ظَنَّ أَنَّ فِي أَنْيَابِ رُحْمِهِ النَّوَابِ .

الْخَادِمُ يَقْبِلُ الْعَتَبَاتِ الشَّرِيفَةَ سَاجِدًا بِجَمِينِهِ ، وَشَاهِدًا يَسْتَأْذِيهِ لَهُ عَلَى يَمِينِهِ ،
وَجَاهِدًا كُلَّ وِلَاءٍ سِوَى وَلَانِهِ الْمَعْقُودِ بِجَمِينِهِ ، وَعَاقِدًا بِشَرَفِ الْاِنْتِسَابِ إِلَيْهِ عَقْدَ دِينِهِ ،

(١) وحامداً الله الذى جعله [من] طاعة أمير المؤمنين عند حسن يقينه ؛ وعائداً بأمله إلى كرم تُثمر به الآمال ، وتُقمّر به الليالى لأنها شعاره الذى تُضرب به الأمثال ، وتُطرّبه السحب الجهام فتُضحى بها آية الإحمال . وينهى ورود المثل الشريف الذى طلع نيره فأنار ، وسطح متضاده فألف بين الليل والنهار ؛ وأقبل فما رآه إلا كتابة الذى أوتيه باليمن ، وسجابه الذى أعطيه يندى منه الجبين ؛ ونصره أكثر من الألف ، وأنصفه أعجل من السيوف ، وزاحم به الدهر فضلاً عن الصفوف ، وزار به الوغى لايهاها وخطيات القنا وقوف ؛ فتشرف به وطار بغير جناح ، وقاتل بغير سلاح ، وقرأه وبات قرى له فى السباح ، وتسلمه كأنما تسلم به المعاقل وتسلم منه المفتاح .



صدر آخر : خلد الله أيام الديوان العزيز ! ولا زالت سطاوته تجدد برعها الأبطال المدججة ، وتحمّد بفيضها النيران المؤججة ، وتحمل بركر نفاذها إلى القلوب الرماح المزججة ، وتخل معها بعوائد كرمها السحب المتججة ، وتخف لديها أوقار الجبال المفججة ، وتجز بل تخور خوفاً أن تترق إليها الأصوات المضججة ، وتخض بالغرق من خاطر فى يحارها المتججة ، وتخلف بسلطانها للموت أشهى من البقاء إلى طرائد سيوفها المهججة ، وتخلد النصر بمججها القائمة على الخصماء المتججة .

الخدامم يقلّب وجهه فى سماء الفخار بتقيل الأرض التى طالت السماء ، فأطالت النعماء ، وفضلت النجوم اللوامع ، وأوتيت بالكها - أعز الله سلطانه - كلم الفضل الجوامع ، وأحلت شواخ المجد من حلها ، وأجلت قدر من جد فأجلها ، وأعطت مفاتيح الكنوز كنوز الشرف لمن قبلها كما يقبل الحجيح الحجر ، أو أملها كما يؤمل السارى طلوع القمر ؛ وينهى كذا وكذا .

(١) من من "التعريف" وهى لازمة لوضوح المعنى .

(٢) فى التعريف "وخطار" وكل صحيح .



صدر آخر : قال في "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام الله أيام العدل والإحسان ، والنعم الحسان ، والفضل المشكور بكل لسان ؛
الأيام التي أشرق صباحها السافر ، وعمّ سباحها الوافر ، وآمنَ بيمنها كلُّ مسلم ضرب
عليه سُرَادقُ الليل الكافر ؛ وعلتْ شموسها وقد جنحتِ العصور الذواهب ، وقُدحتْ
أشعتها فأضاءتْ ^(١) بين لآبتي الغياهب ؛ أيام الديوان [العزير المولوى ، السيدى ،
النبوى ، الإمامى ، الحاكمى] ، لا بَرَحَتْ أيامه مَفَنَّة ، وأحكامه مَقَنَّة ، وسُجْبِه
على الظَّاءِ مَحَنَّة ، وقُرْبُه بفقد ماحوته مَحَنَّة ، وحقائقه غير مَظَنَّة ، وطرائقه للخير
مَسَنَّة ، والخلائق تحت جناح رافته ورُحماه مَكَنَّة ؛ ولا زال ولاؤه ضير من
أعتقد ، ومُير من أخذ من الدهر مَاتَقَد ، ومُير الأسود المتضائلة لديه كالنَّقد ، وسَمِير
من تَبَّه وصَحَّيغ من رَقَد ، ومُعِير البرق ندَى كَرَمِه وقد وَقَد ، ومُغِير متعالى الصَّباح
من راياته العالية بما عَقَد ، ومُجِير من لاذ به حتى لا يضره من فَقَد ، ومُير عَدَاه برداه
الذى إن تأنَّز إلى حين فَقَد .

الخدامُ يُحْدُم تلك العتبات الشريفة التي إن تاهتْ على السماء فَمَا ، وإن دنتْ
للتقبيل فإن الثرى تود أن تكونَ فَمَا ، وينهب تراب تلك الأرض التي هي مَسَاجِد ،
ويقبَل ذلك الإساط الذي لا مَوْضِعَ فيه إلا مَكَان لاثم أو ساجد ؛ وينزهها
عن سَوَاكِب دمعته : لأنَّ ذلك الحَرَم [الآمن] ^(١) لا تُطَلُّ فيه الدماء ، ويُجَلُّها عن مواقع
ثَمِّه لأنها لا تَلثم السماء ؛ ويرفع صالح الدعاء وإنما إلى سماءها يرفعُه ، وينهى صادق
الولاء وما ثَمَّ من يدفعُه ، ويدنحُر من صحيح البُودِيَّة ما يرجو أنه ينفعُه ؛ ويطالع العلوم
الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .



صدر آخر : أدام الله النعمة على الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نعمه
فالنعم في ضمنها ، وملاً الآمال منها وأفاض من أنوارها التي علم قرن الشمس أنه
غير قرنها ، وأدال دولته التي نزل الخلق من جنات عدن لها جنات عدن ، وأمضى
سيوفها التي تعرب فيعرف ضمير النصر في لحنها ، وأعلى آراءها التي تلقى العداة بدروع
يقينها ، وتلقى الغيوب بسهم ظنها ، ولا زالت البشائر تنبأى إليه بردها ، ويضفوا
على أعطاف الإسلام بردها ، ولا برحت راياته سويدات قلوب العساكر ، وأجنحة
الدعاء المخلق إلى أفق السماء من أفق المنابر ، وولأوها السر المبهمة الذي هو مما تبلى
به السرائر . الخادام



صدر آخر : أعلى الله الموحددين على الملحين ، وثبت كلمة المتقين على اليقين ؛
بدوام أيام الديوان العزيز وروض بولاته كل ديوان ، ووسم بولاته كل أوان ؛ وأنطق
بجده كل لسان ، وألهم الخلق أن يعنونا بطاعته صحائف الإيمان ، وأسعدهم
بما يتناولونه في الدنيا من كتب المن وفي الآخرة من كتب الأمان ؛ فكلها طائر
في العنق يكون بالطاعة قلائد في الأطواق ، وبالمعصية جوامع أسير في الأعناق .

ورد على المملوك كتاب إن لم يكن أنزل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم
كتاب من السماء ، وإن لم تنزل ألفاظه بالماء ، فهو من الذين أنزلت ألفاظ دعواتهم
الماء ؛ وإن لم يكن كتاب العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قط مجل له قبل يوم
الحساب ؛ ولولا أن أم الكتاب أعقمت لكان ابن أم الكتاب ، وإن هو إلا طائر
ألزم في عنقه وما وكر طائره إلا المخراب .



صدر آخر : أتمَّ الله ما أنعم به على الديوان العزيز وعلى الخلق ، وأشرك في هذه النعمة أهل الغرب والشرق ، وميز الحظوظ فيها بحسب درجات السبق . فإنه ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ والله لا يخلف موعده ، والديوان العزيز لا يكثر مَورِدَه ، ولا رَفَع عن أيدي الخلق يده ؛ بل يجري عليها ما ضمنه ، ويمكّنها بما بسط لها في الأرض ومكّنه ، ويرسل عليها سحاب رحمة ، وينشئ منها ناشئة نعمته ؛ ويوجه إلى قلبها وجه كل أمل ، ويفيض طوفانها فلا يكون به للغليل قبل ، ولا يأوى إلى حصاة قلب فيعصمها ولو أنه جبل .

قلت : ولم أقف على مكتبة عن أحد من ملوك الديار المصرية إلى أبواب الخلافة مُدْ صارت دار الخلافة بالديار المصرية . والظاهر أنه لم تجر مكتبة عن السلطان إلى الخليفة ، لأن الخليفة لا يكاد يفارق السلطان سفراً ولا حضراً مفارقة تُوجب المكتبة إليه ، كما أشار إليه صاحب "التشيف" . وقد أوح في "التعريف" إلى ذلك فقال : وأول ما نبداً بما يُكتب به إلى الأبواب الشريفة الخليفية (كذا) زادها الله شرفاً ، جرياً على قديم العادة ، ورجاءً لملاحظة السعادة .

وهذه نسخة مكتبة من هذا النوع مما كتب به القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد في أيام الناصر لدين الله بجبر ملك الألمان من القرينة والقتال معه ، في جواب كتاب ورد عليه ، يوضح في هذا الموضع بيان هذا الأسلوب ، ويُغنى عن مراجعة [كثير] من الأمثلة المذكورة في المكتبات إلى الخلفاء على ما تقدم ، وهو :

أدام الله ظلَّ الديوان العزيز النبوي، الإمامي، الشريف الناصري، ومده على الأمة ظليلاً، وجعل الأنوار عليه دليلاً، وحاطه بطُفهِه وتقبل أعماله بقبول حسن وأنتها، وأرغم أعداءه وكبتها، ومسها بعذاب من عنده وسحقها، ولا زالت رأيتها السوداء بيضاء الخبر، حجرة الخبر في العداة مسودة الأثر.

ورد على الخادم ما كُتِب به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه، مبرهاً عن اختصاصه، مطلقاً في الشكر للسانه، وفي الحرب لِعِنايه، ومقتضياً لأُمْنِيَّة كان يَتِيَّها، ومُفِيضاً لِمَكْرَمَةٍ لَوْ سَمَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهَا كان يَتَهَمُهَا، فَلَلهِ هُوَ ! من كتاب كَانَهُ سورة وكل آية منه سَجْدَةٌ، قَابَلَهُ بِالْخُشُوعِ كَأَنَّمَا قَلَمُ الْكِتَابِ الْقَضِيبُ وَطَرَسُهُ الْبُرْدَةُ، وَتَلَاهُ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ مَسْتَرْهِقاً بِهِ لِعَزَائِمِهِمْ، مُسْتَجِزِلاً بِهِ لِمَغَانِمِهِمْ، مُسْتَبْتَابَهُ لِلْإِزْمِمْ، مُسْتَدْعِياً بِهِ الْخِدْمَةَ لِلْوِازِمِهِمْ، مُرْهِقاً بِهِ طِبَاهِمَ فِي الْقِتَالِ، فَاسْتَحَا بِهِ خُطَاهِمَ يَوْمَ النَّزَالِ، فَأَثَرَفِيهِمْ كَالْإِقْتِدَاحِ فِي الرَّنْدِ، وَكَالْإِثْجَاسِ مِنَ الصِّلْدِ، وَكَالْإِسْتِلَالِ مِنَ الْغِمْدِ، فَشَمَّرَ مَنْ كَانَ قَدْ أَسْبَلَ، وَانْتَهَى مَنْ كَانَ قَدْ أَجْبَلَ، وَكَأَنَّمَا أُعْطُوا كِتَاباً مِنَ الدَّهْرِ بِالْأَمَانِ، أَوْ سَمِعُوا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ، وَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَعَلَيْنَا مِنَ الْخِدْمَةِ مَا اسْتَطَعْنَا، هَذَا مَعَ كَوْنِهِمْ أَنْضَاءَ زُخُوفٍ، وَأَشْلَاءَ خُتُوفٍ، وَضَرَائِبَ سِيُوفٍ، قَدْ وَصَلَتْ وَجُوهَهُمْ عِلَامَاتُ الْكِفَاحِ، وَأَحَالَتْ عَرَضُهُمْ أَقْلَامُ الرِّمَاحِ، صَابِرِينَ مُصَابِرِينَ، مُكَابِرِينَ مُكَابِرِينَ، مُنَاضِلِينَ مُنَاضِلِينَ، قَدْ قَامُوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا قَعَدَ عَنْهُ سَائِرُهُمْ، وَنَزَلُوا بِمَارَعَةِ الْقِرَاعِ فَلَا يَسِيرُ عَنْهَا سَائِرُهُمْ، وَسَدَسَتْ كَعُوبُ الرِّمَاحِ أَنْفُسَهُمْ، وَأَثْبَتُوا فِي مَعْرَكَةِ الْمَوْتِ أَرْجُلَهُمْ، كُلُّ ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَخَلِيفَتِهِمَا، وَإِذَا رَمَوْا فَاصْبُؤُوا قَالُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى.

ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجابه، قد تعاضدت ملوك الكفر.

على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة منهم طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يُعجز بالكثرة
واصفه ؛ فإذا قتل المسلمون واحداً في البربع البحر عوضه ألفا ، وإذا ذهب
بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفا ؛ فالزرع أكثر من الحداد ، والثمرة أسمى
من الحصاد . وهذا العدو المقاتل - قاتله الله - قد زرّ عليه من الخنادق أدراعا
متينة ، وأستجنّ من الجنويات بحصون حصينه ؛ مضحراً ومُتمّعا ، وحاسراً ومتدّرا
ومواصلاً ومُنقطعا ؛ وكلّما أخرج رأسا قد قُطعت منه رؤوس ، وكلّما كشف وجهها
كشفت من غطاء أجسادها نفوس ؛ فكم من يوم أرسلوا أعنة السوابق فذمّوا عقي
إرسالها ، وكم من ساعة فضّوا فيها أفعال الخنادق فأفضى إليهم البلاء عند فصّ
أفقالها ؛ إلا أن عددهم الجَمّ قد كثر القتل ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل
لشدّة ماقطعها النصل . ومن قبل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة ،
والكُلف الثقيلة ؛ في استطاعتهم لا في طاعتهم ، وفي أجوالهم لا في شجاعتهم ؛
فالبرك قد أنصوه ، والسلاح قد أحفوه ، والدرهم قد أفنّوه ؛ وكلّ من يعرفهم
من أهل المعرفة ، ويراهم بالعين فاهم مثل من يراهم بالصفه ؛ ينشد الله المناشدة
النبوية ، في الصيحة البدرية ؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء
ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة . هذا والساحل قد تماسك ، وماتهاك ؛
وتجلّد ، وماتلّد ؛ وشجعت مَواعد النجدة الخارجة ، وأسنته عن مصارع العدة
الدّارجة ؛ فكيف به إذا خرج داعية الألمان ، ومُلوّك الصُّلبان ؛ وجوع ما وراء
البحر ، وحشود أجناس الكُفّر ؟ وقد حرم باباهم - لعنة الله عليهم وعليه - كلّ مباح
وأستخرج منهم كلّ مذخور ، وأغلق دُونهم الكائنس ، وآيس وألبسهم الحداد ،
وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة ، ويعيدوا القمامة . ﴿ وإذ زين
لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنّي جار لكم ﴾ .

اللهم أخفِرْ جواره، وأصْرِفْ جَوْرَهُ، وأخْلِفْ وَعْدَهُ، وأكْسِرْ صَمَانَهُ، وأنكِصْهُ
على عَقِبِهِ، ونَجِّلْ في الدنيا والآخرةِ منهم تَبَابَهُ . وما بدأتنا به من نعمتك فلا تقطعه،
وما وهبتنا من نصرك فلا تَسْلُبْهُ، وما سترته من عجزنا فلا تَهْتِكْهُ . [و] في دُونِ ما الدينُ
مستقبلُهُ ، وعدوُّه خذله الله يؤمِّله ؛ ما يستفرغُ عزائم الرجال ، ويستنفدُ خزائن
الأموال ؛ ويوجب لإمام هذه الأمة أن يحفظَ عليها قبْلَتها ، ويُزيحَ في قتل عدوِّها
علَّتْها ؛ ولولا أنَّ في التصريح، ما يعودُ على عدالته بالتَّجريح، لقال ما يبيحُ العينَ ويُني
القلوبَ، وتَشَقُّ له المرائرُ وتُشَقُّ له الجُوبُ ؛ وليكنَّ صابراً محتسباً، منتظراً لنصر
الله مُرتقباً، قائماً من نفسه بما يجب ؛ ربِّ إني لأملِكُ إلا نفسي وأخي، وهاهو
قد هاجر إليك هجرةً يرجوها عندك مقبولة ، وولدي وقد أبرزتُ لعدوك صفحاتِ
وجوههم ، وهانَ على محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم . وتَقِفْ عندَ هذا الحدِّ،
ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ؛ وإن لم يشكِّ الدينُ إلى «ناصره» والحقُّ إلى مَنْ قام
بأقوله وإلى اليوم الآخر يُقومُ بآخِرِهِ ؛ فإلى مَنْ يُشكِّى البتَّ ، وعند من يتفرج
بالنُفْتِ ؟ ، ومنفعةُ الغوثِ قبل العَطَبِ ، والنَّجاءُ قبل أن يَصِلَ الحِزَامُ الطَّيِّينَ ،
والبلاغُ قبل أن يَصِلَ السَّيْلُ الزُّبَى .

فيا عَصْبَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْلَفْهُ في أُمَّتِهِ بما تَطْمَئِنُّ بِهِ مَضَاجِعُهُ ، ووفِّهِ
الحَقَّ فينا ؛ فإنَّا وإنَّ المسلمين عندك ودائعُهُ، وما مثلُ الخادمِ نفسه في هذا القولِ
إلا بحالةٍ مَنْ وَقَفَ بالبابِ ضارِعاً ، وناجئاً بالقولِ صَادِعاً ؛ ولو رُفِعَتْ عنه العوائقُ
لهاجر ، وشافَهُ طَيْبُ الإِسْلامِ بل مَسِيحُهُ بالداءِ الذي خامرَ ؛ ولو أَمِنَ عدوُّ اللهِ أن
يقولَ فرَّ لسافر ، وبعدُ ففيهِ وإن عَضَّ الزمانُ بقبهِ ، وقَبَلَهُ وإن تدارأتِ الشُّهادُ
دَرِيَّةً ، فلا يَزَالُ قائماً حتَّى يُنْصَرَ أو يُعْذَرَ ، فلا يَصِلُ إلى حَرَمِ ذُرِّيَةِ أَحْمَدَ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن ذُرِّيَةِ أَيُّوبَ وَاحِدٌ يَذْكُرُ .

أنجز الله لأمر المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْرِهِ ! وتَمَّ مَسَاعِدَةَ دَهْرِهِ ! وأَصْفَى مَوَارِدَ إِحْسَانِهِ !
وأَرْسَى قَوَاعِدَ سُلْطَانِهِ ! وَحَفِظَهُ وَحَفِظَ بِهِ فَهُوَ خَيْرُ حَافِظٍ ، وَنَصْرَهُ وَنَصَرَ عَلَى يَدَيْهِ
فَهُوَ أَقْوَى نَاصِرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ثم أعلم أن المقرَّ الشَّهابيَّ بنَ فضل الله قد ذكر في ”تعريفه“ أيضًا أنَّ المكتبةَ
إلى أبواب الخلافة من الملوك والسُّوقَة لا تختلف ، بل تكونُ على الأَنُودَجِ المُقَدَّمِ
ذَكَرَهُ ، وَاسْتَلْزَمَ ذَلِكَ : فَجَرَى عَلَى هَذَا الْمَصْطَلَحِ فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَى الدِّيوانِ العَزِيزِ
الْحَاكِمِيِّ ، أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ : أَحَدِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ ، عَنْ
رُمَاةِ الْبُنْدُقِ بِالشَّامِ ، جَوَابًا عَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِمْ ، وَهُوَ مُتَكَلِّمٌ عَلَى رُمَاةِ الْبُنْدُقِ
يَوْمَئِذٍ فِي أَمْرِ نَاصِرِ الدِّينِ بْنِ الْحَمْصِيِّ وَهُوَ أَحَدُ الرُّمَاةِ .

أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَ الدِّيوانِ العَزِيزِ ، الْمَوْلُويَّ ، السَّيْدِيَّ ، النَّبُويَّ ، الْإِمَامِيَّ ،
الْحَاكِمِيَّ ؛ وَنَصْرَهُ بِجَمْعِ الْإِيْمَانِ ، وَبُشْرَ بِأَيَّامِهِ الزَّمَانِ ، وَمَتَّعَهُ بِالْمَلِكِ الَّذِي
لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ بِمَا وَرِثَهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ؛ وَلَا زَالَ يَخْضَعُ لِمَقَامِهِ كُلُّ جَلِيلٍ ،
وَيُعَرَفُ لِأَيَّامِهِ كُلُّ وَجْهٍ جَمِيلٍ ؛ وَيُعْتَرَفُ لَشَرَفِهِ كُلُّ مُعْتَرِفٍ بِالتَّفْضِيلِ ، وَيَشْهَدُ
بِنَفَاقِذِ أَوَامِرِهِ مِنْ دَوَى نَسَبِهِ الشَّرِيفِ كُلُّ أُخٍ وَخَلِيلٍ ؛ وَلَا كَانَ إِلَّا كَرَمُهُ الْمَأْمُولُ ،
وَدَعَاةُ الْمَقْبُولِ ، وَعَدُوُّهُ الْمَصْرُوعُ وَوَلِيُّهُ الْمَحْمُولُ ؛ وَلَا بَرِحَتْ طَاعَتُهُ يُعْقَدُ عَلَيْهَا
كُلُّ جَمْعٍ ، وَمَرَامُهَا يُنْصِتُ إِلَيْهَا كُلُّ سَمْعٍ ، وَطَوَائِفُ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيْهِ لَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ إِلَّا تَوَلَّوْا وَأَعْيَنُهُمْ تَفْيِيزُ مِنَ الدَّمْعِ .

الْمَالِكُ يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بِالْأَبْوَابِ الْعَالِيَةِ الَّتِي هِيَ خُطَّةُ شَرَفِهِمْ ، وَمَكَانُ تَعْبُدِ
الْقَدَمَاءَ مِنْهُمْ وَمَنْ سَلَفِهِمْ ؛ وَيَلُودُونَ بِذَلِكَ الْمَقَامِ ، وَيَعُوذُونَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي

لا يبعد نسبه من البيت الحرام ؛ ويؤمنون ذلك الكرم الذى مامنهم إلا من سعى به طائره ، وجاءته به فى وجه الصباح أشائره ؛ وفى وجه العشاء بشائره ؛ فنالوا به أقصى المرام ، وقضوا به من العمر ما إذا قالوا : ياسعد ! لا يعنون به إلا ذلك الإمام ؛ ويتمنون إلى ما ورد به المرسوم الشريف الذى ما من المالك إلا من مات لديه بتقديم عبوديته ورقه ، وسارع إلى طائره الميمون وحمله بسبقه ؛ وفتح له عينه وظن أنه حاكم ، وأتمثلوا أمره وكيف لا تمتثل الرماة أمر الحاكم ؟ ، ولا سيما ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الحاكم ؛ وأجلوه عن رفعه على العين إذ كانت تلك بمنزلة الحاجب ، وقدموا إليه خفوق قلوبهم الطائرة وما علموا أن كانوا قاموا بالواجب ؛ ووقفوا على أحكام حاكمه فما شكوا أن زمان هذا الفن بحياة ناصره فى بغداد قد عاد ، وأن مثاله المتمثل فى سواد الحدق مما حكته أيامه العباسية من شعار السواد ؛ وعلموا مارسم به فى معنى محمد بن الحصى الذى ما نورت اليلة أكارينه ، ولا بعدت فى الإقعاد له توارينه ؛ بل أخذت دموع ندمه نيرانه المشتعلة ، وأصبح به لا يحمل القوس فى يده إلا أنه مشغله ؛ وما كان أنهاه الديوان العزيز مما لم تذكر الخواطر الشريفة بأنه قبة المفترى ، وأنه صاحب القوس إلا أن ماله سعادة المشتري ؛ وأنه مؤه تمويه الجاحد ، وتلون مثل قوس قرح وإلا فقوس البندق لون واحد ؛ وأدلى بغروره ، وعرض المحضر الذى حمله على تغريه ؛ وذلك فى غيبة الأمير بهاء الدين أرسلان البندقدار الحاكمى ، الذى لو كان حاضرا لكان حجة عليه ، ومؤكدا لإبطال رميه وقوسه وبندقه فى يديه ؛ لما تضمنه الخط الشريف المقيّد اللفظ المكتتب على المصطلح ، الساحب ذيل فخاره على المقترح ؛ الذى هدى إلى الخير ، وبدأ به ما وهب من الملك السليمانى الذى أوتى من كل شيء وعلم منطق الطير ؛ فإنه لم يكتب له إلا بأن يرمى على الوجه المرضى واستيفاء شروط البندق ،

والخروج من جميع الأشكال عملاً بقواعده ؛ ويُعلم بأنه ما رعى حقَّ قُدُمته ، ولا فعل في البابِ العزيزِ ما يجبُ من التحلّي بشعار الصّدق في خِدْمته ؛ وأنه خالف عادة الأَدب ، وأخطأ في الكلِّ لكنه ندب ؛ وذلك بعد أن عمِل له جميعُ رُماة البندق ، وسئل فأجاب : بأنه سالمٌ من كل إشكال يُشكِل ، وأنه بعد أن أقعد رمي وحمل وحمل ؛ فشهد عليه السادةُ الأمراءُ ولأَةُ العهدِ إخوة أمير المؤمنين ومن حضر ، وكتبوا خطوطهم في المحضر ؛ وما حصل الآنَ عند عَرْض قصة الممالك بالمواقف المقدّسة ، ووضوح قضيته المدنّسه : من التعجب من اعتراف الممالك ، لكونهم رموا معه بعد أن رأوا الخطَّ الشريف وهو لفظ مقيّد ، وأمرٌ أيدّ به رأى الإمام الحاكم بأمر الله المسترشد بالله والمؤيّد ؛ وكلُّ ما أمر به أمير المؤمنين لا معدّل عن طُرقه ، ولا جدال إلا به إذا ألزم كلُّ أحد طائرَه في عنقه ، وأمير المؤمنين بحر لا يرد إلا من علمه ، وهو الحاكم ولا رادّ لحُكمه . وإنما ابن الحصى المذكور عديم السداد ، وخالف جارَى العادة في الحِمص فإنه هو الذي سُلِق في الافتراء بالسنة حداد ؛ ولم يُوقِف الممالك من الخط الشريف إلا على بعضه ، ولا أراهم من برّقه المتملّل غير ومضه ؛ والذي أوقفهم عليه منه أن يرى محمد بن الحصى ويُرْمى معه ، وكلمة أمير المؤمنين مستمعه ، ومراسميه متّبعه ؛ وإذا تقدّم كان الناس تبعه . غير أن المذكور بدت منه أمورٌ قطع بها الأمير صارم الدين صاروجا الحاكم البندقدار في حقه ، وأقعدته عن قُدُمته التي كان يمتُّ فيها بسبقه ؛ وانتقل عنه غلمانُه ، وثقل عليه زمانُه ؛ ونوّدَى عليه في جمع كبير يزيد على تسعين قوساً ، وجرح بخطأ بندقه جرحاً لا يُوسى ؛ ثم بعد مدّة سنين توسّل بولد الأمير المرحوم سيف الدين تنكر إلى أبيه ، وتوصّل به إلى مرّاميه ؛ فأمر أن يُرمى معه وهُدّد الخالف بالضرب ، ولم يرم معه أحدٌ برضاه إلا خوف أن تُوقد نارُ الحرب ؛ فلما مضت تلك الأيام ، وأنقضت

تلك الأحلام ، جمع مملوك الأبواب العالية الأمير علاء الدين بن الأيوب كرى الحاكم
 فى البندق الآن من رمة البندق جمعا كبيرا ، وأهتم به اهتماما كثيرا ، وذكر أمر
 المذكور ، وأحضر محضره المسطور ، ولم يكن عليه تعويل ، ولا فى حكم الحاكم
 المتقدم تعليل ، ولا عند هذا الحاكم الذى أدعى له وأدعى عنده تجوز الأباطيل ؛
 وتحقق أن الحق فيما حكم به عليه فُتبع ، وترجع أن لأيقام منه من أقعد ولا يؤصل
 منه ما قطع ؛ فنفذ حكم الحاكم المتقدم ، واستمر بقعوده المتحتم ، ووافقه على هذا سائر
 الرماة بالبلاد الشامية وحكامها ، ومن يرجع إليه فى الرماية وإحكامها ، وبطلت
 قدمة المذكور التى ذهب فيها عمره ضائعا ، وزمانه الذى لو اشتريت منه ساعة بالعمى
 لم يكن نافعا .

ولما ورد الآن هذا المرسوم الشريف زاده الله شرفا قبلوا الأرض لديه ،
 وأوقفوا عليه حاكمهم المسمى فوقف له وعليه ، وجمع له جمعا لم يدع فيه من الرماة
 معتبرا ، ولا من يلقي القوس وترا ، ولا من إذا قعد كالعين جرى ماجرى ؛ ثم قرأ
 عليهم ما تضمن ، ودعوا لأمر المؤمنين ولم يبق منهم إلا من دعا أو أمن ؛ وتضاعف
 سرورهم بحكمه الذى رفع الخلل ، وقطع الجدل ، وقالوا : لاعدنا أيام هذا الحاكم
 الذى أنصف والإمام الذى عدل ؛ وبقى ابن الحمصى مثله ، ونودى عليه إنه من رعى
 معه كان مخطئا مثله ؛ ووقرت هذه المنادة فى كل مسمع ، وقرت استقرار الفضل
 عليه المجمع ؛ وذلك بما فهم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضى الله به على
 لسان خليفته الحاكم والله أحكم الحاكمين ؛ وطالعوا بها وأنها صورة الحال ، وجمعوا
 فى إمضائه الآمال . لا زالت سعادة أمير المؤمنين مترهة عن الشبه ، آخذة من خير
 الدارين كل اثنين فى وجه ، حتى تحصل كل رمية من كسب ، ولا يرمى فى كل

أَمْنَةٌ إِلَّا كُلُّ مُصْطَحَبٍ ، مَا غَبَّ فِي السَّمَاءِ الْمِرْزَمُ ، وَوَقَعَ الْعُقَابُ عَلَى ثَنِيَّةٍ يَقْرَعُ
سِنِّهَ وَيَتَنَدَّمُ ، وَعَلَا النَّسْرُ الطَّائِرُ وَالْوَاقِعُ عَلَى آثَارِهِ وَسَائِرُ طُيُورِ النُّجُومِ وَالْحُومِ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وقد أعترض في ” التتقيف ” كلام المقرّ الشهابي بن فضل الله
في ” التعريف ” فقال : وفيما ذكره في ” التعريف ” من التسوية في المكتبة بين
الملوك والسوقة نظر . وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذي تجب مكاتبتهم به
ما يكتب به المرءوس رئيسه بحسب ما تقتضيه الحال في ابتداء المكاتبات من يقبل
الأرض ، كما تكتب الملوك ، بل هم بذلك أحق وأجدر . ويكون الخطاب لهم
في أثناء المكتبة بما أشار إليه في ” التعريف ” بالديوان العزيز ، والمواقف المقدسة
أو المشرفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلى ،
ومولانا أمير المؤمنين ، ونحو ذلك بحسب ما تقتضيه الحال على ما تقدم ذكره .

الطرف الثاني

(في المكتبة إلى ولاية العهد بالخلافة)

أما على المصطلح القديم حين كانت المكتبة إلى الخلفاء « لفلان من فلان »
فقال في ” صناعة الكتاب ” : ويكون التصدير في المكتبة إلى ولي العهد على
ما تقدم في المكتبة إلى الخلفاء مع تغيير الأسماء ، غير أنه جعل الفرق بين الإمام
وغيره ممن يكتب بالتصدير أن يقال للإمام في التصدير مع السلام : وبركاته ،
في أول الكتاب وآخره . ومن سوى الإمام تحذف وبركاته من التصدير وثبتت
في آخر الكتاب .

وقد تقدّم أن التصدير إلى الخليفة حينئذ كان " لعبد الله أبي فلان فلان أمير المؤمنين ، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله . أما بعد ، أطل الله بقاء أمير المؤمنين إلى آخره ، ويختتم بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " .

وحينئذ فتكون المكتبة إلى وليّ العهد على ما أشار إليه في "صناعة الكتاب" من الابتداء بالتصدير مع تغيير الأسماء : " لعبد الله أبي فلان فلان وليّ عهد المسلمين ، سلام على وليّ عهد المسلمين ، فإنى أحمد إليه الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : أطل الله بقاء وليّ العهد ، ويختتمه بقوله : والسلام على وليّ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته " أو نحو ذلك .

وأما على المصطلح الذى حدّث بعد ذلك ، فقد ذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى كتابه "التعريف" أن رسم المكتبة إلى وليّ العهد بالخلافة : ضاعف الله تعالى جلال الجانب الشريف ، المولوى ، السيدى ، النبوى ، الفلانى ، ثم الدعاء المعطوف . وأبدل فى "التثقيف" لفظ الجانب بالجَنَاب . والخطاب له بمولانا وسيدنا وليّ العهد ونحو ذلك . والتعبير عن المكتوب عنه بـ «الخادم يقبل العتبات الشريفة أو اليد الشريفة» أو نحو ذلك . قال فى "التثقيف" : والعلامة إليه «الخادم» والعنوان «الجَنَاب الشريف» وبقية الألقاب المذكورة إلى آخرها .

قال : وهو أحسن من الجَنَاب : لعدم اشتراك غيره معه فيه بخلاف الجَنَاب . قال : وهذا أيضا على عادة من تقدّم من الملوك ، أما فى زماننا وقبله بمدة مديدة ،

فلم يتفق وجودُ وليّ عهدٍ للخلافة ؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكن الخليفةُ يكتأبُ في هذه الأيام فكيف بوليّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردتها في "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالى جلال الجانب . وأطلع مع وجود الشمس بدره التمام ، وأحوج مع زاهر البحر منه إلى مدد الغمام ، وقدمه إماماً على الناس وأطال بقاء سيدنا أبيه الإمام ؛ ولا عُدَم منه مع نظر والده الشريف جميل النظر ، ولا برح صدر دسسته العلى إذا غاب وثانيه إذا حضر ؛ ولا زال الزمان مختلفاً من جود وجودهما لا عرف الله الأنام قدره إلا بالزهر والثمر ، ولا زاد فيض كريم إلا وهو من كفّ أبيه فاض أو من وبّله العميم أنهمر .

الخادم يخدم تلك العتبات الباذخة الشرف ، الناسخة بما وجده من الخير في تقبيلها قول من قال : لا خير في السرف . وينهى ولأء ما عقد على مثله ضمير ، ولا آتقد شبيهه لولى عهد ولا أمير ؛ وإخلاصه في آتماء أشرق منه على الجبين ، وأشرف فراه فرضاً عليه فيما نطق به القراءن ورقم في الكتاب المئين .



صدر آخر : أعز الله أنصار الجانب الشريف ، ولا حجب منه سر ذلك الجلال ، ولا معنى ذلك البدر المشرق منه في صورة الهلال ، ولا فيض ذلك السحاب المشرع منه هذا المورد الزلال ، ولا تلك المآثر التي دلّ عليها منه كرم الهلال ، ولا تلك الشجرة المفترعة ولا ما آمتد منها به من الغصن الممتد الظلال ، ولا ذلك الإمام الذي هو وليّ عهده وهو أعظم من الاستقلال .

الخادم يقبّل تلك اليد مؤفياً لها بعهدہ [ومُضْفِياً منها لورده] ^(١) ومُضْفِياً منها جَلَابِيبَ الشرف على عِطْفِهِ ، وحَسْبُهُ نَحَاراً أَنْ يُدْعَى فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ بَعْدَهُ ، وَيَتَرَامَى عَلَى تِلْكَ الْأَبْوَابِ ، وَيَلْتَمِسُ ذَلِكَ الثَّرَى وَيَرْجُو الثَّوَابَ .



صدر آخر : ولا زالت عهودُ ولآيته منصوصه ، وإيائتُه بعموم المصالح مَحْصُوصه ، وصفوفُ جُيُوشه كالْبُنْيَانِ مَرْصُوصه ، وقوادِمُ أعدائه بالخِوَالِقِ مَحْصُوصه ، وبدائع أنبائه فيما حَاقَتْ إِلَيْهِ دَعْوَتُهُ الشَّرِيفَةُ مَقْصُوصه [والوفود في أبوابه] ^(١) أَجْنَحَتْهَا بِالْنَدَى مَبْلُوءَةٌ مَقْصُوصَةٌ .

الخادم يحدّد بتلك الأعقابِ خِدْمَهُ ، وَيُزَاحِمُ فِي تِلْكَ الرَّحَابِ خِدْمَهُ ، وَيَقِفُ فِي تِلْكَ الصُّفُوفِ لَا تُثْقَلُ عَنِ الطَّاعَةِ قَدْمُهُ ، وَيَتَمَثَّلُ بَيْنَ تِلْكَ الْوُقُوفِ وَيَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ إِذَا ذُكِرَ فِي السَّوَابِقِ قَدْمُهُ ، وَيُدْلِي بِجُجَجِ سَيْوِفِهِ [التي أشهرها ، وصروفه التي لاقى أشهرها ، ومواقفه] ^(١) التي ما أنكرها الديوان العزيز مُدَّ أَثْبَتَهَا ، وَلَا حَطَّ رِمَاحَهَا مِنْ أَثْبَتَهَا ، وَلَا حَا سَطُورَهَا ، مِنْ كَتَبَهَا ، لِيَغِيظَ الْأَعْدَاءَ وَلَا يَشْفِي صُدُورَهَا ، مِنْ كَتَبَهَا ، وَيَنْهَى كَذَا وَكَذَا .



صدر آخر : ولا زالت مواعيدُ الظَّفَرِ لَهُ مِنْصُوصَةً ، وَرُءُوسُ مَنْ كَفَرَ بِطَوَارِقِهِ مَرْصُوصَةٌ ، وَصَحَائِفُ الْأَيَّامِ عَمَّا يُسَرِّبُهُ الزَّمَانُ فِيهِ مَقْصُوصَةٌ ، وَجُفُونُ عِدَائِهِ وَلَوْ أَتَصَلَّتْ بِمَقَلِّ النُّجُومِ مَقْصُوصَةٌ ، وَطَوَارِقُ الْأَعْدَاءِ الَّتِي تَجَنَّبُ مِنْهُمْ مِنْهُ بِسُيُوفِهِ مَعْصُوصَةٌ .
الخادم يحدّد أَرْضَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِتَرَامَى قِبَلِهِ ، وَتَقْلِيلِ وَجْهِهِ إِلَى قِبَلِهِ ، وَيَتَطَوَّفُ بِذَلِكَ الْحَرَمِ ، وَيَتَطَوَّلُ مِنْ فَوَاضِلِ ذَلِكَ الْكَرَمِ ، وَيَتَطَوَّقُ بِقِلَائِدِ تِلْكَ الْمَنَنِ ،

وفرائد تلك المواهب التي إن لم تكن له وإلا فمن ؛ فإنه والله يشهد له لا يعتد بعد
ولاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيم بأمور الدنيا والدين ؛ عليه الصلاة والسلام
إلا ولآءها ، ولا يؤمل بعد تلك الآلاء إلا آلاءها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة
المباركة لأمله إثمارة ، ولا ليله إقارار ؛ ولا لأيامه حافظا ، ولا لحال إقدامه في قدم
صديق ولائه لا فظا ؛ قائما في خدم هذه الدولة القاهرة يجهد في منافعها [ويجد في كبت
مدافعها] ^(١) ويذبح شفاعتها العظمى إذا جاءت كل أمة بشافعها ، وينهى كذا وكذا .

الطرف الثالث

(من المصطلح المستقر عليه الحال ، في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار
المصرية إلى أهل المملكة : من مصر والشام والحجاز ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في المكاتبات المفردة ، وفيه مسلكان)

المسلك الأول

(في بيان رتب المكاتبات ورتب أهلها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(المكاتبات إلى الملوك على ما كان عليه الحال في الزمن المتقدم)

مما لعله يعود مثله ، وهي الدعاء للقيام ، وفيه مكاتبتان

الأولى — المكتابة إلى ولي العهد بالسلطنة [وهي] على ما ذكره في "التنقيف" :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالي ، الملكى ، الفلانى ، الأخوى ، أو الولدى ،

إن كان أخوا أو ولدا . ثم الدعاء اللائق به ، ثم يقال : « أصدرناها إلى المقام العالي

ويطالع علمه الشريف « والعلامة «أخوه» سواء كان أخاً أو غير أخ، و « والده » إن كان والداً . ولم يذكر تعريفه ، والذي يظهر أنه يكتب له «ولى العهد بالسلطنة الشريفة» . ولم يذكر قطع الورق لهذه المكتبة ، والذي يظهر أنه فى قطع العادة على قاعدة المكاتبات إلى أهل المملكة . قال فى «التثقيف» : ولعل هذه المكتبة نظير ما كتب به إلى الملك الصالح علاء الدين على ولد المنصور قلاوون : فإنه كان ولى عهد أبيه المذكور ، توفى فى حياته . ثم قال : ورأيت أمثلة كثيرة صدرت عنه بخلاص الحقوق ، وعلامته عليها «على بن قلاوون» .

الثانية — المكتبة إلى صاحب حماة من بقايا الملوك الأيوبية قبل مصيرها نيابة ، وآخر من كان منهم فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، لما صارت إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره فى «التثقيف» فى قطع العادة : « أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف ، العالى ، السلطانى ، الملى ، الأفضل ، الناصرى ، ونحوهما » . ثم الدعاء ، وبعده «أصدرناها إلى المقام الشريف» والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب حماة» . قال فى «التثقيف» : ولم يزل الحال على ذلك إلى أن عُزل عنها الأفضل المشار إليه بعد الأيام الشهيدة الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الناصر محمد بن قلاوون ، وأستقر بها بعده نائباً الأمير طغاي الحموى أمير مجلس كان ، فبقيت نيابة بعده إلى الآن .

الضرب الثاني

(المكتابات إلى من عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم
من جرت العادة بمكاتبتهم، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(^(١) في رتب المكتابات، وهي على عشر درجات)

الدرجة الأولى

(الدعاء للمقتر)

وصورته على ما ذكره في "التتيف": «أعز الله تعالى أنصار المقتر الكريم،
العالى، المولوى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى،
العونى، الغيائى، المناغرى، المراطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، العايدى،
الناسكى، الأتابكى، الكفيل، الفلانى، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء
العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، ملجأ الفقراء والمساكين، زعيم جيوش الموحدين،
أتابك العساكر، ممد الدول، مشيد الممالك، عماد الملة، عون الأمة، ظهير الملوك
والسلاطين، عضد أمير المؤمنين». ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب: مثل أن
يقال: «ولا زال عزُّه مؤيدا، وعِزُّه مؤبدا، وسعده على ممر الحديدين مجددا،
أصدرناها إلى المقتر الكريم تُهدى إليه من السلام أتمه، ومن الشاء أعمه». ثم يقال:
«وتُبدى لعلمه الكريم كذا وكذا، ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره الكريم بكذا
وكذا، فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

(١) لم يذكر غير ثمان درجات.

الدرجة الثانية

(الدعاء للجناب الكريم)

وصورته على ما أورده في "التثقيف" عما استقر عليه الحال «أعزَّ الله تعالى نُصرة الجناب الكريم، العالى، الأميرى، الكبرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغيائى، المثاغرى، المرابطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافى، الفلانى؛ عزَّ الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نُصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، سيف أمير المؤمنين». ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل أن يقال: «ولا زالت عزائمُه مؤيده، وأوامرُه السعيدة مسدده؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاماً طيباً، وثناءً مُطنباً، وتوضُّح لعلمه الكريم كذا. ومرسومنا للجناب الكريم أن يتقدّم أمره الكريم بكذا وكذا؛ فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

قلت: والذى في "التعريف": «أعزَّ الله تعالى أنصار الجناب الكريم، بإبدال نُصرة بأنصار؛ واختلاف بعض الألقاب المتقدمة».

الدرجة الثالثة

(الدعاء للجناب العالى بمضاعفة النعمة)

وصورته على ما في "التثقيف": «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى الأميرى، الكبرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى، الزعيمى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافى، الفلانى؛ عزَّ الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نُصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، مقدّم العساكر، مُمهد الدول، مشيد

الممالك، عمادِ الملة، عونِ الأمة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيفِ أمير المؤمنين». ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل: «ولا زال قدره عاليا، ومدحه متواليا، وجيد الدهر بحاسنه حاليا؛ وتوضح لعلمه الكريم كذا؛ ومرسومنا للجناب العالی أن يتقدم أمره الكريم بكذا؛ فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

الدرجة الرابعة

(الدعاء للجناب العالی بدوام النعمة)

وصورتها على ما أورده في "التثقيف": «أدام الله تعالى نعمة الجناب العالی، الأميري، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الأوحدى، النصيرى، العونى، الحماسى، المقدسى، الظهيرى، الفلانى؛ عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نصره الغزاة والمجاهدين، مقدم العساكر، كهف الله، ذخرك الدولة؛ عماد المملكة، ظهير الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين» والدعاء والتصدير (١)

المناسب، مثل أن يقال: «ولا زال قدره رفيعا، وعززه منيعا، و

مريعا. صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب العالی تهدى إليه سلاما طيبا، وشاء صيبا» ثم يقال: «وتوضح لعلمه المبارك كذا، فيحيط علمه الكريم بذلك؛ والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

الدرجة الخامسة

(الدعاء للجلس بدوام النعمة)

ورسمها : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ، الأوحدى ، النصيرى ، الهامى ، المقدّمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأُمراء فى العالمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كهفِ الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حسام أمير المؤمنين » ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : « ولا زال عالياً قدره ، نافذاً أمره ، جارياً على الألسنة حمده وشُكره . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى تُهدى له سَلاماً ، وثَناءً بسَلاماً » ثم يقال : « وتوضّح لعلمه المبارك كذا . ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدّم أمره المبارك بكذا ، فيُحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنّته وكرمه . »

الدرجة السادسة

(صدرت والعالى ، ويعبر عنها بالسامى بالياء)

وصورتها على ما فى " التثقيف " : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العضدى ، الذُخرى ، النصيرى ، الأوحدى ، العونى ، الهامى ، المقدّمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأُمراء المقدّمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، دُخْر الدولة ، كهفِ الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين » ثم الدعاء المناسب ، مثل : « أدام الله سعادته ، وأجزل من الخيرِ به وإفادته ، مُوصَّحة لعلمه المبارك كذا ، ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدّم بكذا ، فيُحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنّته وكرمه . »

الدرجة السابعة

(صدرت والسامى ، ويعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الأجل ، الكبيرى ، العضدى ، الذخرى ، النصيرى ، الأوحدى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضد الملوك والسلطين » ثم الدعاء مثل : «أدام الله سعادته ، وأجزل من الخير عادته ، تتضمن إعلامه كذا ، ومرسومنا للمجلس السامى أن يتقدم بكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه» .

الدرجة الثامنة

«يعلم مجلس الأمير ، الأجل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، حدة الملوك والسلطين » والدعاء ، مثل : «أدام الله سعده ، وأنجح قصده ، أن الأمر كذا ، ومرسومنا له أن يتقدم بكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه» .

قلت : وقد تقدم فى أول المكاتبات أنه يتعين أن يكون الدعاء للمكتوب إليه مناسباً للحال ، مثل أن يكون موافقاً لاسم المكتوب إليه أو لقبه أو وظيفته ، أو محل نيابته ، أو الأمر المكتوب بسببه : من استطلاع أمر ، واسترهاب عزم ، وفتح وظفر وبشارة وغيرها وما يجرى مجرى ذلك ، وتقدم هناك ذكر جملة من الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نبذة من الأدعية والتصديرات اللائقة المتقدمة ، مما يدعى به للنواب ومن فى معناهم ، ليقرب تناولها باقتراانه بصور المكاتبات .

الأدعية والصدور لتواب السلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالت كَفَالَتُهُ تَبْسُطُ المَعْدِلَةَ ، وعِزَّتُهُ عَلَى الإنصافِ والإسعافِ مُشْتَمِلَةٌ ،
وتَقْدِمَاتُهُ تُبَلِّغُ كُلَّ ذِي قَصْدٍ أَمَلَهُ . أصدرناها إِلَى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ مِنَ السَّلامِ ،
أَكْمَلَهُ ، وَمِنَ الثَّنَاءِ الحَسَنِ أَجْزَلَهُ ، وَتُبْدَى .

آخِرُ : وَلَا زَالَتِ المَالِكُ كُلُّهَا فِي كَفَالَتِهِ ، وَالمَسَالِكُ عَلَى اخْتِلَافِ طُرُقِهَا آيِلَةٌ
إِلَى إِيَالَتِهِ ، وَالمَلَائِكُ مُحَوَّمَةٌ عَلَى بَنُوْدِهِ مُحَقَّقَةٌ بِهَالَتِهِ ، وَالأَرَائِكُ لِأَنْتُنِي إِلَّا عَلَى دَسْتِ
نَخَارِهِ وَلَا تُعَدُّ إِلَّا لِحَالَتِهِ . أصدرناها إِلَى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُخَصُّهُ بِأَفْضَلِ السَّلامِ ،
وَأَطْيَبِ الثَّنَاءِ المَرْقُومِ عَلَى أَعْلَى الأَعْلَامِ ؛ وَتُبْدَى .

آخِرُ : وَلَا زَالَتِ كَفَايَةُ كَفَالَتِهِ تَزِيدُ عَلَى الآمَالِ ، وَتُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ بِصَلَاحِ
الأَعْمَالِ ، وَتُكْفِلُ مَا بَيْنَ الجُنُوبِ وَأَقْصَى الشَّمَالِ . أصدرناها إِلَى المَقَرِّ الكَرِيمِ
وَصَدْرُهَا بِذِكْرِهِ مُنْشَرِحٌ ، وَبِزَيَّارَتِهِ فَرِحٌ ، وَبِعُلُوقِ قَدْرِهِ فِي أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ يُسَبِّرُ وَيُؤَمِّلُ
مِنْهُ مَا يَزِيدُ عَلَى أَمَلِ المَقْتَرِحِ ، وَتُبْدَى .

أدعية تصلح لنائب الشام المحروس

و[لا زالت] ^(١) الممالك [تؤيد] بعزمه ورأيه تأييدا ، والدول [تسد] بكفالاته تسديدا ^(١)
و[تسديد] ^(١) تسديدا . أصدرناها إِلَى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَضَاعَفُ أَجْزَاؤُهُ ،
وثنَاءً يُبْهِجُ الخَوَاطِرَ سَنَاؤُهُ ، وَتُبْدَى لَعَلِمَهُ .

آخِرُ : وَلَا زَالَتِ النُّفُوسُ يُؤْنِ كَفَالَتِهِ فَائِقَةً ، وَالخَوَاطِرُ فِي مَحَبَّتِهِ مُتَوَافِقَةً ،
وَالْأَلْسُنُ بِشُكْرِ مَحَاسِنِهِ نَاطِقَةً ، وَقُلُوبُ الأَعْدَاءِ مِنْ بَأْسِهِ وَمَهَابَتِهِ خَافِقَةً . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيا المقام تمام الكلام .

إلى المَقَرِّ الكريم تُهْدَى إليه أنواعُ السلامِ المتناسبةُ وأجناسه المتناسِقة ، وتُثْنَى على أوصافه التي أصبحتِ الأفواهُ في ذكرها صادِقة ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولا زالت عزائمُه مُرَهَفَةً الحَدِّ ، وكَفَالَتُهُ كَفِيلَةً تُبْجَحُ القَصْدَ ، وَمَغَانِمُهُ في سبيلِ الله تُعْرِبُ عن الاجْتِهَادِ في قَهْرِ الأَعْدَاءِ وإِلْحَدِ . أصدرناها إلى المَقَرِّ الكريم تُهْدَى إليه سلاماً يفوقُ شَدَاهُ العَنْبَرُ والنَّدَّ ، وشَاءَ مجاوزاً أبداً الحَصْرَ وأمداً العَدَّ ، وتبدى لعلمه .

(١) آخر : ولا زالت قلوبُ أهل الإيمان من كَفَالَتِهِ مُؤْتَلَفَةً ، وفَرَّقُ أهل من بأسه وخَوْفُهُ مُخْتَلَفَةً ، وأحوالُ أهْلِ العِنَادِ بِجَمِيلِ تَدْبِيرِهِ في آسَاطِلِهَا وإِضْحَاقِ مُنْكَسِفِهِ . أصدرناها إلى المَقَرِّ الكريم تُثْنَى على هِمَّتِهِ التي لم تَزَلْ على المصالحِ معْتَكِفَةً ، وتُهْدَى إليه تَحِيَّةٌ شَمُوسُهَا مشرقةٌ غَيْرُ مُنْكَسِفَةٍ ؛ وتبدى لعلمه .

آخر : ولا زالت سعادته بِحُكْمِ الأَقْدَارِ دَائِمَةً ، والمَعْدِلَةُ بِجَمِيلِ حلمه وصائب رأيه قائمه ، والعيونُ بِبُيْنِ كَفَالَتِهِ في مِهَادِ أَمْنِهِ نَائِمَةً . أصدرناها إلى المَقَرِّ الكريم تُهْدَى إليه تَحِيَّةٌ طَيِّبَةُ الْمَسْرَى ، وشَاءَ حَسَنَ وصفًا وطابَ ذِكْرًا ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولا زال النصرُ حَلِيَّةَ أَيَّامِهِ ، وشَامَةِ شَامِهِ ؛ وَعِظَامَةُ مَا يَحْتَقُّ على بلده المَخْضَرِّ منْ غَمَامِهِ . أصدرناها إلى المَقَرِّ الكريم بِسَلامٍ لا يَرْضَى حَافِرُ جَوَادِهِ الهَلَالَ نَعْلًا ، ولا يَحْطِيْ به إلا بَلَدُهُ ونَحْصُ منه الشرفُ الأعلى ؛ وتبدى لعلمه .

آخر : وسقى عهدهُ العِهَادَ ، وشفى بَعْدْلُهُ العِبَادَ ، وزَانَ به حُسْنَ بلده التي لم يُخْلَقْ مثُلُهَا في الْبِلَادِ ، وهى إِرْمُ ذَاتِ الْعِمَادِ . أصدرناها إلى المَقَرِّ الكريم بِسَلامٍ تُسَرُّ به النفوسُ ، وَيَطْوِقُ به فضلهُ الجامعُ وتَحُلِّيْ به العُرُوسُ ؛ وتبدى لعلمه .

آخر : ووقى بسور جيوشه المتنعة ضرر الضراء ، وكسر بأسود جنوده ذئاب
الأعداء الضراء ، وسبق دهماء الليل وشهباء النهار [وحراء الشفق^(١)] وصفراء الأصيل
وشقراء البرق بسابقته الخضراء . أصدرناها إلى المقر الكريم بسلام يملأ حلق
حدائقه نورا ، وقلب عساكره سرورا .

أدعية ومسودور

(تصلح لكل من النائب الكافل ، ونائب الشام ،

ومن في معناهما كالأتابك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووصل المسار بعلمه الذي لا ينكر ، وحلمه الذي يشكر ،
وحكمه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أصدرناها إلى المقر الكريم بسلام
يسرع إليه ، وثناء يرد منا عليه ، وتبدي لعلمه .

آخر : ولا زالت الدول برأيه مقبلة السعد ، متقية في الصعود ، مملوءة
الرحاب : تارة تبعث البعوث وتارة تفد عليه الوفود . أصدرناها إلى المقر الكريم
تهدي إليه من السلام أشرقه نجوما ، ومن الثناء أغدقه غيوما ، وتبدي لعلمه .

آخر : ولا زالت الممالك بآرائه منيرة ، وبراياته لأعدائها وأعداء الله مبيرة ،
وبرؤياه تتضاءل الشمس المشرقة وتحجل السحب المطيرة . أصدرناها إلى المقر
الكريم تهدي إليه من السلام دُرره ، ومن الثناء غُرره ، وتبدي لعلمه .

آخر : ولا برحت آرائه كالنجوم بعيدة المدى ، قريبة الهدى ، متهلة
كالغمام : للأعداء منها الصواعق وللأولياء منها الندى . أصدرناها إلى المقر الكريم
بسلام حسن الاقتراح ، وثناء كمال نظم الوشاح ، وتبدي لعلمه الكريم .

(١) الزيادة من "التعريف"

آخر : ولا برحت آرائه تُثير غياهب الخطوب ، وعزائمه تُثير سنابك الحيات
للجهاد فتظفر من التأيد بكل مطلوب ، وصوارمه تفتك بالأعداء فتَهتك منهم كل
سِرٍّ محبوب . أصدرناها إلى المقر الكريم تُهدى إليه سلاماً أزهى من الزهر ، وأبهى
من رَوْضٍ وافٍ نضارته النظر ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولا برح التأيد يصحب رايته ، والعزم يخدم عزمته ، والرعب يؤم
طليعته ، والظفر يحكم في العدو سيفه فلا يستطيع عاصي الحصون عصمته . أصدرناها
إلى المقر الكريم تكافى بمزيد الشكر همته ، وتوافى إليه بثناءٍ وافٍ يحسد المسك
نفحته ، وتنهى لعلمه .

آخر : ولا برحت سيوفه تسيل يوم الرّوع جداولها ، وعزائمه تُنصر
كثائبها ومحافلها ، ومنزلته على ممر الزمان بين السماكين منازلها . أصدرناها إلى المقر
الكريم تُثنى على محاسنه التي بهرت أوصافها ، وأختالت في ملابس الحمد أعطافها ؛
وتبدى لعلمه .

أدعية وصدور

(تصلح لنائب حلب المحروسة)

دعاء من ذلك : ولا زال يُعدّ ليوم تشيب منه الولدان ، ويُعدّ دونه
[كل محارب ^(١)] بينه وبين الشهباء والميدان ، ويعمّ حلب من حلى أيامه مالا يُفقد
معه إلا أسم ابن حمدان .

فإن كان لقبه سيف الدين ، قيل « ويعمّ حلب من حلى أيامه مالا يُفقد معه
سيف الدين إن فقد سيف الدولة بن حمدان . صدرت هذه المكاتبة إلى الجناح

(١) الزيادة من "التعريف" .

الكریم تُهْدِي إِلَيْهِ سَلامًا مامرًا عَلَى رَوْضٍ إِلَّا أَتَهَبَ طِيبَهُ نَهْبًا، وَشَاءَ تُعَقِّدَ لَهُ أَعْلَامُهُ
عَلَى كَتِيبَتِهِ الشَّهْبَا، وَتَوْصَّحَ لَعَلَّمَهُ .

آخر : وَفَتَحَ بِسُيُوفِهِ الْفَتْحَ الْوَجِيزَ، وَأَحْلَلَ عَقَائِلَ الْمَعَاقِلِ مِنْهُ فِي الْكَنَفِ
الْحَرِيزِ، وَأَعَادَ بِهِ رَوْتَقَ بِلَدٍ مَاجَفَتْ بِهَا زُبْدَةُ حَلَبٍ وَهُوَ فِيهَا الْعَزِيزُ . صدرت هذه
المكتبة إلى الجَنَابِ الْكَرِيمِ بِسَلامٍ ذَهَبُهُ لَا يَذْهَبُ، وَشَاءَ لَا تَصْلُحَ لِغَيْرِ عَقِيلَةِ الشَّهْبَاءِ
فَلَادَةُ عَنَبِهِ الْأَشْهَبِ، وَتَوْصَّحَ لَعَلَّمَهُ الْكَرِيمُ .

آخر : وَلَا زَالَتْ هِمَمُهُ مِطْلَةً عَلَى النُّجُومِ فِي مَنَازِلِهَا، مُطَاوِلَةً لِلْبُرُوقِ بِمَنَاصِلِهَا،
قَائِمَةً فِي مَصَالِحِ الدُّوَلِ مَقَامَ حِمَافِلِهَا . صدرت هذه المكتبة إلى الجَنَابِ الْكَرِيمِ
تُهْدِي إِلَيْهِ سَلامًا كَالدَّرَرِ، وَشَاءَ طَوِيلَ الْأَوْضَاحِ وَالْغُرَبِ، وَتَبْدَى لَعَلَّمَهُ .

آخر : وَأَمَدَّهُ بَعُونُهُ، وَجَمَّلَهُ بَصُونُهُ، وَلَا زَالَ رَأْيُهُ فِي النِّقِيزِينَ : لِهَذَا سَبَبَ
فَنَائِهِ وَلِهَذَا عَلَّةُ كَوْنِهِ . صدرت هذه المكتبة إلى الجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلامًا
رَاطِبًا، وَشُكْرًا يَكُونُ عَلَى مَا تُخْفِي الصُّدُورُ رَقِيبًا، وَتَوْصَّحَ لَعَلَّمَهُ .

آخر : وَأَعْلَى لَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ قَدْرًا ، وَضَاعَفَ لَدَيْهِ مِنْ لَدُنْهُ سُرُورًا
وَبِشْرًا، وَلَا أَعْدَمَ الْمَالِكُ مِنْ عِزَائِهِ تَأْيِيدًا وَنَصْرًا . صدرت هذه المكتبة إلى
البَابِ الْكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلامًا يَفُوقُ الزَّهْرَ، وَيَسَابِقُ فِي سَيْرِهِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ،
وَتَبْدَى لَعَلَّمَهُ .

آخر : وَخَصَّهُ بِجَمِيلِ الْمَنَاقِبِ، وَمَنَحَهُ مِنَ الْمَزِيدِ عُلُوَّ الْمَرَاتِبِ، وَضَاعَفَ لَدَيْهِ
مِنَ الْإِيْثَارِ شَرِيفَ الْمَوَاهِبِ . صدرت هذه المكتبة إلى الجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ
سَلامًا كَرَمٌ وَفُودُهُ، وَشَاءَ حَسَنَ وَصْفِهِ وَعَذْبَ وَرُودِهِ، وَتَوْصَّحَ لَعَلَّمَهُ .

آخر : ولا زالت الخواطرُ تشهدُ منه صدقَ المحبة ، والنفوسُ تتحققُ أنه قد جعل
النصيحةَ لأيامنا الشريفة دأبه . صدرت هذه المكتبةُ إلى الجنب الكريم تُهدى إليه
سلاما زاكيةً أقسامه ، وثناءً لكلِّ عقدِه وأتسق نظامه ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم .

آخر : وزاد عزَّمة المبارك تأييدا ، ومنَّح نعمة على امتزاجات مزيدا ، وجعل
حظَّه من كلِّ خير سعيدا ، وسعدَه بتجديد الأيام جديدا . صدرت هذه المكتبةُ إلى
الجنب الكريم تُهدى إليه تحيةً حسنَ إهداؤها إليه ، وثناءً يبهج الخواطرَ ورؤده
عليه ؛ وتوضِّح لعلمه .

آخر : وجعل السعد المؤبد من مغانمه ، وأقامه لإبقاء الخير في معادنه وإثبات
العزِّ في معاملته . صدرت هذه المكتبةُ إلى الباب الكريم تُهدى إليه تحيةً طاب نشرها
العاطر ، وثناءً أبهج ذكره الخاطر ؛ وتوضِّح لعلمه .

آخر : ولا زال بالملائكة منصورا ، وبمزيد النعم مسرورا ، وبكلِّ لسان
موصوفاً مشكورا . صدرت هذه المكتبةُ إلى الباب الكريم تُهدى إليه سلاماً يَضُوعُ
نشره ، وثناءً يَفُوحُ عطره ، وتوضِّح لعلمه .

دعاء وصـدر

(١) يصلح لنائب السلطنة بطرابلس (

[وهو من هذه النسبة وما لا يبعد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيامه التي مارقت على مثلها أسحار ، وعدد في مناقبه
العقول التي تحار ، وأخذ بنواصي الأعداء بيده لا تنأى بهم البرارى المقفرة
ولا تحصنهم البحار .

(١) ظهر من غوى المقام أن هنا سقطا من قلم الناصح . وقد تداركناه من "التعريف" ووضعناه بين قوسين
هكذا [] تيمناً للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى بسلام وفرت منه أسهمه التى يدرأها
العدا فى نحرها، وشاء مطرب ترقص به الخيل فى أعتتها والسفن فى بحرها .

دعاء آخر وصددر

ولا زالت صفوفه تشد بنيان الحرب ، وسيوفه تعد للقتل وإن قيل للضرب ،
وسجوفه تجر على بلد ماثله فى شرق ولا حصل على غير المسمى منه غرب .

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تهدى إليه سلاما يزيد أفقه تزيينا، وشاء
يأتيه من فائق الدر بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصددر

(يصلح لنائب السلطنة بحجة)

وأتم بخدمه كل مبره، وهممه كل مسره، وصان ماويله أن يكون به غير النهر
«العاصى» أو ينسب إليه سوى البلد المعروف « معره » .

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تهدى إليه سلاما تمسح أذنيه بالسحاب ،
وشاء يأتى به حماة وقرونها المشورة بالويته معقودة الدواب .

(١) [دعاء آخر وصددر

وحمل حماه، وزان موكبه بأحسن حماه ، وحسن كائن سهامه التى لا يصلح لها
غير بلده حماه (١) .

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تهدى إليه سلاما تحمله إليه الركائب
السائرة ، وشاء تشرق منه الكواكب أضعاف ما تزيه أفلاك الدواليب الدائر ،
وتوضح لعلمه .

(١) ما بين هذين القوسين [تداركاه من التعريف لينتظم به الكلام فليأمل .

دعاء وصدر

(يصلح لنائب صفد)

وَشَكَرَ هِمَمَهُ الَّتِي وَفَّتْ ، وَعَزَّائِمَهُ الَّتِي كَفَّتْ ، وَأَعْلَىٰ بِهِ بِلْدًا مُدُّ وَلِيَهُ قِيلَ :
 صَفْدٌ قَدْ صَفَّتْ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا
 لَا تَزَالُ شِعَائِرُهُ تُقَامُ ، وَثَنَاءٌ مُدُّ هَبَّ عَلَىٰ بِلْدِهِ قِيلَ : إِنَّ هَوَاءَهَا يَشْفِي الْأَسْقَامَ ؛
 وَتَوْضُحَ لِعَالِمِهِ .

آخِرُ : وَلَا زَالَتْ مَسَاعِيهِ تَسْوُقُ إِلَيْهِ الْحُظُوظُ ^(١) [البَطِيَّةُ] وَتَقَدَّمُ لَهُ الْعَلِيَاءُ مِثْلَ
 الْمَطِيَّةِ ، وَتَهْنِئُهُ بِمَا خُصَّ بِهِ مِنْ صَفْدٍ وَهِيَ الْعَطِيَّةُ ؛ [صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ
 إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا يَحْيِيهِ فِي مَحَلَّةٍ ، وَثَنَاءً يُوَدِّعُ فِي مَعْقَلِهِ الَّذِي لَا تَصِلُ
 أَعْلَى الشَّوَاخِ إِلَّا إِلَى مَا سَقَلَ مِنْ ظِلِّهِ ^(١)] وَتَوْضُحَ لِعَالِمِهِ .

ادعية وصدر

(تصلح لكل من نواب طرابلس وحماة وصفد ومن في معناهم)

دعاء وصدر من ذلك : وَلَا يَرَحُ مِنْصُورَ الْعَزَمَاتِ ، مُسَدَّدًا فِي الْأَرَاءِ
 وَالْحَرَكَاتِ ، مُشِيدًا قَوَاعِدَ الْمَالِكِ بِمَالِهِ مِنْ جَمِيلِ التَّقَدِّمَاتِ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ
 إِلَى الْبَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا أَرْجَا ، وَثَنَاءً بَهْجَا ؛ وَتَوْضُحَ لِعَالِمِهِ .

آخِرُ : وَلَا زَالِ سَيْفُهُ مَاضِيًا ، وَجَيْدُهُ حَالِيًا ، وَضِدُّهُ خَاسِيًا . صَدَرَتْ هَذِهِ
 الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا ، وَتُسَدَّدُ لِرَأْيِهِ الصَّائِبِ سِهَامًا ،
 وَتَوْضُحَ لِعَالِمِهِ .

آخر : ولا زالت آراؤه سعيده ، وتأثيراته حميده ، وسُيوفه لرقاب العدا
مُبيده . صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُهدى إليه سلامًا يتأرجح ، وثناءً
نشره نشر الثوب المديح ، وتوضح لعلمه .

آخر : ولا زالت آراؤه عاليه ، وأجياده عاليه ، ونعم الله عليه متواليه . صدرت
هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُهدى إليه السلام التام ، والثناء الوافر الأقسام ،
وتوضح لعلمه .

أدعية وصـدور

(تصلح لنائب الكرك ومن في معناه ممن رتبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيد عزمه ، وأبد حزمه ، وفوق إلى نحر العدا سهمه .
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاما ، وتُسدد لرأيه الصائب
سهما ، وتوضح لعلمه .

آخر : ولا زال عاليًا قدره ، نافذا أمره ، جاريًا على الألسنة حمده وشكره .
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاما ، وثناءً بسلاما ، وتوضح لعلمه .

المهيع الثانى

(فى بيان مراتب المكتوب إليهم من أهل المملكة ، وما يستحقه
كلّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أرباب السيوف ، وهم على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(من هو منهم بالديار المصرية ، وهم ستة أصناف)

الصنف الأول

(نواب السلطنة الشريفة ، وهم أربعة نواب)

الأول — النائب الكافل : وهو نائب السلطنة الشريفة بالحضرة . وقد تقدّم
فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنه على نواب السلطان رتبة .
قال فى "التتيف" : "وقل أن يكتب إلا إذا كان السلطان مسافراً فى غزاة أو سرحة
للصيد .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره فى "التعريف" : أعز الله تعالى أنصار الجناح
الكريم على ما تقدّم فى الدرجة الثانية من الدرجات العشر^(١) . قال فى "التعريف" :
وقد رأيت بعض الكُتّاب قد كتب فى ألقابه بعد الأمرى "الأمرى" . قال :
والكاتب المذكور كاتب صالح فى المعرفة وليس بحجة ، وكاتبه الأمرى ليست بشيء ،
وإنما حمله عليها كثرة الملق . وقد نقل فى "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

(١) لم يتقدم إلاثمان فتنه .

في تعريفه « نائب السلطنة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذي أراه أن يُجَمَّع ذكر النيابة والكفالة في تقليده ، فيقال : « أن يُقَلَّدَ نِيايَةَ السلطنة المعظَّمة ، وكفالة الممالك الشريفة الإسلامية » أو ما هذا معناه ، نحو : « وكفالة الممالك الشريفة : مصرًا وشامًا وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية » ونحو ذلك .

فأما في تعريف الكتب ، فقد جرت عادة نواب الشام أن تقتصر في كتبها إليه على « كافل الممالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعمري في ذلك مَقْنَعٌ وإنَّ في الاقتصار عليها ما هو أكثرُ نفعًا . وعليه عملُ أكثرِ الكُتَّابِ بديوان مصر أيضا ، ويؤيِّده أنهم مقتصرون فيما يكتب بإشارته على هذا التعريف ، فأعلم ذلك .

ورسم المكتبة إليه على ما استقر عليه الحال ، على ما ذكره في " التثقيف " : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم ، كما في الدرجة الأولى من الدرجات العشر ، والعلامة إليه « أخوه » . وتعريفه : « كافلُ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . قال في " التثقيف " : وإنما كُتِبَ له أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ ، وزيدت ألقابه على ما كانت عليه لمَّا كُتِبَ بذلك لنائب الشام في ولاية بيدمر الخوارزمي ، وكافل المملكة يومئذ الأمير منجك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكون نائب الشام مميزًا على كافل السلطنة ، على ما سيأتي في الكلام على مكتبة نائب الشام .

قال في " التعريف " : أما نائب الغيبة ، وهو الذي يُتْرَكُ إذا غاب السلطان والنائب الكافل وليس إلا لإنقاذ النوائر وخلاص الحقوق ، فحكمه حكمه في المكتبة إليه .

الثاني — نائب نَغر الإسكندرية المحروس : وهو ممن أَسْتُحْدِثَتْ نيابتهُ في الدولة الأشرقية «شعبان بن حسين» عند طُرُوق العدو المخذول، في سنة سبع وستين وسبعائة من الفَرَنج المخذولين .

ورسم المكتبة إليه : ضاعف الله تعالى نعمة الجَنَاب العالى، على ما تقدم ذكره، إلا أنه لا يقال في ألقابه «الكافى» والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بن نَغر الإسكندرية المحروس » .

واعلم أن بالإسكندرية حاجباً يَكْتَبُ عن الأبواب السلطانية . قال في «التتيف» : ورسمُ المكتبة إليه : «هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى» إن كان طبلخاناه، و« يعلمُ مجلس الأمير » إن كان عشرةً، والعلامة الشريفة له الأسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ بن نَغر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجه القبلى : وقد تقدم أن مَقَرَّ ولايته مدينةُ أُسَيْوْطَ ، وأنَّ أَسْتُحْدِثَتْ نيابته كان في الدولة الظاهرية «برقوق» في سنة ثمانين وسبعائة . ورسم المكتبة إليه : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَنَاب العالى » على ما تقدم ذكره . ولا يقال فيه «الكافى» أيضاً ، والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلى» .

الرابع — نائب الوجه البحرى : وقد تقدم أن مَقَرَّ ولايته مدينة دَمَنْهَور الوَحْش من أعمال البحيرة، وأن نيابته أَسْتُحْدِثَتْ بعد نيابة نائب الوجه القبلى، ولذلك لم يتعرض له في «التتيف» .

ورسم المكتبة إليه : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَنَاب العالى » كما في نائب الوجه القبلى . والعلامة الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه البحرى» .

الصنف الثاني

(الكشاف)

وقد تقدم أنه كان قبل استقرار نيابتي الوجهين : القبلي والبحري كاشفان بالوجهين المذكورين : كاشف بالوجه القبلي ، وكاشف بالوجه البحري . فلما استقرت النيابةان ، استقرت بالفيوم والبهنساوية كاشف ، وبالشرقية وما قاربها كاشف ، وكل منهما أمير طبخاناها .

ورسم المكتبة إلى كل منهما : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي » والعلامة لكل منهما الأسم الشريف ، وتعريف كاشف الفيوم « الكاشف بالفيوم والبهنساوية » وتعريف الآخر « الكاشف بالوجه البحري » .

الصنف الثالث

(الولاية بالوجهين : القبلي والبحري)

وكل من ولاية الوجهين لا يخرج عن طبخاناها أو عشرة وما في معناها كالعشرين ونحوها .

فأما الوجه القبلي ، ففيه ستة ولاة ، منهم ثلاثة طبخاناها : وهم والى قوص وإنجيم . ووالى الأشمونين . ووالى البهنسا .

ومنهم ثلاثة عشرات : وهم والى الحيزية ، وكان قبل ذلك طبخاناها . ووالى إطفيح . ووالى منفلوط . وكان قبل ذلك طبخاناها ، وهو اليوم إمرة عشرين .

وأما الوجه البحري ، ففيه سبعة ولاة : منهم ثلاثة طبخاناها . وهم والى الغربية . ووالى المنوفية . ووالى الشرقية . وكان بدمهور والى طبخاناها قبل استقرارها نيابة .

ومنهم أربعة عشر، وهم : والى قَيْوُب . ووالى أَشْمُوم : وهى الدقهلية
والمرتاحية . ووالى دِمِيَاط . ووالى قَطِيَا .

ورسم المكتبة إلى كلٍّ من ولاية الطبلخاناه منهم : « هذه المكتبة إلى المجلس
السامى » وإلى كلٍّ من ولاية العشرات منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة لكل
من الطبلخاناه والعشرات الأسم الشريف ، وتعريف كل منهم « والى فلانة » .

الصنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدمة الذكر:

لكشف الجسور وعمارتها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغلال)

قال فى "التعريف" : فمن كان منهم طباحاناه ، فرسم المكتبة إليه السامى بالياء .
ومن كان منهم عشرة ، فرسم المكتبة إليه السامى بغير ياء . والعلامة للجميع الأسم
الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجه بسببها ، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المصرية)

وقد رتبهم فى "التعريف" على أربع مراتب :

المرتبة الأولى — مقدّموا الألوْف ، وقد ذكر أنّ لجبارهم أسوة بكار التّوَاب بالمالك
الشامية ، كالشام وحلب . ولاؤسطهم [أسوة أوسطهم] ^(١) كحجة وطرابلس وصفد .

(١) الزيادة من "التعريف" ، وهى ساقطة من قلم الناسخ .

ولأصغرهم أسوة أصغرهم ، كغزة وخص . ثم قال : فاعلم ذلك وقس عليه . ثم قال بعد ذلك : والذي نقوله أن ل كبار المقدمين بالأبواب السلطانية «الجناب الكريم» [ثم الجناب العالى] ثم «المجلس العالى» . وهذا على ما كان في زمانه ؛ أما على ما استقر عليه الحال آنحرا ، فإنه يكون لكبارهم «المقر الكريم» كما يكتب للآتابك الآن ، ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» .

المرتبة الثانية — الطباخانات . قد ذكر أن منهم من يكتب له «المجلس العالى» كمن يكون معيناً للتقدمة ، وله عدة ثمانين فارساً أو سبعين فارساً أو نحو ذلك ، وكالمقرين من الخاصية ، أو من له عراقية نسب كبقايا الملوك ، أو أرباب وظائف جليلة : كحاجب كبير ، أو إستدار جليل ، أو مدبر دولة لم يصرح له بالوزارة ، أو دوا دار متصرف . ثم قال : وهؤلاء وإن كتب لهم بالمجلس العالى ، فإنه يكتب لهم بغير افتتاح بالدعاء ، والكتابة لهم بالعالى على سبيل العرض لا الاستحقاق ، وإلا فأجل رسم مكتبة أمراء الطباخاناه «السامى» بالياء والجمهورهم «السامى» بغير ياء .

المرتبة الثالثة — العشرات . وذكر أن لكل منهم «مجلس الأمير» ، ثم قال : فإن زيد قدر أحد لسبب ما ، كتب له «المجلس السامى» بغير الياء .

المرتبة الرابعة — مقدمو الجند . وقد ذكر أن لهم أسوة أمراء العشرات في المكتبة . ثم قال : وأما الجند ، فالأمير الأجل . وأما جند الأمراء فالطواشى . وكأنه يريد ما إذا كتب بسببهم مكتبة أو كتب لأحد منهم توقيع ، وإلا فالجند لا يكتب أحد منهم عن الأبواب السلطانية حتى ولا أبواب القلاع بالشام ، كما سيأتى ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

الصنف السادس

(العربان بالديار المصرية وبرقة)

وقد تقدم الكلام عليه مستوفى في الكلام على أنساب العرب ، فيما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى . وقد ذكر في " التعريف " أن العرب بمصر في الوجهين القبلي والبحري جماعات كثيرة وشعوب وقبائل . ثم قال : ولكنهم على كثرة أموالهم ^(١) وآتساع نطق جماعاتهم ، ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من يُنجد ولا يُتيم ، ولا يُعرق ولا يُشتم ، ولا يخرجون عن حدود الجدران ، وعلى كل حال * فالمندل الرطب في أرجائه حطب * .

ثم قد قسم منازلهم إلى الوجه القبلي والوجه البحري ، وذكر أن بكل من الوجهين من يكاتب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البحري فعلى ضربين :

الضرب الأول

(عرب البحيرة)

قال في " التعريف " : وأمرأؤهم عرب الديار المصرية . قال : وهم أشبه القوم بالتخلف بخلائق العرب في الحلّ والترحال ، يُغربون إلى القيروان وقابس ، ويفدون على الحضرة السلطانية وفود أمثالهم من أمراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم في زمانه ، كانت في محمد بن أبي سليمان وفائد بن مقدم . وقال : إن رسم المكتبة إلى كل منهما : « هذه المكتبة إلى المجلس السامي ، الأمير » والعلامة السلطانية « أخوه » ولم يتعرض لتعريفهما ، والذي يظهر أن تعريف كل منهما اسمه .

(١) في الاصل : أبداهم ، وهو تصحيف والتصحيح من " التعريف " .

أما بعده ، فقد تغيّرت تلك الأحوال ، وتناقصت رتبةُ عرب البُحيرة ، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال جَمَّة ، كان منهم في الدولة الأشرقية «شعبان بن حسين» رَحَاب ، وموسى^(١) بن خِضر ، وأولاد بَدْران الغريّني ، ومن جرى مجراهم ، ثم صار اليوم بها بن رَحَاب ، وخضر بن موسى .

الضرب الثاني

(عربُ الشَّرقية)

وقد ذكر في «التعريف» : أنه كان في زمانه منهم نَجْم بن هجل شيخ عائد . وذكر أنه دون محمد بن أبي سليمان وفائد بن مقدّم : أميرُ عرب البُحيرة . ثم قال : ورسم المكتبة إليه : «هذه المكتبة إلى المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيّرت الأحوال بعد ذلك وصارت رئاسةُ عرب الشرقية متداولةً^(١) في جماعة ، إلى أن كان منهم في الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسى أمير^(١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أولاً في^(٢) ثم قُتل بسيف السلطان في الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وأستقر مكانه

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .



وأما عرب الوجه القبليّ ، فقد ذكر في " التعريف " أنه كان منهم في زمانه نَفَران : أحدهما ناصر الدين عُمر بن فَضْل . وذكر أن رسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامى » أيضا . وثانيهما سُمرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ ، وشوكَةٍ مُنَكِيَةٍ ، يغزو الحبشة وأمم السودان ، ويأتى بالنهاب والسبایا ، وله أثرٌ محمود ، وفعل ماثور . وفد على السلطان وأكرم مثنواه ، وعُقد له لواءٌ وشُرّف بالتشريف ، وقُدّ ذلك ، وكتب إلى ولاة الوجه القبليّ عن آخرهم وسائر العربان به بمساعدته ومُعاضدته ، والركوب للغزو معه متى أراد . وكتب له منشورٌ بما يفتح من البلاد ، وتقليدٌ بإمرة العربان القبلية مما يلى قُوص إلى حيث تصل غايته . ثم قال : ورسم المكتبة إليه " السامى الأمير " كن تقدم .

قلت : ثم كان بعد ذلك عدد من أمراء العربان ، كان آخرهم أبو بكر بن الأحذب . ثم لما أنتقلت هَوارة إلى الوجه القبليّ ، صارت الإمرةُ فيهم في الصعيد الأدنى ، في بنى غريب ، وأميرهم الآن ^(١) وفي الصعيد الأعلى في بنى عُمر ، وأميرهم محمد بن عمر ، ورسم المكتبة إلى كل منهما ^(٢)

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بياض لهذا كما بياض لما قبله أنتظارا لوضع مثال المكتبة الجارية في زمانه فأخترته المنية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عربُ بَرْقَة ، فقد ذكر في "التعريف" أنه لم يبقَ منهم في زمانه من يكتب إلا جَعْفَرُ بْنُ عَمْرٍ ، وأنه كان لا يزال بين طاعةٍ وعِصيان ، ومخاشنةٍ وليانٍ ؛ وأن أمراءَ عربِ البُحيرة كانت تُعَرى به ، وتغيّر خاطر السلطان عليه ، وأن الجيوش كانت تمتد إليه ، وقلَّ أن ظفرت منه بطائل ، أو رجعت بمغنم إن أصابته نوبةٌ من الدهر . وكان آخر أمره أنه ركب طريقَ ألواحٍ حتى خرج من القيوم ، وطرق بابَ السلطان لائذاً بالعفو ، ولم يسبق به خير ، ولم يعلم السلطان به حتى استأذن المستأذن عليه وهو في جملة الوقوف بالباب ، فأكرم أتم الكرامة ، وشرف بأجل التشاريف ، وأقام مدةً في قري الإحسان وإحسان القري . وأهلُه لا يعلمون بما جرى ، ولا يعرفون أين يَم ، ولا أى جهة نَحَا ، حتى أتهم وافدات البشائر . وقال له السلطان : لأى شىء ما أعلمت أهلك بقصدك إلينا؟ قال : خفتُ أن يقولوا : يفتك بك السلطان ، فأتبَط . فاستحسن قوله ، وأفاض عليه طوله ، ثم أعيد إلى أهلِه ، فاقبل بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسه سوء ، ولا رثى له صاحب ، ولا شمت به عدو .

النوع الثانى

(من يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأقاليم،

وهم على ضربين :)

الضرب الأول

(أرباب الدواوين من الوزراء ومن في معانهم)

قال في "التعريف" ولم تزل مكتبةُ أجلاء الوزراء بـ«المجلس العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية «الجناب العالى» . وكُتبت بالشام للصاحب عز الدين

(١١) أبى يعلى، حمزة بن القلاقي رحمة الله، بجلالة قدره، وسابقة خدمه، وعناية من كتب إليه بها. ثم قال: والذي استقر عليه الحال للوزير بمصر «الجناب». أما من يجري مجرى الوزراء ولا صريح له بها: مثل ناظر الخاص، وكتب السر، وناظر الجيش، وناظر الدولة، وكتب الدست، و«السامي» بالياء، ومن دون هؤلاء فغير ياء، ثم «مجلس القاضي أو الصدر».

قلت: وكأنه يريد ألقاب هؤلاء في الجملة، إما في مكتبة تكتب بسبب أحد منهم، وإما في توقيع ونحوه يكتب لأحدهم، وإلا فن ذكره من الأصاغر لا يكتب عن الأبواب السلطانية عادة. والذي صرح في «التثقيف» بذكر المكتبة إليه من هذا الضرب نفران:

الأول — كاتب السر إذا تخلف عن الركب السلطاني لعارض. وذكر أن رسم المكتبة إليه: «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي» على ما تقدم ذكره، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة».

الثاني — ناظر الخاص الشريف. وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما استقر عليه الحال في أيام ابن تقولا «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي» على ما تقدم ذكره، والعلامة «الاسم» وتعريفه «ناظر الخواص الشريفة».

قلت: ولم يتعرض لمكتبة الوزير، إنما ذكر ألقابه في الألقاب العامة مما يكتب في الولايات وغيرها، ولا يستغنى عن ذكر المكتبة إليه؛ وقد تقدم في كلام صاحب «التعريف» أن الذي استقر عليه الحال في المكتبة إليه «الجناب العالي» ولم يعين صورة الدعاء له. والذي ذكره في «التثقيف» في ألقابه أن الدعاء له «ضاعف الله

تعالى نعمته » وحينئذ فتكون المكتبة إليه إن كتب إليه « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى » بالألقاب السابقة .

الضرب الثانى

(أرباب الوظائف الدينية والعلماء)

قد ذكر فى " التعريف " أن كلاً من قضاة القضاة بمصر يكتب له « المجلس العالى » والمحاسب بها يكتب له « السامى » بالياء ، ومن دونهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابرهم « السامى » بغير ياء ، ومن دونهم « مجلس القاضى » او « الشيخ » بحسب ما يليق به . وكأنه يريد مطلق الألقاب كما تقدم فى غيره ، وإلا فهؤلاء لا يكتبون عن الأبواب السلطانية . ولم يذكر فى " التتيف " مكتبة لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوى قاضى القضاة تاج الدين الإخنائى المالكى ، وقد حجّ فى سنة سبع وستين وسبعائة فى الدولة الناصرية « حسن » ، جواباً عما ورد منه ، وكتب له الدعاء و « المجلس العالى » . والعلامة الأسم . قال : وأما قاضى القضاة عز الدين بن جماعة فإنه كان يُحجّ ويجاور كثيراً ، ولكنى لم أراه كتب له قطّ ، وأنا شاكّ فى أمره .

قلت : رأيت فى " إيقاظ المتغفل " لابن المتوجّج ، أنه كتب إليه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالى أحكام المجلس العالى » ولم يتعرّض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاة الشافعية أو المالكية بالديار المصرية » .

النوع الثالث

(من يُكاتب عن الأبواب السلطانية ممن بالديار المصرية الخوّنات السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربه ممن تدعو الضرورة إلى مكاتبته لسفره أو لسفر السلطان)

وقد ذكر في "التتيف" منهن جماعة، نذكرهن ليكن أنموذجا لمن يكون في معناهن .
الأولى — ابنة المقام الشريف الشهيد الناصري «محمد بن قلاوون» لما كانت بحلب مع زوجها أبي بكر بن أرغون، كتب إليها ما صورته : «الذي يحيط به علم الحرمة الشريفة، العالية، المصونة، الولدية، عصمة الدين، جلال النساء، شرف الخواتين، سليلة الملوك والسلاطين، ضاعف الله تعالى جلالها» والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيفية بحلب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانية — طغاي زوجة المقام الشريف الناصري المشار إليه، المعروفة بأم أنوك، كتب إليها لما توجهت إلى الحجاز الشريف : «ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة، العالية، المعظمة، المحجبة، المصونة الكبرى خوند خاتون، جلال النساء في العالمين، سيده الخواتين، قرينة الملوك والسلاطين» . ثم الدعاء، والعلامة الأمم الشريف، وتعريفها «والدة المقر الكريم الولدي السيفي أنوك» : والأسطر على ما تقدم في المكاتب السابقة .

الثالثة — أخت المقام الشريف الناصر حسن جهة الامير طاز، كتب لها لما كانت بالحجاز الشريف : «ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة العالية الكريمة المحجبة المصونة الكبرى الخاتون، جلال النساء في العالمين، جميلة المحجبات، جليلة المصونات، كريمة الملوك والسلاطين، والعلامة «أخوها» .

الرابعة — الحاجة الستّ حدّق . كُتِبَ لها وهى بالمجاز الشريف عن الناصر حسن : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة العالية الكبرى المحجّبة المصنّوية الحاجّبة الوالدية ، جلال النساء فى العالمين ، بركة الدولة ، والدّة الملوك والسلاطين » . ثم الدعاء والعلامة الأسم الشريف ؛ وتعريفها « الحاجة ست حدق » .

الخامسة — والدّة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجّدها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلالَ الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالبا ، فكان يمكن أن يُكْتَبَ لها بتقيل اليد .

قلت : وصورة المكاتبة على ما رأيته فى بعض الدساتير : « ضاعف الله تعالى جلالَ حجابِ الجهة الشريفة العالية الكبرى ، المعظّمة المحجّبة العِصْمَى الخاتُونى ، جلال النساء فى العالمين ، سيّدة الخواتين ، جميلة المحجّبات ، جليّة المصنّوات ، والدّة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء ، وكانت الكتابة لها فى ورق دِمَشْقٍ فى قطع الفرخة بالطول كاملةً بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القسم الثاني

(مَنْ يَكْتَبُ بِالْمَالِكِ الشَّامِيَةِ، وَهُمْ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ)

النوع الأول

(أَرْبَابُ السُّيُوفِ مِنَ النَّوَابِ الْكُفَّالِ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَهِيَ ثَمَانُ نِيَابَاتٍ)

النِيَابَةُ الْأُولَى

(نِيَابَةُ دِمَشْقَ، الْمَعْبُورُ عَنْهَا فِي عُرْفِ الزَّمَانِ بِالْمَمْلُوكَةِ الشَّامِيَةِ)

وَالْمَكْتُوبُونَ بِهَا عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ ضَرْبَانِ :

الضرب الأول

(مَنْ بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ، وَهُمْ ثَلَاثَةٌ)

الأول — كَافِلُ السُّلْطَانَةِ بِهَا، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مُقَدِّمِي الْأُلُوفِ . وَكَانَ رَسْمُ الْمَكْتُوبَةِ إِلَيْهِ عَلَى مَا أَوْرَدَهُ الْمَقَرُّ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التَّعْرِيفِ" : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ» . قَالَ فِي "التَّثْقِيفِ" : وَلَمْ تَزَلِ الْمَكْتُوبَةُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الدَّوْلَةِ الشَّهِيدِيَّةِ النَّاصِرِيَّةِ مُحَمَّدُ بْنُ قِلَافُونَ إِلَى آخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمِيرُ بِيَدِهِمُ الْخَوَارِزْمِيُّ نَائِبُ السُّلْطَانَةِ بِهَا فِي وَلايَتِهِ الثَّالِثَةِ ، فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ «شُعْبَانُ بْنُ حُسَيْنٍ» فَاسْتَقَرَّ رَسْمُ الْمَكْتُوبَةِ إِلَيْهِ : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ» عَلَى الرِّسْمِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ إِلَيْهِ «أَخُوهُ» وَتَعْرِيفُهُ «نَائِبُ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْحُرُوسِ» . قَالَ فِي "التَّثْقِيفِ" : «أَوْ كَافِلُ الْمَمْلُوكَةِ الشَّامِيَةِ الْحُرُوسَةِ» وَلَا يُقَالُ فِي نُعُوتِهِ : كَافِلُ السُّلْطَانَةِ .

الثاني - نائب قلعة دِمَشْق . ورُسِمَ المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي » على ما تقدم رسمه . والعلامة « والده » . قال في « التثقيف » :
ثم استقرت المكتبة إليه « السامى » بالياء : لأنه طبليخاناه ، والعلامة الشريفة له
الآسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث - حاجب الحُجَّاب بها . ورسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى
نعمة المجلس العالي » على ما تقدم رسمه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه
« أمير حاجب بالشام المحروس » .

الضرب الثاني

(من بأعمال دمشق من ثواب المُدُن والقلاع، وهم خمسة ثواب)

الأول - نائب جِص ، قال في « التثقيف » : كان يكتب إليه نظير نائب
الكَرَّك ، يعنى « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي » والعلامة الشريفة له « والده »
لما كان من مقدمى الألوף بالشام ، ثم استقر من أمراء الطبليخاناه ، وأستقرت
مكاتبته « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » فيما أظن ؛ وقد تقدم رسمها .
والعلامة الشريفة له الآسم الشريف ، وتعريفه « النائب بخص المحروسة » .

الثاني - نائب الرَّحْبة . وقد تقدم فى الكلام على المَسَالِك والممالك أنه كان
من حقها أن تكون من مضافات حَلَب . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه
المكتبة إلى المجلس العالي » على ما تقدم رسمه . والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه
« النائب بالرَّحْبة » .

الثالث — نائب بَعْلَبَك . قال في "التثقيف" إن كان من أمراء الطبلخاناة فكَاتِبَتِه «صَدَرَتْ هذه المَكاتِبَةُ إلى المجلس السامى» والعلامة له الأسم الشريف . وإن كان من العَشَرَات ، فالمَكاتِبَةُ إليه « يعلمُ مجلسُ الأمير » والعلامة له الأسم الشريف وتعريفه « النائب بَعْلَبَك المحروسة » .

الرابع — نائب مِصْيَاف . وقد تقدّم في الكلام على المَسَالِك والممالك أنها كانت مُضَافَةً إلى طَرَابُلُس في جملة قِلاع الدَّعْوَةِ ، ثم آسْتَقَرَّتْ في مُضَافَاتِ الشَّام . ورسم المَكاتِبَةُ إليه « هذه المَكاتِبَةُ إلى المجلس السامى » والعلامة الشريفة له الأسم الشريف .

الخامس — نائب القُدُس الشريف . وهو ممن آسْتَحْدِثَتْ نِيَابَتُهُ في الدولة الأَشْرَفِيَّة « شعبان بن حسين » في سنة سبع وسبعين وسبعائة ، وكانت قبل ذلك ولايةً وهو طبلخاناة ، وربما أُضِيفَ إليه نَظَرُ الحَرَمَيْنِ : حَرَمُ القُدُس ، وَحَرَمُ الخَلِيل عليه السلام . ورسم المَكاتِبَةُ إليه « صَدَرَتْ هذه المَكاتِبَةُ إلى المجلس العالى » . والعلامة « والده » وتعريفه « النائب بالقُدُس الشريف » .

قال في "التثقيف" : وكان قد آسْتَقَرَّ بِأَمَا كُنْ تُدْكِرُ من البلاد الشامية ثَوَاب ، وآسْتَقَرَّتْ مَكاتِبُهُ كُلُّ مِنْهُمْ : إن كان مقدّما « صَدَرَتْ » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناة « السامى » بالياء والعلامة الأسم الشريف . وهى تَدْمُرُ ، والسُّخْنَةُ ، والقَرَيَتَانِ ، وسَلَمِيَّةٌ . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن الثَوَاب بالقلاع الشامية جماعةٌ لم تجر لهم عادةً بمكاتبة عن المواقف الشريفة ، ولا تصدُر ولا يَتَمُّ من الأبواب الشريفة ، بل نائبُ الشَّامِ مُسْتَقِلٌّ بِذَلِكَ . وهم ، نائب مَجلُون ، ونائب صَرَحَد ، ونائب الصُّبَيْيَّة ، ونائب شَقِيف أَرُون .

قال : ومن كُتِبَ إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمال الدين يوسف شاه الأتابك بمصيف في سنة أربع وسبعين وسبعمائة على يد نافع بن بدران . ورسم ما كتب به إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی» وكُتِبَ في ألقابه «الأتايكي» وكتب تعريفه «يوسف شاه الأتابك» . قال : والظاهر أن العلامة «والده» .

النيابة الثانية

(نيابة حلب)

والمكاتبون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأول

(من بمدينة حلب ، وهم ثلاثة)

الأول — النائب بها . وهو من أكابر مقدّمى الألف . ورسم المكتبة إليه « أعز الله تعالى نصره الجنب الكريم » على ما تقدّم رسمه . والعلامة الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة» .

الثاني — نائب القلعة بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي » على ما تقدّم رسمه . والعلامة له الأسم الشريف . وتعريفه «نائب القلعة المنصورة بحلب المحروسة» .

الثالث — حاجب الحجاب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی » . والعلامة «والده» وتعريفه «أمير حاجب بحلب المحروسة» .

الضرب الثاني

(مَنْ بِأَعْمَالِ حَلَبَ مِنَ النَّوَابِ ، وَهُمْ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ نَائِبًا)

الأول — نائب البيرة . ورسم المكتبة إليه « المجلس العالى » . والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه « النائب بالبيرة المحروسة » .

الثانى — نائب قلعة المسلمين المعروفة بقلعة الرُّوم . ورسم المكتبة إليه والعلامة كذلك ^(١) . وتعريفه « النائب بقلعة المسلمين المحروسة » .

الثالث — نائب مَلَطِيَّةَ ^(٢) . ورسم المكتبة إليه والعلامة الشريفة كذلك ، وتعريفه « النائب بمَلَطِيَّةَ المحروسة » .

الرابع — نائب طَرَسُوسَ . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى » والعلامة « والده » وتعريفه « النائب بطَرَسُوسَ » .

الخامس — نائب أَدَنَةَ . ورسم المكتبة إليه والعلامة له كذلك ، وتعريفه « النائب بأَدَنَةَ المحروسة » .

السادس — نائب الأَبْلُسْتَيْنِ . ورسم المكتبة إليه والعلامة الشريفة له كذلك ، وتعريفه « النائب بالأَبْلُسْتَيْنِ المحروسة » .

السابع — نائب بَهَسْنَى . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » والعلامة له « والده » وتعريفه « النائب ببَهَسْنَى المحروسة » .

قال فى « التثقيف » : ولم يُعَلِّمَ لأحد من أرباب السيوف قديماً « والده » مع « السامى » بالياء غيره .

(١) أى « المجلس العالى » و « والده » مثل الذى قبله .

(٢) صوابه بهذا الضبط قال فى المعجم « والعامية تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء » . وقال فى القاموس

« وتشديده لحن » .

الثامن — نائب آياس^(١) . وهو المعبر عنه بنائب الفتوحات الجاهليّة . قال في "التثقيف" : إن كان مقدّما فالمكتبةُ إليه بنسبة مكتبة نائب البيرة ، فيكون رسم المكتبةُ إليه «صدرتْ هذه المكتبةُ إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدرتْ هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الأسم ، وتعريفه بكل حال «النائب بآياس^(١)» أو «النائب بالفتوحات الجاهليّة المحروسة» .

التاسع — نائب جعبر . ورسم المكتبةُ إليه على ما ذكره في "التثقيف" «هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى» والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بقلعة جعبر المحروسة» .

العاشر — نائب عيتاب . ورسم المكتبةُ إليه على ما في "التثقيف" «يُعلم مجلس الأمير» والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بعيتاب المحروسة» .

قال في "التثقيف" : ورأيت بخطّ القاضى ناصر الدين بن النشائى أن مكتبته الأسم و«السامى» بغير ياء . ثم قال : وما تقدّم هو ما استقرّ عليه الحال آخر . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أمير طبلخاناه ، وتعريفه «النائب بعيتاب» .

الحادى عشر — نائب درندة . قال في "التثقيف" : إن كان طبلخاناه ف«السامى» بغير ياء ، وإن كان عشرة ف«مجلس الأمير» والعلامة الأسم بكل حال ، وتعريفه «النائب بدرندة» .

الثانى عشر — نائب القصير . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبةُ إليه «يُعلم مجلس الأمير» والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بالقصير» .

(١) تقدم للؤلّف فى ص ١٣٣ ج ٤ أن قال بفتح الهزّة المدوّد . وقال صاحب القاموس «كسحاب» .

الثالث عشر — نائب الرَّأُونْدَان . ورسم المكاتبَة إليه كمثل نائب القُصَيْرِ ،
وتعريفه « النائب بالرَّأُونْدَانِ » .

الرابع عشر — نائب الرَّهَّا . قال في "التثقيف" : جرت العادة أن يكون نائبها
طَبْلَخَانَاهُ ، فتكون مكاتبته « السامى » بغير ياء ، والعلامة الأسم . ثم قال : وقد
استنقر في الأيام المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعائة مقدم ألف ، فقد
يكتب إليه نظير نائب البيرة وقلعة المسلمين ، يعنى فتكون مكاتبته « صدرت »
و « العالى » . والعلامة « والدّه » وتعريفه بكل حال « النائب بالرَّهَّا » .

الخامس عشر — نائب شَيْرَ . قد ذكر في "التثقيف" أن مكاتبته « هذه المكاتبَة
إلى المجلس السامى » فتكون العلامة الأسم ، وتعريفه « النائب بشَيْرَ » .

السادس عشر — نائب كَرَكَر . ورسم المكاتبَة إليه على ما ذكره في "التثقيف"
« يعلم مجلس الأمير » فتكون العلامة الأسم ، وتعريفه « النائب بكرَكَر » .

السابع عشر — نائب الكَخْتَا . ورسم المكاتبَة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
بالكَخْتَا » .

الثامن عشر — نائب بَغْرَاس . ورسم المكاتبَة إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
ببَغْرَاس » .

التاسع عشر — نائب الشُّغْر وبَكَاس . ورسم المكاتبَة إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بالشُّغْر وبَكَاس » .

العشرون — نائب الدَّرَبَسَاك . ورسم المكاتبَة إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بالدَّرَبَسَاك » .

الحادى والعشرون — نائب إسفندكار . ذكر فى "التنقيف" أن رسم المكاتبه إليه كذلك . ثم قال فى "التنقيف" لكنى رأيت بخط القاضى ناصر الدين بن النشأى أن مكاتبته الأسم و «السامى» بغير ياء ، يعنى « هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » . قال : وما يبعد أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقر عليه الحال ما تقدم .

قلت : وقد ذكر فى "التنقيف" ست قلاع استجذت مكاتبه نوابها بعد ذلك ، ولم يذكر رسم المكاتبه إليهم : وهم نائب حجر شغلان ، ونائب كوى ، ونائب قلعة كولاك ، ونائب قلعة بارى كروك ، استجذت مكاتبته فى سنة ستين وسبعائة ، ونائب قلعة كاورا ، استجذت مكاتبته فى سنة تسع وستين وسبعائة ، ونائب كرزال ، استجذت مكاتبته فى سنة سبع وسبعين وسبعائة . ولم يذكر رسم المكاتبه إليهم . والذى يظهر أن رسم المكاتبه إلى كل منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة الأسم ، والتعريف « النائب بفُلانة » . وحينئذ فيكون المكاتبون من نواب أعمال حلب سبعة وعشرين نائبا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابُلُس)

والمكاتبون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأول

(من بمدينة طرابُلُس ، وهم اثنا)

الأول — نائب السلطنة بها ، ورسم المكاتبه إليه : « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى » على الرسم المتقدم . والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة » .

الثاني — الحاجب بطرأبلس . ورسم المكاتبه إليه « صدرت » و « العالى » .
والعلامة « والده » وتعريفه « امير حاجب بطرأبلس المجروسة » . وليس بطرأبلس
قلعة فيكتب إلى نائبها .

الضرب الثانى

(مَنْ بأعمال طرأبلس من التواب ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(تواب قلاع نفس طرأبلس ، وهم سبعة تواب)

الأول — نائب اللاذقية . ورسم المكاتبه إليه « السامى » بغير ياء . والعلامة
الأسم ، وتعريفه « النائب باللاذقية » .

الثانى — نائب صهيون . ورسم المكاتبه إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة
الأسم ، وتعريفه « النائب بصهيون » .

الثالث — نائب حصن الأكراد . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بحصن الأكراد » .

الرابع — نائب بلاطس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
ببلاطس » .

الخامس — نائب المرقب . ورسم المكاتبه إليه كذلك .

السادس — نائب حصن عكار . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بحصن عكار » .

الصنف الثاني

(نواب قلاع الدعوة المضافة إلى طرابلس)

وهي : قلاع الإسماعيلية الذين يُسمّون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهاديّة . وكانت سبع قلاع فأضيفت مضاف منها إلى دِمَشق على ما تقدّم في الكلام على المسالك والممالك ، وبقى من مضافات طرابلس ست قلاع ، وهي الكهف ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس ، والحوّاي ، والرّصافة . ومكتبة كلّ منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة الأسم . وتعريف كلّ منهم « النائب بفلانة » .

النيابة الرابعة

(نيابة حماة)

والمكاتبون بها ضرب واحد بمدينة حماة خاصّة ، وهما اثنان :

الأول — نائب السلطنة بها . وقد تقدّم في أوائل هذا الطّرف أنها كانت بيد بقايا بني أيّوب ، يطلق عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولّونها من ملوك مصر إلى أن كان آخرهم الأفضل محمد بن المؤيد عماد الدين إسماعيل في الدولة الناصرية محمد ابن قلاوون ، ثم صارت نيابة بعد ذلك يتداولها النواب نائباً بعد نائب . ورسم المكتبة إلى نائبها « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالي » والعلامة « والدّه » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » .

الثاني — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « الحاجب بحماة المحروسة » .

قال في "التثقيف" : ولم يكن بها قلعة فيكتب إلى نائبيها . قلت : وليس بأعمالها ثواب فيكتب إليهم إنما بها ولادة يكتبون عن ثوابها .

النيابة الخامسة

(نيابة صفد)

والمكتبون بها ضرب واحد أيضا ، وهم من المدينة خاصة وهم ثلاثة :

الأول — نائب السلطنة بها . ورسم المكتبة إليه « ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالی » . والعلامة « والده » . وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بصفد المحروسة » .

الثاني — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم . وتعريفه « الحاجب بصفد المحروسة » .

الثالث — نائب القلعة بها . ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بصفد المحروسة » .

قلت : ولم يكن بأعمالها ثواب فيكتبون عن الأبواب السلطانية ، بل بها ولادة يكتبون عن نائبيها خاصة كما تقدم في حماة .

النيابة السادسة

(نيابة غزّة)

والمكاتبون بها أيضا ضرب واحد، وهم من المدينة خاصّة ، وهما آثنان :

الأول — النائب بها . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنه إن اجتمع له البلاد الساحليّة والجبلية ، عبّر عنه بنائب السلطنة ؛ وإن قصّر أمره على البلاد الساحلية فقط ، عبّر عنه بمقدّم العسكر وكان تحت أمر نائب دمشق . وبكل حال فإن رسم المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة الجناح العالى » والعلامة « والده » . ثم إن أضيف له الجهتان قيل في تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزّة » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « الحاجب بغزّة المحروسة » .

قلت : وليس بعملها ثواب ، بل ولاية يكتبون عن نائبها أو مقدّم العسكر بها . إلا أنه قد استجدّث في أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكتبة كاشف الرملة ، وأستقرّت مكاتبته « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « الكاشف بالرملة » .

النيابة السابعة

(نيابة الكرك)

والمكاتبون بها من المدينة خاصّة ، وهما آثنان :

الأول — نائب السلطنة بها . ورسم المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . والعلامة والده » ، وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بالكرك » .

الثاني - وإلى القلعة بها . ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « وإلى القلعة المنصورة بالكرك المحروس » . قلت : ولم يكن بها حاجب يكتب ولا بأعمالها ثواب ، بل ولادة يكتبون عن النائب بها خاصة .

النيابة الثامنة

(نيابة سيس)

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها مما استجدة فتحه في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » . وقد ذكر في « التثقيف » أن مكتبة النائب بها كانت « ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالي » كاتب طرابلس ومن في معناه . ثم قال : وقد صح لي بعد هذا أنه استقرت مكتبته نظير غزرة . وهي « أدام الله تعالى نعمة الجناح العالي » . والعلامة حيثنذ « والده » ، وتعريفه « مقدم العسكر المنصور بغزة »^(١) وما ذكره آخرًا هو المستقر عليه الحال إلى آخر وقت . قال في « التثقيف » : ولم أطلع على مكتبة الحاجب بها . ثم قال : وما يبعد أن يكون « مجلس الأمير » لأنه فيما أظن أمير عشرة . قال : وإن كان طبلخاناه ، فالأسم و « السامي » بغير ياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائب قلعة كما ذكره في الكلام على ثواب القلاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما في « التثقيف » ينبغي التنبه لهما .

(١) لعلها سيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدة فيمن عدا أكار النواب : كنواب القلاع والمجباب ونحوهم أن المكتوب إليه إن كان مقدما ف«والده» و«صدرت» و«العالى» . وإن كان طبلخاناه فالأسم و«السامى» بغير ياء . وإن كان عشرة ، فالأسم و«مجلس الأمير» . وحينئذ فلا يتوقف مع المكاتبات السابقة ، بل يُنظر من هو مستقر في ذلك الوقت ويكتب إليه بما تقتضيه رتبته ، فإنه تارة تكون عادة تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقر عشرة وبالعكس ، وتارة تكون طبلخاناه يستقر فيها مقدم ألف وبالعكس . والعبرة في ذلك بحال من هو مستقر حال الكتابة ، خلا ما هو مستقر من قديم الزمان لا يتغير مثل مكاتبة نائب بهسنى ونحوه .

وثانيهما — أن نائب السلطنة بدمشق ، ونائب السلطنة بحلب ، ونائب السلطنة بطرابلس ، ونائب السلطنة بحماة ، ونائب السلطنة بصفد ، ونائب السلطنة أو مقدم العسكر بغزة ، ونائب السلطنة بالكرك ، ونائب السلطنة بالقدس الشريف يكتب إليهم في جليل كل أمر وحقيقه من المهمات السلطانية وخلاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نواب القلاع والنواب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والحجاب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا في المهمات والأمور السلطانية : إما في مثال شريف مفرد لأحدهم ، أو في مطلق شريف عام لجميعهم أو لبعضهم ، وكذلك في البشرى بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلى كل واحد منهم مثال بمفرده ، خلا الحجاب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النوع الثاني

(مَنْ يَكْتُبُ بِالْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ، وَهُمْ صِنْفَانِ)

الصنف الأول

(أَرْبَابُ الْوُظَائِفِ الدِّيَوَانِيَّةِ)

والذى يَكْتُبُ مِنْهُمْ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ الْوَزِيرُ بِدِمَشْقَ ، أَوْ نَظَرُ النَّظَارِ الْقَائِمُ مَقَامَهُ ،
حَيْثُ لَمْ يُصَرَّحْ لَهُ بِالْوِزَارَةِ .

أَمَّا الْوَزِيرُ بِدِمَشْقَ ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ" أَنَّهُ كُتِبَ لِلصَّاحِبِ عِزِّ الدِّينِ
أَبِي يَعْلَى حِزَّةَ بْنِ الْقَلَاقِسِيِّ ^(١) « الْجَنَابِ » لِحِلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَسَابِقَةِ خِدْمَتِهِ ، وَعِنَايَةِ
مَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّ الَّذِي أَسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ لِلْوَزِيرِ بِالشَّامِ « الْمَجْلِسُ الْعَالِي »
بِالدَّعَاءِ . كَمَا كُتِبَ لِلصَّاحِبِ « أَمِينِ الدِّينِ » ^(٢) أَمِينِ الْمَلِكِ فِي وَزَارَتِهِ فِي الْأَيَّامِ
النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ » « ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْقَاضِي ،
الْوَزِيرِ ، الْأَجَلِّيَّ ، الْكَبِيرِيَّ ، الْعَالِمِيَّ ، الْعَادِلِيَّ ، الْمُؤَيَّدِيَّ ، الْأَوْحَدِيَّ ، الْقَوَّامِيَّ ،
النِّظَامِيَّ ، الْمَدَبَّرِيَّ ، الْمَاجِدِيَّ ، الْأَثِيرِيَّ ، الْمَشِيرِيَّ ، الْفَلَائِيَّ ، صِلَاحَ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ ، سَيِّدَ الْوُزَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، رَئِيسَ الْأُمَرَاءِ ، كَبِيرَ الرُّؤَسَاءِ ، بَقِيَّةَ الْأَصْحَابِ ،
مَلَاذِ الْكُتَّابِ ، عِمَادَ الْمُلْكِ ، خَالِصَةَ الدَّوْلَةِ ، مُشِيرَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، وَلِيَّ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ . وَالدَّعَاءِ ، ثُمَّ « صَدَرَتْ » . وَالْعَلَامَةُ « أَخُوهُ » . وَتَعْرِيفُهُ « مَدَبِّرُ
الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ » .

قَالَ : وَلَمْ يَكْتُبْ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ . ثُمَّ قَالَ : وَأَسْتَقَرَّ فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ
حَسَنُ ، الصَّاحِبُ نَخْرُ الدِّينِ بْنِ قُرُونِيَّةَ وَزِيرًا بِالشَّامِ أَيْضًا عَلَى قَاعِدَةِ جَدِّهِ لِأُمِّهِ ،
أَمِينِ الدِّينِ الْمَذْكُورِ . وَلَمْ أَعْلَمْ مَا كُتِبَ بِهِ : هَلْ كَمَا كُتِبَ لِحَدِّهِ الْمَذْكُورِ أَوْ دُونَهُ؟ .

(١) فِي "التَّعْرِيفِ" الْفَلَائِسِيُّ . (٢) سَاقَطَ مِنْ "التَّعْرِيفِ" وَلَعَلَّهُ مِنَ النَّاسِخِ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه «حرس الله تعالى مجده المجلس العالی، القضائی، الکبرى، العالمی، الفاضلی، الکاملی، الأوحدي، الرئيسی، الاثیری، القوامی، النظامی، المنقذی، المتصرفی، العلّامی، مجد الإسلام والمسلمين، سيد الرؤساء في العالمين، أوحِد الفضلاء، جلال الكُبراء، حُجّة الكُتّاب، صفوة الملوك والسلطين، خالصة أمير المؤمنين». والدعاء ثم «صدرت». والعلامة الاسم، وتعريفه «ناظر النظار بالشام المحروس».

قال في "التثقيف": وهذا هو الذي استقر عليه الحال إلى آخر وقت.

الصفحة الثانية

(القضاة والعلماء)

قد ذكر في "التعريف": أن المكتبة لقاضي القضاة الشافعي بالشام ب«المجلس العالی» ولم يذكر صورتها. قال في "التثقيف": والذي كُتِب به الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله، وهو قاضي القضاة بالشام: «أعزَّ الله تعالى أحكام المجلس العالی، القاضی، الکبرى، العالمی، العالی، الأفضلی، الأكملی، الأوحدي، البليغي، الفريدي، المفیدی، النجیدی، القدوی، المجي، المحقق، الإمامی، الأصيل، الموفق، الحاکمی، الفلانی، جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العالمين، أوحِد الفضلاء المفيدین، قدوة البلغاء، حجة الأمة، عمدة المحدثين، نخر المدرسين، مفتي المسلمين، جلال الحُكّام، حکم الملوك والسلطين، ولي أمير المؤمنين». والدعاء ثم «صدرت هذه المكتبة». والعلامة «أخوه». وتعريفه «قاضي القضاة بالشام المحروس».

ثم ذكر فيما بعد أنه كان يُكْتَب في نُعُوتِه : « صَدْرُ الشَّام ، مَعْرِ السَّنَةِ ، مُؤَيِّدُ الْمِلَّة »
قال في "التتقيف" وكانت مكاتِبُهُ « شَمْسُ الشَّرِيعَةِ ، رَئِيسُ الْأَصْحَاب ، لِسَانُ
الْمُتَكَلِّمِينَ » ، ولم يَعرِّن مكانَهَا . قال : وَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى وَلَدِهِ قَاضِي الْقَضَاةِ
تَاجُ الدِّينِ السَّبْكِ ، وَهُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ بِالشَّامِ غَيْرَ مَرَّةٍ . ثم زِيدَ فِي أَلْقَابِ أَخِيهِ
الشَّيْخِ بَهَاءِ الدِّينِ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ فِي الْقَضَاءِ بِالشَّامِ مَكَانُهُ بَعْدَ الْقَاضِي « الشَّيْخِي »
وَبَعْدَ الْحَقَّقِي « الْوَرَعِي » ، الْخَاشِعِي ، الْبَاسِكِي ، الْإِمَامِي ، الْعَلَامِي ، الْأَصْبَلِي ،
الْعَرِيقِي . وَزِيدَ فِي تَعْرِيفِهِ بَعْدَ جَلَالِ الْحُكَامِ « بَرَكَةُ الدَّوْلَةِ » .

النوع الثالث

(مَنْ يَكَاتِبُ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَةِ الْعُرْبَانَ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَنْسَابِ الْعَرَبِ فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى ، فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ
أَنَّ عَرَبَ الشَّامِ عِدَّةُ بَطُونٍ مِنْ عِدَّةِ قِبَائِلٍ . وَقَدْ قَالَ فِي "التعريف" : لَانْهُمْ جُلُ
الْقَوْمِ وَعَيْنُ النَّاسِ ، لِاعْنَايَةِ لِلْمُلُوكِ إِلَّا بِهِمْ ، وَلَا مُبَالَاةَ بغيرِهِمْ .
وَنَحْنُ نَذْكُرْ هُنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَكَاتِبَاتِ إِلَى أُمَرَائِهِمْ وَمَشَائِحِهِمْ خَاصَّةً .

البطن الأول

(أَلْ فَضْلُ مِنْ آلِ رَبِيعَةَ)

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ مِنْ طَيِّئٍ ، مِنْ كَهْلَانٍ ، مِنْ الْعَارِبَةِ . قَالَ فِي "التعريف" :
وَأَلْ فَضْلُ مِنْهُمْ هُمُ الَّذِينَ فِي تَحَرُّ الْعَدُوِّ ، وَلَهُمُ الْعَدِيدُ الْأَكْثَرُ ، وَالْمَالُ الْأَوْفَرُ . قَالَ :
وَقَدْ صَارُوا الْآنَ أَهْلَ بَيْتَيْنِ : بَيْتُ مُهَنَّأِ بْنِ عَيْسَى ، وَبَيْتُ فَضْلِ بْنِ عَيْسَى .

قال : وهم في جِوَارِ الفَرَات . ولذلك يُضَاعَفُ إكرامهم ، وتُوفَّرُ لهم الإقطاعاتُ وتُسْنَى . والإمرأةُ الآنَ منهم في بيت مُهَنَّا بن عيسى . وهو المعبر عنه بأمر آل فضل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان في زمانه قارا بن مهنا، ثم كان في الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن حيار بن مهنا بن [عيسى بن مهنا بن ماتع بن حديثة ابن عُقْبَةَ بن فَضْل بن ربيعة] ، ثم استقر بعده في الدولة الناصرية «فرج» آبنه العجل ، وهو المستقر إلى الآن .

قال في "التعريف" : ورسمُ المكاتبةِ إلى الأميرِ منهم «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري» بألقابٍ جليّةٍ معظّمةٍ مفخّمةٍ . وذكر في "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري، الكبير، العالي، المجاهدي، المؤيدي، الأوحدي، النصيري، العوني، الهمامي، المقدمي، الظهيري، الأصيلي، الفلاني، عزّ الإسلام والمسلمين، شرف أمراء العربان في العالمين، نصرّة الغزاة والمجاهدين، مقدّم العساكر، كهف الملة، ذخّر الدولة، عماد العرب، ظهير الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين» . ثم الدعاء و«صدرت هذه المكاتبة» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

قال في "التعريف" أما من هو نظيره أو مدانيه وعدّته الإمرأة ، فرسمُ المكاتبةِ إليه : «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالي» ومن دونه «السامي الأميري» . قال : ولكلّ هؤلاء العلامة الشريفة «أخوه» ولَمَنْ دون هؤلاء «السامي الأمير» والعلامة الشريفة الأسم الشريف .

وقد ذكر في "التثقيف" أسماء جماعة من أكابر بيت مُهَنَّا بن عيسى، وبيت فَضْل بن عيسى وذكر لكل منهم رسمَ مكاتبة .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأول منهم — عَسَّافُ بنُ مُهْنًا . ورسم المكتبة إليه : « هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، الفازى ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحى ، الأصيل ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، نحر القبائل ، زين العشائر ، عماد الملوك والسلطين » والدعاء ثم « صدرت » والعلامة « والده » وتعريفه اسمه .

الثانى — عَنَقَاءُ بنُ مُهْنًا أخو عَسَّاف . مثله فى المكتبة على السواء .

الثالث — زامل بن موسى بن مُهْنًا ، « صدرت » و « السامى » . والعلامة « والده » وتعريفه اسمه .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْرٌ ، مثل عمِّيه : عَسَّاف وعَنَقَاء .

الخامس — على بن سليمان بن مُهْنًا . ذكر أنه كان يكتب بـ « السامى » بالياء . والعلامة الاسم . وذكر أن أخاه عوادا لم يعلم أنه كُتِبَ عن الأبواب السلطانية .



وأما بيت فضل ، فذكر منهم مُعَقِّلُ بن فَضْل ، وقال : إن رسم المكتبة إليه « السامى » بالياء . والعلامة « والده » . ثم قال : ولم يكتب الآن من بنى فضل غيره ، فإن أخويه : سَيْفًا وأبا بكر كانا يكتبان عن الأبواب الشريفة ، ثم توفيا إلى رحمة الله تعالى ، ولم يبق من أكابر بنى فضل غيره هو وأولاد أخويه ، لكنهم لم يكتبوا بشىء . فإن اتفق أن يكتب أحد من أولاد أخويه المذكورين أو من أولاد مُهْنًا ، مثل أولاد فَيَاض ، وبقية أولاد حيار ورُمَيْثَةَ بنِ عُمَرَ بنِ موسى ونحوهم ، فأعلاهم الاسم و « السامى » بغير ياء ، وأدناهم الاسم و « مجلس الأمير » .

البطن الثاني

(آلِ مرآ)

قد تقدّم في الكلام على أنساب العرب فيما يحتاج إليه الكاتب، في المقالة الأولى،
أنَّ مرآ وفضلاً أخوان . قال في "التعريف" : ومنازلهم بلاد حوران . وقد ذكر
في "التثقيف" أن الإمرة في زمانه كانت مقسومة نصفين بين عَنَاء بن شطِ
آبن عمرو بن نونة ، وعمّه فضل بن عمرو بن نونة . ثم قال : ومكاتبه كلُّ منهما
«صدرت» و«السامى» . والعلامة «والده» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث

(آلِ على)

وقد تقدّم في الكلام على الأنساب أنهم من آلِ فضل . قال في "التعريف" :
وإنما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مُهنّا ، وبقى عيسى
جاراً للفرات في تلابيب التّار . قال في "التعريف" : ورسم المكاتبه إلى أميرهم
«صدرت» هذه المكاتبه إلى المجلس السامى الأميرى . والعلامة الشريفة
«أخوه» . وقد ذكر في "التثقيف" أن أميرهم في زمانه كان عيسى بن رَملة بن
جَمّاز . وقال : إن رسم المكاتبه إليه كما ذكر في "التعريف" وهى : «صدرت»
و«السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابع

(بنو مهدي)

وقد تقدّم في الكلام على الأنساب أن منازلهم البلقاء من مضافات دمشق .
قال في "التعريف" : والإمرة فيهم في أربعة ، رسم المكتبة إلى كلٍّ منهم «مجلس
الأمير» . وذكر في "التثقيف" أنها كانت في زمانه باسم برو بن ذؤيب بن سعيد
ابن محفوظ العقيسي ، وسعيد بن نجدي بن حسن العقيسي ، وزامل بن عبيد بن
محفوظ العقيسي ، ومحمد بن عباس بن قاسم بن محمد بن راشد العسري . وأن مكتبة
كل منهم «مجلس الأمير» كما تقدّم في "التعريف" . ثم قال : ومن كان معه
نصفُ الإمرة منهم ، كانت مكتبته الاسم و«السامي» بغيرياء ، وتعريف كلٍّ منهم
«فلان بن فلان» .

البطن الخامس

(بنو عقبة)

وقد تقدّم في الكلام على الأنساب أن مرجعهم إلى جذام ، وأن منازلهم الكرك
والشوبك . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إلى أميرهم مثل أمير آل مرّ .
وكذلك رسم المكتبة إلى أقاربه كرسم المكتبة إلى أقارب أمير آل مرّ أيضاً ، فتكون
مكتبة أميرهم «صدرت» و«السامي» . ومكتبة أعيان أقاربه «السامي الأمير»
ولمن دونهم «مجلس الأمير» . وقد ذكر في "التثقيف" أن لأميرتهم في زمانه كانت
باسم خاطر بن أحمد بن شطى بن عبيد . وذكر أن رسم المكتبة إليه الاسم
و«السامي» بالياء ، وتعريفه «فلان بن فلان» ولم يتعرض لأقربائه .

(١) في ج ٤ ص ٢١٣ من هذا المطبوع «أبن ذئب بن محفوظ العنسي» ويظهر أنها هي الصواب .

(٢) الذي تقدّم هناك «بحري» بالياء والحاء .

البطن السادس (جَرم)

وقد تقدّم في الأنساب أن مرّجهم إلى طيّ، وأن منازلهم ببلاد غزّة .
وقد ذكر في "التعريف" أن إمرتهم في زمانه كانت بأسم فضل بن حجي . وذكر
أن رسم المكتبة إليه « مجلس الأمير » . والذي ذكره في "التثقيف" أن لهم مقدّما
لا أميرا ، وأنه كان في زمانه على بن فضل . وذكر أن رسم المكتبة إليه الأسم
و « السامي » بغير ياء . وهذا عجب فإنه إذا كان أميرا ورسم المكتبة إليه « مجلس
الأمير » فكيف يكون رسم المكتبة إليه « السامي » بغير ياء وهو مقدّم ، والإمارة
فوق التّقدمة بلا ريب .

قال في "التعريف" : وأما بقية عرب الشام، نحو زبيد المَرَج، وزبيد حوران،
وخالد حمص، والمشاركة، وغزيرة إذا أطاعوا ، وزبيد الأحلاف، فأجل كبرائهم
وأشياخهم من يُكتب له « مجلس الأمير » . وذكر في "التثقيف" نحوه، ثم قال :
هذا إن انفرد أحد منهم بالمكتبة، وإلا فالعادة أن يُكتب لكل طائفة من هؤلاء
مطلق شريف . ثم قال : على أنه لم تجر العادة بمكتبة أحد من هؤلاء القبائل ،
لا على الأفراد ولا على الاجتماع . وهذا كلام متناقض؛ حيث يقول : إن العادة
أن يُكتب لكل طائفة منهم مطلق شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تجر بمكتبة
أحد منهم لا على الأفراد ولا على الاجتماع .

قلت : وقد تقدّم الكلام على أنساب جميع هذه البطون وأما كنهها مستوفي
في الكلام على الأنساب في المقالة الأولى . ووقع بسط الكلام على ذلك وغيره
في كتابنا المسمى "نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب" .

(١) الذي في التعريف "حجي" ولكنها وردت في نسختنا في مواضع كثيرة "حجي" كما هنا . انظر ج ٤ ص ٢١١ ، وكذلك وردت في الضوء للزلف أنظر ص ٣٢١ . (٢) تقدم في ج ٤ من هذا المطبوع .

النوع الثالث

(من يكتَبُ بالممالك الشامية، التُّركمان)

قد تقدّم ذكرُ نَسَبِ التُّركمان في الكلام على أنساب الأُمم في المقالة الأولى .
وقد ذكر في "التتقيف" أن التُّركمان بهذه المملكة طوائفٌ كثيرةٌ، وجماعة كبيرة .
ثم قال : وغالبهم لا يكتَبُ إليه إلا إذا ضمَّهم مطلقٌ شريف . فإن كتب إلى أحد من
أعيانهم، كتب إليه الأسم و«السامى» بغير ياء إن كان طبليخاناه، وإن كان عشرةً
أو عشرين، كتب إليه الأسم و«مجلس الأمير» لا غير، ثم أخلّ بياضاً متسعاً
ولم يصرّح باسم أحد منهم . ثم ذكر في الكلام على تُركمان البلاد الشرقية عدّة
طوائف، عدّ منهم الأوسرية، وقال : هم تُركمان حَلَبَ، والورسقى . وقال : وهم
تُركمان طرسوس، ولم يتعرّض لمواضع غيرهم . وسيأتى كلامه مستوفٍ عند الكلام
على تُركمان البلاد الشرقية إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(من يكتَبُ بالممالك الشامية الأكرادُ)

وقد تقدّم ذكرُ نَسَبهم في الكلام على أنساب الأُمم في المقالة الأولى . وقد ذكر
في "التتقيف" أن بهذه المملكة منهم طوائفٌ كثيرةٌ كالتُّركمان، وأنّ غالبهم لا يكتَبُ
إليه إلا إذا ضمَّهم مطلقٌ شريف، وأنه إن كتَبَ لأحد من أعيانهم، كتَبَ له الأسم
و«السامى» بغير ياء، إن كان طبليخاناه . وإن كان أميرَ عشرةٍ أو عشرين، كتب
إليه الأسم و«مجلس الأمير» كما تقدّم في التُّركمان من غير فرق .

القسم الثالث

(من يكتتب بالبلاد الحجازية ، والمعتبر في المكاتبين منهم ثلاثة)

الأول - أمير مكة المعظمة .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك ذكر أمرائها من ابتداء الإمرة وهلم جراً إلى زماننا ، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد] بن عجلان ^(١) .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي ، الأميري ، الكبير ، العالمي ، العادل ، المؤيد ، العضدي ، النصيري ، الذخري ، العوثي ، المفيد ، الأوحدي ، الظهيري ، الزعيمي ، الكافلي ، الشريف ، الحسبي ، النسبي ، الأصيلي ، الفلاني ، عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ، جلال العترة الطاهرة ، كوكب الأسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصاة العلوية ، ظهير الملوك والسلاطين ، نسيب أمير المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي بالسلام والثناء وتوضع لعلمه الكريم كذا وكذا » .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي ، الأميري ، الكبير ، الشريف ، الحسبي ، النسبي ، العالمي ، المجاهدي ، المفيد ، الأوحدي ، النصيري ، العوثي ، الهمامي ، المقدمي ، الظهيري ، الأصيلي ، العريفي ، الفلاني ، عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء الأشراف في العالمين ، نصر الغزاة والمجاهدين ، كهف الملأه ، عون الأئمة ، فخر السلالة الزاهرة ، زين العترة

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما تقدم للمؤلف (أنظر ج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهره، بهاء العصابة العلوية، جمال الطائفة الهاشمية، ظهور الملوك والسلاطين،
نسيب أمير المؤمنين» ثم الدعاء و«صدرت» .

وهذا دعاء وصدر يليق به ذكره في " التعريف " : « ولا زال حرمة أميننا،
ومكانة مكينا، وشرفه يبيض له ^(١) مجاورة الحجر الأسود عند الله وجهها ويضيء جبيننا .
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي تحيل إليه سلاماً تميل به الركائب، وثناء
تثني على مسكه الحقائق، وشوقاً أوسق قلبه لمن نُسكه مع الحساب، وتوضيح
لعلمه الكريم » .



صدر آخر : ومتعه بجوار بيته الكريم، وزاد بحمائل مساعيه شرف نسبه
الصميم، وآتسه بقرب الحجر الأسود والركن والخطيم . صدرت هذه المكتبة إلى
المجلس العالي تهدي إليه سلاماً، وثناء تطيب به الصبا قبل أن تحيل شيعاً أو خُراي،
وتوضح لعلمه الكريم .



صدر آخر : وأراه مناسكه، وأنس بالتقوى مسالكه، وأشهد على عمله
الصالح بطحاءه وما ينزله [من] الملائكة . صدرت هذه المكتبة بتحياتها المباركة،
وأثنتها التي لا تزال إليه بها أفئدة من الناس سالكه، وتوضح لعلمه الكريم .

الثاني — أمير المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد تقدم في الكلام على أمرائها في المسالك والممالك من المقالة الثالثة أن
إمارتها مستقرة في بني الحسين، وأنها الآن في بني جهم بن شيعة، وأن جدّهم كان

(١) في التعريف " نيز " .

فقيهاً بالعراق ، فقدم على السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله ، فولّاه المدينة فاستقرّت فيها قدمه ثم قدّم بنيه ، وأنّ القائم بها الآن ^(١) [ثابت بن حمّاز ابن هبة بن حمّاز بن منصور بن حمّاز بن شيحه بن نعيم ^(١)] .

ورسمُ المكتبة إليه كُرم المكتبة إلى أمير مكة على الاختلاف السابق في النقل عن " التعريف ، والتثقيف " . فقد ذكر كلٌّ منهما رسمَ المكتبة إلى أمير مكة . ثم قال : ورسمُ المكتبة إلى أمير المدينة كذلك .

وهذا صدرُ مكتبة يلقى به ، وهو : ولا زال في جوار الله ورسوله ، ومهيّط الوحي ونزوله ، ومكانٌ يُردّد فيه من أبويه الطاهرين بين حيدرِهِ وبتّوله . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى بسلام يحدّو ركابها ، وثناء يزين في قبا قباها ، وشوق إلى رؤيته في الروضة التي طالما آستسقى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سخاها ، وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا .



صدر آخر : وزاده من الله ورسوله قرباً ، وأكّده بحماية حرمة حُبا ، وأبهجه كلّما رأى جدّه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلًا وجالس صحبا . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى مطربةً بالسلام ، مُطبّبة في ثناءه المفصل النّظام ، وتوضح لعلمه الكريم .

الثالث — النائب بالنبع .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح مما تقدم في ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام على أمراء المدينة المنورة .

وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنها في بني حسن أيضاً ^(١) . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأمير » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « النائب بالينبع » .

أما سائر العربان بالحجاز فقد ذكر في "التثقيف" أن لبني حسن القوام بمكة « مجالس الأمراء » . والعلامة الأسم . ومن عدا بني حسن فقد ذكر في "التعريف" أنهم على ضرين :

الضرب الأول — أهل الدرّين : المصريّ والشاميّ . قال : وليس فيهم من هو في غير ولا تغير ، ولا يحلّ في ذروة ولا غارب ، وأجلّ من فيهم إذا كُتِبَ له « مجلس الأمير » كان كمن سُور وطوّق ، لابل طيلس وتوّج .

الضرب الثاني — شيوخ لام ، وخالد ، والمُنِيفق ، وعائد الحجاز . قال : وهؤلاء من كان منهم المشار إليه كُتِبَ إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأميري » والعلامة « أخوه » . ثم من يليهم بالسامي بغيراء . ثم الأعيان من بقيتهم « مجلس الأمير » .

المسلك الثاني

(في معرفة ترتيب المكاتبات المقدمة الذكر ، وكيفية أوضاعها . وفيه مأخذان)
 المأخذ الأول — في ترتيب متون المكاتبات ، ولا يكون إلا ابتداءً . أما الجواب فإنه لا يتأتى فيها .

ثم هي على ضربين :

الضرب الأول — ما يكتب في خلاص الحقوق .

وهو ما يكتب فيه لثواب الإسكندرية ، ونائبي الوجهين : القبلى والبحرى من الديار المصرية ، ولأتهما ، وثواب الشام ، وحلب ، وطرابلس ، وحماة ، وصفد ، والكرك ، ومقدم العسكر بغزة ، من الممالك الشامية على ما تقدم ذكره في الكلام على مكتبة أهل المملكة .

والرسم في ذلك إذا كانت المكتبة إلى نائب الشام مثلاً ، بسبب قضية تتعلق بالأمير الدوادار أن يكتب : « أعز الله تعالى المقر الكريم » إلى آخر الألقاب والصادر ، ثم يكتب : « وتبدى لعلمه الكريم أن الجنب العالى » ويذكر ألقابه إلى آخرها « ضاعف الله تعالى نعمته عرفنا كذا وكذا » . ويذكر ما في قصته برمته . ثم يكتب : « ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بكذا كذا » ويأتى بما رسم له به إلى آخره ، ثم يقول : « فيحيط علمه بذلك » ويكمل على ما تقدم . وإن كان المكتوب بسببه أمير عشرة مثلاً ، كتب بدل « عرفنا » : « ذكر » . وإن كان من أحاد الناس كتب بدل ذلك : « إن فلانا أنهى » ويكمل على ما تقدم . وهذه نسخة مكتبة إلى نائب الشام بسبب خلاص حق :

أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، العونى ، المئاغرى ، المريبطى ، المهدى ، المشييدى ، الزعيمى ، الظهيرى ، العايدى ، الناسكى ، الأتابكى ، الكفيلى ، الفلانى ، معز الإسلام والمسلمين ، سيد أمراء العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، ملجأ الفقراء والمساكين ، أتايك العساكر ، زعيم الموحدين ، مهد الدول ، مشيد الممالك ، عون الأمة ، كهف

الملك، عماد الدولة، ظهير الملوك والسلاطين؛ عَضُد أمير المؤمنين، ولا زال عالياً قدره، نافذا أمره، جارياً على الألسنة حمده وشكره .

أصدرناها إلى المقرّ العالی تُهْدَى إليه من السلام أتمّه، ومن الثناء أتمّه؛ وتُبدى لعلمه الكريم أنّ الجَنَابَ العالی، الأُميرى، الكبيرى، العالی، العادلى، المؤيدى، الغوثى، الغياثى، المربطى، الممهّدى، المشيدى، الظهيري، الرّعيمى، المقدّمى، الفلانى؛ ظهير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين؛ فلان رأس نوبة الظاهريّ ضاعف الله تعالى نعمته عرفنا أنّ له دعوى شرعية على أقوام بدمشق المحروسة، وهم فلان وفلان. ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالی بمجلهم صُحبة فلان فاصد المشار إليه، إلى الأبواب الشريفة، محتفظاً بهم، قولاً واحداً، وأمرًا جازماً، ليصل كلّ ذى حقٍّ إلى حقه، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنّهِ وكرمه .



آخر: وتبدى لعلمه الكريم أن المجلس السامى، الأُميرى، الكبيرى، العَضُدى، الذّخرى، الأوحدى، الفلانى؛ عمدة الملوك والسلاطين: فلان أدام الله سعادته، ذكر لنا أن الصّدقات الشريفة شملته بخلاص حقه من فلان. وقد وكلّ فى ذلك المجلس السامى القضائى الأجلّى فلان الدين. ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالی بطلّاب الغريم المذكور، وخلاص الحقّ منه بتمامه وكإله. وإن امتنع عن ذلك يُحمّل للأبواب الشريفة مع الوصية بوكيله فى ذلك، فيُحيط علمه بذلك .



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن الأمير ، الأجل ، الكبير ، فلان الدين ، فلان الفلاني ، أنهى أن بيده إقطاعاً بالحلقة الشامية ، وأن الوزير بالشام المحروس في كل وقت يتعرض إلى إقطاعه ، ويأخذ الموجب المقرر له بغير طريق . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بطلب المباشرين ، والأرتجاع عليهم بما آتسوه من إقطاعه ، على ما يشهد به الديوان المعمور ، بتمايه وكاله ، ويستقر هذا المثال الشريف بيده بعد العمل به ، فيحيط علمه الكريم بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن فلانا الفلاني أنهى أن شخصاً يسمى فلانا تزوج بأخته ، وهو مقيم بالشام المحروس ، وتوفيت أخته إلى رحمة الله تعالى ، ووضع الزوج المذكور يده على جميع ماله . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بخلاص الحق على حكم الشرع الشريف مع الوصية به ، فيحيط علمه بذلك .



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن قصة رفعت إلى أبوابنا الشريفة باسم تجار الفرنج ، أنهم فيها أنهم يبيعون ويتأعون البضائع ، ويقومون بما عليهم من الموجب السلطاني . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره بخلاص حقوقهم ممن تتعين في جهته على حكم الحق ، وكف أسباب الضرر عنهم ، ومنع من يتعرض إليهم بغير حق ولا مستند شرعي ، والوصية بهم ورعايتهم وملاحظتهم ، فيحيط علمه بذلك .

الضرب الثاني

(ما يكتب من متعلقات البريد في الأمور السلطانية، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ما يُكْتَب به ابتداءً)

ويختلف الحال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمر السلطان بفعل شيء أو تركه أو الحركة في شيء، كتب : « إنَّ المراسيم الشريفة أقتضتُ كذا وكذا » . أو « إن مَرَّاسِمَنَا الشريفة أقتضت كذا » . أو « إن المرسوم الشريف أقتضى كذا » . أو « إن مرسومَنَا الشريف أقتضى كذا » : فإن كان ذلك الأمر مما يَحْتَاج إلى إدارة الرَّأْي فيه ، كُتِبَ : « إنَّ الرَّأْيَ الشريف أقتضى كذا » . أو « إنَّ آراءَنَا الشريفة أقتضت كذا » ، وما يَجْرِي هذا المَجْرَى . وإن كان مقتضيه بلوغ خبرٍ من حركة عدوٍّ أو اطلاع على أمر خفي ، كتب : « إنه أتصل بالمسَامِع الشريفة كذا وكذا » . أو « إنه أتصل بمَسَامِعَنَا الشريفة كذا وكذا » . وإن كان بسبب طلب مالٍ أو جَبَايَةِ نَحْرَاج ونحو ذلك ، كتب : « إنَّ لِدِيَوَانِ خَاصَّنَا الشريف في الجهة الفلانية كذا » . أو « إنَّ لَنَا في الجهة الفُلَانِيَّة كذا » . ونحو ذلك مما يَخْرُط في هذا السِّلْك ، ثم يكتب : « ومرضُومَنَا لِلقَرَّ الكَرِيم ، أو لِلجَنَاب الكَرِيم ، أو الْجَنَاب العَالِي » على حَسَبِ المَكَاتِبَةِ « أن يَتَقَدَّمَ أمره بكذا وكذا » على ما تَبَرَّز به المراسيم السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلى نائب الشام، يُنْسَج على منوالها .

مكاتبة — باستقرار نائب في نيابة بعض القلاع : وتبدى لعلمه الكَرِيم أن المراسيم الشريفة أقتضت استقرارَ الأمير فلان الدين فلان في النيابة الشريفة

(١)

وجهنا مرسومه الشريفين على يد المتوجه بهذا المثال الشريف الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزّه الله تعالى . فيتقدم المقرّ الكريم تجهيزه إلى جهة قصده بما على يده من ذلك ، وإذا عاد ، يعيده إلى الأبواب الشريفة مكرّماً مرعياً على عوائد همته العلية ، فيحيط علمه بذلك .



مكاتبة — بنقل نائب سلطنة من نيابة إلى نيابة : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى نقل الجناح الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الغوثى ، الغياثى ، المقدسى ، الكافى ، الفلانى ، ظهير الملوك والولاطين ، سيف أمير المؤمنين ، فلان الظاهرى ، أعزّه الله نصرته — من نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة . والجناح العالى الأميرى الكبيرى الفلانى ، ظهير الملوك والولاطين فلان الظاهرى من نيابة السلطنة بصفد المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة . والجناح العالى الفلانى الظاهرى من مقدمة العسكر المنصور بغزة المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة . وكتبنا لهم تقاليد شريفة بذلك ، وجهنا إليهم تشاريفهم وهى واصله عقيها على يد متسقرهم ، وجهنا الأمير الأجل الأعز فلان الدين ، مؤتمن الملوك والولاطين ، فلان الخاصكى الظاهرى أعزّه الله تعالى للبشارة للشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظهم من هذه البشرى ، وتضاعف أدعيتهم بدوام أيامنا الشريفة ، وآثرنا إعلام المقرّ الكريم بذلك : ليكون على خاطره ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .



مكاتبة — بجمل شخص للأبواب السلطانية : وتُبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى 'تقدّم المقرّر الكريم حال وقوفه عليها، وقبل وضعها من يده بطلب فلان الفلانيّ وفلان الفلانيّ'، وتجهيزهما إلى الأبواب الشريفة في أسرع وقت وأقربه، من غير قفّة ولا تَوَانٍ . ونحن نُؤكّد عليه غاية التأكيد في سرعة تجهيزهما إلى الأبواب الشريفة صحبة الأمير الأجل، فلان الدين فلان، إلى الأبواب الشريفة محتفظاً بهما، محترّزا عليهما؛ ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره العالى بأعتماد ما أقتضاه مرسومنا الشريف، والاهتمام بذلك، والاحتفال به، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنّه وكرمه .



مكاتبة — باستقرار بعض الأمراء بالقدس الشريف بطّالا : وتُبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى 'استقرار الأمير فلان أحسن الله تعالى عاقبته بالقدس الشريف مُقيماً بهما، وشملتته الصدقات الشريفة أن (١) فلانة وفلانة باسمه، بمقتضى 'مرسومٍ شريفٍ مجهّز صحبة متسّفّره الأمير الأجل الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البريديّ بالأبواب الشريفة، أعزّه الله تعالى، المتوجه بهذا المثال الشريف . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره العالى بإثبات المرسوم الشريف المذكور بديوان الجيوش المنصورة بالشام المحروس على العادة؛ وتجهيز البريديّ المذكور إلى حدود الديار المصرية، مُكرّماً مرعياً على العادة؛ فيحيط علمه الكريم بذلك .

(١) بياض بالأصل ولعله "أن تقطع جهة فلانة" الخ .



مكاتبة — بيع غلّة للديوان السلطاني : وتبدي لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة آقتضت تجهيز كذا وكذا إردباً من القمح من ديواننا المفرد صُحبة فلان . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره العالي بطلب فلان الحاجب بالشام المحروس : ليتولّى بيع ذلك بسعر الله تعالى بما فيه الغبطة والمصلحة ، وتجهيز الثمن إلى الأبواب الشريفة برسالة دالّة على ذلك في أسرع وقت وأقربه ، مع مضاعفة الوصية بذلك والاحتفال به ، فيُحيط علمه بذلك .



مكاتبة — وتبدي لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة آقتضت توجه الأمير الأجلّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان ، إستادار الأمير المرحوم فلان كان ، بسبب أستخراج الأموال وبيع الغلال والأصناف الديوانية المتحصّلة من القرى المستأجرة، المرتجعة للورثة عن المشار إليه بمقتضى التذكرة المسطرة على يده . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره بمساعدة المذكور وتقوية يده على ما تضمّنته فصول التذكرة ومراعاة أحواله، وإزالة ضروراته ، وخلاص الحق منه ممن يتعيّن في جهته ، ويشمله بنظره الكريم فيما تعلق بفصول التذكرة . فإنّ تعلّقات الورثة المذكورين تحت نظرنا الشريف . فيبادر المقرّر الشريف إلى ذلك وسرعة عوده بعد قضاء شُغله ، وتجهيز المتحدّث والمباشرين للأبواب الشريفة ، وصحبّتهم حسابهم عند نهاية فصول التذكرة المذكورة . وقيمّ عنهم من يعوضهم إلى حين عودهم من الأبواب الشريفة على ما هو المعهود من همّة الكريمة واحتفاله ، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكتبة - بسبب طلب عصى الجواكين والكراييج والأكر : وتبدي لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف أقتضى تجهيز عصى الجواكين والكراييج والأكر إلى السلاح خاناه من الشام المحروس ، على العادة في كل سنة سريعا ، وآثرنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى باعتماد ما أقتضاه مرسومنا الشريف من ذلك كله على جارى العادة في كل سنة ، والاهتمام بذلك ، والاحتفال به ، بحيث لا يتأخر ذلك غير مسافة الطريق ؛ فإن الانتظار واقع لذلك ، وفي همته الكريمة ما يغني عن بسط القول في ذلك ، فيحيط علمه الكريم بذلك .



مكتبة - بسبب استقرار قاض يدمشق عوض من كان بها : وتبدي لعلمه الكريم أن الصدقات الشريفة شملت المجلس العالى ، القضائى ، الكبيرى ، العالمى ، العلماى ، الإمامى ، الفلانى ، الفريدى ، المفيدى ، المحيدى ، الأصلى ، العريقى ، الأثيل ، الأثيرى ، الأوحدي ، الخطيبى ، الشىخى ، الحاكى ، الفلانى ؛ جلال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، إمام البلاء ، خطيب الخطباء ، شيخ مشايخ العارفين ، ملاذ المريدين ، مفتى الفرق ، موضح الطرق ، لسان المتكلمين ، مفيد الطالبين ، حكم الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين ، فلان الفلانى الشافعى . أعز الله تعالى أحكامه - بتفويض قضاء قضاة الشافعية بالشام المحروس إليه ؛ عوضا عما عمن به ، بحكم عزله مضافا إلى خطابة الجامع الأموى ، ومشیخة الشيوخ بالشام المحروس . وكتبنا توقيعا شريفا له بذلك ، وجهزناه إليه قرين تشریف شريف على يد فلان المتوجه بهذا المثال الشريف . وآثرنا علمه الكريم بذلك ، ليكون ذلك على خاطره الكريم . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفلانى فيما شَمِلَتْه به الصدقاتُ الشريفةُ من ذلك كله ، وتقوية
يده فى مباشرة ذلك والشَّد منه ، وتأيد أحكامه الشرعية ، وتنفيذ كلمته ، ورعاية
جانبه ، وإكرامه واحترامه ، على عادة هممه الكريمة ، وتقدّماته السعيدة ، فيُحيط
علمه بذلك .



مكاتبة — بسبب حمل الثلج إلى الأبواب السلطانية : وتبدى لعلمه الكريم
أنَّ المرسومَ الشريفَ اقتضى تجهيزَ ثقلات الثلج إلى الشَّرابِ خاناه الشريفة على
العادة . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدّم أمره العالى بسُرعة تجهيز الثقلات الأولى ،
بحيث لا تتأخر أكثر من مسافة الطريق على ما هو المعهود من همته العالية ، وتقدّماته
السعيدة . وقد جهّزنا هذا المثال الشريف على يد الأمير الأجل فلان الدين فلان
الفلانى ، أعزه الله تعالى ، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة — بتمكين شخص من الحضور للأبواب السلطانية . وتبدى لعلمه الكريم
أنَّ فلانا كان قصدَ الاجتماعَ بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسومنا للقر الكريم
أن يتقدّم أمره العالى بتمكينه من الحضور إلى القاهرة المحروسة على خيله : ليجتمع
بأهله وأقاربه . وقد جهّزنا بهذا المثال الشريف فلانا البريدى بالأبواب الشريفة ،
فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة — بمنع العُربان من الدُّخول إلى البلاد قبل فراغ الزَّرع . وتبدى لعلمه
الكريم أنَّ المراسيمَ الشريفةَ اقتضت أنه لا يدخل أحدٌ من العُربان إلى البلاد الشامية

المحرّوسة : كبيرهم وصغيرهم ، جليلهم وحقيرهم ، إلى أن يُشال الزرع على العادة .
ومتى - والعيادُ بالله - حصل منهم مخالفةٌ لذلك ، حلَّ بهم من الانتقام الشريف
مالاً مزيّداً عليه . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى باعتماد ما اقتضته
المراسيمُ الشريفةُ من ذلك ، مع الأهتمام به ، والاحتفال والاحتجاه فيه ، قولاً واحداً ،
وأمرًا جازماً ، على عادة همته العالية ، وتقدّماته المرضيّة ، فيحيط علمه بذلك .



مكتوبة - بحفظ السواحل : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف اقتضى
الاحتجاه في حفظ السواحل والموانى ، والأهتمام بأمرها ، وإقامة الأيثار والأبدال
في أوقاتها على العادة ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وكذلك المنوّرون بالديدانات
والمناظر والمناور ، في الأماكن المعروفة ، وتعهّد أحوالها : بحيث تقوم أحوالها على
أحسن العوائد وأكملها ، ولا يقع على أحد دركٌ بسببها . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن
يتقدّم أمره العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومنا الشريف من ذلك ، مع مضاعفة
الاحتفال بذلك والمبادرة إليه ، حسب ما اقتضته المراسيمُ الشريفة . وقد جهّزنا بهذا
المثال الشريف مجلس الأمير الأجل : فلان الدين فلان البريدى ، المقدم بالأبواب
الشريفة ، فيتقدّم أمر المقرّ العالى بتجهيزه إلى جهة قصده بما على يده ، وإعادته عند
عوده إلى الأبواب الشريفة ، على ما هو المعهود من همته ، فيحيط علمه الكريم بذلك .



مكتوبة - باستعمال القماش . وتبدى لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة اقتضت
استعمال القماش الجارى به العادة برسم الركابخاناه ، والإصطبلات الشريفة ، على
ما استقر عليه الحال إلى آخر السنة الخالية والتي قبلها . وقد كتبت تذكرة شريفة

من ديوان آستيفاء الصُّحبة الشريفة مفصَّلة بذلك ، وجَهَّزَها قَرينَ هذه المفاوضة
لُتُقرأ على مَسامِعِهِ الكريمة . ومرسومنا للمقرِّ الكريم أن يتقدَّم أمرُهُ العالى بتأمُّلها ،
وَبُرُوز أمرِهِ بَطَلَب وزير المملِكة الشريفة ، وناظر المُهمَّات الشريفة ، وآستعمال
القُماش الذى تَضَمَّتْهُ التذكرةُ الشريفة ، والأهتام بذلك ، والاحتفال بِسرْعته .
وقد آكتفينا بِهَمَّةِ المقرِّ الكريم عن تجهيز أمير اخورية وأوجاقينة من إصطبلاتنا
الشريفة لآستعمال ذلك ، لأنَّ المهمَّاتِ الشريفة تحت نظره الكريم ، فيصْرِف همَّته
العالية إلى الإسراع فى ذلك ، والاحتفال به والأهتام . وفى آهتامه وتنفيذه لمراسمنا
الشريفة ما يُغْنى عن التاكيد فى ذلك ، فيُحيط علمُهُ بذلك .



مكاتبه — بجواز . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مرسومنا الشريف آقتضى تجهيز
فلان البريدى بالأبواب الشريفة ، أعزَّه الله تعالى ، إلى جهة فلان بما على يده
وما حُجِّبَتْهُ . ومرسومنا للمقرِّ الكريم أن يتقدَّم أمرُهُ العالى بإزاحة أعذاره ، وتجهيزه
إلى المشار إليه فى أسرع وقتٍ وأقربِهِ . وإذا عاد يتقدَّم بتجهيزه إلى خدمة الأبواب
الشريفة على العادة فى ذلك ، على عادة همَّته العلية ، وشيمِهِ المرصِيَّة ، فيحيط علمُهُ بذلك .



مكاتبه — وتبدى لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف آقتضى أن لا يُمكن
أحد من نقل سلاح ولا عُدَّة حربيٍّ إلى جهة البلاد الروميَّة . ومرسومنا للمقرِّ الكريم
أن يتقدَّم أمرُهُ العالى بأن لا يُمكن أحد من نقل سلاح ولا عُدَّة إلى جهة البلاد
المذكورة ، والاحتراز على ذلك كَلَّ الاحتراز ، فيحيط علمُهُ بذلك .



مكتوبة — وتُبْدَى لعلمه الكريم أنه اتَّصل بالمَسَامع الشريفة أن غالب البلاد بالَصَّفقة الفلانية مَحْمِيَّة متجاهية على الكُشَّاف والرَّعايا، ويُووِن المفسدين . وأنَّ يد الكُشَّاف لا تَصِلُ إلى هذه البلاد، ولا إلى النِّصْفَة من بها من المفسدين . وَحَصَلَ بذلك الضرر للبلاد والعِبَاد . وأَقْنَضَى الرأى الشريف الكُشَفَ عن هذه البلاد وسائر الأعمال ، والمناداة في البلاد بإبطال الحِمَاية والرَّعاية، والمساواة بين العِبَاد في سائر البلاد بالعدل والإنصاف ، وَكَفَّ أَكُفَّ الظلم والعُدوان . ومرسومنا للفقير الكريم أن يتقدَّم أمره الكريم بالمناداة في سائر البلاد بإبطال الحِمَاية والرَّعاية ، والمساواة بين الخاص والعام ، وتطهير الأرض من المفسدين ؛ وأن لا يُجْحَى أَحَدٌ ببلد من البلاد . ومن تظاهر بحِمَاية أو إيواء مفسِدٍ ببلد من البلاد، حَلَّ ماله وروحه . والتأكيد على أهل البلاد في ذلك ، والتشديد والفحص عمن يتجَاهَرُ بذلك وردعه ونشر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والأهتمام في ذلك كله، على عادة هِمَمِهِ الكريمة، وتَقْدِمَاتِهِ السعيدة، فيحيط علمه الكريم بذلك ، والله تعالى يُؤَيِّدُ بِالْمَلَأَتِكَ .



مكتوبة — وتُبْدَى لعلمه الكريم أنه اتَّصل بِمَسَامِعِنَا الشريفة أن فلانا تعرَّضَ للجهة الفلانية الجارية في ديوان خاصنا الشريف ، وأخذ منها مبلغ كذا وكذا . ومرسومنا للفقير الكريم أن يتقدَّم أمره العالى بطلب الغريم المذكور، وتجهيزه إلى الأبواب الشريفة، وإلزامه بما استأداه من ذلك، محترزاً عليه مع مضاعفة الوصية بمباشرة الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثاني

(ما يكتب في الجواب عما يرد من الثواب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبته الكريمة » أو « مكاتبته » على قدر رتبته من ذلك « وردت على يد فلان فوقفنا عليها وعلمنا ما تضمنته على الصورة التي شرحها » ثم يذكر ما يناسب الجواب في ذلك من شكر الاهتمام أو غيره . ثم إن أشتملت على مقصد واحد ، أجاب عنه .

وهذه مكاتبته يُنسخ على منوالها ، وهي : وتبدي لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت على يد فلان فوقفنا عليها ، وعلمنا ما أصدرته من تجهيزه إلى خدمة أبوابنا الشريفة بما على يده من كتاب مخدومه . وقد وصل ، وأحاطت علومنا الشريفة بما تضمنته ، وأعدناه الآن بجوابه وبهذا الجواب الشريف ، فيحيط علمه الكريم بذلك .

وإن أشتملت المكاتبه المجاب عنها على عدة فصول ، أتى على فصولها فصلاً فصلاً ، وربما قال : « فأما أشار إليه من كذا » إذا كان على الرتبة ، ككاتب الشام ونحوه ، « فقد علمناه » وصار على خاطرنا الشريف أو « فقد رسمنا به » أو « فلم نرسم به » . ونحو ذلك على ما يقع به الجواب السلطاني في الملخص المكتوب عن مكاتبته المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبته من هذا النمط يُنسخ على منوالها ، وهي : وتبدي لعلمه الكريم ، أن مكاتبته الكريمة وردت على يد مملوكه الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزّه الله تعالى ، فوقفنا عليها ، وعلمنا ما تضمنته على الصورة التي شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وتقدماته السعيدة ، ورأيه السعيد ، وأعتاده الحميد .

فأما ما أشار إليه من وصوله ومن صحبته ، ونائب السلطنة الشريفة بطرأبلس وصَفَدَ المحروستين ، إلى ملطية المحروسة في التاريخ الفلاني ، وتلقَّى نائب السلطنة الشريفة بحلب وحماة المحروستين ، المقرَّ الكريم ومن معه على ظاهر المدينة المذكورة ، واستمرار إقامتهم جميعاً بالمنزلة المذكورة إلى تسطير مكاتبته المشار إليها في انتظار من رُسِمَ له بالحضور إليهم من عساكر القلاع المنصورة وغيرهم ، من أمراء التركمان والأكراد ومن معهم من أتباعهم والزامهم ، حسب ما أقتضته المراسيم الشريفة في المهمَّ الشريف وما كُتِبَ به إلى نائب طرأبلس ، وإلى قرايوسف النائب بالرَّها المحروسة : من الحضور إلى المهمَّ الشريف ، وإجابتهما إلى ذلك ؛ وكذلك ما كُتِبَ به إلى الحاكم بسيواس ، وإلى أحمد بن طرغلي ، وما أجابا به من الحضور إلى المهمَّ الشريف ، والملتقى في المكان الذي عينه حاكم سيواس ، إلى غير ذلك مما بَسَطَ القول فيه [فقد علمناه ^(١)] على الصورة التي شرحها ، وتضاعف شكرنا لعمته العلية وتقدماته السعيدة .

وأما ما أشار إليه من أعماده ما برزت به المراسيم الشريفة في الجواز الشريف الوارد إليه على يد مجلس الأمير الأجل فلان الدين فلان ، والمطلق الشريف المجهز على يده ، وأمثال ما تحمله من المشافهة الشريفة ، وتقديمه بجميع نواب السلطنة الشريفة المكتوب إليهم ، وعقد المشورة معهم على اعتماد ما أقتضته المراسيم الشريفة ، وتعيين جاليش العساكر المنصورة ونائب السلطنة الشريفة بطرأبلس المحروسة ومن معه من الأمراء المقدمين وأتباعهم من دمشق وحلب المحروستين ، ونائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة ، ومن معه من العساكر المنصورة ، وسيرهم في التاريخ الفلاني ، وسيره في أثرهم بمن بقي معه من العساكر المنصورة الشامية الحلبية ،

(١) الزيادة يقتضيا تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم الناسخ .

وأن سيرهم على جهة بلد كذا على الصورة التي شرحها لما قصده من ذلك من المصلحة ، فقد علمنا ذلك على الصورة التي شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحسن فكرته الصحيحة .

وأما ما أشار إليه من أن نائب مَطْيَةِ جَهَّزَ الكتاب الوارد عليه من ابن تمرلنك ، على يد قاصدٍ من جهة تَلَمَّان باللسان الأعجمي^(١) ، وأنه عَرَّبَهُ وفهم مضمونه وجهَّزه ليحيط العلوم الشريفة بمضمونه ، وهى على الخواطر الشريفة ، فيكون ذلك على الخاطر الكريم ، وشكرنا همته العلية .

وأما ما أشار إليه من ورود كتاب تَلَمَّان عليه ، وهديته على يد قاصده ، وأنه لم يقبل هديته وأعاد جوابه ، فإنه إن كان مناصحاً في الخدمة الشريفة وهو صادق في كلامه ، فيحضر إلى المهم الشريف ، وما شرح في هذا المعنى فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وشكرنا جميل اعتمادده وسعيد رأيه . وكذلك أحاطت العلوم الشريفة بما ذكره من أمر حاكم عرب كبير^(٢) وما شرحه في ذلك ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها .

وأما ما أشار إليه من أمر مَلَطِيَّة المحروسة ، وأنها تحتاج إلى الفكر الشريف ، والنظر في أحوالها وترتيب مصالحها ، وإقامة عسكر لرجال يُجَاهِدُونها من طوارق الأعداء المخدولين : إلى غير ذلك مما شرحه في هذا المعنى ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وبقي ذلك على خواطرنَا الشريفة . وعقبيها إن شاء الله تعالى تبرز المراسيم الشريفة بما فيه المصلحة للبلد المذكور على أكمل ما يكون .

وقد استصوبوا رأى المقر الكريم في هذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضرورى . وقد شكرنا للقر الكريم جميل اعتمادده ، وحسن رأيه ، وبذل همته واجتهاده في هذا

(١) كذا في الأصل غير واضح .

المهم الشريف . والقصد منه الاستمرار على ما هو فيه من بذل الاجتهاد في المهمات الشريفة بقلبه وقالبه ، والعمل على بياض وجهه عند الله تعالى ، من الذب عن عباده وبلاده ، وبذل المال والروح في رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، واستقرار خواطينا الشريفة بذلك . فإن المقر الكريم يعلم ما نحن متأبرون عليه ، ومُنقادون إليه ، من محبة رضا الله تعالى في النصيحة بصالح العباد ، وعمارة البلاد ، وتسطير ذلك في صحائف حسنات الدهر بين يدي الله تعالى . والمقر الكريم يعلم أن جل اعتمادنا عليه في أكابر دولتنا الشريفة . ونحن واثقون برأيه السديد في حركاته وسكناته في المهمات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قربناه ، ورَضينا به لنا وعلينا ، وكلما بلغنا عنه اعتقاد حسن تتضاعف منزلته عندنا . والآن فإن ثواب السلطنة الشريفة وأمرآء دولتنا كبيرهم وصغيرهم تحت أمره ومشورته ، وما بقي مثل هذه الأيام المباركة والأوقات السعيدة ، ولم يبق سوى آتهاز القُرص ، وأغتنام أوقات السعادة ، وهو الحاضر والنائب عنا في كل ما يحصل من المصالح العائد نفعها على البلاد والعباد . والمبادرة إلى عملها من غير معاودة الآراء الشريفة في كل قضية تتفق له ، فإن المسافة بيننا وبينه بعيدة ، وتَضيق المصلحة في وصول الخطاب وعود الجواب . وقد فوّضنا إليه الرأي في ذلك ، والعمل بما تقتضيه المصلحة الحاضرة ، في جليل الأمور ودقيقها ، فيكون ذلك على خاطره الكريم ، ويعمل بمقتضاه . وقد أعدنا مملوكه بهذا الجواب ، فيُحيط علمه بذلك .



وهذه نسخة مكتوبة في معنى الرضا عن ابن دلغادر التُّركماني وغير ذلك :

وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت على يد فلان الدين فلان مملوكه ، فوقفنا عليها وعلمنا ما تضمنته .

فأما ما ذكره في معنى 'آبن دلاغدر، وتكرار كُتبه بالتصريح والتراخي عليه في سؤال الصدقات الشريفة في الرضا والعفو عنه ، فقد علمنا ذلك ؛ والذي نعرف به المقرّ الكريم أنا كنا رسمنا بأن لا يُكتب له جواب وردّ كتابه وقاصده ؛ ولما تكرّر استشفاعه بالمقرّ الكريم، ودخل دخول الحرّيم، وعرفنا أنه ضاقت عليه الأرض برحبها وأخلص في التّدم، عطف عليه الصدقات الشريفة بالحقّ والعفو كرامةً للمقرّ الكريم ، وإعلاءً لشانه، ورفعاً لمكانته ومكانه . ورسمنا للمقرّ الكريم أن يكتب المذكور بهذا المعنى، ويلتزم على نفسه العفو الشريف، والصّفح المنيّف ؛ وإيصال أنواع الخير وفوق ما في خاطره من الأمان على نفسه وماله ، وغير ذلك . والذي نعرفه أنه كان جرى على اللسان الشريف الحلف أنه لا بدّ من حضوره إلى الأبواب الشريفة ودوس البساط الشريف ، ولا بدّ من تحقيق ذلك لحصول البرّ والخلاص من الحلف الشريف ، وقيام الناموس عند القريب والبعيد : ليعلموا أنّ سلطاننا غالب على من تمّدد ، ومراحنا شاملة لمن يلتجئ إلى حرم عفونا الشريف ، وأنه قريب منه .

وأما ما ذكره في معنى 'كشّف الصّفقة الفلانية ، ووقوع الاختيار على فلان الدين فلان ، وما عرّضه على الآراء الشريفة من تقريره في ذلك ، وبروز المراسيم الشريفة بكتابة مرسومه وتقرير غيره ، فقد علمنا ذلك ورسمنا بتقريره ، وكتبنا مرسومه الشريف ، وجهّزناه على يد فلان العائد بهذا الجواب الشريف .

وأما ما ذكره من جهة الزاوية المستجدة بسقّحب وتجهيز قائمة متضمنة بما تدعو الضرورة إليه من تقرير السّماط وأرباب الوظائف ، وما عرّضه على الآراء الشريفة من كتابة مرسوم شريف مربع على حكمها ، أو بما تقتضيه الآراء الشريفة من زيادة أو نقص ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به حسب ما اقتضته الآراء الشريفة : من استقرار

(١) امله وتقريره (٢) يظهر أن في الكلام سقطا ولعله «وما عرضه على الآراء الشريفة من الخ» .

فلان الدين فلان في الولاية في الثغر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به ، وكتبنا مرسومه الشريف ، وجهزناه على يد العائد بهذا الجواب الشريف . فالمرقر الكريم يوصيه بحسن السيرة وترك ما كان عليه .

وأما ما ذكره من جهة خفارة الجهة الفلانية ، وما عرضه على الآراء الشريفة : من إمضاء القائمة المجهزة بأسماء من قرره في الخفر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمنا بإمضائه حسب ما قصده المقر الكريم .

وأما ما ذكره من جهة فلان المعتقل بقلعة دمشق ، ووقوف أولاده وعياله وشكواهم حالهم بعد كشف ما نقل عنه وعدم صحته وما عرضه على الآراء الشريفة من الإفراج عنه ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به فيتقدم أمر المقر الكريم بالإفراج عنه .
وأما ما ذكره في معنى ما ورد به كتاب النائب بالرجبة المحروسة : من الأخبار والمتجددات ، فقد علمناه وصار على خواطرننا الشريفة .

وأما ما ذكره من وصول قاصدتي حاكم الدربند وحاكم القنيطرة بما على أيديهما وتجهيز ما ورد معهما من الكتب وأستئذان الآراء الشريفة على ما نعتمده في أمرهما وفيمن يحضر بعدهما ، فقد علمنا ذلك ، وكتبنا الجواب عن ذلك ، وجهزناه قرين هذا الجواب الشريف ، فيتقدم باعادتهما إلى مرسلهما . وكذلك يفعل في كل من حضر من تلك النواحي إلا في مهم شريف على عوائد هممه . وقد أعدنا مملوكه إليه بهذا الجواب الشريف ، فيحيط علم المقر الكريم بذلك .



مكاتبة أخرى — من هذا النمط في معنى أمور مختلفة . وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبة الكريمة وردت على يد المجلس السامي الأميري فلان . فوقفنا عليها وعلمنا ما تضمنته على الصورة التي شرحها .

فأما ما أشار إليه : من وصوله إلى دمشق المحروسة عائداً من الأغوار السعيدة ، وأنه وجدها وسائر أعمالها وضواحيها والسواحل والموانئ في حرز الأمن والسلامة ، فقد علمنا ذلك وحمدنا الله تعالى وشكرناه على ذلك .

وأما ما أشار إليه : من أنه جهّز من متحصّل دار الضرب السعيدة بدمشق المحروسة كذا وكذا مثقالاً بمقتضى رسالة وما قصّد من إعادة رجعة شريفة بذلك ، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور ، وكتب به رجعة شريفة على العادة في مثل ذلك ، وجّهزت على يد فلان المشار إليه ، فيكون ذلك على خاطره الكريم .

وأما ما ذكره : من أمر الثّحاس وقلته من عدم وصول شيء منه ، وأنه لم يوجد منه بعد الجهد سوى مبلغ عشرين قنطاراً عند الفرنج ، وأمر الفلّوس العتق وبقائها ، وكثرة الفلّوس الجدد ، وقلة وجود الدرهم والدينار ، وتوقف المعاش بسبب ذلك ، وما عرضه على الآراء الشريفة إن اقتضت الآراء الشريفة إبطال دار الضرب نحو شهرين إلى أن يحضر نحاس يستعمل ، وتخفّ الفلّوس ويستصرف ما في أيدي الناس ، فقد علمنا ذلك وأجبنا سؤاله فيه . ومرسومنا أن يعمل فيه بما تكون [به] المصلحة عامة للرعية ، وتبطل دار الضرب مدّة يراها المقر الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمر الأمير فلان وما قصده من حسن النظر الشريف في حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وصار ذلك على الخواطر الشريفة .

وأما ما أشار إليه : من أمر فلان ، وما اتفق من الكشف عليه حسب ما اقتضته المراسيم الشريفة ، وما ادّعى عليه من كذا وكذا ، وما كتب عليه من المحاضر وتجهيزها إلى الأبواب الشريفة ، وتجهيز المشار إليه إلى الأبواب الشريفة صحيفة البريدي المجهّز

في طلبه في أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك على الصورة التي شرحها ، وأحاطت العلوم الشريفة به جملةً وتفصيلاً ، وبما أشتملت عليه المحاضر المذكورة ، وبقي ذلك على الخواطر الشريفة ؛ وأقتضت الآراء الشريفة إعادته ومن معه للخلاص من شكائته عند المقر الكريم ، وقد أعدناهم حُجبةً من يحضرهم إلى المقر الكريم ليُكشَفَ عليه وتنظَّم المَحَاضِر وتجهَّز .

(١)

وأما ما أشار إليه من تجهيز والفلائي على العادة في ذلك إلى الأبواب الشريفة ، فقد علمنا ذلك ووصل ما جهَّزه من ذلك ، وأحاطت العلوم الشريفة بما أشتمل عليه ، وشكرنا همة المقر الكريم وسعيد تقدّماته ، وجميل أعمداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيحيط علمه بذلك .

قلت : وعلى ذلك يُقاس ما يُكتَب به إلى سائر الثواب بالشام والديار المصرية فمن دونهم من جرت العادة بمكاتبته من الأبواب السلطانية في الابتداء والجواب .

المأخذ الثاني

(في معرفة أوضاع هذه المكاتب)

أول ما يجب من ذلك معرفة قطع الورق الذي يُكتَب فيه . وقد سبق في المقالة الثالثة في الكلام على قطع الورق بيان مقادير قطعه ، وأن من جملتها قطع العادة : وهو القطع الصغير . وفي هذا القطع تُكتَب عامة المكاتب المتقدمة ، مما يكتب به لأرباب السيوف والأقلام بمصر والشام على اختلاف مقاديرهم ، وتباين مراتبهم

في الرِّفْعَة وَالضَّعَّة ؛ خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِبَ إلى والده السلطان الأشرف « شعبان بن حسين » في قطع الشاميّ الكامل . وقد تقدّم هناك أنّ الكتابة في قطع العادة جملةً تكون بقلم الرِّقَاع . فتكون كتابه جميع هذه المكاتبات به .

ثم أول ما يكتُبُ الكاتب في المكاتبة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكتُبَ في رأس الدَّرَج ، من وجه الوصل ، من أوله ، من الجانب الأيمن « إلى فلان » . ويكتب على سَمْتِه في الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » . ويكتب في وسطهما على سَمْتِهما التعريف بالعلامة التي تُكْتَب . فإن كانت العلامة الأسم ، كتب « الأسم الشريف » . وإن كانت بالأخوة ، كُتِبَ « أخوه » . وإن كانت بالوالدية ، كتب « والده » . ثم يَقلب الدَّرَج فيكتب على ظاهره عنوانَ المكاتبة في أسفل ما كتب عليه في رأس الورق باطنا من أول عرض الدَّرَج إلى آخر ألقاب المكتوب إليه . ويقلب الدعاء المبتدأ به في المكاتبة ، فيدعّوه به في آخر الألقاب . ثم يخلّ بياضاً ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نياية سلطنة أو ولاية أو أسم أو غير ذلك . وتكون الأسطر متقاربة متلاصقة .

فإن كان المكتوب إليه النائب الكافل مثلاً ، كتب في العنوان : « المقرّ ، الكريم ، العالی ، الأميری ، الكبيری » إلى آخر ألقابه . فإذا آتتهى إلى آخر الألقاب ، كتب « أعز الله تعالى أنصاره » . ثم يترك بياضاً ويكتب : « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » بحيث ينتهي آخر كتابة ذلك إلى آخر السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافل السلطنة بالشام ، كتب : « المقرّ الكريم » إلى آخر الألقاب « أعز الله تعالى أنصاره » ثم يترك البياض المذكور ، ثم يكتب : « كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » .

وإن كان المكتوب إليه نائب السلطنة بحلب، كتب : « الجَنَاب الكريم » إلى آخر ألقابه . « أعز الله تعالى نُصْرته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة » .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابلس ، أو نائب حماة ، أو نائب صفد ، كتب : « الجَنَاب العالى » إلى آخر ألقابهم « ضاعف الله تعالى نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بشعر الإسكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصفد المحروسة » . وكذا في البواقي بحسب تعريف كل من المكتوب إليهم على ما مر ذكره في مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له « المقتر الكريم » ، أو « الجَنَاب العالى » ، أو « المجلس العالى » مع الدعاء ، ترك من أعلى الدرج ثلاثة أوصال بياضا بالوصل المكتوب في ظاهره العنوان ، ثم تكتب البسملة في رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له « المجلس العالى » مع « صدرت » فما دون ذلك ، ترك في أعلى الدرج وصلان بياضا فقط . وتكتب البسملة في رأس الوصل الثالث ؛ ثم يكتب سطران من أول المكاتبة تحت البسملة على سمتها ملاصقا لها ؛ ثم يُحلى بيت العلامة بياضا ويكتب السطر الثانى على رأس إصبع^(١) أو نحوه من أسفل ذلك الوصل ؛ ثم يكتب السطر الثالث في الوصل الذى يليه على بُعد ثلاثة أصابع معترضات من السطر الثانى ، ويؤتى على ذلك إلى آخر المكاتبة .

(١) المراد على قدر إصبع .

وقد كانت أوصال الورق في الزمن المتقدم طويلة : فكان يكتب في كل وصل ثلاثة أسطر ، وبين كل سطرين أكثر من عرض ثلاثة أصابع . أما الآن ، فقُصرت الأوصال ، وصار كل وصل لايسع في الغالب أكثر من سطرين . فإذا انتهى إلى آخر المكتبة ، أخلى بياضاً يسيراً ، ثم كتب في وسط الوصل : « إن شاء الله تعالى » ثم يكتب : « كتب في كذا من شهر كذا » في سطر ، وتحت سنة كذا وكذا في سطر تحت ، بينهما قدر إصبعين ، ثم يكتب المستند بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلق كاتب السر كتب « حسب المرسوم الشريف » . وعلى ذلك يجري الحكم في جميع ما يكتب في البريد ، وهو المختص بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلق كاتب السر أو أحد من كتّاب الدست ، كتب : « حسب المرسوم الشريف » في سطر ، وتحت « من دار العدل الشريف » في سطر آخر . وإن كان بقصة مشمولة بخط السلطان ، كتب : « حسب الخط الشريف » بمقتضى أعلى ذلك . وإن كان بخط النائب الكافل ، كتب : « بالإشارة العالية الأميرية العالمية الفلانية » في سطر ، وتحت في سطر آخر « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان بأمر الوزير ، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الوزارية الفلانية » في سطر ، وتحت في سطر آخر « مدبر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشارة العالية الوزارية الصحافية الفلانية » ، مدبر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى « سطرين على نحو ما تقدم . وإن كان برسالة الدوادار : فإن كان مقدم ألف ، كتب « برسالة الجناب العالي الأميرى الكبيرى الفلانى » في سطر ، وفي سطر آخر تحت « الدوادار الناصرى أو الظاهرى » ونحو ذلك « ضاعف الله تعالى نعمته » . وإن كان طبلخاناه ، كتب بدل الجنا ب « المجلس » ويدعوله « أدام الله تعالى

نعمته . وإن كان بأمر الإستادار ، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الفلانية إستادار الفلانية أعلاها الله تعالى » . وإن كان من ديوان الجيوش المنصورة ، كتب « حَسَبَ المرسوم الشريف » في سطر ، وتحت « من ديوان الجيوش المنصورة » في سطر آخر . وإن كان من ديوان الخواص الشريف ، كتب « حَسَبَ المرسوم الشريف من ديوان الخواص الشريف » على ماتقدم . وإن كان من الدولة الشريف : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليل ، كتب « حَسَبَ المرسوم الشريف من الدولة الشريف » على نحو ماتقدم . وقد تقدم الكلام على المستندات في الجملة ، في مقدمة الكتاب عند الكلام على ديوان الإنشاء .

المَقْصَدُ الثَّانِي

(في المكتبات العامة إلى أهل هذه المملكة : وهي المطلقات)

قال في "التعريف" : وأقسامها لا تخرج عن ثمانية أقسام : إلى الوجه القبلي ، وإلى الوجه البحري ، وإلى عامة الديار المصرية ، وإلى بعض البلاد الشامية ، وإلى البلاد المصرية والشامية ، وإلى الممالك الإسلامية وما جاورها ، وإلى بعض أولياء الدولة ، كالأمراء بدمشق أو حلب ، وإلى قبائل العرب ، أو التركمان ، أو الأكراد أو بعضهم .

قلت : والقاعدة في المطلقات أنه إذا اجتمع في المطلق كبار وصغار ، يغلب حكم الأكبر منهم على الأصغر : تعظيماً لأمر الأكبر . فإن كان في المطلق من الألقاب ماتخص به الأكبر دون غيرهم ، استوفى للكبير ما يختص به من الألقاب وأتى بالقدر المشترك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها ما يُخْتَم . قال في "التعريف" : وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان في سِرِّيَّتكم ولا يُراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، فيُخْتَم على عادة الكتُب . وهذا يكون عنوانه بظاهره كما في غيره من المكاتبات المفردة .

ومنها ما لا يُخْتَم ، وهو سائر المطلقات . قال في "التعريف" : وعنوانها (مخالف لعنوان) ^(١) الكتُب المفردة للآحاد : فإنَّ تلك في ظاهر الورق ، وهذه في باطن الورق ، فوق وصلين أو ثلاثة ، فوق البسملة . ويقال فيها : مثلاً شريف مطلق إلى الولاية والثواب ، أو غير ذلك من نحو ما في الصدر ، فيضمَّن العنوان ملخص ما فيه . ثم يقال : على ما شرح فيه ، أو حسب ما شرح فيه . ومن قاعدتها أن يصرَّح بذكر المكتوب إليهم في المطلق ، بخلاف غيرها من المكاتبات المفردة . قال في "التعريف" : ثم بعد التعريف في المطلقات الدعاء ، ثم الإفضاء إلى الكلام ، وفي آخرها يتعين أن يقال : «فليعلموا ذلك ويعتمدوه» .

وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(المطلقات المكبرة)

قال في "التعريف" : وهي ما يكتب إلى سائر النواب بالممالك الشريفة ، خلا سبب فإنها مستجدة ، غير أنه إن رُسِم باضافته إليهم ، فيحتاج إلى تحرير الحال في أمره : هل يُكْتَب له بعد نائب طرابُلُس أو بعد نائب صفد ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدم العسكر بغزة ، ولا نائب الكرك ، لأن رتبته في المكاتبه أعلى منهما . فإنها نظير مكاتبه نائب طرابُلُس وحماة وصفد .

(١) في الأصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والتصحيح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا على ما كان الامر أستقر عليه من كونها نياية في أول الأمر ، أما بعد
استقرارها تقدمة عسكر، فإنه يكون بعد مقدم العسكر بغزة : لأن كلاً منهما مقدم
عسكر ، ومقدم العسكر بغزة أقدم من مقدم العسكر ببيس . وأيضاً فإن غزوة
مضافة إلى دمشق وبيس مضافة إلى حلب ، ودمشق أكبر من حلب .

قال في "التثقيف" : وصورة هذا المطلق أن يكتب في الطرة : «مثال شريف
مطلق إلى الجنابين الكريمين ، العالين ، الأميرين ، الكافلين ، الفلانيين ، ناجي
السلطنة الشريفة بالشام وحلب المحروستين ، أعز الله تعالى نصرتهما ، وإلى الجنابات
العالية الأميرية الفلانية أو الفلاني والفلاني» على الترتيب . ثم يقال : «تؤاب السلطنة
الشريفة بطرابلس وصفد وحماة المحروسات . وإلى الجناب العالي والمجلس العالي
الأميري الأميرين الفلانيين أو الفلاني والفلاني ، مقدم العسكر المنصور بغزة
المحروسة ، ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس ، أدام الله تعالى نعمتهما ، بما رسم
لهم به أن يتقدم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلى آخره . ثم يُحلي
بباصاً يسيراً . ثم يكتب «على ماشرح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضاً بالوصل الذي
تكتب فيه الطرة . ثم تكتب البسملة في أعلى الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره
بإصبعين ماصورته : «أعز الله تعالى نصره الجنابين الكريمين ! وضاعف وأدام نعمة
الجناب العالي ، والمجلس العالي ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، المؤيدة ،
الزعيمية ، القوية ، الفياثية ، المتأغرية ، المرابطة ، المشيدية ، الظهيرية ، الكافلية ،
الفلانية أو الفلاني والفلاني » إلى آخرهم : « أعزاء الإسلام والمسلمين ، سادات
الأمرء في العالمين ، أنصار الغزاة والمجاهدين ، زعماء الجيوش ، مقدمي العساكر ،
ممهدي الدول ، مشيدي الممالك ، عمادات الملة ، أعوان الأمة ، ظهيري الملوك
والسلاطين ، سيوف أمير المؤمنين ، تؤاب السلطنة الشريفة بالشام وحلب

وطرأ بئس وحمأة وصَفَد المحروسات ، ومقدَّم العسكر المنصور بَغْزَة المحروسة ،
ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس « ثم الدعاء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال :
« صدرت هذه المكاتبُ إلى الجنَّاتين الكريمين والجنَّات العالية ، والمجلس العالى ،
تُهدى إليهم من السلام كذا ، وتُوضَّح لعلمهم الكريم كذا وكذا ، فيُحيط علمهم الكريم
بذلك ، والله تعالى يؤيِّدهم بمنَّة وكرمه » . وتكجَّل بالمشيئة وما بعدها . والعلامة
« أخوهم » . قال : فى "التثقيف" : وإن أضيف إليهم نائب سِيس (١) ...
فى الطرة والصدر حسب ما تقدَّم ذكره .

قال فى "التثقيف" : ومما ينبَّه عليه أنه قد يُكْتَب تارة إلى بعض هؤلاء النواب
ويُختَصَر البعض ، بحسَب ما تدعو الحاجة إليه ، فيُكْتَب كذلك ويختصر منه من
رِسْم باختصاره ، ويُذكر كلُّ واحد منهم فى محله ومرتبته على الصُّورة المتقدمة من
غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذى لم يزل الحال
مستقرًّا عليه حين كانت مكاتبُ نائب الشام « الجناب الكريم » نظيرَ نائب حلب .
أما الآن حيث استقرت مكاتبته « المقرَّ الكريم » . فإنه لا يلىق أن يكتب لغيره بألقابه
الخاصَّة به . وإن اختصرت الألقابُ الخاصَّة به كان فيه نقصٌ لرتبته ؛ فيلزم من
ذلك أن يكتب إليه على أنفراده ، ويُكْتَب المطلق لمن رِسْم به مَن عداه من
النواب المذكورين .

قلت : وقد رأيت فى بعض الدساتير كتابة المطلق الشامل لكافل الشام وغيره من
النواب بعد استقرار مكاتبته نائب الشام بالمقرَّ الكريم على صورتين :

(١) بياض بالأصل ولعله يضاف ، أو أضيف فى الطرة الخ .

الصورة الأولى — أن تُستوفى ألقابُ المقرّر الكريم بدعائه، ويُؤثى بألقابه الخاصة به، ثم يُعطَف عليه الجَناب الكريم، والجَنابات العالية، والمجالس العالی، بالألقاب المشتركة؛ ويميّز ما يمكن تمييزه منها، ويكَلَّ على نحو ما تقدّم: وذلك بأن يكتب في الطّرة «مثالٌ شریفٌ مطلقٌ إلى كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أعزّ الله تعالى أنصاره؛ وتُواب السلطنة الشريفة بحلب، وطرابُلس، وحماة، وصَفَد، ضاعف الله تعالى نعمتهم؛ ومقدّم العسكر المنصور بغزّة وسيس المحروستين، أدام الله تعالى نعمتهما بما رسم لهم به» إلى آخره. ثم يُحَلِّي ثلاثة أوصال، على ما تقدّم؛ ويُكتب تَلَوّ البسملة في أول الوصل الرابع: «أعزّ الله تعالى أنصار المقرّر الكريم العالی، المولوی، الأمیری، الكبيری، العایدی، الناسکی، الأتابکی، ونُصرة الجَناب الكريم، وضاعف وأدام نعمة الجَنابات، والمجالس العالی، الأمیریّة، الكبيریّة، العالیّة، العادلیّة، المتاغیریّة، المرابطیّة، العونیّة، الذُخریّة، الغیائیّة، الممهّديّة، المشیديّة، المقدّمیّة، الظهیریّة، الكافلیّة، الفلانی والفلانی» إلى آخرهم: «معزّ وعزّ الإسلام والمسلمين، سيّدی الأمراء في العالمين، ناصر ونُصرة الغزاة والمجاهدين، زُعماء الجيوش أتابك ومقدّمی العساكر، ممهدی الدول، مشیدي الممالك، أعوان الأمة، كهُوف الملة، ظُهراء الملوك والسلطين، عضد وسيوف أمير المؤمنين، كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، وتُواب السلطنة الشريفة بحلب، وطرابُلس، وحماة؛ ومقدّم العسكر بغزّة وسيس؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس» ولا زال إلى آخره. «أصدرناها إلى المقرّر والجَناب الكريم والجَنابات والمجالس العالی، تُهدى اليهم من السلام كذا، ومن التّناء كذا، وتُبدى لعلهم الكريم كذا وكذا. ومرسومنا للمقرّر والجَناب الكريم والجَنابات والمجالس العالی أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيُحيط علمهم بذلك».

الصورة الثانية — أن تُكَتَّب الطرّة على ماتقدم؛ ثم تكتبُ ألقابُ المقرّ إلى آخرها . ثم يقال : « وتبدى لعلمه الكريم وعلم الجنب الكريم والجنابات العالية والمجلس العالى الأميرية الكبيرة » إلى آخر الألقاب « أن الأمر كذا وكذا . ومرسومنا للمقرّ والجنب الكريمين والجنابات العالية والمجلس العالى أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فيحيط علمهم بذلك » والعلامة في هذا المطلق « أخوهم » اعتبارا بالعلامة إلى كافل الشام ونائب السلطنة بحلب .

الضرب الثانى

(المطلقات المصغرة)

وقد ذكر لها في "التعريف" قواعد كلية، وأشار إلى اختلاف مقاصدها في ضمن الكلام الجملّي، فقال : وفي كلّها يُكَتَّب : « مثلنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية ، الأمراء ، الأجلّاء ، الأكابر ، المجاهدين ، المؤيدين ، الأنصار ، الفزاة ، الأنجاد ، الأجماد ، أجماد الإسلام ، أشراف الأمراء ، أعوان الدولة ، عدّد الملوك والسلاطين : الولاة ، والنواب ، والشادّين ، والمتصرّفين ، بالوجه الفلانى ، أو بالديار المصرية ، أو بالبلاد الشامية ، [أو بالبلاد الفلانية ، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية^(١)] وسائر الممالك الإسلامية » . قال : وقد يزداد في هذا لمقتضيه : « والثغور والحُصُون والأطراف المحروسة » . قال : فإذا كان إلى الممالك الإسلامية ، قيل « بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، وسائر الممالك المحروسة ، وما جاورها من البلاد الشرقية ، والممالك القانيّة » . وقد تكون إلى جهة الرّوم . فيقال : « وما جاورها من البلاد الروميّة وما يليها » . ثم عَقَّب ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلى بعض أولياء

(١) ساقط من قلم الناسخ والتصحيح من التعريف .

الدولة نظر : فإن كان إلى عامة أمراء دمشق ، قيل : « صدرت هذه المكتبة إلى المجالس العالية الأمراء » . وبقية الألقاب من نسبة ما يكتب للمجالس العالی . فإذا انتهى إلى أعضاء الملوك والسلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويمحوز إطلاق هذا الافراد على الجمع ^(١)] قال : جماعة الأمراء مقدمی الألو ف ، وأمراء الطبلخاناه ، وسائر [مجالس الأمراء] أمراء العشرات ، ومقدمی الحلقة المنصورة . وإن كان يكتب إلى حلب أو غيرها من الممالك فبالسامية . وإن كان للأمراء العربان أو التركمان أو الأكراد ، كتب على عادة المطلقات بالسامية ، وكتب بعد عدد الملوك والسلاطين « الجماعة الفلانية » أو غير ذلك مما يقتضى التعريف بمن كتب إليه .

أما فى "التثقیف" فقد رتب المطلقات المصغرة على ستة أصناف :

الصنف الأول — المطلقات إلى جميع نواب القلاع بالملكة الشامية ، أو بالملكة الحلیسة .

وصورة ما يكتب إليهم فى الطرة : « مثأل شریف مطلق إلى المجالس العالیة والسامية الأميرية ، ومجالس الأمراء النواب بالقلاع الفلانية المحروسة ، أدام الله تعالى نعمتهم بما رسم لهم به من كذا وكذا » إلى آخره . ثم يقال : على ماشرح فيه ، ثم يحلى وصلان بياضا بوصل الطرة ؛ ثم تكتب البسملة فى أعلى الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعد البسملة : « صدرت هذه المكتبة إلى المجالس العالیة والسامية الأميرية » وبقية ألقابهم . « ومجالس الأمراء الأجلاء ، الأكابر ، المجاهدين ، المؤيدين ، الأنصار ، أجداد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، أنصار الغزاة والمجاهدين ، مقدمى العساكر ، كهوف الملة ، أعوان الأمة ، ظهيرى الملوك

والسلاطين، التّواب بالقِلاع المنصورة بالمملكة الفلانية المحروسة». والدعاء إلى آخره «موضحاً لعلمهم كذا وكذا. ومرسوماً للمجالس العالية والسامية، ومجالس الأمراء أن يتقدموا بكذا وكذا، فيحيطُ علمهم بذلك. والله تعالى يؤيدهم بمنه وكرمه» والعلامة «والدهم».

الصنف الثاني — المطلقات إلى أصاغر نواب القِلاع، ممن يكتب إليه بالسامى بالياء، أو بالسامى بغير ياء، أو بمجلس الأمير.

وصورة ما يكتب إليهم في الطّرة: «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى المجالس السامية، ومجالس الأمراء التّواب بالقِلاع الفلانية، أو بولاية فلانة وفلانة، أدام الله تعالى علوّهم» بما رُسِم لهم به نظير ما تقدّم. وبعد البسملة: «مثالنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية، ومجالس الأمراء، الأجلّاء، الأكابر، الغزاة، المجاهدين، المؤيدين، الأنصار، أجداد الإسلام، أشرف الأمراء، زُيُون المجاهدين، عمّد الملوك والسلاطين، أو عدّد الملوك والسلاطين، التّواب بالقِلاع الفلانية المحروسة» حسب ما كتب في الطّرة، والدعاء «يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسوماً للمجالس السامية ومجالس الأمراء أن يتقدموا بكذا وكذا، فليعلموا ذلك ويعتمدوه ويعملوا بحسبه، والله الموفق بمنه وكرمه» والعلامة الأسم الشريف.

الصنف الثالث — المطلقات إلى عُربان الطاعة بالممالك الشامية.

والأمر فيه كما في الصنف الذى قبله. قال في «التثقيف»: فإن كان المطلق إلى طائفة من العُربان ممن له عادة بمكاتبة جليلة: بأن تكون العلامة «والده» أو نحو ذلك: كالْمُهَنَّا، وآل فَضْل، وآل عَلِي، وآل مِرَا، ونحوهم، فإنه تكون صورة ما يكتب في الطّرة: «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى جماعة العُربان، آل فلان»

إلى آخره . وفي الصدر بعد البسملة : «مثالنا هذا إلى كل واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء» وبقية الألقاب «الكُشَاف^(١) والوَلَاة والنُّوَاب بالوجهين القبلي والبحري» . ثم الدعاء . ثم يقال : «يتضمّن إعلامهم كذا وكذا» . ثم البقية من نسبة ما تقدّم .

قال في "التثقيف" : وغالبا يُفرد الوجه القبلي بمطلق شريف ، والوجه البحري بمطلق شريف . قال : وقد تضاف إلى الوجه البحري الثُّغُور . فيقال : «الكُشَاف والوَلَاة والنُّوَاب بالوجه البحري والثُّغُور المحروسة» . قال : وإضافة الثُّغُور لا تقع إلا نادرا ، لا سيما وقد صار ثغر الإسكندرية نيابةً لا ولايةً . ثم قال : وفي هذا الوقت قد يتعدّر إضافة نائب الوجه القبلي مع الوَلَاة في المطلق لأرتفاع مكانته عنهم بدرجات ، فيفرد بمثال شريف ، ويكتب المطلق إلى بقية الكُشَاف والوَلَاة . ثم قال : هذا الذي يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم ، بأن يكتب : «أدام الله تعالى نعمة الجنب العالی» إلى آخره . ثم يقال : «صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالی» إلى آخره «وتوضّح لعلهم الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء» إلى آخر ألقابهم «الوَلَاة بالوجه القبلي» أن الأمر كذا وكذا : ويكمل على ما تقدّم .

قال في "التثقيف" : ومما جرت العادة به أن يكتب مطلق شريف إلى الأمراء بالملكة الطرابلسية ، أو الحموية ، أو الصفدية وغيرها ، عند ولاية نائب السلطنة

(١) من هنا إلى قوله بعد قال في التثقيف ومما جرت العادة به الخ لا يتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالملك الشامية الذي هو موضوع الصنف الثالث كما لا يخفى ، ولعله مقدّم مما يأتي بعد في الكلام على المطلقات بالديار المصرية فتنبه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ؛ فيكتب على هذا الحكم ، ولكنه بعنوانٍ بغير طُرَّة .
قال : وصورته في الصدر بعد البسملة : « مثالثنا هذا إلى كل واقف عليه من المجالس
السامية ، ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكابر » إلى آخر الألقاب ، والدعاء « يتضمن
إعلامهم كذا وكذا » إلى آخره كما تقدّم ، ولكنه لا يصرّح بذكر الولاية والنواب كما يصرّح
بذكر من يُكتب إليه المطلق في غير هذه الحالة . والعنوان : « المجالس السامية
ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكابر » إلى آخر الألقاب والنعوت جميعها ، والدعاء ،
والتعريف « أمراء الطبّخانات والعشّرات بطرابلس المحروسة ، أو بحجة ، أو بصفد ،
أو بغزة . قال : أما مملكتنا الشام وحلب ، فإنه لم تجر العادة بكتابة مطلق بولاية
نائبهما ، بل يكتب إلى أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكرك :
فإنه يكتب إلى والي القلعة به بمثل ذلك . وكذلك يكتب إلى الحاجب
بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيئان يجب التنبيه لهما .

(١)

أحدهما كل ما كان من ألقاب المطلقات بصيغة الجمع وهو
كأعضاء ، فإنه يجوز فيه الإفراد فيقال : فيه عَضُد ، وهذا مما نبّه عليه في " التعريف "
في الكلام على المطلقات .

الثاني . قال في " التثقيف " : فإن قلت : لأى شيء تُذكر أسماء الولاية والنواب
والعربان وغيرهم في الصّدر بعد تمام النعوت وقبل الدعاء ، ولا تُكتب في صدر
المطلقات إلى الأمراء بالملك المتقدّمة الذكر عند ولاية النائب بها أو غيره ؟

(١) بياض بالأصل . ولعله وهو في الأصل مصدر كأعضاء الخ كما تقدم مثله للؤلؤ في الألقاب

فالجواب أن ذلك في صدر المثال الشريف هو التعريفُ الذي من عادته أن يكون في العُنوان ولا يُستغنى عنه فهو قائم مقامه ، حيث لأعنوان لذلك المطلق ، إنما هو بطرّة لا غير ، ولها عُنوانات ، والتعريف مذكورٌ فيها فلا حاجة إلى ذكره في الصدر . ثم قال : ومن الجماعة من يُنازع في ذلك ، ويدّعى أن ذلك في الطرّة كافٍ ومغني عن ذكره في الصدر ، وقائم مقام التعريف في العُنوان . ثم قال : وهو خطأ ، وليس بشيء . والأصح ما قلناه .

(١)
[الصنف] الرابع — قال في ”التثقيف“ : إذا كان المطلق في أمر يتعلق بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تكون صورته « إلى الكُشّاف والوَلَاة والنوّاب والشّادّين والمتصرفين بالطُرقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة ، اختَصِر منه ذكر الطرقات المصرية » .

(١)
[الصنف] الخامس — ذكر في ”التعريف“ أنه يقال في آخر المطلقات بعدَ فليَعْلَمُوا ذلك ويعتَمِدُوهُ : « بعد الخط الشريف » . قال في ”التثقيف“ ولعل هذا كان في الزمن الذي كان هو مباشراً فيه ، أما الآن فإنه لم تجر بذلك عادةً ، ولم يكتب ذلك في مطلق شريف مكبر ولا غيره أصلاً .

(١)
[الصنف] السادس — ذكر في ”التثقيف“ أنه رأى بخط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب مطلقاً إلى المجاهدين بمصيف ، يعني السداوية صورته : « يعلم كل واقف على مثالنا هذا من المقدمين الأجلاء الغزاة المجاهدين المؤيدين الأنصار ، الأتابك فلان والأتابك فلان جماعة المجاهدين » ثم الدعاء .

الضرب الثانى

(من المطلقات، البرّالغ)

^(١) بالباء الموحدة والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة جمع برّالغ، وهى لفظة تركية معناها المرسوم ؛ وعليها جرى عُرف كُتّاب بلاد الشرق ، وقُلَّ أن تُكتَب بالديار المصرية، ولذلك لم يتعرّض لها فى "التعريف" ولا فى "التثقيف" : وهذه صورة برّالغ شريف رأيتها فى تذكرة المقرّ الشهابى بن فضل الله فى الجزء السادس والأربعين منها ، بخط أخيه المقرّ العلائى بن فضل الله رحمهما الله تعالى ؛ كتب فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» . فى عاشر شهر رجب الفرد سنة تسع وعشرين وسبعائة لتمرُّبغاً، الرسولِ الواصل إلى الديار المصرية ، عن القانِ أبى سعيد صاحب مملكة إيران بالإكرام والمساحة بما يلزمه . وصورته فى أوّل الدرج .

مثالٌ شريفٌ مطلق إلى كافّة من يصل إليه ، ويقف عليه ، للجلس السامى الأميرى السيفى تمرُّبغا الرسول ، بالطرخانيّة ، وتمكين أصحابه من التردّد إلى الممالك الشريفة الإسلامية ، وإكرام حاشيتهم وتسهيل مَطْلَبهم ، ومساعدتهم فى البيع والشراء بما طُلب من الحقوق على اختلافها ، وتحذير من سَمِع هذه المراسيم المطاعة ثم أقدم على خلافها . وبعد البسملة :

الحمد لله الذى بسط أيدينا الشريفة بالحدود ، ونَصَب أبوابنا الشريفة كعبة تهوى إليها أفئدة الوفود ، وأطاب مناهلها لكافّة الأمم لتتنابها فى الصدور والورود .

نحمده على نعمه التى كَمْ بلغت راجياً مايرجوه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبيّض بها الوجوه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى ندب

(١) كتب بهامش الأصل ما نصه «لوم يقيد به بالباء الموحدة لكان أولى على ما لا يخفى» ومراده أنه بالثناء التحية كما تقدم .

إلى مَكَارِمِ الاخلاق بقوله : «إِذَا أَنْتُمْ كَرِيمٌ قَوْمٌ فَأَكْرِمُوهُ» ؛ صلى الله عليه صلاةً تزيد من يَقْرُنُ الثناء بهاتكريما، ثم على آلِه وصحبه وسلَّم تسليما .

وبعد : فإنه لما حضر المجلس السامى الأميرى ، الأسفَهَسَلارى ، السَّيْفى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدِّمين ؛ ناصحُ الدولتين ، ثقةُ المملكتين ؛ نَفَرُ الخواصِّ المقرَّبين ، عضدُ الملوك والسلاطين ؛ تمرُّغا الرسول - أنجح الله تعالى مساعيه ، وأوجب الرعاية لمن يُراعِيه - إلى أبوابنا الشريفة ونورُ ولائِه يسعُ بين يديه ، وإخلاصُ نيَّته يظهر عليه ؛ بلغ إلينا ما أُرسل فيه عن الحضرة الشريفة العالِية ، السلطانية ، العالمِية ، العادلِية ، الشاهنشاهية ، القانيَّة ، الأوحديَّة ، الولديَّة ، العزيزيَّة ، المعظمِية ، المَلِكِية ، العالِئِية ؛ أبى سعيد بهادر خان - زِيدَتْ عَظَمَتُهُ - وظهر لنا من كمالِ صِفَاتِه مَرعى البدر التمام بنقْصِه ، ومن حسنِ تَأَتِيهِ فى خِدمَةِ من أرسَله ما يُعرَف به أنه أُرسل حَكِما ولم يُوصَّه ؛ وعَرَضَ على نظرنا الشريف البرلغ الشريف المكتتب له عن الحضرة الشريفة ، السلطان الأعظم ، الولد العزيز المعظم ؛ الملك بوسعيد ، أعز الله تعالى شأنه بالطَّرْخَانِيَّة ، وما نبَّه عليه من مكانته العلية ، ورفَّه مطالبه من تأكيد الوصِيَّة ؛ ثم رَغِبَ إلينا فى الكتابة على حُكْمِه إلى كافَّة الممالك ، وأن يُسَطِّرَ له منها صحائفُ حَسَناتِ تقضى بها الملوك وترضى بها المَلَأَك ؛ فأَجَرَتْه مراحمتنا الشريفة على كرمها المُعتاد ؛ وأجارتِه نَعْمُنا الجزيلة وجاورتِه حيث سار من الأرض أو أقام من البلاد ؛ وأجابت صدقاتنا الشريفة بتحقيق المأمول ، وأكرمت كتابَه بما يستحق أن يكرم به كتابُ الرُّسول . ومرسومنا إلى كلِّ واقف عليه من الثَّوَاب والوَلَاة والشادِّين والمتصرفين والمباشرين والمتحدِّثين وبقية الحكام أجمعين إلى كافَّة الممالك الشريفة الإسلامية شرقا وغربا ، وبعدا وقربا ؛ أيدهم الله بالتوفيق ، ويسر لهم الطريق ، وجعل حُسْنَ تلقِّيهم الوفود يأتى بهم من كلِّ فجٍّ عَمِيق ؛ أن يُجِزى

الأمير الكبير المقرَّب تمرِّبًا الرسول على ما أُلِّفَ في أبوابنا الشريفة من كرم إكرامه ، وفارقنا عليه من توقير جانبه وتوفير احترامه ؛ ويُفَسَّح لكلِّ من يصل من جهته في التردُّد إلى هذه الممالك الشريفة ، والتردِّي بملابس النعم المُطِيفه ؛ وأن تُضاعَف له الإعانة والعناية ، والمراعاة والرعاية ؛ ولا يُطلَب أحد منهم في البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ؛ بشيء من المقرَّرات الديوانية ، والموجبات السلطانية ؛ ولا يؤخذ منهم عليها شيء سواء كان قليلاً أو كثيراً ، جليلاً أو حقيراً ، ولا يتأوَّل عليهم أحدٌ في هذا المرسوم الشريف ، ولا يتعدَّى حكمه في تصرف ولا تصرف ؛ بل يقف كلُّ واقف عليه عنده ، ويعملُ به في اليوم وما بعده ، ويلحظُ منه على من خالفه سيقاً مسلولاً وعلى من تجاوز حدّه ؛ فنحن نحذّر ونُنذِر من سطواتنا الشريفة من سمعه ثم زاغ قلبه عنه ، أو من بلغه من لا يفهم مضمونه ثم لا يسأل عما هو فُربَّ حامل كلام إلى من هو أوعى منه ؛ فلتكنَّ عيونهم له مُراعِيه ، ومسامعهم منصتة إلى سماعه بأذنٍ واعيه ؛ والاعتماد على الخطِّ الشريف أعلاه الله تعالى وشرِّفه .

المقصد الثالث

(من المكاتبات ، في أوراق الجَوَاز وبطائق الحَمَام ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أوراق الجَوَاز)

وهي المعبر عنه في زماننا بأوراق الطَّرِيق . قال في "التثقيف" : تكون ورقةُ الطريق في ثلاثة أوصال في قطع العادة ، يُكْتَب في أعلاها سطرٌ واحدٌ ، صورته : « ورقةُ طريقٍ على يد فلان بن فلان الفلاني » لا غير . ثم يُحْلَى بيتُ العلامة بتقدير شبر ، ويكْتَب في بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثاني بأربعة أصابع مطبوعة بغير

بسملة : « رُسِمَ بالامر الشريف العالى المولوى السلطانى المَلِكى الفلانى - أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه - أن يَمَكِّن فلان الفلانى » . وتذكر ألقابه إن كان أميراً ، أو متعمماً كبيراً ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال « من التوجه إلى جهة قصده والعود . ويحمل على فريس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور من مركز إلى مركز على العادة متوجّها وعائداً » فإن كان متميز المقدار كُتِبَ : « ويعامل بالاكرام والاحترام ، والرعاية الوافرة الأقسام ؛ فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ، من غير عُدُول عنه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه » . قال : وما تقدّم من كتابة أنه يَمَكِّن من التوجه والعود ، هو فيما إذا كان عائداً ورُسِمَ بتَمَكِينه من العود ، وإلا فيكتب « أن يَمَكِّن من التوجه إلى جهة قصده » . فإن كان قد حضر إلى الأبواب وهو عائداً ، فالأحسن أن يكتب فيه « أن يَمَكِّن من العود إلى جهة قصده » . وكذا « ويعامل بالإكرام والاحترام » لا يكتب إلا لأمر ، أو ذى قدر كبير . فإن كان غيره ، كتب [بد] له « مع الوصية به ورعايته » ونحو ذلك . وإن رسم له بنفقة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : « ويصرف له من النفقة في كل يوم كذا وكذا درهما » خلا الأما كن المرسوم بإبطالها . وذلك أن بالطرقات أما كن لا يُصرف فيها شيء الآن ، فيحتاج إلى أن تُستثنى ، وكانت قبل ذلك تُعَيَّن ، وهى : بلبس ، وطفيس ، وأربد وغيرها . ثم كثرت عن التعداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : ومما ينبى عليه أن صاحب ورقة الطريق إن كان من ممالك النواب أو رُسل أحد من أكابر البلاد ، ذكر فيه بعد ذكر ما يليق به من الألقاب : « فلان مملوك فلان أو رسول فلان » . وتذكر ألقاب مخدومه التى كوتب بها اختصاراً . ^(١) والا تذكر نعوته على يد من رسم بنفيه ،

(١) كذا فى الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلى يد من ، وإن رسم بنفيه كتب الخ تأمل .

كتب : « أن يَمَكِّنَ الأميرُ فلان الدين فلان من التوجُّه صُحْبَةً فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة ، أو أحد النقباء بالبواب الشريف ليوصله إلى المكان الفلانى ، ويحمل على كذا وكذا فرساً من خيل البريد المنصور » إن كان قد رُسِمَ له بشيء من خيل البريد « ويحمل البريدى على كذا من خيل البريد المنصور » أو « ويحمل النقيب على فرس واحد من خيل الكبراء من ولاية إلى ولاية على العادة في ذلك ، ويمكِّن البريدى إن كان بريدياً أو النقيب إن كان نقيباً من العود إلى الباب الشريف » . ثم يكمل بنسبة ماتقدم . وإذا فرغ من صورته ، كتب بعد ذلك « إن شاء الله تعالى » ، ثم التاريخ والمستند على العادة .

قال : فى "التثقيف" : والمستند فى أوراق الطريق أحد ثلاثة أمور : إما خط كاتب السر ، وهو الغالب . أو رسالة الدوا دار ، وهو كثير أيضاً . أو إشارة نائب السلطان إن كان ثم نائب ، وهو نادر . فإن كان بخط كاتب السر ، كُتِبَ على الهامش من الجانب الأيمن سطر واحد يكون آخره يقابل السطر الأول الذى هو رُسِمَ بالأمر الشريف ، وهو « حَسَبَ المرسوم الشريف » . وكذا إن كان بإشارة النائب ، كُتِبَ سطران على الهامش المذكور آخرهما أيضاً يقابل أول السطر الأول « بالإشارة العالية » كما تقدّم فى الكلام على المستندات فى المقالة الثانية . قال : وفى هاتين لا يُكْتَبَ فى ذيلهما بعد التاريخ سوى الحسبة لا غير . وإن كان برسالة الدوا دار ، كتب على الهامش « حَسَبَ المرسوم الشريف » فقط ، وكُتِبَ تحت التاريخ سطران هما « رسالة المجلس العالى الأميرى الفلانى فلان الدوا دار المنصورى أدام الله تعالى نعمته » ، ثم الحسبة .

(١) صوابه الثالثة . والذى تقدم فى ج ٦ ص ٢٦٤ « فيكتب » — بالإشارة العالية الأميرية الكبيرة الكافية ، كافل المالك الشريفة الاسلامية أعلاها الله تعالى — سطرين ويكون آخر السطر الأول الكافية الفلانية .

الجملة الثانية

(في تُسَخُّ البطائق ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(أن تكون البطاقة بعلامة شريفة)

قال في "التثقيف" : وتكون نحو ثلثي وصل من ورق البطائق . قال : وصورتها أن يكتب في رأس الورق المذكور في الوسط سواء « الأسم الشريف » وتحتَه مُلصقا به من غير بياض سطرًا واحدًا كامل من يمين الورق بغير هامش بما يأتي ذكره . ثم يُحلى بيتُ العلامة تقدير أربعة أصابع مطبوعة ، ثم تُكتب ثمةً الكلام أسطرًا متلاصقة بنسبة الأول ، بغير هامش أصلا إلى آخره . والذي يكتب من يمين الورق . « الله الهادي . سرح الطائر الميمون ورفيقه ، هداهما الله تعالى في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من سنة كذا وكذا ، إلى المجلس الكريم ، أو النامي ، الأمير فلان وإلى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعلمه أن الأمر كذا وكذا . ومرسومنا له أن يتقدم بكذا وكذا ، فليعلم ذلك ويعتد به ، والله الموفق بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى ، حسبنا الله ونعم الوكيل » . والمستند لها « حسب المرسوم الشريف » .

الضرب الثاني

(أن تكون بغير علامة)

وصورتها أن يكتب في رأس الورقة في الوسط موضع الأسم : « الله الهادي بكرمه » ، والأسطر متلاصقة بغير هامش ، ولا يُحلى فيها بيتُ علامة . وصورة

ما يكتب فيها : « المرسوم بالأمر الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ،
 الفلانى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى وصرفه - أن يُمرَّح هذا الطائر الميمون ورفيقه ،
 هداهما الله تعالى فى وقت كذا وكذا » . ويكَلَّ على حَسَب ما تقدَّم « والله الموفق ،
 حَسَبَ المرسوم الشريف ، إن شاء الله تعالى » . قال فى « التثقيف » : وقد يقتضى
 الحال نقلها من مكان إلى مكان آخر ، مثل أن تنقل من بلبس إلى قطيّا ، فيكتب بعد
 ذكر المرسوم به : « ويتقدَّم بنقل هذه البطاقة إلى فلان الفلانى ليعتمد مضمونها
 ويعمل بحسبها » . فإن كانت منقولة إلى مكان ثالث ، كتب بعد ذلك : « ثم ينقلها
 إلى فلان ليعتمد مضمونها أيضا ويعمل بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمده » . والتتمة
 حَسَب ما تقدَّم .

الطرف الثالث

(فى المكاتبات إلى عظماء ملوك الإسلام ، ومن أنطوت عليه ممالكهم من دُونهم
 من الملوك والحكّام المنفردين ببعض البلدان ، والأمراء والوزراء وسائر
 مَنْ صَمَّه نطاق كلِّ مملكة من تلك الممالك ، مَنْ جرت العادة بمكاتبتهم
 عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، ممن هو مستمرُّ المكاتبه
 أو زالت مكاتبته بزواله : يُقاس عليه مَنْ لعله يظهر مظهره)
 وأعلم أن تُكّاب الديار المصرية يُراعون فى المكاتبه إلى كلِّ مملكة صورة المكاتبه
 الواردة عن تلك المملكة فى غالب حالها : فى الابتداء والخطاب والاختتام وغير ذلك .
 وفيه أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في المكاتبات إلى عظماء ملوك الشرق، ومن أنطوت عليه كل مملكة من ممالكهم، ممن جرت العادة بمكاتبتهم، وفيه أربعة مهاييع)

المهييع الأول

(في المكاتب إلى الملوك والحكام، ومن جرى مجراهم بمملكة إيران، وهي مملكة الأكاسرة الصائرة إلى بيت هولاكو من بنى جنكخان)

وقد تقدم في المقالة الثالثة في الكلام على المسالك والممالك ذكر حدود هذه المملكة وقواعدها ومُدُنُها، وإلى من تُنسب، ومن ملكها جاهليَّة وإسلامًا إلى زماننا. والمقصود هنا ذكر المكاتبات فقط؛ ويشتمل المقصود منها على ثلاث مجل.

الجملة الأولى

(في رسم المكاتب إلى قانها الأعظم الجامع لحدودها، على ما كان الأمر عليه من مبدأ ملك بيت هولاكو وإلى آخر دولة أبي سعيد، وله حالتان)

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه في رسم المكاتب في أوائل الدولة التركية، والعداوة بعد قائمة بين ملوك الديار المصرية وبين ملوكها. وفيه أسلوبان

الأسلوب الأول — أن يكتب تحت البسملة من الجانب الأيمن «بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى» ويكون «بِقُوَّةِ اللَّهِ» سطرًا و«تَعَالَى» سطرًا؛ ثم يكتب من الجانب الأيسر: «بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْفُلَانِي». ويكون «بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ» سطرًا، وباقي الكلام سطرًا ثانيًا. ثم يكتب تحت ذلك «كَلَامُ فُلَانٍ» سطرًا ثانيًا «إِلَى السُّلْطَانِ فُلَانٍ سطرًا ثالثًا». ثم يُؤتى ببَعْدِيَّةٍ وَخُطْبَةٍ، ويُؤتى بالمقصود.

وطريقهم فيه على التكلم عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ، والخطاب لسلطان إيران بيمين الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم في جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِبَ به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحب الديار المصرية ، في جواب كتاب ورد عن السلطان أحمد القان بيران في زمانه . يذكر فيه أنه أسلم ، إذ كان أول من أسلم من ملوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبير كان قد عَزَمَ على دخول ممالك الديار المصرية قبل موته ، وأنه منع ذلك ، وأنه لا يحب المسارعة إلى القتال ، وأن المشير بذلك الشيخ عبد الرحمن : أحد صلحاء بلادهم ، وأنه حَرَّمَ على عساكره الغارات على البلاد ، وتعرض فيه إلى أمر الجواسيس ، وأشار إلى أن الاتفاق فيه صلاح العالم ، وأشار إلى أشياء حملها لرسوله يذكرونها مُشَافِهَةً ، ووقع الجواب عن جميع ذلك على ما سيأتي ذكره في الكتب الواردة على الديار المصرية .

وكتب بخط ناصر الدين شافع بن علي بن عباس : أحد كتّاب الإنشاء ، في رمضان سنة إحدى وثمانين وستمائة . والتكلم بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدم في الأسلوب الأول ، وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باقبال دولة
السلطان الملك المنصور

بقوة الله
تعالى

كلام قلاوون

إلى السلطان أحمد

أما بعد حمد الله الذي أَوْصَحَ بنا ولنا الحَقَّ مِنْهَا جَا ، وجاءَ بِنَاءِ نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا ونبيِّنا محمد الذي فضله الله

على كلِّ نبيٍّ نجي به أمتَه وعلى كلِّ نبيٍّ ناجا، صلاةٌ تُنير مادجاً ، فقد وصل الكتابُ الكريم، المتلقّى بالتكريم ، المشتمل على النِّبَا العظيم ؛ من دُخُوله في الدين ، وخُرُوجِه عمن سلف من العشيرة الأقرين ؛ ولما فُتِحَ هذا الكتاب بهذا الخبر العلمُ المعْلَم ، والحديث الذي صحَّح عند أهل الإسلام إسلامَه وأصحَّ الحديث ما روى عن مسلم ، توجَّهَت الوجوهُ بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يُثَبِّتَه على ذلك بالقول الثابت ، وأن يُنَيِّتَ حَبَّ حُبِّ هذا الدين في قلبه كما أثبت أحسن الثبوت من أخشن المنابت ؛ وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه في أول عَفْوَان الصِّبَا إلى الإقرار بالوحدانية، ودُخُوله في المِلَّة المحمدية، بالقول والعمل والنية ؛ فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام ؛ فحمَدنا الله على أن جعلنا من السابقين إلى هذا المَقَالِ والمقام ، وثبَّت أقدامنا في كلِّ موقفٍ اجتهد وجِهَاد تترلزل دُونَه الأقدام .

وأما إفضاءُ التَّوْبَةِ في المُلْك وميراثُه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفضاءُ جَلَابِيب هذه النعمة العظيمة عليه ؛ وتوقُّله للأُسرة التي طَهَّرها الله بِلِيَامِه، وأظهرها بِسُلْطَانِه ؛ فلقد أورثها الله من أصطفاه من عباده ، وصَدَّق المَبَشِّرَات من كرامة أولياء الله وعباده .

وأما حكاية الإخوان والأمرء الكبار ومقدِّمِي العساكر وزعماء البلاد في مجمع فوريلياى الذى ينقدح فيه زَندُ الآراء، وأن كلمتهم اتَّفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه قد فكَّر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ، وآتته إلى أهوائهم ؛ فوجده مخالفاً لما في ضميره : إذ قصَّده الصَّلاح ، ورأيه الإصلاح ؛ وأنه أطفأ تلك النَّارَ، وسكَّن تلك النَّارَ ؛ فهذا فعل الملك المتَّقَى ، المُشْفِق من قومه على مَنْ بَقِيَ ؛ المفكِّر في العواقب ، بالرأى الناقب ؛ وإلا فلو تركوا

وَأَرَاءَهُمْ حَتَّى تَحْمِلَهُمُ الْغَزَا ، لَكَانَتْ تَكُونُ هَذِهِ الْكَرَّةُ ؛ لَكِنْ هُوَ كُنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَلَمْ يُوَافِقْ قَوْلَ مَنْ ضَلَّ وَلَا فَعَلَ مَنْ غَوَى .

وَأَمَّا الْقَوْلُ مِنْهُ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَسَارِعَ ، إِلَى الْمُقَارَعَةِ ؛ إِلَّا بَعْدَ إِضْاحِ الْحُجَّةِ ، وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ؛ فَبِإِنْتِظَامِهِ فِي سَلَكِ الْإِيمَانِ صَارَتْ حُجَّتَنَا وَحِجَّتَهُ مَتَرَكَّةً ، عَلَى مَنْ غَدَتْ طَوَاعِيئُهُ عَنْ سُلُوكِ هَذِهِ الْحُجَّةِ مُتَنَكِّبَةً ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالنَّاسَ كَافَّةً قَدْ عَلِمُوا أَنَّ قِيَامَنَا إِنَّمَا هُوَ لِنُصْرَةِ هَذِهِ الْمِلَّةِ ، وَجِهَادِنَا وَاجْتِهَادِنَا إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ ؛ وَحَيْثُ قَدْ دَخَلَ مَعْنَى فِي الدِّينِ هَذَا الدُّخُولُ ، فَقَدْ ذَهَبَتْ الْأَحْقَادُ وَزَالَتْ الدُّحُولُ ؛ وَبَارْتِفَاعِ الْمُنَافَرَةِ ، تَحْصُلُ الْمُظَافَرَةُ ؛ فَالْإِيمَانُ كَالْبُنْيَانِ يُشَدُّ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَمَنْ أَقَامَ مَنَارَهُ فَلَهُ أَهْلٌ بِأَهْلٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَجِرَانٍ بِجِرَانٍ بِكُلِّ أَرْضٍ .

وَأَمَّا تَرْتِيبُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ عَلَى إِذْكَارِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ قُدْوَةِ الْعَارِفِينَ كَمَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ ، فَلَمْ يُرَ لَوْ أَنَّ قَبْلَهُ كَرَامَةً كَهَذِهِ الْكَرَامَةِ ، وَالرَّجَاءُ بِبِرْكَتِهِ وَبِرَكَةِ الصَّالِحِينَ أَنْ تُصْبِحَ كُلُّ دَارٍ إِسْلَامَ دَارٍ إِقَامَةً ؛ حَتَّى تَمَّ شَرَائِطُ الْإِيمَانِ ، وَيَعُودَ شَمْلُ الْإِسْلَامِ مَجْتَمِعًا كَأَحْسَنِ مَا كَانَ ؛ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ بِكَرَامَتِهِ أَبْتَدَأَ هَذَا التَّمَكُّنَ فِي الْوُجُودِ ، أَنَّ كُلَّ حَقٍّ بِبِرْكَتِهِ إِلَى نِصَابِهِ يَعُودُ .

وَأَمَّا إِنْفَاقُ أَقْصَى الْقَضَاةِ قُطْبِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ ، وَالْأَثَابُكُ بِهِاءِ الدِّينِ ؛ الْمَوْثُوقُ بِنَقْلِهِمَا فِي إِبْلَاحِ رِسَائِلِ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ ، فَقَدْ حَضَرَ وَأَعَادَا كُلَّ قَوْلٍ حَسَنٍ مِنْ أَحْوَالِ أَحْوَالِهِ ، وَخَطَرَاتِ خَاطِرِهِ ، وَمَسْطَرَّاتِ نَاطِرِهِ ؛ وَمَنْ كُلِّ مَا يُشْكِرُ وَيُحْمَدُ ، وَيُعْنَنُ حَدِيثُهُمَا فِيهِ عَنْ مُسْنَدِ أَحْمَدَ .

وَأَمَّا الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ النَّفُوسَ ^(١) إِنْ كَانَتْ تَتَطَلَّعُ فِي إِقَامَةِ دَلِيلٍ ، تَسْتَحْكِمُ [بِهِ] دَوَاعِيَ الْوَدِّ الْجَمِيلِ ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ مَآثِرِهِ ، فِي مَوَارِدِ الْأَمْرِ وَمَصَادِرِهِ : مِنَ الْعَدْلِ

(١) لعل زيادة "إن" من قلم الناسخ

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدم بإصلاح الأوقات ، فهذه صفات من يريد
لملكه الدوام ؛ فلما ملك عدل، ولم يلتفت إلى ثؤم من عدا ولا لؤم من عدل . على
أنها وإن كانت من الأفعال الحسنه ، والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الأئسنه ؛
فهى واجبات تؤدى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو عليه يقتصر ، أوله يدخر ؛
إنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطى ممالك وأقاليم وحُصُون ، أو يسدّل في تشييد
ملكه أعزّ مصُون .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرّض إلى أحد
بالأذى ، و[تحتم] إصفاء موارد الواردين والصادر من القذى ؛ فمن حين بلغنا تقدّمه
بذلك تقدّمنا أيضا بمثله إلى سائر الثواب ، بالرحبة وحلب وعينتاب ؛ وتقدّمنا إلى
مقدّم العساكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ؛ وإذا آتحد الإيمان ، وأنعدت
الأيمان ؛ تحتم إحكام هذه الأحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق وأنّ بسبب من تزيا من الجواسيس
بزى الفقراء قُتِل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن ، فهذا باب من ذلك
الجانب ستروه ، وإلى الأطلاع على الأمور صوّروه ؛ فظفر الثواب منهم بجماعة فرفع
عنهم السيف ، ولم يكشف ماغطته خرقه الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلى أن فى اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم ، وينتظم شمل بنى آدم ؛
فلا راد لمن طرق باب الاتحاد ، ومن جنح للسلم فما جار ولاحاد ؛ ومن ثنى عيانه
عن المكافحه ، كن يريد المصاحفة للصالحه ؛ والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بد
من أمور ثنى عليها قواعده ، وتعلم من مدلولها فوائده ؛ فإن الأمور المسطورة فى كتابه
عن كليات لازمة ينعم بها كل معنى معلوم إن تها صلح أولم ، وثم أمور لا بد أن تحكم ،
وفى سلكها عقود العهود تُنظّم ؛ قد تحملها لسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت

من معنى دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ؛ وما بسطه من عدل وإحسان ، وسيرة مشهورة بكل لسان ، فالمنة لله في ذلك فلا يشبها منه بامتنان ؛ وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في حق من آمن بإسلامه : ﴿ قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمُ لِلْإِيمَانِ 》 .

ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض ومال ، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل ؛ فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، تمت المصاحبة والمصادقة ؛ ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلال معادينا ، وإعزاز مصافينا ؛ فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر الدين المحمدي واستحكم في صدر الإسلام إلا بمظاهرة الصحابة ؛ فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد ، وحسن الوداد ، وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يشتد به الأزر عند الاستناد ، فقد فهم المراد .

ومن المشافهة إذا كانت رغبتنا غير ممتدة إلى ما في يده من أرض ومال ، فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود ؛ فالجواب أنه لو كُف كُف العدوان من هنالك ، وحل للملوك المسلمين ما لهم من ممالك ؛ سكنت الدماء ، وحقت الدماء ؛ وما أحقه بأن لا ينهى عن خلق ويأتي مثله ، ولا يأمر بشيء وينسى فعله ؛ وقنطراب بالرؤم الآن ، وبين بلاد في أيديكم خراجها يجي إليكم ، فقد سفك فيها وقتك ، وسبى وهتك ؛ وباع الأحرار ، وأبى إلا التمداد على ذلك والإصرار .

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الإغارات ، ولا يقتصر عن هذه الإثارات ؛ فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتَّفَقَ فيها ملتقى الجمعين مرةً ومرةً ومرةً قد عافَ مواردُها من سلفٍ من أولئك القوم ، وخاف أن يعاودها فيعاودهُ مضرعُ ذلك اليوم ؛ ووقتُ اللقاء علمه عند الله لا يُقدَّر ، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدرَ لا لمن قدر ؛ وما نحن ممن ينتظر فلتَه ، ولا نَمُنُّ له إلى غير ذلك لفتَه ، وما أمرُ ساعةِ النصر إلا كالساعة التي لا تأتي إلا بفتَه ؛ والله تعالى الموفق لما فيه صلاحُ هذه الأمة ، والقادر على إتمام كلِّ خير ونعمه ؛ إن شاء الله تعالى . مُستَهَلَّ شهر رمضان المعظم قدره ، سنة إحدى وثمانين وستمئة . الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه . حسبنا الله ونعم الوكيل .

الأسلوب الثاني

(أن يُكْتَبَ تحتَ البسملة على حِيالٍ وسَطها « بَقُوَّةُ الله تعالى

وَمِائِينَ الْمِلَّةِ الْحَمْدِية »)

ويكون « بَقُوَّةُ الله تعالى » سطرا . و « مِائِينَ الْمِلَّةِ الْحَمْدِية » سطرا ثانيًا . ثم يؤتى ببعديَّة وخُطبة مختصرة ؛ ثم يُكْتَبَ سطران بياض من الجانين ، فيهما : « بإقبال دولةِ السلطان الملكِ الفلاني ، كلام فلان بن فلان » . ويكون السطر الأول « بإقبال دولةِ السلطان الملكِ » وبقية الكلام في السطر الثاني . ثم يقال : « فليَعْلَمَ السلطان فلان » . ويؤتى على المقصود إلى آخره .

وهذه نسخةُ كتاب من إنشاء القاضي علاء الدين علي بن فتح الدين محمد بن محي الدين بن عبد الظاهر ، صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية في جواب كتاب وردَّ عن السلطان محمود غازان ، القان بمملكة إيران ، يذكر فيه أن جماعة من عساكر البلاد الشامية أغاروا على ماريدين ، وأن الحمية أقنضت الركوب في مُقابلة

ذلك . وذكر أنه قدّم الرُّسلَ بالإِذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا على تَمَادِيهِمْ في غِيهِمْ ؛
ويذكر فيه نُصْرَتَهُ على العساكر الإسلامية في المَرَّةِ السَّابِقَةِ . ويذكر فيه أنه أقام
بأطراف البلاد ، ولم يَدْخُلْهَا خَوْفَ التَّخْرِيبِ والفساد . ويذكر فيه جمعَ العساكر
وتَهْيِئَةَ المَجَانِيقِ وغير ذلك من آلة القتال . ويذكر أنه إذا لم تَجْرُ مَوْجِبَاتُ الصِّلَحِ
كانت دماءُ المسلمين مَطْلُولَةً ؛ ويذكر إرسالَ رُسُلِهِ بكَاتِبِهِ وَيَلْتَمِسُ التَّحَفَ والهدايا ،
مِمَّا كُتِبَ بِهِ عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، في المحرم سنة إحدى
وسبعائة وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِينَ الْمَلَّةِ الْمَحْمَدِيَّةِ

أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، الهَادِينَ الْمُهْتَدِينَ ، التَّابِعِينَ
لِسُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَضَّلَ اللَّهُ مَنْ سَبَقَ مِنْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ . فَقَالَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ

الناصر كَلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ .

فَلْيَعْلَمْ السُّلْطَانُ الْمُعَظَّمُ مُحَمَّدٌ غَارَانُ أَنَّ كِتَابَهُ وَرَدَ ، فَقَابَلْنَاهُ بِمَا يَلِيْقُ بِمَثَلِنَا لِمَثَلِهِ
مِنَ الْإِكْرَامِ ، وَرَعَيْنَاهُ حَقَّ الْقَصْدِ فَتَلَقَيْنَاهُ مِنَّا بِسَلَامٍ ، وَتَأَمَّلْنَاهُ تَأَمُّلَ الْمُتَفَهِّمِ
لِدَقَائِقِهِ ، الْمُسْتَكْشَفِ عَنْ حَقَائِقِهِ ؛ فَأَلْفَيْنَاهُ قَدْ تَضَمَّنَ مُوَآخَذَاتٍ بِأُمُورِهِم بِالْمُؤَاخَذَةِ

عليها أخرى، معتذرا في التعدى بما جعله ذُنُوباً لبعض طالبِ بها الكلِّ، والله تعالى يقول : «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» .

أما حديث مَنْ أغار على مَارِدِينَ من رِجَالَةِ بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة، والآثام الشنيعة ؛ وقولهم : إنهم أَنْفَوْا من تهجمهم ، وغَارُوا من تَهْجُمهم ؛ وأَقْتَضَت الحِمْيَةُ رُكُوبَهُمْ في مقابلة ذلك ، فقد تلمَحْنَا هذه الصورة التي أقَامُوهَا عُدْرًا في العُدُونِ ، وجعلوها سببًا إلى ما أَرْتَكِبُوهُ من طُغْيَانٍ ؛ والجواب عن ذلك أَنَّ الغاراتِ من الطَّرَفَيْنِ [و] لم يَحْصُلْ من المهادنة والمواذعة ما يَكْفِي يدَنَا الممتدة ، ولا يُقْتَرِّهِمَهَا المستعده ؛ وقد كان آبَاؤُكُمْ وأجدادُكُمْ على ما علمتم من الكُفْرِ والشقاق ، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق ؛ ولم يزل مَلِكُ مَارِدِينَ ورعيته منقذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم ، متولين كِبَرْتَكْرَهُمْ ؛ والله تعالى يقول : «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» . وحيث جعلتم هذا ذَنْبًا للحِمْيَةِ الجاهليَّةِ ، وحاملاً على الانتصار الذى زعمتم أَنَّ هِمَّتَكُمْ به مَلِيَّةٌ ؛ فقد كان هذا القصد الذى ادَّعَيْتُمُوهُ يَتِمُّ بالانتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجبَ ذلك فعلُها ، والاقتصار على أخذ النار من ثار ، آتباعاً لقوله تعالى : «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» لأن تقصُّدوا الإسلام بالجموع الملققة على اختلاف الأديان ، وتطَّأُوا البقاع الطاهرة بعبدة الصُّلْبَانِ ؛ وتنهكوا حرمة البيت المقدس الذى هو ثَانِي بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ ، وشقيقُ مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ وإنِ احْتَجَجْتُمْ بأنَّ زمامَ تلك الغارة بيدنا ، وسبب تعديهم من سُنَّتِنَا ؛ فقد أَوْضَحْنَا الجوابَ عن ذلك ، وأنَّ عدم الصُّلَحِ والمواذعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما ادَّعَوْهُ من سلوك سنن المرسلين ، واقتفاء آثار المتقدمين ، فى إنفاذ الرُّسُلِ أولاً ، فقد تلمَحْنَا هذه الصورة ، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة ؛ والجواب

عن ذلك أَنَّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وصلُوا إلينا إلا وقد دَنَتِ الحِيَامُ من الحِيَامِ ، وناضلتِ السَّهَامُ السَّهَامَ ، وشارَفَ القَوْمُ القَوْمَ ، ولم يَبْقَ للقاء إلا يومٌ أو بعضُ يومٍ ؛ وأُشْرِعتِ الأَسِنَّةُ من الجانبين ، ورأى كُلُّ خَصَمِهِ رأى العين ؛ وما نحن ممن لاحت له رَغْبَةُ رَاغِبٍ فتشاعَلَ عنها ، ولا ممن يُسَلِّمُ فيقابلُ ذلك بِجَفْوَةِ النَّفَارِ ، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ . كيف والكتابُ بعُنوانه ! وأميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب رضى الله عنه يقول : « ما أَصْمَرَ إنسانٌ شَيْئاً إلا ظَهَرَ في صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ » . ولو كان حضور هؤلاء الرُّسُلِ والسيوفُ وادعةٌ في أعْمالِها ، والأَسِنَّةُ مستَكِنَةٌ في أعْوادِها ؛ والسَّهَامُ غيرُ مَفْوَّقه ، والأَعْنَةُ غيرُ مُطْلَقة ؛ لسمِعنا خِطابَهُمْ ، وأَعَدْنَا جوابَهُمْ .

وأما ما أَطْلَقُوا به لسانَ قَلَمِهِمْ ، وأَبْدَوْه من غَلِيظِ كَلِمَتِهِمْ ؛ في قَوْلِهِمْ : فصَبَرْنَا على تَمَادِيكُمْ في غِيَمِكُمْ ، وإِخْلَادِكُمْ إلى بَغْيِكُمْ ؛ فأشَى صَبْرٌ من أُرسلَ عِنايَته إلى المِلكِ الْخَفَةِ ، قبل إِرْسَالِ رُسُلِ المِصَالِحَةِ ؛ وجاسَ خِلَالَ الدِّيَارِ ، قبل ما زَعَمَهُ من الإِعْدَادِ والإِنْذارِ ؟ وإذا فَكَّرُوا في هذه الأسبابِ ، ونظروا ما صَدَرَ عَنْهُمْ من خِطابٍ ؛ علموا العُدْرَ في تأخيرِ الجوابِ ، وما يَتَذَكَّرُ إلا أُولُوا الأَلْبَابِ .

وأما ما تَبَجَّحُوا به مما أَعْتَقَدُوهُ من نُصْرِهِ ، وظَنُّوهُ من أَنَّ الله جعل لهم على حِزْبِهِ الغالبَ في كُلِّ كَرَّةٍ الكَرَّةَ ؛ فلو تأمَّلُوا ما ظَنُّوهُ ربَّما لَوَجَدُوهُ هو الخُسْرانُ المِمينَ ، ولو أُنْعِمُوا النَّظَرَ في ذلك لما كانوا به مُفْتَحِرِينَ ؛ وَلِتَحَقَّقُوا أَنَّ الذى اتَّفَقَ لهم كان غُرماً لا غَنماً ، وتَدَبَّرُوا معنى قولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُمْلَى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ . ولم يَخَفْ عَنْهُمْ ما نالته السيوفُ الإسلامية منهم ، وقد رَأَوْا عِزْمَ مَنْ حَضَرَ من عساكرنا التي لو كانتِ مُجْتَمَعَةً عندَ اللِّقاءِ ما ظَهرَ خَبَرُ عَنْهُمْ ؛ فإنَّا كُنَّا في مُفْتَسَحٍ مُلْكًا ، ومِبتدأِ أَمْرِنَا ؛ حَلَّانَا بالشَّامِ للنَّظَرِ في أمورِ البلادِ والعِبَادِ . فلما تَحَقَّقْنَا خَبَرَكُمْ ، وَقَفَّوْنَا أَثَرَكُمْ ؛

بَادِرًا نَقْدَ أَدِيمِ الْأَرْضِ سَيَرًا ، وَأَسْرَعَنَا لِنُدْفَعَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ضَرَرًا وَضَيْرًا ؛ وَوُدِّي
 مِنَ الْجِهَادِ السَّنَةِ وَالْفَرَضِ ، وَنَعْمَلْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ . فَاتَّفَقَ اللَّقَاءُ بَيْنَ حَضَرَ مِنْ عَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ ،
 وَتَوْفَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ . وَإِلَّا فَأكْبَرُكُمْ يَعْلَمُونَ
 وَقَائِعَ الْجَيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَمْ وَطِئَتْ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ فَكُتِبَ لَهَا عَمَلٌ
 صَالِحٌ ، وَسَارَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَفَتَحَ عَلَيْهَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ ؛ وَتَعَدَّدَتْ أَيَّامُ نُصْرَتِهَا الَّتِي
 لَوْ دَقَّقْتُمْ الْفِكَرَ فِيهَا لَا زَالَتْ مَا حَصَلَ عِنْدَكُمْ مِنْ لَبْسٍ ، وَلَمَّا قَدَرْتُمْ أَنَّ تُشْكِرُوهَا
 وَفِي تَعَبٍ مِنْ يُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ ، وَمَا زَالَ اللَّهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَإِذَا
 رَاجَعْتُمُوهُمْ قَصُّوا عَلَيْكُمْ نَبَأَ الْأَسْتَظْهَارِ وَلَا يَنْبَهُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ ؛ وَمَا زَالَتْ تَنْتَقِيقُ الْوَقَائِعِ
 بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْحُرُوبِ ، وَتَجْرِي الْمَوَاقِفُ الَّتِي هِيَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ فَلَا فَخْرَ فِيهَا لِلْغَالِبِ
 وَلَا عَارَ عَلَى الْمَغْلُوبِ ؛ وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ أَسْتَظْهَرَ عَلَيْهِ ثُمَّ نُصِرَ ، وَعَاوَدَهُ التَّائِيدُ فَجَبُرَ بَعْدَ
 مَا كُسِرَ ؛ خُصُوصًا مِلُوكَ هَذَا الدِّينِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكْفَّلَ لَهُمْ بِحُسْنِ الْعُقْبَى فَقَالَ
 تَعَالَى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَأَمَّا إِقَامَتُهُمْ الْحُجَّةَ عَلَيْنَا ، وَنِسْبَتُهُمُ التَّفْرِيطَ إِلَيْنَا ؛ فِي كَوْنِنَا لَمْ نُسِيرْ إِلَيْهِمْ رَسُولًا
 عِنْدَ مَا حَلُّوا بِدِمَشْقَ ، فَنَحْنُ عِنْدَ مَا وَصَلْنَا إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لَمْ نَزِدْ عَلَى أَنْ أَعْتَدْنَا
 وَجَمْعَنَا جُيُوشَنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَبَذَلْنَا فِي الْأَسْتِعْدَادِ غَايَةَ الْجُهِودِ وَالْإِمْكَانِ ؛
 وَأَتَّفَقْنَا جَزِيلَ الْأَمْوَالِ فِي الْعَسَاكِرِ وَالْمَحَافِلِ ، وَوَقِفْنَا بِحُسْنِ الْخَلْفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :
 ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ﴾ . وَلَمَّا
 نَخْرَجْنَا مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، بَلَّغْنَا خُرُوجَ الْمَلِكِ مِنَ الْبَلَادِ ، لِأَمْرِ حَالِ بَيْنِهِ وَبَيْنَ الْمُرَادِ ؛
 فَتَوَقَّفْنَا عَنِ الْمَسِيرِ تَوَقَّفَ مَنْ أَغْنَى رُغْبُهُ عَنْ حَثِّ الرِّكَابِ ، وَتَثَبَّتْنَا تَثَبَّتَ الرَّاكِبَاتِ
 ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ . وَبَعَثْنَا طَائِفَةً مِنَ الْعَسَاكِرِ

لمقاتلة من أقام بالبلاد فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فخطفت من حملة على التأثر الغرر ، ووصلت إلى الفرات فما وقفت للقوم على أثر .

وأما قولهم : إننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يتلقونا على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقين ؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم جزمنا ، وعلى لقاءهم عزمنا ؛ وخرجنا ونخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب الطاعة على كل مسلم ، المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلم ؛ طائعين لله ولرسوله في أداء مفترض الجهاد ، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد ؛ عاملين بأنه لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته ، ومن والاه فقد حفظه الله تعالى وتولاه ، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله ؛ فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله تعالى في النصر الرجاء والأمل ؛ ووصلت أوائلها إلى أطراف حماة وتلك النواحي فلم يقدم أحد منهم عليها ، ولا جسر أن يمدح حتى ولا الطرف إليها ؛ فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، وإخلافه موعد اللقاء والله لا يخلف الميعاد ؛ فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في طاعتنا أندفاع السيل ، عاملين بقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ .

وأما ما جعلوه عذرا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها ، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أنحرب البلاد مروورها ، وبإقامتهم فسدت أمورها ؛ فقد فهم هذا المقصود . ومتى ألقت العباد والبلاد منهم هذا الإشفاق ؟ ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق ؟ وها آثارهم موجودة على ملك آل سلجوق وما تعرضوا

لدارٍ ولا جارٍ ، ولا عَفَّوْا أثراً من الآثار ؛ ولا حَصَلَ لمسلم منهم ضَرَرٌ ، ولا أُوذِيَ في وِرْدٍ ولا صَدَرٍ ؛ وكان أحدهم يشتري قُوَّتَه بِدِرْهَمِهِ وديناره ، ويأبى أن تمتدَّ إلى أحدٍ من المسلمين يُدْإِضِرُّه ؛ هذه سُنَّةُ أهل الإسلام ، وفعلٌ من يُريد للملكة الدوام .

وأما ما أَرَعَدُوا به وأَبْرَقُوا ، وأرسلُوا به عِنانَ قَلْبِهِمْ وأَطْلَقُوا ؛ وما أَبَدُوا من الأهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره من التهويل ، قاله تعالى يقول : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وأما قولهم : وإلا فدماء المسلمين مَطْلُولَةٌ ، فما كان أغناهم عن هذا الخِطَابِ ، وأولاهم بأن لا يصدر إليهم عن ذلك جواب ؛ ومن قصَدَ الصِّلحَ والإصلاح ، كيف يقول هذا القول الذى عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أى جناح ؟ وكيف يُضْمِرُ هذه النية ، ويتبيحُ بهذه الطوية ؟ ولم يخفِ مواقع زَلَلِ هذا القول وخَلَلِهِ ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ” نِيَّةُ الْمَرْءِ أَتْلُغُ مِنْ عَمَلِهِ “ وبأى طريق تُهدِر دماء المسلمين التى من تعرَّضَ إليها يكون الله له فى الدنيا والآخرة مطالباً وغَريباً ، ومؤاخداً بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ؟ وإذا كان الأمر كذلك فالْبُشْرَى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمِّ المصروفِ إلى الاستعداد ، وجمع العساكر التى تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأنجاد ، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوقِّرة العدد ، المتكاثرة المدد ، الموعودة بالنصر الذى يُخَفِّهُا فى الظُّنن والإقامة ، الواقعة [به] من قوله صلى الله عليه وسلم : ” لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ ^(١) ”

(١) أى بالنصر وزدنا الجار والمجرور لاقضاء الكلام بإياه .

على عَدُوِّهِمْ إلى يوم الْقِيَامَةِ . الْمُبَلَّغَةُ فِي نَصْرِ دِينِ اللَّهِ آمَالًا ، الْمُسْتَعِدَّةُ لِجَابَةِ دَاعِي اللَّهِ إِذَا قَالَ : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

وَأَمَّا رُسُلُهُمْ فَلَانٌ وَفَلَانٌ فَقَدْ وَصَلُوا إِلَيْنَا ، وَوَفَّدُوا عَلَيْنَا ، وَأَكْرَمْنَا وَفَادَتْهُمْ ، وَغَزَرْنَا لِأَجْلِ مُرْسَلِهِمْ مِنَ الْإِقْبَالِ مَا دَتْهُمْ ، وَسَمِعْنَا خِطَابَهُمْ ، وَأَعَدْنَا عَلَيْهِمْ جَوَابَهُمْ ، هَذَا مَعَ كَوْنِنَا لَمْ يَخَفْ عَلَيْنَا أَنْخَطَاطُ قَدَرِهِمْ ، وَلَا ضَعْفُ أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ مَادُّعُوا لِأَفْوَاهِ الْخَطُوبِ ، إِلَّا لِمَا آرَتَكِبُوهُ مِنْ ذُنُوبٍ ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُرْسَلَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ لِمِثْلِنَا مِنْ مِثْلِهِ ، وَلَا يُتَنَدَّبَ لِمِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْمَهْمِّ إِلَّا مِنْ يُجْمَعُ عَلَى فَصْلِ خِطَابِهِ وَفَضْلِهِ .

وَأَمَّا مَا أَلْتَمَسُوهُ مِنَ الْهَدَايَا وَالتُّخَفِ ، فَلَوْ قَدَّمُوا مِنْ هَدَايَاهُمْ حَسَنَةً لِعَوَضَانِهِمْ بِأَحْسَنِ مِنْهَا ، وَلَوْ أَنْخَفُونَا بِتُخَفَةٍ ، لِقَابِلْنَاهَا بِأَجَلٍّ عَوِضٍ عَنْهَا . وَقَدْ كَانَ عَمَّهُمُ الْمَلِكُ أَحْمَدُ رَاسِلَ وَالِدِنَا الشَّهِيدِ ، وَنَاجَى بِالْهَدَايَا وَالتُّخَفِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَتَقَرَّبَ إِلَى قَلْبِهِ بِحُسْنِ الْخِطَابِ ، فَأَحْسَنَ لَهُ الْجَوَابَ ، وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا بِحُسْنِ الْأَدَبِ ، وَتَمَسَّكَ مِنَ الْمَلَاظَمَةِ بِأَقْوَى سَبَبٍ .

وَالْآنَ حَيْثُ أَتَيْتِ الْأَجُوبَةُ إِلَى حَدِّهَا ، وَأَدْرَكَتِ الْأَنْفَةُ مِنْ مَقَابِلَةِ ذَلِكَ الْخِطَابِ غَايَةَ قَصْدِهَا ، فَنَقُولُ : إِذَا جَنَّحَ الْمَلِكُ لِلسَّلَامِ جَنَحْنَا لَهَا ، وَإِذَا دَخَلَ فِي الْمِلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ مِمْتَلًا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَجْتَنِبًا مَا عَنْهُ نَهَى ، وَآتِيًا تَنْظِمَ فِي سِلْكِ الْإِيمَانِ ، وَتَمَسَّكَ بِمُوجِبَاتِهِ تَمَسَّكَ الْمُتَشَرَّفُ بِدُخُولِهِ فِيهِ لَا الْمَنَانُ ، وَتَجَنَّبَ التَّشْبِيهَ بِمَنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ : ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ . وَطَابِقَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ ، وَرَفَضَ الْكُفَّارَ الَّذِينَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَهُمْ حَوْلَهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنْ جِهَتِهِ يَرْتِّلُ آيَاتِ الصَّلَاحِ تَرْتِيلًا ، وَيُرْوِقُ خِطَابَهُ وَجَوَابَهُ حَتَّى يَتْلُو كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَ عَوْدِهِ : ﴿ يَا لَيْتَنِي أَتَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴾ .

صارت حجتنا وحجته مركبةً على من خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامةً أهل الشرك في سائر الممالك ، ومظافرتنا له تُكسب الكافرين هواناً ، والشاهد لمصافاتنا مُفادُ قوله تعالى : ﴿ واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ . وينتظم إن شاء الله تعالى شمل المصالح أحسنَ انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمظافرة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحالة الثانية

(ما كان عليه رسمُ المكتبة في الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" إلى أبي سعيد بهادرخان بن خدايندا : آخر ملوك بني هولاكو، ملك إيران)

قال في "التعريف" : وهو كتاب يكتب في قطع البغدادى الكامل ، يبتدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة الغراء المكتبة بالذهب المزك ، بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات ، ثم تكمل الخطبة وتفتح ببعدية إلى أن تساق الألقاب ، وهى : « الحضرة الشريفة ، العالية ، السلطانية ، الأعظمية ، الشاهنشاهية ، الأوحدية ، الأخوية ، القانية ، الفلانية » من غير أن يخلط فيها « الملكية » هوانها عليهم وأنحطاطها لديهم ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية : من إعزاز السلطان ونصر الأعوان ، وخلود الأيام ، ونشر الأعلام ، وتأييد الجنود ، وتكثير الوفود . وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى . ثم يقال ما فيه التلويع والتصريح بدوام الوداد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصف الأشواق ، وكثرة الأتواق ، وما هو من هذه

(١) في التعريف ص ٤٤ : "الطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يُؤتى على المقاصد ، ويختتم بدعاء جليل ، وتستعرض المراسيم والخدم^(١) ،
ويُوصف التطلع إليها ، ويُظهر التهافُت عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطفراه [وعنوانه]^(٢) بالذهب المزك ، وذلك
كل ما وقع في أثنائه من أسم جليل ، وكل ذى شأن نبيل : من أسم لله تعالى ،
أو لنبينا صلى الله عليه وسلم ، أو لأحد من الأنبياء ، أو للملائكة عليهم السلام ،
أو ذكر دين الإسلام ، أو ذكر سلطاننا ، أو السلطان المكتوب إليه ، أو ماهو متعلق
بهما . مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كل هذا يكتب
بالذهب ، وما سواه يُكتب بالسواد .

فأما العنوان ، فهو بهذه الألقاب إلى أن ينتهى إلى اللقب الخاص ، ثم يدعى له
بدعوة أو اثنتين ، نحو : « أعز الله سلطانها ، وأعلى شأنها » أو نحو ذلك . ثم يسمى
أسم السلطان المكتوب إليه ، ثم يقال « خان » كما كنا نكتب ، فنقول : « بوسعيد
بهادرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطمغات عليها ألقاب سلطاننا ، تكون على
الأوصال ، يبدأ بالطمغة على اليمين في أول وصل ، ثم على اليسار في ثاني وصل ، ثم
على هذا النمط إلى أن ينتهى في الآخر إلى اليمين . ولا يطمغ على الطرة البيضاء .
والكاتب يخلى لمواضع الطمغة مواضع الكتابة ، تارة يمنة ، وتارة يسرة .

وأوضح ذلك في "التثقيف" وبينه ، فقال : والمكاتبه إليه في عرض البغدادى
الكامل ، والطرة ثلاثة أوصال ، والبسملة ذهب مزك بالقات طوال بالمسطرة
بحط الذهب ، ثم الخطبة ، وأولها « الحمد لله » والسطر الذى إلى البسملة الشريفة

(١) في التعريف ص ٥٤ : "الحوايج" .

(٢) الزيادة من التعريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بقية السطور التي من أول السطر الثالث إلى آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضع بيت العلامة الشريفة) طُرَّة ذهب بالألقاب الشريفة ، ثم بعد هذين السطرين الملاصقين للطَّرَة المذكورة بقية السطور بهامش جيد في يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكملة إلى آخر الورق ، لا يخل فيهما للطَّمْغَة مكان . وبعد الخطبة ما يناسب الابتداء إن كان ، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهي : «الحضرة، الشريفة، العالية، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلة، الأكليّة، القانية، الشاهنشاهية، الولديّة، العزيزية، الملكية، الفلانية» . ثم الدعاء . وفي أثناء خطابه «الحضرة الشريفة» تارة، وتارة «الحضرة العالية» والدعاء في أوساطه نحو «زِيدَتْ عَظْمَتُهُ، ودامت مَعْدِلَتُهُ، وأعلى الله مقامه، وأعزّ الله شأنه» . والخطبة جميعها بالذهب المُزَمَّك . وبعدها بالأسود خلا ذكر الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو ما أضيف إليهما ، أو ما يعظم ذكره : كالحق والعدل وأمثالهما ، أو كلّ لقب أو نعت ، أو كلمة مضافة إلى المكتوب عنه أو المكتوب إليه ، أو ضمير فيهما ، فإنه بالذهب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفي آخرها الدعاء له من غير توقّف .

قال : وكان قد استقر من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يمين السطرين : الثاني والثالث ، وهو مما يلي بيت العلامة «المُشْتَق محمد» . ثم قال : ورأيت بخط القاضي المرحوم ناصر الدين بن النشائي أن ذلك نظير الكتاب الوارد منه في رجب سنة تسع وعشرين وسبعمائة . ثم قال : وقد ذكر في "التعريف" ثلاثة أمور زائدة ^(١) التنبيه عليها .

(١) بياض بالأصل ولعله لابد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفه في العنوان . فيكتب بعد ذكر الاسم « خان » .
فيقال : « أبو سعيد بهادر خان » .

ثانيها — أنه تستعمل الطمغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لا يكتب في ألقابه « الملكية » . وذكر أنه لم يكتب لأحد بهذه
المكاتبه بعد السلطان أبي سعيد، خلا ما ذكر القاضي ناصر الدين بن النشائي أنه كتب
نظير ذلك بعد أبي سعيد لطفای تمرخان . قال : ولو كتب بالمغلية كتب في القطع
المذكور . أما اللطافات، ففي قطع الثلث .

وهذه نسخة مكتبة كتب بها المقرر الشهائي بن فضل الله عن السلطان الملك الناصر
« محمد بن قلاوون » إلى السلطان أبي سعيد بهادر خان المقدم ذكره، وهي :

الحمد لله الذي جعلنا بنعمته إخوانا، وجمعنا على طاعته أصولا لا تتفرق أغصانا،
نحمده على ما أولانا، ونشكره على ما أولانا، ونرغب إليه في مزيد أطفاه التي شملت
أقصانا وأدنانا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة كالشمس لا تتدع
في الأرض مكانا، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي شيد بنا لشريعته
أركاننا، وشد بعضنا ببعض لنكون كما شهبنا به بنانا أو بنيانا، صلى الله عليه وعلى
آله صلاة لا تتوانى، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا،
وسلم تسليما كثيرا .

وبعد: فإن من أعظم المبهجات لدينا، المبهجات لطريق السُرور إلينا، الملهجات
بوصف أكرم وارد علينا، هو الكتاب الشريف، بل السحاب المطفف، بل البحر
الذي يقذف دُررا، ويقص عن السحاب أثرا، ويرفع سررا، ويطلع قبرا، ويطول
أوضاحا وغررا، ويحدث عن العجائب خبرا، بل ينشر الروض خبرا، ويهب الرياح

سَحْرًا، وَيَبْرِقُ ذَهَبُهُ الْمَوَهُ أَصَالًا وَبُكْرًا، الصَّادِرُ عَنْ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ السُّلْطَانِيَّةِ،
الْأَعْظَمِيَّةِ، الْعَالِمِيَّةِ، الْعَادِلِيَّةِ، الشَّاهِنشَاهِيَّةِ، الْأَخْوِيَّةِ، الْقَانِيَّةِ، زَادَهَا اللَّهُ شَرْفًا،
وَأَدَامَ بِهَا تَحْفًا، وَصَاغَ بِهَا لِكُلِّ سَمْعٍ شَنْفًا، وَأَيْدَهَا بِزَائِدٍ مَزِيدِهِ حَتَّى تَقُولَ : حَسْبِي
وَكُفْيَ، فَإِنَّهُ وَصَلَ صُحْبَةَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ الْأَمِيرِ، الْكَبِيرِ، الْمُقَرَّبِ، الْمُحْتَبَى، الْمُرْتَضَى،
الْمُخْتَارِ، شَرَفِ الدِّينِ، مُجِدِّ الْإِسْلَامِ، زَيْنِ الْأَنَامِ، جَمَالِ الْمُقَرَّبِينَ، مَرْضَى الْمُلُوكِ
وَالسُّلَاطِينِ، الْحَاجِّ أَحْمَدَ الْأَشْقَرِ، وَالشَّوْقُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ، وَالتَّطَلُّعُ إِلَيْهِ كَمَثَلِ الْعِيدِ،
فَقَرَّبَنَاهُ إِلَيْنَا نَجِيًّا، وَتَلَقَّيْنَا مِنْهُ مَهْدِيًّا، وَكَأَنَّ السَّمَاءَ أَلْقَتْ مِنْهُ حُلِيًّا، أَوْ أَلْقَتْ كَوْكَبًا
دُرِّيًّا، أَوْ مَدَّتْ مِنَ الْحَجَرَةِ دَرَجًا، وَعَطَفَتْ مِنْ مَهْنَدَاتِ الْبُرُوقِ خُلُجًا، وَقَدَّتْ
مِنْ سَوَادِ الْقُلُوبِ شَطْرَ كُلِّ سَطْرِ فِيهَا، وَأَغَارَتْ مُقْلَةً كُلَّ رَيْمٍ قَامَ بِسَوَادِ نَازِرِهِ
يُقَدِّيهَا، وَسَرَّحْنَا مِنْهُ الْحَدَقَ فِي حَدَائِقِ، وَنَفَّحْنَا بِهِ لِلْحَقَائِبِ حَقَائِقَ، وَاسْتَطَلَعْنَا بِهِ
شُمُوسَ الْإِفْتِقَادِ، وَأَطْلَعْنَا مِنْهُ عَلَى نُفُوسِ نَفَائِسِ الْوِدَادِ، وَصَادَفَ مِنَّا قَلْبًا صَادِيًّا
إِلَى مَا يَرُوقُ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَشَوْقًا إِلَى مَا يَهْبُ مِنْ نَسِيمِ دِيَارِهِ، وَتَطَلَّعْنَا إِلَى مَنْ يَرِدُ
مِنْ رُسُلِهِ الْكَرَامِ، وَيَقْصُ عَلَيْنَا مَا لَا يُسْتَقْصَى مِنْ مَوَاقِعِ الْعَمَامِ، وَعَلِمْنَا مِنْهُ وَمِمَّا
ذَكَرَهُ الْمُقَرَّبُ الْحَاجُّ شَرَفُ الدِّينِ أَحْمَدُ مَالِ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ يَلْتَحِفُ
بِمَلَابِسِهَا، وَيَقْتَطِفُ مِنْ مَغَارِسِهَا، وَتُجْرَى فِي السَّيْفِ رَوْقًا، وَتُزَيَّنُ بِالْكَوَاكِبِ
أَفْقًا، وَتُجَرُّ عَلَى الْكُثْبَانِ مِنَ الشُّمُوسِ رِدَاءً مُخْلَقًا . وَأَحْضَرْنَا الْحَاجَّ شَرَفَ الدِّينِ
أَحْمَدَ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ، وَشَمِلْنَاهُ بِحُسْنِ مُلَاحَظَتِنَا الَّتِي زَادَتْ تَشْرِيفَهُ، وَكَانَ
حُضُورُهُ وَرَكَابُنَا الشَّرِيفِ يَهْبِجَانِ الصَّيْدَ الْمَحْمُودَ، وَنَحْنُ نَأْهَجُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ أَنْتِهَازِ كُلِّ
فُرْصَةٍ فِي الصَّبُودِ، وَمَا حَصَلْنَا فِيهِ عَلَى لَذَّةِ ظَفَرٍ إِلَّا وَتَمَنَيْنَا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا مِشَارَكَةٌ
شُهُودَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا يَرَى كَيْفَ يُسَهِّلُ اللَّهُ لَنَا بُلُوغَ كُلِّ مَقْصُودٍ، وَنَحْجَ مَعَنَا
إِلَى الْمَصَائِدِ، وَتَفَرَّجَ عَلَى الصَّائِدِ، وَرَأَى مَا حَفَّ بِمُوكِبِنَا الْمَنْصُورِ مِنْ ذَوَاتِ الْوَبَرِ

والجنّاح، وما سُخِّرَ لنا من جِياذ الخيول من الرياح؛ فشاهد ما أوتينا من المُلْك السِّلْمانيّ في سُرعة السير، واختلاف ما جُمِعَ لنا من الإنس والوحش والطَّير؛ وأسغرت أوقاُتنا الشريفة في السؤال عن مزاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرور المستديم؛ والتأييد الذي أنقلب به أولياؤه بنعمة من الله وفضلٍ لم يَمَسُّهم سوءٌ وآتَبُوا رضوانَ الله والله ذو فَضْلٍ عظيم؛ وتجددت المَسَرَّات، بهذه البشائر المُسَرَّات^(١)؛ وأضفنا هذه النعمة إلى ما نحمدُ الله عليه مما أيدَّنا به من النصر والظَّفَر والتأييد، والنعم التي توالَّت إلينا ونحن نرجو المزيد؛ ونُضاعفُ الحمدَ والشكرَ لله على هذه المواهب التي أطافت بنا بِطاقاتها الثمينة، وأنارت في آفاقنا أبقارها المِسيَّنة؛ وشملتْ ملوكَ الإسلام نعمها من كل جانب، وأشرقتْ شمسها حتى ملأتْ بأنوارها المشارق والمغارب .

وأما ما أُنْحَفَتْ به من البلكات الشريفة فقد وصلت ، وتَقَبَّلَتْ وَقَبِلَتْ ؛ وأُكْرِمَتْ لأن مُهْدِيها كريم ، وأُعْظِمَتْ لأنها تُحَفِّةٌ من عظيم ؛ وأُشِينَا عليه بما طاب ، وشكَّرْنا الزائر جُودَ أخيه السَّحاب .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضى تجهيزه من الملاكين والسوقات فقد رُسِّمنا بالآتِهاء إليه، لأنه لا فرق بيننا وبين أخينا فيما يخصُّ مراسِمنا جميعاً عليه ؛ وقد جُهِّزَ من الملاكين والطين المختوم ما أمكَنَ الآن ، ومنه ما نُكِّمنا بِاستعماله من البلكات بِاسمه الشريف وتأنر ؛ فلما فرغَ جُهِّزَ معه ، وبعد هذا نُجَهِّزُ من يتوجَّه إلى حضرته العالية ليجددَ عهداً ، ويؤدِّيَ إليه وُداً ؛ وما يتأنر إلا ريثماً تتجلى السُّحب المتواليه ، ويمكنُ التوصلُ سالماً إلى حَضْرته العاليه .

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أسرّه بمعنى أفرحه كما حكاه ابن سيده في تفسير

المثل « كل مجر بالغلاء مسر » انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هذا : فهو أنَّ الحاج أحمد أحضر إلينا ورقة كريمة ، بل دُرَّة يَتِيَمَةٍ ؛
 بخط يد الحضرة الشريفة فَأُعْجِبْنَا بِهَا ، ووجدناها في غاية الحُسْن التي لا يَعدُّ زَهْرُ
 الرياض لها مُشْبِهاً ؛ وما رأينا مثل ما كُتِبَ فيها ، كأنَّ السماء قد نَظَّمَتْ في سَطُورها
 النجومَ الزَّهْرَ من دَرَارِيهَا ؛ فَأَكْرَمَ بِيَدِ كَتَبَتِ سَطُورًا اعْتَرَفَ بِهَا الرَّحْمَ لِلْقَلَمِ ! وَأَسْتَمَدَ
 السَّحَابُ من طُرُوسِهَا الْكَرَمَ ! وَجَرَتْ بِجَامِدِ ذَهَبٍ وَسَائِلِ دَمٍ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى إِبَاتِهَا
 صَحَائِفُهُ وَأَقْلَامُهُ وَدُويُّهُ وَالْحَوُّ وَالْبُرُوقُ وَالْدِّيمُ ، وَطَلَعَتْ مِنْهَا تَبَاشِيرُ النَّجَاحِ ، وَتَحَاسَدَ
 عَلَيْهَا مِسْكُ اللَّيْلِ وَكَافُورُ الصَّبَاحِ ؛ وَاتَّفَقَتْ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَقَدْ تَوَعَّتْ قِسْمًا ،
 وَأَشْرَقَتْ فَتَمَنَّتْ السَّمَاءُ أَنْ تَكُونَ لَهَا صَحِيفَةً وَالْبَرْقُ قَلَمًا ؛ فَأَرْخَصَتْ قَدْرَ يَاقُوتٍ
 فِي التَّقْلِيْبِ ، وَحَسَنَتْ بِحَاسِنِهَا هِجْرَانٍ حَبِيبٍ ؛ لَقَدْ أُوتِيَتْ مِنْ انْخِلَاطٍ غَايَةَ الْكَمَالِ ،
 وَبَسَطَتْ يَدَ آيِنِ هَلَالٍ فِيهِ عَنْ فَمِ آيِنِ هَلَالٍ ؛ فَأَمَّا الْوَلِيُّ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهَا ، وَأَنَوَاذِهِ
 مِمَّا فَاضَ مِنْ إِيْنَائِهَا ؛ طَالَمَا حَدَّقَ إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ فَأَخْتَلَفَ بِرَقَّةِ أَبَاهُ مُقْلَهُ ، وَفِطْنِ
 آيِنِ أَسَدِهِ لَوْ أَدْرَكَهُ أَبُوهُ لَنَسِيَ شِبْلَهُ ؛ فَسَبَّحَانَ مَنْ صَرَفَ فِي يَمِينِهِ الْقَلَمَ بِلِ الْأَقَالِيمِ ،
 وَوَهَبَهُ مِنْ أَفْضَلِ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ ذَلِكِ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾
 وَقَدْ أُعِيدَ الْمُقَرَّبُ شَرَفُ الدِّينِ أَحْمَدُ ، وَحَمَلَ مِنَ الْمَشَافَهَاتِ الشَّرِيفَةِ مَا تُفَضُّ عَلَى
 أَخِينَا عَقُودُهُ ، وَتُفَاضُ بِرُودِهِ ؛ وَالْحَضْرَةُ الشَّرِيفَةُ لَا تَقْطَعُ أَخْبَارَهَا عَنَّا الَّتِي تُسَرُّ
 بِأَنْبَاءِهَا ، وَتُسِيرُ بِجُيُومِ سَمَائِهِ ؛ لِأَزَالَتْ مَنَاقِبُهُ مَسْمُوعَةً ، وَالْقُلُوبُ عَلَى مَا يَجْمَعُ كَلِمَةَ
 الْإِيمَانِ مَجْمُوعَةً . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

تنبيه — أما المَلَطَّفَاتُ الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ إِلَى هَذَا الْقَانِ ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي "التَّشْفِيفِ"
 أَنَّهَا فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ ، وَكَذَا مَا يُكْتَبُ بِهِ بِالْمُعْلَى ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي الْقَطْعِ الْمَذْكُورِ أَيْضًا .

الجملة الثانية

(في المكاتبات إلى من ملك توريزو بغداد بعد موت أبي سعيد)

قد تقدم أنه ملك توريزو بغداد بعد السلطان أبي سعيد (موسى خان) ثم محمد بن عديجى، ثم الشيخ حسن الكبير، ثم ابنه الشيخ أويس، ثم ابنه حسن، ثم أخوه أحمد . ومنه أتت عن تمولك . وذكر في "التثيف" أنه ملك بعد أبي سعيد أرفاخان، ثم موسى خان، ثم طغاي تمرخان؛ بعد أن ذكر أنه لم يكتب إلى أحد بعد أبي سعيد بالمكاتبة المتقدمة . ثم قال: ورأيت بخط القاضي ناصر الدين بن النشائي أن مكاتبة طغاي تمرخان كانت نظير مكاتبة أبي سعيد . ثم قال: وهذا يدل على أنه لم يكتب بذلك بعد أبي سعيد غير طغاي تمرخان المذكور .

قلت : وقد وقفت على مكتبة عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » إلى موسى خان المقدم ذكره من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، فيما ذكره صاحب " الدرر الملتقط " جواباً عن كتاب ورد منه يذكر فيه النصرة على عدوله ؛ والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا . بدأ فيها بعد الافتتاح بآية من القرآن الكريم في معنى النصر بقوله :

« إلى الحضرة الشريفة » إلى آخر الألقاب المناسبة « من أخيه ومحبه » ؛ ثم خطبة بعد ذلك مفتوحة : « الحمد لله » . ثم « وبعد ، فقد ورد الكتاب الشريف » . والخطاب بـ « الحضرة الشريفة » . والاختتام بالدعاء . ولاخفاء في أن هذه نحو المكاتبة إلى أبي سعيد ؛ لكني لم أقف على مقدار قطع الورق فيها ، ولا صورة الكتاب . وهذه نسختها :

(١) كذا في الأصل هنا وتقدم في ج ٤ ص ٢٤٤ (عرجى) .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

إلى الحضرة الشريفة العالية، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلة، الأوحديّة، الشاهنشاهيّة، القانيّة، الأخوية، الأخ العزيز، الكبير، المعظم، موسى خان، أعزّ الله سلطانه، وثبت بسعادة ملكه أوطانه. من أخيه ومحبه، الخالص في حبه، الصادق المودّة له في بعده وقربه.

الحمد لله الذي أيد الإسلام بنصره، وضيق على أعدائه مجال حصره، وجدّد بتأييده في زمانه ما تتحلّى به أعطاف عصره. نحمده عن الدين الحنيف على نصرة أضاء لها الوجود بأسره، وأوقعت كلّ خارج^(١) على الدين والمملك في قبضة أسره، ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يخلص قائلها غاية أجهاده، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذي جاهد في الله حق جهاده، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستقلّ ببشائرها أعباء عبادته، وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فقد ورد الكتاب الشريف من الحضرة الشريفة العالية، السلطانية، القانيّة، أختنا وولدنا العزيز، المؤيد بالنصر على الأعداء والفتح الوجيز؛ لا زالت دولته الشريفة دائمة الإقبال، متريدة تزيد الهلال، على يد المجلسين الساميين، الأميرين، الكبيرين؛ عضدى الملوك والولاة: "دلتجي، وكراي" أدام الله تعالى عزّتهما - بالبشائر بنصرة الإسلام، وتأيد أختنا على عدوّه الخارج على الدين والمملك^(١). وحمدا لله تعالى على هذه النصرة، وتضاعفت بها المسرة؛ ونحن كُنا خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلامية، لتساعد كلنا على نصرة الإسلام. وما تأخرنا

(١) في الأصل "خارجي".

إلا لما جاءت إلينا ماري (؟) الأخبار وما كنا نتحققها ثم تحققنا بحمد الله تعالى هذه الأخبار؛
وضربنا لها البشائر في سائر الأقطار، وعرفنا بها عناية الله تعالى بأخذ المسلمين بنواصي
الكفار، وقيام الجنب الكريم العالى الأمير الكبير التوئين العادل المعظم على باشا،
أعز الله تعالى نصرته في إعادة الحق إلى أهله، وصبره على ما سبق به كل أحد
إلى جميل فعله، واجتهاده في هذا الأمر الاجتهاد الذى ما كان يطلب إلا من مثله؛
وكذلك الجنبات العالیه الأمراء التوئينات الأكابر، زیدت سعادتهم! فإنهم سارعوا
إلى ما كان يجب ويتعين عليهم في خدمة سلطانه، ومن هو أحق بهم وأولى من عظيم
عظم قانهم؛ وما من الأمير التوئين العادل على باشا وبقية الأمراء الأكابر إلا من قام
بما كان عليه من العهود، وبذل آجتهاده حتى حصل بحمد الله المقصود؛ وما
قصرُوا في قيامهم حتى تسلم المستحق حقه وميراثه وما هو أحق به وأولى. وهم -
جزاهم الله الخیر - قد عملوا ما يجب عليهم، وبقي ما يجب على الحضرة الشريفة من
الإحسان إليهم.

وأما قول الحضرة الشريفة: إنه مثل ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعز من الولد،
وكل أحد منا لأخيه في الاتفاق على المصالح الإسلامية عضد ويد، وذخر وسند؛
وقد سبق من تألف القلوب ما أشدّت به الآن وأخيه، وأضحى له منا شفقة
الوالد على الولد وتوقير الأخ لأخيه؛ وقد أعدنا رسله الكرام وحملائهم مشافهة ووصية
للحضرة الشريفة في أمور تقتضيها مصلحته، فإنه عندنا أعز من الولد. وما القصد
إلا الاتفاق على مصالح الإسلام، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوئام]، فيديم المواصلّة
بكتبه وأخباره السارّه، والله تعالى يديم مساره ويضاعف مباره؛ إن شاء الله تعالى.

ولم أقف لهذه المكتبة على قطع ورق، والظاهر أنها في قطع النصف لما سياتى
أنه الذى عليه الحال في مكتبة صاحب بغداد وتوريز، فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأعلم أن صاحب "التتقيف" قد ذكر أن المكاتبة إلى الشيخ أُويس : صاحب بغداد وتوريز، وأبنه حسن بعده في ورق قطع النصف . ورسما : «أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالی، الكبيری، السلطانی، العالمی، العادلی، المجاهدی، المؤیدی، المراطی، المنصوری، المَلکی، الفلانی» بقلب السلطنة «الفلانی» بقلبه الخاص . والدعاء بما يناسبه «أصدرناها إلى المقام الشريف تُهْدی وتبدي» و«القصد من المقام الشريف» . وينتم بدعاء يناسب، مثل : «أعز الله أنصاره» ونحو ذلك . ومحاطبته بـ«المقام الشريف» . والعنوان «المقام الشريف» إلى آخر الألقاب المذكورة. والدعاء «أعز الله تعالى أنصاره» . وتعريفه «فلان بهادرخان» مثل أن يقال : «الشيخ حسن بهادرخان» . والعلامة إليه «أخوه» . قال في "التتقيف" : وكان الشيخ أُويس المذكور عند استقراره بتوريز وبغداد يكتب له «المقام العالی» ، ثم كُتِبَ له بعد ذلك «المقام الشريف» .

وهذه نسخة مكاتبة كُتِبَ بها إلى الشيخ أُويس المقدم ذكره، جواباً عن كتاب ورد منه، من لإنشاء القاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش ، حين كان يُكُتِبُ إليه «المقام العالی» لأبتداء أمره، على ما تقدم، وهي :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالی، إلى آخر ألقابه، ولا زال المَلِكُ زاهراً زاهياً بشرف سلطانه، والفَلَكُ يجري بإعزاز قدره، وإحراز نصره، مدى زمانه، والفنك منه بالأعداء يسر الأولياء من أهل مودته وإخوانه، وسلك جواهر عقد ولانه منظم من الإخلاص بُجَّانه، ولا برح مؤيدا بأنصار الإسلام وأعوانه، مُجَدِّداً سعده الذي يبلغه جميل أوطاره في جميع أوطانه .

أصدرناها إلى المقام العالی تصف مالدينا من المحبة التي ظهر دليلها بواضح برهانه، وتبث إلينا أبناء مكنون المودة التي تغني عن صريح القول وتبينانه، وتبدي لعلمه

الكریم أن كتابه الكریم ورد على يد فلان رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه؛
وعلمنا ما تضمنه من محبته وموالاته، ونخالصته ومصافاته؛ وما أشتمل عليه ضهيره من
صحيح الوداد، وصريح الاتحاد؛ وجميل الاعتقاد، وجزيل المخالصة التي يتم بها الأمل
والمُراد . وأن المقام العالی جهز رسوله المشار إليه ليوضح إلينا ما هو عليه من ذلك،
ويُنهي إلينا أسباب الائتلاف التي عمرت أرجاء الجهتين هنا وهناك؛ ويبيد
ما تحمله عنه من المشافهات، وتفهمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطنا علماً بذلك
ووصل رسوله المذكور، وتمثل بمواقف سلطاننا المنصور؛ وسَمِلَه إقبالنا الشريف،
وإنعائنا المُطيف؛ وسمعنا جميع كلامه، وما تحمله من المشافهة الكريمة من عالى
مقامه؛ وشكرنا محبة المقام العالی ووَدَه الجميل، وأثينا على موالاته التي لا تَمُيدُ عنها
ولا تَمِيلُ، وآبتهجنا بسلامة مقامه الجليل . وقد أعدنا فلانا رسوله المذكور بهذا
الجواب الشريف، إلى المقام العالی أعزَّ الله أنصاره، فُتِحَ بمكاتباته ومهماته،
والله تعالى يمدّه بالتأييد في حركاته وسكناته، ويعزُّ نصره ويزيد في حياته .



أما المنفرد بتأريز خاصّة، فقد ذكر في "التتقيف" أن المكاتبة إلى الأشرف
(أبن علاء الدين تمرتاش) الذي كان قد وثب على تيريز خاصّة فملكها، في قطع الثلث
بقلم التوقيعات «ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالی الأميرى الكبرى» وبقية
الألقاب والتعوت، ومنها التَّوْبِيّ . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكاتبة إلى الجناح
العالی وتوضَّح» والعلامة «أخوه» . وتعريفه «الأشرف بن تمرتاش» .

ثم ذكر أن أخى جق الذى وثب عليه وقتله وأستولى على تيريز بعده آستقرت مكاتبته
كذلك، وأنه كان يُكتب في تعريفه «أخى» لا غير . ثم قال: وقد ماتا وبطل ذلك .

(أبو بكر بن خَوَاجَا على شاه) وزير صاحب تَبْرِيزَ «الآسَم» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخوِاجَا المرحوم على شاه . قال فى «التثقيف» : ولم أعلم وَرْدَ فى زَمَنٍ مَنْ من المتولِّين

(عُمَرُ بَك) أحد أمراء الأشراف بن تمرناش صاحب تَبْرِيزِ فى قَطْعِ الثالث ، الدَّعَاءُ و «العالى» والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى «التثقيف» : وهذا ممن بطل حكمه بزوال مَحْدُومِهِ .

الجملة الثالثة

(فى رسم المكتبة إلى مَنْ أَنْطَوْتُ عَلَيْهِ مملكةُ إيران، ممن بَحَرَتْ عَادَتُهُ بِالمكتبة عن الأبواب السلطانية، فى أيام السلطان أبى سعيد فَنَنْ بعده، وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاول

(كُفَّالِ المملكة بحضرة القان ، وهم على ضريين)

الضرب الاول

(كُفَّالِ المملكة بالحَضْرَةِ فى زمن القانات العِظام كابى سعيد وَمَنْ قبله من ملوكهم حينَ كانتِ المملكة على أتم الأبهة وأعلى الترتيب)

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثالثة أَنَّ القَائِمَ بتسيير العسكر لهذه الدولة حينَ كانت قائمة على نمط القانية المتقدم إلى آخر زمن أبى سعيد أربعة أمراء، يعبر عنهم بأمراء الألّوس، ويعبر عن أكبرهم بيكلارى بك بمعنى أمير الأمراء . وربما أطلق عليه أمير الألّوس أيضا . والقائم بتسيير الأمور العامة هو الوزير .

(١) يظهر قياسا على ما قبله أنه سقط هنا من قلم النسخ شيء نحو المكتبة ضاعف الله الخ . ثم الدعاء والعالى الخ .

فأما الأمراء المذكورون ، فقد كان كل من الأمراء الأربعة والوزير يكاتب عن الأبواب الشريفة السلطانية . وقد ذكر في "التعريف" أن المكتبة إلى بكلارى بك في قطع النصف : « أعزَّ الله تعالى نصرَ المقرِّ الكريم » . وإلى الثلاثة الذين دُونَهُ في قطع الثلث : « أدام الله تعالى نصرَ الجنب الكريم » . وأنه يُقال لكل من الأربعة « التَّوَيْتِي » . ثم قال : ومثُل هذا مكتبة أرتنا بالروم ، وأمير التَّومان بديار بكر : من سُوناي وبنيه وكذلك سائر الأمراء التَّوِينات : وهم أمراء التَّوامين .

والذى ذكره في "التثقيف" أن المكتبة إلى الشيخ حسن الكبير أمير الألوس كانت على ما استقرَّ عليه الحال إلى حين وفاته ببغداد في قطع الثلث بقلم التوقعات : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ الجنب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الرِّعِمى ، العَوْنى ، الغيائى ، المِثاغرى ، المِرايطى ، الممهِّدى ، المشيدى ، الظَّهيرى ، التَّوَيْتِي ، الفلانى : عون الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأمراء فى العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحِّدين ، مُمهد الدَّول ، عماد الملَّة ، عَوْن الأُمَّة ، كافى الدولة القانيَّة ، كافِل المملكة الشَّرقيَّة ، آمِرِ التَّوامين ، أمير الألوس ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين » . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدَرناها إلى الجنب الكريم » و « تبدى » و « القصد من الجنب الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الشَّيخ حسن أُلوس بك » .

قال في "التثقيف" : ولما توفَّى الشَّيخُ حسنُ المذكور إلى رحمة الله تعالى لم يَقمْ غيره مكانه فيما أَظُن ، ولا كُوتِبَ أحدٌ بعده بهذه المكتبة . قال : والتَّوَيْتِي فى ألقاب هؤلاء بدل «الكافلى» فى ألقاب التَّوَاب ، يعنى بالمملكة المِصريَّة والشاميَّة . ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمل دائماً لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعمل الكافلى أصلاً .

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو « الكافلي » في الألقاب التي أوردتها في المكتبة إلى الشيخ حسن الكبير .

وأما الوزير بهذه المملكة فقد ذكر في « التعريف » أن رسم المكتبة إليه في قطع الثالث « ضاعف الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميرى الوزيرى » على عادة المكاتب إلى الوزراء بالقباب الوزارة . قال : فإن لم تكن له إمرة ، فيقال له « الوزيرى » ولا يقال له « الصاحبى » هوانها لديهم . ولم يتعرض في « التتيف » إلى المكتبة إلى وزير هذه المملكة ، ولا إلى الأمراء الثلاثة الباقين من أمراء الأئوس ، بل عدل عن ذلك إلى المكتبة إلى الوزير ببلاد أربك . وسيأتى ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد حُيت رسوم تلك المملكة ، وعُفَّت آثارها بزوال ترتيب المملكة بموت السلطان أبى سعيد : آخر ملوك بنى جنكرخان بهذه المملكة . وإنما ذكرنا ذلك حفظاً لما كان الأمر عليه : لاحتمال طروق مثل ذلك فيما بعد ، فيُنسَج ما يأتى على منوال ماضى ، ويُجرى في المستقبل على منباج الماضى ؛ فالأمور ترتفع ثم تنخفض ، وربما انخفضت ثم ارتفعت . والله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

الضرب الثانى

(كُفَّالُ المملكة بالحضرة بعد موت أبى سعيد)

قد ذكر في « التتيف » منهم جماعة : منهم محمد الكازرونى وزكريا وزيراً الشيخ أويس . وقد ذكر أن رسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قطع العادة « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأجلّى ، الكبيرى ، الأوحدى ، المقدّمى ، المتخفى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الرؤساء ، أوحداً الأعيان ، صفوة الملوك

والسلطين». ثم الدعاء. والعلامة «الاسم الشريف» وتعريفه «فلان وزير الشيخ أويس بهادرخان».

ومنهم - الطواشي مرّجان، نائب القان أويس ببغداد، ولقبه أمين الدين بالس. ورسم المكتبة إليه «والده» و«السامي» بالياء. وتعريفه «خواجه مرّجان».

ومنهم - محمدفلتان، نائب الشيخ أويس أيضا. وذكر أنّ رسم المكتبة إليه مثل المكتبة إلى مرّجان. والعلامة «الاسم الشريف». وتعريفه: «فلتان نائب الشيخ أويس».

قلت: فإن اتفق أن أقیم لصاحب بغداد: كأحمد بن أويس ومن في معناه مثل هؤلاء، كانت المكتبة إلى كلّ منهم نظير مثله من المذكورين بحسب ما يقتضيه الحال.

الصنف الثاني

(من جرّت العادة بمكاتبته بمملكة إيران عن الأبواب السلطانية، صغار الملوك المنفردين ببعض البلدان، والحكام بها من هو بمملكة إيران)

قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنّ مملكة إيران تشتمل على عدّة من الأقاليم داخلّة في حدودها، منتظمة في سلّكها. وقد ذكر في «التعريف» جملة من المكاتبات عن الأبواب السلطانية إلى بعض هؤلاء الملوك. وخالفه في «التتقيف» في بعض المواضع وزاد عليه عدّة مكاتبات. وها أنا أذكر ما ذكره من ذلك، وأزيد ما اتّفق زيادته ممّا لكلّ إقليم من أقاليم هذه المملكة بمن فيه من الملوك والحكام ومن جرى مجراهم.

فَمَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَكَاتِبِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ بِالْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ، مِمَّا بَيْنَ دِجْلَةَ
وَالْفُرَاتِ مِنْ دِيَارِ بَكْرِ وَرَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ وَغَيْرِهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ
فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ

صَاحِبُ مَارِدِينَ — وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ أَنَّهَا مَدِينَةٌ ذَاتُ قَلْعَةٍ حَصِينَةٍ
بِدِيَارِ بَكْرِ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَنَّهَا بِيدُ بَقَايَا بَنِي أَرْثِقَ الْمُسْتَقِلِّينَ بِمُلْكِهَا مِنْ قَدِيمِ
الزَّمَانِ وَإِلَى الْآنَ.

وَرَسَمُ الْمَكَاتِبَةِ إِلَيْهِ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التَّعْرِيفِ": «اعزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
الْعَالِي، الْكَبِيرِيِّ الْمَلِكِيِّ الْفُلَانِي الْفُلَانِي» يَعْنِي بِاللَّقَبِ الْمُلُوكِي، وَاللَّقَبِ الْمُضَافِ إِلَى
الَّذِينَ؛ مِثْلُ «الصَّالِحِي الشَّمْسِي» وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ثُمَّ الدَّعَاءُ. قَالَ فِي "التَّنْقِيفِ":
ثُمَّ يَقَالُ: «أَصْدَرْنَا هَذَا إِلَى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ»، «وَتُبْدَى لَعَلَّهُ الْكَرِيمِ». «فَيَتَقَدَّمُ أَمْرُهُ
الْكَرِيمِ». وَيُحْتَمَّ بِمَا صَوَّرْتَهُ «فَيُحِيطُ عَلَيْهِ الْكَرِيمُ بِذَلِكَ». وَالدَّعَاءُ. وَالْعَلَامَةُ
«أَخُوهُ». وَتَعْرِيفُهُ «صَاحِبُ مَارِدِينَ». وَوَرَقُهُ قَطْعُ الْعَادَةِ. ثُمَّ قَالَ: وَيَتَعَيَّنُ أَنْ
تَكُونَ أَلْفَابُهُ إِلَى آخِرِ اللَّقَبِ الْمُلُوكِيِّ سَطْرَيْنِ سَوَاءً، وَأَنْ يَكُونَ لِقَبِّهِ الْعَادِي
كَالْفَخْرِيِّ مِثْلًا أَوَّلِ السَّطْرِ الثَّالِثِ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ" ثَلَاثَةَ صُدُورٍ لِمَكَاتِبَةِ تَتَعَلَّقُ بِصَاحِبِهَا فِي زَمَانِهِ، وَهُوَ
«الصَّالِحُ شَمْسُ الدِّينِ صَالِحٌ».

أَحَدُهَا — وَلَا زَالَ مَلِكًا تَأْجُهُ الْمَدَائِحُ، وَمِنْهَا جُهُ النَّائِجُ، وَطَرِيقَتُهُ إِذَا وُصِفَتْ
قِيلَ: هَذِهِ طَرِيقَةُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ. أَصْدَرْنَا هَذَا إِلَيْهِ وَشَكَرْهُا تَسْوِقَهُ إِلَيْهِ حُدَاةُ الرِّكَائِبِ،
وَتَسْوِقُ مِنْهُ إِلَى لِقَاءِ الْحَبَائِبِ؛ وَتُنْتَلَى عَلَى مَكَارِمِهِ الَّتِي كَلَّمَا أَقْلَعَتْ مِنْهَا سَحَابُ
أُعْقِبَتْ بِسَحَابٍ؛ وَتَوْصَّحَ لِلْعَلَمِ الْكَرِيمِ.

الثانى - ولا زالت شمسُه في قُبَّةِ فَلَكِهَا ، وسماءُ ممالكه مملوءةً حَرَسًا شديداً
وُسْهبا بملكها ؛ ونِعْمُهُ نتعب البحارَ إذا وقفت في طريقها ، والغائمَ إذا جازت
في مسلكها . أصدرناها إليه والسلامُ متنوعٌ على كرمه ، متصوِّعٌ بأطيب من أنفاسِ
المِسْكِ في نِعَمه ، متسرِّعٌ إليه تسرُّع مواهبه إلى وفود حرمه . وتوضَّح للعالم الكريم .
الثالث - ولا زالت العُفَاة تلتحفُ بنعائِه ، وتلتجِع مساقِطُ أنوائِه ، وتستضيءُ منه
بأشراق شمس طلعت من المُلْك في سَمَائِه ؛ أصدرناها وشاؤُها يسابقُ عَجَلًا ، ومدائحُها
تُجيد متروياً ومُرْتَجَلًا ؛ وشكرُها لورُصِّع مع الجواهر لأقام عُذرَ الياقوت إذا آكُتسى
خَذَه الحمرَةُ نَجَلًا ، وتوضَّح للعالم الكريم .

قلت : وعلى نمط هذه الصدور يجري الكاتبُ فيما يَكْتُبُه إلى صاحبها مناسباً
لحالِه ولقَبِه بحسَب ما يقتضيه الحال من المناسبات .

وهذه نسخةُ كتاب ، كُتِبَ به إلى الملك "الصالح شرف الدين محمود بن الصالح
صالح" ، جواباً عما ورد به كتابُه : من وفاة والده المنصور أحمد . نقلتها من مجموع
بخط القاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش وهو :

أعزَّ الله تعالى نُصرةَ المقرَّر الكريم ، الى آخر ألقابه - ولا زال الملكُ باقياً في بيته
الكريم ، والفلكُ جارياً بإظهار شرفه العَميم ؛ وأعظمَ له الأجرُ في أكرم ملكٍ أنقل
إلى جنَّات النعيم ، وهنَّاه بما أورثه من ذلك المحلِّ الأسنى الذى هو الأولُ فيه بالتقديم ؛
وضاعفَ لسلطانِه الصالح علو جَدِّه ، بما منحه من مُلكه الموروث عن المنصور أبيه
والصالح جَدِّه ، وبما خصَّه من إقبالنا الشريف وإحساننا المستديم . أصدرناها مُعَرَّبَةً
عن الودِّ الثابت الصِّميم ؛ مهتئةً له بقيامِه بأُمُور مملكته التى تجلَّت بمحمود صفاته

(١) هو على ما يؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح فنسبه إلى جَدِّه .

وَمَنْ سَلَفَ مِنْ أَسْلَافِهِ فِي الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ ، مُبْدِيَةً لِعِلْمِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ مَكَاتِبَهُ الْكَرِيمَةَ ،
وَمُخَاطَبَتَهُ الَّتِي فَضَحَتْ مِنَ الدَّرْجَةِ نَظِيمَةٍ ؛ وَرَدَّتْ عَلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى يَدِ فُلَانٍ
فَأَقْبَلْنَا عَلَيْهَا ، وَأَلْقَيْنَا وَجْهَ الْكَرَامَةِ إِلَيْهَا ؛ وَعَلِمْنَا مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَسْتِمْسَاكِ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
بِأَسْبَابِ الْوِدَادِ ، وَاقْتِنَائِهِ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ؛ وَمَا شَرَحَهُ فِي مَعْنَى 'مَا قَدَّرَهُ
اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَفَاةِ وَالِدِهِ طَابَ ثَرَاهُ ، مَسْتَمِرًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الطَّاعَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ
شَانُهُ شَيْنٌ وَلَا اعْتَرَاهُ ؛ وَأَنَّهُ مَضَى - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ خَلَّفَ مِنْ
خَلْفِهِ ، وَارْتَضَى بِمَا نَالَ مِنَ الرِّضَا عَمَّا قَدَّمَهُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَأَسْلَفَهُ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ :
مِنْ أَنَّهُ إِنْ أَقْتَضَتْ مَرَاتِمُنَا الشَّرِيفَةَ وَآرَاؤُنَا الْعَالِيَةَ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ ، وَيَرْعَى فِي حَقُوقِهِ
وَمَصَالِحِ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ ذِمَامَهُ ؛ فَزُسِمَ بِإِجْرَائِهِ عَلَى السُّنَّةِ الْمَعْتَادَةِ ، مِنْ إِحْسَانِ بَيْتِنَا
الشَّرِيفِ الَّذِي بَدَأَ بِهِ وَأَعَادَهُ ؛ وَإِلَّا فَتَبَرُّزُ الْأَوَامِرِ الشَّرِيفَةِ بِمَنْ يُسَيِّدُ اخْتِلَافَهَا ،
وَيُسَيِّدُ أَحْوَالَهَا ، وَيُسَيِّدُ مَبَانِيهَا وَيُصْلِحُ أَعْمَالَهَا ؛ لِيَقْصِدَ الْمَقَامَ الشَّرِيفَ بِأَبْوَابِنَا
الشَّرِيفَةِ سَالِكًا سَبِيلَ الطَّاعَةِ الْمُتَمِينِ ، مُنْتَظِمًا فِي سِلْكِ أَوْلِيَانَا الْمُقَرَّرِينَ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا حَمَلَهُ لِأَسْتَادِ دَارِهِ مِنْ مَشَافَهَتِهِ ، وَجَمِيلِ مَقَاصِدِهِ وَوَافِرِ مَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ ؛ وَقَدْ
أَحْطَيْنَا عُلَمَاءُ بِذَلِكَ وَسَمِعْنَا الْمَشَافَهَةَ الْمَذْكُورَةَ ، وَشَكَرْنَا مَحَبَّتَهُ الْمَأْثُورَةَ ؛ وَإِخْلَاصَهُ
فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَمِيلِ الْمَوَالَاةِ الَّتِي تَمْنَحُهُ تَكْرِيمَهُ وَتَشْرِيفَهُ ؛ وَأَسْتِمْسَاكَ
بُسْنَةِ آبَائِهِ الْكَرَامِ ، وَاجْتِهَادَهُ فِي الْمُنَاصَحَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي لَا تُسَامَى مِنْ مِثْلِهِ وَلَا تُسَامَ ؛
وَنَحْنُ نُعْرِفُ الْمُقَرَّرَ الْكَرِيمَ أَنَّ مَحَلَّهُ وَمَحَلَّ بَيْتِهِ الْكَرِيمِ لَمْ يَزَلْ لَدَيْنَا رَفِيعًا مِقْدَارُهُ ، عَالِيًا
مَنَارُهُ ؛ وَأَنْ مَكَاتِبَهُ مِنْ خَوَاطِرِنَا الشَّرِيفَةِ مَتَمَكَّنَتْهُ ، وَمُنْزِلَتُهُ قَدْ صَحَّتْ أَحَادِيثُهَا
الْمَعْنَنَةُ ؛ وَهُوَ الْأَحَقُّ بِمَحَلِّ مُلْكِهِ ، وَالْأَوَّلَى بِأَنْ يَكُونَ مِنْ نِظَامِ عُقُودِ مُلُوكِهِ وَاسْطَةِ
سِلْكِهِ ؛ وَقَدْ أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الْعَالِيَةَ أَنْ يَقُومَ مَقَامَ وَالِدِهِ الْمَرْحُومِ ، وَيَحُلَّ مَحَلَّ هَذِهِ
الْسلْطَنَةِ لِيَعْلَوْ قَدْرُهُ بِأَقْبَالِنَا الشَّرِيفِ عَلَى زُهْرِ النُّجُومِ ، وَلِيَجْلِسَ بِمَكَانِهِ ، وَلِيَتَسَيَّطُ

المعدلة لتكون حلية زمانه ، وليستنصر على أعدائنا وأعدائه بأنصار الملك وأعوانه ؛
وليستقر على ما هو عليه من المحافظة على الوداد ، وليستمسك بعرى الإخلاص المبرر
من شوائب الانتقاد ؛ وليقتف في ذلك سبيل سلفه الكريم ، وليواصل بمكاتبته
وأخباره على سننهم القويم ؛ وقد أعدنا إستاناد داره بهذا الجواب الشريف إليه .

وَأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أن من يكتب إليه عن الأبواب السلطانية
من أتباع صاحب ماردین نائبه ، وذكر أنه كان اسمه في زمنه «بهادر» . وأن رسم
المكاتبه إليه الاسم والسامى بغيرياء ؛ وكذلك نائب الصالحية من عمل ماردین ؛
وأن رسم المكاتبه إليه الاسم و «مجلس الأمير» . فليجبر الكاتب على سنن ذلك إن
احتجج إلى مكاتبتهما .

صاحب حصن كيفا — وهى مدينة من ديار بكر من بلاد الجزيرة ، بين دجلة
والفرات . وقد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن
صاحبها من بقايا الملوك الأيوبية ، ومن تنظر إليه ملوك مصر بعين الإجلال : لمكان
ولائهم القديم لهم ، واستمرار الوداد الآن بينهم .

ورسم المكاتبه إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «أدام الله نعمة المجلس العالى ،
الملكى ، الفلانى» باللقب الملوكى «العالمى» ، العادلى ، المجاهدى ، المؤيدى ،
المرابطى ، المناغرى ، الأوحدى ، الأصلى ، الفلانى» باللقب المتعارف «عز
الإسلام والمسلمين ، بقية الملوك والسلاطين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش
الموحدين ، شرف الدول ، ذخر الممالك ، خليل أمير المؤمنين» . وربما قيل :
«عضد أمير المؤمنين» إذا صغر .

وذكر فى "التثقيف" ما يخالف فى بعض ذلك ، فقال : إن مكاتبته : «أدام
الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المرابطى ،

المثاغريّ، الأوحديّ، الفلانيّ» باللقب الملوكي واللقب المتعارف . «عزّ الإسلام والمسلمين، زعيم جيوش الموحّدين . دُخِرَ الملة ، سليل الملوك والسلاطين ، عضدّ أمير المؤمنين» . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالي . والعلامة» أخوه» وتعريفه «صاحب حصن كيفا» . قال : والكتابة إليه في قطع العادة . وقد ذكر في «التعريف» صدور المكتبة .

صدر : وأستعاده من الدهر من عهود سلفه ماتسلف ؛ وحازله من موارث الملك أكثر مما خلى له أوله وما خلف ، وحطّ للرجال في حصن كيفا به على ملك : أما المستجير به فيتحصن وأما فضله فلا يكف ؛ وأعان السحاب الذي كلّ عن مجاراته ويجرى هو ولا يتكلف . أصدرت هذه المكتبة إليه ونوعها يصوب ، ولأؤها تشقّ به الظلماء الجيوب ، وشاؤها على حسن بلائه في طاعة ربه يقول له : صبرا صبرا كما تعودتم يا آل أيوب .

صدر آخر : وشده بقبّة البيت ، وحيا طلله البالي وأحارشمه الميت ؛ وذكر به من زمان سلفه القديم ما لا يعرف فيه هيت ، وأبقى منه ملكا من بني أيوب لا يثني وعده اللئى ولا يقال فيه لبت ؛ ونور الملك بغرته لا بما قرع السمع عن الشّمع وورد المصابيح من الزيت ، وحفظ منه جوادا لو عينه أخوه السحاب على السبق ، لقال له : هيات كم خلقت مثلك خلفي وخليت . أصدرت هذه المكتبة إليه ، أعزّ الله جانبه والتحيات موشحة بنطقها ، مصبحة لسجايه الكريمة بحلقها ، ساجدة إليه ذيل خيلائها : لأنها إذا آختالت به تختال ، وبسببه على السرور تختال . ملوك كيلان — قال في «التعريف» : وهم جماعة كلّ منهم مستقل بنفسه ، منفرد بملكه ، على ضيق بلادهم وقرب مجاورة بعضهم من بعض . وقد

(١) كذا بالأصل ، وفي التعريف «عنه» والاولى عاتبه أنظر كتب اللغة .

تقدم الكلام على بلادهم في المسالك والممالك . قال في " التعريف " : ورسُلهم قليلة ، وكتبهم أقل من القليل .

ورسم المكتبة إلى كل منهم على ما ذكره في " التعريف " نحو ما يكتب إلى صاحب حصن كيفا . يعنى يكتب لكل منهم : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الملكى الفلانى » إلى آخر ما تقدم هناك . قال في " التعريف " : إلا صاحب يومن فإنه يكتب له بـ « الجنب » . وهو مثلهم في بقية الألقاب . قال في " التثقيف " : ولم أر لهم مكتبة ، ولا كتب لهم في مدة مباشرتى بديوان الإنشاء الشريف شىء ، غير أنى رأيت بخط المولى القاضى المرحوم زين الدين خضر ، أنه كتب أمثلة شريفة إلى جماعة ، منهم « حرم الدين » . بيومن ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهاب الدين أن مكتبته أعلى مكاتبتهم ، وأنه يكتب إليه « الجنب » . قال : وما يبعد أن الجماعة الذين كتب إليهم على ما ذكر القاضى زين الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كيلان . ثم عدد من كتب إليه منهم فقال : وهم نوباد شاه ، وسالوك ولده ، فى قطع العادة .

ورسم المكتبة إليهما : « خلد الله تعالى سعادة الجنابين الكريمين ، العالين ، الكبيرين ، العاديين ، المجاهدين ، المرابطين ، الملكيين : الشرفى والسيفى » . والدعاء . والعلامة « أخوهما » . والعنوان سطران . وتعريفهما : نوباد شاه وسالوك ولده صاحباً كوحسفا (٩) .

ناصر الدين بهلوان ، وشرف الدين شرف الدولة صاحباً لاهجان مثل ذلك سواء .

فلك الدين صاحب دشت كذلك .

حُسام الدين صاحب يَوْمٍ كذلك . ثم قال نقلا عن ابن الزَيْنِي خِصْر أيضا :
وقيل إنَّ حُسام الدين هذا كان صاحب يَوْمٍ ، وصاحبها الآن أخوه على ما ذكره
محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكيلاني حين كَتَب إليهم .

قلت : وهؤلاء هم ملوك كِلَان ، وهذه مدُنهم على ما تقدم في المسالك والممالك .
والعَجَب كيف وقع الشُّك في ذلك من صاحب "التثقيف" حتَّى قال : وما يبعد .
وأما التسوية في الآخرين صاحب يَوْمٍ وغيره ، فيجوز أن قدره انحطَّ بعد زمن
صاحب "التعريف" أو جهل الكاتب الثاني مقداره .

صاحب هرَّاة - وهي مدينة من نُرَاسَانَ . قال في "التعريف" : ولا يجرى على
الألسن الآن إلا صاحب هرَّي . قال : وكان ملكها الملك غياث الدين . ولم أسمع
أعجمياً يقول إلا قياس الدين . وكان ملكا جليلا نبيلًا مفتحًا معظما ، له مكانة عند
الملوك الهولاء كوهية ، ومنزلة رفيعة عليه . وكان بينه وبين التَّوِين جوبان مودة أكيدة
وصداقة عظيمة ؛ فلما دارت به دوائر الزمان وأفضت به الحال إلى الهرَب ، لحا
إلى صاحب هرَّي هذا ، على أنه يُسهِّل له الوصول إلى صاحب الهند ؛ أو إلى ملك
ما وراء النهر ، فأجابه وأنزله ، وبسط أمله ؛ وأسرَّ له الخِدايع حتَّى أطمأنَّ إليه ،
فأصعده إلى قلعته ليضيفه ، فصعد معه ابنه جلوقان ، وهو ابنه من خوند بنت
السلطان خدابندا ؛ وجلوقان هذا هو الذي أجيب إلى تزويجه ببنت السلطان الملك
الناصر ، وعلى هذا تمتَّ قواعد الصُّلح . وبني جوبان أمره على أنه بعد التزويج
ياخذ له ملك بيت هولاء كوشية أنه ابن بنت خدابندا ؛ وأنه لم يبق بعد أبي سعيد
من يرث الملك سواه . ثم يستضيف له ملك مصر والشام بسببه أن بنت صاحب
مصر هي التي ترث الملك من أبيها ؛ فحالت المنايا دون الأمانى .

وحال صُعودِ جُوبانِ وابنه جُلوقانِ القلعة أمسكهما غياثُ الدينِ وخنقَهما لِيَتَّخِذَ وجهها بذلك عند أبي سعيد ، وبعثَ بذلك إلى أبي سعيد ، فشكرَ له إمساكَهما ، وانكر عليه التعجيلَ في قتلَهما ، فاعتذرَ بأنِّي لو لم أَقْتُلْهُمَا لم آمِنَ أَسْتَعْدَادَ مَنْ معهما لمحاصرتي ؛ فقبلَ عُذْرَهُ ، وطلبَ منه إيهامَ جُوبانَ ليعْرِفَ أنه قد قتلَهُ ، وكان فيه زيادةُ سِلْعَةٍ ظاهرة يُعْرِفُ بها ، بفَهْزِهِ إليه فأكرمَ رُسُلَهُ وبعثَ إليه بِالخِلْعِ ، وأمرَ بِإِصْبَعِ جُوبانِ فطيفَ بها في الممالك . ثم سألتُ بغدادَ خاتُونُ بنتُ جُوبانِ : امرأةُ أبي سعيد ، وكان شديدَ الكَلَفِ بها ، في نقلِ أجسادِهما فُنِقِلَتْ ، فَعَقِدَتْ لَهَا المَاتَمَ ، ثم أَمَرْتُ بِمَحْلَمِهما إلى مَكَّةِ المَعْظَمَةِ ، ثم إلى المَدِينَةِ المَشْرِفَةِ لِيُدْفَنَا في التربةِ الجُوبَانِيَّةِ الَّتِي كان جُوبانُ أَعَدَّهَا لَدَفْنِهِ في حالِ حَيَاتِهِ ؛ فمُكِّنْتُ من ذلك إلا من الدَفْنِ فإِنَّهُمَا دُفِنَا بِالْبَقِيعِ . ثم حَضَرَ غِيَاثُ الدِّينِ حَضْرَةَ أَبِي سَعِيدٍ ، فَأَكْرَمَ وَأَعْطَى العَطَايَا السَّنِيَّةَ ؛ ثم لم يَلَيْتُ أَنْ ماتَ وولَّى أَبْنَهُ . قال : ولم يكن صاحبُ هذه المملِكةِ ممن يَكْتَابُ عن السلطانِ حَتَّى كَانَتْ واقِعَةُ جُوبانِ فُكِّتْ بِإِلَيْهِ .

ورسم المَكاتِبَةُ إِلَيْهِ على ما ذَكَرَهُ في "التعريف" : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نَصْرَ الْمُقَرَّرِ الكَرِيمِ ، العَالِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المَجَاهِدِي ، الْمُؤَيَّدِي ، المَرِاطِي ، الْمُتَأَغَّرِي ، الأَوْحَدِي ، المَلِكِ الفَلَانِي ، شَرَفِ المُلُوكِ والسُّلاطِينِ ، خَلِيلِ أميرِ المُؤْمِنِينَ» . قال في "التثقيف" : ولم أَطْلِعْ على ما يَكْتُبُ إِلَيْهِ سِوَى ما ذَكَرَهُ القاضِي شهابُ الدِّينِ بعد واقِعَةِ جُوبانِ . قال : والذي يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ لم يَكْتَابْ بعد ذلك هو ولا مَنْ قامَ مَقَامَهُ : لأنَّهُ لم تَكُنْ لَهُ مَكاتِبَةٌ مشهُورَةٌ مُتداوِلَةٌ بَيْنَ الموالِي الجَماعَةِ ، ولا كُتِبَ إِلَيْهِ في مَدَّةٍ مِباشِرَتِي شَيْءٌ . على أَنَّ القاضِي شهابَ الدِّينِ لم يَذْكُرْ تعريفَهُ

(١) أَى أَصْبَعِهِ الإِبْهَامِ .

الحكام بهذه المملكة

(مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَكَاتِبِهِ مِنَ الْحُكَّامِ بِالْجَزِيرَةِ الْقُرَاتِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ)

الحاكم بِشِمَشَاطَ — وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنّها بلدة من ديار مُضَرِّينَ آمِدَ وَخَرَّتَ رِثَ . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة الأسم . وتعريفه «الحاكم بِشِمَشَاطَ» .

الحاكم بِمَيَّافَرِقِينَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها قاعدة ديارِ بَكْرَ . قال : في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بغير ياء . والعلامة الأسم . وتعريفه «الحاكم بِمَيَّافَرِقِينَ» .

الحاكم بِحِيزَانَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها مدينة من ديارِ بَكْرَ . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة الأسم . وتعريفه «الحاكم بِحِيزَانَ» وهو معدود في "التثقيف" في جملة الأكراد .

الحاكم بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها مدينةٌ صغيرةٌ على دِجْلَةٍ من غربيها . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة له الأسم . وتعريفه «الحاكم بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ» . وذكره في "التثقيف" في جملة الأكراد، وقال : كان بها عزُّ الدين أحمد اليخشى . وذكر أن رسم المكتبة إليه الأسم و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» . وأستقر بعد وفاته ولده عيسى ، وورد كتابه في صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ وَسَبْعَائَةٍ ، أخبر فيه بوفاته والده وأستقراره مكانه . على أنه قد ذُكِرَ معبراً عنه بصاحب الجزيرة، وسماه بكلمش . وذكر أن المكتبة إليه الأسم و«السامى» بغير ياء .

الحاكم بِسِنْجَارَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها مدينةٌ من ديارِ رُبَيْعَةٍ . قال في "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخُو الحاكم بها مرسومٌ شريفٌ بأن يكون

نائباً بها حسب سؤاله في سنة ثلاث وستين وسبعمائة . قال : وكانت المكتبةُ إليه
أولاً الأسم و « مجلس الأمير » وكتب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتلّ أعفر — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قلعةٌ بين سنجار
والموصل . قال في « التثقيف » : ورسم المكتبة إليه « السامى » بالياء . والعلامة له
الأسم وتعريفه « الحاكم بتلّ أعفر » .

الحاكم بالموصل — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قاعدة بلاد الجزيرة كلّها
في القديم حيث كانت بيد الحرّامقة . قال في « التثقيف » : والمكتبةُ إليه في قطع
العادة الأسم ، و « صدرت » و « السامى » . وتعريفه « الحاكم بالموصل » . ورأيت
في بعض الدساتير أن العلامة استقرّت له « والده » عند استقراره نائب السلطنة بها .

الحاكم بالحديثة — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها بلدة على الفرات . قال
في « التثقيف » : ورسم المكتبة إليه الأسم و « السامى » بالياء . وتعريفه « الحاكم
بالحديثة » . وهى غير حديثة الموصل . وهى بلدة شرق دجلة تعدّ في بلاد العراق .

الحاكم بعانة — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها بلدة صغيرة على جزيرة
في وسط الفرات . قال في « التثقيف » : ورسم المكتبة إليه الأسم و « السامى »
بالياء . وتعريفه « الحاكم بعانة » . ورأيت في بعض الدساتير أن المكتبة إليه
« السامى » بغير ياء .

الحاكم بتكريت ^(١) — وفي « التثقيف » صاحب تكريت . وقد تقدّم في المسالك
والممالك أنها مدينة من آخر مدّن الجزيرة بين دجلة والفرات . قال في « التثقيف » :
ورسم المكتبة إليه مثل الحاكم بالموصل ، فتكون في قطع العادة . والعلامة الأسم .
وتعريفه « الحاكم بتكريت » .

(١) في معجم ياقوت بفتح التاء والعامّة يكسرونها .

الحاكم بقلعة كُشَاف — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها في الجنوب عن الموصّل بين الرّاب والشّطّ، وأنه عدّها في "تقويم البُلدان" من بلاد الجزيرة مرّةً، ومن عراق العجم أُخرى. وأنه أوردّها في "التثقيف" بإثبات الألف واللام. قال في "التثقيف": ورسمُ المكتبة إليه مثلُ حاكمي عانة والحديثة، فتكون المكتبة إليه «السامي» بالياء. ورأيتُ في بعض الدساتير أن المكتبة إليه «السامي» بغير ياء. وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف».

الحاكم بإسْعَرْد — وهي سِعْرَتْ. قد تقدّم في المسالك والممالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة. قال في "التثقيف": ورسم المكتبة إليه «مجلس الأمير». وحينئذ فتكون في قطع العادة. والعلامة الأسم. وتعريفه «الحاكم بإسْعَرْد».

صاحب حَاني — ويقال لها حَنَا. وهي مدينةٌ من ديار بكر. وقد ذكر في "التثقيف" أن صاحبها تاج الدين. ورسمُ المكتبة إليه الأسم «والسامي» بغير ياء.

من جرت العادة بالمكتبة إليه

بالجانب المختصّ بنبي جنكرخان من بلاد الروم من مارية وما معها

أرتَنَّا، الذي كان قائماً بهذه البلاد عن بني هولاكو من التتر. ورسم المكتبة إليه في قطع الثلث: «ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالي، الأميريّ، الكبيريّ، العالميّ، العادليّ، المؤيّد، العوّنيّ، الرّعيّ، المهدّيّ، المشيّد، الظّهيريّ، التّوينيّ، الفلانيّ، عزّ الإسلام والمسلمين، سيّد الأُمراء في العالمين، نُصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، كهف الملة، دُخر الدولة، ظهير الملوك والسلطين، سيف أمير المؤمنين». والدعاء والسلام. والعلامة «أخوه».

وذكر في "التثقيف" أنه كتب إلى ولده محمد بعده كذلك في قطع الورق والمكاتبة والعلامة . وأنه كتب إلى علي بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا في العلامة فإنها استقرت له «والده» وكتب تعريفه : «علي بك ابن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحكام ببلاد العراق

الحاكم بهيت — وعبر عنه في "التعريف" بصاحب هيت . وقد تقدم في المسالك والممالك أنها شمالي الفرات من أعمال بغداد . قال في "التثقيف" : ورسم المكاتبه إليه الأسم و «السامي» بالياء ؛ وتعريفه «الحاكم بهيت» .

الحاكم بالقنيطرة — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها بلدة بالقرب من مرسى الحلة . قال في "التثقيف" : والمكاتبه إليه «السامي» بالياء . والعلامة الأسم . وتعريفه «الحاكم بالقنيطرة» . ثم قال : وأحرما استقرت مكاتبته عليه «السامي» بغير ياء . وعبر عنه في موضع آخر «ابراهيم صاحب القنيطرة» . وذكر أن المكاتبه إليه الأسم و «السامي» . وأن تعريفه اسمه خاصة .

من جرت العادة بمكاتبته من الحكام ببلاد الجبل

«وهي عراق العجم»

الحاكم بإربل — وعبر عنه في "التثقيف" بصاحب إربل . قال في "التثقيف" : كان بها الشريف علاء الدين على الدلقندى ؛ ثم استقر بها الشريف يحيى ؛ ثم استقر بها على ولده . قال : والمستقر بها الآن على ماتحزور في سنة ثلاث وسبعين وسبعائة أسد الدين أسد . ورسم المكاتبه إليه الأسم و «السامي» بغير ياء . وتعريفه «الحاكم بإربل» .

صاحب قاشان — وسمّاها في "التثقيف" قَيْشَان. ورسم المكتبة إليه «السامي»
بغير ياء .

صاحب باب الحديد — المعروفة عند الترك بِمَرْقَابُو . وهي باب الأبواب .
قال في "التثقيف" : كان بها كأووس ، وكتب إليه جوابٌ في ثاني عشر ربيع الأول
سنة اثنتين وستين وسبعائة أويس في قَطْع الثُلث ، والدعاء والعالى . وتعريفه
أَسْمُهُ لَا غَيْرُ .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ، ببلاد فَارِسَ

الحاكم شِيرَازَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قاعدة بلاد فارس . قال
في "التثقيف" : والمستقرّ بها على ماتحرّر في سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ، شاه شجاع ،
أخو شاه ولي . وذكر أنه لم يُكْتَب إليه في مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء ،
ولا وقف على مكتبةٍ إليه . ثم قال : غير أنه يمكن أن تكون المكتبةُ إليه نظير
المكتبة إلى الأشرف تمرتاش المستولى على تَبْرِيزَ ، فإنه قال : إنّ شيرازَ قدرُ تَبْرِيزَ
ونظيرها . فعلى هذا يكون رسمُ المكتبةِ إليه في قَطْع الثُلث : «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ
الجناب العالى الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ» وبقية الألقاب والنُّعوت . ويكون فيها «التَّوْنِيّ»
كما في مكتبة المستولى على تَبْرِيزَ .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كَرْمَانَ

صاحب هَرْمُزَ — قد تقدّم في المسالك والممالك أنّ قاعدة كَرْمَانَ القديمة السَّيرجَانُ
وأن هَرْمُزَ فُرْضة كَرْمَانَ ، وأنها خرّ بها التتر عند نُخْرُوجِهِمْ على تلك البلاد بكثرة
الغارات ، وأنقل معظم أهلها إلى جزيرةٍ يُحْيَرَةُ ببحر فارس على القُرب منها تسمّى
وَزَرُونَ . وقد كُتِب إلى صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" : «أبن الظاهر
(٢)

(١) كذا في الاصل ولعله زائد من قلم الناسخ (٢) هي هذا الضبط في الأصل ولم تذكر في المعجم ولا في التقيوم

(١)

برقوق في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة مفاتيح في قطع

من جرت العادة بمكاتبته من بلاد أرمينية وأران وأذربيجان

النائب بخلاط من أرمينية — قد تقدم في المسالك والممالك أنها كانت قاعدة بلاد الكرج . قال في "التثقيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، وأسمه أبو بكر بن أحمد بن أزبك . ثم قال : ورسم المكتبة إليه الأسم و «السامي» بالياء ؛ فيكون في قطع العادة . وتعريفه «النائب بخلاط» .

الحاكم بحصن أرزن — وهي أرزن الروم . قال في "التثقيف" : وهو — على ما أتضح آخر في رمضان سنة ست وسبعين وسبعمائة — علاء الدين علي بن قرأ . وردت مكاتبته أن صاحب حصن كيفا ابن خاله . ورسم المكتبة إليه علي ما في "التثقيف" مثل صاحب حصن كيفا من غير زيادة ولا نقص . على أنه في "التعريف" قد ذكر أن المكتبة إليه «السامي» بالياء . قال في "التثقيف" : والصحيح ما تقدم ، فإنني كتبت إليه بهذه المكتبة مرات ، وهو المتداول بين الموالى الجماعة إلى آخر وقت . وقد تقدم في المسالك والممالك أنها في آخر بلاد الروم من جهة الشرق .

صاحب بدليس — قد ذكر في "التعريف" أنه كان في زمانه الأمير شرف الدين أبو بكر . وقال : إنه يُتهم بمذهب النصيرية . ثم قال : وبلده صغير ، ودخله يسير ، وعمله

ضيق . وهو طريق المازة وقصّاد الأبواب السلطانية إلى الأردن وإذا لم يكن بالعراق وله خدمة مشكوره . وعده في "التثقيف" في جملة الأكراد . قال في "التعريف" :
ورسم المكتبة إليه : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأميري » أسوة
الأمراء . وذكر في "التثقيف" أنه كان بها ضياء الدين أبو الفوارس الروشكي أخو
الغرس بالوب ، وأن المكتبة إليه الأسم و« السامي » بالياء . وتعريفه «صاحب بذليس» .
وأنه استقر بعده ولده الرحاح ، وكتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

صاحب موقان — وهي موغان . وسمّاها في "التثقيف" ميوغان . قال
في "التثقيف" : وكان بها محمد شاه بن أميرشاه ، وكتب إليه مستجداً في سنة سبع
وستين وسبعائة « السامي » بغير ياء .

النائب بحرت برت — وهي حصن زياد . ذكره في "التثقيف" من جملة تركمان
البلاد الشرقية ، وذكر أن أسمه يومئذ باليس ، وأن رسم المكتبة إليه الأسم و« السامي »
بالياء . وتعريفه أسمه ، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلى صاحب خرت برت قبله .
ثم ذكر أنه رأى بخط القاضي شهاب الدين بن الصفدي أنه استقر بها علاء الدين
أبن خالد المليكنشي بعد حسام الدين نربنده ، وأن مكاتبته « السامي » بالياء .

الصنف الثالث

(من يكتب بهذه المملكة العربان ، وهم : عبادة وخفاجة)

وقد تقدّم في الكلام على أنساب العرب أن نسبهما في عامر بن صعصعة من
قيس عيلان . وأجل من يكتب إليه منهم رسمه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي
الأمير » . على أن صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يطلع على مكتبة إليهم .

الصنف الرابع

(من يكتب بهذه المملكة التُّركان)

قال في "التثقيف" : والأكابُرُ في البلاد الشرقية الذين يُكْتَب إليهم من هذه الطائفة مفردا قَلِيلٌ . أما بقيتهم من تُركان الطاعة الشريفة ، فقد يُكْتَب إليهم عند المهمات مُطْلَقَاتٌ شريفة ، ثم ذكر جماعة ممن يكتب إليه على أنفراده ، ولم يعين لأحد منهم بلدا ولا رياسة قوم معروفين . وها أنا أذكرهم على ما ذكرهم : ليقاس عليهم لدى تحقق مقامهم .

منهم - مُراد خَواجَا . ورسم المكاتبَة إليه الأسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه أسمه .

ومنهم - باكيش الكبير ابن أنحى تُوزطوغان . ورسم المكاتبَة إليه الأسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه أسمه .

ومنهم - زَيْنُ الْمَلِكِ تُوزطوغان . ورسم المكاتبَة إليه الأسم و « السامى » بغير ياء . وتعريفه « مُقَدِّمُ التُّركان بالبلاد الشرقية » .

ومنهم - على بن إينال التُّركانى من الطائفة البوزقية . ورسم المكاتبَة إليه الأسم و « السامى » بغير ياء وتعريفه أسمه .

ومنهم - يعقوب بن علي شار . ورسم المكاتبَة إليه الأسم و « السامى » بالياء . وتعريفه أسمه . قال في "التثقيف" : وقد ذكر القاضى ناصر الدين بن النشائى أنه كتب إليه كذلك في سنة إحدى وأربعين وسبعمئة .

ومنهم - سالم الدلكرى ، ورسم المكاتبَة إليه الأسم و « السامى » بالياء ، وتعريفه أسمه .

وأعلم أنه قد تقدّم في الكلام على تُرْجَانِ البلاد الشامية نقلاً عن "التتيف" أن من طوائف التُّرْجَانِ الذين هم تحت الطاعة مَنْ لم يُكْتَبَ إليه بعدُ ؛ بل إذا كَتِبَ في مهمٍّ شريفٍ ، كَتِبَ إلى كلِّ طائفةٍ منهم أو إلى سائر الطوائف مطلقاً شريف . وعدّ منهم طوائف :

الأولى — البوزقية : جماعة آبن دلغادر وابن إينال المقدم ذكره .

الثانية — أولاد رمضان : الأمرية .

الثالثة — الأوشرية : تُرْجَانِ حَلَبَ .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكرى .

الخامسة — الحَرَبَنْدِيَّة : جماعة مصطفى .

السادسة — الأغاجرية .

السابعة — الورسقي : تُرْجَانِ طَرَسُوسَ .

الثامنة — القنقية .

التاسعة — البَابَنْدَرِيَّة : وهم التقيية ^(١) .

العاشرة — البَكْرِيَّة ^(٢) : أولاد طشحون .

الحادية عشرة — البَيَاضِيَّة .

ثم قال : وتمّ جماعٌ كثيرة لا يمكن آستيعابهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شيءٌ بهذه البلاد ، فحكمه ما تقدّم في الكلام

على تُرْجَانِ البلاد الشامية .

(١) في الضوء ص ٣٢٧ وهم من القنقية .

(٢) في الضوء ص ٣٢٧ البلولية وأولاد طشحون .

الصنف الخامس

(ممن يكتب بهذه المملكة الأكراد)

وقد تقدم الكلام على طوائفهم ومنزلهم من بلاد الجبال من عراق العجم .
قال في "التعريف" : وهم خلائق لا يَحْصُونَ ، ولولا أن سيف الفتنة بينهم يَسْتَحْصِدُ قَائِمَهُمْ ، وَيُنَبِّه نَائِمَهُمْ ، لفاضوا على البلاد ، واستضافوا إليهم الطارف والتلاد ؛ ولكنهم رُمُوا بِشَتَاتِ الرَّأْيِ وتفرق الكلمة ، لا يزال بينهم سيفٌ مُسَلُّولٌ ، ودمٌ مُطْلُولٌ ، وعقدٌ نِظَامٍ مَحْلُولٌ ، وطرفٌ باكيةٍ بالدماء مُبْلُولٌ . وهم على ضريين :

الضرب الأول

(المنسوب منهم إلى بلادٍ ومقراتٍ معروفة)

قال في "التعريف" : ولهم رأسان كلُّ منهما رجل جليل ، ولكلُّ منهما عدد غير قليل .
أحدهما — صاحبُ جُولَمَرَك ، من جبال الأكراد من عراق العجم . قال في "التعريف" : وهو الكبير منهما الذي تُتَّفِقُ طوائفُ الأكراد مع اختلافها على تعظيمه ، والإشارة بأنَّه فيهم الملكُ المُطَاع والقائدُ المتَّبِع . وهو صاحبُ مملكةٍ متسعةٍ ومُدُنٍ وقلاعٍ وحُصُونٍ ، وله قبائلٌ وعشائرٌ وأنفار . قال : وهم يُنسَبُونَ إلى عُتْبَةِ أَبْنِ أَبِي سَفْيَانَ بنِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ . ثم قال : وكانت الإمرةُ قد آتته فيهم إلى أسد الدين موسى بنِ مُجَلَّى بنِ موسى بنِ منكَلان . وكان رجلاً كريماً عظيماً تهاباً وهاباً ، تُجِلُّهُ ملوكُ الممالك الجلييلة ، وتعظمه حُكَّامُ الأَرْدُو وصاحبُ مصر . وإشارته مقبولة عند الجميع . وإذا أقتلت طائفتان من الأكراد فتقدَّم إليهما بالكفِّ كفُّوا ، وسمعوا له سمعَ [مُراعٍ لاسمع^(١)] مُطِيع . وذكر أن القائم

فيهم إذ ذاك من بَنِيهِ الْمَلِكُ عِمَادُ الدِّينِ مَجْلَى : وهو رجل يحبُّ أهلَ العلم والفضل ،
وَيُحِلُّ مِنْهُمْ عِنْدَهُ مَنْ أَنَاهُ أَعْظَمَ مَحَلٍّ . وقد مضى القول على ذلك مستوفٍ في الكلام
على الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك ، من المقالة الثانية . قال
في "التعريف" : ورسمُ المكتبة إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی الأميری»
والألقاب التامة الكاملة .

الثاني — صاحب عقرشوش من بلاد الجزيرة . قال في "التعريف" : ومُلُوكُهَا
الآن من أولاد المبارزك . قال : وكان مبارزُ الدين كَكَ هذا رجلاً شجاعاً كريماً
تَغَلَّبَ عَلَيْهِ [غرائب من] الهوس . فَيَدْعِي أَنَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ يَقْبَلُ النَّذُورَ .
وكانت تُنْذِرُهُ النَّذُورُ تَقَرُّباً إِلَيْهِ ؛ فَإِذَا أَنَاهُ النَّذْرُ أَضَافَ إِلَيْهِ مِثْلَهُ [من ماله] وَتَصَدَّقَ^(١)
بِهَا جَمِيعاً . قال : وأهل هذا البيت يدعون عِرَاقَةَ الْأَصْلَ فِي الْإِمْرَةِ وَقَدِمَ السُّودَدُ
وَالْحِشْمَةُ . ويقولون إنهم عُقِدَتْ لَهُمُ أَلْوِيَةُ الْإِمَارَةِ وَتَسَامَوْا أَزِمَّةَ هَذِهِ الْبِلَادِ
وَتَسَمَّوْا صَهَوَاتِ الصَّيَاصِي بِمَنَاشِيرِ الْخُلَفَاءِ ؛ وَأَنَّهُمْ كَانُوا لَهُمْ أَهْلَ وِفَاءٍ . ولهم في هذا
حكايات كثيرة ، وأخبار مأثورة ؛ وهم أهل تنعم ورفاهية ونعمة ظاهرة ، ويزرة
فانحره ؛ وأدري من خرفه ، ورياض مَقُوفِهِ ؛ وخيول مسومه ، وجوارح معلَّمة ؛ وَخَدِيمُ^(٢)
وَعِلْمَانُ ، وَجَوَارِحِ حَسَانٍ ؛ وَمَعَازِفَ وَفِيَّانٍ ، وَسِمَاطَ مَمْدُودٍ وَخَوَانَ . قال : وموقع
بلادهم من أطراف بلادنا قريب ، والمدعو منهم من الرحبة وماجاورها يكاد يُجِيبُ .
ثم قال : ومُلُوكُنَا تَشْكُرُهُمْ إِخْلَاصَ نَصِيحِهِ ، وَصَفَاءَ سِرِّيَةِ صَحِيحِهِ . وذكر أن
القائم فيهم في زمانه شجاعُ الدين آبن الأمير نجم الدين خَضِر بن المبارزك ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) في التعريف زيادة (بما تنفق عليه لا اعتقاداً فيه فيفسر بذلك) .

(٣) في التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة واخوان) .

لم يبلغ مبلغ أبيه ، بل لأيقار به ولا يُدانيه ؛ على أنه قد ملك ملكه ، ونظم سلطه .
وقد تقدم الكلام على ذلك أيضا في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية .
ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" مثل صاحب جُولْمَرْك ، وهي :
«أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الأميرى» . وذكر في "التثقيف" أن المكتبة
كانت إلى خَضِرِ بْنِ الْمُبَارِزِ كُكْ «صدرت» و «العالى» . والعلامة «أخوه» .
وتعريفه «خَضِرِ بْنِ الْمُبَارِزِ كُكْ» . مع عدم تعريجه على ما في "التعريف" جملة .
وقد ذكر في "التثقيف" منهم جماعة سوى مَنْ تقدمَ مَنْ هم منهم بالجزيرة ، كالحاكم
بجزيرة ابن عمر ، والحاكم بجاني ، وصاحب عقرشوش . ولم يذكر بلاد من ذكره
منهم من يأتى ذكره منهم وَمَنْ كان بكل بلد منهم من أكابرهم وحُكَّامهم ؛ ورسم
المكتبة إليهم على ما ذكره ، وهم قسمان :

القسم الأول — من علمت المكتبة إليه ، وهم :

صاحب بَرْخُو — وهو يومئذ أمير حُسَيْنِ بْنِ الْمَلِكِ أَسَد . ورسم المكتبة إليه
الاسم و «السامى» بالياء .

صاحب البَاهِتِيَّة — قال : وكان بها شمس الدين بن البيلىق ، ثم استقر بعده أخوه
أحمد . ورسم المكتبة إليه الاسم و «السامى» بالياء أيضا .

صاحب الدَّرْبَنْدَه — وهو سيف الدين أَصْبَرِ بْنِ أَزْشِيرِ الْحُسَيْنَانِ . ورسم المكتبة
إليه الاسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «أمير أَزْشِيرِ الْحُسَيْنَانِ صاحب الدَّرْبَنْدَه» .

صاحب كَرْمَلِيس — وهو سحِبِ مَسْعُود . ورسم المكتبة إليه الاسم و «السامى»
بغير ياء .

(١) في التعريف ولا أظنه يقاربه الخ .

(٢) لعله وهو المعروف ببخت مسعود .

صاحب العِمَادِيَّة — عِمَادُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى . ورسم المكتبة إليه «السامى» بغير ياء . وتعريفه «صاحب قلعة العِمَادِيَّة» . وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجَوْلَمَرَكِيَّة . قال فى "التتقيف" وكان بها أولادُ الحاجِّ بن عُمرَ، وردت مطالعته كذلك «الحاجِّ بن عمر صاحب العِمَادِيَّة» فى سنة أربعين وسبعائة .

صاحب ماز كرد — حَسَنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ . ورسمُ المكتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب رندشت — بيجال همدان وشهر زور . وهو عبدُ الله بن حُسام الدين رسلان . ورسمُ المكتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب جُردَقِيلَ — بهاء الدين عمر بن إبراهيم الهَكَارِي . ورسمُ المكتبة إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب سكراك — كُرْجَى بك . ورسمُ المكتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب فلس — سلطان شاه . ورسمُ المكتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .^(١)

صاحب شكوش — أمير أحمد . ورسمُ المكتبة إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب جُرموك — «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم الشريف .

(١) كذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعر عليها كما لم نعر على كثير غيرها من هذه الاسماء ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بهرمان — عبد الصمد . ورسمُ المكتبة إليه « مجلسُ الأمير » .
والعلامةُ الأسم .

صاحب حصن أَران — وهو حصن الملك — شجاع الدين خضر بن عيسى
الشهرى . ورسمُ المكتبة إليه « مجلسُ الأمير » والعلامةُ الأسم .

القسمُ الثاني — من ذكره في التثقيف ولم يذكر مكاتبته وقال : إنه وقف عليه
كذلك ، وهم :

صاحب خُفَيَّان — تاجُ الدين أخو بَاشَاك .

صاحب سُوبَج — أمير عيسى بن بَاشَاك .

صاحب أَكْرِيسِنَا — مَلِكُ بن بَاشَاك .

صاحب يَزَاكَرد — بهاء الدين الزَّرْزَارِيّ .

صاحب زَاب — نغز الدين عثمان الزَّابِي .

صاحب الدَّرِسَه ^(١) — شمسُ الدين بن بهاء الدين .

صاحب الدَّرَبَنْدَاتِ القَرَايِلِيَّة — عليّ بن كَرَاقي ، تعريفه « صاحب دَرَبَنْدِ القَرَايِلِيّ » .

صاحب قلعة الجَبَلَيْنِ — حُسامُ الدين بن تاج الدين العَامِلِيّ .

صاحب سِيدَكَان — أمير عليّ بن حسام الدين الزَّرْزَارِيّ .

صاحب هَرُورَ — بهاء الدين حَسَنُ بن عِمَادِ الدين .

صاحب رَمَادَانَ — أمير عبد الله الكُرْكَانِيّ .

صاحب الشَّعْبَانِيَّة — حُسامُ الدين أمير مَرَى السِينِيّ .

(١) كذا في الأصل بغير نقط .

صاحب نمرية — بهاء الدين .

صاحب سياح — سنقر^{مه} .

صاحب المحمدية — الشيخ محمد .

صاحب كركليك — .

الضرب الثاني

(من لم يُصَرِّح له بمكان)

وقد ذكر في "التثقيف" منهم جماعة ممن كان في الزمن المتقدم، وصرَّح بذكر المكتبة إليهم، فذكر منهم أبو بكر بن المبارز كك الاسم و «إلسامى» بغير ياء، وتعريفه اسمه .

مبارز الدين عبد العزيز أخوه مثله .

على وعمر ولدا ابن روى^(١) خليل بن روى^(١) . ورسم المكتبة إلى كل منهما الأسم^(١) و «إلسامى» بغير ياء .

خالد المليكى كذلك .

أولاده : محمود وأحمد «مجلس الأمير» .

بهاء الدين بن الغرس بألو — الأسم و «إلسامى» بغير ياء .

عبد الله الشهري — الأسم و «إلسامى» بغير ياء .

شجاع الدين خضر بن عيسى الشهري أخو عبد الله الشهري — الأسم و «إلسامى» بغير ياء .

(١) كذا بالاهمال ولم نعر عليه بعد البحث .

مبارز بن عيسى بن حسن السلاري - الأسم و « السامي » بغير ياء . قال في « التتقيف » : ومكاتبته مستجدة في العشر الأول من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعائة .

خضر بن محمد الهكاري - الأسم و « السامي » بغير ياء . قال : وهو مستجد المكتبة أيضا في العشر الآخر من صفر سنة تسع وستين وسبعائة .

قلت : فإن اتفق المكتبة إلى أحد من هؤلاء المجهول الكاتب أو غيرهم من الأكراد كتب له على قدر مقداره بالنسبة إلى من علمت المكتبة إليه .

قال في « التعريف » هنا : ومما ينبه عليه أن في طرق المارين ، ومسالك المسافرين ، من بلادنا إلى نراسان ومنها إلينا يظهر في بعض الأحيان أهل فساد يعمدون إلى عميد يقدمونه عليهم فيقطعون السبل ، ويخيفون الطرق ، وتطير سمعة عميدهم ، وتنتشر في قريتهم وبعيدهم ؛ فيكتب ذلك العميد من أبواب الملوك ، ويضطر إليه لفتح الطريق بالسلوك ؛ ويكون من غير بيت الإمرة ، وربما هوى نجهه ، فانقطع بانقطاع عمره اسمه ؛ مثل الجملوك الخارج بطريق نراسان ، والغرس بالو الخارج فيما يقارب بلاد شهر زور ، ومثل الخارجين على دربند القرايل . قال : وهؤلاء وأمثالهم يطلعون طلوع الكآة لأصل ممتد ، ولا فرع مشتد ؛ فهؤلاء لا يعرف لأحد منهم رتبة محفوظة ، ولا قانون في رسم المكتبة معروف ؛ وإنما الشأن فيما يكتب إلى هؤلاء بحسب الإحتياج وقدر ما يعرف لهم من اشتداد الساعد ، وعدد المساعد . قال : ولقد كتبنا إلى كل من الجملوك والغرس بالو ، بالسامى بالياء ، وجّهت إليهما الخلع وأنحفا بالتحف .

الصنف السادس

(من يكتب بمملكة إيران أربابُ الأعلام)

ذكر في "التثقيف" أنه كُتِبَ إلى مجد الدين أخى الوزير غياث الدين: «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى، الصاحبى، الأجلى، الكبيرى، العالمى، الكافى، الماجدى، الزينى، الأميرى، الأوحدى، المعظمى، الذخرى، المجاهدى». قال في "التثقيف": هذا ما وجدته بخط القاضى ناصر الدين بن النشائى؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه. وكُتِبَ إلى علاء الدين صاحب الديوان مثله. والعلامة إليه «أخوه». قال في "التثقيف": هكذا وجدته فى خط ابن النشائى ولم يذكر تعريفه.

الوزير شمس الدين — قال في "التثقيف": نقلت من خط القاضى شهاب الدين ابن الخضر أن مكاتبة فى قطع العادة الأسم و «السامى الأميرى الشريفى الحسينى النسبى». وبقية الألقاب. ولم يُكْتَبَ له «الصاحبى» ولا «الوزيرى». قال: ولم يذكر شيئاً غير هذا. ثم قال: ولا أعلم لمن وُزِّرَ المذكور، ولا من أى بلاد الشرق.

ضياء الدين صاحب الديوان — المكاتبة إليه حسب ما نقله فى "التثقيف" عن خط ابن الخضر أيضاً الأسم و «السامى الأمير الأجل». وذكر أنه كُتِبَ إليه على يد سراج الدين قاضى قيسارية. قال فى "التثقيف": وعلى هذا أن ضياء الدين هذا من أهل المملكة الرومية.

مُعِين الدين صاحب الديوان — مثله.

الصنف السابع

(من يكتب بمملكة إيران أكابر المشايخ والصلحاء)

قد ذكر في "التثقيف" من كُتِبَ من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم لِيُقَاسَ عليهم ، ولئلاَّ يَهْمَلَ شَيْءٌ مما أورده في التثقيف .

الأول — شمس الدين الطوطى . قال في "التثقيف" : وهو فيما أُظُنُّ ممن كان يُكْتَبُ إليه قديما ، ولم يُكْتَبْ إليه بعد ذلك . قال : ورسمُ المكتبة إليه حسب ما نقلته من خط القاضي ناصر الدين بن النَّشَائِي : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى الشَّيْخِي ، الأَجَلِّي ، العالمِي ، العامِلِي ، الكاملِي ، الفاضِلِي ، الزَاهِدِي ، الورَعِي ، العائِدِي ، الخاشِعِي ، النَّاسِكِي ، القُدُوِي ، الأُوْحَدِي ، الفلاني ، مجد الإسلام ، صدر الأنام ، بقيَّة السَّلَف الكرام ، نحر العلماء ، أوحد الكبراء ، زين الزُّهَّاد ، عماد العبَّاد ، قدوة المتورِّعين ، دُخْر الدُّول ، ركن الملوك والسلاطين » . والدعاء « وتصف لعلمه المبارك » . والعلامة الأسم . قال في "التثقيف" : هذا صورة ما وجدته من غير زيادة . ولم يذكر تعريفه ولا محله من البلاد . قال : وقد كُتِبَ في نعوته : « ركن الملوك والسلاطين » . وهو غريبٌ لأنه خلاف ما جرت به العادة .

الثاني — الشيخ غياث الكَجَجِي بَيرِيز . ورسم المكتبة إليه فيما ذكره المشار إليه : « أعاد الله تعالى من بركة المجلس السامى الشَّيْخِي » . وبقية الألقاب « الغيَّاثي » وتكملة النعوت بما يناسب . والعلامة الأسم ، وتعريفه « محمد الكَجَجَانِي » .

الثالث — الشيخ حسن بن عبد القادر الجِيلَانِي . وكان من المناصحين الذين يُكْتَبُ إليهم قديما . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه الأسم و« السامى » بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : « الشيخُ العالمُ العاملُ القدوةُ المرشِدُ فلان الدين » .

قلت : هذا دُھول منه، وإلا فقتضى هذه الألقاب المجردة عن الياء أن تكون الكتابةُ إليه « السامى » بغير ياء .

الصنف الثامن

(ممن يكاتب بمملكة إيران النساء)

وقد ذكر في " التتقيف " المكتبة إلى أربع منهن ^(١) :

الأولى — دلّ شاد زوج الشيخ حسن الكبير . كُتِبَ إليها في قطع العادة : « أدام الله تعالى صونَ أبلهة المحجبة ، المصونة ، العِصمية ، الخاتونية ، المعظمية ، سيدة الخواتين ، زينة نساء العالمين ، جميلة المحجبات ، جليلة المصونات ، قرينة نونِ الملوك والسلطين » . والدعاء ، والعلامة « أخوها » . وتعريفها « الخاتون المعظمة دل شاد » .

الثانية — كامش والدّة بولاد مثلها ، غير أنّ العلامة الأسم ، وتعريفها أسمى المذكور .

الثالثة — زوجة أملكان ابن الشيخ حسن الكبير على ما استقرّ عليه الحال عند ما كتب جوابها على يد رسولها في ذى القعدة سنة أربعين وسبعائة مثل دلشاد ، والعلامة « والدها » . وتعريفها سلطان نختى .

المهيمع الثانى

من المكتبة إلى الملوك

(مملكة تُوران ، وهى مملكة الخاقانية)

قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية نقلاً عن المقرّ الشهابى ابن فضل الله في كتابه " التعريف " أنّ هذه المملكة من نهر بلخ إلى مطلع الشمس

(١) لم يذكر الرابعة في الأصل .

على سَمْتِ الوَسَطِ ؛ فَمَا أَخَذَ عَنْهَا جَنُوبًا كَانَ بِلَادَ السَّنْدِ ، ثُمَّ الْهِنْدُ ؛ وَمَا أَخَذَ عَنْهَا شَمَالًا كَانَ بِلَادَ الْخَفْجَاجِ وَهِيَ طَائِفَةُ الْقَبْجَاقِ ، وَبِلَادَ الصَّقَلْبِ ، وَالْجَهَارِكْسِ ، وَالرُّوسِ ، وَالْمَاجَارِ ، وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ سُكَّانَ الشَّامِ . فَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ مَمَالِكُ كَثِيرَةٍ وَبِلَادٌ وَاسِعَةٌ ، وَأَعْمَالٌ شَاسِعَةٌ ، وَأُمَمٌ مُخْتَلِفَةٌ لَا تَكَادُ تُحْصَى ؛ تَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ غَزْنَةَ ، وَبَالَمِيَانَ ، وَالغُورِ ، وَخُورَزْمَ ، وَدَشْتِ الْقَبْجَاقِ ؛ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ : نَحْوُ بُخَارَا ، وَسَمَرْقَنْدَ ، وَالصُّغْدَ ، وَالخُوجَنْدَ . وَبِلَادِ تُرْكْمَنستانَ ، وَأَشْرُوسَنَةَ ، وَفَرَاغَةَ . وَبِلَادِ صَاغُونِ ، وَطَرَازَ ، وَصَرِيوْمَ . وَبِلَادِ الْخَطَا نَحْوَ بِشَالِقِ وَالْمَالِقِ إِلَى قَرَأْقُومَ ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ وَصِيْنِ الصِّينِ ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ بِيَدِ فَرَأْسِيَابَ ، بَنِ شَنْكَ ، بَنِ رُسْتَمَ ، بَنِ تُرْكَ ، بَنِ كُومَرَ ، أَبْنِ يَافَثَ ، بَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَهُوَ مَلِكُ التُّرْكِ فِي زَمَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عَلَى خِلَافٍ فِي نَسَبِهِ سَبَقَ هُنَاكَ . وَأَنَّهَا الْآنَ بِيَدِ بَنِي جَنْكِرْخَانَ مِنْ وَلَدِ طُوجِي خَانَ أَبْنِ جَنْكِرْخَانَ .

ثُمَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ بِيَدِ ثَلَاثَةِ مُلُوكٍ عِظَامٍ مِنْ بَنِي جَنْكِرْخَانَ .

الْأَوَّلُ — صَاحِبُ خُورَزْمَ وَدَشْتِ الْقَبْجَاقِ . وَتُعْرَفُ فِي الْقَدِيمِ بِمَمْلَكَةِ صَاحِبِ السَّرِيرِ ، ثُمَّ عُرِفَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْجَنْكِرْخَانِيَّةِ بِبَيْتِ بَرَكَةَ ، نَسَبُهُ إِلَى بَرَكَةَ أَبْنِ طُوجِي خَانَ بَنِ جَنْكِرْخَانَ . وَقَاعِدَتُهَا مَدِينَةُ السَّرَايِ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى نَهْرِ إِيْتَلِ ، بَنَاهَا بَرَكَةُ بْنُ طُوجِي خَانَ الْمَقْدَّمُ ذَكَرَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفًى فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ .

ثُمَّ فِيهَا جَمَلَتَانِ :

(١) هِيَ مَدِينَةُ الصَّرَايِ بِالصَّادِ الْمَهْمَلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي ج ٤ ص ٤٥٧ .

المجملة الأولى

(في رسم المكاتبة إلى قائمها القائم بها)

قال في "التعريف": وكان صاحبها في الأيام الناصرية، (يعني محمد بن قلاوون) «أزبك خان». وقد خطب إليه السلطان فزوجه بنتا تقرباً إليه. قال: وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتحاد، وصديق وداود؛ من أول أيام الظاهر بيبرس وإلى آخر وقت. ثم قال: والمملك الآن فيهم [في أولاد أزبك]: إمامتي بك، وإماماني بك، وأظنّها في تني بك. وقد تقدّم أن الملك بعد أزبك كان جاني بك لا تني بك، على خلاف ماظنه في التعريف.

ورسم المكاتبة إلى قائمها الجامع لحدودها قال في "التعريف": والأغلب أن يكتب إليه بالمغلى. وذلك مما كان يتولاه ايتمش الحمدي، وطايربغا الناصري، وإرغدلق الترمجان. ثم صار يتولاه قوصون الساق. ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن القاضي علاء الدين بن فضل الله أنه كتب له مسودة على أن يكتب له بالعربي ثم بطل وكتب بالمغلى. قال: فإن كتب له بالعربي، فرسم المكاتبة إليه ما يكتب إلى صاحب إيران.

وقد تقدّم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب في قطع البغدادى الكامل، يتبدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة المكتبة بالذهب المزمك - باللقاب سلطاننا على عادة الطغراوات؛ ثم تكمل الخطبة، ويفتح بعبدية إلى أن تساق الألقاب، وهي: «الحضرة الشريفة، العالية، السلطانية، الأعظمية، الشاهنشاهية، الأوحدية، الأخوية، القانية. ولا يخلط فيها «الملكية» هوانها عليهم. ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية: من إعزاز السلطان، ونصر الأعوان، وخلود

الأيام، ورفع الأعلام، وتأييد الجنود، وتكثير البنود، وما يجري هذا المجرى .
ثم يؤتى بذكر دوام الوداد والشوق؛ ثم يذكر القصد؛ ثم يختم بدعاء جليل وتستعرض
المراسيم ويوصف التطلّع إليها والتهاؤف عليها .

قال في "التثقيف": وكان يُكتب إلى أربك في الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون»
في ورق عَرَض البغدادى الكامل . وبعد البسملة الشريفة سطران هكذا :

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِنِ الْمَلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

ثم ينحلى موضع بيت العلامة؛ ثم تكتب الألقاب السلطانية، وهى : «السلطان
الأعظم» وبقية الألقاب الشريفة على العادة حسب ما يأتى ذكره . ثم بعد الحمدلة
وخطبة مختصرة جداً : «فقد صدرت هذه [المكتبة] إلى الحضرة الشريفة العالية،
حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشفيق، العالم، العادل، القان الأعظم، الأوحِد،
شاهنشاہ، الملك، أربك إل خاف؛ سلطان الإسلام والمسلمين، أوحِد الملوك
والسلطين، عمدة الملوك، سلطان المغل والقباچ والتُرك، جمال ملوك الزمان، ركن
بيت جنكرخان، معز طعاج، صاحب التخت والتاج، عضد المتقين، دُخر المؤمنين .
والدعاء بما يناسبه . «فإننا نخضه بالسلام وأستعلام أخباره ونُفاوض علمه الشريف» .
قال : والكتابة بالذهب والأسود حسب ما تقدم فى المكتبة إلى أبى سعيد ، وكذا
العنوان . ثم قال : ولم يكتب أحد بعده بنظير ذلك . وكان قد ورد على الأبواب
الشريفة فى سنة ست وخمسين وسبعائة كتاب جانى بك ابن أربك ، وكتب إليه
الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده ، وهو فى ورق دُون البغدادى
بثلاث أصابع مطبوعة ، والافتتاح بخطبة مناسبة مكتوبة بالذهب جميعها ، ثم أما بعد

بالأسود خلا ما تقدم ذكره في مكتبة أبي سعيد. والعنوان بالذهب. والذي كُتب إليه من الألقاب: «الحضرة الشريفة، العالیه، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلية، الأكليّة، القانية، الأخوية، العزيزية، الملكية، الشريفة زيدت عظمتها» . قال: ولما كان في العشر الآخر من ربيع الأول سنة ست وسبعين وسبعائة، رسم لي بالكتابة إلى القان محمد بيلاد أربك، وهو القائم مقام أربك على ما قيل، على يد رُسل الأبواب الشريفة، بالسلام والمودة وأستعلام الأخبار ونحو ذلك فكتبْتُ إليه في عَرْض البغداي الكامل حسب ما رُسم به، بخطبة مختصرة بالذهب، والبقية بالأسود والذهب على ما تقدم ذكره في مكتبة القان أبي سعيد. وكُتب له من الألقاب بعد المراجعة: «المقام العالی، السلطاني، الكبير، المَلَكِي، الأَكْرَمِي، الأَعْدَلِي، الشمسِي، شمس الدنيا والدين، مؤيد الغزاة والمجاهدين، قاتل الكفرة والمشركين، ولي أمير المؤمنين خُلدت سلطنته» . والعنوان بالذهب بغير تعريف. وعلم له في بيت العلامة الشريفة بالمغرة العراقية «المُشتاق شعبان» . وهذه نسخة ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة .

الحمد لله الذي وهبنا مُلكاً دانت له ملوكُ الأفطار، وأزدانت الأسيرة والتيجان بما له من عظمة وفخار؛ وأذعنت العظاء لعزة سلطانه الذي شمل الأولياء وقصم الأعداء ببره الجابر وقهره الجبار؛ وقاد الجيوش إلى أن فتح الله على يديه الشريقتين معاقِل الكُفَّار، بأمره الجارى على الرقاب وعسكره الحرَّار؛ ومنحه خدمة الحرمين الشريفين اللذين لم يزل لهما منه الانتصابُ وبهما له الإِنتصار. نحمده على أن جعل مملكتنا الشريفة هى محلّ الإمامة العباسية فلا بُحُود ولا إنكار، ومرتبنا المنيفة بما عهد به إلينا أمير المؤمنين إلى قيام الساعة عليّة المقدار؛ ونشكره على أن أورشنا مُلك أسلافنا الشّهداء فاقروا العيون وسروا الاسرار، وجعل السلطنة المعظمة في بيتنا المكرم تنتقل

تَثَقُلُ الْبُدُورُ فِي بُرُوجِهَا إِلَّا أَنهَا آمَنَةٌ مِنَ السَّرَارِ . ونشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم نزل قَائِمِينَ بُصْرَتِهَا ، قَانَتِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي كَلِمَتِهَا . لُنَعَدَّ بِذَلِكَ مِنَ الْأَبْرَارِ ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المؤيَّدُ بِمَلَائِكَتِهِ ، الْخُصُوصُ بِنَبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ، الَّذِي عَظَّمَ اللَّهُ قَدْرَهُ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ كَمَا جَاءَتِ النُّصُوصُ وَالْأَخْبَارُ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَوَّلَى الْفَضْلِ الدَّائِمِ ، صَلَاةً دَائِمَةً بَاقِيَةً بِدَوَامِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَسَلَامًا .

أما بعد ، فَإِنَّ قُلُوبَ الْأَوْلِيَاءِ وَإِنْ تَنَاءَتِ الْأَجْسَامُ مُتَعَارِفَةً بِالْإِتِّلَافِ ، مُتَقَارِبَةً عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ حَيْثُ لَا تَنَازَرُ بَيْنَهَا وَلَا اخْتِلَافٌ ، لَا سِيَّمَا مَلُوكُ الْإِسْلَامِ ، الَّذِينَ هُمْ مُتَّحِدُونَ بِالْمُصَافَاةِ وَالْإِسْتِسْلَامِ ؛ فَإِنْ سَرَّاهُمْ لَمْ تَزَلْ مُتَدَانِيَةً ، وَضَمَّائِهِمْ مُتَكَافِيَةً ؛ هَذَا وَالْحُبَّةُ لِبَيْتِهِ الْكَرِيمِ قَدِيمَةٍ ، وَالْمُودَّةُ بَيْنَ الْأَسْلَافِ لَمْ تَزَلْ مُسْتَدِيمَةٍ ؛ فَلَمْ نَكُنْ وَرَثَتَنَا ذَلِكَ عَنْ كَلَالِهِ ، بَلْ تَعْنَا فِيهِ سَبِيلَ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى أَحْسَنِ حَالِهِ : لِمَا هُوَ مُحْكَمٌ مِنْ عَقُودِ الْإِتِّحَادِ وَالْوَلَاءِ ، حَيْثُ الْحُبَّةُ فِي الْآبَاءِ صَلَوةٌ فِي الْأَبْنَاءِ ، وَكَانَ لَنَا مَدَّةٌ مَدِيدَةٌ وَقَدْ تَأَخَّرَتْ رُسُلُنَا عَنْ حَضْرَتِهِ وَلَمْ تَصْدُرْ مِنْ جَهَنَّا الشَّرِيفَةِ ، كَذَلِكَ وَلَا وَرَدَتْ رِسْلٌ مِنْ جَهَنَّةٍ ؛ وَلَمْ يَشْغَلْنَا عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَوَاقِعَةُ الْفَرَنْجِ الْمُخْذُولِينَ أَعْدَاءَ الدِّينِ ، وَمُقَارَعَتُهُمْ فِي سَائِرِ السَّوَاوِلِ بِشِدَّةِ الْبَاسِ وَالتَّمَكُّينِ ؛ إِلَى أَنْ أَمَكَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَصِيَاصِيهِمْ بُصْرًا مِنْ عِنْدِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَالآنَ قَدْ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِيِّ السُّلْطَانِيِّ - وَبَقِيَّةُ الْأَلْقَابِ وَالنُّعُوتِ إِلَى آخِرِهَا حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ - تُخَصُّ مَقَامَهُ بِسَلَامٍ أَرْقَى مِنَ النَّسِيمِ ، وَالْأَطْفِ مِنْ أَجَا مِنْ التَّسْنِيمِ ؛ وَثَنَاءٍ قَدْ أَزْرَى نَشْرُهُ بِالْعَبِيرِ ، وَسَرَى بَشْرُهُ فَغَدَتْ تَهْلِيلُ بِهِ الْأَسَارِيرِ . وَتُبْدَى لَعْلَمِ الْمَقَامِ الْعَالِيِّ زَيْدَتْ مَعْدِلَتُهُ أَنَّهُ لِمَا يَبْلُغُنَا مِنْ عَدْلِ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَإِنْصَافِهِ لِلرَّعَايَا وَتَأْمِينِ سُبُلِ الْجَوْرِ الْمُخِيفَةِ ؛ وَسُلُوكِهِ سَنَنِ الْإِحْسَانِ ،

وتأكد عقود المحبة على عادة من سلف في سالف الزمان ؛ قصصنا مفاتيحه بهذه المكتبة ، و اردنا بدآته بهذه المخاطبة ؛ ليعلم ما نحن عليه من صحیح الوداد ، وأكيد الاتحاد ؛ وجميل الاعتقاد ، وحسن الموالاة الخالصة من شوائب الانتقاد ؛ وجهنا بها رُسُلنا فلان وفلان ومن معهما نستدعي وده ، ونستدني ولآءه الذي أحكم عقده ؛ لتأكد المصافاة بين هاتين الدولتين ، والمخالصة من كلتا الجهتين ، والموالاة بين المملكتين ؛ ويأمر المقام العالی لازال عالیا بتردد التجار من تلكم الديار ، والمواصله بالأخبار على حسب الاختيار ؛ ومتابعة الرُسل والقُصَاد ، على أبجل وجه معتاد .

وقد وجهنا إلى المقام العالی أعلى الله شأنه حجة رُسُلنا المذكورين من الأقضية السكندرية وغيرها على سبيل الهدية ، والمواهب السنية ؛ ماتضمنته الورقة المجهزة طيها ؛ فليأمر المقام العالی دامت معدلته بتسليم ذلك ، ويتيقن وفور المحبة من سلطاننا المالك ؛ وتأكد أسباب المودة على أبجل المسالك ، والله تعالى يجمل بقاء سلطانته ملك الممالك ؛ ويديم عدله المبسوط على الأولياء ويرمي ببأسه الأعداء في مهاوى المهالك ، ويخلد ملكه الذي تفتخر بالملك من مقامه العالی السُرر والأرائك ؛ بمنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن صاحب " التثقيف " قد ذكر أن المكتوب إليه بهذه المكتبة هو القائم مقام أربك ، وأن اسمه محمد ، وأن المكتبة إليه كانت في سنة ست وسبعين وسبعائة . وقد تقدم ذكر من ولي هذه المملكة بعد أربك ولم يكن فيهم من اسمه محمد . وقد كان القائم بهذه المملكة في سنة ست وسبعين المذكورة اسمه " أرض " وهو الذي آتزع المملكة من أيك خان المقدم ذكره ؛ وأصله من خوارزم على ما مر ذكره في الكلام على المسالك والممالك ، فيحتمل أن يكون اسمه محمد وأرض لقب

عليه ، كما كان خَدَابَنْدَا والدُ أَبِي سعيد من ملوك إيران ، آسَمُهُ محمد ، ولقبه خَدَابَنْدَا .
والأمر في ذلك راجع إلى النقل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : وقد كُتِبَ في الدولة الناصرية ”فرج“ بن الظاهر برقوق ، للقان القائم بها في سنة أَلْتَيْ عَشْرَةٍ وَثَمَانِيَةِ فِي قَطْعِ الْبَغْدَادِيّ الْكَامِلِ مِنَ الْوَرَقِ الْمِصْرِيِّ الْمَعْمُولِ عَلَى هَيْئَةِ الْبَغْدَادِيّ ، أَبْتَدِئُ فِيهِ بَعْدَ خَمْسَةِ أَوصَالٍ بَيَاضٍ بِالْبَسْمَلَةِ فِي أَعْلَى الْوَصْلِ السَّادِسِ ، بَيَاضٍ مِنْ جَانِبَيْهَا عَرْضُ إصْبَعَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَالسُّطْرُ الثَّانِي عَلَى سَمْتِهِ فِي آخِرِ الْوَصْلِ ، يَخْلُو بَيَاضٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ بِقَدْرِ السُّطْرِ الْأَوَّلِ ، وَالطُّغْرَاءُ بَيْنَهُمَا بِالْقَابِ سُلْطَانَنَا عَلَى الْعَادَةِ ، مَكْتُوبَةٌ بِالذَّهَبِ بِالْقَلَمِ الْحَقِيقِ مَزْمَكٌ بِالسَّوَادِ ، بِأَعْلَى الطُّغْرَاءِ قَدْرُ عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَصَابِعٍ بَيَاضًا ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنْ أَسْفَلِهَا ، وَبَاقِي السُّطُورِ بِهَامِشٍ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ عَلَى الْعَادَةِ ، وَبَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ قَدْرُ نِصْفِ ذِرَاعٍ بِذِرَاعِ الْقِمَاشِ الْقَاهِرِيِّ ، وَالْأَسْمَاءُ الْمَعْظَمَةُ : مِنْ أَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَسْمِ سُلْطَانِنَا وَالسُّلْطَانِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، وَالضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالذَّهَبِ الْمَزْمَكِ كَمَا تَقْدُمُ تَقْرِيرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبَةِ صَاحِبِ إِيْرَانِ فِي الْقَدِيمِ .

وهذه نسخة مما أنشأته ، كَتَبْتُ بِإِشَارَةِ الْمَقَرِّ الْعَالِي الْفَتْحِيِّ : صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ وَهِيَ :

الحمد لله مؤيِّد سُلْطَانِنَا «الناصر» بِعَزِيزِ نَصْرِهِ ، وَرَافِعِ قَدْرِ مَقَامِنَا الشَّرِيفِ بِإِعْلَاءِ مَنَارِهِ وَإِعْظَامِ ذِكْرِهِ ، وَمُسَيِّدِ أَرْكَانِ مُلْكِنَا الشَّامِخِ بِإِسْعَادِ جَدِّهِ الْعَالِي وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . نَحْمَدُهُ عَلَى مَا جَنَّبَ مِنْ مَوَاقِعِ الْحَرَجِ ، وَجَعَلَ أُمُورَ رَعَايَانَا بِمَعْدِلَتِنَا الشَّرِيفَةِ بَعْدَ الضِّيقِ إِلَى فَرَجٍ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَتَوَارَثُهَا عِظَمَاءُ الْمُلُوكِ كَايَرًا عَنْ كَايَرٍ ، وَيَتَنَاقَلُهَا مِنْهُمْ الْخَلَفُ بَعْدَ السَّلَفِ فَيُسَيِّدُهَا النَّاصِرُ عَنْ

الظاهر ، ونشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضلُ نبيٍّ جمعُ بعموم دعوته مفترقِ الأمم ، ووفق بحجيفيِّ ملته بين أقيال العرب وأساورة العجم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آخى بينهم فسنَّ المؤاخاة ، ونقَّ من نغل الضغائن صدورهم ففازوا بأكل المصافاة وأتمَّ الموافاة ؛ صلاةً تسيِّر بفضلها الركائب ، وتزكِّم بذكرها الحداة فغمَّ نفعاتها المشارق والمغارب ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإنَّ الأرواح إذا تمازجت تاجت بالضمائر ، والقلوب إذا تآلفت اغتلت بشواهد الحال عن إبراز مافي السرائر ؛ والأجساد إذا تباعدت تعللت بالمكاتبات في بلوغ الأوطار ، والديار إذا تناعت آكتفت بالمراسلة عن تقارب الدار ؛ والمودة إذا صفت لا يؤثر فيها العباد ، والمحبة إذا صدقت لا تزال كلَّ يوم في ازدياد ؛ (والأذن تعشق قبل العين أحياناً) ، والوصف يُحرك من الشوق أغصاناً وأفناناً .

هذا وإنَّ أحقَّ ما اتخذته الملوك ذريعةً لدواعي الإبتهاج ، وأهمَّ ما اهتمَّ به مُتخِّت بتخت أو متوجَّج بتاج ؛ إحياء مذاهب الملوك السالفة في الوداد ، واقتفاء آثارهم الجميلة في موارد المكاتبات على التناهي والبعاد ؛ ومن ثمَّ صدرت هذه المكتبة إلى المقام العالي ، السلطاني ، الكبيرى ، الأخوى ، الفلاني ؛ ركن الملة الإسلامية ، عماد المملكة الجنكرخانية ؛ ذخيرة الدين ، خليل أمير المؤمنين - زيدت عظمته ، ودامت معدلته - تحضه بسلام تهب به الجنوب فتؤثر به في الشمال القبول ، وتحض به إلى السراي سراًها ليكون لها بيت بركة أشرف قدم وأكرم وُصول ؛ وتمدُّ على خوارزم والدشت فضل رواقه المديد ؛ وتنشر على مملكة السريرواؤه فيعم ما بين جيحون وطرنا ويشمل ما بين الخطأ والباب الحديد . وتناجى علمه الشريف بأنه غير خافٍ عن شريف مقامه

(١) لعله طناً . أو طرلو .

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر كما تقدم ضبطه كذلك في ج ٤ ص ٤٨٣ .

أَنْ مَنْ سَلَفَ مِنْ مُلُوكِ مَمْلَكَتِنَا الْعَالِيَةِ الذَّرَى، وَالْمَمْلَكَةِ الْقَانِيَةِ الْمَرْفُوعَةِ الذَّكَرَ رَفَعَ نَارَ
الْقِرَى؛ لَمْ تَزَلْ مُلُوكُهُمْ مَجْتَمِعَةً مَعَ تَتَائِي الدِّيَارِ، مُؤْتَلِفَةً عَلَى الْحُبَّةِ وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارُ؛
مَحَافِظِينَ عَلَى تَتَابُعِ الرُّسُلِ وَإِنْ حَالَ دُونَهُمُ الصِّفَاحُ، مَثَارِينَ عَلَى تَوَارِدِ الْكُتُبِ
وَلَوْ عَلَى أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ وَمُتُونِ الرِّيَّاحِ؛ وَقَدْ مَضَتْ مَدَّةٌ مَدِيدَةٌ لَمْ يَقْدَمْ عَلَيْنَا مِنْ
الْمَقَامِ الشَّرِيفِ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - رَسُولٌ يُطْفِئُ لَوَاجِحَ الْإِشْتِيَاقِ، وَلَا وَرَدَ عَنْهُ
كِتَابٌ يَتَعَلَّلُ الْحُبُّ بِتَلْقِيهِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّلَاقِ؛ بَلْ سُدَّ بَابُ الْمَكَاتِبَةِ حَتَّى كَأَنَّ الْمَكَاتِبَةَ
لَمْ تُخْلَقْ، وَأُغْلِقَ بَابُ الْمَرَاةِلَةِ وَإِنْ كَانَ بَابُ الْحُبَّةِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - لَمْ يُغْلَقْ؛ فَطَمَحَ
بِخَاطِرِنَا الشَّرِيفِ طَامِحُ الشَّوْقِ الْمُتَرَاوِدِ، وَحَمَلْنَا مَوْصُولَ الْحُبَّةِ الْمُسْتَعْنَى بِمَوَاصِلِهِ عَنْ
الصَّلَةِ وَالْعَائِدِ؛ أَنْ تُفَاتِحَ الْمَقَامَ الْعَالِيَّ دَامَتْ مَعِدَلَتُهُ بِهَذِهِ الْمُقَاوِضَةِ: لِنُجَدِّدَ مِنْ
الْعُهُودِ الْقَدِيمَةِ رُسُومَهَا، وَتُطْلِعَ مِنْ مَشَارِقِ الْمَخَاطَبَةِ نُجُومَهَا؛ وَتَنْسَخَ آيَةَ الْمِجْرَانِ
وَتَمْحُوهَا، وَتَصْقِلَ مِرْآةَ الْمُصَافَاةِ وَتَجْلُوَهَا؛ وَتَسْجَلِبَ الْأَنْسَ وَإِنْ صَحَّ الْمِثْقَالُ،
وَتَذَكَّرَ الْخَوَاطِرَ الْوِدَادَ وَإِنْ ثَبَّتَ مِنْهُ الْأَصُولُ وَرَسَخَتِ الْأَعْرَاقُ؛ وَتَتَوَبَّعَ عَنْ
نَظَرِنَا الشَّرِيفِ فِي مُشَاهَدَةِ مَحْيَاهِ الْكَرِيمِ، وَمُصَاحَفَةِ كَفِّهِ الَّتِي حَدِيثٌ وَدَّهَا قَدِيمٌ؛
وَتَسْتَطْلِعَ أَخْبَارَهُ، وَتَسْتَعْرِضَ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ أَوَطَارَهُ.

وَقَدْ آخَرْنَا لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهَا، وَأَدَاءِ أَمَانَتِهَا؛ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ الْمُقَرَّبَ الْأَمِينِ خَوَاجَا
فُلَانٍ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَحَمَلْنَاهُ مِنَ السَّلَامِ مَا يَهْتَدِي بِضَمْنِهِ السَّارَى، وَيُفُوقُ بَعْرَهُ
الْعَنْبَرَ الشَّحْرَى وَالْمِسْكَ الدَّارِي: لِيُحْكَمَ بِحُسْنِ السَّفَارَةِ مِنَ الْخَالِصَةِ مَبَانِيهَا،
وَيَقْدَرَ مِنْهَا بِمَتَابَعَةِ الرُّسُلِ وَالْقَصَادِ أَوَاحِيهَا؛ وَجَهَّزْنَا صَحْبَتَهُ كَذَا وَكَذَا عَلَى سَبِيلِ
الْهَدِيَّةِ الْمُنْدُوبِ بِذَلِّهَا وَقُبُولِهَا، وَالْحَاكِمِ بِصِحَّةِ عَقْدِ الْحُبَّةِ كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يَزِيدُ فِي آرْتِفَاعِ قُدْرَةِ الْخَطِيرِ، وَيُحَوِّطُ بِهِ مَنْ مَلَكَهُ الْجَنْكَرْخَانِي مَا يُحَقِّقُ أَنَّهُ
صَاحِبُ التَّاجِ وَالسَّرِيرِ.

الجملة الثالثة

(في رسم المكاتبة إلى مَنْ أَنْطَوَتْ عَلَيْهِ هذه المملكةُ من الأتباع والحُكَّامِ،
وهم على^(١) أصناف)

الصِّنفُ الأول

(كُفَّالُ المملكة)

قد تقدّم أن ترتيب هذه المملكة في أمراء الألّوس والوزير نحو مملكة إيران،
وإن لم يكن لأمير الألّوس والوزير بهذه المملكة من نفاذ الأمر نظير ما هنالك .
ومقتضى ذلك أن يكونا منخطّين في الرتبة عن أمراء الألّوس بإيران والوزير بها،
وهذه الرسوم التي وقعت في مكاتباتهم على ما أورده في "التثقيف" .

وأمرّاء الألّوس أربعة، أكبرهم يسمّى بكلارى بك بمعنى أمير الأمراء كما تقدّم
في مملكة إيران . فقد ذكر في "التثقيف" أنه كان منهم في سنة اثنتين وثمانين
وسبعائة قتلوبغا إيناق ، وأنه كتب إليه في عاشر جمادى الآخرة منها ما صورته :
«ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى،
المؤيدى، العونى، الرعى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الثوى، السيفى،
عز الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نصرّة الغزاة والمجاهدين، زعيم
الجيوش، مقدّم العساكر، كهف الملّه، دُحر الدوله، ظهير الملوك والسلاطين،
سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والعلامة «أخوه» وتعريفه «قتلوبغا إيناق نائب
القان جانى بك» .

(١) بياض في الأصل ومع ذلك لم يذكر الا صنفين .

ثم ذكر أنَّ الأمر كان عند القان محمد بمثابة الأمير يلغا العمرى ، يعنى الخاصكى
بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وأنه استحدثت المكتبةُ إليه في سنة ثلاثٍ
وسبعين وسبعائة ، وأنه كتب إليه في قطع الثلث ما صورته :

«أدام الله تعالى نعمة الجناح العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ،
المؤيدى ، الذخرى ، النصيرى ، الهامى ، المقدمى ، التوثيقى ، السفى ، عز الإسلام
والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصر الغزاة والمجاهدين ، مقدم العساكر ،
ذخر الدولة ، عضد الملوك والسلطين ، حسام أمير المؤمنين » . والدعاء المناسب .
والعلامة «والده» . وتعريفه «مماى» . وفى هذا نظر : لأنه إذا كان بمثابة ما كان
عليه يلغا بالديار المصرية ، فقتضاه أن يكون أكبر أمرائه . وإذا كان كذلك ،
فكيف يكتب إليه دون أمراء الألوُس ؟ فقد تقدم أنه يكتب إليهم : « ضاعف
الله تعالى نعمة الجناح العالى » .

الوزير بهذه المملكة . قد ذكر فى "التتيف" أن الوزير بها كان اسمه
محمودا ، ولقبه حسام الدين ، وكان يعرف بمحمود الديوان . وذكر أن رسم المكتبة
إليه فى قطع الثلث ما صورته :

«أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الذخرى ، الأوحدى ،
الاكملى ، المتصرفى ، العوفى ، الوزيرى ، الحسامى ، مجد الإسلام والمسلمين ،
شرف الأمراء والوزراء فى العالمين ، جمال المتصرفين ، أوحد الأولياء المقربين ، ذخر
الدولة ، مشير الملوك والسلطين . ثم الدعاء ، والعلامة «والده» . وتعريفه «خوآجا
محمود وزير المملكة القانية» .

قلت : وقد علمت أَنَّ المكتبة إلى أمراء الألوُس والوزير بهذه المملكة دُونَ المكتبة إلى أمراء الألوُس والوزير بمملكة إيران ، فقد تقدّم أن المكتبة إلى بكلارى بك أكبر أمراء الألوُس بمملكة إيران : «أَعَزَّ اللهُ تعالى نَصْرَ الْمُقَرَّرِ الكريم» . وإلى الثلاثة الذين دُونَهُ : «أدام الله تعالى نَصْرَ الجَنَابِ الكريم» ، ثم استقرَّ «أعزَّ اللهُ تعالى أنصارَ الجَنَابِ الكريم» . وأن المكتبة إلى الوزير : «ضَاعَفَ اللهُ تعالى نِعْمَةَ المَجْلِسِ العَالِي» . والمعنى في ذلك ما تقدّم من أنه ليس لِأُمراءِ الألوُس والوزير بهذه المملكة من التصرف بالأُمراءِ الألوُس والوزير من التصرف بتلك المملكة .

فَجاءَ على بك هذه المملكة . قال في «التثقيف» : وهو من أَسْتَحْدِثِ المكتبة إليه في سنة خمس وستين وسبعائة .

ورسم المكتبة إليه فيما ذكره في «التثقيف» الأسم و «السامى» بالياء وتعريفه اسمه .

الصف الثاني

(الحكام بالبلاد بهذه المملكة)

وها أنا أذكر من ذكر المكتبة إليه منهم في «التثقيف» .

الحاكم بالقرم : وهو إقليم شمالي بحر نييطش . وقاعدته مدينة صلغات ، وهي مدينة على نصف يوم من البحر ، وقد غلب عليها اسم القرم . وقد ذكر في «التثقيف» أن الحاكم بها في سنة خمسين وسبعائة كان اسمه زين الدين رمضان ؛ ثم استقر بعده على بك ابن عيسى بن تلكتمر . وقد رأيت في بعض التواريخ أن الحاكم بها في حدود سنة ست وسبعين وسبعائة كان ماماي المقدم ذكره . وقد ذكر

في "التثقيف" أن رسم المكتبة إلى الحاكم بها في قطع العادة، والعلامة «أخوه» و«صدرت» و«العالى». والذي رأيته في دُستور يُعزى في الأصل للقرّ العَلَّائى بن فضل الله أنه يكتبُ إليه في قطع الثُلث وأن المكتبة إليه «السامى» بالياء . وتعريفه «الحاكم بالقرم» .

الحاكم بأوزاق : وهى مدينة على بحر مانيطش المقدم ذكره في الكلام على المسالك والممالك . وهو المعروف الآن ببحر الأزق، وهى عن القرم في جهة الجنوب والشرق، وبينهما نحو خمس عشرة مرحلة . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة إلى الحاكم بها مثل الحاكم بالقرم على السواء . والذي رأيته في الدستور المقدم ذكره أنه في قطع الثُلث «السامى» بالياء كما في الحاكم بالقرم .

الثانى

(من ملوك توران من بنى جنكزخان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدة ملكه في القديم بخارا ، والآن سمرقند . ومن مضافاتها غزنة وما والاها من متاخم الهند . وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المسالك والممالك . وقد ذكر في "التعريف" أن أحرما استقرت لترماشيرين، وكان حسن الإسلام عادل السيرة، طاهر الذيل، مؤثرا للخير، محبا لأهله، مكروما لمن يرد عليه من العلماء والصالحاء، وطوائف الفقهاء والفقراء .

قال : وكتب إليه على رسم المكتبة إلى صاحب إيران . وقد تقدم في الكلام على المكتبة إلى صاحب إيران نقلا عن "التعريف" أنه يكتب إليه في قطع

البُغْدَادِيّ الكامل ، يبتدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة الغراء المكتوبة بالذهب المزَّمَك باللقاب سلطاننا على عادة الطُّغَرَاوَات ؛ ثم تكمل الخطبة ويُفتح ببعدية الى أن تُساق الألقابُ ، وهي : «الحضرةُ العالِيَّة ، السلطانيَّة ، الأعظميَّة ، الشاهنشاهيَّة ، الأوحديَّة ، الأخويَّة ، القانيَّة ، الفلانيَّة » . ولا يخط بها «الملكيَّة» لهوانها عليهم ؛ ثم يدعى له بالأدعية المفخمة الملوكة : من إعزاز السُّلطان ، ونَصْر الأَعْوَان ، وِخْلُود الأيام ، ونَشْر الأعلام ، وتأييد الجُنُود ، وتكثير البُنُود ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى . ثم يُقال ما فيه التصريح والتلويح بدوام الوداد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصف الأشواق ، وكثرة الأتواق ، وما هو من هذه النسبة ؛ ثم يُوقى على المقاصد ، ويختتم بدعاء جليل وتستعرض المراسيم والخدم ، ويوصف التطلُّع إليها ، ويظهر التهافُ عليها ؛ وأنه تكتب جميع خطبة الكتاب وطُغَرَاهُ بالذهب المزَّمَك ، وكذلك كلُّ ما وقع في أثناءه من أسم جليل ، وكل ذي شأنٍ نبيل : من أسم لله تعالى أولئبه صلى الله عليه وسلم ، أو ذكر الإسلام ، أو ذكر سلطاننا أو السلطان المكتوب إليه ، أو ما هو متعلِّق بهما ، مثل لنا ولكم ، وكنا بنا وكنا بكم ، جميع ذلك يكتب بالذهب وما سواه بالسَّوَاد . وأن العُنوان يكون بالألقاب إلى أن ينتهي إلى اللقب الخاص ؛ ثم يدعى له بدعوة أو اثنتين نحو أعزَّ الله تعالى سلطانها ، وأعلى شأنها ؛ ونحو ذلك . ثم يسمَّى أسم السلطان المكتوب إليه ؛ ثم «يقال» خان : مثل أن يقال : ترماشيرين خان ، ويَطْمَعُ بالذهب طمغات عليها ألقابُ سلطاننا تكونُ على الأوصال ، يبدأ بالطمغة على اليمين في أوَّل وصل ، وعلى اليسار في ثاني وصل ، ثم على هذا النمط إلى أن ينتهي في الآخر إلى اليمين ؛ ولا يُطْمَع على الطرة البيضاء . والكتاب يخلى لمواضع الطمغة مواضع الكتابة تارة يمتة ، وتارة يسرة ، إلى غير ذلك مما سبق القول عليه .

قلت : وآخر ما استقرت هذه المملكة لثُمَّرَلِكْ ، وُثِرَ اسمُه الذي هو عَلمُ عليه ، ومعناه بالتركية حديد . وَلَنِكَ لَقَبٌ عليه ، ومعناه بالفارسية أَعْرَج : لأنه كان به عَرَجٌ ظاهر ، ولذلك تسميه التُّرك ثُمَّرَ أَقْصَق ، إذ أَقْصَقُ عندهم بمعنى أَعْرَج . وهو يتسمى في كُتُبِهِ تَمُورْ كُورْ كان . ومن هذه المملكة أنسابُ عليّ بلاد إيران حتى استولى على جميعها ، وسار إلى بلاد الهند فاستولى عليها ، ثم طاح إلى الشام في سنة ست وثمانمائة وعاثَ فسادًا ، وَخَرَّبَ وأفسد ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » فرَجَ ابنُ الظاهر برقوق صاحب مصر والشام على دِمَشْقَ ، وجرت بينهما مراسلةٌ ، ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ما أوجب عَوْدَهُ إلى مصر لأمرٍ عَرَضَ له من جهة بعض أمرائه ، وبقي ثُمَّرَلِكْ نازلًا بالشام محاصرًا لدِمَشْقَ ، إلى أن خَدَعَ أهلها وفتحها صُلْحًا ، ثم غَدَرَ بهم ونهبها وسبى حريمها ، ثم حَرَّقَهَا بعد ذلك بعد أن أسرف في القتل وأثخن في الجراح ، وأمعن في الأسر .

وللكتابة اليه حالتان :

الحالة الأولى — حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج — عزَّ نصره — بالشام محاربًا له ، وكُتِبَ حينئذ تَرَدُّ في القطع الصغير على ماسيأتى ذكره ، وكان يكتب إليه حينئذ في قطع^(١)

(١) بيض المؤلف لبقية الكلام ، وأستدرك بعضهم له بقية وأثبتها في النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا "مما فات المؤلف" .

مما فات المؤلف رحمه الله تعالى

ما كُتِبَ عن مولانا الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق، تغمّده الله تعالى برحمته
ورضوانه، في جواب الأمير تمرلنك المدعو تيمور، عن الكتب الواردة منه قبل
ذلك - من إنشاء المرحوم المقرّ البدري محمد، ابن المرحوم المقرّ العلائي على
ابن المرحوم المقرّ المحيوي يحيى، بن فضل الله العمري العدوي القرشي رحمهم الله
تعالى - في سنة ست وتسعين وسبعمائة، عند سفر مولانا السلطان المشار إليه إلى حلب
المحروسة الملتقى المذكور، في قطع الثلث بغير علامة؛ وسعة ما بين السطور قدر عرض
الإصبعين. والطرزة وصلان، طولها نحو الذراع الهاشمي، وكان عنوان كتاب تمرلنك
الذي ورد آخرًا وهو الذي اقتضى الحركة الشريفة والجواب المشار إليه :

سلام وإهداء السلام من البعد * دليل على حسن المودة والعهد

فكتب العنوان الشريف :

طويل حياة المرء كالיום في العد * فخيرته أن لا يزيد عن الحد!

فلا بد من نقص لكل زيادة * لأن شديداً البطش يقتض للعبد!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليّ الشان، العظيم السلطان، العَمِيم الإحسان، العليم بما كان وما يكون
في كل زمانٍ ومكان؛ تاهت في ميادين فلوات معرفته سوابق جياذ الأفهام، وتدكدكت
هنية جلّاله جبال العقول والأوهام؛ وصلى الله على سيدنا محمد جيب الرحمن، وسيد
الأكوان، وصاحب المعجزات والبرهان، المبعوث إلى الخلق أجمعين من الإنس
والجنات؛ والمنعوت بالفضل العَمِيم، والخلق العظيم، في التوراة والإنجيل والزبور

والفرقان ؛ وعلى آله وصحبه الغرِّ الكرام الحسان ؛ وعلى التابعين لهم بإحسان ؛ وسلم تسليماً كثيراً ما تعاقب الحدّثان .

وبعد ، فقد وصل إلى أبوابنا الشريفة العالية كلّ ما جهّزته أولاً وآخرها يا أمير تيمور من كتاب ، وأحاطت علومنا الشريفة بما فيها من كلام وخطاب ؛ وقصّدي وعتاب ، وإرعاد وإرغاب وإرغاب .

فأما ما ذكرته في أول كتّيبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم ، والتبجيل والتفخيم ؛ فقد علمناه وعرفناه ، ولكن وجدنا الكلمتين اللتين في الطمغات آخر الكتب وهما راسّتي رِسْتِي منافيتين لذلك التعظيم ، وهذا غير مستقيم ؛ لأنه متناقض غير متناسب ، فعجبنا من هذا التناقض الواضح ، والتخالف الفاضح ؛ وفي المثل السائر : « أصلح وقابل وأفسد وقابل » .

وأما إرسالك السيف والتركاش لنا ، فقد تعجبنا منه إلى الغاية ، وأنكرناه إلى النّهاية : لأنك لم ترل في كتّيبك كلّها تستشهد بتاريخ جنكرخان وأخباره وأحواله ، وتقتدى به في أقواله وأفعاله ؛ وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكرخان ، ولا ممن تقدّمه وتأخّره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان ؛ أنّه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً ؛ ما اختلف في ذلك آثنان . فإرسالها منك إلينا هل هو من باب المحبة أولاً ، وإن كان تخويفاً ، فنحن ما نخاف من سيفك وتركاشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السيف والرمح والنشاب قد علمت * منّا الحروب فسألها فهي تُنيكا !

إذا التقينا تجد هذا مُشاهدة * في الحرب ، فأنبت فأمر الله آتيكا !

بخدمه الحرمين الله شرفنا * فضلاً وملّكنا الأمصار تمليكاً !

وبالجميل وحلوا النصر عودنا، * خذ التواريخ وأقرأها تليكا!

والأنبياء لنا الركن الشديد فكم * بجاههم من عدو راح مفلوكا!

ومن يكن ربه الفتاح ناصره، * ممن يخاف؟ وهذا القول يكفيكا!

وقد أجنبناك عن السيف والتركاش فيما مضى قبل هذا الوقت وتقدم ، فاعرف ذلك وأعلم .

وأما ما ذكرته من قولك : إنك فتحت معنا باب المحبة والوداد ، والصحبة والاتحاد ، لا باب المخاصمة والمشاررة والعناد ، فقد علمنا ذلك وفهمناه . والذي نعرفك به أن الذي وقع منك بخلاف ماقلت : لأنك لو كنت صادقا في قولك ، كنت لما حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلامي اللذان هما من بعض ممالكنا ومن جملة رعايانا أمسكتهما وجهزتهما إلينا بعد أن قيدتهما ؛ فما فعلت ذلك بل عملت بالضد منه لأنك آويتهما ، وحميتهما وعظمتهما وأكرمتهما ؛ وجعلتهما من خواصك وأحبائك ، وأولائك وأصحابك . وأيضا توجه إليك صولة بن حيار الذي هو قطعة هجان من هجاننا فأكرمته ، وألبسته التاج وعظمته ؛ وبعثت معه خلعة إلى نعيم المذكور وإلى غيره من عربانه ، ووعدته بالتقدمة والإماره ، بالتصريح العظيم لا بالتلويح والإشارة ؛ وكتبت إليه كتابا ما تركت فيه ولا خليت ، وأظهرت كل ما كان عندك وما أبقيت ؛ فجهزه إلينا وقري على مسامعنا الشريفة كلمة كلمه ، وعرفنا واضح معناه ومبهمه ؛ وها نحن نشرحه لك لتعلم وتتحقق أنه وصل إلينا ، وأطلعنا عليه وما خفي أمره علينا . وهذا نصه :

(١) هذا الضبط من الأصل ورسم فيه تحتها حاء صغيرة إشارة إلى الإهمال ولكن الذي سبق في الأجزاء المتقدمة جبار بالجم والباء تبعاً للأصل والضوء والتعريف فحرف .

دام دولته

الأمير الكبير، المعظم أمير نَيْر، أدام [الله] دولته شمساً. نُعرض لعلو علومه المحروسة أنه قد اتصل بنا طَرْدُكَ عن الشام، ومعاملتهم معك غير الواجب. حال وقوفك على هذا المثال تُسرّع في الوصول إلينا بحيث نُعطيك ما أُعطِيَ المرحوم عمك أمير سليمان طاب ثراه، ونجعلك مقدّم العساكر المنصورة؛ وبهذا برز الحكم المطاع من الحضرة العالية؛ ففي عزم العساكر والجيوش المعظمة الوصول إلى أطراف البلاد شرقاً وغرباً ورومياً من سائر النواحي والأمصار، والبلاد والأقطار؛ وإن أبطأ ركابك عن الوصول، فنحن واصلون إليكم في طريقنا إلى مِصر وغيره، ولا يبقى لطاعتك مزية ولا منّة، فيكون ذلك على الخاطر المبارك. فينبغي أن لا يكون جواب الكتاب، إلا قدوم الركاب؛ ففيه لكم الفوائد العظيمة، والعطايا الجسيمة؛ ومع [ذلك] إصابته الرأي منكم، تُغنى عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عُرض من المهام يقضى حسب المراد، ومنهج السداد؛ والله الموفق.

وبحاشية الكتاب المذكور ما نصّه:

وقد كتبنا إلى السلطان أحمد أن يصل إلينا، فانظر كيف كان عاقبة أمره؟ فينبغي أن نتوجه أو يتوجه بعض أولادك إلينا لأجل مصالحك كافة.

فيا أمير تيمور لو كنت صادقاً، وكلامك بالحق ناطقاً، ما وقع منك مثل هذا ولا صدر، ولا اتفق بل ولا ببالك خطر؛ ولكن كل ما يكون في خاطر الإنسان يظهر من الكلام الذي يخرج من فيه، وكل وعاء ما يوضح إلا بما فيه.

يافاعلاً بالضد من قوله * فعل الفتي دال على باطنه،

والمرء يجزئ بأعماله * إذا ظهرت ما كان في كامنه!

وأما طلبك منا السلطان أحمد الحلايري غير مرة، فقد علمناه. ولكن عرفنا يا أمير
 تيمورأيش عمل بك؟ حتى خلقت له عدة مرار بأيمان الله تعالى العظيمة وأعطيته
 العهود والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلى مملكته ولا توافيه ولا تشوش عليه،
 حتى أطمأن بأيمانك، وركن إليك، وأحسن ظنه فيك، ووثق بك، واعتمد عليك
 ثقتَه وغدرتَه، وأتيته بغتة على حين غفلة وبدرته، وأخذت مملكته وبلاده،
 وأمواله وأولاده. وأعظم من ذلك أنك أخذت أيضا حريمه وهن في عقد نكاحه
 وعصمته وأعطيتهن لغيره، وقد نطق الكتاب والسنة بتحريم ذلك وعظم ذنب فاعله
 وقبيح جرمه، ففي أي مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين، وإعطاؤهن
 لغير أزواجهن من المفسدين الظالمين؟ وهن في عصمة أزواجهن وعقد نكاحهن
 إن هذا لهُو البلاء المبين، وكيف تدعى أنك مسلم وتفعل هذه الفعل؟ عرفنا
 في أي مذهب لك هذا حلال؟ فأعمالك هذه كلها منافية لدعواك، بل منافية
 لدين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله تعالى:
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
 وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وقد بين لنا الخير والشر،
 والحلال والحرام وأهلها فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
 وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
 وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
 إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمِنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَادُّونَ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ

حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ“ . وقال عليه السلام : ”الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ
وَلِسَانِهِ“ . ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تستحل هذه المحرمات العظيمة ،
والمُنْكَرَاتِ القبيحة الشنيعة الجسيمة ، التى يهتر لها العرش ويغضب الله عز وجل
لها ورسله والملائكة والناس أجمعون ؟ وما كفى ما فعلت مع القان أحمد المشار
إليه حتى تطلبه منا ؟ . اعلم أنّ القان أحمد المشار إليه قد استجار بنا وقصدنا ، وصار
ضيفنا ، وقد ورد : مَنْ قَصَدَنَا وَجَبَ حَقُّهُ عَلَيْنَا . وقال تعالى لسيد الخلق
أجمعين فى حق الكفار الذين هم أنحس الناس : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ﴾ فكيف بالمسلمين إذا استجاروا بالمسلمين ؟
وكيف بالملوك أبناء ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع ملوك الإسلام
خُدّام الحرمين الشريفين حُجَّةٌ ومحبَّةٌ وأخوة فى الله تعالى ؟ ولولم يكن ذلك كيف
يجوز فى شرع المروءة والتخوة والوفاء أن نُسلم ضيفنا ونزِيلنا والمستجير بنا ؟ خصوصاً
وجنسنا حُرُكس جنس ملوك الإسلام السالفين ، خُدّام الحرمين الشريفين الذين
اتَّفَق لهم مع التَّار ما تشهد به التواريخ ، ومن عادتنا وشأننا وطباع جنسنا أننا لأنُسلم
ضيفنا ولا نزِيلنا ولا من استجار بنا لأحد . وإن كنت ما تُصدِّق ذلك فعندك من هم
من جنسنا ، سلَّهم يعرفوك ، فنحن لا يُضام لنا نَزِيل ، ونقرى الضيف ونعامله
بالجميل ، وهذه جِبِلَّتنا الغريزيَّة وعادة أصلنا الأصيل ؛ فإرسال القان أحمد إليك
أمر مستحيل .

إِنَّا ذُوو الْفَضْلِ الْغَزِيرِ الْوَارِفِ * أَبَوَانَا هِي مَلْجَأُ الْخَائِفِ !

نَقْرَى الضُّيُوفَ وَلَا يُضَامُ نَزِيلُنَا ، * شِيمٌ وَرَثَتُهَا فُضْلُهَا عَنْ سَالِفِ !

وَكَلِمَةٌ تَكْفِي الذِّى هُوَ عَاقِلٌ ، * وَالرَّمْزُ تَصْرِيحًا غَدًا لِلْعَارِفِ !

وقولك : إن العادة كانت جارية بين من سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار ، أنه من هرب من جهة إلى أخرى يمسكه الملك الذي يهرب إليه ويقيده ويجهزه إلى الملك الذي هرب من عنده ، وأن دمر داش بن جوبان لما هرب في الزمن الماضي من ملكه ونبأ إلى سلطان مملكتنا المعظمة المشرفة ، أمسكه وقيده وأرسله إليه ، فقد علمناه ، وليس هذا الذي قلته وحكيته بصحيح ، لأن الذي وقع وأتفق بخلافه : وهو أن أميراً من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمى قرأسنقر ، هرب من عنده وراح إلى أبي سعيد فقطع رأسه ، وجهزه إلى الملك الناصر . وأما دمر داش المذكور فالملك الناصر ما أرسله إلى أبي سعيد مثل ما قلت وما مات دمر داش المذكور إلا في مصر المحروسة ، فليكن ذلك في علمك ثابتاً ، وعلى كل حال فكلأكم حجة عليك لا لك : لأنك قد آويت شكر أحد وأرغون السامى وأكرمتها وقربتهما ، وكذلك كل من حضر إليك من ممالكنا ورعايانا وخدمنا من أهل مملكتنا ، فلو أمسكتهم وقيدتهم وجهزتهم إلينا ، كنت تكون صادقاً في قولك ، وكنت إذا طلبت منا أحداً متألام على طلبه ، فكيف وأنت البادى والمعتدى ؟ فهذا الكلام كله شاهدٌ عليك لا لك .

وأما قولك : إن صاحب تكريت كان حرامياً قاطع طريق ، ففعلت معه ما فعلت مقابلة له على نجسه وحرامه وقطعه الطرقات ، فقد علمناه وسألمنا لك هذا الأمر ، بيض الله وجهك ، وما قصرت فيه ، فبذا ما عملت ، ونعم ما فعلت في حقه من إعطائه جزاءه . أفأهل بغداد كانوا حرامية قاطع طريق حتى فعلت بهم ما فعلت ، وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب . ففى أى مذهب يجوز هذا ؟ وهل يحل لمن يدعى الإسلام أن يعمل بخلق الله تعالى الذين أمر بالشفقة عليهم والإحسان إليهم ونشر العدل فيهم هذه الفِعال ؟ وقد تعجبنا منك

يا أمير المؤمنين إلى الغاية ! كيف تدعى أنك عادل ، وتعمل بأهل بغداد المسلمين
الموحدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل ؟ أما تعلم أن الشفقة على خلق الله
تعظيم لأمر الله ، وأن الله رحيم يحب من عباده الرحماء ، وأن الظلم حرام في جميع
الملل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني
حرمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ” . وقال عليه السلام :
” لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ” .
وورد : ” إن فاني ظلم ظالم فانا الظالم ” وحسب الظالمين رب العالمين الذي قال
في حقهم ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . والباغي
له مَصْرَع . ولما جاء هولاكو ومنكوتر وغازان وقصدوا ملوك الإسلام خدام
الحرمين الشريفين ، الذين كانوا من جنسنا كما ذكرنا لك أعلاه ، اتفق لهم ما اتفق
مما هو مشروح في التواريخ ومعلوم عند الناس ؛ فهما أخذه أولئك تأخذه
إذا جئت .

وأما قولك في كُتُبك : إنه إن لم نجهز إليك السلطان أحمد الحلايري مقيداً نجي
في أول فصل الربيع إذا نزلت الشمس برج الحمل ، أو لمَّا تزل الميزان ، وإن
جهزناه إليك مقيداً ، نتأكد المحبة والصحبة بيننا وبينك ، فقد علمناه ؛ والذي
نعرفك به هو أننا كنا نتوقع أنك نجيء قبل هذا الوقت ، فقد أبطأت كثيراً ، وملوك
الإسلام خدام الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلنا ما تصالحوا مع مثل هولاكو
وغيره إلا حتى تزاورا وتقابلوا واجتمعوا ، ونحن أيضاً كذلك ما نصطليح إلا بعد
أن تتأروا وتتقابل ونجتمع . وأنت طلبت أحمد الحلايري ، وهانحن واصلون إليك به ،
نطلب منك أن تشفعنا فيه ، وتبيننا ذنبه الذي صدر منه ، وندخل عليك بسببه ،
ونسأل إحسانك أن تعين لنا موضعاً نلتقي معك فيه ، حتى نأتيك بأحمد الحلايري

المذكور فيه ، ونشفع فيه عندك . فعين لنا الموضع المذكور على حسب ماتختار : إما من ذاك الجانب من الفرات ، أو من هذا الجانب . وأى موضع عينته وسميته لنا جثناك بالمشار إليه فيه ، وندخل عليك فى أمره ، ونستوهب ذنبه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذى نعرفك به هو أن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بلادنا المحروسة ، وأطلع عليه فى ذلك جماعة من جهتنا ، ولما وصل إلى الرحبة المحروسة ، قال للنائب بها : يس الأرض للأمير تيمور وأقرأ الخطبة باسمه . فلو كان رسولا مصلحا ما كان كتب المنازل ، ولا أكثر فضوله ، وتحدث بما لا ينبغى له ، وتكلم فيما لا يعنيه ، وتعذى طوره : لأنه لا ينبغى للرسول أن يكون إلا أعمى أحرس غزير العقل ، ثقیل الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قصدت الملوك فالبس * من التقي والعفاف ملبس !

أدخل إذا ما دخلت أعمى ، * وأخرج إذا ما خرجت أحرس !

وكيف يمكن نائبا الذى هو من جملة ممالكنا ، وجبل لحمه ودمه على أنعمنا وصداقنا ، وغذى وربى بلبان فضلنا وجودنا [أن] يبوس الأرض لغيرنا ، أو يخطب باسم غيرنا ؟ وكيف يترك اسم خادم الحرمين الشريفين أستاذه ، ويدكر اسم غيره ؟ . فقد تكررت منك الفعال القبيحة ، الموجبة لما يقدره الله تعالى ؟ ونحن نقسم بالله تعالى لولا قلت لنغير تعال حتى أعملك مقدم العساكر ، ونمشى على الشام ومصر ، وقربت ممالكنا وآويتهم ، وبدأت بهذا كله وحصل منك التعدى ، ما كان يتفق لرسلنا ما اتفق . ولكن الجزء من جنس العمل ، والخير بالخير والبادى أكرم ، والشر بالشر والبادى أظلم . وأيضا كل وقت تسأل عن ممالكنا المصونة ، وكثرة عساكرنا المنصورة من قتلها . فلو كنت طالبا المحبة والصحبة والمصادقة ، ما وقع منك هذا .

• أما قولك إِنَّ هُوَ لَا كَوَاحِشَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَأَنْتَ قَدْ جِئْتَ بِالرَّجُلَيْنِ وَبِالْمِائَةِ ، وَأَعْتَادُكَ عَلَى كَثْرَةِ عَسْكَرِكَ عَلَى قَوْلِكَ فَقَدْ عَلِمْنَاهُ ، وَإِنْ كَانَ أَعْتَادُكَ عَلَى كَثْرَةِ عَسْكَرِكَ فَأَعْتَادُنَا نَحْنُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَسْتَمِدُّنَا مِنَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، وَمَدَدُنَا مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَالصَّعَابَةِ وَالصَّالِحِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . فَإِذَا تَلَاقَيْنَا يَكُونُ مَا يَقْدَرُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُعْطِي اللَّهُ النَّصْرَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَتَعْلَمُ ذَلِكَ الْوَقْتُ لِمَنْ الْعَاقِبَةُ ؛ وَيُظْهِرُ فِعْلُ اللَّهِ الرَّبِّ الْقَادِرِ تَعَالَى ، وَعَوَائِدُهُ الْجَمِيلَةُ بِنَا لِي لَا شَكَّ عِنْدَنَا فِيهَا وَلَا رَيْبَ ، وَقَطُّ مَلُوكُ التَّارِ مَا آتَنَصَرُوا عَلَى مَلُوكِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ مَلُوكُ الْإِسْلَامِ خَدَامُ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، هُمُ الْمُؤَيَّدُونَ الْمَنْصُورُونَ الْمُظْفَرُونَ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِرِكَاتِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَعُودُونَ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْغَنَاءِ وَالْفُتُوحَاتِ : لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يَقْعُونَ فِي حِمَارِهِ ، وَلَا يُقَدِّمُونَ عَلَى آرْتِكَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ ، فَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ وَسَوْفَ يُنْجِزُ اللَّهُ تَعَالَى وَعْدَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ أَمْرِ قَرَارٍ يُوسُفَ وَيُوسُفَ وَغَيْرِهِمَا ، وَأَنْ فِي مَعَاشِهِمْ زَغَلًا ، وَأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ . وَجَعَلْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ذَنْبًا ، وَأَنْتَ أَنْتَ الْعَادِلُ الْخَيْرُ الْمُفْلِحُ ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مَنَاحِيسُ وَأَنْتَ الصَّالِحُ ؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، فَقَدْ عَلِمْنَاهُ . وَالَّذِي نَعْرِفُكَ بِهِ هُوَ أَنَّ النَّورَ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ الظُّلَامِ ، وَلَا الْيَقِظَةُ وَالْمَنَامُ ، وَلَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ فِي حِيزٍ وَاحِدٍ : لِأَنَّهُمَا مُتَضَادَّةٌ ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا اتِّفَاقٌ وَلَا آتِنَامٌ ، وَفِعْلُ الْمَرْءِ دَالٌّ عَلَى نِيَّتِهِ وَطَوَيْتِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ وَقَالَ :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظَّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ وقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وشتان ما بين أهل الخير والفساد، وأهل العدل وأهل البغي والعناد، فالخير هو المتقى، ومن يرتكب ما حرم الله ويعتقد أنه على الحق فهو الشقي .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْرِفْ قَبِيحَ خَطِيئَتِهِ * وَلَا الذَّنْبَ مِنْهُ مَعَ عَظِيمِ بِلَئَتِهِ
فَذَلِكَ عَيْنُ الْجَهْلِ مِنْهُ مَعَ الْخَطَا * وَسَوْفَ يَرَىٰ عُقْبَاهُ عِنْدَ مَنَّتِهِ
وَلَيْسَ يُجَازِي الْمَرْءَ إِلَّا بِفِعْلِهِ * وَمَا يَرْجِعُ الصَّيَادُ إِلَّا بِنِتِّهِ!

وأما قولك إِنَّ نَعِيرَ الْعَرَبِ أَرْسَلَ بِالْخَفِيَّةِ يَطْلُبُ السُّلْطَانَ أَحْمَدَ، وَأَنَا نَرْسُمُ لِنَوَائِنَا أَنْ يَحْتَرِزُوا مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَيْهِ وَلَا يَمَكِّنُوهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِنْ أَتَقَّقَ تَوَجُّهُهُ إِلَيْهِ يَكُنْ ذَلِكَ سَبِيلاً لِحَرَابِ الدِّيَارِ، فَقَدْ عَلِمْنَاهُ. وَالَّذِي نَعْرِفُكَ بِهِ هُوَ أَنَّا نَتَحَقَّقُ أَنْ مَا يَحْصُلُ خَرَابُ الدِّيَارِ وَالذَّمَارُ وَمَحْوُ الْآثَارِ إِلَّا لِمَنْ يَسْعَىٰ وَيَتَكَلَّمُ بِخَرَابِ الدِّيَارِ ﴿وَلَا يَحْبِقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. وَسَتَعَلَمُ دِيَارٌ مِّنْ تُحْرَبْ، وَتَعْمُرُ مِنْ يَذْهَبْ، وَعَلَىٰ مَنْ تَكُونُ دَائِرَةُ السُّوءِ دَائِرُهُ، وَسَطَوَاتُ الْأَمْنَايَا قَاهِرُهُ؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. وَهَانَحْنُ وَاصِلُونَ بِجُيُوشٍ وَجُنُودٍ وَعَسَاكِرٍ مُّؤَيَّدَةٍ مِنَ السَّبَاعِ أَسْبَعُ، لَا تَرَوِي أَسْلِحَتَهُمْ مِنْ دِمَاءِ الْبَغَاةِ وَلَا تَشْبَعُ، وَالْجَوَابُ مَا تَرَىٰ لَا مَا تَسْمَعُ :

قُلْ لِلَّذِي فِي الْوَرَىٰ أَصْحَىٰ يُعَادِينَا : * احْذَرَا فَاْمَرَكَ رَبُّ الْعَرْشِ يَكْفِينَا!
مَا زَالَ يَمْنَحُنَا فَضْلاً وَيَكُونَا * فِي الْعِدَا بَعْظِيمِ النَّصْرِ يُشْفِينَا!
أَقَامَنَا رَحْمَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِهِمْ ، * وَلَمْ يَزَلْ مِنْ جَزِيلِ الْجُودِ يُعْطِينَا!
بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ عَوَّدَنَا ، * وَزَادَنَا فِي مَدِيدِ الْأَرْضِ تَمْكِينَا!
وَالْجَمِيلِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَقَفَّنَا ، * شُكْرًا لَهُ سِتْرُهُ الْأَعْلَىٰ يَنْطِينَا!

قَدْ أَسْكَنَ الرَّحْمَةَ الْحُسْنَى الَّتِي أَمِنْتَ * بِهَا الْأَنَامُ بِأَقْصَى مُلْكِنَا فِينَا!
فَكُلُّا بِالْدُّعَاءِ الْمُرْتَضَى نَطَقْتَ * لَنَا الرَّعَايَا، أَجَابَ الْكَوْنُ آمِينًا!
اللَّهُ حَافِظُنَا، اللَّهُ نَاصِرُنَا، * مَنْ ذَا يُعَانِدُنَا؟ مَنْ ذَا يُقَاوِينَا؟

والله الموفق بفضلِهِ العَمِيمِ ، والهادى إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، بِمَنَّةِ وَكَرَمِهِ ، وَجُودِهِ وَنِعْمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

كتب فى ... من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعائة^(١) .

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشام إلى الديار المصرية ونحرب هو دمشق وحرّقها، ثم انتقل عنها، وتردّدت رسله بطلب أطلمش : أحد أمرائه الذى كان قد أسرف فى أيام السلطان الملك الظاهر ”برقوق“ .

وفى هذه الحالة كان يُكْتَب له فى قطع الثلثين ، والعنوان بقلم جليلِ الثُلُث بحلّ الذهب سطران ، مضمونهما « المقامُ الشريفُ العالى ، الكبيرُ ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، المظفرى ، المَلَجِى ، المَلَاذِى ، الوالدى القُطْبِى ، نُصْرَةُ الدِّين ، مَلَجُ القاصدين ، ملاذُ العائدين ، قُطْبُ الإسلام والمسلمين ، دامت مَعْدَلته تيموركور كان » . والبسملة فى أول الوصل الرابع ، والخُطْبَةُ جميعها بالذهب ، وكذلك البَعْدِيَّة وما يتعلّق بالمكتوب إليه على عادة القانات ، والعلامةُ بجِليلِ الثُلُث بحلّ الذهب بالهامش ماصورته : « المشتاقُ فرجُ بن برقوق » إلا أنه اختلف مكانها فى المكاتبات على ماسياتى ذكره . إلا أن افتتاح المكتبة إليه فى هذه الحالة كان على ضربين بحسب ما اقتضاه الحال .

(١) هنا آخر ما أضيف إلى الأصل من بعضهم .

الضرب الأول

(الافتتاح بـ «أما بعد» وذلك عند أول عقد الصلح)

وهذه نسخة مكتبة كُتِبَتْ إليه جواباً عما ورد منه بطلب أطلش المذكور
والتماس الصلح. جُهِّزَتْ صحبة الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك، والأمير قاني بيه
صحبة رسوله خواجا مسعود الكججاني رسوله الوارد بكتابه، في جمادى الأولى سنة
خميس وثمانمائة. وعُلم له فيها في الهامش بين السطرين الثاني والثالث بقلم جليل
الثلاث بحلّ الذهب «المشتاق فرج بن برقوق» على ما تقدّم ذكره؛ والورق قطع
الثلاثين وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل الأرواح أجناداً مجنّده، ووصل أسباب الرشد والفلاح
بِنِ افْتِتَحَ باب الإصلاح ولم يُخْلَفْ مَوْعِدُهُ، وكَفَلَ لمن تَوَكَّلَ عليه في أموره النجاح
يومه وغدّه. والشهادة له بأنه الله القاهر فوق عباده بقدرته المؤيِّده، والصلوة والسلام
على أشرف نبيّ طيّب الله عنصره ومُحَمَّدَهُ، وأصلح ببعض نَسَلِهِ الشريف بين فتيين
عظيمتين بَلَغَ كُلُّ منهما من الخير مَقْصِدَهُ. وعلى آلِهِ الطاهرين، وذُرِّيَّتِهِ الظاهرين
بالمصالح المُرشِدة، وأصحابه الذين كانتْ غالبُ قضايهم صلحاً بين الناس ورسُلهم
بالإتِّفاق مردّدة ومنْ عَدِمَ الشَّقَّاق غير متردّده؛ صلاةً وسلاماً نِصَلَ بهما حبْلُ البُوءة
بالأبوة المتجدّده، ونُحِمِدَ بهما نارَ الحَرْبِ المتوقّده.

فقد أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقام الشريف، العالِي، الكبيرِي، العالِي،
العادلِي، المؤيِّدِي، المظفرِي، المَلَجِي، المَلَذِي، الوالِدِي، القُطْبِي، نُصْرَة
الدين، مَلَجِ القاصدين، ملاذِ العائدين، قُطْبِ الإسلام والمسلمين، تيموركوركان،
دامتْ مَعْدِلَتُهُ. تُهْدَى إليه سلاماً تُتْلَى سُورُهُ وآيَاتُهُ، وشَاءَ نتوالى غَدَوَاتُهُ وَرَوَّحَاتُهُ

ولا تنتاهى غايته ؛ وتبدى لشريف علمه أن مفاوضته العالية [التى] وردت أولا وأحرا ، تضمنت رموزها باطنا وظاهرا ؛ تجهيز الأمير أطمش لزم المقام الشريف إلى حضرته العلية : لتنجس مادة الحركات ، وتسكن القلوب والخواطر فى سائر الجهات ؛ وتتحد المملكتان فى الصداقة والوفاء ، والمحبة والصفاء ؛ على الصورة التى شرحها ، وبين مناهجها ووصفها ؛ خصوصا ما أشار إليه من أن لجواب الكتاب حقا لا يضيع ؛ فوقفتا عليها وقوف إجلال ، وفهمنا ما تضمنته على التفصيل والإجمال .

والذى نبديه إلى علومه الشريفة أن سبب تأخير أطمش أنه لما قدم المقام الشريف إلى حدود الممالك الشامية ، وتوجهنا من الديار المصرية ؛ عرض لنا ما أوجب العود إليها سريعا ، وكان الحزم فيما فعلناه بمشيئة الله تعالى . ثم تحققنا من المفاوضة الواردة على يد سودون ، وسودون (؟) والنمر ، والحاج يسق أحد أمراء أخورية ، قسّمه بالله الطالب الغالب ، المدرك المهلك ، الحى الذى لا ينام ولا يموت أنه إن جهز إليه أطمش المشار إليه ، رجع المقام الشريف إلى بلاده ، وأنه متوقع حضوره إليه بقارة ، أو سمية ، أو حص ، أو حماة . فأخذنا فى تجهيزه إلى حضرته الشريفة على أبجل ما يكون .

فبينما نحن على ذلك إذ وردت علينا الأخبار بما اتفق لدمشق وأهلها : من أنواع العذاب وتخريب قلعها وديارها ؛ وإحراق جامعها الذى هو الجامع الفرد فى الممالك الإسلامية ، وغيره من المساجد والمدارس والمعاهد والمعابد . فلما تواترت هذه الأخبار ، وتحققت هذه المصائب ؛ لحنا من عدم ترحلكم عن دمشق وهى عامرة نقض ما تقرر ، وعدم الالتفاتكم إلى الأمير أطمش المذكور وتجهيزه . فلما وردت مفاوضته الشريفة المجهزة إلى صاحب ماردين ، أرسلها إلينا [وهى] الواصلة على يد المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ، الناسكى ، الحسى ، النسيبى ، الشرفى ، عبد المؤمن ، شيخ

(١) الجبال، آبن ولي الله، إمام العارفين، عبد القادر الكيلاني، أعاد الله تعالى من بركاته. والصدر الأجل نحر الدين التاجر السفار، المؤرخة بثاني عشر ذي القعدة الحرام من سنة أربع وثمانمائة، المتضمنة وصول المقام الشريف إلى أرزنكان وكماخ قاصداً للبلاد الرومية، والقصد فيها تجهيز الأمير أطمش وأن يفتح باب المصالحة، ويسلك طريق المصادقة، رعاية لصالح الملكتين، ونظراً إلى إصلاح ذات اليّن، وأنه لا مَطْمَع إلا في صحة المودة، وإرسال أطمش صحبة شخص من مقربي حضرتنا الشريفة: لينظر ما يصدر بعد وصولها من تمهيد قواعد المجاملة، وتشديد مبانى المحبة. وأنّ المقام الشريف - زيدت عظمته - أقسم بالله الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله، أن يكون في هذه الحياة محباً لمن يحبنا، مبغضاً لمن يبغضنا، وأنا نتلفظ بحضور الأمير أطمش كما تلقّظتم. فعند ذلك اجتمعنا مع مولانا أمير المؤمنين، المتوكل على الله، أدام الله تعالى أيامه، والشيخ الإمام الفرد، شيخ الإسلام سراج الملة والدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى من بركته - وقضاة القضاة ومشايخ العلم والصّلاح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرئت المفاوضة بحضورهم. فلما سمعوا ما تضمنته من عظيم القسم، والحلف ببارئ النّسم، وعلموا أنّ جلّ القصد فيها تطلع المقام الشريف إلى تجهيز الأمير أطمش المذكور، فأجتمعت الآراء على إرساله إلى حضرته الشريفة صحبة من اقتضته الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك المفاوضة من المقام الشريف - زيدت عظمته - على يد شخص من أهل أزمير - مؤرخة بثاني عشر شهر صفر المبارك سنة تاريخه، متضمنة ما حصل من النصر على آبن عثمان، والظفر به، والاستيلاء على غالب قلاعه. وزُبدت الكلام فيها الإسراع تجهيز أطمش المذكور، ليجتمع شمله بأولاده بالحضرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

علينا مفاوضة شريفة على يد المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، الأوحدي ،
 العارفى ، السالكى ، المقربى ، مسعود الكججاني ، رسول المقام الشريف . وصحبته
 المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ، العالمى ، الإمامى ، القدوى ،
 الشمسى ، شيخ القراء ، إمام أئمة الكبراء ، محمد بن الجزرى أدام الله النفع به .
 مؤرخة بغرة ربيع الأول سنة تاريخه ، متضمنة معنى الكاين المجهزين من ماردین
 وأزمير . وجُلُّ القصد فيها تجهيز الأمير أطمش لتحصل طمأنينة قلوب العالمين ،
 وإنحاء باب الفتن ، وأنَّ العمدة على المشافهة التى تتجملها الخواجا نظام الدين مسعود
 المشار إليه ، وأن قوله قول المقام الشريف . ومهما عقد الصلح عليه وآلزم به ،
 كان من رأى المقام الشريف وشوره ، لا يخرج عنه ولا يميل إلى غيره بقول
 ولا فعل . فلما أحضرناه وأصغينا إلى ما تجمله من المشافهة ، فإذا هى مشتملة على
 خالص المحبة ، وأن يكون المقام الشريف والدنا عوضاً عن قدس الله تزيه به ، وأن
 تجهز الأمير أطمش إليه ، وتكون عمدتنا بعد الله عز وجل عليه ، فقابلنا ذلك بالقبول
 والاستبشار ، ونحونا آية ليل الحفاء ، وأثبتنا آية نهار الوفاء ، فى الإعلان والإسرار ،
 وقبلنا أبوته الكريمة على مدى الأزمان وتوالى الأعصار ، وشاهد الخواجا مسعود حال
 أطمش ، وعلم اهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمدة اعتماداً على أليته السابقة ، ووثوقاً
 بما صرح به من الأتّحاد والمصادقة ، وعقدنا الصلح مع الشيخ نظام الدين مسعود
 المذكور بطريق الوكالة الشرعية عن المقام الشريف ، وحلفنا نظير ما حلف عليه ،
 بموافقة مولانا أمير المؤمنين - أدام الله أيامه - على ذلك بحضرة من شيخ الإسلام ،
 وقضاة القضاة ، ومشايخ العلم والصّلاح ، وأركان الدولة الكبار ، مع حضور
 الأمير أطمش ، لزم المقام الشريف ، وشهادة من يضع خطه على نسخ الصلح التى

(١) كذا فى الأصل وهى عامية لأصل لها فى اللغة بالمعنى المراد له اذ مراده المشورة كما لا يخفى .

كتبته ، وجهزنا منها نسختين مشوئتين إلى حضرته الشريفة قرين هذا الجواب الشريف ، لتحيط العلوم الشريفة بضموميهما ؛ وبأحدهما خطنا الشريف لتخلد بخزانته الشريفة ، والأخرى يشملها بخطه الشريف وتعاد إلينا صحبة رسولنا : المجلس العالى الأسمى ، الكبرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المقرئى ، الأعزى ، الأخصى ، الأصلى ، الشهابى ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقرئنا ومقرئ والدنا الشهيد - أدام الله تعالى نعمته - وجهزنا صحبته المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المقرئ ، المرتضى ، الأخص ، الأكل ، سيف الدين ، قانى باى الخالصى الناصرى ، أدام الله سعاده ، المتوجهين بهذا الجواب الشريف ، المجهزين صحبة الأمير أطلمش ، وبقية قصاد المقام الشريف ورسله .

وما نبديه لعلومه الشريفة أنه مما تضمنه الملخص الشريف المجهز عطف الكتاب الواصل على يد الشيخ مسعود الكججاني مضاعفة الوصية بأولاد الشيخ شمس الدين الجزرى ورعاية أحوالهم وتعلقاتهم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقبول وقررنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله - وكفى به شهيدا - قد أخلصنا النية للمقام الشريف ، وعاهدنا الله عز وجل فى التعاضد والتناصر والاجتهاد ، فى عمل المصالح للعباد والبلاد ، وعدم التقاصر والعمل بما فيه بياض الوجه عند الله فى الدنيا والآخرة ، وإجراء الأمور على السداد . بتوفيق الله عز وجل ، وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم آستقبل لسان الحال ينشدنا :

* يا أَوَّلَ الصَّفْوِ هَذَا آخِرُ الْكَدْرِ *

فيكون ذلك فى علومه الشريفة ، والله تعالى يديم عوارفه الورىفه ، بمنه وكرمه .

والمستند «حسب المرسوم الشريف» .

الضرب الثاني

(ما صار إليه الأمر بعد وُصول أطلمش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوان سطران بقلم الثلث بماء الذهب ماصورته :

«المقام الشريف ، العالى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المظفرى ،
الملجئى ، الملاذى ، واليدى ، القُطبي ، نُصرة الدين ، ملجأ القاصدين ، ملاذُ
العائدين ، قطبُ الإسلام والمسلمين ، تيموركوركان - زيدت عظمته - .

والطرة ثلاثة أوصال ، والبسملة الشريفة فى أول الوصل الرابع . ثم « الحمد لله »
وتمة الخطبة بالذهب ، وبيت العلامة عرض أربعة أصابع مضمومة ، وما يليها
من الأسطر سعة ثلاثة أصابع ، والعلامة الشريفة بين السطر العاشر والحادى عشر
من سطور الكتابة ، موافقا لآتهاء الخطبة عند « أما بعد فقد صدرت هذه
المفاوضة » . والعلامة الشريفة بجليل الثلث بماء الذهب « المشتاق فرج بن برقوق » .
وهامش الكتاب أربعة أصابع مطبوعة ، والخطبة وما يليها من البعدية وألقاب المقام
القُطبي المركبة والمفردة الجميع بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمد لله الذى شيد قواعد الإصلاح ، ومهد مواطن الرشد والنجاح ، وجعل أذان
المؤمن يجيب داعى الفلاح .

نحمده على أن ألّف بين القلوب بلطف الإرتياح ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له إله زَمَ نفوس المؤمنين بحبل التقوى من حية الجحاح ، ونشهد
أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى وَضَعَ من نور رسالته فجر الإيمان ولاح ، ونَفَعَ

من نور معجزاته زهر الدين الحنيفي وفاح ، صلى الله عليه وعلى آله الذين شذوا
ظهور كلهم من الصديق بأتقن وشاح ، وعلى صحابته الذين بنوا من عهدهم (؟) بفقههم
في الدين الواجب والمندوب والمحظور والمباح ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فقد صدرت هذه المفاوضة إلى المقام الشريف ، العالى ، الكبيرى ،
العالى ، العادلى ، المؤيدى ، المظفرى ، الملجئى ، الملاذى ، الوالدى ، القبطى ،
نصرة الدين ، ملجأ القاصدين ، ملاذ العائدين ، قطب الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يُفُوقُ الْخَلْقَ طُرًّا هَيْبَةً * فِيهِ نِهَايَةٌ غَايَةُ التَّأْمِيلِ !

تيمور كوركان — زِيدَتْ عَظَمَتُهُ ، وَدَامَتْ مَعِدَّتُهُ ؛ وَلَا زَالَتْ زَايَاتُ نَصْرِهِ
خَافَقَةُ الْبُنُودِ ؛ وَآيَاتُ فَضْلِهِ مَتَاوَةٌ فِي التَّهَامِ وَالنُّجُودِ ؛ وَنَحْبُ فَضَائِلِهِ هَامِيَةٌ بِالْكَرَمِ
وَالْجُودِ ، وَمَهَابَةُ سَطَوْتِهِ تَمَلَأُ الْوُجُودَ — تُهْدَى إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ مَا حَلَا فِي حَالَتِي
الصَّدُورِ وَالْوُرُودِ ، وَمِنَ الْإِخْلَاصِ مَا صَفَا وَضَعَتْ مِنْهُ الْبُرُودِ .

وتبدي لعلمه الشريف أن مفاوضته الشريفة وردت علينا جواباً عما كتبناه
إلى حضرته الشريفة ، على يد المجلس العالى الأميرى الشهابى ، أحمد بن غلبك
وسيف الدين ، قانى بيه الناصرى ، المجهزين صحبة المجلس العالى ، الأميرى ،
الجلالى أطمش ، لزم المقام الشريف ، بوصول الأمير جلال الدين أطمش
إلى حضرته الشريفة طيباً ، مبدئياً بين يديه ماحملناه من رسائل الأشواق ، مبيئاً ماهو
اللائق بخلاله الحسنة عن حضرتنا مادبج به الأوراق ، شاكرًا لإنعاماتنا التى هى
في الحقيقة من شيم فضلكم الخفاق ، مثبئاً منه ومن حقوى الخطاب في نظم الكتاب
صدق المقال وصحة العهد ورسوخ الميثاق ، وأنه قد ثبت بما ثبت من غرائب المعانى
حصول الأمانى ، وسرى بعد ما يكون من هدايا التهانى ، وأن الذى اتفق الآن هو

المطلوب ، والمكتوب به إلى والدنا الشهيد الطاهر أولاً هو المرغوب ؛ وخلافه كان موجباً لنقل الحركات الشريفة إلى جهة البلاد ، وما اتفق فيه للعباد ؛ ولكن كل قضاء وقدر . ولما حصل قبول الإشارة بتجهيز الرُّسل والأمير أطمئنت ، صارت القلوب متفقه ، والعيون قارة ؛ وصفت موارد الصفاء ، وضفت برود الوفاء ؛ وقُطعت حبال المنافاة والخفاء . وأنَّ المقام الشريف كان أقسم في كتبه قسماً وأعاده ، ثم فصل مجله وأفاده ؛ وهو - والله الطالب الغالب ، المدرِك المهلك ، الحى الذى لا ينام ولا يموت - من يومه هذا لا يخالف ما صدر من عقد الصُّلح المسطور ، ولا يرجع عن حكمه للعهد المزبور ؛ ويحبُّ من يحبُّنا ويُبغض من يُبغضنا ؛ ويكون سالماً لمسلمينا ، حرباً لمحارِبينا ؛ ومتى استنصرنا به على أحد من مخالفينا أمداً بما شئنا من العساكر ، وانه أمرُ ماناله أحد من الناس غيرنا ، وإنه لو كان القسم على الوجه الذى ذكره مصرحاً مذكوراً فى لفظ الكتاب ، وعبارة الخطاب ؛ لكان أوضح ، والتبيين أملح ؛ وأنه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورة لمالكنا أحد من المفسدين يجهزه إلينا مقيداً . وحيث كان أحد من المفسدين بمالكنا المجاورة لمالكه يعرفنا به لنجهزه إليه : لاتفاق الكلمتين ، واتحاد المملكتين ، وطمأنينة قلوب الرعايا والسالكين من الجهتين ؛ وما تفضل به : من سؤال المقام الشريف الله عزَّ وجل زيادة أسباب دولتنا ، ونمو إياليتنا ؛ وأنَّ الهلال إذا رأيت نموه ، أيقنت أن سيصيرُ بَدراً كاملاً . وأنا سئى ما يصنعه المقام الشريف ، من الفضل المنيف ؛ ومن تلافى الأمور ، ما يظهر للخاصة والجمهور ، مما يزيدُ بَدْرنا نُمواً ، وقَدْرنا بين الملوك سُمواً : لأنه لنا أنفى كفى ، وأشفق من الوالد والصاحب والخليل ؛ وإن من علامة الصفاء ، إظهار ما خفى : وهو أن فى أطراف ممالكنا الآن بلاداً كانت داخلةً فى ممالكه ، وهى أبلستين ، ومطية ، وكركر ، ونحنا ، وقلعة الروم ، والبيرة ؛ وأنه

كان حُمل معناها على لسان المجلس السامي، النظامي، مسعود الكججاني أولاً، المجهز الآن صحبة الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه، وأن القصد أن نأمر من بها من الثواب أن تسلمها لنوابه، والمعول في انتظام الأمور على ماتجمله المشار إليه وعزول عليه؛ وأنه شاكر لمرافقتنا، موافق لموافقتنا؛ وأنه يصغى إلى ما نبديه، وتُخفف به ونهديه؛ على الصورة التي أبداه، والتحية التي بكرم الشيم أهداها؛ فقد علمنا ذلك جملة وتفصيلاً، وشكرنا حسن صنيعة إقامة ورحيل؛ وتضاعف سرورنا بوصول الأمير أطمش إلى الحضرة الشريفة. ووصل إلينا الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه مرتلين من ذكر محاسنكم ترتيباً، وعرضاً ما تفضلتم به في حقنا إكراماً وتوقيراً وتجيلاً؛ وأنها بين أيدينا ماعوملاً به من الفضل الذي ماعليه مزيد، والبر الذي تعجز الفصحاء أن تبدئ بعض محاسنه أو تعيده؛ وأنهما كانا كل يوم من توفر الفضل في يوم عيد، وحصل لهما من الإقبال مالا يحصى بالحصر والتحديد؛ فحمدنا للمقام الشريف الوالدي حسن هذا الفضل العام، وشكرنا جميل تفضله الذي أنجمل الغمام؛ وتزايد شوقنا وحبنا حيث زمزمت ألفاظ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام.

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ * أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ!

وهذا هو اللائق بالجلال الشريفه، والمؤمل في جلال صفاته المنيفه؛ ووصل الخواجا نظام الدين صحبتها مبدئاً عن جنابكم من رسائل المحبة والصفاء، والهودة والوفاء؛ ما يعجز عن وصفه الناظم والنائر، مظهرها من حسن المودة وغزير المعرفة ما يفخر به الموالى والمؤثر؛ سالكا من تأكيد أسباب الصلح ما تجمل به مفاقر المفاخر، معتدراً عما تقدم فما قدّر ربما يكون سبباً لإصلاح الآخر؛ متكفلاً عن صفاء طويتكم لنا بما يسر السرائر. فضاعفنا إكرامه، ورددنا إنعامه، ووفرنا من العز

أقسامه ؛ وأنزلناه منزلاً يليق به ، ووصلنا كل خير بسببه ؛ وما هو إلا مستحق لكل ما يراد به من فيض فضل وفضل .

وأما ما أشار إليه من إعادة القسم تأكيداً للصُّلح ، وتوضيحاً للنَّجح ؛ ولو كان القسم الذى أقسمنا به مصرحاً لكان أولى ، فقد علمنا ذلك وكتبنا ألفاظ القسم فى كتاب الصُّلح مصرحةً ، وأعدناه إلى حضرته ليقرأ على مسامعه الشريفة ؛ ويسمِّله الخط الشريف ويُعادَ إلينا ؛ ونحن نكرر القسم ، ببارئ النَّسم ؛ الذى لا إله إلا هو ، الطالبُ الغالب ، المدركُ المهلك ، الحى الذى لا ينام ولا يموت ، أنا من يومنا هذا لأتحالف ما أنتظم من عقد الصُّلح المسطور ، إلى يوم البعث والنُّشور ؛ ولا تحلُّ عُراه الوثيقةُ المشارُ إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ونكونُ حرباً لمن حاربه ، وسلاماً لمن سالمه ؛ ومُبغِضين لمُبغِضيه ، ومحِبِّين لمحِبِّيه ؛ ومن أشار بإشاره ، أو شقَّ على أحد من [رعاياه] غاره ؛ رادفنا إسعافه وضاعفنا استظهاره ؛ وأخلصنا القول والعمل فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بحمد الله قد تمَّ وكل ، فيكون ذلك فى شريف علمه .

وأما ما أشار إليه من أمر القرى التى قصد تسليمها لنوابه ، وأنها داخلَةٌ فى حدود مملكته : كابلستين ، وملطية ، وكركر ، ونخنا ، وقلعة الروم ، والبيرة ، فقد علمنا ذلك . ونحن بُدِى إلى علومه الشريفة أنَّ هذه البلاد لا يحصل لنا منها خراج ، ولا ينالُ ملكنا ونوابنا منها فى كلِّ وقتٍ إلا الأزعاج ؛ وإذا جهَّزنا إليها أحداً من النُّواب ، نتكفَّل له غالباً بالخيول والرَّجُل والركاب ؛ وبضواحيها من سُراق التُّركمان ، وقطاع الطريق من العُربان ؛ مالا ينجى عن مقامه . ولو كانت دِمَشقُ أو حلبُ ، أو أكبر من ذلك مماله (؟) عن الطَّيِّب ، ماتوقَّفنا فيها عن قبول إشارته لنا كيد المحبة ، واتِّحاد الكلمتين من الجانبيين فى أعلى رُتبته ؛ غير أنَّ تسليمها من الوهن لمملكتنا منافاة لما

تفضل به المقام الشريف من سؤال الله تعالى في زيادة سلطنتنا . خصوصاً وقد وعد المقام الشريف والدي بما سنرى ، وسوف تظهر نتيجته مما يتفضل به بين الوري ؛ وأن الذي سمح لنا به من الاستظهار ماناله أحد من الناس ، وما حصل لنا بما أبداه الخواجا مسعود بين أمراء دولتنا من المشافهة عن مقامه الشريف من قوة الجاش والإيناس ، ونحن نترقب بمن حركاته ، وسديد إشاراته ؛ زيادة الخير في النفس والمملك والمال ، ونتوقع من جميل كفالته السعادة الأبدية في الحال والمآل ؛ فيكون ذلك في شريف علمه .

وقد جهّزنا بهذه المفاوضة المجلس العالي ، الأميرى ، الكبيرى ، الأعزى ، الأخصى ، المقرّبى ، المؤتمنى ، الأوحدي ، النصيرى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء الخواص في العالمين ، منتخب الملوك والسلطين ، منكلي بغا الناصرى أمير حاجب ، أدام الله تعالى سعده ، وأنجح قصده ؛ وعلى يده من الهدية المصرية ما تهيأ تجهيزه بمقتضى القائمة الموصقة بذيلها ، وأعدنا المجلس العالي النظامى : مسعوداً ومن معه إلى المقام الشريف ، متحمّلين من رسائل الأشواق والاتحاد ، مالا يقع عليه الحصر والتعداد ؛ وما أحرنا الخواجا نظام الدين مسعوداً هذه المدة بالباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضية السلطان أحمد بن أويس ؛ وهربه من بغداد إلى حلب ، وجهّزنا من الباب الشريف من يحضره إلى دمشق ليحصل منه الأرب ؛ ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من كافل الشام المحروس ، بوصول قرأ يوسف بن قرأ محمد إلى دمشق في نفر قليل . فجهّزنا أحمد الأمراء إلى كافل الشام بمشال شريف ، يتضمن القبض على السلطان أحمد بن أويس وقرأ يوسف المذكورين ، وإيداعهما الاعتقال بقلعة دمشق المحروسة ، وفاء

للعهد وتأكيده . وحملنا الأمير سيف الدين منكلى بغا المذكور، مشافهةً في معناهما .
والقصد من جميل محبته ، وجزيل أثوته ؛ قبولُ المجهز من ذلك ، وبسطُ العذر فيه
إذا وصل إلى حضرته هنالك : لأن الديار المصرية وأعمالها حلَّ بها من المحل لعدم
طلوع النيل في هذه السنة مالا يحصر ولا يحصى ، ولا سَمِعَ بمثله . وشمولُ نسخة الصلح
المعادة بالخط الشريف ، ومضاعفةُ إكرام حاملها الأمير منكلى بغا بالبرِّ والوريف ؛
والإصغاء إلى ماتحله من المشافهة في معنى أحمد بن أُويس وقرأ يوسف ، والله تعالى
يشيّد بتمهيدهِ قواعد الدين الحنيف ، بمنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

الثالث

(من ملوك تُوران من بنى جنكرخان القان الكبير، صاحب التخت،

وهو صاحب الصين والخطا)

قال في "التعريف" : وهو أكبر الثلاثة ، ووارثُ تخت جنكرخان . قال : ولم يكن
يكتب لترفعه وإيائه ، وطيرانه بسمعة آباءه ؛ ثم تواترت [الآن] الأخبار بأنه قد أسلم
ودان دين الإسلام ، ورقم كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام . قال : وإن صحَّ ذلك
- وهو المؤمل - فقد ملأت الأمة الحمديّة الخافقين ، وعمت المشرق والمغرب ،
وأمتدت بين صفى المحيط . ثم قال : فإن صحَّ إسلامه وقُدِّرت المكتبةُ إليه ، تكون
المكتبةُ إليه كالمكتبة إلى صاحب إيران ومن في معناه من سائر القانات المقدّم
ذكرهم ، أو أجلّ من ذلك .

قلت : ولم يتعرض إلى المكاتبه إليه على تقدير بقائه على الكفر، ويشبه أن تكون
 المكاتبه إليه على ذلك وشدة سطوته، فيعطى من قطع الورق بقدر رتبته . ثم يجوز
 أن تبدأ المكاتبه إليه كصاحب القسطنطينية ومن في معناه ، مع مراعاة معتقده
 في ديانتته بالنسبة إلى (١) كما يرعى مثل ذلك في المكاتبه إلى ملوك النصرانية،
 والوقوف في الخطاب وما ينجرط في سلوكه عند الحد اللائق به . والأمر في ذلك
 موكل إلى اجتهاد الكاتب ونظيره .

المهيـع الثالث

(في المكاتبات إلى من يجزيرة العرب مما هو خارج عن مضافات
 الديار المصرية، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات إلى ملوك اليمن، وهم فرقتان)

الفـرقة الأولى

(أئمة الزيدية)

قال المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" : وهو من بقايا الحسينيين
 القائمين بأمل الشط من بلاد طبرستان، وقد كان سلفهم جاذب الدولة العباسية
 حتى كاد يطيع رداءها، ويُسَمِّت بها أعداءها. وهذه البقية الآن بصنعاء وبلاد
 حضرموت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآن فيهم في بني المطهر،
 وتقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أن أول من قام من هذه
 الأئمة بإيمن الإمام (يحيى الهادي) بن الحسين الزاهد، بن أبي محمد القاسم الرسي،

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله النوت والألقاب كما يعلم مما تقدم .

أَبْنُ إِبرَاهِيمَ طَبَّاطَبَا، بَنُ إِسْمَاعِيلَ الدِّيَّاجِ ، بَنُ إِبرَاهِيمَ الْغَمَرِ ، بَنُ الْحَسَنِ الْمُنْثَى ،
 أَبْنُ الْحَسَنِ السَّبْطِ ، أَبْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي سَنَةِ
 ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتِينَ فِي خِلَافَةِ [الْمُعْتَصِدِ] ^(٢) ، وَأَنَّهُ كَانَ فَقِيهًا عَالِمًا مُجْتَهِدًا فِي الْأَحْكَامِ ،
 حَتَّى قَالَ فِيهِ أَبْنُ حَزْمٍ : إِنَّهُ لَمْ يَبْعُدْ عَنِ الْجَمَاعَةِ فِي الْفَقْهِ كُلِّ الْبُعْدِ . ثُمَّ [وَلِيَ
 بَعْدَهُ أَبْنُهُ مُحَمَّدُ الْمُرْتَضَى] وَتَمَّتْ لَهُ الْبَيْعَةُ فَاضْطَرَبَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَاضْطُرَّ إِلَى تَجْرِيدِ
 السَّيْفِ فُجِرْدَهُ وَمَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِينَ لَثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ
 وَلَايَتِهِ وَ[وَلِيَ بَعْدَهُ أَخُوهُ (أَحْمَدُ النَّاصِرُ) ثُمَّ أَخُوهُ (الْقَاسِمُ الْمُخْتَارُ) ثُمَّ (الْحُسَيْنُ ^(٣)
 الْمُتَنَجِّبُ) . وَاطَّردَ أَمْرُهُمْ بِصَنْعَاءَ إِلَى أَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ السُّلَيْمَانِيُّونَ أَمْرَاءُ مَكَّةَ عِنْدَ
 خُرُوجِهِمْ مِنْهَا ، فَاسْتَقَرَّتْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ مِنْ جِهَةِ السَّاحِلِ (أَحْمَدُ الْمُوْطِئِيُّ)
 أَبْنُ الْحُسَيْنِ الْمُتَنَجِّبِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ أَبْنُ أَيُّوبَ سَنَةَ
 خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . وَبَقِيَ أَمْرُ الزَّيْدِيَّةِ هُنَاكَ فِي عَقْبِهِ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بَنُ فَضْلِ اللَّهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ فِي زَمَانِهِ ، فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ
 أَبْنُ قَلَاوُونَ كَانَتْ فِي (حَمْزَةٍ) وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" أَنَّ يَحْيَى بْنَ حَمْزَةَ وَلَّى بَعْدَ
 أَبِيهِ ، وَكَانَ فِي زَمَنِ الْمُؤَيَّدِ دَاوُدَ بْنِ يَوْسُفَ صَاحِبِ الْيَمَنِ . وَذَكَرَ قَاضِي الْقَضَاةِ
 أَبْنُ خَلْدُونُ أَنَّ الْإِمَامَ قَبْلَ الثَّمَانِينَ وَالسَّبْعِ مِائَةِ كَانَ (عَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدٍ) مِنْ أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَفَّى
 قَبْلَ الثَّمَانِينَ . وَوَلَّى أَبْنُهُ (صَلَّاحٌ) وَتَابَعَهُ الزَّيْدِيَّةُ ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُنْكِرُ إِمَامَتَهُ لِعَدَمِ

(١) ذَكَرَهُ فَيَا تَقْدِمُ فِي ج ٥ ص ٤٧ "عَبْدُ اللَّهِ" . وَقَدْ نَبَهْنَا هُنَاكَ نَقْلًا عَنْ "الْكَامِلِ لِابْنِ الْأَثِيرِ" أَنَّهُ إِبرَاهِيمُ كَمَا هُنَا ، فَلْيَتَنَبَّهُ .

(٢) فِي الْأَصْلِ الْمَأْمُونُ وَهُوَ خَطَأً فَإِنَّ الْمَأْمُونُ تَوَفَّى سَنَةَ ٢١٨ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الدَّوْلَةِ فِي ج ٥ ص ٤٧ وَمَا يَلِيهَا فَارْجِعْ إِلَيْهِ .

(٣) الزِّيَادَةُ مِنْ جِزْءِ ٥ ص ٤٨ وَهِيَ لَازِمَةٌ لِأَنَّ أَحْمَدَ النَّاصِرَ أَيْ يَحْيَى الزَّاهِدَ لَا أَخُوهُ .

(٤) آخِرُهُ فَيَا تَقْدِمُ عَمَّا بَعْدَهُ .

استكمال الشروط فيه فيقول : "أنا لكم ماشئتم إمام أو سلطان". ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده ابنه (تجاح) فامتنع الزيدية من بيعته فقال : أنا "مختسب لله تعالى". قال في "التعريف" : وأمرأ مكة تُسرطاعته ، ولا تفارق جماعته . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرسول باليمن مهادنات ، ومفاسحات تارة وتارة . قال : وهذا الإمام وكل من كان قبله على طريقة ماغيروها . وهى إمارة أعرابية لا كبر فى صدورها ، ولا شتم فى عرائنها ؛ وهم على مسكة من التقوى ، وترد بشعار الزهد ، يجلس فى ندى قومه كواحد منهم ، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم ، سواء عنده المشروف والشریف ، والقوى والضعيف ؛ وربما اشترى سلعته بيده ، ومشى فى أسواق بلده ، لا يغلظ الحجاب ، ولا يكلل الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلغت من غير توسع ، ولا تكثر غير مشيع ؛ هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل ، وفضل كامل . قال : فى "مسالك الأبصار" : وليشعة هذا الإمام فيه حسن الاعتقاد ، حتى إنهم يستشفون بدعائه ، ويمرون يده على مرضاهم ، ويستسقون به المطر إذا أجذبوا ، ويبالغون فى ذلك كل المبالغة . ثم قال : ولا يكبر لإمام هذه سيرته - فى التواضع لله ، وحسن المعاملة خلقه ، وهو من ذلك الأصل الطاهر والعنصر الطيب - أن يحجب دعاؤه ويُقبل منه . قال : وزى هذا الإمام وأتباعه زى العرب فى لباسهم والعمامة والحنك ، وينادى عندهم بالأذان «حى على خير العمل» .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : أدام الله تعالى أوضاعه الله تعالى نعمة ، أو جلال الجانب الكريم ، العالى ، السيدي ، الإمامي ، الشريفي ، النسيبي ، الحسيني ، العلّامي ، سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوي ، نحر النسب العلوي ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلّاء ،

صالح الأولياء، علم الهداة، زعيم المؤمنين، ذخّر المسلمين، مُنجد الملوك والسلاطين .
 ولا زال زمانه مُربعا، وغيله مُسبعا، وقراره مُشيعا، وكرمه لفيض نداء متبعا، وهذه
 حيث أم بالصفوف متبعا، وملّكه المجتمع باليمن لو أدركه سيف بن ذي يزن لم يكن
 إلا لديه منتضى وتبع لم يكن له إلا تبعا . ولا فتئت معاقده شرفه بالجوزاء، وعقائده
 حبه تعدد لحسن الجزاء، ومعاهد وطنه أهله بكثرة الأعزاء، ومياسم أهل ولائه تعز
 إليه بالأعتراء، ومياسم ثغور أودائه ضاحكة السيوف في وجوه الأرزاء؛ هذه التجوى
 إلى روضه الممرع وإلا فما تزم الركائب، وإلى حوضه المثرع وإلا فما الحاجة إلى
 السحاب؛ وإلى حماه المخضب وإلا ففيم يسرى الرائد، وإلى مرماه المطنّب فوق
 السماء وإلا إلى أين يريد الصاعد؛ تسرى ولها من هادى وجهه دليل، وفي نادى
 كرمه مقبل، وإلى بادى حرمة وما فيه للعاكف، وإلى على ضرمة مالا ينكره العارف،
 وفي آثار قدمه ما يحكم به كل عائف؛ وفي بدار خدمه ما يذر عداه كراما؛ أشتدت
 به الرّيح في يوم عاصف . مبدية وأول ما تبدأ بسلام تُقدمه على قول كَيْت وكَيْت،
 وثناء ولا مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .



صدر آخر— ولا عطل محراب هو إمامه، ولا بطل عمل هو تمامه، ولا جف
 ثرى نبات هو عمامه، ولا خف وقار أمرى بيده المصرفة زمانه، ولا آرتد مضرب
 سيف رؤس أعاديه كجأه؛ ولا آرتأى في حصول الخيرة له من كان إلى كنفه
 أنضمّاه . وأطال الله باع عليائه، وأطاب بأنبائه سماع أوليائه، وأدام إجماع السرور
 عليه، ومصافاته لأصفياه وتراميه إليه . صدرت بها الركائب إليه محفّة، وسرت

بها النجائب لتقف عليه والقلوب بها تحفه^(١) ، وأهوت لديه يشمخ بها لوصولها
إليه الكبر ، وطوت إليه اليد طى الشقة تقيسها المطايا بالأذرع والثريا بالشبر ،
تأقن بالعجب إذ تجلب إليه المسك الأذفر ، وتجلوه الصباح وما لاح والليل وما
أسفر ، وتحل في مقر إمامته ، وتحل العاطل بما نثره من الطل صوب غمامته ،
موصلة لعلمه ما لا يقطع ، ومضوعة عنده من عبر الشجر ما يستبضع ، ومعلمة له
كيت وكيت .

قلت : هذا ما أصله في "التعريف" وحاصله أنه يأتي بالصدر المقدم ذكره
إلى قوله : « منجد الملوك والسلاطين » ، ثم يأتي بالدعاء المناسب ، ثم يقول :
« هذه النجوى » إلى آخره « مبدية لعلمه » أو « معلمة » أو « صدرت بها الركائب »
ونحو ذلك .

ثم لم يتعرض في "التعريف" لقطع الورق الذي يكتب إليه فيه ، ولا للعلامة
له ، ولا لعنوان كتابه ، ولا لتعريفه ، ونبه على ذلك في "التثقيف" وأنه أهمل ذلك
ثم لم ينبّه هو عليه . وقد رأيت في دستور منسوب للقر العلاءي بن فضل الله بيان
ما أهمله من ذلك فقال : والخطاب له بمولانا الإمام ، والطلب منه « والمسئول »
وختم الكتاب بالإيناء ، والعنوان بالألقاب والدعاء المقدم ذكره ، والعلامة
« الخادم » .

وقد ذكر في "التعريف" أنه وصل إلى الديار المصرية ، في الأيام الناصرية « محمد بن
قلاوون » سقى الله عهده رسولاً من هذا الإمام [ابن مطهر^(٢) إمام الزيدية] من صنعاء ،
بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطل فيه الشكوى من صاحب اين ، وعدد قبائحه ،

(١) لعله محنفة فانه ليس في كتب اللغة التي بأيدينا أحف به ولكن حف به واحتف فحنه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

ونشر على عيون الناس فضائحه؛ وأستنصر بمدد يأتى تحت الأعلام المنصورة لإجلاله
عن دياره، وإجرائه مجرى الذين ظلموا في تعجيل دماره؛ وقال : إنه إذا حضرت
الحيوش المؤيدة قام معها، وقاد إليها الأشراف والعرب أجمعها؛ ثم إذا استنقذ منه
ما بيده أنعم عليه ببعضه، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه . ثم قال : فكتبت إليه
مؤذنا بالإجابة، مؤذيا إليه ما يقتضى إعجابه؛ وضمن الجواب أنه لارغبة^(١) [لنا]
في السلب، وأن النصرة تكون لله خالصة وله كل البلاد لا قدر ما طلب .

وهذه نسخته :

ضاغف الله تعالى جلال الجانب - بالألقاب والنعوت - وأعز جانبه عزاً تُعقد
فواضله بنواصى الخيل، وصياصى المعاقل التي لم يطلع على مثلها سهيل؛ وأقاصى
الشرف الذى طلع منه فى الطوق وتمسك سواه بالذيل؛ وقدمه للثقلين إماما، وجعله
للمستقين غمما، وشرفه على المرتقين فى علا النسب العلوى وتوره وصوره تماما،
ومن على اليمن يمينه، وأعلم بصنعاء حسن صنيعه وبحضرموت^(٢) [حضور] موت
أعدائه، وبعدن أنها مقدمة لحنات عدنه؛ ولا زالت الآفاق تؤمل من فيضه سحبا
دانيا، وتهلل إذا شامت له برقاً يمانيا، وتنقل فى رتب محامده ولا تبلغ من المجد
ما كان بانيا .

هذه النجوى وكفى بها فيما يقدم بين يديها، ويقوم ولا يقوم من كل غالى الثمن ماعليها؛
تطوى المراحل، وتجوب البر والبلد الماحل، وتنب إليه البحار وتقذف منها العنبر إلى
الساحل؛ وترسى به سفنها، وتحط إليه بل تخط لديه مدنها، وتؤذن علمه - سر الله -
بما لم يحل إليه من نظر، ولم يخل منه من سبب ألف به النوم أو نقر؛ ورود وارد

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥ .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦ .

رسوله فقال : يا بُشْرَى ولم يُقَل هذا غُلام ، ووصولُه بالسَّلامة والسلام ؛ وما تَضَمَّنَه ما اسْتَصَحَبَ منه من صحيفَةٍ كُلُّها كَرَمٌ ، وأخبارٍ صَحِيحَةٍ كُلُّها مِمَّا لَوْ قُدِفَ بِهِ الْمَاءُ لَأَضْطَرَمَّ ، ذَكَرَ فِيهَا أَمْرَ الْمُتَغَلَّبِ الْعَادِي ، [وَالصَّاحِبِ الَّذِي يَفْعَلُ فِعْلَ الْأَعَادِي] ^(١) ، وَالْجَارِ الَّذِي جَارَ وَالظَّالِمِ الْبَادِي ؛ وَمَا مَدَّ الْأَيْدِيَ إِلَيْهِ مِنَ النَّهَابِ ، وَمَا اخْتَطَفَ بِهِ الْقُلُوبَ مِنَ الْإِرْهَابِ ؛ وَتَحَدَّثَ عَنْ أَخْبَارِهِ وَعِنْدَنَا عِلْمُهُ ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَعْمَالِهِ مِمَّا لَهُ أَجْرُ الصَّبْرِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ ظُلْمُهُ ؛ وَقَصَّ رَسُولُهُ الْقِصَصَ ، وَزَادَ الشَّجَى وَضَيَّقَ مَجَالَ الْعِصَصِ ؛ وَأَطَارَ مِنْ وَكْرِ هَذَا الْعُدُونِ طَائِرًا كَأَنَّمَا كَانَ فِي صَدْرِهِ ، وَحَرَّكَ مِنْهُ لَأَمْرٍ كَانَ يَتَجَرَّعُ لَهُ كَأَسَّ صَبْرِهِ ؛ وَقَدْ أَسْمَعَ الدَّاعِيَ ، وَأَسْرَعَ السَّاعِيَ ؛ وَبَلَغَ الْأَمَانَةَ حَامِلُهَا ، وَأَوْصَلَ الْكَلِمَةَ قَائِلُهَا ؛ وَمَرَحَبًا مَرَحَبًا بِدَاعِي الْقِيَامِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَأَهْلًا أَهْلًا بِمَا بَلَغَ عَلَى أَلْسِنَةِ رَسُولِهِ ؛ وَهَلُمَّ هَلُمَّ إِلَى قَلْعِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَمْ يُحِبَّ ظَنُّ غَارِسِهَا ، وَقَطَعَ هَذِهِ الصَّخْرَةَ الَّتِي لَمْ تُنْصَبْ إِلَّا مَزَلَّةً لِدَائِسِهَا ؛ وَالتَّعَاوَضَ التَّعَاوَضَ لِمَا هَتَفَ بِهِ هَاتِفُهُ الصَّارِخُ ، وَسَمِعَهُ حَتَّى الرِّيحُ الْأَصْمُ وَالسَّيْفُ الْمُتَصَاوِخُ ، فَلْيَأْخُذْ لِهَذَا الْأَمْرِ الْأَهْمِيَّةَ ، وَلْيَشُدَّ عَلَيْهِ فَقْدَ آتِ الْوَثْبَةِ ؛ فَقَدْ سَطَّرَتْ وَقَدْ نَهَضَ إِلَى الْخَيْلِ مُلْجِمُهَا ، وَبَادَرَ وَضَعَ السَّهَامِ فِي الْكَائِنِ مَرْجِمُهَا ؛ وَكَأَنَّهُ بِأَوَّلِ الْأَعْتَةِ ، وَأَذَانُ الْحِيَادِ تَفُوقُ بَيْنَ شَطْرِي وَجْهَهَا الْأَسْنَةَ ؛ وَكَأَنَّهُ بِرَسُولِهِ الْقَائِدِ وَفِي أَعْقَابِهِ الْجَيْشُ الْمُطْلُ ، وَالْأُلُويَّةُ وَكُلُّ بَطَلٍ بِاسِلٍ يَبْتَدِرُ الْوَعْيَ وَلَا يَسْتَدِلُّ ؛ وَلَا أَرْبَ لَنَا فِي اسْتِزَادَةِ بِلَادٍ وَسَّعَ اللَّهُ لَنَا نِطَاقَهَا ، وَكَثُرَ بِنَا مَوَادُّ أُمُومَالِهَا وَقَدَّرَ عَلَى أَيْدِينَا إِنْفَاقَهَا ؛ وَإِنَّمَا الْقُصْدُ كُلُّهُ وَالْأَرْبُ جَمِيعُهُ كَشْفُ تِلْكَ الْكَرْبِ ، وَتَدَارُكُ [ذَلِكَ الدِّمَاءِ الَّذِي] ^(١) أَوْشَكَ أَوْ كَرَبَ ، وَإِنْ قُدِّرَ فُتُوحٌ ، وَتَيْسَّرَ مَا طَرَفَ سِوَانَا إِلَيْهِ طُمُوحٌ ؛ كَانَ هُوَ أَحَقُّ بِسُقْيِهِ : لِأَنَّهُ جَارُ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح عن التعريف ص ١٧ .

(٢) في الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكافئ كما لا يخفى .

الدار، والأقول الذى كان له البدار؛ ويقل له لعظيم شرفه ما نسمح به وإن جل،
ومانهبه منه وإن عظم - شأن كل تبع وهو ببعضه ما استقل؛ وكأنه والحيل قد وافته
تجدد في الإحضار، وتسرع إليه وتكفيه مؤنة الانتظار؛ إن شاء الله تعالى .

الفرقة الثانية

(أولاد رسول)

وهم المعروفون بملوك اليمن عند الإطلاق، ومقر مملكتهم حصن عِزٍّ . ورسول
هذا الذى كان ينسب إليه ملوك هذا النسب من اليمن هو رسول أمير أخور الملك
الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . قال في "التعريف" : ولما بعث الملك
الكامل ولده الملك المسعود أطسر، وهو الذى تسميه العاقمة أفسيس ، بعث معه
رسولاً أمير أخور في جملة من بعثه معه . قال : ثم تنقلت الأحوال حتى استقل
رسول بملك اليمن، وضار الملك في عقبه إلى الآن . والذى ذكره المؤيد صاحب
حماة، وقاضى القضاة ولئ الدين بن خلدون في تاريخيهما وهو الصواب أن أول
من ملك اليمن على بن رسول، ثم أبنة المنصور عمر، ثم أبنة المظفر يوسف، ثم أبنة
الأشرف عمر، ثم أخوه المؤيد هنبر الدين داود، ثم أبنة المجاهد سيف الدين على،
وهو الذى قال المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" إنه كان في زمنه ،
ثم المنصور أيوب، ثم المجاهد على المقدم ذكره ثانياً، ثم أبنة الأفضل سيف الدين
عباس . وهو الذى قال في "التثقيف" إنه كان في زمنه في الدولة الأشرفية «شعبان
أبن حسين» ثم أبنة المنصور محمد ، ثم أخوه الأشرف إسماعيل، وهو الذى كان
في الدولة الظاهرية برقوق . ثم أبنة [الملك الناصر أحمد^(١)] وهو القائم بها الآن .

(١) بياض بالأصل هنا وفي ج ٥ ص ٣٣ أيضاً عند الكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحيح
من بغية المستفيد لابن الديع .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَكَاتِبَاتِ بَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ وَصَاحِبِ الْيَمَنِ مِنْ حِينَ اسْتَقَرَّتْ مَمْلَكَةُ الْيَمَنِ مَعَ بَنِي أَيُّوبَ مُلُوكِ مِصْرَ وَصَارَتْ الْمَمْلَكَاتُ كَالْمَمْلَكَةِ الْوَاحِدَةِ ، ثُمَّ تَوَاصَلَتِ الْمَكَاتِبَاتُ بَيْنَ مُلُوكِهِمَا وَتَأَكَّدَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا ، خَلَا مَا وَقَعَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنْ حَصُولِ تَبَايُنٍ وَقَعَ بَيْنَ أَهْلِ الْمَمْلَكَتَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ ، وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

الضرب الأول

(ما كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، وَهُوَ أَنْ تُفْتَحَ

المَكْتَابَةُ بِلَفْظِ « أَصْدَرْنَاهَا »)

وهذه نسخة كتاب عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام ، إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن يستقدمه إليه ، معاوناً له على قتال الفرنج ، ويخبره بما وقع له من الفتوحات في سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهي :

أَصْدَرْنَا هَذِهِ الْمَكَاتِبَةَ إِلَى الْمَجْلِسِ ، وَمَا تَجَدَّدَ بِحَضْرَتِنَا فُتُوحُ « كَوَكَب » وَهِيَ كَرْمِي الْأِسْتَبَارِيَّةُ وَدَارُ كُفْرِهِمْ ، وَمُسْتَقَرُّ صَاحِبِ أَمْرِهِمْ ، وَمَوْضِعُ سِلَاحِهِمْ وَذُنُورِهِمْ ، وَكَانَ يَجْمَعُ الطُّرُقَ قَاعِدًا ، وَلَمَلَّتْ السُّبُلُ رَاصِدًا ، فَتَعَلَّقَتْ بِفَتْحِهِ بِلَادُ الْفَتْحِ وَأَسْتَوْطِنَتْ ، وَسُلِكَتِ الطُّرُقُ فِيهَا وَأُمْنَتْ ، وَعُمِّرَتْ بِلَادُهَا وَسُكِنَتْ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذَا الْجَانِبِ إِلَّا « صُور » وَلَوْلَا أَنَّ الْبَحْرَ يُجْبِدهَا وَالْمَرَاقِبَ تَرِدُهَا ، لَكَانَ قِيَادُهَا قَدْ أُمْكِنَ ، وَجَاحُهَا قَدْ أَدْعَنَ ، وَمَاهَمُ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حِصْنِ يَحْيِيهِمْ ، بَلْ فِي سِجْنِ يَحْيُوهُمْ ، بَلْ هُمْ أَسَارَى وَإِنْ كَانُوا طُلُقَاءَ ، وَأَمْوَاتٌ وَإِنْ كَانُوا أَحْيَاءَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدْ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ وَلِكُلِّ أَمْرٍ أَجَلٌ لَا بَدَّ أَنْ يَصْدُقَ غَائِبُهُ ، وَأَمَلٌ لَا بَدَّ أَنْ يَكْذِبَهُ خَائِبُهُ .

وكان نزولنا على «كوكب» بعد أن فتحنا «صفد» بلد الديوية ومعلهم ،
 ومُستقلهم وعملهم ومحلهم الأحصن ومنزلهم ؛ وبعد أن فتحنا «الرك»
 وحصونه ، والمجلس السيفي - أسماء الله - أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته
 المثقلة ، وقضيته المشكلة وعنته المعضلة ؛ وأن القرنج - لعنهم الله - كانوا يقعدون
 منه مقاعد السمع ، ويتبوءون منه مواضع للنفع ؛ ويحولون بين قات (؟) وراكبها ،
 فيدللون الأرض بما كان منه ثقلاً على منّا كبا . والآن ماأمن بلاد الحرمين ، بأشد
 من بلاد الحرمين ؛ فكُلها كان مشتركا في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت تُرامى
 ولا تُرام ، وتُسامى ولا تُسام ؛ وطالما استقرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها
 أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن صجّت النصال من النصال ؛ والله المشكور
 على ما أنطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام . وإن بلاد الشام اليوم
 لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قِيلاً سلاماً سلاماً [فادخلوها بسلام] ؛ وكان نزولنا
 على «كوكب» والشتاء في كوكبه ، وقد طلع بين الأنواء في موكبه ؛ والتلوج تنشر على
 البلاد ملاءها الفضيض ، وتكسو الجبال عمامها البيض ؛ والأودية قد تجت بامها ،
 وفاضت عند امتلائها ؛ وشمخت أنوفها سيولا ، وغرقت الأرض وبلغت الجبال
 طولا ؛ والأوحال قد اعتقلت الطرقات ، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات ؛
 فتجشمتنا العناء نحن ورجال العساكر ، وكاثرتا العدو والزمان وقد يحجز الحظ المكاثر ؛
 وعلم الله النية فأنجَدنا بفضلها ، وضيم الأمانة فأعان على حملها ؛ ونزلنا من رؤوس
 الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها ، والوقوف بساحتها أهون من
 ثقلها ﴿ وأما نعمة ربك فحدث ﴾ .

والحمد لله الذى ألهمنا بنعمته الحديث ، ونصر بسيف الإسلام الذى هو سيفه وسيف الإسلام الذى هو أخونا الطيب على الخبيث ؛ فمدح السيف ينقسم على حديه ، ومدح الكريم يتعدى إلى يديه ؛ والآن فالمجلس - أسماء الله - يعلم أن الفرنج لا يسئلون عما فتحنا ، ولا يصبرون على ما جرحنا ؛ فإنهم - خذلهم الله - أم لا تحصى ، وجيوش لا تستقصى ؛ ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ، ويطمع فى كل مدينة كسبا ؛ ويد الله فوق أيديهم ، والله محيط بأقربهم وأبعدهم ؛ و«سيعجل الله بعد عسر يسرا» . «لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» .

وما هم إلا كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تعاوت . وإن لم يؤدقوا من كل جانب دحورا ، ويبتعوا بكل شهاب ناقب مدحورا ؛ آستأسدوا وأستكلبوا ، وتآلبوا وجلبوا وأجلبوا ، وحاربوا وحربوا ؛ وكانوا لباطلهم الداحض ، أنصر منا لحقتنا الناهض ؛ وفى ضلالتهم الفاضح ، أبصر منا لهدانا الواضح ؛ والله درجير حيث يقول :
إِنَّ الْكِرِيمَةَ يَنْصُرُ الْكَرَّمَ أَنَّهَا * وَأَبْنُ اللَّيْمَةِ لِلثَّامِ نَصُورُ !

فالبدار إلى النجدة البدار ! ، والمسارة إلى الجنة فإنها لن تبال إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة ! فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف فى وجوها إلا الملوك الكبار :

وما هى إلا نهضة تورث العلاء * ليومك ما حنت روازم نيب !

ونحن فى هذه السنة - إن شاء الله تعالى - نزل على أنطاكية ، ونزل ولدنا الملك المظفر - أظفرو الله - على طرابلس ؛ ويستقر الركب العادى - أعلاه الله - بمصر فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تطرق ، وأن الطاب على الشام ومصر تفرق ؛ ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفى - أسماء الله - بحراً فى بلاد الساحل

يَزَحْرَسِلَاحًا، وَيَجْرِدُ سَيْفًا يَكُونُ عَلَى مَافَتْحَانَهُ قُفْلًا، وَلَمَّا لَمْ يُفْتَحْ بَعْدَ مُفْتَاَحِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ
لِأَحَدٍ مِّنَ الْأَخْ مِنْ سُمْعَةٍ لَهَا فِي كُلِّ مَسْمَعٍ سَمْعُهُ، وَفِي كُلِّ رُوعٍ رَوْعُهُ، وَفِي كُلِّ
مُحَضَّرٍ مُحَضَّرٌ، وَفِي كُلِّ مَسْجِدٍ مِّنْبَرٌ، وَفِي كُلِّ مَشْهَدٍ مَّخْبَرٌ، فَمَا يُدْعَى الْعَظِيمُ إِلَّا لِلْعَظِيمِ،
وَلَا يُرْجَى الْمُوقِفُ الصَّبِرِ الْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرِيمُ، وَالْأَقْدَارُ مَاضِيَةٌ، وَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ جَارِيَةٌ،
فَإِنَّ إِلَهًا اللَّهُ يَنْصُرُ عَلَى الْعَدُوِّ الْمَضْعَفِ، بِالْعَدَدِ الْأَضْعَفِ، وَيُوصِّلُ إِلَى الْجَوْهَرِ
الْأَعْلَى، بِالْعَرَضِ الْأَدْنَى، فَإِنَّا لَا نَرْتَابُ أَنَّ اللَّهَ مَافَتْحَ عَلَيْنَا هَذِهِ الْقُتُوحَ لِيُعْلِقَهَا،
وَلَا جَمَعَ عَلَيْنَا هَذِهِ الْأُمَّةَ لِيُفَرِّقَهَا، وَأَنَّ الْعَدُوَّ إِنِ خَرَجَ مِنْ دَارِهِ بَطْرًا،
وَدَخَلَ إِلَى دَارِنَا كَانَ فِيهَا جَزَا، وَمَا بَقِيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَمْوَالٌ تُسَاقَى إِلَى
نَاهِبِهَا، وَرِقَابٌ تُقَادُ إِلَى ضَارِبِهَا، وَأَسْلِحَةٌ تُحْمَلُ إِلَى كَاسِبِهَا، وَإِنَّمَا تُؤَثِّرُ أَنْ لَا تَطْوِيَّ
صَحَائِفُ الْحَمْدِ خَالِيَةً مِنْ أَسْمِهِ، وَمَوَاقِفُ الرُّشْدِ خَاوِيَةً مِنْ عَزَمِهِ، وَنُورٌ أَنْ يُسَاهِمَ
آلُ أَيُّوبَ فِي مِيرَاسِهِمْ مِنْهُ مَوَاقِعَ الصَّبْرِ، وَمَطَالِعَ النَّصْرِ، فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ عَطَايَا
الْآخِرَةِ الْفَاحِرَةِ، أَشَدُّ مَنَاحِرُصًا عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ عَطَايَا الدُّنْيَا الْقَاصِرَةِ، وَإِنَّا لَا يُسْرِنَا
أَنْ يَنْقُضِي عُمْرُهُ فِي قِتَالٍ غَيْرِ الْكَافِرِ، وَنِزَالٍ غَيْرِ الْكُفِّ الْمُنَاطِرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ سَيْفَهُ
لَوْ اتَّصَلَ بِلسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمٍ، لَقَالَ: مَا دُمْتُ هُنَاكَ فَلَسْتُ تَمَّ، وَمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى خُطَّةٍ
يَخَافُهَا، وَلَا مَتَكَلَّفُ قَضِيَّةٍ بِحُكْمِنَا يِعَاقُهَا، وَالَّذِي بِيَدِهِ لَا تَسْتَكْبِرُهُ، بَلْ تَسْتَقْصِرُهُ عَنْ
حَقِّهِ وَنَسْتَصْغِرُهُ، وَمَا نَاوَلْنَاهُ لَفَتْحَ أَرْضِهِ السَّلَاحِ، وَلَا أَعْرَنَاهُ لِمَلِكٍ مَرْكَزِهِ النَّجَاحِ،
إِلَّا عَلَى سَخَاءٍ مِنَ النَّفْسِ بِهِ وَبِأَمَثَالِهِ، عَلَى عِلْمٍ مَّا أَنَّهُ لَا يَقْعُدُ عَنَّا إِذَا قَامَتْ [الْحَرْبُ]
بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَا نَكُنْ بِهِ ظَنًّا أَحْسَنَ مِنْهُ فَعَلًا، وَلَا نَرْضَى وَقَدْ جَعَلَنَا اللَّهُ أَهْلًا أَنْ لَا نَرَاهُ
لِنَصْرِنَا أَهْلًا، وَلَيْسَتْ تَشْرُ أَهْلَ الرِّشَادِ فَإِنَّهُمْ [لَا يَأْلُونَهُ] ^(١) حَقًّا وَاسْتَنْهَاضًا، وَلِيَعِصَ أَهْلُ الْغَوَايَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ «بِالْوَه حَقًّا» كَمَا تَقْدُمُ أَيْضًا فِي ص ٢٧ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَالصُّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ فِي الصُّنَابِ

كَمَا يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى وَقَوَاعِدُ اللَّغَةِ تَأْمَلُ .

فإنهم إنما يتفalcon به لمصالحهم أغراضاً ، ومن بيته يظعن وإلى بيته يقفل ، وهو
يحيبنا جواب مثله لثلثنا ، وينوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع
شملنا ، ولا تقعد به في الله نهضة قائم ، ولا تخذله عزمة عازم ، ولا يستفت فيها فوت
طالب ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وإنما هي سفرة قاصده ، وزجرة واحدة ، فإذا
هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر والسمعه ، ودان الله أحسن دين ولا
حرج عليه إن فاء إلى أرضه بالرجعه ، وليندبر ما كتبناه ، وليتفهم ما أردناه ، وليقدم
الاستخاره ، فإنها سراج الاستنارة ، وليغضب الله ورسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان
الاستغضاب والاستنارة . وليحضر حتى يشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفرقة عمّا ،
وقد عاشوا ماعاشوا لا يعرفون أن لهم مع عمهم عمّا ، والله سبحانه يليهم توفيقاً ،
ويسلك به إليه طريقاً ، ويحدنا به سيفاً لرقبة الكفر ممزقاً ودمه مريقاً ، ويجعله
في مضمار الطاعات سابقاً لا مسبوقاً . إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(من المكاتبات إلى صاحب اليمن ما الأمر عليه من ابتداء الدولة التركية
وهلم جراً إلى زماننا ، وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بلفظ «أدام الله تعالى نعمة [أيام] المقام العالي»)

وهذه نسخة كتاب كتبت عن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جواب كتاب ورد
من صاحب اليمن في مقابلة البشري بدخول العساكر المنصورة إلى بلاد الأرمن ،
وطلب سلامش نائب التار بالروم الدخول في الطاعة ؛ وذكر أن نائباً كان لأبيه

(١) أى صاحب اليمن في كتابه الذى ورد منه في مقابلة البشري .

في قلعة طمع وعصى عليه فظفر به فبشر بذلك ؛ ويحرضه على الجهاد وإنقاذ الأموال ، ويهتده ، ويوجه به قصاده إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله ، وهي :

أدام الله تعالى نعمة أيام المقام العالی ! وأنهضه بفرض الجهاد الذي بمثله يُتَهَجَّجُ ،
وأيقظه لمتعين الغزو الذي ما ^(١) له تُدْرِكُ الرُّبَّ وترفع الدَّرج ؛ وأشهده
في سبيل الله مواقف النصر التي إذا أودعنا نُشْرِ بِشْرُها الطُّروس عبقت بما فيها من
الأرج ؛ وأراه مشاهد فتوحنا التي إذا حدثت الأحلام عن عجائبها حدثت عن البحر
ولا حرج ؛ وصان مجده عن إضاعة الوقت في غير حديث الجهاد الذي هو أولى
مأبذلت له الذخائر وأبتذلت فيه المهج .

صدرت هذه المكاتبة تخصه بتحية تَضَوُّعُ نُشْرًا ، وتُخَفُّهُ من متجددات الظفر
بُشْرًا ، يَمْلَأُ الوجودَ مَسْرَةً وبُشْرَى ، وتَقْصُصُ عليه من متجددات فتح يأتي على
ما أتعبت فيه الأفكار قرائحها من مشتهى التَّهَانِي فلا يدع له ذكرًا ، وتتلو على من ظنَّ
بعد ما سمع من البلاغ بلاغ العدا أن إزالة وإلٍ عن مركزه فتح كبير : لقد جئت
شيئًا نكرا . وتوضَّح لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت مقصورة على نبيا لا يُعتدَّ
بذكره ، محصورة على خبر لا ينبغي لمثل مجده أن يُمرَّه على فكره ، مطلقة عنان القلم
فيما كان ينبغي طي خبره وتعفى أثره ، وإخفاء سببه وتركه نسيًا منسيًا فضلًا عن
التبجح بذكره ، والتهنئة به ، إذ في ذلك مقابلة البحر بالثَّاد ، والروح بالجماد ؛
والشمس بالذَّبال ، والهدى بالضلال ؛ فلم يكمل له في ذلك المراد ، وأتى بما قالت له
التَّهَانِي : (نحن في وادٍ وأنت في وادٍ) ؛ وقبلناها مع ذلك بالقبول الذي آجتلى غررها ،

(١) بياض في الاصل ولعله الذي بالقيام به تدرك الخ .

وَأُحْدِثَ لَدَيْهِ وَرْدَهَا وَصَدَرَهَا ، فَأَحْطْنَا عَلَمًا بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي أَبْدَاهَا ، وَالتَّجَدُّدَاتِ الَّتِي عَظُمَ مَوْقِعُ نَشْرِهَا عِنْدَهُ فَأَهْدَاهَا .

(١) وأما ما ذكره من أمر القلعة التي كان [النائب بها] لوالده شخصاً اعتمد عليه ، وولاه مستحفظاً ظنّه مع تغيّر الأحوال مؤتمناً على ما في يديه ؛ وأن ذلك الشخص بعد انتقال والده رحمه الله طمع فيما استودع بفحْدِ الوديعة والمُودعة ، ورام المنازعة والمقاطعة ، وخالف وحالف ، وقارب العُصيان وقارب ؛ وأنه في هذا الوقت قلع ذلك النائب ، من تلك القلعة المفتصة ، وأراح من همّه الناصب ، أفكاره ووصبه ؛ إلى غير ذلك مما أورده على وجه البشرى لهذا السبب الضعيف ، وأبرزه في معرض التهنئة من هذا الأمر الطفيف ؛ وأراد أن يتكثّر فيه بما لا مدخل له في كثره وقلة ، فذكر بروزه بجمعه إلى شخص واحد في قبالة ما اتصل به من نبيا كل موطن برز فيه الإسلام كله إلى الشّرك كله ؛ وظاهر الأمر أن ذلك الشخص ماعضى بالمكان الذي كان فيه إلا لما رأى بالملكة اليمنية من اضطراب الأحوال ، وأسباب الاختلاف والاختلال ؛ والوهن الذي حسن له الاحتراز والاختزال ؛ والخلوّة التي حملته على أن (طاب الطعن وحده والتّزال) ؛ وامتداد الأيدي العادية بكلّ جهة إلى ما يليها ، وضياّع رعايا كلّ ناحية بالاشتغال عن افتقاد أحوال من يباشرها وانتقاد تصرف من يليها ؛ فهو الذي أوجب طمعه ، وقوى ضلعه ، وحمله من مرّكب العناد ، وأراه نظراء بتلك الجهة ممن سلك الفساد . وهذا الأمر ما خفي علينا خبره ، ولا توارى عنا ورده ولا صدره ؛ فإن أخبار مملكة اليمن ما زالت متواصلة إلينا بما هي عليه من اضطراب واف ، واختلاف غير خاف ، وهيّج لا يرجع الأمر فيه إلى كاف كاف ؛ وما أحرنا لحق جيوشنا المنصورة ، وعساكرنا التي ممالك العدا بمهابتها محصورة ؛

(١) لم يأت لأما بجواب واضح ولكنه يدرك بالتأمل .

عن الوصول إلى المملكة اليمنية لتقويم أودها، وتمكين شديها، وإقامة أمر الملك فيها، وحسم مادة الفساد عن نواحيها، وتطمين البلاد، وإنامة الرعايا من الأمن في أوطانهم، والاحتراز على الخزائن والأموال، وصونها عن الإنفاق في غير جند الله الذين منعوا دعوة الشرك أن تقوم وكلمة الكفر أن تُقال؛ إلا لأن عساكرنا كانت الآن في الممالك والأقاليم التي بيد الكفر: من التتار المخدولين، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين؛ تقتل وتأسر، وتلقى الجيوش الكافرة فتكسب وتكسر؛ وتصحبهم حيث حلوا طلائع رعبها، وتصحبهم منها أين طلوا ريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها.

وماسطرنا هذه المكتبة إلا وجيوشنا المنصورة قد وطئت عقر بلادهم فأذلّتها وأذلّتها، وغيرت أحوالها وحالاتها، وقاسمتهم شرّ قسمة فلها منها الحصون والمصون، والجنات الوارفة الغصون، ولهم منها الخراب والتباب، والدارس الذي لا يحصل بكفّ دارس بنه إلا الثراب؛ وهاهي قادمة إلينا يقدّمها النصر، ويتقدّمها من أسر العدا وغنائمهم ما يربّي عن الحصر؛ وما يلبّي وبين رُكوب هذا البحر لملك تمهده، وعدل تجدده؛ وبغاة تكفّ غرّبتها، ورعاة تؤمن بالمهاجرة سربها، وتصفى من أكدار الفتن سربها، وخزائن لها عن غير الإنفاق في سبيل الله تصونها إلا بمقدار ما تستقرّ بها المنازل استقرار السنة بالحقون لا النوم ^(١)، وأضرمت

نواحيها، وأستأقت أهلها ومواسيها، وجعلت قصورها صعيدا، وزرعها حصيدا؛ وعقائِلها إماء، ومعاقِلها هباء؛ وأبتذلت مصونها الذي جعله الله لها أثقالا، وأختارت من حصونها لمديكتنا ما كانت سيوفنا له مقايح فلما فتحت عدن له أقالا؛ وأقتلعت من القلاع التي كانت بيد الكفر كل معقل أشب، وحصن شابت نواصي

(١) بياض بالأصل ولعله لا النوم بالعيون فإ من جهة العدا إلا وأضرمت الخ تأمل

اللَّيْلَ وهو لم يَشِبْ ؛ قد صُفِّحَ بالَصَّفَاحِ ، وشُرِّفَ بِأَسِنَّةِ الرَّمَاحِ ، واستَدَارَ بِقَنَّةِ قَلَةٍ يَنْهَبُ التَّرَفُّقَ إِلَيْهَا هُوجَ الزِّيَاحِ ؛ فَطَهَّرَتْهُ مِنَ النَّجَسِ ، وعَوَضَتْهُ بِصَوْتِ الْأَذَانِ عَنْ صَوْتِ الْحَرَسِ ، وَأَحْرَسَتِ النَّاقُوسَ بِسُورَةِ الْفَتْحِ الَّذِي عَوَّذَتْهُ نُوبُ الدَّهْرِ بِآيَاتِ الْحَرَسِ ؛ مع مَا أُضِيفَ إِلَى تِلْكَ الْقِلَاعِ مِنْ يِلَادٍ وَتِلَادٍ ، وَأَغْوَارٍ وَنَجَادٍ ؛ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَأَمْوَالٍ أَرْتَجِعُ بِهَا مَا كَانَ لِلْإِسْلَامِ فِي ذِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْ بَقَايَا الدُّيُونِ . وَكُلُّ تِلْكَ الْغَنَائِمِ مَنْحُنَاهَا جُيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ وَأَبْجَنَاهَا ، وَقَوَيْنَاهُمْ عَلَى أُمَثَالِهَا مِنَ الْفُتُوحِ بِرَفْعِ الْعَوَائِقِ الَّتِي أَرْزَلْنَاهَا ، بِالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَرْزَحْنَاهَا ؛ وَمَا وَصَلَ الْآنَ قُصَّادُهُ إِلَى أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ إِلَّا وَالبَشَائِرُ تَنْطِقُ بِالْأَسِنَّةِ التَّهَانِي ، وَتَحَقِّقُ بِمُجَدِّدَاتِ هَذِهِ الْفُتُوحِ فِي الْأَفَاصِي مِنْ مَمَالِكَا وَالْأَدَانِي ؛ وَقَدْ شَاهَدُوا ذَلِكَ وَشَهِدُوهُ ، وَرَأَوْا مَا رَأَى غَيْرُهُمْ مِنْ نَوَادِرِ الْفُتُوحِ الَّتِي أَرَبَتْ عَلَى مَا أَلْفُوهُ مِنْ قَبْلُ وَعَهْدُوهُ . هَذَا وَمَا وَضَعْتَ الْحَرْبُ إِلَى الْآنَ أَوْزَارَهَا ، وَلَا نَحْمَدُ نَارَ الْوَغَى الَّتِي أَعْدَتْ جُيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ لِلْأَعْدَاءِ وَأَوَّارَهَا ؛ وَمَا يَمُضِي وَقْتُ إِلَّا وَالبَشَائِرُ مُتَوَارِدَةٌ عَلَيْنَا بِفَتْحِ جَدِيدٍ ، وَنَصْرِ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُخَلَّقٍ تَحْلُقُ فِي كُلِّ بَرٍّ بِرِيدٍ . وَقُصَّارِي أَمْرَ الْعَدُوِّ الْآنَ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ بَلَدٌ ، إِلَّا وَقَدْ (أَخْنَى) عَلَيْهِ الَّذِي أَخْنَى (عَلَى لُبْدٍ) ؛ وَلَا دَارَ إِلَّا وَقَدْ أَضْحَتْ كِدَارِمِيَّةٌ الَّتِي (أَقْوَتْ) وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ) ؛ وَلَا جَيْشٌ إِلَّا وَقَدْ فَرَّ وَأَيْنَ يَقْتَرِ وَهُوَ يَطْوِي فِي قُبُضَتِنَا الْمَرَاحِلَ ؟ ، وَلَا طَرَائِدُ بَحْرٍ إِلَّا وَهِيَ مَطْرُودَةٌ فِي الْبَلَجِّ لِتَقِيْنَهُمْ أَنْ الْعَطَبُ لَا السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ .

فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ رَأَيْنَا أَنَّ أَشْتَغَالَ جَيْشَ الْإِسْلَامِ بِجَانِبِ الْكُفْرِ هُوَ الْمُهْمُّ الْمَقْدَمُ عَلَى مَا سِوَاهُ ، وَالْقَرَضُ الَّذِي نَبْنِي فِيهِ إِنْقَاذُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَتَحْكُمُهُ «وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَانَوَاهُ» وَرَأَيْنَا أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْجِهَةِ مَا يَقُوتُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَتَمَكُّنِهِ ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَقَامَ بِقُدْرَتِهِ مِنَّا مَلِكًا لِنَصْرَةِ دِينِهِ فَإِنَّ الْيَمِينَ وَغَيْرَهُ فِي يَمِينِهِ ؛ وَهِيَ مُحْسُوبَةٌ

من أعداد ممالك المحروسه، ومعدودة من أقسام بلادنا التي هي بؤفود الفُتوح ما نؤسه ؛
ولا بُد من النظر في أمرها ، وإعمال الفكر في إزاحة ضرها ؛ وتجرید العساكر
المنصورة إليها ، وإقدام الجيوش التي عادتُها الإقدام في الوغى عليها ؛ ليكون العمل
في أمرها بما يرضى الله ورسوله ، ويبلغ من كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا
يُطبقه سؤله ؛ فإن المملكة المذكورة توالّت عليها المدد، ومضى عليها الأبد ؛ وهمة من
فيها إلى اللهو مضروفة ، وعلى اللذات موقوفة ؛ وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة حتى
كأن الجهاد لم يبلغهم وغره حلمه ، ولا أحاطت أفكارهم بشيء من علمه ؛ بل كأنه
على غيرهم وجب ، وكأن ما أعد الله من الأجر عليه إنما أريد به الذين يكثرزون
الذهب ؛ وتمادت الأيام وليس في نكايّة أعداء الله منهم مُصيب ، وتفرقت
الأموال وما لجئوا الله فيما آحتوا عليه من ذلك سهم ولا نصيب ؛ وأى عذر عند الله
لمن جعله مؤتمناً على ماله فلم يكن له في سبيل الله إنفاق ؟ وأى حجة لمن [لم] يقف
موقف جهاد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ مات ولم يغز ولم
يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق " .

والآن فإن الله سبحانه وتعالى قد أقامنا لنصرة الإسلام ورفع كلمة الإيمان وتمهيد
البلاد، وإجراء الأحوال في القريب منها والبعيد على ما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله
عليه السلام من السداد ؛ وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة والمجاهدين الذين ما منهم
إلا مُسكٌ بعنان فرسه ، مكتحلٌ بسهاد حرسه ؛ لا يأمن العدو مهاجمة خيله في سراه ،
ولا مفاجاة خياله في كراه ، حصنه ظهر حصانه ، وجوابه على لسان سنانِه ، كلمّا
سمع هبة أو وقعة طار على متن فرسه يلتبس الموت والقتل في مظانه ؛ وهؤلاء هم
جيوشنا الذين دؤخوا البلاد، وأذلوا أهل العناد، وطهروا السواحل ، وأجروا في كل

موطن من أنهار الدماء مأيروى البلد الساحل، وهزموا جيوش التتار وهم في أعداد الكواكب، وحصدوهم بسيوفهم عمروزة (٩) وهم في نحو المائة ألف راكب، حتى إن ملوك التتار الآن ليمتنون إرضاءنا وإغضائنا، وليستدعون ويدعون للآباد ولآئنا، ويطلبون المسألة منا، ويوثون نسمة قبول تصدر إليهم عنا، والطويل العمر منهم ومن والاهم هو الذي يهرب من بين يدي جيوشنا المنصورة ليسلم بنفسه، وإن أسلم ما يعز عليه من ماله ولده وعمره. فمثل هؤلاء الذين يستحقون أموال الممالك الإسلامية ليستعينوا بها في جهازهم لجهادهم، وينفقوها في إعدادهم لأعدائهم، ويصرفوها في ذبهم عن دين ربهم.

وهذه المملكة اليمنية قد اجتمع فيها من الأموال ما يربي عن الحصر والحد، ويزيد على الإحصاء والعذب، لا ينفق منها شيء في الجهاد، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد، قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرا وجهرا، ويستزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسرا وقهرا، وأبيحت لمن تأبى الجهاد جانبا، ورضى باللهو صاحبها، وأقنى السلاح لغير يوم الباس، وأعتى بارتباط الحيات بطرا ورياء الناس.

وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية: ليصرف ذلك في حقه، ويصل إلى مستحقه، ويكون قد أعد منها للإنفاق في سبيل الله جانب بحيث لا يضاع، ووصل إلى مجاهدي الأمة نصيب من مال الله الذي هو في يد من ولأه شيئا من أمور عياده على حكم الإيداع، ويدخل ذلك في زمرة الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها، فحصلت المكابرة في الجواب عن ذلك، وأى عذر في المكابرة عن

(١) كذا في الأصل ولعله ويخرج بذلك من زمرة الخ تامل.

مثل هذا الأمر وشغل الوقت بذكرة ؟ ونحن عندنا في كل وقت من البشائر
بمواهب الفتح ، وغرائب المنح ، ومتجددات الظفر والنصر ، ومتحليات التأييد التي
قسمت أعداء الله بين الحصد والحصر ، ما يهب نشره هبوب الريح في البر والبحار ،
ويود الدهر لورقه بذهب الأصيل على صفحات النهار ، وكل ذلك في أشد أعداء
الله تعالى : من التتار ، الذين عرف عددهم وجلدهم ، والفரசنج الذين طال وكثر
في عداوة الإسلام أبدهم ومددهم ، والأرمن الذين هم أكثر الطائفتين في الظاهر
وفاقا ، وأشد الفتنين في الباطن نقرا ونفاقا ، وهم لهؤلاء وهؤلاء مادة تميز وتمير ،
وتغريهم وتغريهم فتصيرهم من نار الحرب المضرة لسيوفنا إلى جهنم ونس المصير ،
وأى شيء من ذلك يذكر عند مواقف جيوشنا المنصورة ، وظفر عساكرنا المؤيدة ؟ ،
لو كان حصل عنده الفكر الصائب ماوردت مكانته إلا وهي مقترنة بما يرضى الله
ورسوله وأهل الإسلام : من إمداد الغزاة بالأموال ، وإعانتهم على الكلف التي كلما
أعد لها مال [بدت] حال يلائمها الإنفاق في سبيل الله ويستلوك عن الجبال ، وهاهي
قادمة إلينا يقدمها النصر ، ويتقدمها من أسرى العدا وغنائمهم ما يربى عن الحصر ،
وما بينها وبين ركوب تبج هذا البحر ملك ثمهده ، وعدل تجدهده ، وبغاة تكف
غربها ، ورعايا تؤمن بالمهابة سربها ، وتصفى من أكار الفتن سربها ، وأموال
تصونها ، وخزائن ينزه عن غير الإنفاق في سبيل الله مصونها ، إلا بمقدار ما تستقرها
المنازل استقرار السنة بالحقون لا النوم ، وتأخذ أهبه لذلك المهم في يوم أو بعض يوم .
اللهم إلا أن تلبى دعوة الجهاد من تلك الجهة بالسنة التغير ، وتعي صفوف
الجلاذ في الجوارى التي تكاد بأجنة القلوع تطير ، أو تنوب عنها خزائن الأموال
التي تنفق في سبيل الله تعالى ، أو تقوم مقامها النفقات التي تصرف إلى جنود الله
التي تنفر في سبيل الله تعالى خفافا وثقالا ، ليكون قد استدر بركة ذلك الطل

أَخْلَافَ الْوَابِلِ ، وَأَنْفَقَ مَا اخْتَرَنَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي مَثَلُ مَا يُنْفِقُ فِيهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ، وَتَسْتَعِدُّ الْجِيُوشُ الْمَنْصُورَةُ إِلَى طَوِيٍّ يُصُونُ بِرَأْيِهِ مُلْكَهُ
 وَيُصُولُ ، وَيَسْتَطِيلُ عَلَى الْوُجُودِ وَلَوْ أَنَّ الْبَرْسِيُوفَ وَالْبَحْرَ نَصُولُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُرْشِدُهُ
 إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَيُمْسِكُهُ مِنْ طَاعَتِهِ بِالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ وَالسَّبَبِ الْأَقْوَى ؛
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الأسلوب الثاني

(وهو المذکور فی "التعريف")

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِلَفْظٍ : «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى جَانِبَ الْمَقَامِ الْعَالِي» إِلَى آخِرِ الْأَقْبَابِ ،
 ثُمَّ الدُّعَاءُ ، مَثَلُ : وَلَا زَالَ يُحْسِنُ وَلَا يَهْضُ بِجِنَاحِ نَسَبِهِ ، وَيُصُونُ مُلْكَهُ
 بَعْدَهُ أَكْثَرَ مِنْ قُضْبِهِ ، وَيُثَبِّتُ فِي الْيَمَنِ الْيَمْنَ فِي حَالَةِ إِقَامَتِهِ وَمَنْقَلَبِهِ .
 أَصْدَرْنَا هَا إِلَى مَقَامِهِ مَوْشَحَةً الْمَعَاطِفِ بِحُلِيِّهِ ، شَاكِرَةً عَلَا عَلَيْهِ ، ذَاكِرَةً مِنْ مُحَمَّدِهِ
 مَا يَتَكَثَّرُ السَّحَابُ بِوَلِيِّهِ ، مُبْدِيَةً لِعَلَمِهِ الْكَرِيمِ كَيْتَ وَكَيْتَ .

وهذه أدعيةٌ وصدُور تناسبُ كل سلطانٍ بها :

وَلَا زَالَ بِهِ «تَعَزُّ» تَعَزُّ وَتَفُوزُ بِهِ زَيْبُذٌ ، وَيَخْرُجُ مِنْ عَدَنَ عَدَنَ فَضْلُهُ الْمَدِيدُ ،
 وَتَمْتَلِكُ بِوُفُودِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ : هَذَا تَطْيِيرُهُ الْمَرَاكِبُ وَهَذِهِ الرِّكَائِبُ كِلَاهُمَا مِنْ مَكَانٍ
 بَعِيدٍ ، وَلَا بَرِحَتْ بِهِ أَهْلَةُ الْأَوْطَانِ ، مُشْتَقَّةً صِفَاتُ قُطْرِهِ الْيَمْنِيِّ مِنْ «الْإِيمَانِ يَمَانٌ» ؛
 مُحْجُوبًا بِالْجَلَالَةِ أَوْ مُحْجُوجًا لِمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِ الْأَرْكَانِ .

أَصْدَرْنَا هَا وَالسَّلَامَ يُبَارَى مَا تُثَبِّتُ أَرْضَهُ مِنْ نَبَاتِهَا الطَّيِّبِ ، وَيَجَارِي بِالثَّنَاءِ
 مَا يَنْهَلُ فِي أَكْخَافِهِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ سَحَابِهَا الصَّيِّبِ ؛ وَتَسْرِي إِلَيْهِ بِتَحْيَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى
 قَادِمَةِ كُلِّ نَسِيمٍ ، وَفِي طَيِّ كُلِّ عَامٍ لَهُ وَقُوفٌ عَلَى رُبْعِهِ وَتَسْلِيمٍ ؛ وَتَوْصَحُّ لِعَلَمِهِ الْكَرِيمِ .

دعاء وصدرٌ يختص بالمجاهد على ، وهو :

ولا زال أفصل متوَّج في يمنه ، وأعلى على إذا قيس بأبن ذى يزنه ، وأشجع من
حمى بعهوده مالا تقدر السيف على حمايته من وطنه ، ولا أنفك الملك المجاهد عن
عرضه المصون ، وسيف الدين الذى يقوم فى المفروض من مراضى الله بالمسنون ،
وأبأ الحسن لما يحسن فى قطنته الحسنى أو فطرته من الظنون ، والعلی قدر إذا
أخذت الملوك مراتبها وحدقت إليه العيون .

صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته وسلامها يتفاح لديها ، ويصالح غمامه
فى يديها ، وتجرى سفائن إخلاصه حتى تقف عليها ، وتسرى بتحياتها محلقة بالبشرى
فى صباح كل يوم يقرب من الوصول إليها ، وتبدى لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف على صورة مكتبة مفتحة بلفظ «أعز الله تعالى جانب المقام»
كتب بها إلى بعض ملوك اليمن فى زمن من الأزمان ، فأوردها استشهاده لهذا
الأسلوب .

الأسلوب الثالث

(أن تفتح المكتبة بلفظ : «أعز الله تعالى نصرة المقام العالى»)

وهذه نسخة كتاب كتب به إلى صاحب اليمن أيضا ، عن السلطان الملك المنصور
قلاوون ، مبشرا بفتح صافيتا^(١) ، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه
الله ، وهو :

(١) لم نجد لفتح مصدرا على قول فيما أن يكون جارى العرف وإما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه
ووقائعه وهو بعيد تأمل .

أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمَقَامِ الْعَالِي، الْمَوْلَى، السُّلْطَانِي، الْمَلِكِي، الْمُظْفَرِي،
الشَّمْسِي، وَأَشْرَكَهُ فِي كُلِّ بَشْرِي تُشَدُّ الرِّحَالُ لِاسْتِمَاعِهَا، وَتُحْلَلُ الْحَبَى لِاسْتِطْلَاعِهَا،
وَتَهْفَأُ التَّوَارِيخُ وَالسَّيَرُ عَلَى اسْتِرْفَاعِهَا، وَتَتَنَافَسُ الْأَقْلَامُ وَالسِّيُوفُ عَلَى الْأَفْهَامِ
بِأَجْنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا، وَلَا خَلَا مَوْقِفُ جِهَادٍ مِنْ اسْمِهِ، وَلَا مَصْرِفُ أَجْرٍ مِنْ قَسَمِهِ،
وَلَا غَرَضُ هِنَاءٍ مِنْ سَهْمِهِ، وَلَا أَفْقُ ابْتِهَاجٍ مِنْ بَزْوَجِ شَمْسِهِ وَطُلُوعِ نَجْمِهِ. سَطَرَ الْمَمْلُوكُ
هَذِهِ الْبَشْرِي وَالسَّيْفُ وَالْقَلَمُ يَسْتَمِدَّانِ : هَذَا مِنْ دِيمٍ وَهَذَا مِنْ نَفْسٍ، وَيَمْضِيَانِ :
هَذَا فِي رَأْسٍ وَهَذَا فِي طَرَسٍ، وَيَتَجَاوَبَانِ : هَذَا بِالصَّلِيلِ وَهَذَا بِالصَّرِيرِ، وَيَتَنَاوَبَانِ :
هَذَا يَسْتَمِيلُ وَهَذَا يَسْتَمِيرُ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَنَافِسُ الْآخَرَ عَلَى الْمَشَافَهَةِ بِخَبَرِ هَذَا الْفَتْحِ
الَّذِي مَاسَمَتْ إِلَيْهِ هُمُ الْمَمْلُوكُ الْأَوَائِلُ، وَلَا وُسِمَتْ بِهِ سَيْرُهُمُ الَّتِي بَدَتْ أَجْيَادُهَا مِنْ
حِلَاةِ عَوَاطِلَ، وَلَا دَارَ فِي خَلَدٍ أَنْ مَثَلُهُ يَتَبَيَّنُ فِي الْمُدَدِ الطَّوِيلَةِ، وَلَا تَشَكَّلُ فِي ذَهْنٍ
أَنَّهُ سَيُذْرَكُ بِحَوْلٍ وَلَا حِيلَةٍ، وَهُوَ النَّصْرُ الْمَرْتَّبُ عَلَى حَرَكَتِنَا الَّتِي طَوَى اللهُ لِرُكْبَانِنَا
فِيهَا الْمَرَاحِلَ، وَأَلْقَى بِدَرَرٍ عَسَاكِرِنَا مِنْ بَحْرِ الْحَدِيدِ الْمَالِحِ إِلَى السَّاحِلِ، وَهَجُمْنَا
عَلَى الْبِلَادِ الْقَرَنِيَّةِ : وَهِيَ طَرَابُلُسُ وَصَافِيَّةٌ وَأَنْطَرُسُوسُ وَمَرْقِيَّةٌ وَالْمَرْقَبُ، كَمَا يَهْجُمُ
الْفَيْثُ، وَمُضَادِمَتِنَا صُدُّو رَهَا كَمَا يَصْدِمُ اللَّيْثُ، وَسَلَوَكُنَا مِنْهَا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ حَيْثُ
وَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ مِنْ إِبَارَاتٍ أَحْسَنَتْ مَتَقَلَّبَ الْأَعْنَةِ، وَمَتَعَلَّقَ السِّيُوفِ
وَمُخْتَرَقَ الْأَسْنَةِ، وَمَاتِيَةً مِنْهَا مِنْ فُتُوحٍ صَافِيَّةٍ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْبِلَادِ، وَمَتَجَعُّ الْحَاضِرِ
وَالْبَادِ، وَكُونُهَا قَدَمَتْ نَفْسَهَا فِي جَمَلَةٍ مَا يُقْرَى بِهِ الضَّيْفُ، وَقَالَتْ : هَذَا فَتُوحُ
حَضَرَ عَلَى هَذَا الْفُتُوحِ لِهَذَا السَّيْفِ، وَتَلَطَّفَتْ فِي مَسْحِ أَطْرَافِ الْأَمَانِ، وَطَلَبَتْ
شُكْرًا وَمِنَّا شُكْرَانٍ، وَأَحْضَرَتْ إِلَيْنَا مِنْ أَهْلِهَا الْوَقْتَ وَهَدَّتِ السِّيُوفُ فِي أَعْنَاقِهِمْ
قَتَشَبَتْ بِهَا الْأَغْلَالُ، وَأَنْفَتِ أَيْمَانُ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ مُصَاحِقَتِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ
الشَّمَالِ، فَاطْلَقَهُمْ سَيْفُنَا وَأَمَلَهُ يَمِينُنَا إِلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ مِنْهُمْ مَالًا، وَأَكْثَرُ أَحْتِفَالًا،

وأبزمآلاً، وأهزَّ سيوفاً قصاراً ورماحاً طوالاً؛ وأستطار منها شرارُ نارِ الحربِ الموقدةِ إلى غيرها من القلاعِ، وأستطال إلى سواها من الحصون منهم الباعُ؛ فلا حصنَ إلا وأقترتْ ثنيته عن نصرٍ مسهلٍ، وفتح معجلٍ ومؤجلٍ .

فمن ذلك حصنُ الأكرادِ الذي تاهَ بعطفه على الممالكِ والحصونِ، وسَمَخَ بأنفه عن أن تمتدَّ إلى مثله يدُ الحربِ الزُّبُونِ؛ وغداً جاذباً بضجعِ الشامِ، وآخذاً بمُخَانِقِ بلادِ الإسلامِ؛ وشللاً في يدِ البلادِ، وشجاً في صدرِ العبادِ؛ تنقُصُ من عِشَّةِ صُفُورِ الأعداءِ الكاسره، وترتاعُ من سَطَوَتِها قلوبُ الجيوشِ الطائره؛ وترِيضُ بأرباضه آسادُ تَحْيَى تلكَ الآجامِ، وتَفُوقُ من قِسيه سهامَ تَصْمِي مَفُوقَاتِ السَّهامِ؛ تُعْطِيسُه المملوكُ الجزيةَ عن يده وهم صاغِرُونَ، وَيَصْطَفِي كِرَامَ أَمْوَالِهِم وهم صابِرُونَ لَمْصَابِرُونَ؛ كم شَكَتْ منه حماةُ ثنَى بنكرها قِلَّةُ الإنصافِ، وكم خافَتْه معرَّةُ وما من معرَّةٍ خافَ؛ مازالت أيدى الممالكِ تمتدُّ إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جورِ جواره تلكَ الحصونُ والصَّيَاصِي، وتَبْكِي بدمعِ نهرها من تأثيرِ آثارِهِ مع عِصْيَانِها ونَاهِيكَ بدمعِ العاصِي؛ حتَّى نبَّهَ الله إلحاظَ سيوفِ الإسلامِ من جُفُونِها، ووفَّى النُصرةَ ماوجب من دُيُونِها؛ وذلك بأنَّا قصدنا فِسيحَ رَبِّعِهِ، ونزلنا ونازلنا محمًى صُتْعُهُ، وختمنا بنِصَالِنَا على قَلْبِهِ وسَمْعِهِ؛ وله مددٌ حَوْلَهُ خمسُ هَوَاكِيرَةٍ وهى كالْأَمَلِ، وتكادُ بِرُوجِهِ تُرى كالمطايا المَقْطُرة وهى منها بمنزلةِ الزَّوَامِلِ؛ ماخِيَمُنَا بِهِ حتَّى آسَبَحْنَا تَحْيَى تلكَ المدائنِ المَكْنِي عنها بالأرباضِ، وأُصْحَبْنَا بِسَاحَتِها بِحَرًّا من الحديدِ ماأندفعَ حتَّى فاضَ؛ وأخذنا الثُّقُوبَ فى أسوارِ لا تُنْقَضُ ولا يَنْقُصُ بُنيَانُها المَرْصُوصِ، ولا تَقْرَأُ المَعَاوِلُ مَالِحَوَاتِمَ أَرْجَاحِها من نُفُوشِ القُصُوصِ؛ ونصَبْنَا عليها عِدَّةَ مَجَانِيْقٍ حُمِلَتْ فى شَوَاهِقِ الجبالِ، على رُءُوسِ الأبطالِ؛ فتَغَيَّظَتِ السَّمُورِيَّةُ أَنَّ الذى تقوُّمُ بِهِ هذه تِلْكَ بِهِ لا تقوُّمُ، وأنَّ مامنها إلا لَهُ من الأيدى والرُّءُوسِ مقامٌ معلومٌ؛ وصار يرمى بها كلُّ

كَمْي مَحْتَلِسٍ ، وَأَرْوَعَ مَنَهَسٍ ، وَكُلُّ لَيْثٍ غَايَةٍ يَحْمِيهَا وَتَحِيهِ ! فَشُكْرًا لِأَسْوَدَ حَتَّى غَابَتْهَا
تَفْتَرَسُ ، إِلَى أَنْ جَثَّتْ أَسْوَارُهَا عَلَى الرُّكْبِ ، وَكَانَتْ سِهَامٌ مَجَانِيقُهَا تَمِيلُ مِنَ الْعُجْبِ
فَصَارَتْ تَمِيدُ مِنَ الْعَجَبِ ، وَكَانَتْ تَطْلُبُ فَصَارَتْ تَهْرُبُ مِنَ الطَّلَبِ ، وَأَشْتَدَّ
الْأَمْرُ عَلَى الْكُفَّارِ فَقَاتَلُوا قِتَالًا أَقْصَى مَضَاجِعِ الْأَسْلَحَةِ ، وَأَطَارَ حِجَارَةٌ مَجَانِيقَهُمْ بغير
أُجْنَحِهِ ، وَأَشْجَى بِشَجْوِ النُّصُولِ الْمُرْتَمَّةِ عَلَى غُصُونِ السَّهَامِ الْمُرْتَحَةِ ، هَذَا وَأَهْلُ
الْإِيمَانِ يَتَلَقَّوْنَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِصَبْرٍ يَسْتَطِيعُونَ مِنْهُ شُهْدًا ، وَإِقْدَامٌ يَتَلَقَّى صَدَى الْحَدِيدِ
بِأَكْبَادٍ مَازَالَتْ إِلَى مَوَارِدِهِ قَصْدًا ، يَتَحِمُّونَ نَارَ الْحَرْبِ الَّتِي كَلَّمَا أَوْقَدُوهَا أَطْفَأَهَا اللَّهُ
وَقَالَ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا ، وَالْبِلَادُ الْفَرَنْجِيَّةُ قَدْ غُضَّتْ مِنْهَا الْأَبْصَارُ وَخَشَعَتِ الْقُلُوبُ ،
وَأَعْتَقَدَ كُلُّ مَنْهَا فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ بَعْدَ هَذَا الْحِصْنِ الْمَطْلُوبِ ، فَهَذِهِ تَوَدُّ لَوْ أَكْتَنَاهَا
الْبَحَارُ تَحْتَ جَنَاحِ أَمْوَاجِهَا ، وَهَذِهِ لَوْ أَسْبَلَتِ الرِّيحُ الْعَوَاصِفُ عَلَيْهَا دُيُولَ عَجَاجِهَا ،
وَهَذِهِ لَوْ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ، وَهَذِهِ لَوْ خُسِفَ بِهَا النَّوْءُ وَعَفَّتْ
مِنْهَا الْآثَارُ ، وَذَلِكَ لِمَا بَلَغَهُمْ وَشَاهَدُوهُ مِنْ وَيْلٍ حَلَّ بِأَهْلِ هَذَا الْحِصْنِ الْمَنِيعِ ،
وَمِنْ قَتْلٍ أَحْمَلَ رَبْعَهُ الْمَرِيْعَ ، وَضَيَّقَ مَجَالَهُ الْوَسِيعَ ، وَقَرَّاعَ أَشْجَرِ الْحَدِيدِ مِنَ الْحَدِيدِ
وَالْأَبْطَالُ لَمْ تَضْجِرْ ، وَنَضَالٍ أَسْهَرَ كُلَّ جَفْنٍ حَتَّى جَفَوْنَ السِّيُوفَ لِأَنَّا عَوَدْنَا هَذَا مِثْلَ
جَفُونِنَا أَنْ تَسْهَرَ ، فَكَمْ شَكَّتِ النُّقُوبُ مِنْ مَنَا كَيْهِمْ زِحَامًا ، وَالشُّرَفَاتُ مِنْ تَرْقِيهِمْ
الْإِتْرَامَا ، وَالرَّقَابُ مِنْ سِيُوفِهِمْ أَقْتِسَامَا ، وَكَمْ حَمَدَتِ التِّجَارِبُ مِنْ رَأْيِهِمْ شَيْخًا وَحِيدَ
الْإِقْدَامِ مِنْ ثُبُوتِهِمْ غُلَامًا ، قَدْ دَوَّخُوا الْبِلَادَ فَلَا مَوْطِنَ إِلَّا لَهُمْ بِهِ مَعْرَكَةٌ ، وَأَرْمَلُوا
الْحَلَالَّ فَلَا مُشْرِكَ إِلَّا وَقَدْ أَرْمَلَ مِنْ مُشْرِكِهِ ، وَأَزْعَجُوا الْكُفْرَ فَلَا قَلْبَ إِلَّا بِهِ مِنْهُمْ
خَوْفٌ وَلَا سَمْعَ إِلَّا لَهُمْ بِهِ حَرَكَةٌ ، وَمَلَأُوا الْأَرْضَ كَثْرَةً وَكَيْفَ لَا يَكْثُرُ اللَّهُ جَمْعًا لِلْإِسْلَامِ
جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ بَرَكَه .

وكتبنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هنيء بهذا الفتح الذى تُثني على كتاب
بشائره الحقائق ، وتجرى إلى سماع أخباره الركائب ، وتترأخ على المسير تحت
البرد الواصلة به متون الصبا وظهور الجنايب ، وإذا ذكرت ملاحمة ، قال كل :
هذا كتاب أم كتيبة تلوح ، وإذا شوهدت حمرة طرسه قيل : وهذا ما صبغته في اليد
المعلمة عليه دم الكفر المسفوح ، وينعم - أعز الله نصره - بالإعلان بهذا النبأ
الحسن الذى تستروح إليه الأسماع ، وتسر بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه
ومن قلاعه العظيمة الامتناع ، فإنه ما برح الأخ يفرح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما
أشترك كل شيء فيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر إلى صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل
محي الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جواب تعزية أرسلها
إليه فى ولده الملك الصالح فى ورق أزرق ، وكانت العادة أن تكون فى ورق أصفر .
ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعالى نصرة المقام إلى آخر الألقاب ، وأحسن بتسليته الصبر على كل
فادح ، والأجر على كل مصاب قرح القرائح وجرح الجوانح ، وأوفد من تعازيه كل
مسكن طاحت به من تلقاء صنعاء اليمن الطوائح ، وكتب له جزاء التصبر عن جار
من دمع طافح ، على جار لسويداء القلب صالح .

المملوك يخدم خدمة لا يدود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر
كارث ، ولا ينقضها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ،
ويطلع العلم الكريم على ورود مشال كريم ، لولا زرقه طرسه وزرقه لبسه لقال :

﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . تتضمن ما كان حدث من رُزءٍ تَلَّافٍ اللهُ بِنَاسِيهِ ، وتوافى بَعُودَ الصَّبْرِ فَتَوَلَّى التَّسْلِيمُ تَلِيْنِ تَقَاسِيهِ وَتَمَرِّينَ قَاسِيِهِ ؛ فَشَكَرْنَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَى وَحَمَدْنَاهُ عَلَى مَا أَخَذَ ، وَمَا قُلْنَا : هَذَا جَزَعٌ قَدْ آتَنَبَهُ إِلَّا وَقُلْنَا هَذَا تَثَبَّتْ قَدْ آتَنَبَدُ ، وَلَا تَوْهَمُنَا أَنَّ فِلْذَةً كَبَدٌ قَدْ آخُطِفَتْ إِلَّا وَشَاهَدْنَا حَوْلَنَا مِنْ ذُرِّيَّتِنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَلِذَ ؛ وَأَحْسَنًا الْأَحْتِسَابِ ، وَدَخَلَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ بَابٍ ، وَوَقَّانَا اللهُ عِزَّ وَجَلَّ أَجَرَ الصَّابِرِينَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؛ وَلَنَا - وَالشُّكْرُ لِلَّهِ - صَبْرٌ جَمِيلٌ لَا نَأْسَفُ مَعَهُ عَلَى فَائَتْ وَلَا نَأْسَى عَلَى مَفْقُودٍ ، وَإِذَا عَلِمَ اللهُ سَبْحَانَهُ حُسْنَ الْأِسْتِثْنَاءِ إِلَى قَضَائِهِ ، وَالْأَسْتِثْنَاءِ إِلَى عَطَائِهِ ، عَوَّضَ كُلَّ يَوْمٍ مَا يَقُولُ الْمُبَشِّرُ بِهِ : هَذَا مَوْلَى مَوْلُودٍ . وَلَيْسَتْ الْإِبِلُ بِأَغْلَظَ أَكْبَادًا مِنْ لَهُ قَلْبٌ لَا يُيَالِي بِالْصَّدَمَاتِ كَثُرَتْ أَوْ قَلَّتْ ، وَلَا بِالتَّبَارِيخِ حَقُرَتْ أَوْ جَلَّتْ ؛ وَلَا بِالْأَزْمَاتِ إِنَّهُ هِيَ تَوَالَتْ أَوْ تَوَلَّتْ ، وَلَا بِالْجُفُونِ إِنَّ أَلَقَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمُوعِ وَالْهُجُوعِ وَتَحَلَّتْ ؛ وَيَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ مَنْ لَاحَلَبَ أَشْطَرَهُ ، وَيَأْسَفُ عَلَى الْفَائَتْ مَنْ لَا بَاتَ بِنَبْلِ الْخُطُوبِ الْخَطِيرَةِ ؛ عَلَى أَنَّ الْقَادِحَ بِمَوْتِ الْوَلَدِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَإِنْ كَانَ مُنْكِيًا ، وَالنَّافِعَ بِشُجُوهِهِ وَإِنْ كَانَ مُبْكِيًا ، وَالنَّائِخَ بِذَلِكَ الْأَسْفِ وَإِنْ كَانَ لِنَارِ الْأَسْفِ مُدْكِيًا ؛ فَإِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَثْبِيتِ اللهِ عِزَّ وَجَلَّ مَا يَنْسِفُهُ نَسْفًا ، وَمَنْ إِلْهَامِهِ الصَّبْرَ مَا يَجِدُّ لِمُزِيْقِ الْقُلُوبِ أَحْسَنَ مَا بِهِ تُرْفَى . وَبِكَتَابِ اللهِ تَعَالَى وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا حُسْنُ اقْتِدَاءٍ يَضْرِبُ عَنْ كُلِّ رِثَاءٍ صَفْحًا ، وَمَا كُنَّا مَعِ ذَلِكَ - وَالْمُنَّةُ لِلَّهِ - نُصْنِى لِمَنْ يُوْتِبُ وَيُوْبِنُ أَذْنَا ، وَلَا نُعِيرُهَا لِمَنْ يَلْحَا إِذَا الْوَلَدُ الذَاهِبُ فِي رِضْوَانِ اللهِ سَالَكًا طَرِيقًا لَا عِوَجَ فِيهَا وَلَا أَمْتًا ، وَانْتَقَلَ سَارًّا بَارًّا صَالِحًا صَالِحًا وَمَا هَكَذَا كُلُّ الْمَوْتِ نَعْيًا وَنَعْمًا ، وَلَيْتَ كَانَ نَفَعَنَا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ نَحْنُ بِالْصَّدَقَاتِ وَالتَّرَحُّمِ عَلَيْهِ نَفَعَهُ ، وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ عَمَلَ أَبِيهِ وَقَدْ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى رُوحَ

ولدنا إلى أعلى عليين تحقق أنه العمل الصالح يُرفعه ؛ وفيما نحن بصدد من اشتغال بالحروب ، مأيهون مأيهول من الكروب ؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وقلبه يحول ، بل عن تخيل أسف في الخاطر يحول .
إذا اعتاد الفتى خوص المنايا * فاهون مامتر به الوحول !
فلنا بحمد الله تعالى ذرية دريه ، وعقود والشكر لله كلها دريه .

إذا سيد منهم خلا قام سيد * قسول لما قال الكرام فعول !
مأمهم إلا من نظر سعده ومن سعده يتظر ، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن يسد حاله بكفاله وكفاليته مسد الخبر ، (والشمس طالعة إن غيب القمر) ؛ لاسيما من الذى يراد هو صلاحه أعرف ، ومن إذا قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعيد أشرف . وعلى كل حال لا عدم إحسان العمل الذى يتنوع فى ربه ، ويعاجل قضاء الحقوق فيساعف مرسومه فى توصيله طاعة بحره وبره ؛ وله الشكر على مساهمة المولى فى الفرح والترح ، ومشاركته فى الهناء إذا سنع وفى الدمع إذا سفع ؛ وما مثل مكارم المولى من يعزب ذلك عن علمها ، ولا يعزى إلى غير حكامها وحلمها ؛ وهو - أعزه الله - ذو التجارب التى محضت له من هذه وهذه الزبده ، وعرضت عليه منها الهضبة والوهده . والرغبة إلى الله تعالى أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمه ، كما لم يجعلها للظهور قاصمه ؛ وأن يجعلها بعد حمل هذا الهم وفصله على عليه فاطمه ، وأن يحبب إلينا كل ما يلهى عن الأموال والأولاد ، من غزو وجهاد ، وأن يخولنا فليس يحد لدينا على مفقود تأدبا مع الله عز وجل غير السيوف فإنها تعرف بالحداد ، وأن لا تقصف رماحنا إلا فى فود أو فؤاد ، ولا تحول سروج خيلنا إلا من ظهر جواد فى السرايا إلى ظهر جواد ؛ وأن لا نشق لدينا إلا

أَكْبَادُ النَّادِ ، وَلَا تُجَزَّ غَيْرُ شُعُورِ مَلُوكِ التَّارِ تُتَوَجُّ بِهَا رُؤُوسُ الرِّمَاحِ وَيُصْعَدُ بِهَا عَلَى قِمَمِ الصَّعَادِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ لِلْوَلِيِّ سَعَى مَرَاتِيهِ الَّتِي أَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِمَا صَبَرْنَا بِهِ لِأَقَامَتِ الْجَنَائِزِ ، وَاسْتَحَقَّتِ النِّجَازُ ، وَلَاهُوتِ الْبُفُوسُ فِي آسْتِمَالِ الْجَنَائِزِ مِنْ الْأَسْفِ وَغَيْرِ الْجَنَائِزِ ، وَلَا شَغَلَ اللَّهُ لُبَّ الْمَوْلَى بِفَادِحِهِ ، وَلَا خَاطَرَهُ بِسَاحِحَةِ مَنْ الْحُزْنُ أَوْ بَارِحَهُ ، وَلَا أَسْمَعَهُ لَغَيْرِ الْمَسَرَّاتِ مِنْ هَوَاتِفِ الْإِبْهَاجِ صَادِحِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الأسلوب الرابع

(أَنْ تَفْتَحَ الْمَكْتَبَةَ بِلَفْظِ « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْعَالِي »)

وَعَلَيْهَا كَانَ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ)

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كُتِبَ بِهَا عَنْ الْمَلِكِ الْمُظْفَرَقُطْز - وَصَاحِبِ الْيَمِينِ يَوْمَئِذٍ الْمَنْصُورِ - بِالْبِشَارَةِ بِهَزِيمَةِ التَّارِ . وَأَظْهَرُ مِنْ لِنِشَاءِ الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ ، وَهِيَ :

أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، الْمَنْصُورِيِّ ، وَأَعْلَى مَنَارِهِ ، وَضَاعَفَ أَقْتِدَارَهُ ؛ تُعَلِّمُهُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ النِّصْفُ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْفَرْدِ ، فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعَّرُ بِأُسِهِ * لِأَخْضَرَ جُودًا فِي يَدَيْهِ الْأَسْمَرِ

فَصَدَرَتْ هَذِهِ التَّهْنِئَةُ إِلَيْهِ رَاوِيَةً لِلصَّدَقِ عَنِ الْيَوْمِ الْحَجَلِ الْأَغْرَ :

يَوْمَ غَدَاً بِالنَّقْعِ فِيهِ يَهْتَدِي * مَنْ ضَلَّ فِيهِ بِأَنْجُمِ الْمُرَّانِ

فَفَنَى أَذُنَ الدَّهْرِ مِنْ وَقْعِهِ صَمَمٌ ، وَفِي عِرْنَيْنِ الْبَدْرِ مِنْ نَقْعِهِ شَمَمٌ ؛ تَرْفَعُهُ رِوَاةُ الْأَسَلِ عَنِ الْأُسْتَنِ ، وَيُسَيِّنْدُهُ مَجَرُّ الْعَوَالِي عَنْ مَجَرِّ الْأَعْنَةِ ، أَمَّا النَّصْرُ الَّذِي شَهِدَ

الضربُ بِصِحَّتِهِ ، والطعنُ بِنصيحتِهِ ؛ فهو أن التتر خذلهم الله تعالى آستطأوا على
الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام :

سعى الطمعُ المردى بهم لحثوفهم * ومن يمسكن ذيل المطامع يعطب

فاتعاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ؛ وقد أرخت الغفلة
زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ؛ وعاد كيدهم في نحورهم : ﴿ ورد الله الذين كفروا
بغيطهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

راموا الأمور فند لاحت عواقبها * يضد ما أملوا في الور والصدر ،

ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة * عليهم شرعا في الور والصدر !

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم * بالسهمرية مثل الوخر بالإبر !

لاجرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون .

تدعوا يدروع البغي سابعة * والمرء يحصد من دنياه مازرعاً !

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانهم في بحار الآمال ؛ فتلك

آمال خائبه ، ومراكب للظنون عاطبه ؛ وأقلعوا في البحر بمرآكه ، والبر بموآكه ؛

وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرهم أمنيّة الظنون الحواس ؛ فها وسوس

الشيطان كفراً إلا وأحرقه الإيمان بكوكب هذا

وعساكر المسلمين مستوطنة في موطنها ، جاذية عقباؤها في وكر ظبائها ، رابضة

أسادها في غيل أفتائها ، ماترزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخه ، ولا تثبت لأحد

حجة إلا وكانت الجمعية لها ناسخه ؛ ولا عقد [ت] برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان ،

ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن ؛ ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ،

وأخبار الكُفَّار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خَلَطَ الصَّبَاحُ فِضَّتَهُ بِذَهَبِ الْأَصِيلِ ،
وصار اليومُ كَأَمْسٍ ، وَنُسِخَتْ آيَةُ اللَّيْلِ بِسُورَةِ الشَّمْسِ ؛ وَاکْتَحَلَتِ الْأَعْيُنُ بِمِرْوَدِ
السَّيَّاتِ ، وَخَافَ كُلُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِصْدَارَ الْبَيَّاتِ

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقَلَّتَيْهِ وَيَتَّقِي * بَأْخَرَى الْأَعَادِي ، فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمًا !

إِلَى أَنْ تَرَأَتْ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَأَضْطَرَمَّ نَارُ الْحَرْبِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ؛ فَلَمْ تَرَ إِلَّا ضَرْبًا
يَجْعَلُ الْبَرْقَ نِصْوَ ، وَيَتْرُكُ فِي بَطْنِ كُلِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَلْوَ ؛ حَتَّى صَارَتْ الْمَقَاوِزُ
دِلَاصًا ، وَمَرَاتِعُ الظُّبَا لِلظُّبَا عِرَاصًا ؛ وَأَقْتَنَصَتْ آسَادُ الْمُسْلِمِينَ الْمُشْرِكِينَ أَقْتِنَاصًا ،
وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَنَاصًا ؛ فَلَا رَوْضَةَ إِلَّا دِرْعٌ
وَلَا جَدُولَ إِلَّا حُسَامٌ ، وَلَا غِمَامَةٌ إِلَّا تَفْعٌ وَلَا وَبَلٌ إِلَّا سِهَامٌ ؛ وَلَا مُدَامَ إِلَّا دِمَاءٌ
وَلَا نَعَمَ إِلَّا صَيْلٌ ، وَلَا مُعَرِّدَ إِلَّا قَاتِلٌ وَلَا سَكْرَانَ إِلَّا قَتِيلٌ ؛ حَتَّى صَارَ كَافُورُ الدِّينِ
شَقِيقًا ، وَتَلَوْنُ الْحَصْبَاءُ مِنَ الدَّمَاءِ عَقِيقًا ؛ وَضَرَبَ النَّعْصُ فِي السَّمَاءِ طَرِيقًا ، وَأَزْدَحَمَتْ
الْجَنَائِبُ فِي الْفَضَاءِ بَجْعَلَتِهِ مَضِيقًا ؛ وَقُتِلَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ذَلِكَ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ .

قلت : وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها في بعض
المجاميع حفظها منه ، وهى فى غاية من البلاغة ، إلا أنها لا تخلو من تغيير وقع
فى بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ، من حيث إنه ليس من أهل هذه
الصناعة . ولم يسعنى ترك إيرادها لما فيها من المحاسن ، ولأنفرادها بأسلوب من
الأساليب التى كتب بها إلى ملوك اليمن ؛ فأوردتها على ما هى عليه ، وجزئ الله خيرا
من ظفر لها بنسخة صحيحة فقايلها عليها وصححها وأصلح ما فيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ما جرى عليه في "التثقيف" أن تُفتَح المكتبة بلفظ

أَعَزَّ الله تعالى أنصار المَقَام العالى)

صدره على ما ذكره في "التثقيف" أَعَزَّ الله تعالى أنصار المَقَام العالى ، السلطاني ،
المَلَكِي ، الفلاني ، الفلاني ، مثل أن يقال : الأفضلي السيفي ، ثم الدعاء ؛ ثم يقال :
أصدرناها وتبدي لعلمه الكريم كذا وكذا . قال في "التثقيف" والمكتبة إليه في قَطْع
النصف والطلب منه «والقصد من المَقَام العالى» وخاتمة الكتاب بالدعاء ، والعلامة
«أخوه» وتعريفه «صاحب اليمن» . وفي دُستور المقر الشهابي بن فضل الله أن
خطابه يكون بالمقام العالى .

وهذه نسخة كتاب إليه ، ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في تذكرته أنه أنشأها
جواباً عن هديته ولم يكتب بها إليه ، وهو يومئذ الملك المجاهد سيف الدين على
أبن داود .

أَعَزَّ الله تعالى أنصار المَقَام العالى ، ولا زالت مكارمه تُحْص من كل نوع بأحسنه ،
وُثِّف بأزیده وأزینہ ، وتجلُّب كل غريب الديار من وطنه ، وتمنح من السوابق
بما تَمْتدُّ الحجرة في رَسَنه ، ومن المحاسن بما يُملي على (على) أوصاف حسنه ، ويعرب
عن الفرس والسيف والرحم بأطيب لحن في نصبه وجره ورفعته .

صدرت إلى المَقَام العالى أَعَزَّ الله جانبه تصلُّ بوداده ، وتَصِفُ حُباً علق
بقواده ، وتعرض برحاء يمينية أحلام الكرى طمعاً أن يرى طيفه في رقادته .
وتبدي أن كتابه الكريم ورد جالبا لدر مننه ، جالبا لليمن من يمينه ، نافعا بالطيب

من عَدَنِهِ ، نَاقِدًا من قُوَّة السِّيفِ بِمَا لَا يَدْعِيهِ ابْنُ ذِي يَزَنَةَ ؛ فُتُوْمَلِّ مَا حَوَى من
كَرَمٍ لَا يُجَارَى ، وَنِعِيمَ تَمَلَّاءِ الْبَرِّ بِرَأِّ الْبَحَارِ بِحَارًا ؛ وَأَبْدَعَ في الْهَبَةِ الَّتِي قَدَّرَ مُهْدِيهَا ،
وَقَدَّرَ فِيهَا مِنَ التَّحْفِ مَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِيهَا ؛ وَجَاءَ بِكُلِّ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ الْمُرَابِطُ ، وَتَهْتَرُّ بِهِ
الْخِزَانُ وَالْمُرَابِطُ ؛ وَتَفْتَحِرُّ مِنَ الرِّمَاحِ بِكُلِّ مَعْتَدِلٍ قَاسِطٍ ، وَبِمَا يُرْدِي الْعِدَا مِنْ
أَسِنَّةٍ بِكُلِّ نَجْمٍ هَابِطٍ . كَمْ لَهَا مِنْ فِعْلٍ جَمِيلٍ لَا يُشَارِكُ ، وَكَمْ قَالَ طَعِينٍ : إِنَّ لَهَا
كَعْبًا مُدَوَّرًا وَمَا قَدَّرَ الطَّاعِنُ أَنْ يَقُولَ إِلَّا أَنَّهَا كَعْبٌ مُبَارَكٌ . وَمِنَ السِّيفِ بِمَا
لَا يُطِيعُ النَّهْرَ فِي نَصْلِهِ ، وَلَا يَطْمَعُ الْبَرْقُ فِي مَنَاضِلِهِ مِثْلِهِ ، وَلَا يَطْمَحُ الْهَلَالُ أَنْ
يَسْتَقِيمَ عَلَى شَكْلِهِ ؛ كَمْ أَخَذَتْ أَنْفَاسًا وَلَهَا أَلْتِهَابُ ، وَلَمَعَتْ مِنْ نَوَاحِي الْعُمُودِ
كَمَا نَصَلَتْ أُنْمَلٌ مِنْ خِضَابٍ . وَمِنَ الْخَلِيلِ بِمَا تُرْقِصُ فِي أَعْيُنِهَا ، وَتَفْتَحِرُّ عَلَى الْبُدُورِ
بِأَنَّهَا تَدُوسُ عَلَى أَهْلِهَا : مِنْ كُلِّ أَشْهَبٍ يُحْسِنُ آتِسْدَارًا ، وَيُحْسِبُ قِرَاءًا قَدْ تَكَلَّلَ
إِبْدَارًا ، وَيُطْلِعُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ نَهَارًا جَهَارًا . وَأَدْهَمَ قَدْ غَضَبَ الظَّلَامُ ، وَاسْتَدَارَتْ
غُرَّتُهُ فَاسْفَرَّ وَجْهُهُ تَحْتَ بُرْقٍ مِنْ لَثَامٍ . وَأَخْوَى أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ مِنْ بَيْتٍ لِلْعَرَبِ ،
قَدْ حَوَى مِنَ الرُّوضِ مَا سَلَبَ . وَكُمَيْتٌ يَنْضُو النَّقْعَ وَهُوَ سَبُوقٌ ، وَتَقَدَّمَ فِي مِيَادِينِهِ
جَاءَ مَضْمَنًا بِالْخُلُوقِ . وَأَشَقَّرَ قَدْ كَشَفَ الْبَرْقُ عِذَارَهُ ، وَأَطَارَ الرِّكْضُ مِنْهُ شَرَارَهُ ؛
وَمَعَهَا كُلُّ فَيْلٍ كَأَنَّهُ غَمَامٌ تَبَدَّى ، أَوْ مَلِكٌ مُقَدَّى ؛ بِحُرْطُومٍ يَرْتَدُّ كَالصَّوْبِ لِحَانٍ ،
وَيَمْتَدُّ كَالْأَفْعَوَانِ ؛ وَيَهْوُلُ مِنْظَرُهُ كَأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ الْخَلْقِ بُنْيَانٌ ، وَيَتَحَرَّكُ فَتُحْسِبُهُ كَمَّ
رَاقِصَةٍ تُشِيرُ بِهِ إِلَى التَّدْمَانِ ؛ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الْجُلُودُ ، وَتَقْتُلُ نَفْسَهَا بِنِيرَانِ الْحِقْدِ مَحَافِظَةً
عَلَى عُهُودِ الْهُنُودِ ؛ كَمْ أَحْسَنْتَ بِحَرَاطِيمِهَا لَهَا مِنْ صُدُورِهَا الضَّيِّقَةِ مَحْرَجًا ،
وَأَضَاءَتْ مِنْ فُرُوجِهَا بَيْنَ أَنْبِيَائِهَا طُورَةَ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى ؛ وَزَرَافَةَ ، لَهَا نَافَةٌ ،
كَأَنَّهَا شَفَقٌ بَيْنَهُ نُجُومٌ ، أَوْ بُرُوقٌ تَكَلَّتْ بِقَطْرِ الْغُيُومِ ؛ لَهَا فِي الْمَدْخَلِ عَلَى الْقُلُوبِ

حذاقه، ووُلُوج من بابٍ ودُخُول من طاقه. وحمارةٍ وحشيةٍ جاءت بوصف الربيع
 في اعتدال الليل والنهار، وجمعت الملالات والأفكار، ودلت على أصل كريم
 تفتحت في فروعه الأزهار، وحكت بخطوطها الدوح مما تراكم ظله فأظلم وأنقرج
 فأناز. وعمر يؤلف على يفاره، ويسبح ليله في أنهار نهاره؛ يتدفق في مثل أنبوب
 القناة المضطمر، ويصدق من شبه ركود الربا على الرمال بقطعة من جلدة النمر.
 وقط الزباد الذي لا تحكيه الأسود في صورها، ولا تسمح غزلان المسك بما يحزنه
 من عرفه الطيب في سررها، كم تنقل في بيوت وطابت موطنها، ومشى من دار
 أصحابه فقالوا: ربنا عجل لنا قطنًا، وكذلك من الطيب ما يطيب، وما يزور
 بنفحه الحبيب، قد بعث أكبره، وأفاد أكثره، وأستخدم المتنعمون به صندله
 وكافوره وعنبره. وغير هذه الأنواع مما جاد بإرساله، وأتى من كل بديع به وبأمثاله؛
 فقبلت بالقبول هذه التحف، وأكرمت إكرام من لها عرف و[بها] أعترف، ومحمد
 سبحانه الذي تسرعت مواطره، وبعثت من طرفها بالروض وما تنوء عنه أزاره،
 وشرعت بما اتصلت بمصر أوائله وباليمن أواخره؛ والله تعالى يشكر هممه التي
 تعالت، وشية العلوية التي لأجلها المحامد قد توالى. وقد جهزنا له من التحف
 المنعم بها ما أمكن تعجيل حمله، وجرى عوائد ملوك الأقاليم بالتشريف من خزائنا
 العالية بمثله؛ وحملنا رسله من السلام ما تبعق به الفجاج، وتعذب به البحار وهي
 ملح أجاج. والمراد منه أن يواصل بمكاتباته التي تتناوب الصدور، وتنوب عن لمحة
 البؤر، وتؤب بما تقدم به من السرور؛ والله تعالى يديم لسلطانه التأيد، ولملكه
 التأيد، ولاقتداره ما به تعز وتعز وتميد زبيد. إن شاء الله تعالى.

فائدة — المكتبة إلى صاحب اليمن عن ولي العهد بالسلطنة كالمكتبة إليه
 عن السلطان نفسه في جميع المكتبة على السواء.

وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر عن «الأشرف خليل
ابن قلاوون» قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، بالبشرى بفتح
طرابلس .

وهذه نسخته :

أعزَّ الله تعالى نصرَةَ المقام ! وأوفَدَ عليه كلَّ بُشْرَى أَحْسَنَ من أختها ، وكلَّ
تهنئةٍ لا يَجْلِيها إلا هو لوقتها ؛ وكلَّ مُبْهِجَةٍ يَعْجِزُ البنانُ والبيانُ عن ثبتها ونعتها ، وتبليج
فتودِ الدُّرِّ والدَّراريِّ لو رَقَّتْ هذه إلى ترقِّيها وسمَّتْ هذه إلى سَمِّها . وصَبَّحَ منها
بكلِّ هاتفةٍ أَسْمَعَ من هَوَاتِفِ الحمام ، وبكلِّ عارفةٍ أَسْرَعَ من عَوَارِفِ الزَّهرِ عند
عزائِمِ النَّسائمِ ؛ وبكلِّ عاطفةٍ أَعْنَتِ الإتحافَ بالإيحافِ الذي شَكَرَتْ الصَّفاحُ منه
أعْظَمَ قَادِرٍ والصَّحائفُ أكرمَ قَادِمٍ ؛ والغزو الذي لا يُحْصَى تَهَامَةٌ بِبُشْرَاهُ بل جميعَ
التُّجودِ والتَّهائمِ ، وذوِي الصُّورِ والصَّرائمِ ، وأوْلَى القُوَى والقَوائمِ ، وكلَّ ثغرٍ عن
آبِهاجِ الإسلامِ باسمٍ ، وكلَّ بَرٍّ بَرٍّ بتوصيلِ ما تَرَبَّ عليه من مَلاحِمٍ ؛ وكلَّ بَحْرٍ عَذِيبٍ
يَمُونُ كلَّ غَايَةٍ لا يَحْجِسُ عن جِهَادِ الكُفَّارِ في عُقْرِ الدَّارِ الشَّكائمِ ، وكلَّ بِحْرِ مِلْحٍ كم تَغْيِظُ
من مجاورَةِ أخيه لأهلِ الشُّركِ ومشاركَتِهِمْ فيه فراحَ وموجُهُ المتلاطِمِ .

المملوكُ يَحْتَدِمُ خِدمَةً يَقْتَفِي فيها أثرَ والده ، ويَجْرِي في تَجْلِيلِها على أَجَلِ عَوَائِدِهِ ؛
ويَسْتَفْتَحُ فيها أَسْتِفْتاحًا تَحْفُفُ به من هُنا ومن هُنا تَحْفُفُ حَمِيدُهُ ، وَيَصِفُ وَلَاءَهُ
قد جعله الله أَجَلُ عُقُودِهِ وأَكَلَ عَقَائِدِهِ ؛ وَيَسْقَعُها بِاخْلَاصٍ قد جعله مِثْلَهُ أَحْسَنَ
وسَائِلِهِ وَقَلْبُهُ أَزِينَ وسَائِدِهِ ؛ وَيُطْلِعُ علمَهُ على أَنَّ من سَبَّحَايا المتعَرِّضِينَ إلى الإِعلانِ
بشُكْرِ الله تعالى في كلِّ ما يَعرِضُ لِلسَّامِينَ من نصرٍ ، وَيُقْتَرَضُ لَهُم من أَجرِ غَزْوٍ وكم
قَعَدَ عنه مَلِكٌ فيا مَضَى من عَصْرِ ؛ أَن يَقْدُرُوا هذه النِّعْمَةَ حَقَّ قَدْرِها من التَّحَدُّثِ

بِنِعْمَتِهَا ، والتنبية بِسَمَاعِ نِعْمَتِهَا ، وإرسالِ أَعْنَةِ الأَقْلَامِ بِهَا فِي مِيَادِينِ الطُّرُوسِ ،
وإِدَارَةِ حِرْبَاءٍ وَصِفِ حَرْبٍ (؟) إِلَى مُوَاجَهَةِ خَيْرِ الشُّمُوسِ .

ولما كَانَتْ غَزَوَاتُ مولانا السلطانِ ملكِ البسيطةِ الوالدِ خَلَدِ اللهِ سلطانه قد
أَصْبَحَتْ ذِكْرًا لِلْبَشَرِ ، وموافقُهُ للنصرِ كَمِ جَاءَتْ هِيَ والقَدَرُ عَلَى قَدَرٍ ؛ وقد صارت
سِيرُهَا وَسِيرُهَا هَذِهِ شِدْوٌ فِي الأَسْمَارِ ، وهذه جَادَّةٌ لَسْتَطِيبُ مِنْهَا حُسْنُ الحَدْوِ السُّفَارِ ؛
فَكَمْ قَاتَلَتْ مِنْ يَليهَا مِنَ الكُفَّارِ . وكَمِ جَعَلَتْ مِنْ يُوَاليهَا وَهُوَ مَبْصُورُهَا مَنْصُورًا
بِالمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ .

ولَمَّا أَذَلَّ اللهُ بِأَسْهَا طَوَائِفَ التَّنَّارِ فِي أَقَاصِيِ بِلَادِ الْعِجَمِ ، وجعلَ حَظَّ قُلُوبِهِم
الْوَجَعَ مِنَ الخَوْفِ وَنَصِيبَ وَجُوهِهِمِ الوَجَمَ ؛ وأَخْلَى اللهُ مِنْ نُسُورِهِمِ الأَوْكَارَ
وَمِنْ أَسْوَدِهِمِ الأَجَمَ ، وَقَصَّرَتْ بِهِمْ هِمَمُهُمْ حَتَّى صَارُوا يَخَافُونَ الصُّبْحَ إِذَا هَجَمَ ،
وَالظَّنَّ إِذَا رَجَمَ ؛ وصارتِ رُؤْيَا الدِّمَاءِ تَفْزَعُهُمْ فَلَوْ أَحْتَاجَ أَحَدُهُمْ لَتَنْقِيسِ دَمِ
لِمَرِيضٍ لَأَجْنَحَ مِنْ خَوْفِهِ وَمَا أَحْتَجَمَ . وَأَبَادَ اللهُ الأَرْمَنَ فُحْلَ البَتِيلِ مِنْهُمْ الْوَيْلَ ،
وَمَا شَمَّرَ أَحَدٌ مِنَ الجُنُودِ الإِسْلَامِيَّةِ عَنْ سَاعِدٍ إِلَّا وَشَمَّرَهُ مِنَ الذِّلِّ الذِّلِيلِ ؛ وَلَا
أَثَارَتِ الحِيَادُ مِنَ الحِيلِ عَثِيرًا مَنْعَقِدًا إِلَّا وَظَنُوهُ مَسَاءً قَدْ أَقْبَلَ أَوْ لَيْلٌ ، وَأَتَتْهُ
نُوبَةُ القَتْلِ بِهِمِ والإِسَارِ إِلَى التَّكْفُورِ لِيَفُونَ ملكِ الأَرْمَنِ الَّذِي كَانَ يَجِي سَرَحَهُمْ ،
وَيَمُرُّ صَرَحَهُمْ ، وَيَسْتَنطِقُ هَتَفَ التَّنَّارِ وَيَسْتَرْجِعُ صَدَحَهُمْ ؛ وَتَعَثَّرَ طَرَابُلُسُ
الشَّامِ بِأَنَّهُ خَالَ أِبْرَتِهَا الكَافِرَ ؛ وَلِسَانُ شُورَتِهِ السِّفِيرِ وَوَجْهُ تَدِيرِهِ السَّافِرِ . وَطَالَمَا
غَزَّ وَأَغْرَى ، وَأَجْرَّ وَأَجْرَى وَضَرَّ وَأَضْرَى ؛ فَلَمَّا تَوَكَّلَ مولانا السلطانُ وَعَزِمَ
فَوَكَّلَ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ البِلاَاءَ بِهِ قَدْ نَزَلَ وَمَا تَشَكَّكَ أَنَّ ذَلِكَ فِي ذِهْنِ القَدَرِ قَدْ تَصَوَّرَ
وَتَشَكَّلَ ؛ وَأَنَّ يَوْمَهُ فِي الفَنَكِ سَيَكُونُ أعْظَمَ مِنْ أَمْنِيَّتِهِ ، وَأَعْظَمُ مِنْهَا مُعَادَاةُ غَدِهِ ،

وَأَنَّ نَصْرَ اللَّهِ إِن يُخْلِفْهُ صَادِقٌ وَعْدُهُ؛ أَكَلَّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا قَرِطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ
 وَسَاقِ الْحَتَفَ لِنَفْسِهِ بِيَدِهِ، فَعَمَّرَ اللَّهُ بُرُوحَهُ الْخَبِيثَةَ الدَّرَكِ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ، وَسَقَاهُ
 الْحَتَفَ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ لَمْ يَكُنْ لَهَا غَيْرُ الْمَلِكِ مِنْ نَحَارٍ . وَكَانَتْ طَرَابِلُسُ هِيَ ضَالَّةَ
 الْإِسْلَامِ الشَّرِيدَةَ، وَإِحْدَى أَبْقَاتِهِ مِنَ الْأَعْوَامِ الْعَدِيدَةِ؛ وَكَلِمَا مَرَّتْ شَمَخَتْ بِأَنْفِهَا ،
 وَتَأَنَّثَتْ فِي تَحْسِينِ مَنَازِهِ مَنَازِلِهَا وَتَزْيِينِ رَيَّحَانِهَا وَعَضْفِهَا، وَمَرَّتْ وَهِيَ لَا تُتَغَاوَلُ
 مَلِكًا بِطَرَفِهَا ، وَكَلِمَا تَقَادَمَ عَهْدُهَا تَكَثَّرَتْ بِالْأَفْوَاجِ وَالْأَمْوَاجِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَمِنْ
 خَلْفِهَا . إِذِ الْبَحْرُ لَهَا جِلْبَابُ وَالسَّحَابُ لَهَا نَحَارٌ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْبَرِّ إِلَّا بِمَقْدَارِ
 سَاحَةِ الْبَابِ مِنَ الدَّارِ؛ كَأَنَّهَا فِي سَيْفِ ذَلِكَ الْبَحْرِ جَبَلٌ قَدْ أَنْحَطَّ، أَوْ مِيلٌ أَسْتَوَاءٌ
 قَدْ خَرَجَ عَنِ الْخَطِّ ، وَمَا قَصِدَ أَحَدٌ شَطْطَهَا بِنِكَايَةِ الْإِسْطِ وَأَشْطَطَ .

قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ صَرَفَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ إِلَى الْعِنَانِ، وَسَبَقَ جَيْشُهُ إِلَيْهَا كُلَّ خَبَرٍ
 وَ”لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَانِ“، وَجَاءَهَا بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ وَالسَّعَادَةِ قَدْ حَرَسَتْهُ عَيْونُهَا وَتَلَكَّ
 الْخَوَافُ كُلُّهَا أَمَانًا، وَقَدْ آخَذَ مِنْ إِقْدَامِهِ عَلَيْهَا خَيْرُ حَبَائِلَ وَمِنْ مُقَاجَاةِهَا أَمَدٌ عِنَانٌ؛
 وَفِي خِدْمَتِهِ جُنُودٌ لَا تَسْتَبْعِدُ مَقَازِهِ، وَكَمْ رَاحَتْ وَغَدَتْ وَفِي نَفْسِهَا لِلْأَعْدَاءِ حَزَازَةٌ؛
 فَامْتَطَوْا بِجُيُوشِهِمْ مِنْ جِبَالِ لُبْنَانَ نِيْجَانًا لَهَا صَاغَتِهَا التَّلُوجُ، وَمَعَارِجَ لِمُرَافِقِهَا غَيْرُ
 الرِّيحِ الْهُوجِ؛ وَأَنْحَطَّتْ تِلْكَ الْجِيُوشُ مِنْ تِلْكَ الْجِنَادِلِ، أَنْحَطَّاطُ الْأَجَادِلِ؛
 وَانْدَفَعُوا فِي تِلْكَ الْأَوْعَارِ، انْدَفَاعُ الْأَوْعَالِ؛ وَلَمْ يَحْفَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَرَبٍ لَاصِقٍ،
 وَلَا جَبِيلٍ شَاهِقٍ؛ فَقَالَ: أَهَذَا مُنْخَفِضُ أَوْعَالٍ، وَشَرَعُوا فِي التَّحْصِيلِ لِمَا
 يُوهِنُ ذَلِكَ التَّحْصِينَ، وَأَبْتَنَى كُلُّ سُوْرَا أَمَامَ أَسْوَارِهَا مِنَ التَّسْدِيرِ الْحَسَنِ وَالرَّأْيِ
 الرَّصِينِ؛ فَمَا لَبِثُوا إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا قِيلَ لَهُمْ دُونَكُمْ وَالْإِخْتِطَابِ، وَنَقَلَ الْجَانِيقِ عَلَى
 الْإِخْلِيلِ وَعَلَى الرِّقَابِ؛ حَتَّى جَرَّوْهَا بِأَسْرَعٍ مِنْ جَرِّ النَّفْسِ، وَأَجْرَوْهَا عَلَى الْأَرْضِ
 سَفَائِنَ وَكَمْ قَالُوا: السَّفِينَةُ لَا تَجْرِي عَلَى يَاسٍ؛ وَفِي الْحَالِ ثِقَلْتُ إِلَيْهَا فَرَأَوْا مِنْ

مَتَوَقَّلَهَا مَنْ يَمْسِي بِهَا عَلَى رَجُلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْسِي عَلَى أَرْبَعٍ ، وَوَجَّهَتْ سِهَامُهَا
وَجُوهَهَا إِلَى مَنَافِذِهَا فَمَا شُوهِدَتْ مِنْهَا عَيْنٌ إِلَّا وَكَانَ قُدَّامَهَا مِنْهَا إِصْبَعٌ ، وَأَلْقِيَتْ
الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْحَجَارَةِ مِنَ الْحَجَارِيقِ وَالْحَجَارَةِ مِنَ الْأَسْوَارِ ، فَكَمْ ثَقِبَتْ وَنَقِبَتْ عَنْ فُلْذَةِ
كَبْدِهَا ، عَنْ
(١) وَأَوْقِدَتْ نِيرَانُ الْمَكَائِدِ ثُمَّ فَكَمْ حَوْلَهَا مِنْ صَافِرٍ
وَمِنْ صَافِرٍ ، وَكَمْ رَمَتْهُمْ بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ فَوْقَ الْحَافِرِ كَمَا يُقَالُ عَلَى الْحَافِرِ ، وَمَا بَرَحَتْ
سُوقُ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي نَفَاقٍ ، عَلَى أَهْلِ النِّفَاقِ ، وَأَكَايَرُهُمْ تُسَاقُ ، أُرَاحُهُمُ الْخَبِيثَةُ
إِلَى السَّاقِ .

وَكَانَ أَهْلُ عَكَّا قَدْ أَنْجَدُوهُمْ مِنَ الْبَحْرِ بِكُلِّ بَرٍّ ، وَرَمَوْا الْإِسْلَامَ بِكُلِّ شَرٍّ
وَبِكُلِّ شَرٍّ ، فَصَارَ السُّهْمُ الَّذِي يَخْرُجُ بِهَا لَا يَخْرُجُ إِلَّا مُقْتَرَنًا بِسِهَامٍ ، وَشُرْفَاتُ
ذَلِكَ النِّعْرِ كَالثَّلَاثَا وَلَكِنِهَا لَكثْرَةٌ مِنْهَا لَا تَقْتَرُنَ عَنْ ابْتِسَامِ .

وَمَا زَالَتْ جُنُودُ الْإِسْلَامِ كَذَلِكَ ، وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ لَا تُرَى جَمَاعَةٌ مُقَدِّمَةٌ وَلَا مُتَقَدِّمَةٌ
إِلَّا وَهُوَ يُرَى بَيْنَ أَوْلَئِكَ . وَأَسْتَمَرَّ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَهَلِّ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَابِعِ رَبِيعِ الْآخِرِ ،
فَرَحَفَ إِلَيْهَا فِي بُكْرَةِ ذَلِكَ النَّهَارِ وَهُوَ الثَّلَاثَاءُ زَحْفًا يَقْتَحِمُ كُلُّ هَضْبَةٍ وَوَهْدَةٍ ، وَكُلُّ
صُلْبَةٍ وَصَلْدَةٍ ، حَتَّى أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ مَجَازًا وَفِي الْحَقِيقَةِ فَتَحَهَا
وَحْدَهُ ، وَطَلَعَتْ سَنَاجِقُ الْإِسْلَامِ الصُّفْرَ عَلَى أَسْوَارِهَا ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ،
وَجَاسَتْ الْكِسَابَةُ إِلَى دِيَارِهَا ، فَاحْتَازَهَا مَوْلَانَا السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ مَلِكًا ، وَمَا كَانَ
يَكُونُ لَهُ فِي فَتْحِهَا شَرِيكٌ وَقَدْ نَفَى عَنْهَا شِرْكَاءَ ، وَكُلَّمَا قِيلَ هَذِهِ طَرَابُلُسُ فُتِحَتْ قَالَ
النَّصْرُ لِمَنْ قُتِلَ فِيهَا مِنَ النَّجْدِ الْوَاصِلَةِ : وَكَثَرَعَكَّا وَأَهْلَ عَكَّا ، وَأَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا
قُوَّةَ الْكُفْرِ أَنْكَانًا ، فَكَانَ أَخْذُهَا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً فِي يَوْمِ ثَلَاثَا ، وَأَسْتَرِدَّتْ
فِي يَوْمِ الثَّلَاثَا .

(١) بِنَاضٍ بِالْأَصْلِ .

ولما عَمَّتْ هذه البشائر ، وَكَلَّ بها مولانا السلطان إلى كُلِّ من يَسْتَجِلِّي حَسَانَ
هذه العرائس ، وَيَسْتَحِلِّي نَفِيس هذه النِّقَاسِ .

سَيَّرَ مولانا السلطان إلى المولى كُلِّ بِشْرٍ تَقَعَّقَ بها البريد ، لُتْلَى بأمره على كُلِّ
من أَلْقَى السَّمْعَ وهو شَهِيد ؛ وَكَمَا عَمَّ السُّرُورُ بِذَلِكَ كُلِّ قَرِيب قَصْد أن يُعَمَّ الهَنَاءُ
كُلِّ بَعِيد .

وأصدر المملوك هذه الخدمةَ يَتَجَرَّبُ بين يديه نَجَواها ، وَيَتَوَثَّبُ بعد هذه الفاتحةِ
المباركةِ لِكُلِّ سَانِحَةٍ يَحْسُنُ لدى المولى مُسْتَقَرُّها وَمَثَواها ؛ لِأَبْرَحِ المَقَامِ العَالِي يَسْتَبِشِرُ
لِكَلِمَةِ الإِسْلَامِ بِكُلِّ فَضْلٍ وَبِكُلِّ نِعْمَةٍ ، وَيَفْرَحُ بِسَرِّ الكُفْرِ إِذَا أَتَتْكَ وَبَسْفَحِ
المُلْكِ إِذَا يُجْحَى ، وَبَسْمَعِ الشَّرْكَ إِذَا يُصَمُّ وَبِقَلْبِهِ إِذَا يُصَمَّى ؛ وَاللَّهِ المَوْفُوقُ .

الجملة الثانية

(في المكاتبات إلى عرب البحرين ومن أنضاف إليهم)

قد تقدَّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنَّ بلاد البحرين لم تزل
بيد العرب ، وأنها صارت الآن بيد بني عُقِيل - بضم العين - من بني عامر بن صعصعة ،
من هَوَازِنَ ، من قَيْسِ عِيلَانَ ، من العَدْنَانِيَّةِ . قال في " التعريف " : ومنهم قومٌ
يَصِلُونَ إلى باب السلطان وَصُولَ التَّجَّارِ ، يَجْلُبُونَ جِيَادَ الخَيْلِ وَكِرَامَ المَهَارِي وَاللُّؤْلُؤِ
وَأَمْتَعَةً من أمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحَبَاءِ والإِنْعَامِ والقَاشِ والسُّكَّرِ
وغير ذلك ؛ وَيُكْتَبُ لهم بالمساحة فِيرْدُون وَيَصُدُّون . قال : وبلادهم بلاد زَرْعٍ
وَضَرْعٍ ، وَبَرٍّ وَبَحْرٍ ، وَلَهُمْ مَتَاجِرُ مُرْبِجَةٍ ، وَوَاصِلُهُمْ إلى الهند لا يَنْقَطِعُ ، وَبِلَادُهُمْ
مابين العراق والحجاز ، وَلَهُمْ قُصُورٌ مَبْنِيَّةٌ ، وَأَطَامٌ عَلَيْهِ ، وَرَيْفٌ غَيْرُ مَتَّسِعٍ ، إلى ما لهم
من النَّعَمِ والمَاشِيَةِ ، والحَاشِيَةِ والغَاشِيَةِ ؛ إِلَّا أَنَّ الكلمة قد صارت بينهم شَيْءٌ ،

والجماعة متفرقة . وقد سبق الكلام على بلادهم مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك .

قال في " التعريف " : ورسم المكاتب إلى كُبرائهم « السامى » بالياء . والعلامة الشريفة « أخوه » ثم مادون ذلك لمن دُونهم .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ فِي " التثقيف " قد جمع بين عَرَبِ البحرين وعَرَبِ البصرة وما وَاوَى ذلك ، وجعل المكاتبَ إليهم على ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ « السامى » بالياء والعلامة الأسم ، وذكر أن بها يكتب أميرهم ، وسماه حينئذ « صَدَقَة بن إبراهيم بن أبى دلف » وأن تعريفه فلان بن فلان . وذكر في رتبته في المكاتب يومئذ محمد بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلى بن منصور .

المرتبة الثانية — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ « السامى » بغير ياء والعلامة الأسم . وذكر منهم بَدْرَان بن مانع — رُومى بن أبى دلف — زَيْن بن قاسم — يُوْسُف بن قاسم ، سَعِيد بن مَعْدَى — راشد بن مانع — عيسى بن عَرْفَة — ظالم بن مُجَاشَع — إسماعيل بن صَوَارَى — كُلْبى بن ماجد بن بَدْرَان — مانع بن على — مانع بن بَدْرَان .

المرتبة الثالثة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ « مجلس الأمير » والعلامة الأسم . وعدّ منهم جماعة ، وهم عَظِيم بن حسن بن مانع — موسى بن أبى الحسن — سعد بن مُعَاس — زيد بن مانع — هلال بن يحيى — معمر بن مانع — محمد بن خَلِيفَة .

قلت : وحاصل ما ذكره في " التعريف " و " التثقيف " أن جملة المكاتب إليهم لا تتجاوزُ المراتبَ الثلاثَ المذكورة ، والكَاتِبُ يستخِرُ أخبارَهم في المقدار ، ويُتْرَلُ كُلُّ واحدٍ منهم على قَدَرِ مرتبته من ذلك كما في الأسماء المتقدمة الذكر .

المهيم الرابع

(في المكاتبه إلى صاحب الهند والسند)

وقد ذكر في " التعريف " أن صاحبه في زمانه كان اسمه أبا المجاهد محمد بن طغلقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، وبراً وبحراً ، وسهلاً وقفراً ؛ وأن سيمته في بلاده « الإسكندر الثاني » ثم قال : وتالله إنه يستحق أن يسمى بذلك ويوسم به : لانتساع بلاده ، وكثرة أعداده ، وغزير أمداده ؛ وشرف منابت أرضه ، ووفور معادنه ، وما تنبت أرضه ، ويخرج بهجده ، ويحجى إليه ، ويرد من التجار عليه . وأهل بلاده أمم لا تحصى ، وطوائف لا تعد . ثم حكى عن قوم ثقات منهم قاضى القضاة سراج الدين الهندى الحنفى ، وهو يومئذ مدرس البيدمرية بالقاهرة ، والتاج البزى ، والشيخ مبارك الأنبايى : أن عسكر هذا السلطان نحو التسعمائة ألف فارس ، وعنده زهاء ألفي فيل يقاتل عليها ، وخلق من العبيد تقاتل رجالة مع سعة الملك والحال ، وكثرة الدخل والمال ؛ وشرف النفس والإباء ، مع الاتضاع للعلماء والصالحاء ؛ وكثرة الإنفاق ، وعميم الإحلاق ؛ ومعاملة الله تعالى بالصلقه ، وإخراج الكفاية للترزقه ؛ بمرتبات دائمة ، وإدراجات متصلة ؛ بعد أن حكى عن رسوليّه دمرخوان وافتخار ما قال : إنه لو سكنت النفوس إلى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجايب ، وحدث عنه بالغرائب ؛ ثم ذكر أنه أرسل مرةً مالا برسم الحرمين وبيت المقدس ، وهديّة للسلطان تريد على ألف ألف دينار ؛ فقطّع عليها الطريق باليمن ، وقُتل مُحضَرها بأيدي ممالك صاحب اليمن ، لأمر بيت بلبيل ؛ ثم قُتل قائلوه ، وأخذ أهل اليمن المال وأكلوه ؛

وكتب عن السلطان إلى صاحب اليمن في هذا كتاب منه « وقد عددت عليه فعلته »
وقيل فيه : « وفعل مالا يليق ، وأمسى وهو يعدد من الملوك فأصبح يعدد من قُطَاع
الطريق ^(١) » . وقد سبق في الكلام على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعظيم
قَدْر رجالها ما فيه كفاية عن الإعادة .

قال في " التعريف " : ورسمُ المكتبة إليه رسمُ المكتبة إلى القانات الكبار
المقدم ذكرهم ، في هيئة الكتاب وما يكتب به والطغرة والخُطبة . وألقابه « المقام
الأشرف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الأعظمى ، الشاهنشاهى ، العالمى ،
المجاهدى ، المرابطى ، المثناعبرى ، المظفرى ، المؤيدى ، المنصورى ، إسكندر
الزمان ، سلطان الآوان ، منيع الكرم والإحسان ، المعنى على ملوك آل ساسان ، وبَقَايا
أفراسياب وخازان ، ملك البسيطة ، سلطان الإسلام ، غياث الأنام ، أوحُد الملوك
والسلاطين » ويدعى له . قال : ولم يكتب إليه في ذلك الوقت لقب ينسب
إلى الخلافة نحو « خليل أمير المؤمنين » ومايجرى هذا الجرى ، إذ كان قد بلغنا أنه يربأ
بنفسه إلى أن يدعى الخلافة ، ويرى له فضل الإنافه .

قلت : مقتضى ما ذكره في " التعريف " حيث قال : إن رسم المكتبة إليه رسم
المكتبة إلى القانات الكبار في هيئة الكتاب وما يكتب به ، والطغرة والخُطبة ،
أن المكتبة إليه تُفتتح بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله » كما تقدم في افتتاح المكتبات إلى
القانات . والذي ذكره في " التثقيف " أن المكتبة إليه تكون في قطع البغدادى
الكامل بالذهب والأسود ، كما جرت العادة به ، يعنى في كُتُب القانات ، إلا أنه
جعل رسم المكتبة إليه : « أعز الله تعالى أنصار المقام ، العالى ، السلطانى ،

(١) في الأصل وقد سبق القول في الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالمى ، العادلى ، الملكى ، الفلانى » . ثم قال : وهذه الألقاب سطران كاملان وبينهما بيت العلامة على العادة ، وبعد السطرين المذكورين فى الجانب الأيمن من غير بياض « أبو المجاهد محمد ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمتة » . ولا يذكر لقبه . والدعاء ، والعلامة « أخوه » . وتعريفه « صاحب الهند » . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير على هذه الصورة :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالى

بيت العلامة

السلطاني ، العالمى ، العادلى ، الملكى ، الفلانى
قال فى " التعريف " : والعنوان جميعه بالذهب وهو سطران ، وتعريفه « صاحب الهند » . وبقية الكتاب بالسواد والذهب أسوة القانات ؛ وبه يُشعر كلام " التعريف " فيما تقدم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يليق به ، ذكره فى " التعريف " وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُبيرا ، وزمانه بما يقضى به من خلود مُلكه خيرا ،
وشأنه وإن عظم يتدفق بحرا ويرسب تيرا ، ومكانه وإن جل أن يحلبه مسكى الليل -
يملاً الأرجاء أرجاً والوجود عيرا ، وإمكانه يستكين له الإسكندر خاضعاً وإن حاز
نعيماً جمّاً ومُلْكاً كبيراً ، ولا برحت الملوك بولائه تتشرف ، وبآلائه تتعرف ، وبما
تطبع مهابته من البيض بيض الهند فى المهج تتصرف . المملوك يخدم بدعاء يحلق إلى
أفقه ، [ويحل العلاء والحجرة فى طرفه ^(١)] ، ويهدى منه ما يعدل به الناج فوق مفرقه ،
ويعتد له النجم ولا ينفيه إلا وسادة تحت مرفقه ، ويسمو إلى مقام جلاله ولا يسأم

(١) الزيادة من " التعريف " وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلُّ له إذا مَلَّت النجوم عن السير؛ ولا يزال يَصِفُ ملكه الحمدي
بأكثر مما وُصف به الملكُ السليمانى، وقد قال: وأوتينا من كلِّ شيء، وعلمنا
مَنطقَ الطير.

قلت: وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد ابتداء المكتبة بالدعاء، خلافا لما تقدم
أنه مقتضى تصوير كلامه في "التعريف".

وأعلم أن في هذه المكتبة على ما ذكره في "التعريف" شيئين قد خالف فيهما
قاعدة المكتبات عن الأبواب السلطانية.

أحدهما - إتيانه في "التعريف" في ألقابه بالمولوى. والثانى - قوله في الصدر المتقدم
الذكر «المملوك يخدم». فقد ذكر صاحب "التعريف" في كتابه "عرف التعريف":
أن السلطان لا يكتب عنه في العلامة «المملوك» وإنما خالف القاعدة في ذلك هنا
تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاءً لرتبته، حيث قال في أول كلامه: إنه أعظمُ
ملوك الأرض على ما تقدم ذكره، فعبّر عن مقامه بما يليق به، وخاطبه بما يليق
بخطابه، كما تقدم أنه كان يُكتب إلى أبواب الخلافة «المملوك» أو «الخادم ينتهبُ
ثرى الأعتاب» أو «يقبَل الأرض» ونحو ذلك تعظيماً لمحل الخلافة، لاسيما
وقد تقدم أن صاحب الهند حينئذ كان يدعى الخلافة، إلا أن نظام هذا الملك قد
أخلَّ ونقص عما كان بهوت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفى، واستقر مكانه
أبن خالته فيروز شاه.

ولعل المكتبة التى ذكرها في "التتيف" إنما رُتبت على حُكم ما كان في أيامه
بعد ذكر المكتبة المذكورة، بعد أن ذكر أن محمد بن طغلقشاه مات وقام فيروز شاه

مقامه ، إلا أنه مثل المكتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضى أن يكون هو المعنى بالمكتبة . ثم تفرقت المملكة بعد ذلك في سلطانين ، فيما أخبرني به بعض أهل الهند ؛ ثم تزايد نقصها بعد أن غزا [ها] تمرلوك وغلب عليها ؛ ثم نزح عنها . وبكل حال فلا ينبغي أن يقصر بصاحب الهند عن رتبة القانات . ولم أقف على نص مكتبة كتب بها إلى صاحب الهند فأذكرها .

المقصود الثاني

(من المصطلح المستقر عليه الحال من المكتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية في المكتبات إلى ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في المكتبات إلى صاحب أفريقية ، وهو صاحب تونس ، وتتضم إليها بجاية وقسنطينة تارة ، وتنفرد عنها أخرى)

وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك نقلا عن " التعريف " أن حد هذه المملكة غربا من جزائر بني مرغان إلى عقبة برقة الفارقة بين طرابلس وبين برقة ، وهي نهاية الحد الشرقي ؛ ومن الشام البحر^(١) ؛ ومن الجنوب آخر بلاد الجريد والأرض السواخة ؛ إلى ما يقال إنه موقع المدينة المسماة بمدينة النحاس . ثم قال : وهو أجل ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدم هناك أيضا ذكر حال مملكتها ومن ملكها جاهلية وإسلاما ، وأنها كانت قبل الإسلام بيد البربر حين كان معهم جميع المغرب ؛ ثم آتت منها الروم

(١) أي الروم كما تقدم في ج ه أثناء الكلام على مملكة تونس .

والفرنج إلى أن انتهت حال الفتح الإسلامي إلى جرجيس ملك الفرنج في جملة ممالك المغرب، ودار ملكه يومئذ سبيلة، إلى أن فتحت في خلافة عثمان رضى الله عنه على يد عبد الله بن أبي سرح، وتوالت عليها ثواب الخلفاء، وصارت دار المملكة بها القيروان حتى صارت منهم إلى [بني الأغلب] ^(١) ثم إلى العبيديين بنى عبيد الله المهدي، ثم الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت، وهى بأيديهم إلى الآن. وهى مستقرة الآن بيد الحفصيين منهم، وهم يدعون النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقولون: أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وأثود بن علي بن أحمد بن والآل بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن واقتن ابن محمد بن نجيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمون بها من بنى أبى حفص يدعون الخلافة، ويدعى القائم منهم في بلاده بأمر المؤمنين، وربما كاتبه بها بعض ملوك المغرب. قال في "التعريف": ومن أهل النسب من ينكر ذلك، ويجعلهم تارة بنسب إلى عدى بن كعب: رهط عمر بن الخطاب دون بنى عمر. ومنهم من ينسبهم إلى هتاتة من قبائل البربر بالمغرب، وهى قبيلة عظيمة مشهورة.

وهى الآن (إلى حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبى فارس عزوز، وقد دوح البلاد وأظهر العدل ورفع منار الإسلام. وقد ذكر فى "التعريف" أن السلطان بها فى زمانه كان المتوكل على الله أبو يحيى أبو بكر.

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" أن يكتب بعد البسملة. «أما بعد حمد الله» بخطبة مختصرة فى مقتضى الحال، ثم يقول فهذه المفاوضة، أو النجوى، أو المذاكرة، أو المطارحة، أو ما يجرى مجرى ذلك، ثم يدى من طيب السلام (ومن

هذا ومثله (إلى الحضرة الشريفة ، العليّة ، السنية ، السريّة ، العالمية ، العادلة ، الكاملية ، الأوحديّة ، حضرة الإمارة العدويّة ، ومكان الإمامة القرشنيّة ، وبقية السّلالة الطاهرة الزكيّة ، حضرة أمير المسلمين ، وزعيم الموحّدين ، والقائم في مصالح الدنيا والدين ، السلطان السيّد الكبير ، المجاهد ، المؤيّد ، الم رابط ، المناغر ، المظفر المنصور ، المتوكّل على ربه ، والمجاهد في حبه ، والمناضل عن الإسلام بذبه ، فلان ويدعى له بما يناسب مختصرا ، ثم يذكر ما يليق بكرم الحدود .



صدر آخر - من " التعريف " أيضا :

صدرت إليه تهدي إلىه من طيب السلام ما ترقّ في جانبه الغربيّ أصائله ، و يروّق فيما ينصبّ لديه من أنهار النهار جداوله ، ويحمله لكلّ غادٍ ورائح ، وتجري به السفن كالمُدن والركائب الطلائع ، وتخصّ ذلك المقرّ منه بثناءٍ يعزّلان يُنيبَ لبعده الدار ، ويستطّيع ليل العراق به من فرق أفريقية النهار ، وتحامى مصر عن جارتها المنعّة ، وتفخر بجارتها الشمس التي لا تروى في أفقها إلا مبرّقه .

ولم يذكر في " التعريف " قطع الورق ، ولا العُنوان ، والخاتمة ، والعلامة ، وما في معنى ذلك . والذي ذكره في " التثقيف " أنّ رسم المكتبة اليه في قطع الثلث بقلم التوقيعات ، نظير ما كتبت به لصاحب فاس ؛ وهو أن يكتب بعد البسملة بحيث يكون تحتها سواء في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبد الله ووليه » ثم ينخل مقدار بيت العلامة ؛ ثم تكتب الألقاب الشريفة من أول السطر مسامتا للبسملة . وهي « السلطان ، الأعظم ، المالك ، المملك ، الفلاني ، السيّد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المؤيّد ، المجاهد ، الم رابط ، المناغر ، المظفر ، الشاهنشاه . وهذه

تختصر غالباً - ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، مُنصف المظلومين من الظالمين ، وارثُ الملك ، سلطانُ العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، إسكندرُ الزمان ، مُولى الإحسان ، جامعُ كلمة الإيمان ، مُلك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، ملك البحرين ، مسلك سبيل القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، ظلُّ الله فى أرضه ، القائمُ بسنته وفرضه ، سلطان البسيطة ، مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلاطين ، ولئى أمير المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلانى فلان الدين والدنيا » ويرفع فى نسبه إلى منتهاه « خلد الله سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه . ويحتهد أن يكون « وأعوانه » آخر السطر أوقرياً من آخره . قال : والواجب بدل ولئى أمير المؤمنين قسيم أمير المؤمنين ، ثم يقول : يُحصى الحضرة ، العالمة ، السنية ، الشريفة ، الميمونة ، المنصورة ، المصونة ، حضرة الأمير العالم ، العادل ، الغايد ، المؤيد ، الأوحد ، فلان ، ذنر الإسلام والمسلمين ، عُدّة الدنيا والدين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، سيف جماعة الشاكرين ، صلاح الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمد الله بحُطبة مختصرة جداً ، فإنما نوصح لعلمه الكريم ، وتعريفه « صاحب تونس » .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر ”برقوق“ من إنشاء علاء الدين ، وهى

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله ووليّه .

السلطان الأعظم المالك ، المَلِك الظاهر ، الأجلّ العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المناغر المؤيد ، المظفر ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ،

مُحْيِي الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، قَامِعِ الْخَوَارِجِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ؛
 وَارِثِ الْمُلْكِ ، مَلِكِ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ ، مُبِيدِ الطُّغَاةِ وَالْبَغَاةِ وَالْكُفَّارِ ،
 مَمْلَكِ الْمَمَالِكِ وَالْأَقَالِمِ وَالْأَمْصَارِ ؛ إِسْكَنْدِرِ الزَّمَانِ ، نَاشِرِ لُؤَاءِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ؛
 مَلِكِ أَصْحَابِ الْمَنَارِ وَالْأَسْرَةِ وَالتُّخُوتِ وَالتَّيْجَانِ ؛ مَالِكِ الْبَحْرَيْنِ ، صَاحِبِ سُبُلِ
 الْقِبْلَتَيْنِ ، خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ؛ ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمِ بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ، سُلْطَانِ
 الْبَسِيطَةِ ، مُؤَمِّنِ الْأَرْضِ الْحَيْطَةِ ؛ سَيِّدِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
 «أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقٍ» خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جُنُودَهُ وَأَعْوَانَهُ ، وَأَفَاضَ عَلَى الْعِبَادِ
 وَالْبِلَادِ جُودَهُ وَإِحْسَانَهُ ؛ تَحْيِيَةً تُتَارَّجُ نَفْحًا ، وَتَبْلُجُ صُبْحًا ؛ وَتَطْوِي بِعَرْفِهَا نَشْرَ
 الْخُزَامِيِّ ، وَتَعِيدُ مَيِّتَ الْأَشْوَاقِ حَيًّا إِذَا مَا ؛ تَحُصُّ الْحَضْرَةَ الْعَلِيَّةَ ، السَّنِيَّةَ السَّرِيعَةَ ؛
 الْمُظْفَرَةَ الْمَيْمُونَةَ ، الْمَنْصُورَةَ الْمُصُونَةَ ؛ حَضْرَةَ الْأَمِيرِ الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْمَجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ،
 الْأَوْحَدِ ؛ ذُنُورِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، عُدَّةِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ ، قُدُوةِ الْمُوَحِّدِينَ ، نَاصِرِ الْغَزَاةِ
 وَالْمَجَاهِدِينَ ، سَيْفِ جَمَاعَةِ الشَّاكِرِينَ ، صَلَاحِ الدُّوَلِ ، الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ أَحْمَدُ ،
 أَبْنِ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ ، أَبْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي يَحْيَى أَبِي بَكْرَ ،
 أَبْنِ الْأُمَرَاءِ الرَّاشِدِينَ ، أَعَزَّ اللَّهُ دَوْلَتَهُ وَأَذَلَّ عِدَاتَهُ ، وَأَنْجَزَ مِنْ صُعُودِ أَوْلِيَائِهِ
 وَسُعُودِ آلَائِهِ صَادَقَ عِدَاتِهِ .

بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ جَامِعِ الشَّمْلِ بَعْدَ تَفْرِيقِهِ ، رَاتِقِ خَلَالِ الْمُلْكِ عِنْدَ تَمْزِيْقِهِ ؛ وَالشَّهَادَةِ
 بِأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبِيدُ الْبَاطِلِ بِحَقِّ سِرِّهِ وَسِرِّ تَحْقِيقِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا
 مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مَوْحِّهِ سَبِيلِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَطَرِيقِهِ . وَإِهْدَاءِ سَلَامٍ مَا الزَّهْرُ
 بِأَعْبَقٍ مِنْ قَبِيْقِهِ ، وَثَنَاءِ مَا الرُّوْضُ بِأَعْطَرٍ مِنْ خَلْقِهِ ؛ فَإِنَّا نُؤَمِّعُ لِعَلَمِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ كِتَابَهُ
 الْكَرِيمَ رَدَّ وَرُودَ السَّنَةِ عَلَى الْجَفْنِ السَّاهِرِ ، أَوْ الْمُزْنَةِ عَلَى الرُّوْضِ الزَّاهِرِ ؛ أَوْ الزَّلَالِ
 عَلَى الْأَوَامِ ، أَوْ الْبُرْءِ عَلَى السَّقَامِ ؛ فَهَدَدْنَا إِلَيْهِ يَدَ الْقَبُولِ ، وَارْتَحْنَا لَهُ أَرْتِيَا حَ الشَّمَالِ

إلى السَّمُول، ومِلْنَا إلى مُفَاكِهِته مِثْلُ الْفُصُونِ إلى الرِّيحِ، وامتزجنا بِمُصَافَاتِهِ آمْتِزَاجَ
الماءِ بالراحِ، وَفَضَضْنَا خَتَامَهُ عَنْ فِضْطَى كَلَامِهِ، وَذَهَبْنَا إلى ذَهَبِي نِثَارِهِ وَنِظَامِهِ،
وَتَأَمَّلْنَاهُ تَأَمُّلاً كُلُّ نَظِيرٍ عَبْدُهُ وَخَادِمُهُ، وَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَوَقُفَّ شَحِيحُ ضَاعٍ فِي التُّرْبِ
خَاتَمُهُ، وَنَظَّمْنَا جَوَاهِرَ اعْتِبَارِهِ فِي قَلَائِدِ الْأَفْكَارِ، وَصَبَّوْنَا إلى اخْتِبَارِهِ كَمَا صَبَتْ
النَّفُوسُ إلى الْإِدْكَارِ، وَفَتَحْنَا لَهُ جُهْدَ الطَّاقَةِ بَابًا مِنَ الْحُبِّ لَمْ يُغْلَقْ، وَنُقِصِمَ بَيْنَ خَلْقِ
الْإِنْسَانِ مَنْ عَلَّقَ أَنَّهَا بَغِيرُ قُلُوبِنَا لَمْ تَعْلَقْ، فَإِذَا سَطُورُهُ جُنُودٌ مُصْطَفَاهُ، أَوْ قِيَانٌ بِهَا
الْحَسَنُ مُحْتَفَّهٌ، وَإِذَا رُفُهُ طِرَازُ حُلَّةٍ، أَوْ عَقْدُ شَدَةِ الْبَنَانِ وَحَلَّةٍ، وَإِذَا لَفْظُهُ قَدَرَقٌ
وَرَاقٌ، وَمَرَّ بِالْأَسْمَاعِ فَلَا بَحْلَاوَتِهِ الْأُورَاقُ، وَإِذَا مَعْنَاهُ أَطْفُفٌ مِنَ النَّسِيمِ
السَّارِي، وَأَعَذَّبُ مَذَاقًا مِنَ الْمَاءِ الْجَارِي، وَإِذَا سَجَّعَهُ يَفُوقُ سَبْعَ الْحَمَائِمِ، وَيُزِيرِي
بِالرَّوْضِ الضَّاحِكِ لُبَّكَاءِ الْغَمَائِمِ، وَإِذَا سَلَامُهُ قَدْ حَيَّتَهُ الْأَزَاهِرُ، وَطَوَى بَعْرَفَهُ نَشْرُ
الرَّوْضِ الزَّاهِرِ، وَإِذَا هَنَاؤُهُ قَدْ مَلَكَ عِنَانَ التَّهَانِي، وَاسْتَمَطَّرَ عِنَانَ الْأَمَانِ مِنْ سَمَاءِ
الْأَمَانِي، فَعَبَّرْنَا لَفْظًا عَنْهُ عَنْ مَعْنَى الْحُبِّ، وَقَرَّبَ شَاسِعَ الذِّكْرِ وَإِنْ بَعْدَ الْمَدَى
بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، وَأَقَامَ شَاهِدَ الْإِخَاءِ عَلَى دَعْوَى الْإِخْلَاصِ فَقِيلِنَاهُ، وَنَادَى مُطِيعَ الْمُوَدَّةِ
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَلَبَّيْنَاهُ، سَقِيًّا لَهُ مِنْ كِتَابِ غُدِّي بِلِيَانِ الْفَصَاحَةِ، وَجَرَى جَوَادُ التِّمَاحَةِ
مِنْ مِضْمَارِ الْمَلَاحَةِ، لَا عَيْبَ فِيهِ، سِوَى بَلَاغَةٍ فِيهِ، وَلَا نَقْصَ يَعْتَرِيهِ، سِوَى كِبَالٍ
بَارِيَةٍ، لَعَمْرِي لَقَدْ فَاقَ الْأَوَائِلَ وَالْأَوَائِلَ، فَمَا أَجْدَرُ كَلَامَهُ بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَكَلَامٍ كَدَمْعٍ صَبَّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الْهَوَاءُ يَكْتَفِفُ عِنْدَهُ!

رَاقَ لَفْظًا وَرَقَّ مَعْنَى فَاضَحِي * كُلُّ سَحْرِ مِنَ الْبَلَاغَةِ عَبْدُهُ!

للهِ دَرُهُ مِنْ كِتَابِ حَلَبٍ دَرُ الْأَفْرَاحِ، وَجَدَدَ مِنْ أَثْوَابِ الْمَسَرَّةِ مَا كَانَ قَدْ أَخْلَقَتْهُ
يَدُ الْأَثْرَاحِ، فَهَمَّنَا مَعْنَاهُ فَهَمَّنَا، وَشَرَحْنَا مَتْنَهُ فَخَوَّاهُ فَانْشَرَحْنَا، وَعَلَمْنَا مَا اتَّصَلَ

بِسْمِعِكُمْ مِنْ خَبَرِنَا الْعَجِيبَ ، وَحَدِيثِ أَمْرِنَا الْقَدِيمِ الْغَرِيبِ ، الَّذِي أَظْهَرَ فِينَا لِلَّهِ
 أَسْرَارًا ، وَكَتَبَ لَنَا مِنْهُ عَنَاءَةً كَبَتَ بِهَا أَشْرَارًا ، جَلَّ جَلَالُهُ خَافِضٌ رَافِعٌ ، مُعَلِّ بِحِكْمَتِهِ
 وَاضِعٌ ، سَبْحَانَهُ أَوْجَدَ بَعْدَ الْعَدَمِ وَأُنْسَى شَيْئًا أَنْشَأَ ، قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ
 مَنْ تَشَاءُ ، كَسَرَ وَجَبَرَ ، وَقَرَنَ الْمَبْتَدَأَ بِالْخَبَرِ ، وَهَبَ مَا كَانَ سَلْبَ ، وَجَعَلَ لَصَبْرَنَا حَسَنَ
 الْمُنْقَلَبِ ، أَعَادَنَا إِلَى الْمُلْكِ مَعَ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ وَقِلَّةِ الْأَنْصَارِ ، وَأَظْهَرَنَا بَعْدَ الْخَفَاءِ
 فَاعْتَبَرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ، وَأَبْرَزَ إِبْرِيْزَنَا بَعْدَ السَّبْكِ خَالِصًا يَرُوقُ النَّاضِرُ ، وَيَفُوقُ
 بَرَوْنَهُ وَجْهَ الرُّوضِ النَّاضِرِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ فِي ذَلِكَ سِرًّا خَفِيًّا ، لَمْ يَزَلْ بِبِرْكَةِ رَسُولِهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنَّا حَفِيًّا ، قُتِمَ لَنَا فِيهِ بِوَاجِبِ الْهَنَاءِ ، وَأَحَاطَ بِنَا طَوْلُكُمْ الطَّوِيلُ
 مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ، فَاسْتَجَلَيْنَا مِنْ كِتَابِكُمْ عَرَائِسَ بُشْرَاهُ ، وَحَمِدْنَا عِنْدَ صَبَاحِ طَرْسِهِ
 لَيْلَ مَسْرَاهُ ، وَشَكَرْنَا لَهُ هَذِهِ الْأَيْدِيَّ الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا الْأَيْدَى الْمَتَّاعِلَةُ ، وَثَبَّتْنَا إِلَيْكُمْ
 عِنَانَ الثَّنَاءِ الَّذِي فَاقَ بِمَجَالِيهِ الرُّوضَ الْأَرِيضَ وَنَحْمَائِهِ .

وَلَمَّا تَمَثَّلَ إِلَيْنَا رَسُولُكُمْ الْمَكْرَمُ ، وَصَاحِبُكُمْ الْكَامِلُ الْمُعْظَمُ ، ذُو الْأَصْلِ الطَّاهِرِ ،
 وَالنَّسَبِ الْبَاهِرِ ، وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ ، وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ ، فَلَانَ : لَا زَالَ عَلَى مَقَامِهِ حَسَنًا ،
 وَجَفُنُ عَالِمِهِ لَا يَبِيعُ الْجَهْلُ عَلَيْهِ وَسَنًا ، فَأَبْدَى إِلَيْنَا مَا فِي وَطْأِهِ ، وَأَتْلَجَ الصُّدُورَ
 بِحِكْمَةِ فَضْلِهِ وَفَضَّلَ خُطَابَهُ ، وَأَخَذَ يَحَازِبُنَا عَنْكُمْ أَطْرَافَ الْأَحَادِيثِ الطَّيِّبَةِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْنَا
 مِنْ سَمَاءِ مَحَبَّتِكُمْ مُزْنَهَا الصَّيْبَةَ ، وَأَطْرَبَنَا بِسَمَاعِ أَخْبَارِكُمْ ، وَنَصْرِ أَعْوَانِكُمْ وَأَنْصَارِكُمْ ،
 وَنَبَّهَ عَلَى مَا أُوْدِعَهُ كِتَابُكُمْ ، وَتَضَمَّنَهُ مِنَ النُّصْرَةِ خُطَابُكُمْ ، وَدَوَّسَ جُنُودَكُمْ جَزِيرَةَ
 «غُودِش» وَعَوَّدَهُم بِالْمَنِّ وَالْمُنْحِ ، وَتَلَاوَتْهُمْ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾
 وَقُفُّوهُمْ مُتَفَيِّئِينَ مِنَ الْجِهَادِ بِظُلَّةٍ ، فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، بَعْدَ أَنْ نَعَقَتْ مِنْهُمْ
 عَلَى الْكُفَّارِ الْغُرَبَانَ ، وَأَقْتَنَصَتِ الرِّجَالَ آجَالَهُمْ أَقْتَنَاصَ الْعِقْبَانِ ، وَجَاءَتْهُمْ كَالْجِبَالِ

الرَّوَّاسِي ، وَظَفِرَتْ بِهِمْ أَظْفِيرُ الرَّمَاةِ وَمُخَالِبُ الْمَرَّاسِي ، وَغَنَّتْ عَلَيْهِمْ أوتارُ الْقَيْسِي .
فَارْقَصَتْ رُءُوسَهُمْ عَلَى الضَّرْبِ ، وَسَقَتَهُمْ كُؤُوسَ الرَّدَى مُتْرَعَةً وَنَعْمَ هَذَا الشَّرْبُ
لأَوْلَئِكَ الشَّرْبِ ، وَأَعَادَتْ الْمُسْلِمِينَ بِالْغَنَائِمِ إِلَى الْأَوْطَانِ بَعْدَ نَيْلِ الْأَوْطَارِ ، وَبَشَّرَتْ
الْخَوَاطِرَ بِمَا أَقْرَبَ الْعُيُونَ مِنَ النَّجَاحِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْأَخْطَارِ ؛ هَذَا وَالْعَدُوُّ الْمُلْقَى السَّلَامُ عِنْدَ
الْجِهَادِ ، حَيَّ بِهِمْ مَقَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ؛ يَا هَا غَزَاةٌ أَشْرَقَ نُورُهَا كَالْفَزَالَةِ ، وَأَشْرَقَ
يَوْمُ إِسْلَامِهَا عَلَى لَيْلِ الْكُفْرِ فَازَالَهَ ، وَتَوَلَّدَ مِنْهَا الْجِهَادُ فَلَا يَرَى بَعْدَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
عَقِيماً ، وَتَلَا لِسَانُ الشُّوقِ إِلَيْهِ ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ . لَا زَالَتْ
رِقَابُ الْأَعْدَاءِ لِأَسْيَافِكُمْ قِرَاباً ، وَغَزَاةُكُمْ الصَّالِحَةُ تُبْدِلُكُمْ مِنَ اللَّهِ أَجْراً وَثَوَاباً .

وَمَا عَرِضَتْ عَلَيْنَا مِنْ جُودِكُمْ عِنْدَ الْعَشَى الصَّافِيَّاتُ الْجِيَادُ ، وَحَلَيْنَا مِنْهَا
بِقَلَائِدِ مِنْهَا الْأَجْيَادُ ؛ نَقَسَمُ لَقَدْ حَيَّرْتَنَا ، أَلَوْأُنْهَا إِذْ خَيْرَتَنَا .

فَمِنْ أَشْهَبَ - كَأَنَّ الشُّهْبَ لَهُ قَيْصِهِ ، أَوِ الصَّبَاحَ أَلْبَسَهُ قَيْصَهُ ؛ أَوْ كَأَنَّمَا قُلِبَ
مِنَ الْجَلِينِ فِي قَالِبِ الْبَيَاضِ ، وَسُقِيَ سَوَادُ أَحْدَاقِهِ أَقْدَاحَ الرِّبَاحَةِ مِنْ غَيْرِ حِيَاضِ .
وَمِنْ أَدْهَمَ - كَأَنَّ النَّقْسَ لَمَسَهُ فِي مِدَادِهِ ، أَوِ الطَّرْفَ أَمَدَ طَرَفَهُ بِسَوَادِهِ ؛ أَوْ كَأَنَّمَا
تَقَمَّصَ إِهَابَ اللَّيْلِ ، لَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ بَجَرُ غُرَّتِهِ فَوَلَّى مَشْمَرَ الذَّيْلِ .

وَمِنْ أَحْمَرَ - كَأَنَّمَا صَبِغَ مِنَ الذَّهَبِ ، أَوْ كَوْنُ مِنَ النَّارِ وَاللَّهَبِ ؛ أَوْ كَأَنَّ الشَّفَقَ
أَلْقَى عَلَيْهِ قَيْصَهُ ثُمَّ أَشْفَقَ ، أَوِ الشَّقِيقَ أَجْرَى عَلَيْهِ دَمْعُهُ دَمْعاً وَجَبِيهَ شَقَقَ .

وَمِنْ أَشْقَرَ - كَأَنَّمَا أَلْبَسَ ثَوْبَ الْأَصِيلِ ، وَبَشَّرَ السَّرِيَّةَ يَمِينُ طَلْعَتِهِ بِالنَّصْرِ
وَالْتَحْصِيلِ ؛ أَوْ كَأَنَّ النَّضَارَ كَسَاهُ حُلَّةَ الْعُشَاقِ ، وَقَدْ آذَرَعُوا بِأَسْوَاقِ الْحَبَّةِ مَطَارِفَ
الْأَشْوَاقِ ؛

ومن أخضر - كما تَلَفَّع من الروض الأريض بأوراقه، أو صَبَغ بِالْعِدَارِ الْخَضِرَ
وقد شَقَّتْ عليه مراراً عِشاقه؛ أو كما تَمَّا الرُّمُودُ تَلَوِيْنُهُ، أو من شاربِ الشادنِ تَكْوِيْنُهُ؛
كلُّ بِطَرْفٍ منها يَسْبِقُ الطَّرْفَ، ويروقُّ الناظرَ بِالْحُسْنِ النَّاضِرِ وَالطَّرْفَ؛ يُقَامُ بِهِ حُجَّةٌ
الإعراض وهو باعترافٍ مَمْتَنٍّ قادِرٍ مَلِيٍّ، وينصب إلى الإدراك حسنَ السيرِ بِجُمُودٍ
صَحِيحٍ حَطَّه السَّيْلُ من عَالِيٍّ - فَأَسْرَجْنَا لها جِوَادَ الْقَبُولِ، وَامْتَطَيْنَا منها صَهْوَةً كُلَّ
مَامُولٍ؛ وَأَعَدَدْنَاهَا مَرَاكِبَ لَوَاكِبٍ، وَلَلَّيْلِ الْمَهْمَاتِ الْوَاقِعَةِ بُدُورًا وَكَوَاكِبَ؛
وَأَطْلَقْنَا أَعْنَةً شُكْرَهَا فِي مِيَادِينِ الْحَمْدِ، وَطَفِقْنَا نَرْجِعُ ذِكْرَهَا بَيْنَ شَاكِرٍ وَحَامِدٍ.

مكاتبة وزير تونس

رَأَيْتُ فِي الدِّسْتُورِ الْمَنْسُوبِ لِلْقَرَّ الْعَلَائِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
أَبْنِ عِلَاصٍ .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى ^(٢) الشَّيْخِي، الْكَبِيرِي، الْعَالِمِي، الْفَاضِلِي،
الْأَوْحَدِي، الْأَكْبَلِي، الْأَرْشَدِي، الْأَجْدِي، الْأَثِيرِي، الْبَلِيغِي، الْفَلَانِي، بِمَجْدِ
الْإِسْلَامِ، بِهَاءِ الْأَنْامِ، شَرَفِ الْفَضْلَاءِ، زِينِ الْعُلَمَاءِ، نَجْلِ الْأَكْبَارِ، أَوْحِدِ الْأَعْيَانِ،
بِرَكَةِ الدَّوْلَةِ، صَفْوَةِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ؛ (وَيَدْعِي لَهُ بِمَا يَنْسِبُهُ) . وَتَوَضَّعَ لِعَلَمِهِ الْمُبَارَكِ
كِتَ وَكِتَ؛ وَلَمْ يَذْكُرْ قَطْعَ الْوَرَقِ وَلَا الْعَلَامَةَ وَلَا التَّعْرِيفَ . وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ قَطْعَ
الْوَرَقِ الْعَادَةُ، وَالْعَلَامَةُ «أَخُوهُ» . وَالتَّعْرِيفُ «وَزِيرُ تُونُسٍ» .

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لما عرضت قد قرن بالفاء وهو جائز بعد لما وحتى إذا تأمل .

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه " إلى المجلس الشيخي الخ " .

الجملة الثانية

(في مكتبة صاحب الغرب الأوسط ، وهو صاحب تليمان)

وقد تقدّم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك الكلام على هذه المملكة ومن ملكها جاهليّة وإسلامًا ، وهي الآن بيد بني عبد الواد من زناتة من قبائل البربر - والقائم بها الآن منهم إلى حدود الثمانمائة من الهجرة هو السلطان أبو زيّان ، ابن السلطان أبي حمو : موسى بن يوسف ، بن عبد الرحمن ، بن يحيى ، ابن يغمراسن ، بن زيّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن ركدار ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، ابن علي ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هذه المملكة في "مسالك الأبصار" مضافةً إلى مملكة فاس : لا نضمامها حينئذٍ إليها في مملكة السلطان أبي الحسن المريني : صاحب فاس في زمانه ، ولذلك لم يذكر لصاحبها مكتبة في "التعريف" . على أنّي رأيت من صاحبها موسى ابن يغمراسن مكتبةً إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتي إيرادها في جملة المكتبات الواردة إلى هذه المملكة . وذكر صاحب "التثقيف" أن صاحبها في زمانه في الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» أي سلطانها يومئذ أبو حفص عمر بن أبي عمران موسى ، وأن المكتبة إليه مثل المكتبة إلى صاحب تونس المقدم ذكره على السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأى جماعة كتاب الإنشاء يكتبونه ، وكذلك رأيت في الدستور المنسوب إلى المقرّ العلائي بن فضيل الله ، ولم أظفر بصورة مكتبة فأذكرها .

الجملة الثالثة

(في المكتبة إلى صاحب الغرب الأقصى)

وهو صاحب فاس، وتعرف مملكته ببرّ العدو . وقد تقدّم الكلام على مملكته وأحوالها ومن ملكها جاهليّة وإسلاماً في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك، وأنها الآن بيد بني عبد الحق من بني مرّين من زناتة من قبائل البربر، وأنها الآن بيد السلطان أبي فارس عثمان، ابن السلطان أبي العباس أحمد، ابن السلطان أبي سالم إبراهيم، ابن السلطان أبي الحسن عليّ، ابن السلطان أبي سعيد عثمان، ابن السلطان أبي يوسف يعقوب، ابن عبد الحق، بن محيو، بن أبي بكر، بن حمّامة، ابن محمد، بن ورصيص، بن فكوّس، بن كوماط، بن مرّين، بن ورتاجن، ابن ماخوخ، بن ورحيح، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتييص، ابن المعز، بن إبراهيم، بن رجيك، بن واشين، بن بصلتن، بن شرا، بن أكيا، ابن ورشيك، بن أديدت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر في "التعريف" أن السلطنة فيهم في زمانه في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» صاحب مصر كانت في السلطان أبي الحسن عليّ بن عثمان المقدم ذكره . ثم قال : وورث هذا السلطان ملك العزفيين بسبّته، وملك بني عبد الواد يتلمسان، وأطاعه ملك الأندلس، ودان له ملك أفريقيّة، وعرض عليه أبنته فتزوجها، فساقها إليه سوق الأمة . ثم قال : وبنو مرّين رجال الوغى وناسها،

(١) تقدم في ج ٥ ص ١٤٤ "ورزيز" .

(٢) تقدم "جديج" .

(٣) تقدم "ورشد" .

وأبطال الحرب وأحلاسها؛ وهم يفتخرون بغزاة علمه وفضل تقواه . قال : وهو اليوم ملك ملوك الغرب ، وموقد نار الحرب .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" بعد البسملة :
 من السلطان الأعظم الملك الفلاني ، إلى آخر الألقاب المذكورة في المكتبة لصاحب تونس ، إلى قوله ونصر جيوشه وجنوده وأعوانه . ثم يقول : تحية يفتح بها الخطاب ، ويقدم منها ما زكا وطاب ؛ وتقال هنا سبعمائة مختصرة نحو أربع أو خمس ، يخص بها الحضرة الشريفة العلية ، الطاهرة الزكية ، حضرة المقام العالي ، السلطان ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، الماريط ، المناغر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الأسرى ، الأسنى ، الزكى ، الأتقى ؛ [المجاهد في الله ^(١)] المؤيد على أعداء الله ؛ أمير المسلمين ، قائد الموحدين ، مجهر الغزاة والمجاهدين ، مجدد الجنود ، عاقد البندود ، مالي صدور البرارى والبحار ، مزعزع أسيرة الكفار ، مؤيد السنة ، معز الملة ، شرف الملوك والسلطين ، بقية السلف الكريم ، والحسب الصميم ، ربيب الملك القديم ، أبى فلان فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أول نسبه . ويقال : فى كل منهم : أمير المسلمين أبى فلان فلان ؛ ثم يدعى له : نحو أعز الله أنصاره أو سلطانه أو غير ذلك من الأدعية الملوكية بدعاء مطول مقخم . ثم يقال : أما بعد حمد الله ، ويخطب خطبة مختصرة . ثم يقال : أصدرت إليه ، وسيرت لتعرض عليه ، تُهدى إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال : ومما تبديه كذا وكذا .

صدر : يليق بهذه المكتبة - تُهدى إليه من السلام ما يطلع عليه نهاره المشرق من مشرقه ، ويحييه به الهلال الطالع من جانبيه الغربى على أفقه ؛ وتصف شوقاً أقام

بين جَفْنِيهِ والكَرَى الحَرْب ، وودادا يَمْلَأُ برسله كُلَّ بحرٍ ويأتى بكلِّ صَرْبٍ ، وثناءً يُسْتَرْوَحُ بنسيمه وإن كان لا يَسْتَرْوَحُ إلا بما يَهْبُ من الغرب ، مقدِّمةً شكرًا لما يَهْرَمُ من عَزماته التي أعزَّتِ الدين ، وغَزَتِ الملُحدين ؛ وحلَّقت على مَنْ جاورها من الكُفَّار [تحليق^(١)] صُقُور الرجال على مُسِفَّةِ الغُربان ؛ وتُقيم عند الشجاع عُدَّ الجبان ؛ وتبيِّن آثارها في أعناق الأعداء وللسيوفِ آثارٌ بيَّان ؛ وإن كان فعله أكثر مما طارت به الأخبار ، وطافت به مُحلِّقات البشائر في الأفطار ؛ وسار به المحيِّجُ تعرِفُ آثاره عَرَقات ، وصارت تَسْتَعْلِمُ أخباره وتتدبُّ قبل زمانه ما فات .

والذى ذكره في "التتقيف" أنه كان السلطان في زمانه في الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبي الحسن على المقدم ذكره ؛ وذكر أن المكتبة اليه في قطع النصف ، وأنه يكتب تحت البسملة في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله «عبد الله ووليه» ثم يخلُ بيت العلامة ؛ ثم تكتب الألقاب السلطانية في أول السطر مسامتا للبسملة «السلطان الأعظم الملك الفلاني» إلى آخر الألقاب السلطانية المذكورة في المكتبة إلى صاحب تونس ، إلى قوله : ونصر جُيُوشه وأعوانه . ثم يقول : تحُصُّ المقام العالى ، السلطان ، الملك ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المعاضد ، المرباط ، المناغر ، المُكْرَم ، المعظم ، المظفر ، الموقر ، المؤيد ، المسدد ، الأسعد ، الأصعد ، الأرشد ، الأنجد ، الأوحد ، الأُمجد ، البهى ، الزكى ، السنّى ، السرى ، فلان ، أمير المسلمين ابن أبى فلان فلان ، إلى عبد الحق المرينى . والدعاء بما يُناسب ذلك المقام ؛ ثم أما بعد حمد الله ، بخطبة لطيفة ، فإننا نقاوضُ علمه الكريم ونحو ذلك . وأكثر مخاطبته بالإخاء وتُختم بالدعاء ،

(١) زدنا هذه الكلمة وإن لم تكن في الاصل ولا في التعريف لما لا يخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه «مَلِكُ الغرب» . وفي الدستور العلاني أَنَّ الطلب منه بالمستمد، ويختتم باستعراض الحوائج والخدم مكملاً بالدعاء .

وهذه نسخة كتاب من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبي الحسن المريني، في جواب كتاب ورد عليه منه وهي :

عبدالله ووليّه ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، مؤمن أولياء الله المؤمنين ، ظل الله الممدود ، وميسر السبل للوفود ، حامي القبليّين بحسامه من أهل الجحود ، وخادم الحرمين الشريفين متبعاً للسنة الإبراهيمية في تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والزّكّع السّجود ، والقائم بمصالح أشرف روضة وطيبه يعطر طبيها في الوجود ، وليّ أمير المؤمنين جمع الله به كلمة الإسلام بعد الافتراق ، وقّع برعبه أهل العناد والشقاق ، وأوزعه شكر نعم الله التي ألّفت على ولائه قلوب ملوك الآفاق ، وأمتعه بها منحة صيرت له الملك بالإرث والاستحقاق ، وسيرت كواكب مناقبه فلها بالمغارب إضاءة وبالمشارك إشراق . ابن السلطان السعيد الشهيد الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سقى الله عهدَه عهاد الرحمة ذوات إغراق ، وأبقى مجده بمحمد الذي للأمة المحمدية على تعظيمه إجماع وعلى تقديمه اتفاق ، يخصّ المقام العالی ، الملك الأجلّ الكبير ، الحبير ، العاضد ، المتناغر ، المظاهر ، الفائز ، الحائز ، المنصور ، الماثور ، الفاتح ، الصّالح ، الأمكن ، الأصون ، الأشرف ، الأعرف ، الكريم ، المعظم ، أبا الحسن عليّاً أمير المسلمين ، ابن السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر ، الفاجر ، الماهد ، الزاهد ، الأورع ، الأروع ، أمير المسلمين ، أبي سعيد عثمان ، ابن السلطان ، السعيد ، الرشيد ، السابق ، الوامق ، الجامع ، الصّادع ، أمير المسلمين

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، ناظم مُفَرَّق الفَخَّار ، وهازِم فِرْق الفُجَّار ، والملازم لإحياء سَنَةِ الجهاد المتروكة في الأقطار ، حتَّى يجمع في ملكه أطراف الغرب الأقصى للاستيلاء والاستظهار ، ويُنْضِع لفتكته كلَّ متكبر جَبَّار ، ويُرْصَع في سِلْكه مائاتُي وصَبُ من تلك الديار ، ويرْفَع لئسكه أَعْمالاً من الجهاد والاجتهاد تُسَرِّ الحَفْظَةَ الأبرار ، يَظْهَر فيها لَبْرَكَةُ الإِسْمِ العَلَوِيّ من نَشْرِ الهدى ، وقَهْرِ العِدا ، أَوْضَحُ الأدْلَةِ وأَيِّنُ الآثار ، ويُوَثِّرُ سلطاننا المحمديّ من عَلَيّ عَزَمِهِ ، وَحَيِّ حَزْمِهِ ، باعِزِّ الأعوان والأَنْصار ، فَتُظْفَر دَارُ الإِسْلام من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يَقْرَهُ لهم بِأَمِّ القُرَى قَرَار ، وَيَسِيرُ سِوَاهُمْ لِبَيْتِ ذِي الْجَمْرِ وَالْجَمْرِ وَالْبَابِ وَالْمِيزَابِ وَالْمَلْتَمِ وَالْجِدَارِ وَالْأَسْتَار ، بِسَلامِ مُشْرِقِ الْغُرُرِ ، مُوَقِّ الْحَبْرِ ، وَثَناءٍ مع رِيَّاهُ لا يُعْبَأُ بِالْعَبِيرِ مع نَشْرِهِ ولا يُعْتَبَرُ ، وَوِدَادِ غُفَيِّ الْخَبْرِ ، وَأَعْتَدَادِ يَطُولُ مِنْهُ في أَلْسِنَةِ الشُّكْرِ عن إحصائه وأَسْتَقْصائه قِصْر ، وإيرادِ لِمَفَانِره التي سارَتْ بها الأَخْبَارِ والسَّيْرِ ، وَأَعْتَقَادِ لِمَآثِرِهِ التي سَبَقَ عُثْمَانُها إلى إِمْرَازِ مَزَايا الفضل وجاءَ عَلَيْها على الأَثَرِ .

أما بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ أَوْلِياءَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ وَالْمُظَافَرَةِ ، وَنَهَى عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ عَنِ الْمُبَايَنَةِ وَالْمُنَافَرَةِ ، وَرَعَى الْحُجَّاجَ بَيْتَهُ حَرَمَةَ الْقَصْدِ وَكُتِبَ لَهُمْ أَجْرُ الْمُهَاجَرَةِ ، وَدَعَا إِلَى حَرَمِهِ ، مِنْ أَهْلِهِ مَنْ خَدَمَهُ ، فَأَجَابَهُ بِالتَّلِيَّةِ وَأَنَابَهُ وَأَجَرَهُ . وَالشَّهَادَةُ لَهُ بِالوَاحِدَانِيَّةِ الَّتِي تُسْعِدُ بِمُصَاحِبَةِ الْمُصَابِرَةِ ، وَتُصْعِدُ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْفَاخِرَةِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ذِي الْمَنَاقِبِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الزَّاهِرَةِ ، وَالْمَرَاتِبِ الَّتِي مِنْهَا الثَّبُوتُ وَالرَّسَالَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْوَسِيلَةُ وَالشَّفَاعَةُ فِي الْآخِرَةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَفْنَى اللَّهُ الشَّرْكَ بِصَوَارِمِهِمُ الْحَاصِدَةِ وَأَذْنَى الْقَتْلَ بِعِزَائِمِهِمُ الْحَاضِرَةِ ، صَلَاةً إِلَى مِظَانِ الرِّضْوَانِ مُتَوَاتِرَةٍ ، مَارَبَحَتْ وَفُودُ مَكَّةَ الْبَرَكَةِ الْوَافِرَةِ ، وَوَحَّحَتْ لِقَاصِدِي الْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوْجُهُ الْقَبُولِ سَافِرِهِ .

فإنه ورد - أورد الله تعالى البُشرى على سمعه ، وأيدَ آهتامة بتأليف شمل السعد
وجمعه - من جانبه المُكرم ومعهده وربعه ، كتاب كريم نسبه ، نعيم أدبه ، على منصبه ،
ملي إذا أخلف السحاب بما يهبه ، سرى سرت إلى بيت الله وحرم رسوله
القريب قُربه ، على يد رسوله : الشيخ الأمين الأزكى ، الأورع الأتقى ، الخطيب
البلغ ، المدرّس ، المفيد أبى إسحاق ابن الشيخ الصالح أبى زيد ، عبد الرحمن بن
أبى يحيى ، نفع الله به ، وحاجبه الكبير المختار ، المرتضى ، الأعز ، أبى زيان عريف
أبن الشيخ المرحوم أبى زكريا ، أيدّه الله تعالى ، وكاتبه الأجدد الأسعد أبى الفضل
أبن الفقيه المُكرم أبى عبد الله ، بن أبى مدين ، وفقه الله تعالى وسدّده ، ومنّ معهم
من الخاصة والزعماء والفرسان المائلين فى خدمة الجهة المصونة بلفها الله أربها ، وقيل
قُربها ، الواصلة بركبكم المبارك الرواح والمعدى ، المعان على إكمال فرض الحج المؤدى ،
المرحولين بحمد العقبي كما حمد المبدأ ، ففضضنا ختامه الذكى ، وأفضنا فى حديث
شكره الزكى ، وعمرضنا منه بحضرتنا روضا يانع الروض به محكى ، وحضضنا نوابنا
على إعانة خاصّة وفده وعامتهم على قضاء الشك بذاك الحرم المكى ، وتلمّحنا فضوله
الميمونة فإذا هى مقصورات على مَثوبات محضه ، ورغبات تُؤدى من الحج
فرضه ، وهبات يعامل بها من يضاعف أجره ويؤقيه قرضه ، وقربات يحمّد فاعلها
يوم قيام الأشهاد نشره وحشره وعرضه .

فأما ما ذكره من ورود الكائين الواصلين إلى حضرته صُحبة الشيخين الأجلين
« أبى محمد عبد الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبى لحان » وأنه أمضى حكمهما ،
وأجرى رسمهما ، فقد آثرنا للأجر حوزة ، وآخترنا بالشكر فوزه ، وقصدنا بهما تجديد
جلباب الوداد ، وتأكيد أسباب الولاء على العباد ، وإلا فمع وجود إنصافه الحقوق

من غاصبها تُستعاد ، والوُثُوقُ بِنَصْرِهِ للظُلوم وقهره للظالم لا يَخْتَلِفُ فيه اعتقاد ، وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال ، وآثرنا حمدكم في المحافل والمحال .

وأما مانعته مما أشرتم إليه مما يتعين له التقديم ، ويستحق توفية حقه من تكريم التكريم ؛ وهو تجهيز رُكِّكم المحروس في السرى والمقام ، في خدمة مَنْ يقوم مقام الوالدة المرحومة في الاحترام ؛ سقى الله صوب الرحمة صفيحها ، ورفق إلى الغرفات روحها ؛ ومعها وجوه دولكم القتر ، وأعيان مملكتكم من سُرّة بنى مَرِين الذين تُبهِج مرآئهم وتُسّر ؛ وما نبهتم عليه من ارتفاع شانهم ، واجتماع فُرسانهم ، واستيداع أمانتنا نفاس أنفسهم وأديانهم ؛ فقد استقبلناهم على بُعد بالإكرام ، وأحللناهم من القرب في أعلى مقام ، وصرفنا إلى تلقائهم وجه الإقبال والاهتمام ، وعرفنا حقهم أهل الإسلام ؛ ونشرنا لهم بفنائنا الأعلام ، ويسرنا لهم باعتنائنا كل مرام ؛ وأمرنا بتسهيل طريقهم ، وتوصيل البرّ لفريقهم ؛ وأسدلنا الخلع على جميعهم ، واحتفلنا بهم في قدومهم ومقامهم وتشييعهم ؛ وأجزلنا لهم أقسام الإنعام في توجيههم ، وكذلك يكون في رجوعهم ؛ وعرضوا بين أيدينا ما أُحِبَّتْهم من الطُرف والهدايا ، التي لا تحلها ظهور البحار فكيف ظُهور المطايا ؛ من عقود منظّمة ، وبرود مسهّمة ، ومطارف معلّمة ، ولطائف بالإمكان والإتقان معلّمة ، وصنائع محكمة ، وبدائع للأفهام مفحّمة ، وذخائر معظّمة ، وضرائر للشموس في الكون والسّمة ، وبوآثر تفرّق بين الهام والأجسام والهام ملحمة ، وأخير بمقدار مُهديها في الجلال مُفهمه ، وخيول مسومة بالأهلة مُسرّجة وبالتجوم مُلجّمة ، معودة نزال الأبطال معلّمة ، ذوات صدور مبقورة وأكفال مسهّمة ؛ تسحب من الحرير أذيالا ، وتصحّب من الوشّى سربالا ، وتميسُ محلّها وحلاها عُجبا واختيالا ، وقيسُ مشبهها سرعتها بالبرق فلا يتغالى ، عايات الأجسام ، عاليات كالا كام ؛ لفحوها صهيل يدعّر الأسود ، ولسنايكها

وقع يَقِطِرُ الجُهد، أُنْعِبَتِ الرُّؤاض ، وَرُكِبَتْ مِنْهَا صَهْوَةٌ كُلِّ بَحْرِ سَابِحٍ حَيْثُ لُجَجُ
الموتِ نُحَاضٍ ؛ وَفُرِنَتْ مَرَابِطُهَا بِحِمَايَةِ جَوَاهِرِ النُّفُوسِ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَجَنِيَّةِ
تُجَرٍّ مِنْ دُيُولِهَا كُلِّ فَضَاضٍ ؛ وَحُسِبَتْ لِأَخْتِلَافِ شِيَاتِهَا كَأَنَّهَا قَطَعَ الرِّيَاضُ : مِنْ
شُهْبٍ كَأَنَّمَا آرَدَتْ الْأَقَاحُ ، أَوْ غَدَتْ رَافِلَةً فِي حُلَلِ الْإِصْبَاحِ . وَدُهِمَ نَفَضَتْ
عَلَيْهَا اللَّيَالِي صَبْعَهَا فَلَا بَرَّاحٍ ، وَرَبَّمَا أَغْفَلَتْ مِنْ ذَلِكَ غُرُورٌ وَأَوْضَاحُ . وَكُنْتُ كَأَنَّهَا
فَتَحَ صُلْبُ الْبِطَاحِ ، تَطِيرُ إِلَى الظَّفَرِ بِجَنَاحِ . وَحُمِرَ كَأَنَّهَا خُلِقَتْ لِلنَّجَاحِ ، وَأُطْلِقَتْ
أَعْيُنُهَا فَقَالَتْ أَلْسِنَةُ أَسِنَّةِهَا لِلطَّرَائِدِ : لَا بَرَّاحٍ . وَخُضِرَ كَأَنَّهَا الْبُرْءُ الْمَوْشَاةُ الْوِشَاحِ ،
أَوْ مَشِيْبٌ فِي الشَّسَابِ قَدْ لَاحَ . وَشُقِرَ تَكْبُو فِي طَلَبِهَا الرِّيحُ ، وَتَجَبَّوْنَا الْبَرْقَ إِذَا
أَمْسَى بَسَنًا سَنَابِكُهَا أَقْنَدَاحَ .

ووراءها البغال ، التي تحمل الأثقال ، ولا تَزِلُّ فِي الْأَوْحَالِ بِحَالٍ ؛ وَعَلَيْهَا الزُّنَارِيَّاتُ
المَوْشَعَةُ ، وَحَلِيْهَا الْجِلَالُ الْمَلْمَعَةُ ؛ وَهِيَ تَمْشِي رُويْدَا ، وَتُبْدِي قُوَّةً وَأَيْدَا ؛ كَأَنَّ
قَلَامَتَهَا قَنَاهُ عِيدَا (؟) وَهِيَ وَافِرَةُ الْأُمْدَادِ ، فَاخِرَةٌ عَلَى الْحَيَادِ ، بَاهِرَةُ الْعُدَدِ مَتَكَثِرَةُ
الْأَعْدَادِ ، رَاسِخَاتُ الْقَوَائِمِ كَأَنَّهَا أَطْوَادُ ، شَاخِخَاتُ الرُّؤُوسِ حَالِيَّاتُ الْأَجْيَادِ ، بَاذِخَاتُ
الْأَكْفَالِ غِلَاطُ شِدَادٍ ، وَسَارَتْ لَهَا إِلَى رِحَابِنَا أَنْقِيَادُ ، وَصَارَتْ مِنْ مَحَلِّ إِسْعَادِ
إِلَى مَوَاطِنِ إِصْعَادٍ ؛ فَتَقَبَّلْنَا أَجْنَاسَهَا وَأَنْوَاعَهَا ، وَتَأَمَّلْنَا غَرَائِبَهَا وَإِبْدَاعَهَا ؛ وَجَعَلْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فِي حَوَاصِلِنَا إِيدَاعَهَا ؛ ثُمَّ اسْتَصَفَيْنَا مِنْهَا نَفَائِسَ آثَرْنَا إِلَيْهَا إِرْجَاعَهَا ،
وَفَرَّقْنَا فِي أَوَّلِيَّائِنَا أَجْتِمَاعَهَا ؛ وَقَسَمْنَا مُشَاعَهَا ، وَغَنِمْنَا لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ صَفَايَاها وَمِرْبَاعَهَا ؛
فَتَوَلَّتْ لِكُلِّ وَلِيٍّ مِنْهَا مَنَحٌ ، وَسَارَتْ إِلَى كُلِّ صَفِيٍّ مِنْهَا مَلَحٌ ؛ وَقَالَتْ الْأَلْسِنَةُ
وَطَالَتْ فِي وَصْفِ مَا عَلَيْهِ بِهِ فَتَحٌ ، فَاسْتَبَانَ وَوَضَّحَ ؛ وَكَانَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ بِنِعْمَتِهِ
أَعْظَمُ هَنَاءٍ وَأَكْبَرُ فَرَحٍ .

(١) من جملة معاني الفتح الماء الجاري على وجه الأرض شبهها في جريها بالماء الجاري على البطحاء الصلبة تأمل .

وسطرناها وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم ؛ وأمت أم القرى ركائبهم ؛
يساريهم الأمن ويصاحبهم ، ويظهرهم اليمن ويواظبهم ؛ فقد أعدت لهم المير في جميع
المنازل ، وشئت لهم الهجان البوازل ؛ وأترعت لهم الموارد والمناهل ، وأمرعت
لهم بالميرة القفار والمراحل ؛ ووكلت بهم الحفظة في المخاوف ونصبت لهم الأدلة
في المجاهل ؛ وجرّد معهم الفرسان ، وجدد لهم الإحسان ، وأكد لهم حقان حق
مرسلهم وحق الإيمان ، وقد درك حياتهم أمراء العربان ، وشوهد من تعظيمنا
لهم ما يحسد لهم عليه ملوك الزمان بكل مكان ؛ وكتبنا على أيديهم إلى أمراء الأشراف
بالتهوض في خدمتهم والوقوف ، وأن يحيط بهم كل مقدم طائفة ويطوف ،
يتسألهم زعيم من زعيم ، إلى أن تُحط رحالهم بالحطيم ؛ ويحل كل منهم بالمقام ويقيم ،
وتكمل مناسكهم بشهود الموقف العظيم .

وكذلك كتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة ، أن تتلقى بالقبول الحسن مصحفه ؛ ونحله
بين الروضة والمنبر ، ونحله فقد ربح سعى كاتبه وبر ، وكتبت له بعدد حروفه أجور
توفر ؛ ويمكن من يرق لتلاوته في الأصالي والبكر ، ويهيم على ذلك فإنه من بيت
هم الملاك الأعلى وعندهم وفيهم جاءت الآيات والسور .

وعما قليل يتم حجهم وأعتارهم ، ويوم طيبة الطيبة العاطرة زوارهم ؛ فيكرم
جوارهم ويعظم نغارهم ، وتنم بإشراق تلك الأنوار بصائرهم وأبصارهم ؛ وتفوح
أرواح نجد من ثيابهم ، وتلوح أنوار القبول على شبيهم وشبابهم ؛ ثم يعودون إلينا
فنعيد لهم الصلات ، ونفيد كلاً منهم ديم النعم المرسلات ؛ ثم يصدرون إن شاء الله
إليكم ركائبهم بالمناخ مثقلات ، ومطاليهم بالمناخ مكملات ؛ ويظفرون من الله
في الدارين بقسم النعم أنجزلات حتى يلقوا برحابكم عصا التسيار ، ويصونوا حر
وجوههم بالصبر على حرّ الهجير [من] لفتح النار ؛ ويدّخروا بما أنفقوا عند الله من

دِرْهِمٍ وَدِينَارٍ، أَجْرًا جَمًّا وَمَاعِنَدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْرَبُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ،
وَيُذَنِّبُهُ مِنْهَا بِالظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ يَسْرِى إِلَيْهَا بِالْبَاطِنِ؛ وَيَسَهِّلُ [لَهُ] ذُلُّكَ الْحَرَمِ، وَإِنْ كَانَ
قَدْ أَعَانَ الْقَاطِنَ وَالْقَادِمَ، حَتَّى تَحُلَّ رِكَابُهُ بَيْنَ الْمُرَوِّتَيْنِ وَتَجْهِيَزَ، وَيَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ
عَلَى مُلُوكِ الْعَرَبِ تَمِيزٌ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

لَا زَالَتْ مَقْبُولَةٌ عَلَى الْمَدَى هَدَايَاهُ، مَجْبُولَةٌ عَلَى النَّدَى سَجَايَاهُ، مَدْلُولَةٌ عَلَى الْهَدَى
قَضَايَاهُ، مَنْصُورَةٌ عَلَى الْعِدَا سَرَايَاهُ، مَبْرُورَةٌ أَبَدًا تَحَايَاهُ. وَالسَّلَامُ الْأَتَمُّ الَّذِي يَعْبَقُ
رِيَّاهُ، وَالنَّاءُ الْأَعْمُ الْمَشْرِقُ حَيَّاهُ، عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَالْخَيْرُ يَكُونُ، إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة جواب الكتاب الوارد على الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من
أَبْنِ أَبِي الْحَسَنِ عَلَى الْمَرْيَنِيِّ، صَاحِبِ فَاسِ الْمَغْرِبِ، بِالْبَشَارَةِ بَفَتْحِ بِجَايَةِ،
وَالْإِنتِصَارِ عَلَى تَلَبَّسَانِ.

وَأَسْتَفْتَا حُجَّةً بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ نُصَرِّحْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ثم المكتبة المعهودة : من ألقاب المَلِكِينَ ، والدعاء . والصدر :

فَهَرَّ اللَّهُ بِبَاسِهِ مَنْ نَاوَاهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَطُغَايَةِ، وَنَصَرَهُ عَلَى مَنْ لَآوَاهُ مِنْ حِزْبِ
الشَّيْطَانِ وَحُمَاتِهِ. وَنَشَرَ أَعْلَامَهُ بِالظَّفَرِ بَيْنَ خَالَفِهِ مِنْ عُدَاةِ اللَّهِ وَعُدَاتِهِ. وَأَجْرَاهُ مِنْ
بُلُوغِ الْوَطَرِ فِي سُكُونِهِ وَحَرَكَاتِهِ، عَلَى أَجْمَلِ أَوْضَاعِهِ وَأَكْمَلِ عَادَاتِهِ. وَيَسَّرَ لَهُ بِدَوَامِ
سُعُودِهِ فَتَحَ مَا اسْتَعْلَقَ مِنْ مَعَاقِلِ الْخَائِدِينَ عَنْ مَرْضَاتِهِ. وَلَا زَالَتْ رِكَابُ الْبَشَائِرِ
عَنْهُ تَسْرِى وَإِلَيْهِ مَنْ تَلَقَّائُنَا تَسِيرَ، وَمَصِيرُ الظَّفَرِ حَيْثُ يَصِيرُ، وَيُدَوِّرُ الْفَلَكَ
الْمُسْتَدِيرَ، بِسَعْدِهِ الْأَثِيلِ الْأَثِيرِ، وَيُنَوِّرُ الْخَلْقَ بِضَوْءِ جَبِينِهِ الَّذِي يَهْتَدَى بِهِ الضَّالُّ

وَلِنَجَا إِلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ، وَتَعَوَّرُ أَعْيُنُ الْعِدَا إِنْ عَايَنُوا بِحَفْلِهِ الْجَوَارَ وَنَاهَدُوا جَيْشَهُ الْمَبِيرَ . بِنُحْيَةٍ تَحْكِي اللَّطَائِمُ عُرْفَهَا الشِّمِيمَ ، وَتَوَدُّ الْبَكَايُمُ لَوْ تَفَتَّقَتْ عَنْ مِثْلِ مَا لَهَا مِنْ نَضَارَةٍ أَوْ تَسْنِيمٍ ، وَيَوَدُّ عَقْدُ الْجَوَزَاءِ لَوْ آتَنَظَمَ فِي عِقْدِهَا النَّضِيدَ النَّظِيمَ .

وكيف لا وهي تحية صادرة عن مقام شريف إلى روضة غناء تُزْرَى بالثَّبَتِ الْعَمِيمِ ، وَارْدَةٌ مِنْ مَحَلٍّ عَظِيمٍ ، عَلَى مُحْيَا وَسِيمٍ ، مَنْطُويَةٌ عَلَى ^(١) الْأَرْضِ مِنْ سَلَامَةٍ وَمُلُوكِ الْإِسْلَامِ مِنْ سَلَامٍ سَلِيمٍ ، وَطُرْفَةٌ تَشْرُهَا كَالْمَسْكِ الذِّي يُنْبِغِي أَنْ يُخْتَمَ بِهِ هَذَا الْكِتَابُ ، وَثَنَاءٌ يَسْتَفِزُّ الْأَبْلَابَ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي حَبَاتِ قُلُوبِ الْأَحْبَابِ ، وَيَسْتَدِرُّ أَخْلَافَ الْوُدَيْنِ الْمُتَحَايِينَ فِي اللَّهِ فَلَا غَرَوَ أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةُ النُّصْرِ مِنْ كُلِّ بَابٍ .

يَتَسَابَقَانِ إِلَى ذَلِكَ الْمَجْدِ الْأَسْنَى فِي أَسْعَدِ مَضَارٍ ، وَيَتَسَاوَقَانِ بِجِازِ قَصَبَاتِ السَّبْقِ إِلَى تِلْكَ الْعُصْبَةِ الْمَشْرِقَةِ الْأَنْوَارِ ، وَيَزْدَادُ فِيهِمَا بِالْوُفُودِ عَلَيْهِ طَيِّبًا ، وَيَغْدُو عُدُ الْوُدِّ بِهِمَا رَطِيبًا ، حَيْثُ الرَّبْعُ مَرِيعٌ ، وَالْمَهْمِيعُ مَنِيعٌ ، وَالْعَزُّ مُجَدَّدٌ وَالْقَدَرُ مُطِيعٌ ، وَتُحِبُّ الْكَرَمُ ثَرَهُ ، وَرِيَاضُ الْفَضْلِ مُحْضَرَّهُ ، وَعَسَا كُرُ النُّصْرِ تَحُلُّ نَحْوَهُ مِنَ الْحَجَرَةِ ، حَيْثُ تَسْتَعْرِ الْحَرْبُ ، وَيَسْتَجِرُّ الضُّرْبُ ، وَتَشْرُقُ شَمْسُ الْمَشْرِفِيَّاتِ لَامِعَةً .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ مُظْهِرِ دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ ، وَمُطَهِّرِ أَرْجَاءِ الْبَسِيطَةِ مِنَ الْمَارِدِينَ الْمَارِقِينَ ، وَمُجَرِّدِ سَيْفِ النُّصْرِ عَلَى الْجَاهِلِينَ الْخَائِدِينَ ، وَمُوهِنِ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ، وَمُجْزِلِ أَجْرِ الصَّابِرِينَ ، وَمُنْجِزِ وَعْدٍ مَنْ بَشَّرَهُمْ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ بِقَوْلِهِ : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ .

(١) هي أوعية المسك أو أسواقها واحداها لطيفة وفي الأصل العظام وهي تصحيف .

(٢) بياض بالأصل ولعله على ملء الأرض .

(٣) بياض في الأصل يسير .

الذى عَصَمَ حِمَى الإسلام بكل ملك قاهر ، وقَصَمَ عرى الشُّرك بكل سلطان
غداً على عدوِّ الله وعدوِّه بالحقِّ ظاهر ، وقَصَمَ كلَّ فاجرٍ بمهابةِ أئمةِ الهدى الذين
مأمَنهم إلا مَنْ هو للحاسن ناظمٌ وللعدا ناثر ؛ ناشِرَ علم الإيمان بحُجَّةِ الامصار ،
وناصِرَ علم الإسلام بملوكِ الأفطار ، وجاعِلَ كلمته العُليا وكلمة الذين كفَّروا
السفلى ، لاجرم أنَّ لَهُمُ النَّارَ ؛ جامعِ قلوب أهل الإيمان على إعلاءِ علم الدين الحنيف
وإنْ بَعُدَتْ بينهم شُقَّةُ النَّوى وشَطَّ المزار .

والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد الذى أرسله الله رحمةً للعالمين ونِعمةً على
الكُفَّار ؛ ونصره بالرُّعب مسيرةَ شهر وبالملائكة الكرام فى إيراد كلِّ أمرٍ وإصدار ؛
وألانَ ببأسه صليبَ الصَّلْبوتِ وأهانَ بالتَّنكيسِ عبدةَ الأصنام وسَدَنَةَ النار ، وأيده
بالِ وأصهار ، وأصحابٍ وأنصار ، وجنودٍ تهون النَّقع المثار ؛ وأتباعٍ ما أظلمَ خطب
إلا أجالوا سيوفهم فبدا نجمُ الظَّفَر فى سماء الإيمان وأنار ، وأمةٍ ظاهرةً على مَنْ
ناواها ، ظافرةً بمنْ عاداها ، ما تعاقبَ الليلُ والنَّهار ، صلاةً وتسليماً يُدومان بدوام
العِشىِّ والإبكار .

فقد ورد علينا كتابٌ محتومٌ بالتكريم ، محتومٌ بالتبجيل والتقديم ؛ محتوٍ على وصفِ
فضلِ الله العَميم ، ونصره العظيم ، ومَنِّه الجسيم ؛ فأكرمنا نُزْلَه ، ونَشَرنا حُلَّله ،
وتفَهَّمنا تفاصيله وُجْله ؛ فتيَّمناً بوصوله ، وتأمَّلنا مخاليلَ النصر العزيز من فُصوله ؛
ووجدناه قد أَشتمَلَ من سعادةِ مُرسِله على أنواع ، ومن وصفِ تعدادِ نُصرته على
عوِيٍّ من الله وَمَنْ يُعِنِ اللهُ فهو المنصورُ المطاع .

فأما ما ذكره المقامُ العالى من أمرِ الوالدةِ المقدَّسِ صَفِيحِها ، المغمورِ بالرحمةِ
صَرِيحِها ؛ وما كانت عزمتُ عليه من قصدِ مبرورٍ ؛ وتجارةٍ لِنِ تبور ، وأمٍّ إلى البيتِ

الآمين والحرَم المعمور؛ وما فاجأها من الأجل، وعاجلها من أمر الله عز وجل؛ فالمقام أجزل الله ثوابه يتحقق أن النية في الأجور أبلغ من العمل، وأنه من أجاب داعي الحِمَام فلا تقصير في فعله ولا خلل؛ والله نسأل أن يكتب لها ما نوتته من خير، وأن يطيف روحها الزكية ببيت المعمور في جنات عدن كما أطاف أرواح الشهداء في حواصل ذلك الطير.

وكنا نود أن لو قدمت ليلتها منا زائد الإكرام، ويوافي مضاربها وافد الاحتفال والاهتمام؛ ونستجلب دعواتها الخالصة الصالحة، وتظفر هي من مشاهدة الحرم العظيم والمثوى المكرم والبيت المقدس بالصفقة الراجحة. على أنه من ورد من تلقائكم قابلناه من جميل الوفادة بما به يليق، وتقدمنا بمعاملته بما هو به حقيق؛ ويسرنا له السبيل وهديناه الطريق، وأبلغناه في حرز السلامة مع ركبنا الشريف أمله من قضاء المناسك والتطواف بالبيت العتيق.

وأما أشار إليه من أمر من كان «بتلمسان» وأنه ممن لا يعرف مواقع الإحسان، وما وصفه المقام العالی من أحوال ليس الخبر فيها كالعيان، وأنه اعتدى على من يتاخذه من الملوك، وخرج عن القصد فيما اعتمده من ذلك السلوك، حتى أن ملك تونس أرسل إلى المقام ابنه ووزيره، وسأله أن يكون ظهيره على الحق ونصيره، وأن المقام العالی أرسل إلى ذلك الشخص منكرا اعتماده، طالبا إصلاحه لا إفساده؛ راجيا أن يكون ممن تنفعه الذكرى، ظاناً أنه ممن يأبى أن يقال له: «لقد جئت شيئا نكرا» وأنه بعد ذلك تهادى على غيّه، وأراد أن يدوق طعم الموت في حبه؛ وأبى الظالم إلا نفورا، وذكر الملك عنه أنه قتل أباه بعد أن آتاه الله به نعمة ومُلْكًا كثيرا. وأن المقام العالی آتاه نبأ عن أخيه المقيم بسجلماسة، وخبر صدق أوجب أن يعامل بما يليق بجميل السياسة وحرز الحراسة؛ فبختد المقام له

جُنُودًا ، وَعَقَدَ بُنُودًا ، وَأَضْرَى أَسُودًا اَوْهَنْتَ كَيْدَهُ ، وَأَذْهَبْتَ أَيْدَهُ ، وَاجَلَّتْ صَيْدَهُ ، وَأَذَلَّتْ بَاسَهُ ، وَأَزَالَتْ عَنْهُ سِيْمَا الْمُلْكِ وَنَزَعَتْ لِبَاسَهُ . وَأَنَّهُ فِي غُضُونِ ذَلِكَ أَتَاهُ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ يَسْتَصْرِخُ بِهِ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَعْدِيهِ عَلَى الْكَفَرَةِ الْمُعْتَدِينَ . وَأَنَّ الْمَقَامَ لِي دَعْوَتُهُ مُسْرِعًا ، وَأَكْرَمُ نَزْلُهُ مُمْرَعًا ، وَوَعْدُهُ الْجَمِيلُ ، وَحَقَّقَ لَهُ التَّامِيلُ . وَأَنْ صَاحِبَ تِلْكَسَانٍ لَمَّا غَرَّهُ الْإِمْهَالُ ، وَظَنَّ هَذِهِ الْمَهَامَّ تَوَجَّبَ لِلْمَقَامِ بَعْضَ اشْتِغَالٍ ، أَعْمَلَ أَطْعَامَهُ فِي التَّجَرَّى عَلَى بَعْضِ مَمَالِكِهِ الْمَحْرُوسَةِ وَمَدَّ ، وَسَارَ إِلَى مَحَلٍّ هُوَ بَيْنَهُمَا كَالْحَدِّ . وَأَنَّ الْمَقَامَ عِنْدَ ذَلِكَ صَرَفَ إِلَيْهِ وَجْهَ الْعَزْمِ ، وَأَخَذَ فِي حِفْظِ شَأْنِهِ بِمَا لِأَعْلَامِ النَّصْرِ مِنْ نَصَبٍ وَمَا لِلْإِعْتِدَاءِ مِنْ رَفْعٍ وَمَا لِلْإِهْتِمَامِ مِنْ جَزْمٍ . وَأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُ مِنْ أَلِيمِ الْعِقَابِ حُلُولًا ، وَتَمَسَّكَ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [وَلَمَّا^(١)] لَمْ يَنْفَعَهُ الْإِنْذَارُ ، وَأَبَى إِلَّا الْمَدَاوِمَةَ وَالْإِضْرَارَ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَقَامُ الْعَالِي مِنْ جَيْشِهِ الْخِصَمَّ ، وَعَسَاكِرَهُ الَّذِي طَالَمَا تُعَصِّدُهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَإِلَى أَعْدَادِهِ تَضَمَّ ، كُلٌّ بِاسْلٍ يَقُومُ مَقَامَ الْكُتَيْبَةِ ، وَكُلٌّ مُشَاهِدٌ يَشَاهِدُ مِنْهُ فِي الْعَرِينِ كُلِّ غَرِيبِهِ ، وَكُلٌّ ضَرْغَامٌ تَعْرِفُ الْعِدَا مَوَاقِعَ ضَرْبِهِ لَكِنَّا تَجْهَلُ نَيْدَهُ أَوْ ضَرْبِيهِ ، فَأَذَاقُوهُ كَأْسَ الْجِمَامِ صَرْفًا ، وَلَمْ يَتَغَوَّأْ عَنْ حِمَاهُ بَدُونُ نَفْسِهِ عَدْلًا وَلَا صَرْفًا ، إِلَى أَنْ أَخَذُوهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أَبِيهِ ، وَشَرِذْمَةٍ قَلِيلَةٍ مِمَّنْ كَانَتْ تَخَالُصُهُ فِي الشَّدَائِدِ وَتُؤَاوِيهِ ، وَأَنَّ الْمَقَامَ الْعَالِي بَعْدَ ذَلِكَ سَيَّرَ مَطَارِفَ الْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ ، وَأَقْرَأَ أَحْوَالَهُمْ فِي عَدَمِ التَّعَرُّضِ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالذَّرِّيَةِ ، عَلَى مَا هُوَ الْمُسْنُونُ فِي قِتَالِ الْبُعَاةِ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ . وَفَهَّمْنَا جَمِيعَ مَا شَرَحَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ هَذَا الظَّفَرِ الَّذِي آبَيْضٌ بِهِ وَجْهُ الْفَتْحِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْمَرَتْ بِهِ صَدْرُ النَّصْلِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُ مُلْكَهُ رُقِيًّا ، وَيَحْزِيهِ لِقَبُولِ النِّعَمِ لُقِيًّا ، وَيَجْعَلُهُ دَائِمًا

(١) فِي الْأَصْلِ "لَمْ يَنْفَعَهُ" بِدُونِ لَمَّا .

كوصفه مظفراً وكأشبهه علياً . وأن المقام العالى لما فرغ وجهه من هذه الوجهة ،
 وجاز هذا الملك الذى لم يحز أبأوه كُنهه ، عاد إلى المهم الذى قدم فيه سلطان
 الأندلس لأنه ابدى ما المسلمون فيه من محاورة الأذى ، ومحاورة العدا ، وقرب
 المسافة بين هذين العدوَيْن كالشجاء . وفى عيونهم كالقذى . وأنه توى به من الطغاة
 من أسدل على المسلمين أودية الردى . وأنه على جانب البحر المعروف بالزقاق ، وبه
 قُطانٌ يمتعون الإرفاد والإرفاق ، ويصدون عن السبيل من قصد سلوكه من الرفاق .
 وأن البراً أيضاً مملوء منهم بصقور صائده ، وعلوج مكايده ، وكفار معانده ، وفجار على
 السوء متعاضده ، والبحر مشحون بغربان طائرة بأجنحة القلوع طارده ، صادرة
 بالموت وارده ، جارية فى فلك البحر كالأعلام إلا أنها بالإعلام بالخبر شاهده ، تختطف
 كلَّ أم وقاصد ، وتعد لأهل الإيمان بالمرأصد ، وتدنى الموت الأحمر ، ممن ركب
 البحر الأخضر ، وتمنع السالك ، إلا أن يكون من أهل الضلال الحالك ، من
 بنى الأصفر .

وأنَّ المقام العالى عند ذلك قام لله وغار ، وأتجد جنوده فى طلب النار من أهل
 النار وأغار ، وأتجد قاصد حرمه ببعوث كرمه وأعار ، وأرسل عقبان فرسانه محلقة
 إلى ذلك الجبل الشاخ الذرى وأطار ، إلى أن احاطت بهم جنوده إحاطة الآساد
 بالفرائس لإحاطة الهالات بالأقمار ، فما منهم إلا من أعمل على العدا رحن المنون
 ودار ، وسار وناعى البين يقدمه إلى أين سار ، وقدم عليهم ولده الميمون النقيبه ،
 المنوح غربة من مواقع النصر بكل غريبه ، الجارى على سنن آبائه الكرام ، المظفر
 أثنى سرى المندوح حيث أقام . وأنه مرق جموعهم الكشيفه ، وهدم معاقلهم النيفه ،
 وأستدنى منهم القاصى ، وأستزل العاصى ، وأخذ بالأقدام والنواصى ، وأحلَّ العذاب
 والنكال ، بمن يستحقه من أهل الإلحاد والمعاصى ، وقرن بين الأرواح والآجال ،

وأذكّرهم بهذا النصر أيامَ ابنِ نصر وأعاد ، وأثبت لهذا الجبل حقيقةَ اسم المدح ، وأستقر في صحائف فعله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلمنا أيضا ما اعتمدته الطاغى المغتال لعنه الله من الحضور بنفسه ، وجمعه الملحدين من أبناء خدمته والمارقين من جنسه . وأنه أعظم هذا الأمر وأكبر ، وأبدى الزفير لهذا المصاب وأظهر ، وأقسم بمعبوده المصوّر وصليبه المكسر ، أن لا يعود إلا بعد أن يظفر بما سلبه الحق إياه وتبصر ، فأبى الله والمؤمنون أن تكون النية إلا خائبة ، وقضت سعادة الإسلام أن تكون الأيام لما عقده من الطوية الردية ناكبة ، فلمّا طال عليه الأمد وحان الحين ، عاد صفرَ اليدين ولكن بحقّ حنين ، ناكصا على عقبه ، خاسئا لسوء منقلبه ، وأسرع إلى مقرّ طاغوته سرى وسيرا ، ولو كان من ذوى الألباب لتعقل في أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ . وأنّ المقام العالى ألزمه بعد ذلك ما كان على أهل «أغرناطة» له في كلّ عام موظفا ، ووضّع عنهم إضرما يرح كالأسر مجحفا .

وهذه عزّة إسلامية جدّد الله على يد المقام بذلك القطر صدورها ، وسطر في صحائف حسناته أجورها ، وأبقى له مدخورها ، وأعدّها له ليوم تجدّ فيه كلّ نفس ما عملت من خير محضرا إذا شاهدت عرضها ونشرها . ومنّة من الله أربّت على العدا ، وتجاوزت الحد ، ومزينة لا تطمح الآمال إلى ميلها في جانبها ولا تمتدّ ، ورُتب جدّ يلحق بها الولد الناجم في سماء المعالى رتب الكرام من أبٍ له وجدّ - والله يجعله مظفرا على العدا ، منصورا على منّ حاد عن سواء السبيل وأعدى ، مستحقا لحاسن الأخبار على قرب المدة وبُعد المدى .

وقد كان أخونا أمير المسلمين ، وسلطان الموحدين ، والدك الشهيد قدس الله سرّه ، وبؤاه دار النعيم وبها أقرّه ، في كلّ آونة يُخبرنا بمثل هذا الفتح ، ويدكر لنا

ماناله من جَزِيلِ المنح ؛ (فهذه شِنْشَنَةٌ نَعْرِفُهَا من أَنْحَرَمَ) ، وَسَنَةٌ سَلَكَ فِيهَا الشَّبْلُ الصَّائِدُ
 سَنَ ذَلِكَ الصَّيْنِمِ الْأَعْظَمِ ، وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَقَامَ الْمَقَامَ مَقَامَ أَبِيهِ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ
 وَأَبْقَى ، وَصَدَّقَ بِمَا تُنْشِئُهُ مِنْ حُسْنِ أَعْمَالِكَ وَسَعِيدِ آرَائِكَ أَنَّكَ أَبُو الْحُسَيْنِ وَأَنَّ
 أَبَاكَ أَبُو سَعِيدٍ حَقًّا .

وحيثُ سَلَكَ الْمَقَامَ سَنَ وَالِدَهُ الشَّهِيدَ ، وَأَتَحَفَّنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ بِكُلِّ جَدِيدٍ ؛ وَقَصَّ عَلَيْنَا
 أَحَادِيثَ ذَلِكَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ الْمَشْرِقِ بِأَنْوَارِهِ ، وَنَصَّ مُتَجَدِّدَاتِهِ مَفْصَلَةً حَتَّى صِرْنَا
 كَأَنَّا مُشَاهِدُونَ لَذَلِكَ النَّصْرِ وَمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، فَقَضَى الْوُدَّ أَنْ تُخَفِّفَهُ مِنْ أَحَادِيثِ جَيْشِنَا
 الَّذِي أَشْرَقَتْ لَمَعَاتُ سَيُوفِهِ فِي الشَّرْقِ الْأَعْلَى بِمَا يُسَنِّفُ سَمْعَهُ ، وَيُسِّرُ مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ
 وَجَمْعَهُ ، وَمَوْطِنَهُ وَرَبْعَهُ : لِيَتَحَقَّقَ أَنَّ نِعَمَ اللَّهِ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِتَشْيِيدِ هَذَا الدِّينِ
 الْحَمْدِيُّ عَامَّةً ، وَمِنْهُ لَدَيْهِمْ تَامَهُ ، وَالطَّافَةُ بِهِمْ حَافَهُ ، وَمُنَاصَرَتُهُ لِيَدِ سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ
 فِي أَعْنَاقِ الْعِدَا مُطْلَقَةً وَلَا تُكْفَى أَهْلَ الشَّرْكِ كَافَهُ ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

فَمَا يُبْدِيهِ لِعَالِمِهِ ، وَهُدْيِهِ لِسَعِيدِ فَهْمِهِ ، أَنَّ مِنْ جَمَلَةٍ مِنْ يَحِلُّ لِأَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ
 مِنْ مَلُوكِ الْكُفْرِ الْقَطِيعَةِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جَمَلَةِ الْإِفْضَالِ عَلَيْهِ
 وَالْإِنْعَامِ ؛ مِمَّا لَكَ سَيِّسٌ ، الَّذِي هُوَ فِي مِلَّتِهِ مِنْ سَاكِنِي الْبَرِّ كَالرَّئِيسِ ، وَبَيْنَ بَطَارِقَتِهِ
 وَطُعَاتِهِ كَالْكَتَدِ الْأَعْظَمِ أَوْ كَالْقَدِيسِ النَّفِيسِ ؛ وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ لِأَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنْ
 الْقَنَاطِيرِ الْمَقْنَطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَلِيلِ الْمُسَوِّمَةِ مَا لَا يَجِدُ عَنْهُ وَلَا يَحْسِبُ ،
 وَمَرَّتَبٌ لَا يَقْبَلُ التَّنْقِيسَ وَلَا يَسْمَحُ لِحَنَاقِهِ بِتَنْفِيسٍ ، تَحْلُهُ نُؤَابُهُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ
 عَنْ يَدِهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وَيَقُومُونَ بِهِ عَلَى قَدَمِ الْعُبُودِيَّةِ وَهُمْ ضَارِعُونَ .

وَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي سَوَفَ بَعْضُهُ وَأَنْحَرُ ، وَدَاقَعَ عِنْدَ إِبَانَتِهِ وَقَصَّرَ ، وَسَأَلَ
 مَرَّاحَنَا فِي تَنْقِيسِ بَعْضِ ذَلِكَ الْمُقَرَّرِ ، وَأَرْسَلَ ضَرَاعَاتِهِ إِلَى نُؤَابِنَا بِالْمَالِكِ الشَّامِيَةِ

في هذا المعنى وكرّر، وقدّر في نفسه المِراوغة وأسْرُ خُسْرًا في ارتعا (؟) والله أعلم بما
قدّر، فاقْتَضَتْ آراؤنا الشريفة أن نُرسِل إليه بعثًا يذلل قياده، ويُنكس صَعَادَه،
ويخرّب بلادَه، ويوطئ أطواده، ويوهن عِسادَه، ويذهب فسادَه، ويفرّق
أجناده، ويمزّق أنجاده، ويقلّل اعدادَه، ويقلّل جموعه، ويذكّدك رُبوعَه،
ويذري على مُلكه دُموعَه، ويذني خُصوعَه، ويفصل تلك الأبدان التي هي
للطغيان مجموعَه، فأنهَضنا إليه من الأبطال كُلّ باسل، وأنهدنا إليه منهم
كُلّ ضِرغام خادِرٍ يُظنّ الجاهل أنه مُتَكاسِل، وأشهدنا حربَه كُلّ مؤمنٍ يرى الشهادة
مَعْنًا، والتخلف مأثمًا والتباطؤ مغرَمًا، والعُدْر في هذا المِهم أمرًا محرّمًا. ويعدّ
الركوب إلى هذا السّفَر قُرْبَه، والركون إلى وطنه غُرْبَه، ويرغب فيما وعد الله به
جيشه المنصور وحزبه، ويربأ بنفسه أن يكون من الخالفين حُبًّا لها وتكريمًا،
ويبادر إلى ما أمر به رغبةً في قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . على صفات جياد، ليس لها غير الطير في سُرعة المرام أضداد،
وعاديات عاديّات على أهل العناد، وضاحيات ذابحات لذوى الفساد، ومُغيرات
طالما أسفر صُبحها عن النَّجاح، ومُثيرات تقع يتبّلع غيبتها عن تحقّق النّجاة وإزالة
الجنّاح. وصوّاهل عِراب، كم للفضل بها من كُيون وللوت اقْتِراب، وأصائل خيل،
تُحَيّل لراكبها أنها أجزى من الرياح وأسرى من اللّيل، قد عَقِد الخير بنواصيها، وعُهِد
النصر من أعرافها وصياصيها، وتسّم راكبوها لذروة العزّ من ظُهورها، واحتووا
على الكبير الأعلى من نُصرتها على العدا وظُهورها، بسُيوف تبدّد الأوهام، وتزيل
الإيهام، وتقذّ الهام، وتذني الموت الزّوام، وتطهر بيمانها نجس الشّرك ودنّسه،
وتقرّع أجسادهم فتغدو كلّها عيونًا وليكن بالدماء مُنجسه، قد تسربل كلّ منهم
من الإيمان درعًا حصينًا، وأنخذ لبسه جُنةً ولكن من الذهب والإسبرق ليكون

لفضل الله مُظْهِراً وإِحْسَاناً مُبِيناً، وَاتَّخَذَ لِسَهَامِ الْقِسِيِّ لِيَوْمِ اللِّقَاءِ الْأَلْسُنَ الْحِدَادَ،
وَمَدَّ يَدَ الْمُظَاهَرَةِ بِيَضِ قِصَارٍ وَسُمْرِ صَعَادٍ .

فَلَمَّا جَاسُوا خِلَالَ تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَمَاسُوا يَرْقُلُونَ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ الَّتِي تَشْفِي
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَتَغِيظُ الْكُفَّارَ ، لَمْ يَسْلُكُوا شِعْباً إِلَّا سَلَكَ شَيْطَانُ الْكُفْرِ شِعْباً
سِوَاهُ ، وَلَا وَطِئُوا مَوْطِئاً إِلَّا وَكَلَّ كَافِرٌ يَأْبَاهُ ؛ وَلَا نَالُوا مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ كَمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ ؛ وَمَا أَتَوْا لَهُمْ عَلَى ضَرْعٍ حَافِلٍ إِلَّا جَفَّ ، وَلَا مَرَوْا
عَلَى زَرْعٍ حَافِلٍ إِلَّا أَصْبَحَ هَشِيماً تَذَرُوهُ الرِّيحُ أَوْ حَطِيماً تَكْفِيهِهِ الْكَفَّ ؛ وَلَا هَشِيمٍ
إِلَّا حَرَّقُوهُ ، وَلَا جَمْعٍ إِلَّا فَرَّقُوهُ ، وَلَا قَطِيعَ شَيْءٍ إِلَّا قَطَّعُوهُ وَمَزَّقُوهُ ، وَلَا ضَائِرَ إِلَّا ضَنُّوا
عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَهُمْ أَوْ يُطْلِقُوهُ ، وَمَا بَرِحُوا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ نَازَلُوا الْبَلَدَ الْمُسَمَّى بِآيَاسَ ،
فَحَصَلَ لِأَهْلِيهِ مِنْ مَسَاءِهِ الْأَشْتَقَاقُ الْأَصْغَرُ وَالْأَشْتَقَاقُ الْأَكْبَرُ بِقَطْعِ الْأَمَلِ مِنْهُ
وَاتِّصَالِ الْإِيَّاسِ ؛ فَنَادَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصْنِ مَنْ أَسَارَى الْمُؤْمِنِينَ :

يَا رَحْمَةُ اللَّهِ حُلِّيْ فِي مَنَازِلِنَا * حَسْبِي بِرَأْحَةِ الْفِرْدَوْسِ مِنْ فَيْكِ

وَيَا نَصَرَ اللَّهِ أَتَشْرُ بِالظُّفَرِ رِيَابَ مُوَاجِهِنَا وَمَنَازِلِنَا فَطَالَمَا كُنَّا نَوَمُّكَ وَنَرْجِيكَ ؛
وَيَا خَيْلَ اللَّهِ أَرْكَبِي ، وَيَا خَيْلَ الْكُفَّارِ أَذْهَبِي ، وَيَا جُنْدَ إِبْلِيسِ أَرْهَبِي ، مَنْ جُنِدِ اللَّهِ
الْفَالِسِينَ ؛ وَإِنْ وَجَدْتِ مَنَاصَافَ فَاغْفِرِي ، وَيَا مَآ لِلْإِسْلَامِ مِنْ جُنُودٍ وَأَنْصَارٍ ، قَاتِلُوا
الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ .

وَكَانَتْ مُوَافَاةُ عَسْكَرِنَا الْمَنْصُورِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْإِسْفَارِ ، فَلَمْ يَمْلِكُوا الْقَرَارَ ، وَلَا اسْتَظَاعُوا
الْفِرَارَ ، وَلَمْ يَجِدُوا مَلْجَأً مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ . وَقَالَ : لَا وَزَرَ وَكَيْفَ بِهِ لِمَنْ يُلِيَّ الْأَوْزَارَ ،
وَرَأَوْا مَا أَعَدَدْنَا لِحَصَارِهِمْ مِنْ مَجَانِيْقٍ تَقْدُّ الصُّحُورَ ، وَتُدَكِّكُ الْقُصُورَ ، وَتَغِيضُ بِهَا
مِيَاهُ نَفُوسِ تِلْكَ الْأَجْسَادِ الْخَبِيْثَةِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَأَنَا أَمَدَدُنَا

جُيُوسَنَا بِجَارِيَاتٍ فِي بَحْرِ الْفُرَات ، مَشْحُونَةٍ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَقْوَات ، وَالْعُدَدِ وَالْآلَات ؛
وَأَرْفَدْنَا هُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالْقَنَاظِيرِ الْمُقَنْطَرَات ، وَأَوْفَدْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْجَادِنَا
بِالدِّيارِ الْبَكْرِيَّةِ ، وَأَطْرَافِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، جُيُوشًا كَالسَّحَابِ الْمُتَرَاكِمِ ، وَأَطْرْنَا عَلَيْهِمْ
عِقْبَانَ اقْتِنَاصٍ مِنْ عِقْبَانِ التَّرَاكِمِينَ اعْتَادَتْ صَيْدَ الْأَرَاكِمِ ، وَأَسْرَ الضَّرَاغِمِ ؛ فَلَمَّا
تَحَقَّقُوا الدَّمَارَ ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ مَنْ أَهْلَكَ مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ .

فَعِنْدَ الظَّهْرِ حَمَى الْوَطِيسِ ، وَنَكَصَ عِنْدَ إِعْلَانِ الْأَذَانِ عَلَى عَقِبِهِ ابْلِيسُ ؛
وَشَاهَدُوا الْمَوْتَ عِيَانًا ، وَتَحَقَّقُوا الذَّهَابَ أَمْوَالًا وَإِخْوَانًا ، وَوُلَدَانًا ؛ أَدْعَنُوا إِلَى السَّلَمِ ،
وَنَادَوْا الْأَمَانَ الْأَمَانَ يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ؛ وَالْكَفَّ الْكَفَّ يَا جُنْدَ الْمَلِكِ الْمُوصُوفِ
عِنْدَ الشَّقَاقِ بِالْحَزْمِ ؛ وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعِقَابِ بِالْحِلْمِ . وَأَرْسَلَ طَاغِيَتُهُمُ الْأَكْبَرُ
لَيْفُونَ ، يُقَسِّمُ بِصَلِيهِهِ : إِنَّا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَزِيَّةِ وَيُوفُونَ ؛
وَمِنَ الرَّعِيَّةِ الَّذِينَ يُطِيعُونَ أَمْرَ مَلِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَعَنْ حَمَى الْإِسْلَامِ يَكْفُونَ ؛ فَعِنْدَ
ذَلِكَ رَأَى نَوَابِنَا بِذَلِكَ الْعَسْكَرِ أَنْ تُكَفَّ عَنْهُمْ شُقَّةُ الشَّقَاقِ وَتُطَوَّى ، وَلَانَتْ قُلُوبُهُمْ
لِذَكَارِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ . وَطَالَعُوا عَلُومَنَا بِمَا سَأَلَهُ الْقَوْمُ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَمَا ضَرَعُوا إِلَيْهِمْ فِيهِ مِنَ الْأَمَانِ وَالْأَلْفَةِ ؛ وَإِعْطَاءَ مَا كُنَّا رَسْمَنَا بِهِ
مِنْ تَسْلِيمِ قِلَاعٍ مَعْدُودَةٍ ، وَتَسْوِغِ أَرْضٍ مَحْدُودَةٍ ، تَسْتَقَرُّ بِيَدِ نَوَابِنَا وَتُقَطَّعُ بِالْمَنَاشِيرِ
الشَّرِيفَةِ لِأَهْلِ الْجِهَادِ مِنْ أَبْوَابِنَا ، مَعَ اسْتِقْرَارِ مَارَسْمَنَا بِهِ مِنْ قَطِيعِهِ ، وَعَقْدِ الْهَدَنَةِ
عَلَى أُمُورِهِ عِنْدَنَا مُحِبَّةً وَلَدَيْهِمْ فَطِيعَةً .

هَذَا بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَتْ عَسَاكِرُنَا عَلَى قِلَاعٍ لَهُمْ وَحُصُونٍ ، وَمُحَرِّزٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
وَمُصُونٍ ؛ وَطَلَعَتْ أَعْلَامُنَا الْمُحَمَّدِيَّةُ عَلَى قَلْعَةِ آيَاسَ ، وَنَزَلَ أَهْلُ الْكُفْرِ عَلَى حُكْمِ

أهل الإيمان وزال التحقُّط والإحتراس، وأُعلن بالأذان في ذلك الصَّرح، وظهرت كلمة الإيمان كما بدأت أول مرة وهذا يُغني عن الشَّرح، وعلت الملة الحنيفة بذلك القطر وقام أهلها وصالوا، وغلت أيدي الكُفَّار ولعنوا بما قالوا.

وكان جيشنا قبل ذلك أخذ قلعة تسمى « بكورا » واستزلوا أهلها قسرا، واستراؤهم عنها ما بين قتلى وأسرى؛ وهى قلعة شامخة الذرى، فسيحة العرا، وثيقة العرا، يكاد الطرف يرجع عنها خاسئا.

ولما اتصل بأبوابنا هذا الخبر السار، وشفع لنا من نرى قبول شفاعته في إجابة ماسأله هذا الشعب من إرجاء عذاب أهل الكُفر إلى نار تلك الدار؛ منّا عليهم بالأمان، وقابلناهم بعد العدل بالإحسان؛ وتقدّم أمرنا إلى نوابنا بكف السيف وإغماده، وإطفاء مسعر الحرب وإخماده؛ وأن يُجرى المن على مآلوفه منّا ومعتاده، بعد تسليم تلك القلاع، وهدم الأسوار التي كان بها لأهل الكُفر الإمتناع؛ واستبقاء الرعية، واستحياء الذرية، وإجراء الهدنة المسؤلة على القواعد الشرعية؛ وعاد عسكرنا منشور الدواب، مظفر الكائب، مؤيد المواكب، مشحونا بغرائب الرغائب.

وعند وصولهم إلى أبوابنا فتحنا لهم أبواب العطاء الأوفر، وبدلناهم بالتي هي أحسن وعوضناهم الذي هو أكثر؛ وأفضنا عليهم من خلع القبول ما أنساهم مشقة ذلك السرى وشقة السير، وتلا عليهم لسان الإنصاف «ولباس التقوى ذلك خير».

وبعد ذلك ورد علينا كتاب بعض نوابنا بالأطراف من أولاد قرمان، القائمين بمشارك ممالكنا على وجه الأمن وسعة الأمان، بأنهم عند عودهم من سيس؛ ونصرتهم على حرب إبليس، استطردوا فأخذوا للكُفر تسع قلاع، مابرحت شديدة الإمتناع،

لا تَمْتَدَّ إِلَيْهَا الْأَطَاعَ ، فَتَكْجَلُ الْمَأْخُودُ فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ وَمَا قَبْلَهَا نَحْسَ عَشْرَةَ قَلْعَهُ ،
وَبَدَّدَ اللَّهُ شَمْلَ الْكُفْرِ وَفَرَّقَ جَمْعَهُ ، وَأَثَرْنَا أَنْ نَعْلِمَ الْمَقَامَ الْعَالِي بِلَهْمَةِ مِمَّا لِلَّهِ لَدِينَا
مِنَ النِّعَمِ ، وَلِهَذَا مِنْ شَارَةِ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى أَثَرِ اخْلَافِ كَالدَّيْمِ ، وَنُطْلِعَهُ عَلَى دَرَّةٍ مِنْ
سَحَابٍ ، وَغُرْفَةٍ مِنْ بَحْرِ عُبَابٍ ؛ وَطُرْفَةٍ نَشْرُهَا كَالْمِسْكَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَمَّ بِهَا
هَذَا الْكِتَابُ .

وَنَحْنُ نَرْغِبُ إِلَى الْمَقَامِ أَنْ يُوَاصَلَ بِكُتُبِهِ الْمَفْتَحَةِ بِالْوِدَادِ ، الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى النُّصْرَةِ
عَلَى أَهْلِ الْعِنَادِ ، الْمَشْحُونَةِ بِمَوَاقِعِ الْفَتْحِ وَالظَّفَرِ الَّتِي نَتَضَاعَفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَتَزْدَادُ ؛
الْمَحْتَوِيَةِ عَلَى الطَّارِفِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالتَّالِدِ ، الْمُتَصِلِ سَبَبُهَا بَيْنَ الْآبَاءِ الْكَرَامِ
وَتُجَبَّاءِ الْأَوْلَادِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ دَائِمًا لثَرَاتِ النُّصْرِ مِنَ الرِّمَاحِ يَجْتَنِي ، وَلُجُوهِ
الْفَتْحِ مِنَ الصُّوَارِمِ يَجْتَنِي ؛ وَيُدِيمُ عَلَى الْإِسْلَامِ مَزِيدَ الْعِزِّ الَّذِي يَتَجَدَّدُ كُلُّ آوْنَةٍ مِنْ
طَلَائِعِ رَايَاتِ مُحَمَّدٍ وَبِدَائِعِ آرَاءِ عَلِيٍّ ، بِمَنْهَ وَكْرَمِهِ .



وهذه نسخة كتاب جواب إلى صاحب فاس حيث ورد كتابه بالتعرض لوقعة
« تَمَرْلُوكَ » مِنْ إِنْشَاءِ مُؤَلَّفِهِ ، كُتِبَ بِذَلِكَ عَنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « فَرِجِ بْنِ
بَرْقُوقٍ » وَهُوَ .

عَبْدُ اللَّهِ وَوَلِيُّهُ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ (إِلَى آخِرِ أَلْقَابِ سُلْطَانِنَا) أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى
الْأَقْدَارَ بِرَفْعَةِ قَدْرِهِ ، وَأَدَارَ الْأَفْلاكَ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ ، وَأَذَلَّ رِقَابَ الْأَعْدَاءِ بِسَطْوَتِهِ
وَقَهْرِهِ ، وَتَخَنَ الْأَقْطَارَ بِسُمُوعَتِهِ وَمَلَأَ الْأَفَاقَ بِذِكْرِهِ ، يُخَصُّ الْمَقَامَ الْعَالِي (إِلَى آخِرِ
الْأَلْقَابِ) : رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي مُلْكِهِ الشَّامِخِ مَنَارًا ، وَجَعَلَ النُّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُ شِعَارًا ،
وَأَحْسَنَ مُحَسِّنَ مُوَاتَاتِهِ إِلَّا لِأَهْلِ الْكُفْرِ جَوَارًا ، بِسَلَامٍ يَفُوقُ الْعَبِيرَ عَيْقَهُ ، وَيَزُرِّي

بَفَيْقِ الْمَسْكِ الدَّارِيِّ فَيْقُهُ ، وَيُجِلُّ الرُّوضَ الْمُنَمَّ إِذَا تَزَيَّنَ بِالْبَهَارِ خُلُوقُهُ ، وَثَنَاءُ
تَكَلُّ الْإِلْسِنَةِ الْبَلِيغَةِ عَنْ وَصْفِهِ ، وَيُعْجِزُ بِنَاءُ الْمَجْدِ الْأَثِيلِ عَنْ حُسْنِ رَصْفِهِ ؛ وَتَعْرِفُ
الْأَزَاهِرُ بِالْقُصُورِ عَنْ طِيبِ أَرْجِهِ وَمَسْكِ عَرَفِهِ ، وَشُكْرُ يَوَالِي الْوَرْدِ فِيهِ الصَّدْرُ ،
وَيَحَقِّقُ الْخُبْرُ فِيهِ الْخَبْرَ ، وَيُشِيعُ فِي الْأَفَاقِ ذِكْرَهُ فَتَنْحَدُّ الشُّبَّارُ حَدِيثَ سَمَرٍ .

أما بعد حمد الله واصل أسباب المودة وحافظ نظامها ، ومؤدع علائق المحبة بشدة
الثمائها ، ورابط جاش المعاضدة بالتحاد كلمتها وتناسب مرامها ؛ ومجدد مسرات
القلوب بتوالي أخبارها المبهجة عن على مقامها . والصلاة والسلام على سيدنا محمد
أفضل نبي رعى الذمام على البعاد ، وأكرم رسول قرن صدق الإخاء منه بصحة
الوداد ، صلاة تبلغ من رتبة الشرف منتهائها ، وتنطوي الشقة البعيدة دون بلوغ
مدأها ؛ فإنه ورد علينا على يد رسولكم فلان كتاب كريم طاب وروده ، وتهللت
بالبشر سُعوده ؛ وشهد بصدق المحبة الصادقة شهوده ؛ وطلع من الجانب الغربي
هلاله فلاحت بالمشرق بحسن التلقى سُعوده ؛ فقر منه برؤيته الناظر ، وأبتجج بموافاته
الناظر ، ولاحت من جوانبه لوائح البشر فأحسن تلقيه سلطاننا الناصر .

وقابلناه من القبول بما كاد باطنه لكمال الموافاة يكون عنواناً للظاهر ؛ وفَضَضْنَا خَاتَمَهُ
المصون عن بديع كلام مخترع ، وبنات فكر قبله لم تُفترع ؛ وفصاحة قد أحكم اللسن
مبانيها ، وبلاغة تناسبت ألفاظها فكانت قوالب لمعانيها ؛ وبراعة قد أحسنت البديهة
ترتيبها فجاءت وتواليها تتبع هواديها ؛ وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة التي بلغت
من القلب الشفاف ، وبوارح الشوق الذي عندنا من مثله أضعاف أضعاف ؛
وانتهينا إلى ما أشار إليه المقام العالی من التلويح إلى ما طرق أطراف ممالكنا الشريفة
من طارق الاعتدا ، وما كان من الواقعة التي كاد خربها لفظاعته يكون كالمبتدا .

ونحن نبدي لعلم المقام العالى ما يوضح له أنَّ ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده أنَّ ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير، بل لأمرٍ قدر في الأزل، ومقدور الله تعالى لا يدفع بالحيل .

وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا، وتجاوزته حد بلادته إلى أطراف مملكتنا؛ بادرنّا الحركة إليه في عسكر لجب، وجيوش يضيق عن وسعها الفضاء الرّحب؛ من كل بطل عركته الحروب، وثقفته الخطوب؛ وحنكته التجارب، ونجم عوده بكثرة المنازلات قراع الكائب. قد امتطى طرفاً عربى الأصل كريم الحسب، خالص العتق صريح النسب؛ يفوت الطرف مدى باعه المديد، ويسبق حافره موقع بصره الحديد . ولبس درعا قد أحكم سردها، وأزم شدّها، وبالغت في السبوغ فاتصفت بصفات الكرام، وضاعت عينها ففنت شبحا حتى ذباب السهام . ووضع على رأسه بيضة تحطف الأبصار وميض برقها، وتزلق السهام الراشقة صلابه طرفها؛ وترفعها الأبطال على الرؤوس فلا ترى أنها قامت ببعض حثها . وتقلد سيفاً يمضى على الرقاب نافذ حكمه، ويقضى باتقضاء الأجل اقتضاؤ نجه، لا ينبو عن ضريبة فيرد، ولا يقف حده في القطع عند حد . واعتقل رُحما يجرى الدماء سنانه بأنايبه، ويمد إلى الفارس باعه الطويل فيأخذ بتلابيبه؛ وتمسك المنايا بأسبابه فتعلق منه بالأذيال، وتضرس الحرب بزرق أنيابه كأنها أنياب أغوال . وتتگب قوسا موعز الآجال هلال هلالها، ومورد المون إرسال نبالها؛ ومدرک النارنة وترها، وموقد نار الحرب قدح شررها، قد آقترن بها سهام تسابق الريح في سرعتها، وتعاجل الموت بصرعتها؛ وتخطف العيون في ممرها، وتخلّس النفوس من مقرها؛ تدخل هجما كل محتجب، وتاتي الحذر من حيث لا يحسب . وتناول عمودا يهجم على الأضالع بأضلاعه فيقدغها، ويصافح الرؤوس بكفه الملتحمة الأصابع

فَيَدْمَعُهَا ، يُقَرَّبُ مِنَ الْأَجَلِ كُلِّ بَعِيدٍ ، وَيُخْلَقُ مِنَ الْعُمُرِ كُلِّ جَدِيدٍ ، وَلَا يُقَاوِمُهُ
فِي الدَّفَاعِ بَيْضَةٌ وَأَنْتَى تُقَاوِمُ الْبَيْضَةَ زُبْرَةً مِنْ حَدِيدٍ .

وَتَحَرَّكْنَا مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي جُيُوشٍ لَا يَأْخُذُهَا حَضَرٌ ، وَلَا يَلْحَقُهَا هَضَرٌ ، وَلَا يُظَنُّ
بِهَا عَلَى كَثَرَةِ الْأَعْدَادِ كَسْرٌ ، وَلَمْ نَزَلْ نُحِثُّ السَّيْرَ ، وَتُسَّرِعَ الْحَرَكَةُ لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ إِسْرَاعَ
الطَّيْرِ ، حَتَّى وَافَيْنَا دِمَشْقَ الْحُرُوسَةِ فَزَلَّلْنَا بَظَاهِرَهَا ، مَسْتَمْطِرِينَ النَّصْرَ فِي أَوَائِلِ
حَرَكَتِنَا وَأَوَاخِرِهَا ، وَأَنْضَمَّ إِلَيْنَا مِنْ عَسَاكِرِ الشَّامِ وَعُزْرَابَانَهَا ، وَتُرْكَبَانِهَا الزَّائِدَةُ عَلَى الْعَدِّ
وَعَشْرَانَهَا ، مَا لَا يَنْقُطِعُ لَهُ مَدَدٌ ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَضَرٍ وَلَا عَدَدٍ . وَأَقْبَلَ الْقَوْمُ
فِي لَفِيفٍ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ ، وَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ الَّتِي لَا تَحْتَصِرُ : مِنْ أَجْنَاسٍ مُخْتَلِفَةٍ ،
وَجُمُوعٍ عَلَى تَبَايُنِ الْأَنْوَاعِ مُؤْتَلِفَةٍ ، وَتَرَاءَى الْجَمْعَانِ فِي أَفْسَحِ مَكَانٍ ، وَرَأَى كُلُّ قَبِيلٍ
الْآخَرَ رَأَى الْعَيْنِ وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَانِ ، وَأَعْتَدَّ الْفَرِيقَانِ لِلزَّلَالِ ، وَاحْتَفَرُوا خَنَادِقَ
لِلْإِحْتِرَاسِ وَتَبَوَّأُوا مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُبَارَزَةُ ، وَالْتِقَاءُ الصُّفُوفِ وَالْمُنَاجَزَةُ ،
إِذْ وَرَدَ مِنْ جِهَتِهِمْ بِطَلَبِ الصُّلْحِ وَالْمُؤَادَعَةِ ، وَالْجُنُوحُ إِلَى السَّلْمِ وَقَطْعُ الْمُنَازَعَةِ ،
فَاجْتَنَبْنَاهُمْ بِالْإِجَابَةِ ، وَرَأَيْنَا أَنَّ حَقْنَ الدِّمَاءِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مِنْ أَتَمِّ مَوَاقِعِ الرَّأْيِ إِصَابَةٌ ،
وَكُتِبْنَا إِلَيْهِمْ فِي ضَمَنِ الْجَوَابِ :

لَمَّا أَتَانَا مِنْكُمْ قَاصِدٌ * يَسْأَلُ فِي الصُّلْحِ وَكَفِّ الْقِتَالِ

قُلْنَا لَهُ نَعَمْ الَّذِي قُتِلَ * وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأَجَبْنَا السُّؤَالَ

فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ ، وَاقِفُونَ مِنَ الْمُوَاعَدَةِ عَلَى الْمُوَادَعَةِ عَلَى مَا هُنَاكَ ، إِذْ بَلَغَنَا أَنَّ
طَائِفَةً مِنَ الْخَوَنةِ الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ ، وَعَادَ عَلَيْهِمُ بِالْوَبَالِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ بَقِيَّتُهُمْ ، تَوَجَّهُوا
إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لِلْأَسْتِيلَاءِ عَلَى تَحْتِ مُلْكِنَا الشَّرِيفِ فِي الْعَيْبَةِ ، آمِلِينَ مَا لَمْ يَحْصُلُوا
مِنْهُ إِلَّا عَلَى الْخَيْبَةِ ، فَلَمْ يَسَعْ إِلَّا الْإِسْرَاعُ فِي طَلَبِهِمْ ، لِلْقَبْضِ عَلَيْهِمْ وَإِيقَاعِ النَّكَالِ

بهم، وجازيناهم بما يُجَازى به الملوك من رام مرامهم، وظن العدو أن قصداً
الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سلموه
إليه وفعل فعلته التي فعل، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويح أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل
أحوالها، حائطين بأفطارها المتسعة بجيوش لا يكل حذها، ولا يعقب بالجزر مدّها،
ليكونوا للبلاد أسواراً، وللدولة القاهرة إن شاء الله تعالى أعواناً وأنصاراً، وأعاد الله
تعالى المملكة إلى حالها المعروف، وترتيبها المألوف، فاستقرت بعد الاضطراب،
وتوطئت بعد الاعتراب .

وفي خلال ذلك ترددت الرسل إلينا في عقد الصلح وإمضائه، ودفن ما كان بين
الفريقين من المباينة وإخفائه، فلم يسعنا التلکؤ عن المصالحة [بل سعينا] سعيها،
والله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ . فعقدنا لهم عقد الصلح
وأَمْضَيْنَاهُ، وأَحْكَمْنَا قَوَاعِدَهُ تَوَكُّلاً عَلَى اللَّهِ تعالى وأبرمناه، وجَهَّزْنَا إِلَيْهِمْ نَسْخَةً مِنْهُ
طَمَعْتَ بِطَمَعَةٍ قَانَمَ عَلَيْهَا، وَأَعِيدَتْ إِلَيْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِيَكُونَ الْمَرْجِعُ عِنْدَ الْإِخْتِلَافِ
وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تعالى إِلَيْهَا : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسِيؤُتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

والله تعالى يحب إخوانكم الكريمة مواقع الغير، ويقرن مودته الصادقة بصفاء
لا يشوبه على ممر الزمان كدر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في مكتبة ملك المسلمين بالأندلس)

وهو صاحب غُرْناطَة ، وقطعتها تسمى حَمْرَاء غُرْناطَة . وقد تقدّم في المقالة الثانية في المسالك والممالك ذكر هذه المملكة وأحوالها ، ومن مَلِكها جاهليّة وإسلاماً ، وأنها الآن بيد نبي الأحرار . وقد ذكر في " التعريف " أنهم من وَلَدِ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ سَيِّدِ الْخَزَرَجِ الْأَنْصَارِيِّ : صاحب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم . وهي منهم الآن بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد المخلوع ابن يوسف بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ؛ وقد أزلَّ الله من يجاوره من نصارى الْفَرَنْجِ بسيفه ، وأمتنع في أيامه ما كان يؤدّيه من قبله من أواخر ملوك الْأَنْدَلُسِ إلى مَلِكِ الْفَرَنْجِ من الإتاوة في كل سنة ، لاستقبال سنةِ ثنتين وسبعين وسبعائة وإلى آخر وقت .

وقد ذكر في " التعريف " أنّ سلطانها كان في زمانه في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أبا الفضل يوسف ؛ ولعله يوسف بن إسماعيل المقدم ذكره . قال : وهو شابُّ فاضل له يدٌ في الموشّحات . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التعريف " بعد البسملة " أما بعد " بخطبة مختصرة ، « فهذه المفاوضة إلى الحضرة العلية ، السنية ، السريّة ، العالمية ، العادلة ، المجاهدية ، المؤيدّة ، المرابطة ، المثاغيرية ، المظفرية ، المنصورية ، بقية شجرة الفَخَّار ، وخالصة سَلَفِ الْأَنْصَار ، المجاهد عن الدين ، والذاب عن حوزة المسلمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، خالصة الخلافة المعظمة ، أثير الإمامة المكرّمة ، ظهير أمير المؤمنين ، أبي فلان فلان . »

وهذا صدر لهذه المكتبة ذكره في "التعريف" وهو .

صدرت هذه المكتبة إليه متكفلةً بالنصر على بُعد الدار ، مجرّدة النصل إلا أنه الذي لا يؤخّرهِ البدار ؛ مُسعدةً بالهم ولولا الاشتغال بجهاد أعداء الله فيمن قُرب لمّا تقدّمت سرعان الخيل ، ولا أقبلت إلّا وفي [أوائل^(١)] طلائعها للأعداء الويل ؛ ولا كُتبت إلّا والعجاج يُترّب السطور ، والفجاج تقذف ما فيها على ظهور الصّواهل إلى بطون البحور . مبديةً ذكر ما عندنا بسببها لمجاورة الكفّار ، ومحاورة السيوف التي لا تملّ من التفار ، مع العلم بما لها في ذلك من فضيلة الجهاد ، ومزية الجلّد على طول الحلالد ، ومصابرة السهر لأوقات منيمه ، ومكاثرة هذا العدو بالصبر ليكون لها غنيمه ، ونحن على إمدادها - أيدها الله - بالنصر وبالعداء الذي هو أخفّ إليها من العساكر ، وأخفى مسيراً إذا قدر حقّه الشاكر ؛ ثقةً بأن الله سينصر حزبه الغالب ، ويكفّ عدوّه المغالب ، ويصل بإمداد الملائكة لجُنّده ، ويأتي بالفتح أو بأمرٍ من عنده ، لتجرى أطافه على ماعودت ، ويؤخذ الأعداء بالجريرة ، ولينصرن الله من ينصره وينظر إلى أهل هذه الجزيره .

والذي ذكره في "التتيف" أن رسم المكتبة إليه مثل صاحب تونس في القطع والخطابة ، والاختتام ، والعلامة ، والتعريف "صاحب حمراء غرناطة" .

وهذه نسخة جواب إلى صاحب حمراء غرناطة . وقد ورد كتابه في ورقٍ أحمر يتضمن قيامه بأمر الجهاد في الكفّار ، وما حصل من استيلاء بعض أقاربه على ملكه ونزعه منه ، وأنه استظهر بعد ذلك على المذكور وقتله ، وعاد إلى ملكه على عادته . في جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعائة ، وهي :

(١) من "التعريف" زدناه .

نَحْصُ الحَضْرَةَ العَلِيَّةَ ، حَضْرَةَ الأَمِيرِ فُلانَ ، وألقابه ، جعل الله له النَّصْرَ أين سَارَ قَرِينَا ، وَالظَّفَرَ وَالِاسْتِظْهَارَ مَصَاحِبًا وَخَدِينَا ، وزاد في محلِّه الأَسْنَى ' تَمْكِينَا وَتَأْمِينَا ، وَمَنْحَ أَفْقِهِ الغَرْبِيَّ مِنْ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ المِتْلَأِيِّ الإِشْرَاقِ ، وَمَهَابَةِ بَطْشِهِ الذِي يُورِدُ العِدَا مَوَارِدَ الرَّدَى بِالِاتِّفَاقِ ، تَحْصِينًا وَتَحْصِينَا - بِإِهْدَاءِ السَّلَامِ الذِي يَتَأَرَّجُ عَرَفَا ، وَيَتَبَلَّجُ وَصْفَا ، وَيَكَادِ يَمَارِجُ النِّسِيمَ لُطْفًا - وَإِبْدَاءِ الشُّكْرِ الذِي جَلَّلَهُ مَلَائِسُ الإِكْرَامِ وَأَضْفَى ، وَأَجْمَلَ مِنْهُ نَفَائِسَ عَقْدِ المُوَدَّةِ الَّتِي أَظْهَرَهَا فَلَمْ تَكُنْ تَخْفَى .

ثُمَّ بَعْدَ حَمْدِ اللهِ مَوْكِدَ أَسْبَابِ عُلَاهُ ، وَمَوْيِدَ مَوْجِبَاتِ نَصْرِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الذِي أَمَدَّهُ بِمَلَائِكَتِهِ المَقَرَّرِينَ ، وَنَصْرَهُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ كَمَا وَرَدَ بِالنَّصِّ وَالتَّعْيِينِ ؛ وَرَفَعَ بِاسْمِهِ أُلُويَةَ المُؤْمِنِينَ المُوَحِّدِينَ ، وَقَعَ بِبَاسِهِ ثَائِرَةَ البَغَاةِ وَالمُتَمَرِّدِينَ .

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الذِينَ لَازَمُوا التَّمَسُّكَ بِأَسْبَابِ الدِّينِ ، وَجَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ مَنَارِ الإِسْلَامِ لِمَا عَلِمُوا مِقْدَارَ أَجْرِهِمْ عِلْمَ اليَقِينِ ، صَلَاةً مُتَوَالِيَةً مُتَوَاتِرَةً عَلَى مَرَّ الأَحْقَابِ وَالسِّنِّينَ ؛ فَإِنَّا نَوْضِّحُ لَعَلِمِهِ الكَرِيمِ أَنَّ كِتَابَهُ وَرَدَ عَلَيْنَا مُشْتَمِلًا عَلَى المَحَاسَنِ الغَرَّاءِ ، مُغْرِبًا بَلَّ مَعْرِبًا لَنَا بِجَمْعَةِ لَوْنِهِ أَنَّ نَسَبَتَهُ إِلَى الحُمْرَاءِ ؛ مُشْمًا وَرَدَ الحُدُودَ وَالتَّقْسُ فِيهِ كَالْخَالِ ، أَوْ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ كَمَا بَدَأَ رَوْضُهُ غِيبَ السَّحَابِ المُتَوَالِ . فَوْقَفْنَا عَلَى مَضْمُونِهِ جَمِيعِهِ ، وَتَلَمَّحْنَا بِدِيَعِ مَعَانِيهِ مِنْ جَمِيلِ تَوْشِيْعِهِ وَتَرْصِيْعِهِ ، وَعَلَّمْنَا مَا شَرَحَهُ فِيهِ : مِنْ أَسْتِمْرَارِهِ عَلَى عَادَةِ سَلَفِهِ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ الجِهَادِ ، وَقَطَعَ دَابِرَ الكُفْرَةِ ذَوَى الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ ، وَتَوَطَّيْدِ مَا لَدَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَتَطْمِينِ مَا بَهَا مِنَ الْعِبَادِ ؛ وَمَا آتَفَقَ مِنْ قَرِيبِهِ فِي الصُّورَةِ لِافِي المَعْنَى ، وَكَيْفَ أَسَاءَ إِلَيْهِ فِعْلًا وَقَدْ أَحْسَنَ بِهِ ظَنًّا ، وَأَنَّهُ رَصَدَ الْغَفْلَةَ مِنْ جَنَابِهِ ، وَأَقْدَمَ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ اقْتِرَافِ البَغْيِ وَالتَّمَسُّكِ بِأَسْبَابِهِ ، وَلَمْ

يَزُلُّ يُرَاعِي غِيَّةَ الرَّقِيبِ وَهُجُوعَ السَّامِرِ ، إِلَى أَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْأَسْتِيلَاءِ عَلَى ذَلِكَ الْمُلْكِ
الَّذِي ظَنَّ أَنَّ أَمْرَهُ إِلَيْهِ صَائِرٌ ؛ لَكِنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ قَدْ اقْتَحَمَ فِي قَعْلَتِهِ هَذِهِ الْأَهْوَالَ ، وَتَوَهَّمَ
أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ بِمَكْرِهِ عَلَى بُلُوغِ بَعْضِ الْأَمَالِ ، فَإِنَّهُ مَاسَلَمَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ حَتَّى وَدَّعَ ،
وَلَا أَقْبَلَ سَحَابَ اسْتِيلَائِهِ حَتَّى أَقْشَعَ بِمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِحَضْرَةِ الْأَمِيرِ مِنْ نُصْرَتِهِ ،
وَعَوْدِهِ إِلَى مَحَلِّ أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ . وَأَنَّهُ آثَرَ أَطْلَاعَ عُلُومِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ،
لَمَّا يَعْلَمُ مِنْ تَأْكِيدِ الْمَوْدَةِ الَّتِي غَدَتْ حَامِيًا عَلَى أَفْنَانِ الْمَحَبَّةِ سَاجِعِهِ ، وَقَدْ عَلِمْنَا
هَذَا الْأَمْرَ ، وَشَكَرْنَا جَمِيلَ مَحَبَّتِهِ الَّتِي لَمْ يَنْسُجْ عَلَى مَنَوالِهَا زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو ، وَابْتَهَجْنَا
بِمَا يَسِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَابْتَهَجْنَا فُرْصَ السَّرُورِ بِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنْ ظَفَرِهِ
الْمُتْقَارِبِ الْمَتَدَارِكِ ، وَحَمِدْنَا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَأْيِيدِ هَذِهِ الْعِصَابَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا مِنْ بِهِ
مِنْ عَوْدِ شَمْسِ هَذَا الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ إِلَى مَطَالِعِهَا السَّنِيَّةِ ، وَلَا جَرَمَ أَنْ كَانَتْ لَهُ النُّصْرَةُ ،
وَالْأَسْتِيلَاءُ وَالْقُدْرَةُ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَكْفَّلَ سَبْحَانَهُ لِأَوْلِيَائِهِ بِمَزِيدِ التَّكْرِيمِ وَالتَّعْزِيزِ ،
إِذْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ ، فَقَدْ وَصَلَ رَسُولُ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ إِلَيْنَا وَتَمَثَّلَ بِمَوَاقِفِنَا الْمَعْظَمَةِ ،
وَمَحَالِّ مَمْلَكَتِنَا الْمَكْرَمَةِ ، وَأَقْبَلْنَا عَلَيْهِ ، وَضَاعَفْنَا الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ ، وَأَدَّى إِلَيْنَا مَا تَحَمَّلَهُ
مِنَ الْمَشَاقِفَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَرَسَائِلِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ الْقَدِيمَةِ ، فَرَسَمْنَا بِاجَابَةِ قَصْدِهِ ، وَتَوْفِيرِ
رَبِّهِ وَرِفْدِهِ ، وَقَضَاءِ شُغْلِهِ الَّذِي حَضَرَ فِيهِ ، وَتَسْهِيلِ مَآرَبِهِ بِمَزِيدِ التَّنْوِيلِ وَالتَّنْوِيهِ ،
وَمُسَاحَةِ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ بِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَى مَا قِيمَتُهُ أَلْفَ دِينَارٍ مِصْرِيَّةٍ حَسَبَ مَا عَيَّنَهُ رَسُولُهُ
الْمَذْكُورُ ، وَلَوْ كَانَ سَأَلْنَا أَضْعَافَ ذَلِكَ لِأَجْبَأَ سُؤَالَهُ مِنْ غَيْرِ تَرَوٍّ وَلَا فُتُورٍ . وَقَدْ جَهَّزْنَا
إِلَيْهِ حُجَّتَهُ مَا نَعَمَّتْ بِهِ صِدْقَاتُنَا الشَّرِيفَةُ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرِّيَاقِ وَدُهْنِ الْبَلَسَانِ ، فَلْيَتَحَقَّقْ

ماله عندنا من المكانة والمحَلِّ الرفيع الشأن ؛ وقد أعدنا رسوله المذكور إلى بجهة
الكرامة بهذا الجواب الشريف ، محترماً مكرماً مشمولاً من إحساننا بالتَّليد والطَّريف ؛
فُحِيطَ علماً بذلك والله تعالى يُمِدُّه بمزيد التأييد ، ويمتَحُه من جيل الإقبال ، وجزيل
النَّوال ، ما يُرَبِّي على الأمل وَيَزِيد ! .

تم الجزء السابع . يتلوهُ إن شاء الله تعالى الجزء الثامن

وأوله المقصد الثالث

(في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي من جرتِ العادة بالمكتبة إليه
من العرب والسودان ، وفيه ثلاث جمل)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء السابع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الطرف العاشر — في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ،
 ولها حالتان... .. ٥
- الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها
 في الدولة الأخشيديّة والطواونية وما قبلهما... .. ٥
- » الثانية — ما كان الحال عليه بعد الدولة الفاطمية في الدولة
 الأيوبية... .. ١٩
- الطرف الحادى عشر — في المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب ،
 ولها حالتان... .. ٣٠
- الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدّم... .. ٣١
- » الثانية — ما الأمر مستقرّ عليه مما كان عليه علامة متأخرى
 كتاب المغرب أبو عبد الله محمد بن الخطيب... .. ٣٩
- الطرف الثانى عشر — في الكتب الصادرة عن وزراء الخلفاء المنفذين
 أمور الخلافة اللاحقين بشأو الملوك ، وفيه جملتان ٧٢
- الجملة الأولى — في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العباس
 ببغداد ووزراء ملوكها يومئذ ٧٢
- » الثانية — في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين
 بالديار المصرية ٧٨
- الطرف الثالث عشر — في المكاتبات الصادرة عن الأتباع إلى الملوك
 ومن في معنائهم ، وفيه ثلاث جمل ٨١

صفحة

- الجملة الأولى - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الشرق إليهم
 ٨١ في الزمن المتقدم
- » الثانية - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار
 ٨٧ المصرية إليهم
- » الثالثة - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب
 ٩١ إليهم
- الطرف الرابع عشر - فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك إليهم،
 ١٠٣ وهي على ضربين
- الضرب الأول - الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم،
 ١٠٤ وفيه ثلاث جمل
- الجملة الأولى - في الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق ١٠٤
- » الثانية - في الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية
 من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مقام الملوك
 ١٠٧ الان فن يعلمهم
- » الثالثة - في الأجوبة الصادرة عن ملوك الغرب ١١٠
- الضرب الثاني - الأجوبة الواردة على الملوك ١١١
- القسم الثاني - المكاتبات الصادرة عنهم إلى ملوك الكفر،
 ١١٣ وفيه طرفان
- الطرف الأول - في الابتداءات، وفيه ثلاث جمل ١١٣

صفحة

الجملة الأولى — في المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق

من بنى بويه فمن بعدهم ... ١١٣

» الثانية — في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

إليهم ... ١١٥

» الثالثة — في الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب ... ١١٦

الطرف الثاني — (وكتب خطأ الخامس عشر) المكاتبات الصادرة إلى

ملوك الكفر في الأجوبة، وهي إما أن تصدر بما

يصدر به الابتداء وقد تقدم، وإما أن تصدر

بلفظ وصل أو ورد ... ١١٧

الفصل الرابع — من الباب الثاني من المقالة الرابعة في المكاتبات

الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر

عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زمان

المؤلف على رأس الثمانمائة، وفيه أربعة أطراف

(وكتب خطأ ثلاثة) ... ١١٩

الطرف الأول — في المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلقاء من بنى

العباس ... ١١٩

» الثاني — في المكاتب إلى ولاية العهد بالخلافة ... ١٣٤

» الثالث — في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

إلى أهل المملكة من مصر والشام والمجاز،

وفيه ثلاثة مقاصد ... ١٣٨

صفحة

- المقصود الأول — في المكاتب المفردة ، وفيه مسلكان ... ١٣٨
- المسلك الأول — في بيان رتب المكاتب ورتب أهلها ،
- وهي على ضربين ... ١٣٨
- الضرب الأول — المكاتب إلى الملوك على ما كان عليه الحال
- في الزمن المتقدم ... ١٣٨
- » الثاني — المكاتب إلى من عدا الملوك من أرباب السيوف
- والأقلام ... وفيه مهيعان ... ١٤٠
- المهيع الأول — في رتب المكاتب ، وهي على عشر درجات ... ١٤٠
- » الثاني — في بيان مراتب المكتوب إليهم من أهل
- المملكة ... وهم على ثلاثة أنواع ... ١٥٤
- النوع الأول — أرباب السيوف ... ١٥٤
- » الثاني — أرباب الأقلام ، وهم على ضربين ... ١٦٣
- الضرب الأول — أرباب الدواوين من الوزراء ومن في معناهم ... ١٦٣
- » الثاني — أرباب الوظائف الدينية والعلماء ... ١٦٥
- النوع الثالث — ممن يكتب عن الأبواب السلطانية ...
- الخونديات السلطانية ... ١٦٦
- المسلك الثاني — في معرفة ترتيب المكاتب المقدمة الذكر وكيفية
- أوضاعها ... ١٩٤

صفحة

- المقصد الثاني - في المكتبات العامة إلى أدل هذه المملكة وهي
 المطلقات، وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب ٢١٨
- الضرب الأول - المطلقات المكبرة ٢١٩
- » الثاني - المطلقات المصغرة ٢٢٣
- » الثالث - (وكتب خطأ الثاني) من المطلقات البرالغ ٢٢٩
- المقصد الثالث - من المكتبات في أوراق الجواز وبطاق الجمام،
 وفيه جملتان ٢٣١
- الجملة الأولى - في أوراق الجواز ٢٣١
- » الثانية - في نسخ البطائق، وهي على ضربين ٢٣٤
- الضرب الأول - أن تكون البطاقة بعلامة شريفة ٢٣٤
- » الثاني - أن تكون بغير علامة ٢٣٤
- الطرف الرابع - (وكتب خطأ الثالث) في المكتبات إلى عطاء ملوك
 الإسلام ومن انطوت عليه ممالكهم ممن دونهم
- وفيه أربعة مقاصد ٢٣٥
- المقصد الأول - في المكتبات إلى عطاء ملوك الشرق
- وفيه أربعة مهائج ٢٣٦
- المهجع الأول - في المكتبة إلى الملوك والحكام ومن جرى مجراهم
 بمملكة إيران ويشتمل المقصود منها على
 ثلاث جمل ٢٣٦

صفحة

الجملة الأولى - في رسم المكتبة إلى قائمها الأعظم ٢٣٦

» الثانية - في المكتبات إلى من ملك توريز وبغداد بعد

موت أبي سعيد ٢٥٧

» الثالثة - في رسم المكتبة إلى من أنطوت عليه مملكة إيران ٢٦٢

المهيح الثاني - من المكتبة إلى الملوك، مملكة توران ٢٩٢

» الثالث - في المكتبات إلى من بجزيرة العرب ... وفيه جملتان ٣٣٢

الجملة الأولى - في المكتبات إلى ملوك اليمن ٣٣٢

» الثانية - في المكتبات إلى عرب البحرين ومن أنضاف إليهم ٣٧٠

المهيح الرابع - في المكتبة إلى صاحب الهند والسند ٣٧٢

المقصد الثاني - في المكتبات إلى ملوك الغرب، وفيه

أربع جمل ٣٧٦

الجملة الأولى - في المكتبات إلى صاحب افريقية وهو صاحب

تونس ٣٧٦

» الثانية - في مكتبة صاحب الغرب الأوسط وهو صاحب

تلمسان ٣٨٥

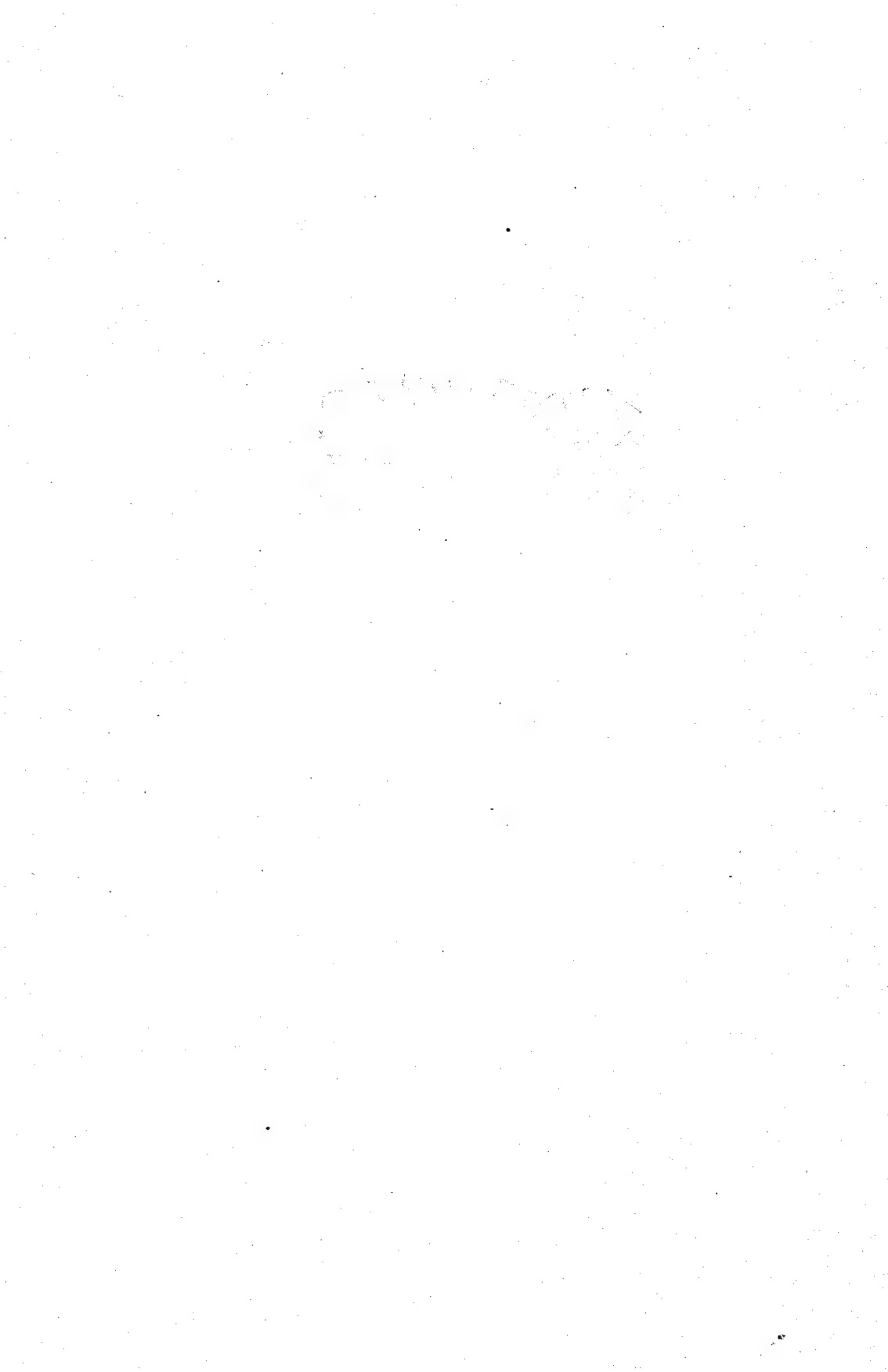
» الثالثة - في المكتبة إلى صاحب الغرب الأقصى ٣٨٦

» الرابعة - في مكتبة ملك المشامين بالأندلس ٤١٢

(تم فهرس الجزء السابع من كتاب صبح الأعشى)

صَبْحُ الْأَسْبَحَةِ

الجزء الثامن



دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثامن

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصود الثالث

في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبيّ من جرت العادة بالمكتبة إليه
من العرب والسودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العُربان)

وقد ذكر في " التثقيف " من كُتِبَ منهم جماعةً بالطُرُقَات الموصّلة من الديار
المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها . ثم قال : ولعلّ هؤلاء أيضا من عُربان الممالك
المحروسة ، غير أنه لا إقطاعات لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، وذكر أنه كتب
إلى كل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأول — سَمُرَة بن كامل العامريّ .

الثاني — عَبَّاد بن قاسم .

الثالث — كمال بن سِوَار . قال : وهو مستحدّث المكتبة في العشر الأول من
جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة .

الرابع — جُنَيْد : شيخُ الجَوَابرة من الهكاريّة بأبواب النوبة . قال : وهو
مستحدّث المكتبة في سنة تسع وستين وسبعائة .

الخامس - شريف : شيخ النمامة ، بأبواب التوبة أيضا ، ومكاتبته مستجدة حينئذ .

السادس - على : شيخ دُغيم .

السابع - زامل الثاني .

الثامن - أبو مهنا العمراني .

الجملة الثانية

(في المكتبة إلى مسليى ملوك السودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول - ملك التوبة . وهو صاحب مدينة دنقلة : وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في " المسالك والممالك " . قال في " التعريف " : وهو رعية من رعايا صاحب مصر ، وعليه حمل مقرر ، يقوم به في كل سنة ، ويُخطب [ببلاده ^(١)] خليفة العصر ، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » وهذه الإناوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح ، في إمارة عمرو بن العاص رضى الله عنه ، ثم صارت تنقطع تارة وتُجمل أخرى ، بحسب الطاعة والعصيان . وهى الآن مملكة مستقلة بذاتها ، ولذلك أوردت مكتبة صاحبها في جملة الملوك :

ورسم المكتبة إليه إن كان مسلما على ما ذكره في " التعريف " :

صدرت هذه المكتبة إلى المجلس الجليل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحيد ، العُصْد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلطين .

(١) الزيادة من " التعريف " .

وذكر ذلك في «التتقيف» نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكتبة متداولة بين الجماعة . قال : ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء ، ولم يزد على ذلك .

ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلاءي بن فضل الله أن مكتبته هذه المكتبة أيضا ، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادتَه ، وبلغه في الدارين إرادته ، نتضمن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدم بكذا وكذا ، فيحيط علمه بذلك» . ثم قال : والمكتبة إليه في قطع العادة ، والعلامة «أخوه» ولا يخفى أن العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنُقلة» .

الثاني — ملك البرنو . قال في «التعريف» : وبلاده تحُدُّ بلاد [ملك] التَّكُور^(١) من الشرق ؛ ثم يكون حدّها من الشمال بلاد [صاحب]^(١) أفريقية ، ومن الجنوب الهمج ؛ وقد تقدّم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة في «مسالك الأبصار» . قلت : وملكها يزعم أنه من ذُرِّيَةِ سيف بن ذِي يَزَنَ ملك ابن علي ماورد به كتابه في أواخر المائة السابعة . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في «التعريف» :

أدام الله تعالى نصر الجناح الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، الكبير ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهمام ، الأوحد ، المظفر ، المنصور ، عز الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكُور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدّين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعى له بما يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشويق هذه المفاوضة تبدى ، على ما سياتى ذكره في مكتبته .

وهذا صدر يلقى به : ولا زالت هم سلطانة غير مقصرة ، وفود حجه غير محصرة ، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ صدرت ، ولها مثل مسكة أفعه عبق ، وعنبرة طينته سواد إلا أنه من السواد اليق ، وشيبة ملكه الذي يفديه سواد الحديق . أوجها وذ أسكنه [مسكنه^(١)] من سويداء القلب لا يريم ، وأراه غرة الصبح الوضاح تحت طرة الليل البهيم . وحكى ذلك عنه في "التتيف" ولم يزد عليه .

ورأيت في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته في قطع الثلث ، والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب برؤ » .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكى فيه من عرب جذام المجاورين له ، ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه بأعومهم في الأفطار ، وسأل الكشاف عن خبرهم ، والمنع من بيعهم بمصر والشام ، وأرسل هدية صالحة من زنبق وغيره . وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر : أحد كتاب الدست . صدره : أعز الله تعالى جانب الجنب الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهام ، الأوحدي ، المظفر ، المنصور ، المتوكل ، نحر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس : عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيف الخلافة ، ظهير الإمامه ، وبعث إليه به مع رسوله الوارد صعبة الحجيج ، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث — ملك الكانم . قال في "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدة أسمها « جيمي » ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة أسمها « زلا » وأحرها طولاً بلدة

يقال لها « كَا كَا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثمون ، وملكهم على حَقارة سلطانه ، وسوء بُقعة مكانه ، في غاية لا تُدرك من الكبرياء ، يمسح برأسه عَنان السماء ، مع ضَعْف أجناده ، وقلة متحصِّل بلاد ، محجوب ، لا يراه أحد إلا في يوم العيد بكرة وعند العصر ، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب .

وقال في "التعريف" ملوكها من بيت قديم في الإسلام ، وجاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن ، وهو يمتدب بمتدب الشافعي . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كرسم مكتبة صاحب البرنو ، بدون الكريم ، وتبعه على ذلك في "التتيف" ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطلع على مكتبة له غير الذي قد ذكره .

الرابع — ملك مالي . قال في "مسالك الأبصار" وهي في نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط ، وقاعدة الملك بها بني . وهي أعظم ممالك السودان ، وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها ، وما تيسر من ذكر ملوكها ، وأن مالي أسم للإقليم ، والتكرور مدينة من مدنه ، وكان ملكها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » منسا موسى ، ومعنى منسا السلطان .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنه وصل منه كتاب عن نفسه لنفسه فيه (١) ناموسا ، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجا ، وأجتمع بالسلطان الملك الناصر ، فقام له وتلقاه ، وأكرمه وأحسن نزله ، على ما هو مبسوط في موضعه .

(١) عبارة "المسالك" في الكلام على ملكة مالي نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة السطانية بمصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض ، السطر إلى جانب السطر وهو يسلك فيه ناموسا لنفسه » فتلل ما في الأصل هكذا « عن نفسه وهو يسلك لنفسه الخ » فتدبر .

قال في "التعريف": "وملك التكرور هذا يدعى نسباً إلى عبد الله بن صالح
آبن الحسن، بن علي، بن أبي طالب .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف": « أدام الله تعالى نصر المقتز
العالى، السلطان، الجليل، الكبير، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الأوحِد،
عز الإسلام، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين،
جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامة، عضد أمير المؤمنين »
الملك فلان . ويدعى له بما يناسب . وبعد إهداء السلام والتشوق « هذه
المفاوضة تبدى .

قال : ولا يعرض له ولا يقترب شئ من الالتاب الدالة على النسب العلوى .
وهذا صدر لهذه المكاتبه ذكره في "التعريف" .

ويسر له القيام بفرضه ، وأحسن له المعاملة فى قرضه ، وكثر سواده الأعظم
وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه ، ومتعه بملك يجد الحديد يجف سمائه والذهب
نبات أرضه . صدرت هذه المفاوضة وصدرها به مملو، وشكرها عليه يخلو، ومن آيا
حبه فى القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حلي به الطرف والقلب من السواد؛ تنزل
به سفنها المسيرة فى البحر وترسى، وتحل عند ملك ينقص به زائده وينسى موسى
منسى، وتقيم عليه والدهر لا يطرفه فيما ينوب، والفكر لا يشوقه إلا إذا هبت صبا
من أرضه أو جنوب .

والمتداول بين جماعة كتاب الإنشاء أن المكاتبه إليه : « أعز الله تعالى جانب
الجناب الكريم العالى، الملك، الجليل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، المرائط،
المنافع، العابد، الناسك، الأوحِد، فلان، دُخر الإسلام والمسلمين، نُصرة الغزاة

والمجاهدين، عَوْنُ جُيُوشِ الموحِّدين؛ رُكْنُ الأئمة، عماد المِلَّة، جمال الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك في الدُّستور المنسوب للفقير العلّاءى بن فضل الله؛ ثم قال ويقال : «صَدَرَتْ هذه المكتبةُ إلى الجَنابِ العالى مملوءة الصدر بِشُكْرِه ، بِاسْمَةِ الثَّغْرِ بِرْفَعَةٍ قَدْرِهِ، مَوْصَحَةً لِعِلْمِهِ الكَرِيمِ كَيْتَ وَكَيْتَ . وذكر أنَّ خطابه بالجَنابِ الكَرِيمِ، والطَّلَبِ والقصد والختم بالإحاطة؛ وذكر هو وصاحب "التثقيف" أنَّ المكتبةَ إليه في قطع الثلث، والعلامة «أخوه» ؛ وتعريفه «صاحب مالى وغانة» .

الجملة الثالثة

(فى المكتبة إلى ملوك المسلمين بالحِشَّة)

قد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنَّ بِلاد الحِشَّة سبعة ملوك مسلمين ، لهم سَبْعُ ممالك ؛ كُلُّ مملكةٍ منفردةٌ بِملك ؛ وبها الجوامعُ والمساجدُ ينادى فيها بالأذان ، وتُقامُ بها الأُجْمَعُ والجماعات ، وهم مع ذلك تحتَ أمرِ صاحبِ أَمْحَرًا ملكِ ملوك الحِشَّة ؛ يَخْتارُ لولايَةِ ممالكهم مَنْ شاءَ توليته ، ولا يَرِدُونَ ويَصُدُّونَ إلا عن أمره ، وهى مملكةُ أَوْفَاتِ والزَّيْبَعِ ، ومملكةُ دَوَّارُو ؛ ومملكةُ أَرَايِنِي ؛ ومملكةُ هَدِيَّة ؛ ومملكةُ شَرْحَا ؛ ومملكةُ بَالِي ؛ ومملكةُ دَارَةِ .

وقد تقدّم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تُجاور ناصع ، وسواكن ، ودَهْلَكَ ؛ وليس بها مملكة مشهورة .

قال في "التعريف" : ولم يرد من هذه الملوك السبعة كتاب ، ولا صدر إليهم خطاب . قال : فإن ورد منهم شيء فتجرى مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكانم والبرنو . وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في "التعريف" : « أعز الله تعالى نصرة الجنب الكريم ، وأعز الله تعالى جانب الجنب الكريم » على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه .

المقصود الرابع

(في المكاتبة إلى أهل الجنب الشمالي ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى أمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم المسماة الآن ببلاد الدروب)

قال في "التعريف" : وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني تنهى في شريقها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش ، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني وتنتهى متشاملة إلى القسطنطينية ، وتنتهى جنوباً إلى بلاد الأرمن ، يحدها البحر الشامي . قال : وهذه البلاد بلاد متسعة ، وهي مفترقة لملوك مجتمعه ، ولكنه لا يطلق عليهم إلا اسم الإمارة ، ولا انتظام لملكهم ، ولا اجتماع لملكهم ، ثم قال : وأكبرهم صاحب كرمان ، وله بينهم وضع محفوظ ، ونظام مرعي .

أما ملوكها ، فأجل من لديهم منهم جماعة بنى قرمان ، لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنگاياتهم في مملك سيس وأهل بلاد الأرمن ، وأجتياحهم لهم من ذلك

الجانب، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب؛ فمكاتبتنا إلى بني قرمان لا تكاد تنقطع، وأما إلى البقية فأقل من القليل، وأخفى من مرأى الضئيل. ثم عد منهم ستة عشر أميراً، وذكر رسم المكاتبه إلى كل واحد منهم :

الأول - صاحب كرميان . قال في "التعريف" : ولم يكتب إليه مدة مقامى بالأبواب السلطانية ؛ ويُسبِه أن تكون المكاتبه إليه بالمقر نظير صاحب ماردین، لكن بأبسط ألقاب : إذ هي أدعى لاستحسانهم لقلّة معارفهم ، وعلى هذا التقدير يكون رسم المكاتبه إليه : « أعزّ الله تعالى نصر المقرّ الكريم ، العالی ، الملکی ، الأجلّی ، العالی ، العادلی ، المجاهدی ، المؤیدی ، المرابطی ، المناغری ، المظفری ، المنصوری ، الفلانی ، عون الأنام ؛ شرف الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، ظهير أمير المؤمنين » .

قال : فإن لم يُسمَح له بكل هذه المخاطبه ، ولم يؤهّل لنظير هذه المكاتبه ؛ كتبت إليه هذه الألقاب مع الجانب الكريم ، وخُوطب بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالملك .

قال في "التنقيف" ولعل مكاتبته بالجانب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى : لأنه إذا كان بنو قرمان أجل لدى ملوكنا ، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالی ، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبة في المكاتبه بدرجتين (١) وهي : الجانب الكريم . قال : هذا هو الأولى عندي .

قلت : وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برّسا الآتي ذكره ، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة ؛ أما بعد ارتفاعه وأنحطاطهم دونه فينبغي أن يُنظر في قدر المكتوب إليه ، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال .

الثانى — صاحب طُنْغُزْلُو . قال فى ” التعريف ” ورسم المكاتبه إليه : « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى الأميرى » ولم يذكر العلامة إليه . قال فى ” التثقيف ” والذى وجدته مسطورا فى مكاتبته الأسم والسامى بالياء .

الثالث — صاحب تُوَازَا . قال فى ” التعريف ” : وهو فى المكاتبه نظيرُ صاحب طُنْغُزْلُو ، ولم يزد على ذلك ، غير أنه ذكر أن اسمه فى زمانه كان « على أرينه » وذكر فى ” التثقيف ” أنه لم يقف له على رسم مكاتبه سوى ذلك .

الرابع — صاحب عَيْدَلِي . قد ذكر فى ” التعريف ” أن اسمه فى زمانه دَنْدَارُ أخو يونس صاحب أنطاليا ، وأنه نظير صاحب تُوَازَا فى المكاتبه ، فتكون المكاتبه إليه : صدرت والعالى . قال فى ” التثقيف ” ولم أقف على رسم مكاتبه إليه سوى ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو . وقال : إن المكاتبه إليه الأسم والسامى بالياء ، وذكر أن المقر الشهابى بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره فى ” التعريف ” ثم قال : وقد تكون هى عَيْدَلِي المقدم ذكرها ، وإنما تكررت بتغيير الحروف . قال ولم يتحرر هل هما أثنان أو واحد .

الخامس — صاحب كَصْطَمُونِيَّة وهى قَسْطَمُونِيَّة . قال فى ” التعريف ” وكانت آخِرَ وقتٍ لسليمان باشا ، وكان أميراً كبيراً ، كثير العدد ، موفور المدد ، ذاهية وتمتع . ثم قال : وورث ملكه أبنه إبراهيم شاه ، وكان عاقاً لأبيه ، خارجاً عن مراضيه ، وكان فى حياته منفرداً بمملكة سنوب . قال : وهى الآن داخله فى ملكه ، منخرطة فى سلكه .

وذكر أن رسم المكاتبه اليه : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الأميرى » بأكل الألقاب ، واتم ما يكتب فى هذا الباب ، وذكر فى ” التثقيف ” نقلاً عن القاضى ناصر الدين بن النشائى ، وأمين الدين خضر مثل ذلك ، وأن العلامة إليه « أخوه » .

السادس — صاحب فاوياً . قال في "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مراد الدين حمزة ، وهو ملك مضعوف ، ورجلٌ يجالس أنسه مشغوف . قال : ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى الأميرى » بالياء . قال فى "التثقيف" وهو غير بعيد .

السابع — صاحب برساً . وقد ذكر فى "التعريف" انه فى زمانه أرخان بن عثمان . ثم قال : وهو نظير صاحب فاوياً فى المكتبة ، فتكون مكاتبته السامى بالياء . قال فى "التثقيف" ولم أطلع على رسم للمكتبة إليه غير ذلك ، إلا أنه ذكر فى الفصل الأول من الباب الرابع فى الكلام على مكاتبات الحكام أرخان بن عثمان . وقال : إن لقبه سيف الدين . ثم قال : ويقال إنه صاحب برساً ؛ وذكر أن رسم المكتبة إليه فى قطع العادة والدعاء والمجلس العالى ، والعلامة أخوه ، وتعريفه اسمه .

قلت : وقد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أرخان بن عثمان جق ؛ ثم إلى ابنه مراد بك ؛ وأنه أوسع ملكه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينى حتى قارب خليج البنادقة ؛ ثم إلى ابنه أبى يزيد فزاد فى الملك على ما كان بيد أبيه ؛ وتزوج فى بنى قرمان ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان فى طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس ؛ فلما كانت مع قاضيه إبراهيم المتغلب عليها ، ولم يزل كذلك حتى قصده تمرلنك وأسرّه ، ومات فى يديه ؛ وملك بعده ابنه سليمان چلبى . ثم مات ؛ وملك بعده أخوه محمد بن أبى يزيد بن مراد بك ابن عثمان جق ، وهو القائم بها إلى الآن . وكانت المكتبة قد استقرت إلى أبى يزيد
(١)

فى الأيام الظاهرية (برقوق)

(١)

الثامن — صاحب أكبرا . قد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه دمرخان ابن قرأشي ؛ وذكر أن مكاتبته نظير مكاتبه صاحب برسا ، يعنى السامى بالياء ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع — صاحب مرمرأ . وقد ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان بجشي بن قرأشي . وقال : إن رسم المكاتبه إليه : « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى » .

قلت : وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج القسطنطينى بها مَقَطَع رُخَام ، وأنَّ النصارى غلبوا عليها .

العاشر — صاحب مغنيسيا . ذكر في "التعريف" : أن اسمه صاروخان . وقال : إن المكاتبه إليه السامى بالياء . وذكر في "التثقيف" : أنها صارت بعده إلى ابنه إسحاق بن صاروخان ؛ وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة بالإسم والسامى بالياء .

الحادى عشر — صاحب نييف . ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان على باشا أخو صاروخان صاحب «مغنيسيا» المقدم ذكره ؛ وذكر أن رسم المكاتبه إليه مثل أخيه المذكور ، فتكون صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى .

الثانى عشر — صاحب بري . ذكر في "التعريف" : أنها في زمانه كانت بيد ابن أيدين ولم يصح باسمه . قال : وإن المكاتبه إليه « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » بالألقاب التامة ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف له على مكاتبه غير ذلك .

(١) هى كذلك فى كتاب "الممالك" والذى تقدم فى ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضا صاروخان ، وليست فى نسخة "التعريف" التى بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فوقه . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه أرخان ابن منتشا، وأن المكتبة إليه نظير صاحب بري، فتكون الدعاء مع العالى بالألقاب التامة أيضاً، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف في مكاتبته على غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه خضر بن يونس . وقال : إن رسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى » . وذكر في "التثقيف" : أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب سنان الدين، وأنه استقر بعده دادى بك، ثم استقر بها آخر محمد المعروف بكجوك، وذكر أن المكتبة^(١) إليه « أخوه » والدعاء والعالى . ثم قال : وهو الأصح لأنه آخر ما استقر عليه الحال في مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قرصار . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه زكريا، وأن رسم المكتبة إليه : هذه المكتبة إلى المجلس السامى، بلاياء، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يطالع على مكتبة إليه سوى ذلك، وأنه لم يكتب إليه شيء في مدة مباشرته .

السادس عشر — صاحب أرمناك . ذكر في "التعريف" : أنها كانت في زمانه بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه، وذكر في "التثقيف" : أن اسمه علاء الدين سليمان . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى بأكل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثرها . وذكر في "التثقيف" : أن آخر من استقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة علاء الدين على بك بن قرمان، ووافق على رسم المكتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخوه » وتعريفه « فلان بن قرمان » .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال في "التعريف": ولا إخوة صاحبها ابن قِرْمَان المذكور رسوم في المكتبات، فأكبرهم قَدْرًا، وأفتكهم نابًا وظُفْرًا، الأمير بهاء الدين موسى . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحجّ مع الزكب الشريف؛ ثم عاد إلى الأبواب السلطانية، وأجلس في المرتين مع أمراء المشورة، وأشرك في الرأي . وسأل السلطان في كتابة منشور بما يفتح من بلاد الأرمن فكتب له . قال في "التعريف": وأسقطت المكتبة إليه مثل مكتبة أخيه . قال : أما بقية بن قِرْمَان فدونها في المكتبة .

وَأَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ "التَّحْقِيفِ" قَدْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ سِتَّةَ نَفَرٍ .

أحدهم — الحاكم بالعلایا . وذكر أنه كان اسمه حسام الدين محمود بن علاء الدين، وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «أخوه» والدعاء، والعالی، في قَطْعِ الْعَادَةِ .

الثاني — صاحب بلاط ورمح^(١) . ذكر أنه كان بها «أمير موسى» بن إبراهيم ابن منتشا، وأن المكتبة إليه في قَطْعِ الْعَادَةِ «والده والدعاء، والمجلس العالی» .

الثالث — صاحب أكردور وهي أكردون. ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بني حميد، وأن رسم المكتبة إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «والده» والسامی بالياء .

الرابع — صاحب آيا سلوق . ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين، وأنه كتب إليه في شوال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدّم في القواعد «بلاط» فقط ولم نعر عليها بعد البحث والتصحيح .

الخامس — صاحب بلي شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبه .
وقال : إن المكتبة إليه الأسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كيمان بن منشا . ذكر أنه من استجذت مكاتبته
في شوال سنة سبع وستين وسبعائة .

وأعلم أنه قد زاد في "التثقيف" ذكر مكتبة جماعة لم أتضح هل هم من أهل
هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء؛ ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قوجي؛ وأن المكتبة
إليه في قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، في قطع الثلث الأسم والسامى بالياء، وتعريفه اسمه .
ومنهم صاحب بكجري : استجذت الكتابة إليه في شوال سنة سبع وستين
وسبعائة، وكتب إليه الأسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيص كتب إليه الأسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة، كتب إليه الأسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهي أشنوكتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة؛ منهم نائب
خلاط، وصاحب موغان، وهي موقان، والحاكم بإسعد وهي سمرت، وصاحب
قيشان وهي قاشان .

وقد تقدم أن خلاط من أرمنية، وموقان من أرمنية، وإسعد من ديار ربيعة
من الجزيرة الفراتية، وقاشان من عراق العجم؛ وبالجملة فقد خلط في "التثقيف"
في البلدان تخليطا كثيرا، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم في صدر الكلام على المكتبات ذكر أصول يعتمدُها الكاتب في كتبه تُعمّ الكتب السلطانية وغيرها ؛ وأنا أذكر هنا ما يختصّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل القصد إليها لقُرْبها ، ويحصل الغرض من ذلك ، بذكر [تسعة] أمور :

أولها — مقاديرُ قطع الورق ؛ قد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملةً ، والذي يختصّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير :

- أحدها — قطع البغدادى الكامل ؛ وقد مرّ أنه يكتب فيه للقائات .
 - وثانيها — قطع النصف ، وفيه يكتب إلى أكابر الملوك من دون القائات .
 - وثالثها — قطع الثلث ، وفيه يكتب إلى الرتبة الثانية من الملوك .
 - ورابعها — قطع العادة ، وفيه يكتب إلى أصاغر الملوك والولاة وغيرهم .
- الثانى — العنوان ؛ قد تقدّم في مقدّمة الكتاب أنّ الذى كان يكتبُ عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره ؛ أما الآن ، فإنّ كاتب كلّ كتاب صار هو الذى يكتبُ عنوانه بنفسه .

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب المكتوب اليه وتُعوّنه التي في صدر المكتبة في الباطن ؛ ثم يدعى المكتوب إليه في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل : أعزّ الله أنصاره ، أو ضاعف الله نعمته ، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تُفتتح بها المكتبات ؛ فإن كان الكتاب مفتتحاً بالحمدلة أو بلفظ من فلان ، كُتب في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك ؛ ثم بعد الدعاء يُحلى بياضاً قليلاً ؛ ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات .
وتكون كتابة العنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ . وتكون أسطره متصلة من
أول عرض الدرج إلى آخره ، وأسطره متلاصقة متتالية .

الثالث — الطرة التي يكتب فيها تعريف المكتوب إليه ، والعلامة التي يكتبها
المكتوب عنه ، والسبب في كتابته .

وقد جرت العادة في ذلك أنه يكتب في رأس الدرج في الجانب الأيمن
«إلى فلان» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفي الوسط العلامة التي يعالها
السلطان مثل «أخوه» أو «والده» أو «أسمه» : يُنظر عند علامة السلطان على
الكتاب فيعلم حال الكتاب ، ويجرى الأمر في العلامة على هذا الرسم ، وتكون كتابتها
بقلم الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما ، إلا أن يكون الكتاب مختصر الطومار في قطع
البغدادى فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطرة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب .

الرابع — البياض في أعلى الكتاب ، وقد جرت العادة في الكتب السلطانية أن
العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال
بياضا بما فيه من وصل العنوان ؛ ثم تكتب البسمة في رأس الوصل الرابع ؛ وإن
كانت العلامة إليه الاسم ، ترك وصلان بياضا فقط وكتبت البسمة في أول الوصل
الثالث ؛ ثم يكتب السطر الأول من الكتاب على سمت البسمة ملاصقا لها ؛ ثم يحل
موضع العلامة بياضا ، ويكتب السطر الثانى على سمت الأول في أواخر ذلك
الوصل على قدر إصبعين من آخره ؛ ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوعة ،
إن كان القطع صغيرا ، وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدر رُبع ذراع أو نحوه بحسب

المناسبة؛ فإذا انتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في الوسط على بُعد قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب : «كُتِبَ في تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستند على نحو البعد المذكور : فإن كان بتلق كاتب السر خاصة كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلق كاتب السرو كتاب الدست من دار العدل كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتة بقدر إصبع «من دار العدل الشريف» في سطر. وإن كان برسالة الدوادار كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتة بقدر إصبع «برسالة الجناح العالي الأميريّ الفلانيّ الدوادار الفلانيّ» بقلب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمته» . وإن كان من ديوان الخاص، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر وتحتة «من ديوان الخاص الشريف» . وإن كان بخط السلطان : بأن كُتِبَ على القصّة بالخط الشريف، كتب «حَسَبَ الخطّ الشريف» في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالية الأميريّة الكبرى الفلانية» في سطر، وكتب تحتة بقدر إصبع «كافِل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى» . وإن كان بإشارة أستاذ الدار، كتب «بالإشارة العالية الأميرية الكبرى الفلانية» في سطر، ثم يكتب تحتة بقدر إصبع «أستاذ الدار العالية أعلاها الله تعالى» . على أنه قد تقدّم في الأقباب أن كتابتهم أستاذ الدار هو عرف جرى عليه اصطلاحهم؛ وأنّ الصواب فيه إستدّار بغير ألف بعد التاء . وتكون كتابة المستند ببياض من جانبيه ، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين ؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر كامل على بُعد قدر إصبعين من المستند؛ ثم يكتب الحسبة على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلة.

وقد تقدّم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شيث أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنهى كتابتها .

الخامس — قد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنه لا يكتب في حواشي الكتب السلطانية : لأن في ذلك شحاً بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاء في استقباح ذلك ، بل قد يستبجح ذلك في غير السلطان كما سيأتي ذكره في الإخوانيات .

السادس — العلامة السلطانية على المكتوب ، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر في "التعريف" أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء وممالك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومن دون ذلك « الأسم الشريف » ؛ أما الغرباء يملوك المسامين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح والأكابر؛ فترجمته بالخط الشريف « أخوه » ومن دون ذلك الأسم الشريف .

والذي استقر عليه الحال آخر في زماننا أن لأكابر الأمراء من التواب وغيرهم « أخوه » لرفع مكان الأخ على الولد ، ولمن دونهم « والده » ولمن دون ذلك « الأسم » وبقى الحال على ما ذكره ؛ وقد سبقت ترجمة كل مكتوب إليه في الكلام على المكتبة إليه .

أما القانات الكبار فقد تقدّم في الكلام على المكتبة إليهم أنه تكتب لهم طغرة بالألقاب السلطانية في موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكفر ، فسيأتي أنه تكتب طغرة بالألقاب السلطانية فوق البسملة .

السابع — طي الكتب السلطانية : قد تقدّم في صدر الكلام على المكتبات نقلاً عن ابن شيث من كتاب الدولة الأيوبية أن كتب السلطان يكون طيها

في عَرْض أربعة أصابع ، وأن مقتضى ذلك أن كُتِبَ السلطان بالديار المصرية كانت تُطَوَّى على هذه الهيئة كما في كُتُب أهل المغرب الآن ؛ والذي أَسْتَقَرَّ عليه الحال آخراً أنها يجعل طيها في صورة أُنْبُوبِ القَنَاة ولا تُضَغَط في طيها لتكون نبيلة تعظيماً لأمر السلطان وإجلالاً لقدره .

الثامن — ختم الكتاب : قد تقدّم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تُخْتَمُ بِسَحَاءَةٍ^(١) ، وَيُطَبَّعُ عَلَيْهَا بِطِينٍ أَحْمَرٍ ، يُوتَى به من سِرَافٍ ، وتُخْتَمُ بِخَاتَمٍ كما تُخْتَمُ المغاربة الآن ؛ أما الآن فقد أَسْتَقَرَّ الحال على أن الكتب تُلصَقُ بالنِّشَاءِ أو ما في معناه من الكَثِيرَاءِ ونحوها ؛ وقد سأل الشيخُ جمال الدين بن نُبَاتَةَ في رسالته التي كتبها إلى الشَّهاب محمود رحمه الله حين بَلَغَهُ وقوعُ بعض كُتُب دِمَشْقَ في حقه عن غير طِينٍ الختم إلى النِّشَاءِ ، ولم أَقِفْ على زمانٍ تغيَّرَ ذلك ولا مَنْ غيَّره ، على أني حلَّلتُ معظمَ أسْئُولة هذه الرسالة في خِلَالِ هذا الكتاب مفرقةً في مواضعها .

التاسع — أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلى أحد من عظماء الملوك كالثقات ببلاد الشرق ، أو ملوك بلاد المغرب ونحوهم من يتعانى البلاغة في الكتب الصادرة عنه ، كتبت مسجوعةً كلّها ؛ وإن كانت إلى صغار الملوك والحكّام كتبت غير مسجوعة ؛ وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة ؛ فإن كانت في أمرٍ بعد وقوعه : كالكتابة بالإشارة بوفاء النيل ، أو جلوس السلطان على التَّخْتِ لأوّل أمره ، أو بُرْيَةِ من المرض ، أو ولادة ولدٍ له ، أو الإشارة بفتح ، أو الإعلام بركوب الميدان ، أو الإنعام بخيل أو نحوها ؛ كتبت مسجوعةً ، وإلا كتبت مُرْسَلَةً غير مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحاءة كما يؤخذ من بقية العبارة ومما تقدم في جزء هـ

الطرف الثاني

(في المكتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه الحال، إلى ملوك الكفر)

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَلُوكَ الْكُفْرِ الْمَكَاتِبِيِّينَ عَنْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ جَمِيعُهُمْ نَصَارَى : مِنْ الرُّومِ ، وَالْفَرَنْجِ ، وَالْكُرْجِ ، وَالْحَبَشَةِ وَغَيْرِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا هُمْ الْمُسْتَوْنِينَ عَلَى أَكْثَرِ الْمَمَالِكِ ؛ أَمَّا الْيَهُودُ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَمْلَكَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، بَلْ هُمْ تَحْتَ الذِّمَّةِ أَيْنَ كَانُوا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْمَانًا يَقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" وَجُمِعَ الْكُتُبُ الْمَكْتُوبَةُ إِلَى مَلُوكِ الْكُفْرِ لَا يَشْمَلُهَا الْخَطُّ الشَّرِيفُ أَصْلًا ، بَلْ يُكْتَبُ فَوْقَ الْبَسْمَلَةِ فِي الْكِتَابِ بِخَطِّ الْكَاتِبِ عِوَضَ الْعِلَامَةِ الشَّرِيفَةِ أَسْطَرُّ قَصِيرَةً بَيَاضَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَصُورَتُهُ :

« مِنْ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ - مَثَلًا - الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْمَجَاهِدِ ، الْمُرَاطِ ، الْمُتَأَخَّرِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمُظَفَّرِ ، الْمَنْصُورِ ، الشَّاهِنشَاهِ ؛ فَلَانِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُخَيِّ الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، وَارِثِ الْمُلْكِ ، مَلِكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ ؛ ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ، الْقَائِمُ بِسُنَّتِهِ وَفَرَضِهِ ؛ إِسْكَندَرُ الزَّمَانِ ، مَمْلُوكُ أَحْصَابِ الْمَنَابِرِ وَالتَّخَوْتِ وَالتَّيْجَانِ ؛ وَاهِبِ الْأَقَالِمِ وَالْأَمْصَارِ ، مُبِيدِ الطُّغَاةِ وَالْبَغَاةِ وَالْكُفَّارِ ؛ حَامِي الْحَرَمَيْنِ وَالْقِبْلَتَيْنِ جَامِعِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ ، نَاشِرِ لُؤَاءِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ؛ سَيِّدِ مَلُوكِ الزَّمَانِ ، إِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبِي فَلَانِ ، ابْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الْفُلَانِي فَلَانِ ، خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جُنُودَهُ وَجِيوشَهُ وَأَعْوَانَهُ . »

وَأَوْضَحَ ذَلِكَ فِي "التَّحْقِيفِ" فَقَالَ : وَيَكُونُ فِي الطَّرَةِ بَعْدَ وَصْلَيْنِ بَيَاضًا مِنْ أَوَّلِ الْكِتَابِ بِهَامِشٍ جَيِّدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَيَكُونَانِ فِي قَدْرِ بَيَاضِهِمَا سَوَاءً

تقدير أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض؛ وفي قطع العادة دُونَ ذلك . وتكون الأسطر متقاربة، ما بينهما من البياض تقدير إيهام أو أزيد منه بشيء يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلاً أبيض؛ ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكتبة للكتوب إليه .

الطرف الثالث

(في المكتبة إلى مَنْ وراء بحر القَرم بالجانب الشمالى منه)

وهو صاحبُ البُلغار والسَّرب . وهى بلادٌ فى نِهاية الشَّمال ، متاخمةٌ لصاحب السَّراى ؛ وقد ذكر فى ” التعريف ” المكتبة إليه فى المكتبة إلى جملة ملوك المسلمين . وقال : إنّ صاحبها يُظهر الأَقيادَ لصاحب السَّراى ، وإنه أرسلَ رُسله تَطَلُّبَ له الأَلوِيَّةَ من الأبواب السلطانية فُجِّهتْ إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والخيَل المُسرَّجة المُلجَمة . وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما كُتِبَ إذ ذاك :

« أعزَّ الله نصرَ الجَنابِ الكريم، العالى، المَلَكى، الأَجَلِّى، الكَبِيرى، العالمى، العادلى، المجَاهِدِى، المؤيِّدى، المُرابِطى، المناغِرى، الأَوحدى، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، جمال الملوك والسلطين، دُخْر أمير المؤمنين » .

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد مشتملة على الجهات الأربع :

المقصود الأول

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار ببلاد الشَّرق ، وجملةٌ من بها من ملوك

النصارى المكتائين عن هذه المملكة مملكتان)

الأولى - مملكة الكُرج من النصارى المَلِكِيَّة . قال : في "التعريف" ويقال في المسلمين الكُرد، وفي النصارى الكُرج . قال : وموقع هذه [البلاد] بين بلاد الروم وبين بلاد أرمينية . وهي بلادٌ جليسةٌ ، ومملكةٌ مفخمةٌ ، وكأنها مَقْتَطعةٌ من البلادين ، ولها ملك قائم ، وبها مُلك دائم ؛ وأمُّها مدينة تَقْلَيْس ، وسلطانُ بيت هُولاكو بمملكة إيران يحكمُ عليها ، ويرالغُه تصلُّ إليها ؛ إلا أنه لا يطغى بها سَيْلُه ، ولا تجوسُ خلالَ ديارها للحرب المضرمة خَيْلُه ؛ وإنما له بها توماً اتخذ سِداداً لثغرها ، وقياماً بأمرها ؛ مَنَزَلُهم فَيْسِحُ بَوادِيها ، أهلُ حلٍّ وترحالٍ ، وتنقُل من حال إلى حال . قال : وآخر من كان له في هذه البلاد سُمتةٌ ، وأُقيمت به للمهابة صرعه ؛ الشيخُ محمود بن جُوبان ، وكان باسلاً لا يُطاق ، ورجلاً مرَّ المَدَاق ؛ ولما جرت الكائنة لأبيه ، لاذَ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تطل له مُدَّة ، ولا أنفجرت له حِلَقُ شِدِّه ؛ وأتاه أجلُه وما استطاع رَدُّه . ثم قال : وعسكر الكُرج صليبةُ دين الصَّليب وأهلُ البأس والتَّجْدِه ، وهم للعساكر الهُولاكُوهيَّة عِتاد وذُخْر ، ولهم بهم وثوقٌ وعليهم أَعِماد ، [ولا] سِيَّما لأولاد جُوبان وبنيه ، وبَقايا تَخَلْفِيه ، لسالفِ إحسانِ جُوبان إليهم ، ويدٍ مشكورةٍ كانت له عندهم ، وكان صديقاً لملكهم بِرِطْلما يَغرس عنده الصَّنائع ، ويستَرعيه الودائع ؛ فكان أخصَّ خصيص به ، وأصدقَ صديق له ، يدعوه للمُهم ، ويستصرخ به في المُلِم ، ويعُدُّه رِداءً لعسكره ؛ ومُزِيلاً لِمَنكره .

وعقب ذلك بأن قال : وبرطما المذكور عهدى به حتى يَرْزُقَ من أجل ملوك
النصرانية ، وأغرق أنساب بنى المعمودية ، وقد كان كاتب الأبواب السلطانية
بسبب كنيسة المصلب ، وأن تُرفع عنها الأيدي المتغلبة ، فبرزت الأوامر المطاعة
بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم - وهى بظاهر القدس الشريف - وأُتخذت
مسجداً ، وعز هذا على طوائف العلماء والصلحاء وإن لم يعمل هذا سدى . قيل
إنه كان يُحسن لجوآن قصده البلاد ، ويبدل له عليه الطارف والتلاد . وذكر أن
رسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل
الهمام ، الباسل ، الضرغام ، السميع الكرار ، الغضنفر ، المنتخت ، المتوج ، العالم
فى ملته ، العادل فى رعيته ، بقية الملوك الأغريقية ، سلطان الكرج ، ذخركم البحار
والخلج ، حامى حى القُرسان ، وارث آبائه فى الأسرة والتيجان ، سياج بلاد الروم
وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك السريان ، بقية أبناء الثخوت والتيجان ،
معز النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ، معظم البيت المقدس
بعقد النية ، عماد بنى المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية ، مؤاد المسلمين ، خالصة
الأصدقاء المقربين ، صديق الملوك والسلاطين » .

وهذا دعاء أورده فى " التعريف " يليق به وهو : وحى ملكه بوّده لا يحنده ،
وبوفائه بعهده لا يحنشه ومدبّنده ، وبما عندنا من سجايا الإحسان لا بما يظن أنه من
عنده ، وبما فى رأينا المورى لا بما يقدح النار من زنده - وربما قيل مضافى
المسلمين بدل مؤاد المسلمين .

أما فى " التثقيف " فقد ذكر أن للكُرج ملكين (أحدهما) صاحب تَفْلَيْسَ المقدّم
ذكره ، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك « داود » (الثانى) الحاكم " بسخوم " و " أنحاس " .
وهما مدينتان على جانب بحر القريم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره فى الكلام على

الممالك والممالك في الجانب الشّمالى ، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال :
ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قطع النصف : أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك
الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الهمام ، المقدس ، الرّوحانى ، فلان ؛ عزّ الأئمة
المسيحية ، كنز الطائفة الصليبيّة ، فخر دين النّصرانيه ، ملك الجبال والكرج
والخرجان ، صديق الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما ”ملك الكرج“ .

ثم قال : وقد ذكر القاضى المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكتبة
المذكورة من التغيرات مالا حاجة إلى ذكره : لأنّ ما ذكرته هو المستقرّ في المكتبة
إليه الى آخر وقت .

قلت : وذلك لأنه في زمن المقرّ الشهابى بن فضل الله كان مرعى الجانب
بملاة التتر وانضمامه إلى جوبان ، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ فكانت المكتبة إليه
إذ ذاك أعلى وأخفم ، فلما زالت دولة التتر من إيران ونحمت قسوسهم انحطت رتبة
المكتبة إلى ملك الكرج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم في المسالك والممالك
في الكلام على مدينة تفليس أنّها من إقليم أرّان ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون .
ثم غلب عليها الكرج وملكوها ، فلو عبّر^(١) عن صاحبها بتملك تفليس كما كان يعبر عن
المستولى على سيس من الأرمن بتملك سيس ، وعن المستولى على قبرس بتملك
قبرس على ما سيأتى ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى .

الثانية — مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة ”سيس“ قبل فتحها ؛ وقد سبق
في الكلام على مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب ، في الكلام على الممالك الشامية
في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها ؛ وأنها كانت تسمى

(١) جواب لو معلوم أى لكان له وجه .

في زمن الخلفاء بلاد الثغور والعواصم ؛ وأنها كانت بأيدي المسلمين ، وأهلها نصارى أرمن ؛ وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى الملوك ؛ إلى أن كانت طاعتهم آخرًا لبقية الملوك السلاجقة ببلاد الروم ، والعمال والشحاني على بلادهم من جهة الملك السلجوقي حتى ضُعت تلك الدولة ، وسكنت شقاشق تلك الصولة ، وانتدب بعضهم لقتال بعض ، وصارت الكلمة شوري ، والرعية فوضى ، وشواخ المعافل مجالًا للتخريب ، والبلاد المصونة قاصية من الغم للذيب ، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ فيها واستنسر بغائه ، وأشد إنكائه ، ورأى سوامًا لا ذائد عنه فساقه ، ومتاعًا لاحامية له فلأ منه أوساقه ؛ فاستولى على هذه البلاد وتملكها ، ونحيف مواريث بنى سلجوق وأستملكها . وذكر في "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لاون .

قال في "التعريف" ، وقد أخذ في أنحريات الأيام الناصرية ، يعني (محمد بن قلاوون) بلاد ماوراء نهر جاهان وأمها آياس ، وكان قد أخذ بعض ذلك [أيام] الملك المنصور (لا حين) واستنيب به أستدمر الكرجي ؛ ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطاة أستدمر حين قتل لا حين وضُعت الدولة . وذكر أنه قرر على الأرمن ملوك الديار المصرية قطعة مقررة بلغت ألف ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف ، ثم حط لهم منها ؛ ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان . وذكر أنه كان لملوك البيت الهولا كوهي عليهم حكم قاهر ، وله فيهم أمر نافذ ، قبل ضعف شوكتهم ، ولين قسوتهم ، وخلو غايهم من قسورتهم . ثم قال : ولو تمكّنوا من دمشق لحوآ آثارها ، وأنسوا أخبارها ؛ ثم أشار إلى أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به ، وأنه مع ذلك أوصى سلطاننا صاحب مصر على ابنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته ، وجعل ذلك وسيلة لبقاء دولته ؛ وكتب له تقليد عوضًا عن أبيه وجُهِز إليه ، وأليس التشریف فلبس

(١)

وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِهِ وَخَدَم . قَالَ فِي "التعريف" : وَمَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَمِيَ التَّكْفُورِ ،
 سَمَةً جَرَتْ عَلَيْهِمْ مُنْذُ كَانُوا وَإِلَى الْآنَ . قَالَ : وَمَلَكَهُمْ مَلَكَ عَرِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ،
 يَزْعُمُ أَنْ أَصْلَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ . قَالَ : وَعِنْدِي نَظَرٌ فِي دَعْوَاهُمْ ذَلِكَ : إِذْ
 كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ هُمْ صَالِيَةُ الرُّومِ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْمَلَكَانِيَةِ وَالْبَيْتُ التَّكْفُورِيُّ
 أَرْمَنُ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْيَعَاقِبَةِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ ، وَبَيْنَ الْمَعْتَقِدِينَ بَعْدَ عَظِيمٍ ، وَبَوْنٌ نَاءً .
 وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي "التعريف" أَنَّ اسْمَهُ لِيْفُورُ بْنُ أَوْشِيرٍ . وَذَكَرْتُ أَنَّ رَسْمَ الْمَكْتَابَةِ
 [إِلَيْهِ] صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، الْجَلِيلِ ، الْبَطْلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَامِ ،
 السَّمِيدِ ، الضَّرْغَامِ ، الْغَضَنَفَرِ ، فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، نَحْرِ الْمَلَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، ذُنُرِ الْأُمَةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادِ بْنِ الْمَعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ .

وهذه أدعية — ذكرها في "التعريف" تناسبه :

وَفَقَّهَ اللَّهُ تَعَالَى لِبَطَاعَةِ يَكْفُفُهُ ذِمَامُهَا ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ السُّوءِ الزَّائِمُهَا ؛ وَتَجَرَّى لَهُ
 بِالسَّلَامَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ أَحْكَامُهَا .

آخِرُ : وَلَا عِدَمَ مِنْ مَنَنِ الْكَرَمِ الَّذِي أَجَارَهُ ، وَالْأَمْنِ الَّذِي أَمَّنَ جَارَهُ ،
 وَالْأَمَانَ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ وَجَارَهُ ، وَالْعَفْوَ الَّذِي وَقَاهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ نَارًا وَقُودَهَا
 النَّاسَ وَالْمَحْجَارَهُ .

آخِرُ : أَبْقَاهُ اللَّهُ لَوْلَاءِ يُبْدِيهِ ، وَقَرَضَ مِنَ الْخِدْمَةِ يُؤَدِّيهِ ، وَدَيْنٍ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ
 الْوُظُفَةِ يَقُومُ بِهِ مَعَ طَرَائِفِ مَاهِدِيهِ .

(١) في التعريف بدون خدم .

(٢) في التعريف المطبوع ص ٥٧ ليعون بن أوشين ، ونخشي أن يكون تصحيحاً .

آخر : أَرَاهُ اللهُ مَا يَسْتَدْفِعُ بِهِ مِنْ مَوَاضِي السُّيُوفِ الْبَلَاءِ إِذَا نَزَلَ ، وَالسَّمْهَرَى
الَّذِي لَا يُرْوِيهِ الْبَحْرُ إِذَا نَهَلَ ، وَالسَّيْلُ الَّذِي لَا يَقِفُ فِي طَرِيقِهِ شَيْءٌ وَلَا يَمِشِي
عَلَى مَهَلٍ .

آخر : صَانَ اللهُ تَعَالَى بِمَصَانَعَتِهِ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِ كُلِّ قَبِيلٍ ، وَأَمَّنَ اللهُ بِمُدَارَاتِهِ
مِنْ خَوْفِ جُيُوشِنَا الْمَنْصُورَةِ كُلِّ سَبِيلٍ ؛ وَصَدَّ عَنْهُ بِصِدْقِ صِدَاقَتِهِ يَبْعَثُ جُنُودَنَا
الَّذِي لَا يَرْدَ وَأَوَّلُهُ بِالْقُرَاتِ وَآخِرُهُ بِالنَّيْلِ .

آخر : وَلَا زَالَ يَتَوَقَّى بِطَاعَتِهِ بَوَادِرِ الْأَسِنَّةِ ، وَعَوَادِي الْخَيْلِ مُوَشَّحَةً
بِالْأَعِنَّةِ ، وَعَيْثُ الْجَيْشِ حَيْثُ لَا يَبْقَى إِلَّا أَحَدُ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ : الْقَتْلُ أَوِ الْأَسْرُ
أَوِ الْمَنَّةِ .

آخر : جَنَّبَ اللهُ رَأْيَهُ سُوءَ التَّعْكِيْسِ ، وَشَرَّ مَا يُزَيِّنُ لِمِثْلِهِ إِبْلِيسَ ، وَأَخَذَ
جَنَائِبَ قِلَاعِهِ وَأَوَّلُ تِلْكَ الْجَنَائِبِ سَيْسٍ .

والذي ذكره في "التثقيف" أنه كان اسمه كستندي بن هتيوم ؛ وأنَّ رسم
المكتبة إليه على ما كان آسَقرَ عليه الحال إلى حين الفُتُوح في سنة ستِّ وسبعين
وسبعائة ، في قَطْعِ العادة : «صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، الْمَكْرَمِ ،
الْمُبَجَّلِ ، الْمُعَظَّمِ ، الْمُعَزَّزِ ، الْهَامِ ، الْبَاسِلِ ، فَلَانِ بْنِ فَلَانِ ؛ عَزَّ دِينَ النُّصْرَانِيَّةِ ، كَبِيرِ
الطَّائِفَةِ الصَّلَيبِيَّةِ ، عِمَادِ بْنِ الْمُعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ؛ أَدَامَ اللهُ
نِعْمَتَهُ ، وَحَرَسَ مُهْجَتَهُ ، تَعَالَاهُ كَذَا وَكَذَا» . وتعريفه «مَمْلُوكُ سَيْسٍ» قال : وَكُتِبَتْ
أَنَا وَالْجَمَاعَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْمَكْتَابَةِ مَرَّاتٍ .

قلت : وَقَدْ بَطَلَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ بِفَتْحِ سَيْسٍ حِينَ فَتَحَهَا قُسْتُمَرُ الْمَنْصُورِيُّ
نَائِبُ حَلَبٍ فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ «شُعْبَانِ بْنِ حُسَيْنٍ» فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ ،

وَأَسْتَقَرَّتْ نِيَابَةٌ فِي رَتْبَةِ نِيَابَةِ طَرَابُلُسَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ؛ ثُمَّ أَسْتَقَرَّتْ تَقْدِيمَةُ عَسْكَرِ
فِي مُضَافَاتِ حَلَبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ هُنَاكَ . وَإِنَّمَا كَانَ
يُقَالُ لَهُ مِمَّا تَمَلَّكَ سَيِّسَ دُونَ مَلِكِ سَيِّسَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلًا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ،
ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا رَئِيسُ الْأَرْمَنِ الْمَقْدُمُ ذَكَرَهُ فَلَمَّا كَانَتْ بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ
فِي إِعَادَتِهَا إِلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْتَقَرَّ رَأْسُهَا فِي جَمَلَةِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

المَقْصِدُ الثَّانِي

(فِي الْمَكْتَابَةِ إِلَى مَلُوكِ الْكُفَّارِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَمَا وَالَاهَا مِمَّا هُوَ شَمَالِي الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا
قَدْ آفَتْحُوا جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهَا
أَقَامَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَأْسِ السَّتِّائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ
إِلَّا غَرْنَاطَةُ وَمَا مَعَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، عَرَضَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي طُولِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ؛
وَبَاقِي الْجَزِيرَةِ عَلَى سَعَتِهَا بِيَدِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، وَأَنَّ الْمُسْتَوْلى عَلَى
ذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ :

الْأَوَّلُ — صَاحِبُ طُلَيْطَلَةَ^(١) وَمَا مَعَهَا ، وَلَقَبُهُ الْأَذْفُونُش : سَمِعْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلِكٍ
مِنْهُمْ ، وَعَامَّةُ الْمَغَارِبَةِ يَسْمُونَهُ الْقُدْسَ ، وَلَهُ مَمْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَعُمَلَاتٌ مَنَسَعَةٌ ، تَشْتَمِلُ
عَلَى طُلَيْطَلَةَ ، وَقَشْتَالَةَ ، وَإِشْبِيلِيَّةَ ، وَبَلَنْسِيَّةَ ، وَقَرْطَاجَنَةَ ، وَجِيَّانَ ، وَجَلِيقِيَّةَ ،
وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا .

(١) ضَبَطَهَا يَاقُوتٌ عَنِ الْحَمِيدِيِّ بِضَمِّ الطَّاءِ يَنْفَتْحُ اللَّامِينَ ثُمَّ قَالَ وَأَكْثَرُ مَا سَمِعْتُهُ عَنِ الْمَغَارِبَةِ ضَمُّ الْأَوَّلِ
وَكَسْرُ الثَّانِيَةِ . وَكَذَلِكَ ضَبَطَهُ الْمُؤَلِّفُ فِيمَا تَقَدَّمَ فِي جُزْءِ هـ فَلْيَنْتَبِهْ .

الثانى — صاحب أَشْبُونَةَ وما معها، وتُسمى البَرْتَقَال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربى عَرْضاً له، تشتمل على أَشْبُونَةَ وغَرْب الأَنْدَلُس .

الثالث — صاحب بَرْشْلُونَةَ، وَأَرْغُون، وشَاطِبَةَ، وسَرْقُطَةَ، وبلَنْسِيَةَ^(١)، وجزيرة دَانِيَّة، ومَيُورْقَةَ .

الرابع — صاحب بيرة : وهى بين عَمَالَات قَشْتَالَةَ، وعَمَالَات بَرْشْلُونَةَ، وقاعدته مدينة يَنْبُلُونَةُ ؛ ويقال للملكها ملك البَشْكَنْس . ووراء هُؤْلَاء بالأرض الكبيرة صاحبُ إِفْرَنْسَةَ التى هى أصل مملكة الفَرَنْج كما تقدّم في الكلام على المسالك والممالك ، وملكُها يقال له الرِّيد إِفْرَنْس . قال في ”التعريف“ : وهو الملك الكبير المُطَاع ؛ وانما الأَدْفُونُش هو صاحب السُّطوة ، وذِكْرُه أشهر في المغرب لقُربِه منهم، وبعْد الرِّيد إِفْرَنْس .

والمكاتبُ منهم ملكان :

الأوّل — الأَدْفُونُش المَبْدَأُ بذكره . قال في ”التعريف“ : ويده جُهور الأَنْدَلُس، وبُسيوفه فَيَنْتَ حَاجِحُهَا الشُّمُس، وهو وارث مُلْك لَدْرِيق . ولَدْرِيق هذا الذى أشار إليه في ”التعريف“ هو الذى آتَرَعَهَا المسلمون من يده حينَ الفَتْح في صدر الإسلام . قال صاحب ”التعريف“ : وحَدَّثَنِى رَسُولُ الأَدْفُونُش بتعريف تَرْجَمَانٍ موثوقٍ به من أهلِ العَدَالَةِ يسمّى صلاحَ الدين التَرْجَمَانِ الناصرى : أن الأَدْفُونُش من ولدِ هِرَقْلِ المَفْتَحِ مِنْهُ الشَّام ؛ وَأَنَّ الكَتَّابَ الشَّريفَ النَّبَوِيَّ الوَارِدَ عَلَى هِرَقْلٍ متوارثٌ عندهم مَصُونٌ ؛ يَأْفُ بالدِّيَسَاج والأَطْلَس، ويَدْنَحُرُ كَثْرَ من ادِّخَارِ الجواهر والأَعْلَاق، وهو إلى الآنَ عندهم لا يُخْرَج، ولا يُسَمَحُ بِإِخْرَاجِهِ،

(١) هى بلنسية المتقدمة أضيفت إلى برشلونة فيما بعد .

يُنْظَرُ فِيهِ بَعِينَ الْإِجْلَالِ ، وَيُكْرِمُونَهُ غَايَةَ الْكَرَامَةِ ، بِوَصِيَّةٍ تَوَارَثَهَا مِنْهُمْ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ
وَخَلَفَ عَنْ سَلَفٍ .

قال : وكان الأدفونس من قَوِي طَمَعُهُ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي أُخْرَى لِإِلَالِي الْأَيَّامِ
الْفَاطِمِيَّةِ . ثُمَّ قَالَ : وَمَكَاتِبَاتُهُ مُتَوَاصِلَةٌ ، وَالرُّسُلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَا تَنْقُطِعُ عَلَى سُوءِ
مَقْصَدِهِ ، وَخُبْتُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتُهُ ؛ أَهْدَى مَرَّةً إِلَى السُّلْطَانِ سَيْفًا طَوِيلًا وَثَوْبًا بُنْتُقِيًّا
وَطَارِقَةً طَوِيلَةً دَقِيقَةً ، تَشْبَهُ النَّعْشِ ، وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى مِنْ أَسْتِفْاحِ بَابِ الشَّرِّ
وَالْتَصَرُّحِ الْمَعْرُوفِ بِالْكَيَاةِ ؛ فَكَانَ الْجَوَابُ أَنْ أُرْسَلَ إِلَيْهِ حَبْلٌ أَسْوَدٌ وَحَجَرٌ ، أَيْ
إِنَّهُ كَلَبٌ إِنْ رُبِطَ بِالْحَبْلِ وَالْأَرْمَى بِالْحَجَرِ .

قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرة
الملك الجليل ، الهمام ، الأسد ، الباسل ، الضَّرْغام ، الغَضَنَفَر ، بَقِيَّةُ سَلَفٍ قَيْصَر ،
حَامِي حُمَاةِ بَنِي الْأَصْفَر ، الْمَنْعُ السُّلُوك ، وَارِثُ لَذَرِيقٍ وَذَرَارِي الْمُلُوك ؛ فَارِسُ
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، مَلِكُ طَلِيطَلَةٍ وَمَا يَلِيهَا ، بَاطِلُ النُّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادُ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، حَامِلُ
رَايَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَارِثُ التَّيْجَانِ شَيْبِهِ مَرِيحُنَا الْمَعْمَدَان ، مُحِبُّ الْمُسْلِمِينَ ، صَدِيقُ
الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ .

دعاء وصدر يليقان به

وَكِفَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ ، وَجَنَاهُ ثَمَرُ غَرَسِهِ ، وَوَقَاهُ فَعَلَ يَوْمَ يُجْرُّ عَلَيْهِ مِثْلَ أَمْسِهِ ، وَأَرَاهُ
مِقْدَارَ النِّعْمَةِ بِالْبَحْرِ الَّذِي تَمَنَّى سُورُهُ وَتَوَقَّى بَرُّهُ .

أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ وَجَدْتُ اللَّهَ لَا يَمْنَعُهُمْ مَانِعٌ ، وَلَا يُضِرُّهُمْ فِي اللَّهِ مَا هُوَ جَامِعٌ ، وَلَا يَبَالُونَ
أَكْتَابَ يُخَلِّقُونَهَا أَمْ كُتِبَتْ ، وَجَدَّأُولُ تَعْرِضُ لَهُمْ أَمْ بِحَارٍ لَا تَقْطَعُهَا إِلَّا وَثْبًا .

آخِرُ : وَوَقَاهُ بِتَوَفِيقِهِ تِلَافَ الْمُهَجِّ ، وَكِفَاهُ بِأَسْ كُلِّ أَسَدٍ لَمْ يُهَجِّ ، وَحَاهُ مِنْ
شَرِّ نَفْسِهِ لَا يُبَلُّ الْبَحْرُ الَّذِي تَحَصَّنَ بِهِ غُبَارُهَا مِنَ الرَّجْحِ .

أصدرناها إليه وأَسَنَّا لَا تُرَدُّ عَنْ نَحْرٍ ، وَأَعَنَّا لَا تُصَدُّ بِسُورٍ وَلَوْ ضُرِبَ مِنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ .

قلت : وينبغي أن تكون في قَطْع النِّصْف .

الثاني — صاحب بَرْحَلُونَة ، وَوَهْمٌ فِي "التَّثْقِيفِ" فجعله هو الأَدْفُونش المقدم ذكره . وقال : إنه يَلْقَبُ أَتْفُونش ، دُونَ حَاكِمٍ . ثم قال : وهم طائفة الكِيتَلان ورسم المكاتبه إليه في قَطْع النصف بقلم الثلث الكبير « أدام الله تعالى بهجة الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، الريد أرغون ، فلان ؛ نصير النصرانية ، نخر الأئمة العيسوية ، دُخر الملة المسيحية ، حامى الثغور ، ممتلك السواحل والبحور ، عماد العمودية ، ظهير بابا روميه ؛ ملاذ الفرسان ، جمال التُّخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب بَرْحَلُونَة » .

قال في "التعريف" : أما الريد فرنس فلم يرد له إلا رسول واحد ، أ برق وأرعد ، وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يُفْتَحُ له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاية مع ولاته ، والبلاد مناصفة ، ومساجد المسلمين قائمة ، وإدارات قومتها دارة ، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تُعَجَّلُ وتُجَمَّلُ في [كل] سنة ، نظير (٢) دَخَلَ [نصف] البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويُطَرَفُ في كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسن هذا كتاب من كتبة القبط ، كانوا صاروا رؤوساً في الدولة بعائم بيض وسراير سود ، وهم أعداء زُرُق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و [ان] سرى في البدن هذا السم ، وتطلب له الدرياق فعز .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليلٌ معجَّلٌ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطَةٌ في بحرٍ، وحصاةٌ في دَهْناءَ .

قال : وبلغ هذا إلى رحمه الله، فألى أن يُجَاهِرَ في هذا، ويجاهدَ بما أمكنه، ويدافعَ بهما قَدَرٌ عليه، ولو لاوى السلطان على رأيه إن أصغى إلى أولئك الأفكدة؛ وقال لى : تقوم معي وتكلم، ولو خُضِبت منّا ثيابنا بالدم، وراسلنا قاضى القضاة القزوينى الخطيب، فأجاب وأجاد الإِستعداد؛ فلما بَكَّرنا إلى الخِدمة وحضرنا بين يدي السلطان بدار العدل، حضرت الرسل، وكان بعضُ أولئك الكُتبة حاضرا، فاستعدَّ لأن يتكلم، وكذلك استعدينا نحن : فما آستم كلامهم حتى غَضِبَ السلطانُ وحمى غضبه، وكاد يتصرَّم عليهم حطبُه، ويتعجَّلَ لهم عَطْبُه، وأُسِكتَ ذلك المناقِقُ بخِزيتِه، وسكتنا نحن اِكْتفاءً بما بلغه السلطان مما رَدَّه بخِيتِه؛ فصدَّ ذلك الشيطانُ وكفى الله المؤمنين القتالَ؛ ورُدَّتْ على راميا النِّصال . وكان الذى قاله السلطان : والكم أتم عرَقتم ما لقيتم نوبةً دِمياط من عسكر المَلِكِ الصالح، وكانوا جماعة أكرادٍ ملفَّقةٍ مجمَّعة؛ وما كان بعدُ هؤلاء التُّرك؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلَّح^(١) [نحن وإياهم] من جنسٍ واحدٍ ما يتخلَّى بعضه عن بعض، وما كنا نُريدُ إلا الابتداء؛ فأما الآنَ فتَحَصَّلوا وتعالوا، وإن لم تجوا فنحن نَجِيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيال؛ والكم صارت لكم السنة تذكرون بها القدُس؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابُه إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب ! وصرخ فيهم صرَّخةً زعزعت قواهم، وردَّهم أقبحَ ردِّ، ولم يقرأ لهم كتابا، ولا ردَّ عليهم سوى هذا جوابا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن اتفق أن يكتب إلى الرّيد إفرنس المذكور فتكون المكتبة إليه مثل المكتبة إلى الأدفونس أو أجل من ذلك .

وأعلم أن الرّيد فرّنس هو الذي قصد الديار المصريّة بمواطاة الأدفونس : صاحب طليطلة المقدم ذكره ، وملكوا دميّاط ، وكانت الواقعة بينهم في الدولة الأيوبية في أيام الصالح أيوب ؛ وأخذ الرّيد فرّنس وأمّسك وحيس بالدار التي كان يترها نحر الدين بن لقمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورسم عليه الطّواشي صبيح ، ثم نفّس عنه ؛ وأطلق لأمر قرّر عليه ؛ وقال في ذلك جمال الدين بن مطروح أبياته المشهورة وهي :

[قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَسَّه * مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحِ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا * تَحَسُّبُ أَنَّ الزَّمْرَةَ يَاطْبُلُ رِيحُ
وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ * بِحَسَنِ تَدْيِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ
نَحْسِينَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَتِيلٍ أَوْ أُسِيرٍ جَرِيحِ
وَفَقَّكَ اللَّهُ لَأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عَبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَصْمَرُوا عَوْدَةً * لِأَخْذِ ثَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَحِيحِ :
(١)
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوْاشِي صَبِيحِ]

(١) بيض لهذه الأبيات في الاصل ونقلناها مما تقدم في ج هـ

المقصود الثالث

(في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي)

والمكاتب بهذا الجانب منهم ملكان :

الأول — صاحب أحرًا : ملك ملوك الحبشة ، ولقبه عندهم حطّى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين ، سَمَته على كل من ملك عليهم منهم .

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه نصراني يعقوبي ، يحكم على تسعة وتسعين ملكا ، منهم سبعة مسلمون ، وهم صاحب وفات ، وصاحب دوارو ، وصاحب أراييني ، وصاحب شرخا ، وصاحب هدية ، وصاحب بالي ، وصاحب دارة ، وأنه لولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصحُّ تعمد معمودي إلا باتصال من البطريك ، وأن كرسي البطريك كنيسة الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده ، لشمخ بأفقه عن المكتبة ، لكنه مضطرٌّ إلى ذلك .

قال في " التعريف " ورسم المكتبة إليه :

أطال الله بقاء الحضرة العالية ، الملك ، الجليل ، الهام ، الضّرغام ، الأسد ، الغصنقر ، الخطير ، الباسل ، السّميدع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المنصف لرعيته ، المستمع لما يجب في أقضيته ، عزّ الملة النصرانية ، ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة العيسوية ، عماد بني المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين ، والأخبار الربانيين ، والبطاركة القديسين ، معظّم كنيسة صهيون ، أوجد ملوك العتوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاء مفحماً يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في "التعريف":
وأظهر فضله على مَنْ يُدانيه من كلِّ ملك هو بالتاج مَعْتَصِب، ولكفَّ اللِّجَاج
بالعدل مَتَّصِب، ولقطع حجاج كلِّ معاند بالحق معتصر أو للحق مَعْتَصِب.

صدرت هذه المُفَاوَضَةُ إلى حضرته العلية ومن حضرة القدس مسراها، ومن
أسرة الملك القديم سراها؛ وعلى صفاء تلك السَّريرة الصَّافِيَّة تَرَدُّ وإن لم يكن بها
غَلِيل، وإلى ذلك الصديق الصَّدُوق [المسيحي] تصل، وإن لم تكن بُعْث إلا من
تَلْقَاء الخليل.

ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه. أما في "التثقيف": فإنه ذكر أنه
يُكْتَب إليه في قطع التُّلُث بقلم التوقعات مانصه:

أطال الله بقاء الملك، الخليل، المكرَّم، الخطير، الأسد، الضَّرغام، الهمام،
الباسل، فلان بن فلان، العالم في ملته، العادل في مملكته، حطَّى ملك أحمراء، أكبر
ملوك الحبشان، نجاشيَّ عصره، سند الملة المسيحية، عضد دين النصرانية، عماد بني
المعمودية، صديق الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «صاحب الحبشة».

قال: فإن كانت المكتبة جواباً، صُدِّر الكتابُ إليه بما صورته: ورد كتاب الملك
الخليل، ويذكر بقية المكتبة. ثم قال: وهذه المكتبة هي التي آسَقرَ عليها الحال عند
ما كُتِب جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.



وهذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سَلْطَنَةِ الملك المظفر
صاحب اليمن، على الملك «الظاهر بيبرس» رحمه الله، بطلب مطران يقيمهم لهم
البطرك؛ مما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي:

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهام، العادل في ملته، حظّى ملك أمحرًا أكبر ملوك
 الخُشنان، الحاكم على ما هم من البلدان، نجاشى عصره، صديق الملوك والسلاطين،
 سلطان الأمحرًا حرس الله نفسه، وبني على الخير أسه، فوقفنا عليه وفهمنا ماتضمنه :
 فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب،
 وإنما كتابُ السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة
 الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة
 عساكره ، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر
 الإسلام . وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله تعالى، ولا يموت أحد إلا بأجله،
 ومن فرغ أجله مات .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَادَةَ جَرَتْ أَنَّهُ كَلَّمَ كُتِبَ إِلَيْهِ كِتَابٌ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ كَتَبَ
 قَرِينَهُ كِتَابٌ عَنِ الْبَطْرِيرِكِ . قَالَ فِي "التعريف" : ولأوامر البطريرك عنده
 ما لشرعته من الحرمة ، وإذا كتب كتابًا فأتى ذلك الكتاب أول مملكته ، خرج
 عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم ، ولا يزال يحمله بيده حتى يخرج
 من أرضه ، وأرباب الديانة في تلك الأرض : كالقسوس والشمامسة حوله مشاة
 بالأذخنة ، فإذا خرجوا من حد أرضهم تلقاهم من يليهم أبدا كذلك في كل أرض
 بعد أرض حتى يصلوا إلى أمحرًا ، فيخرج صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفعل
 الأول ؛ إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك . ثم لا يتصرف
 الملك في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادى للكتاب ، ويجمع له يوم الأحد
 في الكنيسة ، ويقرأ الملك واقف ؛ ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

الثانى — صاحب دُنْقَلَة . قد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك
 أن دُنْقَلَة هى قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت فى الأصل يكون ملكها من نصارى

النوبة، ومعتمدُهم معتقدُ اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعضُ المسلمين من العرب فلَمَكها؛ وقد تقدّم ذكر المكتبة إلى صاحبها إذا كان مسلماً؛ أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه: هذه المكتبة إلى النائب، الجليل، المبجل، الموقر، الأسيد، انباسل، فلان؛ مجدِ الملة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُنُّقه».

المقصود الرابع

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار بالجنب الشَّمالِي من الرُّوم والفرنجية على اختلاف أجناسهم، وجميعهم معتقدُهم معتقدُ المَلِكانيَّة)

وجملة ما ذكر من المكاتبات في "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرة مكتبة:

الأولى — مكتبة الباب، وهو بطريرك المَلِكِيَّة، القائم عندهم مقام الخليفة؛ والعجبُ من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر، والباب ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحرير.

وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة أنهم كانوا يُسمون القيسيس ونحوه آباء، ويُسمون البطريرك آباء؛ فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمه له تمييزاً عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ الباب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لما غلب الروم على المملكة، وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصّوا اسم الباب ببطريركهم؛ فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدّم

(١) مراده أن يطلقوا على البطريرك سمة الخ.

هناك ، ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في ” التثقيف “ ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية ، الباب الحليل ، القديس ، الروحاني ، الخاشع ، العامل ، يابا رومية ، عظيم الملة المسيحية ، قدوة الطائفة العيسوية ، مملك ملوك النصرانية ، حافظ الجسور والخجان ، ملاذ البطارقة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكتبة .

قال في ” التثقيف “ : هذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه . ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في ” التعريف “ جملة ، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة ، وأن الكتابة إليه في قطع النصف مع المكتبة المتقدمة .

الثانية — المكتبة إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية . قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آخر إلى بني الأشكرى ، فصار الأشكرى سمة لهم ملكا بعد ملك . قال في ” التعريف “ وقد كان قبل غلبة الفرنج ملكا جليلا ، يرجع إليه من عباد الصليب سائر الملوك ، ويفتقر إليه منهم الغني والصعلوك ، وكتب التواريخ مشحونة بأخباره ، وذكر وقائع وآثاره ، وأول من ألبس هامته الذلّة ، وأصار جمعه إلى القلّة ، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهدي إياه ، فأزال الشّم من أنفه ، وثني جامع عطفه . فأما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حد النكايه ، ولا أعظمت له الشكايه ، قال : وهذا الملك الآن كان السلطان (أربك) قد كاد يبتزّ تاجه ، ويُعقم نتاجه ، ويحلّ من جانب البحر المغلق رتاجه ، فأحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال ، وصحب أيامه على مَضَض

الاحتمال؛ وكانت له عليه قطعة مقررته، وجملة مال مقدّره؛ ثم عميت علينا بعده منهم. الأخبار، وتولى بالدنيا الإدبار .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التعريف " : ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة العالية ، المكرّمة ، حضرة الملك ، الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ، الغصنفر ، الباسل ، الضّرغام ، المعرق ، الأصيل ، المجد ، الأثير ، الأثيل ، البلالوس ، الرّيدأرغون ، ضابط الممالك الروميّة ، جامع البلاد الساحليّة ، وارث القياصرة القدّماء ، محيي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأموار دينه ، العادل في ممالكه ، معزّ النصرانيه ، مؤيد المسيحيّة ، أوحّد ملوك العيسويّه ، محوّل التّخوت والتّيجان ، حامى البحار والخُلجان ، آحر ملوك اليونان ، ملك ملوك السّريان ، عماد بنى المعموديّة ، رضى الباب پاپا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسامين ، أسوة الملوك والسلطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكّر قطع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما في التعريف .

وجعل له من السّلامة ^(١) يدا لا تُزعزعه من أوطانه ، ولا تُزعّره من سلطانه ، ولا تُوجب له إلا استقراّا لتيجانه ، واستمراّا بملكه على ما دارت على حصونه مناطق خُلجانه ، ولا برحت ثمار الودّ تدنو من أفنانه ، وموائيق العهد تبوى له ما يسر به من إشادة معالم سلفه وشدّ بناء يونانه : أصدرناها ، وشكره بخاره البحر لا يُوقف له على آخر ، ولا يُوصف مثل عقده الفاجر ، ولا يكثر إلا قيل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

(١) في التعريف « مع الإسلام » .

آخر له : وَنَظَمَ سِلْكَه ، وَحَمَى بِحُسْنِ تَأْتِيهِ مُلْكَه ، وَفَنَى مُحِبَّه هُلْكَه ،
وَأَجْرَى بُوْدَه رَكَابَه وَفُلْكَه ، وَوَقَاهَ كِذْبَ الْكَاذِبِ وَكُفَّ إِفْكَه ، وَأَشْهَدَ عَلَى وَدَه
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا جَنَّ كَافُورُ هَذَا كَافُورَه وَلَا مِسْكُ هَذَا مِسْكَه .

قلت : هذا الدعاء والصدر وإن أوردته في " التعريف " في جملة الأدعية له
والصدور ، فإنه منحط الرتبة عن المكتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يُخصَّصَ هذا بحالة
مناذرة أو تهديد ، ونحو ذلك .

وذكر في " التثقيف " أن الذي استقر عليه الحال في المكتبة إليه أنه يُكتَبَ إليه
في قَطْعِ النَّصَفِ ما نصه : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى ^(١) [بهجة] حَضْرَةَ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ،
الْمَكْرَمِ ، الْمَبْجَلِ ، الْأَسَدِ ، الْخَطِيرِ ، الْبَظَلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَمَامِ ، الضَّرْغَامِ ، فَلَانَ ،
الْعَالَمِ فِي مِلَّتِهِ ، الْعَادِلِ فِي أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، عَزَّ الْأُمَّةَ الْمَسِيحِيَّةَ ، كَبِيرِ الطَّائِفَةِ الصَّلَيبِيَّةِ ،
جَمَالَ بَنَى الْمُعْمُودِيَّةِ ، صَمَّمَامِ الْمُلُوكِ الْيُونَانِيَّةِ ، حُسَامِ الْمُلْكَةِ الْمَاكْصُونِيَّةِ ،
مَالِكِ الْيَرْغَلِيَّةِ وَالْأَمْلَاحِيَّةِ ، صَاحِبِ أَمْصَارِ الرُّوسِ وَالْعَلَّانِ ، مُعِزِّ اعْتِقَادِ الْكُرْجِ
وَالشَّرْيَانِ ، وَارِثِ الْأَسِرَّةِ وَالتَّيْجَانِ ، الْحَاكِمِ عَلَى الثُّغُورِ وَالْبُحُورِ وَالْخُلْجَانِ ، الضُّوْقِسِ
الْأَنْجَالُوسِ الْكَنْبِنُوسِ الْبِلَالُوْعِسِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ؛ ثُمَّ الدَّعَاءُ .
صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَتِهِ تَشْكُرُ مَوْلَاتِهِ ، (وَمِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ) وَتَوْصَحُ
لِعَالَمِهِ السَّعِيدِ .

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختتمها بقوله : فُحِيطَ بِذَلِكَ عِلْمًا ، وَاللهُ تَعَالَى
يَدِيمُ بِهِجَتِهِ .

(١) مقتبسة من " التعريف " لصحة الكلام .

قال في "التثقيف" : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكتبة هي المتداولّة بديوان الإنشاء بين كُتّابه ، وأنه هو كُتّب بها إليه ، ولم يتعرض لإيراد المكتبة التي ذكرها في "التعريف" بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه .

الثالثة - المكتبة إلى حُكّام جنوة : وهم جماعة متفاوتو المراتب ، وهم : البودشطا ، والكبطان ، والمشايخ . ورسم المكتبة إليهم على ما ذكره في "التثقيف" في قطع الثُلث :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرّمين ، الموقّرين ، المبجلّين ، الخطّيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكاير المحترمين ، أصحاب الرأي والمشورة ، الكنون بجنوه^(١) ، أجداد الأئمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ، وجعل النصيحة عندهم . تتضمن إعلامهم كذا وكذا . وتعريفهم «الحُكّام بجنوة» .

قال في "التثقيف" والذي استقرّ عليه الحال آخرًا في مفتتح سنة سبع وستين وسبعائة إبطال المكتبة إلى البودشطا والكبطان ، بحكم أنهما أبطلا ، وأستقرّ [ت مكتبة] الدّوج مكانهما بما نصه :

صدرت هذه المكتبة إلى الدّوج الجليل ، المكرّم ، المبجلّ ، الموقّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقي على ما تقدّم ذكره .

قلت : هكذا هو في "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم في آخره كإنا على ماسياقي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر .

(١) لعله الحاكون بجنوة .

وأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أنه كان لصاحب جنوة مُقَدِّم على الشَّوَانِي بِقُبْرَسٍ ، وقيل إنه كان بالمأغوصة ، وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قَطْع العادة مانصه :

وردت مكتبة المُحْتَشِم ، الجليل ، المَبْجَل ، الموقر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛ مَجْدِ الملة المَسيحية ، كبير الطائفة الصَّليبيَّة ، غَرَس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء . وتعريفه «مقدم الشَّوَانِي الجَنَوِيَّة بِقُبْرَسٍ» .

الرابعة — المكتبة إلى صاحب البُنْدُقِيَّة . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة إليه على ما آسَترَ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين وسبعائة ، وهو يومئذ مَرَكِيادُو في قطع الثُلث :

وردت مكتبة حضرة الدَّوَج ، الجليل ، المَكْرَم ، الخطير ، الباسل ، الموقر ، المَفَحَّم ، مَرَكِيادُو غَرِ الملة المَسيحية ؛ جمال الطائفة الصَّليبيَّة ، دُوج البُنْدُقِيَّة والمأنسية ، دوج كرال دين بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء . وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلاً عن خط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دُوك البنادقة :

وردت مطالعة دُوك الجليل ، المَكْرَم ، المَبْجَل ، الموقر ، البَطَل ، الهام ، الضَّرغام ، الغَضَنَفَر ، الخطير ؛ مَجْدِ الملة النَّصْرانيَّة ، نَحْرِ الأئمة العيسويَّة ، عِمَاد بنى المعمودية ، معزِّ يَآ رُوميَّة ، صديق الملوك والسلاطين ، دُوك البَنَادِقَة ، وديارقة ، والرُّوسَا ، والإصْطَنْبُولِيَّة . ثم قال : ولم يذكر تعريفه ولا قَطَعَ الورق الذى يُكْتَب إليه فيه ؛ ثم نقل عنه أيضاً أن المكتبة إلى دُوك البُنْدُقِيَّة : هذه المكتبة إلى حضرة المحتشم ، الجليل ، المَبْجَل ، الموقر ، المَكْرَم ، المَفَحَّم ، الباسل ، الضَّرغام ، فلان ؛

عَنِ الْإِمَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، جَمَالِ الطَّائِفَةِ الْعِيسَوِيَّةِ، ذُخْرُ الْمِلَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ. ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتَهُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ تَعْرِيفِهِ وَلَا الْقَطْعِ الَّذِي يَكْتُبُ إِلَيْهِ فِيهِ. قَالَ: وَمَا يَبْعُدُ أَنَّهُ غَيْرُ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ.

قلت: ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدُّوكَ غَيْرُ الْمَلِكِ نَفْسِهِ. عَلَى أَنَّ الْمَكْتَابَةَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةَ فِي الْجَوَابِ مُتَقَارِبَتَانِ. أَمَّا الْمَكْتَابَةُ الثَّلَاثَةُ فَنَحْطَةُ عَنْ الْأَوَّلَتَيْنِ. عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ عِنْدَ ذِكْرِ الْبَنْدُاقِيَّةِ نَقْلًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ مَلِكَ الْبَنْدَاقَةِ يَقَالُ لَهُ الدُّوكُ بضم الدال المهملة وواو وكاف فِي الْآخِرِ، وَهَذَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيرٍ؛ فَإِنْ كَانَ الدُّوكُ هُوَ الْمَلِكُ فَتَكُونُ الْمَكْتَابَةُ إِلَيْهِ اخْتَلَفَتْ بِاخْتِلَافِ الْحَالِ، أَوْ بِاخْتِلَافِ غَرَضِ الْكُتَّابِ، أَوْ عَدَمِ أَطْلَاعِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَقْدَارِ وَالْوُقُوفِ مَعَ مَا يَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُرَاحِمَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَهُوَ الظَّاهِرُ.

الخامسة — الْمَكْتَابَةُ إِلَى صَاحِبِ سَنُوبَ، مِنْ سَوَاحِلِ بِلَادِ الرُّومِ، قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ وَيَسْتَوْلَى عَلَيْهَا التُّرْكُوكَانِ. قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" وَهِيَ عَلَى ضَفَّةِ الْخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَمَلِكُهَا رُومِيٌّ مِنْ بَيْتِ الْمُلِكِ الْقَدِيمِ، مِنْ أَقَارِبِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ. قَالَ: وَيُقَالُ إِنْ أَبَاهُ أَعْرَقُ مِنْ آبَائِهِ فِي السُّلْطَانِ. قَالَ: وَلَكِنْ لَيْسَ مَلِكُهُ بِكَبِيرٍ، وَلَا عَدَدُهُ بِكَثِيرٍ، وَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَرَاءِ الْإِتْرَاكِ حَزَبٌ، يَكُونُ فِي أَكْثَرِهَا الْمَغْلُوبُ. وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ مِثْلُ مِمْلَكِ سَيْسِ، فَتَكُونُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي مَكْتَابَةِ مِمْلَكِ سَيْسِ:

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ، الْخَلِيلِ، الْبَطْلِ، الْبَاسِلِ، الْهُمَامِ، السَّمِيدَعِ، الضَّرْغَامِ، الْغَضَنْفَرِ، فَلَانٍ؛ نَحْرُ الْمِلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، ذُخْرُ الْإِمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ، عِمَادُ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ.

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" :

وكفاه شَرَّ مَائِنُوب ، وروَّحَ خَاطِرَه في الشَّمالِ بَرِيًّا مَائِبُوبٌ من الجنُوب ، ووقاه
سُوءَ فَعِيلٍ يُورِثُ النَّدَمَ وأَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّنَّ سَنُوب .

السادسة - المكتبة إلى صاحب البُلغار والسَّرب . قد تقدَّم في الكلام على
المكتبات إلى ملوك الإسلام بالجنب الشَّمالى نقلًا عن " التعريف " ما يقتضى أنَّ
ملكها مسلمٌ ، ودُكرت مكاتبته الإسلامية هناك ، وعلى ذلك أقصر في "التعريف"
وتقدَّم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارت إلى ملوك النُّصرانية ، وعليه أقصر
في "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التثقيف " نقلًا عن ابن النشأى في قَطْع
الثالث ما نصه :

أطال الله تعالى بقاءَ حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، الهام ، الضَّرغام ،
الباسل ، الدُّوقس ، الانجَالُوس ، الكمينوس ، فلان ؛ عمادِ النُّصرانية ، مالك السَّرب
والبُلغار ، نَحْرُ الأئمة العيسويه ، دُخْرُ الملة المسيحية ، فارس البُحُور ، حامى الحُصُون
والتُّغُور . والدعاء ، أصدرنا هذه المكتبة ، وتعريفه «صاحب البُلغار» .

وأعلم أنه في "التثقيف" بعد أن أورد المكتبة المتقدمة لصاحب السَّرب والبُلغار ،
نقلًا عن ابن النشأى ذكرَ نقلًا عنه أيضًا أن المكتبة إلى صاحب السَّرب في قَطْع
الثالث نظير متملك سِيس ، فتكون المكتبة إليه على ما تقدَّم أنه الذى استقرَّ عليه الحال
في المكتبة لمتملك سِيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزَّز ،
الهام ، الباسل ، فلان ؛ عزَّ دين النُّصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بنى

(١) أى البلد التى هى عاصمة ملكه .

المعمودية، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله نعمته ، وحرس مهجته ، تعلمه
كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السَّرب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارة فيكون بهما آثان تارةً وواحد
تارةً أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكاتبة
صاحب البُلغار وحده مفردًا كما ذكر مكاتبة صاحب السَّرب وحده مفردًا .

قلت : كلا الأمرين محتملٌ ، فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحد ، وأنه كتب
تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناءً به عن الآخر ، أو أنه كتب إلى صاحب
السَّرب بمفرده ، ولم يحطَّ رتبته في قطع الورق عن رتبة من اجتماعه له ، ولا يلزم من
ذلك أنه كان يكتب لصاحب البُلغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيء حينئذٍ ،
وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة — المكاتبة إلى ملك رُودس . قال في "التعريف" وهي جزيرة تقابل
شُطوط البلاد الرومية . قال : وأهلها في البحر حرامية ، إذا ظفروا بالمسلم ،
أخذوا ماله ، وأحيوه ، وباعوه أو استخدموه ؛ وإذا ظفروا بالفرنجي ، أخذوا
ماله وقتلوه .

ورسم المكاتبة إليه مثل ممتلك سيس ، إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية ،
وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه ، وحينئذٍ فيتجه أن تكون المكاتبة إليه :

صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل ، البطل ، الباسل ، السَّيدع ،
فلان ؛ نحر الملة المسيحية ، دُخر الأمة النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، وأنحو
ذلك . على أنه في "التعريف" لم يذكر في المكاتبة إلى ممتلك سيس ، معزٍ بابا
رومية ؛ فلم يكن ليحتاج أن يقول : إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية .

وهذا دعاء يليق به ، ذكره في "التعريف" وهو
 قَدَّمَ اللهُ لَهُ الْأَعْذَارَ ، وَكَفَاهُ قَوَامِعَ الْإِنْذَارِ ، وَحَذَّرَهُ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْحِذَارُ .
 آخر : فَكَ اللهُ مِنْ وَثَاقِهِ كُلِّ مَأْسُورٍ ، وَأَقَالَ كُلَّ غَرَابٍ لَهُ مِنَ الرَّجُوعِ
 وَجَنَاحَهُ مَكْسُورٍ ، وَعَصَمَهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا آقَرَفَ ، لَا بِالْبَحْرِ وَلَوْ أَنَّهُ سَبْعَةُ أَمْجُرٍ ، وَسُورِ
 مَدِينَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُ مَائَةٌ سُورِ .

الثامنة — المكتبة إلى صاحب جزيرة المصطكى . قال في "التعريف" : وهي
 جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية ، وصاحبها صغيراً في مالٍ ولا في رجال ؛
 وجزيرته ذات حُط لا يطُرُّ شاربها بزرع ، ولا يدُرُّ حالبها بضرع ؛ إلا أنها تُثَبِّت
 هذه الشجرة فتَحْمَلُ منها وتُجَلَّبُ ، وتُرْسَى السفنُ عليها بسببها وتُطَلَّبُ ؛ قال :
 وفي ملكها خدمةٌ لرُسُلنا إذا ركبوا شَجَّ البحر ، وتجهِزُ لهم إلى حيثُ أرادوا ، وتَجِيزُ
 لهم إذا توجَّهوا وإذا عادوا . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكتبة
 إلى صاحب جزيرة رُودس المتقدمة الذكر آنفاً وهي :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم .

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" ، دعاء من ذلك ، وفقه الله لطاعته ،
 وأنفضه من الولاء بقدر طاقته .

آخر : أطاب الله قلبه ، وأدام إلينا قُربَه .

آخر : لا زال إلى الطاعة يُبَادِرُ ، وعلى الخدمة أنهُضَ قادِرُ ، ومكانه تُزَمُّ
 إليه ركائبُ السفنِ بكلِّ واردٍ وصادرٍ .

التاسعة — المكتبة إلى ممتلك قبرس . وإنما قيل له ممتلك قبرس لأنها كانت
 قد فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى وملكوها ؛ فقيل لمن غلب عليها ممتلك

ولم يُقَلْ له مَلِكٌ ؛ وذكر في ”التثقيف“ عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن المكتبة إليه [مثل] ممتلك سيس ولم يَزِدْ على ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكتبة إليه مثل ما آسَتر عليه الحال في المكتبة إلى ممتلك سيس في قطع العادة :

صدرت هذه المكتبةُ إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان ؛ عزَّ دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بنى المعمودية ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مُهَجَّتَه . وتعريفه « ممتلك قبرس » .

قال صاحب ”التثقيف“ : ولم أَقِفْ على مكتبة إليه ابتداءً ولا جواباً سوى ذلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاى اليوسفى عند وقوع الصلح في سنة اثنتين وستين وسبعائة ، يعنى عند ما كان الجاى أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة — المكتبة إلى ملك مُونفُراد . ذكر في ”التثقيف“ أنه كان بها ابن ملك إصطنبُول ، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة :

أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، البطل ، الهمام ، الأسد ، الضرغام ، فلان ؛ مجد النصرانية ، نحر العيسوي ، عماد بنى المعمودية ، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية ، ملك مُونفُراد ، وارث التاج ، مُعزَّ الباب ، أدام الله بَقَاه ، وحَفِظَه ووَفاه ، وأورثه من ابيه تحته وتاجه وولاه ؛ تتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكتبة المذكورة ، ولم يَكْتَبْ إليه شئٌ في مدَّة مباشرة ، ولم أدْرِ ما تعريفه ، ولا في أى قطع يكتب إليه . قال : والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة ، وأن يكون تعريفه « ملك مونفُراد » .

الحادية عشرة - المكتبة إلى صاحبة نابل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان اسم صاحبها جوانا، وأنه كتب إليها في أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ما صورته :

صدرت هذه المكتبة إلى الملكة، الحليّة، المكرّمة، المبعّلة، الموقّرة، المفخّمة، المعزّزة، فلانة، العالمة في ملّتها، العادلة في مملكتها، كبيرة دين النصرانية، نصيرة الأئمة العيسويّة، حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، تتضمّن إعلامها، وتعريفها «صاحبة نابل» ولم يذكر قطع الورق لمكتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها .

قلت : فإن ولي مملكتها رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء . وهؤلاء جملة من تعرض إلى مكاتبتها في "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكفر، فإن اتفقت المكتبة إلى أحد سواهم فليُقَسَّ على من هو مثله منهم . ثم قد ذكر في "التثقيف" القنصل بكفأ، وذكر أنها جارية في حكم جنوة، وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكتب عن الأبواب السلطانية .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ؛
من جرت العادة بمكاتبتة إليها من أهل المملكة وغيرها من
سائر الممالك المكتبة عن هذه المملكة ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(المكتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي على قسمين)

القسم الأول — في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ،
والبلاد الشامية ، ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية ، من النواب وغيرهم :
من الأمراء ، وأرباب الأقاليم : من الوزراء ، والعلماء ومن في معانهم ؛ وهم على
ضريين :

الضرب الأول

(في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية)

والبلاد الشامية : من النواب ومن في معانهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة ، أن
يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي ،
وإن كان بالبلاد الشامية فمن الورق الشامي ، وجميع ذلك في الورق الأبيض ، إلا
نائب الشام ونائب الكرك ، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب
السلطانية في الورق الأحمر الشامي ، شيء اختصابه دون سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر في "عرف التعريف" أن المملوك لا يُكتب إليهم إلا «يُقبل الأرض»
 ويُنبى . ويُحتم الكتاب بما صورته : طالع المملوك بذلك وللآراء العالية مزيد العلو؛
 أو أنهى المملوك ذلك وللآراء العالية مزيد العلو، والعنوان «المَلِكِيّ الفلانيّ» مطالعة
 المملوك فلان » وحينئذ فالذى جرت به العادة في ذلك أن يبتدئ الكاتب فيكتب
 فهرست الكتاب في رأس الدّرج من جهة وجهه، في عرض إصبع، في الجانب الأيمن
 «إلى الأبواب الشريفة» وفي الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» ثم يقلب الدّرج
 ويكتب في ظاهره، بعد ترك ما كتب الفهرست في باطنه، العنوان ؛ فيكتب :
 «المَلِكِيّ الفلانيّ» في أول العنوان، و«مطالعة المملوك فلان» في آخره . ثم بعد ذلك
 يقلب الدّرج، ويترك وصلاً أبيض، ويكتب البسملة في رأس الوصل الثاني بعد
 خلّو هامش من الجانب الأيمن . ثم يكتب تحت البسملة ملاصقاً لها ما صورته
 «المَلِكِيّ الفلانيّ» بحيث يكون آخر المَلِكِيّ الفلانيّ مسامتاً لجلالة البسملة، بلقب
 السلطان، كأنه ينسب نفسه إلى سلطانه . ثم يكتب صورة المكتبة على سمت البسملة
 في سطرٍ ملاصقٍ للمَلِكِيّ الفلانيّ «يُقبل الأرض ويُنبى كذا وكذا» فإن كان ابتداءً
 كتب ويُنبى أن الأمر كذا وكذا ، ويأتي بمقاصد المكتبة : فإن كانت فصلاً
 واحداً ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه ؛ وإن كان الكتاب مشتملاً على فصول أتي
 بالفصل الأول إلى آخره . ثم يخلى بياضاً قدر خمسة أسطر . ثم يسرد الفصول بعد
 ذلك فصلاً فصلاً : يُخلى بين كل فصلين قدر خمسة أسطر أيضاً، ويقول في أول
 كل فصل «المملوك يُنبى كذا وكذا» وإذا أتي على ذكر السلطان ، قال : خلد الله
 سلطانه ؛ أو خلد الله ظله ؛ أو أتي على ذكر المرسوم الشريف ، قال : شرفه الله
 وعظمه ونحو ذلك ؛ وإذا سأل في أمر ، قال : والمملوك يعرض على الآراء الشريفة
 كذا وكذا ، أو إن اقتضت الآراء الشريفة كذا فلها مزيد العلو، ولا يقال : يسأل

الصدقات الشريفة، إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب، ولا يلقب أحدا بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام، أو نائب حلب، أو أمير كبير. قال: إن مملوك مولانا السلطان خلّد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الشامية المحروسة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلاً، أو القاضي فلان الدين، أو ناظر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجري هذا المجرى؛ ولا يدعى في المطالعة لأحد. وإذا آتت الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهّز المملوك بمطالعتة هذه مملوكه فلانا السيّفى مثلاً المائل بها. وإن كان ثمّ مشافهة، قال: وقد حمّله مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو ينهيها إلى المسامع الشريفة إذا رُسم له بإنهائها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة الثّواب بالبلاد الشامية أن يُقدّموا في صدر المكاتب ما شتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواخير هذه المملكة: من تجديد أمر، أو حركة عدوّ، أو حكاية حال مهمّة من أحوال تلك البلاد؛ مثل أن يقال في أول المكاتب، وينهى أن قصّاده عادّوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التي أخبر بها قصّاده.

وإن كان الخبر نقلاً عن نائب من نواب الأطراف كالرّها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة وردت بكذا وكذا، ويذكر ما تضمنته ملخصاً. وإن كانت المطالعة جواب مائل شريف ورد فقط، قال: وينهى أن المرسوم الشريف

شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمّن ما اقتضته المراسيم الشريفة ، أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها : من كذا وكذا ، ويذكر نصّ المثال الشريف حرفاً حرفاً . ثم يقال : وتفهم المملوك ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة - زاد الله تعالى شرفها - بتكرار تقبيل الأرض والامثال ؛ وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذي ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقّف .

ثم إن كان النائب عظيم القدر كخائب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب ، جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع ؛ وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهى فى أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض .

وإن كانت المطالعة فى أمر مهمّ كاستقرار نائب أو بشارة بفتح أو نحو ذلك ، أتى بجميع الكتاب مسجّعا وإلا فلا .

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداءً .

يقبل الأرض ، وينهى أنه ورد على المملوك مكاتبه نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، يذكر فيها أن قُصّاده عادوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدو المخدول فلانا قد خرج عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكرّ راجعا إليه بعد أن كان قاصدا هذه الجهة ، وأحبّ المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك .

المملوك ينهى أن مطالعة نائب الرّحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلانا التركمانى قد عاد إلى الطاعة الشريفة ، ولاذ بمراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا الخوف من السّطوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمان شريف له ولجماعته ومن يليه بأن يكونوا آمينين على أنفسهم ،

وأموالهم ، وسائر ذات يدهم ، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، وأمثال ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته . والمملوك ينظر ما يردُّ به الجواب الشريف في أمره لكاتب نائب الرحبة المحروسة بما يعتمد في أمره .

المملوك يُنهي أنه قد بلغ المملوك أنَّ البحر مشغولٌ بمراكب الفرنج ، ولم يعلم إلى أيِّ مكان يقصِّدون ، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المرَّكين ، وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ ، وقد عرض المملوك ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ، ويكتب به التواب بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوك يُنهي أن الأمير فلانا الفلاني : أحد أمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة قد توفَّى إلى رحمة الله تعالى ، والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار أمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ، ولد المملوك فلان ، إعانة له على الخدمة الشريفة ، وجبراً لحاطر المملوك ، فإن حسن ذلك بالآراء الشريفة ، وإلا فلارأى العالى مزيد العلو .

المملوك يُنهي أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزت المراسيم الشريفة باستقراره في نيابة صفد المحروسة ، وقد توجه إلى محل نيابته ، والمملوك يعرض على الآراء الشريفة إن حسن بالرأى الشريف أن يستقر في الوظيفة المذكورة الأمير فلان الدين فلان : أحد الأمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة ، فإنه كفء لذلك ، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة .

المملوك ينهي أن فلانا : أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة ، قد درج بالوفاة ، وقد كتب المملوك مربعة باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه ، وجهزها إلى الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية ، فإن حسن بالرأى الشريف

إمضاؤها وإلا فيستقرّ على إقطاعه من تبرُّز المراسيم الشريفة باستقراره ، وقد جهّز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان إلى الأبواب الشريفة .

طالع بذلك ، إن شاء الله تعالى ثم يكمل .



وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضا ، في جواب مكتبة شريفة وردت عليه وهي :

يَقْبَلُ الأرض وَيُنْهِى أن المرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - وردَ على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدى ، بالأبواب الشريفة ، يتضمّن أن المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والموانى ، وإقامة الأيالك والأبدال في أوقاتها على العادة ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة ، وتعهد أحوالها وتفقدّها ، وتقويم أحوالها بحيث تقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها ، ولا يقع على أحد درك بسببها . وأن المملوك يتقدم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه . فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، وتفهم مرسوم له به ، وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بالامتثال ، وتقدم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك ، وأخذ في حفظ السواحل والموانى ، وإقامة الأيالك والأبدال ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر [فقامت الأحوال] على أحسن العوائد ، وجرّت على أكمل القواعد ، ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصددّه من ذلك ، وقد أعاد المملوك فلان الدين فلانا البريدى المذكور بهذه المطالعة : ليحصل الوقوف عليها . طالع بذلك



وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب : يقبل الأرض وينهى أنه
قد حضر رسول من القان فلان بالملكة الفلانية [وقصده التوجه] إلى الأبواب
الشريفة ، والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره ، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه
الشريفة ، جهزه المملوك إليها على العادة .

المملوك ينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد
فلان الدين فلان المسفر من الأبواب الشريفة ، يتضمن طلب فلان الفلاني ،
وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به ، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة
بالأمثال ، وتقدم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسفر المذكور ،
وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة .



صورة وضع المطالعة من نواب السلطنة ومن في معناهم ، إلى الأبواب الشريفة
الجانب الأيمن الطرة الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة بسبب كذا
العنوان
الملكى الفلانى
مطالعة المملوك
فلان

الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظاهرى مثلاً

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، ورد على
المملوك ، على يد فلان الدين فلان البريدى ، ويكمل عليه إلى آخره .

الضرب الثاني

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

^(١)
المطالعات الواردة من الولاية ومن في معنائهم .

القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكتوبة عن هذه المملكة . وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رتبة القدر . وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل ملكة في الكتابة ، ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه ، ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة ، وعظيم النفع ، وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بحك المعرفة .

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق ، في الأيام الظاهرية الشهيديّة برقوق سقى الله تعالى عهده ، وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أذربك ، ورفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك ؛ فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة ، فخرجوا وتلقوه بالتعظيم ، على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره ؛ وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره ؛ فلما عرض كتابه نظره فيه المقر البدري بن فضل الله ، تغمده الله تعالى برحمته ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، فوجده غير جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة ؛ فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته ؛ فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان ، فأنكر عليه ذلك ، وحط رتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه ، وعلا بذلك مقدار المقر البدري بن فضل الله المشار إليه عند السلطان ، وشكره ما كان من ذلك .

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في الكتب الواردة عن أهل الشرق؛ وفيه أطراف)

الطرف الأول

(الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جَنْكِرخان؛ ولها حالان)

الحال الأولي — ما كان الأمر عليه قبل دُخُولهم في دين الإسلام .

وكان الأمر يجرى في كتابتهم مجرى المَخَاشنة ، والتصريح بالعداوة ، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هولاكو بن طوحي ، بن جَنْكِرخان ، المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفر قُطُز في سنة ثمان وخمسين وسبعائة ، وهو :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم :

بأسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قُطُز الذي هو من جنس الماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حوّلها من الأعمال ، أننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سَخَطه ، وسلطنا على من أحلّ عليه غضبه ، فسلموا إلينا أموركم تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا نحرّبنا البلاد ، وقتلنا العباد ، فلکم منا الهرب ، ولنا خلقكم الطلب ؛

فما لكم من سُيُوفنا خَلَّاص : خُيُولُنا سَوَاق ، وسُيُوفُنا قَوَاطِع ، وَقُلُوبُنا كَالجِبَال ،
وَعَدَدُنا كَالرَّمَال ، وَمَنْ طَلَبَ حَرْبًا نَدِم ، وَمَنْ قَصَدَ أَمَانًا سَلِم ؛ فَإِنْ أَتَمَّ لَشَرُّنا
وأَوَامِرنا أَطَعْتُمْ فَلَكُمْ مالُنا ، وَعَلَيْكُمْ ما عَلَيْنَا ؛ فَقَدْ أَعْذَرُ مَنْ أَنْذَرَ . وقد ثبت عندكم
أَنَّا كَفَرُنا ، وَثَبَّتْ عِنْدنا أَنَّكم الفَجَرُ ، فَاسْرِعُوا إِلَيْنَا بِالْجَوَابِ قَبْلَ أَنْ تُضْرِمَ الْحَرْبُ
نَارَها ، وَتَرْمِكُمْ بِشَرَارِها ، فلا يَبْقَ لَكُمْ جَأْ ولا عِزٌّ ، ولا يَعِصُكُمْ مِنْنا جَبَلٌ ولا
حَرْزٌ ، فَمَا بَقِيَ لَنَا مَقْصِدٌ سِوَاكُمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ ، وَعَلَى مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى ،
وَوَخَشِيَ عَوَاقِبَ الرَّدَى ، وَأَطَاعَ الْمَلِكَ الْأَعْلَى .

الحال الثانية — ما كان الأمرُ عليه بعد دُخُولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة
بين الدولتين .

وكان عاداتهم في الكتابة أن يُكْتَبَ بعد البسملة « بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى » ثم يُكْتَبَ
بعد ذلك « بِإِقْبَالِ قَانَ فَرْمَانَ فُلانٍ » يعني كلام فلان .
ولهم في ذلك طريقتان .

إحداهما — أن يُكْتَبَ بِسْمِ اللَّهِ سَطْرًا ، وَيُكْتَبَ « الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » سَطْرًا
تَحْتِها ، وَيَكْتَبَ « بِقُوَّةِ اللَّهِ » سَطْرًا « وَتَعَالَى » سَطْرًا آخَرَ تَحْتِها ؛ ثُمَّ يَكْتَبُ تَحْتَ
ذلك في الوسط بهامش من الجانبين « بِإِقْبَالِ قَانَ » سَطْرًا ، وَتَحْتِها « فَرْمَانَ فُلانٍ »
باسم السلطان المكتوب عنه سَطْرًا آخَرَ .

والطريقة الثانية — أن تُكْتَبَ الْبِسْمَلَةُ جَمِيعُها سَطْرًا وَاحِدًا ، ثُمَّ يَكْتَبُ تَحْتَ
وَسَطِ الْبِسْمَلَةِ « بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى » سَطْرًا « وَمِيَامِينَ الْمَلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ » سَطْرًا آخَرَ ؛
ثُمَّ يَكْتَبُ تَحْتَ ذلك سَطْرًا آخَرَ بِزِيَادَةِ يَسِيرَةٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ « فَرْمَانَ السُّلْطَانَ فُلانٍ »
يعني كلام السلطان فلان .

ولم أَقِفْ عَلَى قَطْعِ الورق الذى كُتِبَ فِيهِ حينئذٍ ، والظاهرُ أَنَّهُ فى البَغْدَادِىِّ
الكامل تعظيماً لِسَانِ المكتوب عنه عندهم . وبالجملة فَإِنَّ الظاهر أَنَّ الكتبَ الواردةَ
عَنهم عَلَى تَمَاطُ الكتب الواردة من هذه المملكة إِلَيْهم ، جَرِيّاً عَلَى قَاعِدَةِ كُتَابِ
هذه المملكة من أَنَّ الغالب مضاهاتهم لِأكابر المملوك فى كُتُبِهِم فى الهيئة والترتيب
شَرْفاً وَغَرَباً .

وهذه نسخةُ كُتَابِ عَلَى الطريفة الأولى ، ورد عن السلطان « أحمد » صاحب
مملكة إيران ، من بنى هُوَ لَكو المقدم ذكره ، وهو أوَّل من أسلم منهم ، كتب به إِلَى
الملك المنصور « قلاوون » صاحب الديار المصرية ، تَعَمُّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِرِضْوَانِهِ ،
ورد مؤرَّخاً بأوسط جُمَادَى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة ، ورأيت فى بعض
الدساتير أَنَّهُ من إنشاء الفَخْر بن عيسى المَوْصِلَى ، وورد بخطه وهو :

بقوة الله

بسم الله

تعالى

الرحمن الرحيم

بإقبال قان .

فرمان أحمد .

إلى سلطان مصر؛ أما بعدُ، فَإِنَّ الله سبحانه وتعالى بسابق عِنايته، ونور هِدَايَتِهِ،
قد كان أَرشَدَنَا فى عُقُوقَانِ الصَّبَا، وَرِيعَانِ الحَدَاثَةِ، إِلَى الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، والاعترافِ
بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، والشهادة لمحمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، بِصِدْقِ نُبُوتِهِ، وَحُسْنِ
الاعتقادِ فى أوليائه الصالحين من عباده وَبَرِيَّتِهِ ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ﴾ فلم نَزَلْ نَمِيلُ إِلَى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين،
إِلَى أَنْ أَفْضَى إِلَيْنَا بعدَ أَيْنَا الجليل، وَأَخِينَا الكبير، نُوبَةُ المُلْكِ، فَأَضْفَى عَلَيْنَا مَنْ

جَلَّابِيبِ الطَّافَةِ وَلَطَائِفِهِ ، مَاحَقَّقَ بِهِ آمَالَنَا فِي جَزِيلِ آيَاتِهِ وَعَوَارِفِهِ ، وَجَلَّى هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ عَلَيْنَا ، وَأَهْدَى عَقِيلَتَهَا إِلَيْنَا ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَنَا فِي قُورْيَانِ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ الْمَجْتَمِعُ الَّذِي تُقَدِّحُ فِيهِ الْآرَاءُ - جَمِيعُ الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأُمَرَاءِ الْكِبَارِ ، وَمَقَدَّمُو الْعَسَاكِرِ ، وَزَعَمَاءُ الْبِلَادِ ، وَاتَّفَقَتْ كُلُّهُمْ عَلَى تَنْفِيزِ مَا سَبَقَ بِهِ حُكْمُ أَخِينَا الْكَبِيرِ ، فِي إِنْفَازِ الْحَمِّ الْغَفِيرِ ، مِنْ عَسَاكِرِنَا الَّتِي ضَاقَتْ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا مِنْ كَثَرَتِهَا ، وَامْتَلَأَتْ الْأَرْضُ رُعبًا مِنْ عَظِيمِ صَوْلَتِهَا ، وَشَدِيدِ بَطْشَتِهَا ، إِلَى تِلْكَ الْجَهَةِ بِهَمَّةٍ تَخْضَعُ لَهَا صُمُّ الْأَطْوَادِ ؛ وَعِزْمَةٍ تَلِينُ لَهَا الصُّمُّ الصَّلَادِ ، فَفَكَّرْنَا فِيمَا تَمَخَّضَتْ زُبْدُ عِزَائِهِمْ عَنْهُ ، وَاجْتَمَعَتْ أَهْوَاؤُهُمْ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْنَاهُ مَخَالِفًا لِمَا كَانَ فِي ضَمِيرِنَا مِنْ اقْتِفَاءِ الْخَيْرِ الْعَامِّ ، الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَقْوِيَةِ شِعَارِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يُصْدَرَ عَنْ أَوْامِرِنَا مَا أَمَكْنَا إِلَّا مَا يُوجِبُ حَقَّقَ الدَّمَاءِ ، وَتَسْكِينِ الدَّهْمَاءِ ، وَتَجَرُّي بِهِ فِي الْأَقْطَارِ ؛ رُخَاءُ نَسَائِمِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَيَسْتَرِيحُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ ، فِي مِهَادِ الشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ؛ تَعْظِيمًا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، فَأَلْهَمَنَا اللَّهُ تَعَالَى إِطْفَاءَ تِلْكَ النَّارِ ، وَتَسْكِينِ الْفِتَنِ النَّارِ ، وَإِعْلَامَ مَنْ أَشَارَ بِذَلِكَ الرَّأْيِ بِمَا أُرْشَدَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ : مِنْ تَقْدِيمِ مَا يُرْجَى بِهِ شِفَاءُ مَزَاجِ الْعَالَمِ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَتَأْخِيرِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الدَّوَاءِ ، وَأَنْتَا لَا نَحِبُّ الْمَسَارَعَةَ إِلَى هَرِّ النَّصَالِ لِلنَّصَالِ إِلَّا بَعْدَ إِيضَاحِ الْمَحْجَّةِ ، وَلَا نُبَادِرُهَا إِلَّا بَعْدَ تَبَيُّنِ الْحَقِّ وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ، وَقَوَى عِزِّ مَنْ أَعْلَمَ مَا رَأَيْنَاهُ مِنْ دَوَاعِي الصَّلَاحِ ، وَتَنْفِيزِ مَا ظَهَرَ لَنَا بِهِ وَجْهُ النَّجَاحِ ، إِذْ كَانَ ، الشَّيْخُ قُدْوَةُ الْعَارِفِينَ « كِمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » الَّذِي هُوَ نِعَمَ الْعَوْنِ لَنَا فِي أُمُورِ الدِّينِ ؛ فَأَرْسَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِمَنْ [لَبَّى] دُعَاةَ ، وَنِقْمَةً عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَصَاهُ ؛ وَأَنْفَذْنَا أَقْضَى الْقَضَاةِ قُطْبَ الْمِلَّةِ وَالْدِّينِ ، وَالْأَتَاكَ بِهَاءِ الدِّينِ ، الَّذِينَ هُمَا مِنْ ثِقَاتِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّاهِرَةِ لِيُعْرِفُوهُمْ طَرِيقَتَنَا ، وَيَتَحَقَّقَ عِنْدَهُمْ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيلُ نِيَّتِنَا ، وَبَيْنَا لَهُمْ أَنَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ

يُجِبُّ مَاقْبَلَهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى فِي قُلُوبِنَا أَنْ نَتَّبِعَ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ ، وَنُشَاهِدَ أَنَّ عَظِيمَ
نِعْمَةِ اللَّهِ لِلْكَافَّةِ بِمَا دَعَانَا إِلَيْهِ مِنْ تَقْدِيمِ أَسْبَابِ الْإِحْسَانِ ، أَنْ لَا يُحَرِّمُوهَا بِالنَّظَرِ
إِلَى سَائِرِ الْأَحْوَالِ فَكُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ؛ فَإِنْ تَطَلَّعْتَ نَفْسُهُمْ إِلَى دَلِيلٍ تَسْتَحْكُمُ
بِسَبَبِهِ دَوَاعِيَ الْإِعْتِمَادِ ، وَحُجَّةٍ يَتَّقُونَ بِهَا مِنْ بُلُوغِ الْمُرَادِ ؛ فَيَنْظُرُوا إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ
أَمْرِنَا مِمَّا أَشْتَهَرَ خَبَرُهُ ، وَعَمَّ أَثَرُهُ ، فَإِنَّا أَبْتَدَأْنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ بِإِعْلَاءِ أَعْلَامِ الدِّينِ
وإِظْهَارِهِ ، فِي إِيرَادِ كُلِّ أَمْرٍ وَإِصْدَارِهِ ، تَقْدِيمًا لِنَامُوسِ الشَّرْعِ الْمَحْمَدِيِّ ، عَلَى
مَقْتَضَى قَانُونِ الْعَدْلِ الْأَحْمَدِيِّ ، إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا ؛ وَأَدْخَلْنَا السُّرُورَ ، عَلَى قُلُوبِ
الْجُمْهُورِ ، وَعَفَوْنَا عَنْ كُلِّ مَنْ اجْتَرَحَ سَيِّئَةً وَأَقْتَرَفَ ، وَقَابَلْنَاهُ بِالصَّفْحِ وَقُلْنَا عَفَا اللَّهُ عَنْمَا
سَلَفَ ؛ وَتَقَدَّمْنَا بِإِصْلَاحِ أُمُورِ أَوْقَافِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْمَدَارِسِ ،
وِعِمَارَةِ بَقَاعِ الدِّينِ وَالرِّيطِ الدَّوَّارِسِ ؛ وَإِصْلَاحِ حَاصِلِهَا بِوُجُوبِ عَوَائِدِهَا الْقَائِمَةِ إِلَى
مُسْتَحَقِّهَا بِشُرُوطِ وَاقِفِيهَا ؛ وَمَنْعَنَا أَنْ يُلْتَمَسَ شَيْءٌ مِمَّا اسْتَحْدِثَ عَلَيْهَا ؛ وَأَنْ لَا يَغْيَرَ
أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا قُرِّرَ أَوَّلًا ؛ وَأَمْرِنَا بِتَعْظِيمِ أَمْرِ الْحُجَّاجِ وَتَجْهِيزِ وَفْدِهَا ، وَتَأْمِينِ سُبُلِهَا ،
وَتَسْيِيرِ قَوَائِلِهَا ؛ وَإِنَّا أَطْلَقْنَا سَبِيلَ التَّجَارِ الْمُرْتَدِّينَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ لِيُسَافِرُوا بِحَسَبِ
أَخْتِيَارِهِمْ عَلَى أَحْسَنِ قَوَاعِيدِهِمْ ؛ وَحَرَمْنَا عَلَى الْعَسَاكِرِ وَالْقَرَاغُولَاتِ وَالشَّحَاتِي
فِي الْأَطْرَافِ التَّعَرُّضَ لَهُمْ فِي مَصَادِرِهِمْ وَمَوَارِدِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ قَرَاغُولٌ صَادَفَ جَاسُوسًا
فِي زِيَّ الْفُقَرَاءِ كَانَ سَبِيلُهُ أَنْ يَهْلِكَ ، فَلَمْ يُهْرَقْ دَمُهُ : لِحُرْمَةِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَعْدَنَاهُ
إِلَيْهِمْ . وَلَا يَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانَ فِي إِنْفَازِ الْجَوَاسِيسِ مِنَ الضَّرَرِ الْعَامِّ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ
عَسَاكِرَنَا طَالَمَا رَأَوْهُمْ فِي زِيَّ الْفُقَرَاءِ وَالنِّسَاكِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ ، فَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ
فِي تِلْكَ الطَّوَائِفِ ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلُوا ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا فَعَلُوا ، وَارْتَفَعَتِ الْحَاجَةُ
بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى ذَلِكَ بِمَا صَدَرَ إِذْنُنَا بِهِ مِنْ فَتْحِ الطَّرِيقِ وَتَرَدُّدِ التَّجَارِ ، فَإِذَا أَمَعُوا الْفِكَرَ
فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَأَمْثَالِهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ أَنَّهَا أَخْلَاقٌ جَبِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ ، وَعَنْ شَوَائِبِ

التَّكْلُفِ والتَّصْنَعِ عَرِيَّةٌ . وإذا كانت الحال على ذلك فقد أرتفعت دَوَاعِي المَضَرَّة التي كانت مُوجِبَةً للمخالفة، فإنها إن كانت طريقًا للدَّبِّ والدُّودِ عن حَوْزَةِ الإسلام، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دَوْلَتِنَا النُّورِ المِيِّين، وإن كانت لما سَبَقَ من الأسباب، فَمَنْ يَتَحَرَّى الآنَ طريقَ الصَّوابِ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ . وقد رَفَعْنَا الحِجَابَ، وَأَتَيْنَا بِفَضْلِ الْخِطَابِ، وَعَرَفْنَاهُمْ [طَرِيقَتَنَا وَ] مَا عَزَمْنَا بِبَنِيَّةٍ خَالِصَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى اسْتِثْنَائِهَا، وَحَرَّمْنَا عَلَى جَمِيعِ الْعَسَاكِرِ الْعَمَلِ بِخِلَافِهَا، لِنُرِضِيَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، وَيُلَوِّحَ عَلَى صَفَحَاتِهَا آثَارُ الْإِقْبَالِ وَالْقَبُولِ، وَتُسْتَرِجَ مِنْ آخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَتَتَجَلَّى بِنُورِ الْإِثْلَافِ، ظُلُمَةُ الْإِخْتِلَافِ، وَالْغَمَّةُ، وَيَشْكُرَ سَابِغَ ظُلْمِهَا الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرُ، وَتَقَرَّ الْقُلُوبُ الَّتِي بَلَغَتْ مِنَ الْجَهْلِ الْحَنَاجِرَ . وَيُعْنَى عَنْ سَالِفِ الْجَرَائِرِ، فَإِنَّ وَقَّ اللَّهُ سُلْطَانَ مِصْرَ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعَالَمِ، وَأَنْتَظَامُ أُمُورِ بَنِي آدَمَ، فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَسُلُوكُ الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ، بِفَتْحِ أَبْوَابِ الطَّاعَةِ وَالْإِتِّحَادِ، وَبَذَلِ الْإِخْلَاصِ بِحَيْثُ تَعَمَّرَ تِلْكَ الْمَمَالِكُ وَتِيكَ الْبِلَادُ، وَتَسْكُنُ الْفِتْنَةُ النَّائِرَةُ، وَتَعْمَدُ السُّيُوفُ الْبَاطِرَةَ، وَتَحُلُّ الْعَامَّةُ أَرْضَ الْهُوَيْنِيِّ وَرَوْضَ الْهُدُونِ، وَتَخْلُصَ رِقَابُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَغْلَالِ الدُّلِّ وَالْهُونِ . وَإِنْ غَلَبَ سُوءُ الظَّنِّ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ وَاهِبُ الرَّحْمَةِ، وَمَنَعَ مَعْرِفَةَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَقَدْ شَكَرَ اللَّهُ مُسَاعِدِينَ وَأَبْلَى عُدْرَنَا، (وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَوْفِقُ لِلرَّشَادِ وَالسَّدَادِ، وَهُوَ الْمُهَيِّمُ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية، كُتِبَ بِهِ عَنْ السُّلْطَانِ «مُحَمَّدِ غَازَانِ» صَاحِبِ إِيْرَانِ أَيْضًا، إِلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ» صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، وَهِيَ :

بسم الله الرحمن الرحيم

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِينِ الْمِلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ

فرمان السلطان محمود غازان

لِيَعْلَمَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، بَعْضُ عَسَاكِرِهِمُ الْمُفْسِدَةِ دَخَلُوا
أَطْرَافَ بِلَادِنَا، وَأَفْسَدُوا فِيهَا لِعِنَادِ اللَّهِ وَعِنَادِنَا، كِمَارِدِينَ وَنَوَاحِيهَا، وَجَاهَرُوا
اللَّهَ بِالْمَعَاصِي فِيمَنْ ظَفَرُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْدَمُوا عَلَى أُمُورٍ بَدِيعَةٍ، وَارْتَكَبُوا
آثَامًا شَنِيعَةً، مِنْ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَخَرْقِ نَامُوسِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنْفَنَّا مِنْ تَهْجُمِهِمْ، وَغَرْنَا
مِنْ تَقَحُّمِهِمْ، وَأَخَذْنَا الْحِجْمَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِخُذْبَتِنَا إِلَى دُخُولِ بِلَادِهِمْ، وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى
فَسَادِهِمْ، فَرَكِبْنَا بَيْنَ كَانٍ لَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَوَجَّهْنَا بَيْنَ اتَّفَقٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَاضِرٌ،
وَقَبْلُ وَقُوعِ الْفِعْلِ مَنَا، وَاشْتَهَارِ الْفِتْكَ عِنَا، سَلَكْنَا سَبِيلَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقْتَفَيْنَا آثَارَ
الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَقْتَدَيْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿لَقَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَأَنْفَذْنَا
صُحْبَةَ يَعْقُوبَ السَّكْرَجِيِّ جَمَاعَةً مِنَ الْقُضَاةِ، وَالْأُئِمَّةِ الثَّقَاتِ، وَقَلْنَا ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنْ
النَّذْرِ الْأُولَى أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فَقَابَلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ،
وَحَكَمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سَبِيلَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ،
وَصَبَرْنَا عَلَى تِمَادِيكُمْ فِي غَيْبِكُمْ، وَخُلُودِكُمْ إِلَى بَغْيِكُمْ، إِلَى أَنْ نَصَرْنَا اللَّهَ، وَأَرَاكُم
فِي أَنْفُسِكُمْ قِضَاءَ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَظَنَّنَا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَحَقَّقُوا كُنْهَ
الْحَالِ، وَآلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى مَا آلَ، أَنَّهُمْ تَدَارَكُوا الْفَارِطَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَرَتَّقُوا مَا فَتَّقُوا
بَعْدَرِهِمْ، وَوَجَّهَ إِلَيْنَا وَجْهَهُ عِذْرَهُمْ، فَإِنَّهُمْ رَبَّمَا سَيَّرُوا إِلَيْنَا حَالَهُ دُخُولِهِمْ إِلَى الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ، رُسُلًا لِإِصْلَاحِ تِلْكَ الْقِضْيَةِ، فَبَقَيْنَا بِدِمَشْقَ غَيْرِ مُتَحَنِّينَ، وَتَبَطُّنًا تَبَطُّ
الْمُتَمَكِّنِينَ، فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّعْيِ فِي صَلَاحِ حَالِهِمُ التَّوَانِي، وَعَلَّقُوا نُفُوسَهُمْ عَنِ الْيَقِينِ

بِالْأَمَانِي، ثُمَّ بَلَّغْنَا بَعْدَ عَوْدِنَا إِلَى بِلَادِنَا أَنَّهُمْ أَلْقَوْا فِي قُلُوبِ الْعَسَاكِرِ وَالْعَوَامِّ، وَرَأَوْا جَبْرَ مَا أَوْهَنُوا مِنَ الْإِسْلَامِ، أَنَّهُمْ فِيمَا بَعْدَ يَلْقَوْنَنَا عَلَى حَلَبَ وَالْفُرَاةِ، وَأَنَّ عَزْمَهُمْ مُصِرٌّ عَلَى ذَلِكَ لِأَسْوَاهِ؛ فَجَمَعْنَا الْعَسَاكِرَ وَتَوَجَّهْنَا لِلْقَاهِمِ، وَوَصَلْنَا الْفُرَاتَ مَرْتَعَيْنِ ثُبُوتَ دَعْوَاهُمْ، وَقَلْنَا لَعَلَّ وَعَسَاهُمْ، فَا لَمَعَ لَهُمْ بَارِقٌ، وَلَا ذَرَّ شَارِقٌ، فَقَدِمْنَا إِلَى أَطْرَافِ حَلَبَ، وَعَجِبْنَا مِنْ تَبَطُّبِهِمْ غَايَةَ الْعَجَبِ؛ وَفَكَّرْنَا فِي أَنَّهُ مَتَى تَقَدَّمْنَا بَعَسَا كَرْنَا الْبَاهِرَةَ، وَجَمُوعَنَا الْعَظِيمَةَ الْقَاهِرَةَ، رُبَّمَا أَنْحَرَبَ الْبِلَادَ مَرُورُهَا، وَبِإِقَامَتِهِمْ فِيهَا فَسَدَتْ أُمُورُهَا، وَعَمَّ الضَّرُّ الْعِبَادَ، وَالْخَرَابُ الْبِلَادَ؛ فَعُدْنَا بَقِيًّا عَلَيْهَا، وَنَظَرَةُ لُطْفٍ مِنْ اللَّهِ إِلَيْهَا. وَهَذَا نَحْنُ الْآنَ مَهْتَمُونَ بِجَمْعِ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ، وَمُشْحِدُونَ غِرَارَ عِزَاتِنَا الْمَشْهُورَةِ، وَمَشْتَغِلُونَ بِصُنْعِ الْمَجَانِقِ وَأَلَاتِ الْحِصَارِ، وَعَازِمُونَ بَعْدَ الْإِنْذَارِ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. وَقَدْ سَيَّرْنَا حَامِلِي هَذَا الْكِتَابِ الْأَمِيرَ الْكَبِيرَ نَاصِرَ الدِّينِ عَلَى خَوَاجَا، وَالْإِمَامَ الْعَالِمَ مَلِكَ الْقُضَاةِ بِجَمَالِ الدِّينِ مُوسَى أَبْنِ يَوْسُفَ، وَقَدْ حَمَلْنَاهُمَا كَلَامًا شَافِهْنَاهُمَا بِهِ، فَلْتَقُوا بِمَا تَقَدَّمْنَا بِهِ إِلَيْهِمَا فَإِنَّهُمَا مِنَ الْأَعْيَانِ، الْمُعْتَمِدَ عَلَيْهِمَا فِي الدِّيَوَانِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَلْتَعُدُّوا لَنَا الْهَدَايَا وَالتَّحَفَ، فَمَا بَعْدَ الْإِنْذَارِ مِنْ عَازِرٍ، وَإِنْ لَمْ تَنْتَدَارِكُوا الْأَرْضَ فِدْمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالَهُمْ مَطْلُوبَةً بِتَدْيِيرِهِمْ، وَمَطْلُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي طَوْلِ تَقْصِيرِهِمْ.

فَلْيَمْنِعِ السُّلْطَانُ لِرَعِيَّتِهِ النَّظَرَ فِي أَمْرِهِ. فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتْهُمْ، آحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتْهُ وَفَقَرَهُ». وَقَدْ أَعْدَرُ مِنْ أَنْذَرُ، وَأَنْصَفَ مِنْ حَذَرُ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ

(١) أتبع الهدى - في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة - بجمال الأكراد،
والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا [مجد] المصطفى وآله وصحبه
وعترته الطاهرين .

قلت : وقد تقدم جواب هذين الكآين في الكلام على المكآبات إلى القانات
ببلاد الشرق من نبي جنكرخان فليُنظر هناك .

الطرف الثاني

(في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
(٢)
من الملوك والحكام بآبلاد أتبآع القانات ومن في معناهم)

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الأوسط بل العشر الوسطى أو الأوسط قال وبعض النحويين أآازه
فأ في الجواب على ذلك الرأي .

(٢) ترك في الأصل باقى الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطرف الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمَن إلى هذه المملكة)

وعادةً مكاتبتِه أن يَحْدُو حَذَوَ الديار المصرية ، فيما يُكْتَب إليه عنها ، فيبتدئ المكاتبة بلفظ : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الفلانى بقلب السلطنة ؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقصد ، ويختم بالدعاء ونحوه ، ويكتبون في قِطْع الشامى الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشرف « إسماعيل » صاحب اليمن ، إلى الملك الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية ، في شهور سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، على يد القاضى برهان الدين المحلى ، تاجر الخصاص ، والطواشى آفتخار الدين فاجر دَوَادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور ، وهو :

أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف العالى السلطانى الظاهرى ، وزاده فى البسطة والقُدرة ، وضاعف له مَوَادَّ الاستظهار والنَّظر العزيز ، وجعل الظَّفَر مقرونا برأياته أينما يَمُمَّت ما بينهما تَمِيْز ، ومحبوباً إلى عساكره المنصورة حيث توجَّهت وفتح بركة أيامه كلَّ مُقفلٍ ممتنعٍ بأمرٍ وجيز ؛ ولا زال ممتثل الأوامر والمَراسِم ، رافِلاً فى أردان العِزِّ والمَكارم ، مُدوِّداً على الأمة [منه] ظلَّ المراحم ، بمنَّه وكرمه .

أصدرها إليه من زُبدة زَيْد المحروسة مُعربةً عن صدق ولَّائه ، متمسكةً بوثيق أسباب آلائه ، ناشرةً طيب شئائه ، مترجمةً ناظمةً لمنشور الكتاب الكريم الظاهرى الوارد على يد المجلس العالى البُرْهاني ، بتاريخ ذى الحجة عَظُم الله بركاتها ؛ سنة سبع وتسعين وسبعائة ، أحسن الله خاتمتها ؛ فتلقيناها باليدَيْن ، ووضعناه على الرأس والعين ، وأسَدَلْنَا به على شريف همته ، وصفاء مودته ، وتأكيد أجوته ، وسألنا الله

تعالى أن يمتنعنا بقاء دولته القاهرة، وينشر في المشارق والمغارب أقلامه الزاهرة؛
ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم
الشريف ما يحجل منه توار الربيع وبهائه، فانشرح به الصدور، وتزايد به السرور؛
وقرت به الأعين، وكثر التهجده به لما استعذبت له الألسن، وأمثلنا المرسوم الشريف
في تعظيم المجلس العالي ذي الجلالين؛ برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى، ومراعاته
في جميع أموره وسرعة تجهيزه؛ على أنا نحله ونجبله، ونوجب حقه ولا نجعله، فهو
عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا
المكين الأمين؛ وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مراسمنا إلى الثواب
بشعر عدن المحروس أن لا يعترض في عشور ونول، وحملناه على ظهور مرأكبنا عزيزنا
مكرما، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا
لأجل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه؛ وجهزنا الهدية السعيدة المباركة
المتقبلة، صحبته هو والأمير الأجل الكبير الافتخاري : افتخار الدين فاجر الدوادار،
وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة، للقام الشريف والأمرء الأجلء الكبراء، وصحبتهما
نفر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافيات
الحياة . على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره
بمقدار همته الشريفة العاليه، ورتبته المنيعة السامية، لاستصغرت الأفلاك الدائرة،
والشهب السائرة، وأستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقلت طرفة، ولم
نرض أن نبعث إليه الأنام ممالك وخولا، ونجني إليه ثمرات كل شيء قبلا، ولو رام
محب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع
إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد، وليس على المستمر^(١)

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الاعتقاد" تأمل .

على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد ، فوق هذه القضية ، وأفد إلى المقام الشريف على يد موصّلها هذه الهدية ، رغبة إلى إنعامه في بسط عذره ، وحمله على شروط المحبة طول دهره ، وتصريفه بين أوامره الممتثلة ، ومراسيمه المتقبلة . والمسئول الإتخاف بالمهمات والمراسيم الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها .

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بؤده ، وأشرقت سعادته ، وبرقت سيوفه في رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المارب فتناولها باليمين ﴿ نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ وفتح القلاع والمصانع ، والاستيلاء على المزارع والمزارع ، واستئصال شافة المارقين ، واسترجاع حصن قاف المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب ، فكم من كمي مقتول ، وأسير مكبول ، وحصان ترك سبيلها ، ورب حصان كثر عليه عويلها ، فخرّبنا المعازل ، وأطلقنا العقائل ، وأوطناهم الحميم ﴿ وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ وغير ذلك ما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمير آفتخار الدين : فاجر الدوادار ، لقضاء بعض الحوائج الطارئة من الديار المصرية « ألف وأربعمائة وسبعون قطعة من أصناف البهار ، وسبع قطع حرير » والمستمد من إحسان المقام الشريف العالي ، بروز أمره الأشرف العزيز النافذ المطاع ، أنفذه الله تعالى شرقا وغربا ، وأمضاه بعدا وقربا ، في قضاء حوائجهما وسرعة تجهيزهما وقبولهما إلى يمين اليمن ، وعزّ تعزيزا .

وبعد ، فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة ، وتوفير الجرمات ، بل هي أعظم الكرامات ، والمسئول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى أنصاره ، وضاعف اقتداره ، بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة ،

وثغر الإسكندرية، والشام، بالجلالة والإحترام، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن أنتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أو مقيماً، وأن يُعار في مهماته، جلالة تقياً ظلالها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد، تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهرها، إن شاء الله، فتم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح لخدمنا التقدماء، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتب لهم مربعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يُبدى المستعطى مافي ضميره إلى المعطى، والأشتهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة الممهدة، والمصافاة المؤكدة، والمودات المحككة، والأسباب الثابتة، أوجب ذلك؛ وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال، في هذا الاسترسال؛ ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه؛ وتعاطى كأس الوداد، يدل على حسن الاعتقاد؛ ولذلك نطق اللسان، وكتب البنان، بما افترض على عباده الرحمن؛ فقال في محكم كتابه المبين ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف: ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمساعير العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تُنثى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تُملئ. جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتفسير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام، لحاج المؤمنين تعذرت عليه الطرقات، ولم يُطبق حمل النفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحل عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهاب، بمنه وكرمه.

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهاني فإنها متينة ، وشواهدُها من أقواله وأفعاله مُبينه ، خصوصاً في المقام الشريف ، وأستملته للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نظم معاقِدَ الائتلاف ، وتزايد بشرحه الأئس في محاورته والإختلاف ؛ ولولا المهيم الشريف لاستوقفناه عندنا عاماً كاملاً من بعد هذا التاريخ : يُملئ علينا آيات المقام الشريف ؛ شرفه الله تعالى وعظمه . وعلى لسانه ما يُبديه في المواقف الشريفة شفاهاً إن شاء الله تعالى .

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، أحسن الله تعالى ختامها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

قلت : أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف له على مكتبة ، وإن كان المقر الشهابي ابن فضل الله قد أشار في كتابه "التعريف" إلى أنه ورد عنه مكتبة إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن ، والغالب على الظن أن مكتبته أعمرابية ، كما أن إمارته أعمرابية : إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفن الإنشاء جملة ؛ وإنما يكتب عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يُعَوَّل .

الطرف الرابع

(في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدم أن المكتبة إلى صاحب الهند تُسبى المكتبة إلى القانات العظام بإيران وتوران . وتقدم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب ، من حيث إن الغالب جريان العادة

في الأجوبة بأن تكونَ على نَمَطِ الكُتُبِ الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكُتُبِ الواردة من صاحب الهند في هيئة الكُتُبِ الصادرة إليه في قطع الورق وغيره ، فتكون في البَغْدَادِيَّ الكَامِلِ بقلم مختَصَرِ الطُّومار بالطُّغْرَاءِ والخطبة المكتَتَبَتَيْنِ بالذهب ، إلى ما يجري مجرى ذلك مما تقدّم ذكره في المكتابات إلى القانات .

قلت : ولم أَقِفْ على صورة مكتَبةٍ من ذلك ولا على نسخة شيء ورد ، لكن قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكة تُعرَفُ بالسَّيْلَانِ ، وقد رأيتُ في تذكرة (محمد بن مكرم) التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية ؛ أنه في سنة أئمتين وثمانين وستمائة ، وصل كتابٌ من صاحب السَّيْلَانِ هذه في صَفِيحَةٍ ذهب رقيقة ، عَرَضَ ثلاثة أصابع ؛ في طُولِ نِصْفِ ذراع ، وحواله مدوّرة (حلقه) داخلها شيء بالخصوص أخضر ، عليه كتابة تُشَبِّهُ الخط الرومى أو القبطى ، فطُلب من يقرؤه فلم يُوجد ؛ فُسِّلَ الرُّسْلُ عما هو مكتوب فيها . فقليل : إنه سَيَّرَ رسوله رومان ورفيقه ، وقصد أن يسيرَ معهما الهدية إلى الباب الشريف ، فقليل له : ما لهم طريق . فقال لهم : سافروا إلى (هُرْمُز) فحضروا إليها ، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام ، والدعاء للسلطان ، وأن بلاد السَّيْلَانِ مِصْرٌ ، وبلاد مِصْرَ السَّيْلَانِ ؛ وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة ، وتعلق بحبة مولانا السلطان خلد الله ملكه ؛ وسأل أن يحضّر رسولٌ من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رُسُلِهِ ، ورسولٌ آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق ، وأن عنده الجواهر والآلات والفيلة والقماش الكثير من البر وغيره ، وكذلك البَقَمُ والقِرْفَةُ وجميع ما يطلب الكارم ؛ وأن عنده في كل سنة عشرين مَرَكَبًا يسيرها إليه ، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التّقادِمَ والفيلةَ حتّى يسافروا إلى اليمن فردّه ، ولم يُعطه شيئاً ، وأنه يُعَيّ التّقادِمَ والفيلةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنّ بمملكة سيّان سبعا وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهر والياقوت ومغاصُ اللؤلؤ . ولم يزد على ذلك . ورأيت في كتاب ”الذيل“ على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التي مرّت عليها رسلُ صاحب السيّان في طرقها .

المقصد الثاني

(في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب)

والعادةُ الجاريةُ في الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على نمطٍ واحدٍ في الورق ، مع تقاربِ الحال في الترتيب ، وتكونُ كتبهم في طومارٍ واحدٍ ، في عرضِ نحوِ شبرين ، في طولِ نحوِ ثلاثةِ أشبار ، والبسملةُ بعد بياضِ نحوِ شبر وثلاثةِ أصابع مطبوقة من أعلى الطومار ، وعرضُ سبعةِ أصابع مطبوقة عن يمين البسملة ؛ والسُّطور منحطّةُ الأوائل مرتفعةُ الأواخر حتّى يصيرَ البياضُ الذي في أعلاها في آخر سطرِ البسملة قدرَ شبرٍ فقط ، وبين كلّ سطرينِ قدرُ عرضِ إصبعٍ ونصفِ إصبعٍ ؛ وكلُّ سطرٍ ينقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج ، حتّى يكونَ السطرُ الآخر قطعةً لطيفة في زاوية الطومار التي على اليسار من أسفل ؛ ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله آخذاً من آخر السطر الأخير ، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأسِ خنصرٍ ، ويبتدئ السطرُ الأوّل منها بقطعةٍ لطيفةٍ منحطّةٍ الأوّل مرتفعةٍ الآخر ثم السطر الثاني قطعةً أطول من ذلك ، ولا يزال كذلك حتّى يكمل السطر فيكتب أسطراً كاملةً ، إلا أنه في أوّل كلّ سطرٍ ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتّى يكونَ السطرُ

الأخير قدر الأتملة في زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدر إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة ، أسطرًا متضابقةً حتى ينتهى إلى آخر الكلام ؛ ويكتب في آخره بقلم الثلث : وكتب في التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(في المكتبة الواردة عن صاحب تونس)

وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ : « من عبدالله الفلاني » بقلب الخلافة الخاص به ، « أمير المؤمنين ابن فلان » . ويقال : في كل من آباءه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له « إلى أخينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ، ويختتم الكتاب .

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبدالله بن أبي بكر ، إلى السلطان الملك الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جواباً عن كتابه إليه . وهو :

من عبدالله ، المتوكل على الله ، أمير المؤمنين « أحمد » ابن مولانا الأمير أبي عبدالله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ، أعلى الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب غزاه عيون حوادث الأيام .

إلى أخينا الذي لم نزل نُسأله من إخوانه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا أنتراح ، ونثار من حفظ عهده ، والقيام بحق وده ، على ما يؤكّد معرفة الخُلوص من لدن تعارف الأرواح ، ونبادر لما يبعث القلوب على الإشتلاف ، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف ؛ وإن شحطت الدار وتناءت

الصُّور والأشباح . وَنَعْتَرُفُ بِمَا لَهُ مِنْ مَزِيدِ الإِعْظَامِ ، بِمَجَاوِرَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَالْقِيَامِ
بِمَا هُنَاكَ مِنْ مَطَالِعِ الْوَحْيِ الْكَرِيمِ وَمَشَاعِيرِ الصَّلَاحِ ، وَنَجْتَلِي مِنْ أَنْوَانِهِ الْكَرِيمَةِ
الشَّرِيفَةِ ، وَمَطَالِعِهِ الْعَالِيَةِ الْمُنِيفَةِ ، وَجُوهَ الْبَشَائِرِ رَائِقَةِ الْغُرَرِ وَالْأَوْضَاحِ . وَتَسْتَمْدِي
مَائِسُرُنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ ، مِمَّنْ يَرِدُ مِنْ تِلْقَائِهِ ، حَتَّى مِنْ أَنْوَارِ الصَّبَاحِ وَسُقْرَاءِ الرِّيَّاحِ ، وَتَبْتَهِلُ
إِلَى اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ أَنْ يُخْبِرَنَا عَنْهُ ، وَيُطَاعِنَا مِنْهُ ، عَلَى مَا يُقَرُّ عِيُونَ الْقَوْزِ وَيُشْرَحُ صُدُورَ
النَّجَاحِ - السُّلْطَانِ الْجَلِيلِ الطَّاهِرِ ، الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ «الظَّاهِرِ» ، جَمَالِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا ،
مُؤَيِّدِ كَلِمَةِ اللَّهِ الْعُلْيَا ، سَيْفِ الْمِلَّةِ الْمَرْهُوبِ الْمَضَاءِ ، بِيَدِ الْقَضَاءِ ، وَرُكْنِهَا الْبَاسِقِ
الْعَلَاءِ ، فِي أَوْجِ عِزِّهَا الْمُنْدَاحِ لِلْقَضَاءِ ، الْمَشْهُودِ لَهُ مِنْ لَدُنْ حُلِّ التَّائِمِ ، وَلَوْثِ الْعَمَامِ ،
بِالشَّهَامَةِ الَّتِي تُرْعِبُ الْأَسَدَ فِي أَبْجَحِهَا ، وَتَسْتَخْدِمُ لَهُ سَائِرَ الْأُمَمِ : تُزَكِّيهَا وَعَرِّبَهَا
وَعَجْمَهَا ، الْمُخْتَارِ لِلْقِيَامِ بِحَقِّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ، الْفَائِزِ مِنْ جَوَارِ بَيْتِ اللَّهِ
وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، وَمُشْرِعِ الْحُجُجِ إِلَيْهِ وَتَيْسِيرِ سَبِيلِهِ ، بِمَا أَحْرَزَ لَهُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ ، وَعِزَّ
الْمُقَامَيْنِ ، كَوْكَبِ السَّعْدِ الَّذِي شَقِيَتْ بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، وَبَدْرِ الدِّينِ الَّذِي اسْتَضَاءَتْ بِهِ
أَنْحَاؤُهُ ، مِيزَانِ الْعَدْلِ لِإِنْصَافِ الْحَقُوقِ ، وَشَمْسِ الْهَدَايَةِ النَّيِّرَةِ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
(أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقِ) وَصَلَ اللَّهُ لَهُ رَتَبَةً رَاقِيَةً يَنْبَغُ مُحَامَلَهَا ، وَنِعْمَةً بَاقِيَةً يَتَقَيَّا ظِلَّهَا ،
وَعِزَّةً وَاقِيَةً تَسِيمُ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ خَسَفَهَا وَدُظَّلَهَا ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ نَازِمِ الشَّمْلِ وَقَدْ رَابَ ثَرُّهُ وَشَتَاتُهُ ، وَجَابِرِ الصَّدْعِ وَقَدْ آتَسَعَتْ
عَنِ الْجَبْرِ جِهَاتُهُ ، وَرَادَّ الْأَمْرِ وَقَدْ أَعْيَا ذَهَابُهُ وَفَوَاتُهُ ، وَوَاصِلِ الْحَبْلِ وَقَدْ آسَتْوَلَى
انْقِطَاعُهُ وَإِنْتِثَاثُهُ ، الْعَالِمِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا تُكِنُّهُ أَرْضُهُ وَسَمَوَاتُهُ ،
الَّذِي قَرَنَ الْعُسْرُ يُسْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، فَلَا تَحْتَرِكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَكُونُ
فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا تُنْفِذُهُ أَحْكَامُهُ وَإِرَادَاتُهُ .

والصلاة والسلام الأكين ، على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذى صدعت بالحق آياته ، وقامت بحجة دعواه معجزاته ، ونطقت بأنه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته ، المبعوث بالملة السمحة ، ومن أركاها حج بيت الله المقدسة أركانه وججرائه ، المعظمة عند الله حرمانه ، المغفورة ان سبقت له الحسن بجه سبائته ، وعلى آله وأصحابه الذين قضاوا رضى الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولائه ، وأنصار حربه المفلح وحاميه ، وليوث دفاعه فى صدور الأعداء وولائه . والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خالصت لله نيافته ، وصدق فى ذاته دعوائه ، وصممت لإظهار دينه القويم عزمانه ؛ وصلة الدعاء لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقى ، بنصر تضي به فى صدور أعدائه شبائته ، وعز يطرد به استقلاله وشبائه ، وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته ، وتطول به حياته .

فإننا كتبنا لسلطانكم - كتب الله لكم من إسماعاده ما يتكفل بعزه ونصره ، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره ، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره - من حضرتنا العلية "تونس" كلاًها الله تعالى ، ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة متبلجة الصور ، وآيات فتحه المبين والله المنة محكمة السور ، وأحاديث الشكر على نعمه سبحانه سلسلة الخبر ، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت إياتنا الكريمة من البشر . وإلى هذا فوجه إليكم بعد تقريب حب شرعت فى ملة الوفاء قواعده ، وقيل فى عقد الصفاء شاهده ، وأستقل بصلة الخلوص عائده ، وثبت فى مرسوم الصداقة زائده ؛ إعلامكم أنا علم الله من حين اتصل بنا خبركم الذى جره القدر المقدور ، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المسطور ، لم نزل نتوجه إلى

(١) مراده من تحت حكمتنا وسياستنا .

الله تعالى في مَظَانَّ قُبُولِ الدَّعَاءِ ، وَرَفَعَ النَّدَاءَ ؛ بَأَن يُجِبَكُمْ بِفَضْلِهِ مِنْ حَيْثُ صَدَعَ ، وَيَصْلَحُكُمْ بِخَيْرِهِ إِثْرَ مَا قَطَعَ ، وَيُعْطِيَكُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ أَضْعَافَ مَا مَنَعَ ، إِلَى أَنْ دَارَكَ اللَّهُ بُلْطَفَهُ وَأَجَابَ ، وَتَأَذَّنَ بِفَضْلِهِ فِي قُبُولِ الدَّعَاءِ بظَهْرِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُسْتَجَابٌ ، فَرَدَّ عَلَيْكُمْ مُلْكَكُمْ ، وَصَرَفَ إِلَيْكُمْ مُلْكَكُمْ ، فَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَفَوْقَ السَّهْمِ مُقَرِّطُهَا وَرَامِيهَا ، وَأَنْفَذَ الْقَضَايَا حَكْمَهَا وَمُقْتِنَهَا ، وَإِذَا كَانَ الْعَوِيلُ يُفْضَى إِلَى النَّجْدَةِ ، وَالْبِلَا يَقْضَى بِالْحِدَّةِ ، وَالْفَرْجُ يُدَافِعُ فِي صَدْرِ الشَّدَةِ ، فَلَا جَرَمَ خَفَرَ اللَّهُ لِلْأَيَّامِ مَا اقْتَرَفَتْ ، لَمَّا أَنْابَتْ وَاعْتَرَفَتْ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا التَّمَحِيصُ الْإِلَهِيُّ أَرَاكُمْ اللَّهُ مِنْ بَاطِنِ الصَّرَاءِ سَرَاءَكُمْ ، وَأَجْزَلَ مِنْ جَانِبِ الْغَمَاءِ نَعْمَاءَكُمْ ، وَالتَّبَرُّعُ بَعْدَ السَّبْكِ يَرُوقُ النُّوَاطِرَ خُلَاصَةً نُضَارِهِ ، وَالبَدْرُ بَعْدَ السَّرَّارِ تَتَأَلَّقَى أَشْعَةُ أَنْوَارِهِ .

ولما جاءنا بِنَصْرِكُمُ الْبَشِيرِ ، وَطَلَعَ مِنْ نَيَّةِ الْهِنَاءِ بِأَكْثَامِ السُّرُورِ إِلَيْنَا يُشِيرُ ، هَزَزْنَا لَهُ أَعْطَافَ الْأَرْتِيَاخِ ، وَتَلَقَّيْنَا مِنْهُ وَارِدَ التَّهَانِي وَالْأَفْرَاحِ ، وَحَمَدْنَا اللَّهَ لَكُمْ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ مِنَ الْفُوزِ وَالتَّنَجَّاحِ ؛ وَرَأَيْنَا أَنَّ تَهْنِئَتَكُمْ بِهِ مِنْ فُرُوضِنَا الْمُؤَكَّدَةِ ، وَعُھُودِنَا الْمُجَدَّدَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِ عَنَّا هُنَالِكُمْ ، وَيُودِي مَا يَجِبُ مِنْهُ بَيْنَ يَدَيِ كُرْسِيِّ جَلَالِكُمْ ، إِلَّا مَنْ لَهُ مِنْ دِيَارِ الْمُلُوكِ ، قُرْبُ الْأَدَبِ وَالسُّلُوكِ ؛ فَاقْتَضَى نَظْرُنَا الْجَمِيلُ أَنَّ عَيْنًا لَهُ شَيْخَ دَوْلَتِنَا الْمُسْتَشَارِ ، وَعَلَمَهَا الَّذِي فِي مُهَمَّاتِهَا إِلَيْهِ يُسَارُ ، فَلَان .

وَقَدْ كَانَ مِنْذُ أَعْوَامٍ يَتَطَارَحُ عَلَيْنَا فِي أَنْ نُحْلِيَ لِلْحَجِّ سَبِيلَهُ ، وَنُبَلِّغَهُ مِنْ ذَلِكَ مَأْمُولَهُ ، وَيَذُ الْضَّنَّةَ لَا تَسْمَحُ بِهِ طَرَفَةٌ دِينٍ ، وَنَفْسُ الْإِعْتِبَاطِ لَا تُجِيبُ فِيهِ دَوَاعِيَ الْبَيِّنِ ، إِلَى أَنْ تَعَيَّنَ مِنْ تَهْنِئَتِكُمُ الْكَرِيمَةِ مَا عَيْنَتَهُ ، وَسَهَّلَ شَأْنَهُ عَلَيْنَا وَهُوْنَهُ ، فَوَجَّهْنَاهُ وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَبِّحُ وَجْهَتَهُ ، وَيَجْعَلُ حُجَّتَهُ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ حُجَّتَهُ . وَحَمَلْنَاهُ مِنْ أَمَانَةِ الْحُبِّ مَا يَلْقَى إِلَيْكُمْ ، وَمِنْ حَدِيثِ الشُّوقِ مَا يَقْضُ أَخْبَارَهُ عَلَيْكُمْ ، وَمِنْ طَيِّبِ الشَّنَاءِ مَا يُفِضُ خَنَامَهُ

بين يديكم، وأحسبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة مايسر الحب سبيلها، وأوضح الخلوص دليها، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت الملوك تُهادى على قدر جلالها، لما أنسعت لذلك خزائن أموالها، لكنّها عنوان الحب السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوى الكريم .

وفي أثناء شروعتنا في ذلك، وسؤلوكنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر في وجوه بشاره نضرة النعيم؛ فأطلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا، وعبر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمنا؛ والله هو من كتاب كتب من البيان كتاب، وأستأثر بفلك الإجابة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسما بالقلم وما سطر! والحبر وما حبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به لبيد لأعاده في مقام لبيد، ولو قصص على قس إباد فصاحته لنزله عن منبر خطابه بعكاز، أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر الحلال بين المعاني الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه؛ تشوقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يسنيه الله من ذلك بلادنا، رأينا أن نُخفف أسمعكم منه بما قوت به أعين الإسلام، وأتلج صدور الليالي والأيام . وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ماصدر، حسب ما جره محتوم القدر، لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماه، ونطرق طروق الغارة الشعواء بلادَه وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يداه، إلى أن ذاقوا من ذلك وبأل أمرهم، وتعزفوا عاقبة مكرم .

وكان من جزائهم المعترضة شجبا في خلوق الخطار، ومتجشمي الأخطار، وركاب البحار : من الحجاج والتجار، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غرابنا نعت عليهم بالمنون ، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون ، وشحنها عدداً وعدداً ، وأستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً ، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها ، وتحوم إلى أن رمت محالب مراسيها عليها ؛ فلما نزلوا بساحتها ، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها ، بهت الذي كفر ، وودَّ الفرار والحين يناديه أين المفز ، فلما قضى السيف منهم أوطاره ، وشفى الدين من دماهم أواره ، وشكر الله من المسلمين أنصاره ، عمدوا إلى ماتخطاه السيف من والدٍ وولد ، ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد ، فجمعوا منهم عدداً يُنيف بعد الأربعمائة على الأربعين ، وجأؤا بهم في الأصفاد مقرنين ، وأمتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين ، وأقبلوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين ، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين .

فعرّفناكم بهذا الفتح : لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه ، وتتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه ، وهو سبحانه وتعالى يُطاعنا ويطلعكم على ما يسرُّ النفوس ويهينها ، ويحلو وجوه البشائر ويبيديها ، بمنه وكرمه ، والسلام العطر المحيا الجميل المحيا عائدة عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "تلمسان" من بني عبد الواد)

ورسم مكاتبه فيما وقفت عليه في المكتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبدأ الكتاب بقوله : إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال ، ويؤتى بخطبة ، ثم بالسلام ؛ ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويختتم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يعمراسن ، إلى السلطان الملك الناصر
(محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعائة :

إلى الحضرة العالية السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفّرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الحليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُذلّ عبدة الأصنام ؛ الذي
أيده الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ،
الأرفع ، الأُمجد ، الأسمى ، الأُسرى ، ذى المجد الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك
الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الحليل ، العادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفر ، الأعلى ،
الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأُمجد ، الأسمى ، الأُسرى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،
ومُعَلّي كلمة الموحّدين ، المقدّس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ،
والذكر المدخّور ، الملك المنصور ، أدام الله علوّ قدره في الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه
نعمه باطنة وظاهرة ، وجعل وجوه محاسنهم في صفّحات الدهر سارة سافره ،
وصفقة أعدائهم خائبة خاسره .

وبعد حمد الله الذى أظهر الأمر العلى الناصرى وأيده ، وبسط في قول الحق
وفعله لسانه ويده ، وسدّد نحو الصّواب منحاها كلّ ومقصدّه ، والصلاة التامة المباركة
على سيدنا محمد رسولهِ المصطفى ، الذى خصّه الله بعموم الدّعوة وأفرده ، وقرّن ذكره
بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلّده . والرّضا عن آله الكرام ، وصحّابته الأعلام ، الذين
حفظوا بالتوقيير والتعزير مغيبه ومشمّده ؛ وكانوا عند استتلال السيوف ، وبجّال
الحُتوف ، عدده المظفر وعدده . والدعاء لذلّكم المقام الشريف بسعدٍ يطيل في شرف
الدين والدنيا مُدّده وأمدّه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، من أخيكم ، البرّكم ، الحريص على تصافيكم ،
عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح
المقاصد وأرخصها ، وأثبتها عزاً وأوضحها ، من حصن "نلمسان" حرسها الله تعالى ،
ولا ناشئ بفضل الله تعالى إلا ما عوّد من بشائر رُحمت جياؤها ، ومسار يتناول
إلى المزيد أعتيادها - وإلى هذا أعلى الله كلمتكم ، وأمتع المسامين بطول بقائكم ،
فإنا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير ، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم ،
وتتبعنا فصوله ، وأستوعبنا فروعه وأصوله ، وتحققنا مقتضاه ومَحْصُوله ، وعلمنا
ما أنطوى عليه من المنن والإفضال ، واشتمل عليه من التفصيل والإجمال ، ومن أعظم
ذلك إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيع في المحشر ،
الذي وجبت له نبوته ، ومُنَى الغيب عليه مُنْذِل ، وآدم صلوات الله عليه في طينته
مُنْجِد ، ودلم الله أننا لم نزل آمالنا متعلقة بثلثكم المشاعر الكريمة ، وقلوبنا متشوقة
إلى ثلثكم المشاهد العظيمة ؛ فلنا في ذلك نيات صادقة التَّحْوِيم ، وعزّات داعية
التصميم ، وكان بُودنا لو ساعدنا المقدار ، وجرى الأمر على ما نُحِبُّه من ذلك ونُحْتار ،
أن نُمَتِّع بَرُوءِة المواطن التي تُقَرَّرُ أَبصاراً ، ويُتَشَفَّى بها إيراداً وإصداراً ، ولعلَّ الله
تعالى ينفعنا بخالص نياتنا ، وصادق طوياتنا ، بمنه وكرمه .

وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات ، وأتّصلت المحبة والمودة طول الحياة ،
غير أن في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا وأستئناسكم ، ونحن والحمد لله أعلم الناس
بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف ، ولنا القدرة على القيام بواجبكم ، والوفاء
بكريم حقكم ، وليس بيننا وبين بلادكم من يُحْشَى والحمد لله من كيده ، ولا يُبَالَى بهزله
ولا جدّه ، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرأبنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع
الأكل الزاهد أبو زكريّا يحيى ابن الشيخ الصالح المرباط المقدّس المرحوم أبي عبد الله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يليق به إلى ذلك المقام الشريف من تقرير الوُدِّ والإخاء، والمحبة والصِّفاء، مما يعجز عنه الكتاب، فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن نعرفه بجميع ما يصلح لذلك المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلحكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنة العظمى، والمزية القصوى، والله تعالى يُبقي ذلك المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب، إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب

السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين ». وأول من كتب منهم أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » حين استولى على المغرب، قبل بنى مرين، خضوعاً أن يتلقب بأمر المؤمنين مضاهاةً للخلفاء. وهو :

من عبد الله على أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك العدوئين، ^(١) أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوئين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوئين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا في الأصل الوحيد وصوابه "أبي الحسن" كما يؤخذ مما تقدم في الكلام على ملوك فاس من أن علياً هذا يكنى أبا الحسن وأنه ابن السلطان أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق فدل ما في الأصل من أعمال النساخ فتنبه.

دين الحق، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، منح الله التأييد مقامه، وفَسَحَ لفتح
معاقِل الكفر وكَسَرَ حِجَافِ الصُّفَرِ أَيْامَهُ .

إلى السلطان، الجليل، الكبير، الشهير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافل،
الملك، الناصر، المجاهد، المرابط، المتأغر، المؤيد، المظفر، المنصور، الأسعد،
الأصعد، الأرق، الأوفى، ناصر الدنيا والدين، وقامع البغاة والمعتدين، مُفِيدِ الأوطار،
مُيِيدِ الكُفَّار، هازم جيوش الأرمن والفرنج والكُجج والتتار، مَالِي صُدُورِ البراري
والبحار، حامِي القِبْلَتَيْنِ ، خَدِيمِ الحرمين ، غِيثِ العُفَاة، عَوْنِ العُنَاة، مُصَرِّفِ
الكَتَائِبِ، مُشَرِّفِ المَوَاقِبِ ، ناصر الإسلام، نَاشِرِ الأعلام، فَخْرِ الأَنام، ذُنُحِ الأَيَّامِ،
قَائِدِ الجُنُودِ، عَاقِدِ البُنُودِ، حَافِظِ الثُّغُورِ، حَامِي الجُمُهورِ، نِظَامِ المَصَالِحِ، بَقِيَّةِ السَّلَفِ
الصالح، ظهير الخِلافة وَعَضُدِهَا، وَلِيَّ الإِمَامَةِ وَسِنْدِهَا، عَاضِدِ كَلِمَةِ المُوَحِّدِينَ، وَلِيَّ
أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، أَبِي المَعَالِي (محمد) أَبْنِ السُّلْطَانِ، الكبير، الجليل، الشهير، الشهيد،
الخطير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المظفر، المعظم
المبجل، المكبر، الموقر، المعزز، المجاهد، المرابط، المتأغر، الأوحد، سيف الدين
(قلاوون) أدام الله فضلَ عِزِّهِ المَاضِي بِتَأْيِيدِهِ، وَأَدَارِ الأَفْلاكِ بِتَشْيِيدِ مُلْكِهِ
الشَّامِخِ وَتَمْهِيدِهِ، وَطَهَّرَ أَرْجَاءَهُ مِنْ أَرْجَاسِ المُنَافِقِينَ، وَأَذْنَسَ المَارِقِينَ، بِمَا يُرِيقُ
عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَمَا كُلُّ مُتَطَهَّرٍ يُجْزَى عَنْهُ غَسْلُ مَائِهِ أَوْ تَيْمُّ صَعِيدِهِ .

سَلامٌ كَرِيمٌ، طَيِّبٌ عَمِيمٌ، أَرْجِ الشَّعِيمِ، مَتَضَوِّعِ النَّسِيمِ، تَسْتِمِدُّ الشَّمْسُ بِأَهْرِ
سَنَائِهِ ، وَيَسْتَعِيرُ المَسْكُ عَاطِرَ شَدَاهِ، يُخْصِّ إِخَاءَ كَمِ العَلِيِّ ، وَوَفَاءَ كَمِ الوَفِيِّ،
وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

أما بعدَ حَمْدِ اللهِ الذِي أَيْدَى المُؤْمِنِينَ ، عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ، وَعَرَفَ
الإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ مِنَ السَّرِّ العَجِيبِ ، وَالصَّنْعِ الغَرِيبِ ، مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِّلسَّامِعِينَ وَالنَّاظِرِينَ ؛

حِكْمَةٌ عَجَزَتْ عَنْ فَهْمِ سِرِّهَا الْمَكْتُومِ ، وَقَصُرَتْ عَنْ كُنْهَيْهَا الْمُخْتُومِ ، أَلْبَابُ عَيْيِدِهِ
الْقَاصِرِينَ . وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي أَرْشَدَ بِهِ الْخَائِدِينَ
الْحَاضِرِينَ ، وَأَرْسَلَهُ بِالْمُهْدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بَرِّغْمَ الْجَاهِلِينَ
الْكَافِرِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهِ وَبَلَادَهُمْ هَجَرُوا ، وَالَّذِينَ آوَأْ مِنْ أَوَى
إِلَيْهِمْ وَنَصَرُوا ، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ فَصَبَرُوا ، فَفَازُوا بِذِكْرِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَأَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ ، وَصِلَةِ الدُّعَاءِ لِحَزْبِ الْإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا
بِفَضْلِ لَا يَزَالُونَ مَعَهُ لِأَعْدَائِهِمْ قَاهِرِينَ ، وَسَعْدٍ لَا يَنْفَكُونَ لَهُ بِأَمْلِهِمْ ظَافِرِينَ ،
وَنَصْرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لَكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مَحْمَدًا مَدِينَةَ الظَّلَالِ ، وَعُضْدًا حَدِيدَ الْإِلَالِ ، وَسَعْدًا
جَدِيدَ السَّرْبَالِ - مِنْ مَنْصُورَةٍ "تِلْمَسَان" حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَالصَّنَائِعُ الرَّبَّانِيَّةُ تُكَيِّفُ
الْعَجَائِبَ ، وَتُعَرِّفُ الْعَوَارِفَ الرِّغَائِبَ ، وَتَسَنِّفُ الْأَسْمَاعَ بِمَا تُسَمِّعُهَا مِنْ إِجْزَالِ
الْمُنُوحِ وَالْمَوَاهِبِ ، وَتُقَوِّفُ الرِّقَاعَ بِمَا تُودِعُهَا مِنْ أَحَادِيثِ الْفُتُوحِ الْغُرَائِبِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
عَلَى مَا يَتَسَرَّ مِنَ الْمَارَبِ ، وَسَمَلٍ مِنَ الْمَوَاهِبِ . وَإِخَاؤُكُمْ الصَّادِقُ مَبْرُورُ الْجَوَانِبِ ،
مَأْثُورُ الْمَنَاقِبِ ، مُشْرِقُ الْكَوَاكِبِ ، مُغْدِقُ السَّحَابِ ، نَامِي الْمَرَاتِبِ ، سَامِي الْمَرَاقِبِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُقَيِّمُهُ فِي ذَاتِهِ ، وَيَقِيهِ مِنْ صَرْفِ الدَّهْرِ وَأَذَاتِهِ . وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ
لَكُمْ سَعْدًا جَدِيدًا ، وَجَدًا سَعِيدًا ، وَمَحْمَدًا حَمِيدًا ، وَحَمْدًا مَجِيدًا ، فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمْ
الْأَثِيرَ ، الْمُزْرَى بِالْمَسْكِ الثَّيْرِ ، فَاجْتَلَيْنَا مِنْهُ رَوْضَةً جَادَهَا الْبَيَانُ فَأَمْرَعَهَا ، وَرَادَهَا الْبَيَانُ
فَوْشَعَهَا ، وَاجْتَنَيْنَا مِنْ غُصُونِ سَطُورِهِ ثَمَرَاتٍ وَدَادٍ مَا أَيْنَعَهَا ، إِنْبَاءً عَمَّا تَلَقَّاهُ الْإِخَاءُ
الْكَرِيمُ مِنْ قَبْلِ الشَّيْخِ الْأَجَلِّ ، أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَرَّاحِ مِمَّا عَنَّا تَجَلَّى ، وَفِي إِقْلَائِهِ

وأدائه بمحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزّم مولاتنا الوالدة
ألفها الله تعالى رضوانه ، وبوقاها جّانته : من حجّ البيت المحرم ، وزيارة [القبر] المعظم
المكرم ، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثالثها في شدّة
الرحال المسجد الأقصى ونعم المغنم ، وقضاء النّسك بتلك المناسك والمشاهد ، والتبرّك
بتلك المعالم المنيقة والمعاهد ، وما وصّف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ، ورصّف
من أمر قتالنا لكلّ مارق أبيّ وكافر حرّبيّ ، وما منحنا الله من ندير لعلوب أهل
الإيمان مبهج ، ولصّدر عبدة الصّلبان محرّج ، وأن الإخاء الكريمة حصل له بذلك
أهبيّ آتتهاج ، وحلّ منه محلّ القبول الذي آتتهج له من آقنفي سبيل القصصد أنهي
آتتهاج ؛ فعقد العزم على تلقّي الوافد من تلقائنا ، والوارد رجاء أداء فرض الحجّ من
أرجائنا ، بتسهيل سبيله ، وتيسير آرتحالته إلى بيت الله ورسوله ، وأنه متى وقع الشّعور
بمقدّم المولاة رحمها الله تعالى على يلاذه ، وقربها من جهاته المحبّودة من جود جوده
بعهاده ، يقدم للخروج من يتلقّى ركبها ، ويعتمد بالبر والتكريم جنبها ، حتى تتحد وجهها
الشريفة بجمل نظره وإيابها ، وقام عنا بما نوّده من برّها ، وساهم فيما تقدّمه إلى الله عزّ
وجلّ من صالح أجرها . وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجرله ، ومن البرّ بأحفاه
وأحفله ، وحصل لدينا بإزائه سليم ووده وكريم إخوانه ، من تخليص ولآئه ، وتمحيص
صفائه ، منّا لا يزال عهده الأنيق في نهائه ، وعقده الوثيق في آزدياده ونمائه ، وغضنه
الوريق في رونق غلوائه ، ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها ، وبرّد ضريحها ،
قد وافت بما قدّمت عند الله من صالح العمل ، وماتت على ما أبرمت في قصد البيت
الشريف من نيّة وأمل ، اذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد تأهبت لذلك ، واعتدّت
لسلوك تلك المسالك ، وأداء ما فرض الله من السّعاية والمناسك ، وعلى الله إجزال
نواياها ، وعنده نحتسب ما ألمّ فآلم من مصابها - فإنّ لدينا من يمتّ بحرمة الحرم إلينا ،

ويلزم بحق التربية علينا ، من يقوم عندنا مقامها ، ويروم من ذلك المقصد الشريف مرآمتها ، وسنوردها إن شاء الله تعالى على تلکم البقاع ، ونوردها من تلکم الأفطار والأصقاع ؛ ما يجمل بحسن نظركم مورده ومصدره ، ويطابق في جميل اعتنائكم وحفيل احتفالكم خبره ونخبه ، بفضل الله وعونه .

وأما تشوق ذلكم الإخاء ، لمواصلة الكتب بسار الأنباء ؛ فإن من أقربها عهدا ، وأعزها حديثا يهادى ويهدى ، ما كان من أمر العاق قاتل أبيه ، الحال من إقليم تلمسان وممالكها بالحل النبى ؛ وذلك أن أسلافه بنى زيّان ، كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان ، ولم يزل بينهم وبين أسلاف المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع توردهم الحمام ، وتذيقهم الموت الزؤام ، فيدعون المنازعة ، ويعودون للوادة ، ثم لم يلبثوا ، أن ينكثوا ، ولم يصبروا ، أن يغدروا ، إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبى يعقوب قدس الله تربته إياهم ، فأكثرت موتهم وكدر حياهم ، وتمادى بهم الحصار تسع سنين ، وما كانوا غير شزيمة قليلين ، وهنالكم اتصلت بينكما المراسله ، وحصلت الصداقة والمواصله ، ثم حمّ موته ، وتمّ فوته ، رحمة الله تومّه ، ورضوانه يشمله ويعمه ، فنفس خناقهم ، وعاد إلى الإبدار محاقهم ، وصرف القائم بعده عنهم الحين ، عما كان هو رحمه الله قد طوّعه من بلاد مغراوة وتحين ، فالتسعت عليهم المسالك ، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طمع من الممالك ، لكن هذا الخائن وعمّه كانا من أسارته الفتن ، وعم به فيها غوامر المعن ، فسلكا مسلك أسلافهما في إذاعة المهادنه ، والروغان عن الإعلان بالمفاته .

ولما سؤل الشيطان لهذا العاق قتل والده ، والاستيلاء على طارفه وتالده ، لم يقدّم عملا على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبى سعيد ، قدس الله

مَنَواهُ ، وجعل الجنة مأواه ، في السَّلمِ راعبا ، ولحُكمٍ بمُؤادِ عِتهِ طالبا ، فاقْتَضَى النظر المَصْلَحِيَّ حِينَئِذٍ مَوافَقَتَهُ فِي غَرَضِهِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِنُهُ عَلَى مَرَضِهِ ، فَقَوَّى أَمْرَهُ ، وَضَرَى ضُرَّهُ ، وَشَرَى شَرَّهُ ، وَوَقَدَ تَحْتَ الرَّمَادِ جَمْرَهُ ، وَسَرَى إِلَى بِلَادِ جِيرَانِهِ الْمُوَحِّدِينَ دَاوُدَ ، وَطَالَ عَلَيْهِمْ تَضْيِيقُهُ وَأَعْتَادَاؤُهُ ، وَاسْتَشْعَرَ ضَعْفُهُمْ عَنْ مَدَافِعَتِهِ ، وَوَهَنَهُمْ عَنْ مَقَاوِمَتِهِ وَمَنَازِعَتِهِ ، فَبَغَى وَطَغَى ، وَلَمْ يَذَرِ أَنَّ مِنْ فَوْقِهِ سَقَبَ السَّمَاءِ رِغَا ، وَبَاطِنَ جَمَاعَةٍ مِنْ عَرَبٍ أَفْرِيْقِيَّةٍ الْمُفْسِدِينَ وَجَرَّهُ بِحَبْلِ الْأَطْمَاعِ إِلَيْهَا ، وَأَقَامَ عَلَى بَحَايَةِ عَشْرِينَ سَنَةً يَشُدُّ عَلَى بَحَايَةِ الْحِصَارِ ، وَيُسْنُّ عَلَى أَحْوَازِ تَوُتُسَ الْغَارِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ لَصَاحِبِهَا مَا كَانَ ، بِمَالَةٍ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ وَرَاتِيهِ (٩) كَابِنُ الْحَيَّانِي ، وَابْنُ الشَّهِيدِ ، وَابْنُ عِمْرَانَ ، فَأَذَى ذَلِكَ صَاحِبَهَا السُّلْطَانَ أَبَا يَحْيَى أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْنَا وَزِيرَهُ فِي طَلَبِ النُّصْرَةِ رَسُولًا ، وَأَوْقَدَ عَلَيْنَا أَعَزَّ وَلَدِهِ أَبَا زَكَرِيَّا فِي إِذْهَابِ الْمَضَرَّةِ عَنْهُ دَخِيلًا ، فَاغْطَبْنَا إِذْ ذَاكَ هَذَا الْخَائِنَ الْعَاقَّ مَبْصُرِينَ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ مَذْكُرِينَ ، فَمَا زَادَتْهُ الْمَوْعِظَةُ إِلَّا أَشْرًا ، وَلَا أَفَادَتْهُ التَّذَكُّرَةُ إِلَّا بَطْرًا ، وَحِينَ ذُكِّرَ فَلَمْ تَنْفَعَهُ الذِّكْرُ ، وَفُكِّرَ فَلَمْ يَنْتَسِرْ لِلْيُسْرَى ، آمَتَلْنَا فِيهِ أَمَرَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَرْتَبَ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ فَأَزْمَعْنَا قَدْعَهُ ، وَأَجْمَعْنَا رَدَّهُ وَرَدْعَهُ . وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَصَلَ إِلَيْنَا أَيْضًا سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ مُسْتَعِيثًا عَلَى النَّصَارَى أَعْدَاءِ اللَّهِ جِيرَانِهِ عَلَى طَاغِيَتِهِمْ ، الْمُصِرِّ عَلَى عِدَاوَتِهِ وَعِدَاوَتِهِمْ ، بِفَخْرٍ زَانٍ مَعَهُ وَلَدَنَا عَبْدَ الْوَاحِدِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْأَبْطَالِ ، وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِمَا كَفَاهُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالْعُدَّةِ وَالْمَالِ ، فَأَجَازَ مِنْ سَبْتَةٍ إِلَى الْخَضْرَاءِ مَحِلًّا ، وَلَمْ يُقَدِّمَ عَلَى مَنَازِلَةِ جَبَلِ الْفَتْحِ عَمَلًا ، وَكَانَ هَذَا الْجَبَلُ الْخَطِيرُ شَأْنُهُ مِنْذَ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْعَدُوُّ قَضَمَهُ اللَّهُ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ سَبْعًا فِي لَهَوَاتِ أَهْلِ الْعُدُوتَيْنِ ، وَغُصَّةٍ لِنُفُوسِ السَّاكِنِينَ بِالْجِلْهَيْنِ ،

لإطلاعه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تحطف من رام العبور ببحر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق، فكم أرملة وأيتيم، وأنكل وأيم - فأحاطت به العاديات السوايح براً وبحراً، وأذاقت من به من أهمج الأعلاج شراً وحضراً، إلى أن أسلموه للسلمين قهراً وقسراً، ومنح الله حربه المؤمنين فتحاً ونصراً، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغائته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليحه للإسلام، فنزل بحيله ورجله إزاعه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقي منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنت يمينه، وأقاع بعد شهرين وأيام مذبلاً، وأسرع العود إلى مستقره وأسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنايته للسلم وأقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب "عمرناطة" من معتاده، وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفاً من الذهب في العام، ضريبة ألزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أى إلزام، فبسمناه تركها وإسقاطها، وألزمناه فيما عقدناه له من السلم أن يدع أشتراطها، والحمد لله الذى أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد آعتيننا بتحصين حصن هذا الجبل تميماً لها وتكليلاً، وأبتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يقدو على جيبه تاجاً وإكليلاً. وكنا في هذه المدة التى جرت بها هذه الأحوال، وعمرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخاناً المتنع "بسيجلماسة" من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصلاح والصلاح على التفصيل والجملة، لعنايته في الفساد، ودعائته إلى العناد، ومعاصده صاحب "تلمسان"، ومساعدته على البغى والعُدوان، فسئل الله أفتاحها، وعجل من صنائعه الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف.

وفي خلال تلك المنازلة ، وحال تلك المحاولة ، لاحت للخائن التماساني قرصه ، جُرِعَ منها غصّه ، إذ ظنّ أنا عنه مشغولون ، وفي أمرٍ ماعرض من سحلماسة وجبل الفتح معتمّلون ، فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والحدّ ، إلى حصن ماوررت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحدّ ، فوجد هناك ولدنا الأسعد تاشفين ، في ثلّة من بني مرّين ، آساد العرين ، فلما نذروا به ثاروا إليه مسرّعين ، فنكص على عقبيه ، ولم ير له جنة أوقى من هربه ، وصاد لذلك ثانيه ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانيه ، بل ردّته في الحافره ، وأنشدته بلسان حالها الساعره :

إن عادتِ العقبُ عدنا لها * وكانت النعل لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلكم الشواغل ، وأرغنا من الخائن التماساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل ، فأعرض وأشاح ، وما لاحت عليه مخيلة فلاح ، نهدنا نحو أرضه ، لتجزيه بقرصه ، بجيوش يضيق عنها فسح كل مدى ، وخيول تذر الأكم للحوافر سجدا ، تنقض على الأقران أمثال الأجادل ، وتقض الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل ، فكفنا بتسلم منازل مئزلا فئزلا ، وتسئم معاقله معقلا فمعقلا ، وجل رعاياه تقرّ بفضلنا ، وتفرّ من جوره إلى عدلنا ، ومن تمسك منهم بجبله ، أو سلّك من النّبي في سبله ، قاده السيّف برغمه ، وأستزله على حكمه ، والعفو مع ذلك يؤمهم ، والإحسان يشملهم ويعمهم ، حتى لم يبق إلّا معقله الأشب ، ومئزله الذي رأى أنه عن عين الشّوايب محتجب ، قد شمع أنفا حيا ، وصاح كفا للثريا ، ولم يرض لهامنه عمام إلّا الغمام ، ولا لأنامل شرفاته خواتم ، الا النجوم العواتم ، فنزلنا بساحه ، وأقبلنا على كفافه ، وجعلنا تقدفهم من حجارة المجانيق ، بأمثال النّيق ، ومن كيزان النّقط الموقده ، بأمثال الشّهب المرصده ، ومن السهم العقّاره ، بأمثال العقارب

(١) كذا في الأصل باهمال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الجرّار ، حتى غدت جذرائهم مهْدُومَه ، وجُسُومهم مَكْلُومَه ، وثُغُورُ شُرَفاتهم
 في أفواه أبراجهم مَهْتُومَه ، وظَلَّتِ الفَعْلَةُ تُسَيِّدُ إِزاءَ أبراجهم أُرْجاء ، ومَهَّدَ منها
 لتسوير أسوارهم أَدْرَاجاً ، ولِلْعَاولِ في أسافلها إِعْوال ، ولِلْعَواصِلِ على أعاليها أَعْمال ،
 وللأشقياء مع ذلك شَدَّةٌ وَجَلَدٌ ، وَعُدَّةٌ وَعَدَدٌ ، وَحِدَّةٌ وَلَدَدٌ ، يقاتلون حِيَه ، وينازلون
 بنفوسِ آيَه ، وحجارةُ الجانيقِ تُسَدِّحُ هامَهُم ، وبناتُ الكائنِ تُزَلْزِلُ أَقْدامَهُم ، وهم
 في مثل ذلك لازِمُونَ إقْدامَهُم ، إلى أن أَشْتَدَّتْ أزمَتُهُم فلم يَجِدُوا لها من فارج ،
 وأحاطت بهم الأوجال من خارج ، وهُدِمَتْ أبراجهم الشّواهِق ، ورُدِمَتْ حُفائِرُهُم
 والخنادق ، وأخذت الكُكَّةُ ، في العروج ، إلى البروج ، والحماة ، في السِّباق ، إلى الأنفاق ،
 والرماة ، في النِّضال ، بالنِّصال ، فن مُرْتَقٍ سُلَّما ، غير مُتَقٍّ مَوْلا ، ومشتغل بالنَّقب ،
 غير محتفلٍ بِشأُورِ الحجارة المنصب ، وأُفْرِجَ المَضِيق ، وأتَهَجَّجَ الطَّرِيق ، وأَفْتَحَتَهُ
 أطلابُ الأبطال ، وولجته أقبال القبائل وولى الأشقياء الأدبار ، وعاذوا بالفرار ،
 وبدت عليهم علاماتُ الإِدْبار ، وسابقوا إلى الأبواب ، فكانت يَجِيئُهُم من أقوى
 الأسباب ، وقَتَلَ منهم الرِّحام ، من أساره الهدم والحسام ، فتملكتما مادارت عليه
 الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الحنان والعروش التي ما أنفك الشقي
 يجتهد في عمارتها ويَتَعَبُ ، وأعلنّا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا ، ووصل إلينا تائبا ،
 متحناه العفو ، ومحونا عنه الهفو ، وأوردناه من إحساننا الصِّفو ، فتبادروا عند ذلك
 يتساقطون من الأسوار ، تساقطَ جِياثُ الثَّمار ، فُرادى ومثى ، آيين إلى الحُسنى ،
 فيسَعُّهم الصِّفح ، ويحسِبُهُم المَنُّ والمنح .

ولما رأى الخائن قلةَ من بقي معه ، وشاهد تفرُّقَ مَنْ ذلك الموقف جمعه ، أمر
 بسَراحَ مَنْ في قبضته وسِجنه ، وأعتقدَهُم عَوْنًا له فكانوا أعونَ شَيْءٍ على وَهيه ووهنه ،
 وأعتمدَ الناسُ في بقيةِ يومهم السُّورَ تُوسِّعُ أنقابُه ، وتُنَحِّقُ أبوابُه ، إلى أن جَهَّم

الليل، وحقّ منهم بالأعداء الويل، ولزم كلّ مكره، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه، وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون؛ فلما ارتفع الضياء، ومتع الضحاء، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعدله بالمرأصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها؛ فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم؛ ولم يكن إلا كلاً حتى أمطيت تلك الصهوه، وتُسنت فيها الذروه، وتُسلمت بيد العدو، وفُصمت عراها عروة عروه، وأزُلوا من صياصيمهم؛ وتمكنت يد القهر من نواصيمهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب من معاصيمهم؛ وفرّ الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره؛ وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن عليّ معينه عليّ البغي والعصيان؛ وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فكتفهم هنالك أولياء دولتنا عليه، فأوردوهم ويوسف ولد الشقيّ السالب حياض المنية، ونُذت بالعرأ أجسامهم، وتقدّمنا للذين، بأن يمدّ على الرعية ظلّ التأمين؛ ويوطأ لهم كفّ التمدّد والتسكين، ويوطد لهم مهادّ العافية، وتكفّ عنهم الأكفّ العاديه، حتى لا تمتدّ إليهم كفّ منتهب، ولا يلتفت نحوهم طرف مستلب؛ ومن آتتهب شيئاً أمر برده، وصُدّ عن قصده - وكلّ لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد؛ ونُسخت منها دولتهم، ومُحيت من صحيفتها دعوتهم؛ وعوّض الرعايا من خوفهم أمناً، ومن شؤمهم يئناً؛ وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية؛ وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنّيعه التي بهرت الصنائع بجمالاً؛ وأضفت على المسامين من الصلاح والعافية سربالاً. وقد رأينا من حقّ هذا الإيعام الجسيم، والصنّع الرائق الوسيم؛ أن نتبع العفو بعد المقدّره،

(١) بالإحسان لمن أسلف لنا غمّطه أو شكره ؛ [فئنّا] على قبائل بني عبد الوادِ ، وأضفينا عليهم صنوف الملابس نساءً ورجالا ، وأوسعنا لهم في العطاء مجالا ، وأفعمنا لهم من الحباء سجالا ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير من بلادهم ، وجبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم ، وإخصاب مرادهم ، وخططناهم بقبائل بني مرين ، وحطناهم باتحاد الكلمة من تقول المتقولين ، وتزوير المزورين ؛ وأعدنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعدنا من فرسانهم ورجالهم ليطعان الأعادي أكبر مدد ؛ وأزِيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقيّة إضرهم ، وأزيح عنهم بتوحيّ العدل فيهم جورهم ووزرهم ؛ وخففنا عنهم ما آد من المغارم ، وهاد من المكّارم ؛ فانشرحت صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذي ثلّ محالّ الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأخذهم بما احتقبوا من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلّوا من المحارم ؛ وأباحوا من المُسكِرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربّعهم معدينّ الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيّما في أيام المسرور بهنّاته ، المغرور بما سؤل له الشيطان وأملّ له من ترهّاته ، المشهور بقتل أبيه ، الماثور من مثالبه ومعاييه بما لم يأت الدهر له بشييه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ، وبلغت أخبار خيائته من باطراف المعمور وأقاصيه ، ولكن الله تعالى أملّ له ليكثر ما نّمّه ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهى ظالمه .

والحمد لله الذى طهر بآيدنا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورخص عنها بآيدنا أوضار أدناسه وأنجاسه ؛ وأتاح لأهلها بهلاك هذا المريد المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بيض في الأصل هذه الكلمة وقد أفتيسها من المقام من قبائل عبد الواد

البِلَادَ وَالْعِبَادَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَانَالُ الْجُجَّاجِ مِنْ تَعْنِيهِ وَتَعَدِّيهِ ، وَطَالَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْرِضِهِ لَهُمْ وَتَصَدِّيهِ ؛ حَتَّى حَجَزَ عَنِ الْحِجَازِ الشَّرِيفِ قُصَّادَهُ ، وَحَجَرَ بَقْطَعِ السَّبِيلِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ ؛ فَكَمْ سَلَبَ الْجُجَّاجِ ، وَسَدَّ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكَ وَالْفِجَاجِ ؛ وَفَرَّقَ فَرِيقَهُمْ ، وَعَوَّقَ طَرِيقَهُمْ . وَالْآنَ بِحَمْدِ اللَّهِ حَقَّتِ الْحَقَائِقُ ، وَأَرْتَفَعَتِ الْعَوَائِقُ ؛ وَصَحَّ الْعَلِيلُ ، وَوَضَحَ السَّبِيلُ ؛ وَتَسَهَّلَ الْمَرَامُ ، وَتَيَسَّرَ الْقَصْدُ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛ مَكَانَ تَرَدُّهِ الزُّوَّارُ عَلَيْكُمْ أَرْسَالًا ، وَوَفُودُ الْأَبْرَارِ لِلسَّلَامِ خِفَافًا وَثِقَالًا ؛ يَأْتُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَيَقْضُونَ مَا يَقْضُونَ مِنْ مَنَاسِكِهِمْ ، آمِينَ فِي مَسَالِكِهِمْ ، إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ؛ وَهَكَذَا أَيْضًا خَلَا وَجْهُنَا لِجِهَادِ الرُّومِ ، وَلِإِعْدَادِ مَنْ يَغْزُوهُمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمُ لِلْقَصْدِ الْمَرْوَمِ ؛ وَأَنْ نَجِدَّ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ حَامَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مَا لِسَلَفِنَا بِهَا سَلَفٌ ، وَنَبْدَّ مِنْ شَمْلِ عِبَادِ الصَّلِيبِ مَا خِلْفِهِمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُ خَلْفٍ ؛ فَعَمَلُ الْجِهَادِ ، بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، هُوَ الْفَضِيلَةُ الَّتِي لَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَخَرُهَا ، وَالْحُسْنَةُ الَّتِي فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِنَا سَطَرُهَا ، وَبِجُودِ شَنَا الْمَنْصُورَةِ عَزَّ دِينُ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الْمَغْرِبِ الْغَرِيبِ ، وَبُسُوفِنَا الْمَشْكُورَةِ وَاللَّهُ الْمَشْكُورُ ذَلَّ بِهَا الصَّلِيبُ ، أَوْزَعَنَا اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ آلَائِهِ ، وَأَمْتَعَنَا بِتَوَاتُرِ نِعَائِهِ ، بِمَنَّةٍ وَفَضْلِهِ .

وَأَنهِنَا لِعِلْمِكُمُ الْكَرِيمِ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ السَّارَةَ ، وَالْآلَاءَ الدَّارَةَ : لِمَا ذَكَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِطْلَاعِهَا ، وَسَطَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِمَاعِهَا ، وَلِعِلْمِنَا أَنْكُمْ تُسْرُونَ بِقَطْعِ دَابِرِ الْبَاغِينَ ، وَتَسْتَبْشِرُونَ بِحَسَمِ أَدْوَاءِ الطَّاغِينَ ؛ وَتُؤَثِّرُونَ الْإِخْبَارَ بِإِثْلَافِ الْكَلِمَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَافِرِينَ بِإِثَارِ الْحَامِدِينَ لِفِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِظْهَارِ دِينِهِ الشَّامِكِينَ . لَا زِلْمَ تُشْرَعُ نَحْوَكُمْ الْبَشَائِرُ ، وَتُفْرَعُ بِذِكْرِكُمُ الْمَنَابِرُ ، وَتُرْفَعُ لِاجْتِلَاءِ آثَارِ أَمْرِكُمُ السَّائِرُ ،

وَأَسْجَلَاءُ أَخْبَارِ سِيرِكُمُ الْبَاهِرَةِ النَّوَظِرُ، وَتُجَمَّعُ لِسَجَايَاكُمُ السَّنِيَّةِ الْعَلَاءُ، وَمَزَايَاكُمُ الْعَلِيَّةِ السَّنَاءُ، ثَوَاقِبُ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاحِرِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ الْأَتَمُّ، الْأَضْوَعُ الْأَتَمُّ، يُحْصَى إِخَاءُكُمْ الْأَوْفَى، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدّم] في الكلام على المكتابات عن الأبواب السلطانية في المكتابات إلى الملوك .



وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المرينيّ صحبة الهدايا، والحرّة الحاجة في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ونصّه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملا البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي سعيد^(١) ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرّين ، وسُلطان العدوتين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الكافل ، الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأوفى ، الأجل ، الأجلد ، الأضخم ، الأوحد ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاضد كلمة المسلمين ، محيي العدل في العالمين ، فاتح الأمصار ، حائر ملوك الأفطار ، مفيد

(١) تقدم في ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبي الحسن فتنه .

الأوطار، مُبِيدُ الْكُفَّارِ، هَازِمُ جُيُوشِ الْأَرَمَنِ وَالْفَرَنْجِ وَالْكُرُجِ وَالْتَتَّارِ، خَادِمُ
الْحَرَمِينَ، غَيْثُ الْعُقَاةِ، غَوَّثُ الْعُنَاةِ، مُصَرِّفُ الْكُتَّابِ، مُشَرِّفُ الْمَوَاكِبِ، نَاصِرُ
الْإِسْلَامِ، نَاشِرُ الْأَعْلَامِ، نَقِيرُ الْأَنَامِ، ذُنُورُ الْأَيَّامِ، قَائِدُ الْجُنُودِ، عَاقِدُ الْبُنُودِ، حَافِظُ
الثُّغُورِ، حَائِطُ الْجُمْهُورِ، حَامِي كَلِمَةِ الْمَوْحِدِينَ، أَبِي الْمَعَالِي، مُحَمَّدِ بْنِ السُّلْطَانِ،
الْجَلِيلِ، الْكَبِيرِ، الشَّهِيرِ، الشَّهِيدِ، الْخَطِيرِ، الْعَادِلِ، الْفَاضِلِ، الْكَافِلِ، الْكَامِلِ،
الْحَافِظِ، الْحَافِلِ، الْمُؤَيَّدِ، الْمَكْرَمِ، الْمُبَجَّلِ، الْمَكْبَرِ، الْمُوقَّرِ، الْمُعَزَّرِ، الْمُعَزَّزِ، الْمُجَاهِدِ،
الْمُرَابِطِ، الْمُتَنَاصِرِ، الْأَوْحِدِ، الْأَسْعَدِ، الْأَصْعَدِ، الْأَوْفَى، الْأَنْفَمِ، الْأَضْحَمِ، الْمُقَدَّسِ،
الْمَرْحُومِ، الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، سَيْفِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . أَيْقَى اللَّهِ مُلْكُهُ
مَوْصُولَ الصُّوْلَةِ وَالْإِقْتِدَارِ، مَحْمِيَّ الْحَوْزَةِ حَامِيًا لِلدِّيَارِ، حَمِيدَ الْمَآثِرِ الْمَأْثُورَةِ وَالْآثَارِ،
عَزِيزَ الْأَوْلِيَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَالْأَنْصَارِ .

سَلامٌ كَرِيمٌ، زَاكِ عَمِيمٌ، تُشْرِقُ إِشْرَاقَ النَّهَارِ صَفْحَاتُهُ، وَتَعْبُقُ عَنْ شَذَا الرُّوضِ
الْمِعْطَارِ نَفْحَاتُهُ، يُخْصِّ إِخَاءَكُمْ الْعَلِيِّ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي وَسَّعَ الْعِبَادَةَ مَنَّا جَسِيماً، وَفَضَّلَا جَزِيلاً، وَأَهْمَهُمُ الرِّشَادَ
بِأَنْ أَبْدَى لَهُمْ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ، عَلَى مَقْدَارِ وَحْدَتِهِ، بُرْهَانًا وَاضِحًا وَدَلِيلًا، وَأَلْزَمَ أُمَّةَ
الْإِسْلَامِ، حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، مِنْ أَسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَجَعَلَ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ مِنْ تَقْوَى
الْقُلُوبِ، وَمَثَابَاتِ مَحَطِّ الْأَوْزَارِ وَالذُّنُوبِ، فَمَا أَجَزَلَ نِعْمَتَهُ مَنِيلاً، وَأَجْمَلَ رَحْمَةَ رَبِّهِ
مَقِيلًا، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى مِنْ أَفْضَلِ الْعَرَبِ
فَصِيلَةً، فِي أَكْمَلِ بَقَاعِ الْأَرْضِ فَضِيلَةً، وَأَكْرَمِهَا جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا، الْمُحْتَبَى لَخْتَمِ الرِّسَالَةِ،
وَحَسْمِ أَدْوَاءِ الضَّلَالَةِ، فَأَحْسَبَ اللَّهُ بِهِ النُّبُوَّةَ نَتْمًا وَالرِّسَالَةَ تَكْيِيلًا، الْمُخْصُوصَ بِالْحَوْضِ
الْمَوْرُودِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، يَوْمَ يَقُولُ الظَّالِمُ ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الْمَبُوءَا

من دار هجرته ، ومقر نصرته ، محلاً ما بين بيته ومنبره فيه روضة من رياض الجنة لم
يزل بها نزىلاً ، والرضا عن آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار ، الذين فضلتهم سابقة
السعادة تفضيلاً ، وأهلتهم العناية [بأمر الدين إلى أن يوسعوا الأحكام برهاناً ودليلاً ،
فإننا نحيط علم^(١) الإخاء الأعز ما كان من عزم مولانا الوالدة قدس الله روحها ،
وتور ضريحها ، على أداء فريضة الحج الواجبه ، وتوفية مناسكه اللازمة ؛ فاعترض
الحمام ، دون ذلك المرام ، وعاق القدر ، عن بلوغ ذلك الوطر ، فطوى كتابها ،
ومحّل إلى مقر الرحمة بفضل الله ما بها ، وعلى الله أجرها ، وعنده يحسب ذخراً ،
وإن لدينا من نوجب إعظامها ، وتقييمها بحكم البر مقامها ، وعزمها إلى ما أملت
مصرف ، وأملها إلى ما كانت أمتة موقوف ؛ وهى محل والدتنا المكرمة ، المبرورة ،
الأنيرة ، الموقرة ، المبجلة ، المفصلة ، المعززة ، المعززة ، المعظمة ، المطهرة ؛ أسنى
الله مكانتها ، وسنى من هذا القصد الشريف لبانتها ؛ وقد شيعناها إلى حج بيت
الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام ، والفوز من السلام ، على
ضريح الرسالة ، ومثابة الحلالة ، ينزل السؤل والمرام : لتظفر بأملها المرغوب ، وتفر
بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب .

وحين شخّص لذلکم الغرض الكريم ، موكبها ، وخلص إلى قصد الحرم العظيم ،
مذهبها ، والكرامة تلحفها ، والسلامة إن شاء الله تكفها ؛ أحصناها من حور
دولتنا وأحظيائها ، ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ؛ من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة
الأثر ، والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصدر ؛ من أعيان بنى مريم أعزهم
الله تعالى والعرب ، وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى المالئين دلاء القرب ، إلى

(١) فى الأصل وأهلتهم العناية الإخاء الخ ولا يخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شئ . فزدنا ما بين

التربيين لا على أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْدَ الْكَرْبِ ؛ وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَثَرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَشُهْرَةٌ بِالْمَزَايَا الرَّابِحَةِ وَالسَّجَايَا الصَّالِحَةِ
 مَأْثُورَةٌ ؛ وَقَصْدُهُمْ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضِ الْحَجِّ قَصْدُهَا ، وَوَرْدُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
 مَنَهِلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرَدُّهَا ؛ وَهَكَذَا سَيَّرْنَا مِنْ تَحَوُّفِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَسَّرَ فِي الْوَقْتِ
 تَسْيِيرُهُ ، وَإِنْ تَعَذَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَصَدْنَاهُ وَلِهَذَا الْغَرَضُ أَرْدْنَاهُ تَسْيِيرُهُ ، لَطَوَّلَ الْمَغِيبَ
 عَنْ الْحَضَرَةِ ، وَالشُّغْلَ بِتَهْيِيدِ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ ؛ وَعَيْنًا
 لِإِيرَادِهَا لَدَيْكُمْ ، وَإِيرَادِهَا عَلَيْكُمْ ؛ أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ
 السُّوَيْدِيَّ ؛ وَأَمِيرَ الرِّكْبِ الْحَسَنَ بْنَ عِمْرَانَ وَغَيْرَهُمْ ، كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُمْ ، وَيَمِّنَ
 ظَنَّهُمْ وَإِقَامَتَهُمْ . وَمَقَامُ ذَلِكَ الْإِخَاءِ الْكَرِيمِ يُسَنِّيْ لِهِمْ مِنَ الْيُسْرِىِ وَالْتَسْهِيلِ الْقَصْدَ
 وَالسُّوْلَ ، وَيَأْمُرُ نُوَابَ مَالِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَقُؤَامَ مَا بَهَا مِنَ الْمَسَالِكِ ، لَتُكْمَلَ الْعَنَاءُ بِهِمْ
 فِي الْمَمَرِّ وَالْقَفُولِ . وَمَعْظَمُ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمُبَارَكَةِ إِيصَالُ الْمُصَحِّفِ الْعَزِيزِ
 الَّذِي خَطَّطْنَاهُ بَبَدْنًا ، وَجَعَلْنَاهُ ذَخِيرَةً يَوْمِنَا لَعَدْنَا ؛ إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَعَصْمَةِ
 دِينِنَا وَدُنْيَانَا ؛ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَبِيعَةِ زَادِهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا ، وَأَبْقَى عَلَى
 الْأَيَّامِ نَخْرَهَا مُنِيفًا ، رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْفَوْزِ بِحَظٍّ مِنْ أَجْرِ التَّلَاوَةِ فِيهِ
 يَوْمَ الْمَاتِ .

وَقَدْ عَيْنًا بَبَدْنٍ مَحَلَّ الْوَالِدَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، كَرَّمَ اللَّهُ جَبْهَتَهَا ، وَيَمِّنَ وَجْهَهَا ، مِنْ
 الْمَالِ مَا يُشْتَرَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُحَوَّطَةِ مِنَ الْمُسْتَعْلَاتِ مَا يَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْقَرَاءَةِ
 فِيهِ ، مُؤَبَّدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ فَوَائِدُهُ وَمَجَانِيهِ . وَالْإِخَاءُ الْكَرِيمُ يَتَلَقَّى
 مِنَ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ مَا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَلْقَيْنَاهُ [وَيَأْمُرُ] بِاحْضَارِهِمْ لِأَدَائِهِمْ
 بِالْمَشَافَهَةِ مَا لَدَيْهِمْ أَوْ عَيْنَاهُ ، وَيُوعِزُّ بِإِعَانَتِهِمْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ ، وَيُسِّرُّ لَهُمْ
 أَسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنُهُ الْبَعْوُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِيَّمَا

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السُّبُل الواضحة ؛ وشكراً بآدراككم موطن الأساس ،
مطرّد القياس ، متجدّد مع اللحظات والأنفاس ؛ والله يصلّ للإخاء العلى نُصرةً أيّامه ،
ويوالى نُصرةً أعلامه ؛ ويبقى الثُّغور القصيّة ، والسُّبُل السّريّة ، منوطةً بنقضه
وإبرامه ، محوطةً بمعاوضة أسيافه وأقلامه ، والسلام الكريم العميم ، يخصّ إخاءكم
الأعزّ ، ورحمة الله وبركاته - وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين
من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعائة .



(١١)
وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المرينيّ ، في العشر الأوسط
من شعبان سنة أربع وثمانمائة ، وهو :

من عبد الله وولّيه : عثمان أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، سلطان
الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدى بآثار آبائه الكرام ،
المفتي سنّهم الحميدة في نُصرة الإسلام ، المعجل نفسه العزيزة في التهم بما قلّده
الله من أمور عباده ، وحياطة ثوره وبلاده ، سيف الله المسلول على أعدائه ، المنتشر
عدله على أقطار المعمور وأنحائه ، ظلّ الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وقرضه ،
عماد الدنيا والدين ، علم الأئمة المهتدين ، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة
الإمام ، ملك الملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأقطار ، مُمهد الأقاليم والأمصار ؛ جامع
أشتات المحامد ، ملجأ الصادِر والوارد ؛ الملك الجواد ، الذي حلّت محبّته في الصّدور
محلّ الأرواح في الأجساد ؛ أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل ربّ العالمين ؛ أبي العباس
ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، أبي سالم ، ابن مولانا

أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين،
 المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل
 رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ وصل الله تعالى أسباب تأييده
 وعرضه، وقضى باتصال عرف تجديد سعه، وأنا له من جميل صنعه ما يتكفل
 بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى محل أخينا الذي نؤثر حق إخوانه الكريم، ونثنى على سلطانه السعيد ثناء الولي
 الحميم، ونشكر ماله فينا من الحب السليم، والود الثابت المقيم، السلطان الجليل،
 الماجد الأصيل، الأعز الخطير المثيل، الشهير الأجد الأرفع، الهام الأرفع؛
 السرى الأرضي؛ المجاهد الأمضى؛ الأوحى الأسنى، المكين الأحمى؛ خديم
 الحرمين الشريفين، حائر الفخرين المنيفين؛ ناصر الدنيا والدين، محي العدل
 في العالمين؛ الأجد، الأود، المكين، الأخلص، الأفضل، الأكل، أبي السعادات
 فرج، ابن السلطان الجليل، الأعز المثيل، الخطير الأصيل، الأرفع، الأجد،
 الشهير، الهام، الأوحى، الأسنى، الأسرى، الأرضي، المجاهد، الأمضى، خديم
 الحرمين الشريفين، حائر الفخرين المنيفين، الأفضل، الأكل، المبرور، المقدم،
 المرحوم، أبي سعيد (برقوق) بن أنص؛ وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جدا
 لا يعجز عوده، وعز لا يميل عموده، ونصرا يملأ قطره بما يغص به حسوده،
 وعرضا يأخذ بزمام أمه السنن فيسوقه ويقوده .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه، وترادف لطفه وآلائه؛ الذي عرفنا من ولآئكم
 الكريم ما سرنا من أطراد اعتنائه، وأبهج النفوس والأسماع من صفاء وآلائه،

ومواصله صفائه ، والصلاة والسلام الأكلين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رُسله
وأنبياؤه ، ومبلغ رسالته وأنباؤه ، صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، واللواء
المعقود ، فأكرم بمقامه وحوضه ولوائه ؛ والرضا عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين
هم للدين بدور آهتدائه ونجوم أقتدائه ؛ وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه
واعتلائه ، وأقبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه ، وحياطة أنحائه وأرجائه ،
وتأييد عز ماته وآرائه .

فإنا كتبنا إليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعز ما ظافرا ، من حضرتنا العلية
بالمدينة البيضاء كلاًها الله تعالى وحرصها ، ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ،
وولأوه جل جلاله سابق الأذيال ، وخلافكم التي نزعى بعين الرجوانبها ، ونقتنى
في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومداهبها - وإلى هذا وصل الله سعدكم وإلى
عزكم ، وكنا بهذا يقرر لكم من وداونا ماشاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا
إليكم ما نتحدث به الشار فتوعيه جميع الأسماع ؛ وقد كان انتهى إلينا حركة
عدو الله وعدو الإسلام ، الباغي بالاجترأ على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام ،
الآخذ فيهم بالعيث والفساد ، الساعى بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ،
وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية ، وأتهاز
الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية ، والحمد لله الذي كفى بفضل شره ، ودفع
نقمته وضره ، وأنصرف ناكصاً على عقبيه ، خائباً من نيل أربه . ولقد كنا حين سمعنا
بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه ؛ وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجره في أنجراه
ظله يسعى بين يديه [عز منا على] أن يمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه
الفضا ، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحميكم في إمداد المناصرة ويرتضي ؛

فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال ، وأذهب عنهم الأوجال ، ويسر لهم الأعمال ،
وهياً لخلافكم السنة وللساميين ، هناءً يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام
والسنين .

وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بُنيانه ، والحب الذي أوضح
الإخلاص بُرهانه ، وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله ، وتقرير
مالدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ؛ على الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارك ،
الأصيل ، الأسنى ، الحظي ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأحفل ، الأفضل ،
الأكل ؛ أبي عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجل ، الأعز ، الأسنى ، الأوجه ، الأنوه ،
الأرفع ، الأجد ، الآثر ، الأزهى ، الشريف ، الأصيل ، المعظم المثل ، الأشهر ،
الأخطر ، الأمثل ، الأجل ، الأفضل ، الأكل ، المرضي ، المقدس ، المرحوم
أبي عبد الله محمد ، بن أبي القاسم ، ابن نفيس الحسنى العراقي ؛ وصل الله تعالى
سعادته ، وأحمد على حضرتكم السنة وفادته ، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله ،
ويكمل بايضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يديم
سعادتكم ، ويحفظ مجادتكم ، ويسني من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس)

والرسم في ذلك أن يكتب «الأبواب الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب
السلطان الدلاني» ويصفه ، ويذكر ألقابه ، ثم يدعو له ، ثم يقول : «سلام كريم»
ويصفه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعد حمد الله ،

ويأتى بـمُحطبة في المعنى تشتمل على التحميد، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم، والرضا عن الصحابة رضى الله عنهم؛ ثم يقول: فإننا كتبنا اليكم، ويأتى على مايناسب المقام، ثم ينخرط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كُتب به عن أمير المسلمين السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصير بن الأحمر، صاحب غرناطة - من الأندلس، إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، لإنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة الفرنج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبعائة، إلا أنه وهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور. وهى:

الأبواب الشريفة^(١) التى تعنو لِعِزَّةِ قَدْرِهَا الأبواب، وتعتري إلى نسب عَدْلِهَا الحِكمة والصَّواب؛ وتناديها الأقطارُ البعيدة مفتخرة بولائها، واصلة السبب بعلائها، فيصدُر بما يشفى الجوى منها الجواب؛ فإذا حسن مناب عن أئمة الهدى، وسبَّاق المَدَى، كان منها عن عُمومة النُّبوة النَّوَاب؛ وإذا ضفت على العُفاة بغيرها أثواب الصَّلَات، ضفت منها على الكعبة المقدَّسة الأثواب - أبواب السلطان الكبير، الجليل الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحد، الأسعد، الأصعد، الأمجد، الأعلى، العادل، العالم العايل، الكامل، الفاضل، الكافل؛ سلطان الإسلام والمسلمين، رافع ظلال العدل على العالمين، جمال الإسلام، علم الأعلام، نحر الليالى والأَيَّام، ملك البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمل الأمصار والأقطار، وعاصب تاج الفَخَّار، هزيم الفرنج والترك والتتار، الملك المنصور أبى الفتوح شعبان، ابن الأمير،

(١) فى الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح".

الرفيع المجّاده ، الكريم البُنة والولّاده ، الطاهر الظاهر ، الكبير ، الشّهير ، المعظم ،
 المجدد ، الأسمى ، الموقر ، الأعلى ، نحر الملة ، سيف الأمة ، تاج الإمارة ، عز
 الإسلام ، جمال الأيام ، قمر الميادين ، أسد أجمّة الدين ، سمام الطّغاة والمعتدين ،
 المقدّس ، المظفر ، الأمير أبي عليّ حسين ، ابن السلطان الكبير ، الشّهير ،
 ملك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيف خلافة الله في العالمين ، وليّ
 أمير المؤمنين ، وظهير الدين ^(١) سلطان الحجّ والجهاد ، وكاسي الحرم الأمين ،
 قانع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمرّدين ، ناصر السنّة ، محي الملة ، ملك البرّين
 والبحرين ، مقيم رُسوم الحرمين الشريفين ، العادل ، العالم ، العامل ، الطاهر ،
 الظاهر ، الأسعد ، الأصعد ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيّد المعان ، المرفّع ،
 المعظم ، المبجل ، المؤمل ، المجاهد ، المرابط ، الغازي ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ،
 الصالحيّ أبقاه الله ، وفلق الصباح يشهد بكّاله ، وخدمة الحرمين الشريفين طراز
 مذهب على حلة أعماله ، ومُسوَّرات الإسلام ، أمانة على طول الأيام ، من إهماله ،
 ولا زال ركنًا للدين الخفيف ، تترأّحم على مستلمه الشريف ، شفاه أمّاله .

سلام كريم ، برّ عظيم ، كما استودعت الرياض أسرارها ، صدر النسيم ، وأرسلت
 مطالع الفجر أنهارها ، من بحر الصباح الوسيم ، يسرى من الطّيب ، والحمد المّطيل
 المّطيب ، في الصّنوان الكريم ، ويقف موقف الأدب والفهامه • بما استُحفظ
 من الأمانة إلى محل الإمامه ، وقوف الحفيظ العليم ، يعتمدُ مشاريع تلك الأبواب
 الشّارعة إلى الفضل العَظيم ، المّقابلة لِذمام وسائل الإسلام بالصّدر المشروح ، والبرّ
 المنوح ، والقلب السليم - من معظّم سلطانه ، ومجلّ شأنه ، المفتخر بالانتظام في سلّك

خُصَّاهُ ، أمير المسلمين بالأندلس ، عبد الله الغالب بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل
ابن فرج بن نصر ، بلغه الله من رضاه أقصى سوله ، وأعانه على جهاد عدو الله
وعدو رسوله .

أما بعد حمد الله جاعل قِلادة الإسلام ، على الدوام ، آمنةً من الإخرام ، والانتثار ،
مفصلةً النظام ، بخز المائر العظام ، والآثار . معرّف أهلها ، في حزن البسيطة وسهلها
عوارف الصنع المثار ، وإقالة العثار . القوى العزيز الذي لا يغالب قدره بالإحتشاد
والاستكثار ، ولا يبدل غيبه المحجوب ، بعد ما عين حكمه الوجوب ، في خرائن
الاستثثار ، حتى تظهر خبيثة عنيته بأوليائه ، المعترفين بآلائه ، باديةً للأبصار ، فيما
قرب وبعد من الأعصار ، ورحمته عند الاستغاثه به والانتصار ، في مختلف الأقطار
والأمصار . الولي الذي لا تمكدر هبات فضله شروط الاعتصار ، ولا تشين خطب
حمده ضرائر الاقتصار والاختصار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نعمة الاكوان ، وسرّ الدهور والأزمان ؛
وفائدة الأدوار . نور الله المتميز باختصاصه ، وأستصفائه واستخلاصه ، قبل خلق
الظلمات والأنوار . ورحمته الوارفة الشاملة ، الهامية الهائلة ، على الهضاب والوهاد
والنجد والأغوار . أقرب عوالم الشهادة والخلق ، إلى حضرة الحق ، على تعدد الرتب
وتفاضل الأطوار . منقذ الناس من البوار ، ومبوءهم من جوار الله خير الجوار .
نبي الرحمة والجهاد والغوار . المنصور على الأحزاب عند ما استداروا بمثوى نبوته على
الأطم والأسوار دور السوار . الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فهُمَا
أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار .

والرضا عن آله وأصحابه حمة الدمار ، ومقتحمة الغمار ، وباذل كرائم الأموال من
دونه ونفائس الأعمار ، القائمين في سماء ملته للاهتداء بسنتهم ، والإقتداء بسنتهم ،

مَقَامَ النجومِ الهادية والأقمارِ، ماصقلت مَدَاوِسُ النَّسيمِ سُيوفَ الأنهارِ، ونَجَلِ
الوَرْدُ من تَبَسُّمِ البَهارِ، وغازلت عيونُ زَهَرِ الحَبَرَةِ عُيُونَ الأزهارِ، وطرَدَ أدهمُ الليلِ
أشهبَ النهارِ .

والدُّعاءُ لتلك الأبوابِ، المتعددةِ الحِجَابِ، المعودةِ بِاجْتِلَاءِ غُرِّ الفُتُوحِ، والمَطَالَعِ
المشيدةِ المَصَانِعِ على العِزِّ المُنوحِ، والأَوَاوِينِ، المؤيدةِ الدَّوَاوِينِ، بالملائكةِ والروحِ،
بإِعْلَاءِ المَظَاهِرِ والصُّروحِ، وإِنارةِ الله تعالى بِأَهْلَةٍ تلكِ السُّرُوجِ سَاحَاتِ تلكِ
السُّرُوحِ، ولا زالت أَقْلَامُ بَشَائِرِهَا تَأْتِي على سُورَةِ الفُتُوحِ بِأَكْلِ الشُّرُوحِ .

فإنَّا كَتَبْنَاهُ لِمَثَابَتِكُمُ السَّاطِئَانِيَّةِ دَارِ الْعِزِّ الْأَحْمَى، وَالْمُلْكِ الْأَشْرَفِ الْأَسْمَى،
وَالصِّيتِ الْبَعِيدِ الْمَرْحَمَى، كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنْ عِنَايَتِهِ - وَقَدْ فَعَلَ - أَوْفَرَ مَقَاسِمِ النُّعْمَى،
وَجَعَلَ غِيثَ نَوَاهِهَا الْأَهْمَى، وَحَفَّظَ جَلَالَهَا مِنْ اللَّهِ الْأَهْمَى، وَدَامَتْ كَوَاكِبُ سُعُودِهَا
تَمُزَّقُ جَلَالِيبَ الظُّلُمَا، وَأَخْبَارُ بَاسِهَا وَجُودِهَا، وَسَعَادَةُ وَجُودِهَا، تُهْدِيهَا عَلَى الْبُعْدِ
رُكَّابُ الدَّأَمَا، وَتَرْفِرُ بِرِيَّاحِ آرْتِيَاكِهَا أَجْنِحَةُ بَنَاتِ الْمَا، مِنْ مَنَزَلِنَا الْمُحِبُّورِ،
بِسَعَادَةِ سُلْطَانِكُمُ الْمَنْصُورِ، وَخِزْيِ عَدُوِّهِ الْمُدْحُورِ، بِحِجَاءِ غُرْنَاطَةِ: دَارِ مَلِكِ الْجِهَادِ
بِجَزِيرَةِ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ، وَالْإِلَهَ عَنْهَا الدِّفَاعُ، وَأَنَارَ بِمَشْكَاةِ نُورِهِ الَّذِي وَعَدَ بِإِتْمَامِهِ
الْأَعْلَامَ مِنْهَا وَالْأَيْفَاعَ، وَوَصَلَ لَهَا بِشَرَفِ مَخَاطِبَتِكُمُ الْإِرْتِفَاعَ وَالْإِتِفَاعَ، حَتَّى تَشْفَعَ
بِتَهَانِيكُمُ الْأَوْتَارَ وَتُوتِرَ الْأَشْفَاعَ، وَالْإِلَهَ اللَّهُ لَدَيْنَا، بِنِعْمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَيْنَا،
قَدْ أَعْجَلَتِ اللِّسَانَ الشُّكُورَ، وَإِنْ أَسْتَنْفَدْتَ الرُّوْحَ وَالْبُكُورَ، وَالثَّقَّةَ بِاللَّهِ فِي هَذَا
الشَّعْرِ الْغَرِيبِ قَدْ كَثُرَتِ الْعَدَدُ الْمَنْزُورِ، وَالْحَقُّ الصَّرِيحُ قَدْ كَافَحَ الزُّورَ، وَالتَّوَطُّيْنُ عَلَى
الشَّهَادَةِ قَدْ شَرَحَ الصُّدُورَ، وَأَقْطَعَ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ وَالْدُّورَ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَقَامِ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ حَقِيقَةً لَا تُبَدَّلُ، وَأَدْوَاخُ عَلَانِهَا حَائِمُ الْحَمْدِ بِهَا تَهْدِلُ، وَمَحَافِلُ

شأنها تترآكم في سماءها الألوَّة والمندل ؛ [والحال ما علمتم : بحر زاحر الأمواج ، وعدو
وأفر الأفواج] ^(١) وحرم لولا أنقاء الله مفتحم السسياج ؛ وحياد صمرتها مضاربة الهياج ،
وداء على الأيام متوقع الأهتياج ، وعدد إلى الإصراخ والإنجاد عظيم الاحتياج ؛
فالنفوس إلى الله تُجهز وتسلم ، والصبيان في المكاتب تُدرَّب على مواقف الشهادة
وتعلم ، والألسنة بغير شعار الإسلام لاتنيس غالباً ولا تنكلم ، إلا أن عادة الخير
اللطيف ، تخفيف الذعر المطيف ، ونصر التزر الضعيف ، على عدد التضعيف ؛
والحال تُرجى بين الحرب والسلام ، والمكالمة والكلم ، وتأميل الجبر ، وأرتقاب عاقبة
الصبر ، على حمأة الدبر .

وإلى هذا فإننا أتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التي كان دفاع الله من دونها
سداً ، والملائكة جنداً ، والعصمة سورا ، والروح الأمين مددا منصوراً ، وأنها
استنفدت الوسع في أحشادها ، حتى ضاقت البلج عن أعواذها ، وبلغت المجهود
في استنفادها ، حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصيح بهم التاليب ، ويدمرهم
الصليب ، وقد سول لهم الشيطان يكاد تغر الإسكندرية شجاً صدورهم ، ومرمى
آمال غرورهم ، ومحوم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليتموا تغر الإسلام بصدمتها ،
ويؤودوا جنائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعزة ، ويتلقفوا في القدس
كرة الكزة ؛ ويقلصوا ما أمتد من ظلال الإسلام ؛ ويشيموا ^(٢) سيوف التغلب على
الشام ؛ ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم
الذى يقصدونه من كل فج عميق ، ويركبون إليه نهج كل طريق ، وقبر نبيهم الذى
يظفون بزيارته من الشوق كل حريق ، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء

(١) الزيادة من الريحانة وهى لازمة كما لا يخفى .

(٢) شام السيف غمده واستله ضد . والمراد هنا المعنى الثانى كما لا يخفى .

وشهيق، وشوقٍ بذلك الحبيبِ خَلِيق . ويقطّعون حبلَ المسلمين حتى لايتأتى بلوغُ فريق ولا غَرَضُ تشريق ، والله من وراءهم مُحِيط ، وبدمائهم مُشِيط ، وعباده بصير ، ولدينه الحقُّ وليٌّ ونَصِير ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فما هو إلّا أن صمّا جرادهم ، وخلص إليها مُرادهم ، وفاض عليها بحجرهم ، وعظم من المحاولة أمرهم ، حتى آسترك الشرك بعض أسوارها ، ونال النهبُ مستطرف ديارها ، وظننت أنها الوهية التي لا تُرَقَّع ، والمُصيبة التي غلّتها لا تُنقَع ، واشتعل الباس ، ودُعيَ الناس ، وأرى الشدة من تدارك بالفرج ، وأعاد إلى السعة من الحرج ، وأنشأ ربح النصر عاطرة الأرج ، ونصر حرب الإسلام من لا غالب لمن ينصره ، وحصر العدو من كان العدو يحصره ، وظهر الحق على الباطل ، والحالي بزينة الله على العاقل ، فخرج العدو الخاسر عما حازه والسيوفُ تُرهقه حيث تُلفيه ، والسهام تُثبته وتنفيه ، وغرماء كُرة الإسلام تستقضي منه دينها وتستوفيهِ ، والخرزى قد جَلَّ سبَاله الصُّب ، وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشُّب ، والغلب قد أخضع رقابه الغلب ؛ فكم من غريق أردته دروعه ، لمّا حشى بالروع روعه ، وطعيرٍ نُظمت بالسهمى ضلوعه ، فغلبوا هنالك وأقبلوا صاغرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فأى رحمة منشورة ضفت على الإسلام ظلالها ، وخطة نعمة أوسع نطاقها ورحب مجالها ، ومجلى صنيعة راق عيون المؤمنين جمالها ، فاهترت بها الأرض وربت ، وشكر الله جلّ جلاله أعربت ، وأستبشرت النفوس ، وذهب البؤس ، وضافا بمنّة الله اللبوس ، وظهرت عناية الله بتمامكم ، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم ؛ فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

(١) صمّا عليهم كنع طلع أنظر القاموس في باب المهموز .

الحرمين ، وإنَّها للوسيلة الكبرى ، والدَّريعةُ إلى سعادة الدنيا والأخرى ؛ وهى
عُهدَةُ الله التى يَصُونُها من كل أهْضام ، وقِلاَدَتُهُ التى ما كان يتركُها بغيرِ نِظام .
وكان من لطائف هذا الفتح الذى أجزَلَ البشرى ، وأوسعَ أعلام الإسلام نُشْرا ،
ورُودُه بعد أن شُفيتِ العِلَّة ، ونُصرتِ المِلَّة ، وبعد أن جَفَا الدهرُ وتجاوَى ، وعادى
ثُمَّ صافى ، وهَجَرَ ووَافى ، وأمرَضَ ثم عافى ؛ فلو ورد مُقدِّمُه قبل تاليه ، وقَدَّه متأخراً
عن كاليه ، أو كانت أوارِحه بعيداً ما بينها وبينَ أواليه ، لأَوْحشتِ الظُّنونُ وساءتْ ،
وبلغتِ الحمومُ من النفوسِ ماشاءتْ ؛ فإنَّ الإسلامَ كالجسدِ يتداعى كله لتألم بعضُه ،
ويتسأهمُ إخوانُه فى بسطه وقبضه ، وسماؤُه مرتبطةٌ بأرضه ، ونَفْلُه متعلِّقٌ بقرضه ،
فالحمدُ لله الذى خَفَّفَ الأثقال ، وألهمَ حالَ الضَّرِّ الانتقال ، وسوَّغَ فى الشُّكرِ المَقال ،
وزاروا قال ، وجمع بينَ إيقاظِ القلوب ، وإنالةِ المطلوب ، وأنَّ وجدَ العدو طعمَ
الإسلامِ مرّاً فما ذاقه ، وعُودَه ضلْماً فما أطاقه ، ورفعَ عن طريقِ بيتِ الله ماعاقه ،
وقادَ إليكم فى بُيوتكم فَضْلَ الجهادِ وساقه [وردَّ المكرَ السيِّئَ على العدوِّ وأحاقه ^(١)]
فما كانت هذه المَكيدةُ إلا داهيةً للكفرِ طارقةً ، ونَكْبةً لعَصَبِ التَّليثِ عارِقه ،
ومُعْجزةٌ من آثارِ النِّبىِّ الشَّريفِ لهذا الدينِ المَنيفِ خارقةً ، واستأصَلتْ للعدوِّ المالَ ،
وقَطَّعتْ الآمالَ ، وأوهنتِ اليَمينَ والشَّمالَ . فبادرنا عندَ تعرُّفِ الخبرِ ، المختالِ من
أثوابِ المَسرَّةِ فى أبهى الحِبرِ ، المُهْدَى أعظمَ العِبرِ ، إلى تهنِئتكم تَظيرُ بنا أجنحةُ
الإِرتياحِ ، مُباريةً للرياحِ ، وتستَفِرُّنا دواعى الأفراحِ ، بحسبِ الوُدِّ الضَّراحِ ؛ وكيف
لا يُسرُّ الیسارَ بيمينه [والوجهُ بيمينه ، والمسلمُ بدينه ، وخاطبناكم مهتين ولولا العوائق ^(١)]
التي لا تَبْرَحُ ، والموانعُ التي وَصَّحتْ حتَّى لا تُشْرَحَ ، ومكيدةُ هذا العدوِّ الذى يَأْسُوبُه
الدَّهرُ ويَجْرَحُ ، لم تَجْتَرِ بِإعلامِ القلمِ ، عن إعمالِ القَدَمِ ، حتَّى نتشرَفَ [بالورودِ على

(١) الزيادة من "الريحانة" .

(١) تلك المثابة الشريفة ، وفتازَ بزيارة الأبواب المنيفة ، فتنقضى [الفرض تحت رعيها ، وبركة سعيها ، لكن المرءَ جنيبُ أملِه ، ونيةُ المؤمنِ أبلغُ من عمله ؛ فهينئنا بما خولكم الله من ظفرٍ شهدت برضا الله مرأسه ، وأفترت عن غُورِ العنايةِ الربانيةِ مباسمه ، وتوقرت لديكم مواهبه ومقاسمه ، ويهيئ البيت المقدس مكان فضل الله ومنه ، وسلامة مجته ، ويهيئ الإسلام عصمة نغره المؤشر ، وطهارة كتابه المنشر ، وجمال عنوانه ، وقفل صوانه ، وباب إيوانه : مرفأ القسطنطاط ، ومركز لواء الرباط ، ومحط رحال الغتباط ، ومتخير الإسكندر عند البناء والإختطاط . ومما زادنا بيجحا بهذا الفتح ، وسرورا زائدا بهذا المنح ، ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام ، وتجلب عليه براً وبحراً عبدة الأصنام ، بحيث البرموصول ، والكفر بكثرة العدد يصول ، ونيران الحواري [متراية للعيان ، والفراخ القليلة] متوسطة ^(١) بين مختلف النحل والأديان ، والعدد لا ينسب ، والصريح إلا من عند الله لا يحسب ، فتتجدنا بالدعاء السنة فضلائه ؛ ونسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه ، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه ، ويعرفنا بركة أنبيائه ، وينصرنا في أرضه بملائكة سمائه .

وقد كانت اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذي ملأ اليد استكثارا ، والخلد اعتدادا واستظهارا ، والهيم فخارا ، وأضاء القطر أنوارا : جوابكم الكريم يئتم من نفحاته شدا الإذخر والخليل ، وتلتمس من خلال حافاته بركات الخليل ، وتقري الوجوه به آثار المعاهد ، وتلتمع من ثنایا وفادته بوارق الفوائد ، فأكرم به من وافد مخطوب ، وزائر مرقوب ، صدعنا به في حفل الجهاد اتحاء وافتخارا ، ثم صنناه

في كرائم الخزائن آفتاءً للخلف وأدخارا ، وجعلنا قِراه شُكراً معطارا ، وثناءً يبقى
في الخاقين مطارا ، ودعاءً يُعلي الله به لمقامكم السني في أولياته مئدارا ، ويجهز به
لملككم كما فعل أنصارا ، ويشيئكم الجنة التي لا يرضى السعداء بغيرها قرارا ،
والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدارا ، ويُقيم الشكر
ألزم الوظائف لحقكم أئبدارا ، والثناء أولى ماتحلى به مجدكم شعارا ، ويُقيمكم للإسلام
رُحما شديدا ، وظلا مديدا ، وسماء مِدرارا ، ما استأنفت البدور إبدارا ، وعاقب الليل
نهارا ، والسلام .

المقصود الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى صاحب مالى^(١))

وهو المستولى على التكرور وغانة وغيرها ، وهي أعظم ممالك السودان المسلمين
مملكة ، ولم أقف لأحد منهم على صورة مكتبة إلى الأبواب السلطانية ، إلا أن المقر
الشهابي بن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام على هذه المملكة
تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو منسى موسى ،
وذكر أنه ورد منه كتاب يمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته .

(١) كذا في الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنو)

ورسم مكاتبتَه أن تُكْتَبَ في ورق مربع بخطّ تخطّ المغاربة : فإن فضل من المكاتبَة شيء كُتِبَ بظاهرها ، وتُفْتَحَ المكاتبَة بِحُطْبَة مُفْتَتَحَة بِالْحَمْد ، ثم يَتَخَلَّصُ إلى المَقْصِدِ بَعْدِيَّةً ، ويأتى على المَقْصِدِ إلى آخره ، ورأيتَه قد خَتَمَ مكاتبتَه إلى الأبواب السلطانية بقوله : والسلامُ على من اتَّبَعَ الهدى . وكأن ذلك جهلٌ من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء ، إذ لا يَتَنَدُون إلى حقائقها .

وهذه نسخة كتابٍ ورد على الملك الظاهر « أبى سعيد برقوق » ووصل في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، صحبة ابن عمه ، مع هديةٍ بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكر فيه من أمر عَرَبِ جُدَامِ المجاورة لهم ، وهى في ورق مربع ، السطرُ إلى جانب السطر ، بخطّ مغربى ، وليس له هامشٌ في أعلاه ولا جانبيه ، ونِمة الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله الذى جعل الخطَّ ترأسلا بين الأَبَعد ، وتَرْجُمانا بين الأَقارب ، ومُصاحَفةً بين الأَحباب ، ومُؤنسًا بين العلماء ، ومُوحِشا بين الجُهَّال ، ولولا ذلك لبطلت الكلمات ، وفَسَدَت الحاجات . وصلواتُ الله على نبينا المصطفى ، ورسولنا المرتضى ، الذى أَعْلَقَ الله به بابَ النبوة وخَتَمَ ، وجعله آخرَ المرسلين بشيرا ونَذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسِرَاجًا مُنيرا ، مانَاحِ الوُرُق ، وما عاقَبَ الشُّرُوقَ الأَصِيل . ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمانُ وعلى ، رضى الله عنهم أجمعين .

من المتوكل على الله تعالى ، الملك ، الأجل ، سيف الإسلام ، وربيع الأيتام ،
 الملك المقدم ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ،
 ودهر وزمان : الملك ، العادل ، الزاهد ، التقى ، النقي ، الأتجد ، الأتجد ، الغشمشم ،
 نحر الدين ، زين الإسلام ، قطب الخلافة ، سلاله الكرماء ، كهف الصدور ، مصباح
 الظلام ، أبي عمرو عثمان الملك ، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم ، كرم الله
 ضريحه ، وأدام ذرية هذا بملكه - هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لآلنا ولا نخر -
 إلى ملك مصر الجليل ، أرض الله المباركة أم الدنيا .

سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر ، وأعذب من ماء الغمام واليم ، زاد الله ملككم
 وسلطانكم ، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم ، الذين يدرسون القرآن والعلوم ،
 وجماعتكم ، وأهل طاعتكم ، أجمعين .

وبعد ذلك ، فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا ، وهو ابن عمي ، اسمه إدريس بن محمد
 من أجل الحاجة التي وجدناها ، وملوكنا ، فإن الأعراب [الذين] يسعون جداما
 وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقرابتنا ، وغيرهم
 من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يُمارقون للدين ، فغاروا على المسلمين
 فقتلوهم قتلا شديدا ، لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا
 ملكنا ، عمرو بن إدريس الشهيد ، وهو أخونا ابن أبننا إدريس الحاج ، بن إبراهيم
 الحاج ، ونحن بنو سيف بن ذي يزن ، و[الد] قبيلتنا ، العربي القرشي ، كذا
 ضبطناه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، في بلد بنو كافة
 حتى الآن ، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ، ويبيعونهم لحلاب مصر والشام
 وغيرهم ، ويخندمون ببعضهم ، فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى
 أسوان ، فإنهم قد اتحدوا متجرا ، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ،

ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويحنون ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليترعوهم من أيديهم، وليتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسامون فصددوهم ولا تكذبوهم؛ فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصالحون، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيئون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تتخلوهم يسترقوا ويأعوا. قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقال الله تعالى لنبية عليه السلام ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وقال الله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم». وقال: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة». وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسامه» إلى آخره. وفي الحكمة: ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض (أراد به السلاطين) وعلى من تصل يده إلى ذلك (أراد بذلك القضاة والحكام والأمراء) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاء والعلماء) وإن لم يقدر فبقلمه، (أراد بذلك عامة المسلمين) أطل الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال عليه السلام: «كلكم راجع وكلكم مسئول عن رعيته». وقال في الحكمة: لولا السلطان لأكل بعضهم بعضاً. وقال تعالى لنبية داود عليه السلام ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ والسلام على من أتبع الهدى - ولم يورخ.

الطرف الثالث

(في المكاتبات الصادرة عن ملك "الكائِم" ولم أَقِفْ له على مكتبةٍ إلا أنه يُشَبِّه أن تكون المكتبة عنه نظير المكتبة عن صاحب "البرنو"
فإنه على قُرْب من مملكته والله أعلم

المقصود الرابع

(في الكتب الواردة من الجانب الشَّامِي، وهي بلاد الروم)
قد تقدَّم ذكر المكتبة إلى أمراءها، وأنَّ كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وأنقادوا
إلى طاعته الآن هو ابنُ عثمانَ صاحبُ برسا^(١).

القسم الثالث

(من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتبُ الواردةُ عن ملوك الكُفَّار،
وهي على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتبُ الواردة عن ملوك الكُرج^(٢))

الضرب الثاني

(الكتبُ الواردة عن ملوك الحبشة^(٣))

والعادةُ فيها أن ترد في قطع^(٣) باللسان^(٣) ولم أظفر بصورة مكتبة في هذا
المعنى إلا مكتبةً واحدةً وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب
اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات، وهو:

(١) لم يذكر في الأصل نموذجاً من المكتبة ولا ترك لها بياضاً كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجاً ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) بياض في الأصل .

أَقْلُ الممالك يَقْبَلُ الأرضَ ، وَيُنْهِى بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ المَلِكِ الظَّاهِرِ ، خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ ، أَنْ رَسُولًا وَصَلَ إِلَى مَنْ وَالِي قُوصَ ، بِسَبَبِ الرَّاهِبِ الَّذِي جَاءَنَا ، فَتَحَنَّنَ مَا جَاءَنَا مَطْرَانُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ وَنَحْنُ عَيْبُهُ ، فِيرُسِّمُ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ لِلْبَطْرِيَرِكِ [أَنْ] يَجْهِّزَ لَنَا مَطْرَانًا يَكُونُ رَجُلًا جَيِّدًا عَالِمًا ، لَا يَجْنِي ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً ، وَيُرْسِلَهُ إِلَى مَدِينَةِ "عَوَانَ" . وَأَقْلُ الممالك يُسِيرُ إِلَى نَوَابِ مَوْلَانَا المَلِكِ المَظْفَرِ : صَاحِبِ الْيَمَنِ مَا يَلْزِمُهُ ، وَهُوَ يُسِيرُهُ إِلَى نَوَابِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ ، وَمَا كَانَ سَبَبُ تَأْخِيرِ الرُّسُلِ عَنْ الْحَضُورِ إِلَى [مَا] بَيْنَ يَدَيِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ فِي سَكَارٍ (؟) وَالْمَلِكُ دَاوُدُ قَدْ تَوَقَّى ، وَقَدْ مَلَكَ مَوْضِعَهُ وَلَدَهُ ، وَعِنْدِي فِي عَسْكَرِي مِائَةُ أَلْفِ فَارَسٍ مُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَثِيرٌ لَا يُحْصَوْنَ ، وَالْكُلُّ غِلْمَانُكَ وَتَحْتَ أَمْرِكَ ، وَالْمَطْرَانُ الْكَبِيرُ يَدْعُوكَ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ آمِينَ ، وَكُلُّ مَنْ يَصِلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِنَا نَكُونُ لَهُ أَقْلُ الممالك ، وَنَحْفَظُهُمْ وَنَسَفِّرُهُمْ كَمَا يَجِبُونَ وَيَخْتَارُونَ ، وَأَمَّا الرِّسُولُ الَّذِي سَفَرُوهُ فَهُوَ مَرِيضٌ ، وَبِلَادُنَا وَخِمَةٌ . أَيُّ مَنْ مَرِيضٌ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ يَدْخُلُ إِلَيْهِ ، وَأَيُّ مَنْ شَمَّ رَائِحَتَهُ فَيَمْرُضُ فَيَمُوتُ . وَنَحْنُ نَحْفَظُ كُلَّ مَنْ يَأْتِي مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، فَسِيرُوا مَطْرَانًا يَحْفَظُهُمْ .

قلت : وَقَدْ تَقَدَّمَ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ كَلَامِ الْقَاضِي مَحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ ، فِي الْكَلَامِ عَلَى الْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنْ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَى أَهْلِ الْجَانِبِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ ، وَلَكِنَّ الْكِتَابَ الْمَذْكُورَ يَخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ هُنَاكَ مِنْ أَدْعَائِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَضْطِرَّارُهُ إِلَى اخْتِذَاكَ الْمَطْرَانِ مِنْ بَطْرِيَرِكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لَكَانَ يَشْمَخُ بِنَفْسِهِ عَنِ الْمَكَاتِبَةِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الزَّمَنِ الْمُتَقَدِّمِ .

الضرب الثالث

(الكتب الواردة عن ملوك الروم، ورأس الكل صاحب القسطنطينية)

وقد وقفت على كتاب ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربع عشرة وثمانمائة في درج ورق فرنجي في نحو عشرين وصلاً قطع النصف، والبياض في أعلاه وصل واحد، وفي أسفله وصلان، وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره، كل منهما تقدير إصبعين، ومقدار ما بين السطور متفاوت : فأعلاه بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوعة؛ ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كل سطرين قدر ثلاثة أصابع؛ ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر إصبعين؛ ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية [الدقة ب] قلم الرفاع الدقيق، وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحرمة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتاب معربة بترجمة بطرك الملائكية، بحضور سيف الدين سيف^(١) الترجمان، وهي :

المعظم، المجدد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر (فرج) ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر (برقوق) المحبوب إلى العزيز أكثر من أولاد مملكتي .

يُحيطُ علمه أني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون - أن شاء الله تعالى - سلطنتك المجددة طيبة في خير، وأن المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقت . ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت،

(١) لعله سودون الآتي بعد في الضرب الرابع .

ونتوَّكَّد أيضا المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد ، فإنَّ ذلك واجبٌ ،
وتتردَّد رُسُلُكم بكتبكم إلينا ، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى مُلككم ؛ وكان قصدنا أن نجهز
إليكم رسولا لكنَّ الفتنَ في بلادنا ، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تحت
مملكته ، ولم نعرف إلى أيِّ مكانٍ توجه ، أوجب تأخير ذلك ؛ وأنَّ حامل هذا الكتاب
المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمَّى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا ،
وله عادة بالتردُّد إلى مملكتم المعظمة ، ونحن نعلم أنَّ سلطنتك تُحبُّ الطيور الكواهي ؛
فجهزنا لكم صحبة المذكور نحس كواهي وبازدار ، ليكون نظركم الشريف عليهم ،
وكذلك على البطاركة والنصارى والكائنس على حُكم معدلة السلطان ومحبة ، والوصية
بهم ، ومعاونتهم ورعايتهم وإجراؤهم على جارى عوائدهم ، من غير تشويش على
مالِهم من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا ، واستمرار العناية بهم ،
مع أنَّ البطاركة عرَّفونا أنَّ مولانا السلطان يُرز مرسومه بمراعاتهم ، والإحسان
إليهم ، ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته ، ونُضاعفُ شكرنا من إحسانكم
على ذلك ، وتكونوا ان شاء الله تعالى طيبين ، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا ،
ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع ، فيرسم^(١) يعرفنا بها وينادِرُ بذلك .
والذي بآخره بالحمرة علامة الملك مضمونها (مانويك المسيحي بنعمة الله ،
ضابط مملكة الروم البلاوغي) .

(١) كذا في الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضرب الرابع

(الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس ، والجهات الشمالية ،

وما إلى ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى ، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب فى فرخة ورق فرنجى مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدى أو دونها ، بأسطر متقاربة ، باللسان الفرنجى وقلمه ، ثم يطوى طياً مسطحا ويعنون فى وسطه ، ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهرا من الطى ، ثم يُحرز ويختم بسعاة ، ويختم عليه بطمغة فى شمع أحمر على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب ، فاذا ورد على الأبواب السلطانية فكُتِّمته ، وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه فى ورقة مفردة وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره فى مقدمة الكتاب .

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل ، على يد قاصده نقولا البندقى فى سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانائة ، ترجمة شمس الدين سنقر ، وسيف الدين سودون ، الترجمة بالأبواب الشريفة ، فى فرخة ورق فرنجى مربعة متقاربة السطور ، وهو :

السلطان المعظم ، ملك الملوك « فرج الله » ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه . يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة ^(١) ، ويسأل الله أن يزيد عظمته : لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل المسالك الإسلامية كلها . ويُنهى ما عنده من الشوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فتنبه

والحجة لمولانا السلطان ، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحششين والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العرف في نغردمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحششين من التجار بشعر الإسكندرية المحروس ، وزجرهم بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم البهولة بين جنوسهم والضرر والقهْر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا ، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا ، وتعجبنا من ذلك : لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب ، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته ، ومحبتنا له ، ومناذاتنا في جميع مملكتنا بكثرة عدله ، ومحبتنا لطائفتنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا لجميع ثوابنا : إنهم يكرمون من يجذونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه ، والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم ، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر ، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، ويتدردوا إلى مملكته .



وهذه نسخة كتاب ورد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها ، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة ، ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التبرجمايين بالأبواب الشريفة ، وهو :

الملك المعظم ، ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ، الملك الناصر ، عظم الله شأنه .

يَقْبَلُ الأرض بين أياديهِ الكبطانَ والمستشارونَ، وَيُنْهَوْنَ أَنَّهُمْ أَنَاءَ اللَّيْلِ دَاعُونَ
 بطول بقاءه، مجتهدون في أَسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ وَالْمُودَّةِ الَّتِي لَا يَشُوْهُبُهَا كَدَرُ بَيْنِ الْقَوْمِونَ (٩)
 وبين مولانا السلطان، وَأَنَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ ثُمَّ حَرَامِيَّةٌ غَرَابٌ يَتَحَرَّمُونَ بِأَطْرَافِ هَذِهِ
 الْبِلَادِ، وَالْمِينَ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَنَحْنُ لَمْ نَزَلْ نُسْحِطْهُمْ بِالْمَرَكَبِ وَالْأَغْرَبَةِ، وَنَمْنَعُهُمْ
 مِنْ ذَلِكَ جُهْدَنَا وَقُدْرَتَنَا، حَتَّى إِنْ أَحَدًا صَارَ لَا يَحْسُرُ عَلَى الدَّخُولِ إِلَى مِينَا
 الْمَاغُوصَةِ جَمَلَةً كَافِيَةً، مَعَ أَنَّا كُنَّا خَلَصْنَا فِي الْمُدَّةِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْحَرَامِيَّةِ الْمَذْكُورِينَ
 خَمْسَةً وَعَشْرِينَ نَفَرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْرَمْنَاهُمْ وَأَطْلَقْنَا سَبِيلَهُمْ (١٠) [وَعَزَمْنَا أَنْ] نَجْهَظَّهُمْ
 إِلَى دِمِيَاطٍ أَوْ إِلَى ثَغْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنْ بَرِطَلْمَا أَوْسَقَ لِلوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ صَابُونًا فِي مَرَاكِبِهِ،
 وَكَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَهْرُبَ بِذَلِكَ، فَلِلْحَالِ عَمَرْنَا مَرْكَبًا كَبِيرًا، وَأَخَذْنَا بَرِطَلْمَا الْمَذْكُورَ
 بِالْمَحَارَبَةِ، وَأَحْضَرْنَاهُ إِلَى الْمَاغُوصَةِ، وَعَهْدْنَا بِطُرُوقِ الْمَرْكَبِ إِلَى شَخْصٍ يُسَمَّى
 (أُرْمَانُ سَلُورِيُون) وَهُوَ رَجُلٌ مُشْكُورُ السَّيْرِ، وَقُلْنَا لَهُ إِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى خَازِنِ الصَّابُونِ
 الْمَذْكُورِ وَيَسْتَشِيرُهُ إِنْ كَانَ يُوسِقُ شَيْئًا مِنَ الْأَصْنَافِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَيَجْهَظُّهُ إِلَى
 أَىِّ مَكَانٍ اخْتَارَهُ لِيَسْلِمَهُ لِيَدٍ مِنْ تَبَرُّزِهِ الْمَرَّاسِمُ الشَّرِيفَةُ بِتَسْلِيمِهِ، فَلْيَفْعَلْ، وَهَذَا
 الْقَوْلُ كُلُّهُ يَكُونُ دَلِيلًا عِنْدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ عَلَى صِدْقِ الْوَلَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِالصُّلْحِ،
 وَالْمُسْتُولِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ الْإِقْبَالِ عَلَى التَّجَارِ الْجَنَوِيَّةِ الَّذِينَ عِنْدَ مَمْلَكَتِهِ،
 وَكَفَّ أَسْبَابَ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، وَيَنْشُرُ مَعْدَلَّتَهُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ بَقَاءَهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الفصل السادس

[من الباب الثاني] من المقالة الرابعة

(في رسوم المكاتبات الإخوانيات - وهي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ؛ وهي في الغالب لا تخرج عن ضرين)

الضرب الأول

(أن تفتتح المكاتبة باسم المکتوب عنه)

وكان رسمهم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ « من فلان إلى فلان ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يزداد هنا في السلطانيات « وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله » كما تقدم في موضعه ، جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضا ، وكان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا ، وأنت ، ولي ، ولك ، وعندي ، وعندك ؛ وما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب ، وكانت خاتمة الكتب عندهم بالسلام .

الضرب الثانى

(أن تفتَح المكتبةُ بِاسْمِ المكتوبِ إليه : تفخيمًا لأمره ، وتعظيمًا لشأنه)
وكان رسمُهم في ذلك أن يفتَحُوا المكتبةَ بلفظ « إلى فلانٍ من فلان ، سلامٌ عليك ، فإنِّي أحمدُ اليك الله الذى لا إله إلا هو » وباقي الكتاب على ما تقدّم في الضرب الأول في الخطاب والختام وغيرهما .

الطرف الثانى

(فى رسوم الإخوانيات المحدثّة بعد السلف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(فى رسوم إخوانيات أهل المشرق ، وفيه أربعة مہايغ)

المهيغ الأول

(^(١) فى صدور الابتداآت ، وهى على أساليب)

الأسلوب الأول - أن تفتتح المكتبةُ بالدعاء ، وعليه أقصر أبو جعفر النحاس فى كتابه " صناعة الكتاب " وكان على رأس الثلاثمائة فى خلافة الراضى ؛ وقد تقدّم فى الكلام على مقدمات المكاتبات نقلًا عن " موادّ البيان " أن الأدعية كانت فى الزمن الأول تُستعمل فيما يتعلّق بأمر الدين : مثل قولك : أكرمك الله ، وحفظه الله ووفقه ، وحاطه ، وما أشبه ذلك ؛ فعُدل عنها قصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البقاء ، وإدامة العزّ ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافس فيه أبناء

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاول ونبه على أن النحاس أقصر عليه فتنبه .

الدين، جرياً على عادة الفرس . ثم رتبوا الدعاء على مراتب : بفعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العمر ، ثم بالمد في العمر ، وكذلك سائر المكاتبات على ما تقدم بيانه هناك .

ثم هو على ستة أضرب :

الضرب الأول

(المكاتبه من المروس إلى الرئيس ؛ وهو على صنفين)

الصنف الأول

(المكاتبه إلى الأمراء)

قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتبتهم : أطال الله بقاء الأمير، فإذا أردت أجل ذلك كله، كتبت : أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والسرور والغبطة، وأتم عليه نعمه في علو الدرجة، وشرف من الفضيلة، ونتابع من الفائدة، ووهب له السلامة والعافية في الدنيا والآخرة ؛ وبلغ بالأمير أفضل ما تجرى إليه همته ، وتسمو إليه أمنيته ، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل، وأجرل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر ، وكرامة دائمة ، ونعمة سابعة ، وزاد في إحسانه إليه ، والفضيلة لديه ، ولا أخلى مكانه منه .
قال : ومنه أطال الله بقاء الأمير ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمكينه ، وكبت عدوه .

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها - أطال الله بقاء الأمير، ومكن له في البسطة وتزايد النعمة ، وزاده من الكرامة والفضيلة ، والمواهب

الجليله ، في أعزّ عزّ وأدوم سلامة ، وأسبل عافية - ومنها - أطال الله بقاء الأمير ، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه ، وزاد في إحسانه لديه ، وأتمّ نعمته عليه ، ووصل له خير العاجل بجزيل الآجل .

الصنف الثاني

(المكتبة إلى القضاة)

وقد قال النحاس : إنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به للأمير ، غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي ، إلا أنّ الفضل بن سهل قال : يدعى لقاضي القضاة : أطال الله بقاء القاضي ، وأدام عزّه وكرامته ، ونعمته وسلامته ، وأحسن من كلّ جميل زيادته ، وألبسه عفوّه وعافيته . وإنه يدعى له أيضاً : أطال الله بقاء القاضي في عزّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسن زيادته ، وأتمّ نعمته عليه في أسبغ عافية ، وأشمل سلامة . قال : وقال غير الفضل : إن الكُفء يكتب كُفاه ومن كان خارجاً من نعمته : أدام الله بقاءك أيها القاضي .

الضرب الثاني

(المكتبة من الرئيس إلى المرعوس : كالمكتبة عن الوزير وقاضي القضاة)

وغيرهما ، والخطاب في جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهي على مراتب ، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عزّك وأكرمك ، وأتمّ نعمته عليك ، وإحسانه إليك وعندك . ودونه « أطال الله بقاءك ، وأعزّك وأكرمك ، وأتمّ نعمته عليك وعندك » . ودونه « أدام الله عزّك ، وأطال بقاءك ، وأدام كرامتك ، وأتمّ نعمته عليك ، وأدامها لك » .

ودونه « أعزك الله ، ومد في عمرك ، وأتم نعمته عليك ، وما بعده على توالى الدعاء
الذى تقدم » . ودونه « أكرمك الله وأبقاك ، وأتم نعمته عليك ، وأدامها لك » .
ودونه « أن تسقط وأدامها لك » . ودونه « أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك ،
وأدامها لك » . ودونه « أن تسقط وأدامها لك » . ودونه « حفظك الله وأبقاك ،
وأمتع بك » . ودونه « عافانا الله وإياك من السوء » .

قال في "صناعة الكتاب" : هذا إذا جرى الأمر على نسبته ولم تتغير الرسوم ،
وإلا فقد يعرض أن يكون في الدولة من هو مقدم على الوزير أو مساوئى به فتتغير
المكاتبه ، فقد كان عبد الله بن سليمان (يعنى وزير المعتضد) يكتب أبا الجيش (يعنى
محمارويه بن أحمد بن طولون) : أطل الله يا أحنى بقاءك إلى آخر الصدر ، للصاهره
التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كناه . ثم قال : فإن كان
الرئيس غير الوزير ، فرمى زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل : فيزيده ويكتبه بزيادة
التأييد ودوام العز . قال : ويدعى للفقهاء : أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته
وكفائته ، وأعلى جدك وصان قدرك ، وكان لك ومنك حيث لا تكون لنفسك .
أو : أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال ، وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى ،
وحباك برشده ، وقطع بينك وبين معاصيه . أو : أطل الله بقاءك بما أطل به بقاء
المطيعين ، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين . أو : أكرمك الله بطاعته ،
وتولأك بحفظه ، وأسعدك بعونه ، وأيدك بنصره ، وجمع لك خير الدنيا والآخرة
برحمته ، إنه سميع قريب . أو : تولأك من يمسك السماء أن تقع على الأرض
إلا بإذنه ، وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم . أو : أكرم الله عن النار
وجهلك ، وزين بالتقوى تجلك . أو : أكرمك الله بكرامه تكون لك في الدنيا عزاً ،
وفي الآخرة من النار حرزاً .

الضرب الثالث

(المكاتبة إلى النظراء، والمخاطبة فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" وأعلى ما يكتب في ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيدى «أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأيدك إلى آخر الصدر» . ودونه «أطال الله ياسيدى بقاءك» . ودونه «ياسيدى وأنى أطال الله بقاءك» . ودونه «أدام الله يا أنى بقاءك» .

الضرب الرابع

(المكاتبة إلى الأبناء، والخطاب فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" يكتب الرجل إلى ابنه : أبى أنت ، أو : فداك أبوك . أو : مات قبلك . أو : أسأل الله عز وجل حفظك وحياتك ورعايتك . أو : أرشدك الله أمرك . أو : أحسن البلاغ بك . أو : بلغ الله بك أفضل الأمل ، وأتم السرور بك ، وجعلك خلفا صالحا ، وبقية زاكية .

الضرب الخامس

(المكاتبة إلى الفتيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يدعى لهم : صرف الله سوء عنك ، وعن حظى منك . أو : أطال الله بقاء النعمة عليك وعلى فيك . أو : جعلت أنا وطايفى وتالدى فداك . أو : ملانى الله إزاءك ، وأدام بقاءك . أو : أستودع الله عز وجل ما وهب لى من خلقتك ، ومنحنى من أخوتك ، وأعزنى به من مودتك . أو : حاط الله حظى منك ،

وأحسن المدافعة عنك . أو : ببقائك مُنعت ، وفقدك مُنعت . أو : نفسى تفديك ،
والله يُقيك ، ويقينى الأسواء فيك . أو : ملأنى الله النعمة ببقائك ، وهنأنى ما منحنى
من إخائك . أو : أبقي الله النعمة لى ببقائها لك ، وبلغتها بك . أو : وقر الله حظى
منك ، كما وفر من المكارم حظك . أو : ملأنى الله ببقاك ، كما منحنى إخاك .
أو : دافع الله لى وللكارم عن حوائك ، وأمتعنى ببقائك ، وجمع أملى فيك بجمعه
المكارم لك . أو : زادك الله من النعم حسب تزيذك فى البر لاخوانك ، وبلغ بك
أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك .

الضرب السادس

(المكاتبة إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهم يُكاتبين على نظير ما تقدم من مكاتبة الرئيس والمرئوس
والنظير ، غير أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهم وكرامتك
ولا وأتم نعمته عليك ، ولكن وأتم نعمته لَدَيْكَ ، ولا فضله عندك ، ولا سعادتك ،
ولا فعلت ولا أن تفعل ، ولكن يقال : إن رأيت أن تمنى بذلك مننت به ، وما
أشبه ذلك ، وقد تقدم فى الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهم لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب فى تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف
عن نظير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك
وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب فى حق المكتوب إليه . على أنه قد تقدم
من كلام النحاس إنكار ذلك على من أعتمده محتجاً عليه بأنه لا أعظم من الله تعالى
مع أنه يقال فى الدعاء يا الله ونحو ذلك .

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلى الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعيةً مرتبةً على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه»، وأدام تمكينه وارتقاءه، ورفعته وسنائه، وكبت عدوه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيدَه، وكبت عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوباءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام نعماءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام عزه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام توقيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام سداً وإرشاده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توقيقه». ودونه «أدام الله عزه وسنائه». ودونه «أدام الله عزه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزه الله». ودونه «أيده الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وقفه الله». ودونه «سلمه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله». وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضي. أو بقاء سيدي. أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك في كل رتبة بحسبها.

وأعلم أن الداهيين من الكُتّاب إلى إجراء المخاطبة في المكتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما في معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيّدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدي ومولاي؛ ويتعَوّن المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويجعلون الإفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي، أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

ونحو ذلك . ثم توسّعوا في ذلك بفعلوا الدعاء متوسّطاً كلام الصدر على القرب من الابتداء ، مقدّمين بعض كلام الصدر عليه ، ومؤخّرين بعضه عنه . مثل أن يقال في المكتبة بشكر : إذا كان الشكر - أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان - ترجمان النية ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الإختصاص ، وسبباً إلى الزيادة ، وطريقاً إلى السعادة ، وكانت معارفه قد أحاطت بمعادنه ، واستولت على محاسنه ، فالسُن أنارها مع الصمت أفصح من لسانه ، وبيانها مع الجحود أبلغ من بيانه ، ونحو ذلك . ثم أحدثوا اصطلاحاً آخر أضافوه إلى الاصطلاح الأول ، فقدموا على الدعاء لفظ «كاتبنا» أو لفظ «كاتبى» رتبةً دون رتبة ، مثل أن كتبوا : كاتبنا - أطال الله بقاء الأمير - ونحن على أفضل ما عودنا الله من انتظام الأمور وسدادها ، واستقامتها بحضرتنا وأطرادها . أو كاتبى - أطال الله بقاء مولائى الحاجب - عن سلامة ينغصها فقدك ، ويتقصها فراقك ، وما يجرى مجرى ذلك . وربما أبدلوا لفظ كاتبنا أو كاتبى بلفظ كتبت بصيغة الفعل ، وربما أبدعوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار إلى مصطلحات اصطلاحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القديم : فخطبوا بالحضرة تارة ، وبالخدمة تارة ، وبالمجلس أخرى ، فكتبوا : كاتبى - أطال الله بقاء حضرة سيدنا الوزير ، أو سيدنا الأمير ، ونحو ذلك ، أو أسعد الله الحضرة ، أو أسعد الله الخدمة ، أو ضاعف الله جلال الخدمة ، أو أعز الله أنصار الخدمة . وربما كتبوا : صدرت هذه الخدمة إلى فلان . وقد يكتبون : صدرت هذه الجملة ، إلى غير ذلك من تفنّئاتهم التى لا يسع استيعابها ، ولا يمكن اجتماع متفرّقاتها .

قلت : وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتدائها على هذا المصطلح غير ممكن لأختلاف مذاهبهم في ذلك ، والذي تحصّل لى من كلام النحاس

وَأَبْنُ حَاجِبِ النِّعَانِ ، وَتُرْسُلُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِي ، وَالْعَلَاءُ بْنُ مُوَصَّلَايَا ، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْغَاءِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْمَكَاتِبِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ أَعْيَانِ
الدُّوَلِ عَلَى سَبْعَةِ أَسَالِيبَ :

الأسلوب الأول

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَ بِالْدَّعَاءِ

كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي إِلَى الصَّاحِبِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبَّادٍ بِالشُّكْرِ وَالتَّشَوُّقِ .

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الصَّاحِبِ الْجَلِيلِ ، فِي سَلَامَةِ دُنْيَا وَدِينِ ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَتَمَكُّينِ ،
وَتَمَامِ عِزٍّ وَتَأْيِيدِ ، وَثَبَاتِ وَطَاءٍ وَتَمْهِيدِ ، وَعُلُوِّ قَدَرٍ وَسُلْطَانِ ، وَتَعَاظِمِ خَطَرٍ وَشَانِ ،
وَتَوَلَّاهُ فِي نَفْسِهِ وَأَوْلِيَاءَهُ بِأَحْسَنِ مَا عُرِفَ وَأُلْفَ ، مِنْ نِعَمِ دَارَةِ الْحَلَبِ ، مَتَفَرِّعَةِ
الشَّعْبِ ، مَحْمِيَّةِ الْجِهَاتِ وَالْجَوَانِبِ ، مَحْجُوبَةٍ عَنِ النُّوَابِ وَالشَّوَابِ ، وَأَرَاهُ فِي حُسَادِ
فَضَائِلِهِ ، وَكَفَّارِ فَوَاضِلِهِ ، مَا عَوَّدَهُ فِيهِمْ مِنْ شَقَاءٍ جُدُودِهِمْ ، وَقُلُوبِ حُدُودِهِمْ ، وَحُلُولِ
النِّكَالِ بِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ الْعِصْمَةِ مِنْهُمْ . وَجَعَلَ حُكْمَهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْأَفْلَاقِ ، وَنَهْجًا
لِجَارِي الْأَقْدَارِ ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْهَا مَحْبُوبٌ مَطْلُوبٌ إِلَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَتَحَاوَاهُ ، وَلَا مَحْذُورٌ إِلَّا
أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَحَامَاهُ ، ثُمَّ كَانَ بَرُّؤُسٍ مَعَانِيْدِهِ حُلُولُهُ ، وَبِرِّقَابِهِمْ إِحَاطَتُهُ ، وَفَوْقَ
ظُهُورِهِمْ مَحْمَلُهُ ، وَعَلَى صُدُورِهِمْ مَجْثَمُهُ ، أَمْرًا جَزْمًا قَضَاهُ اللَّهُ لَهُ وَخَصَّهُ بِهِ ، وَأَعْطَتْهُ
الْأَيَّامُ عَلَيْهِ عَهْدَ أَمَانِيَا ، وَأَمَرَّتْ لَهُ بِهِ عَقْدَ ضَمَانِيَا ، عَاطِفَةً عَلَيْهِ بِطَاعَتِهَا وَمُؤَانَاتِيَا ،
مُغْضِيَةً لَهُ عَنْ نَوَائِبِهَا وَنَبَوَاتِيَا ، وَحَقِيقٌ عَلَيْهِ جَلَّ أَسْمُهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ ، وَيَسْمَعَ
هَذَا الدَّعَاءَ فِيهِ ، إِذْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْهِ فِي أَوْفَرِ عِبَادَةِ فَضْلَا ، وَأَعْمَرَهُمْ نَيْلًا ، وَأَجْرَهُمْ
أَدْبَا ، وَأَكْثَرَهُمْ حَسَبًا ، وَأَعْمَلَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَمَعُونَتِهِ ،

كتبت هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجليل ؛ ثم آنخرط في سلك مقصده إلى آخره .

الأسلوب الثاني

أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الابتداء بكلام مناسب للحال .
 كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضاً عن بعض الأمراء إلى أمير آخر، مبشراً بفتح :
 ومن أعظم النعم - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل - خطراً ، وأحسنها أثراً ،
 نعمة سكنت ثوره ، وأطفأت قوره ، وعادت على الناس بحمائل الصنع ، وجيليل النفع ،
 ونظام الأمور ، وصالح الجمهور ، فلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفاً ،
 والاعتداد بها متضاعفاً ، بحسب ما أزلت من المضره ، وجددت من المسره ،
 وأماطت من المحذور ، ونشرت من المأمول . وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ،
 ويوفوها من حمد الله قسطها ، ويتجزؤوه وعده الحق في أدائها ، وإطالة الإمتاع بها ،
 والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدى إليه ، ويعتقده وينطوي عليه ،
 ويؤدي فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستراة منه ، وأن خصنا من هذه النعم
 بذوات الفضل السابغ ، والظلل الماتع ، الجامعة لكبت العدو ومساءته ، وابتهاج الولي
 ومسرتة ، وهو المسئول جل اسمه وعز ذكره ، أن لا يسلبنا ما لبسناه من سرايلها ،
 وأجرنا من فضل ذيولها ، وعودناه من جلاله أقدارها ، وتعاظم أخطارها ، ولا يعبدنا
 معونه منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها ، ومُنتهى الطوق في البشر لها ،
 بمنه وطوله ، وقوته وحوله .

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كاتب من كذا وكذا ؛ ثم أتى على ذكر الفتح إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بلفظ « كتابي » كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله الحسن بن سعدان ، إلى نحر الدولة بن بويه في إشارة فتح .

كتابي - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل نحر الدولة - ومولانا الملك السيد صمصام الدولة وشمس الملّة ، جارٍ على أفضل حال ، جمع الله بينهما في تمام عزٍّ ونصرٍ ، ونفاذٍ أمرٍ ونهى ، وعلوِّ كلمةٍ ورأيٍ ، وسُبُوغٍ موهبةٍ ونعمه ، وشكر الله يستريد من فضله ، ويستدرّ المادة من طوله ؛ وأنا جارٍ فيما أُحمّله من أعباء خدمتهما ، وأتولاه من تعاطم شئونهما ، على أجمل ما عود الله وزراء هذه المملكة المناصبين لها ، وأوليائها المحامين عنها ، من هداية إلى مرآشد الأمور ، وتوفيقٍ لصواب التدبير ، والحمد لله رب العالمين ، وقد كان كذا وكذا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بلفظ « كتبت » كما كتب الصابي إلى صاحب الجيش في تعزية : كتبت - أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش - والعين عبرى ، والكبد حرى ، والصبر مسلوب ، والعزاء مغلوب ، بالفجعة في سيدي فلان نصر الله وجهه ، وكرم مُنْقَلَبِهِ ، التي هدّت الجلد ، وفَتّت في العضد ، وبَسَطَتْ عُذْرَ الْجَزُوعِ ، وَهَجَّتْ حِلْمَ الْحَلِيمِ ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وإلى أمره صائرون ، وعند الله نَحْتَسِبُهُ غُصْنًا ذَوِي ، وشهاباً خَبَا ، وعَلَقَ مِصْنَةَ عَلِقَتْ بِهِ أَيْدِي النَّوَابِ ، وتَحْيَرَتْ سِهَامُ الْمَصَائِبِ ، وقارنت بين قلوب الأبعد والأقارب ، والخواص والعوام في التألم لفقده والأستيحاش لمصرعه ، والكتابة لوقوع المهدور به ، وعزّ على أن يجري لساني بهذا القول ، ويدي بهذا الخط ، إلى آخر المكاتبة .

الأسلوب الخامس

أن يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِالْخَطَابِ : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه ، إلى شجاع الدولة وزير دمشق ، بعد هلاك زُنَيْكِ بن أَقْسُنُقَر .

أيها السيد الرئيس المحامي عن سِرْبِهِ ، والذي قَصَّرَ إلّا في المَعَالَى ، رَبَّ نَاءٍ بِجِسْمِهِ وهو دَانٍ بقلبه ، وغريب إذا نسبتَ وأَمِيرٌ على دِمَشْقٍ مطاع في صَحْبِهِ ، وله بالعِراقُ إِخْوَانٌ من حِرْبِهِ ، إلى آخر المِكاتِبَةِ .

الأسلوب السادس

أن تُفْتَحَ الْمِكاتِبَةُ بلفظ : «أنا» كما كتب الصّابِي عن نفسه إلى الأثير أبي الحَسَنِ يَهْنَأُ بِعِيد .

أنا - أطل الله بقاء سيّدنا الأستاذ الأثير - أَحَاوِلُ الخِدْمَةَ لَهُ وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ مِنْذُ وَصَلْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ ، فَيَعْتَرِضُ دُونَ ذَلِكَ عَوَارِضٌ يَجْرِي بِهَا الْمَقْصُورُ ، إِلَى الْحَيْنِ الْمَوْقَتِ الْمَسْطُورِ ؛ وَقَدْ عَلِمَ مِنِّي وَشُرِعَ عَنِي كَذَا وَكَذَا ، إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ .

الأسلوب السابع

أن تُفْتَحَ الْمِكاتِبَةُ بلفظ « صَدَرَتْ » أو « أَصْدَرْتُ » كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفَرَجِ سَعْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ تَشَوُّقًا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِلَى فُلَانٍ ، وَلَوْاعَجُ الْأَشْوَاقِ إِلَيْهِ مِتْصَاعِفَةٌ مُتَرَادِفَةٌ ، وَاسْتَمَرَّارُ الصَّبْرِ عَلَى الْبُعْدِ عَنْهُ قَدْ رَثَّ قُوَاهُ ، وَوَهَنَ عُرَاهُ ، وَأَعُوْزْنَا وَجَدَانُهُ إِذْ عَنَتْ دِكرَاهُ ،

وإن كان ذكره سَمِيرَ الخاطر، وَتَجَاهَ الناظر، والغريمَ المَلْأَمَ، الذى يستحقُّ غالبَهُ
الليِّبُ الحازم، إلى آخر الكتاب .

المهيع الثانى

(فى الأجوبة على هذا المصطلح ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

أن يُفْتَحَ الجواب بما يُفْتَحُ به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوصول الكتاب
والجواب عنه : إما ملاصقاً لأوّل الابتداء ؛ وإما بعد كلام طويل .
فأما ما هو متصل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتابى — ووصل كتاب مولائى وفهمته ، وجلّ عِندى قدره وموقعه ، وسكنتُ
إلى مادّلٍ عليه من سلامته ، وسألتُ الله أن يُسَبِّحَ عليه ظلّها ، ويُلِّيه نِعَمه كلّها ؛
فأما ما ذكره من كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

وأما ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضاً عن نفسه إلى الصاحب
ابن عبّاد .

كتابى — أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافى الكُفاه — وليس من جارحةٍ
إلا ناطقةٌ بشكره وحمده ، ولا فى الدهر جراحةٌ إلا عافيةٌ بفضلِهِ ورِفده ، وأنا مستمرٌّ له
على دعاء : إن خلوتُ من أن يكونَ عائداً لصلاحي ، ورأيتُنا لجناحى ، لآلئِ مَنِّهِ عن
الأحرار العائشين فى نداه ، المستظِلِّين بِذِراهِ^(١) ، فكيف وأنا أوّلُ ساهرٍ فى مرابعه ،

(١) الذى ما يستكن فيه الانسان والظل راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِد لِشِرائِعِه ، وأَحْوالِ جاريَةٍ عَلَى اسْتِقامَةٍ أَقْوى أَسبابِها تَصَرُّفُ الأَيامِ عَلَى آرائِهِ ،
وَأَتِّباعُها إِشارَهِ في أَوْلِيائِهِ وأَعْدائِهِ ؛ والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ ، قَضاءُ حَقِّهِ وَأَقْضاءُ
لَمَزيدِهِ ، واسْتِدامَةُ لِلنَّعْمَةِ عِنْدَهُ ، الَّتِي اسْتَحْصَفَتْ في أَيْدِينا سَعَمًا ، وسالَتْ عَلَيْنا
شِعاِبُها ، وعَمَرَتْنا سِجَالُها ، وتَفَيَّأتْ لَنا ظِلالُها ، وما يَزالُ بَينَ رَغْبَةٍ مَولانا الصَّاحِبِ الجَليلِ
كَافِي الكُفاةِ - أَدامَ اللهُ عُلُوَّهُ ، وكَبَتْ عُدُوَّهُ ، في عَبدِهِ ورَغْبَةٍ عَبدِهِ إِلَيهِ سِرٌّ مَكْنُونٌ
في الصُّدُورِ ، ومَسْتورٌ تَحْتَ الصُّلُوعِ ، فَهَما يَتَنَاجِيانِ بِهِ عَلَى بَعدِ الدارِ ، وَيَلْتَقِيانِ
عَلَيْهِ بِالْأَفْكارِ ، فَإِنْ تَطَلَّعَ مِنْ حِجابِ القُلُوبِ ؛ وشَدَّ مِنْ ظُهورِ الغُيوبِ ، فَإِنَّ ظَهورَهُ
يَكُونُ مِنْ جِهَتِهِ في نَفَحاتِ الإنعامِ ؛ وَمِنْ جِهَتِي في ثَمَراتِ الكلامِ . وقد وَصَلَ كِتابُهُ
المُخَطوطُ بِكَرَمِهِ لا بَقائِمَهُ ، إلى صَنِيعَتِهِ المائِلِ بَينَ يَدَيْهِ بِهَمَمِهِ لا بَقَدَمِهِ ، فلم يَسْتَطِعْ
أَنْ يَنْهَضَ مِنَ الفِكرِ ، إِلَّا بِقَدَرِ ما يَريُّ سَاحَتَهُ مِنَ الكُفْرِ ، وَيَلْغُهُ إلى آخِرِ الإِجْتِهادِ
والْعُدْبِ ؛ وأَسأَلَ اللهُ أَنْ يَطِيلَ بقاءَهُ لِلأَفْضالِ المَأخُوذِ مِنْهُ ، وَالْفَضْلِ المَأخُوذِ عَنْهُ ،
وَالْعِلْمِ الَّذِي يَزْخَرُ بِهِ بِجُودِهِ ؛ وَالْفَخْرِ الَّذِي يُسْحَبُ لَهُ ذِيلُهُ ، وَالْعِزِّ الَّذِي ضُرِبَ عَلَيْهِ
رُواقِعُهُ ، وَالسُّلطانِ الَّذِي أُلْقِيَ إِلَيْهِ اسْتِحْقاقُهُ ، وَالأَمْرِ وَالنَهْيِ الَّذينِ يَحْويهِما تَرانَا
وَأَكْتِسابا ، إِذا حَواهُما غَيرُهُ غُلُولًا وأَغْتَصَبا ، بَمنَّةٍ وطُولِهِ ؛ وقد كان كذا وكذا .

الضرب الثاني

(أَنْ يُفْتَحَ الجَوابُ بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كَتَبَ الصَّابِي عَنِ الوَزيزِ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدانَ في جَوابِ كِتابٍ وَرَدَ عَلَيْهِ .
وَصَلَ كِتابُكَ - أَطالَ اللهُ بقاءَكَ - وَفَهِمْتُهُ ، وأَدَّى فُلانٌ ما تَمَلَّه عَنْكَ وَوَعِيتُهُ ،
وَأَزْدَدْتُ بِهِ بَصِيرَةً في سَدادِكَ وَمَعْرِفَتِكَ ، وَفَضْلِكَ وَحَصافَتِكَ ، واجْتِماعِ الأَدواتِ
الجَميلَةِ فيكَ ، الداعِيَةِ إلى إِعلاءِ مَحَلِّكَ ، وَحَميدِ حالِكَ ، والثَّقَّةِ بِكَ ، وَالإِسْتِنامَةِ إِلَيْكَ ،

وأنهيت ذلك إلى مولانا الملك فلان ، فأصغى إليه مستمعاً ، وأوجب لك به حقاً متضاعفاً ، وأمرني بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج البغواء في جواب كتاب :

ورد كتابك مشافهاً من البر ، ومؤدياً من الفضل ، ومتحملاً من المن ، مانحاً من الإنصاف إلى الإسراف ، وقرن الإكرام بالإنعام ، ولم أدر أى المنح به أشكر ، ولا بأى العوارف له أعترف : أبما تحمله من جميل نيته ، أم ما أدنى من جليل مخاطبته ، أم ماناجتني به فوائد ملاطفته ، أم ما أعتمدني من حلاوة مفاوضته ، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطولها بشكر ، ولا أقاومها بمنة اعتداد : وهو ابتداءه إياي من المكاتبة بما أحرز به على عادته قصص السبق ، وزاد على الرغبة مبرها وبصادق الود محبها ، وإلى البسط دليلاً ، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعثاً ، ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا .

المهية الثالث

(في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح)

وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتمات ، ولا ما يقتضى ملازمة اختتام معين لصدر معين ، بل ذلك موكل إلى رأى الكاتب لا يراعى فيه غير علو الرتبة وهبوطها ، حيث تفاوتت رتب الاختتمات عندهم .

ثم الاختتمات لديهم على أنواع شتى .

منها — الاختتام باستمache الرأى ، وهو على مراتب : أعلاها «ولمولانا علو الرأى في ذلك» كما كتب الصابى في خاتمة كتاب : ولمولانا علو الرأى في تشریف خادمه

بالقبول ، والتقدم بإعلامه بالوصول ، واستخدامه بما يتعلق بأرابه وأوطاره - ومن
نظائر ذلك وأشكاله - إن شاء الله تعالى .

ودون ذلك - الاختتام بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابي
في خاتمة كتاب بشارة بفتح ، فإن رأى سيدي أن يعرفني موقع هذه البشري منه ،
ومقابلتها بالشكر الواجب عليها ، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله ، ليكتب الله به
عدوه وعدونا ، ويكاتبني بما أنطلع من أحواله وأخباره ، وأتعمد إسعافه به
من مآربه وأوطاره ، فإنني أعتده شريكاً لنا مساهماً ، وخليطاً مفاضاً ، فعل
إن شاء الله تعالى .

ودونه « فرأيك في كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج البغاء في خاتمة كتاب في الحث
على مواصلة الكتب ، فرأيك في إيناسنا بكتبت متضمنة ماؤثره من أنيساطك ،
ونعلمه من أخبارك ، موفقاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأي معنى كان فرأيك دون
فإن رأيت .

وذكر ابن حاجب الثعمان أن أعلى المراتب « وللآراء العالية فضل السمو ومزيد
القدرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلاني فضل وسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة
الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة مولانا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة
مولاي العالی » . ودونه « ورأيه مؤثقا » . ودونه « ورأيه السديد » . ودونه
« ورأيه الأرشد » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحب أن يفعل كذا » .
ودونه « ويجب أن يفعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه
« وانحذر المخالفة » .

ومنها - الاختتام بالدعاء، كما كتب الصابي خاتمة كتاب «وأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَهُ، وَيَصِلَ إِخَاءَهُ، وَيَحْفَظَهُ بَعِيدًا وَقَرِيبًا، وَيَرْعَاهُ غَائِبًا وَحَاضِرًا».

ومنها - الاختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابي في خاتمة كتاب؛ وأنا أسأله أَنْ يُوَصِّلَنِي بِكِتَابِهِ، مُضَمِّنَةً أَخْبَارَهُ الطَّيِّبَةَ، وَأَمْرَهُ الْمُتَمَثِّلَ، وَأَوْطَارَهُ وَمُهَمَّاتِهِ، مُعْتَمِدًا بِذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

ومنها - الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة في غير الضروري، كما كتب الصابي في آخر مكاتبة، وما أَطَالِبُ سَيِّدِي بِالمَكَاتِبَةِ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ الْعَارِضَةِ؛ فَإِنَّهُ يُفِيدُنِي بِهَا جَمِيلًا أَشْكُرُهُ، وَيُسْتَفِيدُ مِنِّي سَعْيًا يَجِدُّهُ، فَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِمَّا يَشْغُلُ أَوْقَاتَ رَاحَتِهِ، وَيُسَدُّ فُرْجَ خَلْوَتِهِ، فَإِنِّي أَسْتَعْفِي مِنْهَا أَسْتَعْفَاءَ الْمُتَقَرَّبِ إِلَيْهِ، الْمُؤَثِّرِ لِمَا خَفَّ عَلَيْهِ، وَلَهُ فِيمَا سَأَلْتُ فَضْلُ النَّظَرِ فِيهِ، وَالْإِسْعَافِ بِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

ومنها - الاختتام بالتحذير من المخالفة، كما كتب الصابي في خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم: وَلْيُكْتَبْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَبْرٍ مِنْ عَنِي أَنْ يَظْفَرَ بِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ، أَوْ يَقِفَ عَلَى مَوْضِعِهِ، أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ خَبَرِهِ، وَلْيَحْذَرُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي ذَلِكَ. إلى غير ذلك من الاختتمات التي لا تحصى كثرة.

وقد ذهب كثير من الكُتَّاب [إلى عدم تفضيل بعض الاختتمات على بعض] على أَنَّ^(١) ابن حَاجِبَ الثُّمَانِ قد قال في "ذخيرة الكُتَّاب" إِنَّ أَعْلَى ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ: وَلِلْأَرَاءِ الْفَلَائِيَةِ فَضْلُ السُّمُوِّ وَمَزِيدُ الْقُدْرَةِ. ودونه «وَلِرَأْيِ الْمَجْلِسِ الْفَلَائِيِ فَضْلُهُ وَسُمُوُّهُ». ودونه «وَلِرَأْيِ الْحَضَرَةِ الْفَلَائِيَةِ فَضْلُهُ». ودونه «وَلِرَأْيِ حَضَرَةِ سَيِّدِنَا أَسْمَى». ودونه «وَلِرَأْيِ حَضَرَةِ مَوْلَايَ الْعَالِي». ودونه «وَلِرَأْيِهِ».

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتسمي الكلام وعبارة ابن حَاجِبِ الثُّمَانِ تحدثت في الصفحة

مَوْفَقًا . ودونه « ورأيه السَّديد » . ودونه « ورأيه الأرشِدُ » . ودونه « والمؤثَّر كذا » . ودونه « فأحبُّ كذا » . ودونه « ويحبُّ أن يفعل كذا » . ودونه « وسبيله أن يعتمد كذا » . ودونه « فافعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « وأحذر المخالفة » .

المهيع الرابع

(في عُنوانات الكتب على هذا المصطلح ، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى — أن يكون العنوانُ من الرئيس إلى المرئوس ، قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن العُنوانات من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب :

(الأولى) أن يكتبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطلال الله بقاءه وأعزه » ، وفي الجانب الأيسر « من فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه إن لم يكنه الإمام ؛ فإن كناه ، كتب « من أبي فلان » ، والقاضي في معنى ذلك .

(الثانية) أن يكتبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطلال الله بقاءه » فقط ، ويكتبَ الأسم ^(١) ولا يكتبَ وأعزه .

(الثالثة) أن يكتبَ في الدعاء للكتوب إليه ، أدام الله عزه .

(الرابعة) أن يكتبَ أعزه الله .

(الخامسة) أن يكتبَ أكرمه الله وأدام كرامته .

(١) أى أسم الوزير في الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزه أى في الدعاء للكتوب إليه الذى هو في الجانب الايمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتَبَ أكرمهُ اللهُ ، وفي ذلك يَكْتَبُ أَسْمُ الوَزيْرِ في الجَانِبِ الأيسر .

(السابعة) أن يُكْتَبَ أبْقَاهُ اللهُ ، ولا يَذْكُرُ أَسْمُ الوَزيْرِ في هذه المَرتَبَةِ ومابَعدَها .

(الثامنة) أن يَكْتَبَ حِفْظَهُ اللهُ ولا يَكْتَبُ أَسْمُ الوَزيْرِ .

(التاسعة) أن يَكْتَبَ عَافَاهُ اللهُ .

وعلى نحو ذلك جرى أبْنُ حَاجِبِ النُّعْمَانِ في ”ذخيرة الكُتَّاب“ فقال : إنه يَبْدَأُ في الجَانِبِ الأيمن بذكر المَكْتُوبِ إليه ونُعُوِيهِ وَكُنْيَتِهِ وَأَسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ وَتَسْمِيَةِ المَشْهُورِ مِنْ نَاحِيَتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ بَلَدِهِ ؛ ثم يَذْكُرُ المَكْتُوبَ عَنْهُ في الجَانِبِ الأيسر بِأَسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ ؛ فَإِنْ كَانَ الكُتَّابُ عَنِ الوَزيْرِ ، ذَكَرَ كُنْيَتَهُ في الجَانِبِ الأيسر ، إِنْ كَانَ الإِمَامُ أَمْرَهُ أَنْ يَكَاتِبَ مَتَكْنِيًّا أَوْ مَتَلَقِّبًا .

وقد سبق في الكلام على أصول المَكَاتِبَاتِ في أوَّلِ البَابِ الثَّانِي مِنْ هَذِهِ المَقَالَةِ أَنَّ مِنَ السَّلَفِ مَنْ كَرِهَ لِأَبِي فُلَانٍ وَقَالَ : الصَّوَابُ أَنْ يَكْتَبَ إِلَى أَبِي فُلَانٍ . قَالَ فِي ”صِنَاعَةِ الكُتَّابِ“ وَيَكْتَبُ : لِأَبِي الحَسَنِ ، فَإِنْ أَعَدَّتْ الكُنْيَةَ فِي النَاحِيَةِ الأُخْرَى رَفَعَتْ فَقُلْتُ أَبُو الحَسَنِ عَلَى بَنٍ فُلَانٍ عَلَى المَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ أَوْ عَلَى إِضْمَارِ مَبْتَدَأٍ ، وَإِنْ شِئْتَ خَفَضْتَ عَلَى البَدَلِ ، فَإِنْ لَمْ تُعِدْ الكُنْيَةَ كَانَ الخَفِضُ أَحْسَنَ فَقُلْتُ لِأَبِي الحَسَنِ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ كَتَبْتَ إِلَى رَجُلَيْنِ كُنْيَةُ كُلِّ مِنْهُمَا أَبُو الحَسَنِ ، كَتَبْتَ لِأَبَوَيْ الحَسَنِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ يَقَالُ لَهُ الحَسَنُ ، فَإِنْ كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا وَلَدٌ يَقَالُ لَهُ الحَسَنُ ، جَازَ أَنْ يَكْتَبَ لِأَبَوَيْ الحَسَنِ . قَالَ : وَالِاخْتِيَارُ أَنْ يَكْتَبَ لِأَبَوَيْ الحَسَنِ أَيْضًا ، لِأَنَّ المَعْنَى لِلَّذِينَ يَقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَبُو الحَسَنِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكْتَبَ إِلَى الرَّجُلَيْنِ الَّذِينَ يَكْنِيَانِ بِأَبِي الحَسَنِ : لِأَبِي الحَسَنِ بفتح الباء وكسر الياء على لغة

من قال جاءني أبك ، والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة ، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء ، الأصل لأبين بكسرها أيضا ، سقطت النون للإضافة على لغة من قال : جاءني أبوك^(١) يعني بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر ، كما يقال لفتى الحسن .

قال في " ذخيرة الكتاب " وإن كان الكتاب إلى اثنين وكثايتهم مختلفة : كأبي جعفر ، وأبي منصور ، وأبي بكر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كثايتهم متفقة مثل أن تكون كنية كل منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العنوان من المرءوس إلى الرئيس . قد ذكر « النحاس » عن الفضل بن سهل أنه إذا خُوطب الكُفء بجعلني الله فداءك بالصدر الكامل ، فأحسن دُعائه للعنوان ، أعزّه الله وأطال بقاءه ؛ وذكر أنه إذا كُتِب بأعزّه الله فأجمل العنوان مدّ الله في عمره . قال في " صناعة الكتاب " ولا يتكّن الرجل في كُتبه ، إلا أن تكون كنيته أشهر من اسمه فيتكّن على نظيره ، ويتسمّى لمن فوقه ؛ ثم يلحق المعروف بأبا فلان ، أو المعروف بأبي فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما تُوجب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوان من الرجل إلى أبنه ومن في معناه ، قد ذكر النحاس أنه يُعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته .

(١) كذا في الأصل ولم نعثر في كتب النحو على هذه اللفظة ولعله تحريف من التامخ والأصل جاءني أبك يعني بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله إلى اثنين فأكثر وكثايتهم ... تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكون المكتوب إليه امرأة . قال في "صناعة الكتاب" :
 إن كان المكتوب إليه أم الخليفة ، كتب : للسيدة أم فلان أمير المؤمنين ، وإن
 كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهوداً إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أم فلان وليّ
 عهد المسلمين ، وإن كانت امرأة رجل جليل ، كتب للحرّة أم فلان ، ولا يكتب
 اسمها ، ويدعو لها بالدعاء الذي يكون خطاباً به .

هذا ما كان الحال عليه في زمن النحاس في خلافة الرازي وما حوّلها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في "ذخيرة الكتاب" أن الحال تغير عن ذلك عند
 تغير المكاتبات إلى المجلس العالى ، والحضرة السامية ، وما يجرى مجرى ذلك ، ثم قال :
 فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوته ، فيجب
 أن يكنّى عن نفسه بالملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم . وإذا كتب : الحضرة
 السامية أو العالمة ونعوتها ، فيجب أن يكنّى عن نفسه الخادم أو خادمها أو عبدها .
 وإذا كتب : حضرة سيدنا ونعوتها ، فيجب أن يكنّى عن نفسه خادمها أو خادمه
 وعبدها أو عبده . وإذا كتب : حضرة مولانا ونعوته ، فيجوز أن يكنّى عن نفسه ماشاء
 من ذلك . قال : وفي الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبتة ،
 بل له أن يكنّى عن نفسه بما شاء مما تقدّم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبة من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكنّى : حضرة
 الفلانى بغير مولاي — ودونه : الفلانى بغير حضرة ، وكنيته ونعوته واسمه واسم أبيه ،
 ويكنّى عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروف مشهور ، ويزيد
 في اسمه واسم أبيه ألفاً ولا ما ، إن كانا مما يجوز أن يزداد [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس
 إلى الرئيس وكنّى عن نفسه بما كنّى ، فيجب أن يحذف من اسمه واسم أبيه الألف

واللام . قال : وللرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكفايات التي تليق بمنصبه وأسمه وأسم أبيه ونعته المقترن بأمر المؤمنين ، مثل ناصر أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصد الثاني

(في [رسوم] إخوانيات أهل المغرب)

وعادتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاباً الموجهة ، مثل : أنت ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربما خاطبوا الواحد بجمع تعظيماً للكتوب إليه ، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" ولا يعرف ذلك لغيرهم ، وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً ، وفيه جملتان :

[الجملة الأولى]

(في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في ابتداء المكاتبات ، وهى على طرق)^(١)

منها — أن تفتح المكتبة بالدعاء : إما بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر : أطال الله بقاء سيدي الأعلى ، ومفرعى في الجلى ، متممة عليه النعم ، ميسرة لديه اللهم ، أقول بدءاً أيديك الله : لقد أعشى الناظرين سنك ، كما أعيا الطالبين مسعك ، ولئن فئت الجميع ، لقد أبدعت الصنيع ، فلا غاية لمجد إلا وأنت آتيها ، ولا ذروة لعز

(١) بيض لذلك في الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إِلَّا وَمَنْ طَبَّكَ بَانِيهَا ؛ لَكَ الْهُدَى وَالنَّاسُ ضَلَالٌ ، وَفِي يَدَيْكَ الضُّوْءُ وَالْكُلُّ أَغْفَالٌ ؛
وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطَّرِفِ بْنِ عَمِيرَةَ : أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَخِ السَّرِيِّ الْكَرِيمِ ، الْحَرِيِّ
بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّعْظِيمِ ؛ أَوْحَدِ فُرْسَانَ الْإِحْسَانِ ، وَوَاحِدَ عِقْبَانَ الْبَيَانِ ؛ وَلَا زَالَ قَلَمُهُ جَالِيَّ
بِدَائِعِ السَّحَرِ ، جَالِبَ بَضَائِعِ الشَّحَرِ ، مَغْبُوطَ السَّبْقِ ، عِنْدَ كَلَالِ جِيَادِ الْكَلَامِ ، مَبْسُوطَ
الرِّزْقِ ، فِي حَالِ إِمْلَاقِ الْأَقْلَامِ ، إِنْ ذُرِكْتُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - الْبَلَاغَةُ فَمِنْ عَلَى مَوْرِدِهَا
يُسَاجِلُكَ ، أَوْ قِيلَ فِي شَرِيعَتِهَا بُنِيَتْ عَلَى نَحْسٍ فَإِنَّمَا هِيَ أَنَا مِلْكُ ، صَفْوُهَا مَتَفَجَّرَ
مِنْ مَعِينِكَ ، وَشَاوُهَا لَا مَطْمَعَ فِيهِ لغيرِ يَمِينِكَ ، وَشَاوُهَا تَسْتَوْفِيهِ فِي هَيْئَةٍ مَتَمَهَّلَ ،
وَجَنَاهَا تَرْعَاهُ بَعْزَةٌ أَحْيَى مُهْلَهْلَ ، فَقَدْ صَرَتْ أَمَامَ أُمَّتِهَا ، لَا بِلْ إِمَامَ أُمَّتِهَا ، وَالرَّاضِعَ
لِرِسْلِهَا ، بِلِ الْوَاضِعَ لِأَصْلِهَا . فَهَنِيئًا لَهَا أَنْ كُنْتَ سَابِقَ غَايَتِهَا ، وَسَائِقَ رَايَتِهَا ، وَبُشْرَى
لِمُهْرَقِ وَشْتِهِ يَرَاعُكَ ، وَمَشْتِهِ بَرَاعُكَ ، لَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْحُسْنِ مَا تَشْتَرِيهِ الْقُلُوبُ
بِحَبَّاتِهَا ، وَتَشْتَبِيهِ النُّفُوسُ أَكْثَرَ مِنْ حَيَاتِهَا ؛ وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وَأَمَّا بِالْبَقَاءِ الْمَجْرَدِ .

مَا كَتَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ، إِلَى بَعْضِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ :
أَبْقَى اللَّهُ الشَّيْخَ فِي عِزَّةٍ تَالِدَةٍ طَارِفِهِ ، وَسَعَادَةٍ لَا تَزَالُ طَارِقَةً بِكُلِّ عَارِفِهِ ؛ وَلَا زَالَ
قَاصِدُهُ نَحْيًا مِنْ رِفْدِهِ بَرُوضِ نَاضِرٍ ، وَمُحَوِّمًا مِنْ مَجْدِهِ عَلَى مَسَرَّةٍ سَمْعٍ وَقُرَّةٍ نَاضِرٍ ؛
وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وَأَمَّا بِالْإِعْدَاءِ لِلْحَضْرَةِ .

مَا كَتَبَ أَبُو زَيْدٍ الْفَارَازَانِي :

أَبَى اللهُ حَضْرَةَ السَّيِّدِ نَاضِرَةَ أَدْوَا حِ السَّعْدِ ، عَاطِرَةَ أَفْوَاحِ الْمَجْدِ ، سَاكِبَةَ أَنْوَاعِ
الْجَدِّ ، صَائِبَةَ سِهَامِ الْجَدِّ ، وَلَا زَالَتِ مَغْشِيَّةُ الْجَنَابِ ، بَوْفَدِ الْحَمْدِ ، مَوْشِيَّةُ الْإِهَابِ ،
بُسُودَدِ الْحَفْدِ . الظُّلُّ إِذَا رَحُبَ ، اَزْدَحَمَ عَلَيْهِ الضَّاحُونَ ، وَالْوَرْدُ إِذَا عَدَبَ ،
اَزْدَلَفَ إِلَيْهِ اُتْمَتَا حُونَ ، وَظُلُّ الْحَضْرَةِ الْمَكْرَمَةِ كَثِيفُ الْأَفْيَاءِ ، وَوَرْدُهَا مُغْنٍ عَنْ وَسَائِطِ
الْأَرُشِيَّةِ وَالْدَّلَاءِ ، فَلَا غَرَوَ أَنْ تُضْرَبَ إِلَيْهَا أَكْبَادُ الْإِبِلِ ، وَتَقْصَّ بِالْوُفُودِ عَلَيْهَا أَفْوَاهُ
السُّبُلِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُ الْحَضْرَةَ الْمَكْرَمَةَ عَلَى الْإِيَادَى تُسَوِّغُهَا ، وَالْأَمَالَ تَبْلَغُهَا ،
بِمَنَّةٍ . وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وإِذَا بِالْدُّعَاءِ لِلْحَلِّ .

كَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطْرُفِ بْنِ عَمِيرَةَ فِي صَدْرِ شَفَاعَةٍ .

أَبَى اللهُ الْحَلَّ الْأَعْلَى حَرَمًا يَحْتَمَاهُ الْأَنَامُ ، وَعَلَمًا تَتَضَاءَلُ لَهُ الْأَعْلَامُ ، وَلَا زَالَتْ
أَرَاؤُهُ النَّاجِحَةُ ، تَسْتَمِدُّهَا الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ ، وَمَسَاعِيهِ الصَّالِحَةُ ، يَشْكُرُهَا اللهُ
وَالْإِسْلَامُ . إِنَّ مَجْدًا سَامِيَّ الْكَوَاكِبِ بِمَثْوَاهِ ، وَسَارَى الْغُرِّ السَّوَاكِبِ فِي جَدْوَاهِ ،
لِدَايِعِ إِلَى أَسْتِلَامِ كَفِّهِ عَلَيْهِ ، وَالْإِسْتِهَامِ عَلَى وَصْفِهِ الَّذِي لَهُ حَقِيقَةُ الْأَوَّلِيَّةِ ، وَكَيْفِ
لَا وَقَدْ أَجَارَ مِنَ الدَّهْرِ الْمُخِيفِ ، وَصَارَ قِبْلَةً كُلِّ دَاخِلٍ تَحْتَ التَّكْلِيفِ ، يُعِيدُ مَتَى
أَخْطَاها صَلَاةَ الْأَمَلِ ، وَيَرَى الْأَجْتِهَادَ فِي طَلِبِهَا مِنْ رَاحَةِ الْعَمَلِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ
كَذَا وَكَذَا - إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الدُّعَاءِ .

وَمِنْهَا - أَنْ تَفْتَحَ الْمَكْتَابَةَ بِلَفْظِ « كِتَابِي » كَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطْرُفِ بْنُ عَمِيرَةَ إِلَى
بَعْضِ الْعُلَمَاءِ .

كِتَابِي إِلَى سَيِّدِي - حَفِظَهُ اللهُ مُقِيمًا وَسَائِرًا ، وَأَبْقَاهُ لُغَرَّرَ الْبَيَانِ سَاحِرًا ، وَعَنْ وَجْهِ
الْإِحْسَانِ سَافِرًا ، وَلَا زَالَتْ آدَابُهُ تُشْرِقُ وَتُرَوِّقُ سَاهِرًا ، وَمَحَاسِنُهُ كَالشَّمْسِ إِذَا لَمْ

يَلْقَى نَوْرَهَا سَاتِرًا - من فلانة - وَالْوَدَّ رَوْضَةً مَطْلُولَةً ، وَرَحِمٌ مُوصُولَةً ؛ خَلَصَ مِنَ
الْقَلْبِ إِلَى حَبَّتِهِ ، وَأَخْتَصَّ مِنْهُ بِمَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ ؛ وَأَثَارَ شَوْقًا عَلَى قَدَرِهِ ،
وَهَوَى ثَوَى فِي صَدْرِهِ ؛ وَأَسْفًا عَلَى عَهْدٍ أَصْبُو إِلَى ذِكْرِهِ ؛ فَاتَتْ ، وَرَدُّ الْفَائِتِ يَعْسُرُ ،
وَقَصُرَ ، وَأَيَّامُ السَّرُورِ تَقْصُرُ ؛ كَأَنَّمَا كَانَ قِرَاءَةَ سَطْرٍ ، أَوْ إِغْفَاءَةَ بَحْرٍ ؛ أَوْ زِيَارَةَ
بُحْتَّازٍ ، أَوْ عِبَارَةَ ذِي إِيجَازٍ . فَمَنْ لَنَا بِذَلِكَ الْأَرْجِ الذِّكْرِي ، وَالْأَرْيَحِيِّ يَرْتَاحُ لَمَّا يُخْتَرَعُ
أَوْ يُحْكَى ، وَمَتَى نَقُورُ بَيْنَ نِيحَتٍ مِنْ صَخْرٍ ، وَيُزْرِي بِأَبِي صَخْرٍ ، وَيَغْرِفُ مِنْ بَحْرِ ،
وَيَجْرِي مَعَ أَبِي بَحْرٍ ؛ وَيَجْمَعُ إِسْنَادُهُ بَيْنَ الْجَامِعِ وَالْمُسْنَدِ ، وَيُشِيدُ مِنْ بَدَائِعِ حِفْظِهِ
مَا يُؤْثِرُ فِي الْمُسْنَدِ ، شَجَرَةً عِلْمٍ تُؤْتِي كُلَّ حِينٍ أَكْلَهَا ، وَمُزْنُهُ فَضْلٌ تَجُودُ مَا نَحْشَى بُحْلَهَا ،
وَضَالَّةٌ أَدَبٍ يَقِلُّ لَهَا أَنْ يُجْعَلَ الْقَارِثُ^(١) جُعْلَهَا ، فَاتَ عَنَّا ، فَاتَعَبَ وَعَنَى ، فَهَلْ مَعِينُ
عَلَى دَوَاءِ إِنْ نَحْنُ لُسْعُنَا ، أَوْ سَبِيلُ إِلَى مَا يَفِيدُنَا مِنَ الْكَلَامِ فَتَحْنُ فِي حُرُوفٍ تَجِيءُ بِغَيْرِ
مَعْنَى ، وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَ بِلَفْظٍ : كَتَبْتُ .

كما كتب أبو زيد الفازازي .

كَتَبْتُ - كَتَبَ اللَّهُ لِلأَخِ الْأَبْرَارِ الْأَوْفَى ، وَالْفَاضِلِ الذِّي أَنَارَ مَاتِرَهُ لِاتَّخَفَى ، مُجَدًّا
هَامِي الرَّبَابَةِ ، سَامِي الرَّابَةِ ، وَذَكَرًا مُنْتَحِلًا بِالْإِطَالَةِ وَالْإِطَابَةِ ، وَقَرَنَ أَعْمَالَهُ بِالْقَبُولِ
وَدَعَاوَتِهِ بِالْأَسْتِجَابَةِ - مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، وَلَا جَدِيدَ يُبْنِي اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا صُنْعُهُ الْجَمِيلَ ،
وَلُطْفُهُ الْعَرِيسُ الطَوِيلُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَمْدًا يُؤْمِنُ آلَاءَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ
وَالْتَبْدِيلِ ، وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا وَكَذَا .

(١) الْقَارِثُ أَجْفُ الْمَسْكِ وَأَجُودُهُ .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بكائية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء .

الجناب الرياسي أدام الله اعتلاءه، وحرس مجده وسنائه .

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب لجلاله من التعظيم،
ولفضله من التقديم، ولا لآله من الشكر العميم؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري .

السيد العماد، والماسجد الجواد، والملجأ المنيع المريع لمن يرتاع أو يرتاد، أدام الله
علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بذر الجملة الشريفة، وفرع الدوحة المنيفة، من
آل قيس الجود، وقيل بنى قبيلة الباذلين الموجود، أو لك الذين عز المهاجرون
بإحاثهم وبتخاتهم، فلا غرو أن تكلف الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه،
ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتحته، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير
أبي زكريا بن إسحاق .

الأمير الأجل الهام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهره بالنصرة
مضاءه واعتزاه، راسخ شرف التجار، ثابت أصل الفخار، مسهل آلاء السحب
الغزار، والعيون إليه سامية، والهيم إلى مالدية مترامية، والصدور بالأمل فيه تُشرح،
والنفوس الحرة إلى استرقاقه تطمح، ولا غرو والكرم من بعض شيمه، والغنى
من فضل ديمه - أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتراعى نحوه ركائب
الرجاء من كل ترابه . ومحاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما نعلمه من كبر قدره،
ونوجهه لعالى أمره، ونبيح به من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون :

الِعِمَادُ الْمَذْنَرُ ، وَالْمَلَأْدُ الَّذِي بَوْلَانُهُ أَفْخَرُ ؛ جَعَلَ اللَّهُ قَدْرَهُ عَالِيَا ، وَدَهْرَهُ بِحَاسِنِهِ
حَالِيَا ، وَلَا زَالَ لِلنَّعْمِ قَابِلًا وَلَا لِلسَّوَاءِ [سَوَاء] قَالِيَا ، كَتَبْتُ مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، وَالْوُدَّ حَلِيَّةً
يَتَأَلَّقُ رَوْتَقُهَا ، وَشَجَرَةً لَا يَسْقُطُ رَوْقُهَا ، وَإِنِهَا مَغْرُوسَةٌ ، لَا تَقْبَلُ بَذَرَ الْعَوَادِي ،
وَمَحْرُوسَةٌ ، لَا يَقَعُ عَلَيْهَا مِنْ يَقَعُ فِي شَجَرِ الْوَادِي ؛ وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب أبو المطرّف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعا موصيا :

الْحَمْلُ الْأَعْلَى - ضَاعَفَ اللَّهُ أَنْوَارَ هِدَايَتِهِ ، وَأَبْقَى عَلَى الْجَمِيعِ أَنْوَارَ عِنَايَتِهِ - مُسْتَوْدَعُ
الْكَمَالِ ، وَمَشْرِعُ الْأَمَالِ ؛ وَمَقْعِدُ أَرْبَابِ السُّؤَالِ ، وَمَصْعَدُ الصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ ،
وَإِنْ فَلَانًا مِنْ أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب ابن أبي الحِصَالِ :

السَّيِّخُ الْأَجَلُّ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ وَنِعْمَاهُ ، وَوَصَلَ رِفْعَتَهُ وَعُلَاهُ بِتَقْوَاهُ ؛ مُجَلُّ قَدْرِكُمْ ،
وَمُلْتَرَمَ رِثْمٍ وَشُكْرِكُمْ ، الْعَارِفُ بِحَقِّكُمْ ، فَلَانٌ ؛ فَكْتُبْ يَعْظُمُكُمْ كِتَابُ اللَّهِ لَكُمْ خَيْرًا
مُسْتَمِرًّا ، وَرِضًا عَلَى مَا تَرْضَوْنَهُ ثَابِتًا مُسْتَقَرًّا ، مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، عَلَى الرَّسْمِ الْمُلْتَرَمِ مِنْ
تَوْفِيرِ عِلَائِكُمْ ، وَالشُّكْرُ لَا لِأَنْكَ ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُنْهَضُ بِحَقِّكُمْ الْإِزْمَ الْأَزْمَ ، وَيَصِلُ
حِرَاسَةَ مَجْدِكُمْ الْإِتْلَادِ الْأَقْدَمَ ؛ بِمَنَّةٍ وَفَضْلِهِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ رَبِّمَا أَتَى بَعْدَ ذِكْرِ النُّعُوتِ بِالسَّلَامِ ، ثُمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ عَلَى
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ ؛ ثُمَّ الرِّضَا عَنْ الْخُلَفَاءِ الْمَاضِينَ وَالْخُلَيفَةِ الْقَائِمِ .
وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحّدين أتباع «المهديّ بن تومرت» كما كتب
أبو محمد بن عبد البر :

الشيخ الأجل، أدام الله عزَّته، ووصل كرامته ورَفَعته . مُجِلُّ قُدْرته، وملتمز برّه
وشُكْره، المسرورُ بما يُجْريه إحسانه من طيب ذكْره .
سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعدَ حمدِ الله العظيم ، والصلاةِ على سيدنا محمد رسولهِ الكريم ، وعلى آله -
والرِّضا عن الإمام المعصوم مهديّ ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين - والدعاء لسيدنا
الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، آبن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين ، بالنَّصر الأَعزّ ،
والفتح الأتمّ الأوْفى ، فكتبَ كتبَ الله لكم مجدا لا يهَى شرفه ، وسعدا لا يَبْنى
طرفه ، من فلاة - حرسها الله - ولا ناشئَ عن الله تعالى وعميم لُطفه إلَّا الخَيْرُ
الأَكمل، والصَّنْع الأَجْمَل، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلى هذه الطريقة كانت كُتابةُ أبي عبد الله بن الخطيب : كاتبِ آبن
الأحمر بالأندلس على القُرب من زماننا .

ومنها - أن تفتَّح المكتبةُ بالخطاب، إمام مع حذف ياء النَّسب أو مع إثباتها .
أما مع حذفها، فكما كتب أبو المطرّف بن المشي :

سَيِّدِي وَمَفْخَرِي ، وَعِصْمَتِي وَوَزَرِي ، وَرُكْنِي وَعِمَادِي ، وَذَخِيرَتِي
وَعَتَادِي ، أَبْقَاكَ اللهُ نَاهِجًا سُبُلَ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ، مُوقِّ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي .
كُتِبِي أَعَزَّكَ اللهُ عَنْ عَهْدٍ حَسَنِ لَكَ قَدْ أَحْكَمْتَ مَعَاقِدَهُ ، وَوَدَّ مَحْضَ فَيْكِ قَدْ صَفَتْ
مَوَارِدُهُ ، وَنَفْسٌ تَرْتَاحُ لِذِكْرِكَ ، وَلِسَانٌ لَا يَهْ بَيْنَ مَحَاسِنِكَ وَعُلَاكَ ، قَدْ أَنْفَسَحَ فِي نَشْرِ
فَضَائِلِكَ مِيدَانُهَا ، وَفَاقَ فِي وَصْفِ قَوَاضِيكَ بَيَانُهَا ، فَهِيَ تَنْظُمُ عُقُودَ مَجْدِكَ ، عَلَى أَجْيَادِ
شُكْرِكَ ، وَتَحْكُوكَ مِنْ بُرُودِ تَقْرِيطِكَ وَتَسَائِكَ ، خِلْعًا لِمَجْدِكَ وَسَنَائِكَ ، وَشَيْهَا الذِّكْرُ
الْخَطِيرُ ، وَطِرَازُهَا التَّرْفِيعُ وَالتَّوْقِيرُ ، تَكْسِرُ عَصَبَ عَدْنٍ ، وَتُعْفِي عَلَى وَشَى الْيَمْنِ ؛

وَتُطْلَعُ مِنْ رِيَاضِ أَخْلَاقِكَ ، فِي مَنْابِتِ أَعْرَاقِكَ ، مَا يُزِيرِي بِنَسِيمِ الْمِسْكِ تَضَوُّعَ عَرْفِهِ وَآتِنَشَارِهِ ، وَيُرِي عَلَى حُسْنِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ طَوَالِعُ أَزْهَارِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَقَ بَيْنَ جَمْعِ اللَّهِ الْعَالَمِ فِيهِ ، وَحَرَسَ مَعَاهِدَ الْبِرِّ بِكَرِيمِ مَسَاعِيهِ ، أَنْ لَا تُعْزَى خَلَّةُ نَيْلَةٍ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْصَرُ مَنَقِبَةُ جَلِيلَةٍ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا تُؤْثَرُ مَأْثَرَةُ نَفِيسَةٍ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُقْتَبَسَ سِيرَةٌ جَمِيلَةٌ إِلَّا مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَجْنِي هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْبَدِيعَةَ ، وَالْحِلَالَ الرَّفِيعَةَ ، مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ وَنَوَازِلِ الْغَيْرِ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَيَصْرِفُ عَنْهَا مَعْرَةَ كُلِّ خُطْبٍ وَشَدَّةَ ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا ، وَكَذَا .

وَأَمَّا مَعَ إِثْبَاتِ يَاءِ النَّسَبِ ^(١) ، فَكَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطَرِ بْنِ الدَّبَّاحِ إِلَى بَعْضِ الْأَدْبَاءِ عِنْدَ وَرُودِهِ إِلَى بِلَادِهِ :

يَا مَوْلَايَ ، وَسَيِّدِي ، الْعَظِيمَ شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ ، الْعَالِيَ صِيتُهُ وَذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عِزٍّ لَا تَقْصِمُ عُرَاهُ ، وَحِرْزٍ لَا يُسْتَبَاحُ حِمَاهُ ، لَمْ أَزَلْ - أَبْقَى اللَّهُ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ - تَسْمُوبِي إِلَى الْكُتَابَةِ هِمَّةً ، وَتَتْرَامِي بِي إِلَى الْبَلَاغَةِ عَزْمَةً ، حَتَّى تَذَلَّتْ لِي صِعَابُهَا فَامْتَطَيْتُ ، وَتَسَهَّلَتْ لِي خُرُونُهَا فَارْتَقَيْتُ . وَلَمَّا رُفِعَتْ لِي عَنْ غَرَائِبِهَا الْأَسْتَارُ ، وَعَلِمْتُ مِنْ غَوَامِضِهَا الْأَسْرَارُ ، وَفُزْتُ بِالْمَعْلَى مِنْ سِهَامِهَا ، وَالْمَوْفُورِ مِنْ أَقْسَامِهَا ، جَعَلْتُ بِأَيِّ أُمَّتٍ أَأْتُمُّ وَأَهْتَدِي ، وَإِلَى أَيِّ رُؤُسَائِهَا أَنْتَسِبُ وَأَعْتَرِي ، نَاضِرًا فِي ذَلِكَ إِلَى شَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَمُتَدَاوِلِ الْآثَارِ ، فَوَجَدْتُ الْأَلْسِنَةَ إِذَا تَنَاطَلَتْ صِفَةً سِوَاهُ ، تَحَلَّتْ بَعْضَ حِلَاهُ ، أَوْ أَرْقَتْهُ إِلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْعِلْيَاءِ ، تَمَثَّلَتْ بِهِ فِي الرَّفْعَةِ وَالسَّنَاءِ ، ثُمَّ تُفْرَدُ أَعَزَّهُ اللَّهُ دُونَهَا بِالْفَهْمِ الْمَتِينِ ، وَالْعِلْمِ الْمَشْهُورِ ، وَالْحِلْمِ الْمُتَعَارَفِ ، وَالْفَضْلِ الْمُتَوَاصِفِ ، وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَالْجَلَالَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ . فَكُلَّمَا رَأَيْتُ مُحَاسِنَ مَجْدِهِ تُجَلَّى ، وَسُورَ فَضْلِهِ

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتلى، هَمَمْتُ أَنْ أُطِيرَ إِلَى حَضْرَتِهِ بِجَنَاحِ الْإِرْتِيَاكِ، وَأَرْكَبَ إِلَى أَفْقِهِ نَوْرَهُ اللَّهُ أَعْنَاقَ
الرَّيَّاحِ، وَالْأَيَّامُ تَقْطَعُنِي بِمَصَائِبِهَا، وَتَقِيدُنِي بِأَحْدَاثِهَا وَبِجَوَائِبِهَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ أَنْ
يَرِدَ هَذَا الْأَفَقَ فَأَفْرَخَ الْأَمَلَ بِغَيْرِ نَصَبٍ، وَأَنَالَ الْبُغْيَةَ بِغَيْرِ طَلَبٍ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَبْلَ رَائِدًا * كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ

ومنها - أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة :

نَحْضُ الْأَبْنَ حُبَّةً وَمِقَّةً، وَالْعِبَادَ أَعْتَدَادًا بِجَانِبِهِ وَثِقَةً، حَفِظَ اللَّهُ نَجَابَتَهُ، وَجَعَلَ
لِدَاعِي السِّيَادَةِ تَلْيِينَ وَإِجَابَتَهُ، تَحِيَّةُ الْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِيمِ، وَالْمَوَدَّةِ الْخَالِصَةِ الْمُتَحَكِّمَةِ،
وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ، مِنْ مَكَانِ كَذَا، وَالْوُدُّ كَلْفٌ، وَالْعَهْدُ بِالصُّونِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ
مَكْتَنَفٌ، وَتِلْكَ الذَّاتُ السَّيْنِيَّةُ ذَخِيرَةٌ جَلِيلَةٌ، وَأَمَلٌ لَا تُحْطَى مِنْهُ مَحِيلَةٌ، وَهَبَةٌ يَكْذِبُ
مَعَهَا أَنْ يُقَالَ الْأَيَّامُ بِجِيلَةٍ . وَكُنَّا نَنْظُرُ أَنْ يَنْبَاءَ الْكَرَمُ صَمَّ صَدَاهُ، وَمَرَبِعُ الْفَضْلِ
عَاصِبُ بَرْدَاهُ، وَغَائِبٌ عَنِ الرُّشْدِ أَدَاهُ، وَنَقُولُ : مَا كُلُّ مَنْ أَقْعَدْتَهُ الْعَيْلَةُ عُيْلَةً،
وَمَتَى يَفْطِنُ عَمِيرُ عَمْرٍ وَبِجِيلَةٍ، فَكُفَّا بِكُفَاتِهَا، وَهَلْ سَوَى قَيْسٍ لِرَحَى الْعُجُوزِ عَدِمَتْ
جَدَاتِهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مِنْ طَرَفِهِ، الْمُسْتَقْبَلُ آثَارَ سَلْفِيهِ، حَفِظَ اللَّهُ الْأَلْفَاظَ
وَالْأَلْسِنَةَ، وَحَلَمَةَ الْأَقْلَامِ وَالْأَسِنَّةِ .

وكما كتب أبو زيد الفارازي .

السَّلَامُ الْكَرِيمُ الْعَمِيمُ، عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي أَثْبَتَ عَلَى وَدِّهِ فَلَا أُتَحَوَّلُ، وَأُطْنَبُ
فِي حَمْدِهِ فَلَا أُسْتَعِيرُ وَلَا أَتَأَوَّلُ، وَأَتَعَلَّلُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ عَدَمِ مَرَاتِهِ وَلَا أُمِرُّ مَا أَتَعَلَّلُ،
فَلَان - أَدَامَ اللَّهُ رِفْعَتَهُ، وَحَرَسَ مِنَ الْأَسْوَءِ مُهْجَتَهُ . كَتَبَ أَخُوكُمْ، الْبَرُّ بِكُمْ، الشَّيْقُ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَمْ تَقَفْ عَلَيْهِ فِي غَيْرِهِ بَعْدَ الْبَحْثِ .

إليكم، الشاكر لمحسنكم، المسرور بما سمعه من صلاح أحوالكم، فلان، ولا جديد
بمن الله تعالى إلا الخير والحمد لله كثيرا والأمر كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكتبة بالكناية عن المكتوب عنه .

كما كتب ابن أبي الحِصَال إلى بعض الكُتَّاب يسأله حاجة :

معظم الشيخ الأجل أبي فلان، ومجله المبرر له فلان، أعلى الله قدركم، وأوزع
أوليائكم شكركم، أياديكم أدام الله كرامتكم أو كف من الغمام، ونعمكم ألزم للأعناق
من أطواق الحمام، وإن وليكم ومعظمكم يحتاج إلى كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكتبة بلفظ من فلان .

كما كتب [بعضهم] من فلان، إلى الشيخ الحافظ الأكرم أبي فلان : أدام الله
كرامته بتقواه، فالكاتب إليكم كتب الله لكم أحوالاً صالحه، وخيرات عليكم غادية
رائحه، من موضع كذا، والبركات متوافره، والخيرات متظاهره، والحمد لله تعالى،
وإن الأمر كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكتبة بلفظ إلى فلان .

كما كتب بعضهم إلى والده .

إلى مولاي المعظم وأبي، المتكفل بتعليمي وحسن أدبي، أبقاه الله ناظراً إلى
عين رضاه، وأعاني على الجري في ربه على حكم الشرع القويم ومقتضاه، من أبنك
المعظم لك، بل عبدك، المتطلع إلى ما يصل من الأبناء الكريمة من عندك، الموصل
المسعى في شكرك وحميدك، فلان : بأبي كتبه كتب الله لكم ليانا من العيش
وحفصا، وجمع بعد الافتراق بعضاً منا وبعضاً، ويسرلى بطوله ومته أن يصفح
عني وأن يرضى، من موضع كذا، ولا جديد إلا نعم من الله عز وجل تراوح

وَتُعَادِي، وَتَجْرِي الْخَوَاتِمُ مِنْهَا عَلَى حُكْمِ الْمَبَادِي، وَشَوْقُ إِلَيْكُمْ يَعْمُرُ أَحْنَاءَ ضُلُوعِي
وَفُؤَادِي، وَيَحْسِمُ عَنِّي قَطِيعِي دَمْعِي الْهَتُونِ وَسَهَادِي، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ يَسِّرْ أَنْقِضَابَ
غُرْبَةِ النَّوَى، وَيُرِيحِ النَّفُوسَ مِنْ مُحْرِقِ اللَّوْعَةِ وَلَا عِجَّ الْجَوَى، وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا.

المَهْيَعُ الثَّانِي

(فِي الْأَجُوبَةِ)

(وهي على ما تقدم في أجوبة المَشَارَقة من أنها على ضربين)

الضرب الأول

(أن يفتتح الجواب بما يفتتح به الابتداء، ثم يقع التعرض

إلى وُصُولِ الْكِتَابِ، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجي :

وَعَدُّكَ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّكَ - دِينَ، وَقَضَاؤُهُ شَرَفَ وَزِينَ، وَمِثْلُكَ مِنْ تَحُلِّي
بِمَحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَزَاوَحَ فِي السِّيَادَةِ بِالْمُنْكَبِ الْعَمِّ، وَحَفِظَ الْعَهْدَ لِمَا أُضِيعَ، وَأَشْتَرَى
الْمَجْدَ بِمَا بَاعَ، وَالتَزَمَ لِلْوَفَاءِ شَرْطًا لَا يُفْسَخُ، وَرَأَى شَرْعًا لَا يُنْسَخُ؛ وَوَصَلَ كِتَابُكَ الْعَزِيزُ
فِي مَعْنَى كَذَا وَكَذَا.

الضرب الثاني

(أن يفتتح الجوابُ بِوُرُودِ الْكِتَابِ وَوُصُولِهِ آتِئَاءً)

كما كتب ابن أبي الخصال :

وَرَدَ كِتَابُكَ فِي أَمْرِ فُلَانٍ يَقْرُضُ الْحِمْلَ عَلَيْهِ فِي النَّفُودِ لِوُجْهِتِهِ، وَالتَّجَدُّدِ إِلَى رُتْبَتِهِ،
وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا عَوْنٌ وَإِنْجَادٌ، وَطَاعَةٌ وَأَتْقِيَادٌ، غَيْرَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا.

الجملة الثانية

(في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهى على أساليب)

منها — أن يُختم الكتاب بالسلام المجرد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجى فى خاتمة كتاب :

وأقرأ عليك سيدي ، وأسنى عدى ، أجزل السلام وأحفله ، وأتمه وأكمله .

ومنها — أن يُختم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرف بن الدبّاغ فى خاتمة كتاب :

والله لا يُخلى مولاى من عبدٍ يسترّقه ، ومنعم يُنعم عليه [بما] يستحقّه ، وجميل يُؤليه ، وصنع يُسديده ، بمنه وجميل صنعه .

ومنها — أن يُختم بذكر التودّد والمحبة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب فى آخر كتاب :

وإن لم يكن لى من الحقّ ما لا أتبسّط به عليه ، فلى من الودّ ما أمّت به إليه ،
خفى به سلماً إلى فضلك ، وذريعة إلى مجديك ، إن شاء الله تعالى والسلام .

ومنها — أن يُختم باستمحة النظر فى أمرٍ المكتوب عنه .

كما كتب أبو المطرف بن المنثى فى خاتمة كتاب :

ولك الطول العام ، والفضل الزاهر ، فى اعتبار أمرى ، وتحقيق خبرى ، والسلام ؛
إلى غير ذلك من الخواتم التى تستدعيها المكاتبة وتستوجبها المقاصد ، وفيما ذكر
من الصدور والخواتم ابتداءً وجواباً مقنع لمن تأمل ، والله المستعان فى الأمر كله .

المقصد الثالث

(في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثة مصطلحات)

المصطلح الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية وماقاربها مما جرى عليه ابن عبد كان وغيره، وفيه ثلاثة مهايع)

المهَيَّعُ الأول

(في الصدور، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الابتدآت، ولهم فيه أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء، وعليه غالب كتابتهم، وهي على أنماط)

منها — الدعاء بطول البقاء وما في معناه .

كما كتب ابن عبد كان في صدر مكاتبة : أطال الله بقاءك ، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ؛ وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلّت محلّ الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تتركه الآلاء مكانه ، ولا تُترك الفواضل محله .

وكما كتب : عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وأنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك السعداء بحظهم منك .

ومنها — الدعاء بدوام النعمة .

كما كتب : أسبغ الله عليك نعمه الراهنة بنعمة المستظفر، وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها ، فلم أر والله الحمد نعمة قصبت مستقرها ، وتوخت وليها ، وتمنت كفؤها ، إلا نعمتك أكسبت أولياءها عزاً ونصرة ، وملأت أعداءها ذلةً وغضاضة ، وتمكنت بحل الصيانة والرعاية ، وخيمت بمستقر الشكر والحمد .

ومنها — أطراح الدعاء بدوام النعمة لتقييدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عز وجل مؤونة الدعاء، لنعمتك بالنماء : لأنها توخت لديك محلها ، فحلت بفنائك سازه ، مطمئنة قاره ، تستورهمها دها قبلك ، وتستفي مواردك عنده ، ولم تزل تائقة إليك ، متطلعة نحوك بما أستجمع لها فيك : من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناكها الله متصلة البقاء بطول مدة بقاءك ، ومتحلية بحسن فنائك ، فلا زلت لعوارف النعم مستديعا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريا ، وبدوام الحمد لردفها مستمريا .

ومنها — الدعاء بجعلت فذاك .

كما كتب : جعلني الله فذاك ، فإن في ذلك شرفاً في العاجل ، وذخراً للعقبى في الآجل ، وخير ثراث لخلفي من بعدى . دعاء أخلصته إليه ، وصدقته الطوية .

ومنها — استكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلت في كُتبي إليك : جعلني الله فذاك ، فأكون قد بحسبك حظاً إحسانك إليّ ، وحق مفترضك عليّ : لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازي طرفة من دهرك ، وإنما يفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

ومنها — تَقْدِيَةُ النِّعْمَةِ إِعْظَامًا لَهَا :

كما كتب : جعلني الله فِدَاءَ نِعْمَتِكَ الَّتِي عَلَتْ ذِرْوَةَ سَنَامِهَا ، وَفَاضَتْ دِرَّةَ سَمَائِهَا ، فَعَمَّرْتُ أَقْطَارَ الْآمِلِينَ ، وَنَضَّرْتُ جَنَابَ نَاحِيَةِ الْمُعْتَمِدِينَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَغِبْطَةِ الْآخِرَةِ :

كما كتب : أَسْعَدَكَ اللَّهُ بِعَوَاقِبِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ الصَّلَاحَ فِي دِينِكَ وَالسَّلَامَةَ فِي دُنْيَاكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِكَيْتِ الْعَدُوِّ :

كما كتب : مَكَّنَ اللَّهُ يَدَكَ مِنْ نَاصِيَةِ عَدُوِّكَ بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ زِمَامِ وَلِيِّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَبَلَغَكَ مِنْ كُلِّ الْحَالَتَيْنِ مَا يَنْمِي عَلَى تَأْمِينِكَ ، وَيُوفِي عَلَى تَمْنِيكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ :

كما كتب : أَدَامَ اللَّهُ أُنْسِي بِحَيَاتِكَ ، وَحَرَسَنِي مِنَ الْغَيْرِ فِي نِعْمَتِكَ ، وَأَكْرَمَنِي بِصِيَانَةِ أَيَّامِكَ وَلِيَالِكَ ، وَأَعَزَّنِي بِذُلِّ عَدُوِّكَ وَقَمْعِ حَاسِدِيكَ .

ومنها — الدِّعَاءُ بِطَيِّبِ الْحَيَاةِ :

كما كتب : عِشْ أَطْيَبَ الْأَعْمَارِ ، مُوقٍ مِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ ، مَبْلَغًا نِهَاجَةَ الْأَمَالِ ، مَغْبُوطًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، لَا يَنْقُضِي عَنْكَ حَقٌّ عَارِفٌ حَتَّى تُجَدِّدَ لَكَ أُخْرَى أَجَلَ مِنْهَا ، وَلَا يَرْتَبِكُ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا كَانَ مُؤَمَّنًا عَلَى أَمْسِهِ مَقْصَرًا عَنْ فَضْلِهِ غَدِهِ .

ومنها — الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف :

كما كتب : جعلك الله ممن ينظر بعين العدل ، وينطق بلسان القسط ، ويزن بقسطاس الحق ، ويكيل بمِيعَارِ الإنصاف .

ومنها — الدعاء بإيزاع الشكر .

كما كتب : وصل الله لك كل نعمة يُنعمُها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، وللزید إليها داعيا ، ومن الغير مؤمنا ، وللسلامة موجبا .

ومنها — الدعاء للحاجِّ بالبلاغ .

كما كتب : أوطاك الله في مسيرك أوثر المطايا ، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا ، وأوردك الهداية إلى كريم المشاهدة وزكى المواقف وأولاهها بالزلفة المقبولة ، والقربة المأمولة .

ومنها — الدعاء للمسافر .

كما كتب : جعلك الله في حفظه وكنفه ، وأحاطك بحيطته ، وجعل سفرك أيمَنَ سفرٍ عليك ؛ ورجع لك بدرك الحاجة ، وبلوغ الأمل ، ونجح الطلبة ، ونيل السؤل .

ومنها — الدعاء بالعافية من المرض .

كما كتب : مسح الله ما بك ، وعاد بالبر عليك ، وعجل الشفاء لك ، ومحص بلواك .

ومنها — الدعاء للوالة .

كما كتب : أجرى الله بالخير يدك ، وصمما (؟) بالعرّ طرفك ، وأوطأ كل مكرمة قدمك ، وأطال إلى كل غاية هممك ، وبلغك أقصى محبتك .

ومنها — الدعاء في الأُصْحِيَّة بِقَبُولِ النُّسْكِ .

كما كتب : جعلك الله بِقَبُولِ النَّسِيكَةِ والقُرْبَانِ ، فائِزًا بِالْأَجْرِ وَالرَّضْوَانِ ، مُخْلِصًا
لله بالإيمان ، في السِّرِّ والإِعْلَانِ ، مُؤَدِّيًّا لِمَا أَقْرَضَ عَلَيْكَ ، شَاكِرًا لِإِحْسَانِهِ إِلَيْكَ .
ومنها — الدعاء بالهَنَاءِ في الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ في هَذَا الْعِيدِ الْمُبَارَكِ مِنَ السَّلَامَةِ وَعُمُومِهَا ، وَالْعَافِيَةِ
وَشُمُولِهَا ، وَالْعَارِفَةِ وَسُبُوغِهَا ، وَالْحَيَاطَةِ وَكَمَالِهَا ، وَالْحَيَاةِ وَجَمَالِهَا ، أَفْضَلَ مَا عَرَّفَكَ
فِي مَاضِي أَعْيَادِكَ ، وَسَلَفِ أَعْوَامِكَ .
ومنها — الدعاء بِدَفْعِ النَّوَائِبِ .

كما كتب : كَانَ اللهُ جَارَكَ مِنْ بَخَائِعِ الدَّهْرِ وَنُوبِهِ ، وَوَلِيََّ إِنْعَامِ النِّعْمَةِ فِيمَا آتَاكَ
مِنْ فَضْلِهِ ، وَتَطَوَّلَ عَلَيْكَ مِنْ حُسْنِ الْحَيَاطَةِ لِمَا تَوَلَّاهُ وَالذَّبِّ عَمَّا أَفَادَكَ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ : كِتَابِي أَوْ كَتَبْتُ)

فَأَمَّا كِتَابِي ، فَكَمَا كَتَبَ ابْنُ عَبْدِ كَانَ : كِتَابِي إِلَيْكَ ، وَأَنَا أَسْتَعِيبُ الْيَّامَ فِيكَ ،
وَأَصَانِعُ الزَّمَانَ فِي تَقْرِيبِكَ ، وَرُبْعُ الْحَوَارِ الَّذِي كَمَا نَسْكُنُ تَحْتَ ظِلَالِهِ ، وَنَتَفَيَّا
بِرُوقِ جَمَالِهِ ، بِأَجَلٍ تُخَفِّهِ ، وَأَيْسَرُ أَلْفِهِ ، وَأَعَدَبِ مُشَاهِدَةٍ ، وَأَصْدَقِ مُشَافَهَةٍ ، وَلَعَلَّ
أَنْ يَرْتَاحَ فَيَشْعَبَ صَدْعًا ، وَيُؤَلَّفَ بَعْجًا .

وَأَمَّا كَتَبْتُ ، فَكَمَا كَتَبَ ابْنُ عَبْدِ كَانَ أَيْضًا ؛ كَتَبْتُ وَأَنَا مِنْ حَيْنِ الصَّبَابَةِ
إِلَيْكَ ، وَإِرْزَامِ الشَّوْقِ نَحْوِكَ ، وَأَلِيمِ التَّشَوُّقِ إِلَيْكَ ، وَلَا يَجِ الْلَوْعَةُ بِكَ ، عَلَى مَا أَسْأَلُ
اللَّهِ أَنْ يَرْحَمَ ضَعْفِي وَيَتَصَدَّقَ عَلَى بَرُؤِيَّتِكَ ، وَيَهَبَ لِي النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ وَجَمَالِ
غُرَّتِكَ ، الَّتِي هِيَ حَلِيفُ الْجَدَلِ ، وَنُزْهَةُ الْأَمَلِ .

الأسلوب الثالث

(أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بِالْحِطَابِ بِأَنَا)

كما كتب : أَنَا مِنْ جُمْلَةِ صَنَائِعِكَ ، وَحَفَظَةِ وَدَائِعِكَ ، وَشُكْرَةِ إِحْسَانِكَ ،
مَتَى تَصَرَّفْتُ فِي الْبِلَادِ ، فَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِمَعْرُوفِكَ ، وَالْعَائِشُ بِجَدِّكَ ، وَأَنْتَ مَنَزَعُ
هَمَّتِي وَقُرَّةُ عَيْنِي ، وَمَدَارُ أَمَلِي ، وَمَحَلُّ رَجَائِي .

الضرب الثاني

(الأَجْوِبَةُ)

وَأَبْتَدَأُهَا إِمَّا كَمَا فِي الصُّدُورِ الْآبِتْدَاءَاتِ كَمَا تَقَدَّمَ ثُمَّ يَقَعُ التَّعَرُّضُ لَوْصُولِ الْكُتَّابِ ؛
وإِمَّا بِأَنْ تُصَدَّرَ بِوَصُولِهِ وَهُوَ الْأَكْثَرُ .

كما كتب أَبُو عَبْدِ كَانَنَ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَدَفَعَ تَبَارِيحَ الشُّوقِ ، وَقَعَ كَابَّةَ الْبَيْنِ ،
وَأُطْفَأَ لَهَيْبَ الْحُرْقَةِ ، وَبَرَّدَ حَرَّ الصَّبَابَةِ .

وكما كتب : وَصَلَ كِتَابُكَ مُشْتَمِلًا مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ ، عَلَى مَا يَقْصُرُ فِي جَنْبِ أَيْسَرِهِ
أَعْظَمُ الشُّكْرِ .

وكما كتب : وَصَلَ كِتَابُكَ الْمَصْدَرُ بِجَوَاهِرِ لَفِظِكَ ، وَبِدَائِعِ مَعَانِيكَ ، وَمَحَاسِنِ
نَظْمِكَ ؛ مُسْتَوْدِعًا مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَى حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ إِلَّا بِالْإِعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ عَنْهُ ؛ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ .

المهيم الثاني

(في خواتم الكتب)

وكان اختتام المكتبات عند أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق من استراحة الرأي : إما بلفظ فإن رأيت :

كما كتب ابن عبد كان : فإن رأيت أن تأتي فيه مؤتلفاً ، ما لم تزل تأتيه سلفاً ، فعلت . وإما بلفظ فرأيتك .

كما كتب : فرأيتك فيه بما أنت أهله ، فإن الرأي [الذي] أنت أهله ، فوق ما يلتمسه المشرّف في همته ، والمتبسط في أمنيته .

وكما كتب : فرأيتك في ذلك بما تقضى به الحق وتصل به الدمام ، وتحفظ به الحرمة وتصدق به الأمل ، وتقنع به الصنعة ، وتستوجب به الشكر .

المهيم الثالث

(في عنوانات الكتب)

ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق : من كتابة إلى فلان من فلان ؛ أو من فلان إلى فلان .

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان . فكما كتب ابن عبد كان : للسيد الذي استعبد الأحرار بفضله .

وكما كتب : لمن قرّبه يمن وسعادة ، ونأيه نكد ومحنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صريع الشوق إليه ، وأسير الرقة عليه .

وكما كتب : ممن لا يتقى الخير إلا له ، إذ كان لا يناله إلا به .

المصطلح الثاني

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية)

مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)

القسم الأول — الابتداء : وليس لمصطلحهم ضابط في الابتداء ولا في الترتيب في الرفعة والضة ، بل آفتاحاتهم في ذلك متباينة .

فمن ذلك الافتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم ، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس ، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني : أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدلّ مديله ، ولعثرات المقلّ مقيه ، ولمعاطف العزميه ، ولمقاطف الفوز منيله ، ولقداح الجدوى مجيله ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحه ، والآراء بمراسمه ناجحه ، ومتاجر المفاخر بمولاته راجحه ، وأيدي الآمال لآيديه بمصافاته مصافحه ، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطاة أعطياته عابقه فائحه ، وأدعية الداعين لآيامن أيامه ، المدعين لعهود إنعامه ، طيبة صالحه .

ومن ذلك افتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات : إن تأخرت مكاتباتي ، فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مضدود ، واللقم مسدود ، والبلد محصور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع استيعابها ، ولا حاجة إلى الإمعان ^(١) في ذكرها .

(١) لم يذكر القسم الثاني وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدم في الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات، ماجرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية، مما رتبته القاضى محى الدين بن عبد الظاهر، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقر الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم: من فضلاء الكُتَّاب إلى زماننا، مما هو دائريين أعيان الملكية وأكابر أهل الدولة: من ثواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء، ومن في معناتهم: من أعيان الكُتَّاب ومن نهج نهجهم من أرباب الوظائف) وفيه مهيعات:

المهيع الأول

(في رتب المكاتبات المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأنبئ على ماخالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر: لتحصل الإحاطة به، ويعلم ماجرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعل مخناراً يختاره، أو ينسج على منواله، منها على وهم من وهم في شيء من ذلك.

وَأَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَدْ بَنَوْا هَذَا النُّوعَ مِنَ الْإِخْوَانِيَّاتِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ، تَتَعَيَّنُ مَعْرِفَتُهُمَا قَبْلَ الْخَوْضِ فِي رُتَبِ الْمَكَاتِبَاتِ:

القاعدة الأولى — فيما يتعلق بورق هذه المكاتبات.

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتبات: من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير

قَطَعَ الورق المتقدم ذكره ، غير أنَّ أعيان أهل الديار المصرية يُكاتبون في الورق المصرى ، وأعيان أهل الشام يُكاتبون في الورق الشامى : لكثرة وجوده عندهم ، والمعنى في ذلك أنَّ كُتِبَ السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من الثواب وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائز أن تعلقوا مكتبة أحد منهم على مكتبة السلطان في ذلك .

ثم قد أصطلحوا على أن يكون في أعلى المكتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضا ، إذ كان أقل ما يجعل بياضا في كُتِبَ السلطان وصلين فاقصروا على وصل واحد ، كي لا يساويه غيره في ذلك . وأصطلحوا أيضا على أن لا تنقص المكتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال : الوصل الأبيض في أعلى المكتبة على ما تقدم ، ووصلان مكتوبان : إذ لو نقص عن ذلك ، لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدري ، أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه . وأصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر رُبع الدرّج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلق بخط هذه المكتبات ، وكيفية أوضاعها .

قد أصطلحوا على أن جميع هذه المكتبات تكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق [من] أنَّ لقطع العادة قلم الرقاع . وأصطلحوا أيضا على أن تكون كتابة البسملة في أول الوصل الثانى من المكتبة ، وأن يكون تحت الجلالة من البسملة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره ، فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كغُتُوب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معانهم من رؤساء الكُتُب السلطانية ، كتب المَلِكى الفلانى — بلقب ملكه السلطان ، مثل المَلِكى الظاهرى ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظاهرى

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأمراء كاستدّار أمير ونحوه، انتسب في كتابته إلى لقب أميره الخاصّ مما يُضَاف في التلقب إلى الدين؛ فإن كان أميره لقبه سيف الدين مثلاً، كتب بدل الملكى الفلانى: السيفى؛ وإن كان لقب أميره ناصر الدين كتب الناصرى؛ وإن كان لقبه علاء الدين كتب العلّائى؛ ونحو ذلك. وإذا كتب تحت الجلالة من البسملة الملكى الفلانى ونحو ذلك، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً، ويكون ذلك قطعة من سطر مفردة بذاتها. وأصطلحوا على أنه كلما دقّ القلم وتقاربت الأسطر، كان أعلى في رتبة المكتوب إليه، وكلما غلظ القلم وتباعدت الأسطر كان أنزل في رتبة المكتوب إليه. وأصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السطر الأول من المكتبة نلّو الملكى الفلانى وما في معناه ملاصقاً له، وفيما دون ذلك من المكاتبات يُترك بياض يسير، ولا يكتب فيه شيء؛ وكأن المكتوب عنه يقول للمكتوب إليه هذا محلّ العلامة، ولكننى قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدباً معك ورفعةً لقدرك؛ وفيما دون ذلك يُترك بياض أوسع من ذلك ويكتب فيه المكتوب عنه علامته على ما سيأتى بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى. وأصطلحوا على أنه بعد انتهاء الكلام في المكتبة يكتب "إن شاء الله تعالى" في خطّه؛ ثم يكتب التاريخ في سطرين: اليوم والشهر في سطر، والسنة في سطر؛ ثم تكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر؛ ثم الحسبة في سطر على ما تقدم بيانه في الكلام على القوائح والحوادث في المقالة الثالثة.

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمَكَاتِبَاتِ عَلَى قَسَمَيْنِ :

القسم الأول — الابتدءات ، وهو على أربع درجاتٍ سبق توجيهُ ترتيبها في الكلام على أصول المكاتبات ، في أول هذه المقالة

الدرجة الأولى — [المكاتبة] بتقيل الأرض ، وهى أعلاها رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِ الزَّمَانِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَكَاتِبَةَ يَقْبَلُ الْأَرْضَ مِنْ مَخْتَرَعَاتِ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ مَخْتَرَعَاتِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ الْمَكَاتِبَةُ بِذَلِكَ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ، ثُمَّ سَرَتْ إِلَى الدِّيَارِ لِلْمِصْرِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَاسْتَعْمِلَتْ بَعْضَ الْأَسْتِعْمَالِ ، وَالْمَكَاتِبَةُ بِذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ فِي بَعْضِ الْمَكَاتِبَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى السُّلْطَانِ « صَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ » فِي صَدْرِ كِتَابِ تَهْنِئَةٍ بِمَوْلُودَ :

الْمُلُوكُ يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَامِ الْعَالِي النَّاصِرِيِّ ، نَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِمَقَامِهِ ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَ الْحَقِّ بِأَنْتِقَامِهِ ، وَلَا أَعْدَمَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ عَقْدَ التَّرَاثُمِ ، بِكَفَالَتِهَا وَمَضَاءِ اعْتِرَاضِهِ . ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى كَاتَبَ بِهِ الْآحَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،

وَقَدْ رَتَّبُوا الْمَكَاتِبَةَ بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ فِي الْمَصْطَلَحِ الْمُسْتَقَرِّ عَلَيْهِ الْحَالُ عَلَى خَمْسِ مَرَاتِبٍ :

المرتبة الأولى — الْإِتْيَانُ بِالْإِنْهَاءِ بَعْدَ يُقْبَلُ الْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لَذِكْرِ دَعَاءٍ وَلَا تَنْثَاءٍ ، مَعَ مَرَاعَاةِ الْإِخْتِصَارِ وَعَدَمِ السَّجْعِ وَتَقَارُبِ السُّطُورِ ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ وَلَقَبِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ الَّذِي تَحْتَ الْبِسْمَلَةِ :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَسُؤَالَ الْمَمْلُوكِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ بُرُوزَ
 الْأَوَامِرِ الْعَالِيَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ؛ أَوِ الْمَمْلُوكُ يَعْرِضُ عَلَى الْآرَاءِ الْعَالِيَةِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
 وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَيُنْجِمُ الْكَتَّابُ بِقَوْلِهِ : أَنَّهُ ' ذَلِكَ ، أَوْ طَالَعَ بِذَلِكَ ، وَلِلْآرَاءِ الْعَالِيَةِ مَزِيدُ
 الْعُلُوِّ ؛ وَيَعْبَرُ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ فِي خِلَالِ الْمَكَاتِبَةِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي خُطَابِ
 الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ : فَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنَةٍ خُوطِبَ بِمَوْلَانَا
 مَلِكِ الْأُمَرَاءِ عَزَّ نَصْرُهُ أَوْ أَعَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا غَيْرَ نَائِبِ سُلْطَنَةٍ ،
 خُوطِبَ بِمَوْلَانَا الْمُخْدُومِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبَّ سَيْفٍ
 خُوطِبَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبَّ قَلَمٍ ، خُوطِبَ بِمَوْلَانَا الصَّاحِبِ ،
 وَرَبِّمَا قِيلَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا خُوطِبَ بِمَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ ؛ وَإِنْ كَانَ
 عَالِمًا كَبِيرًا ، خُوطِبَ بِمَوْلَانَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَايِخِ الصُّوفِيَةِ ، خُوطِبَ
 بِمَوْلَانَا شَيْخِ الشُّيُوخِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ وَالْوِظَائِفِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ رَأْيُ
 الْكَاتِبِ بِمَا يُنَاسِبُ الْحَالَ .

وَالْعُنْوَانُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ : الْفُلَانِيَّ مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ ، وَيَعْبَرُ عَنْ ذَلِكَ : بِالْفُلَانِيَّ
 بِمَطَالَعَةٍ . وَقَدْ يَعْبَرُ عَنْ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِ الْمَكَاتِبَةِ . وَصُورَتُهُ : أَنْ يَكْتُبَ فِي رَأْسِ ظَاهِرِ
 الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ « الْفُلَانِيَّ » بِاللَّقَبِ الْخَاصِّ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، كَالسَّيْفِيِّ ،
 وَالنَّاصِرِيِّ ، وَالشَّمْسِيِّ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ مُمْتَدًّا إِلَى نَحْوِ رُبْعِ عَرْضِ
 الدَّرَجِ ، وَتَحْتَهُ فُلَانٌ بِمَا يَقْتَضِي تَعْرِيفَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ أَوْ شُهرَةٍ . فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سُلْطَنَةٍ
 كَتَبَ تَحْتَ الْفُلَانِيَّ : مَوْلَانَا مَلِكِ الْأُمَرَاءِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا كَتَبَ :
 مَوْلَانَا الْوَزِيرِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا قَضَاةً ، كَتَبَ : مَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

بالمكان الفلاني، ونحو ذلك، ويعبر عن ذلك بالتعريف، ويكتب في الجانب الأيسر من رأس ظاهر المكتبة مقابل ما كتبه في الأولى ماصورته «مطالعة المملوك فلان» باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحت ذلك، وفلان تحته عن بُعد ثلاثة أسطر؛ وتكون لطيفة القد غير مشوقة على الضد من المكتوب إليه. وهذا مثال عنوان إلى نائب سلطنة بالشام لقبه سيف الدين، عن اسمه يلغا.

الس _____ يفى

مولانا ملك الأمراء بالشام المحروس عز نصره
المملوك

۶۵
دلیغا

وعلى ذلك يُقاس سائر العُنوانات من هذه المرتبة ؛ والأصل في ذلك أَنَّ الحِجَاجَ
أَبْنَ يَوْسُفَ كَتَبَ كِتَابًا إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ فَكَتَبَ فِي عُنْوَانِهِ بِقَلَمٍ جَلِيلٍ
لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ بِقَلَمِ ضَيْئِيلٍ مِنَ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ
كَمَا حَكَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ فِي "صِنَاعَةِ الْكُتَابِ" فَتَبِعَهُ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ فِي تَعْظِيمِ أَسْمِ
الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، وَتَلَطُّفِ أَسْمِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ ، وَالْعَلَامَةُ فِي هَذِهِ الْمَكْتُابَةِ « الْمَلُوكُ فَلَانِ »
بِاسْمِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ بِقَلَمِ ضَيْئِيلٍ بِحَاشِيَةِ الْكِتَابِ سَطْرَيْنِ : الْمَلُوكُ [سَطْرٌ] وَالْأَسْمِ
سَطْرٌ تَحْتَهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ :

فلان

وَيَكُونُ ذَلِكَ مُقَابِلَ « يَقْبَلُ » مُلَاصِقًا لَهُ بِحَيْثُ تَكُونُ حَرَّةُ الْكَافِرِ مِنَ الْمَمْلُوكِ
تَحْتَ الْيَأْسِ مِنْ يَقْبَلُ ، فَكَأَنَّهُمْ رَاعَوْا فِي ذَلِكَ صُورَةَ مَا يَكْتَبُ فِي الْقِصَصِ الَّتِي تُرْفَعُ
إِلَى الْأَكْبَرِ لِاسْتِمَاحَةِ الْحَوَائِجِ وَنَحْوِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا يَكْتَبُ فِيهَا « الْمَمْلُوكُ فُلَانٌ يَقْبَلُ
الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتٌ وَكَيْتٌ » لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ إِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُّعِ .

المرتبة الثانية — أن يأتي بعد « يَقْبَلُ الأرض » بذكر الدعاء دُونَ التَّسَاءِ مع تَقَارُبِ الأسطر أيضا وَاجْتِنَابِ السَّجْعِ . وقد أَصْطَلَحُوا في هذه المَكْتَابَةِ على أن يَكْتُبُوا تحتَ البَسْمَلَةِ مع لَقَبِ المَكْتُوبِ عنه الذِي هو المَلِكِيُّ الفُلَانِيَّ ونحوه لَقَبَ المَكْتُوبِ إليه : كَالسَّيْفِيِّ ونحوه ، على سَمَتِ المَلِكِيِّ الفُلَانِيَّ من الجِهَةِ اليَمْنِيِّ مع بَيَاضٍ بَيْنَهُمَا ، بحيث يَقَعُ بعضُ اللُّقَبِ في حَاشِيَةِ الكِتَابِ ، وبعضُهُ تحتَ أَوَّلِ البَسْمَلَةِ على هذه الصُّورَةِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملكى الظاهرى

السيفى

ثم يأتى بصورة المَكْتَابَةِ بعد ذلك . ويختلف الحال في هذه المَكْتَابَةِ بِأَخْتِلَافِ حَالِ المَكْتُوبِ إليه ، فإن كَانَ نَائِبَ سُلْطَنَةٍ ، كَتَبَ « يَقْبَلُ الأرضَ وَيُنْهَى بعدَ رَفْعِ الأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، أو بعدَ آتِبَائِهِ إلى الله تعالى بالأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، تَقْبَلُهَا اللهُ تعالى من المَمْلُوكِ ومن كُلِّ دَاعٍ مَخْلِصٍ ، ببقاء مَوْلَانَا مَلِكِ الأَمْرَاءِ ؛ أو بِدَوَامِ أَيَّامِ مَوْلَانَا مَلِكِ الأَمْرَاءِ ، وَخُلُودِ سَعَادَتِهِ ، وَمَزِيدِ تَأْيِيدِهِ ، وَعُلُوِّ دَرَجَاتِهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ : أَنَّ الأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ ، والمَمْلُوكُ يَسْأَلُ الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةَ ، أو الصَّدَقَاتِ الكَرِيمَةَ ، أَعَزَّ اللهُ تعالى أَنْصَارَهَا بِرُوزِ الأَوَامِرِ المَطَاعَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ . ثم يَقُولُ : والمَمْلُوكُ مَمْلُوكُ مَوْلَانَا مَلِكِ الأَمْرَاءِ وَعَبْدُ بَابِهِ وَنَشْءُ إِحْسَانِهِ ، وَيَسْأَلُ تَشْرِيفَهُ بِمَرَاثِمِهِ وَخِدْمَتِهِ ، أو والمَمْلُوكُ يَسْتَعْرِضُ المَرَاثِمَ الكَرِيمَةَ ، وَانْجِدَمَ العَالِيَةَ ، لِيُبَادَرَ إِلَى امْتِنَانِهَا ، وَالْفَوْزِ بِقَضَائِهَا ؛ أو والمَمْلُوكُ مَمْلُوكُ الأَبْوَابِ العَالِيَةِ وَنَشْئُهَا وَغَلَامُهَا ، وَيَسْأَلُ دَوَامَ النِّظَرِ الكَرِيمِ عَلَيْهِ في أَحْوَالِهِ كُلِّهَا ، ونحو ذلك مما يَقْتَضِيهِ الحال ؛ وقد جَهَّزَ المَمْلُوكُ

بهذه المكتبة فلاناً أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حمّله كلامَ مشافهةٍ ، قال : وحمّله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بسماعه والإصغاء إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأى العبالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضياً ، كتب « ببقاء مولانا قاضى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب « ببقاء مولانا شيخ الشيوخ » ونحو ذلك ، وبقى المكتبة على ما تقدّم بحسب ما يقتضيه الحال . والعنوان فى هذه المكتبة « الأبوابُ الفلانيّة ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حال المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائب سلطنة ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العاليةُ ، المولويةُ ، الأميريةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، المخدميةُ ، الكافليةُ ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافلية . وإن كان وزيراً ربّ سيفٍ ، كتب بعد الأميرية : الوزيرية . وإن كان وزيراً ربّ قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحبية . وإن كان من رؤساء الكتاب من فى معنى الوزراء : كتاب السرى ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية . وإن كان قاضى حُكم ، أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالحاكية . وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عَرَض الدَّرَج سطرا إلى آخر المالكية ، ويحلى بياضاً فى آخر السطر بقدر رُبْع الدَّرَج ، ثم يكتب المخدمية الفلانية فى أول

السطر الثاني مُلَاصِقًا لِلأَوَّلِ ، ثُمَّ يُحَلَّى بِيَاضًا يَسِيرًا ، ثُمَّ يَكْتُبُ : أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يُحَلَّى بِيَاضًا يَسِيرًا ، ثُمَّ يَكْتُبُ «فَلَانُ الْفُلَانِي» تَحْتَ آخِرِ السُّطْرِ الْأَوَّلِ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ فِي آخِرِ الدَّرَجِ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى بَعْدَ خُلُوفِ بِيَاضٍ «مُطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فَلَانُ» ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْعُنُونَةِ بِالْفُلَانِي بِمُطَالَعَةِ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :

الأبوابُ الكريمةُ ، العالِيَةُ ، المُولَوِيَّةُ ، الأُمِيرِيَّةُ ، الكَبِيرِيَّةُ ، المَالِكِيَّةُ ، مُطَالَعَةُ
المُخْدُومِيَّةِ ، السِّيفِيَّةُ أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى أَمْرُ دَوَادَارِ الظَّاهِرِي الْمَمْلُوكِ
فُلَانُ

والعلامة «المملوك فلان» بقلم ضئيلٍ مُسَامِتٍ يَقْبَلُ كَمَا فِي الْمَكْتَابَةِ قَبْلَهَا .

قَالَ فِي "التَّحْقِيفِ" : وَهَذِهِ الْمَكْتَابَةُ يُكْتُبُ عَنْ أَكْبَرِ أُمَرَاءِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى نَائِبِ الشَّامِ وَحَلَبَ فِيمَا أَظُنُّ .

قَالَ : وَكَذَلِكَ كَانَ يُكْتُبُ الْمُقَرَّرُ الْعَلَائِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ كَاتِبُ السَّرِّ الشَّرِيفِ إِلَى الْمَشَارِ إِلَىهِ ، يَعْنِي نَائِبَ حَلَبَ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ الْعَلَامَةَ أَسْفَلَ الْكِتَابِ دُونَ أَعْلَاهُ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا يَكُونُ لِلْعَلَامَةِ فِي هَذِهِ الْمَكْتَابَةِ رُتَبَتَانِ ، إِنْ عَظَّمَهُ ، كَتَبَ لَهُ الْعَلَامَةَ عَلَى سَمْتٍ يَقْبَلُ ، وَإِلَّا فَفِي أَسْفَلِ الْكِتَابِ ؛ وَمِنْ ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ صَاحِبِ "التَّحْقِيفِ" هُنَا وَإِنْ كَانَ مَحَلُّهُ رُتَبُ الْمُتَكَاتِبِينَ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

المرتبة الثالثة — أَنْ لَا يُكْتُبُ فِي أَوَّلِ الْمَكْتَابَةِ عَنْ يَمِينِ أَسْفَلَ الْبَسْمَلَةِ الْفُلَانِيَّ وَيَأْتِي بِذِكْرِ الدُّعَاءِ وَالتَّهْنِئَةِ مُسْجُوعًا ؛ مِثْلَ أَنْ يَكْتُبَ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ وَلَقَبَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ الْفُلَانِي : يَقْبَلُ الْأَرْضَ ، وَيُنْهِي بَعْدَ رَفْعِ دَعَائِهِ ، وَإِخْلَاصِهِ فِي مَحَبَّتِهِ وَوَلَائِهِ ، وَأَعْتَرَفِهِ بِإِحْسَانِ مَوْلَانَا وَبِجَزِيلِ آلَائِهِ ؛ أَنْ الْأَمْرَ كَيْتَ وَكِتَ ؛

والمملوك يسأل إحسانَ مولانا، أو صدقاتِ مولانا، أو إحسان المخدم، أو صدقاته في كَيْتٍ وكَيْتٍ ؛ ثم يقول : والمملوكُ فهو مملوك مولانا ومُحِبُّهُ ، والداعي لإحسانه ، ويسأل تشريفه بمراسيمه وخدمته ؛ وقد جهَّز المملوكُ بهذه العبودية فلانا ، أو مملوكه فلانا ، وحمله من الدعاء والولاء ما ينبغي من لسانه ، ويُعَرِّب عنه بليانه ؛ أو وقد حمله المملوك ما يقوم عنه به في إنهائه ، من رصف الأدعية ، ووصف الأئنية ؛ والمملوك يسأل الإصغاء إليه ، والتشريف بالمراسيم العالية والخدم الكريمة : ليفوز بإقبالها ، ويؤدِّر إلى أمثالها . طالع بذلك ، أو أنهى ذلك ؛ أو والمملوك يستعرض المراسيم العالية ، والخدم الكريمة المتواليه : ليتشرف بقضائها ، ويتشوف إلى إمضائها .

صدر آخر : ويُنتهى بعد رفع الأدعية ، وبثِّ الحامد والأئنية ، والمؤالاة التي نعمل منها على الأولويه ، أن الأمر كَيْت .

آخر : ويُنتهى بعد رفع دعائه الذي لا يقتدر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان نفعه ، وأتتهاله الذي يرفع السُّجْب ، وشوقه الذي يهْدِي النُّجْب ؛ أن الأمر كَيْت وكَيْت .

آخر : ويُنتهى بعد دعائه المقبول ، وشوقه الذي لا يحول عنه ولا يزول ؛ وسلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حمله الرسول .

آخر : ويُنتهى بعد دعاء يرفعه بالغدق والآصال ، وولاء لا يتغير مادامت الأيام والليال ، وثناء أطيب من عرف الرُّوض إذا مرَّ عليه نسيمُ الشمال ، أن الأمر كَيْت وكَيْت .

آخر : ويُنتهى بعد رفع الدعاء ، ونصب لواء الولاء ، وجر ذيول الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والإعتراف ، أن الأمر كَيْت وكَيْت .

آخر : ويُنهى بعد دعائه المرفوع ، وثناؤه الذى هو كالمسك يَضُوع ، وشُكره الذى يُسَمع منه ويُسمع أُطيبُ مسموع ، أن الأمر كيت وكيت .

والعنوان لهذه المكتبة «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف وهو نائبُ سلطنة ، كتب «الأبواب الكريمة ، العلية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدومية ، الكافلية ، الفلانية ، أعلاها الله تعالى» ثم يقال : نائبُ السلطنة الشريفة المحروسة ؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة ؛ وباقي عُنوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيوف والأفلام على ما تقدم فى العنونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وضعه أن يكتب «الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية» مثلاً سطرًا واحدًا من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ؛ ثم يكتب «الفلانية أعلاها الله تعالى» فى أول السطر الثانى ملاصقًا له ؛ ثم يترك بياضًا قدر رأس إبهام ؛ ثم يكتب فى آخر السطر الثانى «كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما فى هذه الصورة :
 الأبواب الكريمة ، العلية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدومية ، الكافلية ،
 السيفية ؛ أعلاها الله تعالى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة فى ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «الملوك فلان» وكائنهم لما آنحطت رُتبه المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامةُ إليه على سَمْت «يقبل» ليكون فى معنى القِصَّة كما تقدم ، أخذ المكتوب عنه فى التنازل إلى آخر المكتبة تواضعًا للمكتوب إليه وتأدبًا معه .

قال فى «التتقيف» وبذلك كان يُكتب عن الأمير يُلَبِّغا العُمَرَى : يعنى الخالصكى وهو أتايك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلي بغا ، والأمير الجاى ،
ونواب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة — أن يأتى بصدر المكتبة على ماتقدم فى المكتبة قبلها من
الابتداء يُقبل الأرض ويُنبى بعد رفع دعائه وما فى معناه على ماتقدم من غير فرق :
ولا يختلف الحال فى الصدر ولا فى متن الكتاب ، والعنوان « الباب الكريم » ولا يكون
إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « الباب
الكريم ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ،
المالكي ، المخدومى ، الفلانى ؛ أعلاه الله تعالى ، فلان الفلانى — باسم المكتوب إليه .
وإن كان من أرباب الأقاليم أو غيرهم فعلى ماتقدم فى « الأبواب بمطالعة » من إبدال
الأميرى بالقضائى ، أو الشيخى ، وزيادة قاضى الحكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : الباب الكريم — بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطرًا
واحدًا من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ؛ ثم يكتب المخدومى الفلانى أعلاه الله تعالى
فى أول السطر الثانى ، ويترك بياضًا ، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه
أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكي .
المخدومى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى بهادر أمير اخور الأشرقى .

تنبيه — كل ما كان العنوان فيه الباب الكريم ، كان العنوان فيه للمساقر « الخيم »
بدل الباب ، وباقي الألقاب على حالها كما نبّه عليه فى « التثقيف » وغيره ؛ والعلامة
فى آخر المكتبة مقابل حسبي الله ؛ إذ لما كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابل

تحت الحسبة كانت العلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزلَ في رُتْبةِ المكتوبِ إليه وأعلى في رُتْبةِ المكتوبِ عنه .

المرتبة الخامسة — يُقْبَلُ الأرضَ بالمقرِّ الشريف . والرسمُ فيه أن يترك بعد البسملة وما تحتها من المَلَكِي الفلاني قدرَ سطر أو سطرين بياضاً ؛ ثم يكتب يقْبَلُ الأرضَ بالمقرِّ الشريف ؛ ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيُوف ، كتب « يقْبَلُ الأرضَ بالمقرِّ الشريف ، العالی ، المُولَوِي ، الأميري ، الكبيری ، العالی ، العادلي ، المؤيدي ، الذُخري ، الظَّهيري ، المسندي ، الزَّعيمي ، المالكي ، المَحْدُومي ، الفلاني ، أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وأعلى مناره ، وضاعف مَبَارَه ، ويُنتهى بعد وصفِ محبته ، وبثَّ أثنيته ، كيت وديت ، والمسئولُ من إحسانه كيت وكيت » وربما كتب : « والمملوكُ يسألُ كيت وكيت » كما في المكاتبات السابقة ؛ أو « والمملوكُ يسألُ تشريفه بمراسمه وخدمه ، والله تعالى يُديم عليه سوايغَ نَعَمِه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبة : أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وأدام أئتصاره ، وجعل على غايات النجوم أقتصاره ، ويُنتهى .

آخر : لازالت الرقابُ لمهابته خاضعة ، والركابُ به فوق النجوم واضعة ، وأجنت السُيُوفُ بمضار به من ماء الأعداءِ راضعة ، ويُنتهى .

آخر : لازالت أعلامه مُشرَّفه ، وأقلامه مُصرَّفه ، وأيامه بطيبِ شأنه بين الخافقين معرفة .

آخر : لازالت الدنيا ببقائه مُجَمَّله ، والعلیاءُ لارتقائه مُؤَمِّله ، والنعم على اختلافها جواهر مكمَّله ، ويُنتهى .

قلت وربما أتى بصورة الإنهاء مستجوعة أيضا؛ مثل أن يكتب : ويُنهى بعد تعبه بولائه، وقيامه بحقوق آلائه . أو يُنهى بعد دعاء يقوم بوظائفه، وولاء يتردى بمطارفه . أو يُنهى بعد رفع أديعته، وقطع العمر في مولاته وعبوديته، ونحو ذلك . وعلى ذلك جرى في "عرف التعريف" إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان إهماله . والعنوان إن قصد تعظيمه : الباب العالى - بألقاب الباب الكريم في المكتبة قبلها، إلا أنه يُحذف منها الكريم . وإن لم يُقصد تعظيمه فالمقر الشريف بالألقاب التي في صدر الكتاب . وصورة وضعه في الباب العالى على ما تقدم في الباب الكريم : أن يأتي به في سطرين كاملين من أول عرض الدرج إلى آخره، كما في هذه الصورة :

المقر الشريف ، العالى ، المولى ، الأمير ، الكبير ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الثنى ، الظهيرى ، المسندى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، السيفى ، أعز الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس والعلامة في هذه المكتبة « المملوك فلان » بقلم الرقاع ، بأسافل الكتاب ، مقابل إن شاء الله تعالى .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكتبات بين كُتَّاب زماننا بمملكة الديار المصرية وما جرى على نهجها، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة الأولى منها حُذف الدعاء والثناء المقتضيان للدالة من المكتوب عنه على المكتوب إليه ، واقتصر على السير من الكلام دون الكثير الذى فيه سامة المكتوب إليه وإسجاره ، عند قراءة الكتاب ؛ وعُتِيت بالفلانى كالسيفى ونحوه، من حيث إنه لَقِبَ مؤد إلى رفعة ؛ وأتى فيه بمطالعة المملوك فلان ، إشارة إلى التصريح بالرق والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرفعة بذكر لقبه المؤدى إلى رفعة قدره - وفي المرتبة الثانية أتى فيها بالفلانى داخل المكتبة دون

العنوان فكانت أنزل مما قبلها : من حيث إنَّ العُنوانَ ظاهرٌ وباطنُ المكتبةِ خفيٌّ والظاهرُ المؤدَّى إلى الرُفعةِ أعلى من الخفيِّ من ذلك ، وأُتي بالدعاء فكانت أنزل رتبةً من التي قبلها لما تقدّم من أنَّ الدعاء فيه معنى الدالّة ، واجتنب فيه السجعُ من حيث إنَّ في الإتيان به تفاهجاً على المكتوب إليه ، وعُنونَ الأبواب إشارةً إلى شرف محلِّ المكتوبِ إليه من حيث الإشعارُ بأن له أبواباً يُوقَفُ عليها ؛ وجعلتْ دونَ المرتبةِ الثانية من حيث إنَّ العُنوانَ في المرتبة الأولى باللّقبِ المؤدَّى إلى الرُفعةِ مع دلّالته على الذات . وفي الثانية عُنونَ الأبوابِ الموصّلة إلى محلِّ الشخص ؛ ولا يخفى أنَّ مادلاً على نفس الشّخصِ أعلى مما هو موصّل إلى محله ؛ وأُتي فيها بمطالعة المملوكِ فلان إشارةً إلى التصريح للمكتوبِ إليه بالرقِّ والعبودية كما تقدّم في المرتبة الأولى - وفي المرتبة الثالثة حذف منها الفلاني المؤدَّى إلى الرُفعةِ من داخل المكتبة فكانت أنزل من التي قبلها فأُتي فيها بذلك ؛ وأُتي بالدعاء مسجوعاً فكان أنزل مما قبله لما في السجع من التفاهج على المكتوب إليه ، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوكِ فلان فكان أنزل من حيث إنّه لم يقع فيه تصريحٌ بـرقِّ وعبودية كما في المرتبة الأولى والثانية - وفي المرتبة الرابعة بقي الصّدرُ على حاله وعُنونَ فيها بالباب بلفظ الإفراد ، فكانت أنزل مما قبلها ، من حيث إنَّ الإفراد دونَ الجمع بديلٌ أنه بعضٌ من أبعاضه - وفي المرتبة الخامسة قيل يُقبَلُ الأرضُ بالمقرّ ؛ يعني مقرّ المكتوبِ إليه ، فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشعارُ ذلك بالقُرب من محله بخلاف يُقبَلُ مطابق الأرض فإنه لا ينحصر في ذلك ، ثم إنَّ عُنونَ البابِ العالی مجرداً عن الكريم ، كانت أنزل مما عُنونَ فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رُتبة الكريم العالی

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العُنوانَ بالأبواب أقل من العُنوانَ بالألقاب للعلّة التي ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تقيد بالمقر .

على العالى المجرد عن الكريم ، على ما تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة ، وإن عُنُونَت بالمَقَرِّ الشريف فهى على انحطاط الرتبة عما قبلها من حيث إشعاره بقرب المحل من المكتوب إليه . على أن فى عُنُونَةِ هذه المكتبة بالمَقَرِّ الشريف نظرا ، فإنَّ أعلى مَرَاتِبِ الْإِبْتِدَاءِ فى المكتبة بالدعاء هى الدعاء للمَقَرِّ الشريف ، وهو بعد تقبيل الباسط والباسطة واليد على ما سيأتى ذكره فى الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فربما التبس عنوان هذه بعنوان تلك قبل فضها ، والوقوف على صدرها هل هو مَفْتَتَحٌ يَقْبَلُ الْأَرْضَ بالمَقَرِّ أو بالدعاء للمَقَرِّ ، إلّا أنَّ كُتَّابَ الزمان قد رفضوا المكتبة بالدعاء للمَقَرِّ الشريف واقتصروا على الدعاء للمَقَرِّ الكريم ، إذ كان هو أعلى ما يكتب به عن السلطان لأكابر أمراء المملكة على ما تقدم ذكره فى الكلام على مكاتبات السلطان إلى أهل المملكة فى المقالة الرابعة .

قلت : وفى الدساتير المؤلفة فى الإخوانيات فى الدولة التركية فى الزمن السابق ما يخالف بعض هذا الترتيب ، بفعل فى "عُرِفَ التعريف" أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنْهِى كَيْتَ وَكِتَ ، والعنوان «الفلانى بمطالعة» على ما تقدم ذكره فى الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعينه ، والعنوان «الأبواب بمطالعة» . ودونه : كذلك والعنوان «الأبواب» بغير مطالعة . ودونه : « يقبل الأرض بالمَقَرِّ الشريف ، والعنوان إما الباب العالى أو المَقَرِّ الشريف » .

وفى دُستور يُعزى لبعض بنى الأثير أنَّ أعلى المراتب يقبل الأرض ويُنْهِى كَيْتَ وَكِتَ على ما تقدم . ودونه : « يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض ويُنْهِى بعد رفع دعائه الذى لا يفتّر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان

نَفْعَةً . ودونه : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مِثْلُ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ ؛ وَآكْتَفَنَهَا بِالْأَمَانِ ، مِنْ صُرُوفِ الْحَدَثَانِ ، وَلَا زَالَتْ مُحِطَّ وَفُودُ الْجَدَا ، وَكَعْبَةُ قُصَادِ النَّدَا ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَصِفُهَا ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مُلْجَأُ الْعَفَاةِ ، وَمَلْثَمُ الشِّفَاةِ ، وَمَحَلُّ الْكَرَمِ الَّذِي لَا يَنْحِبُ مِنْ إِقْتِفَاةِ ، وَمَقْصِدُ الرَّاجِي الَّذِي إِذَا عَوَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لِأَزَالَتْ مُحْرُوسَةَ الرَّحَابِ ، هَامِيَةَ السَّحَابِ ، فَسِيحَةَ الْحَنَابِ ، لَمَنْ أَنْابَ ؛ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكِتَ » .

وجرى في "التثقيف" على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالي، وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالي أو المقر الشريف .

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير؛ وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات ، مثل أن يكتب : يُقْبَلُ الْعَتَابَاتُ الْكَرِيمَةُ ، لَا بَرِحَتْ مَطْلَعُ السُّعُودِ ، وَمَنْبَعُ الْجُودِ ، وَمَهْيَعًا لِلْقَامِ الْمُحْمُودِ . أو : يُقْبَلُ الْعَتَابَاتُ الْكَرِيمَةُ ، لَا زَالَتْ الْأَفْلَاكُ تَتَمَتَّى أَنَّهَا بِهَا تُخَفُّ ، وَأَنَّهَا لِنَجْوَمِهَا إِلَيْهَا بِحَوْضِ الْوَالِدَيْنِ (؟) تَرْفُ . أو : يُقْبَلُ الْعَتَابَاتُ الْكَرِيمَةُ ، لَا زَالَتْ الْأَمَالُ بِهَا مُطِيفُهُ ، وَالسُّعُودُ لَهَا حَلِيفُهُ ، وَسَعَادَتُهَا لِأَسْتِخْدَامِ كُلِّ ذِي إِمَامٍ مُضِيفُهُ .

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر إلا أن يكون الخطاطها من حيث صيغة الدعاء تأمل .

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير مُحْكَمِ الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضى صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التشبهى، كلما تقدم متقدم فى دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويجعل له شيئا يُحَدِّثُه لِيُنْسَبَ إليه ولا يُبَالَى وافق فى ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وقُلَّ مَنْ يصيب الغرض فى ذلك . على أن تقديم بعض هذه المراتب على بعض فى العلوِّ والهبوط إنما هو من جهة آستحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانية

(المكتبة بتقيل اليد، وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — يُقْبَلُ الباسط الشريف، وهى الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت المَلَكِيَّ الفلاني بعد البسملة قدرَ سطرين بياضا كما فى المسألة قبلها، ويختلف الحال فى ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيُوف، كتب : يُقْبَلُ الباسط الشريف، العالى، المُولَوِيَّ، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، السيدى، المالكى، المخدومى، المحسنى، الفلانى؛ لازالت ساحته مقبله، وسماحته مؤمله، ويُنْهَى بعد وصف خدَمه، وثبوت قيامه فيها على قدمه، أن الأمر كيت وكيت؛ والمسئول من إحسانه كيت وكيت؛ والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

دعاء آخر : يليق بهذه المكتبة؛ يقال بعد تكملة الألقاب : لازالت نعمه باسطه، وأيامه لعُقُود الأيام واسطه، ويُنْهَى كيت وكيت .

آخر: لازال جناح كرمه مبسوطا، وجناب حرمه من المخاوف محوطا،
ويُنهي كيت وكيت .

آخر: لازال يُصرف الأعنة والأسنة ، ويقلّد أعناق أعدائه كُلّ أجل
وأعناق أودائه كُلّ منه ، ويُهيى .

آخر: لازالت حائل السيف تتسابق إلى بناه ، وأعقاب الرماح تأوى
إلى أنامله : لِيُكَيِّمَها من قلوب أعداء الله يوم طعانه ، ومُتَوْنُ الخيل متحصّنة بعزائمه
فيقوى جناها بجناه .

آخر: لازالت رحي حرويه على أعدائه تُدار ، وأسنة رماحه تُنادى الأعداء
البدار البدار ، وجنوده تقايل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصنة أو
من وراء جدار .

آخر: لازالت أعلام النصر معقودة بأعلامه ، وجواري اليم السعيد معدودة
من خدامه ، وسُطورُ البأس والكرم مُثبتة إما بأقلام الخط من رماحه وإما برماح
الخط من أعلامه .

آخر: لازالت الأعنة والأسنة طوع يمينه وشماله ، والآمال والأحوال
تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله ، والسُيوف والأقلام : هذه جارية بعوائد بآسه ،
وهذه جارية بعوائد نواله .

آخر: ولازالت وجوه النصر تُترأى في مرآة صفاحه ، وثمار النصر تُجتنى
من أغصان رماحه ، ولا يرح السيف والقلم يتباريان في ضرّ الأعداء بآسه ونفع
الأولياء بسماحه — وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأميرى
«الوزيرى» — وإن كان وزيراً رب قلم ، كتب قبل الفلانى أيضا الصاحبى —

وإن كان من أعيان الكُتَّاب: ككتاب السِّرِّ وناظر الخاص وناظر الجيش وناظر
الدَّولة وکُتَّاب الدَّست ونحوهم ، كتب بدل الأميری القَضَائِيَّ ؛ ثم يكتب للجميع
بعد الوزيری أو القَضَائِيَّ ؛ العالمیَّ ، العادلیَّ ، الممهّديَّ ، المشيّدیَّ ، المالکیَّ ،
المخدومیَّ ، المحسّنیَّ ، الفلانیَّ ؛ أسبغ الله تعالى ظلاله ومدّها ، وشيّد به مباني الملك
وشدّها ، ووهب الأيام منه هبة لا تستطيع الليالي ردّها ، وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يليق بهذه المكتبة ، يقال بعد تكملة الألقاب ، ولا زالت أقلامه
تروّع الأسد في آجامها ، وتزید على الغیوث في أنسجامها ، وتعلّم الرّماح الإقدام
إذا نكصت لإحجامها ، وينهى .

آخر : ولا زالت الدَّول مشيّدّة بتصرفه ، مجدّدة لتصرفه ، مؤيّدّة بين صرير
القلم وصريره .

آخر : ولا زالت أقلامه تهزّأ بالغيوث الهامية ، وأنعامه تفوق على البحار
الظامية ، وموارد إحسانه تأوى إليها الوفود الظامية .

آخر : وأدام القصد لبابه ، ونزول الآمال برحابه ، وصعودها إلى سحابه .

آخر : لا زال فسيحا للقاصد جنابه ، مجرّبا للنّاجح بابه ، صريحا في ابتغاء خير
الدنيا والآخرة طلابه — وإن كان من القضاة الحُكّام ، كتب : يُقبّل الباسط
الشريف ، العالی ، المولوی ، القَضَائِيَّ ، العالمیَّ ، الإمامیَّ ، العلّامیَّ ، السيّدیَّ ،
المالکیَّ ، المخدومیَّ ، المحسّنیَّ ، الحاکیَّ ، الفلانیَّ ؛ أعزّ الله تعالى أحكامه ،
وجملّ به الدهر وحُكّامه ، وثبّت به الأمر وزاد إحكامه ، وينهى كيت وكيت .
دعاء آخر يناسبه : يقال بعد تكملة الألقاب : أعزّ الله تعالى أحكامه وأنفذها ،
وتدارك به الأمة وأنقذها ، وأسعف به الملة الإسلامية وأسعدّها ، وينهى .

آخر: نَضَرَ اللهُ الدِّينَ بَنُوهُ ، وَسَقَى الْغَامَ بَاقِيَ سُورِهِ ، وَحَمَى حِمَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمَا ضَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ سُورِهِ .

آخر: وَجَمَلَ الدَّهْرَ بِمَنَاقِبِهِ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ الْعِلْمِ بِكَوَاكِبِهِ ، وَلَا زَالَ الزَّمَانُ يَقُولُ لِمَنْصِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِشَخْصِهِ وَرَأْيِهِ : * عَزَّ يَوْمُ وَإِقْبَالَ لِصَاحِبِهِ * .

آخر: وَأَمْضَى بِيَدِهِ سُيُوفَ الشَّرْعِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامُهُ ، وَأَعْلَى طُرُوسِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فَإِنَّهَا أَعْلَامُهُ ، وَلَا زَالَتْ يَدُ الْقَصْدِ مُشِيرَةً إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَى ثَنَائِهِ خَنْصَرٌ وَلَا يَنْجَلِي إِلَّا بِهْدَاهُ إِبْهَامٌ .

آخر: وَسَدَّدَ سِهَامَ الْحَقِّ بِأَفْضِيَّتِهِ ، وَشَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرْعِ بِأَنْبِئَتِهِ ، وَأَيَّدَ الْإِسْلَامَ بِأَقْلَامِ سَيِّلَاتِهِ الْقَائِمَةِ لِلنَّصْرِ مَقَامَ أَلْوِيَّتِهِ — وَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : يُقْبَلُ الْبَاسِطُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِيُ ، الْمُؤَلَوِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْمَالِكِيُّ ، الْمُخْدُومِيُّ ، الْمُحْسِنِيُّ ، الْفَلَانِيُّ ؛ لَا زَالَ يِقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فِسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَيَجْلُو دُجَى الظُّلُمَاءِ بِصَبَاحِهِ ، وَيُنْهَى .

آخر: وَنَفَعَ بِيرَكَاتِهِ فِي الرُّوحَاتِ وَالْغَدَوَاتِ ، وَجَمَلَ بِبَقَائِهِ الْحَافِلَ وَالْمَلَوَاتِ ، وَبَسَطَ فِي صَالِحِ الدُّوَلِ [يَدَهُ] : إِمَامًا فِي مِبَاشَرَتِهِ بِصَالِحِ التَّنْذِيرِ وَإِمَامًا فِي انْقِطَاعِهِ بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ .

والعنوان في هذه المكاتبة «الباسط الشريف» بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء، والدعاء له بأول سبعة من دعاء الصدر أونحوها، بحسب حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعزَّ الله تعالى نصره ؛ أو عزَّ

نَصْرُهُ . ولئن هو من رؤساء الكُتَّاب : أسبغ الله ظلاله . ولئن هو قاضى حُكْم :
أعزَّ الله أحكامه . ولئن هو من مشايخ الصوفية : أعاد الله من بركاته .

وصورة وضعه فى الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف فى سطرين
كاملين من أول عَرْض الورق إلى آخره ، إلا أنه يُفصل بين الألقاب والدعاء
ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياض لطيف كما فى هذه الصورة .

الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، السيدى ،
المالكى ، المخدومى المحسنى ، الفلانى أعزَّ الله أنصاره أمير حاجب بحلب المحروسة

وقد ذكر فى "عرف التعريف" : أنه إن قصد تعظيمه ، عنونه بالمقر الشريف
بالألقاب المتقدمة على السواء ، ولا تخفى صورة وضعه بعد ما تقدم ، والعلامة
«المملوك فلان» بقلم الرقاع مقابل إن شاء الله كالمكتبة بالمقر الشريف المتقدمة .

(١)

المرتبة الثانية — [يقبل الباسطة الشريفة] والرسم فيها أن يترك تحت الملى
الفلانى قدر سطرين بياضا كما فى المكتبة قبلها ، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة
بالتأنيث ، ويجرى الحال فى ذلك كما فى الباسط — فإن كان المكتوب إليه من أرباب
السيوف ، كتب : يقبل الباسطة الشريفة ، العالمة ، المؤلوية ، الأميرية ، الكبرى ،
العالمية ، العادلية ، المؤيدية الذخيرة ، المالكية ، المحسنة ، الفلانية ، لالزت سحابها
مستهلّة ، ومواهبها للبحار مستقلّة ، وينهى كيت وكيت ، والمستمد من محبته كيت
وكيت . وربما قيل والمسئول ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لالزت سيولها تملأ الرحاب ، وسيوفها تسرع
السّل إلى الرقاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذا مما سياتى على الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخر : لا زالت خناصرُ الحِمدِ على فضلِ بنائها معقوده ، وما أثرُ البأسِ والكرَمِ لها ومنها شاهدةٌ ومشهُوده ، وبوآثرِ السُّيوفِ مُسيرةُ القصدِ إلى مُناصرةِ أعلامِها المنضُوده .

آخر : ضاعف الله تعالى مَوادَّ نعيمِها ، وجَوادَّ كرمِها ، وأتَّصالَ الآمالِ بمساقطِ ديمِها .

آخر : لا زالت الآمالُ لائذةً بكرمِها ، عائذةً بحرَمِها ، مستنجدةٌ على جَدْبِ الأيامِ بسقي ديمِها .

آخر : لا زالت لرُسومِ الكرمِ مُقيمِها ، ولصنائعِ المعروفِ مُديمِها ، ولأَيادي الإحسانِ متابعَةٌ إذا قَصَّرتْ عن البروقِ ديمِها — وإن كان المكتوبُ إليه من رَعوسِ الكُتُبِ كتبَ بدلَ الأُميريِّ القضايَ ، والباقي على ما تقدَّم ؛ ثم يدعى له بما يناسبه .
دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السُّيوفُ خاضعةً لأعلامِها ، والنجومُ خاشعةً لكلامِها ، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخر : لا زالت مولاتُها فريضةً ، وأجنحةُ أعدائها مهِيضةً ، ومقلُ الأُسنةِ إذا خاصمتها ألسنةُ أعلامِها غَضِيضةً .

آخر : أسبغ الله طِلْها ، وهنَّأ بها أُمَّةً قُربَ مبعثِ زمانِها وأظَلَّها ، وهَدَى الآمالَ وقد حَيَّها الحرمانُ وأضَلَّها .

آخر : لا زال قلمُها مفتاحَ الرِّزقِ لطالبِها ، والجِاهُ لكاسِها ، والنصرُ لمُسْتَتِيبِ كُتُبِها عن كُتُبِها .

آخر : لا زال رِفْدُها المطلوبُ ، وسَعْدُها المكتوبُ ، وقلمُها المُخاطبُ في مصالحِ الدولِ والمُخْطُوبُ .

آخر : بَسَطَ اللهُ ظِلَّهَا وَلَا قَلَصَهَا ، وزادها من فَضْلِهِ وَلَا تَقَصَّهَا ، وَلَا جَرَعَ كَيْدَ حَاسِدِهَا الظَّامِيَةِ إِلَّا غُصَصَهَا .

آخر : ولا زال عَمِيماً إِنْْعَامُهَا ، قَدِيماً وَحْدِثُهَا دِيْمُهَا وإِكْرَامُهَا ، قَاضِيَةٌ بَسْعِهَا النُّجُومُ الَّتِي هِيَ خُدَامُهَا .

آخر : لَا زَالَتْ بَسِيطًا ظِلُّهَا ، مَدِيدًا فَضْلُهَا ، سَرِيعًا إِلَى دَاغِي النَّدَى وَالرَّدَى قَلَمُهَا فِي الْمِهْمَاتِ وَنَصْلُهَا - وَإِنْ كَانَ مِنْ قُضَاةِ الْحُكْمِ زَادَ مَعَ الْقَاضِيَةِ قَبْلَ الْفَلَانِي الْحَاكِمِيَّ وَدَعَا بِمَا يَنْسَبُ .

دعاء : أَعَزَّ اللهُ شَانَهَا ، وَأَذَلَّ مِنْ شَانَهَا ، وَأَغْصَّ بِأَدْمُعِ أَعْدَائِهَا الضَّرِيحَةَ شَانَهَا ^(١) .
دعاء آخر يليق بذلك : وَلَا زَالَتْ الْأَمَالُ إِلَيْهَا وَإِفْدَهُ ، وَالصَّلَاتُ عَائِدَهُ ، وَمَعَانِي الْفَضْلِ عَنْ أَخْبَارِ مَعْنَاهَا زَائِدَهُ .

آخر : لَا زَالَتْ خَنَاصِرُ الْحَمْدِ مَعْقُودَةً عَلَى فَضْلِ بَنَانِهَا ، وَفُضِّلَ بَيَانُهَا ، وَعَوَانِدُ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ شَاهِدَةً بِالْحُسَيْنِ مِنْ فَضْلِهَا وَأَمْتِنَانِهَا - وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوْفِيَّةِ أَبْدَلَ الْقَضَائِيَّةَ بِالشَّيْخِيَّةِ وَأَسْقَطَ الْعَادِلِيَّةَ وَالْحَاكِمِيَّةَ وَدَعَا لَهُ نَحْوَ قَوْلِهِ : وَمَتَّعَ الْإِسْلَامَ بِبَقِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ ، وَبَيَّضَ صَحَائِفَ أَعْمَالِهِ الَّتِي لَا يُدْبِي الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ مُصَافِحَهُ .

آخر : لَا أَخْلَى اللهُ مِنْ بَرَكَاتِ خَلَوَاتِهِ ، وَأَعَادَ مِنْ نَوَامِي دَعَوَاتِهِ ، وَسَوَامِي دَرَجَاتِهِ وَتَوَجُّهَاتِهِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ .

والعنوان الْأَلْقَابُ الَّتِي فِي صَدْرِ الْمَكَاتِبَةِ ، وَالِدَعَاءُ بِالسَّجْعَةِ الْأُولَى مِنَ الدُّعَاءِ بَاطِنُهُ أَوْ نَحْوُهَا .

(١) الشَّانُ مَجْرَى الدَّمْعِ إِلَى الْعَيْنِ . قَامُوسُ .

وصورة وَضَعَهُ أَنْ تَكْتُبَ الْأَلْقَابُ والدعاء والتعريف في سطرين كما تقدم في الباسط كما في هذه الصورة .

الباسطة ، الشريفة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، الذخرية ، السندية ، الكاملية ، المحسنية . أعز الله تعالى أنصارها أمير حاجب بحاة المحروسة .
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرقاع في أول الوصل الثالث على القرب من اللصاق .

المرتبة الثالثة — يقبل اليد الشريفة بألقاب الباسطة المتقدمة ؛ ثم اليد الكريمة ؛ ثم اليد العالية مع حذف الكريمة رتبة بعد رتبة ، والألقاب بحالها ويدعى له ؛ ثم يقال والمستمد من محبته كَيْتَ وَكَيْتَ ، والله تعالى يؤيده . والحال في اختلاف بعض ألقابها بالنسبة إلى أرباب السيوف وغيرهم على ما تقدم في الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السيوف في هذه المكاتب

دعاء من ذلك : يقال بعد استكمال الألقاب : لازالت مقبلة البنان ، مؤملة الإحسان ، مفضلة على أنواء السحب بكل لسان ، وينهى .

آخر : لازالت ترد بالسيف صدور الكتائب ، وترد الظماة منها موارد السحاب ، وتحدث عن البحر وكم في البحر من العجائب .

آخر : لازالت برهها مأمونه ، وبدبها ممنونه ، وأيامها تصبح الأعداء بأستنها الزرق المستونه .

آخر : لا أخل الله من ودها ، ولا قطع وظائف حمدها ، ولا قضى مغيبها إلا جعل لها ذكرى بعدها .

آخر : لازالت مصالحها تظفر بالمنى ، وتحصل على الغنى ، وتطلق لسانه بعاطر الشنا .

آخر : لازالت لتقليد المن سابقه في الجود العدل ، مقسمة في مكارم التكريم : باطنها للندى وظاهرها للقبيل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعد استيفاء الألقاب : لازالت مستهله بالندا ، مستقلة بكبت العدا ، مطلة على النجوم على بعد ما بينهما من المدى .

آخر : لابرحت مفارحها مفضله ، ومحبتها في الخواطر ممثله ، والكواكب تود لو فارقت فلكنها وأصبحت لديها مسبله .

آخر : لازالت لصحائف الإحسان مسطره ، ولقلوب الأعداء مغطره ، ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء مغطره .

آخر : أعلى الله تعالى شأنها ، وضاعف إحسانها .

والعنوان . اليد الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العالية ، بالألقاب التي في صدر الكتاب من غير زيادة ولا نقص ، والدعاء بأول سبعة من المدعوبة في صدر الكتاب أو نحوها ، والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما في هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، الملووية ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، الذرية ، المالكية ، المحسنة ، الفلانية . أعلى الله تعالى شأنها نائب ملطية المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على القُرْب من موضع لصاقه^(١).

وأعلم أنه ربما وُصِفَ التَّجِيلُ في هذه المراتب بعد الدُّعاء بالأوصاف الدَّالَّةُ على زيادة التأدُّب ورفعة قَدْرِ المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى في "عُرْف التعريف". وقد يستعمله بعض كُتَّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول في تجييل الباسط بعد استعمال الدعاء: تَجِيلًا يَحُومُ عَلَى مَنَاهِلِهِ، وَيَحْلِقُ نَسْرُ السَّمَاءِ عَلَى مَنَازِلِهِ؛ أَوْ يَقُولُ: تَجِيلٌ مَحَبٌّ أَخْلَصَ وَلَاءَهُ، وَمَحْصَصُ الصَّدَقِ وَفَاءَهُ - أَوْ تَجِيلًا يُوَالِيهِ، وَيُنَظِّمُ لآلِيهِ - أَوْ تَجِيلًا يُوَالِيهِ بِهِ الْخِدْمَ، وَيُوَدُّ لَوْ سَعَى لِأَدَائِهِ عَلَى الرَّأْسِ إِنْ لَمْ تُسَعِفِ الْقَدَمَ - أَوْ تَجِيلًا لَا يُرَوِّى الْكِرْمَ إِلَّا عَنْهُ، وَلَا تُسْتَفَادُ الْمَكَارِمُ إِلَّا مِنْهُ - أَوْ تَجِيلٌ وَارِدٌ عَلَى ذَلِكَ الزَّلَالِ، رَائِدٌ فِي ذَلِكَ الرُّوضِ الْمُنْتَدِ الظَّلَالِ - أَوْ تَجِيلٌ مُسَارِعٌ إِلَيْهَا، مُزَاحِمٌ عَلَيْهَا. وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المَقَامَ، مثل أن يقول: وَيُنْهِى بَعْدَ وَصْفِ خِدْمِهِ، وَتَمْنِيهِ لَوْ وَقَفَ فِي صَفِّ خِدْمِهِ؛ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قلت: وفي بعض الدساتير بعد تجييل اليد العالِيَةِ، يُقْبَلُ يَدَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ، الْعَالِي، الْأَمِيرِي، الْكَبِيرِي، الْعَالِمِي، الْمُؤَيَّدِي، النَّصِيرِي، الرَّعِيمِي، الْفَلَانِي؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ: يُخْدَمُ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ بِخَوْضِهِ الْأَلْقَابَ؛ وَفِي "التَّنْقِيفِ" يُقْبَلُ يَدَ الْجَنَابِ الْعَالِي، وَيُخْدَمُ الْجَنَابَ الْعَالِي، بِدُونِ الْكَرِيمِ؛ ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُبْدَى لِعَلَمِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ؛ وَالْقَصْدُ مِنْ مَحَبَّتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ؛ فَيُحِيطُ عَلَمًا بِذَلِكَ. وَبَعْضُ الْكُتَّابِ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ إِلَى الْآنَ؛ وَهُوَ ذُهُولٌ، إِذْ سَيَأْتِي فِي أَوَّلِ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ أَنَّ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ الْمَفْتَحَةِ بِالدُّعَاءِ لِلْمَقَرِّ الشَّرِيفِ عَلَى الْمَصْطَلَحِ الْأَوَّلِ، وَلِلْمَقَرِّ الْكَرِيمِ عَلَى مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ الْآنَ؛ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَتَأْتَى أَنْ تَكُونَ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ أَوْ الْجَنَابِ الْعَالِي قَبْلَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ أَوْ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ.

(١) الأظهر من موضع لصقه.

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على [ثلاث] مراتب ^(١) :

المرتبة الأولى — الدعاء للمقتر ، والرسم فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً ، ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة .

ويختلف الحال فى ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقتر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ، النصيرى ، الفلانى ، ثم يدعى له بما يناسب ، نحو : ولا زالت جيوشه جائله ، وجنوده بين الأعداء وبين مطالبيها حائله ، وأولياؤه على صهوات خيلها لديه قائله ، أصدرناها إلى المقتر الكريم ، تهدى إليه من السلام أطيئه ، ومن الثناء أطنبه ، وتبدى لعله الكريم أن الأمر كيت وكيت ، والقصد من اهتمامه كيت وكيت ، فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكلمة الألقاب : وأيد عزائمَه ونصرها ، وأعلى أعلامه ونسرها ، ودقق فى مقاتل الأعداء حيث تُرورُ الأسنةُ نظرَها ، وينهى .

آخر : ولا برحتِ الآمالُ بكرمه تعترف ، وبوارقِ صوارمه لأبصار الأعداء تختطف .

(١) بياض فى الأصل .

آخر : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ، أصدرناها .

وإن كان من رؤساء الكُتّاب ، كتب : بسطَ الله ظِلَّ المقرِّ . أو أسبغَ الله ظِلَّالَ المقرِّ الكريم ، العالى ، القضاى ، الكيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، السيّدى ، السّندى ، المالىكى ، المخدوى ، المحسنى ، الفلانى ؛ وباقي المكتبة كما فى أرباب السيوف .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مَقَوَّضه ، ومَضَارِبُ العِزِّ إلا عنه مُقَوَّضه ، وصحائفُ الحسناتِ بتسويده على أثناءِ الدَّهرِ مُبَيَّضه ؛ أصدرناها .

آخر : وصرفَ لسانَ قلمه ، وشرفَ مكانَ قدمه ، وعرفَ من كان يُناويه أنّه أصبحَ لا يُعَدُّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر فى "عرف التعريف" أنّ القضاةَ والحكّامَ لا مدخلَ لهم فى المكتبةَ بالمقرِّ ، وعلى ذلك جرى فى مشايخ الصوفية . على أنه قد كُتِبَ بذلك . وقد رأيتُ المكتبةَ بذلك فى بعض الدساتير ؛ وحينئذ فُكِّتَبُ : أعزَّ الله تعالى أحكامَ المقرِّ العالى ، القضاى ، الكيرى ، العالمى ، العلّامى ، الإمامى ، المالىكى ، المحسنى ، الحاكى ، الفلانى ؛ ويُدعى له بما يناسب . مثل : وجدَّ له إقبالا ، وبلغه من الدارينِ آمالا ، وأحسنَ إليه مَبْدَأَ ومآلا ، ونحو ذلك . والباقي على نحو ما تقدّم .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

لا برحتَ الشريعةَ مُحَوَّطَةً بأقلامه ، مضبوطةً بأحكامه ، منوطةً بما يُشَيِّدُ مَبَانِيهَا ومَتَانِيهَا من أحكامه ، مؤرَّخةً أيامَ سُعودها بأيامه .

آخر : حرس الله بأحكامه سرح المدى ، ولا برحت فتاويه بها يقتدى ،
ويظهر على المناوين والمتدعين من تجريدها مهتدا مهتدا .

آخر : لا برحت أنوار فتاويه لاميعة ، وسيوف أعلامها بها قاطعة ، وحدودها
إلى [موارد] أحكام الشريعة المحمدية شارعه .

والعنوان لهذه المكتبة المقر الكريم بنظير ما فى الصدر ، والدعاء بأول سبعة
فى الصدر من الدعاء .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما فى هذه الصورة :

المقر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،
النصيرى ، الفلانى ؛ أعز الله تعالى أنصاره . فلان الفلانى
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكتبة .

المرتبة الثانية : الدعاء للجناب ، وهو على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى — أعز الله تعالى نصرة الجناب الكريم . والرسم فيه أن يترك
تحت « الملقى الناصرى » عرض ثلاثة أصابع بياضا كما فى المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أعز الله تعالى نصرة
الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،
الذخرى ، العضدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأعلى قدره ، وأفدأ أمره ،
صدرت هذه المكتبة إلى الجناب الكريم ، تهدى إليه سلاما رائقا ، وشاء عاقبا ،
وتوضح لعلمه الكريم كيت وكيت ، والقصد من آهتاه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه
بذلك ، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسِبُ ذلك .

دعاء منه : ولا زالت عزائمهُ تُعير السُّيُوفَ المَضَاءَ ، وتُعَلِّمُ السَّهَامَ النُّقُودَ في القَضَاءِ .

آخر : ولا زال جنابُهُ مرَّعًا ، وسحابُهُ مرَّعًا ، ورُعبُهُ لا يدع من قلوب الأعداء مَوْضِعًا .

آخر : ولا زالت عزائمهُ تُباري السُّيُوفَ ، وتُسَقُّ الصُّفُوفَ ، وتُجَارَى إلى مَقَاتِلِ الأعداء الخُتُوفَ ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالى جلالَ الجَنابِ الكريمِ ، العالِي ، القَضَائِيَّ ، الكِبَرِيَّ ، الصَّدْرِيَّ ، الرَّئِيسِيَّ ، العَوْنِيَّ ، الغِيَاثِيَّ ، المَلَادِيَّ ، الفَلَانِيَّ ، ويُدْعَى له بما يناسبه ، والباقي من نِسْبَةِ أرباب السُّيُوفِ .

دعاء يناسبه : وحرسَ سماءَهُ التي تَغْنِي عن المَصَابِيحِ ، ونعماءَهُ التي هي للنَّعمِ مَفَاتِيحُ .

آخر : وبلغَهُ أشرفُ الرُّتَبِ ، ومَلَأَ به قُلُوبَ الأعداءِ غَايَةَ الرَّهَبِ ، وشَكَرَ ندَى قلمِهِ الذي لم يدع للغَمَامِ إلا فَضْلَ ما وَهَبَ ، صدرت .

وإن كان قاضِيًا ، كَتَبَ : أعزَّ الله تعالى أحكامَ الجَنابِ الكريمِ العالِي ، القَضَائِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العالِمِيَّ ، العَلَامِيَّ ، الأَوْحَدِيَّ ، الفَلَانِيَّ . ويدعوله ، نحو : ونورَ بعلمِهِ البصائرَ ، وسرَّ بحُكْمِهِ السَّرائِرَ ، وجعلَ قِيَضَ يَمِّهِ ما لا تُودَعُ دُرُّهُ إلا في الضمائرِ . والباقي من نِسْبَةِ ما تَقَدَّمَ .

وإن كان من مشايخ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : أعاد الله تعالى من بَرَكَاتِ الجَنابِ الكريمِ ، العالِي ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العالِمِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الوَرَعِيَّ ، الزَاهِدِيَّ ، الفَلَانِيَّ .

وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَلَا زَالَ يُقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فَسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَتُجْلَى
دُجَى الظَّلمَاءِ بِصَبَاحِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا يَزْدَانُ بَعْرَاضَ بَخْدَمَتِهِ ، وَيَزْدَادُ نَضْرَةً بِنَظَرَتِهِ .

وَالْعَتْوَانُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِالْقَابِ الصَّدْرِ ، وَالِدَعَاءُ بِأَوَّلِ سَجْعَةٍ مِنْ دَعَائِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
وَصُورَةٌ وَضَعَهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي سَطْرَيْنِ أَلْقَابَهُ وَدَعَاءَهُ وَتَعْرِيفَهُ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :
الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ، الْعَالِي ، الْأَمِيرِي ، الْكَبِيرِي ، الْعَالِمِي ، الْعَادِلِي ،
النَّصِيرِي ، الْفَلَانِي ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَتَهُ فُلَانُ الْفَلَانِي

وَالْعَلَامَةُ « الْمَمْلُوكُ فُلَانُ » بِقَلَمِ الثَّلَاثِ مُقَابِلِ السَّطْرِ الثَّانِي كَمَا فِي الْمَكَاتِبَةِ
الَّتِي قَبْلُهَا .

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ — مِنَ الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي .
وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَتْرَكَ تَحْتَ الْمَلَكِي الْفَلَانِي قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعٍ بَيَاضًا . ثُمَّ يَخْتَلِفُ الْحَالُ
فِي ذَلِكَ .

فَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ ، كُتِبَ : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى
نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، الْأَمِيرِي ، الْكَبِيرِي ، الْعَالِمِي ، الْعَادِلِي ، الْمُؤَيَّدِي ، الْعَوْنِي ،
النَّصِيرِي ، الذُّخْرِي ، الْفَلَانِي ؛ ثُمَّ يَدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَنَصَرَهُ فِي جِلَادِهِ ، وَأَيَّدَهُ
فِي مَوَاقِفِ جِهَادِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا
يَسُوقُ ، وَثَاءً يَرُوقُ ، وَتَوْصَحُّ لَعْلَمُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَالْجَنَابُ الْعَالِي ، يَتَقَدَّمُ بِكَيْتَ
وَكَيْتَ ؛ فَيُحِيطُ عِلْمُهُ بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

دَعَاءُ آخَرٍ يَنْاسِبُ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةَ : يُقَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الْأَلْقَابِ ، وَلَا زَالَ
عَزَمَهُ مُؤَيِّدًا ، وَعِزَّهُ مُؤَبَّدًا ، وَاجْتِهَادَهُ وَجِهَادَهُ : هَذَا يَسْرُ الْأَوْلِيَاءَ وَهَذَا يَسُوءُ الْعِدَاءَ ؛

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُخَصُّه بالسَّلام، والثناء الوافر الأقسام، وتوضَّح لعلَّه كَيْت وكَيْت .

آخر : ولا زالت أراؤه كواكب يهتدى بلوامعها ، وتقرأ سورة النصر في جوامعها ، وتسير كالسحب فتزعم الأعداء بصواعقها وتأتى الأولياء بهوامعها .

وإن كان من الكُتَّاب، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، القضاى، الكبيرى، الصدى، الرئيسى، القوامى، النظامى، الفلانى ؛ ثم يدعى له نحو : ولا زال يرجى لكل جليل ، ويؤمل لكل جميل ، ويؤهل لكل منتهى تقصردونه أصابع النيل ؛ صدرت هذه المكتبة ، والباقي على ماتقدم في أرباب السيوف .

وإن كان من القضاة، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، القضاى، العالمى، الفاضلى، الأوحدي، الصدى، الرئيسى، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : ودفع عنه الأبطال، وأرشد بهداه من الأضاليل .

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب : أعاد الله تعالى من بركة الجنب العالى، الشيخى، الإمامى، العالمى، الكاملى، الورعى، الزاهدى ؛ ويدعى له، نحو : ولا زال تُكشَف به اللأواء، وتطَّب به الأدواء . صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تهدي إليه سلاماً، وتفض عن مثل المسك ختاماً، وتوضَّح لعلَّه .

دعاء آخر : نفع الله بدعواته التى لا حاجب لها عن الإجابة، ولا عارض يمنعها عن الإجابة، وأمتع ببركاته التى هى أَمْنٌ للناس ومناجاة . صدرت .

والعنوان الألقاب التى في صدر المكتبة . والدعاء : ضاعف الله تعالى نعمته ؛ ثم التعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما في هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلانى
والعلامة «الملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكتبة .
الطبقة الثالثة — أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى وما فى معنى ذلك . والرسم
فيه أن يُترك تحت المَلَكى الفلانى بحيث يبق من الوصل الذى فيه البسمة
ما يسع سطرين فقط . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة
الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، المجاهدى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه وأظهره، وكتب
عدوه وقهره؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما طيبا، وثناء
مُطنبا، وتوضح لعلمه كيت وكيت، فالجناب العالى يتقدم بكيت وكيت، فيحيط
علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموه بجهاده كُلِّ سَنان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف
وسنان . صدرت هذه المكتبة تحية بسلام يطيب ، وثناء يهتر غصنه الرطيب،
وتوضح لعلمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى، القضائى .
والألقاب من نسبة ما تقدم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء،
نحو : ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحا، ونجم رفده [لأنواء الفضل مانحا]
صدرت .

وإن كان من القضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى ، والألقابُ من نسبة ما تقدّم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى . والدعاء ، نحو : ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ، ولا مجال الجدال من مرّكبه . صدرت .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى الشيخى . وبقية الألقاب من نسبة ما تقدّم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجنب . والدعاء ، نحو : نفع الله بركات خلواته التى كم أنجلت عن الرّشاد ، وبان فى مرءاتها نور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لإنارة الرّناد .

والعنوان بنظير الألقاب التى فى صدر المكاتبه ، والدعاء أدام الله تعالى نعمته . وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

الجنب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النّضيرى ، الذّخرى ، الفلانى ؛ أدام الله نعمته فلان الفلانى
والعلامة «الملوك فلان» تحت البسملة بقلم مختصر الطّومار .

المرتبة الثالثة — الدعاء للمجلس ، ويختص بالمجلس العالى ، والياض فيه تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدّم فى الجنب العالى . ويختلف الحال فيه .

فإن كان من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّخرى ، العونى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأيد عزّمه ، ووفرّ من الخيرات قسّمه ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تهدى إليه سلاما ، وتوفّر له من الخير أقساما ، وتوضح لعلمه المبارك

كِتَ وَكِتَ ، فالجلسُ يتقدّم بكيتَ وكيتَ ، فيحيط بِذلكَ علماً . والله تعالى
يؤيِّده بمنّه وكرمه .

وهذه أدعية تليق بهذه المكتبة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مَشْكُورَ الأَهْتِمَاءِ ، موصوفَ المحاسنِ وَصَفَ البَدْرِ
الثَّامِ ، معروفاً بجَميلِ الأَثَرِ مثلاً ما تُعرَفُ مواقعُ النِّعَمِ . صدرتْ هذه المكتبةُ
إلى المجلسِ العالى تُهْدَى إليه سلاماً ، وتُسَدَّدُ لِرأيه الصَّائِبِ سِهَاماً ، وتَوْصَحُ
لِعِلْمِهِ الكَرِيمِ .

آخر : ولا زالَ سَيِّفاً يُدْفَعُ بِجَدِّهِ ، وَيَجْرَى ماءُ النِّصْرِ من فِرْنِدِهِ ، ويتنوّعُ به
الظَّفَرُ فيَقْتُلُ بتجريدِهِ وَيُخَافُ وهو في غَمَدِهِ .

وإن كان من الكُتَّابِ ، كتب : أدام الله تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضَائِيَّ ،
الأَجَلِّيَّ ، الكَبِيرِيَّ ، الرَّئِيسِيَّ ، المَاجِدِيَّ ، الأَوْحِدِيَّ ، الأَثِيرِيَّ ، الفِلاَنِيَّ ؛
ويُدْعَى له ، نحو : وسدّد رأيه ووفّقه ، وَصَدَّقَ فِيهِ الظَّنَّ وَحَقَّقَهُ ، وَجَمَعَ لَهُ سَمَلَ
السَّعَادَةِ ثم لافرقه . صدرتْ هذه المكتبةُ إلى المجلسِ العالى تُشْكِرُ مَسَاعِيَهُ ، وَأَهْتِمَاءَهُ
الذى باتَ طَرْفُ النَّجْمِ وهو يُرَاعِيهِ ، وتَوْصَحُ لِعِلْمِهِ الكَرِيمِ .

آخر : ولا نَزَعَ عنه ثوبَ سَعَادَةٍ ، ولا غَيَّرَ مِنْهُ جَمِيلَ عَادَةٍ ، ولا عَرِفَ سِوَى
بابِهِ الذى لو كان له الحَقُّ فى جَبْهَةِ الأَسَدِ لاسْتَعَادَهُ . صدرتْ هذه المكتبةُ إلى
المجلسِ العالى تُهْدَى إليه السلام ، والثَّنَاءُ الذى تَنْطِقُ بِهِ ألسِنَةُ الأَقْلَامِ ، وتَوْصَحُ
لِعِلْمِهِ .

وإن كان من القُضَاةِ ، كتب : أدام الله تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضَائِيَّ ،
الكَبِيرِيَّ ، العَامِلِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الفاضِلِيَّ ، الأَوْحِدِيَّ ، الفِلاَنِيَّ ؛ ويُدْعَى له ،

نحو : وَلَا بَرَحْتُ طُلُبْتُهُ مُفِيدَةَ الْمَطَالِبِ ، مُورِيَّةَ الْهُدَى فِي الْغِيَاهِبِ ، قَائِمَةً أَفْلَامُ هِدَايَتِهَا فِي لَيَالِي الْخَيْرَةِ مَقَامَ الْكَوَاكِبِ .

آخر : وَلَا بَرَحْتُ الدُّنْيَا مَمْطُورَةً بِغَمَامِهِ ، مَجْبُورَةً بِدُخُولِهَا تَحْتَ ذِمَامِهِ .

وإن كان من مشايخ الصوفية^(١)، كتب : أدام الله تعالى بركة المجلس العالى ، الشَّيْخِ ، الإماميِّ ، العالميّ ، العامليِّ ، العائديِّ ، الورعِيَّ ، الزاهديِّ ، الأوحدِيَّ ، الفلانيِّ ، ويدعى له نحو : وَلَا زَال نُورُهُ يَسْعَى بَيْن يَدَيْهِ ، وَيُدْعَى بِاسْمِهِ إِلَيْهِ .

آخر : أعاد الله من بركاته على الراعي والرعيِّه ، وجعل خلواته خلوات كلِّ نفسٍ راضيةٍ مرَضِيَّةٍ ؛ والباقي على ما تقدّم .

والعنوان الألقاب التي في الصدر ؛ والدعاء : أدام الله تعالى نعمته . ثم التعريف . وصورة وضعه في الورق أن تُكتب ألقابه والدعاء والتعريف كما في هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميريِّ ، الكبيريِّ ، العالميّ ، المجاهديِّ ، المؤيِّديِّ ،

الدُّخْرِيِّ ، العَوْنِيَّ ، الفلانيِّ ؛ أدام الله تعالى نعمته فلان الفلانيِّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختصر الطُّومار تحت المَلَكِيَّ الفلانيِّ ، على ما تقدّم في المكتبة قبلها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَرْتِيبَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ : مِنَ الدُّعَاءِ بِأَعَزَّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ؛ ثُمَّ ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِيِّ ؛ ثُمَّ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِيِّ ؛ ثُمَّ أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ - هُوَ الْمُسْتَقَرُّ عَلَيْهِ الْحَالُ بَيْنَ كِتَابِ الزَّمَانِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ . وَجَعَلَ فِي «عُرْفِ التَّعْرِيفِ» : «أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فِي الدُّعَاءِ : أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِّ الْكَرِيمِ ؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعتة .

ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الْمُقَرِّ الكَرِيمِ ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نَصْرَ الْمُقَرِّ الكَرِيمِ ؛ ثم أدام الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الشَّرِيفِ ؛ ثم أدام الله نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ ؛ ثم ضاعف الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي ، وحرس الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي ، مع اختصار الألقاب وحذف بعضها ؛ ثم أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العَالِي . وعلى كثيرٍ من ذلك كان الحال جارياً إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس في التغير إلى أن صار الأمرُ على ما هو عليه الآن .

قلت : وكانوا في الزَّمنِ السَّالِفِ في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وما والاها لا يأتون مع المُقَرِّ الشَّرِيفِ ، والمُقَرِّ الكَرِيمِ ، والمُقَرِّ العَالِي ، والجَنَابِ الشَّرِيفِ ، بأصداقها ولا بصدرت هذه المكاتب كما هو الآن ؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالى أنصار المُقَرِّ الشَّرِيفِ» : المملوكُ يَقْبَلُ الباسطة . ثم يأتي بالإنتهاء بعد ذلك مثل أن يقول : المملوكُ يَقْبَلُ الباسطة الكريمة التي هي معدن السَّماح ، وموطن ما يوهن العدا من صدور الصَّفاح ، وينهى . أو يقول : يَقْبَلُ الباسطة الكريمة ، ويرتفع منها في كلِّ ديمه ؛ وينهى . أو المملوكُ يَقْبَلُ اليدَ الشَّرِيفَةَ ، ويلجأ إلى ظلالها الوَرِيقَةِ ، وينهى . ومع «الجَنَابِ الشَّرِيفِ» لفظُ «المملوكُ يَخْدُم» . ثم يقول : ويئدى مثل أن يكتب : المملوكُ يَخْدُمُ بِأُتَيْتِهِ ، ويُفَضُّ عقودَ الشُّكرِ على أُتَيْتِهِ ، ويئدى لعلمه الكَرِيمِ . أو المملوكُ يَخْدُمُ بِأُتَيْتِهِ التي تَزِيدُ الطَّيِّبَ طَيِّباً ، وتَسْرِى سُرَى السُّحُبِ فلا تدعُ في الأرض جَرِيباً ؛ ويئدى لعلمه الكَرِيمِ . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرت هذه الخدمةُ ، مثل أن يقول : صدرت هذه الخدمةُ وسلامُها يتصوَّع ، وشاؤها السافرُ لا يتبرَّع .

الدرجة الرابعة

(الابتداء بصيغ مُخْتَرَعَةٍ من صدور مكاتبات الأدعية)

اعلم أن صدور المكاتبات المفتحة بالأدعية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف :
أصدرناها أو صدرت هذه المكتبة ؛ ثم يقال : وتُبدى لعلمه أو وتوضَّح لعلمه .
ومن أجل ذلك جُعِلَتْ هذه الدرجة دون درجة الافتتاح بالدعاء ؛ لأنَّ هذه فرعٌ
من فروع تلك ، وحينئذٍ فيكون الصدر مُشْتَمِلًا بعد الدعاء على ثلاثة أشياء .

أحدها — [افتتاح] صدور المكتبة بقوله : أصدرناها أو صدرت .

والثاني — الإشارة إلى المكتبة بقوله : هذه المكتبة .

والثالث — الإعلام بما صدرت بسببه المكتبة . فتنظم من ذلك ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — الافتتاح بصدور المكتبة ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى — صدرت والعالى ؛ وهي أن تُفْتَحَ المكتبة ، بأن يقال : صدرت
هذه المكتبة إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذخرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمته ، ووفّر من الخير قسّمته ، تتضمّن
إعلامه كَيْتَ وَكِيتَ . فالمجلس العالى يتقدّم بكيّت وكيّت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده
والله الموفق .

وإن كان من الكُتّاب ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الكبيرى ، الرئيسى ، الكاملى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له ، نحو : حرس الله مجده ، وأنجح قصده ، والباقي على ما تقدّم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الكاملى ، الفاضلى ، الفلانى ؛
ويدعى له ، نحو : أيد الله أحكامه ، ووفر من الخير أقسامه ؛ والباقي على ماتقدم .
وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
الشّيعى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، الزاهدى ، العابدى ، الورعى ، الأوحدى ؛
ويدعى له نحو : أعاد الله من برّكته ، ونفع المسلمين بصالح أدعيته ؛ والباقي
على ماتقدم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصّدر وأولّ سجعة من الدعاء فيه . وتكون الألقاب
والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّخرى ،

الأوحدى ، الفلانى أدام الله رفّعته فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » تحت « الملكى الفلانى » بقلم مختصر الطومار الثقيل ،
وربما جعل بعضهم العلامة « أخوه » .

الطبعة الثانية — صدرت والسامى . وهى أن تُفتَح المكتبة بأن يقال :
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى كما
فى المكتبة التى قبلها : بحيث لا يبقى من الوصل إلّا ما يسع سطرين فقط
على ماتقدم .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العزّدى ، الذّخرى ،
الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : أدام الله سعده ، وأنجح قصده . ثم يقال :

تُتَضَمَّنُ إِعْلَامُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ . فالمجلس السامي يتقدَّم بكيِّتَ وَكَيْتَ ؛ فيعلَمُ ذلك ويعتمدُه ويبادِرُ إليه ، والله الموفِّقُ .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامي القضائيّ ، الأجلّيّ ، الكبيريّ ، الزيّنيّ ، الماجديّ ، الأثيريّ ، الأوحديّ ، الفلانيّ ؛ ويدعى له ، نحو : ضاعفَ الله تعالى إقباله ، أو أدام الله سعادته ، وبلغه إرادته ؛ والباقي على ما تقدَّم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامي القضائيّ ، الصّدريّ ، الفقيهيّ ، الإماميّ ، العالميّ ، الفاضليّ ، الكامليّ ، الأوحديّ ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدَّم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامي ، الشّيخيّ ، العالميّ ، العامليّ ، الورعّيّ ، الزاهديّ ، الأوحديّ ، الفلانيّ ؛ ويدعى له ، نحو : لا أخلاه الله من أنسه ، ولا أبعدَه من حَضْرَةِ قُدْسِهِ . والباقي على نحو ما تقدَّم .

والعنوانُ الألقابُ التي في صدرِ المكاتبة بالسَّجْعَةِ الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس السامي ، الأميريّ ، الكبيريّ ، المجاهديّ ، العضديّ ، الذُّخْرِيّ ،
الأوحديّ ، الفلانيّ . أدام الله سعده فلان الفلاني
والعلامة «أخوه فلان» تحت المملكيّ الفلانيّ ، بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الافتتاح بالإشارة إلى المكتبة ، وهى أن يُكْتَبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبر عنه بالسامى بغير ياء ، والياض فيها تحت الملكى الفلانى متّسع أيضا : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يتسع سطرين فقط . ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ، الذّحر ، فلان الدين ؛ ويدعى له نحو : أدام الله إقباله ، وبلغه آماله ؛ أو أنجح الله قصده ، وأعذب ورده ، تُعلمه كيت وكيت : فالمجلس يتقدّم بكيت وكيت : فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتّاب ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، الصّدر ، الرئيس ، الأوحِد ؛ ويدعى له ، نحو : أدام الله سعادته ، وبلغه من الخير إرادته ؛ تُعلمه كيت وكيت . والباقي على ما تقدّم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدّم .

وإن كان من مشايخ الصّوفية ، كتب : هذه المكتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، فلان الدين ، نفع الله تعالى ببركته ، ولا أخلى مجالس الذّكر من محاسن سَمَتِهِ وَسَمَتِهِ . والباقي من نسبة ما تقدّم .

والعنوان الألقاب التى فى صدر الكتاب ، وأوّل سَجْعَةٍ من الدعاء الذى فيه وتعريفه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ،
الذّحر ، فلان الدين . أدام الله إقباله فلان الفلانى

المرتبة الثالثة — الافتتاح بالإعلام بالقصد ، وهو أن يكتب : يعلم فلان ، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليعلم بإثبات لام الأمر في أوله ، فحذف كتاب الزمان منها اللام اللازم لإثباتها وأجروها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يترك تحت الملكى الفلانى بياض : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين كما في المكتبة قبلها وما قبل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف ، كتب : يعلم الأمير ، الأجل ، الكبير ، المؤيد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ، فلان الدين ، ويدعى له ، نحو : أدام الله عزه ، ووفر من الخير كثره ، كيت وكيت ، فجلس الأمير يتقدم بكيت وكيت ، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق بمنه وكرمه .

وإن كان من الكتاب ، كتب : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ، كيت وكيت ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كتب : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ، كيت وكيت ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : يعلم مجلس الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، الأوحد ، الكامل ، فلان الدين ، كيت وكيت ، والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان لهذه المكتبة الألقاب التى فى الصدر والدعاء بأول سبعة مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، الذخر، المرتضى، المختار،

فلان الدين . أدام الله عزّه . فلان الفلانيّ

والعلامة تحت البسملة الأسم بقلم مختصر الطومار الثقيل .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات وعنواناتها ليست موقوفا عندها ، بل لكل واحد فيها اختيار من تقديم وتأخير ، وتبديل لقب بلقب ، وزيادة ونقص ؛ إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة ، مثل زيادة لقب ولقبين وثلاثة ، ونقصها . على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون في الإخوانيّات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيّات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمقتّر الشريف لأرباب السيوف بعد استيفاء الألقاب المفردة : عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء في العالمين ، زعيم الجيوش ، مقدّم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، ممدّد الدول ، مشيد الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . ومع الدعاء للمقتّر الكريم : عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء في العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحّدين ، عماد الدولة ، عون الأمة ، دُخر الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها .

وإن كان من رؤساء الكتّاب ، قيل : جلال الإسلام والمسلمين ، سيّد الكُبراء في العالمين ؛ رئيس الأصحاب ، قوام الأمة ، نظام الملّة ، مدبر الدولة ؛ دُخر الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ؛ وكذلك إلى آخر المراتب كلّ مرتبة بحسبها . وكذلك القول

في القضاة ومشايخ الصوفية كلُّ أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورُتبته .
ثم اقتصرُوا بعد ذلك على استعمال اللَّقبِ المضافِ إلى الملوك والولاة ، مثل ظهير
الملوك والولاة ونحو ذلك ؛ فحذف كُتَّابُ الزمان هذه الألقاب المركبة جملةً
اختصاراً ، وهو مستحسن : لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ، ولتخالف
المكتابات الصادرة عن السلطان ، فتكون مخصصةً بالألقاب المركبة دون غيرها .

القسم الثاني

(من المكتابات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر

أهل الدولة ، الأجوبة ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُفتَح من ذلك بما تُفتَح به الابتداءات المتقدمة الذكر)

والرسم فيها أن يكتب صدرُ الكتاب كما يكتب أن لو كان ابتداءً ، ثم يذكر ورودُ
الكتاب المجاوب عنه ، ويُؤتى بالجواب عما تضمنته ، وهو على أربع مراتب :

المرتبة الأولى — وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد ، أن يعبر عنه بالمثل .
وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض ويُنهى كيت وكيت . وصورته أن يقول بعد
كمال الصَّدر : «^(١) ورد المثل الكريم العالی أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان ،
ويذكر ما يليق به من المجلس العالی أو المجلس السامی أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقبل
المملوك لوروده الأرض ، وأدنى من واجبه الفرض ؛ وتضاعف دعاء المملوك لتأهيله
لغلمانية الأبواب الكريمة ، وأتبع بوروده ، وحمد الله وشكره على ما دل عليه : من
عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره — إن كان المثل قد ورد من نائب سلطنة —
أو من عافية مولانا قاضي القضاة — إن كان قاضياً — أو من عافية المخدم وصحة مزاجه

(١) أى الذى منه وينهى ورود المثل الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقابلَ المملوكُ المراسيمَ الكريمةَ بالامتثال ؛ ففهمَ ما رُسِمَ له به من كَيْتٍ وكَيْتٍ ؛ والمملوكُ لم يكنَ عنده غفلةٌ ولا إهمالٌ فيما رُسِمَ له به . وإن كانَ ثمَّ فصولٌ كثيرةٌ ، قال : فأما ما رُسِمَ له به من كَيْتٍ وكَيْتٍ فقد آتمثله المملوكُ ؛ ويجاوبُ عنه . ثم يقول : وأما ما رُسِمَ له به من كَيْتٍ وكَيْتٍ ، فالأمرُ فيه كَيْتٍ وكَيْتٍ ، حتى يأتى على آخرِ الفُصولِ ؛ فإذا آتتهى إلى آخرها ، قال : وسؤالُهُ من الصّدقاتِ العَميمةِ ، إمدادُهُ بمراسيمِهِ الكريمةِ وخِدْمِهِ ، ليفُوزَ بقضائِها ، ويؤدِرَ إلى آتمثالِها ؛ والمملوكُ مملوكه وعبدُ بابهِ الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبرَ عن الكتابِ الواردِ بالمثالِ العالى بدُونِ الكريمِ ، وذلك مع الابتداء بلفظِ يُقَبَّلُ الأرضَ ويُنبى بعد آبتِهاله إلى الله تعالى ؛ والابتداء يُقَبَّلُ الأرضَ بعد رَفَعِ دُعائه ؛ ويُقَبَّلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريفِ ؛ ويُقَبَّلُ الباسطَ الشريفِ . فأما مع يُقَبَّلُ الأرضَ بعد آبتِهاله ، فالأمرُ على ما تقدّمَ فى جوابِ المكاتبةِ قبلها ، إلا أنه يقتصر على المثالِ العالى دُونِ الكريمِ كما تقدّمت الإشارةُ إليه . وأما مع يُقَبَّلُ الأرضَ بعد رَفَعِ دُعائه ، فإنه يقول بعد تكملة الصّدْرِ : ورودَ المثالِ العالى أعلاه الله تعالى على يدِ فلان ، فقبله حينَ قابله ، ووقفَ على ما تضمّنهُ من كَيْتٍ وكَيْتٍ ، وفرِحَ بما دلَّ عليه من عافيةِ المَخْدُومِ ، وحَمِدَ الله تعالى وشكره على ذلك ، وفهمَ ما أشار إليه من كَيْتٍ وكَيْتٍ ؛ ويجاوبُ عنه ، ثم يقول : والمملوكُ يسألُ إحسانَ المَخْدُومِ بتشريفِ المملوكِ بمهمّاته ومَراسيمِهِ ليفُوزَ بقضائِها ، فإن المملوكَ وقفَ المالكُ ؛ طالَعَ بذلك ، والله تعالى يؤيِّده بمنّه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقَبَّلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريفِ ، ويُقَبَّلُ الباسطَ الشريفِ ؛ فإنه يُقالُ ورودَ المثالِ العالى أيضا ، وربما قيل ورودَ مثاله العالى . وقد يقالُ المشرفُ الكريمُ العالى على ما تقتضيه رتبةُ المكتوبِ إليه ، ويرتضيه المكتوبُ عنه ؛ والباقي على نحو ما تقدّم .

المرتبة الثالثة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة ، على التأنيث ؛ وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد . ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب . فيقال : يقبل الباسطة ويُنهي ورود المشرفة الكريمة ، ومع اليد الشريفة ، والكريمة ، والعالية ؛ وفي معنى ذلك يخدم إذا كتب بها ؛ وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقتدر الكريم ، وإن كان المكتوب عنه يكتفى عن نفسه بنون الجمع المقتضية للتعظيم . ثم يقول : في كل منها فقبلها المملوك حين قابلها ، ووقف على ماتضمنته من محبته ومودته ؛ وفهم ما شرحه من أمر كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : والمستمد من محبته تشریف المملوك بمراسيمه ومشرقاته وخدمه : ليفوز بقضائها ، ويأدر إلى أمثالها ؛ فإن المملوك ما عنده غفلة فيما يقتضيه رأيه العالی ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

المرتبة الرابعة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكتبة . وذلك مع الابتداء بالدعاء بلفظ : ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالی ؛ وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالی ؛ وصدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی ، أو المجلس السامی ؛ أو هذه المكتبة إلى المجلس السامی ؛ أو يعلم مجلس . فيقال : وتوضح لعلمه ، أو موصحة لعلمه ، أو تتضمن إعلامه ، أو تعلمه ، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة ، وورود مكاتبته ، فوقفنا عليها ، وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : فيتقدم الجناح أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحواله .

وأعلم أن لكاتب السر أجوبة لتواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتبتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتبتهم على الحضرة السلطانية ؛ وتحسين السفارة في ذلك ؛ ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته .

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحروس يُكتب ما صورته : ويُنبئ بعد رَفَعِ
أُدْعِيَتِهِ الصالحةِ تَقَبَّلَهَا اللهُ تعالى من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخْلِصٍ ، بِدَوَامِ أَيَّامِ مولانا
ملكِ الأُمراءِ ، أَعَزَّ اللهُ تعالى أنصاره ، وَخُلُودِ سعادته عليه ، أَنَّ المِثَالَ الكَرِيمَ وردَ
على المملوكِ على يَدِ فلانٍ ؛ فَهَضَّ له المملوكُ ، وأَجْمَلَ فى تَلْقِيهِ السُّلُوكِ ؛ وَفَضَّه عن
صَدَقَاتِ عَمِيهِ ، وَتَفَضَّلَاتِ جَسِيهِ ؛ وَفَرِحَ بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ
الأُمراءِ - أَعَزَّ اللهُ أنصاره - وَعَافِيَتِهِ ، وَصِحَّةِ مِزَاجِهِ المحروسِ ؛ وَتَضَاعَفَ سرورُ المملوكِ
بذلك ، وَتَزَايَدَ أَتْبَاجُهُ به ، وَسألَ اللهُ تعالى أَنبَ يُدِيمَ حياةَ مولانا ملكِ الأُمراءِ ،
أَعَزَّ اللهُ أنصاره ، وَيُقَيِّهَ ؛ وَأَتَمِّهِ إلى ما تَضَمَّنَتْهُ الإشارةُ الكَرِيمَةُ فى معنى تَجْهِيزِ
المشارِ إليه إلى خِدْمَةِ الأبوابِ الشَرِيفَةِ بما على يَدِهِ من المَكاتِبَةِ الكَرِيمَةِ ، وما رَسَمَ به
من القيامِ فى خِدْمَتِهَا وَعَرَضُهَا بين يَدَيِ المَوَاقِفِ الشَرِيفَةِ شَرَّفَهَا اللهُ تعالى وَعَظَّمَهَا ؛
وَقَابَلَ المملوكُ الإشارةَ الكَرِيمَةَ بِالْأَمْتِثالِ بالسَّمْعِ والطاعةِ ، وَبادَرَ إلى ما رَسَمَ به ؛
وقد عَرَضَ المملوكُ المَكاتِبَةَ الكَرِيمَةَ على المَسامِعِ الشَرِيفَةِ ، وَكُتِبَ الجوابُ الشَرِيفُ
عن ذلك بما سَتُحِيطُ به العلومُ الكَرِيمَةُ ؛ وَعَادَ بذلك إلى خِدْمَةِ مولانا ملكِ الأُمراءِ
أَعَزَّ اللهُ أنصاره . وَالمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأُمراءِ عَزَّ نصره ، وَحُبُّه القديمُ ،
والمُعْتَرِفُ بإحسانه وَصَدَقَاتِهِ ؛ وَيَسألُ تَشْرِيفَهُ بالمَهَمَّاتِ وَالخِدَمِ ، أَنهْى ذلك ، إن شاء
الله تعالى .

وفى جوابِ بَقِيَّةِ التَّوَابِ بالمالكِ الشَّامِيَةِ : كِتَوابُ السُّلْطَنَةِ بِحِجَّةِ وَطَرابُلسَ وَصَفَدَ
وَالكَرْكِ ، وَمَقَدِّمُ العسْكَرِ بَغْزَةَ ، يَكْتُبُ : وَيُنَبِّئُ بعد رَفَعِ دُعائِهِ ، وَإِخْلَاصِهِ فى مَحَبَّتِهِ
وَوَلَّائِهِ ، وَأَعْتَرافِهِ بإحسانِ مولانا وَآلائِهِ ، أَنَّ المِثَالَ العالى - أَعْلَاهُ اللهُ تعالى -
وردَ على المملوكِ على يَدِ فلانٍ ، فَتَقَبَّلَهُ المملوكُ ، وَأَحْسَنَ فى تَلْقِيهِ السُّلُوكِ ؛ وَفَرِحَ بما دَلَّ
عليه من عَافِيَةِ مولانا وَسَلَامَتِهِ ، وَصِحَّةِ مِزَاجِهِ المحروسِ ، وَحَدَّ اللهُ تعالى على ذلك ،

وَأَتَتْهُ إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ : مِنْ تَجْهِيزِ الْمَطَالَعَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهَا ، وَفَهَّمَهُ الْمَمْلُوكُ ذَلِكَ ، وَامْتَثَلَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَوَقَفَ فِي خِدْمَتِهَا عِنْدَ الْعَرَضِ عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَحَاطَتْ الْعُلُومُ الشَّرِيفَةُ بِمُضْمُونِهَا ؛ وَكُتِبَ الْجَوَابُ الشَّرِيفُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا سَيُحِيطُ بِهِ عِلْمُ مَوْلَانَا ، وَقَدْ عَادَ فُلَانٌ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ وَبِهَذِهِ الْخِدْمَةِ ، وَحَمَلَهُ الْمَمْلُوكُ مِنَ السَّلَامِ وَالشُّوقِ وَالِدَعَاءِ وَالْوَلَاءِ وَتَقْبِيلِ الْأَرْضِ مَا يُبْدِيهِ لِمَسَامِعِ مَوْلَانَا . وَالْمَمْلُوكُ يُسَالُ إِحْسَانَهُ الْإِصْغَاءَ إِلَى ذَلِكَ ، وَالتَّشْرِيفَ بِمِرَاسِمِهِ وَخِدْمَتِهِ : لِيَبَادِرَ إِلَى قَبُولِهَا . وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ وَيَحْرُسُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

وعلى قياس ذلك في غير هذه من المكاتبات بحسب ما تقتضيه رتبة كل واحد من أصحابها .

الضرب الثاني

(من الأجوبة ما يفتح برؤود المكاتبة مصدرا بلفظ : وردت أو وصلت

أو وقفت على المكاتبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثال الكريم الفلاني ، وذكر سلامته أحلى من ذكر الأوائل ، وقد تطرز منه طرازا أشرف من طراز الغلائل ؛ وما سكن القلب إلى شيء كسكونه إليه ، ولا رأى وارداً أكرم منه عليه ؛ فقابل نعمة قدومه بدوام شكرها ، وطوى صحائف الآمال إلا من نشرها ؛ وإذا كان وجه الأيام مقطباً استغنى بيشير وجهه الميمون عن بيشيرها ؛ فإن حسن في رأيه الإجراء على عوائد إحسانه [من التشريف بمِرَاسِمِهِ وَخِدْمَتِهِ] والمواصله بها ، [نالت ^(١) النفس من ورودها نهاية أريجها .

(١) بياض في الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبة المطلقة : وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكتاب ، وعيون أهل الأدب ، ممن له ملكة في الإنشاء ، وقوة في النظم والنثر ، فإنها لا تتوقف على ابتداء مخصوص ، ابتداء ولا جواباً ، بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الافتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة ، بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها ، بل ربما اقتصر فيها على الشعر خاصة دون النثر .

المهيمع الثاني

(في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم : من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما الحال مستقر عليه في زماننا)

اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات ، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به ، إلى من فوق رتبته أو مساو له في الرتبة أو دونه فيها ، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى — من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم » ككافل السلطنة : وهو نائب السلطان بالحضرة ، وأتابك العساكر ، ونائب السلطنة بالشام . والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — من يكتب له عن هذه الطبقة « الفلاني بمطالعة » ، ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته — أتابك العساكر بالأبواب الشريفة ، وكان ما كتب له « المخدومي الأتابكي فلان الفلاني » باللقب المضاف إلى لقب السلطان ، « أتابك العساكر المنصورة » .

المرتبة الثانية — من يُكْتَبُ إليه « الأبواب بمطالعة » ومن يُكْتَبُ إليه بذلك عن النائب الكافل بالحضرة، والأتابك-نائب السلطنة بالشام. فقد قال في "التتقيف":
 إِنَّ بهذه المكاتبه يكتبُ عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أظُنُّ؛ ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام - الدوادار، وأميرأخور، ومقدمو الألوَف بالديار المصرية، وأكابر الأمراء مقدّمِي الألوَف بالشام، وكافل المملكة الشريفة الحلبية.

المرتبة الثالثة — من يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتبُ عن كافل السلطنة بالحضرة إلى نائب السلطنة بحلب. وقد ذكر في "التتقيف" أنه كان يكتب بذلك عن الأمير يلبغا العمرى (يعنى الخاصكى) وهو أتابك الديار المصرية، إلى نائب الشام أيضا. ثم قال: وكذلك كُتِبَ بعده إلى نائب الشام وحلب، الأمير منكلي بغا، والأمير الحاي، وتُؤَاب السلطنة بالديار المصرية؛ وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كلٍّ من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزير وكاتب السربها.

المرتبة الرابعة — من يكتبُ له عن هذه الطبقة «الباب الكريم والباب العالى»^(١)
 أما الباب الكريم، فإنه يكتبُ بذلك عن النائب الكافل والأتابك

وبذلك يكتبُ عن نائب الشام إلى الأمراء الطليخاناه بالديار المصرية، وإستادار الأملاك الشريفة، وناظر الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظر الخواص، وناظر الدولة، وحاجب الحجاب بالشام، وقاضى القضاة الشافعى بالشام، وكاتب

(١) بياض في الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائب الشام ونائب طرابلس الى آخر ما يأتى بعد . وحرر .

السَّرَّبه، ونائب السلطنة بطرأبلس، ونائب السلطنة بحمّة، ونائب السلطنة بصفد،
ونائب السلطنة بالكرك .

أما من يكتب له عن نائب الشام الباب العالي بدون الكريم ، فقدّم العسكر
المنصور بغزة ، والقضاة الثلاثة بالشام ، ما خلا الشافعيّ المقدّم ذكره ؛ والوزير
بالشام .

المرتبة الخامسة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة « يقبل الأرض بالمقرّ
الشريف » وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك ، إلى نائب طرأبلس ،
ونائب حمّة، ونائب صفد، ونائب الإسكندرية ، وأمراء الألوف بالديار المصرية ؛
وبه يكتب عن نائب الشام .

المرتبة السادسة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة « الباسط الشريف » وبذلك
يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى مقدّم العسكر بغزة، ومقدّم العسكر بسيس،
ونائب السلطنة بالكرك، وحاجب الحجاب بالشام، وحاجب الحجاب بحلب .

المرتبة السابعة — من يكتب له عن هذه الطبقة « الباسطة الشريفة » ومن
يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضي القضاة الشافعيّ بحلب .

المرتبة الثامنة — من يكتب له عن هذه الطبقة « اليد الشريفة » أو « اليد الكريمة »
أو « اليد العالية » . وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى نائبي الوجه القبليّ
والوجه البحريّ بالديار المصرية ؛ ونائب القدس، ونائب حمص، ونائب الرّجبة،
ونائب البيرة، ونائب قلعة المسلمين، ونائب ملطية، ونائب دبركي، ونائب الألبستين،
ونائب طرسوس، ونائب أذنّة، ونائب بهسنى ؛ وأمراء الألوف بالشام وحلب .
وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أمراء العشرات بالديار المصرية، وقضاة

العسكريها ، وحاجب الحُجَّاب بِحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفى ، والمالكي ، والحنبلى ، بها .

المرتبة التاسعة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصَّفْقَةِ الْقَبِيلَةِ ، وإلى الأُمراء مُقَدِّمِ الْأُلُوفِ بِالشَّامِ ، وناظر الجيش به ، وأمير آل فَضْل ، ونائب حِمص ، وكاتب السَّرِّ بِحَلَب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكِي ، ونائب دَرَنْدَة .

المرتبة العاشرة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى نائب قلعة دِمَشْقَ ، والحاجب الثاني بها ، ووكيل بيت المال بها ، ومُقَدِّمِ الْأُلُوفِ بِحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبَةِ ، ونائب الْأَبْلُسِيِّينَ ، ونائب مَلْطِيَّةَ ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب بَهْسَنَى ، ونائب البيرة ، ونائب جَعْبَرٍ ، ونائب الرُّهَا ، ونائب حُسْبَانَ .

المرتبة الحادية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء الطَّبَلْخَانَةِ بِالشَّامِ ، ونائب الْقُدْس ، ونائب بَعْلَبَكَّ ، ومتولَّى صَيْدَا ، وأمراء الطَّبَلْخَانَةِ بِحَلَب ، ووكيل بيت المال بها ، والمُحْتَسِبِ بِهَا ، وناظرٍ خَاصٍّ الْبَرِيدِ بِهَا ، وأمير حاجب بَصَفَد .

المرتبة الثانية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : «ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي». وبذلك يكتب عن نائب الشام ، إلى والي قَطَايَا ، ورُبَّمَا زِيد فِيهِ الْكَرِيمِ .

المرتبة الثالثة عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ : «أَدَامَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء العَشَرَاتِ بِمِصْرَ ، وأمراء

العشرينات بالشام، والمحتسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بنى عقبة، وأكابر عرب آل فضل، وأمير عرب آل على، وأمير آل موسى، ونائب مضياف، ومتولى يروت.

المرتبة الرابعة عشرة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «المجلس العالى مع الدعاء». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالى المدينة، ووالى البريهما، والحاجب الثانى بغزة، وأمير آل مرآ، ومقدم عرب جرم، ومقدم بنى مهدي، وأمرء العشرينات بحلب.

المرتبة الخامسة عشرة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرت والعالى». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى كاشف الوجه البحرى من الديار المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالى أسوان، وكشاف الجسور من أمرء الطبلخاناه بالوجهين : القبلى والبحرى بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب بحماة، وحاجب الحجاب بصفد، وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بمحصى، وأمرء العشرات بحلب.

المرتبة السادسة عشرة — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرت والسامى». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والى قوص، ووالى منفلوط، ووالى الأشمونين، ووالى البهنسى، ووالى منوف، ووالى الغربية، ووالى الشرقية، ووالى قطيا، ونائب مضياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عيتاب، والحاجب الكبير بغزة. وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام، وأعيان الجند بها، ومقدم بنى مهدي، ومتولى الصلت ومجلون، ومتولى صرخد،

والحاجب الصغير بِحَصَّ ، ووالى تَدْمُر ، ومقدم إقليم الحُرُوب بِصَيْدَا ، ومقدم إقليم النِّعَاج ، ووالى البِقَاعَيْن ، ووالى بُلْنِيَّاس .

المرتبة السابعة عَشْرَة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » وبذلك يَكْتُبُ عَنْ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَنْبَاكِ ، إِلَى وَالِي الْجِزْيَةِ ، ووالى إِطْفِيج ، ووالى قَلْيُوب ، ووالى أَشْمُوم الرُّمَّانَ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وبذلك يَكْتُبُ أَيْضًا إِلَى نَائِبِ الْكَنْهَتَا ، وَنَائِبِ كَرْكَر ، وَنَائِبِ حَجَرِ شُغْلَانَ ، وَنَائِبِ سِرْفَنْدَكَار ، وَنَائِبِ الْقُصَيْرِ ، وَنَائِبِ بَغْرَاس ، وَنَائِبِ الرَّائِدَانِ ، وَنَائِبِ الشُّغْرِ وَبَكَاس ، وَنَائِبِ الرَّهَّا ، وَنَائِبِ الدَّرْبَسَاك ، وَنَائِبِ شَيْزَرِ بِالْمَلِكَةِ الْخَلِيَّةِ ، وَإِلَى نَائِبِ اللَّادِيقَةِ ، وَنَائِبِ صَمِيُون ، وَنَائِبِ حِصْنِ الْأَكْرَادِ ، وَنَائِبِ حِمَص ، وَنَائِبِ الْمَرْقَبِ ، وَنَائِبِ بَلَّاطُنُس ، وَنَائِبِ الْكَهْفِ ، وَنَائِبِ الْقَدْمُوس ، وَنَائِبِ الْخَوَايِ ، وَنَائِبِ الْعَلِيقَةِ ، وَنَائِبِ الْمَيْنَقَةِ : مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُس ، وَنَائِبِ شَقِيفِ تَبْرُونَ مِنْ مَعَامِلَةِ صَفَد . وبذلك يَكْتُبُ [أَيْضًا] عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِمِصْرَ ، وَإِلَى كَاشِفِ الرَّمْلَةِ ، وَمَتَوَلَّى حُسْبَانِ ، وَحَامِي الْخَرِيبَةِ .

المرتبة الثامنة عَشْرَة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « يَعْلَمُ » . وبذلك يَكْتُبُ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِالشَّامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ مَا تَقْدَمُ مِنَ الْمَكْتُبَاتِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ مَكْتُبَاتٌ أُخْرَى إِلَى مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنِ الْمَلِكَةِ ، وَهُمْ عَلَى مَرَاتِبٍ .

المرتبة الأولى — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْهُ : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ » — صَاحِبُ بَغْدَادَ : كَمَا كَانَ يُكْتُبُ لِلْقَانِ أَحْمَدَ بْنِ أُوَيْسٍ ، كَانَ يُكْتُبُ إِلَيْهِ فِي وَرَقٍ قَطَعَ نِصْفَ الْحُمَّى بِقَلَمِ الثَّلَاثِ الصَّغِيرِ : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لَدَى الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ ، الْعَالِيَةِ ، الْمُؤَلَوِيَّةِ ،

السلطانية، العالمية، العادلة، المؤيدية، المالكية، القانية، ولا زالت عزّمتها مؤيده، وأراؤها مسدده؛ ويُنهى إلى العلم الكريم — صاحب السّراى : ودشت القَبْجاق مثله بأبسط ألقاب .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزّ الله تعالى أنصار المَقَرّ الشريف »
أَبْنُ السلطان أحمد بن أُوَيْس المذكور . وورقه نظير ورق والده ، وقلمه نظير قلمه — صاحب هَرَاة : مثله .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : « أعزّ الله أنصار المَقَرّ الكريم » — صاحب مَارِدِينَ : أعزّ الله تعالى أنصار المَقَرّ الكريم العالى، المولوى، الكبيرى، العادلى، السلطانى، المَلِكى، الفلانى؛ ورَقَّ مِقْدَارُهُ، وأَجَزَّ مَبَارَهُ . المملوك يَحْدِدُ الخِدْمَةَ العالیه، وَيَصِفُ أَشْوَاقَهُ المتواليه؛ وَيُنْهَى لَعْلَهُ الكريم — صاحب بُرْصَا: من بلاد الروم، وهو أَبْنُ عُثْمَانَ . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يَزِيد بن مراد بك بن عثمان : أعزّ الله تعالى أنصار المَقَرّ الكريم ، العالى، المُولَوَى، الكبيرى، العالمى، العادلى، العَوْنى، الفِائِثى، المَهْدَى، المَشِيدى، الرَّعِيمى، الغازى، المَجَاهِدِى، المِثَاغِرِى، المَرَابِطِى، العَابِدِى، النَّاسِكِى، الزَاهِدِى، المَقْدَمِى، الأَتَاكِى، المَحْسِنِى، الظَهيرِى، المَلِكِى، الفلانى؛ مُعَزِّ الإسلام والمسلمين، سَيِّدُ الأُمَرَاءِ فى العالمين، نَاصِرُ الغُرَاةِ والمَجَاهِدِينَ، زَعِيمُ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ، مُبِيدُ المَشْرِكِينَ، قَامِعُ أَعْدَاءِ الدِّينِ، مَقْتَلِعُ الحُصُونِ مِنَ الكَافِرِينَ؛ عَوْنُ الأُمَّةِ، عِمَادُ المِلَّةِ، دُخْرُ الدَّوْلَةِ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ، حَاكِمُ البِلَادِ الرُّومِيَّةِ، صَاحِبُ بُرْصَا وَقَيْسَرِيَّةِ، سَيْفُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، قَهْرُ [الله] أَعْدَاءِ الدِّينِ الحَنِيفِىِّ بَعَزَائِمِهِ وَسَطَوَاتِهِ، وَجَعَلَهُ مُؤَيِّدًا فى حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَأَيَّدَهُ فى جِهَادِهِ وَاجْتِهَادِهِ بِالنَّصْرِ الذِّى لَا يَفَارِقُ أَلَوِيَّةَ أَعْلَامِهِ وَرَايَاتِهِ،

ولا زالت رعاياه محبوره، وعساكره منصوره؛ هؤلاء بجوده [وهباته]، وهؤلاء بوجوده
وحياته . المملوك يقبل اليد التي لازال القصد بها يزيد ، وبحر البر من أناملها مديد،
ونواهلها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد؛ ويصف صفاء محبة يتضاعف
تمأوها كل يوم جديد ، وترادف تحيات أشواقها بالمؤالة والتحميد ، ويتوأمّر
بهادي رسائلها بصديق المودة الدائمة على التأييد ؛ ويؤدي إلى العلم الكريم .

قلت : كذا رأيت في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب : كاتب
سر الشام كان . وفيه اضطراب وتخليط من نعت في ألقابه [بقوله] الملكي الفلاني ؛
وقوله سيد الأمراء في العالمين ، حيث وصفه أولاً بأوصاف المملوك ، ثم وصفه
بأوصاف الأمراء ؛ إلى غير ذلك من الخبط الذي لا يخفى على متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصار المقر العالي » — وزير صاحب بغداد ،
ورقه في قطع الحموي بقلم الثلث الخفيف — قاضي بغداد : مثله سواء — صاحب
لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قومان . ويقال في ألقابه : الأصيلي . نوين
التوامين ، مجهز المقانب ، دُخِر القانات — صاحب سيواس : من البلاد الرومية
أيضا — صاحب آياس لوق : من البلاد الرومية — صاحب جولمرك : من بلاد
الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناح الكريم » — صاحب حصن كيفا : من بلاد
الجزيرة ، ويقال فيه : الملكي الفلاني — مقدم التركان البيضاء .

المرتبة السادسة — « الجناح العالي » — صاحب أرزنجان — صاحب جزيرة
أبن عُمر من بلاد الجزيرة — صاحب أنطاليا من بلاد الروم — ابن الشيخ
عبد القادر الكيلاني شيخ الجبال .

المرتبة السابعة — « المجلس العالى » — صاحب مِيفَارِقِينَ : من بلاد
الجزيرة — صاحب أَكَلٍّ : من الجزيرة أيضا — صاحب أَرْقِين — صاحب
قَلْعَةِ الْجُوز — صاحب جرموك — صاحب أَمَاسِيَا : من بلاد الروم — نائب
مَارِدِينَ — خادم صاحب مَارِدِينَ — صاحب بُطْنَانَ — صاحب سِنْجَارَ : من
بلاد الجزيرة — صاحب حاسك (?) — صاحب أَزْبَك — صاحب المَوْصَل —
صاحب سَنُوب — صاحب بوشاظ — صاحب الدَّرْبَنْد — صاحب عَيْنِ دَارَا —
صاحب الحِمَّة — صاحب خِلَاطَ — صاحب طَلان — صاحب تَاخ — صاحب
جَمَشْدَرَاك — نائب كَرْبَاك — صاحب القَنْطَرَة — نائب خَرْتِ رُت — صاحب
الْبَارِيعَة — صاحب حَرَّان — صاحب العِمَادِيَة — صاحب حَانِي — نائب مازكرد —
نائب صاحبة مَارِدِينَ — أمير التركمان الشهرية — صاحب أَشْنُو .

الطبقة الثانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية ، مَنْ
يُكْتَب إليه عن السلطان : « أعزَّ الله تعالى نُصْرَة الجَنَاب الكريم » وهو نائب
السلطنة بِحَلَب .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلاني بمطالعة » وهو النَّائِب الكَافِل بالحضرة السلطانية ،
وَأَتَايَك العساكر المنصورة .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » وهو نائب السِّلْطَنَة بالشام ، والاميرُ الدَّوَادَرُ
بالأبواب السلطانية ، وأستاذ الدَّارِ بها ، وأكابرُ الأمراء المقدمين الخَاصِيَّة .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب الشَّام .

المرتبة الرابعة — «البابُ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرأبُلس، ونائب السلطنة بحمّة، ونائب السلطنة بصفد، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المقدمين بالحضرة ممن دون الخاصية، وفي معنى ذلك الوزير، وكاتب السر، وناظر الخاص، وناظر الجيش، ومن في معانهم.

المرتبة الخامسة — «يقبل الأرض بالمقر الشريف». وبذلك يكتب إلى حاجب الحجاب بالشام.

المرتبة السادسة — «يقبل الباسطة» وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام، وحاجب الحجاب بحلب، وحاجب الحجاب بحمّة، وحاجب الحجاب بطرأبُلس، وقاضي القضاة الشافعي بحلب، وكاتب السر بها.

المرتبة السابعة — «يقبل اليد الشريفة». وبذلك يكتب إلى نائب البيرة، ونائب ملطية، ونائب قلعة المسلمين، ونائب جعبر، ونائب الرها، ونائب الأبلستين، ونائب حمص، وأمراء الطبلخاناه بدمشق.

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب طرسوس، ونائب الرحبة، والحاجب الثاني بطرأبُلس، ومقدمي الألوفا بها، والقضاة الثلاثة: المالكي، والحنفي، والحنبلي بحلب. إلا أنه يقال: «أعز الله تعالى أحكام المقر».

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالی» وبذلك يكتب إلى نائب بهسنی، ونائب الرحبة، وأكابر الطبلخاناه بالشام، ومن تولى الإمارة من عرب آل فضل ثم عزل، وقضاة العساكر المنصورة بحلب، وناظر المملكة بها، وأمير آل علی.

المرتبة العاشرة — «أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكريم». وبذلك يُكتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بِحَلَبَ ، والحاجب الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضْل .

المرتبة الحادية عشرة — «ضَاعَفَ الله تعالى نِعْمَةَ الجَنَابِ العالى» وما فى معناه مما يُكتب به إلى أرباب الأقالام وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شِيزَر، وأمراء الطبلخاناه بِحَلَبَ ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بِحَلَبَ ، وناظر خاص البريد وموقعى الدُّسْتِ بها .

المرتبة الثانية عشرة — «صَدَرَتْ والعالى». وبذلك يُكتب إلى نائب عَيْنَتَابَ ، ونائب الرَّاوَنْدَانِ ، ونائب الكُخْتَا ، ونائب كَرَكَرَا ، ونائب بَغْرَاسَ ، ونائب الدَّرْبَسَاكِ ، ونائب الشُّغْرِ وبَكَاسَ ، ونائب القُصَيْرِ ، وأمراء العِشْرِينَاتِ بِحَلَبَ ، وأعيان العِشْرَاتِ بها .

المرتبة الثالثة عشرة — «صَدَرَتْ والسامى». وبذلك يُكتب إلى مُقَدِّمى الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، ومُقدِّمى البرِيدِيَّةِ بِهَا ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة — «السامى» بغير ياء . وبذلك يُكتب إلى والى سَرَمِينَ ، ووالى البَابِ ، ووالى عَزَازَ ، ووالى أَنْطَاكِيةَ ، ووالى حَارِمَ ، ووالى كَفَر طَابَ ، ووالى الجَبُولِ ، ووالى مَنِيجَ ، ووالى تَلَّ بَاشِرَ ، وأجنادِ الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، وصغار البريدية بها ، وعداد التركمان وعداد الأكراد .

وأعلم أن وراء ما تقدّم من المكاتبات الصادرة عن نائب حَلَبَ [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة ، كما تقدّم فى المكاتبات الصادرة عن نائب الشام ، وهى على مراتب :

المرتبة الأولى — المكتوبة بـ «يُقْبَلُ الْأَرْضَ» — القان صاحب بَعْدَاد : كما كان يُكْتَبُ إِلَى الْقَانِ أُوَيْسَ ، وَأَبْنِهِ أَحْمَدَ : يُقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيَّ ، السُّلْطَانِيَّ ، الْأَعْظَمِيَّ الْأَوْحَدِيَّ ، الْمَلَاذِيَّ ، الْعَطُوفِيَّ ، الْمُحْسِنِيَّ ، الْقَانِيَّ ، الْمَلِكِيَّ الْفَلَانِيَّ ، الْجَلَالِيَّ ؛ أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى شَانَهُ ، وَأَعَزَّ سُلْطَانَهُ ، وَأَمَكَنَ مِنْ رِقَابِ الْأَعْدَاءِ مَكَانَهُ ؛ وَلَا زَالَ لَوَاؤُهُ يَتَأَزَّرُ بِالنَّصْرِ وَيَرْتَدِي ، وَفَنَاؤُهُ يَرُوحُ إِلَيْهِ الْعِزُّ وَيَعْتَدِي ، وَعَزْمُهُ يَثْقَفُ صَرْفَ الزَّمَانِ فَلَا يَعْتَادُ أَنْ يَعْتَدِيَ ؛ وَلَا يَرِحَ مَجْهُودًا فِي مَوْقِفِ النَّصْرِ مَوْقِفُهُ ، مَا ضِيًّا فِي هَامَاتِ أَعْدَائِهِ مُرْهَفُهُ . وَيُنْهَى بَعْدَ أَدْعِيَةِ رَفْعِهَا إِلَى مَوَاطِنِ الْإِجَابَةِ ﴿ فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ وَمُؤَالَاةٍ شَفَعَهَا بِالْإِخْلَاصِ ، فَعَجَزَ عَنْ وَصْفِهَا دَوُوُ الْبَلَاغَةِ وَاللَّسَنِ ، وَأَثْنِيَّةٌ جَمَعَهَا فَلَذَّتْ بِهَا الْأَسْمَاعُ لَدَاذَةَ الْأَعْيُنِ السَّاهِرَةِ بِالْوَسَنِ ؛ أَنْ الْأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ .

المرتبة الثانية — مَنْ يُكْتَبُ لَهُ «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ» — صَاحِبُ مَارِدِينَ . وَالرَّسْمُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَيْهِ : أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيَّ ، الْكَبِيرِيَّ ، الْعَالِمِيَّ ، الْعَادِلِيَّ ، السُّلْطَانِيَّ ، الْمَلِكِيَّ ، الْفَلَانِيَّ ؛ وَيَدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : لَا زَالَتْ أَيَّامُهُ مَسْعُودُهُ ، وَأَبْوَابُهُ مَقْصُودُهُ ، وَأُلُويَةُ النَّصْرِ بِنَوَاصِي خَيْلِهِ مَعْقُودُهُ ؛ الْمَمْلُوكُ يُقْبَلُ الْيَدَ الشَّرِيفَةَ ، وَيَقُومُ مِنَ الْخِدْمَةِ بِأَكْلِ وَظِيفِهِ ؛ وَيُنْهَى لَعَلَّهُ الْكَرِيمَ بَعْدَ السَّلَامِ الزَّكِيِّ ، وَالثَّنَاءِ الْمُسْكِيَّ ؛ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَيَحِيطُ بِذَلِكَ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ ، وَيُخَفِّفُ بِالْمُشَرِّفَاتِ عَلَى عَادَةِ فَضْلِهِ الْعَمِيمِ .

المرتبة الثالثة — «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ» . وَبِذَلِكَ يَكْتَبُ إِلَى ابْنِ قِرْمَانَ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالْبِلَادِ الْقَرْمَانِيَّةِ — حَاكِمِ جُولْمَرْك — صَاحِبُ بُرْصَا وَهُوَ ابْنُ عُثْمَانَ — صَاحِبُ آيَاسِ لُوق .

المرتبة الرابعة — « المقرّ العالى » وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا،
والوزير بالممالك القانية وقاضيا .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجنا ب الكريم » . وبذلك يكتب
إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجنا ب العالى » . وبذلك يكتب
إلى نائب كرنك ، وحاكم جمشكراك ، وحاكم سيواس ، وحاكم أماسيا ، وحاكم
سنوب ، والحاكم بخرت برت .

المرتبة السابعة — « أدام الله تعالى نعمة الجنا ب العالى » . وبذلك يكتب إلى نائب
صاحب ماردين ، ونائب الصالحية ، وبعض خدام صاحب ماردين .

المرتبة الثامنة — « صَدَرَتْ والعالى » . وبذلك يكتب إلى حاكم حران ، ونائب
مازرد ، وحاكم قلعة الجوز .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية —
من يكتب إليه عن السلطان : « ضاعف الله تعالى نعمة الجنا ب العالى » كوزير المملكة
بالديار المصرية ، ونَاضِر الخَاص ، على ما استقر عليه الحال آنحرا ، وأرباب الوظائف
من الأمراء المقدمين بها : كأمير سلاح ، وأمير مجلس ، وأمير أخور ، والدوّادار ،
وإستادار ، وحاجب الحجاب ، ونائب الإسكندرية ، وكذلك تواب السلطنة
بطرابلس ، وحمّة ، وصفد ، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على [تسع] مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهم : النّائب الكافل ، وأتابك العساكر ،

ونائب الشام .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حلب .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ،
ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب الكرك ، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه
الطبقة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي
والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بغزة وسياس ، والأمراء المقدمين
المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال .

المرتبة الخامسة — « يقبل الأرض بالمقر الشريف » إن قصد تعظيمه ، أو الباسط
الشريف إن لم يقصد ، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالية » . وبذلك يكتب إلى أمراء الطليخان
المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض . وربما
أخطت رتبة أحد هؤلاء فكتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، أونصرة
الجناب الكريم ؛ أضعف الله تعالى نعمة الجناب العالی .

المرتبة السابعة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی » . وبذلك يكتب إلى
كاشف الوجه البحري وكاشف الفيوم والبهنساوية .

المرتبة الثامنة — « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . وبذلك يكتب إلى الولاة
الطليخان بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : كقوص والمحلة ، وغيرهما .
وربما كتب "صدرت والعالی" لأحدهم .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحرى بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . ككتاب السرى وناظر الجيـش ، وكذلك الحجاب الطليحانة بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاص فى الزمن المتقدم . فلما جُمع للصاحب شمس الدين المقسى بين الوزارة ونظر الخاص ، كان يكتب عنه بما يكتب به عن الوزراء كما تقدم . فلما انفصل الخاص عن الوزارة رُوِى فى الخاص ذلك القدر ، فكُتب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكتابات الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى النائب الكافل ، والأنايك ، ونائب الشام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب ، فكتبوا إليه الفلانى .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرابلس ، وحمّة ، وصفد ، وثغر الإسكندرية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية ، ومقدمى العسكر بغزة وسيس ، وربما كتب إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكرك .

المرتبة الخامسة — « يُقبَل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القدس الشريف ، ونائب الرحبة ، وكاشف الوجه البحرى ، وكاشف القيوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — « يقبل اليدّ العالية ». وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه ،
بالوجهين القبليّ والبحريّ ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — « يخدم الجناح العالى ». وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات
بالوجهين القبليّ والبحريّ أيضا .

قلت : وعلى هذه الطبقات الأربع يُقاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن
السلطان ، صدرت والعالى ، كاتبيّ القُدس والرَّحبة ؛ وَمَنْ يُكتب له : صدرت
والسامي ، كالكاشف بالوجه البحريّ ، وكاشف القيوم ؛ ومن يكتب له : هذه
المكتبة ، كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبليّ والبحريّ ؛ ومن يكتب له : « يَعْلَمُ »
كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . على أن الغالب في مثل هؤلاء أن تكون الكتابةُ
عنهم لأعيان الدولة « الفلانيّ بمطالعة » وفيمن هو مثلهم أو دونهم يقاس على
ما تقدّم .

وَأَعْلَمُ أن هذه المراتب المضمّنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم في الوقوف
عند حدّها ، بحيث لا يجوز تجاوزها بزيادة ولا التناخُر عنها بنقص ، بل هي على
سبيل التقريب ؛ والأمر في زيادة رتبة المکتوب إليه زيادةٌ لا تُخرجُه عن حدّه
في المقدار موكولٌ إلى اختيار الكاتب ، يزيد في ذلك وينقص ، بحسب ما يقتضيه
الحال : من رفعة قدر المکتوب إليه ، لمزيد رفعته عن نوعه ، أو محاباته لأستِمالته
إلى القصد المطلوب منه ، أو الغَضّ منه بحطيطة رُتبته أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)
وهى الجزء الأعظم من صِنَاعَةِ التَّرْسُلِ ، وعليها مَدَارُ صِنْعَةِ الكِتَابَةِ ، إذ الولايات
من مقاصد المكاتبات ، وهى أَمُّ مَا تَصْلَعُ بِهِ الكَاتِبُ ، وَأَلْزَمُ مَا مَهَرَّ فِيهِ ؛ وهى قسمان :

القسم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(مَا يُكْتَبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ)

الضرب الأول

(مَا يَكْتُبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَمِنْ صَاهَاهُمْ)
مِمَّا هُوَ مُسْتَعْمَلُ الْآنَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْحَالُ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ مِمَّا يَقِلُّ وَيَكْثُرُ ،
وَيَتَكَرَّرُ تَدَاوُلُهُ فِي الْكِتَابَةِ وَسَائِرِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي الْحَوَادِثِ الْمَأْلُوفَةِ الَّتِي يَكْثُرُ تَدَاوُلُهَا ،
وَيَتَكَرَّرُ الْكِتَابَةُ فِيهَا بِتَكَرُّرِ وَقَائِعِهَا ، وَمَا رَسُمُ الْكِتَابَةِ بِهِ بَاقٍ إِلَى زَمَانِنَا ، وَإِنْ تَغْيِيرُ
مِصْطَلَحِ الْإِبْتِدَاءِ وَالْخُطَابِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ رُسُومِ الْمَكَاتِبَاتِ . وَهُوَ عَلَى أَصْنَافٍ :

الصنف الأول

(الْكُتُبُ بَانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ)

قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ تُنْفَذَ الْكُتُبُ إِلَى وِلَاةِ الْأَعْمَالِ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الْحَالَةِ ، مُتَضَمِّنَةً مَا جَرَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ بِالْحَضْرَةِ : مِنْ أَتْقِيَاءِ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعَايَا

إلى الطاعة، ودُخُولِهِم في الْبَيْعَةِ بِصُدُورٍ مُنْشَرَحَةٍ، وَحُضٍّ مِنْ الْأَعْمَالِ مِنْ رِجَالِ السُّلْطَانِ وَرِعِيَّتِهِ عَلَى الدُّخُولِ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ أَمْثَالُهُمْ، وَإِعْطَاءِ الرِّعَايَا عَلَى ذَلِكَ صَفَقَةً أَيْمَانِهِمْ .

وقد كان الرِّسْمُ فيها أَنْ تُصَدَّرَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَوَارِفِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَكْشِفُ الْخَطْبَ، وَتَرَأْبُ الشَّعْبَ، وَتُدْفَعُ الْمُهِمَّ، وَتَرْفَعُ الْمُلِمَّ، وَتَجْبِرُ الْوَهْنَ، وَتُسَبِّغُ الْأَمْنَ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذِكْرَ خَصَائِصِهِ وَمَنَاقِبِهِ، وَتَشْرِيفَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِقْرَارِ الْإِمَامَةِ فِي أَقَارِبِهِ، وَتَخْصِيصِهَا بِنَبِيِّ عَمِّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَلَبِ مَوَدَّتِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ بِقَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » . وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَقَاءِ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ : « أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ، بِإِخْتِمَامِ النَّبُوءَةِ وَبَوْلَدِكَ تَحْتِ الْخِلَافَةِ » وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَتَلَوُ ذَلِكَ بِالْإِفْصَاحِ عَنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ وَفَضْلِهَا، وَالْإِبَانَةِ عَنْ رَفِيعِ مَكَانِهَا وَمَحَلِّهَا؛ وَأَنَّهَا ظِلُّ اللَّهِ الْمَحْدُودِ، وَحَبْلُهُ الْمَشْدُودُ؛ وَمِسَالُكَ الدِّينِ وَنِظَامُهُ، وَمِلَاكُ الْحَقِّ وَقَوَامُهُ . وَأَمْتِنَانِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ أَنْ جَعَلَ فِيهِمْ أُمَّةً يُقْسِطُونَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ فِيهِمْ ؛ وَيُقِيمُونَ أَدْيَانَهُمْ ، وَيَهْدُونَ إِيْمَانَهُمْ ؛ وَيُرْهِقُونَ بَصَائِرَهُمْ ، وَيَهْدُونَ حَائِرَهُمْ ؛ وَيَكْفُونَ ظُلُومَهُمْ ، وَيُنْصِفُونَ مَظْلُومَهُمْ ، وَيَجْعَلُونَ كَلِمَتَهُمْ ؛ وَيَحْمُونَ ذِمَارَهُمْ ، وَيَحْوَطُونَ دِيَارَهُمْ ؛ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَذْكُرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ لِلْإِمَامِ مِنَ الطَّاعَةِ وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ، وَالْإِقْيَادِ لِأَمْرِهِ فِي طَاعَةِ مَنْ يُوَسِّصُ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامِ مَقَامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ : لِيَتَّصِلَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ بَيْنَهُمْ ، وَيَتَدَخَّلَ ظِلُّ الْخِلَافَةِ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ كَانَ قَدْ تَلَقَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَ عَنْ خَلِيفَةٍ قَدْ مَاتَ : مِنْ أَبٍ أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ بِمُقَدِّمَةٍ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَوَّى فِيهِ بَيْنَ بَرِّيَّتِهِ ، وَجَعَلَ فِي تَطَرُّقِهِ

إلى رسوله أُسْوَةٌ لخليقته ؛ وَتَفَرَّدَ بِالبَقَاءِ ، وَامْتَنَعَ عَنِ الْفَنَاءِ . ثم يقال : وإن الله تعالى لما آختر لعبده ووليه فلان الثَّقَلَيْنِ إلى دار كرامته ، والحُلُولَ بِفَنَاءِ طاعته ؛ وأعانه على سياسة بريته ، وأنهضه بما حَمَلَهُ ، وأيده فيما كَفَّلَهُ ؛ من الذبِّ عن المسلمين ، والمراعاة عن الدين ؛ والعمل بكتابه وسنته في القول والفعل ، واستشعار خيفته ومراقبته في السر والجهر ؛ وما يليق بهذا - استخلص عبده ووليه فلاناً الإمام الفلاني لخلافته ، وأُهمي سماء الرحمة بإمامته ؛ وأحلَّ عزيز النصر بولايته ، وألقى في نفيس رأيه النص عليه ، والتفويض إليه ؛ لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد ، وعموم الأمانة للبلاذ ؛ فأَمْضَى - قدس الله روحه - ما أَلْهِمَهُ ، وَكَلَّمَهُ قبل خروجه من دار الدنيا وتممه ؛ عالماً بفضل اختياره ، وأنه لم يَمَلْ به الهوى في إشاره ؛ فقام أمير المؤمنين الإمام الفلاني مقامه ، وَحَفِظَ نِظَامَهُ ؛ وسَدَّ ثُلُمَتَهُ ، وَعَثَى رَزِيَّتَهُ ؛ وأقر الله تعالى الإمامة به في نصابها ومقرها ، وزاد باستخلافه في صِيت الخلافة وقَدْرَها .

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وليه السعيد بقره بأفضل صلواته ، وأشرف تحياته ؛ وَيُحَسِّنَ جِزَاءَهُ في سعيه في صلاح العباد ، وسِدَادِ البلاذ ؛ وَأَنْ يُلْهِمَ أمير المؤمنين الصبر على تجرُّع الرِّزْيَةِ فيه [ويجزيه] أفضل ماجزئ به صابراً مُحْتَسِباً ، وَأَنْ يَجْبُرَ كَسْرَهُ في فقدِهِ ، وَيُوفِّقَهُ لجميل الغزاء من بعده ؛ وَيُسَدِّدَهُ في مصادره وموارده ، وَيَهْدِيَهُ لما يُرْضِيهِ في جميع مقاصده ؛ وَيُعِينَهُ على تأليف الأهواء ، وَجَمْعِ الآراء ؛ وَنَظْمِ الشُّمْلِ ، وَكَفِّ الْقَتْلِ ، وإِرْخَاءِ الظِّلِّ .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد آجتمع من بحضرته ، من ذوى جهته وأمرائه دولته ؛ وَكَافَّةَ جُنْدِهِ وَجَمَاعَةِ حَوَازَتِهِ على بيعته ، وإعطائه صَفَقَةَ آيَانِهِمْ على طاعته

ومشايعته ؛ عن صدور مُخْلِصة نَقِيَّة ، وسَرَائِرَ صَافِيَة سَلِيمة ؛ وعقائد مُشتملة على الوفاء بما عَقَدُوا عليه ، وأنقادوا مُختارين إليه ؛ وشِلَتهِم بِذلك الرِّحمة ، وَضَفَّتْ عليهم النعمة ؛ فَمَا بَرَحُوا الرِّزِيَّة ، حَتَّى فَرَحُوا بِالْعَطِيَّة ، وَلَا وَجَّهُوا لِلصَّيْبَةِ ، حَتَّى بَسَمُوا لِلرَّغِيْبَةِ ؛ وَلَا أَظْلَمُوا لِفَقْدِ الْمَاضِي ، حَتَّى أَضَاءَ الْوُجُودُ بِالْآتِي .

فَللهُ الْحَمْدُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي جَبَرَتْ الْوَهْنَ ، وَحَقَّقَتْ فِي فَضْلِهِ الْمَنْ ؛ حَمْدًا يَسْتَدِرُّ أَخْلَافَ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَدْعِي سَابِغَ طَوْلِهِ ؛ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرَاكُ مِنْ أَهْلِ مَخَالِصَتِهِ ، وَالْمُتَحَقِّقِينَ بِطَاعَتِهِ ؛ وَهُوَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْخُذَ الْبَيْعَةَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَعَلَى جَمِيعِ أَوْلِيَائِهِ الْمُقِيمِينَ قَبْلَكَ ، وَكَافَّةَ رَعَايَاهِ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَلِكَ ؛ وَتُسْعِرَهُمْ بِمَا عِنْدَهُ لِلْسَّارِعِينَ لَطَاعَتِهِ ، الْمُبَادِرِينَ إِلَى اتِّبَاعِهِ ؛ مِنْ تَيْسِيرِ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ ، وَإِفَاضَةِ الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ ؛ وَمَا لَمْ نَكْبَ عَنْ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، وَحَادَ عَنْ الْأَوَّلَى ، مِنَ الْكَفِّ الرَّادِعِ ، وَالْأَدَبِ الْوَازِعِ ؛ وَيَتَوَسَّعُ فِي هَذَا الْمَعْنَى تَوْسَعًا يَشْرُحُ صُدُورَ أَهْلِ السَّلَامَةِ ، الْمُسْتَمِرِّينَ عَلَى نَهْجِ الْأَسْتِقَامَةِ ؛ وَيَرْدَعُ أَهْلَ الْفُسَادِ ، وَيَفْضُ مِنْ نَوَاطِرِ ذَوِي الْعِنَادِ . وَيُحَلِّي الْكُتَّابَ بِآيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَحْسُنُ اسْتِعَارَتَهَا فِي بَابِ الْعَزَاءِ ، وَيُلِيقُ ذِكْرَهَا فِي بَابِ الْإِشَادَةِ بِالْخُلَافَةِ وَالْخُلَفَاءِ . فَإِنْ كَانَ الْكُتَّابُ مِمَّا يَقْرَأُ بِالْحَضْرَةِ . قَالَ فِي مَوْضِعٍ « وَكُتَّابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ » : « وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ أَقْرَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ إِخْوَتِهِ وَبَنِي عَمِّهِ وَخَوَاصِّ الدَّوْلَةِ وَأَمْرَائِهَا وَأَجْنَادِهَا وَكُتَّابِهَا وَقُضَّائِهَا وَكَافَّةَ رَعِيَّتِهَا ، وَمَنْ أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ ظَلَّ مَمْلَكَتِهَا - أَحَقُّ مَنْ حَافِظٌ عَلَى عَوَارِفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْتَدَ بِلَطَائِفِهِ ؛ وَقَامَ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ ، وَسَارَعَ إِلَى اتِّبَاعِهِ وَأَعْتَصَمَ بِحَبْلِ دَهْوَتِهِ ؛ فَأَجْمَعُوا عَلَى مُتَابَعَتِهِ ، وَإِعْطَانِهِ صَفَقَةَ إِيْمَانِكُمْ عَلَى مَبَايِعَتِهِ ؛ لِيَجْمَعَ اللهُ عَلَى التَّالِيفِ كَلِمَتَكُمْ ، وَيُحْيِيَ بِالتَّأْزِيرِ بَيْضَتَكُمْ » وَيُنْبِغُ ذَلِكَ مِنْ وَعْدِ أَهْلِ الطَّاعَةِ

بما يضاعف جُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بما يَصْفَرُ خُدودهم ؛ على نسق ما سبق في الترتيب .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، كُتِبَ به عن الأمر بأحكام الله تعالى عند استقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله ، والدَّولةُ مشتملة على وزير ؛ من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

الحمد لله المتوحد بالبقاء ، القاضى على عباده بالفناء ؛ الذى تَمَجَّدَ بالأزليَّة والقِدَم ، وتفرد بالوجود وتَزَّه عن العَدَم ؛ وجعل الموت حَتْمًا مقضياً على جميع الأمم .

يمجده أمير المؤمنين على ماخصه به من الإمامة التى قصَّه سرُّها ؛ وزَّنه غفرها وجمالها ؛ حمدًا شاكر على جزيل عطية ، صابر على جليل الرزية ، مُسلم إليه فى الحُكم والفضية ؛ ويسأله أن يصلى على جدِّه محمد الذى ثبتت حجته ، ووضَّحت محجته ؛ وعلت كلمته ، وأنافت على درج الأنبياء درجته ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامة كلمة فى عقبه باقيه ، وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقيه ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله رُوحَه وصلى عليه ، كان من أوليائه الذين أصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أزيمة البسط والقبض ؛ وقام بما حمَّله من أوق الإمامة ^(١) ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون ، رضا بقضائه ، وصبرا على بلائه ؛ وإلى الله يرغب أمير المؤمنين فى إلهامه حُسن الصبر على هذا المصاب ، وإجزال خطِّه عليه من الأجر والثواب ؛ وإمداده فى خلافته بمواد الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

وكتب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا؛ بعد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُثْمَانُ وَأُولِيائِهِ وَخَدَمُ دَوْلَتِهِ، وسائر أجناده وغبيد مملكته، وعامة شيعته، وأصناف رعيته؛ وأنوار الخلافة عليه مشرقه، وأغصان الإمامة ثمرة مورقه؛ والسيد الأجل الأفضل الذي أمده الله في نصرته الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فصحّت أنوارها للبصائر والأبصار، وشهرله من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار؛ يتولى الأمر بحضرته تولى الكافل الزعيم، ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم؛ والناس داخلون في البيعة بانسراح صدور، وإظهار آبتهاج وسرور؛ يعطون صفقة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الخط في طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شمول السعد وعموم الرشاد، وتيقنوا الخيرة لهم في العاجلة والمعاد؛ وأمير المؤمنين يعزّيك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة في الإمام المستعلي بالله - صلى الله عليه - التي قطعت من النفوس أملاًها، وأسكنت الألباب جزعاً وولماً، ويهنّيك وإياهم بمجدد دولته التي تهلّل لها وجه الزمان، وأستهلت بها سحاب الفضل والإحسان. وأمير المؤمنين يحمّد الله الذي أقرّ الحق في منصّبه، وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرده به.

فأعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسيم، والنبي العظيم، وأشكر الله على ما جدّده لك ولكافة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التي أوفت بأساء الزمان وجنّاتيه، وشفّت من داء كلبه ونكايته؛ وتقدّم إلى الدعاء (؟) قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، وأستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والاجتهاد في مناصحته، والتمسك بعصم مشايعته؛ لتنالوا

في العاجلة حظًا جسيماً ، ونُحِرْزُوا في الآجلة أجراً كريماً : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين على الحاضرين قبلك ، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين عمّلك ؛ ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد ، وصلاح البلاد - وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب عن الأمر بأحكام الله المقدم ذكره ، كُتِبَ به إلى ولاية الأطراف بعد قراءة عهده ، مهتأ بخلافته ، وتجديد ولايته ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي .

أما بعد ، فالحمد لله مولى المنايح من نعمه ، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ، ومعوذ الصنع الجميل من لطفه وكرمه ، الذي له الحكم الظاهر عدله ، ولديه الطول الفائض فضله ، وعنده مفاتيح الغيب وإليه يرجع الأمر كله .

يحمده أمير المؤمنين على ما أفرده به من سني المواهب ، ونظمه له من عقود المناقب ؛ ونقله إليه من ثراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغياهب ؛ وتزينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة الكواكب ؛ ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي نشر الله به الرحمة ، وكشف الغمة ، وأنقذ الأمة ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه على بن أبي طالب أمير المؤمنين ، والمذكور في زبر الأولين ، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين ، صلاة باقية إلى يوم الدين .

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها ، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ؛ ومن ألطفها مكاناً ، وأشرفها محلاً وشاناً ، وأولاها بأن تستنطق به الأقلام ، وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاص والعام ؛ ما خص الله به أمير المؤمنين من المنن الظاهرة ،

وتولاه من المنح المتظاهره ؛ وأصاره إليه من الخِلافة في أرضه ، وأسْتَخْلَفَه عليه من القيام بسُنَنِ دينه وفَرْضه ؛ وأسترعاه إِيَّاه من حِياطة بلاده ، وأوجبهُ من طاعته على كَافَّة خلقه وعباده ؛ وذَنَرَه لدولته من كفيله وخيليه ، ومقيم أدِلَّة حقهِ ومُوضِّح سبيله ؛ السيد الأجلُّ الأفضَلُ الذي أَرْتَضاه الله للدَّبِّ عن الإسلام ، وأَنْتَضاه لِنُصْرَةِ إمام بعد إمام ؛ وشهر مناقبه في كُلِّ مَوْقِف ومقام ، وخصَّه بفضائل لم تُرَ مجتمعاً للملك من ملوك الإسلام ؛ لأَجْرَم أَنَّ أمير المؤمنين قد أحلَّهُ منه محلَّ الرُّوح من الجَسَد ، والوالد من الولد ؛ وفَوَّضَ الأمور إليه تفويضَ معولٍ على يَمَنِ تقيته معتمد ، مبالغٍ في حسن الاختيار للأمة مُجتهد ؛ والله تعالى يُمَتِّع أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسنَ ما جرى به مُخلصاً جَمَعَ في الإيمان بين القول والعمل ؛ بكرمه .

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجلُّ الأفضَلُ عند مثوله بحَضْرته ، وإنهائِهِ أُمُورَ دولته وأحوال مملكته ؛ على أمرِك الذي آسَته في الخدمه ، وأَسْتَحَقَّتْ به إفاضة الإحسان وإسباغ النعمه ؛ وأن لك في الدولتين : المُسْتَصْرِيةَ والمُسْتَعْلِيَّةَ من الخدم المشكوره ، والمساعي المبروره ؛ ما يدلُّ على مُناصحتِكَ وإخلاصِكَ ، ويبعثُ على أَصْطِناعِكَ وأَسْتَخْلاصِكَ - أمرَ بَكْتَبِ هذا السَّجَلِّ لك مؤكِّداً لأَواخيك ، ومُعرباً عن رأيهِ الجميل فيكَ ؛ ومُجَدِّداً من ولايتِكَ ، ومُجَرِّباً لك فيها على مُسْتَمِرِّ رِسْمِكَ ومُسْتَقَرِّ عَادَتِكَ . فقابلْ نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يرتبطها ، وَوَقِّها من حَقِّ الاجتهاد ما يُقَرِّها عندك وَيُتَبَّطِّها ؛ وأَجْعَلْ تقوى الله تعالى عِمادَكَ ، وَأَطُو عليها طَوِيَّتَكَ وأَعْتِقادَكَ ؛ وَمَكِّنْ في نفوس الأولياء جَمِيلَ رَأْيِ أمير المؤمنين فيهِمْ ؛ وإِحَادَه لمواقفهم في الخدمه ومساعدتهم ؛ وَحَقِّقْ عند كَافَّة المُسْتَقَرِّين لديك ، والواردين عليك ؛ ما يَكُنْفُون به من الأمر الشامل ،

وَيُغْمَرُونَ بِهِ مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ الْمُتَوَاصِلِ ؛ وَأَجْرٌ عَلَى الْعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي إِفَاضَةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَتَتَكَبَّرُ سَبِيلَ الْجَوْرِ وَالْإِجْحَافِ ؛ وَمَهَّدَ السَّبِيلَ قَبْلَكَ ، وَأَحْمٍ مِنْ أَسْبَابِ الْفَسَادِ وَلَا يَتَكَ وَعَمَلِكَ ؛ وَأَخْصَصَ مُتَوَلَّى الْحُكْمِ وَالِدَعْوَةَ الْهَادِيَةِ - ثَبَتَهَا اللَّهُ تَعَالَى - بِالْإِعْزَازِ وَالرَّعَايَةِ ، وَوَفَّرَ حَظَّهُمْ مِنَ الْمُلَاحَظَةِ وَالْعَنَايَةِ ؛ وَخَذَ الْمُسْتَعْدَمَ فِي الْخُطْبَةِ الْعُلَوِيَّةِ بِأَقَامَتِهَا فِي أَوْقَاتِهَا ، عَلَى أَفْضَلِ قَوَانِينِهَا وَوَجِبَاتِهَا ؛ مُعَلِّناً فِيهَا بَذَكَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يُتَوَجَّحُ فُرُوقَ الْمَنَابِرِ ، وَيُسَنَّفُ أَسْمَاعُ الْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ ؛ وَتَوَفَّرَ عَلَى مَا تَمَرُّ الْأَمْوَالُ وَأَتَمَّهَا ، وَغَزَّرَهَا وَرَخَّأَهَا ، وَقَضَى بُوْفُورَهَا وَحَصُولَهَا ، وَدَعَا إِلَى دُرُورِهَا وَمَوَاصِلَةِ حُمُولِهَا ؛ وَأَنْظَرَ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ الْمُسْتَعْدَمِينَ مَعَكَ نَظْرًا يُؤَدِّي إِلَى مَصْلَحَتِهِمْ . فَاعْلَمْ هَذَا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَغْتَبِطْ بِمَا أَصَارَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ آغْبَاطَ أَمْثَالِكَ مِنَ الْمَخْلُصِينَ ، وَاعْتَقِدْ طَاعَتَهُ أَعْتِقَادَ مَنْ يُجَارِيكَ مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ ، وَاعْمَلْ بِوَصَايَاهُ وَمَرَاشِدِهِ تَحْظَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ وَطَالِعْ بِالْكَائِنِ مِنْكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ هَذَا السَّجَلِ عَلَى كَافَّةِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ؛ وَكُتِبَ فِي كَذَا وَكَذَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً بَيْنَهُمْ أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ كِتَابُ عَنِ الْخَلِيفَةِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، يُكْتَبُ مَلَطَفٌ عَنِ الْوَزِيرِ ، يُلَفُّ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ ضِمْنَهُ ، وَيُوجَّهُ بِهِ إِلَى حَيْثُ الْمَقْصِدُ :



وهذه نسخة مُلَطَّفٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، كُتِبَ بِهِ عَنِ وَزِيرٍ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ، لِيُلَفَّ كِتَابُ الْخَلِيفَةِ طِيَّةً ؛ وَهُوَ :

يَنْطَوِي هَذَا الْأَمْرُ الْوَاردُ عَلَى الْأَمِيرِ ، عَلَى كِتَابِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ الْفَلَاحِيِّ لِدِينِ اللَّهِ ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَأَبْنَائِهِ الْأَكْرَمِينَ ، أَوْ أَبْنَائِهِ الْمُتَّظَرِّينَ ، إِنْ كَانَ لَا وَلَدَ لَهُ - بِمَا أَصَارَهُ إِلَيْهِ مِنْ شَرَفِ

الإمامه، وبَوَّاهُ إِيَّاهُ مِنْ مَقَامِ الْعِظَمَةِ وَالْكَرَامَةِ؛ إِثْرَ انْتِقَالِ الْإِمَامِ فَلَانٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ . فَاعْتَمَدَ الْعَمَلُ بِمَضْمُونِهِ فِي اخْتِذِ الْبَيْعَةِ عَلَى نَفْسِكَ وَمِنْ يَلَيْكَ، وَتِلَاوَتِهِ عَلَى رِءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَإِذَاعَةِ مَكْنُونِهِ فِي الْحَاضِرِ وَالْبَادِ، عَلَى الرِّسْمِ الْمَعْتَادِ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جارٍ في زماننا بانتقال السُّلْطَنَةِ إِلَى السُّلْطَانِ؛ وَيَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ بِجُلُوسِهِ عَلَى تَحْتِ الْمَلِكِ، وَالْأَمْرُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْخِلَافَةِ مِنَ التَّعْزِيَةِ بِالْمَاضِي، وَالتَّهْنِئَةِ بِالْمُسْتَقَرِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي بِجِوَارِهِ .



وهذه نسخة مكتوبة بالبشارة يجلس الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون على التخت، في شهر رجب الفرد سنة آثنتين وخمسين وسبعائة، بعد خلع أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصدر والألقاب :

وأوردَ عليه من البشائر أسنى البشر، وأسمعه من التَّهْنِئَةِ مَا آتَنَشَى حَدِيثُهُ بَيْنَ الْبَرَايَا وَآتَنَشَرَ، وَحَفِظَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْأُمَّةِ مَا أَرَادَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ وَجَعَلَ لِيَكُفَّهُمْ صَالِحَ الْبَشَرِ .

صدرت هذه المكتوبة إلى فلان ^(١) وبصرها مقدماً بالظفر، وذكرها قد ملأ الأقطار بجمع عليه كل قلب كان قد تفرَّج تُهْدَى إِلَيْهِ سَلاماً عَنْ وَجْهِ الشُّكْرِ سَقَر، وَشَاءَ يَحْصُلَ مِنْهُ عَلَى النَّصِيبِ الْأَوْفَرِ؛ وَتَوْصَحَ لِعَلِمِهِ أَنَّ الْجَنَابَاتِ الْعَالِيَةَ الْأُمَرَاءَ الْأَكْبَرِ، أُمَرَاءَ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ، ضَاعَفَ اللَّهُ نِعْمَتَهُمْ؛ كَانُوا قَدْ عَظَّمُوا أَخَانَا النَّاصِرَ، وَحَكْمُوهُ، وَمَشَوْا إِلَى خِدْمَتِهِ عَلَى أَحْسَنِ سَنَنِ؛ وَمَا أَبْقَوْا فِي خِدْمَتِهِ مُمَكِّنًا مِنَ التَّعْظِيمِ، وَالْإِجْلَالِ وَالتَّحْكِيمِ، وَأَمْتَالِ الْأَمْرِ فِي كُلِّ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ؛ فَلَمْ يَرَعْ لَهُمْ

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا آلتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة؛ وآتفق مع الصبيان، وأراد القبض على الأمراء، وإمساك الجنابات العالية الأمراء الأكابر والإيقاع بهم. فلما تحققوا منه ذلك، آجتمعت الأمراء، وآتفقت الكلمة على خلعهِ من الملك الشريف وإقامتنا. فخلع المشار إليه؛ وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسي السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله، ومبايعته لنا، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة، أعز الله تعالى أحكامهم؛ وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جارى العادة في ذلك؛ وضربت عند ذلك البشائر، وشهد هذا الهناء كل بادٍ وحاضر، وتشتفت الأسماع وقرت العيون واستقرت الخواطر؛ وآتتهجت بذلك الأئم، وتباشرت بهذا السعد الذي كتب لنا من القدم؛ وأصبح كل من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا.

فليأخذ المقر حظه من هذه التهنية، وليذع خبرها لتكون المسار معيدة ومبديه؛ ويتحقق ماله عندنا من مكانه، والمحلل الذي زان بالإقبال الشريف زمانه؛ ويتقدم أمره الكريم بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالملكة الفلانية، ويتقدم أيضا بضرب البشائر وبالزينة على العادة.

وقد تجهز إلى الجناح العالى نسخة يمين شريفة يحلف عليها، ويكتب خطه، ويجهزها إلينا حجة المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، العضد، الذخرى، النصيرى، الأوحدى، عضد الملوك والسلاطين، يلبغا الخوى الصالحى، أدام الله علوه، المتوجه بهذا المثال الشريف. وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بطرابلس ويكتبوا خطوطهم، ويجهزها إلينا على العادة حجة المشار إليه.

وقد جهزنا للجناب العالى صحة المشار إليه تشریفاً شريفاً كاملاً؛ فيتقدم الجناب العالى بتسلمه منه ولبسه ، ويتحقق ماله عندنا من المكانة والمنزلة ، ويُعيد الأمير سيف الدين يلغا المشار إليه إلى الباب الشريف ، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثانى

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الدعاء إلى الدين ، وهو من أهم المهمات)
قال فى "مواد البيان" : أشرف ما يُنشئه الكاتب الدعاء إلى دين الإسلام الذى أظهره الله تعالى على كلِّ دين ، وأعرّزه على كُره المشركين ، وأستجوراً مخالفيه إليه ، وأجتذاب الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه ؛ عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، لأنه قوامُ الملك ونظامُ السلطان اللذان لا يصحّان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج فى إنشاء هذه الكُتُب إلى علم التوحيد وبراهينه ، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه ، ومعجزاته ، وآيات نبوته : ليتوسع فى الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح حجته .

ثم قال : والرسم فيها أن تُفتَح بحمد الله الذى اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره ، وقَدَّسه وطَهَّره ؛ وجعله سبيلاً إلى رضا وكرامته ، وطريقاً إلى الرِّزْق فى جنته ؛ وشفيعاً لا يُقبل عملٌ عاملٍ إلا به ، وبأب لا يصلُ وأصلُ إلا منه ؛ فلا تُغفر السيئات إلا لمن اعتصم بحبله ، ولا تُقبل الحسنات إلا من أهله . وشكره تعالى على الهداية إليه ، والتوقيف عليه ؛ وذِيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه ، ونوره من تبيانهِ . وتمجيدهِ من تعظيم آياته ، وباهر معجزاته ؛ وحكيم صنعته ، وبديع فطرته . وتزيينه عما لا يليق بسُلطانه ، ولا تجوز إضافته إلى عظيم شأنه . وتسبيحه

عما يَصِفُه به المُلْحِدُونَ ، وَيَحْتَلِّقُه الجاحِدُونَ ؛ وَالصَّلَاةُ عَلَى رَسُوْلِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْإِفْصَاحُ عَنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ ، وَبَرَاهِينِ رِسَالَتِهِ ؛ وَمَا خَصَّصَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ إِعْلَاءِ ذِكْرِهِ وَإِمْدَادِهِ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، وَالآيَاتِ الظَّاهِرَةِ .

ثُمَّ يُنْبِغُ ذَلِكَ بِالْدَّعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْحَصِّ عَلَيْهِ . وَإِضْاحُ مَا فِي التَّمَسُّكِ بِهِ مِنَ الرَّشَادِ فِي دَارِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ . وَالتَّبَشِيرِ بِمَا وَعَدَ اللهُ بِهِ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ ، وَالِدَاخِلِينَ فِيهِ ؛ مِنْ تَمْجِيسِ السَّيِّئَاتِ ، وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ ، وَعِزِّ الدُّنْيَا وَفَوْزِ الْآخِرَةِ . وَالْإِنْذَارِ بِمَا أَوْعَدَ اللهُ بِهِ النَّاكِثِينَ عَنْ سَبِيلِهِ ، الْعَادِلِينَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ مِنَ الْإِذْذَالِ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَالتَّخْلِيدِ بَعْدَ الْعَرَضِ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ؛ وَتَصْرِيفِ الْمُخَالَفِينَ بَيْنَ الرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، فِي الْعَاجِلِ وَالْمُغَبَّ .

قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَأَنَّى الْكَاتِبُ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ ، لِيَقَعَ فِي الْمَوَاقِعِ اللَّائِقَةِ بِهِ ، وَيَجْلُوَ الْحَجَجَ فِي أَحْسَنِ الْمَعَارِيضِ ، وَيُقْصَحَ عَنْهَا بِأَقْرَبِ الْأَلْفَاظِ مِنَ النُّفُوسِ . فَإِنَّهُ إِذَا وَفَّقَ لِذَلِكَ ، نَابَ كِتَابُهُ مَتَابَ الْجُيُوشِ وَالْأَجْنَادِ ، وَأَقْرَبَ السُّيُوفِ فِي الْأَعْمَادِ . ثُمَّ قَالَ : وَمَنْ صَدَقَتْ فِي هَذَا الْفَنِّ رَغْبَتُهُ ، أَيْدِ اللهُ تَعَالَى غَرِيزَتَهُ ، وَعَضَّدَ بَدِيهَتَهُ وَرَوِيَّتَهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ السُّلْطَانِيَةِ قَدْ بَطَلَ فِي زَمَانِنَا ، فَلَمْ يُعْهَدْ أَنْ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ كَتَبَ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ بِالْدَّعَايَةِ إِلَى الدِّينِ . إِذْ مِثْلُ ذَلِكَ إِنَّمَا يَصْدُرُ مَعَ الْعَلَبَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ . كَمَا كَانَ الْخُلَفَاءُ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْدَمِ ، وَالْكُفْرُ مَقْهُورٌ مَعَهُمْ ، مَذْلُولٌ لَدَيْهِمْ . أَمَّا الْآنَ فَلَوْلَا مَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : «وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وَفِي رِوَايَةٍ «وَنُصِرْتُ أُمَّتِي» لِاجْتِنَاحِ أَهْلِ الْكُفْرِ الْإِسْلَامَ ؛ وَلَكِنْ اللهُ وَعَدَ دِينَهُ أَنْ لَا يُخْذَلَ .

الصنف الثالث

(من الكتب السلطانية الكُتِبَ بالحثِّ على الجِهَادِ)

قال في "موادِّ البيان" : كما أن الدِّينَ يَنْتَظِمُ بالدَّعاءِ إليه والترغيبِ فيه ، كذلك يَنْتَظِمُ بِصَيَانَةِ حَوَازِيهِ ، وما دخل في مملكته ؛ وَكُفِّ أَعْدَائِهِ عَنْ تَقْصِصِ أَطْرَافِهِ ، وَالتَّغْلِبِ عَلَى بِلَادِهِ . ولهذا فرض الله تعالى الجِهَادَ وأوجبه ، وأكَّدَ الأَمْرَ فيه وشدَّده ؛ والسلطانُ يحتاجُ عند الحوادثِ التي تَحْدُثُ من تَطَرُّقِ المخالفين إلى بعض الثُّغُورِ ، أو شَنَّ الغَارَةَ عَلَى أَهْلِ الإِسْلَامِ ، أن يَدْعُوَ إِلَى الجِهَادِ وَمُقَارَعَةِ الأَعْدَاءِ ؛ وَصَوْنِ حَرِيمِ المِلَّةِ ، وَحِفْظِ نِظامِ الدَّولَةِ .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه : على إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وخِذْلَانِ أعدائه ؛ وإدالة الموحدين ، وإدالة الملحدين ؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وذِكْرِ طَرَفٍ من مواقفه في الجِهَادِ ، وَمُقَارَعَتِهِ لِشَيْعِ الإِلْحَادِ ، وتأييد الله تعالى أنصاره على أَهْلِ العِنَادِ . ثم يذكر الحادثة بنصّها ، ويشرح القصة على فصّها ؛ وَيَنْدُبُ من جاوره وداناه من أهل المِلَّةِ أَجْمَعِينَ ، وَيَخَاطِبُهُم بِمَا يُرْهِفُ عَزَائِمَهُمْ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ وَكَافَّةِ المُسْلِمِينَ ، وَأَتْبَاعِ سَبِيلِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، الَّذِينَ خَصَّهم الله تعالى بِصِدْقِ الظَّهَائِرِ ، وَنَفَازِ البَصَائِرِ ؛ وَصِحَّةِ الدِّينِ ، وَوَثَاقَةِ اليقين ؛ فلم يكونوا ليرؤموا مرَّأً ما إلا سهل لهم ما تَوَعَّروا ، ويسرَّ عليهم ما تَعَسَّرَ ؛ وسما بهم إلى ما هو أقصى منه مَرَمًى وأبعد مدًى ؛ رغبةً فيما رَغِبَهُم فيه من نُصْرَتِهِ ، وَتَعَرُّضًا لما عَرَّضَهُم له من جَزِيلِ مَثْوِيَّتِهِ ؛ وَأَن يَحْضُرَهُم عَلَى التَّمَسُّكِ بعزائم الدِّينِ ، وَالْعَمَلِ عَلَى بَصَائِرِ المُخْلِصِينَ ؛ وَأَفْتِرَاضِ ما فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِم من جِهَادِ أَعْدَائِهِ ، وَتَحْيِيزِ ما وَعَدَهُم بِهِ

من الإظهار بهم والإظهار عليهم ؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرِينَ ، وَيُؤَدُّوا الْحَقَّ مُحْتَسِبِينَ ، وَيُقَدِّمُوا رِسَالًا لَنَا كَصِين وَلَا شَاكِينَ وَلَا مُرْتَابِينَ ؛ مُتَّبِعِينَ الْحَقَّ حَيْثُ يَمُوقَصِدُ ، وَمُضَارِبِينَ دُونَهُ مِنْ صَدِّ عَنْهُ وَعَنْدَ ؛ وَيُيَالِغُ فِي تَخِيَةِ أَهْلِ الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْبَاسِ وَالشَّدَةِ ؛ وَيُبْعَثُهُمْ عَلَى نَصْرِ حَقِّهِمْ وَطَاعَةِ خَالِقِهِمْ ؛ وَالْفُوزِ بِدَرْكِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ ، وَتَتَوَرَّعُ الْبَصَائِرُ فِي الْإِيمَانِ ؛ وَفَضِيلَةِ الْأَنْفِ مِنَ الضَّمِيمِ ، وَالْبُعْدِ مِنَ الدَّيْمِ ؛ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَعْدِلُ الْأَرْوَاحَ وَالْمُهْجَ ، وَالْإِقْدَامَ عَلَى مُصَارَعِ التَّلَفِّ . فَإِنَّ الْمُلُوكَ الْمَاضِينَ - لَعَلَّهُمْ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُجُودُونَ بِذَلِكَ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي تُوجِبُهُ - كَانُوا يَبْدُلُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَكَالِفِ ، وَيَعْرِضُونَهُ لِلْمَذَاجِحِ ؛ الرَّغَائِبَ الَّتِي تُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ إِقْلَاءَ نَفْسِهِمْ فِي الْمَهَالِكِ تَارَةً ، وَيَذْكُرُونَهُمُ الْأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَيَخُوفُونَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَذَلَّةِ أُخْرَى .

ثم قال : وَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يُقَدِّمَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ مُقَدِّمَاتٍ ، يَرْتَبِهَا عَلَى تَرْتِيبِ يَهْزُ الْأَرِيحِيَّاتِ ، وَيُسْحِدُ الْعَزَائِمَ ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ خِدْمَةِ سُلْطَانِهِ وَالْفُوزِ بِنَصِيبِ مِنَ الْأَجْرِ .

قلت : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّاتِ مُسْتَمَرَّ الْحُكْمِ إِلَى زَمَانِنَا . فَمَا زَالَتِ الْمُلُوكُ يَكْتُبُونَ إِلَى مَا يَلِيهِمْ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ ، وَالْحُضِّ عَلَى مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ ، وَالْأَخْذِ بِنُصْرَةِ الدِّينِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَاتِ الْمَكَاتِبِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ : أَنَّ الشَّيْخَ شَهَابَ الدِّينِ مُحَمَّدًا الْحَلَبِيَّ ذَكَرَ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ" أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ عَنِ الْمَلِكِ فِي أَوْقَاتِ حَرَكَاتِ الْعَدُوِّ إِلَى أَهْلِ الثُّغُورِ ، يُعَلِّمُهُمُ بِالْحَرَكَةِ لِلِقَاءِ عَدُوِّهِمْ - أَنَّهُ يَبْسُطُ الْقَوْلَ فِي وَصْفِ الْعَزَائِمِ ، وَقُوَّةِ الْهَيْمِ ، وَشِدَّةِ الْحِمِيَّةِ لِلدِّينِ ، وَكَثْرَةِ الْعَسَاكِرِ وَالْجِيُوشِ ، وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ ، وَطَيِّ الْمَرَاكِحِ ، وَمُعَاجَلَةِ الْعَدُوِّ ، وَتَحْيِيلِ أَسْبَابِ النَّصْرِ ، وَالْوُثُوقِ بِعَوَائِدِ اللَّهِ فِي الظَّفَرِ ، وَتَقْوِيَةِ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ ، وَبَسْطِ آمَالِهِمْ ، وَحَثِّهِمْ عَلَى التَّيَقُّظِ ، وَحَضِّهِمْ عَلَى حِفْظِ مَا بَأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ . وَأَنَّهُ يُبْرِزُ

ذلك في أَيْنِ كلامٍ وأَجَلِهِ ، وأَمَكِنِهِ وأَقْرَبِهِ من القُوَّةِ والبَسالةِ ، وأَبْعَدِهِ من اللِّينِ والرَّقَّةِ ؛ وَيَبَالُغُ في وصفِ الإِنابةِ إلى الله تعالى وأَسْتَنْزَالِ نَصْرِهِ وتَأْيِيدِهِ ، والرجوعِ إليه في تَثْبِيَةِ الأَقْدَامِ ، والأَعْتَصَامِ به في الصَّبْرِ ، والأَسْتِعانةِ به على العُدُوِّ ، والرَّغْبَةِ إليه في خِذْلَانِهِمْ ، وزَلْزَلَةِ أَقْدَامِهِمْ ، وجَعْلِ الدَّائِرَةِ عليهم ؛ دونِ التَّصْرِيحِ بِسؤالِ بَطْلَانِ حَرَكَتِهِمْ ، وَرَجَاءِ تَأْخِيرِهِمْ ، وَانْتِظَارِ العَرَضِيَّاتِ في تَحْلُفِهِمْ ، لِمَا في ذلك من إِيْهَامِ الضَّعْفِ عن لِقَائِهِمْ ، وَاسْتِشْعَارِ الوَهْنِ والخَوْفِ مِنْهُمْ ؛ وأنَّ زيادةَ البَسْطِ ونَقْصَهَا في ذلك بحسبِ المكتوبِ إليه .

وهذه نسخةُ مَكاتِبَةٍ من ذلك عن السلطانِ إلى بعضِ نوابِ الثُّغُورِ ، من إنشاءِ الشيخِ شهابِ الدينِ محمودِ الحَلَبِيِّ ، أوردناها في ”حسن التوسل“ وهي :

أَصْدَرْنَاها وَمُنَادَى النَّصْرِ قَدْ أَعْلَنَ بِيَاخِيلَ اللهُ أَرْكَبِي ، وَيَا مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ أَصْحَبِي ، وَيَا وَفُودَ الظَّفَرِ والتَّأْيِيدِ أَقْرَبِي ؛ وَالْعَزَائِمُ قَدْ رَكَضَتْ عَلَى سَوَابِقِ الرِّكْضِ إِلَى الْعِدَا ، وَالْهَمُّ قَدْ نَهَضَ إِلَى عَدُوِّ الْإِسْلَامِ فَلَوْ كَانَ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ لَأَسْتَقْبَرْتُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَدَى ؛ وَالسُّيُوفُ قَدْ أَنْفَتْ مِنَ الْعُمُودِ فَكَادَتْ تَنْفِرُ مِنْ قُرْبِهَا ، وَالْأَسِنَّةُ قَدْ ظَمِئَتْ إِلَى مَوَارِدِ الْقُلُوبِ فَتَشَوَّفَتْ إِلَى الْإِرْتَوَاءِ مِنْ قُلُوبِهَا ؛ وَالْحِكْمَةُ قَدْ زَارَتْ كَالْثُلُوثِ إِذَا دَنَتْ فَرَأْسُهَا ، وَالْجِيَادُ قَدْ مَرِحَتْ لِمَا عَوَدَتْهَا مِنَ الْإِتْعَالِ بِمُجَاجِمِ الْأَبْطَالِ فَوَارُسُهَا ؛ وَالْجِيُوشُ قَدْ كَثُرَتْ النُّجُومَ أَعْدَادُهَا ، وَسَارِبُهَا لِلْهَجُومِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ أَمْدَادُهَا ؛ وَالنَّفُوسُ قَدْ أَضْرَمَتْ الْحِمِيَّةَ لِلدِّينِ نَارَ غَضَبِهَا ، وَعَدَاهَا حَرُّ الْإِسْفَاقِ عَلَى تُغُورِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَطِيبِ شَنْبِهَا ؛ وَالنَّصْرُ قَدْ أَشْرَقَ فِي الْوُجُودِ دَلَالُهُ ، وَالتَّأْيِيدُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى الْوُجُوهِ مَجَالِيلُهُ ؛ وَحُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ فِي إِعْزَازِ دِينِهِ قَدْ أَنْبَأَتْ بِحُسْنِ الْمَالِ أَوَائِلُهُ ؛ وَالْأَلْسُنُ بِاسْتَنْزَالِ

نَصَرَ الله لِهَجَرِهِ ، والأدراجاء بأرواح القبول أرجه ، والقلوب بعوائد لطيف الله بهذه الأمة مبتهجة ؛ والجماعة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه ، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه ؛ والنبات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعاً ، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها و «من كان مع الله كان الله معه» ، وما بقي إلا طي المراحل ، والنزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البلد الساحل ، والإحاطة بعدو الله من كل جانب ، وإنزال نفوسهم على [حكم] ^(١) الأمرين [الآخرين] : من عذاب وأصيب وهم ناصب ؛ وإحالة وجودهم إلى العدم ، وإحالة السيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قدم ؛ وأصطلامهم على ما بأيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها ، وأبتلاؤهم من حملاتها بريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها ؛ فليكن مترقباً طلوع طلائعها عليه ، متيقناً من كرم الله استئصال عدوه الذي إن فر أدركته من ورائه وإن ثبت أخذته من بين يديه ؛ وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وضمتها ، وجمع سوائم الرعايا من الأماكن الخوفة ولمها ؛ وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها ، فإن الاحتياط على كل حال من أكد المصالح الإسلامية وأهمها ؛ فكأنه بالعدو وقد زال طمعه ، وزاد ظلمه ؛ وذم عفي مسيره ، وتحقق سوء منقلبه ومصيره ؛ وتبرأ منه الشيطان الذي دلّاه بغروره ، وأصبح لجه مؤزعا بين ذئاب القلا وضباعها وبين عقبان الجو ونسوره ؛ ثقة من وعد الله وتمسكا منه باليقين ، وتحقيقا أن الله ينصر من ينصره والعاقبة للتيقن .

وهذه نسخة مرسومة كريم في المعنى ، بل هو أصرح في ذلك مما قبله ، كتبت به عند ظهور الفرج اللوسارية والشوال بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

الحَلْبِيّ؛ وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه ، لقيام النائب بالملكية قيام السلطان الذي آستنباه ، وهو :

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالى ، لازالت هراسته النافذة تَبْلُغُ أهل العِصَابَةِ الْحُمَيْدِيَّةَ غَايَةَ الآمال ، وأوامره الْمُطَاعَةُ تَقْضِي بِكسر اللُّوسَارِيَّةِ وَشَيْنِ الشَّوَال ؛ أن تتقدّم العساكر المنصورة بالملكية الطَّرَابُلسِيَّةِ أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة ، وأَدَلَّ بسيوفهم الطائفة الكافرة ؛ بارتداء ملابس الجهاد ، والتَّحَلَّى بِمِرَاةِ الصَّبْرِ عَلَى اجْتِلَاءِ الْحِلَادِ ، وأن يجيبوا داعي الدين ، وَيَكْفُوا أَيْدِي الْمُعْتَدِينَ ؛ وَيُقَوِّوا سِهَامَهُمْ ، ويجعلوا التَّقْوَى أَمَامَهُمْ ؛ وَيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ ، وَيَحْمِلُوا سِلَاحَهُمْ ؛ وَيَوْمِضُوا بِرُوقِ السِّيُوفِ ، ويرسلوا نِبَالَ الْخُتُوفِ ؛ وَيَهْدُمُوا بُيُوتَ الْكُفَّارِ ، وَيُطْلِعُوا أَهْلَةَ الْقِسْيِ بَدَّ الْأُوتَارِ ؛ وَيَهْضُمُوا جَانِبَ أَهْلِ الْعِنَادِ ، ويقابلوا البحر بملءِ بَحْرِ مِنْ الْحِيَادِ ؛ وينظروا أُمُوجَهُ بِأُمُوجِ النَّصَالِ ، ويقَاتِلُوا الْفِرْقَةَ الْفَرَجِيَّةَ أَشَدَّ الْقِتَالِ ؛ ولا يهملوهم بالنهار ولا بالليل ، وَيَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ ؛ وَيَتَوَرَّوْا بِمَصَابِيحِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ظَلَامَ الدُّجْنَةِ ؛ وَأَنْ يُصَارُّوا وَيَصْبَرُوا ، فَإِذَا اسْتَفْرَفُوا فَلْيَنْفِرُوا ؛ وَيِبَالِغُوا فِي الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ لِيُبَلِّغُوا الرَّعِيَّةَ مِنَ الْأَمْنِ أَمَانِيهَا . فقد قال صلى الله عليه وسلم : «لَغَدُوٌّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» . ويعتمدوا على القريب المحيِّب ، ويجتهدوا في كَسْرِ أَصْلَابِ أَهْلِ الصَّلِيبِ ؛ وينافسوا في أَمْرِ الْآخِرَةِ وَيَدْعُوا الدُّنْيَا ، ويقَاتِلُوا لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ؛ وَيُسْهَدُوا الْمَوَاقِفَ ، وَيَبْذُلُوا التَّلَادَ وَالطَّارِفَ ؛ وَلِيَبْزُ الْفَارُسُ وَالرَّاجِلُ ، وَيُظْهَرَ الرَّامِحُ وَالنَّابِلُ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ ، سَطَوَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَوِي الْفَسَادِ ، وَنَقَمْتَهُ الْقَائِمَةُ عَلَى أَهْلِ الشَّرِّ وَالْعِنَادِ ؛ وهو مِنَ الْقُرُوضِ الْوَاجِبَةِ ، الَّتِي لَمْ تَزَلْ سِهَامُ أَصْحَابِهِ صَائِبَةً ؛ فَوَاضِبُوا عَلَى فِعْلِهِ ،

وَلَا تَذْهَبُوا عَنْ مَذَاهِبِهِ وَسُبُلِهِ ؛ وَأَطْلَبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بَرًّا وَبَحْرًا ، وَقَسَمُوا بَيْنَهُمُ الْفَتَكَاتِ
 قَتْلًا وَأَسْرًا ؛ وَفَاجِئْتُهُمْ بِمَكْرِهِ الْحَرْبِ ، وَنَاجَوْهُمْ بِرِسَائِلِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ؛ وَخُذُوا
 مِنَ الْكُفَّارِ بِالْيَمِينِ ، وَجِدُّوا فِي تَحْصِيلِ الرِّبْحِ الثَّمِينِ ؛ وَلَا زِمُوا التَّزُولَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ
 لِمَنَاظِلِ الطُّغَاةِ وَالْمَشْرِكِينَ ﴿ يَٰ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا
 فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وَسَابِقُوا الْأَعْنَةَ ، وَهَزُوا أَعْطَافَ الْأَسْنَةِ ؛
 وَشَمِّرُوا عَنْ سَاقِ الْعِزَائِمِ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ؛ وَاتَّخِذُوا الْخِيَامَ مَسَاكِنَ ،
 وَاجْعَلُوا ظُهُورَ الْخَيْلِ لَكُمْ مَوَاطِنَ ؛ وَأَنْصِبُوا الْأُلُويَةَ وَالْأَعْلَامَ ، وَأُطْفِئُوا جَمْرَةَ
 الشَّرْذِمَةِ الْغَائِظَةِ لِلْإِسْلَامِ ؛ وَلَا تَخْشَوْا مِنْ جَمْعِهِمُ الْآئِلَ إِلَى التَّفْرِيقِ ، وَحَشَدِهِمُ
 الَّذِي هُوَ عَمَّا قَلِيلٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى غَرِيقٍ ؛ وَلَا تَعَبُّوا بِسُفْنِهِمُ الْبَحْرِيَّةِ ، فَإِنْ
 سَفَنَكُمْ الْخَيْلُ الْمَخْلُوقَةُ مِنَ الرِّيَّاحِ ؛ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَجَادِيْفِهِمُ الْخَشْيَةِ ، فَإِنْ
 مَجَادِيْفَكُمْ السِّيُوفُ وَالرِّمَاحُ ؛ فَأَقْلَعُوا قُلُوعَهُمْ ، وَشَتَّتُوا جُمُوعَهُمْ ؛ وَأَذْهِبُوا الْجَنْفَ
 وَالْحَيْفَ ، وَخَاطَبُوهُمْ بِاللِّسْنَةِ السَّيْفِ ؛ وَأَوْقِدُوا فِي قُلُوبِهِمُ بِالْتَّحْصِينِ وَالْإِحْتِرَازِ
 نَارًا ، وَأَدْعُوا اللَّهَ أَنْ لَا يَذَرَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ؛ وَنَكَّسُوا صُلَيْبَهُمُ
 الْمَنْصُوبَ ، وَبَادَرُوا إِلَى حَرْبِ حَزْبِهِمُ الْمَغْلُوبِ ؛ وَارْفَعُوا بِالْيَقِينِ شَكَّ هَذِهِ الْمِحْنَةِ ،
 وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ؛ وَاهْجُرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ طِيبَ الْمَنَامِ ، وَأَقْلُوا الْأَقْدَامَ
 إِلَى الْأَقْدَامِ ؛ وَأَكْشِفُوا عَنْكُمْ أَسْتَارَ الْمَلَالِ وَالْمَلَامِ ، وَاهْتَمُّوا بِمَا يُعْلِي كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ
 وَالسَّلَامِ ؛ فَلْيَرْفَعَنَّ اللَّهُ إِلَى مَنَازِلِ الْعِزِّ وَالْتِمِيزِ ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ
 لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ۱۰ ۝ ۱۱ ۝ ۱۲ ۝ ۱۳ ۝ ۱۴ ۝ ۱۵ ۝ ۱۶ ۝ ۱۷ ۝ ۱۸ ۝ ۱۹ ۝ ۲۰ ۝ ۲۱ ۝ ۲۲ ۝ ۲۳ ۝ ۲۴ ۝ ۲۵ ۝ ۲۶ ۝ ۲۷ ۝ ۲۸ ۝ ۲۹ ۝ ۳۰ ۝ ۳۱ ۝ ۳۲ ۝ ۳۳ ۝ ۳۴ ۝ ۳۵ ۝ ۳۶ ۝ ۳۷ ۝ ۳۸ ۝ ۳۹ ۝ ۴۰ ۝ ۴۱ ۝ ۴۲ ۝ ۴۳ ۝ ۴۴ ۝ ۴۵ ۝ ۴۶ ۝ ۴۷ ۝ ۴۸ ۝ ۴۹ ۝ ۵۰ ۝ ۵۱ ۝ ۵۲ ۝ ۵۳ ۝ ۵۴ ۝ ۵۵ ۝ ۵۶ ۝ ۵۷ ۝ ۵۸ ۝ ۵۹ ۝ ۶۰ ۝ ۶۱ ۝ ۶۲ ۝ ۶۳ ۝ ۶۴ ۝ ۶۵ ۝ ۶۶ ۝ ۶۷ ۝ ۶۸ ۝ ۶۹ ۝ ۷۰ ۝ ۷۱ ۝ ۷۲ ۝ ۷۳ ۝ ۷۴ ۝ ۷۵ ۝ ۷۶ ۝ ۷۷ ۝ ۷۸ ۝ ۷۹ ۝ ۸۰ ۝ ۸۱ ۝ ۸۲ ۝ ۸۳ ۝ ۸۴ ۝ ۸۵ ۝ ۸۶ ۝ ۸۷ ۝ ۸۸ ۝ ۸۹ ۝ ۹۰ ۝ ۹۱ ۝ ۹۲ ۝ ۹۳ ۝ ۹۴ ۝ ۹۵ ۝ ۹۶ ۝ ۹۷ ۝ ۹۸ ۝ ۹۹ ۝ ۱۰۰ ۝ ۱۰۱ ۝ ۱۰۲ ۝ ۱۰۳ ۝ ۱۰۴ ۝ ۱۰۵ ۝ ۱۰۶ ۝ ۱۰۷ ۝ ۱۰۸ ۝ ۱۰۹ ۝ ۱۱۰ ۝ ۱۱۱ ۝ ۱۱۲ ۝ ۱۱۳ ۝ ۱۱۴ ۝ ۱۱۵ ۝ ۱۱۶ ۝ ۱۱۷ ۝ ۱۱۸ ۝ ۱۱۹ ۝ ۱۲۰ ۝ ۱۲۱ ۝ ۱۲۲ ۝ ۱۲۳ ۝ ۱۲۴ ۝ ۱۲۵ ۝ ۱۲۶ ۝ ۱۲۷ ۝ ۱۲۸ ۝ ۱۲۹ ۝ ۱۳۰ ۝ ۱۳۱ ۝ ۱۳۲ ۝ ۱۳۳ ۝ ۱۳۴ ۝ ۱۳۵ ۝ ۱۳۶ ۝ ۱۳۷ ۝ ۱۳۸ ۝ ۱۳۹ ۝ ۱۴۰ ۝ ۱۴۱ ۝ ۱۴۲ ۝ ۱۴۳ ۝ ۱۴۴ ۝ ۱۴۵ ۝ ۱۴۶ ۝ ۱۴۷ ۝ ۱۴۸ ۝ ۱۴۹ ۝ ۱۵۰ ۝ ۱۵۱ ۝ ۱۵۲ ۝ ۱۵۳ ۝ ۱۵۴ ۝ ۱۵۵ ۝ ۱۵۶ ۝ ۱۵۷ ۝ ۱۵۸ ۝ ۱۵۹ ۝ ۱۶۰ ۝ ۱۶۱ ۝ ۱۶۲ ۝ ۱۶۳ ۝ ۱۶۴ ۝ ۱۶۵ ۝ ۱۶۶ ۝ ۱۶۷ ۝ ۱۶۸ ۝ ۱۶۹ ۝ ۱۷۰ ۝ ۱۷۱ ۝ ۱۷۲ ۝ ۱۷۳ ۝ ۱۷۴ ۝ ۱۷۵ ۝ ۱۷۶ ۝ ۱۷۷ ۝ ۱۷۸ ۝ ۱۷۹ ۝ ۱۸۰ ۝ ۱۸۱ ۝ ۱۸۲ ۝ ۱۸۳ ۝ ۱۸۴ ۝ ۱۸۵ ۝ ۱۸۶ ۝ ۱۸۷ ۝ ۱۸۸ ۝ ۱۸۹ ۝ ۱۹۰ ۝ ۱۹۱ ۝ ۱۹۲ ۝ ۱۹۳ ۝ ۱۹۴ ۝ ۱۹۵ ۝ ۱۹۶ ۝ ۱۹۷ ۝ ۱۹۸ ۝ ۱۹۹ ۝ ۲۰۰ ۝ ۲۰۱ ۝ ۲۰۲ ۝ ۲۰۳ ۝ ۲۰۴ ۝ ۲۰۵ ۝ ۲۰۶ ۝ ۲۰۷ ۝ ۲۰۸ ۝ ۲۰۹ ۝ ۲۱۰ ۝ ۲۱۱ ۝ ۲۱۲ ۝ ۲۱۳ ۝ ۲۱۴ ۝ ۲۱۵ ۝ ۲۱۶ ۝ ۲۱۷ ۝ ۲۱۸ ۝ ۲۱۹ ۝ ۲۲۰ ۝ ۲۲۱ ۝ ۲۲۲ ۝ ۲۲۳ ۝ ۲۲۴ ۝ ۲۲۵ ۝ ۲۲۶ ۝ ۲۲۷ ۝ ۲۲۸ ۝ ۲۲۹ ۝ ۲۳۰ ۝ ۲۳۱ ۝ ۲۳۲ ۝ ۲۳۳ ۝ ۲۳۴ ۝ ۲۳۵ ۝ ۲۳۶ ۝ ۲۳۷ ۝ ۲۳۸ ۝ ۲۳۹ ۝ ۲۴۰ ۝ ۲۴۱ ۝ ۲۴۲ ۝ ۲۴۳ ۝ ۲۴۴ ۝ ۲۴۵ ۝ ۲۴۶ ۝ ۲۴۷ ۝ ۲۴۸ ۝ ۲۴۹ ۝ ۲۵۰ ۝ ۲۵۱ ۝ ۲۵۲ ۝ ۲۵۳ ۝ ۲۵۴ ۝ ۲۵۵ ۝ ۲۵۶ ۝ ۲۵۷ ۝ ۲۵۸ ۝ ۲۵۹ ۝ ۲۶۰ ۝ ۲۶۱ ۝ ۲۶۲ ۝ ۲۶۳ ۝ ۲۶۴ ۝ ۲۶۵ ۝ ۲۶۶ ۝ ۲۶۷ ۝ ۲۶۸ ۝ ۲۶۹ ۝ ۲۷۰ ۝ ۲۷۱ ۝ ۲۷۲ ۝ ۲۷۳ ۝ ۲۷۴ ۝ ۲۷۵ ۝ ۲۷۶ ۝ ۲۷۷ ۝ ۲۷۸ ۝ ۲۷۹ ۝ ۲۸۰ ۝ ۲۸۱ ۝ ۲۸۲ ۝ ۲۸۳ ۝ ۲۸۴ ۝ ۲۸۵ ۝ ۲۸۶ ۝ ۲۸۷ ۝ ۲۸۸ ۝ ۲۸۹ ۝ ۲۹۰ ۝ ۲۹۱ ۝ ۲۹۲ ۝ ۲۹۳ ۝ ۲۹۴ ۝ ۲۹۵ ۝ ۲۹۶ ۝ ۲۹۷ ۝ ۲۹۸ ۝ ۲۹۹ ۝ ۳۰۰ ۝ ۳۰۱ ۝ ۳۰۲ ۝ ۳۰۳ ۝ ۳۰۴ ۝ ۳۰۵ ۝ ۳۰۶ ۝ ۳۰۷ ۝ ۳۰۸ ۝ ۳۰۹ ۝ ۳۱۰ ۝ ۳۱۱ ۝ ۳۱۲ ۝ ۳۱۳ ۝ ۳۱۴ ۝ ۳۱۵ ۝ ۳۱۶ ۝ ۳۱۷ ۝ ۳۱۸ ۝ ۳۱۹ ۝ ۳۲۰ ۝ ۳۲۱ ۝ ۳۲۲ ۝ ۳۲۳ ۝ ۳۲۴ ۝ ۳۲۵ ۝ ۳۲۶ ۝ ۳۲۷ ۝ ۳۲۸ ۝ ۳۲۹ ۝ ۳۳۰ ۝ ۳۳۱ ۝ ۳۳۲ ۝ ۳۳۳ ۝ ۳۳۴ ۝ ۳۳۵ ۝ ۳۳۶ ۝ ۳۳۷ ۝ ۳۳۸ ۝ ۳۳۹ ۝ ۳۴۰ ۝ ۳۴۱ ۝ ۳۴۲ ۝ ۳۴۳ ۝ ۳۴۴ ۝ ۳۴۵ ۝ ۳۴۶ ۝ ۳۴۷ ۝ ۳۴۸ ۝ ۳۴۹ ۝ ۳۵۰ ۝ ۳۵۱ ۝ ۳۵۲ ۝ ۳۵۳ ۝ ۳۵۴ ۝ ۳۵۵ ۝ ۳۵۶ ۝ ۳۵۷ ۝ ۳۵۸ ۝ ۳۵۹ ۝ ۳۶۰ ۝ ۳۶۱ ۝ ۳۶۲ ۝ ۳۶۳ ۝ ۳۶۴ ۝ ۳۶۵ ۝ ۳۶۶ ۝ ۳۶۷ ۝ ۳۶۸ ۝ ۳۶۹ ۝ ۳۷۰ ۝ ۳۷۱ ۝ ۳۷۲ ۝ ۳۷۳ ۝ ۳۷۴ ۝ ۳۷۵ ۝ ۳۷۶ ۝ ۳۷۷ ۝ ۳۷۸ ۝ ۳۷۹ ۝ ۳۸۰ ۝ ۳۸۱ ۝ ۳۸۲ ۝ ۳۸۳ ۝ ۳۸۴ ۝ ۳۸۵ ۝ ۳۸۶ ۝ ۳۸۷ ۝ ۳۸۸ ۝ ۳۸۹ ۝ ۳۹۰ ۝ ۳۹۱ ۝ ۳۹۲ ۝ ۳۹۳ ۝ ۳۹۴ ۝ ۳۹۵ ۝ ۳۹۶ ۝ ۳۹۷ ۝ ۳۹۸ ۝ ۳۹۹ ۝ ۴۰۰ ۝ ۴۰۱ ۝ ۴۰۲ ۝ ۴۰۳ ۝ ۴۰۴ ۝ ۴۰۵ ۝ ۴۰۶ ۝ ۴۰۷ ۝ ۴۰۸ ۝ ۴۰۹ ۝ ۴۱۰ ۝ ۴۱۱ ۝ ۴۱۲ ۝ ۴۱۳ ۝ ۴۱۴ ۝ ۴۱۵ ۝ ۴۱۶ ۝ ۴۱۷ ۝ ۴۱۸ ۝ ۴۱۹ ۝ ۴۲۰ ۝ ۴۲۱ ۝ ۴۲۲ ۝ ۴۲۳ ۝ ۴۲۴ ۝ ۴۲۵ ۝ ۴۲۶ ۝ ۴۲۷ ۝ ۴۲۸ ۝ ۴۲۹ ۝ ۴۳۰ ۝ ۴۳۱ ۝ ۴۳۲ ۝ ۴۳۳ ۝ ۴۳۴ ۝ ۴۳۵ ۝ ۴۳۶ ۝ ۴۳۷ ۝ ۴۳۸ ۝ ۴۳۹ ۝ ۴۴۰ ۝ ۴۴۱ ۝ ۴۴۲ ۝ ۴۴۳ ۝ ۴۴۴ ۝ ۴۴۵ ۝ ۴۴۶ ۝ ۴۴۷ ۝ ۴۴۸ ۝ ۴۴۹ ۝ ۴۵۰ ۝ ۴۵۱ ۝ ۴۵۲ ۝ ۴۵۳ ۝ ۴۵۴ ۝ ۴۵۵ ۝ ۴۵۶ ۝ ۴۵۷ ۝ ۴۵۸ ۝ ۴۵۹ ۝ ۴۶۰ ۝ ۴۶۱ ۝ ۴۶۲ ۝ ۴۶۳ ۝ ۴۶۴ ۝ ۴۶۵ ۝ ۴۶۶ ۝ ۴۶۷ ۝ ۴۶۸ ۝ ۴۶۹ ۝ ۴۷۰ ۝ ۴۷۱ ۝ ۴۷۲ ۝ ۴۷۳ ۝ ۴۷۴ ۝ ۴۷۵ ۝ ۴۷۶ ۝ ۴۷۷ ۝ ۴۷۸ ۝ ۴۷۹ ۝ ۴۸۰ ۝ ۴۸۱ ۝ ۴۸۲ ۝ ۴۸۳ ۝ ۴۸۴ ۝ ۴۸۵ ۝ ۴۸۶ ۝ ۴۸۷ ۝ ۴۸۸ ۝ ۴۸۹ ۝ ۴۹۰ ۝ ۴۹۱ ۝ ۴۹۲ ۝ ۴۹۳ ۝ ۴۹۴ ۝ ۴۹۵ ۝ ۴۹۶ ۝ ۴۹۷ ۝ ۴۹۸ ۝ ۴۹۹ ۝ ۵۰۰ ۝ ۵۰۱ ۝ ۵۰۲ ۝ ۵۰۳ ۝ ۵۰۴ ۝ ۵۰۵ ۝ ۵۰۶ ۝ ۵۰۷ ۝ ۵۰۸ ۝ ۵۰۹ ۝ ۵۱۰ ۝ ۵۱۱ ۝ ۵۱۲ ۝ ۵۱۳ ۝ ۵۱۴ ۝ ۵۱۵ ۝ ۵۱۶ ۝ ۵۱۷ ۝ ۵۱۸ ۝ ۵۱۹ ۝ ۵۲۰ ۝ ۵۲۱ ۝ ۵۲۲ ۝ ۵۲۳ ۝ ۵۲۴ ۝ ۵۲۵ ۝ ۵۲۶ ۝ ۵۲۷ ۝ ۵۲۸ ۝ ۵۲۹ ۝ ۵۳۰ ۝ ۵۳۱ ۝ ۵۳۲ ۝ ۵۳۳ ۝ ۵۳۴ ۝ ۵۳۵ ۝ ۵۳۶ ۝ ۵۳۷ ۝ ۵۳۸ ۝ ۵۳۹ ۝ ۵۴۰ ۝ ۵۴۱ ۝ ۵۴۲ ۝ ۵۴۳ ۝ ۵۴۴ ۝ ۵۴۵ ۝ ۵۴۶ ۝ ۵۴۷ ۝ ۵۴۸ ۝ ۵۴۹ ۝ ۵۵۰ ۝ ۵۵۱ ۝ ۵۵۲ ۝ ۵۵۳ ۝ ۵۵۴ ۝ ۵۵۵ ۝ ۵۵۶ ۝ ۵۵۷ ۝ ۵۵۸ ۝ ۵۵۹ ۝ ۵۶۰ ۝ ۵۶۱ ۝ ۵۶۲ ۝ ۵۶۳ ۝ ۵۶۴ ۝ ۵۶۵ ۝ ۵۶۶ ۝ ۵۶۷ ۝ ۵۶۸ ۝ ۵۶۹ ۝ ۵۷۰ ۝ ۵۷۱ ۝ ۵۷۲ ۝ ۵۷۳ ۝ ۵۷۴ ۝ ۵۷۵ ۝ ۵۷۶ ۝ ۵۷۷ ۝ ۵۷۸ ۝ ۵۷۹ ۝ ۵۸۰ ۝ ۵۸۱ ۝ ۵۸۲ ۝ ۵۸۳ ۝ ۵۸۴ ۝ ۵۸۵ ۝ ۵۸۶ ۝ ۵۸۷ ۝ ۵۸۸ ۝ ۵۸۹ ۝ ۵۹۰ ۝ ۵۹۱ ۝ ۵۹۲ ۝ ۵۹۳ ۝ ۵۹۴ ۝ ۵۹۵ ۝ ۵۹۶ ۝ ۵۹۷ ۝ ۵۹۸ ۝ ۵۹۹ ۝ ۶۰۰ ۝ ۶۰۱ ۝ ۶۰۲ ۝ ۶۰۳ ۝ ۶۰۴ ۝ ۶۰۵ ۝ ۶۰۶ ۝ ۶۰۷ ۝ ۶۰۸ ۝ ۶۰۹ ۝ ۶۱۰ ۝ ۶۱۱ ۝ ۶۱۲ ۝ ۶۱۳ ۝ ۶۱۴ ۝ ۶۱۵ ۝ ۶۱۶ ۝ ۶۱۷ ۝ ۶۱۸ ۝ ۶۱۹ ۝ ۶۲۰ ۝ ۶۲۱ ۝ ۶۲۲ ۝ ۶۲۳ ۝ ۶۲۴ ۝ ۶۲۵ ۝ ۶۲۶ ۝ ۶۲۷ ۝ ۶۲۸ ۝ ۶۲۹ ۝ ۶۳۰ ۝ ۶۳۱ ۝ ۶۳۲ ۝ ۶۳۳ ۝ ۶۳۴ ۝ ۶۳۵ ۝ ۶۳۶ ۝ ۶۳۷ ۝ ۶۳۸ ۝ ۶۳۹ ۝ ۶۴۰ ۝ ۶۴۱ ۝ ۶۴۲ ۝ ۶۴۳ ۝ ۶۴۴ ۝ ۶۴۵ ۝ ۶۴۶ ۝ ۶۴۷ ۝ ۶۴۸ ۝ ۶۴۹ ۝ ۶۵۰ ۝ ۶۵۱ ۝ ۶۵۲ ۝ ۶۵۳ ۝ ۶۵۴ ۝ ۶۵۵ ۝ ۶۵۶ ۝ ۶۵۷ ۝ ۶۵۸ ۝ ۶۵۹ ۝ ۶۶۰ ۝ ۶۶۱ ۝ ۶۶۲ ۝ ۶۶۳ ۝ ۶۶۴ ۝ ۶۶۵ ۝ ۶۶۶ ۝ ۶۶۷ ۝ ۶۶۸ ۝ ۶۶۹ ۝ ۶۷۰ ۝ ۶۷۱ ۝ ۶۷۲ ۝ ۶۷۳ ۝ ۶۷۴ ۝ ۶۷۵ ۝ ۶۷۶ ۝ ۶۷۷ ۝ ۶۷۸ ۝ ۶۷۹ ۝ ۶۸۰ ۝ ۶۸۱ ۝ ۶۸۲ ۝ ۶۸۳ ۝ ۶۸۴ ۝ ۶۸۵ ۝ ۶۸۶ ۝ ۶۸۷ ۝ ۶۸۸ ۝ ۶۸۹ ۝ ۶۹۰ ۝ ۶۹۱ ۝ ۶۹۲ ۝ ۶۹۳ ۝ ۶۹۴ ۝ ۶۹۵ ۝ ۶۹۶ ۝ ۶۹۷ ۝ ۶۹۸ ۝ ۶۹۹ ۝ ۷۰۰ ۝ ۷۰۱ ۝ ۷۰۲ ۝ ۷۰۳ ۝ ۷۰۴ ۝ ۷۰۵ ۝ ۷۰۶ ۝ ۷۰۷ ۝ ۷۰۸ ۝ ۷۰۹ ۝ ۷۱۰ ۝ ۷۱۱ ۝ ۷۱۲ ۝ ۷۱۳ ۝ ۷۱۴ ۝ ۷۱۵ ۝ ۷۱۶ ۝ ۷۱۷ ۝ ۷۱۸ ۝ ۷۱۹ ۝ ۷۲۰ ۝ ۷۲۱ ۝ ۷۲۲ ۝ ۷۲۳ ۝ ۷۲۴ ۝ ۷۲۵ ۝ ۷۲۶ ۝ ۷۲۷ ۝ ۷۲۸ ۝ ۷۲۹ ۝ ۷۳۰ ۝ ۷۳۱ ۝ ۷۳۲ ۝ ۷۳۳ ۝ ۷۳۴ ۝ ۷۳۵ ۝ ۷۳۶ ۝ ۷۳۷ ۝ ۷۳۸ ۝ ۷۳۹ ۝ ۷۴۰ ۝ ۷۴۱ ۝ ۷۴۲ ۝ ۷۴۳ ۝ ۷۴۴ ۝ ۷۴۵ ۝ ۷۴۶ ۝ ۷۴۷ ۝ ۷۴۸ ۝ ۷۴۹ ۝ ۷۵۰ ۝ ۷۵۱ ۝ ۷۵۲ ۝ ۷۵۳ ۝ ۷۵۴ ۝ ۷۵۵ ۝ ۷۵۶ ۝ ۷۵۷ ۝ ۷۵۸ ۝ ۷۵۹ ۝ ۷۶۰ ۝ ۷۶۱ ۝ ۷۶۲ ۝ ۷۶۳ ۝ ۷۶۴ ۝ ۷۶۵ ۝ ۷۶۶ ۝ ۷۶۷ ۝ ۷۶۸ ۝ ۷۶۹ ۝ ۷۷۰ ۝ ۷۷۱ ۝ ۷۷۲ ۝ ۷۷۳ ۝ ۷۷۴ ۝ ۷۷۵ ۝ ۷۷۶ ۝ ۷۷۷ ۝ ۷۷۸ ۝ ۷۷۹ ۝ ۷۸۰ ۝ ۷۸۱ ۝ ۷۸۲ ۝ ۷۸۳ ۝ ۷۸۴ ۝ ۷۸۵ ۝ ۷۸۶ ۝ ۷۸۷ ۝ ۷۸۸ ۝ ۷۸۹ ۝ ۷۹۰ ۝ ۷۹۱ ۝ ۷۹۲ ۝ ۷۹۳ ۝ ۷۹۴ ۝ ۷۹۵ ۝ ۷۹۶ ۝ ۷۹۷ ۝ ۷۹۸ ۝ ۷۹۹ ۝ ۸۰۰ ۝ ۸۰۱ ۝ ۸۰۲ ۝ ۸۰۳ ۝ ۸۰۴ ۝ ۸۰۵ ۝ ۸۰۶ ۝ ۸۰۷ ۝ ۸۰۸ ۝ ۸۰۹ ۝ ۸۱۰ ۝ ۸۱۱ ۝ ۸۱۲ ۝ ۸۱۳ ۝ ۸۱۴ ۝ ۸۱۵ ۝ ۸۱۶ ۝ ۸۱۷ ۝ ۸۱۸ ۝ ۸۱۹ ۝ ۸۲۰ ۝ ۸۲۱ ۝ ۸۲۲ ۝ ۸۲۳ ۝ ۸۲۴ ۝ ۸۲۵ ۝ ۸۲۶ ۝ ۸۲۷ ۝ ۸۲۸ ۝ ۸۲۹ ۝ ۸۳۰ ۝ ۸۳۱ ۝ ۸۳۲ ۝ ۸۳۳ ۝ ۸۳۴ ۝ ۸۳۵ ۝ ۸۳۶ ۝ ۸۳۷ ۝ ۸۳۸ ۝ ۸۳۹ ۝ ۸۴۰ ۝ ۸۴۱ ۝ ۸۴۲ ۝ ۸۴۳ ۝ ۸۴۴ ۝ ۸۴۵ ۝ ۸۴۶ ۝ ۸۴۷ ۝ ۸۴۸ ۝ ۸۴۹ ۝ ۸۵۰ ۝ ۸۵۱ ۝ ۸۵۲ ۝ ۸۵۳ ۝ ۸۵۴ ۝ ۸۵۵ ۝ ۸۵۶ ۝ ۸۵۷ ۝ ۸۵۸ ۝ ۸۵۹ ۝ ۸۶۰ ۝ ۸۶۱ ۝ ۸۶۲ ۝ ۸۶۳ ۝ ۸۶۴ ۝ ۸۶۵ ۝ ۸۶۶ ۝ ۸۶۷ ۝ ۸۶۸ ۝ ۸۶۹ ۝ ۸۷۰ ۝ ۸۷۱ ۝ ۸۷۲ ۝ ۸۷۳ ۝ ۸۷۴ ۝ ۸۷۵ ۝ ۸۷۶ ۝ ۸۷۷ ۝ ۸۷۸ ۝ ۸۷۹ ۝ ۸۸۰ ۝ ۸۸۱ ۝ ۸۸۲ ۝ ۸۸۳ ۝ ۸۸۴ ۝ ۸۸۵ ۝ ۸۸۶ ۝ ۸۸۷ ۝ ۸۸۸ ۝ ۸۸۹ ۝ ۸۹۰ ۝ ۸۹۱ ۝ ۸۹۲ ۝ ۸۹۳ ۝ ۸۹۴ ۝ ۸۹۵ ۝ ۸۹۶ ۝ ۸۹۷ ۝ ۸۹۸ ۝ ۸۹۹ ۝ ۹۰۰ ۝ ۹۰۱ ۝ ۹۰۲ ۝ ۹۰۳ ۝ ۹۰۴ ۝ ۹۰۵ ۝ ۹۰۶ ۝ ۹۰۷ ۝ ۹۰۸ ۝ ۹۰۹ ۝ ۹۱۰ ۝ ۹۱۱ ۝ ۹۱۲ ۝ ۹۱۳ ۝ ۹۱۴ ۝ ۹۱۵ ۝ ۹۱۶ ۝ ۹۱۷ ۝ ۹۱۸ ۝ ۹۱۹ ۝ ۹۲۰ ۝ ۹۲۱ ۝ ۹۲۲ ۝ ۹۲۳ ۝ ۹۲۴ ۝ ۹۲۵ ۝ ۹۲۶ ۝ ۹۲۷ ۝ ۹۲۸ ۝ ۹۲۹ ۝ ۹۳۰ ۝ ۹۳۱ ۝ ۹۳۲ ۝ ۹۳۳ ۝ ۹۳۴ ۝ ۹۳۵ ۝ ۹۳۶ ۝ ۹۳۷ ۝ ۹۳۸ ۝ ۹۳۹ ۝ ۹۴۰ ۝ ۹۴۱ ۝ ۹۴۲ ۝ ۹۴۳ ۝ ۹۴۴ ۝ ۹۴۵ ۝ ۹۴۶ ۝ ۹۴۷ ۝ ۹۴۸ ۝ ۹۴۹ ۝ ۹۵۰ ۝ ۹۵۱ ۝ ۹۵۲ ۝ ۹۵۳ ۝ ۹۵۴ ۝ ۹۵۵ ۝ ۹۵۶ ۝ ۹۵۷ ۝ ۹۵۸ ۝ ۹۵۹ ۝ ۹۶۰ ۝ ۹۶۱ ۝ ۹۶۲ ۝ ۹۶۳ ۝ ۹۶۴ ۝ ۹۶۵ ۝ ۹۶۶ ۝ ۹۶۷ ۝ ۹۶۸ ۝ ۹۶۹ ۝ ۹۷۰ ۝ ۹۷۱ ۝ ۹۷۲ ۝ ۹۷۳ ۝ ۹۷۴ ۝ ۹۷۵ ۝ ۹۷۶ ۝ ۹۷۷ ۝ ۹۷۸ ۝ ۹۷۹ ۝ ۹۸۰ ۝ ۹۸۱ ۝ ۹۸۲ ۝ ۹۸۳ ۝ ۹۸۴ ۝ ۹۸۵ ۝ ۹۸۶ ۝ ۹۸۷ ۝ ۹۸۸ ۝ ۹۸۹ ۝ ۹۹۰ ۝ ۹۹۱ ۝ ۹۹۲ ۝ ۹۹۳ ۝ ۹۹۴ ۝ ۹۹۵ ۝ ۹۹۶ ۝ ۹۹۷ ۝ ۹۹۸ ۝ ۹۹۹ ۝ ۱۰۰۰ ۝ ۱۰۰۱ ۝ ۱۰۰۲ ۝ ۱۰۰۳ ۝ ۱۰۰۴ ۝ ۱۰۰۵ ۝ ۱۰۰۶ ۝ ۱۰۰۷ ۝ ۱۰۰۸ ۝ ۱۰۰۹ ۝ ۱۰۱۰ ۝ ۱۰۱۱ ۝ ۱۰۱۲ ۝ ۱۰۱۳ ۝ ۱۰۱۴ ۝ ۱۰۱۵ ۝ ۱۰۱۶ ۝ ۱۰۱۷ ۝ ۱۰۱۸ ۝ ۱۰۱۹ ۝ ۱۰۲۰ ۝ ۱۰۲۱ ۝ ۱۰۲۲ ۝ ۱۰۲۳ ۝ ۱۰۲۴ ۝ ۱۰۲۵ ۝ ۱۰۲۶ ۝ ۱۰۲۷ ۝ ۱۰۲۸ ۝ ۱۰۲۹ ۝ ۱۰۳۰ ۝ ۱۰۳۱ ۝ ۱۰۳۲ ۝ ۱۰۳۳ ۝ ۱۰۳۴ ۝ ۱۰۳۵ ۝ ۱۰۳۶ ۝ ۱۰۳۷ ۝ ۱۰۳۸ ۝ ۱۰۳۹ ۝ ۱۰۴۰ ۝ ۱۰۴۱ ۝ ۱۰۴۲ ۝ ۱۰۴۳ ۝ ۱۰۴۴ ۝ ۱۰۴۵ ۝ ۱۰۴۶ ۝ ۱۰۴۷ ۝ ۱۰۴۸ ۝ ۱۰۴۹ ۝ ۱۰۵۰ ۝ ۱۰۵۱ ۝ ۱۰۵۲ ۝ ۱۰۵۳ ۝ ۱۰۵۴ ۝ ۱۰۵۵ ۝ ۱۰۵۶ ۝ ۱۰۵۷ ۝ ۱۰۵۸ ۝ ۱۰۵۹ ۝ ۱۰۶۰ ۝ ۱۰۶۱ ۝ ۱۰۶۲ ۝ ۱۰۶۳ ۝ ۱۰۶۴ ۝ ۱۰۶۵ ۝ ۱۰۶۶ ۝ ۱۰۶۷ ۝ ۱۰۶۸ ۝ ۱۰۶۹ ۝ ۱۰۷۰ ۝ ۱۰۷۱ ۝ ۱۰۷۲ ۝ ۱۰۷۳ ۝ ۱۰۷۴ ۝ ۱۰۷۵ ۝ ۱۰۷۶ ۝ ۱۰۷۷ ۝ ۱۰۷۸ ۝ ۱۰۷۹ ۝ ۱۰۸۰ ۝ ۱۰۸۱ ۝ ۱۰۸۲ ۝ ۱۰۸۳ ۝ ۱۰۸۴ ۝ ۱۰۸۵ ۝ ۱۰۸۶ ۝ ۱۰۸۷ ۝ ۱۰۸۸ ۝ ۱۰۸۹ ۝ ۱۰۹۰ ۝ ۱۰۹۱ ۝ ۱۰۹۲ ۝ ۱۰۹۳ ۝ ۱۰۹۴ ۝ ۱۰۹۵ ۝ ۱۰۹۶ ۝ ۱۰۹۷ ۝ ۱۰۹۸ ۝ ۱۰۹۹ ۝ ۱۱۰۰ ۝ ۱۱۰۱ ۝ ۱۱۰۲ ۝ ۱۱۰۳ ۝ ۱۱۰۴ ۝ ۱۱۰۵ ۝ ۱۱۰۶ ۝ ۱۱۰۷ ۝ ۱۱۰۸ ۝ ۱۱۰۹ ۝ ۱۱۱۰ ۝ ۱۱۱۱ ۝ ۱۱۱۲ ۝ ۱۱۱۳ ۝ ۱۱۱۴ ۝ ۱۱۱۵ ۝ ۱۱۱۶ ۝ ۱۱۱۷ ۝ ۱۱۱۸ ۝ ۱۱۱۹ ۝ ۱۱۲۰ ۝ ۱۱۲۱ ۝ ۱۱۲۲ ۝ ۱۱۲۳ ۝ ۱۱۲۴ ۝ ۱۱۲۵ ۝ ۱۱۲۶ ۝ ۱۱۲۷ ۝ ۱۱۲۸ ۝ ۱۱۲۹ ۝ ۱۱۳۰ ۝ ۱۱۳۱ ۝ ۱۱۳۲ ۝ ۱۱۳۳ ۝

الصِّنفُ الرابع

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ في الحثِّ على لزوم الطاعة وذمِّ الخِلافِ)

قال في "موادِّ البيان" : طاعةُ السلطانِ والأُتقِيادُ إليه ، والرجوعُ إلى رأيه والاعتمادُ عليه ، أبدى الأسبابُ ، في استمرارِ الاتِّساقِ والاستِتابِ ؛ وهي فرضُ أوجبه الله تعالى . فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ولا تصح مملكةٌ ولا تدومُ دولةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطانِ ، والآخر طاعةُ الرِّعيَّةِ له ؛ فتى أرتفع أحدهما ، فسَدَ السَّائِسُ والمَسُوسُ . ولم تزل ملوكُ الأزمنةِ يقدِّمون إلى الرعايا لزومَ الطاعة ، والاعتصامَ بحُجَلِ الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعة .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالحمد لله على النعم في تأليف قلوب أهل الدين ، وجمع كلمة الموحدين ؛ وعَايَةِ أهوائهم إلى الاتِّفاقِ ، وصِيَانَةِ عَصَاهم عن الاتِّساقِ ؛ والصلاة على رسولِ الله عليه وسلم ، والتنبيه على فضائل الطاعة ، فإنها العروة الوثقى ، والمعقل الذي لا يُرقى ؛ والحِصْنُ الحصين ، والكنف الأمين ؛ والحِجَى الأَمْنَعُ ، والمَرْقَبُ الأرفع ؛ وأنَّ مَنْ حافظَ عليها فازَ وسَلِمَ ، ورَجَحَ وَغَنِمَ ؛ وَمَنْ فارقَهَا خَسِرَ وَخَابَ ، وَنَكَبَ عن سبيلِ الصَّوابِ ؛ وإيضاح مافي سبيل الطاعة من اتِّفاقِ الكلمة ، وانتظامِ شَمْلِ الأُمَمِ ؛ وشُمُولِ الخيرات ، وعمومِ البركات ؛ وعمارةِ البلاد ، وصَلَاحِ العباد ؛ وما في المُشَاقَقَةِ من الفساد العام ، العائد بَانْتِثَارِ النِّظامِ ؛ وَأَنْبِتَاتِ الحَبْلِ ، وتَفَرُّقِ الشَّمْلِ ، وَاجْتِثَاثِ الأَصْلِ ؛ وَطُمُوسِ الدِّيارِ ، وَصِيَالِ الأَشْرَارِ ، وَأَبْقَمَاعِ الأخيار ؛ وتوالى الفِتَنِ التي لا تُصِيبُ الظالمَ خاصَّةً دون العادل ، ولا المُشَاقِقَ دون الموافق ؛ وحلولِ النَّوَابِ المُزِيلَةِ للنعم ؛ وإتباعِ ذلك بما يجب من إعدار وإنذار ، وترهيب وترغيب ، وتذكير وتبصير ، ووعظ وتخويف ؛ وَبَعَثَ العُلَمَاءَ

الحُصَفَاءُ ، عَلَى رَدْعِ الْجُهَلَاءِ السَّخَفَاءِ ، وَتَنْبِيهِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، عَلَى كَفِّ ذَوَى الْعَيْثِ وَالطَّلَاحِ ؛ إِلَى نَحْوِ هَذَا مِمَّا يَجَارِيهِ . وَأَنْ يَبَالِغَ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَإِنْ هَذِهِ الْكُتُبُ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً مُسْتَوْفَاةً جَيِّدَةً الْعِبَارَةَ ، أَخَذَتْ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَأَغْنَتْ عَنِ الْكَتَائِبِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبِ .



وهذه [مكتبات] في معنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في تَرْسُلِهِ ، وَهِيَ :
أما بعد ، فَإِنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ الطَّاعَةَ وَأَوْجَبَهَا ، وَأَمَرَ بِهَا وَرَغَّبَ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا عِصْمَةً مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ ، وَضِيَاءً مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَسَلَامَةً مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ، وَسَبَبًا لِلظَّفَرِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَفَّقَهُ لَهَا ، وَأَلْزَمَهُ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا وَالْإِعْتَصَامَ بِحَبْلِهَا ، فَتَعَجَّلَ عِزَّهَا وَشَرَفَهَا ، وَسَعَتَهَا وَأَمْنَهَا ، وَأَسْتَحَقَّ السَّعَادَةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا ، وَالْمَثُوبَةَ عَلَيْهَا .

آخر : وقد علمتم ما جعل الله في الطاعة ولزومها ، والمحافظة عليها : من العزِّ وَالْمَنْعَةِ وَالْإَيِّدِ وَالْقُوَّةِ وَالْفُوزِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [وما] في خلافتها مِنْ صُنُوفِ الْمَخَافِ ، وَأَنْوَاعِ الْمَتَالِفِ .

آخر : وقد كانت الطاعة أَتَانَتْ بِكَ عَلَى كُلِّ ظَلِيلٍ ، وَأَفْضَتْ بِكَ إِلَى لِيْنٍ مِهَادٍ عِنْدَ إِقْضَاكِ الْمُضَاجِعِ ، وَصَفَاءِ الْمَشَارِبِ عِنْدَ تَكَدُّرِ الْمَنَاهِلِ ، وَاتِّصَالِ أَمْنَةٍ عِنْدَ حَدُوثِ الْمَخَافِ ، حَتَّى فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا .

آخر : فَلَمْ يَمُرَّ مِنْ طَاعَتِهِ مَارِقٌ ، وَلَا فَارِقُهَا مُفَارِقٌ ؛ إِلَّا صَرَعَ اللَّهُ خَدَّهُ ، وَأَتَعَسَ جَدَّهُ ؛ وَخَضَدَ شَوْكَتَهُ ، وَأَكْذَبَ ظَنَّهُ وَأُمْنِيَّتَهُ ، وَجَعَلَهُ لِسَيْفِ اللَّهِ غَرَضًا ، وَلَأُولِيائِهِ غَنِيمَةً .

آخر : والطاعة هي العروة الوثقى ، والطريقة المثلى ، والغنيمة لاهلها في الأخرى والأولى .

« عبد الحميد » : - فان الفتنة تتشوف لاهلها بأنق منظر ، وأزین ملبس ؛ تجر لهم أذيالها ، وتعدهم تتابع لذاتها ، حتى ترمى بهم في حومات أمواجها ، مسلمة لهم : تعدهم الكذب وممنهم الخدع ؛ فاذا لزيمهم عضاضها ، ونقر بهم شماسها ؛ تحلت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ؛ قد سلبوا أجل لباس دينهم ، وأستزلوا عن أحصن معاقل دنياهم : من الغناء البهي منظره ، الجميل أثره ؛ حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم ، والإيجاف في التعب ، وسوء المقلب ؛ فن آردينه على دنياه تمسك بطاعة ولأته ، وتحرز بالدخول في الجماعة ، تاركاً لأثقل الأمرين ، وأوبل الحالين .

« ابن عبد كان » في دَم الخلاف : - وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، أعوره إنعامنا ، وتوه به إكرامنا ؛ وشرفه ولأونا ، وحسن عنده بلأونا ؛ وأبتينا له الأموال ، وأسنينا له الأعمال ، وأوطأنا عقبه الرجال ؛ فلم تقع النعم منه عند شاكر ، ولا الصنيعة عند محتمل ؛ فلما رفع الله بمكاننا خسيسته ، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وأنبساط يده ما كانت همته تعجز عنه ، وآماله تقصر دونه ؛ أضراه ذلك وأبطره ، وأطغاه وأكفره ؛ فأختال زاهيا ، وأستكبر عاليا ؛ وغدر باغيا ، وشاق عاصيا ؛ وأوضع في الفتنة لنا حربا ، ولأعدائنا حربا ؛ ولمن أنحرف عنا يدا ، ولمن مال إلينا ضدا ؛ من غير سبب أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ؛ فكان كما قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ ﴾ (لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) فلما ورد الخبر بما هيا الله لنا من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السائرة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سقط في يده ، وفكر في غليظ جرمه

وخيانته ؛ فأذاه الخوف الذى آستشعره ، والإشفاق الذى خآمره ؛ إلى أن ركب عظيمًا من الأمور ، وكشف بالعصبيّة والغرور ؛ مكافئًا أعداء (١) ، ومواليا ذوى العداوة والشنّارة ؛ وزجو بحول الله وقوّته ، وإرادته ومشيتته ، وما لم يزل الله - تقدّس اسمه - يُخْرِيه عندنا من جميل عاداته فيمنّ سفّه الحق ، وزاغ عن القصد ؛ أن يُسَلِّ هذا الخائن بخبائث أعماله ، ويُسلِّمه لقبائح أفعاله ، وأن يصّره بأسوا مصارع أمثاله ؛ فإنّ أحدًا لم يحمّد النعمة ، إلا آستدعى النّقمه ؛ ولم يدع الشكر ، ويستعمل الكفر ؛ إلا كانت العثرة منه قريه ، والبلايا محيطه ؛ قولاً لا يُبدّل رسمه ولا يُحوّل .

من كتاب موسى بن عيسى .

أما بعد ، فإنّ أمرًا لو خلّص من فلتات الخطأ وخطوات الملا ، بفضيلة رأي ولطافة بصّر بالأمور ، كُنْتَ أَجْحَىٰ بِذلِكَ دون أهل زمانك ، للذى جرّت لك عليه تصارييف التبّع ، وتعرّضت لك به وجوه العبر ؛ ولما آستقبلت من موارد أمور نفسك ، وتعبّقت من مصادر أمور غيرك ؛ ولكنّ الله إذا أراد أمرًا جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عللا ؛ فمن مقادير علل البلاء تضييع المعرفة ، وإلغاء ما تُفيدُه التجريبه ؛ ومن أسباب السلامة الانتباه بالعبر ، والاستدلال بما كان على ما يكون . وأنت أمرؤ جرّت لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من الحجج ، عرفت بها مالك وعليك : فان تأخذ بها ، عرفت كيف تَسْلُكُ مسالكه ، وإن تدع الأخذ بذلك ، تدع على علم . وقد رأيت الذى آتقادت لك به النّعمة ، ووهبت لك به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك ، والصبر لها على مواطن الحقّ التى رَفَعَ الله بها ذِكرُك ، وأحسن عليها عُقبك ودُنُورك ؛ فلم تَمُضْ بك فى طاعتهم رُتبَه ، إلا قرّبك الله بها فى الخير عقبه ، ولا تبذل من نفسك نصيبًا ، إلا أوجب

(٢) الملا هنا معناه الظن والطمع .

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .

لك به مُجْحَا ، ولم تَقْتَأْ تَوَاتِرَ ذَلِكَ : من مناصحتك وحُسنِ طاعتك ، حَتَّى طُلْتَ بها
 على من طاووك ، وَفَضَلْتَ بها من فاضلك ؛ وجريت ممدودا عَنَّاكَ إِلَى قُصُوصِ غَايَاتِ
 أَمْلِكَ ، فَاصْبَحْتَ قَرِيعَ الْمَسْلَمِينَ ، بعد خليفة الله أمير المؤمنين ، وَخَيْرَتَهُ من خَلْقِهِ ،
 بعد ذَوِي الْفَضْلِ من أَهْلِ بَيْتِهِ ؛ حَتَّى مَالَكَ من رِجَالِ الْعَرَبِ نَظِيرَ فِي مَنَزِلَةٍ ،
 وَلَا نَدِيدَ فِي حَالٍ وَلَا رُتْبَةٍ ؛ بل هم فيك رجُلان : إِمَّا رَأَاهُ مِنْكَ ، وإِمَّا رَاغَبَ فِيكَ .
 قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمرّ الكتابة إلى زماننا . فإِذَا
 زالت الملوك يكتبون إلى من يَخَيَّلُونَ منه خَلَعَ الطاعة من التَّوَابِ ومن في معنائهم ،
 وَيَحْتَوَنَهُمْ على لزوم الطاعة ، وَيَحْذَرُونَهُمُ الْخَالَفَةَ والخروجَ عن الجماعة .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى مملوك سِيسَ عند
 كَسْرَةِ التَّارِ ، بعد قيامه معهم في المَصَافِّ ، ومُسَاعَدَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وهو :
 بَصَرَهُ اللهُ بِرُشِيدِهِ ، وأَرَاهُ مَوَاقِعَ غِيٍّ فِي الإِصْرَارِ على مخالفتِهِ وَتَقْضِ عَهْدِهِ ،
 وَأَسْلَاهُ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ عَمَّنْ رَوَّعَتَهُ السِّیُوفُ الإِسْلَامِيَّةُ بِفَقْدِهِ .

صدرت تُعْرِفُهُ أَنَّهُ قد تَحَقَّقَ ما كان من أمرِ الْعَدُوِّ الَّذِي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَحَمَلَهُ
 التَّمَسُّكَ بِخُدَاعِهِ على مجانبَةِ الصَّوَابِ في أُمُورِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ آسْتَجَدُوا بِكُلِّ طَائِفَةٍ ، وَأَقْدَمُوا
 على البلادِ الإِسْلَامِيَّةِ بِنُفُوسِ طامعة وقلوب خائفة ؛ وذلك بعد أن أقاموا مَدَّةَ
 يَسْتَرُونَ الخِثْلَةَ بِالْمَوَادِعَةِ ، وَيُسِرُّونَ المَصَارِمَةَ في المسالمة ؛ وَيُظْهِرُونَ في الظاهرِ
 أُمُورًا ، [وَيَدْبُرُونَ في الباطنِ أُمُورًا] ^(١) وَيَعِدُّونَ كُلَّ طَائِفَةٍ من أعداء الدين وَيَمْتَنِعُونَ
 وما يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وَكُنَّا بِمَكْرِهِمْ عَامِلِينَ ، وعلى معالجتهم عاملين ؛ وَحِينَ

تَيْنِ مَرَادُهُمْ ، وَتَكَلَّ أَحْتِشَادُهُمْ ؛ أَسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ ، وَأَسْتَجَرْنَا لَهُمْ لِقُرْبُوا
فِي الْقَتْلِ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ ، وَيَبْعَدُوا فِي الْهَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ ؛ وَصَدَمْنَاهُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ
صَدْمَةً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا قَبْلُ ، وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمَلَةً أَلْجَاهُمْ طُوفَانُهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ : وَهَلْ
يَعِصُمُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَبَلٌ ؟ فَخَصَرْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْمَتَّسِعِ ، وَضَايَقْنَاهُمْ كَمَا قَدْ رُئِيَ
وَمَرَّقْنَاهُمْ كَمَا قَدْ سَمِعَ ، وَأَتَرَلْنَاهُمْ عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ الَّذِي نَهَلَ مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّى رَوَى
وَأَكَلَ مِنْ لُحُومِهِمْ حَتَّى شَبِعَ ، وَتَبِعْتَهُمْ جِيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ تَخَطَّفَهُمْ رِمَاحُهَا ، وَتَتَلَقَّفَهُمْ
صَفَاحُهَا ؛ وَيُدِدُهُمْ فِي الْقَلَوَاتِ رُعْبُهَا ، وَيُفَرِّقُهُمْ فِي الْقِفَارِ طَعْنُهَا الْمُتَدَارِكُ وَضَرْبُهَا ؛
وَيَقْتُلُ مَنْ فَاتَ السُّيُوفَ مِنْهُمْ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ ، وَيُخَيِّلُ لِلْحَيِّ مِنْهُمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ كَالدُّنْيَا
الَّتِي لَيْسَ لِلنَّيِّتِ إِلَيْهَا رَجُوعٌ ؛ وَلَعَلَّهُ قَدْ رَأَى مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفَ عَيَانًا ، وَتَحَقَّقَ
مِنْ كُلِّ مَا جَرَى مَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ زِيدَ بِهِ عِلْمًا وَلَا يُقِيمَ عَلَيْهِ بُرْهَانًا .

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ مَا زَالَ مَعْنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ ، وَأَنَّهُمْ مَا أَقْدَمُوا
إِلَّا وَنَصَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ؛ وَمَا سَاقَتْهُمْ الْأَطَاعُ فِي وَقْتٍ مَا إِلَّا إِلَى حُتُوفِهِمْ ،
وَلَا عَادَمْنَاهُمْ قَطُّ فِي وَقْعَةٍ إِلَّا أَحَادٌ يُخْبِرُ عَنْ مَصَارِعِ أُلُوفِهِمْ ؛ وَلَقَدْ أَضَاعَ الْحَزَمُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَسْتَدِمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ [بَطَاعَتَنَا] الَّتِي كَانَ فِي مِهَادِ أَمْنِهَا ، وَوَهَادِ يُمْنِهَا ؛ وَحِمَايَةِ
عَفْوِهَا ، وَبَرْدِ رَأْفَتِهَا الَّتِي كَدَّرَهَا بِالْمُخَالَفَةِ بَعْدَ صَفْوِهَا ؛ يَصُونُ رَعَايَاهُ بِالْبَطَاعَةِ عَنِ الْقَتْلِ
وَالْإِسَارِ ، وَيُنَجِّي أَهْلَ مِلَّتِهِ [بِالْحَذَرِ عَنِ الْحَرَكَاتِ] الَّتِي مَانَهُضُوا إِلَيْهَا إِلَّا وَجَرُوا ذُيُولَ
الْخُسَارِ ؛ وَلَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَصْحَابَهُ لِسُيُوفِنَا الَّتِي كَانَ مِنْ سَطَوَاتِهَا فِي أَمَانٍ ، وَوَثَقَ
بِمَا ضَمِنَ لَهُ التَّنَارُ مِنْ نَصَرِهِ وَقَدْ رَأَى مَا آلَ إِلَيْهِ [أَمْرُ] ذَلِكَ الضَّمَانِ ؛ وَجَرَّ لِنَفْسِهِ بِمَوْلَاةِ
التَّنَارِ عَنَاءً كَانَ عَنْهُ فِي غِنًى ، وَأَوْقَعَ رُوحَهُ بِمُظَافَرَةِ الْمُغْلِ فِي حَوْمَةِ السُّيُوفِ الَّتِي تَخَطَّفَتْ

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨) .

أولياءه من هنا ومن هنا ؛ وأقتحم بنفسه موارد هلاكٍ سلبت رداء الأمن عن منكيته ، وأغترَّ هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره ؟ وأتى لضعاف النقاد قدرة على الثبات لوثبات الأسود الضارية والليوث الكاسره ؟ لقد أعترض بين السهم والهدف بحجره ، وتعرض للوقوف بين ناب الأسد وطفره ؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسلافه التي ماتوا عليها ، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصل إليها ؛ ونجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين لا تؤيسهم من عفونا ما استقاموا ، ونسلك فيهم حكم من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قبضتنا : نزحوا أو أقاموا ؛ ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسئ ملازمة ربة الخنف خنافة ، ولا يرجع يورد نفسه في موارد الهلاك وهل يرجع إلى الموت من ذاقه ؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه ، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبذل السيوف الإسلامية مصوبه ؛ ويبادر إلى الطاعة قبل أن يئدها فلا تقبل ، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تسبل ؛ ويعجل بحمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في جملة ما يحمل منها إلينا ، ويسلم مفاتيح ما عدا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخر من بلاده بين يدينا ؛ ويكون هو السبب في تمزق شمله ، وتفرق أهله ، وقلع بيته من أصله ؛ وهدم كنائسه ؛ وأبذال نفسه ونفائسه ؛ وأسترقاق حرمة ، وأستخدام أولاده قبل خدمه ؛ وأستقلاع قلاع ، وإحراق ربوعه ورباعه ؛ وتعجيل رؤية ما وعد به قبل سماعه . ومن لغازان أن يجاب إلى مثل ذلك ، أو يُسمح له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من المسالك ؛ لينتفع بما أهدت جيوشنا المؤيدة في يده من الخيل والحول ، ويعيش

في الأمان ببعض ما نسمح له به ومن للعود بالحوّل ؛ والسيوف الآن مُصْغِيَةٌ إِلاّ جوابه لتُكفّف إن أبصر سبيل الرشاد، أو نتعوّض بـروس حُمّاته وكُتّبه عن الإغمداد إن أصرّ على العناد؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية المكتُوب إلى من نكث العهد من المخالفين)

قال في "موادّ البيان" : إذا نقض مُعاهدٌ عهده ، أو نقض من شروط الهدنة يده ؛ فالرسم أن يصدّر ما يكتبُ به بالحمد لله تعالى على موهبتِه في إظهار الدين ، وإعزاز المسلمين ؛ وما تكفّله من النصر على الباغين ، ووعد به أهل العدل من الإدالة والتّمكن ؛ والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ؛ وإيراد طرف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التي تتخرط في هذا النظام ، وتليق بهذا النمط من الكلام ؛ ثم يُتبع ذلك بمقدمة تدلّ على متانة البصائر في الدين ، وثاقفة العقائد في إذالة المُحدّثين ؛ ومضاء العزائم في مجاهدة المُعتدين ، والاستطالة على المعاندين ؛ مع ما تضمّنه الله تعالى من نصره وإظفاره ، ووعد به من تأييده وإقراره ؛ وسهله من إهواء الأهوية إليه ، وجمع الكلمة عليه ؛ بما خوله من بأسٍ وشده ، وعديد وعدة . وما يليق بذلك مما يُعرب به عن علو السلطان ، ووفور الإخوان ؛ واتّساع القوة والأيد ، وصدق العزم والجد . ثم يذكر الحال التي آنعت الهدنة عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غزوهم في عُقر دارهم ، وتشريدهم بالغارات المبثوثة برا وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبولاً لمساءلتهم ، وأمثالاً لأمر الله تعالى في مسألتهم . ويأخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل الإسلام بهم ؛ والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليهم ، والمعاقل المستترعة من أيديهم ؛

وَأَنَّ تِلْكَ الْعَزَائِمَ مُضْطَرَمَّةٌ مُتَوَقَّدَةٌ ، وَتِلْكَ السِّيُوفُ مُشْحَدَةٌ مُهَنَّدَةٌ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ حَرَمَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَنَقَضَ مِنَ الذَّمَامِ يَدَهُ ؛ وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ مُوجِفَةٌ وَرَاءَ هَذَا الْكِتَابِ ، فِي جَيْشٍ يُلْحِقُ الْخَبْتَ بِالْهَضَابِ ؛ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَبَادِرَةٌ إِلَى الْإِفْلَاحِ وَالْإِنَابَةِ ، وَمَكَاتِبَةٌ فِي الصَّفْحِ وَالْأَسْتِنَابَةِ ؛ وَأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ الْأَعْذَارَ ، وَبَدَأَ قَبْلَ الْإِقْدَامِ بِالْإِنْذَارِ ؛ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ .

قال : فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ جَوَابًا عَنْ كِتَابٍ وَرَدَّ ، أَجِيبَ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَبُنِيَ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى مَا يَسِطُ الْهَيْبَةُ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّزَوُّلِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّاعَةِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، وَالْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ ؛ فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَاطَ فِيمَا يَطْلُقُ بِهِ قَلَمَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَطِيرَةِ : لِأَنَّهُا مَزَاحِمَةٌ بِالْأُذُلِ وَالْمَلِكِ ، وَحُجْجٌ تَحْصُلُ مِنْ كُلِّ دَوْلَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ ؛ وَدَرَكٌ مَا يَقَعُ فِيهَا عَائِدٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ .



وهذه نسخة كتاب كُتِبَ بِهِ عَنْ الْحَافِظِ لَدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ بِالْأُذُنِ الْمَصْرِيَّةِ ، إِلَى بَهْرَامِ النَّصْرَانِيِّ الْأَرْمَنِيِّ الَّذِي كَانَ أَسْتَوْرَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ بْنُ وَخْشِي ، أَرْتَغَامًا لِلدِّينِ ، لَتَحْكُمَ نَصْرَانِيٌّ فِي أَهْلِ الْمِلَّةِ ، وَوَلِيَ الْوِزَارَةَ مَكَانَهُ ؛ فَقَرَّ هَارِبًا إِلَى الشَّامِ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ ، وَكُتِبَ إِلَى الْحَافِظِ يَطْلُبُ أَهْلَهُ وَجَمَاعَتَهُ مِنَ الْأَرْمَنِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَلَةِ جُنْدِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، مَظْهَرًا لِلطَّاعَةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى التَّخَلِّيِّ عَنِ الدُّنْيَا ، وَالْإِنْقِطَاعِ فِي بَعْضِ الدِّيَرَةِ لِلتَّعَبُّدِ مَكْرًا وَخَدِيعَةً ؛ فَكُتِبَ لَهُ بِذَلِكَ جَوَابًا عَنْ كِتَابِهِ الْوَارِدِ مِنْهُ . وَنَصَّ مَا كُتِبَ إِلَيْهِ :

عُرِضَ بِمَحْضَرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكِتَابُ الْوَارِدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، الْمَقْدَمُ ، الْمُؤَيَّدُ ، الْمَنْصُورُ ؛ عَنْ الْخِلَافَةِ وَتَشْمُسُهَا ، تَأْجُ الْمَمْلَكَةِ وَنِظَامُهَا ؛ فَخَرُّ الْأُمَرَاءِ ، شَيْخِ الدَّوْلَةِ

وعمادها؛ ذو المجدين، مصطفى أمير المؤمنين . ووقف على جميعه، وأستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وسعت القول فيه وبسطته ، وتفسحت فيا أوردته منه وذكرته ؛ مما فواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعة ، والولاء والمشايعة ؛ والأعتراف بنعم الدولة عليك ، والإقرار بإحسانها إليك ؛ فلعمر أمير المؤمنين إن هذا الذي يليق بك ويحسن منك ، ويحسن أن يرد عنك ، ويجب أن يعرف لك ؛ وقد كانت الدولة أسلفتك من حسن الظن قديما ، ونقلتك في درجة التتويه حديثا ؛ حتى رفعتك إلى أعلى المراتب ، وبلغتكم ما لم تسم إليه هممة طالب ؛ وأوطأت الرجال عقبك ، وجعلت جميع أهل الدولة تبعك ؛ مما أغنى أعترافك به عن الإطالة بشرحه ، والإطناب في ذكره .

وأما ما ذكرته مما كان أمير المؤمنين أعطاك التوثقة عليه ، فأجابك منه إلى ما رغبت فيه ، فاستقر بينه وبينك في معناه ما أطمأنت إليه ؛ فلم يزل أمير المؤمنين على الوفاء باطنا وظاهرا ، ونية وعلاية ؛ واعتقاده أن لا يرجع عنه ، ولا يغير ما أحكمه منه ؛ وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كافة المسلمين في البعد والقرب غضبوا لملتهم ، وأمتعضوا مما لم تجر به عادة في شريعتهم ؛ ونفرت نفوسهم مما يعتقدون أن الصبر عليه قاذح في دينهم ، ومضاعف لآلامهم ؛ وأنه ذنب لا يغفر ، ووزر لا يتجاوز ولا يصفح [عنه] حتى إن أهل المشرق أخذوا في ذلك وأعطوا ، وعزموا على ما اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مؤنته والأشتغال به .

وأما ما ألتتمسته من تسيير من الباب من طائفتك إليك ، فهذا أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله ، ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه . والآن فلن

يَحُلُّوْ حَالَك مِنْ أَحَدِ قِسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَغَيْرِ مُنْفَصِلٍ عَنْهَا ،
فَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُجَيِّدُكَ فِي وِلَايَةِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : إِمَّا قُوصَ ، أَوْ إِنْجِمْ ، أَوْ أَسْوَطَ ؛
فَأَيُّهَا أَحْتَرْتُ وَلَاكَ إِيَّاهُ ، وَرَدَّ أَمْرَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ عَلَى أَنْ تَقْتَصِرَ مِنَ الَّذِينَ
مَعَكَ عَلَى خَمْسِينَ أَوْ سِتِينَ فَارِسًا ، وَتُسَيِّرَ الْبَاقِينَ إِلَى الْبَابِ لِيُجْرُوا عَلَى عَادَاتِهِمْ ،
وَرُسُومِهِمْ فِي وَاجِبَاتِهِمْ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا عِيْدَ الدَّوْلَةِ وَمُتَقَلِّبِينَ فِي فَضْلِهَا ،
وَأَكْثَرَهُمْ مُتَوَلِّدُونَ فِي ظِلِّهَا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى الْقَضِيَّةِ الَّتِي مَا زِلْتَ تَذْكُرُ رَغْبَتَكَ
فِيهَا وَإِيثَارَكَ لَهَا : مِنَ التَّخَلِّيِ عَنِ الدُّنْيَا وَلِزُومِ أَحَدِ الدَّيْرَةِ ، وَالْإِقْطَاعِ إِلَى الْعِبَادَةِ ؛
فَإِنْ كُنْتَ مَقِيًّا عَلَى ذَلِكَ فَتَخَيَّرْ ضَيْعَةً مِنْ أَىِّ الضَّيَاعِ شِئْتَ يَكُونُ فِيهَا دَيْرٌ تُقِيمُ فِيهِ
وَتَقْطَعُ إِلَيْهِ ؛ فَتُعَيِّنِ الضَّيْعَةَ لِيَجْعَلَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَسْوِيغًا لَكَ مُؤَبَّدًا ، وَإِقْطَاعًا
دَائِمًا مُخْلَدًا ؛ وَتَجْرَى مَجْرَى الْمَلِكِ ، وَيُكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، مِمَّا تَطْمَئِنُّ
إِلَيْهِ وَتَسْتَحْكُمُ نَفْسُكَ بِهِ . وَإِنْ أَبَيْتَ الْقِسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَلَمْ يُرِضْكَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا ،
وَلَا رَغَبْتَ فِي الثَّانِي ، فَتَحَقَّقْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَكَافَّةًهُمْ وَأَسْرَهُمْ ؛ وَكُلٌّ مِنْ يَقُولُ
بِالشَّهَادَتَيْنِ : مَنْ قَاصٍ وَدَانٍ ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ، وَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، يَنْفِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَتَّفِقُونَ
عَلَى الْقَصْدِ لَكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي التَّوَجُّهِ نَحْوَكَ ؛ وَهُوَ عَمَلُ دِينِي ، لَا يَرِيئُهُ أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ ؛
فَتَأْمَلْ مَا تَضُمَّنْتَهُ هَذِهِ الْإِجَابَةُ مِنَ الْأَقْسَامِ ، وَطَالِعْ بِمَا عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ لَا وَجُودَ لَهُ فِي زَمَانِنَا لَعَدَمِ وَقُوعِ
الْهُدَنِ الْمُرْتَبِ عَلَيْهِمَا هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ ؛ فَإِنْ أَحْتِيجُ إِلَى ذَلِكَ مَشَاءَ الْكَاتِبِ
عَلَى الْقَاعَةِ الْقَدِيمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى من خلع الطاعة)

قال في "موادّ البيان" : وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة . قال : وجمع أوضاعها كلها في قانون كليّ عسير المرام ، إلا أننا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تنفذ هذه الكتب إلى من تُرجى إنايته ، وتؤمل مراجعته . فأما من وقع الإيأس من استصلاحه ، ودعت الضرورة إلى كفاحه ، فلا حاجة إلى معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إلى إيناسه ، ويزيل أسباب استيحاشه ، ويعود بثبات جاشه ، ويبعثه على مراجعة فكره ، ومعاودة النظر في أمره ، ويدركه ما أسدى من العوارف إليه ، وأفيض من النعم عليه ، وأنه لا ينفر سربها بمحدها وكفرها ، ويوحش ربعها بإهمال حمدها وشكرها ، ويربطها بحسن الطاعة ، ويستترهنها بالتأدب في التّباعه ، ولا يجتزئ الوبال إلى نفسه بالخروج عن العصمه ، في عاجل ذميم الوصمة وفي آجل أليم التّقمه . ويصّره بعاقبته ومن يليه من ذوى الجند بما يقتضى ربّ الإنعام لديهم ، وإقرار الفضل عليهم ، وأن يسلبهم ملبس الظلّ الظليل ، وأن يعطّاهم من حلّ الرأي الجميل ، ويتدرّع في أثناء ذلك بشعار التفاف ، ويتّسم بميسم الشقاق ، ويتعجّل إزعاجه من داره ، وبعده من قراره ، وهدم ما شيده الإخلاص من ذكره ، وتقويص ما رفّعت الطاعة من قدره ، ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً مجتهداً ، وبعد أن كان مرامياً عن السّدة مرمياً بيدّها ، ويضيع

مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأَفِضَ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ ، وَمَا ذَهَبَ مِنَ الْيَقِينِ فِي تَدْرِيجِهِ إِلَى مَرَاتِقِ
السِّيَادَةِ ، وَمِنَ الرُّغَائِبِ فِي إِحْلَاقِهِ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ ؛ وَلَا يَغْتَرُّ بِنِزْنٍ لَهُ عَاجِلَ الْآجِلِ ،
وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِخَدَجِ الْبَاطِلِ ؛ وَيَجْعَلُ أَقْوَالَهُمْ دَبْرَ سَمْعِهِ ، وَيُبْعِدُ اشْتَخَاصَهُمْ عَنْ نَظَرِهِ ؛
نَاضِرًا فِي عَاقِبَتِهِ ، وَحَارِسًا مُهَجَّتَهُ ؛ وَرَاقِبًا فِي حَقْنِ دَمِهِ ، وَصِيَانَةً حَرَمِهِ ؛ وَلِيَرْجِعَ
إِلَى الْفَنَاءِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُحْزِرُهُ ، وَالْكَنْفِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعْزِهِ ؛ وَلَا يَجْعَلُ مُسَالِمَةَ الْعُنُودِ
مَنَازِعًا ، وَمُوَاصَلَةَ بِالْجُحُودِ مَقَاطِعًا ؛ وَوَاهِبَهُ بِالْكَفْرِ سَالِبًا ، وَمَطْلَعَ النِّعْمَةِ بَضِياعًا
حَقَّقَهَا مَغْرِبًا ؛ وَقَدْ بَقِيَ فِي الْحَبْلِ مُمْسِكٌ ، وَفِي الْأَمْرِ مُسْتَدْرِكٌ ؛ لِأَنَّهُ يَهْبُ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَسْتَبْدِلُ مِنْ لَفَاءِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ يَقُولُ : فَإِنْ كَانَ مَا جَنَاهُ قَدْ هَدَّ
سِرَّهُ ، وَكَدَّرَ شَرِبَهُ ؛ وَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ سُوءَ الظَّنِّ ، وَأَخَافَهُ بَعْدَ الْأَمْنِ ؛ فَلْيَبْعَثْ
رَسُولَهُ يَسْتَوْثِقُ وَيُعَاقِدُ ، وَيَتَوَكَّدُ وَيُعَاهِدُ ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ بِمَا يَمَلَأُ قَوَادِهِ أَمْنًا ،
وَيَكُونُ عَلَيْهِ حِصْنًا ؛ سَارِعًا إِلَى أَمْتِثَالِ الْمَرَاسِمِ ، وَجَرِيًّا فِي الطَّاعَةِ عَلَى سَنَنِهِ الْمُتَقَادِمِ ؛
وَلَا يَسْتَمِرَّ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، وَيَقْتَصِرَ عَلَى الْمَغَايِظَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ .

ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا : وَقَدْ قَدَّمَ أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَهُ هَذَا إِلَيْكَ نَائِبًا عَنْهُ فِي اسْتِصْلَاحِكَ ،
وَقَائِدًا يَقُودُكَ إِلَى طَرِيقِ نَجَاحِكَ ؛ قَبْلَ تَجْرِيدِ مَوَاضِيهِ ، وَإِلْخَاقِ مُسْتَأْنَفِهِ فِي الْحَرْبِ
بِمَاضِيهِ ؛ وَجُيُولِهِ تُجَادِبُ الْأَعِنَّةَ ، وَذَوَائِلُهُ مُشْرَعَةُ الْأَسِنَّةِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَصْدُكَ
فِي عُقْرِ دَارِكَ الَّتِي بَوَّأَكَهَا ، وَأَنْتَرَاعُ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَعْطَاكَهَا ؛ لِتَذُوقَ مَرَارَةَ الْخَالَفَةِ ،
وَتَزِينَهَا بِجَلَاوَةِ الْمَوَاقِفَةِ ؛ فَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ حَاكِمًا ، وَلَا تُكُنْ لَهَا ظَالِمًا ؛
وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيْقُ بِهِ .

وَإِنْ كَانَتْ الْمَكْتُبَةُ إِلَى رَجُلٍ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةُ بَخْلَجِ الطَّاعَةِ ، ثُمَّ سَأَلَ الْإِقَالََةَ
فَاقْبَلْ بَعْدَ مُشَارَفَةِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَالنَّكَايَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَاجِعِ الْعَصِيَانَ ؛ فَالرَّسْمُ أَنْ تَفْتَحَ

يُحْمَدُ اللهُ جَاعِلِ الْعَاقِبَةِ لِلتَّقِيْنَ ، وَالْعُدُوَانِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ؛ وَالْعِزَّةِ لِحُرِّيِّهِ ، وَالذَّلَّةَ لِحُرِّيِّهِ ؛
وَالْإِظْهَارِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْخَسَارِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَدَائِرَةِ السَّوْءِ عَلَى الْخَالِعِيْنَ طَاعَةً
خَلْفَانَهُ ، الْقَائِمِيْنَ بِحُجَّتِهِ . ثُمَّ يُقَالُ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا رَأَيْتَ تَخَوَّلَهُ بِهِ مِنْ تَصْدِيقِ
أَمَالِهِ ، وَتَوْفِيقِ أَعْمَالِهِ ؛ وَتَسْدِيدِ مَرَامِيهِ ، وَهَدَايَةِ مَسَاعِيهِ ؛ وَاجَابَةِ دَعْوَتِهِ ،
وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ ؛ بِإِدَالَةِ مُوَالِيْسِهِ ، وَإِذَالَةِ مُعَادِيْهِ ؛ وَمُعَوْنَتِهِ عَلَى مَاوَلَاءِهِ ، وَتَمَكِّيْنَتِهِ
مِنْ نَاوَاهِ ؛ وَيَسَالَهُ الصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ يُرْتَى بِمَقْدَمَةِ تَدَلٍّ عَلَى جَمِيلِ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ ، وَذَمِّ مَغْبَةِ الْمَعْصِيَةِ ؛ يَبْسُطُ الْقَوْلَ
عَلَيْهَا ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ، لِتَكُونَ فِرَاشًا لِمَا يَتْلُوهَا . ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَهَا : وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ذَلِكَ
أَهْلَ الْغُرَارَةِ الَّذِينَ لَمْ يُلُوكُوا شَكَاكُمُ التَّجَارِبِ ، وَلَمْ يُكَارِسُوا ضَرَائِمَ النَّوَائِبِ ؛
وَأَنْتَ فَقَدْ تَذَوَّقْتَ مِنْ كِرَاهَةِ الْمَعْصِيَةِ وَمِرَارَتِهَا ، وَعُدُوْبَةِ الطَّاعَةِ وَحِلَاوَتِهَا ؛
مَا يَرْجُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَعَظَكَ وَأَدَبَكَ ، وَقَوَّمَكَ وَهَدَبَكَ ؛ وَكَشَفَ لَكَ
عَنْ عَاقِبَتِهَا ، وَعَرَّفَكَ بِغَايَتِهَا ؛ فَدَعَتْكَ الطَّاعَةُ إِلَيْهَا بِمَا أَسْبَغَتْهُ عَلَيْكَ مِنْ لِبَاسِ
شَرَفِهَا وَمَجْدِهَا ، وَأَسْتَخْدَمَتْهُ لَكَ مِنْ أَنْصَارٍ إِقْبَالُهَا وَسَعْدِهَا ؛ وَنَهَتْكَ الْمَعْصِيَةُ عَنْهَا
بِمَا بَلَّوَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا وَصَنَائِعِهَا ، وَجَرَّبَتْهُ مِنْ مَرَمِضِ مَرَامِيهَا وَمَوَاقِعِهَا ، لِأَنَّهَا أَقَلَّتْ
عَدَدَكَ ، وَمَزَّقَتْ مُطَرَفَكَ وَمُتَلَدَكَ ؛ حَتَّى تَدَارَكَكَ مِنْ عَطْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَا أَنْبَتَكَ
بَعْدَ الْحَصْدِ ، وَرَأَشَكَ بَعْدَ الْحَصِّ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنَّكَ حَيَّتَ إِلَى أَتْبَاعِ
الضَّلَالَةِ الَّذِينَ غَرُّوكَ ، وَمِلْتَ إِلَى أَشْيَاعِ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ اسْتَهْوَوْكَ ؛ فَأَصْغَيْتَ إِلَى أَقْوَالِهِمْ
الَّتِي ظَاهَرَهَا نُصْحٌ وَبَاطِنُهَا غِشٌّ ، وَأَرَاءِهِمْ الَّتِي مَوَارِدُهَا صَلَاحٌ وَمَصَادِرُهَا فُسَادٌ ؛
وَمِلْتَ إِلَى مُعَاوَدَةِ الشَّقَاقِ وَالْإِرْتِكَاسِ فِي الْعِصْيَانِ ، وَمُقَابَلَةِ النُّعْمَى بِالْكُفْرَانِ ؛
فَقَدَّمَ كِتَابَهُ إِلَيْكَ مُدَّكِرًا ، وَمَنَحَكَ خُطَابَهُ مُعْذِرًا مُنْذِرًا ؛ لِيَعْرِفَكَ حَقُّكَ ، وَيَهْدِيَكَ
رُشْدَكَ ؛ [وَيَذَلُّكَ] عَلَى الْأَحْسَنِ لَكَ فِي مَبْدَئِكَ وَعَاقِبَتِكَ ، وَيُحَدِّدَكَ مِنْ مَرَاجِعَةِ

مافارفته ؛ وأن تَزَلَّ عن المنزلة التي رَقَّكَ إليها ، وتُجَدِّبَ رباعَكَ من النعمة التي أرتَعَكَ فيها ، وتُتَخَلَّ عن مرابع الدَّعة التي أوردَكَ عليها ؛ فانظر لنفسك حَسَنًا ، وَكُنْ إليها مُحْسِنًا ؛ وَاَتَفَعْ بِمِراشد أمير المؤمنين ، ولا تُفْسِدَنَّ بِخِلَافِكَ عَنْ أمره نَصِيكَ من الدُّنيا والدِّين ؛ فارجِعْ إليه مسترغمًا فإنه يَقْتَدِي بالله في الرحمة للحسين ، مادام مُؤَثَّرًا لِرَبِّ النعمة لديك ، وإقرارها عليك . فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قال : وإن كانت المكتوبة إلى رَعِيَّةٍ قد خرجت عن الطاعة كَتَبَ إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَفَقَّكُمْ الله لَطَاعَتِهِ ، وَعَصَمَكُمْ من معصيته ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُدْلِي الْإِنْسَانَ بِغُرُورِهِ ، وَيَقِيمُ لَهُ الضَّلَالِ فِي صُورَةِ الْهُدَى بِبُهْتَانِهِ وَزُورِهِ ؛ مُسْتَخِفًّا لَطَائِشِي الْأَبْأَابِ ، وَمُسْتَرِلاً لِلْأَقْدَامِ عَنْ مَوْقِفِ الصَّوَابِ ؛ مُحْسِنًا بِكَيْدِهِ لَأَعْتِقَادِ الْأَبَاطِيلِ ، مُزَيِّنًا بَغِيَّةَ اتِّبَاعِ الْأَضَالِيلِ ، صَارِفًا بِمَكْرِهِ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ؛ مُصَوِّرًا لِلْحَقِّ فِي صُورَةِ الْمُنَى ، مُغْطِيًّا عَلَى الْقُلُوبِ بِشِغَافِ الرِّينِ ؛ وَالْحَازِمُ الْيَقِظُ مِنْ تَحَرُّزٍ مِنْ أَشْرَاكِهِ وَحَبَائِلِهِ ، وَتَحْفَظُ مِنْ تَحَايِلِهِ وَغَوَائِلِهِ ؛ وَأَتَمُّهُمْ هَوَاجِسَ فِكْرِهِ ، وَأَسْتَرَابَ بَوَسَاوِسِ صَدْرِهِ ؛ وَعَرَضَ مَا يَعْرِضُ لَهُ عَلَى عَقْلِهِ ، وَكَرَّرَ فِيهِ النَّظَرَ مُتَحَرِّزًا مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ وَخَتْلِهِ ؛ فَإِنْ أَلْفَاهُ عَادِلًا عَنْ الْهَوَى ، مَائِلًا إِلَى التَّقْوَى ؛ بَرِيثًا مِنْ خُدَعِ الشَّيْطَانِ ، آمِنًا مِنْ عَوَادِي الْأَفْتِنَانِ ؛ أَمْضَاهُ وَائْتَقًا بِسَلَامَةِ مَغْبِيَّتِهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَشُمُولِ الْأَمْنِ فِي أَوَّلِهِ وَأَنْحَرَاهُ .

وَأَتَمَّى إِلَى أمير المؤمنين أَن الشَّيْطَانَ الْمَرِيدَ اسْتَحَفَّ أَحْلَامَ جَمَاعَةِ جُهَالِكُمْ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَى أَفْهَامِ عِدَّةٍ مِنْ أَرَادِلِكُمْ ؛ وَحَسَّنَ لَهُمْ شَقَّ عَصَا الْإِسْلَامِ ، وَمَعْصِيَةِ الْإِمَامِ ؛ وَمَفَارَقَةَ الْجَمَاعَةِ ، وَالْأَنْسِلَاحَ مِنَ الطَّاعَةِ ؛ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى الْجُمْهُورِ ، وَجَعَلَهَا نِظَامَ الْأُمُورِ ؛ فَقَالَ جَلَّ قَاتِلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وَاخْتِيارَ الْفُرْقَةِ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا . فَقَالَ :

﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ﴾ ومُجَانِبَةَ الْأَلْفَةِ التي عدّها في جلائل نِعَمِهِ ، فقال مُتَتَابِعًا بِهَا عَلَى عِبَادِهِ : ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ وَسَوَّلَ لَهُمُ التَّعَرَّى مِنْ آدَابِ الدِّينِ ، وَالْمُجَاهَرَةَ بِالْخِلَافِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَبَدُّوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ، وَسُلِّبُوا مِنْ ظِلِّ دَعْوَتِهِ ؛ وَرَكَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَوْعَرَ الْمَرَاقِبِ ، وَسَلَكُوا أَخْشَنَ الْمَسَارِبِ ؛ وَسَعَوْا فِي الْبِلَادِ بِالْفَسَادِ ، وَقَامُوا فِي وَجْهِ الْحَقِّ بِالْعِنَادِ ، وَاسْتَخَفُّوا بِحِمْلِ الْآثَامِ ، وَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الدِّمَاءِ الْحَرَامِ ، وَشَنُّوا الْغَارَاتِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وقد عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ أَقْدَمِ عَلَى تَأْمِيرِ مِثْلِ هَذِهِ الْآثَارِ ، فَقَدْ آسَتَزَلَ فِي هَذِهِ الدَّارِ سُخْطَ الْجَبَّارِ ، وَتَبَوَّأَ فِي الْآخِرَةِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ؛ وَجَرَى عَلَى غَيْرِ الْوَاجِبِ فِي إِقَامَةِ الْقُرُوضِ وَالصَّلَوَاتِ ، وَتَأْدِيَةِ الْعِبَادَاتِ وَالزَّكَوَاتِ ، وَعَقْدِ الْعُقُودِ وَالْمُنَاقَاةِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ إِنَّمَا تُرْضَى وَتُرَفَّعُ ، وَتُحْبَبُ وَتُسَمَّعُ ؛ إِذَا تَوَلَّاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ مَنْ يَسْتَخْلِفُهُ مِنْ صُلَحَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَمَّا إِذَا اسْتَبَدَّتُمْ فِيهَا بِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَقْتَدَيْتُمْ فِي تَأْدِيتِهَا بِنَاكِبٍ عَنْ سَبِيلِهِ ، مُجَانِبٍ لِدَلِيلِهِ ؛ فَقَدْ نَسَكَّعْتُمْ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَطَايَعْتُمْ عَلَى الْجَهَالَةِ ؛ وَكُلُّ رَاضٍ مِنْكُمْ بِذَلِكَ ، عَاصٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِلْإِمَامِ .

وَمَا أَطَّلَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ بُسُوءُ الْأَخْتِيَارِ ، وَرَكِبَتْهُ مِنْ مَرَاكِبِ الْأَعْتَارِ ؛ لَمْ يَرَأَنَّ يُلْغِيكُمْ وَيَهْجُرْكُمْ ، وَيَغْفِلْكُمْ وَلَا يُبَيِّنْكُمْ ؛ فَقَدَّمَ مَكَاتِبَكُمْ مُعَذِّرًا مُنْذِرًا ، وَمُخَوِّفًا مُحَدِّثًا ؛ وَبَدَأَ بِكُمْ بِوَعْظِهِ مُشْفِقًا عَلَيْكُمْ مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ ، وَمَوْقِفِ النَّدَمِ ؛ وَجَازِبًا لَكُمْ عَنْ مَضَالِّ الْغَوَايَةِ ، إِلَى مَرَاشِدِ الْهَدَايَةِ ؛ وَافْتَتَحَكُمْ بِاللَّفْظِ الْأَحْسَنِ ، وَالْقَوْلِ الْأَلَيْنِ ؛ وَهَدَاكُمْ إِلَى السَّبِيلِ الْأَوْضَحِ ، وَالْمَتَجَرِّ الْأَرْبَحِ ؛ وَأَخْتَارَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى طَرِيقِ الرِّشَادِ ، وَيُدَلِّكُمْ عَلَى مَقَاصِدِ السَّدَادِ ؛ وَيُعِيدَكُمْ إِلَى الْأَوَّلَى ،

وَيُعَيِّنَكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنَى ، وَأَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ فَتَعْتَصِمُوا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ،
وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ، وَتَرْجِعُوا إِلَى إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ
كَلِمَةُ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ ؛ وَتَتَّبِعُوا مَذَاهِبَ أَهْلِ السَّلَامَةِ ، وَأَوَّلَى الْأَسْتِقَامَةِ ؛ فَإِنْ وَقَعَ
مَا أَلْفَاهُ إِلَيْكُمْ الْمَوْقِعَ الَّذِي قَدَّرَهُ فِيكُمْ ، وَسَأَلْتُمْ الْإِقَالََةَ ، فَالْتَوْبَةُ تَنْفَعُكُمْ ، وَالْعَفْوُ
يَسَعُكُمْ ؛ وَإِنْ تَمَادَيْتُمْ فِي غَيْبِكُمْ وَبَاطِلِكُمْ ، وَغُرُورِكُمْ وَجَهْلِكُمْ ؛ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ جِيُوشُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُقَوِّمَةٌ ، وَمِنْ عَصَاكُمْ مُتَقَمَةٌ ؛ وَذَلِكَ مَقَامٌ لَا يُمَيِّزُ فِيهِ الْبَرَاءُ مِنَ السَّقِيمِ ،
وَلَا الْجَاهِلُ مِنَ الْعَلِيمِ ؛ أَلَا تَسْمَعُونَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ؟ وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَشَدُّ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَمَعْصِيَةِ السُّلْطَانِ ؛ وَشَقَّ
الْعَصَا ، وَإِرَاقَةُ الدِّمَا ، وَإِثَارَةُ الدِّهْمَا ؟ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا ، وَتَأْمَلُوا وَارْجِعُوا ؛
وَتَبَصَّرُوا وَاسْتَبْصَرُوا ؛ وَقَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَجَّهَ ، وَبَدَأَ كَمِ الْحُجَّةِ ؛ فَأَوْجِدُوهُ
السَّبِيلَ إِلَى مَا يَنْوِيهِ لَكُمْ وَلِكَافَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ : مِنْ حَقِّ الدِّمَاءِ ، وَصِيَانَةِ الْحَرِيمِ ،
وَتَحْصِينِ الْأَمْوَالِ ، وَشُمُولِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ؛ وَأُجِيبُوا عَنْ كِتَابِهِ هَذَا بِمَا يُوفِّقُكُمْ اللَّهُ
تَعَالَى [إِلَيْهِ] : مِنْ إِجَابَةِ دَعَائِهِ وَالْعَمَلِ بِرَأْيِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض مَنْ نَحَرَاجَ عَنْ الطَّاعَةِ ، وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدُ : بَلَّغْنِي كِتَابَكَ تَذَكُّرًا أَنَّكَ تَحْمِلُ الْمُرْدَ عَلَى الْجُرْدِ ؛ فَسَتَرِدُّ عَلَيْكَ جُنُودُ اللَّهِ
الْمُقْتَرِبُونَ ، وَأَوْلِيَائِهِ الْغَالِبُونَ ؛ وَيَرِدُّ عَلَيْكَ مَعَ ذَلِكَ حَزْبُهُ الْمَنْصُورُ مِنَ الْكُهُولِ ، عَلَى
الْفَحُولِ ؛ كَأَنَّهَا الْوُعُولُ ، تَخْوِضُ الْوُحُولَ ؛ طَوَالَ السَّبَالِ ، تَخْتَضِبُ بِالْجُرْيَالِ ، رِجَالُ
هَمِّ الرِّجَالِ ؛ بَيْنَ رَاغٍ وَنَاشِبٍ ، لَيْسَ مَعَهُمْ إِلَّا كَلْبٌ مُحَارِبٌ ؛ وَلَا يَنْكَلُونَ عَنْ الْأَصْحَابِ .
قَدْ ضَرَبُوا بِضَرْبِ الْهَامِ ، وَاعْتَادُوا الْكَثْرَ وَالْإِقْدَامَ ، لَيْسُوا بِذَوِي هَيْئَةٍ وَلَا إِجْهَامٍ ؛
يَقْضُونَ بِالسُّيُوفِ ، وَيَخَالِطُونَ الرُّخُوفَ ، فِي أَعْتَمَتِهِمُ الْحُتُوفَ ؛ يَزَارُونَ زَيْرَ الْأَسْوَدِ ،

وَيَتَّبِعُونَ وَثُوبَ الْفُهْدِ؛ لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا شَاكٌ مُخْتَبِكٌ، فِي الْحَرْبِ مُجَرَّبٌ؛ قَدْ شَرِبَ عَلَى
 نَاجِدِ الْحَرْبِ وَأَكَلَ، ذَوْ شِقْشِقَةٍ وَكُلَّ كُلٍّ؛ كَأَنَّمَا أَشْرَبَ وَجْهَهُ قَيْعَ الْحِنَاءِ؛ قَدْ رَمَى
 الْحَرْبَ وَرَضَعَهَا، وَغَذَّتْهُ وَالْفَهَا؛ فَهِيَ أُمُّهُ وَهُوَ أَبْنَاهُ، يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَأْتِسُ بِقُرْبِهَا؛
 فَهُوَ بَطْلُهَا أَرَبٌ، وَعَلَى أَهْلِهَا حَرْبٌ لَا يَرُوعُهُ مَا يَرُوعُ، وَلَا يَزِيغُهُ مَا يَزِيغُ الْغُمَرُ
 الْجَبَانَ؛ حِينَ يَسْتَدُّ الْوَعْيُ، وَتَخْطُرُ الْقَنَاءُ؛ وَتُقْلَصُ الشَّفَاهُ، وَتُسْفَرُ الْكُمَاهُ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ
 تُسَالِمُكَ الْمُرْدُ، وَتُكْشَفُ عَنِ الْجُرْدِ. فَتَاهِبٌ لَذَلِكَ أَهْبَتَكَ، وَأَخْطَبٌ لَهُ خِطْبَتَكَ،
 مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْحَوَاكِي؛ ثُمَّ كِيدُونِي جَمِيعًا فَلَا تُتْظَرُونَ؛ فَمَا أَسْرَنًا إِكْثَارُكَ الْجَمُوعُ،
 وَحَشْدُكَ الْخِيُولَ؛ فَإِنَّكَ لَا تُكْتَفَى جَمْعًا، وَلَا تُسَرَّبُ خِيَلًا؛ إِلَّا وَثَقْنَا بِأَنْ سَمِدْنَا
 اللَّهَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَيزِيدُنَا مِنْ نَصْرِهِ؛ بِمَا قَدْ جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَسَلَفَتْ بِهِ عَادَتُهُ؛
 وَنَحْنُ نَجْرَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَقَمَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَنَكَالَ وَسَطَوَاتٍ مُهْلِكَةٍ؛ فَرَأَيْتُمْ ذَلِكَ
 فِي الْمَنَازِلِ، وَعَرَفْتُمُوهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَجْعَلُهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ؛ فَأَبَشِّرْنَا بِمَا سَاءَ
 صَحْرًا، وَمَشَّاكَ تُقَادُ كَمَا يَقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ .



وَمِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَكْتُبَةِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا كَتَبَ بِهِ قَوَامُ الدِّينِ (يُحْيَى بْنُ زِيَادَةَ)
 وَزَيْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ بَغْدَادَ إِلَى (طُغْرُل) مُقَطَّعِ الْبَصَرَةِ بِأَمْرِ
 الْخَلِيفَةِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ نَزَحَ عَنْهَا، قَاصِدًا بَعْضَ الْأَطْرَافِ، مَفَارِقًا لِعَاطَةِ الْخَلِيفَةِ،
 عِنْدَ مَا طَلِبَ مِنْ دِيَوَانِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ، فَأَوْجِبَ ذَلِكَ أَنْتَاءَهُ عَنْ عَزْمِهِ وَتَوَجُّهَهُ
 إِلَى بَغْدَادَ دَاخِلًا تَحْتَ الطَّاعَةِ، وَمُقَابَلَتَهُ بِالصَّفْحِ وَتَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ . وَهَذِهِ نَسِخَتُهُ :
 أَصْدَرْتُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ، الْأَمِيرِيِّ، الْأَسْفَهْ سَلَارِيِّ، الْأَجَلِيِّ،
 الْكَبِيرِيِّ، السَّيِّدِيِّ، الْعِمَادِيِّ، الرَّكْنِيِّ، الظَّهِيرِيِّ، الْمُحْتَرَمِيِّ، الْعَزِيِّ، الْجَمَالِيِّ،
 أَمِيرِ الْجُيُوشِ؛ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ، وَأَدَامَ عُلُوَّهُ وَنِعْمَتَهُ؛ وَأَنَا أَوْقَعَ الْأَقْوَالِ الْمُتَوَاتِرَةِ،

والأموال المتناصرة، مُسْتَغْرَبًا لَهَا، مُتَعَجِّبًا مِنْهَا، كَأَنِّي أَسْمَعُهَا فِي الْمَنَامِ، وَتَخَاطَبُنِي بِهَا أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ؛ فَلَوْلَا أَنَّ الْإِيَّامَ صَحَائِفُ الْعَجَائِبِ، وَلَا يَأْنِسُ بِمُتَجَدِّدَاتِهَا إِلَّا مَنْ حَنَّكَهُ التَّجَارِبُ؛ لَمْ أَصَدِّقْ هَذِهِ الْحَرَكَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي وَقَعَتْ مِنْهُ بِسَعَادَتِهِ؛ فَإِنِّي مَا أَرَاهَا إِلَّا عَثْرَةً مِنْ جَوَادٍ، وَعَوْرَةً عَلَى كَمَالِهِ؛ وَإِلَّا فَهَنْ أَيْنَ يَدْخُلُ الزَّلْزَلُ عَلَى ذَلِكَ الرَّأْيِ السَّيِّدِ، وَالْعَقْلِ الرَّاجِحِ، وَالْفِكْرِ الصَّائِبِ؟ الَّذِي يُعَلِّمُ الْآرَاءَ كَيْفَ تُتِيرُ، وَيُعَرِّفُ النُّجُومَ كَيْفَ تُسِيرُ، وَيَهْدِي غَيْرَهُ فِي الْمُسْكَلَاتِ إِلَى صَوَابِ التَّدْيِيرِ. وَالْفَائِتُ لَا كَلَامَ فِيهِ، غَيْرَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِأَسْتِدْرَاكِ الْمُمْكِنِ وَتَلَاْفِيهِ؛ بِالْإِنْخِرَافِ عَنِ الْهَوَى إِلَى الرَّأْيِ الصَّادِقِ، وَالرُّجُوعِ عَنِ تَأْوِيلِ النَّفْسِ إِلَى مُرَاجَعَةِ الْفِكْرِ النَّاسِجِ؛ فَالْعَوْدُ إِلَى الْحَقِّ أَوَّلَى مِنَ التَّمَادَى عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مَا أَقُولُ بِأَذْنٍ وَاعِيَةٍ وَقَلْبٍ حَاضِرٍ؛ وَحُوشَى أَنْ تَسْتَدْفِعَهُ الْكُوَاذِبُ عَنْ تَدَبُّرِ الْحَقَائِقِ، وَعِرْفَانِ النَّصَائِحِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ مَا بُرْهَانُهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ مِنْ غَيْرِهِ .

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ: مَا الَّذِي أَحْوجَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ الْقَبِيحَةِ السُّمْعَةِ، وَرُكُوبِ الْخَطَرِ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ، وَأَحْتِمَالِ هَذِهِ الْمَشَاقِّ، وَالْإِنْزِعَاجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةٌ؟ هَلْ هُوَ إِلَّا شَيْءٌ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ، وَبِمُطَالَبَةِ دِيْوَانِهِ بِمَا كَانَ يَنْدَفِعُ الْأَمْرَ بِبَعْضِهِ؟ كَمَا جَرَتْ عَادَةُ الدَّوَاوِينِ، وَخِدْمُ السَّلَاطِينِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ عَمْدٌ - أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - بِأَوَّلِ خَاطِرِهِ، وَبَادِئِ رَأْيِهِ فِي هَذِهِ الْعَجَلَةِ، مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ وَلَا رَوِيَّةٍ. لَمْ لَا رَاجِعَ فِكْرُهُ الْكَرِيمَ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: إِلَى أَيْنَ أَمْضِي؟ وَلِمَنْ أَخْدُمُ؟ وَعَلَى أَيِّ بَابٍ أَقِفُ؟ وَتَحْتَ أَيِّ لَوَاءٍ أَسِيرُ؟ وَبِأَيِّ غُبَارٍ أَكْتَحِلُ؟ وَفَضْلُ مَنْ أَطْلُبُ؟ وَعَلَى حُكْمٍ مَنْ أَنْزِلُ؟ بَعْدَ أَنْ رُبِّيتُ فِي عَرَصَةِ الْخِلَافَةِ، وَدَارِ النُّبُوَّةِ، وَحِضْنِ الْمَمْلَكَةِ؛ أَتَشَاءُنِي نَعِيمُهَا صَغِيرًا، وَقَدَمْنِي كَبِيرًا؛ وَكُنْتُ مَأْمُورًا بِجَعْلِنِي أَمِيرًا، وَطَارَ صَبْتِي فِي الدُّنْيَا وَلَمْ أَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا؛ فَأَنَا خَيْرٌ مِنْ مَلِكٍ أَقْصَدُهُ، وَأَمْثَلُ مِنْ كُلِّ

مَنْ أَرْجُوهُ وَأَسْتَجِدُّهُ؛ أَفَأَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَأَهْدِمُ مَا بَنَى الْإِنْعَامُ عِنْدِي فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ؟ ! هَذَا هُوَ الْمَكْرُوهُ الْأَعْظَمُ، الَّذِي تَعَوَّذُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حِينَ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ» وَمَنْ يَكُونُ حَضِينَ خِلَافَةً كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ تَابِعَ إِمَارَةٍ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَا هِجَمَ عَلَيْهِ إِلَّا هَذَا لَكَفَى. ثُمَّ لَمْ يَلْتَفِتْ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، الَّتِي صَحِبَتْهُ بَوَفَائِهَا، وَيَسْمَعُ خُطَابَهَا بِلِسَانِ حَالِهَا ثُمَّ؟ تَقُولُ لَهُ: يَا عِمَادَ الدِّينِ! أَمَا هَذِهِ خِيَامُ الْإِنْعَامِ عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ الْخَيْلُ الْمُسَوِّمَةُ تَحْتَكُ؟ أَمَا هَذِهِ مَلَابِسُهُ الْفَاخِرَةُ مُقَاضَةً عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ مَمَالِكُهُ حَافَّةٌ بِكَ؟ أَلَيْسَ الْأَصْطِنَاعُ رَفَعَ قَدْرَكَ إِلَى الْمُنْزَلَةِ الَّتِي ثَقُلَ عَلَيْكَ بَعْضُ الْأَنْحِطَاطِ عَنْهَا، وَوَهَبَ لَكَ الْهِمَّةَ الَّتِي أَبَيْتَ الضَّيْمَ بِهَا؟ فُخْشِيتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ فَلَهَا، وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ فَضَعُفَ عَنْ حَمْلِهَا؛ فَيَا لَيْتَ شَعَرَى! مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهَا؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَقُولُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ وَلَا أَعُقِبُ: وَلَوْ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - وَقُوعُ كُلِّ مُحْذُورٍ، وَحُلُولُ كُلِّ مَكْرُوهٍ؛ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَعْدُورًا، فَكَيْفَ بَظَنِّ مُرَجِّمٍ، وَقَوْلِ مُسَوِّفٍ مُتَوَهِّمٍ؛ وَرَأْيِ فَطِيرٍ غَيْرِ مُخْتَمِرٍ. وَلَقَدْ كَانَ أَسْتَسْلِمُهُ لِمَالِكِ الرِّقِّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْمَدَ فِي الْعُقْبَى؛ وَاقْعَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْآنَ فَالْوَقْتُ ضَاقَ فِي إِصْدَارِ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ، عَنْ أَسْتِقْصَاءِ الْعِتَابِ وَالْمُحَاقَقَةِ؛ وَإِيرَادِ كُلِّ مَا تَلَزَمَ بِهِ الْحُجَّةُ، لِكَيْتِي أَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْجُمْلَةِ:

إِنِّي أَخَافُ عَلَى سَدِيدِ ذَلِكَ الرَّأْيِ إِجَابَةَ دَاعِي الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَبَّاحَ مِنْ أَوْسَعِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَخُوشَى كَمَالِهِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ.

وَالثَّانِي أَسْتَشْعَارُهُ بِسَعَادَتِهِ مِنْ بَادِرَتِهِ، وَأَسْتِيحَاشُهُ مِنْ مَجَلَّتِهِ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَدَقِّ مَكَائِدِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالشَّوْءِ، فَإِنَّهَا تَوْمَنُ مِنَ الْخَوْفِ، وَتُخَوِّفُ مِنَ الْمَأْمُونِ،

وَتَسْجُرُ الْعَقْلَ بِالتَّحِيرِ وَالشَّكِّ ، فَلَا تَصِحُّ لَهُ عَزِيمَةٌ ، وَلَا تَصِفُوهُ فِكْرُهُ ؛ وَهَذَا التَّوَعُّ إِذَا عَرَضَ فِي الصَّدْرِ يَجِبُ دَفْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقِّ وَشَجَاعَةِ الْقَلْبِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى مُنَاطَرَةِ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، وَالزَّلَلُ فِي الرَّأْيِ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَادِ ، بَلْ مِنَ الْأَوْصَافِ الْأَلَزِمَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَلَيْسَ الْكَمَالُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَإِذَا عَرَضَ لَهُ بِسَعَادَتِهِ هَذَا الْاِسْتِشْعَارُ ، فَيَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ سُلْطَانُ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، إِلَّا فِي صَدُورِ النَّاسِ ؛ فَهَذَا لَا يَنْبَغِي لِمُذْنِبٍ أَنْ يَقْنَطَ ، وَلَا مُسِيءٍ أَنْ يَسْتَوْحِشَ ؛ لَا سِيَّمَا إِذَا أَتْبَعَ الذَّنْبَ بِالْاِسْتِقَالَةِ وَالْاِسْتِغْفَارِ ، وَالْاِعْتِدَارِ وَالْاِقْلَاعِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ إِذَا كَانَتْ اخْلِيَانَةٌ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوَها ، وَلَا يَضِيقُ حِلْمُهُ عَنْهَا ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَبِيرَةٍ تُوجِبُ الْخَافَةَ ، تَغْرُقُ فِي بَحْرِ عَفْوِ الْخِلَافَةِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُخْرِجَ سُوءَ الظَّنِّ وَالْاِسْتِشْعَارَ مِنْ خِيَالِهِ ؛ فَإِنْ مَثَلَهُ مِنْ خُلَصَانِ الْمَالِكِ لَا يُسَمَحُ بِهِ ، وَلَا يُسْغَبُ عَلَيْهِ عِنْدَ هَفْوَةٍ بَادِرَةٍ .

وَالثَّالِثُ الْاِتِّقَابُضُ وَالْحَيَاءُ . فَانَّهُ رُبَّمَا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : بَأَى وَجْهِ أَلْقَى مُوَلَايَ ؟ وَبَأَى عَيْنٍ أَبْصَرَ مَوَاطِنَ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ ؟ رَبَّانِي وَأَنْشَانِي ! . وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصْلُحُ خُطُورُهُ بِيَالِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَعْفِ النَّحِيْزَةِ ، وَالْمَيْلِ مَعَ خَوَادِجِ الطَّبَعِ ، عَنْ نَصَائِحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ إِتْبَاعُ زَلَّةِ الْقَدَمِ بِالنَّدَمِ وَالْاِعْتِدَارِ ، لَا التَّهَوُّكُ فِي اللَّجَاجِ وَالْإِصْرَارِ . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ لِحَصِيصٍ مِنْ خَوَاصِّهِ ، عَصَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ :

«بَأَى عَيْنٍ تَلْقَانِي وَقَدْ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟» فَقَالَ : «بِالْعَيْنِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا رَبِّي فِي الصَّلَاةِ الْخَمْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَانِي عَلَى فَوَاحِشِ الْمَعَاصِي» . وَقَدْ أَخْبَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنْ أَذْنَبَ ثُمَّ تَابَ ، وَشَرَّدَ عَنْ طَاعَتِهِ ثُمَّ أَنْابَ . وَبِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مَا جَرَى مَا يَقْتَضِي قَرْطَ الْاِسْتِشْعَارِ . هَلْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ خَافَ بَادِرَةَ مُوَلَاهُ ، فَتَنَحَّى مِنْ مَكَانِهِ إِلَى أَنْ يَعْطِفَ

عليه برحمته؟ وليس هذا بديع، ولا من الصفح بعيد. على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غصنه، وكبر شأنه، وجميع ضمان البصرة عشر معشار ذلك.

والرابع إصغاؤه - والعياذ بالله - إلى قول من لا يصححه، ويغويه ولا يرشده؛ ويتقرب إليه بمتابعة هواه. وهذا ما لا يخفى عن لمة الناقد، ولا يحتاج في الإعراض عنه إلى باعث؛ فقدما قيل: «صديقك من نهاك، وعدوك من أغراك» والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الأربعة، التي أحذرنا عليه، وأحذرنا منها؛ ويسره لليسر.

وبعد ذلك فأنا أنصفه من نفسه، وأقول الحق: إن نفساً رباًها خليفة الله في أرضه - صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه، وأعلى همماً باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته؛ لا تحمل الهوان، ولا تقر على الابتدال؛ فغالب ظني أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عبدان، ولكني أنفرد عنه بالسِّن والتجريب؛ وطريقي هو بسعادته يعرفها، وإنني لأدحر عن أحد نصحا. فالصواب أن يقبل قولي، ويتحقق صحة مقصدي في نصيحته ومقصده، فإني أوجب ذلك له على نفسه، وأراه من واجبات خدام مالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أيضا.

وقد علم الله تعالى أني قد أوصحت من عذره، وأحسن المتأب عنه بسعادته، مالو حضره وتولاه بنفسه لما زاد عليه؛ ورأيت الإنعام يستغني عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولا مع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يوفيه من الاحترام واجبه؛ فإن أمر

أَنْ أَتَوَلَّى وَسَاطَتَهُ فَأَنَا أَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي مَرَاضِيهِ ، وَتَمَشِيَةِ أَمْرِهِ أَكْثَرِمًا فِي نَفْسِهِ .
وإن آخِثَارَ بِسَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ غَيْرِي وَسِيطُهُ وَسَفِيرِهِ ، فُيَعِينُ مَنْ يَخْتَارُهُ : لِيَكُونَ
حَدِيثُهُ مَعَهُ . وَقَدْ أَسْلَفْتُ مِنْ وَظَائِفِ إِحْسَانِ الْمَنَابِ أَنْتَى تَنْجِزْتُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ أَمَانًا
مُتَوَجًّا بِالْقَلَمِ الْأَشْرَفِ الْمُقَدَّسِ ، عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ - وَالْأَمَانِ الْمَذْكُورِ
طَى كِتَابِي هَذَا - مَقْرُونًا بِخَاتَمِ أَمَانٍ ثَانٍ ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ بِسَعَادَتِهِ جَوَابَ
ذَلِكَ . إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ إِلَّا هُوَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، فَلَا يَشْعُرُهُ أَحَدٌ
إِلَّا وَهُوَ مُقَابِلُ التَّاجِ الشَّرِيفِ ، مُلْقِيًا نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيِ مَالِكِهَا الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ لَهَا ،
وَأَلْطَفُ بِهَا ، وَأَشْفَقُ عَلَيْهَا مِنْهَا ، تَالِيًا مَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ الْحَمِيدُ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْطُومٌ : (سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فَإِنَّهُ يَرَى -
بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ - كُلَّ مَا يُجِبُّ ، وَيَأْمَنُ كُلَّ مَا يَحْذَرُ . وَأَنَا أَسْتَسِرُّ وَصُولَهُ
عَنْ أَسْتِعْرَاضِ مُهِمَّاتِهِ ، وَلِرَأْيِهِ كَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : فَإِنْ أَتَقَقَّتِ الْمَكَاتِبَةُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِي زَمَانِنَا ، رَاعَى الْكَاتِبُ فِيهِ صُورَةَ
الْحَالِ ، وَجَرَى فِي ذَلِكَ عَلَى مَا يَلَائِمُ حَالَهُ ، وَيُنَاسِبُ مَا هُوَ فِيهِ ، مَعَ النَّظَرِ فِي كَلَامِ
مَنْ سَبَقَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَالنَّسْجَ عَلَى مَنَوَالِ الْحَيِّدِ ، وَالْإِقْتِدَاءَ بِالْمُحْسِنِ فِي إِيْرَادِهِ
وَإِصْدَارِهِ .

الصَّنْفُ السَّابِعُ

(الْكُتُبُ فِي الْفُتُوحَاتِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَعْدَاءِ الْمِلَّةِ ،

وَأَسْتِرْجَاعِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ ، وَالْأَسْتِيلَاءِ عَلَى الْمُدُنِ)

وَأَصْلُهَا مِنْ فَتْحِ الْأَقْفَالِ وَدُخُولِ الْأَبْوَابِ . كَأَنَّ الْمَدِينَةَ أَوْ الْحِصْنَ كَانَ مُقْفَلًا

مُتَمَتِّعًا بِالْأَغْلَاقِ عَلَى قَاصِدِهِ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ فَيَدْخُلُ .

قال في "موادّ البيان" : وهو من أعظم المكتاتب خطراً ، وأجلّها قدراً ؛ لأشتمال أغراضها على إنجاز وعدّ الله تعالى الذى وعدّ به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين ، وتوفير حظّهم من التأييد والتّمكين ، وما يترّ فيها من الأساليب المختلفة التى يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ، وتهذيب معانيها : لأنها تُتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين ، وتُجعل نصب عيون المتصفّحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله العفوّ الحليم ، الغفور الرحيم ، العليم الحكيم ؛ ذى البرهان الأمين والفضل الجسيم ، والقوّة المتين والعقاب الأليم ؛ مُبيد الظالمين ، ومُبيد القاسطين ؛ ومؤيّد العادلين ، وجاعل العاقبة للمتقين ؛ المُلِي إِمهالاً وإنذاراً ، والمُعاقب تنبيهاً وإذكاراً ؛ الذى لا يُنجى منه مهربٌ ، ولا يبعد عليه مَطْلَبٌ ؛ وكيف يُعصَم منه وهو أقرب من جبل الوريد ، وله على كل لافظٍ رقيبٌ وعيّد ؟ . والصلوة على رسوله الأمين ، الذى ختم به النّبیین ، وفضّله على المرسلين ، وأيده بأوليائه الثّائنين ؛ الذين قاموا فى نُصْرته ، وإعزاز رأيتِه ؛ المقام الذى فازوا فيه بالخصْل ، فاستولوا به على قصبّات الفضل ؛ فشرّكهم معه فى الوصف والثناء ، فقال جلّ قائلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يؤتى بمقدمة تشتمل على التحدّث بِنِعْمَةِ الله فى شُحْدِ العزائم لنُصْرته ، وتثبيت الأقدام فى لقاء عدوّه ومجاهدته ؛ وإنجازه وعدّه فى الإعزاز والإظهار ، والظفر والإظفار ؛ والاستبشار بموقع النّعمة فى الفتح الحليل ، والإسادة بإبقاء هذا الأثر الجميل . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مقاربة العدوّ ومُداناته ، وببّ الطّلائع لتنفيذ السّرايا فى مبادى ملاقاته ؛ وما أفضى إليه الأمر فى التقابل

والمؤاتبة ، والتواشج في المطاعنة والمضاربه ؛ وذكر مواقف الشجعان في الكفاح والمجاهدة ، والذنب والمجالد ، وثبوت الأقدام ، والجود بالنفوس ، وأشداد الأيدي ؛ وقوة الشكائم ، واستصحاب العزائم ؛ وتفخيم أمر العدو : بوصفه بكثرة الرجال والأجناد ، والقوة والاستعداد : لأن توقع الظفر بمن هذه صفته أعظم خطراً ، وأوقع في النفوس أثراً .

ثم يذكر مجال بين الفريقين من قراع ومصاع ، ومضاربة ودفاع ، ومصالاة ومناضلة ، ومناهدة ومكافأة ، وحماية ومناخه ، وثبات ومصافاة ، ومقاومة ومواقفة ، ومخادعة ومطامعة ؛ وينعت المواكب والكتائب ، والخيول والأسلحة ؛ والجرحى والمجذلين ، والأسرى والمقتلين . واستعمال التشبيهات الفائقة ، والاستعارات الرائقة ؛ وإرداف المعاني في الإبانة عن لمعان أسنة الذوابل ، وبريق صفحات المناضل ؛ وإعمال المقاصيل في القيم ، وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياحي الظلم ؛ وينعت الدماء المنبعتة من الجراح ، على متون الرماح والصفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : من تكامل النصر ودلائل الظفر ، وما أنجلت عنه الحرب : من قتل من قتل وأسر من أسر ، وهزيمة من هزم ؛ وما فاز به الرجال من الأسلاب والأموال ، والدواب والرجال ؛ وما جرت عليه الحال من أنفال العدو عند المقاتلة ، أو أسر العدو إن أسر ، أو اعتصامه بمقيل لا يحصنه ، أو امتناعه بحيث يحتاج إلى منازلته باستنزاله قسراً ؛ أو حيازة المعقل الذي كان بيده ، وما اعتمد فيه : من حسن السيرة ، وتخفيف الوطأة عن الرعية وحسم أسباب الفتنة ؛ أو رغبته في المسالمة ، وسؤاله في المهادنة ؛ لخوف أظله ، وهلع أحته ؛ وما تردد من رسائل ، وتقرر من شروط وعقود ؛ وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم ، واقتضاه صواب الرأي .

وإن كان السلم قد وقع، والتنازع قد ارتفع؛ ذكر اتفاق الحزبين^(١)، واتحاد الكلمة، وشمول النعمة.

وإن كان لم يجبه إلى المهادنة، حذرًا من المكر والمخادعة، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتدير، وتسديد وتقرير.

وإن كان طلب المهادنة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده، ويجم عده، ويتم حيلته؛ فأطلع منه على ذلك، فبادره مقللاً لكيد ومكره، مديقاً له وبال أمره؛ شرح الحال على نصها وما انتهى إليه آخرها.

قال: وقد يقع من هذه الأمور ما لا يحسب، وسبيل جميعه هذا السبيل.

ثم قال: ويحتم الكتاب بحمد الله القاضي لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذاله؛ الذي يستدرج بحلمه إمهالاً؛ ولا يلقى العادل عن حكمه إهمالاً؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات في أوائل المقالة الرابعة من الكتاب، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها؛ وأن ما وقع في كتاب المهلب ابن أبي صفرة، من كتابه إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج، على عظم الفتح وبعد صيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه:

أما بعد، فالحمد لله الذي لا تنقطع مواد نعمة عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر. وإنا وعدوناكم على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا؛ ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويخصنا ويحققهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله. ((فقطعت دابر القوم الذين

(١) في الاصل "آساع الحربين" وهو غير مناسب.

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَأَتَمَّا سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ الْإِيحَازِ ، لَكُونَهُ مِنَ التَّابِعِ إِلَى الْمَتَّبِعِ ، إِذِ الْحَجَّاجُ كَانَ هُوَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ الْعِرَاقِ وَمَا وَالَاهُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، عَلَى شِدَّةِ سَطَوْتِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ مَعَ كَوْنِ الْأَدَبِ فِي مَكَاتِبَةِ الْمَرْعُوسِ الرَّئِيسِ الْإِثْنَانَ بِقَلِيلِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الْمَقْصِدِ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَغْلٌ لِلرَّئِيسِ بِطُولِ الْكَلَامِ وَبَسْطِ الْقَوْلِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَتَابَةَ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ وَمَعَاقِلِهِمْ وَالْأَسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِ الْبَغَاةِ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ فِي الْكَتَابَةِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ مَجَالَ الْكَاتِبِ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ أَوْسَعُ ، مِنْ حَيْثُ عِزَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَظُهُورُ دِينِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه ، وهي :

الحمد لله مَدِيلُ الْحَقِّ وَمُنِيرُهُ ، وَمُذِلُّ الْبَاطِلِ وَمُبِيرُهُ ؛ مُؤَيِّدُ الْإِسْلَامِ بِبَاهِرِ الْإِنْعَازِ ، وَمَتَمِّمُ وَعْدِهِ فِي الْإِظْهَارِ بَوْشِيكَ الْإِنْعَازِ ؛ وَأَتَمُّ كُلِّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفُضُ كُلِّ شَرٍّ وَأَجْتِنَابُهُ ، وَجَعْلُهُ نُورَهُ الْأَلَامِ ، وَظِلُّهُ الْمَاتِعِ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاجَ الْمُتَبِيرَ ، وَالْبَشِيرَ النَّذِيرَ ؛ فَأَوْضَعَ مَنَاجِيهَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛ وَسَنَّ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَصَّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعَصَمِ دِينِهِ ؛ وَتَمَرَّ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مَنْ نَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَعِنْدَهُ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَّدَ الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَافَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسَرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَتَبَعَتْ خَيْلُ اللَّهِ بِقَبَائِلِ الْمَآمِ (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيح الذي أوردهناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيح الذي أوردهناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أمير المؤمنين أن [جعله من ولاية أمره ، ووقفه لاتباع سنة رسوله وأقتفاء أثره ، وأعانه على تمكين الدين ، وتوهمين المشركين ، وشفاء صدور المؤمنين و] ^(١) أنهضه بالمرامة عن الملة ، والمجامة عن الحوزة ، وإعزاز أهل الإيمان ، وإذلال حزب الكفران ؛ ويسأله الصلاة على خيرته أئمتي ؛ وصفوته المنتصى ؛ مجد أفضل من ذب وكافح ، وجاهد وناجح ؛ وحى الذمار ؛ وغزا الكفار ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع ، ومجته المدافع ؛ وسهمه الصارد ، وناصره المعاضد ؛ فارس الوقائع ، ومفرق الجماع ؛ ^(٢) مبيد الأقران ، ومبيد الشجعان ؛ وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان ، وخالصة الله من الإلش والجآن .

وإن أولى النعم بأن يرقل في لباسها ، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها ؛ ^(٣) ويتهادى طيب خبرها ، ويتفاوض بحسن أثرها ؛ نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك ، وغزو أولى الباطل والإفك ؛ والهجوم عليهم في عقار دارهم ، وأجنتات أصلهم وإلحد في دمارهم ؛ واستزاهم من معاقلهم ، وتشريدهم عن منازلهم ؛ وتعميض نواظرهم الشؤس [وإلباسهم لباس البؤس] لما في ذلك من ظهور التوحيد وعزّه ، ومحمود الإلحاد وعزّه ؛ ^(٤) وعلو ملة المسلمين ، وأنخفاض دولة المشركين ؛ ووضوح [محجة ^(٤) الحق ومجته ، وصدوع برهانه وآيته .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أنكفا عن ديار الفلانيين المشركين إلى دسنت خلافته ، ومقر إمامته ؛ بعد أن غزاهم برا وبحرا ، وشردهم سهلا ووعرا ، وجرعهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠) .

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها .

(٣) كذا هنا ، والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لباسها" .

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

من عواقب كفرهم مُرًا ، وفَرَّقَ جماعهم التي تُطَبِّقُ سهوب الفضاء [خيلا ورجلا ،
وتضيق بها ألتهامه حزنا وسهلا ، ومَزَّقَ كُتَّابهم التي تُلْحِقُ الوهاد بالنجاد ، وتختطفُ
الأبصار ببوارق الأغماد] ^(١) وتجعل رعود سنا بكها في السماء ، وسبي الدَراري
والأطفال ، وأسَرَ البطاريق والأقوال ، وأفتح المعاقِل والأعمال ، وحاز الأسلاب
والأموال ، وأستولى من الحصون على حصن كذا وحصن كذا ؛ ومحامها رؤوم الشرك
وعفاها ، وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها ، وغيم أولياء أمير المؤمنين ، ومتطوعة ^(١)
المسلمين [من الغنائم] ما أقرَّ العيون ، وحقق الظنون ؛ وأنفصلوا وقد زادت بصائرهم
نفاذا في الدين ، وسرائرهم إخلاصا في طاعة أمير المؤمنين ؛ بما أولاهم الله من النصر
والإظفار ، والإعزاز والإظهار ؛ ووضَّح للشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان ،
وأناهم إياه من الهوان ؛ أنهم على مضلة من الغي والعمى ، ومنحاة من الرشد والهدى ؛
فصرعوا إلى أمير المؤمنين في السلم والموادعة ، وتحمَّلوا بدلا بذلوه [تفاديا] ^(٢) من الكفاح
والمقارعة ؛ فأجابهم إلى ذلك متوكلا على الله تعالى ، وأمثالا لقوله إذ يقول :
(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وعاقده طاعتهم
على كتاب هُدنة كتبه له ، وأقره في يده ؛ حجة بمضمونه .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من الخُصيين ،
وتعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين ؛ فيحسن ظنك ،
وتقر عينك ؛ وتشكر الله تعالى شكر المستمد من فضله ، المعتد بطوله ؛ وتتلو كتاب

(١) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) في (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع ”وبعد“ .

(٣) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين ، على كَافَّة مَنْ قَبْلَكَ من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه ، وإذلالِ عَدُوِّهم وتَوْهِينِهِ ، فأعلم ذلك وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .
ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفَر ، وإما فتح لِمَا استولى عليه البُغَاة من المسلمين .

فأما فَتْح بلاد الكُفَر فكان سبيلهم فيه أن يُصَدَّرَ الكُتَابُ بحمد الله تعالى على علوِّ دين الإسلام ورفِيعته ، وإظهاره على كل دين ؛ ثم على بُعد النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم ، والصِّراطِ المُسْتَقِيم ، ويذكر ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم من جِهَادِ الكُفَر . ثم على إقامة الخُلَفَاء في الأرض حِفْظًا للرَّعِيَّة ، وحيَاطة للبرية ، وصَوْنًا للبيضة ، ويخصّ خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه ؛ ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره ، وكثرة عدده ، ووُفُور مدده ؛ ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد ، والأشدِّاد في الله تعالى ، والقيام في نصرة دينه ؛ ثم تذكر المَلْحَمَة وما كان من الوقعة والْتِحَام القتال ، وما أُنْجَلَتْ عنه المَلْحَمَة من النُّصْرَة على عَدُوِّ الدين وخِذلانه ، والإمكان منه ، وقَتْل من قُتِل منهم ، وأسر من أَسِر ، وتفريق شملهم ، وانتظام كلمة الإسلام ، وطَاعَتِهِمْ بِهَلَاكِ عَدُوِّهم ، وما في معنى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلى الديوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بفتح القُدُس الشريف ، وإِنْقَاذه من يد الكُفَر ، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهو :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفر الحدّ بكلّ جاحد،
 غنيّ التوفيق^(١) عن رأي كلّ رائد؛ موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد؛
 مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير وّارد؛
 متعدّد مساعي الفضل وإن كان لا يُلقي إلا بشكر واحد، ماضي [حكم القول] بعزم^(٢)
 لا يُمضي إلا بنسل غويّ وریش راشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء]
 أنواء إلى المرافق وأنواراً إلى المساجد؛ وبُعوث رُعيه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب
 وخيالاً إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلوّ مآصدر عنه بما كان يجري مجرى التبشير لصُبح
 هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بحرّ للأفلام فيه سبّح
 طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل؛ وبُشرى للخواطر في شرحها مآرب،
 ويُسرّى للأسرار في إظهارها مسارب؛ والله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الرّاهنة
 به دوام لا يُقال معه: هذا مضي؛ وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها،
 وأسْتَبَّتْ عقائد أهلّه على أيّين بصائرّها؛ وتقلّص ظلّ رجاء الكافر المبسوط،
 وصدق الله أهل دينه فلماً وقع الشرط حصل المشروط؛ وكان الدّين غريباً فهو
 الآن في وطنه، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه؛ وأمر الحقّ وكان
 مُستضعفاً، وأهل رُبعه وكان قد عيف حين عفا؛ وجاء أمر الله وأنوف أهل الشّرك
 راعمه، فأدبجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة؛ وصدق وعد الله في إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقدم، والذي في وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤)
 "غنيّاً بالتوفيق".

(٢) الزيادة عن رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السلطانية سنة ٢٢٩٤
 أدب.

على كُلِّ دِينٍ ، وَأَسْتَطَارَتْ لَهُ أَنْوَارُ أَبَانَتْ أَنَّ الصَّبَاحَ عِنْدَهَا حَيَّانُ الْحَيِّنَ ، وَأَسْتَدَّ
 الْمُسْلِمُونَ ثَرَانًا كَانَ عَنْهُمْ آيَقًا ، وَظَفَرُوا يَقْظَةً بِمَا لَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُمْ يَظْفَرُونَ بِهِ طَيْفًا
 عَلَى النَّأْيِ طَارِقًا ، وَأَسْتَقَرَّتْ عَلَى الْأَعْلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَخَفَقَتْ عَلَى الْأَقْصَى أَعْلَامُهُمْ ؛
 وَتَلَاَقَتْ عَلَى الصَّخْرَةِ قُبُلُهُمْ ، وَشَفِيَتْ بِهَا وَإِنْ كَانَتْ صَخْرَةً [قُلُوبُهُمْ] ^(٢) كَمَا تُشْفَى
 بِالمَاءِ غُلْلُهُمْ .

وَمَا قَدِمَ الدِّينَ عَلَيْهَا عَرَفَ مِنْهَا سُودَاءَ قَلْبِهِ ، وَهَنَّا كُفُّهَا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ
 بَيْتَ عِصْمَتِهَا مِنَ الْكَافِرِ حَجَرِهِ ؛ وَكَانَ الْخَادِمُ لَا يَسْعَى سَعْيَهُ إِلَّا لِهَذِهِ الْعُظْمَى ،
 وَلَا يَقَاسِي تِلْكَ الْبُؤْسَى إِلَّا رَجَاءَ هَذِهِ النُّعْمَى ؛ وَلَا يَنَاحِزُ مِنْ يَسْتَمِطِلُهُ فِي حَرْبِهِ ،
 وَلَا يُعَاتِبُ بِأَطْرَافِ الْقَنَاءِ مَنْ يَتَادَى فِي عَتَبِهِ ؛ إِلَّا لَتَكُونَ الْكَلِمَةُ مَجْمُوعَةً ، وَالِدَّعْوَةُ
 إِلَى سَامِعِهَا مَرْفُوعَةً ؛ فَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَلَيُفُوزَ بِجَوْهَرِ الْآخِرَةِ لَا بِالْعَرَضِ
 الْأَذْنَى مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَكَانَتِ الْأَلْسِنَةُ رُبَّمَا سَلَقَتْهُ فَأَنْضَجَ قُلُوبَهَا بِالْأَحْتِقَارِ ، وَكَانَتِ
 الْخَوَاطِرُ رُبَّمَا غَلَّتْ عَلَيْهِ مَرَاجِلُهَا فَأُطْفِئَهَا بِالْأَحْتِمَالِ وَالْأَصْطِبَارِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ خَطِيرًا
 خَاطَرَ ، وَمَنْ رَامَ صَفْقَةً رَاجِحَةً تَجَاسَرَ ، وَمَنْ سَمَا لِأَنَّ يُجَلِّيَ عُمْرَةً غَامَرَ ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ
 الْقُعُودَ يُلِينُ تَحْتَ نِيُوبِ الْأَعْدَاءِ الْمَعَاجِمِ فَتَعَضُّهَا ، وَيُضْعِفُ بِأَيْدِيهَا مَهْزِ الْقَوَائِمِ
 فَتَقْضُهَا ؛ هَذَا إِلَى كَوْنِ الْقُعُودِ لَا يَقْضِي فَرَضَ اللَّهِ فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يُرْعَى بِهِ حَقُّ اللَّهِ
 فِي الْعِبَادِ ؛ وَلَا يُوفَى بِهِ وَاجِبُ التَّقْلِيدِ الَّذِي تَطَوَّقَهُ الْخَادِمُ مِنْ أُمَّةٍ قَضَوْا بِالْحَقِّ
 وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ، وَخُلَفَاءُ اللَّهِ كَانُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ لِلَّهِ يَسْأَلُونَ ؛ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ أَوْثَرُوا
 سِرَّهُمْ وَسِرِّيَرَهُمْ خَلْفَهُمُ الْأَطْهَرُ ، وَنَجَلَهُمُ الْأَكْبَرُ ؛ وَبَقِيَّتُهُمُ الشَّرِيفَةُ ، وَطَلَعَتُهُمْ
 الْمُنِيفَةُ ، وَعُنْوَانُ صَحِيفَةِ فَضْلِهِمْ لَا عَدِمَ سَوَادَ الْعِلْمِ وَبَيَاضَ الصَّحِيفَةِ ؛ فَمَا غَابُوا

(١) كَذَا فِي تَقْدِيمِ أَيْضًا (ج ٦ ص ٤٩٧) وَفِي وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٥) "عِنْدَ حِسَانِ الْجَيْنِ" .

(٢) الزِّيَادَةُ عَنْ وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حَضَرَ، وَلَا غُضُّوا لَمَّا نَظَرُوا، بَلْ وَصَلَهُمُ الْأَجْرُ لَمَّا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا، وَشَاطَرُوهُ الْعَمَلَ لَمَّا كَانَ عَنْهُ مَقْبُولًا وَمِنْهُ مَقْبُولًا؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْمَضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ جُنُوبُهَا، وَإِلَى الصَّحَائِفِ مَا عَبَقَتْ بِهِ جُيُوبُهَا؛ وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا، وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا؛ وَالشَّرْقُ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، بَلْ إِنْ أَبَدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ بَأَنَّ وَارِهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَا تَكُنُّهُ أَغْسَاقُ السُّدُفِ، وَذِكْرٌ لَا تُوَارِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

وَكِتَابُ الْخَلَادِمِ هَذَا، وَقَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ بِالْعَدُوِّ الَّذِي تَشَطَّتْ قَنَاتُهُ شَفَقًا، وَطَارَتْ فِرْقُهُ فِرْقًا؛ وَفَلَّ سَيْفُهُ فَصَارَ عَصَا، وَصُدِعَتْ حَصَاةُهَا وَكَانَ الْأَكْثَرُ عَدَدًا وَاحِصًا؛ وَكَلَّتْ حَمَلَاتُهُ وَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ تُصَرِّفُ فِيهِ الْعِيَانَ بِالْعِيَانِ، عُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ يَدٍ بِهَا يَدَانِ؛ وَعَثَرَتْ قَدَمُهُ وَكَانَتْ الْأَرْضُ لَهَا حَلِيفَةً، وَغَضِبَتْ عَيْنُهُ وَكَانَتْ [عُيُونٌ] ^(١) السُّيُوفِ دُونَهَا كَسِيفَةً؛ وَنَامَ جَفْنُ سَيْفِهِ وَكَانَتْ يَقِظَتُهُ تُرِيقُ نَظْفَ الْكَرَى مِنَ الْجُفُونِ، وَجُدِعَتْ أَنْوُفُ رِمَاحِهِ وَطَلَمًا كَانَتْ شَاخِجَةً بِالْمُنَى أَوْ رَاعِفَةً بِالْمُنُونِ؛ وَأُصْحَبَتِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الطَّاهِرَةُ وَكَانَتْ الطَّامِثُ، وَالرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْوَاحِدُ وَكَانَ عِنْدَهُمُ الثَّلَاثُ؛ فَيُوتُ الشَّرْكَ مَهْدُومُهُ ^(٢) [وَيُؤَبُّ الْكُفْرَ مَهْتُومُهُ] وَطَوَائِفُهُ الْمُحَامِيَّةُ، مُجْتَمِعَةٌ عَلَى تَسْلِيمِ الْبِلَادِ الْحَامِيَّةِ، وَشُجْعَانُهُ الْمُتَوَافِيهِ، مُدْعِنَةٌ لِبَدَلِ الْمَطَامِعِ الْوَافِيهِ؛ لَا يَرَوْنَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ لَهْمَ عُصْرَةٍ، وَلَا فِي فِئَاءِ الْأَفْنِيَةِ لَهْمَ نُصْرَةٍ؛ وَقَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَدَّلَ اللَّهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ؛ وَقَلَّ بَيْتَ عِبَادَتِهِ مِنْ أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَشَامَةِ إِلَى أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٣) في وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركه، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكرار، فيلوا بنار من السلاح ونالوه أيضا بنار] فكم أهلة^(١) سيوف تقارض الضارب بها حتى صارت كالعراجين، وكم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فأها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافتترسه، وكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا، وكان الكفر مفقودا والإسلام مولودا، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، وأسر الملك وبيده أوثق ونائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلבות، وقائد أهل الجبروت، وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم ينسط لهم بآعه، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة ودأعه، لاجرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجمع في ظل ظلامه خشائهم، ويقالون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقا ينون عليه أشد عقد وأوثق، ويعدون سورًا تحفر حوافر الخيل خندقه.

وفي هذا اليوم أسرت سرائهم، وذهبت دهمائهم [ولم يقلب منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليا يوم الخلدان^(٢) بالاحتيال، فنجوا ولكن كيف، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف،

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٢) في وفيات الأعيان وفي رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية "قما".

(٣) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذَه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده؛ فكان لِعِدَّتِهِمْ فَذَلِكَ، وَانْتَقَلَ
من مَلِكِ المَوْتِ إلى مالِك .

وبعد الكسرة مرَّ الخادِمُ على البلاد فطَوَّأَهَا بما نَشَرَ عليها من الرأية العباسية السوداء
صَبْغًا، البَيْضَاءُ صُنْعًا؛ الخَافِقَةُ هي وقلوبُ أعدائها، الغالبة هي [وعزائم أوليائها]^(١)
المُسْتَضَاءُ بأنوارها إذا فَتَحَ عنها البشر، وَأَشَارَتْ بِأَنَامِلِ العَدَبَاتِ إلى وَجْهِ النَّصْر؛
فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كُلُّهَا]^(١) أمصارٌ ومُدُن، وقد تُسمَّى البلادُ بِلَادًا وهي مَزَارِعُ
وفُدُن؛ وكل هذه ذَوَاتُ مَعَاقِلَ ومَعَاقِر، وَبِحَارٍ وَجَزَائِر، وَجَوَامِعَ وَمَنَائِر، وَجُجُوعٍ
وعسَاكِر؛ يتجاوزها الخادِمُ بعد أن يُحَرِّزَهَا، وَيَتْرَكُهَا وراءه بعد أن يَنْتَهِزَهَا، وَيُحْصِدُ
منها كُفْرًا وَيَزْرَعُ إِيْمَانًا، وَيُحِطُّ من منائر جوامعها صلبانًا وَيَرْفَعُ أَدَانًا؛ وَيُبَدِّلُ المَذَابِحَ
مَنَائِرَ وَالْكَائِسَ مَسَاجِدَ، وَيُؤَيِّى بعد أهل الصُّلْبَانِ أَهْلَ الْقُرْآنِ لِلدَّبِّ عن دين الله
مَقَاعِدَ . وَيَقِرُّ عَيْنَهُ وَيُؤَيِّنُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ أَنْ تَعْلَقَ النَّصْرُ مِنْهُ وَمِنْ عَسْكَرِهِ بِحَارٍ
ومَجْرُورٍ، وَأَنْ ظَفِرَ بِكُلِّ سُورٍ مَا كَانَ يُخَافُ زِلْزَالَهُ وَزِيَالَهُ إلى يومِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ .
ولَمَّا لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقُدْسُ وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهَا كُلُّ شَرِيْدٍ مِنْهُمْ وَطَرِيْدٍ، وَاعْتَصَمَ بِمَنْعَتِهَا
كُلُّ قَرِيبٍ مِنْهُمْ وَبَعِيدٍ؛ وَظَنُّوا أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ مَا نَعَتْهُمْ، وَأَنْ كُنِيْسَتَهَا إِلَى اللَّهِ شَافِعَتُهُمْ؛^(٢)
فَلَمَّا نَازَلَهَا الْخَادِمُ رَأَى بَلَدًا كِبَالَادَ، وَجَمْعًا كِيَوْمِ التَّنَادِ؛ وَعَزَائِمٌ قَدْ تَأَلَّبَتْ وَتَأَلَّفَتْ
عَلَى الْمَوْتِ فَتَزَلَّتْ بَعْرَضَتُهُ، وَهَانَ عَلَيْهَا مَوْرِدُ السَّيْفِ وَأَنْ تَمُوتَ بِغُصَّتِهِ؛ فَزَاوَلَ
الْبَلَدَ مِنْ جَانِبٍ فَإِذَا أَوْدِيَّةٌ عَمِيقَةٌ، وَلُحْجٌ وَعَرَّةٌ غَرِيقَةٌ، وَسُورٌ قَدْ اُنْعَطَفَ عَطْفُ
السَّوَارِ، وَأَبْرَجَةٌ قَدْ نَزَلَتْ مَكَانَ الْوَاسِطَةِ مِنْ عِقْدِ الدَّارِ؛ فَعَدَلَ إِلَى جِهَةِ أُخْرَى

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأول من مفهوم من المقام . أنظر ما كتبناه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم

كان للطامع عليها مُعَرَّجٌ ، وَلَحِيلٌ فِيهَا مُتَوَلِّجٌ ، فَتَزَلُّ عَلَيْهَا ، وَأَحَاطَ بِهَا وَقُرْبَ مِنْهَا ؛
وَضَرَبَ خِيَمَتَهُ بَحِثٌ يَنَالُهُ السَّلَاحُ بِأَطْرَافِهِ ، وَيُزَاحِمُهُ السُّورُ بِأَكْثَافِهِ ؛ وَقَابَلَهَا
ثُمَّ قَاتَلَهَا ، وَنَزَلَهَا ثُمَّ نَازَلَهَا ، وَبَرَزَ إِلَيْهَا ثُمَّ بَارَزَهَا ، وَحَاجَزَهَا ثُمَّ نَاجَزَهَا ؛ فَضَمَّهَا صَمَةً
أَرْتَقَبَ بَعْدَهَا الْفَتْحَ ، وَصَدَعَ أَهْلَهَا إِذَا هُمْ لَا يَصْبِرُونَ - عَلَى عُبُودِيَّةِ الْخَدِّ - عَنْ عِتْقِ
الصَّفْحِ ؛ فِرَاسُلُوهُ بِبَدَلِ قَطِيعَةٍ إِلَى مُدَّةٍ ، وَقَصِدُوا نَظْرَةً مِنْ شِدَّةٍ وَانْتَظَرُوا لِنَجْدِهِ ؛
فَعَرَفَهُمُ الْخَادِمُ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَأَجَابَهُمْ بِلِسَانِ الطُّولِ ؛ وَقَدَّمَ الْمُنْجِنِيَّاتِ الَّتِي تَتَوَلَّى
عُقُوبَاتِ الْحُصُونِ عِصْمًا وَحِبَالَهَا ، وَأَوْتَرَهُمْ قِسِيَهَا الَّتِي تَضْرِبُ فَلَا تُفَارِقُهَا سِهَامُهَا
وَلَا يَفَارِقُ سِهَامُهَا نِصَالُهَا ؛ فَصَاحَتِ السُّورُ بِأَكْثَافِهِ إِذَا سَهَمُهَا فِي شَايَا شُرَفَاتِهَا سِوَاكَ ،
وَقَدَّمَ النَّصْرَ نَسْرًا مِنَ الْمُنْجِنِيِّ يُخَلِّدُ إِخْلَادَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَيَعْلُو عُلُوَّهُ إِلَى السَّمَاءِ ؛
فَشَجَّ مُرَادِعَ أَبْرَاجِهَا ، وَأَسْمَعَ صَوْتَ عَجِيجِهَا [صُمَّ أَعْلَاجِهَا] ^(١) وَرَفَعَ مُنَارَ عَجَاجِهَا ؛ فَأَخْلَى
السُّورَ مِنَ السِّيَّارَةِ ، وَالْحَرْبَ مِنَ النَّظَارَةِ ؛ فَأَمَكْنَ النَّقَابُ ، أَنْ يُسْفَرَ لِلْحَرْبِ النَّقَابُ ،
وَأَنْ يَعِيدَ الْحَجَرَ إِلَى سِيرَتِهِ [الْأُولَى] ^(١) مِنَ التُّرَابِ ؛ فَتَقَدَّمَ إِلَى الصَّخْرِ فَمَضَعَ سَرْدَهُ
بَأَنْيَابِ مِعْوَلِهِ ، وَحَلَّ عَقْدَهُ بِضَرْبِهِ الْأَحْرَقِ الدَّالَّ عَلَى لَطَافَةِ أَمَلِهِ ، وَأَسْمَعَ الصَّخْرَةَ
الشَّرِيفَةَ حَنِينَهُ وَأَسْتَغَاثَتَهُ إِلَى أَنْ كَادَتْ تَرِقُّ لِمُقْبَلِهِ ؛ وَتَبَرَّأَ بَعْضُ الْحَجَارَةِ مِنْ
بَعْضٍ ، وَأَخَذَ الْحَرَابُ عَلَيْهَا مَوْتًا فَلَنْ تَبْرَحَ الْأَرْضُ ، وَفَتَحَ فِي السُّورِ بَابَا سَدٍّ مِنْ
نَجَاتِهِمْ أَبْوَابًا ، وَأَخَذَ يَنْقُبُ فِي حَجَرِهِ فَقَالَ عِنْدَهُ الْكَافِرُ : «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا» فَيَنْتِزِعُ
يَنْتَسِرُ الْكَافِرُ مِنْ أَصْحَابِ الدُّورِ ، بِكَائِنَسِ الْكُفَّارِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ، وَجَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وَعَزَمَهُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ .

وَفِي الْحَالِ خَرَجَ طَافِغَةُ كُفْرِهِمْ ، وَزِمَامُ أَمْرِهِمْ ؛ ابْنُ بَارِزَانَ سَائِلًا أَنْ يُؤْخَذَ
الْبَلَدَ بِالسَّلَامِ لَا بِالْعَنَاءِ ، وَبِالْأَمَانِ لَا بِالْأَسْطُوهِ ؛ وَأُلْقِيَ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَعَلَاهُ ذُلُّ

الْمَلَكَةِ بَعْدَ عِزِّ الْمَلِكَةِ؛ وَطَرَحَ جَبِينَهُ فِي التَّرَابِ وَكَانَ جَبِينًا لَا يَتَعَاطَاهُ طَارِحٌ، وَبَذَلَ مَبْلَدًا مِنَ الْقَطِيعَةِ لَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ طَرْفٌ أَمِيلٌ طَامِحٌ؛ وَقَالَ: هَاهُنَا أُسَارَى مُؤْمِنُونَ يَتَجَاوَزُونَ الْأَلُوفَ، وَقَدْ تَعَاقَدَ الْفَرَنْجُ عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ هُجِمَتْ عَلَيْهِمُ الدَّارُ، وَحَلَّتِ الْحَرْبُ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْأَوْزَارُ؛ بُدِيَ بِهِمْ فُعْجَلُوا، وَثُبِيَ بِنِسَاءِ الْفَرَنْجِ وَأَطْفَالِهِمْ فَقَتَلُوا؛ ثُمَّ أَسْتَقْتَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يُقْتَلْ خَصْمٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَتَنَصَّفَ^(١)، وَلَمْ يُسَلَّ سَيْفٌ مِنْ يَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقْطَعَ أَوْ يَنْقَصِفَ؛ وَأَشَارَ الْأَمْرَاءُ بِالْأَخْذِ بِالْمِسُورِ، مِنَ الْبَلَدِ الْمَاسُورِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَخَذَ حَرْبًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَقْتَحِمَ الرِّجَالُ الْأَنْجَادَ، وَتَبْدُلَ أَنْفُسَهَا فِي آخِرِ أَمْرِ قَدْ نَبَلَ مِنْ أَوَّلِهِ الْمُرَادِ؛ وَكَانَتْ الْحِرَاحُ فِي الْعَسَاكِرِ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْهَا مَا أَعْتَقَلَ الْفَتَكَاتِ، وَأَعْتَقَتْ الْحَرَكَاتِ؛ فُقْبِلَ مِنْهُمْ الْمَبْدُولُ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ، وَأَنْصَرَفَ أَهْلُ الْحَرْبِ عَنْ قُدْرَةٍ وَهُمْ ظَاهِرُونَ؛ وَمَلَكَ الْإِسْلَامُ خِطَّةً كَانَ عَهْدُهُ بِهَا دِمْنَةً سَكَّانَ، نَفَدَ مَا الْكُفْرُ إِلَى أَنْ صَارَتْ رَوْضَةً جَنَانٍ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَأَهْبَطَهُمْ، وَأَرْضَى أَهْلَ الْحَقِّ وَأَسْخَطَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَذَلَهُمُ اللَّهُ حَمُوهَا بِالْأَسْلِ وَالصَّفَاحِ [وَبَنُوها بِالْعَمَدِ وَالصَّفَاحِ] وَأَوْدَعُوا الْكُتَّائِ بِهَا وَبَيَّوْتُ الدِّيْوَانِ وَالْأَسْتَبَارِيَّةَ مِنْهَا كُلَّ غَرِيبَةٍ مِنَ الرِّخَامِ الَّذِي يَطْرُدُ مَاؤُهُ، وَلَا يُطْرَدُ إِلَّا لِأَوَاهِهِ؛ قَدْ لَطَفَ الْحَدِيدُ فِي تَجْزِيعِهِ، وَتَفَنَّنَ فِي تَوْشِيْعِهِ؛ إِلَى أَنْ صَارَ الْحَدِيدُ، الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، كَالدَّهَبِ الَّذِي فِيهِ نَعِيمٌ عَتِيدٌ؛ فَمَا تَرَى إِلَّا مَقَاعِدَ كَالرِّيَاضِ^(٢) لَهَا مِنْ بَيَاضِ التَّرْخِيمِ رَقْرَاقٍ، [وَعَمَدًا كَالْأَشْجَارِ لَهَا مِنَ التَّنْيِيبِ أَوْرَاقٍ]^(٣).

(١) فِي وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٨) وَرِسَائِلُ الْقَاضِي الْفَاضِلِ "يَفْك".

(٢) الزِّيَادَةُ مِنْ رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَوَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ وَأَنْظَرْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْمَطْبُوعِ

(ج ٦ ص ٥٠٣).

(٣) فِي الْأَصْلِ "كَالْأَسْمَارِ" وَفِي رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ "لِلرِّيَاضِ" وَالتَّصْحِيحُ مِنْ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ.

(٤) الزِّيَادَةُ مِنْ رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَوَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ.

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود؛ وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكدت السموات يتفطرن للُسجود لا للوجوم، والكواكب [منها] ينتثرن للطرب لللرجوم؛ ورُفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدوده، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده؛ وأقيمت الخمس وكان التثليث يُعدها [وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعدها] ^(١) وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وحقق علماء في حفايقه، فلو طار به سرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مُجدد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضق بتمادي الحرب من الصدور؛ فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها [وأيام الشتاء قد مردت مواردها] ^(١) والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها؛ فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد؛ وينفق عليها، ولا ينفق منها؛ وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المراكب لبرها، ويدأب في عمارة أسوارها، ومرمات معاقليها؛ وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطاع الفرنج فيما بعد ذلك مذهبها غير مرجئة ولا معتزلة؛ فلن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لأسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع .

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص؛ فلذلك نفدنا لسانا شارحا، ومبشرا صابا؛ ينشر الخبر على سيافته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضي الفاضل "ولن يفكوا" .

قلتُ : وقد وَقَفْتُ على نسخة كُتِبَ به عن المُكْتَفَى بالله ، عند ما بَعَثَ محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية ، فانتزعها من يد بني طولون وأَسْتَوَى عليها للخليفة ، في نحو كُرَاسَةٍ ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين ، أولها : أما بعدُ فالحمد لله العليّ الكبير ، العزيز القدير ؛ أَضْرَبْتُ عن ذكرها لطولها .

الصفحة الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة)

قال في "موادّ البيان" : من أخلاق العامة تقبيحُ سيرة السلطان إذا زَلَّ في بعض آرائه ، والإِزْرَاءُ على تديره في جيش يُجَهِّزه فيُكَسِّرُ ، ونحو ذلك : مما لا يَسْلَمُ من مثله ، والإِفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يَتَلَفَى الوَهْنَ وقيم العُذْرَ ، كما يكاتبهم بتفخيم المنح ، وتعظيم الفُتُوحات ، والتَّحَدُّثِ بمواقع المواهب . وشكر الله تعالى على إسباغ النعم ، والإِظْفَارِ بأعداء الدين والدَّولة : لِيَقْوَى بذلك مُتَمِّمٌ ، وَيُرْهَفَ بَصَائِرُهُمْ وَيَسْتَخْلَصَ طَاعَتُهُمْ ، ويملاً صدورهم رهبة . قال : وليست لهذه الكُتُبُ رسومٌ ينتظم كُلُّ ما وقع فيها : لِأَخْتِلَافِ ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نَرْمِي في أصوله قولاً وجيزاً : وهو أن يَقْتَضِبَ الكاتب له المعاذير التي تُحَسِّنُ أَعْدُوَّتَهُ ، وتَسْتَرْزِلُهُ ، والمُجَجَّ التي تُعِيدُ اللَّائِمَ عاذراً ، والدَّامَّ شاكراً ، وتُوجِبُ التقريظ من حيث يجب التأنيب ، والإِحْمَادُ من حيث يُسْتَحَقُّ التَّذَنُّيبُ . مثلاً أن يعتذر عن هزيمة جيش ، فيقول : وقد عَلِمْتُ أن الحَرْبَ سِجَالٌ ، والدنيا دُولٌ تَدَالُ ، وقد تَهَبُّ رِيحُ النَّصْرِ لِلْقَاسِطِينَ على الْمُقْسِطِينَ أمتحاناً من الله وبَلْوَى ،

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - من غير أن يصرحَ
ببَاطِلٍ ، ولا يُطْلَقَ كَذِبًا مُحَضًّا ، ولا يُخْتَلَقَ زُورًا يَعْلَمُ النَّاسُ خِلَافَهُ ؛ فَتَضَاعَفُ
الْهُجْنَةُ ، وَتَكْتَأَفُ الْمِحْنَةُ ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْبَحُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَأَقْدَحُ فِي جَلَالَةِ الشَّانِ ؛
مَنْ أَنْ يُعْثَرَ فِي كُتُبِهِ عَلَى إِفْكٍ قَدْ يَعْلَمُهُ بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ ؛ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمَدَ
فِي ذَلِكَ حُسْنَ التَّخْلِصِ وَالتَّوَرِيَّةِ عَنِ الْغَرَضِ ، وَاسْتِعْمَالَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى
أَطْرَافِ الْحَالِ وَلَا تُفْصِحُ بِحَقَائِقِهَا .

وهذه نُسخةُ كِتَابٍ مِنْ ذَلِكَ .

الحمد لله الذى سَاسَ الْأُمُورَ بِحُكْمَتِهِ ، وَأَبَانَ فِيهَا مَوَاقِعَ قُدْرَتِهِ ؛ وَسَلَكَ فِيهَا
طَرِيقَ مَشِيئَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى مَرَاةٍ عَدَلًا بَيْنَ الْعِبَادِ فِي أَقْسَامِ نِعْمَتِهِ وَمِحْنَتِهِ ، وَأَحْوَالِ
بَلَوَاهُ وَعَافِيَتِهِ ؛ وَجَعَلَ الْأَيَّامَ فِيهِمْ نُوبًا ، وَالْأَحْوَالَ بَيْنَهُمْ عُقْبًا ؛ نَخَصَّ أَوْلِيَائَهُ وَأَهْلَ
طَاعَتِهِ بِالنَّصْرِ فِي الْحَاكِمَةِ ، وَالصُّلْحِ عِنْدَ الْمُخَاصِمَةِ ؛ وَالظُّهُورِ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ وَعَادَاهُمْ ،
وَالْقَهْرِ لِمَنْ ضَادَّهُمْ وَنَاوَاهُمْ ؛ إِنْجَازًا لِمَا وَعَدَ بِهِ الصَّابِرِينَ الْمُحْسِنِينَ ، وَإِعْزَازًا لِلدِّينِ
وَأَنْصَارِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَمْ يُخِلْ أَعْدَاءَهُ مِنْ دَوْلَةٍ أَدَالَهَا لَهُمْ ، وَجَوْلَةٍ عَلَى الْحَقِّ زَادَهَا
فِي طُغْيَانِهِمْ ؛ وَوَصَلَ الْإِمْلَاءَ لَهُمْ فِيهَا بِخِذْلَانِهِمْ : لِيَجِبَ الثَّوَابُ لِلْحَسَنِينَ ، وَيَحِقَّ
الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ . فَقَالَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ - وَقَدْ ظَهَرَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ -
﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .
وَقَالَ : ﴿ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ وَنَاوَبَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
فِي الْمَصَائِبِ ، وَالْمَوَاهِبِ ؛ وَالْمَسَازِيرِ ، وَالْمَصَارِ ؛ لِيَشْفِيَ اللَّهُ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ
مَافَى قُلُوبِهِمْ ؛ وَيُوجِبَ لَهُمْ إِخْلَاصَ السَّرَائِرِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، وَالنَّصْرَةِ

لرسوله ، والمِرَامَةِ عن دينه ، والمدافعة عن حريمه ؛ ضَعَفَ الثَّوَابَ وَحُسِّنَ الْمَأْتَبُ ،
وَيُحِلُّ بِالْمُشْرِكِينَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ .

وَإِذَا كَانَ الْحَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَلَاقَيْنِ ، وَالْفِتْنَيْنِ الْمُتَجَاوِرَتَيْنِ ، وَالْخِزْيَيْنِ
الْمُتَحَاكِيَيْنِ ، فِي تَعَاوُرِ الْغَلَبَةِ ، وَتَعَاقُبِ الدَّوْلَةِ ؛ جَارِياً عَلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ وَمُتَصَرِّفاً عَلَى حُكْمِهِ ،
وَمُسْتَوْسِقاً عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ ؛ فَلَيْسَ يُغْنِي فِي ذَلِكَ زِيَادَةُ عَدَدٍ ، وَلَا اتِّصَالُ مَدَدٍ ؛
وَلَا قُوَّةُ أَيْدٍ ، وَلَا لُطْفُ كَيْدٍ ؛ وَلَا اخْتِيَارُ وَقْتٍ مَحْمُودٍ لِلْقِتَالِ ، وَلَا الْأَتَّخَابُ لِأَهْلِ
الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ مِنَ الرِّجَالِ ؛ وَلَا يَجِبُ أَنْ يَسْتَرِيثَ النَّصْرُ مَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ ، وَيَسْتَشْعِرَ
الْخَزَعُ مَنْ نَالَ خَصْمُهُ مِنْهُ ؛ بَعْدَ تَحْصِيلِهِ السَّلَامَةَ فِي نَفْسِهِ ، وَقِيَامِ الْعُدْلِ بِعَنَائِهِ
وَجِدِّهِ ؛ وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ مِنَ الْمُنَاقِبِ - الَّتِي وَرِثَهَا عَنْ آبَائِهِ ، وَحَازَهَا فِي صَدْرِهِ ؛
وَالْحَيَازَةَ فِيهَا بَانَ مِنْ فَضْلِ بَأْسِهِ ، وَثَبَاتِ جَأَشِهِ ؛ وَأَصَالَةِ رَأْيِهِ ، وَصِحَّةِ تَدْيِيرِهِ ؛ وَإِيفَائِهِ
الْحَرْبِ شُرُوطَهَا ، وَالْهِجَاءَ حُقُوقَهَا : مِنَ الْخَزْمِ وَالتَّؤَدَةِ ، وَالْإِفْدَامِ عِنْدَ الْفُرْصَةِ ؛
وَالْإِصَابَةِ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّعْيِيرِ ، وَالْإِحْتِيَاطِ فِي سَدِّ مَوَاقِعِ الْخِلَالِ وَالْعَوْرِ ، وَإِعْمَالِ
النَّظَرِ وَالرَّوْيَةِ ؛ لَوْلَا آعْتَاضُ الْقَضَاءِ الَّذِي هُوَ مَالِكُ نَوَاصِي الْعِبَادِ ، وَغَيْرُ مَدْفُوعٍ
بِمَحَالٍ وَلَا جِلَادٍ ، وَلَا قُوَّةٍ وَلَا عُدَّةٍ وَلَا عَتَادٍ - مَا أَوْفَى حُسْنُهُ عَلَى مَزِيَّةِ الظَّفَرِ ،
وَزَادَ عُظُمُهُ فِي السَّنَاءِ وَالْخَطَرِ ؛ إِلَى مَا شَمِلَ عَسْكَرَهُ فِي مُنْقَلَبِهِ بِمِرَاعَاتِهِ لَهُمْ ، وَمُدَافَعَتِهِ
مِنْ وَرَائِهِمْ ؛ حَتَّى تَوَافَى الْجَمْعُ مَوْفُورِينَ ، وَأَبَاؤُا سَالِمِينَ غَانِمِينَ ؛ وَبِاللَّهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ
وَعَلَيْهِ صَبْرُ الْإِدَالَةِ عَلَى مَا جَرَى بِهِ وَعَدَهُ الصَّادِقُ ، وَأَخْبَرَهُ كِتَابُهُ النَّاطِقُ ؛ وَهُوَ
حَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَافِيهِ ، وَنَاصِرُهُ وَوَالِيهِ ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالظَّهِيرُ ، وَالْمَوْلَى
وَالنَّصِيرُ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ
أَجْمَعِينَ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً .



وفى مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جلّ جلاله جارية على سبيل جامعة لوجوه الحكمة ، منتظمة لأسباب
 الصلاح والمعدله . فمنها ما عرف الله أوليائه والمندوبين بطاعته ، والمجموعين
 بهدأيته ؛ طريق المراد منه ، وسبب الداعي إليه ؛ والعلة فيما قضى من ذلك لحينه ،
 والصورة المقتضية له . ومنها ما استأثر بعلمه ، وطوى عن الخلق معرفة حاله ؛ فهو
 - وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه ، وموقع العائدة به ؛ ورؤى بهم اضطراباً
 في ظاهره عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ، ومبالغ أفهامهم - مبني على أوثق أساس
 الحكمة ، وأثبت أركان الصواب على الجملة ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ والله خالق
 الأشياء كلها ، وعالم بها قبل كونها ؛ في أحوال تكوينه إياها وبعده في متزغ غاياتها
 ومقضى عواقبها ؛ فليس تخفى عليه خافيه ، ولا تعزب عنه دانيه ولا قاصيه ؛ ولا يسقط
 عن معرفته فصل ما بين الخاطرين والوهميين في الخير والشر ، وما بين الجبلين والدرين
 في الوفور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ؛ ويخبر فيه عن موضع التدبير ، المحتاج
 فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ؛ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج
 الصواب ، ويخالف طريق الصلاح ؛ فقد ضلّ من حيث ضلّ ، وغلط من
 حيث غلط ؛ واتّصل سوء ظنه ، وفساد فكره ؛ بالزراية على فعل ربه ، تعالى عن
 قول المبطلين ، ورجم الشياطين .

ثم إن لله جلّ جلاله عادة في الجيوش المتحاربين ، والحزبين المتحاكمين : من
 عباده المؤمنين ، وأضدادهم المفسدين الملحدين ؛ في المداولة بينهما ، والمعاينة
 بين الفيتين منهما ؛ في العجز والظهور ، والوفاء والقصور ، والمعاينة والامتحان ،

والتَّصَرُّ وَالْخِذْلَانُ ؛ والإِعْلَاءُ لِرَأْيَةِ الْحَقِّ فِي حَالٍ ، وَالْإِمْلَاءُ لِلْبَاطِلِ فِي أُخْرَى ؛
 بِتَضْمِينِ الْخَيْرَةِ لِأَوْلِيَائِهِ ، والدَّائِرَةُ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ عَاجِلًا بِالْتَّمَحِيصِ لَهُؤُلَاءِ ،
 وَبِالْمُحَقِّقِ لِأُولَئِكَ ؛ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مُصِيبَتِهِ ، وَيَنْوِبُهُمْ فِي حَاضِرِ الدُّنْيَا مِنْ رَغْبَتِهِ ؛
 وَيُجِلُّ الْعَادِينَ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيَيْنِ^(١) ؛ وَمِنْ سَعْدِ
 بَقْسِمٍ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَحِظٍّ مِنْ فَائِدَةِ الْإِرْشَادِ ؛ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَزِيَادَةِ
 أَنْصَارٍ وَعُدَّةٍ ، وَفَضْلٍ عَتَادٍ وَعُدَّةٍ ؛ وَبَسَالَةٍ وَنَجْدَةٍ ، وَأَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَسَعَةٍ وَبَسْطَةٍ ؛
 وَلَا يَعْدُو أَنْ يُسَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى قَاضِيًّا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَيُوفَّى بِإِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ مِنْ عُدُوِّهِ ،
 أَوْ غَلَبَةِ عُدُوِّهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ مُنْعِمًا ، وَمُتَحِنًا وَمُعَافِيًا وَمُسَلِّمًا ؛
 وَنِعَمَ الْوَكِيلَ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مُسْتَعْمَلٌ بَيْنَ الْكُتَّابِ ، دَائِرٌ
 فِي مُصْطَلَحَاتِهِمْ إِلَى الْآنَ . وَالشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ فِي ذَلِكَ تَفَنُّنَاتٌ
 كَثِيرَةٌ ، أورد بعضها في كتابه "حُسن التَّوَسُّلِ" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هَزِمَ هُوَ وَجَيْشُهُ ، يَتَضَمَّنُ إِقَامَةَ عُدْرِهِ ، وَوَصَفَ أَجْتِهَادِهِ ؛
 وَيَحْتُّ عَلَى مُعَاوَدَةِ عُدُوِّهِ ، وَالطَّلَبِ بَنَارِهِ ؛ وَهُوَ :

هذه المكتبة إلى فلان : لَأَزَالَ مَأْمُونَ الْغَرَّةِ ، مَأْمُولَ الْكَرَّةِ ، مُجْتَنِيًا حُلُوقَ الظَّفَرِ
 مِنْ أَكْثَامِ تِلْكَ الْمَرَّةِ الْمُرَّةِ ؛ رَاجِيًا مِنْ عَوَاقِبِ الصَّبْرِ أَنْ يُسْفِرَ لَهُ مَسَاءُ تِلْكَ الْمَسَاءَةِ
 عَنْ صُبْحِ الْمَسَرَّةِ ، وَاثِقًا مِنْ عَوَائِدِ نَصْرِ اللَّهِ بِإِعَادَتِهِ وَمِنْ مَعِهِ فِي [الْقُوَّةِ وَ] الْأَسْطِظْهَارِ^(٢)
 كَمَا بَدَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

(١) بياض في الأصل ولعله "فليس أنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتصل بنا نبأ ذلك المقام الذى أوصحت فيه السيوف عُذرها ،
وأبدت به الكفاة صبرها ؛ وأظهرت فيه الحماسة من الوثبات والثبات ما يجب عليها ،
وبذلت فيه الأبطال من الجلال جُهدا ولكن لم يكن الظفر إليها ؛ وكان عليهم
الإقدام على غمرات المنون ، والأصطلاء بجرات الحرب الزبون ، ولم يكن عليهم
إتمام ما قدر أنه لا يكون ؛ فكبرت رقاب الأعداء فى ذلك الموقف السيوف ، وكثرت
أعدادهم الخوف ، وتدفقت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت
تلك الآحاد من تلك الألوف ؛ فضاقت بأزديحام الصفوف على رجاله المجال ، وزاد
العدد على الجلد فلم يُقد له الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال ؛ وأملى للكافرين
بما قدر لهم من الإنظار ، وحصل لهم من الاستظهار ، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام
عما ألفوه من الفرار . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾
وقد ورد أنهم ينصرون كما تنصر^(١) ، وإذا كانت الحروب سجالا فلا ينسب إلى من
كانت عليه [وبالا] إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر . مع أنه قد اشتهر بما فعله
فى مجاله ، من اللدب عن رجاله ؛ وما أبداه فى قتاله ، من الضرب الذى ما تروى
فيه خصمه إلا بدرة بارتجاله ؛ وأن الرماح التى امتدت إليه أنحرس سيفه ألسنة
أستبها ، والحياذ التى أقدمت عليه جعل طعنة أكفأها مكان أعنتها ؛ فأثبت
فى مستنقع الموت رجله ، ووقف وما فى الموت شك لواقف ليحصى خيله ورجله ؛
حتى تحيز أصحابه إلى فئة مائهم ، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم
أو ظهر من مكثهم ؛ وهذا هو الموقف الذى قام له مقام النصر ، إذ فاته النصر
وفاته النصر ، والمقام الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدرکهم أدنى العدد وفقد

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

فيه من أعدائه مع ظهورهم أُلُوْفٌ لا يدركهم الحَصْرُ ؛ [وكذا فليكن قَلْبٌ ^(١)] الجيش كالقَلْبِ يَقْوَى بِقُوَّتِهِ الحَسَدُ ، وإذا حَقَّ اللِّقَاءُ فلا يَفِرُّ عن كَنَاسِهِ إِلَّا الطَّبِيُّ وَلَا يَجِي [عَرِيْنُهُ] ^(١) إِلَّا الْأَسَدُ ؛ وما بَقِيَ إِلَّا أَنْ تَعْفُو الْكُؤْمُ ، وَتُثَوِّبَ الْحُلُومُ ؛ وَتَسْدِمَلَ الحِرَاحُ ، وَتَبَرَّأَ مِنْ قُلُوبِ الْمَضَارِبِ صُدُورُ الصَّفَاحِ ؛ وَتَهْضَ لَاقْتِضَاءَ دَيْنِ الدِّينِ ، مِنْ غُرْمَائِهِ الْمُعْتَدِينَ ؛ وَتُبَادِرَ إِلَى آسْتِنَاجِازٍ وَعَدِ اللهُ أَنَّ اللهَ يَحْصِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَحْكُمُ الكَافِرِينَ ؛ وَاللَّيْثُ إِذَا جُرِحَ كَانَ أَشَدَّ لَثَابَتِهِ ، وَأَمَدَّ لَوَثْبَاتِهِ ؛ وَالْمَوْتُورُ لَا يُصْطَلَى بِنَارِهِ ، وَالتَّائِرُ لَا يَرْهَبُ الإِقْدَامَ عَلَى الْمَنُونِ فِي طَلَبِ نَارِهِ ؛ وَالدَّهْرُ ذُو دُولٍ ، وَالزَّمَانُ مُتَلَوِّنٌ إِنْ دَجَّتْ عَلَيْكُمْ مِنْهُ بِالْقَهْرِ لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَدْ أَشْرَقَتْ لَكُمْ مِنْهُ بِالنَّصْرِ لَيَالٍ أَوَّلُ ، فَالْمَوْلَى لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَافَاتٍ ، وَيُقْبِلُ بِفِكْرِهِ عَلَى تَدْيِيرِ مَا هُوَ آتٍ ؛ وَيُعِدُّ لِلْحَرْبِ عُدَّتَهُ ، وَيَعْجَلُ أَمَدَ الْأَسْتَظْهَارِ وَمُدَّتَهُ ؛ وَلَا يُؤَخِّرُ فَرَصَةَ الْإِمْكَانِ ، وَلَا يَعِيدُ ذِكْرَ مَا مَضَى فَإِنَّهُ دَخَلَ فِي خَبَرِ كَانَ ؛ وَلَا يُظْهِرُ بِمَا جَرَى عَجْزًا ^(٢) ، فَإِنْ الْعَاجِزُ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُصِيبُ وَلَا يُصَابُ ، وَلَا يَتَّخِذُ غَيْرَ ظَهَرِ حِصَانِهِ حِصْنًا فَلَا حِرْزَ أَمْنٍ مِنْ صَهْوَةِ الْجَوَادِ وَلَا سَلَمَ أَسْلَمَ مِنَ الرِّكَابِ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيْنَ ، وَيَدْرِعُ جَنَّةَ الصَّبْرِ لِيَكُونَ مِنَ النَّصْرِ عَلَى ثِقَةٍ وَمِنَ الظَّفَرِ عَلَى يَقِيْنٍ ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ؛ وَمَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ كَانَتْ يَدُهُ الطُّوْلَى ، وَإِذَا لَقِيَ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّهُ فَلْيَصْبِرْ لِحِمْلَتِهِ فَإِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأَوَّلَى ؛ وَاللهُ تَعَالَى يَكْلُوهُ بَعِيْنُهُ ، وَيُمِدُّهُ بَعُوْنُهُ ، وَيَجْعَلُ الظَّفَرَ بَعْدُوَّهُ مَوْقُوفًا عَلَى مِطَالِبَتِهِ لَهُ بِدِيْنِهِ .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ما جرى الخ .



ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، ويصف الأحفـال
بأخذ الشار .

هذه المكتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه
عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح والسنة الرماح سره ، وأراه
من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وإن
سرار القمر لا يضره . توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الوقعة التي صدقنا فيها
اللقاء ، وصدمننا العدو صدمة من لا يحب البقاء ؛ وأريناه حرباً لو أعانها التأيد فقلت
بجموعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصـل أوجده مصارعه وأعدمه
رجوعه . وحين شرعت رياح النصر تهب ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب
ونصب ؛ وكرعت الصفاح في موارد محورهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ؛
وما بقى إلا أن نستكمل سيوفنا الرى من دمائهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم ؛
وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته
الجراح حلة عندهم ؛ أظهروا الخرع في عزائهم ، وحكموا الطمع في غنائهم ؛ فحصل
لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تهم هدم بنائهم ، وطمع منع جيوشنا أن تكف عن
النهب إلى أن تصير من ورائهم ؛ فاعتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان ، العجب
والطمع ، وانتهاز فرصة الإمكان ، التي أعانها عليها [المطمعان] إبداء الهلع ، وتحلية ما جمع ،

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن « الغفوة » .

(٢) في حسن التوسل "فرصة" "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جَمَعْنَا] ^(١) بعض ذلك العِقْدِ المُنْظَم ، وانتقض من حِزْبنا رُكْنُ ذلك الصِّفِّ الذي أخذ فيه الرِّحَامُ بالكَظْم ، وثبت الخادم في طائفة من ذَوِي القُوَّة في يَقيَنهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسَرنا جُفُون السُّيُوف ، وحَطَمْنَا صُدُور الرِّمَاح في صدور الصفوف ، وأرَيْنَا تلك الأُلُوف كيف تُعَدُّ الآحاد بالألُوف ، وحُلْنَا بين العَدُوِّ وبين أَصْحَابِنَا بَضْرِبٍ يَكْفُ أَطْعَامِهِمْ ، وَيُرْدُ سِرَاعِهِمْ ، وَيُعْمِي وَيُصِمُّ عن الآثَار والأَخْبَار أَبْصَارَهُمْ وَأَسْمَاعِهِمْ ، إلى أن نَفْسُنَا لِلنَّهْزِم عن خِنَاقِهِ ، وَأَيَسُنَا طَالِبَهُ عن لِحَاقِهِ ، وَرَدَدْنَاهُ عَنْهُ خَائِبًا بعد أن كَادَتْ يَدُهُ تَعْتَلِقُ بِأَطْوَاقِهِ ، وَأَحْجَمَ العَدُوُّ مع ما يرى من قَلْبِنَا عن الإِقْدَام عَلَيْنَا ، ورأى منا جِدًّا كَادَ لَوْلَا كَثْرَةُ جَمْعِهِ يَسْتَسَلِمُ بِهِ إِلَيْنَا ، وَعَادُوا وَلَنَا فِي قُلُوبِهِمْ رُغْبٌ يَثْنِيهِمْ وَهُمْ الْغَالِبُونَ ، [وَيُدْرِكُهُمْ وَهُمْ الطَّالِبُونَ] ^(٢) وَيَسْلُبُهُمْ رِذَاءَ الْأَمْنِ وَهُمْ السَّالِبُونَ ، وَقَدْ لَمْ أَخْدَم شَعَثَ رِجَالِهِ ، وَضَمَّ فِرْقَهُمْ بِذَخَائِرِ مَالِهِ ، وَأَمَدَّهُمْ بِنَفَقَاتِ أَصْلَاحَتِ أَحْوَالِهِمْ ، وَأَطْلَقْتُ فِي طَلَبِ عَدُوِّ اللَّهِ أَقْوَالَهُمْ ، وَسَلَّحْتُ جَدَدَ اسْتِطَاعَتِهِمْ ، وَأَعَانَ شَجَاعَتَهُمْ ، وَخَيُولُ تَكَادَ تَسَابِقُهُمْ إِلَى طَلَبِ عَدُوِّهِمْ ، وَتَحْضَمُّهُمْ عَلَى أَخْذِ حَظِّهِمْ مِنَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُا تَسَاهَمُهُمْ فِي أَجْرِ رَوَاحِهِمْ وَغَدُوِّهِمْ ، وَقَدْ نَضُّوا رِذَاءَ الْإِعْجَابِ عَنْ أَكْثَافِهِمْ ، وَاعْتَصَمُوا بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ لِإِقْوَةِ جَلْدِهِمْ وَلَا بِحِدَّةِ أَسْيَافِهِمْ ، وَسَيِّعِ الْجُلُودُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عَنْ أُنْدِمَالِ حِرَاحِهِ ، وَتَتَجَعَّلُونَ إِلَيْهِ بِجُيُوشِ تَسْوَةِ طَلَائِعِهَا فِي مَسَائِهِ وَتُصَبِّحُهَا كَنَائِبُهَا فِي صَبَاحِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَكِلُنَا إِلَى جَلَدِنَا ، وَلَا يَنْزِعُ أَعْنَتَهُ نَصْرَهُ مِنْ يَدِنَا .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصل "وَضَرَبَهُمْ" ، والصحيح عن حسن التوسل .

الصفحة التاسعة

(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهمُّ به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع ، ولذلك لم يتعرض إليه في "مواد البيان" .
والذى ينبغى أن تُبنى المكاتبة فيه عليه ذكرُ هزيمة المهزوم وما استولى عليه من
الغلبة والقهر ، وصورة الحال في النصرة عليه ، والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر
ذات يده ، وأسر رجاله ، واسترقاق ذرائعهم ونسائهم ، وما يجرى مجرى ذلك : مما فيه
إيلام خاطره ، وتقطيع قلبه حشرات على ما ناله ، ونحو ذلك مما يدعو المكتوب
إليه إلى الطاعة ، ويوجب الانقياد .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط : كتب به القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر
رحمه الله ، إلى البولس سمد ملك الفرنج ، المستولى على طرابلس من الشام ، وأنطاكية
من بلاد العواصم حين غزاه الملك ^(١) في طرابلس ، ثم قصد أنطاكية فأخذها
من عانه ، وهى : ^(٢)

قد علم القومُص الجليل المُستقلَّة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البولسية إلى
القومصية ؛ ألهمه الله رشدَه ، وقرنَ بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده ؛
ما كان من قصدينا طرابلس وغزونا له فى عُقر الدار ، وما شاهدَه بعد رحيلنا من
إخراب العمار وهدم الأعمار ؛ وكيف كُنست تلك الكائس من على بساط الأرض
ودارت الدوائر على كلِّ دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل
البحر كالجزائر ؛ وكيف قطرت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر ، وكيف
قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والستائر ؛

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفى "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠ ، ص ٢٥٤) "يمتد" .

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة . (٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة" .

وكيف نُهِبَتْ لك وَلِرَعِيَّتِكَ الأموال والحريم والأولاد والحواشي ، وكيف آسْتَغْنَى
 الفقير وتَاهَلَ الْعَازِبُ وَاسْتَعْدَمَ الْحَرِيمَ وَرَكِبَ الْمَاشِي ؛ هذا وَأَنْتَ تَنْظُرُ نَظْرَ الْمَغْشَى
 عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، وَإِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا قَلْتَ فَرَعًا : عَلَى هَذَا الصَّوْتِ ؛ وكيف رَحَلْنَا
 عَنْكَ رَحِيلَ مَنْ يَعُودُ ، وَأَحْزَنَّاكَ وَمَا كَانَ تَأْخِيرُكَ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ وكيف فَارَقْنَا
 بِلَادَكَ وَمَا بَقِيَتْ فِيهَا مَاشِيَهُ ، إِلَّا وَهِيَ لَدَيْنَا مَاشِيَةٌ ؛ وَلَا جَارِيَهُ ، إِلَّا وَهِيَ فِي مِلْكِنَا
 جَارِيَةٌ ؛ وَلَا سَارِيَهُ ، إِلَّا وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي الْمَعَاوِلِ سَارِيَةٌ ؛ وَلَا زَرْعٌ إِلَّا وَهُوَ مُحْصُودٌ ،
 وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا وَهُوَ مِنْكَ مَفْقُودٌ ؛ وَمَا مَنَعَتْ تِلْكَ الْمَغَايِرَ الَّتِي هِيَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ
 الشَّاهِقَةِ ، وَلَا تِلْكَ الْأَوْدِيَّةُ الَّتِي فِي التُّخُومِ مُحْتَرِقَةٌ وَلِلْعُقُولِ خَارِقَةٌ ؛ وكيف سَقَيْنَا
 عَنْكَ وَلَمْ يَسْقِنَا إِلَى مَدِينَتِكَ أَنْطَاكِيَّةَ خَبْرَ ، وكيف وَصَلْنَا إِلَيْهَا وَأَنْتَ لَا تُصَدِّقُ
 أَنَّنا نَبْعُدُ عَنْكَ وَإِنْ بَعُدْنَا فَسَنَعُودُ عَلَى الْأَثَرِ ؛ وَهَذَا نَحْنُ نَعْلَمُكَ بِمَا تَمُّ ، وَنُفْهِمُكَ
 بِالْبَلَاءِ الَّذِي عَمَّ .

كَانَ رَحِيلُنَا عَنْكَ مِنْ طَرَابُلُسَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَنَزَلْنَا أَنْطَاكِيَّةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ؛
 وَفِي حَالِ التَّزُولِ خَرَجْتَ عَسَاكَرُكَ لِلْمُبَارَاةِ وَتَنَاصَرُوا فَمَا نَصَرُوا ، وَأَسْرَمَ مِنْ بَيْنِهِمْ
 كَدَّ اسْطِطْلَ فِسَالٍ فِي مَرَاجِعَةِ أَصْحَابِكَ ، فَدَخَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ
 رُهْبَانِكَ : وَإِنْ رَأَيْهِمْ فِي الْخَيْرِ مُحْتَلِفٌ ، وَقَوْلُهُمْ فِي الشَّرِّ وَاحِدٌ ؛ فَلَمَّا رَأَيْنَاهُمْ قَدْ فَاتَ
 فِيهِمُ الْقَوْتُ ، وَأَنَّهُمْ قَدْ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ ؛ رَدَدْنَاهُمْ وَقُلْنَا : نَحْنُ السَّاعَةُ لَكُمْ
 مُحَاصِرٌ ، وَهَذَا هُوَ الْأَوَّلُ فِي الْإِنْذَارِ وَالْآخِرُ ؛ فَرَجَعُوا بِهِ مُتَشَبِّهِينَ بِفِعْلِكَ ، وَمُعْتَقِدِينَ
 أَنَّكَ تَدْرِكُهُمْ بِجَيْلِكَ وَرَجَلِكَ ؛ فَفِي بَعْضِ سَاعَةِ مَرَّ شَانُ الْمَرَّشَانِ ، وَدَاخَلَ الرَّهْبُ
 الرُّهْبَانَ ؛ وَلَآنَ لِلْبَلَاءِ الْقَسْطَلَانَ ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛ وَفَتَحْنَاهَا بِالسَّيْفِ

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المغارة على مغاير ، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا في الأصل بإهمال جميع الحروف .

في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان؛ وقتلنا كل من آخرته لحفظها
والحماية عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا إلا وعنده
شيء منهم ومنها؛ فلورأيت خيالك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، ويأرك
والنهابه فيها تصول والكسابة فيها تجول؛ وأموالك وهي توزن بالقطار، وإماءك
وكل أربع منها تباع فتشترى من مالك دينار؛ ولورأيت كائسك وصلبانها قد كسرت
ونثرت، ومحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛
ولورأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القدس، والمدج وقد ذبح فيه الراهب
والقسيس والشماس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأبناء المملكة وقد دخلوا
في المملكة؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار
الآخرة تحترق؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكيسة بونصر وكيسة القسيان
وقد زلت كل منهما وزالت - لكنت تقول: ياليتني كنت ترابا، وياليتني لم أوت
بهذا الخبر ككاتب؛ ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران
بماء عبرتك؛ ولو رأيت مغانيك وقد أفقرت، ومرابك وقد أخذت في السويديّة
بمراكبك، لصارت شوانيك من شوانيك؛ ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية
منك أسترجمها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ومن الأرض أقتلها. ولتعلم
أنّا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش،
وشقيف تل منس^(١)، وشقيف كفردين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية
في هذه المدة إقامة(؟) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلا وإما أسيرا، وإما جريحاً

(١) في الاصل "تلميس" ولم نعر عليه في المعاجم والذي في معجم البلدان لياقوت أن تل منس حصن

قرب معرة النعمان بالشام .

وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحى إذا شاهد الأموات، ولعل الله إنما أنكر لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات؛ ولما لم يسلم أحدٌ يخبرك بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحدٌ [أن] يبشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها بأشركناك بهذه المفاوضة وبشركناك، لتتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه المكتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعيد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل عما جرى.



وهذه نسخة في هذا المعنى، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :
هذه المكتبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلته، وأقامه من حفرة ذلته، وتجاوز له عن كبيرة فراره من جمع عدوه على قلته.

بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها [العدو^(١)] بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه، كشف في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه ونفعه بأسرع في مفارقة المجال، من الظل في الانتقال، وأشبه في مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال؛ يمشون^(٢) إليه بقلب واجب، ويهتدون من تحرّصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب؛ ويأتون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كآلف، ويتسرعون منه وراء مقدّم يمشى إلى الزحف ولكن إلى خلف؛ جناح جيشه مهيب، وطرف سنانة غضيض؛ وساقه عسكره طالعه، وطلائعه كالتجوم ولكن في حال كونها راجعه؛ تأسف السيوف بيمينه على ضارب، وتأسى الجنائب حوله إذ تعدّ لمحارب فتعدّ لهارب؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨).

(٢) في الأصل "يمضون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل".

(٣) كذا في "حسن التوسل" والذي في الأصل "ويهتدون من تجريه وتهذيبه بينه" الخ، ولا معنى له.

وأنه حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى^(١) من عدده وعدده معالجة الحين ؛ أعجل نصول العدا عن وصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها ؛ تناديه ألسنة أسنته : الكرة الكرة فلا يلوى إلى نداءها ، وتشكو إليه سيوفه الظمأ وقد رأت موارد الوريد فيردّها إلى الغمود بدائها ؛ ففتح عدوه مقاتل رجاله ، وأباحهم كرائم مال جنده وماله ؛ وخلق لهم خزائن سلاحه التي أعدّها لقتالهم فأصبحت معدّة لقتاله ؛ فنجى منجى الحارث بن هشام ، وآب بسلامة أعدب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام ؛ وأسّم بين أوليائه وأعدائه بسمّة الفرار ، وكان يقال : النَّار ولا العار ، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار ؛ وعاد بجمع موفور من الجراح ، موقر من الإثم والأجترأح ؛ لا علم بما جرى عند أسيافهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الضلأ في أكثافهم ؛ فبأى جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه ، وهؤلاء حزبه ، [وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربته^(٢)] .

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها ، أو أريحية فستشيب نازها ؛ أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية ، وتبعثه على طلب غايتين : إما شهادة مريحة أو حياة هنية ؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ، ويعجل له الانتصاف من عدوه قبل إكمال سنته .

الصفحة العاشر

(في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم)

قال في "موادّ البيان" : لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة - عند ما ينتهي [إليه] من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم ، وأستباحة المحارم ، وأقتراف المآثم ؛ كالزنا

(١) في "حسن التوسل" «ولا ينفث» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرُق، والغصب والتظالم، وما يجري هذا المجرى -
بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته، المُمْتَنِّ
بفضله قبل إيجاب شكره؛ خالق الخلائق جوداً وكرماً، وموسعهم مناً ونعماً؛ الذي
أختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس، ونزهه عن الأدناس، وأخص به صفوته
من الناس؛ وأبتعث به محمداً سيِّد المرسلين : ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ
عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فوّض إليه إيالة خلقه، وأفدّره على القيام
بخدمته؛ ونصبه لإعزاز دينه، والمحافضة على مفروضه ومسئونه؛ وزيادة العباد
عن محاربه التي نهى عن التعدي إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها؛ ويسأله الصلاة
على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإنَّ أمير المؤمنين يرى أنَّ من أعظم نعم الله تعالى عليه تَوْفِيقُهُ لِحِفْظِ
مَا اسْتَحْفَظَهُ من شريعته، ورعاية ما استرعاه من بريته، وتوفير القيام على مَنْ قَلَدَهُ
النَّظَرَ فيهم، وأعتاد ما يعود بالصلاح في الدين والدنيا عليهم؛ ومساواته بين قريتهم
وبعيدهم في تفقده، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده؛ فلا ينال القريب [فقط]
نصيباً من رعايته ويعلم جاهلهم، ويهْدِي حائرهم، ويُشْجِدُ بصائرهم، وَيُثَقِّفُ
مآئدهم، ويصلح فاسدهم؛ وَيَخَوِّعُهُمْ من مَوَاعِظِهِ بما يُرَدُّ الغلّ، وَيُشْفِي العِلَلَ؛
وَيَنْسَخُ الشُّكَّ باليقين، وَيُقَيِّسُ مَقَالِسَ النُّورِ المبين [فن] أصغى إلى إرشاده سَعِدَ
جَدُّهُ، وَوَرَى زَنْدَهُ، وَأُحْمِدَ يَوْمُهُ وَغَدُهُ؛ ومن خالف عن أمره ضلَّ مسعاه، وخسر
آخرته ودُنياه، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه، والكف بإقامة
الحدود عليه من جمّاحه .

وَأَتَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ وَأَهْلُ الدَّعَاةِ قَبْلَكُمْ مِنْ احْتِقَابِ
الْآثَامِ ، وَأَسْتِدْمَاتِ مَرَائِكِبِ الْحَرَامِ ، وَالْأَسْتِهَارِ بِمَحْظُورِ اللَّذَاتِ ، وَالْإِتْجَابِ عَلَى
دِنْيَةِ الشَّهَوَاتِ ، الَّتِي تَسْلُخُ مِنَ الدِّينِ ، وَتُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَتَدْفَعُ عَنْ تَأْيِيدِ
الْعِبَادَاتِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ؛ وَتَنْظِمُ فِي سِلْكِ الْبَهَائِمِ الْمُرْسَلَةِ ، وَالسَّوَائِمِ الْمُهْمَلَةِ .
وَتَقْصِيرُ مَشَائِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ عَنْ كِفْهِهِمْ ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَكْفُفِهِمْ ؛ وَتَعْرِيفُهُمْ وَجْهَ
مُرَاشِدِهِمْ وَتَقْوِيمَ أَوْدِهِمْ ، فَاْمْتَعَضَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَشْفَقَ مِنْ نَزُولِ الْقَوَارِعِ وَالْمَثَلَاتِ ،
وَحُلُولِ الْبَلِيَّاتِ وَالْآيَاتِ ؛ وَارْتَجَاعَ مَا أَوْدَعَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَأَتَرَاعَ مَا أَلْبَسَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَبَادَرَ بِكَتَابِهِ مُوقِظًا لِعَافِكُمْ ، وَمُبَصِّرًا لَذَاهِبِكُمْ ، وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى مَرْضَاهِ
الْأَوَّلَى ، وَمَعَاوِدَةِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ؛ وَمِبَادِرَةِ آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَالْأَخْذِ لِأُحْرَاكُمْ
مِنْ أَوْلَاكُمْ ، وَلِسَقَمِكُمْ مِنْ صِحَّتِكُمْ ، وَلِنُومِكُمْ مِنْ يَقَظَتِكُمْ ؛ عَالِمِينَ أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا كَسْفَرٍ شَارَفُوا الْمَنْزِلَ . فَاجْهَدُوا عِبَادَ اللَّهِ
وَأَحْتَشِدُوا ، وَأَقْلِعُوا وَارْجِعُوا ، وَاسْمِعُوا وَعُودُوا ؛ فَكُنْكُمْ وَاللَّهُ وَقَدْ تَوَصَّحَتْ خُدْعُهَا ،
وَتَصَرَّمْ مَتَاعُهَا ، وَجَلَّ مُتَوَقِّعُهَا ؛ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَثِقَ بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَقَادِ أَيَّامِهِ ،
وَوُرُودِ حِمَامِهِ ؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ أَفْرَطَ وَفَرَطَ ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَا مَنَدَمَ . وَأَوْعِزْ إِلَى وَإِلَى الْحَرْبِ
فَلَانِ بَقْرَاءَةِ مَا نَصَّ فِيهِ عَلَيْكُمْ ، وَاخْتِبَارِ سَيْرِكُمْ بَعْدَ مَرُورِهِ عَلَى أَسْمَاعِكُمْ ؛ فَمَنْ رَغِبَ
فِي التَّقْوَى ، وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ؛ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَوَخَّاهُ بِتَكْرِمَتِهِ وَتَحَوَّلَهُ ، وَمَنْ أَبَى
إِلَّا غَوَايَةَ وَضَلَالًا ، وَبِطَالَةً وَمِحَالًا ؛ أَقَامَ حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْرَ مُرَاقِبٍ فِيهِ . فَرَحِمَ
اللَّهُ عِبْدًا صَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنِ الْعَارِ ، وَجَاهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ؛
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ ، وَيُشْفِيَ صُدُورَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَيُرْشِدَكُمْ
إِلَى مَا يُفِضِي بِكُمْ إِلَى الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ . فَلْيَعْلَمْ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَسْمِهِ ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ بِجُحْتِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصفحة الحادى عشر

(الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين)

قال فى "مواد البيان" : من أهم ماصرف إليه السلطان تفقده ، ووقف عليه [تعهده] أمر الرعايا فى أعماله ، وتفيد الكتب إليهم بالنهى عن التنازع فى الدين ، وحسم أسباب المجادلة والمراء ، والتحذير من اتباع البدع والأهواء ، والإخلاد إلى مصل النحل والآراء : لأنه متى فسح لهم فى هذا الباب صاروا شيعة متباينين ، وفرقا متحاربين ؛ وأنشقت عصاهم ، وأتقضت حيلهم ، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة ، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان . ولهذا صرف إليه الساسة الحزمة من الملوك الأهتمام ، ولم يتخلوا بحسم مادته على تغاير الأيام .

ثم قال : والرسم فيها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمة فى تأليف كلمة أهل الإسلام ، ومامن به عليهم من الاتفاق والائتام ؛ وشكره على موهبته فى نزع الغل من صدورهم ، والتأليف بين قلوبهم ؛ وتصييرهم إخوانا متصافين ، وخلافا متوافين ؛ وعونهم بما وفقهم له من إظهارهم على من شق عصاهم ، وإقذارهم بما منحهم من الألفة على مرأمة من رآهم ؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم . ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكنته الله تعالى من مرضيه ، ووفقه له من القيام بفرضه ، والنهوض بحقوق طاعته ، والعمل بكتابه وسنته ، ورغبته فى الخير العام ، وشمول الصلاح لكافة الأنام - لا يزال يحض رعيته على ما يقضى بسداد دنياهم ، وحسن المنقلب فى آخرهم ؛ ويرى أن أنفع ذلك عائده ، وأجزله فائده ؛ ما رفع عنهم أسباب التنافر ، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر ؛ وحال بينهم وبين الخوض فى محدث النحل والآراء ، والإصغاء إلى مصل البدع والأهواء ؛ التى

تَصُدُّ عَنْ سَنَنِ الْهُدَى، وَتُلْقِي فِي مَهَاوِي الرَّدَى، وَتَدْعُو إِلَى شَقِّ الْعَصَا، وَتَقْضِي بَانْتِثَارِ النَّظَامِ، وَآخْتِلَافِ الْأَثَامِ، وَأَنْفِصَامِ عُرَى الْإِسْلَامِ. وَكَفَّهِمْ عَنِ الْمُمَارَاةِ فِي الدِّينِ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى سُنَّةِ الْمُضِلِّينَ، الْمُعْطَلَةِ لِلْسُّنَنِ، الْقَادِحَةِ لِلْفِتَنِ، الدَّاعِيَةِ إِلَى احْتِقَابِ الْآثَامِ، وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ الْحَرَامِ، وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يَضَاهِيهِ.

ثم يقول: وَأَتَمُّهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْتَفَاتُكُمْ عَنْ مَعَاشِكُمْ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِدُنْيَاكُمْ قِيَامًا، وَعِبَادَتِكُمْ الَّتِي صَيَّرَهَا لِآخِرَتِكُمْ نِظَامًا، وَإِقْبَالُكُمْ عَلَى الْمُمَارَاةِ وَالْمُنَازَعَةِ، وَالْمُنَاطَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ، إِلَى سُكُوكِ يُقِيمُهَا مَنْ يَرِغُبُ فِي الرِّيَاسَةِ وَالتَّقَدُّمِ: لِيَفُوزَ بِخَبِيثِ الْمَطْعَمِ، الَّذِي يُعْمَى الْبَصَائِرُ، وَيُفْسَدُ السَّرَائِرُ، وَيَقْدَحُ زَنْدُ الضَّلَالِ، وَيُسَبُّ نَارَ الْمَحَالِ وَالِاتِّحَالِ، فَاُمْتَعَصَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ وَخَافَ عَلَيْكُمْ أَلِيمَ عَاجِلَتِهِ، وَذَمِيمَ آجِلَتِهِ، وَبَادَرَكُمْ بِكُتَابِهِ هَذَا مُنَبِّهًا لِفَافِكُمْ، وَمُرْشِدًا لِجَاهِلِكُمْ، وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى التَّشَاغُلِ بِمَا أَطَابَ أَخْبَارَكُمْ، وَحَسَّنَ آثَارَكُمْ: مِنْ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَثَرُكُمْ بِتِلَاوَتِهِ، وَزِيَارَةِ بُيُوتِ عِبَادَتِهِ، وَالتَّادِبِ بِأَدَبِ نَبِيِّهِ وَعِثْرَتِهِ، وَأَوْعَزَ إِلَى النَّائِبِ فِي الْحَرْبِ بِتَقْوِيمِ مَنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِ، وَتَثْقِيفِ مَنْ أَصْرَغَ عَلَى غِيهِ، وَأَنْ يَحْسِمَ الدَّاءَ قَبْلَ اسْتِشْرَائِهِ، وَيَسْتَدْرِكَهُ دُوَيْنَ اسْتِفْعَالِهِ، فَاصْغَوْا إِلَى زَوَاجِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاعِظِهِ، وَأَقْتَدُوا بِهَدْيِهِ وَمَرَّاشِدِهِ، لَتَفُوزُوا بِطَاعَتِهِ، وَتَسْعَدُوا بِرِضَاهِ، وَتَسْلَمُوا فِي الْحَاضِرِ، مِنْ مَهَانَةٍ أَنْتُمْ بَغِيرُهَا أَوَّلَى، إِنْ سَلَكَتُمْ الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَّى، وَفِي الْغَابِرِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِمَنْ خَالَفَ عَنْ أَمْرِهِ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَى، فَاعْمَلُوا هَذَا وَاعْمَلُوا بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال: وَقَدْ يَكْتُبُ السُّلْطَانُ إِلَى الرَّعِيَّةِ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَانُرِ بِالْبَادِيَةِ وَالتَّنَازَعِ فِي الْعَصِيَّةِ. ثم قال: وَالطَّرِيقَةُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُسْتَقَّةٌ مِنْ طَرِيقَةِ هَذَا الرَّسْمِ.

الصف الثاني عشر

(المكتبة بالأوامر والنواهي)

قال في "موادّ البيان" : على هذه الكتب مدارُّ أشغال السلطان في أعماله ، لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولأية وعُمالة .

قال : وليس لهذا أمثلة فنوردها ، لِكِنَّه ينبغي للكاتب أن يؤكّد القول بها ، فإن الأمر فيها والنهي - وإن اختلف نظمهما - نوعٌ واحد : لأنَّ كُلَّ مأمورٍ به منهيٌّ عن ضده ، وكُلَّ منهيٍّ عنه مأمورٌ بضده ؛ فينبغي له أن يؤكّد القول في امتثال ما أمر ، والعمل عليه والإنفاذه ، والانتهاه عما نهى عنه ، والحدّ من الإلزام به . ويجزم الأمر في العبارة عنهما جرماً تاماً لا يُمكّن معه من الإخلال ببعضهما والتقصّ فيهما لهوى ؛ ويأتي من المبالغة بما يضيق العُدْر ، ومتى وقع تقصير أو تناقض عما حدّد فيهما ، فإنما يُمثّل ذلك بمثل جامعة مع تفنّن المعاني التي يأمر بها وينهى عنها .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق الإجمال ، أمكنه أن يسطّعه إذا احتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى .

وأعلم أنه كان للخلفاء والملوك وولاة الأمور في قديم الزمان عناية بالكتابة إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين : من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وإلى العمال بالوصية بالرعايا ، والاجتهاد فيما لديهم من جباية الخراج ، والاهتمام بأمر الدواوين ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين ، فقد تقدّم في الكلام على مُصطلح أهل الغرب في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازازي ما أغنى ذكره هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره .

وأما الأوامر والنواهي المتعلقة بأمور السلطنة، فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله
ابن الحنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هود أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرفق
بالرعية، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى معلى منار الحق ورافعه، ومولى متوالى الإنعام ومُتتَابِعِهِ ؛
والصلاة على سيدنا محمد رسوله مُشَفَّعِ الحُشْرِ وشَافِعِهِ ، المبعوث ببدائع الحكم
وجواميعه ؛ وعلى آله وصحبه المُبَادِرِينَ إلى مقاصده العلية ومنَازِعِهِ ، والدَّائِينَ عن حَوَزةِ
الإسلام بمَوَاضِي الاعتزام وقواطعه ؛ والرِّضَا عن الخليفة الإمام العباسي أمير المؤمنين
ذِي المجد الذي لَا يَنَالُ شَمُّهُ مَطَالِعُهُ .

فإنا كتبنا إليكم ، كتب الله لكم عِزَّةً قَدْ حُفَّتْ بِالنُّبُوتِ فَائِزٌ ، وسَعَادَةً قَسَطَهَا لِلنَّاءِ
حَازِرٌ ؛ من فلانة : وكلمة الحق منصورة اللواء ، منشورة الأضواء ، والتوكل على الله
في الإعادة والإبداء ، والتسليم إليه مَنَاطُ أَمْرِنَا فِي الْإِتِّهَاءِ وَالْإِبْتِدَاءِ ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى
وَشُكْرُهُ وَصَلَّتْنَا إِلَى نَيْلِ مَزِيدِ النِّعَاءِ وَالْآلَاءِ ؛ وَمَكَانَتُكُمْ لَدَيْنَا مَكَانَةُ السَّنِيِّ الْمُنَاصِبِ ،
الْمُتَشَبِّهِ إِلَى كِرَامِ الْمُتَمَتِّاتِ وَالْمُنَاسِبِ ؛ الْمُتَحَلِّ فِي الْغِنَاءِ وَالْإِكْتِفَاءِ ، وَالْخُلُوصِ
وَالصِّفَاءِ ، بِأَكْرَمِ السَّجِيَّاتِ وَالْمُنَاقِبِ ؛ الْمَعْلُومِ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْمُنَاصَحَةِ السَّالِكَةِ بِأَكْرَمِ
السَّجِيَّاتِ فِي الْمُنَاحِي الْحَسَنِ عَلَى الْمَهْيَعِ الْأَوْضَعِ وَالسَّنَنِ الْأَحَبِ .

وقد وقفنا على كتابكم معلماً بنجر فلانة وبما رأيتوه من المصلحة في تحصيلها ،
والاجتهاد في سبب تأمينها ؛ ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح ، وتوَحَّخُونَ مَائِتُوسَمُونَ
فيه النَّجَاحَ ؛ لَكِنْ أَهَمُّ الْأُمُورِ عِنْدَنَا ، وَأَوْلَى مَا يُوَافِقُ غَرَضَنَا وَقَصْدَنَا ؛ الرَّفْقُ
بِالرَّعِيَّةِ ، وَحَمْلُهَا عَلَى قَوَانِينِ الْإِحْسَانِ الْمُرْعِيَّةِ ؛ وَعَلَى أَثَرِ وَصُولِ كِتَابِكُمْ وَصَلْنَا كِتَابُ
[أَهْلٍ] فَلَانَةَ الْمَذْكُورَةَ يَشْكُونَ ضَرَرَ الْخِدْمَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِيهِمْ ، وَيَتَظَلَّمُونَ مِنْ
مُتَحِفِّهِمْ وَمُتَعَسِّفِهِمْ ؛ وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ ، وَلَا تَرْضَوْنَ بِهِ لَوْ أَنْتَهَى إِلَيْكُمْ ؛

فإنه إذا كان الناظر في خِدمةٍ مِّنْ لَا يُحْسِنُ سِيَّاسَةَ الْأُمُورِ ، وَلَا يَعْلَمُ طَرِيقَ الرَّفِيقِ الحَاوِيَةِ لِرَفِيقِ الْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ ؛ أَعَادَ التَّسْكِينَ تَغْيِيرًا ، وَالتَّيْسِيرَ تَعْسِيرًا ؛ وَتَعْلَمُونَ أَنَّا لَا نَقْدَمُ عَلَى إِيْشَارِ الْعَدْلِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَمَلًا ، وَلَا نَبْنِي لَهُمْ بِاطْنَةً بَغِيرَ التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بَدَلًا ؛ وَأَنْتُمْ أَوَّلُ وَأَوَّلَى مَنْ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ يُجَلَّلُ هَذَا الْمَقْصَدُ ، وَيَتَحَرَّى فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا هَذَا السَّنَنَ الْأَرْشَدَ ؛ وَقَدْ خَاطَبْنَا أَهْلَ فَلَانَةِ بَمَا يُذْهِبُ وَجَلَّهُمْ ، وَيَسْطِطُ أَمْلَهُمْ ؛ وَعَرَّفْنَاكُمْ بِأَنْكُمْ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ جَارٍ عَلَيْهِمْ مِنْ [بَعْضِ] الْخِدْمَةِ لِأَخْذَتُمْ عَلَى يَدِهِ ، وَجَازَيْتُوهُ بِسُوءٍ مُّعْتَمَدَةٍ ؛ وَأَشْعَرْنَاكُمْ بِأَنَّ قَدْ اسْتَوْصَيْنَاكُمْ بِهِمْ خَيْرًا ، وَنَبَهْنَاكُمْ عَلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا وَيَرْفَعُ ضَرًّا ؛ وَأَنْتُمْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَسْتَأْنِفُونَ نَظْرًا جَمِيلًا ، وَتَوَضَّعُونَ عَنْهُمْ الْخِدْمَةَ الَّذِينَ لَا يَسْلُكُونَ مِنَ السِّيَّاسَةِ سَبِيلًا ؛ وَتَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ مَنْ تَحْسُنُ فِيهِمْ سَيْرَتُهُ ، وَتَكْرُمُ فِي تَمْشِيَةِ الرَّفِيقِ عَلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ ؛ وَمِثْلُكُمْ لَا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِ فِي مَذْهَبٍ تَحْسِنُ عَوَاقِبُهُ ، وَغَرَضُ يُوَافِقُهُ الْقَصْدُ الْإِحْتِيَاطِيّ - وَيُصَاحِبُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث عشر

(المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يَكْتُبَ السُّلْطَانُ إِلَى الرِّعَايَا - عِنْدَ حَدُوثِ الْآيَاتِ الْمُهَوَّلَةِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا إِرْشَادَ عِبَادِهِ إِلَى الْإِقْلَاعِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى طَاعَتِهِ ، كَالرِّيَّاحِ الْعَوَاصِفِ ، وَالزَّلَازِلِ وَالصَّوَاعِقِ ، وَاحْتِبَاسِ الْقَطَرِ وَخُرُوجِهِ فِي التَّسْكَابِ عَمَّا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ - كُتُبًا يُضَمِّنُهَا مِنَ الْوَعْظِ الشَّافِي الرَّفِيقِ مَا يَأْخُذُ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَيُشْعِرُهَا التَّقْوَى وَالرَّهْبَةَ ، وَيُبْعَثُ عَلَى الْمُرَاقَبَةِ وَالنَّظَرِ فِي الْعَاقِبَةِ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطف في الموعظة ، ويبالغ في الذكرى التي تُحطَر الخواطر وتقدح الأنفس ، وتُحزك العزائم نحو الإخلاص ؛ فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صور [تُشعر ^(١)] الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه ، وترغب في عفوه وثوابه ؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى ، ورغب في التقوى بكتابته .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على آلائه التي يفيضها ابتلاء واختبارا ، وآياته التي يرسلها تحويفا وإنذارا ؛ وموهبته في التوقيف بسايع نعمته على طاعته ، والتحذير بدافع نعمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذي أقذف شفاعة ، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعدار أمام سُخطه وعذابه ، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه ؛ فمن استيقظ من سنته ، ونظر لعاقبته [ونهض ^(١)] إلى طاعته ، وأقلع عن معصيته ، كشف الرين عن قلبه ، وضاعف أجره ، ومن أضرب عن موعظته ، وتعمى عن تبصيره وتذكيره ، أخذه على غرته ، وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ في حث الأمة على الفرع إلى الصلوات ، والمسارة إلى بيوت العبادات ؛ والإكثار من التضرع والخشوع ، والاستكانة والخنوع ، بإذراء سحائب الدموع ؛ وإخلاص التوبة عن مُحْتَقَب الآثام ومُحْتَرَج الأوزار ، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإنابة بقلوب نقيه ، وطويات على الطهارة مطوية ؛ وسرائر صريحة ، ونيات صحيحة ؛ يصدقها الندم على الماضي ، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي ؛ والرغبة إليه في رفع سُخطه وإنزال رحمته ، وما يجارى هذا .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا فلا عناية لأحد به أصلا ، وإن كان مما يجب الأهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصِّنف الرابع عشر

(المكتبات في التنبيه على شرف مواسم العبادة وشريف الأزمنة)

قال في "مواد البيان" : إن الله وَقَّتَ لعباده أوقاتاً عَظُم شأنها ، ورفع مكانها ، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لُطْفًا بهم ورأفَةً ، وحنانًا ورحمة .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلى عُمَّالِهِ بتنبيه الرعايا عليها ، وتَعْرِيفِهِمْ فضل العبادة فيها : ليستقبلوها بالإِخْبَاتِ والخُشُوعِ ، وَيَتَّقَوْهَا بالتَّضَرُّعِ والخُضُوعِ ؛ ويتوسلوا في قَبُولِ التَّوْبَاتِ ، وغُفْرَانِ الْخَطِيئَاتِ ؛ حِفْظًا لنظام الدين ، وتَقَقُّدًا لمصالح المسلمين .

قال : وينبغي للكاتب أن يحسن التَّأَنِّي في هذه الكتب ^(١) ويُدَكِّرَ النَّاسِيَّ وينبه العَافِلَ اللّاهِيَّ ، والمُهْمِلَ السَّاهِيَّ ؛ ويحرِّكَ النفوس نحو مصالحها ، ويعبثًا على الأخذ بفاضل الأعمال وصالحها .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يتقبل فيها قُرْبَهُمْ وأَعْمَالَهُمْ ، وَيُخَفِّفُ بالإِثَابَةِ إِلَيْهِ عند حلولها أَوْزَارَهُمْ وأَنْقَالَهُمْ ؛ فيغفر مُسْتَفْهِرَهُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ مُسِيئَتِهِمْ ؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عَنْ تَائِبِهِمْ . والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات ، والإِثَابَةِ عَمَّا فِي قَصْرِهَا على العبادات ، والمسابقة إلى الخيرات ، من عظيم الثواب . وَيَشْفَعُ بَعَثِ الْوَلَاةِ على أخذ الرعايا بالمحافظة على السَّنَنِ ، وتَعَهُّدِ حَقِّ الله تعالى فيها ، وَالتَّوَسُّعِ في توكيد الْحُجَّةِ ، ونَقْيِ الشبهة ؛ وإيراد المواظظ الرادعه ، والزواجر الوازعه ؛ التي تعود بِشَحْذِ البصائر ، وصفاء الضمائر ، والإِثْبَانِ بحقوق هذه الأوقات وواجباتها ،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

وَالْفَوْزَ بِمَا يُؤَفِّرُهُ مِنْ جَزِيلِ بَرَكَاتِهَا ، وَالتَّوَفُّرَ عَلَى حُسْنِ مَجَاوِرَتِهَا ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِبَذْلِ الصَّدَقَاتِ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَزِيَارَةِ بُيُوتِ الْعِبَادَاتِ ، وَمُذَاكِرَةَ أَهْلِ الدِّينِ ، وَالسَّعْيَ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَنَاسِبُهُ .

ثم قال : فَإِنْ كَانَ الْكَتَابُ مَقْصُورًا عَلَى الدَّعَاءِ إِلَى الْحَجِّ ، أَفْتَتَحَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ عَلَى أَنْ جَعَلَ لِعِبَادِهِ حَرَمًا آمِنًا يُحِصُّ ذُنُوبَهُمْ بِزِيَارَتِهِ ، وَيَمْحُو آثَامَهُمْ بِحُجَّتِهِ وَوَفَادَتِهِ ؛ وَيَلِي ذَلِكَ مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْحَثِّ عَلَى تَأْدِيَةِ الْمَنَاسِكَ ، وَتَكْيِيلِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي سَائِرِ الْأَبْوَابِ الدِّينِيَّةِ .

الصف الخامس عشر

(المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط

في سلكها من المواكب الجامعة)

قال في "موادّ البيان" : جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَكْتُبَ السُّلْطَانُ عُمَّالَهُ وَوُلاَتَهُ بِسَلَامَةِ الْمَوَاسِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا : لِأَنَّهَا تُشَاهَدُ لِمَجْمِيعِ أَصْنَافِ الرِّعَايَا وَذَوِي الْأَرْوَافِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُتَبَايِنَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْمُتَعَادِيَةِ وَالْمُتَصَاحِبَةِ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا ؛ وَكُلُّ مُتَرَبِّصٍ لِفِتْنَةٍ يَنْتَهزُ فُرْصَتَهَا . فَلَا تَكَادُ هَذِهِ الْمَشَاهِدُ تَخْلُو مِنْ ثَوَرَةٍ وَحْدَةٍ أَحْدَثَتْ مُنْكَرَةً تُقْضَى إِلَى الْفِتَنِ الَّتِي لَا تُرْفَعُ . فَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا ، وَجِبَ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَتِهِ ، وَالشُّكْرُ لِمَشِيئَتِهِ ؛ وَأَنْ يَكْتُبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِسَلَامَةِ مَا قَبْلَهُ إِلَى عُمَّالِهِ ، لِتَسْكُنَ الْكَافَّةُ إِلَى ذَلِكَ ، وَيَشْتَرِكُوا فِي حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوَاسِمَ الَّتِي كَانَ يَعْتَادُ الْخُلَفَاءُ الرُّكُوبَ فِيهَا وَالْكَتَابَةَ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا هِيَ : عِيدُ الْفِطْرِ ، وَعِيدُ النَّحْرِ . وَكَانَ الْخُلَفَاءُ الْفَاطِمِيُّونَ بِالْأَيْدِي الْمِصْرِيَّةِ يَعْتَادُونَ

مع ذلك الركوب في غُرَّةِ السَّنة ، وفي أوَّلِ رَمَضان ، وفي الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ما تقدَّم ذِكرُه في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغدير" : وهو عيدٌ من أعياد الشَّيعة كما سيأتى ذكره . ونحن نُشير إلى ذِكر مَوَكبها مَوْكبًا مَوْكبًا ، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في ركوب كُلِّ مَوْكب منها .

الأول — البشارة بالسلامة في الركوب في غُرَّةِ السنة . وقد تقدَّم الكلام على صُورة المَوْكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، أورده أبو الفضل الصُّوري في تذكرته ، وهي : الحمد لله الذى لم يزلْ يُولى لإحسانا وإنعاما ، وإذا أبلى عبيدهَ عامًا أجدهم بفضله عامًا ؛ فقد أمَدَّكم معاشر [الخلفاء] ^(١) كَرَمًا وَمَنًّا ، وَأَتَاكم مِنْ جُودِهِ أَكْثَرُ مَا يُنْتَمَى ؛ وَمتَّحِكُمْ مِنْ عَطَائِهِ مَا يُوفَى عَلَى مَا أَرْدَتْموه ، ﴿ وَتَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَأَتُمُوهُ ﴾ وقد آستقبلتم هذه السَّنة السعيدة ، وإذا عَمَلْتُمْ بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة .

وصلَّى الله على سيدنا محمد نبيِّه الذى غدتِ الجنة مدَّخرةً لمن عَمِلَ بهُدَاه لَمَّا سَمِعَهُ ، وَمُهَيَّاةً لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَ الثَّورَ الذى أُنْزِلَ مَعَهُ ؛ وَبَيْنَ إِيْرَاشَدِهِ مَا تَجَرَّى أُمُورُ السَّنِينَ عَلَيْهِ فِي الْعَدَدِ وَالْحِسَابِ ، وَنَسَخَ مَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ [تفعله] فِيهِ زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ وَضَلَالًا عَنْ الصَّوَابِ ؛ وَعَلَى أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ الذى كَمَّلَ اللهُ الْإِسْلَامَ بِإِمَامَتِهِ ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ لِأَهْلِ وِلَايَتِهِ ، وَمَنَحَ شَيْعَتَهُ مَقْبُولَ شَفَاعَتِهِ ؛

وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه ، والقائمين بواجب حقه ، والعالمين
في سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه ، ويضمن غفرانه ورضوانه ، وسلم عليهم
أجمعين ، سلاماً باقياً إلى يوم الدين .

وإن أحق النعم بنشر الذكر ، وأوجبها للوصف وإعمال الفكر ، نعمة رفعت الشك
وأزالت اللبس ، ووضح ضيائها لأولى الألباب ووضح الشمس ، وأشترك الناس
فتضاعفت الفائدة لديهم ، وأنفعوا بذلك في تواريحهم ومعاملاتهم ومالهم وعليهم ،
وتلك [هي] المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ، ومبدؤها ومُستقبلها ،
وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان . وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام
فلان - ليتسوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة ، فيكون استقلال ركابه إشعاراً
بأن اليوم الذي تجلّى فيه لأوليائه ، ولرعاياه المتفنيين ظلّ لوائه ، هو افتتاح السنة
وأول محرمها ، وعليه المعتمد في عدد تامّ الشهور وناقصها من مُفتتحها إلى مُحْتَمِها -
يوم كذا غرة المحرم من سنة كذا ، في عساكر لا يحصر عددها ، وقبائل لا ينقطع
مددها ، وإذا اضطربت نار الكفر والتهبت ، طفت بأنوارهم وخبّت ، وقد تلدّت
هنديّة تروع إذا أشرقت وسكنت ، فما الظنّ إذا أصطحبت ، والأرض بمرورها عليها
مبهجة موقّعة ، وملائكة الله عزّ وجلّ حافّة به مُحَدِّقة ، فأذن بأن اليوم المذكور هو
غرة السنة المعينة ، وأن اليوم الفلاني أمسه أنسلاخ كذا سنة كذا المتقدمة : لتستقيم
أمورهم على أعدل نهجهم ، وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطريهم وحجهم ،
وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوّه الأمير على من يسكن عمله ، وجميع من قبله ،
ويتمثلوا في معرفته ، ويحمل كلّ منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ،
ويشكروا الله على النعمة عليهم بهديته . وهو يعتمد ذلك ويطلع بكائنه فيه
إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

الثاني — البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان ، وهي على نحو مما تقدم في الركوب في غرة السنة .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهو :

الحمد لله كإني خلقه في اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للأنام ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب أخلص ولي ، وأشرف وصي ، وأفضل إمام ، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال .

وإن من المسرة التي تُتهادى : والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفردى ، ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر وافتتاحه ، وأن الصيام الأول من فحره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ، والمينة رؤيته قد تساوى فيها الكافه ، وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهرة ، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة .

أصدر إليك هذا الأمر لتفيع على الجملة ، وتشكر النعمة السابغة على أهل الله ، وتتلوها على أهل عملك ، وتطالع بكائيك في ذلك ، فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

الثالث — الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضا ، وهي :

أفضل مأسِرٍ ذِكره، ووجب حمدُ الله تعالى عليه وشُكْرُه، ما عادَ على الشريعة بالجمال
والبَهجة، وأضحى وأصفه صحيحَ المقالِ صادقَ اللّٰهجة، فضاغفَ حسنةً ومحصَّ
سيئته، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَهَيِّئَةً، وذلك ما يَسِرُّه الله تعالى من استِقلال
رِكَّابِ سيِّدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، يوم
الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا: مُؤَدِّياً خُطْبَتَهَا وَصَلَاتَهَا، وضامناً لَأُمَّةٍ ائْتَمَّتْ به
خَلاصَها يومَ الفَرَجِ الأَكْبَرِ وَنَجَاتِهَا، في وَقَارِ النُّبُوَّةِ وَسَكِينَةِ الرِّسَالَةِ، وَالْهَيْبَةِ المُسْتَوَلِيَةِ
عَلَى الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالَةِ، والعساكرِ الْجَمَّةِ الَّتِي تُقَلِّقُ بِمَهَايِبِهَا وَتُرْجِعُ، وَتُنْظِنُ لِكَثْرَتِهَا
وَاقِفَةً وَالرِّكَّابَ يُهْمِلِجُ، ولما أَتَيْتُ إِلَيْهِ، خَطَبَ وَعَظَ فَفَتَحَ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ،
وَأَبَ إِلَى الطَّاعَاتِ مَنْ لَمْ يُطْمَعْ مِنْهُ بِالْأُوبَةِ، وَصَلَّى صَلَاةً تَقْبَلُهَا جَلٌّ وَعِزٌّ يَقْبُولُ
حَسَنُ، وَقَصَرَ فِي وَصْفِهَا ذُووُ الْفَصَاحَةِ وَاللَّسَنِ، وعادَ إِلَى مُسْتَقَرِّ الْخِلَافَةِ، وَمَثْوَى
الرَّحْمَةِ وَالرَّافَةِ، وَعَيْنُ اللَّهِ لَهُ مَلَا حِظَّهُ، وَمَلَأَتْكَتْهُ لَهُ حَافِظُهُ. أَعْلِمْتَ ذَلِكَ لُتَذِيعَهُ
فِي أَهْلِ عَمَلِكَ، وَتَطَالَعِ بِكَائِكَ .

الرابع — المكتوبة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رَمَضَانَ .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة بالديار المِصْرِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ،
فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ : أَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَ يَرْكَبُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى الْجَامِعِ
الْأَنْوَرِ، وَهُوَ جَامِعُ بَابِ الْبَحْرِ، الَّذِي عَمَّرَهُ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَجَدَّهِ الصَّاحِبُ
شَمْسُ الدِّينِ الْمُقْسِيُّ .

وهذه نسخة كتاب في المعنى، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً، وهي :

لَمْ يَزَلْ غَامِرُ كَرَمِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، يَفُوقُ حَاضِرُهُ مَا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ، فَنِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى
سَابِغُهُ، وَمِنْهُ مُتَتَابِعُهُ، وَمَلَأَ بِسُهَا ضَافِيَهُ، وَمَغَارَسُهَا نَامِيَهُ، وَتَحَايَيْهَا هَامِيَهُ، وَهُوَ جَلٌّ

وَعَزَّ يَضَاعِفُهَا عَلَى مَنْ صَلَّى وَصَامَ، وَيُؤَالِيهَا عِنْدَ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا أَنْفَصَالَ لَهَا وَلَا أَنْفِصَامَ؛ وَتَجَدَّدَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ بُرُوزِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا الْإِمَامِ فَلَانٍ: صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ، وَأَبْنَائِهِ الْأَكْرَمِينَ؛ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ كَذَا: فِي شَاخِ عِزِّهِ، وَبَادِيخِ جَبْدِهِ، وَتَوَجُّهِهِ إِلَى الْجَامِعِ الْأَنْوَرِ الْمُنْسُوبِ إِلَى مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ جَدِّهِ، سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَوَاتُهُ، وَبَرَكَاتِهِ وَتَحِيَّاتِهِ؛ وَعَسَاكَرِهِ قَدْ تَجَاوَزَتِ الْحَدَّ، وَكَثُرَتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ، فَإِذَا تَأَمَّلَهَا الطَّرْفُ أَتَقَلَّبَ عَنْهَا خَاسِئًا وَارْتَدَّ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْجَامِعِ الْمَذْكُورِ خَطَبَ فَأُورِدَ مِنَ الْقَوْلِ أَحْسَنَهُ، وَوَعِظَ فَأَسْمَعَ مِنَ الْوَعِظِ أَوْصَحَّهُ وَأَيَّبَنَّهُ؛ وَصَلَّى صَلَاةَ جَهَرٍ بِالْقِرَاءَةِ فِيهَا وَرَتَّلَهَا، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الشَّرِيفَةِ وَقَدْ شَمِلَتْ الْبَرَكَاتُ بَرُؤِيَّتَهُ، وَوَفَّقَ مَنْ عَمِلَ بِمَوْعِظَتِهِ، وَنَجَّى مَنْ أَقْتَدَى بِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَسْتَوَى عَلَى السَّعْدِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهِ وَجِهَاتِهِ. أَعْلَمْنَاكَ ذَلِكَ لَنَعْرِفَ قَدَرَ النِّعْمَةِ بِهِ، فَأَشْكُرُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِمَقْتَضَاهُ، وَأَعْتَمِدُ تَلَاوَةَ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ؛ فَأَعْلَمُ ذَلِكَ.

الخامس — المكاتبة بالسَّلامَةِ فِي الرُّكُوبِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ.

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَمْلُوكَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْخَلِيفَةَ كَانَ يَرْكَبُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْهُ إِلَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ بِمَصْرَ،^(١) فَيَخْطُبُ فِيهِ وَيَعُودُ إِلَى قَصْرِهِ.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصَّيْرِي، وهى:

(١) ما تقدم في (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح في أنه كان يركب في الجمعة الثالثة من رمضان إلى الجامع الأزهر، وأنه لا يركب إلى الجامع العتيق إلا في الجمعة الرابعة، التي أهمل هنا ذكرها إليها وحاصل ما تقدم أنه يركب في جمع رمضان ماعدا الأولى.

من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبيده ، وتعويضهم للشكر عليه بموهبه ومن يده ؛ والامتثال بتيسير عصيته ، وتعجيل قصيه ، وتقريب بعيدة ؛ فهو لا يحلهم من نواحيه ، ولا ينفهم من هواحيه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشُمُول خيراته ؛ أن مولانا وسيدنا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آباءه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ والى فيه بركاته ، وزكى أعمال المؤمنين في استماع أخطابه والائتمام بصلاته ؛ وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان ، أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر ليُسبهم لهذه المدينة من حظي الدنيا والآخرة ، مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعزية القاهرة . فكانت هيئته يُعجز وصفها كل لسان ، وظهر - عليه السلام - في الردائين : السيف والطيلسان ؛ والجيوش قد أنبسطت وانتشرت ، والنفوس قد أبتهجت وأستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوقرت . وعند وصوله خطب فأحسن في الألفاظ والمعاني ، وحدّر من تأخير التوبة والتضجيع فيها والتواني ؛ وصلى صلاة شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ؛ وأنكفأ عائدا إلى قصوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره ورفع ذكره ؛ ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك ليبلغ الكافة في الاعتراف بالنعمة فيه ، ويواصلوا شكر الله تعالى عليه ، والمطالعة بما اعتمد فيه .

السادس - ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد الفطر .

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية : أن الخليفة كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد ، ويخرج من باب العيسد من أبواب

القصر، ويتوجه إلى [المُصَلَّى] ^(١) فُيُصَلِّي وَيُحْطَبُ، ثم يعود إلى قصوره؛ ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارةً مع خُلُو الدولة عن وزيرٍ، وتارةً مع اشتغالها على وزيرٍ.

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خُلُو الدولة عن وزيرٍ، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو :

الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار، ومعوّض المطيعين من جزائه ببلوغ الأوطار، الذي نسخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار؛ وكف عباده ما يطيقونه ووعده عليه جزيل أجره، وأسبغ من نعمه ما لا يطمع [في القيام] بواجب حمده عليه وشكره؛ وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أعلن بالإيمان وباح، وبين المحذور في الشريعة والمباح؛ وأرشد إلى ما حرّمه الإسلام وحلّله، ومهد سبل الهدى لمن استغواه الشيطان وضلّله؛ وأوضح مراتب الأوقات ومنازلها، وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي مضت في الله عزّ مائه، وبيّضت وجه الدين الحنيف موافقه ومقاماته؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفّلوا أمر الأمة نصّا، وأمّطوا على منارها فلم يألوا جهداً ولم يتركوا حرصاً؛ فال حاضر منهم يوفي على من كان [من] قبله، وأحزاب الحق فرحون بما آتاهم الله من فضله؛ وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه، وشرفهم تشريقاً لا انفصام لإبرامه؛ وأسنى ومجّد، وتابع وجدّد.

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا : بعد أن وفي الصيام حقّه، وحاز أجر من جعل الله على خزانته رزقه؛ وبعد أن أفطر بحضرته الأولياء من آله وأسرته، والمقدّمون من رؤساء دولته، والمتميزون من أوليائه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم في هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣).

وَشِيعَتِهِ . وكان من نبأ هذا اليوم أنَّ أمير المؤمنين لما أَرْتَقَبَ بَرُوزَهُ من قُصُورِهِ ،
وَتَحَلَّى فَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ ، توجه إلى المَصَلَّى قَاضِيًا لِسُنَّةِ الْعِيدِ ، فكانت نِعْمَةً
ظهوره بالنَّظَرِ [لِلْحَاضِرِ] وبالْخَبَرِ للبعيد ؛ وأَسْتَقَلَّ رِكَابَهُ بالعساكر المنصورة التي أَبَدَتْ
مَنْظَرًا مُفْتِنًا مُعْجِبًا ، وجعلت أَدِيمَ الْأَرْضِ بِالْخَيْلِ وَالرَّجُلِ مُحْتَجِبًا ، وَذَخَرَتْ الْأَنْتِقَامَ
مَنْ شَقَّ الْعَصَا ، وتجاوزت في الكثرة عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَا ؛ وَزَيَّنَتْ الْفَضَاءَ بِهَيْئَتِهَا ،
وَرَوَّعَتِ الْأَعْدَاءَ بِهَيْئَتِهَا ؛ وجمعت بين الطَّاعَةِ وَشِدَّةِ الْبَاسِ ، وَأَدْرَعَتْ مِنَ التَّقْوَى
أَمْنًا جَنَّةً وَأَحْصَنَ لِبَاسًا ؛ ولم يزل سائرًا في السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ، نَاطِرًا لِلدُّنْيَا بَعِينَ
الْأَحْتِقَارِ ؛ والثَّرى بِالْجَبَاهِ وَالشَّفَاهِ مُصَافِحٌ مَلْئُومٌ ، فُهِمَا مَوْسُومَتَانِ بِهِ وَهُوَ بِهِمَا
مَوْسُومٌ ؛ إلى أن وصل إلى مقرِّ الصَّلَاةِ ، وَحَلَّ الْمُنَاجَاةَ ؛ فَصَلَّى أَتَمَّ صَلَاةً وَأَكْمَلَهَا ،
وَأَدَاَهَا أَحْسَنَ تَأْدِيَةٍ وَأَفْضَلَهَا ؛ وَأَخْلَصَ فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ إِخْلَاصَ مَنْ لَمْ يَفُتْ
أَمْرًا وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ وَنَصَحَ فِي إِرْشَادِهِ وَوَعَّظَهُ ، وَأَعْرَبَ بِبَدِيعِ مَعْنَاهُ وَفَصِيحِ
لَفْظِهِ ؛ وعاد إلى مَثْوَى كَرَامَتِهِ ، وَفَلَكَ إِمَامَتِهِ ؛ بِحَمْدِ الْمَقَامِ ، مَشْمُولًا بِالتَّوْفِيقِ
فِي النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لِنُدْبِيعِهِ فِيمَنْ قَبْلَكَ ، وَتَشْكُرُوا اللَّهَ
عَلَى النِّعْمَةِ الشَّامِلَةِ لَهُمْ وَلَكَ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَكُتِبَ
فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدَّوْلَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى وزير ، عن الحافظ
لدين الله العَلَوِيِّ خَلِيفَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، فِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَهِيَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَشَيَّدَ مَنَارَهُ ، وَأَيَّدَ أَوْلِيَائَهُ وَنَصَرَ أَنْصَارَهُ ؛ وَأَظْهَرَ
فِي مَوَاسِمِهِ قُوَّتَهُ وَأَسْتَظْهَرَهُ ، وَخَتَمَ الشَّرَائِعَ بِشَرَفٍ أَبَدِيٍّ فَكَانَ حَظُّهَا مِنْهُ إِثْبَارَهُ ،

وَحَظَّ الْإِسْلَامَ أَسْتَبْدَادَهُ بِهِ وَأَسْتِثَارَهُ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ جَدِّنا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَرَّمَهُ بِاصْطِفَائِهِ ، وَأَسْعَدَ مِنْ حَافِظٍ عَلَىٰ اتِّبَاعِ نَهْجِهِ وَأَقْتِفَائِهِ ؛ وَبَيَّنَّ بِشَرْعِهِ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَدَعَا الْأُمَّةَ بِإِرْسَالِهِ إِلَىٰ دِينٍ قِيمٍ أَعْلَىٰ بِنَاءِهِ وَأَحْكَمِهِ ؛ وَوَعَدَهُمْ عَلَىٰ مَقْرُوضِهِ وَمَسْنُونِهِ جَزِيلَ الْأَجْرِ ، وَأَمَرَ فِي اعْتِقَادِ خِلَافِهِ بِالذَّفْعِ وَالْمَنْعِ وَالزَّجْرِ ؛ وَعَلَىٰ أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَبِينَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلِ الْأَئِمَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَالْمُشْتَهَرَةِ فَضَائِلُهُ أَشْتَهَارًا لَيْسَ بِهِ مِنْ خَفَاءٍ ؛ وَمَنْ حَبَاهُ اللَّهُ الْمَحَلَّ الرَّفِيعَ وَالْمَنْ الْجَزِيلَ ، وَخَصَّهُ مِنَ الشَّرَفِ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ ؛ وَعَلَىٰ الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الْقَائِمِينَ بِفَرْضِ اللَّهِ وَالْمُؤَدِّينَ لِحُقُوقِهِ ، وَالَّذِينَ كَفَلَتْ أَمَانَتَهُمْ بِأَنْبِطَاطِ نُورِ الْحَقِّ وَأَنْتِشَارِ لَوَائِهِ وَخُقُوقِهِ ؛ وَسَلِّمْ وَكَرَّمَ ، وَبِحَمْدِهِ وَعَظَمِهِ .

وَكُتِبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ يَوْمَ كَذَا عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى ثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ بِكَرَمِهِ وَفَضَّلَهُ ؛ فَرَفَعَ تَكَالِيفَ الصَّوْمِ ، وَأَوْجَبَ الْإِفْطَارَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَسَاوَىٰ فِي ذَلِكَ [بَيْنَ] كُلِّ مُتِمِّهِ وَمُنْجِدٍ ، وَأَمَرَ بَنِي آدَمَ فِيهِ بِأَخْذِ الزَّيْنَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ؛ وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ أَنَّ الْفَجْرَ لَمَّا طَلَعَ مُبَشِّرًا بِالشَّمْسِ ، وَمُؤَذِّنًا بِبَعْثِهَا مِنَ الرَّمْسِ ؛ نَتَابَعَتِ الْجُيُوشُ الْمُؤَفَّرَةُ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ ؛ إِلَىٰ أَبْوَابِ الْقُصُورِ الزَاهِرَةِ تَوَكُّفًا لِأَنْوَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرَقُّبًا لظُهُورِهِ قَاضِيًا حَقَّ الدِّينِ ؛ فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ وَأَضَاءَ ، وَمَلَأَتِ الْخَلَائِقُ الْفَضَاءَ ؛ تَجَلَّىٰ مِنْ أَفْلَاكِ إِمَامَتِهِ ، وَبَرَزَ فَأَغْطَىٰ كُلُّ مُؤْمِنٍ بَنَاتِهِ عَلَىٰ الْمُشَايَعَةِ وَإِقَامَتِهِ ؛ وَكَانَ ظَاهِرًا وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بِالْأَنْوَارِ ، وَمُتَمَنِّعًا وَهُوَ مُتَنَبِّهٌ بِالْأَبْصَارِ ؛ وَالْكَافَّةُ يُصَاحِبُونَ الْأَرْضَ وَيَحْتَرِدُونَ فِي الدَّعَاءِ بِإِخْلَاصِ نِيَّاتِهِمْ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمُؤَيَّدَةُ لَوْ أَنَّهَا عَمَّتِ الْأَرْضَ بِتَطْيِيقِهَا ، وَسَاوَتْ بَيْنَ قَرِيبِهَا وَسَحِيقِهَا ؛ وَصَارَتْ كَالْجِبَالِ الرَّوَاسِي فِيهَا ، لَكَانَتْ قَدْ تَزَلْزَلَتْ وَمَادَتْ بِأَهْلِهَا ، وَهِيَ مَعَ تَبَايُنِ أَجْنَاسِهَا وَطَوَائِفِهَا مُتَطَافِرَةٌ عَلَىٰ مُعَانِدِي

الدَّوْلَةُ وَمُخَالَفِيهَا ، مُتَلَامَةً عَلَى الْوَلَاءِ ، مُتَمَالَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ ، تَنَلَّقَتْ إِلَى الْمَجَاهِدَةِ كَأَنَّهَا
الْأَسْوَدُ إِقْدَامًا وَبَاسًا ، وَكَأَنَّهَا فَصَّلَتْ جَوَامِدُ الْعُدْرَانِ سِلَاحًا لَهَا وَلِبَاسًا ، وَالسَّيِّدُ
الْأَجَلُ الْأَفْضَلُ الَّتِي عَظُمَتْ بِهِ الْمَوَاهِبُ وَجَلَّتْ ، وَذَهَبَتْ بِوِزَارَتِهِ الْغِيَابُ
وَتَجَلَّتْ ، وَتَهَلَّلَ بِنُظَرِهِ وَجْهُ الْمَلَّةِ وَكَانَ عَانِسًا ، وَأَعَادَ الدَّوْلَةَ مُعْصِرًا وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَهُ
عَانِسًا ، وَحَسَنْتِ الدُّنْيَا بِأَيَّامِهِ إِذْ لَيْسَ فِيهَا مَنْ يُضَاهِيهِ ، وَانْتَضَمَتْ أُمُورُهَا عَلَى
الْإِرَادَةِ بِصُدُورِهَا عَنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، تَرْتَّبُ الْمَوَاقِبُ بِمَهَابَتِهِ ، وَيُسْتَعْنَى بِتَوَعُّلِهَا
فِي الْقُلُوبِ عَنْ لِيَمَانِهِ وَإِسَارَتِهِ ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مُقْبِلَةٌ عَلَى شَانِهَا ، لِأَزِمَةِ لِمَكَانِهَا ،
مُتَصَرِّفَةٌ عَلَى تَهْذِيبِهِ وَتَقْرِيرِهِ ، عَامِلَةٌ بِأَدَابِهِ : فَوْقُوقُهَا بِوُقُوفِهِ وَمَسِيرُهَا بِمَسِيرِهِ .

وَتَوَجَّهَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمُصَلَّى مُحْفُوفًا بِأَنْوَارِ نُجَلِّ مَا أَنْشَأَتْهُ سَنَابِكُ الْخَلِيلِ ، وَتَمَحَّوْ
آيَةً نَقَعَ قَامَ مُثَارَهَا مَقَامَ ظِلَامِ اللَّيْلِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ وَقَارِ الْإِمَامَةِ ، وَسَكِينَةِ الْخِلَافَةِ ،
مَا خَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دُونَ الْبَرِيَّةِ وَحْدَهُ ، لِأَنَّهُ مِمَّا وَرِثَ أُمِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ وَجَدَّهُ ، وَلَمَّا أَتَتْهُ^(١) إِلَيْهِ قَصْدَ [الْمِحْرَابِ]^(٢) وَأَتَمَّهُ ، وَأَدَّى الصَّلَاةَ
أَكْمَلَ أَدَاءٍ وَأَتَمَّهُ ، ثُمَّ أَتَتْهُ^(٣) إِلَى الْمِنْبَرِ فَعَلَاهُ ، وَبَجَّدَ اللَّهُ تَعَالَى وَحَمْدَهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ ،
وَوَعَّظَ وَعَظًا خَوْفَ عَاقِبَةِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ ، وَحَلَّ وَكَاءَ الْعُيُونِ وَدَاوَى مَرَضَ
الْقُلُوبِ ، وَأَمَرَ بِسُلُوكِ سَبِيلِ الطَّاعَاتِ وَأَفْعَالِ الْبِرِّ ، وَحَثَّ عَلَى التَّوَفُّرِ عَلَيْهَا فِي الْجَهْرِ
وَالسِّرِّ ، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الْمَكْرَمَةِ ، وَمَوَاطِنِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَقَدْ بَذَلَ فِي نَصْحِهِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ جُهْدَهُ ، وَفَعَلَ فِي الْإِرْشَادِ وَالْهَدَايَةِ مَا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ .

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ .

(٢) بِيَاضٍ بِالْأَصْلِ ، وَالتَّصْحِيحُ مِنَ الْمَقَامِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ «إِلَى الْمِحْرَابِ فَصَلَّاهُ» وَلَا مَعْنَى لَهَا .

أنبأك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه ، وتُدِيعه قبلك على
الرسم فيما يُجاريه ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

السابع — ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان
يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر ، تارة مع اشتغال الدولة على
وزير ، وتارة مع عدم اشتغالها على وزير .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي أعلّى منار الملّة ، وشرف مَواَسم أهل القبلة ؛ وكفل
أمير المؤمنين أمر الأيام ، كما كفّله أمر الأنام ، فرأى الناس من حُسن سيرته أيقاظاً
ملايرونه مجازاً في المنام ؛ وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي أرسله إلى الناس كافّة ،
وجعل العصمة مُحيطَةً به حاقّة ؛ فأطلع في ظلام الشّرك شمس التوحيد وبدره ،
وآمن به من شرح الله للإسلام صدره ، وعصاه من تمزّد فائق للوزر ظهره ؛ وبين
عبادات كرم أجرها وعظم ثوابها ، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحة
أبوابها ؛ وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبي طالب مظاهره ومُظَاهِره ،
والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ؛ ولم يزل حاملاً على المحجّة البيضاء جاعلاً ذلك
من قُربه وذخائره ، قائماً بحقوق الله جَاهِداً في تعظيم حرّماته وشعائره ؛ وعلى الأئمة
من ذُرِّيَّتِهِما نجوم الأرض وهُدَاة أهلها ، والواجبة طاعتهم على مَنْ في وَغْرِها
وسَهْلها ؛ والدّائين بالمَشْرِفَةِ عن حِمَى الشريعة ، والذين مُتَابَعْتهم من أوجه ذريعه .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم
أظهر الله فيه قُوّة الدّولة وأقْدَارها ، وأوجب فيه — رَغْبَةً وَرَهْبَةً — مسارعة النفوس

المخالفة إلى الطاعة وأبتدأها؛ وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند أنفجار الفجر، وحافظت على ما تحرره من كريم الثواب وخزير الأجر؛ وأستزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرمان وأقوى الأذمة؛ وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه؛ وقصد المصلى في كتابه، ومواكب للتعظيم مستوحيه؛ وعززة نبتين في الشمائل والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفعات؛ قد غدت عددها محكمه؛ وخيولها مطهمة؛ وذوالبها إذا ظمئت كانت مقومه، وإذا رويت عادت محطمة؛ تتقلد صفائح متى انتضيت أنصفت من الحائر الخائف، ومتى اقتضبت عملاً كان اقتضاها مبيضا للصحائف؛ وفي ظلها معاقل للأئدين، ويحدها مصارع للنايدين؛ وهى للدماء هوارق، وللهمامات فوالق، ولستغلق البلاد مفاتيح ولستفتحها مغاليق.

ولما انتهى إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء وأداها أفضل تأديه، وأستزل رحمة لم تزل بصلاته متماديته؛ وأنهى إلى المنبر فرقيه، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه؛ ووعظ أبلغ وعظ، وأبان عملاً للعامل بنصحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ. وعطف على الأضاحى المعدة له فتحرها جرياً في الطاعات على فعلها المتهادى، وأضحى تنوع التكميل بإنجازه وعيده في الأعادي؛ فالله يقضى بتصديقه، ويمن بخيله وتحقيقه؛ وعاد إلى قصوره المكرمة مشكوراً سعيه، مضموناً نفعه؛ مرضياً فعله، مشمولاً عيده منه بما هو أهله. أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وأعمل به. وكتب في اليوم المذكور.



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزير ، من إنشاء آبن
قادوس ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله ماحى دَنَسِ الآثام بالحجّ إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز
في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ؛ ومُضَاعِفِ الثَّواب لمن اجتهد فيما أمر
الله به من التَّليّة والإحرام ، ومُحوِّلِ الغُفْران لمن كان بفرائض الحجّ ونوافله شديد
الولوع والغرام ؛ وصلى الله على جدنا محمد الذى لبى وأحرم ، وبين ما أحلَّ الله وحرم ؛
وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ضرب وكبر ، وحقر من طغى
وتجبر ؛ وعلى الأئمة من ذرِّيتهما أعلام الدين ، وحُتُوفِ المُعتدين ؛ وسلّم وكرم ،
وشرف وعظم .

وإنَّ من الأيام التى كُتِبَتْ محاسنها وتمَّت ، وكثُرَتْ فضائلها وجمَّت ؛ ووجب
تخليدُ عزِّ صفاتها ، وتعينُ تسطيرُ تأثيراتها ؛ يومَ عيدِ النحر من سنة كذا : وكان من
قَصَبِهِ أن الفجر لما سلَّ حُسامه ، وأبدى الصُّباحُ أبْتَسامه ؛ نهَضَ عبيد الدولة
في جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمَةِ والاستبصار ؛ مُيمِّينَ القُصور الزاهرة
متبرِّكين بأفئيتها ، ومُسْتَمِلين بسعادتها ؛ وتألَّفوا صفوفًا تبهرُ النواظر ، ويحجُلُ تألُّفها
تألَّفَ زهرِ الرُّوض الناضر ؛ مُستَصحِّين فنونا من الأزياءِ تروق ، ومُسْتَتَبِعِينَ أصنافًا
من الأسلحةِ يعضُّ لمعها من لمعِ اللَّهبِ والبُروق ؛ والأعلام خافقه ، والرايات بأنسنة
النَّصر ، على الإخلاص لإمام العصر ، متوافقه ؛ فأقاموا على تَسْوِيفِ ظهوره ، وتطلُّعِ
للتَّبرُّك بلامع نوره .

ولما بزغت شمس سعادته، وجرّت الأمور على إيناره وإرادته؛ وبدت أنوار الإمامة الجلية، وظهرت طلعتها المعظمة البهية؛ نحر الأنام سُجوداً بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد؛ وأستقل ركاب أمير المؤمنين، ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه؛ ونأصل عن حوزة الدين وجاهد، ونأصل أحزاب الكفار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزارة، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والطهارة؛ ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره؛ ويحسن السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير؛ ويخلص لله جل وعز وإمامه، ويكفكف من الأعداء بيدل الجهد في أعمال لهدمه وحسامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره، متوافقة على امتثال أمره؛ قد رفعت السنابك من العجاج سحاباً، وخيلت جنن الجند للناظرين في البرعباب؛ والحياض المسومة تتوج في أعنتها، وتختل في مراكبها وأجلتها؛ وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً واشتطاطاً؛ وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل؛ ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب وتعذو صلابها كالكتيب المهيل.

ولما انتهى ركاب أمير المؤمنين إلى المصلّى والتوفيق يكتنفه، والسعادة تصرفه؛ قصد المحراب فأقام الصلاة، ونحا المنبر فشرّفه إذ علاه؛ وأدى الصلاة على أكمل الأوضاع وأتمّها، وأجمع [الأحوال] لمراضى الله وأعظمها؛ وأنقضى للبذل المعدة فتحرّ ماحضر تقرّ بالخالق، وأجرى القانون على حقائقه؛ وعاد إلى قصوره الزاهرة وقد غفر الله بسعيه الذنوب، وطهر برؤيته القلوب، وبلغ الأئم من المرشد نهاية المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً ،
وَبَاطِنًا وظاهراً ؛ لتُذيعَ نبأه في عَمَلٍ وَلَايَتِكَ ، وتُشيعَ خبره في الرعايا على جَارِي
عَادَتِكَ ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجاس النظر السيدى الأجلى بما أعتمدته
في ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكتب في اليوم المذكور .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد رُفِضَ وتُركَ استعماله بديوان الإنشاء
في زماننا .

الصنف السادس عشر

(المكاتبة بالبيشارة بوفاء النيل والبيشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج)

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية ، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك .
ولم يزل القائلون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبيشارة
بذلك إلى ولادة الأعمال ، اهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسرور بوفائه ، الذي يترتب
عليه الخصب المؤدى إلى العمار وقوام المملكة ، وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء
الفاطمييين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية وافر الاهتمام ؛ وكانت
عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبيشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، وفتح الخليج
وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة . ولعل فتح الخليج كان يترأخى في زمانهم
عن يوم الوفاء ، فيُقرِّدون كل واحد منهما بكتب .

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبيشارة به في الأيام الفاطمية ،
من إنشاء ابن قادوس ، وهى :

النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ؛ فأولها بشكر تُشَرُّ
في الآفاق أعلامه ، وأعتدائهم بحكم بإدراك الغايات أحكامه ؛ نعمة يشترك في النفع بها

العباد، وتَبْدُو بِرُكَّتْهَا عَلَى النَّاطِقِ وَالصَّامِتِ الْجَمَادِ؛ وَتِلْكَ النِّعْمَةُ النَّيْلُ الْمِصْرِيُّ الَّذِي تَبْرُزُ بِهِ الْأَرْضُ الْجُرْزُ فِي أَحْسَنِ الْمَلَابِسِ، وَتُظْهِرُ حُلْلَ الرَّيَاضِ عَلَى الْقِيَعَانِ وَالْبَسَابِسِ؛ وَتُرَى الْكُنُوزُ ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، مُتَبَرِّجَةً بِالْجَوَاهِرِ وَالْجُيَيْنِ وَالْعِقْيَانِ؛ فُسْبُحَانَ مَنْ جَعَلَهُ سَبَبًا لِإِنْشَارِ الْمَوَاتِ، وَتَعَالَى مَنْ ضَاعَفَ بِهِ ضُرُوبَ الْبَرَكَاتِ، وَوَفَّرَ بِهِ مَوَادَّ الْأَرْزَاقِ وَالْأَقْوَاتِ؛ وَهَذَا الْأَمْرُ صَادِرٌ إِلَى الْأَمِيرِ، وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ، وَخُلِعَ عَلَى الْقَاضِي فَلَانِ بْنِ أَبِي الرَّدَادِ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، وَطَافَ بِالْخَلِجِ وَالتَّشْرِيفَاتِ، وَالْمَوَاهِبِ الْمُضَاعَفَاتِ؛ بِالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَمِصْرَ عَلَى جَارِي عَادَتِهِ، وَقَدِيمِ سِيرَتِهِ؛ وَنُودِيَ عَلَى الْمَاءِ بِوَفَائِهِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَإِصْبَعًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَاسْتَبَشَرَ بِالنِّعْمَةِ بِذَلِكَ الْخَلَاقِ، وَوَأَصَلُوا بِالشُّكْرِ مُوَاصِلَةً لَا تَسْتَوْقِفُهُمْ عَنْهَا الْعَوَاقِبُ؛ وَبَدَأَ مِنْ مَسَرَّاتِ الْأُمَمِ وَأَتْبَاجِهِمْ مَا يَضْمَنُ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ الْمَزِيدِ، وَيُنِيلُهُمُ الْمَنَالَ السَّعِيدِ، وَيَقْضِي لَهُمْ بِالْمَالِ الْحَمِيدِ. وَمُوصِّلُ هَذَا الْأَمْرِ إِلَيْكَ فَلَانِ، فَاعْتَمَدَ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكَ إِكْرَامَهُ وَإِعْزَازَهُ، وَإِجْمَالَ تَلْقِيهِ وَإِفْضَالَهُ؛ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ مِثْلِهِ مِنْ رَجَاءٍ وَتَوْنِيهِ وَأَحْتِفَاءٍ، وَإِكْرَامٍ وَأَعْتِنَاءٍ؛ لِيَعُودَ شَاكِرًا. فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي :

أَوَّلَى مَا تَحَدَّثَ بِهِ نَاقِلُهُ وَرَآوِيهِ، وَتَعَجَّلَ الْمَسْرَّةَ بِهِ حَاضِرُهُ وَرَأْيِيهِ؛ مَا كَانَتْ الْفَائِدَةُ بِهِ شَائِعَةً لَا تَحْتَجِزُ، وَالنِّعْمَةُ بِهِ ذَائِعَةً لَا يَتَخَصَّصُ أَحَدٌ بِسُمُولِهَا وَلَا يَتَمَيَّزُ؛ إِذْ كَانَ عَلَّةً لِنِكَاتِ الْأَقْوَاتِ، وَبِهَا يَكُونُ التَّمَانُلُ فِي الْبَقَاءِ وَالتَّسَاوِي فِي الْحَيَاتِ؛ وَذَلِكَ مَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ : فَإِنَّهُ آتَتْهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ سَنَةِ كَذَا، إِلَى سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَزَادَ إِصْبَعًا مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا؛ وَقَدْ سِيرْنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَلَانَا

بهذه البشري إليك ، وخصصناه بالورود بها عليك ؛ فتلقها من الشكر بمستوجبها ،
وآستقبلها من الأبتهاج والأعتباط بما يليق بها ؛ وأجعل الرسوم التي جرت العادة
بتوظيفها لفلان بن أبي الرِّدَادِ محمولةً من جهتك إلى حضرتنا ، لتؤلى إليه من جهتنا ؛
فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت ، يكتب به
في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالمالك الشامية عند وفاء
النيل ، وتسيره البريدية ؛ وربما جئ للبريدى من المالك شئ بسبب ذلك .
وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا ينجي للبريدى شئ بسبب ذلك .



وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك .

ولا زال يروى عنه وإليه حديث الوفاء والنَّدا ، ويورد على سمعه الكريم نبأ
الخصب الذى صفا موردا ؛ ويبنى بكل نعمة تكفلت للرعايا بمضاعفة الجود
ومرافقة الجدا ، ويخص بكل منة عمت مواهبها الأنام فلن تنسى أحدا .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناح العالى : وبجر كرمها لايتهى إلى مدى ،
وشرُّ بُشراها دائم أبدا ؛ تهدي إليه سلاما مؤكدا ، وثناء أضحى به الشكر مرَّ ددا ؛
وتوصح لعليه الكريم أن الله تعالى قد أجرى على جميل عاداته ، وأراد بالأمة من الخير
ماهو المألوف من إراداته ؛ ومنح مزيد النعم التي لم تزل تُعهد من زيادته ؛ فأسدى
معروفة المعروف إلى خلقه ، وأيدهم بما يكون سببا لمادة عطائه ورزقه ؛ فبلغهم
تأميلهم ، وأجرى نيلهم ؛ وزادهم بسطة في الأرض ، وملا به الملا وطبق به البلاد
طولها والعرض ؛ وشر على الخافقين لواء خضيه ، وأتى بعسكر ربه لقتل المحل

وَجَدَيْهِ ، وَبَيْنَا هُوَ فِي الْقَصَاعِ إِذْ بَلَغَ بِأَذْنِ رَبِّهِ ؛ فَعَمِلَ مِنَ الذَّهَبِ لِبَاسَهُ ، وَعَطَّرَ
بِالشَّدَا أَنْفَاسَهُ ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ خِلَالَ قُطْرِ إِلَّا جَاءَهُ بِقَاسِهِ ، وَنَصَّ السِّيرَ فَسِيرَ نَصٍّ مَجِيئِهِ
فِي الْأَرْضِ لَمَّا صَحَّحَ بِالْوَفَاءِ قِيَاسَهُ ، وَغَاظَلَتْهُ الشَّمْسُ فَكَسَّتْهُ حُمْرَةُ أَصِيلِهَا لَمَّا غَدَتْ
لَهُ بِمُشَاهَدَتِهَا مَاسَهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْعَامِ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا قِيلَ : أَقْبَلَ إِذْ قِيلَ : وَفَى ،
وَمَدَّ فِي الزِّيَادَةِ بَاعًا وَبَسَطَ ذِرَاعًا ، وَأَطْلَقَ بِمَوَاهِبِ أَصَابِعِهِ كَفًّا ؛ وَعَاجَلَ إِدْرَاكَ الْهَرَمِ
فِي أَبْتَدَاءِ أَمْرِهِ مَطَالَ شَبَابِهِ ، وَمَرَّ عَلَى الْأَرْضِ فَحَلَا فِي الْأَفْوَاهِ لَمَّا سَاغَ شُكْرُ سَائِغِ
شَرَايِهِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى نَصِّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَكَادَ أَنْ يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ بَابِهِ .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا الْمَوَافِقِ لِكَذَا مِنْ شَهْوَرِ الْقَيْطِ بَادَرَتْ إِلَى الْوَفَاءِ
شَيْمِهِ ، وَأَغْنَتْ أَمْوَاغُهُ عَنْ مِثْنَةِ الشَّحْبِ فَدُمَّتْ عِنْدَهَا دِيمُهُ ؛ وَزَارَ الْبِلَادَ مِنْهُ أَجَلُ
ضَيْفٍ فَرَشَتْ لَهُ صَفْحَةً خَدَّهَا لِلْقُرَى فَعَمَّهَا كَرَمُهُ ؛ وَبَلَغَ مِنَ الْأُذْرُعِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا
وَرَفَعَ لَوَاعَهُ بِالْمَزِيدِ وَنَشَرَ ، وَجَاءَ لِلْبَشْرِ بِأَنْوَاعِ الْبُشْرِ ؛ فَزَمِنَا بِتَعْلِيقِ سِسْتَرِ مِقْيَاسِهِ ،
وَتَحْلِيقِهِ وَتَضْوِيعِ أَنْقَاسِهِ ؛ وَفِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ كَسَرْتُ خَلِيجَهُ عَلَى الْعَادَةِ ،
وَبَلَغَ الْإِنَامَ أَقْصَى الْإِرَادَةِ ؛ وَتَبَاشَرَ بِذَلِكَ الْعَامُّ وَالْخَاصُّ ، وَأَعْلَنْتِ الْأَلْسِنَةُ بِمَجْدِ
رَبِّهَا بِالْإِخْلَاصِ ؛ وَسَطَّرَهَا وَهُوَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ مُتَتَابِعِ الْمَزِيدِ ، بِسَيْطِ بَحْرِهِ
الْمَدِيدِ ، مُتَجَدِّدِ الثَّمَوِّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الزِّيَادَةِ جَدِيدِ . فَالْحَنَابُ الْعَالِي يَأْخُذُ مِنْ
هَذِهِ الْبُشْرِ بِأَوْفَرِ نَضِيبِ ، وَيَشْكُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى مَا مَنَحَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - هَذَا الْعَامَ
الْخَصِيبِ ؛ وَيَذِيعُ لَهَا خَبْرًا وَذِكْرًا ، وَيُضَوِّعُ بَطْنَهَا هَنَاءً تُشْرَا ؛ وَيَتَقَدَّمُ بِأَنْ لَا يُجْبَى
عَنْ ذَلِكَ بِشَارَةِ بِالْجُمْلَةِ الْكَافِيَةِ ، لِتَغْدُو الْمِنَّةُ تَامَةً وَالْمَسْرَةُ وَافِيَةً ؛ وَقَدْ جَهَّزْنَا بِهَذِهِ
الْمَكْتُبَةِ فَلَنَا ، وَكَتَبْنَا عَلَى يَدِهِ أَمْثَلَةَ شَرِيفَةٍ إِلَى ثَوَابِ الْقِلَاعِ الْفَلَانِيَةِ [جَرِيًّا] ^(١) عَلَى
الْعَادَةِ ، فَيَتَقَدَّمُ بِتَجْهِيزِهِ بِذَلِكَ عَلَى عَادَةِ هِمَّتِهِ ، فَيُحِيطُ عِلْمُهُ بِذَلِكَ .

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة والصحيح يقتضيه المقام .



وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك ، كُتِبَ بها في سابع عشر ذى القعدة سنة ست وستين وسبعائة ، وصورتها بعد الصدر :

وبَشِّرْهُ بِأَخْصَبِ عام ، وَأَخْصِ مَسَرَّةَ هَنَّاؤِهَا لِلْوُجُودِ عام ، وَأَكْبِلِ نِعْمَةَ تَقَابُلِ العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدَى إليه أتمَّ سَلام ، وأعمَّ ثناء تام ؛ وتُوضَحُ لعالمه الكريم : أن الله تعالى - وله الحمد - قد جرى في أمر النيل المبارك على عوائد أطافه ، ومنَحَ عبادَه وبِلادَه من مديد نِعَمِه مَزِيدٍ إِسْعَافِه ؛ وأورد الآمال من جوده مَهلاً عَدْباً ، ومَلَأَها به إقبالاً وخَصْباً ؛ وأحيا به من مَوَاتِ الأرض فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ ، وأنبَت كُلَّ بَهيجٍ وَأَنْجَبَتْ ؛ وأينعت الرياضُ فجرت فيها الرُّوحُ ودَبَّتْ ، وأمتلأت الحياضُ ففاضت بالمياهِ وَأَنْصَبَتْ ؛ وطلع كالبدر في آزدياده ، وتوالى على مديد الأرض بأمداده ؛ إلى أن بلغ حَدَه ، وَوَصَلَ الفَرَجَ وَمَنَعَ الشَّدَه ؛ وفى يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط ؛ وفاء الله ستة عشر ذراعاً فاه فيها بالتَّجَحُّج ، وعم ترأه الأرض فأشرق بعد ليل الجَدْبِ بالرخاء أضواً صُبْح ؛ وفى ذلك اليوم عُلِقَ سِتْرُه ، وَخُلِقَ مِقْيَاسُه فاشتهر ذِكْرُه ، وكُسِرَ سَدُه ، وتوالى مدُه ، ونَجَزَ من الخِصْبِ وعُدُه ؛ وعلا التُّرَعُ والجُرُوفُ ، وقطع الطريق فأمَنَ من الجَدْبِ الخَوْفُ ؛ وأقبل بوجهه الطلقُ الحَيَا ، وأسبَلَ على الأرض لِبَاسَ النَّعْمِ فبدَّها بعد الظَمَاءِ رِيّاً ؛ فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ، ورأينا أن يكون للجناب العالى أوفر نصيب من هذا الهناء الأعم ؛ وآثرنا إعلامه بذلك : ليكون في شكر هذه النعمة أكبر مشارك ؛ فالجناب العالى يأخذ حَظَّه من هذه البُشْرَى ، ويتحقق ماله عندنا من

المكانة التي خَصَّته في كُلِّ مُبْهَجَةٍ بِالذِّكْرِ؛ ويتقدَّم أمره الكريم بأن لا يُجَيَّ
عن ذلك حقَّ بشاره، ولا يتعرَّض إلى أحدٍ بخساره؛ وقد جَهَّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عشر

(فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق)

عند وفاء النيل في كُلِّ سنة)

وهو مما يتكرر في كُلِّ سنة عند ركوب الميدان ، ويكتب به إلى جميع النواب
الأكابر والأصاغر ؛ وتجهَّز إلى أكابر النواب خيولُ حُجَّةِ المثل الشريف ، ويرسم
لهم بالركوب في ميادين الممالك لِلْعِبِّ الكُرة ، تأسَّياً بالسلطان ؛ فيركبون ويلعبون
الكُرة . والعادة في مثل ذلك أن تُنْشَأَ نسخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ،
ويكتب بها إلى جميع النيابات ، لا يختلف فيها سوى صَدْرِها ، بحسب ما يقتضيه
حال ذلك النائب .

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك ، كُتِبَ به في ذى القعدة سنة ستين
وسبعائة لنائب طرابلس ، وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زال تُحْمَلُ إليه أنباء ما يبرِدُ غُلَّتَه من مُضَاعَفَةِ الشُّرُور ، وَتَبَّتْ له أقوال الهناء
بما يَجِبُ عِلَّتِه من النَّصْرِ الموفور ، وَنَحْصُه من إقبالنا الشريف بأكل تكريم
وأتم حبور .

صدرت هذه المكاتبَةُ تُهْدَى إليه من السلام والثناء كذا وكذا ، وتَوْصَحُ لِعِلْمِهِ الكريم
أننا نَحَقِّقُ مَضَاءَ عَزَائِمِهِ جَرَباً وَسِلْماً ، وَأَعْتِلَاءَ هِمَمِهِ التي تُحَرِّسُ بها الممالك وتُنْجِي ؛

وَأَنْ صَوَافِنَهُ تَرْتَبِطُ لُتْرَ كُضْ ، وَتُحْبَسُ لَتَنْهَضْ ؛ فَلَذَلِكَ نَعْلِمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ اسْتَظْهَارِنَا
مَا يُبْهِجُ خَاطِرَهُ ، وَيُقِرُّ نَظَرَهُ ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ خَامِسِ شَوَّالٍ ،
تَوَجَّهَ رِكَابُنَا الشَّرِيفُ إِلَى الْمَيْدَانِ السَّعِيدِ وَفَاضَ بِهِ جُودُنَا فَأَخْضَرَتْ مَرْوَجُهُ ،
وَضَهَبَ بِهِ نَيْرُنَا الْأَعْظَمُ فَأَشْرَقَتْ آفَاقُهُ وَتَشَرَّفَتْ بِرُوحِهِ ، وَأَقْرَّ الْعُيُوبَ مُنِيرُ وَجْهِهَا
الْمُبَارَكِ وَبَهَّجَهُ ؛ وَغَدَا كُلُّ وَلِيٍّ بِمَوْلَاةٍ إِنْغَامِنَا مَشْمُولًا ، وَبِمَنَالَاتٍ إِكْرَامِنَا مُوصُولًا ؛
وَرَكَّضَ الْأَوْلِيَاءَ بَيْنَ أَيْدِينَا جِيَادًا أَلْفَتْ نِزَالًا وَعَرَفَتْ طِرَادًا ، وَأَنْعَظَتْ لِينًا وَأَنْقِيَادًا ؛
وَعُدْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مَلِكِنَا الشَّرِيفِ وَقَدْ جَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا إِسْعَادًا ، وَأَيَّدَ لِعَزْمِنَا الْمَعَانِ
مَبْدَأً وَمَعَادًا ؛ وَآثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ الْعَالِي بِهَذِهِ الْوَجْهَةِ الْمِيْمُونَةِ ، وَالْحَرَكَةِ الَّتِي هِيَ
بِالْبَرَكَةِ مَقْرُونَةٌ : لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنَ الشَّرُورِ بِذَلِكَ وَالْهَنَاءِ ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ
عَلَيْهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمُنَى .



وهذه نسخة مثالي شريف في المعنى ، كُتِبَ بِهِ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، سَنَةِ
أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَتْ مِيَادِينُ سَعْدِهِ لَا تَنْتَاهِي إِلَى مَدْيٍ ، وَكُرَاتُ كَرَاتِهِ فِي رِحَابِ النَّصْرِ تَلْمَعُ
كَنْجِ الْهُدَى ؛ وَمُدُورُ صَوَالِحِهِ كَشَوَاحِرُ الْمُرَانِ تَحُلُوبًا يَبِيدُهَا لِلْأَوْلِيَاءِ وَتَغْدُو
مَرِيرَةً لِلْعِدَا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ وَظَفَرُهَا لَا يَزَالُ مُؤَيَّدًا ، وَنَصْرُهَا لَا يَبْرَحُ مُؤَيَّدًا ؛ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا مُؤَكَّدًا ، وَشَاءَ كَنْشَرِ الْأَرْضِ بِالْهَدْيِ ؛ وَتَوَخَّحَ لَعَلِمَهُ أَنَّنَا لَمْ نَزَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتَّبِعُ
سَنَنَ سَلَفِنَا الشَّرِيفِ ، وَتُجْرَى الْأُمُورُ عَلَى عَوَائِدِ جَمِيلِهِمُ الْمُتَّيْفِ ؛ وَنَرَى ثَمَرَيْنِ
الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَنُؤَيِّرُ إِبْقَاءَ آثَارِ الْجِهَادِ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ أُسْلُوبٍ ؛

فلذلك لا نُحِلُّ في كُلِّ عامٍ بالتَّعَاهُدِ إِلَى المِيدَانِ السَّعِيدِ، والركوبِ إِلَيْهِ فِي أَسْعَدِ طَالِعٍ يُدْئِي النَّصْرَ وَيُعِيدُ : لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَتْبَاحٍ يَتَجَدَّدُ ، وَأَسْبَابٍ مَسْرَّةٍ لِكَافَةِ الْأَنَامِ تَتَأَكَّدُ، ودَعَوَاتِ أَلْسِنَتِهَا تَتَضَاعَفُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَتَتَرَدَّدُ .

ولما كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ سَادِسَ عَشَرَ شَهْرَ رَجَبِ الْفَرْدِ، رَكَبْنَا إِلَى المِيدَانِ السَّعِيدِ فِي أَتَمِّ وَقْتٍ أَخَذَ مِنَ السَّعْدِ يَجْمُوعِهِ، وَأَظْهَرَ فِي أَفْقِ الْعَسَاكِرِ مِنْ وَجْهِهَا الشَّرِيفِ الْبَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ، وَلَمْ نَبْرَحْ يَوْمَنَا الْمَذْكُورِ فِي عَطَاءٍ نُجِيدُهُ، وَإِنْعَامٍ نُفِيدُهُ، وَإِطْلَاقٍ نُبْدِيهِ وَنُعِيدُهُ، وَالْأَوْلِيَاءِ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ يَمْرُحُونَ، وَفِي بَحَارِ كَرَمِنَا الْمُنِيفِ يَسْبَحُونَ، وَفِي مِيدَانِ تَأْيِيدِنَا الْمُطِيفِ يَسْبَحُونَ، وَالْكُرَاتِ كَالشَّمْسِ تَجَحُّ تَارَةً وَتَغِيبُ، وَتَحْشَى مِنْ وَقْعِ الصَّوَالِجَةِ فَتَقَابِلُهَا بِوَجْهِ مُصَفَّرٍ مُرِيبٍ، ثُمَّ عُدْنَا إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَتَمِّ حَالٍ، وَأَسْعَدِ طَالِعٍ بَلَغَ الْأَنَامَ الْأَمَانَ وَالْأَمَالَ، وَالْعَسَاكِرَ بِخِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ مُحْدِقُونَ، وَمَمَالِكَنَا بِعُقُودٍ وَلَانَا مُطَوَّقُونَ، وَالرَّعَايَا قَدْ أَلْبَسَهَا السُّرُورُ أَثْوَابًا، وَفَتَحَ لَهَا مِنَ الْأَتْبَاحِ أَبْوَابًا، وَقَدْ آثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ بِذَلِكَ لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْرَّةِ وَالْبُشْرَى، وَيُسْتَرِكَ هُوَ وَالْأَنَامُ فِي هَذِهِ التَّعَمَّةِ الْكُبْرَى، وَمَرَسُومُنَا لِلْجَنَابِ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِالرُّكُوبِ بَيْنَ عُنْدِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ فِي مِيدَانِ طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ، وَيَلْعَبَ بِالْكُرَةِ عَلَى جَارِي الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ، لِيُسَاهِمَ أَوْلِيَاءُ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ فِي ذَلِكَ، وَيَسْلُكَ مِنْ طَرَفِهِمُ الْجَمِيلَةَ أَجْمَلَ الْمَسَالِكِ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِيَةِ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمَلًا بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ، يُكْتَبُ بِهِ كُلَّمَا رَكَبَ السُّلْطَانُ إِلَى المِيدَانِ الصَّالِحِيَّ بِخَطِّ اللُّوقِ، إِلَى أَنْ عَطَلَ حَيْدُهُ مِنَ الرُّكُوبِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوقِ» وَقُتِّصِرَ عَلَى لَعِبِ الْكُرَةِ فِي المِيدَانِ الَّذِي جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ، فَتَرَكْتَ الْمَكَاتِبَةَ بِذَلِكَ مِنْ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ وَرَفِضَ اسْتِعْمَالِهَا .

الصفحة الثامن عشر

(المكتبة بالإشارة بحج الخليفة)

لما كانت الأسفار، محلّ الأخطار؛ وموقع الاختلاف وحدث الفتن؛ كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمّاهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره . والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات ، وأن من النعمة [أن يمن] الله تعالى بقضاء المناسك، والوقوف بالمشعر الحرام، والطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج؛ ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، واتفاق الكلمة في جميع هذه الأحوال، على كثرة الخلاف ومنزلة الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناء، وحرماً من دخله كان آمناً؛ الذي اختار دين الإسلام على الأديان، وأبتعت به صفوته من الإنس والجان؛ محمداً أكرم نبي معذنان .

يمجده أمير المؤمنين أن أعانه على تأدية حقه، ونصبه لكفالة خلقه؛ ووفقه للعمل بما يرضيه ويؤدّي إليه . ويسأله أن يصلّي على خير من غار وأئجد، وصدر وورد؛ وركع وسجد، ووحد ومجد، وصلّى وعبد؛ وحلّ وأكرم، وحجّ الحرم؛ وأتى المستجار والمُلتزم، والحطيم وزمزم، محمد سيّد ولد آدم؛ وعلى أخيه وأبن عمّه مصباح الدلالة، وحجاب الرساله؛ إمام الأئمة، وباب الحكمة؛ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب،

مُزَقِّ الكُتَّابِ ، ومُزَقِّ المواكب ، ومُحَطِّمِ القواضب ، فى القُلَّالِ والمنَّاكِبِ ؛ وعلى الأئمة من دُرِّيَّتهما الهادين ، صلاةً باقيةً فى العالمين .

وإنَّ أَوْلَى النِّعَمِ بأنَّ يُسْتَعَذَّبَ ذِكْرُهَا ، وَيُسْتَطْعَر نَشْرُهَا ؛ وَتُحَدَّثَ بِهَا الأَلْسِنَةُ ، وتُعَدَّ فى مواهب الله الحَسَنَةِ ؛ نِعْمَ اللهُ تَعَالَى فى التوفيقِ لِحُجِّ بَيْتِهِ الذى جعله مَثَابَةً لِرَأْيِهِ ، والإِطَافَةَ بِحَرَمِهِ الذى يُوجِبُ المَغْفِرَةَ لِقَاصِدِيهِ ؛ وَالتَّزُولَ بِأَفْنِيَّتِهِ التى من يَحْدُمُ بِهَا فَقَدْ آنَسَلَخَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَتَلَبَّسَ بِالحَسَنَاتِ ؛ وَكُتَّابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هذا إِلَيْكَ يَوْمَ النَّفَرِ الأوَّلِ : وقد قَضَى بِحَمْدِ اللهِ تَفَثَهُ ، وَوَقَى نَذْرَهُ ؛ وَتَمَّ حُجَّهُ ، وَكَلَّ طَوَافَهُ ؛ وَشَهِدَ مَنَافِعَهُ ، وَأَدَّى مَنَاسِكَه ؛ وَوَقَفَ الْمُؤَقِّفَ بَيْنَ يَدَى رَبِّهِ قَانِتًا دَاعِيًا ، وَرَاجِيًا رَاجِيًا ؛ وَعَرَّفَهُ بِعَرَفَاتٍ إِعْلَامَهُ قَبُولَ سَعْيِهِ ، وَإِجَابَةَ تَلْبِيَّتِهِ ، وَبَلَّغَهُ فى مَنَى أَمَانِيهِ مِنَ رَأْفَتِهِ ؛ وَأَرَاهُ مِنْ مَخَائِلِ الرَّحْمَةِ ، وَدَلَّائِلِ المَغْفِرَةِ ؛ مَا تَلَأَلَّتْ أَنْوَارُهُ ، وَتَوَسَّحَتْ آثَارُهُ ؛ وَأَجْرَاهُ عَلَى تَفْصِيلِ العبارة فى شُمُولِ السَّلَامَةِ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بِحُجَّه ، وَوَقَفَ مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَعَامَّتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ؛ وَأَنْعَمَ بِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَأَجْتِنَاعِ أَهْوِيَّتِهِمْ ؛ وَأَكْتِنَافِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ لَهُمْ ، وَزَوَالِ الإِخْتِلَافِ وَالمُبَايَنَةِ بَيْنِهِمْ .

فَإِنْ أَرَادَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَهُوَ يَصْدُرُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَإِنْ أَرْمَعَ الْإِنْكَفَاءَ إِلَى مَقَرِّهِ ، قَالَ :

وَأَشْعُرُكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ وَهُوَ عَائِدٌ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَى مَقَرِّ خِلَافَتِهِ ، فى عِزٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَعُلُوٍّ مِنْ كَلِمَتِهِ ؛ وَامْتِدَادٍ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَتَضَاعُفٍ مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ : لِنَأْخِذْ بِحُظِّكَ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ وَالجَدَلِ ، وَتُدْيِعَهُ بَيْنَ أَهْلِ الْعَمَلِ : لِيُشَارَكَكَ الْعَامَّةُ فى الْعِلْمِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيُخْلِصُوا لَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْهِ فى الزِّيَادَةِ مِنْهَا ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفر في الجملة .

والرسم فيه أن تُذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك : من بلوغ المآرب ، وتسهيل المقاصد ، وإدراك الأوطار ، وشُمول النعمة في الذهاب والإياب ، وما يجري مجرى ذلك مما ينخرط في هذا السلك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذي الطول والإنعام ، والفضل والإكرام ، والمِنَّنِ العِظام ، والأبّادى الحِسام ، الذى أرعى أمير المؤمنين من حياطته عيناً لا تنام ، وأستخدم لحراسه والمراماة دونه الليالى والأيام ، وقضى له بالتوفيق والسعادة فى الظُّنِّ والمقام .

يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأئمة ، وعَدَّقَ به أساليب النِّقْض والإبرام ، ويسأله الصلاة على من آخَظَّه بِشَرَفِ المَقَام ، وأبتغته بدين الإسلام ، وجَلَّاه حَنَادِسَ الظُّلَام ، مجد حاتم الأنبياء الكرام ، وعلى أخيه وأبن عمه الهمام الضُّرغام ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب مُكسِّر الأصنام ، وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِهِمَا أعلام الأحكام ، وأدلة الحلال والحرام .

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مُستدراً لأخلافها ، مُتَّصِباً لِقَطَافِهَا ، ويُفِيضُ فى ذِكْرِهَا ، مُسْتَدْعِياً للزيادة بِشُكْرِهَا ، وَيُطْلِعُ خُلَصَاءَهُ على حُسْنِ آثارِهَا لَدَيْهِ : وَسُبُوغِ مَلَاسِمِهَا عَلَيْهِ ؛ لِيَأْخُذُوا بِحِطِّ مِنَ الْغِبْطَةِ وَالْأَسْتَبْشَارِ ، وَيَسْرَحُوا فى مَسَارِحِ الْمَبَاهِجِ وَالْمَسَازِيرِ ، وَتُكَلِّبُ أمير المؤمنين هذا إليك حين آسَاقَ رِكَابَهُ بِنَاحِيَةِ كَذَا ، مبشراً لك بنعمة الله فى حياطته ، وموهبته فى سلامته ؛ وما أولاه من أنارة (؟) الدليل ، وتسهيل السبيل ؛ وَطَى الْجَاهِلِ ، وَتَقَرَّبَ الْمَنَازِلِ ، وَإِعْذَابِ الْمَنَاهِلِ ؛ وَإِنَالَةَ الْأَوْطَارِ ، وَتَدْمِثِ الْأَوْعَارِ ، وَبِرَّكَ الْمُتَصَرِّفِ ، وَسَعَادَةِ الْمُتَنَصِّرِفِ ؛ وَوُصُولِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ

قَرِيرَ الْعَيْنِ ، قَلِيلَ الْإِيْنِ ؛ مَحْفُوظًا سَارِيًّا وَأَثْبًا ، مَكْلُوءًا عَائِدًا وَذَاهِبًا ؛ مُشَرَّدَ النَّصَبِ
مَسْرُورًا ، مَوْفُورَ النَّصِيبِ مَحْبُورًا ؛ فِي أَجْتِمَاعٍ مِنْ كَلِمَةِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنُفُوذِ
بَصَائِرِهِمْ فِي نَصْرِ رَأْيَتِهِ ، وَإِعَانَتِهِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ عِبَادَةٍ ، وَاسْتِرْعَاهِ مِنْ بِلَادِهِ : لِيَأْخُذَ
بِالْحِطِّ الْأَجْزَلِ ، مِنَ الْإِتْبَاهِاجِ وَالْحَذَلِ ؛ وَيُشْكِرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ،
وَيُضِيفَهَا إِلَى سَوَالِفِ نِعَمِهِ الثَّالِدَةِ ؛ وَيُذَيِّعَهَا بَيْنَ رَعِيَّتِهِ ، وَأَنْصَارِ دَعْوَتِهِ ؛ لِيَشْتَرَكُوا
فِي آرْتِشَافِ لُغَائِبِهَا ، وَلِتَحِافِ أَنْوَابِهَا ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِيَةِ قَلِيلُ الْوُقُوعِ ، فَإِنْ وَقَعَ مِثْلُهُ
لِلْكَاتِبِ فِي زَمَانِنَا ، خَرَجَهُ عَلَى نِسْبَةِ الْأُسْلُوبِ الْمُتَقَدِّمِ .

الصنف التاسع عشر

(الْكِتَابَةُ بِالْإِنْعَامِ بِالتَّشَارِيفِ وَالْخِلَاجِ)

وهذا الصَّنْفُ مِمَّا أَغْفَلَهُ صَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَلَا يَدَّ مِنْهُ .

وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَكْتُبَ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ إِلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي الطَّاعَةِ ،
أَوْ ظَهَرَتْ لَهُ آثَارُ كِفَايَةٍ : كَقَتْحِ أَوْ كَسْرِ عَدُوٍّ ، وَمَا يَجْرِي بِمَجْرَى ذَلِكَ .

وهذه نسخة كتاب كتبه به أبو إسحاق الصَّاهِبِيُّ عَنِ الطَّائِعِ لِلَّهِ ، إِلَى صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، قَرِينَ خِلْعَةٍ وَفَرَسَيْنِ بِمَرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ وَسَيْفٍ
وَطَوْقٍ ، وَهِيَ :

مَنْ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْإِمَامُ الطَّائِعُ لِلَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ
وَشَمْسِ الْمَلَةِ أَبِي كَالِيَجَارِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمَلَةِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يَمُجِّدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أما بعد ، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المِثْلَةَ العُلْيَا ، وَأَنَالَكَ مِنْ أَثَرَتِهِ الغَايَةَ القُصْوَى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضْدُ الدَّوْلَةِ وَتَاجُ المِلَّةِ - رحمة الله عليه - مِنَ القَدْرِ والمَحَلِّ ، والمَوْضِعِ الأَرْفَعِ الأَجَلِّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند كُلِّ أَثَرٍ يكون منك في الخِدْمَةِ ، ومَقَامٍ حَمْدٍ تَقُومُهُ فِي حِمَايَةِ البَيْضَةِ ؛ إِنْعَامًا يُظَاهِرُهُ ، وإِكْرَامًا يُتَابِعُهُ ؛ وَيُؤَاتِرُهُ ؛ وَاللَّهُ يَزِيدُكَ مِنْ تَوْفِيقِهِ وتَسْدِيدِهِ ، وَيُمَدِّدُكَ بِمَعُونَتِهِ وتَأْيِيدِهِ ؛ وَيَجِيرُ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا رَأَيْتَهُ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِ مِنْ مَزِيدِكَ وَتَمَكُّنِكَ ، وَالْإِبْقَاءِ بِكَ وتعظيمك ؛ وما تَوْفِيقُ أمير المؤمنين إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزَّكَ - ما كان من [أمر كردويه] كافر نِعْمَةٍ أمير المؤمنين ونِعْمَتِكَ ، وَجَاحِدِ صَنِيعَتِهِ وَصَنِيعَتِكَ ؛ فِي الوَثَنِ التي وَثَبَهَا ، وَالْكِبَرَةِ التي آرْتَكِبَهَا ؛ وَتَقْدِيرِهِ أَنْ يَنْتَهَزَ الفُرْصَةَ التي لَمْ يَمِكَّنْهُ اللَّهُ مِنْهَا ، بَلْ كَانَ مِنْ وَرَاءِ [ذلك] دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَنْهَا ؛ وَمَعَاجَلَتِكَ إِيَّاهِ الحَرْبَ التي أَصْلَاهُ اللَّهُ نَارَهَا ، وَقَنَعَهُ عَارَهَا وَشَنَارَهَا ؛ حَتَّى أَنهَزِمَ والأَوْغَادُ الَّذِينَ شَرَكُوهُ فِي إثَارَةِ الفِتْنَةِ ، عَلَى أَقْبَحِ أَحْوَالِ الذَّلَّةِ والقِلَّةِ ؛ بَعْدَ القَتْلِ الذَّرِيعِ ؛ وَالْإِثْنَانِ الوجيع . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ التي جَلَّ مَوْقِعُهَا ، وَبَانَ عَلَى الْخَاصَّةِ والعَامَّةِ أَثَرُهَا ؛ وَلَزِمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خُصُوصًا والمُسْلِمِينَ عُمُومًا تَشْرُهَا والحديثُ بِهَا ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ إِقَامَتَهَا وَإِدَامَتَهَا بِرَحْمَتِهِ .

(١) تقدم في هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند بذلك أثرًا .

(٢) الذي تقدّم « يؤيدك » وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدّم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم، والمقام المحيد الكريم؛
بِخَلْعٍ تَامَةٍ، ودَابَّتَيْنِ بَمَرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ مَرَاكِبِهِ، وَسَيْفٍ وَطَوَاقٍ وَسِوَارٍ مُرَصَّعٍ .
فَتَلَقَّى ذَلِكَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَالْأَعْتِدَادِ بِنِعْمَتِهِ فِيهِ ؛ وَالْبَسَ خَلْعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَتَكْرِمَتَهُ ، وَسِرٍّ [مِنْ بَابِهِ] عَلَى حَمَلَاتِهِ ، وَأَظْهَرَ مَا حَبَّكَ بِهِ لِأَهْلِ حَضْرَتِهِ ، لِيُعْزَّزَ
اللَّهُ بِذَلِكَ وَلِيَّهُ وَوَلِيِّكَ ، وَيُذِلَّ عَدُوَّهُ وَعَدُوَّكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ
وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . وَكَتَبَ فُلَانٌ لثَمَانٍ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ نَحْمَسٍ وَسَبْعِينَ
وثلثمائة : أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ ، وَأَدَامَ عِزَّكَ ، وَأَجْزَلَ حِفْظَكَ وَحَيَاطَتَكَ ، وَأَمْتَعَ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَبِالنِّعْمَةِ فِيكَ وَعِنْدَكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِيَةِ بَاقٍ عَلَى الْأَسْتِمَالِ ، مَتَى أَنْعَمَ
السُّلْطَانُ عَلَى نَائِبِ سُلْطَانَةٍ أَوْ أَمِيرٍ أَوْ وَزِيرٍ أَوْ غَيْرِهِ بِخَلْعَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ وَكَتَبَ
قَرِينَهَا مِثْلَ شَرِيفِ بَذْكِرٍ ذَلِكَ ؛ إِلَّا أَنَّهُ أَهْمَلُ فِي ذَلِكَ السَّجْعُ وَالْأَزْدَوَاجُ ، وَأَقْتَصَرَ
فِيهِ عَلَى الْكَلَامِ الْحُلُولِ كَمَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ ، إِلَّا فِي النَّادِرِ الْمُعْتَنَى بِشَأْنِهِ .

الصنف العشرون

(المَكْتُوبَةُ بِالتَّنْوِيهِ وَالتَّلْقِيبِ)

قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : جَرَتْ عَادَةُ الْخُلَفَاءِ بِالْكِتَابَةِ بِالتَّلْقِيبِ ، لِأَنَّ اللَّقَبَ مُوَهِّبَةً
مِنْ مَوَاهِبِ الْإِمَامِ : أَمْضَاهَا وَأَجَازَهَا ؛ فَإِذَا جَرَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ كَغَيْرِهَا مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي يَمْنَحُهَا
عَلَى عِبِيدِهِ ؛ وَالْكُنْيَةُ تَكْرِمَةٌ يَسْتَعْمِلُهَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَلَيْسَ حُكْمُهَا حُكْمُ اللَّقَبِ .

(١) بياض بالأصل والصحيح عما تقدم (ج ٦ ، ص ٣٩٧) .

(٢) سماء فيما تقدم « أحمد بن محمد » .

قال : والرسم في هذه الكتب أن تفتح بحمد الله على نِعَمِهِ السَّائِغَةِ الضَّافِيَةِ ،
ومَوَاهِيهِ الزَّاهِيَةِ النَامِيَةِ ، وعَوَارِفِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جَزَاءً لِلْحَسَنِينَ ، وزيادةً لِلشَّاكِرِينَ ؛
ونحو هذا مما يليق أن يفتح به هذا الغرض ؛ والصَّلَاةُ على سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم . ثم يقال :

وإنَّ أميرَ المؤمنين بما خَوَّلَهُ اللهُ تعالى من نِعَمِهِ ، وبَوَّأَهُ مِنْ قِسْمِهِ ؛ وَخَصَّهُ
به من التَّمَكِينِ فِي أَرْضِهِ ، والمَعُونَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِفَرْضِهِ ، يَرَى الْمَنَّ عَلَى خُلَصَائِهِ ،
وإِسْبَاغَ النِّعَمِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ؛ وَأَخْصَاصَهُم بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَرِ مِنْ حِبَائِهِ ؛ وَالْإِمَالَةَ بِهِمْ
إِلَى الْمَنَازِلِ الْبَازِغَةِ ، وَالرُّتَبِ الشَّائِغَةِ . وَإِنْ أَحَقَّ مِنْ وَفَرٍ قِسْمُهُ مِنْ مَوَاهِبِهِ ، وَغَزُرَ
سَهْمُهُ مِنْ عَطَايَاهُ وَرَغَائِيهِ ؛ مَنْ تَمَيَّزَ بِمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ وَمُطَاوَعَةٍ ، وَوَلَاءٍ
وَمُشَافَعَةٍ ، وَأَنْقِيَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ؛ وَصَفَاءٍ عَقِيدَةٍ وَسِرِيرَةٍ ، وَحُسْنِ مَذْهَبٍ وَسِيرَةٍ ؛ وَلِذَلِكَ
رَأَى أميرَ المؤمنين أَنَّ يَنْبَغَكَ بِكَذَا لِأَشْتِقَاقِهِ هَذَا النَّعْتِ مِنْ سِمَاتِكَ ، وَأَسْتِنَابِطِهِ إِيَّاهُ
مِنْ صِفَاتِكَ ؛ وَشَرْفَكَ مِنْ مَلَابِسِهِ بِكَذَا ، وَطَوَّقَكَ بِطَوِّقٍ أَوْ بَعْقِدٍ ، وَقَلَّدَكَ بِسَيْفٍ
مِنْ سِيوفِهِ ، وَعَقَدَ لَكَ لِيَوَاءً مِنْ أَلْوِيَّتِهِ ، وَحَمَلَكَ عَلَى كَذَا مِنْ خَيْلِهِ وَكَذَا مِنْ
مَرَاكِبِهِ . وَبِحُسْنِ الْوَصْفِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَشْتِقَاقِ الْأَلْفَاظِ
مِنْ مَعَانِيهِ ، يَعْرَبُ عَنْ قَدْرِ الْمَوْهَبَةِ فِيهِ . ثُمَّ يَقَالُ : إِبَانَةً لَكَ عَنْ مَكَانِكَ مِنْ حَضْرَتِهِ ،
وَإِيمَانَةً عَلَى تَشْمِيرِكَ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَالْبَسْ تَشْرِيفَهُ وَتَطَوَّقْ ، وَتَقَلَّدْ مَا قَلَّدَكَ بِهِ ؛ وَارْكَبْ
حُمُولَاتِهِ ، وَأَبْرِزْ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي مَلَابِسِ نَعْمَائِهِ ، وَأَرْفُلْ فِي حُلْلِ آلَائِهِ ، وَزِينِ
مَوْكِكَ بِلَوَائِهِ ؛ وَقُلْ ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ وَأَعِنِّي عَلَى
مَا يَسْتَرْهِنُهَا لَدَيَّ ؛ وَخَاطِبُ أميرَ المؤمنين مُتَقَلِّبًا بِسِمَتِكَ ، مُتَنَعِّتًا بِنِعَّتِكَ .

وهذه نسخة مكتوبة إلى الأفضل بن ولحشى ، وزير الحافظ لدين الله الفاطمي ،
أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، حين قَرَّرَ الحافظ نُعُونَهُ : السَّيِّدُ ، الْأَجَلُّ ،

الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ،
وهادى دعاة المؤمنين ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تفرد بالإلهية ، وتوحد بالقدم والأزلية ؛ وأبدع من برأ
وخلق ، وأنشأهم من غير مثال سبق ؛ وأصطفى لتدبيرهم فى أرضه من بعثه برسالته ،
وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارة لطفه بهم ودلالته ؛ وصلى الله على جدنا محمد
رسوله الذى جعل رتبته اخيرا ونبوته أولى ، فكان أفضل من تقدمه نبيا وسبقه
رسولا ؛ وعلى أخيه وأبن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ذخره لخلافته ،
وأيدته بوزارته ؛ مع كونه من منزلة الأصطفاء ، وتأيد الوحي الظاهر من غير خفاء ؛
بحيث لا يقتصر إلى وزير ، ولا يحتاج إلى ظهير ؛ وإنما جعل ذلك تعليما لمن يستخلفه
فى الأرض من عباد ، وتمثيلا نص - جل وعز - إلى قصده وأعماده ؛ لما فيه من
ضمّ النشْر ، وصلاح البشر ، وشمول المنافع ، وعموم الخيرات التى أمن فيها من مضيع ؛
وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضاته ، والمتقين له حق ثقاته ، والكافلين لكل
مؤمن بأمانه يوم الفرع الأكبر ونجاته ؛ وسلم عليهم أجمعين ، سلاما متصلا إلى
يوم الدين .

والحمد لله الذى جعل النعم التى أسبغها على أمير المؤمنين ، بحسب ما اختصه به
من منزلته التى فضله بها على جميع العالمين ؛ بفعله خليفة فى الأرض ، والشفيع لمن
شايعه يوم الحساب والعرض ؛ وأجزل له من مننه ما لا يباهضه شكر إلا كان ظالما ،
ولا يقابله اعتداد إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعا ؛ وإن من
أرفعها مكانا ، وأعظمها شانا ؛ وأنخمها قدرا ، وأنبهها ذكرا ؛ وأعمها نفعا ، وأحسنها
صنعا ؛ وأغزرها مائة ، وأثبتها قاعدة إذا غدت النعم شاردة نادرة ؛ وأعودها فائدة

على الخالص والعام ، وأضمنها للسَّعْدِ المُسَاعِدِ والحِظِّ الوافر التَّامَ - ما كان من المنَّةِ
الشَّامِخَةِ الذَّرَى ، والمِنْحَةِ الشَّامِلَةِ لجميع الورى ؛ والعارفة التي أعترف بها التوحيد
والإسلام ، والمَوْهَبَةِ التي [إذا] أنفقَ كُلُّ أحدٍ عمره في وصفها وشكرها فما يُعَدُّ ولا
يُلام ؛ والآية انني أظهرها الله للملَّةِ الحنيفية على قُتْرِ من الرُّسل ، والمُعْجَزَةِ التي هدى
أهلها لها دون كافة الأُمَّة إلى أعدل السُّبُل ؛ والبرهان الذي خصَّ به أمير المؤمنين
وأظهره في دَوْلَتِهِ ، والفضيلة التي أبانت مكانه من الله وكريم مَنَزِلَتِهِ ؛ وذلك مامن الله
به على الشريعة الهادية ، والكلمة الباقية ؛ والخلافة النبوية ، والإمامة الحافظية ؛
منك أيها السيد الأجلُّ الأفضَلُ : ولقد طال قدرك في حُلِّ الشَّاءِ ، وجلَّ استحقاقك
عن كُلِّ عَوِضٍ وجرأ ؛ وغدت أوصافك مسألةَ آجتاعٍ وانتلاف ، فلو كانت مقالة لم
يَقَعُ بين أرباب المللِ شيءٌ من التناقض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمدُ استيجابك
من مُتَّحِيهِ ، أو يتسهَّلُ إدراكُ شأوه على طالبيه ومُتَّبِعِيهِ ؟ ؛ والإيمان لو تجسَّم لكان
على السَّعي على شُكرك أعظم مثابراً ، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيباً
على المنابر ؛ فأما الشُّركُ فلو أبقيته حياً لتصدى وتعرض ، لكنك أنحيت عليه
وأدلت التوحيد منه فانهذ بناؤه بحمد الله وتقوُّس ؛ فكان لك في حق الله العُصَبُ
الذي تقرَّبَ به إليه فأرضيته ، والعزم الذي صممت عليه في نُصرة الحق فأمضيته ؛
والباطن الذي أطلع عليه منك فنصرك ولم تُرق دَماً ، ولا رَوَّعت مسليماً ؛ ولا أقلقت
أحدًا ولا أزعجتَه ، ولا عدلت عن منهج صوابٍ لما اتَّهَجَّتْ ؛ وذلك مما أشرك
الكافة في معرفته ، وتساووا في عِلْمِ حقيقته ؛ مع ما كان من تسييرك العساكر المظفَّرة
صُحْبَةَ أخيك الأجلِّ الأوحد : أدام الله به الإمتاع وعَصَدَه ، وأحسن عنه الدِّفاع
وأَيَّدَه ؛ مما جرت الحال فيه بحسن سياستك ، وفضل سيادتك ؛ على أفضل ما عودك الله
من بلوغ آمالك ، من غير أذى لِحَقِّ أحدًا من رجالك ؛ والأمر في ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأمين من ضياءِ فلقِ الصُّباح ، وهذا إذا تأملَهُ أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَكَ من إحسانه ، بغاية ما في إمكانه ، وأن يُولِّيكَ من مَنَّتِهِ ، أَقْصَى ما في آسَاطِعَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، ولم يَرَأْ حُضَرَ من أن قرَّر نَعْوَتَكَ «السَّيِّدُ، الأَجَلُّ، الأَفْضَلُ» ، أميرَ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأَنام ، كافِلُ قُضَاةِ المُسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين ، أبو الفتحِ رِضْوَانِ الحَافِظِيَّ «إذ لا أُولَى منك بِكَفَالَةِ قُضَاةِ دَوْلَتِهِ وإرشادِهِمْ ، وَهِدَايَةِ دُعَاتِهِا إلى ما فيه نَجاةُ المُستَجيِبين في مَعَادِهِمْ ، وَجَدَدَ لك ما كان قَدَمَهُ : من تَكْفيلِكَ أَمْرَ مَمْلَكَتِهِ ، وإِعادةِ القَوْلِ فيما أسلفه من رَدِّهِ إليكَ تَدْيِيرَ ما وراءَ سِرِيرِ خِلافَتِهِ ، التَّيْذاذِ بِتَكَرُّارِ ذَلِكَ وترديده ، وَأَبْتِهَاجِ بِتَطَرُّيَّةِ ذِكْرِه وَتَجْدِيدِهِ ، فَأُمُورُ المِلَّةِ والدَّوْلَةِ مَعْدُوقَةٌ بِتَدْيِيرِكَ ، وأحوالُ الأَدانِي والأَقاصِي موكولةٌ إلى تَقْريكَ ؛ وقد جَمَعَ لك أمير المؤمنين من استخدامِ الأَولامِ ، وجَعَلَ السَّيادَةَ لك على سائرِ القُضاةِ والدُّعاةِ والحُكَّامِ ، وأَسْجَلَ لك بِالإِختصاصِ بالمَعَالِي والأَنفِرادِ ، والتَّوَحُّدِ بأنواعِ الرِّياساتِ والأَسْتِبدادِ ؛ ولكِ الإِبرامُ والنَّقْضُ ، والرَّفْعُ والخَفْضُ ؛ والوِلايَةُ والعِزُّ ، والتَّقْدِيمُ والتَّأخِيرُ ، والتَّنْوِيهُ والتَّأْمِيرُ ؛ فالْمُقَدَّمُ من قَدَمَتِهِ ، والمُحْمودُ من حَمْدَتِهِ ، والمُؤَخَّرُ من أُنْخَرَتِهِ ، والمَذْمومُ من ذَمَّتِهِ ؛ فلا مَخالِفَةَ لِمَا أَحَبَّتَهُ ، ولا مَعْدِلَةَ عَمَّا أَرَدَتَهُ ؛ ولا تَجَاوُزَ لِمَا حَدَدَتَهُ ، ولا نُحْوَجَ عَمَّا دَبَّرَتَهُ ؛ وأينَ ذلكَ مِمَّا يُضْمِرُهُ لك أمير المؤمنين وَيَنْوِيهِ ، وَيَعْتَقِدُهُ فيكَ فلا يَزَالُ مَدَى الدَّهْرِ يُعِيدُهُ وَيُيَدِّدُهُ ؟ ولو لم يكن من بركاتِكَ على دَوْلَةِ أمير المؤمنين ، وَيُؤَيِّنُ تَدْيِيرَكَ العائِدَ على الإسلامِ والمُسلمين ، إلا أن أَوَّلَ عَسْكَرِ جَهَّزَتِهِ إلى جِهادِ الكُفْرِ المَلاعين : وكان له النُّصْرُ العَزيزُ الَّذي تَبَلَّجَ بِحُجْرِهِ ، وَالْفَتْحُ المُبِينُ الَّذي جَلَّ قُدْرُهُ وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ ؛ وَالظَّفَرُ المُبْهِجُ لِلدِّينِ - العَسْكَرُ المُنْصُورُ على الطائفةِ الكافرة : قَتَلًا لأَبْطالِها ، وَأَسْرًا لأَعناقِ رِجالِها ، وأَخْذاً لِقِلاعِ المُلْسةِ

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فوقها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكفرة" .

منها، وأنه لم يُفْلِتْ من جماعتها إلا مَنْ يُحْبِرُ عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تَضَمَّنَه هذا السَّجَلُ لما أَقْتَصَرَ عليه ، إلا أنه عَاجَلَه ما يَسُرُّه فخاهر لك بما هو مُسْتَقَرٌّ لديه ؛ والله عَزَّ وَجَلَّ يُحْدِثُكَ السُّعُودَ ، وَيُخْصِّصُكَ مِنْ مَوَاهِبِهِ بما يتجاوز المعهود ؛ وَيَمُدُّكَ بِمَوَادِّ التَّوْفِيقِ والتأييد ، ويقضى لك في كُلِّ أَمْرٍ بما لا مَوْضِعَ فيه لِلزَّيْدِ ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قُلْتُ : وهذا الصَّنْفُ من الكُتُبِ السلطانية قد رُفِضَ وتُرِكَ اسْتِعْمَالُهُ في زماننا فلا مَعْوَلَ عليه أصلاً .

الصنف الحادى والعشرون

(المكاتبَةُ بالإِحماد والإِذْمام)

قال في ”موادِّ البيان“ : السلطان محتاجٌ إلى مكتبةٍ مَنْ يَقِفُ منه على طاعة وأجتهاد، ومُنَاصِحَةٍ وإخلاص، بالشُّكْرِ والإِحماد، والبُعْثِ على الأَزْدِيادِ من الخُلَاصَةِ وحُسْنِ السَّعْيِ في الخِدْمَةِ وغيرها؛ بما يربط به النِّعْمَةُ ، وَيَسْتَوْجِبُ معه حِفْظَ الرُّتْبَةِ . ومُكْتَتابَةٍ مَنْ يَعْتَرُ منه على تَقْصِيرٍ وتَضَجُّعٍ ، وتَفْرِيطٍ وتَضْيِيعٍ ؛ بِالذَّمِّ والتَّقْرِيعِ والتَّنَائِبِ : لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو أَعْوَانُ السُّلْطَانِ مِنْ كُفَاةٍ يَسْتَدِيمُ كِفَايَتَهُمْ بِتَصْوِيبِ مَرَامِهِمْ ، وَاسْتِحْسانِ مَسَاعِيهِمْ ؛ وَإِحْمَادِهِمْ على تَشْمِيرِهِمْ ، وَشَرْحِ صُدُورِهِمْ بِبَسْطِ آمَالِهِمْ ؛ وَالْعِدَّةِ بَرَفِ مَنَازِلِهِمْ وَمَحَامِلِهِمْ ، وَتَمْيِيزِهِمْ على نَظَرَاتِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ ؛ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوْبِخِ وتَقْدِيمِ الأَعْدَارِ ، والتَّخْوِيفِ مِنْ سَقُوطِ المَرَاتِبِ ، وَقُبْحِ المَصَايِرِ والعَوَاقِبِ .

قال : وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما ، إلى المعاني الناجعة في الغرضين ، ويتوسط فيهما سبيل التوسط الذي يقتضيه الحال المفاض فيها : لأن في ذلك تقريرا للمحسن على إحسانه ، ونقلا للمسيء عن إساءته : لأنه إذا علم الناهض أنه مثاب على نهضته ، والواني أنه معاقب على ونيته ، اجتهد هذا في الاستظهار بخدمته بما يزيد في رتبته ، وخاف هذا من حط منزلته وتغير حاله . ثم قال : والرسوم في هذه المكاتب تختلف بحسب اختلاف أغراضها ، وتشتعب بتشتعب معانيها ، والأمر في ذلك موكول إلى نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كل شيء في موضعه ، وترتيبه إياه في مرتبته .

فأما المكتبة بالإحمار ، فكما كتبت عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على محاربة باد الكردي .

كنا ، ووصل كتابك مؤرخا بيوم كذا ، تذكرك فيه ماجرى عليه أمرك في الخدمة التي نيظت بكفايتك وغنائك ، ووكلت إلى تديرك ووفائك : من رد باد الكردي عن الأعمال التي تطرقها ، وحدث نفسه بالتغلب عليها ، وتصرفك في ذلك على موجبات الأوقات ، والتردد بين أختينا وعدتنا أبي حرب : زياد بن شهر ا كويه وبينك من المكاتب ، وحسن بلائك في تحيفه ، ومقاماتك في حص جناحه ، وآثارك في الاقتضا على فريق بعد فريق من أصحابه ، وأضطارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي استعملتها ، والسياسات التي سست أمره بها ، إلى أن نزل عن وعورة المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ، وتراجع عن السوم إلى الاقتصاد ، وعن السرف إلى الاقتصاد ، وعن الإباء إلى الانقياد ،

وعن الاعتِيَّاصِ إلى الإذعان؛ وأن الأمر استقرَّ على أن قِيلَتْ منه الإنابة، وبَدَلَتْ له فيما طلب الاستجابة؛ وأُسْتَعِيدَ إلى الطاعة، وأُسْتُضِيفَ إلى الجماعة؛ وتَصَرَّفَ على أحكام الخِدْمَةِ، وجرى مجرى مَنْ تَضَمَّنَ الجمله؛ وأُخِذَتْ عليه بذلك العُهود المستَحِكَمَةُ، والأَيْمَانُ المَغْلَظَةُ؛ وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده، وُضِرَتْ عليها حُدُودُهُ، وفهمناه .

وقد كانت كُتِبَ أَخِينَا وَعُدَّتَا أَبِي حَرْبٍ [زياد بن شهراكويه] ^(١) مولى أمير المؤمنين تَرِدُ عَلَيْنَا، وَتَصِلُ إِلَيْنَا؛ مشتملة على كُتْبِكَ إِلَيْهِ، وَمُطَالَعَاتِكَ إِيَّاهُ؛ فنعرف من ذلك حُسْنَ أَثْرِكَ [وَحَرَمَ رَأْيِكَ] ^(١) وَسَدَادَ قَوْلِكَ، وصوابَ أَعْتِمَادِكَ؛ وَوُقُوعَ مَضَارِيكَ في مَقَاصِلِهَا، وَإِصَابَةَ مَرَامِيكَ أَغْرَاضَهَا؛ وماعدَدَتَ في مذاهيك كُلِّهَا، وَمُتَقَلَّبَاتِكَ بِأَسْرَها؛ الْمُطَابَقَةَ لِإِيثَارِنَا، وَالْمُؤَافَقَةَ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ عَنَّا؛ وَلَا خَلَّتْ كُتُبُ أَخِينَا وَعُدَّتَا أَبِي حَرْبٍ مِنْ شُكْرِ لَسَعِيكَ، وَإِحْمَادِ لَأَثْرِكَ؛ وثناءٍ جَمِيلٍ عَلَيْكَ، وَتَلْوِيحٍ وَإِفْصَاحٍ بِالنَّاصِحَةِ الْحَقِيقَةِ بِكَ، وَالْمُؤَالَاةِ اللَّازِمَةِ لَكَ؛ وَالْوَفَاءِ الَّذِي لَا يُسْتَغْرَبُ مِنْ مِثْلِكَ، وَلَا يَسْتَكْثَرُ مِنْ حَلٍّ فِي الْمَعْرِفَةِ مَحَلِّكَ؛ وَلَئِنْ كُنْتَ قَصِدْتَ فِي كُلِّ نَهْجٍ أَسْتَمَرْتَ عَلَيْهِ، وَمَعْدِلٍ عَدَلْتَ إِلَيْهِ؛ مُكَافَأَةً هَذَا الرَّجُلَ وَمُرَاعَمَتَهُ، وَمُصَابَرَتَهُ وَمُنَازَلَتَهُ؛ وَالتَّمَّاسَ الظُّهُورَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا تَرَجَعْتُمَاهُ مِنْ قَوْلٍ، وَتَنَازَعْتَاهُ مِنْ حَدٍّ؛ فَقَدْ أَجْتَمَعَ لَكَ إِلَى إِحْمَادِنَا إِيَّاكَ، وَارْتِضَائِنَا مَا كَانَ مِنْكَ؛ الْبُحْبُوحَةُ عَلَيْهِ إِذْ سَكَنْتَ جَاشَهُ، وَأَزَلْتَ أَسْتِيحَاشَهُ؛ وَأَسْتَلْتَهُ مِنْ دَنَسِ لِبَاسِ الْخُلَافَةِ، وَكَسَوْتَهُ حُسْنَ شِعَارِ الطَّاعَةِ؛ وَأَطْلَتَ يَدَهُ بِالْوِلَايَةِ، وَبَسَطْتَ لِسَانَهُ بِالْحُجَّةِ؛ وَأَوْفَيْتَ بِهِ عَلَى مَرَاتِبِ نَظَرَائِهِ، وَمَنَازِلِ قُرَانِهِ؛ حَتَّى هَابُوهُ هَيْبَةُ الْوَلَاةِ، وَارْتَفَعَ بَيْنَهُمْ عَنْ مَطَارِحِ الْعَصَا .

(١) الزيادة عن رسائل الصابي المخطوطة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محموداً ، وعند أخينا وعدتنا أبي حربٍ مشكوراً ؛
وعلى هذا الرجل ماناً ، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثاباً مأجوراً ؛ وإياه
نسأل أن يُجِرَّي علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا ، ونصرة أوليائنا ، والحكم لنا
على أعدائنا ، وإزالة هم على إرادتنا ؛ طوعاً أو كرهاً ، وسلاماً أو حرباً ؛ فلا يخلو أحدٌ
منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربةً أسراً ، أو مينةً عفو ؛ إنه جل ثناؤه بذلك جدير ،
وعليه قدير .

ويجب أن تُنفذ إلى خضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردى إن كنت لم تُنفذها
إلى أو أن وصول هذا الكتاب : لتكون في خزانتنا محفوظة ، وفي دواويننا منسوخة ؛
وأن نتصرف في أمر رسله وفي بقية - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك
عنا أخونا وعدتنا أبو حرب ، فأريك في العمل على ذلك ، وعلى مطالعتنا بأخبارك
وأحوالك ؛ وما يحتاج إلى علمه من جهتك ، موثقاً إن شاء الله تعالى .

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف الملوّم فيه والمدموم بسببه . فمن ذلك
الدم على [ترك] الطاعة وشقّ العصا .

كما كتب عمارة يصف شخصاً بأنه لما ارتفع مكانه ، وعلا قدره ؛ بطر
معيشته ، وخرج عن طاعة الخليفة ؛ وأن فلاناً كان ممن عرفت حاله ؛ في غموض
أمره ، ومحمول ذكره ؛ وضيق معيسته ، وقلة عده وناهضته ؛ ولا تُجاوز حياته
ما يقوله ، ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه ؛ ولا يمينه نفسه ، ولا يدفع يد لأمس
عنه بقوة تنوء بماله ، ولا عز يلجأ إليه . فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه ،
وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا تُرجى له ؛ وبسط له من الدنيا ، وآتاه من
غضارتها ونعمتها ، وعزّها وسلطانها ، ما لم يؤت أحداً من أهل زمانه . فلما مكّن الله

له في الدنيا طغى وتَجَبَّرَ، وَعَلَا وَتَكَبَّرَ، وَظَنَّ أَنَّ الذي كان فيه شيءٌ قاده إلى نفسه
بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ : تَهْوِيلًا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَسْتَدْرَاجًا مِنْهُ لَهُ .

وَكَمَا كَتَبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي مِثْلِهِ :

أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يَحْتَمِلْهُ لك ، إلا ما أَحَبَّ مِنْ رَبِّ
صَنِيعَتِهِ قَبْلَكَ ، وَأَسْتِثْمَامَ مَعْرُوفِهِ إِلَيْكَ ؛ وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا فَسَدَ
مِنْكَ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ عُدْتَ لِمِثْلِ مَقَالَاتِكَ ، وَمَا بَلَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ؛ رَأَى فِي مُعَاجَلَتِكَ
رَأْيَهُ ؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ إِذَا طَالَتْ بِالْعَبْدِ مُمْتَدَّةً أَبْطَرَتْهُ : فَأَسَاءَ حَمَلُ الْكِرَامَةِ ، وَأَسْتَنْقَلَ
الْعَافِيَةِ ؛ وَنَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ إِلَى حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ نَبْتِهِ وَرَهْطِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ
الْغَيْرُ ، وَأَنْكَشَفَتْ عَمَائَةُ الْعَشَى عَنْهُ ؛ ذَلَّ مُنْقَادًا ، وَنَدِمَ حَسِيرًا ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُّهُ :
قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَقَاهِرًا لَهُ . وَلَوْ أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ ، وَمُعَاجَلَةَ
إِفْسَادِكَ ، جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِنْ شَهِدَ فَلَتَاتِ خَطِّكَ وَعَظِيمَ زَلَّتِكَ ؛ وَلِعَمْرِي لَوْحَاوَلَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ فِي مَجْلِسِكَ ، وَبِجُودِكَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ ، لَرَدَّكَ إِلَى مَا كُنْتَ
عَلَيْهِ ، وَلَكُنْتَ مُسْتَحِقًّا .

وَفِي مِثْلِهِ :

فَإِنْ صَاحِبَ الْبَرِيدِ كَتَبَ إِلَيَّ عَنْ أَصْحَابِكَ بِكَذَا ، فَقُلْتُ : إِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَيَّ
مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى عَجَمُوكَ ، فَعَرَفُوا خَوَرَ عُوْدِكَ ، وَضَعْفَ مَكْبِرِكَ ، وَمَهَانَةَ
نَفْسِكَ ، وَأَنَّهُ لَا غَيْرَ عِنْدَكَ وَلَا نَكِيرَ .

وَمِنْ ذَلِكَ الذَّمُّ عَلَى الْخَطِإِ ، كَمَا كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ :

كَأَنَّ الْبُخْلَ وَالشُّؤْمَ صَارَا مَعًا فِي سَهْمِهِ ، وَكَأَنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي قِسْمِهِ ؛ فَخَازَهُمَا
بِالْوَرَاثَةِ ، وَأَسْتَحَقَّ مَا أَسْتَمَلَكَ مِنْهُمَا بِالشُّفْعَةِ ؛ وَأَشْهَدُ عَلَى حِيَازَتِهِمَا أَهْلَ الدِّينِ

والأمانة حتى خلاصه من كل ممانع، وسلامه من تبعه كل منازع؛ فهو لا يصيب إلا مخطئا، ولا يحسن إلا ناسيا؛ ولا ينفق إلا كارها، ولا ينصف إلا صاعرا .
قلت : وهذا الصنف من المكاتب السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقت من الأوقات . فإن عرّض له موجب، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وكتب على ما يوجبه المقام، وتقتضيه تلك الوقعة .

الصنف الثاني والعشرون

(ما يكتب مع الإنعام لثواب السلطنة بالخيّل والجوارح)

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت فأما ما يكتب مع الإنعام بالخيّل، فقد جرت العادة أن السلطان ينعم بالخيّل على ثواب السلطنة بالشام، ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم . وربما أنعم بالخيّل وكتب بها في غير ذلك .

وهذه نسخة مثال شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نعمة الجنب وخصه من النعم بما لا تحصى له آثار، ولا يتعلق له بقبار؛ ولا يوصف بحال واحدة : لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار .

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالي بكل سلام لا تدرك لسوابقه غاية ، ولا تحصى له نهايه ؛ ولا يرد منه كل ماجاء وله في وجهه كفلق الصبح آيه ، ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان رايه . وتوضّح لعلمه الكريم أنه قد جهّز له قرينها ماجرت به عادته من الحصن التي لا يدعى البرق أنه لها نظير ، ولا تجارى الرياح من سوابقها ما يطير؛ كم لها في ميدان بحال ، وكم لها في رؤية دوية أرجال ؛

وَكَمْ دُعِيَ الْوَعْيُ بِهَا عَلَى كُلِّ ضَامٍ فَأَتَتْ رَجُلًا تَقْدَحُ سَنَابِكُهَا نَارًا، وَتَفِيضُ جَوَائِبُهَا
 مِنَ الرِّكْضِ عَقَارًا؛ وَيَتَكَفَّلُ بَدِيدُهَا بِكُلِّ مَرَامٍ، وَتُعْطَى مَافِي يَدَيْهَا لِأَنَّهَا مِنَ الْكَرَامِ؛
 وَقَدْ تَشَرَّفَتْ مِنْ نِعْمَانَا الشَّرِيفَةِ بِالسُّرُوجِ وَاللُّجَمِ وَالْعِدَّةِ الْمُكَمَّلَةِ، وَتَحَلَّتْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ مَا يُغْنِي بِجِلَّتِهِ الْمُفَصَّلَةِ؛ وَأَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِ تَرْقُصُ فِي أَعْنَتِهَا زَهْوًا، وَتَتْرُكُ بِطِيبِ
 صَهْلِهَا كُلَّ بَحْرِ تَحْوِضُهُ إِلَى الْمَنَائِي رَهْوًا، وَتَوَجَّهَ بِهَا فُلَانٌ كَالْعُرَائِسِ الْمَجْلُوعَةِ فِي حُلَاهَا،
 وَالنُّجُومِ لَوْلَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ حَلْيٍ عَطَلِهَا؛ وَالسَّحَابِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ مِنْهُ الرِّيحَ
 فِي تَتَقَلُّبِهَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الشَّرِيفَةَ بِشُكْرِهَا ، وَلْيَتَسَلَّمْ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ الَّتِي
 تَعْتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بِقَدْرِهَا ؛ وَلِيَحْمَدِ اللَّهَ مِنْ تَقَقُّدَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى كَرَمِ فَرْسِ جَاءَ
 وَهُوَ سَابِقٌ ، وَجُودِ جَوَادٍ لَا يَدُورُ مَعَهُ السَّحَابُ فِي طَائِقٍ ؛ وَيَعْتَمِدُهَا لِارْتِقَاءِ كُلِّ
 صَهْوَةٍ مُنِيفَةٍ ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ ؛ وَيَعِيدُ الْوَاصِلَ بِهَا إِلَى
 خِدْمَةِ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ عَلَيْهِ بِنَا النِّعَمِ الْمُتَوَالِيَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



آخِرُ : وَلَا زَالَ إِقْبَالُنَا يُمِذُّهُ مِنَ الصَّافِنَاتِ الْحَيَادِ بِمَا يُبَارِي الرِّيحَ ، وَيَتَمَيَّنُ
 بَغُرِّهَا الصَّبَاحُ ، وَيَطْلُقُ أَعْنَتُهَا فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ قَسْبِقَ بَرَكِضِهَا ذَوَاتِ الْجَنَاحِ ؛
 وَلَا بَرَحَ إِنْعَامِنَا يُخَفِّفُهُ بِكُلِّ طَرَفٍ يَهْبِجُ الطَّرْفَ ، وَيَتَلَجُّ الصَّدْرُ بِمَا اسْتَمَدَّ عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَلَاةِ الَّتِي تَرُوقُ الْعَيْنَ وَتَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيُقِرُّدُهُ بِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْيُمْنِ :
 إِذْ هُوَ وَاحِدٌ كَالْأَلْفِ - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَعْبُقُ بِطِيبِ نَشْرِهِ أَرْجَاؤُهُ ، وَثَنَاءُ يُعْرَبُ
 عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ وَسُمُوِّ ذِكْرِهِ فَيُشْرِقُ سَنَاؤُهُ وَيُضَاعَفُ ثَنَاؤُهُ ؛ وَتَوْضُّعُ لَعْلَمِهِ
 الْكَرِيمِ أَنَّهُ غَيْرُ خَافٍ عَنْهُ مَا يَصِلُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْخِيُولِ الْبَرِّقَةِ فِي كُلِّ عَامٍ ،

وما نُحْصِه منها بَكلِّ مِمْوْنِ الْغُرَّةِ مُبَارَكِ الطَّلَعَةِ هَنِيءِ السَّيْرِ عَلَى الْإِنْعَامِ ؛ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى جَنَابِهِ الْكَرِيمِ مِنْ ذَلِكَ سَهْمَهُ ، وَأَضَفْنَا إِلَى ذَلِكَ مَا اسْتَصْلَحْنَاهُ مِنَ الْخَيْلِ الْعَرَبِيَّةِ الْغَرِيْبَةِ وَالْعِتَاقِ الْعَجِيْبَةِ الْعَرَبِيَّةِ (١) ؛ مِمَّا الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ، فَتُرْهَقُ عَلَى صَهَوَاتِهَا نَفُوسُ الْأَعْدَاءِ وَتَسْتَرْزُلُهَا مِنْ صَيَاصِيهَا ؛ فَيَأْخُذُ الْجَنَابُ الْعَالِي مَا يُحْصِيهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُفَرِّقُ الْبَاقِيَ عَلَى مَنْ رَسَمْنَا لَهُ بِهِ يَمِيْنُ رَأْيِهِ الْمُبَارَكِ الَّذِي لَا يُسَاهِمُهُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُشَارِكُ ؛ وَيُجَهِّزُ الْخَيْلَ الْمَخْصُوصَةَ بِفُلَانٍ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَضَاعِفُ عِزَّ ظُهُورِهَا عِنْدَ أَمْتِطَائِهَا لَدِيْهِ .

وَأَمَّا مَا يَكْتُبُ مَعَ الْإِنْعَامِ بِالْجَوَارِحِ [فَمَا يُكْتُبُ] (١) مَعَ إِرْسَالِ سُقْرِ .

وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْهِ بِسُقْرِ كَأَنَّهُ مَلِكٌ مُتَوَجِّجٌ ، وَرِزْقٌ مُرَوَّجٌ ؛ تَجَزَّأً عَلَى سَفِكِ الدَّمَاءِ ، وَأَبَى أَنْ يَطْلُبَ رِزْقَهُ إِلَّا مِنَ السَّمَاءِ ؛ يَوْدُ الْكُرْكِيِّ لَوْ خَلَصَ مِنْ مَحَالِيْسِهِ ، وَيَخَافُ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ خُرْطِ الشَّبَكَةِ (٢) وَيَقَعَ فِي كَلَالِيْسِهِ ؛ يَدْرِكُ الصَّيْدَ وَلَا يُوجِّلُهُ ، وَيَرْفَعُ صَدْرَهُ ثُمَّ يُوجِيْهِ إِلَيْهِ بِرَأْسِهِ كَأَنَّهُ يَسْتَعْجِلُهُ ؛ قَدْ جَمَعَ مِنَ الْحَاسِنِ كُلِّ الصُّنُوفِ ، وَكُنِيتَ عَلَيْهِ أَسْطَرُّ تَقْرَأُ بِمَا تُقْرَأُ بِهِ الضُّبُوفُ .

وَمِمَّا يَكْتُبُ مَعَ إِرْسَالِ صَقْرِ .

وَقَدْ وَجَّهْنَا إِلَيْهِ بِصَقْرِ لَا تُؤْمِسُ لَهُ مِنَ الصَّيْدِ جِرَاحٌ ، وَلَا يَدْعُ مِنْ وَحْشٍ يَسْرَحُ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ يَجْنَحُ ؛ أَيْمًا تَوَجَّهَ لَا يَأْتِ إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَحَيْثُمَا أُطْلِقَ كَانَ حَتْفُ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ ؛ يَدْعُ أَقْطَارَ الْفَلَاةِ مَجْزَرَهُ ، أَوْ رَوْضَةَ الدَّمَاءِ مُزْهِرَهُ ؛ يَجِدُّ إِلَى الطَّيْرِ فِي عُنُقِهِ ، وَيُحَلِّقُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرْجِعُ وَطَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ ؛ تَخَافُهُ الْعُفْرُ عَلَى نَفُوسِهَا ، وَتَحْضَعُ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ فَمَا تَخْرُجُ إِلَّا وَالطَّيْرُ عَلَى رُءُوسِهَا ؛ يَزِيدُ خَبْرَهُ فِي مَطَانِّ الصَّيْدِ عَلَى الْخَبَرِ ،

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

(٢) كذا في الأصل و" التعريف " .

وتخرج الطَّيَّاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا مِنْهُ فِي مَلَأَةٍ مِنَ الْعَجَاجِ مَخِيطَةً مِنْ قُرُونِهَا بِالْإِبْرَةِ
شَدِيدِ الْأَيْدِ ، قَدْ بَنَى عَلَى الْكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْدِ ؛ يَحْمَدُ مُقْتَنِيهِ أَيَّامَهُ الْعُزْرَ ؛ وَيَقُولُ
لَهُ إِذَا تَلَقَّتْ إِلَى الصَّيْدِ : إِنْ جَلَبْتَ ضُبْعًا فَأَنْتَ حَرْبٌ ، لَا يَصْحَبُ مُسْتَصْحِبُهُ مَعَهُ
إِلَّا مَرَّادَهُ ، وَأَيْنَمَا سَارَ حَامِلُهُ - وَهُوَ مَعَهُ - كَانَ مَعَهُ زَادُهُ .

ومما يكتب مع إرسال شاهين .

وقد وَجَّهَ إِلَيْهِ بِشَاهِينَ إِذَا حَاقَّ وَرَاءَ الطَّيْرِ شَاهَتْ بِهِ الْوُجُوهُ ، وَشَاهَدَتْ الْآمَالُ
بِهِ مَا تَرْجُوهُ ؛ قَدْ أَصْبَحَ كُلُّ مُحَقِّقِ الْجَنَاحِ رَهِينَ يَدِهِ ، وَكُلُّ سَارِبٍ مِنَ الْوَحْشِ طَعَامُ
يَوْمِهِ أَوْ غَدِهِ ؛ لَا يُتَعَبُّهُ خَلْفُ الطَّرِيدَةِ بَعْدَ الْمَدَى ، وَلَا يُرَدُّهُ خَوْفُ مَسَافَةٍ وَلَا تَقَحُّمُ
رَدَى ؛ رِيَّةٌ عَامٌ لَمْ يُتَمَتَّ بِطُولِ مَادَّهِرٍ ، وَمُمْتَدَّةٌ مِنْهُ فِي الطَّلَاقِ مِثْلَ رِيحِ سُلَيْمَانَ غَدَوْهَا
شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ .

ومما يكتب مع إرسال كوهيَّة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ كُوهِيَّةً ، هِيَ بِالْمَحَاسَنِ حَرِيَّةٌ ، وَلِكثْرَةِ الْإِقْدَامِ جَرِيَّةٌ ؛ يَكِلُ بِهَا
صَاحِبُهَا أَمْرَ مَطْبَخِهِ ، وَيَمْدُّهَا مِنَ الطَّيْرِ مَنْ لَيْسَ بِمُصْرِخِهِ ؛ لَا تَعْفُ عَنْ دَمٍ ،
وَلَا تُرَى أَطْرَافُهَا إِلَّا مُثْمَرَةً بَعْثَابٍ ^(١) أَوْ مُحْضَبَةً بَعْنَدَمٍ ؛ قَدْ أَخْلَتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ ،
وَلَيْسَتْ زَيِّ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ وَفَتَكَتْ بِكُلِّ سَائِحٍ .

ومما يكتب مع سقاوة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ بِسَقَاوَةٍ ، مَخَالِيهَا عَلَى الطَّيْرِ كَالْحَدِيدِ أَوْ أَشَدَّ قَسَاوَةً ؛ تُسِيلُ دِمَاءَ
الصَّيْدِ كَالْمَذَانِبِ ^(٢) ، وَتَكْسُو الْأَرْضَ حَبْرًا مِنْ رِيَّاشِ الْحُبَّارِيِّ وَفِرَاءٍ مِنْ جُلُودِ الْأَرَانِبِ ؛

(١) كَذَا فِي "التعريف" (ص ٢٢٥) وَفِي الْأَصْلِ «مُسْمَرَةٌ» .

(٢) فِي الْأَصْلِ «قَدْ أَخْلَتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ» وَالتَّصْحِيحُ عَنْ "التعريف" .

(٣) كَذَا فِي "التعريف" ، وَفِي الْأَصْلِ «كَالْدَايِبِ» .

وَجَعَلَتْ فِي قَبْضَةِ الْكَفِّ مَا كَانَتْ الْعَيْنُ عَلَيْهِ تَدُورُ ، وَتَكَفَّلَتْ بِكَفَايَةِ الْمَطْبُخِ
وَمَلَأَتْ الْقُدُورَ .

ومما يُكْتَبُ مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه بِبَازٍ مَهْمَا لَقِيَ لَقِيفَ ، وَمَهْمَا خَطَا لَدَيْهِ خَطِيفَ ، كَأَنَّمَا خُطَّ
جَوْهَرُهُ بِقَلَمَ ، أَوْ رِيشَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ وَالظُّلَمِ ؛ قَدْ أُعِدَّ لِلطَّوَارِقِ ، وَأَدْرَأَ بِمِثْلِ
الطَّوَارِقِ ؛ قَدْ دَحَضَ مُجِجَ الْحَجَلِ ، وَكَسَرَهَا حَتَّى أَبَانَ عَلَيْهَا حُمْرَةَ الْحَجَلِ ؛ لَا يُسَالُ
فِي الصَّيْدِ عَمَّا نَهَبَ ، وَلَا تُعْرَفُ لَهُ قِيَمَةٌ إِلَّا أَنَّ لَهُ عَيْنًا مِنَ الدَّهَبِ .

ومما يُكْتَبُ مع الفَهْدِ .

وقد أنعمنا عليه بِفَهْدٍ أَهْرَتِ الشَّنَقِ ، ظَاهِرِ الْحَذَقِ ؛ بَادِيَ الْعُبُوسِ ، مُدَنَّزِ
الْمَلْبُوسِ ؛ شَتْنِ الْبَرَاثِنِ ، ذِي أَنْيَابٍ كَالْمُدَى وَخَالِبِ كَالْحَاجِنِ ؛ قَدْ أَخَذَ مِنَ الْفَلَقِ وَالْغَسَقِ
إِهَابًا ، وَتَقَمَّصَ مِنْ نُجْلِ الْحَدَقِ جَلْبَابًا ؛ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي سُرْعَةِ وَثُوبِ الْأَجَلِ بِهِ
وَبَشِيرِهِ ، وَتَكَادُ الشَّمْسُ مُدَّ لِقَبُوهَا بِالْغَزَالَةِ لَا تَطْلُعُ مِنَ الْوَجَلِ عَلَى وَجْهِهِ ؛ يَسْبِقُ
إِلَى الصَّيْدِ مَرَامِي طَرْفِهِ ، وَيَفُوتُ لِحَظَ مَرْسِلِهِ إِلَيْهِ فَلَا يَسْتَكِلِ النَّظَرَ إِلَّا وَهُوَ
فِي كَفِّهِ ، وَتَتَقَدَّمُهُ الصَّوَارِي إِلَى الْوَحْشِ فَإِذَا وَثَبَ لَهُ تَعَثَّرَتْ مِنْ خَلْفِهِ ^(١) .

وأما مَا يُكْتَبُ مع الإِنْعَامِ بِالسَّلَاحِ .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سَيْفًا تَلْمَعُ مَخَايِلُ النَّصْرِ مِنْ غَمْدِهِ ، وَتُشْرِقُ جَوَاهِرُ
الْفَتْحِ فِي فِرْنِدِهِ ؛ وَإِذَا سَابَقَ الْأَجَلَ إِلَى قَبْضِ النَّفُوسِ ، عَرَفَ الْأَجَلَ قَدْرَهُ فَوْقَ
عِنْدِ حَدِّهِ ؛ وَمَتَى جَرَّدَ عَلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْعِدَا وَهَتْ عَرَائِمُهُ ، وَعَجَزَ جَنَاحُ جَيْشِهِ

(١) وقع في هذه الرسالة تحريف كثير في الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أَنْ تَنْهَضَ بِهِ قَوَادِمَهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُفَنَّا الَّذِي عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ [الأعز] ^(١) نَجَادُهُ وَفِي يَدِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمَهُ .

الصفحة الثالث والعشرون

(المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه)

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبته ، ويشير إلى تخصيص الخلافة بمصيرها إليه دون سائر البرية ، وانتقالها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كإبراهيم عن كآبر ، وبقائها في عقبه إلى الأبد . ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين التي أنعمها الله تعالى عليه ، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولدا ، ويذكر اسمه وكُنْيَتَهُ ، ويصفه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، وهي :

الحمد لله مؤيد الإسلام بحلفائه الراشدين ، ومُظْهِرِ الإيمان بأوليائه الهادين ، الذي جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين ، وأقام منهم الحاضر المتبع ، والمرجو المتوقع ، وأطلع منهم في سماء الهداية شهاباً لا يحبو منها شهابٌ حتى يتوقد شهاب ، وفتح بهم للإرشاد أبواباً لا يرتج منها بابٌ حتى يفتح باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آبائه ، ووقفه (؟) بانتقال ماورثه من آبائه إلى أبنائه ، ويسأله أن يصلي على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة سيدنا محمد خاتم رسله ، المترجم عن توحيده وعدله ، وعلى أخيه وأبن عمه على بن أبي طالب قسيمه في فضله ، ووصيه على أمته وأهله .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وإن أولى النعم بأن يفاض في شكرها، وتُعطر الحافلُ بنشرها ؛ نعمةً حاطت
دعائم الدين، وأمرت حبل المسلمين ؛ وتساوى^(١) في [تناول] قطافها الكافه، وأذنت
بشيوخ الرحمة والرافه ؛ وأضحت بها النبوة مشرقة الأنوار، والإمامة عالية المنار؛
والخلافة محالة المنبر والسرير، رافلة في حلل الأبهةج والسرور .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالى ولدا ذكرا مباركا رضيًا، سماه
فلانا، وكناه أبا فلان، بخلا بنهار غرته الدامس، وأقر بمقدمه العايس، وأخضر
يمن [نقيبته]^(١) اليايس ؛ ووئقت الآمال بسعادة مقدمه، وتطلعت الأعناق إلى جوده
وكرمه ؛ مبشرا لك بهذه النعمى الحسنة الأثر، القليلة الخطر؛ علما بمكانك من ولائه
ومخالصته، وسرورك بما يفيضه الله عليه من شآبيب نعمته : لتأخذ من المسرة
والجدل بحظ المولى الخالص، والعبد المتخصص ؛ ولتشيح مضمون كتابه فيمن قبلك
من الأولياء، أيساركونا في الشكر والثناء ؛ فاعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى .

[قلت]^(١) وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في البشارة عن السلطان
إذا حدث له ولد، فيكتب بالبشارة به إلى نواب السلطنة وأهل المملكة .

الصنف الرابع والعشرون

(ما يُكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مريض)

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من مريض، إلى
صاحب مآدين، وهو :

(١) بياض بالاصل والنصح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِهِ الكَرِيم مُتَوَاتِرَةً ، وَالْمَسَارُّ إِلَى مَقَامِ مُلْكِهِ سَائِرَةً ؛
وَالْتَّهَانِي ، بِبُلُوغِ الْأُمَانِي ، مِنْ كَمَالِ شِفَائِنَا تَجْعَلُ ثُغُورَ الثُّغُورِ بِاسْمِهِ وَوُجُوهَ الدُّهُورِ
نَاصِرَةً ، وَنِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابَلَةً بِالشُّكْرِ الْحَزِيلِ عَلَى أَنْ أَجَدَّ مَلِكَ الْإِسْلَامِ بِإِفْتِقَادِهِ ،
وَأَبْقَى لِلدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ نَاصِرَهُ . أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِي وَمَوَارِدُنَا مِنَ الصَّحَّةِ حُلُوةً
فِي الْأَفْوَاهِ ، وَأَلَسَّنَا شَاكِرَةً لِنِعْمِ اللَّهِ ؛ وَعَافَيْتَنَا تُجَدِّدُ فِي كُلِّ جَدِيدٍ ، وَصَحَّحْنَا قَدْ بَلَغْتَ
مِنَ الْمَزِيدِ مَا نُرِيدُ ؛ وَقَدْ أَلَسَّنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشِّفَاءِ ثَوْبًا قَشِيبًا ، وَنَصَرْنَا نَصْرًا عَزِيزًا
وَفَتَحَ لَنَا قَتَعًا مُبِينًا - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَتَأَرَّجُ بِهِ أَرْجَاءُ مُلْكِهِ ، وَتُنَازِلُ الْأَنْبِيَاءَ
فِي سُلُوكِهِ ؛ وَتُوضِّحُ لِعَالَمِهِ الْكَرِيمِ مَا حَصَلَ مِنْ عَافِيَتِنَا الَّتِي تَضَاعَفَ بِهَا فَرَحُ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْهِمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الضرب الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ السُّلْطَانِ فِي الْجَوَابِ)

وَكُلُّ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْوَارِدَةِ بِهَا الْكُتَابُ إِلَيْهِ يُسْتَقَرُّ جَوَابُهُ مِنْهَا ، وَغَالِبُ مَا يُعْنَى
بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَابُ مَا يَرِدُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ بِالتَّقَادُمِ وَالْهَدَايَا ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها .

جواب سُلْطَانِيٍّ عَنْ وَصُولِ خَيْلٍ : - وَلَا زَالَ يُخْفِ بِكُلِّ صَاهِلٍ فِي الْجَحْفَلِ ،
وَبَحَالٍ فِي الْمَحْفَلِ ؛ وَأَجْرَدَ إِذَا أُمَّ غَايَةً لَمَعَتْ فِي أَثَرِهِ الْبُرُوقُ تَتَطَفَّلُ ، وَمُسَوِّمٌ يَلْتَرَمُ
جَلَالَهُ بِمَزِيدِ جَلَالِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ إِذَا أُسْدِلَتْ عَلَيْهِ يَتَكَفَّلُ ! . أَصْدَرْنَا وَالْعِطْرُ
يَضُوعٌ مِنْ سَلَامِهَا ، وَالْمِسْكُ يَفُوحُ مِنْ خِتَامِهَا ، وَأَثَارُ النَّدَى تَحْكِي آثَارَ أَقْلَامِنَا .

آخر في المعنى : ولا زال مُحَنَفًا بِالْحَيَادِ وإرسالها ، ومُهْدِيًا لِرُكَابِ الشَّرِيفِ
السَّوَابِقِ التي إذا لم يسبقها شيءٌ من الِيوَانِ تَجَلَّتْ فِي مُسَابَقَةِ ظِلَالِهَا ، وَيَتَقَيُّ لِمَوَاقِبِنَا
الْحَيُولِ التي إذا أصبحت في مَدَى أصبحت الرياحُ تتعلق بأذيالها . أصدرناها .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي إلينا من الْحَيَادِ بَحْرًا ، وَيَقُودُ مِنَ الْعَرَابِ مَاتَمَلًا
غُرَّتُهُ الْمَوَاكِبِ بِشْرًا ، وإذا طلع في الْكَتِيَّةِ يزيدها عِزًّا وَنَصْرًا ، من كُلِّ طَرَفٍ
تَأَصَّلَ حُسْنًا وَحَسَنَ إِهَابًا وَجَلَّ قَدْرًا .

آخر في مثله : وأعلى له على صَهَوَاتِ الْعِتَاقِ مُرْتَقِيًا ، وَخَصَّه بِكُلِّ جَوَادٍ وَهُوَ مُنْتَقِلٌ
إِلَيْهِ مُنْتَقِيًا ، وأطلع عليه نَوَاصِي الصَّوَانِ التي عُقِدَ الْخَيْرُ بِهَا عَقْدًا مُوْتَقًا . أصدرناها
وَنُورُ التَّحَايَا من أَرْجَائِهَا يُنِيرُ ، وَمَفَانِحُهَا تَشْرَفُ بِهَا كُلُّ مَنِيرٍ وَسَرِيرٍ ، وَرُكَّابُ أَثْنَيْهَا
تَسِيرُ إِلَى مَقَامِهِ فَتَطِيبُ رَاحِلَةً فِي ذَلِكَ الْمَسِيرِ .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي من الْحَيَادِ الْمُسَوِّمَةِ أَصَائِلَهَا ، وَيُخَفُّ مِمَّا يَحِيهِ عِنْدَ
الْوَفَادَةِ عَلَيْهِ صَاهِلَهَا ، وَيَقَابِلُ أَكْرَمَ غُرَّةٍ : الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَاصِيَتِهَا وَالْإِثْمُ يَقَابِلُهَا ، وَيَمْتَعُ
بِأَعَزِّ جَوَادٍ حَلِيَّةُ الشَّفَقِ دُونَ إِهَابِهِ إِذْ يَمَاطِلُهَا ، وَسُرْعَةُ الْبَرْقِ خِفَّتُهُ إِذْ يُسَاجِلُهَا .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب)

بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

اعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشَّامِ مثالٌ شريفٌ من
الأبواب السلطانية ، يأمرهم ^(١) كَتَبَ نَائِبُ الشَّامِ إِلَى نَوَّابِ السُّلْطَانَةِ بِوَرُودِ

(١) بياض بالأصل ولعله بأمر .

المثال الشريف مُبَشِّرًا بذلك ، ويجهز إلى كُلِّ منهم مع المثال الوارد إلى كُلِّ نائب من نواب السلطان معنى المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك . إلا أنه يكون حاكيا لصورة المثال الوارد بذلك ، لأنه مُبْتَدِئُهُ ، ويشتمل ذلك على عدة أمور .

فمن ذلك جلوس السلطان على تخت المُلْك ، فيخبر نائب الشَّام في الكتاب الصادر عنه إلى بعض النواب بأنَّ المثال الشريف ورد عليه بذلك ، وأنه ورد كتاب إلى المكتوب إليه بجهزه إليه .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِبَ به عن نائب الشَّام إلى بعض نواب السلطنة ، بالِبِشَارَةِ بسلطنة السلطان الملك الصَّالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، وقد ورد على يَدِ بعض المُجَّاب . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهي بعد الصدر :

أمتعه [الله] من البشائر بما يتَوَضَّعُ على جَبِينِ الصَّباحِ نُشْرُهُ ، وبما يَتَرَجَّحُ على مِيزَانِ الكواكب قَدْرُهُ ، وبما يَنْفَسِحُ من أوقات أَمْنٍ لَا يَخْتَصِمُ في ظِلِّها زيدٌ وعمرٌو حتى يقال : ولا زَيْدُ النُّجُو وعمره . وَيُنْهَى بعد دعاء يَتَبَلَّجُ في الليل فَجْرُهُ ، وثناء يَتَّارِجُ في طَيِّ النَّسيم نُشْرُهُ ، وولاءٍ يتساوى في درجات الصِّفاءِ سِرُّه وجَهْرُهُ . أنَّ خَيْرَ البشائر ما خَصَّ أولياءَ الدَّولَةِ الشريفة وعمَّ الرعايا ، وسَمَّا إلى نُغُورِ الإسلام خبره الحليُّ فقال : «أنا ابنُ جَلَاوِطَلَّاعِ الثَّنَائَا» وَقِسِمَتْ مَسَرَّتُهُ على كَافِلِي الممالك فقالت مملكة مولانا : «لَنَا المِرْبَاعُ مِنْهَا والصِّفَايَا» وسلك المملوك من الإسراع بإشاعته الحقَّ الواجب ، وجَهَّزَ خِدْمَتَهُ بين يَدَيِ المثالِ الشريف الذي سبق طائرُ يَمْنِهِ وَلَكِنَّهُ جاء وفي خدمته حاجب ، وهي البُشْرَى الوارِدَةُ في الأمثلة الشريفة السلطانية ، المالكية المَلَكِيَّة ، الصالحية العِمَادِيَّة ، العريقة في نَسَبِ النَصْرِ بالأنساب النَّاصِرِيَّة المنصورة ، أعلى الله

تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها، وصرف بها الأئمة لما سرّ وصرفها عما دهي؛
يجلوسه على كرسيّ المملكة الذي هو آية سَعْدِ الكُبرى، وتحت السلطنة الذي عينه
ملك الجود والعلم فقال: السّلام عليك بحراً، وإجماع الأئمة على أنه صالح المؤمنين،
وكفاة الحلّ والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين؛ وأركان البيت الناصريّ
على أنه عمادُه، وعلى أنه سندُه المكلّم وإذا انقضّ بيتُ سَنادِه؛ فياله جلوساً قامت
فيه كواكب السعد مشدودة المناطِق، وياله إجماعاً اتفق فيه - حتى من تصميم
السيوف وتعبير الأقلام - كُلّ صامِتٍ وناطِقٍ؛ وياله بيتَ ملكٍ أبى الله إلا أن يقيم
وزنه أفضل الأفاعيل، وياله ملكاً قال الدهرُ الطويلُ انتظاره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾. وياله أمراً بلغُ خبرُه وخبره الأوطار والأوطان،
ونفذت برده المصرية على حين فترةٍ تاليةٍ له السُّعود: ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾
وحشِرَ الناسَ صُحّى يوم الزَّينة، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كُلِّ مَنْ
في المدينه؛ وضربت البشائرُ ويا عجباً! أنها تُضرب ومكائنها من القلوب مكينه.
حتى إذا أخذت مضرّ حظّها من الهناء قُسمت على الأمصار، وأضاء بأرقِ نَشْرِها
من كُلِّ وجهٍ فسمت بالشّاماتِ غُرّةَ الابصار؛ ورَكَضَ بريدُ الخيرِ بمبارك باب البريد،
ووصل نَيْلَ النَيْلِ إلى أنهارِ دِمَشقَ فبردى على الشُّكرِ نائِتٌ ويزيد؛ وبُشِّرَ الإسلامُ
من وجه الخلف الصّالح بأكرم من برّ، وأستفاض الأسم الشريف: فلو كُلف مُشتاقٌ
فوق وَسْعِهِ لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سرّ البيت الشريف الناصريّ بجَمْعِ شَمْلِه، وعلى أن أتى الملك
العقيم الصّالح من أهله؛ وقد جهّز المملوكُ المِثالَ الشريف المختصّ بمولانا: ومولانا
أولى من أنتظمت لديه دُرر هذه الأخبار الثمينه، وعُظمت بناحيته شعائر هذه الدولة
المكينه، وبكل خير حمّاه خير قرينه؛ والله تعالى يعزّ الإسلام بعزّمه، ويُمضي الآجال

والأرزاق على يَدَيَّ حَرِّهِ وَسِلْمِهِ ؛ وَيُخِزُّ لِرَأْيِهِ وَرَأْيِهِ النَّصْرَ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ الْأَوْلِيَاءُ
بِعَلَمِهِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُحِيطَ الْأَذْكِيَاءُ بِعَلَمِهِ .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين
إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، في خلافة المعتضد بالله أبي الربيع سليمان ؛
من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهناء كُلَّ سِرٍّ يُسَرُّهُ ، وَكُلَّ سَنِيٍّ يَقَرُّ أَمَامَ نَاطِرِهِ الْكَرِيمِ وَيُقِرُّهُ ،
وَكُلَّ وَفَى إِذَا طَلَعَ فِي آفَاقِ حَلَبٍ قِيلَ : لَهِ دَرُّهُ ؛ وَلَا زَالَتِ الْبِشَائِرُ تَلْقَاهُ بِكُلِّ وَجْهِ
جَمِيلٍ ، وَبِكُلِّ جَلِيٍّ جَلِيلٍ ، وَبِكُلِّ خَبَرٍ تَصِحُّ الدُّنْيَا بِصَحَّتِهِ فَلَيْسَ بِهَا غَيْرُ النَّسِيمِ
عَلِيلٍ ؛ تَقْبِيلًا يُزَاحِمُ عُقُودَ الثُّغُورِ ، وَيَكَادُ يَمْنَعُ ضَمَّ الشَّفِيقِينَ لِلَّهِ طَوْلُ الْإِبْتِسَامِ
لِلسُّرُورِ ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ الْيَدِ بُدْعَانِهِ ، وَضَمَّ الْجَوَانِحِ عَلَى وَلَانِهِ ؛ وَجَزَمَ الْهِنَاءَ الْمَشْتَرَكِ
بِمَسْرَةِ مَوْلَانَا وَهَنَانِهِ ؛ أَنْ الْمَثَالَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا ، وَزَادَ فَضْلَ سُلْطَانِهِ عَلَى
الْعِبَادِ سَرَفًا ؛ وَرَدَ بِالْبِشَارَةِ الْعُظْمَى ، وَالنِّعْمَاءِ الَّتِي مَاضَاهَا الْأَيَّامُ قَبْلَ نَبْعِي ؛ وَالْمَسْرَةَ
الَّتِي يَأْكُلُ حَدِيثُهَا أَحَادِيثَ الْمَسَرَّاتِ أَكْلًا لَمًّا ، وَيُجِبُّهَا الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ حُبًّا جَمًّا ؛
بِسَلَامَةِ جَوْهَرِ الْجَسَدِ الشَّرِيفِ مِنْ ذَلِكَ الْعَرَضِ ، وَشِفَائِهِ الَّذِي فِي عَيُونِ الْأَعْدَاءِ
مِنْهُ شِفَاءٌ تَطْعُنُ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؛ وَأَنْ مَادَّةَ الْأَدْوَاءِ بِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ انْحَسَمَتْ ،
وَالْوَارِدَةُ مِنَ الْإِقْتِفَادِ بِالْأَجْرِ وَالْعَافِيَةِ قَدْ ابْتَسَمَتْ ؛ وَأَنْ ظُنُونُ الْإِشْفَاقِ قَدْ أَضْمَحَلَّتْ ،
وَسَمَاتِ الرُّوضِ قَدْ فَدَّتِ الْجِسْمَ الشَّرِيفَ فَأَعْتَلَّتْ ، وَأَخْبَارُ الْهِنَاءِ يَعْنِيهَا كُلُّ بَرِيدٍ
نَشْوَانٍ مِنَ الْفَرَجِ [يَنْشُدُ] أَسْأَلُهَا أَىِّ الْمَوَاطِنِ حَلَّتْ ؛ فَيَالَهَا بَشَارَةً خَصَّتْ الْإِسْلَامَ
وَعَمَّتْ بَنِيهِ ، وَسَارَتْ فَوْقَ الْأَرْضِ وَسَرَتْ تَحْتَهَا أَسْلَافُ الْمُلُوكِ وَمُبْتَنِيهِ ؛ وَشَمِلَتْ الْبِلَادَ
وَعِبَادَهَا ، وَالسُّلْطَنَةَ وَقَدْ حَجَبَ اللَّهُ عَمَادَهَا عَمَّا دَهَى ، وَالْمُلُوكَ السَّلْمَانِيَّ وَقَدْ ثَبَّتَ اللَّهُ

به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها؛ والطير وقد حملت ورقه أوراق السرور، والوحش وقد قالت مهاه : على عيني أنحمّل ذلك السقام أودك الفتور؛ ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيًّا ﴾ والألطف الرَّاحِمُ بها المؤمنين من خلقه ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان ، فيأله من وأرد لمشاريع الأمن أورد، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد؛ وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوعة في كل ضرب من التهاني ، وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدي الفواني ؛ فيأخذ خطه من هذه البشري ، ونصيبه من هذا الوجه الذي ملأ الوجود بشرا ، وشطره من الهناء المخصوص الذي تعجل منه المملوك شطرا ؛ والله تعالى يسره بكل خير تُشرق زواهره ، وتعبق في كرائم الدروج أزهيره ، ويتألق على يد بريده من المخلقات كل كوكب صبح تملأ الدنيا بشائره .

ومن ذلك المكتبة بورود المثال الشريف بوفاء النيل .

إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك ، كتب نائب الشام عن نفسه إلى نائب حلب وغيره ، من ثواب السلطنة بالممالك الشامية ، بورود المثال الشريف عليه بذلك ، ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان : من السجع ، وإيراده مورد البشارة ، وإظهار الفرج والسرور بذلك ، لا يكاد يحافظه إلا في كونه وأردا مورد الحكاية لمثال السلطان ، ومثال السلطان محب بذلك ابتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهي بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بِكُلِّ مُبْهَجَةٍ ، مُغْطَرَةً الْأَرْجَاءَ بِكُلِّ سَائِرَةِ أَرْجَاهِ ؛ مُبَسِّرَةً الْأَوْقَاتَ بِمُقَدِّمَتَيْ سَمَاعٍ وَعِيَانٍ : كِلَاهُمَا لِلسَّائِرِ مُنْتَجَهُ ، مُسْتَحْضَرَةً فِي مَعَالَى الْكَرَمِ كُلِّ دَقِيقَةٍ تُشْهَدُ بِسَطَةِ النَّيْلِ أَنَّهَا أَرْفَعُ مِنْهُ دَرَجَةً ، وَيُنْهَى بَعْدَ دَعَاءِ مَا الرَّوْضُ أَعْطَرَ مِنْ شَدَاهُ ، وَلَا مَاءَ النَّيْلِ وَإِنْ كَرُمَ وَفَاءً بِأَوْفَى مِنْ جَدَاهُ ؛ أَنْ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى شَرَفًا ، وَرَدَ بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ وَحَبْذًا هُوَ مِنْ وَفَى مُوَافَى ، وَمُنْغِيرَ الْخَبْرَى وَعَيْشَ الْبِلَادِ بِهِ الْعَيْشَ الصَّافِي ، وَحَسَنَ الزِّيَارَةِ وَالرَّحِيلَ مَاضَاهُ الْغِيُوثَ فِي وَلَا فِي ؛ وَوَارِدَ مِنْ مَعْبَدٍ بَعِيدٍ ، وَحِمِيلٍ لَا جَرَمَ أَنْ مَدَّهُ تَابَتْ^(١) وَيَزِيدُ ؛ وَجَائِدٍ إِذَا تَبَاعَ حَيْثُ تَيَّارُهُ يُقَلِّدُ بَرَّهُ وَدُرَّهُ مِنَ الْأَرْضِ وَسَاكِئَهَا كُلِّ جِيدٍ ، وَإِذَا ذُكِرَ الْخِصْبَ لِمَكَانِ عَيْدِهِ الْمَشْهُودِ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ كَذَا ، وَأَنْ الْبِلَادَ جَرَتْ بِكُمَرِ خَلِيجِهِ ، وَاسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهَا بِتَفْرِيجِهِ : وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِآلَائِهِ ، وَوَسَمَتْ لَوْنَهُ الْأَضْهَبَ عَلَى رَغَمِ الصَّهْبَاءِ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ ؛ وَخُلِقَ فَمَلَأَتْ الدُّنْيَا بَسَائِرَ مُخَلِّقِهِ ، وَعَاقَ سِيسْتَرَهُ الْمِصْرِيَّ التَّبْرِيَّ فَرَكَ عَلَى مُعَلِّقِهِ ، وَحَلَّقَ مَسِيرَ تَرَاغِيهِ عَلَى الْقُرَى فَبَاتَ عَلَى النَّدَا ضَيْفَ مُخَلِّقِهِ ؛ وَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ ، وَأَنْعَرَجَ عَلَى الْبِقَاعِ يَلْوِي مِعْصَمَهُ فَلَهُ أَوْقَاتَ ذَلِكَ اللَّوَى وَالْمَنْعَرَجَ ؛ وَأَسْتَقَرَّتِ الرِّعَايَا آمِنِينَ آمِلِينَ ، وَقُطِعَ دَابِرُ الْحَدَبِ بِسُغُودِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَرُسِمَ أَنْ لَا يُجْبَى حَقُّ بَشَارَةٍ ، وَلَا تَعْبَتَ يَدُ التَّنْقِصِ مِنْهَا لِيَزْدَادَ الْخَبْرُ نُورًا عَلَى نُورٍ ، وَيَكُونَ فِي إِيْثَارِهِ وَحُسْنِهِ الْخَبَرُ الْحَسَنَ الْمَأْثُورَ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْخَبَرِ فُلَانٌ وَعَلَى يَدِهِ مِثَالُ شَرِيفٍ يَخْتَصُّ بِمَوْلَانَا وَقَدْ جَهَّزَ بِهِ ؛ فَيَأْخُذُ مَوْلَانَا حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى ، وَيُوضِّحُ بِهَا عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ

(١) فِي الْأَصْلِ "لَا جَرَمَ أَنْ يَدَهُ".

بُشْرًا؛ والله تعالى يملأ له بالمسرات صدرا، ويضع بعدله عن الرعية إصرا؛ ويسرهم في أيامه بكلّ واردٍ يقول الإحسان لم تحمله : (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض النواب، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة أيضا، وهي بعد الصدر :

وضاعف مواد نعمة ونعمائه ، ومسرتة وهنائه ؛ وحفظ عليه ما وهبه من المناقب التي يروى النيل عن كرمه ووفائه ، وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيول لكونها من سمائه .

المملوك يحدد الخدمة بنفحات سلامه وثنائه ، ويصف ولأه لو تجسم لاستمدت عين الشمس من سنائه ؛ وينهى أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفا ، ورد مبشرا بوفاء النيل المبارك في يوم كذا ؛ فياله ربيعاً جاء في ربيع ، وحاملاً في مقرده الفضل الجميع ؛ وداعياً بالخصب ينشد كل ثانية اثنين ريمانه الداعي السميع ، ومتغنياً على منصة المقياس عرسه يحلى عليه من شبا كها الستر الرفيع ؛ وأنه أقبل والبلاد أشهى ماتكون للقياه ، وأشوق ماترى لمباشرة ربه ورياه ؛ وقد امتدت أيدي الجسور لقمه ، واستعدت شفاه الحروف اللعس للشمه ؛ فكرم عليها زائره ، وصحبها بالنجح ساريه وسائره ، ودارت على الجذب من خطوط الأمواج دوائر ؛ وعمت المنافع ، وتلفت عيوب الفلا ناهلة بالأصابع ؛ وفاض البحر بربه ، ونشر رداءه على الأرض وسيضوع روضها بشره ؛ وخلق المقياس فيالك من قياس بشري غير ممنوع ، وكسر الخليج فياله غصن قلم على النيل وطائر سبجه على القرات مسموع ؛ ورسم أن

لَا يُجِبُ حَقُّ بَشَارِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا التَّنْقِصُ لِدَارٍ وَلَا التَّنْغِصُ لِدَارِهِ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْأَمْرَ فُلَانٌ وَقَدْ جُهِزَ بِمَا عَلَى يَدِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ مَوْلَانَا مِنْ أَقْسَامِ الْمَسَارِّ بِصُنُوفٍ ، وَيُدْفِعُ عَنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ يَمِينَهُ أَيْدِيَ الصُّرُوفِ ، وَيَنْفَعُهَا بِظِلَالِهِ الَّتِي آوَاهَا مُلْكُهُ الْكَرِيمُ إِلَى جَنَّةٍ : وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ .

الضرب الرابع

(من المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ الثَّوَابِ وَالِاتِّبَاعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ ، وَفِيهِ مَهِيَعَاتٌ)

المهيعة الأولى

(فِي الْأَجْوِبَةِ عَنِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَةِ السَّابِقَةِ فِي الضَّرْبِ الْأَوَّلِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ : هَلِ الْكُتُبُ الْإِبْتِدَائِيَّةُ [أَعْلَى رُتَبَةٍ ^(١)] فِي الْإِثْبَانِ بِهَا أَمْ الْجَوَابِيَّةُ ، وَذِكْرُ الْأَحْتِجَاجِ لِكُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَذِكْرُ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ فَلْيَرَاجِعْ مَنْ مَوْضِعِهِ هُنَاكَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْكَلَامَ عَلَى أَجْوِبَةِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُتَقَدِّمِ ، جَارِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدِ بِانتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّ الْكُتَابَ إِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا التَّعْزِيَةَ فِي سَلَفِهِ ، وَالْهِنَاءَ بِمُتَجَدِّدِ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ فِي أَنْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، فَارْسَمَ فِيهَا يُكَاتَبُ بِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُنْبِئَ عَلَى الْأَسْتِشَارِ بِالنِّعَّةِ فِي خِلَافَتِهِ ،

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ . وَالتَّصْحِيحُ عَمَّا تَقَدَّمَ فِي (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمُسَارعة بإخلاص الضمير إلى الدُخول في طَاعَتِهِ وَبِعَيْتِهِ ؛ وَأَنْفِسَاحِ الآمالِ
فِي دَوْلَتِهِ ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى جَبْرِ الْوَهْنِ وَعُلُقِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ بِدَعْوَتِهِ ؛
وَتَعَزُّيَتِهِ عَنْ أَبِيهِ ، بِمَا يُوجِبُهُ مَحَلُّ الْحَنَةِ وَيَقْتَضِيهِ ؛ يَعْنِي إِنْ كَانَ الْخَلِيفَةُ الْمَيِّتُ أَبَاهُ ،
فَالدَّعَاءُ لَهُ بِأَنْ يُنْهَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا حَمَلَهُ ، وَيُعِينَهُ عَلَى مَا كَفَّلَهُ ؛ وَيَقْرُنَ مُلْكُهُ بِالْجَدِّ
السَّعِيدِ ، وَالْخُلُودِ وَالتَّايِيدِ ؛ وَإِدَالَةَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَإِدَالَةَ الْأَعْدَاءِ ؛ وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا يُجَارِيهِ .

وَإِنْ كَانَ الْكَتَابُ الْوَاردُ بَانْتِقَالَ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ عَنْ أَبِيهِ ، وَمَنْ فِي مَعْنَاهُ مِّنْ يُؤَالِيهِ
فِي الْحَبَّةِ ، فَإِنَّ الْكَاتِبَ يُجَوِّمُ فِي الْجَوَابِ عَلَى مَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنْ صَلَاحِ حَالِ الْأُمَّةِ ،
وَأَسْتِقَامَةِ أَمْرِ الرَّعِيَّةِ بَانْتِقَالَ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصَرِّحَ بِذِمِّ الدَّاهِبِ قَبْلَهُ .
وَلَا يَخْفَى أَنْ الْجَوَابَ عَنْ وَرُودِ الْكَتَابِ بَانْتِقَالَ السُّلْطَانَةِ إِلَى السُّلْطَانِ وَجُلُوسِهِ عَلَى
تَحْتِ الْمُلْكِ فِي مَعْنَى الْجَوَابِ فِي أَنْتِقَالَ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، لَا يَكَادُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا ،
عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ بِالْدَّعَاءِ إِلَى الدِّينِ ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّفُهَا كُتَّابُ مُحَافِظِي
الْمِلَّةِ ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَصْدُرُ إِلَيْهِمْ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : إِلَّا أَنَّهُ لَا غِنَى لِكُتَّابِ الْإِسْلَامِ
عَنْ عِلْمِ مَا يَقَعُ فِيهَا ، لِتَقَدُّمِ عِنْدَهُمُ الْمَعْرِفَةُ بِمَا يُجِبُّ بِهِ الْمُخَالَفُونَ ، فَيَأْخُذُوا عَلَيْهِمْ
بِأَطْرَافِ الْحُجَّةِ إِذَا كَاتَبُوهُمْ أَبْتَدَاءً أَوْ جَوَابًا .

قَالَ : وَلَا تَحُلُّوا أَجُوبَةَ هَذِهِ الْكُتُبِ مِنْ أَرْبَعَةِ مَعَانٍ :

أَحَدُهَا — إِجَابَةُ الدَّعَاءِ إِلَى الدِّينِ ، وَقَبُولُ الْإِرْشَادِ وَالْهُدَى ، وَالزُّرُوعُ عَنِ الْغَيِّ ،
وَالْإِقْبَالُ عَلَى التَّجَبُّرَةِ وَالتَّذَكُّرَةِ ، بِعَقَائِدِ خَالِصَةٍ ، وَنِيَّاتٍ صَرِيحَةٍ .

وَالثَّانِي — الْإِصْرَارُ عَلَى مَا هُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِهِ ، وَتَمَحُّلُ الشُّبْهَةِ فِي نُصْرَتِهِ ، وَأَدْعَاءُ
الْحَقِّ فِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ ، وَالْمُغَالَطَةُ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى قَبُولِ مَا دُعُوا إِلَيْهِ .

والثالث — بَذْلُ الْحِزْيَةِ وَالْمُصَالِحَةِ، وَالْجُنُوحُ إِلَى السَّلَامِ وَالْمُؤَادَعَةِ .

والرابع — إظهار الحمية ، والقيام في دفاع مَنْ يَرُومُ اقْتِسَارَهُمْ عَلَى مَفَارِقَةِ شَرَائِعِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ، وَبَذْلُ الْأَنْفُسِ فِي مُقَارَعَتِهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالحثِّ على الجهاد، فقد ذكر في ”موادّ البيان“ أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما — إجابة الصّريح، والمبادرة إلى التّشهير في الجهاد، والقيام في معونة الأولياء، على كفّاج الأعداء .

والثاني — الاعتذار والتعلّل والتناقل .

هذا إن كانت الكُتُبُ صادرةً إلى القوّادِ والمُقَدِّمِينَ . أما إذا كانت مقصورةً على الاستنفار، فلا جواب لها إلا النّفور أو الإمساك . قال في ”موادّ البيان“ :
والطريق إلى إقامة العُدُرِ لِمُسْتَصْرَحٍ في التأخر عن مُسْتَصْرِحِهِ متى أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ عَلَى الْكَاتِبِ، وَلَا سِيَّما إذا كانت الأعدار مُتَكَلِّفَةً غير صحيحة .

قال : وينبغي أن يتأثّر لذلك ويُحَسِّنَ التلطّف فيه ، وَلَا يَعْتَلَّ بِكَذِبِ صُرَاحٍ يَنْكَشِفُ لِلْعَتَدْرِ إِلَيْهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالحثِّ على لزوم الطاعة ، إذا وردت على التّوابع والولاء وأمرُوا بقراءتها في أعمالهم على الرّعايا ، فإنه يكون : إما بانقياد الرّعايا إلى مادّعوها إليه ، أو استدامتهم لمركّب النّفاق ، واستدعاء مادّة لتقويمهم .

وأما الجواب عن الكتب إلى مَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ ، فقد ذكر في ”موادّ البيان“ أنها لا تخلو من أحد أربعة معانٍ .

أولها — الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصفيح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة .

والثاني — المغالطة والمراوغه، وأستعمال المدهانة والخداعه .

والثالث — التجليح والمكاشفة .

والرابع — إيجاب الحجّة على المحبوب (؟) عنه في أنه المبتدئ بفسخ ماعاقد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصنعة .

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلّع الطاعة ، فقد قال في ”موادّ البيان“ : إنها تحتل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ؛ وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا ، عرّف سبيل التخلّص فيها بمشيئة الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح، فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولاته، فينبغي أن يبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدو، والجدل بمجدّد الفتح؛ وأنّ ذلك إمّا تهيأ بسعادته، وعلوّ رأيه، وأنبساط هيئته؛ وما عوده من إظهار أوليائه، وخذلان أعدائه؛ وأنهم قد أشاعوا هذا النبا في الخاصة والعامة من رعاياه فآبتهجوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء . وإن صدرت من ولاة الحرب إلى السلطان، فينبغي أن يكون مأجبيهم به مبنيا على حمد الله تعالى على عوّاريفه، والرغبة في مضاعفة لطائفه؛ وشكره على إنجاز وعده في الإظفار بأعداء الملة والدولة ونحو هذا . ومخاطبة أهل الطاعة بما يرهف غرائمهم، ويقوى شوكتهم؛ وتقريظ وإلى الحرب ووصفه بما يشحذ بصيرته في الخدمة، والثناء على

الأجنّاد ، ووعدهم بجزيل الجزاء على الجهاد والإبلاء ، إلى غير هذا مما يقتضيه الحال ، ويوجبُه تدبير الأمر الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأعتذار عن السلطان عند ما يحصل له زلُّ في التدبير أو [في] الظفر بقبض الأعداء على جيش من جيوشه ، فإنما تقع الإجابة عنها إذا نُفِدت إلى أحد العُمال خصوصاً . قال في "موادّ البيان" : وحينئذ فينبغي أن يكون الجوابُ عنها مبنيّاً على تقوية نفس السلطان وتوثيقه بالأدلة ، وأن ما ناله لا يتوجّه كثيراً على ذوى الحرم ، إلا أن عواقب الفلج والظفر والإصابة في الرأي والتدبير تكون لهم ، ونحو هذا مما يُجاريه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكتبة في ذلك إلى الكافة ، مُهدّدة لعذر السلطان ، قاطعةً قالة الرعية عنه ، فإنه لاجواب عنها : لأنها إذا لم تُوجّه إلى واحدٍ بعينه لا تستدعي خطاباً .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين ، إذا صدرت إلى العُمال ، وأُمروا بقراءتها على الرعايا على منابر أعمالهم ، فإنه ينبغي الأمر فيها على امتثال الأمر ، والمطالعة بآرتسام القوم ما رسم لهم فيها . أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليُبصروا ما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لاجواب عنها ، لأنها إنما تشتمل على مواعظ ومراشد تتخول بها الأئمة رعائاهم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنواهي ، فقد ذكر في "موادّ البيان" أن الكتاب الوارد في ذلك : إن كان شيئاً قد جزم المتبوع فيه الأمر ، وضيّق على التابيع في إثارة سبيل المراجعة فيه ، فإن الجواب عنه سهل : لأنه إنما يجبُ بجواب جامع ، وهو وقوفه على ما أمر به وإنفاذه له . وإن كان الوارد أمراً محتتملاً للمراجعة ، من حيث إن في إمضائه إذا أمضى إفساداً للعمل ، وإخلالاً بأسباب

المُلك والسلطان، فالجواب عنه شاقٌّ صعبٌ: لأنه ينبغي أن يُبنى على 'تَلَطُّفٍ شديدٍ في الإبانة عما يُنتجُه ذلك المأمور به إذا أُنفِذَ على وجهه من قَتِّ وِخَلٍّ ؛ وموردُ المراجعة في الفاظه لا يتيسَّر فيه إزراء على رأي الرئيس ولا طعن في تدييره: بأن تكون ناطقةً بأنَّ رأيه الأعلى، وتدييره الأصوب؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا على الصواب، وظاهره تصوُّيا وتقريظا: لأن كثيرا من الرؤساء والملوك يُعجبون بأرائهم، ويُزِلُّون أنفسهم بحُكم الرئاسة في منزلة من لا يُراجِع ولا يُعارض فيما يأمر به .

قال: وقد أتى من كُتِبَ الأوامر كُتِبَ يأمر الرئيس فيها المرعوسَ بشرح حال وأقتصاص أمور . ثم قال: وأجوبة هذه الكُتُب يجب أن تكون مُستقصيةً للمعنى المُشَرَّح، مُستوليةً على حواشيه، غير مُخلَّة بشيء مما يحتاج إلى تعرُّفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية، وهي مشتملة على 'مَواعِظَ ومَراشِدَ يتحوَّل بها الأئمة رعايَاهُمْ؛ فإذا صدرت إلى العُمال وأُمرُوا بقراءتها على الرعايا، فأجوبتها إنما تُبنى على أمثال الأمر والمطالعة بأرتمام القوم ما رُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لُتُقرأ على العامة لِيَتَبَصَّرُوا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لاجواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنبِية على مواسم العبادة، فإنه يصدر عمن وَرَدَ عنه إلى الإمام بعد شُهود ذلك المَوْسِم، والآنْفِصَال عنه على حال السلامة، كما في صلاة العيد ونحوها . قال في "موادِّ البيان": وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورةً على ذِكْرِ ما منَّ الله تعالى به من قَضَاءِ الفريضة على حالِ الائتلاف والاتِّفاق، وشُمول الأَمْنِ والهدنى والسكون، وسُبُوغ النعمة على الكافة؛ وأن ذلك بسعادة وعناية الله تعالى بدولته وبرعيته، ونحوها مما يقتضيه المعنى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلى وِلَاةِ أمرِهِ بالسَّلامة في ركوب
أول العام وُغْرَةَ رَمَضَانَ ، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه ، وعِيدِي الفِطْرِ
والأُضْحَى ، وَفَتْحِ الحَلِيجِ بعد وفاء النبل ، فقد قال في "موادِّ البيان" : إِنَّهُ إِنْ كَانَ
الكَتَابُ عَنِ السَّلامَةِ فِي صَلَاةِ العِيدَيْنِ أَوْ جَمَعَ رَمَضَانَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَبْنِيًّا عَلَى
وُرُودِ كُتُبِهِ مُتَضَمِّنَةً مَا أَعَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَأْذِيَةِ فَرِيضَتِهِ ، وَاجْتَمَاعِ
فِي صَلَاةِ عِيدِ كَذَا بَرَعِيَّتِهِ ؛ وَمَا أَلْبَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الِهْدَى وَالْوَقَارِ ، وَأَفَاضَهُ عَلَيْهِ
مِنَ الْبَهَاءِ وَالْأَنْوَارِ ؛ وَبُرُوزِهِ فِي خَاصَّتِهِ وَعَامَّتِهِ إِلَى مُصَلَّاهُ ، وَسَمَاعِ خُطْبَتِهِ وَعَوْدِهِ
إِلَى قَصْرِ الزَّاهِرِ ، وَعَلَيْهِ تَلَاؤُ الْقَبُولِ لَصَلَاتِهِ وَدُعَائِهِ ، مِمَّا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ عَلَى
عَادَةِ آلَائِهِ ؛ وَوَقَفَ عَلَيْهِ وَقَابَلَهُ بِالشُّكْرِ وَالِإِحْمَادِ ، وَالْاعْتِرَافِ وَالْاعْتِدَادِ ، وَأَفْتَضَهُ
عَلَى رِءُوسِ الْأَشْهَادِ ؛ فَأَغْرَقُوا فِي شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمَوْهَبَةِ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَغِبُوا
إِلَيْهِ فِي إطَالَةِ بَقَائِهِ مُرَافِقًا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَنَحْنُ هَذَا مِمَّا يُجَارِيهِ .

ثم قال : فَإِذَا نُفِذَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُبَشِّرَةً بِاجْتِمَاعِ رَعَايَاهُ
لِتَأْذِيَةِ فَرِيضَتِهِمْ ، وَعَوْدِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ سَالِمِينَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ عَنْهَا :
«وَصَلِّ كِتَابَكَ مُتَضَمِّنًا مَا لَا يَزَالُ اللَّهُ تَعَالَى يُؤَلِّهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي رِعِيَّتِهِ ، وَخَاصَّتِهِ
وَعَامَّتِهِ : مِنْ اتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَاتِّتْلَافِ أَفْعِدَتِهِمْ وَسَلَامَةِ كَلِمَتِهِمْ ؛ وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ
وَعَلَيْهِمْ مِنْ اجْتِمَاعِهِمْ لِتَأْذِيَةِ فَرِيضَتِهِمْ ، وَعَوْدِهِمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ؛ عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ ضَمَائِهِمْ ،
وَالطَّهَارَةِ مِنْ سَرَائِهِمْ ؛ فَحَمْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَسَأَلُهُ مَزِيدَهُمْ مِنْهُ ،
وَتَوْفِيقَهُمْ لِمَا يُرِضِيهِ عَنْهُمْ ؛ وَشُكْرُ مَسْعَاكَ فِي سِيَاسَتِهِمْ ، وَامْتِدَادَ يَدِكَ فِي إِيَالَتِهِمْ ؛
وَهُوَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى عَادَتِكَ ، وَتَسِيرَ فِيهِمْ بِحَبْلِ سِيرَتِكَ » وَمَا يَلِيقُ بِهِذَا .

ثم نبى على ذلك سائر كتب السلامة، وقال: ينبغى أن يُستَبَطَ من نفس كل كتاب منها المعنى الذى تحب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُبَشِّرًا بسلامته من سفره؛ فينبغى أن يُبنى جوابه على ما صورته: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّاه الله تعالى له من السلامة ويمن الوجهه، مع تقريب الشقه؛ وإزالة المسار، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وأمثلة المرسوم في إطلاع الأولياء على ما نُصَّ فيه من هذه البُشرى؛ فَعُظِّمَتِ المِنْحَةُ لديهم، وَجَلَّتِ النِّعْمَةُ عندهم؛ وأنشِرتْ صُدُورهم، وأنفسحت آمالهم، ووقفوا بَصْنَعِ الله تعالى لهم؛ وأرتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة في حَيَاة أمير المؤمنين قَاطِنًا وَظَاعِنًا، وَحُسِنَ صَحَابَتُهُ حَالًا وَرَاحِلًا؛ وَجَمِيلَ الخِلافة على مَنْ خَلَفَهُ من حَامَتِهِ وَعَامَّتِهِ، وَأَهْلَ دَعْوَتِهِ وَخَاصَّةِ دَوْلَتِهِ؛ والله تعالى يوجب في أمير المؤمنين صَاحِجَ الدُّعَاءِ، وَيُمَدُّ بِطُولِ البَقَاءِ» وما ينظم في سلك هذا الكلام وَيُضَاهِيهِ .

قلت: وقد تقدّم في الكلام على المكتبة السلطانية الابتدائية: أن المكتبة بالِيشَارَةِ بالسلامة في رُكُوبِ العِيدَيْنِ وما في معناها من قدوم السفر وغيره، قد ترك استعماله بديوان الإنشاء في زماننا. فإن قُدِّرَ مثله في هذه الأيام، أجزاه الكاتب على نحو ما تقدّم، على ما يقتضيه مصطلح الزمان في المكتبات السلطانية .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخَلَجِ وما في معنى ذلك، فينبغى أن يكون مَبْنِيًّا على تعظيم المِنَّة، والاعتراف بِجَزَالَةِ المِنْحَةِ؛ وَجَمِيلِ العطية، وزائد الفضل؛ وأن ما أُسْدِيَ إليه من ذلك تَفَضُّلٌ عليه، وَتَطَوُّلٌ من غير استحقاق لذلك؛ بل فَائِضٌ فَضْلٍ، وَجَزِيلٌ أَمْتَانٍ؛ وأنه عاجز عن شُكْرِ هذه النِّعْمَةِ والقيام بواجبها، لَا يَسْتَطِيعُ

لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذه الدولة . وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه .

وأما الجواب عن الكتب بالتنويه والتلقيب إذا صدرت إلى نواب المملكة ، فالذى ذكره في "مواد البيان" أن المنوه به يجب عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه ، ووقوفه عليه ، ومعرفة به قدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إيزاعه الشكر ، ومعونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة . أما إذا كتبت بالتنويه والتلقيب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة ، فإنه لا جواب لها .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالإحاد والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحاد والتقرير ، بخوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحاد موقعه من المحمود ، ومطالبتة لنفسه بالخروج من حقه باستفراغ الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه ، كان الجواب بالتنصل والمقابلة بما يرى ساحتها ، ويدل على سلامة ناحيته ، وأن يورد ذلك بصيغة تزيل عن النفس ما سبق إليها ، وتبعث على الرضا . وكذلك في كل واقعة بحسبها ، مما يحصل به التنصل والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكتب الواردة مع الإنعام السلطاني ، فعلى نحو ما سبق في الخلع : من تعظيم المنية ، والاعتراف [بجزالة المنحة ^(١)] وجميل العطية ، وزيادة الفضل ، وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره .

وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد ولد ، فإنه يكون بإظهار السرور والاعتباط ، وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم قريبا في الجواب عن الخلع .

الْعَدَدُ، وَزِيَادَةُ الْمَدَدِ، وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يُوَالِيَ هَذَا الْمَزِيدَ وَيُضَاعِفَهُ .
ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرَضٍ كان قد عَمَرَضَ له ، فطريقه حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرُهُ عَلَى مَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْعَافِيَةِ ، وَتَفَضُّلَ بِهِ مِنْ إِزَاحَةِ الْمَرَضِ ، وَوَقَايَةِ الْمَكْرُوهِ ، وَإِظْهَارِ الْفَرَجِ وَالسُّرُورِ بِذَلِكَ .
وما يخطر في هذا السِّلَكِ .

(١)
وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بولَدٍ أَوْ قَرِيبٍ ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ فِيهِ الْغَمُّ وَالْحُزْنُ وَالْكَأَبُ ، وَحَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى سَلَامَةِ نَفْسِهِ ، وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْفِ عَلَيْهِ ، إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ وَلَدًا ، مَعَ الدَّعَاءِ بِطُولِ الْبَقَاءِ وَخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى .
وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، مَّا يَكْثُرُ وَقُوعُهُ ، وَيَتَعَدَّدُ تَكَرُّرُهُ ،
يَسْتَضِيءُ بِهَا الْكَاتِبُ فِي كِتَابَةِ الْأَجُوبَةِ ، وَيَنْسُجُ عَلَى مَنَوَالِهَا .



نسخة جواب عن كتاب وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِبَ بِهِ إِلَى
أَمِيرِ الْأُمَرَاءِ ، قَرِينِ خَلْعَةٍ وَسَيْفٍ وَتَاجٍ وَسَوَارِينَ ، مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ
سَعْدٍ ، وَهُوَ :

فَإِنْ كَانَ سَيِّدُنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، بِمَا أَعْلَمَ مِنْ فَضْلِ مُرَاعَاتِهِ لِأُمُورِ الدِّينِ ، وَصِدْقِ
عَيْنَيْهِ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأُفَيْضَ لَهُ (؟) مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ ، وَصُنُوفِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ،
فَمَا هَدَاهُ مِنْ طُرُقِ الرَّشَادِ ، وَبَصَرَهُ لِمَا مِنْ مَنَاهِجِ الصَّوَابِ ، وَقَرَنَهُ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ
فِي عَزَائِمِهِ ، وَالْجِدِّ فِي مَرَاسِمِهِ ، وَتَوَعَّدَهُ فِيهِ بِالْخَيْرَاتِ التَّامَّةِ ، وَالْكِفَايَةِ الْعَامَّةِ ، فِي كُلِّ

(١) في الاصل "التنعم" ولم نثر عليه في كتب اللغة .

أَمْرٍ يُضِيهِ ، ورَأْيٍ يَرْتِيهِ ؛ أَعْتَادًا لَهُ بِحُسْنِ الْمَعُونَةِ عَلَى مَا اسْتَرْعَاهُ ، وَوَصْلِهِ بِالْمَزِيدِ
فِي خَوْلِهِ وَأَعْطَاهُ ؛ وَحِرَاسَةِ مَاسِقِهِ إِلَيْهِ مِنْ إِرْثِ النَّبُوَّةِ ، وَحَمَلِهِ لِيَاةٍ مِنْ ثِقَلِ الْإِمَامَةِ ؛
لَمَّا عَرَفَهُ مِنْ نُهْوِضِهِ بِالْعَبِّ ، وَقِيَامِهِ بِالْحَقِّ فِيمَا نَاطَهُ وَأَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ؛ وَتَأَمُّلِهِ مَا تَأَمَّلَهُ
مِنْ حَالِ عَبْدِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِبَاطِنِهِ مُعْتَقِدًا ، وَبَعْضِمَةِ وَلَايَتِهِ مُعْتَصِدًا ؛ وَلَوْ قُتِ
يُسْلُغُهُ مَنَازِلَةُ الْإِحْمَادِ ، وَيُحَوِّزُهُ عَاكِدَةُ الْأَجْتِهَادِ ، فِيمَا أَرْضَاهُ مُرْتَضِدًا ؛ وَلَسَعِيهِ وَنَيْتُهُ ،
وِظَاهِرُهُ وَطَوِيَّتُهُ ، مُعْتَمِدًا ؛ وَوُجُودُهُ أَيْدَهُ اللَّهُ فِي يَسِيرِ مَا آمَتَحَنَ بِهِ بَلَاءَهُ ، وَعَرَفَ
فِيهِ غَنَاءَهُ ؛ مَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ ، مُحْتِمِلًا لِلْعَارِفَةِ ؛ مُقْرًا بِحَقِّ النِّعْمَةِ ، عَارِفًا بِقَدْرِ الْمَوْهَبَةِ ؛
وَتَرْقِيهِ فُرْصَةً يَنْتَهِزُهَا فِي إِبْدَاءِ عَزَمِهِ ، وَإِمْضَاءِ رَأْيِهِ ؛ وَأَنَّهُ [وَأَثَقُ] بِالْإِسْتِظْهَارِ بِمَكَانِهِ ،
وَالْإِسْهَامِ لَهُ فِي عِزِّ سُلْطَانِهِ ؛ حَتَّى أَسْفَرَتْ رَوِيَّتُهُ ، وَاسْتَقَرَّتْ عِزِّيَّتُهُ ؛ فَاخْتَصَّ
عَبْدَهُ بِجَمِيلِ الْأَثَرِ ، وَأَصْطَفَاهُ بِلَطِيفِ الْخُطُوبَةِ ، وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي إِمَارَةِ الْأُمَرَاءِ ،
مُوفِيًا بِهِ عَلَى رُتْبَةِ النَّظَرَاءِ ، وَكَاسِيًا لَهُ حُلَّةَ الْحَجْدِ وَالسَّنَاءِ ؛ وَرَدَّ إِلَيْهِ تَدْيِيرَ الرِّجَالِ ،
وَتَقْدِيرَ أُمُورِ الْعُمَالِ ؛ وَشَفَعَ ذَلِكَ بِالتَّكْنِيَةِ وَالتَّلْقِيَةِ فِي مَشَاهِدِ حَفَلَتِهِ ، وَمَجَالِسِ
خَلَوَاتِهِ ؛ وَأَكَلَ الصَّنْعَ عِنْدَهُ بِالْحَاقِ عَبْدُهُ فِيمَا قَسَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ شَرِيفِ
حِبَابَتِهِ ، وَسَنَى عَطَائَهُ ؛ وَتَجَاوَزَ فِي التَّكْرِمَةِ لَهُ إِلَى أَعْلَى الْأَحْوَالِ ، وَأَرْفَعَ الرُّتَبِ وَالْمَحَالِّ ؛
فِيمَا أَمَرَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرُهُ - بِحَمَلِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخِلْعَةِ الَّتِي يَبْقَى شَرَفُ لِبَاسِهَا [عَلَى] الْأَيَّامِ ،
وَيُخَلِّدُ ذِكْرَهَا عَلَى الدُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ؛ وَالسَّيْفِ الَّذِي تَفَاعَلَ لِعَبْدِهِ فِيهِ بِمَا يَرْجُو مِنْ
مَوْلَاهُ وَسَعَادَةِ حُجَّتِهِ : أَنْ يُحَقِّقَهُ اللَّهُ فِي الْأَعْتَادِ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَتَعَمُّدِهِ فِي مُخُورِ مُشَاقَّتِهِ
وَعَايِصِ نِعْمَاتِهِ ؛ وَالتَّاجِ الْمُرْصَعِ الَّذِي نَظَّمَ لَهُ جَوَامِعَ الْفَخْرِ ، وَالْوَشَاحَ الْمُوشَى الَّذِي
وَشَّحَّهُ حَلِيَّةُ الْجَمَالِ مَدَى الدَّهْرِ ؛ وَالطُّوقِ الَّذِي طَوَّقَهُ قَلَائِدُ الْحَجْدِ ، وَالسَّوَارِينَ اللَّذِينَ
أَذْنَاهُ بِقُوَّةِ الْعُضْدِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ ؛ وَاللَّوَاءِ الْمَعْقُودِ بِهِ مَفَاتِحُ الْعِزِّ فِي طَاعَتِهِ ، الْمَرْفُوعِ بِهِ
مَعَالِمُ النُّصْرِ عَلَى شَانِي دَوْلَتِهِ ؛ وَوَصَلَ إِلَى وَفَهْمَتِهِ .

وسيدنا أمير المؤمنين - فيما أكرمه الله به من خلافته ؛ وأتمته من الحكم على
بريته ؛ ووكله إليه من حقوق الدين ، وحياطته كرم المسلمين ؛ وإحياء السير الرضية ،
والسنن الحميدة ؛ وإماطة الأحكام الجائرة ، والمظالم الظاهرة ؛ وتقويم أود المملكة
بعد ترعزع أركانها ، وتصدع بُنيانها ؛ وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن أشتمت
[الدلة ^(١)] عليها وتمكنت الوحشة فيها ؛ وحكم اليأس في آمالها ، وغلب القنوط على
أطاعها ؛ وتفاعل بما أعتمده له ، وفوضه إلى نظره : من الحلية بحقائقه ، والتوكيد
بما لم تزل الخبايل فيه لآئحته ، والأمارات منه واضحته ، والشواهد به صادقه ،
والدلائل عليه ناطقه ؛ حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره ، وتعتقت
آثاره ؛ ودرست رؤسوه ، وغارت مجومه ؛ وأنحى الشيطان بجراحه ، وأشرأب لتبديله
بعدوانه ؛ وأنشد لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال ، وحلم يستخف رواسي
الجبال ؛ وروية تستخرج كوامن الغيوب ، وتكشف عنها حنادس الشكوك ؛ وباع
لما يمتد إليه بسيط ، وذراع لما يتظم عليه رحيب ؛ وصدر يتسع لمعضلات
الأمور ، ويشرق في مدهجات الحوادث ؛ فشرّد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة
الاعتذار ، وتناولت بهم مدة الإصرار ؛ ومدّ رواق الملك وضرب قبابه ، وثبت أواخيه
وأحصد أسبابه ؛ وقطع أطاع الملحدين ، وأبطل كيد الكافرين ، وفّت في أعضاء
المنايدين ؛ فتحصنت البيضة ، واجتمعت الكلمة ؛ واتفقت الأهواء المتفرقة ،
وانتظمت الآراء المتشعبة ، وسكنت الدماء المضطربة ، وقرت القلوب المنزعجة ؛
وصدقت خواطر الصدور المثلجة ؛ وظهر الحق ورشح عموده ، وبهر جماله ونضر
عوده ؛ ونشرت أعلامه وطلعت سعوته ، وعزّ أولياؤه ونصرت جنوده ؛ وساخ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) في الأصل « أخضد » وهو تصحيف .

بالباطل قَدُمه ، وَأَنْتَقَطَعَتْ وَصَائِلُهُ وَعِصْمُهُ ؛ وَأَنْبَتَتْ حَبَالُهُ وَرُمُهُ ، وَأَنْحَلَّتْ أَسْبَابُهُ وَذِمُّهُ - حَقِيقٌ بِمَا بَانَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَسْتَفَاضَ فِي الْأُمَّةِ مِنْ عَدْلِهِ ، وَعَمَّ كَافَّةَ الرِّعْيَةِ مِنْ طَوْلِهِ ؛ وَوَصَلَتْ إِلَى الْمَلِيٍّ وَالذَّمِيٍّ وَالْدَانِيِّ وَالْقَاصِي عَائِدَةُ الْخَيْرِ فِي أَيَّامِهِ ، وَفَائِدَةُ الْأَمْنِ بِمَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ؛ وَمَأْمُولٌ لِأَفْضَلِ مَابَدَا لِعَبْدِهِ مِنْ ثَمَرَةِ أَجْتَبَائِهِ وَأَصْطِفَائِهِ ، وَمَا تَعَمَّدَهُ بِهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَسِيمَةِ ؛ وَأُسْبَغَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَوَارِفِ السَّيِّئَةِ ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ ، الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا هِمُّ ذَوِي الْأَقْدَارِ ، وَتَقِفُ دُونَهَا آمَالُ أَوْلِي الْأَخْطَارِ ؛ مُقَدِّمًا لَهُ عَلَى أَهْلِ السَّوَابِقِ مِنْ أَنْصَارِ دَوْلَتِهِ ، وَأَشْيَاعِ دَعْوَتِهِ .

فلو ترادفت أَلْسُنُ الْعِبَادِ - أَيْدَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ ، وَتَبَايُنِ طَبَقَاتِهِمْ ، وَتَفَاوُتِ حَالَاتِهِمْ ؛ فِي مَقَابِلَةِ نِعْمَةِ سَيِّدِنَا الَّتِي أَعْشَى الْعُيُونَ بِهَاؤُهَا ، وَتَأْدِيَةِ حَقُوقِهِ الَّتِي أَعْيَا الْمُجْتَهِدِينَ قَضَائُهَا ؛ لَكَانَتْ - حَيْثُ أَنْتَهَتْ ، وَأُنْثَى تَصَرَّفَتْ ؛ عَلَى اسْتِفْرَاقِ الْقُدْرَةِ وَاسْتِنْفَادِ الطَّاعَةِ - غَيْرُ مُقَارِبَةٍ حَدًّا مِنْ حُدُودِهَا ، وَلَا مُؤَدِّيَةٍ فَرْضًا مِنْ فُرُوضِهَا ؛ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ - أَيْدَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي قُوَّةِ الْإِحْسَانِ مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، وَإِيفَائِهِ عَلَى مَبَالِغِ الْوُسْعِ ؛ فَقَصْدُ عِبْدِهِ فِي جَبْرِ النِّقِصَةِ ، وَسَدِّ انْخِلَافِهِ ؛ الْأَرْدِيَادُ فِي الطَّاعَةِ ، وَالْإِخْلَاصُ فِي الْمُوَالَاةِ وَالْمُشَايَعَةِ ؛ وَإِدَامَةُ الْأَبْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَرَفْعُ الرَّغْبَةِ فِي مَعُونَةِ عَبْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُجَافَاةِ بَلَائِهِ ، وَالتَّفَرُّدُ بِجِزَائِهِ ، وَتَجْدِيدُ الْمَسْأَلَةِ فِي إِطَالَةِ بَقَائِهِ : فِي عِزٍّ لَا تُبْلَى جِدَّتُهُ ، وَسُلْطَانٍ لَا تُنْتَهَى مُدَّتُهُ ؛ وَمَوَادٍّ مِنْ مَنَاسِجِهِ وَمَوَائِدِهِ ، وَرَوَادِفٍ مِنْ عَوَائِدِهِ ؛ مُتَظَاهِرَةً لَا يَنْقُطِعُ مِنْهَا أَوَّلٌ حَتَّى يَلْحَقَ نَآئِلُهُ ، وَلَا يَنْصَرِمُ سَالِفُهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ آتِيهِ ؛ وَيَكُونُ الْمَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ شُرُوطِ الْأَمَلِ ، وَتَقْضَى حُدُودُ الْمَهَلِ ؛ إِلَى النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، فِي جِوَارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ .

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده، ونظام معرفه عنده ؛ بدؤه إياه بما يمتحن به خفة نهضته ، وسرعة حركته ؛ وقعوده لأمره بجد حديد ، وبعيش عتيد ؛ وصمده لما يحظيه لذلك مولا ، ويحوز له حمده ورضاه ؛ بصدق بصيره ، وخلوص سريره ؛ واستسهال لكل خطه ، وتجشيم لكل مشقه ؛ دنت المسافة أم شسعت ، قربت الطية أم نزحت ؛ وسيدنا أهل لاستتمام يد ابتداها ، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة آبتناها ؛ باستعمال عبده بأمره ونهيه ، وأعتاده لمهمات بحضرته وفي أطراف مملكته ؛ إن شاء الله تعالى .



قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبا الفضل العباس خليفة العصر ، عن نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام ، واستبداده بالأمر دون سلطان معه ، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، مفتتحا له «يقبل الأرض» التي يكتب بها الملوك . وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه ملك ولا سوقة ، وهو :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهِي وَرُودَ الْمِثَالِ الْأَشْرَفِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ ، الْمَرْقُومِ عَلَى صَفَحَاتِ الْأَفلاكِ تَهَانِيهِ الْحَمُولِ عَلَى مَتَنِ السَّحَابِ بَشَائِرِهِ ، الشَّاهِدِ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ أَوَائِلُهُ وَبِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ أَوَائِلُهُ ؛ مُتَضَمِّنًا مَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصَّنْعِ الَّذِي وَكَّفَتْ بِالْخَيْرِ سَخَائِبُهُ ، وَخَفِيَ اللَّطِيفِ الَّذِي بَهَرَتْ الْعُقُولَ عَجَائِبُهُ ؛ بِمَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ .
مولانا أمير المؤمنين مد الله تعالى على الإسلام وأرف ظله ، وأنام الأنام بمد رواق

الإمامة المعظمة في مهَادِ عَدْلِهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا مَكَّنَ لِآبَائِهِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ قَبْلِهِ : مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى سُدَّةِ الْخِلَافَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي وُصِّلَ مُنْقَطِعُ حَدِيثِهَا بِإِسْنَادِهِ ، وَحَازَ مِنْهَا بِأَشْرَفِ مَقْعَدٍ تَرَاثَ آبَائُهُ الْكَرَامُ وَأَجْدَادُهُ ، وَابْتَسَمَ تَغَرُّ الْخِلَافَةِ بَعْبَاسِهِ ، وَتَأَنَسَ مِنْهَا جَانِبَ الدِّينِ بَعْدَ الْأَسْتِيحَاشِ بِلَيْئِنَاسِهِ ، فَقَبَّلَ الْمَمْلُوكُ لَهُ الْأَرْضَ خَاضِعًا ، وَلَبَّى أَوَامِرَ الشَّرِيفَةِ خَضَاعًا ، وَأَجَابَ دَاعِيَهُ بِالْإِمْتِثَالِ سَامِعًا طَائِعًا ، وَسَجَدَ سُجُودَ الشُّكْرِ لَذَلِكَ فَعَرِفَ بِسِيَامِهِ ، وَانْتَسَبَ إِلَى الْوَلَاءِ الشَّرِيفِ الْإِمَامِيِّ أَنْتَسَابًا شَامِلًا لِأَحْسَنِهِ وَمَعْنَاهُ ، وَأَعْلَمَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَمْراءِ وَالْأَجْنَادِ بِذَلِكَ فَقَابَلُوهُ بِالْأَسْتِشَارِ طُرًّا ، وَتَلَقَّوْهَا تَلَقًّا يَلِيْقُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ كَانَ لَا مِثْلَ لِهَذِهِ الْبُشْرَى ، وَقُرِئَتْ الْمُطْلَقَاتُ الشَّرِيفَةُ عَلَى الْمَنَابِرِ فَسَكَنَتِ الدَّهْمَاءُ وَقَرَّتْ ، وَسَرَّتْ أَلْفَاظُهَا إِلَى الْأَسْمَاعِ الشَّيْقَةِ فَسُرَّتْ ، وَكُرِّرَتْ أَلْفَاظُهَا الْعَذْبَةُ مَرَارًا فَحَلَّتْ لَدَى النُّفُوسِ إِذْ مَرَّتْ ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْإِدْعَاءِ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ دَوَامًا لَا يَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرُ خِلَافَتِهِ ، حَقِيقٌ ظُهُورُ مُعْجَزَةِ أَكْرَمِ مُرْسَلٍ بَعْدَ الثَّمَانِيَةِ بِقَوْلِهِ لَعَمَّهِ الْعَبَّاسُ : « أَلَا أُبَشِّرُكُمْ بِأَنْتَسَابِ الْخِلَافَةِ » .



وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن مِثَالٍ شَرِيفٍ وَرَدَ بِوَفَاةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ » وَأَسْتِقْرَارِ وَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ « أَبِي بَكْرٍ » مَكَانَهُ فِي الْمُلْكِ بَعْدَهُ مِنْ أَبِيهِ . مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ الْبَارَنْبَارِيِّ ، بَعْدَ التَّعْزِيَةِ بِأَبِيهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، وَهِيَ :

وَيُنْهِى وَرُودَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ أَمْرَ الْمُصَاحِبِ الَّذِي كَادَتْ لَوْقُوعِهِ الْأَرْضُ تَتَزَلُّزِلُ بِأَهْلِهَا ، وَالْعُقُولُ تَتَرَيَّلُ عَنْ مَحَلِّهَا ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ

الحنَّاجِر، وَاسْتَوْحِشَتِ الْقُصُورُ وَاسْتَأْنَسَتِ الْمَقَارِبُ، وَتَصَدَّعَتْ لَهُ صُدُورُ السِّيُوفِ
وَرُءُوسُ الْمَنَارِبِ، وَقَصَمَ الظُّهُورُ، وَشَيَّبَ السُّودَ مِنَ الشُّعُورِ؛ وَجَرَعَ كُؤُوسَهُ،
وَصَدَعَ الْحُوزَةَ الْمَحْرُوسَةَ؛ وَذَلِكَ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنْتَقَالَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ السَّعِيدُ،
الشَّهِيدُ؛ وَالدِّمُولَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - إِلَى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ: فَأَجْرَى الْمَمْلُوكُ
عَوَضَ الدَّمُوعِ دَمًا، وَأَقَامَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مَأْتَمًا، وَتَغَيَّرَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ لِفَقْدِهِ
فَأَمْسَى مُظْلِمًا؛ وَنَدَبَهُ الْإِسْلَامُ فِي سَائِرِ مَحَارِبِهِ وَمُصَلَّاهُ، وَأَسَفَ عَلَيْهِ الْبَيْتُ الْحَرَامُ
وَرُكْنَاهُ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَشْرَقَ مِنْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَوْمَ
قُبِضَ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَثْبَتَ النَّاسِ يَوْمَ
وَفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ - قُدَّسَ
اللَّهُ رُوحَهُ - كَانَ مُنْشَرَفًا بِأَسْمِ نَبِيِّهِ، وَمُتَبَرِّكًا فِي ذُرِّيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ بِذِكْرِ سَمِيهِ ^(١)؛
وَلَوْ ذَابَتِ الْمُهْجُ أَسْفًا عَلَيْهِ لَمَّا أَنْصَفَتْ، وَقَدْ أَسَفَتْ عَلَيْهِ الْأُمَمُ بِأَسْرِهَا وَحَقَّ لَهَا
أَنْ أَسَفَتْ؛ نَبَتَتْ لِحُومِنَا مِنْ صَدَقَاتِهِ، وَعَمَّرَتْ الْمَمْلُوكَ وَالْمَالِكَ بِمَجْزَلَاتِ هِبَاتِهِ؛
وَمَا يُقَلَّ مِنْ قَصْرِهِ إِلَّا إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَمَا فَارَقَ مُلْكَهُ إِلَّا وَبَاتَ فِي جِوَارِ
اللَّهِ الْكَرِيمِ؛ وَكَانَ سُلْطَانَنَا وَهُوَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللَّهِ سُلْطَانًا، فَسَقَى اللَّهُ عَهْدَهُ صُوبَ
الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

وَبِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ جُرِيتِ الْقُلُوبُ الْمُنْصَدِعَةُ بِجُلُوسِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ -
عَلَى تَحْتِ السُّلْطَنَةِ الْمُعْظَمَةِ وَاللَّهُ مَعَهُ، وَمَا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ إِلَّا أَهْلُهُ، وَلَا قَامَ
بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ عُلِمَ فَضْلُهُ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَارِثُ الْمُلْكِ النَّاصِرِيِّ الْمَنْصُورِ

حقاً ، والقائمُ بِشَانِ السلطنة غريباً وشرقاً ؛ وخلاصةُ هذا البيتِ الشريف زاده الله نصراً ، وأدام ملكه دوماً مستمراً ؛ والعيون الباكية قد قريت الآن بهذه البشري ، والقلوبُ الناككة قد ملئت بهجة : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ واستقرَّ الإسلام بعد قلقه ، ونام على جفنه بعد أرقه ؛ واستقبلت الأمة عاماً جديداً ، وسلطاناً منصوراً سعيداً ؛ واستبشرت القبلتان ، وتناجى بالمسرة الثقلان ؛ والذين كفروا أمسوا خائبيين ، والذين آمنوا أضحوا فرحين ﴿ هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ يَا مُؤْمِنِينَ ﴾ ومولانا السلطان هو العريق في سلطنة الإسلام ، والإمام الأعظم ابن الإمام ؛ فخلد الله ملكه مادامت الأيام ، وأحسن عزاءه في خير سلطان الأنام ؛ وأنتهلت الألسنة بالترحم على مولانا السلطان الشهيد - قدس الله روحه - بدموع سائله ، وقلوب موجوعة بجراحات النباحات ثم عوضوا بالمسرات الكاملة ؛ والدعاء مرفوع لمولانا السلطان - خلد الله ملكه - براً وبحراً ، والبلاد مطمئنة والعساكر على ما يجب من التمسك بالطاعة الشريفة ، والتشريف بإقبال دولة سلطانهم ، ووارث سلطانهم ؛ وكان المملوك يود لو شاهد مولانا السلطان - خلد الله ملكه - على ذلك السرير والمنبر ، وقبل الأرض بين يدي المواقف المعظمة والمقام الأكبر ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جَوَّاه عن ورود المثال الشريف برُكوب السلطان بالميدان ، والإذن للتواب في لعب الكرة ، وهي :

ويُنهي ورود المثال الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، يتضمن الصّدقة التي أجزت أوليائها على أجهل عادة من الاحتفال ، والمراحم الشاملة التي وسعت لهم كرمها سافرة عن أوجه الإقبال ، والبشري التي جمعت من أنواع المسرات ما بلغته

الآمال ؛ وهو أنَّ الرِّكَّابَ الشريفَ اسْتَقَلَّ إِلَى المِيدَانِ السَّعِيدِ نَهَارَ السَّبْتِ فِي كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا : فِي أَسْعَدِ طَالِعٍ ، وَأَيْمَنَ وَقْتٍ مُطَاوِعٍ ؛ وَفِي الخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ - كَثَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ كَيْمٍ مُفْتَعٍ ، قَدْ لَبَسَ مِنَ الطَّاعَةِ بُرْدًا وَبِالْإِخْلَاصِ تَدَرَّعَ ، وَأَمْتَطَى مِنْ فَائِضِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ صَهْوَةً سَابِقٍ قَدْ شَمَّرَ لِلسَّبْقِ ذَيْلًا ، وَفَزَّ كَبْرِيٍّ لَمَعَ لَيْلًا .

وَأَنَّ مولانا السلطان - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - طَلَعَ عَلَيْهِمْ طُلُوعَ البَدْرِ عِنْدَ الْكَمَالِ ، وَحَوَّلَهُ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ كَالْأَنْجُمِ الزَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُسَبَّهُ بِمِثَالٍ ؛ وَالحِيَادُ لَا يُرَى لَهَا أَثَرٌ مِنَ الرُّكُضِ ، وَالْكُرَّةُ تَنْشَرَفُ بِالصُّوْلِحَانِ كَمَا تَنْشَرَفُ بِالتَّقْيِيلِ الْأَرْضُ ؛ وَعَادَ الرِّكَّابُ الشَّرِيفُ - زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا وَعَظَمَهُ - إِلَى القَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، إِلَى مَحَلِّ الْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَفِي دَسْتِ السُّلْطَنَةِ الْمُعْظَمَةِ ؛ مُحْفُوفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِلُطْفِهِ ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ .

وَمَا أَقْتَضَتْهُ الْآرَاءُ الشَّرِيفَةُ ، وَالْمَرَاحِمُ الْمُطِيفَةُ ؛ وَآثَرَتْ بِهِ إِعْلَامَ الْمَمْلُوكِ بِذَلِكَ ، وَالْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَمَهُ - أَنْ يَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالتَّزْوِيلِ إِلَى مِيدَانِ فُلَانَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَمَعَهُ مَمَالِكُ مولانا السُّلْطَانِ - خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَالْأُمَرَاءُ ؛ فَقَابِلَ الْمَمْلُوكِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ وَرَفْعِ الدَّعَوَاتِ ؛ وَجَمَعُوا بَيْنَ الْكُرَّةِ وَالصُّوْلِحَانِ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَرَّاتِ مَا لَا يَحْصُرُهُ بَيَانٌ ؛ وَأَنْبَسَطَتْ نَفُوسُهُمْ إِذْ أَصْبَحُوا فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ ، وَابْتَهَلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَوَعَّتُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ ؛ وَصَجُّوا بِالْأَدْعِيَةِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الَّتِي عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ وَفَاقَ بِمَكَارِمِهِ الْمَبَاضِينَ ، وَأَرْبَى عَلَى سَلَفِهِ الشَّرِيفِ بِالْعَطَاءِ وَالتَّمْكِينِ ، جَعَلَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جواب بوفاء النيل المبارك، كتب به عن نائب طرابلس، وهي :

وَيُهَيِّ وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - الَّذِي أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ
تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بِرُوقِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعَمُومِ الرِّعَايَا
بِتَوَاتُرِ عَمِيمِ النِّعَمَةِ؛ وَوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَا بَرِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ يَنْفِي
بِعَهْدِهِ، وَيُسَلِّ سَيْفَ الْخَضْبِ مِنْ غَمِّهِ، وَيَقْتُلُ الْحَلَّ بِحِمْرَةِ مَتْنِهِ وَجَوْهَرِ حَدِّهِ؛
مُهَنِّئًا لِلْأَوْلِيَاءِ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، مَسْرُورَةً
بِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ تَرَادُفِ الْآلَاءِ وَعُمُومِ النِّعَمَاءِ؛ وَحَالَ مَا وَرَدَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ
- شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - بِادْرَ الْمَمْلُوكِ إِلَى آمْتَالِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ
وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَخَذَ كُلُّ حَظٍّ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى، الَّتِي عَمَّتْ تَهَانِيَهَا بَرًّا وَبَحْرًا؛
وَجَعَلَتْ أُمُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَيْنَ بَرَكَةِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرٍ؛ وَقَدْ عَادَ
فُلَانُ الْبَرِيدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ، طَالِعَ بِذَلِكَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



آخر في المعنى :

وَيُهَيِّ وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللَّهُ عُلُوًّا وَشَرَفًا، وَبَيَّضَ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ صُحُفًا؛
يَتَضَمَّنُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ الْجَزِيلِ، وَإِبْدَاءَ آثَارِ السُّرُورِ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ؛
فَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بِرُوقِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ،
وَعَمُومِ الرِّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمُومِ النِّعَمَةِ؛ إِذْ جَاءَ مُحْيَاةُ فِي هَذَا الْعَامِ طَلْقًا، وَسَلَكَ فِي عَوَائِدِ
الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ طَرَفًا؛ وَأَذِنَ بِبُلُوغِ الْمَرَامِ وَالْمُرَادِ، وَكُسِرَ سَدُّ خَلِيجِهِ جَبْرًا لِلْعِبَادِ

والبلاد ؛ حيث ملأ الأرض ريباً ، وأهدى من نَفَحَاتِ الأَمْنِ والمنِّ ريباً ؛ والمرسوم الشريف - شَرَفَهُ اللهُ وَعَظَّمَهُ - بأن لا يُجْبَى على ذلك حقُّ بشاره ، ولا يُعْزَض إلى أحدٍ بِخَسَارِهِ ؛ فقابل المملوكُ المِثَالَ الشريفَ والمُرْسُومَ الشريفَ بتقبيل الأرض والسَّمْع والطَّاعَةِ ، وبأَدْرَ المملوكُ إلى إِذَاعَةِ هذه البُشْرَى ، التي عَمَّتْ تَهَانِيهَا بَرّاً وَبَحْراً ؛ وجعلت أُمُورَ هذه الأُمَّةِ بَيْنَ بَرَكَةِ هذه الأيامِ الشريفةِ بعد عُسْرِ يُسْرٍ ؛ وأسْتَنْطَق الأُلُسْنَ بالدُّعَاءِ لهذه الدَّوْلَةِ القَاهِرَةِ ، وَجَلَّ وَتَلَّ صُورَ الهَنَاءِ وَسُورَ الآلَاءِ بِهذه النِّعَمَةِ الوَافِيَةِ والمِنَّةِ الوَافِرَةِ ؛ وسأل الله تعالى أن يَحْلِدَ مُلْكُ مولانا السلطان ، وَيُؤَالِيَ أُنْبَاءَ البِشَائِرِ فِي أَيَّامِهِ الشريفةِ مَرْوِيَّةً بِالْأَسَانِيدِ الحَسَنِ ؛ وَقَدْ عَادَ فُلَانُ البَرِيدِ بِالْأَبْوَابِ الشريفةِ - شَرَفَهَا اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهَا - بهذا الجَوَابِ الشريفِ ، وَقَدْ عَايَنَ أَتْبَهَالَ أَهْلِ هذه المَمْلَكَةِ الفُلَانِيَةِ بالدُّعَاءِ بِدَوَامِ هذه الأيامِ الزَّاهِرَةِ السَّاتِرَةِ بِهذه البِشَائِرِ بِخُلُوقِهَا مِنَ الكَلْفِ والخَسَارَةِ ، طَالِعَ بِذَلِكَ . إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جَوَابٍ عن مِثَالِ شَرِيفِ بُوَصُولِ فَرَسِ إِنْعَامٍ ، كُتِبَ بِهِ عَنْ نَائِبِ طَرَابُلُسَ ، وَهِيَ :

يُقَبَّلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى وَرُودَ المرسومِ الشريفِ أعلاه اللهُ تَعَالَى وَشَرَفَهُ ، يَتَضَمَّنُ مَا أَقْتَضَتْهُ الآرَاءُ الشريفةُ مِنَ الخَيْرِ التَّامِّ ، والإِنْعَامِ العَامِّ ، والصَّدَقَةِ الوَافِيَةِ الوَافِرَةِ الأَقْسَامِ ؛ الَّتِي مَا بَرَحَتْ مَمَالِكُ هذه الدَّوْلَةِ الشريفةِ فِي إِنْعَامِهَا العَمِيمِ تَتَقَلَّبُ ، وَالحَيْلُ السَّوَابِقُ بِسَعَادَتِهَا الأَيْدِيَّةِ مُجْلَبٌ وَمُجْنَبٌ وَتُرَكَّبُ : مِنْ تَجْهِيزِ الحِصَانِ البَرِّقِ بِسَرِّجِهِ وَلِجَامِهِ وَعُدَّتِهِ الكَامِلَةِ ، وَشُمُولِ المَمْلُوكِ بِالصَّدَقَاتِ الَّتِي مَا بَرَحَتْ مُتَرَادِفَةً مُتَوَاصِلَةً ، وَلِعَبْدِ هَذَا الْبَيْتِ الشَرِيفِ شَامِلَةً ؛ وَقَبْلَ المَمْلُوكِ الأَرْضَ وَقَبْلَ حَوَافِرِهِ ، وَأَعْتَدَ

بهذه النعمة الباطنة والظاهرة؛ وأعدّه ليومئ تجلّ وجهه، ولقاء عدوّ وطراد؛ والله تعالى يخلّد هذه الصّدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد، والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والعييد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جواب عن وُصول خيل من الإنعام السلطانيّ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ .

ويُنهي وُصول ما أنعم به من الخيل التي وُجد الخير في نواصيها، وتتخذ صمواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها .

فمن أشهب غطاءه النهار بجلته، وأوطاه الليل على أهله؛ يمدّج أديمه رياً، ويتأرج رياً، ويقول من استقبله في حلّ لحامه : هذا الفجر قد طلع بالثريا؛ إن أنفلت (١) في المضايق أنساب أنسياب الأيم، وإن أنفجرت المسالك مرر مرور الغيم؛ كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلته، وكم عاين [طرف] (٢) السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته؛ لا يستن داحس في مضاره، ولا تطمع الغبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره؛ تسابق يده مرامي طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانياً (٣) من [عطفه] .

ومن أدهم حالك الأديم، حالي الشكيم، له مقلّة غانية وسالفة ريم؛ قد ألهسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده؛ يظن من نظر إلى سواد طرته، وبياض مجوله

(١) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وأذخرت» .

(٢) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «ألقت المضايق» وهي أوضح .

(٣) بياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

وُغَرَّتْهُ ؛ أَنَّهُ تَوَهَّم النَّهَارَ نَهْرًا خَاضَهُ ، وَأَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ نَقْطَةً مِنْ رَشَاشِ تِلْكَ الْمَخَاضَةِ ؛
لَيْنِ الْأَعْطَافِ ، سَرِيعِ الْأَنْعَاطِ ؛ يُقْبِلُ كَاللَّيْلِ ، وَيَمُرُّ بِكُلِّ مَوْءٍ ^(١) [صَخْرٍ] حَطَّهُ السَّيْلُ ؛
يَكَادُ يَسْبِقُ ظِلَّهُ ، وَمَتَى جَارَى السَّهْمِ إِلَى غَرَضٍ بَلَغَهُ قَبْلَهُ .

وَمِنْ أَشَقَرٍ : وَشَاهُ الْبَرْقِ بِلَهِيهِ ، وَغَشَاهُ الْأَصِيلُ بِذَهَبِهِ ؛ يَتَوَجَّسُ مَالِدِيَهُ بِدَقِيقَتَيْنِ ،
وَيَنْفُضُ وَفَرْتِيهِ عَنْ عَقِيقَتَيْنِ ، وَيَنْزِلُ عِدَارُ لِحَامِهِ مِنْ سَالِفَتِيهِ عَلَى شَقِيقَتَيْنِ ؛ لَهُ مِنْ
الرَّاحِ لَوْنُهَا ، وَمِنْ الرِّيَّاحِ لِينُهَا ؛ إِنْ جَرَى فَبَرْقٌ خَفَقَ ، وَإِنْ أَسْرَعَ فَهِلَالٌ عَلَى شَفَقٍ ؛
لَوْ أَدْرَكَ أَوَائِلَ حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ لَمْ يَكُنْ لِلْوَجْهِ وَجَاهَهُ ، وَلَا لِلنَّعَامَةِ نَبَاهَهُ ، وَلَكَّانَ
تَرَكُ إِغَارَةً [سَكَابِ لَوْمًا وَتَحْرِيمُ بِنْعِهَا سَفَاهَةً] ^(٢) يَرْكُضُ مَا وَجَدَ أَرْضًا ، وَإِذَا أَعْتَرَضَ
بِهِ رَاكِبُهُ بِحَرٍّ وَثَبَ عَرْضًا .

وَمِنْ مُكَيْتٍ نَهْدٍ ، كَأَنَّ رَاكِبَهُ فِي مَهْدٍ ؛ عِنْدَمِي الْإِهَابِ ، شَمَالِي الذَّهَابِ ؛ يَزِلُّ
[الْغَلَامُ] ^(٣) انْخُفَّ عَنْ صَهَوَاتِهِ ، وَكَأَنَّ نَعْمَ الْغَرِيضِ وَمَعْبِدٍ فِي لَهَوَاتِهِ ؛ قَصِيرِ الْمَطَا ،
فَسِيحِ الْخُطَا ؛ إِنْ رُكِبَ لَصِيدٌ قَيْدَ الْأَوَايدِ ، وَأَعْجَلَ عَنْ الْوُثُوبِ الْوَحْشَ اللَّوَابِدِ ؛
وَإِنْ جُنِبَ إِلَى حَرْبٍ لَمْ يَزُورْ مَنْ وَفَّعَ الْقَنَا بِلَبَانِهِ ، وَلَمْ يَشْكُ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ بِلِسَانِهِ ،
وَلَمْ يُرْدُونَ بُلُوغَ الْغَايَةِ وَهِيَ ظَفَرُ رَاكِبِهِ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ؛ وَإِنْ سَارَ فِي سَهْلٍ اخْتَلَّ
بَصَاحِيهِ كَالثَّمَلِ ، وَإِنْ أَصْعَدَ فِي جَبَلٍ طَارَ فِي عِقَابِهِ كَالْعُقَابِ وَأَنْحَطَّ فِي مَجَارِيهِ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) في "حسن التوسل" « يتوخش » .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) في الأصل « ومقبل » والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) في الأصل « سريع » والتصحيح عن " » » .

كَالْوَعْلِ ؛ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ ، وَمَتَى أَرَادَ الْبَرْقُ مُجَارَاتَهُ قَالَ لَهُ الْوُقُوفُ
عِنْدَ قَدْرِهِ : مَا أَنْتَ هُنَاكَ فَتَمَهَّلْ .

وَمِنْ حَبَشِيٍّ أَصْفَرَ يَرُوقُ الْعَيْنُ ، وَيُسَوِّقُ الْقَلْبَ بِمِشَابِهِتِهِ الْعَيْنُ ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ
أَلْقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَشْعَتِهَا جِلَالًا ، وَكَأَنَّهُ نَفَرَ مِنَ الدُّجَى فَأَعْتَقَ مِنْهُ عُرْفًا وَأَعْتَلَقَ أَجْجَالًا ؛
ذِي كَفَلٍ يَزِينُ سَرَجَهُ ، وَذِيلٍ يَسُدُّ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ مِنْهُ فَرَجَهُ ؛ قَدْ أَطْلَعَتْهُ الرِّيَاضَةُ
عَلَى مُرَادِ فَارِسِهِ ، وَأَغْنَاهُ نُضَارُ لُونِهِ وَنَضَارَتُهُ عَنْ تَرْصِيعِ قَلَائِدِهِ وَتَوْشِيعِ مَلَابِسِهِ ؛
لَهُ مِنَ الْبَرْقِ خِفَّةٌ وَطَيْبُهُ وَخَطْفُهُ ، وَمِنْ النَّسِيمِ لِينٌ مُرْوَرُهُ وَلُطْفُهُ ، وَمِنْ الرِّيحِ هَرَمٌ يَزُهَا
إِذَا مَا جَرَى شَاوِينٍ وَأَبْتَلَّ عِطْفُهُ ؛ يَطِيرُ بِالْغَمَزِ ، وَيُدْرِكُ بِالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْلِ ،
وَيَعْدُو كَأَلْفِ الْوَصْلِ فِي اسْتِغْنَاءٍ مِثْلِهَا عَنِ الْهَمَزِ .

وَمِنْ أَخْضَرَ حَكَاهُ مِنَ الرُّوضِ تَقْوِيْفُهُ ، وَمِنْ الْوَشْيِ تَقْسِيمُهُ وَتَأْلِيْفُهُ ؛ قَدْ كَسَاهُ
النَّهَارُ وَاللَّيْلُ حُلَّتِي وَقَارٍ وَسَنًا ، وَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا
حَسَنًا ؛ وَمَنْحَهُ الْبَازِي حُلَّةً وَشِيَهُ ، وَنَحَلَتْهُ الرِّيَاحُ وَهَامَاتُهَا قُوَّةَ رَكْبِهِ وَخِفَّةَ مَشْيِهِ ؛
يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الْجُرَى قَبْلَ سُؤَالِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يُسَابِقْهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَلِيلِ أَغْرَاهُ حُبُّ الظَّفَرِ
بِمُسَابَقَةِ خَيَالِهِ ؛ كَأَنَّهُ [تَفَارِيْقُ] ^(٣) شَيْبٍ فِي سَوَادٍ عِذَارٍ ، أَوْ طَلَائِعُ بَحْرٍ خَالِطُ بَيَاضِهِ
الدُّجَى ، فَمَا سَبَّحِي ، وَمَا زَجَ ظِلَامُهُ النَّهَارَ ، فَمَا أَنْارَ ؛ يَخْتَالُ لِمُشَارَكَةِ أَسْمِ الْجُرَى بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي السَّيْرِ كَالسَّيْلِ ، وَيَذُلُّ بِسَبْقِهِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ الْبُرُوقِ وَاللَّوَامِعِ

(١) فِي الْأَصْلِ « الْعَيْن » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ « طَرُوقُهُ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « » « » .

(٣) الزِّيَادَةُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

وَبَيْنَ الْبَرْقِيَّةِ مِنَ الْخَلِيلِ ، وَيَكْذِبُ [الْمَأْتُوِيَّةُ^(١)] لِتَوَلَّدَ الْيُنَيْنِ فِيهِ بَيْنَ إِضَاءَةِ النَّهَارِ وَظُلْمَةِ اللَّيْلِ .

وَمِنْ أَبْلَقَ ظَهْرِهِ حَرَمٌ ، وَجَرِيهِ ضَرَمٌ ، إِنْ قَصِدَ غَايَةَ فُجُودِ الْفَضَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا عَدَمٌ ، وَإِنْ صُرِّفَ فِي حَرْبٍ فَعَمَلُهُ مَا يَشَاءُ الْبَنَانُ وَالْعِنَانُ وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ ، قَدْ طَابَقَ الْحُسْنُ الْبَدِيعُ بَيْنَ ضِدِّي لَوْنِهِ ، وَدَلَّتْ عَلَى آجِتَاعِ النَّقِیْضَيْنِ عِلَّةٌ كَوْنُهُ ، وَأَشْبَهَ زَمَنَ الرَّبِيعِ بِاعْتِدَالِ اللَّيْلِ فِيهِ وَالنَّهَارِ ، وَأَخَذَ وَصَفَ حُلَّتِي الدُّجَى فِي حَالَتِي الْإِبْدَارِ وَالسَّرَارِ ؛ لَا تَكُلُّ مَنَاكِهَهُ ، وَلَا يَضِلُّ فِي حَجَرَاتِ الْجِيُوشِ رَاكِبُهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ لَيْلُهُ الْمُشْرِقُ بِجَاوِرَةِ نَهَارِهِ إِلَى أَنْ تَسْتَرِسلَ فِيهِ كَوَاكِبُهُ ؛ وَلَا يُجَارِيهِ الْخِيَالُ فَضْلًا عَنِ الْخَلِيلِ ، وَلَا يَمْلَأُ الشَّرَى إِلَّا إِذَا مَلَأَهُ مُشِيرَاهُ : النَّهَارُ وَاللَّيْلُ ؛ وَلَا تَمْسُكُ الْهَرُوقُ اللَّوَامِعُ مِنْ لَحَاقِهِ بِسِوَى الْأَثَرِ فَإِنْ جَهَدْتَ فَبِالذَّيْلِ ؛ فَهُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ ، وَالْجَوَادُ الَّذِي لُحَارِيهِ الْعَكْسُ وَلَهُ الطَّرْدُ ؛ قَدْ أَعْتَبَتْهُ شُهْرَةٌ نَوْعُهُ فِي جِنْسِهِ عَنِ الْأَوْصَافِ ، وَعَدَلَ بِالرِّيَاحِ عَنْ مُبَارَاتِهِ لُسْلُوكِهَا لَهُ فِي الْأَعْتِرَافِ جَادَّةُ الْإِنْصَافِ .

فَقَرَّبَ الْمَمْلُوكُ إِلَى رُتَبِ الْعِزِّ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَأَعَدَّهَا لِحُطْبَةِ الْجَنَانِ إِذَا الْجِهَادُ عَلَيْهَا مِنْ أَنْفَسِ مُهَوِّرِهَا ؛ وَكَلَّفَ بَرْكُوبَهَا فَكَلَّمَا أَكَلَهُ عَادَ ، وَكَلَّمَا أَمَلَهُ شَرَهُ إِلَيْهِ فَلَوْ أَنَّه زَيْدُ الْخَلِيلِ لَمَا زَادَ ؛ وَرَأَى مِنْ آدَابِهَا مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ أَكْرَمِ الْأَصَائِلِ ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لِيَوْمِ سَانِهِ وَحَرْبِهِ جَنَّةُ الصَّائِدِ وَجَنَّةُ الصَّائِلِ ؛ وَقَابَلَ لِإِحْسَانِ مُهْدِيهَا بَنَائِهِ وَدُعَائِهِ ،

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «زبد البحر والخليل» .

(٣) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «جنة للصائِل وجنة للصائِل» .

(٤) في الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ لِمُقَارَعَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ [وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُهُ الَّذِي أُوْفِرَدَهُ فِي النَّدَى بِمَذَاهِبِهِ، وَجَعَلَ الصَّافِنَاتِ الْحَيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ] ^(١).

المهيـع الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ بِهِ عَنْ ثَوَابِ السُّلْطَانِ وَالْإِتِّبَاعِ إِلَى السُّلْطَانِ أَبْتِدَاءً)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيءُ بِهِ الْكَاتِبُ فِي مِثْلِهِ .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ عَنْ نَائِبِ كُلِّ مَمْلُوكَةٍ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ وَلَايَتِهِ .

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ النَّائِبَ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَمْلَكَتِهِ وَمَقَرِّ وَلَايَتِهِ، كَتَبَ إِلَى السُّلْطَانِ يُخَبِّرُهُ بِذَلِكَ وَبِمَا الْمَمْلُوكَةُ عَلَيْهِ .

وهذه نسخة مكتوبة من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ نَائِبِ حَلَبَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَهِيَ :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهِى أَنْ الْمَمْلُوكُ وَصَلَ إِلَى الْمَمْلُوكَةِ الْفُلَانِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَحَلَّ مَحَالَّهَا الْمَأْنُوسَةِ ؛ الَّتِي شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بِكَفَالَتِهَا، وَأَهْلَتْهُ الْمَرَاحِمُ الْمُنِيفَةُ لِإِيَالَتِهَا ؛ رَافِلًا فِي حُلُلِ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ ، مُتَفِيئًا ظِلَّ الْعِزِّ الْوَرِيفِ ؛ صُحْبَةً فُلَانٍ مُسْفَرِهِ ، وَدَخَلَهَا يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا لِأَنْسَاءِ تَشْرِيفِهِ الشَّرِيفِ الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْهِ ، مَاشِيًا لِمَحَلِّ الْكَرَامَةِ الَّذِي سَارَ إِلَيْهِ ؛ [بِحُضُورٍ مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِحُضُورِهِ] ^(٢) مِنْ قُضَاةِ الْقَضَاةِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْحُجَّابِ ، وَالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَالْأَصْحَابِ ؛ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ ، وَأَكْمَلِ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهي من سقط النسخ .

القَوَاعِدْ؛ وَقَبْلَ الْأَرْضِ بَابَ الْقَاعَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَدَخَلَ دَارَ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ وَقُطُوفُ
الْأَمَانِ لَهُ مَهْضُورَةٌ؛ وَقُرِئَ بِهَا بِحَضْرَةِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ تَقْلِيدُهُ، وَعَظَّمَ الْمَرَاسِمَ الشَّرِيفَةَ
تَأْيِيدُهُ؛ وَتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْهُ لَهُ الْمَرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ، وَتَنْفِيزِ كُلِّ مُهِمٍّ
شَرِيفٍ وَمَرْسُومٍ؛ وَتَصَفِّحَ أَحْوَالَ الْمَمْلَكَةِ، وَسَلَكَ كُلَّ أَحَدٍ مَسْلَكَهَ؛ وَأَسْتَجْلَبَتْ
الْأَدْعِيَةَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ، وَاجْتَهَدَ فِي حِيَاطَةِ الْبِلَادِ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْهِ شَيْطَانُ الْمُفْسِدِينَ
بِأَشْطَانٍ؛ وَانْتَضَمَ لَهُ أَمْرُ الْمَمْلَكَةِ بِالْمَهَابَةِ الشَّرِيفَةِ أَحْسَنَ أَنْتِظَامٍ، وَبَلَغَ بِهِ كُلُّ وَلِيٍّ
مِنْ قَهْرِ الْعَدُوِّ غَايَةَ الْمَرَامِ؛ وَقَدْ أَعَادَ الْمَمْلُوكُ فَلَانًا مُسَفَّرَهُ إِلَى خِدْمَةِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ
مُزَاحَ الْأَعْدَارِ، مُبَلِّغَ الْأَوْطَارِ؛ عَلَى الْعَادَةِ - طَالِعَ بِذَلِكَ - وَلَا زَالَ مِنْهُ مَزِيدُ الشَّرَفِ
وَالْعُلُوِّ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَنْهَى أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ مَغْمُورًا بِالصَّدَقَاتِ
الشَّرِيفَةِ، وَالْإِنْعَامَاتِ الْمُطِيفَةِ؛ صُحْبَةَ مَمْلُوكِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
مُلْكَهُ، وَالْأَيْسَ شَرِيفَةَ الشَّرِيفِ، وَقُرِئَ تَقْلِيدُهُ الشَّرِيفُ بِدَارِ الْعَدْلِ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ
مِرَارًا عَلَى الْعَادَةِ. وَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالْحَافِيفِ الشَّرِيفِ عَلَى النُّسخَةِ الْمُجَهَّزَةِ صُحْبَةَ الْمُسَارِ
إِلَيْهِ مِنَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَظَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِمَحْضُورٍ مِنْ جَرَتِ الْعَادَةِ بِمَحْضُورِهِ :
مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْراءِ، وَكَتَبَ خَطَّهُ عَلَيْهَا؛ وَأَتَّصَبَ الْمَمْلُوكُ لَخَلَاصِ الْحَقُوقِ،
وَإِزَالَةِ الْمَظَالِمِ؛ وَنَشَرِ لَوَاءِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ، لِيَنْتَصِفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ،
وَيَنْزِجَرَ الْقَوِيُّ عَنِ الضَّعِيفِ؛ وَأَتَّبَعَ الْحَقَّ فِي الْقَضَايَا، وَأَسْتَجْلَبَ الْأَدْعِيَةَ بِدَوَامِ
هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَادِلَةِ مِنَ الرِّعَايَا؛ وَرَتَّبَ أُمُورَ الْآزَاكِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى أَكْمَلِ عَادَةٍ وَأَجْمَلِ

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظمها، لينهى بين يدي الأيادي المعظمة ما عاينته من المملوك من إخلاصه في الطاعة الشريفة ومُعالاته. طالع بذلك. إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة، فقد قال في "مواد البيان" : من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء، إيجاباً لهم وتعظيماً. إلا أننا رأينا ذوي الأخطار من القدماء قد شافهمهم بالعزاء مُسَلِّين، وبالهناء داعمين؛ وربما دُفع الكاتب إلى ضحية رئيس يقتضي محله أن يهنئ الخليفة بمتجدد النعم لديه، ويعزيه لمتطرق النواب إليه؛ فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء وعزائهم ما يُحتذى عليه، عند الحاجة إلى استعمال مثله.

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة، أوردتها في "مواد البيان" وهي :

أولى النعم - خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين - بأن تتطيق بها ألسن الدارين يَضُوعُ عِطْرُهَا، وَتَتَقَالَفُهَا أَفْوَاهُ الشَّاكِرِينَ يَفُوحُ نَشْرُهَا - نعمة إيلانه في خلاقته التي جعلها ذخراً للأنام، وعِصْمةً للإسلام، وحاجراً بين الحلال والحرام؛ وقواماً للائتلاف والاتفاق، وزماماً عن الاختلاف والافتراق؛ ونظاماً لصالح الخاصة والعامة، وسبيلاً إلى اجتماع الكلمة وسكون الأمة؛ وسبباً لحقن الدماء، ودعة الدهماء، ومجاهدة الأعداء؛ وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكوات؛ والعمل بالفرائض والسُنن، وحبم البدع والفتن؛ وعدقيها بالأخيار ورثة نبيه وعترته، والأبرار الطهرة من أرومة رسوله وشجرته؛ الذين نصبهم دعاءً إلى طاعته، وهداةً لبريئته، وأعلاماً لشريعته؛ يأمرون بالمعروف ويأثمرون، وينهون عن المنكر ويتنهنون، ويقضون

بالحق وبه يعدلون ؛ وكلما لحق منهم سلف بمقر أوليته ، أقام خلفاً يختصه بانتخابه وتكرّمته .

والحمد لله الذى قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى كانت مفوضة إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ؛ وأنجز لهم ما وعدهم من إبقاء الإمامه ، فى عقيهم إلى يوم القيامة ؛ وأستخلص لها فى عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ، المرامى عن حوزتها ، المعز لكلماتها ، الرافع لرايتها ، المحدد لحدودها ، الحافظ لعقودها ؛ وسلم قوساً منه إلى باريها ، وناطها بكفها وكافيا ؛ وأفضى إليه بشرف الولادة والأبوة ، وميراث الإمامة والنبوّه ؛ وألف به بين القلوب الآئيه ، وجمع عليه النفوس النائية ، وأتفقت الآراء بعد تبأيها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديتها ؛ وأستدت ثلثة الدين بعد أنغارها ، وأطمأنت الدهماء بعد تفارها ، حمداً يكون لنعمته كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لا تنزع الهمم إليها ، ولا تتطلع الأمانى عليها : لأختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ؛ فإن أمير المؤمنين يتعاطم عن تهنته بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لا يسوغ أن يهنا بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ؛ والعبد يسأل الله تعالى ضارِعاً إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بما حمّله وكلفه ، وتوفيقه فيما كلفه وأستخلفه ؛ وأن يُمكّن له فى الأرض ، ويعلى يده بالسطر والقبض ؛ ويمدّه بعزّ السلطان ، وعلوّ الشان ؛ وظهور الأولياء ، وثبور الأعداء ؛ وإعزاز الدين ، وأبتزاز الملحدين ؛ وتقوية يده فى نصره الإسلام ، وسياسة الأنام ؛ ويعرف رعيته من ين دولته وسعادة ولايته ؛ ما يجمعهم على الطاعة والمواقفه ، ويعصمهم من المعصية والمفارقة ؛

وَيُوفِّقُهُم مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي مُوَالَاتِهِ ، لَمَّا يُوفِّرُ حَظَّهُمْ مِنْ مَرْضَاتِهِ ؛ وَيَجْعَلُ وَلَايَتَهُ هَذِهِ مَقْرُونَةً بِانْفِسَاحِ الْمُدَّةِ وَالْأَجَلِ ، وَبُلُوغِ الْمُنَى وَالْأَمَلِ ، وَصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ وَيُبَلِّغُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَدَوْلَتِهِ أَفْضَلَ مَا بَلَغَهُ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِهِ ، وَوَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ .

ومن ذلك ما يكتب في البشارة بالفتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعة أو قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ وَحَصَلَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى السُّلْطَانِ مُبَشِّرًا بِذَلِكَ الْفَتْحِ ، مُنَوِّهاً بِقُدْرِهِ ، مُعْظِماً لِأَمْرِهِ ؛ وَمَا كَانَ فِيهِ : مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ وَقُوَّةِ الظَّفَرِ .

(١)

[فمن مكاتبة في البشارة بفتح حصن المرقب ، وهي] :

قد أسفر عن الفتح المين صباحه ، والتأيد وقد طار به محلق البشير
نحقق في الخافقين جناحه ؛ والإسلام وقد وطئ هامة الكفر بمقدمه ، والدين وقد
عز بفتكات سيفه المنصور فانف أن يكون الشرك من خدمه ؛ والأفلاك وقد
علمت أنه لهذا الفتح القريب كان اجتماع كواكبها ، والأملك وقد نزلت لتشهد
أحمد النصرة البدرية في صفوفها ومواكبها ؛ وحصن المرقب وقد ألقى عليه الملة
الإسلامية أشعة سعتها ، وأنجزت له الأيام من الشرف بها آماله بعد ما طال أنتظاره
لوعدها ، وأمتته الأقدار التي ذللتها للإسلام أن تطاول إليه الحوادث من بعدها ؛
وقد أحاطت العلوم بأن هذا الحصن طالما شئت الأحلام ، أن تحيل فتحه لمن
سلف من الأنام ؛ فما حدثت الملوك أنفسهم بقصده إلا وثأها النجل ، ولا خطبته بئيل

(١) لم يذكر المؤلف عنواناً لهذه المكاتبة ، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام لينتم الكلام .

وقد بحثنا عن هذه المكاتبة في الكتب التي بأيدينا فلم نهند إليها ، غير أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي

قد ذكر فقرات منها في "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النَّفَاسُ وَالنُّفُوسُ إِلَّا وَكَانَتْ مِنَ الْجَرَمَانِ عَلَى ثِقَةٍ وَمِنْ مُعَاجَلَةِ الْأَجَلِ وَقَتَهُ عَلَى وَجَلٍ ؛
 وَحَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ كُلِّ شَاخٍ تَتَّيَّبُ عِقَابُ الْجَوِّ قَطْعَ عِقَابِهِ ، وَتَقِفُ الرِّيحُ خَدَمًا
 دُونَ التَّوْقِلِ فِي هِضَابِهِ ؛ [وَحَوْلَهُ مِنْ] الْأَوْدِيَةِ خَنَادِقُ لَا تُعْلَمُ مِنْهَا الشُّهُورُ إِلَّا بِأَنْصَافِهَا ،
 وَلَا تُعْرَفُ فِيهَا الْأَهْلَةُ إِلَّا بِأَوْصَافِهَا ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّطَ بِالنُّجُومِ ، وَتَقَرَّرَقَ
 بِالْغُيُومِ ، وَسَمَّا قَرَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَرَسَا أَصْلُهُ فِي التُّخُومِ ؛ تُحَالُ الشَّمْسُ إِذَا عَلَتْ أَنَّهَا
 تَتَنَقَّلُ فِي أَبْرَاجِهِ ، وَيُظَنُّ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى السَّمَاءِ أَنَّهُ ذَبَالَةٌ فِي سِرَاجِهِ ؛ فَكَمْ مِنْ ذِي جِيُوشٍ
 قَدْ مَاتَ بِقُصَصِهِ ، وَذِي سَطَوَاتٍ أَعْمَلَ الْحِيلَ فَلَمْ يَقْزُ مِنْ نَظَرِهِ عَلَى الْبُعْدِ بِفُرْصَةٍ ؛
 لَا يَعْلُوهُ مِنْ مُسَمًّى الطَّيْرِ سِوَى نَسْرِ الْفَلَكَ وَمِرْزَمِهِ ، وَلَا يَرْمُقُ مَتَبَرِّجَاتِ أَبْرَاجِهِ غَيْرَ
 عَيْنِ شَمْسِهِ وَالْمَقَلِّ الَّتِي تَطْرِفُ مِنْ أَجْنَحِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ نِصَبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَانِيقِ مَا سَهَمَهُ
 أَنْفَذَ مِنْ سِهَامِ الْجَفُونِ ، وَخَطَرَاتِهِ أَسْرَعُ مِنْ لِحَظَاتِ الْعُيُونِ ؛ لَا يُحَاطَبُ إِلَّا بِوَسَاطَةِ
 رُسُلِهِ بِضَمِيرِ الطَّلَابِ ، وَلَا يُرَى لِسَانُ سَهْمِهِ إِلَّا كَمَا تُرَى خَطَفَاتُ الْبَرْقِ إِذَا تَأَلَّقَ
 فِي عُلُوِّ السَّحَابِ ؛ فَتَزَلَّتْ عَلَيْهِ الْجِيُوشُ نُزُولَ الْقَضَاءِ ، وَصَدَمَتَهُ بِهِمَمُهَا الَّتِي تَسْتَعِيرُ
 مِنْهَا الصَّوَارِمُ سُرْعَةَ الْمَضَاءِ وَرُوعَةَ الْإِنْتِضَاءِ ؛ فَنَظَرَتْ مِنْهُ حِصْنًا قَدْ زَرَرَ عَلَيْهِ الْجَوُّ
 جَيْبَ غَمَامِهِ ، وَأَفْتَرَّتْ نَفْرَهُ كُلَّمَا جَدَبَ عَنْهُ الْبَرْقُ فَاضِلَ لِسَامِهِ ؛ فَتَذَلَّلَتْ صِعَابُهُ ،
 وَسَهَلَتْ عِقَابُهُ ؛ وَرَكِرَتْ لِلْجُنُوبَاتِ (١) فِي سَفْحِهِ وَطَالَمَا رَامَتِ الطَّيْرُ أَذْنَاهُ فَلَمْ تَقْوَ عَلَيْهِ
 الْقَوَادِمُ ، وَكَمْ هَمَّتِ الْعَوَاصِفُ بِتَسْمِ رُبَاهُ فَأَصْبَحَتْ مُحَلَفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا النِّغَامُ ؛ فَضُرِبَ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِصْنِ بِسُورٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ، وَنُصِبَتْ فَوْقَهُ
 مِنَ الْأَسِنَّةِ تُغَوِّرُ بَرَاقَةَ الثَّنَائِيَا وَلِكِنَّهَا غَيْرُ عَذَابٍ ؛ فَعَادَ ذَلِكَ السَّفْحُ مُصَفَّحًا بِصَفَاحِهَا ،

(١) فِي الْأَصْلِ «فِي الْأَوْدِيَةِ» وَالتَّصْحِيحُ مِنْ «حَسَنِ التَّوَسُّلِ» .

(١) مُشْرِقًا بِأَعْلَامِ أَسِنَّةٍ رَمَاحِهَا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَرْجَائِهَا مَا أُرْبَى عَلَى الْغَمَائِمِ ، وَزَادَ فِي نَفْسِهِ عَلَى التَّمَائِمِ .

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ !

وَنُصِبَتْ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقُ فَلَمْ تَرَعْ حَقَّ جَنْسِهَا ، وَسَطَتْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَ غُدُّهَا فِي التَّحَامِلِ أَبْعَدَ مِنْ أُمْسِهَا ، وَاسْتَنْصَحَتْهَا الْعِدَا فَأَعْلَمَتْهُمْ أَنَّهَا لَا تُطِيقُ الدَّفَاعَ عَنْ غَيْرِهَا بَعْدَ أَنْ عَجَزَتْ عَنْ نَفْسِهَا ، وَبَسَطَتْ أَنْفَهَا أَمَارَةً عَلَى الْإِذْعَانِ ، وَرَفَعَتْ أَصَابِعَهَا : إِمَّا إِبَابَةً أَنْ تَذِلَّ لِلتَّشَهُدِ وَإِمَّا إِنَابَةً إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ ، نَخَافُ الْعِدَا مِنْ ظُهُورِ هَذَا الْإِسْتِظْهَارِ ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَجَانِيقَ قَوْلٌ لَا تَثْبِتُ لَهَا الْإِنَانُ الَّتِي عَمِرَتْ مِنَ النَّفْعِ بِأَيْدِيهِمْ نَاسْتَعَانُوا عَلَيْهِنَ مَعَ الْعِدَا بِطُولِ الْجِدَارِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَدَتْ تَكُنُّ كُيُومُ الْأَسَاوِدِ وَتَثْبُ وَتُوبَ الْأُسُودِ ، وَتُبَارَى بِهَا الْحُصُونُ السَّمَاءُ فَكُلَّمَا قَدَفَتْ هَذِهِ بَكَوَا كِبَاهُ النَّيِّرَةِ قَدَفَ هَذَا بَكَوَا كِبَاهُ السُّودِ ؛ وَلَمْ يُكْسِرْ لَهُمْ مَنَاجِيقٌ إِلَّا وَنَصَبُوا آخَرَ بِمَكَانِهِ ، وَلَا قُطِعَتْ لِأَحَدٍ إِصْبَعٌ إِلَّا وَصَلَ الْآخَرُ بِنَانِهِ ؛ فَظَلَّتْ تَتَحَارَبُ مِثْلَ الْكُجَاهِ ، وَتَتَحَامَلُ تَحَامِلَ الرَّمَاهِ ؛ حَتَّى لَقِحَتْ وَفَسَحَتْ لِلرَّضَا مَجَالًا ، وَمَالَتْ وَمِيلَ فِيهَا وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ تَكُونُ سِجَالًا .

هَذَا وَالتَّقُوبُ قَدْ دَبَّتْ فِي بَاطِنِهِ دَيْبُ السَّقَامِ ، وَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِ كَمَا تَمَشَّى فِي مَقَاصِلِ شَارِبِهَا الْمُدَامِ ؛ وَحَشَتْ أَضَالَعَهُ نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الْهَوَى : تُحْرِقُ الْأَحْشَاءَ وَلَا يَبْدُو لَهَا ضَرَامٌ ؛ قَدْ دَاخَلَتْ مَرَسَلَةَ الْوَجَلِ ، فَتَحَقَّقُوا حُلُولَ الْأَجَلِ ؛ وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ الَّذِي تَمَادَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ قَدْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى مَا يَبِينُ يَدِيهِ عَلَى عَجَلٍ ، وَأَيَقِنَ الْحَصْنَ بِالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ فَكَادَ يُرْقِصُهُ بَيْنَ فِيهِ فَرَطُ الْجَدَلِ ؛ وَزَادَ

شَوْقُهُ إِلَى التَّشْرِيفِ وَيَا صَبَابَةً لَوْ سَمَهَا وَأَسَمَهَا مُشْتَاقَ لَكُنْهُمْ أَظْهَرُوا الْجَلْدَ ، وَأَخْفَوْا
ضُرَامَ نَارِ الْجَزَعِ وَكَيْفَ تَخْفَى وَقَدْ وَقَدْ ؛ وَتَدَفَّقَتْ إِلَيْهِمُ الْجُيُوشُ فَلَأَتْ الْأَفُقَ ،
وَأَحَاطَتْ بِهِمْ إِحَاطَةُ الطُّوقِ بِالْعُنُقِ ؛ وَنَهَضَتْ إِلَيْهِمْ مُسْتَمِدَّةً مِنْ عَزَمَاتِ سُلْطَانِهَا ،
مُسْتَعِدَّةً لَلتَّرَاعِ أَرْوَاحَ الْعِدَا عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَوْطَانِهَا ؛ فَانْقَطَعَتْ بِهِمُ الظُّنُونُ ،
وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ رَحَى الْمُنُونِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ الْمَجَانِقُ أَجْمَارَهَا (فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَحَطَّتْ بِسَاحَتِهَا عِقْبَانُ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ، فَهَدَمَتِ الْعِمَارَ وَالْأَعْمَارَ ،
وَأَجَرَتْ فِي أَرْجَائِهَا أَنْهَارَ الدَّمَاءِ فَهَآكُوا بِالسَّيْفِ وَالنَّبِيلِ وَالنَّارِ ، وَتَحَكَّمَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ
فِي أَهْلِ التَّثَلُّثِ فَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَمْنِهِمْ ، وَهَرَبُوا مِنْهَا إِلَى مَحَايِلِ حِصْنِهِمْ .

وَلَمَّا رَكِبَ الْأَوَّلُ لِلزَّخْفِ فِي جُيُوشِهِ الَّتِي كَاثَرَتْ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ ، تَزَلُّزَ الْحِصْنُ
لِشِدَّةِ رَكْبِهِ ، وَتَضَعَّضَ مِنْ خَوْفِ عَصِيَانِهِ فَلَحِقَتْ سَمَآؤُهُ بِأَرْضِهِ ؛ وَتَحَلَّلَتْ قَوَاعِدُ
مَاشِدِهِ مِنْ أَرْكَانِهِ فَانْحَلَّتْ ، وَأَلْقَتْ الْأَرْضُ مَا فِيهَا وَتَحَلَّتْ ؛ وَمَشَتْ النَّارُ مِنْ تَحْتِهِمْ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ بِلَ فِي السُّورِ إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ؛ وَمَا كَانَ
إِلَّا أَنْ قَابِلَتِ الْعَسَاكِرُ ذَلِكَ الْبُرْجَ حَتَّى أَهْوَى يَلِيمُ التُّرَابِ ، وَتَادَبَ بِأَدَابِ الطَّاعَةِ
فَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ؛ فَهَاجَمَتْهُمُ الْجُيُوشُ مُهَاجِمَةً الْخُتُوفِ ، وَأَسْرَعَتِ الْمَضَاءَ وَالْإِنْتِضَاءَ
فَلَمْ تَدْرِ الْعِدَا : أَهْمُ أَمْ الَّذِينَ فِي أَيْمَانِهِمُ السُّيُوفُ الَّتِي تَسْبِقُ الْعَدَلَ . وَثَبَّتَ مِنْهُمْ
مَنْ لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهُ مَجَالًا فَلَجَّوْا إِلَى الْأَمَانِ ، وَتَمَسَّكَ دَنِيءُ كُفْرِهِمْ بِعِزَّةِ الْإِيمَانِ ،
وَتَسَبَّثُوا بِسَاحِلِ الْعَفْوِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛
وَسَأَلُونَا أَنْ يَكُونُوا لَنَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ ، وَتَضَرَّعُوا فِي أَنْ تَجْعَلَ أَرْوَاحَهُمْ لِسُيُوفِنَا
مِنْ جُمْلَةِ الْوَدَائِعِ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ كَرَمًا ، وَظَلُّوا عَلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ :

يَرَوْنَ الْمَمَاتَ يَقْظَةً وَالْحَيَاةَ حُلْمًا وَأُطْلِقْتَهُمُ الْيَدَ الَّتِي لَا يَحِبُّ لَدَيْهَا الْآمَلُ ، وَأَعْتَقْتَهُمُ
الْيُمْنَى الَّتِي فَجَّاجُ الْأَرْضِ فِي قَبْضَتِهَا : فَمَتَى تَشَاءُ تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْأَنَامِلُ ؛ وَخَرَجُوا بِنَفْسٍ
قَدْ تَجَزَّدَتْ حَتَّى مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَمُقِلِّ طَلَّقَتِ الْكِرَا خَوْفًا مِنَ الصَّوَارِمِ الَّتِي تَسْلُهَا
عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ؛ وَسُطِّرَتْ وَالْمَدِينَةُ قَدْ تُسَمُّ أَعْلَاهَا ، وَشِعَارُ الْإِيمَانِ قَدْ جَرَّهَا مِنْ لِبَاسِ
الْكُفْرِ وَأَعْرَاهَا ؛ وَالْأَعْلَامُ قَدْ سَلَكَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ أَعْلَى مَرْقَى ، وَالسَّعَادَةُ
قَدْ بَدَلَتْ بَيْعَهُ مَسَاجِدَ وَمَحَارِبَهُ قِبَلَةً وَكَانَتْ شَرْقًا ، فَأَصْبَحَ يَرْفُلُ فِي حُلِّ الْإِيمَانِ ،
وَأُدْعَى بِالطَّاعَةِ فَأُخْرِسَ جَرَسُ الْجَرَسِ بِهِ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ومن ذلك] ما يكتب به في التعازي إلى الخلفاء .

وقد تقدّم في الكلام على التَّهْنِئَةِ بِوِلَايَةِ الْخَلِيفَةِ ، أَنَّهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ لَا يُهَنِّئَ الْخَلِيفَةَ
بِالْخِلَافَةِ إِعْظَامًا ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُعْزَى فِي مُصَابِهِ . إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا دَعَتْ ضَرُورَةُ
الْكَاتِبِ إِلَى ذَلِكَ : لِإِكْرَامِ بَعْضِ أَخْصَاءِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ بِالْكِتَابَةِ بِذَلِكَ إِلَى الْخَلِيفَةِ .
وَلَا يَنْفِي أَنْ الْحَالُ فِي ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَعْزَى : مِنْ وَالِدٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ غَيْرِهِمَا .

(١) [وهذه نسخة مكتوبة في معنى ذلك] ذكرها في "موادّ البيان" وهي :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ خِلَافَتَهُ خَلْقَهُ قِيَامًا ، وَلِبَرِيَّتِهِ نِظَامًا ؛ وَجَعَلَ لَهُ
خُلَفَاءَ يَدْنُوهُمْ لِمِرَاثِهَا ، وَيَحْتَضُّهُمْ بِتَرَاثِهَا ؛ فَإِذَا أَنْقَضَتْ مَدَّةَ مَا ضِيَمَ : لِمَا يَرِيدُهُ اللَّهُ
مِنْ أَسْتَدْنَائِهِ إِلَى مَقَرِّ خُلَصَائِهِ ، نَقَلَهَا إِلَى نُورِهِ بِأَصْطِفَائِهِ وَأَصْطَفَائِهِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَصَرَ خِلَافَتَهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبَائِهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ زَعِيمَهُمُ
الْمَاضِيَ الَّذِي كَانَتْ بِيَدِهِ مَوَارِثُهَا ، وَالْآتِي الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ [تَرَاثُهَا] .

والحمد لله الذى ختم لأمر المؤمنين المتَّقى إلى دار الكرامة بأفضل الخاتمة ،
وأحسن له الجزاء عن السَّعى فى الأُمّة ؛ وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليفته ،
وحياطة شريعته ؛ وحماية بلاده ، وسياسة عبادته ؛ ولوراثته ثراث آبائه وأجداده ؛
وجعل الماضى منهم مرضياً عنه ، والآتى مرضياً به ؛ واعتدت الرعية من عدل
أمير المؤمنين ما جبر كسرهما فى خليفته ، وصبرها فى رزيته ؛ وهو المسئول أن يُلهمه
على المصيبة فى سلفه الطاهر صبراً ، وعلى ما أخلفه عليه فى تأهيله لخلافته التى
لا كفاء لها شكراً ؛ بمنه وفضله إن شاء الله تعالى .



[وهذه نسخة كتاب فى التعزية أيضاً ^(١)] وهى :

إنَّ الله خصَّ أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافته ، وعظم محله بما نصَّبه له
من إمامة بريته ؛ وجعله عماداً لأهل الإسلام تجتمع عليه أهواؤهم ، وتسكن إليه
أملأؤهم ؛ ويصلح به دينهم ودنياهم ، ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم ؛ فإذا أسبغ
نعمة من نعمه عليه ، وظاهر موهبة من مواهبه لديه ؛ شرَّكوه فيها ، ونهضوا معه
على الشكر عليها ؛ وإذا ابتلاه ببلية ، وأمتحن صبره برزية ؛ أخذوا بالنصيب العظيم
من الحادث ، والحظَّ الحسيم من الكارث ؛ [و] ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله
جزاءً من الأجر عليها .

وإن الله تعالى كان أَعَارَ أمير المؤمنين من ولده فلان - رضى الله عنه - عاريةً
من عواريه ، وبلغه من الاستمتاع بها ما احتسب من أمانيه ؛ ثم استرجعها ليثقل بها
ميزانه ، ويضاعف إحسانه ؛ ويجعلها له ذخراً ، ونوراً يسعى بين يديه وأجراً ؛ فعظم

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

بذلك المصائب على رعيته، وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سُكون
القلوب، ونفع الخطوب، واستقرار قواعيد الخلافه، وشمول الرحمة والرافه، وقد
حصل أمير المؤمنين على نعيم كثيرة من موهبته وتوابعه في استعادته، وحصل كافة
خاصته على القلق لفقده، والأسى من بعده، وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد،
ونقاف كل مياد، ومهبط كل رحمه، وطريق كل نعمه، وهو خالق بأن يظهر
من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره، ما يبعث على التأسى به، والتأدب
بأديه، والله تعالى يحسن لأمر المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في الموتف،
ويوفر حظّه من الثواب، ويعظم له الأجر على المصائب، ويريه في أوليائه وأحبابه،
أعظم محابه وغاية آراه، وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والاحتفاء، بأفاضل
الأجداد والآباء، بفضلِهِ ورحمته، إن شاء الله تعالى.



[وهذه] نسخة كتاب : كُتِبَ به إلى الأبواب السلطانية عند فتح (آياس)

(١)

قاعدة بلاد الأرمن وانتزعها من أيديهم، وهي :

يُقْبَلُ الأرض وَيُنْهَى أَنْ لَيْلَةَ الْإِنْتِظَارِ أَطْلَعَتْ صَبَاحَهَا، وَمَوَاعِيدَ الْأَمَالِ بَعَثَتْ
عَلَى يَدِ الْإِقْبَالِ نَجَاحَهَا، وَالْعَسَاكِرَ الْمَنْصُورَةَ جَرَدَتْ رَابِعَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ بِمَدِينَةِ آيَاسَ
صِفَاحَهَا، وَأُورِدَتْ إِلَى الصُّدُورِ رِمَاحَهَا، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلْهَجَ الْبَصَرِ، وَلِسَانُ صِدْقِ
الْقِتَالِ قَائِلٌ : بَأَنَّ الْجَيْشَ النَّاصِرِيَّ قَدْ أَتَتْصَرُ، وَأَنْقَضَى ذَلِكَ النَّهَارُ، بِإِيقَادِ نَارِ حَرْبِ
الْحَصَارِ، عَلَى أَبْرَاجٍ وَأَسْوَارٍ، أُدِيرَتْ عَلَى الْمِينَا كَمَا أُدِيرُ الْمَعْصَمُ عَلَى السَّوَارِ، فَمَا أَشْرَقَ

(١) كان الأولى ذكر هذه المكاتبة مع المكاتبات التي ذكرت في البشارة بالفتح، إذ لا مناسبة في ذكرها

صَبَّاحُ الصَّفَاحِ وَلَا حَ ، إِلَّا والأعلام النَّاصِرِيَّةِ عَلَى قُلَّةِ القَلْعَةِ مَائِسَةُ الأَعْطَافِ مِنْ
الْأَرْتِيَّاحِ ؛ مُعَلِّمَةٌ أَلَسَّتْهَا بِحَى عَلَى الْفَلَّاحِ وَحَى عَلَى النَّجَّاحِ ؛ وَعِزُّ الإِسْلَامِ يُقَابِلُ ذُلَّ
الْكُفْرِ ؛ بِهَذَا النَّصْرُ وَهَذَا الْإِفْتِتَاحُ ، وَجَمْعُ الْأَرْضِ مِنَ الْمَلَا تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ قَتْلِ وَأَسِيرِ
وَأَنْتِرَاحِ ؛ وَلَعِبَتْ أَيْدَى النِّيرانِ فِي القَلْعَةِ وَجَوَانِبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ مِنَ الْأَسْوَارِ أَعْضَاءُ
مَنَازِلِهَا ؛ وَنَطَقَ بِالْأَقْدَارِ لِسَانُ النَّارِ : هَذِي مَنَازِلُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ .

ثُمَّ أَتَتْ قَلْعَ المَحَاصِرَةِ إِلَى قَلْعَةِ الْبَحْرِ ، وَضَمَّ الْأَرْضَ مِنَ الْمَلَا إِلَيْهَا سَيْفُ الْقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ ؛
وَهَذِهِ القَلْعَةُ عَرُوسٌ بِكْرٌ فِي سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةٌ ، لَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ الْأَوَائِلِ إِلَى
خِطْبَتِهَا سَابِقَهُ ؛ قَدْ شَمَخَتْ بِأَنْفِهَا ، وَنَاتَ بِعُظْفِهَا ؛ وَتَاهَتْ عَلَى وَامِقِهَا ، وَغَضَّتْ عَيْنَ
رَامِقِهَا ؛ فَهِيَ فِي عُقَابِ لَوْجِ الْحَوْكَالطَّائِرِ ، وَسَوْرَهَا الْبَحْرُ وَالْجَحْرُ فَلَا يَكَادُ يَصُلُّ
إِلَى وَكْرِهَا النَّاطِرُ ؛ وَقَدْ أُوتِنَتْ بِمَحَلَّاتِ الْحَدِيدِ ، وَقِيدَتْ كَأَنَّهَا عَاصِيَةٌ تُسَاقُ بِالْأَصْفَادِ
إِلَى يَوْمِ الْوَعِيدِ ؛ فَأَرْسَلَ عَلَيْهَا الْمَنْجَنِيْقُ عُقَابَهُ ، وَأَعْلَقَ بِهَا ظُفْرَهُ وَنَابَهُ ؛ فَكَشَفَ
مِنْ شُرُفَاتِهَا شَنْبَ نَعْرِهَا ، وَسَقَاهَا بِأَكْفِ أَهْمِهِ كُتُوسَ حِجَارَةٍ فَمَا يَلَتْ مِنْ شِدَّةِ
سُكْرِهَا ؛ وَفَضَّ مِنْ أَجْرَاجِهَا الصَّنَادِيقَ الْمُقْفَلَةَ ، وَفَصَّلَ مِنْ أَسْوَارِهَا الْأَعْضَاءَ
الْمُتَّصِلَةَ ؛ فَتَزَلَّزَلَتْ عَمْدُهَا ، وَزِيلَ عَنْ مَكَانِهِ جَلَمُهَا ؛ وَعَلَتْ الْأَيْدَى الْمُرَامِيَةَ بِهَا ،
وَعُلَّتْ الْأَيْدَى الْمُحَامِيَةُ عَنْهَا ؛ وَأَشْتَدَّ مَرَضُهَا مِنْ حَرَارَةِ وَهَجِ الْحِصَارِ ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهَا
عَنْ مَقَاوِمَةِ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى سُورِهَا مِنْ يَفْتَحُ لَهُ جَفْنًا ، وَشَنَّ الْمَنْجَنِيْقُ
عَلَيْهَا غَارَتَهُ إِلَى أَنْ صَارَتْ شَنًّا ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مِنْ سَمَاءِ غَضَبِهِ رُجُومًا ، وَوَالَى ذَلِكَ
عَلَيْهَا سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ؛ فَبَادَرَتْ إِلَى الطَّاعَةِ وَاسْتَسْلَمَتْ ، وَكَّرَّرَ نَحْوَهَا
رُكُوعَهُ فَسَجَدَتْ ؛ وَرَكِبَتْ الْخِيُوشُ الْمَنْصُورَةَ عَوْضَ الصَّافِيَّاتِ الْجُجْجِ ، وَسَمَحَتْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمُهْجِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ سَارَعَ أَهْلُهَا إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْبَابِ الْهَرَبِ ،

وكان نَحْرَابُ قَلْعَةِ الْمِينَا هَذِي نَحْرَابٍ قَلْعَتِهِمْ مِنَ الْجَرْبِ ، وَأَحْرَقُوا كَيْدَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ
بِنَارِ الْعَصَبِ ، وَأَتَرَحُّوا مِنْهَا لَيْلًا ، وَجَرُّوا مِنَ الْهَزِيمَةِ ذَيْلًا ، وَتَسَلَّهَا الْمَسَامُونَ ،
وَتَحَسَّرَ عَلَيْهَا الْحَسْرَةَ الْكُبْرَى الْكَافِرُونَ ، وَهَدِمَتْ حَجَرًا حَجَرًا ، وَصَاحَتْ بِجَبْهَتِهَا وَجْهَ
الثَّرَى ، وَأَعْدِمَتْ مِنَ الْوُجُودِ عَيْنًا وَأَثَرًا ، فَمَا أَعْجَبَ هَذَا الْفُتُوحَ وَأَغْرَبَ ! ،
وَمَا أَحْلَى ذِكْرَهُ فِي الْأَفْوَاهِ وَمَا أَعَذَبَ ! ! ، وَمَا أَلَدَّ حَدِيثَهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَمَا أَطْرَبَ ! ! ،
وَمَا أَسْعَدَ هَذَا الْجَيْشَ النَّاصِرِيَّ وَمَا أَعْجَبَ ! ! ! .

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ * هَذَا الْفُتُوحُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَنْتَظِرُ !
فَتَحَ مَبِينٌ وَنَصْرٌ جَلَّ مَوْقِعُهُ * سَارَتْ بِهِ وَلَهُ الْأَمْلَاكُ وَالْبُشْرُ !
عَجَائِبُ ظَهَرَتْ فِي فَتْحِهِ بَهْرَتْ * لَمْ تَأْتِ أَمْثَالَهَا الْأَيَّامُ وَالسَّيْرُ !
لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ مَاضٍ بِهِ نَزَلَتْ * فِي وَصْفِ وَقَعَتِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ !
هَذِي أَيْبَاسُ الَّتِي قَدْ عَزَّ جَانِبُهَا * وَعَزَّ حَاطِبُهَا حَتَّى أَتَى الْقَدْرُ !
جَاءَتْ إِلَيْهَا جِيُوشٌ كَمْ بِهَا أَسَدٌ * يَبِضُّ الصَّفَاحَ لَهَا الْإِنْيَابُ وَالظُّفَرُ !
جَيْشٌ لَهَا كَبَحْرٍ زَاخِرٍ جَلِبُ * إِذَا سَرَى لَا يُرَى شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ !
يَسِيرُ بِالنَّصْرِ أَيْ سَارَ مُتَجَهًّا * مَا زَالَ يَقْدُمُهُ التَّائِبُ وَالظَّفَرُ !
جَيْشٌ لَهُ اللَّهُ وَالْأَمْلَاكُ نَاصِرَةٌ ، * مَلِكُهُ نَاصِرٌ لِلدِّينِ مُتَصِرُ !
يَوْمَ الْخَمِيسِ رَأَيْتُ الْخَيْلَ حَامِلَةً * عَلَى رُءُوسِ عُدَاةٍ هَامَهَا أَكْرُ ،
وَقَلْعَةَ الْبَحْرِ كَانَتْ آيَةً لَهُمْ * فَعَنَ يَسِيرٍ فَأَصْحَتْ لِلْوَرَى عِبْرُ !
كَانَتْ بِأَفْقِ سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً * أَبْرَاجُهَا بِأَسْقَاتٍ نَحَرَتْهَا خَطَرُ !

فَرَكَبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ بَاذِلَةً * أَرْوَاحَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَذَرُ،
 لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ وَلَا وَلَا مَلِكٌ * يَا أُوِيَّ مَقَرًّا إِلَى أَنْ مَدَّتِ الْجَسْرُ!
 وَعَجَّلَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَهُمْ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي تُوفِي لَهُ النَّدَرُ
 يَرْضَى بِهِ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ قَاطِبَةً * وَشَاهِدُ الْقَوْلِ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع

وأوله القسم الثاني

(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- المقصد الثالث - في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي : من العرب
 ٥ والسودان، وفيه ثلاث جمل ٥
 الجملة الأولى - في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العربان ... ٥
 » الثانية - » » مسلمى ملوك السودان ٦
 » الثالثة - » » ملوك المسامين بالحبشة ١١
- المقصد الرابع - » » . أهل الجانب الشمالى ، وفيه ثلاثة
 أطراف ١٢
- الطرف الأول - في المكتبات إلى أمراء الأتراك ببلاد الروم المسماة
 الآن ببلاد الدروب ١٢
- » الثانى - في المكتبة عن ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر ٢٥
 » الثالث - » إلى من وراء بحر القرم، ويشتمل على
 أربعة مقاصد ٢٦
- المقصد الأول - في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ... ٢٧
 » الثانى - » » » » المغرب من
 جزيرة الأندلس وما والاها ٣٣
- » الثالث - في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي ... ٣٩
 » الرابع - » » » » الشمالى من
 الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم ٤٢

الفصل الخامس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب

الواردة على الأبواب السلطانية من أهل المملكة

وغيرها ، وفيه نوعان ٥٤

صفحة

- النوع الأول - المكتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهى
 على قسمين ٥٤
- القسم الأول - فى الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار
 المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان ٥٤
- القسم الثانى - فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن
 أهل الممالك الإسلامية ، ويشتمل على أربعة
 مقاصد ٦٢
- المقصد الأول - فى الكتب الواردة عن أهل الشرق ، وفيه أطراف ٦٣
 الطرف الأول - الكتب الواردة عن القنات العظام من بنى
 جنكركان ٦٣
- » الثانى - فى المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 أهل الشرق ٧١
- » الثالث - فى رسم المكتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى
 هذه المملكة ٧٢
- » الرابع - فى الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 ملوك الهند ٧٦
- المقصد الثانى - فى المكتبات الواردة عن ملوك الغرب ، وفيه جمل ٧٨
- الجملة الأولى - فى المكتبة الواردة عن صاحب تونس ٧٩
- » الثانية - فى المكتبات الواردة عن صاحب تلمسان من
 بنى عبد الواد ٨٤
- » الثالثة - فى المكتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧
- » الرابعة - فى عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

- المقصد الثالث - في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ،
 وفيه ثلاثة أطراف ... ١١٥
- الطرف الأول - في المكاتبات إلى صاحب مالى ... ١١٥
- » الثانى - » الصادرة عن صاحب البرنو ... ١١٦
- » الثالث - » عن ملك الكانم ... ١١٩
- المقصد الرابع - في الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى
 بلاد الروم ... ١١٩
- النوع الثانى - [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتبات الواردة إلى
 هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
 وهى على أربعة أضرب ... ١١٩
- الفصل السادس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم
 المكاتبات الإخوانيات، وفيه طرفان ... ١٢٦
- الطرف الأول - فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين ... ١٢٦
- » الثانى - » الإخوانيات المحدثه بعد السلف، وفيه
 ثلاثة مقاصد ... ١٢٧
- المقصد الأول - فى رسوم إخوانيات أهل المشرق، وفيه أربعة مهايج ... ١٢٧
- المهيح الأول - فى صدور الابتداءات ... ١٢٧
- » الثانى - فى الأجوبة على هذا المصطلح ... ١٣٩
- » الثالث - فى خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح ... ١٤١
- » الرابع - فى عنوانات الكتب على هذا المصطلح ... ١٤٤

- صفحة
- المقصد الثاني — في رسوم إخوانيات أهل المغرب ، وفيه جملتان ... ١٤٨
- الجملة الأولى — في مفتحات المكاتب على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان ١٤٨
- المهيع الأول — في آبداء المكاتب ... ١٥٤
- » الثاني — في الأجوبة ... ١٥٨
- الجملة الثانية — في خواتم المكاتب على اصطلاحهم ... ١٥٩
- المقصد الثالث — في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية ، وفيه
- ثلاثة مصطلحات ... ١٦٠
- المصطلح الأول — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية ... وفيه
- ثلاثة مهايح ... ١٦٠
- المهيع الأول — في الصدور ... ١٦٠
- » الثاني — في خواتم الكتب ... ١٦٦
- » الثالث — في عنوانات الكتب ... ١٦٦
- المصطلح الثاني — من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال
- في الدولة الأيوبية ... ١٦٧
- » الثالث — من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات
- ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية ، وفيه مهيعان ١٦٨
- المهيع الأول — في رتب المكاتب المصطلح عليها ... وهي
- على قسمين ... ١٦٨
- القسم الأول — الابتداءات ... ١٧١
- » الثاني — من المكاتب الإخوانيات الدائرة بين أعيان
- الملكمة وأكابر أهل الدولة الأجوبة ... ٢١٢
- المهيع الثاني — في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من
- أعيان الدولة ... ٢١٧

صفحة

- الفصل السابع — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى مقاصد
المكتبات، وهى قسمان ... ٢٣٣
- القسم الأول — مقاصد المكتبات السلطانية، وهى على نوعين ... ٢٣٣
- النوع الأول — ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو على ثلاثة
أضرب [صوابه أربعة] ... ٢٣٣
- الضرب الأول — ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو
على أصناف ... ٢٣٣
- الصف الأول — الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة ... ٢٣٣
- « الثانى — من الكتب السلطانية الكتب فى الدعاء إلى الدين ٢٤٤
- « الثالث — » » » بالحث على الجهاد ٢٤٦
- « الرابع — » » » فى الحث على لزوم
- الطاعة وذم الخلاف ... ٢٥٢
- « الخامس — من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكت
- العهد من المخالفين ... ٢٥٩
- « السادس — من الكتب السلطانية الكتب إلى من خلع الطاعة ٢٦٣
- « السابع — الكتب فى الفتوحات والظفر ... ٢٧٤
- « الثامن — المكتبة بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ... ٢٩٠
- « التاسع — المكتبة بتوبيخ المهزوم الخ ... ٢٩٩
- « العاشر — فى المكتبات بالتضييق على أهل الجرائم ... ٣٠٣
- « الحادى عشر — الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين ... ٣٠٦
- « الثانى عشر — المكتبة بالأوامر والنواهى ... ٣٠٨
- « الثالث عشر — المكتبات عند حدوث الآيات السماوية ... ٣١٠
- « الرابع عشر — » فى التنبيه على شرف مواسم العبادة الخ ٣١٢

صفحة

- الصف الخامس عشر — المكاتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد... ٣١٣
- « السادس عشر — المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج ... ٣٢٨
- « السابع عشر — فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير الخ ... ٣٣٣
- « الثامن عشر — المكاتبة بالبشارة بحج الخليفة ... ٣٣٦
- « التاسع عشر — الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع ... ٣٣٩
- « العشرون — المكاتبة بالتنويه والتلقيب ... ٣٤١
- « الحادى والعشرون — المكاتبة بالإحماذ والإذمام ... ٣٤٦
- « الثانى والعشرون — ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخیل والجوارح ... ٣٥١
- « الثالث والعشرون — المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه ... ٣٥٦
- « الرابع والعشرون — ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض ... ٣٥٧
- الضرب الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان فى الجواب ... ٣٥٨
- « الثالث — من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة الخ ... ٣٥٩
- « الرابع — من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن النواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦
- المهيع الأول — فى الأجوبة عن الكتب السلطانية ... ٣٦٦
- « الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نواب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء ... ٣٩٠

(تم فهرس الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صِحْحُ الْأَسْبَحِ

الجزء التاسع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالت

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء التاسع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثاني

من مقاصد المكاتبات، الإخوانيات

(مما يكتُب به الرئيس إلى المرءوس والمرءوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير)

قال في "موادّ البيان" : ولها مَوْقع خَطر من حيثُ تشتركُ الكافّةُ في الحاجة إليها . قال : والكاتبُ إذا كان ماهرًا، أغربَ معانيها، ولطّفَ مبانيها، وتسهّلَ له فيها ما لا يكادُ أن يتسهّلَ في الكُتُب التي لها أمثلةٌ ورسومٌ لا تتغيّر ولا تُتجاوزُ، وهي على سبعة عشر نوعًا :

النوع الأول

(التّهاني)

قال في "موادّ البيان" : كُتِب التّهاني من الكُتُب التي تظهرُ فيها مقاديرُ أفهام الجُلب، ومنازلُهم من الصّناعة، ومواقِعُهم من البلاغة . وهي من ضروب الكتابة الجليّة النفيّة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن مَوْقع الموهبة، وتضاعفُ السرور بالعطيّة . وأغراضُها ومعانيها متشعبة لا تنفد عند حدٍّ، وإنما نذكر منها الأصول التي تفرّعت منها فروعٌ رجعت إليها، وحملت عليها .

قال : ويجب على الكاتب أن يراعى فيها مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما مما لا يتساحح بمثله .
ثم التهاني على أحد عشر ضربا :

الضرب الأول

(التهنئة بالولايات ، وهى على تسعة أصناف)

الصنف الأول — التهنئة بولاية الوزارة :

قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على ترتيب الملكة أن الوزارة كانت في الزمن المتقدم هى أرفع وظائف الملكة وأعلاها رتبة ، وأنها الرتبة الثانية بعد الخلافة . وكانت في زمن الخلفاء تكاد أن تكون كالسلطنة الآن ، ^(١) فهى من الأتباع ومن في معانهم على نحو ما كانت في الزمن المتقدم بين الرؤساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسب ما تقتضيه رتبة المهنة .

وهذه تسخّ تهاين من ذلك على ما كان عليه الحال في الزمن القديم .

تهنئة بوزارة : من إنشاء أبى الحسين بن سعد ، كتب بها إلى الوزير محمد بن القاسم بن عبيد رحمه الله ، وهى :

من كانت النعمة — أيد الله الوزير — نافرة عنه وبغنائهِ غريبة ، فهى تأوى من الوزير إلى مثوى معهود ، وكَنَفِ محمود ، وتُجاوِرُ منه من يوفّيها حقّها ، ويُقالِ لها بحُسْنِ الصُّحبة لها ، ويَجْرى في الشكر لما يولّاه ، والرعاية لما يُستَرعاه ، على شاكلة مضى عليها السلف من أهله ، ونشأ في مثلها الخلف ، مقتدياً بالأول الآخر ، وبالماضى

(١) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغابر؛ تشابهاً في كرم الأفعال ، ورعايةً لحقوق الآمال ؛ واعتماداً للرفقة والرحمة ، وعموماً بالإنصاف والمعدلة ؛ إلى ما خصَّ الله به أهل البيت رضى الله عن الماضين منهم وأقام عزَّ الباقيين وحِراسَتهم : من العلم بالسياسة والدِّرابة بتدبير المملكة ورعاية الأُمّة ؛ والهداية فيهم لطرق الحِيطة ونهَج المصلحة .

والحمد لله على ما خصَّ به الوزير من فضله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُساماة ومشكلة المُقادر^(٢) والشَّيْبه ، وجعله فيما حباه به نسيج وحده ، وقريع دهره ؛ وجمع له من مَوَاهِب الخير ، وخصائص الفضل ما أبان به موقعه في الدين ، وأعطاه معه الولاية من جميع المسلمين .

والحمد لله حمداً مجدداً على ما جَدَّده له من رأى أمير المؤمنين وأجبتائه ، ومَحَلَّه من آخِيارِه وأصِطْفائه .

والحمد لله على ما منَّحه من كرامته ، وجدَّد له من نعمته ، فيما أعاد إلى تدبيره من وزارته ، وأشركه فيه من أمانته ؛ احتياطاً منه للملكة ، ونظراً للخاصة والعامة ؛ فإنَّ عائدة رأيه سَوَتْ بين الضَّعيف والقَوِيّ ، ووصلت إلى الدَّانِي والقَصِيّ ؛ وأعادت إلى المَلِك بهاءه ، وإلى الإسلام نُورَه وضيآءَه ؛ فاكتست الدنيا من الحِلَّة بعد الإخلاص ، والنَّضارة بعد الإنهاج^(٣) ، ما لم يكن يوجَدُ مثله إلا بالوزير في شرف منْصبه ، وكرم مُرْكَبه ؛ فهنَّا الله الوزير ما آتاه وتابَع له قَسْمه ، ووصل له ما جدَّد له بالسَّعادة ؛ وأمتدَّ فيه بالزَّيادة ؛ وأعطاه من كلِّ مأمول أعظم حظٍّ وأوفر نصيبٍ وقِسْم ؛ تراخياً

(١) في الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيف .

(٢) في القاموس "قادرته قايسته وفعلت مثل فعله" .

(٣) الإنهاج الحلى ، أنظر القاموس في مادة (ن ه ج) .

في مُدَّة العُمُر، وتَناهياً في دَرَجَةِ العِزِّ، وأَحتياطاً بالمَوْهَبَةِ في العَاجِلِه ، وفَوْزاً بالكِرامَةِ في الآجِلِه ؛ إِنَّه فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ .

تَهْنِئَةٌ أُخْرَى في مِثْل ذَلِكَ : أوردَها في ترسله ، وهى :

التَهْنِئَةُ بِالْوَزِيرِ لِلزَّمانِ وأَهْلِهِ بِمَا جَمَّلَهُمْ بِهِ ، وَجَدَّدَ لَهُمْ مِنْ مِيسَمِ العِزِّ ، وَسَرَّ لَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ حُلَّةِ الأَمْنِ بِوِلَايَتِهِ ، وَالنِّعْمَةُ عَلَى أَوْلِيائِهِ وَرَعَايَاهُ عَلَى حَسَبِ مَوَاقِعِهِمْ مِنْ مِشَارَكَتِهِ وَخُطُوطِهِمْ مِنْ مَعْدَلَتِهِ ظَاهِرَةً ، وَلِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ الفَاضِلُ ، وَالشُّكْرُ الكَامِلُ . وَلِلْوَزِيرِ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الجَلِيلَةِ ، وَالدَّوْلَةِ السَّعِيدَةِ ؛ أَهْنَاهَا مَوْقِعاً ، وَأَسْرَاهَا مَلْبَساً ، وَأَدْوَمُهَا مُدَّةً ، وَأَجْمَلُهَا نَفْسَهُ ؛ وَأَثَرُهَا مُبَوَّأً ، وَأَسْلَمُهَا عُقْبَى ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ بِالْمُعُونَةِ وَالْحِرَاسَةِ ، وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ بِالنَّصْرِ وَالْكِفَايَةِ ؛ وَأَنْهَضَهُ بِمَا قَلَّدَهُ وَأَسْتَرْعَاهُ ، وَبَلَّغَهُ مَحَابَّةً وَمُنَاهً ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَوْقِعِي مِنْ ثِقَةِ الْوَزِيرِ يُلْحِقُنِي عِنْدَهُ بِمَنْ مَكَّنْتَهُ الْإِيَّامُ مِنْ قَضَاءِ الْحَقِّ فِي التَّلَقِّيِّ وَالْإِبْعَادِ ، وَيُعَوِّضُنِي بِتَفْضِيلِهِ مِمَّا حُرِمْتُهُ مِنْهَا مَحَلَّ ذَوَى الْإِخْلَاصِ وَالْإِعْتِدَادِ .

تَهْنِئَةٌ أُخْرَى في مِثْل ذَلِكَ : أوردَها في ترسله أيضاً ، وهى :

وهَذَا أَوَّلُ يَتْلُوهُ مَابَعْدَهُ بِلَا تَنَاهٍ وَلَا نَقْصٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمِشِئَتِهِ ، بَلْ يَكُونُ مَوْصُولاً لَا يُتَبَلَّغُ مِنْهُ غَايَةٌ إِلَّا شَفَعَتْهَا دَرَجَةُ تَرْقِيٍّ ، تُكْنِفُ ذَلِكَ كِفَايَةً مِنَ اللَّهِ شَامِلَةً كَامِلَةً ، وَغِبْطَةً فِي الْبَدءِ وَالْعَاقِبَةِ بِلَا انْقِطَاعٍ ، وَلَا ارْتِجَاعٍ ؛ حَتَّى يَكُونَ الْمُقْلَبُ مِنْهُ يَعْدُ بُلُوغَ العُمُرِ مِنْتَاهُ ، إِلَى فَوْزٍ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضَاهُ . فَهَنِيئًا لِلْوَزِيرِ بِمَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْعِيَ فِيهِ مُسَاعَفَةَ الْمِقْدَارِ ، وَلَا يَنَالَهُ بَغِيرُ اسْتِحْقَاقٍ ؛ إِذْ لَا مِثْلَ وَلَا نَظِيرَ لِلْوَزِيرِ : فَضْلاً ظَاهِراً ، وَعِلْماً عَلَى الْعُلُومِ مُوَفِّياً ، وَسَابِقَةً فِي تَقْلِيلِ الْخِلَافَةِ ظَهْراً لِبَطْنٍ ، وَحَلْبَ الدَّهْرِ شَطْراً بَعْدَ شَطْرٍ ؛ وَجَمْعاً مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ لِمَا كَانَ مُتَفَرِّقاً ، وَحِفْظاً

لما كَانَ ضَائِعًا ؛ وَحَمَايَةَ لَبِيْضَةِ الْمُلْكِ ، وَضَبْطًا لِلتُّغُورِ ، وَتَلَقِّيًّا لِلخُطُوبِ بِمَا يَفُلُّ حَدَّهَا ، وَيُطْفِئُ نَارَهَا وَهَبَهَا وَيُقِيمُ أَوْدَهَا ؛ وَمَا وَهَبَ اللَّهُ فِي رَأْيِهِ مِنْ فَتْحِ الْبِلَادِ الْمُرْتَجَّةِ ، وَقَعَ الْأَعْدَاءُ الْمُتَغَلِّبَةَ ، وَسُكُونُ الدَّهْمَاءِ ، وَثُمُولُ الْأَمْنِ ، وَعُمُومُ الْعَدْلِ ؛ وَاللَّهُ يَصِلُ ذَلِكَ بِأَحْسَنِهِ .

تهنئة أخرى في مثل ذلك : من إنشاء علي بن خلف في "مواد البيان" وهي :

أطال الله بقاءَ خُضْرَةِ الْوِزَارَةِ السَّامِيَةِ ، فَارِعَةً مِنَ الْمَعَالِي اسْمَقَهَا نُجُودًا ، كَارِعَةً مِنَ الْمَنَنِ أَعْدَبَهَا وَرُودًا ، سَاحِبَةً مِنَ الْمِيَامِينَ أَرْقَاهَا بُرُودًا ، مُتَمِّعَةً بِالنِّعَمِ الَّتِي يُرَامِي الشُّكْرَ عَنْ حَوَازَتِهَا ، وَيُحَامِي الْبِشْرَ عَنْ حَوَمَتِهَا ؛ مَبْلَغَةً فِي أَوْلِيَائِهَا وَأَعْدَائِهَا ، قَاضِيَةً مَا تَرْتَمِي إِلَيْهِ رِحَابُهَا ؛ فَلَا تَرَى لَهَا وَلِيًّا إِلَّا لِأَحَبِّ الْمَذْهَبِ ، نَاقِبَ الْكُوكَبِ ؛ سَامِيَ الطَّرْفِ ، حَامِيَ الْأَنْفِ ؛ وَلَا عَدُوًّا إِلَّا ضَيْقَ الْمَطْرَحِ ، وَعِرَ الْمَسْرَحِ ؛ صَالِدَ الرُّنْدِ ، مَفْلَلَّ الْحَدِّ ؛ رَاغِمَ الْعَرِينِ ، مَتَلَوًّا لِلجَيْنِ . وَلَا زَالَتْ أَزِمَّةُ الدُّنْيَا بِيَدِهَا حَتَّى تَبْلُغَ بِأَمَالِهَا مُتْنَهَا ، وَتَجْرِيَ بِأَيَّامِهَا إِلَى أَقْصَى مَدَاهَا ؛ [فهي] مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ خَطَرًا ، وَأَحْسَنِهَا عَلَى الْكَافَّةِ أَثَرًا ؛ وَأَوَّلَاهَا بَأْنَ يُفَاضَ فِي شُكْرِهَا ، وَتَتَعَطَّرَ الْآفَاقُ بِذِكْرِهَا . وَلَسِيدُنَا الْوَزِيرَ الْأَجَلَّ يَرَاعُ يَسْتَقِظُ فِي صَلَاحِهِمْ وَهُمْ هَاجِعُونَ ، وَيَنْصَبُ فِي الذَّبِّ عَنْهُمْ وَهُمْ وَادِعُونَ ؛ وَكُلُّ تَنْذِيرِهِمْ فِيهِ ، إِلَى مَدْبَرِّ يُخَافُ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ ، وَيَعْمَلُ فِيمَنْ أَسْرَعَاهُ بِمَا يَرْضَاهُ ؛ وَلَا يَمُدُّ يَدَ الْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِمْ مُتَسَلِّطًا ، وَلَا يَتَّبِعُ دَوَاعِيَ الْهَوَى فِيهِمْ مُتَسَقِّطًا ؛ وَاضِعًا الْأَشْيَاءَ فِي حَقَائِقِهَا ، سَالِكًا بِهَا أَمْثَلَ طَرَائِقِهَا ؛ مُلَانِيًا مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، مُحَاشِيًا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ؛ قَرِيبًا مِنْ غَيْرِ صَغَرٍ ، بَعِيدًا مِنْ غَيْرِ كِبَرٍ ؛ مُرَغَّبًا بِلا إِسْرَافٍ ، مُرْهَبًا بِإِنْصَافٍ ؛ نَاطِرًا إِلَى مُحَقَّرَاتِ الْأُمُورِ وَأَطْرَافِهَا ، كَمَا يَنْظُرُ فِي مَعَاضِمِهَا وَأَشْرَافِهَا ؛ آخِذًا بِوَنَائِقِ الْحَزْمِ ، مُمْسِكًا بِعَلَائِقِ الْعَزْمِ ؛ رَامِيًا بِفِكْرَتِهِ مِنْ وَرَاءِ الْعَوَاقِبِ ، خَاطِمًا بِأَرَائِهِ أَنْوَفَ الْمَصَاعِبِ ؛

ناظماً بآيائه عقود المصالح، مُوطئاً برياضته ظهور الجوامح؛ إن تَفَفَّ ذَا التَّوْبَةِ
 القَرِيدِ، والهِفْوَةِ الْوَحِيدِ؛ أَقْتَصَرَ عَلَى مَا يُؤَافِقُهُ الْوَالِدُ الْحَدَبُ، مِنْ مُقَوِّمِ الْأَدَبِ
 [وإن قَبَضَ] ^(١) عَلَى الْمَرْتَكِسِ فِي غَوَايَةِ، الْمُفْلِسِ فِي عَنَائِيهِ؛ ضَيَّقَ عَلَيْهِ مَجَالَ الْعَفْوِ،
 وَأَحَاقَ بِهِ أَلِيمَ الْعَذَابِ وَالسَّطْوِ؛ فَقَدْ سَكَنَتِ الرَّعِيَّةُ فِي عَدْلِهِ، وَأَوْتِ حَرَمًا مَنِيعًا مِنْ
 ظِلِّهِ؛ وَوَقَّتْ أَنَّ الْحَقَّ بِنَظَرِهِ شَاحِشٌ شَاقِقٌ، وَالْبَاطِلَ سَائِخٌ زَاهِقٌ؛ وَالْإِنْصَافَ مَبْسُوطٌ
 مَنْشُورٌ، وَالْإِحْكَافَ مَحْطُوطٌ مَبْتُورٌ؛ وَالشَّمْلَ مَنْظُومٌ، وَالشَّرَّ مَضْمُومٌ. فَنَطَقَتْ أَلْسِنُهَا
 بِإِحْمَادِهِ، وَأَشْتَمَلَتْ أَفْئِدَتُهَا عَلَى وَدَادِهِ؛ وَأَتَفَقَّتْ أَهْوَاؤُهَا عَلَى رِيَاسَتِهِ، وَتَطَابَقَتْ
 آرَاؤُهَا الْمَسَابِقَةُ عَلَى دَوَامِ سِيَادَتِهِ؛ وَعَرَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَدَقَ النَّظَرِ فِي دَوْلَتِهِ؛ وَسَلَّمْ
 أُمُورَ مَمْلَكَتِهِ إِلَى النَّصِيحِ الْمَأْمُونِ، وَالنَّجِيحِ الْمَيْمُونِ؛ الَّذِي وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِاخْتِيَارِهِ،
 وَيَسَّرَهُ لِاصْطِفَائِهِ وَإِيثَارِهِ؛ وَأَنَّهُ قَدْ نَاطَ أُمُورَهُ بِنَ لَمْ يَسْتَخَفَّ ثَقِيلَ حِمْلُهَا، وَنُبُوهُ
 بِيَاهِظٍ ثَقُلُهَا؛ فَتَمَتَّعَ بِلَذِيذِ الْكَرَى، وَتَوَدَّعَ بَعْدَ السَّيْرِ وَالسَّرَى؛ وَأَلَمَ مِنَ الْمَلَامِ مُلَمٌ
 مُعْضِلٌ، وَحُدُوثٌ حَدَثٌ مُشْكِلٌ. وَهَذِهِ نِعْمَةٌ تَعْمُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ عُيُومَ الْغَيْثِ
 إِذَا هَمَّ وَتَدَفَّقَ، وَتَشْمَلُهُمْ شُمُولَ النَّهَارِ إِذَا لَمَعَ وَتَأَلَّقَ؛ وَهَمُّ أَوَّلَى بِالْتَّهْنَةِ فِيهَا
 وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا.

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُهْدَى إِلَيْهِ الدُّعَاءُ الْمَرْفُوعُ، وَالتَّضَرُّعُ الْمَسْمُوعُ؛ بِأَنْ
 يُهَيِّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا حَمَلَهُ، وَيُعِينَهُ عَلَى مَا كَفَّلَهُ؛ وَيَتَوَلَّاهُ بِتَوْفِيقٍ يَثْقُبُ أَنْوَارَهُ،
 وَتَأْيِيدٍ يُطَبِّقُ غَرَارَهُ، وَتَسْدِيدٍ يَحْسِنُ آثَارَهُ؛ وَإِجْرَاءٍ مَا يَتَوَلَّاهُ عَلَى أَوْضَحِ سَبِيلٍ
 وَأَقْصَدِهِ، وَأَرْجَحَ دَلِيلٍ وَأَرْشَدِهِ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَهْتَبَأَ بِمَالِهِ عِيَاؤُهُ وَكَلَّهُ، وَلَمَدَعِيهِ
 صِلَاحُهُ كُلُّهُ. وَالْعَبْدُ يَسْأَلُ اللَّهَ ضَارِعًا لَدَيْهِ، بِاسْطَايِدَةِ إِلَيْهِ؛ فِي أَنْ يَقْبَلَ صَالِحَ
 أَدْعِيَتِهِ لِحُضْرَةِ الْوِزَارَةِ السَّامِيَةِ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ مَا أَحَلَّهُ فِي مَحَلِّهِ مِنْ رِيَاسَتِهَا، وَأَوْقَعَ

في موقعه من سياستها ؛ دائماً لا يُنتَرَع ، وخالدا لا يرتجَح ؛ وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإحراز والتَّخْوِيل ، ويُنْجِيهِ من الابتزاز والتَّحْوِيل ؛ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ، فَعَالُ مَا يَشَاءُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصف الثاني - التهنئة بكفالة السلطنة :

وهذه نسخة من ذلك ، كُتِبَ بها عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

لَا زَالَ دَائِرًا بَهَائِهِ الْفَلَكَ ، مُنِيرًا بَضِيَاءَ عَدْلِهِ وَيُسْرِهِ الْحَلَاكَ ؛ قَرِيرًا بِحُسْنِ كِفَالَتِهِ الْمُلُوكَ شَاهِدًا بِفَضْلِ أَسْمَائِهِ وَسِمَاتِهِ الْمَلِكِ ، مَقْسُومًا بِأَمْرِ اللَّهِ نَدَاهُ وَبِأَسْهُ لِيَحْيَا مِنْ حَيٍّ وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ ؛ تَقْبِيلًا يُشَافِهِ بِهِ التُّرَابُ ، وَيُشَاهِدُ شَرَفَ مَطْلَعِهِ عَلَى السَّحَابِ .
وَيُنْهِى قِيَامَهُ عَلَى قَدَمٍ وَلَاءٍ وَدَعَاءٍ : هَذَا يَنْزِلُ الْقَلْبَ وَهَذَا يَصْعَدُ إِلَى الْأَفْقِ ، وَمُقَامَهُ عَلَى بُشْرَى وَحَمْدٍ مِنْهُمَا الْأَمْنُ يُحَلِّي بِوَصْفِهِ النُّطْقُ كَمَا تُحَلِّي الْأَعْطَافُ بِالنُّطْقِ ؛
وَأَنَّهُ وَرَدَ مِثَالُ شَرِيفٍ عَلَى يَدِ فُلَانٍ يَتَضَمَّنُ الْبِشَارَةَ الْعَامَّةَ ، وَالْمَسْرَةَ التَّامَةَ ، وَالنِّعْمَةَ الَّتِي يُعَوِّدُ سَنًا جَبِينَهَا مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَأَمِّهِ ؛ وَخَبَرَ الْخَيْرِ الَّذِي حَيَّتْ أَزْهَارُهُ الْمُتَضَوِّعَةَ نَدَّ مِصْرَ فَأَوَّلُ مَا بَلَغَهُ مَنَافِسَ الشَّامِ شَامَهُ ، بِأَنَّ الْمَوَاقِفَ الشَّرِيفَةَ - أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهَا - قَدْ فَوِّضَتْ إِلَى مَوْلَانَا كِفَالََةَ الْإِسْلَامِ وَبَيْنِهِ ، وَكِفَايَةَ الْمُلُوكِ بِصَالِحِ مُؤْمِنِيهِ ؛ وَنِيَابَةَ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ وَمَا نَسَقَتْ ، وَتَدْيِيرَ الْمَالِكِ وَمَا وَسَقَتْ ؛ فَيَالِهَا بُشْرَى آبَتْ سَمَتْ لَهَا ثَغُورُ الْبَشَرِ ، وَمَسْرَةٌ أَسْتَجَلِي سَنَاهَا مِنْ أَمْنٍ وَبُهْتٍ الَّذِي كَفَرُ ، وَخَبْرًا تَلَقَّتْ الْأَسْمَاعُ بِرَيْدِهِ مَنْشُدَةً : قُلْ وَأَعِدْ بِأَطْيَبِ الْخَبَرِ ؛ هُنَالِكَ أَخَذَ الْمَمْلُوكُ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ بُشْرَى ، وَنَصِيبِهِ مِنْ مَسْرَةٍ حُمِدَ بِصَبَاحِ طَرِسِهَا الْمَسْرَى ؛ وَحَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنْ أَقَامَ لِسُلْطَانِ الْبَسِيطَةِ مِنْ يَسْطُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ لِمَنَابِهِ ، وَيَقْلَدُ رَعِيَّتَهُ

عقود النعم إذا تقلد ما وراء سريره وبابه ، ومن إذا كفّل سيفه ممالك الإسلام وثقت بالمعنى والسلامة ، وإذا كتب قلمه قالت ولا سيّاً أخبار جند المسلمين : هكذا تكون العلامه ، وجهز المملوك هذه الخدمة نائبة عنه في تقبيل الأرض ، وعرض الهناء بين يدي من يسر المملوك بولائه اليوم ويرجو أن يسر به يوم العرض ، ولو وصف المملوك ما عنده من السرور والشوق لضاق الورق عن تسطير الواجب منه وضاق الوقت عن أداء الفرض ، والله تعالى يحدّد لمولانا ثمرات الفضل الواضح ، والرأى الراجح ، والقدر الذى هو على ميزان الكواكب راجح ، ويمتدنا كافة الممالك بدولة سلطانه الذى علم البيت الشريف أنّه على الحقيقة الخلف الصالح .

وهذه نسخة تهئية لأمر جاندار بولاية إمرة جاندار ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وهى بعد الألقاب :

أعلى الله منارها ومناها ، وخلّد قبولها وإقبالها ، وأجل من الغضّ الذى تناولته ثمرها وأسبغ به ظلالها ، ولا زال فى سيفها وعصاها مارب للملك ، وفى بأسها ونداها مواقع للنجاة والهلك ، ولا برحت القضب من سيوف وغصون : هذه حاكمة بسعدها حكم الملك ، وهذه مسخرة فى تجريدها تسخير الفلك ، تقبيل محاص فى ولائه ودعائه ، مهنّا القلب مسرور بما يتجدّد من مسرات مولانا وهنائيه ، وينهى أنه بلغه ما أفاضته الصدقات الشريفة على مولانا من المبرات ، وما جدت له من المسرات ، وأنها ضاعفت مزيد الإحسان إليه ، ودعته أمير جاندار ودّت العصى التجومية لو قدّمت نفسها بين يديه ، وأنّ المواقف الشريفة قرّت به عينا وأقرّت ، وأنّ الدولة القاهرة ألقت عصاها إليه واستقرّت ، وكما سلّمت إليه العصا فى السلم سلّمت إليه السيف فى الحرب ، وكما قرّبت به فى مواقف العدل والإحسان قرّبت به فى مواقف الطعن والضرب ، فأخذ المملوك حظّه من البشرى ، وأوجب على نفسه الفرح

وسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا ؛ وَوَدَّ لو حَضَرَ يُشَافِهِ بِهَذَا الْهَنَاءِ الشَّامِلِ ، وَمَثَلِ قَائِمًا لَدَيْهِ بِحَقِّ
التَّهْنِئَةِ الْقِيَامِ الْحَقِيقِيِّ الْكَامِلِ ؛ وَحَيْثُ بُعِدَتْ دَارُهُ ، وَنَأَتْ عَنِ الْعِيَانِ أَخْبَارُهُ ؛
فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى مُوَاسَلَتَهُ بِالْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَالْمُوَالَاتِ وَالْحُبَّةِ الَّتِي يُشْهَدُ
بِهَا الْخَاطِرُ الْكَرِيمُ سِرًّا وَجَهَارًا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يَزِيدَ مَوْلَانَا مِنْ فَضْلِهِ ،
وَيُسِّرَهُ بِمُتَجَدِّدَاتِ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِهِ ؛ وَيُمَتِّعَنَا كَافَّةً الْمَمَالِكِ بِدَوَامِ سُلْطَانِ هَذِهِ
الدَّوْلَةِ الَّتِي شَمِلَ بَظِلِّهَا ، وَغَنَى بِنَصْرِهَا عَنْ نَصْلِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصف الثالث - التهنية بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنية من ذلك ، أوردتها أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وهى :

وَهَذَا اللَّهُ الْأَمِيرَ مُوَافِقَهُ الْهَنِيَّةَ ، وَعَطَايَاهُ السَّوِيَّةَ ؛ وَأَدَامَ تَمْكِينَهُ وَقُدْرَتَهُ ، وَثَبَّتَ
وَطْأَتَهُ ، وَحَرَسَ مَاخُولَهُ ؛ وَجَعَلَ مَا هَيَّا لَهُ مِنْ مُؤْتَفَافِ الْكِرَامَةِ أَيْمَنَ الْأُمُورِ فَاتِحَةً
وَأَسْعَدَهَا عَاقِبَهُ ؛ وَوَصَلَ أَيَّامَهُ بِأَجْمَلِ الْوَلَايَةِ ، وَأَجَلَ الْكِفَايَةِ ؛ حَتَّى يَنْتَهَى [مِنْ]
أَسْتِيفَاءِ سَعَادَاتِ الْحُظُوظِ وَحُوزِ الْقِسَمِ وَالْآمَالِ ، [إِلَى] الدَّرَجَةِ الَّتِي تَلِيْقُ بِمَا أَفْرَدَهُ
اللَّهُ بِهِ مِنَ الْكَمَالِ ، وَخَصَّ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي جَمِيعِ الْخِصَالِ . وَمِنْ أَفْضَلِ مَا اعْتَدَّ بِهِ
مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْأَمِيرِ وَبِجَمِيلِ رَأْيِهِ ، وَحَلَّى مِنْ طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ أَيْ لَا أُخْلُو فِي كُلِّ
وَقْتٍ وَحَالٍ مِنْ بَهْجَةِ تَجَدُّدٍ لِي ، وَمُسَرَّةٍ تَصِلُ إِلَيَّ ، وَتَتَوَفَّرُ عَلَيَّ ، بِمَا يُسَهِّلُهُ الْأَمِيرُ
عَلَيَّ يَدِهِ مِنْ مُسْتَضْعَبِ الْأُمُورِ ، وَمُسْتَعْلَقِ الْخُطُوبِ ؛ الَّتِي تَبْعُدُ عَنِّي زَاوِلًا ،
وَيَجْعَلُ اللَّهُ بَطْوْلَهُ وَحَوْلَهُ لِلْأَمِيرِ الْقُدْرَةَ عَلَيْهَا ، وَيَتَوَحَّدُ بِالْكِفَايَةِ فِيهَا ؛ فَيَنْمُو بِجَمِيلِ
تَدْيِيرِهِ وَلَطِيفِ نَظَرِهِ ، وَيَطْرُدُ بِصَاعِدِ نَجْمِهِ وَيُمْنِ تَقَبُّلِهِ وَعِزِّ دَوْلَتِهِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ ، يُؤْتِي فَضْلَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الصنف الرابع - التهنية بولاية الحجابة .

وقد كان لها في الزمن القديم المحل الوافر في الدولة وعلو الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئة من إنشاء أبي الحسين بن سعد، كُتِبَ بها إلى أبي بكر بن ياقوت حين ولى الحجابة بعد نكبة أصابته ، وهى بعد الصدر :

وقد كانت أنفسنا معشر عبيد سيدنا وحمة إنعامه ، ومؤمل أيامه ، فى هذه الأحوال التى تقد سيدنا منها فيما ابتلاه صبره ، وأبان فيه قدره ؛ وزاد العارف بفضلته نفوذا فى البصيرة ، وأعاد ذوى الارتباب فيه إلى الثقة ؛ فاستوى المنازع والمسلم ، واستوى العالم والمُعاند - نعمة منه تعالى ذكره خصه بها وصانه عن مشاكلة النظير ، ومُراحة الأَكفاء - على سبيل من القلق والارتماض ، والسقوط والإخفاض ؛ جزعا من تلك الحال الغليظة ، وإشفاقا على تلك النفس النفيسة ؛ وخوفا على معالم البر والتقى ، وبقيّة العلم والحجاء ، وتاريخ الكرم والندى ؛ أن يدرس منارها ، وتطمس أنارها ؛ ولولا ما من الله به من الخلاص منها وما منح بكرمه فى عاقبتها ، لأوشكت أن تأتى عليها وتُجلبها عن مواقيت آجالها ؛ لكنه عظمت الآؤه ، وتقَدست أسماؤه ؛ أتى بالأمن والفرج ، بعد استيلاء الكرب والوجل ، وأنبتت أسباب الرجاء والأمل ؛ فعرف سيدنا موقع أخيرة فيما قضاه ، وميزّله الخبيث من الطيب ممن عاداه وتولّاه ؛ وجعل النعمة التى جدّدها له فيما رده أمير المؤمنين إلى تديره من أمر داره ومملكته ، وحراسة بيضة رعيته ، مشتركة النفع والفائدة ، مقسومة الخير والعائده ؛ بين كافة الأمة فيما عم من المعدل ، وشمل من المصلحة . ولاح من تباشير الخير ، وأمارات البركة ؛ فى استقامة أمور البلاد ، وصلاح أحوال العباد ؛ وأفرد الله سيدنا بحظ من

المَوْهَبَةِ وَفَآنِي فِيهِ عَلَى حُظُوظِ الْأَوْلِيَاءِ، وَزَادَنِي عَلَى سِهَامِ الشُّرَكَاءِ . وَأَنَا أَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ فِي إِسْعَادِ سَيِّدِنَا بِمَا جَدَّدَهُ لَهُ ، وَتَعْرِيفِهِ بِرَكَّةٍ مُفْتَتَحَةٍ وَيَمْنٍ خَاتِمَةٍ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي مُبْتَدَأِهِ ، وَالسَّلَامَةُ فِي عُقْبَاهُ ، وَتَبْلِيغِهِ مِنْ حَظٍّ مَأْمُولٍ ، وَخَيْرِ مَطْلُوبٍ ؛ وَحَالٍ عَلَيْهِ ، وَرُتْبَةٍ سَنِيَّةٍ ؛ أَفْضَلَ مَا بَلَغَ أَحَدًا أَخْتَصَّهُ بِفَضْلِهِ ، وَأَصْطَفَاهُ مِنْ خَلْقِهِ ، إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ . فَإِنْ رَأَى سَيِّدُنَا أَنْ يَتَطَوَّلَ بِإِجْرَاءِ عَبْدِهِ عَلَى كَرِيمِ عَادَتِهِ فِي تَشْرِيفِهِ بِمَكَاتِبَتِهِ ، وَتَصْرِيفِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، مُحَقِّقًا بِذَلِكَ أَمَلَهُ ، وَزَائِدًا فِي نِعَمِهِ عِنْدَهُ ، فَعَلَّ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

تهنئةٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ ، مِنْ إِنْشَاءِ عَلَى بْنِ خَلْفٍ أَوْ رَدِّهَا فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَهِيَ :
 إِنَّمَا يُهِنَّا بِالْوِلَايَةِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَاجِبِ الْجَلِيلِ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ - مَنْ
 أَنْبَسَطَتْ إِلَيْهَا يَدُهُ بَعْدَ أَنْقِبَاضٍ ، وَارْتَفَعَ لَهَا قَدْرُهُ مِنْ أَنْخِفَاضٍ ؛ وَأَوْجَدَتْهُ الطَّرِيقَ
 إِلَى إِحْرَازِ جَزِيلِ الْأَجْرِ وَالْجَزَاءِ ، وَآكْتَنَازِ جَمِيلِ الْبَرَكَةِ وَالْثَنَاءِ ؛ وَأَفْضَتْ بِهِ إِلَى
 أَسْوَاعِ السُّلْطَانِ ، وَأَنْتَفَاعِ الْأَعْوَانِ ؛ فَأَمَّا مَنْ جَعَلَ اللَّهُ يَدَهُ الطُّوْلَى ، وَقَدْرَهُ الْأَعْلَى ،
 وَرِيَاسَتَهُ حَاصِلَةً فِي نَفْسِهِ وَجَوْهَرَهُ ، وَسَيَادَتَهُ مُجْتَنَاءَةً مِنْ سِنِّهِ وَعُضْرَهُ ؛ فَلَاؤُلَى -
 إِذَا اسْتَكْفَى رَغْبَةً فِي إِنْصَافِهِ وَعَدْلِهِ ، وَحَاجَةً إِلَى سَدَادِهِ وَفَضْلِهِ ؛ وَأَفْتَقَرَا إِلَى
 فَضْلِ سِيرَتِهِ ، وَأَضْطَرَّارًا إِلَى فَاضِلِ سِيَاسَتِهِ - أَنْ تُهِنَّا الرِّعْيَةُ بَوْلَايَتِهِ ، وَتُسِّرَ الْخَاصَّةُ
 وَالْعَامَّةُ بِمَا عُدِّقَ مِنْ أُمُورِهَا بِكَفَايَتِهِ ؛ وَغَيْرِ بَدِيعٍ رِبْطِ^(١) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَاجِبِ
 الْجَلِيلِ أَمْرَ حِجَابَتِهِ ، وَنَصْبِهِ لِلزَّحْمَةِ^(٢) عَنْ حَضْرَتِهِ ، وَجَعْلِهِ الْوَسِيطَ وَالسَّفِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
 خَوَاصِّ دَوْلَتِهِ ، وَقَدْ وَثِقَ يَمِينِ نَقِيْبَتِهِ ، وَأَطْلَعَ عَلَى خُلُوصِ نِيَّتِهِ ، وَسَكَنَ إِلَى صِدْقِ
 طَاعَتِهِ ؛ وَعَرَفَ طَهَارَةَ جَبِيهِ ، وَسَلَامَةَ غَيْبِهِ ؛ وَصِدْقَ لَهْجَتِهِ ، وَحَصَافَةَ أَمَانَتِهِ ؛

(١) فِي الْأَصُولِ أَرْبَاطٌ وَلَمْ تَقَفْ عَلَى فِعْلِهِ فَيَا بَايَدِينَا مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ .

(٢) أَيْ الدَّفْعَ وَالذَّبَّ يُقَالُ زَحَمْتُهُ عَنْهُ أَيْ دَفَعْتُهُ أَنْظَرَ الْمَصْبَاحَ .

وَاعْتِمَادَهُ لِلْحَقِّ فِيمَا يُورِدُ وَيُضْذِرُ ، وَيُنْهِي وَيُجِيبُ ، وَابْتِلَاهُ فَعَرَفَ طِيبَ طَعْمَتِهِ ، وَخِفَةَ وَطْأَتِهِ ، وَرَأْفَتَهُ بِالضَّعِيفِ الْمَهْضُومِ ، وَغَاظَتَهُ عَلَى الْعُسُوفِ الظُّلُومِ ؛ [فَرَأَى] أَنْ يُجِلَّهُ مَحَلَّ مَنْ لَا يَغِيبُ عَمَّا شَهِدَهُ ، وَلَا يَرْتَابُ بِمَا سَمِعَهُ ، عَلَى أَنَّ الْمَهْنَأَ بِكُلِّ نِعْمَةٍ يَجِدُهَا اللَّهُ لَدَيْهِ ، وَسَعَادَةٍ يُسَبِّغُهَا عَلَيْهِ ؛ [وَلَوْ أَنْصَفْتُ] لَسَلَكْتُ مِنَ الصَّوَابِ سَنَاءً ، وَأَعْتَقَدْتُ جَمِيلًا حَسَنًا : لَا اسْتِشْعَارِي بِالْأَنْفَسِ مِنْ لَبُوسِ سِيَادَتِهِ ، وَتَحَلَّى بِالْأَنْصَعِ مِنْ عُقُودِ رِيَاسَتِهِ ؛ وَإِذَا كَانَتْ رِعْيَتُهُ أَجْدَرَ أَنْ تُهَنَّا بِوِلَايَتِهِ ، وَتَعْرِفَ قَدْرَ مَا لَهَا مِنَ الْحِظِّ فِي نَظَرِهِ ؛ فَأَنَا أَعْدِلُ مِنْ هُنَائِهِ إِلَى الدُّعَاءِ لَهُ بِأَنْ يَبَارِكَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِيمَا قَلَّدَهُ ، وَيُوقِّعَهُ فِيمَا وَلَّاهُ وَيُسَدِّدَهُ ؛ وَيُلْهِمَهُ أَدْخَالَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ ، وَآكْتَثَرَ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ ؛ وَالْهِدَايَةَ إِلَى سَنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ ، وَمَا عَادَ بِمَجْبَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ ؛ وَإِنْ هَاضَهُ فِي خِدْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْعَمَلِ مِنْ طَاعَتِهِ بِمَا يُزِلُّ فِي الدُّنْيَا وَالْدِينِ ؛ وَاللَّهُ يُسْتَجِيبُ فِي الْحَاجِبِ الْجَلِيلِ هَذَا الدُّعَاءَ وَيَسْمَعُهُ ، وَيَتَقَبَّلُهُ وَيَرْفَعُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصفحة الخامسة - التهنية بولاية القضاء .

التهنية بذلك من كلام الأقدمين :

تهنية من ذلك : من إنشاء علي بن خلف ، أوردتها في "مواد البيان" وهي :
أَوَّلُ الْمَنْحِ أَنْ يُتَفَاوَضَ شُكْرُهَا وَالتَّحَدُّثُ بِهَا ، وَيُتَقَارَضَ حُدُّهَا وَالْقِيَامُ بِوَاجِبِهَا ؛ نِعْمَةٌ شَمِلَتْ عِطَافُهَا ، وَعَمَّتْ أَطَافُهَا ؛ وَأَشْتَرَكَ النَّاسُ فِيهَا أَشْتَرَكَ الْعُومِمْ ، وَحَلَّتْ مِنْهُمْ فِي النِّعَمِ مَحَلَّ الْغَيْثِ السَّجُومِ . وَهَذِهِ صُورَةُ النِّعْمَةِ فِي وِلَايَةِ قَاضِي الْقَضَاةِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - لِمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَأَنْحِسَارِ الْجَوْرِ وَالْإِجْحَافِ ؛ وَأَعْتِلَاءِ الْحَقِّ وَظُهُورِهِ ، وَأَخْتِلَاءِ الْبَاطِلِ وَثُبُورِهِ ؛ وَعِزِّ الْمَظْلُومِ وَإِدْلَالِهِ ، وَذُلِّ الظُّلُومِ وَإِدْلَالِهِ ؛ وَتَمَكِينِ الْمَضْعُوفِ وَقُدْرَتِهِ ، وَأَنْحِزَالِ الْعُسُوفِ وَاقْتِسَارِهِ .

وإن هنأته حرس الله علاه بموهبة أتى بارقها بجمل الثناء ، وجزيل الجزاء ؛ قد ناء من تحملها بياض الشيء ومتعبه ، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضللت عن الطريقة المثلى ؛ لكنني أهنئه خصوصاً بالمواعظ المختصة به اختصاص أطواق الحسام بأعناقها - والمناقب المظيفة به إطفاء كواكب السماء بنطاقها ، في أن ألف الله القلوب المتباينة على الإقرار بفضله ، وجمع الأفتدة المتنافية على الاعتراف بقصور كل محل عن محله ، وجعل كل نعمة تسبغ عليه ، ومنة تسدي إليه ؛ موافقة الآمال والأمانى ، مفضية للبشائر والتهانى ؛ لأن من أحب الحق وآثره ، وليس الصدق وأستشعره ؛ ينطق بلسان الإرادة والاختيار ، ومن تركهما وقلاهما ، وخلعهما وألقاهما ، ينطق بلسان الافتقار والاضطرار - والخصائص التي هو فيها نسيج وحده ، وعطر يومه وغده - والمحاسن التي هي أناسي عيون الزمان ، ومصابيح أعيان الحسن والإحسان . ثم أعود فأهنئه عموماً بالنعم المشتركة الشمول ، الفضفاضة الذلول ؛ التي أقرت القضاء في نصابه ، وأعادت الحكم إلى وطنه بعد تجمعه وأغترابه ؛ وأعلتهما في الرتبة الفاضلة ، وقدعت بهما أنف الذروة العاليه . وأرفع يدي إلى الله تعالى داعياً في إمداد قاضي القضاة بتوفيق يسد مراميّه ، ويرشد مساعيّه ؛ ويهدب آراءه ويصححها ، ويبلغ أحكامه ويوضحها ؛ ويحلل عليه النعمة خلودها على الشاكرين ، ويصير بحسن العقبي في الدنيا والدين ؛ وهو سبحانه يتقبل ذلك ويرفعه ، إن شاء الله تعالى .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه "زهر الربيع في الترسل البديع" وهي :

(١) في الأصل ويفخمها وهي تصحيف لا يناسب المقام .

أَفْعَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَشَكَرَ إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ ؛ وَخَلَدَهُ نَاصِرًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ
وَأَدَامَهُ ، وَجَدَّدَ سَعْدَهُ وَأَسْعَدَ أَيَّامَهُ ؛ وَجَعَلَهُ الْمُسْتَرِشِدَ وَالْمُقْتَفَى بِأَمْرِ اللَّهِ وَالرَّاشِدَ
وَالْمُسْتَنْجِدَ وَالْمُسْتَنْصِرَ وَالنَّاصِرَ وَالْعَاضِدَ ، وَالْحَاكِمَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ (١)
مِنَ الْقَضَاةِ الثَّلَاثَةِ الْوَاحِدَ .

الْمَمْلُوكُ يَقْبَلُ الْيَدَ الْعَالِيَةَ تَبَرُّكًا بِتَقْبِيلِهَا ، وَأَدَاءً لَوَاجِبِ تَعْظِيمِهَا وَتَعْجِيلِهَا ؛ وَيَهْتَمُّ
الْمَوْلَى بِمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُضَاعَفَةِ نَفَازِ كَلِمَتِهِ وَرَفْعِ مَرْتَبِهِ ، وَإِمْضَاءِ أَحْكَامِهِ
الشَّرِيفَةِ وَأَفْضِيَّتِهِ ؛ وَتَقْلِيدِهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ ، وَتَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ فِي الْخَاصِّ وَالْعَامِ ؛ وَيَهْتَمُّ
بِالْمَوْلَى مَنْ رُدَّتْ أُمُورُهُ إِلَيْهِ ، وَعُوِّلَ فِي مِلَاحِظَةِ مَصَالِحِهِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ مَوْلَانَا مَازَالَ
بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَشْهُورًا ، وَسَعِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ سَعْيًا مُشْكُورًا ، وَيَقْظُهُ مَوْلَانَا
جَدِيرَةٌ بِزِيَادَةِ الْإِهْتِمَامِ ، وَالْإِحْتِيَاظِ التَّامِ ؛ بِمِلَاحِظَةِ طَلِبَةِ الْعِلْمِ وَالْمُسْتَغْلِلِينَ ، وَالْفُقَهَاءِ
وَالْمُدْرِسِينَ ؛ وَسَبْرِ أحوَالِ النَّوَابِ ، وَأَنْ لَا يَكْفِيَهُ الْإِعْتِدَادُ عَلَى حَسَنِ الْبِرَّةِ وَطَهَارَةِ
الْأَثْوَابِ ؛ بَلْ يَمَعُنُ فِي الْأَطْلَاعِ عَلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ النَّظَرَ ، وَيُلَاحِظُ كَلَامَهُمْ إِنْ غَابَ
عَنْ مَجْلِسِهِ أَوْ حَضَرَ ، فَمَنْ رَأَاهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا يَقْرَبُ
إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ مَالِ الْيَتِيمِ ؛ فَيَحَقِّقُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ أَمَلًا ، وَلَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا ؛ حَرَسَ اللَّهُ الْمَوْلَى وَمَتَّعَ بِحَيَاتِهِ ، وَأَعَادَ عَلَى الْكَافَّةِ بَرَكَةَ صِيَامِهِ الْمَقْبُولِ
وَصَلَاتِهِ ؛ وَنَفَعَ الْإِسْلَامَ بِمُسْتَجَابِ دَعَوَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصَّنْفُ السَّادِسُ — التَّهْنِئَةُ بِوِلَايَةِ الدَّعْوَةِ عَلَى مَذْهَبِ الشَّيْعَةِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَمْلُوكَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاتِمِيَّةِ ، بِالْأَمَارِ الْمِصْرِيَّةِ ،
ذِكْرُ مَوْضُوعِهَا وَعُلُوُّ رُتَبَتِهَا عِنْدَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا حِفْظًا لِلأَصْلِ وَلِإِحْتِمَالِ وَقُوعِهَا .

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ بِقَدْرِ كَلِمَةٍ وَلَعَلَّهُ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْقَضَاةِ الْخ .

تهنئةً من ذلك : من إنشاء على بن خلف ، أوردها في "مواد البيان" وهي :

أطال الله بقاء داعي الدعاة لصباح من الرحمة يُبَلِّغه ، وطريق من الحكمة يُظهِر
 بيانه ، وليل من السنة يَنَزِعَ طيلسانه ، وحرسه على الإيمان يُجَدِّدُ مَا خَلَقَ مِنْ بُرُودِهِ ،
 وَيُنَظِّمُ مَا وَهَى مِنْ عُقُودِهِ ؛ وعلى المؤمنين يَفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابَ الرَّشَادِ ، وَيُهَيِّمُ إِلَيْهِمْ سَمَاءَ
 الْإِفَادَةِ وَالْإِمْدَادِ . ولا زالت الحقائق مقصودةً منه بِالْمِيزَةِ الَّتِي رَسَّخَتْهُ لِحِفْظِ مَبَانِيهَا ،
 وَأَهْلَتْهُ لِلْعِبَارَةِ عَنْ مَعَانِيهَا ؛ حَتَّى يَرْقِيَهَا فِي الْأَخْلَادِ ، وَيَمَحُوَ بِهَا رُسُومَ الْعِنَادِ ، وَيُنْشُرُ
 بُسْرَهَا فِي الْأَفَاقِ وَالْبِلَادِ . أَنَا أَعِدُّ عَنْ هَذَا دَاعِي الدُّعَاةِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ -
 بِمَاعِدٍ بِهِ مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَةِ الْعَلَوِيَّةِ ، وَنُصِبَ لَهُ مِنْ فَرَصَاتِ الْمُسْكَاتِ
 عَنْ أَسْرَارِ الْحَقَائِقِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالتَّرْجُمَةِ عَنْ غَوَامِضِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ؛ وَالتَّوْقِيفِ عَلَى
 مَوَارِدِ الْهُدَى وَمَشَارِعِهِ ، وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَشَارِقِ الْحَقِّ وَمَطَالِعِهِ ؛ إِلَى هَذَا الدَّعْوَةِ
 وَأَهْلِهَا بِمَا قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنْ مَحَلَّةِ الرَّفِيعِ الَّذِي أَلْحَقَهُ الْعَقْلُ نَحْوَ هَذَا الْكَمَالِ ،
 وَوُطِّأَ لَهُ مَدَارِجُ التَّرْقِيِّ وَالْإِتِّصَالِ ؛ فَشَفَّتْ نَفْسُهُ وَشَرُفَتْ ، وَتَطَلَّعَتْ عَلَى عَالَمِ الْمَلَكُوتِ
 وَأَشْرَفَتْ ؛ وَجَنَى بَيْدَ التَّبَصُّرَةِ ثِمَارَ الْحِكْمَةِ ، وَأَسْتَنْزَلَ بِمَنْزِلِ الْمَوَادِّ غِيُوثَ النِّعْمَةِ ؛
 وَجَرَّدَ الضَّمَيَاءَ مِنَ الظَّلَامِ ، تَجَرَّدَ الْأَرْوَاحَ مِنَ الْأَجْسَامِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ ؛ وَأَسْتَمَدَ
 بِطَيْفَتِهِ مَوَائِدَ عُلُومِ عَالَمِ اللَّطَافَةِ ؛ وَأَمَدَّ بِمَرْكَبِ أَلْفَاظِهَا تَحَاكُمَ الْكَافَّةِ ، وَحَلَّ فِي الْغَبَاءِ
 مَحَلَّ الْغَرَاءِ فِي الْخَضْرَاءِ ، إِنْ أَوْضَحْتَ سَبِيلَ سَائِرٍ بِجَنْبِ طَرِيقِ جَائِرٍ تَوْصِلُ بِنَزْوَعِهَا
 غَاشِيَةَ الظَّلَامِ ، حُسِرَ عَنِ الْحَقِّ قِنَاعُ إِبْهَامٍ ، أَوْفَعَتْ^(١) فِي الْجَوَاهِرِ زِيَادَةُ وَثْمَةِ (؟)
 أَخَذَتْ تَعَادِيَا (؟) فَأَدْلَتْهُ لِلْهَمِّ الْعَامِلَةِ شَرْقًا وَشَمُوًا ؛ لَمَّا أَعْلَى بِذَلِكَ مِنْ قَدَرِهَا وَقَدَرِهِمْ ،
 وَطَيَّبَ مِنْ ذِكْرِهَا وَذِكْرِهِمْ ؛ وَأَعْطَفَ إِلَى الدَّعَاءِ لِدَاعِي الدُّعَاةِ بَأَن يَجْعَلَ اللَّهُ تَعَالَى

(١) كذا في الأصلين ولم نهند الى تنقيفه تأمل .

ماخُوْلَه من هذه الرِّياسَة رَاهِنًا لَا يُرْتَجَع ، وما نُؤَلَّه من هذه السِّيَادَةِ مُسْتَقَرًّا لَا يُنْتَرَع ؛
وَأَنْ يُؤَيِّدَ بِالتَّوْفِيقِ ، وَيُعَبِّدَ لَهُ مَنَاجِجَ التَّحْقِيقِ ؛ وَيُطْلِقَ لِسَانَهُ بِالْبَيَانِ ، وَيُمَدِّدَ بُرُوحَ
مَنِهِ فِي نُصْرَةِ الْإِيمَانِ ؛ وَقَدْ حَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِاجَابَةِ دَاعِيهِ ، وَلَا سِيَمَا دَاعِيَ الدُّعَاةِ
[فَإِنَّهُ] جَدِيرٌ بِأَنْ يُجَابَ الدُّعَاءُ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قال في " موادّ البيان " : وإنما أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ ، لأن ألفاظ
هذا الدّاعِي يجب أن تكون مُشْتَقَّة من ألفاظ الدّعوة ، مناسبة لمَذْهَبِهِ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ
لَأُغْنِيَ عَنْهُ مِثَالُ تَهْنِئَةِ قَاضِي الْقَضَاةِ ؛ وَمَنْ تَأَمَّلَهُمَا عَرَفَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْفَرْقَانِ .
الصنف السابع — التهنئة بالتقدمة على الرجال .

رُقْعَةٌ مِنْ ذَلِكَ :

[مِنْ حَلٍّ] مَحَلٌّ سِيدِي — أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ — مِنَ السُّؤْدَدِ النَّاطِقِ الشَّوَاهِدِ ،
الْمُنْتَظِمِ الْمَعَاقِدِ ؛ الْمُتَضَارِعِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ ، الْمُتَنَقِّلِ فِي الْوَلَدِ عَنِ الْوَالِدِ — وَالْمُجِدِّ الَّذِي
قَصَرَ عَنْ مُطَاوَلَتِهِ الطَّرَازُ الْأَوَّلُ ، وَتَطَاوَلَتْ لَهُ الْإِنْعَامُ الْحَوَالِ ؛ وَحَازَ مَاحَازَهُ مِنْ شَرَفِ
الرِّيَاسَةِ ، وَفَضْلِ السِّيَاسَةِ ، وَالْأَسْتِقْلَالِ بِحَقُوقِ مَا تَوَلَّاهُ ، وَتَسْدِيدِ مَا تَوَلَّاهُ ، وَاسْتِكْفَاهُ ؛
فَتَشَوَّقَتْ إِلَيْهِ أَعَالَى الرُّتَبِ ، وَتَشَوَّقَتْ إِلَيْهِ الْمَنَازِلُ السِّنِيَّةُ مِنْ كَثَبٍ — خُطْبَتُهُ الْعُلَا
سَائِقَةٌ عَنْهُ مَهْرَهَا ، وَتَطَامَنَتْ لَهُ مَوْطِنَةٌ ظَهَرَهَا ؛ فَلَمْ يَكْثُرْ لَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى [أَهْلِ]
عَصْرِهِ فَضْلًا عَنْ قَبِيلَتِهِ ، وَيَتَأَمَّرَ عَلَى جَمِيعِ نَوْعِهِ فَضْلًا عَنْ طَائِفَتِهِ : لِأَنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ عَلَيْهِمْ
بِالرُّتَبَةِ وَالطَّبْعِ ، لَا بِالْأَصْطِلَاحِ وَالْوَضْعِ ؛ فَشَكَرَ الْمَمْلُوكُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بُرُوعِ هِلَالِهِ
وَأِبْرَاقِهِ ، وَطُلُوعِهِ لِمَيْقَاتِ الْعِزِّ وَتَتَفَاقِهِ ؛ وَسَأَلَهُ أَنْ يُجْعَلَ مَا أَقْرَأَ الْعِيُونَ مِنْ سِيَادَتِهِ ،
وَحَقَّقَ الظُّنُونَ فِي سَعَادَتِهِ ؛ خَالِدًا رَاهِنًا ، وَمُقِيمًا قَاطِنًا ؛ وَأَنْ يَزِيدَهُ مِنَ السَّعَادَةِ ،
وَيُرْفِقَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي دَرَجِ السِّيَادَةِ : لِتَكُونَ هَذِهِ الرُّتَبَةُ عَلَى أَمْتِنَاعِ مَرْقَبِهَا ، وَأَرْتِفَاعِ

مركبها ؛ أول درجة تحطّأها ، ومنزلة فرعها وعلاها ؛ ثم لا يزال راقيا فيما يتلوها حتى
يحتذى بكواكب الجوزاء ، ويطحّودارة على الحلفاء ، مهنتا غير منقّص ، ومزيّدا غير
منقّص ؛ والله تعالى يجب هذه الأدعية الواقعة مواقعها ، والمستحقّات الموضوعّة
مواضعها .

الصنف الثامن - التهنئة بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

وَيُنْهَى أَنْ مِنْ حَلٍّ مَحَلٍّ مَوْلَانَا - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ رَافِلًا فِي بُيُوسِ السَّعَادَةِ ،
مَتَحَفَّلًا بِسُلُوسِ السِّيَادَةِ ؛ مَتَنَقَّلًا فِي رُتَبِ الْمَجْدِ ، مَتَوَقِّلًا إِلَى غَدِنِ الْحَدِّ ؛ مَسْتَوِيلًا
عَلَى شِعَابِ الْعُلَا ، مَتَمَكِّنًا مِنْ رِقَابِ الْأَعْدَاءِ - فِي الْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِضْطِلَاعِ ، وَالْمَعْرِفَةِ
بِحُقُوقِ الْإِصْطِفَاءِ وَالْإِصْطِنَاعِ ؛ وَرَفْعَةِ مَذْهَبِهِ عَلَى الْكِفَايَةِ وَالْغَنَاءِ ، وَالنَهْوِضِ بِثَقِيلِ
الْأَعْيَالِ ؛ خُطْبَتِهِ التَّصَرُّفَاتِ حَامِلَةً عَنْهُ صَدَاقُهَا ، وَتَشَوُّفَتِهِ الْوَلَايَاتُ مَادَّةً إِلَيْهِ أَعْنَاقُهَا ؛
وَقَدْ أَتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ مَا جَدَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سَعَادَتِهِ ، وَأَنْجَزَهُ مِنْ مَوَاعِيدِ سِيَادَتِهِ ، الَّتِي
كَانَتْ وَاضِحَةً فِي مَخَايِلِ فَضْلِهِ ، لَا تُحِثُّ فِي دَلَائِلِ نُبُلِهِ ، مَكْتُوبَةٌ فِي صَفَحَاتِ الْأَقْدَارِ ،
مَرْقُومَةٌ بِسَوَادِ اللَّيْلِ عَلَى بَيَاضِ النَّهَارِ ؛ فَحِذِلِ الْمَمْلُوكُ بِذَلِكَ ، جَذَلِ الْحَمِيمُ الْمُشَارِكُ ،
وَسُرَّ بِهِ سرورَ الْخَلِيطِ الْمُشَايِكِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي تَوَلَّاهُ مَوْلَانَا وَجَدَ [فِيهِ] خَلَا
فَرَقَعَهُ ، وَخُوِّلَا فَرَفَعَهُ ؛ بَلْ لِأَنَّ الْحَقَّ غَالِبَ الْحِظِّ فَعَلَبَهُ ، وَالْوَاجِبَ سَالِبَ الْمُحْكِنِ
فَسَلَبَهُ ؛ وَأَنَاخَ رِكَابَ الرِّيَاسَةِ فِي الْمَحَلِّ الْخَصْبِ الَّذِي يَجْمَدُهُ وَيَرْضِيهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَتَفَضَّلُ عَلَى رِعْيَتِهِ ، الْمُتَوَطِّئِينَ بِفَاضِلِ سِيَاسَتِهِ ، مِنْ حِبَائِهِ وَلُطْفِهِ ، وَرَأْفَتِهِ وَعَظْفِهِ ، بِمَا
يُسَيِّغُ عَلَيْهِمْ ظِلَالَ الْعَدْلِ ، وَيَقْلِّصُ عَنْهُمْ سُدُولَ الْجَوْرِ وَالْحَيْفِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وكتبتُ للقرّ البدرى محمود الكلستانى الشهير بالسراى مهنتاً له باستقراره
فى كتابة السّر الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية « برقوق » فى سلطته الأولى :

رَفَعْتَ لِلْجِدِّ مَدًى وَلَيْتَ بُنْيَانًا * وَشَدْتَ لِلْفَضْلِ بَعْدَ الْوَهْنِ أَرْكَانًا !

وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ فِي زَهْوٍ وَمَالِكُهُ * يَمِيسُ مُحِبًّا ، وَهَنَّا التَّخْتُ إِيوَانًا !

قَدِمْتَ مِصْرًا فَأَمَسْتَ مِنْكَ فِي فَرِهِ * تَهَزُّ بِالْبُشْرِ مَنْ لُقِيَاكَ أُرْدَانًا !

وَعُودِرَ النَّيْلُ مَدًى وَافَيْتَ مُبْتَهَجًا * وَقَدْ رَمَى الصَّدُّ وَالْإِبَاعُ جَيْحَانًا !

أَلْفَاظُكَ الْغُرُ صَارَتْ لِلرُّوَى مَثَلًا * وَكُتِبُكَ الزَّهْرُ بَعْدَ اللَّثْمِ تَيْجَانًا !

تَفُوقُ قُسًا إِذَا تَبَدُّو فِصَاحَتَهَا * وَتَفْضُحُ الْمِصْقَعَ الْمَلَّاقَ سَحْبَانًا !

قَدْ أَغْمَتُ فِي مَجَازَاتٍ بِلَاغَتَهَا * تُرَكَّا وَرُومًا وَبَعْدَ الْفُرْسِ عُربَانًا !

كُلُّ الْمَوَالِي إِذَا وَلَّوْا فَلَا أَسْفَ * إِذَا أَنْتَ بَاقٍ ، وَيُنْقِىَ اللَّهُ مَوْلَانَا !

مَوْلَى بِهِ قَدْ تَشَرَّفْنَا وَجَمَلْنَا * بَوَجْهِهِ ، وَلَذِكْرِ الْقَوْمِ أَنْسَانَا !

الصفحة التاسع - التهئة بولاية عمل .

أبو الفرج البغاء :

عرّف الله سيدى بركة هذا العملِ الجليل ، بنيلِ نظره الجميل ، وحميد أثره
المحروس ؛ وتناصّر سياسته الشريفة بِسِمَةِ رِياسَتِهِ ؛ ووفق رعيته لشكر ما وليها من
فائض عدله ومحمودِ فعله ؛ فالأعمالُ منه - أيدى الله تعالى - بالتهئة أولى ، وبالتطاول
بما شملها من بركات تدبيره أخرى ؛ والله بكرمه يسمع فيه صالح الدعاء ، ويبلغه أبلغ
مدد البقاء ، فى أسبغ نعمة ، وأرفع منزله ، وأصدق أمنيّة ، وأنجح طلبه ، بمنّه .

وله في مثله :

لولا ما يَشْرِكُ التَّهَانِيَّ من بركات الدعاء الذي أَرْجُو أَنْ يَسْمَعَ اللَّهُ فِيكَ صَلَاحَهُ ،
وَيُجِيبَ أَحْسَنَهُ ، لِأَجْلَلْنَاكَ عَنِ التَّهْنِئَةِ بِمُسْتَجِدِّ الْأَعْمَالِ ، وَمُسْتَحْدَثِ الْوِلَايَاتِ ،
لِقُصُورِهَا عَنْ اسْتِحْقَاقِكَ ، وَأَنْحَطَاتِهَا وَإِنْ جَلَّتْ عَنْ أَيْسَرِ وَاجِبَاتِكَ ، وَتَعَجَّلِهَا
بِأَثَرِ كِفَايَتِكَ ، وَبَرَكَاتِ نَظَرِكَ ، وَمَوَاقِعِ إِنْصَافِكَ . فَهَنَّاكَ اللَّهُ نِعْمَةَ الْفَضْلِ الَّتِي
الْوِلَايَةُ أَصْغَرُ آلَاتِهَا ، وَالرِّيَاسَةُ بَعْضُ صِفَاتِهَا ، وَلَا أَخْلَاكَ مِنْ مَوْهَبَةٍ مُجَدَّدَةٍ ،
وَمِنْحَةٍ مُؤَبَّدَةٍ .

وله في مثله :

سیدی - ایدہ اللہ - ارفع قدرًا ، وأنبئ ذِكرًا ، وأعظم نبلاً ، وأشهر فضلاً ، مِنْ
أَنْ تُهْنِئَهُ بِوِلَايَةٍ وَإِنْ جَلَّ خَطَرُهَا ، وَعَظُمَ قَدْرُهَا ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ تَهْنِئَةُ الْأَعْمَالِ بِفَائِضِ
عَدْلِهِ ، وَالرَّعِيَّةَ بِمَحْمُودِ فِعْلِهِ ، وَالْأَقَالِمَ بِأَثَرِ رِيَّاسَتِهِ ، وَالْوِلَايَاتِ بِسِمَاتِ سِيَاسَتِهِ ؛
فَعَرَفَهُ اللَّهُ يَمُنُّ مَا تَوَلَّاهُ ، وَرَعَاهُ فِي سَائِرِ مَا اسْتَرْعَاهُ ، وَلَا أَخْلَاهُ مِنَ التَّوْفِيقِ فِيمَا يُعَانِيهِ ،
وَالْتَسَدِيدِ فِيمَا يُبْرِمُهُ وَيُمِضِيهِ .

الإجابة عن التَّهَانِيِّ بِالْوِلَايَاتِ

قال في "مواد البيان" : هذه الكُتُبُ إِذَا وَرَدَتْ ، وَجِبَ عَلَى الْحَاجِبِ أَنْ يَسْتَنْبِطَ
مِنْ كُلِّ كِتَابٍ مِنْهَا الْمَعْنَى الَّتِي يُجِيبُ بِهَا . قَالَ : وَالطَّرِيقَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا أَنَّ كِتَابَ
الْحَاجِبِ يَجِبُ أَنْ يَبْنِيَ عَلَى أَنَّ الْمَهْنَى قَسِيمٌ فِي النِّعْمَةِ الْمُتَجَدَّدَةِ ، وَشَرِيكَ فِي الْمُنْزِلَةِ
الْمُسْتَحْدَثَةِ ، وَأَنَّ الْحِظَّ الْأَوْفَرَ فِيمَا نَالَهُ الْمَهْنَى لِلْمَهْنَى وَبِرَكَّةِ دُعَائِهِ ، وَتَوَقُّعِهِ لِمَا يَرِدُ

من حاجاته وتبعاته لينفّذها ، نازلا على أخلص مخالصته ، وعاملا بشروط مودّته ؛ ونحو هذا مما يضارعه . فإن كان الحبيب رئيسا أو مرءوسا ، وجب أن يرتّب الخطاب على ما تقتضيه رتبة كلّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردت المشرقة الكريمة ، أتم الله على مرسلها نعمته ، وأعلى قدره ومنزلته ؛ وجعل جناح العدا مخفوضا ، وعيشه في دعة وخفض ، وقدره للتمييز مرفوعا ، وعدوه للتقصير في آحطاط وخفض ؛ فتلقاها باليمين ، وظنها الريح الجنوب لما تجلّته من رقة الحنين ؛ وعلم ما أبداه فيها من تفضلاته ، وأعترف بالتقصير عن مجاراته ومجازاته ؛ فشنت سمعه بالفاظ كأنهن اللؤلؤ والمرجان ، وبيّنت البون الذي بينه وبين غيره تلك الفصاحة والبيان ؛ وقابل أياديّه بشكر لسانه ، وجازاه بحسن الدعاء عن إحسانه ؛ ولا يقوم بشكر فضله اللسان ولا الجثمان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ .

فأما ما أشار إليه من الهناء بالمكان الذي تولّاه ، وأبداه من المحبة التي اوجبت عليه أن يتوالاه ؛ فالله تعالى يعينه على ما هو بصددّه ، ويعمل الحق والخير جاريين على لسانه ويده ؛ ويرزقه أتباع محكم كتابه وسنة رسوله ؛ ويحصل له من الرشد غاية سؤله ومأموله ؛ فإن هذه الولاية صعبة المراس ، وجوادها كثير الشّماس ؛ لكن بركات المولى يحصل من الله الأرب ، ويسهل لأوليائه القصد والإسعاد والطلب ؛ أدام الله ظلّ المولى وأسعده ، وأوضح لديه طريق السعادة ومهده ؛ ومنحه من الألطاف الخفية أفضل ما عوده ؛ بمنه وكرمه .

الضرب الثاني

(التهنئة بكرامة السلطان وأجوبتها)

وفيه ثلاثة أصناف :

الصنف الاول - التهنئة بالإناعام والمزيد ولبس الخلع وغير ذلك .

من كلام الأقدمين :

وَيُنْهَى أَنَّهُ اتَّصَلَ بِالْمَلُوكِ مَا أَهَّلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ مَوْلَانَا لَهُ : من المحلِّ السَّيِّئِ ،
وَالْمَكَانِ الْعَلِيِّ ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ ، مَتَشَوِّفًا إِلَيْهِ ، نَافِرًا عَنْ كُلِّ خَاطِبٍ سِوَاهُ ،
جَاحِحًا عَلَى كُلِّ رَاكِبٍ إِلَّا إِيَّاهُ ؛ فَأَقْرَأَ اللَّهُ عَيْنَ الْمَلُوكِ بِذَلِكَ لِصِدْقِ ظَنِّهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ
مَا أَصَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْمُنْزِلَةِ الْمُتَنِيفَةِ ، وَالرُّتْبَةِ الشَّرِيفَةِ ؛ مَدْرَجَةً تُقْضَى
إِلَى مَدَارِجٍ ، وَمَعْرَجَةً تَنْتَهِي إِلَى مَعَارِجٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُ مَعَالِيَهُ عُلُوءًا ، وَيُضَاعِفُ
مَحَلَّهُ سُمُوءًا ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنه - وَيُنْهَى أَنَّهُ اتَّصَلَ بِالْمَلُوكِ نَبَأُ الْمَوْهَبَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ لَدَيْهِ ، وَالنِّعْمَةِ الْمُسْبِغَةِ
عَلَيْهِ ؛ وَمَا أَخْتَصَّ بِهِ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنَ الْأَصْطِفَاءِ وَالْإِيْثَارِ ، وَالْأَجْتِبَاءِ وَالْإِخْتِيَارِ ؛
وَتَقْدِيمِهِ لِلرُّتْبَةِ الْأَعْلَى ، وَالْإِنَافَةِ إِلَى الْمُنْزِلَةِ الْخَطِيرَةِ ؛ فَسَرَّ الْمَلُوكُ لِلرِّيَّاسَةِ إِذَا أَحْلَاهَا
اللَّهُ تَعَالَى فِي مَحَلِّهَا ، وَأَنْزَلَهَا عَلَى أَهْلِهَا ؛ وَوَصَلَهَا بِكُنْفِهَا وَكَافِيهَا ، وَسَلَّمْ قَوْسَهَا إِلَى رَامِيهَا ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ هَذِهِ الرُّتْبَةَ أَوَّلَ مِرْقَاةٍ مِنْ مَرَاقِي الْأَمَالِ ، وَمَكْبَرِ الرُّتَبِ الَّتِي يَقْرَعُهَا
مِنْ رُتَبِ الْجَلَالِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدام الله أنصاره، وجعل التقوى شعاره؛ وألبسه من المحامد أكرم حله، وتولاه من المكارم أحمد خله؛ ولا زالت الخلع تتشرف إذا أفيضت عليه، والمدائح تُستطاب بذكره لاسيما إذا أُنشئت بين يديه .

الخدامُ يُنهي إلى علم المولى أنه اتصل به خبر أهدى إليه سُرورا، ومنحه بهجة وجورا : وهو ما أنعم به المولى السلطانُ خلد الله سلطانه، وضاعف إحسانه : من تشریفه بخلعته ، وما أسبغه عليه من وارف ظله ووافر نعمته ، وأبداه من عنايته بالمولى ومحبتة ؛ وقد حصل له من المسرة ما أجذله ، وبسط في مضاعفة سعد المولى أمله ؛ فإنه بلغه أن هذه الخلعة كالرياض في نضارتها ، وحسن بهجتها ؛ وأنها كلما برقت برق لها البصر، وظنها لحسنها حديقة وقد حذق إليها النظر ؛ وقد جمعت ألوان الأزهار، وأرابت نائجها في اللطف على نسمة الأسحار ؛ وأسكنت حبها حبات القلوب التي في الصدور، وسمت عن المدح برائق المنظوم وفائق المنثور ؛ وأن ابن سليمان^(١) لو رآها، لاعترف بأن في لبسها لكل قبيح شرفا لاريب فيه، ونسب البيت المنسوب إليه إلى أعاديه ؛ وأنه لو نظر نظرة نضارها لما جعل لها في الحسن نظيرا، ولو ألقاها على وجهه لأرتد لوقت بصيرا ؛ فلذلك أصدر هذه الخدمة مهنية، ومغربة عما حصل له من الفرح ومنية ؛ ولجيد مدحه العاطل من مثل هذه الألفاظ محلي ؛ تولاه الله في كل يوم مسرة وبشرى، وأجرى له على الألسن حمدا وشكرا ؛ وجعله لكل خير أهلا، وشكره تفضلا شاملا وفضلا ؛ ومتعه من العافية بلباس لا يلى ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) مراده أبو العلاء المعري أحمد بن سليمان .

الصنف الثاني - التهئة برضا السلطان بعد غضبه .

من ذلك :

وتُنهى أنه أتصل بى ماجدده الله تعالى لمولاي - أطال الله بقاءه - من حسن عاطفة مولانا أمير المؤمنين - خلد الله ملكه - وأنعطافه عليه بعد أنصرافه به وإعادته إلى رتبته التي نشرت عنه دلالات لا ملالا، وهجرته هجر المستصلح المستعيب، لا هجر العالي المتجنب؛ وكيف تفلاه، وهي لا تجد لها كفوًا سواه؛ ولتوقع المملوك بما وقع من هذه الحال، وعلمه أن عودها إليه كعودة المودع [إلى مودعه]، لا عودة المتجع إلى مربعه؛ وأن الذي وقع من الانحراف إصلاح باديته تهذيب وتقويم، وخافيه توقيه وتعظيم؛ لما في عتاب أمير المؤمنين من شرف الرتبة، والدلالة على استقرار الأثرة والقربة؛ وحلوله محل الصقال، من أبيض النصال، والثفاف من العسال؛ ولا سيما رياسته محفوظة، وسيادته ملحوظة؛ وهيبته في النفوس ماثلة، وجلالته في القلوب حاصلة؛ ولم ير المملوك أجل موهبة من الله سبحانه من شكر يسترهن هذه النعمة ويحلدها، وحمد يرتبطها ويقيدها؛ ورغبت إلى الله سبحانه أن يجعل هذا العز الحادث لا يتحول، والسعد الطارف ما تكما لا يتنقل؛ إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك :

ويُنهى أن من عادة الزمان أن يكف صحابه ثم يكف، ويرف نبائه ثم يهين، ويدر حله ثم ينقطع، ويقبل خيره ثم يرتجع؛ إلا أنه إذا سلب النعمة من يستوجب إمرارها عليه، وانتزع الموهبة من يستحق استمرارها لديه؛

(١) لعل الواو زائدة ويكون متعلق باللام في قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كَانَ كَالْغَالِطِ الَّذِي يُرَاجِعُ نَفْسَهُ فَيَنْدِمُ عَلَى مَا فَرَطَ ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَدْرِكَ الْغَلَطَ ؛
مُعْقِبًا نَبَوْتَهُ بِإِنَانِيَّتِهِ ، مُتَعَقِّبًا هَفْوَتَهُ بِاسْتِفْآلَتِهِ ؛ مَاحِيًا إِسَاءَتَهُ بِرَأْبِ مَا نَلِمَ ، وَأَسْوِ مَا كَلَّمَ ؛
وإِصْلَاحَ مَا أَفْسَدَ ، وَتَأْلِيفَ مَا شَرَّدَ . فَلَا جَرَمَ أَنَّ النُّفُوسَ بِإِقْبَالِهِ عَلَى مَنْ هَذِهِ
صِفَتُهُ وَائِقُهُ ، وَالْأَمَالَ لِإِنْصِرَافِهِ إِلَى مَنْ هَذِهِ صَوْرَتُهُ مُتَحَقِّقَةً ؛ وَإِذَا سَلَبَهَا هَرَوَلُ
فِي إِيدَاعِهَا لَدَيْهِ ، وَأَخَذَ [فِي] إِفَاضَتِهَا عَلَيْهِ . وَمَا زَالَ الْمَمْلُوكُ - مُدَّ عَامِلَ الزَّمَانُ مُوَلَانَا
بِسُوءِ أَدَبِهِ ، وَنَأَى عَنْهُ بِجَانِيهِ ؛ وَقَبَضَ بِنَانِهِ ، وَغَيَّرَ عَلَيْهِ سُلْطَانَهُ - عَارِفًا أَنَّ هَذِهِ الْفَعْلَةَ
فَلْتَةٌ مِنْ فَلَاتِهِ الَّتِي يَتَوَقَّئُ شَرَّهَا ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَى مِثْلِهَا ؛ وَأَنَّ الْإِسْتِصْوَارَ ، يَقُودُهُ
إِلَى الْإِعْتِدَارِ ، وَالْإِضْطِرَّارِ ، يَحْدُوهُ عَلَى رَدِّ مَا أَنْتَرَعَهُ بِالْإِجْبَارِ : لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ يُجَلُّ
مَحَلَّ مُوَلَانَا فِي آرْتِبَاطِهِ بِإِنْسَانِهِ ، وَتَعْهُدِهِ بِسُقَى أَغْرَاسِهِ ؛ وَقِيَامِهِ بِشُكْرِهِ ، وَتَرْكِتِهِ بِبِرِّهِ -
مَتَوَقِّعًا لِأَن تَنْتَقِظَ عَيْنُهُ ، وَيَنْكَشِفَ رَيْثُهُ ؛ فَيَرَى مَا صَنَعَتْ يَدَاهُ ، وَيُبَادِرُ لِاسْتِقَالَةِ
مَاجِنَاهُ ؛ حَتَّى طَرَقَ الْبَشِيرُ بِمَا سَهَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنْحِسَارِ الْكُرْبَةِ ، وَعَوْدِ مُوَلَانَا إِلَى
شَرَفِ الرُّتْبَةِ ؛ وَصَلَاحِ مَا فَسَدَ ، وَعَوْدِ السُّلْطَانِ أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ إِلَى مَا عَهْدَ ؛ وَرُكُونِهِ
إِلَى حَضْرَتِهِ ، وَأَنْقِلَابِهِ عَنْهُ رَافِلًا فِي تَشْرِيفِهِ وَمَكْرَمَتِهِ ؛ فَكَانَ مَعْتَقِدُ الْمَمْلُوكِ فِيهِ هِلَالًا
فِي السَّرَارِ فَأَهْلًا ، وَجَنِينًا فِي الْحَشَا فَاسْتَهْلًا ؛ فَاسْتَوَى عَلَى الْمَمْلُوكِ مِنَ السُّرُورِ مَا عَمَّ
جَوَارِحَهُ ، وَعَمَرَ جَوَانِحَهُ ؛ وَأَطَارَ بِجَنَاحِ الْمَرْحِ ، وَالْبَسَ حُلَّةَ الْفَرَحِ ؛ إِذْ مَا جَدَّدَهُ
اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ يُحَلُّ بِهِ فِي الْعُمُومِ ، مَحَلَّ الْغَيْثِ السَّجُومِ ؛ لِأَنَّهُ حَرَسَ اللَّهُ
عِزَّهُ لَا يَسْتَأْثِرُ بِعَوَافِرِ اللَّهِ عِنْدَهُ ، وَلَا يُكْرَهُ عَلَى عَطَايَاهُ يَدَهُ ؛ بَلْ يَمْنَحُ مِمَّا مُنَحَ ؛
وَيُؤَلِّى مِمَّا تَوَلَّى ، وَلَا يَضُنُّ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ ، وَلَا يَقْعُدُ عَمَّنْ أَمَلَهُ وَرَجَاهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يَجْعَلُ ذَلِكَ مِمَّا أَقْرَبَهُ الْعُيُونُ ، وَصَدَّقَ فِيهِ الظُّنُونُ ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَهُ الْأَيَّامَ وَلَا تُبْلِيهِ ،
وَلَا تَزْوِيهِ الْحَوَادِثُ وَلَا تَوَثِّرُ فِيهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث — التهنية بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جَدَّدَ اللهُ سَعْدَهُ ، وَضَاعَفَ جَدَّهُ ؛ وَأَنْجَحَ قَصْدَهُ ، وَأَعَذَّبَ مِنْهَلَهُ وَوَرَدَهُ ؛ وَلَا أَنْفَكْتَ الْيَّامُ زَاهِيَةً بَقَائِهِ ، وَالْأَنْفُسَ مَسْرُورَةً بِأَرْتِقَائِهِ إِلَى رُتَبِ عِلْيَانِهِ . أَصْدَرَهَا تُفْصِحُ عَنْ شَوْقٍ يَعْجِزُ عَنْ سَوْفَةِ الْجَنَانِ ، وَيَقْصُرُ عَنْ طُولِهِ اللِّسَانِ ؛ وَسُرُورٍ تَزِيدُ حَتَّى أَبْكَاهُ ، وَلَا عَجَّ بِمَشَاهِدَةِ طَلْعَتِهِ السَّعِيدَةِ أَغْرَاهُ ؛ وَتُهْنِيهِ بِمَا جَدَّدَ اللهُ لَهُ بَعْدَ الْأَعْتِقَالِ مِنَ الْفَرَجِ وَالْفَرَحِ ، وَمَنْ بِهِ بَعْدَ ضَيْقِ الْخَوَاطِرِ مِنَ الْإِتْبَاهِاجِ وَالْمَرْحِ ؛ فَهَذِهِ الْمَسْرُورَةُ مَاءٌ زَلَالٌ بَرَدَ بِهَا الْأَوَّامُ ، وَإِنْعَامٌ عَامٌ ، حَمِدَ اللهُ عَلَيْهَا الْخَاصُّ وَالْعَامُّ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَوَّضَهُ عَنْ مَاتَمِّ الْحُزْنِ بِمَاتَمِّ مِنَ السُّرُورِ ، وَ[عَنِ] الْهَمِّ الْمَانِعِ عَنِ الْوُرُودِ وَالصُّدُورِ بِإِنْشِرَاحِ الصُّدُورِ ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ شَعَفَهَا حُبُّهُ وَشَغَفَهَا ، وَضَاعَفَ لَتَعْوِيقِهِ أَسَاهاً وَأَسْقَاهَا ؛ بِحَيْثُ أَتَرَى الْمَنَاطِقَ قَلَقٌ وَعَلَاها أَصْفِرَارٌ ، وَعُطِّلَتْ يَدُ كُلِّ غَانِيَةٍ مِنَ الْحُلِيِّ فَمَا ضَمَّهَا قُلُوبٌ وَلَا سِوَارٌ ؛ وَلَيْسَ الْخُطْبَاءُ حَزَنًا وَالْإِسْتِةَ الْحَايِرَ ، وَكَادَتْ لَغَيْبَتِهِ وَفَقْدَ اسْمِهِ تَنْدُبُهُ الْجَوَامِعُ وَتَبْكِيهِ الْمَنَابِرُ ؛ خَلَّدَ اللهُ سَعَادَتَهُ ، وَسَهَّلَ لَهُ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَصْدَهُ وَإِرَادَتَهُ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الأجوبة عن التهنية بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه

قال في "مواد البيان" : يجب أن تكون أجوبة هذه الرِّقَاعِ مُودَعَةً مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى الْمَهْنَى - لِمَحَافَظَتِهِ عَلَى رُسُومِ الْمَوَدَّةِ وَقِيَامِهِ بِشُرُوطِ الْخُلَّةِ - مَا تَقْتَضِيهِ رُتَبُهُ وَرُتَبَةُ الْحَبِيبِ ، وَأَنَّهُ مُشَارِكٌ لَهُ فِي مُتَجَدِّدِ النِّعْمَةِ ، مُفَاوِضٌ فِي حَدِيثِ الْمَسْرَّةِ ؛ وَالتَّيَمُّنُ بِالْإِعْدَاءِ ، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا يَحْسُنُ مَوْقِعُهُ عِنْدَ الْمُبْتَدِئِ بِالْهِنَاءِ ؛ وَيَضَعُهُ بِحَيْثُ وَضَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْإِخْتِصَاصِ بِمَنْ كَاتَبَهُ .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخلة :

أدام الله علاءه ، وشكر آلاءه ، وضاعف سناءه ؛ وحيد منه التي أثقلت لكل
مُعْتَفٍ ظهراً وخففت همّاً ، وأنالت لكل ولي نصيباً من عوارفها وقسماً . المملوك
يُنْهِى إلى العلم الكريم ورود المكتبة التي كسنتها يده حلة جمال ، وألبستها ثوب
إفضال ؛ وأعدتها بكرمها ، وحسنت وجهها بلسان قلبها ؛ فأمطرته سحب جود
أربى على السحاب الهتون ، وأوقفته منها على ألفاظ كأمثال اللؤلؤ المكنون ؛ فأجتنى
ثمّار الفضائل من أغصانها ، وأجتنى عروس محاسنها وإحسانها ؛ وفهم ما أشار إليه
من التهنئة بالخلة التي أنعم المولى بها على خادمه وتصدق ، وحقّق الأمل في مكارمه
وصدّق ، وإنعامه خلّد الله دولته ، وأعزّ نصرته ، قد كثر حتى أنجمه ، وميزه على
كثير من ممالك بيته العالی وفضله ؛ وأناله من المنزلة ما سماها على أمثاله ، ورقى بها
بعد رقة حاله ؛ فالثّ يخلّد سلطانه ، ويثبت بالسعادة أركانه ؛ وهذا بسعادة مولانا
ومساعدته ، ومعاونته ومعاضدته : فإنه كان السبب في الاتّصال ببابه أولاً وآخراً ،
ومن أغاثه بذلك وأعاناه عليه باطناً وظاهراً .

وكل خير توخّاني الزّمان به * فانت باعشه لي او مسبيه

الضرب الثالث

(من التهانى التهئة بالعود من الحج)

وهذه نسخ من ذلك يُنسخ على منوالها .

فمن ذلك :

ويُنهى أنه طرَقَ المملوكَ البشيرُ بعودِ مولانا - أطال الله بقاءه - من مقامِ
 الطائفين ، إلى مقامِ المعتفين ؛ وأوتيه من كعبةِ الإحرام ، إلى كعبةِ الإكرام ؛
 وتنقله من موقفِ الحجاج ، إلى موقفِ المحتاج ؛ وحلّوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذوى
 الآمال ، ومحطُ الرّحال ؛ بالسّعى المشكور ، والحجّ المبرور ؛ والنسك المقبول ،
 والأجر المكتوب ؛ فحمدتُ الله تعالى على موهبته ، وسألته زيادته من مكرمته ؛
 وأسْتَنْجَحْتُ هذه المكتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهدته ، وأرجوه من الاستسعاد
 بملاحظته ؛ وبردَ أوارِ الشوقِ بمحاضرتِهِ ، ومجددًا عهودَ التّيمّنِ بمبايسته ؛ فإنّ أقتضى
 رأيه العالى أن يُعرّفَ المملوكَ جملةً من خبره فى بدّنه وعوده ؛ ومنقلبه ومتوجّهه ؛
 وما تفضّلَ الله تعالى به من أمانِ سبيله ، وهدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وعثاءِ سفره ،
 وتسهيلِ وطّره : لِأَسْكُنَ إلى ذلك إلى حينِ التّمثّلِ بنظّره ، فله الفضلُ فى ذلك .
 والله تعالى يبلّغه سؤله ، ويوصله مراده ومأمّوله ؛ بمنه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنهى أنّ مولانا لا يزال حاجًّا إلى كعبةِ الحرم ، أو كعبةِ الكرم ؛ وطائفًا بشعائرِ
 الوُفود ، أو بشعائرِ الجُود ؛ وواقفًا بموقفِ الاستفتاح ، أو موقفِ السّماح ؛ وناحرَ
 البدنِ مِنّى ، أو نائرَ البدرِ للّلى ؛ فلا يرتفع فى حالٍ من الأحوالِ يرّه ، ولا ينقطعُ عن الله

تعالى ذكُّره ؛ وَمَنْ كَانَ بِهِذِهِ الْمَثَابَةُ ، فِي إِحْرَازِ الْأَجْرِ وَالْإِنَابَةِ ؛ فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ تَعْمَرَ
بِالْتَّهَنَةِ أَوْقَاتُهُ وَأَزْمَانُهُ ، كَمَا عَمَّرَهَا سَعْيُهُ وَإِحْسَانُهُ ؛ وَقَدْ عَرَفَ الْمَمْلُوكُ أَنْكَفَاءَهُ
- أَدَامَ اللَّهُ عَلْوَهُ - عَنْ مَقَامِ الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ ، إِلَى مَقَامِ الْقَاصِدِينَ وَالْمُعْتَفِينَ ،
وَعُودَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الْمَعْمُورِ ، بَعْدَ قَضَائِهِ فَرِيضَةَ السَّعْيِ الْمَشْكُورِ ؛ فَعَدَلْتُ فِي مَخَاطَبَتِهِ
عَنِ الْهِنَاءِ إِلَى الدَّعَاءِ بِأَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ تَعَالَى نُسْكَهَ وَيَثْقَلَ مِيزَانُهُ ، وَيُطْلَقَ فِي حَلْبَةِ
الْخَيْرَاتِ عَنَانُهُ ؛ وَيُجَنِّهَ لِأَجْرِ يُخْرِزُهُ ، وَثَوَابٍ يَكْتَرُهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُجِيبُ ذَلِكَ فِيهِ ،
وَيُرِيهِ فِي نَفْسِهِ وَأَحِبَّتَهُ مَا يَرْضِيهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ :

وَتُنْهِى أَنَّهُ قَدْ طَرَقَنِي الْبَشِيرُ بِأَنْكَفَاءِ مَوْلَانَا إِلَى مَقَرِّ عِلَّائِهِ ، وَأَنْفِصَالِهِ عَنْ مَلَاذِ
النُّسَاكِ وَالْعِبَادِ ، إِلَى مَعَاذِ الزُّوَارِ وَالْقُصَادِ ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّ ذَلِكَ النِّسِيمَ الْعَلِيلَ مِنْ تِلْقَائِهِ ،
وَذَلِكَ النُّورَ الصَّادِعَ مِنْ آلَائِهِ ؛ وَذَلِكَ الْأَقْتِرَارَ مِنْ أَسْرَتِهِ وَخَيَالِهِ ، وَتِلْكَ الْعُدُوبَةَ
مِنْ شِمِّهِ وَشِمَائِلِهِ ؛ فَكَادَ الْمَمْلُوكُ يَطِيرُ - لَوْ طَارَ قَبْلِي غَيْرُ ذِي مَطَارٍ - فَرَحًا ، وَأَخْرَقُ
الْأَرْضَ وَأَبْلُغُ الْجِبَالَ لَوْ أُمِكنَ ذَلِكَ مَرَحًا ؛ وَأَنْفَتَحَ قَلْبِي حَتَّى كَادَتْ مَهْجَتُهُ تَقْضُضُ
سُرُورًا ، وَطَاشَ حِلْمِي حَتَّى تَفَرَّقَ مَجْمُوعُهُ بِهَجَّةٍ وَجُورًا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ نِعْمَةَ
مَوْصُولَةِ الْحَبْلِ ، مَجْمُوعَةَ الشَّمْلِ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

أَبُو الْفَرَجِ الْبَيْهَقِيُّ :

جَعَلَ اللَّهُ سَعْيَكَ مَشْكُورًا ، وَحُجَّتَكَ مَبْرُورًا ؛ وَنُسْكَكَ مَقْبُولًا ، وَأَجْرَكَ مَكْتُوبًا ؛
وَأَجَزَلَ مِنَ الْمُثُوبَةِ جَزَاءَكَ ، وَمِنْ عَاجِلِ الْأَجْرِ وَآجِلِهِ عَطَاءَكَ ؛ وَفَرَنَ بِالطَّاعَاتِ عَزَمَاتِكَ ،
وَبِالسَّعْيِ إِلَى الْخَيْرِ نَهَضَاتِكَ ؛ وَوَفَّقَكَ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَزَكَاةِ الْأَفْعَالِ ، لِمَا يَجْمَعُ
كُلَّ خَيْرِ الدَّارَيْنِ . وَلَمَّا طَرَقَنِي الْبَشَارَةُ بِقُدُومِكَ ، بَدَأْتُ بِإِهْدَاءِ الدَّعَاءِ ، وَتَجْدِيدِ

الشكر لله تعالى والثناء ؛ وأستبنت في ذلك المكاتبه ، أمام ما أنا [عازم] عليه : من المشافهة والمخاطبة ؛ ولن أتاخر عن حظي من المسير إليك للتيمن بالنظر إلى غرَّتكَ ، ومداداة ما عانيتهُ من ألم الشوق بمشاهدتك .

الضرب الرابع

(من التهانى ، التهنته بالقدوم من السفر)

من كلام المتقدمين :

على بن خلف :

ويُنهى أَنَّهُ اتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ خَبْرٌ تَوَجَّهَ إِلَى الناحية الفلانية ، فعرفَ المملوك أَنَّهُ قَصَدَهَا لِيُخَصَّ قَاطِنُهَا ، بنصيبٍ من مَوَاهِبِهِ ؛ وَفِيضَ عَلَى سَاكِنِهَا ، سِجَالًا مِنْ رَغَائِبِهِ ؛ وَيَسْوَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ رَاشَهُ بِجَبَائِهِ ، وَجَبَرَهُ بِنَوَافِلِهِ وَأَلَانِهِ ؛ فَسَأَلَتْ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُطِيلَ عُمرَ الْمَسْكَرِمِ بِإِطَالَةِ بَقَائِهِ ، وَيَجْعَلَ شَمْلَ السُّودَدِ بِدَوَامِ عِلَاقَتِهِ ؛ ثُمَّ اتَّصَلَ بِى عَوْدُهُ إِلَى مَقَرِّهِ ، خَفِيفَ الْحَقَائِبِ مِنْ وَفَرِهِ ، ثَقِيلَهَا مِنْ شَتَائِهِ وَشُكْرِهِ ؛ فَعَمِدَ الْمَمْلُوكُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِسْفَارِ سَفَرِهِ عَنْ بُلُوغِ الْأَوْطَارِ ، وَأَنْخَسَارِ أَمْنِيَّتِهِ عَنْ أَذْيَالِ الْمَسَارِ ؛ وَمَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ السَّيْرِ الشَّحِيحِ ، وَالسَّعْيِ النَّجِيجِ ؛ وَالسَّلَامَةِ الْمَفْرَقَةِ عَلَى الْوَجْهِةِ وَالْمُنْقَلَبِ ، وَالْمَفْتَحِ وَالْمَعْتَقَبِ ؛ وَلَمَّا عَرَضَ لِلْمَمْلُوكِ مَاقَطَعُهُ عَنْ مُشَافَهَتِهِ بِالْدَعَاءِ ، رَفَعَ يَدَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ضَارِعًا لَدَيْهِ أَنْ يَتَوَلَّاهُ فِي هَذَا الْمَقْدَمِ الْمِسْمُونِ ، بِالسَّعْدِ الْمَضْمُونِ ؛ وَإِنَالَةِ الْأَمَانِ الْمَقَرَّةِ لِلْعُيُونِ ؛ وَأَنْ يَمْنَحَهُ فِي الْحِلِّ وَالْتِرْحَالِ ، وَالْقَطْنِ وَالْإِتِّقَالِ ، تَوْفِيقًا يَقَارِنُ وَيُصَاحِبُ ، وَيُسَايِرُ وَيُوَاكِبُ ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ مَا خَوَّلَهُ مِنْ نِعْمَةٍ رَاهِنًا خَالِدًا ، وَمَا أَوْلَاهُ مِنْ مَوَاهِبِهِ بَادِيًا عَائِدًا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) فى الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا على 'فعل لا على' فعل .

وله أيضا :

وَيُنْهَى أَنَّهُ طَلَعَ عَلَيْهِ الْبَشِيرُ ، طُلُوعَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ ؛ مُؤْذِنًا بِمَقْدَمِ حَضْرَتِهِ ، وَمُعَلِّمًا
بِظُهُورِ طَلْعَتِهِ ؛ وَحُلُولِهِ فِي مَعَانِهِ الذِّي هُوَ مَعَانِ الْإِقْبَالِ ، وَعَوْنِ الرِّجَالِ ؛ وَقِرَارُهُ
الْأَقْيَالِ ، وَمَحْطُّ الرِّجَالِ ؛ وَقَبْلَةُ الْجُودِ ، وَمُعَرِّسُ الْوُفُودِ ؛ فَسَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُقَيِّمَهُ
جَمَالًا لِلْأَيَّامِ ، وَثِمَالًا لِلْأَنَامِ ؛ وَعِمَادًا لِلْقُصَادِ ، وَمَرَادًا لِلرُّوَادِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُخْلِيهِ
فِي تَصَرُّفَاتِهِ ، وَجَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَّاتِهِ ؛ مِنْ سَعْيٍ سَعِيدٍ ، وَعَيْشٍ رَغِيدٍ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .
أَبُو الْفَرَجِ الْبَغَّاءُ :

مَنْ كَانَتْ غَيْبَةُ الْمَكَارِمِ مَقْرُونَةً بِغَيْبَتِهِ ، وَأَوْبَةُ النِّعَمِ مَوْصُولَةً بِأَوْبَتِهِ ؛ سَافَرَتْ
الْأَنْفُسُ حَيْثُ كَانَ إِلَيْهِ ، وَقَدِمَتِ الْآمَالُ عِنْدَ قُدُومِهِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا زَالَتِ الْأَنْفُسُ
إِلَى الْأُمْنِيَّةِ بِقُرْبِهِ مَطْلَعُهُ ، وَلَوُرُودُ السُّرُورِ بِوُرُودِهِ مَتَوَقِّعُهُ ؛ إِلَى أَنْ أُنْسَتْ بَعْدَ
الْوَحْشَةِ بِإِلْقَائِهِ ، وَتَنَسَّمتُ أَرْجَ مَنْهَ وَنَعْمَائِهِ ؛ فَوَصَلَ اللَّهُ قُدُومَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ، بِأَضْعَافِ
مَا قَرَنَ بِهِ مَسِيرَهُ مِنَ السَّلَامَةِ ؛ بِحُرُوسٍ مِنْ طَوَارِقِ الْغَيْرِ ، مَبْلَغًا أَبْعَدَ الْعُمُرِ .
وله في مثله :

مَنْ كَانَتْ مَادَّةُ سُرُورِهِ ، بِمَغْيِيهِ وَحُضُورِهِ ؛ لَمْ يَجِدْ مَعَ بُعْدِكَ مُؤْنِسًا يَسْكُنُ إِلَيْهِ ،
وَلَا عَوَظًا يَعُولُ فِي السَّلَوةِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا زَلَّتْ أَيَّامَ غَيْبَتِكَ - لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْكَ -
بِالْوَحْدَةِ مَسْتَأْنِسًا ، وَبِالشَّوْقِ إِلَيْكَ مُجَالِسًا ؛ الْأَقِيكَ بِالْفِكْرِ ، وَأَشَاهِدُكَ بِاتِّصَالِ الذِّكْرِ ؛
إِلَى أَنْ مِنْ اللَّهِ مِنْ أَوْبَتِكَ بِمَا عَظُمَتْ بِهِ النِّعْمَةُ ، وَجَلَّتْ لَدَيَّ مَعَهُ الْمَوْهَبَةُ ؛
فَوَصَلَ اللَّهُ بِالسَّلَامَةِ نَهْضَاتِكَ ، وَبِالسَّعَادَةِ حَرَكَاتِكَ ، وَبِالتَّوْفِيقِ آرَاءَكَ وَعَزَمَاتِكَ ؛
وَحَرَسَنِي بِبَقَائِكَ وَبِقَاءِ النِّعْمَةِ عِنْدَكَ ، وَهَنَانِي النِّعْمَةَ الْجَلِيلَةَ بِقُرْبِكَ .

وله في مثله :

مَنْ كُنْتَ نِهَايَةً أَمْنِيَّتِهِ ، وَقُطِبَ مَسَرَّتُهُ ؛ كَانَ مِنْ نَفْسِهِ مُسْتَوْحِشًا مَعَ بُعْدِكَ ،
وَبَدْهِرِهِ مُسْتَأْنَسًا مَعَ قُرْبِكَ ؛ وَمَا زِلْتُ مَعَكَ بِالنِّيَّةِ مُسَافِرًا ، وَبِالشَّوْقِ سَافِرًا ؛
وَبِالْفِكْرِ مُلَاقِيًا ، وَبِالْأُمَانِيِّ مُنَاجِيًا ؛ إِلَى أَنْ جَمَعَ اللَّهُ شِمْلَ سُورِي بِأَوْتِكَ ،
وَسَكَنَ نَافِرَ قَلْبِي بِعَوْدَتِكَ ؛ عَلَى الْحَالِ السَّارَةِ مِنْ كَمَالِ السَّلَامَةِ ، وَوُفُورِ الْكُلْفَةِ ؛
فَأَسْعَدَكَ اللَّهُ بِمَقْدَمِكَ سَعَادَةً تَكُونُ بِهَا مِنَ الزَّمَانِ مُحْرُوسًا ، وَلِلْإِقْبَالِ مُقَابِلًا ،
وَبِالْأُمَانِيِّ ظَافِرًا ؛ وَلَا أَوْحِشُ اللَّهَ مِنْكَ أَوْطَانَ الْفَضْلِ ، وَعَضَّدُ إِخْوَانَكَ بِبَقَائِكَ
وَبَقَاءِ النِّعْمَةِ عِنْدَكَ .

وله في مثله :

لَوْ كَانَ الْقَلْبُ يَجِدُ عَنْكَ مُنْصَرَفًا ، أَوْ يَرَى مِنْكَ فِي آكِنَسَابِ الْمَسَرَّةِ خَلْفًا ؛
لَا سْتَرَحَ إِلَيْهِ مِنْ أَلَمِ بُعْدِكَ ، وَاسْتَنْجَدَهُ عَلَى مَرَارَةِ فِرَاقِكَ ؛ لَكِنَّكَ أَيْدَكَ اللَّهُ جَمْلَةً
مَسَرَّتَهُ ، وَنِهَايَةَ أَمْنِيَّتِهِ ، فَلَيْسَ نَتَوَجَّهْ أَمَانِيَّهُ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا تَقِفْ أَمَالُهُ إِلَّا عَلَيْكَ ؛
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْرَبَ بَقِيَّتَكَ أَعْيَنَ إِخْوَانِكَ وَأَوْدَّكَ ؛ وَافَاكَ اللَّهُ مِنَ السَّعَادَةِ فِي أَوْتِكَ
أَضْعَافَ مَا أَكْتَنَفَكَ مِنَ الْكِفَايَةِ فِي ظَنِّكَ .

ابن أبي الخصال :

سَرَّ اللَّهُ مَوْلَايَ وَرَأَيْسِي ، وَرَبَّ تَشْرِيفِي وَأَنْيَسِي ؛ بِلِقَاءِ الْأَحْبَابِ ، وَاتِّصَالِ
الْأَسْبَابِ ، وَأَوْبَةِ الْغِيَابِ ؛ وَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تَتَصَنَّعُ لِإِقْبَالِهِ ، وَتُقْبَلُهُ أَوَجُهُ الْعِزِّ
فِي أَقْبَالِهِ ؛ وَتُوفِيهِ عَلَى رَغْمِ الْحَاسِدِ حَقَّ جَلَالِهِ .

البُشَيْرِيُّ - أَدَامَ اللَّهُ أَعْتَازَهُ - بِمَقْدَمِ الْوَزِيرِ فُلَانٍ قَدْ أَوْضَعْتَ رِكَابَهَا ، وَاتَّصَلَ
بِالنَّفُوسِ أَعْلَاقُهَا وَأَسْبَابُهَا ؛ فَهَيِّئْنَا مَعَشَرَ الْأَوْلِيَاءِ بِسُبُوغِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْمِنْحَةِ

الجزيلة ؛ ولا أستوفى شكر ما به أتى مُعَظَّم قَدْرِهِ ، ومَلْتَرِمُ رِبهْ ؛ من ثناء كَعْرِفِ الطيب
يَهْدِي ، ومَذْهَبُ في الإنهاض لا يُقْضَى واجِبُهُ ولا يُوَدَّى ؛ ولا زالت حياة مولاي
تُفَدَّى ، وأفعال ربه تتعدى ؛ وقد لَمْتُ مواقع أنامله وُدًّا ، ووردت من محاسن بيانه
منهلاً عَذْباً [ووردا] فامتغى الله بحياته العزيزة الأيام ، الطيبة الإمام ، الموصولة
العهد والذمام ؛ وأقرأ على سيدي من سلامي ما يلئم يده ، ويقضى حق اليراع [الذي]
أنشأ به البر وولده ، والسلام المعاد عليه وعلى جنته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نباتة عن نائب الشام إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله
كاتب السر الشريف ، بالأبواب الشريفة بالديار المصرية ، عند عودته من الكرك
إلى الديار المصرية ، في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، مهنتاً له بعوده إلى منزله
بالديار المصرية ، وأستقراره وعوده إلى كتابة السر الشريف بالأبواب الشريفة
السلطانية ، وهي :

تَقَبَّلَ الباسطة الشريفة - إلى آثر الألقاب - لازالت خاضراً الحمد على فضل بنائها
معقوده ، وماثر البأس والكرم لها ومنها شاهدة ومشهوده ، وبواتر السيوف مسيرة
القصد إلى مناظرة أقلامها المقصوده ؛ تقبلاً يود لو شافه بشفاهه مَورِدَ الجود من
الأنامل ، وكأثر بغيره عند المثل للثقل تغور الأمائل ؛ فكان يُشافُهُ بِسَوْفِهِ مَورِداً
كثير الزحام ، وكان يُكَاثِرُ بِعَدْقِهِ عَلَى يد الفضل عقوداً جزيلة الانتظام ، وكان
يُجَاكِمُ جَوْرَ الضيم إلى مَنْ أبى الله لِحَارِ مشاهدته أَنْ يُضَامَ . ويُنْهَى ما وصل إليه
وإلى الأولياء من السرور ، وما رُفِعَ بينهم وبين الإبتهاج من الشُّرُور ، وما طُوِّلَ
في أخبار المصرة من السُّطُور ؛ بوصول مولانا وَمَنْ معه إلى مساكن العزساكين ،
ودُخُولِهِمْ كُدُخُولِ يوسف عليه السلام وَمَنْ معه إلى مِصْرَ آمين ؛ وأستقراره

في أشرف مكان ومكانه، واستنصار مصر بأفلامه على العادة فإن هذه سهام وهذه
كانه؛ وإسفار غمام السفرة عن كوكب علا طاماً حرس يمينه أفق الملك وهده
وزانه؛ وما كانت إلا غيبة أحمد الله عفاها، وغاية بعد من الله عز وجل وجلاها؛
وفرة ثنى الله فترتها فتنفس خناق المنصب المشتاق لوجهه الكريم، وهجرة صرف الله
هجيرها فسقى طرس الإنشاء الذي أبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم؛ وما محاسن
مولانا إلا زينة من زين الدنيا فليها يتشاكس المتشاكسون، وما مزاج كلماته إلا
من تسنيم ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

فالحمد لله على أن أقر العيون بمعاودة ظلّه الوريث، وعلى أن شفى الصدور
بقربه وأولها وأولها صدر السر الشريف؛ وعلى أن أجزل الهناء وقد شمل ظلّه،
وقد كمل بابن الفضل فضله؛ وقد بهر سنأوه وسنأه، وقد تسعّب القريب والبعيد
فإن أجدى على مصر مورده فقد جادت على الشام سماء . وقد أخذ المملوك حظّه من
هذه البشري، ووالى السجود لله شكراً؛ وجهاز خدمته هذه نائبة عنه في تقبيل بنان
إن سمّاه مولى الكرم بحرا، فقد سمّاه مربى الملك برأ؛ لازالت الممالك متحفة يمين
مولانا طاعناً ومقيماً، متصفاً بحمده وحيد سلفه الكريم حديثاً وقديماً؛ تالية على مهمات
الملة بضجة بيته الشريف ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في تهنئة بقدم من سفر :

أدام الله ظلّه، ورفع محله، وشكر إنعامه وفضله؛ وأعز أنصاره، وضاعف
أقناده؛ ولا زال مؤيداً في حركاته، مسدداً في سائر فعلاته؛ مصحوباً بالسلامة
في المهامه والفقر، مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار .

المملوك يُنهي بعد تقبيل الأرض ، والقيام بما يجب من سُنة والفرض ؛ علمه
 بحلول ركابه العالی بمغناه ، واستقرار خاطره الشريف في محله ومثواه ؛ وجمع السَّمَل
 بالأهل بعد طول الغيبة ، وبعد القُقول والأَوْبه ؛ فتضاعف لذلك فرحه وسُروره ،
 وزال عن قلبه قليل الهم وكثيره ؛ فإله يمنح المولى أطيّب المنازل ، وأسرّ الرّاحل ؛
 ويجعل تجارة مجده راحه ، وأوامر دوام عزه لائحته ، حتّى تُشيد نفسه الكريمة
 قول أبي الطيّب :

أنا من جميع الناس أطيّب منزلاً * وأسرّ راحلةً وأزجّ متجراً !
 لازالت الأعين قريّة برؤيته ، وقلوب الإخوان قازّة بمشاهدته ؛ والأوجه وسيمة ،
 والنعم الظاعنة مُقيمه ؛ إن شاء الله تعالى .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال في "موادّ البيان" : أجوبة هذه الرّقاع ينبغي أن تُبنى على الاعتراف للهنيئ
 بحقّ تعهده ، وكرم تفقّده ، وإطلاعه على الحال في السّفر ، وما أفضت إليه من
 السلامة ، والتأسّف على ما تقضى من الأيام في مُباعدته ، والتخلّف عن مُبايسته ؛
 وأنه لم يزل يدّرع الإدلاج ، ويقطع الفجاج ؛ رغبة في القدوم إليه ، والوفادة عليه ؛
 وبَلّ الغلة برؤيته ، وترويح النفس بمحاضرتة ؛ وما يليق بهذا التّمتّ من الكلام .

الضرب الخامس

(من التهنئة بالشهور والمواسم والأعياد)

وهي على ثمانية أصناف :

الصنف الأول - التهنئة بأول العام وغرة السنة .

من كلام المتقدمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبي مسلم محمد بن بحر :

أسعد الله سيدي بعامه ، والفضل منه وما حوى من الأعياد والأيام الخطيرة
وسائر شهوره وأيامه ، ومتصرف أحواله ، وبما يأتي ويكرُّ عليه من زمانه ؛ سعادة
تسوق إليه حظوظ الدين والدنيا كامله ، وتجمع له فوائد الأمدين تامة وإفيه ؛
وترتبنُ إليه النعم فلا تزال لديه زائدة ناميه ؛ وبلغه بها الأمل ، ومد له في البقاء
إلى أنفس المهل .

ولأبي الحسين بن سعد :

عظم الله على مولاي بركة الشهر والسنة المتجددين ، وهب له فيهما وفيما يتلوها
من أيام عمره ، وأزمان دهره ، سعادة تجمع له أشات الحُظوظ ، وتصل لديه مواد
المزيد ، وتيسر له بلوغ الأمل في كل ما يطالع ويُنازع ، والأمن من كل ما يُراقب
ويُحاذر .

وله في مثله :

عظم الله على سيدي بركة الشهر والسنة ، وأعاشه لأمانها مدة اختلاف الجديدين ،
وتجاوز الفرقدين ؛ ممتعا بالنعم السابغة ، والمواهب المتردفة ؛ والسعادة والغبطة ،
والعز والمسرّة .

وله في معناه :

جَدَّدَ اللهُ لِسَيِّدِي فِي الْأَيَّامِ الْحَاضِرَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الرَّاهِنَةِ وَالْمُنْتَقِلَةِ ؛
حُظُوظًا مِنَ السَّعَادَاتِ ، وَأَقْسَامًا مِنَ الْخَيْرَاتِ ؛ لَا يُحْصَى عَدْدُهَا ، وَلَا يَنْقَضِي
مَدَدُهَا .

وله في مثله :

عَظَّمَ اللهُ [عَلَى مَوْلَايَ] بَرَكَةَ الشَّهْرِ وَالسَّنَةِ الْمُتَجَدِّدِينَ عَلَيْهِ ، وَعَرَّفَهُ فِيهِمَا
وَفِي الْأَيَّامِ بَعْدَهُمَا مِنْ حَادِثٍ صُنِعَ ، وَلَطِيفٍ كِفَايَتِهِ ؛ مَا تَدُومُ فِيهِ السَّعَادَةُ ،
وَتَعْظُمُ بِهِ الْمِنَّةُ ، وَتَحْسُنُ فِيهِ الْعَاقِبَةُ .

وله في مثله :

عَظَّمَ اللهُ عَلَى مَوْلَايَ بَرَكَةَ هَذَا الشَّهْرِ : الْمَاضِي [مِنْ] أَيَّامِهِ وَبَاقِيهَا ، وَهَذِهِ
السَّنَةَ ، وَجَعَلَهَا أَيْمَنَ سَنَةٍ حَالَتْ عَلَيْهِ وَأَسْعَدَهَا .
وَمِنْهُ : وَيُنْهِى أَنَّ الْمَمْلُوكَ يُهْنَى غُرَّةَ الْأَيَّامِ ، بِغُرَّةِ الْأَنَامِ ؛ وَصَدَرَ الْعَامَ ، بِصَدْرِ
الْكَرَامِ ؛ بَلْ يَهْنَى الزَّمَنُ كُلَّهُ نَعَمَ وَأَهْلُهُ بِالْحَضْرَةِ الَّتِي وَاسَتْ الْمَعَالِي .

الصَّنِيفُ الثَّانِي - التَّهْنِئَةُ بِشَهْرِ رَمَضَانَ .

من كلام المتقدمين :

لَأَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ سَعْدٍ :

جَمَعَ اللهُ لِمَوْلَايَ فِي هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ شُرُوطَ آمَالِهِ وَأَحْكَامَ أَمَالِيهِ ، فِي حَاضِرِ
أَمْرِهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَعَاجِلِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ؛ وَأَبْقَاهُ لِأَمْنَالِهِ بَقَاءً لَا يَتَنَاهَى أَمْدُهُ ، فِي ظِلِّ
عَيْشِ رِضَاهُ وَيَحْمَدُهُ .

وله في مثله :

عرّف الله سيدي بركة هذا الشهر الشريف وأعاشه لأمثاله ، ما كرّ الجديدان ،
وآختلف العَصْران ؛ ممتعا بسوايغ النعم ، محروسا من حوادث الغير ، وموقفا في شهره ،
وأزمان دهره ؛ لأزكى الأعمال ، وأرضى الأحوال ؛ ومقبولا منه ما يؤدّيه من فرضه ،
ويتنقل به قربة إلى ربه .

وله في مثله :

عرّفه الله بركة إهلاله ، وأبقاه طويلا لأمثاله ؛ موقفا فيه من عمل الخير ،
ومراعاة الحق ، وتأدية الفرض ؛ والتنقل بالبر ، لما يرضيه ، ويستحق جزيل المثوبة
عليه ؛ ممتعا بعده بسنى المواهب ، وجسيم الفوائد ؛ مع اتصال مئة العمر ، واجتماع
أمنيات الأمل .

وله في مثله :

عرّف الله مولانا بركة هذا الشهر الشريف وأيامه ، وأعانك على صيامه وقيامه ؛
ووصل لك ما يزيد من فضله وإنعامه ؛ وتابع لك المزيد من منأحه وأنعامه ؛ وختم
لك بالسعادة العظمى بعد الانتقال [في الجاه والرياسة إلى] أبعد المدى ؛ وفي العز
والثروة إلى أقصى المنى .

أبو الفرج البغاء :

جعل الله ما أظله من هذا الصيام مقرونا بأفضل قبول ، مؤذنا بإدراك البغية ونجح
المأمول ؛ ووفقه فيه وفي سائر أيامه ، ومستأنف شهوره وأعوامه ؛ لأشرف الأعمال
وأفضلها ، وأزكى الأفعال وأكملها ؛ ولا أخلاه من ررفوع ، ودعاء مسموع ؛
وسعى مشكور ، وأمر مبرور ؛ إلى أن يقطع في أجل غبطة وأتم مسرة أمثاله .

وله في مثله :

عَرَّفَكَ اللهُ بركةَ هذا الشهر المعظمِ قَدْرَهُ ، المَشْرِفِ ذِكْرُهُ ، ووَفَّقَكَ فِيهِ لِصَالِحِ
الأَعْمَالِ ، وَزَكَّى الْأَفْعَالِ ، وَقَابَلَ بِالْقَبُولِ صِيَامَكَ ، وَبَتَعْظِيمِ الْمُثُوبَةِ تَهَجُّدَكَ وَقِيَامَكَ ،
وَلَا أَخْلَاكَ فِي سَائِرِ مَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الشُّهُورِ ، وَيَلِيهِ مِنَ الْأَزْمِنَةِ وَالذُّهُورِ ؛ مِنْ أَجْرِ
تَذَنُّرِهِ ، وَأَثَرِ تَشْكُرِهِ .

قلت : ومما كتبتُ به تهنئةً بالصوم للقرن الأشرافِ الناصريِّ محمد بن البارزى
كاتب السرِّ الشريف المؤيدى بالممالك الإسلامية ، في سنة ستِّ عشرة وثمانمائة نظماً :

أَيَا كَاتِبَ السَّرِّ الشَّرِيفِ وَمَنْ بِهِ * تَمَيَّسُ نَوَاحِي مِصْرَتَيْهَا مَعَ الشَّامِ !
وَمَنْ جَلَّتِ الْجُلَى كَتَابُ كُتُبِهِ ، * وَمَنْ نَابَ عَنْ وَقْعِ السُّيُوفِ بِأَقْلَامِ !
تَهَنِّ بِهَذَا الصَّوْمِ وَالْعِيدِ بَعْدَهُ ، * وَمِنْ بَعْدِهِ بِالْعِيدِ وَالْعَامِ فَالْعَامِ !
وَتَرُقِّ رُقَى الشَّمْسِ فِي أَوْجِ سَعْدِهَا * وَتَبْقَى بَقَاءَ الدَّهْرِ فِي فَيْضِ إِنْعَامِ !

الصنف الثالث — ما يصلح تهنئةً لكلِّ شهرٍ من سائر الشُّهُورِ .

لأبى الحسين بن سعد :

عَظَّمَ اللهُ بركةَ إِهْلَالِهِ ، وَأَعَاشَهُ لِأَمْثَالِهِ ، أَطْوَلَ الْمُدَّةِ ، مَتَمَعًا بِأَدْوَمِ النِّعْمَةِ ، وَمَشْفَعًا (؟)
بِأَفْضَلِ الْأَمَلِ وَالْأُمْنِيَّةِ .

وله : أسعد الله سيدي بأنصرامه وإهلال ما بعده ، وأبقاه ما بقى الزمان ممتعا
بالعزِّ والنَّعمه ، محروساً من الآفات المخوفة ، والحوادث المخدوره .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى سَيِّدِي بركةَ الْمَاضِيِ وَالْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ [وَالْأَعْوَامِ]
وَالذُّهُورِ ، وَوَصَلَ لَهُ السَّعَادَةَ بِاتِّصَالِهَا ، وَجَدَّدَ لَهُ النِّعْمَةَ بِتَجَدُّدِهَا .

وله : عَظَّمَ اللهُ بَرَكَهَ أَنْسِلَاحِهِ ، وإِهْلَالِ مَايَتْلُوهُ ، مُجَدِّدًا لَكَ بِتَجَدُّدِهِ فَوَائِدِ الْخَيْرَاتِ ، وَأَقْسَامَ الْبَرَكَاتِ ؛ تَدْوُمُ فِيهَا الْمُدَّةُ ، وَتَطَوُّلُ بِهَا النِّعْمَةُ .

وله : أَسْعَدَكَ اللهُ بِإِهْلَالِهِ ، وَأَعَاشَكَ أَبَدًا لِأَمَثَالِهِ ؛ مُمْتَعًا بِدَوَامِ الْعِزِّ وَالنِّعْمَةِ ، وَاجْتِمَاعِ أَسْبَابِ الرِّخَاءِ وَشُرُوطِ الْمَحَبَّةِ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

[وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى مَوْلَايَ بَرَكَاتِ هَذَا الشَّهْرِ وَمَايَتْلُوهُ ، وَبَلَّغَهُ مَايُحَاجُّهُ وَيَخُوضُهُ ؛ فِي مُسْتَأْنِفِ الشُّهُورِ ، وَمُؤْتَتَفِ الدُّهُورِ ؛ مُضَاعَفًا لَهُ الْعِزُّ وَالتَّائِيدُ ، وَمَوْصُولًا لَهُ أَصْلُ النِّعْمَةِ بِجُسْنِ الْمَزِيدِ ^(١)] .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى مَوْلَايَ بَرَكَهَ الشَّهْرِ ، وَأَدَامَ لَهُ سَلَامَةَ الدَّهْرِ ؛ مَوْفُورًا مِنَ الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ ، غَيْرَ مُدْعُورٍ بِنَوَائِبِ الزَّمَانِ .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى سَيِّدِي بَرَكَهَ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ ، وَالسَّنِينَ وَالْأَحْقَابِ ؛ وَجَمَعَ لَهُ الْمَوَاقِبَ كَامِلَةً ، وَالْفَوَائِدَ فَاضِلَةً ؛ دِينًا وَدُنْيَا ، وَحَاضِرَةً وَعُقْبَى .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَيْكَ بَرَكَتَهُ ، وَعَرَّفَكَ يُمْنَهُ وَسَعَادَتَهُ ؛ وَجَدَّدَ لَكَ الْخَيْرَاتِ ، بِتَجَدُّدِ الْأَوْقَاتِ وَالسَّاعَاتِ ؛ حَتَّى تَحُوزَ مِنْهَا أَسْنَى الْحُطُوظِ وَتَبْلُغَ مَا تَمَنَّاهُ أَقْصَى الْغَايَاتِ .

الصنف الرابع - التهئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدمين :

لأبي الحسين بن سعد :

عَظَّمَ اللهُ عَلَى سَيِّدِي بَرَكَهَ هَذَا الْعِيدِ ، وَأَعَاشَهُ لِأَمَثَالِهِ ؛ مِنَ الْأَعْيَادِ الْمَشْهُودَةِ ، وَالْأَيَّامِ الْجَدِيدَةِ ، [فِي] أَهْنًا عِيشَ وَأَرْغَدَهُ ، وَأَطْوَلَ مَدَى وَأَبْعَدَهُ .

(١) الزيادة في بعض النسخ .

أبو الفرج البغواء :

أسعدك الله بهذا الفطر الجديد ، والعيد السعيد ؛ ووصل أيامك بعده بأكمل
السعادات ، وأجمل البركات ؛ وجعل ما أسلفته من الدعاء مقبولا مسموعا ،
ومن التهجد زائجا مرفوعا ؛ ولا أخلاك من نعمة يحرس الشكر مدتها ، ولا يخلق
الدهر جدتها .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

المولى أدام الله نعمه ، وحرس شيمه ، هو سيد الأفاضل ، ورئيس الأمائل ؛
وحسنة الزمان ، وليث الأقران ؛ وهو في الأنام ، كالأعياد في الأيام ، فإن الأنام ليل
والمولى المصباح بل الصباح ، وسائر الأيام أجساد وسائر الأعياد هي الأرواح ؛ فإذا
كان المولى قد زهى على أبناء جنسه ، ويوم العيد على غده وأمسه ؛ فقد صار كل
منكما إلى صاحبه يتقرب ، ويلزم ويلزب ، وهو أحق الناس بأن يهجه مقدمه ، وأن
ينهى بيومه الذى هو مجمع السرور وموسمه .

والخادم ينهى المولى بهذا العيد ، واليوم السعيد ؛ فإنه وافى فى أوإن الربيع وزمانه ،
ليباهى بغضن قد أغصان بانه ؛ ويستنشق فى صدره وورده ، رائحة ريحانه وورده ؛
ويختال فى رياضه وحدائقه ، ويلاحظ بهجة أزهاره وشقائقه ؛ والعيد والربيع ضيفان
ومكارم المولى جديرة بإكرام الضيف ، والتمتع بالملاذف فيما قبل رحيلهما وقُدوم حر
الصيف ؛ وأن يحسن وجه عيده ، بحلولة فى مغناه ووجوده ؛ بما يوليه لعفاته من
إنعامه وجوده ؛ لازالت الأعياد تهنى ببقائه ، وألسنة الأيام تشكر سوانح نعمائه ؛
وتحمد جزيل عطائه ، وتنطق بولائه وثنائه ، أبدا ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : ومما كتبتُ به مهتًا للقرّ الأشرف الناصريّ محمد بن البارزي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالملك الإسلامية في الدولة المؤيدية «شيخ» بعيد الفطر نظامًا ، بعد أن سألتُه حاجةً فقضاها ، وأسنى لي الجائزة على تثرٍ كتبتُه له .

سألتُ نظامَ الملكِ كاتبَ سرِّه * إزالةَ ضنكِ أرهفِ الدهرِ حده !
فمنَّ بجاهٍ زعزعَ الأرضَ وقعه ، * وجادَ بمالٍ لا يرى الفقرُ بعده .
وبالبارزيّ أزدانَ وصفِ مكارمِ * فأشبهَ في فضلِ أباهِ وجده !
فيهذه صومٌ ثمَّ عيدُ مسرةٍ * وطالعُ إقبالٍ يقارنُ سعدَه !
ورفعُ دعاءٍ لا يغيبُ تائبًا ، * وطيبُ ثناءٍ خامرَ المسكُ نده !

الصف الخامس - التهئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابي والنحر — نحر الله أعداءَ مولاى وحُسادَ نعمته ، وأمتعَه بمواهبه عنده ،
وبارك له في أعياده ومتجدد أيامه ، بركةً تنظم السعادات ، وتضمّن الخيرات ،
متصلةً غير منقطعة ، وراهنه غير فانية .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

تهنّ فأيامُ السرورِ أو اهلٍ * وكلُّ محوٍ عن جنائك راحل !
وتجك من فوقِ الكواكب طالع ، * ونجمُ أمرئٍ يشنا سُمُوكِ آفل !

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي عَمَّ جُودُهُ : * فَدَتَكَ الْعَوَالِي وَالْحِيَادُ الصَّوَاهِلُ !
تَمَتَّعْ بِعِيدِ النَّحْرِ ، وَافَاكَ خَاضِعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَنْتَ آمِلُ !
وَدُمَّ كَلِمَتِ الْأَعْدَاءِ وَأَبْقِ مُحَمَّدًا * عَلَى الْمَالِ عَا ، بِالرَّيَّةِ عَادِلُ !
لَقَدْ رَاقَ مَدْحِي فِي مَعَالِيكَ مِثْلَ مَا * صَفَتْ مِنْكَ أَوْصَافُ وَرَقَتِ شَمَائِلُ !

جعلهُ الله أربك الأعياد وأسعدها ، وأيمن الأيام وأمجدها ، وأجمل الأوقات وألذها
وأزغدها ، ولا يرح مسرورا مستبشرا ، منصورا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ،
معانًا بملائكة السماء معضودا ، مهنًا بالسعود الجديده ، والجود السعيدة ، والقوة
والناصر ، والعمر الطويل الوافر :

ولا زالت الأعياد لئسك بعده * [فتخلع^(١) محروقًا وتُعطي مجدًا ،
فذا اليوم في الأيام مثلك في الوري * كما كنت فيهم أوحداً كان أوحداً !

وأعاده على المولى في صحبة دائمة ، وسلامة ملازمة ، وأصار عيده مطيعا لأوامره
كسائر العييد ، وعييده في كل يوم من المسرة ببقائه لها كالعيد ، والأيام به ضاحكة
المباسم ، والأعوام جميلة المواسم ، ومتعنا بدوام حياته ، وأستجلاء جميل صفاته ،
وأستجلاء مدائحہ بإنشاد عفاته ، وأراه نحر أعاديہ ، بين يديه كأضاحيه ، وأصار الحج
إلى بابه غافراً سيئات الإفلاس والإعدام ، ومبيحاً لئس الخيط من إنعامه العام ،
ألبسهُ الله من السعادة أجمل حُلّه ، ومنحه من المكارم أحسن خلّه .

الصنف السادس — التهنة بعيد الغدير من أعياد الشيعة :

وكان لهم به اهتمام في الدولة الفاطمية بالديار المصرية . والطريق في التهنة به
على نحو غيره من الأعياد .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ما يصلح تهنئة لكل عيد .

أبو الفرج البغاء :

لولا العادة المشهورة ، والسنة الماثورة ، بالإفاضة في الدعاء ، والمشاهدة بالتهنئة
والثناء ، في مثل هذا اليوم الشريف قدره ، الرفيع ذكره ؛ لكان أيده الله دون رؤساء
الدهر ، وملوك العصر يحل عن التهنئة : إذ كانت سائر أيامه بما يودعها من أفعال
الخير معظمه ، وبما يبتئها من المحاسن مكرمه ، فبلغه الله أمثاله محروسا في نفسه
ونعمته ، محفوظا في سلطانه ودولته ؛ موفيا على أبعاد أمانيه ، مدركا غايتها فيما يؤمله
ويرتجيه .

وله في مثله :

عرفك الله بمن هذا العيد وبركته ، وضاعف لك إقباله وسعادته ؛ وأحياك لأمثاله
في أسبغ النعم وأكملها ، وأفسح المدد وأطولها ؛ وأشرف الرتب وأرفعها ، وأعز
المنازل وأيقعها ؛ وحرس منحتك من المحدثور ، ووقى نعمتك من عثرات الدهور .

الصنف السابع - التهنئة بالنبيروز .

وهو من أجل أعياد الفرس ، على ما تقدم ذكره في الكلام على أعياد الأمم ،
في المقالة الأولى . وكان للكتاب به اهتمام في أوائل الدولة العباسية بالعراق ، جريا
على ما كان عليه الفرس من قديم الزمان .

وفيه لأبي الحسين بن سعد :

هذا يوم شرفته العجم ، ورعى ذمامه الكرم ؛ وهو من أسلاف سيدي دوى
النباهة ، وأخلافه دوى الطهارة ؛ بين منشيئ رسمه ، ومؤدى حقه ؛ وكاس له بقبول

أَنْتَسَاهِ إِلَيْهِ جَمَالًا يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ ، وَحَالًا يَنْفَقُ بِهَا لَدَى الْأَنْامِ ؛ فَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ
بِالْتِهَانَةِ [بِهِ] مِنْ سَنَةِ آبَائِهِ ، وَشَيْدَتِهِ الْأَوْهْ ؛ فَصَارَتْ إِلَى أَوْلَيْتِهِ نِسْبَتُهُ ، وَبِكْرَمِ
سَيِّدَتِهِ عِصْمَتُهُ .

وفيه له : هَذَا - أَيْدِ اللَّهِ سَيِّدِي - يَوْمَ عَظَمَهُ السَّافَ مِنَ الْعَجَمِ ، وَسَيِّدِي
وَارِثُ سُنَّةِ الْكَرَمِ ؛ وَلِلْسَادَةِ عَلَى الْعَيْدِ فِي هَذَا الْيَوْمِ رَسْمٌ فِي الْإِلَاطَافِ ، وَعَلَيْهَا لَهُمْ
حَقٌّ فِي الْقَبُولِ وَالْإِسْعَافِ ؛ وَقَدْ بَعَثْتُ بِمَا حَضَرَ جَارِيًّا عَلَى سُنَّةِ الْخِدْمَةِ ، وَعَادِلًا
عَنْ طَرِيقِ الْحِشْمَةِ ؛ وَمَقْتَصِرًا عَلَى مَا أَسْعَتْ لَهُ الْحَالُ ، وَمَا يُوجِبُهُ قَدْرُ سَيِّدِي
مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي الْأَحْتِفَالِ ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يُشْرَفَ عَبْدُهُ بِالْأَحْتِمَالِ إِلَيْهِ ، وَإِجْرَائِهِ مُجْرَى
الْأُنْسِ عِنْدَهُ ، فَعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وفيه للكرجى :

هَذَا يَوْمٌ تَسْمُو لَهُ الْعَجَمُ ، وَيُسَمَّيْنَ^(١) فِي الْعَرَبِ ؛ تَشْرِيفًا لَهُ وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ ،
وَأَقْنِدَاءَ بَاهِلِهِ ؛ وَأَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ فِيهِ ، فَلَيْسَ لِإِحْرَازِ الدَّوْلَةِ فِي الْعِزِّ [مَنْزِلًا] بِحَيْثُ لَا يُرَامُ ،
وَلَا يُضَامُ ، وَلَا تَرْقَى إِلَيْهِ الْأَمَانِي ، وَلَا يَطْمَعُ فِي مَسَاوَاتِهِ الْمُسَاوِي ؛ وَلَهُمْ بَعْدَ تَصَرُّمِ
الدَّوْلَةِ عَلَى حِمِيدِ آثَارِهَا ، وَجَمِيلِ الذِّكْرِ فِيهَا ؛ أَعْلَامٌ تُضْرَبُ بِهِمُ الْأَمْثَالُ ، وَتَرْهُوُ
بِأَيَّامِهِمُ الْأَيَّامُ ؛ وَأَثَارُهُمْ تُقْتَفَى ، وَأَعْيَادُهُمْ تُنْتَظَرُ ؛ يَتَأَهَّبُ لَهَا قَبْلَ الْآوَانِ ، وَيُعْرِفُ
فِيهَا أَثَرُ الزَّمَانِ ؛ وَإِنَّكَ مِنْهُمْ فِي الدَّرَجَةِ السَّامِيَةِ ، وَالرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ ؛ وَبِحُلٍّ لَاعَارَ مَعَهُ
عَلَى حُرَّةٍ فِي الْخُشُوعِ لَكَ ، وَالتَّعَلُّقِ بِحَبْلِكَ . وَقَدْ وَجَدْتُ الْإِتْبَاعَ عِنْدَ سَادَاتِهِ فِي مِثْلِ
هَذَا الْيَوْمِ عَلَى عَادَةٍ فِي الْإِلَاطَافِ جَسَمَتَهَا ، وَسَيَّرَتْ بِهَا عَلَى أَقْوَامٍ مَنَحْتَهُمْ طُهُورَ
الدَّعْوَى فِيهَا ، فَأَقْبِلْ قَائِلَهُمْ يَقُولُ : « لَوْ كَانَ بَابُ الْإِهْدَاءِ مَفْتُوحًا غَيْرَ مُسَدَّدٍ ،

(١) مراده أن العرب آتبعَت العجم في تعظيمه تأمل . (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه

حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلًا بحيث الخ تأمل .

وَمُبَاحًا غَيْرَ مُنْعٍ ؛ لِأَتَحَفَّتْ بِالْغُرَابِ الْأَعْصَمَ ، وَالْكِبْرِيَّتِ الْأَحْمَرَ ، وَالْأَبْلَقِ الْعُقُوقَ ، وَبَيْضَ الْأَنْوَقِ . وَقَدْ بَعَثْتُ بَهْدِيَّةً لَا تُرَدُّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان محلّك من العِزِّ ، وَنَبَاهَةِ الذِّكْرِ ، وَآرْتِفَاجِ الدَّرَجَةِ ، وَعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ ؛ وَسَعَةِ الْبَلَدِ ، وَبُعْدِ الْأَمَدِ ؛ لَمْ يَتَقَرَّبْ مَتَحَلٍّ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ إِلَّا بِصَالِحِ الدُّعَاءِ ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ .

وفيه : لو أَخْرَجْنَا هَذَا أَنْتِظَارًا لَوْجُودِ مَا تَسْتَحِقُّهُ ، لَأَنْقَضَتْ أَيَّامُنَا ، بِلِأَعْمَارُنَا ، قَبْلَ أَنْ نَقْضِيَ لَكَ حَقًّا ، أَوْ نُؤَدِّيَ عَنْ أَنْفُسِنَا فَرْضًا : لِأَرْتِفَاجِ قَدْرِكَ عَمَّا تَحْوِيهِ أَيْدِينَا ، وَعُلُوِّ حَالِكِ عَمَّا تَبْلُغُهُ آمَالُنَا ؛ وَقَدْ أَقْنَدَيْتُ بَسْنَةً الْخَدَمِ وَالْأَوْلِيَاءِ فِي الْأَعْيَادِ ، وَأَوْصَحْتُ الْعُدْرَ فِي تَرْكِ الْأَجْتِهَادِ ؛ وَبَعَثْتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، الَّذِي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيْكَ أَلْفَ عَامٍ ، فِي نَمَاءٍ مِنَ الْعِزِّ ، وَعُلُوٍّ مِنَ الْقَدْرِ ، وَتَمَامٍ مِنَ الشُّرُورِ ، وَمَزِيدٍ مِنَ النِّعْمَةِ

الصنف الثامن - التهنية بالمهرجانات .

وهو أحد أعياد الفُرس ، على ما تقدّم ذكره في المقالة الأولى ، في الكلام على أعياد الأمم . وكان للكُتّاب من الاحتفال بالتهنية به في أوائل الدولة العبّاسية ما لهم بالنيروز .

فيه - لأبي الحسين بن سعد :

لَسَيِّدِي عَلَى فِي الْأَعْيَادِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالْأَيَّامِ الْجَدِيدَةِ ؛ عَادَةً أَخْتَرَلَنِي عَنْ بَعْضِهَا فِي هَذَا الْفَصْلِ ، كَلَّالُ الطَّبْعِ عَنِ الْبَعْضِ ؛ وَوُقُوعُ الْخَطَرِ (٤) ؛ بَعْضُهُ مِنَ الثَّنَاءِ نَظْمًا وَثَرًا ، وَمِنَ الْإِهْدَاءِ عَرْضًا وَبَرًا ؛ دَعَاءٌ تَزِيدُ قِيَمَتُهُ عَلَى الْأَعْلَاقِ الثَّمِينَةِ ، وَمَوْقِعُهُ عَلَى الذِّخَائِرِ النَّفِيسَةِ ، وَلُطْفُهُ عَلَى التَّحَفِ الْبَدِيعِ ؛ فَاسْعَدَ اللَّهُ سَيِّدِي بِهَذَا الْيَوْمِ سَعَادَةً تَقِمُّ ، وَلَا تَرِيمُ ؛ وَتَزِيدُ ، وَلَا تَيْبِدُ ؛ وَتَتَوَطَّنُ ، وَلَا تَتَطَّعُنُ ؛ وَتَجْمَعُ حُظُوظًا مِنْ

الخيرات، وفوائد من البركات، يتصل سندها، ولا ينتهي أمدها، وأبقاه في أسبغ عن
وأرفع رتبة وأرغد عيشة، مكنوفاً بحراسة تقيه [وآله] عوادي الزمان، وتصرف
عنهما طوارق الحدثنان، ما طرد الليل النهار، وطلع نجم وغار؛ وعلى ذلك - أيد الله
سیدی - فإن الحرص على إقامة الرسم والتطير من إضاعة الحق بعثاني على مراجعة
القرينه، واستكداد الرويه؛ فأسعفا بما قبلته الضرورة؛ ولم أطع في إهدائه سلطان
الحشمه؛ وفضل سیدی يتسع لقبول الميسور، وتحسين القبيح؛ والله المعين على
تأدية حقه، والقيام بواجب فرضه .

وله فيه أيضاً، إلى من منع أن تهدى إليه فيه هدية .

لو كنت فتحت باب الإلطف، ونهجت إليه سيلاً؛ لتنازع أولياؤك قصب
السبق وتنافسوا في السرف؛ فبان للجهد فضله، وأتمس العذر في التقصير ملتئمسه؛
وعمت المنحة كآفتهم بما يظهر من مواقعهم، وينكشف من أحوالهم؛ لكنك
حظرت ذلك حظراً آتوى فيه الفريقان في الحكم، وأمتد فيه على ذوى الخلل
الستر؛ ولم تحظر الدعاء، إذ حظرت الإهداء؛ فأنا أهديه ضرورة واختياراً،
وإعلاناً وإسراراً؛ فأسعدك الله بهذا العيد الجديد، الذي زاد بك في قدره، وشرفه
بأن جعلك من أربابه وولاه أمره .

أبو الفرج البغاء :

هذا اليوم من غرر الدهور المشهورة، وفضائل الأزمنة المذكورة؛ معظم
في العهد الكسروي، مستظرف في العصر العربي؛ باعث على عمارة المودات،
مخصوص بالأنيساط في الملاطفات، ولست أستریده - أيده الله - من ريولي،
ولا تطول إلى يسدي، غير إدخال في جملة من بسطته الأنسه، وثقفته المحبه؛

وَتَقَرَّبْتُ مِنْهُ بِوَكِيدِ الْحِدْمَةِ ، فِي قَبُولِ مَا إِنْ شَرَّفَ بِقَبُولِهِ ، كَانَ كَثِيرًا مَعَ قَلْتِهِ ، جَلِيلًا
مَعَ نَزَارَتِهِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يَقْوَى مِنْهُ ثِقَتِي ، وَيُقَابِلَ بِقَبُولٍ مَا أَنْفَذْتُهُ رَغْبَتِي ، فَعَلَ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

قَدْ أَطَعْتُ فِي الْإِنْسِاطِ إِلَيْكَ دَوَاعِيَ النَّفْسِ ، وَسَلَكْتُ فِي التَّحَرُّمِ بِكَ سُبُلَ
الْأَلْسَةِ ، وَتَوَصَّلْتُ بِمَلَاظِفَتِكَ إِلَى حَسَمِ مَوَادِّ الْحِشْمَةِ ؛ فَاسْتَشْهَدْتُ عَلَى ثِقَتِي بِكَ
فِيمَا أَنْفَذْتُهُ بِمُفَارَقَةِ الْحَقْلَةِ^(١) ، وَكُلَّفَ الْمُكَاثَرَةَ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكَلِّفَنِي فِي تَقَبُّلِهِ إِلَى سَعَةِ
أَخْلَاقِكَ ، وَتَسَلِّكَ فِي ذَلِكَ أَخْصَرَ طَرِيقٍ إِلَى مَا أَخْطَبُهُ مِنْ مَوَدَّتِكَ ، وَأَزَاحِمُ عَلَيْهِ
فِي إِخْلَاقِكَ ؛ فَعَلْتُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

هَذَا الْيَوْمَ - أَيْدِ اللَّهِ سِيدِي - مِنْ أَعْيَادِ الْمُرْوَةِ ، وَمَوَاسِمِ الْفُتُوَّةِ ، وَأَوْطَانِ السَّرُورِ ،
وَمَحَاسِنِ الْأَزْمِنَةِ وَالذُّهُورِ ؛ بَلَّغَهُ [اللَّهُ] أَمْثَالُهُ فِي أَنْضَرِ عَيْشٍ وَأَسْبَغِ سَلَامِهِ ؛ وَأَبْسَطِ
قُدْرِهِ ، وَأَكَلَ مَسَرَّهُ ؛ وَقَدْ تَوَثَّبْتُ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ فِيهِ بِأَدْبِهِ ، وَالْأَخْذِ بِمَعْرِفَةِ فُرُوضِهِ
بِمَدْهَبِهِ ؛ وَأَطَعْتُ فِي الْإِنْسِاطِ إِلَيْهِ دَوَاعِيَ الثَّقَةِ ، وَأَنْفَذْتُ مَا أَعْتَمَدْتُ فِي قَبُولِهِ
عَلَى مَكَانِي مِنْهُ ، عَانِدًا بِالتَّقْلِيلِ مِنْ كُلِّفِ الْمُكَاثَرَةِ ، وَمُسْتَتَقِلَ الْكُلْفَةِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ
يَأْتِيَنِي فِيمَا آتَمَسْتُهُ مَا يُنَاسِبُ شَرَفَ طَبْعِهِ ، وَسَعَةَ أَخْلَاقِهِ ؛ فَعَلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

لَوْ كَانَتْ الْمُلَاطَفَاتُ بِحَسَبِ الرُّتَبِ وَقَدَرِ الْمَنَازِلِ ، لَمَا آتَيْتَسَطْتُ قُدْرَةً وَلَا آتَسَّعَ
إِمْكَانًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ نَبْلُ مَحَلِّهِ ؛ وَوَاجِبَاتُ رِيَاسَتِهِ ؛ وَلَكُنْتُ مِنْ بَيْنِ خَدَمِهِ ضَعِيفُ
الْمُنَّةِ عَنْ خِدْمَتِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ ؛ بَلَّغَهُ اللَّهُ أَمْثَالَهُ فِي أَفْسَحِ أَجَلٍ ، وَأَنْجَحِ أَمَلٍ ،

بما يَخْدُمُهُ بِهِ دَوُوُ الخِدْمَاتِ الْوَكِيدَةِ عِنْدَهُ، الْمَكِينَةِ لَدَيْهِ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَثِقُ مِنْهُ - أَيْدَهُ اللَّهُ -
بِحِمْلٍ قَلِيلٍ عَلَى عِلْمِهِ بِإِخْلَاصِي فِي وِلَايَتِهِ ، وَأَنْتِسَابِي إِلَى جُمْلَتِهِ ، وَاخْتِلَاطِي بِأَنْسَابِهِ ؛
فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ يُجِيرَنِي فِي قَبُولِ ذَلِكَ عَلَى سُنَّةِ أَمْثَالِهِ مِنْ ذَوِي الْجَلَالَةِ ، عِنْدَ أَمْثَالِي
مِنَ الْأَوَّلِيَاءِ وَالْحَاشِيَةِ ، فَعَل .

وله في مثله :

لَوْ كَانَتِ الْهَدَايَا لَا تُسْتَقْبَلُ مَا لَمْ تُنَاسِبْ فِي نَفَاسَةِ الْقَدَرِ ، وَجَلَالَةِ الذِّكْرِ ، مَحَلٍّ مِنْ
يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ ، وَمَنْزِلَةٍ مِنْ أَهْدَاهَا إِلَيْهِ عَلَيْهِ ، لَمَا سَمِتُ هِمَّةً ، وَلَا آتَسَعْتُ قُدْرَةً ،
لَمَا يَسْتَحِقُّهُ - أَيْدَهُ اللَّهُ - بِأَيْسَرِ وَاجِبَاتِهِ ، وَأَصْغَرِ مَقْتَرَضَاتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْأَسْئَةَ
بِتَفَضُّلِهِ ، وَالْإِعْتِدَادَ بِسَالِفِ تَطَوُّلِهِ ، وَالتَّحَقُّقَ بِخِدْمَتِهِ ، وَالْإِنْتِسَابَ إِلَى جُمْلَتِهِ ؛
بَسَطَنِي إِلَى إِنْفَازِ مَا إِنْ شَرَفَنِي بِقَبُولِهِ كَانَ مَعَ قَلَّتِهِ كَثِيرًا ، وَمَعَ نَزَارَتِهِ جَلِيلًا ؛ فَإِنْ
رَأَيْتُ أَنْ يَقْوَى بِذَلِكَ مِنْهُ نَفْقِي ، وَيَحْسِمَ مَادَّةَ أَحْتِشَامِي ، فَعَل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال في "موادّ البيان" : هذه الكتبُ والرِّقَاعُ مضمونهاُ الهَنَاءُ بِالْمَوْسِمِ الْجَدِيدِ ،
وَالِدُعَاءُ لِلْهِنَاءِ فِيهِ بِتَمْلِيهِ . قال : وهذا المعنى مُقَاوِضٌ بَيْنَ الْمَهْنَى وَالْمَهْنَى ، وَيَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ أَجْوِبَتُهَا مُشْتَقَّةً مِنْهَا . ثم قال : وقد يتَصَرَّفُ الْكُتَّابُ فِيهَا إِذَا كَاتَبُوا الرُّؤَسَاءَ
تَصَرُّفًا يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْحَكْمِ .

وهذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج البغفاء :

سَمِعَ اللَّهُ دُعَاءَكَ ، وَبَدَأَ فِي تَقْبُلِ الْمَسْأَلَةِ بِكَ ؛ وَأَجْزَلَ مِنْ أَقْسَامِهِ حَظُّكَ ؛ وَبَلَّغَكَ
أَمْثَالَهُ فِي أَفْسَحِ مُدَدِ الْبَقَاءِ ، وَزَادَ فِيهَا خَوْلَكَ مِنَ الْمَوَاهِبِ وَالنِّعَمَاءِ ؛ وَلَا أَخْلَانِي
مِنْ بَرِّكَ ، وَأَنْهَضَنِي بِوَجِيبَاتِكَ .

وله في مثله :

كُلُّ يَوْمٍ أَسْعَدُ فِيهِ بِمُشَاهَدَتِكَ ، وَأَقْطَعُهُ فِي ظِلِّ مُوَدَّتِكَ ، حَقِيقٌ بِالْإِحْمَادِ ، مُؤَفِّعٌ عَلَى تَحَاسِنِ الْأَعْيَادِ ؛ فَسَمِعَ اللَّهُ دُعَاءَكَ ، وَأَطَالَ مَا شِئْتَ الْبَقَاءَ بَقَاءَكَ ؛ وَجَعَلَ سَائِرَ أَيَّامِكَ مَقْرُونَةً بِالسَّعَادَاتِ ، مُوصُولَةً بِتَنَاصُرِ الْبَرَكَاتِ .

من زهر الربيع :

يَخْدُمُ الْمَجْلِسَ الْعَالِيَّ جَعَلَ اللَّهُ قَدْرَهُ عَلَى الْأَقْدَارِ سَامِيَا ، وَجَزِيلَ نَوَالِهِ عَلَى مَنْ هَامَ بِهِ مِنَ الْعُقَاةِ هَامِيَا ؛ وَنَصَرَهُ نَصْرًا عَزِيزًا ، وَأَسْكَنَهُ مِنْ حِرَاسَتِهِ حِصْنًا حَصِينًا وَرِزًّا حَرِيزًا ؛ وَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ حَالِيَةَ الْحَيِّدِ بِوُجُودِهِ ، وَالْأَيْدِي تَهَشُّ إِلَى تَسَاوُلِ أَيْدِيهِ وَجُودِهِ ؛ وَأَخْبَارُ الْمَكَارِمِ عَنْهُ مَرْوِيَّةٌ وَإِلَيْهِ مَعْرُوضَةٌ ؛ وَآيَاتُ فَضْلِهِ وَفَضَائِلُهُ بِكُلِّ لِسَانٍ مُتَلَوَّةٌ .

وَيُنْهِي إِلَى عِلْمِهِ وَرُودَ مُشْرِقَتِهِ الَّتِي حَلَّتِ الْأَسْمَاعَ عِنْدَ مَاحِلَّتِ ، وَسَمَتْ عَنْ الرِّيَاضِ لَمَّا جُلِّيَتْ عَرُوسُ فَضْلِهَا وَجَلَّتْ ؛ وَزَهَتْ عَلَى زُهُورِهَا ، بِرَقْمِ سُطُورِهَا ؛ وَطِيبَ عَرَفِهَا وَنَشَرَهَا ، بِمَا فَاحَ مِنْ طَيِّبٍ عِنْدَ نَشْرِهَا ؛ وَفَائِقَ حُسْنِهَا وَبَهْجَتِهَا ، بِرَائِقِ بَرَاعَةِ عِبَارَتِهَا ؛ وَمَعَامِلَتِهَا بِمَا يَجِبُ مِنْ فُرُوضِ إِكْرَامِهَا وَالسَّنَنِ ، وَالْمَشْيِ فِي تَجَمُّلِهَا عَلَى الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ مِنْ مُؤَالَاتِهِ وَالسَّنَنِ ، وَعِلْمِهِ بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْهِنَاءِ بِالْعِيدِ ، وَالْيَوْمِ السَّعِيدِ ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ إِحْسَانُهُ الَّذِي مَا بَرَحَ مُتَحَقِّقًا بِجَمِيلِهِ وَجَزِيلِهِ ، وَشَاكِرًا لِكَثِيرِهِ وَقَلِيلِهِ ؛ وَحَصَلَتْ لَهُ الْبُشْرَى ، وَالْمَسْرَةُ الْكُبْرَى ؛ لَيْسَ لِلْعِيدِ بِمُفْرَدِهِ ، وَلَا لِهَذَا الْهِنَاءِ بِمُجَرَّدِهِ ؛ بَلْ لِبَقَاءِ الْمَوْلَى وَدَوَامِ سَعَادَتِهِ ، وَتَخْلِيدِ سَيَادَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَيْنٌ وَلِكُلِّ عَيْنٍ إِنْسَانٌ ، وَهُوَ رُوحٌ وَالْأَيَّامُ وَالْأَنْأَامُ جُثْمَانٌ ؛ فَالْمَمْلُوكُ بِبَقَائِهِ كُلِّ

يَوْمٍ يَتَجَدَّدُ لَهُ عَيْدٌ جَدِيدٌ ، وَيتَضَاعَفُ لَهُ جَدُّ سَعِيدٍ ، حَرَسَ اللَّهُ شَرْفَهُ الرَّفِيعَ مِنَ الْأَذَى ، وَأَرَاهُ فِي عَيْنِ أَعَادِيهِ جِدْعًا نَاتِنًا وَسَلَّمَ لِحَظِهِ المَحْرُوسَ مِنَ الْقَذَى ؛ وَأَصَارَ أَيَّامَهُ كُلَّهَا أَيَّامَ هَنَاءٍ ، وَبِدَايَةَ سَعَادَتِهِ بِغَيْرِ حَدٍّ وَآتِهَاءٍ .

الضرب السادس

(التهنئة بالزواج والتسرى)

من كلام المتقدمين :

أبو الفرج البيهقي :

وَصَلَّ اللَّهُ هَذَا الْإِتِّصَالَ السَّعِيدَ ، وَالْعَقْدَ الْحَمِيدَ ؛ بِأَحَدِ الْعَوَاقِبِ ، وَأَجْمَلِ الْمَنَحِ وَالْمَوَاهِبِ ؛ وَجَعَلَ شَمْلَ مَسَرَّتِكَ بِهِ مُلْتِمًا ، وَسَبَبَ أَنْسِكَ بِإِقْبَالِهِ مَسْتَهْظًا ؛ وَعَرَّفَكَ بِهِ تَعَجُّلَ الْبَرَكَاتِ ، وَتَنَاضُرَ الْخَيْرَاتِ ؛ وَلَا أَخْلَاكَ فِيهِ مِنَ التَّهَانِي بِجُبَاءِ الْأَوْلَادِ ، وَكَبَتْ بِكَثْرَةِ عَدَدِكَ سَائِرَ الْحُسَادِ ؛ وَهَنَانِي النِّعْمَةَ الْجَلِيلَةَ بِإِخَائِكَ ، وَعَضَّدَنِي وَسَائِرَ إِخْوَانِكَ بِبَقَائِكَ .

وله في مثله :

قَرَنَ اللَّهُ بِالْخَيْرَةِ مَا عَقَدْتَ ، وَبِالسَّعَادَةِ مَا جَدَّدْتَ ، وَبِجَمِيلِ الْعَاقِبَةِ مَا أَفْدَتَ ، وَعَزَّزَكَ بِرَكَاتِ هَذَا الْإِتِّصَالِ ، وَلَا أَخْلَاكَ فِيهِ مِنْ مَوَادِّ السَّعَادَةِ وَالْإِقْبَالِ ؛ وَعَضَّدَكَ بِالْبَرَّةِ مِنْ عَقِبِكَ ، وَالسَّادَةِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ .

وله في مثله :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ مُتَحِفًا بِلُحْفِ مَوَدَّتِكَ ، وَمَتَمِّسًا بِعَصَمِ أَخُوَّتِكَ ؛ أَوْلَى بِالتَّهْنِئَةِ بِمَا يُحْدِثُ لَكَ مِنْ وُرُودِ نِعْمَةٍ ، وَاتِّصَالِ مَوْهِبَةٍ ؛ فَإِنِّي مَا أَجِدُ فَرَضَ الدُّعَاءِ لَكَ

ساقطاً ، ولا واجبَ الشكر لله تعالى على ما أولاني فيك زائلاً ؛ فعرّفك الله بركة هذا
الاتّصال الحميد ، والاتّقان السعيد ؛ وجعله للسُّرور مُكثِّراً ، وبالين مبشّراً ؛ وأحياك
للتّحاني بمثله في السّادة من ولَدك ، والتّجباء من ذرّيّتك .

وله في مثله :

وصل الله هذا الاتّصال الميمون بأرّج البركات وأفضليها ، وأنجح الطّلبات
وأكملها ؛ وأحمد بذاه وعُقباه ، وبلغك الآمال في سائر ما تهواه ؛ وأحياك للتّحاني
بأمثاله في البرّة من ولَدك ، والتّجباء من عَقبك .

من كلام المتأخرين :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جعل الله الخيرة له فيما يذرّه ويأتيه ؛ والنجاح مقروناً بما يعيده من الأوامر ويُنْذِيه ،
والألْسنة شاكراً مأبُوليه من الإنعام ويُسْديهِ . صدرت هذه الخدمة معربةً عن
ثناء تارّج عرّفه ، وولاء أعجز الألسنة شرّحه ووصّفه ؛ وتهنئة بهذه الوُصلة المباركة
جعلها الله للاتّصال بالسّعادة سبباً ، ومحْصلةً من الخيرات مرّاماً وإِفْراً وأرباباً ؛
وعرّفه بركة هذا العرس الذي أصبح الخيرُ بفنائِه مُعرّساً ، ونورُ الشّمس من ضياء
بهجته مقبّساً ؛ فنحمدُ الله على هذه الوُصلة سراً وجَهْراً ، ونشكرُه أن جعلَ بينه
وبين السّعد نسباً وصِهاً ؛ منحَ الله المولى الرّقاء والبَين ، والعمر الذي يُفني الأيام
والسّنين ، ورزقه إسعافاً دائماً وإسعاداً ، وأراه أولاداً وأولاده آباءً بل أجداداً ؛
إن شاء الله تعالى .

أجوبة التهئة بالزواج والتسري

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرقاع يجب أن تكون شكرا لله على العناية والاهتمام، و[مشملة على] الإبانة عن موقع دعائه من التبرك والتمن به ، إلا أن تكون البداية بمعنى يخرج عما هذا جوابه ، فينبغي أن يُجاب عنه بما يقتضي الإجابة عن ذلك .

الضرب السابع

(من الهاني التهئة بالأولاد، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول - التهئة بالبنين .

مما أورده أبو الحسين بن سعد في ترسله .

إنه ليس من نعم الله وقرائد قسمه وإن حُسن موقعها، ولطف محلها؛ نعمة تعدل النعمة في الولد، لأنها في العدد، وزيادتها في قوة العضد، وما يتعجل من عظيم بهجتها، ويرجى من باقى ذكرها في الخلوفا والأعقاب، ولا حق بركتها في الدعاء والاستغفار .

ومنه : إنه ليس من النعم نعمة تُشبه النعمة في الولد، لزيادتها في قوة العضد، وحسن موقعها في الخلف والعقب، واتصل بى خبر مولود فسرى ماوصل الله به من العارفة إليك، وشركتك فى جميل الموهبة فيه شركة من له مالك وعليه ماعليك، وسألت الله أن يوزعك شكر النعمة ويؤنس بهذا المولود ربك، ويكثر به عددك، ويعظم بركته ويمن طأره عليك، ويزيد به فى النعمة كذلك، ويفعل الله ذلك، بمنه وطوله .

وفيه لابی الحسین بن سعد إلى أبی مُسلم بن بحر یهنئه باینِ حَدَثَ له :
 فأَمَّا ما جَدَّدَ اللهُ من النعمة فی القادِم والموهوبِ لك وَلَدًا وَأُنْثًا ، ولنا سِنْدًا
 وَذُنْرًا ، فقد جَلَّ قدرُ هذه المَوْهبةِ عن أن یُحاط لها بوصف ، أو یُوفى لها بشکر .
 وفیه لعلی بن خلف :

وینهی أنه اتَّصل بالملوک بَرُوعُ نَجْمِ سعدٍ فی مَشارِقِ إقباله ، مُؤذِنٌ بالأساقِ سُمُوه
 وَجَلالَه ؛ فأَحَدَتْ من الجلال والاستبشار بَمَقْدَمِهِ ، والتبرک والتیمن بَقَدَمِهِ ؛
 ماتلألَاتٌ علی الملوک أنوارُه ، وحسُنَتْ عندَه آثارُه ؛ وسألتُ الله تعالى راجبًا إلیه
 فی أن یعرِّفه سعادةَ مَوْلَدِهِ ، ویمَن مَوْفِدِهِ ؛ ویجعلَه شاذًا لَعُصْدِهِ ، ومُورِيا لَزَنَدِهِ ؛
 ویشفِّعه والسادة السابقین ، نُجباءً مُتلاحِقین ؛ یَبْلَغُونَ فی نِطاقِ سعادَتِهِ ، ویُتَوَسَّمُونَ
 فی آفاقِ سیادَتِهِ ؛ ویَصُونُ سِلکَهم من الانقِصام ، ویشملَهم من الانهدام ؛ ویُبقِیَهم
 غُرَرا فی وجُوهِ الأيام ، وأقمارا فی صَفحاتِ الظَّلام ؛ بِنِّه وفَضْلِهِ ، إن شاء الله تعالى .

وفیه له : وینهی أن الملوک یُسکِّرَ اللهُ تعالى علی ما أُنزِلَ عِندَ مَوْلانا من عَواریفه ،
 وأختَصَّ به من لطائِفِهِ ؛ شُکرَ مَنْ شارَکَه فی النعمة المُسْبِغةِ علیهِ ، وأتَیَهِ إلی خبرُ
 السِّنْدِ المتجدِّدِ لمَوْلانا ، فطار الملوکُ بخَوافِ السُّرورِ ومَقادِمِهِ ، وأخذَ من الإبتِهاجِ بأوفی
 قِسْمِهِ ؛ وسألَ اللهُ تعالى أن یبارکَ له فی عَظِیَّتِهِ ، ویُزِدِفَه بزیادَتِهِ ؛ ویُوقِّرَ عَدَدَهُ ،
 ویُشَدَّ بِصالحِ الولَدِ عَصْدَهُ ؛ ویُجَنِّه من هذا القادِمِ ثَمارَ المَسرَّةِ ، ویُری عینَه منه
 أَقَرُّ قُرْبِهِ ؛ ویشفِّعَ المِنحةَ فی مَوْهَبَتِهِ بِإِطالةِ مُدَّتِهِ .

وفیه : وینهی أن أَفْضَلَ النِّعمِ مَوْقِعًا ، وأشرفُها خَطَرًا ومَوْضِعًا ؛ نِعمةُ اللهُ تعالى
 فی الولد : لزیادَتِها فی العَدَدِ وقُوَّةِ العَصُدِ ؛ وما یَتَعَجَّلُ من عِظَمِ جَماهِها وزَیلتِها ،
 ویُرجى من حُسْنِ ما لَها وعاقِبَتِها ؛ فی حَفْظِ النِّسبِ والأُصلِ ، وحُسْنِ الخِلافةِ علی

الأهل ؛ وجميل الذِّكر والثَّناء ، ومتقبَّل الاستِغفار والدُّعاء ؛ وقد اتَّصل بالملوك بِزُوغِ هلالِ سماءِ المجد ، ومتعلِّق الإقبال والسَّغد ؛ فأشرقَت الأيامُ بِإِشراقه ، ووثقتِ الآمالُ باجتلائه وأتَّساقه ؛ فقامَ الملوكُ عن مولانا بِشُكر هذه النعمة المتجدِّده ، والموهبة الراهنة الخالِده ؛ وهنَّأتُ نفْسِي بها ، وأخذتُ بحِطِّي منها ؛ والله تعالى يَعْرِفُهُ يَمُنُّ المولودُ من أطهر والدَّة وأطيب والد ؛ ويُعمرُّ به منزله ، ويؤنسُ ببقائه رَحْلَه ؛ وَيَبْلُغُ بحبِّه ، من الآمال فيه ، ما بَلَغَهم في الماحد أبيه ؛ إن شاء الله تعالى .

وفيه : وَيُنْهِى أَنْ نِعَمَ الله تعالى وإن كانت على مولانا متظاهره ، ولديه متناصرة ؛ فقد كان الملوك يَرْغَبُ إلى الله تعالى في أن يُجِلَّ الأيامَ من نَسَله ، بَمَنْ يَحْفَظُ عليها شرفَ أصله ، وَيَحْلِفُهُ بعد العُمُر الطويل في نُبله وكرمِ فعله ؛ وَلَمَّا اتَّصل بالملوك نبأ هذا الهلال البازغ في سَمائِه ، المُقَرَّعُونَ أوليائِه ، الخَيِّبُ لُظُنُونُ أعدائِه ؛ حَمَدْتُ الله تعالى على مَوْهَبَتِه ، وسألته إقرار نِعَمَتِه ؛ وأن يُعرِّفَ مولانا بِرَكةِ قَدَمِه ، وَيَمُنَّ مَقْدَمِه ؛ وَيَوْفِرَ حَظَّه من زيادَتِه ، وسعادةِ وَقادَتِه ، وأن يجعلَه بَرًّا تَقِيًّا ، مَبَارَكًا رَضيًّا ؛ وَيُقَسِّحَ في أَجَلِه ، وَيُبَلِّغَه فيه أَمَلَه ؛ إن شاء الله تعالى .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

هُنَّتَ بِالإِسْعَافِ والإِسْعَادِ * وَنَفَذَ أَمْرٌ فِي الْعِدَا بِنَفَادِ !
وَبَقِيَتْ مَابَقِ الزَّمَانِ مَهْنًا * وَوَقِيَتْ شَرَّ شِمَاتَةِ الحُسَادِ !
يَا مَالِكَ الرِّقِّ الَّذِي أَصْحَى لَنَا * مِنْ جُودِهِ الأَطْوَافُ فِي الأَجْيَادِ !
خُلِدَتْ فِي عَيْشٍ هَيَّ أَحْضَرِ * يَسْطُو بِبَيْضِ ظُبَا وَسُمُرِ صَعَادِ ،
حَتَّى يَخَاطَبَكَ الزَّمَانُ مُبَشِّرًا : * مُتَعَتَ بِالإِخْوَانِ والأَوْلَادِ !

جَدَّدَ اللهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ مَسْرَةً وَبُشْرَى ، وَأَطَابَ لَعُوفَهُ عَرَفًا وَنَشْرًا ، وَشَدَّ لَهُ بَوْلَهُ السَّعِيدِ الطَّلَعَةِ أَزْرًا وَأَسْرًا ، وَسَرَّى بِهِ الِهْمُومَ عَنِ الْقُلُوبِ وَأَصَارَهَا لَدَيْهِ أَسْرَى ، وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ إِلَى سَمَاءِ الْمَعَالَى لِيُقَالَ : سُبْحَانَ الَّذِي بَعْدَهُ أَسْرَى .

الْمَلُوكُ يَخْدُمُ الْمَوْلَى وَيَهْنِيهِ وَيُشْكِرُهُ ، وَيُطْلِعُهُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ لِلْسَبَبِ الَّذِي يُنْبِيهِ وَيَذْكُرُهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِهِ قُدُومُ الْمَسَافِرِ بِلِإِسْفَارِ الْبَدْرِ ، وَظُهُورُ مَيُومِنِ الْغُرَّةِ الَّذِي جَاءَ لِأَهْلِهِ بِأَمَانٍ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ ، وَهُوَ الْوَلَدُ الْغَزِيرُ الْمَوْفَّقُ النَّجِيبُ ، فَلَانِ ، أَبْقَاهُ اللهُ تَعَالَى لِيَحْيَا مَشْكُورًا مَحْمُودًا ، مَنْصُورًا بِسَيْفِ مَجْدِهِ وَسِنَانِ سَعْدِهِ مَسْعُودًا ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَعُلَاهُ ، وَأَعْلَى نَجْمِهِ وَخَلَدَ شَرْفَهُ وَبَهَاءَهُ ، وَضَاعَفَ سَنَاءَهُ وَسَنَاءَهُ ، وَأَرَانَا مِنْهُ مَا أَرَانَا مِنَ السَّعَادَةِ فِي أَيْمِهِ ، فَسُرُّوْا بِهَذِهِ النِّعْمَةِ غَايَةً الشُّرُورِ وَالْإِبْتِهَاجِ ، وَأَتَضَّحُّ لَهُ فِي شُكْرِ إِحْسَانِ الْمَوْلَى وَحُسْنِ وَلَدِهِ كُلِّ طَرِيقٍ وَمِنْهَاجٍ ، وَسَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُطَوِّلَ لَهُ عُمْرًا ، وَيَجْعَلَ لَهُ إِسْعَادَ الْوَالِدِ وَإِسْعَافَهُ ذُنُوحًا ، لِيَرْتَعَافَ فِي رِيَاضِ الدَّعَةِ فِي صِحَّةٍ وَسَلَامِهِ ، وَيَجْعَلَ فِي فَنَاءِ الْعُلَا لَهَا دَارَ إِقَامَةٍ ، وَيُلْغَا مِنْ السَّعَادَةِ دَرَجَةً لَا تَرِيمُ عَالِيَةً وَلَا تُرَامُ ، وَتَحْضَعُ لَهَا اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ، وَيَرْشُقَاهُمَا بِسِهَامِ الصُّرُوفِ وَيَطْعَنَاهُمَا بِأَسْنَتَيْهَا ، وَيَقْهَمَا دَعَاءَ الْأَيَّامِ لَهَا مِنْ صُدُورِهَا وَيَسْمَعَاهَا مِنْ أَلْسِنَتَيْهَا ، مُحَاطِبَةً لِأَيْمِهِ ، وَمُنْشِدَةً لِسَائِرِ أَهْلِهِ وَمَحِيَّةً :

مَدَّ لَكَ اللهُ الْحَيَاةَ مَدًّا ، * حَتَّى تَرَى نَجْلَكَ هَذَا جَدًّا

الصف الثاني - التهئة بالبنات .

من كلام المتقدمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعْمَةُ نِعْمَتَانِ : إِحْدَاهُمَا تُعَجِّلُ الْأُنْسَ ، وَالْأُخْرَى تَدْنِي الْأَجْرَ ، وَعَلَى حَسَبِ

مَاتَلَقَ بِهِ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى ظَاهِرِ الْمَحْبُوبِ ، وَالتَّسْلِيمِ فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى بَعْضِ الْمَكْرُوهِ ؛
يَكُونُ الْمَتَاعُ عَاجِلًا ، وَالثَّوَابُ آجِلًا ؛ وَمَا قَدَّمْتُ الْقَوْلَ [إِلَّا] لِمَا ظَنَنْتُهُ يَعْزُزُ
لَكَ مِنَ الْوُجُومِ فِي هَذِهِ الْمَوْهَبَةِ ، فِي الْمَوْلُودَةِ الَّتِي أَرْجُو أَنْ يَعْظُمَ اللَّهُ بَرَكَتَهَا ، وَيَجْعَلَهَا
أَيَّامَ مَوْلُودٍ فِي عَصْرَهَا ، وَدَالَّةً عَلَى سَعَادَةِ أَيْيَافِهَا وَجَدَّهَا ؛ وَ[لَنْ] كَانَ فِي الطَّبْعِ حُبُّ
الذُّكُورِ وَالشَّغْفُ بِالْبَيْنِ ، فَإِنَّ الْبَيْنَ مِنَ الْبَنَاتِ ، وَهَنَّ بِالْيَمْنِ مَعْرُوفَاتِ ؛ وَبِالْبَرَكَاتِ
مَوْصُوفَاتِ ، وَبِالذُّكُورِ فِي أَثَرِ هُنَّ مَبْشَرَاتِ ؛ فَهَنَّاكَ اللَّهُ النِّعْمَةَ فِيهَا تَهْنِئَةً لَا تَنْقُضِي
سَعَادَتَهَا ، وَلَا يَعْتَرِضُ النِّقْصُ وَالتَّقْدِيرُ شَيْئًا مِنْهَا ؛ وَابْقِ هَذِهِ الصَّبِيَّةَ مُمْتَعًا أَبُوهَا بِهَا ،
وَمُنْشَأً لَهُ الْحِطُّ مِنْ حَدَاتِهَا ؛ وَبَلِّغْهَا أَفْضَلَ مَبَالِغِ الصَّالِحَاتِ الْقَانِنَاتِ مِنْ أُمَمَاتِهَا ؛
وَجْعَلْ فِي مَوْلِدِهَا أَصْدَقَ دَلِيلٍ عَلَى طُولِ عُمرِ أَيْيَافِهَا وَسَعَادَةِ جَدِّهَا ، وَتَضَاعُفِ نِعَمِ اللَّهِ
عِنْدَهُ ؛ إِنَّهُ لَطِيفٌ جَوَادٌ .

أَبُو مُسْلِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ بَحْرٍ :

مَرْحَبًا بِبِكْرِ النِّسَاءِ ، وَبِكْرِ الْأَوْلَادِ ، وَعَقِيلَةِ الْخِلَاءِ ، وَالْمَأْمُولَةِ لِلْبَرَكَةِ ، وَالْمَشْهُورَةِ
بِالْيَمْنِ ؛ وَقَدْ جَرَّبْنَاهُ فَوْجَدْنَاهُ مَعْهُودًا مُسْعُودًا ؛ وَاللَّهُ يَعْرِفُكَ أَضْعَافَ مَا عَرَفَ
مَنْ قَبْلَكَ ، وَيُبَارِكُ لَكَ فِيمَا رَزَقَكَ ؛ وَيُثْنِي لَكَ بِأَخِي لِلْمَوْلُودَةِ وَيَجْعَلُهُ رَدِيفَهَا ،
وَفِي الْخَيْرِ قَرِينَهَا وَشَرِيكَهَا .

عَلِيٌّ بْنُ خَلْفٍ :

وَيُنَبِّئُ أَنَّ الْمَمْلُوكَ أَتَّصَلَ بِهِ أَرْتِمَاضُ مَوْلَانَا بِمَقْدَمِ الْكَرِيمَةِ الْوَافِدَةِ ، بِطَالِعِ
السَّعَادَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ؛ فَعَجِبَ الْمَمْلُوكُ مِنْ وَقُوعِ ذَلِكَ مِنْ مِثْلِ مَوْلَانَا مَعَ كَمَالِ نُبْلِهِ ،

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم أُنْسِاطه .

وشرف عقله وعلمه ؛ فإنَّ الله تعالى جَلَّ اسْمُهُ يقول : ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وإنَّ ما جَدَّه الله تعالى من مواهبه جديرٌ أن يُتلقى بالسرور والفرح ، لا بالآستياء والترح ؛ لاسيما والدَّكْرُ إِنَّمَا يَتَفَضَّلُ عَلَى الْأُنْثَى بِجَابِتِهِ ، لَا بِحَلِيَّتِهِ وَصُورَتِهِ ؛ وَقَدْ يَقَعُ فِي الْإِنَاثِ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنَ الذُّكُورِ طَبْعًا ، وَأَجْزَلُ عَائِدَةً وَنَفْعًا ؛ وَقَدْ رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ” إِذَا رُزِقَ الْعَبْدُ الْأُنْثَى نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : يَا أَهْلَ الدَّارِ أَنْشُرُوا بِالرُّزْقِ ؛ وَإِذَا رُزِقَ ذَكَرًا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : يَا أَهْلَ الدَّارِ أَنْشُرُوا بِالْعِزِّ “ فَلْيَسْتَقْبِلْ مَوْلَانَا الرُّزْقَ بِالشُّكْرِ فَإِنَّ الْعِزَّ يَتَّبِعُهُ ، وَلَا يَعَارِضُ اللَّهَ تَعَالَى فِي إِرَادَتِهِ ؛ وَلَا يَسْتَقِلُّ شَيْئًا مِنْ هَيْبَتِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعَرِّفُهُ يَمَنَ عَهْدِهَا ، وَسَعَادَةَ قُدُومِهَا ؛ وَأَنْ يَسَّرَ بَعْدَهَا بِإِخْوَةٍ مُتَابِعِينَ مُتَلَحِّقِينَ ؛ يُوَدِّدُونَ أَمْرَهُ ، وَيُحْيُونَ بَعْدَ الْعُمُرِ الْأَطْوَلَ ذِكْرَهُ .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسان متصرفًا في أمره بإرادته ، قادرًا على إدراك مشيئته ؛ لبطلت دلائل القُدْرَةِ ، وَاسْتَحَالَتْ حَقَائِقُ الصَّنْعَةِ ؛ وَدَرَسَتْ مُعَالِمُ الْآمَالِ ، وَتَسَاوَى النَّاسُ بِبُلُوغِ الْأَحْوَالِ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ لَمَّا كَانَ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ مَصْنُوعًا ، وَعَلَى مَا عَنَهُ ظَهَرَ فِي الْإِبْتِدَاءِ مَطْبُوعًا ؛ كَانَ الْخُرْجُ لَهُ إِلَى الْوُجُودِ مِنَ الْعَدَمِ ، فِيمَا آرْتَضَاهُ لَهُ غَيْرُ مَتَمٍّ ؛ وَمَوْلَانَا - أَيْدَهُ اللَّهُ - مَعَ كَيْلِ فَضْلِهِ ، وَتَنَاهَى عَقْلُهُ بِوَحْدَةِ فِطْنَتِهِ ، وَثَاقِبَ مَعْرِفَتِهِ ؛ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يَجْهَلَ مَوَاقِعَ النِّعَمِ الْوَارِدَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، أَوْ يَتَسَخَّطَ مَوَاهِبَهُ الصَّادِرَةَ إِلَيْهِ ؛ فَيَرْمُقُهَا بِنَوَاطِرِ الْكُفْرِ ، وَيُسْلِكَ بِهَا غَيْرَ مَذَاهِبِ الشُّكْرِ .

وقد اتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ خَبَرُ الْمَوْلُودَةِ كَرَّمَ اللَّهُ غُرَّتَهَا ، وَأَطَالَ مُدَّتَهَا ؛ وَعَرَّفَ مَوْلَانَا الْبَرَكَتَ بِهَا ، وَبَلَّغَهُ أَمَلَهُ فِيهَا ؛ وَمَا كَانَ مِنْ تَغْيِيرِهِ عِنْدَ أَنْضَاحِ الْخَبَرِ ، وَإِنْكَارِ مَا أَخْتَارَهُ

له سابقُ القَدَرِ؛ فمَجِبَ المملوكُ من ذلك واستنكره، من مولانا وأنكره؛ لضيق العُدْرِ في مثله عليه . وقد عِلِمَ مولانا أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إلى القُلُوبِ ، وأنَّ الله تعالى بدأ بِهِمْ في الترتيب فقال جَلَّ من قائل : ((يَهَبْ لِيْ يَسَّاءُ إِنَّا نَا وَ يَهَبْ لِيْ يَسَّاءُ الذُّكُورَ)) وما سَمَّاهُ الله هبةً فهو بالشكر أَوْلَى، وبِحُسْنِ التَّجَبُّلِ أَحرى ؛ وَلَكَمْ نَسِبَ أَفْدَنُ ، وشَرَفَ اسْتَحْدَثُنْ ؛ من طُرُقِ الأَصْهارِ ، والاتِّصَالِ بِالْأَخْيَارِ . والمَلْتَمَسُ من الذِّكْرِ نَجَابَتُهُ ، لِأَصُورَتِهِ وَوِلَادَتِهِ ؛ وَلَكَمْ ذِكْرُ الْإِثْنِ أَكْرَمُ مِنْهُ طَبْعًا ، وَأَظْهَرُ مِنْهُ نَفْعًا ؛ فمولانا يُصَوِّرُ الحَالِ بِصُورَتِهَا ، وَيَجِدُّ الشُّكْرَ عَلَى مَا وَهَبَ مِنْهَا ؛ وَيَسْتَأْنِفُ الاعْتِرَافَ لَهُ تَعَالَى بِمَا هُوَ الْأَشْبَهُ بِبَصِيرَتِهِ ، وَالْأَوْلَى بِمَثَلِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث - التهنية بالتوعم .

أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ مِمَّا كَتَبَ بِهِ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ ذَكَرٌ وَأُنْثَى مِنْ جَارِيَةٍ سَوْدَاءَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَحَصَّكَ رَبُّ الْعَرْشِ مِنْهَا بِتَوْعَمَ * وَمِنْ ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ تُسْتَخْرِجُ الدَّرَرَ !
وَارِكَ أَضْحَى وَإِرْبًا عِلْمَ جَارٍ . * فَأَعْطَاكَ مِنْ أَلْقَابِهِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ !

الأجوبة عن التهنية بالأولاد

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرِّقَاعِ يَجِبُ أَنْ تُبْنَى عَلَى شُكْرِ أَهْتَامِ الْمُهْنِيِّ وَرِعَايَتِهِ ، وَالْاعْتِدَادِ بِعِنَايَتِهِ ؛ وَأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي تَجَدُّدِ الْمُهْنِيِّ [به] زِيَادَةٌ فِي عَدَدِهِ ، وَأَنَّ نَصِيْبَهُ مِنْ تَحْرُكِ السَّرُورِ فِيمَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَوَاهِبِ كَنْصِيْبِهِ : لِتَنَاسُيْهِمَا فِي الْإِخَاءِ ، وَتَوَافِيهِمَا فِي الصَّفَاءِ ، وَأَنَّ تَرَاعَى مَعَ ذَلِكَ مَرْتَبَةُ الْمُهْنِيِّ وَالْمُهْنَى ، وَيُنْبِئُ الْخَطَابُ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ كُلُّ مِنْهُمَا .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وَيُنْهَى وَرُودَ الْكَتَابِ الَّذِي تَشْرَفُ الْمَمْلُوكُ بِوُرُودِهِ ، وَأَشْرَقَتِ الْأَيَّامُ بِكَالِ
سُعُودِهِ ، وَأَرْغَمَ بِلَاغَتِهِ مَعْطَسَ مُنَاوِيهِ وَحَسُودِهِ ؛ فَشَكَرَ أَيَادِي مَنْ أَنْعَمَ بِإِرْسَالِهِ ،
وَأَكْتَسَى بِالْوُقُوفِ عَلَيْهِ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ نَخْرِهِ وَجَمَالِهِ ؛ وَبَالَعَ فِي إِكْمَالِهِ ، حَتَّى وَقَفَ
إِجْلَالًا لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ تَلَا آيَاتِ حُسْنِهِ عَلَى أُذُنَيْهِ ؛ فَوَجَدَهُ مُشْتَمِلًا عَلَى إِحْسَانٍ
لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ ، وَمِنْ أَوْدَعِهَا فِيهِ فَلَا يُحْصِيهَا حَضَرٌ وَلَا عَدَدٌ ؛ فَهَيَّجَ بُرُودَهُ
رَسِيسَ الْأَشْوَاقِ ، وَتَقَلَّدَ بِإِنْعَامِ مُرْسَلِهِ كَمَا قُلِّدَتِ الْحَمَائِمُ بِالْأَطْوَاقِ ، وَوَجَدَ لَوْعَةً
لَا يُحْسِنُ وَصْفَهَا لِسَانُ الْيَرَاعِ فِي الْأَوْرَاقِ ؛ وَعَلِمَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمَوْلَى مِنَ التَّهْنِئَةِ
بِالْوَلَدِ الْجَدِيدِ ، بَلْ بِأَصْغَرَ الْخُدَمِ وَالْعِيْدِ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ مِنَ الْإِهْتِهَابِ لِمِيلَادِهِ ، وَأَظْهَرَهُ
مِنَ التَّفَضُّلِ الْمَعْرُوفِ مِنْ آبَائِهِ الْكَرَامِ وَأَجْدَادِهِ ؛ وَلَمْ لَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
وَالْوَالِدُ مَمْلُوكُهُ ، وَهُوَ مَمْلُوكُ السَّادَةِ الْأَجْلَاءِ أَوْلَادِهِ ؛ حَرَسَ اللَّهُ مَجْدَهُ وَمَتَّعَهُ بِثَوْبِ
مَكَارِمِهِ ، وَخَفَضَ قَدْرَ مُحَارِبِهِ وَرَفَعَ كَلِمَةَ مُسَالِمِهِ ؛ وَلَا زَالِ مَمَالِكُهُ تَتَرَدَّدُ تَزِيدُ
الْأَيَّامُ ، وَسَعَادَتُهُ بَاقِيَةٌ بَقَاءَ الْأَعْوَامِ ، وَعَيْنُ الْعَنَاءِ تَحْرُسُهُ فِي حَالَتِي السَّفَرِ وَالْمَقَامِ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثامن

(من التهاني التهنئة بالإنبال من المَرَضِ والعافية من السَّقَمِ)

فمن ذلك :

وَيُنْهَى أَنَّهُ مَازَالَتْ أَجْسَامُ أَهْلِ التَّصَافِي ، تَشْتَرِكُ فِي الْأَسْقَامِ وَالْعَوَافِي ، كَمَا تَشْتَرِكُ
أَنْفُسُهُمْ فِي التَّخَالُصِ وَالتَّوَافِي ؛ وَلَمَّا أَلَمَ بِمَوْلَانَا هَذَا الْأَلَمَ الَّذِي تَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى

بإماتته ، ومن فيه على السؤدد بحراسة مولانا وحياطته ؛ فرأيتُه حالاً في جوارحي ،
 مُحَرِّقاً لجوانيحي ؛ مازجاً لأعضائي ، ممتلكاً لأنوائِي ؛ ولئن كنت قد تحملت من ذلك
 عباً ، وأرتقيت من تحمله مُرتقى صعباً ؛ فلقد نَحَرْتُ بمأسسته ، وأحمدتُ طبعي على
 مُساكلته ؛ وشكرتُ الله تعالى إذ جعلني شُعبة من سرحته ، وجيلة من طينته ؛ وعلى
 مأسرته من إقالتِه وإنعاشه ، ومُصافاته وإنشاشه ؛ وسألتُ الله تعالى أن يبقية نُوراً
 يُوَضِّحُ مغربَ الدهر ومشرقَه ، ودراً يرصعُ قودَ المجد ومفرقه ؛ ويحسنُ الدِّفاعَ عن
 حَوَائِه ، وهو سبحانه يُجِيبُ ذلك ويتقبَّله ، ويرفعه ويسمعه ؛ إن شاء الله تعالى .

وله في مثله :

المملوكُ يَهْنَى مولاه خاصَّةً إذ جعله الله تعالى من صفوة أوليائه ، وخالصة أحبائه ؛
 الذين يتبليهم اختباراً ، ويتتابهم اختياراً : ليجمع لهم بين تمحيص وزرهم ، ومضاعفة
 أجرهم ؛ والحض على طاعته ، والآنصراف عن معصيته ؛ ويَهْنَى الكافةُ عامَّةً بالموهبة
 في نُوره المُطلعة لاملِ الإقبال ، المُروية لِما حِلَّ الآمال ؛ ثم أعطفُ على حمدِ الله
 على ما مَنَّ به من إبلاله ، ويسره من استقلاله ؛ والرغبة إليه في أن يمنحه صحَّةً مُخلِّدَةً
 وتُقيم ، وعافية ترهن ولا تريم ؛ وأن يحجيه من عوارض الأسقام ، ويصونه من حوادثِ
 الأيام ؛ بفضلِه وجُوده ، إن شاء الله تعالى .

أبو الفرج البغواء :

أفضلُ ما يَفْزَعُ إليه العبدُ المُخلص ، والمولى المتخصِّص ؛ فيما ينوبُ سيِّدهَ ويهمُّ
 وَلِيَّ نِعْمَتِه ، الدعاءُ المُقترَنُ بصدقِ النية ، وصَفَاءِ الطَّويَّةِ [فالحمد لله الذي من بالصَّحَّةِ]
 وتصدَّقُ بالإقالة ، وتداركُ بجَميلِ المُدافعة ؛ وعمَّ سائرَ خَدَمِه أيَّده الله بالنِّعمة ، وأعادَه

إلى أجمل عاداته من السلامة والصحة ، فائزاً بمدنح الأجر ، متعبداً بمستأنف الشكر ؛
فلا أحلاه الله من زيادة فيما يؤليه ، ولا قصداً بسماع سوء فيه ؛ وحرس من الغير
مُهجته ، ومن المحدثور نعمته .

وله في مثله :

ما كنت أعلم أنَّ عافيتي مقرونة بعافيتك ، ولا سلامتي مضافة لسلامتك ؛
إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالي الألم والصحة ، والمرض والمحنة ؛
فالحمد لله الذي شرف طبعي بمناسبتك ، وجعل خلقي بلاءمك ؛ فيما ساء وسر ، وإياه
تعالى أشكر على ماخصني به من كمال عافيتك ، وسبوغ سلامتك وسرعة إقالتك ؛
وبه - جل اسمه - أتيق في مزيدك من تظاهر النعم ، وتوفر القسم .

وله في مثله :

ولولا أنَّ متضمن كتابك قرن ذكر المرض الهاجم عليك ، بذكر ما وهبه الله لك
من عود السلامة إليك ؛ لما اقتصر بي القلق على [ما] دون المسير نحوك ، والمبادرة
لمشاهدتك ؛ غير أنَّ السكون إلى ما أداه كتابك سابق الجزع ، والطمانينة إلى ما وهبه الله
من كفايتك حالت دون الهلع ؛ فالحمد لله الذي من بالإقالة ، وتصديق السلامة وعم
بالكفاية ؛ وهو ولي حراستك وحراستي فيك .

وله في مثله :

سيدنا في سائر ما يذكره الله من هجوم ألم مؤذن بصحة ، واعتراض محنة مؤدية إلى
منحه ؛ مرموق بالعافية ، محروس من الله جل اسمه بالحفظ والكلاءة ؛ فهو مع العلة
فائز بذخائر الأجر ، ومع العافية موفق لا يستعادة الشكر ؛ فالحمد لله الذي عقد الكرم
ببقائه ، وشفى مرض الآمال بشفائه ؛ وكفاه اعتراض الخوف ، وعوارض الصروف .

وله في مثله :

ما أَفْرَدَ جِسْمُكَ بِالْعِلَّةِ دُونَ قَلْبِي ، وَلَا اخْتَصَّتْ نَفْسُكَ - حَرَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى -
بِمُعَانَاةِ الْمَرَضِ دُونَ نَفْسِي ؛ وَلَمْ أَرْزُ بِالْقَلْبِ تَالِيَا ، وَفِي سَائِرِ مَا شَكُوْتُهُ بِالنِّيَّةِ مُسَاوِيَا ؛
إِلَى أَنْ كَشَفَ اللَّهُ الْغُمَّةَ ، وَأَقَالَ الْعَثْرَةَ ، وَنَفَسَ الْكُرْبَةَ ؛ وَمَنْ بِالسَّلَامَةِ ، وَتَصَدَّقَ
بِالْكِفَايَةِ ؛ وَأَوْجَبَ بِالْعَافِيَةِ عَلَيْنَا جَمِيعًا فُرُوضَ الشُّكْرِ ، بَعْدَ مَا أَدَّخَرَ لَكَ بِالْأَلَمِ مِنْ
كَثْرَةِ الْأَجْرِ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا يُوْدِي إِلَى حِرَاسَةِ مَا حَوَّلَكَ ، وَيُوْذِنُ بِالْمَزِيدِ
فِيَا مَنْحَكَ .

ومن كلام المتأخرين :

أَعْلَى اللَّهِ قَدَرَ الْجَنَابِ الْقُلَانِي ، وَلَا زَالَتْ شُمُوسُ أَيَامِهِ لِاتِّخَافِ كُسُوفَا وَلَا أَقُولَا ،
وَأَقْمَارُ لِيَالِيهِ تَغْرَسُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ وَمَحَبِّيهِ فُرُوعًا وَأَصُولَا .

الْمَمْلُوكُ يَخْدُمُ خِدْمَةً مَنْ تَجَلَّ جَمِيلًا ، وَنَالَ مِنْ تَفَضُّلِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ جَزِيلًا .

وَيُنَبِّئُ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ السُّرُورِ بِعَافِيَةِ مَوْلَانَا ، فَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى مَا جَدَّدَ مِنَ النِّعْمَةِ
التَّامَّةِ ، وَسَمَحَ بِهِ مِنَ الْكَرَامَةِ الْعَامَّةِ ؛ حِينَ أَعَادَ الْبَدْرَ إِلَى كَمَالِهِ ، وَالسُّرُورَ إِلَى أَمْتِّ
أَحْوَالِهِ ؛ وَمَا كَانَتْ إِلَّا غَلْطَةً مِنَ الدَّهْرِ فَاسْتَدْرَكَهَا ، وَصَفْقَةً خَارِجَةً عَنْ يَدِهِ فُلِّكَهَا ؛
فَقَرَّتْ بِذَلِكَ الْعُيُونُ ، وَتَحَقَّقَتْ فِي بُلُوغِ الْأَمَلِ الظُّنُونُ ؛ وَانْجَبَرَ قَلْبُهُ بَعْدَمَا وَهَنَ ،
وَعَادَ جَفْنُهُ بَعْدَ الْأَرْقِ إِلَى الْوَسَنِ ؛ وَقَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ .
وَلَقَدْ كَانَ يَتَمَتَّى الْمَمْلُوكُ لَوْ فَازَ مِنَ الرُّؤْيَةِ الشَّرِيفَةِ بِحِطِّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ، وَتَمَلَّى بِمُشَاهَدَةِ
وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَإِنَّ فِيهِ الْبُغْيَةَ وَالْوَطَرَ .

وَالْمَمْلُوكُ فَمَا يُعَدُّ نَفْسَهُ إِلَّا مِنَ الْمُحِبِّينَ الَّذِينَ يَذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ لِمَحَبَّتِهِ وَأَعَدَّوْهَا ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يُسِّرُ الْأَوْلِيَاءَ بِتَضَاعُفِ سُعُودِهِ ، وَيُدِيمُ بِهِجَةَ الْأَيَّامِ بِمَيْمُونِ وَجُودِهِ ؛ وَيُطِيلُ

في مدته ويحرسها من الغير، ويحرس أحوال مزاجه الكريم على القانون المعبر،
ويكفي أوليائه ومحبيه فيه كل مكروه وحذر، إن شاء الله تعالى .

من زهر الربيع :

ولما شكوت، أشتكى كل ما * على الأرض وأهترش وغب!

لأنك قلب لجسم الزمان * وما صح جسم إذا اعتل قلب!

حرس الله جنابه، وأسبل عليه رداء السعد وأثوابه، ومنعه يرود العافية وجلبابها،
وفتح له إلى نيل السعادة سائر أبوابها، ومنحه الكفاية والأمن في سربه، والعافية
في جسمه من قلق كل مرض وكره، وجمع له بين الثواب والأجر، وجازاه بجزيل
الغفران عن جميل الصبر .

المملوك يشتر نفسه ومولاه بما من الله به من صحة مزاجه الكريم، والإبلال من
مرض كاد يدير كئوس الحمام على كل صديق حميم، ويحمد الله على عافيته حمدا
جزيلًا، ويشكره عليها بكرة وأصيلا، فإنه قد عوفي لعافيته المجد والكرم، وزال عنه إلى
أعدائه الألم، فلمولى حفظ الله صحته من السقم، وحماء من ألم ألم، وجعل سعادتَه
تتراد على ممر الأنفاس، وجسده سالما من الأذى كسلامة عرضه من الأذناس،
إن شاء الله تعالى .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقى الله من الأسواء شخصه الكريم، وشمله النظيم، وقلب محبه الذي هو في كل
وادي من أودية الإشفاق بهم .

ولا زالتِ الصَّحَّةُ قَرِينَهُ حَتَّى لَا يَعْتَلَّ فِي مَنَازِلِهِ غَيْرُ مُرُورِ النَّسِيمِ . وَيَصِفُ شَوْقًا
يَزِيدُ بِالْأَنْفَاسِ وَقْدًا ، وَيَجِدُّ لِلْأَحْشَاءِ وَجْدًا ، وَيَبَاشِرُ الْقَلْبَ الْمُغْرَمَ فَيُمَدُّ لَهُ مِنْ
عَذَابِ الْإِنْتَظَارِ مَدًّا .

وَيَنْهَى أَنَّهُ جَهَّزَ هَذِهِ الْخِدْمَةَ نَائِبَةً عَنْهُ فِي اسْتِجْلَاءِ وَجْهِ أَكْرَمِ الْأَحْبَةِ ، وَتُصَاغِ
الْيَدُ الَّتِي أَقْلَامُ كُتُبِهَا فِي شَكْوَى الْبِعَادِ أَطْبَهُ ، مَبْدِيَةً إِلَى الْعِلْمِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ مَعَ مَا كَانَ
يَكَايِدُهُ مِنَ الْأَشْوَاقِ ، وَيَعَالِجُهُ مِنْ خَوَاطِرِ الْإِشْقَاقِ ، بَلَّغَهُ ضَعْفُ الْجَسَدِ الْمَوْقُ ،
وَعَارِضُ الْأَلَمِ الَّذِي اسْتَطَارَ مِنْ جَوَانِحِ الْمَحَبِّينِ بَرَقًا ، فَلَا يَسْأَلُ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ عَنْ
قَلْبٍ تَأَلَّمَ ، وَصَدْرٍ صَامَتٍ بِالْهُمُومِ وَلَكِنَّهُ بِجِرَاحِ الْأَشْبَانِ تَكَلَّمَ ، وَلِسَانٍ أَنْشَدَ :

أَلَا لَيْتَنِي حُمِلْتُ مَا بِكَ مِنْ ضَنْيٍ * عَلَى أَنَّ لِي مِنْهُ الْأَذَى وَلَكَ الْأَجْرُ !

ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَجَّلَ خَبَرَ الْعَافِيَةِ الْمَأْمُولَةِ ، وَالصَّحَّةِ الْمُقْبِلَةِ عَقِيبَ الدَّعَوَاتِ
الْمَقْبُولَةِ ، فَيَا هَذَا مَسْرَةً شَمِلَتْ ، وَمَبْرَةً كَمَلَتْ ، وَتَهْنِئَةً جَمَعَتْ قُلُوبَ الْأَوْدَاءِ وَجَمَلَتْ ،
وَأَعْضَاءَ فَدَتْهَا عُيُونُ الْمَهَامَا فَتَقَلَّتْ عَنْهَا صِفَاتِ السَّقَامِ وَحَمَلَتْ ، وَعَافِيَةً حَوَّلَتْ إِلَى
قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ الْمَرَضِ ، وَجَوْهَرِ جَسَدٍ طَاهِرٍ زَالَ [عَنْهُ] بِأَسِّ الْعَرَضِ ، فَهَنِيئًا لَهُ
بِهَذِهِ الصَّحَّةِ الْمُتَوَافِرَةِ الْوَاقِيَةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ جَمَعَ بَيْنَ حُصُولِ الْأَجْرِ
وَوُصُولِ الْعَافِيَةِ ، وَعَلَى أَنْ حَفِظَ ذَاتَهُ الْكَرِيمَةَ وَحَفِظَهَا هُوَ الْمَقْدَمَةُ الْكَافِيَةُ الشَّافِيَةُ :

وَتَقَاسَمَ النَّاسُ الْمَسْرَةَ بَيْنَهُمْ * قِسْمًا فَكَانَ أَجْلُهُمْ قِسْمًا أَنَا !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَبِّحُ عَلَيْهِ ظِلَالُ نِعَمِهِ ، وَيَحْفَظُهُ حَيْثُ كَانَ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخِدَمِهِ ؛
وَكَمَا سَرَّ الْأَحْبَابَ بِجَبْرِ عَافِيَتِهِ كَذَلِكَ يُسَرُّهُمْ بِعِيَانِ مَقْدَمِهِ .

أجوبة التهئة بالإبلال من المرض والعافية

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرّفاع يجب أن تكون مبنية على وصف الألم وصورته وما تفضّل الله تعالى به من إماتته ، وشكر المهني بأهتمامه وعنايته .

وهذه أمثلة من ذلك :

من زهر الربيع :

أدام الله نعمته ، وشكر مته ، وأدال دولته ، وأعلى قدره وكلمته ، وحّم على الألسنة شكره والقلوب محبته . ولا زالت التهانى من جهته وإفده ، والبشائر وإرده .

ويُنهى ورود الكتاب الذى أعدته يد المعالى فعاد كريما ، وشاهد حسن منظره فصار وجهه وسما ، وأنه وقف عليه ، وأحاط علما بكل ما أشار المولى إليه ؛ فذكره أنسا كان بخدمته لم ينسه ، وجدّد له وجدا ما زال يجد في قلبه ونفسه عينه ونفسه ؛ ونشر من مآثره الماثورة ، وفضائله المرقومة في صفائح الصحائف المسطوره ؛ ماشف به وشرف ، وشوق إلى لقاءه وشوف ؛ وأقام البرهان على ذكي فطنته ، وزكى فطرته ؛ وعلم ما أنعم به وتفضل ، وأحسن وتطول : من تهئة المملوك بالإبلال من مرضه ، والبراء من سقمه ، والتخلص من يدى وجعه وآلمه ؛ وسرّ ورود كريم مشرقته ، أعظم من سروره بلباس ثوب عافيته ؛ وبدوام مجده وسعادته ، أكثر من صحّة مزاجه واستقامته : فإن مكارم المولى كالحدايق الناضرة ، وميزته أعز في القلوب من الأحداق الناطرة .

فالحمد لله الذى من بالعافية من ذلك المرض ، والداء الذى ألمّ بعرضه فاحتوى منهما على الجوهر والعرض ؛ وطال حتى أسأمه من نفسه وعواده ، وآيسه من الحياة

لولا لطف الله والله لطيف بعباده ؛ وهذا ببركة المولى ودعائه الذى كان يرفعه ،
والخواطر والأسماع مع بُعد الشقة تشهد به وتسمعه ؛ جعل الله التهانى مع الأبد
واردة منه وإليه ، وشكر إناعمه وأتم نعمته عليه ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وكتبت للمقرر العلانى علاء الدين الكرکى وهو يومئذ كاتب السر الشريف
فى الدولة الظاهرية « برقوق » فى سلطته الثانية ، وقد برأ من مرض نظما :

أَفِدِيهِ مِنْ جَسَدٍ قَدْ صَحَّ مِنْ سَقَمٍ * فَبَاتَ جَوْهَرُهُ خَالٍ مِنَ الْعَرَضِ !
فَاسْتَبَشَّرْتُ بِعَلَى الْقَوْمِ شَيْعَتَهُ * وَمَاتَ حَاسِدُهُ بِالسَّقَمِ وَالْمَرَضِ !

الضرب التاسع (التهنية بقرب المزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

قَرَّبَ اللَّهُ مَزَارَهُ ، وَأَذْنَى جَوَارِهِ ، وَأَعَانَ أَعْوَانَهُ وَنَصَرَ أَنْصَارَهُ . وَلَا زَالَتْ
الْأَنْفُسُ لِقُرْبِهِ مَسْرُورَةً ، وَرَايَاتُ مَجْدِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَأَحْزَابِ الْإِسْلَامِ بَهِيَّةً عَلَى
أَعْدَاءِ الدِّينِ مَنْصُورَةً .

الْمَمْلُوكُ يَقْبَلُ الْبَاسِطَةَ الْعَالِيَةَ بِسَطِّ اللَّهِ ظِلِّهَا ، وَشَكَرَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فَضْلَهَا . وَيُنْهَى أَنَّهُ
أَتَّصَلَ بِهِ طَيِّبَ أَخْبَارِهِ ؛ وَقُرْبُ مَزَارِهِ ؛ فَتَضَاعَفَ شَوْقُهُ ، وَتَرَاوَدَّ تَوْقُهُ ؛ وَهَيَّجَتْ
صَبَابَتُهُ لِأَعْجِهِ ، وَسَهَّلَتْ إِلَى نَيْلِ الْمَسَرَّةِ طُرُقَهُ وَمَنَاجِحَهُ :

وَأَبْرَحَ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا * إِذَا دَنَتْ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَاوِ !

فَاللَّهُ يُقَرِّبُ مِنْ أَمَدِ التَّلَاقِ بَعِيدًا ، وَيَجْعَلُ رِذَاءَ الْإِجْتِمَاعِ بِخِدْمَتِهِ قَشِيًا جَدِيدًا .

الضرب العاشر (التهنئة بنزول المنازل المستجدة)

فمن ذلك [من إنشاء] علي بن خلف :

أشرف المنازل رُفْعَهُ ، وأتَرَفُهَا بُقْعَهُ ، وأَرْفَعُهَا رَفْعَهُ ، ما آتَّخَذَهُ مُوَلَانَا لِنَفْسِهِ
مَوْطِنًا ، وجَعَلَهُ بَنَزُولِهِ فِيهِ حَرَمًا آمِنًا ، وَصِيْرَهُ بِخُصْبٍ مَكَارِمِهِ لِلْعُقَاةِ مَرَادًا وَمَقْصِدًا ،
وَمُعْذِبٍ نَوَافِلِهِ لِلظُّلَمَةِ مَشْرَعًا وَمَوْرِدًا ، وَلِلسُّؤْدَدِ بِجَدِّهِ مَعْقِلًا ، وَلِلرِّيَاسَةِ بِشَرَفِهِ
مَتَرِلًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ هَذِهِ الدَّارَ الَّتِي تَدِيرُهَا وَحَلَّهَا ، وَحَطَّ بِهَا رَحْلَهُ وَنَزَلَهَا ، مَأْهُولَةً
بِبَقَائِهِ ، آسَةً بِسُبُوغِ نَعْمَائِهِ ، عَامِرَةً بِسَعَادَتِهِ ، مَشِيدَةً بِتَنَاصُصِ عِزِّهِ وَزِيَادَتِهِ ، لَا تُخْطِئُهَا
حَوَائِمُ الْأَمَالِ ، وَلَا تَنْخَطِّطُهَا دِيمُ الْإِقْبَالِ ، وَيُعَرِّفُهُ مِنْ بَرَكَتِهَا ، وَيُمِئُّ عَتَبَتَهَا ، مَا يَقْضِي
بِامْتِدَادِ الْأَجَلِ ، وَأَنْفِيسَاحِ الْأَمَلِ ، وَبُلُوغِ الْأَمَانِي ، وَأَتَّصَالَ التَّهَانِي ، بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومن ذلك :

وَيُنْهِي أَنَّهُ قَدْ أَتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ تَحَوُّلُ مُوَلَانَا إِلَى الْمَنْزِلِ الْمُنْشَأِ الْحَدِيدِ ، ذِي الطَّالِعِ
السَّعِيدِ ، وَالطَّائِرِ الْحَمِيدِ ، فَسَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُبَوِّئَهُ مِنْهُ الْمُبَوَّاءَ الْكَرِيمَ ، وَيَتَّعَهُ فِيهِ
بِالدَّعَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَالتَّمَاءِ وَالْمَزِيدِ ، وَالْعَيْشِ الرَّغِيدِ ، وَيَجْعَلَهُ وَاصِلًا لِحُبْلِهِ ، مَأْهُولًا
بَأَهْلِهِ ، وَيُعَرِّفَهُ بِرَكَّةِ عَتَبَتِهِ ، وَيُمْلِكِهِ بِبَهَائِهِ وَنَضَارَتِهِ ، وَحَصَلَ لِلْمَمْلُوكِ السُّرُورُ بِأَنْ بَلَّغَهُ
اللَّهُ الْوَطَرَ ، فِي سُكْنَى مَاعْمَرٍ ، وَأَنَالَهُ الْأَمَلَ وَالْإِلْتِذَادَ بِخِدْمَتِهِ ، وَالسُّرُورَ بِإِفْتِضَاضِ
عُدَّتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومن ذلك :

مُولَانَا - أَمَتَعَ اللَّهُ بِوُجُودِهِ - غَنَى عَنْ الْهِنَاءِ بِمَنْزِلٍ يَنْزِلُهُ وَمَحَلٍّ يَحُلُّهُ ، إِذِ اللَّهِ
سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى قَدَرُكَ أَوطَانَهُ وَأَدْرَهُ ، وَبَلَّغَهُ فِي تَمَامِ عِمَارَتِهَا وَأَنْفِيسَاحِهَا وَطَرَهُ ،

وخصه بأفضلها معانا ، وأشرفها مكانا ؛ والمستوجب في الحقيقة للهَاء هو الموضع الذي اختاره دارا ، وأرتضاه مستقرا ؛ وعرف المملوك أنتقاله - لازال يتنقل في بروج السعد ، ويأوى إلى ظل ظليل من المجد - إلى الدار الفلانية لازالت جامعة لشمله ، مانوسة بأهله ؛ فعدل عن خدمته بالهناء ، إلى إخلاص الدعاء ، بأن يعرفه الله تعالى بمنها وبركتها ، ويريه إقبالها وسعادتها ؛ ويقرن تحوله إليها بأيمن طائر ، وأبرك طالع ؛ فإن للحركات أوقاتا محمودة ومدمومة : فإذا أعتنى الله تعالى بعبد من عبده ، وفرض له نصيبا من تأييده ؛ وفقه للحركة في الزمن السعيد ، والوقت الحميد ؛ لتكون مصايره مشاكلة لمبادئه ، وأعجازه مشابهة لهواديهِ ؛ والله تعالى يجعل بابها محطا للقصد ، ومناحا للوفاد ؛ ومزارا للعفا ، وملاذا ^(١) [للغنا] ويصل بها حبله ، وينشئ بها طفله ؛ ويضاعف باستيطانها أنسه ، ويسر بنبوغها نفسه ؛ إن شاء الله تعالى .

أبو الفرج البغاء :

أسعد المنازل وأشرف المواطن ما استوطنه أيده الله وتبواه ، وتحير نفسه وأرتضاه ؛ فعدا بشخصه وطن الإقبال ، وبفائض كرمه حرم الآمال ؛ وبشرفه للسودد معقلا ، وبنبيله للرياسة منزلا ؛ فعرفه الله بمن هذه الدار المعمورة محلول البركات ، المحفوفة بتناصر السعادات ؛ وجعلها وكل ربع يقطنه ، ومحل يسكنه ؛ مبشرا بامتداد بقاءه ، وأهلا بالزيادة في نعمائه .

وله في مثله :

كل وطن يحلّه - أيده الله - ويقطنه ، ومحل يتخير ويُسكنه ؛ مقصود بالشكر والثناء ، أهل بالحمد والدعاء ؛ لا يخطأ متوارد الآمال ، ولا تنقطع عنه مواد الإقبال ؛

ولذلك صار هذا المنزل السعيد من فضائل الأرض ومحاسنها، وثَجَّ الآمال ومَعَادِنُهَا؛ فَعَرَفَهُ اللهُ يُمِّنَهُ وبركته، وإقباله وسعادته، وقرنَ أُنْقَالَه إِلَيْهِ بِأَسْبَغِ نِعْمَةٍ، وَأَكْلِ سَلَامَةٍ وَأَبْسَطِ قُدْرَةٍ وَأَعْلَى رُتْبَةٍ .

وله في مثله :

عَرَفَهُ اللهُ [من] بركة هذا المنزل المورود، والفناء المقصود، ما يُوفِي عَلَى سالف ما أولاه من تكامل البركات، وتناصُر السَّعَادَاتِ؛ وجعل مستقرَّه فيه مقروناً بِمُخَوِّ الحال، ونتابع الإقبال، في أفسح المدد وأطولها، وأنجح المطالب وأفضلها، وعمر أوطان المكارم بإقباله، وعَصْدُ الأمانِ بِأَتْسَاعِ نِعْمَائِهِ .

أجوبة التهنية بقرب المزار، ونزول المنازل المستجدة

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرِّقَاع يجب أن تُبْنَى عَلَى الْإِعْتِدَادِ لِلْهَيِّ بتعهده، والشكر له على تَوَدُّدِهِ؛ وَالْإِتِّهَاجِ بَهَائِهِ، والتبرُّك بدعائه؛ وَأَنَّ الْمُسْتَجِدَّ غَيْرِ مَبِينٍ لِمَنْزِلِهِ، وَلَا خَارِجٍ عَنْ أَحْكَامِ مَحَلِّهِ؛ وَأَنَّ تَمَامَ بَرَكَتِهِ، أَنَّ يُؤْنَسَ فِيهِ بَزِيَارَتِهِ؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نَوَادِرُ التَّهْنِائِي، وَهِيَ خَمْسَةُ أَصْنَافٍ)

الصنف الأول — تهنية الذمى بإسلامه .

فمن ذلك ما أورده أبو الحسين بن سعد في ترسله، وهو :

وَمَا زَالَتْ حَالُكَ مُمَثِّلَةً لَنَا جَمِيلٌ مَا وَهَبَ اللهُ فَيْكَ حَتَّى كَأَنَّكَ لَمْ تَزَلْ بِالْإِسْلَامِ مَوْسُومًا، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى غَيْرِهِ مُقِيمًا؛ وَقَدْ كُنَّا مُؤْمِلِينَ لِمَا صِرْتَ إِلَيْهِ، وَمُشْفِقِينَ لَكَ

مَّا كُنْتُ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا كَادَ إِشْفَاقُنَا يَسْتَلِي عَلَى رَجَائِنَا ، أَتَتِ السَّعَادَةُ فَيْكَ بِمَا لَمْ تَزِلِ
الْأَنْفُسُ تَعُدُّ مِنْكَ ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ الَّذِي نَوَّرَكَ فِي رَأْيِكَ ، وَأَضَاءَ لَكَ سَبِيلَ رُشْدِكَ ،
أَنْ يُوَهِّلَكَ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَأَنْ يُؤْتِيَكَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَيَقِيَكَ عَذَابَ النَّارِ .

ومن ذلك ، من كلام أبي العيَّاء :

وَلَتَهْنِئَكَ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فِي أَخَوَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ ؛
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَوَّزَ قِدْحَكَ [وَأ] عَلَى كَعْبِكَ ، وَأَنْقَذَ مِنَ النَّارِ شِلْوُكَ ؛ وَخَلَّصَكَ مِنْ لَبَسِ
الشَّكِّ ، وَحَيْرَةِ الشَّرْكِ ؛ فَأَصْبَحْتَ قَدْ اسْتَبَدَلْتَ بِالْأَذْيَارِ الْمَسَاجِدَ ، وَبِالْآحَادِ الْجُمُعَ ؛
وَبِقِبْلَةِ الشَّامِ ، الْبَيْتَ الْحَرَامَ ؛ وَبِتَحْرِيفِ الْإِنْجِيلِ ، صِحَّةَ التَّنْزِيلِ ؛ وَبِأَوْنَانِ
الْمُشْرِكِينَ ، قِبْلَةَ الْمُوحِدِينَ ؛ وَبِحُكْمِ الْأُسُقُفِّ رَأْسِ الْمُلْحِدِينَ [حَكَمَ] أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ؛ فَهَنَّاكَ اللَّهُ مَا نَعْمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ وَذَكَرَكَ شُكْرَهُ ،
وَزَادَكَ بِالشُّكْرِ مِنْ فَضْلِهِ .

أجوبة التهئية بإسلام ذمي

قال في "موادَّ البيان" : أجوبة هذه الرِّقَاع ينبغي أن تكون مبنية على شكر المهنِّاة
للمهنِّي ، واعترافيه بنعمة الله تعالى عنده ، وأبتهاجه بما رزقته في الدِّين ، الذي جعل الله
أهلَهُ إخواناً متصافين ، وخُلَلاً متوافين ، ومنَّ عليهم به ، وبإماطة الحسائِف من
قلوبهم ، ونحو هذا .

الصنف الثاني - التهئية بالختان ونحروج اللحية .

فمن ذلك تهئية لأَمِيرٍ يَخْتَان وَلَدَيْنَ لَهُ :

فمن خصائص ما حباه الله بعد الذي قدَّم له في نفسه - نفس الله مُدَّتْهَا ؛ وَوَسَّعَ
له مُهْلَتَهَا ، وَأَفْنَى الْأَعْدَادَ دُونَ فَنَائِهَا ، وَالْأَعْمَارَ دُونَ تَصَرُّمِهَا وَأَتْنَائِهَا : [من] الْفَضَائِلِ

(١) الحسائِف جمع حسيفة وهي الضغينة والسخيمة أنظر اللسان في ج ١٠ مادة ح س ف .

المشهوره، والمحاسن المذكوره؛ والمناقب الماثوره، وأقسام الفضل الذى يتقضى
دُونَ تصرُّم(?) منازلَه وصفُ الواصف إذا أفرط، ويتهى دون أيسرها أمل الآمل
إذا اشتط - ما وهب الله له من أولادٍ ساديه فصلهم فى الأخلاق والصُّور، وأكلهم
فى الأجسام والمرَب؛ وقدمهم فى العُتُول والأفهام؛ والقرايح والألباب، ولم يحصل
للعايب فيهم سيمه، ولا للإناث بينهم شركه؛ حتى يكون مسلماً لهم قصب العُلا
والمفاخر، وصدور الأسيرة والمنابر؛ من غير منازع، ولا مقارع، ولا مساهم،
ولا مُقاسم، وزادهم من الثماء فى النشء والبركة واليمن بما يؤذن الحاضر منه بالغابر،
ويدل البادى على الآخر؛ وعداً من الله تعالى ذكره لهم بأوفى السعادات، وأكمل
الخيرات وأعلى الدرجات؛ أرجو أن يجعل الله التَّجَجَّ قرينه، والنجاة ذريعته؛
وما أولاه فيهم فى هذه الحال الحادثة التى يعِدُّ الله بها أداء الفريضة، وكِمال
الشريعة؛ ويقع التطير بالختان، الذى جعله الله من شروط الإيمان، وفرضه على
جميع الأديان: من السلامة على عِظَم الخطر، وشِدَّة الغرر؛ فى إمضاء الحديد على
أعضاء ناعمه، وإيصال الألم إلى قلوب وادعة، لم تقارع نصبا، ولم تُعانِ وصبا؛
وآجتماع فيه إلى رقة الصبا، وضعف الأسر والقوى؛ اعتياد الرحمة، ومخالفة الترفه
والتنقل بين الشهوات؛ على أن كل واحد من الأميرين شهد المعركة أعزَل حاسرا،
وباشر الحرب مغترا مخاطرا؛ فثبت لوقع السلاح، وصبر على ألم الجراح؛ وأبلى
بلاء الفارس المدجج، والكبي المقع؛ ثم خرج خروج شبل الليث، وفرخ العقاب،
كالقذح المعلق والشهاب الساطع، والنجم الناقب؛ وكان فلان أكثرهما تغيرا فى وجه
قرنه، وسطوة على منازلِه؛ وكل قد حصل فوق الحصل، وحوى فضيلة السبق؛
وأستحق اسم البأس والشدة، وحلية البسالة والنجده.

ومن ذلك ما أورده أبو الحسين بن سعد في كتابه :

الحمد لله الذي كَسَاكَ بِالْحَيَّةِ حُلَّةَ الْوَقَارِ ، وَرَدَّكَ رِدَاءَ ذِي السَّمْتِ مِنَ الْأُبْرَارِ
وَالْأَخْيَارِ ؛ وَصَانَكَ عَنْ مَيْسَمِ الصَّبَا ، وَمَطَامَعَ أَهْلِ الْهَوَى ؛ بِمَا جَلَّلَكَ مِنَ الْحَيَّةِ
الْبَيْهَةِ ، وَأَلْبَسَكَ مِنْ لِبَاسِ ذَوِي الْأَلْبِ وَالرَّوْيَةِ ؛ وَأَلْحَقَكَ فِي مَتَصَرِّفَاتِهِ بِمَنْ يَسْتَقِلُّ
بِنَفْسِهِ سَاعِيَا ، وَيَسْتَفْنِي عَمَّنْ صَحْبِهِ حَافِظًا ؛ وَجَعَلَ مَا جَمَّلَ مِنْ صُورَتِكَ ، وَكَلَّ مِنْ
أَدَاتِكَ وَآلَتِكَ ؛ قِرْنًا لِمَنْ جَادَ بِكَ ، وَخَصْمًا لِمَنْ نَارَكَ ؛ وَفَنَى عَنْكَ ذِلَّةَ الْإِحْتِقَارِ ، مِنْ
أَهْلِ الْمَرَاتِبِ وَالْأَخْطَارِ ؛ تَسْتَوِي [بِهِمْ] فِي الْمَجَالِسِ الْحَافِلَةِ ، وَتَجْرِي مَجْرَاهُمْ فِي الْمَشَاهِدِ
الْجَامِعَةِ ؛ مَسْمُوعًا قَوْلُكَ إِذَا قُلْتَ ، وَمُضْنَى إِلَيْكَ إِذَا نَطَقْتَ ؛ أَمْنًا مِنْ أَنْصَرَفِ
الْأَبْصَارِ عَنْكَ لِقُرْبِ وَلَادِكَ ، وَمِنْ [عَدَمِ] الْاسْتِمَاعِ لِحَدِيثِكَ لِقَلَّةِ الثَّقَةِ بِسَدَادِكَ ؛
وَجَارِيًا تَجْرِي كَلِمَةُ الرِّجَالِ عَلَى الْجُمْلَةِ ، إِلَى أَنْ يَكْشِفَ اللَّهُ مُحَارِبَكَ بِالْمِحْنَةِ ؛ وَتَعْطَى
الْمَهَابَةَ مِنَ الدَّاعِرِ الْعَادِي ، وَمِنْ السَّبْعِ الضَّارِي ؛ وَلَوْ كَانَ عَارِيًا مِنْ هَذِهِ الْكُسُوفِ
الشَّرِيفَةِ ، وَالْحَلِيَةِ الْمَلْحُوظَةِ ؛ لَسِيقَتْ إِلَى الْإِزْدِرَاءِ بِالْأَعْيُنِ ، وَالْإِسْتِصْغَارِ بِالْقُلُوبِ
وَالْإِنْسَانِ ؛ أَصْنَافُ الْحَيَوَانِ : مِنَ الْبَيْهَةِ وَالْإِنْسَانِ ؛ ثُمَّ لَا يُحْسِنُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى
الدَّفْعِ عَنْهَا ، وَلَا مِنْ صَرَعَتِهِ ثَبَاتًا (؟) عَلَى يَدِهَا فِيهِ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ حَبَاكَ
بِمَرْتَبَتِهَا فِي جَمَالِ غَشَاكَ ، وَكِبَالِ أَتَاكَ ؛ فَلْيُصَدِّقْ بِهَا اعْتِرَافُكَ وَشُكْرُكَ ، وَلْيُحْسِنْ ثَنَاؤُكَ
وَنَشْرُكَ ؛ قَضَاءً لِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ ، وَاسْتِذْرَارًا فِي الْمَزِيدِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ .

الصنف الثالث — التهئية بالمرض .

أبو الفرج البغواء :

فِي ذِكْرِ اللَّهِ سَيِّدِي هَذَا الْعَارِضِ — أَمَا طَهُ اللَّهُ وَصَرَفَهُ ، وَجَعَلَ صِحَّةَ الْأَبَدِ خَلْفَهُ —
مَادَّلَ عَلَى مَلَاخِظَتِهِ إِيَّاهُ بِالْعَنَاءِ ، إِيقَاطًا لَهُ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ ؛ إِذْ كَانَ تَعَالَى لَا يُدَكَّرُ

(١) غشى فلان فلانا أناه كغشاء يغشوه . قاموس .

بَطْرُوقِ الآلَامِ ، وَتَبْيِهِهِ الْعِظَاتِ ، غَيْرَ الصَّفْوَةِ مِنْ عِبَادِهِ ، الْخَيْرَةِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ ؛ فَهَنَاهُ
 اللَّهُ الْفَوْزَ بِأَجْرِ مَا يُعَانِيهِ ، وَحَمَلَ عَنْهُ بِالطَّافَةِ نَقْلَ مَا هُوَ فِيهِ ؛ وَأَعْقَبَ مَا اخْتَصَّ بِهِ
 مِنْ ذَخَائِرِ الْمُثُوبَةِ وَالْأَجْرِ بِعَافِيَةٍ تَقْتَضِيهِ ؛ وَلَا سَلَبَ الدُّنْيَا جَمَالَ بَقَائِهِ ، وَلَا نَقْلَ ظِلِّهِ
 عَنْ كَافَّةِ خَدَمِهِ وَأَوْلِيَائِهِ .

الصنف الرابع - التهئة بالصَّرف عن الولاية .

أبو الفرج البغاء :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّهُ - أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مِنْ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ وَالنُّبُلِ ، كَانَ مَعْظَمًا فِي حَالَتِي
 الْوِلَايَةِ وَالْعَزْلِ ؛ لَا يَقْدَحُ فِي قَدْرِهِ تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ ، وَلَا يَنْقُلُهُ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الْفَضْلِ
 تَقَلُّبُ الْأَعْمَالِ ؛ إِذْ كَانَ أَسْتِحْشَاشُهَا لِلْفَاسِتِ مِنْ بَرَكَاتِ نَظَرِهِ ، بِحَسَبِ أَنْسَاهَا كَانَ
 بِمَا أَفَادَتْهُ مِنْ مُجُودِ أَثَرِهِ . فَهَنَاهُ اللَّهُ نِعْمَةَ الْكِفَايَةِ ، وَأَوْزَعَهُ شُكْرَ مَا أَحْتَازَهُ مِنْ
 النَّزَاهَةِ وَالصِّيَانَةِ ؛ وَلَا أَخْلَاهُ مِنَ التَّوْفِيقِ فِي سَائِرِ مَتَمَسَّرَاتِهِ ، وَالْخَيْرَةِ الضَّامِنَةِ
 لِمَوَاقِبِ إِرَادَاتِهِ .

وله في مثله :

لَوْ كَانَتْ لِمُسْتَحْدَثِ الْأَعْمَالِ وَمُسْتَجِدِّ الْوِلَايَاتِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا اخْتَصَّكَ بِهِ
 مِنْ كَمَالِ الْفَضْلِ ، وَمَأْثُورِ النُّبُلِ ، لِحَازِنَا أَنْتَقَالَ ذَلِكَ بِأَنْتَقَالِ مَا كُنْتَ تَتَوَلَّاهُ بِمُجُودِ
 كِفَايَتِكَ ، وَتَحَوُّطِهِ بِنَوَاطِرِ نَزَاهَتِكَ وَصِيَانَتِكَ ؛ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَكَ بِالْفَضْلِ
 مَتَقَمِّصًا ، وَبِالْمَحَامِدِ مَتَخَصِّصًا ؛ فَلَا أَسْفُ فِيمَا تَنْظُرُ فِيهِ عَلَيْكَ لَامِنُكَ ، وَالْفَائِدَةُ فِيمَا
 نَتَقَلَّدُهُ بِكَ لَالِكَ ؛ وَلِذَلِكَ كُنْتَ بِالصَّرفِ مَهْنًا مُسْرُورًا ، كَمَا كُنْتَ فِي الْوِلَايَةِ مُجُودًا
 مُشْكُورًا ؛ فَلَا أَخْلَاكَ اللَّهُ مِنْ تَوَاصُلِ آلَائِهِ ، وَتَظَاهُرِ نِعَمَائِهِ ؛ فِي سَائِرِ مَا تُبْرِمُهُ
 وَمُخَصِّصِهِ ، وَتَعْتَمِدُهُ وَتَرْتَبِيهِ .

أبو الحسين بن سعد - عمن تولى عملاً إلى من صرف عنه :
 قد قلّدتُ العملَ بناحيَتِكَ ، فهَنَّاكَ اللهُ تَجْدِيدَ وَلَايَتِكَ ، وَأَنْفَذْتُ خَلِيقِي لِحِلَافَتِكَ ؛
 فلا تُخْلِه من تبصيرك وهدايتك ، إلى أن يَمُنَّ اللهُ بزيارتك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانت رِياسَةُ سَيِّدِي مَجْنِيَّةً من عُروشِ الْوِلايَاتِ ، وَسِيادَتُهُ خَارِجَةً عن سَانِحِ
 التَّصَرُّفَاتِ ، لَأَشْفَقَ أَوْلِيائُهُ من زوالها بمزايلتيهما ، وَحَذَرُوا من أَنْتِقَالِها بِنَقْلِها ؛ لَكِنْ
 ما وَسِمَ به من الكمال ، وَعَلَا به من رُتَبِ الْجَلَالِ ؛ مَوْجُودٌ في غَرِيزَتِهِ وَجُودَ الْفِرْدُ
 في السِّيفِ المَأْتُورِ ، وَاللَّاءِ في النُّورِ ؛ وَإِذَا تَصَرَّفَ ، أورد اللهُ الرِّعْيَةَ من مِشارِعِها
 نِطَافاً ، وَأَسْبَغَ عليهم من ظِلِّها عِطَافاً ؛ وَإِذَا أَنْصَرَفَ خَيْرَ مُسْبِلٍ تَقَلَّصَ ، وَعِشَّ
 رَائِعَ تَنْغَصَّ ؛ وَالْأُسْفُ على الْعَمَلِ السَّالِبِ من حُلِّ سِياسَتِهِ الْفَاضِلِ ، الْعَاطِلِ
 من حِلِّي سِيرَتِهِ الْعَادِلِ ؛ وَلِهَذَا أَصْبَحَ - أَيَّدَهُ اللهُ - بِالْعَزْلِ مَبْتَهِجاً مُسْرُوراً ، كَمَا كانَ
 في الْوِلايَةِ مَحْمُوداً مُشْكُوراً ؛ وَأَنْطَلَقْتُ أَلْسِنَةُ أَوْلِيائِهِ ، في هَنَائِهِ ، بِما وَهَبَهُ اللهُ من الرِّفَاقَةِ
 والدَّعَةِ ، وَحَطَّه عنه من الْأَثْقَالِ الْمُقْلِقَةِ ؛ وَلَا سِيَّماً وَقَدْ عِلِمَ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ أَنَّ الْأَعْمَالِ
 إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ ، وَعُودَ فيها عَلَيْهِ ؛ تَسَلَّمَ المودِعُ وَدِيعَتَهُ ، وَالنَّاشِدُ ضَالَّتَهُ ؛ وَإِذَا عُدِلَ
 فيها إلى غيرِها تَنَاولَها الْغَاصِبُ ، وَاسْتَوَلَى عليها اسْتِيلَاءُ السَّالِبِ ؛ فلا تَزَالُ نازِعَةً
 إلى رَبِّها ، مُتَطَلِّعَةً إلى خِطْبِها ؛ حَتَّى تَعُودَ إلى مَحَلِّها ، وَتَرْجِعَ إلى نَصْلِها ؛ وَاللهُ تَعَالَى
 أَسْأَلُ أَنْ يَقْضِيَ لِمَوْلانا بُلُوغَ الْأَوْطَارِ ؛ إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولاية والخدمة

قال في "موادّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتها مبنية على شكر الاهتمام والاعتداد
 بالمشاركة في الأحوال ، مع وقوع ما ورد من الخطاب الموقّع اللطيف ، وما ينتظم
 في هذا السلك .

جواب مَنْ ورد عليه تَابُ من وَلِي مكانه في معنى ذلك .
فمن ذلك :

ما أَنْصَرَفْتُ عَنِّي نِعْمَةٌ أُهْدِيَتْ إِلَيْكَ ، وَلَا خَلَوْتُ مِنْ كَرَامَةٍ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْكَ ؛ وَإِنِّي
لَأَجِدُ صَرْفِي بِكَ وَلَا يَهْ ثَانِيهِ ، وَحُلَّةٌ مِنَ الْوِزْرِ وَاقِيهِ ؛ لَمَّا أَمَلَهُ بِمَكَانِكَ مِنْ حَمِيدِ
الْعَاقِبَةِ وَحَسُنَ خَاتَمُهُ .

الصفحة الخامسة — تهنئة من تزوجت أمه بزواجها .

قد تقدم في أول المقالة الأولى في حكاية حائك الكلام مع عمرو بن مسعدة وزير
المأمون ، أنه قال يُكْتَبُ إليه :

أما بعد ، فَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي عَلَى خِلَافِ مَحَابِّ الْمَخْلُوقِينَ [وَاللَّهُ يُخْتَارُ لِعِبَادِهِ] ، نَحَارُ^(٢)
إِلَهُكَ فِي قَبْضِهَا [إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْقُبُورَ أَكْرَمَ الْأَكْفَاءِ] وَالسَّلَامَ .^(١)

أبو الفرج البغاء : وقد أمره سيف الدولة أَبُو حَمْدَانَ بِالْكِتَابَةِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ أَمْتَحَانًا لَهُ :
مَنْ سَلَكَ إِلَيْكَ — أَعَزَّكَ اللَّهُ — سَبِيلَ الْإِتِّسَاطِ ، لَمْ يَسْتَوْعِرْ مَسْلَكَ مِنْ
الْمُخَاطَبَةِ فِيمَا يَحْسُنُ الْإِتِّقَابُ عَنْ ذِكْرِ مِثْلِهِ . وَاتَّصَلَ بِي مَا كَانَ مِنْ خَيْرِ الْوَاجِبَةِ
الْحَقِّ عَلَيْكَ ، الْمُنْسُوبَةِ بَعْدَ نِسْبَتِكَ إِلَيْهَا إِلَيْكَ — وَفَرَّ اللَّهُ صِيَانَتَهَا — فِي اخْتِيَارِهَا مَا لَوْلَا أَنَّ
الْأَنْفُسَ تَتَنَازَعُ ، وَشَرَعَ الْمُرُوءَةُ يَحْظُرُهُ ، لَكُنْتُ فِي مِثْلِهِ بِالرِّضَا أَوْلَى ، وَبِالْإِعْتِدَادِ
بِمَا جَدَّدَهُ اللَّهُ فِي صِيَانَتِهَا أُخْرَى ؛ فَلَا يُسَخِّطَنَّكَ مِنْ ذَلِكَ مَارِضِيَّةٌ وَجُوبُ الشَّرْعِ ،
وَحَسَنَةُ أَدَبِ الدِّيَانَةِ ؛ وَمُبَاحٌ لِلَّهِ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ لَمَّا عَدِمَ
اخْتِيَارَهُ تَسَخُّطِ اخْتِيَارِ الْقَدَرِ لَهُ ، وَالسَّلَامَ .

(١) تقدم في ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتمد" .

(٢) الزيادة مما تقدم في ج ١ ص ١٤٥ .

النوع الثاني

(من مقاصد المكاتبات التعازي)

قال في "موادّ البيان" : المكاتبَةُ في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال : لما تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر، والتسليم إلى الله جلّت قدرته، وتسليّة المعزى عما يُسلبه بمشاركة السابقين فيه، ووعدِهِ بحُسن العِوض في الجزاء عنه، إلى غير ذلك مما ينتظم في هذا المعنى . قال : والكَاتِبُ إذا كان جَيِّدَ الْغَرِيزَةِ حَسَنَ التَّائِي فِيهَا، بلغ المراد . ثم قال : وحكمها حكم التَّهَانِي من الرئيس إلى المرعوس ومن المرعوس إلى الرئيس ومن النظير إلى النظير .

ثم التعزية على أَضْرَب :

الضرب الأول

(التعزية بالابن)

أبلغ ما كُتِبَ به في ذلك ما كتب به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إلى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، معزّيّاً له بابنٍ له مات ، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وأبو جعفر النحاس في صناعة الكُتَّاب ، وهو :

«من محمد رسول الله إلى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ :

«سَلامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»

«أما بعد، فعَظَّمَ اللهُ لَكَ الْأَجْرَ، وَأَهْلَمَكَ الصَّبْرَ، وَرَزَقَنَا وَإِيَّاكَ»

«الشُّكْرُ. ثُمَّ إِنَّ أَنْفُسَنَا وَأَهْلِيْنَا وَمَوَالِيْنَا مِنْ مَوَاهِبِ اللهِ السَّنيَّةِ، وَعَوَارِفِهِ»^(١)

(١) في أصولنا بالفناء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالباء جمع عارية .

«المستودعة، تمتع بها إلى أجلٍ معدود، وتقبض لوقتٍ معلوم؛»
 «ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى؛ وكان أبناك من»
 «مواهب الله الهنيئة، وعوارفه المستودعة؛ متعك به في غبطة وسرور،»
 «وقبضه منك بأجرٍ كثير: الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت»
 «وأحتسبت؛ فلا تنجعن عليك يامعاذ خصلتين إن يحبط جزعك»
 «صبرك فتندم على ما فاتك؛ فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت»
 «ربك وتجزت موعوده، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه . وأعلم»
 «أن الجزع لا يرد ميتا، ولا يدفع حزنا؛ فأحسن الجزاء وتجز الموعود؛»
 «وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد .»

من كلام المتأخرين :

تعزية بولد . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهي بعد الألقاب .

وأحسن عزاءه بأعز فقيد، وأحب حبيبٍ ووليد؛ وعوض بجمل الصبر جوانحه
 التي سئلت عن الأسى فقالت : ثابتٌ ويزيد . صدرت هذه المفاوضة تهدي إليه
 سلاما يعز عليه أن يتبع بالتعزية ، وثناء يسق عليه أن يطرح حائم سحجه المطربة
 بجرائم الشجوة المبكية المنكية ؛ وتوضح لعلمه ورود مكاتبته المؤلمة ، فوقفتنا عليها إلا أن
 الدمعة ماوقفت ، وخواطر الإشفاق عليه وعلى من عنده طفت حرقها وما أنطفت ؛

(١) في أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع غارية .

(٢) أى فقد الثواب وفقد الولد . وإليه يشير من عزى عمر بن عبد العزيز بانه فقال :

وعوضت أجرا من فقيد فلا يكن * فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

وعلمنا ماشرحه ولم يشرح الصدر على العادة - من وفاة الولد فلان، سقى الله عهده
 ولحده، ونضر وجهه ونغمد بالرضوان خاله وحده، وما بقى إلا التمسك بأسباب
 الصبر، والتفويض إلى من له الأمر؛ والدنيا طريق والآخرة دارٌ ودهليزها القبر؛
 وللمرء من تثبته وازع، والاجتماع بالأحبة الراحلين واقع؛ إن لم يصبروا إلينا صرنا
 إليهم، وإن لم يقدموا في الدار الفانية علينا قدمنا في الدار الباقية عليهم؛ نسأل الله
 تعالى أن يجمعنا في مستقر رحمته، ويحضرنا مع الأطفال أومع المتطفلين ولائم جنته؛
 والله تعالى يدارك بالصبر الجميل قلبه، ولا يجمع عليه فقد الثواب وفقد الأحبة.

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

رزقه الله تعالى ثباتاً على رزيته وصبراً، وجعل له مع كل عسر يسراً؛ وأبقاه
 مفدى بالأنفس والنفائس، وكان له أعظم حافظ من نوب الدهر وأجل حارس.
 المملوك ينهى علمه بهذه النازلة التي فتت القلوب والأبصار، وكادت أن تفرق
 بين الأرواح والأجساد؛ وأذات ذخائر العيون، وأبتدلت من المدايع كل مصون؛
 وأذابت المهج تحرقاً وتلهباً، وجعلت كل قلب في نارٍ الأسى والأسف متقلباً؛
 وهى وفاة ولده الذى صغرسه، وتزايد لفقده هم المملوك وحرته :

ونجلك لا يئسكى على قدر سنه * ولكن على قدر المخيلة والأصل !

وكان الأمل يحدث بأنه يشد للولـى أزره، ويشرح بره صدره؛ ويؤئل مجده؛
 ويؤبى الذكر الجميل بعده؛ ففقد من بين أترابه، وذوى عند ما أئنع غصن شبابه؛
 وغيب منظره الوسيم في لحده وترابه؛ وسيدنا يعلم أن الموت منهل لا بد من ورده،
 وابن آدم زرع لا بد من حصده؛ وأن المنية تشمل الصغير والكبير، والجليل والحقير،

والغنيَّ والفقير ؛ فينبغي له أَسْتَعَالَ صَبْرُهُ ، وَالْأَسْتِشَارَ بِمُضَاعَفَةِ أَجْرِهِ ؛ وَاللَّهِ يَمْتَنِعُهُ
بِأَهْلِهِ وَطَوَّلَ حُمُرَهُ .

وله :

لَهْفِيْ وَمَا لَهْفِيْ عَلَيْكَ بِنَافِعِ ! * كَلَّا وَلَا وَجَدِيْ وَلَا حُرْقَاتِيْ !
يَا مَنْ قَضَى قَفْضِيْ سُرُورِيْ بَعْدَهُ * وَتَحَدَّرَتْ أَسْفًا لَهُ عِبْرَاتِيْ !
عُقْدُ التَّجَلُّدِ حَلَّهَا فَرَطُ الْأُسَى * وَالْقَلْبُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْحَسَرَاتِ !
لَوْ كُنْتُ مَنْ يُشْتَرَى أَوْ يُقْتَدَى * لَفُصِدَتْ بِالْأَرْوَاحِ وَالْمُهْجَاتِ !
كُنْتُ الْمُدَّ لِنُصْرَتِيْ فِي شِدَّتِيْ * فَقَضَى الْحِمَامُ بِفُرْقَةٍ وَشَتَاتِ !
وَاللَّهِ لَا أُنْسِيْتُ نَذْبَكَ وَالْبُكََا * أَبَدًا مَدَى الْأَنْفَاسِ وَاللَّحْظَاتِ !
وَيَسْؤُنِي أَنْ عِشْتُ بَعْدَكَ سَاعَةً * أَسْفًا لِفَقْدِكَ مَيِّتًا وَحَيَاتِيْ .

أَعْظَمَ اللَّهُ أَجْرَ مَوْلَانَا وَمَنَحَهُ صَبْرًا جَمِيلًا ، وَأَجْرًا جَزِيلًا ، وَشَاءَ عَرِيضَ الشُّقَّةِ
لثَبَاتِهِ عَلَى هَذِهِ الْفَادِحَةِ طَوِيلًا ؛ وَجَعَلَ هَذِهِ الرِّزِيَّةَ خَاتِمَةَ الرِّزَايَا ، وَمَحْصَةً جَمِيعِ
الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ، وَلَا جَفَعَهُ بَعْدَهَا فِي قُرَّةِ عَيْنٍ ، وَلَا أَوْرَدَ مُحِبُّوًّا شُغْفَ بِهِ قَلْبُهُ الْكَرِيمُ
مَنْهَلَ الْحِمَامِ وَلَا سِقَاهُ كَأْسَ الْحَيْنِ .

الْمَلُوكُ يَقْبَلُ الْبِسَاطَ الَّذِي مَاقِيٌّ لِنُشْرِ الْمَعْدِلَةِ مُبْسُوطًا ، وَكُلُّ أَمَلٍ يَبْرُهُ مُنَوَّطًا .
وَيُنْهِى إِلَى الْعِلْمِ الشَّرِيفِ عِلْمَهُ هَذِهِ الْبُصِيَّةُ الَّتِي أَصَابَتْ فُؤَادَ كُلِّ حَبِّ فَاصِمَّتِهِ ،
وَطَرَقَتْ سَمْعَ كُلِّ وَلِيٍّ فَاصِمَّتِهِ ؛ وَوَلَحَتْ كُلَّ قَلْبٍ فَاحْرَقَتْهُ صَبَابَةٌ وَحُرْنَا ، وَمَرَّتْ
عَلَى الصَّلْدِ فَصَدَّعَتْهُ وَلَوْ كَانَ حُرْنَا ؛ وَهِيَ وَفَاةٌ فَلَانُ سَقَى اللَّهُ عَهْدَهُ ، وَأَسْكَنَ الرَّحْمَةَ
ثَرَاهُ وَلَحْدَهُ ؛ فَشَقَّ أَسْفًا عَلَى الْمَفْقُودِ جِيبَ كُلِّ جَنَانٍ وَطَوَى الْأَكْبَادَ عَلَى جِرَاحِهَا ،
وَحَسَرَ الْأَجْسَادَ عَلَى أَرْوَاحِهَا :

وَمَا هِيَ إِلَّا نَكْبَةٌ أَوْ نَكْبَةٌ * أَهَاجَتْ سَعِيرًا فِي الْحَشَا يَتَلَهَّبُ !
 فَلَا جِسْمَ إِلَّا بِالتَّحَرُّقِ ذَائِبُ * وَلَا قَلْبَ إِلَّا فِي الْأَسَى يَتَقَلَّبُ !
 بَكَى كُلَّ جَفْنٍ مَضْرَعِ السِّيفِ فَاعْتَدَتْ * عَيُونٌَ عَلَيْهِ فِي الْأَبَاطِحِ تَسْكُبُ !
 لَقَدْ هَالُ عُدَالِي بُكَائِي تَعْجِبًا * وَإِنَّ بُكَائِي بَعْدَ فَقْدِهِ عَجَبُ !
 فَلَوْرَامَ قُسٍّ وَصَفَ حُزْنِي وَلَوْعِي * لَقَصَّرَ فِي أَوْصَافِهِ حِينَ يُسْهَبُ !
 فَوَاللَّهِ لَا جَفَّتْ جُفُونِي مِنَ الْبُكَاءِ * وَإِنْ زَادَ عُدَالِي الْعَنَابَ وَأَطْنَبُوا !

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعة يدعو لمولانا فيها ويعزيه، ويندب فقيدَه بالسنة
 الأقالام ويبيكه ؛ ويشره بما وعد الله الصابرين على مثل هذه الرزية ويسليه ؛
 فيالها نازلةً فجعت بغضن رطيب، وقيرفل من الشيبة في ثوب قشيب، وصدعت
 القلوب بفقد حبيب وأي حبيب :

والموت نقاد على كفه * جواهر يختار منها الحيا !

وبعد، فللمملوك في هذه الرزية مشاركة كادت تبين بين رُوحه والجسد،
 وهو المصيب لهذه المصيبة ما تجده الوالدة على فقد الولد؛ لا يستقر به قرار، ولا يُجيه
 من يد الحزن فرار؛ دأبه البكاء والعيول، وحزنه العريض الطويل؛ فواضعفاه
 عن حمل هذا المصاب، وواأسفاه على مسافر لا ينتظر له قدوم ولا إياب؛ وواعجباه
 ليضدين اجتماعا لوالده الكريم الجناب !

تخون المنايا عهدَه في سليله * وتضمره بين الفوارس والرجل !

وعلى كل حال فهو أجدر من استعان على هذه الحادثة بصبره، وشرح لما قد قدر
 فسيح صدره، وشكر الله على حلو القضاء ومُره؛ فإكان إلا أحد العمرين فقد
 خلفه عمر، وثاني القمرين أقل فقام مقامه هلال قدم من سفر؛ وفي بقاء المولى

ما يُوجب التسليم للقدَر والقضاء ، والشكر لله تعالى في حالتي الشدة والرخاء ؛ جعله الله في حِرْز لا يزال حَرِيْزاً مَكِيْناً ، وَحِصْنٌ عَلَى مَمَرِ الْأَيَّامِ حَصِيْناً .
وله : أعظمَ الله أجره ، وأطال عُمره ؛ وشرح صدره ، وأجل صبره ، وسخر له دهره .

المملوك يُنبئ أنه اتَّصل به خبرٌ صدع قلبه ، وسرق رُقاده ولَّبه ، وضاعف أسفه وكرَّبه ؛ وهو [موت] فلان تغمَّده الله برحمته ، وأهمي عليه سحائب مغفرته ؛ وعامله بلطفه ، وجعل الخيرة له في حتفه ؛ فشق ذلك قلبه وعظم عليه ، وقارب لشديد حُرْنه أن يصل إلى ما وصل المرحوم إليه ؛ لكنَّه ثبت نفسه وشبطها ، ورفع يده بالدعاء للولى وبسطها ؛ وسأل الله أن يطيل بقاءه ، ويحسن عزَّاءه ، ويحرسه من أزمات الزمان ، فإنه إذا سلم كان الناس في السلامة والأمان ؛ ويحمله عن كل فائت عَوْضاً ، كما أصاره جَوْهراً وجعل غيره من الأنام عَرَضاً ؛ ولقد جلت هذه الرزية على كلِّ جناب ، ودخل حُرْنها إلى كلِّ قلب من كلِّ باب ؛ جعل الله أجره للولى من أعظم الدخائر ، ومنحه الحياة الأبدية التي لا تنتهي إلى أمدٍ ولا آخر ، إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(التعزية بالبنات)

من كلام المتقدمين :

ابن أبي الخصال المغربي :

الشيخ فلان عزَّاه الله على أحسابه ، وجعل الثواب المرتقب أفضل أقتنائه وأكسابه . مُعْزِيَهُ عَنْ فِلْدَةٍ كَبِدَةٍ ، وَمَسَاهِمُهُ فِي أَرْقِهِ وَسُهِدِهِ ، وَالْفَاتُ فِي عَضْدِ صَبْرِهِ الْجَمِيلِ وَجَلَدِهِ ؛ فلان . فَإِنِّي كَتَبْتُه - كتب الله لكم خيراً يُذهب جزعكم ،

وَحَسَنَ مَنَاجَاكُمْ بِالتَّفْدَى الْجَمِيلِ وَمَنْزَعَكُمْ - عِنْدَ مَا وَصَلَنِي وَفَاةُ آبَتِكُمْ الْمَرْحُومَةِ نَفْعَهَا اللَّهُ بِإِيمَانِهَا، وَتَلَقَّاهَا بِرُوحِ الْجَنَّةِ وَرَيْحَانِهَا؛ وَهِيَ - أَعَزُّكَ اللَّهُ - وَإِنْ أَلَمَكَ فَقَدْهَا، وَأَوْجَعَكَ أَنْ أَسْأَثَرِهَا لَحْدُهَا؛ فَلْيَعَزَّكَ عَنْهَا مُصَابُنَا بِنِينَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلِمُكَ بِأَنَّا جَمِيعًا بِمَدْرَجَةِ الْحِمَامِ؛ أَتَجِدُ عَلَى الْأَرْضِ خَالِدًا، وَقَدِيمًا نَكُنَّا وَلِيدًا نَحْيَا وَوَالِدًا، فَمَنْ خُلِقَ لِلْفَنَاءِ، وَأَخْتَلَسَ بِمَرِّ السَّاعَاتِ وَالْآثَاءِ، جَدِيرٌ أَنْ يَتَّعِظَ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَحْزَنَ لَذَهَابِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ دَوَى أُنْسِهِ؛ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ رَجَحْتَ مِيزَانَكَ، وَضَمِنْتَ لَكَ يَوْمَ الْمَعَادِ جَنَّتَكَ؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرْزُقُنَا أَحْتِسَابًا جَمِيلًا وَصَبْرًا، وَيُؤْنِسُكَ وَقَدْ آخَتَارَكَ الصَّهْرَ قَبْرًا، وَيَعْظُمُ لَكَ ثَوَابًا جَزِيلًا عَلَى مُصَابِكَ وَأَجْرًا؛ وَيُعِمْ فَقِيدَتَكَ بِالرَّحْمَى، وَيَسْكُبُ عَلَى جَدَثِهَا مَزْنَهَا الْأَوْكُفَ الْأَهْمَى، وَيُؤْوِيكَ إِلَى كَنَفِهِ الْأَعْظَمِ الْأَخْمَى، بِمَنَّةِ وَرَحْمَتِهِ، لَا رَبَّ غَيْرَهُ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الضرب الثالث

(التعزية بالأب)

من كلام المتقدمين :

ابن أبي الخصال معزيا بوزير :

يَا سَيِّدِي وَوَاحِدِي، وَحَلَّ الْأَبْنُ الْمُبْرُورُ، وَالْأَخُ الْمَشْكُورُ، عِنْدِي؛ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى، وَرَضَّاكَ بِمَا قَضَى، وَأَمَدَّكَ بِالنُّعْمَى، وَشَمَلَكَ بِالْحُسْنَى؛ كَتَبْتَهُ - أَعَزُّكَ اللَّهُ - وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكَ الْكَرِيمُ بِمَا نَفَذَ بِهِ الْقَدَرُ الَّذِي هُوَ فِي الْعِبَادِ حَتْمٌ، وَلَهُ فِي كُلِّ عُنُقٍ خَتْمٌ؛ فِي الْوَزِيرِ الْفَقِيهِ الشَّهِيدِ أَبِيكَ كَانَ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَ مَنَوَاهُ، وَجَعَلَ الْحُسْنَى الَّتِي أَعَدَّهَا لِأَوْلِيَائِهِ مَقَرَّهُ وَمَأْوَاهُ؛ فَاسِفْتُ كُلَّ الْأَسْفِ لِإِفْقَدَانِهِ، وَقَدْ كَانَ عَيْنَ زَمَانِهِ،

وَعُمْدَةَ إِخْوَانِهِ ؛ تَعَمِّدُهُ اللَّهُ بِغُفْرَانِهِ ، وَنَقْلُهُ إِلَى رِضْوَانِهِ ؛ وَتِلْكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
 غَايَةُ الْأَحْيَاءِ ، وَسَبِيلُ الْأَعْدَاءِ وَالْأَحْبَاءِ ؛ كَانَ عَلَى رَبِّنَا - جَلَّ وَعَلَا - حَتْمًا مُقْضِيًّا ،
 وَوَعْدًا مَأْتِيًّا ، وَالْأَسْوَأُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - فِي غَمْرِهِ الْفَضْفَاضُ ، وَبِرِّهِ الْفَيَاضُ ، وَأَنَّهُ خُتِمَ لَهُ
 بِالْخَيْرِ وَالْإِتْقَانِ ؛ وَكَانَ آخِرَ ذَلِكَ [الْحَسْبُ] الْقَدِيمُ ، وَالْجَلِيلُ الْكَرِيمُ ؛ وَقَدْ أَمَرَكَ الْخَيْرُ
 فَافْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ وَكُنْ كَمَا ظَنَنْتُكَ وَقَدَّرْتُكَ وَتَرَكْتُكَ ؛ وَإِنَّكَ بِفَضْلِ اللَّهِ تُسَدُّ مَسَدَهُ ،
 وَتُبْلَغُ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ حُضْرَهُ السَّابِقِ وَشَدَّهُ ، وَتُعَدُّ لِلْأَيَّامِ مِنَ الْجَدِّ وَالْإِعْتِرَافِ مَا أَعَدَّهُ ؛
 وَإِخْوَتُكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - لَكَ أَظْهَارٌ وَأَعْضَادُ ، وَفِيهِمْ غَزْوٌ وَمُضَادٌ ؛ فَاشْتَمِلْ
 عَلَيْهِمْ ، وَارْفُقْ بِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ يُتْرَلُونَكَ مِثْلَةَ أَبِيهِمْ ، وَتَجِدُ أَخْلَاقَهُ وَعَوْنَهُ فِيهِمْ ؛ وَأَمَّا
 مَا أَعْتَقَدُهُ مِنْ تَكْرِيمِكَ ، وَأَرَاهُ مِنْ تَفْضِيلِكَ وَتَقْدِيمِكَ ؛ فَشَيْءٌ تَشْهَدُ بِهِ نَفْسُكَ ،
 وَيُذَكِّرُكَ يَقِينُكَ وَحَدُسُكَ ؛ أَشَدُّ بِهِ أَعْتَاءً ، وَأَجْمَلُ لَهُ أَسْتَوَاءً ، وَأَوْفَى عَنْكَ رَدَاءُ
 وَغَنَاءُ ؛ جَعَلَنَا اللَّهُ مِنَ الْمُتَحَايِينَ فِي خِلَالِهِ ، وَالْمُتَقَلِّبِينَ فِي ظِلَالِهِ ، وَأَمَّنَّا مِنَ الزَّمَانِ
 وَآخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ ؛ بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامِ .

الضرب الرابع

(التعزية بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربي :

مَا مَاتَ مَنْ أَنْتَ بَعْدَهُ خَلْفٌ * وَالْكُلُّ فِي الْبَعْضِ غَيْرُ مُتَمَنِّعٍ !

كَتَبَ عَبْدُهُ الْقِنَّ ، مِنَ الْأَسَى لِأَجَلِهِ بَعْضَ مَا يُجِنُّ ؛ الْمُنْطَوِيُّ عَلَى قَلْبٍ تَطْمَنُّ
 الْقُلُوبُ سُلُوءًا وَلَا يَطْمَنُّ ؛ فَلَان : بَعْدَ وَصُولِ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِصَدْعٍ يُصْمِي الْقُلُوبَ ،
 وَيَقْدُّ أَقْوِيَاءَ الْجُيُوبِ ، وَيَتْرُكُ الْأَحْبَابَ مَصْرَعِينَ عَلَى الْجُنُوبِ ، فَوَقَّفَ الْعَبْدُ عَلَيْهِ
 مَتَرَفِقَ الْمَدَامِعِ ، مَتَحَرِّقَ الْأَصَالِعِ ، رَائِيًّا سَامِعًا تَجَا الْأَبْصَارِ وَأَسَى الْمَسَامِعِ ؛ فَيَأْسِفِي

لَحَطَبَ ضَعُفَ رُكْنِ الْجِدِّ وَكَانَ وَثِيقًا ، وَصَوَّحَ رَوْضَ الْفَضْلِ وَكَانَ وَرِيقًا ؛
وَنَقَصَ حَسَنَ الصَّبْرِ وَلَمْ يَزَلْ صَدِيقًا ، وَتَرَكَ الْعَبْدَ خَلِيقًا بِهَذَا الْقَوْلِ وَمِثْلِهِ مَعَهُ حَقِيقًا ؛
فَإِهِ لِدَيْنٍ وَمَرْوَةٍ فَقْدًا فِي قَرْنٍ ، وَعَلَى صَوْنٍ وَعَفَافٍ أُدْرِجًا فِي كَفْنٍ ، وَحَصَانٍ رَزَانٍ
لَا تُعْرِفُ بَوْصَمَةَ وَلَا تُزَنِّ ؛ لَقَدْ أَصَمَّ بِهَا النَّاسِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَ ، وَأَرَقَّ مَا شَاءَ الْفُؤَادَ
وَأَرَأَى الْمَدْمَعِ ؛ وَلَمْ يُبْقِ قَلْبًا لِلصَّبْرِ إِلَّا صَدْعَهُ ، وَلَا أَنْفًا لِلسُّلُوكِ إِلَّا جَدْعَهُ ؛ وَلَا بَابًا لِلتَّعَزُّيِ
إِلَّا أَرْتَجَهُ ، وَلَا عَقِيمًا لِلنَّاسُفِ إِلَّا أَنْتَجَهُ ؛ وَلَوْ قُبِلَ فِي الْمَوْتِ فِدَاءً وَصَحَّ أَنْ يُؤْخَذَ
فِيهِ فِدَاءً لَمَا خَلَصَ إِلَيْكُمْ وَلَا أَلَمَ ، وَلَا عَدَاكُمْ فِي صُرُوفِ الْمَنَآيَا الْخَفِيَةِ سَلَمَ ؛
لَكِنْ أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَعَمَّ الْحَرْفَةُ ، وَتَسْتَوِي عَلَى الْوَقْتِ الْقُرْفَةُ .

الضرب الخامس

(التعزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وَكَتَبْتُ وَالْأَنْفُسَ مَرْتَمِضَةً ، وَالْعَيْنُ غَيْرُ مَعْتَمِضَةٍ ؛ وَالْأَنْفَاسُ تَتَصَعَّدُ ، وَالْأَحْزَانُ
تَتَأَكَّدُ ؛ أَسْفًا لِلصَّابِ الذِي عَمَّ وَغَمَّ ، وَأَسْمَعَ نَعِيَهُ فَاصَمَّ ؛ وَقَالَ لِلْفَرَحِ : كُفَّ مِنْ
عِنَانِكَ ، وَلِلتَّرَحِّ أَنْتَظِرْ لِأَوَانِكَ ؛ بِوَفَاةِ [الْفَرْدِ] الذِي فِي رَأْسِهِ نُورٌ ، وَسَدَادُ الْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ
وَسَدَادُ الثُّغُورِ ؛ وَالْفَدَّ الذِي شَهِدَ الرِّجَالَ بِفَضْلِهِ ؛ وَعَقِمَ النِّسَاءُ فَمَا تَبْجَى بِمِثْلِهِ ؛
أَبِي فَلَانِ صَنِوَكُمْ ، السَّابِقِ الذِي لَا يُجَارَى ، وَالشَّارِقِ الذِي لَا يُسَارَى ؛ وَالْغَيْثِ الذِي
عَمَّ الْمُنَيْلَ وَالْمُسْتَنْبِلَ ، وَاللَّيْثِ الذِي وَرَدَ الْفُرَاتَ زَيْبُهُ وَالنَّيْلَ ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ! تَسْلِيمًا لِلْقَدَرِ وَإِنْ سَاءَ ، وَشِمْلًا لِلْمَرْءِ وَسَيْنَ وَالرُّؤْسَاءِ ؛ فَيَالَهُ مُصَابًا تَرَكَ كُلَّ رَأْسٍ
أَمِيًّا ، وَأَوْدَعَ صَمِيمَ كُلِّ فُؤَادٍ نُكْلًا صَمِيمًا ؛ لَقَدْ أَنْصَلَ السُّمَرَ اللَّاهِظِمَ ، وَأَغْمَدَ الْبَيْضَ
الصَّوَارِمَ ؛ وَعَطَّلَ الْكُتَّابَ وَالْمَقَاتِبَ ، وَأَوْحَشَ الْمَفَاوِزَ وَالسَّبَاسِبَ ؛ وَلَمْ يُبْقِ مَشِيدَ

عَلَّا إِلَّا هَذِهِ، وَلَا مَدِيدَ ثَنَاءٍ إِلَّا صَدَهُ؛ وَلَمْ لَا وَهُوَ الشَّخْصُ يَمُوتُ بِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرٌ،
وَيَبْكِيهِ قَلَمٌ وَحُسامٌ وَمِنْهُرٌ وَسِرِيرٌ؛ وَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَرِبُهُ جَمِيعًا، وَنُوسِعُهُ بِمَحْضِ الصَّفَاءِ
وَصَفْوِ الثَّنَاءِ تَوْبَعًا وَتَشْيِيعًا، وَنُفَارِقُهُ فِرَاقَ الصَّدْرِ خَلْدُهُ، وَالْمُصَابِ جَلْدُهُ؛ فَوَاسْفِي
لِرُزْنِهِ مَا أَفْظَعَهُ مَوْقِعًا! وَوَحَرَبًا لِيَوْمِهِ مَا أَظْلَمَهُ مَطْلَعًا! وَوَحَرْنَا لِنَعْيِهِ مَا أَشْنَعَهُ
مَرَأًى وَمُسْمَعًا!!! فَالْتَنِ جَرَّتِ الدَّمُوعُ لَهُ دِمَا، وَأَضْمَرْتَ الضُّلُوعُ بِهِ مُضْطَرَمًا؛
لِمَا أَدَّتْ حَقَّهُ وَلَا كَرَبَتْ، وَلَا دَانَتْ بَعْضَ الْوَاجِبِ فِيهِ وَلَا أَقْتَرَبَتْ؛ وَلَوْلَا أَنَّ
الْمِنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا يَجْلَأُ وَارِدُهُ، وَمَعْلَمٌ يَهْدِي إِلَى أُهُدًى سَمَتْ مُبَاعِدُهُ؛ لَمْ يَبْقَ
فِي أَنْسٍ مَطْمَعٌ، وَلَا لَحْزَنٌ مُسْتَدْفِعٌ، وَلَكَانَ التَّنَاكُلُ غَيْرَ مَا تَرَى وَتَسْمَعُ؛ وَمَا أْتَمَّ
أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمَكْرَمُ مِنْ يُبْنِيهِ عَلَى ذُنُوحِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، يَكْتَسِبُهُ، وَصَبْرٌ فِي الرُّزْءِ
الْفَادِحِ، يَحْتَسِبُهُ، فَصَبْرًا فَالْمُنُونُ غَايَةُ الْمُؤْمِسِينَ وَالْمُصْبِحِينَ، وَالنَّبَأُ الَّذِي يُعْلَمُ ذَوْقًا
وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ؛ وَهُوَ تَعَالَى الْمُسْئُولُ أَنْ يَرْقَعَ بِمَكَانِكُمْ هَذَا الْخَرْقَ الْمُسْتَعِ، وَيَصِلَ
بِحَنَائِكُمْ ذَلِكَ الشَّمْلَ الْمُنْصَدِعِ.

ابن أبي الخصال :

الشَّيْخُ فَلَانٌ أَبْقَاهُ اللَّهُ يَتَلَقَّى الْأَرْزَاءَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ، وَجَمِيلِ الْإِحْتِسَابِ، وَيَتَقَاضَى
بِالتَّعْزَى مَرْتَقَبَ الْأَجْرِ، وَمُتَنَظِّرَ الثَّوَابِ، مُعْزِيهِ فِي أَخِيهِ الْكَرِيمِ عَلَيْنَا، الْعَظِيمِ مُصَابِهِ
الْفَادِحُ لَدَيْنَا؛ فَلَانٌ : فَإِنِّي كَتَبْتُهُ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ صَبْرًا تَجِدُونَ ذُنُوحَهُ، وَأَوْجِبَ
لَكُمْ عَزَاءَ تَجِدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَأْنَهُ وَأَمْرَهُ - عِنْدَ مَا وَصَلَ مِنْ وَفَاةِ الشَّيْخِ أَبِي فَلَانٍ
أَخِيكَمُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا كَدَّرَ الْعَيْشَ وَنَقَصَهُ، وَجَشَّمَ جُرْعَ الْحِمَامِ الْمَقْطُوعَةَ وَغُصَصَهُ؛
فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!! أَسْتِسْلَامًا لِقَدْرِهِ وَقَضَائِهِ، وَأَخْذًا فِيمَا يُدْنِي وَيَقْرُبُ
مِنْ إِرْضَائِهِ؛ وَمَا نَحْنُ إِلَّا بَنُو الْأَمْوَاتِ الَّذِينَ دَرَجُوا، وَسَخَّرُجُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا
قَبْلُنَا نَخْرُجُوا؛ جَعَلَنَا اللَّهُ جَمِيعًا مَنْ يَنْظُرُ لِمَعَادِهِ، وَيَجْعَلُ التَّقْوَى خَيْرَ مَا أَوْعَاهُ بِجَدَادِهِ؛

وسلك بنا نهج هدايته وطريق رشاده . وهو جلّ وعلا يُخزِل لكم على مُصايكم نوابا
عميما مؤفورا، ويجعل فقيدكم بين أيديكم في يوم القيامة نورا؛ ويلقيّه في دار الفردوس
ملكا كبيرا وجبورا؛ ولولا كذا لسرت إليكم لأعزّيكم شفاها ، وأحدّثكم عن ضلوع
أحرق هذا المصاب حشاها؛ لكن أمتثال أمره المطاع، حمل على الدار إلى ما أمر به
والإسراع؛ والله عزّ وجلّ يُديم لنا بكم الإمتاع، بمنه وكرمه، والسلام .

الضرب السادس

(التعزية بالزوجة)

من كلام المتقدمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرّر عند ذوى الألباب، وثبت ثبوتا لا يعلّ بالآرتياب، أن الدنيا قنطرة
دائرة، ومعبدة إلى الآخرة، وأن ساكنها وإن طال عمره، وطار في الخافقين أمره،
لديغ ستمها؛ وصريع سهمها، فما تضحك إلا لتبكي، ولا تؤنس إلا لتنكي؛ وقد نفذ
القدر الذى ماله ردّ، ولا منه بدّ؛ بوفاة فلانة ألحقها الله رضوانه ، وأسكنها بفضله
المرجوّ جنانته؛ فإنّا لله وإنا إليه راجعون!! تأسيّا بالسلف الصالح، وتسليّا عن ماء
الدّمع السّاخ، وزند القلب القادح . وعند الله نخسبها عقيلة معدومة المئيل، مفقودة
الدين والعفة في هذا الحيل؛ متحلية من دُعاء الفقراء، وثناء الصّلحاء، بالغرة الشاذخة
والتحجيل؛ لقد ذهب لذهابها الرّفق والحنان، وعدم لعدمها الشّيم البرّة والأخلاق
الحسان؛ وإنّ فقدّها لحرق لا يرفع، وغلة لا تنقع؛ وخطب لا يزال الدهر يتدكّر
فيصدع ، ولولا العلم بأن اللّحاق بها أمر كائن، وأن المخلف في الدنيا لا محالة عنها

بائن ، وأن التثقل للآخرة لا تنفك نسمعه ونعاين ، لما بقيت صُبابه دمع
إلا أرفضت ، ولا دِعامه صبر إلا أنقضت ؛ ولكن الحزن غير ما نسمع وترى ، والوجد
فوق ما يجرى وجرى ، لكن لا معنى لحزن لما يقع فيه الاشتراك ، ولا وجه للأسف
على ما لا يصح فيه الاستدراك . وما أنتم بحمد الله ممن يدكر بما هو فيه أذكر ،
ولا ممن ينبه على ما هو بالتنبيه عليه أخلق وأجدر ؛ ولولا أن التعازى بما اطرده
العمل ، وسنة الصالحون الأول ، لما سلك سبيله معكم وأنتم من قدر الأمور
قدرها ، وعلم أن الحياة لو طال فالموت أثرها ، وإذا لم يكن من الموت بد ، ولم يمنع
منه صد ولا سد ؛ فالصبر خير من الجزع ، وأدل على كرم المنحى والمتزع ، وأحرى
بأن يكون الثواب جزيلًا ، والجزاء حسنًا جميلًا ؛ والله يبقيكم أتم البقاء ، ويرقيكم
أتم الارتقاء .

ابن أبي الخصال :

الشيخ الأجل فلان - أنس الله وحشته ، وجدد على فقيدته رحمته . معزيه عن
أهله الهالكة وسكنه ؛ ومساومه بأوجب حزن في القلوب وأسكنه . فلان :
فإنا كتبناه عن دموع تصوب وتسرّب ، وضلوع تحفق من وجعها وتضطرب ،
وأنس يشرد منا ويحجب ، بموت فلانة رحمها الله التي أودعت في جوانحنا من الثكل
ما أودعت ، ورضت أجدانا بمصابها وصدعت ، عزّانا الله جميعًا فيها ، وأولاهنا نعيمًا
في الفردوس الأعلى وترفيها ، وأعقبنا من الوحشة أنسا ، وعمر بالرحمى جدنا مباركًا
ورمسا ؛ وجعلنا كلاً من يردع عن الانحطاط إلى الدنيا نفسًا ، بمنه وكرمه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

لَمَّا عَلمَ مَملوكُ المَجلسِ السامى أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ، وأَعَظَمَ أَجرَهُ وأَحسنَ عَزاؤَهُ ، وفَاةَ السَيدةِ المَرحومَةِ سَقى اللهُ عَهدَها عَهدًا يَبُلُّ الثَرى ، وجعلَ الرَحمَةَ لِمَن نَزَلَتْ بِهِ لها القَرى ؛ تَأَلَّمَ لِفَقَدها غَايَةَ الأَلَمِ ، ووَجَدَ حُرْقَةً كَسَتهُ ثوبى صَنَى وَسَقَمَ ؛ وَحُزْنَا لا يَعبُرُ عنهُ بِعَبارَةٍ بَيانِهِ ، ولا يَستوعِبُ وَصفَهُ بِلِسانِ قَلَمِهِ وَبَنانِهِ :

وَلَوْ كانَ النِّساءُ كَمَن فَقدَنا * لَفُضِّلَتِ النِّساءُ عَلى الرِّجالِ !

والمولى أولى من عزى نفسه، وأستحسن رداء الصبر ولبسه ؛ وعلم أن الموت غريم لا ينجي منه كثرة المطال ، ولا يدافع بالأطلاب والأبطال ؛ وأنه إذا طالب بذمة كان الد الخصام ، وإذا حارب فعل بيده مالا تفعله الحكمة بحد الحسام .

الضرب السابع

(التعازي المطلقة مما يصلح إيراده في كل صنف)

من ذلك ، من ترسل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِبَ الأَيامَ وتَقَلَّبَ فى آناها ، أَعَتَورَته أَحدائِها ، وأَخْتَلَفَتْ عَليه أَحكامُها ؛ بَينَ مَسَرَّةٍ ومَساءَةٍ يَعتَقِبانِ ، وفَرَحَةٍ وَتَرحَةٍ يَتَناوِبانِ [وكان] فِما تَأتِيهِ مِن مَحبُوبِها عَلى غَيرِ ثِقَةٍ مِن دَوامِهِ وأَصالِهِ ، ولا أَمِنَ مِن تَغيرِهِ وأَنتقالِهِ ؛ حَتّى تَعقُبَ السَلامَةُ حَسِرَةً ، وتَسحِيلُ النَعمَةُ مِحْنةً ؛ والسَعيدُ مَن وَفَّقَ فى كُلِّ حالٍ لِحَظِّهِ ، وأَعينَ عَلى ما فِيه سَلامَةُ دِينِهِ : مِن الشُّكرِ عَلى المَؤِهيَةِ ، والصَبْرِ عَلى النازِلَةِ ، وتَقديمِ حَقِّ اللهِ تَعالى

في حال العِبطَة والرَّزِيَّة . ولم تكن بالْمَجِيعَة به مُفَرِّدا عَنِّي وإن كان النَّسَبُ يقرِّبه منك ، والرَّحِمُ تَصِلُهُ بك : لما كُنْتُ أُوجِبُه من حَقِّه ، وأرعاه من مَوَدَّتِه ، وأختَصُّه بالاعتدَاد فيه دُونَ أدَانِي أَهْلِي والثَّقَّة من إخواني ، فمَضَى رَحْمَهُ اللهُ أَقْوَى ما كان الأملُ فيه ، وأكَل ما كان عليه في لُبِّه وأدْبِه ، واجْتَمَعَ فَهْمُهُ وكَمالُ هَدْيِهِ ، وانتظام أسباب الخير وأدوات الفضل فيه .

ومنه : لا يُنْكَرُ للبعد أن يتناوَلَ مولاہ عند وقوعِ المحنة في أهل خاصَّته ، وتَحَوَّن رَيْبُ المنون من حاشيته ، بالتَّعْزِيَّة عن مُصِيبَتِه ، والإخبار عما يُحْصُهُ من أَلَمٍ في عَمَتِه وعُظْم رَزِيَّتِه ، لاسِيَّما إذا كانَ بَحِثٌ لا يُرَى شَخْصُهُ في الباكين ، ولا تُسْمَعُ صَرخَتُه بين المتفجِّعين ، ولو سَعَيْت على حَدَقَتِي .
ومن ذلك :

إنَّ الله تعالى أمرَ أَهْلَ طاعته ، بتزِيل هذه الدنيا بَمُتْرَلَتِها من إهانته ، وسوَى بين البرِّ والفاجر في رِغائِبها ومَصائِبها ، ولم يجعل العطِيَّة دليلاً على رِضاہ ، ولا الرِّزِيَّة دليلاً على سُخْطه ، ولكنَّه أَلَزَمَ كُلَّ واحدٍ من أَهْلِ الرِّضا والسُّخْط من نَعَمِها بَنَصيب ، وسقامٍ من حوادثِها بَذُنوب : لِيَتَبَيَّن أَهْلُ رِضاہ في أَهْوَنِ الدارين عليه ، ويُحَسِّن لهم الجِزَاء في أَكْرَمِهما لَدَيْهِ ، ولذلك حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الرِّهادَةَ في زَهِيد فائِدَتِها ، ومُنَّوح زَهْرَتِها ، وسَمَّاها لَعِباً وَلَهْواً : لثَلَا يَعْتَقُوا بِحُطَايِها ، وَيَغْمِسُوا في آثامِها ، وَخَمَمَها بالموت الذي كَتَبَهُ على خَلِيقَتِه ، وسوَى بينهم في سَكَنَتِه : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ . ويُقَرِّبُهُم بدارِ يَفْنَى الموت وَيَقْوُونَ فيها بَعْدَهُ ، كما فَنَوْا في هذه الدارِ وبقي الموتُ بَعْدَهُم ، فإن تَأَخَّرَ الأجلُ فإلى غايه ، وإن تَطَاوَلَ الأمدُ فإلى نِهايهِ ، ولأَبَدٌ أن يَلْحَقَ التَّالِي المَاضِي ، والآئِفُ بالسَّالِفِ ، وهذه حالُ نُصَبِ الأفكار ، وتِلْقاءِ الأبصار ، لا تَحْتَاج أن يَرْتاض الصَّبْرُ على آلامِها ،

والتحمل لمُعْضَلَاتِ سِهَامِهَا ، والجَزَعُ عند وَقُوعِهَا قَادِحٌ فِي البَصَائِرِ وَالْأَفْهَامِ ، دَالٌّ عَلَى الجَهْلِ بِاللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ؛ وقد طَرَقَ المَمْلُوكُ نَاعِي فلَان فَهَدَّ جَلَدِي ، وَفَتَّتْ كَيْدِي ، لَا أَرْتِيَا عَآ لِحَادِثَةِ : لِأَنَّهَا لَوْمْ تُكُنْ فِيهِ لَكَانَتْ فِي المَمْلُوكِ ، وَلَوْ لَمْ تَتَطَرَّقْ إِلَيْهِ لَتَطَرَّقَتْ إِلَى المَدْرَكِ (؟) وَلَكِنْ الْأَسْفُ عَلَى عَطَلِ الزَّمَانِ مِنْ حِلْيَةِ فَضْلِهِ ؛ وَتَعَزِّيهِ مِنْ حُلَّةِ نُبْلِهِ ، وَخُلُوعِ رَاِصِهِ مِنَ الْأُنْسِ بِمَثَلِهِ ، وَمَا نَالَ سَيِّدِي لِفَقْدِهِ ، وَتَحَمَّلَهُ مِنْ بُعْدِهِ ؛ وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَرْغَبُ المَمْلُوكُ أَنْ يَرْبُطَ عَلَى قَلْبِهِ بِالصَّبْرِ ، وَيُوقِّعَهُ لَتَنْجِزَ مَا وَعَدَ بِهِ الصَّابِرِينَ مِنَ الْأَجْرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

علي بن خلف :

رُقْعَةٌ : لَيْسَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - خَيْرٌ مِنَ التَّسْلِيمِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّضَا بِقَضَائِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى بَلَائِهِ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى مَدَحَ الصَّابِرِينَ فِي كِتَابِهِ ، وَوَعَدَهُمْ بِصَلَوَاتِهِ . فَقَالَ جَل قَائِلًا : ﴿ أَيَّدِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ . وَقَالَ جَل قَائِلًا : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ . وَلَمْ تَرَلِ الْأَوَّلِيَاءُ مِنَ الْقَدَمَاءِ يَحْضُونَ عَلَى الصَّبْرِ وَهُمْ لَا يَرْجُونَ عَلَيْهِ ثَوَابًا ؛ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْجَزَعِ وَلَا يَخَافُونَ عَلَيْهِ عِقَابًا ؛ وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ وَتَدَاوُلَهَا ، وَالْأَحْوَالَ وَتَحَوُّلَهَا ، وَسَعَ صَدْرَهُ لِلنَّوَابِ ، وَصَبَرَ عَلَى تَجَرُّعِ الْمَصَائِبِ ، وَمَنْ أَغْتَرَّ بِطَوْلِ السَّلَامَةِ ، وَطَمِعَ فِي الْأَسْتِمْرَارِ وَالْإِقَامَةِ .

رُقْعَةٌ : وَقَدْ آتَصَلَ بِالمَمْلُوكِ خَبْرُ الفَجِيعَةِ بِفلَانٍ ، فَأُفِضَتِ المَدَامِعُ ، وَتَضَعَّضَتِ الْأَضَالِيعُ ؛ وَزَفَرَتِ الْأَنْفَاسُ ، وَهَمَدَتِ الْحَوَاسُ ؛ وَأَذَابَ الطَّرْفُ

(١) لم يذكر في الاصل لهذا الشرط جوابا ويمدح أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا» ، وضل في سعيه

ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوَادُهُ عَلَى الْوَجَنَاتِ بَدَلًا مِنَ الْأَنْقَاسِ ، وَخَلَعَتِ الْقُلُوبُ سُودَاءَهَا عَلَى الْأَجْسَادِ ،
عَوِضًا عَنْ جَلَايِبِ الْحِدَادِ ؛ وَعُضَّتِ الْأَنَامِلُ جَزَعًا ، وَمَزَّقَتِ الثِّيَابُ تَفْجُوعًا
وَتَوَجُّعًا ؛ وَكُلُّ هَذَا وَإِنْ فَارَقَ حِمْدَ التَّمَّاسِكِ ، وَوَافَقَ ذَمِّمَ التَّهَالُكِ ، غَيْرُ مُؤَيِّدٍ بِحَقِّ
ذَلِكَ الدَّارِجِ الَّذِي بَلَغَ الْمَعَالَى وَهُوَ فِي مَهْدِهِ ، وَشَدَّ دَعَائِمَ الْفَضْلِ وَلَمْ يَبْلُغْ أَوَانَ
رُشْدِهِ ؛ وَعَلِمَ سَيِّدِي أَنَّ غَايَةَ الْجَارِعِ وَإِنْ صَدَعَتِ الْمُصِيبَةُ قَلْبَهُ ، وَأَطَاشَتِ
الْفَجِيعَةُ لُبَّهُ ، الصَّبْرُ وَالسُّلُوكُ ؛ وَأَنَّ نِهَايَةَ الْقَلَقِ وَإِنْ هَجَمَتْ عَلَيْهِ الْحُرْقَةُ بِمَا لَا تَتَوَقَّرُ عَلَيْهِ
الْأَضَالِعُ ، وَلَا تَتَمَّاسِكُ مَعَهُ الْمَدَامِيعُ ، الْقَرَارُ وَالْهُدُوءُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُرِيهِ بَعْدَ هَذَا
الرُّزْءَ رُزْءًا بِفَنَائِهِ ، وَيَنْقُلُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَى حَاسِدِيهِ وَأَعْدَائِهِ .

رَقْعَةٌ : مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأَقْصِيَّةَ لَا تُحِطُّ بِسَهَامِهَا ، وَالْإِفْدَارَ لَا تُرَدُّ أَحْكَامُهَا ، سَلَّمَ
الْأَمْرَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَرَضِيَ بِمَا مَنَاهُ فِي الْبَلَاءِ وَالْإِتِلَاءِ ؛ وَلَا سِيَّامًا فِي مُصِيبَةِ
الْمَوْتِ الَّتِي سَوَى بَيْنَ الْخَلِيقَةِ فِي تَجْرِيعِ صَاحِبِهَا ، وَأَقْتِحَامِ عِقَابِهَا ؛ وَقَدْ أَتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ
خَبْرُ الْحَادِثِ الْفَاصِمِ لُغْرَى الْجَلْدِ ، الْبَارِحِ فِي الْجِلْدِ ^(١) . فَاسْتَحَالَتْ فِي عَيْنِ الْمَمْلُوكِ
الْأَحْوَالُ ، وَمَالَتْ عَنْهُ الْأُمَالُ ، وَرَأَى السَّمَاءَ وَقَدْ تَكَدَّرَ جَوْهَا ، وَالشَّمْسَ وَقَدْ تَعَكَّرَ
ضَوْهَا ، وَالسَّحَابَ وَقَدْ أَخْلَفَ نُوْهَا ، وَالنَّهَارَ وَقَدْ أَظْلَمَ ، وَاللَّيْلَ وَقَدْ أَدْلَهَمَ ، وَالنَّسِيمَ
وَقَدْ رَكَدَ ، وَالْمَعِينَ وَقَدْ جَمَدَ ، وَالزَّمَانَ وَقَدْ سُهَمَتْ وَجْتَهُ ، وَسُلِبَتْ حَلِيتُهُ ،
وَأَفْرَجَتْ قَبْضَتُهُ عَنِ التَّمَّاسِكِ ، وَقَبَضَتْ عَلَى التَّهَالُكِ ، وَعَدَلَتْ عَنِ التَّجَلُّدِ ، إِلَى
التَّبَلُّدِ ؛ ثُمَّ أَفَاقَ مِنْ غَمْرَةٍ فِجَاعَتِهِ ، وَهَيَّبَ سِنَةَ رَوِيَّتِهِ ، فَسَلَّمَ لِلَّهِ رَاضِيًا بِأَقْصِيَّتِهِ ،
رَاغِبًا فِي مَثْوِيَّتِهِ .

(١) لعله البادح والبلبح والبدح بالاهمال والاجحام والشق والمراد ظاهره .

أبو الفرج البغاء :

إذا كان أيده الله أهدي في النعم إلى سُبُل الشكر، وأعرف في المحن بطُرق الصبر؛ فكيف يُحاذِرُ عليه من المصائب ، ونذَرُه التسليم لمحتوم النوائب ؛ والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهتدي فيها إلى سلوةٍ غير مستفادَةٍ منه ، أو نفتدي في العزاء بغير مانأخذه عنه ؛ إذ كانت قلوبنا تبع قلبه - سره الله - في طُروق السراء والضراء ، وحالاتي الشدة والرخاء . وأحسن [الله] عن الفجيرة عزاءه ، وأجزل من المثوبة عطاءه ؛ ولا شغله عن حلاوة شكر النعم بمرارة الصبر على ورود المحن ، وجعل مانقل الماضي إليه ، أنفع له وليسّدي من الجزع عليه .

وله في مثله :

أتصل بي خبرُ المصيبة فجدد الحسره ، وسكب العبره ، وأصرم الحُرقة ، وضاعف اللوعة ، وكان الأسف عليه ، بقدر تشوف الآمالِ كانت إليه : فإنّا لله وإنا إليه راجعون !! أخذّا بأمره ، وتسلياً لحُكمه ، ورضاً بمواقع أقضيته ، وأحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته ، وحمل عن قلبه ما أظله من ثقل المصيبة وعِظم الرزية .

ولا أزال على جملة من القلق إلى أن يرد على كتابه - أيده الله - بما أكون فيه بأديه مقتدياً ، ويهديته إلى سبيل العزاء والصبر مهتدياً ؛ فإن رأى إجرائي من تشريفه بذلك على مشكور العادة ، فعل ، إن شاء الله تعالى .

وله في مثله :

أشراك القلوب فيما ألم بقلب سيدي بحسب تساويها في المسرة بما سره ، إذ كان لا يختص دون أوليائه بنعمه ، ولا ينفرد دون مؤمليه بحلول موهبه ، والمصيبة بفلان

- وإن جَلَّ موقعها وعُظمت الفَجِيعَةُ [بها] - جَلَّلَ مع سُقُوطِ الأَقْدَارِ دُونَهُ ،
وتجاوَزَها عنه ، ومُساخَمتَها به ، فلا شَغَلَ اللهُ قلبه بَعْدَها بِمَرَّاةِ الصَّبْرِ عَمَّا تُوجِبُهُ النِّعَمُ
من حَلَاوَةِ الشُّكْرِ ، ولا جاوره بِرِزْيَةٍ في حِمِيمٍ ولا نِعْمَةٍ .

وله في مثله :

بصيرتُكَ إلى العِزِّاءِ تَهْدِيكَ ، وأَعْتَباطُكَ بِثَوَابِ اللهِ يُسَلِّيكَ ، وعِلْمُكَ بِقِلَّةِ الْغِنَاءِ
عن الجَزَعِ يَنْثِيكَ ، وِجْمَعُنَا بِكَ في الصَّبْرِ مُقْتَدُونَ ، ولِرَأْيِكَ في الرِّضَا بِمَا آخَرَهُ اللهُ
تَعَالَى مُتَّبِعُونَ ؛ فَحَمَلَ اللهُ عَنْ قَلْبِكَ ثِقَلَ الْمُصِيبَةِ ، وَحَرَسَ يَقِينَكَ مِنْ أَعْتِرَاضِ
الشُّبْهَةِ ، وَأَحْسَنَ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ هِدَايَتَكَ ، وَتَوَلَّى مِنْ قِتْنِ الْمَحَنِ رِعَايَتَكَ ، وَجَعَلَ
مَاتَقِلَ الْمَاضِي إِلَيْهِ ، أَنْفَعَ لَكَ وَلَهُ مِنَ الْأَسْفِ عَلَيْهِ .

وله في مثله :

اتَّصَلَ بِي خَبْرُ الْمُصِيبَةِ فَأَضْرَمَ الْحَسْرَةَ ، وَسَكَبَ الْعَبْرَةَ ، وَقَدَحَ اللَّوْعَةَ ، وَأَمْتَرَى^(٢)
الدَّمْعَةَ ، وَكَانَتْ مُشَارِكَتِي إِيَّاكَ فِي الْمُصِيبَةِ بِهِ ، وَالْفَجِيعَةِ لِفَقْدِهِ ، بِحَسَبِ اخْتِصَاصِي
بِمَوَاهِبِ اللهِ عِنْدَكَ ، وَأَعْتَباطِي بِمَنْحِهِ لَدَيْكَ ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !! تَسْلِيًّا
لَأَمْرِهِ ، وَأَنْقِيَادًا لِحُكْمِهِ ، وَرِضًا بِمَوَاقِعِ أَقْدَارِهِ ، وَأَحْسَنَ اللهُ عَلَى الْعِزِّاءِ تَوْفِيقَكَ ،
وإِلَى السَّلَوةِ إِرْشَادَكَ ، وَلَا أَخْلَاكَ فِيمَا تَطَرَّقَكَ بِهِ مُصِيبَةٌ مِنْ مَصَاحِبَةِ الصَّبْرِ ،
وَفِيمَا تَفَقَّدَ بِهِ عَلَيْكَ نِعْمَةٌ مِنَ الْأَسْتِرَادَةِ بِالشُّكْرِ ؛ وَحَرَسَكَ فِي نَفْسِكَ وَأَحْيَيْتَكَ ، وَذَوَى
عِنَايَتِكَ وَنِعْمَتِكَ .

(١) أى يسير هين على حد قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بنى أسد ربههم * ألاك لشيء سواه جل

(٢) فى القاموس « ومرى الشيء أستخرجه كما تراه » .

وله في مثله :

قدرك أكبر ، وبصيرتك أنور ، ونفقت بالله تعالى أعظم من اعتراض الشُّكوك
عليك فيما يطُّرُّقك من عِظاته بالحوادث وإن عَظُمَتْ ، والمَحْن وإن جَلَّتْ ؛ آخِياراً
بالمصائب لصبرك ، وبما يُظَاهِرُهُ عليك من النِّعم لشُكرك ، ومثلك أيدك الله مَنْ قَابِلَ
الفجِيعَةِ بفلان - إذ كانت من الواجب المحتوم - بأحسن عِزاءٍ وأفضل تسليم ، غير
مرتآبٍ بما آخِثاره الله له ولك فيه ، فعَظَّم الله به أَجْرَكَ وحرَّسَكَ وحرَّسَ فيك .

الأجوبة عن التَّعازي

قال في "موادِّ البيان" : أجوبة التَّعازي يجب أن تُبنى على وُقُوف المعزَّى على
كتاب المعزَّى ، وأنَّ إرشاده نفع غُلَّتْه ، ووعظه نفع غُلَّتْه ، وتبصيره سَكَّنْ أُوَّارَه ،
وتذكيره أَحَدَ نَارَه ، وتنبيهه أَيْقَظَ مِنْهُ بُحْسَنَ الْعِزَاءِ غَافِلَا ، وهدى إِلَى الصَّبْرِ ذَاهِلَا ،
وحسَّنَ عِنْدَه الرِّزْيَةَ بعد جَهَامَتِهَا ، ودمَّتْ نَفْسَه لِلْمَصِيبَةِ بعد فِدَامَتِهَا ، فسَلَّمَ اللهُ تَعَالَى
مَتَادِبَا بَادِيَه ، وعَمِلَ بِالْحُكْمِ مَقْتَدِيَا بِمَذْهَبِه ، وغَالَبَ الرِّزْءَ بِالْعَزْمِ ، وأَخَذَ فِيهِ بِالْحَزْمِ ،
وسأل الله تَعَالَى أَنْ يُحْسِنَ لَهُ الْعِوَضَ فِي رَدِّه ، وَيَجْعَلَهُ لَهُ خَلْفًا مِمَّنْ أُصِيبَ بِفَقْدِهِ ؛
ونحو هذا مما يَنْخَرُطُ فِي سِلْكِهِ .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزَّ اللهُ سَيِّدَنَا وَأَسْعَدَهُ ، وسَهَّلَ لَهُ طَرِيقَ الْمَسَرَّةِ وَمَهَّدَهُ ، وصَانَ عَنْ حَوَادِثِ
الْأَيَّامِ حِجَابَهُ ، وعن طَوَارِقِ الْحَدَثَانِ جَنَابَهُ ؛ وجعله فِي حِمَى عَنْ عَوَارِضِ الْغَيْرِ
وَالْغَرَرِ ، وَأَصَارَ أَيَّامَهُ مُحَسَّنَةً لَوْجُوهِ الْأَيَّامِ كَالْغُرَرِ .

ورد الكتاب الذي أنعم بإرساله ، بل المشرف الذي كسته اليد العالية حلة من حلل جماله ، فوقف عليه وفهمه وتذكر به إحسانه الذي لا ينساه ، وتفضله الذي لا يعرف سواه ؛ فأما التعزية بفلان ، فإنه رد بعذب لفظها قوته ، وبلى بماء حسنها غلته ؛ وضربه على حادثته بفلان بعد أن عز عليه العزاء وأعوزه ، وطلب وعده من صبره فما أنجزه : لأنه كان وجد لموت المذكور حزنا ما استطاع له تركا ، وفقد لموته خلا مثله يناخ عليه ويئس ؛ وفي بقاء مولانا مسرة تطرد كل حزن ، وفي بهاء طلعه عوض عن كل منظر حسن ، جعله الله ساميا على أثرابه ، مقدما على أضرابه ؛ ماسمت الأسماء على الأفعال ، وتقدم الحال على الاستقبال .

آخر : ضاعف الله بقاءه وأطال عمره ، وشرح لإسداء المكارم صدره ؛ وأندب نبيه وأمره ، ولا زال إلى أوليائه محسنا ، وفضله يحصل لمحبيه غاية السؤل والمنى ؛ ورد مشرقه المعزى بوفاة فلان سقى الله عهده عهدا رضوانه ، وأسكنه في غرف غفرانه ؛ فخر مصابا ، وفتح إلى الصبر أبوابا ؛ وهدى إلى طريق الخير وقال صوابا ؛ وسكن نفسه ، وذكره إحسانه الذي لم ينسه ، وأزال الوحشة وزاد أنسه ، بعد أن كان فقد المذكور قد هدر ركنه وقت عضده ، وأوصله إلى أمد الحزن وضاعف على الأيام أمده ؛ وألبسه رداء الآكتاب ، على ترابه الذي أصبح تحت التراب ، وصديقه الموصوف بالصدق ، الذي فاق سناء ذلك الأفق ؛ جعله الله أصلا في تحصيل المسرة إذا ذوت الفروع ، وسيقا يقهر به وليه الحوادث التي تروع ؛ إن شاء الله تعالى .

آخر : جعل الله أجره عظيما كقدره ، والقلوب مجمعة على حبه كاجماع الألسنة على شكره .

المملوك يُعلمه بُرُود كتابه الكريم المعزى بفلان - قدس الله رُوحه، وأمطر سحاب الرحمة ضريحه - عليه، وعنده من شديد الحزن، ما أعدمه لَذِيذُ الوَسْنِ ؛ ومن زائد الأكتئاب، ما كاد يحرمه التقمص بثوب الثواب ؛ بحيث إنه عوض بالزمن الأسود عن العيش الأخضر، وذاق من موجب لبس الأبيض طعم الموت الأحمر، وأنه ضمَّ إليه ضمَّ المحبوب، وأبتهج به أبتهج من ظفر بغاية السؤل والمطلوب ؛ فأغمدت الكابضة خوفاً من قلعه سيفها، وأزالت الدنيا الدنية عنه حيفها ؛ وعزى نفسه وسلّاها، وشغله إحسانه عن محاسن محا الموت سناها ؛ فرفض من توجهه ما فرضته حادثته، وسلك منهاج غير المنهج الذي فتتت فيه حشاؤه ومهجته ؛ فالله تعالى يكفيننا ما نحاذره في المجلس ويحرس سناؤه، ويديم سعده وعلاه .

النوع الثالث

(من مقاصد المكاتبات التهادى والملاطفة)

قال في "موادّ البيان" : رِقَاعُ التَّهَادَى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحسنة ما يمهّد لقبول الملاطفة والمبرة التي تميز في المودة . قال : وينبغي أن يُطَرِّف الكاتب إذا كان مُهْدِياً أو مُسْتَهْدِياً ؛ وقد جرت العادة أن تُودَع هذه الرقاع من أوصاف الشيء المُهْدَى ما يحسّنه في نفس المُهْدَى إليه . قال : وينبغي لمن ذهب هذا المذهب أن لا يعتمد تفخيم هديته، ولا الإشارة إلى جلاله خطرهما، فإن ذلك يُخلُّ بشروط المروءة ويتحاماه الكرماء .

ثم هي على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(ما يُكْتَب مع التّقدّم إلى الملوك من أهل مملكتهم

إلى القائمين بإيصال التّقدّمة إلى الملك وكتاب السّر ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلى كاتب السّر بالأبواب السلطانية صحبة تقدّمة
من نائب الشام إلى السلطان :

لأزالت أعلامها لتتأجّج الفضل مُقدّمه ، ولمّا كض الكرم والبأس جياداً مُسوّمه ؛
ولكاتب الملك من كتبه أعلاماً بشعارها العباسيّ معلّمه ، وفي يد صاحبا من أصحاب
الميمنة ، والذين كفروا بآيات الله ونعمها من أصحاب المشأمة ؛ تقبيل محبّ لا تُفسخ
عقود ولائه المحكمه ، ولا تُنسخ إلّا في الكتب عقود ثنائه المنظمه ، ولا تطوف
الأشواق بيت قلبه إلّا وهى من ملابس السلوان المحرم محرمه .

ويُنهى أنه قد اختار من عناية مولانا بمقاصده أحسن الخير ، وبورك له
في قصدها (ومن بورك له في شيء فليزمه) كما جاء الخبر ؛ وقد جهّز فلانا إلى الأبواب
الشريفة خلّد الله سلطانها بتقدّمته على العادة في كلّ سنة ، وأتبع سفارة مولانا بين
يديّ المواقف الشريفة فاتّبع من القول أحسنه ؛ وسأل حُسن نظر مولانا الذى إذا
لاحظ قصداً أعلنه وسعدا عينه ، وقد جهّز الملوك برسم مولانا ماهو بمقتضى الورقة
المجهّزة عطفها ، المؤمّلة وإن كانت ورقة قطفها ، وسأل مقابلتها بالخبر الذى يحسب
الأمل حسابه ، ويستفتح ببنان القلم بابه ، والإصغاء لما يُملئ من رسائل الشوق
فإنها من رسائل إخوان الصفا المستطابه ، لا يرح القاصدون مريحين بأيام مولانا
وحقّ لهم أن يمرّحوا ، تالين نسبة بيته ورُحمى الله على يده : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته
فبذلك فليفرّحوا ﴾ .

وله إليه أيضا مع الجَهَّاز الشريف السلطاني :

أمتعها الله من خيرى الدنيا والآخرة بكرم الأمرين ، وبشرف الذكركين ، وسرها بما يجهز في الثناء والثواب من الوفرين ، وأعلى منارها المحقق إلى السماء على وكر النسرين . ولا زالت الآمال لا تَبْرَحُ حتى تبلغ من تلك اليدَيْنِ مجمع البحرين ؛ بتقيل مخلص في الولاء والدُّعاء ، مستشهد بالخواطر الكريمة على ثبوت الأدعاء ، واردة لموارد النعم قبل صدور بل قبل ورود الرعاء .

وينهى أنه ليس للمملوك فيما يومه ويتأمله ، ويفصله من عقود المطالب ويجهله ؛ غير إحسان مولانا الذى لا يَمْلُ على طول الإيناس والإلباس ، وعوارف بيته المستجدة تالية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ . وقد جهز المملوك الولد فلانا بالجهاز المبارك إلى الأبواب الشريفة خلد الله سلطانها ، وملاً به جواهر جبات القلوب وريحانها ، وهو على قدر المملوك ومقداره ، لا على قدر مراده واختياره ؛ ولو أن المراد مما يجهله العبد إلى سيده ، ويقدمه من سبب الحال ولبده ، على قدر المحمول إليه ، والمقدم بين يديه ، لضعفت قوى أكثر العبيد عن ذلك ، ويئس من الرضوان جهدهم المسالك ؛ وإنما على العبيد أن تنصب على قدرتها الحال ، وعلى الساداب أن تصرف بعوامل الخبر مستقبل الأفعال . وعلم مولانا الكريم محيط بتثقل المملوك في هذه السنين من بلد إلى بلد ، ومن أمد كلفه إلى أمد ، وبما حصل في ذلك من التمتع في إقطاعات كاد أن يُخْنَى عليها الذى أخنى على لبْد . وكان المملوك يود لو كان هذا المحمول من الجهاز من جواهر النجوم المنشورة ، وأخية السُّعود الماثورة ، وجميع ما زين للناس من الشَّهوات المذكورة ، أضعاف أضعافه الآن ، بل أضعاف أضعاف ما حمل الأولون من فلان وفلان ؛ كالحسن بن سهل مع الجهة المأموينية التي حلا ذكرها ، وابن طولون مع المعتضدية التي كثر هذا الغيث قطرها ، والساماني

وما أدراك، والسَّاجُوقِ وما أسراك، وجميع ما تَضَمَّتْهُ التَّوَارِيخُ التي لو عَايَنْتَ تاريخَ هذه الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ عَنَتْ في الحَالِ لَمَجِدْهُ، وكان كُلُّ مَجْلَدٍ مِنْهَا يَمُوتُ لِلْهَيْئَةِ في جِلْدِهِ : لما خَلَدَتْهُ أَيَّامُهَا الشَّرِيفَةُ مِنْ أَخْبَارِ حُكْمِهَا وَخَيْرِهَا، وَكَرَمِهَا وَبِرِّهَا، وَعَظَمِهَا عَلَى مَمَالِكِ بَيْتِهَا الشَّرِيفِ : تَتَقَبَّلُ مِنْبُورَهُمْ، وَتُكَلِّ سُرُورَهُمْ ؛ وَعَلَّاءُ يُجَيِّشُ الْإِنِّشْرَاحَ صُدُورَهُمْ، وَتَبْلُغُهُمْ مِنْ هِمِّ مَطْلُوبِهِمْ، وَتُقِيلُ عَلَى زَاهِرَاتِ نَجَائِيهِمْ وَرِيَاحِينَ قُلُوبِهِمْ :

ولو لم تُطْعَمْ نِيَّاتُ الْقُلُوبِ * لَمَّا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسان مولانا الذي أَلْفَهُ، ومَعْرُوفِهِ الذي عَرَفَهُ، ملاحظة الولد فلان بين يدي المواقف الشريفة خلد الله سلطانها، وإقامة عذر المملوك بعباريته التي أحلَّ اللهُ سَحَرَهَا وَبَيَّانَهَا ؛ فإِذَا لِلْمَمْلُوكِ فِي مَقَاصِدِهِ مِثْلُ مَوَدَّةِ مَوْلَانَا الْوَاقِفَةِ الْمُتَوَافِيَةِ ، ومَقَدِّمَةِ عِبَارَتِهِ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُ عَلَى شُكْرِ مَنِّهِ ، وَالْقِيَامِ بِفَرَائِضِ حَمْدِهِ وَسُنَنِهِ ؛ وَالنَّهْوِ بِأَوْصَافِ أَيْدِيهِ الَّتِي يُغَزِّدُ بِهَا قَلَمَ الْكُتَّابِ كَمَا يُغَزِّدُ الْقُمْرِيُّ عَلَى فَنِّهِ .

الضرب الثاني

(ما يكتب مع الهدية عند بعثها)

وهو على عشرة أصناف :

الصنف الأول — ما يكتب مع إهداء الخيل .

على بن خلف : في إهداء جوادٍ أَدْهَمَ أَغْرَّ مَجَلَّ .

وقد خدَمَ الْمَمْلُوكُ رِكَابَهُ الْأَكْرَمَ ، بِجَوَادٍ أَدْهَمَ مُطَهَّمٍ ، قَدْ سَلَبَ اللَّيْلَ غِيَابَهُ

وَكَوَّابَهُ ، فَاشْتَمَلَ بِأَدِيمِهِ ، وَتَحَلَّى بِجُجُومِهِ ، وَأَطْلَعَ مِنْ غُرَّتِهِ السَّادِجَةَ قَمَرًا مُتَّصِلًا

بالحجره ، وتحلى من رُمته^(١) بالثرى أو النثره ، صافى القميص ، محوض الفُصوص ،
 حديد الناظر ، صليب الحافر ، وثيق القصب ، نقيّ العصب ، قصير المطاء ، جعد
 النسا ، كأنما أنتعلت بالرياح الأربع أربعه ، وأصغى لأستراق السمع مسمعه ،
 إن ترك سار ، وإن غمز طار ، وإن ثنى انحرف ، وإن استوقف وقف ، أديب
 نجيب ، متين صليب ، صبور شكور ، والله تعالى يجعل السعادة مطلع غرته ، والإقبال
 معقد ناصيته .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلى الملك الصالح : شمس الدين صاحب ماردين قرين خيل
 منعم بها إليه ، عن السلطان الملك الصالح : عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد
 ابن قلاوون - من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الألقاب .

وأجرى بالنصر جياده ، وبالظفر مراده ، وعلى عوائد السعد مطالع شمسه التي
 يُسميها عرف الملكة بلادَه ، ولا زالت منيرة بسعادة شمسه الأحلاك ، نظيمة بدر
 محامده الأسلاك ، مائلة خيول سعدة حتى حمر السوابق من البروق والشهب السواخ
 في الأفلاك .

المملوك يقبل اليد التي إذا بسطت فلأن تجود وتسلم ، وإذا قبضت فعلى سيف
 أوقلم .

وينهى بعدولاء وثناء للإخلاص شارحين ، وفي الضمائر والآفاق سائحين ، وأشتياق
 وعهد كانا أحق بالانتماء لاسمه ونعته وكان أبواهما صالحين ؛ أن المرسوم الشريف
 زاده الله تعالى شرفا ، ورد يتضمن تشريف مولانا على العادة وإعظامه ، وأستقرار
 مكانته من الخواطر الشريفة في دار مقامه ؛ وأستمرار كرامته من الآراء المعظمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُتكرِّين الصالح والصالح استمرار الكرامة ، وأنَّ الصَّدَقَاتِ الشريفةَ أُنعمتْ على
مولانا بثلاثةِ أروُس من الخيل كثلاثةِ الراح ، إلا أنَّ حَبَابَهَا عَرَقُ سَبْقِهَا ، وثلاثةُ
الشجر (؟) كما قال الطائي تساوى شَرَفُ ثَمَرِهَا وزَهْرُهَا وعَرَفُهَا ؛ مامنها إلا من تَقْصُرُ^(١)
الرياح أن تَسْلُكَ بَحْثَهُ ، والبروق أن تَتَّبَعَ نَهْجَهُ . وَمَنْ تَوَدُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ لِحَامِهِ
والهلال أن يكونَ سَرَجَهُ . وَمَنْ يَتَمَطَّرُ كَالْغَمَامِ ويرْكُضُ كَالسَّيْلِ . وَمَنْ تَكَلَّمَ حِلَاهُ
وليس حُلَّةُ الفَخَّارِ فُشِّي على الخاليتين في الحُلَّتَيْنِ مُسِيلَ الدَّيْلِ . وَمَنْ عُقِدَ بِنَاصِيَتِهِ كُلُّ
الخيل وعُقِدَ لَهُ لَوَاءُ الفَخَّارِ على كُلِّ الخيل : من كُلِّ خَصْرَاءٍ مُعْجِبَةٍ فُهِى على المَجَازِ
حَدِيقِهِ ، وكلُّ أَحْمَرَ سَابِقٍ فهو البرقُ على الحَقِيقَةِ ، وكلُّ أَصْفَرَ شَفَقٍ إلا أنَّ الرياحَ
من مَجَارَاتِهِ على نَفْسِهَا شَفِيقَةٍ . وكيف لا يُشَبَّهُ بِالشَّفَقِ وهو من الأَصَائِلِ ، وكيف
لا يَفْتَخِرُ العسْكَرُ بِهَذِهِ الخيلِ وَخَنَاصِرُ عَدَدِهَا في الحُسْنِ أوَائِلِ ، قد صُرِفَتْ وَجُوهُهَا
المقبلة ، لبَابِ مولانا أَحْسَنَ المَصَارِفِ ، وَكُتِبَتْ عَوَارِفُ الفضلِ في مَعَارِفِهِ المُسَبَّلَةِ ،
فناهيك منها بِكُتَابِ عَوَارِفِ المَعَارِفِ ؛ ووصل لمولانا بذلك مثَالُ شَرِيفٍ ؛ ورسم
للملوكِ بِتَجْهِيزِهَا مع مَنْ يراه ؛ وقد جَهَّزَ الملوكُ لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المِثَالِ
الشريفِ صَحْبَةَ فُلَانٍ ، ومولانا أَدْرَى بِنَفَحَاتِ رِيَاضِ الحَمْدِ بِهَذِهِ الدَّيْمِ المُطْلَةِ ؛
والتَّقْيِيلِ في الأَرْضِ التي هي سَمَاءُ حَوَافِرِ هَذِهِ الخيلِ التي هي أَهْلُهُ ؛ وأولى أن
يُشَرَّفَ الملوكُ بِمُحَمَّاتِهِ ، وَيُوْنَسَ لِحْظَهُ بِطِيفِ اليَقَظَةِ من مَشْرِفَاتِهِ ، والله تَعَالَى
يَجِدُّدُ لِمَعَالِيهِ في كُلِّ قَصْدٍ مُجْحَا ، وَيَعْلَى لِمَجْدِهِ في كُلِّ حَالٍ قَدْحَا ؛ وَيُرْوِعُ الأَعْدَاءَ^(٣)

(١) كذا في الأصل باستعمال من في غير الغافل .

(٢) في الأصل يخطر كالغمام ولعله مضحك عما أئبناه يقال تمطرت الخيل إذا جاءت مسرعة يسبق

بعضها بعضاً تأمل .

(٣) في الأصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوَات خَيْلِهِ فِي بِلَادِهِم بِالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا ، وَمِنْ خَطَرَاتِ ذِكْرِهِ فِي قُلُوبِهِم
بِالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا .

وفي معناه :

يَقْبَلُ الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ أَعْلَى اللَّهِ شَانَهَا ، وَجَمَلُ بَقَائِهَا زَمَانَهَا ، وَضَاعَفَ عَلَى
الْأَوْلِيَاءِ بِرَّهَا وَإِحْسَانَهَا .

ويُنْهَى : أَنَّهُ آتِنَاعُ جَوَادًا أَعْجَبَهُ ، وَطَرَفًا آتَنْجَبَهُ ، وَقَدْ قَدَّمَهُ لَوْلَى نِعْمَتِهِ ، وَمَالِكُ
عَهْدَتِهِ : لِأَنَّ الْكِرَامَ لَا تَكُونُ إِلَّا عِنْدَ سَيِّدِ الْكِرَامِ ، وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلْوَلِيِّ عَلَى الْعَبْدِ
حَرَامٌ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ التَّوْفِيقَ ضِيَاءَ غُرَّتِهِ ، وَالْيَمْنَ مَعْقِدَ نَاصِيَتِهِ ، وَالْإِقْبَالَ تَحْجِيلَ
أَوْظَفَتِهِ ، وَالسَّعَادَةَ مَوْضِعَ الْجُلُوسِ مِنْ صَهْوَتِهِ ؛ وَالْمَمْلُوكُ يُسَالُ الْإِنْعَامَ بِقَبُولِهِ ، وَ[أَنْ]
يَبْلُغَهُ مِنْ ذَلِكَ [غَايَةَ] مَأْمُولِهِ ؛ مُضَافًا إِلَى مَا سَبَقَ بِهِ سَابِقُ إِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ ، وَفَضْلِهِ
الْجَسِيمِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْرُسُهُ بَعِينُهُ الَّتِي لَا تَنَامُ ، آمِينَ .

الأجوبة بوصول الخيل

جوابٌ عن نائب الشام إلى أميرأخوَر بالأبواب الشريفة ، عن وُصُولِ خَيْلٍ
إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ - مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ ، وَهُوَ بَعْدَ
الْأَلْقَابِ :

لَا زَالَتْ مَبْشَرَةً بِأَعْظَمِ الْخَيْرِ وَكَرَامِ الْخَيْلِ ، مَيَّسَرَةً لِلنَّعَاءِ بِسَوَائِقِ السَّيْرِ كَدَوَافِقِ
السَّيْلِ ؛ مُسْفِرَةً عَنْ إِيجَادِ سَوَائِحِ إِلَّا أَنَهَا فِي الْفَخَّارِ وَالشَّيَةِ ضَافِيَةُ الذَّيْلِ ، سَفِيرَةٌ
فِي الْجَوَادِ بِكُلِّ جَوَادٍ تَبَسُّمُ غُرَّتِهِ أَبْتَسَامَ النَّهَارِ وَيُدْرِكُ طَلَبَهُ إِدْرَاكَ اللَّيْلِ ؛ تَقْيِيلًا
يَسْتَبِقُ أَسْتَبَاقَ الْجِيَادِ ؛ وَيَتَسَّقُ عَلَى الدَّرَجِ أَلْسَاقَ الْعُقُودِ عَلَى الْأَجْيَادِ .

(١) النِّعَمُ وَالنِّعْمَةُ وَالنِّعْمَى وَالنَّعَاءُ مَا يَنْبَغُ بِهِ فَعْلُ الصَّوَابِ الْإِنْعَامِ .

وُنِيهِ بعد ثناءٍ وولاءٍ : هذا يهيمُ في كل وادٍ ، وهذا يهيمُ بمثله كل وادٍ ؛ وُرودُ
 مشرفةِ مولانا الكريمةِ بما ملأ القلبَ مسرهً ، والعينَ قُرّه ، ودرجَ عامَ الفيل من نُجُب
 الخيل السيارةِ مستهلَّ وغُرّه ؛ فقابلها المملوكُ بتقييله ، وقام لها على قَدَمِ تقييله ؛
 ثم قام إلى الخيل الشريفة المنعم بها عليه فقَبَّل من حوافرها أهلاً ثم من غُررها
 نُجوماً ، وتأملَ شياتها البرقيةَ واستمطر من السُّعود غيوماً ؛ فأدنت له من الإقبال أمدَ
 قاصيها ، وظلَّ بمنزله الخيرُ المعقودُ بنواصيها ؛ وتضاعفت أدعيته الصالحةُ لهذه الدولة
 القاهرة الصالحةُ زادها الله من فضله ، والوقت الذي ملأ الدنيا بسحابِ جوده
 ورياحِ جِواده ورياضِ عدله ؛ والمملك الذي لا يَنْبَغِي لأحدٍ من بعده ، ولولا شهودُ
 العهد الشهيديِّ لقال ولا لأحدٍ من قبله ؛ وأعدَّ المملوكُ هذه الثلاثة من الخيل ليُفْنِي
 عليها بالقتال أهلَ التعطيل والتثليث ، ويستخفَّ بها آجالَ الأعداء بين يدي
 مالكة : فإنها من ذواتِ العزِّ والعزمِ الحثيث ؛ وما هي إلا كواكبٌ سعدت بمددها أَسْتَهَا
 الوقَّاد ، وزهراتُ حسنِ حيثُ بها على البُعدِ سفارتهُ المعتاده ؛ لأبرح مولانا يَقلِّدُ
 بعنايته وإعانتِهِ المِنْزَ الحسام ، وينصُرُ بعزائمه القاطعة ، وكيف لا ينصُرُ ويقطعُ
 وهو الحُسام ؟ .

وله في جواب وُصول أكديش وبارز [وكوهية] :

لا زالَ جزيلاً سَمَّاحُهُ ، جزيلاً من الحمدِ رَبَّاحُهُ ، جليلاً برُّه الذي يشهد به طائرُ
 الخير ويمنه وطائرُ الخيل ونَجَّاحُهُ . هذه المفاوضة تُهْدِي إليه سلاماً يَحْفَقُ جَنَاحُهُ ،
 وثناءٌ تُشْرِقُ غُرَّهُ وأوضاحُهُ ؛ وتوضَّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبتِهِ سريعةِ الإِحْتِثَاتِ ،
 طائِرةٌ يُؤَمِّن طُرْسُها وهديتها بأَجْنِحَةٍ مَتْنَى وثلاث ؛ فحصل الوقوفُ عليها ، وتجددُ
 عهدِ الأَرْتِياحِ لديها ، وفهمنا ما لم نزل نفهمه من ودِّ الجَنابِ العالی ، وبرِّه المُتعالی ؛

ووفاء عهده الذى تتلقاه المحامد بأمالى المحب لا بأمالى القالى، ووصل الأكدش الايك
 ظاهراً حسنه، سافراً عن وفق المراد يمتنه، تتجمل به الموابك، وشماسه الرياح
 وبعضها من خلفه جنائب، وكذلك وصل البازى والكوهية، وكلاهما بديع
 الأوصاف، سريع الإقنطاف لأزاهير الطير والإقنطاف، يسبق الطرف بجناحه
 اللموح، ويستعجل من الأفق وارد الرزق المنوح، ويواصل الخير والمير إلى المطبخ،
 فكأن حوائج كاش تغدو إليه وتروح، لا برح إحسان الجناح العالى وإصلا، وذكره
 فى ضمير الإعتداد حاصلاً، وحكم سماحته وشجاعته باستحقاق الثناء فاصلاً.

جواب بوصول جوارح :

كتب به عن نائب الشام، جواباً لمطالعة وردت على نائب الشام من الصالح
 صاحب ماردین من بقايا بنى أرتق، صحبة سناقر، هدية للصالح إسماعيل بن الناصر
 محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وأيد همه السوايح، ونعمه السواخ، وشيمه التى تنظم منها عليه درر المحامد
 والممداح، وشكر هداياه التى منها جوارح طير تحفّق لقرط أسنحسانها الجوارح .
 ولا زال من أجنحة نصره حتى السماك الراح، ومن جنود سعده للأولياء سعد
 السعد، وفى الأعداء سعد الذابح، ومن جياذ ركابه الشهب إلا أنها شهب الأفلاك
 السوايح، ولا برح سلطان البسيطة مكافئاً عمل قلبه الوفى، ولا ينكر العمل بالقلوب
 بين الصالح والصالح .

المملوك يقبل الأرض التى تستمد السحب من سمائها، وتستعد منازل الأنجم لتعلم
 من أنوائها، تقيلاً يودع ورق الرسائل أزاهره، ويطلع فى ليلى السطور زواهره،
 وينتجرف فى أيدى الحروف إلى أن تصل إلى أجياد المنابر جواهره .

وَيُنْهِى - بعد دعاءٍ صالح، إذا جُدِّدَ تَجَدَّدَ، وولاءٍ ناجح، إذا آنْعُظَفَ تَأَكَّدَ، وثناءٍ
 ساجح، إذا سرى لا يتوقَّف إلا أن نَسِيمَه في الآفاق يتردد، وأرتياح لما يرد من
 أخبار دياره السائرة إذا شافَه سروره سَمِعَ الوليَّ شَهِدَ وسمِعَ الحاسدَ شَهِدَ، حيث
 يتلَقَّى ببلاده النجح والمقاصد، وصِلات البر والعوائد، ووفود الآمال من كل أوب:
 فديار بكر ديار زيد وعمرو وخالد - ورود المشرف الكريم، بل الغيث السائر يخضب
 المقيم، على يد فلان ونعم اليد العائلة لأبأدى البرِّ العميم، ونعم المشرف الوارد عن
 مقر: هذا للأمل كهف وهذا للتأمل رقيم؛ ففضَّه المملوك عن علامة اسم لحسنها
 وسوم، ولها رسوم، وأستجلى مواقع تلك الأنايل المضية وأقسم على فضلها بمواقع
 النجوم؛ وأتتهى إلى الإشارات العالیه، وعلم ما كان القلب يعلمه من ضمائر الود
 الحالية لا الخالية، وقابل كل أمرٍ حسنٍ بما يجب من مذهب الود المتواليه،
 ووصلت السناقر المنير سنا فضلها، المير في معارك الصيد شباً نصلها، القائمة
 في كواسر الطير مقام الملوک الأکسرة إلّا في حكمها وعدلها؛ لاجرم أنها إذا
 دخلت آفاق طير أفسدتها وجعلت أعزّة أهلها أذلّة؛ وإذا آنقضت على سرب
 وحش جذبتها من دم الأوردة بأرسانٍ حيث كستها من قوادم الأجحة أجلّ؛
 لأيسأل كاسرها في الطيور بأى ذنب قتلت، ولا يحلها جانب الطير والوحش إذا
 عاندته فيأعجبا لها على أيدي البشر كيف حملت؛ يُظَلُّ الصيد فلا يحجب أن يفزع بها
 من ظلّه، وتكتبُ علائم الثين والظفر بما في لونها من شبه الخط وشكله، نعم
 الجالبة للخير والمير، والسائرة بما يخيف المتصيدات وكيف لا؟ وعلى رؤوسها
 الطير، أزهى حُسنٍ لا يدع أن يكون لها كرائم، وبوارق العزم لاجرم أن أجنتها
 غمائم؛ ونواقل البأس والكرم عن مُرسِلها فهما جمعت الشجاعة فرقت المكارم.
 استجلاها المملوك بعد ألفاظ المشرف الكريم فقال: (تلك الرياض وهذه السحب،

وتلك الأنوار الهادية وهذه في أفق مطارها الشهب) ؛ وجهر المملوك المطالعة المحصرة
للأبواب الشريفة أعلاها الله وشرفها على يد فلان المذكور فقوِيل بالإكرام والكرم،
ومثل بالمواقف الشريفة مثولاً رقبته إلى الكواكب لا جرم ؛ وذَكَرَ بصالح
بيت الارتقاء صالح بيت أرتق حتى أنشد :

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ * مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ !

وقد عاد معلماً من البشر بما يراه مولانا عليه ، معلماً بما تقدم من نجوى الإنعام
بين يديه ؛ حاملاً من كريم وجاه يُعدان للأولياء في يوم نزل وللأعداء في يوم نزال ، قائلاً
برجاء سعيه المؤمن : (يَا صَالِحٌ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) ولن نزال ؛ والله تعالى
يُجْزِي كَرَمَ مولانا على عوائد إسعاده ، ويَحْرُسُ بَعِيْنَهُ وملائكته نَفَاسَةَ نَفْسِهِ وِلاَدِهِ ؛
وَيُدْخِلُهُ بِأَسْمِهِ وَمُسَمَّاهُ لَدَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ .

وله جوابٌ بوصولِ بَازِيَيْنِ :

ولا زالت بُزَاةُ كَرَمِهِ عَلَى الْحَمْدِ مُطْلََّةً ، وَسَحَابُهُ مُسْتَبَلَّةً ، وَهَمُّهُ مُسْتَقِلَّةً بِأَعْبَاءِ
الْمَكَارِمِ وَإِنْ كَانَتْ لِكَثِيرٍ مَاهِدِيَةً مُسْتَقِلَّةً . هذه المفاوضة تُهْدِي إِلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ
أَجَلَهُ ، وَتَوْضَعُ لِعَلَمِهِ الْكَرِيمِ وَصُولَ مَكَاتِبَتِهِ الْعَالِيَةِ فَوْقَنَا عَلَيْهَا ، وَعَوْدَنَا بِكَلِمَاتِ
النَّاءِ التَّامَّةِ مِنْ خَلْقِهَا وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا ؛ وَعَالِمَنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَعْلَمُهُ مِنْ مُوَالَاتِهِ وَأَلَانِهِ
الْمُسْتَنَدِ فِي الشُّكْرِ عَنْهَا وَالْمُسْتَنَدِ فِي الْوَلَاءِ إِلَيْهَا ؛ وَوَصَلَ كَلَا الْبَازِيَيْنِ الْحَسَنِينِ الْمُحْسِنِينَ
كَأَنَّهُمَا فَرَقَدَا سَمَاءً قَدْ أَجْتَمَعَا ، وَقَرَأَ حُسْنٌ طَلَعًا ، وَعَلَى مُحَاسِنِ الصَّيْدِ أَطْلَعًا ؛ يَسْرَانِ
الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ ، وَيَحْمِلُ كُلُّ مَنَّهُمَا عَلَى الْيَمِينِ فِيحْصُلُ بِهِ الْيَسَارُ ؛ وَمَا هُمَا بِأَوَّلِ
إِحْسَانِهِ الْأَسْنَى ، وَرَبِّهِ الْأَهْنَى ؛ وَأَيَادِيهِ الَّتِي أَبِي الْكَرَمِ إِلَّا أَنْ تَرِدَ مَثْنَى مَثْنَى . وَعَلِمَ
أَعْتِدَارُهُ عَنِ الْكُوْهِيَّةِ الَّتِي كَانَ أَدْنَحَهَا فَنَفَقَتْ ، وَلَوْ أُقِيمَتْ بِهَا أَسْوَاقُ الصَّيْدِ

نَفَقَتْ ، وأرسل بروايتها تحقيقاً لدَعْوَى المكارم التي من زمانٍ تحَقَّقَتْ ؛ واللهُ تعالى
يُشْكِرُ بِهِ ، ويملأ بِذِكْرِهِ بَحْرَ الثَّناء وَبِرِّهِ .

وله جوابٌ بوصول كوهيتين على يد شخص اسمه باشق :

لازالَتِ المحامدُ من مَصايدِ إنعامه ، وفوائدِ أيامه ؛ وثمراتُ البأسِ والكرمِ من
قُضْبِ سُيوفه وأعلامِهِ ؛ تَقْبِيلُ معترفٍ بإحسانها ، مغترفٍ من مَوارِدِ آمِنَتِها ؛ متَحِفٍ
منها بعالِي تُحْفٍ تَدُلُّ على مكانِها في الفضل وإمكانِها .

وَبُنِي وَرُودَ مشرفِ مولانا الكريمِ على يدِ الولدِ « باشق » فياله باشقُ جاء
بِكوهيتين جميلتين ، وطار للسرعة وهو حاملٌ مِتينِ جليتين ؛ وقد وصلتَا و [كُنَّا] هما
حسنةُ الخبرِ والخبرِ ، حميدةُ الورْدِ والصدرِ ، يُحَسِّنُ مَسْرَى كُلِّ منهما وسيره ؛ وَيَتَجَمَّلُ بهما
بابُ الشُّكرِ خاناهُ وصدرُها ويكثرُ خَيْرُ المَطْبِخِ وميره ، فمد المملوكُ إليهما اليدَ المتحملةَ
الحاملةَ ، وإلى المشرفِ الكريمِ اليدَ المتولِّيةَ المُتناولةَ ؛ وعلم ماتضمنته من الحُسْنِ
والإحسانِ ، وذكُرِ المِوالاةِ التي يحْكُمُ بها القلبُ العالمُ قبلَ شهادةِ اللسانِ ؛ وأعتذارِ
مولانا عن تعذُّرِ وجودِ الشاهين ؛ وكلِّ إحسانِ مولانا شَيْءٍ كافٍ ، وكلِّ مَوارِدِ
نِعْمِهِ هَنِيءٍ صافي ؛ ومافاتِ مَقْصِدُ وإنعامِ مولانا وراءَ طَلَبِهِ وإن طال الأمدُ ، ولا فَرَّ
مطلوبٌ حتَّى يَأْتِيَ به سَعْدُ مولانا مَقْرُونًا في صَفَدٍ ؛ واللهُ تعالى يُشْكِرُ عوائدَ فضله ،
ولا يُضْحِي الآمالَ المتجَنِّةَ [إليه] من ظِلَّةٍ .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَّرَ هداياه المتقبَّلة ، وسجَّيَّاه التي هي بأفواه المحامد مُقبَّلة ، ولا زال بدرَ سعادته
المأمولةِ وطائرَ هديته المتأملِ .

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُهدى إليه من السلام أتمه، ومن الشاء أتمه، وتوضَّح لعلهم الكريم ورود مكاتبته الكريمه، ومكارمه العيمه، وطُيور هديته التى كل منها فى الحُسْن بدرت، وظهرت ظُهور البدر لتمامه فأبت محاسنها أن تنكتم، حُسْن ورودها، ورعى بفضل اللطف والتودد مقصودها، وأقبلت تلك الطيور التميّة تامة الإناعام، دالةً يمين طائرها على بركة عامّة وكيف لا؟ وقد جاءت بيضاء عددَ شهور العام، والله تعالى يزيده من فضله، ويُجرى الأقدار بالسعود الشاملة لجمعه الجامعة لشمّله، إن شاء الله تعالى .

جواب فى المعنى، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضا :

لا زالت الجوارح شاهدةً بیره، والجوانح حائمةً الجناح على شريف ذكره، والحمد من مصاد أعلامه ورماحه فى السلم والحرب : فأما بقوادم سمره، وإما بمناسر سمره، تقيلاً يبعثه على أجنحة أوراق الرسائل، ويتصيد به على البعد مشافهة تلك الأنامل الجلائل .

ويُنهى بعد دعاء، تُخلّق إلى السماء كلماته الحسنه، وولاءٍ وشاء : هذا تحفّق بتشوقه أجنحة القلوب، وهذا تحفّق بذكره أجنحة الألسنه - أن كتاب مولانا ورد على المملوك فأورد عليه المسار، و[ملا] يده بالمبار، ومصاده بالمير، ومنارله بالخير، وآماله بأمالى الكرم لذى السرحات المنشرح بأية (وعلمنا منطق الطير) فقابله المملوك بتقبيله، وواصل فضل الاعتداد بتفضيله، وحصل من هداياها وهداها على جملة الإحسان وتفصيله، وأتمنى إلى الإشارات العالية التى زكت على العيان وتأمله وأربت على الجنان وتأمله .

فَأَمَّا الْإِنْعَامُ بِالْكُوْهِتَيْنِ اللَّتَيْنِ مَاقَذَفَ الْبَحْرُ إِلَى السَّاحِلِ أَهْبَى مِنْ دُرِّهِمَا
 الْمَكْنُونَةِ ، وَأَزْهَرَ مِنْ جُوهِهِمَا الْمُبَارَكَةِ الْمَيْمُونَةِ ، فَقَدْ وَصَلَ كِلَا الطَّائِرَيْنِ يَمِينُهُ ،
 وَالسَّابِقِينَ بِمَنْهَ ، وَالْعَائِيْنَ فِي جَوْ السَّمَاءِ الْآتِيَيْنِ مِنَ الصُّيُودِ بِأَوْفَى مِنْ قَطَرَاتِ مَوْنِهِ ،
 وَأَسْتَقْبَلَ الْمَمْلُوكُ مِنْهُمَا وَجْهَهُ الْمَسَارَّ ، وَحَمَلَتْ يَمِينُهُ الثَّرْوَةَ وَحَمَلَتْ عَلَى الْيَسَارِ ؛
 وَتَنَاوَلَتْ يَدُهُ يَدَيَّ إِحْسَانٍ يَسُرُّ النَّاظِرِينَ وَالسَّامِعِينَ ، وَأَسْتُخْدِمَا لِلشُّكْرِ خَانَاهُ وَلِحِفْظِ
 مَطْبَخِ بِلَاءِ عِيُونِ الْمُشْبَعِينَ وَالْجَائِعِينَ ؛ وَقَالَ صَنَعَ اللَّهُ لِصِنَاعَتِهِمَا : ائْتِيَا بِصُيُودِ السَّمَاءِ
 طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ . قَدْ كَتَبَتْ بِالْيَمْنِ فِي مَطَاوِي رِيشِهَا أَشْبَاهَ الْحُرُوفِ ؛
 وَقَضَى الْجُودُ لِمَلِكِ الْأَحْرَفِ أَنْ تَقْرَى مَا تَقْتَرِي عَوَاصِي الطَّيْرِ لَهُ بِطَاقَةِ تَقْيِيدِ السَّابِغِ
 فِي طَلْقِهِ ، وَيَعُودُ مُطْلِقُهَا وَقَدْ أَلْزَمَ نَجَاحَ الطَّيْرِ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ إِحْسَانَ
 مَوْلَانَا الَّذِي أَلْخَفَ الْأَمَلَ جَنَاحَهُ ، وَالْقَصْدَ نَجَاحَهُ ؛ وَبَرَّ الَّذِي أَحْمَدُ فِي سَوَانِحِ
 الطَّيْرِ وَبَوَارِحِهِ مَسَاءَهُ وَصَبَاحَهُ ؛ وَعَلِمَ مَا أَشَارَ مَوْلَانَا إِلَيْهِ فِي أَمْرِ فُلَانٍ وَأَمْرُهُ عِلْمُ
 اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَاطِرِ حَاضِرٍ ، وَمَا يُؤَخَّرُ شُغْلَهُ عَنْ إِهْمَالٍ وَعَائِبٍ الْإِهْمَالِ غَادِرٍ ؛
 وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ فُلَانٍ أَمِيرِ شُكْرِهِ وَأَمِيرِ شُكْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَتَقَدَّمَ بِخَلَّاصِ حَقِّهِ ،
 وَأَسْتَنْزَلَ بِهَدِيَّتِهِ قَضَاءَ الشُّغْلِ مِنْ أَفْقِهِ ؛ لِأَبْرَحَ مَوْلَانَا مِمْتَلِ الْأَوَامِرَ ، هَامِي سُبْحِ
 الْبَرِّ الْهَوَامِرَ ، مَجْدِّدًا فِي كُلِّ وَقْتٍ نِعْمَى ، مَالئًا بِهَدَايَاهِ قُلُوبَ مُحِبِّيهِ وَبُيُوتَهُمْ شَمًّا وَلَحْمًا ؛
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله جواب في وُصُولِ طُيُورِ الْعَقَقِ :

لَا زَالَتْ مَتَّصِلَةً مِنْ إِرْفَاقِهَا وَإِرْفَاقِهَا ، نَازِلَةً عَلَى حُكْمِهَا [الْأَشْيَاءُ] حَتَّى
 الطَّيْرُ الْعَاقَّةُ مِنْ آفَاقِهَا ؛ خَافِقَةٌ أَعْلَامُ نَصْرِهَا بِالْأَجْنَحَةِ مُؤَمَّنَةٌ لُطُنُونَ الْقَاصِدِينَ مِنْ

إخفاقها، تقييل مُطْلِقٍ لسانِ الحَمْدِ على عوائِدِ إطلاقِها، مُجْتَنٍ لثمراتِ الإحسانِ من غُصُونِ أَقْلَامِها وِغُصُونِ أَوْرَاقِها .

وَيُنْهِى وَرُودَ مَشْرِفِ مولانا العالى على يَدِ الولدِ فلا نِ فوقَ المملوكِ عليه، وعلم من جميلِ الاحتفالِ ما أشار إليه ، وأنه موقعٌ على المقصودِ من طُيُورِ العَقْدِ فأوقعها من مَطارِها ، وأستزلف من أوكارِ أَقْفِها وأُفُقِ أوكارِها ، وأرسلها قَرِينِ مَشْرِفِه الكريمِ ، وقد عُتِقَ الأملُ بعَقْدِها النِّظِيمِ ؛ ووصلتْ سبعةً كعدَدِ أيامِ الجُمُعةِ الكاملِ ، والكواكِبِ المائلِ ؛ والسَّمَوَاتِ لاجَرَمِ أن تُسْحَبَ مِنْهَا هامله ، حسنةَ الشَّكْلِ الموصوفِ والوصفِ وإن كان مع عُقُوقِها المألُوفِ ، طائعةً لأوامرِ توقيعِها فاعقَّ منها شَيْءٌ غيرَ تَضَعُفِ أَسْمِها المَعْرُوفِ ، لا بِرَحِ إحسانِ مولانا متنوّداً ، وبِرِه الحَزِيلِ متبرّعا ، وَغُصْنُ قلمِها بأنواعِ المكارِمِ متفرّعا .

وله جواب بوصولِ ثَمَاتٍ ، وإوزِ صِنِيِّ ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حَمِي اللهُ تِلْكَ التَّعْمَةَ مِنَ الْغَيْرِ ، وأطلعها عليه بَأَيْمَنِ الْغُرِّ ، ولا بِرَحِ طائرِ مَنْه كوصفه أبيضَ الخُبْرِ والخَبَرِ . هذه المفاوضةُ إلى الجَنابِ الكريمِ تُهْدِي إليه سَلَامًا يَشُوقُ الصَّبَاحَ ، وثناءَ خَفَاقِ الجَنَاحِ ؛ وتَوْضِيعَ لعلِهم الكريمِ وَرُودَ مكاتبتِهم الكريمِ جميلةَ الفَوَائِدِ ، جَلِيلَةَ المَصَائِدِ ، تِمِّيةَ البُذُورِ المتناوِلَةِ من مَنَالِ الفَرَاقِ ، فوقفنا بالأشواقِ عليها ، وعطفنا على العادةِ بِنَاكِيدِ الْوَلَاءِ إليها ؛ ووصلتْ تِلْكَ الثَّمَاتُ واضحةً الأنوارِ ، لائحةً كَبْيَاضِ النُّوَارِ ، تَامَةً تَمَامَ مِيقَاتِ مُوسَى عليه السلامِ إلا أَنَّهُا لِيَاضِها كَأَرْبَعِينَ نهاراً ؛ وكذلك الْبَطُّ الصِّينِيُّ كَأَيَّامِ الْحَجِّ عَشْرَةَ كَامِلَةً ، مَفْتَرِضًا على عَشْرَتِها ولاءُ القلوبِ المتأملَةِ الْإِمْلَةِ ؛ صَيِّئَةً مملوءَةً بِحَاسِنِ الْأَلْوَانِ التي هي بغيرِ مَثَلِ مائلِ ؛ وحصلَ الْإِعْتِدَادُ بِرِه ، وَالْإِزْدِيَادُ لِحَمْدِهِ وشُكْرِهِ ، وفهمنا ما ذكره من إمرةِ الْعَشْرَةِ التي آنَحَلَّتْ

عن فلان، وقد طالعنا بأمرها، وعجلنا بذكريها، وزججوا أن يعجل بأمانيتها المنتظرة، وأن يقابل بخوافق أعلامها خوافق بطه فتقابل عشرة بعشرة، والله تعالى يعجل لمعاله الصعود، ويؤكد لمسايعه السُّعود؛ إن شاء الله تعالى .

الأجوبة عن وصول الصيود ولحومها

جواب عن نائب الشام إلى نائب حلب بوصول [لحم] طير صيد قديد وصحبته بطيخ أخضر، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة . وهو بعد الألقاب :

لا زالت تُقتنص المحامد بغطاياه المكره، وأوايد الصيد برماياه المقتورة، ورقاب الإنس والوحش : إماما بسهام نعمة المتواترة، وإماما بسهام قسيه الموترة؛ ولا برحت تفحات مكارمه، تشهد أن المسك بعض دم الغزال، وسرحات عزائم، تمتد في صيد الوحش لقرى نزيل أو في صيد الأعداء لتقرير نزال؛ تقيلا تعطف أجياد الأطباء لمحاولة عقوده، وتزدحم أفواه الأولياء على مشافهة وروده .

وينهى بعد ولأ تقوم الخواطر الكريمة في دَعْوَاه مقام شهوده، وشوق لا تزال النسمات الشمالية قاضية باستمرار وفوده - أن مشرف مولانا الكريم ورد على المملوك على يد فلان وصحبته الإنعام المتجدد، وإن كان قديما في المعنى، واللحم القديد، وإن كان أطرى من الروض النضير حسنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كحال عداه الذين تُقدد جُسومهم في الحياة قبل الممات خُزنا، فقابل المملوك المشرف الكريم، بتقيل أحرفه، والإنعام العميم، بقبول مُسعدِه ومُسعِفِه؛ وعانقتهما بجوانح آماله، وأخذ الكتاب والبركا يقال بيمينه وشماله، فيألفهما من ظباء تُعشَق وإن بليت محاسنها، وغزلان تُغازل وإن بادت عيونها إلا أنه ماباد حب من يعاينها، وصيود تُوصَف وإن قصدها قصد السَّهام بطعن، ويتق بقرونها القتال والقسي تالية :

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرَبٍ) . سَلَكْتَ خِيُولَ مَوْلَانَا لِقَنْصِهَا الْمَصَاعِبَ
وَأَتَّخَذَهَا الْآكِلُونَ سَهْلًا ، وَتَصَيَّدَهَا مِنَ الْفَلَاةِ وَأَصْطَادَهَا الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمَقْلَى ؛
وَوَصَلَ مَعَهُ الْبَطِيخُ الْأَخْضَرُ فَشَبَّهَ بِثَمَارِ الْجَنَّةِ الْمَشْبُوهُونَ ؛ وَقِيلَ : هَكَذَا تَرْتِيبُ مَا كُلُّ
الْجَنَّةِ لَمْ فِيهَا فَافْكُهُ وَلَحْمُ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ؛ لَا زَالَتْ مِنْ مَوْلَانَا مَشْرُوحَةً
مَشْرُوعَةً ، وَثَمَرَاتُ نِعَمِهِ مِنَ الدُّنْيَا كَثُرَتْ أَهْلُ الْجَنَّةِ غَيْرَ مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ؛
بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

أَجْوِبَةُ هَدَايَا الْفَوَاكِهِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جَوَابُ وَصُولِ شَمِشِ لَوْلُؤِيٍّ وَدَغْمِيشِيٍّ مِنْ حَمَاةٍ .

بَسَطَ اللَّهُ ظِلَّهَا وَنَدَّاهَا ، وَأَطْلَعَ بِالْيَمَنِ نُجُومَ هَدْيِهَا وَهَدَّاهَا ؛ وَلَا زَالَتْ مُوَاهِبُ
بَحْرِهَا لَوْلُؤِيَّهِ ، وَشَوَاهِدُ يَمِينِهَا كَوَكِيئِهِ ، وَثَمَرَاتُ جُودِهَا فَضِيَّةَ الْأَعْيَانِ ذَهَبِيَّةً ، تَقْبِيلًا
حَلَّتْ مَوَاقِعَهُ ، وَجَلَّتْ مَطَالِعُهُ .

وَيَنْهَى بَعْدَ وِلَاءٍ وَحِيدٍ : هَذَا قَدْ ثَبَّتَتْ فِي الْقَلْبِ شَرِيعَتُهُ وَهَذَا قَدْ عَذَّبَتْ
فِي السَّمْعِ مِشَارِعَهُ ، أَنَّ مَشْرِفَةَ مَوْلَانَا الْكَرِيمَةِ وَرَدَتْ عَلَى الْمَمْلُوكِ نَتَضَمَّنِ الْحُسْنَ
وَالْإِحْسَانَ ، وَيَمِينُ الْإِرِّ الشَّامِلِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ ؛ وَعَهْدُ الْحُبَّةِ الَّتِي حَكَمَتْ فِيهِ بِعِلْمِهَا
الْقُلُوبَ فَمَا تَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ لِسَانٍ ؛ فَقَابَلَهَا الْمَمْلُوكُ مَقْبَلًا ، وَأَسْتَجْلَى وَجْهَ الْوُدِّ وَالْإِحْسَانِ
مُقْبِلًا ؛ وَوَصَلَ الْمِشْمِشُ الَّذِي شَفَى لَوْلُؤِيَّهَ نَظَرَ النَّاطِرِينَ ، وَنَوَعَهُ الْآخِرُ الدَغْمِيشِيَّ
الَّذِي هُوَ الشَّهْدُ بِحُسْنِهِ وَلَا يُدْغَمِشُ بِاسْمِهِ عَلَى الْحَاضِرِينَ ، فَتَنَاولَ الْمَمْلُوكُ عَوَارِفَ
بِرِّهِ الْمَعْرُوفِ وَالْمُبْتَكَّرِ ، وَأَسْتَضَاءَ نُجُومَهُ الْمَتَرَدَّةَ مُنْشِدًا قَوْلَ الْمَعْرَى : (كَمْ دُرٌّ ،
وَكَمْ يُرْنَ هَذِهِ الْأَكْرُ) ، وَقَالَ : شَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْمِنَّةَ الْحُلُوءَةَ الثَّمَرَاتِ ، الْمُتَّصِلَةَ

الخطرات ؛ وهذه المجاني التي طابت أوصولها وفروعها فلا أبعدهن الله من شجرات ،
وحياً حماة وما جلبت ، وجنبايت ذلك الوادي وما أنجبت ؛ وحدائق ذلك العاصي
الذي أطاع ببركة مولانا فأثبت أحلى وأحل ما نبت ؛ وقد جهز المملوك هذه الخدمة
منطوية على وظائف الحمد المستجاده ، ولطائف الحب المستفاده ؛ وحمد المن التي
لا تزال من مولانا عادة ومن المحبين شهادته . لا برحت يد مولانا الكريمة إن بسطت
فيعوائد إنعامها ، وإن قبضت فعلى سيوفها لمصالح الدول وأقلامها ، وإن زهت^(١)
فروع المكارم ، تساقطت ثمرات برها من زهرات أكرامها .

جواب بوصول مِشمِش وبطيخ حليّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

وِينِي بعد ولاء وثاء : لهذا في الأسماع أزهى وأزهر ثمره ، ولهذا في القلوب
أرسى وأرسخ شجره ورود المشرف الكريم على يد فلان بما ملأ السمع من أخبار
مولانا المرتقة سرورا ، والعين من آثار يده الكريمة نورا ، والفم من هدايا المشمش
الحموي كئوس لذة كان مزاجها كأفورا ؛ فقبل المملوك أسطره مستحلياً مواقع
رشفاته ، وقابله بعوائد الحماد مستحلياً عوائد أفقاداته وصلاته ؛ ومد يده وفكره
فالتقط النجوم المشرقة من هداياه وكلماته ، وتقلد جواهر المبرات الحسنة المحسنة ،
والثمرات التي جاءت بدريّة القدوم وإن كانت نجومية الهيئات المكونة ؛ وأستصوب
نتائج الغيث فقال : لعل هذه بنادق قوس السماء الملوّنة ، وصفا وطاب ظاهرها
وقلبها وكذا تكون صفات ذوى القلوب المؤمنة ؛ والمؤمن حلوى لاجرم ، والحموي
على عجمه الخراساني أولى بفصاحة الفخار والكرم ؛ لا زالت فعاتل من مولانا
مستجاده ، ونعمة لاسيما المشمشية مستزاده ؛ وأفقاداته المشهورة لدى ممالكه

(١) لعل الصواب وان زهت ، كما لا يخفى .

ومحبته منه عادةً ومنهم شهادته؛ وجاءت فاكهة البطيخ الحلبي وقد رضع حلب النعام
فأنجب، وأستوى باطنه وظاهره في الحسن فأعجب من حين أعشب؛ وأستطاب
الذوق والشم مطعمه وأنفاسه، ووُصف بالرؤوس فضمه كل متلق وقبل راسه؛
وقال: نعم الهدية السرية، والفاكهة التي طاعت حُرز [ها] هلاكية وثمرتها بذريه.

جواب عن وصول بطيخ حلبي، من إنشائه أيضاً، [وهو] بعد الألقاب:

وشكر سجاياه التي علت، وهداياها التي تكررت خلّت، وافتقاداته التي طاب ظاهرها
وباطنها فكانها من أخلاقه الجميلة نُقلت؛ أصدرناها تُهدى إليه سلاماً يتقدم
كهديته نسيمة العاطر، وثناءً ينتج أطيب الثمر مقدمات غيثه الماطر، وتوضح لعلمه
الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت حسنت بالود مشافهتها، وأقرت في الأسماع فاكهتها
ومفاكهتها؛ ووصل البطيخ فله در حلبه ودر حلبه، لقد حسنت في ملاذ المطاعم
طريقته المرضية، ولقد أشبه القناديل بتكوينه وفتيلة عرقه فلا جرم أن قناديله
عند الشكر مضية، ولقد ملأ خبره وخبره عين البصر وأذن المصيح، ولقد خلق دواءً
للأجسام حتى صح قول الحلبيين للأرمد: دواؤك البطيخ؛ فشكر الله إحسان الجناب
العالى، ويره المتوالى؛ وعلى الوالد والولد ومن عندهما سلام المحب المتغالى، والله
تعالى يحفظ عليهم من الفضل ما وهب، ويرزقهم بغير حساب ويرزق الظن فيهم
ما حسب؛ إن شاء الله تعالى.

وله أيضاً جواب بوصول بطيخ حلبي، وهو بعد الألقاب:

وشكر إحسانه الذى حلا مذاقه، وزكت أعراقه، وحيأ على البعد تحية طيبة
نفتحت بها أزهار الكتاب وأثمرت أوراقه؛ هذه المفاوضة تُهدى إليه سلاماً طيباً
كهديته، وثناءً زائجاً كطويته، وتوضح لعلمه الكريم ورود مكاتبته الجامعة حسن

الأقوال والأفعال، المطلعة بورِدِ غَمَامِهَا أَطِيبَ الثمر في الحال؛ فَأَحْيَتْ وَلَاءَ حَاشِيْ
لوجوده من العَدَمِ، وَجَدَّتْ عهدَ البَشَرِ - وما بِالْعَهْدِ من قَدَمٍ - ووصلَ البَطِيخِ
الحَلَبِيِّ أَصْلَهُ، الحمَوِيَّ فَضْلَهُ، الدَّمَشْقِيَّ ضَمَّهُ وَشَمَّهُ وَأَكَلَهُ، الفَلَكِّيَّ وَلَا سِيَّامًا من الأَهْلَةِ
المُجْتَمِعَةِ شَكْلَهُ؛ فَكُرِّمَ مَطْلَعًا، وَحَسُنَ من الأفواهِ مَوْقِعًا، وَعَمَّ الحَاضِرِينَ نَوَالًا،
وَأَشْتَمَلَهُم بِعَطْفِ الإِحْسَانِ أَشْتِمَالًا، وَأَخَذَ الغَلَامُ السَّكِينِ :

فَقَطَعَ بِالْبَرْقِ شَمْسَ الضُّحَى * وَنَاوَلَ كُلَّ هَلَالٍ هَلَالًا

لَا بَلَّ أَهْلَةٌ كَثُرَ تَعَادَاهَا، وَكُرِّرَ تَرْدَادُهَا، وَرَصَدَ قُرْبَهَا وَلَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ أَصْحَابُ
الْهَيْئَةِ أَبْعَادَهَا؛ فَشَكَرَ اللهُ إِحْسَانَ الْجَنَابِ الْعَالِي حَاضِرًا وَغَائِبًا، وَبَرَّهَ الَّذِي يُطْلِعُ
كُلَّ وَقْتٍ مِنْ هَدَايَاهُ وَكُتِبَهُ أَهْلَةً وَكَوَاكِبًا، وَمَرَبَاهَ الَّذِي نَقَلَ عَنْ مَلُوكٍ كَانَتْ
مَنَازِلُهُمْ لِلْحَامِدِ رَوْضًا وَكَانَتْ أَيْدِيهِمُ لِلكَرَمِ سَحَابًا؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَلَهُ جَوَابٌ بِوَصُولِ قَصَبِ سُكَّرٍ وَأُتْرُجٍّ وَقُلُقَاسٍ :

لَا زَالَتْ أَوْصَافُ شَيْمِهَا، تُطْرَبُ كَمَا يُطْرَبُ الْقَصَبُ، وَأَطَافُ كَرَمِهَا، مِمَّا يَغْدَى
الْجَسَدَ وَيُنْعِشُ الرُّوحَ وَيَشْفِي الْوَصَبَ، وَأَصْنَافُ نَعَمِهَا مِنَ الْحُلُوفِ إِلَى الْحَامِضِ
مِمَّا يُعْدِي الْأَيْدِيَ الْمَتَنَاوِلَةَ فِيهِى عَلَى الْأَعْدَاءِ تَنْتِصِبُ؛ تَقْبِيلَ مَحَبٍّ حَلَّتْ لَهُ الْمِنَنُ
فَتَنَاوَلَهَا، وَمَوَاقِعَ اللَّثْمِ فَعَاجَ إِلَيْهَا وَعَاجَلَهَا .

وَيُنَبِّئُ وَرُودَ مَشْرِفِ مَوْلَانَا الْكَرِيمِ، عَلَى يَدِ فُلَانٍ يَتَضَمَّنُ الْحُسْنَ وَالْإِحْسَانَ،
وَالْبِرَّ الْمَأْتُورَ بِكُلِّ فَمٍ الْمَشْكُورَ بِكُلِّ لِسَانٍ، فَقَابِلَهُ الْمَمْلُوكُ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْخِدْمَةِ لِمِثْلِهِ،
وَلِقَافَهُ بِعَوَائِدِ تَحْمَدٍ عَوَائِدَ فَضْلِهِ، وَوَصَلَ قَرِينَهُ الْإِنْعَامُ الَّذِي تَنَوَّعَ فُنُونُهُ وَأَفْنَانُهُ،
وَمَلَأَ فَمَ الشَّرَابِ خَانَاهُ سُكَّرًا وَيَدَ الْمِطْبَخِ إِحْسَانًا؛ وَذَكَرَ نَبَاتَهُ الطَّرَابُلْسِيَّ عُهُودَ الدِّيارِ
الْمُصْرِيَّةِ، وَأَوْقَاتَ الْأُنْسِ بِخِدْمَةِ مَوْلَانَا السَّيْنِيِّ؛ سَقِيًّا لَهَا مِنْ أَوْقَاتٍ وَعُهُودٍ، وَشُكْرًا

لجُود مولانا الذى هو فى كُلِّ وادٍ موجود ؛ ولتديره الشمسى الذى احيا الله به على
عباده عناصرَ هذا الوجود، ولا برحت مكارمه متنوعه، ونعم أياديه متفرعه : فمنها
ما حلا فرعه فأصبح لكل حلوا أصلا ؛ ومنها ما طاب ريحه وطعمه فكان للمؤمن
مثلا ؛ ومنها ما لذ طعمه الشهى فما هو مما يهجر وإن كان مما يقلى .

وله جواب بوصول بالذكورة خيار وملوخية :

لا زالت تشرح بكمالها الصدور، وتفتح بركات الأعوام والشهور؛ وتمنح من
لطائف منها كل جماعة السرور، وتمنح فى هداياها المستبقة إلى الأولياء خيار
الأمور؛ تقييل محب لا تغير ولاء الدهور، ماش من طريق المصافاة والموافاة
فى نور على نور .

ويُنهى ورود مشرفة مولانا على يد فلان تتضمن المعهود من ولائه وآلائه ؛
والمشهود المشهور من إحسان نداءه قبل ندائه ؛ فقابلها المملوك مقابلة الشيق إلى قرب
الديار، الممضى فى المحبة قلبه لمولاه قبل شرط الخيار، ووصلت لطائف هديته
الحاضرة النضرة، وطرائف الفضل الباكورة كمعاني اللفظ المبتكرة ؛ فتجنز المملوك
الفاكهة قبل أوانها البديع، ورصد من أفلاك العلب فى ذى الحجة غرة ربيع ؛
وتفاعل بالهدية الم جمعة الأحباب فى أن يعود الشمل وهو جمع ؛ وقد عاد فلان حاملا
من رسائل الشوق والشكر ما يؤديه بين أيدي مولانا الكريمة، ويحدد بذكره عهود
الأسس القديمه ؛ لا يرح مولانا سابق الكرم، محضر المراع يبيض النعم .

قلت : وكتبت جوابا لبعض الأصحاب وقد أهدى لى سَمكا :

أهدى لنا سَمكا قد طاب مطعمه * أكرم به سَمكا لم يسكن البركا !
لا شك أن له بالبحر شاكلة * والبحر عادته أن يهدى السمكا !

الضرب الثاني

(من كتب التهادى الاستهداء)

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يُكْتَبُ مَعَ إِهْدَائِهِ قَدْ يُكْتَبُ مَعَ اسْتِهْدَائِهِ ، إِلَّا أَنَّ الْغَالِبَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكُتَّابِ فِي الْاسْتِهْدَاءِ طَلَبُ الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَظَرَّةِ الْخَفِيفَةِ الْمِنَّةِ دُونَ مَا يَعْظُمُ خَطَرُهُ ، أَلَلْهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْاسْتِهْدَاءُ مِنَ الْمُلُوكِ وَنَحْوِهِمْ فَيُطْلَبُ فِيهِ مَا جَلَّ وَعَظُمَ .

والذى جرت عادة الكُتَّابِ بالكُتَّابَةِ فِي اسْتِهْدَائِهِ عَلَى أَصْنَافٍ :

الصنف الأول - آلات الكتابة : من الأدوية^(١) والمِدَادِ والأَقْلَامِ :

مما تقدّم ذكره في الإهداء .

أبو الفرج البغّاء في استهداء دواة :

أَنْفُسُ الذَّخَائِرِ وَأَشْرَفُ الْأَمَالِ مَا كَانَ لِلْفَضْلِ نَسَبًا ، وَلِلصَّنَاعَةِ وَالْحُظْوَةِ سَبَبًا ، وَبِالدَّوَى تَجَنَّى ثَمَرَةُ الصَّنَاعَةِ ، وَيَحْتَلِبُ دُرُّ الْكُتَّابَةِ ، وَقَدْ أَوْحَشَ الْمُلُوكُ الدَّهْرُ مِمَّا كُنْتُ أَقْتَنِيهِ مِنْ نَفَائِسِهَا ، وَضَائِقِهِ فِي وُجُودِ الرِّضَى عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهَا ، فَإِنْ رَأَى مُوَلَانَا أَنْ يُمِيطَ بَعْضَ مَا يَسْتَعْمِدُهُ مِنْ حَالِهَا أَوْ عَاطِلِهَا سِمَةً عَظْلَةً الْمُلُوكِ ، وَيَسْمَحَ بِإِهْدَائِهَا إِلَى أَهْلِ تَصَرِّيفِهِ وَيُقَابِلِ الثَّجِجِ وَالتَّجْبُلِ رَغْبَتَهُ ، فَعَلَّ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في استهداء مداد :

التَّنَافُسُ - أَيْدِكَ اللَّهُ - فِي أَدَوَاتِ الْكُتَّابَةِ وَآلَاتِ الصَّنَاعَةِ بِحَسَبِ التَّفَاضُلِ فِي ظُهُورِ النِّعْمَةِ ، وَالتَّخْيِيرِ لِبَيَانِ الْإِمْكَانِ وَالْقُدْرَةِ ، وَإِلَّا فَسَاءُ الدَّوَى سَوَاءً فِيمَا تُصْدِرُهُ

(١) لعل الصواب من الدوى انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستمده بطون الكتب منها ؛ وأولى آلاتها بأن نتوفر العناية عليه ،
وينصرف التخير بالضرورة إليه ؛ المداد الذى هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ،
ومادة الأفهام ، وشرب الأقلام ، فجعلها الله بواجب القضية والحكم ، فى حيز وصفه
من الحمد والذم ؛ ومازلت لنفائس الأخلاق موطنًا ، ولنجع الإخوان فى المحل معدنا ؛
ولا معدل بي عن استمache خزائنك عمرها الله الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ
دواقي من نحول العطله ، وتزده قلبي عن ظمإ الغلة ، وتكشف عنها سمة النقصان
والخله ، فعلت ؛ إن شاء الله تعالى .

على بن خلف ، فى مثله :

أولى ما أنيسط فى استهدائه ، وتسمح [نفسى] فى استماحتيه واستجدائه ، ما كان
ناقعًا لغلة الأقلام ، مقيّدًا لشوارد الأفهام ، محبّا لبرود البيان ، حاليًا فى معارض
الحسن والإحسان ، وكتبت هذه الشكوى أطلال الله بقاء سيدى :

الصنف الثانى - الشراب .

فى استهداء مشروب .

أبو الفرج البغاء :

أنا - أيد الله سيدى - ومن ساعحنى الدهر بزيارته من إخوانى وأوليائه ، عضد الله
جمعنا ببقائه ، وقوف بحيث يقف بنا اختياره : من القبول والإنساض ، ويرتضيه لنا
إيثاره : من الهم والسرور ، لأن الأمر فى ذلك مما يؤلينا من المساعدة بالممكن من
المشروب إليه ، والاعتماد دون كل أحد فى اجتماع شمل المسرة لنا به عليه ، فإن رأى
أن يكلفنى إلى أولى الظنين به وأحقهما بما ثور فتوته ، فعل .

وله في مثله :

الطُّف المَنَّ مَوْضِعًا ، وَأَجَلُّهَا مِنَ الْأَنْفُسِ مَوْعِدًا ، مَا عَمَّرَ أَوْطَانِ الْمَسْرَةِ ، وَطَرَدَ
عَوَارِضَ الْهَمِّ وَالْفِكْرِ ؛ وَجَمَعَ شَمْلَ الْمَوَدَّةِ وَالْأُلْفَةِ ، وَأَدَّى إِلَى آجِتِنَاءِ ثَمَرَةِ اللَّذَّةِ ؛
وَبَذَخَائِكَ مِنَ الْمَشْرُوبِ مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ [مَا] يَسْتَرِيقُ حُرَّ الشُّكْرِ ، وَيُحْرِزُ قَصَبَ
السَّبْقِ إِلَى النَّبَاءِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُجِدَ بِالْمِمْكِنِ مِنْهُ مُرُوقِي ، عَلَى قَضَاءِ
حَقٍّ مِنْ أَوْجَبِ الْمَنَّةِ عَلَى بَزِيَارَتِي ؛ فَعَلْتَ .

وله في مثله :

مَنْ كَانَ لِلْفَضْلِ نَسَبًا ، وَلِفَلَكَ الْفُتُوَّةَ قُطْبًا ، لَمْ تَفْرَحِ الْقُلُوبُ مِنَ الْهَمِّ إِلَّا إِلَيْهِ ،
وَلَمْ تُعَوِّلِ الْأَنْفُسُ فِي اسْتِمَاحَةِ الْمَسَارِ إِلَّا عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ طَرَفَنِي مِنْ إِخْوَانِي مَنْ كَانَ
الدَّهْرُ يُمَاطِنِي بِزِيَارَتِهِ ، وَيَنْفَسُ عَلَى بَقَرَبِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ؛ فَصَادَفَنِي مِنَ الْمَشْرُوبِ
مُعْسِرًا ، وَوَجَدْتُ الْإِنْسَاطَ فِي اتِّمَاسِهِ مِنْ غَيْرِكَ عَلَى مُتَعَدِّدًا ، وَإِلَى تَفْضُّكَ
تَفْرَعُ مُرُوقِي فِي الْإِسْعَافِ مِنْهُ بِمَا يَلُمُّ شَعْتَ الْأُلْفَةِ ، وَيَجْمَعُ شَمْلَ الْمَسْرَةِ ؛ وَيَجْعَلُنَا
لَكَ فِي رِقِّ الْأَعْتِدَادِ بِالْمَنَّةِ ، وَيَقْضِي عَنْ تَفْضُّكَ حَقُوقَ الْمَوَدَّةِ .

على بن خلف :

قَدْ أَنْتَظَمَ لَنَا - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - مَجْلَسٌ وَأَقَفَ بَيْنَ النَّشَاطِ وَالْقُتُورِ ، وَالْكَاتِبَةِ
وَالسُّرُورِ : لُغْرُوبُ نُجُومِ الْخَمْرِ عَنْ سَمَائِهِ ، وَعَطْلُهُ مِنْ حُلِيِّ نُورِهِ وَلَا لَأَنَّهُ ؛ وَقَدْ عَوَّلْنَا
فِي إِطْلَاقِهِ إِلَى إِحْدَى الْجَهَتَيْنِ عَلَيْهِ ، وَجَعَلْنَا زِمَامَهُ بِيَدَيْهِ ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يُرَوِّحَ أَفْكَارَنَا
بَشْيٍ مِنْ رَاحَةِ الْمُشَافَهَةِ عَبْقًا وَعِثْقًا لِأَخْلَاقِهِ وَأَعْرَاقِهِ ؛ فَعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

أفضل ما أهدى سيدى ما أهدى السرور إلى أحبته ، ونظم شمل المتحققين بخدمته ؛
وحسم عنهم هواجس الفكر ، وأعداهم على الدهر ؛ وقد جمعنا مجلس وهبناه للشاء
عليه ، وزفت عرائس الخمر إليه ، فإن رأى إشارنا بما يكمل نشاطنا ، ويتم
أنيساطنا ، فليعقر همومنا بشيء من عقاره ، وينظم [جمعنا] في سلك أياديهِ ومبارهِ ؛
إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع (الشفاعات والعنايات)

قال في "مواد البيان" : وهذه الكتب إنما تصدر عن ذوى الرتب والأخطار ،
والمنازل والأقدار ، الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب .

قال : والمتمس فيها ممن تُنفذ إليه أحد ثلاثة أنواع : إما بذل ماله ولا يبذل
ماله إلا ذو مروءة يفرض على نفسه حقاً فيه لقاصديه ؛ وإما بذل جاهه وفى بذل
الجاه إراقة ماء الوجه والتعرض لموقف الرد ؛ وإما الاستئزال عن سخيمة وموجدة
في النزول عنهما كف حد الغضب وغض طرف الحق ، وهما صعبان إلا على من
فضل حلمه ، ولطف فهمه .

ثم قال : والكتب يحتاج إلى التلطف فيهما وإيداعهما من الخطاب ما يخرج به
الشافع عن صورة المثقل على المشفوع إليه بما كلفه إياه ، ويؤدى إلى بلوغ غرض
المشفوع له ونجاح مطلبه ؛ ثم أتبع ذلك أن قال : وسيل ما كان فى استراحة المسأل ،
أن يبنى على الإبانة عن موقع الإفضال ، وفضيلة النوال ، وأغتنام فرص الاقتدار ،

في معونة الأحرار، وما جرى هذا - وسيل ما كان منهما في طلب الانتفاع بالجاه أن يُبنى على هز الأريحية لا صطناع الصنائع، وتحمل المشاق في تقليد المن، وادخار الفعل الحسن، وأغتنم الأجر والشكر - وسيل ما كان منهما في الاستئزال عن السخائم أن يُبنى على الملاطفة، والإشارة إلى فضيلة الحلم والصفح عن الخاطئ، وما في ذلك من حسن السمعة في العاجلة، ومتوفر المثوبة في الآجلة، ونحو ذلك.

وذكر أن أحسن ما قصد في هذا الفن مسلك الإيجاز والاختصار، وأن يسلك به مسلك الرقاع القصار الجملة؛ لا الكتب الطوال المفصلة؛ وأن يرجع فيما يودعه إلى قدر الشافع والمشفوع فيه، والكتب إذا كان مرئاضا ماهرا لم يضل عن تنزيل كل شيء [في] منزلته، وترتيبه في مرتبته.

قلت: ومن أحسن ما يطابق هذا النوع ما رأيته في بعض المصنفات: أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون كتب إلى المأمون في رقة:

أما بعد، فإن فلانا سألني أن أشفع له إلى أمير المؤمنين، فأخبرته أنني لم أبلغ عند أمير المؤمنين مبلغ الشفاعة - فلما وصلت الرقة إلى المأمون وقع عليها بخطه: قد فهمنا تصريحك به وتعريضك بنفسك، وأجبتك إليهما وأتحفناك بهما.

من كلام المتقدمين:

الحسن بن سهل:

كاتبني إليك كتاب معتن بمن كتب له واثق بمن كتب إليه، ولن يضع حامله بين عناية وثقة، والسلام.

أبو الحسين بن سعد :

وقد توجه إليك فلانٌ بقصدٍ فيه مستجمع ، وأملٍ فيما قبلك مُنَبِّسط ، وليس بعد إصابتك عنده مَوْضِعاً وعندنا متحملاً للبد الحسنَة إلا آقراضُ ذلك منه ومِنّا في أمره على يُسر في حاجته ، وتخفيفٍ من مَثُونته ؛ فإن رأيت أن تأتي في ذلك بما يشبه أمله وظنّه ، وتوجب عليه الحقّ به ، ونشكر لك منه ما يبقّى عندنا ، بأنك بحيث تأتي الفضل وتوحيّ الصلّة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالى .

آخر : معرفتي بأنك لا تتجاوز في العقوبة سبيلها من مواقع الأدب ، تتحملي على مُساءلتك ما أنت مُوجبٌ له والدّكرى تنفع المؤمنين ، ولولا ذلك لأستغنى صاحبُ كتابي عنه ؛ فإن كان دَنُبه صغيراً فالصغير يُخرجه من حبسه ، وإن كان كبيراً فالعفو يسّعه . وكتابي متقاضٍ لك تقديم العفو على العقوبة ، والحسنة على السيئة ، والأستصلاح على القوّة في التأديب .

طفال بن شَبّة :

وأحقّ من يعطف على أهل البيوتات ، ويؤود لهم بما يبقى ذكره ، ويحسن به ذُخره ، مثلك ؛ وقد وجهت إليك فلانا ، وهو من ذوى قراباتي ، وذوى الهيئة من أَسْرَق ، وعمرضته لمعرفك ، وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه إلى وقد أودعني وإياه ما تجده باقياً على البشر الجميل ^(١) في الغيب والخضر .

ولغيره :

وقد جعلك الله غيائاً ، وجعل عندك لمؤمليك وراجي رِفْدك ، أبلغ ذريعة من كرمك وفضلك ؛ وقد أصبحت مفزع كل ذي همٍّ ، وملجأ كل ذي أربٍّ ، وموضع كل أمل ، وأصبحت ملتقى السبل ، وجمع الأصناف المختلفة ، والطوائف المتصرفّة .

(١) لعله على شرا الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهِرَتْنِي بِاصْطِنَاعِكَ [حَتَّى] تَكْفَأَ فِي مَعْرِفَةِ خَبَرِهَا أَهْلُ بُلْدَانِ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ . وَالَّذِينَ عَرَفُونِي فَصَدِيقِي مِنْهُمْ مَغْتَبِطٌ بِذَلِكَ لِي ، وَشَرِيكَ فِي النِّعْمَةِ بِهِ
عَلَيَّ ، وَقَوِيُّ الظَّهْرِ بِمَا مَتَّحَنِيهِ اللَّهُ مِنْ رَأْيِكَ ؛ وَإِذَا نَابَتْ بَعْضُهُمْ نَائِبَةٌ يَرْجُوكَ
لِكُشْفِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَيْكَ طَرِيقٌ يُدْنِيهِ وَلَا حَرَمَةٌ تَقْرِبُهُ وَتَعْطِفُكَ عَلَيْهِ ، سَأَلَنِي
الْشَّفَاعَةَ لَهُ إِلَيْكَ ؛ فَقَعَلْتُ ذَلِكَ مُدْلًا بِمَا أُعْتَقِدُهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى نِعْمَتِكَ عِنْدِي ،
وَالِإِخْلَاصِ فِي طَاعَتِكَ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيَّ ؛ وَاثْقًا بِتَسْوِيفِكَ إِيَّايَ مَا رُقِيتُ إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَةٍ
الْشَّافِعِ لغيرِهِ ، وَالسَّائِلِ (؟) فِي طَرِيقِهِ وَذَوِي الْحَقِّ عَلَيْهِ : لَتَكُونَ قَدْ أَكْمَلْتَ
عَلَيَّ النِّعْمَةَ ، وَوَكَّدْتَ لَدَيَّ الْعَارِفَةَ ، وَاسْتَمَمْتَ عِنْدِي الصَّنِيعَةَ .

أبو الخطَّاب بن الصَّابِي :

أَبْسَطُ الشَّفَاعَةِ وَجْهًا ، وَأَقْرَبُهَا نَجْحًا ، وَأَوْقَعُهَا فِي الْقُلُوبِ ، وَأَسْرَعُهَا إِلَى الْقَبُولِ ،
مَبُوقَعٌ مِنْ أَقْسَامِ ثَلَاثَةِ : مِنْ إِدْلَالِ السَّائِلِ بِحُسْنِ الظَّنِّ ، وَارْتِياحِ الْمَسْئُولِ إِلَى فِعْلِ
الْخَيْرِ ، وَاسْتِحْقَاقِ الْمَسْئُولِ فِيهِ لَقَضَاءِ الْحَقِّ ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَ لَهَا ذَلِكَ كَانَتْ الثَّقَّةُ بِهَا
زَائِدَةً ، وَالْقُوَّةُ لَهَا زَائِدَةً ، وَالْفَضْلُ عَلَيْهَا قَائِمًا ، وَالتَّجَنُّعُ بِهَا قَادِمًا ؛ وَكَانَ الشُّكْرُ
مِنْ أَقَلِّ مَوْجُودَاتِهَا ، وَالْمِنَّةُ مِنْ أَجَلِّ مَذْخُورَاتِهَا .

وَلَهُ : إِنْ دَلَّ الْمَمْلُوكُ فِيصِذْقُ الْمَوَدَّةِ ، أَوْ عَوَّلَ فَعَلَى حُسْنِ النِّيَّةِ ، أَوْ اسْتَظْهَرَ
فَقْدِيمَ الْحَرَمَةِ ، أَوْ اسْتَنْصَرَ بِكَرِيمِ الرَّعَايَةِ ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ هِمَّةٌ مِنْ مَوْلَانَا بَعِيدَةُ الْمَرَامِيِّ ،
طَوِيلَةُ الْمَسَاعِي ، شَاخِضَةُ الْأَنْفِ ، سَابِقَةُ الطَّرْفِ ، تُوجِدُ الْأَمَالَ سِرَاحًا ، وَتُوسِعُهَا
نَجَاحًا ، وَتَأْخُذُهَا نَحَاصًا ، وَتُرْدُّهَا بِطَانًا ، وَتُورِدُّهَا هَزَنًا لَا وَتُصْدِرُهَا سَمَانًا ؛ وَثِقَةٌ مِنْ
(٦)

(١) لم يرد هذا الجمع في كتب اللغة التي بأيدينا والقياس على بطلان وسمان لا ياباه .

قد أحكم عقدها الزمان، وأوثق شدّها الإمتحان، فصارت لأعراض المملوك رائده، وفي قوّة نفسه زائده؛ فالمملوك من آجتماع هذه الأقسام، ووجوب ما تقتضيه من الأحكام، بين ظنّ جميل لا مجال للشكّ عليه، ويقين صحيح لا وُصول للارتياب إليه .

آخر : ولئن كان المملوك أسرف في مجارى التثقيّل على مولانا، فإنّ المملوك لم يردّ بعضا من دواعي الأمل فيه، فإنّ المظنون من قوّة مولانا رائد الثقة بجميل نيّته، ولن يعدم النجاح من اعتمد على القوّة والثقة .

آخر : وينهى أنّ المملوك إن أدلّ، فبحقّ لدى مولانا أكّده، أو استرسل، فبفضل منه عوّده، وبين الدالّة من المملوك والعادة من مولانا موضع لتجاح الحاجة، وبلوغ الإفادة، وقد فعل المملوك ما تعلّق به واثقا بالكرم من مولانا؛ فليفعل مولانا ما يتعلّق به محققا للأمل فيه .

آخر : وينهى أنّ المملوك إن أنيسط، فبدل بالحرمة الوكيدة، ومعوّل على النية الكريمة، أو اتقبض، فلهيئة الإقدام على مولانا ومراعاة التخفيف عنه، ولفضله فيما بين ذلك مسلك وغلبة تسلط يدعوان إلى حسن الظن بمولانا، ويوثقان من وجود النجاح لديه .

آخر : بدّل الجاه في إعانة الضعيف، وإغاثة المهفوف، والترويح عن المضغوط، والتفريح عن المكروب المكود؛ كبذل المال في إسعاف المعسر، وإسعاد المقتر، ومواساة المحروم، والتعطّف على المرحوم، وما في الحالتين إلّا ما للديانة له ضامن، والمروءة له قائمة؛ والحقّ به مستوجب، والأجر به مكتسب، والصنعة به معتقده، والمثوبة به مدّخره .

آخر : وينهى أن حرمة الحوار من أوجب الحرمات حقاً ، وأحكيها عقداً ، وأخصها بالعناية ، وأحقها بالرعاية ، وما رعاها إلا ذو قدر عظيم ، وحُوقٍ كريم ، وأصل عريق ، وعهد وثيق . وفلان ممن يضرب بدالتها ، ويمت بوسيلتها ، ويتخفف بذمتها ، ويتعلق بعصمتها ، ويعتدها وزراً مانعاً ، وذخراً نافعا ، وعدة موجودة عند الحاجة ؛ وله أمرٌ يذكره مشافهةً ، فإن رأى مولانا أن يحقق من ظنه ما كان جميلاً ، ويصدق من أمله ما كان فضلاً مولانا إليه سيلاً ، فهو المعهود من إحسانه ، والمؤمل من فضله .

آخر : من سافر إلى سيدي بأمله ورغبته ، ومَتَّ إلى حضرته بوفادته وهجرته ، فقد آستغنى عن الشافع ، وكفى أمر الوسائل والذرائع ؛ وحامل كتابي هذا قد تجشَّم القدوم إليه ، وتمسك بذمام الوفاة^(١) عليه ؛ مع ما يتحقق به من حق المشاركة في الصناعة ، ويستوجبه بفضيلة الكفاية والأمانة ؛ وإنما أصدر المملوك هذه الخدمة على يده مهيأة لأئسه ، ومقويةً لنفسه ؛ وإذا مثل بحضرته ، ونظره بعين نبأته ؛ فقد غني عن الشفاعة وبلغ الإرادة .

آخر : وينهى أن ما يقرضه مولانا لمن أمه بالرجاء ، ومَتَّ له بإخلاص الحمد والثناء : من إدرار أخلاف الإفضال ، وتحقيق الرغبات والآمال ، يغني قاصديه عن الشفاعات والوسائل ، ويكفي آمليه تحمُّل الذرائع والمسائل ؛ والواصل إليه بهذه الرقعة فلان ؛ ومولانا يعرف حقه على المملوك وماله من الموات لديه ؛ وقد توجه إلى حضرته ، راجياً أن يلحفه من ظلِّ سعادته ما يتكفل بمصلحته ، ويقضي على الزمن بإعدائه ومعاونته ؛ ومولانا أحق من تولاه بحسن خلافته فيه ، والتفضل على المملوك بتحقيق ما يرجيه .

(١) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة .

آخر في معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدى في العقاب موضع الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوز في الغضب موقع التقويم والتهديب ؛ عملاً بالعدل ، وتمسكاً بالفضل ؛ يبعثه على تنبيهه لما أغفله ، وأتقاده لما أصله ؛ وفلان قد تطاولَ اعتقاله : فإن كان جرمه صغيراً فقد ظلم في القصاص ، وإن كان كبيراً فقد استحقَّ الخلاص ؛ والمسئول من إحسانه أن يُعَاوِدَ جميل عادته ، ويُراجِعَ كريمِ شيمته ؛ فيعملَ في أمره بالعدل ، إذا لم يره أهلاً للفضل ؛ وإن كانت حقوقه متأكده ، وحرمة مؤكده ؛ فلا يحسن أن يضاع ويُخفَّر ، ولا ينبغي أن يُجحد ويُنكر ؛ وهو حريٌّ أن يحقق الظنَّ فيه ، ويقابل هذا السؤال بما يقتضيه .

آخر : على حسب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها ، والشكر من صرف رعايته إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودَعَ كَنَفَ مِرْوَته ، وفَاءَ هِمَّتِهِ ، فلان ؛ وهو دُرَّةُ المحاسن الفريدة ، ونادِرَةُ الدهر الشريده ؛ والجامعُ لأسبابِ المحامدِ بفضائله ومناقبه ، والناظمُ لثأرِ المآثرِ بِحُلُقِهِ وأدبه ؛ مع ما خُصَّ به من المعرفة بقدر الصنعة ، والتعويض بالشكر عن قليل العارفة ؛ والمملوكُ يرجو أن يكونَ مولانا قد أحسنَ خلاقته فيه ، ونزله من حياطته وتوليّه ، بما يوجبُه مكانه من المملوكِ ويقتضيه ؛ متعوضاً من شكر المملوكِ وشكره بما هو خَلِيقٌ أن يطوِّقَ أجيادَ معاليه ، وينتظمَ في سلكِ مساعيه .

رقعة — وينهى أن الأيام ، إذا قعدت بالكرام ، فأنزلهن بعد السعة ضيقاً ، أوجدتهن إلى التثقل على من يمتون إليه بسالف الخدمة طريفاً ؛ ومن تحداه الزمن بِنَكَدِهِ ، وعوضه ببوسه من رَغَدِهِ ، فلان ؛ وكان قد فزع إلى جماعة من الخُلَّان ، واثقاً منهم بالأمتنان والإحسان ، فألفى وعداً جميلاً ، ومطلاً طويلاً ؛ فعدلَ عنهم

إلى سيدى وعزل عنهم إليه، وتوجه إليه معتمداً بعد الله فى مقصده عليه؛ ثقةً
بفضل غيره، وحسن أثره؛ وتحمل عبودية المملوك هذه ذريعةً تبسط له من مولانا
حياته، وتوصله إلى ما يرجوه من معرفته ونداه. وما أولى مولانا بأن يحقق ظن
المملوك وظنه، ويحوز شكره وشكره؛ إن شاء الله تعالى.

رقعة — وينهى أن رغبة سيدى فى إسداء المعروف، وغوث الملهوف،
تبعث على السفر إليه، والتقدم بالרגبات عليه؛ والله تعالى يواصل المنح لديه،
كما وصلها من يديه؛ وقد سبقت له عوارف لا ينساها المملوك، ولا يؤمل جزاءها
إلا برفوع الدعاء، وكريم الثناء؛ حتى تقتضى ضرائرها، وتستدعى نظائرها، وحامل
عبوديتى هذه، فلان؛ والمملوك يرضى لمولانا لسان شكره، كما يرضاه لتحمل ربه؛
وقد ركض ظهر الأمل إلى حضرتة، ووثق ببلوغ الوطر من جهته؛ وأن ينظم
فى سلك من أسبغت عليه عوارفه، وعمته لطائفه؛ وعزز ذلك باستصحاب كتاب
المملوك إلى بابه، وتقديمه ذريعة فى التزام حقه وإيجابه.

رقعة — من كان سيدى شافعه أنبسط فى المنى، ولم يرض بغير العلا؛ وقد علم
مولانا أن للشفاعة أحوالاً ثلاثاً؛ حالاً تحض الشافع، وحالاً تحض المستشفع؛
وحالاً تحض [المشفوع إليه] ولكلٍّ حد يجب الاتهاء إليه، ولا يجوز التقصير فيه؛
فعلى المستشفع آرتياد أخصب جناب، وأسكب سحاب، وقصد الجهة التى لا تصد
عن البغية سائلاً، ولا ترد عن الأمل آملاً، وأن ينهض بالشكر على العارفة، ويحدث
بالنعم عنه فى الأحوال الطارفة؛ وعلى الشافع أن يهريق ماء وجهه فى السؤال،

(١) غار الرجل يغوره ويغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل.

(٢) فى الاصل الشفع وهو غير مناسب.

ويجرد رغبته في تسهيل المنال ، ويعتقد أن ذلك من الدين المقرض ، والدين المقرض ؛ ويتكفل بالقيام بما يستدعي منه من المكافاه ، ويُلتمس من العوض والمجازاه . وعلى المشفوع إليه أن يعلم أن الشافع والمستشفع ما قصدها إلا بعد الثقة بأحديته ، ولا اعتمدها إلا بعد السكون إلى أريحته ، وأنه لا ينبغي أن يُحسر متجرهما ، ولا يُضيع سفرهما ، وقد اجتمعت هذه الأحوال الثلاث للرئيس المشفوع إليه ، وليسدى الشافع ، وخدامه المستشفع به ؛ ولم يبق إلا عزمة منه تهز أفتان الإقبال فتساقط أثمارها ، وتُنشئ عوارض الآمال فيتهافت قطارها .

أبو الفرج البغاء :

وموصل كتابي هذا غني عن شفاعتي له بما يمت من حرمت الرغبة إليك ، والوقوف دون كل مقصد عليك ، وبما يشفع ذلك من التقدم في الصناعة ، والتوصل بوجيه الكفاية ؛ وإنما زودته هذه الأحرف لأفتح له باب الأنسة ، وأسهل السبل إلى التعلق بالخلّة ؛ وأدلّها بها على ما تكشف منه المطاولة والخيرة ؛ وأنت أيدك الله ولي التطول بالتقدم في إيناسه وبسطه في الخدمة بما يستريد له محمود الأثر فيها من حسن النظر وجميل الرأي .

وله في مثله :

وموصل كتابي فيما يؤمله منك ويُلغيه بك متمسك من رجائك بأوكد ذمه ، ومن شفاعتي بأوجب حرمة ، ومهما مت به بعد ذلك من ظهور كفاية أو تقدم في صناعة كان غير ضائع عند رعايتك ، ولا مجهول مع تيقظ عنايتك ؛ وأرجو أن يحلّ من تقبلك ، بحيث أحله حسن النظر تطولك .

وله في مثله :

وفي عليك ما أخذ به نفسي ، وأروض به أخلاقي : من الانقباض عن التسرع إلى مسألة ، والاحتشام من الانبساط في حاجة ، مادلك على موضع فلان ومكانه من إثاري بواجبات حقوقه ، وسالف موآته ؛ ولذلك سمحت بالكتاب له إليك ؛ وفارقت رسمى بالثقل في قضاء حقه عليك ؛ وقد قصد نحوك بأمله ، واختارك لرجائه ؛ وقدّر بك بلوغ البغية ، واختصر بشفاعتي إلى تفضلك السبيل إلى إدراك المحبة^(١) ؛ فإن رأيت أن تأتي في باب ما يشيه فضلك ، ويناسب وكيد نقته بك ؛ وأنى أشركه في الشكر وأسأله في الاعتداد ، فعلت .

آخر :

رَأَيْتُ الْمَسَاكِينَ قَدْ أَجْعُوا * عَلَى أَنْكَ الْوَزْرُ الْمُعْتَمَدُ !

فَأَنْتَ لِطِفْلِهِمْ وَالِدٌ * وَأَنْتَ لِشَيْخِهِمْ كَالْوَلَدِ !

السلام العميم ورحمة الله وبركاته على مَنْ جعله الله للمسكين ظلاً يقيهم ، وطلاً يسقيهم ، ونعمة تعمهم ، ورحمة تضمهم ؛ أبوفلان ، أبقاه الله في عزّة تالدة طارفه ، وسعادة لا تزال طارقة بكلّ عارفه .

مَنْ أقامه الله مقامك أيها الشيخ المبرور بالترقى بالفقراء ، والإحسان إلى الضعفاء ، لم يعدم مريضاً يقصده في الشفاء ، ولا يعدم فيضاً يعتمد عليه للاكتفاء ، لاسيّما إذا توسّل وحده ، وتسفّع بمن لا يضيع عمل عامل عنده ، ومتحمّلاً فلان قصّ الفقر جناحه ، وأخنى عليه الدهر وأجتاحه ؛ ولما رأى الفقراء ببركم مرتفقين ، وعلى

شركم متففين ؛ أمكم حسن الظن بالئن ، ولم يُقدّم شفيحاً دُنِيّوياً ، ولا طريقاً واضحاً
سَوِيّاً ؛ وأنتم أيّها الشيخ الموقر تُنزِلونه منزلة سِوَاه ، مَن ثَوَى مَثْوَاه ؛ ونَوَى فيكم
من الأجر والشكر ما نَوَاه ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام الكريمُ العَمِيمُ ، يخصّ جنابكم
ورحمةُ الله وبركاته :

فَاللهُ سُبْحَانَهُ يُبْقِيكَ فِي دَعَا * وَحُسْنِ حَالٍ وَتَيْسِيرٍ وَإِقْبَالٍ !

مُقَدَّمُ الْمَجْدِ فِي عِزٍّ وَفِي كَرَمٍ * مُؤَمِّلُ النِّفَعِ مِنْ جَاهٍ وَمِنْ مَالٍ !

الشفاعات من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

شفاعةٌ في آسِتخدامِ كاتبِ درَج :

جعلَ اللهُ تعالى دُورَه رَحْبَةً العِراض ، وسَعَادَتَه في الآزديادِ وأَعَادِيَه في الإِنتِقاص ؛
والدعاء لإحسانه مَقْرُونًا بِصِدْقِ النِّبَةِ والإِخلاص :

وهذا دعاءٌ لو سَكَتُ كُفَيْتُهُ * فَإِنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيكَ وَقَدْ فَعَلَ !

صَدَرَتْ هذه الخِدْمَةُ تَسْتَمِطِرُ سَحَابَ كَرَمِهِ ، وَهَامِي دِيَمِهِ ، وَتَسْأَلُ جَمِيلَ شِمِيهِ ،
في معنى ' مَمْلُوكِ المَوْلَى ودَاعِيهِ ، وَالشَّاكِرِ لِأَيَادِيهِ ، وَالْمُلَازِمِ عَلَى رِوَايَةِ أَخْبَارِ فَضَائِلِهِ
وَبَثْنَاهَا ؛ وَتُسَرِّفُضَّلاتِهِ وَتَثْبَاهَا ؛ فَإِنَّهُ مِنْ بَيْتِ كَرِيمِ التَّجَار ، زَائِدِ الفَخَار ؛ وَلَهُ عَلَى
مَوْلَانَا حَقٌّ خِدْمَةٍ ؛ وَهُوَ يَمُتُّ بِسَالِفِ مَعْرِفَةٍ ؛ وَحُبَّةِ المَمْلُوكِ لَهُ شَدِيدَةٍ ، وَالصُّحْبَةُ
بَيْنَهُمَا قَدِيمَةٌ وَشُقَّةُ المَوَدَّةِ جَدِيدَةٍ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا تَقَلَّ عَلَى خِدْمَتِهِ ، وَتَهَجَّمَ عَلَى المَوْلَى
بِمَكَاتِبَتِهِ ، وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَى بَابِهِ العَالِي مُهَاجِرًا ، وَنَادَاهُ لِسَانُ جُودِهِ فَلَبَّاهُ وَأَجَابَهُ مُبَادِرًا ؛
وَعَرَضَهُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَمَمْلُوكًا تَقَعُ عَيْنُ العِنَايَةِ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ مِنَ الكِرَامِ

الكتابين، والراغبين في الانتظام في سلك خدَمِه والمؤثرين، وصِفَاتُه بالجميل موصوفه،
وفصاحته معروفة، وقلبه الذي يَقْلِمُ ظُفْرَ المِهْمَاتِ وَيَكْفُفُ كَفَّ الحَدَثَانِ، ولسانه
الذي يُغْنِي بِشَبَابَتِهِ عن حَدِّ السَّنَانِ؛ ورأيه المَقْدَّمُ في الهَيْجَاءِ على شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ؛
فإذا أَنْعَمَ المولى بِاسْتِخْدَامِهِ، وتحقيق مَرَامِهِ، كَانَ قد وَضَعَ الشَّيْءَ في مَحَلِّهِ، وصنَعَ
المعروفَ مع أَهْلِهِ؛ وبَيَّضَ وَجْهَ المملوكِ وشفاعته، وصدقَ الأَمَلَ في إِحْسَانِهِ
ومُرُوءَتِهِ، ورأيه العَالِي؛ إِنْ شَاءَ الله تعالى .

وله شفاعَة في آسْتِخْدَامِ جُنْدِيٍّ :

لَا زَالَ بِهِ مَطْلُوبَا، وَجُودُهُ مَخْطُوبَا؛ وَذِكْرُ إِحْسَانِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَكْتُوبَا؛ وَلَا
بَرَحَتْ رِيَاضُ جُودِهِ أَزْهَرَ وَأَنْصَرَ مِنْ رَوْضِ الرُّبَا، وَيَدُهُ الْبَيْضَاءُ تَرْقُمُ لَهُ فِي سَوَادِ
الْقُلُوبِ سُطُورَ حَمْدٍ أَحْسَنَ مِنْ نَوْرِ تَفَتُّحِهِ الصَّبَا. هَذِهِ الْخِدْمَةُ صَدَرَتْ عَلَى يَدِ فُلَانٍ
تُهْدَى إِلَى الْمَوْلَى سَلَامَ الْمَمْلُوكِ وَتَحِيَّتِهِ، وَدُعَاةِ الصَّالِحِ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ نِيَّتَهُ؛ وَتَشَفَّعَ
إِلَيْهِ فِي تَنْزِيلِهِ فِي الْحَلَقَةِ الْمَنْصُورَةِ وَاسْتِخْدَامِهِ، وَتَرْتِيبِهِ فِي سَلَكِ جَيْشِهِ الْمُؤَيَّدِ
وَأَنْتِظَامِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْأَجْنَادِ الْحَيَادِ، وَذَوِي الْجَلَدِ عَلَى الْجَلَادِ؛ وَهُوَ الْغَشْمَشُ الَّذِي
لَا يُرَدُّ، وَالشَّمَمُ الَّذِي لَا يُصَدَّدُ؛ وَالْبَاسِلُ الَّذِي لَا تُخَصَّرُ بِسَاتَتُهُ بَوَاصِلُهُ وَلَا تُجَدَّدُ،
وَالنَّقِيبُ الْمَيْمُونُ الْغُرَّةُ وَالنَّقِيبَةُ، الْمَوْصُوفُ فِي الْهَيْجَاءِ بِحَزْمِ الْكُهُولِ وَجَهْلِ ذَوِي
الشَّيْبَةِ . وَالْمَوْلَى وَإِنْ كَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَى مُسَاعَدَةٍ، وَلَا مُفْتَقِرٍ إِلَى مُعَايَدَةٍ؛
فَإِنَّ أَسْنَتَهُ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ رُوحٍ مُحْتَجِبٍ، وَنَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ تَقُومُ وَحْدَهَا يَوْمَ الْكِفَاحِ
مَقَامَ عَسْكَرٍ لِحَبِّ؛ وَقَلْبَهُ يُغْنِيهِ عَنِ الْأَطْلَابِ وَالْأَبْطَالِ، وَجِيُوشِ سَطَوِيَّتِهِ لَا تَكْلِفُهُ
الْمُقَامَ فِي مَنَازِلِ التَّرَالِ؛ فَإِنَّ الْمَمْلُوكَ يَعْلَمُ أَنَّ نَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ تَهْوِي تَرِيدَ عَسْكَرِهِ وَجُنْدِهِ،
وَتَرْغُو حَرَمَةَ قَاصِدِهِ وَقَصْدَهُ، فَلِهَذَا تَوَسَّلَ بِشَفْعِ وَتَرِ الشَّفَاعَةِ؛ وَتَوَصَّلَ إِلَى إِزَالَةِ

ضَرَعَ حاله بكَثْرَةِ الضَّرَاعِ ؛ فإذا أَنعمَ المولى بِقَبُولِ شِفاعَةِ المملوكِ فيه ، وَحَقَّقَ له من العِناية ما يُؤمِّلُه وَيَرْجِيهِ ؛ كان قد شَدَّ للشارِ إليه ما أضعَفَتِ العُطْلَةُ من مُتَّه ، وَقَدَّ المملوكَ للمولى جَمِيلَ مِتَّه .

شِفاعَةُ في رَدِّ معزولٍ إلى وِلايَتِهِ :

يَقْبَلُ اليَدَ العالِيَةَ لِأَزالتِ مَقْبَلِهِ ، وَلِإِسداءِ الخَيْرِ إلى أَهلِهِ مَوْهَلِهِ ، وبِأَيادِها على الكافَّةِ مُتَفَضِّلِهِ .

وَيَنْهَى ملازِمَتَهُ على شُكْرِ مَواهِبِهِ ، ونَشْرِ فِضائِلِهِ الجَسِمةِ وَمَناقِبِهِ ؛ وَحَمْدِهِ كَرِيمِ شَيْمِهِ ، وَالاعتذارِ من تَثْقِيلِهِ على خِدْمَةِ المولى بِخِدْمِهِ ، وَسؤالِ إِنْعامِهِ بِوَجْهِهِ مَكَاتِبَتِهِ وَلِسانِ قَلَمِهِ ؛ وما ذاكَ إِلَّا لِما يَتَحَقَّقُهُ من كَرِيمِ نِجارِهِ ، وَشَدَّةِ تَطَلُّبِهِ لِإِسداءِ العَوَافِ وإِثْثارِهِ ؛ والموجبُ لِهَذِهِ الوَسِيلَةِ وَسؤالِ مَكارِمِهِ ، وَاسْتِطْيارِ سَحائِبِ مَراحِمِهِ ، ما بَلَغَهُ من عَزَلِ مَمْلوكِ المولى وَعَبْدِهِ ، وَواصِفِ جَمِيلِ أوصافِهِ بِلِسانِ شُكْرِهِ وَحَمْدِهِ ، فَلانَ ؛ أَفاضَ اللهُ عَلَيهِ إِحسانَ المولى وَإِنْعامَهُ ، وَخَلَدَ لَنَا وَلَهُ دَوْلَتُهُ وَأَيَّامُهُ ؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ المَمْلوكِ وَصَدِيقُهُ ، وَشَرِيكُهُ في الدُّعاءِ لِمَوْلانا وَرَفِيقُهُ ؛ وَهُوَ مِنَ العُدُولِ الأَمْناءِ ، وَالنِّقَاتِ الأَتَقِياءِ ؛ وَهُوَ قَلِيلُ الجِدَّةِ كَثِيرُ العِيالِ ، لا يَجِدُ حِيلَةً إذا بَطَلَ بِخِلافِ ما يُحْكِي عن البَطالِ ؛ وَقَدْ تَسَفَّعَ بِالمَمْلوكِ وَمَكَاتِبَتِهِ في مَلاحِظَةِ المولى لَهُ بَعينِ عِنايَتِهِ ، وَالتَّقَدُّمِ بِرَدِّهِ إلى جِهَةِ وِلايَتِهِ ؛ فَلِهَذَا كَتَبَ إِلَيْهِ وَأَكَّدَ في مَعْناءِ السُّؤالِ ، وَعَلَّقَى بِتَحْصِيلِ أَمَلِهِ الأَمالِ ؛ يَعْلَمُ ذَلِكَ مَوْفَّقًا .

شِفاعَةُ في خِلاصِ مَسْجُونٍ :

فَسَّحَ اللهُ في مُدَّتِهِ ، وَسَهَّلَ أَداءَ ما يَجِبُ من شُكْرِ نِعْمَتِهِ ؛ وَأَلْزَمَ الأَلْسِنَةَ بِمُجْدِهِ وَالْقُلُوبَ بِمُحَبَّتِهِ ؛ وَجَعَلَهُ مَفْرَجًا كُلِّ كَرْبٍ ، وَسَهْلًا منِ المَقاصِدِ كُلِّ صَعْبٍ .

وبعد، فإنَّ كَافَّةَ الأُمَّةِ قد تحقَّقت رحمة قلبِ المولى ورأفته ، وتيقَّنت إحسانه ومُروءته ، وأنه يُؤثِّرُ إغاثةَ كلِّ عانٍ وإغاثةَ كلِّ ملهُوفٍ ، وأنه لا يُمسِكُ إلَّا بالإحسانِ ولا يُسرحُ إلَّا بالمُعرفِ ، بحيثُ سارت بحُسنِ سيرته الرِّكابُ عوضًا عن الرُّجُانِ ، ودرأت مكارمه عن الأولياءِ نُوبَ الزَّمانِ ؛ وعلا على حاتمٍ فلو تشبَّه بكرمه لقُلنا له : (مرعئى ولا كالسعدان) . وللملوكِ من إحسانه أوفرُ نصيبٍ ، وهو يرْفُلُ من جوده في نُوبِ قَشيبٍ ؛ وقد اشتهر ما يُعاملُ به من الإكرام ، وأنَّ قِسْمه من العنايةِ أوفرُ الأقسامِ ؛ وكان يُعدُّ من جملةِ العبيدِ فأصبحَ مُضافًا إلى الأُزامِ ؛ وهذا مما يُوجبُ على المملوكِ أنْ يتَهَيَّلَ إلى الله في تخليدِ دولته ويتضرَّع ، وعلى حِلْمٍ مولانا أنه إذا شفعَ إليه في مُذنبٍ أن يُسَفِّعَ ؛ وهو يَشْفَعُ إليه في مملوكه وعبيده ، والملازمِ على رفعِ راياتِ مجده وتلاوةِ آياتِ حمده ، فلان ؛ رزقه الله رضا الخواطرِ الشريفة ، وأسبلَ عليه حُلَّةَ عفوه المنيقة على الحُلِّ بظلالها الكثيفة ؛ فإنه قد طالَتْ مدَّةُ حبسه ، وأعترفُ بأنه الجاني على نفسه ؛ والمُعترفُ بذنبه كمن لا أذنب ، والمُعترفُ من بحرِ جوده يروى دُونَ أن يشربَ ؛ والطالبُ لِرَبِّه ينالُ سُؤلَه والمُطلبُ ؛ فإنَّ حُسنَ في رأيه العالى زاده الله علاء ، وضاعفَ له سناء ، المشى على منارِ جوده ومِنهاجِه ، وبروزُ أمرِه المُطاعِ بإطلاقه وإخراجِه ، آغتمَ أجرَه ، وجبرَ كسرَه ، وريحَ في هذا الشهر المبارك دُعاءَه الصالحَ وشُكرَه ؛ وكان قد أنعمَ على المملوكِ بقبُولِ شفاعتهِ إليه ، وفعلَ ما يُوجبُ على كلِّ مسلمِ الثناءَ عليه ؛ والله الموفق .

شفاعة بسبب خلاص حق :

يخدمُ المجلسَ السامى لاقبى بالتحياتِ مُحْدوما ، وحبلُ سَعده مَبْروما ، ودُرُّ المَدائِحِ لِحيدِ جوده منظوما ، وعدله بين الأخصامِ قاضيا فما يتركُ ظالِمًا ولا مظلوما .

ولا زالت الآمال متعلقة بهيمته ، منوطة بسعيد عزمته ، راجية خلاص كل حق من هو في جهته ، وتوضح لعلمه أن فلانا أدام الله سعادته ، وخلد سيادته ، ذكر أن له ديناً في جهة غريم مُماطِلٍ مُدافع ، وخَصَمٌ مُمانع ؛ وقد جعل هذه الخدمة ذريعة إلى خلاص حقه ، وخالفاً إلى الوصول إلى عناية المولى أقرب طرقه ؛ وهو جدير بالتقدم بإحضار غريمه ومحاقيقته ، وأخذ المملوك في ذمته ، وأن لا يُفسح له في تأخيرهِ ؛ ولا يُسمح بقليل الصبر ولا كثيره ؛ فإنه يعلم أن المولى المشار إليه واجب الخدمة ، وإفرا حرمة ؛ وقد تعلق أمله في خلاص حقه بالمولى ، ولا يُجاوب عن هذه الخدمة بلو ولولا ، بل يبذل جهده ، ويُطلق في تحصيل الغرض لسان الاجتهاد ويده ؛ ويعتمد من الإهتمام ما يليق بأمثاله ، ويبيض وجه الشافع وسؤاله ، موقفاً . شعر :

ولو كان [لى] فى حاجتى ألف شافع * لما كان فيهم مثل جودك شافع

شفاعة فيمن أسمه سراج الدين إلى من أسمه جمال الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهى بعد ولاء يحكم على القلوب شافع جماله ، وثناء يحرق على أكام الزهر فضل أذباله : أن العلوم الكريمة مُحيطَةٌ بإيجاب حق من هاجر إلى بابها ، وشكا غلة الفاقة إلى منهل منهل سحابها ؛ وأن المائل بهذه الخدمة ، فلان ؛ ذكر احتياجه إلى عاطفة من عواطف مولانا التي شملت ، وعارفة من عوارفه التي لو استمدت من غيرها الليالى لما أظلمت ولا ظلمت ؛ وأن بيده وظيفة شهادة بيت لحم بتواقيع شريفة نظرت في حاله ، ونشرت حال عياله وأطفاله ، وأن ثم من ينارعه في جهته المعتاده ،

(١) وَيَقْصِدُ نَزْعَهُ وَالنَّزْعَ عَنْ تِلْكَ الشَّهَادَةِ الْمُسْطَرَّةِ أَخْفَ مِنْ نَزْعِ الشَّهَادَةِ ، وَمَوْلَانَا أَوْلَى مِنْ رَحِمٍ مِنْهُ ضَعْفًا ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ عَطْفًا ؛ وَدَارَكَ بِكَرَمِهِ هَذَا السَّرَاجَ قَبْلَ أَنْ يُطْفِئَ ؛ وَرَعَى سِيرَةَ مَبَاشِرَتِهِ الْحُسْنَى الْآثَارَ ، وَأَغْتَنَمَ أَدْعِيَتَهُ وَأَدْعِيَةَ أَوْلَادِهِ الَّذِينَ هُمْ كَقِطْعِ الشَّطْرِ نَجْ صِغَارٌ وَبَكَارٍ ؛ وَكَفَّ يَدَ التَّعَرُّضِ إِلَيْهِ فِي أَيَّامِ عَدْلِهِ فَإِنَّمَا أَيَّامٌ لِأَضَرَّ فِيهَا وَلَا ضَرَارَ ؛ وَعَلَى الْجَمْلَةِ فَقَدْ تَرَكْتَهُ الْإَيَّامَ قِطْعَةً لَحْمٍ ، فَمَبَاشِرَةُ بَيْتِ لَحْمٍ أَوْلَى بِهِ ، وَرِجَالُهُ فِرْجَانِيَّةٌ وَأَخَوَاتُهَا أَحَقُّ أَنْ يَتَعَلَّقَ سَبَبُهَا بِأَسْبَابِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْبُرُ بِمَنْ مَوْلَانَا أَحْوَالُ الْمَضْرُورِينَ فَإِنَّمَا ظَلَامٌ ، وَيَنْصُرُهُمْ عَلَى حَرْبِ الْإَيَّامِ بِسُيُوفِهِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامٌ ، وَيَتَمَعُّ بِأَيَّامِ عَدْلِهِ وَلِحَسَانِهِ الَّتِي تَتَنَافَسُ فِيهَا أَعْمَارُ الرِّعَايَا فَإِنَّهُمْ يُتَبَعُونَ أَيَّامًا بِأَعْوَامٍ .

وله إلى شخص اسمه شمس الدين :

وَيُنْهِى بَعْدَ قِيَامٍ بِوِظَائِفٍ ثَنَاءٍ يَتَسَكَّ بِنَفَحَاتِهِ [التَّوَالِيهِ] ، وَوَلَاءٍ يَتَسَكَّ بِجِبَالِهِ الْمَتِينَةِ وَمَا كُلُّ شَمْسٍ حَبَالُهَا وَاهِيَةٍ : أَنَّهُ يَرْتَادُ الْأَوْقَاتَ لِحَطَابِ مَوْلَانَا بِالْأَقْلَامِ ، حَيْثُ حَبَسَ الْبَعْدُ خِطَابَ الْكَلَامِ ، وَيَتَخَيَّرُ حَمَلَةَ رِسَائِلِ الشُّوقِ ، وَإِنْ أَضْعَفَ عَطْفُ النَّسِيمِ رِسَائِلَ السَّلَامِ . وَلَمَّا حَضَرَ مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، عَارِضَ هَذِهِ الْخِدْمَةِ فَلَانَ ، وَذَكَرَ تَوَجُّهَهُ إِلَى حِمَى حِمَاةِ الْحُرُوسَةِ ، وَقَصِدَ كِتَابًا يَكُونُ فِي وَحْشَةِ الْإِغْتِرَابِ أَنْيَسَهُ ، فَوَافَقَ ذَلِكَ غَرَضَ الْمَمْلُوكِ ، وَسَلَكَ طَرِيقَ مُرَادِهِ وَلَا يُتَكَّرُ مِنْ جِهَةِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ السُّلُوكِ ، فَأَعْلَمْتُهُ أَنَّ الْمَكَارِمَ الْحَمَادِيَّةَ لَاتَحْتَاجُ غَيْرَ الْحَمْدِ وَالْأَجْرِ شَافِعًا إِلَيْهَا ، وَالْمَنَازِلَ الشَّمْسِيَّةَ لَاتَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ يَنْبَهُ عَلَيْهَا ، وَطَلَمَّا جَمَعْتُ لِقَاصِدِهَا الْفِعْلَ وَالْقَوْلَ السَّخِيَّ ، وَطَلَمَّا قَالَ يُوسُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَخُو مَوْلَانَا أَبْقَاهُ اللَّهُ لِلْقَاصِدِ : أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَنِي ، وَلَكِنَّ الْمَمْلُوكَ يَذْكُرُ الْخَاطَرَ الْكَرِيمَ بِهَذَا الْقَادِمِ فَإِنَّهُ مِنْ

أهله ، ويلقاه قبل ذلك بالبشر المنشد * أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ *
 فإنه من أصحاب ولي الله طالما فاض ولي معروفه ، واستفاضت نسبته المرشدية
 فكان وليا مرشدا قامت صفته مقام موصوفه ، وإن آثار هذه البركات على هذا
 القادم لأخيه ، وإن على يده تجارة ذكر وأجروهي في سوق هم مولانا تجارة رايحه ،
 والله تعالى يجعل له في كل ثناء وثواب نصيبا ، ويديم قلمه الكريم مقصد رفد وجاه
 (فطورا رشاء وطورا قليلا) .

وله : عن نائب الشام إلى نائب حماة شفاعته في شخص اسمه شهاب الدين ، وهو
 بعد الألقاب :

لا زالت الأقدار تسعده ، والملائكة تُحجده ، ومواطن النصر تجرد حده بأسه ومواطن
 الحلم تُغمده ، والجناة تلوذ بظله : فأى جاني ذنب ما يغفو عنه ، وأى جاني بر ما يرق
 عليه ويرفده ، تقيلا يترادف مدده ، ولا تنتهي في القرب والبعد مدده .

وينهى بعد ولاء وثناء : هذا لا يبلى جديده وهذا لا تخفى جده ؛ وشوق
 وأرياح كلاهما يروى عن ابن شهاب توقده ، ويحل على يد شهاب سنده : أن
 العلوم الكريمة محيطة بمقدار الحلم وفضله ، والعفو ومحله ، والتجاوز عن هفوات
 المخطئين من القوم ، وطلب العفو من الله غدا بالعفو عن عباده اليوم ، قال الله تعالى :
 ﴿وَلِعَفْوًا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . ولما سمع الصديق رضي الله
 عنه هذه الآية ، قال : (ياي والله إني لأحب أن يغفر الله لي) ثم عفا عن نزلت
 بسببه ، ومملوك مولانا أعز الله أنصاره فلان ، قد أعترف بهفوة بدت منه ، وزلة
 نقلت عنه ؛ ما يسعها إلا عفو مولانا ومراحه ؛ وقدم على المملوك فكأنه ما خرج عن
 ظل مولانا ولا فارقتة معاملة ؛ وسأل سؤالا مولانا أن يسلمه بالعفو ، ويتجاوز له

عن السهو؛ ويرحم كبر سنه وكبر جهله؛ ويرعى قديم هجرته لخدمة هذا الباب الذى نسا عمرًا طويلا فى ظله، أهلا لأن تشمله عواطف أهله؛ وهو - كما عرف المملوك وأطلع عليه حيث كان فى نيابة حماة - مشكور السيرة بالإعتبار، ناهض الخدمة بالإختبار؛ ملازم لثرى الباب بعزم ماعليه غبار؛ وله على المملوك بالأئس حق خدمة وباليوم حق سؤال يشفع بهما فى القلوب وهى كبار؛ والمسئول من صدقات مولانا تجاوزه عن هفوته، وردّه إلى أمنه ووظيفته؛ وإجراؤه على عادة إقطاعه، وحاشاه فى أيام مولانا أن يُقطع، بل حاشى المذكور أن لا يستخبر وأن لا يُقطع؛ وأستقرأه فى مكان خدمته، وإجابته سؤال المملوك فى كل ما يتعلق بنجاح هجرته وعزيمته؛ لأبرح مولانا مأمول المن الغائبة والحاضرة، والمقيمة والسائرة؛ مأهول الخواطر برفع ذكره وقدره فى الدنيا والآخرة.

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالت المحامد يذكرها متوجهة، ومقدمات الفضل والفضائل من تلقاء شيمها منتجة؛ ومطالع الكرم والإكرام هادية إلى حرمة من آتجه بتقيل مواظب على الدعاء يرفعه، والولاء يجمعه؛ والثناء يقول بضاع أرجه لا مما نُضيعه بل مما نُضوِّعه؛ [وينبى] أن عارض هذه الخدمة على عارض كرم مولانا المُنْطَر، وبابه الذى هو لكيد الحاسد وقم الوارد مُفْطَر، فلان؛ لقضاء تعلقات له أولها التعلق بجبل رجائه المُحْصَد، وأتمائه المُرْصَد، والتجمل بقصد باب مولانا الذى هو المُهِمُّ المُقَدَّم على كل مقصد؛ وهو من الفضلاء الذين يعرفهم آتقاد مولانا معرفة الخبير، وله اتصال بالأكابر الذين سُم منهم زمام المفارح كل كبير؛ وقصد من المملوك هذه الخدمة لمولانا تؤس اعتراجه، وتنشد المقر الذى ما قرع سن الندامة من قرع بابه :

يَا غَرِيبَ الصِّفَاتِ حَقٌّ لِمَنْ كَا * نَ غَرِيباً أَنْ يَرْحَمَ الْغُرَبَاءُ !
 والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا ملاحظة المذكور بعين عناية التي ما أغفَتْ
 عن القاصدين ولا غفلتْ ، وعَوَاطِفِهِ التي طالما فَتَحَتْ أبوابها فَأَنْتَ عليها الرُّكَّابُ
 التي قَفَلْتَ ؛ والله تعالى يُدِيمُ تَقْلِيدَ الْأَعْنَاقِ بِكَلِمَةٍ وَبِرٍّ ، وَيَمْتَعُ الْمَالِكَ السَّاحِلِيَّةَ
 بِمَا قَذَفَ لَهَا مِنْ دُرَرٍ بِحَرِّهِ .

النوع الخامس

(التشوق)

قال في "موادّ البيان" : وينبغي للكاتب أن يجمع لها فكره ، ويُطهر فيها صناعته ،
 ويأخذ في نظمها مأخذاً من اللطافة والرقّة يدلّ على تمازج الأرواح ، وأتلاف
 القلوب ، وما يجري هذا المجرى ؛ وأن يستخدم لها أَدَبَ لَفْظٍ وألطف معنى ؛
 ويذهب فيها مذهب الإيجاز والإختصار ، ويعدل عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛
 لئلا يستغرق جزءاً كبيراً من الكتاب فيمِلُّ ويضجر ، وينتظم في سلك الملق والتكلف
 اللذين لا يعتادهما المتصافون من الأصدقاء .

وهذه نسخ من ذلك :

أبو الفرج البغواء :

شوقُ المملوكِ إلى مولانا بحسب مكانه من تفضّله ، وحظّه من جميل نظره ،
 وأختصاصه بإنعامه ، وأغتيابته بشرف خدمته ، ومكانه من إيثاره ؛ والله يجمع للمملوك
 شَمْلَ السَّعَادَةِ بِمُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ ، وِسَابَهُ مِنَ الدَّهْرِ بِالنَّظَرِ إِلَى غُرَّتِهِ ، عَلَى الْحَالِ
 السَّارَةِ فِيهِ وَبِهِ .

(١) كذا في الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يتمتع بالنظر الخ تأمل .

وله : شَوْقُ المملوكِ إليه شَوْقُ الظَّمآنِ إلى القَطْرِ ، والسَّارَى إلى غُرَّةِ الفَجْرِ .

وله : شَوْقِي إليه شَوْقٌ مَنْ لَمْ يَجِدْ مع بُعْدِهِ عَوْضًا مِنْهُ ، فَتَقَوَّدُهُ الزِّيَادَةُ إلى الانْصِرَافِ بالرَّغْبَةِ عَنْهُ .

وله : شَوْقِي إليه شَوْقٌ مَنْ فَقَدَ بالكُرْهِ سَكَنَهُ ، وَفَارَقَ بالضَّرُورَةِ وَطَنَهُ .

وله : لو كَانَ مَا يُصْدِرُهُ مِنْ خِطَابٍ ، وَيُنَاجِيهِ بِهِ مِنْ مَتَضَمِّنٍ كِتَابٍ ؛ بِقَدْرِ مَا أَغْنِيهِ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ إلى غُرَّتِهِ ، وَمَضَضِ الْفَائِتِ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ ، لَمَا أَحَاطَتْ بِذِكْرِهِ بَسْطَةُ لِسَانٍ ، وَلَا نَابَ فِي إِثْبَاتِهِ اسْتِخْدَامُ بَنَانٍ .

وله : أَمَّا الدهرُ فَمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ إِبْعَادِ المملوكِ عَنْهُ عَتْبًا ، وَلَا يُعَدُّ مَا جَنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ذَنْبًا ؛ إِذْ كَانَ إِنَّمَا نَقَلَ مِنْ حِشْمَةِ الْمُخَاطَبَةِ ، إِلَى أَنْبِطَاطِ الْمُكَاتَبَةِ .

وله : وَقَدْرُهُ - أَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - يَرْتَفِعُ عَنْ ذِكْرِ الشَّوْقِ إِلَيْهِ ، فَالْمَمْلُوكُ يَعْبُرُ عَنْهُ بِذِكْرِ الشَّوْقِ إِلَى مَا فَارَقَهُ مِنْ تَفَضُّلِهِ ؛ وَبُعْدَ عَنْهُ مِنْ أَوْطَانِ تَطَوُّلِهِ .

وله : وَلَوْلَا أَنَّ المملوكَ يُجِدُّ نَارَ الْإِشْتِيَاقِ ، وَيَبِيدُ أَوَارِ الْفِرَاقِ ، بِالتَّخِيلِ الْمُثَلِّ لَمَنْ نَأَتْ مَحَلَّتُهُ ، وَالتَّفَكُّرِ الْمَصُورِ لِمَنْ بَعُدَتْ شُقَّتُهُ ، لَأُلْهِبَتْ أَنْفَاسُهُ ، وَأُسْعِرَتْ حَوَاسُّهُ ، وَهَمَّتْ دُمُوعُهُ ، وَأَنْقَضَتْ ضُلُوعُهُ ؛ وَاللَّهُ الْمُحْمَدُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنْ تَمَازُجِ الْأَرْوَاحِ ، عِنْدَ تَبَايُنِ الْأَشْبَاحِ .

وله : وَلَا بُدَّ أَنْ يُكْفَّ بِالْمُكَاتَبَاتِ ، مِنْ غَرْبِ الْإِشْتِيَاقِ ، وَيُسْتَعِينَ بِأَنْسِ الْمُرَاسَلَاتِ ، عَلَى وَحْشَةِ الْفِرَاقِ ؛ فَإِنَّمَا أَلْسُنُ نَاطِقَةٍ ، وَعُيُونٌ عَلَى الْبُعْدِ رَامِقَةٍ .

وله : عِنْدَ المملوكِ لِمَوْلَانَا خَيَالٌ مُقِيمٌ ، لَا يَبْرَحُ وَلَا يَرِيمُ ؛ يُجَلُّو عَلَيْهِ صُورَتَهُ ، وَيُطْلِعُ عَلَى عَيْنِ فِكْرَتِهِ طَلْعَتَهُ ، إِنْ سَهَرَ المملوكُ سَامِرًا مُعِينًا عَلَى الشَّهَادِ ، أَوْ رَقَدَ

تَصَوَّرُ مُعَذِّبًا طَعْمَ الرُّقَادِ ، لَا يَمِطُّهُ زِيَارَتُهُ ، وَلَا يُوحِشُهُ بَغِيْبَتُهُ ، كَأَنَّمَا تَصَوَّرُ بِصُورَتِهِ فِي الْوَفَاءِ ، وَتَخْلُقُ بِخُلُقِهِ فِي الْحَافِظَةِ عَلَى الْإِخَاءِ .

وله : إِنْ تَزَايَلَتِ الْأَشْبَاحُ ، فَقَدْ تَوَاصَلَتِ الْأَرْوَاحُ ؛ وَإِنْ نَزَحَتِ الْأَشْخَاصُ وَبُعِدَتْ ، فَقَدْ دَنَتِ الْأَنْفُسُ وَتَقَارَبَتْ ؛ فَلَا تُمِصُّ الْفُرْقَةُ وَتُوَلِّمُ ، وَتُسْغِصُ النَّوَى وَتَكَلِّمُ ؛ وَقَدْ يُنَالُ بِنَاجِي الضَّمَائِرِ ، وَتَحَاوِرِ السَّرَائِرِ ، مَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ ، وَلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْعِبَارَةُ ؛ إِذَا الْأَنْفُسُ الْبَسِيطَةُ أَرَقَّتْ مَسْرًى ، وَأَبْعَدُ مِنَ الْأَلْسِنَةِ مَرْمًى .

التشوق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ؛ وهو بعد الصدر :

لَا زَالَ الدَّهْرُ يَقْضِي خِدْمَهُ ، وَيُمِضِي رَأْيَهُ وَسَيْفَهُ وَقَلَمَهُ ، وَيَرْضَى الدُّوَلِ الشَّاكِرَةَ تَقْدِيمَهُ فِيهَا وَقَدَمَهُ ؛ وَلَا بَرَحَتْ الْأَقْدَارُ الْمُعْرِبَةُ تُجْزِمُ أَمْرَهُ وَتَكْسِرُ ضِدَّهُ وَتَرْفَعُ عِلْمَهُ ؛ تَقْبِيلًا إِذَا لَمْ الثَّرْبَ الثَّمَمَةَ ، وَإِذَا أُودِعَ الْقَلْبُ فِي ذَلِكَ الثَّرْبِ خَتَمَهُ .

وَيُنْهَى مُوَاطَبَتَهُ عَلَى وَلَا يَلَيْسَخُ الْبُعْدُ مُحْكَمَهُ ، وَدُعَاءُ بِقَائِلِ الشُّجُومِ وَلَا تَقْطِيعِ مِنَ الْقَبُولِ إِدْرَارَاتِهِ الْمُنْجَمَةَ .

وَيُنْهَى أَنَّهُ سَطَّرَهَا عَنْ شَوْقٍ يَعِزُّ عَلَيْهِ أَنْ يُنُوبَ فِيهِ سَعَى الْقَلَمِ ، عَنْ سَعَى الْقَدَمِ ، وَأُرْتِيَاجِ إِلَى الْقُرْبِ الَّذِي بَأَنَسَهُ يُؤَسِّسُهُ أَنْوَارًا عَلَى أَعْلَى عِلْمٍ ؛ وَتَطْلُعِ لِمَعَاوِدَةِ الْأَخْبَارِ أَوْفَى مِنْ تَطْلُعِ الْعَامِرَى إِلَى مُعَاوِدَةِ أَيَّامِ ذِي سَلَمٍ ، وَتَعَلُّ بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

بَعَثْتُ لَكُمْ سَوَادًا فِي بَيَاضٍ * لِأَنْظُرَكُمْ بَشْيَاءَ مِثْلِ عَيْنِي !

وهيأت ! أَيْنَ نَظَرَاتُ الْحُرُوفِ الْمَرْقُومَةِ مِنْ نَظَرَاتِ الْعُيُونِ الرَّامِقَةِ ، وَأَيْنَ مَنَالُ السُّلُوكِ مِنْ شَجْوَيْهِ قَوْلِ : * أَعْيِذُهَا نَظَرَاتُ مَنْكَ صَادِقَهُ *

ما يحسبُ المملوكُ من النظرِ إلَّا ما يملأُ العينَ من ذلك الوجهِ الكريمِ ، ولا يلبسُ من خلعِ الأيامِ إلَّا ما تحيطُ الأهدابُ على شَبَا ذلك القُربِ الرِّقيمِ ؛ وعلى ذلك فقد جَهَّزها المملوكُ على يدِ فلان ، وحمله من رسائل الشُّوق ما يرجو أن ينهضَ فيه بأعباءِ الرِّسالة ، ويسألُ الإصغَاءَ والمُلاحظةَ فيما توجهَ فيه وإن أدتِ الأمالي إلى المَلَالَةِ ؛ والله تعالى المسؤلُ أن يبلغَ في آمِنِدادها مولانا الأُمْنِيَّةَ ، وينمَّعَ الدُّولُ منه بهذه البقيَّةِ النقيَّةِ ، إن شاء الله تعالى .

نسخة كتاب في المعنى عن نائب الشام ، إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله ؛ كاتب السِّرِّ بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضًا ؛ وهو بعد الألقاب .

لا زال قلبها مفتاح الرِّزق لطالبيه ، والجاه لكاسيه ، والظفر لمستنيب كُتُبها عن كُتَّابيه ، والتُّجج لرائد مُطالبة الدَّهر بعد المطال به ، ولا برح البأس والكرم يتحدَّانِ عن بحرها ولا حرج عن تجائبه ؛ تقيلاً تغيُّطه في مرابعها ، تُغورُ الأزاهر ، لابل تحسُّده في مطالعها ، تُغور الزواهر .

وينهى بعد دعاء أحسنت فيه الألسنة وأخلصت الضمائر ؛ وولاء وشاء لهما مصاعد التَّجْمِينِ إلَّا أن هذا في القلوب واقعٌ وهذا في الآفاق طائرٌ - أنه جهَّز هذه الخِدْمَةَ مُعْرِبَةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وأرتياحٍ لا يتعدَّى ولا يتعَدَّد ، ساعيةً عنه بخطوات الأقدام ، أن منع الوقت خطوات الأقدام ، نائبةً في تقييل الأنامل التي تُستَسْقَى ديمها على القُرب والبُعد ولا كيد ولا كرامة للغام ؛ وجهَّزها على يدِ فلان بعد أن حمَّله من رسائل الشُّوق ما إن حُلِّنا من إحسانه لينضى عقود الأنيام لو تعددت ، ومفاتيح أبوابه لتنوء بالعُصبة أولى القوة لو تجسَّدت ؛ وهو بين يديه يقدمُ بجواها ، ويستشهد

بالخاطر الكريم قبل حضور دَعَوَها ، والمسئول إصغاء السَّمع الكريم إليه ،
 والملاحظة فيما توجه فيه متكللاً على الله وعليه ؛ وإذا عاد مشمولاً بعناية مولانا
 المعهوده ، مكفولاً برعايته المقصورة على نَجْح الآمال الممدودة ، فليُنعم على المملوك من
 المشرفات الكريمة بما يسكن على جور البعد خواطره الدهشه ، ويُعينه على الوحشة
 التي حركها نحوه البعاد فهي الوحشه ، والله تعالى يشكرهم مولانا غائباً وحاضراً ؛
 وشافِعاً لرسائل خدمه وناظرًا ؛ ويخص بابه العلوى بسلام كسلام سقيط الطل عن
 ورق الغصن ناضراً .

آخر من كلامه : كتب به إلى بعض رؤساء مصر .

ويُنهى أنه سَطَرها مُعْرِبَةً عن شوقٍ مُقيم ، وعهدٍ لا يُبرح على صراطه المستقيم ؛
 وأرتياح لجنايه ، أو لكتابه ، ليتلو أنصتات تنجوه : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
 وَالرَّقِيمِ » . متطلعا لما يرد من أخبار مولانا السارة البازة ، مرتقياً لأنبائه أرتقاب
 الزهيرة الفاغرة إلى ضرع الغمام الدآره ، ولو أن كل ما يمتنى المرء يدركه ، وكل ما يفتتح
 على الدهر يملكه ، لغنى بقرب مخاطبه ، عن بُعد المكاتبه ، وأسجل كوكب الجمال
 المشرق وأقصر في ليلي الانتظار عن المراقبه . وقد جهّزها على يد فلان ، وحمله من
 رسائل الشوق أوفى وأوفر من رسائل الصفا ، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى
 بكاره النيل معروف المنافع والوفاء ؛ ولآمال المملوك بمشرفاته وأوامره جمال حين يريج
 وحين يسرح ، وحين يقتصر على مقترحات الأيام حين يشرح ؛ فينعم مولانا بمواصلتها
 على هذه المقدمه ، ويجعل ذلك من إدارات صلاته المنجّمه ؛ والله تعالى لا يُعدم
 المملوك في حال كرمه : إما أن يُفيض في القرب بحره وإما أن يبعث على البعد ديمه .

وله إلى كاتب السر :

أعلى الله أمرَ قلمها على الأَقلام ، وأدام بفيض أنامله عليه بسَطَ كلمة الإسلام ،
وراع بكتائب كتبه العدا إذا آتَبَهُوا ، فإذا أغفوا «سَلَتْ عليهم سيوفها الأحلام» .

ولا زالت تلك الأَقلامُ العالية في تلك اليدِ الكريمة إن لم تكن من المنشآت
فإنها من المنشآت في البحر كالأعلام ؛ تقبيل مواظب على دعاء يطلع طلوع طرة
الصبح تحت ذلك الظلام ، وولاء إذا اعتبر الخاطر الكريم مسعاه وخدمته :
(قال يا بشرى هذا غلام) .

وينهى أنه جهَّز هذه الخدمة مقصورةً على وصف الأشواق الممدودة ، وجوانح
الشَّجْو المعهودة ؛ وأنفاس التدكُّر التي لولا شرف مذكورها لم تكن عنده من
الأنفاس المَعْدودة ؛ فيالها مقصورةً على شوق ما فيها غير طيور الجوانح خفاقة الجناح ،
سبَّاقة الأرياح ؛ ويا لها أنفاس ذكر أغنت منادمتها عن كَيْس كأس وأقتراح
وقت راح ؛ ويا لها ورقة فازت بمشافهة لثم اليد الشريفة فكُرمَتْ وصفا ، ونأت
عن نخار الروض عطفاً ؛ وأستطابت بشفاه السُّطور على تلك البنان رشفاً :
وسَطَّرتها والجسمُ أنحل ما يرى * فياليتني أصبحت في طيها حرفاً

واصلةً إلى الباب الكريم بسلام وصل عقبه قبل ماوصلت ، واردةً على يد فلان
وقد حمل من رسائل الصفاء والود مثل ما حملت ، وحصلت على القرب ويا أسفى
على ما حصل وحصلت . والملوك يسأل الإصغاء إليها وإليه بفضل النظر والسمع ،
والإنعام على الحبِّ المفارق بمشرفات تجلُّو عليه أيام جمع ؛ وتعينه على أوقات وحشة
إذا وصفها المشتاقون وأقلامهم ولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع ؛ لا بريح ذكر مولانا
علياً ، وبره بملء الآمال ملياً ، ووصفه بالتقى وسحاب الجود على الحالين ولياً :



يَا مُنِيَّةَ النَّفْسِ وَيَا مَا لِي * مُدْغِبَتَ عَنِّي لَمْ تَنْمِ مُقْلِي !
 إِنْ نِلْتَ عَنْ عَيْنِي بَرَعْمِي فَقَدْ * سَكَنْتَ فِي قَلْبِي وَفِي مُهَجَّتِي !
 لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْ طَلْعَتِهِ ، وَلَا أَخْلَى مِنْ كَرِيمِ مَسَاعِدَتِهِ ، وَجَعَّ شَمْلُ الْأَنْسِ
 بِخُدْمَتِهِ .

المملوك يشكو من المولى فراقاً أوجب له على نفسه فراقاً ، وجيش صدود منحه
 من العزائم طوائف وفراقاً ، وداء صباية كلباً ^(١) ترحى الإفرار منه أزداد تلهباً وحراراً ،
 ووجوب قلب تحتم لغيبته ووجب ، ودمع عين يحومها عبر عنه لسان قلمه
 أو كتب ، وقد أطال الهجر تألمه وعته ، وأطار سته ولبه ، مد وصل المولى غيره
 وقطع عنه كنبه ، والمولى يعلم أن المملوك لفظ والمولى معناه ، وسعده شخص وأنت
 وجهه الميمون ويمناه ، فيواتر إرسال مكاتباته ، ويخيف بمأثوره ولباناته ، ويعطر
 بذكره الجميل الأماكن ويُسَنِّف المسماع ، كما شرف بحلولة فيها الأضالع ، والله
 يديمه ويمده بالإسعاف والإسعاد ، وينصره على الأضداد والحساد :



أُقَاسِي مِنْ بَعَادِكَ مَا أُقَاسِي * وَقَلْبُكَ رَاحِمٌ وَعَلَى قَاسِي !
 وَأَحْمِلُ مِنْ نَوَاكٍ بَضْعِ نَفْسٍ * عَنَاءٌ يُعْجِزُ الشَّمَّ الرَّوَاسِي !
 وَتُبْعِدُنِي وَأَمْرُكَ إِنْ أَتَانِي * جَعَلْتُ مَحَلَّهُ عَيْنِي وَرَاسِي !

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل لإفراقاً إذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق .

قَرَّبَ اللهُ أَوْبَتَهُ، وَجَمَّلَ رُؤْيَتَهُ؛ وَحَرَسَ نَفْسَهُ مِنَ الْغَيْرِ وَالْحَادِثَاتِ، وَصَانَ حِجَابَهُ الْمُنِيعَ عَنِ الْمَلَمَّاتِ الْمُؤَلِمَاتِ؛ وَجَمَّلَ الْأَيَّامَ بِوُجُودِهِ، وَالْأَنَامَ بِجُودِهِ. وَلَا زَالَتِ الدُّنْيَا بِهِ يَجْمَلُهُ، وَأَعْنَاقُ أُنْبَاءِهَا لِمَنِّهِ مَتَحْمَلُهُ .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْخِدْمَةُ إِلَى خِدْمَتِهِ مَتَضَمِّنَةً إِهْدَاءَ سَلَامِهِ، وَشَاكِةً لَغَيْبَتِهِ جَوْرَ أَيَّامِهِ؛ وَمُنْهِيَةً شِدَّةَ أَشْوَاقِهِ الَّتِي أَفْنَتْ بِالصَّبَابَةِ قَلْبَهُ، وَأَذْهَبَتْ حُشَاشَتَهُ وَلُبَّهُ؛ وَهِيَ فِي ذَلِكَ نَائِبَةٌ مَنَابَ سَائِرِ الْخِدْمِ، وَمَعْبَرَةٌ عَنِ أَلْسِنَةِ الْأَقَالِمِ بِلِسَانِ الْقَلَمِ؛ فَإِنَّ الْأَعْيْنَ مَتَطَّلَعَةٌ إِلَى رُؤْيَتِهِ، وَالْقُلُوبُ مَتَعَطِّشَةٌ إِلَى قُفُولِهِ وَرَجْعَتِهِ؛ كَمَا نَتَطَّلَعُ إِلَى السَّمَاءِ عُيُونُ النَّجَاسِ، وَنَتَعَطِّشُ الرِّيَاضَ إِلَى الْوَابِلِ الْقَدَقِ بَعْدَ الْيَوْمِ الْمُحَرِّ الْمُشْمِسِ؛ فَالْمَوْلَى يَجْعَلُ مَوَاصِلَتَهُ بِأَخْبَارِهِ فَرَضًا لَازِمًا، وَيَمْتَنِعُ مِنْ إِغْفَالِهِ كَمَا يَمْتَنِعُ مِنْ لَذَّةِ الطَّعَامِ إِذَا كَانَ صَائِمًا؛ فَإِنَّ الْمَوْلَى هُوَ صُورَةُ الْجُودِ وَمَعْنَاهُ، وَبَيْتُهُ الْكَرِيمُ فَنَاءُ الْخَيْرِ وَمَعْنَاهُ؛ وَالنَّاسُ مَالَمَ يَرَوْكَ أَشْبَاهَهُ، حَرَسَهُ اللهُ وَتَوَلَّاهُ، وَضَاعَفَ عُلاَّهُ، وَالسَّلَامُ .



يَا أَجْمَلَ النَّاسِ سَنَاءً وَسَنًا * جَفَتْ جُفُونِي لِحَفَاكَ الْوَسَنَا!

نِمَارَ آلاَمِ الْإِلَامِ أَجْتَنِي؟ * يَا لَيْتَنِي أَعْلَمُ خَطِي مَا جَنَا؟

وَأَتَمُّ يَا أَهْلَ بَابِ لَعْلٍ * مَدُّ يَدِي لَمْ أَرِ شَيْئًا حَسَنًا!

أَقْسَمُ بِمُحَنِّي أَضَالِي * وَسِرِّي يَا أَهْلَ وَادِي الْمُتَحَنَّا!

فِي بُعْدِكُمْ مَنِّي لَا تَتَّبِعُوا * وَقُرْبِكُمْ غَايَةُ سُؤْلِي وَالْمُنَا!

خَلَّدَ اللهُ سَعَادَتَهُ، وَبَلَّغَهُ مِنَ الْعِلْيَاءِ إِرَادَتَهُ؛ وَأَثَّلَ مَجْدَهُ، وَأَدَامَ سَعْدَهُ؛ وَأَعَذَّبَ مَنَّهُلَهُ وَرَدَّهُ .

المملوكُ يَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَيَتَشَوَّفُ إِلَى أَنْبَاءِهِ، وَيُصِفُ شَدِيدَ اشْوَاقِهِ وَصَبَابَتِهِ، وَحَيْنَهُ إِلَى مَشَاهِدِ الْمَوْلَى وَمَشَافَهَتِهِ، وَمَا يَجِدُهُ لَذْلِكَ مِنْ أَلَمٍ فِي جَوَارِحِهِ الْجَرِيحَةِ، وَسَقَمٍ فِي جَوَانِحِهِ الصَّحِيحَةِ؛ وَيَلْتَمِسُ مُوَاصَلَتَهُ بِكُتْبِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَأَخْبَارِهِ السَّارَةِ لِتَضَاعِفَ لَهُ مَزِيدُ الْإِسْتِيشَارِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ بَنَارُ الصَّيَابَةِ قَدْ وَقَدَّ، وَأَمَّا صَبْرُهُ عَلَى [بُعْدِهِ] فَقَدْ فَقَدَ؛ وَمَتَى وَرَدَ كِتَابُ الْمَوْلَى شَفَى الْغَلِيلَ، وَأَبْلَّ الْعَلِيلَ، وَنَجَّى طَعْمَ الْحَيَاةِ وَنَجَحَ التَّامِيلَ؛ فَلْيَصَيِّرْ وَتَرْمَكَاتِهِ شَفْعًا، وَلَا يَجْعَلْ لَوْصِلِهِنَّ قِطْعًا؛ وَاللَّهِ يَمْنَحُ عَيْشَهُ خَفْضًا وَمَكَانَهُ رَفْعًا، وَالسَّلَامَ .



شعري معنى التشوق :

قد كَانَ لِي شَرَفٌ يَصْفُو بِرُؤْيَيْكُمْ * فَكَدَّرْتُهُ يَدُ الْأَيَّامِ حِينَ صَفَا

غيره :

كَتَبْتُ ^(١) لِلْكِتَابِ مَجْلَدٌ * عَلَى أَنَّهُ قَبْلِي بَلْقِيَاكَ يَسْعَدُ

النوع السادس

(فِي الْإِسْتِرَارَةِ)

قال في "موادّ البيان" : رِقَاعُ الْإِسْتِرَارَةِ إِنَّمَا تَشْتَمِلُ عَلَى وَصْفِ حَالَاتِ الْأَنْسِ وَمَجَالِسِ اللَّذَّاتِ، وَمَشَاهِدِ الْمَسَرَّاتِ . قال : وَيَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يُودِعَهَا حُلُولَ الْأَلْفَاظِ، وَمُؤْتَقَ الْمَعَانِي وَبَارِعَ التَّشْبِيهَاتِ، وَيُبَالِغَ فِي تَشْوِيقِ الْمُسْتَرَارِ إِلَى الْحُضُورِ، وَيَتَلَطَّفَ فِيهِ أَحْسَنَ تَلَطُّفٍ .

(١) بياض في الاصل ولعله "وشوق للكتاب الخ" .

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى .

وهذه نسخ من ذلك :

على بن خلف :

رُفِعَتْ - أطل الله بقاء سيدي - ومجلسي بمن حله من خدمه ، ونزله من صنائع كرمه ؛ فلك مزين بأنجه ، فإن رأى أن يُطْلَعَ فيه بدرًا بطلوعه وينقل قدمه إليهم ، ويكمل نقصهم بتمامه ، ويضيف ذلك إلى تليد إنعامه ، فعل ؛ إن شاء الله تعالى .

وله في مثله :

قد أنتظم لنا - أطل الله بقاء سيدي - مجلس رقت حواشيه ، وتبسمت راحه عن حجب ، كلالتي على ذهب ، وقامت فيه سوق السرور ، لا يكسدها إلا تخلفه عن الحضور ؛ فإن رأى أن يكمل جدلنا بإطلاع طلعتة علينا ، ويصدق ظننا بنقل قدمه إلينا ؛ سر وأبهج ، وتم من الإحسان ما أجدج ؛ إن شاء الله تعالى .

وله : هذا - أطل الله بقاء مولانا - يوم صفيق الظل ، رقيق غلالة الطل ؛ قد ترقعت شمسُه يربح أنسه ، وأقتر جدلا عن مضاحك برقه ، وترتم طربا بزجره رعداه ؛ ووشت مدارج نسيمه ، بأرج شميمه ، وقام على منابر السرور يخطب أبنه الكرم لأبناء الكرام ، وينادي بأعلى صوته : حي على المدام ؛ فقد وجب على كل موفقٍ لاجتماع ثمار السرور ، والتحف عطف الحبور ؛ أن يلبي دعوته ، ويتنزه فرصته ؛ ويعوضه من شمس الآفله ، براج لإظهار ما أخفى من شعاعها كافله ؛ ويقفه على التملئ بالكاس والنُدمان ، ويجعله سلكا ينتظم فيه الإخوان . ورقعت هذه صادرة إلى مولاي وقد تهيا لنا مجلس من مجالس الأئس ، يسقط تجعد النفس

(١)

فيه بَغْمٌ وَنَغْمٌ ، وَمِزْهَرٌ وَزَهْرٌ ، وَخُلَّانٌ قَدْ تَرَضَّعُوا لِبَانَ الْعُقَارِ ، وَتَسَاهَمُوا ثَقُلَ
الْوَقَارُ ، وَتَجَعُّوا فِي مَعَارِكِ الْخَمَارِ ، وَأَدْمَنُوا عَلَى الْمُسَاسَةِ وَالْإِتِّكَارِ ؛ إِلَّا أَنَّ هَذَا
الْمَجْلِسَ مَعَ تَمَامِهِ مُنْجَذَجٌ ، وَعَلَى كِبَالِهِ مَخْتَلَجٌ ؛ لُبَعْدُ مَوْلَايَ الْحَالِ مِنْهُ حَلٌّ الْوَاسِطَةِ
مِنَ النَّظَامِ ، وَالْأَرْوَاحِ مِنَ الْأَجْسَامِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يُكْجَلُ مِنْهُ مَا نَقَصَ ، وَيُمِيطُ عَنْهُ
[مَا نَقَصَ] فَلْيَجْمَلْنَا بِالْمَصِيرِ إِلَيْنَا ، وَالطُّلُوعِ عَلَيْنَا ؛ وَإِعْفَانَا مِنْ إِحْجَارِ الْإِنْتِظَارِ ،
مَعْتَدًا بِذَلِكَ فِي كَرِيمِ الْأَيَادِي وَالْمَبَارِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

هَذَا الْيَوْمُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - يَوْمٌ أَعْرَسَ فِيهِ الْجَوْ بِالْجَارِيَةِ الْبَيْضَاءِ
تَفَدَّرَهَا ، وَحَجَّهَا بِسَجْفِ الْعَامِ وَسَرَّهَا ؛ وَأَخْتَالَ أَخْتِيَالَ الْمَعْرَسِ فِي مَعْرَسِهِ ، بِمُصَنَّدِهِ
وَمُسَكِّهِ وَمُورِسِهِ ؛ وَاتَّخَذَ مِنْ ذَهَبِ الْبَوَارِقِ نِثَارًا ، وَأَسْتَنْطَقَ مِنْ زُنَارِ الرُّوَادِ
أَوْتَارًا ؛ وَدَعَا إِلَى حُضُورِ لَيْمَتِهِ ، وَالسُّرُورِ بِمَسَرَّتِهِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يَلْبِي طَلِبَ هَذَا الْيَوْمِ
الصَّفِيقِ ، وَيَتَمَتَّعَ بِعَيْشِهِ الرَّافِعِ الرَّفِيقِ ؛ فَلْيُطْلِعْ عَلَيْنَا طَلْعَتَهُ الَّتِي تَبْهَرُ الْقَمَرَ الْمُزْهِرَ ،
وَتَصْدَعُ اللَّيْلَ الْمُعْتَكِرَ : لِيُنْهِضَ غُرَّةَ الْإِصْبَاحِ ، بِغُرَّةِ الرَّاحِ ، وَيَقْطِفَ ثِمَارَ الْأَنْسِ
وَالْمَحَاضِرِ ، وَيَتَمَلَّى بِالسَّمَاعِ وَالْمَذَاكِرِ ؛ وَيَأْخُذَ بِحُطٍّ مِنْ لَذَاذَةِ الْفَيْحَةِ الشَّبِيهِةِ بِشَائِلِهِ ،
وَيُعَدَّ ذَلِكَ مِنْ مَبَارِهِ وَفَوَاضِلِهِ ؛ [فَعَلَ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في الاستدارة في بُسْتَانِ :

كَتَبْتُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - وَقَدْ غَدَوْتُ فِي هَذَا الْيَوْمِ [إِلَى] بُسْتَانِي وَالطَّيْرِ
فِي الْأَوْكَارِ ، وَالْأَنْدَاءِ تَهَيَّطُ كَالْتِّيَارِ ؛ وَاللَّيْلُ مُشْتَمِلٌ عَلَى الصَّبَاحِ ، أَشْتَمَالُ الْأَدْهَمِ

(١) هو بالفتح وبالضم وبالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) في الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف النسخ .

على الأوضح؛ عازماً على مشارفته ومُشارفة ما استمددت من عمارته، لا للخلوة فيه
بمعاطة المدام، ومؤانسة الندام؛ حين سرحت الطرف في ميادينه وجداوله، وأقبلت
على تصفح حلاه وحلله؛ رأيت مناظره تتلقلق القلوب اعتلاق الأشرار، وتعتاق
المستوفز عن الحرار؛ وتقيم قاعد المزاج والنشاط، وتوقظ هاجد الفرح والأنسباط:
فمن أشجار كالآوانس، في ريحاني الملبس؛ حالية من مؤشع الزهر والثمر، بأنصع
من الياقوت والجوهر؛ كأنما تحفلت لاجتلاء عروس، أو معاطة كئوس؛ ما بين
تحليل قد نشرت عذب السندس على ذراها، وأطلعت طلعا كالحناجر غشيها صداها؛
ونارنج يحل أكر العقيان، أو وجنات القيان؛ وأترج قد استعار ثمره أشواق العشاق،
إذا صالت عليهم يد الفراق. ومن ريسان زاهية بنشرها، وقضبها مختالة في ملبس
زهرها؛ ونرجسها كعين محب حدق إلى الحبيب؛ وثني جيده خوف الرقيب، إذا
عبث به النسيم جمع بين كل قضيب وإلفه، وسعى بالاعتناق من شوقه وكلفه؛
ووردها كبداهن ياقوت فيها نضار، وشقيقها كمدامات عقيق فيها صوار؛ وبنفسجها
نفذ تمضي فيه من القرص آثار؛ أو جام لجين عليه من الندى نثار. ومن أنهار قدت
حافاتها قد الأديم، وحدت على صراط مستقيم؛ ببحر مسجوره، كالسيوف المشهورة
أو المهارق المنشورة؛ إذا نحمشها الهوى خلع عليها متون المبارد، أو سلوخ الأسود؛
يتحرق ذلك كله نسيم رقيق الغلائل، حلو الشائل؛ يسعى بالنسيم، في المعاطس
والشميم؛ انصبت إلى مجلس فسيح البناء، ضيق الأقاء؛ مؤش الجدران والسماء،
في صدره شاذر وإن يرعى بكسر البلور، وفي وسطه نهر يشلب مأوه أنسياب

(١) الريضان والرياض جمع الروضة .

(٢) الصوار والصوار « أي بالضم والكسر » الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظر ج ٦ - ص ١٤٧

الشَّجَاعَ الْمَذْذُورَ ، وَتَوَسَّطُهُ بِرُكَّةٍ مَمْنَمَةٍ يَنْصَبُ الْمَاءُ إِلَيْهَا بِالدَّوَالِي إِلَى أَرْبَعِ شَاذِرَوَانَاتٍ ، وَيُخْرَجُ عَنْهَا مِنْ أَرْبَعِ فَطِيمَاتٍ ؛ يَحْتَفُّهَا كُلُّ شَجَرٍ مُثْمَرٍ ، وَرَوْضٍ مُزْهِرٍ .
 فَقُلْتُ : هَذَا الْمَرَادُ الَّذِي يُحِطُّ بِهِ الرَّائِدُ رَحَلَهُ ، وَيُوفَدُ إِلَيْهِ أَهْلُهُ ؛ وَيَدْعُو إِلَى اخْتِيَارِ مَنْ يَهْبُ إِلَى الشَّرُورِ ، وَيُسَاعِدُ عَلَى الْحُضُورِ ، لِلشَّارِكَةِ فِي التَّمَلُّيِّ بِهِجَتِهِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِنَضْرَتِهِ ؛ فَكَانَ مَوْلَايَ أَوَّلَ مَنْ جَرَى إِلَيْهِ ذِكْرِي ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ طَرْفُ فِكْرِي :
 لِأَنَّهُ السَّاكِنُ فِي فُؤَادِي ، الْحَالُ فِي مَحَلِّ رُقَادِي ؛ فَإِنْ رَأَى أَرَاهُ اللَّهُ مَا يَقْرَأُ الْعَيْنُ أَنْ يَكْجَلَ مَسَرَّتِي بِقَوْلِ قَدَمِهِ إِلَيَّ ، وَإِطْلَاعِ سَعْدِ طَلْعَتِهِ عَلَيَّ : لِيَتِمَّ مُحَاسِنَ مَا وَصَفْتُهُ ، وَيَكْمَلَ الْإِلْتِذَاذَ بِمَا شَرَحْتُهُ ؛ فَعَلَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَجُوبَةُ رِقَاعِ الْأَسْتِزَارَةِ

قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : لَا يَخْلُو الْمُسْتَرَارُّ مِنَ الْإِجَابَةِ إِلَى الْحُضُورِ أَوْ التَّنَاقُلِ عَنْهُ ، فَإِنْ حَضَرَ عَلَى الْقَوْرِ ، فَلَا جَوَابَ لِمَا نَفَذَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ وَعَدَ الْحُضُورَ وَتَأَوَّمَ لِقَضَى شُغْلًا وَيَحْضُرُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْنِيَ الْجَوَابَ عَلَى سُورِهِ بِمَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ مِنْهُ ؛ وَأَنْ تَلُومَهُ لِلْعَائِقِ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا عَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ ، وَأَنْ حُضُورَهُ يَشْنَعُ رُقْعَتَهُ . وَإِنْ آيَسَ مِنَ الْحُضُورِ ، وَجَبَ أَنْ يَبْنِيَ الْجَوَابَ عَلَى مَا يَمْهَدُ عُذْرَهُ ، وَيَقَرَّرُ فِي نَفْسِ مُسْتَرِيرِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتَأَنَّ عَنْ الْمُسَاعَدَةِ عَلَى الْأَنْسِ إِلَّا لِقَوَاعِ صِدَّتْ عَنْهُ ، يَعْلَمُ الْمُعْتَذِرُ إِلَيْهِ صَحَّتْهَا لِيَنْحَرَسَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَوَدَّةِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مَا تَنْفَاسِدُ الْخُلَاقُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ .

النوع السابع

(في أختطاب المودة وأفتاح المكاتبه)

قال في "مواد البيان" : الرّاقع الدائرة بين الإخوان في أختطاب المعاشرة ، وأنتماء المكائره ، وطلب الخلطة والمؤانسة ، يجب أن يقدّر الخطاب فيها على أن يصل المرغوب في عشرته إلى الانخراط في سلك أجبائه ، والانهياز إلى أهل ولآئه ، وبيعته على قصده ، في الالتحاق بؤده ، ويدل على المحاصه ، والصّفاء والمخالصه ، وما جرى هذا المجرى مما يتعامل به أخلاء الصّدق ، ويجعلونه مهراً لما يلمسونه من الممازجه ، ويرومونه من الاختلاط والمواشجه .

قال : وينبغي أن يذهب الكاتب في هذه الرّاقع مذهبا لطيفا ، ويحسن التوصل إلى الإفصاح عن أغراضها : ليأخذ بجامع القلوب ، ويعين على نيل المطلوب .

وهذه نسخ من ذلك :

رقعة : وينهى أنّ المملوك لم يزل مذوق طرفة على صورته ، ووج سمعه بعد شيمته ، يناجى نفسه بافتتاح مكاتبه ومراسلته ؛ وأختطاب ممازجته ومواصلته ؛ رغبة في الاعتقاد بإخائه ، والارتشاف من مشارع صفائه ؛ والمقادير تطوى الطوية على ما فيها ، والعوائق تمطل النية بنجاس ما تنويه وتلويها ؛ إلى أن أذن الله تعالى بإعراض الأعراض ، وأتقباض أسباب الاتقباض ؛ فأظهر المملوك ما في القوه ، واثقا من مولانا بحسن المروه ؛ وأنه يوجب القبول بإجابته ، ويوجب إلى مساعدته ؛ ويرضى المملوك أهلا لأصطفائه ، ومحلا لإخائه ؛ علما بإيجابه للحق ، والمعرفة بالسبق ؛ وأن تلقى هذه الرغبة بالقبول ، ويسلم إليها مفتاح المأمول .

رقعة : لو كانت المودة لا تحُصَل إِلَّا عن أُلْفَةٍ تَالِدَةٍ ، ومُواصَلَةٍ سَالِفَةٍ ؛ لم يَسْتَطِرِفِ المرءُ صَفِيًّا ، ولم يَسْتَحْدِثْ وَلِيًّا . وما زال البُعْدَاءُ يَتَقَارَبُونَ ، والمتَنَكِّرُونَ يَتَعَارَفُونَ ؛ وَلَمَّا نُمِيَ إِلَى المَلُوكِ مِنْ أَنْبَاءِ مولانا مَا تَصَوَّعَ عِطْرُهُ ، وَطَابَ نَشْرُهُ ؛ سَافَرَ بِالْأَمَلِ إِلَيْهِ ، وَقَدِمَ بِالرَّغْبَةِ عَلَيْهِ ؛ طَالِبًا الْإِنْخِرَاطَ فِي سِلْكِ أَوْلِيَائِهِ ، وَالْإِخْتِلَاطَ بِخَاصَّتِهِ وَخُلَصَائِهِ ؛ وَمَثَلُ مولانا مَنْ أَجَابَ السُّؤْلَ ، وَصَدَّقَ الْمَأْمُولَ ؛ وَالْمَلُوكُ يَرْجُونَ أَنْ تَكْشِفَ الْآيَامُ لِمولانا مِنْهُ عَنْ خُلَّةٍ صَادِقَةٍ ، وَمَوَدَّةٍ صَحِيحَةٍ ، لَا تَضِيعُ مَعَهَا إِجَابَتُهُ ، وَلَا تَحْصِرُ صَفَقَتُهُ .

رقعة : وَيُنْهَى أَنْ الْمَلُوكَ مَا زَالَ مُدُّ وَقَعِ طَرَفُهُ عَلَى صُورَتِهِ الْبَدْرِيَّةِ ، وَأَحَاطَ عَالِمًا بِخِلَاقِهِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ رَاغِبًا فِي مُوَاشَجَتِهِ ، بَاعِثًا نَفْسَهُ عَلَى آخِطَابِ مَوَدَّتِهِ ، وَإِكْبَارِهِ يُقْعِدُهُ ، وَإِعْظَامُهُ يُبْعِدُهُ ؛ فَلَمَّا تَطَاوَلَ يَرَاغُ هِمَّتِهِ ، شَجَعَتْ عَلَى إِنْفَازِ عَزْمَتِهِ ؛ فَقَدِمَ مَكَاتِبَتَهُ أَمَامَ مِشَافِهِتِهِ ؛ فَإِنْ حِظِيَ بِالْإِجَابَةِ وَتَوَيْلِ الطَّلِبَةِ ؛ فَقَدْ فَازَ قَدْحُهُ ، وَتَبَلَّجَ صُبْحُهُ ؛ وَنَالَ مُنَاهُ ، وَبَلَغَ رِضَاهُ ، وَصَادَفَ هَنَاهُ ، وَدِيدًا مَوْثُوقًا بِوَدِّهِ ، مَسْكُونًا إِلَى عَقْدِهِ وَعَهْدِهِ ؛ يَحْمَدُهُ عِنْدَ الْإِخْتِبَارِ ، وَيَعْرِفُ بِهِ صَحَّةَ رَأْيِهِ عِنْدَ الْإِخْتِيَارِ ؛ وَالْمَلُوكُ يَرْجُونَ أَنْ يَصِحَّ مَا سَأَلَهُ وَكَفَّلَهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

رقعة : وَيُنْهَى أَنْ مَنْ عَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِنِائِهِ الْحَافِلَ ، وَعَطَّرَ بِأَنْبَاءِهِ الْفَضَائِلَ ؛ وَأَقَامَ مِنْ مَسَاعِيهِ الْكِرَامِ خُطْبًا يُخْطَبُ بِسُودَدِهِ وَفَضْلِهِ ، وَيُعْرَبُ عَنْ شَرَفِ مُحْتَدِهِ وَأَصْلِهِ ؛ تَطَلَّعَ الْآمَالُ لِلْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ أَحِبَّائِهِ ، وَتَشَوَّفَتِ الْهِمَمُ إِلَى الْإِمْتِرَاجِ بِخُلَصَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ : لَمَّا يَصْفُقُو عَلَى الْمُعْتَصِمِ بِعُرَى مُصَافَاتِهِ مِنْ لِبَاسِ جَمَالِهِ ، وَيُحَلِّي الْمُعْتَبَى إِلَى وَلَائِهِ مِنْ حِلْيِ جَلَالِهِ ؛ وَأَحَقُّ مَنْ أَسْعَفَهُ مولانا بِالْمَوَدَّةِ إِذَا خَطَبَهَا ،

وأجابه إلى المصافاة إذا طلبها ، من بدأ بالرغبة ، ومَتَّ إليه بالمحبة ، لا لمُرُغب ولا مُرْهب ، واختاره لنفسه على علم بكماله ، ومعرفة بشرفٍ خلاله .

وما زال المملوك مُدَّ أطلعه الله على ماخُصَّ به مولانا من المحاسن المتعددة إلا لَدَيْهِ ، والفضائل المتنعة إلا عليه ؛ يُحومُ على مَشارِعِ مَازَجَتِهِ ولا يَرُدُّها ، ويرومُ مواقعِ مُواشَجَتِهِ ولا يَعْتَمِدُها ، إكْبارا لقدره ، وإعْظاما لخطره ، وخوفاً من تصفُّحه ونقده ، وإبقاءً على ماءٍ وَجْهِهِ من رَدِّهِ ، والمملوكُ وإن كان عالماً بأن كرم مولانا يَرِيقُ الخلل ، وفضله يُصَدِّقُ الأمل ؛ فإنه لا يَعدَمُ مَذْ رَغْبٍ في قُرْب مولانا مَالَعَلَّه يَجِدُهُ فيه ، مما يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ وَيُنَافِيهِ ؛ إذ كان لا يَبْلُغُ تَضَاهِيهِ في التَّامِ وتَوَافِيهِ ، إلى أن أذن الله تعالى بأن أبلغ نفسه الأُمْنِيَّةَ ، وأظهر ما طُوِيَتْ عليه الطَّوِيَّةُ ؛ فكتب هذه الرُّقعة وجعلها فيما رامهُ من الاعتِلاقِ بِجَبَلِ مَوَدَّتِهِ سَفيراً ، وعلى ما أَلْتَسَّسَهُ من الانضمامِ إلى جُمْلَتِهِ ظَهِيراً ؛ وَقَدِمَ بها عليه وَظَنَّهُ يَتَرَجَّحُ من الإعراضِ إلى القَبُولِ ، ثقةً بِقُرْبِ نَيْلِ المأمُولِ ؛ فإن رأى أن يُجِيبَهُ إلى ما سألَهُ ، ويُسرَّهُ بتنويل ما اقترَحَهُ ، فعل ؛ إن شاء الله تعالى .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَة :

وضاعف للمالك ببقائه الإِتِّفَاعَ ، وبآرتقائه الإِرْتِفَاعَ ؛ وَسَرَّ بِحَاسَنِ نظره وخَبَرَهُ العِيَانِ والسَّمَاعِ .

ولا زال للحجّين من وَدِّهِ عَطْفُ المتلَطِّفِ وللأعداء من بَأْسِهِ خَطْفُ الشُّجَاعِ .
أصدرها المملوكُ مَنْطُويَةً على ما عَهِدَ من صِدْقِ المحبة ، ووفاءِ العُهودِ المُسْتَتَبَةِ ؛ ودُرَرَ

الحامد التي لا تُسوى لَدَيْهَا دُرُّ الْعُقُودِ حَبَّه ، مُبْدِيَةً لَعَلِمَهُ الْكَرِيمُ أَنَّ الْمَوَدَّاتِ إِذَا صَفَتْ ، وَالْقُلُوبَ إِذَا تَجَنَّدَتْ وَتَعَارَفَتْ ؛ حَثَّتِ الْمَحَبِّينَ فِي الْإِعَادَةِ عَلَى الْمَفَاتِحَةِ بِكُتُبِهِمْ وَرِسَائِلِهِمْ ، وَالْمَخَاطَبَةِ فِي ظِلَالِ الْأَوْرَاقِ بِالسِّنَةِ أَقْلَامِهِمْ مِنْ لَهَوَاتِ أَنْامِلِهِمْ ؛ إِثَارًا لِتَجْدِيدِ الْأَنْسِ وَإِنْ صَحَّ الْمِيثَاقُ ، وَتَدَكَّرَا لَخَوَاطِرِ الْوُدِّ ، وَإِنْ رَسَخَتْ مِنْهُ الْأَصُولُ وَنَمَتِ الْأَعْرَاقُ ؛ وَلِذَلِكَ فَاتَّحَ بِهَا مَخَاطِبًا ، وَأَرْتَقَبَ لِمُنَادِيهَا بِالْأَخْبَارِ السَّارَةَ مُجَاجِبًا ؛ نَائِبَةً عَنْهُ فِي مَشَاهِدَةِ الْوَجْهِ الْكَرِيمِ ، وَمَصَاحِفَةِ الْيَدِ فِي حَدِيثِ رِبِّهَا الْقَدِيمِ ؛ تَسْتَطْلِعُ أَخْبَارَهُ ، وَتَسْتَعْرِضُ أَوْطَارَهُ ؛ وَتُحْيِي بِالسَّلَامِ وَجْهَهُ وَعَهْدَهُ وَدِيَارَهُ ، عَلَى يَدِ فُلَانٍ ، وَقَدْ حَمَلَ مِنَ الْمَوَدَّاتِ وَالْمَشَافَهَاتِ مَا يُعِيدُهُ عَلَى السَّمْعِ الْكَرِيمِ الْمُنْعَمِ بِإِصْغَائِهِ ، الْمُصْنَعِي بِنِعْمَائِهِ ؛ الْمُتَحَفِّ بِالْمُهَيَّمَاتِ الَّتِي يَحْصُلُ فَوْزُ الْقِيَامِ بِهَا ، وَالْمُشْرِفَاتِ الَّتِي كُلُّ أَسْبَابِ الشُّرُورِ مُتَّصِلٌ بِسَبَبِهَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ مِنْ تِلْقَائِهِ سَمْعًا وَنَظْرًا ، وَيُبْقِي عَيْشَ حَاسِدِهِ هَشِيمًا وَعَيْشَ مُحِبِّهِ نَضْرًا ؛ وَيُدِيمُ رِيَاضَ ذِكْرِهِ تَالِيَةً عَلَى الْمَسَامَعِ : ﴿ فَأَنْخَرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ .

أَجْوِبَةُ آخِطَابِ الْمَوَدَّةِ

قال في "مواد البيان" : لَا يَجْلُومَنَّ يُرَامُ ذَلِكَ مِنْهُ أَنْ يُجِيبَ أَوْ يَعْتَلَّ ، فَإِنْ أَجَابَ بَنَى الْجَوَابَ عَلَى وَقُوعِ رَغْبَةِ الْمُخْتَطَبِ أَحْسَنَ مَوَاقِعِهَا ، وَأَبْتَهَاجِ الْمُخْتَطَبِ بِهَا ، وَمَعْرِفَتِهِ بِقَدْرِ مَا رَأَاهُ أَهْلًا لَهُ وَمَسَارِعَتِهِ إِلَيْهِ ؛ وَإِنْ أَعْتَلَّ بَنَى الْجَوَابَ عَلَى أَنَّهُ قَدْ عَرَّضَ لَهُ مَا يَقْصُرُ عَنْهُ ، وَلَا تَرْضَى نَفْسُهُ بِهِ ، وَأَنَّ الْعَذْرَ [لَيْسَ] بِعَادَةٍ لَهُ فِي الْمَزِيلَةِ ، وَطَرِيقَةٍ فِي الْإِنْفِرَادِ وَالْمُجَانَبَةِ .

(١) أَيْ لَا تَسَاوَى يُقَالُ سَوَى دَرَاهِمًا يَسَوَى مِنْ بَابِ تَعَبٍ وَمَنْعَاهُ أَبُو زَيْدٍ . أَنْظَرَ الْمَصْبَاحَ .

النوع الثامن

(في خطبة النساء)

قال في "موادّ البيان" : الرّقاع في التماس الصّهر والمواصلّة يجب أن تكون مبنية على وصف المخطوب إليه بما يقتضى الرّغبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بما يؤدّي إلى الكفاية والإسعاف بالطلبة .

قال : وينبغي للكاتب أن يودّعها من ألفاظ المعاني المنتظمة في هذا الباب أوقعها في النفوس ، وأعودها بتقريب المرام ، وأدّ لها على صدق القول فيما تكفله من حسن معاشرّة ، ولين معاملة ، وأن يذهب بها إلى الاختصار والإيجاز .

وهذه نسخ من ذلك :

مما أورده أبو الحسين بن سعد في ترسله .

وأفضل تلك المواهب موقعاً والطفها وأحمدها عاقبة ، وأرهنها يداً ، ما يؤلف الله به القربات ، ويؤكد به الحرّمات ، ويوجب به الصّلات ، ويحدّد به المكّرمات ، ويحدّث به الأنساب ، ويقوّى به الأسباب ، ويكثر به من القيلة ، ويجمع به من الفرقة ، ويؤنس به من الوحشة ، ويؤادّ به في الحقوق وجوباً ، وفي المودّات ثبوتاً ، ثم لا مثل لما كان لله طاعة ورضاء ، وبأمره أخذاً وأقتداء ، وبكتابه قدوة وأحتذاء ،
(١)
فإنه نسأل الخيرة في قضائه ، والبركة فيما يقوم بناؤك عليه .

ومنه : تَصِلُ رَحِمًا ، وَتَعْقِدُ سَبَبًا ، وَتُحَدِّثُ نَسَبًا ، وَتُجَدِّدُ وَصْلَةً ، وَتُؤَكِّدُ أُلْفَةً .

رقعة : مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا خَصَّ بِهِ سَيِّدِي : مِنْ طَهَارَةِ الْأَعْرَاقِ
وَالْأَنْسَابِ ، وَشَرَفِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ ؛ وَأَفْرَدَهُ بِاجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمُنْفَرِقَةِ
فِي الْأَنَامِ ، وَعَطَّرَ بَنَائِهِ مَلَابِسَ الْأَيَّامِ ؛ رَغِبَ الْأَحْرَارُ فِي مُوَاصَلَتِهِ ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ بَذْلُ
الْوَجْهِ فِي اخْتِطَابِ مِمَّا رَجَحَتْهُ ، وَآلَمَسَ مُوَاشِحَتَهُ وَمُنَاسِبَتَهُ ؛ وَجَدِيرٌ مِنْ رُغْبٍ إِلَيْهِ ،
وُطْلُبِ مَالِدِيهِ ؛ وَاخْتِيرَ لِلشَّابِكَةِ فِي الْوَلَدِ وَالْحُمَةِ ، وَالْمِشَارِكَةِ فِي الْمَالِ وَالنِّعْمَةِ - أَنْ
يَجِبَ وَلَا يَمْنَعُ ، وَيَصِلَ وَلَا يَقْطَعَ ؛ مُصَدِّقًا لِأَمَلٍ مِنْ أَفْرَدِهِ بِأَرْتِيَادِهِ ، وَتَوْحُّدِهِ
بِاعْتِمَادِهِ ؛ عَارِفًا لَهُ حَقَّ آبْتِدَائِهِ بِالثَّقَّةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ رَدُّ مَنْ أَعْتَقَبَهَا ، وَلَا صَدُّ مَنْ
حَسَّنَ ظَنِّهَا ؛ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ [مَضَى] لِلْمَلُوكِ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ [وَهُوَ يَحْتُ] مُتَطَلِّبًا
مَرْبَعًا لِلتَّأَهُلِ ، مُؤَثِّرًا لِعِمَارَةِ الْمَنْزِلِ ، رَاغِبًا فِي سَكَنِ تَطْمِئِنُّ النَّفْسُ إِلَيْهِ ، وَتَعْتَمِدُ
فِي الْقَوَاتِمِ وَالْمَصَائِرِ عَلَيْهِ ؛ وَكُلَّمَا عُرِضَ لِلْمَلُوكِ بَيْتُ أَبِيهِ ، أَوْ ذِكْرُ لَهُ جَنَابٍ قَطَعَ
عَنْهُ رَجَاهُ : لِعَدَمِ بَعْضِ الشَّرُوطِ الَّتِي يُرِيدُهَا فِيهِ ، وَتَعَدُّهَا عَلَيْهِ ؛ فَلَمَّا قَرَعَ سَمْعَهُ
ذَكَرُ سَيِّدِي ، عَلِمَ أَنَّهُ الْغَايَةُ الَّتِي لَا مَرْقُفَ بَعْدَهَا ، وَالنَّهْيَةُ الَّتِي لَا مَطْمَحَ وَرَاءَهَا ، وَأَنَّهُ
قَدْ ظَفِرَ بِالثَّقَّةِ ، وَوَصَلَ إِلَى الْأُمْنِيَّةِ ، وَوَجَدَ مِنْ يَجْمَعُ الْخِلَالَ الْمَرْضِيَّةَ وَيَزِيدُ ؛
وَيُجُوزُ مِنَ الْفَضْلِ الشَّأَوِ الْبَعِيدِ ، وَكُتِبَ لِلْمَلُوكِ هَذِهِ الرِّقْعَةُ خَاطِبًا كَرِيمَةً فَلَانَةً .
[لِيَكُونَ لَهَا] كَالِغَمْدِ الضَّامِنِ لِلْهَنْدِ ، وَالْخِلْدِ الْخَافِظِ لِلْجِلْدِ ؛ وَيَكُونُ لِمَوْلَانَا كَالْوَلَدِ
الْبَرِّ أَبِيهِ ، وَلَأَخِيهَا كَالصَّنْوَ الشَّفِيقِ عَلَى أَخِيهِ ؛ فَإِنْ رَأَى سَيِّدِي أَنْ يَتَدَبَّرَ مَا كَتَبَهُ
الْمَلُوكُ وَيَتَسَمَّعَ مِنْ تَوْكِيدِ رُقْعَتِهِ مَاحِلَّتَهُ ، وَيَجِيبَهُ إِلَى مَا سَأَلَهُ فَلَهُ عُلُوُّ الرَّأْيِ فِي ذَلِكَ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

رُقعة : وَيُنْهَى أَنْ مَوْلَانَا بِمَا تَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَحَاسِنِهِ وَمَنَاقِبِهِ ، جَدِيرٌ أَنْ يَلْقَى مَنْ خَطَبَ الْأَعْتَصَامَ بِعُرَى مَازَجَتِهِ ، وَسَعَى فِي نَيْلِ عُلُقِهِ مِنْ مُوَاشَّجَتِهِ ، بِالتَّجَبُّولِ ، الْقَاضِي بَنِيْلُ الْمَأْمُولِ ، وَدَرَكِ الرَّغْبِ وَالسُّوْلُ ؛ وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ عَارِقًا مِنْ سُموِّ خَطَرِهِ ، وَاعْتِلَاءِ قَدْرِهِ ، مَا يَقْضِي عَلَيْهِ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فِي مَعَاشَرَتِهِ ، وَغَضِّ الطَّرْفِ فِي مَعَامَلَتِهِ ؛ وَالْوُقُوفِ دُونَ دَرَجَةِ الْمَسَاوَةِ وَالْمِثَالَةِ ، وَالتَّرْخُجِ عَنْ رُتْبَةِ الْمُبَارَاةِ وَالْمُطَاوَلَةِ ؛ وَالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْأَتْبَاعِ وَالْحَاشِيَةِ ، وَالْحُدُودِ وَالْغَاشِيَةِ ؛ وَكَثِيرًا مَا وَجَدَ الْمَمْلُوكُ الْبَرَكَةَ فِي مِشَارَكَةِ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَوْفَرَمْنَاهَا فِي مِشَارَكَةِ النَّظَرَاءِ ، وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ فِي مِشَابَكَةِ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ أَجْمَلَ مِنْهَا فِي مِشَابَكَةِ الْأَكْفَاءِ ؛ الَّذِينَ يُصَادِفُونَ فِي الْحَقُوقِ شَطَطًا ، وَلَا يُغْضُونَ عَنْ يَسِيرِ الْوَاجِبَاتِ تَبَسُّطًا : لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْوَصْلَةَ مِمَّنْ دَانَاهُمْ فِي الرُّتْبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ لَيْسَتْ عَائِدَةً عَلَيْهِمْ بِشَرَفٍ ، وَلَا مُظْهِرَةً لَهُمْ مِنْ مُخْمُولٍ . وَلَئِنْ يَسْتَخْلَصَ مِثْلُ سَيِّدَى مِنَ الرُّؤَسَاءِ ، مِثْلُ الْمَمْلُوكِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَيَخْتَصَّصَ بِأُتْرَةِ الْأَجْتِبَاءِ وَالْإِصْطِفَاءِ ؛ فَيَكُونُ مَفْخَرُهُ إِلَيْهِ مَنْسُوبًا ، وَمَا يَرْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِبَرَكَتِهِ مِنْ دَرَجِ الْفَضْلِ فِي نَفْسِهِ مُحْسُوبًا ؛ أَوَّلَى مِنْ طَلَبِ مُمَائِلِ يَنَاقِضُ بِقَدْرِهِ وَيُطَاوِلُ . عَلَى أَنَّهُ لَوْ طَلَبَ ذَلِكَ لَطَلَبَ مُعْوِزًا ، وَرَامَ مُعْجِزًا : لَمَّا أَفْرَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ السَّيَادَةِ الَّتِي لَا يُتْرَامَى إِلَى مَنْزِلَتِهَا ، وَلَا يُتَسَامَى إِلَى مُطَاوَلَتِهَا ؛ وَإِذَا كَانَ النَّظِيرُ مَعْدُومًا ، وَالْكُفُوُ مَفْقُودًا ؛ وَلَوْ وَجِدَ لَمَالَ مَتَسَلِّطًا ، وَوَقَعَ سُومُهُ مَنَبَسِطًا ؛ وَمَوْلَانَا يُطَلَّبُ إِلَيْهِ وَلَا يُطَلَّبُ ، وَيُرْغَبُ فِيْمَا عَنْده وَلَا يَرْغَبُ ، فَقَدْ سَهَّلَ السَّبِيلَ إِلَى مَا يُرِوْمُهُ الْمَمْلُوكُ مِنْ جِهَتِهِ ؛ وَيُؤْمَرُ مِنْ مُوَاسَلَتِهِ ؛ وَاتَّسَعَ الْحَجَالُ فِيْمَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي تَقْلِيدِهِ شَرَفِ مُصَاهَرَتِهِ ، وَإِضَافَتِهِ بِذَلِكَ إِلَى بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ خَاصَّتِهِ ؛ وَيُخْرِجُهُ عَلَى مَا يُخْرِجُ عَلَيْهِ الْوَالِدُ وَلَدَهُ ، وَالسَّيِّدُ عَبْدَهُ ؛ وَقَدْ حَمَلَ الْمَمْلُوكُ مُوَصَّلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربي «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يعرض عليك ما أنت عنه غنى تأمل .

مطالعة هذه مالم تسع إيداعه المكتبة، فإن رأى مولانا أن يصنعي إليه ويحبب عبده بما يعتمد المملوك في ذلك فله الفضل، إن شاء الله تعالى .

رقعة : ويُنهي أن لذوى المناجب الطيبة الأنساب، والمناحت الزكية الأحساب، والأخلاق الكريمة والآداب، بين الأنام لسان صدق يخطب لهم بالمحسن والمحامد، ويعطر بثنائهم الصادر والوارد؛ ويدعو القلوب إلى نيل علقه من مآزجهم، والتمسك بطرف من مواصلتهم؛ وقد جمع الله لمولانا من كريم المتلد^(١) والمطرف، وقديم وحديث الفضل والشرف، ما تفرق في السيادات، وتوزع على أهل الرياسات؛ وجعله في طهارة المولد، وطيبة المحتد؛ وأستكمال المآثر، وأستتمام المفارح، علما ظاهرا، ونجما زاهرا؛ فما من رئيس سوى مولانا تُعجزه خلة من خلال الرياسة إلا وجدها لديه، ولا نفيس تُعوزُه خصلة من خصال النفاسة إلا أستمحها من يديه؛ ولذلك أمتدت الأعناق إلى أتمسك بحبله، وتطلعت الهمم إلى مؤانستِهِ في كريم أصله؛ وصار مرغوبا إليه لارغبا، ومطلوبا لديه لاطالبا؛ وهو جديرا بما وهبه الله من هذا الفضل الذائع، والنبل الشائع، أن يجيب سائله، ويصدق أمله؛ ولا يتجهم في وجه قاصده، ولا يردّه عن مقصده؛ ولا سيما إذا كان قد أسلفه الظن الجميل، وبدأه بالثقة والتأويل؛ وتعدّر عليه قدر العارف بقدره، العالم بخطره؛ المرتضى بشرائطه، النازل على حكمه، المتدبر برأيه؛ وقد علم الله تعالى أن المملوك مُدْ نسا وصالح للتأهل مرغوب فيه، مخطوب إليه؛ من عدة جهات جليلة، وجنات رئيسة؛ والمملوك صاّد عن الإجابة، صارف عن المطاوعة؛ لشذوذ بعض الشروط التي يروم أن تكون مجتمعة في النسب، الذي أعده شريكا في الولد والنسب؛

(١) المتلد (أي كرم) ما ولد عندك من مالك أو نتج وما لم يتلد قديم .

ومُفَاوَضًا فِي الْحَالِ وَالسَّبَبِ ؛ مَرْتَادٌ مِنْ يَقْنَعُ بِالمُوَافَقَةِ ، وَيَرْتَضِ ، بِالعِشْرَةِ وَالْمِرَاقَقَةِ ؛ حَتَّى أَفْضَى فِي الْإِتْقَادِ إِلَى مَوْلَانَا فَوَجَدَ الْمُرَادَ عَلَى أَشْتَرَاتٍ ، وَأَلْفَى الْمَقْصُودَ عَلَى أَشْتَطَاتٍ ؛ فَدَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى التَّهَيُّمِ بَعْدَ الْإِحْجَامِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى التَّجَاسُّرِ وَالْإِقْدَامِ ؛ وَالتَّوَسُّلِ إِلَى مَوْلَانَا بِمَا يَتَوَسَّلُ بِهِ الْأَحْرَارُ ، إِلَى الْأَخْيَارِ ، وَأُمَّهُ بِصَادِقِ الرِّغْبَةِ وَصَمِيمِ الْحُبِّ وَالْإِنْسَابِ ، فِي خِطْبَةِ كَرِيْمَتِهِ فَلَانَةَ ؛ عَلَى أَنَّ يَعَاشِرَهَا بِغَايَةِ الْأُنْسِ ، وَيَصَحَبَهَا صُحْبَةَ الْجَسَدِ لِلنَّفْسِ ؛ وَيَعْرِفَ لَهَا مِنْ قَدَرِ أَبَوْتِهَا وَأُمُومَتِهَا مَا تَسْتَحِقُّ بِرِيَاسَتِهَا ، وَقَدْ أَصْدَرَهُ هَذِهِ الرِّقْعَةَ نَائِبَةً عَنْهُ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنْ رَأَى مَوْلَانَا أَنْ يُخَيِّقَهُ بِالْقَبُولِ ، وَيَجْعَلَهُ أَهْلًا لِإِجَابَةِ السُّؤْلِ ، فَلَهُ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومن النادر الغريب ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حُسن التوسُّل"
في الكتابة إلى شخص في تزويج أمه ، وهو :

هذه المكتبة إلى فلان - جعله الله ممن يُؤْتِرِدِينَهُ عَلَى الْهَوَى ، وَيَنْوِي بِأَفْعَالِهِ الْوُقُوفَ مَعَ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرِيٍّ مَا نَوَى ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالْخَيْرَةَ فِيمَا يَسِّرُهُ اللَّهُ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ الشَّرَّ وَالْمَكْرُوهَ فِيمَا طَوَى ؛ نَعْرِضُ لَهُ بِأَمْرٍ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي الْإِجَابَةِ إِلَيْهِ ؛ وَلَا خَلَّ يُلْحِقُهُ بِهِ فِي الْمُرُوءَةِ وَهَلْ أَخَلَّ بِالْمُرُوءَةِ مَنْ فَعَلَ مَا حَضَّ الشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ عَلَيْهِ ؛ وَأَظْهَرُ النَّاسِ مُرُوءَةً مَنْ أْبْلَغَ النَّفْسَ فِي مَصَالِحِ حَرَمِ عُدْرَتِهَا ، وَوَفَّى مِنْ حَقِّقٍ أَخَصَّنَ بِيَرِّهِ كُلَّ مَا عَلِمَ أَنَّ فِيهِ رِهَا ؛ وَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ عَوْرَةً ، فَإِنَّ كَمَالَ صَوْنِهَا فِيمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ سِتْرَهَا ، وَصَلَحَ حَالُهَا فِيمَا أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ فِي الْحَيَاةِ أَمْرَهَا ، وَإِذَا كَانَتِ النِّسَاءُ شَقَائِقَ الرِّجَالِ فِي بَاطِنِ أَمْرِ الْبَشَرِيَّةِ وَظَاهِرِهِ ، وَكَانَ الْأَوَّلَى تَعْجِيلَ أَسْبَابِ الْعِصْمَةِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَوَّلٍ [وَقْتُ] الْإِحْتِيَاجِ [إِلَى ذَلِكَ]

وآخره ؛ وما جَدَعَ الحلالُ أَنْفَ الْغَيْرَةِ إِلَّا لِيُزَوَّلَ شَمُّ الْحَيَّةِ ، وَتُنْزَلَ عَلَى حَكَمِ اللَّهِ فِيما
 شَرَعَ لعباده النَّفُوسَ الْأَيَّيَّةَ ، وَيُعَلِّمُ أَنَّ الْفَضْلَ فِي الْأَنْقِيَادِ لِأَمْرِ اللَّهِ لَا فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى
 بَعْضُ الْوَلِيَّةِ ؛ وَإِذَا كَانَ رُ الْوَالِدَةِ أَتَمَّ ، وَحَقُّهَا أَعَمَّ ؛ وَالنَّظَرُ فِي صَلَاحِ حَالِهَا أَهَمُّ ؛
 تَعَيَّنَتِ الْإِجَابَةُ إِلَى مَا يَصْلُحُ بِهِ حَالُهَا ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ بِأُلْهَا ، وَيَتَوَفَّرُ بِهِ مَالُهَا ، وَيَعْمُرُ
 بِهِ فَيْأُوهَا ؛ وَيَحْصُلُ بِهِ عَنْ تَقْلُدِ الْمَنِّ اسْتِغْنَاؤُهَا ، وَتُحْمَلُ بِهِ كُلْفَةُ خَدَمِهَا عَنْهَا ،
 وَتُدْفَعُ بِهِ ضَرُورَاتُ الْأَبْدِ لَدَوَاتِ الْحِجَابِ وَالْمَجَالِ مِنْهَا ، وَيَضْفُو بِهِ سِتْرُ الْإِحْصَانِ
 وَالْحَصَانَةِ عَلَيْهَا ، وَيُظْهَرُ بِهِ سِرُّ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ لَهَا مِنْ تَتَبُّعِ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهَا .

وقد تقدَّم من ساداتِ السَّلَفِ مَنْ تَوَلَّى ذَلِكَ لَوَالِدَتِهِ بِنَفْسِهِ ، وَأَعْتَدَهُ مِنْ أَسْبَابِ
 رِيُومِهِ الَّذِي قَابَلَ بِهِ مَا اسْلَفَتْهُ إِلَيْهِ فِي أُمِّهِ ؛ عَلِمَا مِنْهُمْ أَنَّ اسْتِكْمَالَ الرَّبِّ مِمَّا يُعْلَى
 قَدَرُ الْمَرْءِ وَيُغْنَى ؛ وَقَدْ أَجَابَ زَيْدُ بْنُ زَيْنِ الْعَابِدِينَ هِشَامًا مِمَّا سَأَلَهُ : لِمَ زَوَّجْتَ
 أُمَّكَ بَعْدَ أَبِيكَ ؟ فَقَالَ : لَتُبَشِّرَ بآخرِ مِثْلِي ، لِأَسِيَّاءِ الرَّاعِبِ ^(١) [إِلَى الْمَوْلَى] فِي ذَلِكَ
 مَنْ يُرْغَبُ فِي قُرْبِهِ ، وَيُغْبَطُ عَلَى مَالِدِيهِ مِنْ نِعَمِ رَبِّهِ ؛ وَيَعْظَمُ لِاجْتِمَاعِ ذُنُوبِهِ وَدِينِهِ ،
 وَيُكْرَمُ لِيَمْنِ نَقِيَّتِهِ وَجُودِ يَمِينِهِ ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْعَقِيلَةَ تُحْمَلُ مِنْهُ فِي أَمْنَعِ حَرَمٍ ، وَتَسْتَظِلُّ
 مِنْ ذَرَاهِ بِأَضْفَى سُتُورِ الْكَرَمِ ، مَعَ ارْتِفَاعِ حَسَبِهِ ، وَاسْتِشْهَارِ نَسَبِهِ ، وَعُلُوِّ قَدَرِهِ
 فِي مَنْصِبِهِ وَحَالِهِ وَسَبِيهِ ، وَأَنَّهُ مَنْ يُحْسِنُ أَنْ يُحْمَلَ مِنَ الْمَوْلَى حَمْلٌ وَالِدِهِ ، وَأَنْ يُجَمَّلَ
 مِنْ دُرِّيَّتِهِ بَمَنْ يَكُونُ فِي الْمِلَلَاتِ بَنَانًا لِيَدِهِ وَعَضْدًا لِسَاعِدِهِ ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ كَثِيرًا بِأَخِيهِ ،
 وَإِذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ بِحَكَمِ الْحَاجَزِ لَفْظُ الْعُمُومَةِ ، فَإِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُوءُ أَبِيهِ ؛ وَأَنَا أَتَوَقَّعُ
 مِنَ الْمَوْلَى الْجَوَابَ بِمَا يَجْمَعُ شَمْلُ التَّقَى ، وَيَعْلَمُ بِهِ أَنَّهُ تَخَيَّرَ مِنَ الرَّبِّ أَفْضَلَ مَا يَنْتَقَى ؛
 وَيَتَحَقَّقُ بِفَعْلِهِ أَنَّ مِثْلَهُ لَا يَهْمِلُ وَاجِبًا ؛ وَلَأَمْرِ مَا قَالِ الْأَحْنَفُ وَقَدْ وُصِفَ بِالْأَنَانَةِ :
 لَكِنِّي أَتَعَجَّلُ أَنْ لَا أَرْدَّ كُفُوءًا خَاطِبًا .

النوع التاسع

(في الاسترضاء والاستعطاف والاعتذار)

قال في "موادّ البيان" : المكاتبَةُ في استعطافِ الرؤساء ، ومُلاطَفةِ الكبراء ، تحتاج إلى حُسْنِ تأتٍّ : لما تشتملُ عليه من إيجابِ حقوقِ الخدمة ، وما أسلفوه من مرعى الخدم ، وما يتبع هذا من التنصّل والاعتذار الذي يسألُ السخائم من القلوب ، ويستنزِلُ الأوغار من الصدور ، ويُطْلِعُ الأتس وقد غَرَبَ ، ولها موقع في تأليف الكلام .

قال : وينبغي للكاتب أن يستعملَ فيها فكره ، ويُوفّيها حقها من جَوْدَةِ الترتيب ، وأستيفاءِ المعاني ، وأن يذهبَ إلى استعمالِ الألفاظِ الجامعةِ لمعاني العُذر ، الملوّحة بالبراءة مما قُْرِفَ به ؛ ولا يُخْرِجَ لفظه مُحْرَجَ من يُقيمُ الحجّةَ على براءةِ الساحةِ مما رُمِيَ به ، فإنّ ذلك مما يكرهه الرؤساء : لأنّ عادتَهم جاريةٌ بإيثارِ اعترافِ الخدّام لهم بالتقصير والتفريط والإخلالِ بالفروض : ليكونَ لهم في العفو عند الإقرار عارفةٌ توجبُ شكرا مستأنفاً ؛ فأما إذا أقام التابعُ الحجّةَ على براءتِهِ وسلامتِهِ مما رُفِعَ عنه ، فلا يُوضَعُ الإحسان إلا إليه في إقراره على منزِلته ، والرضا عنه والاستعطاف ، بل ذلك واجبٌ له ، في منعه منه ظلم .

(١) في الاصلين «مما قرب منه» وهو تصحيف من النسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخ من ذلك :

لأبي الحسين بن سعد :

فإن رأيت أن تنظر في أمري نظراً يُشبه أخلاقك المرضية ويكون لحسن ظني بك مصداقاً، ولعظيم أمني [فيك] محققاً، ولما لم تزل تعدني منجزاً، ولحق حرمي بك وقديم اتصالي بأسبابك قاضياً، فعلت ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنه : سليمان بن وهب .

من أنصرف في الاحتجاج إلى الإقرار بما يلزمه وإن لم يكن لازماً، فقد لطف الاستعطاف، وأستوجب المسامحة والإنصاف .

ومنه : وقد نالني من جفوة الأمير بعد الذي كنت أتعرف من ربه والطفاه أمرٌ أحلني محل المذنب في نفسي مع البراءة من الذنب ، وألزمي الإساءة مع الخروج من التقصير ، وزاده عندي عظاماً وشدة أنني حاولت الخروج منه بالإعذار، فلم أجدي إلى الأمير ذنباً أعذر منه ، ولا على فيما ألزمي من معيبتة حجة أحاول دفعها والتخلص منها؛ فأصبحت أعالج من ذلك داء قد خفي دواؤه، وأحاول صلاح أمري لم أجني فسادَه؛ فإن رأيت أن تفعل كذا وكذا فصِل قديم ما أصبح عندي من معروفك بحديثه ، فليس عندي في مطالبة حجة أنجح من التوجه إلى الأمير بنفسه ، والثقة عنده بفضله ، فإن كنت مُذنباً عفاً، وإن كنت بريئاً راجع .

ومنه : لأبي علي البصير .

وأنا أحد من أسكته ظلك، وأعلقتَه حبلك ، وحبوته بلطف برك ، وخاص عياتك، وانتصف بك من الزمان، وأستغني بإخائك عن الإخوان ؛ فهو لا يرغب

إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا يَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَلَا يَسْتَنْجِحُ طَلَبُهُ إِلَّا بِكَ ، وَقَدْ كَانَ فَرَطَ مَنْ
 قَوْلٌ : إِنْ تَأَوَّلْتَهُ لِي ، أَرَاكَ أَوْجُهُ عُدْرِي ، وَقَامَ عِنْدَكَ بِحُجَّتِي ، فَاغْنَانِي عَنْ تَوْكِيدِ
 الْإِيمَانِ عَلَى حُسْنِ نَيْتِي ، وَإِنْ تَأَوَّلْتَهُ عَلَى ، أَحَاقَ بِي لَأَمْتُكَ وَحَبْسُنِي عَلَى [أَسْوَأِ]
 حَالٍ عِنْدَكَ ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ مُعْتَرِفًا بِالزَّلَّةِ ، مُسْتَكِينًا لِلْوَجْدَةِ ، عَائِدًا بِالصَّفْحِ وَالْإِقَالَةِ ،
 فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُقَرَّرَ عَيْنًا قَرَّتْ بِنِعْمَتِكَ عِنْدِي ، وَلَا تُسَلِّبْنِي مِنْهَا مَا أَلْبَسْتَنِي ، وَأَنْ تَقْتَصِرَ
 مِنْ عَقُوبَتِي عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي نَالَنِي بِسَبَبِ عَثْبِكَ عَلَيَّ ، وَتَأْمُرَ بِتَعْرِيفِي رَأْيِكَ بِمَا
 يَطْمَئِنُّ هَلْجِي ، وَتَسْكُنَ إِلَيْهِ نَفْسِي ، وَيَأْمَنَ بِهِ رُوحِي ، فَعَلْتَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنه : لأبي الحسين بن أبي البغل .

نُبُو الطَّرْفِ مِنَ الْوَزِيرِ دَلِيلٌ عَلَى تَغْيِيرِ الْحَالِ عِنْدَهُ ، وَالْجَفَاءُ مِنْ عَوْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ مِنْهُ
 شَدِيدٌ ، وَقَدْ أَسْتَدَلَّتْ بِإِزَالَةِ الْوَزِيرِ إِيَّائِيَ النَّحْلَ الَّذِي كَانَ نَحْلَانِي بِتَطَوُّلِهِ ، عَلَى مَا
 سُوِّتَ لَهُ ظَنًّا بِنَفْسِي ، وَمَا أَخَافُ عَثْبًا : لِأَنِّي لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا ، فَإِنْ رَأَى الْوَزِيرُ أَنَّ
 يَقُومَنِي لِنَفْسِي ، وَيَدُلَّنِي عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنِّي ، فَعَلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنه : لأبي الربيع .

أَصْدَقُ الْمَقَالِ ، مَا حَقَّقَهُ الْفَعَالُ ، وَأَفْضَلُ الْخَبَرِ ، مَا صَدَّقَهُ الْأَثَرُ .

ومنه : لِمَوْلَانَا سِيرَةٍ فِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ مَا أَمَلَهَا أَمَلٌ إِلَّا جَادَتْ وَسَخَتْ
 وَمَنْحَتْ ، وَعَوَائِدُ فِي الْعَفْوِ مَارَجَاهَا رَاجٍ إِلَّا صَفَحَتْ وَسَمَحَتْ ، وَأَحَقُّ مَنْ تَلَقَّاهُ
 عِنْدَ الْعِتَارِ ، بِالْإِقَالَةِ وَالْإِغْتِفَارِ ، وَوَقَّفَ بِهِ عِنْدَ حَدِّ التَّقْوِيمِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَلَمْ يُعْرِضْهُ

لنقيصة الإقضاء والإطراح، مَنْ شَفَعَ الْهَفْوَةَ بِالْإِعْتِذَارِ، وَخَطَبَ التَّعَمُّدَ بِلِسَانِ
الْإِفْرَارِ؛ وَدَلَّتِ التَّجَارِبُ مِنْهُ عَلَى حَسْمِ الْأَضْرَارِ؛ وَكَانَ لَهُ مِنْ سَالِفِ الْخِدْمِ وَسَائِلُ
وَذَرَائِعُ، وَمِنْ صَحِيحِ الْإِخْلَاصِ مُمَهَّدٌ وَشَافِعٌ؛ فَلَا عَجَبَ أَنَّ الْمَمْلُوكَ يَهْفُو فَيَعْفُو،
وَيَظْلِمُ فَيَكْظِمُ، وَيَجْهَلُ فَيَحْلُمُ، وَيُخْطِئُ فَيُصِيبُ، وَيَدْعُو مُتَنَصِّلًا فَيُجِيبُ؛ وَقَدْ جَعَلَ
اللَّهُ سَهْمَهُ الْمَعْلَى، وَيَدَهُ الطَّوْلَى، وَأَلْهَمَهُ التَّفَضُّلَ بِالْإِنْعَامِ، وَالتَّغْمِيزَ عَنْ زَلَّاتِ
الْكَرَامِ؛ وَقَدْ حَصَلَ لِلْمَمْلُوكِ فِي هَذِهِ النَّبُوءَةِ مِنْ إِزْرَائِهِ عَلَى عَقْلِهِ، وَتَقْيِيحِهِ لِفِعْلِهِ؛
أَعْظَمُ تَجْرِبَةٍ، وَأَكْبَرُ مَادَّةٍ؛ وَالْمَمْلُوكُ يَسْأَلُ إِحْسَانَ سَيِّدِي أَنْ يُعِيدَهُ إِلَى رِضَاهِ
وَلُطْفِهِ، وَيُؤْنِسَ مِنْهُ مَسْتَوْحِشَ إِقْبَالِهِ وَعَظْفِهِ؛ وَيَصَدِّقَ رَجَاءَهُ فِيهِ، وَيُجِزِلَ
ثَوَابَ وَقَادَتِهِ عَلَيْهِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

رقعة : الْمَمْلُوكُ يُخْطَبُ صَفَحَ سَيِّدِهِ وَإِقَالَتَهُ بِلِسَانِ الْاِغْتِفَارِ، وَيَسْتَعِيدُ
مَاعَرَفَ مِنْ رِضَاهِ وَعَاطِفَتِهِ بِوَسَائِلِ الْاِغْتِذَارِ: لِيَكُونَ الْمُتَفَضَّلُ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ،
وَالْمُنْعَمَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ؛ وَقَدْ عَرَفَ السُّهُوَ وَالنَّسْيَانَ، الْمُعْتَرِضِينَ لِلْإِنْسَانِ؛ وَأَنْهَمَا
يَحُولَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ، وَيُزَوِّرَانِ عَلَيْهِ خَطَاةَ فِي صُورَةِ صَوَابِهِ؛ فَيَتَوَرَّطُ فِي السَّقَطِ
غَيْرَ عَامِدٍ، وَيَتَهَوَّرُ فِي الْغَلَطِ غَيْرَ قَاصِدٍ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ
فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْاِيْمَانَ﴾. وَمَا أَوْلَى مُوَلَانَا بِأَنْ يُحَفَظَ
عَلَى الْمَمْلُوكِ جَمِيلَ آرَائِهِ، وَلَا يَسْلُبَهُ مَا شَبَّهَ مِنْ ظِلِّ آلَانِهِ؛ وَلَا يَسِمَهُ بِمِسْمِ الْعُقُوقِ
فَإِنَّهُ يَجِدُ نَفْسَهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ فِي طَاعَتِهِ، وَمُرْتَبَتِهَا بِغَيْرِ هَذِهِ الرِّتَبَةِ فِي خِدْمَتِهِ.

فصل : وَقَدْ آوَى سَيِّدِي الْمَمْلُوكَ مِنْ ظِلِّهِ، وَأَعْلَقَهُ مِنْ حَبْلِهِ، وَأَسْنَعَ عَلَيْهِ
مِنْ فَضْلِهِ، مَا أَنْصَفَهُ بِهِ مِنَ الزَّمَانِ، وَأَغْنَاهُ عَنِ الْإِخْوَانِ، وَوَقَّفَ رَغْبَاتِهِ عَلَيْهِ،
وَصَرَفَ آمَالَهُ إِلَيْهِ، وَنَزَّلَهُ مَنَزَلَةً مَنْ لَا يَشْكُ فِي أَعْتِقَادِهِ، وَلَا يَسْتَرِيبُ بِوَدَادِهِ؛ وَكَانَ

المملوك أرسل لفظاً على سبيل الإشفاق ذهب به الحاسد إلى غير معناه ، وخالف في تفسيره حقيقة مغزاه ، وأحاله عن نيته ، وعرضه عليه على غير صورته : ليوحش محل المملوك المانوس من رعايته ، وينقر سر به المطمئن بملاحظته وعنايته ، وقد أرسل المملوك هذه العبودية سائلاً في نحو إظلام موجدته ، وأن يعيد المملوك إلى مكانه من حضرته ، إن شاء الله تعالى .



لا أتوسل إليك إلا بك ، ولا آتيك إلا من بابك ، ولا أستشفع إليك بسواك ، ولا أكل رجعة هোক إلا إلى هোক ، ولا أنتظر إلا عطفتك التي لا تقودها زحارف الأموال ، ولا تعيدها شفاعات الرجال :

إذا أنت لم تعطفك إلاشفاعة * فلا خير في ود يكون بشافع

شعر في معنى ذلك :

هبنى تحطيت إلى زلة * ولم أكن اذنبت فيما مضى !
أليس لي من قبلها خدمة * توجب لي منك سبيل الرضى !

غيره :

وحقك ما هجرتك من ملال * ولا أعرضت إلا خوف مقت !
لأن طبائع الإنسان ليست * على وفق الإرادة ككل وقت !

اعتماد عن التأخر ، من ترسل أبى الحسين بن سعد .

إن لم يكن في تأخرى عنك عذر تقبله ، فاجعله ذنباً تغفره .

على بن خلف :

الأعذار - أطل الله بقاء سيدي - تنأى على الامتناع ، ونضيق على الاتساع ؛
وذلك بحسب ما نصادفه من قبول ورد ، ومساحة ونقد ؛ وأنا أحمد الله على أن
جعل عذري إلى من يتمحل العذر للعذر ، ويصفح صفح المالك المقتدر ، كما
اتم بقول الشاعر :

إذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالاً لزلة عذرا

ولم يجعله إلى من يغلب هاجس الظنون ، على واضح الحجة ، ومعتل الشك على
صحيح اليقين . ومي إلى أن غابط المكنى من حضرة ، حسدني على محلي من
مودته ، وزور ما ينكشف عن الإفك والبهتان ، ودلس الكذب في صورة البرهان ؛
فلما جلاه في معارض زخارفه أظهر لسيدى عواره ، وأبدى لطرفه شواره ؛ فسل^(١)
سمعه عن وعيه ، وطرف طرفه عن رعيه ؛ وأستم علائم شيمته ، في حسن الظن
بأحبه ؛ فقدمت من الاعتذار ما يقدمه المذنب نزولا على طاعته ، وتأدبا في خدمته ،
وشفاعة من الشكر بما يقتضيه إحسانه ويوجهه .

أبو الفرج البيهقي :

أحق المعاذير بالتقبل وأولها بسعة القلوب ما صدر عن استكانة الأقدار ، ودل
على حسم مواد الأضرار ، وصفا من كدر الاحتجاجات ، وتنزه عن تمحل الشبهات ؛
ليخلص به ملك العفو ، وتكامل نعمة التجاوز . ولست أكره شرف تأديبه ، ونبل
تثقيفه وتهذيبه ؛ ما لم يتجاوز في العقوبة والتقويم إلى مؤلم الإعراض ، ومضيق

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ إليه .

التنكر والإيقباض ؛ ولا أخطبُ الإقالة من تفضله إلا بلسان الثقة وشافع الخدمة ،
 هارباً إلى سعة كرمه مما دفعني المحبة إليه ، وأشفى بي عدم التوفيق عليه ؛ فإن رأى أن
 يكون عند أحسن ظني به في الصّفح ، كما هو عند أصدق أمل في الإينعام ، فعَل .
 وله في مثله :

ليس يَحُلُو الإغراق في التنصّل والمبالغة في الاعتذار من إقامة الحجّة ، أو تمسك
 باعتراض شبهة ، وأنا أجل ما أخطبه من عظيم عفوه ، وأكبر ما أحاوله من نعمة
 تجاوزه ؛ عن المقابلة بعين الاعتراف بالزلل وبعد الإستحقاق من الصّفح ، ما لم يُوجِب
 لي بسعة تأوُّله ، ويعدّ عليّ فيه بعاتات تفضله : لتصفو منه الأعضاء ، وتزمني
 واجبات الشكر والثناء ؛ غير ممتنع مع ذلك من التبرّي إليه مما أنكره من تجاوز السهو
 إلى العمل ، والتوجه إلى ما فرط بالاختيار والقصد اللذين يغفر بتجنّبهما مذموم
 الأفعال ، ويتعمد سيّئ الأعمال ؛ فإن رأى أن يحلّ امرئ فيما قصدتني الأيام بتوجه
 الظنون فيه على غير النية لظاهر الفعل ، إذ كانت صفات الإنسان بالأشهر من
 أخلاقه والأكثر من أفعاله ، ولا صفة لي أعرف بها وأنسب إليها غير الاعتراف
 بإنعامه ، والتطاول من اصطناعه ، أخذاً من كلّ حال بالفضل ، ومشفعاً بسطة
 الرياسة والتبّل .

وله في مثله :

لست أخلو في المدة التي تجاوز الدهر لي عنها في خدمته من توصّل بفرط
 الاجتهاد ، إلى ما وصل من رأيه إلى رتبة التقبّل والإحماد ؛ وليس يحبط ما أتيتّه من
 مرضى الخدمة بالنية والعمد بما لعله فرط من غير مُراد ؛ إذ كان - أيده الله بفائض

طَوَّلَهُ ، وَمَأْتُورَ فَضْلِهِ - أَخْذًا مِنْ آدَابِ اللَّهِ بِمَا أَحَاكَمَهُ مِنْهُ : ^(١) ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ﴾ . و [لو] لَا يُبْثَرُ عَلَى مَفْتَرَضِ الطَّاعَةِ وَاسْتِكَانَةِ الْإِعْتِدَادِ ؛ وَأَنْ لَا أُخْطَبَ
رِضَاهُ بِلِسَانِ الْإِحْتِجَاجِ ، وَلَا أُلْتَمَسَ عَفْوُهُ بِوُجُوبِ الْإِسْتِحْقَاقِ : لِتَسْلَمَ لَهُ صِفَاتُ
التَّفَضُّلِ ، وَلِي مَوَاتُ الْإِعْتِرَافِ بِسَالِفِ التَّطَوُّلِ ؛ لِتَرْهَنْتُ عَلَى سَلَامَتِي مِمَّا قُصِرَ عَلَى
بِتَوَجُّهِ الظُّنُونِ وَاعْتِرَاضِ الْأَوْهَامِ ؛ وَلَا أَقُولُ بِشَعَثِ النِّيْسَةِ وَفَسَادِ الرَّأْيِ ؛ فَإِنْ رَأَى
أَنْ يَحْفَظَ مَا أَبْتَدَأَهُ مُخْتَارًا مِنْ أَصْطِنَاعِي بِمَا يَصُونُهُ عَنِ التَّنَكُّرِ ، وَيَصُونُ عَادَتِي
فِي شُكْرِ ذَلِكَ وَالْإِعْتِدَادِ بِهِ عَنِ الْفُتُورِ وَالتَّغْيِيرِ ، فَعَلَ .

أَجْوِبَةُ الْأَسْتِرْضَاءِ وَالْإِسْتِعْطَافِ

قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : لَا يَخْلُو الْمَعْتَذِرُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَقْبَلَ
الْعُذْرَ ، وَالْآخَرُ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى الْمَوْجِدَةِ وَيَرْفُضَ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ حُجَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ قَدْ قَبِلَ
الْعُذْرَ ، وَجَبَ أَنْ يَبْنِيَ الْجَوَابُ عَلَى وُصُولِ الْكِتَابِ ، وَالْوُقُوفِ عَلَيْهِ ، وَالتَّاقِبِلِ لِمَا
تَضَمَّنَهُ ، وَتَبَرُّئِ الْمَعْتَذِرِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الْإِعْتِذَارِ ، وَالْإِقْيَادِ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْجُرْمِ
وَالْإِقْرَارِ ، إِكْرَامًا لِحُلَّتِهِ عَنِ التَّهْمَةِ ، وَلِوُدِّهِ عَنِ الظَّنِّ : فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أَوْجَبَ
الْعُذْرَ لَوْ صَدَرَ مِنْهُ ، لَا قُضِيَ وَدَادُهُ التَّأَوُّلُ لَهُ بِأَنَّهُ مَا صَدَرَ إِلَّا عَنْ بَاطِنٍ سَلِيمٍ
وَمُصْلِحَةٍ أَوْجَبَتْهُ . قَالَ : وَلَيْسَ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي يُجَابُ بِهِ مَنْ قَبِلَ عُذْرَهُ
فَقَطْ : لِأَنَّهُ يَحْجُزُ أَنْ يُجِيبَ بِأَنَّهُ قَدْ قَبِلَ الْعُذْرَ ، وَصَفَحَ عَنِ الْجُرْمِ ، عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ
إِلَى مِثْلِهِ . وَإِنْ أَسْتَمِرَّ عَلَى الْقَصْدِ ^(٢) ، بَنَى الْجَوَابُ عَلَى إِبْطَالِ الْعُذْرِ وَمَعَارَضَتِهِ بِمَا

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَّهُ « إِلَيْهِ » .

(٢) فِي الْأَصُولِ « وَلَا يُبْثَرُ عَلَى مَفْتَرَضِ ... لَا أُخْطَبُ الْخ » .

(٣) أَيْ قَصْدَ الْبَصَدَةِ وَفِي عَلَى هَجْرِهِ وَلَمْ يَقْبَلِ الْإِعْتِذَارَ .

يقتضيه ؛ والدلالة على خطئ المعتذر ، وأنه مما لا يسوغُ الصَّفْحُ عنه ، ولا يليق بالْحَزْمِ إِقَالَته .

قال : وهذان معنيان يَجْمَلان من العبارة ما لا يكادُ يَحْصُرُ في قول مشروح مبسوط ؛ فضلا عن قولٍ مجملٍ مُوجِزٍ ، إلَّا أن المتدرب بالصناعة إذا مرَّت به هذه الأصول أمكنه التفرُّعُ عليها .

النوع العاشر

(في الشكوى - أعاذنا الله تعالى منها)

قال في "موادّ البيان" : رِقَاعُ الشَّكْوَى - عَصَمَنَا الله من مُوجِبَاتِهَا - يجبُ أن تكون مَبْنِيَّةً من صِفَةِ الحَالِ المُشْكِيَةِ ، على ما يُوجب المشاركة فيها وَيُقْضَى بالمُسَاعَدَةِ إن أَسْتُدْعِيَتْ عليها ، من غير إغراقٍ يُقْضَى إلى تَطْلِيمِ الأَقْدَارِ وإِحْبَاطِ الأَجْرِ ، وشكوى المبتلي بالخير والشرِّ سبحانه وتعالى ، ويدلُّ على التهلك بالْجَزَعِ ، وضعف التماسك وقُوَّةُ الهَلَعِ ؛ بِاسْتِيْلَاءِ القُنُوطِ والإيَّاسِ ، وأن يَشْفَعَ الشَّكْوَى بِذِكْرِ الثِّقَةِ بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرِّضَا بأحكامه ، وتوقُّعُ الفَرَجِ من عنده ، وتلقُّ آخِْبَارِهِ بالصبر ، كما تتلقَّى نعمه بالشكر ، ونحو هذا مما يليق به ويجرى مجراه . قال : وقد يَكْتُبُ الأَتْبَاعُ للرُّؤَسَاءِ رِقَاعاً بِشِكَايَةِ الأحوال ومساءلة النظر ؛ ثم ذكر أن سبيل هذه الرِّقَاعِ أن يُعَدَّلَ بها عن التصريح بالشَّكْوَى إلى لَفْظِ الشُّكْرِ ومعناه ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنظرَاءِ في الإحسان : لما في إطلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمه النظرُ فيه من أحوال خاصتهم وتعهد مرافقهم من الكفاية .

وهذه نسخ من ذلك :

رقعة شكوى هموم :

كتب المملوك هذا الكتاب وهو رهين فكرٍ وغمٍّ ، وقلبي وهمٍّ ، وحليف جوى قد سكن القلب ، وخوفي قد أطار اللب ، والله العباد ، وهو الملائد ؛ ويده تحل العُقد ، وبأمره تزول الشد ؛ وقد ألهم الله سبحانه المملوك صبرا يسر أمره ، وأملا في الفرج خفف ضره ؛ وليس بأئس من عطفته ، ولا قانط من نعمته .

رقعة في معنى ذلك :

كتب المملوك وهو شاك لتجاهل الأيام ، وقيد من مواقع سهامها الرغية الكلام ؛ منهم بهموم تضعف الجليد ، وتسوء الوديد ، وتسر الحسود ، لاق من قسوة الدهر وفظاظته ، ونبوة العيش ونفرتة ، ما يرد الجفون عن الهجوع ، ويفرق العيون بالدموع ، والله تعالى في عبادته أفضية يقضيها ، وأقدار يمضيها ؛ والله أسأل حسن العاقبة والختام ، وتمحيص الأوزار والآثام .

رقعة : كتب المملوك وجسمه صحيح ، وقلبه قريح ، وجنانه سليم ، وجنابه سقيم : لما يتبادر إليه من نكايات تفدح وتقرح ، وحادثات تكلم وتجرح ؛ ونوب تهض ، وتهدم وترض ، وخطوب تخاطب شفاها ، وتوصل من اليد إلى اليد أذاها ؛ إلا أن الله يهب ريح المنح ، وقد تداكت المحن فينشفها ، ويشق عمود الفرج ؛ وقد أدلهمت فيكشفها ؛ وظن المملوك بالله تعالى جميل ، وله في صنعه ولطفه تأميل .

رقعة : وينهى أنه قد كتب هذه العبودية بيد قد أعرشتها الآلام ، يملئ عليها قلب قد قلبته الأسقام ؛ فحسمه ناكل ، وجسده بعد النضرة قاحل ؛ وقواه قد

وَهَنَتْ ، وَجَلَادُتُهُ قَدْ وَهَتْ ؛ وَصَبْرُهُ قَدْ تَحَلَّى وَأَضْطَرَبَ ، وَتَحْمَلُهُ قَدْ نَأَى وَأَقْتَرَبَ ؛
وَعَادَ شَبَحًا مِنَ الْأَشْبَاحِ ، وَهَبَاءَ تَذَرُوهُ الرِّيحَ ؛ فَلَوْ أَعْتَلَقَ بِشَعْرَةٍ لَمْ تَتَصَرِّمْ ، أَوْ وُلِجَ
نَحْرَتْ إِبْرَةٍ خَيَاطٍ لَمْ تَتَفَصِّمْ ؛ وَلَوْلَا الثَّقَةُ بِاللَّهِ وَأَنَّهُ يُتَّبِعُ السُّقْمَ بِالصَّحَّةِ ، وَيُسْفَعُ الْحِمْنَةُ
بِالْمِنْحَةِ ؛ لَذَهَبَ مَا بَقِيَ مِنْ ذِمَّائِهِ ، وَأُطْلِيَ عَلَى شَفَا شَقَائِهِ ؛ وَالْمَمْلُوكُ يَسْتَشْرِفُ مِنْهُ
تَعَالَى لُطْفًا يُعِيدُ الْكَالِيلَ حَدِيدًا ، وَالْمُخْلَقَ جَدِيدًا .

رقعة : وَيُنْهَى أَنَّهُ قَدْ كَتَبَ هَذِهِ الرُّقْعَةَ ، وَقَدْ سَاءَ أَثَرُ الْأَيَّامِ عَلَيْهِ ، وَقُبِحَ
صُنْعُهَا لَدَيْهِ ؛ وَأَبْتَلَتْهُ بِمَوْلِمِ الْبَلْوَى ، وَأَنْطَقَتْهُ بِلِسَانِ الشَّكْوَى ؛ فَهُوَ مُحْتَرِّقٌ بِنَارِ الْغَيْظِ ،
يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالْفَيْظِ ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ فَرَجٌ يَفْرُجُ بَيْنَ الْأَضْدَادِ ، وَلُطْفٌ يُرِيحُ مِنْ هَذَا
الْجِهَادِ ؛ وَكُلَّمَا طَلَبَ الْمَزَايِلَةَ عَوَّقَ ، أَوْ طَلَبَ الْفِكَالَكَ أَعْتَلَقَ ؛ فَهُوَ قَاطِنٌ فِي صُورَةِ
الظَّاعِنِ ، وَحَالٌ فِي حَالِ الرَّاحِلِ ، وَاللَّهُ يَمُنُّ بِالْمَخْرَجِ ، وَيَأْتِي بِالْفَرَجِ .

رقعة : وَقَدْ سَطَّرَ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةَ ، وَقَدْ أَنْجَلَتْ هَذِهِ النَّبُوَّةَ ، عَنِ الْبَلَاءِ
وَالشَّقْوَةِ ، وَنَفَادِ الْمَالِ ، وَاسْتِحَالَةِ الْحَالِ ، وَاسْتِيلَاءِ الْعُدُوِّ ، وَاسْتِعْلَاءِ السُّوءِ ، وَكَذَا
الدَّهْرِ خَدُوعِ غُرُورِ ، خُثُونِ غَدُورِ ؛ إِنْ وَهَبَ آرْتَجِعَ ، وَإِنْ أَلْبَسَ آتَرَعَ ؛ وَإِنْ
أَعْطَى أَعْطَى قَلِيلًا وَقَلَعَ ؛ وَإِنْ أَحْلَى أَمَرَ ، وَإِنْ تَفَعَّ ضَرَّ ؛ وَإِنْ أَبْرَمَ نَقَضَ ، وَإِنْ
رَفَعَ خَفَضَ ؛ وَإِنْ أَقْبَلَ أَعْرَضَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَمْرَضَ ؛ فَنِعْمَهُ مَقْرُونُهُ بِالزُّوَالِ ،
وَمِنْحُهُ مَعْرَضَةٌ لِلْإِنْتِقَالِ ؛ وَصِفْوُهُ مَشُوبٌ بِالْكَدَرِ ، وَعَيْشُهُ مَمْرُوجٌ بِالْغَيْرِ ؛ مَا أَجَنَّ
إِلَّا أَوْجَدَ خَلَلًا ، وَلَا أَمَّنَ إِلَّا أَتْبَعَ الْأَمْنَ جَلَلًا ؛ وَالْمَمْلُوكُ يُحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنْ أَوْسَعَهُ
فِي حَالِ الْبَلَاءِ شُكْرًا ، وَفِي حَالِ الْإِبْتِلَاءِ صَبْرًا .

أجوبة رِقَاع الشُّكُوى

قال في "موادّ البيان" : يجبُ أن تبنى أجوبةُ هذه الرِّقَاعِ على الارتِمَاضِ في الحالِ المُشكِيةِ ، والتوجُّعِ منها ، وبذَلِ الوُسْعِ في المعونةِ عليها ، والمشاركةِ فيها ، وما يجري هذا المجرى مما يليقُ به .

النوع الحادى عشر

(فى أَسْتِمَاحَةِ الحَوَائِجِ)

قال فى "موادّ البيان" : ورقاعُ الأَسْتِمَاحَةِ يُختارُ أن تكونَ مُودَعَةً من الألفاظِ ما يُحرِّكُ قُوَى السَّماحِ ، ويبعثُ دَواعِيَ الارتِياحِ ؛ ويُوجبُ حُرْمَةَ الفضلِ المُسَهِّلَةِ بذَلِ المالِ الصَّعبِ بذَله ، إلّا على من وَفَّرَ اللهُ مُرُوءَتَه ، وأرخصَ عليه أَثْمَانُ المَحامِدِ وإن غَلَتْ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطفَ فيها التلطُّفَ الذى يعودُ بِبَجاحِ المَرَامِ ، ويؤمنُ من الحُصُولِ على إِرَاقَةِ [ماء] الوجهِ ، والخِيبَةِ بالردِّ عن البُغْيَةِ ، ويعدِلَ عن التثْقيلِ والإلحافِ المُضْجِرِّينَ ولا يَضِيقُ العُدْرَ على السَّماحِ إلّا أن يَتِمَكَّنَ للثقةِ به ، ويعلمَ المشاركةَ فى الحالِ .

وهذه نسخٌ من ذلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أَفْضَلُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ ، وَأَهْنَى المَعْرُوفِ أَعْجَلُهُ ، وَأَبْلَغُ الشُّكْرِ أَظْهَرُهُ .

ومنه : إن حضرتك نية في قضاء حاجة فعملها ، فإن أهني المعروف ما عجل ، وأنكده ما تنازعه العليل ، وأعرضته كثرة الاقتضاء .

ومنه : أنت أعزك الله واجد السبيل إلى أصطناع المعروف واكتساب الثواب ، وأنت أعرف بما في استنقاذ أسير من أسرى المسلمين ، من وارد الأسر ، وعرصه الكفر ، وأنتأشيه من الذلة والفاقة ، والبلاء والمشقة ، من جزيل ثواب الله وكريم جزائه [وأجل] من أن تحاطب في ذلك مخاطبة من يحتاج إلى زيادة في بصيرته ، وتقوية لنيته ، وبالله توفيقك وعونك .

على بن خلف :

قد تمسك أمني بزمانك ، وتطلع رجائي إلى إحسانك ، وكفل لي النجاح مشهور كرمك ، ورغبتك في رب نعيمك ، ولي من فضلك نسيب أعترى إليه ، ومن شكرك شفع أعتمد عليه .

وله : المواعيد أطال الله بقاء مولاى - غروس ، حلو ثمرها الإنجاز والتعجيل ، وممره المطل والتطويل ، وقد شام أمني من سحاب فضله ، حقيقاً بأن ينهر ويهيم ، وأرتاد من روض نبيله ، جديراً بأن يزيد وينمي ، فإن كانت هذه المخيلة صادقة ، فلتكن منه همة للرجاء محققه ، إن شاء الله تعالى .

وله : هممت أن أستصحب إلى مولاى ذريعة تحجب مطلى ، وتكون حجاباً على وجهي في المطالعة بأربي ، فلاح لي من أساريه برق أوضع مقصدي ، ومن أخلاقه أنبساط أمال تجعدي ، ولست مع معرفته بحق نعمة الله تعالى وحق مؤمله ، محتاجاً عنده إلى ذريعة ولا مفتقراً إلى وسيلة .

(١)
وله : ولا يَجْنِي مَوْلَايَ عَلَى ظَاهِرٍ تَجَلَّى ، وَجَمِيلٍ تَوَكَّلَى ، عَلَى حَالٍ قَدْ أَحَالَتَهَا
الْعُطْلَةُ ، وَتَخَلَّتْهَا الْخَلَّةُ ؛ وَإِنَّمَا أَتَيْتُ بِالتَّجَمُّلِ عَلَى دِيَابَجَةِ هَمَّتِي ، وَأَصُونُ بِالتَّخْفِيفِ
عَنِ الصَّدِيقِ مُرُوتِي ؛ وَلَوْلَا أَنَّ الشَّكْوَى تَخَفَّفَ مَتَحَمِّلُ الْبَلْوَى ، لَأَضْرَبْتُ
عَنْ مُسَاءَلَتِهِ ، وَأَمْسَكْتُ عَنْ تَذْكِرِهِ ، وَلَكِنْ لَا بَدَّ لِلْوَصِيبِ الشَّاكِي ، مِنْ ذِكْرِ حَالِهِ
لِلطَّيِّبِ الشَّافِي ؛ وَقَدْ كَانَ بَرَقَ لِي مِنْ سَحَابٍ وَعَدَهُ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِالْإِنْهَامَارِ ، وَأُورِقَ
مِنْ نَمَاتِهِ مَا هُوَ حَقِيقٌ بِالْإِنْهَامَارِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يَسِمَ وَجْهَهُ التَّأْمِيلُ ، بَعْدَ الْإِنْجَازِ
وَالْتَعَجِيلِ ، فَعَل .

وله : مَا حَامَتِ آمَالِي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - إِلَّا وَقَعْتُ بِحَضْرَتِهِ ، وَلَا صَعُبَتْ عَلَيَّ
جَوَانِبُ الرِّجَاءِ إِلَّا سَهَلْتُ مِنْ جِهَتِهِ ؛ وَلَا كَذَّبَتْنِي الظُّنُونُ إِلَّا صَدَقَهَا بَعْلُوهُمَّتِي ؛
فَلَذَلِكَ أَعْتَلَقُ فِي الْمُهَمِّ بِجَبَلِهِ ، وَأَعْتَصِمُ فِي الْمَلَمِّ بِظِلِّهِ ؛ وَقَدْ عَرَضَ لِي كَذَا وَعَلَيْهِ فِيهِ
الْمُعَوَّلُ ، وَهُوَ الْمَرْجُوُّ وَالْمُؤْمَلُ ؛ وَمَا أَوْلَاهُ بِالْجَرِيِّ عَلَى عَادَتِهِ فِي رَيْشِ جَنَاحِي ، وَالْمُعَوَّنَةُ
عَلَى صَلَاحِي .

في طلب كسوة ، من كلام المتأخرين :

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي نَهَرُ جُودِهِ * يَزِيدُ وَعَاصِي أَمْرِهِ الدَّهْرَ يَنْقُصُ !
إِلَيْكَ أَشْتَكِي مِنْ دِمَشْقَ وَبَرْدَهَا * وَمَا أَنَا فِيهِ مِنْ أُمُورٍ تُنْغِصُ !
وإِنِّي فِي عُرْسٍ مِنَ الْبَرْدِ دَائِمٍ * تُصَفِّقُ أَسْنَانِي وَقَلْبِي يَرْقُصُ !

الْمَمْلُوكُ يُنْهِى بَعْدَ الْإِثْبَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي إِدَامَةِ نِعْمَتِهِ ، وَإِدَالَةِ دَوْلَتِهِ ،
أَنَّهُ مَا أَلْفَ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَّا أَنَّهُ يُضَاعِفُ رِسْمَ الْإِنْعَامِ ، وَيُؤَاتِرُ إِرْسَالَهُ عَلَى مَمَرِّ الْأَيَّامِ
وَالْأَعْوَامِ ؛ وَلِلْمَمْلُوكِ فِي خِزَانَتِهِ الشَّرِيفَةِ فِي كُلِّ عَامٍ تَشْرِيفٌ يُفِيضُهُ عَلَى جَسَدِهِ ،

وَيُسِّرْ بِهِ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ وَيُقِثُّ أَبْكَادَ حُسَدَاهُ، وَيَتَّقِ بِهِ سَوْرَةَ الشِّتَاءِ وَقَرَّهُ، وَيَجْعَلَهُ قُرَّةً وَيُجِلُّ بِهِ مِنَ الدَّعَةِ وَقَرَّهُ، وَقَدْ دَرَسَ رَسْمُهُ، وَفَقَدَ مِنَ الدِّيَوَانِ المَعْمُورِ أَسْمُهُ، وَهُوَ يَسْأَلُ بِرُوزِ الأَمْرِ العَالِي بِإِجْرَائِهِ عَلَى عَادَتِهِ المَسْتَمَرَّةِ، وَقَاعِدَتِهِ السَّالِفَةِ المَسْتَقَرَّةِ؛ بِتَشْرِيفِهِ بِأَخْذِ التَّشْرِيفِ وَلُبْسِهِ : لِيُدْفَعَ بِذَلِكَ شِدَّةَ البَرْدِ وَأَلِيمَ مَسِّهِ، وَيَتَذَكَّرَ بِهَا فِي يَوْمِهِ مَا يُوجِبُ حَمْدَ المَوْلَى وَذَمَّ أَمْسِهِ، وَرَأْيَهُ العَالِي .

وله في طلب ورق :

يَا أَسْمَحَ النَّاسِ وَيَا مَنْ غَدَا * جَبِينُهُ يُجِلُّ ضَوْءَ الشَّفَقِ !
جُودُكَ بِالْوَرَقِ عَمِيمٌ ^(١) [فَلِمَ] * أَخَّرْتَ يَا مَوْلَايَ بَعَثَ الْوَرَقَ ؟

وله في طلب رَسْم :

رَسْمِي يَا مَوْلَايَ غَدَا * مُؤَخَّرًا وَلَوْ حَضَرَ !
وَأَسُو أَرَادَ سَيِّدِي * إِحْضَارَهُ، كَانَ أَمْرًا !
فَقَدْ مَضَى مُحَرَّمٌ * وَرَاحَتِي مِنْهُ صَفَرًا !

وكتب كاتبٌ إِلَى مُحَمَّدُومِهِ، وَقَدْ تَأَخَّرَ صَرْفُ مَعْلُومِهِ :

وَتَعْلَمُ أَنِّي كَثِيرُ الْعِيَالِ * قَلِيلُ الْجِرَايَةِ وَالْوَاجِبِ !
فَلَسْتُ عَلَى ظِلْمٍ قَانِعًا * بِوَرْدٍ مِنَ الْوَشْلِ النَّاضِبِ !
وَلَا شَنْكَ فِي أَنِّي هَارِبٌ * [فَ] قَدَّرَ لِنَفْسِكَ فِي كَاتِبٍ !

(١) الورق مثله وككتف وجبل الدراهم المضروبة اهـ من القاموس .

قلت : وكتبتُ نظماً لأُمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس : خليفة العصر؛ أَسْتَمِجِهَ حَاجَةً فِي مَجْلِسٍ كَانَ فِيهِ هُوَ وَوَلَدُهُ يَحْيَى وَأَخَوَاهُ دَاوُدُ وَيَعْقُوبُ مَاصُورَتُهُ :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْطَى بَنِيْلَ مَارِپٍ * فَبَادِرْ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ آلِ عِيَّاسِ !
إِمَامٌ بِهِ تَفَرُّ الْخِلَافَةِ بِاسْمٍ * وَعِزُّ نِيْهَا يَسْمُو عَلَى قِيَّةِ الرَّاسِ !
أَبِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِأَهْلِهِ * [دَوَامًا] وَأَنْ يُدْعَى أَبَا الْفَضْلِ فِي النَّاسِ !
فَالْمُسْتَعِينَ أَقْصَدُ تَجِدُ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حَرِيصٌ عَلَى الْمَعْرُوفِ بَرٌّ بِإِيْنَاسِ !
فِيَحْيَا لَهُ يَحْيَى وَدَاوُدُ صَنُوهُ * وَيَعْقُوبُ أَعْضَادًا وَحَصْنًا مِنَ الْبَاسِ !



وكتبت لقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عمر البلقيني أَسْتَمِجِهَ حَاجَةً أَيْضًا :

أَيَا شَيْخَ إِسْلَامٍ وَقَاضِيَ قَضَايَتِهِ * وَمَنْ قَدَّ سَمَا فِي النَّاسِ عَلَمًا وَمَنْصِبًا !
لَقَدْ عَمَّ نَوَاءُ مِنْكَ كُلِّ مُؤْمِلٍ * وَحَاشَى لِبَرْقِ شِمْتٍ يَظْهَرُ خُلْبًا !
أَأَحْرَمَ مَعْرُوفًا لَهُ كُنْتُ أَرْتَجِي * وَيَجِبُ دُوبُعْدٍ مِنَ الْقَوْمِ أَقْرَبًا !
وَمَا زِلْتُ أَرْجُو فِي زَمَانِكَ رِفْعَةً * وَلَكِنْ جَوَادُ الْحِطِّ بِالْبُعْدِ قَدْ كَبَا !
وَلَنْ يَسْتَعِضَ الْخَفِضَ بِالرَّفْعِ مَا جُدَّ * خُصُوصًا وَمَنْ أَخْرَتْ مَا نَالَ مَطْلَبًا !
وَلَسْتُ تَرَى مِنِّي إِلَيْكَ وَسِيلَةً * سِوَاكَ وَحَسْبِي بِاعْتِلَاكَ تَقَرُّبًا !



وكتبت للقاضي القضاة جمال الدين محمود القيسراني ^(١) ، وهو يومئذ قاضي قضاة
الحنفية وناظر الجيوش المنصورة ، أدرك بطالة عرّضت لي من وظيفة مباشرة
كانت بيدي :

إلى الله أشكوا من زمانى بواره * فأمسيّت في الحرمان بي يضرب المثل !
تماديت بطالا وأعوزت حيلة * ولم يبرح البطال تُعرف له الحيل !
فلا مُلتجى جاء ولا عز صاحب * ولا مالك ينو فياقوم ما العمل ؟
ولكن (محمود) العواقب أرتجى * ومن يعمد العقبي على القصد قد حصل !



وكتبت للقاضي شمس الدين العمري كاتب الدست الشريف في حاجة تجزها :
إن لا أرى عمرا حتى أليّم به * ألفت من نسله من كان لي عمرا .
لم يغف عن حاجتي حتى أنبّهه * وكيف يغفو في المعروف كم سيرا ؟
جعلته مبتدا في رفعه خبري * وعادة المبتدا أن يرفع الخبرا !

أجوبة استماعة الحوائج

قال في "مواد البيان" : لا يخلو المستراح والمكلف حاجة من أن يسعف أو يمنع ،
فإن أسعف فقد غنى عن الجواب ، وربما أجاب المسعف بجواب مبنّى على حسن
موقع أنيساط المستميع ، والاعتذار عن التقصير في حقه وإن كان قد بلغ به فوق

ما يَحِبُّ له - تَكْرُماً وتَفَضُّلاً ، وإن منع فربما أجاب بعُذْر في الوقت الحاضر أو عُذْر في المُسْتَأْنَف ؛ وربما أَخْلَّ بالِجَوَابِ تَغَافُلاً .



وهذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقْصُود ، كُتِبَ بها في جوابٍ لكَاتِبِ السِّرِّ عن نائب الشام ، في طَلَبِ إِقْطَاع ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة إجابةً للمطلوب ، وهي :

لا زال قَلَمُهَا يَمُدُّ على الإسلام ظِلًّا ظَلِيلًا ، وَيَسْتَجِدُّ صُنْعًا جَمِيلًا ، وَيَأْخُذُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَعْدَاءَ دِينِهِ أَخْذًا وَيَسِيلًا ، وَيَقُومُ بِاجْتِهَادِهِ فِي مَصَالِحِ الْمُلْكِ النَّهَارُ كُلَّهُ وَاللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ؛ تَقْيِيلُ مُوَاطِئٍ عَلَى وِلَاءٍ لَا يَجِدُّ لَهُ تَبْدِيلًا ، وَثَنًا لَوْ سَمِعَهُ الْحُبُّ فَشَافَهُ الْأَحْبَابُ إِذَا لَا تَحْدُوهُ حَالِيلًا .

وَيُنْهِى وَرُودَ مُشْرِفَةِ مَوْلَانَا الْقَدِيمِ فَضْلُهَا ، الْكَرِيمِ وَصْلُهَا وَأَصْلُهَا ؛ فَوَقَفَ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهَا ، وَأَصْنَعِيَ بِجَمَلَتِهِ إِلَيْهَا ؛ وَعَلِمَ مَارَسَمَ بِهِ مَوْلَانَا ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ تَيَانًا ؛ وَكَذَلِكَ بَلَّغَهُ مَمْلُوكُهُ الْوَلَدُ فَلَانَ الْمَشَافَهَةِ الْكَرِيمَةِ فَخَبَّدَا مِنْ صَاحِبِ السِّرِّ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا ؛ وَشَكَرَ لَهَا مُشْرِفَةً وَمَشَافَهَةً أوردَا الْإِحْسَانَ مَتْنِي مَتْنِي ، وَسِرًّا سَمِعَهُ الْمَمْلُوكُ لَفْظًا وَأَسْتَهْدَاهُ مَعْنَى ؛ فَمَا مِنْهُمَا فِي الْإِحْسَانِ إِلَّا زَائِدُهُ ، وَلَا فِي الصَّلَاتِ إِلَّا عَائِدُهُ ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ الْمَمْلُوكَ أَقْبَلَ عَلَى قَبِيلِهِمَا بِسَمْعِهِ وَنَظَرِهِ ، وَقَلْبِهِ وَخَاطِرِهِ ، وَجَمَلَتِهِ وَسَائِرِهِ ؛ وَأَمْتَلَّ الْإِشَارَةَ الْعَالِيَةَ الَّتِي مِنْ حَقِّهَا أَنْ تُقَدَّمَ عَلَى كُلِّ مِهْمٍ يَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَأَمْرٍ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ ، وَيُدَّ الزَّمَانُ مَشْكُورَةً يَأْخُذُهَا مِنْهُ بِكُلِّمَا يَدَيْهِ ؛ وَعَيْنَ الْمَمْلُوكِ لَوْقَتَهُ الْإِقْطَاعَ الْمَطْلُوبَ ، وَتَقَدَّمَ بِكَاتِبَةٍ مَرَبَّعَتِهِ حَسَبَ مَارَسَمٍ مِنْ تَجَرُّي السَّعَادَةِ مِنْ سَطْرِهِ تَحْتَ مَكْتُوبٍ ؛ وَجَهَّرَهَا قَرِينَ هَذِهِ الْخُدْمَةِ وَمَنْ ذَا يُقَارُنُ سَبْقَ ذَلِكَ الرَّاسِدِيدِ ، وَكَيْفَ تُوَازِي

الرُبْعَةُ كِتَابًا هُوَ بِالْإِحْسَانِ لِلْعُنُقِ تَقْلِيدٌ ؛ لَا بَرِحَتْ مَرَامِمْ مُوَلَانَا مَعْدُودَةٌ مِنْ رُسُومِ نِعَمِهِ ، وَمُشْرِفَاتُهُ مُحَسَّبَةٌ مِنْ تَشْرِيفَاتِهِ الَّتِي يَحْمِلُهَا عَلَى أُنْبَاءِ حَبِيئِهِ وَخَدَمِهِ .

النوع الثاني عشر

(في الشكر)

قال في "موادّ البيان" : رِقَاعُ الشُّكْرِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُودَعَةً مِنَ الْاعْتِرَافِ بِأَقْدَارِ الْمَوَاهِبِ ، وَكِفَايَةِ الْأَسْتِقْلَالِ بِحُقُوقِ النِّعَمِ ، وَالْأَضْطِلَاعِ بِحِجْلِ الْأَيْدِي ، وَالنُّهُوضِ بِأَعْبَاءِ الصَّنَائِعِ ، مَا يَسْخَذُ الْهِمَمَ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا ، وَيُوَثِّقُ الْمَصْطَلَحَ بِإِفَاضَةِ الصَّنْعِ ؛ وَيَعْرُبُ عَنْ كَرِيمِ سَجِيَّةِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ .

قال : وَيَنْبَغِي لِلكَاتِبِ أَنْ يَفْتَنَ فِيهَا ، وَيَقْرَبَ مَعَانِيهَا ، وَيَنْتَحِلَ لَهَا مِنْ أَلْفَاظِ الشُّكْرِ أَنْوَطَهَا بِالْقُلُوبِ : لِتَسْتَقِينَ نَفْسُ الْمُتَفَضِّلِ أَنَّهُ قَدْ آجَتْنِي ثَمَرَةُ تَفَضُّلِهِ ، وَحَصَلَ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى أَضْعَافٍ مَا بَدَّلَهُ مِنْ مَالِهِ أَوْ جَاهِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ صَادِرَةً مِنَ الْأَتْبَاعِ إِلَى رُؤُسَائِهِمْ ، وَمَنْ يَرْجِعُ إِلَى اخْتِصَاصٍ وَاثَرَةٍ ، أَنْ لَا تَلْتَبَنِي عَلَى الْإِغْرَاقِ فِي الشُّكْرِ : لِأَنَّ الْإِغْرَاقَ فِي الشُّكْرِ يَحْمِلُ هَذِهِ الطَّبَقَةَ عَلَى التَّمَلُّقِ الَّذِي لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْأَبَاعِدِ الَّذِينَ يَقْصِدُونَ الدَّلَالََةَ عَلَى اسْتِقْلَالِهِمْ بِحُقُوقِ مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِمْ ؛ فَأَمَّا مَنْ ضَفَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ مَا يَدْفَعُ الشُّكَّ فِي اعْتِرَافِهِ بِالذَّلِّ لَدَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَغْنَى عَنْ الْمَبَالِغَةِ فِي الشُّكْرِ وَالْإِعْتِدَادِ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَذْهَبَ فِيمَا يَكْتُبُ عَنْ هَؤُلَاءِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ مَذْهَبَ الْإِخْتِصَارِ ، وَالِإِتْيَانِ بِالْأَلْفَاظِ الْوَجِيزَةِ الْجَامِعَةِ لِمَعَانِي الشُّكْرِ ، دُونَ مَذْهَبِ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ ، وَذُو الطَّبَعِ السَّلِيمِ ، وَالْفِكْرِ الْمُسْتَقِيمِ ؛ يَكْتَفِي بِسِيرِ التَّمَثِيلِ .

وهذه نسخ من ذلك :

أبو الفرج البيهقي ، في شكر تابع لمتبوع :

أنا في شكره - أيده الله - مبرهن عن مواقع إحسانه إلى ، وتظاهر إنعامه على ،
لامقدر أني مع المبالغة والإسهاب ، والإطالة والإطناب ؛ أجازى عفوتفضله ،
ولا أجامل أيسر تطوله ؛ وقد سئني أيده الله من شرف أصطناعه ، بما بواني به
أرفع منازل خدمه وأتباعه ؛ وإلى الله أرغب في توفيق من مقابلة ذلك بالاجتهاد
في خدمته ، والمبالغة في طاعته - لما أكون به للزيد مستوحيا ، وللخطوة مستحقا .

وله في شكر قريب :

فرض الشكر - أعزك الله - لا يسقط بقرب الأنساب ، ولذلك لا أستجير إغفال
الواجب على منه ، ولا أجد عذولا في التسامح فيه والإضراب عنه ، وإن كنت
غنيا عن الإفاضة فيما أعتقده من ذلك وأضمره ، وأيديه وأظهره ؛ بالمتعلم من خلوص
النية وصحة الاعتقاد ، فلا أخلاك [الله] من جميل تسديده ، وتفضل توليه ؛ يمتري
لك المزيد من سوابغ النعم وفوائد الشكر .

وله : قد استنفدت مادة شكرى ، ووسع اعتدادي ونشري ؛ نتاج تفضلك ،
وتوالي تطورك ؛ ولست أقدر على التهوؤ بشكر منية حتى تطرقني منك منية ،
ولا أحاول مجازاة نعمة حتى تفد على منك نعمة ؛ فبأي عوارفك أعترف ، أم بأي
أياديك بالثناء أنتصف ؛ فقد فرغت إلى الإقرار بالعجز عما يلزم من فروضك ،
وواجبات حقوقك ؛ وأنصرفت إلى سؤال الله جل اسمه بإيزاعي شكر ما وهب منك ،
والتجاوز للكارم والفضل عنك .

وله : وقد شكرت بِرَّكَ الْجَلِيلِ مَوْقِعَهُ ، اللطيفَ مَوْضِعَهُ ، الخفيفَ مَحْمَلَهُ ،
العذبَ مَهْلَهُ ، وشافهتكَ من ذلك بما اتَّسَعَتْ لَهُ الْقُدْرَةُ لا ما تقتضيه حقوقُ
الْمِنَّةِ .

وله : أنا في الشكر بين نعمةٍ تُتَّقِنِي ، وعجزٍ عما يجبُ لك يُجِرْسُنِي ؛ ولسْتُ
أَفَرِّعُ إِلَى غير تجاؤركَ ، ولا أَعْتِمِدُ عَلَى غير مسامحتِكَ ؛ ولا أَتَطَوَّلُ إِلَّا بِمَكَانِي
منك ، ولا أَفَاحِرُ إِلَّا بِمَوْقِعِي من إثارك ؛ فالحمْدُ لله الذي جعلني بولائك مشهوراً ،
وفي شكرك مقصوراً .

على بن خلف :

رقعة : وينبى أن الله تعالى لما ألهم مولانا البرَّ ، ألهم المملوكَ الشُّكْرَ ؛ فهو
لا يَزَالُ يُوسِعُ في البرِّ وَيَزِيدُ ، والمملوكُ لا يَزَالُ يُبْدِي في الشكر ويُعِيدُ ، وَلَكِنْ شَتَّانَ بين
فاعلٍ وقائلٍ ، ومُعْطٍ وقابلٍ ، وواهبٍ وسائلٍ ، ورافِدٍ وحامِدٍ ، وشاكرٍ وشاكِدٍ ؛
والمملوكُ يحمَدُ الله تعالى إذ جعل يده الطُّولَى ، وحظّه الأعلى .

رقعة : وصل بِرُّ مولانا وقد أحالت الخَلَّةُ من المملوك حاله ، وأمالَتْ آماله ؛
فَلَأَمَتْ مَصَدَعَهُ الدَّهْرُ من مَرْوَتِهِ ، وَجَدَّدَتْ ما أَخْلَقَهُ من فُرُوتِهِ ، فَكَفَّ المملوكُ
يديهِ [عن] أَمْتِحَانِ الْخُلَّانِ ، وَقَبَضَ لِسَانَهُ عَنْ شِكَايَةِ الزَّمَانِ ؛ وَأَقْرَأَ ماءَ وَجْهِهِ
في قَرَارَتِهِ ، وَحَفِظَ عَلَى جَاهِهِ لِبَاسَ وَجَاهَتِهِ ؛ فَيَالَهُ من بَرُّوقِ من الْفَقْرِ ، مَوْقِعَ
الْقَطْرِ من الْفَقْرِ ؛ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ من قَدَامَةِ الْوَعْدِ ، ما يَتَقَدَّمُ الْقَطَرُ من جَهَامَةِ الرَّعْدِ ؛
وَكُلُّ مَعْرُوفٍ وَإِنْ فَاضَتْ يَنَابِيعُهُ ، وَطَالَتْ فُرُوعُهُ ، قَاصِرٌ عَنِ الْأَمَلِ في كَرَمِهِ ،
وَاقِعٌ دُونَ غَايَاتِ هِمَمِهِ ؛ كَمَا أَنَّ الشُّكْرَ وَلَوْ وَآكَبَ النُّجُومِ ، وَسَاكِبَ السَّجْمِ ؛ قَاصِرٌ
عَنْ مَكَاافَةِ تَفَضُّلِهِ ، وَجُجَازَةِ تَطَوُّلِهِ ؛ وَالْمَمْلُوكُ يَسْأَلُ الله تعالى الذي جعله قُدُوةً

الكرام، وحسنة الأيام، وربّ الإنعام، وواحد الأنام؛ أن يُلهم المملوك من حمده، بقدر ما أسبغه عليه من رفده .

رقعة شكر : عند المملوك لسيّدى أيّاد وصلت سابقةً هَواديها ، وظلّت لاحقةً تَوالِها ، فصارتُ صُدورها نسبا أعتري إليه ، وأعجازها [سبباً أعول في الملمات عليه] .

رقعة : لولا أن الله تعالى جعل الشكر ثمرة البرّ، والمجد جزاء الرّفد، وأراد إقرارهما على أهلهما من الغابرين ، وأن يجعلَ لهم مِنّا لسانَ صدق في الآخرين ؛ لكان الذى غمّره مولانا من الإنعام ، يُحدّثُ عنه تحدّث الرّياح بآثارِ الغمام ، ويُكنّى المملوك بالإشارة، مَثُونة العبارة ، والمملوك وإن رام تأدية ما يلزمه من شكره، قاصرٌ عن غاية برّه ؛ ولو استَخدمَ ألسنة الأفلام ، واستغرق أمدى النّثار والنّظام ؛ ومولانا جديرٌ بقبول اليسير ، الذى لا يُمكِنُ الزّيادة عليه ؛ والصّفح عن التقصير ، الذى تُفوّدُ الضرورةُ إليه ؛ إن شاء الله تعالى .

رقعة : لو أنّ هذه العارِفة بِكُرِّ عَوارِفِه ، وبأَكُورة لطائفِه ؛ لعجزتُ عن شكرها ، وقصّرت عن نشرها ؛ فكيف وقد سبقها قرائنٌ ونظائرٌ ، وتقدّمها أترابٌ وصَرَائِرٌ ؛ [مما] أنقل من المملوك كاهله ، وبَسَطَ به يَدَي أمله ؛ فما يَعدمُ شيئاً فِيرجّيه ، ولا يَفقِدُه فِيرغب فيه ؛ والذى تُربُّه من المملوك جوارحه ، وتَحويه جَوانِحُه ؛ علمه بأنه لا يُجارى أياديه ، ولا يُجازى مَساعِيه ؛ والله تعالى يَخْصُه من الفضائل ، بمثل ما تَبَرَّع به من الفواضل .

رقعة : ومثل مولانا من [ذوى الشرف] ^(١) والسودد من حسن محضره، وطاب
 محبره، وكرم غيبه ومشهده، وصح على تغاير الأحوال عقده ووده؛ وقد اتصل بالملوك
 ما أعاره له مولانا من أوصافه، وجرى فيه على عادة فضله وإنصافه؛ فطُفِقَ لفضله
 شاكرًا، ولطوله ناشرًا؛ وأضاف ذلك إلى تواليد إحسانه، ونظمه في عقد آمينانه .

رقعة : قد طوق مولانا [مملوكه] من فضله طوقًا كأطواق الحمام لا يُتزع،
 وألبسه بُردًا من ربه لا يُخلع؛ وأولاه من مزيده ما قصرت الهمة عن تمنيه، ولم تهتد
 القريحة إليه فتستدعيه؛ ولو وجد الملوك جزاء على عارفته، وكفاء لمثوبته، غير
 الموالاة الصريحة، وعقد الضمان على المودة الصحيحة؛ واللهج بالشكر، في السر
 والجهر، لرمى من وراء عنايته، ولا استبعد طول شقته؛ ولكن الملوك عادم
 لما يقابل به يده الغراء، عاجز عما يقضى به حق موهبته الزهراء؛ مالم يُحسن كرمه
 أمره، ويقبل منه على التقصير شكره؛ ويضيف ذلك إلى لطائفه، وينظمه في سلك
 عوارفه؛ إن شاء الله تعالى .

رقعة : واجتهاد الملوك في نشر أياديه وشكرها، كأجتهاد مولانا في كتمانها
 وسرّها؛ فكلمًا أبديتها بالثناء أخفاها، أو نشرتها بالإشادة طواها؛ وهيئات أن يخفى
 عرف كرم المسك نشرًا، ومن كالروضة نورًا والنزلة نورًا؛ ولو كان الملوك
 والعياد بالله ستر هذا العرف بكفر، وأغتمصه مانعًا لشكر؛ لنم عليه حسنه بموم
 الصباح، وتوقد توقد المصباح؛ فكيف والملوك مَقُول لا يُسَمَّى ^(٢) [يعجم سواد]
 الليالى بالإحقاد، ويرقم صفحات النهار بالاعتداد .

(١) بياض في الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) في الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا ما يقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقع الشكر

قال في "موادّ البيان" : [ان كانت] هذه الرّقع من المرؤسين إلى الرؤساء فلا جواب لها . وإن كانت من النّظير فالواجب أن يُستعمل في أجوبتها مندوبُ التّناصف والتّفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :
من ذلك ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَدَ اللهُ عَلَى الْمَالِكِ نِعْمَهُ ، وَعَلَى الْمَالِكِ دِيْمَهُ ، وَحَرَّمَ بَقَائَهُ ذِمَّ الزَّمَانِ وَأَوْجَبَ ذِمَّتَهُ ؛ وَلَا بَرَحَ نَحْوُ الْحَمَامِدِ يُنَادِي يَوْمَ الْكَرَمِ مُفْرَدَهُ وَيَوْمَ الْهِجَابِ عَلمَهُ . تَقْيِيلًا يَسْحَبُ فِي الْفَخَّارِ بُرُودَهُ الْمُعْلَمَهُ ، وَيَتَذَكَّرُ بِالْقُرْبِ فَلَا يَزَالُ الشَّوْقُ يُنْتِجُهُ حَيْثُ كَلَّا التَّدْكَارَ وَالْعَهْدَ مُقَدِّمَهُ .

وينهى ورود المثال العالى بما مَلَأَ القلبَ خيراً واليدَ برّاً ، والسمعَ إشارةً والوجهَ بشراً ، حَتَّى تَنَافَسَتِ الْأَعْضَاءُ عَلَى تَقْيِيلِهِ ، وَالْجَوَارِحُ عَلَى تَأْيِيلِهِ ؛ فَالْيَسْدُ تَسَابَقَ إِلَى مَنَنْهُ بِالْإِمْتِدَادِ ، وَالْقَلْبُ يَسَاقُ إِلَى كَرَمِ عَهْدِهِ بِالْإِعْتِدَادِ ؛ وَالْوَجْهُ يَقْلُبُ نَظْرَهُ فِي سَمَاءِ مَوَاقِعِ الْقَلَمِ ، وَالسَّمْعُ يَنْعَمُ بِمَا تُقْصُّ عَلَيْهِ الْمَسَارُّ مِنْ أَخْبَارِ جِيَرَةِ الْعَلَمِ ؛ حَتَّى كَادَ الْمَمْلُوكُ يَحْوُ بِالتَّقْيِيلِ أَسْطَرَّهُ ، وَيَشْتَغِلُ بِذَلِكَ عَنْ اسْتِجْلَاءِ مَا ذَكَرَهُ الْمُنْعِمُ لِاعْدَمِ الْمَمْلُوكِ فِي مَصْرٍ وَالشَّامِ تَكَرَّرَهُ ؛ وَفَهُمْ مَا أَشَارَ مَوْلَانَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي مَوْلَانَا أَهْلُهُ ، وَكَرَمِ الْعَهْدِ الَّذِي لَا يُنْكِرُ مِنْ مِثْلِهِ وَأَيْنَ مِثْلُهُ ؛ وَقَابِلِ الْمَمْلُوكِ جَمِيعَ ذَلِكَ بِجَهْدِهِ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، وَبِسَمَاحَةِ الْحَمْدِ الْمُتَفَاوِحَةِ ؛ وَالْإِعْتِدَادِ بِنِعْمَةِ مَوْلَانَا الَّتِي لَوْلَا [مُوَالَاتُهَا ^(١)] كُلِّ وَقْتٍ لَقِيلَ فِيهَا « مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ » وَتَضَاعَفَ

هُوَ الْمَمْلُوكُ عَلَى قَدَمِ الْمَوَالَةِ الَّتِي [يَسْتَشِيرُ] فِي دَعْوَاهَا بِشَهَادَةِ الْخَاطِرِ الشَّرِيفِ ، وَيَتَقَدَّمُ بِهَا تَقْدُّمًا تَحْتَ لَوَاءِ الْوَلَاءِ وَتَأْتِي بَقِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ فِي اللَّفِيفِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوزِعُ الْمَمْلُوكَ شُكْرَ هَذِهِ النِّعَمِ الْمُتَّصِلِ مَدَدُهَا ، وَالْمِنْنِ الَّتِي لَا يَعْدُمُهَا وَلَا يَعُدُّهَا ، وَيُطِيلُ بَقَاءَ مَوْلَانَا لِحَمْدِ يَحْيَاهُ وَيَحْيِيهِ ، وَشَرَفِ دُنْيَا وَأَجْرِي يَهْدُمُ وَفَرِهِ وَعُمُرِهِ وَيَبْنِيهِ .

النوع الثالث عشر (العتاب)

قال في "مواد البيان" : المكتبةُ بالمعابة على التحول عن المودة والاستخفاف بحقوق الخلَّة من المكاتبات التي يجب أن تُستوفى شروطها، وتكُلَّ أقسامها : لأن ترخيص الصديق لصديقه في المقاطعة والمصارمة دالٌّ على ضعف الاعتقاد ، وأستحالة الوداد .

من كلام المتقدمين :

إِنِّي مَا أَحْدَثْتُ نَبْوَهِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَحْدَثْتُ جَفْوَهُ ، وَلَا أَبْدَيْتُ هَجْرًا ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَبْدَيْتُ غَدْرًا ، وَلَا لَوَيْتُ وَجْهًا عَنِ الصَّلَاةِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ ثَبَيْتُ عِطْفًا إِلَى الْقَطِيعَةِ ، وَالْأَوَّلُ مِنَّا جَانٌ ، وَالثَّانِي حَانٌ ، وَالْمُتَقَدِّمُ مُؤَثِّرٌ ، وَالْمُتَأَخِّرُ مُضْطَّرٌّ ، وَكَمِ بَيْنَ فِعْلِ الْمُخْتَارِ وَالْمُكْرَهِ ، وَالْمُبْتَدِعِ وَالْمُتَّبِعِ .

آخر : إِنْ أَمْسَكْتُ يَاسِيدِي عَنْ عِتَابِكَ ، مُرْخِيَا مِنْ عِنَانِكَ ؛ كُنْتُ بَيْنَ قِطْعِ لِحْبَلِكَ ، وَرِضَا بِفِعْلِكَ ؛ أَوْ اقْتَصَرْتُ فِيهِ عَلَى التَّلَوُّجِ بِهِ لَمْ يَغْنِ ذَلِكَ مَعَ كَثْرَةِ جُحُوحِكَ ، وَشِدَّةِ جُنُوحِكَ ؛ وَمَا أَرْتَكِبْتَهُ مِنْ رَائِكْ ؛ وَأَسْتَخْرِجْتَهُ مِنْ جَفَائِكَ .

رقعة عتاب : لمولانا لدى المملوك عوارِف لا يهندي إلى معرفتها فيوفيا كُنْه المراد، وأيادٍ لا يبلغ ما تستحقه من الإحاد ؛ ولو عَصِدْته خُطباءُ إياد، أجلها في نفسه خطراً، وأحسنها عليه أثراً؛ ما يفرضه له من ربه وإكرامه ، وتعهد به وأهتامه ؛ وقد غير مولانا عادته ، وتقض شيمته ؛ وبَدَل المملوك من الأنعطاف بالإعراض، ومن الإنيساط بالانقباض ؛ وحمله من ذلك ما أوهى قوئ صبره، وأظلم بصائر فكره ؛ فإن يكن ذلك لخطأ واقع المملوك ساهياً، وجرم أجترمه لاهياً؛ فمثل مولانا لا يطالب إلا بالقصد، ولا يعاقب إلا على العمد؛ إذ كان المملوك لا يعصم من زلل ، ولا يسلم من خلل ؛ اللهم إلا أن يكون مولانا أراد من المملوك تقويمه وتأديبه ، وإصلاحه وتهذيبه : ليحسن أثره في خدمته ، ويسلك السبيل الواضح في تباعته ، فلا أعدم الله المملوك تثقيفه ، ولا سلبه تبصيره وتعريفه ؛ وإن كان ذلك لشك عرّض من المملوك في وداده، وآرتياپ خامر في حسن اعتقاده ؛ فأعيدته بالله من القطع بالشبهات ، والعمل بمنغل السعيات ؛ ومولانا خليق بأن يطالع من أنس المملوك ما غرب ، ويُنِيط من سروره مانصب ؛ ويعيده لرضاه، ويُجْريه على ما أحده منه وأرضاه .

رقعة : ليس المملوك يرفع مولانا في إعراضه، إلا إلى فضله، ولا يُجَاهِمْه على أنقباضه، إلا إلى عدله ؛ ولا يستعين عليه إلا بما يستمليه من آدابه ، ولا يناظره إلا بما أخذه عنه من محافظته وإيجابه ؛ إذ كان المملوك مُدْ وصلته السعادة بجباله ، ناسجاً على منواله ؛ متقبلاً شرائف خلاله . وما عهدته عمر الله معاهده ، وكبت

(١) لعله للولي .

(٢) يقال أنغلهم حديثاً سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسده ، يغضبُ تقليدًا قبل الاختبار ، ويُخَوِّج البريء إلى مَوْقِف الاعتذار ؛
ولا سِيًّا إذا كان المظنونُ به عالمًا بشروط الكرم ، عارفًا بمواقع النعم ؛ لا يَنْسَخ
الشكرَ ، بالكُفْر ، ولا يتعوّضُ عن الحمد ، بالجدِّ ؛ وقد عرفَ مولانا شَاءَ المملوك
على تفضّاله ، ووقف على بَلَاءه لأعماله ؛ وهو وفيٌّ بربِّ عوارِفِه وصنائِعِه ، وتتمير
مارهنَ لَدَيْهِ من ودائعِه ؛ وتنزيهِ سَمْعِه عن الإصغاءِ إلى ما يَخْتَلِقُه حاسد ، ويصوغُه
كائد ؛ وقد حَكَمَ المملوكُ على نفسه نَقْدَه الذى لا يُهرِّجُ عليه ولا يدَلِّسُ ، وكشفَه
الذى لا يُغْطِى عليه ولا يُلبِّسُ ؛ فليَحْكُ أفعالَ المملوكِ على حَكِّ بصيرتِه ، وليُجَلِّ
فى تأملِ مقاصِدِه طَرْفَ فكرتِه ؛ فإنه ممن لا تُحِيلُه الأحوال ولا تُحوِّلُه ، ولا تُغَيِّرُه الغيرُ
ولا تُبَدِّلُه ؛ إن شاء الله تعالى .

رقعة : أفعالُ شكرِ المملوكِ فى الحِلْمِ والغَضَبِ ، والرِّضَا والسَّخَطِ ، إذا لم يَقْضِ
الحُزْمُ إيقاعها مَوْقِعَ الفضل ، واقعةٌ مَوْقِعَ الإنصافِ والعَدْلِ ؛ ولا يَغْلِبُ هواه
على رَأْيِه ، ولا بادرتِه على أَنَاتِه ؛ وقد جَانَبَ مع المملوكِ عادَتَه ، وبَإِنْ فيه شِمْتَه ؛
ونالَه من إِعْرَاضِه ، وجَفَأتِه وأَنْقَبَاضِه ، وتَغَيَّرَ رَأْيُه ، ما وَسَمَ المملوكُ فيه بالدَّنْبِ
ولم يُذْنِبْ ، وحمله على الجُرْمِ ولم يَحْتَقِبْ ؛ وأوقفه لَدَيْهِ مَوْقِفَ الاعتذار ، وأحوجَه
إلى الإِسْتِقَالَةِ والإِسْتِغْفَارِ ؛ وليس المملوكُ يُحَاكِمُه إلَّا إِيَّاهُ ، ولا يُعَوِّلُ فى الانتصافِ
إِلَّا عَلَيْهِ ؛ وما أولاه بأن يُعيدَ المملوكَ إلى محلِّه من رضاه ، فإنه لم يُوقِعْ فى خدمتِه
إِلَّا ما يَرْضاه ؛ وحسبُه شاهدًا بذلك ما يَعْلَمُ من المملوكِ من سَلَامَةِ غِيْهِ ، وطهارةِ
جَنِيْهِ ؛ وفَضْلُ وُدِّهِ ، وصَحَّةُ مَعْتَقِدِهِ ؛ إن شاء الله تعالى .

(١)

رقعة بمعاتبه على :

كُلِّ مانعٍ مَالِدِيهِ مَنْ رَغِبَهُ ، دَافِعٍ عَمَّا عِنْدَهُ مَنْ طَلَبَهُ ؛ فَسْتَغْنَى عَنْهُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى
 الْمُتَبَدِّئُ بِالنَّعْمِ ، الْعَوَّادُ بِالكَرَمِ ؛ وَلَوْ عَرَفَ مَوْلَانَا بَطْءَ شَجَرَةِ الْمَعْرُوفِ ، لَأَسْرَعَ
 إِلَى أَحْزَانِهَا ، وَلَوْ عَلِمَ مَالَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَقُّوقِ فِي مَالِهِ وَجَاهِهِ ، لَمْ يُقْصِرْ عَنْ
 أَدَائِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ الْفَوْزَ بِالْوُجْدِ ، غَايَةُ الْمَجْدِ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَحْمَدَ النَّسَبَ غَنَى عَنْ
 الْحَمْدِ ؛ وَأَنَّ النِّعْمَةَ تُرْتَبِطُ بِالرِّبْطِ عَلَيْهَا ، وَتَتَصَرَّفُ بِالتَّصَرُّفِ فِيهَا ؛ وَمَا سَاءَ الْمَمْلُوكُ
 أَنْ تَنْزَعَهُ عَنْ تَقْلُدِ مِنَّةٍ لَيْثِمٍ ، وَحُرْمِ مَحَمْدَةٍ مِنْ كَرِيمٍ ؛ وَهَذَا الْحِرْمَانُ أَحْسَنُ وَاللَّهُ
 فِي عَيْنِ الْمَمْلُوكِ مِنَ النَّوَالِ ، وَهَذَا الْإِكْدَاءُ أَبْرَثُ لَدَيْهِ مِنْ بُلُوغِ الْآمَالِ ؛ وَسَيَنْشُرُ الْمَمْلُوكُ
 مَذْهَبَهُ فِي كُلِّ نَادٍ ، وَيَكْفُفُ عَنْهُ أَمَانِي الْقُصَادِ ؛ وَيَكْفِيهِ مَكُونَةُ الْأَعْتَادِ ، وَيَصُونُهُ
 عَنْ أَنْ تُبَدَّلَ إِلَيْهِ وَجُوهُ الْأَحْرَارِ : لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمَمْلُوكَ عَلَى مَنْعِهِ لَمْ يُقْصَرَ فِي بُلُوغِ
 أَوْطَارِهِ ، وَالسَّعْيِ فِي إِثَارِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

رقعة في المعنى : مَارَدَ الْمَمْلُوكُ بِمَوْلَانَا مُسْتَزِرًّا لِقَلِيلِهِ ، وَلَا لَائِمًا لِنَفْسِهِ عَلَى
 تَأْمِيلِهِ ؛ لِكِنَّهُ آتَجَعَهُ أَنْتِجَاعَ مَنْ ظَنَّنَهُ عَارِفًا بِقُدْرِهِ ، رَاغِبًا فِي شُكْرِهِ ؛ فَلَوْ أَعْضَى
 الْمَمْلُوكُ مِنْهُ عَلَى الْإِطْرَاحِ لِأَمْرِهِ ، لَأَسْتَدَلَّ مِنْهُ عَلَى قِصْرِ الْهِمَّةِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَوْمُهُ
 بَدُونِ الْقِيَمَةِ ؛ لَا سِيَّامًا وَهُوَ يَقْرَضُ لِمَنْ لَا يُجَارِي الْمَمْلُوكَ فِي مِضْمَارٍ ، وَلَا يُسَاوِيهِ
 فِي مِقْدَارٍ ؛ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ بِتَأْمِيلٍ وَرَجَاءٍ ، وَتَقْدِيمِ ذَرِيعَةٍ مِنْ تَقْرِيطِ وَثْنَاءٍ ، مَا تَضِيقُ
 عَنْهُ الْهَمُّ الْفِسَاحَ ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِقْتِرَاحُ .

(١) بياض في الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « شجرة المعروف ... الى اجتنانها » تأمل .

رَقْعَةُ عِتَاب ، عَلَى تَقْصِيرِ فِي خُطَاب :

حُوشَى مَوْلَاىَ أَنْ يُجَرَّ الذَّيْلَ عَلَى آثَارِ فَضْلِهِ ، وَبُيِّتَ مِنْ غُرُوسِ إِحْسَانِهِ
 مَا هُوَ جَدِيرٌ أَنْ يَتَعَهَّدَهُ بَوْبُهُ ؛ وَيَعْنَى مِنِّي رُسُومَ كَرَمِهِ ، وَيَصْدَعُ بِجَانِبَةِ الْإِنْصَافِ
 صِفَاتَ صِفَاتِهِ وَصَفَائِهِ ، وَيُنِطِقُ الْأَلْسُنَ بِعِتَابِهِ ؛ وَيُصَلِّتُ سَيْفَ التَّائِبِ مِنْ قِرَابِهِ ؛
 بِمَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ مُسْتَقْبَحِ الْمَصَارِمَةِ فِي الْمَخَاطِبَةِ ، وَاسْتَوْطَاهُ مِنْ جَامِحِ التَّرْيِثِ
 فِي الْمَكَاتِبَةِ ؛ وَلَا سِيَّما وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَوْقِعَ الْإِكْرَامِ مِنَ الْكِرَامِ ، الْأَطْفُ مِنْ مَوْقِعِ
 الْإِنْعَامِ ؛ وَأَنْ حَلَّ الْقَالَ ، أَفْضَلُ مِنْ حَلِّ النَّوَالِ ، وَأَنْ تَغْيِرَ الْعَادَةُ فِي الْبَرِّ ، مُقَوِّضُ
 لِمَعَاهِدِ الشُّكْرِ ؛ وَسَيْحِ (؟) السَّنَةِ فِي الْإِنْصَافِ ، قَاضٍ بِالْإِنْصِرَافِ بَعْدَ الْإِنْطِافِ ،
 وَقَدْ كَانَ الْمَمْلُوكُ أَرْمَعَ أَنْ يَتَحَمَّلَ تَقْصِيرَهُ بِهِ ، وَأَنْ يُقْلَ مِنْ غَرْبِهِ ، غَيْرَ مَطَاوِجِ
 لِلْحَنِيَّةِ ، وَلَا مُتَقَادٍ لِنَفْسِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَلَا يَقْرَعُ سَمْعَهُ بِعِتَابِ ، وَلَا يُورِدَ عَلَيْهِ مُمَضٌّ
 خُطَابِ ؛ ثُمَّ رَأَى الْمَمْلُوكُ أَنْ يُرْشِدَهُ إِلَى الْأَزْزِينَ ، وَيُبْعَثَهُ عَلَى اعْتِمَادِ الْأَحْسَنِ ؛
 وَيُخَضِّصُهُ عَلَى مُرَاجَعَةِ الْأَفْضَلِ ، وَمُعَاوَدَةِ الْأَجْمَلِ : لِيَتَحَفَّظَ مَعَ سِوَاهُ ، وَلَا يَجْرَى
 جَرَاهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَتَحَمَّلُهُ ، وَيَرْضَى رِضَا الْمَمْلُوكِ بِمَا يَفْعَلُهُ ؛ فَيُؤَلِّقُ اللَّهُ
 إِلَيْهِ الرَّشْدَ ، وَوَقْفَهُ إِلَى الْمَنْهَجِ الْأَسَدِ ؛ هَلْ هُوَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ ؛ فَمَا هَذَا التَّيُّ
 وَالْبَطَرُ ؟ وَلَمْ هَذَا الْأَزْلُ وَالْأَشْرُ ؟ وَمَا فِعْلُ الرَّئِيسِ إِلَى مَا يَصْغُرُ عَنْهُ قَدْرُ ؛
 وَلَا يَبَاسُ مِنْ نَيْلِهِ عَمْرُ ؛ وَلَا مَضَتْ أَقْلَامُكَ فِي الْأَقَالِمِ ، وَلَا أُشِيرَ إِلَيْكَ بِنَبَانِ
 التَّعْظِيمِ ؛ وَلَا فُوضَتْ إِلَيْكَ الْوَزَارَةُ وَالرِّدَافَةُ ، وَلَا تَأْمَرْتُ عَلَى الْكَافَةِ ؛ وَلَا طَاوَلَتْ
 الْأَكْفَاءَ فُطُلْتُ ، وَلَا نَاضَلْتَ الْقُرَنَاءَ فَفَضَلْتُ ؛ وَإِنَّمَا سَرَقَ إِلَيْكَ الْحِطُّ مِنْ مِمَّادِهِ
 وَشَلَا مُصَرِّدًا ، وَأَدْرَكَكَ الدَّهْرُ مِنْ أَخْلَافِهِ مُجَدِّدًا ، فَافْتَتَحْتَ الْمَعَامِلَةَ بِظُلْمِ
 الْإِخْوَانِ ، وَنَسَخَ شُرَائِعَ الْإِحْسَانِ ؛ كَذَبْتَكَ نَفْسُكَ ، وَغَرَّكَ حَدْسُكَ ؛ كَيْفَ بَكَ
 غَدًا إِذَا اسْتَرَدَّ الزَّمَنُ مَا خَوَّلَكَ ، وَاسْتَرْجَعَ مَا نَوَّلَكَ ؛ وَصَحَّوْتَ بِالْعَزْلِ مِنْ سَكْرَةِ

(١) الْوَلَايَةِ ، وَتَقَرَّرَتْ بَعْدَ طَلَبِ الْغَايَةِ ، وَعُدَّتْ إِلَى إِخْوَانِكَ فَوَجَدْتَ أَوْطَانَ أَنْسَمَهُمْ بِكَ نَائِيَةً ، وَنَفُوسَهُمْ لِلْإِقْبَالِ عَلَيْكَ آيِيَةً ، وَلَوْ كَانَ الزَّمَنُ أَمَكَّنَكَ مِنْ رَقَبَتِي ، وَطَرَّقَ لَكَ الطَّرِيقَ إِلَى إِيدَاعِ عُرْفِكَ فِي جِهَتِي ، لَقَبَّحْتُ بِكَ أَنْ تَطُولَ بَطُولُكَ ، وَتَدَّعِيَ الْفَضْلَ بِفَضْلِكَ ، وَلَمْ يَحْسُنْ أَنْ تُبَدِّلَ الْإِنْعَامَ ، وَتَضِنَّ بِالْإِتْرَامِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَفْخَرُ بِسَلَفِكَ وَأَبَوْتِكَ ، وَتَطَاوُلُ بِأَوْلِيَّتِكَ وَأُسْرَتِكَ ، فَلَوْ كَانَ أَبُوكَ كَسْرِي ، لَمَا جَبَرَ مِنْكَ كَسْرًا ، وَلَوْ كَانَ جَدُّكَ بُحْتًا نَصْرًا ، لَمَا أَنْتَفَعْتَ بِهِ فِي مُظَاهَرَةٍ وَلَا نَصْرًا ، فَدَعِ أَكْثَرَ مَافَاتٍ ، وَلَا تُعَوِّلْ عَلَى الْعِظَامِ الرُّفَاتِ ، فَمَا أَسْتَدَدَ إِلَيْهَا إِلَّا عَارٍ مِنَ الْفَضْلِ عَاطِلٍ مِنَ الْحِلْيِ . عَلَى أَنَّكَ لَوْ فَاحَرْتَنَا بِهَا لَفَخَرْنَاكَ ، وَتَقَدَّمْنَا وَأَخْرْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ تَسْتَدِدُ إِلَى دِيَانَتِكَ ، وَتَعْتِمِدُ عَلَى نُسُكَ وَأَمَانَتِكَ ، فَهَذِهِ خَالِصُ حَالٍ لَا تَحْلُصُ مَرْتَبَتُهَا وَلَا تَتِمُّ فَضِيلَتُهَا إِلَّا بِاسْتِشْعَارِ التَّوَاضُّعِ ، وَالْأَخْذِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ لَدَى التَّنَازُعِ ، فَارْجِعْ هِدْيَتَكَ إِلَى الْأَجَلِ ، وَاعْمَلْ بِالْأَفْضَلِ ، وَاقِفْ بِحَيْثُ رُبَّتِكَ ، وَلَا تَتَشَوَّفَ إِلَى غَيْرِ دَرَجَتِكَ ، وَإِنْ أَبَيْتَ ذَلِكَ فَاقْطَعْ الْمُرَاسَلَةَ ، وَأَعْفِهَا مِنَ الْمَوَاصِلَةِ ، وَالسَّلَامِ .

رقعة عتاب على تأخر المكاتبة :

مِنْ حُكْمِ الْوِدَادِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - الزِّيَارَةُ عِنْدَ الْمُقَارَبَةِ ، وَالْمَكَاتِبَةُ عِنْدَ الْمُبَاعَدَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ الْمَوَدَّةُ الصَّرِيحَةُ لَا يُغَيِّرُهَا اجْتِنَابُ ، إِلَّا أَنَّ الْكُتُبَ اللَّسُنُ الْعِبَادِ ، وَالْأَعْيُنُ الَّتِي تَنْظُرُ حَقَائِقَ الْوِدَادِ ، وَلَهَا فِي الْقُلُوبِ تَأْثِيرٌ ، وَمَوْقِعُهَا فِيهَا أَثِيرٌ ، وَحُوشَى مَوْلَانَا أَنْ أَهْزَأَ أَرِيحِيَّتَهُ لَمَّا يُوَكِّدُ الثِّقَةَ بِإِخْوَانِهِ ، وَيَشْهَدُ بِوَفَائِهِ ، وَلَا سِيَّمَا وَهُوَ يَفْرِضُ ذَلِكَ لِأَحِبَّتِهِ ، وَقَوْلُهُ وَاجِبٌ فِي شَرَعٍ مَوْدَّتِهِ .

رقعة في معناه :

إِنْ أَبْتَدَأَ الْمَلُوكُ مَوْلَانَا لَمْ يُجِبْ ، وَإِنْ سَأَلَهُ الْإِبْتِدَاءُ لَمْ يُوجِبْ ؛ فَلَا حَقَّ
الْإِجَابَةِ تُؤَدِّيهِ ، وَلَا نَاجِرَ الْمَسْأَلَةِ تَقْضِيهِ ؛ فَإِنْ كَانَ إِذَا شَخْصَ غَابَتْ عَنْ فِكْرِهِ
أَشْخَاصُ أَحَبَّتِهِ ، وَإِذَا بَعُدَ عَامِلُهُمْ بِتَجَافِيهِ وَجَفَوْتِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّفَ
وَيَتَعَمَّلَ ، وَيَتَصَنَّعَ وَيَتَعَمَّلَ : فَإِنَّهُ لَوْ عَلَّلَ مَشُوبًا بِالْإِنْتِظَارِ ، أَوْ أَعْتَذَرَ مَرَضًا
بِالْإِعْذَارِ ؛ لَأَقَمْتُ ذَلِكَ مَقَامَ الْمُكَاتِبَةِ ، وَصُنَّتُهُ عَنْ مَحْضِ الْمُعَاتَبَةِ ؛ لَكِنَّهُ مَالٌ مَعَ
الْمَلَالِ ، وَرِضَى الْإِطْرَاحِ وَالْإِهْمَالِ ؛ وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَقِيلٌ بِالْإِخْوَانِ ، مُتَنَقِّلٌ مَعَ
الزَّمَانِ ؛ وَأَرْجُو أَنْ تَصُدُقَ الْمَخِيلَةُ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْعَادَةِ الْجَمِيلَةِ .

رقعة معاتبية رجل كريم الأصل لئيم الفعل :

قَدْ عَرَفَ مَوْلَانَا وَفَقَهُ اللَّهَ وَوَفَّقَهُ عَلَى مَنَهِجِ الرَّشَادِ ، أَنَّ جَنَابَةَ الْغَضَبِ الذَّمِيمِ ،
تَقْدَحُ فِي كَرَمِ الْحَنِثِ الْكَرِيمِ ؛ وَأَنَّ قَبِيحَ الصِّلَفِ ، يَنْسَخُ تَلِيدَ الشَّرَفِ ، وَخِيْبَتِ
الذَّرِّيَةِ ، يُعْنَى عَلَى طَيْبِ الْمَنَاحِثِ الزَّكِيَّةِ ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِمَنْ تَحَلَّى بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ ،
وَتَلَبَّسَ بِاللُّعْنِ وَالْعَدْرِ ، وَسَاحَ نَفْسَهُ بِإِطْرَاحِ الْحُقُوقِ ، وَأَسْطِطَاءِ الْعُقُوقِ ؛
إِلَّا إِضَاعَةُ الْحَرَمِ ، وَإِخْفَارُ الذَّمِّ .

المعاتبية من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى أَنَّهُ قَدْ صَارَ يَرَى قُرْبَهُ أَزْوَارًا ، وَطَوِيلَ سَلَامِهِ اخْتِصَارًا ؛
وَيُغَالِطُ فِي ذَلِكَ حَتَّى شَاهَدَهُ عِيَانًا مَرَارًا ؛ هَذَا وَيُكْرِ الْوَلَاءَ ، صَقِيلَةُ الْحِلَابِ ،

وعروسُ الشَّاءِ، جميلةُ الزَّيَّةِ حَسَنَةُ الشَّبابِ، وهو لا يفتأ من المُوَالاةِ في صَعْدِ وَقْدِهِ
 فِي صَبَبٍ؛ فَكُلُّهَا مَكْنٌ وَتَدَّ الإِسْتِعْطَافُ يَرْجُو عَدَمَ تَخْلُصِهِ فُجْصِلَ بِأَيْسَرِ سَبَبٍ؛
 بِحَيْثُ أَطْفَأَ الإِهْمَالُ نَارَ المُسَاعَفَةِ والمُسَاعَدَةِ، وَأَنْتَقَلَ تَوَهُُّمُ عَدَمِ العِنايةِ إِلَى تَيَقُّنِ
 وَجُودِهِ بِالمُشَاهَدَةِ؛ وَقَدْ كَانَ يُرْفَعُ قَدْرُهُ خُفْضُ، وَعَوَّضُ فِي الْحَالِ عَنِ الرَّفْعِ
 بِالْإِبْتِدَاءِ، أَنَّهُ مُفْرَدٌ وَيُنْصَبُ كَالنِّكَرَةِ فِي النَّدَاءِ، وَأَهْمِلَ حَتَّى صَارَ كَالْحُرُوفِ لَا يُسْنَدُ
 وَلَا يُسْنَدُ إِلَيْهَا، وَأُلْفِيَ حَتَّى شَابَهَ ظَنَنْتُ إِذَا وَقَعَتْ مُتَأَثِّرَةً عَنْ مَفْعُولِيهَا؛ وَمَتَى
 يَقْتَلِقُ لِأَمْرٍ، أُنْسِدَ نَفْسُهُ * مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ *

وكان يَغْشَى مَجْلِسَهُ الكَرِيمَ خِدْمَةً وَأَدَاءً لِلوَاجِبِ، وَطَلَبًا لِعَادَةٍ أَكَّدَهَا إِحْسَانُهُ
 حَتَّى صَارَتْ ضَرْبَةً لِازِبٍ؛ فَلَا يَخْلُو مَجْلِسُ مَنْ إظهار تَغْيِيرِ عَادَةٍ وَطَدَّ الْجُودُ
 أَسَاسَهَا، وَأَتَتْ قَاعِدَةُ أَرْبَمِ الْكَرَمِ أَمْرَاسَهَا؛ فَيَنْقَطِعُ سُلُوكًا لِلأَدَبِ وَتَخْفِيقًا عَنِ
 الْخَوَاطِرِ، وَيَتَلَقَّى مَا يَصْدُرُ بِقَلْبٍ شَاكِ وَلِسَانٍ شَاكِرٍ؛ فَإِنْ كَانَ قَدْ عَزَمَ مَوْلَاهُ
 عَلَى طَرْدِهِ، وَعَوَّضَهُ عَنْ مِثْنَةِ الثُّرْبِ الْمِحْنَةِ بَعْدَهُ؛ فَإِنَّهُ يَأْبَى ذَلِكَ جُودُهُ وَلُطْفُهُ،
 وَمَعْرِفُهُ يُشْكِرُ وَيَزِيدُ لَا يَمَكُنُ صَرْفَهُ؛ وَلَوْ جَازَ الصَّرْفُ لِحَبْرَدٍ ^(١)
 بِالْعُبُودِيَةِ لَمَنْعَهُ الْعَدْلُ مِنْ سَيِّدِهِ، وَالْحِلْمُ الَّذِي عُرِفَ مِنْ كَرِيمٍ مُحْتَدِهِ؛ فَكَانَ الْمَمْلُوكُ يُسْتَحْسِنُ
 فِي حَبْرَةٍ وَسَبْرِهِ، وَيَعَوَّضُ عَنْ مُقَابَلَتِهِ بِجَبْرِهِ؛ فَقَدْ صَارَ سَمِينُهُ غَنًّا وَشَحْمُهُ وَرَمًا،
 وَحَدِيثُهُ رَتًّا وَسَهْلُهُ عَلَمًا:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ * كَمَا أَنَّ عَيْنَ الشَّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا
 وَمَا تَمَّ بِمَحْدِ اللَّهِ مَا يُوجِبُ ذَلِكَ وَلَا بَعْضُهُ، وَلَا يُحْدِثُ ذَمَّ الْمَمْلُوكِ وَبَغْضَهُ؛
 وَلَوْ بَدَأَ مِنْهُ زَلَلٌ، أَوْ لَمَحَ مِنْهُ خَطَلٌ؛ فَكَلَامُ مَوْلَانَا أَوْسَعَ مِنْ إِبْقَاءِ ذَلِكَ فِي صُدُورِ
 الصُّدُورِ، وَ[أُخْرَى بِ] مَحْوِ آيَاتِ السَّيِّئَاتِ فَإِنَّهُ لَيَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ.

(١) بياض بالأصل ولعله « لمحرد الشك بالعبودية »:



وله : يُخْذَمُ بُدْعَائِهِ ، وَصَادِقٌ وَلَانِهِ ؛ وَيُنْهَى أَنَّهُ أَنْكَسَرَ خَاطِرُهُ ، وَأَرِقَ جَفْنُهُ
وَنَازِرُهُ ؛ وَتَضَاعَفَ بَلْبَالُهُ ، وَتَزَايَدَتْ فِي النَّقْصِ أَحْوَالُهُ ؛ مِنْذُ تَأَخَّرَتْ الْأُمَثِلَةُ الْكِرَامُ ،
وَأَنْقَطَعَتْ عَنْهُ بَانْقِطَاعِهَا مِنَ الْحَسَامِ ؛ وَهُوَ يَسْأَلُ الْعَفْوَ عَنْ ذَنْبٍ وَقَعَ ، وَتَشْرِيفَهُ
بِمِثَالٍ يَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ مَا وَضَعَ ؛ وَاسْتَعْمَلَ الصَّفْحَ عَنْهُ كَسَائِرِ عَادَاتِهِ ، وَإِجْرَاءَهُ عَلَى
اللُّطْفِ الَّذِي أَلْفَهُ مِنْ تَفَضُّلَاتِهِ ؛ فَقَدْ ضَعُفَ صَبْرُ الْمَمْلُوكِ وَجَنَانُهُ ، وَتَفَرَّقَ لِلْفِرَاقِ
جَفْنُهُ وَإِنْسَانُهُ ؛ وَصَغُرَ قَدْرُهُ ، وَأَهْمِلَ جَانِبُهُ وَمَنْ أَمَرَ بِإِهَانَتِهِ نَحْرَهُ ، وَلِهَذَا ضَاقَتْ
عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ ، وَكَانَ لِسَانُ حَالِهِ [يَنْشُدُ] فِي ذَلِكَ :

وَاهْتَنَيْتِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي عَامِدًا * مَا مِنْ يَهُونٍ عَلَيْكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ !

وَالْمَمْلُوكُ مُعْتَرِفٌ بِأَنَّهُ مَازَالَ يَجْهَلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْخِدْمِ ، وَمُقَرَّرٌ بِتَقْصِيرِهِ عَنِ الْقِيَامِ
بِحَمْلِ مَا يُوَاصِلُ بِهِ مِنَ النِّعَمِ ؛ لَكِنَّهُ أَلْفَ مِنْ مَوْلَانَا أَنْ يُقَابِلَ إِسَاءَتَهُ بِالْإِحْسَانِ ،
وَجَهْلَهُ بِصَفْحٍ لَا يَقُومُ بِشُكْرِهِ اللِّسَانُ ، بَلْ جَمِيعُ الْجُنَّانِ ؛ فَإِنْ كَانَ ذَنْبٌ مِنَ الْمَمْلُوكِ
هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ أَطْرَاحَهُ ، وَأَوْجَدَ أَسْفَهُ وَأَذْهَبَ أَفْرَاحَهُ ؛ وَكَانَ أَيْسَرَ مَا تَقَدَّمَهُ
مِنْ جَهْلِهِ وَإِسَاءَتِهِ ، فَحِلْمُكَ جَدِيرٌ أَنْ يُلْحِقَهُ بِإِخْوَتِهِ ؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَزَايَدَ مَقْدَارُهُ ،
فَالْمَوْلَى قَدْ تَضَاعَفَ عَلَى الْعَفْوِ اقْتِدَارُهُ ؛ وَإِذَا كَبُرَتِ الْخَطِيئَةُ كَثُرَ أَجْرُ غُفْرَانِهَا ،
وَعَلَّتِ الْمَجَاوِزَةُ عَنْهَا عَلَى أَقْرَانِهَا ؛ وَعَلَى كَلَا الْأُمْرَيْنِ فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْمَمْلُوكُ الْمَغْفِرَةَ بِكُلِّ
طَرِيقٍ ، وَأَنْ يُقَابِلَ رَجَاؤَهُ بِالتَّحْقِيقِ ، وَأُمْلَهُ بِالتَّصَدِيقِ .



وله : وَيُنْهَى أَنَّهُ مَازَالَ يَشْلُو آيَاتِ مَحَاسِنِهِ وَحَمْدِهِ ، وَيَرْفَعُ رَايَاتِ إِحْسَانِهِ
وَعَجْدِهِ ؛ وَيَتَوَلَّاهُ وَلَا يَتَوَلَّى عَنْ مَحَبَّتِهِ ، وَيُكْثِرُ الثَّنَاءَ عَلَى أُلْمَعِي فِطْطَتِهِ وَجَزِيلِ

مُرُوتِهِ ؛ وَقَدْ صَارَ يُشَاهِدُ مِنَ الْمَوْلَى مَلَالًا وَصُدُودًا ، وَإِعْرَاضًا يَغِيظُ بِهِ صَدِيقًا
وَيُسْرِبُهُ حَسُودًا ؛ وَأَطْرَاحًا أَوْهَمَهُ أَنَّهُ أَلْفٌ وَصَلَّ دُرُجَتٌ ، أَوْ لَفْظَةً هَجْرًا لَفِظَتْ ؛
وَلَا يَعْرِفُ لَهُ ذَنْبًا يُوجِبُ إِعْهَادَهُ ، وَلَا جُرْمًا يَسْتَوْجِبُ بِهِ أَنْ يَنْقُضَ حَبْلَ وَصْلِهِ
وَيَرْفُضَ وِدَادَهُ ؛ وَلَا يَعْلَمُ سَبَبًا يُوجِبُ سَبَبَهُ ، وَلَا شَيْئًا يُحْدِثُ عَتَبَهُ ؛ مَعَ أَنَّ الْمُلُوكَ
أَحَقُّ أَنْ يَبْدَأَ بِالْإِعْرَاضِ ، وَيَرْفُلَ مِنْ إِغْفَالِ مَوَدَّتِهِ فِي الثَّوْبِ الْفَضْفَاضِ ؛ فَإِنَّ
الْمَوْلَى أَلَمَهُ بِالْقَوْلِ مِرَارًا ، وَجَعَلَ سَحَابَةً حَيْفَهُ تَهْمِي عَلَيْهِ مِذْرَارًا ؛ وَهُوَ يَحْتَمِلُ
الْأَذَى ، وَيُعْضِي عَلَى الْقَذَى ؛ وَلَا يُظْهِرُ إِلَّا مَحَبَّةً ، وَلَا يُبْطِنُ لَهُ إِلَّا مَوَدَّةً ؛ فَإِنْ
شَاهَدَ الْمَوْلَى بَعْدَ إِعْرَاضِهِ إِعْرَاضًا فَلَيْلِمُ نَفْسَهُ ، أَوْ أَحْرَقَهُ لَهَبُ نَارِ الْخَفَاءِ فَلَا يَشْكُو
مَسَّهُ ؛ يُحِيطُ بِذَلِكَ عُلَمَاءُ ، وَرَأْيُهُ الْعَالَى .

شعر في العتاب :

مَوْلَايَ قَدْ طَالَ التَّبَاعُدُ بَيْنَنَا * أَوْ مَا سَمِيتَ قَطِيعَتِي وَمَالِي !
إِنْ لَمْ تَرَقَّ لِحَالَتِي يَا هَاجِرِي * مَوْلَايَ قُلْ لِي مَنْ يَرِقُّ لِحَالِي !

غيره :

يُبَاعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ * فَلَمَّا أَذَابَ الْجِسْمَ مِنِّي تَعَطَّفَا

غيره :

إِنْ كَانَ هَجْرُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فَلَيْسَ لِلْوَصْلِ عِنْدَنَا ثَمَنُ

غيره :

ثَمَّتْ بِي الْأَعْدَاءُ حِينَ هَجَرْتَنِي * وَالْمَوْتُ دُونَ شِمَاتِهِ الْأَعْدَاءُ !

غيره :

تَسَامُ عَيْنَاكَ وَتَشْكُو الْهَوَى * لَوْ كُنْتَ صَبًّا لَمْ تَكُنْ نَائِمًا !

(١١)
ولبعضهم : سیدی بادانی بلطف من غیر خبره ، وأعقبنی جفاً من غیر ذنب ؛
فاطمعنی أوقله فی إخوانه ، وآیسنی آخره من وفائه ؛ فسبحان من لو شاء لكشف
بإيضاح المبهم عن عزيمة الرأي فيه ؛ والمملوك يقول :

عَجِبْتُ لِقَلْبِكَ كَيْفَ أَنْقَلَبَ * وَصَفُوْا وِدَادَكَ أَنِّي ذَهَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا وَذَا أَنِّي * أَرَاكَ بَعَيْنِ الرِّضَا فِي الْغَضَبِ

أجوبة رقاع العتاب

قال في "موادّ البيان" : حكم أجوبة هذه الرقاع حكم رقاع أجوبة الاعتذار
إلا أنها لا تخلو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار على العتاب . قال : ويجب
أن يسلك فيها المجيب مذهب المجيب عن رقاع الاعتذار .

زهر الآداب :

في جواب العتب على تأخر مكاتبة .

وعلم المملوك ما أشار به من العتب بسبب تأخر خدمه عن جنابه ، وما توهمه
من اشتغال المملوك بأهله وأصحابه ؛ وحاشاه أن يتوهم في المملوك غير الولاء ، والملازمة
على الحمد والثناء ؛ فهو لا يعتمد ذلك إلا تخفيفاً عن خاطره ، ووئوقاً بما يتحققه
المولى من خالص مودته في ياطنه وظاهره ؛ حرسه الله ووفقه ، وفتح له باب السعادة
ولا أغلقه ، بمنه وكرمه .

زهر الربيع :

جواب عتاب :

زاد الله جنابه حنانا، وأسبغ عليه إنعاماً وإحساناً، وخلد له على كلِّ عدوِّ سلطاناً.
ولا زالت همته سماءً لنا كبِّ الكواكب، وأياديه تُفيض على الأولياء غرائب
الغائب؛ ولا برحت سخائبُ إنعامه هاميه، وقُطوفُ إحسانه دائمةً دائيه؛ وشرائعُ
مياه جوده تُجفف جُفونا من الفاقة دامية .

المملوك يحدّد خدمته، ويؤاثر للوليّ أدعيته؛ ويعترف بمننه التي أقرت بها ألسنةُ
جوارحه فلا يستطيع أن ينكرها؛ ويعترف بيد تضرعه من بحار جوده التي تتعب
الوليّ من سخائها إلى كلِّ وليّ وتقذِف له جواهرها .

وينهى ورود المكاتبه والعلم بمضمونها، والأختواء على سائر معاني فنونها؛
وما أشار إليه من العتب الذي يرجو به بقاء الوداد، وأستصحب حال التواصل
من غير نقاد؛ والمملوك فلا ينكر ذنبه، ولا يتنصل ولا يتوصل بل يعترف بجرمه وقلة
خدمته؛ ويستمسك بالعروة الوثقى من إحسانه وحلمه، ويسأل مكارمه وإجرائه
على عادته بالصّفح عنه ورسمه؛ وهو يرجو أن أم هذه الحفوة لآلدها أختاً، وأنه
لا يعتمد إلا ما يزيد إلى المولى مقةً ويُريل مقتاً؛ فإن معاتبته مولانا قد وعثا أذن
واعيه، ومراضيه لا تخفى على المملوك بعد ذلك منها خافية؛ إن شاء الله تعالى .

آخر : أسعد الله المجلس وعطف للأولياء قلبه، ونصر تائبه وأنفد كُتبه؛
وأرّهف في نُصرة الإسلام سنانهُ وعَضْبهُ؛ وألهم حبة قلب الزمان حبه؛ وأقدره
على الحلم الزائد حتى يغفر به لكلِّ مُذنب ذنبه .

[وينهى] وُرُودَ الْكِتَابِ الَّذِي أَعَدَّته يَدُ مَوْلَانَا فَصَارَ كَرِيماً ، وَكَسَتْهُ عِبَارَتُهُ ثَوْبَ بَرَاعَتِهِ فَأَصْبَحَ مَنْظَرُهُ وَسِيماً ، وَأَسْتَنْشَقَ عَرَفَ نَسِيمِهِ الْمُبَارِكِ فَطَابَ شَمِيماً ؛ وَعِلْمُ الْمَمْلُوكِ مِنْهُ شِدَّةٌ عَتَبُهُ ، وَمُرُّ التَّجَنِّيِّ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ حُلُولِ لَفْظِهِ وَعَدْبُهُ ؛ وَلَمْ يَعْرِفْ لَعْتَبَهُ مُوجِباً ، وَلَا تَغْيِيرَ مَوَدَّتِهِ سَبَباً ؛ فَإِنَّهُ مَا حَادَ عَنْ طَرِيقِ وَلَائِهِ وَلَا حَالٍ ، وَلَا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْهُ وَلَا زَالَ ؛ وَلَا مَادَ عَنْ مَنَهِجِ الْمَوَدَّةِ وَلَا مَالَ ؛ وَمَا قَتَّى لِمَحَاسِنِهِ نَاشِراً ، وَلَا إِحْسَانَتِهِ شَاكِراً ؛ فَإِنْ كَانَ قَدْ ثَقُلَ عَنْهُ إِلَى مَوْلَانَا شَيْءٌ أَرْجَحَهُ ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ عَادَةِ حُلُمِهِ وَأَحْرَجَهُ ؛ فَإِنْ الْوُشَاةُ قَدْ آخَلَقُوا قَوْلَهُمْ وَثَقَلَهُمْ ، وَقَصَدُوا تَشْتِيتَ الْمُصَاحِبَةِ شَتَّ اللَّهُ شَمْلَهُمْ :

وَقَدْ نَقَلُوا عَنِّي الَّذِي لَمْ أَفْهَيْهِ * وَمَا أَفْهَ الْأَخْبَارِ إِلَّا رُؤَاتُهَا !

آخِرُ : وَرَدَتْ الْمَشْرِفَةُ الْعَالِيَةُ أَعْلَى اللَّهِ نَجْمٌ مَرْسِلُهَا ؛ وَأَسْبَغَ أَيَادِيهِ وَشَكَرَ جِسِيمَ تَفَضُّلِهَا ؛ فَابْتَهَجَتْ الْأَنْفُسُ بِحُلُولِهَا وَحُلَّ بِجَمَالِهَا ، وَعُومِلَتْ بِمَا يَجِبُ مِنْ إِكْرَامِهَا وَإِجْلَالِهَا ، وَفُضِّ خِتَامُهَا فَفَاحَ مِنْهَا أَرْجُ الْعَبِيرِ وَالْعَنْبَرِ ، وَتَلَيْتُ أَلْفَاظَهَا الَّتِي هِيَ أَهْبَى مِنْ الرِّيَاضِ وَأَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ ؛ فَأَغْنَتْ كُثُوسُ فَصَاحَتِهَا عَنِ الْمُدَامِ ، وَأَزَالُ مَائِوَاهَا الزَّلَّالُ الْبَارِدَ حَرَّ الْأَوَامِ ؛ وَأَعْرَبَ مُنْشِئُهَا عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنَ الْعَتَبِ ، وَالضَيْقِ الَّذِي حَصَلَ فِي ذَلِكَ الصَّدْرِ الرَّحْبِ ؛ وَهُوَ يُقْسِمُ بِنِعْمَتِهِ ، وَبِصَادِقِ مَحَبَّتِهِ ؛ أَنَّهُ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ مَا يُوجِبُ عَلَيْهِ عَتَباً ، وَلَا أَنْتَنِي عَنِ الشَّاءِ عَلَى [مَحَاسِنِهِ] ^(١) الَّتِي شَغَفَتْهُ حُبّاً ؛ فَإِنْ كَانَ الْمَوْلَى قَدْ تَوَهَّمَ شَيْئاً أَحْرَجَهُ وَأَقْلَقَهُ ، وَإِلَى أَلِيمِ الْعَتَبِ شَوْقَهُ ؛ فَلْيَزِلْ ذَلِكَ الْوَهْمَ مِنْ خَاطِرِهِ ، وَلْيَتَّقِ بِمَا تَحَقَّقَ مِنْ مُوَالَاتِهِ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ ؛ وَرَأْيُهُ الْعَالَى .

آخِر: أَعَزَّ اللهُ عَزَمَاتِهِ، وَشَكَرَ جِسْمَ تَفَضُّلاتِهِ .

ولا زالت نِعْمَتُهُ بِأَقْبِهِ ، وَقَدَّمَهُ إِلَى دَرَجِ الْمَعَالَى رَاقِبِهِ ؛ وَهَمَّتْهُ إِلَى السَّمَوِّ عَلَى الْكَوَاكِبِ سَامِيهِ ، وَسَمَاءُ جُودِهِ عَلَى الْعُقَاةِ هَامِيهِ ؛ وَعَزَمَتْهُ لِنُغُورِ الْإِسْلَامِ حَامِيهِ ، عَبْدُ نِعْمَةٍ ، وَغَرَسَ كَرَمَهُ ، يُعَلِّمُهُ بِصِدْقِ وَدِّهِ ، وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَى شُكْرِهِ وَحَمْدِهِ ؛ وَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَى مُشْرِفِهِ وَفَهَمَهُ ، وَشَاهَدَ مِنْهُ عَتَبَهُ وَعَلِمَهُ ؛ وَهُوَ لَا يَشْكُو مِنَ الْمَوْلَى جَفَاءً وَلَا يَعْيبُ ، وَ[عَنْ] طَرِيقِ الْمُصَافَاةِ وَالْمُخَالَصَةِ فَلَا يَغِيبُ ؛ بَلْ يَقُولُ :

أَنْتَ الْبَرِيُّ مِنْ الْإِسَاءَةِ كُلِّهَا * وَلَكَ الرِّضَا وَأَنَا الْمُسِيءُ الْمَذْنِبُ

وَالْمَرْجُوءُ مِنْ لَطَافَةِ أَخْلَاقِهِ ، وَطَهَارَةِ أَعْرَاقِهِ ، أَنْ يَصْفَحَ عَنْ زَلَّتِهِ ، وَيَعْفُو عَنْ ذَنْبِهِ وَإِسَاءَتِهِ :

فَأَنْتَ الَّذِي تُرْجَى لَتَخْفِيفِ زَلَّتِي * وَتَحْقِيقِ آمَالِي وَنَيْلِ مَا رِئِي !

وَقُرْبِكَ مَقْصُودِي وَبَابُكَ كَعْبَتِي * وَرُؤْيَاكَ يَأْسُؤُنِي أَعَزُّ مَطَالِبِي !

قلت : وَكُتِبَتْ إِلَى الْمَوْلَى شِهَابِ الدِّينِ الدُّنْيَسَرِيِّ وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ مُسَاعَدَةُ بَعْضِ الْجُهَّالِ عَلَى فِى بَعْضِ الْأُمُور :

عَهَدْتُ شِهَابَ الْفَضْلِ بِرَبِّي سَهْمِهِ * شَيَاطِينَ جَهْلٍ أَنْ تُدَانِي جَنَابَهُ !

قَالَ مَوْلَانَا عَلَى فَرْطِ فَضْلِهِ * يُعْرِفُ شَيْطَانَ الْجَهَالَةِ بِآبِهِ ؟

النوع الرابع عشر (العيادةُ والسؤال عن حال المريض)

رُقعة عيادة :

وَيُنْهَى أَنَّهُ اتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ مِنْ أَلَمِ مَوْلَانَا - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَحَرَسَ حَوْبَاءَهُ -
مَا أَهْمَى مَدَامِعَهُ ، وَأَحْمَى أَضَالِعَهُ ؛ وَمَزَّقَ جِلْدَهُ ، وَحَرَّقَ خَلْدَهُ ؛ وَأَطَارَ الْوَسْنَ عَنْ
عَيْنِهِ ، وَنَفَرَ الْهُدُوءَ عَنْ مَضْجَعِهِ ؛ حَتَّى تَدَارِكَ اللَّهُ تَعَالَى بِكَتَابِهِ النَّاطِقِ بِإِفْلَاحِ الْمَلَمِ ،
الْمُعْرَبِ عَنْ دِفَاعِ الْمُهِمِّ ؛ فَرَقًا مِنْ دُمُوعِي مَا أَرَفَضَ ، وَجَبَرَ مِنْ ضُلُوعِ الْمَمْلُوكِ
مَا أَرْتَضَ ؛ وَالتَّامَ مِنْ جِلْدِهِ مَا نَفَطَّرَ ، وَبَرَّدَ مِنْ خَلْدِهِ مَا تَوَقَّدَ ؛ وَجَثَمَ مَاطَارَ مِنْ وَسَنِهِ
وَأَتَسَ مِنَ الْهُدُوءِ مَا نَفَرَ عَنْهُ ، وَالتَّامَتِ الْآمَالُ بَعْدَ انْتِلَامِهَا ، وَبَرَزَتْ ثِمَارُ الْأُمَانِيَّ
مِنْ أَكْثَامِهَا ؛ وَطَلَعَ مِنَ الرَّجَاءِ آفَلُهُ ، وَرَوَى مِنَ السُّرُورِ مَاحِلُهُ ؛ وَتَجَدَّدَ مِنَ السُّودَدِ
طَامِسُهُ ، وَصَحَّكَ مِنَ الزَّمَانِ عَاسُهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُغْضُ طَرْفَ الْحَدَثَانِ ، عَنْ مُهْجَتِهِ ،
وَيَصْرِفُ صُرُوفَ الزَّمَانِ ، عَنْ سَاحَتِهِ ؛ وَيَهْنِيهِ بِمَا أَعَادَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِبْلَالِ ، وَيُمْلِكُهُ
بِمَا أَفَاضَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْتِقْلَالِ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

رُقعة : وَيُنْهَى أَنْ مَا خَامَرَهُ مِنْ قَلَقٍ وَجَرَعٍ ، وَفَرَقٍ وَهَلَعٍ ، بِسَبَبِ مَا بَلَغَهُ مِنْ
شَكْوَى مَوْلَانَا لَا تَحْضُرُهُ الْأَوْهَامُ ، وَلَا تُسْطِرُّهُ الْأَقْلَامُ ؛ وَلَوْلَا نِقَةُ الْمَمْلُوكِ بِاللَّهِ تَعَالَى
لَوَهَتْ عَقْدَ صَبْرِهِ ، وَلَا تَخْلَعُ فُؤَادَهُ مِنْ صَدْرِهِ ؛ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْأَلَمَ
لَوْ نُقِلَ إِلَى الْمَمْلُوكِ لَمَا ثَقُلَ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ يَسْتَنْقِلُ مَا يَخَفِّفُ عَنْ مَوْلَانَا وَصَبَهُ
وَيُخْسِمُهُ ، وَيُعْكَفُ لَهُ سِلْكَ الشِّفَاءِ وَيَنْظُمُهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ فِي أَمَانٍ مِنْ
كِفَايَتِهِ ، وَضَمَانٍ مِنْ حَيَاطَتِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) في الاصل "توفر" بالقاء والراء وهو لا يناسب المعنى .

أجوبة كُتِبَ الشِّفَاعَاتِ وَالْعِنَايَاتِ^(١)

قال في "موادّ البيان" : هذه الكُتُبُ إذا أُجِيبَ الملتَمِسُ إلى حاجته فينبغي أن تُبْنَى أجوبتها على شُكْرٍ مقصد الشافع ، والإدلال والاسترسال وإنالته المشفوع له وطّره إيجاباً لحقّ الشافع ؛ وإن وقع الامتناع والتوقف عن الإجابة إلى الملتَمِسِ ؛ فالواجب أن تُبْنَى على إقامة العُدْر لا غير .

زهر الريح :

جوابُ شفاعَةٍ في حقّ كاتب :

جَدَّدَ الله [له] السَّعَادَةَ وَخَلَّدَهَا ، وَأَصَارَهَا لَهُ شِعَارًا وَأَبْدَهَا ؛ وَوَدَّ بِهِ الْمَالِكَ وَمَهَّدَهَا ؛ وَعَضَّدَ بِهِ طَائِفَةَ الْإِسْلَامِ وَأَيَّدَهَا ؛ وَشَكَرَ لَهُ صَنَائِعَ يَعُدُّ مِنْهَا وَلِيٌّ وَلَا كُلٌّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْدِدَهَا .

المملوكُ يَقْبَلُ الْيَدَ الشَّرِيفَةَ أَدَاءً لِلْفَرْضِ الْإِزْمِ ، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَتْهُ مِنَ الْإِيَادِي وَالْمَكَارِمِ ؛ وَحَمْدًا لِلْأَلْفَاظِ الَّتِي أَطْمَعْتَهُ بِالتَّمْيِيزِ فَاصْبَحَ بَرْقُ قَدْرِهِ كَالْجَازِمِ .

وَيَنْهَى وَرُودَ الْمَشْرِفِ الَّذِي نَزَّ نَاطِرَهُ ، وَجَبَرَ قَلْبَهُ بِحُسْنِ أَلْفَاظِهِ وَخَاطِرَهُ ؛ وَالْعَلَمَ بِمَا أَمَرَ بِهِ ، وَشَفَعَ إِلَى الْمَمْلُوكِ بِسَبَبِهِ ؛ وَهُوَ الْكَاتِبُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ رَكَّنَ إِلَى مَا شَكَرَهُ بِهِ الْمَوْلَى وَأَتَمَّنَى بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَأَعْتَقَدَ يُمْنُ^(٢) إِغَارَةَ الشَّافِعِ فَعَقَّدَ عَلَى الْمَشْفُوعِ فِيهِ خَنْصَرَهُ ، وَتَقَدَّمَ بِتَرْبِيئِهِ فِي دِيْوَانِ إِنْشَائِهِ ، وَجَعَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ خَوَاصِّهِ وَخُلَصَائِهِ ؛ وَفَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ اتِّبَاعًا لِإِسَارَتِهِ ، وَقَبُولًا لَشَفَاعَتِهِ ؛ فَالْمَوْلَى يُوَاصِلُ بِمِرَاسِمِهِ وَأَمْثَلَتِهِ ، فَإِنَّهَا تَرِدُ عَلَى مَرَّتَيْمِ مِمْتَلِ .

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهي مؤخره من تقديم فتنه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنه : جواب شفاعَةٍ في استخدام جُنْدِي :

ضاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعَمَهُ ، وَأَرْهَفَ في نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ سَيْفَهُ وَقَلَمَهُ ؛ وَلَا بَرَحَتْ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ نَاطِقَةً بِوَلَّائِهِ ، وَأَيْدِي ذَوِي الرِّجَاءِ مَمْلُوءَةً مِنْ فَوَاضِلِ نِعَمَائِهِ .

الْمَمْلُوكُ يُوَاصِلُ بِأَدْعِيَتِهِ الصَّالِحَةِ ، وَيَسْتَنْشِقُ رُوحَانِيَّ رِيحَكُمْ فَيَسْكُنُ مِنْهُ بِالذِّيدِ تِلْكَ الرَّائِحَةِ ؛ وَيَشْكُرُ لَهُ مَا مَنَحَهُ مِنَ الْمَكَارِمِ ، وَيَبَاهِي بِعِزِّمَاتِهِ اللَّيُوثِ الضَّرَاعِمِ ؛ فَلَا يَجِدُ مُضَاهِيًا لِتِلْكَ الْعِزَّائِمِ .

وَيَنْهِي وَرُودَ الْمِثَالِ الَّذِي أَشْرَقَتْ الْوُجُوهُ بِنُورِهِ ، وَأَبْتَهَجَتْ الْأَنْفُسُ بِبِلَاغَةِ مُنْشِئِهِ وَوَشْيِ سَطْوَرِهِ ، وَعَلِمَ إِشَارَةَ الْمَوْلَى فِي مَعْنَى فُلَانٍ : أَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ ، وَأَعَدَّ بِمَنْهَلِهِ وَوَرْدَهُ ، وَالتَّوَصَّيَّةَ بِأَمْرِهِ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ مِنْ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ، وَأَنْ يُقَطِّعَ إِقْطَاعًا يَلِيْقُ بِأَمثَالِهِ ، وَيَتَقَيَّأُ مِنْ نَحْرَاجِهَا ضَائِقِ ظِلَالِهِ ، وَغِنْدِ مَثُولِ مِثَالِهِ الْعَالِي أَمْتِثِلَ وَالْتِمِمْ ، وَاسْتَعْدَمَ الْمَشَارَإِلِيهِ لِإِشَارَتِهِ وَخَدَمَ ، وَهَذَا بَعْضُ مَا يَجِبُ مِنْ قَبُولِ أَمْرِهِ ، وَتَعْظِيمِ كِتَابِهِ وَتَجَمُّلِ قَدْرِهِ ، فَيُوَاصِلُ بِمَرَامِهِ فَإِنَّهَا تُقَابِلُ بِالْأَرْتِسَامِ ، وَمُشْرِفَاتِهِ فَإِنَّهَا تُعَامَلُ بِوَأَفْرِ الْإِكْرَامِ .

جوابُ شفاعَةٍ في الجملة :

قُلْ مَا تَشَاءُ فَإِنِّي لَكَ طَائِعٌ * مَا أَنتَ عِنْدِي شَافِعٌ بَلْ أَمْرُ !

جَعَلَهُ اللهُ لِكُلِّ خَيْرٍ سَبَبًا ، وَحَقَّقَ بِهِ لِأَوْلِيَائِهِ ظُنُونًا وَحَصَلَ أَرْبَابًا ؛ وَوَفَّرَ لَهُ مِنْ أَجْرِ شَفَاعَتِهِ الْحَسَنَةِ نَصِيبًا ، وَأَدَامَهُ عَنْ كُلِّ شَرٍّ بَعِيدًا وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ قَرِيبًا .

الْمَمْلُوكُ يَنْهِي تَأَلُّسَهُ لِفِرَاقِهِ ، وَمَا يَجِدُهُ مِنْ صَبَابَتِهِ وَشِدَّةِ أَشْوَاقِهِ ؛ وَيُعَانِيهِ مِنْ جَانِحِيهِ وَأَتَوَاقِهِ ، وَأَنَّهُ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَاسْتَلَمَهُ وَكَنَّمَهُ ، وَبَجَلَهُ وَعَظَّمَهُ ؛ وَعَلِمَ مَا أَشَارَ

إليه ، وأَخَذَ أَمْرَ الْمَشْفُوعِ فِيهِ بِكُلْتَا يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ قَضَاءَ أَرِيهِ أَمْرًا لَازِمًا ، وَمَا قَتَّى عَلَى سَاقِ الْإِجْتِهَادِ قَائِمًا ، إِلَى أَنْ حَصَلَ غَرَضُهُ ، وَأَدَّى مِنْ حُسْنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ مَا أَوْجَبَهُ مُشْرِفُهُ الْعَالِي وَأَقَرَّضَهُ ، وَالْمَوْلَى أَمْرٌ غَيْرُ شَفِيعٍ ، وَمَهُمَا وَرَدَ مِنْ جِهَتِهِ عَلَى الْمَمْلُوكِ فَوَارِدٌ عَلَى سَمِيعِ مُطِيعٍ ؛ فَيَوَاصِلُ مِنْ مَرَّاسِمِهِ بِمَا سَنَحَ ، وَمِنْ أَخْبَارِهِ بِمَا تَأَرَّجَ طِيبُ عَرَفِهِ وَنَفَحَ ؛ وَرَأْيُهُ فِي ذَلِكَ الْعَالِي .

آخِرُ : شَكَرَ اللَّهُ عَوَارِفَهَا ، وَتَالِدَ جُودَهَا وَطَارِفَهَا ، وَوَاغَرَ ظِلَالَهَا وَوَارِفَهَا ؛ وَيَنْهَى ثَنَاءَهُ عَلَى مَعَالِيهِ ، وَمَلَازِمَتَهُ وَمُدَاوَمَتَهُ عَلَى بَثِّ مُحَاسِنِهِ وَنَثِّ أَيَادِيهِ ؛ وَحَمْدِ عَوَاقِبِ إِحْسَانِهِ وَمَبَادِيهِ ، وَشِدَّةِ أَشْوَاقِهِ إِلَى جَنَابِهِ ، وَلِذِيذِ مَشَاهِدِهِ وَخِطَابِهِ ؛ وَمَا يُعَانِيهِ مِنْ غَرَامٍ لَازِمَةٍ مُلَازِمَةِ الْغَرِيمِ ، وَدَاءِ صَبَابَةٍ يُضَاعِفُ شَوْقَهُ إِلَى رُؤْيَةِ وَجْهِهِ الْوَسِيمِ ؛ وَمُدَاوَمَتُهُ عَلَى التَّعَوُّضِ بِشُكْرِ مُحَاسِنِهِ عَنِ الْمُدَامَةِ وَالنَّدِيمِ ؛ وَنَظْمِ جَوَاهِرِ مَدْحِهِ لِجِدِّ جُودِهِ ، وَحَمْدِ الْمَوْلَى عَلَى ذَلِكَ التَّنْظِيمِ ؛ وَأَنَّهُ وَرَدَ عَلَيْهِ مُشْرِفُهُ الْعَالِي فَقَبَّلَهُ ، وَدَعَا لِمُرْسَلِهِ دُعَاءَ يَرْجُو مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسْتَجِيبَهُ وَيَتَقَبَّلَهُ ؛ وَحَصَلَ لَهُ بِوَصُولِهِ آتِبَاهُ عَظِيمٌ ، وَقَالَ لِمَنْ حَضَرَ رُودَهُ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ وَفِيهِمْ مَضْمُونُهُ وَخَوَاهُ ، وَعَلِمَ مَعْنَاهُ وَمَا أَظْهَرَهُ فِيهِ وَأَبْدَاهُ : مِنَ الْوَصِيَّةِ بِفُلَانٍ وَمَا يُؤْتِرُهُ مِنْ تَسْهِيلِ مَطَالِبِهِ ، وَتَيْسِيرِ مَآرِيهِ ؛ وَوَصَلَ الْمَشَارُ إِلَى حَصَلِ الْأَنْسِ بِرُؤْيَتِهِ ، وَتَمَتَّتِ الْبَوَاطِرُ وَالْمَسَامِيحُ بِمَشَاهِدَتِهِ وَمَشَافَهَتِهِ ؛ وَقَامَ الْمَمْلُوكُ فِي أَمْرِهِ قِيَامًا تَامًا ، وَجَعَلَ عَيْنَ اجْتِهَادِهِ فِي مَصْلَحَتِهِ مَتَقَيِّظَةً لَا تَعْرِفُ مَنَامًا ؛ وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِ الْاجْتِهَادِ ، فِي تَحْصِيلِ الْمَرَامِ وَالْمُرَادِ ، إِلَى أَنْ حَصَلَ لَهُ الْفَوْزُ بِبَيْلِ أَمَلِهِ ، وَعَادَ رَاتِعًا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَخْضَرِهِ وَأَخْضَلَهُ ؛ رَافِلًا مِنَ الشَّرُورِ فِي أَيْمَى حُلَلِهِ ، فَيُحِيطُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْضُدُّ بِهِ الدُّوَلَ وَالْمَمَالِكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

آخر: جعله الله مفتاحاً لكل باب مُرْتَجٍّ، وَصَدَّقَ بِهِ [أَمَل] كُلَّ أَمَلٍ وَحَقَّقَ رَجَاءَ كُلِّ مُرْتَجٍّ، وَلَا زَالَتْ سَحَابُ جُودِهِ هَامِيَةً بِالْوَسْمِيِّ وَالْوَلِيِّ، مَا طَرَّةٌ بَوْبُهَا وَطَلَّهَا عَلَى الْوَلِيِّ.

المملوك يُخْدَمُ بِحَيَّةٍ أَرْقَ مِنَ النَّسِيمِ، وَسَلَامٍ أَطْيَبَ عَرَفًا مِنْ بَابِ النَّقَا إِذَا تَحَمَّلَتْ عَرَفَهُ رِيحُ الصَّرِيمِ.

وينهى إلى علمه الكريم ورود مشرقه وأنه أحاط بمضمونها علماً، وشاهد منها في حال طيها مكارم أصارت تفضيله على حاتم الطائي حتماً؛ ووقف منها على در لفظ قدفه بحر خاطره نثراً ونظماً؛ وبراعة عبارة زادت قلب مواليه غراماً وأثف مناويه رعماء؛ وفصاحة عرفته قوله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحُكْمًا»^(٢) وفيهم عنايته بفلان نفع الله بعلمه وعمّله، وقرب له من الخير مالا يُطِمِعُهُ به بعيد أمله؛ وإشارته بسبب التنبيه والإرشاد على جمل فضائله، ومفصل مناقبه المشهورة في البلاد، وإيضاح كفايته في وجيز تلك الفصول الصّحاح الإسناد، فحال قدوم المذكور وحلوله، وورود مشرقه ووصوله؛ أنهى المملوك أمره إلى مخدومه، وطالع به شريف علومه؛ ولا زال يُحَسِّنُ سعيه، ويعتمد على مشيئة الله ولا يترك حرصه ومشيئه؛ إلى أن حقق قصده بقضاء شغله، وقرب له أمد أمله، وكتب توقيعه ولم يرد الله تعويقه، ونجع طعم قصده وأنجح الله طريقه؛ وقد عاد مصحوباً بالسّلامه، معروفاً بتحصيل هذا القصد بأنه (طّلاع الثّنايا) من غير وضع العلامه، حسب إشارة المولى وأمره، والله تعالى يُمِدُّه بصونه ونصره.

(١) الولي المطر الذي يأتي بعد الوسمي ووقع في الأصول "الوبلي" وهو تحريف واضح.

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقّه أى إن في الشعر كلاماً نافعا يمنع من الجهل والسفه.....
ويروى إن من الشعر لحكمة وهو معنى الحكم. انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠.

آخر : في استخلاص حق .

شَكَرَ اللهُ إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ ، وَحَصَّلَ بِهِ لِكُلِّ وَلِيٍّ مَرَامَهُ ، وَحَدَّ تَطَوُّلَهُ وَتَفَضُّلَهُ ، وَأَنَالَ بِهِ لِكُلِّ أَمِيلٍ أَمَلَهُ ، وَخَلَّدَ دَوْلَتَهُ ، وَأَدَامَ نِعْمَتَهُ ، وَأَنفَذَ كَلِمَتَهُ ؛ وَلَا زَالَ فَضْلُهُ كَامِلًا ، وَإِحْسَانُهُ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ وَاصِلًا ؛ وَنَوَالُهُ لِبَنِي الْآمَالِ شَامِلًا .

المملوك يخدم بدعاء أحسن من نور الربا ، وثناء أطف من ريح الصبا ؛ وسلام أطيب بمروره من تذكر أيام الصبا .

وينهى ورود الكتاب الذي طاب بالمولى محتده ونجاره ، وزاد على كتائب الكتب نفاؤه ، وأنه وقف عليه وقوف مشتاق إلى مرسله ، شاكر أنعم فضله وجسيم تفضله ؛ فأسكرته تلك الفصاحة بشداها الأريج ، وترهت لحظه في درلفظها البهج ؛ فظنها لما استنشق رائحتها راحاً قرفقاً ، ولما أهبه لفظها بالفاظ تزهى على الرياض روضة أنفا ؛ وعلم الإشارة الكريمة في معنى ' فلان ' والوصية بخدمته ، وما أمر به من مساعدته ومساعدته ؛ وعند وصول مشرف المولى وقبل وضعه من يده ، نوى المملوك مساعدة المذكور على مقصده ، فتقدم بإحضار غريمه فوجده عن البلد غائباً ، فانتظره إلى أن عاد أثباً ؛ فعند وصوله طلبه وأحضره ، وسأله عما يدعيه عليه خصمه فأنكره ؛ وطلب الحضور إلى القاضي ، وحث على ذلك حتى أوهم أنه المتقاضى ؛ فلمّا رأى المملوك أن حجة المشفوع فيه لا تقوم بصدق دعواه وحجج ، ولا يظهر بها على غريمه إلا من طريق حرج ؛ بذل في مصالحتها جهد الاجتهاد ، وما زال يرشدها إلى طريق الرشاد ؛ ويدلها على سبيل السداد ، ويعرفهما أن التضارر ضرير ، وأن الصلح خير ؛ فكل منهما يهيم في واد ، ويسلق خصمه بالسنة حداد ؛ إلى أن تراصيا وتوافقا ، وسلكا طريق الرفق وتوافقا ، وصدق الخصم

خَصَمَهُ فَصَادَقَا ، وَأَنْفَصَلَا وَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ أَرْضَى خِيَدَهُ ، وَعَنِ الْحَاكِمَةِ وَالْمَحَاقِقَةِ
أَغْضَى جَفْنَهُ .

آخر : أَيْدِ اللَّهُ سَعْدَ الْمَوْلَى وَأَبْدَهُ ، وَأَثَلْ مَجْدَهُ وَجَدَّهُ ، وَأَعَانَهُ عَلَى إِسْدَاءِ
الْعَوَارِفِ وَعَصَّدَهُ ، وَأَمَدَّهُ مِنَ الْمَسَرَّاتِ بِمَا يُزِيلُ عَنْ الْأَيَّامِ أْبْدَهُ ، وَأَنَالَهُ سَعْدًا لَا تَبْلُغُ
الْأَنَامُ أَمَدَهُ ؛ وَلَا زَالُ بُرْدُ جَدِّهِ مِنَ السَّعَادَةِ جَدِيدًا ، وَنَجْمُ عُدُوهِ أَفْلًا وَنَجْمُهُ سَعِيدًا .
الَّذِي يُحِيطُ بِهِ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ أَنَّ كِتَابَهُ وَرَدَ فَسَرَى هَمُّ الْأَنْفُسِ وَسَرَّهَا ، وَضَاعَفَ
بِمَا ضَاعَ مِنْ نَشْرِهِ بِسَرَّهَا ؛ وَفَاحَ مِنْهُ شَدًّا عِنْدَ إِقْبَالِهِ ، فَقِيلَ : قَدْ هَبَّتِ الْقُبُولُ ،
وَرَجَّحَ الْأَوْلِيَاءُ ، فَقِيلَ : قَدْ هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ وَأُدِيرَتِ الرِّيحُ الشَّمُولُ ؛ وَأَنَّ الْمَمْلُوكَ
وَقَفَّ مِنْهُ عَلَى أَلْفَاظٍ سَقَتْهُ كُثُوسُ سُورٍ لَا كُثُوسَ مُدَامَ ، وَرَوَتْ لَهُ أَخْبَارَ حِلْمٍ
لَوْ أُسْنِدَتْ إِلَى سِوَاهُ لَتَوَهَّيْتُ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ؛ وَرَوَتْ أَكْبَادًا أَصْرَبَهَا لَقَيْتَهُ حَرٌّ
ظَلَمًا وَأَوَامَ ؛ وَبَيَّنَّتْ سِحْرَ الْبَيَانِ ، وَأَعْرَبَتْ بِلِسَانِ حُسْنِهَا عَمَّا لَمُنْشِيهَا بِلِ مَوْشِيهَا مِنْ
الْإِحْسَانِ ، وَأَعْرَبَتْ فِي الْفَصَاحَةِ لِحُلْنَا كُلِّ كَلِمَةٍ تَنْطِقُ عَنْ سَحْبَانِ بِلِسَانٍ ؛ وَزَهَتْ
بِبَيَانِجِ ثِمَارِ فَضْلِهَا فَتَزَهَتْ كُلُّ عَيْنٍ فِي بُسْتَانٍ ؛ وَعِلْمُ إِشَارَةِ الْمَوْلَى فِي مَعْنَى 'فَلَانِ' ،
وَمَا أَبْدَاهُ مِنَ الْعِنَايَةِ فِي حَقِّهِ ، وَالْإِيشَارِ لِصِلَةِ رِزْقِهِ ؛ وَأَنَّهُ مِنَ الْأَزْلَامِ ؛ وَالَّذِينَ
تَجِبُ مَعَامَلَتُهُمُ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِحْتِرَامِ التَّامِ ؛ وَعِنْدَ مَا شَاهَدَ الْمَمْلُوكُ كِتَابَ مِنْ شَرَفِهِ ،
وَسَمِعَ أَلْفَاظَهُ الَّتِي بَلُطْفُهَا أَتَحَفُّهُ ؛ بَلِ يَرْدَأُهَا عَلَى الْبَرْدِ أَحْلَفَهُ ، تَقَدَّمَ بِإِجَابَةِ سُؤَالِهِ ،
وَتَرْتِيبِهِ فِي جِهَةٍ تَلِيْقُ بِأَمَثَالِهِ ؛ وَقَصَصَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ قِمِصًا لَا يَلْبِي ، وَجَمَعَ لِحَاظِيهِ وَالِدَّةً
شَمْلًا ؛ وَهَذَا حَسَبَ إِشَارَةِ الْمَوْلَى الَّتِي لَا تُخَالَفُ ، وَأَمْرِهِ الَّتِي يَقِفُ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَهُ
وَلَا يَسْتَوْقِفُ وَلَا يُوَاقِفُ .^(٢)

(١) أَيْ غَضَبُهُ فَهُوَ مُصَدَّرٌ أَبْدَ عَلَيْهِ كَفَرَجَ إِذَا غَضِبَ .

(٢) هَذَا آخِرُ مَا حَقَّقَهُ التَّقْدِيمُ بَعْدَ النَّوْعِ الرَّابِعِ وَقَبْلَ الْخَامِسِ فَتَنْبَهْ .

كتاب إلى مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حاشي مَرَجَكَ مِنْ أَدَى * وَكَرِيمَ جِسْمِكَ مِنْ وَصَبِ !
يَا غَايَةَ الْمَأْمُولِ وَالْمَرْجُوءِ كُلِّ الطَّلَبِ !
مُدْغِبَتِ عَنِّي لَمْ أَزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فِي نَصَبِ !
جَفَنِي غَرِيقٌ بِالْذُّمِّ * عِوَاءُ صَبْرِي قَدْ نَصَبِ !
وَاللَّهِ مَالِي فِي الْبَقَا * وَأَنْتَ نَاءٍ مِنْ أَرْبِ !
فَتُرَى ^(١) أُبَشِّرُ سَيِّدِي * أَنَّ الْلِقَاءَ قَدْ أَقْتَرَبِ !

حَرَسَ اللَّهُ مَرَجَ الْمَوْلَى ! وَأَصَارَ الْعَافِيَةَ لَهُ شِعَارًا ؛ وَالصَّحَّةَ لَهُ دِنَارًا ؛ وَلَا زَالَتْ
سَاكِنَةً فِي جَوَانِحِهِ ، مَقِيمَةً حَشَوَ أَعْضَائِهِ الْمُبَارَكَةِ وَجَوَارِحِهِ .

أَصْدَرَهَا الْمَمْلُوكُ تُعْرِبُ عَنْ شَوْقٍ يَكُلُّ عَنْ وَصْفِهِ اللِّسَانُ ، وَتَوْقٍ لَا يُحْسِنُ وَصْفَهُ
الْبَنَانُ ؛ وَلَا يَجِيعُ عَنْ حُلِّ بَعْضِهِ الْخَنَانُ ، مَلْتَمِسًا الْمَوَاصِلَةَ بِأَخْبَارِهِ ، وَوَاصِفًا
مَا يَجِدُهُ الْقَلْبُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ وَنَارِهِ ؛ وَشَايِكًا مِنْ جَوْرِ أَيَّامِ الْفِرَاقِ ، وَرَاجِيًا أَنْ يُبَشِّرَ
بِالْإِبْلَالِ مِنْ مَرَضِهِ وَالْإِفْرَاقِ ؛ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِتَعْجِيلِ أَيَّامِ التَّلَاقِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَوْ
رُمْتُ أَنْ أُشْرَحَ كُلُّ مَا جُدَّ مِنَ الصَّبَابَةِ لِأَسَامَتٍ وَأُسْهَبَتْ ، بَلْ لَوْ ذَكُرْتُ مَا أَعَانِيهِ
لَأَلِمَهُ لَثَقْتُ عَلَى خَاطِرِهِ وَشَوَّشْتُ ، لَكِنْ خَاطِرُ الْمَوْلَى شَاهِدٌ بِوُجُودِي ، وَعَارِفٌ
بِمَا تَحْمِلُهُ مِنَ الْكَآبَةِ الَّتِي لَمْ يَحْمِلْهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا تُحْمَلُ بَعْدِي ؛ فَيُوَاصِلُ بِأَخْبَارِهِ ،
وَاللَّهُ يَحْرُسُهُ أَنَاءَ لَيْلِهِ وَأَطْرَافِ نَهَارِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هذا الفعل الفارابي وتبعه الجوهرى وأستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الخذاق وقال
الصواب هو شئت .

في معناه :

يَا مَنْ شَكَ فَشَكَ فُؤَادِي حُرْفَةً * لَا تَتَطَنِّي وَصَابَةً لَا تَبْرَحُ !
وَعَدَا سَقِيمَ الْحَسَمِ يَوْمًا وَاحِدًا * فَتَرَحْتُ دَمْعًا لِلدَّامِغِ يَجْرَحُ !
وَأَزْدَادَ شَوْقِي نَحْوَ طَلْعَتِهِ الَّتِي * أَبَدًا يُؤْمِنُ بِهَا هُهَا أَسْتَجِجُ !
لَا زِلْتُ فِي عِزٍّ وَسَعْدٍ دَائِمٍ * أَيَّامُنَا بِيَقَائِهِ نَتَّبِعُ !
وَبَقِيتَ مَا بَقِيَ الزَّمَانُ مُؤَيَّدًا * تُنْمِسِي قَرِيرَ الْعَيْنِ فِيهِ وَتُصْبِحُ !

كَلَّمَ اللَّهُ عَافِيَةَ الْمَوْتِ وَحَرَسَهُ ، وَلَا سَلَبَهُ ثَوْبَ الصِّحَّةِ بَلْ قَصَصَهُ إِيَّاهُ وَالْبَسَهُ ؛
وَأَخْدَمَهُ الْأَيَّامُ فَلَا تَسْتَطِيعُ مَخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَلَا الْخُرُوجَ عَنْ حُكْمِهِ ، وَرَزَقَهُ أَنْ يَمْلِكَ
الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا وَهَذَا يَحْصُلُ بِعَافِيَةِ جِسْمِهِ .

الْمَلُوكُ يَنْهَى أَنَّهُ أَتَّصَلَ بِهِ تَأْلُهُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَوَصَلَ مِنْ الْقَلَقِ إِلَى حَدٍّ
لَمْ يَصِلِ الْمَوْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَيْهِ ؛ وَابْتَهَلَ إِلَى اللَّهِ فِي مُعَافَاةِ جَسَدِهِ ، وَأَنْ يُعْضِدَهُ بِنِقَاءِ
وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ ؛ وَيُضَاعِفَ تَسْهِيلَ مَآرِيهِ وَمَقَاصِدِهِ ، وَيَرْفَعَ كَلِمَتَهُ وَقَدْرَهُ عَلَى رَغْمِ
مَعْطَسِ شَانِيهِ الْأَبْتَرِ وَحَاسِدِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

جواب^(١) إلى من قَنَطَرَهُ فَرُسُهُ :

ثَبَّتَ اللَّهُ قَوَاعِدَ مَجْدِهِ ، وَبَلَّغَهُ سَعْدًا لَا تَبْلُغُهُ الْآمَالُ لِبُعْدِهِ ؛ وَأَهْمَى عَلَى مُحِبِّهِ
سَحَابَ جُودِهِ وَرَفَدَهُ .

(١) جارى في هذا الفعل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد علت سلبى وجاراتها * ما قطر الفارس الا أنا

أنظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

المملوك يُخدم بتجبة أرق من النسيم ، ويشكر مواهبه التي مازالت تحنو عليه حنو
المرضعات على القطيم .

ويُنهي ورود الخبر بأنه بكاه جواده عند مازلت قوائمه ، وأثقلته فضائل المولى
ومكارمه ؛ فأنزع لذلك وتألم ، وكاد قلبه لولا المبشر بسلامته أن يتكلم ؛ وجواد
المولى لاسيّل إلى ذمه ، فإنه أشمخ جواد ، ولا أتمّاه بالعجز ، فإنه عُرف بإتهام
وإنجاد :

لِكنّه نظَر الأفلاك ساجدة * إلى عَلاك فلم تثبت قوائمه !

والمولى أولى من قابل عُدر طرفه بطرف القبول ، وأعتمد عليه دون سائر
الخيول : فإنّ المولى ولله الحمد في صحّة دائمه ، وسلامة ملازمه ؛ وهذا هو القصد
والمُراد ، والاستبشار الذي تفتّره ثغور الثغور وتعمّره البلاد ؛ جعله الله في سعي ماله
فراع ولا نقاد ، ورزقه مادعا به العبادُ الفاضل والفاضلُ العباد ؛ إن شاء الله تعالى .

أجوبة كُتب العيادة

قال في "موادّ البيان" : يجب أن تبنى هذه الأجوبة على وُصول الرقعة ،
وما صادفت المريض عليه من المرض ، وأنها أهدت روح الهدوء ، وأركدت رياح
السوء ؛ وأقبلت بنسيم الإبلال ، وتضوّعت بأرج الاستقلال ؛ وبشرت بالعافية
والسلامه ، وأذنت بالصّلاح والاستقامة ؛ وأشابه هذا .

ابن نباتة المصري :

شكر الله آفتقادهَا وأنسها ، وقلّبتها وطرسها ؛ وحمى من عارض الخطب لامين
عارض الخصب شمسها ؛ ولا أعدم الأولياء قصدها الجميل ، ووُدّها الجليل ، وإحسان

رسائلها التي كُرِّمَتْ فما صَوَّبُ النِّعَمَ لها رَسِيلٌ ؛ وأَمَتِ المَمَالِكُ يُنِيهَا التي صَحَّتْ
بتدبيره فليس غَيْرَ النَّسِيمِ عَلِيلٌ .

وَيُنْهَى وَرُودَ المَشْرِفِ الكَرِيمِ فَيَتَلَقَّاهُ المَمْلُوكُ حَيِّبًا وَإِرْدَا ، وَطَبِيبًا بِإِحْسَانِهِ وَلِلْجَسَدِ
عَائِدًا ؛ وَفَهُمُ المَمْلُوكُ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ التي مَازَالَتْ فِي فَهْمِهِ ، وَالْحُبَّةِ
الصَّادِقَةِ التي مَاعَزَبَتْ عَنْ عِلْمِهِ ؛ وَمَا تَضَمَّنَ مِنْ فُصُولٍ كَانَتْ أَنْفَعَ مِنْ فُصُولِ
أَقْرِاطٍ لِمُعَالَجَةِ جِسْمِهِ ؛ وَأَيْنَ أَقْرِاطُ مِنْ بَرَكَاتِ كِتَابِ مَوْلَانَا الَّذِي طَالَعَ مِنْهُ كِتَابُ
الشِّفَاءِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَالتَّجَاةِ مِنْ عُرْوَةِ الْبَاسِ الْوَثِيقَةِ ؛ وَأَذْنَى وَرَقَّةِ الْحِمَاءِ لِرَأْسِهِ
تَبَرُّكًا وَإِكْرَامًا وَقَالَ : نِعَمَ الْجَلَنَارَةُ الْمُعَوَّذَةُ مِنَ الشَّقِيقَةِ ، وَاسْتَنْطَبَ حُرُوفَهَا فَإِنِهَا عَنْ
أَيْدِي الكَرِيمِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَلَمْ الْعَلَامَةُ وَتَمَسَّكَ بِالسُّطُورِ فَإِنِهَا مِنْ أَسْبَابِ الصَّحَّةِ
وَالْعَلَامَاتِ ؛ وَوَافَقَتْ عِيَادَةَ مَوْلَانَا مَبَادِيَ الْعَافِيَةِ وَأَذْنَتْ بِالزِّيَادَةِ ، وَصَلَحَ خَطُّهُ
الْكَرِيمُ عَائِدًا وَمَا كُلُّ خَطٍّ يَصْلُحُ لِلْعِيَادَةِ ؛ وَمَا تِلْكَ الْجَارِحَةُ الْمُتَأَلِّمَةُ إِلَّا يَدٌ أَثْقَلَتْهَا
مِنْ مَوْلَانَا فَأَعْيَتْ وَتَأَلَّمَتْ ؛ ثُمَّ أَعَاتَهَا بِرُكْنَتِهِ هِيَ وَالْقَدَمُ بِالْحَمْلِ الْعَظِيمِ وَتَقَدَّمَتْ ؛ وَمَا
بَقِيَّةُ الْجَوَارِحِ إِلَّا عَيُونٌَ كَانَتْ تَنْتَظِرُ لُطْفَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَتَهُ وَقَدْ قَدِمَتْ ، فَشَكَرَ لَهَا
مِنْ بَرَكَاتٍ تَنْعَمُ بِهَا قَبْلَ الْجُسُومِ أَرْوَاحُهَا ، وَأَدْوِيَّةٍ قَلِيلَةٍ تُعَالِجُ بِهَا ذَوَاتُ النُّفُوسِ
فَكَيْفَ أَشْبَاحُهَا ؛ لَا بَرَحَ جَوْهَرُ كَلِمَاتِ مَوْلَانَا يُؤْذِنُ بِالشِّفَاءِ مِنَ الْعَرَضِ ، وَسِهَامِ
أَقْلَامِهِ إِذَا كَتَبَتْ عَائِدَةً أَوْ جَائِدَةً أَصَابَتْ الْغَرَضَ وَفُوقَ الْغَرَضِ .

وله : تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْهُ وَفِيهِ صَالِحُ الْأَدْعِيَةِ ، وَمَلَأَ بِحَاسِنِ ذِكْرِهِ وَرَّهَ الْآفَاقِ
وَالْأَنْدِيَةِ ، وَشَكَرْهُ بِاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ التي تَنْزِلُ بِعَارِضِ الْغَيْثِ قَبْلَ الْإِسْتِمَارِ وَتَرْفَعُ عَارِضَ
الْأَلَمِ قَبْلَ الْأَدْوِيَةِ ؛ تَقْيِيلَ مُعْتَرِفٍ بِسَاقِ النِّعَمِ ، مُقِيمٍ عَلَى صِحَّةِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْوَلَاءِ
فِي حَالَتِي الصَّحَّةِ وَالسَّقَمِ .

وينهى ورود مشرف مولانا الكريم على يد فلان عائداً من جهة العيادة ، وعائداً من جهة الصّلات المعتادة ، ومفتقداً لأعدم الأولياء في الشدة والرخاء آفتقاده ، ما كان إلّا ريثماً شيق العليل نسماته الصحيحه ، وتناول كأس ألفاظه الصريحه ، وإذا بقانون المزاج قد همّ باعتداله ، وكتاب الشفاء والنجاه قد تسنّت فوائده إقباله ، فتميّز حال الصّحة من المرص ، وأستعمل جوهر الألفاظ فعزم على زواله العرض ، وبلغ الولد فلان المشافهة وكلّ مقاصد مولانا مبتدأة مبتدعة ، والمملوك جوابها وكلّ أجوبته منوالة منوعة ، شكر الله عوارف مولانا المتّصلة ، ورسل آفتقاده التي منها العائد ومنها الصّلة .

وله : في جواب كتاب عيادة وارد في يوم عيد على يد من أسمه جمال الدين محمود . شكر الله منها التي إذا أبدت أعادت ، وإذا جادت أجادت ، وإذا كُرت الأفتقاد حلا ، وإذا تصدّت لمودات القلوب صادت ، تفصيل مخلص في ولآئه وآبئاله ، مقيم على صحة العهد والحمد في صحته وأعتلاله .

وينهى ورود مشرفة مولانا الكريمة على يد الولد جمال الدين محمود متفقداً على عاده ، مكرراً لعيادة الإحساب وإحسان العيادة ، فقابل المملوك بالحمد وإردها ، وبعوائد الاعتدال عائدها ، وفهم ماتصمته من تألم قلب المالك على ضعف المملوك ، وقلق خاطره على بدن كبيت العروض منهوك ، وأنه كان آبتداً ضعف المملوك فتألم ، ثم تلا خبر الصّحة فتلا : ولكن الله سلّم ، ثم بلغه أن آلاماً تراجعت ، وموادّ واصلت بعد ما قاطعت ، فحملته خواطر الإشفاق على تكرير العيادة ، وارتقاب فعلات الشفاء المستجاده ، جارياً من إحسانه وآفتقاده على أجمل معهود ، باعنا مشرفته

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) في الأصول "كثير" وهو تصحيف من النسخ .

وحاملها وكلاهما حسن الحال محمود ؛ فعند ما وصلأ أوصلأ كمال العافيه ، وحققت
أخيلة البرء الشافيه ؛ وما كان المشكؤ إلا مادة يسيرة وزالت ، وبقية ضعف تولت
بحمد الله وبركة مولانا وما تولت ؛ وما عيّد المملوك إلا وشفاء الجسد في ازدياد ،
والنفس بالوقت وبالمشرفة في عيدين قائمين بأعياد ؛ لازالت من مولانا إزاء اللحظ
حيث دار ، ووذه وحماء جامعين فضل الجار والدار .

زهر الريح :

لازال محروس الشيم ، هاطلة سخائه بالديم ، مشكوراً بلساني الإنسان والقلم .
المملوك يقبل يده الشريفة مؤدياً للواجب ، ويواصل بدعاء صالح أصاره إنعامه
ضربة لازب .

وينهى إلى كريم علمه ورود مشرفه الذي أبهج الأنفس وضاعف الصبا به ؛
وأفنى الصبر عن حيائه وإن كان مأفناه أيسر صبا به ؛ وأنه علم منه إنعامه وتشوفه
إلى المملوك وإلى سماع أخباره ، وما أبداه من شفقة ألقت من إحسانه وعرفت
من كريم نجاهه ؛ وتحققت من شيمه على من ينأى عن بابه العالى وداره ، فالله يحرس
هذه الأخلاق التى هى أرق من الماء الزلال ، والشائل التى تفعل بلطفها فعل
الجرىال ؛ والمملوك فوالله لا يخصى شوقه إلى الخدمة العالية ولا يحصره ، ولا يقدر
على وصف ما يسره من الاتواق ويظهره ؛ إنما الاعتماد فى ذلك على شاهدى عدل
من خاطره وقلبه ، وهما يغنيان المملوك عن شرح ولائه بالسنة أقلامه ووجوه كتبه ؛
وأما السؤال عن أخبار مزاج المملوك فإنه كان فى ألم دائم ، وسقيم ملازم : لشدة
المرض ، الذى كاذ يحتوى على جوهر جسمه والعرض ؛ فذ ورد كتاب المولى
انتعشت قوته ، واشتدت منته ؛ وصدقت فى طلب تناول الغذاء شهوته ؛ وترجى

الشفاء بعد أن كان على شفا التَّلف ، وكان له كالطبيب الآسى فى إزالة مَرَضِ
الأسا والآسَف . وقد حصلت للملوك مَسَرَّتَانِ بكتاب المولى وعافيته ، وفرحتان
بما أهداه إليه من عفو إنعامه ومحو أثر الألم وتعفّيته ؛ وكلُّ ذلك بسعادته .

ومنه : ورد المُشرفُ العالى لا زال قدراً مُرسِله شريفا ، وشرفه الباذخ يجعل
كلَّ شريف مشروفا ؛ وسحابُ جوده تُهدى إلى الأولياء من مكارمه تليدا وطريقا ؛
وقواضيه تُردُّ [طرف] حوادث الأيام عنه مطروفا ؛ وأياديه تبعثُ لمحبيه نُحفا ،
وهيبته تُهدى إلى الأعداء خوفا ، والدهرُ بخدمة جنابه العالى مشغوفا ؛ فوقف عليه
وقوف مشتاق إلى مُسطّره ، متزّه فى ربيع الفاظه وحسن أسطّره ؛ وعرف منه
إحسانا ما قَيَّ يعرفه ، وتفَضُّلا ما زال المولى بمثله يُحْفَه ؛ وما أشار إليه من شدّة
إيثاره ، لرؤية الملوك وسماع أخباره ؛ والذى يُنبئه أن جسده كان قد تضايف
ضِعْفُه ، حتى أتعَبَ الألسنة وصفه ؛ فلما وقف من مشرف المولى على خطِّ هو
الوشى المنعم ، وألفاظُ هى الرِّحيق المُختم بل الدر المنظم ؛ وسحر هو محلّ وكلِّ سحر
مُحرَّم ؛ أبَلَّ الملوك وبردت غلته ، وبرأت عِلته ؛ وكان كمن آستوفى نصيبه من
النَّصب ، وأخذ قِسمه من السُّقم والوصب ؛ فسقاه مشرفه الصّحة فى كاس ،
وأفاض عليه من العافية أنغر لباس .

آخر :

وَرَدَ الْكِتَابَ فَعَمَّتِ الْأَفْرَاحُ * وَأَضَاءَ فِي لَيْلِ الْأَسَا الْإِصْبَاحُ !
وَأَفْتَرَّ نَفَرٌ لِلزَّمَانِ بِفَرَحَةٍ * وَلِلْفُظْهِ طَرِبَتْ رَبِّي وَبِطَاحُ !
وَتَضَوَّعَتْ أَرْوَاحُ طِيبٍ عَرَفُهَا * تَحْيَا بِهِ الْأَجْسَامُ وَالْأَرْوَاحُ !
وَسَقَى سُلَافَ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ * مَا الْمَسْكُ عِنْدَ شَيْمِهَا مَا الرَّاحُ !

شكر الله مِنِّه ، وأخدمه زَمَنَه ، ومنَحَه من العِيش أغَضَه وأحسَنَه ، وشَرَف بقاءه
الدَّهرَ وشَنَّف بَدَحَه أَذَنَه .

المملوك يُنْهِي إلى علمه وُصولَ مشرّفه الذى تَزَهَّتِ الأَعْيُنُ فى حُسْنِ مَنْظَرِه ،
ويَانِج ثمارَ لفظه البديع ووَشِي أسْطُرُه ، وأنه أَسْتَشَقَّ من رِيحِه أَطِيبَ نَفَحِه ،
وتَقَمَّصَ منه ثَوْبِي دَعَا وَصَحَّه ، فشفَى دَاءَ شَفَّ منه جِسْمُه ، وزاد لُورودِه سُرورُه
وزال هَمُّه ، وعلم إِنْعامَ المولى الذى لا يَشْكُ فيه ، وإِحسانَه الذى لا يُحْضِرُه لسانُ
مادح ولا يُخْصِيه ، وما ذكره من الأَلَمِ المُلِمِّ به وأَشْتَغَالَ خَاطِرُه الكَريم لما أَلَمَ
بجِسْمِه ، والمرَضُ بِسَعَادَةِ المولى قد بَقِيَ منه قُلَّةٌ ، وتَقَلَّصَ بعدَ ما أَمْتَدَّ ظِلُّه ، والعَافِيَةُ
تَتَكَلَّمُ إِنْ شَاءَ الله تعالى بِرُؤْيَا مُجَاهِ الكَريم ومُشَاهَدَةِ ، والمُتَوَلِّينَ بَيْنَ يَدَيْهِ العَالِيَتَيْنِ
فى خَدْمَتِه .

النوع الخامس عشر (فى الذَّم)

ذَمُّ بَخِيلٍ : لأحمد بن يوسف :

كَأَنَّ البُخْلَ والشُّؤْمَ صَارَا مَعًا فى سَهْمِه ، وكَانَا قَبْلَ ذَلِكَ فى قِسْمِه ، فحَازَهُمَا
بِالْوَرَاثَةِ ، وَأَسْتَحَقَّ مَا أَسْتَمْلَكَ مِنْهُمَا بِالشُّفْعَةِ ، وَأَشْهَدَ عَلَى حِيَازَتِهِمَا أَهْلَ الدِّينِ
وَالْأَمَانَةِ ، حَتَّى خَلَصَا لَهُ مِنْ كُلِّ مَانِعٍ ، وَسَلِمَا لَهُ مِنْ تَبِعَةِ كُلِّ مُنَازَعٍ ، فَهُوَ لَا يُصِيبُ
إِلَّا مُحْطِيًا ، وَلَا يُحْسِنُ إِلَّا نَاسِيًا ، وَلَا يُنْفِقُ إِلَّا كَارِهًا ، وَلَا يُنْصِفُ إِلَّا صَاحِرًا .

وفى مثله : وَصَلَ كِتَابُكَ فَرَأَيْتَكَ قَدْ حَلَّتْهُ بَزَخَافُ أَوْصَافِكَ ، وَأَخْلَيْتَهُ مِنْ
حَقَائِقِ إِنْصَافِكَ ، وَأَكْثَرْتَ فِيهِ الدَّعَاوَى عَلَى خَصْمِكَ ، مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ أُتِيَتْ بِهِ
عَلَى دَعْوَاكَ وَزَعْمِكَ .

ومنه : ولو أراد غير ذلك من الأخلاق السنية ، الشريفة الهنيئة ؛ لاستوحش في سبلها ، ووقع في مضرة منها ، ولن يجد من سلفه ولا نفسه دليلاً عليها ، ولا هادياً إليها .

ومنه : لأبي العيناء :

أما بعد ، فلا أعلم للعرف طريقاً أحذر ولا أوعر من طريقه إليك ، ولا مستودعاً أقل زكاءً ولا أبعد ثمرة خير من مكانه عنده : لأنه يحصل منك في حسب دني ، ولسان بدى ، ونسب قصي ، وجهل قد ملك طباعك ، فالعرف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ؛ وإنما غايتك في المعروف [أن] تُحرزه ، وفي وليه أن تكفربه .

ومنه : لمحمد بن الليث :

بكم علن الظلم ، وظهرت البدع ، وأندفن الحق ، وعز الفاجر ، وظهر الكافر ، وفشت الآثام ، وقضت الأحكام ، وأخذ عباد الله خولا ، وأمواله دولا ، ودينه دخلا .

ومنه : لأبي علي البصير :

عدوك منعزل عنك ، وصديقك على وجل منك ؛ إن شاهدته عاقك ، وإن غبت عنه حاقك ؛ تسأله فوق الطاقه ، وترهقه عند الفاقه ؛ وإن اعتذر إليك لم تعذره ، وإن استنصرك لم تنصره ؛ وإن أنعم عليك لم تشكره ؛ ولا يزيدك السن إلا نقصا ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصا ؛ تسمو إلى الكبير ، بقدر الصغير ؛ وتسف للتطفيف لا للتخفيف ؛ تعترض الناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملا ، ولا كاره لأن ينظر إليك بعين الاستقلال ؛ حتى لقد أخرجت الأضغان ، وقبحت الإحسان ؛ وزهدت

في أصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، والناس منك بين أسرار تُفشى، وبوائق تُحشى، وشناعات وإرداه، ونوادِر بارده، ودُّك تحلُّق، وشكرك تملُّق .

ومنه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يعنف بالنعم عُنْف من قد ساءتُه يُجاورتها، ويستخفُّ بحقها استخفافاً من لا يخفُّ عليه محملها، ويقصر في شكرها تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها، ومن كانت هذه حاله في اختياره لنفسه، فكيف أرجو حسن اختياره لي ؟ ومن كان في مُدَّة من ابتلاء الله بعيدة ما بين الطرفين لأدرى أينفدُ بي الأجل إلى أقصاها، أم يقصّر بي في أدناها، فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ، إن الله لا يخاف الفوت فهو يمهلُه ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جلّ وعزّ إلى سلطان غيره فيعاجله ؛ وأنا على خوفٍ من إعجال المدي عن بلوغ [منأى فأذهب] ^(١) حرجاً صدرى، وعلى ثقة من الشغل في الآخرة بنفسى عن التشنّي من أهل عداوتى وترى ؛ وأحمدُ الله على المحنة ، وأسأله تعجيل روح النعمة، وفسحة العافية .

النوع السادس عشر

. (في الأخبار) .

قال في "موادّ البيان" : كُتِبَ الأخبار وإن كانت من الكُتُب الكثيرة الدّوران في الاستعمال فليست مما يمكن تمثيله ، ولا حصر المعاني الوامقة فيه برُسوم تشتمل عليها، نعم ولا أن تقدّم له مقدّمة تكون توطئة لما بعدها، كما يجري الأمر في سائر فنون المكاتبات الأخر التي لا تحلّو من مقدمات تجلّ منها محلّ الأساس من البنيان،

(١) هذه الزيادة يقتضها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجثمان ؛ لكن المقدمات التي تُوضَعُ في الكتب من شرطها أن تكون مشتقةً من نفس معنى الكتاب ، ومنه الخبر لا يمكنه أن يستنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدمة تكون بساطا له ، وإنما يقول : كتبت من موضع كذا يوم كذا ، والذي أنهيه كذا ؛ بل الذي يلزمه أن يتحداه بباطنه ، ويتحرّاه بجهد ، أن يبين ما يطالعُ به من الأخبار ، ويكشفه ويوضحه ويُفصح عنه ، ولا يقف منه إلا عند الشفاء والإقناع لتتقرر صورته في نفس من ينهيه إليه ؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدب العُدول عن لفظه الخاص به ، والإخبار عنه بالفاظٍ تؤدي معناه ، ولا يهجم على المخبر بما يسوء سماعه ، كأن يكون خبرا يرفعه إلى سلطانٍ عن عبدٍ له قد أطلق فيه ما يضع منه ويُسقط مهابته ، أو نحو من ذلك مما يتقل على السلطان المنقص منه ، فإنه ينبغي أن يعدل في هذا وأمثاله عن التصريح إلى التعريض ، ومن التصحيح إلى التثريض ، وعن المكاشفة إلى التورية ، وأن يأتي بالفاظ تدل على معاني ما يُروم إبداءه ، ويحرص [على] صورة منزلة السلطان وتوقيره عن قرع سمعه بما يكرهه ولا تجوزُ مقابلته به ؛ وأن يقصد إلى استعمال الإيجاز والإطناب في المواضع التي تحتمل كلا منهما ، فهذا ما يمكن أن يُتعرّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نقد فهمه وخاطره في الصناعة وتدرّب فيها ، يكتفي بهذه اللّمة ولا يحتاج إلى زيادة عليها .

في الإخبار بوقوع مطر وسيل

من ترسل أبي الحسين بن سعد :

فالماء منه يفيض على العمران ، بعد أن ضاقت به المغايص والغدران ؛ فأني على كثير من التلال والروابي ، فضلا عن الرساتيق والقرى ؛ وصار الوادي على اتساع

عَرْضُهُ ، وَامْتِدَادِ طَوْلِهِ ، وَسَعَةِ مَصَبِّهِ ، وَفُسْحَةِ مَغِيْضِهِ ، لَا يَفِي بِهِضْمُهُ ، وَلَا يَقُومُ بِجَمَلِهِ ؛ فَفَاضَ مِنْهُ مَا عَطَّلَ الْعُمُرَانُ وَنَسَفَ الدُّورُ وَحَقَّ الزُّرُوعُ ، فَعُظِمَ بِهِ الْبَلَاءُ ، وَكَثُرَ لَهُ الْجَلَاءُ ، وَشَمِلَ الْفَسَادُ ، وَعُظِمَ الْخَرَابُ .

صدر كتاب بإخبار عن الخليفة :

كُتِبَتْ ، وَمَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَطُّدٍ مِنْ خِلَافَتِهِ ، وَتَمْهِيدٍ مِنْ دَوْلَتِهِ ، وَعُلُوٍّ مِنْ رَأْيِهِ ، وَنَفَازٍ مِنْ كَلِمَتِهِ ، وَعِزٍّ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَارْتِفَاجٍ مِنْ شَانِهِ ؛ وَنِعَمٌ سَابِغَةٌ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ طَاعَتِهِ ؛ قَالِصَةٌ عَنْ أَعْدَائِهِ وَأَهْلِ مَخَالَفَتِهِ ، وَاسْتِقَامَةٌ مِنْ أَطْرَافِهِ وَتُغُورِهِ ، وَاسْتِثْبَابٍ مِنْ أَحْوَالِهِ وَأُمُورِهِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِحْسَانِهِ حَمْدًا لَا يَقِفُ دُونَ رِضَاهُ ، وَلَا يُحِيطُ بِمِقْدَارِهِ سِوَاهُ .

صدر بإخبار عن الوزير :

كُتِبَتْ ، وَحَضْرَةُ الْوِزَارَةِ السَّامِيَةِ فِي نِعَمٍ مُحْصَبَةٍ الْأَكْثَافِ ، بِعِيدَةِ الْأَطْرَافِ ، سَادِرَةِ الْوَيْلِ ، سَاحِبَةِ الدَّلِيلِ ؛ وَمَا أَنْظَرُ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دَوْلَتِهِ مَنِظَمٍ ، وَأَرَاغِيهِ مِنْ أَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ مُلْتَمِمْ ؛ وَقَدْ وَطَأَ اللَّهُ لَهُ أَوْعَارَ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْيِيرِ ، وَوَقَفَهُ عَلَى جَوَادِّ الْمَصْلَحَةِ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَسْتَقِلُّ بِحَقِّهِ فَيَقْضِيهِ ، وَبِوَاجِبِهِ فَيُؤَدِّيهِ ، وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ عِزُّ سُلْطَانِهِ فَيَرْضِيهِ .

صدر بإخبار عن أمير :

كُتِبَتْ ، وَالْأَمِيرُ فِي عُلُوٍّ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَارْتِفَاجٍ مِنْ شَانِهِ ، وَظَفَرٍ يُوَاكِبُ أَلْيَتَهُ ، وَنُصْرِ يُصَاحِبُ دَوْلَتَهُ ؛ وَوَفَى عَلَى مَنْ ظَلَّهِ ، وَشَمِلَنِي مِنْ فَضْلِهِ ، مَا سَبَغَ لِبَاسُهُ ، وَطَابَتْ أَغْرَاسُهُ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ اعْتِرَافًا بِنِعْمَتِهِ ، حَمْدًا يُوجِبُ شُمُولَ مَتْنِهِ ؛ وَيَسْتَدْعِي الشُّكْرَ عَلَيْهَا ؛ وَيَقْضِي بَمَزِيدٍ مِنْهَا .

صدر باخبر عن عافية المكتوب عنه :

كُتِبْتُ ، وأنا صالحُ الحال ، وقد مَنَّ اللهُ تعالى بالعافية والإنعاش ، والإقالة
والا^(١)ش ؛ وأعاد إلى الصحة بعد نبوِّها وذهاها ، والسلامة بعد تجعُّها وإغراها ؛
وأَسْبَلَ النِّعْمَةَ بعد الإنذار ، والتحذير من الإغترار ؛ ممحِّصاً بما أَلَمَّ من الآلام
عَصَبَ الأيام ؛ والحمد لله أولى ما نِلَيْتُ به النِّعَم ، وطُرِّز به المِفْتَاحَ والمُخْتَمَ ؛ حمداً
يؤمن من التغيير والتبديل ، ويُعيذ من الانتقال والتَّحوِيل .

أَبْنَى الخصال ، في الإخبار عن زلزلة عظيمة وقعت بمدينة قُرْبَةَ من الأندلس .
الشيخُ الأَجَل ، الوليُّ الأَكْرَمُ الأَفْضَل ؛ أبو فلان ، الذي أطرَفَهُ اللهُ تعالى
بعجائب الأخبار ، وأذهب به في مَسْلَكِ الأَظْهَارِ وَمَنْهَجِ الأَدِّكارِ ؛ أبقاه الله أَخِذاً
في سَنَنِ الأَترعاجِ ونَهْجِ الأَزْدِجارِ . المَخْلُصُ له المَخَصُّ النَّاصِعُ من الوَلَاءِ ، ومَعْرِفَةُ
غَرِيبِ الأَمَارِ وعَجِيبِ الأَنْبَاءِ ؛ فلان .

سلامٌ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي جعلَ عبْرَهُ أنواعاً متلوِّنةً وصُنُوفاً ، وأرسلَ الآياتِ
(وما تُرْسَلُ بِالآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) . والصلاة على سيدنا محمد المصطفى صلاة طيبة
تُعْقِبُ تَأْرِيجاً وتَضُوعُ تَعْرِيفاً ؛ وعلى آله وأصحابه الطاهرين الذين حَضَرُوا حُرُوباً
وشَهِدُوا زُحُوفاً ؛ والدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين في نصير عزيز يُؤَسِّسُ مَدْعُوراً
ويؤمنُ مَخُوفاً ، فإني كُتِبْتُه - كتبَ اللهُ لَكُمْ دَعَةً حَافِظَةً وَأَمَاناً ، وتصدقاً بآياتِ اللهِ
البينة وبرهانها - من موضع كذا ، عند ما طرأ علينا ما حَلَّ العُيُونَ بِقَدَّاهَا ، ومنعها لَدَيْدَ
كَرَاهَا ، وأخفَقَ الضُّلُوعَ الحَانِيَةَ وأَقْلَقَ مَصَارِينَ حَشَاهَا : وهو أَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ

(١) بيض في الأصول لهذا الحرف .

ذَكَرَ عِبَادَهُ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ، وَنَبِيَّهُمْ إِنَّ تَنْبَهُوا وَلَمْ يَأْمَنُوا مِنْهُ كَيْدًا مُبِيرًا وَلَا مَكْرًا؛
وَذَلِكَ بَزْزَالِ قَضَى بِهِ عَلَى قُرْطُبَةَ وَبَعْضِ أَعْمَالِهَا، وَمَلَأَ نَفُوسَ سَائِكِيهَا مِنْ رَوْعَاتِهَا
وَأَوْجَالِهَا؛ وَحَالَتْ لَذَلِكَ فِي الْخَوْفِ وَالْأَرْتِفَاعِ أَقْبَحَ حَالِهَا؛ حَتَّى نَحْوًا إِلَى الْإِسْتِكَانَةِ
وَالضَّرَاعَةِ، وَأَطَاعَ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ طَاعَةٌ؛ وَخَشُوا بَلْ كَانُوا يُوقِنُونَ
أَنَّهَا زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ . وَكَانَ مِنْ عَظِيمِ آثَارِهَا، وَكَرِيهِهِ إِيْرَادِهَا وَإِصْدَارِهَا، أَنَّهُدَامُ الْقُبَّةِ
الْعُظْمَى فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ صَانَهُ اللَّهُ، وَكَانَتْ قُبَّةٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى بِنَاؤُهَا، وَذَهَبَ
فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ذِكْرُهَا الْعَاطِرُ وَتَنَاوُهَا؛ وَتَهَدَّمَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْهَدْمِ دِيَارٌ
كَثِيرَةٌ، وَحَدَّثَ بِهِ خَوَادِثُ مُبِيرَةٍ . وَأَمَّا تَلَوُكَ مِنْ أَعْمَالِهَا، وَكَانَ فِيهَا مَبْنَى مِنْ مَبَانِي
الرُّومِ، فَإِنَّهُ غَادَرَهَا قَاعًا صَفْصَفًا، وَقَرَأَ نَفَقًا؛ وَأَضْطَرَّ ذَلِكَ الْخَطْبُ الْفَادِحَ، وَالرَّيْحُ
الْقَادِحَ؛ إِلَى أَنْ خَرَجَ السَّيِّدُ أَبُو إِسْحَاقَ وَكَافَّةُ أَهْلِ قُرْطُبَةَ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَفَرُّوا مِنْ
الْمَوْتِ بِأَقْوَاتِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ؛ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَدَارَكَ بِالرَّحْمَى، وَكَشَفَ تِلْكَ
الْغُمَّى، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ صَقْلًا لِقُلُوبِنَا، وَتَوْبَةً عَمَّا سَبَقَ مِنْ ذُنُوبِنَا؛ وَعَصَمَنَا
مِنْ جُرْمِنَا الْمُؤَيِّقِ وَخُوبِنَا، وَأَوَّلَانَا وَإِيَّاكُمْ أَمْنًا مِنَ الْغَيْرِ، وَأَزْدَجَارًا بِمَا ظَهَرَ مِنْ
الْعَبْرِ؛ وَجَعَلَ كَلَامًا جَمِيلَ الْخَوَادِثِ طَيِّبَ الْخَبَرِ، بِمَنَّةٍ؛ وَالسَّلَامُ الطَّيِّبُ الْمُبَارَكُ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

من كلام المتأخرين في الإخبار بقدم نائب إلى نيابة .

من ذلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلى كافل الممالك الإسلامية مُخْبِرًا لَهُ بِوُصُولِهِ
إِلَى دِمَشْقَ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ . وَهُوَ بَعْدَ الْأَلْقَابِ :

(١) لعله في الخفض .

(٢) جرى الكاتب في كلامه على لغة من يعزبها أعراب المقصور على حد قوله :

نعم الفتى عمدت إليه مطبق * في حين جد بنا المسير كلانا شرح الأشموني

لا زالت آفاق الممالك مُضيئةً بأنوار شمسه، هنيةً بأنس سعادته وسعادة أنسه؛
سنيةً المقاصد التي قام في كفالتها بنفاسة نفسه؛ ولا يرح يستثمر من خير الدنيا
والآخرة ما قدم صنعه الجميل من غرسه . تقبيلًا يُشافه به القلم القرطاس، ويود
المملوك لو شافه به الخدم ساعيًا سعى القلم على الرأس . وينهى قيامه بوظائف دعاء
يسير الحلك، وولاء يدور بكواكب الإخلاص إدارة الفلك؛ وخمد تذهب به
صفحات الصحف حيث ذهب وتسلك عُقود الأفلاك حيث سلك، وأنه خدم
بهذه العبودية عند وروده إلى دمشق المحروسة لنيابة كانت عناية مولانا سفيرة
أمرها، وميزة برها، يوم كذا؛ وسعادة مولانا السلطان - خلد الله ملكه - تعلمه
وتعلمه، والغيث بركات الدولة القاهرة يسيره ويقدمه؛ وتغر المطر يسابق نغز
المملوك إلى مشافهة الثرى ويلثمه؛ والرعية منه آمنة في سربها، وادعة بظلال
الأبواب الشريفة مع بعدها دعة الصوارم في قُرُوبها، وباكر المملوك يوم الاثنين
الذي بُورك فيه : في الخميس من يوم وجيش، وأنتصب لمهمات على مثلها
في الخدمة يطيب أن يرفع لين العيش؛ مجتهدا فيما هو بصدد، مستمدا من ربه
عز وجل وسعادة سلطانه برشده، معتدا نعم مولانا فيما يأتي [في] ذلك من أوفى وأوفر
عده ومدده، والله تعالى يعين المملوك على شكر من مولانا الباطنة والظاهره،
والغائبة والحاضرة، والمقيمة والمسافره، ويصل نفع المملوك بولائه في الدنيا والآخرة؛
ويقيم الرعايا بالأمن في كفالاته التي مابرحت بعيون الأعداء فإذا هم بالساهره .

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال في "مواد البيان": الأخبار على أكثر الأحوال لأجوبة لها، وإنما هي
مطالعات بأمور يُنهى الخدام، وأصحاب البرد إلى السلاطين، مما تخرج أو أمرهم

إلى الولاية بما تَضَمَّتْه : مما يقتضيه كل خبر ينهى من سياسة عامة ، أو مصلحة تامة . قال : فأما ما يستعمله الإخوان في المكتبة بالأخبار التي يكلُّ بعضهم إلى بعض الأخبار بها ، فمنها ما يقتضى الجواب ، ومنها ما لا يقتضيه . قال : وأجوبة ما يقتضى الجواب منها تُفَتَّنُ بحسب آفتان الأخبار والأغراض التي يجب المحيَّب بها ، وهو أيضا مما لا يعبر عنه بقوى جامع ولا برسم رسم كلِّي ، وإنما يرجع فيه إلى الأمور التي يبتدأ بها ويُجاب عنها .

النوع السابع عشر (المُدَاعِبَةُ)

قال في "موادّ البيان" : ومعاني المُدَاعِبَاتِ التي يستعملها الإخوان غير مُتَنَاهِيَةٍ ، والأغراض التي يَنْتَظِمُهَا المِزَاج وتُعَدُّ من طَلَاقة النفس لا تَقِفُ عند قاصيه : لأنها مستملاة من أحوال متباينة ، ومأخوذة من أمور غير معينه ، وحضرها في رسوم جامعة يستحيل ، وتمثيلها غير مفيد : لأنه لا تعلق لبعضها ببعض ، ولا نسبة بين الواحد والآخر ، ثم قال : والأحسن بأهل الوداد والصفاء ، والأليق بذوى المخالصة والوفاء ، أن يتزَّهوا في المُدَاعِبَةِ الدائِرة بينهم عن بدى اللفظ ومفحشه ، ومؤلم الخطاب ومقذعه ، ويكفوا اللسان واليد عن الإطلاق بما يدل على خفة الأحلام ، والرضا بالرذل من الكلام اللائق بسفهاء العوام ، ويتخرجوا من إرسال قول يتقو وضمة على [مدى الأيام] إذ لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد ، وقد نطق بهذا المثل : لما في ذلك من الترفع عن دنايا الأمور التي لا يتنازل إليها الكرماء ، والتزّه عن المساقط التي لا يستعملها الأدباء ، وصيانة المروءة عما يشينها ويحدثها ، وتوقيها

عما يَنْقُصُهَا ، والأَمْنِ من الجواب الذي رُبَّمَا قَدَحَ في النفس وأَثَّرَ ، وأَحْمَى الصَّدْرَ وأَوْغَرَ ؛ ونَقَلَ عن التَّوَادُّدِ إلى التَّضَادُّدِ ، وعن التَّدَانِي إلى التَّبَاعُدِ ؛ وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين على كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَرُبَّ كَلَامٍ يُمِصُّ الْحَشَا * وَفِيهِ مِنَ الضَّحْكِ مَا يُسْتَطَابُ

مع مُرَاعَاةِ السَّلَامَةِ من المُدَاخَلَةِ المُنْطَوِيَةِ عَلَى الفِلِّ ، والمُرَاةِ المَبْنِيَةِ عَلَى المَكْرِ ؛ إذا لم يَكُنْ لِلْمَقَابَلَةِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ المِصُّ بالجواب المريض ، وغير ذلك مما لَا تُؤْمَنُ عَاقِبَتُهُ ، وَلَا تَحْسُنُ عَائِدَتُهُ . قال : ويكون المستعمل في هذا الفنَّ مَا خَفَّ مَوْقِعُهُ ؛ وَلَطْفُ مَوْضِعِهِ ، وَهَشٌّ لَهُ سَامِعُهُ ؛ وَتَلَقَّاهُ الْوَارِدُ عَلَيْهِ مُسْتَحْلِيًا لِنَّارِهِ ، مُسْتَدْعِيًا لَأَنْظَارِهِ ، وَلَا يُعَدِّلُ بِهِ عَنْ سَمْتِ الصَّدْقِ ، وَطَرِيقِ الْحَقِّ ، وَمَذْهَبِ التَّحَرُّزِ مِنَ المَذْقِ ؛ وَيُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى النَادِرَةِ المُسْتَطَرَفَةِ ، وَالنُّكْتَةِ المُسْتَطَرَفَةِ ؛ وَاللُّغَةِ المُسْتَحْسَنَةِ ، وَالفِقْرَةِ المُسْتَغْرَبَةِ ، دُونَ الإِطَالَةِ المُمْلَةِ ، وَلَا يَجْعَلُ المَزْحَ غَالِبًا عَلَى الكَلَامِ ، مُدَاخِلًا لْجَمِيعِ الْأَقْسَامِ : فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ مَعَانِيَ المَكَاتِبِ ، وَيُجِلُّ نِظَامَ المَخَاطَبِ ، وَيَضَعُ مِنْ مَعْنَاهَا وَإِنْ كَانَ شَرِيفًا ، وَيُوْخِمُ لَفْظَهَا وَإِنْ كَانَ لَطِيفًا ؛ وَيَذْهَبُ بِجِدِّهَا فِي مَذْهَبِ الهَزْلِ وَيُمِيلُهُ عَنِ الْقَصْدِ ؛ وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ :

أَفَدِ طَبَعَكَ المَكْدُودَ بِالْجِدِّ رَاحَةً * بَلْهُوٍ وَعَلَّةٌ لِشَيْءٍ مِنَ المَزْحِ !

وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ المَزْحَ فَلْيَكُنْ * بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ المِلْحِ !

وَأَنْ يَقْتَصِدَ مَعَ ذَلِكَ . ثم قال : وَيَنْبَغِي أَنْ يَقْصِدَ إِلَى اسْتِجَالِ الدَّعَابَةِ فِي المَوَاضِعِ اللَّائِقَةِ بِهَا ، وَالْأَحْوَالِ المِشَابِهَةِ لَهَا ؛ وَلَا يُودَعُ بَابًا مِنَ الْأَبْوَابِ ، مَا لَا يَحْتَمِلُهُ مِنَ الْخَطَابِ : فَإِنَّ الْقَصْدَ فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ المَكَاتِبَاتِ إِنَّمَا هُوَ الْإِعْرَابُ عَنِ الظَّرْفِ وَالبَرَاعَةِ ، وَالْإِبَانَةُ عَنِ طَلَاقَةِ النَّفْسِ ؛ وَالْإِنْسِلَاخُ مِنْ تَعْبِيسِ الْفَدَامَةِ

والجَهَامَة ؛ ثم عَقَّبَ ذلك بأن قال : وَمَنْ وَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَدِّ الْكَافِي ، وَلَزِمَ فِيهِ الْأَدَبَ اللَّائِقَ بِأَهْلِ النَّصَافِي ، دَلَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ ، وَشَهِدَ لِمُسْتَعْمَلِهِ بِإِحْرَازِ مَا وَصَفْنَاهُ ؛ وَمَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ عُدَّ مِنَ الْمُجُونِ وَالْمُلَاعِبَةِ ، وَحُسِبَ مِنْ رَذَالَةِ الطَّبَعِ وَنَذَالَةِ الْخَلِيمِ وَسَفَهَةِ اللِّسَانِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِالْكَاتِبِينَ الْكَرَامِ ، الَّذِينَ هُمْ خِيَارُ الْأَنَامِ ، وَوُلَاةُ النَّقِصِ وَالْإِبْرَامِ . وَخَتَمَ ذَلِكَ بِأَن قَالَ : وَالْكَاتِبُ إِذَا كَانَ مَهِيًّا طَبِيعًا لِلْأَنْطِبَاعِ بِرُسُومِ الصَّنَاعَةِ وَمُنَاسِبَةِ أَوْضَاعِهَا ، أَغْنَاهُ الْوُقُوفُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمَجْمَلِ فِي اسْتِعْمَالِ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ تَمْثِيلِ مَفْصَلٍ . وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ مِثَالًا .

ابن أبي الخصال :

سَيِّدِي وَوَاحِدِي الَّذِي أَبْجَلَّ ذِكْرَهُ ، وَأَوَّلِي شُكْرِهِ ، لَا زَالَ مَعْنَاكَ رَحِيبًا ، وَزَمَانُكَ خَصِيْبًا ؛ وَلَا زِلْتَ تَأْخُذُ لِأَنْحَاكِ نَصِيْبًا ؛ عَبْدُكَ فَلَانٌ مُؤَدِّهَا يَنْتَجِعُ الْكَرَامَ ، وَيُبَارِي فِي جَرِيهَا الْأَيَّامَ : فَتَارَةً يَجْمَعُ ، وَأُخْرَى يُفَرِّقُ ؛ وَطَوْرًا يُغْرِبُ ، وَطَوْرًا يُشْرِقُ ؛ وَأُمُّ الْحَضْرَةِ - وَصَلَّ اللَّهُ حِرَاسَتَهَا ، وَأَدَامَ بَهْجَتَهَا وَتَقَاسُتَهَا - وَالْمُلْكُ بِهَا غَضُّ الشَّبَابِ ، أَخْضَرُ الْحُلُبَابِ ؛ وَإِحْسَانُكَ إِحْسَانُكَ ، وَمَكَانُكَ مِنَ الْمُرُوءَةِ مَكَانُكَ ؛ فَأَوْسَعُهُ قِرَى ، وَأَمْلَأَ عَيْنِيهِ عَلَى الشَّبَعِ كَرَى ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، بَلْ أُنْجِدُهُ تَبْنَا وَعَلَفَا ، وَأَرْكَبُهُ حَزَنَا مِنَ الْأَرْضِ ظَلَفَا ؛ وَدُونَكَ لَمْ يَقْلَبْ أَرْضَهُ بَيْطَارٌ ، وَلَا لِحْنَانِيَّةٌ بِهِ جَبَّارٌ ، وَجُرْحُهُ جَبَّارٌ ؛ وَعِنْدَهُ كَمَا عَلِمْتَ دَعَاءُ مُبَاحٍ ، وَتَشَاءُ فِي الشُّكْرِ مَسَاءٌ وَصَبَاحٌ ؛ وَالسَّلَامُ .

(١) الظلف بالتحريك ما غلظ من الأرض فلم يؤد [أى لم يظهر] أثرًا . انظر اللسان ج ١١

من كلام المتأخرين :

كتب بعضهم إلى كمال الدين بن الأثير ، وقد جاء إليه في بستانه فلم يجده ولا وجد من أنصفه .

حضر المملوك البستان ، مستدياً فطوف الإنعام والإحسان ، واستمطر سحاب فضله ، وهز إليه يجذع نخله ، فلم تتساقط عليه رطباً جنيّاً ، فعلم أنه قد جاء شيئاً قريباً ، فثبت نفسه مع تصاعد الأنفاس ، والطمع يشده :

* مافي وقوفك ساعة من بأس *

فانطلق حتى أتى القرية مستطعاً أهلها فأبوا أن يضيفوه ، مستعطفا حاشيته الرقيقة فأبوا حاشيته أن يستعطفوه ؛ وقال كل منهم : تَطَالِبُ بالقرى كما تَطَالِبُ بدينك ! أرجع حيث شئت هذا فراقُ بني وبنيك ! وعلم أنه لو أقام بها جداراً لما أُعطي عليه أجراً ؛ ولو حاول قرى لسمع من التوبيخ ما لم يستطع عليه صبراً ؛ فرجع بخفى حنين ؛ بعد مشاق جرعت كاسات الحين ؛ فأين هذه المعاملة مما نشيعه عنه من كريم الخلال ، وكيف نسكو نقص حظ وله كمال الإحسان وإحسان الكمال .

الأجوبة عن رقاع المداعبة

قال في "مواد البيان" : ينبغي للجب عن المداعبة أن يشتق من نفس الابتداء جواباً مناسباً لها ، وأن يئنه متى أحب الأخذ بالفضل على المسامحة ، وأطراح المناقشة ، والإغضاء عما يمس إبقاء على المودة ، وتحسيناً لقبح الصديق ، وتعوذاً لعادة الحلم والاحتمال ؛ وأن يهَب في الجواب مذهب الاختصار ؛ وإيراد النكت الرائعة كما في الابتداء ، على ما تقدم .

(١) كذا في النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصل الثامن^(١)

(في إخفاء ما في المكتوب من السر)

وهو مما تمس الحاجة إليه عند اعتراض معترض من عدو ونحوه يحول بين المكتوب عنه والمكتوب إليه : من ملكين أو غيرهما حيث لم تُفد المَلَطَفَات لضرر الرصد وزيادة الفحص عن الكتب الواردة من الجانيين، وهو على نوعين :

النوع الأول

(ما يتعلق بالكتابة، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما يتعلق بالمكتوب به)

وذلك بأن يكتب بشيء لا يظهر في الحال، فإذا وصل إلى المكتوب إليه فعل فيه فعلا يكون مقررا بين المتكاتبين من إلقاء شيء على الكتابة، أو مسح به شيء، أو عرّضه على النار ونحو ذلك .

وقد ذكروا لذلك طرقا :

منها — أن يكتب في الورق بلين حليبي قد خلط به نوسادر فإنه لا ترى فيه صورة الكتابة، فإذا قرب من النار ظهرت الكتابة .

ومنها — أن يكتب في الورق أيضا بماء البصل المعتصر منه فلا ترى الكتابة فإذا قرب من النار أيضا ظهرت الكتابة .

(١) أي من الباب الثاني من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهي ثمانية لاسعة وتقدم في ج ٦ ص ٣٦٥

أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يَكْتُبُ فيما أراد من وَرَقٍ او غيره بماءٍ قد خُلِطَ فيه زاجٌ، فلا تَظْهَرُ الكتابةُ، فإذا مَسَحَ بماءٍ قد خُلِطَ فيه العَفْصُ المدقَّق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُبَ في الورق غيرِ المُنَشَّى بالشَّبِّ المحلول بماء المطر؛ ثم يُلقِيهِ في الماء أو يَمْسَحُهُ به، فإنه إذا جَفَّ ظهرت فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُبَ بِمِرَّةِ السَّلْحَفَةِ فَإِنَّ الكتابةَ بها تُرَى في الليل ولا تُرَى في النهار .

ومنها — أن تأخُذَ الليمونَ الأسودَ وعُروَقَ الحَنْظَلِ المَقْلُوءَ بزيتِ الزيتونِ جَزَائِنَ مُتساوِيَيْنِ وتَسَحِّقَهُمَا ناعِمًا، ثم تُضَيِّفُ إليهما دُهْنَ صَفَارِ البَيْضِ وتَكْتُبُ به على جسد من شئتَ، فإنه يَنْبُتَ الشَّعْرُ مكانَ الكتابةِ، وهو من الأسرارِ العَجِيبَةِ؛ فإذا أُريدَ إرسالُ شَخِصٍ بكتابٍ إلى مكانٍ بعيدٍ، فُعلَ به ذلك، فإنه إذا نَبَتِ الشَّعْرُ قُرِئَتِ الكتابةُ .

الضرب الثاني

(ما يتعلق بالخَطِّ المكتُوبِ)

بأن تكون الكتابةُ بِقَلَمٍ أَصْطَلَحَ عليه المُرْسَلُ والمُرْسَلُ إليه لا يعرفُهُ غيرُهُما من لَعَلَّه يَقِفُ عليه، ويسمى التعمية، وأهلُ زماننا يَعْبُرُونَ عنه بِحَلِّ المَتَرَجِمِ، وفيه نظر: فإنَّ التَرْجُمَةَ عبارةً عن كَشْفِ المَعْنَى، ومنه سُمِّيَ المَعْبَرُ لغيره عن لُغَةٍ لا يَعْرِفُهَا بُلُغَةً يَعْرِفُهَا بالتَّرجُمانِ؛ وإليه يَنْحَلُّ لَفْظُ الحَلِّ أيضًا؛ إذ المرادُ من الحَلِّ إزالةُ العَقْدِ فيصيرُ المرادُ بِحَلِّ المَتَرَجِمِ تَرْجُمَةَ المَتَرَجِمِ أو حَلَّ الحَلِّ، ولو عبَّرَ عنه بِكَشْفِ المَعْنَى لكان أَوْفَقَ للغرضِ المطلوبِ .

ثم مبنى ذلك على قاعدتين :

القاعدة الأولى — كيفية التعمية .

اعلم أن التعمية بالنسبة إلى كل واحد من الناس باعتبار ما يجهله من الخطوط ، فيعمى على العربى في اللغة العربية بالخطوط غير العربية ، كالرومية والعبرانية ونحوهما ، إذا كانت حروف تلك اللغة توافق لغة العرب ، أو بقليل مصطلح عليه على وفق حروف العربية ؛ وكذلك يعمى على غير العربى من الرومى ونحوه ممن يجهل الخط العربى بالقلم العربى ، وعلى ذلك .

ثم للناس في التعمية مذهبان :

المذهب الأول — أن يكتب بالأقلام القديمة التي ليست بمتداولة بين الناس مما لا يعرفه إلا الآحاد ، إذا وافق ذلك القلم اللغة التي تريد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابن الدريهم أن أقل اللغات المغل وهو سبعة عشر حرفاً ، وأطولها الأرمني ، وهو ستة وثلاثون حرفاً^(١) . ثم قال : والتركى عشرون حرفاً ، وكذلك الفارسي إلا أن في الفارسي ثلاثة أحرف ليست في التركى ، وهى الهاء والفاء والدال . وفي التركى ثلاثة ليست في الفارسي : وهى الصاد والطاء المهملتان والقاف ، والعبراني والسرياني اثنتان وعشرون حرفاً [من أول أبيجد إلى آخر قرشت . واليوناني والرومى القديم أربعة وعشرون حرفاً]^(٢) ولهم قلم آخر ثلاثون حرفاً ، والقبطى اثنتان وثلاثون حرفاً ، وذكر أن جميع الأقلام مقطعة الحروف على اصطلاح أبيجد ، خلا العربى والمغلى

(١) في هذا الحصر مخالفة لما تقدم في ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفاً فتنبه .

(٣) زائد في بعض النسخ .

والسرياني فإنَّ حروفها تُوصَل وتُقطَع ، وقطع السرياني كالعربي ، وأقلام المتقدمين المقررة : كالرومي والفَرَنْجِي وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلى التمثيل بشيءٍ منها .

المذهب الثاني — أبن يَصْطَلِح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره وحروف يُصَوِّرُها ؛ وقد ذكر ابن الدُرَيْهِم أنَّ الناس اختلفت مقاصدُهم في ذلك :

فمنهم — من يَصْطَلِح على إبدال حرفٍ معيَّن بحرفٍ آخر معيَّن حيث وقع في القلم المعروف بالقُمِّي ، وهو أنهم جعلوا مكان كلِّ حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها ؛ فجعلوا الكاف ميماً وبالعكس ، والألف واواً وبالعكس ، والدال المهملة راءً مهملةً وبالعكس ، والسين المهملة عينا مهملةً وبالعكس ، والفاء ياءً مثناةً تحتيةً وبالعكس ، فيكتب محمد « كطكر » وعلى « سفف » ومسعود « كعسار » وعلى ذلك ، وقد نظم بعضهم ذلك في بيتٍ واحد ذكر فيه كلَّ حرف تلو ما يُبدل به ، وهو :

كَمْ أَوْ حِطَّ صِلَا لَهُ دَرَّ سَعٌ * فِي بَزَّ خَيْشٍ غَضٌّ ثَجَّ تَدَفَّقْ

قال : ومنهم — مَنْ يَعْكِسُ حروفَ الكلمة فيكتب محمد « دحم » وعلى « يلغ » .

ومنهم — مَنْ يُبَدِّلُ الحرفَ الأوَّلَ من الكلمة ثانياً مُطلقاً في سائر الكلام فيكتب محمد أخو على « حدم خا عويل » إلى غير ذلك من التميزات .

ومنهم — مَنْ يُبَدِّلُ الحروفَ بأعدادها في الجُمْل ؛ فيكتب محمد أربعون ، وثمانية ، وأربعون ، وأربعة ، وتعمل التعميةُ صفةً محاسبةً .

ومنهم — مَنْ يَكْتُبُ عِوَضَ عددِ الحرفِ حُرُوفاً وهو البُلُغُ في التعمية ؛ فيكتب محمد « لى بو لى اج » لأنَّ اللامَ والياءَ بأربعين وهى عدد مائتين الأولى ، والباء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما لليم الثانية، والألف والجم بأربعة وهى عدد ما للدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد .

ومنهم — من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره .

ومنهم — من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين على ترتيبها على حروف أبجد : فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجم للثريا ، وهكذا إلى آخرها ، فيكون بطن الحوت للغين من ضغط . وربما أصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التعمي التي لا يأخذها حصر . وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يختارها قلبا له مقطعة على ترتيب حروف المعجم . والطريق في ذلك أن يثبت حروف المعجم ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لا يماثل الآخر ، فكلما جاءه في اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقع عليه غلط ، ثم يفصل بين كل كلمتين : إما بخط أو بنقط أو بياض أو دائرة أو غير ذلك ، وأكثر المتقدمين يجعلون الحرف المشدد بحرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفا واحدا ، وهذه صور حروف مترجم كان قد وصل إلى الأبواب السلطانية من مناصحين في بغداد يقاس عليه

ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص
ه	ظ	لا	س	م	ع	ف	هـ	ك	م	ط	ع	ح	و
ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	هـ	و	لاي
لا	ن	م	هـ	سج	مى	لا	د	هـ	ل	لد	هـ	نم	

القاعدة الثانية — حلّ المعنى، وهو مقصودُ الباب ونتيجته .

ويحتاج المتصدى لذلك مع جَوْدَةِ الحَدْسِ وذَكَاءِ الفِطْرَةِ أن يَعْرِفَ اللُّغَةَ الَّتِي يَرُومُ حَلَّ مَتَرَجِمِهَا مَا وَقَعَ بِهِ التَّعْمِيَةُ فِيهَا، وَمِقْدَارَ عِدَدِ حُرُوفِهَا؛ وَلَا خَفَاءَ فِي أَنَّ حُرُوفَ الْعَرَبِيَّةِ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ الْحُرُوفَ الَّتِي تَدْخُلُ كُلُّ لُغَةٍ وَالْحُرُوفَ الْمُتَنَعَةَ الْوُقُوعَ فِيهَا كَمَا تَقْدَمُ .

ثم المَعْوَلُ عَلَيْهِ، وَالْمَنْصَبُ الْقَوْلُ إِلَيْهِ، فَمَا هُوَ مُتَعَارَفٌ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ لُغَةُ الْعَرَبِ الَّتِي [هِيَ] أَشْرَفُ اللُّغَاتِ وَأَبْذَخُهَا .

وَالنَّاضِرُ فِي حَلِّ مَتَرَجِمِهَا يَحْتَاجُ إِلَى أَصْلَيْنِ :

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ — مَعْرِفَةُ الْأُسِّ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْحَلُّ، وَالَّذِي تَمَسُّ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنْ ذَلِكَ سَبْعَةُ أُمُورٍ :

أحدها — أَنْ يَعْرِفَ مَقَادِيرَ الْحُرُوفِ الَّتِي تَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَةُ .

وَأَعْلَمَ أَنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ مِنْهُ مَا يُبْنَى عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِثْلَ «ق» مِنَ الْأَمْرِ بِالْوَقَايَةِ، وَ«ع» مِنَ الْأَمْرِ بِالْوَعْيِ؛ وَمِنْهُ مَا يُبْنَى عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَفْعَالِ مِثْلَ «قُمْ» فِي الْأَمْرِ بِالْقِيَامِ، وَ«كُلْ» فِي الْأَمْرِ بِالْأَكْلِ؛ وَمِنْ الْحُرُوفِ نَحْوُ : مَنْ فِي رَبِّ هَلْ بَلَّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ وَمِنْ الْأَسْمَاءِ الْمَبْنِيَّةِ نَحْوُ : ذِي ذَا مَنْ كَمْ؛ وَمِنْ الضَّمِيرِ مَعَ حُرُوفِ الْجَزْرِ نَحْوُ : بِكَ لَهُ؛ وَمِنْهُ مَا يُبْنَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ فِي الْحُرُوفِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ، ثُمَّ تَدْخُلُ فِيهِ أَحْرَفُ الزِّيَادَةِ الْعَشْرَةِ، وَهِيَ «هُيْتِ السَّمَانَ» وَثَلَاثَةُ أَحْرَفِ أَنْحَرَ، وَهِيَ الْفَاءُ وَبَاءُ الْجَرِّ وَكَافُ التَّشْبِيهِ

وكأف الخطاب إلى أن تبلغ الكلمة على اصطلاح الكتاب [أربعة] عشر حرفاً ،
كقولك مخاطباً لرجلين [أنساً] جُنَيْنَةً : أَفَلَمْ تَسْتَرْهَاتِكُمَا أَعَدْتُمَا .

قال ابن الدريهم : وليس في كلام العرب كلمة رُبَاعِيَّةُ الأصل أو نُحَاسِيَّةُ الأصل
ليس فيها حرف من الحُرُوفِ الذَّلَقِيَّةِ كاللام والنون والواو، والشَفَوِيَّةِ كالفاء والميم
وبالباء إلا ما شُدَّ مثل «عَسَجَد» من أسماء الذهب .

قال : ونهاية الأسماء العربية قبل الزيادة خمسة ، وشُدَّ (؟) مثل عَنَدَلِيْب ، والأفعال
قبل الزيادة أربعة ؛ وليس في القراءة كلمة نُحَاسِيَّةُ الأصل سوى الأسماء الأعجمية
مثل إبراهيم ، ولا يمكن أن يتكرر حرف [في] كلمة واحدة أكثر من خمسة كقول القائل
مارأينا [كككا ككككم^(١)] جمع كُكَّة وهو المركب الكبير مثل عُكَّة وعُكَّك ،
وأربع كافات في قولك ^(٢) وكككمك .

الثاني — أن يعرف الحروف التي لا يُقارب بعضها بعضاً بمعنى أنها لا تجتمع
في كلمة واحدة .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي الْأَحْرَفِ مَا لَا يُقَارِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا مطلقاً بتقديم ولا تأخير كالثناء
المتلثة ، فإنها لا تقارب الذال المعجمة والزاي المعجمة والسين والصاد المهملتين
والضاد المعجمة ، وكذلك الجيم لا تقارب الطاء المهملة ولا الظاء المعجمة ولا الغين

(١) بيض له في الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعر على هذا البناء في كتب اللغة ولعله
عامي تأمل .

(٢) بياض في الاصل .

المعجمة ولا القاف ولا الكاف، وما وقع من ذلك في الكلام نحو : نُعْجَة وَبَرْجَقْ
وَجُرْمُوقْ وَجَوْلَقْ وَجُلَاهِقْ وَمَنْجَبِقْ وَجَوْقَة وَجَوْسَقْ وَصَنْجَقْ وَسَنْجَقْ وَجَرْدَقْ
ونحو ذلك فليست عربية : لأنه لا يجتمع في كلام العرب جيم وقاف في كلمة
واحدة ؛ وكذلك الدال المهملة لا تقارن الظاء المعجمة والذال المعجمة لا تقارن
الزاي المعجمة والصاد والصاد والطاء والظاء ، وما وقع في الكلام من ذلك فليس
عربي ، مثل طبرزد فارسي والزط نبطي ، ولا تقارن السين المهملة الصاد المهملة
والصاد المعجمة والطاء المعجمة ؛ ولا تقارن الصاد المهملة الضاد المعجمة ولا الظاء
المعجمة ؛ ولا تقارن الضاد المعجمة الشين والطاء المعجمتين ؛ ولا تقارن الطاء
المهملة الظاء المعجمة ؛ ولا تقارن القاف الغين المعجمة ولا الكاف في كلمة أصلية ،^(١)
وشد نقي الغراب وناقة نقي ؛ ولا تقارن الكاف الخاء المعجمة في كلمة أصلية ،
ولا تقارن الميم الباء الموحدة والفاء في كلمة أصلية إلا في فَمٍ وأصله فَوَهْ ، وأما جَمٌ
لأحد أوتار العود فليس عربي ؛ والحروف الحلقية لا يقارن بعضها بعضاً خلا الهاء
فإنها تعقبها زائدة ، كهاء الضمير وهاء التأنيث ، وتعقب العين أصلية كالعهد والعهر
وعهر ؛ وليس في كلمة أصلية حرفان حليان سوى ما تقدم من الهاء ، وقد تعقب
بواسطة كغيب وعبر ؛ أما حيل فركبة ، ولا يجتمع حرفان من هذه الخمسة :
وهي الهاء والطاء المهملة (؟) والعين والغين والحاء المعجمة في أول كلمة سوى ما ذكر ،
ولا في أثناء الكلمة إلا الهاء مع العين كهلع والهاء مع الغين كاهيغ ، والحاء مع الغين^(٢)
كأخيغ ، والهاء مع الخاء المعجمة في كلمة واحدة وهي هيخة ؛ ولا تجتمع الهاء

(١) في الأصول العين المهملة وهو غير مستقيم . وفي كتب اللغة ناقة نقي «أى بإعجام الغين» إذا كانت

تبغ مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد في كتب اللغة التي بأيدينا .

الأصلية مع الخاء المعجمة ، ولا الخاء المهملة والعين المهملة إلا أن تكون مركبة مثل هر قصع (؟) والحيعة .

الثالث — أن يعرف الحروف التي لا تقارن بعض الحروف في الكلمات إلا قليلا ، كقارنة السين المهملة للشين المعجمة في شسع والشين مع الزاي كشزر والراء مع اللام كورل .

[وَأَعْلَم] أَنَّ الحَرْفَ الواحدَ يَتَكَرَّرُ في الكَلِمَةِ الواحدةِ كَثِيرًا مِثْلَ دَهْدَه وَتَهْتَه وَنَهْنَه وَحَصْحَصَ وَجَبَجَبَ وَخَمَخَمَ وَجَلَجَلَ وَخَلَخَلَ وَشَعَشَعَه وَزَعَزَعَ وَدَغَدَغَ وَبَغَبَغَ وَنَعَنَعَ وَعَسَعَسَ وَزَعَزَعَ وَغَوَّاءَ وَصَخَّاحَ وَخَوَّخَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقديمه على غيره من الحروف وما يمتنع ، فالثاء لا تتقدم الشين المعجمة ، والدال المهملة لا تتقدم على زاي ولا صاد^(١) مهملة ولا طاء مهملة بدليل أنهم لما عرّبوها مُهَنْدِزَ ، أبدلوا الزاي سينا فقالوا مُهَنْدِسَ وَهَنْدَسَه ، والدال المعجمة لا تتقدم الجيم ولا السين المهملة ولا الشين المعجمة ولا العين المهملة ، ومن هنا لما عرّبوها الْفَالُوْدَجَ من الْفَارِسِيَّ قالوا فَالُوْدَقَ ، والشين المعجمة لا تتقدمها الزاي المعجمة ولا السين المهملة ولا الصاد المهملة ، والطاء المهملة لا تتقدم الكاف في كلمة أصلية ، والسين المهملة لا تتقدم على الدال المهملة إلا قليلا كسَدَابَ ، والدال المعجمة لا تتقدم على الدال المهملة إلا قليلا كَقَوْلِكَ في الأمر دُدِ الْغَمِّ .

(١) في الأصل "على نون" وهو غير مستقيم كما لا يخفى .

(٢) أورده القاموس بالدال المعجمة وتكلم عليه شارحه ثم قال ويوجد في بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخامس — أن يَعْرِفَ مَا لَا يَقَعُ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْحُرُوفِ كَالْجِمْ لَا تَقَعُ بَعْدَهَا التَّاءُ الْمُثَنَّى فَوْقَ وَلَا الصَّادُ الْمَهْمَلَةُ وَلَا الضَّادُ الْمُعْجَمَةُ وَلَا الْغَيْنُ الْمُعْجَمَةُ؛ أَمَّا الْحِصُّ فَمُعَرَّبٌ .

السادس — أن يَعْرِفَ أَنَّهُ لَا يَتَكَرَّرُ حَرْفٌ فِي أَوَّلِ كَلِمَةٍ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْعَشْرَةِ الْأَحْرَفِ وَهِيَ: الْكَافُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ وَالتَّاءُ الْمُثَنَّى فَوْقَ وَالْأَلْفُ وَالبَاءُ الْمُوَحَّدَةُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ وَالْيَاءُ الْمُثَنَّى تَحْتُ وَيَجْمَعُهَا قَوْلُكَ «كُلُّ مَنْ تَابَ وَقِيَ» وَأَقْلَاهَا وَقَعَا كَذَلِكَ الْيَاءُ .

السابع — أن يَعْرِفَ أَكْثَرَ الْحُرُوفِ دَوْرَانَا فِي اللُّغَةِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ مِنَ الْحُرُوفِ فِي الْكَثْرَةِ إِلَى أَقْلَاهَا دَوْرَانَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ أَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِيهِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ اسْتِقْرَاءُ الْقِرَاءَنِ الْكَرِيمِ الْأَلْفُ ثُمَّ اللَّامُ ثُمَّ الْمِيمُ ثُمَّ الْيَاءُ الْمُثَنَّى تَحْتُ ثُمَّ الْوَاوُ ثُمَّ النُّونُ ثُمَّ الْهَاءُ ثُمَّ الرَّاءُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْفَاءُ ثُمَّ الْقَافُ ثُمَّ الدَّالُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الذَّالُ الْمُعْجَمَةُ ثُمَّ اللَّامُ أَلْفُ ثُمَّ الْحَاءُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْجِيمُ ثُمَّ الصَّادُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْخَاءُ الْمُعْجَمَةُ ثُمَّ الشَّيْنُ الْمُعْجَمَةُ ثُمَّ الضَّادُ الْمُعْجَمَةُ ثُمَّ الزَّايُ الْمُعْجَمَةُ ثُمَّ النُّونُ الْمُثَلَّثَةُ ثُمَّ الطَّاءُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْغَيْنُ الْمُعْجَمَةُ ثُمَّ الظَّاءُ الْمُعْجَمَةُ؛ وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُهُمْ أَحْرَفَ الْكَثْرَةِ فِي قَوْلِهِ (الْيَوْمَنُ) وَبَعْضُهُمْ يَجْمَعُهَا فِي قَوْلِهِ (الْيَوْمَ هُنَّ) وَجَمَعَ الْحُرُوفَ الْمُتَوَسِّطَةَ فِي قَوْلِهِ (رَعَفْتُ بِكَدْسٍ نَجِجٍ) (١) وَجَمَعَ أَحْرَفَ الْقَلَّةِ فِي قَوْلِهِ (طَظَعَ صَخْدُزْقَشْ) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررها .

قال ابن الدريهم : وقد يقع في لفظ غير القرآن على خلاف ذلك كما يتعمدون النظم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائل لا تستوعب الحروف .

الأصل الثاني - كيفية التوصل بالحدس إلى حل المترجم :

قال ابن الدريهم : إذا أردت حل ما ترجم لك، فأبدأ أولاً بعدد الحروف، وكم تكرر كل شكل منها مرة فائتته أولاً فأولاً . قال : وأول ما تستخرج الفاصلة إن كان الذى عمى قد بالغ فى التعمية، يعنى بإخفاء الفاصلة فى ضمن الحروف؛ وذلك أنك تأخذ حرفاً فتظن أن الفاصلة تكون الثانى فتجربه على ما تنظر من الكلمات من المقادير على ما تقدم؛ فإن وافق وإلا أخذت الثالث، فإن وافق وإلا الرابع وهكذا حتى يصح لك انفصال الكلمات، ثم تنظر أكثر الحروف دورانا فى الكلام فتقاربه من الترتيب المتقدم فى أكثر الحروف دورانا على ما تقدم، فإذا رأيت حرفاً قد وقع فى الكلام أكثر من سائر الحروف فتظن أنه الألف؛ ثم الأكثر وقوعاً بعده فتظن أنه اللام؛ ويؤيد صحة ظنك أن اللام يدار فى أكثر استعماله تابعاً للألف؛ ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف؛ ثم أول ما تلقى من الكلام الثنائية بتقريب حروفها حتى يصح معك شيء منها فننظر أشكالها وترقم عليها، ونجربى الكلام فى الثلاثيات حتى يصح معك شيء منها فترقم نظائره؛ ثم نجربى الكلام فى الرباعيات والخماسيات على الوزن المتقدم؛ وكل ما أشبهه فاحتمل احتمالين أو ثلاثة أو أكثر تثبته إلى حين يتعين من كلمة أخرى؛ فما انتظم لك من ذلك

فيجد قد تكرر معه هذا الشكل ه أكثر من كل الأشكال بكثير، فيعلم أنه الألف
 فيرقم عليه في موضعه، ثم المكرر بعده أكثر من باقي الأشكال هذا الشكل 3
 فيظن أنه اللام ويحقق ظنه كونه تابعا للألف في سبعة مواضع من الكلام؛ ثم ينظر
 فيجد فيه حرفا واحدا كلمة فيظن أنها اللام ألف؛ ثم يجد الكلمة الثالثة ثنائية
 ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدى هذه: بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا
 غلا فلا كلا هلا ولا؛ ثم يجد هذا الشكل ٥ الذي مع اللام ألف قد ورد
 مكررا في أول كلمة أمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا
 أو هاء فلم يبق معنا سوى بلا تلا فلا كلا ولا؛ ثم يجد الكلمة الخامسة ثنائية
 ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدى هذه: با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا،
 ثم يترجح أنها ما أو يا لأن هذا الشكل ٦ قد تكرر أكثر من باقي الحروف
 فيكون إما الميم أو الياء وإن قاربهما النون لكن ما ويا أكثر وقعا في الكلام
 من نا فإنها غريبة الوقوع، ثم رأينا هذا الشكل المتقدم قد تلا الشكل الذي مع
 اللام ألف الذي ظنتنا أنه أحد هذه ه ب ت ف ك وفي الكلمة الثلاثية
 المكرر أولها ٧ ٨ ٩ فحربنا الحروف مع الميم فظهر منها لفظة
 «ففى» لا غير؛ ثم نظرنا هذا الحرف ١٠ فوجدناه وقع في أربعة مواضع في الكلام
 لا غير، فقلنا إنه الفاء: لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثر من ذلك غالبا، فصَحَّ
 معنا أن الكلمة الثالثة «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرف المفرد «لا»
 والكلمة الخامسة منه هي رايد ذلك أننا وجدنا الكلمة الحادية عشرة قد تكرر
 [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكرر
 حرف في مثل هذا المكان سوى الميم إذا جربته على جميع الحروف، فقلنا: المئات

المَح المَار المَاس المَاع ؛ ورأينا هذا الشكل **ت** الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثر من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقي أن تكون هذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنا ولم يكن النونَ فعلمنا على الميم فى مواضعه ؛ ونظرنا فرأينا هذا الشكل **ت** أول الكلمة الرابعة الثلاثية وقد صح ثانياها اللام وثالثها الميم فجرّبناها على هذه الحروف فسقطتِ الرأء وبقي أحد هذه : سلم تلم علم ؛ ثم نظرنا الكلمة المجارية للمات الماع الماس ، فرأينا قبل الألف واللام حرفا يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علمناها ؛ ونظرنا هذا الحرف **م** قد تبع الألف واللام قبل الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدى هذه أبا إذا أسا أنا ، فجرّبنا الكلمة على الباء والذال والسين والنون على أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « سلم » ثم جرّبناها على أن تكون العين ففصل منه بعد الحرف الأول البياع ؛ ثم على أن تكون تاء ففصل منه الثبات السيئات فسقط وبقي أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أولها اللام وثانيها هذا الحرف **م** الذى قبل الياء وثالثها هذا **ت** الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنما لم يقم منه « كسع » لأنه لما سقطت الباء سقطت العين من البياع ، فصح أن تلك « السيئات » ونظيرها « المات » والثلاثية « تلم » وسقط علم ، فرقنا على التاء فى مواضعها وعلى السين فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تلم يا لستُ المات لا أسا ففى » وبقي الحرف الذى قبل السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثلاثية فيها ت ي فجرّبناها على الحروف فظهر منها « حتى » لا يشارِكها شيء فعلمنا على الحاء فى مواضعها ؛ ثم نظرنا كلمةً نحاسيةً قد بقي منها الحرف

الوسط، بخرّبناها على الحروف فقام من ذلك : « حَسَرَات حَسَكَات حَسَنَات »
 فعلنا أنه حسنات : لأن هذا الشكل ٥ تكرر أكثر من باقي الحروف بعد
 الألف واللام والياء والتاء، وقد صحّ الميم فأثبتنا النون في موضعها؛ ثم نظرنا هذا
 الشكل ١٨ في أول كلمتين ثلاثيتين وقد صح من إحداهما ن ي ومن الأخرى
 ل ي، بخرّبنا الحرف فوجدناه إما عينا أو واوا، فيقوم منهما غنى على وبى ولى
 فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبة الواو؛ ثم نظرنا كلمة سباعية قد بقي
 منها حرف مجهول، بخرّبناها على الحروف فصحت «البَيَانُ» لا يشاركها لفظاً أخرى،
 وللحرف هذا الشكل ٨ الذى قبل السينات فتعينت الباء في مواضعها؛ ثم نظرنا
 كلمة سداسية نالها حرف مجهول، بخرّبناها فظهر منها «الكتاب»؛ ثم نظرنا كلمة
 خماسية قبل التى قبل «هذه» قد بقي حرف الوسط [منها] مجهولاً، بخرّبناها على الحروف
 فقام لحيف لمدنف لمصنف فتعينت «لمصنف» بسبب سياق الكلام بلفظ
 «الكتاب» ورقمنا على الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقي منها رابعها مجهولاً،
 بخرّبناها على الحروف فصحت «الموصل» وصحّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو»
 فرقمنا على الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولى وهى ثنائية أولها ص بخرّبناها فصحت
 صدّ، وإنما كالأخرى لقلّة وقع حروفها، ثم علمنا على الدال فوجدنا كلمة ثنائية آخرها
 «د» بخرّبناها على باقي الحروف التى لم تظهر، فقام منها جـ حـ د قد هد؛ ثم نظرنا
 كلمة ثلاثية فصح أولها وتآخرها ل وسطها هذا الحرف ٢ الذى قبل الدال
 فى الثنائية، بخرّبناها على الجيم والحاء والقاف والهاء، فسقطت الهاء وبقي تجل
 تقل تجل، ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل على أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية
 «تقل» فانتظم الكلام «لا تقل قد أسا» ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقي منها

ثانيها مجهولا ، فخرّبناها على باقي الحروف فصحت « عَدُولِي » ، فرقنا على الذال في مواضعه ؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التي بين « لمصنف » وبين « الكتاب » أولها هذا الشكل ٥٥ وقد صح منها « ذا » فغلّبنا أنها « هذا » ورقنّا على الهاء ؛ ثم نظرنا الكلمة الخماسية التي بين « فني » وبين « منه » قد بقي رابعها ، فخرّبناها على باقي الحروف فصحت « الوجه » ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التي قبل الأخيرة وقد بقي منها رابعها مجهولا ، فخرّبناها فظهر منها الدّرَيمُ ، فتكلّ الحلّ وظهر الكلام :

صَدَّ عَنِّي فَلَا تَلُمُ يَا عَدُولِي * لَسْتُ أَسْلُو هَوَاهُ حَتَّى الْمَمَاتِ

لَا تَقُلْ قَدْ أَسَا فَنِي الْوَجْهِ مِنْهُ * حَسَنَاتٌ يَذْهَبْنَ بِالسَّيِّئَاتِ

هذا البيان لمصنّف هذا الكتاب ، عليّ بن الدّرَيمِ الموصليّ .

وعلى مثل هذا المنوال يجرى الحلّ ؛ ثم آنظر إلى حروف هذا الكلام كيف جاءت أحداً وعشرين حرفاً ، ونقص منه ثمانية لم توجد فيه ، فإذا نظرت إلى ما قررت لك من ترتيب وقع الحروف كما جاءت في الكتاب العزيز ، رأيت الثمانية الناقصة هي آخر الترتيب سواء لم يختلط منها شيء بتقديم أو تأخير ، وهذا اتفاق : لأنه قد يقع الحرف قريباً من رُتبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء على الميم في هذا الكلام ، والفاء على الميم والنون ، وتقدّمت الهاء على الميم أيضاً ؛ لكن الأصل معرفة وقع الحروف بالتقريب وتجربة الكلمات ، ومقارَبة ما دلّ عليه سياق الكلام .

ولنضرب مثالا آخر : لتتضح أنواع الحلّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدريهم، وهو :

فتعدد المكررات من الأشكال كما مر وترقها على هذه الصفة .

٤	٧	٤	٧	٩	٦	٩	٤	١٧	٤	٣	٢٢																

فتتظر فإذا أكثرها وقعا ثم

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرر أن اللام تكون تابعة للألف في أكثر المواضع ولم نجد تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هذا **ج** هو الألف وهذا **ح** هو اللام ، ورقننا عليهما في مواضعهما فإذا الكلمة الثانية الثلاثية فيها لآمان ، بقي حرف آخرها مجهول ، فجربناها على الحروف فظهرت الهاء لا يمكن غيرها ، فعلمنا أنها « لله » ورقننا على الهاء في مواضعها ، ثم وجدنا الكلمة الخماسية قد بقي رابعها مجهولا ، فجربناها فظهر لها ألها ألها الهاء ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كل الحروف بعد الألف واللام ، فظننا أنه الميم ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط الباء والجيم فوجدناه في الثنائيات في كلمتين قبل الألف ؛ فعلمنا أنها « ما » فرقنا على الميم في مواضعها ، ثم رأينا الميم قد تبعه في الثنائيات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مض مط مع من ، ورأينا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررت ثلاث لفظات ؛ فعلمنا أنها « من » ورقننا على النون في مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل **ن** أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفي أوائل الكلمات فقلنا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمة قد بقي منها رابعها مجهولا ، فجربناها فظهر والبهيم والتهيم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهيم ؛ ثم وجدنا هذا الحرف **هـ** الذي فيها قد جاء قبل حرف في الثنائيات وذلك أكثر ما وقع بعد الألف واللام والميم ، فيحتمل أن يكون الياء ، ووجدنا قد بقي من كلمة هذا الحرف فصَحَّ أن يكون النهى وأخرى أولى ، فعلمنا أنها الياء ، فجربنا الحرف معها ؛ فظهر بي ني ، ووجدنا كلمة خماسية هذا الحرف **ي** رابعها وبعد حرف آخر ، جربناها على الياء والفاء فظهر اللبث اللبد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق ؛ ثم وجدنا هذا الحرف الآخر **ذ** أول كلمة بعده لآمان وهاء ؛ فجربناها فظهر منها الحرف الثالث مجهولا ، جربناها فظهر

الَّتَمَّامُ الْحَمَامُ الدَّمَامُ الشَّمَامُ الْغَمَامُ الْكَمَامُ ؛ فرأينا سياق الكلام يدلُّ على أنه «ظَلَّلَ الْغَمَامُ» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الْفَهْمُ والثَنائية، فرقنا على الفاء ؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثلاثية ثانياً لام وآخرها ياءٌ وبعدها «ما ألهمًا» فدل سياق الكلام على أنها «على» فرقنا على العين، فرأينا الرباعية التي بعد «وآله» قد بقي ثالثها مجهولاً ؛ فخرَّبناها فظهرت مَعِجَن مَعِدَن فتعين مَعِدَن والثَنائية التي بعدها ؛ وقيل «علم كل» فرقنا على الدال في مواضعه ورأينا الكلمة الأولى قد بقي وسطها مجهولاً ؛ فخرَّبناها وظهرت التمدُّد الحمد الصمد، فدلَّ سياق الكلام أنها الحمد : لأن بعدها «لله على ما ألهمًا» فرقنا على الحاء في مواضعها، ورأينا الثالث من الرباعية التي بين على وظلَّله، فخرَّبناها فظهرت «الذى» ورأينا الكلمة الخماسية التي بعد «محمد» قد بقي رابعها [مجهولاً] ، فخرَّبناها فظهرت «النبى» فرقنا على الياء في مواضعها ورأينا قد بقي ثالثُ السُداسية التي بعد «من» هذا الشكل ٥ وهو ثالثُ رباعية أولها الألف وثانيها فاء وآخرها حاء، وثاني خماسية أولها واو وثالثها حاء ورابعها باء وخامسها هاء ؛ فتعينت الصاد، فالأولى «البصواب» والأخرى «أنصح» والأخرى «وصحبه» وتعينت الثَنائية التي هي أول البيت الثانى بعد السطر الأوَّلى «ثم» والتي تليها «صلاة» وتعين السين في السلام ؛ فصار، «ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ» وكما تمرن الإنسان في ذلك ظهر له أَسْرَعُ بكثرة المباشرة، ثم تعين رابع السُداسية التي بعد أفصح من أنه الضاد، وتعين بسياق الكلام أن بعد بالضاد «في اللَّفْظِ نَطَقَ» فرقنا على القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصْرَاعِ «خَلَقَ» فرقنا على الخاء، وتعينت الكلمة التي قبل «مَنْ خُلِقَ» أنها «خير» فتكملت الأبيات وظهر أنها :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَلْهَمَنَا * مِنَ الصَّوَابِ وَعَلَى مَا عَلَّمَنَا
ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ * عَلَى الَّذِي ظَلَّلَ لَهُ الْغَمُّ
مَجْدَ النَّبِيِّ خَيْرٍ مِنْ خَلْقٍ * أَفْصَحَ مِنَ الْبُضَادِ فِي اللَّفْظِ نَظَقُ
وَالِهِ مَعْدِنِ كُلِّ عِلْمٍ * وَصَحِّهِ أَوَّلِي النَّهْيِ وَالْفَهْمِ

قلت : وما يلتحق بتعمية الخطّ المتقدمة الذكر ما حكاه ابنُ شيثٍ في معالم
الكتابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتبه أن يكتب عنه كتاباً إلى بعض أتباعه يُطمّنه
فيه ليقبض عليه عند آتهازِ فرصةٍ له في ذلك ؛ وكان بين الكاتب والمكتوب إليه
صداقةً فكتب الكاتب على ما أمر به من غير خروج عن شيءٍ من رسمه ، إلا أنه
حين كتب في آخره « إن شاء الله تعالى » جعل على النون صورة شدة ، فلما قرأه
المكتوب إليه ، عرف أنَّ ذلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ في التأويل والحدس
فوقع في ذهنه أنه يُشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .
فأخذ حذره ، وأحترز على نفسه ، وبلغ الملكَ احترازه على نفسه فاتهم الكاتب في أنه
ألحق في الكتاب شيئاً نبه به على قصد الملك ، فأحضره وسأله عن ذلك ، وأمره
بأن يكتب الكاتب على صورة ما كتب به من غير خروج عن شيءٍ منه ،
فكتبه ولم يغير شيئاً من رسمه حتى إنه أثبت صورة الشدة على النون ؛ فلما قرأه
الملك ونظر إلى صورة الشدة أنكرها عليه ، وقال : ما الذي أردتَ بذلك ؟ قال :
أردتَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ . فأعجب بذلك وعفا عنه
لصدقه إياه .

النوع الثاني

(الرَّمُوزُ والإِشَارَاتُ الَّتِي لَا تَعْلُقُ لَهَا بِالْخَطِّ وَالْكَتَابَةِ)

وهي التي يعبر عنها أهل المعاني والبيان بالإستعارة بالكناية « بالنون بعد الكاف » وقد يعبر عنها بالوحي والإشارة .

ومن غريب ما وقع في ذلك ما حكاه العسكري في "الصناعتين" : أن رجلا من بني العنبر أسر في بني حنظلة ، وفهم عنهم أنهم يقصدون الغارة على قومه بني العنبر ، فقال لبني حنظلة : إن لي حاجة عند أهلي وأريد رسولا من قومكم أرسله فيها ، فأجابوه إلى ذلك بشرط أن يخاطبه في حاجته بحضورهم ، فأحضروا له رجلا في الليل وقد أوقدت العرب نيرانها ، فأقبل على الذي أتوه به وقال له : أنتقل ؟ قال : إنني لعاقل . فقال : أنظر إلى السماء ونجومها ، فنظر ، ثم قال : أنظر إلى نيران العرب ، فنظر ، فقال له : ما أكثر ؟ نجوم السماء أو نيران العرب ؟ فقال : إن كلا منها لكثير ، قال : إنك إذا لعاقل ، ثم دفع إليه حنظلة وصرة فيها رمل وصرة فيها شوك ، وقال أذهب إلى قومي فادفع إليهم هذه الحنظلة وهاتين الصرتين ، وقل لهن يعروا ناقتي الحمراء ، ويرحلوا بحمل الأورق ، وسلوا أخى الأعور يُخبركم الخبر . فقال الحاضرون : ليس في هذا ما يُنكر ، أذهب في حاجته ، فذهب إلى بني العنبر ودفع إليهم ذلك وقص عليهم القصة ورجع ، فبعث القوم إلى أخيه الأعور فحضر ، فأخبره الخبر . فقال إنه يقول : أتاكم بنو حنظلة في عد الشوك والرمل ، وإن نيران العرب تُعادُ بنجوم السماء ، ويأمركم أن ترحلوا عن الدهناء وانزلوا مكان كذا ، ففعلوا ورحلوا لوقتهم فصبّحهم بنو حنظلة فلم يدركوا منهم أحدا .

وفي معنى ذلك ما حكاه المَقَرَّ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ "التَّعْرِيفُ" :
 فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَكَاتِبِ إِلَى الْأَدْفُونِش مَلِكِ الْفَرَنْجِ بِطَلَيْطَلَةَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ؛ كَانَ
 خَبِيثَ النِّيَّةِ ، سَيِّئَ الْمَقَاصِدِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ؛ وَأَنَّهُ أَرْسَلَ مَرَّةً إِلَى الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ : صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ هَدِيَّةً فِيهَا سَيْفٌ وَثَوْبٌ بَنْدَقِيٌّ وَطَارِقَةٌ
 مُسْتَطِيلَةٌ تُشَبِّهُ النَّعْشَ كَأَنَّهُ يَقُولُ : أَقْتُلْكَ بِهَذَا السَّيْفِ ، وَأَكْفَنْكَ فِي هَذَا الثَّوْبِ ،
 وَأَحْمِلْكَ عَلَى هَذَا النَّعْشِ . قَالَ : وَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ حَبْلًا أَسْوَدَ وَحَجَرًا ،
 أَيْ إِنَّهُ كَلَبٌ يُرْمَى بِهَذَا الْحَجَرِ أَوْ يُرَبِّطُ فِي هَذَا الْحَبْلِ .

قلت : ومما وقع من ذلك في زماننا أنه في الدولة الظاهرية «برقوق» وتمرنك
 يومئذ ببلاد العراق يُغَاوِرُ الْمَالِكُ الشَّامِيَّةَ لِقَصْدِ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَرَدَّ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْ
 الْمَمْلُوكَةِ الْحَلِيَّةِ فِيهِ : أَنَّهُ وَقَعَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ سَيْلٌ عَظِيمٌ سَاقَ جَمَلَةً مِنَ الْأُسْدِ وَالنَّمُورَةِ
 وَالْحَيَّاتِ ، وَأَنَّهُ دَفَعَ حَيَّةً عَظِيمَةً سَعَةً رَأْسُهَا بِقَدْرِ قَوْسٍ ، وَقَرَأَ الْكِتَابُ بِحَضْرَةِ
 السُّلْطَانِ ، وَحَمَلُوا ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهِ : مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ حَقِيقَةُ السَّيْلِ ، وَأَنَّهُ لِقَوْتِهِ سَاقَ
 تِلْكَ الْحَيَّةَ وَالسَّبَاعَ وَغَيْرَهَا ، وَشَاعَ ذَلِكَ بَيْنَ الْكَافَّةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَسَائِرِ
 الرِّعِيَّةِ ، وَمَضَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ ؛ ثُمَّ ظَهَرَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ السَّيْلِ وَمَا فِيهِ
 هُوَ تُمَرْنُكَ وَعَسَاكِرُهُ ؛ وَأَنَّهُ كُنِيَ بِالْحَيَّةِ الْعَظِيمَةِ عَنْهُ نَفْسِهِ ، وَبِالسَّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ
 عَنْ عَسَاكِرِهِ .

ومن لطيف ما وقع في ذلك أنه ورد على السلطان الملك الناصر «فرج بن برقوق»
 في أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُسٍ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ فِي آخِرِهِ خُطَابًا لِلسُّلْطَانِ
 (وعلى إحسانكم المَعُولَ ، وَبَيْتُ الطُّغْرَائِيِّ فِي لَامِيَّةِ الْعَجَمِ لَا يَتَأَوَّلُ) فَسَأَلَنِي بَعْضُ
 أَعْيَانِ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ عَنِ الْمُرَادِ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ مُتَضَمِّنًا لَغَيْرِ الْوَصِيَّةِ

على يُججاج المغاربة ، وكان ركب المغاربة قبل تلك الحجة قد عرض لهم عارض من عرب درب الحجاز اجتأحهم فيه ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ونهبوا منهم أموالا جمّة ، فعرضت ذلك على أبيات اللامية ، فلاح لي أنه يُشير إلى قوله فيها :

فقلت أرجوك للبللى لتنصرنى * وأنت تحذئنى فى الحادثِ الجللِ

والجلى بضم الجيم هى الأمر الجليل العظيم ، والجلل بفتح الجيم فى اللغة من أسماء الأضداد ، يقع على الشئ الجليل وعلى الشئ الحقير ، كأنه يقول : أنا كنت أرجوك للأمور العظام لتنصرنى فيها نفذتنى فى هذا الأمر الخسيس ، وهو الأخذ بثأر ججاج بلادى ممن اعتدى عليهم من عرب بلادك : نخاب ظنى فيما كنت أرجوه فيك ، وأؤمله منك ، وأشار بقوله لايتأول إلى أنه لايجلّ الجلل فى قول الطغرائى على الشئ الجليل كما قال الصلاح الصفدى فى شرح اللامية ، بل على الأمر الخسيس : لأنه هو اللائق بالمقام .

وأعلم أنّ مثل هذه الأمور تحتاج إلى قوة ذكاء واحتدام قريحة من الذى يقع منه الرمز ، وإلى قوة حدس من الذى يحاول إدراك المقصد من تلك [المعامى] كما يقع فى الألفاظ والأحاجى لللفز ، والمتصدى لحلّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالى هو الهادى إلى سبيل الصواب .

المقالة الخامسة

(١)

في الولايات ، وفيها [أربعة] أبوابٍ

الباب الأول

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ، وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في بيان طبقات الولايات ، وهي على ثلاث طبقات

الطبقة الأولى — الخلافة ، وليا يكتب في ولايتها طريقان : إما عهد من الخليفة الأول ، وإما بيعة من أهل الحل والعقد إن لم يوجد عهد من الخليفة قبله على ماسأى بيانه إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانية — السلطنة ، وليا يكتب في ولايتها طريقان : أحدهما العهد من الخليفة ، والثاني العهد من السلطان قبله . قال في " التعريف " : أما من قام من الملوك بغير عهد ، فلم تجر العادة أن تكتب له مبايعة .

الطبقة الثالثة — الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية في أقطار المملكة بمصر والشام والحجاز : مما يكتب من ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية .

وهي على خمسة أنواع :

(١) بياض في الأصل والتصحيح مما تقدم في ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النوع الأول

(ولايات أرباب السيوف ؛ وهم على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول — الثواب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالب من يكتب له منهم بالبلاد الشامية ومضافاتها ؛ كتواب السلطنة بدمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرک ، ومقدمى العسكر بغزة وبيس ؛ وتواب القلاع بالمدن العظام ذوات القلاع الرفيعة القدر : كالنائب بقلعة دمشق ، والنائب بقلعة حلب ، والنائب بقلعة صفد . أما طرابلس وحماة ، فليس بهما قلعة ؛ وكذلك الثيابات الصغار المضافة إلى القواعد الكبار : كالقدس الشريف وحمص ومضيف من مضافات دمشق ، وقلعة المسلمين والرحبة والبيرة والرها وشيزر وعنتاب وبهسن وملطية وآياس والألبستين وأذنة وطرسوس من مضافات حلب ، والأذقية وحمص عكار من مضافات طرابلس وما يجرى مجرى ذلك ، على ما سيأتى بيانه مفصلا في مواضعه ؛ إن شاء الله تعالى .

أما مادونها من الثيابات فإن ثواب السلطنة بالملكة يستقلون بالتولية فيها .

قلت : والضابط في ذلك أن كل نيابة كان نائبها مقدمة ألف فوليتها عن السلطان بمرسوم شريف من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ؛ وكل ولاية كان نائبها جندياً أو مقدم حلة فوليتها عن نائب السلطنة بالملكة التي هي مضافة إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بها ؛ وكل نيابة كان نائبها أمير طبلخاناه أو عشرة ربما وثى فيها السلطان وربما وثى فيها نائب السلطنة ، إلا أن تولية السلطان لثواب الطبلخاناه أغلب ، وتولية ثواب السلطنة لثواب العشرة أغلب .

أما الديار المصرية فإنه كان يُكْتَبُ فيها أولاً لولاة الوجهين : القبلى والبحرى
 جرياً على ما كان الأمر عليه في زمن الخلفاء الفاطميين ، وكذلك والى الإسكندرية
 قبل أن تستقر نيابة ، ووالياً الولاة بالوجهين قبل أن يستقرتا نيابتين ، في جماعة
 أخرى من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجيوش كاستادار وأمير أخور
 ومقدم الممالك ووالي مصر والقاهرة ؛ ثم صارت الكتابة لذوى الوظائف من أرباب
 السيف قاصرة على النائب الكافل إذا كان موجوداً والنواب المستجدين
 بالإسكندرية والوجهين : القبلى والبحرى ؛ وبطل ما عدا ذلك مما كان يُكْتَبُ ،
 وكأنَّ المعنى فيه التُّرْبُ من مقَرَّة السلطان ؛ والكتابة إنما تقع في الغالب مع البعد :
 لتكون حجة للتولى على بُعد المدى ، ولا ينتقص ذلك بما يُكْتَبُ للخلفاء والملوك
 في الحضرة ، فإنَّ ذلك من الأمور العامة التى يُخَافُ انتقاضها أو مجودها ، إذ مثل
 ذلك لا يجوز في الولايات عن السلطان : لأنه متى شاء عزَلَ مَنْ وَّلاهُ .

الصنف الثانى — ولاية أمراء العربان ، وهؤلاء لاحظ لهم في الكتابة بالولاية
 بالديار المصرية الآن ؛ وربما يُكْتَبُ لأمرائهم بالملكة الشامية : كأمر آل فضل ،
 وأمير آل مرا ، وأمير آل على ، ومقدم بحر ، وكذلك أمير مكة المشرفة ،
 وأمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ،
 والنائب بالينبع من البلاد الحجازية . والمعنى في اختصاص مَنْ بَعْدَ منهم ماتقدم
 في الكلام على أرباب السيف مع ضعف شأن عرب الديار المصرية وعدم
 الإهتمام بأمرهم .

الصنف الثالث — ولاية المُقَدِّمين على الطوائف : كمقدّمى التركمان ، والأكراد ،
 والحبلىة بالبلاد الشامية ، وأتابك طائفة الإسماعيلية بقلاع الدعوة ، وحاكم البندق

ونحوهم ؛ وهذه الطوائف ممن يكتب له إلى الآن ؛ أما حاكم البندق ، فإنه لم يعهد له كتابة من ديوان الإنشاء بمصر والشام . على أن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر وصيته في " التعريف " ولعله ممن كان يكتب [له] في زمانه أو قبله ثم ترك ، وإنما يكون ذلك بحسب اعتناء السلطان بشأن البندق وعدمه كما في لباس الفتوة ، وأنه ربما اعتنى به بعض الملوك فكتب له ثم ترك .

النوع الثاني

(ولاية أرباب الأقاليم ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم على ثمانية أضرب)

الضرب الأول — أ كابر القضاة بأقطار المملكة : كقضاة القضاة بالحضرة السلطانية بالديار المصرية وثغر الإسكندرية ، وكذلك قضاة القضاة بدمشق وحلب وطرابلس وحمّة وصفد والكرّك ، وقضاة العسكر بالديار المصرية ؛ أما القضاة بالنيابات الصغار المضافات إلى دمشق وحلب ونحوهما فولايتهن إلى قضاة القضاة بها ، وقضاة العسكر بدمشق وحلب وما في معناهما إلى التواب بتلك الممالك .

الضرب الثاني — المفتون بدار العدل بالديار المصرية ؛ أما المفتون بدار العدل بالممالك الشامية فولايتهن إلى نائبيها .

الضرب الثالث — أكابرُ المحتَسِبِينَ : كمحتَسِبِي مصر والقاهرة ؛ أما الممالك الشاميةُ فلا يُؤلَّى فيها إلا نُوابُها .

الضرب الرابع — أكابرُ المدرِّسين في عامَّةِ العلوم بأما كنٍ مخصوصةٍ : كالزَّاوية الخشائية بالجامع العتيق بمصر ، والمدرسة الصَّلاحية بتربة الإمام الشافعي بالقرافة ، ونحو ذلك بأقطار المملكة من مُدرِّسي الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الدِّينية .

الضرب الخامس — أكابرُ الخطباء بجوامعٍ مخصوصةٍ بأقطار المملكة : بجامع الناصري بقلعة الجبل ، والجامع الأموي بالشام ونحوهما .

الضرب السادس — وكلاءُ بيت المال بالديار المصرية وغيرها .

الضرب السابع — المتحدثون على الوظائف المعتبرة : ككتابة الأشراف ، ومشيخة الشيوخ ، فما كان بالديار المصرية فولايته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الإنشاء ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلى نواب السلطنة بها .

الضرب الثامن — المتحدثون على جهات البرِّ العامة المصلحة : كنظر الأعباس وأنظار البيمارستانات ونحوها : فما كان منها بالديار المصرية : كنظر الأعباس والبيمارستان المنصوري^(١) وما أشبه ذلك فتوليته إلى نوابها ، ما لم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذلك مختصاً به .

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الإنشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ

كما لا يخفى تأمل .

الصنف الثاني

(أرباب الوظائف الديوانية)

ودواوينها على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول — دواوين المال؛ وأرباب الخدم بها ممن تُكتب ولاياتهم من ديوان الإنشاء : إمّا ناظر، أو وزير، أو صاحب ديوان، أو شهادة، أو استيفاء؛ فأما الوزارة فلا يُصرّح بها إلّا للوزير بالأبواب السلطانية، وربما صرّح بها لوزير دمشق إذا وليها من ارتفعت مرتبته، وإلّا عبر عنه بناظر المملكة .

وأما النظر، فكُنظر الدواوين المعبر عنه بنظر الدولة، ونظر الخاص، ونظر الخزانة الكبرى، ونظر البيوت « الحاشية » ونظر بيت المال، ونظر الإصطبلات السلطانية، ونظر دار الضيافة والأسواق، ونظر خزائن السلاح، ونظر البهار والكارمي، ونظر الأهراء، ونظر الموارث الحشرية، ونظر ثغر الإسكندرية المحروس؛ وغير ذلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظر المملكة بدمشق إذا لم يُصرّح لمؤلفه بالوزارة، ونظر المملكة بحلب، ونظر المملكة بطرابلس، ونظر المملكة بحماة، ونظر المملكة بصفد، ونظر المملكة بسيس، ونظر المملكة بغزة، ونظر المملكة بالكرك .

وأما صحابة الديوان، فكصحابة ديوان الجيش وصحابة ديوان الخاص، ونحو ذلك .

وأما الشهادة، فكشهادة الخزانة الكبرى، وشهادة خزانة الخاص ونحوهما .

وأما الإِسْتِفاءُ ، فكاستِفاءُ الصُّحبةِ ، وأستِفاءُ الدَّولةِ ، وأستِفاءُ الخِصاصِ ، ونحو ذلك . ولا حَظَّ لغير النُّظَّارِ من دَوارينِ الأموالِ بالممالكِ الشاميَّةِ : من صاحبِ ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ ، في الكتابةِ بالولايةِ من ديوانِ الإنشاءِ بالأبوابِ السلطانيةِ ؛ بل ولايتُها من ثوابِ الممالكِ الشاميةِ بتواقيعِ من دَوارينِ الإنشاءِ بها .

الضرب الثاني — دَوارينُ الجُيُوشِ بالديارِ المصريةِ وغيرها من الممالكِ الشاميَّةِ . وأربابُ الخِدمِ بها لا يُخْرِجُونَ عن ناظِرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ ، وشاهدٍ ، ومستَوْفٍ .

والذين يُؤلَّوْنَ عن السلطانِ منهم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِعُهُمْ من ديوانِ الإنشاءِ الشريفِ ناظِرُ الجيشِ بالأبوابِ السلطانيةِ ، وناظِرُ الجيشِ بِدِمَشْقَ ، وناظِرُ الجيشِ بِحَلَبَ ، وناظِرُ الجيشِ بِطرابلسَ ، وناظِرُ الجيشِ بِحَمَّاءَ ، وناظِرُ الجيشِ بِصَفَدَ ، وناظِرُ الجيشِ بِغَزَّةَ ، وناظِرُ الجيشِ بِسَيْسَ ، وناظِرُ الجيشِ بِالكَرَكِ ، وصاحبُ ديوانِ الجيشِ بالأبوابِ السلطانيةِ ، والشُّهُودُ ، والمستَوْفُونَ بها ؛ أمَّا مَنْ عَدَا هؤلاءِ : من نُظَّارِ الجيشِ وأصحابِ الدَوارينِ والشُّهُودِ بالممالكِ الشاميةِ ، فولايتُهم إلى ثوابِ السلطنةِ بها .

الضرب الثالثُ — دَوارينُ الإنشاءِ ؛ وأربابُ الخِدمِ بها لا يُخْرِجُونَ عن كاتبٍ سِرٍّ ، وكاتبِ دَسْتٍ ، وكاتبِ دَرَجٍ .

والذين يُؤلَّوْنَ عن السلطانِ من كُتَّابِ هذه الدَّوارينِ وتُكْتَبُ تَوَاقِعُهُمْ من ديوانِ الإنشاءِ السلطانيِّ صاحبُ ديوانِ الإنشاءِ بالأبوابِ السلطانيةِ ، وصاحبُ ديوانِ الإنشاءِ بِدِمَشْقَ ، وصاحبُ ديوانِ المكاتباتِ بِحَلَبَ ، وصاحبُ ديوانِ المكاتباتِ

بطرابلس ، وصاحب ديوان المكاتب بحمّة ، وصاحب ديوان المكاتب
بصفد ، وكاتب الدرج بيسس ، وكاتب الدرج بغزة ، وكاتب الدرج بالكرك ،
وكاتب الدرج بالإسكندرية ، وكاتب الدست وكاتب الدرج بالأبواب السلطانية ؛
أما مكاتب الدست وكاتب الدرج بالمالك الشامية فإلى نوابها بتوقيع من دواوين
الإنشاء بها .

النوع الثالث

(ولايات أرباب الوظائف الصّناعيّة)

كالأطباء ، والكحّالين ، والجراحين ، ومن جرى مجراهم من سائر أرباب الوظائف
التي هي من تتمّة نظام الملك ؛ فما كان منها بالأبواب السلطانية فولايته عن السلطان
بتوقيع من ديوان الإنشاء السلطاني ؛ وما كان منها بالمالك الشامية فولايته إلى
نواب السلطنة بها .

النوع الرابع

(ولايات زعماء أهل الدّمة . وهي ضربان)

الضرب الأوّل — ولاية بطاركة النصارى من اليعاقبة والملكيّة^(١) .

الضرب الثاني — ولاية رئيس اليهود الحاكم على طوائفهم .

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النوع الخامس

(ما لا يختص بطائفة ولا يندرج تحت نوع)

كصغار الأمور التي يُكتب فيها لكل فرد فرد : إما ابتداءً ، وإما بالحمل على ما بيده من ولاية سابقة : من نائب أو قاض أو ناظر وقف أو غير ذلك ؛ مما لا ينحصر كثرة .

قلت : وربما ولي السلطان في بعض الوظائف بالمالك الشامية مما تختص توليته بنواب السلطنة إذا كانت الوظيفة وضعية المنزلة وأدركت المولى عنايته ، وربما ولي بعض نواب السلطنة ما تختص توليته بالسلطان إذا عظمت رتبة النائب وارتفعت منزلته ؛ خصوصاً إذا كان نظام المملكة محلولا وأمرها مضطربا .

الفصل الثانى

من الباب الأول من المقالة الخامسة

(فى بيان ماتجِبُ على الكاتب مراعاته فى كتابة الولايات على سبيل الإجمال)

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله فى "حُسن التوسل" : يجبُ على الكاتب أن يراعى فى ذلك أموراً .

منها - براعة الاستهلال بذكر الرتبة ، أو الحال ، أو قدر النعمة ، أو لقب صاحب الولاية ، أو أسمه ؛ بحيث لا يكون المطلع أجنبياً من هذه الأحوال ، ولا بعيداً منها ، ولا مبيناً لها ؛ ثم يستصحّب ما يناسب الغرض ويوافق القصد من أول الخطبة إلى آخرها .

ومنها - أن يراعى المناسبة وما تقتضيه الحال : فلا يُعطى أحداً فوق حقه ، ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله ؛ ويراعى أيضاً مقدار النعمة والرتبة فيكون وصف المنّة بها على مقدار ذلك .

ومنها - أن لا يصف المتولّى بما ^(١) [يكون] فيه تعريضٌ بدم المعزول [وتنقيصٌ له ^(١)] ؛ فإن ذلك مما يُوغر الصدور ، ويُورث الضغائن فى القلوب ، ويدلّ على ضعف الآراء فى اختيار الأول ، مع إمكان وصف الثانى بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأول .

ومنها - أن يتخير الكلام والمعانى فإنه مما يشيع ويذيع ، ولا يُعذر المقصر فى ذلك بعجلة ولا ضيق وقت ، فإنّ مجال الكلام متسع ، والبلاغة تظهر فى القليل والكثير .

قلت : ومنها أن يَحْرِصَ الكاتبُ على أن تكون نهاية السجعة الأولى في السَّطْرِ الأول أو الثاني ولا يُؤَخِّرْها عن ذلك . ومما كان يراعى في ذلك أن تكون الخطبة من أولها إلى آخرها على رَوىٍّ واحدٍ في السَّجْعِ ، وكذلك الدعاء في أول صِغار التواقيع والمَراسيمِ المبتدأة بلفظ « رُسم » بخلاف ما بعد ذلك إلى آخر ما يكتب ، فإنه يَتَّفِقُ فيه روى السجعتين والثلاث فما حوَّلَها ، ثم يَخالفُ رويها إلى غيره ؛ ولا يَكفِّفُ الكاتبُ الإتيانَ بجميعها على روىٍّ واحد ؛ وعلى ذلك كانت طريقةُ فُحولِ الكُتَّابِ بالدولة التركية ، كالقاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، والمقرّر الشهابي بن فضل الله ، ومن عاصروهم إلّا في القليل النادر ؛ فإنه رُبَّمَا وقع لبعضهم مخالفة روى الخطبة ؛ وإلى هذا قد جَنَحَ غالبُ كُتَّابِ ديوان الإنشاء في زماننا ومألوا إليه : لما في التِّزامِ الرّوى الواحد في جميع الخطبة من التَّكَلُّفِ وعُسْرِ التَّلَفُّيقِ على مَنْ يَتَعَانَاهُ .

ثمَّ الكلامُ فيما يُكْتَبُ في الولاية قد يكون جميعه بلفظ الغيبة ؛ مثل أن يقال : عَهِدَ إِلَيْهِ بِكَذَا ، أَوْ قَلَّدَهُ بِكَذَا ، أَوْ فَوَّضَ إِلَيْهِ كَذَا ، أَوْ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي كَذَا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَقَالُ : وَأَمَرَهُ بِكَذَا ، أَوْ وَنَحْنُ نُوصِيهِ بِكَذَا ، أَوْ فَعَلِيهِ بِكَذَا ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَقَدْ يَكُونُ جَمِيعُهُ بَلْفِظِ الْخِطَابِ ، مِثْلُ أَنْ يَقَالُ : وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْكَ بِكَذَا ، أَوْ قَلَّدَكَ كَذَا ، أَوْ فَوَّضَ إِلَيْكَ كَذَا ثُمَّ يَقَالُ : وَنَحْنُ نُوصِيكَ بِكَذَا ، أَوْ فَعَلَيْكَ بِكَذَا ، وَنَحْوَهُ ؛ وَقَدْ يُصَدَّرُ بَلْفِظِ الْغَيْبَةِ ثُمَّ يُلْتَفَتُ مِنْهَا إِلَى الْخِطَابِ ؛ وَقَدْ يُصَدَّرُ بَلْفِظِ الْخِطَابِ ثُمَّ يُلْتَفَتُ مِنْهُ إِلَى الْغَيْبَةِ بِحَسَبِ مَا يُؤْمَرُ الْكَاتِبُ وَتُؤَدَّى إِلَيْهِ بِلَاغَتِهِ مِمَّا سَتَقِفُ عَلَى تَنْوِيلِهِ فِي خِلَالِ كَلَامِهِمْ فِي أَصْنَافِ الْوِلَايَاتِ الْآتِيَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة الخامسة

(في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات، وذلك من سبعة أوجه)

الوجه الأول

(الألقاب، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ألقاب الخلفاء)

وسبيلها الاختصار دون البسط، اكتفاء بما هو ظاهر من أبهة الخلافة، وعلو مقام الإمامة، إذ هي الزعامة العظمى، والرتبة التي هي أعلى الرتب وأسمى .
وهي صنفان :

الصنف الأول — ألقاب الخلفاء أنفسهم، وغاية ما ينعى به الإمام وأمير المؤمنين .

الصنف الثاني — ألقاب أولياء العهد بالخلافة، وألقابهم نحو السيد الجليل وذخيرة الدين، ونحو ذلك على ما سيأتي بيانه في عهود الخلفاء عن الخلفاء .

النوع الثاني

(ألقاب الملوك، وهي صنفان أيضا)

الصنف الأول — ألقاب السلطان نفسه، والكتاب تارة يتدثونها بالسلطان، وتارة يتدثونها بالمقام، ولكل منهما نعت تخصه، وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى في الكلام على عهود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالى .

الصف الثاني — ألقاب أولياء العهد بالملك ، والملوك المنفردين بولاية صغار
البلدان عن السلطان الأعظم ، وهي لأتفتح إلا بالمقام ليس إلا ؛ ولها نعت تخصها
يأتى الكلام عليها فى الكلام على عهدودهم أيضا .

النوع الثالث

(ألقاب ذوى الولايات الصادرات عن السلطان : من أرباب
الوظائف الواقعة فى هذه المملكة)

وقد تقدم فى الكلام على الألقاب فى مقدمة الكتاب أن أصول الألقاب
المستعملة فى ذلك خمسة ألقاب على الترتيب : وهى المقر ، ثم الحناب ، ثم المجلس ،
ثم مجلس مضافا : كمجلس الأمير ، ومجلس القاضى ، ومجلس الشيخ ، ومجلس
الصدر ، ثم الاختصار على المضاف إليه وحذف المضاف : كالأمير والقاضى والشيخ
والصدر ، ويلتحق بذلك لأهل الذمة الحضرة ، وحضرة الشيخ ، والشيخ مجزأ
عن حضرة ، وتقدم فى الفصل الأول من هذا الباب أن أرباب الولايات خمسة
أنواع : أرباب السوف ، وأرباب الأعلام ، وأرباب الوظائف الصناعية ، وزعماء
أهل الذمة ، ومن لا يختص بطائفة لصغرهم . وجميع هذه الأنواع على اختلاف
أصنافهم لا يخرجون عن الألقاب المتقدمة ؛ وقد تقدم الكلام على هذه الألقاب
ونعوتها لمن يكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفى
فى المكاتبات ، إلا أنه قد يؤتى عن السلطان من لم يؤهل للمكتابة عنه ، كأكثر
أرباب الوظائف من حملة الأعلام وغيرهم ، فاحتجج إلى تعريف مراتب الألقاب
لكل نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوفِ، فأعلى ألقابهم المَقَرُّ، وأدناها مجلسُ الأمير، ثم الأمير مجتداً عن مجلس .

وأما أرباب الوظائف الصَّنَاعِيَّة، فأعلى ألقابهم المجلس وأدناها مجلسُ الصَّدر، ثم الصَّدر مجتداً عن مجلس .

وأما من لا يختص بطائفة لصغره، فيقتصر فيه على لقب التعريف وهو فلانُ الدين إن عَظُم وإلاَّ اقتصر على اسمه خاصَّة .

وأما زعماء أهل الذِّمَّة، فأعلى ألقابهم الحَضْرَة، ثم حَضْرَة الشيخ، ثم الشيخ مجتداً عن حَضْرَة .

وأعلم أن كلَّ مَنْ كانت له مكتبةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، فلَقَبُ ولايته ونُعوته كما في مكتبته، غير أنه يَزَادُ في آخر النُعوت المركِّبة ذكر اسمه العلم، ونُسبته إلى السلطان: كالناصرى، والظاهرى، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسِب إليه بِنِياةٍ ونحوها؛ ثم إن كانت مكتبته تُفْتَح بالدعاء نُقل ذلك الدعاء من أول المكتبة إلى ما بعد اسمه والنسبة إلى السلطان في الولاية، كما إذا كانت مكتبته : أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الكريم، فإنه يُدْعَى له عَقِيبَ اسمه والنسبة إلى السلطان - إن كانت - بأعزَّ الله تعالى أنصاره، وكذلك في البواق .

وإن كانت مكتبته تُفْتَح بغير الدعاء: كصدرت هذه المكتبة ونحو ذلك، فإنه يدعى له في الولاية عَقِبَ الاسم والنسبة إلى السلطان - إن كانت - بما يدعى له في مكتبته في آخر الأقباب، كما إذا كان من أرباب السُّيوف ومكتبته صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى أو المجلس السامى بالياء فإنه يُدْعَى له بمثل : أدام الله سعادته، وأدام الله رفعتَه، ونحو ذلك؛ وإن لم تكن له مكتبةٌ عن الأبواب السُّلطانية

كُتِبَ لَهُ فِي الْوَلَايَةِ مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ اللَّقَبِ وَالنُّعُوتِ ، ثُمَّ يَذْكُرُ اسْمَهُ وَالِدَعَاءَ لَهُ إِنْ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلدَّعَاءِ ؛ وَسَيَأْتِي لِقَبِّ كُلِّ ذِي وِلَايَةٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرِ وَنُعُوتهُ عِنْدَ ذِكْرِ وِلَايَتِهِ فِيمَا بَعْدُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ثُمَّ لِلْأَلْقَابِ فِي الْوَلَايَاتِ مَحَلَّانِ :

أحدهما — الطَّرَّةُ . وَيُقْتَصَرُ فِيهَا عَلَى اللَّقَبِ : مِنَ الْمُقَرَّرِ أَوِ الْجَنَابِ أَوِ الْمَجْلِسِ أَوِ مَجْلِسٍ مُضَافًا وَمَا بَعْدَهُ مِنَ النُّعُوتِ إِلَى اللَّقَبِ الْمُمِيزِ لِلوُضُوفَةِ كَالْأَمِيرِيِّ وَالْقَضَائِيِّ وَنَحْوِهِمَا ، ثُمَّ يَذْكُرُ لِقَبَّهُ الْخَاصَّ بِهِ وَهُوَ الْفُلَانِيُّ أَوْ فُلَانُ الدِّينِ ، ثُمَّ يَذْكُرُ اسْمَهُ وَاتِّسَابَهُ إِلَى السُّلْطَانِ إِنْ كَانَ ، عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ مَفْصَّلًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الثَّانِي — فِي أَثْنَاءِ الْوَلَايَةِ . وَهُنَاكَ تَسْتَوِفُ النُّعُوتُ وَيُؤْتَى بِمَا فِي الطَّرَّةِ فِي ضَمْنِهِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْعَلُ لِقَبِّ التَّعْرِيفِ — وَهُوَ الْفُلَانِيُّ أَوْ فُلَانُ الدِّينِ — بَيْنَ النُّعُوتِ الْمَفْرُودَةِ وَالْمَرْكَبَةِ فَاصِلًا بَيْنَهُمَا .

الوجه الثاني

(ألفاظ إسناد الولاية إلى صاحب الوظيفة ؛ ولها ست مراتب)

الأولى — لَفْظُ الْعَهْدِ ، مِثْلُ أَنْ يَقَالَ : أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ .

الثانية — لَفْظُ التَّقْلِيدِ ، مِثْلُ أَنْ يَقَالَ : أَنْ يُقَلَّدَ كَذَا ، وَيَكُونُ مَعَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ وَالْجَنَابِ الْكَرِيمِ .

الثالثة — لَفْظُ التَّفْوِيضِ ، مِثْلُ أَنْ يَقَالَ : أَنْ يُفَوَّضَ إِلَيْهِ كَذَا ، وَيُنْخَصُّ بِالْجَنَابِ لِأَرْبَابِ السُّيُوفِ ، وَكَذَلِكَ الْجَنَابُ وَالْمَجْلِسُ الْعَالِي لِأَرْبَابِ الْأَقْلَامِ .

قلت : وَكُتِّبَ زَمَانَنَا يَسْتَعْمِلُونَهَا ^(١) مَعَ الْمُقَرَّرِ أَيْضًا ، وَلَا يَسْتَعْمِلُونَ لَفْظَ يُقَلَّدُ فِي التَّقَالِيدِ لِتَوْهُمِهِمُ الْإِكْتِفَاءَ بِلَفْظِ تَقْلِيدٍ عَنْهَا ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُقَلَّدُ فَوْقَ يُفَوِّضُ كَمَا تَقَدَّمَ . عَلَى أَنَّ الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ قَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي "التعريف" كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الرابعة — لَفْظُ الْإِسْتِقْرَارِ وَالْإِسْتِمْرَارِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ أَنْتَ يَسْتَقِرُّ فِي كَذَا ، أَوْ يَسْتَمِرُّ فِي كَذَا . وَلَفْظُ يَسْتَقِرُّ مَخْتَصٌّ بِالْمُسْتَحِدِّ ، وَلَفْظُ يَسْتَمِرُّ مَخْتَصٌّ بِالْمُسْتَقِرِّ ؛ وَيَكُونَانِ مَعَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ بِالْيَاءِ ، وَالْمَجْلِسِ السَّامِيِّ بِغَيْرِ يَاءٍ لِأَرْبَابِ السِّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَغَيْرِهِمْ ؛ أَمَّا الْمَجْلِسُ الْعَالِي فَإِنْ كَانَتْ مَكَاتِبُهُ تُفْتَحُ بِالْإِعْدَاءِ ، مِثْلُ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِي كِتَابَ السُّلْطَانَةِ بِالْكَرْكِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِيهِ أَنْ يُفَوِّضَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَكَاتِبُهُ تُفْتَحُ بِصَدْرَتِ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ كِتَابَ الْقُدُسِ وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِيهِ أَنْ يَسْتَقِرَّ .

الخامسة — لَفْظُ التَّرْتِيبِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : أَنْ يُرْتَّبَ فِي كَذَا ، وَيَكُونُ مَعَ مَجْلِسِ مَضَافًا ، مِثْلُ مَجْلِسِ الْأَمِيرِ وَمَجْلِسِ الْقَاضِي وَنَحْوَهُمَا ، وَرَبَّمَا اسْتَعْمِلَتْ مَعَ السَّامِيِّ بِغَيْرِ يَاءٍ .

السادسة — لَفْظُ التَّقَدُّمِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ أَنْ يُقَدَّمَ فَلَانٌ عَلَى الطَّائِفَةِ الْفُلَانِيَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

قلت : وَهَاتَانِ الْمُرْتَبَتَانِ أَعْنَى السَّادِسَةَ وَالْخَامِسَةَ قَدْ ذَكَرَهُمَا الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التعريف" فَقَالَ : وَقَدْ يُقَالُ أَنْ يُرْتَّبَ وَأَنْ يُقَدَّمَ . وَهُمَا مَوْجُودَانِ فِي كِتَابَةِ مُعَاَصِرِيهِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ ؛ أَمَّا كُتِّبَ زَمَانِنَا فَقَدْ رَفُضُوهُمَا جَمَلَةً وَأَضْرَبُوا عَنْ اسْتِعْمَالِهِمَا بِكُلِّ حَالٍ ، وَأَكْتَفَوْا عَنْهُمَا بِالْمُرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ وَهِيَ لَفْظُ الْإِسْتِقْرَارِ ،

(١) أَيْ لَفْظَةُ "يُفَوِّضُ" .

والواجب إثباتهما لتفاوت ما بين المراتب . على أن استعمال لفظ يرتب موجود في كلامهم بكثرة ، ولفظ يُقدّم لم يستعملوه إلا في التّزّير اليسير ، والله أعلم . وهذه الألفاظ تقع في الطّرة وفي أثناء الكلام على حدّ واحد .

الوجه الثالث

(الافتتاحات ، وهي راجعة إلى أربع مراتب)

المرتبة الأولى — الافتتاح بلفظ : هذه بيعة ، أو هذا ما عاهد ، ونحو ذلك في البيعات والعهود على المذهب القديم ، أو بالحمد لله . ويقع الابتداء به في العهود والبيعات إذا ابتدئ العهد أو البيعة بخطبة على ما عليه استعمال أهل زماننا ؛ وكذلك في التقاليد لأرباب السيوف والأفلام ، والمراسيم المكبرة لأرباب السيوف ، والتواقيع الجكار لأرباب الأفلام .

المرتبة الثانية — الافتتاح بأما بعد حمد الله . ويقع الابتداء به في المرتبة الثانية من أرباب المراسيم المكبرة من أصحاب السيوف ، والمرتبة الثانية من أرباب التواقيع من أصحاب الأفلام .

المرتبة الثالثة — الافتتاح برسم بالأمر الشريف ، ويقع الافتتاح به في المرتبة الثالثة لأرباب التواقيع والمراسيم من سائر أرباب الولايات .

المرتبة الرابعة — ما كان يستعمل من الافتتاح بأما بعد فإن كذا . أو من حسنت طرائقه ، وجمدت خلايقه ، فإنه أحق ، وما أشبه ذلك ؛ كما أشار إليه في "التعريف" إذ كان الآن قد رُفِض وترك على ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ؛ وقد كان ذلك يستعمل فيما تقدّم لأرباب السيوف والأفلام جميعاً .

الوجه الرابع

(تعددُ التَّحْمِيدِ في الخطبة أو في أثناء الكلام واتِّحادهُ)

فقد قال في "التعريف" في الكلام على عهود الملوك للملوك : وَكَلَّ كَثُرَتِ التَّحْمِيدَاتُ فِي الْخُطْبِ ، كَانَ أَكْبَرَ : لأنها تدلُّ على عِظَمِ قَدْرِ النِّعْمَةِ ؛ وذكر في الكلام على عهود الخلفاء عن الخلفاء أنه يُنتَهَى في التَّحْمِيدِ إِلَى سَبْعَةٍ .

الوجه الخامس

(الدعاء . وله ثلاثة مواضع)

الموضع الأول — في طُرَّةِ الْوَلَايَةِ بعد ذكر ما يُكْتَبُ في الطُّرَّةِ من ألقابه ، ولا يُزَادُ فيه على دَعْوَةٍ واحدة تناسبه .

الموضع الثاني — في أَتَاءِ الْوَلَايَةِ بعد آستيفاء الألقابِ وذكرِ الْأَسْمِ ؛ وهو ما في الطُّرَّةِ من الدعوة المناسبة له بغير زائدٍ على ذلك .

الموضع الثالث — [في] آخِرِ الْوَلَايَةِ بِالْإِعَانَةِ ونحوها . قال في "التنقيف" : وأقلُّها دعوتان ، وأكثرُها أربعٌ . قال في "التعريف" : وَمَنْ أَسْتَصْغَرَ مِنَ الْمُؤَلِّينَ لَا يُدْعَى لَهُ فِي آخِرِ وِلايَتِهِ .

ثم قد تقدَّم في المَكْتَابَاتِ أَنَّ الدَّعَاءَ مع تنزيه الله تعالى : كَأَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقَرَّرِ ، وَضَاعَفَ اللهُ [تعالى] نِعْمَةَ الْجَنَابِ ونحو ذلك أَعْلَى مِنْ حَذْفِهِ ^(١) ؛ كَأَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ ، وَأَعَزَّهُ اللهُ ونحو ذلك ؛ ولا شك أنه في الولايات كذلك .

(١) أى حذف التنزيه وفي الأصل حذفها أى جملة التنزيه .

الوجه السادس

(طُولُ الكلام وقصره ، فكلُّنا عظمت الوظيفة وأرتفع قدر صاحبها
كان الكلام فيها أبسط)

قال في "حسن التوسل" : ويحسن أن يكون الكلام في التقاليد منقسماً أربعة
أقسام متقاربة المقادير؛ فالرُّبُّ الأوَّل في الخطبة؛ والرُّبُّ الثاني في ذكر موقع الإنعام
في حق المقلِّد ، وذكر الرتبة وتفعُّيم أمرها ؛ والرُّبُّ الثالث في أوصاف المولى^(١) ،
وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدل وسياسة ومهابة وبعْد صيت
وسمعة وشجاعة إن كان نائباً ؛ ووَصِفَ الرأى والعدْل وحُسن التدبير والمعرفة بوجوه
الأموال ، وعمارة البلاد ، وصلاح الأحوال ، وما يناسب ذلك إن كان وزيراً ؛
وكذلك في كلِّ رتبة بحسبها ؛ والرُّبُّ الرابع في الوصايا .

قال في "التعريف" : والذي اختاره اختصاراً مقدار التجميدة [التي]
في الخطبة والخطب مطلقاً وإطالة ما بعد ذلك ؛ والإطناب في الوصايا [اللهم]
إلا لمن جَلَّ قدره [وعظم أمره]^(٢) فإن الأولى الأقصر في الوصايا على أهمِّ الجُمليَّات ،
ويعتذر في الإقتصار بما يُعرف من فضله ، ويُعلم من علمه ، ويوثق به من تجربته
ومن هذا ومثله . قال : والكتاب في هذا [كله] بحسب ما يراه ، ولكلِّ واقعة
مقال يليق بها ، ولملبس كلِّ رجل قدر معروف لا يليق به غيره ؛ وفي هذا غنى لمن
عرَف ، وكفاية لمن عِلِم ؛ على أن المقرَّ الشهابيَّ تابع في ذلك القاضي « محي الدين
أبن عبد الظاهر » رحمه الله ، فإنك إذا تأملت تقاليدَه وتواقيعه ، وجدتها كلها

(١) في حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهي بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكل وجه ظاهر ، فإنَّ المطول للخطبة لا يُحليها من براعة الإِسْتِهلال ،
المناسبة للحال ، والمقصر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب في الوصف .

قلت : ولا يخفى أن ما ذكره في التقاليد يحىء مثله في العهود لجريها على موجبها
من مؤلٍّ ومؤلٍّ .

أما إذا كانت الولاية بيعةً فإنه يجعل موضع الوصايا ذكر التزام الخليفة البرِّ
والإحسان للخلق ، ووعد النظر في أمور الرعية ، وصلاح أحوالهم ؛ وذكر التحليف
للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقد البيعة له على الوفاء بالعهد
والدخول تحت الطاعة . قال في "حسن التوسل" : والأمر الجارى في ذلك على
العادة معروف لكنه قد تقع أشياء خارجة عن العادة فيحتاج الكاتب فيها إلى حسن
التصرف على ما يقتضيه الحال ؛ وذكر من ذلك تقليداً أنشأه لملك سيسى ، وتقليداً
كتبه بالفتوة ؛ وسيأتى ذكر ذلك مع ما شاكلة في مواضعه إن شاء الله تعالى .

الوجه السابع

(قطع الورق)

وأعلم أنَّ الولايات من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بجملتها يحصر قطع
الورق فيها في خمسة مقادير لا يتعداها :

أحدها — قطع البغدادى الكامل ؛ وهو مختص بالبيعات والعهود مطلقاً على
أى الافتتاحات كان .

الثاني - قَطْعُ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْمَنْصُورِيِّ، وَهُوَ لِأَجْلِ الْوِلَايَاتِ السُّلْطَانِيَّاتِ لِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَبَعْضِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ، وَلَا يَفْتَحُ فِيهَا إِلَّا بِالْحَمْدِ .

الثالث - قَطْعُ النَّصْفِ مِنْهُ، وَهُوَ لَمَّا دُونَ ذَلِكَ، وَلَا يَفْتَحُ فِيهِ إِلَّا بِالْحَمْدِ أَيْضًا :
الرابع - قَطْعُ الثُّلُثِ مِنْهُ ، وَهُوَ لَمَّا دُونَ ذَلِكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا وُلِّيَ صَاحِبُ وَظِيفَةٍ تَسْتَحِقُّ قَطْعَ النِّصْفِ وَظِيفَةً أُخْرَى تَسْتَحِقُّ قَطْعَ الْعَادَةِ ، فَإِنَّهُ يُرَاعَى مَقْدَارُ صَاحِبِهَا وَيُزَادُ عَلَى مِقْدَارِ الْعَادَةِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَبْلَغَ رَتْبَةِ وَظِيفَتِهِ الْعُلْيَا ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا ؛ فَيَكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ لَتَكُونَ رَتْبَةُ بَيْنَ رُتَبَتَيْنِ فَتَحْصُلَ مِرَاعَاةُ تَعْظِيمِهِ مِنْ حَيْثُ الزِّيَادَةُ عَلَى قَطْعِ الْعَادَةِ ، وَمِرَاعَاةُ قَدْرِ الْوِظِيفَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّمَا لَمْ تَبْلُغْ شَأْوَ وَظِيفَتِهِ الْعُلْيَا ؛ أَمَّا إِذَا وُلِّيَ مَنْحَطٌ الْقَدْرِ وَظِيفَةٌ تَسْتَحِقُّ الْقَطْعَ الْكَبِيرَ ، فَإِنَّهُ يَكْتَبُ لَهُ فِيهِ ، وَتَكُونُ تَوَلِيَّتُهُ لَهَا رَفْعًا إِلَى دَرَجَتِهَا .

الخامس - قَطْعُ الْعَادَةِ، وَهُوَ أَصْغَرُهَا؛ وَالْأَصْلُ أَنْ يَفْتَحَ فِيهِ بِلَفْظِ «رُسْمٍ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ» وَرَبَّمَا عَلَتْ رَتْبَةُ صَاحِبِ الْوِلَايَةِ وَلَمْ يُؤْهَلْ لِلْكَتَابَةِ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ فَيَكْتَبُ لَهُ فِيهِ : أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ، وَهُوَ قَلِيلُ الْأَسْتِعْمَالِ، فَإِنْ أَسْتُعْمِلَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ كَذَا ، أَوْ إِنَّ أَوْلَى ، أَوْ إِنْ أَحَقَّ وَنَحْوَ ذَلِكَ كُتِبَ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ أَيْضًا .

الباب الثاني

من المقالة الخامسة في البيعات، وفيه فصلان

الفصل الأول

(في معناها)

البيعات جمع بَيْعَة، وهي مصدرُ بَاعَ فلانٌ الخليفةَ يَبِيعُهُ مَبِيعَةً، ومعناها المعاقدةُ والمُعاهدةُ، وهي مُشَبَّهَةٌ بالبيعِ الحقيقيِّ . قال أبو السَّعَادَاتِ بْنُ الْأَثِيرِ في نَهَائِيتهِ في غريب الحديث : كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَاعَ مَا عِنْدَهُ مِنْ صَاحِبِهِ وَأَعْطَاهُ خَالِصَةً نَفْسِهِ وَطَاعَتَهُ وَدَخِيلَةَ أَمْرِهِ . ويقال : بَايَعَهُ ، وَأَعْطَاهُ صَفْقَةً بِيَدِهِ ، وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُ إِذَا تَبَاعَعَ اثْنَانِ صَفَقَ أَحَدُهُمَا بِيَدِهِ عَلَى يَدِ صَاحِبِهِ .

وقد عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَ الْبَيْعَةِ وَحَدَّرَ مِنْ نَكْثِهَا بِقَوْلِهِ خُطَابَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبِيعُونَكَ إِمَّا يَبِيعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وأمر بمبايعة المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُسْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهَتَانٍ يَفْتَرِيَنَّهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبِإِعْهَنَ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وباع النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضوان الله عليهم بَيْعَتَيْنِ .

(١) ليس مراده المصدر الصانعي كما لا يخفى والأوضح "وهي اسم مصدر لباع" الخ تأمل .

الفصل الثاني

(في ذكر تنوع البيعات ، وهى نوعان)

النوع الأول

(بيعات الخلفاء ، وفيها سبعة مقاصد)

المقصد الأول

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصل فى ذلك بعد الإجماع ما ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضی الله عنها " أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلاماً أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس . فقال فى كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . فقال الحباب بن المنذر : لا والله لا نفعل ! منّا أميرٌ ومنكم أمير . فقال أبو بكر : لا وليكنّا الأمراء وأنتم الوزراء . فبايعوا عمر أبا عبيدة . فقال عمر : بل نبايعك فانت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايع الناس . "

وهذه أولبيعة بالخلافة كانت فى الإسلام ، ولكن لم يُنقل أنه رضى الله عنه كُتب له مبايعة بذلك ، وأعل ذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا بايعوا لا يحددون البيعة بعد صدورها ، بخلاف ما بعد ذلك .

المقصود الثانى

(فى بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية)

وهى خمسة أسباب :

السبب الأول — موت الخليفة المنتصب من غير عهد بالخلافة لأحد بعده ، كما فى قصة الصديق المتقدمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أو تركها شورى فى جماعة معينة ، كما فعل عمر رضى الله عنه عند وفاته حيث تركها شورى فى ستة : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، وسعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنهم .

السبب الثانى — خلع الخليفة المنتصب لموجب يقتضى الخلع ، فتحتاح الأمة [إلى] مبايعة إمام يقوم بأمرها ، ويتحمل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوهم الخليفة خروج ناحية من النواحي عن الطاعة فوجه إليهم من يأخذ البيعة له عايمهم : لينقادوا لأمره ، ويدخلوا تحت طاعته .

السبب الرابع — أن تؤخذ البيعة للخليفة المهور إليه بعد وفاة العاهد ، كما كانت الخلفاء الفاطميون تفعل فى خلافتهم بمصر ، وكانوا يسمون البيعة سجلاً كما كانوا يسمون غيرها بذلك .

السبب الخامس — أن يأخذ الخليفة المنتصب البيعة على الناس لولى عهده بالخلافة بأن يكون خليفة بعده إمضاء لعهده ، كما فعل معاوية رضى الله عنه فى أخذه البيعة لولده يزيد .

المقصود الثالث

(في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة)

وأعلم أنه يجب على الكاتب أن يراعى في كتابة البيعة أموراً :

منها - أن يأتي في براءة الاستهلال بما يتبها له من أسم الخليفة أو لقبه :
كفلان الدين ، أو لقب الخلافة : كالتوكل أو المستكفي ، أو مقتضى الحال الموجب
للبعثة من موت أو حلع ونحوهما ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

ومنها - أن يذبه على شرف رتبة الخلافة وعلو قدرها ورنة شأنها ، وأنها الغاية
التي لأفوقها ، والدرجة التي لبعدها ؛ وأن كل رتبة دون ربتها ، وكل منصب فرع
عن منصبها .

ومنها - أن ينبه على ميسر الحاجة إلى الإمام ، ودعاية الضرورة إليه ، وأنه
لا يستقيم أمر الوجود وحال الرعية إلا به ، ضرورة وجوب نصب الإمام بالإجماع ،
وإن شذ عنه الأصم يخالف ذلك .

ومنها - أن يشير إلى أن صاحب البيعة أستوعب شروط الإمامة واجتمعت
فيه ، ويصفه منها بما يعز وجوده ، ويتمدح بمصوله : كالعلم والشجاعة والرأي
والكفاية ؛ بخلاف ما لا يعز وجوده ولا يتمدح به وإن كان من الشروط : كالحرية
والذكورة والسمع والبصر ونحو ذلك ؛ فإن الوصف بذلك لا وجه له .

ومنها - أن ينبه على أفضلية صاحب البيعة وتقدمه في الفضل وأستيفاء الشروط
على غيره : ليخرج من الخلاف في جواز تولية المفضول مع وجود الفاضل .

ومنها — أن ينبّه على أنّ المختارين لصاحب البيعة ممن يُعتبر اختياره من أهل الحلّ والعقد : من العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيسر حضورهم على الوجه المعتبر .

ومنها — أن ينبّه على تعيين المختارين للبيعة ، إن كان الإمام الأول نصّ عليهم ؛ إذ لا يصحّ الاختيار [من] غير من نصّ عليه ، كما لا يصحّ إلا تقليد من عهد إليه .

ومنها — أن ينبّه على جريان عقد البيعة من المختارين ، ضرورة أنه إن انفرد شخص بشروط الإمامة في وقته لم يصّر إماما بمجرد ذلك .

ومنها — أن ينبّه على سبب خلع الخليفة الأول إن كانت البيعة مترتبة على خلع ، إذ لا يصحّ خلع الإمام القائم بلا سبب .

ومنها — أن ينبّه على قبول صاحب البيعة العقد وإجابته إليه إذ لا بدّ من قبوله .

ومنها — أن ينبّه على أنّ القبول وقع منه بالاختيار : لأنه لا يصحّ الإيجاب على قبولها ؛ ألهم إلا إن كان بحيث لا يصلح للإمامة غيره فإنه يجبر عليها بلا خلاف .

ومنها — أن ينبّه على وقوع الشهادة على البيعة ، خروجاً من الخلاف في أنه هل يشترط الإشهاد على البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبّه على أنها لم تقترن ببيعة في الحال ولا مسبوقة بأخرى ، إذ لا يجوز نصب إمامين في وقت واحد وإن تباعد إقليهما ، خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الأسفراييني حيث جوز نصب إمامين في إقليمين .

ومنها — أن ينبّه على أنه بمجرد البيعة تجب الطاعة والانقياد إليه ، ويجب على كافة الأمة تفويض الأمور العامة إليه ، وطاعته فيما وافق حكم الشرع وإن كان جائزاً .

ومنها — أن يعزى في الخليفة الميت ويُنْفَى بالمستقر إن كانت البيعة مبنية على موت خليفة ؛ وأن يبين سبب خلع الخليفة الأول إن كانت مرتبة على خلع .
أما التعزية والتهنئة بموت الأول ، فعليه جرى عامة الحُثَاب ؛ إلا أنه يختص في عرفهم بما إذا كان الخليفة الأول شديد القرب من الثانى ؛ كأبيه وأخيه وأبن عمه .

وكان الأولون يتعاونون ذلك في خطاب الخلفاء بالتهنئة بالخلافة بعد أقاربهم ، وقد روى أن عطاء بن أبى صفيح دخل على يزيد بن معاوية فهنأه بالخلافة وعزاه في أبيه فقال :

رُزِيتَ بأمر المؤمنين خليفة الله ، وأُعْطِيتَ خلافة الله ؛ قضى معاوية تحبه ، فغفر الله ذنبه ؛ ووُئيتَ الرئاسة ، وكنت أحق بالسياسة ؛ فأحتسب عند الله جليل الرزية ، وأشكره على جزيل العطية ؛ وعظم الله في معاوية أجرك ، وأحسن على الخلافة دونك .

وتعرضت أعرابية للنصور في طريق مكة بعد وفاة أبى العباس السفاح ، فقالت :
يا أمير المؤمنين أحسب الصبر ، وقدم الشكر ؛ فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين ، وأعظم عليك المنّة في الحادئين ؛ سلك خليفة الله ، وأفادك خلافة الله ؛ فسلم فيما سلك ، وأشكر فيما منحك ؛ وتجاوز الله عن أمير المؤمنين ، وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين .

وأما التعريف بسبب الخلع ، فلائه لا يصح خلع الإمام بغير موجب للخلع .
ومنها — أن يشير إلى ذكر السلطان القائم بالبيعة إن كان القائم بها سلطاناً على ما استقرت عليه قاعدة الحُثَاب في ذلك .

ومنها — أن ينبّه على أن من استُخلف في البيعة من وجوه الدولة وأعيان المملكة إن جرى حلف، ويذكر صفة حلفهم وما ألزموه من الأيمان المؤكدة، والمواثيق المغالطة .

المقصود الرابع

(في بيان مواضع الخلاف التي يستدعي الحال كتابة المبايعات فيها)

وهي أربعة أمور :

أحدها — موت الخليفة المتقدم عن غير عهد خليفة بعده ، وهو موضوعها الأصلي الذي عليه بُنيت .

الثاني — أن يعهد الخليفة إلى خليفة بعده ، ثم يموت العاهد ويستقر المعهود إليه بالخلافة بالعهد بعده ، فتؤخذ البيعة العامة على الرعية ، لإظهاراً لوقوع الإجماع على خلافته ، والاتفاق على إمامته .

الثالث — أن تؤخذ البيعة للخليفة بحضرة ولايته ، ثم تُفقد الكتب إلى الأعمال لأخذ البيعة على أهلها ، فيأخذ كل صاحب عمل له البيعة على أهل عمله .

الرابع — أن يعرض للخليفة خلل في حال خلافته : من ظهور مخالف أو خروج خارجي ، فيحتاج إلى تجديد البيعة له حيث وقع الخلاف .

ولكل من هذه الأحوال صرب من الكتابة يُحتاج فيه إلى بيان السبب الموجب لأخذ تلك البيعة .

المقصد الخامس

(في بيان صورة ما يُكْتَب في بَيْعَات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المذهب الأول

(أن تُفْتَح المِبايعة بلفظ « تُبَايِع فلانا أمير المؤمنين »)

خطاباً لمن تُؤْخَذُ دليته البيعة)

ويذكر ما يقع عليه عقد المِبايعة، ويأتي بما سَنَح من أمر البيعة، ثم يذكر الحلف عليها؛ وعلى ذلك جرى مصطلح كُتِبَ خلفاء بني أُمَيَّة، ثم خلفاء بني العباس بعدهم ببغداد .

وَأَعْلَمُ أنه قد تَقَدَّمَ في المقصد الأول من هذا الفصل أنه لم يُنْقَلْ أنه كُتِبَ للصديق رضى الله عنه ولا إن وَلِيَ الخِلافة بعده من الصَّحابة من غير عهد بيعة . ولما كانت خِلافة بني أُمَيَّة، وآل الأمر إلى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وأقام الحجاجُ ابْنَ يَوْسُفَ على إمارة العراق، وأخذ في أخذ البيعة لعبد الملك بالعراق، رَتَّبَ أَيْماناً مغلظةً تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعناق والأيمان المُخْرِجاتِ يُحْلَفُ بها على البيعة، وأشهرت بين الفقهاء بأيمان البيعة، وأُطْرِدَ أمرها في الدولة العباسية بعد ذلك . وجرى مصطلحهم في ذلك على هذا الأسلوب .

وهذه نسخة مبايعة، ذكرها أبو الحسين بن إسحاق الصائفي في كتابه "غُرَرُ الْبَلَاغَةِ" وهي :

تُبَايِعَ عَبْدَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَانَا بَيْعَةَ طَوْعٍ وَاخْتِيَارٍ، وَتَبَرُّعٍ وَإِثَارٍ، وَإِعْلَانٍ وَإِسْرَارٍ، وَإِظْهَارٍ وَإِخْتِمَارٍ، وَصِحَّةٍ مِنْ نَفْلٍ، وَسَلَامَةٍ مِنْ غَيْرِ دَغَلٍ، وَثَبَاتٍ مِنْ غَيْرِ

تبدیل ، ووقار من غیر تأویل ؛ واعتراف بما فيها من اجتماع الشمل ، واتصال
الحبل ؛ وانتظام الأمور ، وصلاح الجمهور ؛ وحقن الدماء ، وسكون الدهماء ؛
وسعادة الخاصة والعامة ، وحسن العائدة على أهل الملة والذمة - على أن عبد الله فلانا
أمير المؤمنين عبد الله ، الذي أصطفاه ؛ وخليفته الذي جعل طاعته جارية بالحق ،
وموجبة على الخلق ؛ وموردة لهم موارد الأمن ، وعاقدة لهم معاقدة الثمن ؛ وولايته
مؤذنة لهم بهجمل الصنع ، ومؤدية بهم إلى جزيل النفع ؛ وإمامته الإمامة التي اقترنت بها
الخير والبركة ، والمصلحة العامة المشتركة ؛ وأمل فيها قمع الملحد الجاحد ، ورد الجائر
الحائد ؛ ووقم العاصي الخالع ، وعظمت الغازي المنارع - وعلى أنك ولي أوليائه ،
وعدو أعدائه : من كل داخل في الجملة ، وخارج عن الملة ، وحائد عن الدعوة .
ومتمسك بما يديه ، عن إخلاص من رأيك ، وحقيقة من وفائك ؛ لا تقص
ولا تتكث ولا تخلف ولا توارى ولا تخادع ، ولا تداحى ولا تخايل ؛ علانيتك مثل
نيتك ، وقولك مثل طويتك - وعلى أن لا ترجع عن شيء من حقوق هذه البيعة
وشرائطها على مر الأيام وتطاولها ، وتغير الأحوال وتقلها ، واختلاف الأزمان
وتقلبها - على أنك في كل ذلك من أهل الملة الإسلامية ودعاتها ، وأعوان الدولة
العباسية ورعاتها ؛ لا يداخل قولك مواربة ولا مداهنه ، ولا تعترضه مغالطة
ولا تتعقبه مخالفة ؛ ولا تخيس به أمانه ، ولا تغله خيانه ؛ حتى تلقى الله تعالى مقبياً
على أمرك ، وفيأ بعهدك ؛ إذ كان مباعاً ولاة الأمور وخلفاء الله تعالى في الأرض
﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى
بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

عليك بهذه البيعة - التي أعطيت بها صفة يدك ، وأضيفت فيها سريرة قلبك ؛
والتزمت القيام بها ما طال عمرك ، وأمتد أجلك - عهد الله إن عهد الله كان

مُسْتُولًا ؛ وما أخذه على أنبيائه ورُسُلِهِ وملائكته وحَمَلَةِ عَرْشِهِ من أيمانٍ مَنَظَّةٍ
وَعُهودٍ مَوْكَّدَةٍ ، ومَوَاقِفَ مَشَدَّدَةٍ ، على أنك تَسْمَعُ وتُصْنِعُ ، وتُطِيعُ ولا تُعْصِي ؛
وتَعْتَدِلُ ولا تَمِيلُ ، وتَسْتَقِيمُ ولا تَحِيدُ ؛ وتَفِي ولا تَعْدِرُ ، وتَثْبُتُ ولا تُغَيِّرُ ؛ فَمَتَى
زَلْتِ عَنْ هَذِهِ الْمَحَجَّةِ حَاقِرًا لِأَمَانَتِكَ ، وَرَافِعًا لِدِيَانَتِكَ ؛ فَحَدَّثَ اللَّهُ تَعَالَى رُبُوبِيَّتَهُ ،
وَأَنْكَرَتَهُ وَحَدَانِيَّتَهُ ؛ وَقَطَعَتْ عِصْمَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَّتْهَا ، وَرَمَيْتْ
طَاعَتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكَ وَنَبَذَتْهَا ؛ وَنَقِيتِ اللَّهَ يَوْمَ الْحِشْرِ إِلَيْهِ ، وَالْعَرَضَ عَلَيْهِ ، مُخَالِفًا
لَأَمْرِهِ ، وَخَائِنًا لِعَهْدِهِ ؛ وَهَقِمِيَّ عَلَى الْإِنْكَارِ لَهُ ؛ وَمُصِرًّا عَلَى الْإِشْرَاقِ بِهِ ؛ وَكُلُّ مَا حَلَّلَهُ
اللَّهُ لَكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ ، وَكُلُّ مَا تَمْلِكُهُ يَوْمَ رُجُوعِكَ عَنْ بَذَلِكَ ، وَارْتِجَاعِكَ مَا أَعْطَيْتَهُ
فِي قَوْلِكَ : من مَالٍ مَوْجُودٍ وَمَذْخُورٍ ، وَمَصْرُوعٍ وَمَضْرُوبٍ ، وَسَارِجٍ وَمَرْبُوطٍ ،
وَسَائِمٍ وَمَعْقُولٍ ؛ وَأَرْضٍ وَضَمِيْعَةٍ ، وَعَقَّارٍ وَعُقْدَةٍ ، وَمَمْلُوكٍ وَأَمَةٍ ، صَدَقَةً عَلَى
الْمَسَاكِينِ ، مُحَرَّمَةً عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ لَكَ تَمْلِكُ شَعْرَهَا وَبَشَرَهَا ، وَأُخْرَى
تَتَرَوُّجُهَا بَعْدَهَا ، طَالُقٌ ثَلَاثًا بَتَانًا ، طَلَّاقَ الْحَرَجِ وَالسُّنَّةَ لَارْجَعَةَ فِيهِ وَلَا مَشْوِيَةَ ؛
وَعَلَيْكَ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ دَفْعَةً حَاسِرًا حَافِيًا ، رَاجِلًا
مَاشِيًا ؛ نَذْرًا لَازِمًا ، وَوَعْدًا صَادِقًا ؛ لَا يَبْرُئُكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَضَاءُ لَهَا ، وَالْوَفَاءُ بِهَا ؛
وَلَا قَبْلَ اللَّهِ مِنْكَ تَوْبَةٌ وَلَا رَجْعَةٌ ؛ وَخَذَلَكَ يَوْمَ الْإِسْتِنْصَارِ بِحَوْلِهِ ، وَأَسْلَمَكَ عِنْدَ
الْإِعْتِصَامِ بِجَبَلِهِ ؛ وَهَذِهِ أَيْمِينُ قَوْلِكَ قُلْتَهَا قَوْلًا فَصِيحًا ، وَسَرَدْتَهَا سَرْدًا صَحِيحًا ؛
وَأَخْلَصْتَ فِيهَا سِرَّكَ إِخْلَاصًا مُبِينًا ، وَصَدَقْتَ فِيهَا عَزَمَكَ صِدْقًا يَقِينًا ؛ وَالنِّيَّةُ فِيهَا
نِيَّةُ فُلَانٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ نِيَّتِكَ ، وَالطَّوْيَةُ [فِيهَا طَوْيَتُهُ] دُونَ طَوْيَتِكَ ؛ وَأَنْتُمْ هَدَيْتَ
اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ بِذَلِكَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظًا وَرَقِيًّا .



وهذه نسخة بيعة أخرى من هذا الأسلوب ، أوردها ابن حمدون في تذكرته ، وربما وافق فيها بعض ألفاظ البيعة السابقة ، وهي :

تُبَاعِ الإمامَ أميرَ المؤمنينَ فلانا بيعة طوع وإِشَارَ ، وَاعْتِقَادٍ وَإِضْمَارَ ، وإِعْلَانِ وإِسْرَارِ ، وإِخْلَاصِ مِنْ طَوْيْتِكَ ، وَصِدْقِ مِنْ نَيْتِكَ ؛ وَأَنْشِرَاحِ صَدْرِكَ وَصِحَّةِ عِزِّمَتِكَ ؛ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ ، وَمُنْقَادًا غَيْرَ مُجْبَرٍ ؛ مُقِرًّا بِفَضْلِهَا ، مُدْعِنًا بِحَقِّهَا ؛ مُعْتَرِفًا بِرِكَّتِهَا ، وَمُعْتَدًّا بِحُسْنِ عَائِدَتِهَا ؛ وَعَالِمًا بِمَا فِيهَا وَفِي تَوْكِيدِهَا مِنْ صَلَاحِ الْكَافَّةِ ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ [مِنْ] الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ؛ وَلَمْ الشَّعْتُ ، وَأَمَّنَ الْعَوَاقِبَ ؛ وَسُكُونِ الدَّهْمَاءِ ، وَعِزِّ الْأَوْلِيَاءِ ، وَقَفَّحِ الْأَعْدَاءِ - عَلَى أَنَّ فُلَانًا عَبْدُ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ ، الْمَفْتَرَضُ طَاعَتُهُ ، وَالوَاجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ إِقَامَتُهُ وَوِلَايَتُهُ ؛ الْإِلَازِمُ لَهُمُ الْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَالْوَنَاءُ بَعْدَهُ ؛ لَا تَسْكُ فِيهِ ، وَلَا تَرْتَابُ بِهِ ، وَلَا تُدَاهِنُ فِي أَمْرِهِ وَلَا تَمِيلُ . وَأَنْكَ وَلِيٌّ وَلِيَّهِ ، وَعَدُوٌّ عَدُوُّهُ : مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ، وَحَاضِرٍ وَغَائِبٍ ؛ مَتَمَسِّكٌ فِي بَيْعَتِهِ بِوَفَاءِ الْعَهْدِ ، وَذِمَّةِ الْعَقْدِ ؛ سَرِيرَتُكَ مِثْلُ عَلَانِيَتِكَ ، وَظَاهِرُكَ فِيهِ وَفْقُ بَاطِنِكَ - عَلَى أَنَّ أُعْطِيتَ اللَّهُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَتَوْكِيدِكَ إِيَّاهَا فِي عُنُقِكَ ، لِفُلَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَلَامَةٍ مِنْ قَلْبِكَ ، وَاسْتِقَامَةٍ مِنْ عِزِّمَتِكَ ؛ وَاسْتِمْرَارٍ مِنْ هَوَاكَ وَرَأْيِكَ - عَلَى أَنْ لَا تَتَأَوَّلَ عَلَيْهِ فِيهَا ، وَلَا تَسْعَى فِي تَضْيِئِ مَنْهَا ؛ وَلَا تَقْعُدَ عَنْ نَصْرِهِ فِي الرِّخَاءِ وَالشَّدَّةِ ، وَلَا تَدْعَ النَّصْرَ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ رَاهِنَةٍ وَحَادِثَةٍ ؛ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ مُؤْذِنًا بِهَا ، مُؤْذِيًا لِلْأَمَانَةِ فِيهَا ؛ إِذْ كَانِ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ وِلَاةَ الْأَمْرِ ، وَخُلَفَاءَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَمَأْثَمًا يُنَكِّتُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ .

عليك بهذه البيعة - التي طَوَّقَتْهَا عُنُقُكَ ، وَبَسَطْتَ لَهَا يَدَكَ ، وَأَعْطَيْتَ فِيهَا صَفَقَتَكَ ؛ وَمَا شَرِطَ عَلَيْكَ فِيهَا : مِنْ وِفَاءٍ وَمُؤَالَاةٍ ، وَنُصْحٍ وَمَشَايِعَةٍ ، وَطَاعَةٍ وَمَوَاقِفَةٍ وَاجْتِهَادٍ وَمُتَابَعَةٍ - عَهْدُ اللَّهِ إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا . وَمَا أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَعَلَى مَنْ أَخَذَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَكَيْدَاتِ مَوَائِقِهِ وَمُحْكَمَاتِ عُهُودِهِ ؛ وَعَلَى أَنْ تُمْسِكَ بِهَا وَلَا تُبَدِّلَ ، وَتُسَنِّقِمَ وَلَا تَمِيلَ ؛ وَإِنْ نَكَثَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ أَوْ بَدَّلَتْ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِهَا ، أَوْ عَقَيْتَ رُسُومَهَا مِنْ رُسُومِهَا ، أَوْ غَيَّرْتَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهَا ؛ مَعْلِنًا أَوْ مُسِرًّا أَوْ مُحْتَالًا أَوْ مُتَوَلًّا ؛ أَوْ زَغْتَ عَنْ السَّبِيلِ الَّتِي يُسَلِّكُهَا مِنْ لَا يُحَقِّرُ الْأَمَانَةَ ، وَلَا يَسْتَحِلُّ الْغَدْرَ وَالْحِيَانَةَ ؛ وَلَا يَسْتَجِيزُ حُلَّ الْعُقُودِ ، فَكُلُّ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ عَيْنٍ أَوْ وَرَقٍ أَوْ آتِيَةٍ ، أَوْ عَقَارٍ أَوْ سَائِمَةٍ ، أَوْ زَرْعٍ ، أَوْ ضَرْعٍ ؛ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْأَمْلاكِ الْمُعْتَدَّةِ ، وَالْأَمْوَالِ الْمُدْنَحَةِ ؛ صَدَقَةً عَلَى الْمَسَاكِينِ ، مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْجِعَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِكَ بِجِيلَةٍ مِنَ الْحَيْلِ ، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَوْ تَخْرُجَ مِنْ تَحَارِجِ الْإِيمَانِ ؛ وَكُلُّ مَا تَعْتَدُهُ فِي بَقِيَّةِ عَمْرِكَ مِنْ مَالٍ يَقِلُّ خَطَرُهُ أَوْ يَجِلُّ فَتْلُكَ سَبِيلُهُ إِلَى أَنْ تَتَوَفَّاكَ مِيتَتُكَ أَوْ يَأْتِيَكَ أَجْلُكَ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ لَكَ الْيَوْمَ : وَأُخْرَى تَتَرَقَّجُهَا بَعْدَهَا مَدَّةَ بَقَايِكَ طَالَتْ ثَلَاثًا بَتَانًا ، طَلَاقَ الْحَرْجِ وَالسُّنَّةَ لَامْتَنُوبِيَّةً فِيهِ وَلَا رَجْعَةَ ؛ وَعَلَيْكَ الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ثَلَاثِينَ حَاجَّةً حَافِيًا ، حَاسِرًا رَاجِلًا ؛ لَا يَرْضَى اللَّهُ مِنْكَ إِلَّا بِالْوَفَاءِ بِهَا ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْكَ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَخَذَلَكَ يَوْمَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ وَبَرَكَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَبْهَلَكَ إِلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ شَهِيدٌ ، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا .

(١) فِي الْأَصُولِ "وَلَمْ يَمْلِكْ لَكَ الْيَوْمَ مِنْ ذِكْرٍ وَأَنْشَى مَدَّةً" أَلَمْ يَكُنْ وَهُوَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ كَمَا لَا يَخْفَى .



وهذه نسخة أخرى من هذا الأسلوب ، أوردها أبو الحسين الصابي في "غُرر البلاغة" وهي :

تَبَايَعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقُوَّةٍ مِنْ بَصِيرَتِكَ ، وَصِحَّةٍ مِنْ سِرِّكَ ، وَصَفَاءٍ مِنْ عَقِيدَتِكَ ، وَصِدْقٍ مِنْ عَزِيمَتِكَ ، عَلَى الرِّضَا [بِهِ] وَالْوَفَاءِ لَهُ ، وَالْإِخْلَاصِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْإِجْتِمَاعِ فِي مُنَاصَحَتِهِ ، وَعَقْدِ النِّيَّةِ عَلَى مُوَالَاتِهِ ، وَبَذْلِ الْقُدْرَةِ فِي مَمَالَاتِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ لَأَنْصَارِهِ عَوْنًا ، وَلَأَوْلِيَاءِهِ حَرْبًا ، وَلَأَعْدَائِهِ حَرْبًا ، عَارِفِينَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِطِّ ، وَمُعْتَرِفِينَ بِمَا يَلْزِمُ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَمُحَافِظِينَ عَلَى مَا حَرَسَ الْمَلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، وَالِدَوْلَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ ، ثَبَّتَ اللَّهُ قَوَاعِدَهَا ، وَأَحْكَمَ مَعَاقِدَهَا ، وَزَادَهَا أَسْتِمْرَارًا عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، وَأَسَـتَقَرَّارًا عَلَى كَرِّ الْعُصُورِ ، وَعِزًّا عَلَى ثِقَلِ الْأُمُورِ ، وَأَشْتِدَادًا عَلَى تَغَلُّبِ الْمَقْدُورِ ، فَإِنْ خَالَفَتْ ذَلِكَ مُسِرًّا أَوْ مُعَلِنًا ، وَحَلَّتْ عَنْهُ مُظْهِرًا أَوْ مُبْطِنًا ، وَحَلَّتْ عَنْقُودَهُ نَاقِصًا أَوْ نَاقِضًا ، وَتَأَوَّلَتْ فِيهِ مُحَاوِلًا لِلْخُرُوجِ مِنْهُ ، وَأَسْتَنْثَيْتُ عَلَيْهِ طَالِبًا لِلرَّجُوعِ عَنْهُ ، فَبَرَأَنِي اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَسَلَبَنِي مَا وَهَبَ مِنْ فَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَمَنْعَنِي مَا وَعَدَ مِنْ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَخَلَّانِي مِنْ يَدَيْهِ ، يَوْمَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ لَدَيْهِ ، وَحَنَثَ كُلَّ يَمِينٍ حَلَفَهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى قَدِيمِ الْأَيَّامِ وَحَدِيثِهَا ، وَالنَّهْأَى فِي تَأْكِيدِهَا وَتَشْدِيدِهَا ، وَأَعْرَوْهَا مِنْ لِبَاسِ الشُّبْهِ ، وَأَخْلَوْهَا مِنْ دَوَاعِيِ الْخَنَاطَةِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ يَمِينِي : أَوْرَدْتُهَا عَلَى صِدْقٍ مِنْ نَبِيِّ ، وَصِحَّةٍ مِنْ عَزِيمَتِي ، وَأَتَّقَايَ مِنْ سَرَى وَعَلَايَتِي ، وَسَرَدْتُهَا سَرْدًا مُتَابِعًا مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ ، وَتَلَفَّظْتُ بِهَا تَلَفُّظًا مِنْ غَيْرِ قِطْعٍ ، وَالنِّيَّةُ فِيهَا نِيَّةُ فُلَانٍ : عَلَى حُضُورٍ مِنْهُ وَغَيْبٍ ، وَبَعْدٍ وَقُرْبٍ ، وَأَشْهَدُ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا عَقَدْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْهَا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى مَنْ أَشْهَدُهُ ، وَحَسْبِيَ عَلَى مَنْ أَجْتَرَأُ عَلَى إِخْفَارِ عَهْدِهِ ، وَتَقْضِ عَقْدَهُ .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليه المبايعة اثنين ، أتى في المبايعة بصيغة التثنية ؛ أو ثلاثة فأكثر ، أتى بصيغة الجمع . ولم أتف على كيفية وضعهم لذلك في الكتابة ، والذي يظهر أن المبايعة كانت تكتب على الصورة المنقّمة ، ثم يكتب المبايعون خطوطهم بصدورها عنهم ؛ كما يفعل الآن في تحليف من يحلف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممالك الشامية ، أو يُشهد عليهم في آخر البيعة بمعاقدتهم عليها ورضاهم بها ونحو ذلك .

المذهب الثاني

(مما يكتب في بيعات الخلفاء)

أن تُفتَح المبايعة بلفظ « من عبد الله وولّيه فلان أبي فلان الإمام الفلاني » إلى أهل دولته ، ونحو ذلك بالسّلام عليهم ، ويُؤتى بما سَنَح من الكلام ؛ ثم يُقال : أمّا بعد ، فالحمد لله ؛ ويؤتى على وصفه بشريف المناقب ، واستحقاقه للخلافة ، واستيجاعه لشروطها ، وما يجرى هذا المجرى ؛ ثم يتخرط في سلك البيعة ، ويذكر القائم بأخذها على الناس من سلطان أو وزير عظيم أو نحو ذلك ؛ ويذكر من أمر ولاية الخليفة ما فيه استجلاب قلوب الرعية والأخذ بنخاطهم وما يتخرط في هذا السلك .

وهذه نسخة بيعة من هذا الأسلوب ، لوليّ عهد بعد موت العاهد ، كُتِب بها لبعض خلفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرّض لذكر الوزير القائم بها ، وهي :

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبد الله ووليه «أبي فلان فلان بن فلان» الإمام الفلاني، بأمر الله تعالى أمير المؤمنين، إلى من يضمه نطاق الدولة العلوية : من أمراء وأعيانها، وكبرائها وأولائها؛ على اتساع شعوبهم، وعساكرها على اختلاف ضروبهم، وقبائل عمرها الفيسية وإيمانية، وكافة من تشمله أقطارها من أجناس الرعيه : الأمير منهم والمأمور، والمشهور منهم والمغمور؛ والأسود والأحمر، والأصغر والأكبر؛ وفقهم الله وبارك فيهم .

سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليما .

أما بعد، فالحمّد لله مولى المنّ الحسيم، ومبدي الطول العيم، وما منح جزيل الأجر بالصبر العظيم، فيفيد النعم المتشعبة النون، ومذني المهج المتعالية لتناول المنون؛ ومبيد الأعمار ومفنيها، وناشر الأوائ ومحبيها؛ والفتاح إذا استغلت الأبواب، والقائل : «لكل أجل كتاب» الذي لا يغير ملكه مرور الغير، ولا يصرف سلطانه تصرف القدر؛ ولا يدرك قدمه وأزليته، ولا ينفد بقاءه وسرمدية؛ مسلم الأنام للحمام، ومضمي الأنفس بسهام الاخترام؛ ومورد البشر من المنيّة منهل ما برحوا في رنقه يكرعون، ولزّه المشرق يتجرعون؛ ومعز ذلك بقوله : «كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون» .

والحمد لله الذي نصب الأنبياء لرأشده أعلاما، وحفظ ببعثهم من الحق والهدى نظاما، وجعل نبوة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم لنبواتهم ختامًا، وعصّد بوصيه أبينا

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كَمَلاً للدين وإتماماً ، واستخلص من دُزَيتَهما أئمةً هادين إثناناً لصنعتِهِ وإحكاماً ، وأنامَ الجِئَة على الأئمة بأن أقام لكل زمانٍ منهم إماماً ، وعاقَبَ بين أنوار الإمامة فإذا آنقبَضَ نورُ آنَبَسَطَ نورُ ، وتابَعَ ظُهورُ بدوهِ لِيُشْرِقَ طالِعُ إثر غاربِ يُغورُ ، رحمةً شاملةً للعالمين ، وحكمةً تامةً حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومنَ عليها وهو خيرُ الوارِثينَ ؛ ولم يُخلِ نبياً مع ما شَرَفَه [به] من تناولِ وَحيهِ وتلقّيه ، ولا عَصَمَ إماماً مع اختِصاصِهِ بقُروعِ مَنصبِ الإمامة وترقيهِ ، من لِقَاءِ المنية ، ووداعِ الأَمِيَةِ ؛ بل أَجَلَ لكلٍّ منهم أَجَلاً مكتوباً ، وفَسَحَ له أَمَداً محصوراً محسوباً ؛ لا يَصْرِفُهُ عن وُصُولِهِ فِضِيلُهُ ، ولا يَصِلُ إلى تَجَاوُزِهِ بِقُوَّةٍ ولا حِيلَةٍ ؛ قُدْرَةُ محكمةِ الأسبابِ ، وعِبْرَةُ واضحةٌ لأُولي الألبابِ ؛ وقِضِيَّةٌ أَوْصَحُّها فُرقانُهُ الذي أَقَرَّ بِإِعْجَازِهِ الجاحِدُونَ ، إذ يقول مخاطباً لِنبيه : ﴿ وما جَعَلْنَا لِنُشِيرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفْانٍ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ .

والحمد لله الذي مَنَحَ أمير المؤمنين من خِصائِصِ الإمامةِ وأنوارِها ، وحازَلَه من دَخائِرِها وأودَعَه من أسرارِها ، ما خَوَّلَهُ فَائِزُ ثِرائِها ، وأَصارَ لَهُ شَرَفَ مِراثِها ؛ وجعلَها القائمَ بِحقِّهِ ، والمرشِدَ لخلقِهِ ؛ والمُلاحِ بِهُداهِ ليلًا من الضلالِ بهيما ، والحاوِيَّ بِخلافَتِهِ مجداً لا يَزَالُ ثَناءُهُ عَظِيماً : ﴿ ذلكَ الفضلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَليماً ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين علي أن أَوْصَحَ بآبائِهِ الأئمةِ سُبُلَ الحقائق ، فأصبَحُوا خِلفاءَ الخالِقِ وأئمةَ الخَلائِقِ ؛ وخَوَّلَهُ ما آخَتَصَمَ بِهِ من الإمامة ، ورفَعَهُ بِها إلى أَشْخِخِ مَنْازِلِ العُلَما وأُرفَعَ مَواطِنَ الكَرامَةِ ؛ وَيَسْتَمِدُّهُ شُكْراً يُوازِي النِّعمَ التي أَثَبَّتْ [له] على سِريرِ الخِلافةِ وَسِرِّها نَدَما ، وصَبَراً يُوازِي الفَجيعةَ التي قَلَّ لها فِضْضُ المَدامعِ دَما .

ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي فضَّ بجِهاده جُموعَ الإلحاد، وحصدَ
باجتهاده من مال عن الهدى وحاد؛ وصدَّع بما أمر به حتى عمَّ التوحيد، ودانت
لمُعجزاته الأئمة وقد دناها وهو المُفرد الوحيد؛ ولم يزل مبالِغاً في مَرْضاة ربِّه،
حريصاً على إظهار دينه بيده ولسانه وقلبه؛ حتى استأثر به وقبضه، وبدَّله من الدنيا
شرف جواره وعوضه؛ وأصاره إليه أفضل نبيٍّ بصَّر وبشَّر، وأحيا دين الله وأنشَر؛
وعلى أبيه أمير المؤمنين على بن أبي طالب إمام الأئمة، وأبي الأئمة؛ وقُدوة
السعداء، وسيّد الشهداء؛ وعاضِد الدين بذى الفقار، ومن لم يزل الحقُّ إلى
دَبِّه شديد الإفِقار؛ صلَّى الله عليه وعلى آبائه والأئمة من ذرِّيتهما الذين
أيقظوا العقول بإرشادهم من السنَّة، وأفاضوا من العدل والإحسان ما ألْهَجَ
بتمجيدهم الألسنة.

وإنَّ الإمامَ الفلانيَّ لدين الله أمير المؤمنين كان ولياً لله شرفه الله واستخلصه،
وأفردَه بإمامة عصره وخصَّصه؛ وفوضَ إليه أمرَ خلافته، وأحلَّه محلّاً تقعُ مطارِحُ
الهمِّ دون علوه وإنافه؛ فقام بحقِّ الله ونهض، وعملَ بأمره فيما سنَّ وفرض؛ وقهرَ
الأعداء بسطواته وعزائمهم، وصرفَ الأمورَ بأزمةِ التدبير وخزائمه؛ وبالغ في الذبِّ
عن أشياع الملَّة، واجتهدَ في جهادِ أعداءِ القبلة؛ ووقف على مصلحةِ العباد والبلادِ
أمله، ووقَّع على ما يُحيطُ عند الله قوله وعمَله؛ ولم يترك في مَرْضاة خالقه مشقَّة
إلا احتمَلها، ولا رويَّة إلا صرَفها في إرشادِ خلقه وأعمالها؛ حتى بلغ الغايةَ المحدودة،
واستكملَ الألفاسَ المعدودة؛ وأحسنَ الله له الاختيار، وآثرله الثقلَ من هذه الدار
والزَّنىء بسُكنى دار القرار، والفوزَ بمصاحبة الأنبياء الأبرار، والحُلُول في حظائر
قُدسِهِ مع آبائه الأئمة الأطهار؛ فسار إليه طاهر السَّريه، جميل المذهب والصُّوره؛
مستوجباً بسعْيهِ أفضل رضوانه، ممهداً بالتقوى لتدبيره أكثاف جنَّاته.

وأمر المؤمنين [يحتسب] عند الله هذه الرزية التي عظم بها المصائب، وعظم عند
تجزعها الصاب؛ وأضرمت القلوب نارا، وأجرت الآفاق دما^(١) مُمَارا؛ وأطاشت
بهولها الأكباد بالحرق، وحكمت الأجفان بالآرق؛ وكادت لهجومها الصدور تقذف
أفئدتها، والدنيا تنزع نضرتها وبهجتها، وقواعد الملة تضعف وتهى، والخطوب
الكارثة تُصر ولا تتبى، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون!! تسلياً لأمره الذي لا يُدفع،
وإذعاناً لقضائه الذي لا يُصد ولا يُمنع.

وكان الإمام الفلاني لدين الله أمير المؤمنين عند نقلته جعل لي عقد الخلافه،
ونص على بارتقاء منصبها المخصوص بالإتافه؛ وأفضى إلى بسرّها المكنون،
وأودعني غامض علمها المصون؛ وعهد إلى أن أشملكم بالعدل والإحسان، والعطف
والحنان، والرحمة والغفران، والمن الرائي الذي لا يكدّره أمتنان؛ وأن أكون لأعلام
الهدى ناشرا، وبما أرضى الله مجاهرا، ولأحزاب القبلة مظافرا مظاهرا،
ولأعداء الملة مرغما قاهرا؛ ولتأر التوحيد رافعا، وعن حوزة الإسلام بغاية
الإمكان دافعا؛ مع علمه بما خصصت به من كرم الشيم، وفطرت عليه من الخلال
القاضية مصالح الأمم؛ وأوتيته من استحقاق الإمامة وأسئجابها، ومنحته من
الخصائص المبرمة لأسبابها.

فتعزوا جميع الأولياء، وكافة الأمراء؛ وجميع الأجناد، والحاضر من الرعايا والباد؛
عن إمامكم المقول إلى دار الكرامة، بإمامكم الحاضر الموجود الذي أورثه الله مقامه؛
وآدخولوا في بيعته بضدور مشروحة نقيه، وقلوب على محض الطاعة مطويه؛ ونيات

(١) ما زال الدم سال وأمازه أساله . انظر القاموس .

(٢) أى تدوم من قولهم أصر على الأمر دأوم عليه .

فِي الْوَلَاءِ وَالْمَشَابِعَةِ مَرْضِيَّةً ، وَبَصَائِرَ لَا تَزَالُ بُنُورُ الْهُدَى وَالِاسْتِجَارُ مُضِيَّةً ؛
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُسْأَلُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ إِمَامَتَهُ مَحْظُوظَةً بِالْإِقْبَالِ ، دَائِمَةً الْكَمَالِ ؛ ضَافِيَةً
مِنَ الْأَكْثَارِ ، مَعْضُودَةً بِمَوَاتَةِ الْأَقْدَارِ ؛ وَيُوَالِي حَمْدَهُ عَلَى مَانَحِهِ مِنَ الْأَصْطِفَاءِ
الَّذِي جَعَلَهُ لَأُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا قَوَامًا ، وَأَقَامَهُ لِلْبَرِيَّةِ سَيِّدًا وَإِمَامًا ؛ فَاعْمَلُوا هَذَا
وَأَعْمَلُوا بِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَكُتِبَ فِي يَوْمٍ كَذَا مِنْ شَهْرٍ كَذَا سَنَةِ كَذَا .



وهذه نسخة بيعة : كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة
أبن عمه الأمر بأحكام الله ، قام بعقدها الوزير أبو الفتح يانيس الحافظي ؛
أَقْصَرَ فِيهَا عَلَى تَحْمِيدِهِ وَاحِدَةً ، وَعَزَى بِالْخَلِيفَةِ الْمَيَّتِ ؛ ثُمَّ أَتَقَلَّ إِلَى مَقْصُودِ
الْبَيْعَةِ ، وَهِيَ :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيَّهِ عَبْدِ الْمَجِيدِ أَبِي الْمَيْمُونِ ، الْحَافِظُ لِدِينِ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ،
إِلَى كَافَّةِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ شَرِيفِهِمْ وَمَشْرُوفِهِمْ ، وَأَمِيرِهِمْ وَمَأْمُورِهِمْ ، وَكَبِيرِهِمْ
وَصَغِيرِهِمْ ؛ وَأَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ ، وَفَقَّهُمُ اللَّهُ وَبَارَكَ فِيهِمْ .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ وَيَسْأَلُهُ أَنْ
يُصَلِّيَ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ ،
الْأُئِمَّةِ الْمُهْدِيِّينَ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّطِيفِ بِعِبَادِهِ وَبَرِيَّتِهِ ، الرَّءُوفِ فِي أَقْدَارِهِ وَأَقْصِيَّتِهِ ، الْمُهِمِّنِ
فَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ إِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ ؛ ذِي النِّعَمِ الْفَائِضَةِ الْغَامِرَةِ ، وَالْمِنْنِ الْمَتَابِعَةِ

المتظاهره؛ والآلاء المتواليه المتاصره، القائل في محكم كتابه : ﴿يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ . مدبر أرضه بحلقائه، الذين هم زينةً للعالم وبهجته، وهادى خلقه بأوليائه، لئلا يكون للناس على الله حجة؛ فسبحان الذى هو للنعم مسبغ وبالكرم جدير، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِينُ الْمُلُوكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين أن جعله خليفة دون أهل زمانه، وأوجب ثواب المستحيين له بكفالاته وخصامته، وجعلهم يوم الفزع الأكبر مكنوفين بحفظه مشمولين بأمانه؛ وأوزعه الشكر على ما أسترعه إياه من أمر هذه الأمة، ونقله إليه من ثراث آبائه الهداة الأئمة، وكشفه بإمامته من أفع نائبة وأفزع مله .

وصلّى الله على جدنا محمد رسوله الذى أخبر الأنبياء المرسلون بصفته ونعته، وتداولوا البشرى بما يستقبل من زمانه وبعثه؛ وذكروه فيما أتوا به من كل كتاب أوحاه الله وأنزله، وأعتروا بأنه أفضل من كل من نبأه الله وأرسله؛ فيسر الله سبحانه ما كان مرتقباً من ظهوره، وأذن فى إشراق الأرض بما أنتشر فى آفاقها من نوره؛ وبعثه - جلت قدرته - إلى الأمة بأسرها قاطبه، وجعل السنة الأعماد مجادلة لمن خالف شرعه مخاطبه؛ فكان لآية الكفر ماحيا، وفى مصالح البرية ساعياً، وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة داعياً؛ إلى أن لمعت آيات الحق وسطعت، وأنحسمت مادة الباطل وأتقطعت؛ وظهر من آياته ما كبر له المخشون، واشتهر من معجزاته ما خص به المعتشون، وخاطبه الله فيما أنزل عليه بقوله : ﴿إِنَّكَ مِيتٌ وَلَهُمْ مِيتُونَ﴾ . فحينئذ نقله الله إلى ما أعد له من جناته، وخصه بشرف الشفاعة

في يوم مجازاته ، وصدقته وعده فيما بواه من النعيم المقيم : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وعلى أئمتنا أمير المؤمنين على بن أبي طالب أولى الناس بالنبي ، وأول من أتبعه من ذوى قرابة وأجنبي ، وابن عمه الذى آخضه بمؤاخاته ، وجعله خليفة على كافة الناس بعد وفاته ، وتحل بأمر الله ، فيما ولّاه وأولاه ، وخطب الناس في حجة الوداع فقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ، وعلى آلهما الكرام الأبرار ، وعترتهما المصطفين الأخيار ، وهداة المسلمين وقُدوتهم ، وأمرء المؤمنين وأئمتهم ، الذين حكموا فافسطوا وما قسطوا ، وسلك الحِضرون منهم سنن أسلافهم الذين فرطوا ، وأقنقوا آثارهم في السياسة فما قصروا ولا فرطوا ، ولم يزل كل منهم تاملاً من ذلك بما حسن أيامه ، فاعلاً في أمر الدين مارفع مناره ونشر أعلامه ، حتى آختر الله له ما عنده فنص على من أقامه الاستحقاق مقامه ، وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا أنقضاء لأمدّه ، ولا أنقطاع لمدده ، فنيل المطالب بكرمه وملكوته كل شيء بيده .

وإنَّ الحقَّ إن خفي حيناً فلا بدَّ لهلاله من الإبدار وأنيساط النور ، وإن الشمس إن توارت بالحجاب فما أوشك عودتها إلى البزوغ والظهور ، وإن حسن الصبر إلى أن يبلغ الكتاب أجله يؤمن من تدليّة الشيطان بالغرور ، قال الله عز وجل في كتابه ، الذى هدانا به ، : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

وإنَّ الله تعالى لرأفته بمن أبدعه من خلقه وأنشاه ، ولسابق علمه في عمارة هذه الدار على ما أرادته عز وجل وشاء ، لا يُحِلُّ الأرض من نور يستضيء به السارى في الليل البهيم ، ولا يدع الأمة بلا إمام يهتدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فهو جلّ وعلا أعدل من أن يجعل جيد الإيمان من حلى الإمامة عاطلاً ، أو يترك

الخلق هملاً وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ . بل يقطع أعدار العباد فيما خلقهم له ووقفهم ، ويهديهم بالأئمة إلى التوفيق على عمل ما ألزمهم وكلفهم ؛ فالأمور محروسة الترتيب محفوظة النظام ، والأرض إذا أظلمت لفقد إمام ، أضاءت وأشرق لقيام إمام . وقد علم الكافة أن حجة الله في أرضه ، والمجتنب من الأعمال ما لم يرضه ، والمحسن إلى البرية ببعثه على المصالح وحضه ؛ الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين الذي آتاه الله الحكم صبيًا ، ورفعه من إرث النبوة مكانًا عليًا ؛ وأستخلفه على خلقه فكان للفضل باسطًا ولراية العدل ناشرا ، وجعله لشمس المحاسن جامعًا ولأئمة الخلفاء الراشدين عاشرًا ؛ لم يزل ناظرًا في البعيد والقريب ، عاملاً في سياسة الأمة عمل المجتهد المصيب ؛ مستقصياً حرصه في المحافظة على إعزاز الملة ، مستنفذاً جهده في الجهاد فيمن خالف أهل القبلة ، باذلاً من جزيل العطاء وكثيره ما لا يعرف معه أحد من خاصته بالفقر ولا ينسب معه إلى القلة ؛ حتى استوفى مدته الموهوبة ، واستوعب غايته المكتوبة ؛ وناله من القضاء ما أخرجه من الدنيا سعيداً ، وأقدمه على الله شهيداً ، وأصاره إلى ما أعد له من نعيم لا يريد به بديلاً ولا يطلب عليه مزيداً ؛ وكان انتقاله إلى جوار ربّه تبارك وتعالى ، كانتقال أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بغياً من الكافرين وأغتيالاً . وقد كان يذكر ما علمه من حق أمير المؤمنين تارةً مجهرًا وتارةً محفياً ، إلى أن صار على بسط القول في ذلك وتبيينه مثاراً متهاقياً ، وأفصح بما كان مستبهماً مستعجباً ، وصرح بما لم يزل في كشفه مرمّضاً وعن إفصاحه محجباً ، وذلك لما ألقاه أشرف فرج من سنخ النبوة ، وراه أكرم في نخارة الأبوة ؛ وعلمه من أباه الأمير أبا القاسم

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .

(٢) جرى الكاتب على لغة القصر .

عَمَّهُ سَلامُ اللَّهِ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ سَلِيلُ الْإِمَامَةِ الْقَلِيلِ الْمِثْلِ ، وَنَجَلُ الْخِلَافَةِ الْمَخْصُوصُ
 مِنَ الْفَخْرِ بِأَجْزَلِ حِطٍّ وَأَوْفَرِ كِفْلٍ ؛ كَانَ الْمُسْتَنْصَرُ بِاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَمَاءً وَلِيَّ عَهْدِ
 الْمُسْلِمِينَ ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مَا خَرَجَتْ بِهِ تَوْقِعَاتُهُ وَتَسْوِغَاتُهُ إِلَى الدَّوَابِينَ ، وَثُبَّتْ
 فِي طَرُزِ الْأَبْنِيَةِ ، وَكُتِبَ الْإِيتَاعَاتُ وَالْأَشْرِيَّةُ ، وَعَلِمَتِ الْكَافَّةُ عُلَمَاءُ يَقِينًا ظَلَّتْ فِيهِ
 غَيْرُ مُرْتَابَةٍ وَلَا مِمْتَرِيَّةٍ ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ بَاطِنٌ لَا يَعْقِلُهُ إِلَّا الْعَالِمُونَ ، وَلَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مَنْ
 قَالَ فِيهِمْ : ﴿ وَمَا يَمُحِّدُ بَيِّنَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ . وَذَلِكَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْغَرَضُ
 وَالْمَقْصِدُ ، وَالْبَغْيَةُ وَالْمَطْلَبُ ؛ وَلَهُ عَهْدٌ بِالتَّلْوِيحِ وَالْإِشَارَةِ ، وَإِلَيْهِ أَوْحَى بِالنَّصِّ وَإِنْ
 لَمْ يُقْصَحْ فِيهِ بِالْعِبَارَةِ ؛ وَكَانَ وَالِدُهُ الْأَمِيرُ أَبُو الْقَاسِمِ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - بِمِثْلَةِ
 الْأَشْجَارِ الَّتِي يُتَأَنَّى بِهَا إِلَى أَنْ يَظْهَرَ زَهْرُهَا ، وَالْأَكْثَامُ الَّتِي يُنْتَظَرُ بِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ
 ثَمَرُهَا ، وَالزَّرَجُونَةُ الَّتِي نَقَلَتِ الْمَاءَ إِلَى الْعُثْقُودِ ، وَالسَّجَابَةِ الَّتِي حَمَلَتِ الْغَيْثَ فَعَمَّ
 نَفْعُهُ أَهْلَ السُّهُولِ وَالنُّجُودِ ؛ وَمَا يَبَيِّنُ ذَلِكَ وَيُوضِّحُهُ ، وَيَحَقِّقُهُ وَيَبْصِّحُهُ ؛ وَتَنْجِجُ
 بِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ صُدُورَ وَتَقْوَى أَفْئِدَهُ ؛ وَتَشْهَدُ الْبَصَائِرُ أَنَّ النِّعْمَةَ بِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ مُتَابِعَةٌ
 مُتَجَدِّدَةٌ ، أَنَّ الْأُمُورَ إِذَا تَشَابَهَا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا مُدَدٌ مُتَبَاوِلَاتٌ
 مُتَبَاعِدَاتٌ ؛ فَالسَّابِقُ مِنْهُمَا يُمَهِّدُ لِلتَّالِي ، وَالْأَوَّلُ أَبَدًا رَمَزٌ عَلَى التَّانِي ؛ وَلَا خِلَافَ
 بَيْنَ كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ جَدَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَقْدِ وَلَايَةِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فَعَقَدَهَا لَهُ يَوْمَ غَدِيرُخَمٍّ ، وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 عَلِيًّا ابْنَ عَمِّهِ وَكَانَ لَهُ حِينَئِذٍ عَمٌّ حَاضِرٌ ، وَأَمَضَى مَا أَمَرَ بِهِ وَالْإِسْلَامُ يَوْمئِذٍ غَضٌّ
 وَعُودُهُ نَاضِرٌ ؛ وَكَذَلِكَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هُوَ ابْنُ عَمِّ الْإِمَامِ الْأَمِيرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَقَدْ نَصَّ مَعَ حَضُورِ عُمُومَتِهِ عَلَيْهِ ، وَفَعَلَ مَا فَعَلَ جَدُّهُ رَسُولُ اللَّهِ
 أَقْدَاءً بِهِ وَأَتَهَاءَ إِلَيْهِ ؛ وَكَانَ أَبُو عَلِيٍّ الْمَنْصُورُ الْإِمَامُ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، جَعَلَ أَبْنَهُ عَبْدَ الرَّحِيمِ الْيَاسَّ وَلِيَّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِيزَةً بِذَلِكَ

على كافة الناس أجمعين ؛ ونقش اسمه في السكّة ، وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكّة ؛
والبسّه شدّة الوقار المرسّعة بالجوهر ، وأستتابه عنه إمام الأعياد في الصلاة وفي رُقّي
المنبر ؛ وأقامه مُتّام نفسه في الاستغفار لمن يُتوفّى من خواصّ أوليائه ، وفي الشّفاة
لهم بمقبّل مُناجاته ومسموع دُعائه ، مع علمه أنه لا ينال رُتبة الخلافة ، ولا يبلغ
درجة الإمامة ؛ وأن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله - صلى الله عليه - هو الذي
خُلِقَ لما ؛ وحين حُمِلَ أعباءها أفلها وما آستقلها ؛ وإنما تحت ذلك معنى لطيف
غامض ، وسرٌّ عن جمهور الناس مستترٌ وبرقه لأولى البصائر وامض : وهو أن مكثون
الحكمة ، ومكثوم علم الأمة ؛ يدلّان على أن الإمام المنصور أبا علي ، سيفعل فيمن
يستخلفه بعده مثل فعل النبي ؛ وقد علم الإمام الحاكم - عليه السلام - أن المراد
بذلك من يأتي بعده ممن أولده أو أنسله ، لأنّ ولده حاضر والمقصود من لا ولده ؛
بجعل ولاية عبد الرحيم العهد تأسيساً لما سيكون ، وتثلاً للنفوس من الانزعاج إلى
أن تسمّلها الطمأنينة والسكون ؛ فلما أفضى الله إلى الإمام المنصور أبي علي الإمام
الأمير بأحكام الله أمير المؤمنين بالخلافة التي جعلها واجباً له حقاً ، ووافق جدّه
- عليه السلام - وكان لقبه من لقبه مشتقاً ، ظهر المنكّم ، وصرّح المستر ؛ وعاد
التعريضُ تصرّيحاً ، والتمريضُ تصرّيحاً ؛ والرّمزُ إبانة ، والنصُّ على أمير المؤمنين
أمانه ؛ فاقتدى بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم في آستخلاف أمير المؤمنين
مع حضور عمومه ، وفعل في ذلك فعلته وجرى على قضيتّه ؛ وكشف عمّا أبهمه
الإمام الحاكم بأمر الله قدّس الله لطيفته فتساوى الخاصّ والعام في معرفته ؛ ثم حلّه
أمير المؤمنين محلّ نفسه في الجلوس على الأسمطة ، وعمل لأوليائه ورعيته في ذلك
بالقضايا المحيطة ؛ ونصّبه منصبه في الصلاة على من جرت عادته بالصلاة على مثله ؛
وجمع في اعتماد ذلك بين إحسانه وفضله وبين امتنانه وعذله ؛ وإذا قد تبيّن هذا

الأمر الواضح الجليّ، وتساوى في علمه الشانئ والوليّ؛ وعلم هو ماخصّ الله به أمير المؤمنين من الإمامه، وأزاله عن العقول من ضباب متكاثف وعمامة، وشمله به من فضله ورافته، ونصّبه فيه من منصّب خلافته؛ التي أيدها بوليّه ووزيره، وعصّدها بصفيّه وظهيره، السيد الأجل أبي الفتح يانس الحافظيّ الذي جعله الله على أعنتائه بدولة أمير المؤمنين من أوضح الشواهد والدلائل، وصرف به عن مملكته محذور الصروف والغوائل؛ وأقام منه لمناسبة الخلافة مخلصا جمع فيه أسباب المناقب والفضائل؛ وأيده بالتوفيق في قوله وفعله فأرّبى على الأواحر والأوائل؛ ودلّت سيرته الفاضلة على أنه قد عمّر ما بين الله وبينه؛ وحكمت سنّته العادلة أن كلّ مدح لا يبلغ ثنائه وكلّ وصف لا يقع إلّا دونه؛ والله يضاعف نعمه عنده ولديه، ويفتح لأمر المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها على يديه؛ وهذا يحقّق أنّ الإسلام قد أحدث له قوّة وتمكينا، وأنّ دوى الإيمان قد ازدادوا إيمانا واستبصارا وبقينا؛ فيجب عليكم لأمر المؤمنين أن تدخلوا في بيعته منشرحة صدوركم، طيبة نفوسكم؛ مجتهدين له في خدمة تقابلون بها إحسانه، متقرّبين إليه بمناجحة تحظيكم عند الله سبحانه؛ عاملين بشرائط البيعة المأخوذة على أمثالكم الذين يتبعون في فعلهم، ويقع الإجماع بمثلهم؛ ولكم على أمير المؤمنين أن يكون بكم رحيا، وعن الصغائر متجاوزا كريما، وبالكافة رؤونا رفيقا؛ وعلى الرعايا عطفوا شفيقا، وأن يصفح عن المسيء ما لم يأت كبيره، ويبلغ في الإحسان إلى من أحسن السيرة؛ ويؤبى من الإفضال ما يستخلص الضمائر، ويسبغ من الإنعام ما يقتضى نقاء السرائر؛ وأمير المؤمنين يسأل الله أن يعرفكم بركة إمامته، ويؤمن خلافة؛ وأن يجعلها ضامنة بلوغ المطالب، كافلة لكم بكم بسماعة المبدئ والعواقب؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المذهب الثالث

(أن تُفَتِّحَ البيعةُ بعدَ البسملةِ بِحُطْبَةٍ مُفَتَّحَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ ،

ثم يُؤْتَى بِالْبُعْدِيَّةِ وَيُتَخَلَّصُ إِلَى الْمَقْصُودِ ، وَقَدْ يُذَكَّرُ السُّلْطَانُ الْقَائِمُ بِهَا

وَقَدْ لَا يُذَكَّرُ . وَعَلَى ذَلِكَ كَانَتْ تَكْتُبُ بِيَعَاتُ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ

بِالْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْ أَدْعَى الْخِلَافَةِ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ)

وهذه نسخةُ بيعةٍ كتبَ بها طاهرُ الأندلسيِّ ، في أخذِ البيعةِ على أهلِ دَانِيَّةٍ

من الأندلسِ ، للرَّشِيدِ بْنِ الْمَأْمُونِ الْأُمَوِيِّ ، وهو مُتَنَصِّبٌ فِي الْخِلَافَةِ : تَخْلُفُ

تَوْهَمُهُ مِنَ الرِّعَايَةِ . أَقْتَصَرَ فِيهَا عَلَى تَحْمِيدَةِ وَاحِدَةٍ ، وَلَيْسَ فِيهَا تَعَرُّضٌ لِسُلْطَانٍ قَائِمٍ

بِعَقْدِهَا ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْبَغَ لِنِعَامِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَسَوَّغَ إِفْضَالَهُ هَامِلًا وَهَامِرًا ، وَأَعْجَزَ

عَنْ وَصْفِ إِحْسَانِهِ نَاطِقًا وَنَاطِرًا ، وَقَهَرَ الْخَلْقَ نَاهِيًا وَآمِرًا ، وَتَعَالَى جَدُّهُ فَلَا تَرَى لَهُ

مُضَاهِيًا وَلَا مُظَاهِرًا ، وَلَا مُوَاظِيًا وَلَا مُوَازِرًا ، وَنَصَرَ الْحَقَّ وَكَفَى بِهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِهِ

نَاصِرًا ، وَجَعَلَ جَدَّ الْمَطِيعِ صَاعِدًا وَجَدَّ الْعَصِيِّ عَاطِرًا ، وَحَدَّرَ مِنَ الْخِلَافِ بَادِيًا

وَحَاضِرًا ، وَمَاضِيًا وَغَاطِرًا .

نَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى نِعَمِهِ حَمْدَ مَنْ أَصْبَحَ لِعُلَاقِ الْحَمْدِ ذَاخِرًا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَنِّهِ وَلَنْ

يُعْدِمَ الْمَزِيدَ مِنْهُ شَاكِرًا ، وَنَضْرَعُ إِلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ حِظَّنَا مِنْ بَرَكَاتِ الْإِعْتِصَامِ وَافِرًا ،

وَوَجْهَ نَيْتِنَا فِي الْإِتِّظَامِ سَافِرًا ، وَأَنْ يَمْنَحَ أَوْلِيَاءَهُ النَّصَرَ ظَاهِرًا وَالْفَتْحَ بَاهِرًا ، وَأَعْدَاءَهُ

الرَّغْبَ شَاجِيًا وَالرُّخَّ شَاجِرًا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً مِنْ أَقْرَلِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ

صَاحِرًا ، وَأُصْحَى لِأَوَامِرِهِ مِمْتِلًا وَلِنَوَاهِيهِ مُحَازِرًا ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ حَرْبَ الْإِيمَانِ

ظافراً، ويمدّه بتصره طالباً للثأر ثائراً، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله الذي آتخذه من صفوة الصفوة كابراً فكابراً، وجعله بالفضيلة أولاً وبالرسالة آخرها؛ فيحفظ بالدعاية ساهياً وناسياً وسكن بعد الإبانة منافعاً ومنافراً، وأذهب بنوره ليلاً من الجهالة سائراً، وقام بجهد الكفرة ليثاً خادراً، وباشر بنفسه المكاره دارعاً وحاسراً، وشهد بداراً مبادراً، وحينئذ منيراً بالخبر ناذراً، وظهر عليهم في كل المشاهد غالباً وما ظهروا ناذراً، وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته، المعلومة رأفته، أبو بكر الذي أفتحهم لهول الردّة مصابراً، وسلّ في قتال الروم أهل الجلد والشدة سيفاً باتراً، ومنهم القوي في ذات الله عمر الذي أصبح به ربّع الإسلام عامراً، ولم يحش في الله عاذلاً ولم يرج غادراً، ومنهم الأصدق حياءً عثمان ملاقي البلوى صابراً، والخفير الذي لم ير للأدمة خافراً، ومنهم أقضاهم على الذي قاتل باغيّاً وكافراً، وبات لخوف الله ساهراً، ورضى الله عن الإمام المهدي الذي أطلعه نوراً باهراً، وبحراً للعلم زائراً، وأتى به والضلال يمتز رسنه سادراً، والباطل يثبث وينفي وإردا وصادراً، فخذد رسم الحق وكان دائراً، وقام بأرائه علماً هادياً وقرماً هادراً، وعن الخلفاء الراشدين المرشدين من أصبح حائداً عن الحق جائراً، المجاهدين خائلاً بالعهد خائراً.

أما بعد، فإن الله سبحانه جعل الإمامة للناس عظمة، ومنجاة من ريب الألباس ونعمة، بها يتمهد همارة الأرض، ويتجدد صلاح الكل والبعض، ولولاها ظهر الظلم، واختلط المرعى والمصل، وأرتكبت المآثم، واستديحت المحارم، واستطحت المظالم، واستقم من المظلوم الظالم، وفسد الائتلاف وأفرق النظام، وتساوى الحلال والحرام، فاختار لأمرهم رعاة أمرهم بالعدل فعدلوا، وبالتواصل

فِي ذَاتِ اللَّهِ وَالتَّقَاطُعِ فَقَطَّعُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَوَصَّلُوا ؛ وَعَدُّوا بَيْنَ أَهْلِهِمْ وَأَقْرَبِيهِمْ
 فِيمَا وُكِّلُوا ، وَنَهَضُوا بِأَعْيَاءِ الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ وَأَسْتَقْلَلُوا ؛ وَالزَّمَهُمُ الْإِتِّفَاقَ وَالْإِتْقَادَ ،
 وَحَظَرَ عَلَيْهِمُ الْإِنْتِدَاقَ وَالْعِنَادَ ؛ فَمَلَكُوا بِأَزْمَةِ الْعَقْلِ قِيَادَ الْأُمُورِ ، وَأَشْرَقَتْ بِسِيرَتِهِمُ
 الْمُبَارَكَةِ أَقَاصِي الْمَعْمُورِ ؛ وَشَاهَدَ النَّاسُ فَوَاضِلَ إِمَامِهِمْ ، وَتَيَّنُوا مِنْ سِيرَتِهِمُ الْعَادِلَةَ
 عَلُوَّ مَحَلَّتِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ وَمَقَامِهِمْ ؛ وَلَمْ يُطْرَقْ فِي مُدَّتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ جَنَابٌ ، وَلَا أَقْتَحِمَ
 لَهُ بَابٌ ؛ وَائِي وَسُيُوفُهُمْ تَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ الْأَعْدَاءِ ، وَبِلَادُهُمْ سَاكِنَةُ الدِّهْمَاءِ ،
 وَالْكَفَرَةُ بِالرُّعْبِ الْخَاسِرِ وَالدَّاءِ الْعِيَاءِ ؛ وَأَهْلُ الْإِيمَانِ ، يَجْرُونَ ذُيُولَ الْعَزَائِمِ ، وَعَبْدَةُ
 الصُّلْبَانِ ، يَعْتَرُونَ فِي ذَيْلِ الْهَوَانِ الدَّائِمِ ؛ إِلَى أَنْ عَدِمَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ بِحَارَهَا الزَّوَانِحَ ،
 وَأَنْوَارَهَا الْبَوَاهِرَ ، وَرَأَتْ بَعْدَهُمُ الْعَيُونَ الْفَوَاقِيَّ وَالْمُنُونِ الْفَوَاقِرَ ؛ وَأَكْفَهَرَّ وَجْهُ
 اللَّأْوَاءِ ، وَتَفَرَّقَتِ الذَّرَقُ بِحَسَبِ الْأَهْوَاءِ ؛ وَسُفِكَتِ الدَّمَاءُ ، وَرُكِبَتِ الْمَضَلَّةُ الْعَمِيَاءُ ؛
 وَأَحْتَبَّتِ الْجَوَائِرُ ، وَأَهْمِلَ الشَّرْعُ وَالشَّعَائِرُ ؛ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدْنَى فِي كَشْفِ
 الْكُرْبِ ، وَأَطْلَعَ بِالْغَرْبِ نُورًا مَلَأَ الدُّنْيَا إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ ؛ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي أَضَاءَ
 لِلْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ ، وَطَلَعَ عَلَى الْآفَاقِ طُلُوعَ النَّهَارِ ، وَذُخِرَتْ أَيَّامُهُ السَّعِيدَةُ لِدَرْكِ
 الثَّارِ ؛ وَكَفِفَتْ بِهِ الْخِلَافَةُ وَطَالَ بِهَا كَفُّهُ ، وَقَامَ بِالْإِمَامَةِ مِثْلَ مَا قَامَ بِهَا الْخُلَفَاءُ
 الرَّاشِدُونَ سَلَفُهُ ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْخَلِيفَةُ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدُ بِاللَّهِ آبَنُ الْخُلَفَاءِ
 الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَخَلَّدَ فِي عَقِبِهِمُ الْإِمَامَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ وَهُوَ
 الْأَسَدُ الْمَهْصُورُ ، وَمَنْ أَبُوهُ الْمَأْمُونُ وَجَدَّهُ الْمَنْصُورُ ؛ الْعَرِيقُ فِي الْخِلَافَةِ ، وَالْحَقِيقُ
 بِالْإِمَامَةِ وَالْإِنَافَةِ ؛ جَمَعَ مَا افْتَرَقَ ، وَنَظَّمَ الْأُمُورَ وَتَسَّقَى ؛ وَمَنْعَ الْحَوْزَةَ أَنْ تُطْرَقَ
 وَالْمَلَّةَ أَنْ تَفْتَرِقَ أَوْ تُفَرَّقَ .



وهذه نسخة بيعه كتب بها أبو المطرف بن عُميرة الأندلسي بأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس لأبي جعفر المستنصر بالله العباسي ، قام بعقدها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود صاحب الأندلس ، ثم أخذ البيعة بعد ذلك عليهم لنفسه ، وأن يكون أبنه ولي عهده بعده ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الأرض قَرَارًا ، وأرسل السماء مِذْرَابًا ، وسخر ليلًا ونهارًا ، وقدر آجالًا وأعمارًا ، وخلق الخلق أطوارًا ، وجعل لهم إرادةً واختيارًا ، وأوحى لهم تفكيرًا واعتبارًا ، وتعاهدهم برحمته صغارًا وكبارًا .

نحمده حمد من يرجو له وقارًا ، ونبرأ من عانده استيجارًا ، وألحد في آياته سفاهةً واعتزارًا ، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجارًا ، السامي فخارًا ، ^(١) فرفع الله من شريعته للأمة منارًا ، وأطفأ برسالته للشرك نارًا ، حتى علا الإسلام مقدارًا ، وعزَّ جارا ودارًا ، وأذعن الكفر اضطرارًا ، وأستسلم ذلةً وصغارًا ، ففضى وقد ملأ البسيطة أنوارًا ، وعمها بدعوته أنجادًا وأغوارًا ، وأوجب لولاة العهد بعده طاعةً وأتمارًا ، فجراه الله أفضل ماجزى نبيًا مختارًا ، ورسولًا اجتباه اختصاصًا وإيثارًا ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارًا واختيارًا ، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصارًا ، صلاة نوايلها إعلانًا وإسرارًا ، وزجوها مغفرة ربنا إنه كان غفارًا .

أما بعدُ ، فإنَّ المستأثر بالدوام ، اللطيف بالآنام ، أنشأهم على التغير والتباين ، وأضطرهم إلى التجاور والتعاون ، وجعل لهم مصلحة الاشتراك ، ومنفعة الالتحام

(١) لعله " الذي رفع الله به من " الخ . تأمل .

والإشتباك ؛ طريقاً إلى الأفضل في حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ وبعث النبيين
مرغبين ومحدّرين ، ومبشرين ومُنذرين ؛ فأدّوا عنه ما حَمَل ، وبلّغوا ما حَرَّمَ وحلَّل ؛
وكان أعمهم دَعْوُهُ ، وأوثقهم عُرْوُهُ ؛ وأعلامهم في المنزلة عنده ذِرْوُهُ ، وأعطفهم
للقلوب وهي كالْحَجَّارَةِ أو أشدَّ قسْوَهُ ؛ المخصوص بالمقام المحمود ، والحوض
المورود ؛ وشفاعة اليوم المشهود ، ولواء الحمد المعقود ؛ صلى الله عليه وعلى آله وسلم
أفضل صلاة تُقضى إلى الظلِّ المدود ، وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود ؛ بعثه الله
للأحمر والأسود ، والأدنى والأبعد ؛ فصَدَعَ بأمره وظلام الليل غير مُنْجَاب ،
والداعي إلى الله غير مُجَاب ؛ وأهل الجاهلية كثير عددهم ، شديد جلدتهم ، بعيد
في الضلالة والغواية أمدهم ؛ فسلك من هدايتهم سيلاً ، وصبر لهم صبراً جيلاً ،
يُحِبُّ صلاحهم وهم العدو ، ويَلِين لهم إذا جدَّ بهم العدو ، ويَجْتَهِد في إظهار دينه
ولدين الله الظهور والعلو ؛ حتى آتَقَادُوا بين سابقٍ سبقَتْ له السَّعَادَةُ ، ولاحقٍ
تداركته المشيئة والإرادة ؛ ولما رُفِعَتْ راية الإسلام ، وشفعتُ حُجَّةَ الْكَتَابِ حُجَّةً
الإسلام ؛ ودُعِيَ الناس إلى التزام الأحكام ، ونُهِوا عن الاستقسام بالأزلام ، أُخْتُوا^(١)
إلى الربِّ المعبود ، وأشفقوا من تعدّي الحدود ، ووعظوا في الإيمان والعهود ؛ فآثَمُوا
للشرع حين أمر ، وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر ؛ فكان الرجل يدعُ الخوض
فيما لا يعلمه ، ويترك حقه لأجل يمين تلزمه ، وسُرِعَتِ الْإِيمَانُ في كلِّ فنٍّ بحسب
المحلوف عليه ، وعلى قدر الحاجة إليه ؛ فواحدة في المال لحق الأداء ، وأربعٌ محسنةٌ
عند مُلاعنة النساء ، وخمسونٌ انتهى إليها في أحكام الدماء ، فتوثق للحدود على
مقاديرها ، وجرّت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها ؛ وقُبِضَ رسول
الله صلى الله عليه وسلم والعدل قائم ، والشرع على القوى والضعيف حاكم ، والربُّ

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثاني الانقياد إن لم يكن مصحفاً عن الاستسلام .

جَلَّ جَلَالُهُ بِمَا تُخْفَى الصُّدُورُ عَالَمٌ ؛ وَقَامَ بَعْدَهُ الْخَلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ أَرْكَانُ الدِّينِ ،
وَأَعْضَادُ الْحَقِّ الْمُبِينِ ؛ يَجْلُونَ النَّاسَ عَلَى سَنَنِهِ الْوَاضِحِ ، وَيَقْدُونَ أُمُورَ الْمَصَالِحِ ،
وَيَنْتَفِقُهُونَ فِي الْأَحْكَامِ وَقُوفًا مَعَ الظَّاهِرِ وَتَرْجِيحًا لِلرَّاجِحِ ؛ وَكَانُوا يَتَوَقَّفُونَ فِي بَعْضِ
الْأَحْيَانِ ، وَيَطْلُبُونَ لِلشُّبْهِ وَجْهَ الْبَيَانِ ، وَيَسْتَظْهِرُونَ عَلَى تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنَ الْوَقَائِعِ
بِالْإِيمَانِ ؛ حَتَّى كَانَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ يَسْتَنْبِتُ فِي الدَّرَايَةِ ، وَيَسْتَحْلِفُ الرَّائِيَ
عَلَى الرَّوَايَةِ ؛ وَمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ أَحَدٌ ، وَلَا أَعُوزُهُ مِنَ الشَّرْعِ مُسْتَنْدَبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَئِمَّةٌ
بِالْعَدْلِ قَضَوْا ، وَعَلَى سَبِيلِهِ مَضَوْا ، وَالسَّيْرَةُ الْجَلِيلَةُ تَخَيَّرُوا وَأَرْتَضَوْا ؛ وَعَنْ سَيِّدِ
الْأَنْبَاءِ ، وَمُسْتَنْزِلِ دَرِّ الْغَمَامِ ، عَمَ نَبِينَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ؛ الْحَامِي الْحَدِّبِ ،
وَالْمَعْقِلِ الْأَشْبِ ؛ وَالغِيثِ الْهَامِلِ الْمُنْسَكِبِ ، أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛
وَعَنْ الْفَائِزِينَ بِالرُّتْبَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالصُّحْبَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَالْمَنَاقِبِ الْعَظِيمَةِ ؛ بُدُورِ الظَّلَامِ
وَبُحُورِ الْحَكَمِ ، وَصُدُورِ أُنْدِيَةِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ؛ وَسَائِرِ صَحَابِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا عَلَى عُمْرِهِ ، وَأَسْلَفُوا جِدًّا فِي نَصْرِهِ ، وَأَدْرَكُوا مِنْ بَرَكَةِ عِيَانِهِ وَزَمَانِهِ مَا لَا مَدْرَكَ
لِحَصْرِهِ ؛ كَرَّمَ اللَّهُ مَا بَهُمْ ، وَأَجَزَلَ ثَوَابَهُمْ ، وَشَكَرَ لَهُمْ صَبْرَهُمْ وَأَحْسَنَ بِهِمْ ؛ فَلَقَدْ عَقَدُوا
نِيَّةَ الصَّدَقِ عِنْدَ قِيَامِهِمْ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْإِطَاقَةِ ، وَاسْتَبَاحُوا صَلَاةَ الشُّكْرِ حِينَ رَفَعُوا
حَدَّثَ الرَّدَّةِ وَأَرَأَوْا سُورَ الشَّرْكِ وَقَدْ اسْتَحَقَّ بِنَجَاسَتِهِ الْإِرَاقَةَ ، وَأَثَرُوا كِسْرَى زِيَّتِهِ
فَأَبْرَزُواهَا عَلَى سُرَاقِهِ ؛ فَرَأَوْا عِيَانًا مَا أَخْبَرَهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَلَكُوا مَا رَوَى لَهُ مِنْهَا
فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ بِحَقِّهِ الْمُبِينِ ؛ وَذَهَبُوا فَاطْلَمَتِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَتَكَرَّرَتِ الْمَعَارِفُ
لِفَقْدِهِمْ ، وَاخْتَلَطَ الْهَمَلُ وَالْمَرَعَى ، وَتَشَابَهَ الصَّرِيحُ وَالِدَّعَى ؛ وَثَارَتِ الْفِتَنُ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ ، وَصَارَتِ الْحَقُوقُ نُهْبَةً [كُلِّ] نَاهِبٍ ؛ وَلَمَّا بَرِحَتِ الْعُهُودُ ، وَتَعَدَّتِ

(١) مراده على عهد النبي وفي زمنه .

(٢) لعله ولما تركت العهود . تأمل .

الحدود؛ بلغ الوقت المحدود، وطلعت بياض العدل الزايات السود؛ تحتاً سادات
الناس، وذادة موقف الباس؛ وشهب اليوم العماس، ومجيب البيت الكريم من
بني العباس؛ فأعادوا إلى الأمر رونقه، ونفوا عن الصفورنقه؛ وحموا حرم
المسلمين، وأحيوا سنة ابن عمهم سيد المرسلين؛ فأصبحت الأمور مضبوطة،
والثغور محوطة؛ والسبل آمنة، والرعية في ظل العدل والأمن ساكنة؛ وكان الناس
قبلهم قد ركبو الصعب والدلول، وأمتطوا الحزن والشهول؛ فوثقوا منهم بطاعتهم،
وأستحلّوهم على بيعاتهم؛ ذلك بأنهم ألزموهم منها واجباً على القطع، لازماً بإلزام
الشرع؛ ووجدوا لمصلحة الارتباط بالآيمان شواهد من الآثار المقولة، والأصول
المقبولة؛ ومن أعطى من نفسه كل ما عليها، وراعى جملة المصالح وكل ما تطرق
إليها، فكيف لا يكون في سعة من هذا التكليف المستند إلى الآثار الشرعية،
الداخل في أقسام المصالح المرعية؛ كما سلف من الأئمة المهتدين؛ آباء أمير المؤمنين
وخليفة رب العالمين، ابن عم سيدنا وسيد المرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين .

لما دعا الناس بالملكة الفلانية حماها الله إلى محبتهم القويّة، وإمريتهم الهاشمية؛
مجاهد الدين، بسيف أمير المؤمنين، جمال الإسلام، مجد الأنام، تاج خواص
الإمام؛ نخر ملوكه، شرف أمرائه؛ المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين أبو عبد الله
محمد بن يوسف بن هود، أسعد الله أيامه، ونصر أعلامه؛ وقام لذلك متوحداً
المقام الكريم، مشمراً عن ساعد التضميم؛ ماضياً إلى الهول مضاء الحسام
القاصب، غاضباً لأمر الله ورضاه على غاية هذا الغاضب؛ مالت إليه الأجياد،
وأنالت عليه البلاد؛ فانتظمتها مدينة مدينه، وجعل التوكل على الله سبحانه شريعة
منبعة وذريعة معينه؛ وتقدم - أيده الله - بأخذ البيعة على نفسه وعلى أهل الملة
قاطبة للقيام بأمر الله سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أبي جعفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين ؛ وكان له في ذلك المرام السعيد، والمقام الحميد، والقدم^(١) الذي رضى إبداءه وإعادته المبدئ المعيد؛ وخطب الديوان العزيز النبوي - خلد الله شرفه - متضرعا لوسائل خدمته، متعرضا لعواطف رحمته ؛ وبعث رسوله على أصدق رجاء في القبول ، وأثبت أمل في الإسعاف بالمأمول ؛ وأثناء هذه الإرادة القويمة، والسعادة الكريمة ؛ تفاوض أهل البلاد في توثيق عقدهم للسلطان فلان المشار إليه الذي هو حُكم من أحكام الإجماع المتعقد ، وأصل أفضى إليه نظر الناظر واجتهاد المجتهد ؛ إذ أجالوا الأمر فيما يزيد وثاقه، ويكسو وجهه على الأيام بشرا وطلاقة ؛ ويحعل القلوب مطمئنة برُسوخه في الأعقاب، وثبوتيه على الأحقاب ؛ فلم يروا رأيا أسد، ولا عملا أحصف وأشد؛ من أن يطلبوه بعقد البيعة لابنه الواثق بالله المعتصم به أبي بكر محمد بن مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين ، على أن يكون ولي عهدهم مدة والده مد الله في حياته، وأميرهم عند الأجل الذي لأبد من موافاته ؛ فأمضى لهم ذلك من اتفاقهم ، وأثبتوا على ما شرطته بيعته في أعناقهم ؛ وبعد ذلك أتى صولة الإسلام ، وصلة دار السلام ؛ وورد رسول مثابة الجلاله ، ونيابة الرسالة ؛ وملتزم الملائك ، ومعتصم الممالك ؛ ومعه الكتاب الذي هو نص أغنى عن القياس ، بل هو نور يمشى به في الناس ؛ وأدى إلى السلطان فلان المشار إليه من تشریف الديوان العزيز النبوي ماوسمه من الفخار بأجل وشمه، وقلده السيف الصارم وسماه باسمه ؛ فلاقى السيفان المضروب والصارب ، وأشتبه الوصفان الماضي والقاضب ؛ وبرزت تلك الخلع فايض وجه الإسلام من سوادها، ووضع الكتاب فكادت المنابر تسعى إليه شوقا من أعوادها ؛ وقرئت وصايا الإمام ، على الأنام ؛ فعلموا أنها من تراث الرسالة ،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كَافِلُ الْإِسْلَامِ جَدَّدَ لَهُ بِهَذَا الصَّقْعِ الْغَرَبِيِّ حُكْمَ الْكَفَالَةِ ؛ وَسَمِعُوا مِنْ
التَّقْدِيمِ بِإِنصَافِهِمْ ، وَالتَّهَمُّ بِمَوَاسِطِهِمْ وَأَطْرَافِهِمْ ؛ جُمْلًا عَقَرُوا لَهَا الْحَبَاهُ جُودًا
بِالْجَهْدِ ، وَسَجَدُوا لِلشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ؛ فَأَدْرَكُوا مِنْ بَرَكَةِ الْمَشَاهِدِ أَثْبَتَ شَرَفٍ وَأَبْقَاهُ ،
وَرَأَوْا حَقِيقَةَ مَا كَادَتْ الْأَوْهَامُ تُرَوِّلُ عَنْ مَرْقَاهُ ؛ وَأَزْدَادُوا يَقِينًا بِفَضْلِ مَا صَارُوا
إِلَيْهِ ، وَرَأَوْا عَيَانًا يُمْنُ مَا بَايَعُوا عَلَيْهِ ؛ فَتَوَافَتْ طَوَائِفُهُمُ الْمَتَّبِعَةُ ، وَجَمَاهِيرُهُمُ
الْمَجْمُوعَةُ ؛ يَدَارًا إِلَى الْمَرَاضِي الشَّرِيفَةِ ، وَبِنَاءً عَلَى وَصَايَا عَهْدِ الْخَلِيفَةِ ، أَنْ يُجَدِّدُوا
الْبَيْعَةَ لِمَجَاهِدِ الدِّينِ ، سَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ تَوَلَّى اللَّهُ عَضُدَهُ ؛ وَلِأَبْنِهِ الْوَائِقِ بِاللَّهِ
الْمُعْتَصِمِ بِهِ أَنْهَضَهُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ بَعْدَهُ ؛ وَلَمْ تَعُدْ أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ الطَّارِئَةُ شَرْطًا فِي تَقْرِيرِ
الْإِمْرَةِ الْمُؤَدَّاةِ وَإِنْبَاتِهَا ، أَوْ جَارِيَةٍ تَجْرِي السَّنْبُ التِّي يُؤْمَرُ الْمَصْلَى بِالْإِعَادَةِ عِنْدَ
فَوَاتِهَا ؛ فَأَعَادُوا بَيْعَتَهُ أَدَاءً لِلْفَرِيضَةِ وَرَجَاءً لِلْفَضِيلَةِ ؛ وَاسْتَدْنَدُوا إِلَى الْإِشَارَاتِ
الْجَلِيلَةِ ، بَعْدَ الْإِسْتِخَارَاتِ الطَّوِيلَةِ ؛ وَرَأَوْا أَنْ يَأْخُذُوا بِهَا عَادَةَ الْبَيْعَاتِ الْعَبَّاسِيَّةِ ،
وَاتَّخَذَ حُكْمُ الْأَصْلِ طَرِيقَ الْإِلْحَاقَاتِ الْقِيَاسِيَّةِ ؛ فَبَايَعُوا عَلَى تَذَكُّرِ بَيْعَةِ أَكْثَرِهَا
بِالْعُهُودِ الْمُسْتَحْفَظَةِ ، وَوَقْفِهَا بِالْإِيمَانِ الْمَغْلَظَةِ ؛ وَبَادَرُوا بِهَا نِدَاءً مُنَادِيَهُمْ ، وَأَعْطَوْا
عَلَى الْإِصْفَاقِ بِهَا صَفَقَةً أَيْدِيَهُمْ .

وَلَمَّا آتَتْهُ ذَلِكَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ فَلَانَةِ وَجْهَاتِهَا ، رَأَوْا أَنْ يَخْلِفَ مِنْ سَبَقِ ،
وَيَصْدُقُوا النَّيَّةَ مَعَ مَنْ صَدَقَ ، وَيَعْقِدُوا مَا عَقَدُوهُ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ الْعَهْدُ الشَّرِيفُ
وَنَطَقَ ؛ فَحَضَرَ مِنْهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالصُّلَحَاءُ ، وَالْأَجْنَادُ وَالْوُزَرَاءُ وَالْفُقَهَاءُ ، وَالْكَافَّةُ عَلَى
تَبَايُنِهِمْ فِي الْمَرَاتِبِ ، وَتَفَاوُتِهِمْ فِي الْمَنَاصِبِ ، وَأَخْتِلَافِهِمْ فِي الْمَوَاطِنِ وَالْمَكَاسِبِ ؛
فَامْتَضَوْهَا بَيْعَةً كَرِيمَةً الْمَقَاصِدِ ، سَلِيمَةً الْمَعَاقِدِ ؛ عَهْدُهَا مُحْكَمٌ ، وَعَقْدُهَا مُبَرَّمٌ ؛
وَمَوْجِبُهَا طَاعَةٌ وَسَمْعٌ ، وَالتَّقِيدُ بِهَا سُنَّةٌ وَشَرْعٌ ؛ وَيَعْمُرُونَ بِهَا أَسْرَارَهُمْ ، وَيَقْنُونَ
عَلَيْهَا أَعْمَارَهُمْ ؛ وَيَدِينُونَ بِهَا فِي عُسْرِ وَيُسْرٍ ، وَرَبْحٍ وَخُسْرٍ ؛ وَضِيقٍ وَرَفَاهِيَةٍ ، وَحُبَّةٍ

وَكَرَاهِيَهُ ؛ تَبَرَّعُوا بِذَلِكَ كُلِّهِ طَوْعًا ، وَاسْتَوْفَوْهُ فَضْلًا فَضْلًا وَنَوْعًا نَوْعًا ، وَعَاهَدُوا عَلَيْهَا
الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَأَضْمَرُوا مِنْهَا عَلَى مَا أَبْرَعَ عَلَى الظَّاهِرِ وَأَوْفَى ؛ وَتَقَبَّلُوا مِنْ
الْوَفَاءِ بِهِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ خَلِيلَهُ إِذْ قَالَ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ؛ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، وَبِمَا أَخَذَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ الْكَرَامِ مِنَ
الْعُهُودِ الْمُؤَكَّدَةِ ، وَالْمَوَاقِفِ الْمُشَدَّدَةِ ، عَلَى أَنْهُمْ إِنْ حَادُوا عَنْ هَذِهِ السَّبِيلِ ، وَاتَّقَادُوا
لِدَاعِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ ؛ فَهُمْ بُرَاءٌ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ،
تَارِكُونَ ذِمَّتَهُ الْوَافِيَةَ لَذِمَّتِهِمْ ؛ وَالْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِأَزْمَةِ لَهُمْ عَلَى مَذْهَبِ إِمَامِ دَارِ الْهِجْرَةِ ،
وَطَلَّاقِ كُلِّ امْرَأَةٍ فِي مِلْكِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِأَزْمِ لَهُمْ ثَلَاثًا ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا
فِي الْبِلَادِ الْفُلَانِيَّةِ فَطَلَّاقُهَا لِأَزْمِ لَهُ ، كُلَّمَا تَزَوَّجَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَاحِدَةً خَرَجَتْ طَالِقًا
ثَلَاثًا ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ عَلَى قَدَمَيْهِ ، مُحْرِمًا مِنْ مَنَزِلِهِ
بِحُجَّةِ كَفَّارَةٍ لِأَنْتَهِزَى عَنْ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَعِيِيدُهُمْ وَأَرْقَاؤُهُمْ عَقْدًا لِحَقْقُونَ بِأَحْرَارِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَجَمِيعِ أَمْوَالِهِمْ عَيْنًا وَعَرْضًا ، حَيَوَانًا وَأَرْضًا ، وَسَائِرُ مَا يَنْحَوِيهِ الْمُتَمَلِّكُ
كُلًّا وَبَعْضًا ، صَدَقَةٌ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَاشَى عَشْرَةَ دَنَانِيرَ . كُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَشَدِّ
مَذَاهِبِ الْفَتَوَى ، وَأَلْزَمَهَا لِكَلِمَةِ التَّقْوَى ؛ وَأَبْعَدَهَا مِنْ مَخَالَفَةِ الْهَوَى وَالظَّاهِرِ
وَالْفَحْشَى ؛ أَرَادُوا بِذَلِكَ رِضَا الْخِلَافَةِ الْفُلَانِيَّةِ وَالْفُلَانِيَّةِ (بَلَقِيَ السُّلْطَانَةُ) لِلسُّلْطَانِ
وَوَلَدِهِ الْمَاخُودِ لَهَا الْبَيْعَةَ بَعْدَ بَيْعَتِهِ ، وَأَشْهَدُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَكَفَى بِذَلِكَ اعْتِرَامًا
وَأَتْرَافًا ، وَشَدًّا لِمَا أَمَرَ بِهِ وَإِحْكَامًا : ﴿ مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾
﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . وَهُمْ يَرْفَعُونَ دُعَاءَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَضَرُّعًا وَاسْتِسْلَامًا ،
وَيَسْأَلُونَهُ عِصْمَةً وَكَفَايَةً أَفْتِيحًا وَاخْتِيَامًا ؛ اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ أَنْفَدْنَا هَذَا الْعَقْدَ اقْتِدَاءً
وَأَهْتِمَامًا ، وَقَضَيْنَا حَقَّهُ إِكْمَالًا وَإِتْمَامًا ، وَأَسْلَمْنَا وَجْهَنَا إِلَيْكَ إِسْلَامًا ؛ فَعَرَّفْنَا
مِنْ خَيْرِهِ وَبَرَكَتِهِ نَمَاءً وَدَوَامًا ، وَأَكْلَانًا بِعَيْنِكَ حَرَكَةً وَسُكُونًا وَبِقِطْعَةٍ وَمَمَامًا :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلنَّعِيمِ إِمَامًا ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ
مُنْتَهَى الرِّغْبَاتِ ، وَجِبُّ الدَّعَوَاتِ ، وَإِلَهُ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ .



وهذه نسخةُ بيعةٍ مرتَّبةٍ على موتِ خليفةٍ ، أنشأتها على هذه الطريقة لموافقتهَا
رَأَى كُتَّابُ الزَّمَانِ فِي افْتِتَاحِ عُهُودِ الْمُلُوكِ عَنْ الْخُلَفَاءِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ كَمَا سِيَأْتِي بَيَانُهُ
فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَتَعَرَّضْتُ فِيهَا إِلَى قِيَامِ سُلْطَانٍ بِعَقْدِهَا : لِمُطَابَقَةِ
ذَلِكَ لِحَالِ الزَّمَانِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْأُمَّةَ الْمَحْمُودِيَّةَ أَبْدَحَ الْأُمَمِ شَرَفًا ، وَأَكْرَمَهَا نِجَارًا وَأَفْضَلَهَا
سَلَفًا ، وَجَعَلَ رُتْبَةَ الْخِلَافَةِ أَعْلَى الرُّتَبِ رُتْبَةً وَأَعَزَّهَا كَنْفًا ، وَخَصَّ الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ
مِنْ قُرَيْشٍ بِأَنْ جَعَلَ مِنْهُمْ الْأُئِمَّةَ الْخُلَفَاءَ ، وَآثَرَ الْأُسْرَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ مِنْهَا بِذَلِكَ ، دَعْوَةً
سَبَقَتْ مِنْ أَبِي عَمَّهِ الْمُصْطَفَى ، وَحَفِظَ بِهِمْ نِظَامَهَا عَلَى الدَّوَامِ فَجَعَلَ مِنْ سَلَفٍ
مِنْهُمْ خَلَفًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ هَيَّأَ مِنْ مَقَدِّمَاتِ الرَّشْدِ مَا طَابَ الزَّمَانُ بِهِ وَصَفًا ، وَجَدَّدَ مِنْ رُسُومِ
الْإِمَامَةِ بِخَيْرِ إِمَامٍ مَادَرَسَ مِنْهَا وَعَفَا ، وَأَقَامَ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَامًا تَارَجَ الْحُجُوبُ بَنَشْرَهُ فَأَصْبَحَ
الْوُجُودُ بِعَرَفِهِ مُعْتَرِفًا .

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُخْلِصَةً تَمَسَّكَ بِعَهْدِهَا فَوْفًا ،
وَأَعْطَاهَا صَفْقَةً يَدُهُ لِلْبَايَعَةِ فَلَا يَنْبَغِي عَنْهَا مَصْرُفًا ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي
تَدَارَكَ اللَّهُ بِهِ الْعَالَمَ بَعْدَ أَنْ أَشْفَى فَشْفَى ؛ وَنَسَخَتْ آيَةُ دِينِهِ الْأَدْيَانَ وَجَلَّ بِشِرْعَتِهِ
الْمُنِيرَةِ مِنْ ظُلُمَةِ الْجَهْلِ سَدَقًا ، وَجَعَلَ مُبَايَعَةَ مُبَايَعَةِ اللَّهِ يَأْخُذُهُ بِالنَّكَتِ وَيُؤْفِيهِ أَجْرَهُ
عَلَى الْوَفَا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْأَطْهَارِ وَعِثْرَتِهِ الشَّرَفَاءِ ، وَرَضَى اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ

الذين ليس منهم من عاهد الله ففدر ولا واد في الله بحفا، خصوصاً من جاء بالصدق
وصدق به فكان له قرابة وصفوّة الصفا، والمرجوع إليه في البيعة يوم السقيفة
بعدها أشرأبت نحوها نفوس كادت تذوب عليها أسفاً، والقائم في قتال أهل الردة
من بني حنيفة حتى استقاموا على الحنيفيّة السمحة حنفاً. ومن استحال دلو الخلافه
في يده غرباً فكان أفيده عبقري قام بأمرها فكفى، وعمت فتوحه الأمصار وحملت
إليه أموالها فلم يمسكها إقتاراً ولم يبدّر فيها سرفاً. ومن كان فضله لسهم الإختيار
من بين أصحاب الشورى هدفاً، وجمع الناس في القرآن على صحيفه واحده وكانت
قبل ذلك صحفاً. ومن سرى إليه سر: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون
من موسى" فعدا يجر من ذيل الفخار سجفاً، وأستولى على المكارم من كل جانب
فأز أطرافها طرفاً طرفاً، وعلى سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممن سلك سبيل الحق
ولطريق الهدى أقننى؛ صلاة ورضواناً يذهبان الداء العضال من وخامة الغدر
ويجلبان الشفا، ويرفعان قدر صاحبهما في الدنيا ويؤثان متحلهما من جنات
النعم غرفاً.

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بأمر الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى
دليل تقطع دون نقضه الأطماع، وتنبؤ عن سماع ما يخالفه الأسماع؛ إذ العباد
مجبولون على التباين والتغاير، مطبوعون على التحالف والتناصر؛ [مضطرون
إلى التعاون والتجاور، مفتقرون إلى التعاضد والتوازر] ^(١)؛ فلا بد من زعيم يمنعهم
من التظالم، ويحلهم على التناصف في التداعي والتحاكم؛ ويقيم الحدود فتصان
الحارم عن الإتيهاك، وتحفظ الأنساب عن الإختلاط والإشتراك؛ ويحيى بيضة

الإسلام فَيَمْنَعُ أَنْ تُطْرَقَ ، وَيُصَوِّنُ الثُّغُورَ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَيْهَا أَوْ يُطْرَقَ : لِيَعَزَّ
 الإسلامُ داراً ، وَيَطْمَئِنَّ المستَخْفَى لَيْلاً وَيَأْمَنَ السَّارِبُ نَهَاراً ، وَيَذُبُّ عَنِ الْحَرَمِ
 فَتَحَرَّمَ ، وَيَذُودُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ فَلَا تُغْشَى بِلَ تَصْطَلَمَ ، وَيُجَهِّزُ الْجِيُوشَ فَتَنْكُ الْعُدُوْ ،
 وَتُغَيِّرُ عَلَى بِلَادِ الْكُفْرِ فَتَمْنَعُهُمُ الْقَرَارَ وَالْهُدُوْ ، وَيُرْغِمُ أَنْفَ الْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةَ وَيَقْمَعُهَا ،
 وَيُدْغِمُ الطَّائِفَةَ الْمُبْتَدِعَةَ وَيَرْدَعُهَا ، وَيَأْخُذُ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ بِحَقِّهَا فَيُطَاوِعُ ،
 وَيَصْرِفُهَا إِلَى مُسْتَحَقِّهَا فَلَا يُنَازِعُ - لِأَجَرَمَ أَعْتَبِرَ لِلْقِيَامِ بِهَا أَكُلَ الشُّرُوطِ وَأَتَمَّ
 الصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الشِّمِّ وَأَحْسَنُ السَّمَاتِ .

وكان السيد الأعظم الإمام النبوي ، سليل الخلافة ، وولي الإمامه ؛ أبو فلان
 فلان العباسي المتوكل على الله « مثلاً » أمير المؤمنين ، سلك الله تعالى به جدد آبائه
 الراشدين ؛ هو الذي جمع شروطها فوقها ، وأحاط منها بصفات الكمال واستوفها ؛
 ورأى به أدنى مراتبها فبلغت إلى أغياها ، وتصور معاليها ففرق إلى أعلاها ، واتحد
 بها فكان صورتها ومعناها - وكانت الإمامة قد تأيمت من يقوم بأعبائها ، وعزت
 خطبائها لقلّة أكتفائها ؛ فلم تلب لها بعلًا يكون لها قريناً ، ولا كُفًّاً تحطبه يكون
 لديها مكيناً ، إلّا الإمام الفلاني المشار إليه ، فدعته خطبته وهي بيت عرسه :
 ﴿ وَرَأَوْتُهُ أَلْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَرَسَ نَفْسِهِ ﴾ فأجاب خطبتها ، ولبي دعوتها : لتحققه
 رغبته إليه ، وعلمه بوجوب إجابته عليه ؛ إذ هو شبلها الناشئ بغايا ، وغياها
 المستمطر من سمائها ؛ بل هو أسدها المصور ، وقطب فلكها الذي عليه تدور ؛
 ومعقلها الأمنع الحصين ، وعقدتها الأنفس الثمين ، وفارسها الأروع وليتها الشهير ،
 وابن بجدتها الساقطة منه على الخبير ؛ وتلاذدها العليم بأحوالها ، والجدير بمعرفة أقوالها
 وأفعالها ؛ وترجمانها المتكلم بلسانها ، وعالمها المتفنن في أفنانها ، وطبيبها العارف بطبها ،
 ومنجدها الكاشف لكرها .

وحين بلغت من القصد سؤلها ، ونالت بالإجابة منه مأمولها ، وحرّم على غيره أن
يسومها لذلك تلويحا ، أو يعرج على خطبتها تعريضا وتصريحا ، أحتاجت إلى وليّ
يوجب عقدها ، وشهود تحفظ عهدها ؛ فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلانيّ
(بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلد الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه ؛
فانتصب لها وليا ، وأقام يفكر في أمرها مليا ؛ فلم يجد أحق بها منه فتجنب عضلها ،
فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها ؛ فجمع أهل الحل والعقد ، المعترين
للاعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخير والصلحاء ، وأرباب
الرأى والنصحاء ؛ فاستشارهم في ذلك فصوّبوه ، ولم يروا العدول عنه إلى غيره
بوجه من الوجوه ؛ فاستخار الله تعالى وبايعه ، فبّيعه أهل الاختيار فبايعوا ، وأنقادوا
لحكمه وطاعوا ؛ فقابل عقدها بالقبول بحضرة من القضاة والشهود فلزمت ، ومضى
حكمها على الصحة وأبرمت . ولما تم عقدها ، وطلع بصبح الثين سعدتها ، ألتبس
المقام الشريف السلطانيّ الملكيّ الفلانيّ المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع
محلّه ، وقرن بالتوفيق في كلّ أمرٍ عقده وحلّه ، أن ينالّه عهدها الوفيّ ، ويردّ منها
موردّها الصفيّ : ليرفع بذلك عن أهل الدين حُجبا ، ويزداد من البيت النبويّ قربا ؛
فتعرض لنفحاتها من مقرّاتها ، وتطلب بركاتها من مظنّاتها ؛ ورغب إلى أمير المؤمنين ،
وأبن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، أن يحدّد له بعهد السلطنة
الشريفة عقدا ، يأخذ له على أهل البيعة بذلك عهدا ؛ ويستحلفهم على الوفاء لها
بما عاهدوا ، والوقوف عند ما بايعوا عليه وعاهدوا : ليقترن السعدان فيعمّ نوءهما ،
ويجتمع النيران فيبهر ضوءهما ؛ فلبّاه تلبية راغب ، وأجابته إجابة مطلوب وإن كان
هو الطالب ؛ وعهد إليه في كلّ ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموماً وشيوعا ،
وفوض له حكم الممالك الإسلاميّة جميعا ؛ وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكلّ

نَظَاقَ ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَهَا وَصَرَفَهُ فِيهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَأَقَامَهُ فِي الْأُمَّةِ لِعَهْدِ الْخِلَافَةِ وَصِيًّا ، وَجَعَلَهُ لِلْإِمَامَةِ بِتَفْوِضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَليًّا ؛ وَنَشَرَ عَلَيْهِ لَوَاءَ الْمُلْكِ وَقَلَّدهُ سَيْفَهُ الْعَضْبَ ، وَأَلْبَسَهُ الْخِلْعَةَ السَّودَاءَ فَابْيَضَّ مِنْ سَوَادِهَا وَجْهُ الشَّرِيقِ وَالْغَرْبِ ؛ وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ عَهْدًا كَبَتَ عُدُوهُ ، وَزَادَ شَرَفَهُ وَضَاعَفَ سُمُوهُ ؛ وَطُوْلِبَ أَهْلُ الْبَيْعَةِ بِالتَّوْثِيقِ عَلَى الْبَيْعَتَيْنِ بِالْأَيْمَانِ فَادْعَعُوا ، وَاسْتَحْلِفُوا عَلَى الْوَفَاءِ فَبَالَعُوا فِي الْأَيْمَانِ وَأَمْعَتُوا ؛ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ أَشْهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي أَسْرَارِهِمْ وَإِعْلَانِهِمْ ؛ وَأَعْطَوْا الْمَوَاتِيْقَ الْمَغْلَظَةَ الْمَشْدَّدَةَ ، وَحَلَفُوا بِالْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الْمُعَقَّدَةِ ، عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ أَوْ أَدْبَرُوا ، وَبَدَّلُوا فِيهِ أَوْ غَيَّرُوا ؛ أَوْ عَرَّجُوا عَنْ سَبِيلِهِ أَوْ حَادُوا ، أَوْ تَقَصَّصُوا مِنْهُ أَوْ زَادُوا ؛ فَكُلُّ مَنْهُمْ بَرَى مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَخَارَجَ مِنْ ذِمَّتِهِ الْحَصِينَةُ إِلَى ذِمَّتِهِ ؛ وَكُلُّ أَمْرَاءٍ فِي نِكَاحِهِ أَوْ يَتَرَوْجُجُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَهِيَ طَالِقٌ ثَلَاثًا بَتَاتًا ، وَكُلَّمَا رَاجَعَهَا فَهِيَ طَالِقٌ طَلَاقًا لَا يَقْتَضِي إِقَامَةً وَلَا ثَبَاتًا ؛ وَكُلُّ مَمْلُوكٍ فِي مِلْكِهِ أَوْ يَمْلِكُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ حُرٌّ لَاحِقٌ بِأَحْرَارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكُلُّ مَا مَلَكَهُ أَوْ يَمْلِكُهُ مِنْ جَمَادٍ وَحَيَوَانٍ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؛ وَعَلَيْهِ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ وَسَائِرِ الْمَشَاعِرِ الْعِظَامِ ؛ مُحَرَّمًا مِنْ دُورَةِ أَهْلِهِ مَاشِيًا ، حَاسِرًا عَنْ رَأْسِهِ وَإِنْ كَانَ بِهِ أَذَى حَافِيًا ؛ يَأْتِي بِذَلِكَ فِي ثَلَاثِينَ حُجَّةً مُتَابِعَةً عَلَى التَّمَامِ ، لَا تُمَجِّزُهُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا عَنْ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِهْدَاءُ مِائَةِ بَدْنَةٍ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ كُلِّ سَنَةٍ عَلَى الدَّوَامِ ، وَعَلَيْهِ صَوْمُ جَمِيعِ الدَّهْرِ إِلَّا الْمَنِيِّ عَنْهُ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَنْ يُكَلَّ أَلْفَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ مِنْ أَسْرِ الْكُفْرِ فِي كُلِّ عَامٍ ؛ يَمِينُ كُلِّ مَنْهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى نِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ ، فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ، لَا نِيَّةَ لِلْحَالِفِ فِي ذَلِكَ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ وَلَا فِي ظَاهِرِهِ ؛ لَا يُورَى فِي ذَلِكَ وَلَا يَسْتَنَى ، وَلَا يَتَأَوَّلُ وَلَا يَسْتَفْتِي ؛ وَلَا يَسْعَى فِي تَقْضِهَا ، وَلَا يَخَالِفُ فِيهَا

ولا في بعضها ؛ متى جَنَحَ إلى شيءٍ من ذلك كان آثِمًا ، وما تقدّم من تعقيد الإيمان له لازِمًا ؛ لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ، ولا يُجزّئُه عن ذلك كفارةً أصلاً ؛ كلُّ ذلك على أشدّ المذاهب بالتحصيل ، وأبعدها عن التساهل والترخيص ؛ وأمّضوها بيعةً مميّونة ، يألَمُن مبدأةً بالشَّجْح مَقْرُونه ؛ وأشهدوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمةِ الأعلام ، والشُّهود والحُكَّام ؛ وجعلوا الله تعالى على ما يَقُولُونَ وكيلًا ، فَاسْتَحَقَّ عليهم الوفاء بقوله عزّت قدرته : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضَاعِفَ لهم بِحَسَنِ نِّيَّتِهِم الأَجُورَ ، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم مِّن أشار تعالى إليه بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَثَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخةٌ بيعةٍ مرتّبةٌ على خَلْع خليفَةٍ ، أنشأتها على هذه الطريقة أيضًا ، وتعرّضت فيها لذكر السلطان القائم بها ، على ما تقدّم في البيعة المرتّبة على موت خليفَةٍ ، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيتَ الخلافةِ مَثَابَةً للناسِ وأَمْنًا ، وأقام سُرورَ الإمامَةِ وقَايَةً للأَنَامِ وحِصْنًا ؛ وشَدَّ لها بالعِصَابَةِ القُرْشِيَّةِ أَزْرًا وشَادَ منها بالعُصْبَةِ العَبَّاسِيَّةِ رُكْنًا ؛ وأَعَاثَ الخَلْقَ بِإِمَامٍ هَدَى حَسَنَ سِيرَةٍ وَصَفَا سِرِيرَةٍ فَرَّاقَ صُورَةٍ وَرَقَّ مَعْنَى ، وجمع قُلُوبَهُمْ عليه فلم يَسْتَنكِفْ عن الإِتيَادِ إليه أَعْلَى ولا أَدْنَى ؛ ونَزَعَ جِلْبَاهَا عَنْ شُغْلِ بَغِيرِهَا فلم يُعْرِهَا نَظْرًا ولم يُصْنَعْ لها أَذْنًا ، وَصَرَفَ وَجْهَهَا عَنْ أَسَاءٍ فِيهَا تَصَرُّفًا فلم يَرَفَعْ بها رَأْسًا ولم يَعْمُرْ لها مَعْنَى .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمَ حَلَّتْ لِلنُّفُوسِ حِينَ حَلَّتْ ، وَمِنْ جَلَّتِ الْخُطُوبَ حِينَ جَلَّتْ ؛
وَمَسَارَّ سَرَتْ إِلَى الْقُلُوبِ فَسَرَتْ ، وَمَبَارَّ أَقْرَبَتِ الْعُيُونَ فَقَرَّتْ ؛ وَعَوَارِفَ أَمَّتْ
الْخَلِيقَةَ فَنَوَالَتْ وَمَا وَلَّتْ ، وَقَدِمَ صِدْقٍ ثَبَتَتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْخِلَافَةِ فَمَا تَزَلَّتْ
وَلَا زَلَّتْ .

وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَكُونُ لَنَا مِنْ دَرَكِ الشُّكُوكِ
كَالْيَتَمِّ ، وَلِمَهَاوِي الشُّبْهِ دَارِيَهُ ، وَلِلْقَاصِدِ الْجَمِيلَةِ حَاوِيَهُ ، وَلِشُقَّةِ الزَّيْغِ وَالْإِرْتِيَابِ
طَاوِيَهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي نَصَحَ الْأُمَّةَ إِذْ بَلَغَ فَشْفَى عَلَيْهِمَا ، وَأُورِدَهَا
مِنْ مَنَاهِلِ الرَّشْدِ مَا أَطْفَأَ وَهْجَهَا وَبَرَّدَ غَلِيلَهَا ؛ وَأَوْصَحَ لَهُمْ مَنَاجِيحَ الْحَقِّ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا ،
وَأَبَانَ لَهُمْ سُبُلَ الْهُدَايَةِ : ﴿ فَمَنْ آهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِيَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أئِمَّةِ الْخَيْرِ وَخَيْرِ الْأَئِمَّةِ ، وَرَضِيَ عَنْ أَصْحَابِهِ أَوْلِيَاءِ
الْعَدْلِ وَعُدُولِ الْأُمَّةِ ؛ صَلَاةً وَرِضْوَانًا يَعْانِ سَائِرُهُمْ ، وَيُسَمِّلَانِ أَوْطَمَ وَآجَرَهُمْ ؛ سَيِّمًا
الصَّدِيقِ الْفَائِزِ بِأَعْلَى الرُّتَبَتَيْنِ صِدْقًا وَتَصَدِّيقًا ، وَالْحَائِزِ قَصَبِ السَّبْقِ فِي الْفَضِيلَتَيْنِ
عِلْمًا وَتَحْقِيقًا ، وَمَنْ عَدَلَ الْأَنْصَارُ إِلَيْهِ عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ بَعْدَ مَا جَمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِهِ ،
وَبَادَرَ الْمَهَاجِرُونَ إِلَى بَيْعَتِهِ اعْتِرَافًا بِتَفْضِيلِهِ وَتَكْرِيمِهِ . وَالْفَارُوقِ الشَّدِيدِ فِي اللَّهِ بِأَسَا
وَاللَّيْنِ فِي اللَّهِ جَانِبًا ، وَالْمُؤَفِّي لِلْخِلَافَةِ حَقًّا وَالْمُؤَدِّي لِلْإِمَامَةِ وَاجِبًا ؛ وَالْقَائِمِ فِي نُصْرَةِ
الدِّينِ حَقَّ الْقِيَامِ حَتَّى عَمَّتْ فَتُوْحُهُ الْأَمْصَارُ مَشَارِقَ وَمَغَارِبًا ، وَأَطَاعَتْهُ الْعُنَاصِرُ
الْأَرْبَعَةُ : إِذْ كَانَ لِلَّهِ طَائِعًا وَمِنْ اللَّهِ خَائِفًا وَإِلَى اللَّهِ رَاغِبًا . وَذِي النُّورَيْنِ الْمَعُولِ
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَصْحَابِ الشُّورَى تَنْوِيهًِا بِقُدْرِهِ ، وَالْمَخْصُوصِ بِالْإِخْتِيَارِ تَفْخِيمًا
لَأَمْرِهِ ؛ مَنْ حُصِرَ فِي بَيْتِهِ فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ عَنْ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ ، وَشَاهِدَ
سُيُوفِ قَاتِلِيهِ عَيَانًا فَقَابَلَ فَتَكَاتِهَا بِجَمِيلِ صَبْرِهِ . وَأَبَى الْحَسَنِ الَّذِي أَعْرَضَ عَنْ
الْخِلَافَةِ حِينَ سُئِلَهَا ، وَاسْتَعْفَى مِنْهَا بَعْدَ مَا أَضْطُرَّ إِلَيْهَا وَقِيلَ لَهَا ؛ وَكُشِفَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ

الدنيا فأم قَبَلَتْها بقلبه ولا وَلَّى وجهه قَبَلْها، وصرَّح بمقاطعتها بقوله : « يا صَفْرَاءُ غَرَّي غَيْرِي يا بَيْضَاءُ غَرَّي غَيْرِي » لَمَّا وَصَلْها مِنْ وَصَلْها ؛ وَسائِرِ الخَلْفاءِ الراشدين بعدهم ، الناهِجِينَ نَهَجَهُم والوارِثِينَ وَرَدَّهُم .

أما بعدُ ، فإنَّ للإمامة شُرُوطًا يَجِبُ اعتبارُها في الإمام ، وَلَوَازِمَ لا يُقْتَفَرُ قَوَائِمُها في الإبتداء ولا في الدَّوام ، وأوصافًا يَتَعَيَّنُ إعمالُها ، وأدَابًا لا يَسَعُ إهمالُها ؛ من أَهْمِها العَدَالَةُ التي مِلَّاكُها التَّقْوَى ، وأساسُها مراقبةُ الله تعالى في السِّرِّ والنَّجْوَى ؛ وبها تَقَعُ الهَيْبَةُ لصاحبها فيجَلُّ ، وتميلُ النُّفُوسُ إليها فلا تَمَلُّ ؛ فهي الْمَلَكَةُ الدَّاعِيَةُ إلى تَرْكِ الجَبائِرِ وَاجْتِنَابِها ، والزَّاحِرَةِ عن الإصرار على الصَّغائرِ وَأَرْتِكَائِها ؛ والباعِثَةُ على مُخَالَفَةِ النُّفُسِ ونَهْيِها عن الشَّهَوَاتِ ، والصَّارِفَةُ عن أَنْتِهائِكَ حُرُمَاتِ الله التي هي أعْظَمُ الحُرُمَاتِ ؛ والموجِبَةُ للتَعَفُّفِ عن المَحَارِمِ ، والحامِلَةُ على تَجَنُّبِ الظُّلُمَاتِ وَرَدِّ المَظَالِمِ . والشَّجَاعَةُ التي بها حَمايَةُ البَيْضَةِ والذِّبُّ عنها ، والأَسْتَظْهَارُ بِالغَزْوِ على نِكايَةِ الطائِفَةِ الكافِرَةِ والقَضِّ منها ؛ والقُوَّةُ بالشُّوكة على تَنْفِيذِ الأوامِرِ وإمضاءِها ، وإقامةِ الحدودِ وَاسْتِيفائِها ، ونَشْرِ كَلِمَةِ الحقِّ وإِعْلانِها ، ودَحْضِ كَلِمَةِ الباطلِ وإِخْفائِها ، وقَطْعِ مَادَّةِ الفسادِ وحُصْنِ أدوائِها ؛ والرَّأْيُ المؤدِّي إلى السِّياسَةِ وحُصْنِ التَّدْيِيرِ ، والمُغْنَى في كثيرٍ من الأُمَّاكن عن مَزِيدِ الجِدِّ والتَّشْمِيرِ ؛ والمعِينُ في خُدَعِ الحَرْبِ ومَكايِدِها ، والمُسْعِفُ في مَصَادِرِ كُلِّ أَمْرٍ ومَوَارِدِها .

هذا وقد جعلنا الله أُمَّةً وَسَطًا ، ووَعَظْنَا بِنِ سَلَفٍ مِنَ الأَئِمَّةِ مِنْ تَمَرُّدٍ وَعَتَا أَوْ تَجَبُّرٍ وَسَطًا ، وَعَصَمَ أُمَّتَنَا أَنْ نَجْتَمِعَ على الضَّلَالِ ، وصانَ بَجمْعنا عن الخَطَلِ في الفِعالِ والمَقالِ ؛ وَنَدَبْنَا إلى الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، وَسَوَّغَ لَأُمَّتِنَا الاجْتِهَادَ في النِّوازلِ والأَحْكامِ فَاجْتِهَادُهُمْ لا يُنْكَرُ ؛ خُصُوصًا في شَأْنِ الإِمَامَةِ التي هي

أَكْدُ أَسْبَابِ الْمَعْلَمِ الدِّينِيِّ وَأَقْوَاهَا ، وَأَرْفَعُ الْمَنَاصِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَأَعْلَاهَا ؛ وَأَعَزُّ
الرُّتَبِ رُتْبَةً وَأَعْلَاهَا ، وَأَحَقُّهَا بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِهَا وَأَوْلَاهَا . وَكَانَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ
الْآنَ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ الْفُلَانِيُّ مِمَّنْ حَادَّ عَنِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَسَلَكَ غَيْرَ النَّهْجِ الْقَوِيمِ ؛
وَمَالَ عَنِ سَنَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَأَدْرَكَهُ الزَّلَلُ ، وَقَارَفَ الْمَآثِمَ فَعَادَ بِالْخَلَلِ ؛ فَعَاثَ
فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَخَالَفَ الرَّشْدَ غِنَادًا ؛ وَمَالَ إِلَى الْغَىِّ اعْتِيَادًا ، وَأَسْلَمَ إِلَى الْهَوَى
قِيَادًا ؛ قَدْ أَتَقَلَّ عَنْ طَوْرِ الْخِلَافَةِ ، وَعَزِيزِ الْإِنْفَافَةِ ؛ إِلَى طَوْرِ الْعَامَّةِ فَاتَّصَفَ
بِصِفَاتِهِمْ ، وَأَتَسَمَّ بِسِمَاتِهِمْ ؛ فُتَنَكِرِيحٌ عَلَيْهِ إِنْكَارُهُ قَدْ بَاشَرَهُ ، وَصَدِيقُ سَوْءٍ يَتَعَيَّنُ
عَلَيْهِ إِبْعَادُهُ قَدْ وَازَرَهُ وَظَاهَرَهُ ؛ إِنْ سَلَكَ فَسِيلَ التُّهْمَةِ وَالْإِرْتِيَابِ ، أَوْ قَصَدَ أَمْرًا
نَحَا فِيهِ غَيْرَ الصَّوَابِ ؛ مِنْهُمْ عَلَى شَهَوَاتِهِ ، مَنَعَكُفٌ عَلَى لَذَّائِهِ ، مَتَشَاغِلٌ عَنْ أَمْرِ
الْأُمَّةِ بِأَمْرِ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ ؛ الْجُبْنُ رَأْسُ مَالِهِ ، وَعَدَمُ الرَّأْيِ قَرِينُهُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ؛
قَدْ قَنَعَ مِنَ الْخِلَافَةِ بِأَسْمِهَا ، وَرَضِيَ مِنَ الْإِمَامَةِ بِوَسْمِهَا ؛ وَظَنَّ أَنَّ السُّودَّ فِي لُبْسِ
السَّوَادِ فَمَالَ إِلَى الْحَيْفِ ، وَتَوَهَّمَ أَنَّ الْقَاطِعَ الْغِمْدُ فَقَطَعَ النَّظَرَ عَنِ السَّيْفِ .

وَلَمَّا أَطَّلَعَ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَعَرَفُوهُ بِهِذِهِ السَّمَاتِ ، وَتَحَقَّقُوا فِيهِ
هَذِهِ الْوَصَمَاتِ ؛ رَغِبُوا فِي اسْتِبْدَالِهِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى خَلْعِهِ وَزَوَالِهِ ؛ فَلَجَّجُوا إِلَى السُّلْطَانِ
الْأَعْظَمِ الْمَلِكِ الْفُلَانِيِّ (بِالْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَى آخِرِهَا) نَصَرَ اللَّهِ جُنُودَهُ ، وَأَسْمَى
جُدُودَهُ ، وَأَرْهَفَ عَلَى عُدَاةِ اللَّهِ حُدُودَهُ ؛ فَفَوَّضُوا أَمْرَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَأَلْقَوْا
كُلَّهُمْ عَلَيْهِ ؛ بِجَمْعِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ مِنْهُمْ ، وَمَنْ تَصُدَّرَ إِلَيْهِمُ الْأُمُورُ وَتَرَدُّ عَنْهُمْ ؛
فَاسْتَخَارُوا اللَّهَ تَعَالَى وَخَلَعُوهُ مِنْ وِلَايَتِهِ ، وَخَرَجُوا عَنْ بَيْعَتِهِ ، وَأَنْسَلَخُوا عَنْ طَاعَتِهِ ؛
وَجَرَّدُوهُ مِنْ خِلَافَتِهِ ، تَجَرِيدَ السَّيْفِ مِنَ الْقِرَابِ ، وَطَوَّوْا حَكْمَ إِمَامَتِهِ ، كَطَيِّ السَّجَلِ
لِلْكِتَابِ . وَعِنْدَ مَا تَمَّ هَذَا الْخَلْعُ ، وَأَنْطَوَى حَكْمُهُ عَلَى الْبَتِّ وَالْقَطْعِ ، أَلْتَمَسَ النَّاسُ
إِمَامًا يَقُومُ بِأُمُورِ الْإِمَامَةِ فِيْوَفِيهَا ، وَيَجْمَعُ شُرُوطَهَا وَيَسْتَوْفِيهَا ؛ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا أَهْلًا ،

ولا يها أحق وأولى، وأوفى بها وأمل، من السيد الأعظم الإمام النبوى سليل
 الخلافة، وولى الإمامة أبى فلان فلان العباسى الطائع لله «مثلا» أمير المؤمنين .
 لزال شرفه باذخا، وعزيبته الشريف شاحنا، وعهد ولايته لعهد كل ولاية ناسخا،
 فساموه ببعثها فلى، وشاموا برقة لولايتها فأجاب وما تأبى، علمًا منه بأنها تعينت
 عليه، وانحصرت فيه فلم تجد أعلى منه فتعدل إليه، إذ هو أبى بجدها، وفارس
 تجدها، ومزيل نعمتها، وكاشف كربتها، ومجلى غياها، ومجحد عواقبها، وموضح
 مذهبها، وحاكمها المكين، بل رشيدها الأمين، فنهض المقام الشريف السلطان
 الملكى الفلانى المشار إليه : قرن الله مقاصده الشريفة بالتجاح، وأعماله الصالحة
 بالصلاح، وبدر إلى بيعته فبايع، وأتم به من حضر من أهل الحل والعقد فتابع،
 وقابل عقدها بالقبول فمضى، ولزم حكمها وأتقضى، وأتصل ذلك بسائر الرعية
 فأتقأدوا، وعلموا صوابه فمشوا على سننه وما حادوا، وشاع خبر ذلك فى الأمصار،
 وطارت به مخلقات البشائر إلى سائر الأقطار، فتعرفوا منه اليمن فسارعوا إلى أمثاله،
 وتحققوا صحته وثباته بعد اضطرابه وأعتلاله، واستعادوا من نقص يصيبه بعد تمامه
 لهذا الخليفة وكيله، فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها، وجميل
 وفائها وكريم مظهرها، وجادت بجزيل الإمتنان، وتلا لسان كرمها الوفى على وليها
 الصادق : ((هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)) بخدد له بالسلطنة الشريفة عهدا،
 وطوق جيده بتفويضها إليه عهدا، وجعله وصيه فى الدين، ووليه فى أمر
 المسلمين؛ وقلده أمر الممالك الإسلامية وألقى إليه مقاليدها، وملكه أزميتها وحقق
 له مواعيدها، وعقد له لواءها ونشر عليه أعلامها، وصرفه فيها على الإطلاق
 وفوض إليه أحكامها، وألبسه الخلعة السوداء فكانت لسودده شعارا، وأسبغ عليه
 رداها فكان له دنارا، وكتب له العهد فسق المعاهد صوب العهاد، ولهج الأنام

بذكره فاطمات العباد والبلاد ، وعند ماتم هذا الفصل ، وتقرر هذا الأصل ،
وأُستِ الرعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين ، وبنعمته مستبشرين ، طُوبَ
أهل البيعة بما يحملهم على الوفاء ، ويمنع بيعتهم من التكرار بعد الصفاء : من توثيق
عقدها بمؤكد أيمانها ، والإقامة على الطاعة لخليفها وسُطانها ، فبادروا إلى ذلك
مُسرعين ، وإلى داعيه مُهطعين ، وبالغوا في الموائيق وأكدوها ، وشددوا
في الأيمان وعقدوها ، وأقسموا بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، عالم
خاتمة الأعين وما تُخفي الصدور في البدء والإعاده ، على الوفاء لها والموالاة ، والنصح
والمصافاة ، والموافقة والمُشايعة ، والطاعة والمُتابعة ، يوالون من والاها ، ويُعادون
من عاداهما ، لا يقعدون عن مُناصرتيها عند المِمامِ مله ، ولا يرقبون في عدوها
إلا ولا ذقه ، جارين في ذلك على سنن الدوام والإستمرار ، والثبوت وال لزوم
والإستقرار ، على أن من بدل منهم من ذلك شرطاً أو عفى له رسماً ، أو حاد عن
طريقه أو غير له حكماً ، أو سلك في ذلك غير سبيل الأمانة ، أو استحل الغدر
وأظهر الخيانة ، مُعلنًا أو مُسرًا في كله أو بعضه ، متآولاً أو مُحْتالاً لإبطاله أو نقضه ،
فقد برئ من حول الله المتين وقوته الواقيه ، وركنه الشديد وذمته الوافيه ، إلى
حول نفسه وقوته ، وركنه وذمته ، وكل أمرأة في عصمته الآن أو يترجها مدة
حياته طالق ثلاثاً بصریح لفظ لا يتوقف على نيه ، ولا يُفترق فيه بين سنة ولا بدعة
ولا رجعة فيه ولا مشنوية ، وكل مملوك في ملكه أو يملكه في بقية عمره من ذكر
أو أنثى حر من أحرار المسلمين ، وكل ما هو على ملكه أو يملكه في بقية عمره إلى
آخر أيامه من عين أو عرض صدقة للفقراء والمساكين ، وعليه الحج إلى بيت الله
الحرام ثلاثين حجة ثلاثين عمرّة راجلاً حاسراً ، لا يقبل الله منه غير الوفاء بها
باطناً ولا ظاهراً ، وإهداء مائة بدنة في كل حجة منها في عُمرته ويُسرته ، لا تُجزئه

واحدة منها عن حجة الإسلام وعمرته ؛ وصوم الدهر خلا المنهى عنه من أيام
السنة ، وصلاة ألف ركعة في كل ليلة لا يباح له دون أدائها غمض ولا سِنَّه ؛
لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، ولا يُؤجر على شيء من ذلك قولاً ولا فعلاً ؛ متى
ورى في ذلك أو استثنى ، أو تأوّل أو استفتى ، كان الحنث عليه عائداً ، وله إلى دار
البوارقائد ، معتمداً في ذلك أشد المذاهب في سرّه وعلايته ، على نية المستحلف
له دون نيته ؛ وأمضوها بعة محكمة المباني ثابتة القواعد ، كريمة المساعي جميلة
المقاصد ؛ طيبة الحنّى جليسة العوائد ، فاطمة البراهين ظاهرة الشواهد ؛ وأشهدوا
على أنفسهم بذلك من حضر مجلس هذا العقد من قضاة الإسلام وعلمائه ، وأئمة
الدين وفقهائه ؛ بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به الخائنين
خصيما : ﴿ قَنْ نَكْتُ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . والله تعالى يجعل آتقائهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى يئسرى ؛
ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .
إن شاء الله تعالى .

هذا العقد قد تم في يوم الاثنين ١٠ من شهر ربيع الأول سنة ١٢٨٠

بمدينة مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المذهب الرابع

(مما يُكْتَبُ فِي بَيْعَاتِ الْخُلَفَاءِ أَنْ يَفْتَحَ الْبَيْعَةَ بِقَوْلِهِ : هَذِهِ بَيْعَةٌ ، وَيَصِفُهَا وَيَذْكُرُ مَا يَنْبَغُ ، ثُمَّ يَعِزُّ بِالْخَلِيفَةِ الْمَيِّتِ ، وَيَهْنِئُ بِالْخَلِيفَةِ الْمُسْتَقَرِّ ، وَيَذْكُرُ فِي حَقِّ كُلِّ مِنْهُمَا مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْوَصْفِ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ)

وهذه نسخة بَيْعَةِ أَنْشَأَهَا الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ ، عَلَى مَا رَأَيْتُهُ فِي ”الْجَوَاهِرِ الْمُلْتَقَطَةِ“ الْمَجْمُوعَةِ مِنْ كَلَامِهِ ، لِلْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ^(١) «أَبِي الْعَبَّاسِ» «أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ» [الْمُسْتَكْنَى بِاللَّهِ] ابْنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ . وَذَكَرَ الْقَاضِي تَقِيُّ الدِّينِ بْنُ نَازِظٍ الْجَيْشِيُّ فِي ”دُسْتُورِهِ“ أَنَّهُ إِنَّمَا عَمِلَهَا تَجَرِبَةً ^(٢) لِحَاطَرِهِ ، وَهِيَ مُرْتَبَةٌ عَلَى مَوْتِ خَلِيفَةٍ .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْمُرُونَكَ أَنْ تَبْغِيَ إِذَا يَأْمُرُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

هَذِهِ بَيْعَةُ رِضْوَانٍ وَبَيْعَةُ إِحْسَانٍ ، وَبَيْعَةُ رِضَا تَشْهَدُهَا الْجَمَاعَةُ وَيَشْهَدُ عَلَيْهَا الرَّحْمَنُ ؛ بَيْعَةُ يَلْزَمُ طَائِرُهَا الْعُنُقُ ، وَتُحْمَمُ بِشَائِرُهَا عَلَى الْأَفْقِ ، وَتَجَلُّ أَنْبَاءُهَا الْبَرَارِيُّ وَالْبَحَارُ مَشْحُونَةٌ الطَّرِيقُ ؛ بَيْعَةُ تَصْلُحُ لِنَسَبِهَا الْأُمَّةُ ، وَتُنَجِّحُ بِسَبَبِهَا النِّعْمَةُ ، وَتُؤَلِّفُ بِهَا الْأَسْبَابُ وَتَجْعَلُ بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ؛ بَيْعَةُ تَجْرَى بِهَا الرِّفَاقُ ، وَتَتَرَاخَمُ زَمَرُورُ

(١) كذا في تاريخ أبي الفداء ، وابن أبي عمير ، وأيضاً وقع في ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه

المستصم والصواب ما هنا .

(٢) أى امتحاناً لفكره .

الكواكب على حَوْضِ الْحَجَرَةِ لِلْوَفَاقِ ؛ بِبِعَةِ سَعِيدَةٍ مَيَّوْنَةٍ ، بِبِعَةِ شَرِيفَةٍ بِهَا السَّلَامَةُ
 فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا مَضْمُونَةٍ ؛ بِبِعَةِ صَحِيحَةٍ شَرْعِيَّةٍ ، بِبِعَةِ مَلْحُوظَةٍ مَرْعِيَّةٍ ؛ بِبِعَةِ تَسَابُقِ
 إِلَيْهَا كُلِّ نِيَّةٍ وَتَطَاوُعِ كُلِّ طَوِيَّةٍ ، وَتُجْمَعُ عَلَيْهَا أَشْيَاءُ الْبَرِيَّةِ ؛ بِبِعَةِ يَسْتَهْلُ بِهَا الْعَمَامُ ،
 وَيَتَهَلَّلُ الْبَدْرُ التَّمَامُ ؛ بِبِعَةِ مُتَّفَقٍ عَلَى الْإِجْمَاعِ عَلَيْهَا ، وَالْإِجْتِمَاعِ لِبَسْطِ الْأَيْدِي إِلَيْهَا ؛
 أَنْعَقَدَ عَلَيْهَا الْإِجْمَاعُ ، وَأَنْعَقَدَتْ صِحَّتُهَا بِمَنْ سَمِعَ لِلَّهِ وَأَطَاعَ ، وَبَذَلَ فِي تَمَامِهَا كُلِّ
 أَمْرٍ مَا اسْتَطَاعَ ، وَحَصَلَ عَلَيْهَا اتِّفَاقُ الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ ، وَوَصَلَ بِهَا الْحَقُّ إِلَى
 مَسْتَحَقِّهِ وَأَقْرَبِ الْخَصْمِ وَأَقْطَعَ التَّرَاوُعَ ؛ وَتَضَمَّنَهَا كِتَابُ كَرِيمٍ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ،
 وَيَتَلَقَّاهُ الْأُئِمَّةُ الْأَقْرَبُونَ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ
 فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ . وَإِنَّا وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَإِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ . أَجْمَعَ عَلَى هَذِهِ
 الْبَيْعَةِ أَرْبَابُ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ ، وَأَصْحَابُ الْكَلَامِ فِيمَا قَلَّ وَجَلَّ ؛ وَوُلَاةُ الْأُمُورِ
 وَالْأَحْكَامِ ، وَأَرْبَابُ الْمَنَاصِبِ وَالْحُكَّامِ ؛ وَحَمَلَةُ الْعِلْمِ وَالْأَعْلَامِ ، وَحُمَاةُ السِّيُوفِ
 وَالْأَقْلَامِ ، وَأَكَابِرُ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ، وَمَنْ أَنْخَفَضَ قَدْرَهُ وَأَنَافَ ؛ وَسَرَوَاتُ قُرَيْشٍ
 وَوُجُوهُ بَنِي هَاشِمٍ وَالبَقِيَّةُ الطَّاهِرَةُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَخَاصَّةُ الْأُئِمَّةِ وَعَامَّةُ النَّاسِ ؛
 بِبِعَةِ تَرْسِيٍّ بِالْحَرَمَيْنِ ^(١) خِيَامُهَا ، وَتَحْقِيقِ عَلَى الْمَازِمِينَ أَعْلَامُهَا ، وَتَتَعَرَّفُ عِرْفَاتُ
 بِيرَكَاتِهَا وَتَعْرِفُ بَنِي أَيَّامُهَا ؛ وَيَوْمَنْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، وَتُؤَمُّ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ
 وَالْمِزْبَةِ ؛ وَلَا يُتَنَغَّى بِهَا إِلَّا وَجْهُ اللَّهِ الْكَرِيمِ ، وَفَضْلُهُ الْعَمِيمِ ؛ لَمْ يَبْقَ صَاحِبٌ سَنَجِي ^(٢)
 وَلَا عِلْمٌ ، وَلَا ضَارِبٌ بِسَيْفٍ وَلَا كَاتِبٌ بِقَلَمٍ ؛ وَلَا رَبٌّ حُكْمٌ وَلَا قَضَاءٌ ، وَلَا مَنْ
 يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي اتِّفَاقٍ وَلَا إِمْضَاءٍ ؛ وَلَا إِمَامٌ مُسْجِدٌ وَلَا خَطِيبٌ ، وَلَا دُوقْتِيَا يُسْأَلُ

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) في الأصل سيف وهي تصحيف .

فُجِيبَ ، وَلَا مَنْ بَيْنَ جَنْبَيْ الْمَسَاجِدِ وَلَا مَنْ تَضَمُّهُمْ اجْنَحَةُ الْحَارِيبِ ، وَلَا مَنْ
يَمْتَدُّ فِي رَأْيٍ فُيْخَطُّ أَوْ يُصِيبُ ، وَلَا مَتَحَدُّ بِحَدِيثٍ ، وَلَا مَتَكَلَّمٌ بِقَدِيمٍ وَحَدِيثٍ ؛
وَلَا مَعْرُوفٌ بِدَيْنٍ وَصَلَاحٍ ، وَلَا فُوسَانُ حَرْبٍ وَكِفَاحٍ ؛ وَلَا رَاشِقٌ بِسَهَامٍ وَلَا طَاعِنٌ
بِرِمَاحٍ ، وَلَا ضَارِبٌ بِصَفَاحٍ ، وَلَا سَاجِعٌ عَلَى قَدَمٍ وَلَا طَائِرٌ بَغِيرَ جَنَاحٍ ؛ وَلَا مَخَالِطٌ
لِلنَّاسِ وَلَا قَاعِدٌ فِي عُزْلِهِ ، وَلَا جَمْعُ كَثْرَةٍ وَلَا قِلَّةٍ ؛ وَلَا مَنْ يَسْتَقِيلُ بِالْحَوْزَاءِ لِوَأُوهُ ،
وَلَا يَقِلُّ فَوْقَ الْفَرْقَدِ ثَوَاوُهُ ؛ وَلَا بَادٍ وَلَا حَاضِرٌ ، وَلَا مُقِيمٌ وَلَا سَائِرٌ ؛ وَلَا أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ ،
وَلَا مُسِرٌّ فِي بَاطِنٍ وَلَا مُعَلَّنٌ فِي ظَاهِرٍ ؛ وَلَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ ، وَلَا رَاعِي لِبَلٍ وَلَا غَنَمٌ ؛
وَلَا صَاحِبُ أَنَاةٍ وَلَا إِبْدَارٍ ، وَلَا سَاكِنٌ فِي حَضَرٍ وَبَادِيَةٍ بِدَارٍ ؛ وَلَا صَاحِبُ عَمَدٍ
وَلَا جِدَارٍ ، وَلَا مَلْجَأٌ فِي الْبَحَارِ الزَّاحِرَةِ وَالْبَرَارِيِّ الْقِفَارِ ؛ وَلَا مَنْ يَتَوَقَّلُ صَهَوَاتِ
الْخَلِيلِ ، وَلَا مَنْ يُسِيلُ عَلَى الْعَجَاجَةِ الذَّلِيلِ ، وَلَا مَنْ تَطْلُعُ عَلَيْهِ شَمْسُ النَّهَارِ وَنُجُومُ
الَّيْلِ ؛ وَلَا مَنْ تُظِلُّهُ السَّمَاءُ وَتَقِلُّهُ الْأَرْضُ ، وَلَا مَنْ تُدَلُّ عَلَيْهِ الْأَسْمَاءُ عَلَى اخْتِلَافِهَا
وَتَرْتَفِعُ دَرَجَاتُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ حَتَّى آمَنَ بِهِذِهِ الْبَيْعَةُ وَأَتَمَّنَ عَلَيْهَا ، وَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَهَدَاهُ إِلَيْهَا ؛ وَأَقْرَبَهَا وَصَدَّقَ ، وَغَضَّ لَهَا بَصَرَهُ خَاشِعًا وَأَطْرَقَ ؛ وَمَدَّ إِلَيْهَا يَدَهُ
بِالْمُبَايَعَةِ ، وَمُعْتَقَدَهُ بِالتَّابِعَةِ ؛ رَضِيَ بِهَا وَأَرْضَاهَا ، وَأَجَازَ حُكْمَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَأَمْضَاهَا ؛
وَدَخَلَ تَحْتَ طَاعَتِهَا وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهَا : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والحمد لله الذي نصب الحاكم ليحكم بين عباده وهو أحكم الحاكمين ، والحمد لله
الذي أخذ حق آل بيت نبيه من أيدي الظالمين ؛ والحمد لله رب العالمين ، ثم الحمد لله
رب العالمين ، ثم الحمد لله رب العالمين ، والحمد لله رب العالمين .

ولأنه لما استأثر الله بعبيده سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين
- كرم الله مثواه - وعوضه عن دار السلام بدار السَّلام ، ونقله فزَّكَّى بَدَنَهُ عَنْ

شهادة السَّلام بشهادة الإسلام؛ حيثُ آثره ربه بقرْبه، ومهد لجنه وأقدمه على ما أقدمه من يرجوه لعمله وكسبه، وخارله في جواره رقيقاً، وجعل له على صالح سلفه طريقاً، وأنزله ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. الله أكبر ليومه لولا خلفه كادت تَضيقُ الأرض بما رَحِبَتْ، وتُجْزَى كل نفس بما كَسَبَتْ؛ وتُنَى كل سريرة بما أدْخَرَتْ وما خَبَتْ؛ لقد اضطرب سعيٌّ، إلا أنه في الجوانح، لقد اضطرب منبر وسريٌّ، لولا خلفه الصالح، لقد اضطرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفكر بعده في عاقبة المصالح؛ لقد غاضت البحار، لقد غابت الأنوار، لقد غالب البدور ما يلحق الأهلة من المحاق ويُدرِك البدر من السَّرار؛ تُسِفَتُ الجبالُ تُسْفَا، وخبت مصابيحُ النجوم وكادت تُطفئُ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. لقد جمعت الدنيا أطرافها وأزمت على المسير، وجمعت الأمة هول المصير، وزاغت يوم موته الأبصار: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾. وبقيت الألباب حيارى، ووقفت نارة تُصدِّق وتارة تُنمّارى؛ لا تعرف قرّاراً، ولا على الأرض استقراراً: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾.

ولم يكن في النَّسب العباسي ولا في جميع من في الوجود، لافي البيت المسترشدي ولا في غيره من بيوت الخلفاء من بقايا آباء لهم وجُدود، ولا من تلده أخرى الليالي وهي عاقر غير ولود؛ من تسلّم إليه أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم عقد نياتها، وسر طوياتها؛ إلا واحد وأين ذلك الواحد؟ هو والله من انحصَر فيه استحقاق ميراث آباءه الأطهار، وراث أجداده ولا شيء هو إلا ما اشتمل عليه رداء الليل والنهار؛ وهو ابنُ المنتقل إلى ربه، وولد الإمام الذاهب لصلبه؛ المجمع على أنه في الأنام،

فرد الأيام، وواحد وهكذا في الوجود الإمام ؛ وأنه الحائز لما زُرت عليه جُوبُ
المَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، والفائز بِمِلْكِ ما بين المشرق والغرب ؛ الراقى في صَفِيحِ السَّماءِ
هذه الذُرَّةَ المَنِيْفَةَ ، الباقي بعد الأئمةِ الماضينَ رضى الله عنهم ونِعَمَ الخَلِيفَةِ ؛ المَجْتَمِعُ
فيه شروطُ الإمامةِ ، المتَّضِعُ لله وهو من يَدَيْتِ لا يزال المُلْكُ فيهم إلى يومِ القِيَامَةِ ؛
الذى تَصَفَّحَ السَّحَابَ نائِلُهُ ، والذى لا يُغَرُّ عاذِرُهُ ولا يُغَيِّرُهُ عاذِلُهُ ؛ والذى :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لو أَنَّهُ * شَآهَا لَقَبِضَ لم تَطْعُهُ أَنَامِلُهُ

والذى :

لَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضَيِّعٌ نَصِيبَهُ * وَلَا وَرَقُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاذِلُهُ

والذى ما أَرْتَقَى صَمَوَاتِ المِنْبَرِ بِمَحْضَرَةِ سُلْطَانِ زَمَانِهِ إِلَّا قال ناصِرُهُ وقام قائمُهُ ؛
وَلَا قَعَدَ عَلَى سِرِّيرِ الخِلاَفَةِ إِلَّا وعُيِّرَفَ بِأَنَّهُ ما خَابَ مُسْتَكْفِيهِ وَلَا غَابَ حَاكِمُهُ ؛
نائبُ الله في أرضِهِ ، والقائمُ بِمَقَامِ رسولِ الله صَلَّى الله عليه وسلم وخَلِيفَتُهُ وَأَبْنِ عَمِّهِ ،
وتَابِعُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ وَوَارِثُ عِلْمِهِ ، سيدنا ومولانا عبدُاللهِ وولِيُّهُ « أَحْمَدُ أَبُو العَبَّاسِ »
الحاكم بأمرِ الله أمير المؤمنين ، أَيْدِ الله تعالى بِبِقَائِهِ الدِّينَ ، وطَوْقُ بَسِيفِهِ [رِقَابِ]
المُؤَلِّحِينَ ، وَكَبَتَ تَحْتَ لَوَائِهِ المَعْتَدِينَ ؛ وَكَتَبَ لَهُ النِّصْرَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ وَكَفَّفَ
بِجِهَادِهِ طَوَائِفَ المُفْسِدِينَ ، وَأَعَادَ بِهِ الأَرْضَ مَمْنًى لَا يَدِينَ بِدِينِ ؛ وَأَعَادَ بَعْدَهُ أَيَّامَ
آبَائِهِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ والأئمةِ المَهْدِيِّينَ ؛ الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ،
وعَلَيْهِ كَانُوا يَعْمَلُونَ ؛ وَنَصَرَ أَنْصَارَهُ ، وَقَدَّرَ أَقْتِدَارَهُ ؛ وَأَسْكَنَ فِي قُلُوبِ الرِّعْيَةِ سَكِينَتَهُ
وَوَقَّارَهُ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الوجودِ وَجَعَ لَهُ أَفْطَارَهُ .

وَلَمَّا أَتَقَلَّ إِلَى الله ذُلُكَ السَّيِّدُ وَلَحِقَ بِدَارِ الحَقِّ أَسْلَافُهُ ، وَثِقَلَ إِلَى سِرِّيرِ الخِلاَفَةِ
عَنِ سِرِّيرِ الخِلاَفَةِ ؛ وَخَلَا العَصْرُ مِنْ إِمَامٍ يُمْسِكُ مَا بَقِيَ مِنْ نَهَارِهِ ، وَخَلِيفَةُ يُغَالِبُ

مُرَبَّدَ الليل بأنواره ، ووارث بنى بمثله ومثل أبيه أستغنى الوجود بعد ابن عمه خاتم
الأنبياء صلى الله عليه وسلم عن نبي مقتفٍ على آثاره ؛ ونسبى ولم يعهد فلم يبق إذ لم
يوجد النص إلا الإجماع ، وعليه كانت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بلا نزاع ، أقتضت المصلحة الجامعة عقد مجلس كل طرف به معقود ، وعقد بيعة
عليها الله والملائكة شهود ، وجمع الناس له ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ
يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ . فحضر من لم يعبا بعده بن تحلف ، ولم يربأ^(١) معه وقد مد يده طائفا
بن مدها وقد تكلف ؛ واجتمعوا على رأي واحد واستخاروا الله تعالى فيه فخار ،
وناهيك بذلك من مختار ؛ وأخذت يمين ممد إليها الأيمان ، ويُسَدُّ بها الإيمان ؛
وتعطى عليها الموائيق ، وتعرض أمانتها على كل فريق ؛ حتى تقلد كل من حضر
في عنقه هذه الأمانة ، وحط يده على المصحف الكريم وحلف بالله العظيم وأتم
أيمانه ؛ ولم يقطع ولم يستثن ولم يتردد ، ومن قطع من غير قصد أعاد وجدد ؛ وقد
نوى كل من حلف أن النية في يمينه نية من عقدت هذه البيعة له ونية من حلف له ،
وتدغم بالوفاء في ذمته وتكفله ؛ على عادة أيمان البيعة بشروطها وأحكامها المرددة ،
وأقسامها المؤكدة ؛ بأن يبذل لهذا الإمام المفترضة طاعته الطاعة ، ولا يفارق الجمهور
ولا يظهر عن الجماعة أنجاءه ؛ وغير ذلك مما تضمنته نسخ الأيمان المكتتب
فيها أسماء من حلف عليها مما هو مكتوب بخطوط من يكتب منهم ، وخطوط
العدول الثقات عمن لم يكتب وأذنوا لمن يكتب عنهم ؛ حسب ما يشهد به بعضهم
على بعض ، ويتصدق عليه أهل السماء والأرض ؛ بيعة تم بمشيئة الله تمامها ،
وعم بالصوب العدق نعماتها ؛ ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ . وهب
لنا الحسن ؛ ثم الحمد لله الكافي عبده ، الوافي وعده ، الموافق لمن يضاعف على كل

(١) أى لم يبال به ولم يكثر . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهَبَةً حَمَدَهُ ؛ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمٍ يَرْغَبُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي آزْدِيادِهَا ، وَيَرْهَبُ إِلَّا أَنْ يِقَاتِلَ أَعْدَاءَ اللَّهِ بِأَمْدَادِهَا ؛ وَيَرَأْبُ بِهَا مَا أَثْرَفِيَا أَمْثَرِ مَالِكِهِ (؟) مَا بَانَ مِنْ مُبَايَنَةِ أَضْدَادِهَا .

نَحْمَدُهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمَةً لَا تَمَلُّ مِنْ تَرْدَادِهَا ، وَلَا تَبْخُلُ بِمَا يُفَوِّقُ السَّهَامَ مِنْ سَدَادِهَا ؛ وَلَا نَظْلُ إِلَّا عَلَى مَا يُوْجِبُ كَثْرَةَ أَعْدَادِهَا ، وَتَيْسِيرَ إِقْرَارِ عَلَى أَوْرَادِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَتَقَايَسُ دَمُ الشَّهَدَاءِ وَمَدُّ مِدَادِهَا ، وَتَنَافُسُ طُرُرُ الشَّيَابِ وَغُرُرُ السَّحَابِ عَلَى أَسْتِمْدَادِهَا ؛ وَتَجَانُسُ رُقُومُهَا الْمَدْيِجَةِ وَمَا تَلْبَسُهُ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ مِنْ شِعَارِهَا ، وَاللَّيَالَى مِنْ دَنَارِهَا ، وَالْأَعْدَاءُ مِنْ حِدَادِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى جَمَاعَةِ آلِهِ مِنْ سَقَلٍ مِنْ أَبْنَائِهَا وَمَنْ سَلَفَ مِنْ أَجْدَادِهَا ؛ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا أَكْسَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ مَا كَانَ لِحَدِّهِ ، وَوَهَبِهِ مِنَ الْمَلِكِ السُّلَيْمَانِيِّ عَنْ أَبِيهِ مَا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَعَلَّمَهُ مَنَظِقَ الطَّيْرِ بِمَا تَحْمَلُهُ حَمَائِمُ الْبَطَائِقِ مِنْ بَدَائِعِ الْبَيَانِ ، وَسَخَّرَ لَهُ مِنَ الْبَرِيدِ عَلَى مُتُونِ الْخَيْلِ مَا سَخَّرَ مِنَ الرَّيْحِ لِسُلَيْمَانَ ؛ وَأَتَاهُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مَا أَمَدَّهُ بِهِ أَبُوهُ سُلَيْمَانُ وَتَصَرَّفَ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْفَخَّارِ مَا أَطَاعَهُ بِهِ كُلُّ مَخْلُوقٍ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ ؛ وَجَعَلَ لَهُ مِنْ لِبَاسِ بَنِي الْعَبَّاسِ مَا يَقْضِي لَهُ سَوَادُهُ بَسُودَ الْأَجْدَادِ ، وَيَنْفُضُ عَلَى كَلِّ الْهُدْبِ مَا فَضَّلَ عَنْ سُودِئِهِ الْقَلْبِ وَسَوَادَ الْبَصَرِ مِنَ السَّوَادِ ؛ وَيَمُدُّ ظِلَّهُ عَلَى الْأَرْضِ فَكُلُّ مَكَانٍ حَلَّ دَارُ مُلْكٍ وَكُلُّ مَدِينَةٍ بَغْدَادُ ؛ وَهُوَ فِي لَيْلِهِ السَّجَادُ ، وَفِي نَهَارِهِ الْعَسْكَرِيُّ وَفِي كَرَمِهِ جَعْفَرُ الْجَوَادِ يُدِيمُ الْإِتِّهَالَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَوْفِيقِهِ ، وَالْإِتِّهَاجَ بِمَا يُغْنِي كُلَّ عَدُوٍّ بِرِيقِهِ ؛ وَيَبْدَأُ يَوْمَ هَذِهِ الْمُبَايَعَةِ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ مِنْ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ ، وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ مِمَّا يَتَحَلَّى

به الإمام، ويُقدِّم التقوى أمامه، ويُقرن عليها أحكامه، ويتبع الشرع الشريف ويقف عنده ويوقف الناس، ومن لا يجل أمره طائعاً على العين حمله بالسيف غصبا على الرأس، ويعجل أمير المؤمنين بما يشفي به النفوس، ويُريل به كيد الشيطان إنه يسوس، يأخذ بقلوب الرعايا وهو غنى عن هذا ولكن يسوس، وأمير المؤمنين يشهد الله وخليقته عليه أنه أقر كل أمرئ من ولاة الأمور الإسلامية على حاله، واستمر به في مقيله تحت كنف ظلاله، على اختلاف طبقات ولاة الأمور، وتفرقهم في الممالك والشعور، براً وبحراً، سهلاً ووعراً، وشرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وكل جليل وحقير، وقليل وكثير، وصغير وكبير، ومملك ومملوك، وأمير، وجندى يبرق له سيف شهير، وروح طير، ومن مع هؤلاء من وزراء وقضاة وكتاب، ومن له يد تقي في إنشاء وتحقيق حساب، ومن يتحدث في برید وخراج، ومن يحتاج إليه ومن لا يحتاج، ومن في الدروس والمدارس والربط والزوايا والخوانق، ومن له أعظم التعلقات وأدنى العلائق، وسائر أرباب المراتب، وأصحاب الرواتب، ومن له في مال الله رزق مقسوم، وحق مجهول أو معلوم، واستمرار كل أمر على ما هو عليه، حتى يستخير الله ويتبين له ما بين يديه، فما زاد تأهيله، زاد تفضيله، وإلا فأمير المؤمنين لا يريد سوى وجه الله، ولا يحابي أحداً في دين، ولا يحابي [عن] أحد في حق، فإن المحاماة في الحق مداواة على المسلمين، وكل ما هو مستمر إلى الآن، مستقر على حكم الله مما فهمه الله له وفهمه سليمان، لا يغير أمير المؤمنين في ذلك ولا في بعضه، معتبر مستمر بما شكر الله على نعمه وهكذا يجازئ من شكر، ولا يكدر على أحد مورداً نزه الله به نعمه الصافية عن الكدر، ولا يتأول في ذلك متأول ولا من بحر النعمة أو كفر، ولا يتعلل متعلل فإن أمير المؤمنين يعود بالله ويبعد أيامه من الغير، وأمر أمير المؤمنين - أعلى الله أمره -

أَنْ يُعْلَنَ الْخُطْبَاءُ بِذِكْرِهِ وَذِكْرِ سُلْطَانِ زَمَانِهِ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْآفَاقِ ، وَأَنْ تُضْرَبَ
بِاسْمِهِمَا الْبُقُودُ الْمُتَعَامَلُ بِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَيُنْتَجَجَ بِالْبَدْعَاءِ لَهَا عَطْفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ،
وَيُصْرَحَ مِنْهُ بِمَا يُشْرِقُ بِهِ وَجْهُ الدَّرْهِمِ وَالْدِّينَارِ ؛ وَتُبَاهَى بِهِ الْمَنَابِرُ وَدَوْرُ الضَّرْبِ :
هَاتِيكَ تَرْفَعُ أَسْمَهُمَا عَلَى أَسْرَةٍ مُهُودَهَا ، وَهَذِهِ عَلَى أَسَارِيرِ نُقُودِهَا ؛ وَهَذِهِ تَقَامُ بِسَبَبِهَا
الصَّلَاةُ ، وَتِلْكَ تُدَامُ بِهَا الصَّلَاتُ ؛ وَكِلَاهُمَا تُسْتَأَلُّ بِهِ الْقُلُوبُ ، وَلَا يُلَامُ عَلَى مَا تَعِيهِ
الْأَذَانُ وَتُوعِيهِ الْجُيُوبُ ؛ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا مَنْ تَحْدَقُ بِجَوَارِهِ الْأَحْدَاقُ ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ
الْأَعْنَاقُ ؛ وَتَتَلَقَّ بِهِ الْمَقَاصِدُ ، وَيَقْوَى بِهِمَا الْمُعَاوِدُ ؛ وَكِلَاهُمَا أَمْرُهُ مَطَاعٌ ، مِنْ غَيْرِ
نَزَاعٍ ، وَإِذَا لَمَعَتْ أَرْزِمَةُ الْخُطْبِ طَارَ لِلذَّهَبِ سُعَاعٌ ؛ وَلَوْلَاهُمَا مَا أَجْتَمَعَ جَمْعٌ
وَلَا آفَضَ ، وَلَا عَرَفَ الْأَنَامُ مِنْ تَأْتَمٍّ ؛ فَالْخُطْبُ وَالذَّهَبُ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ ، وَبِهِمَا
يَذْكُرُ اللَّهُ قِيَامَ^(١) الْمَسَاجِدِ ؛ وَلَوْلَا الْأَعْمَالُ ، مَا بُذِلَتِ الْأَمْوَالُ ، وَلَوْلَا الْأَمْوَالُ ، مَا وُلِّيتِ
الْأَعْمَالُ ؛ وَلَاجَلُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هَذِهِ النَّسْبَةِ ، قِيلَ إِنَّ الْمَلِكَ لَهُ السَّكَّةُ وَالْخُطْبَةُ ؛ وَقَدْ
أَسْمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْجَمْعِ الْمُشْهُودِ مَا يَتَنَاقَلُهُ كُلُّ خَطِيبٍ ، وَيَتَدَاوَلُهُ كُلُّ بَعِيدٍ
وَقَرِيبٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِأَوَامِرٍ وَنَهَى عَنْ نَوَاهٍ وَهُوَ رَقِيبٌ ؛ وَتَسْتَفْزَعُ الْأَوْلِيَاءُ لَهَا
السَّجَايَا ، وَتُتَضَرَّعُ الْخُطْبَاءُ فِيهَا بِنُعُوتِ الْوَصَايَا ؛ وَتَكْتَلُّ بِهَا الْمَزَايَا ، وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاعِظُ
وَيُخْرِجُ مِنَ الْمَشَافِحِ الْخَبَايَا مِنَ الزَّوَايَا ؛ وَتَسْمُرُ بِهَا الشُّمَارُ وَيَتَرَنَّمُ الْحَادِي وَالْمَلَّاحُ ،
وَيُرُوقُ شَجْوُهَا فِي اللَّيْلِ الْمُقْمِرِ وَيُرْقَمُ عَلَى جَنْبِ الصَّبَاحِ ؛ وَتُعْطَرُ بِهَا مَكَّةُ بَطْحَاءَهَا
وَتَحْيَا بِحَدِيثِهَا قُبَاهُ ، وَيَلْقَنَهَا كُلُّ أَبٍ فَهَمَّ آئِنُهُ وَيَسْأَلُ كُلُّ أَبْنٍ أَنْ يُجِيبَ أَبَاهُ ؛ وَهُوَ
لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رُشْدٌ وَعَلَيْكُمْ بَيْنُهُ ، وَإِلَيْكُمْ مَا دَعَاكُمْ بِهِ إِلَى سَبِيلِ
رَبِّهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ؛ وَلَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ وَلَوْلَا قِيَامُ الرَّعَايَا بِهَا
مَا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا ، وَلَا أَمْسَكَ بِهَا الْبَحْرُ وَدَحَا الْأَرْضُ وَأَرْسَى جِبَالَهَا ؛ وَلَا أَتَفَقَّتِ

(١) كَذَا ضَبَطَ فِي بَعْضِ النُّسخِ وَلَعَلَّ الصَّوَابَ قِيَامٌ ، أَوْ قَوَامٌ . تَأَمَّلْ .

الآراء على من يستحق وجاءت إليه الخلافة تجر أذيالها ، وأخذها دون بني أبيه
ولم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها ؛ وقد كفأكم أمير المؤمنين السؤال بما
فتح لكم من أبواب الأرزاق ، وأسباب الارتفاق ؛ وأحسن لكم على وفاءكم وعلمكم
مكارم الأخلاق ، وأجركم على عوائدكم ولم يمسك خشية الإملاق ؛ ولم يبق على
أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل
بما ينتفع به من يحيى - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - من بعده ، ويزيد على كل
من تقدم ، ويقيم فروض الحج والجهاد ، ويقيم الرعايا بعذله الشامل في مهاد ؛
وأمير المؤمنين يقيم على عباده موسم الحج في كل عام ، ويشمل سكان الحرمين
الشريفين وسدنة بيت الله الحرام ؛ ويجهز السبيل على دأبه ويرجو أن يعود إلى
حاله الأول في سالف الأيام ، ويتدفق في هذين المسجدين بحره الزاخر ويُرسل إلى
ثالثهما البيت المقدس ساكب الغمام ؛ ويقوم بقومة قبور الأنبياء - صلوات الله
عليهم - أين كانوا وأكثرهم في الشام ؛ والجمع والجماعات هي فيكم على قديم سنتها ،
وقويم سنتها ؛ وستزيد في أيام أمير المؤمنين بمن أنضم إليه ، وبما يتسلمه من بلاد
الكفار ويسلم على يديه .

وأما الجهاد ، فيكتفى بأجتهد القائم عن أمير المؤمنين بأموره ، المقلد عنه جميع
ما وراء سريره ؛ وأمير المؤمنين قد وكل إليه - خلد الله سلطانه - غناء الأيام ، وقلده
سيفه الرابع بوارقه ليسله واجده على الأعداء [وإلا] سل خياله عليهم في الأحلام ؛
ويؤكد أمير المؤمنين في ارتجاع ما غلب عليه العدا ، وانتراج [مأبا] يديهم من بلاد
الإسلام لأنه حقه وإن طال عليه المدى ؛ وقد قدم الوصية بأن يوالى غزو العدو
المخذول برا وبحرا ، ولا يكف عن يظفر به منهم قتلا وأسرا ، ولا يفك أغلا لا
ولا إصرأ ؛ ولا ينفك يرسل عليهم في البحر غرابانا ، وفي البر من الخيل عقباناً ؛ يحمل

فيهما كل فارس صقرا، ويمجي الممالك ممن يحوز أطرافها بإقدام، ويتخول أكنافها الأقدام؛ وينظر في مصالح القلاع والحصون والثغور، وما يحتاج إليه من آلات القتال، وما يحتاج به الأعداء ويعجز عنه المحتال؛ وأمّهات الممالك التي هي مرابط البؤد، ومرابض الأسود، والجنّاح المدود؛ ويتفقد أحوالهم بالعرض، بما لهم من خيل تعقد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ وما لهم من زرد مصون، وبيض مسها ذائب ذهب فكانت كأنها بيض مكنون؛ وسيوف قواضب، ورماح لكثرة طعنها من الدماء خواضب، وسهام توصل القسي وتفارقها فتحن حين مفارق وترجر القوس زحمة مغاضب.

وهذه جملة أراد أمير المؤمنين بها تطيب قلوبكم، وإطالة ذيل التطويل على مطلوبكم؛ وماؤكم وأموالكم وأعراضكم في حماية إلا ما أباح الشرع المطهر، ومزيد الإحسان إليكم على مقدار ما يخفى منكم ويظهر.

وأما جريئات الأمور، فقد علمتم بأن فيمن تقلد عن أمير المؤمنين غنى عن مثل هذه الذكري، وفقى حق لا يتسغل بطلب شيء فكريا؛ وفي ولادة الأمور، ورعاة الجمهور؛ ومن هو سداد عمله، ومداد أمله، ومراد من هو منكم معشر الرعايا من قبله؛ وأنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين ومن خولكم وأنتم وهم فما منكم إلا من أستر عرف أمير المؤمنين وتمشى في مرضى الله على خلقه، وينظر ما هو عليه ويسير بسيرته المثلى في طاعة الله في خلقه؛ وكلكم سواء في الحق عند أمير المؤمنين وله عليكم أداء النصيحة، وإبداء الطاعة بسيرة صحيحة؛ وقد دخل كل منكم في كنف أمير المؤمنين وتحت رافته، ولزم حكم بيعته؛ وألزم طائره في عنقه، ويستعمل كل منكم في الوفاء ما أصبح به عليا: ((ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)).

هذا قول أمير المؤمنين، وعلى هذا عهد إليه وبه يعهد، وما سوى هذا فهو جُور
لا يشهد به عليه ولا يشهد به وهو يعمل في ذلك كله ما تُحمد عاقبته من الأعمال،
ويجمل منه ما يصلح به الحال والمال؛ وأمير المؤمنين يستغفر الله على كل حال،
ويستعيد بالله من الإهمال؛ ويختتم أمير المؤمنين قوله بما أمر الله به من العدل
والإحسان، ويحمد الله وهو من الخلق «أحمد» وقد آناه الله مُلك سليمان؛ والله تعالى
يمتّع أمير المؤمنين بما وهبه، ويملكه أقطار الأرض ويورثه بعد العمر الطويل
عقبه؛ ولا يزال على أسرة العلياء قعوده، ولباس الخلافة به أبهة الجلالة كأنه مامات
منصوره ولا ردى مهديه ولا ذهب رشيده^(١).

المقصود السادس

(فيما يكتب في آخر البيعة)

إذا آتتهى إلى آخر البيعة، شرع في كتابة الخواتم على ما تقدم، فيكتب :
«إن شاء الله تعالى» ثم يكتب التاريخ . ثم الذى يقتضيه قياس العهود أنه يكتب
المستند عن الخليفة فيكتب «بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى المتوكلى -
مثلا - أعلاه الله تعالى» وكأن الخليفة الذى عقدت له البيعة هو الذى أذن
في كتابتها .

قلت : ولو أسقط المستند في البيعات فلا حرج بخلاف العهود : لأنها صادرة
عن مؤل وهو العاهد، فحسن إضافة المستند إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصدر
عن أهل الحل والعقد كما تقدم . ويكتفى في المستند عنهم بكتابة خطوطهم في آخر

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسرلة جلايب فصاحته فهى
تجربة لم تنجح ومسودة لم تصحح كما أشار إليه ابن ناظر الجيوش فليتنبه .

البيعة كما سيأتي ، ثم بعد كتابة المستند - إن كُتِبَ - تُكْتَبُ الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبة ، على ما تقدم في الكلام على الفوائخ والخواتم في مقدمة الكتاب .

ثم يَكْتُبُ مَنْ بايع من أهل الحل والعقد والشهود على البيعة .

فأما من تَوَلَّى عَقْدَ البيعة من أهل الحل والعقد فيكتب : « بايعته على ذلك ، وكتب فلان بن فلان » ويدعو في خلال ذلك قبل اسمه بما يناسب : مثل أن يقال « بايعته على ذلك قدس الله خلافته » أو « زاد الله في شرفه » أو « زاد الله في اعتلائه » وما أشبه ذلك .

وأما الشهود على البيعة فالواجب أن يكتب كل منهم : « حضرت جريان عقد البيعة المذكورة ، وكتب فلان بن فلان » كما يكتب الشاهد بجريان عقد النكاح ونحوه ، ولا بأس أن يدعو في رسم شهادته قبل كتابة اسمه بما يناسب : مثل « قرنها الله تعالى باليمن أو بالسداد » أو « عرف الله المسلمين بركتها » وما أشبه ذلك .

المقصود السابع

(في قطع الورق الذي تكتب فيه البيعة ، والقلم الذي تكتب به ،

وكيفية كتابتها ، وصورة وضعها)

وأعلم أن البيعات لم تكن متداولة الاستعمال لقلة وقوعها ، فلم يكن لها قطع ورق ، ولا تصوير متعارف فيتبع ، ولكنه يؤخذ فيها بالقياس وعموم الألفاظ .

فأما قطع ورقها ، فقد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق تقلا عن محمد بن عمر المدائني في كتاب « القلم والدواة » أن قطع البغدادى الكامل للخلفاء والملوك . ومقتضى

ذلك أنَّ البيعات تُكتب فيه ، وهو قياس ما ذكره المقرَّ الشَّهابيُّ بن فضل الله في "التعريف" من أنَّ للعهود قطعُ البغدادىِّ الكامل على ماسياتى ذكره .

قلت : لكن سياقى فى الكلام على عهود الخلفاء أنها الآن قد صارت تُكتب فى قطع الشامى الكامل ، وبينهما فى العَرَض والطول بَوْنٌ كبير على ما تقدم بيانه فى الكلام على قطع الورق ؛ وحينئذٍ فينبغى أن تكون كتابةُ البيعات فى قطع الشامى مناسبة لما تُكتب فيه عهود الخلفاء الآن .

وأما القلم الذى يكتب به فيحسب الورق الذى يكتب فيه : فإن كُتبت البيعة فى قطع البغدادى ، كانت الكتابةُ بقلمٍ مختصر الطوارى إذ هو المناسب له ؛ وإن كُتبت فى قطع الشامى ، كانت الكتابةُ بقلمٍ الثُلث الثقيل إذ هو المناسب له .

وأما كيفية الكتابة وصورة وضعها ، فقياس ما هو متداول فى كتابة العهود وغيرها ، أنه يتبدأ بكتابة الطرة فى أول الدرج بالقلم الذى تُكتب به البيعة سطوراً متلاصقة لا حُلُوَ بينها ، ممتدة فى عَرَض الدرج من أوله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادى الكامل ، جرى فيه على القاعدة المتداولة فى عهود الملوك عن الخلفاء على ماسياتى ذكره ؛ ويترك بعد الوصل الذى فيه الطرة ستة أوصال بياضاً من غير كتابة : لتصير بوصل الطرة سبعة أوصال ؛ ثم يكتب البسملة فى أول الوصل الثامن بحيث تكون أعلى ألفاته تكاد تلحق الوصل الذى فوقه بهامش عريض عن يمينه قدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوعة ؛ ثم يكتب تحت البسملة سطرًا من أول البيعة ملاصقاً لها ؛ ثم يخلى مكان بيت العلامة قدر شبر جرياً على قاعدة العهود وإن لم تكن علامة تُكتب ، كما يخلى بيت العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتب فيه شيء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على

سَمَّتِ السَّطْرَ الَّذِي تَحْتَ الْبِسْمَةِ فِي بَقِيَّةِ الْوَصْلِ الَّذِي فِيهِ الْبِسْمَةُ ؛ وَيُحَرِّصُ
 أَنْ تَكُونَ نِهَائِيَّةُ السَّجْعَةِ الْأُولَى فِي أَثْنَاءِ السَّطْرِ الْأَوَّلِ أَوِ الثَّانِي ؛ ثُمَّ يَسْتَرْسِلُ فِي كِتَابَةِ
 بَقِيَّةِ الْبَيْعَةِ وَيَجْعَلُ بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ قَدْرَ رُبْعِ ذِرَاعٍ بِذِرَاعِ الْقَمَاشِ كَمَا سَيَأْتِي
 فِي الْعُهُودِ ؛ وَيَسْتَضِحِبُ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْبَيْعَةِ ، فَإِذَا آتَتْهُ إِلَى آخِرِهَا كَتَبَ
 ”إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى“ ثُمَّ التَّارِيخَ ، ثُمَّ الْمُسْتَنْدَ ، ثُمَّ الْحَمْدَ وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْحَسْبُ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْفَوَاتِحِ وَالْخَوَاتِمِ فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ ؛
 ثُمَّ يَكْتُبُ مِنْ بَايَعٍ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ خُطُوطَهُمْ ، ثُمَّ الشُّهُودَ عَلَى الْبَيْعَةِ بَعْدَهُمْ .
 وَإِنْ كَانَتْ الْكِتَابَةُ فِي الْقَطْعِ الشَّامِي ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْقُصَ عَدْدُ أَوْصَالِ الْبَيَاضِ
 الَّذِي بَيْنَ الطَّرَةِ وَالْبِسْمَةِ وَصَلِينَ فَتَكُونُ خَمْسَةً ، وَيَنْقُصُ الْهَامِشُ فَيَكُونُ قَدْرَ ثَلَاثَةِ
 أَصَابِعٍ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْكِتَابَةِ .

وهذه صورة وضعه في الورق ممثلاً لها بالطرّة التي أنشأها لذلك ، والبيعة الثانية
 من البيعتين اللتين أنشأتهما

بِأُصْبَعٍ بِقَدْرِ أَصْبَعٍ

بِأُصْبَعٍ بِقَدْرِ أَصْبَعٍ

هَذِهِ بَيْعَةٌ مَيُومَنَةٌ ، بِالْيَمِينِ مَبْتَدَاةً بِالسَّعْدِ مَقْرُونَةً ؛ لِمَوْلَانَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ الْإِمَامِ
 النَّبِيِّ الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ابْنِ الْإِمَامِ الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ
 أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٍ الْعَبَّاسِي : زَادَ اللَّهُ تَعَالَى شَرَفَهُ عَلَوًا ، وَفَخَارَهُ شُمُوعًا . قَامَ بِعَقْدِهَا
 السُّلْطَانُ السَّيِّدُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعْظَمُ ، الْمَلِكُ الظَّاهِرُ أَبُو سَعِيدٍ بَرْقُوقَ ،
 خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جُيُوشَهُ وَأَعْوَانَهُ ؛ يَجْمَعُ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ،
 وَالْأَعْتِبَارِ وَالنَّقْدِ : مِنَ الْقُضَّاتِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَمْرَاءِ ، وَوُجُوهِ النَّاسِ وَالْوُزَرَاءِ وَالصُّلَحَاءِ
 وَالنَّصَحَاءِ ؛ وَإِمَاضَائِهَا عَلَى السَّدَادِ ، وَالتَّجْحُّجِ وَالرِّشَادِ .
 عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ

بياض سنة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هاشم الحمد لله الذى جعلَ بيتَ الخلافةِ مَثَابَةً للناسِ وأَمْنًا . وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامةِ وَقَايَةً لِلْأَنَامِ وَحِصْنًا ؛ وَشَدَّ مِنْهَا بِالْعَصَابَةِ

تقدير ربع ذراع

الْقُرْشِيَّةَ أَزْرًا وَشَادَ مِنْهَا بِالْعُصْبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ رُكْنًا . وَأَغَاثَ

تقدير ربع ذراع

الْخَلْقَ بِإِمَامٍ هَدَى حَسَنَ سِيرَةٍ وَصَفَا سِرِيرَةً فَرَّاقَ صُورَةً وَرَقَّ مَعْنَى .

ثم يأتى على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النمط إلى أن ينتهى إلى

قوله : والله تعالى يجعلُ أُنْتَقالهم من أدنى إلى أعلى ومن يُسرى إلى يمنى ،

ويحقق لهم بمن أستخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ هَامِش

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا .

إن شاء الله تعالى

كتب في الثاني من جمادى الأولى ١٣٨٤

سنة إحدى وتسعين وسبع مائة

بإذن العالی المولوی الإمامی النبوی المتوکل ١٣٨٤

أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

بایعته علی ذلك	بایعته علی ذلك	بایعته علی ذلك
زاد الله تعالى في اعتلائه	زاد الله تعالى في شرفه	قدس الله تعالى خلافته
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صورة خط المايين
للخليفة من أهل الحل والعقد

حضرت	حضرت	حضرت
جریان عقد	جریان عقد	جریان عقد
البيعة المذكورة	البيعة المذكورة	البيعة المذكورة
عَرَفَ اللهُ المسلمين	قَرَنَهَا اللهُ تعالى	قَرَنَهَا اللهُ تعالى
بِرَكَّتِهَا	بِالسَّداد	بِالْيَمْنِ والبركة
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

ورد
في
البيعة
المذكورة
خط
الملك
العهود

النوع الثاني

(من البيعات ، بيعات الملوك)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بَنَ فَضَلَ اللهُ قَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" : أَنَّ مَنْ قَامَ مِنَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ عَهْدٍ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِأَنْ تُكْتَبَ لَهُمْ مَبَايِعَةٌ ؛ وَكَأَنَّهُ يَرِيدُ أَصْطِلَاحَ بِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ أَمَّا بِلَادُ الْمَغْرِبِ فَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ مُصْطَلَحِهِمْ بِكُتَابَةِ الْبَيْعَاتِ لِلْمُلُوكِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ عَنْدهُمْ خَلِيفَةٌ يَدِينُونَ لَهُ ، يَتَقَلَّدُونَ الْمُلْكَ بِالْعَهْدِ مِنْهُ . بَلْ جُلُومُهُمْ أَوْ كُلُّهُمْ يَدْعِي الْخِلَافَةَ فَهُمْ يَكْتُبُونَ الْبَيْعَاتِ لِهَذَا الْمَعْنَى .

وهذه نسخة بيعة من هذا النوع ، كُتِبَ بِهَا لِلْمُلْكِ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَجَّاجِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَحْمَرِ الْأَنْصَارِيِّ ، صَاحِبِ حِمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، مَفْتُوحَةً بِحُطْبَةٍ عَلَى قَاعَتِهِمْ فِي بَيْعَاتِ الْخُلَفَاءِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ؛ وَرَبَّمَا تَكَرَّرَ الْحَمْدُ فِيهَا دَلَالَةً عَلَى عِظَمِ النِّعْمَةِ . مِنْ إِنْشَاءِ الْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَطِيبِ صَاحِبِ دِيْوَانِ إِنْشَائِهِ ، عَلَى مَا رَأَيْتُهُ فِي دِيْوَانِ تَرْسُلِهِ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذى جلّ شأننا، وعزّ سلطاننا، وأقام على ربوبيّته الواجبة فى كلّ شيء خلقه برهاننا، الواجب الوجود ضرورة إذ كان وجود ماسواه إمكاننا؛ الحى القيوم حياة أبدية سرمدية منزّهة عن الابتداء وال انتهاء [فلا تعرّف وقتنا ولا تستدعى زمانا؛ العليم الذى يعلم السر وأخفى^(١)] فلا يعزّب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء إلّا أحاط بها علمنا وأدركها عياننا؛ القدير الذى ألقت الموجودات كلّها إلى عظمته يد الخضوع استسلاما له وإذعانا . المرید الذى بمشيئته تصرف الأقدار، واختلاف الليل والنهار، فإن منع منع عدلا وإن منع منع إحسانا؛ شهيد تدأول الملوك بدوام ملكه ودلّ حدوث ماسواه على قدمه، وأننت ألسنة الحى والجماد على مواهبه وقسمه، وفاض على عوالم السماء والأرض بحر جوده العميم النوال من قبل السؤال وكرمه، وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ويثنى على نعمه سرا وإعلانا . فهو الله الذى لا إله إلّا هو ليس فى الوجود إلّا فعله، إلّا له الخلق والأمر وإليه يرجع الأمر كلّ، وسع الأكوان على تباينها فضله، وقدر المواهب والمقاسم عدله، منعا ومنحا وزيادة ونقصانا .

والحمد لله الذى بيده الإختراع والإنشاء، مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، سبق فى مكنون غيبه القضاء، وخفيت عن خلقه الأسباب وعميت عليهم الأنباء، وعجزت عقولهم أن تدرك منها كنهها أو تكشف منها بيانا .

والحمد لله الذى رفع قبة السماء ما اتخذ لها عمادا، وجعل الأرض فراشا ومهادا، وخلق الجبال الراسية أوتادا، ورتب أوضاعها أجناسا متفاضلة، وأنواعا متباينة متقابلة : حيوانا ونباتا وجمادا، وأقام فيها على حكمة الإبداع دلائل باهرة الشعاع

(١) الزيادة من ربحانة الكتاب لأبن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

وأشهادا ، وجعل الليل والنهار خِلْفَةً والشمس والقمر حُسباناً . وقدر السياسة
سياجا لعالم الإنسان يضمُّ منه ما آنتشر ، ويَطْوِي من تعديهِ ما نشر ، ويَحْمِلُهُ على
الآداب التي تُرشدُهُ إذا ضَلَّ وتُقيمه إذا عَثَرَ ، وتجبرُهُ على أن يلتزم السنن ويتَّبِع
الأثر ، لُطفاً منه سَمِلَ البَشَر وحَناناً .

ولما عمَّر الأرض بهذا الجنس الذي فضله وشرَّفه ، وهبَ له العقل الذي تفكَّر
به في حكمته حتى عرَّفه ، وبما يجبُ لرؤيائه الواجبة وصفه ، جعلهم درجاتٍ
بعضها فوق بعض فقرا وغنى وطاعة وعصياناً . وأختار منهم سَفرة الوحي وحملة
الآيات ، وأرسل فيهم الرُّسل بالمعجزات ، وعرَّفهم بما كَفَّهم من الأعمال
المفترَضات : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .
يومَ اعتبار الأعمالِ وأَعتبار الحَسَنات ، ونَصَب العدلَ والمُجازاةَ في يومِ العَرْض عليه
قِسْطاساً ومِيزاناً .

نَحْمَدُهُ وله الحمدُ في الأولى والآخرة ، ونُثني على مَواهبه الجَمَّة والآيهِ الوافره ،
ونَمُدُّ يدَ الصَّراعة ، في مَوقِف الرِّجاء والطَّاعة ، إلى المَزِيد من مِنته الهامِيَةِ الهامِرَةِ ،
ونسأله دَوامَ الطَّافِهِ الخافِيَةِ وعِصَمِهِ الظَّاهِرَةِ ، وأَتصالِ نِعَمِهِ التي لا تَزَالُ تتعرَّفُها
مَنى' ووَحْداناً . ونشهدُ أَنَّهُ اللهُ الذي لا إِلَهَ إِلَّا هو وحده لا شريك له . [شهادَة
نُجِّدُها في المَعاد عُدَّةً وافيَةً ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقِيَةً ، وذخيرةً صالحةً
باقيةً ، ونُورا يَسعَى بين أيدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عُنواناً ^(١)] . ونشهد أن
سيدنا ومولانا محمداً النَّبِيَّ العربيَّ القرشيَّ الهاشميَّ عبده ورسوله الذي أَصطفاه
وأختاره ، ورَفَعَ بين النَّبِيِّين والمرسلين مِقدارَهُ ، وطَهَّر قلبه وقَدَّس أَسرارَهُ ، وبلغه

من رِضاهُ أَخْيَارَهُ ، وأَعْطاهُ لِيَوَاءِ الشَّفَاعَةِ يَقْفُو آدَمَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ
 أَنَارَهُ ، وجَعَلَهُ أَقْرَبَ الرُّسُلِ مَكَانَةً وَأَرْفَعَهُمْ مَكَانًا . رَسُولُ الرَّحْمَةِ ، وَنُورُ الظُّلُمَةِ ،
 وَإِمَامُ الرُّسُلِ الْأَيُّمَةِ ، الَّذِي جَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَرْيَةِ السَّبْقِ وَمَرْيَةِ التَّيَمِّهِ ، وجَعَلَ طَاعَتَهُ
 مِنَ الْعَذَابِ الْمُقِيمِ أَمَانًا . صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ الَّتِي تَوْمَلُ ، وَالْوَسِيلَةُ الَّتِي إِلَى اللَّهِ بِهَا
 يُتَوَسَّلُ ، وَالدرَجَةُ الَّتِي لَمْ يُؤْتَهَا الْمَلِكُ الْمُقَرَّبُ وَلَا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ ، وَالرَّتَبَةُ الَّتِي لَمْ يُعْطِهَا
 اللَّهُ سِوَاهُ إِنْسَانًا . انْتَخَبَهُ مِنْ أَشْرَفِ الْعَرَبِ أُمًّا وَأَبَا ، وَأَزَكَى الْبَرِيَّةِ طِينَةً وَأَرْفَعَهَا
 نَسَبًا ، وَابْتَعَثَهُ إِلَى كَافَّةِ الْخَلْقِ عَجًّا وَعَرَبًا ، وَمَلَأَ بُنُورَ دَعْوَتِهِ الْبَسِيطَةَ جَنُوبًا وَشَمَالًا
 وَمَشْرِقًا وَمَغْرِبًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الَّذِي آمَنْتَ بِهِ الْخُنَّ لِمَا سَمِعْتَهُ وَقَالُوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا
 قُرْآنًا نَجَبًا ﴾ . تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَتَبَيَّنَا . فَصَدَعَ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْرِ مِنْ آخِثَارِ ذَاتِهِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْطَفَاَهَا ، وَأَدَّى أَمَانَةَ اللَّهِ وَوَفَّاهَا ،
 وَرَأَى الْخَلَائِقَ عَلَى شَفَى الْمَتَالِفِ فَتَلَاَفَاهَا ، وَتَبَعَ أَدْوَاءَ الضَّلَالِ فَشَفَاهَا ، وَمَحَا مَعَالِمَ
 الْجَهْلِ وَعَقَّاهَا ، وَشَادَ لِلْخَلْقِ فِي الْحَقِّ بُنْيَانًا . مُؤَيِّدًا بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي حُجِّجُهَا تُقْبَلُ
 وَتُسَلَّمُ : فَمَنْ جَدَعَ لِفِرَاقِهِ يَتَأَلَّمُ ، وَجَمَادٍ بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ يَتَكَلَّمُ ، وَجَبِشَ شَكَا الظُّمَأِ
 فَفَجَّرَ لَدَيْهِ الْمَعِينِ مِنْهُ بَنَانًا . وَأَيُّ مُعْجِزَةٍ كَكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا تَقْضِي عَجَائِبُهُ ،
 فَهُوَ الْيَمُّ وَالْعُلُومُ النَّافِعَةُ كُلُّهَا مَذَانِبُهُ ، وَأَفْقُ الْحَقِّ الَّذِي تَهْدِي فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 كَوَاكِبُهُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ الَّتِي أَصْبَحَتْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فُرْقَانًا . فَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ
 بِنُورِ رَبِّهَا وَآيَاتِهِ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ اللَّهِ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَبَلَغَ مُلْكُ أُمَّتِهِ
 مَا زَوَى لَهُ مِنْ أَقْطَارِ الْمَعْمُورِ وَجِهَاتِهِ ، حَتَّى عَمَرَ مِنْ أَكْثَافِ الْبَسِيطَةِ ، وَأَرِيفِ
 الْبَحَارِ الْمُحِيطَةِ ، وَهَادَا وَكُنْبَانًا . وَنُقِلَتْ كُنُوزُ كَسْرَى بِعِزِّ دَعْوَتِهِ الْغَالِبَةِ ، وَظَفِرَتْ
 بِفُلْجِ الْخِصَامِ أَيْدِي عِزَائِمِهَا الْمُطَالِبَةِ ، وَأَصْبَحَ إِيوَانُ فَارَسٍ مَجَرَّ رِمَاحِ الْعَرَبِ
 الْعَارِبَةِ ، وَقَدَفَتْ جُنُودَ قِصَرٍ مِنْ ذَوَائِلِهَا بِالشُّهْبِ الثَّاقِبِ ، حَتَّى قَرَعَ عَنْ مَدْرَتِهِ الطَّيْبَةِ

أَتَبَّ بِالصَّفْقَةِ الْخَائِبَةِ، وَخَلَصَتْ إِلَى فُسْطَاطِ مَصْرَ بَكَائِهَا الْمُتَعَاقِبَةِ، فَلَا تَسْمَعُ
الْإِذَانُ فِي إِقَامَتِهِمْ إِلَّا إِقَامَةً وَأَذَانًا. وَلَا دَلِيلَ أَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْقَطْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ
الْغَرِيبِ الَّذِي خَلَصَتْ إِلَيْهِ سُيُوفُهَا أَثْبَاجَ الْبَحَارِ، عَلَى بُعْدِ الْمَرَاحِلِ وَزُجُوجِ الدِّيَارِ،
وَتَكَائُفِ الْعَمَلَاتِ وَآخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ، وَمُنْقَطَعِ الْعِمَارَةِ بِأَقْصَى الشَّامِ وَمَحْطِ السُّفَارِ،
طَلَعَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ طُلُوعَ النَّهَارِ، وَأَسْتَوْطَتَهُ قِبَائِلُ الْعَرَبِ الْأَحْرَارِ، وَأَرْغَمَتْ فِيهِ
أُنُوفَ الْكُفَّارِ، ضِرَابًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطِعَانًا.

وَلَمَّا أَسْتَقَامَ الدِّينَ، وَتَمَّ مَعَالِمُ الْإِيمَانِ الرُّسُولُ الْأَمِينِ، وَظَهَرَ الْحَقُّ الْمُبِينِ،
وَرَأَى مِنْ وَجْهِ الْمِلَّةِ الْخَنِيفَةِ السَّمْحَةِ الْجَيِّنِ، وَأَخَذَ الْمَسَالِكَ وَالْمَاخِذَ الْإِنْصَاحُ
وَالْتَبِينَ، وَتَقَرَّرَتِ الْمُسْتَنْدَاتُ الْمَعْتَمَدَاتُ سُنَّةَ وَقَرَأْنَا، أَشْعَرَهُ الْوَحْيُ بِالرَّحْلَةِ
عَنْ هَذِهِ الدَّارِ، وَالْإِتِّقَالَ إِلَى مَحَلِّ الْكَرَامَةِ وَدَارِ الْقَرَارِ، وَخَيَّرَهُ الْمَلَكُ فَاخْتَارَ الرَّفِيقَ
الْأَعْلَى مُوَفَّقًا إِلَى كَرَمِ الْأَخْيَارِ، [و]جَدَّ صَحْبَهُ رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْإِسْتِخْلَافِ بَعْدَهُ
وَالْإِيشَارِ مُحْجَبًا مُشْرِقَةً الْأَنْوَارِ، أَطْلَقَتْ بِالْحَقِّ يَدًا وَأَنْطَقَتْ بِالصِّدْقِ لِسَانًا.
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ، وَأُسْرَتِهِ الطَّاهِرَةِ وَعِصَابَتِهِ، وَأَنْصَارِهِ وَأَصْحَابِهِ
وَقَرَابَتِهِ، الَّذِينَ كَانُوا فِي مُعَاوَضَتِهِ إِخْوَانًا، وَعَلَى إِعْلَاءِ أَمْرِ الْحَقِّ أَعْوَانًا. نُجُومُ
الْمِلَّةِ وَأَقْمَارِهَا، وَغُيُوثُهَا الْهَامِيَّةُ وَبِحَارِهَا، وَسُيُوفِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَنْبُو شَفَارُهَا، وَأَعْلَامُ
الْهُدَى الَّتِي لَا تَبْلَى آثَارُهَا، وَدَعَائِمُ الدِّينِ الَّتِي رَفَعَتْ مِنْهُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى أَرْكَانًا.

وَحَيَّا اللَّهُ وَجْهَهُ حَتَّى الْأَنْصَارِ بِالنِّعَمِ وَالنَّضْرَةِ، أُولَى الْبَأْسِ عِنْدَ الْحَفِظَةِ وَالْعَفْوِ
عِنْدَ الْقُدْرَةِ، الرَّاضُونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَيَذْهَبُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنِعِمَّتِ الْمُنْقَبَةُ وَالْأَثَرَةُ، الْخَائِزُونَ بَبِيعَةِ الرِّضْوَانِ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا.
وُزَرَأُوهُ وَظَهَرَأُوهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَخَالَصَتْهُ يَوْمَ أَحُدٍ وَبَدْرٍ، لَمْ يَزَالُوا صِدْرًا فِي كُلِّ

قَلْبٌ وَقَلْبٌ فِي كُلِّ صَدْرٍ ، يَصْلَوْنَ دُونَهُ كُلِّ جَمْرٍ ، وَيَفْدُونَهُ بِنُفُوسِهِمْ فِي كُلِّ سِرٍّ
وَجَهْرٍ ، وَيَعْمَلُونَ فِي إِعْلَاءِ دِينِهِ بِيضًا عِضَابًا وَسُمْرًا لِدَانَا . صَلَاةٌ لَا تَزَالُ سَحَائِبُهَا
تُرْتَفَعُ ، وَنَحْيَةٌ دَائِمَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ ، مَا لَهَجَتْ الْأَلْسُنُ بِثَنَائِهِمْ ، وَوَقَفَتْ الْمَفَاحِرُ عَلَى عَلَيَّائِهِمْ ،
وَتَعَلَّمَتِ الْمَوَاهِبُ مِنْ آلَائِهِمْ ، وَقَصُرَتِ الْحَمَامِدُ عَلَى مُسَمِّيَاتِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ ، وَكَانَ
حُبُّهُمْ عَلَى الْفُوزِ بِالْحَنَةِ صَمًّا نَا .

وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ لِهَذَا الْأَمْرِ النَّصِيرِي الَّذِي سَبَبَهُ بِسَبَبِهِمْ مُوَصُولٌ ، وَهُمْ لِقُرُوعِهِ
السَّامِيَةِ أَصُولٌ ، فَيَا هَآءَا مِنْ نُصُولٍ خَلَقْتَهَا نُصُولٌ ، أَنْجَزْتَ وَعْدَ النُّصْرَةِ وَهُوَ مُطُولٌ ،
وَأَحْيَيْتَ رُبُوعَ الْإِيمَانِ وَهِيَ طُلُولٌ ، نَصْرًا عَزِيزًا وَقَتَحًا مَبِينًا ، وَتَأْيِيدًا عَلَى أَعْدَائِكَ
وَتَمَكِينًا ، وَمُلْكًا يَبْقَى فِي الْأَعْقَابِ وَأَعْقَابِ الْأَعْقَابِ وَسُلْطَانًا . وَأَعِنَّا اللَّهُمَّ عَلَى
مَا أَوْجَبَتْ لَهُ مِنْ مَفْرُوضِ الطَّاعَةِ ، وَتَادِيَةِ الْحَقِّ بِجَهْدِ الْإِسْتِطَاعَةِ ، وَأَعِصْمْنَا
بِبِلَالَتِهِ الْعَادِلَةِ مِنَ الْإِضَاعَةِ ، وَآحِلْنَا مِنْ مَرْضَاتِهِ عَلَى سَنَنِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَاجْعَلْهَا
كَلِمَةً بَاقِيَةً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا وَآخِزْنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ .

أَمَّا بَعْدَ مَا أَفْتَتِحُ بِهِ مِنْ تَحْمِيدِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ ، وَالشَّاءِ الَّذِي تَتَعَطَّرُ الْأَنْدِيَّةُ بِتَرْيْدِهِ ؛
فَإِنَّ مِنَ الْمَشْهُورِ الَّذِي يَعْبُضُهُ الْوُجُودُ وَيُؤَيِّدُهُ ، وَالْمَعْلُومِ الَّذِي هُوَ كَالشَّمْسِ ضَلَّ
مِنْ يُنْكِرُهُ أَوْ يُنْحَدُّهُ ، وَالذَّائِعِ بِكُلِّ قُطْرٍ تَرْوِيهِ رُؤَاةُ الْأَنْبِيَاءِ وَتُسَيِّدُهُ ؛ مَا عَلَيْهِ هَذَا
الْمُلْكُ النَّصْرِيُّ الْحَيُّ ، الْأَنْصَارِيُّ الْمُتَمَتِّعُ ؛ الَّذِي يُصِيبُ شَاكِلَةَ الْحَقِّ إِذَا رَمَى ،
وَيَعْمُ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ غَيْثُهُ مَهْمَا هَمَى ؛ مِنْ أَصَالَةِ الْأَعْرَاقِ ، وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ ؛
وَالْفَضْلِ الْبَاهِرِ الْإِشْرَاقِ ، وَالْجِهَادِ الَّذِي هُوَ سَمَرُ الرِّكْبِ وَحَدِيثُ الرَّفَاقِ ؛ وَأَنَّ قَوْمَهُ
الْمُلُوكَ الْكَرَامَ إِنْ قُوِّحُوا بِنَسَبٍ ذَكَرُوا سَعْدَ بَنِي عُبَادَةَ وَمَجْدَهُ ، أَوْ كُوِّثُوا بِعَدَدٍ غَلَبُوا
بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، أَوْ اسْتَنْصَرُوا فَزَجُّوا كُلَّ شِدَّةٍ ، وَاسْتَظْهَرُوا مِنْ [عِزِّهِمْ] ^(١) الْمَوْهُوبِ ،

وَصَبْرُهُمْ عَلَى الْخُطُوبِ ، بِكُلِّ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ، دَارَهُمُ النَّغْرُ الْأَقْصَى وَنِعْمَتِ الدَّارِ ،
وَشِعَارُهُمْ « لَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ » وَنِعَمَ الشَّعَارِ ؛ زُهَادٌ إِذَا ذُكِرَ الدِّينُ ، أَسْوَدٌ إِذَا حَمِيتِ
الْمَيَادِينُ ؛ جَبَالٌ إِذَا زَحَفَتِ الصُّفُوفُ ، بُدُورٌ إِذَا أَظْلَمَتِ الرُّجُوفُ ؛ غِيُوثٌ إِذَا
مُنِعَ الْمَعْرُوفُ ، أَفْرَادٌ إِذَا ذُكِرَتِ الْأُلُوفُ ؛ إِنْ بُوِيَعُوا فَلَمَّلَا كُتَّةً وَفُودٌ [وَحَمَلَةُ الْعِلْمِ ^(١)]
وَحَمَلَةُ السَّلَاحِ شُهُودٌ ؛ وَإِنْ وَلَدُوا فَالْسُّيُوفُ تَمَاءُ ، وَالسُّرُوحُ مُهُودٌ ، وَإِنْ أَفْخَرُوا
لِلْعُدُوِّ فَالظَّلَالُ بُنُودٌ ، وَجُنُودُ السَّبْعِ الطَّبَاقِ جُنُودٌ ، وَإِنْ أَظْلَمَ اللَّيْلُ أَسْهَرُوا جُفُونَهُمْ
فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْجُفُونُ رُقُودٌ .

وإِنَّ هَذَا الْقَطَرَ الَّذِي آتَيْتُ سَيْلَ الْفَتْحِ الْأَوَّلِ إِلَى نَاحِيَتِهِ ، وَأُجِيلَتْ قِدَاحُ
الْفُوزِ بِالْدَّعْوَةِ الْحَقِيقَةِ عَلَى الْأَفْطَارِ فَأَخَذَ الْإِسْلَامُ بِنَاصِيَتِهِ ؛ كَانَ مِنْ فَتْحِهِ الْأَوَّلِ
مَاقِدُ عِلْمٍ ، حَسَبَ مَاسْطَرٍّ وَرِسْمٍ ؛ وَإِنَّ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ وَفَتَاهُ ، حَلَّ مِنْ فُرْضَةٍ بِمَجَازِهِ
مَحَلَّ مُوسَى وَفَتَاهُ ؛ وَحَلَّ الْإِسْلَامُ مِنْهُ دَارَ قَرَارٍ ، وَخِطَّةً خَلِيقَةً بَارِثِيَادٍ وَأَخْتِيَارٍ ؛
وَبَلَدًا لَا يُحْصَى خَيْرُهُ ، وَلَا يَفْضُلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمِزْيَةِ مَاعِدَا الْحَرَمَيْنِ غَيْرُهُ ؛ وَأَمْتَدَّتْ
الْأَيَّامُ حَتَّى تَأْتِيَ الْعُدُوُّ لِرَوْعَتِهِ ، وَخَفَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ صَرَعَتِهِ ؛ وَقَدَحَ فَأَوْرَى ،
وَأَعْضَلَ دَاوُهُ وَأَسْتَشْرَى ، وَصَارَتِ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْكُبْرَى ؛ فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَمَدَ
الدِّينِ مِنْهُمْ بِالْعُمْدَةِ الْوَثِيقَةِ ، حُمَاةَ الْحَقِيقَةِ ، وَأُئِمَّةَ الْخَلِيقَةِ ، وَسُلَالَةَ مَفْتِيحِ الْيَمَامَةِ
وَمَفْتِيحِ الْحَدِيقَةِ ، لِأَجْهَازِ النَّصْلِ ، وَأَجْتُثٍّ مِنَ الدِّينِ الْفَرْعُ وَالْأَصْلُ ؛ لَكُنْهُمْ
أَتْتَدَبُّوا إِلَى إِمْسَاكِ الدِّينِ بِهَا أَتْتَدَابَا ، وَوَصَلُّوا لِلْإِسْلَامِ أَسْبَابَا ، وَتَنَاقَلَهَا مِنْهُمْ صَقْرُ
قَيْسِ الْخَزْرَجِ ، ذُو الْحُسَامِ الْمُضَرِّجِ ، وَالنَّاءِ الْمَوْجِّ ؛ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْغَالِبُ بِاللَّهِ مُحَمَّدُ
أَبْنِ يُوسُفَ بْنِ نَصْرٍ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمُسْتَدَبُّ لِإِقَامَةِ سُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، قُدُوةُ الْمُلُوكِ
الْمُجَاهِدِينَ : نَصَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَقَبَّلَ جِهَادَهُ ، وَشَكَرَ دِفَاعَهُ عَنْ حُوزَةِ الْإِسْلَامِ

[وَجَلَادَهُ ؛ فَاقْشَعَتِ الظُّلُمَةُ ، وَتَمَاسَكَتِ الْأُمَّةُ ؛ وَكَفَّ الْعَدُوُّ وَأَقْصَرَ ، وَرَأَى
 الْإِسْلَامُ بَيْنَ أَسْتَنْصَرٍ ، وَأَسْتَبْصَرَ فِي الطَّاعَةِ ^(١) مِنْ أَسْتَبْصَرَ ؛ وَهَبَّتْ بَنَصِرُ اللَّهِ
 الْعَزَائِمَ ، وَكَثُرَتْ عَلَى الْعَدُوِّ الْهَزَائِمُ ؛ وَتَوَارَتْ مُدَّكُمَا وَلَدًا عَنْ أَبٍ ، مُسْتَنْدِينَ
 إِلَى عَدْلٍ وَبَذَلٍ وَبَسَالَةٍ وَجَلَالَةٍ وَحَسَبٍ ؛ تَتَضَحَّى فِي أَفْقِ الْجَلَالِ نَجُومُ سِيرِهِمْ هَادِيَةً
 لِلسَّائِرِينَ ، وَتَفَرِّقُ مِنْ سَطَوَاتِهِمْ فِي اللَّهِ أَسْوَدُ الْعَرِينِ ؛ إِلَى أَنْ قَامَ بِالْأَمْرِ وَسْطَى
 سِلْكِهِمْ ، وَبَرَكَتُهُ مُلْكُهُمْ ؛ الْخَلِيفَةُ الْوَاجِبُ الطَّاعَةُ بِالْحَقِّ عَلَى الْخَلْقِ ، الشَّهِيرُ
 الْجَلَالَةِ وَالْبَسَالَةِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِوَاجِبِ الْحَقِّ ؛ سَاحِبُ أَذْيَالِ
 الْعَفَافِ وَالطَّهَارَةِ ، السَّعِيدُ الْإِيَالَةَ وَالْإِمَارَةَ ، الْبَعِيدُ الْغَارَةَ ؛ مَنْ دُعِيَ الْعَدُوُّ لِبَاسٍ
 حُسَامِهِ ، وَذُخِرَ الْفَتْحُ الْهَنِيءُ لِأَيَّامِهِ ؛ صَدْرُ الْمُلُوكِ الْمَجَاهِدِينَ ، وَكَبِيرُ الْخُلَفَاءِ الْعَادِلِينَ ،
 الْبَعِيدُ الْمَدَى فِي حِمَايَةِ الدِّينِ ؛ السَّعِيدُ الشَّهِيدُ ، أَبُو الْوَلِيدِ ، ابْنُ الْمُؤَلَّى الْهَامِ الْأَوْحَدِ ،
 الرَّفِيعُ الْمَجْدُ ؛ الظَّاهِرُ الظَّاهِرِ الْأَعْلَى ، الرَّئِيسُ الْكَبِيرُ الْجَلِيلُ الْمُقَدَّسُ الْأَرْضِي ؛
 « أَبِي سَعِيدٍ » بَنُ أَبِي الْوَلِيدِ ، بَنُ نَصْرٍ . فَاحْيَا رَحِمَهُ اللَّهُ مُعَالِمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ،
 وَجَلَّى بُنُورَ عَدْلِهِ غِيَاظَ الدُّجْنَةِ ؛ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَحَمَاهُ ، وَرَمَى ثَغْرَةَ الْكُفْرِ فَأُضْمَاهُ ؛
 قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ الطَّيِّبَ ، وَسَقَى لِحَدَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ الْغَمَامَ الصَّيِّبَ ؛ وَأَوْرَثَ الْمُلُوكَ
 الْجِهَادِيَّ مِنْ وَلَدِهِ خَيْرَ مَلِكٍ قُبِلَتْ مِنْهُ كَفِّ ، وَأَسْتَدَارَ بِهِ مَوَكِبُ الْجِهَادِ مُلْتَفٍّ ؛
 وَشَمَخَ بِخِدْمَتِهِ أَنْفَ ، وَسَمَّا إِلَى مَشَاهِدَتِهِ طَرْفَ ؛ وَتَأَرَّجَ مِنْ ذِكْرِهِ عَرَفَ ، وَجَرَى
 إِلَى بَابِهِ حَرْفَ ؛ مَوْلَانَا الْمَلِكُ الْهَامُ ، الْخَلِيفَةُ الْإِمَامُ ؛ مِنْ أَشْرَقَ بُنُورُ إِيَالَتِهِ الْإِسْلَامَ ،
 وَتَشَرَّفَتْ بِوُجُودِهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ؛ بِدُرِّ الْمُلُوكِ وَشَمْسِهِ ، وَسِرُّ الزَّمَانِ الَّذِي قَصُرَ عَنْ
 يَوْمِهِ أَمْسُهُ ؛ الَّذِي آشْتَهَرَ عَدْلُهُ ، وَبَهَرَفُضْلُهُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عِنَايَةُ رَبِّهِ ، وَكَانَ
 الْخُضُوعُ لَهُ فِي سَلْمِهِ وَحَرْبِهِ ؛ مَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ ، وَقُدُوءُ الْمُلُوكِ الْمَجَاهِدِينَ وَالْأُمَّةِ

(١) الزيادة عن ربحانة الكتاب لأبن الخطيب وهي لازمة لاستقامة الكلام .

العارفين ، السعيد ، الشهيد ، الطاهر ، الظاهر ، الأوحى الهمام ، الخليفة الإمام
(أبو المحجّاج) رفع الله درجته في أوليائه ، وحشّره مع الذين أنعم عليهم من أنبيائه
وشُهداءه ، فوضّحت المسالك وبانت ، وأشرقَت المعاهد وأزدانت ، وشَمِلَ الصُّنْعُ
الإلهيَّ واللطف الخفيّ أقطارَ هذه الأمة حيث كانت . ولما اختار الله له
ما عنده ، وبلغ الأمد الذي قدره سبحانه حياته وحده ، وقبضه إليه مستغفراً لذنبه ،
مطمئناً في الحالة التي أقرب ما يكون العبدُ فيها من ربّه ، كانما تأهب للشهادة
[فاختار] مكانها وزمانها ، وطهر بالصوم نفسه التي كرم الله شأنها ، وطيب روحها
وريحانها ، فوقعت آراء أرباب الشورى التي تصحّ الإمامة باتفاقها ، وتتقدّد بعقد
ميثاقها : من أعلام العلم بقاعدة [ملكه] غرناطة حرمها الله تعالى التي غيرها لها تبع ،
ومحاة الإسلام الذين في آرائهم للدين والدنيا منتفع ، وخُصان الثقات ، ووُجوه
الطبقات ، على مبايعة وارث ملكه بحقه ، الحائز في ميدان الكمال وإحراز مال الإمامة
من الشروط وإلّال خصل سبّقه ، كبير ولده ، وسابق أمده ، ووارث ملكه ،
ووسطى سلّكه ، وعماد قسطاطه ، وبدر الهالة من بساطه ، مولانا قمر العلّاء ، ودرة
الخلفاء ، وفرع الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، الذي ظهرت عليه مخايل
الملك ناشئاً ووليداً ، وأستشعرت الأقطار به وهو في المهد أماناً وتمهيداً ، وأستشرف
الدين الحنيف فأتلع جيداً ، وأستأنف شباباً جديداً ، ناصر الحق ، وغياث الخلق ،
الذي تميّز بالسكينة والوقار ، والحياء المنسدل الأستار ، والبسالة المرهوبة الشفار ،
والجود المنسكب الأمطار ، والعدل المشرق الأنوار ، وجمع الله فيه شروط الملك
والإختيار ، مولانا ، وعمدة ديننا ودُنيانا ، السلطان الفاضل ، والإمام العادل ، والهمام
الباسل ، الكريم الشامل ، شمس الملك وبدره ، وعين الزمان وصدره ، أمير المسلمين ،
وقرة أعين المؤمنين ، أبو عبد الله : وصل الله أسباب سعده ، كما حلّى أجياد

المنابر بالدعاء لمحبه؛ وجعل جنود السماء من جنده، ونصره بنصره العزيز فما النصر إلا من عنده؛ ورأوا أن قد ظفرت بالعروة الوثقى أيديهم، وأمن في ظل الله رايحهم وغاديتهم، ودلت على حسن الخواتم مباديتهم؛ فقتادروا وآثالوا، وتبخثوا في ملابس الأمن واختالوا؛ وهبوا إلى بيعته تطيرهم أجنحة السرور، ويعلن أنطلاق وجوههم بانسراح الصدور؛ واجتمع منهم طوائف الخاصة والجمهور:

ما بين الشريف والمشروف، والرؤساء أولى المنصب المعروف؛ وحمل العلم وحمل السيف، والأمناء ومن لديهم من الألوف، وسائر الكافة أولى البدار لمثلها والخفوف؛ ففقدوا له البيعة الوثيقة الأساس، السعيدة بفضل الله على الناس، البريء عهدتها من الارتباب والالتباس؛ الحائرة شروط الكمال، الماحية بنور البيان ظلم الإشكال؛ الضميمة حسن العقبي ونجح المال، على ما يوسع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن له من الصحابة والآل؛ وعلى السمع والطاعة، وملازمة السنة والجماعة؛ فأيديهم في السلم والحرب ردة ليد، وطاعتهم إليه خالصة في يومه وغده؛ وأهواؤهم متفقة في حالي الشدة والرخاء، وعقودهم محفوظة على تدارب السراء والضراء؛ أشهدوا عليها الله وكفى بالله شهيدا، وأعطوا صفقات أيمانهم تثبيتا للوفاء بها وتأكيذا، وجعلوا منها في أغناقهم ميثاقا وثيقا وعهدا شديدا؛ والله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. ومن أصدق من الله وعدا أو وعيدا. وهم قد بسطوا أيديهم يستزكون رحمة الله بالإخلاص والإتابة، وصرفوا وجوههم إلى من أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة؛ يسألونه خير ما يقضيه، والسير على ما يرضيه.

اللهم بآبك عند تقلب الأحوال عرّفنا، ومن بحر نعمك العميمة أغترفنا، وعفوك ستر من عيوبنا كل ما آجرتنا وأقترنا؛ ومن فضلك أغيتنا، وبعينك التي

لَا تَتَأَمَّ حُرْسَتَنَا وَحِمَّتَنَا [فَانْصُرْ حِينًا وَأَرْحَمَ مِيتَنَا] ^(١) وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ مَا أَوْلَيْتَنَا؛ وَأَجْعَلْ لَنَا الْخَيْرَ وَالْخَيْرَةَ فِيمَا إِلَيْهِ هَدَيْتَنَا .

اللَّهُمَّ إِنَّ قَطْرَنَا مِنْ مَادَّةِ الْإِسْلَامِ بَعِيدٌ ، وَقَدْ أَحْدَقَ بَنَا بِحَرْزٍ زَاخِرٍ وَعَدُوٌّ شَدِيدٌ ، وَفِينَا أَيْمٌ وَضْعِيفٌ وَهَرِمٌ وَوَلِيدٌ [وَأَنْتَ مَوْلَانَا وَنَحْنُ عِبِيدُ .

اللَّهُمَّ مَنْ بَايَعْنَا فِي هَذَا الْعَقْدِ ^(١) فَاسْعِدْنَا بِمُبَايَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَكَنْ لَهُ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِنَفْسِهِ بَعْدَ اسْتِنْفَادِ جُهِدِهِ فِي التَّحْقِظِ وَاسْتِطَاعَتِهِ ؛ وَكُفِّ عَنْهُ كَفٌّ عَدُوِّكَ وَعَدُوَّهُ كُلُّمَا هَبَّتْ بِهِ رِيَّاحُ طَمَاعَتِهِ ؛ يَا مَنْ يُفَرِّدُ الْعَبْدَ بِضِرَاعَتِهِ ، وَيُعَوِّذُ بِحِفْظِهِ مِنْ إِضَاعَتِهِ .

اللَّهُمَّ أَدْعِنَا حَقَّهِ فَإِنَّا لَا نَقْوَى عَلَى إِدَائِهِ ، وَتَوَلَّ عَنَّا شُكْرَ مَا حَمَدَنَاهُ مِنْ سِيرَتِهِ وَسِيرَةِ آبَائِهِ ، وَأَحِلِّهِ مِنْ تَوْفِيقِكَ عَلَى سَوَائِهِ .

اللَّهُمَّ إِنَّا إِلَيْهِ نَاطِرُونَ ، وَعَنْ أَمْرِهِ صَادِرُونَ ، وَلَا نَجَازُ وَعْدَكَ فِي نَصْرٍ مِنْ يَنْصُرُكَ مَتَظَرُّونَ ؛ فَاعِنِهِ عَلَى مَاقَلَدَتِهِ ، وَأُنْجِزْ لَدِينَنَا عَلَى يَدَيْهِ مَا وَعَدْتَهُ ؛ فَمَا فَقَدَ شَيْئًا مِنْ وَجَدِكَ ، وَلَا خَابَ مِنْ قَصْدِكَ ، وَلَا ضَلَّ مِنْ اعْتِمَادِكَ ، آمِينَ آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

وَكُتِبَ الْمَلَأُ الْمَذْكُورُونَ أَسْمَاءَهُمْ بِخُطُوطِ أَيْدِيهِمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، شَاهِدَةً عَلَيْهِمْ بِمَا آلَتَرَمَوْهُ دُنْيَا وَدِينًا ، وَسَلَكُوا [مِنْهُ] سَبِيلًا مُبِينًا ؛ وَذَلِكَ فِي الثَّانِي وَالْعَشْرِينَ لَشَوَّالٍ مِنْ عَامِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

قلت : وقد أخبر آخر هذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تُؤْخَذُ خُطُوطُ أَيْدِيهِمْ فِي كِتَابِ الْبَيْعَةِ شَاهِدَةً عَلَيْهِمْ بِمَا بَايَعُوا عَلَيْهِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ كِتَابَةَ الْبَيْعَةِ عَنْدهُمْ كَمَا فِي مَكَاتِبَتِهِمْ فِي طُومَارٍ وَاحِدٍ كَبِيرٍ مُتَضَائِقٍ السُّطُورِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ طَرَّةٌ بِأَعْلَاهُ كَمَا فِي كِتَابَةِ الْمَصْرِيِّينَ .

الباب الثالث

من المقالة الخامسة في العهود، وفيه فصلان

الفصل الأول

(في معنى العهد)

العهد لفظ مشترك يقع في اللغة على ستة معانٍ :

أحدها — الأمان . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثاني — اليمين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث — الحفاظ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : ” حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ “ .

الرابع — الذمة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ” لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ “ .

الخامس — الزمان . ومنه قولهم : ” كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ عَهْدِ فُلَانٍ “ .

السادس — الوصية . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجوهري : ومنه اشتق العهد الذي يُكْتَبُ لِلْوَلَاةِ ^(١) .

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولهم سابع» وهو قولهم في الدعاء لللك بعد موته : سقى الله عهده

برحمته أى مكانه المدفون فيه يسقى بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان .

الفصل الثاني

(في بيان أنواع العهود ، وهي ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(عهودُ الخلفاء عن الخلفاء ، ويتعلق النظر به من ثمانية أوجه)

الوجه الأول

(في أصل مشروعيتها)

والأصل في ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه قيل لعمر عند موته "ألا تعهد؟" فقال : ألتحمل أمركم حياً وميتاً؟ إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، [يعني أبا بكر] : وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأثبت استخلاف أبي بكر رضي الله عنه بذلك ، مشيراً إلى ما روى : "أنه لما أشتد بأبي بكر الصديق رضي الله عنه الوجع ، أرسل إلى علي وعثمان ورجال من المهاجرين والأنصار ، فقال : قد حصر ما ترون ، ولا بد من قائم بأمركم ، فإن شئتم استخرتهم لأنفسكم ، وإن شئتم استخرت لكم . قالوا : بن اختر لنا ، فأمر عثمان فكتب عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (على ماسياتي ذكره) فقال عمر : لا أطيق القيام بأمر الناس . فقال أبو بكر هاتوا سيفي ! وتهده فانقاد عمر ، ثم دخل عليه طلحة فعاتبه على استخلاف عمر . فقال : إن عمر والله خير لكم وأنتم شر له ، والله لو وليتكم لجلعت أنفك في فقاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها . أتيتي وقد وكفت عينك ، تريد أن تفتني عن ديني

وَتَرَدَّنِي عَنْ رَأْيِي ، قُمْ لَا أَقَامَ اللَّهُ رَجْلَكَ ، وَاللَّهِ لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ عَمَّصْتَهُ وَذَكَرْتَهُ بِسُوءٍ
لِلْأَلْحِقَنِكَ بِمَحْضَاتِ قُنَّةٍ حَيْثُ كُنْتُمْ تُسَبِّحُونَ وَلَا تَرَوُونَ ، وَتَرَعُونَ وَلَا تَسْبَعُونَ ، وَأَنْتُمْ
بِذَلِكَ يَجْحُونَ رَاضُونَ ، فَقَامَ طَالِحَةُ نُفْرَجَ .

قال العسكري : المحَضَّات جمع مَحْضَةٍ ضَرَبٌ مِنَ التَّبَتِّ ، وَالْقُنَّةُ أَعْلَى الْجَبَلِ .

قال الماوردي : وَكَانَ اسْتِخْلَافُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عُمَرَ بِاتِّفَاقٍ مِنَ الصَّحَابَةِ
مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ فَكَانَ إِجْمَاعًا .

وَقَدْ عَهَدَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى سِتَّةٍ ، وَهُمْ عُمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَالِحَةُ ، وَالزُّبَيْرُ ،
وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَتَرَكَهَا سُورِيَّ بَيْنَهُمْ ، فَدَخَلُوا فِيهَا
وَهُمْ أَعْيَانُ الْعَصْرِ وَأَشْرَافُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

الوجه الثاني

(فِي مَعْنَى الْإِسْتِخْلَافِ)

قَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ " التَّهْذِيبُ " فِي الْفَقْهِ : الْإِسْتِخْلَافُ أَنْ يُجْعَلَ
خَلِيفَةً فِي حَيَاتِهِ ثُمَّ يُخْلَفُهُ بَعْدَهُ . قَالَ : وَلَوْ أَوْصَى بِالْإِمَامَةِ فَوْجَهَانِ^(١) : لِأَنَّهُ يُخْرَجُ
بِالْمَوْتِ عَنِ الْوِلَايَةِ فَلَا يَصِحُّ مِنْهُ تَوَلِيَةُ الْغَيْرِ . وَاسْتَشْكَلَ الرَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا
التَّوْجِيهَ بِكُلِّ وَصِيَّةٍ ، وَبَأَنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ جَعْلِهِ خَلِيفَةً بَعْدَهُ : إِنْ أُريدَ بِهِ اسْتِنَابَتُهُ
فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ عَهْدًا إِلَيْهِ بِالْإِمَامَةِ . وَإِنْ أُريدَ جَعْلُهُ إِمَامًا فِي الْحَالِ ، فَهُوَ :
إِمَامًا خَلَعَ نَفْسَ الْعَاهِدِ ، وَإِمَامًا اجْتَمَعَ إِمَامِينَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ . وَإِنْ أُريدَ جَعْلُهُ خَلِيفَةً
أَوْ إِمَامًا بَعْدَ مَوْتِهِ فَهُوَ الْوَصِيَّةُ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ .

(١) أَيْ وَأَحْمَهُمَا عَنْدَهُ عَدَمُ الْجَوَازِ . بِدَلِيلِ التَّعْلِيلِ .

قلت : وهذا جُنوحٌ من الرافعي رحمه الله إلى صِحَّةِ الخلافة بالوصية أيضا ،
(١) كما تصح بالإسنيخلاف .

الوجه الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته)

وأعلم أنه يجب على الكاتب أن يرعى في كتابة العهد بالخلافة أموراً :

منها — براءة الاستهلال بذكر ما يتفق له : من معنى الخلافة والإمامة وأشتقاقيهما ، وحال الولاية ، ولقب العاهد والمعهود إليه ، ولقب الخلافة ، إلى غير ذلك مما سبق بيانه في الكلام على البيعات .

ومنها — أن ينبّه على شرف رتبة الخلافة ، وعُلُو قدرها ، ورفع شأنها ، ومسيس الحاجة إلى الإمام ، ودعاية الضرورة إليه ، ونحو ذلك مما سبق في البيعات أيضا .

ومنها — أن ينبّه على اجتماع شروط الإمامة في المعهود إليه من حين صدور العهد بها من العاهد ، فقد قال الماوردي : إنه تُعتبر شروط الإمامة في المعهود إليه من وقت العهد ، حتى لو كان المعهود إليه صغيراً أو فاسقاً وقت العهد وبالغا [عدلاً] عند الموت ، لم تصح خلافته حتى يستأنف أهل الاختيار بيعته . قال الرافعي رحمه الله : وقد يتوقف في هذا . قال النووي رحمه الله في "الروضة" : لاتوقف . والصواب ما قاله الماوردي .

ومنها — أن ينبّه على اجتهاد العاهد وتروى نظره في حقبة المعهود إليه : فقد قال الماوردي : وإذا أراد الإمام أن يعهد بالإمامة ، فعليه أن يجهد رأيه في الأحق بها ، والأقوم بشروطها ، فإذا تعين له الاجتهاد في أحد ، عهد إليه .

(١) في الأصول كما لا تصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من النسخ تأمل .

ومنها — أن يُشِير إلى تقدُّم الاستخارة على العهد ، وأنَّ استخارته أدته إلى المعهود إليه ؛ فإنَّ الاستخارة أمرٌ مطلوب في كل أمر ، خصوصاً أمر المسلمين وعموم الولاية عليهم ، فإنَّ اختيار الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفسهم ، والله يقول الحق وهو يهْدِي السَّبِيل .

ومنها — أن يَنْبَ على أنْ عهدَ إليه بعد مشورة أهل الاختيار ومراجعتهم في ذلك ، وتصويبهم له ، خروجاً من الخلاف . فقد حكى الرافعي رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهود إليه أجنبياً من العاهد ليس بولد ولا والد : هل يجوز أن ينفرد بعقد البيعة له وتفويض العهد إليه ولا يستشير فيه أحداً؟ أصحُّهما الجواز : لأنَّ العهد إلى عمر رضى الله عنه لم يُوقَف على رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنَّ الإمام أحقُّ بها ، فكان اختياره فيها أمضى ، وقوله فيها أنفذ .

وحكى الماوردي في جواز أفراد العاهد بالبيعة فيما إذا كان المعهود إليه والداً أو ولداً ثلاثة مذاهب :

أحدها — ما اقتصر الرافعي رحمه الله على نسبته إلى الماوردي ، ومقتضى كلامه ترجيحه : أنه يجوز الانفراد بعقدها للولد والوالد جميعاً : لأنه أمير للأمة نافذ الأمر لهم وعليهم ؛ فغلب حكم المنصب على حكم النسب ؛ ولم يجعل للثمة طريقاً على أمانته ، ولا سبيلاً إلى معارضته .

والثاني — أنه لا يجوز انفراذه بها لولد ولا والد حتى يُساوَر فيه أهل الاختيار فيرونه أهلاً لها ، فيصح منه حينئذ عقد البيعة : لأن ذلك [منه] تركية [له] تجرى مجرى الشهادة ، وتقليده على الأمة يجري مجرى الحكم ؛ والشهادة والحكم ممنعان من الولد والوالد للثمة ، لما جُبل عليه من الميل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أن ينفرد بعقد البيعة لوالده دون ولده : لأن الطبع إلى الولد أميل ؛ فأما عقدُها لأخيه وغيره من الأقارب والمناسيين فكمقدها للأجانب في جواز الانفرد بها .

ومنها — أن يَبَّه على العلم بحياة المعهود إليه ووجوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردي : إنه لو عهد إلى غائب مجهول الحياة لم يصحَّ عهده ، وإن كان معلوم الحياة صح ، ويكون موقوفا على قدومه .

ومنها — أن يَبَّه على أن المعهود إليه منصوص عليه بمفرده ، أو وقع العهد شورى في جماعة وأفضت الخلافة إلى واحد منهم بإخراج الباقيين أنفسهم منها ، أو اختيار أهل الحل والعقد أحدهم : إذ يجوز للخليفة أن يعهد إلى اثنين فأكثر من غير تقديم البعض على البعض ؛ ويختار أهل الاختيار بعد موته واحداً من عهد إليه : فإنَّ عمر ابن الخطاب رضى الله عنه جعلها شورى في ستة ، فقال : الأمر إلى علي وبازائه الزبير بن العوام ؛ وإلى عثمان وبازائه عبد الرحمن بن عوف ؛ وإلى طلحة وبازائه سعد بن أبي وقاص . فلما توفى عمر رضى الله عنه ، جعل الزبير أمره إلى علي ، وجعل طلحة أمره إلى عثمان ، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف ؛ فخرج منها ثلاثة ، وبقيت شورى في عثمان وعلي ؛ ثم بايع علي عثمان . والمعنى في الشورى أنه لا يجوز أن يجعل الإمامة بعد العاهد في غير المعهود إليهم .

ومنها — أن يَبَّه على عدد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد رتب الخلافة في أكثر من واحد ، إذ يجوز أن يعهد إلى اثنين فأكثر على الترتيب . فلورتب

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفي كتاب الأحكام السلطانية للماوردي فصارت الشورى بعد الستة في هؤلاء الثلاثة ونرج منها أولئك الثلاثة ثم بعد الثلاثة في اثنين علي وعثمان .

الخِلافةَ في ثلاثة مثلاً - فقال : الخليفةُ بعدى فلان ، فإذا مات ، فالخليفةُ بعده فلان ؛
 [فإذا مات فالخليفةُ بعده فلان] ^(١) كانت الخِلافةُ منتقلةً إليهم على ما رتبها . ففي صحيح
 البخارى من رواية ابنِ عمر رضى الله عنهما ” أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 اسْتَخْلَفَ عَلَى جَيْشِ مُؤَتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ - وقال : إِنْ أَصِيبَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ،
 فَإِنْ أَصِيبَ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَإِنْ أَصِيبَ فَلَيْرِثُ الْمَسْلُومُونَ رُجُلًا ، فَتَقْدَمُ زَيْدٌ
 فَتُقْتَلُ ، فَتَأْخُذُ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ وَتَقْدَمُ فَتُقْتَلُ ، فَتَأْخُذُ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَتَقْدَمُ فَتُقْتَلُ ،
 فَتَأْخُذُ الْمَسْلُومُونَ بَعْدَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ” . قال الماوردى : وإذا جاز ذلك
 في الإمارة جاز مثله في الخِلافة . قال : وقد عَمِلَ بِذَلِكَ في الدولتين مَنْ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ
 أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَصْرِ :

فعهد سليمانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى يَزِيدَ بْنِ
 عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَأَقْرَهُ عَلَيْهِ مَنْ عَاصَرَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَمَنْ لَانْأَخَذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَانِمَ .
 وَرَتَّبَهَا الرَّشِيدُ فِي ثَلَاثَةٍ مِنْ بَنِيهِ : الْأَمِينِ ، ثُمَّ الْمَأْمُونِ ، ثُمَّ الْمُؤْتَمَنِ ، مِنْ غَيْرِ
 مَشُورَةٍ مِنْ عَاصِرِهِ مِنْ فَضْلَاءِ الْعُلَمَاءِ . ^(٢)

ولو قال العاهد : عَهِدْتُ إِلَى فُلَانٍ ، فَإِنْ مَاتَ فُلَانٌ بَعْدَ إِفْضَاءِ الْخِلافةِ إِلَيْهِ ،
 فَالْخليفةُ بَعْدَهُ فُلَانٌ ، لَمْ تَصَحَّ خِلافةُ الثَّانِي ، وَلَمْ يَنْعَقِدْ عَهْدُهَا : لِأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْ إِلَيْهِ
 فِي الْحَالِ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ وَلِيًّا عَهْدِهِ بَعْدَ إِفْضَاءِ الْخِلافةِ إِلَى الْأَوَّلِ ، وَقَدْ يَمُوتُ قَبْلَ
 إِفْضَائِهَا إِلَيْهِ فَلَا يَكُونُ عَهْدُ الثَّانِي بِهَا مُنْبَرِماً .

ومنها — أَنَّ يُنْبَهَ عَلَى أَنَّ صُدُورَ الْعَهْدِ فِي حَالِ نُفُوذِ أَمْرِ الْعَاهِدِ وَجَوَازِ تَصَرُّفِهِ ،
 فَإِنَّهُ لَوْ أَرَادَ وَلِيُّ الْعَهْدِ قَبْلَ مَوْتِ الْعَاهِدِ أَنْ يُرَدَّ مَا إِلَيْهِ مِنْ وَلَايَةِ الْعَهْدِ إِلَى غَيْرِهِ

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) في ” الأحكام السلطانية ” عن مشورة الخ حرر .

لم يُجْزَ : لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعد موت المستخلف . وكذا لو قال : جعلته ولىَّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىَّ لم يُجْزَ : لأنه ليس في الحال بخليفة ، فلم يصحَّ عهده بالخلافة .

ومنها — أن يُنبه على قبول المعهود إليه العهدَ ، فإنه إذا عهد الإمام بالخلافة إلى مَنْ يصحُّ العهدُ إليه على الشروط المعتبرة فيه ، كان العهدُ موقوفاً على قبول المعهود إليه : فإن قبل صحَّ العهدُ وإلا فلا ، حتى لو امتنع من القبول ببيع غيره . والعبرة في زمن القبول بما بين عهد العاهد وموته على الأصح ، لتنتقل عنه الإمامة إلى المعهود إليه مستقرةً بالقبول المتقدم . وقيل : إنما يكون القبول بعد موت العاهد : لأنه الوقت الذي يصحُّ فيه نظر المعهود إليه .

ومنها — أن يُورد من وصايا العاهد للمعهود إليه ما يليق به . وقد ذكر الماوردي أن الذي يلزمه من أمور الأئمة عشرة أشياء :

أحدها — حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأئمة ، وأنه إن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه ، أوضح له الحجّة ، ويبيّن له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود : ليكون الدين محروساً من الخلل ، والأئمة ممنوعة من الزلل .

الثاني — تنفيذ الأحكام ، بين المتشاجرين ، وقطع الخصام ، بين المتنازعين ، حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

الثالث — حماية البيضة ، والدّب عن الحرّم : ليتصرّف الناس في المعاش ، وينتشرُوا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

الرابع — إقامة الحدود لتُصان محارمُ الله تعالى عن الإِتهام ، وتُحفظ حقوقُ عباده من الإِتلاف والاستهلاك .

الخامس — تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا يظفر الأعداءُ بغيرَةٍ ينتهكون بها محرماً ، أو يسفكون فيها لمسلمٍ أو معاهدٍ دماً .

السادس — جهادٌ من عائد الإسلام بعد الدعوة حتى يُسلم أو يدخل في الذمة : ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله .

السابع — جبايةُ الفِئء والصَّدقاتِ على ما أوجبه الشرعُ نصّاً واجتهاداً من غيرِ حيف ولا عسف .

الثامن — تقدير العطاء وما يُستحقُّ في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، ودفعه في وقت لا تقدّم فيه ولا تأخّر .

التاسع — استكفاءُ الأمناء ، وتقليدُ النُصحاء ، فيما يفوضه [إليهم من الأعمال]^(٢) ويكلّه إليهم من الأموال : لتكون الأعمالُ بالكفاة مضبوطة ، والأموالُ بالأمناء محفوظة .

العاشر — أن يُباشِر بنفسه مُشارقةُ الأمور وتصفّح الأحوال : لينهضَ بسياسة الأمة ، وحراسة الملة ؛ ولا يُعَوّل على التفويض تشاغلاً بلذّة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغشّ الناصح . وقد قال تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . فلم يقتصر الله

(١) يطلق الفى على النية والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

تعالى على التفويض دون المباشرة ، بل أمره بمباشرة الحكم بين الخلق بنفسه .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : ” كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ “ ولله درُّ
محمد بن يزيد وزير المأمون ، حيث قال مخاطباً له :

مَنْ كَانَ حَارِسَ دُنْيَا إِنَّهُ قَنْ * أَنْ لَا يَنَامَ وَكُلَّ النَّاسِ تُؤَامُ !

وَكَيْفَ تَرْقُدُ عَيْنَا مَنْ تَضَيِّفُهُ * هَمَّانِ مِنْ أَمْرِهِ : حَلٌّ وَإِبْرَامُ !

وحينئذ فيجب على الكاتب أن يضمّن هذه الأمور العشرة في وصايا المعهود إليه . وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في ” التعريف “ في وصية ولي العهد بالخلافة ومن في معناه من الملوك وولاة عهدهم هذه الأمور ممتزجة بأمور أخرى من مهمات الملك وحسن تديره وسياسته .

قلت : إنما يحسن إيراد هذا كله في وصايا ولاة العهد إذا كان الأمر على ما كانت الخلافة عليه أولاً من عموم التصرف ، أما الآن فالواجب أن يقتصر في وصاياهم على حسن التأني في العهد بالسلطنة لمن يقوم بأعبائها ، وأن يكون ماتقدّم مختصاً بوصايا الملوك في المعهود عن الخلفاء .

الوجه الرابع

(فيما يكتب في الطرة ، وهو تلخيص ما يتضمنه العهد)

وهذه نسخة طرة أنشأتها لينسج على منوالها ، وهي :

هذا عهد إمامي قد علّت جدوده ، وزاد في الارتقاء في العلياء صعوده ، وفصلت
بالجواهر قلائده ونظمت بنفيس الدرّ عقوده . من عبد الله ووليه الإمام المتوكل

على الله أبى عبد الله محمد بن الإمام المعتضد بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدسة، لولده السيد الجليل ذخيرة الدين، وولى عهد المسلمين، أبى الفضل العباس : بلغه الله فيه غاية الأمل ، وأقر به عين الأمة كما أقر به عين أمير المؤمنين وقد فعل على ما شرح فيه .

الوجه الخامس

(فيما يكتب لأولياء العهد من الألقاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانية من المذهب الأول مما يكتب فى متن العهد من كلام المقر الشهابى بن فضل الله فى " التعريف " أنه يقال فيه : الأمير السيد الجليل ، ذخيرة الدين ، وولى عهد المسلمين ، أبى فلان فلان . وفى المذهب الثالث فيما كتب به للمستوفى بن المستفى ما يوافق ، وقد تقدم أنه لا يقع فى ألقابهم إطناب ، ولا تعدد ألقاب ، فليقتصر على ذلك أو ما يشابهه .

الوجه السادس

(فيما يكتب فى متن العهد ، وفيه ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول

(أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ « هذا »)

مثل : « هذا ماعهد به فلان لفلان » أو « هذا عهد من فلان لفلان » أو « هذا كتاب آكتبه فلان لفلان » ونحو ذلك .

وللكتاب فيه طريقتان :

الطريقة الأولى

(طريقة المتقدمين)

وهي أن لا يأتي بحُطبة في أثناء العهد ، ولا يتعرّض إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه ، أو يتعرّض لذلك باختصار ؛ ثم يأتي بالوصايا ؛ ثم يختتمه بالسلام أو بالدعاء أو بغير ذلك مما يناسب . وعلى ذلك كانت جهود السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، أتباعاً للصديق رضى الله عنه فيما كتب به لعمر بن الخطاب ، كما تقدمت الإشارة إليه في الاستشهاد .

ونسخته فيما رواه البيهقي في " السنن " وأقتصر عليه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في " حسن التوسل " .

« هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدل فذلك ظني به ، وإن بدل أو غير فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت بكم ، ولكل أمرئ ما آكتسب من الإثم : (وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون) » .

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه " الأوائل " عن المدائني أنه حين دعا عثمان ابن عفان رضى الله عنه لكتابة العهد بالخلافة بعده قال : آكتب « هذا ما عهد أبو بكر بن أبي حنيفة في آخر عهده بالدنيا [نازحاً عنها] وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يتوب الفاجر ، ويؤمن الكافر ، ويصدق الكاذب ؛ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد استخلف » - ثم دهمته غشية فكتب عثمان : « عمر بن الخطاب » . فلما أفاق ، قال : أكتبته شيئاً ؟ قال نعم عمر

ابن الخطاب . قال : « رَحِمَكِ اللَّهُ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ كَذَبْتَ نَفْسَكَ لَكُنْتَ أَهْلًا لَهَا ، أَكْتُبُ قَدْ اسْتَخْلَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَرَضِيهِ لَكُمْ ، فَإِنْ عَدَلَ فَذَلِكَ ظَنِّي بِهِ وَرَأْيِي فِيهِ ، وَإِنْ بَدَلَ فَلِكُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ ، وَالْخَيْرُ أَرَدْتُ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ : (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) » .

وعلى هذه الطريقة كُتِبَ عَهْدُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالْخُلَافَةِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
وهذه نسخته فيما ذكره أَبُو قَتَيْبَةَ فِي تَارِيخِ الْخُلَفَاءِ :

هَذَا مَا عَهِدَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ .
عَهِدْتُ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ ؛ وَأَنْ مَجِّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَعَثَهُ إِلَيَّ مُحْسِنِي عِبَادِهِ بِشِيرَا ، وَإِلَى مُذْنِبِيهِمْ نَذِيرَا . وَأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ حَقًّا : خَلَقَ الْجَنَّةَ رَحْمَةً وَجَزَاءً لِمَنْ أَطَاعَهُ ، وَالنَّارَ نِقْمَةً وَجَزَاءً لِمَنْ عَصَاهُ ؛ وَأَوْجَبَ الْعَفْوَ جُودًا وَكَرَمًا لِمَنْ عَفَا عَنْهُ . وَأَنَّ سُلَيْمَانَ مُقَرَّرٌ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَبِمَا تَعَلَّمَهُ نَفْسُهُ مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ ؛ مُوجِبًا عَلَى نَفْسِهِ اسْتِحْقَاقَ مَا خَلَقَ مِنَ النِّقْمَةِ ، رَاجِيًا لِنَفْسِهِ مَا خَلَقَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَوَعْدَ مِنَ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ ، وَأَنَّ الْمَقَادِيرَ كُلَّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا مَقْدُورَةٌ بِإِرَادَتِهِ ، مَكُونَةٌ بِتَكْوِينِهِ ؛ وَأَنَّهُ الْهَادِي فَلَا مُغْوِيٍّ وَلَا مُضِلٍّ لِمَنْ هَدَاهُ وَخَلَقَهُ لِرَحْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ يُفَتِّنُ الْمَيِّتَ فِي قَبْرِهِ بِالسُّؤَالِ عَنْ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى أُمَّتِهِ ، لَا مُنْجِيَ لِمَنْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَّا لِمَنْ اسْتَشْنَاهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِلْمِهِ . وَسُلَيْمَانُ يُسْأَلُ اللَّهُ الْكَرِيمَ : وَاسِعَ فَضْلِهِ ، وَعَظِيمَ مَنِّهِ ، الثَّبَاتَ عَلَى مَا سَرَّ وَأَعْلَنَ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِّهِ وَحَقِّ نَبِيِّهِ عِنْدَ

(١) كذا في الأصول بالنصب وكذلك وقع في كتاب الإمامة والسياسة لأبْنِ قَتَيْبَةَ .

(٢) في كتاب الإمامة والسياسة لأبْنِ قَتَيْبَةَ « خَيْرُهَا وَشَرُّهَا مِنْ اللَّهِ وَأَنَّهُ هُوَ الْهَادِي وَالْمُغْوِي » .

مَسْأَلَةُ رُسُلِهِ ؛ وَالنَّجَاةَ مِنْ هَوْلِ فِتْنَةٍ قَتَانِيَةٍ . وَيَشْهَدُ أَنَّ الْمِيزَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقٌّ يَقِينٌ ، يَزِنُ سِيِّئَاتِ الْمُسِيئِينَ ، وَحَسَنَاتِ الْمُحْسِنِينَ : لِيُرَى عِبَادَهُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ ، مَا أَرَادَهُ مِنْ [الْخَيْرِ] لِعِبَادِهِ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ؛ وَأَنَّ مِنْ ثَقَلَتِ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَئِذٍ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنَّ حَوْضَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالْمَوْقِفِ لِلْعَرْضِ حَقٌّ ، وَأَنَّ عِدَدَ آيَاتِهِ كُنُجُومِ السَّمَاءِ ، مِنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، وَسَلِيمَانَ يَسْأَلُ اللَّهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ أَنْ لَا يُرَدَّهُ عَنْ حَوْضِ نَبِيِّهِ عَطْشَانٌ . وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّنَا ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ بَعْدَهُمَا حَيْثُ الْخَيْرُ وَفِيمَنْ الْخَيْرُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَأَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةُ كُلُّهَا الْمَذْكُورَةُ فِي عَهْدِهِ هَذَا يَعْلَمُهَا اللَّهُ مِنْ سِرِّهِ وَإِعْلَانِهِ وَعَقْدِ ضَمِيرِهِ ، وَأَنَّهُ بِهَا عَبْدٌ رَبِّهِ فِي سَالِفِ أَيَّامِهِ وَمَاضِي عُمْرِهِ ، وَعَلَيْهَا أَمَّا يَقِينُ رَبِّهِ ، وَتَوْفَاقُهُ أَجَلُهُ ، وَعَلَيْهَا يُبْعَثُ بَعْدَ مَوْتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَأَنَّ سَلِيمَانَ كَانَتْ لَهُ بَيْنَ هَذِهِ الشَّهَادَةِ بَلَايَا وَسِيَّئَاتٌ ^(١) لَمْ يَكُنْ لَهُ عَنْهَا تَحِييدٌ وَلَا بَدَلٌ ، جَرَى بِهَا الْمَقْدُورُ مِنَ الرَّبِّ النَّافِذُ إِلَى إِتِمَامِ مَا حَدَّثَ ؛ فَإِنْ يَعُفُ وَيَصْفَحُ فَذَاكَ مَا عُرِفَ مِنْهُ قَدِيمًا وَنُسِبَ إِلَيْهِ حَدِيثًا ، وَتِلْكَ صِفَتُهُ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ ، وَكَلَامِهِ النَّاطِقِ ؛ وَإِنْ يُعَاقَبُ وَيَذَقُّ فَمَا قَدِمَتْ يَدَاهُ ، وَمَا اللَّهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . وَأَنَّ سَلِيمَانَ يُخْرِجُ عَلَى مَنْ قَرَأَ عَهْدَهُ هَذَا وَسَمِعَ مَا فِيهِ مِنْ حِكْمَةٍ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَمُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ؛ وَأَنْ يَدَعَ الْإِحْنَ الْمُضْغَنَةَ ، وَيَأْخُذَ بِالْمَكَارِمِ الْمُدْجَنَةِ ؛ وَيَرْفَعَ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ بِالضَّمِيرِ النَّصُوحِ وَالْإِدْعَاءِ الصَّحِيحِ ، وَالصَّفْحِ الصَّرِيحِ ؛ يَسْأَلُهُ الْعَفْوَ عَنِّي ، وَالْمَغْفِرَةَ لِي ، وَالنَّجَاةَ مِنْ فَرَعِي وَالْمَسْأَلَةَ فِي قَبْرِي ، لَعَلَّ الْوُدُودَ ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْكُمْ مُجَابَ الدَّعْوَةِ بِمَا مِنْ اللَّهِ عَلَيَّ

(١) فِي كِتَابِ الْإِمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ « لَمْ يَكُنْ لَهُ عَنْهَا تَحِييدٌ وَلَا دُونَهَا مَقْصَرٌ بِالْقَدْرِ السَّابِقِ وَالْعِلْمِ النَّافِذِ فِي مُحْكَمِ الْوَحْيِ فَانْ يَعُفُ » الخ .

من صفحه يعود؛ إن شاء الله. وأنّ وليّ عهد سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، وصاحب أمره بعد موته، في جُنده ورعيته وخاصته وعامته؛ وكلّ من استخلفني الله عليه، واسترعاي النظر فيه، الرجل الصالح «عمر بن عبد العزيز» بن مروان ابن عمي، لما بلّوت من باطن أمره وظاهره، ورجوت الله بذلك [وأردت] رضاه ورحمته إن شاء الله. ثم من بعده تُسلم إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان إن بقي بعده، فإنّي مارأيت منه إلّا خيرا ولا أطلعت له على مكروه. وصغار ولدي و كبارهم إلى عمر، إذ رجوت أن لا يألوهم رشدا وصلاحا؛ والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين؛ وأقرءوا عهدي عليكم السلام ورحمة الله، ومن أبي أمرى هذا أو خالف عهدي هذا - وأرجو أن لا يخالفه أحد من أمة محمد - فهو ضالّ مضلّ يُستعَب؛ فإنّ أعتَب وإلّا فإنّي لمن صاحب^(١) (?) عهدي فيهم بالسيف والقتل القتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيته ملقحون، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان.

تم ذلك والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله.



وعلى نحو من ذلك كتب المأمون العباسيُّ عهدَ عليّ بن موسى العلويّ (المعروف بالرّضيّ) بالخلافة بعده .

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العقّد :

هذا كتاب كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين بيده، لعلّ بن موسى بن جعفر وليّ عهده .

(١) في كتاب الامامة والسياسة « والا فالسيف والله المستعان » وهي واضحة .

أما بعد، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ دِينًا، وَأَصْطَفَى لَهُ مِنْ عِبَادِهِ رُسُلًا دَالِّينَ عَلَيْهِ، وَهَادِينَ إِلَيْهِ، يَبَشِّرُ أَوْلَهُمْ بِأَحْرِهِمْ، وَيَصَدِّقُ تَالِيَهُمْ بِمَاضِيهِمْ؛ حَتَّى أَتَتْهُ نَبُوءَةُ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَدُرُوسٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَنْقِطَاعِ مِنَ الْوَحْيِ، وَأَقْتِرَابٍ مِنَ السَّاعَةِ؛ نَخْتُمُ اللَّهُ بِهِ النَّبِيِّينَ وَجَعَلَهُ شَاهِدًا لَهُمْ، وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِمْ؛ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. فَأَحَلَّ وَحَرَّمَ، وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ؛ وَحَدَّرَ وَأَنْذَرَ، وَأَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ: لَتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فَبَلَغَ عَنْ اللَّهِ رِسَالَتَهُ، وَدَعَا إِلَى سَبِيلِهِ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْمُجَادَلَةِ بِالنِّبَاتِ هِيَ أَحْسَنُ، ثُمَّ بِالْجِهَادِ وَالْغِلْظَةِ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا أَنْقَضَتِ النَّبُوءَةُ وَخَتَمَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيَ وَالرِّسَالَاتِ، جَعَلَ قِيَامَ الدِّينِ، وَنِظَامَ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، بِالْخِلَافَةِ وَإِتْمَامِهَا وَعِزِّهَا، وَالْقِيَامَ بِحَقِّ اللَّهِ فِيهَا بِالطَّاعَةِ الَّتِي تُقَامُ بِهَا فَرَائِضُ اللَّهِ وَحُدُودُهُ، وَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ وَسُنَنُهُ، وَيُجَاهَدُ بِهَا عُدُوُّهُ. فَعَلَى خُلَفَاءِ اللَّهِ طَاعَتُهُ فِيمَا اسْتَحْفَظَهُمْ وَأَسْتَرَعَاهُمْ مِنْ دِينِهِ وَعِبَادِهِ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ طَاعَةُ خُلَفَائِهِمْ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى إِقَامَةِ حَقِّ اللَّهِ وَعَدْلِهِ، وَأَمْنِ السَّبِيلِ وَحَقْنِ الدِّمَاءِ، وَصَلَاحِ ذَاتِ الْبَيِّنِ، وَجَمْعِ الْأَلْفَةِ؛ وَفِي إِخْلَالِ ذَلِكَ أَضْطِرَابُ حَبْلِ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْتِلَافُهُمْ، وَأَخْتِلَافُ مِلَّتِهِمْ، وَقَهْرُ دِينِهِمْ، وَأَسْتِعْلَاءُ عُدُوِّهِمْ، وَتَفَرُّقُ الْكَلِمَةِ، وَخُسْرَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَحَقٌّ عَلَى مَنْ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ، وَأَثَمَةٌ عَلَى خَلْقِهِ [أَنْ] يُؤْثِرَ مَا فِيهِ رِضَا اللَّهِ وَطَاعَتُهُ وَيُعَدُّ [لِ] فِيمَا اللَّهُ وَأَقْفَهُ عَلَيْهِ وَسَائِلُهُ عَنْهُ، وَيُحْكَمَ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلَ بِالْعَدْلِ فِيمَا حَمَلَهُ اللَّهُ وَقَلَّدهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿يَادَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ . وقال عز وجل : ﴿قَوْرَبَكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .
وبلغنا أن عمر بن الخطَّاب قال : « لو ضاعت سَخْلَةُ بِجَانِبِ الْفُرَاتِ لَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللَّهُ عَنْهَا » . وأيم الله إنَّ المسئول عن خاصَّة نفسه ، الموقوف على عمله ، فيما بين الله وبينه ، لمتعرِّضٌ لأمر كبير ، وعلى خطر عظيم ، فكيف بالمسئول عن رعاية الأُمَّة ؛ وبالله الثقة ، وإليه المَفْزَع والرَّغْبَةُ في التوفيق مع العِصْمة ، والتَّسْديد والهداية إلى ما فيه ثُبُوتُ الْحُجَّة ، والفوز من الله بِالرَّضْوَانِ والرحمة . وأنظرُ الأئمة لنفسه ، وأنصَحُهم في دينه وعبادته وخلافته في أرضه ، مَنْ عَمِلَ بطاعة الله وكتابه وسنة نبيه عليه السلام في مدَّة أيامه ؛ وأجتهد وأجهد رأيَه ونظرَه فيمن يُؤثِّيه عهدَه ، ويختاره لإمامة المسلمين ورياستهم بعده ؛ وينصِّبه علما لهم ، ومقرَّعا في جمع أئمتهم ، ولمَّ شعيتهم ، وحقق دوائهم ، والأمن بإذن الله من فُرْقَتهم ، وفساد ذات بينهم واختلافهم ، ورفع نزغ الشيطان وكيدِه عنهم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهد بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكمالِه وعِزِّه وصَلاحِ أهله ؛ وألهم خلفاءه من تَوسيدِه لمن يخارُونه له من بعدهم ما عَظُمَتْ به العِمة ، وسَمِلَتْ منه العافية ، ونَقَضَ اللَّهُ بِذَلِكَ ^(١) مرَّ أهل الشَّقَاقِ والعَدَاوَةِ والسَّعْيِ في الفُرْقَةِ والرَّفْضِ للفتنة ؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ أَفْضَتْ إليه الخلافة فاختبرَ بَشَاعَةَ مَذَاقِهَا ، وثَقَلَ حَمْلُهَا وَشَدَّةَ مَثْوِيَّتِهَا ؛ وما يجب على من تقلَّدَها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حمَّله منها ؛ فأَنْصَبَ

(١) في اللسان ج ٧ ص ١٥ « المرفطح الميم الحبل » .

(٢) أى تركها تسير في الناس ، ففي اللسان الرِّض أن يطرد الرجل غنمه وابله إلى حيث هوى فاذا بلغت لها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيها بما يقتضيه منصبها وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدنه، وأسهر عينه؛ وأطال فكره فيما فيه عز الدين، وقمع المشركين؛ وصلاح
 الأمة، ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسنة؛ ومنعه ذلك من الخفض والدنة بهي
 العيش: علما بما الله سائله عنه، ومحبة أن يلقي الله مناجحه في دينه وعباده، ومخارا
 لولاية عهده، ورعاية الأمة من بعده، أفضل من يقدر عليه في دينه وورعه وعلمه،
 وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه؛ مناجيا لله بالاستخارة في ذلك، ويسأله إلهامه ما فيه
 رضاه وطاعته في ليله ونهاره، ومعملا في طلبه والتماسه من أدل بيته من ولد عبد الله
 ابن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره، ومقتصرا فيمن علم حاله ومذهبه منهم على
 علمه، وبالغا في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته، حتى استقصى أمورهم
 بمعرفته، وأبتلى أخبارهم مشاهدة، وكشف ما عندهم مسألة؛ فكانت خيرته بعد
 استخارته لله وإجهاده نفسه في قضاء حقه وبلاده، من البيتين جميعا «علي بن
 موسى بن جعفر» بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: لما رأى
 [من] فضله البارِع، وعلمه الناصع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتحميه من
 الدنيا، وتساميه من الناس؛ وقد استبان له ما لم تزي الأخبار عليه متواطئه، والألسن
 عليه متفقة والكلمة فيه جامعة؛ ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعا وناشئا،
 وحدئا ومكتهلا؛ فعقد له بالعقد والخلافة إيثارا لله والدين، ونظرا للمسلمين، وطلباً
 للسلامة وثبات الحجة والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرَبِّ العالمين.

ودعا أمير المؤمنين ولده، وأهل بيته، وخاصته، وقواده، وخدمه، فبايعوه
 مسرعين مشرورين، حالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم
 ممن هو أشبك به رحما وأقرب قرابة، وسماه «الرضي» إذ كان رَضياً عند
 أمير المؤمنين.

فبأيُّعوا مُعَشَّرِيَّتِ أمير المؤمنين وَمَنْ بالمدينة المحروسة من قُوَّاده وجُنَّده، وعامة المسلمين « الرِّضَى » من بعده ، على أَسْمِ الله وبركته وحُسْنِ قضائِهِ لدينه وعباده ؛ بيعةً مبسوطةً إِلَيْهَا أيديكم ، منسَحَرَةً لَهَا صدُورُكم ، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها ، وآثَر طَاعَةَ الله والنظرَ لِنَفْسِهِ ولكم فيها ، شاكرينَ لله على ما أَلْهَمَ أمير المؤمنين من نَصَاحَتِهِ في رِعايَتِكُمْ ، وحرصه على رُشْدِكُمْ وصَلاحِكُمْ ، راجينَ عائِدَهُ في ذلك في جمع أُلُفَّتِكُمْ ، وحُسنِ دِماءِكُمْ ، وَلَمْ شَعْنِكُمْ ، وسَدِّ ثُغُورِكُمْ ، وقُوَّةِ دينِكُمْ ، ورَغْمِ عدوِّكم ، وأَسْتِقَامَةِ أُمُورِكُمْ . وسارِعُوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، فَإِنَّهُ الأَمْرُ إن سارِعْتُمْ إِلَيْهِ ، وَحِدْتُمْ اللَّهَ عَلَيْهِ ؛ عَرَفْتُمْ الحِطَّ فِيهِ . إن شاء الله تعالى .



وعلى هذه الطريقة كتب الوزير أبو حفص بن بُرد عهدَ الناصر لدين الله عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر العاصري ، عن المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموي ، الخليفة بالأندلس . وهذه نسخته :

هذا ما عهدَ هشامُ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامَّةً ، وعاهدَ الله عليه من نَفْسِهِ خاصَّةً وأعطى به صَفْقَةً يمينه بيعةً تامَّةً ؛ بعد أن أنعمَ النظرَ وأطالَ الاستِخارةَ وأهمَّه ما جعلَ اللهُ إِلَيْهِ من الإمامة ؛ وعَصَبَ به من أمر المؤمنين ، وأتقَى حُلُولَ القَدَرِ بما لا يُؤْمَنُ ، وخافَ نُزُولَ القضاء بما لا يُصَرَّفُ ، وَخَشِيَ أنْ يَحمَ محتومُ ذلك عليه ، ونزلَ مقدُّورُهُ به ، ولم يرفعْ لهذه الأُمَّة علماً تأوى إِلَيْهِ ، ومَلْجأً تنعِطِفُ عليه ، أنْ يَكُونَ يلقى رَبَّهُ تبارك وتعالى مفَرَّطاً ساهياً عن أداء الحق إليها ؛ وَيُغْمَضَ عند ذلك من أحياء قُرَيْشٍ وغيرها من يَسْتَحِقُّ أن يُسَدَّ هذا الأَمْرُ إِلَيْهِ ، وَيُعَوَّلَ في القيام به عليه ؛ ويستوجبُه بدينه وأمانته ، وهُدْيِهِ وصِيانَتِهِ ؛

بعد أطراح الهوى والتحرى للحق ، والتلّف إلى الله جلّ جلاله بما يرضيه .
وبعد أن قطع الأواصر ، وأنشط الأقارب ؛ فلم يجد أحداً أجدر أن يولّيه عهدَه ،
ويفوض إليه الخلافة بعده : لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو
منصبه ؛ مع ثقاه وعفافه ، ومعرفته وحزمه وتقواه ؛ من المأمون العيب ، الناصح
الحبيب «أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور» أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه
الله ؛ إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله - أبتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ؛
فراه مسارعاً في الخيرات ، سابقاً في الحلبات ؛ مستولياً على الغايات ، جامعاً للأثرات ؛
ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ؛ فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر مداه ،
ويجوى من خلال الخير ماحواه ؛ مع أن أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالعه من
مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ؛ يرى أن يكون وليّ عهده القحطانيّ الذي
حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة : «أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من خطان يسوق الناس بعصاه " فلما
استوى له الاختيار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ؛ [و] لم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره
معدلاً ، صرح إليه في تدبير الأمور في حياته ، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته ؛ طائعا
راضياً مجتهداً ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازاه وأنفذه ، ولم يشترط فيه مشيئة
ولا خياراً ؛ وأعطى على الوفاء به في سرّه وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه ،
وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمة الخلفاء الراشدين من آبائه ؛ وذمة نفسه :
أن لا يبدل ، ولا يغير ، ولا يحول ، ولا يزول ؛ وأشهد الله على ذلك والملائكة
«وكفى بالله شهيدا» . وأشهد من أوقع اسمه في هذا ، وهو جائز الأمر ، ماضى
القول والفعل ، بحضرم وليّ عهده المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور
وفقّه الله ، وقبوله ما قلّده ، وإلزامه نفسه ما ألزمه ؛ وذلك في شهر ربيع الأول

سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . وكتبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائر الناسَ شهاداتهم بخطوط أيديهم بذلك .

الطريقة الثانية

(طريقة المتأخرين من الكُتَّاب)

أن يأتي بالتحميد في أثناء العهد، ويأتي من ألقاب ولي العهد بما يناسب على الاختصار؛ وعليها أقصر المقرَّ الشَّهَابِي بن فضل الله في "التعريف" فقال : وأعلم أنَّ عهود الخلفاء عن الخلفاء لم تجر عادة من سلف من الكُتَّاب أن يستفتيها إلا بما يذكر، وهو :

« هذا ما عهد [به] عبد الله ووليه فلان أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين، عهد إلى ولده، أو [إلى] أخيه الأمير السيد الجليل، ذخيرة الدين، وولي عهد المسلمين أبي فلان فلان، أيده الله بالتمكين، وأمدّه بالنصر المبين، وأقر به عين أمير المؤمنين » . ثم يُنفق كل كاتب بعد هذا على قدر سعته، ثم يقول :

« أما بعد، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويصلّي على نبيه محمّد صلى الله عليه وسلم » ويخطب في ذلك خطبة يُكثر فيها التحميد وتنتهي فيه إلى سبعة؛ ثم يأتي بعد ذلك بما يُناسب من القول : يصف فكر الذي يعهد فيمن بعده؛ ويصف المعهود إليه بما يليق من الصفات الجليلة . ثم يقول : « عهد إليه وقلده بعده جميع ما هو مقلده، لما رآه من صلاح الأمة، أو صلاح الخلق، بعد أن استحار الله تعالى في ذلك، ومكث مدة يتدبّر ذلك ويروى فيه فكره وخاطرَه، ويستشير أهل الرأي والنظر، فلم ير أقوم منه بأمور الأمة ومصلح

الدنيا والدين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قِيلَ ذلك منه» ويأتى في ذلك بما يليق من محاسن العبارة وأحاسن الكلام .

قلت : ولم أظفر بنسخة عهدٍ على هذا الأسلوب الذى ذكره المقرُّ الشَّهابي ؛ وقد أنشأت عهداً على الطريقة التى أشار إليها ، امتحاناً للخاطر : لأنَّ يكونَ عن الإمام المتوكل على الله أبى عبد الله محمد بن المعتضد أبى الفتح أبى بكر ، خليفة العصر ، لولده العباس : ليكونَ أُمُودَجا يُنسَج على مِنواله .

ومن غريب الاتفاق أنى أنشأته فى شُهور سنةٍ إحدى وثمانمائة امتحاناً للخاطر كما تقدّم ، وضمّته هذا الكتابَ وتمادى الحالُ على ذلك إلى أن قبَضَ الله تعالى الإمامَ المتوكل - قدس الله تعالى رُوحه - فى سنة ثمان وثمانمائة ؛ فأجمع أهلُ الحلِّ والعقد على مبايعته بالخلافة ؛ فبايعوه وحقق الله تعالى ما أجراه على اللسان من إنشاء العهد باسمه فى الزمن السابق ؛ ثم دعَتْنى داعيةٌ إلى التمثل بين يديه الشريفتين فى مستهلِّ شهر ذى القعدة الحرام سنة تسع وثمانمائة ، فقرأته عليه من أوله إلى آخره ، وهو مُضغ له مظهرُ الآتِهاج به ؛ وأجاز عليه الجائزة السنية . ثم أنشأتُ له رسالةً وضمّنته إياها وأوَعَت بِخِزانتِه العالية عَمَرها الله بطُول بقائه .

وهذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر ، مباركُ الأوّل جميلُ الأوسط حميدُ الآخر ؛ تشهد به حضراتُ الأملاك ، وترقُّه كَفُ الثُريا بأقلام القبول فى صحائف الأفلاك ؛ وتُباهى به مُلوكُ الأرض ملائكة السماء ، وتسرّى بنشره القبولُ إلى الأقطار فتشّره بكلِّ ناحيةٍ علما ، وتطلّع به سعادةُ الجَدِّ من مُلوكِ العدل فى كلِّ أفقٍ نجما ، وترقُص من فرحها الأنهار فتتقطّطها شمسُ النَّهار بذهب الأصيل على صَفحاتِ الماء ؛ عهدٌ به

عبدُ الله وولِيه أبو عبد الله محمدُ المتوَكِّلُ على الله أميرُ المؤمنين إلى ولده السيد
الجليل عُدَّة الدين وذخيرته ، وصَفِيَّ أمير المؤمنين من ولده وخيرته ؛ المستعين بالله
أبي الفضل العباس بلغ الله فيه أمير المؤمنين غاية الأمل ، وأقرب به عين الخلافة
العباسية كما أقرب به عين أبيه وقد فعل .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله حافظِ نظام الإسلام وواصلِ سببه ، ورافعِ بيتِ الخلافة
ومادِّ طُنبه ، وناظِمِ عِقدِ الإمامة المعظَّمة في سِلْكِ بني العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً
في عَقْبِهِ .

والحمدُ لله الذي عَدَّقَ أمرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خطراً ، وأرفعِهم قدراً ؛
وأرجَحِهم عقلاً وأوسعِهم صدراً ، وأجزلهم رأياً وأسلمِهم فكراً .

والحمدُ لله الذي أقترعَ عينَ أمير المؤمنين بخيرِ ولى وأفضلِ ولد ، وشدَّ أزره بأكرم
سيد وأعزَّ سند ، وصرفَ اختياره إلى مَنْ إذا قام بالأمر بعده قيل هذا الشُّبُلُ
من ذاك الأسد .

والحمدُ لله الذي جمعَ الآراءَ على اختيارِ العاهد فما قَلَّوه ولا رَفَضُوه ، وجبَلِ
القلوبَ على حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوْا العُدُولَ عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

والحمدُ لله الذي جَدَّدَ للرعية نعمةً مع بقاء النعمة الأولى ، وأقامَ لأمرِ الأئمة من
بني عمِّ نبيِّه المصطفى الأولى بذلك فالأولى ، واختارَ لعهد المسلمين مَنْ سبقت إليه
في الأزل إرادته فأصبح في النفوس معظماً وفي القلوب مقبُولاً .

والحمدُ لله الذي أضْحَكَ الخلافةَ العباسية بوجودِ عباسها ، وأطابَ بذِكره رِياها
فتعطرَ الوجودَ بطيبِ أنفاسِها ؛ ورفعَ قدرَه بالعهدِ إليه إلى أعلى رُتبة مُنيفه ،

(١) وَخَصَّهُ بِمِشَارَكَةِ جَدِّهِ الْعَبَّاسِ فِي الْأَسْمِ وَالْكُنْيَةِ فَفَازَ بِمَا لَمْ يُفْزَ بِهِ قَبْلَهُ مِنْهُمْ سِتُّ وَأَرْبَعُونَ خَلِيفَةً .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَى الْكَافَّةِ طَاعَةَ أَوْلَى الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَّةِ ، وَأَرْزَمِهِمُ الدُّخُولَ فِي بَيْعَةِ الْإِمَامِ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَيْهِ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا أَسْوَدَ فَكَيْفَ بَيْنَ أَجْمَعٍ عَلَى سُودِّهِ الْأُمَّةِ ، وَأَوْصَحَ السَّبِيلَ فِي التَّعْرِيفِ بِمَقَامِ الْآلِ وَالْعِتْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ﴿فَلَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ .

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ طَيِّبِ أَرْوَمَةٍ سَمَّتْ أَصْلًا وَزَكَتْ فَرْعًا ، وَحَبَاهُ مِنْ شَرَفٍ مُحْتَدٍ رَاقٍ نَظَرًا وَشَاقٍ سَمْعًا ، وَوَصَلَهُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ آثَرَتْ نَفَاعًا وَأَثَرَتْ نَفْعًا ، وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَتَوَارَثُونَهَا كَالْخِلَافَةِ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، وَيُوصِي بِهَا أَبَدًا الْأَوَّلُ مِنْهُمْ الْآخِرَ ، وَيُؤْذِنُ قِيَامُهُمْ بِنُصْرَتِهَا أَنَّهُمْ مَعْدَنُ جَوْهَرِهَا النَّفِيسِ وَنِظَامُ عَقْدِهَا الْفَاحِشِ ، وَيَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الَّذِي خَصَّ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ بِكَرِيمِ الْحَبَاءِ وَشَرِيفِ الْإِنَافَةِ ، وَنَبَّهَ عَلَى بَقَاءِ الْأَمْرِ فِي بَيْتِهِ بِقَوِيٍّ ضَلَّ مَنْ أَظْهَرَ عِنَادَهُ أَوْ أَضْمَرَ خِلَافَهُ ، حَيْثُ أَسْرَّ إِلَيْهِ : ” أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ بِي خُتْمِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكَ تُخْتَمُ الْخِلَافَةُ “ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَوةً تَعْمُ بَرَكَتُهَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ ، وَيَشْمَلُ مَعْرُوفُهَا الْمَعْهُودَ إِلَيْهِ وَيَعْرِفُ شَرَفُهَا الْعَاهِدَ ، وَيَعْتَرِفُ بِفَضْلِهَا الْمُقَرُّ وَلَا يَسَعُ إِنْكَارُهَا الْجَاهِدُ ، مَانُوهُ بِذِكْرِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَابِرِ ، وَخَفَقَتِ الرَايَاتُ السُّودُ عَلَى عَسَاكِرِ الْمَوَاكِبِ وَمَوَاكِبِ الْعَسَاكِرِ ، وَسَلَّمَتْ سَلَامًا كَثِيرًا .

(١) ذَكَرَ اسْمَ الْعَدَدِ عَلَى حَدِّ مَا أَشْدَّه الْفَرَاءُ .

أَبُوكَ خَلِيفَةً وَلَدَتْهُ أُخْرَى * وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَلِكَ الْكَلَامِ

هذا وكل راجع مستؤول عن رعيته ، وكل أمرئ مجبول على نيته ، مخبر بظاهره عن جميل ما أكنه في صدره وما أسرّه في طويته ؛ والإمام منصوب للقيام بأمر الله تعالى في عبادته ، مأمور بالنصيحة لهم جهده طاقته وطاقة اجتهاده ، مطلوب بالنظر في مصالحهم في حاضر وقتهم ومستقبله وبدء أمرهم ومعاذهم ؛ ومن ثم اختلفت آراء الخلفاء الراشدين في العهد بالخلافة وتباينت مقاصدهم ، وتوعدت اختياراتهم بحسب الاجتهاد واختلفت مواردهم ؛ فعهد الصديق إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه متبثنا ، وتركها عمر شورى في ستة وقال : « أتحمّل أمركم حيا وميتا ! » وأتى رضى الله عنه لكل من المذهبين بما أذعن له انلخص وسلم ، فقال : « إن أعهد فقد عهد من هو خير مني أبو بكر ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله صلى الله عليه وسلم » فأخذ الخلفاء في ذلك بستتهما ، ومشوا فيه على طريقتهما ؛ فن راعى عن العهد وراعى فيه ، وعاهد إلى بعيد منه وآخر إلى ابنه أو أخيه ؛ كل منهم بحسب ما يؤدى إليه اجتهاده ، وتقوى عليه عزيمته ويترجح لديه أعماده .

ولما كان أمير المؤمنين - أحسن الله مآبه - قد نور الله عين بصيرته ، وخصه بطهارة سره وصفاء سيرته ؛ وآناه الله الملك والحكمه ، وأقامه لمصالح الرعية وصلاح أمر الأمة ؛ وعلمه مما يشاء فكان له من علم الفراسة أوفر قسم ، وأصطفاه على أهل عصره وزاده بسطة في العلم والجسم ؛ فلا يعزم أمرا إلا كان رشادا ، ولا يعتمد فعلا إلا ظهر سدادا ؛ ولا يرتقى رأيا إلا ألقى صوابا ، ولا يشير بشيء إلا أحدث آثاره بداية ونهاية واستصحابا ؛ ومع ذلك فقد بلا الناس وخبرهم ، وعلم بالتجربة حالهم وخبرهم ، وأطلع بحسن النظر على خفايا أمورهم ، وما به مصلحة خاصتهم وجمهورهم ؛ وترجح عنده جانب العهد على جانب الإهمال ، ورأى المبادرة إليه أولى من الإهمال ؛ ولم يزل يروى فكرته ، ويعمل رويته ؛ فيمن يصلح لهذا الأمر

بعده ، وينهض بأعبائه الثقيلة وحده ؛ ويتبع فيه سبله ويسلك طرائقه ، ويقفنى في السيرة الحسنة أثره ويشيم في العدل بوارقه ؛ ويقبل على الأمر بكليته ويقطع النظر عما سواه ، ويتفرغ له من كل شاغل فلا يخلطه بما عده .

وقد علم أن الأحق بأن يكون لها حليفاً من كان بها خليفاً ، والأولى بأن يكون لها قريناً من كان بوصلها حقيقاً ، والأجدر أن يكون لديها مكيماً من آتخذ معها يداً وإلى مرضاتها طريقاً ؛ والأليق بمنصبها الشريف من كان بمطلوبها ملياً ، والأخرى بمكانها الرفيع من كان بمقصودها وفياً ، والأوفق لمقامها العالى من كان خيراً مقاماً وأحسن ندباً ، وكان ولده السيد الأجل أبو الفضل المشار إليه هو الذى وجهت الخلافة وجهها إلى قبلته ، وبالغت في طلبه وألحت في خطبته ؛ على أنه قد أُرْضِعَ بلبانها وربى في حجرها ، وانتسب إليها بالبنوة فضمته إلى صدرها ، وكيف لا تنشبت بجباله ، وتتعلق بأذياله ، وتطمع في قربه ، وتتعالى في حبه ؛ وتميل إلى أنسه ، وتراوده عن نفسه ، وهو كفؤها المستجمع لشرائطها المتصف بصفاتها ، ونسيبها السامى إلى أعاليها الراقى على شرفاتها ؛ إذ هو شبلها الناشئ في آجامها ، بل أسدها الحامى لحماها ، ومجيرها الوافى بذمامها ، وفارسها المقدم في حلبة سباقها ووارثها الخائر لجميع سهامها ، وحاكمها الطائع لأمرها ، ورشيدها المأمون على سرها ، وناصرها القائم بواجبها ، ومهديها الهادى إلى أفضل مآزيرها ؟ قد ألتحف من الخلافة بردائها ، وسكن من القلوب في سويدائها ، وتوسمت الآفاق تفويض الأمر إليه بعد أبيه فظهر الخلق في أرجائها ؛ وأتبع سيرة أبيه في المعروف وأقتفى أثره في الكرم ، وتشبه به في المفارح (ومن يساهيه أبه فما ظلم) وتقبل الله دعاء أبيه فوهب له من لدنه ولياً ، وأجاب نداءه فيه فكان له في الأرض وآتاه الحكم صبيّاً ، فاستوجب أن يكون حينئذٍ للمسلمين ولياً عهدهم ، والياً على أمورهم في حلهم وعقدهم ، متكفلاً بالأمر في قربه وبعده ،

مُعِينًا لِأَيِّسِهِ فِي حَيَاتِهِ خَلِيفَةً لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَأَنْ يَصْرِّحَ لَهُ بِالِاسْتِخْلَافِ وَيُوضِّحَ ،
وَيَتَلَوَّ عَلَيْهِ بِلِسَانِ التَّفْوِيزِ ﴿ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ .

وَأَقْتَضَتْ شَفَقَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأْفَتُهُ ، وَرِفْقُهُ بِالْأُمَّةِ وَرَحْمَتُهُ ؛ أَنْ يَنْصَبَ لَهُمْ
وَلِيَّ عَهْدٍ يَكُونُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مُتَّصِفًا ، وَمِنْ بَحْرِهِ الْكَرِيمِ مُغْتَرِفًا ، وَمِنْ ثِمَارِ مَعْرُوفِهِ
الْمَعْرُوفِ مُقْتَضِفًا ؛ وَلَمْ تَهْلِكْ الْعُدْبُ وَإِرْدَا . وَعَلَى بَيْتِهِ الشَّرِيفِ وَسَائِرِ الْأُمَّةِ بِالْخَيْرِ
عَائِدًا ؛ فَلَمْ يَجِدْ مَنْ هُوَ مُسْتَكْمَلٌ لْجَمِيعِهَا ، مُسْتَوْعِبٌ لِأَصُولِهَا وَفُرُوعِهَا ؛ وَهُوَ بِمَطْلُوبِهَا
أَمْلَى ، وَعَلَى قُلُوبِ الرِّعْيَةِ أَحْلَى ؛ وَلِلْغَلِيلِ أَشْفَى ، وَبِالْعَهْدِ الْجَمِيلِ أَوْفَى ؛ مِنْ وَلَدِهِ
الْمُشَارِ إِلَيْهِ . فَاسْتَشَارَ فِي ذَلِكَ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُضَاتِهِ وَعُلَمَائِهِ ، وَأَمْرَائِهِ
وَوُزَرَائِهِ ، وَخَاصَّتِهِ وَذَوِيهِ ، وَأَقَارِبِهِ وَبَنِيهِ ، وَأَعْيَانِ أَهْلِ الْعَصْرِ وَعَامَّتِهِ ، وَجُمْهُورِهِ
وَكَافَّةً ؛ فَرَأَوْهُ صَوَابًا ، وَلَمْ يَعْرِهُمْ فِيهِ ظَنَّةٌ وَلَا مُسْتَرَابًا ، وَلَا وَجَدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى بَابِ
غَيْرِهِ طَرِيقًا وَلَا إِلَى طَرِيقِ غَيْرِهِ بَابًا ؛ فَاسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَأَقْبَلَ خَاطِرُهُ الشَّرِيفُ
عَلَيْهِ ، وَكَرَّرَ الِاسْتِخَارَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَنْهُ مَحِيدًا إِلَّا إِلَيْهِ .

فَلَبَّ رَأْيَ أَنْ ذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ آتَعَقَدَ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَعُدِمَ فِيهِ الْمَخَالَفُ
بَلْ لَمْ يَكُنْ أَصْلًا ؛ حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَأُثْنُ عَلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ التَّوْفِيقَ وَرَغِبَ إِلَيْهِ ؛ وَجَدَّ
الِاسْتِخَارَةَ وَعَهْدَ إِلَيْهِ بِأَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَقَلَّدَهُ مَا هُوَ مُتَقَلَّدُهُ مِنْ اخْتِلَافَةِ الْمُقَدَّسَةِ بَعْدَهُ
عَلَى عَادَةٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْخُلَفَاءِ الْمَاضِينَ ، وَقَاعِدَةٍ مَنْ سَلَفَ مِنَ الْأُئِمَّةِ الْمُهْدِيِّينَ ؛
وَفَوْضَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مِنْ أَحْكَامِهَا وَلَوَازِمِهَا ، وَأُصُولِهَا وَمَعَالِمِهَا : مِنْ عَهْدٍ وَوَصَايَا ،
وَعَزْلِ وَوَلَايَا ؛ وَتَفْوِيزٍ وَتَقْلِيدٍ ، وَاتِّزَاعٍ وَتَحْلِيدٍ ؛ وَتَفْرِيقٍ وَجَمْعٍ ، وَإِعْطَاءٍ
وَمَنْعٍ ، وَوَصْلٍ وَقَطْعٍ ؛ وَصِلَةَ وَإِذْرَارٍ ، وَتَقْلِيلٍ وَإِكْثَارٍ ؛ جُزْئِيًّا وَكُلِّيًّا ، وَخَفِيًّا

وجليها ؛ ودانها وقاصيها ، وطائعا وعاصيها ؛ تفويضا شرعيا ، تاما مرضيا ؛ جامعا
لأحكام الولاية جمعا يعم كل نطاق ، ويسرى حكمه في جميع الآفاق ، ويدخل تحته
سائر الأقاليم والأمصاير على الإطلاق ؛ لا يغير حكمه ، ولا يغيّر رسمه ؛ ولا يطمش
سهمه ، ولا يافل نجمه .

قبل المعهود إليه - أعلى الله مقامه - ذلك بحضور من القضاة والحكام ، والعلماء
الأعلام ؛ ولزم حكمه وأثرهم ، وكتب في سجلات الأفلاك وأرسم ، وحملت رسائله
مع برد السحاب فطافت به على سائر الأمم ؛ وهو - أبقاه الله - مع ما طبع عليه
طباعه السليمه ، وجبيلت عليه سجاياه الشريفة وأخلاقه الكريمة ؛ قد تلقى عن
أمير المؤمنين من شريف الآداب ما عُدّي به في مهده ، وتلقف منه من حسن
الأدوات ما يرويه بالسند عن أبيه وجده ؛ مما أنطبع في صفاء ذهنه الصّقل
وأنقش في فهمه ، واختلط من حال طفولته بدمه ولحمه وعظمه ؛ حتى صار طبعا
ثانيا ، وخلقا على ممر الزمان باقيا ؛ واجتمع لديه الغريزى فكان أصلا ثابتا ، وفرعا
على ذلك الأصل القوى ثابتا ؛ لكن أمير المؤمنين يوصيه تبركا ، ويشرح له ما يكون
به - إن شاء الله - متمسكا ؛ والمرء إلى الأمر بالخير مندوب ، ووصية الرجل لبنيه
مطلوبة فقد قال تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ .

فعليك بمراقبة الله تعالى فمن راقب الله نجح ، و [اجعل] التقوى رأس مالك :
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ والجا إلى الحق فقد فاز من إلى الحق لحا ؛ وكتب الله
هو الحبل المتين ، والكتاب المبين ؛ والمخرج القويم ، والسبيل الواضح والصراط
المستقيم ؛ فتمسك منه بالعروة الوثقى ، وأسلك طريقته المثلى وأهتد بهديه فلا تضل
ولا تشقى ؛ وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالإقتداء بأفعالها الواضحة ،
والإصغاء لآثار أقوالها الشارحة ؛ عالما بأن الكتاب والسنة أخوان لا يفترقان ،

وَمُتَلَا زِمَانٍ بِجَبَلِ التَّبَائِنِ لَا يَعْتَا قَانُ ، وَالْإِلَادَ وَالرَّعَايَا خُطُوهَا بَنَظْرَكَ مَا اسْتَطَعْتَ ،
وَتَثَبَّتْ فِي كُلِّ قَطْعٍ وَوَصَلَ فَأَنْتَ مُسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا وَصَلْتَ وَقَطَعْتَ ، وَالْآلَ
وَالْعِتْرَةَ النَّبَوِيَّةَ فَفِيهِمَا حَقُّ الْقَرَابَةِ مِنْكَ وَمَنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي
أَشْرَقَتْ بِهِ ، وَأَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا أَكْرَمْتَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَإِنَّمَا أَكْرَمْتَهُ بِسَبِيهِ ، وَأَتَّبَعَ فِي السَّيْرِ
سِيرَةَ آبَائِكَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَا تَزْغُ عَنْهَا ، وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا بِهَا وَبِمَا هُوَ - إِنْ
اسْتَطَعْتَ - خَيْرٌ مِنْهَا ، وَأَقِفْ فِي الْمَعْرُوفِ أَنَا رَهُمُ الْمُقَدَّسَةِ لِنَحْوِي مِنَ الْمَأْثَرِ مَاحَوْوًا ،
وَأَحْذِ حَذْوَهُمْ فِي طَرِيقِهِمُ الْمُبَارَكَةِ وَأَبْنِ الْمَجْدَ كَمَا بَنَوْا ، وَأَحْيِ مِنَ الْعَمَلِ سُنَّةَ سَلَفِكَ
الْمُصْطَفِيِّ الْأَخْيَارِ ، وَأَحْرِضْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأُتَمَّةِ الَّذِينَ يُظَاهِمُ اللَّهُ تَحْتَ عَرْشِهِ :
﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ .
وَأَسْلَفَ خَيْرًا تَذَكُّرُهُ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي ، وَيَنْتَظِمُ ذِكْرُهُ فِي عُقُودِ الْأَيَّامِ كَمَا تَنْتَظِمُ فِي السَّلَكِ
الْأَلَا لِي ، وَلِيَكُنْ قَصْدُكَ وَجْهَ اللَّهِ لِيَكُونَ فِي نُصْرَتِكَ فَإِنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُصْرَتِهِ
لَا يُبَالِي ، وَلِتَعْلَمَ حَقَّ الْيَقِينِ أَنَّ حَسَنَةَ الْإِمَامِ تُضَاعَفُ بِحَسَبِ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ
الْمَصَالِحِ أَوْ تَجَدُّدُ سَبَبِهَا ، وَسَيِّئَتُهُ كَذَلِكَ فَمَنْ سَنَّ سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ لِمُئْتَمَرِهَا وَإِثْمٌ مِنْ
عَمَلِهَا ، وَدُرٌّ مَعَ الْحَقِّ كَيْفَ دَارَ وَمِلٌّ مَعَهُ حَيْثُ مَالٌ ، وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ
مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأْنَفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ
مِنْ وَالٍ ، وَلَا تُحْطَرُ بِبَالِكَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ آتَى إِلَيْكَ بِقُوَّةٍ ، أَوْ يَغُرَّكَ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ
النَّاءِ عَلَيْكَ فَالْثَّأْرُ بِالْمَدْحِ يُحِلُّ بِالْمُرُوءَةِ ، وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى نَسَبِكَ فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ أَدْخَلَهُ
الْجَنَّةَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، وَمَنْ عَصَاهُ أَدْخَلَهُ النَّارَ وَلَوْ كَانَ هَاشِمِيًّا قُرَشِيًّا ، وَاسْتَنْصِرَ
اللَّهُ يَنْصُرَكَ وَاسْتَعِينَ بِهِ يَكُنْ لَكَ عَوْنًا وَظَهِيرًا ، وَاسْتَهْدِهِ يَهْدِكَ ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا
وَنَصِيرًا ﴾ وَكُنْ [مِنْ] اللَّهِ حَافِئًا وَمِنْ مَكْرِهِ مِنَ الْمُشْفِقِينَ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيينِ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، ووصيته ثملى عليك ؛ ﴿ وَذَكَرْنَاكَ اللَّهُ كَرِيًّا
تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ والله تعالى يبلغه منك أملاً ، ويحقق فيك علماً ويزكي بك عملاً ؛
والاعتماد على الخط المقدس الإمامي المتوكلى - أعلاه الله تعالى - أعلاه ، حجة فيه
إن شاء الله تعالى .

المذهب الثاني

(أن يفتح العهد بعد البسملة بلفظ « من فلان إلى فلان » كما يكتب في المكاتبات
ثم يأتي بالبعدية ويأتي بما يناسبه مما يقتضيه الحال من ذكر الولاية ،
ووصف المتولى ، واختيار المولى له ونحو ذلك)
ثم قاعدة كتابهم أنهم يأتون بعد ذلك بالتحديد في أثناء العهد .

وهذه نسخة عهد من ذلك ، كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي ، ولولده
حيدرة بأن يكون ولي عهد الخلافة بعده ؛ وليس فيها تعرض لتحديد أصلاً ، وهو .
من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ،
إلى ولده ونجله ، وسلالته الطاهرة ونسله ، وأجمع على شرفه والعامل بمرضاة
الله في قوله وفعله ، وعقده وحله ؛ الأمين أبي تراب حيدرة ، ولي عهد
أمير المؤمنين ، عليه السلام .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن
يصلّي على جدّه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ،
الأئمة المهديين ؛ وسلم تسليماً .

أما بعد ، فإن الله تعالى لبديع حكيمته ، ووسيع رحمته ، استودع خلفاءه من خلقه
وبرآه ، وأستكفى أمانه من صورته وذراه ؛ وربهم مرتبة النفوس من الأجساد ،

وَنَزَّلَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الضَّيَاءِ مِنَ الْأَزْنَادِ ؛ وَجَعَلَهُمْ مُسْتَخْدِمِينَ لِأَفْكَارِهِمْ فِي مَصَالِحِ الْبَرِيَّةِ
الَّتِي غَدَّتْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَحَصَلَتْ فِي ضَمَانِهِمْ ؛ فَظَلَّتْ فِي ذِمَامِهِمْ ، وَسَعِدَتْ فِي عِزِّ
مَقَامِهِمْ وَظَلَّ أَيَّامُهُمْ : لِأَنَّهُمْ نَصَبُوا لِلنَّظَرِ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ، وَتَعَبُوا لِرَاحَةِ الْكَافَّةِ تَعَبًا
صَعْبًا وَعَظْمًا وَشَقًّا ؛ وَكَانَ ذَلِكَ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الْحِكْمَةِ ، وَضَرْبًا مِنْ أَفْضَلِ تَذْيِيرِ
الْأُتَمَّةِ ؛ إِذْ لَوْ سَاوَى بَيْنَ الرَّئِيسِ وَالْمَرْءِ وَسِ ، وَالسَّائِسِ وَالْمُسَّوسِ ؛ لَأَخْتَلَطَ
الْخُصُوصُ بِالْعُمُومِ ، وَلَمْ يَبْقَ فَرْقٌ بَيْنَ الْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ .

وَقَدْ اسْتَخْلَصَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَشْرَفِ أَسْرَةٍ وَأَكْرَمِ عِصَابَةٍ ، وَأَيَّدَهُ فِي جَمِيعِ
آرَائِهِ بِالْحَرَامَةِ وَالْجَزَالَةِ وَالْأَصَالَةِ وَالْإِصَابَةِ ؛ وَقَضَى لِأَغْرَاضِهِ أَنْ يَكُونَ السَّعْدُ لَهَا
خَادِمًا ، وَحَتَمَ لِمَقَاصِدِهِ أَنْ يُصَاحِبَهَا التَّوْفِيقُ وَلَا يَنْفَكَّ لَهَا مُلَازِمًا ؛ وَجَمَعَ لَهُ مَا تَفَرَّقَ
فِي الْخَلِيقَةِ مِنَ الْمَفَاحِرِ وَالْمَنَاقِبِ ، وَأَهْلَمَهُ النَّظَرَ فِي حُسْنِ الْخَوَاتِمِ وَحَمِيدِ الْعَوَاقِبِ .

وَلَمَّا كَانَ وَلِيُّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَرَ أَبْنَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُنْتَهَى لِأَشْرَفِ
الْمَرَاتِبِ مِنْ تَقَادُمِ السِّنِّينَ ؛ وَقَدْ آسَتَوْا عَلَى الْفَخْرِ بِاكتِسَابِهِ وَاتِّسَابِهِ ، وَتَصَدَّتْ لَهُ
مَخْطُوبَاتُ الرَّتَبِ لِيُحَوِّزَهَا بِاسْتِحْقَاقِهِ وَاسْتِجَابَةِ ؛ وَلَهُ مِنْ فَضِيلَةِ ذَاتِهِ مَا يُدَلُّ عَلَى
النَّبِيَّةِ الْعَظِيمِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ مَا يَهْتَدَى بِهِ السَّارِي فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ؛ وَحِينَ حَوَى
تَالِدَ الْفَخْرِ وَطَارِفَهُ وَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْقَدِيمِ عَنِ الْحَدِيثِ وَلَا بِالْحَدِيثِ عَنِ الْقَدِيمِ ؛
وَالصِّفَاتُ إِذَا اخْتَلَفَتْ أَرْبَابُهَا لَا تَقَعُ إِلَّا دُونَهُ ، وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ
لِلَّذِينَ يُخْلِصُونَ فِيهِ وَيَتَوَلَّوْنَهُ ؛ وَلِيَفْخَرَ بِأَنْ خُصَّ مِنَ الْعِنَايَةِ الْمَلَكُوتِيَّةِ بِالْحِظِّ الْأَجْزَلِ ،
وَلِيَتَسَمَّحَ عَلَى الْبَرَايَا لِيَكُونَ مَدْمُوحًا بِالْكَلْبِ الْمَنْزَلِ ؛ وَلِيَبْدُخَ فَإِنَّ وَصْفَهُ لَا تُبْلَغُ غَايَتُهُ
وَإِنْ اسْتُخْدِمَتْ فِيهِ الْفِكْرُ ، وَلِيَبْجَحَ فَإِنَّ فَضْلَهُ لَا يُدْرِكُ حَقِيقَةً إِلَّا إِذَا تُبْلِغْتَ السُّورُ ،
فَأَمْتَعَهُ اللَّهُ بِمَوَاهِبِهِ لَدَيْهِ وَأَمْتَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَأَجْرَى أُمُورَهُ عَاجِلًا وَأَجَلًا بِسَبَبِهِ .

رأى أمير المؤمنين أن يختصه بولاية عهد أمير المؤمنين تمييزاً له بهذا النعت الشريف، وسموا به إلى ما يجب لحجده الشاخص وحله المنيف؛ وأقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يشرفون به أبناءهم الأكرمين، وتخصيصاً له بما يبقوا نحره على متجدد الأزمان ومتناول السنين. وأمر أمير المؤمنين أن يتخير من رجال دولته، ووجوه أجناده وشيعته؛ طائفة يكون إليه انتماءؤها، وإلى شرف هذا النعت انتسابها واعتراؤها؛ فتوسم بالطائفة العهدية، وتخطي إذا أخلصت في الولاية بالسعادة الدائمة الأبدية؛ وتظل موقوفة على خدمته، متصرفة على أوامره وأمثلته؛ منتبهة في طاعته إلى أغراضه ومآربه، ملازمة للأزم المتعين من ملازمة الخدمة في مواكبه؛ والله تعالى يجعل ما رآه أمير المؤمنين من ذلك كافلاً بالخيرات، ضامناً لشمول المنافع وعموم البركات؛ إن شاء الله تعالى: والسلام على ولي عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.



وهذه نسخة بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة على هذه الطريقة، من إنشاء القاضي الفاضل؛ أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاث مرات، وهي:

من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني إلى فلان الفلاني، والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقدم في العهد قبله.

(٢) أما بعد، فالحمد لله الذي استحق الحمد بفضلِهِ، وأجرى القضاء [على ما أراده] ووسع الجرائم بعفوهِ وعدله؛ وصرف المراحم بين قوله وفعله، وأعلى منار الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط في أول الفقرة قبل ويكون العامل في حين بعده محذوفاً دل هذا عليه. تأمل.

(٢) بياض في الأصل والتصحيح من المقام.

وَأَرْشَدَ إِلَى أَهْلِهِ ؛ وَاخْتَارَ الْإِسْلَامَ دِينًا وَعَصَمَ الْمُعْتَلِقِينَ بِحَبْلِهِ ، وَأَوْضَحَ سُبُلَ النِّجَاةِ
بِمَا أَوْضَحَ لِسَالِكِيهِ مِنْ سُبُلِهِ ؛ وَتَعَالَى عُلَاهُ إِلَى الصِّفَاتِ ، فَلَمْ يُوصَفْ بِمِثْلِ قَوْلِهِ :
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾ وَتَنَزَّهَ عَنْ أَشْرَاطِ التَّشْبِيهَاتِ ، فِي كُلِّ جَلِيلٍ الْوَصْفِ مُسْتَقِلَّةً وَغَيْرِ
مُسْتَقِلَّةً ؛ عِلْمٌ مَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ خَطَرَاتُ الْأَسْرَارِ ، وَأَشَارَتْ إِلَيْهِ نَظَرَاتُ الْأَبْصَارِ ،
وَأَتَفَرَّجَتْ عَنْهُ تَغَمُّرَاتُ الْأَخْطَارِ ، وَأَخْفَتَهُ سِتْرَاتُ الظُّلُمَاءِ وَبَاحَتْ بِهِ جَهَرَاتُ
الْأَنْوَارِ : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الدِّينَ عِنْدَهُ الْإِسْلَامَ ، فَهَنْ أَبْتَغَى غَيْرَهُ صَلَّى الْمَنْهَجُ ، وَأَبْعَدَ
الْمَرْجُ ، وَأَسْتَلْقَحَ الْخُدْجَ ، وَغَلَطَ الْمَخْرَجَ ، وَفَارَقَ النُّورَ الْأَبْلَجَ ، وَرَكِبَ الطَّرِيقَ
الْأَعْوَجَ ، وَأَتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاللِّسَانِ الْمُلْجَلَجِ ؛ وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ إِلَيْهِ فَازَ بِالسَّعْيِ
النَّجِيحِ ، وَحَازَ الْمَتَجَرَ الرَّيِّحَ ؛ وَوَرَدَ الْمَوْرِدَ الْأَحْمَدَ ، وَيَمُّ الْقَصْدِ الْأَقْصَدَ ، وَوَجَدَ
الْجَدَّ الْأَسْعَدَ ، وَسَلَكَ الْمَنْهَجَ الْأَرْشَدَ ؛ فَهُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى ، وَالطَّرِيقَةُ الْمُثَلَّى ،
وَالدَّرَجَةُ الْعُلْيَا ؛ وَأَمَرَ بِهِ خَيْرُ الْمَرْسَايِنَ ، الْمَنْعَوْتُ فِي سَيْرِ الْأَوَّلِينَ ، الْمَبْعُوثُ بِالْحَقِّ
الْمُبِينِ ، وَالْقَائِمُ رَسُولًا فِي الْأُمِّيْنِ ، وَالْهَادِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ؛
وَالِدَاعِي الَّذِي مَنْ أَجَابَهُ وَآمَنَ بِهِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَأُجِيرَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ،
وَالْمُسْتَقِلُّ [بِالْعِبَادَةِ] الْعَظِيمِ ، بِفَضْلِ مَا مُنِحَ مِنْ انْخِلَاقِ الْعَظِيمِ ، وَالْمُدْوَحُ بِقَوْلِهِ :
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَصَلَ النُّبُوَّةَ بِالْإِمَامَةِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
وَخَصَّهَا بِالْخَصَائِصِ الَّتِي لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِسَامِ الْكَرَامَةِ ، وَأَجَارَهَا بِخَلْقِهِ مِنْ مَتَالِفِ

الطامة وبوادي الندامه ، وهدي بشرف مقامه إلى دار المقامه ؛ وأستردّ بأنوار تدبيره
من ظلام الباطل الظلامه ، وأحسن بما أجراه من نظره النظر للخاصة والعامة ،
(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) .

يمجده أمير المؤمنين أن رفعه إلى ذلك المحلّ المنيف ، وأستعمر به المقام الشريف ،
وأظهر كلمة الدين الحنيف ، ونفى عنه تعالى التعمق وتجديف التحريف ،
وبين بموافقة توفيق هديه طريق التكليف ، وأمدّه بمواد إلهية تستهرقتستغني عن
التعريف ، وتصل فتقطع مواد التكليف .

ويسأله أن يصلّي على جدّه محمد الذي نسخ بشريعته الشرائع ، وهذب بهدياته
المشارع ، وأيده بالحجج القواطع ، والأنوار السواطع ، وجعل من ذريته جبال الله
القوارع ، ومن مشكاته نجوم الهدى الطوالع ، وعُدّت صنائعه بالله إذا أفتخرت
المنعمون بالصنائع ؛ وعلى أخيه وأبنا أمير المؤمنين على بن أبي طالب المخصوص
بأخوته ، وأبي الثقلين من عترته ، والسابق إلى الإسلام فهو بعده أبو عذريته ؛
وإلى تفرج الكرب عن وجهه في الحرب فهو ابن بجدته . وعلى الأئمة من ذريتهما
مصايح الظلمات ، ومفاتيح الشكوك المبهمات ، والمنوحين من شرف السمات ،
ماجلّ عن المسامات ، والمدوحين بفضل الجاه في الأرضين والسّموات .

وإن الله بحكمته البديعه ، ورحمته الوسيعة ؛ أقام الخلفاء خلقه قواماً وبحقه
قواماً ، وجعل نار الحوادث بنورهم برداً وسلاماً ، وجعل لهم الهداية بأمره لزاماً ،
وأستصرف بهم عن الخلق عذاب جهنّم (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً) ؛ فهم أرواح
والخلائق أجسام ، وصباح والمسالك أظلام ، وثمرات والوجود أحكام ، وحكام
والحقائق أحكام ، يسهرون في منافع الأنام وهم نيام ، وينفردون بوصب النصّب

وَيُقِرُّوْنَهُمْ بِلَذَاتِ الْجَمَامِ ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدَايَاتِهِمْ إِلَى مَا تَدِقُّ عَنْهُ حَوَائِطُ الْأَفْهَامِ ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بَوَسَائِطِ إِلْهَامٍ . وَقَدْ أَصْطَفَى اللَّهُ الْأَمِيرَ مِنْ تِلْكَ الْأُسْرَةِ ، وَرَقَّاهُ شَرَفَ تِلْكَ الْمَنَابِرِ وَمُلْكَ تِلْكَ الْأُسْرَةِ ، وَأَنَارَ بِمَقَامِهِ نُجُومَ السَّعَادَةِ الْمُسْتَسْرَةِ ؛ وَأَسْتَخْدَمَ الْعَالَمَ لِأَغْرَاضِهِ ، وَسَدَّدَ كُلَّ سَهْمٍ فِي رَمِيهِ إِلَى أَغْرَاضِهِ ، وَأَقْرَضَ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَهُوَ وَاثِقٌ بِحُسْنِ عَوَاقِبِ إِقْرَاضِهِ ، وَأَفْتَرَضَ طَاعَتَهُ فِي خَلْقِهِ فَالْسَّعِيدُ مِنْ تَلَقَّى طَاعَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَقْتِرَاضِهِ ، وَأَمْضَى أَوَامِرَهُ عَلَى الْأَيَّامِ فَمَا يَقَابِلُهَا صَرْفٌ مِنْ صُرُوفِهَا بِاعْتِرَاضِهِ ، وَأَدَارَ الْحَقِّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ ، وَكَشَفَ لَهُ مَا أَسْتَجَنَّ تَحْتَ أَسْتَارِ الْأَقْدَارِ ، وَوَقَفَ الْخَيْرَ وَالنُّصْرَةَ عَلَى آرَائِهِ وَرَايَاتِهِ فَهُوَ الْمُسْتَشَارُ وَالْمُسْتَخَارُ ؛ وَأَهْلَمَهُ أَنْ يَحْفَظَ لِلْأُمَّةِ غَدَهَا كَمَا حَفِظَ لَهَا يَوْمَهَا ، وَأَنْ يُجَرِّىَ لَهَا مَوَارِدَ تَوْفِيقِ الْإِرْتِيَادِ وَلَا يُطِيلَ حَوْمَهَا ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ الْمُؤْمِنَ عَلَى تَلَجٍّ مِنَ الصُّدُورِ ، وَقَلْبٍ مِنَ الظُّهُورِ ، وَيُودِعَ عِنْدَهَا بَرْدَ الْيَقِينِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى مُسْتَوْدَعِ النُّورِ ؛ وَيَجْعَلَهَا عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَتَتَّبِعَهَا ، وَيُحِلِّهَا بِمَنْزِلَةِ الْخُصْبِ فَتَرْتَبِعَهَا ؛ وَيُعَلِّمُ نَدَى خَيْرِهِ لِيَكُونَ غَايَتَهَا وَمَقَرَّعَهَا ، وَيُعَرِّفَهَا مِنْ تَنْتَظَرُهُ فَتَنْتَظِرُهُ مَا لَهَا وَمَرْجِعُهَا ؛ وَيَقْتَدِي فِي ذَلِكَ بِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ ، وَيُسِيرُ إِلَى مَنْ يَقُومُ بِهِ الْمَشِيرُ مَقَامَ الْبَشِيرِ .

وَلَمَّا كُنْتَ حَافِظَ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّدِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُتَوَجَّعَ بِهِ السَّرِيرُ ، وَالنَّجْمِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ نَسْتَطِيلَ إِلَى أَنْوَارِهِ وَنَسْتَطِيرَ ، وَالذَّخِيرَةِ الَّتِي ادَّخَرَهَا اللَّهُ لِنَيْلِ كُلِّ خَطَرٍ وَدَفْعِ كُلِّ خَطِيرٍ ، وَالسَّحَابِ الَّذِي فِيهِ الثَّجُّ الْمَطِيرُ ، وَالنَّجْمِ الْمُنِيرُ ، وَالرَّجْمِ الْمُبِيرُ ، وَقَدْ تَجَلَّتْ لَكَ أَوْجُهُ الْكَرَامَاتِ وَتَبَدَّتْ ، وَتَبَرَّجَتْ لَكَ مَخْطُوبَاتِ الْمَقَامَاتِ وَتَصَدَّتْ ، وَطَلَبَتْكَ كُفًاءً لِنَيْلِ عَقِيلَتِهَا وَسُكْنَى مَعْقِلِهَا فَمَا تَعَدَّتْ ، وَأَدَّتْ إِلَيْكَ لَطَائِفَ فَهْمِكَ مِنْ أَسْرَارِ الْحَقَائِقِ مَا أَدَّتْ ؛ وَعَرَفْتَ مِنْ سِيَمَاكَ هَدَى النُّبُوَّةِ ، وَاجْتَمَعَ لَكَ مَرْيَةُ الشَّرَفَيْنِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ الْأَبُوءِ وَالْبُنُوءِ ، وَأَخَذْتَ كِتَابَ الْحِكْمَةِ

وَمَصُونِ الْعِصْمَةِ بِقُوَّةٍ ، وَأَجَرَتِ الْقُلُوبَ الَّتِي بِعَوَارِضِ الشَّكِّ مَمْنُونَةً ، وَآثَرَتِ الْعَقَائِدَ
الَّتِي بِنَوَاقِصِ الْعَقْدِ مَمْلُوءَةً ، وَغَدَّتْ وَجُوهَ الْأَنَامِ بِأَيَّامِكَ مَجْلُوءَةً ، وَتَوَافَقَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى
مَدْحِكَ وَلَا مِثْلَ مَا مُدِحَتْ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْلُوءَةِ ، وَكَنتَ بِحَيْثُ تَذْهَبُ بِالْأَهْوَالِ
الْمُسْلُوءَةِ ، وَتُقْبِلُ بِالْأَمَالِ الْمَرْجُوءَةِ ؛ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا ضَلَّ لَهْدَاهُ نُورُكَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ،
وَلَوْ أَنَّ ذِكْرَكَ شَدَّ تَبَدُّدِي فِي الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَلَوْ أَنَّكَ طَلَعْتَ عَلَى الْأَوَّلِينَ
لَمَا تَسَاءَلُوا وَلَا اخْتَلَفُوا فِي النَّبَاِ الْعَظِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ قَدِيمًا عَلَا فَوْقَ كُلِّ حَدِيثٍ لَقَامَ لَكَ
الْحَدِيثُ مَقَامَ الْقَدِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ الْأَنَامِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ لَصَعِدَتْ دُونَهُمُ الْمَقَامُ
الْكَرِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ يَدَكَ الْبَيْضَاءُ تَجَسَّمَتْ لِلنَّازِلِينَ لِأَعَدَّتْ آيَةَ مُوسَى الْكَلِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ
هِدَايَتِكَ الْغَرَاءَ تَسَمَّتْ لِلذَّاكِرِينَ لِأَحْيَيْتَ بِهَا الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، وَلَوْ أَنَّ عُلُومَكَ
أَنْتَشَرَتْ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لَتَلَّوْا : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ وَلَوْ أَنَّ لَيْلَةَ وَلَادَتِكَ رَصَدَتْهَا
الْبَصَائِرُ ، رَأَتْ كَيْفَ يُفَرِّقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، وَالصِّفَاتُ إِذَا أَحْتَفَلُ أَرْبَابُهَا وَقَفَتْ
لَكَ عِيْدًا ، وَالْأَيَّامُ إِذَا كَانَتْ ظُرُوفًا لِفَضَائِلِكَ كَانَتْ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا لِلْعِيْدِ عِيْدًا ،
وَالْأَنْسَابُ إِذَا عَدَدَتْهَا كَانَ الْجَدُّ سَعِيدًا ؛ فَلْتَفَخَّرْ قَبْلَ السَّيْرِ بِأَنْ أُمْلِيتَ عَلَيْهَا السُّورُ ،
وَأَبَشِرْ بِأَنْ الْمُنْتَظَرُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ لَكَ فَوْقَ مَا تَعَجَّلُهُ النَّظَرُ ، وَأَسْمَعْ بِأَنْ سَادَةَ الْقِبَائِلِ
مُضَرٌّ وَأَنْكَ بَعْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدٌ مُضَرٌّ ، وَأَبْدُخْ بِأَنْكَ عِوَضٌ مِنْ كُلِّ مَنْ غَابَ
وَمَاعِنَكَ عِوَضٌ فِي كُلِّ مَنْ حَضَرَ ، وَأَبْجَحْ بِأَنْكَ قَدْ أَهْلَتْ لِأُمِّي أَبِي اللَّهِ لَهُ إِلَّا أَوْلَى
الْعَزْمِ وَالْخَطَرِ ، وَأَشْكُرِ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةِ خَلْقِكَ لَهَا بِقَدَرٍ ، وَمَزِيَّةٍ لِأَبَوِي حَقَّهَا مِنْ أَضْمَرِ
فَأَغْرَقَ أَوْ نَطَقَ فَشَكَرَ : وَقِيلَ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ
هَدَانَا اللَّهُ ﴾ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ .

فإليك هذا الأمرُ يَصِيرُ، وأنتَ لَهُ واللهُ لك نِعَمُ المولى ونِعَمُ النصير، وتأهب له في درجته التي لا يَنَالُهَا بَاعُ قَصِير، ولا يَمْتَطِيهَا إِلَّا من آخِثَارِهِ اللهُ عَلَى عِلْمٍ من أهل الثقلين ولو أَنَّ بَعْضَهُمْ لَبَعْضُ ظَهِير، ولا نرى لها أهلاً إِلَّا مَنْ أَرَاهُ اللهُ من آيَاتِهِ أَنَّهُ هو السَّمِيعُ البصير، وفَاوِضْ أمير المؤمنين في مُشْكِلَاتِ الأمر ولا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ، وَأَقْتَدِ مِنْهُ بمن هو [في] أهل دهره وَصَى الوصى وَنَظِيرُ النَّذِير، وَأَهْتَدِ بِنُورِهِ الَّذِي هو بَالنُّورِ البَائِنِ دُونَ الخلقِ بَشِير، وَسِرِّ إِذَا اسْتَعْمَلَكَ اللهُ فِيهِمْ بما رَأَيْتَ أمير المؤمنين به فِيهِمْ يَسِير، وَأَدْعُ اللهَ بَأَن يَسِّرَ عَلَى يَدِكَ مَنَاجِحَهُمْ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير، وَأَعْرِفْ مَا أَثَرَك اللهُ بِهِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لِيَدِكَ كُفُوءًا إِلَّا ذَا الْفَقَارِ وَلَا لَقَدَمَكَ كُفُوءًا إِلَّا الْمَنْبَرِ والسريّر، وَتَحَدَّثْ بِنِعْمَةِ اللهِ وَإِجْرَائِهَا فَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ أَمِيرٌ وَأَنْتَ غَدًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرٌ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ .

وَأَمَّا الْعَدْلُ وَإِفَاضَتُهُ ، وَالْحَوْرُ وَإِغَاضَتُهُ ، وَالصَّعْبُ وَرِيَاضَتُهُ ، وَالْجَدْبُ وَتَرْوِيضُهُ ، وَالْخَطْبُ وَتَقْوِيضُهُ ، وَالْجِهَادُ وَرَفْعُ عِلْمِهِ ، وَالذَّبُّ عَنْ دِينِ اللهِ وَحِفْظُ حُرْمِهِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَشْرُ دَرَائِهِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَطَيُّ أَعْتِدَائِهِ ، وَإِقَامَةُ الْحَدِّ بِالصَّفْحِ وَالْحَدِّ ، وَالْمُسَاوَاةُ فِي الْحَقِّ بَيْنَ الْمَوْلَى وَالْعَبْدِ ، وَبَثُّ دَعْوَةِ اللهِ فِي كُلِّ غَوْرٍ مِنَ الْبِلَادِ وَتَجْدُّ ، وَأَمْرُ عِبَادِ اللهِ بِإِنْ عِبَادِ اللهِ فِي زَمَنِكَ الرِّغْدِ ، فَذَلِكَ عَهْدُ الْأَئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ ، وَهُوَ إِلَيْكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَهْدٌ مُؤَكَّدٌ الْعَقْدُ : وَهُوَ سُنَّةُ فَضْلِ الْخُلَفَاءِ الَّتِي لَا تَجِدُ لَهَا تَحْوِيلًا ، وَمَعْنَى الْعَهْدِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِالْوَفَاءِ بِهِ فَقَالَ : ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ .

وَهَلْ يُوصَى الْبَحْرُ بِتَلَاطُمِ أَمْوَاجِهِ؟ وَتَدَافُعِ أَفْوَاجِهِ؟ وَبِرَأْسِ عَجَاجِهِ؟ وَهَلْ يُحْضَرُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ عَلَى أَنْ يُنِيرَ سِرَاجُهُ، وَيَطْلُعَ لِيَتَّضِحَ لِلسَّالِكِ مِنْهَاجُهُ؟ أَوْ يُنْبِئُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ

إذا تهادته أبرأه ؟ عليك من سرائر أنوار الله ما يغنيك أن توصي ، ولدَيْكَ من ظواهر لطائف الله ما تميز به عن الخلق إذ أضحيت به مخصوصا ، ومن شواهد اختيار الله ما تظاهرت عليك آياته نصوصا ، فيسلام الله يحييك المؤمنون ، وبالإعتلاق بعصمة ولائِكَ في يوم الفزع الأكبر يأمنون ، والله مُجِزُّكَ وعدَه كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ، والله سبحانه يهدي إليك تحيةً من عنده مباركةً طيبةً ، ويُسِدي إلى مقام شرفك سحابةً رحمةً غدقةً صبيبهً ، ويجعل ما رآه أمير المؤمنين من ولايتك عهدَه ، وكفالتك للأمة بعده ، للسرات ناظما ، ولأساءات حاسما ، وللبركات جامعا ، وللباطل خافضا وللق رافعا . وأمر أمير المؤمنين أن يعين على رجال من أولياء دولته ، ووجوه شيعته ، وأنصار سريته ، عِدَّةٌ يكون إليك اعتراضها ولك اعتراضها ، وببابتك العالي إقامتها وإلى جنبائك أنحيارها ، فتكون موسومةً بالعبودية ، ومتعرضةً بالولاء للسعادة الأبدية ، فتستل على ما مثله من المراسم ، وتتصرف على ما تصرفها عليه من الغزائم ، وتكون أبدا لما ينفذ عنك من أحكام الهبات والمكّارم ، وتقوم من ملازمة الخدمة في مواجيك بما هو لكل خادم فرض لازم ، وتُسارع في مطالبك إلى ما يسارع إليه الحازم ، وتُجود باسماء الإنعام بالغدق الساجم . وتقدر لها من الواجبات والزيادات ما تقتضيه همم المكّارم ، تبدل في الخدمة الاجتهاد ، وتنافس فيما تستمد [به] الخطوة بحضرته والإححاد ، وعرضها من الإحسان الجمّ للآزدياد ، وبلغها المراد بما تبلغ بها من المراد : لتتشف بأن تكون تحت ركابه العالي متصرفه ، وتفتخر بأن تكون أنسابها باسمه العالي مشرفة ، إن شاء الله تعالى .

المذهب الثالث

(أن يَفْتَحَ العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله» ثم يَأْتِيَ بالبعدية،
ويأتى بما يُناسبُ الحالَ على نحو ما تقدم، وعليه عمل أهل زماننا
مع الاختصار على تجميد واحدة، والاختصار في القول)

وهذه نسخة أوردتها على بن خُلف من إنشائه في كتابه "مواد البيان" لترتيب
الكتابة في زمن الفاطميين، وهى :

الحمد لله مُعِزِّ دِينِهِ بِخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَمُرْتَبِّ حَقِّهِ بِأَوْلِيَائِهِ الْهَادِينَ؛ الَّذِي أَخْتَارَ
دِينَ الْإِسْلَامَ لَصَفْوَتِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ، وَخَصَّ بِهِ مَنْ اسْتَخْلَصَهُ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ؛ وَجَعَلَهُ
حَبْلَهُ الْمَتِينَ، وَدِينَهُ الَّذِي أَظْهَرَهُ عَلَى كُلِّ دِينٍ؛ وَسَبِيلَهُ الْأَفْصَحَ، وَطَرِيقَهُ الْأَوْضَحَ؛
وَأَتَّبَعَتْ بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فَصَدَعَ بِأَمْرِهِ، وَأَعْلَنَ بِذِكْرِهِ؛ وَالنَّاسُ فِي فِتْرَةٍ
الضَّلَالَةِ، وَعُمَرَةُ الْجَهَالَةِ؛ فَلَمَّا أُنْجِزَ فِي نُصْرَةِ حَقِّهِ، وَتَأْيِيدِهِ لِسُعْدَاءِ خَلْقِهِ [قبضه]^(١)
إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ الْأَثَرُ، طَيَّبَ الْخَبَرَ [وقام]^(١) بِخِلَافَتِهِ، مَنْ آتَخَبَهُ مِنْ طَهَرَةِ عِثْرَتِهِ؛ وَأَوْدَعَهُمْ
حِكْمَتَهُ، وَكَفَّلَهُمْ شَرِيعَتَهُ؛ فَاقْتَفَوْا سَبِيلَهُ، وَاتَّبَعُوا دَلِيلَهُ؛ كُلُّمَا قَبِضَ مِنْهُمْ سَلَفًا إِلَى
مَقَرِّ مَجْدِهِ، أَصْطَفَى خَلَفًا لِلْإِمَامَةِ مِنْ بَعْدِهِ .

يُحْمَدُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَفْضَى إِلَيْهِ بَرَاثَ الْإِمَامَةِ وَالرِّسَالَةِ، وَهَدَى بِهِ كَمَا هَدَى
يُحْمَدُ مِنَ الرِّبِّغِ وَالضَّلَالَةِ؛ وَأَخْتَصَّ بِمِيرَاثِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ، وَنَصَبَهُ رَحْمَةً لِلْكَافَةِ؛ وَأَتَمَّ
نِعْمَتَهُ [عليه] كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى آبَائِهِ، وَأَجَزَلَ حَقَّهُ مِنْ حُسْنِ بَلَاءِهِ؛ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا اسْتَرْعَاهُ،
وَوَفَّقَهُ فِيمَا وُلَّاهُ؛ وَأَنْهَضَهُ بِإِعْزَازِ الْمَلَّةِ، وَإِكْرَامِ الْأُمَّةِ؛ وَإِمَامَةِ الْبِدْعِ، وَإِبْطَالِ

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

المذهب المختار، وإحياء السنن، والاستقامة على لائح السنن، ووجهه من بينه
وذرئته، مؤازرين على ما حمله من أعباء خلافته، ومُظَاهِرِينَ على ما كلفه من إمعان
النظر في برئته.

ويسأله الصلاة على محمد خاتم أنبيائه، والخيرة من خُلصائه؛ الذي شرفه بختام
رُسله، وإقرار نيابته في أهله؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه وباب حكيمته،
على بن أبي طالب وصيه في أمته؛ وعلى الأئمة الطاهرة من ذريته، مناهج رحمته،
وسرر هدايته، وسلم تسليماً.

وإن الله تعالى جعل الخلافة للكافة عظمه، ولأهل الإيمان رحمه، تجمع
كلماتهم، وتحفظ ألفتهم؛ وتصلح عايتهم، وتقيم فرائضه وسُننه فيهم، وتمدُّ رُواق
العدل والأمانة عليهم؛ وتحسم أسباب الكفر والنفاق، وتقمع أهل العناد
والشقاق؛ ولذلك وصل الله جبل الإمامه، وجعلها كلمة باقية في عقب أوليائه
إلى يوم القيامة.

ولما نظر أمير المؤمنين بعين اليقين، وأقتبس من الحقيقة قَبَس [الحق] المبين،
عرَف ما بُنيت عليه الدنيا من سُرعة الزوال، وشك التحول والانتقال؛ وأن
ما قُوض الله إليه من خلافته لا بد أن يتقل عنه إلى أبنائه الميامين، كما أنتقل إليه
عن آباءه الراشدين؛ فلم يفتّر بمواعيدها المحال، وأصرب عما تتخذه به من الأمانى
والآمال؛ وأشفق على من كَفَله الله بسياسته، وحمله رعايته من أهل الإسلام
المعتصمين بحبل دعوته؛ المشتغلين بظُل بيعة، عند تقضى مدته ونزوعه إلى آخرته؛
في الوقت المعلوم، بالأجل المحتوم: من انتشار الكلمة، وأنبات العضمه؛
وأنشقاق العصا، وإراقة الدماء؛ واستيلاء الفتن، وتعطيل القروض والسنن؛ فنظر

لهم بما ينظم شملهم ، ويصل حبهم ، ويزجر ظلمتهم ، ويجمع كلمتهم ، ويؤلف
أفئدتهم ، ورأى أن يعهد إلى فلان ولده : لأنه قريبه في عليه وفضله ، وعقبيه
في إنصافه وعدله ، والمأموح من بعده ، والمرجو ليوه وغده ، ولما جمع الله له
من شروط الإمامه ، وكله له من أدوات الخلافه ، وجبله عليه من الرحمة والرافه ،
وخصه به من الرصانه والرجاحه ، والشجاعه والسماحه ، وآتاه من فضل الخطاب ،
وجوامع الصواب ومحاسن الآداب ، ووقاية الدين ، والغلظة على الظالمين ، واللطف
بالمؤمنين ، بعد أن قدم أستخارة الله تعالى فيه ، وسأله توفيقه لما يرضيه ، ووقف
فكره على اختياره ، ولم يكن باختياره مع إيثاره ، ويُلوح في شمائله ، ويستوضح
في مخايله ، أنه الولي المجتبي ، والخليفة المصطفى ، الذي يحى الله به ذمار الحق ،
ويعلى بسلطانه شعار الصدق ، وأنه - سبحانه - قد أفضى إليه بما أفضى به إلى
الخلفاء من قبله ، وأفاض عليه من الكامنات ما أفاضه على أهله ، وبعد أن عاقده
وعاهدته على مثل ما عاهدته عليه آبأؤه : من تقوى الله تعالى وطاعته ، وأستشعار
خيفته ومراقبته والعمل بكتابه وسنته ، وإقامة حدود الله التي حدّها ، بفروضة التي
وكدها ، والاعتداء بسلفه الراشدين ، في المكافئة عن الدين ، والمساهمة عن أوزار
المسلمين ، وبسّط العدل على الرعيه ، والحكم بينهم بالسّويه ، وإنصاف المظلوم
من الظلوم ، وكف يد المغتصب الغشوم ، وصرف ولّاة الجور عن أهل الإسلام ،
وتخير من ينظر بينهم في المظالم والأحكام ، وأن لا يؤلّى عليهم إلّا من يثق بعدالته ،
ويسكن إلى دينه وأمانته ، ولا يفسح لشريف في التعدي على مشرّف ، ولا يقوى
في التسايط على مضعوف ، وأن يحل الناس في الحقوق على السّاوي ، ويحرّهم
في دولته على التناصف والتكافى ، ويأمر مجّابه وتوّابه بإيصال الخاصّة والعامة إليه ،
وتمكينهم من عرض حوائجهم ومظالمهم عليه : ليعلموا : اللّواة والعُمال ، أن رعيته

على ذكر منه وبأل ؛ فِتَحَامُوا التثْقِيلَ عليهم والإضرار بهم . وأشهد عليه بكل ماشرطه
وحَدَّده ، والعمل بما يحمد إليه فيما تقلده . على أنه غني عن وصية وتبصير ، وتنبيه
وتذكير ؛ إلا أن محمداً سيد المرسلين يقول لعليّ صلى الله عليهما ” أُرْسِلَ عَاقِلًا ^(١)
الافاوصه “ .

فبايعوا على بركة الله تعالى طائعين غير مكرهين ، برغبة لا برهبة ، وبإخلاص
لا بمُدَاهَنه ، ببيعة رضاء واختيار ، وأتقياد وإيثار ، بصحة من نيأتكم ، وسلامة
من صدوركم ؛ وصفاء من عقائدكم ، ووفاء واستقامة فيما تضعون عليه أيمانكم :
ليُعرفكم الله [من] سُبوغ النعمة ، وشمول الخبرة ؛ وحسن العاقبة ، وأتفاق الكلمة ؛
مايقرونواظركم ، ويرد ضمائركم ؛ ويذهب غل صدوركم ويعز جانبكم ، ويذل
مجانبيكم ؛ فاعلموا هذا وأعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغني هذا الكتاب الذي ذكرناه معنى العهد ، فلا يحتاج إلى عهد :
وعلى ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ، ابن الحاكم بأمر
الله أحمد ، عهد ولده المستوثق بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :
الحمد لله الذي أيد الخلافة العباسية بأجل والد وأبر ولد ، وجعلها كلمة باقية
في عقبه والسند كالسند ، وآواهم من أمرهم إلى الكهف فالكهف وإن تنأهى
العدد ؛ وزان عطفها بسود سواد شعارهم المسجلة أنوارهم ولا شك أن النور
في السواد ، وعدق بصولتهم النبوى معجزها كل مناد ^(٢) .

(١) كذا في الأصول مضبها عليه وحرر .

(٢) لعله وقدع . أى كف . تأمل .

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ فِيهِمْ ، وَزُورِ الْرَحْمَةِ بِتَوَافِيهِمْ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مَحْضَةً الْإِخْلَاصِ ، كَافِلًا مُحْضًا بِالْفِكَارِ مِنْ أَسْرِ الشِّرْكِ وَالْخَلَاصِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِمَا أَوْصَحَ سَبِيلَ الرِّشَادِ ، وَقَعَ أَهْلُ الْعِنَادِ ، وَالشَّفِيعُ الْمَشْفَعُ يَوْمَ التَّنَادِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً لَا أَنْقِضَاءَ لَهَا وَلَا نَقَادَ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (وَيَذْكُرُ اسْمَهُ) يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَذَرُ مَا جَعَلَ اللَّهُ [لَهُ] مِنَ التَّفْوِيزِ ، وَيُشِيرُ إِلَى الصَّوَابِ فِي كُلِّ تَصَرُّعٍ مِنْهُ وَتَعْرِيزٍ ، وَإِنَّهُ شَدَّ اللَّهُ أَرْزَهُ ، وَعَظَّمَ قُدْرَهُ ، أَسْتَخَارَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْوَصِيَّةِ بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْخِلَافَةِ الْمَعْظَمَةِ الْمَفْتَخِمَةِ الْمُوَرَّثَةِ عَنِ الْآبَاءِ وَالْجُدُودِ ، الْمُلقَاةِ إِلَيْهِ مَقَالِيدُهَا كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْوَالِدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْمَوْلُودِ ، وَلَوْلَدِهِ السَّيِّدِ ، الْأَجَلِّ ، الْمَعْظَمِ ، الْمَكْرَمِ ، فَلَانٍ ، سَلِيلِ الْخِلَافَةِ وَشَيْبِلِ غَايِهَا ، وَنُحْبَةِ أَحْسَابِهَا وَأَنْسَابِهَا ، أَجَلَهُ اللَّهُ وَشَرَّفَهُ ، وَجَمَّلَ بِهِ عِطْفَ الْأَمَانَةِ وَقَوَّهَ : لِمَا تَلَمَّحَ فِيهِ مِنَ النِّجَابَةِ اللَّائِحَةِ عَلَى شِمَائِلِهِ ، وَظَهَرَ مِنْ مَسْتَوْتِقِ إِبْدَاءِ سِرِّهِ فِيهِ بَدَائِلُ بُرْهَانِهِ وَبُرْهَانِ دَلَائِلِهِ ، وَأَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ - صَانِعِهَا اللَّهُ تَعَالَى - مَوْلَانَا أَوْ سَيِّدُنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنْ حَضَرَ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ : قُضَاةَ قُضَايَتِهِمْ ، وَعِلْمَاءَهُمْ ، وَعُدُولَهُمْ ، يَجْلِسُ الشَّرِيفُ ، أَنَّهُ رَضِيَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ فِي الْخِلَافَةِ الْمَعْظَمَةِ ، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ الْآنَ لَوْلَدِهِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ فَلَانٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَسَّحَ اللَّهُ فِي أَجَلِهِ ، وَعَهْدَ بِذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَعَوَّلَ فِي أَمْرِ الْخِلَافَةِ عَلَيْهِ ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدُهَا ، وَجَعَلَ بِيَدِهِ زِمَامَ مُبْدِئِهَا وَمُعِيدِهَا ، وَصَّى لَهُ بِذَلِكَ جَزِيئَةً وَكُلِّيَّةً ، وَغَايِضَهُ وَجَلِيَّةً ، وَصِيَّةً شَرْعِيَّةً بِشُرُوطِهَا الْإِلَازِمَةِ الْمَعْتَبَرَةِ ، وَقَوَاعِدِهَا الْمَحْرَرَةِ ، أَشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فِي تَارِيخِ كَذَا .

الوجه السابع

(فيما يكتب في مستند عهد ولى الخلافة عن الخليفة ، وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة ، وما يكتب في ذيل العهد بعد إتمام نسخته من قبول المعهود إليه ، وشهادة الشهود على العهد)

أما ما يكتب في المستند ، فينبغي أن يكون كما يكتب في عهود الملوك عن الخلفاء ، على نحو ما تقدم في البيعات ؛ وهو أن يكتب : « بالإذن العالى ، المولوى ، الإمامى ، النبوى ، الفلانى » (بقلب الخلافة) أعلاه الله تعالى « أو نحو ذلك من الدعاء .

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة ، فينبغي أن يكتب : « عهدي إليه بذلك » : لأنه اللفظ الذى ينعقد به العهد . ولو كتب : « فوضت إليه ذلك » كما يكتب الخليفة في عهد السلطان الآن على ماسياتى ، كفى ذلك . والأليق بالمقام الأول .

وأما ما يكتب في ذيل العهد بعد إتمام نسخته ، فالمقول فيه عن المتقدمين ما كتب به « على الرضى » تحت عهد المأمون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمد لله الفعال لما يشاء ، لأمعق لحكمه ، ولا راد لقضائه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ وصلواته على نبيه محمد خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين . أقول وأنا على بن موسى بن جعفر : إن أمير المؤمنين عصده الله بالسداد ، ووفقه للرشاد ؛ عرف من حقنا ما جهله غيره : فوصل أرحاما قطعت ، وأمن أنفسا فرغت ، بل أحيها وقد تلفت ، وأغناها إذ أفقرت ؛ متبعا رضا رب العالمين ، لا يريد جزاء من غيره وسيجزى الله الشاكرين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛

وإنه جعل إلى عَهْدِهِ، والإمرة الكبرى إن بقيت بعده؛ فمن حلَّ عُقْدَةً أمر الله بشدّها، أو قَصَمَ عُرْوَةَ أَحَبِّ الله إليها، فقد أباح حريمه وأحلَّ محرّمه؛ إذ كان بذلك زارياً على الإمام، متبركاً حرمة الإسلام؛ بذلك جرى السالف فصبر منهم على القتل، ولم يُعترض بعدها على العزّات؛ خوفاً على شتات الدين، وأضطراب حبل المسلمين؛ ولقرب أمر الجاهلية ورصد فرصة تُنتهز، وباقية تُتدبر؛ وقد جعلتُ لله تعالى على نفسي إن استرعى على المسلمين، وقلدني خلافته، العمل فيهم عامّة وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصّة بطاعته وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا أسفك دمًا حراماً، ولا أبيع فرجاً ولا مالا؛ إلا ماسفكته حدوده، وأباحته فرائضه؛ وأن أتخير الكفاة جهدي وطاقتي. جعلتُ بذلك على نفسي عهداً مؤكّداً يسألني [الله] عنه، فإنه عزّ وجل يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾. فإن أحدث أو غيرت أو بدلت، كنت للغير مستحقاً، وللنكال متعرّضاً؛ وأعوذ بالله من سخطه، وإليه أرغب في التوفيق لطاعته، والحوّل بيني وبين معصيته، (في عامّة المسلمين؛ والخاصّة والحزبيّة لان على ضدّ ذلك) : ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾. لكنني آمنتُ أمر أمير المؤمنين وآثرت رضاه، والله يعصمني وإياه؛ واشهدتُ الله على نفسي بذلك وكفى بالله شهيداً. وكتبتُ بخطي بحضرة أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكرم، وإسحق بن المعتز، وحماد بن العثمان، في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

ثم كتب فيه من حضر من هؤلاء، وهذه صورة كتابتهم.

فكتب الفضل بن سهل وزير المأمون ماضوته :

(١) ثبتت هذه العبارة في الاصل وعليها علامة التوقف . ولم نثر عليها في غير هذا الكتاب . تأمل .

”رسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قراءة مضمون هذا المكتوب: ظهره وبطنه، بحرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين الروضة والمنبر على رؤوس الأشهاد، ومرأى ومسمع من وجوه بنى هاشم وسائر الأولياء والأجناد، وهو يسأل الله أن يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد والميثاق، بما أوجب أمير المؤمنين الحجة به على جميع المسلمين، وأبطال الشبهة التي كانت أعترضت آراء الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾. وكتب ”الفضل بن سهل“ في التاريخ المعين فيه“.

وكتب عبد الله بن طاهر ماصورته « أثبت شهادته فيه بتاريخه عبد الله بن طاهر بن الحسين ».

وكتب يحيى بن أكرم القاضي ماصورته: « شهد يحيى بن أكرم على مضمون هذه الصحيفة ظهرها وبطنها، وكتب بخطه بالتاريخ ».

وكتب حماد بن النعمان ماصورته: « شهد حماد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنه، وكتب بيده بتاريخه ».

وكتب بشر بن المعتمر ماصورته: « شهد بمثل ذلك بشر بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ ».

قلت: وعلى نحو ما تقدم من كتابة المعهود إليه بالقبول وشهادة الشهود على العهد ينبغي أن يكون العمل أيضا في زماننا: ليجتمع خط العاهد بالتفويض على ما تقدم، وشهادة الشهود. ولو اقتصر المعهود إليه في الكتابة على قوله: « قِلْتُ ذلك » كان كافيا، وإن كان أميا أكفى بشهادة الشهود.

الوجه الثامن.

(في قطع الورق الذي يُكْتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلم الذي يُكْتَب به،
وكيفية كتابتها وصورة وضعها)

أما قطعُ الورق فمقتضى قول المقرِّ الشَّهابي بن فضل الله في "التعريف" أنَّ للعهود قطعَ البغدادىِّ الكامل، وأنَّ عهودَ الخلفاء تُكْتَب في البغدادىِّ كما هو مستعملُ في عهودِ الملوك عن الخلفاء، على ما سيأتى في موضعه إن شاء الله تعالى. وهو مقتضى ما تقدّم في الكلام على قطع الورق في مقدّمة الكتاب نقلًا عن محمد بن عمر المدائنى في كتاب "القلم والدواة" أنَّ القطع الكامل للخلفاء.

قلت : وقد أخبرنى من يُوثَّق به أنه وقَّف على عهد المعتضد بالله أبى الفتح أبى بكر، والد المتوكل على الله : أبى عبد الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب في قطع الشامىِّ الكامل، وأنه كُتِبَ عهد المتوكل على ظهره بخط الشهود دون كاتب إنشاء. وكأنهم لما تفهقَرت الخلافةُ وضعُف شأنُها، وصار الأمرُ إلى الملوك المتغلبين على الخلفاء، تنازلوا في كتابة عهودهم من قطع كامل البغدادى إلى قطع الشامى. وهذا هو المناسبُ للحال في زماننا.

وأما القلم الذى يُكْتَب به، فالحكم فيه ما تقدّم في البيعات، وهو إن كُتِب العهدُ في قطع البغدادى، كُتِبَ بقلم محتصر الطُّومار. وإن كُتِبَ في قطع الشامى، كُتِبَ بقلم الثلاثين الثَّقيل.

وأما كيفية الكتابة وصورة وضعها، فعلى ما تقدّم في كتابة البيعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطَّرة في أول الدَّرج بالقلم الذى يُكْتَب به العهدُ سُطورا متلاصقةً ممتدةً

في عَرْض الدَّرَج من أوله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابة في قَطْع
 البَغْدَادِيّ الكامل ، جرى فيه على القاعدة المتداولة في عُهُود الملوك عن الخلفاء ؛ فَيُزَكُّ
 بعد الوصل الذي فيه الطَّرَة سِتَّة أوصال بياضاً من غير كتابة ، ثم يَكْتُبُ البِسْمَلَةَ
 في أول الوصل الثامن بحيث يُلْحَقُ أَعْلَى أَلِفَاتِهِ بالوصل الذي فوقه ، بهامش قَدَر
 أربعة أصابع أو خمسة ؛ ثم يَكْتُبُ تحت البِسْمَلَةَ سَطراً من أول العهد ملاصقاً لها ؛
 ثم يَخْلِي مكان بيت العلامة قَدَر شبر كما في عُهُود الملوك ؛ ثم يَكْتُبُ السطر الثاني
 تحت بيت العلامة على سَمْتِ السطر الذي تحت البِسْمَلَةَ . ويَحْرُسُ أن تكون نهاية
 السجعة الأولى في السطر الأول أو الثاني ؛ ثم يَسْتَرْسِلُ في كتابة بقية العهد إلى آخره ،
 ويجعل بين كل سطرين قَدَر رُبْع ذراع بذراع القماش . فإذا آتته إلى آخر العهد ،
 كتب « إن شاء الله تعالى » ثم المَسْتَنَد ، ثم الحمدلة ، والصلاة على النبي صلى الله
 عليه وسلم والحسبلة ، على ماتقدم في الفواتح والحوادث . ثم يكتب المعهود إليه
 والشهود بعد ذلك . وإن كُتِبَ في قطع الشامي ، فعلى ماتقدم في البيعات : من
 أنه ينبغي أن يُقْتَصَرَ في أوصال البياض على خمسة أوصال ، ويكون الهامش قَدَر
 ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه في الورق ، ممثلاً فيها بالطَّرَة التي أنشأها ، على ماتقدم ذكره
 في العهد الذي أنشأته على لسان الإمام المتوكل على الله خليفة العصر لولده العباس .
 وهو العهد الأخير من المذهب الأول من عُهُود الخلفاء عن الخلفاء

هذا عهد إمامي قد علت جدوده ، وزاد في الارتقاء في العلياء صعوده ، وفصلت
بالجواهر فلائده ونظمت بنفيس الدر عقوده ، من عبد الله ووليه الإمام المتوكل
على الله أبي عبد الله محمد ابن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر ، بالخلافة
المقدسة لولده السيد الجليل ، ذخيرة الدين ، وولي عهد المسلمين ، أبي الفضل
العباس ، بلغه الله تعالى فيه غاية الأمل ، وأقر به عين الأئمة كما أقر به عين أبيه
وقد فعل على ما شرح فيه

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد سعيد الطالع ميمون الطائر مبارك الأول هاشم

عهدت إليه بذلك

وكتب فلان بن فلان

تاريخ
الخلافة

صورة خط الخلافة

جميل الأوسط حميد الآخر تشهد به حضرات الأملاك

وترفعه كف الثريا بأقلام القبول في صحائف الأفلاك وتباهي

به ملائكة الارض ملائكة السماء ، وتسرى بنشره القبول إلى الأقطار

قد رجع ذراع

والباقي بالشرح

هَامِش
فَتَنْشُرْ لَهُ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ عِلْمًا، وَتُطْلَعُ بِهِ سَعَادَةُ الْجَدِّ مِنْ مُلُوكِ الْعَدْلِ
فِي كُلِّ أَفْقٍ نَجْمًا.

ثُمَّ يَأْتِي عَلَى الْكَلَامِ إِلَى آخِرِ الْعَهْدِ عَلَى هَذَا النَّمَطِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
قَوْلِهِ فِيهِ «وَاللَّهِ تَعَالَى يَبْلُغُهُ مِنْكَ أَمَلًا، وَيَحَقِّقُ فِيكَ عِلْمًا وَيُزَكِّيْكَ بِكَ عَمَلًا»

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

كُتِبَ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْحَزَمِ
سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِمِائَةٍ

بِإِذْنِ الْعَالِي، الْمُؤَلَّوِي، الْإِمَامِي، النَّبَوِي، الْمَتَوَكِّلِي،

أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَامُهُ

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

شَهِدَ عَلَى الْعَاهِدِ وَالْمَعْهُودِ إِلَيْهِ
فِيهِ زَادَهُمَا اللَّهُ شَرَفًا
وَكُتِبَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ
وَكَذَا بَقِيَّةُ الشُّهُودِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَبِلْتُ ذَلِكَ
وَكُتِبَ فُلَانٌ وَلِيُّ
جَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

صُورَةُ خَطِّ الْمَعْهُودِ

النوع الثاني

(عهود الخلفاء للوك ، ويتعلق النظر به من سبعة أوجه)

الوجه الأول

(في أصل مشروعتها)

والأصل فيها مارواه ابن إسحاق وغيره : أنه لما رجع وفد بني الحريث بن كعب إلى قومهم باليمن بعد وفود [هم] على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بأربعة أشهر ، بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ، يفقههم في الدين ، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم . وكتب له كتاباً عهد فيه عهده ، وأمره فيه أمره ، على ماسياتي ذكره في أول نسخ العهود الواردة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . فقد فوض النبي صلى الله عليه وسلم أمره أئمن في حياته إلى عمرو بن حزم رضى الله عنه . وذلك أصرح دليل وأقوم شاهد لما نحن فيه .

الوجه الثاني

(في بيان [معنى] الملك والسلطنة اللتين يقع العهد بهما)

قد تقدم في الكلام على الألقاب نقلاً عن " الفروق " في اللغة للعسكري أن الملك أخص من السلطنة : لأن الملك لا يطلق إلا على الولاية العامة ، والسلطنة تُطلق على أنواع الولايات ؛ حتى إن الفقهاء يعبرون عن القاضي ووالي البلد في أبواب الفقه بالسلطان .

ثم تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعبائها على ثلاثة أقسام :

القسم الأول — وهو أعلاها وزارة التفويض ، وهو أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده ، وينظر فيها على العموم .
وعلى ذلك كانت السلطنة في زمن الخلفاء الفاطميين بمصر على ماسياتى ذكره .
قال الماوردى في "الأحكام السلطانية" : ولا يمتنع جواز مثل ذلك : لأن كل ما وكل إلى الإمام من تدبير [الأمة] لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستئابة ،
ونياية الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور ، [من تفرده بها] ليستظهر^(١)
به على نفسه ولنفسه ، فيكون أبعد من الزلل ، وأمنع من الخلل . قال : وتعتبر^(٢)
في [تقليد] هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده . وقد تقدم بيان شروط الإمامة في الكلام على البيعات . ثم قال : وكل ما صح من الإمام صح من وزير التفويض إلا في ثلاثة أشياء :

أحدها — ولاية العهد . فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير .

الثاني — أن للإمام أن يستعفى الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير .

الثالث — أن للإمام أن يعزل من قبله الوزير وليس للوزير أن يعزل من قبله الإمام .

وتفارق هذه الوزارة الخلافة في عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما — مختص بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير وتدير الأمور : ليقتر منها ماوافق الصواب ، ويستدرك ماخالفه : لأن تدير الأمة إليه موكل ، وعلى اجتهد محمول .

والثاني — مختص بالوزير . وهو مطالعة الإمام بما أمضاه من تدير ، وأنفذه من ولاية وتقليد : لئلا يصير بالاستبداد كالإمام .

أما وزارة التنفيذ فسيأتي الكلام عليها في تقليد الوزارة إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني — إماره الاستكفاء .

وهي التي تتعد عن اختيار من الخليفة . وتشتمل على عمل محدود ونظر مهود ، بأن يفوض الخليفة إليه إماره بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله ، ونظراً في المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ، ومعهوداً من نظر . قال الماوردي : فينظر فيما إليه في تدير الجيش ، وترتيبه في النواحي ، وتقدير أرزاقهم إن لم يكن الإمام قد قدرها ، وإدارها عليهم إن كان الإمام قد قدرها ، وكذلك [النظر في] الأحكام ، وتقليد القضاة والحكام ، وجباية الخراج ، وقبض الصدقات والعمل فيهما ، وتفريق ما يستحق منهما ، وحماية الحرم ، والذب عن البيضة ، ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، وإقامة الحدود في حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين ، والإمامة في الجمع والجماعات بالقيام بها ، والاستخلاف عليها ، وتسيير الحجيج من عمله ومن يتر عليه من غير عمله ، وجهاد من يليه من العدو ، وقسم الغنائم في المقاتلة ، وأخذ خمسها لاهل الخمس . وله أن يتخذ وزير تنفيذ لا وزير تفويض .

وعلى هذا كانت الأمراء والمُعال في الأقاليم والأمصار من ابتداء الإسلام إلى أن تغلب المتغلبون على الأمر واستضعف جانب الخلفاء .

قال الماوردي : ويعتبر في هذه الإمارة ما يعتبر في وزارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق في الشروط المعبرة فيها .

القسم الثالث - إمارة الاستيلاء .

وهي أن يقلده الخليفة الإمارة على بلاد ويفوض إليه تديرها ، فيستولى عليها بالقوة ، فيكون [الأمير] باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدير ، والخليفة بإذنه ينفذ أحكام الدين : لتخرج عن الفساد إلى الصحة ، ومن الخطر إلى الإباحة ، نافذ التصرف في حقوق الملة وأحكام الأمة . وهذا ما صار إليه الأمر بعد التغلب على الخلفاء ، والاستبداد بالأمر بالعبية والقوة .

قال الماوردي : وهذا وإن خرج عن عرف التقليد المطلق في شروطه وأحكامه ، ففيه [من] حفظ قوانين الشرع وحراسة الأحكام الدينية مالا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ، ولا فاسدا معلولا ، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ، ما امتنع في تقليد الاستكفاء والاختيار : لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز .^(٢) قال : والذي يحفظ بتقليد المستولي من قوانين الشريعة سبعة أشياء ، يشترك في الترامها الخليفة المولى والأمير المستولى ، ووجوبها في جهة المستولى أغلظ .

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التي تعقد عن اضطراب فهي أن يستولى بالقوة على بلاد يقلده الخليفة لإمارتها ويفوض إليه الخ وهي أوضح وأصرح .

(٢) في المصباح . وله مكنة أى قوة وشدة .

أحدها - حِفْظُ مَنْصِبِ الإِمَامَةِ فِي خِلاَفَةِ النُّبُوَّةِ، وَتَدْيِيرِ أُمُورِ الْأُمَّةِ : لِيَكُونَ مَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ مِنْ إِقَامَتِهَا مُحْفُوظًا، وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهَا مِنَ الْحَقُوقِ مُحْرُوسًا .

والثاني - ظُهُورُ الطَّاعَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي يَزُولُ مَعَهَا حُكْمُ الْعِنَادِ فِي الدِّينِ ، وَيَنْتَفِي بِهَا مَأْتَمُ الْمُبَايَنَةِ لَهُ .

والثالث - أَجْتِمَاعُ الْكَلِمَةِ عَلَى الْأَلْفَةِ وَالتَّنَاصُرِ : لِيَكُونَ الْمُسْلِمُونَ يَدًّا عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ .

والرابع - أَنْ تَكُونَ عُقُودُ الْوِلَايَاتِ الدِّينِيَّةِ جَائِزَةً، وَالْأَحْكَامُ وَالْأَقْضِيَّةُ [فِيهَا] نَافِذَةً ؛ لَا تَبْطُلُ بِفَسَادِ عُقُودِهَا، وَلَا تَسْقُطُ بِحُلُلِ عُهْدِهَا .

الخامس - أَنْ يَكُونَ اسْتِيفَاءُ الْأَمْوَالِ الشَّرْعِيَّةِ بِحَقِّ تَبَرُّأٍ بِهِ ذِمَّةٌ مُؤَدِّيَهَا ، وَيُسْتَبِيحُ أَحَدُهَا وَمُعْطِيهَا .

السادس - أَنْ تَكُونَ الْحُدُودُ مُسْتَوْفَاةً بِحَقِّ ، وَقَائِمَةً عَلَى مُسْتَحَقِّ ؛ فَإِنَّ جَنْبَ الْمُؤْمِنِ حِمَى إِلَّا مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُدُودِهِ .

السابع - أَنْ يَكُونَ لِلْأُمَّةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَازِعٌ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى، بِأَمْرِ بِحَقِّهِ إِنْ أُطِيعَ ، وَيَدْعُو إِلَى طَاعَتِهِ إِنْ عُصِيَ . ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ كُنْتُ فِيهِ شُرُوطُ الْإِخْتِيَارِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، كَانَ تَقْلِيدُهُ حَتْمًا اسْتِدْعَاءً لَطَاعَتِهِ ، وَدَفْعًا لِمُشَاقَقَتِهِ وَخِلَافَتِهِ ؛ وَجَرَى عَلَى مَنْ اسْتَوَزَرَهُ أَوْ اسْتَنَابَهُ أَحْكَامُ مَنْ اسْتَوَزَرَهُ الْخَلِيفَةُ أَوْ اسْتَنَابَهُ . وَإِنْ لَمْ تَكُنْ [فِيهِ] شُرُوطُ الْإِخْتِيَارِ ، جَازَ لَهُ إِظْهَارُ تَقْلِيدِهِ اسْتِدْعَاءً لَطَاعَتِهِ وَحَسْمًا لِمُخَالَفَتِهِ وَمَعَانَدَتِهِ ؛ وَكَانَ نَفْذُ تَصَرُّفَاتِهِ فِي الْحَقُوقِ وَالْأَحْكَامِ مَوْقُوفًا عَلَى أَنْ يَسْتَتِيبَ الْخَلِيفَةُ

له مَنْ تَكَامَلَتْ فِيهِ الشُّرُوطُ . قَالَ : وَجَازَ مِثْلُ هَذَا وَإِنْ شَدَّ عَنْ الْأَصُولِ : لِأَنَّ
الضَّرُورَةَ تُسْقِطُ مَا عُوِزَ مِنْ شُرُوطِ الْمَكِينَةِ .

قُلْتُ : وَمَمْلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ حِينَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى زَمَانِنَا
دَائِرَةٌ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ ، لَا تَكَادُ تَخْرُجُ عَنْهَا : فَكَانَتْ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ « إِمَارَةٌ
أَسْتَكْفَاءٌ » يُوَلَّى عَلَيْهَا الْخَلِيفَةُ فِي كُلِّ زَمَنٍ مَنْ يَقُومُ بِأَعْبَائِهَا ، وَيَتَصَرَّفُ فِي أُمُورِهَا ،
قَاصِرُ الْوِلَايَةِ عَلَيْهَا ، وَاقِفٌ عِنْدَ حَدٍّ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلِيفَةِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ،
إِلَّا مَا كَانَ فِي أَيَّامِ بَنِي طُوْلُونَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ طَاعَةِ الْخُلَفَاءِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ .
فَلَمَّا أَسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْفَاطِمِيُّونَ وَأَسْتَوَزَرُوا أَرْبَابَ السُّيُوفِ فِي أَوَائِحِ دَوْلَتِهِمْ ،
وَعُظُمَتْ كِبَرُهُمْ عِنْدَهُمْ ، صَارَتْ سُلْطَانَتُهَا « وَزَارَةٌ تَقْوِيضٌ » . وَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُخْتَجِبُ
وَالْوَزِيرُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَمْلَكَةِ كَالْمُلُوكِ الْآنَ أَوْ قَرِيبَ مِنْهُمْ . وَكَانُوا يُلقَّبُونَ بِالْقَابِ
الْمُلُوكِ الْآنَ : كَالْمَلِكِ الْأَفْضَلِ رِضْوَانِ وَزِيرِ الْحَافِظِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِالْمَلِكِ
مِنْهُمْ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاةٍ فِي تَارِيخِهِ . وَالْمَلِكُ الصَّالِحُ طَلَّاعِ بْنِ رُزَيْكِ
وَزِيرُ الْفَائِزِ ثَمَّ الْعَاضِدِ . وَالْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَسَدُ الدِّينِ شِيرْكُوهُ بْنُ شَادِي وَزِيرُ الْعَاضِدِ ،
وَأَبْنِ أَخِيهِ صِلَاحُ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَزِيرُ الْعَاضِدِ أَيْضًا ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِلَّ
بِالْمُلْكِ وَيُخْطَبَ بِالْدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لِبَنِي الْعَبَّاسِ بَيْقَدَادَ . وَلَا تُنْكَرُ فِي تَسْمِيَةِ الْوَزِيرِ مَلِكًا ،
فَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ
أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَلِكِ الْوَزِيرُ لَا الْمَلِكُ نَفْسَهُ . وَلَمَّا أَتَرَعَتْ مِنْ
الْفَاطِمِيِّينَ وَصَارَتْ إِلَى بَنِي أَيُّوبَ ، وَكَانُوا يَلُونَهَا عَنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ ،
صَارَتْ « إِمَارَةٌ أَسْتِيلَاءٍ » لَا سَتِيلَاءَ عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ ، وَأَسْتَبْدَادِهِمْ بِالْأَمْرِ وَالتَّسْدِيرِ
مَعَ أَصْلِ إِذْنِ الْخَلِيفَةِ وَتَقْلِيدِهِ . وَكَانَ الرَّشِيدُ قَدْ لُقِّبَ « جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ »

في زمن وزارته له بالسلطان ، ولم يأخذ الناس في التلقيب به . فلما تغلب
الملوك بالشرق على الخلفاء وأستبدوا عليهم ، صار لقب السلطان سمة لهم ، مع
ما يختصهم به الخليفة من ألقاب التشريف : كَشَرَف الدَّوْلَة ، وَعَضُد الدَّوْلَة ،
وَرُكْن الدَّوْلَة ، وَمُعِزُّ الدَّوْلَة ، وَعِزُّ الدَّوْلَة ، ونحو ذلك . وشاركهم في لقب السلطنة
غيرهم من ملوك النواحي ، فلقب بذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتلقب
بالمملك الناصر عند استبداده بالملك على العاضد الفاطمي بعد وزارته له ، ونقل
ما كان من وزارة التفويض والعهد بها إلى السلطنة ، وصارت الوزارة عن السلطان
معدومة بقدر مخصوص من التصرف . وبقى الأمر على ما هو عليه من الاستيلاء
والإستبداد بالملك ، مع أصل إذن الخليفة وكتابة العهد بالملك ، وهي على ذلك إلى
زماننا ، إلا ما كان في زمن تعطيل جيد الخلافة من الخلفاء ، من حين قتل التتار
« المستعصم » آخر خلفاء بني العباس ببغداد إلى حين إقامة الخليفة بمصر
في الدولة الظاهرية ببرس . على أن في السلطنة الآن شها من وزارة التفويض ،
فإن الخليفة يفوض إليه في تقليده تدير جميع الممالك الإسلامية بالتفويض العام
لايستثنى منها شيئا . وغير هذه المملكة وإن كان خارجا عن يده فهو داخل في عموم
ولآيته ، حتى لو غلب على شيء منها أو فتحه لم يحتج فيه إلى تولية جديدة من
الخليفة . ولا مانع لذلك : فسيأتي في الكلام على المناشير أنه يجوز للإمام أن يقطع
أرض الكفر قبل أن تفتح ، وإذا جاز ذلك في الإقطاع ففي هذا أولى . وحينئذ
فتكون سلطنة الديار المصرية الآن مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء .

الوجه الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فيه)

وأعلم أنه يجب على الكاتب مراعاة أمور :

منها — براعة الاستهلال بما يتبها له من اسم السلطان أو لقبه الخاص : مثل فلان الدين ، أو لقبه بالسلطنة : مثل الناصر ، والظاهر ، ونحوهما ؛ أو غير ذلك مما يدل على ما بعده قبل الإتيان به كما تقدم في البيعات وعهود الخلفاء .

ومنها — التنبيه على شرف السلطنة وعزوتها ، ووجوب القيام بأمر الرعية ، وتحمل ذلك عن الخليفة .

ومنها — الإشارة إلى اجتهد الخليفة وإعمال فكره فيمن يقوم بأمر الأمة ، وأنه لم يجد بذلك أحق من المعهود إليه ولا أولى به منه ، فيصفه بالصفات الجميلة ، ويثني عليه بما يليق بمقام الملك .

ومنها — الإشارة إلى جريان لفظ تنعقد به الولاية من عهد أو تقليد أو تفويض ، وقبول ذلك ، ووقوع الإشهاد على الخليفة بالعهد .

ومنها — إيراد ما يليق بالمقام من الوصية ، بحسب ما يقتضيه الحال : من علو رتبة الخلافة وانخفاضها ، مبينا لما يلزمه القيام به : من حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، وتنفيذ الأحكام ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، وحماية البيضة ، والدب عن الحرم ، وإقامة الحدود ، وتحصين الثغور ، وجهاد أعداء الله وغزوهم ، وجباية الفئء والصدقات على ما أوجبه الشرع من غير حيف ولا عسف ،

وتقدير العطاء، وصرف ما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، في وقت الحاجة إليه، وأستكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء للأعمال والأموال، ومباشرة الأمور بنفسه وتصفح الأحوال ؛ إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالإمامة : من إقامة موسم الحج، وتأمين الحرم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيت المقدس، وتحرير مقادير المعاملات، وغير ذلك مما يقتضيه أمر المملكة .

الوجه الرابع

(فيما يكتب في الطرّة، وهو نمطان)

النمط الأول — ما كان يُكتب في وزارة التفويض في دولة الفاطميين .

وكان الخليفة هو الذي يكتب بيده . وهذا أمر وإن كان قد تُرك فالمعرفة به خير من الجهل ، خصوصاً وقد أثبت المقرّ الشّهابي بن فضل الله عهدئ أسد الدين شيركوه وأبن أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد، في جملة عهود الملوك على ما سيأتي ذكره . وسنوردُهما في جملة عهود الملوك عن الخلفاء فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك ما كتب به العاضد في طرّة عهد أسد الدين شيركوه المتقدم ذكره، وهو :

« هذا عهد لا عهد لوزيرٍ بمثله ، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوصحه لك من مرّاشد سُبُلِه ، فخذ كتاب أمير المؤمنين

يُقَوِّه، وَأَتَّحَبَ ذَيْلَ الْفَخَّارِ بَانَ أَعْتَرَتْ خِدْمَتُكَ إِلَى بِنُوءِ النَّبُوءِ ؛ وَأَتَّخَذَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
لِلْفَوْزِ سَبِيلًا ﴿ وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ .



ومن ذلك ما كتب به العاضد أيضا في طرّة العهد المكتتب عنه بالوزارة
للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة ، وهو :

« هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وَحُجَّتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ؛ فَأَوْفِ بِعَهْدِكَ
وَيَمِينِكَ ، وَخُذْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينِكَ ؛ وَلَمَنْ مَضَى بِحَدَّثَانَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنُ أَسْوَاهُ ، وَلَمَنْ بَقِيَ بَقَرْنَا أَعْظَمُ سَلَوَاهُ ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ
لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِينَ ﴾ .

النمط الثانى — ما يُكْتَبُ فِي طُرَّةِ عُهُودِ الْمُلُوكِ الْآنَ .

وهو قريب مما كان يُكْتَبُ أَوَّلًا مما تقدم ذكره ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُبَدَّلُ فِيهِ لَفْظُ الْوِزَارَةِ
بِالْمُلْكِ وَالسَّلْطَنَةِ ؛ وَيَكُونُ الَّذِي يَكْتُبُهُ هُوَ الَّذِي يَكْتُبُ الْعَهْدَ دُونَ الْخَلِيفَةِ . ثم هو
بحسب ما يؤثّرهُ الْكَاتِبُ مما يَدُلُّ عَلَى صَدْرِ الْعَهْدِ عَلَى مَا يَتَقَضَّيهِ الْحَالُ .

وهذه نسخة طرّة عهد ، كتب بها القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ،
في نسخة عهد أنشأه للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، في سنة سبع عشرة
وسبعمائة ، وهو :

« هذا عهد شريف تجددت مَسَرَّاتُ الْإِسْلَامِ بِتَجْدِيدِهِ ، وَتَأَكَّدَتْ أَسْبَابُ
الْإِيمَانِ بِتَأْكِيدِهِ ؛ وَوُجِدَ النَّصْرُ الْعَزِيزُ وَالْفَتْحُ الْمُبِينُ بِوُجُودِهِ ، وَوَفَدَ الْإِثْمُ وَالْإِقْبَالُ

على الخليفة بوقوده، وورد الأناضول مؤيد الأمان بؤروده . من عبد الله ووليه الإمام
المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين ، ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس
أحمد . عهد به إلى السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد ، خلد الله سلطانه ،
ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى قدس الله روحه » .



تم الجزء التاسع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر

وأوله الوجه الخامس

(فيما يكتب فى ألقاب الملوك عن الخلفاء ، وهو نمطان)



والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل



فهرس

الجزء التاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

القسم الثانى - من مقاصد المكاتب الإخوانيات ... ،

وهى على سبعة عشر نوعا ٥

النوع الأول - التهانى، وهى على أحد عشر ضربا ٥

الضرب الأول - التهنية بالولايات ٦

» الثانى - » بكرامة السلطان، وأجوبته ٢٥

» الثالث - » بالعود من الحج ٣١

» الرابع - » بالقدوم من السفر ٣٣

» الخامس - » بالشهور والمواسم والأعياد ٣٩

» السادس - » بالزواج والتسرى ٥٤

» السابع - » بالأولاد ٥٦

» الثامن - » بالإبلا من المرض والعافية من السقم ... ٦٣

» التاسع - » بقرب المزار ٧٠

» العاشر - » بتزول المنازل المستجدة ٧١

» الحادى عشر - نواذر التهانى ٧٣

النوع الثانى - من مقاصد المكاتب التعازى، وهى على أضرى ٨٠

الضرب الأول - التعزية بالأبن ٨٠

» الثانى - » بالبنت ٨٥

» الثالث - » بالأب ٨٦

» الرابع - » بالأم ٨٧

» الخامس - » بالأخ ٨٨

» السادس - » بالزوجة ٩٠

» السابع - التعازى المطلقة ٩٢

صفحة

النوع الثالث	— من مقاصد المكاتبات التهادى والملاطفة	١٠٠
» الرابع	— الشفاعات والعنايات	١٢٤
» الخامس	— التشوق	١٤٢
» السادس	— فى الأستراحة	١٥٠
» السابع	— فى آخطاب المودّة وأفتتاح المكاتبّة	١٥٥
» الثامن	— فى خطبة النساء	١٥٩
» التاسع	— فى الأسترضاء والأستعطاف والأعتذار	١٦٥
» العاشر	— فى الشكوى	١٧٣
» الحادى عشر	— فى آستراحة الحوائج	١٧٦
» الثانى عشر	— فى الشكر	١٨٣
» الثالث عشر	— فى العتاب	١٨٩
» الرابع عشر	— فى العيادة والسؤال عن حال المريض	٢٠٣
» الخامس عشر	— فى الذم	٢١٧
» السادس عشر	— فى الأخبار	٢١٩
» السابع عشر	— فى المداعبة	٢٢٥
الفصل الثامن	— فى إخفاء ما فى الكتب من السر، وهو على نوعين	٢٢٩
النوع الأول	— ما يتعلق بالكتابة، وهو على ضربين	٢٢٩
الضرب الأول	— ما يتعلق بالمكتوب به	٢٢٩
» الثانى	— ما يتعلق بالخط المكتوب	٢٣٠
النوع الثانى	— الرموز والإشارات التى لا تعلق لها بالخط والكتابة	٢٤٩
المقالة الخامسة	— فى الولايات، وفيها أربعة أبواب	٢٥٢
الباب الأول	— فى بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت، وفيه	
ثلاثة فصول		٢٥٢

صفحة

٢٥٢	الفصل الأول - في بيان طبقات الولايات
٢٥٢	الطبقة الأولى - الخلافة
٢٥٢	» الثانية - السلطنة
		» الثالثة - الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن
		السلطان بالديار المصرية في أقطار المملكة بمصر
٢٥٢	والشام والحجاز، وهي على خمسة أنواع
٢٥٣	النوع الأول - ولايات أرباب السيوف
٢٥٥	» الثاني - ولاية أرباب الأقلام
٢٥٩	» الثالث - ولاية أرباب الوظائف الصناعية
٢٥٩	» الرابع - ولايات زعماء أهل الذمة
٢٦٠	» الخامس - ما لا يختص بطائفة ولا يندرج تحت نوع
		الفصل الثاني - من الباب الأول من المقالة الخامسة في بيان
		ما تجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات
٢٦١	على سبيل الإجمال
		الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة الخامسة في بيان
		ما يقع به التفاوت في رتب الولايات . وذلك
٢٦٣	من سبعة أوجه
٢٦٣	الوجه الأول - الألقاب ، وهي على ثلاثة أنواع
٢٦٣	النوع الأول - ألقاب الخلفاء
٢٦٣	» الثاني - » الملوك
٢٦٤	» الثالث - ألقاب ذوى الولايات الصادرات عن السلطان
٢٦٦	الوجه الثاني - ألقاب إسناد الولايات إلى صاحب الوظيفة
٢٦٨	» الثالث - الأفتاحات
		» الرابع - تعدد التعميد في الخطبة أو في أثناء الكلام
٢٦٩	وأتحاده

صفحة

- الوجه الخامس - الدعاء ٢٦٩
- » السادس - طول الكلام وقصره ٢٧٠
- » السابع - قطع الورق ٢٧١
- الباب الثانى - من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان ٢٧٣
- الفصل الأول - فى معناها... .. ٢٧٣
- » الثانى - فى ذكر تنويع البيعات، وهى نوعان ٢٧٤
- النوع الأول - بيعات الخلفاء، وفيها سبعة مقاصد... .. ٢٧٤
- المقصد الأول - فى أصل مشروعيتهما ٢٧٤
- » الثانى - فى بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ٢٧٥
- » الثالث - فى بيان ما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة البيعة... .. ٢٧٦
- » الرابع - فى بيان مواضع الخلافة التى تستدعى الحال
- كتابة المبايعات فيها ٢٧٩
- » الخامس - فى بيان صورة ما يكتب فى بيعات الخلفاء،
- وفيه أربعة مذاهب ٢٨٠
- المذهب الأول - أن تفتتح المبايعه بلفظ «تبايع فلانا أمير المؤمنين»
- خطابا لمن تؤخذ عليه البيعة ٢٨٠
- » الثانى - مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتتح المبايعه
- بلفظ «من عبد الله ووليه فلان أبى فلان الامام
- الفلانى» إلى أهل دولته ٢٨٦
- » الثالث - أن تفتتح البيعة بعد البسملة بخطبة مفتحة
- بالحمد لله الخ ٢٩٨
- » الرابع - مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتتح البيعة
- بلفظ «هذه بيعة الخ ٣٢٠

صُحُفُ الْأَسَدِ

الجزء العاشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالتف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء العاشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الوجه الخامس

(فَمَا يُكْتَبُ فِي أَلْقَابِ الْمُلُوكِ عَنِ الْخَلَفَاءِ ، وَهُوَ نَمَطَانِ)

النمط الأول

(مَا كَانَ يُكْتَبُ فِي قَدِيمِ الزَّمَنِ)

وهو أن يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يَلْقَبُ بِهِ الْمَلِكُ أَوْ يُكْتَبُ بِهِ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، ثُمَّ يُقَالُ : « مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » وَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ .

كما كتب أبو إسحاق الصابى فى عهد نَخْر الدولة بن بُوَيْه عن الطائع لله :
« هَذَا مَا عَهِدَ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الطَّائِعُ لِلَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى نَخْرِ الدَّوْلَةِ
أَبَى عَلَى مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

وإلى هذا أشار فى " التعريف " بقوله : عَلَى أَنَّ لِهَذَا ضَابِطًا كَانَ فِي قَدِيمِ
الزَّمان وهو أَنَّهُ لَا يُكْتَبُ لِلرَّجُلِ إِلَّا مَا كَانَ يَلْقَبُ بِهِ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ [بِالنَّصِّ]
مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا تَقْصِصٍ .

(١) فى " التعريف " ص ٨٧ ملك .

(٢) الزيادة من التعريف .

النمط الثاني (ما يُكْتَب به لُلوُك الزمان)

وقد حكى في "التعريف" في ذلك مذهبين :

الأول — أن يُكْتَب فيها : السُّلطان، السَّيِّد، الأَجَل، الملك الفلاني، مع بَقِيَّة ما يُناسِب من الألقاب المفردة والمركبة : كما كتب القاضي الفاضل في عهد أسد الدين شيركوه الآتي ذكره عن العاضد الفاطمي :

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلَّيْهِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ لِدِينِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى السَّيِّدِ، الْأَجَلِ، الْمَلِكِ، الْمَنْصُورِ؛ سُلْطَانِ الْجُيُوشِ، وَلِيِّ الْأُمَّةِ، نَخِرِ الدَّوْلَةِ، أَسَدِ الدِّينِ، كَافِلِ قُضَاةِ الْمَسْلَمِينَ، وَهَادِي دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَبِي الْحَرْثِ شِيرَكُوهِ الْعَاضِدِيِّ» .

وعلى هذه الطريقة بزيادة ألقاب كتب ابن القيسراني في العهد للملك الناصر محمد بن قلاوون : قدس الله روحه ونحو ذلك . قال في "التعريف" : وأنا إلى ذلك أجنح، وعليه أعمل .

الثاني — أن يُكْتَب : المَقَام الشريف، أو الكَرِيم، أو العَالِي مجرداً عنهما .
(١) ويُقتصر على المفردة [دون المركبة] .

كما كتب به صاحب نحر الدين بن لقمان، في عهد الظاهر بيبرس بعد ذكر أوصافه ومناقبه : ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي، السلطاني، الملكي، الظاهري، الركني، شرفه الله تعالى وأعلاه .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : وربما أبدل المتقدمون « المقام » في هذه الحالة بـ « المَقَر » وأتى بالألقاب من نحو ما تقدم .

وكما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في عهد المنصور قلاوون بعد استيفاء مناقبه وأوصافه ، وذكر أعمال الفكر والروية في اختياره : « وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين شرفه الله أن يكون للمَقَرِّ العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، أجله الله ونصره ، وأظفره وأقدره ، وأيده وأبداه ، كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين » ونحو ذلك .

وبقى مذهب ثالث - وهو أن يأتى بنظير ألقاب المذهب الأول ، مقتصرًا على الألقاب المفردة دون المركبة . وعلى ذلك جرى الوزير ضياء الدين بن الأثير في العهد الذى كتب به معارضة لعهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الآت ذكره - فقال بعد ذكر مناقبه : « وتلك مناقبك أيها الملك ، الناصر ، الأجل ، السيد ، الكبير ، العالم ، العادل ، صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب » . ولم يتعرض لحكايته في « التعريف » . على أن ابن الأثير إمام هذا الفن ، وحائز قصب السبق فيه ، ومقاتله مما يحتاج بها ويعول عليها .

فإن قيل : لعله في « التعريف » أراد مذاهب كُتِّبَ زمانه ، فالجواب أن حكاية المذهب الثانى عن المتأخرين تؤذن بأن المراد متقدمو الكتاب ومتأخروهم .

الوجه السادس

(فيما يُكتب في متن العهود، وفيه ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول

(وعليه عامة الكتاب من المتقدمين وأكثر المتأخرين)

أن يُفتح العهد بلفظ « هذا » مثل : « هذا ماعهد به فلان فلان » أو « هذا مأمَر به فلان فلانا » أو « هذا عهد من فلان فلان » أو « هذا كتاب آكتبه فلان فلان » وما أشبه ذلك .

وللكتاب فيه طريقتان :

الطريقة الأولى

(طريقة المتقدمين)

وهي أن لا يأتي بتحميد في أثناء العهد في خطبة ولا غيرها، ولا يتعرض إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه أصلاً، أو يتعرض إلى ذلك باختصار ثم يقول : « فقلده كذا وكذا » ويذكر ما فوض إليه، ثم يقول : « وأمره بكذا » حتى يأتي على آخر الوصايا، ثم يقول في آخره : « هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته لك وعليك » ويأتي بما يناسب ذلك، ويختتمه بقوله : « والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أو « والسلام عليك » أو بغير ذلك من الألفاظ المناسبة على اختلاف طرقهم في ذلك، وتباين مقاصدهم . وعلى هذا التهج وما قاربه كانت عهود السلف فمن بعدهم، تأسيساً بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما كتب به لعمر بن حريم حين وجهه إلى اليمن، كما تقدمت الإشارة إليه في الاستشهاد لأصل عهود الملوك عن الخلفاء .

وهذه نسخته بعد البسملة فيما ذكره ابن هشام وغيره :

« هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ) »

« عَهْدٌ مِنْ [مُحَمَّدٍ ^(١)] النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ [حِينَ بَعَثَهُ »

« إِلَى الْيَمَنِ] أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا »

« وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ بِالْحَقِّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، وَأَنْ يُبَشِّرَ »

« النَّاسَ بِالْخَيْرِ وَيَأْمُرَهُمْ بِهِ ، وَيُعَلِّمَ النَّاسَ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهَهُمْ فِيهِ ، »

« وَيَنْهَى النَّاسَ فَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِنْسَانٌ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ ، وَيُخْبِرَ »

« النَّاسَ بِالَّذِي لَهُمْ وَالَّذِي عَلَيْهِمْ ، وَيَلِينَ لِلنَّاسِ فِي الْحَقِّ وَيَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ »

« فِي الظُّلْمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهَ الظُّلْمَ وَنَهَى عَنْهُ فَقَالَ : (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى »

« الظَّالِمِينَ) وَيُبَشِّرُ النَّاسَ بِالْجَنَّةِ وَبِعَمَلِهَا ، وَيُنْذِرُ النَّاسَ النَّارَ وَعَمَلِهَا ، »

« وَيَسْتَأْذِنُ النَّاسَ حَتَّى يَفْقَهُوا فِي الدِّينِ ، وَيُعَلِّمُ النَّاسَ مَعْلَمَ الْحَجِّ »

« وَسُنَّتَهُ وَفَرِيضَتَهُ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَالْحَجَّ الْأَكْبَرُ الْحَجَّ الْأَكْبَرُ ، »

« وَالْحَجَّ الْأَصْغَرُ هُوَ الْعُمْرَةُ ، وَيَنْهَى النَّاسَ أَنْ يُصَلِّيَ أَحَدٌ فِي ثَوْبٍ »

« وَاحِدٍ صَغِيرٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ثَوْبًا يَتْنِي طَرَفِيهِ عَلَى عَاتِقِيهِ ، وَيَنْهَى »

« [الناس^(١)] أَنْ يَحْتَبِيَ أَحَدٌ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ يُفْضَى بِفَرْجِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، »
« وَيَنْهَى أَنْ لَا يَعْقِصَ أَحَدٌ شَعْرَ رَأْسِهِ فِي قَفَاهِ ، وَيَنْهَى إِذَا كَانَ بَيْنَ »
« النَّاسِ هَيْجٌ عَنِ الدُّعَاءِ إِلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ، وَلِيَكُنْ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ »
« [عز وجل^(١)] وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ [فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ وَدَعَا إِلَى »
« الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ فَلْيُقْطَعُوا بِالسَّيْفِ حَتَّى تَكُونَ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ »
« وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ] وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ : وَجُوهِهِمْ ، »
« وَأَيْدِيهِمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَأَرْجُلِهِمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَيَمْسَحُونَ بِرُءُوسِهِمْ »
« كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ ، وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ لَوَقْتِهَا ، وَإِتِمَامِ الرُّكُوعِ [وَالسُّجُودِ^(١)] »
« وَانْحُسُوعٍ ، وَيَغْلَسُ بِالصُّبْحِ ، وَيَهْجُرُ بِالظُّهْرِ حِينَ تَمِيلُ الشَّمْسُ ، »
« وَصَلَاةُ الْعَصْرِ وَالشَّمْسُ فِي الْأَرْضِ مُدْبِرَةٌ ، وَالْمَغْرِبِ حِينَ يَقْبَلُ »
« اللَّيْلُ ، لَا تُتَوَخَّرُ حَتَّى تَبْدُو النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ ، وَالْعِشَاءِ أَوَّلَ اللَّيْلِ . »
« وَأَمَرَ بِالسَّغَى إِلَى الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ، وَالْغُسْلِ عِنْدَ الرَّوْحِ إِلَيْهَا . »
« وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمَغَانِمِ نَحْسَ اللَّهِ ، وَمَا كُتِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٢ .

(٢) الذي في السيرة « بالهجرة حين تميل » .

« فِي الصَّدَقَةِ مِنَ الْعَقَارِ عَشْرُ مَسْقَتِ الْعَيْنِ وَسَقَتِ السَّمَاءِ ، وَعَلَى »
 « مَسْقَى الْغَرْبِ نِصْفُ الْعُشْرِ . وَفِي كُلِّ عَشْرٍ مِنَ الْإِبِلِ شَاتَانِ ، »
 « وَفِي كُلِّ عِشْرِينَ أَرْبَعُ شِيَاهٍ . وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ الْبَقَرِ بَقْرَةٌ ، »
 « وَفِي كُلِّ ثَلَاثِينَ مِنَ الْبَقَرِ تَبِيعٌ جَذَعٌ^(١) أَوْ جَذَعَةٌ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ »
 « مِنَ الْغَنَمِ سَائِمَةٌ وَحَدَا شَاةٌ ، فَإِنَّهَا فَرِيضَةُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَقْتَرَضَ »
 « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَةِ ، فَمَنْ زَادَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وَأَنَّهُ مَنْ »
 « أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِسْلَامًا خَالِصًا مِنْ نَفْسِهِ وَدَانِ بِيَدَيْنِ »
 « الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : لَهُ مِثْلُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَيْهِمْ ، »
 « وَمَنْ كَانَ عَلَى نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَهُودِيَّةٍ ، فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ عَنْهَا وَعَلَى كُلِّ حَالِمٍ : »
 « ذِكْرٌ أَوْ اثْنِي ، حُرٌّ أَوْ عَبْدٌ دِينَارٌ وَاقِفٌ ، أَوْ عِوَضُهُ ثِيَابًا ، فَمَنْ أَدَّى »
 « ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ »
 « وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا » .

« صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » .

(١) كذا في السيرة أيضا بالعين والقفاف وفي كتب اللغة العقار [أى كغراب] خيار الكلاب والعقار [أى كسلام] النخل . تأمل .

(٢) في اللسان ج ٩ ص ٣٩٣ "إذا طلع قرن العجل وقبض عليه فهو غضب ثم هو بعد ذلك جذع"

وعلى نحو ذلك كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عهد مالك بن الأشتر النخعي حين ولّاه مِصرَ . وهو من العهود البليغة جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك .

وهذه نسخته فيما ذكره ابن حمدون في تذكرته :

هذا ما أمر [به عبد الله ^(١)] علي أمير المؤمنين مالك بن الحريث الأشتر ، في عهده إليه ، حين ولّاه مِصرَ : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه ؛ وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع مجودها وإضاعته ؛ وأن ينصر الله تعالى بيده وقلبه ولسانه ، فإنه جلّ اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزّه . وأمره أن يكسر من نفسه عند السموات ، ويضعها عند الجمحات ؛ فإن النفس لأماراة بالسوء إلا مارحّم الله .

ثم أعلم يا مالك أنني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دُولُ قبلك : من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون من أمورك [في مثل ^(٢)] ما كنت تنظر فيه من أمر الولاية قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم . وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السنن عباده ، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح . فمالك هوأك ، وشيخ بنفسك عما لا يحلّ لك ؛ فإن الشحّ بالنفس الانتصاف منها فيما أحببت وكرهت . وأشعر قلبك بالرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ؛ ولا تكون عليهم سبعا ضاريا ، تغتنم أكلهم ؛ فإنهم صنفان : إما آخ لك في الدين ،

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ١٠٥) .

(٢) الزيادة من شرح نهج البلاغة لأبي الحديد .

وإِذَا نَظَرْتُكَ فِي الْخَلْقِ : يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَالُ ، وَيُوتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ
فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا : فَأَعْطِيهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ
مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ : فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ .
وَقَدْ أَسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَأَبْتَلَاكَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَى
لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ وَلَا تَسُدَّ مَنْ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَجْحَنَ
بِعَقُوبَةٍ ، وَلَا تُسِرَّعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَدُّوحَةً ؛ وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي أَمْرٌ وَأَمْرُ^(١)
فَأُطَاعَ : فَإِنْ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَهْلَكَةٌ فِي الدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ . وَإِذَا
أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَوْ مَحَبَّةٍ ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى
فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ
طِلَاحِكَ وَيُكْفُ عَنْكَ مِنْ غَيْرِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزُبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .
وَأَيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ
جَبَّارٍ ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ .

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى
مِنْ رَعِيَّتِكَ : فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ،
وَمِنْ خَاصَمِهِ اللَّهُ ، أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَتَرَعَ وَيَتُوبَ . وَلَيْسَ شَيْءٌ
أَدْعَى إِلَى تَفْسِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ [فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يُسْمِعُ^(٢)
دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ] .

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا
الرَّعِيَّةِ ؛ فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُخْجِفُ رِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا

(١) في "مفتاح الافكار" وشرح نهج البلاغة " « مؤمر » .

(٢) الزيادة من "مفتاح الافكار" وشرح "نهج البلاغة" .

العامة ؛ وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مشونة في الرخاء ، وأقل معونة له في البلاء ؛ وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلخاف ؛ وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملهات الدهر ، من أهل الخاصة ؛ وإنما عمود الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء العامة من الأمة . فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم ؛ وليكن أبعـد رعيتك منك ، وأشنوهم عندك ؛ أطلبهم لمعائب الناس : فإن في الناس عيوباً الوالي أحق بسترها ؛ فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير مظهر [لك] ^(١) والله يحكم على ما غاب عنك منها . فاستر العورة ما استطعت يستر الله ما يحب ستره من عيبك .

أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، وأقطع عنهم سبب كل وتر ، وتغاب عن كل مالا يضح لك ؛ ولا تعجلن إلى تصديق ساع : فان الساعي غاش وإن تنبته بالناصحين . ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعيدك الفقر ، ولا جبناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور : فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .

إن شر وزياراتك من كان للأشرار قبلك وزيارهم ومن شاركهم في الآثام ، فلا يكون لك بطانة ، فإنهم أعوان الأئمة ، وإخوان الظلمة ؛ وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم : ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على إثمه ؛ أولئك أخف عليك مشونه ، وأحسن لك معونه ؛ وأخفى عليك عطفاً ، وأقل لغريك إلهاً ؛ فاتخذ أولئك خاصة لخلاواتك [وحفلاتك] ^(١) . ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم [لك] ^(١) بمر الحق ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما

(١) الزيادة من "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة".

كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، واقِعًا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَأَلْصَقَ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ،
ثُمَّ رَضَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ وَلَا يُرَجَّحُوكَ بِيَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ : فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ
الرَّهْوَّ وَتُدْرِي مِنَ الْغِرَّةِ . وَلَا يَكُونَنَّ الْحَسَنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ
تَرْهِيدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ [فِي الْإِحْسَانِ] وَتَدْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ [عَلَى الْإِسَاءَةِ] :
(١) (٢) (٣)

وإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَاءَ سَائِلٌ * أَنْتَ بِمَا تُعْطِيهِ أَمْ هُوَ أَسْعَدُ !

عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ * مِنَ الْيَوْمِ سُؤْلًا أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدُ !

وَفِي كَثْرَةِ الْأَيْدِي عَنْ الْجَهْلِ زَاحِرٌ، * وَلِلْحِلْمِ أُنْبَى لِلرِّجَالِ وَأَعْوَدُ !



وعلى ذلك كتب أبو إسحاق الصابى عن الخليفة « الطائع لله » إلى نحر الدولة بن
رُكن الدولة بن بُويه، في جمادى الأولى سنة ست وستين وثلثمائة .

وهذه نسخته :

هذا ماعهد عبد الله عبد الكريم [الإمام] الطائع لله أمير المؤمنين [إلى نحر الدولة
أبي الحسن بن رُكن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين] حين عرّف غناؤه وبلاءه ،
(٥) (٥)

(١) أى لا يفرحوك يقال بجمته تبجيحا فتبجح أى فرحته ففرح أنظر اللسان ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة" .

(٣) اقتصر فى الأصل على هذا القدر وله بقية طويلة مذكورة فى "نهج البلاغة، ومفتاح الأفكار" فليرجع
إليهما من شاء .

(٤) أى كتب العهد عن الخ .

(٥) الزيادة من "رسائل الصابى" والمثل السائر .

وَأَسْتَصَحَّ دِينَهُ وَيَقِينَهُ ، وَرَعَى قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ ، وَأَسْتَنْجَبَ عُودَهُ وَنَجَارَهُ . وَأَتَمَّنَى^(١) عِزَّ الدَّوْلَةِ أَبُو مَنْصُورُ بْنُ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ أَبِي الْحُسَيْنِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [أَيَّدَهُ اللَّهُ] عَلَيْهِ ، وَأَشَارَ بِالْمَزِيدِ فِي الصَّنِيعَةِ إِلَيْهِ ؛ وَأَعْلَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتِدَاءَهُ بِهِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ ذَهَبَ فِيهِ مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَغَرَضَ رَمَى إِلَيْهِ مِنَ النَّصِيحَةِ ؛ دُخُولًا فِي زُمْرَةِ الْأَوْلِيَاءِ [الْمَنْصُورَةِ] ، وَنَحْرُوجًا عَنْ جَمَاعَةِ الْأَعْدَاءِ الْمَذْحُورَةِ^(٢) ، وَتَصَرُّفًا عَلَى مُوجِبَاتِ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ بَعِزُّ الدَّوْلَةِ أَبِي مَنْصُورٍ مَنُوطُهُ ، وَعَلَى سَائِرٍ مِنْ يَتْلُوهُ وَيَتَّبِعُهُ مَأْخُودَةٌ مُشْرُوطُهُ ؛ فَقَلَّدَهُ الصَّلَاةَ وَأَعْمَالَ الْحَرْبِ ، وَالْمَعَاوِينَ ، وَالْأَحْدَاثَ ، وَالْخَرَاجَ ، وَالْأَعْشَارَ ، وَالضِّيَاعَ ، وَالْجَهْدَةَ ، وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْجَوَالِي ، وَسَائِرَ وَجُوهِ الْحَبَايَاتِ [وَالْعَرْضِ^(٢)] وَالْعَطَاءَ ، وَالْفَقَّةَ فِي الْأَوْلِيَاءِ [وَالْمَظَالِمِ وَأَسْوَاقِ الرِّقَاقِ^(٢)] وَالْعِيَارَ فِي دُورِ الضَّرْبِ وَالطَّرْزِ وَالْحُسْبَةِ يَكُونُ هَمْذَانُ ، وَأَسْتَرَابَاذَ ، وَالْدِّينَوْرَ ، وَقَرْمِيسِينَ ، وَالْإِيغَارَيْنِ ، وَ[أَعْمَالَ] أَذْرَيجَانَ ، وَأَرَّانَ ، وَالسَّحَايِينَ ، وَمُوقَانَ . وَاتَّقَا مِنْهُ بِاسْتِيقَاءِ النِّعْمَةِ وَأَسْتِدْامَتِهَا ، وَالِاسْتِرَادَةِ بِالشُّكْرِ مِنْهَا ، وَالتَّجَنُّبِ لِعَمْطِهَا وَجُحُودِهَا ، وَالتَّنَكُّبِ لِإِيحَاشِهَا وَتَغْيِيرِهَا ، وَالتَّعَمُّدِ لِمَا مَكَّنَ لَهُ الْخُطُوةَ وَالزُّلْفَى ، وَحَرَسَ عَلَيْهِ الْأَثَرَةَ وَالْقُرْبَى ؛ بِمَا يُظْهِرُهُ وَيُضْمِرُهُ مِنَ الْوَفَاءِ الصَّحِيحِ ، وَالْوَلَاءِ الصَّرِيحِ ، وَالْغَيْبِ الْأَمِينِ ، وَالصَّدْرِ السَّلِيمِ ، وَالْمُقَاطَعَةِ لِكُلِّ مَنْ قَاطَعَ الْعُصْبَةَ ، وَفَارَقَ الْجُمْلَةَ ، وَالْمَوَاصِلَةَ لِكُلِّ مَنْ حَمَى الْبَيْضَةَ وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ - وَالْكُونِ تَحْتَ ظِلِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِهِ ، وَمَعَ عِزِّ الدَّوْلَةِ أَبِي مَنْصُورٍ وَفِي حَوْزَتِهِ ؛ وَاللَّهُ جَلَّ أَسْمُهُ يَعْرِفُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُسْنَ الْعُقْبَى فِيمَا أُرْبَمَ وَقَقُضَ ، وَسَدَادَ الرَّأْيِ فِيمَا رَفَعَ وَخَفَضَ ؛ وَيَجْعَلُ عِزَّائِهِ مَقْرُونَةً بِالسَّلَامَةِ ، مُحْجُوبَةً عَنْ مَوَارِدِ النَّدَامَةِ ؛ وَحَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

(٢) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

أمره بتقوى الله التي هي العِصمة المتينة، والجَنَّة الحَصينة؛ والطَّود الأرفع،
والمَعَادز الأَمْنَع؛ والجانب الأَعَز، والملجأ الأَحْزَب؛ وأن يَسْتَشِيرَهَا سِرًّا وَجَهْرًا،
وَيَسْتَعْمِلَهَا قَوْلًا وَفِعْلًا، وَيَتَّخِذَهَا رِذَاءً دَافِعًا لِنَوَائِبِ الْقَدَرِ، وَكَهْفًا حَامِيًا مِنْ حَوَادِثِ
الْغَيْبِ؛ فَإِنَّهَا أَوْجِبُ الْوَسَائِلِ، وَأَقْرَبُ الدَّرَائِعِ، وَأَعُوذُهَا عَلَى الْعَبْدِ بِمَصَالِحِهِ،
وَأَدْعَاها إِلَى سُبُلِ مَنَاجِحِهِ؛ وَأَوْلَاهَا بِالْإِسْتِمْرَارِ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَالنَّجَاةِ مِنْ غَوَايَتِهِ؛
وَالسَّلَامَةِ فِي دُنْيَاهُ حِينَ تُوَبِّقُ مُوَبِّقَاتِهَا، وَتُرْدِي مُرْدِيَاتِهَا؛ وَفِي آخِرَتِهِ حِينَ تَرْوِعُ
رَائِعَاتِهَا وَتُخَفِّفُ خُفْيَاتِهَا. وَأَنْ يَتَأَدَّبَ بِآدَابِ اللَّهِ فِي التَّوَاضُّعِ وَالْإِخْبَاتِ،
وَالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ؛ وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ إِذَا نَطَقَ، وَغَضِّ الطَّرْفِ إِذَا رَمَقَ؛ وَكَظْمِ الْغِيْظِ
إِذَا أُحْفِظَ، وَضَبْطِ اللِّسَانِ إِذَا أُغْضِبَ؛ وَكَفِّ الْيَدِ عَنِ الْمَأْثِمِ، وَصَوْنِ النَّفْسِ
عَنِ الْحَرَامِ. وَأَنْ يَذْكُرَ الْمَوْتَ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ بِهِ، وَالْمَوْقِفَ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ؛
وَيَعْلَمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا آكْتَسَبَ، مَجْزِيٌّ بِمَا تَرَمَّكَ ^(١) وَاحْتَقَبَ؛ وَيَتَوَدَّ مِنْ هَذَا الْمَقَرِّ،
لِذَلِكَ الْمَقَرِّ؛ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ لِنَفْعِهِ، وَمِنْ مَسَاعِيِ الْبِرِّ لِنُفْعِهِ؛ وَيَأْتِمِرُ
بِالصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِهَا، وَيَزْدَجِرَ عَنِ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ أَنْ يَزْجُرَ عَنْهَا؛ وَيَبْتَدِئُ
بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ قَبْلَ إِصْلَاحِ رِعْيَتِهِ: فَلَا يَبْعَثُهُمْ عَلَى مَا يَأْتِي ضِدَّهُ، وَلَا يَنْهَاهُمْ عَمَّا
يَقْتَرِفُ مِثْلَهُ؛ وَيَجْعَلُ رَبَّهُ رَقِيبًا عَلَيْهِ فِي خَلَوَاتِهِ، وَمُرُوءَتَهُ مَانِعَةً لَهُ مِنْ شَهَوَاتِهِ؛
فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ غَلَبَ سُلْطَانَ الشَّهْوَةِ، وَأَوَّلَى مَنْ صَرََعَ أَعْدَاءَ الْحَمِيَّةِ ^(٢)، مَنْ مَلَكَ أَرْمَةِ
الْأُمُورِ، وَأَقْتَدَرَ عَلَى سِيَاسَةِ الْجُمْهُورِ؛ وَكَانَ مُطَاعًا فِيمَا يَرَى، مُتَّبَعًا فِيمَا يَشَاءُ؛ يَلِي عَلَى
النَّاسِ وَلَا يَلُونُ عَلَيْهِ، وَيَقْصُصُ مِنْهُمْ وَلَا يَقْتَصُّونَ مِنْهُ؛ فَإِذَا أَطْلَعَ اللَّهُ مِنْهُ عَلَى
نَقَاءِ جَبِيهِ، وَطَهَارَةِ ذَبْلِهِ، وَصِحَّةِ سَرِيرَتِهِ، وَأَسْتِقَامَةِ سِيرَتِهِ، أَعَانَهُ عَلَى حِفْظِ

(١) فِي "الرَّسَائِلِ"، وَالْمَثَلِ السَّائِرِ: «تَرْمَلُ».

(٢) كَذَا فِي الرَّسَائِلِ أَيْضًا. وَفِي الْمَثَلِ السَّائِرِ ص ١٣٢ "مَنْ ضَرَعَ لِفَذَاءِ الْحَمِيَّةِ".

مَا اسْتَحَفَّظَهُ ، وَأَنْهَضَهُ بِثِقَلِ مَا حَمَلَهُ ؛ وَجَعَلَ لَهُ مَخْلَصًا مِنَ الشُّبْهَةِ وَمَخْرَجًا مِنَ الْحَيْرَةِ ،
 فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .
 وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إِلَى آيٍ كَثِيرَةٍ حَضَّنَا بِهَا
 عَلَى أَكْرَمِ الْخُلُقِ ، وَأَسْلَمَ الطَّرِيقُ ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ نَصَبَهَا إِزَاءَ نَظِيرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ نَبَذَهَا
 وَرَاءَ ظَهْرِهِ ؛ وَأَشْقَى مِنْهُ مَنْ بَعَثَ عَلَيْهَا وَهُوَ صَادِفٌ عَنْهَا ، وَأَهَابَ إِلَيْهَا وَهُوَ بَعِيدٌ
 مِنْهَا ؛ وَلَهُ وَلِأَمْثَالِهِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ
 وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا مَتَّبَعًا ، وَطَرِيقًا مُوقِعًا ؛ وَيُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَتِهِ إِذَا
 خَلَا بِفِكَرِهِ ، وَيَمْلَأُ بَنَامَهُ أَرْجَاءَ صَدْرِهِ ؛ فَيَذْهَبُ مَعَهُ فِيمَا أَبَاحَ وَحَظَرَ ، وَيَقْتَدِي
 بِهِ إِذَا نَهَى ، وَأَمْرُهُ ؛ وَيَسْتَيِّنُ بَيَانَهُ إِذَا اسْتَعْلَقَتْ دُونَهُ الْمُعْضَلَاتُ ، وَيَسْتَضِيءُ
 بِمَصَابِيحِهِ إِذَا غَمَّ عَلَيْهِ فِي الْمُسْكَاتِ ؛ فَإِنَّهُ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ الْوُثْقَى ، وَحُجَّةُ الْوَسْطَى ،
 وَدَلِيلُهُ الْمُقْنِعُ ، وَبُرْهَانُهُ الْمُرْشِدُ ؛ وَالْكَاشِفُ لظُلُمِ الْخُطُوبِ ، وَالشَافِي مِنْ مَرَضِ
 الْقُلُوبِ ، وَالْهَادِي لِمَنْ ضَلَّ ، وَالْمُتَلَفِّي لِمَنْ زَلَّ ؛ فَمَنْ لَحِجَ بِهِ فَقَدْ فَازَ وَسَلِمَ ، وَمَنْ لَهِيَ
 عَنْهُ فَقَدْ خَابَ وَنَدِمَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ
 يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَيَدْخُلَ فِيهَا فِي حَقَائِقِ الْأَوْقَاتِ ؛ قَائِمًا عَلَى
 حُدُودِهَا ، مَتَّبِعًا لِرُسُومِهَا ؛ جَامِعًا فِيمَا بَيْنَ نَيْتِهِ وَلَفْظِهِ ، مُتَوَقِّيًا لِمَطَامِحِ سَهْوِهِ وَلَحْظِهِ ؛

(١) فِي الْأَصُولِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ مُتَوَقِّعًا بِزِيَادَةِ التَّاءِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ مِنَ النَّسَاجِ ، فَفِي اللِّسَانِ ج ١٠ ص ٢٨٢

يُقَالُ طَرِيقٌ مُوقِعٌ مَذَلٌّ .

(٢) فِي "الرِّسَالَةِ" الْأَسْفَلِ .

متقطعاً إليها عن كل قاطع لها، مشغولاً بها عن كل شاغلٍ عنها؛ متنبّهاً في رُكوعها وتُجودها؛ مستوفياً عددَ مفروضها ومسئونها؛ موفّراً عليها ذِهنه، صارفاً إليها همه؛ عالماً بأنه واقفٌ بين يدي خالقه ورازقه، ومُحييه ومُميتِه، ومُثبِّبه ومُعاقِبِه؛ لا تسترِ دُونَه خائنةُ الأعينِ وما تُخفي الصدور. ^(١) فإذا قضّاها على هذه السبيلِ منذُ تَكْبِيرِ الإحرامِ إلى خاتمةِ التسليمِ، أثبعتها بدءاً يرتفعُ بارتفاعها، [ويُستمعُ بِاستماعها] ^(٢)، ولا يتعدّى فيه مسائل الأبرار، ورغائب الأخيار: من استصفّاج واستغفار، واستقالة واسترحام، واستدعاء لمصالح الدين والدنيا، وعوائد الآخرة والأولى؛ فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾.

وأمره بالسَّحْيِ في أيام الجمعِ إلى المساجد الجامعة، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية، بعد التقدّم في قرشها وكسوتها؛ وجمع القوام والمؤدّين والمكبرين فيها، واستيساء الناس إليها، وحضهم عليها؛ آخذين الأهبة، متنظفين في الزّه؛ مؤدّين لفرائض الطّهارة، بالغبين في ذلك أقصى الاستطاعة؛ معتقدين خشيةَ الله وخيفته، مدرّعين تقواه ومراقبته؛ مكثّرين من دعائه - عز وجل - وسؤاله، مصلّين على محمد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله؛ بقلوبٍ على اليقين موقوفة، وهمم إلى الدين مضروفة؛ وألسن بالتسبيح والتقدّيس فصيحة، وآمال في المغفرة والرحمة فسيحة؛ فإت هذه المصليات والمتعبّدات بيوث الله التي فضلها، ومناسكُها التي شرفها؛ وفيها يُتلى القرآنُ [ومنها ترتفعُ الأعمال؛ وبها يلوذُ اللائكون] ^(٢) ويعودُ العائدون؛

(١) كذا في "المثل السائر" أيضاً. وفي "رسائل الصابي" «ومن لا يستمرّ دونه خائنة عينه وخافية

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة.

وَيَتَعَبَّدُ الْمُتَعَبِّدُونَ ، وَيَتَهَجَّدُ الْمُتَهَجِّدُونَ ، وَحَقِيقٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ : مَنْ وَالٍ وَمَوْلَى عَلَيْهِ أَنْ يَصُونَهَا وَيَعْمُرَهَا ، وَيُوَصِّلُهَا وَلَا يَهْجُرَهَا . وَأَنْ يُقِيمَ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لِنَفْسِهِ عَلَى الرَّسْمِ الْجَارِي فِيهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ . وَقَالَ فِي عِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِأَنْ يُرَاعَى أَحْوَالَ مَنْ يَلِيهِ ، مِنْ طَبَقَاتِ جُنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَالِيهِ ، وَيُطْلَقَ لَهُمُ الْأَرْزَاقُ ، فِي وَقْتِ الْوُجُوبِ وَالْأَسْتِحْقَاقِ ، وَأَنْ يُحَسِّنَ فِي مُعَامَلَتِهِمْ ، وَيُجَلَّ فِي أَسْتِخْدَامِهِمْ ، وَيَتَصَرَّفَ فِي سِيَاسَتِهِمْ : بَيْنَ رِفْقٍ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَخُسُونَةٍ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ، مُثَبِّتًا لِحَسَنِهِمْ مَا زَادَ بِالْإِبَانَةِ فِي حُسْنِ الْأَثَرِ ، وَسَلِّمَ مَعَهَا مِنْ دَوَاعِي الْأَشْرِ ، وَمَتَعَمِّدًا لِمُسِيئِهِمْ مَا كَانَ التَّغَمُّدُ لَهُ نَافِعًا ، وَفِيهِ نَاجِعًا ، فَإِنْ تَكَرَّرَتْ زَلَّاتُهُ ، وَتَنَابَعَتْ عَثَرَاتُهُ ، تَسَاوَلَهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ بِمَا يَكُونُ لَهُ مُصْلِحًا ، وَلِغَيْرِهِ وَاعِظًا . وَأَنْ يُنْتَخَصَّ أَكْبَرُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ وَأَهْلُ الرَّأْيِ وَالْخَطَرِ مِنْهُمْ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي الْمَلِمِّ ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى بَعْضِ الْمُهْمِّ ، مُسْتَخْلِصًا نَحَائِلَ قُلُوبِهِمْ بِالْبَسْطِ وَالْإِدْنَاءِ ، وَمُسْتَشْحِدًا بِصَائِرِهِمْ بِالْإِكْرَامِ وَالْأَحْتِفَاءِ : فَإِنَّ فِي مُشَاوَرَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ أَسْتِدْلَالًا عَلَى مَوَاقِعِ الصَّوَابِ ، وَتَحَرُّزًا مِنْ غَلَطِ الْإِسْتِبْدَادِ ، وَأَخْذًا بِمَجَامِعِ الْحَرَامِ ، وَأَمْنًا مِنْ مُفَارَقَةِ الْإِسْتِقَامَةِ ، وَقَدْ حَضَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الشُّورَى حَيْثُ قَالَ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

(١) أَيْ سَاتَرَا لَهْفَوَاتِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ تَعَمَّدَ فَلَانَا سَتَرَهُ .

وأمره بأن يعمد لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورباطات المرابطين،
ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته، ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته؛
ويختار لها أهل الجلد والشدة، وذوى البأس والتجده: ممن عجمته الخطوب،
وعمرته الحروب؛ وأكسب دربة بجدع المتناوين، وتجربة بمكايد المتقارعين؛
وأن يستظهر بتكثيف عددهم، واختيار عُددهم، واختخاب خيلهم، واستجادة
أسلحتهم؛ غير مُجبر^(٢) بعثاً إذا بعته، ولا مستكرهه إذا وجهه؛ بل يُناوب بين رجاله
مناوبةً تريحهم ولا تُثلمهم، وترفعهم ولا تُؤدِّهم: فإن في ذلك من فائدة الإجماع،
والعدل في الاستخدام، وتنافس رجال الثوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر، وبعد
الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر؛ ما يحقُّ على الولاة أن يكونوا به عاملين،
وللناس عليه حاملين. وأن يكرّر على أسماءهم، ويثبت في قلوبهم؛ مواعيد الله
لمن صابروا رباط، وسمح بالنفس وجاهد؛ من حيث لا يُقدِّمون على تورط غرّه،
ولا يُحجمون عن آتياز فرصه؛ ولا يَنكُصون عن تورّد معركه، ولا يلقون بأيديهم
إلى التهلكة؛ فقد أخذ الله تعالى ذلك على خلقه، والمرامين عن دينه؛ وأن يُزيح
العلة فيما يُحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها، وبناء حصونها ومعاقليها؛
وأستطراق طرقها ومسالكها، وإفاضة الأقوات والعلوفات للترتين فيها والمترددن
إليها والحامين لها. وأن يبذل أمانته لمن طلبه، ويعرضه على من لم يطلبه. ويقي
بالعهد إذا عاهد، وبالعهد إذا عاهد؛ غير مُحفِّر ذمّة، ولا جارج أمانة؛ فقد أمر

(١) في "رسائل الصابي" بأن يضم ما يتصل الخ.

(٢) في اللسان ج ٥ ص ٢١٧ «تجبر الجند أن يجسهم في أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر» وهو

المراد هنا . تأمل .

الله تعالى بالوفاء فقال جلّ من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ .
ونهى عن النكث فقال عزّ من قائل : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ .

وأمره أن يعرض من في حبوس عمله على جرّائهم [وإنعام النظر في جنائياتهم وجرّائهم] ^(١) فمن كان إقراره واجباً أقرّه ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه . وأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف ؛ ويختار [لها من الولاة ^(١)] من يخاف الله تعالى ويتقيه ، ولا يحابي ولا يراقب فيه ؛ ويتقدم إليهم بقمع الجهال ، وردع الضلال ؛ وتبّع الأشرار ؛ وطلب الدّعار ؛ مستدلين على أماكئهم ، متوغلين إلى مكائئهم ؛ متولّجين عليهم في مظانهم ، متوثّقين ممن يجدونه منهم ، منفذين أحكام الله تعالى فيهم بحسب الذى يتبين من أمرهم ، ويتّضح من فعلهم ؛ في كبيرة ارتكبوها ، وعظيمة احتقبوها ؛ ومهجة أفاظوها وأستهلكوها ، وحرمة أباحوها واتتهكوها : فمن استحقّ حداً من حدود الله المعلومّة أقاموه عليه غير مخفّفين منه ، وأحلّوه به غير مقصّرين عنه ، بعد أن لا يكون عليهم فى الذى يأتون به حجة ، ولا يعترضهم فى وجوبه شبهه : فإنّ الواجب فى الحدود أن تُقام بالبيّنات ، وأن تُدرأ بالشبهات ؛ فأولى ماتوحاه رعاة الرعايا فيها أن لا يُقدّموا عليها مع نقصان ، ولا يتوقفوا عنها مع قيام دليل وبرهان . ومن وجب عليه القتل احتاط عليه بما يُحتاط به على مثله : من الحبس الحصين ، والتوثّق الشديد ؛ وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره ، وشرح جنائيته ؛ وثبوتها بإقرار يكون منه ، أو شهادة قع عليه ؛ وليتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه ، فإن أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أو معاهد إلا ما أحاط به علماً ، وأتقنه فهما ، وكان ما يُمضيه فيه عن بصيرة لا يحاط بها شك ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة .

ولا يَسُوبُهَا رَيْبٌ . ومن أَلَمَ بِصَغِيرَةٍ من الصغائر ، ويسيرةٍ من الجرائر ، من حيث لم يُعْرِفْ له مِثْلُهَا ، ولم يَتَقَدَّمْ منه أُخْتَهَا ، وَعَظَه وَزَجَرَه ، ونهاه وَحَدَّرَه ، وَاسْتَبَابَه وأقاله ، ما لم يكن عليه خَصْمٌ في ذلك يطالبُ بِقِصَاصٍ منه ، وجزاءٍ له ؛ فإن عادَ تَنَاولَهُ [من] التقويم والتهديب ، والتعزير والتأديب ؛ بما يرى أن قد كفى فيما آجَرتَم ، ووفى بما قَدَمَ ؛ فقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يعطَلَ ما في أعماله من الحاناتِ والمواخير ، ويُطَهِّرَها من القَبَاحِ والمنَّاكِيرِ ؛ ويمنعَ من تَجَمُّعِ أهل الخنا فيها وتألُّفِ شملهم بها : فإنه شَمَلٌ يُصْلِحُه التَّشْتِيتُ ، وجمعٌ يحفظُه التَّفْرِيقُ ؛ وما زالت هذه المَواطِنُ الذِّمِيَّةُ والمَطَارِحُ الذِّنيَّةُ ، داعيةً لمن يَأْوِي إليها ، ويعكُفُ عليها ؛ إلى تَرْكِ الصلوات ، [وإهمالِ المقرَّضاتِ] ^(١) ورُكُوبِ المنكَراتِ ، وأقترافِ المَحْظُوراتِ ؛ وهى بُيُوتُ الشَّيْطَانِ التي في عِمَارَتِها لله تعالى مَغْضَبَةٌ ، وفي إخراجها للخيرِ مَجْلَبَةٌ ؛ والله تعالى يقول لنا معشرَ المؤمنين : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ويقول عزَّ من قائل لغيرنا من المذمومين : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ .

وأمره أن يُولِّيَ الحِمايَةَ في هذه الأعمال ، أهلَ الكِفَايَةِ والغَنَاءِ من الرجال ؛ وأن يَضُمَّ إليهم كُلَّ مَنْ خَفَّ رِكَابُه ، وأسرعَ عند الصَّرِيخِ جَوَابُه ؛ مرتبًا لهم في المَسَاحِ ، وسادًّا بهم ثغر المَسَالِكِ ؛ وأن يُوصِيَهُم بالتيقُّظِ ، ويأخُذَهُم بالتحفُّظِ ، ويُزِيحَ عِلْلَهُمْ في عُلوِّةِ خيلهم ؛ والمقرَّرَ من أزوادهم ومِيرَمِهم ؛ حتَّى لا تَشْقُلَ لهم على البلادِ وَطْأَه ، ولا تَدْعُوَهُم إلى تَحْفِيفِهِمْ وتَلْمِيهِهم حاجه ؛ وأن يحوِّطُوا السَّابِلَةَ بِأَدْنَى وَعَائِدَه ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و"المثل السائر" .

وَيَتَذَرُوكَ الْقَوَافِلَ صَادِرَةً وَّوَارِدَةً ، وَيَحْرَسُوا الطُّرُقَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَيَنْفُضُوهَا رَوَاحًا
وَابْكَارًا ، وَيَنْصُبُوا لِأَهْلِ الْعَيْثِ الْأَرْصَادَ ، وَيَتَكَنَّنُوا لَهُمْ بُكُلًا وَادً ؛ وَيَتَفَرَّقُوا عَلَيْهِمْ
حَيْثُ يَكُونُ التَّفَرُّقُ مَضِيًّا لِفَضَائِهِمْ ، وَمُؤَدِّيًّا إِلَى أَنْفِضَائِهِمْ ؛ وَيَجْتَمِعُوا حَيْثُ
يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ مُطْفِئًا لِحَرَّتِهِمْ ، وَصَاحًا لِمَرْوَتِهِمْ ؛ وَأَنْ لَا يَخْلُوهَا هَذِهِ السُّبُلُ مِنْ حِمَاةٍ
لَهَا وَسِيَارَةٌ فِيهَا : يَتَرَدَّدُونَ فِي جَوَادِيهَا ، وَيَتَعَسَّفُونَ فِي عَوَادِيهَا ؛ حَتَّى تَكُونَ الدَّمَاءُ
مَحْقُونَةً ، وَالْأَمْوَالُ مَصُونَةً ؛ وَالْفِتَنُ مُحْصُومَةٌ وَالْغَارَاتُ مَأْمُونَةٌ ؛ وَمَنْ حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ
مِنْ لِصٍّ خَائِلٍ ، وَصُعْلُوكٍ خَارِبٍ ؛ وَخِيَفٍ لَسْبِيلٍ ، وَمُنْتَهَكٍ لِحَرِيمٍ ؛ أَمَثِلَ فِيهِ أَمْرٌ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوَافِقَ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ
أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ 》 .

وَأَمْرُهُ بِوَضْعِ الرِّصْدِ عَلَى مَنْ يَحْتَازُ فِي أَعْمَالِهِ مِنْ أَبَاقِ الْعَيْدِ ، وَالْأَحْتِيَاظِ عَلَيْهِمْ
وَعَلَى مَا يَكُونُ مَعَهُمْ ، وَبِالْحِثِّ عَنِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي فَارَقُوهَا ، وَالطُّرُقِ الَّتِي أَسْطَرَقُوهَا ؛
وَمَوَالِيهِمُ الَّذِينَ أَتَقُوا مِنْهُمْ ، وَنَشَرُوا عَنْهُمْ ؛ وَأَنْ يَرُدُّوهُمْ عَلَيْهِمْ قَهْرًا ، وَيُعِيدُوهُمْ إِلَيْهِمْ
صُغْرًا ؛ وَأَنْ يَنْشُدُوا الضَّالَّةَ بِمَا أُمْكَنَ أَنْ تُنْشَدَ ، وَيَحْفَظُوهَا عَلَى رَبِّهَا بِمَا جَازَ أَنْ
تُحْفَظَ ؛ وَيَتَجَنَّبُوا الْإِمْتِطَاءَ لظُهُورِهَا وَالْإِتِّفَاعَ بِأَوْبَارِهَا وَالْبَانِيَا مِمَّا يُحْزُ وَيُحَلَبُ ؛
وَأَنْ يَعْرِفُوا اللَّقْطَةَ وَيَذْبُحُوا أَثَرَهَا ، وَيُسَيِّعُوا خَبَرَهَا ؛ فَإِذَا حَضَرَ صَاحِبُهَا وَعُلِمَ أَنَّهُ
مُسْتَوْجِبُهَا سُلِّمَتْ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يُعْتَرَضَ فِيهَا عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا 》 . وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
”ضَلَالَةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّارِ“ .

(١) في ”الرسائل“ ، والمثل السائر“ » ويذوقوا « والبذرة الخفارة .

(٢) في ”الرسائل“ » في جوادها في عوادها « .

وأمره أن يُوصِيَ عُمَّالَهُ بالشَّدَّ عَلَى أَيْدِي الْحُكَّامِ ، وَتَنْفِيزِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ ؛ وَأَنْ يَحْضُرُوا مَجَالِسَهُمْ حُضُورَ الْمُوقِّرِينَ لَهَا ، الَّذِينَ عَنْهَا ، الْمُقِيمِينَ لِرُسُومِ الْهَيْسَةِ وَحُدُودِ الطَّاعَةِ فِيهَا ؛ وَمَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ ذِي عَقْلٍ سَخِيفٍ ، وَحِلْمٍ ضَعِيفٍ ، نَالُوهُ بِمَا يَرُدُّهُ ، وَأَحْلَوْا بِهِ مَا يَزَعُهُ ؛ وَمَتَى تَقَاعَسَ مُتَقَاعِسٌ عَنْ حُضُورٍ مَعَ خَصْمٍ يَسْتَدْعِيهِ ، وَأَمْرٍ يُوَجِّهُ الْحَاكِمُ إِلَيْهِ فِيهِ ؛ أَوْ التَّوَلَّى مُتَوَلِّجٌ يَحْصِلُ عَلَيْهِ ، وَدَيْنٌ يَسْتَقِرُّ فِي ذِمَّتِهِ ، قَادُوهُ إِلَى ذَلِكَ بِأَزِمَّةِ الصَّغَارِ ، وَخَزَائِمِ الْإِضْطِرَارِ ؛ وَأَنْ يَحْجِسُوا وَيُطْلِقُوا بِأَقْوَالِهِمْ ، وَيُثَبِّتُوا الْأَيْدِيَ فِي الْأَمْلاكَ وَالْفُرُوجِ وَيَنْزِعُوهَا بِقَضَائِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ أُمَنَاءُ اللَّهِ فِي فَصْلِ مَا يَفْصِلُونَ وَبَتَّ مَا يَتَوْنُ ، وَعَنْ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُورِدُونَ [وَيُصْدِرُونَ] (١) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ . وَأَنْ يَتَوَخَّى بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ عُمَّالُ الْخَرَاجِ فِي اسْتِيفَاءِ حُقُوقِ مَا اسْتَعْمَلُوا عَلَيْهِ ، وَاسْتِنْطَافِ بَقَائِهِمْ فِيهِ ، وَالرِّيَاضَةِ لِمَنْ تَسُوءُ طَاعَتُهُ مِنْ مُعَامِلِهِمْ ، وَإِحْضَارِهِمْ طَائِعِينَ أَوْ كَارِهِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ؛ فَمَنْ آدَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ الَّتِي يَحِقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَهَا [أَدَبًا] (١) وَيَجْعَلَهَا إِلَى الرِّضَا عَنْهُ سَبَبًا ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره أَنْ يَجْلِسَ لِلرَّعِيَّةِ جُلُوسًا عَامًّا ، وَيَنْظُرَ فِي مَطَالِبِهَا نَظْرًا تَامًّا ، وَيَسَاوِيَ فِي الْحَقِّ بَيْنَ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا ، وَيُوَازِي فِي الْمَجَالِسِ بَيْنَ عَزِيزِهَا وَذَلِيلِهَا ، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ ، وَالْمَغْضُوبَ مِنْ غَاصِبِهِ ؛ بَعْدَ الْفَحْصِ وَالتَّأَمُّلِ وَالبَحْثِ وَالتَّيَّنِ ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي المطبوعة ، والمثل السائر" وهي من سقط النسخ .

حَتَّى لَا يَحْكُمَ إِلَّا بِعَدْلٍ ، وَلَا يَنْطِقَ إِلَّا بِفَضْلٍ ؛ وَلَا يُثَبِّتَ يَدًا إِلَّا فِيمَا وَجِبَ [تَثْبِيْثُهَا فِيهِ ، وَلَا يَقْبِضُهَا إِلَّا عَمَّا وَجِبَ] ^(١) قَبْضُهَا عَنْهُ ؛ وَأَنْ يُسَهِّلَ الْإِذْنَ لِلْجَمَاعَةِ ، وَيَرْفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ وَيُوَلِّمَهُمْ مِنْ حَصَانَةِ الْكَنْفِ ، وَلِيَنِ الْمُتَعَطِّفَ ؛ وَالْأَشْتَمَالَ وَالْعِنَايَةَ ، وَالصُّونَ وَالرَّعَايَةَ ؛ مَا تَتَعَادَلُ فِيهِ أَقْسَامُهُمْ ، وَتَتَوَازَنُ مِنْهُ أَقْسَامُهُمْ ؛ وَلَا يَصِلُ الْمَكِينُ مِنْهُمْ إِلَى اسْتِضَامَةٍ مِنْ تَأَنُّرَعِنَهُ ، وَلَا ذُو السُّلْطَانِ إِلَى هَضِيمَةٍ مِنْ حَلِّ دُونِهِ . وَأَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى أَحْسَنِ الْعَادَاتِ [وَالْخُلَاقِ] ^(٢) وَيُحْضِرَهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْمَذَاهِبِ وَالطَّرَائِقِ ؛ وَيَجْعَلَ عَنْهُمْ كَلَّةً ، وَيَمُدَّ عَلَيْهِمْ ظِلَّهُ ؛ وَلَا يَسُومَهُمْ خَسْفًا ، وَلَا يُلْحِقَ بِهِمْ حَيْفًا ؛ وَلَا يَكْفِفُهُمْ شَطَطًا ، وَلَا يُجَشِّمُهُمْ مُضْلَاعًا ؛ وَلَا يَثْلِمَ لَهُمْ مَعِيشَةً ، وَلَا يُدَاخِلُهُمْ فِي جَرِيْمَةٍ ؛ وَلَا يَأْخُذَ بَرِيئًا مِنْهُمْ بِسَقِيمٍ ، وَلَا حَاضِرًا بِعَدِيمٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ نَهَى أَنْ تَزَرَ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ، وَجَعَلَ كُلَّ نَفْسٍ رَهْنَةً بِمَكْسِبِهَا بَرِيئَةً مِنْ مَكَاسِبٍ غَيْرِهَا . وَيَرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الرِّعْيَةِ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ سُنًّا عَلَيْهَا مِنْ سُنَّةِ ظَالِمَةٍ ، وَسُلْكِهَا مِنْ مَحَجَّةٍ جَائِرَةٍ ، وَيَسْتَقْرِىَ آثَارَ الْوَلَاةِ قَبْلَهُ عَلَيْهَا ، فِيمَا أَرْجَوْهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِلَيْهَا : فَيُقَرَّرَ مِنْ ذَلِكَ مَا طَابَ وَحَسُنَ ، وَيُزِيلَ مَا خَبُثَ وَقَبِحَ : فَإِنَّ مَنْ يَغْرِسِ الْخَيْرَ يَخْطِئُ بِمَعْسُولِ ثَمَرِهِ ، وَمَنْ يَزْرَعُ الشَّرَّ يَصِلُ بِمَمْرُورِ رَيْعِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَإِيْحُجْ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَصُونَ أَمْوَالَ الْخَرَاجِ وَأَثْمَانَ الْغَلَّاتِ ، وَوُجُوهَ الْجَبَايَاتِ ، مُوَفَّرًا ، وَيَزِيدَ ذَلِكَ مُثْمَرًا ، بِمَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ الْإِنْصَافِ لِأَهْلِهَا ، وَإِجْرَائِهِمْ عَلَى صَحِيحِ الرُّسُومِ فِيهَا : فَإِنَّهُ مَالُ اللَّهِ الَّذِي بِهِ قُوَّةُ عِبَادِهِ ، وَحَامِيَةُ بِلَادِهِ ، وَدُرُورُ حَلْبِهِ ، وَاتِّصَالُ

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و"المثل السائر" وهي من سقط النسخ .

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضا وفي "الرسائل" « في حرفه » .

مَدَدَهُ ؛ وَبِهِ يُحَاطُ الْحَرِيمُ ، وَيُدْفَعُ الْعَظِيمُ ؛ وَيُجْمَى الذَّمَّارُ ، وَتُدَادُ الْأَشْرَارُ . وَأَنْ يَجْعَلَ
 أَفْتَتَاحَهُ إِيَّاهُ بِحَسَبِ [إِدْرَاكِ] ^(١) أَصْنَافِهِ ، وَعِنْدَ حُضُورِ مَوَاقِيْتِهِ وَأَحْيَانِهِ ؛ غَيْرِ
 مُسْتَسْلِفٍ شَيْئًا قَبْلُهَا ، وَلَا مُؤَخَّرَهَا عَنْهَا ؛ وَأَنْ يُخَصَّ أَهْلَ الطَّاعَةِ وَالسَّلَامَةِ بِالْتَرْتِيفِ
 لَهُمْ ، وَأَهْلَ الْإِسْتِضْعَابِ وَالْأَمْتِنَاعِ بِالتَّشَدُّدِ عَلَيْهِمْ : لِثَلَاثِ قَعِّ إِرْهَاقٍ لَمُدْعِنَ ، أَوْ إِهْمَالٍ
 لَطَامِعٍ . وَعَلَى الْمُتَوَلَّى لَذَلِكَ أَنْ يَضَعَ كُلًّا مِنَ الْأَمْرَيْنِ مَوْضِعَهُ ، وَيُوقِعَهُ مَوْقِعَهُ ؛
 مُتَجَنِّبًا إِحْلَالَ الْغِلَظَةِ بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا ، وَإِعْطَاءَ الْقُسْحَةِ لِمَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ؛
 وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ
 الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَخَيَّرَ عُمَالَهُ عَلَى الْأَعْشَارِ ، وَالْخَرَاجِ ، وَالضَّيَاعِ ، وَالْجَهْدَةِ ،
 وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْحَوَالِي ، مِنْ أَهْلِ الظَّلْفِ وَالتَّزَاهَةِ ، وَالضَّبْطِ وَالصِّيَانَةِ ، وَالْجَزَالَةِ
 وَالشَّهَامَةِ ؛ وَأَنْ يَسْتَظْهِرَ مَعَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بَوْصِيَّةً يُوعِيهَا أَسْمَاعَهُمْ ، وَعُهُودَ يَقْلُدُهَا
 أَعْنَاقُهُمْ ؛ أَنْ لَا يُضَيِّعُوا حَقًّا ، وَلَا يَأْكُلُوا سُخْتًا ؛ وَلَا يَسْتَعْمَلُوا ظُلْمًا ، وَلَا يَقَارِفُوا
 غَشْمًا . وَأَنْ يُقِيمُوا الْعِمَارَاتِ ، وَيَحْتَاطُوا [عَلَى الْغَلَّاتِ] ^(٢) وَيَتَحَرَّزُوا مِنْ تَرْكِ حَقٍّ لَا زِمَ
 أَوْ تَعْطِيلِ رَسْمٍ عَادِلٍ ؛ مُؤَدِّينَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ الْأَمَانَةِ ، مُجْتَنِبِينَ لِلْخِيَانَةِ . وَأَنْ يَأْخُذُوا
 جَهَادَتَهُمْ بِاسْتِيفَاءِ وَزَنِ الْمَالِ عَلَى تَمَامِهِ ، وَاسْتِجَادَةِ نَقْدِهِ عَلَى عِيَارِهِ ؛ وَاسْتِعْمَالِ الصَّحَّةِ
 فِي قَبْضِ مَا يَقْبِضُونَ ، وَإِطْلَاقِ مَا يُطْلِقُونَ . وَأَنْ يُوعِزُوا إِلَى سُعَاةِ الصَّدَقَاتِ بِأَخْذِ
 الْفَرَائِضِ مِنْ سَائِمَةِ مَوَاشِي الْمَسَاكِينِ دُونَ عَامِلَتِهَا ، وَكَذَلِكَ الْوَاجِبُ فِيهَا ؛ وَأَنْ لَا يَجْمَعُوا
 فِيهَا مَتَرَفًّا وَلَا يَفَرِّقُوا مَجْتَمِعًا ، وَلَا يَدْخُلُوا فِيهَا خَارِجًا عَنْهَا ، وَلَا يُضَيِّفُوا إِلَيْهَا مَا لَيْسَ

(١) من "الرسائل ، والمثل السائر" .

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة .

منها : من قَلَّ لَيْلٍ أَوْ أَكُولَةٌ^(١) راع ، أَوْ عَقِيلَةٌ مال ؛ فإذا آجَبَتْهُا عَلَى حَقِّهَا ، وَاسْتَوْفَوْهَا عَلَى رَسْمِهَا ، أخرجوها في سَبِيلِهَا ، وَقَسَمُواهَا عَلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، إِلَّا الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمُ الَّذِينَ سَقَطَ سَهْمُهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَارِسِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . وَإِلَى جُبَاةِ [جَمَاجِمِ] أَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْجُزْيَةَ فِي الْحَرَمِ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ [بِحَسَبِ] مَنَازِلِهِمْ فِي الْأَحْوَالِ ، وَذَاتِ أَيْدِيهِمْ فِي الْأَمْوَالِ ؛ وَعَلَى الطَّبَقَاتِ الْمُطَبَّقَةِ فِيهَا ، وَالْحُدُودِ [الْمَحْدُودَةِ] الْمَعْهُودَةِ لَهَا ؛ وَأَنْ لَا يَأْخُذُوهَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَا مِنْ لَمْ يَبْلُغَ الْحُلُمَ مِنَ الرِّجَالِ ؛ وَلَا مِنْ ذِي سِنَّ عَالِيَةٍ ، وَلَا ذِي عِلَّةٍ بَادِيَةٍ ؛ وَلَا فَقِيرٍ مُّعْدِمٍ ، وَلَا مَتْرَهَبٍ مُتَبَتِّلٍ ؛ وَأَنْ يُرَاعِيَ جَمَاعَةُ هَؤُلَاءِ الْعَمَالَ مِرَاعَاةً يُسَرِّهَا وَيُظْهِرُهَا ، وَيُلَاحِظُهُمْ مُلَاحَظَةً يُخْفِيهَا وَيُخْفِيهَا : ثَلَاثًا يُزُولُوا عَنِ الْحَقِّ الْوَاجِبِ ، أَوْ يَعْدِلُوا غِنَى السَّنَنِ الْأَحَبِّ ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَذَبَّ لِعَرَضِ الرِّجَالِ وَإِعْطَائِهِمْ ، وَحِفْظِ جَرَايَاتِهِمْ وَأَوْقَاتِ إِطْعَامِهِمْ ، مَنْ يَعْرِفُهُ بِالثَّقَّةِ فِي مَتَصَرِّفِهِ ، وَالْأَمَانَةِ فِيمَا يَجْرِي عَلَى يَدِهِ ، وَالْبُعْدَ عَنِ الْإِسْفَافِ إِلَى الدَّنِيَّةِ ، وَالِاتِّبَاعَ لِلدَّنَاءَةِ ؛ وَأَنْ يَبْعَثَهُ عَلَى ضَبْطِ [حَلِ] الرِّجَالِ وَشِيَاةِ الْخَيْلِ ، وَتَجْدِيدِ الْعَرَضِ بَعْدَ الْإِسْتِحْقَاقِ ، وَإِقْقَاعِ الْإِحْتِيَاطِ فِي الْإِنْفَاقِ ؛ فَمَنْ صَحَّ عَرَضُهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْهُ : مِنْ شَكٍّ يَعْرِضُ لَهُ ، أَوْ رِيَّةٍ يَتَوَهَّمُهَا ، أَطْلَقَ أَمْوَالَهُمْ مَوْفُورَةً ، وَجَعَلَهَا فِي أَيْدِيهِمْ غَيْرَ مَثْلُومَةٍ ؛ وَأَنْ يَرُدَّ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ أَرْزَاقَ مَنْ

(١) أَكُولَةُ الرَّاعِي مَا يَسْتَهْلِكُ لِلاَّكْلِ .

(٢) الزِّيَادَةُ عَنْ "رِسَائِلِ الصَّابِي" الْمَطْبُوعَةِ .

(٣) الزِّيَادَةُ مِنْ "رِسَائِلِ الصَّابِي" .

سَقَطَ بِالْوَفَاةِ وَالْإِخْلَالِ ، نَاسِبًا ذَلِكَ إِلَى جِهَتِهِ ، وَمُورِدًا لَهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَأَنْ يَطَالِبَ
الرِّجَالُ بِإِحْضَارِ الْخَيْلِ الْمُخْتَارَةِ ، وَالْآلَاتِ الْمُسْتَكْمَلَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ مَبَالِغُ
أَرْزَاقِهِمْ ، وَحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ ؛ فَإِنْ أَنْرَأَهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَاصَّهُ بِهِ مِنْ
رِزْقِهِ ، وَأَغْرَمَهُ مِثْلَ قِيَمَتِهِ ؛ فَإِنَّ الْمَقْصَرَفِيَّ خَائِنٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُخَالَفٌ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ؛ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة والطرز ، على من
تجتمع فيه آلات هذه الولايات : من ثقة ودرأيه ، وعلم وكفأيه ، ومعرفة ودرأيه ؛
وتجربة وحكمه ، وحصافة ومُسْكِهِ ؛ فإنها أحوال تُضَارِعُ الْحُكْمَ وَتُنَاسِبُهُ ، وتُدَانِيهِ
وتَقَارِبُهُ . وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى وِلَاةِ أَسْوَاقِ الرِّقِيقِ بِالْتَحَفُظِ فِيمَنْ يُطْلَقُونَ بَيْعَهُ ،
وَيُمْضُونَ أَمْرَهُ ؛ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ وَقُوعِ تَجَوُّزِهِ فِيهِ ، وَإِهْمَالِهِ لَهُ ؛ إِذَا كَانَ ذَلِكَ عَائِدًا
بِتَحْصِينِ الْقُرُوجِ ، وَتَطْهِيرِ الْأَنْسَابِ . وَأَنْ يُبْعِدُوا عَنْهُ أَهْلَ الرِّيَّةِ ، وَيُقَرِّبُوا أَهْلَ
الْعَقَّةِ ؛ وَلَا يُمْضُوا بَيْعًا عَلَى شُبْهِهِ ، وَلَا عَقْدًا عَلَى تَهْمِهِ . وَإِلَى وِلَاةِ الْعِيَارِ ، بِتَخْلِيصِ
عَيْنِ الدَّرْهِمِ وَالْدَيْنَارِ : لِيَكُونَ مَضْرُوبِينَ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِنَ الْغِشِّ ، وَالتَّزَاهَةِ مِنَ الْمَشِّ ؛
وَبِحَسَبِ الْإِمَامِ ، الْمَقْرُورِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ؛ وَحِرَاسَةِ السَّكِّكَ مِنْ أَنْ تَتَدَاوَلَهَا الْأَيْدِي
الْمُدْغِلَةِ ، وَتَتَنَاقَلَهَا الْجِهَاتُ الظَّنِينَةُ ؛ وَإِثْبَاتِ اسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يُضْرَبُ مِنْهَا
ذَهَبًا وَفِضَّةً ، وَإِجْرَاءِ ذَلِكَ عَلَى الرَّسْمِ وَالسَّنَةِ . وَإِلَى وِلَاةِ الطَّرْزِ بَأَنْ يُجْرُوا الْإِسْتِعَالَ
فِي جَمِيعِ الْمَنَاسِجِ عَلَى أَتَمِّ النِّيْقَةِ ، وَأَسْلَمِ الطَّرِيقَةِ ؛ وَأَحْكَمِ الصَّنْعَةِ ، وَأَفْضَلِ الصَّحَّةِ ؛

(١) المش الخلط حتى يذوب . انظر القاموس

(٢) لعله معناه المعادية ففي اللسان ج ١٧ ص ١٤٥ الظنين المعادى لسوء ظنه وسوء الظن به .
وفي الأصل « المثبتة » وفي المثل السائر النبوية والتصحيح من رسائل الصابي .

(٣) النيقة الاسم من تنوق في الأمر إذا تأنق فيه .

وَأَنْ يُثَبِّتُوا أَسْمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى طُرُزِ الْكُسَا ، وَالْفُرَشِ وَالْأَعْلَامِ وَالْبُنُودِ .
وَالْإِلَى وَلَاةِ الْحِسْبَةِ بِتَصَفُّحِ أَحْوَالِ الْعَوَامِّ فِي حِرْفِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ ، وَمَجْتَمَعِ أَسْوَاقِهِمْ
وَمَعَامِلَاتِهِمْ ؛ وَأَنْ يُعَايِرُوا الْمَوَازِينَ وَالْمَكَايِيلَ ، وَيَفْرِزُوهَا عَلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّكْيِيلِ ؛
وَمَنْ أَطْلَعُوا مِنْهُ عَلَى حِيلَةٍ أَوْ تَلْيِيسٍ ، أَوْ غِيْلَةٍ أَوْ تَدْلِيسٍ ؛ أَوْ بَحْسٍ فِيمَا يُؤْفِيهِ ،
أَوْ اسْتِيفَالٍ فِيمَا يَسْتَوْفِيهِ ، نَالُوهُ بِغَلِظِ الْعَقُوبَةِ وَعَظِيمِهَا ، وَخَصُّوهُ بِوَجْعِهَا
وَأَلِيمِهَا ؛ وَاقْفَيْنَ بِهِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي يَرُونَهُ لَذَنْبِهِ مُجَازِيَا ، وَفِي تَأْذِيهِ كَافِيَا
فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَلُ لِّلطَّافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكَ ؛ وَقَدْ وَفَّقَكَ بِهِ عَلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ ،
وَأَرْشَدَكَ فِيهِ إِلَى وَاضِحِ الدَّلِيلِ ؛ وَأَوْسَعَكَ تَعْلِيمًا وَتَحْكِيمًا ، وَأَقْنَعَكَ تَعْرِيفًا [وَتَفْهِيمًا]
وَلَمْ يَأَلِّكَ جُهْدًا فِيمَا عَصَمَكَ وَعَصَمَ عَلَى يَدِكَ ، وَلَمْ يَدْنَحْكَ مُمَكِّنًا فِيمَا أَصْلَحَ بِكَ
وَأَصْلَحَكَ ؛ وَلَا تَرَكَ لَكَ عُدْرًا فِي غَلْطٍ تَغْلُطُهُ ، وَلَا طَرِيقًا إِلَى مُتَوَرِّطٍ تَتَوَرَّطُهُ ؛ بِالْقَا
بِكَ فِي الْأَوَامِرِ وَالزَّوَابِرِ إِلَى حَيْثُ يَلْزِمُ الْأُئِمَّةُ أَنْ يَنْدُبُوا النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيُحْشَوْهُمْ عَلَيْهِ ؛
مَقِيمًا لَكَ عَلَى مُنْجِيَّاتِ الْمَسَالِكِ ، صَارِقًا بِكَ عَنْ مُرْدِيَّاتِ الْمَهَالِكِ ؛ مُرِيدًا فِيكَ
مَا يُسَلِّمُكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ ، وَيُعُودُ بِالْحِظِّ عَلَيْكَ فِي آخِرَتِكَ وَأَوَّلَاكَ ؛ فَإِنْ أَعْدَلْتَ
وَعْدَلْتَ فَقَدْ فُزْتَ وَغَنِمْتَ ، وَإِنْ تَجَانَفْتَ وَأَعْوَجَجْتَ فَقَدْ خَسِرْتَ وَنَدِمْتَ ؛
وَالْأَوَّلَى بِكَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ مَغْرَسِكَ الزَّائِكِي ، وَمَنْبَتِكَ النَّامِي ، وَعُودِكَ الْأَنْجَبِ ،
وَعُنْصُرِكَ الْأَطْيَبِ ، أَنْ تَكُونَ لَظَنَّهُ بِكَ مُحَقِّقًا ، وَلَحِيلَتُهُ فِيكَ مُصَدِّقًا ؛ وَأَنْ تَسْتَرِيدَ
بِالْإِثْرِ الْجَمِيلِ قُرْبًا [مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ] ^(١) وَثَوَابًا يَوْمَ الدِّينِ ؛ وَزُلْفَى عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابغ" المطبوعة .

وثناء حسنا من المسلمين ؛ فخذ ما نبد إليك أمير المؤمنين من معاذيره ، وأمسك بيدك على ما أعطى من موافيقه ؛ وأجعل عهده ^(١) [هذا] مثالا تحتذيه ، وإماما تقتفيه ؛ وأستعين بالله يعينك ، وأستهد بهديك ، وأخلص إليه في طاعته ، يخلص لك الحظ من معونته ؛ ومهما أشكل عليك من خطب ، أو أعضل عليك من صعب ؛ أو بهرك من باهر ، أو بهظك من باهظ ؛ فاكذب إلى أمير المؤمنين به منيها ، وكن إلى ما يرد ^(١) [من جوابه] عليك منتهيا ؛ إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة ^(١)] .



وعلى هذا الأسلوب كتب أمين الدين أبو سعيد ، العلأ بن وهب بن موصلايا عن القائم بأمر الله عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، بساطنة الأندلس وبلاد المغرب ، بعد العشرين والأربعائة ، فيما رأيته في ترسل ابن موصلايا المذكور .

وهذه نسخته بعد البسملة الشريفة :

هذا ماعهد عبد الله ووليه ، عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى فلان حين انتهى إليه مأهو عليه من أدراع جلايب الرشاد ، في الإصدار والإيراد ؛ وأتباع سنن من أبدى وأعاد ، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد ؛ والتخصيص من حميد الأئحاء والمذاهب ، بما يستمد منه أصناف الآلاء والمواهب ؛ والتحلل من السداد

الكامل ، بما فاز فيه بامتطاء الغارب من الجمال والكاھل ؛ وأتضح ما هو متشبت به من صحة الدين واليقين ، والمواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ما هو أقوى الظهير والمعين ؛ في ضمن ما طوى عليه ضلوعه ، وأدام لهجه به وولوعه : من موالاة لأمير المؤمنين يدب الله تعالى بها ، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها ؛ ومشايعة لدولته ساوى فيها بين ما أظهر وأسر ، وأمل في آجئاء ثمرها كل ما أبهج وسر ؛ فولاه الصلاة بأعمال المغرب ، والمعاون ، والأحداث ، والخراج ، والضياع ، والأعشار ، والجهذة ^(١) ، والصدقات ، والحوالي ، وسائر وجوه الجبايات ، والعرض ، والعطاء ، والنفقة في الأولياء ، والمظالم ، وأسواق الرقيق ، والعيار في دور الضرب ، والطرز ، والحسبة ، ببلاد كذا وكذا : سكوناً إلى استقلاله بأعباء ما استكفاه إياه ، واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رايه ؛ وثقة بكونه للصنعة أهلاً ، وبأفياء الطاعة الإمامية مستظلاً ؛ وتوفراً على ما يزيد بحضرة أمير المؤمنين خطوة ترد باع الخطوب عنه قصيرا ، وتمتد مقاصده من التوفيق بما يصحى له في كل حالة نصيرا ؛ علما بما في أصطناعه من مصلحة تستنير أهلها ، وتستنير من شبه النجى شواهدا وأدلتها ؛ والله تعالى يصل مرامي أمير المؤمنين بالإصابة ، ويعينه على ما يقرر كل أمرى في حقه ويحله نصابه ؛ ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له مُمضيا ، ولطايا الاجتهاد في فعله مُمضيا ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل وإليه يُنيب .

وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الإعلان والإسرار ، واعتقاد الواجب من الإذعان بفضلها والإقرار ؛ وأن يأوى منها إلى أمتع المعاقل وأحصنها ، ويلوى عنان

(١) عبارة عن نقد الذهب والفضة .

الهدى فيها إلى أجل المقاصد وأحسنها ؛ ويجعلها عمدته يوم تُعَدَم الأنصار ،
وتُشَخَّص الأبصار : ليجتنى من ثمرها ما يقيه مصارع النجل ، ويحتل من مطالعها
ما يؤمنه من طوارق الوجل ؛ ويرد بها من رضا الله تعالى أصفى المِشَارِب ، ويجد
فيها من ضوَالِ المُنَى أنفس المَوَاهِب : فإنها أبقي الرّاد ، وأدعى في كلِّ أمر إلى ورى
الرّناد ؛ وقد خَصَّ الله بها المؤمنين من عبادِهِ ، وحَصَّ منها على ما هو أفضل عدّة المرء
وعتاده ؛ فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يَأْتَمَّ بكتاب الله تعالى مستضيئاً بمصباحه ، مستضيئاً لسُلطان النّفى
بالوقوف عند محظوره ومباحه ؛ ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه ، والاستندرار
لصوب التوفيق في الرجوع إلى مُتَقَنِّهِ ومُحْكَمِهِ ؛ ويجعله أميراً على هواه مُطَاعاً ، وسَمِيراً
لا يرى أن يكشف عنه قناعاً ؛ ودليلاً إلى النّجاة من كلِّ ما يخاف أنامه ، وسبيلاً
إلى الفوز في اليوم الذى يُسْفِر عن فصل الحساب لِنامِهِ ؛ ويتحقق موقع الحظّ
في إدامة درسه ، وصِلَةِ يومِهِ في التأمل بأمرِهِ ؛ فإنه يُبْدِي طريق الرّشد لكل مُبْدِي
في العمل به مُعِيد : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يُحَافِظَ على الصّلوات قائماً بشروطها وحُدودها ، وشائماً بروق التوفيق
في أداء فروضها وحقوقها ؛ ومسارعاً إليها في أوقاتها بنية عافية مناهل الكدر والرّق ،
عارفة بما في إخلاصها من نُصرة الهدى وطاعة الحق ؛ وموفراً عليها من ذهنه ،
ما الحظّ كامن في طيّه وضمّنه ؛ وموفياً لها من الرّكوع والسّجود ، ما الرّشاد فيه صادق
الدلائل والشهود ؛ متجنباً أن يُلْهِيَهُ عنها من هَوَاجِس الأفكار ، ووساوس القلب

ويشهد له بزكاء المغرس وطيب النجر؛ ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل أمسه في التوفيق بيومه، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه؛ متجنباً من إخلال بما نص عليه في هذا الباب، أو إهمال فيه لما يليق بدوى الديانة وأولى الألباب؛ ومتوخياً في المسارعة إليه ما يتطهر به من الأذناس، ويتوفر به حسن الأحدثة عنه بين الناس؛ فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لاسبيل إلى الحيد عنها، ولا دليل في الفوز أوفى منها؛ وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها من أمته، وأبان عن كونها مما يجنب كل مرغوب فيه من ثمرته؛ ووصل الأمر له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله؛ لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره ومجوله، في قوله سبحانه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وأمره أن يهدب من الدنس خلالة، ويصل بأقواله في الخير أفعاله؛ ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل، ويتبع سنن المتقي بالهدى المستظل؛ ويقبض يده عن كل محرم توثق أشراكه وتوثق غوائله، وتؤذن بسوء المنقلب شواهد ودلائله؛ ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصونها عن مراتع الغي ومطارحه، وأميناً يصد عن مسارب الإثم ومسارحه؛ فإنها لا تزال أماراً بالسوء إن لم تقد إلى جدد الرشد، وتقم لها سوق من الوعظ يبلغ فيها أقصى الغاية والأمد؛ فالسعيد من أضحى لها عند سورة الغضب وإزعا، وأنحى عليها بلوم يغدو معه عن كل ما يسيخط الله تعالى نازعا، وأن يتزّه عن النهى عما هوله مرتكب، والأمر بما هوله محتب؛ إذ كان ذلك بالهجنة حالياً، وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلاً، قال الله تعالى: ﴿ أَمْرُؤٌ نَاسٍ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وأمره أن يُضْفَى عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودِهِ، أَصْنَافَ جَلَائِبِ
 الإِحْسَانِ وَبُرُودِهِ، وَيُخَصِّمُ مِنْ جَزِيلِ حِبَائِهِ بِمَا يَصِلُونَ مِنْهُ إِلَى أْبْعَدِ الْمَدَى،
 وَيَمْلِكُونَ بِهِ نَوَاصِيَ الْأَمَالِ وَيُدْرِكُونَ قَوَاصِيَ الْمُنَى؛ وَيُمَيِّزُ مَنْ أَدَّى وَاجِبَهُ فِي الطَّاعَةِ
 وَقَرْضِهِ وَأَبْدَى صَفَحَتِهِ فِي الْغَنَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِشْتِمَالِ يُرْهِفُ بَصِيرَةَ كُلِّ مَنْهُمْ
 فِي التَّوَفُّرِ عَلَى مَا وَافَقَهُ، وَوَصَلَ بَأَنفِهِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ سَابِقَهُ، وَيَدْعُو الْمُقَصِّرَ إِلَى
 الْإِسْتِبْصَارِ فِي اعْتِمَادِ مَا يَلْحَقُ فِيهِ رُتَبَةٌ مِنْ فَازَتِ فِي الْحَطْوَةِ قَدَاحُهُ، وَفَاتَتْ الْوَصْفَ
 عُزْرُهُ فِي الزُّلْفَةِ وَأَوْضَاحُهُ: لِيَمْرَحَ بِهِ فِي الْإِغْتِذَاءِ بِلَبَّانِ النِّعْمَةِ، كَمَا أَتَهَجَّ جَدَدُهُ
 فِي إِحْسَانِ الْخِدْمَةِ. وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَى آرَاءِ ذَوِي الْحُنْكَ مِنْهُمْ مُسْتَضِيئًا بِهَا مُسْتَرِشِدًا،
 وَطَالِبًا ضَوَالَّ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ وَمُنْشِدًا؛ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ فَضْلَ الْمَشُورَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لِلْأَبَابِ
 لِقَاحًا، وَفِي حَنَادِسِ الشُّكُوكِ مَضْبَاحًا؛ حَيْثُ أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا،
 وَبَعَثَهُ مِنْهَا عَلَى أَسَدِّ الْأَفْعَالِ وَأَصْوَبِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
 عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وأمره أَنْ يَعْدَلَ فِي الرِّعَايَا قَبْلَهُ، وَيُجَلِّهَ مِنَ الْأَمْنِ هِضَابَهُ وَقُلَّةَهُ؛ وَيَمْنَحَهُمْ مِنَ
 الْإِشْتِمَالِ، مَا يَجِبُ بِهِ أُمُورُهُمْ مِنَ الْإِخْتِلَالِ، وَيَحْوِي بِهِ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ بِحَسَبِ
 مَا أَكْتَسَبَ مِنْ رِضَى الْأَنْحَاءِ وَالْخِلَالِ؛ وَيُضْفَى عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْهُمْ وَالْمُعَاهِدِ مِنْ ظِلِّ
 رِعَايَتِهِ مَا يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ، وَيُلْحَقُ التَّلِيدَ مِنْهُمْ بِالطَّرِيفِ: لِيَكُونَ
 الْكُلُّ وَادِعِينَ فِي كَنْفِ الصَّوْنِ، رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي إِمْدَادِهِمْ بِالتَّوْفِيقِ وَحُسْنِ
 الطَّاعَةِ وَالْعَوْنِ. وَأَنْ يَنْظُرَ فِي مَظَالِمِهِمْ نَظْرًا يَنْصُرُ الْحَقَّ فِيهِ، وَيُنْشُرَ عِلْمَ الْعَدْلِ
 فِي مَطَاوِيهِ؛ وَيُنْصَفَ مَعَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيُنْصَبَ بِهِ لَهُمْ مِنْ أَهْتِمَامِهِ أَسْنَى^(١)
 قِسْمٍ وَحَظٍّ؛ مُلِينًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ جَانِبَهُ، وَمُيَبِّنًا مَا يَظِلُّ بِهِ كَاسِبُ الْأَجْرِ وَجَالِيهِ؛

(١) يقال أنصبه جعل له نصيباً . انظر اللسان والقاموس .

ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمال ، ويدل من تلك الحال باستئناف ما يوطئهم كواهل الآمال ؛ جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقياً بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأمره بأن يكون بالمعروف آمراً ، وعن المنكر زاجراً ، والله تعالى في إحياء الحق وإمالة الباطل متاجراً . وأن يسد من الساعين في ذلك والداعين إليه ، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى يوم العرض عليه . ويتقدم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضا ، وإزالة آثارها ومحوها ؛ فإنها مواطن بالخايزي أهله ، ومن مشارب المعاصي ناهله ؛ قد أسست على غير التقوى مبانيها ؛ وأخلت من كل ما يرضى الله تعالى مغانيها ؛ وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلت بالمعروف أمرة وعن المنكر ناهية ، وضمت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية ، فقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع إلى الصرامة والشهامه ، سلوك حاجج الرشد والاستقامة ؛ ويجعل التعفف عن ذميم المراتع شاهداً بتوفيق الله إياه ، وعائداً عليه بما تحمد مغبته وعقباه ؛ ويأمر بحفظ السابله ، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة ؛ وحماية القوافل واردة وصادره ، واعتمادها بما تغدو به إلى السلامة مفضية صائرة : لتحرس الدماء مما يبيحها ويريقها ، والأموال مما يقصد فيه سبيل الإضاعة وطريقها . وأن يخوفهم نتائج التقصير ، ويعرفهم مناهج التبصير ؛ وأن عليهم

رُقبَاءَ يلاحظون أمورهم ويوضحونها : ليكون ذلك داعياً إلى التحوط والتحرُّز ،
واعتقاد الميل إلى جانب الصَّحَّة والتحيز ؛ ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله ،
ويكف أيديهم عن الامتداد إلى ما تُدْم سبله ؛ فإنَّ أخلَّ أحدهم بما حدَّ له ،
أو مزج بالسوء عمله ، جرَّاه بحسب ذلك وموجبه . قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا يَجْزِ بِهِ ﴾ .

وأمره أن يتقدم إلى توابه في الأعمال بوضع الرِّصد على من يَحْتَاز بها من العبيد
الأَبَاق ، والاستظهار عليهم بحسب العدل والاستحقاق ؛ وأستعلام أمانتهم التي
فصلوا عنها ، ومواطنهم التي بعدوا منها ؛ فإذا وضحت أحوالهم وبانت ، وأنحسمت
الشُّكوك في بايهم وزالت ، أعادوهم إلى مواليتهم أبوا أم شاءوا ، وأصفوا نياتهم
في الرجوع إليهم أم شأبو . وأن يقصِّدوا إنشاد الضَّوَال ، ويحتدوا من إظهار أمرها
بما يغدو جمال الذِّكر به في الظلال ؛ ويتجنبوا أن يمتطوا ظهورها بحال ، أو يمدوا
أيديهم إلى منافعها في إسرار وإعلان ؛ حتى إذا حضر أربابها سلَّمت إليهم بالنعوت
والأوصاف ، وأجرى الأمر في ذلك على ما يضحى به علم العدل على المنار حالي
الاعطاف ؛ فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها ، وهدى من ذلك إلى أوضح
مَحَاجِّ الصَّحَّة وسبلها ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

وأمره أن يختار للنظر في المعاون والأجلاب من يرجع إلى دين يحميه من مَهاوى
الزَّلَل وصَلَف عن مدِّ اليد إلى أسباب المطامع ، وكَلَف بما يعود على ما كُفَّ إيَّاه
بصلاحي مشرق المطالع ، ومعرفة بما وكل إليه كافية وفيه ، ولما يوجب الاستراحة له^(٢)

(١) لعله بالطاء المشالة بمعنى الكف . تأمل .

(٢) لعله الاستزاء أى الزرابة عليه والتهاون به .

ماحية نافية ؛ ويوعز إليهم بالتشمير في طلب الدُّعَار، من جميع الأماكن والأقطار،
وحسَم مَوَادِّ العار في بابهم والمضار. وأن يُمضُوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم
في الضلال ، وتجرى أمورهم على قانون الشرع المنير في حادس الظلام ، ممتنعين
أن يُراقبوا من لم يُراقب الله تعالى في عمله ، ويُجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن
شهدت آثاره بذيَم سُبُلَه ؛ وإذا وقع الظفر بجانب قد كَشَفَ في النقي قناعه ،
وأظهرت مساعيه إباءه من إجابة داعي الرشد وأمتناعه ؛ أقيم حد الله تعالى فيه
من غير تعدٍّ للواجب ، ولا تعرُّ من ملابس السالكين للجدد اللاجب ، ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ
حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يُوعزَ إلى أصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ، ويحذوا
في إجراء أُمُورهم على أوفى شروط الضبط والإقدام ؛ ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ
أحكامهم وإمضاءها ، والمصارعة إلى حث مطايا التشمير في ذلك وإنضائها ؛
والتصرف على أمثلتهم في إحضار الخصوم إذا ما أمتنعوا ، وسوقهم إلى الواجب
إذا زاغوا عنه وأنحرفوا . وأن يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي إلى قوة أيديهم
في استيفاء مال النىء وأجتنائه ، وأعتاد ما ينصر الحقوق في مطاويه وأثنائه ؛ إذ كان
في ذلك من الصلاح الجامع ، وكف المضار وحسَم المطامع ، ما المعونة عليه واجبه ،
وللتوفيق مقارنة مصاحبة ، قال الله تعالى : ﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره بعرض من تَضَمَّه الجُبُوس من أهل الجرائم والجرائر ، وتأمل أحوالهم
في الموارِد والمصادر ؛ والرجوع إلى متولّى الشرطة في ذكر صورة كلٍّ منهم والسبب
في حبسه ، والتعيين من ذلك على ما يُعرف به صحَّة الأمر من لبسه ؛ فمن النىء منهم

لِلذُّنُوبِ آفَاءٌ ، وَعَنْ سَنَنِ الصَّوَابِ مُنْحَرِفًا ، تُرِكَ بِجَالِهِ ، وَكُفِّ بِإِطَالَةِ أَعْتِقَالِهِ ،
 عَنْ مَجَالِهِ فِي مَيَادِينِ ضَلَالِهِ ؛ وَإِنْ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، أُقِيمَ فِيهِ بِحَسَبِ
 مَا يَقْتَضِيهِ الْحَقُّ ؛ وَمَنْ أَعْتَرَضَتْ فِي بَابِهِ شُبْهَةٌ تُجَوِّزُ إِسْقَاطَ الْحَدِّ عَنْهُ وَدَرَاهُ ، اعْتَمَدَ
 إِحْلَاقُهُ فِي ذَلِكَ بِمَنْ أَتَّصَلَ إِلَيْهِ صَوْبُ الْإِحْسَانِ وَدَرَّهُ ؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جُرْمٌ وَتَظْهَرُ
 صِحَّةُ شَاهِدِهِ وَدَلِيلِهِ ، قَدَّمَ الْأَمْرَ فِي إِطْلَاقِهِ وَتَحْلِيَةِ سَبِيلِهِ ؛ وَإِنْ غَدَا لِأَحَدِهِمْ سَعْيٌ
 فِي الْفَسَادِ وَاجْتِاعٌ وَبَانُ ، وَغَوَى بِهِ فِي مُحَارَبَةِ الْحَقِّ وَخَانَ ، قُوِيلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ
 فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
 فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ
 ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ 》 .

وَأَمْرُهُ بِاخْتِيَارِ الْمَرْتَبِ لِلْعَرَضِ وَالْعَطَاءِ ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْأَوْلِيَاءِ ؛ مِنْ ذَوِي الْمَعْرِفَةِ
 وَالْبَصِيرَةِ ، وَالْمَشْهُورِينَ فِي الْعِفَّةِ بِتَسَاوِيِ الْعِلَاقَةِ وَالسَّرِيرَةِ ؛ وَمَنْ تَحَلَّى بِالْأَمَانَةِ
 جَيِّدُهُ ، وَأَعْتَصَدَ بِطَرِيفِهِ فِي الرَّشَادِ تَلِيدُهُ ؛ وَكَانَ بِمَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ قِيَمًا ، وَفِي مَقَرِّ
 الْكِفَايَةِ ثَاوِيًا مُحِيْمًا . وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِضَبْطِ حِلِّي الرِّجَالِ وَشِيَاتِ الْخِيُولِ ، وَأَنْ يَقْصِدَ
 فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ تَجْدِيدِ الْعَرَضِ مَا يَشْهَدُ بِالْإِحْتِيَاطِ السَّابِغِ الْأَهْدَابِ وَالذُّيُولِ ؛ فَإِذَا
 وَضَعَ وَجْهَهُ الْإِطْلَاقَ ، وَسَلِمَ مَالُ الْإِسْتِحْقَاقِ ؛ كَانَتْ التَّفَرُّقَةُ عَلَى قَدَرِ الْمَنَازِلِ فِي التَّقْدِيمِ
 وَالتَّأْخِيرِ ، وَبِحَسَبِ الْحَرَائِدِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الصَّغِيرِ مِنْ ذَلِكَ وَالْكَبِيرِ ؛ وَمَتَى طَرَقَ
 أَحَدُهُمْ مَا هُوَ مُحْتَوَمٌ عَلَى خَلْقِهِ ، أَعَادَ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدَرِ قِسْطِهِ وَحَقِّهِ .
 وَأَنْ يَلْزِمَهُمْ إِحْضَارُ جِيَادِ الْخِيُولِ وَخِيَارِ الشَّكَّكَ ، وَيَأْخُذَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِأَوْضَحِ مَا نَهَجَ
 الْمَرْءُ الطَّرِيقَ فِيهِ وَسَلَّكَ ؛ فَإِنْ أَخْلَى أَحَدُهُمْ بِمَا يَلْزِمُهُ الْبَرُوزُ فِيهِ يَوْمَ الْعَرَضِ ،
 أَوْ قَصَّرَ فِي الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِ الْفَرَضُ ؛ حَاسِبَهُ بِذَلِكَ مِنَ الثَّابِتِ بِاسْمِهِ ، وَالْمُطْلَقِ

بَرِّمَهُ؛ تَبِيهًا لَهُ عَلَى تَلَا فِي الْفَارِطِ، وَتَبْصِيرًا لغيره فِي الْبُعْدِ عَنْ مَقَامِ الْخَطِيءِ الْغَالِطِ؛
إِذْ كَانَ فِي قُوَّتِهِمْ وَكَمَالِ عُدَّتِهِمْ إِرْهَابٌ لِلْأَعْدَاءِ وَالْأَضْدَادِ، وَإِرْهَافٌ لِلْبَصَائِرِ فِيمَا يُؤَدِّي
إِلَى الْمَصَالِحِ الْوَاقِيَةِ الْأَعْدَادِ وَالْإِمْدَادِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وَأَمْرُهُ بِاخْتِيَارِ عُمَلِ الْخَرَاجِ، وَالضَّيَاعِ، وَالْأَعْشَارِ، وَالْجَهْدَةِ، وَالصَّدَقَاتِ،
وَالْجَوَالِي؛ وَأَنْ يَكُونُوا مُحْتَضِنِينَ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالْكِفَايَةِ بِمَا يَقَعُ الْإِشْتِرَاكُ فِي عِلْمِهِ،
وَمُتَقَمِّصِينَ مِنْ مَلَابِسِ الْعِفَّةِ وَالذَّرَايَةِ مَا تُتَّخَذُ الْعَوَاقِبُ فِي ضِمْنِهِ، وَمُمْتَازِينَ بِمَا
يُغْنِيهِمْ عَنِ الْأَفْكَارِ بِنَتَائِجِ الْإِتِّعَازِ وَالْإِعْتِبَارِ؛ وَيُغْرِيهِمُ بِالِاسْتِمْرَارِ عَلَى السَّنَنِ الْمُنْعَجِي
لَهُمْ مِنْ مَوَاقِفِ التَّنْصُلِ وَالْإِعْتِدَارِ. وَأَنْ يَأْمُرَ عُمَلُ الْخَرَاجِ بِجَيَاةِ الْأُمُودِ، عَلَى
أَجْمَلِ الْوُجُوهِ وَالْأَحْوَالِ؛ سَالِكِينَ فِي ذَلِكَ جَدًّا وَسَطًا، يَحْجِي مِنْ مَقَامٍ مِنْ ضَعْفٍ
فِي الْإِسْتِخْرَاجِ أَوْ سَطًا. وَ[أَنْ يَتَقَدَّمَ] إِلَى النَّاطِرِينَ فِي الضَّيَاعِ بِتَوْفِيَةِ الْعِمَارَةِ حَقَّهَا
وَالزَّرَاعَةِ حَدَّهَا، وَالتَّوْفِيرِ مِنْ حِفْظِ الْغَلَّاتِ الْحَاصِلَةِ عَلَى مَا يُقْتَنَى فِيهِ أَرْشَدَ الْمَذَاهِبِ
وَأَسَدَهَا؛ مُتَحَرِّزِينَ مِنْ أَمْرِ يُنْسَبُونَ فِيهِ إِلَى الْعَجْزِ وَالْخِيَانَةِ، فَكُلٌّ مِنَ الْحَالِينَ مُجْزٍ
فِي وُضُوحِ أَدَلَّةِ الْفَسَادِ وَمُخْزٍ. وَإِلَى الْجِهَادَةِ بِقَصْدِ الصِّحَّةِ فِي الْقَبْضِ وَالتَّقْبِيضِ،
وَحِفْظِ النَّقْدِ مِنَ التَّدْلِيسِ وَالتَّلْيِيسِ؛ أَدَاءً لِلْأَمَانَةِ فِي ذَلِكَ، وَاهْتِدَاءً فِيهِ إِلَى أَقْوَمِ
الْمَسَالِكِ. وَإِلَى سُعَاةِ الصَّدَقَاتِ بِأَخْذِ الْفَرَائِضِ مِنْ مَوَاشِي الْمُسْلِمِينَ السَّائِمَةِ دُونَ
الْعَامِلَةِ، وَالْجَرْمَى فِي ذَلِكَ عَلَى السُّنَّةِ الْكَاسِبَةِ لِلْحَمْدَةِ الْوَاقِيَةِ الْكَامِلَةِ؛ مُتَجَنِّبِينَ
مِنْ أَخْذِ خَلِّ الْإِبِلِ وَأَكُولَةِ الرَّاعِي، وَعَقَائِلِ الْأُمُودِ الْمُحْظُورَةِ عَلَى سَائِرِ الْأَسْبَابِ
وَالدَّوَاعِي؛ فَإِذَا اسْتُوفِيَتْ عَلَى الْمَحْدُودِ مِنْ حَقِّهَا، أُخْرِجَتْ فِي الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ مِنْ
وُجُوهِهَا وَسُبُلِهَا. وَإِلَى جُبَاةِ جَمَاحِمِ أَهْلِ الدِّمَّةِ بِأَخْذِ الْحِزْيَةِ مِنْهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ، عَلَى
قَدْرِ ذَاتِ أَيْدِيهِمْ فِي الضَّيْقِ وَالسَّعَةِ، وَبِحَسَبِ الْعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمُتَّبَعَةِ؛ بِمُتَتَبِعِينَ مِنْ

مُطَالِبَةُ النَّسْوَانِ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلْمَ مِنَ الرِّجَالِ وَمَنْ عَلَتْ سِنُّهُ عَنِ الْإِكْتِسَابِ وَتَبَتَّلَ مِنَ الرَّهْبَانِ، وَمَنْ غَدَا فَقَرُّهُ وَاحْجَ الدَّلِيلَ وَالْبُرْهَانَ، وَفَاءً بِالْعَهْدِ الْمُسْئُولِ، وَتَلَقَّيَا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَبُولِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ .

وأمره أن يردَّ أمرَ المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطُّرُز والحِسْبَة إلى مَنْ عَصَدَ بِالظَّالِفِ الْوَرَعِ، وَانْتَضَمَ لَهُ سَمَلُ الْهَدْيِ وَاجْتَمَعَ: فَكَانَ ذَا مَعْرِفَةٍ بِمَا يَحْرُمُ وَيَحِلُّ، وَبَصِيرَةٍ يَتَفَيَّأُ بِهَا مِنْ عَوَارِضِ الشُّبْهِ وَيَسْتَظِلُّ؛ وَأَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي ذَلِكَ مُضَاهِيًّا لِحُكْمِ مَلَائِمًا، وَلَنْ يَقُومَ بِهِ إِلَّا مَنْ لَا يَرَى عَادِلًا لَهُ فِي فَعْلِهِ لَائِمًا. وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى مَنْ يَلِي الْمَظَالِمَ بِتَسْهِيلِ الْإِذْنِ لِلْخُصُومِ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ، وَتَمْكِينِ كُلِّ مِنْهُمْ مِنْ أَسْتِيفَاءِ الْحُجَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالتَّوَصُّلِ إِلَى فَصْلِ مَا بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَقُودُ إِلَى لِقَائِهِ؛ وَأَنْ يَقْصِدَ فِيمَا وَقَعَ الْخُلَافُ مَعَهُمْ فِيهِ، الْكَشْفَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ وَيَسْتَوْفِيهِ؛ فَإِنْ وَضَحَ لَهُ الْحَقُّ أَنْفَذَهُ وَقَطَعَ بِهِ، وَإِلَّا رَدَّهُمْ إِلَى مَجَالِسِ الْقَضَاءِ لِإِمْضَاءِ ذَلِكَ عَلَى مُقْتَضَى الشَّرْعِ وَمُوجِبِهِ. وَإِلَى الْمُرْتَبِينَ فِي أَسْوَاقِ الرِّقِيقِ بِالتَّحْقِظِ فِيمَا يُتَبَاعُ وَيُبَاعُ، وَأَنْ يَسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْإِقْتِفَاءَ لِلسَّنَنِ الْجَمِيلِ وَالْإِتِّبَاعَ: لِيَوْمَنِ اخْتِلَاطِ الْحُرِّ بِالْعَبْدِ، وَتُحْرَسَ الْأَنْسَابُ مِنَ الْقَدَحِ وَالْفُرُوجِ مِنَ الْغَضَبِ؛ فِي ضَمْنِ حِفْظِ الْأَمْوَالِ، وَالْمَنْعِ مِنْ مَرْجِ الْحَرَامِ بِالْحَلَالِ. وَإِلَى وِلَاةِ الْعِيَارِ بِتَصْفِيَةِ عَيْنِ الدَّرْهِمِ وَالْدِينَارِ مِنَ الْغِشِّ وَالْإِذْغَالِ؛ وَصَوْنِ السَّكَّكَ مِنْ تَدَاوُلِ الْأَيْدِي الْغَرِيْبَةِ لَهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ مُتَحَدِّثِينَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِمَا رُبَّمَا وَضَحَ الْفَسَادُ فِيهِ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ، وَمَا نَعِينَ التَّجَارِ الْمُخْصُوصِينَ بِالْإِيرَادِ، مِنْ كُلِّ قَوْلٍ مُخَالِفٍ لِلْإِيشَارِ فِي الصَّحَّةِ وَالْمُرَادِ، وَمُعْتَمِدِينَ إِجْرَاءَ الْأَمْرِ فِيمَا يُطْبَعُ عَلَى الْقَانُونِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ لِمُسْتَقَرِّ الْقَاعِدَةِ فِي ذَلِكَ وَمُتَّسِقِ النِّظَامِ؛ وَأَنْ يَثْبَتَ ذِكْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلِيِّ عَهْدِهِ فِي الْمَسَامِينِ؛

(١) فِي اللِّسَانِ "فَاءُ الْفَاءِ فَيَا تَحْوِلُ وَتَفَيَّأُ فِيهِ تَقْلَلُ".

على ما يُضرب من الصّنفين معا ، والمُسارعة في ذلك إلى أفضل ما بادَرَ إليه المرء وسعى . وإلى المُستخْدمين في الطُّرُز بملاحظة أحوال المَنابيح والإشراف عليها ، وأخذ الصَّنَاع بالتجويد على العادة التي يَجِبُ الإِتِّهَاءُ إليها ؛ وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يُنسَج من الكُسا والفُروش والأعلام والبُود ، جَرِيا في ذلك على السَّنِ المُرَضَّى والمنهاج المحمود . وإلى من يُراعى الحِسْبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق ، والإِتِّهَاء في ذلك إلى ما يَنْتَهِي به شَمْلُ الصَّلاح إلى الإِنتظام والإِتِّساق ؛ وأن يتقدّم [اليهم] بما يَجِبُ من تعبير ما يختصّ بهم من المكاييل والموازين ، وحملها على قَانُونِ الصَّحَّة الواضحة الدلائل والبراهين ؛ وأن يقصد تبصيرهم مواضع الحِظِّ في الإِسْتقامه ، ويحذّرهم مواقع الإِنتقام الذي لا تُقْدِ فيه أسبابُ الاسْتِصْفاح والإِسْتقاله ؛ فإن عَرَفَ من أحد منهم إقداما على إدغال فيما يَزِن أو يَكِيل ، قُوِيل من التّأديب بما هو الطريق إلى آرْتِداعه والسَّييل ، قال الله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْ لِلنَّاسِ نِصْرَتَهُم بِمَا هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى آرْتِدَاعِهِ وَالسَّيِيلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴾ (وَيْلٌ لِلطَّافِثِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) .

وأمره أن يَعْرِفَ قَدْرَ النعمة التي ضَفَّتْ عليه بِرُودِهَا ، وحلَّتْ جِيدَهُ عَقُودُهَا ؛ وَزَفَّتْ منه إلى أَوْفَى أَكْفَائِهَا ، وَحُقَّتْ بِجَزِيلِ الْقِسَمِ من جميع أَكْنَفِهَا وَأَرْجَائِهَا ؛ وأن يُقَابِلَهَا بِإِخْلَاصٍ في الطاعةِ يساوي فيه بين ما يُسَيِّدُ وَيُسِرُّ ، وَسَعَى في الخدمة يُوفِي على كلِّ مُجَازٍ وَمِيزٍ ؛ وَيَبْدَأُ أَمَامَ مَا تَوَخَّاهُ بِأَخْذِ الْبَيْعَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ، وَكَافَّةِ الْأَجْنَادِ وَالرَّعَايَا فِي بَلَدِهِ ؛ عَنْ نِيَّةٍ صَفَتْ مِنَ الْكَدَرِ وَالْقَدْزِ ، وَوَفَّتْ لِلتَّوْفِيقِ بِمَا صَمِنَتْ من خِذلانِ الْبَغْيِ وَنُصْرَةِ الْهُدَى ؛ وَيُتَّبِعَ ذَلِكَ بِالْحَقُوقِ فِي كُلِّ خِدْمَةٍ تُرْضَى ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ الْأَوَامِرِ الْإِمَامِيَّةِ فِي كُلِّ مَا يُؤَدَّى إِلَى الْوَفَاقِ وَيُقْضَى ؛ وَأَنْ يَحْمِلَ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنَائِمِ مَا أَوْجَبَهُ

الله تعالى وفرضه ، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولا تقصير منه فيما يقتضى التلافي والإستدراك : ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار إليها ، ووجوه المنصوص عليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضاعف له من الإحسان ، ما يقتضيه مقامه لديه من وجيه الرتبة والمكان ، وشرفه بما يرقل من حلاه في حُلل الجلال ، وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال ؛ وبوأه بما أولاه محلاً تقصر عن الوصول إليه الأقدام ، وتعجز عن حل عراه الأيام ؛ ولقبه بكذا ، وأذن له في تكذيبه عن حضرته ، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته ؛ إنافة به على من هو في مساجلته من الأقران طالع ، وإضافة للنعمة في ذلك إلى ما أقرن بها فيما هو لشمل الفخر عنده جامع ؛ وأنهذ لواء يلوى به إلى الطاعة أي الأعناق ، ويحوى به من العز ما أنواره وافية الإشراق .

فقلق يافلان هذه الصنعة الغراء ، والمنحة التي أكسبت زنادك الإبراء ؛ بالإستبشار التام ، والإعتراف فيها بسايع الطول والإنعام ؛ وأشع ذكر ذلك عند كل أحد ، وأنته في الإبانة عنه إلى أبعد أمد ؛ واعتمد مكتبة حضرة أمير المؤمنين متمسحاً ، ومن عداه متلقباً متمكناً ؛ وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد ، وتستحق به إلحاق الطريف من الإحسان بالتليد ، والله تعالى يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، والحنة لك وعليك ؛ قد أوضح لك [فيه] الصواب ، وأدل به الجوامح الصعاب ؛ وحباك منه بموهبة كفيلة بخيري البدء والمعاد ، وفيه فيها

المُنَى بِسَابِقِ الضَّمَانِ وَالْمِيعَادِ ؛ وَضَمَّنَهُ مِنْ مَوَاعِظِهِ مَا هَدَى بِهِ إِلَى كُلِّ مَا الْحَيُّ ثَمَرُهُ ،
وَعَدَا مَحْطِطًا بِمَا تَرُوقُ أَوْضَاحُهُ فِي الْمَجْدِ وَغُرَرُهُ ؛ وَلَمْ يَأْلُكَ فِيهِ تَجَمُّلاً يُكْسِبُكَ الْفَخْرُ
النَّامِيُّ ، وَيَجْعَلُ ذِكْرَكَ زِينَةَ الْحَفَلِ وَالنَّادِي ؛ وَتَقْدِيمًا يُبْنِي عَمَّا خُصِصَتْ بِهِ مِنْ
الْمِنْحِ الْمُشْرِقَةِ اللَّالِي ، وَإِكْرَامًا يَبْقَى صَبْتُهُ عَلَى تَقْضَى الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي ؛ وَتَبْصِيرًا يَبْقَى
مِنْ فَلَتَاتِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيَرْتَقِي الْمُسْتَضَى بِأَنْوَارِهِ إِلَى دُرَى الْأَمْنِ مِنْ دَوَاعِي
الْعِتَارِ وَالزَّلَلِ ؛ فَأَصْبَحَ إِلَى مَا حَوَاهُ ، إِصْغَاءً الْفَائِزَ بِأَوْفَى الْحِظِّ ، وَتَدَبُّرَ فُحْوَاهُ ، النَّاطِقَ
بِقَضَلِ الْحَثِّ عَلَى الْهَدْيِ وَالْحَضِّ ؛ وَكَنْ لَأَوَامِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ مُحْتَذِيًا ، وَمِنْ
تَجَاوُزِ مُحْدُوْدِهِ فِي مَطَاوِيهِ مُحْتَمِيًا ؛ وَبِمَوَاعِظِهِ الصَّادِقَةِ مَعْتَبِرًا ، وَفِي الْعَمَلِ بِمَا قَارَنَ
الْحَقَّ مُسْتَبِيرًا ، تَفَرُّ بِالْغَنَمِ الْأَكْبَرِ ، وَبِالسَّلَامَةِ فِي الْمَوْرِدِ وَالْمَصْدَرِ ؛ وَإِيَّاكَ وَأَعْتِمَادَ
مَا تُدَمُّ فِيهِ مَكَاسِبُكَ ، فَإِنَّ لَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى مَوْقِفًا يَنَاقِشُكَ فِيهِ وَيَحَاسِبُكَ .
وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ قَلَّدَكَ جَسِيمًا ، وَخَوَّلَكَ جَزِيلًا عَظِيمًا ؛ فَلَا تَنْسَ نَصِيحَتَكَ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى غَدًا ، وَلَا تَجْعَلْ لِسُلْطَانِ الْهَوَى الْمُضِلِّ عَلَيْكَ يَدًا ؛ وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ
الصَّوَابُ فِي بَعْضِ مَا أَنْتَ بِصَدَدِهِ ، أَوْ اعْتَرَضَ فِيهِ مِنَ الشُّبْهِ مَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
طَرِيقِ الرِّشَادِ وَجَدَدِهِ ؛ فَطَالِعْ حَضْرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَاسْتَنْجِدِ اللَّهَ فِي ذَلِكَ
بِأَسَدِّ رَأْيٍ وَأَصْوَبِهِ ؛ يُبَيِّنُكَ مِنَ الشَّكِّ يَقِينًا ، وَيُؤَيِّدُكَ مَا يَغْدُو لِكُلِّ خَيْرٍ صَمِيمًا ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطريقة الثانية

(طريقةُ محقِّقِ المتأخِّرينَ ممَّن جرى على هذا المذهب : كالشيخ شهاب الدين

محمود الحلبي ، والمقرَّ الشهابي بن فضل الله ، ومَن والاهم)

وهي أن يأتي في أثناء العهد بخطبة أو تحييدٍ على عادة المكاتبات ، وأن يذكر بعد صدر العهد حميداً أوصاف المعهود إليه ، ويُنَبِّ فيها ويُنَيِّ عليه بما يليق بمقامه . قال في " التعريف " : « على نحو ما تقدَّم في عهود الخلفاء عن الخلفاء . قال في " التنقيف " : وصورته أن يُكتب :

« هذا ما عهد به عبدُ الله وولِيه أميرُ المؤمنين المتوكِّل على الله (مثلاً) أبو فلان فلان بن فلان ، إلى السيِّد الأجلِّ الملكِ العالمِ العادلِ المؤيِّدِ المظفَّر المنصور المجاهد » ويذكر اللقب هنا ، مثل الناصر أو الكامل أو غيره « فلان الدنيا والدين ، فلان ، ابن السلطان السعيد الشهيد الملك الفلاني خلد الله تعالى ملكه .

أما بعد ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمِّدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، ويصلِّي على ابن عمِّه سيدنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم » ويكمل الخطبة بما أمكنه . ثم يقال : « عهد إليه وقلَّده جميعَ ما هو مُقلَّده من مصالح الأئمة وصالح الخلق ، بعد أن استخار الله تعالى في ذلك ، ومكثَ مدَّةً يتدبَّر هذا الأمرَ ويروى فكره فيه وخاطرَه ، ويستشيرُ أهل الرأي والنظر ، فلم يَرَأَوْفَقَ منه لأُمور الأئمة ومُصالح الدنيا والدين » . ومن هذا وشبهه . ثم يقال : « وإن المعهود له قَبِلَ ذلك منه » ويأتي فيه بما يليق من محاسن العبارة وأجناس الكلام .

قلت : وقد يُؤتَى بعد « أما بعد » بخطبة ، مثل أن يقال : « أما بعدُ فالحمد لله » ونحو ذلك ، ويكمل الخطبة بما يليق بالمقام . ثم قد يقتصر على تحييد واحدة ،

وقد يكره إلى ثلاث ، وإن شاء بلغ به سبعا . فقد قال في "التعريف" في الكلام على عهود الملوك للوك : إنه كُتب أكثر التحميد ، كان أدل على عظم النعمة . وقد يقال في آخره : « والاعتماد على الخط الفلاني (بقلب الخلافة) أعلاه حجة بمقتضاه أو « والخط الفلاني أعلاه حجة فيه » ونحو ذلك .

وعلى هذه الطريقة كتب الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي عهد الملك العادل « كتبنا » عن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ، ابن الإمام الذي استحضره الملك الظاهر بيبرس من بغداد وبايعه ، وهذه نسخته :

هذا عهد شريف في كتاب مرقوم يشهده المقرَّبون ، ويفوضه آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة الأقربون . من عبد الله وولَّيه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين ، وسليل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، إلى السلطان الملك العادل زين الدنيا والدين « كتبنا المنصوري » أعز الله سلطانه .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي جعل له منك سلطانا نصيرا ، وأقام له بملكك على ما ولّاه من أمور خلقه عضدا وظهيرا ؛ وأتاك بما نهضت به من طاعته نِعْمًا ومُلْكًا كبيرا ، وخوّلك بإقامة ما وراء سريه من مصالح الإسلام بكلّ أرض منبرًا وسريًا ، وجاء بك لإعانتته على ما استخلفه الله فيه من أمور عباده على قدرٍ وكان ربك قديرًا ، وجمع بك الأئمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم ،

(١) لم يذكر نسبه في الأصل . وفي ابن أبي ياس هو أحمد بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بن الخليفة المستظهر بن الخليفة المتقي بن محمد الذخيرة العباسي . وكذلك هو في خطط المقرّبي إلا أنه قال أحمد بن أبي علي الحسن بن الخ . وأقام في الخلافة نيفًا وأربعين سنة وتوفي سنة إحدى وسبعمائة وهو أول خلفاء بني العباس بمصر . وبمراجعة تاريخ كتبنا ولا حين يعلم أنهما كانا في زمته وبالضرورة يكون هو العاهل بها فتبه .

وَعَضْدُكَ لِإِقَامَةِ إِمَامَتِهِ بِأَوْلِيَاءِ دَوْلَتِكَ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ وَخَصَّكَ بِأَنْصَارِ دِينِهِ
الَّذِينَ نَهَضُوا بِمَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ طَاعَتِكَ وَهُمْ نَازَهُونَ ، وَأَظْهَرَكَ عَلَى الَّذِينَ أَبْتَنَوْا الْفِتْنَةَ
مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ؛ وَأَصْطَفَاكَ
لِإِقَامَةِ الدِّينِ وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الْأَهْوَاءُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَلَمْ يَكْ شَعَثَ الْأُمَّةَ بَعْدَ
الْإِضْطِرَابِ فَكَانَ مَوْقِفُكَ ثُمَّ مَوْقِفُ الصَّدِيقِ يَوْمَ الرَّدَّةِ .

وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، شَهَادَةً حَاسِمَةً بِأَمْرِهِ ، مُسْتَنْزِلَةً لَكَ
بِالْإِخْلَاصِ مَلَائِكَةً تَأْيِيدُهُ وَأَعْوَانَ نَصْرُهُ ؛ مُسْتَرْهِفٍ بِهَا سَيْفَ عَزَمِكَ عَلَى مَنْ
جَاهَرَ بِشِرْكِهِ وَحَارَبَهُ بِكُفْرِهِ ، مُعْتَصِمٍ بِتَوْفِيقِهِ فِي تَقْوِيضِهِ إِلَيْكَ أَمْرَ سِرِّهِ الَّذِي
أَسْتَوْدَعَهُ فِي الْأُمَّةِ وَجْهَهُ ؛ وَيَصِلُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ الَّذِي أَسْتَخْرِجُهُ اللَّهُ مِنْ
عُنْصُرِهِ وَذَوِيهِ ، وَشَرَّفَ بِهِ قَدَرَ جَدِّهِ بِقَوْلِهِ فِيهِ : « عَمَّ الرَّجُلِ صَنُؤُ أَبِيهِ » وَأَسْرَأَ إِلَيْهِ
بِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ قُتِحَ بِهِ وَيُحْتَمُّ بَيْنِيهِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ ،
الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ، وَجَاهَدُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ الَّذِينَ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ سِرِّ النَّبَوَةِ ، وَأَسْتَوْدَعَهُ مِنْ أَحْكَامِ الْإِمَامَةِ
الْمُورُوثَةِ عَنْ شَرَفِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ وَأَخْتَصَّه مِنَ الطَّاعَةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْأُمَمِ ، وَقَرَّضَ عَلَيْهِ
مِنْ النَّظَرِ فِي الْأَخْصَصِ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَعْمِّ ؛ وَعَصَمَ آرَاءَهُ بِبِرْكَةِ آبَائِهِ مِنْ
الْخَلَلِ ، وَجَعَلَ سَهْمَ أَجْتِهَادِهِ هُوَ الْمُصِيبَ أَبَدًا فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ وَكَانَ السَّلَاطَانُ
فَلَانُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ بِهِ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ وَقَدْ كَادَتْ ، وَثَبَّتْ بِهِ الْأَرْضَ وَقَدْ أَضْطَرَبَتْ
بِالْأَهْوَاءِ وَمَادَتْ ؛ وَرَفَعَ بِهِ مَنَارَ الدِّينِ بَعْدَ أَنْ شَمَخَ الْكُفْرُ بَأَنْفِهِ ، وَأَلْفَ بِهِ شَمْلَ
الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ طَمَحَ الْعُدُوُّ إِلَى أَفْتِرَاقِهِ وَطَمَعَ فِي خُلْفِهِ ، وَحَفِظَ بِهِ فِي الْجِهَادِ حُكْمَ

الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وحى به المالك الإسلامية فما شام الكفر منها برق نغرا لا رعى من وباله بوابل ، ولا أطلق عنان طرفه إلى الأطراف إلا وقع من سطوات جنوده في كفة حابل ؛ ولا أطمأنوا في بلادهم إلا أتتهم سراياه من حيث لم يترقبوا ، ولا ظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله إلا وآتاهم بجنوده من حيث لم يحتسبوا ؛ وألف جيوش الإسلام فأصبحت على الأعداء يمينه يداً واحده ، وقام بأمور الأمة فأمنت عيون الرعايا باستيقاظ سيوفه في مهاد الأمن راقده ؛ وأقام منار الشريعة المطهرة فهي حاكمة له وعليه ، نافذ أمرها على أمره فيما وضع الله مقاليد في يديه ؛ ونصره الله في مواطن كثيرة ، وأعانته على من أضمر له الشقاق والصلاة وإنما لكبيره ؛ وأظهره بمن بغى عليه في يومه بعد حلمه عنه في أمسه ، وأيده على الذين خانوا عهده ويد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ؛ وتعين للملك الإسلام فلم يك يصلح إلا له ، واختاره الله لذلك فبلغ به الدين أماله ؛ وضعع بملكه عمود الشرك وأماله ، وأعاد بسلطانه على الممالك بهجتاً وعلى الملك رونقه وجلاله ؛ وأخدمه النصر فأضمر له أحد سوءاً إلا وزلزل أقدامه ومجّل وباله ، وردّه إليه وقد جعل من الرعب قيوده ومن الذعر أغلاله ، وأوطأ جواده هام أعدائه وإن أنف أن تكون نعاله .

عهد إليه حينئذ مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين في كل ما وراء خلافته المقدسه ، وجميع ما اقتضته أحكام إمامته التي هي على التقوى مؤسسه : من إقامة شعار الملك الذي جمع الله الإسلام عليه ، وظهور أبهة السلطنة التي ألقى الله وأمر المؤمنين مقاليدها إليه ؛ ومن الحكم الخاص والعام ، في سائر ممالك الإسلام ، وفي كل ما تقتضيه أحكام شريعة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ وفي خزان الأموال وإنفاقها ، وملك الرقاب وإعتاقها ، وأعتقال الجناة وإطلاقها ؛ وفي كل

ماهو في يَدِ الْمِلَّةِ الإسلامية أَوْ يَفْتَحُهُ اللهُ بِيَدِهِ عَلَيْهَا ، وفي جميع ما هو من ضَوَالِّ
 الممالك الإسلامية التي سَرَّجَعُها اللهُ بِجَهَادِهِ إِلَيْهَا ؛ وفي تقليد الملوك والوزراء ، وتَقْدِمة
 الجيوش وتأمير الأمراء ؛ وفي الأمصار يُقَرَّبُ بها مَنْ شاء من الجنود ، ويبيحُ إليها
 ومنها ما شاء من البعوث والحشود ؛ ويحكمُ في أمرها بما أمر الله من الذبِّ عن
 حريمها ، ويتحكم بالعدل الذي رَسَمَ اللهُ به لظاعنِها ومقيمِها ؛ وفي تقديم حديثها
 وأستحداثِ قديمِها ، وتشييد ثغورها ، وإمضاء ما عرّفه اللهُ به وجهه سواه من
 أمورها ؛ وإقرار من شاء من حُكَّامِها ، وإمضاء ما شاء من إتقان القواعد بالعدل
 وإحكامِها ؛ وفي إقطاع خواصّها ، واقتلاع ما اقتضته المصلحة من عمائرِها وعمارة
 ما شاء من قلاعِها ؛ وفي إقامة الجهاد بنفسه الشريفة وكُتَّابِهِ ، ولقاء الأعداء كيف شاء
 من [تسيير] سراياه وبعث مواليه ؛ وفي مضايقة العدو وحصاره ، ومصابرة وإنظاره ،
 وغزوه كيف أراه اللهُ في أطراف بلاده وفي عُقر داره ؛ وفي المنّ والفداء والإرقاق ،
 وضرب الهدن التي تسألها العدا وهي خاضعة الأعناق ؛ وأخذ مجاورى العدو
 المخدول بما أراه اللهُ من النكاية إذا أمكن من نواصيهم ، وحكم عفوهِ في طائعهم
 وبأسه في عاصيهم ، وإنزال الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم .
 وفي الجيوش التي أَلِفَ الأعداءُ فَنَكَاتِ الوُفْها ، وعرفوا أن أرواحهم ودائع سيوفها ؛
 وصَبَحَتْهم سرايا رُعبها المبنوثة إلیهم ، وتركهم خوفها كأنهم حُشْبُ مُسَنَدَةٍ يُحْسِبُونَ
 كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ؛ وهم الذين ضاقت بمواكبهم إلى العدا سعة الفجاج ، وقاسمت
 رماحهم الأعداء شَرَقِسمَةً ففى أيديهم كعوبها وفي صدور أولئك الزجاج ، وأذهبت
 عن الثغور الإسلامية رجس الكفر وطهرت من ذلك ما جاور العذب الفرات
 والملح الأجاج ؛ وعرفوا في الحروب بتسرع الإقدام ، وثبات الأقدام ، وأدناهم الله

لَأَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ أَنْ تَرُدَّهَا بِهِمْ دَارَ السَّلَامِ إِلَى مُلْكِ الْإِسْلَامِ : فَيُدْرَ عَلَيْهِمْ مَا شَاءَ مِنْ
إِنْعَامِهِ الَّذِي يُؤَكِّدُ طَاعَتَهُمْ ، وَيَجِدُّدُ اسْتِطَاعَتَهُمْ ؛ وَيَضَاعِفُ أَعْدَادَهُمْ ، وَيَجْعَلُ
بَصَفَاءَ النَّيَّاتِ مَلَائِكَةَ اللَّهِ أَمْدَادَهُمْ ؛ وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
زَحْفًا ، وَيَجْعَلُهُمْ فِي التَّعَاوُذِ عَلَى اللَّقَاءِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوفِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِهِ صَفًّا . وَفِي أَمْرِ الشَّرْعِ وَتَوَلِيَةِ قُضَاتِهِ وَحُكْمِهِ ، وَإِمْضَاءِ مَا قَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى الْأُمَّةِ مِنَ الْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ وَ^(١)
فِي أَرْضِهِ ، وَحُبْلِهِ الْمَتِينِ الَّذِي لَا تَقْضُ لِإِبْرَامِهِ وَلَا لِإِبْرَامَ لِنَفْسِهِ ، وَسَنَنَ نَبِيِّهِ الَّذِي
لَا حَظَّ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ لِغَيْرِ مَتَمَسِّكَ بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ؛ وَهُوَ - أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ -
سَيُفِّ اللَّهُ الْمَشْهُورُ عَلَى الَّذِينَ غَدَوْا وَهُمْ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ مَارِقُونَ ، وَيُدْهِ الْمَبْسُوطَةُ
فِي إِمْضَاءِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .
وَفِي مَصَالِحِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَثَالِثِهِمَا الَّذِي تُشَدُّ أَيْضًا إِلَيْهِ الرِّجَالُ . وَإِقَامَةِ سَبِيلِ
الْحَجَّاجِ الَّذِينَ يَفْعِدُونَ عَلَى اللَّهِ بِمَا مَنَحَهُمْ مِنْ بَرٍّ وَعِنَايَتِهِ فِي الْإِقَامَةِ وَالْإِرْتِحَالِ .^(٢)
وَفِي عِمَارَةِ الْبُيُوتِ الَّتِي أَدْنَى اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُلُوِّ
وَالْأَصَالِ رِجَالٌ ؛ وَفِي إِقَامَةِ الْخُطْبِ عَلَى الْمَنَابِرِ ، وَأَقْتِرَانِ اسْمِهِ الشَّرِيفِ مَعَ اسْمِهِ بَيْنَ
كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرٍ ، وَالْإِقْتِصَارِ عَلَى هَذِهِ التَّنْيَةِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ فَإِنَّ الْقَائِلَ بِالتَّثْلِيثِ
كَافِرٌ ؛ وَفِي سَائِرِ مَا تَشْمَلُهُ الْمَمَالِكُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَمَنْ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَبُعْدًا
وَقُرْبًا ؛ وَبَرًّا وَبَحْرًا ، وَشَامًا وَمِصْرًا ؛ وَحِجَازًا وَيَمَنًا ، وَمَنْ يَسْتَقِرُّ بِذَلِكَ إِقَامَةً وَطَعْنًا .
وَفَوْضَ إِلَيْهِ ذَلِكَ جَمِيعَهُ وَكُلَّ مَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ خِلَافَتِهِ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ ، مَا ذَكَرَ وَمَا لَمْ يَذَكَرْ

(١) النِّهْبُ مِنْ مَعَانِيهِ الْغَارَةِ أَيْ تَرْدُ غَارَاتِهِمْ دَارَ الْخِ وَفِي الْأَصْلِ يَرُدُّهَا بِهِمْ . تَأْمَلْ .

(٢) بِيَاضُ بِالْأَصْلِ وَلَعَلَّهَا « وَالْمَشَى » مَعَ الْخِ .

(٣) فِي الْأَصْلِ أَوْضَحَهُمْ . تَأْمَلْ .

تفويضاً لازماً ، وإمضاءً جازماً ، وعهداً مُحْكَمًا ، وعقدًا في مصالح مُلْك الإسلام مُحْكَمًا ، وتقليدًا مؤبداً ، وتقريراً على كثر الجديدين مُجَدِّداً ؛ وأثبت ذلك وهو الحاكم حقيقةً بما علمه من آسْتِحْقَاقِهِ والحاكمُ بِعِلْمِهِ ، وأشهد الله وملائكته على نُفُوذِ حُكْمِهِ بذلك : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَرَ لَهُ ﴾ . وذلك لِمَا صَحَّ عنده من نُهوضِ مُلْكِهِ بِأَعْيَانِ مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْخِلَافَةِ ، وأدائه الأمانة عنه فيما كَتَبَ اللَّهُ عليه من الرحمة اللَّائِزَةِ وَالرَّافَةِ ، وَاسْتِقْلَالِهِ بِأُمُورِ الْجِهَادِ الَّذِي أَقَامَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ ، وَآخْتِصَاصِهِ وَجُنُودَهُ بِعُمُومِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْأُمَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ . وأنه في الْجِهَادِ سَهْمُهُ الْمُصِيبُ وَلَهُ بِهِ أَجْرُ الرَّامِي الْمُسَدَّدِ ، وَسَيْفُهُ الَّذِي بَرَّهَ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ وَلَهُ مِنْ فَتَكَاتِهِ حَظُّ الْمُرْهَفِ الْمَجْرَدِ ؛ وَظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ الَّذِي مَدَّهُ يَمِينُهُ ، وَآيَةُ نُصْرِهِ الَّذِي آخْتَارَهُ اللَّهُ لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَصَلَاحِ دِينِهِ ؛ النَّاهِضُ بِفَرْضِ الْجِهَادِ وَهُوَ فِي مُسْتَقَرِّ خِلَافَتِهِ وَادِّعِ ، وَالرَّاكِضُ عَنْهُ بِحَيْلِهِ وَخِيَالِهِ إِلَى الْعَدُوِّ الَّذِي لَيْسَ لِفَتَكَاتِ سَيْوفِهِ رَادِعٌ ؛ وَالْمُؤَدِّي عَنْهُ فَرْضَ النَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُلَّمَا تَعَيَّنَ ، وَالْمُنْتَقِمُ لَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاقِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ وَالْقَائِمُ بِأَمْرِ الْفُتُوحِ الَّتِي تَرْدِي بَيْعَ الْكُفْرِ مَسَاجِدَ يَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ وَأَسْمُهُ ، وَيُرْفَعُ عَلَى مَنَابِرِهَا شِعَارُهُ الشَّرِيفُ وَرَسْمُهُ ؛ وَتُمَثَّلُ لَهُ بِإِقَامَةِ دَعْوَتِهِ صُورَةُ الْفَتْحِ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ، وَالنَّاطِرُ عَنْهُ فِي عُمُومِ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَخُصُوصِهَا تَعْظِيماً لِقُدْرِهِ ، وَتَرْفِيهاً لِسِرِّهِ ، وَتَفْخِيماً لَشَرَفِهِ ، وَتَكْرِيماً لَجَلَالَةِ بَيْتِهِ النَّبَوِيِّ وَسَلَفِهِ ؛ وَقِيَاماً لَهُ بِمَا عَهِدَ إِلَيْهِ ، وَوَفَاءً مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا بِمَا وَضَعَ مَقَالِيدَهُ فِي يَدَيْهِ .

وَلِيُذِلَّ عَلَى عِظَمِ سِيرَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِكَرَمِ سِرِّهِ ، وَيُنَبِّهَ عَلَى كَمَالِ سَعَادَتِهِ إِذْ قَدْ كُنِيَ بِهِ فِي أُمُورِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَالسَّعِيدُ مِنْ كُفْيِ بَغْيِهِ ، لَمْ يَجْعَلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى يَدَيْهِ دِيًّا

في ذلك ، ولا فسّح لأحد غيره في أقطار الأرض أن يدعى بملك ولا مالك ، بل بسط حكمه وتحكمه في شرق الأرض وغربها وما بين ذلك ؛ وقد فرض طاعته على سائر الأمم ، وحكم بوجوبها على الخاص والعام ومن ينقض حكم الحاكم إذا حكم ؛ وهو يعلم أن الله تعالى قد أودع مولانا السلطان سراً يستضاء بنواره ، ويهتدى في مصالح الملك والممالك بمناره ، فجعل له أن يفعل في ذلك كل ما هدى الله قلبه إليه ، وبعثه بالتأييد الإلهي عليه ؛ واكتفى عن الوصايا بأن الله تعالى تكفل له بالتأييد ، وخصه من كل خير بالمزيد ؛ وجعل خلقه التقوى وكل خير فرع عليها ، ونور بصيرته بالهدى فما يدل على حسنة من أمور الدنيا والآخرة إلا وهو السابق إليها ؛ والله تعالى يجعل أيامه مؤرخة بالفتوح ، ويؤيده بالملائكة والروح ، على من يدعى الأب والأبْن والروح ؛ ويجعل أسباب النصر معقودة بسببه ، والملك كلمة باقية في عقبه .

ويشهد بهذا العهد الشريف مع من شهده من الملائكة المقربين ، كل من حضر تلاوته من سائر الناس أجمعين : لتكون حجة الله على خلقه أسبق ، وعهد أمير المؤمنين بثبوتة أوثق ؛ وطاعة سلطان الأرض قد زادها الله على خلقه بذلك توكيداً ، وشهد [الله] وملائكته على الخلق بذلك وكفى بالله شهيداً . والاعتماد على الخط الحاكمي أعلاه حجة به ، إن شاء الله تعالى .



وعلى نحو ذلك كتب الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي عهد الملك المنصور « حسام الدين لاجين » عن الخليفة الحاكم بأمر الله بن أبي الربيع سليمان المتقدم ذكره . وهذه نسخته :

(١) الذي في التواريخ أن الحاكم بأمر الله الذي بايع له الظاهر بيبرس طالت مدته الى أيام حسام الدين لاجين وأما الحاكم بأمر الله بن أبي الربيع فهو ابن ابنه تأمل .

هذا عهدٌ شريفٌ تشهدهُ الأُملاكُ لِأشرفِ الملوكِ ، وتسلكُ فيه من قواعدِ العهودِ المقدسةِ أحسنَ السُّلوكِ ؛ من عبد الله وولَّيه الإمامَ الحاكمَ بأمرِ الله أميرِ المؤمنين ، للسلطانِ الملكِ المنصورِ حُسامِ الدنيا والدينِ ؛ أبى الفتحِ لاجينِ المنصورى ، أعزَّ الله سلطانه .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله مؤتى الملكِ من يشاءُ من عبادِهِ ، ومُعْطى النصرِ من يُجاهدُ فيه حقَّ جهادِهِ ؛ ومُرْهِفِ حُسامِ انتقامِهِ على مَنْ جاهرَ بعبادتهِ ، ومفوّضِ أمرِ هذا الخلقِ إلى مَنْ أودعَهُ سرِّرافتهِ في محبتهِ ومُرَادِ نِقْمَتِهِ في مُرادِهِ ؛ وجامعِ كلمةِ الإيمانِ بِمَنْ آجَبَناه لإقامةِ دينِهِ وأَرْضَناه لرفعِ عَمادِهِ ، ومُقِرِّ الحقِّ في يدِ مَنْ منعَ سيفُهُ المجتَدَ في سبيلِ الله أَنْ يَقَرَّ في أعْمالِهِ ؛ وناصرِ مَنْ لم تزلْ كلمةُ الفُتوحِ مستكنَّةً في صُدُورِ سيوفِهِ جاريةً على ألسنةِ صِعادِهِ ، وجاعِلِ مُلكِ الإسلامِ من حُقوقِ مَنْ إذا عدَّ أهلُ الأرضِ على أَجماعِهِمْ كان هو المتعينَ على أنْفِرَادِهِ ؛ الذى شَرَّفَ أَسْرَةَ مُلكِ الإسلامِ باستيلاءِ حُسامِ دينِهِ عليها ، وزلزلَ ممالكَ أعدائِهِ بما بَعَثَ من سَرَايا رُعيهِ إليها ؛ وثَبَّتَ به أركانَ الأرضِ التى سَتَحَتوى مُلكَهُ في طرفيها ، وَضَعَعَ بسلطانه قواعدَ مُلُوكِ الكُفْرِ فودَّعَتْ ما كان مُودَعاً لآيامِهِ من مَمالِكِ الإسلامِ في يَدَيْها ؛ وأقامَهُ وليَّهُ بأمرِهِ فلم يَخْتَلِفْ عليه آثَنانِ من خَلْقِهِ ، وَقَلَدَهُ أمرَ بَرِيَّتِهِ لما أقدَرَهُ عليه من النُّهوضِ بِحقِّهِمْ وحقِّهِ ؛ وأظْهَرَهُ على مَنْ نَصَبَ له الغوائلَ واللهُ غَالِبٌ على أَمْرِهِ ، ونَصَرَهُ في مواطنَ كثيرةٍ لما قَدَرَهُ في القِدامِ من رِفْعَةٍ شَانِهِ وأَعْتَلَاءِ قَدْرِهِ ؛ وجعلَ عَدُوَّهُ وإنْ أَعْرَضَ عن طَلْبِهِ بِجُيُوشِ الرُّعبِ مُحْصُوراً ، وَكَفَّاه بِنَصْرِهِ على الأعداءِ التَّوَعُّلَ في سَفْكِ الدِّماءِ فلم يُسْرِفْ في القَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنصُوراً ؛ وَنَقَلَ إِلَيْهِ المُلْكَ بِسَيْفِهِ والدِّماءُ مَصُونَةٌ ، وَحَكَمَهُ فيما كانَ بِيَدِ غَيْرِهِ من الأرضِ والبلادِ آمِنَةً وَالْفِتَنُ مَأْمُونَةٌ ؛ فَكانَ أَمْرُ مَنْ ذَهَبَ سَحَابَةٌ صَيْفٌ ، أو جَلَسَتْ ضَيْفٌ ؛ لم تُحَلِّ له رَوْعَةٌ في القلوبِ ،

ولم يُدْعَرْهَا - وقد ألبسه الله ما نزع عن سواه - سالبٌ ولا مَسْلُوبٌ، إجراء لهذه الأمة على عوائد فضله العَمِيمِ ، واختصاصاً بما آتاه من مُلكه ﴿ والله يُؤْتِي مَلِكُهُ مِنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يَحْمَدُهُ أمير المؤمنين على ما مَنَحَ في أيامه الدِّينَ من اعتزاده بحُسامِهِ ، والاعتماد في مُلك المسلمين على من يجعلُ جَبَاهُ ملوك الشُّرك تحت أَقْدَامِهِ ، والاعتدادِ بمساعي مَنْ حَصُونُهُ في الجهاد ظُهورُ جَيَادِهِ وقُصورُهُ أطرافُ حُسامِهِ .

ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حاكم بما أَرَاهُ، حامدٍ له في مُلك الإسلام على تيسر ما وُطِّدَ ورفع ما عَرَّاهُ ، معتصم به في كلِّ ما أثبتَه بالحق من قواعد الدِّينِ في جهاد أعداء الدِّينِ عن سِيَرِهِ في ذلك وسُرائِهِ ؛ وأن محمداً عبده ورسوله الذي جعله من عَصَبِيَةِ الشَّريفة وعُصْبَتِهِ ، وشرفه بِوَرَاثَةِ خَلَاتِهِ في أُمَّتِهِ [ورفع] قَدْرُ رُتْبَتِهِ ، وقَصَرَ على إقامة من يُرْهبُ العِدا بِنَشْرِ دَعْوَتِهِ في الآفاق مع مَوَاقِعِ رَغْبَتِهِ ؛ ويسأله أن يصلِّيَ عليه صلاةً تَفْتَحُ له في الدنيا إلى العِصْمَةِ طَرِيقاً ، وتجعله في الأُخْرَى معه ومع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من آبَائِهِ الشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقاً ؛ وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

وإنَّ أمير المؤمنين لما اخْتَصَّه اللهُ به من البرِّ المودَعِ في قلبه ، والنُّور الذي أصبح فيه على بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ ؛ والتَّأْيِيدَ المُنْتَقِلَ إليه عَمَّنْ شَرُفَ بِقُرْبِهِ ، والنَّصَّ الذي أَسْرَهَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إلى جدِّه العباس من بقاء هذا الأمر في ورثته دُونَ أَقَارِبِهِ وَصَحْبِهِ ؛ لم يَزَلْ يَرْغَبُ إلى اللهِ سبحانه ويستخيرُهُ في إقامة من يَنْهَضُ في مُلك الإسلام حقَّ النُّهوضِ ، ويفوضُ إليه الأمانةَ ^(٢٦) إلى مَنْ يرى أداء الأمانة فيهم من

(١) أى جعل الله الخليفة من عصبة النبي الخ فتنه .

(٢) لعله من يرى . تأمل

أَكَّدَ الْفُرُوضَ ؛ وَمَنْ إِذَا قَالَ الْغَفِيرُ يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرَكِي سَابِقَتْ خَيْلُهُ خَيْالَهُ ، وَجَازَتْ عِزَّتُهُ نِصَالَهُ ؛ وَأَخَذَ عَدُوَّ الدِّينِ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَغَالَبَ سَيْفُهُ الْأَجَلَ عَلَى أَنْتَرَاعِ رُوحِهِ مِنْ بَدَنِهِ ؛ وَقَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَجَاهَدَ لِإِقَامَةِ مَنَارِ الْإِسْلَامِ لَا لِلتَّعَرُّضِ إِلَى عَرَضِ الدُّنْيَا ؛ وَقَدِّمَتْ لَهُ مَلُوكُ الدُّنْيَا حُصُونَهَا ، وَبَذَلَتْ لَهُ مَعَ الطَّاعَةِ مَصُونَهَا ؛ وَأَقِيمَ لَهُ بِكُلِّ قُطْرٍ مَسْبَرٌ وَسَرِيرٌ ، وَجَمَعَ مَلُوكَ الْعِدَا فِي رِقِّ طَاعَتِهِ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ؛ وَمَنْ يُقِيمِ الْعَدَلَ عَلَى مَا شَرَعَ ، وَالشَّرْعَ عَلَى مَا أَخَذَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمِعَ ؛ وَيُمِيتِ الْبِدْعَ بِأَحْيَاءِ السَّنَنِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ خَلْقَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَنَنَا وَلَا يَعْدِلُ بِهِمْ عَنْ ذَلِكَ السَّنَنِ .

وَمَا كَانَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ حُسَامُ الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَبُو الْفَتْحِ « لَاحِنِ الْمَنْصُورِي » - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - هُوَ الَّذِي جَعَلَ [اللَّهُ] صَالِحَ الْأُمَّةِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَأَخْتَارَهُ لِإِقَامَةِ دِينِهِ فَسَاقَ مُلْكُ الْإِسْلَامِ عَنُودًا إِلَيْهِ ؛ وَأَنْهَضَهُ بِذَلِكَ وَقَدْ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ نَصْرِهِ ، وَأَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَجَمَعَ قُلُوبَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى حُبِّهِ ؛ وَفَرَّقَ أَعْدَاءَ الدِّينِ خَوْفُ حَرْبِهِ ، وَجَعَلَ النَّصْرَ حَيْثُ تَوَجَّهَ مِنْ أَشْيَاخِهِ وَحَرْبِهِ ؛ وَعَضَّدَهُ لِنَصْرَةِ الْإِسْلَامِ بِمَلَائِكَةِ سَمَائِهِ ، وَأَقَامَ بِهِ عُمُودَ الدِّينِ الَّذِي بِالسَّيْفِ قَامَ وَلَا غَرَوُ فَإِنَّ الْحُسَامَ مِنْ أَسْمَائِهِ ؛ وَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ طَوَائِفُ جُيُوشِ الْإِسْلَامِ مُدْعِينَ ، وَأَدَّى فِي كِرَامَتِهِمْ حُقُوقَ طَاعَةِ اللَّهِ الَّذِي أَيْدَهُ بَنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَتَلَقَّاهُمْ بِشِيرِ كِرَامَتِهِ وَنِعْمِهِ وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ؛ فَطَارَتْ مُخَلِّقَاتُ الْبَشَائِرِ بِمُلْكِهِ فِي الْإِفَاقِ ، وَأَغْصَصَ الْعِدَا سُلْطَانَهُ فَمَا تَوَهَّمُوا فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ الْإِخْتِلَافَ حَتَّى تَحَقَّقُوا بِحَمْدِ اللَّهِ وَبَيْنَ أَيَّامِهِ الْوِفَاقَ ؛ وَأَخْتَالَتِ الْمَنَابِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِذِكْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِكْرِهِ ، وَأَعْلَنَتِ الْأُمَّةُ الْمَحْمَدِيَّةُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَقْرَبَهُ الْحَقُّ فِي مَرَكَزِهِ وَرَدَّهُ بِهِ شَارِدَ

المُلك إلى وكره؛ وتحقق أمير المؤمنين أنه المكنون في طويته والمستكن في صدره؛
والقائم في عمارة بيته النبوي وسلامته مقام سلمانه وعماره، فعهد إليه حينئذ في كل
ما تقتضيه أحكام إمامته في أمة نبيّه، وجعله في التصرف المطلق عنه قائماً مقام
وصيه في الملة ووليّه؛ وقلده أمر ملك الإسلام تقليداً عاماً، وفوض إليه حكم
السلطنة الشريفة تفويضاً تاماً؛ وألبسه من ذلك ما خلعه عن سواه، ونشر عليه
لواء الملك الذي زوى ظلّه عن غيره وطوّاه؛ وحكّمه في كل ما تقتضيه خلافته
المقدّسة، وتمّضيه إمامته التي هي على التقوى مؤسّسه: من إقامة منار الإسلام،
والحكم العام في أمة مجد عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفي تقليد الملوك والوزراء،
وتقدمة الجيوش وتأمير الأمراء؛ وفي تجهيز العساكر والسرايا، وإرسال الطلائع
والرأيا، وتجريد الجنود الذين ما ندبهم إلى الأعداء إلا أبوا بالنهاب والسبأيا؛
وفي غزو العدو كيف أراه الله إن شاء بنفسه أو جنده، وفي استرسال النصر بالثبات
والصبر فإن الله يجزي الصابرين وما النصر إلا من عنده؛ وفي محاصرة العدو ومصابرته،
وإنظاره ومناظرته، وإنزالهم على ما شرع الله فيهم من الأحكام، والتوخي في ذلك
ما حكم به سعد بن معاذ في زمن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفي ضرب
الهدن وإمضائها، والوفاء بالعقود المشروعة إلى انتهاء مددها وأنقضائها، وفي إرضاء
السيف من نكت ولم يتمّ عهده إلى مدته فإن إسقاط الكفر في إرضائها؛ وفي الأمصار
يقربها من شاء من الجنود، ويبعث إليها من شاء من البعث والحشود؛ وفي سدّاد
الثغور بالرجال الذين تقتربهم عن شنب النصر، وتأمّن بهم أعداؤها من غوائل
الحضر، وتوفير سهامها من سهام القوة التي ترمي بشرر كالقصر؛ وإمداد بحرها
بالشواني المجربة المحجّده، والسفن التي كأنها القصور الممهّدة على الصروح الممرّده؛
فلا تزال تدب إليهم من ذوات الأرجل عقاربها، وتخطف غربانهم الطائرة بأجنحة

الْقُلُوعِ مَخَالِبَهَا ، وَفِي تَقْدِيمَةِ وَتَنْفِيزِ السَّرَايَا الَّتِي لَا تَزَالُ أَسْتَهْأِلُ إِلَى نُحُورِ الْأَعْدَاءِ مُقَوِّمَهُ ، وَإِنْفَاقِ مَا يَرَاهُ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَلِيلِ الْمُسَوِّمَةِ ، وَفِي إِعْلَاءِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَالْإِتْقَادِ إِلَيْهِ ، وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى نَفُوذِ حُكْمِهِ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَتَقْوِيَةِ يَدِ حُكَّامِهِ عَلَى كُلِّ أَمِيرٍ وَمَأْمُورٍ أَقَرَّ الشَّرْعُ فِي يَدِهِ شَيْئًا أَوْ أَتَرَعَهُ مِنْ يَدَيْهِ ، وَتَفْوِضِ الْحُكْمِ إِلَى كُلِّ مَنْ يَتَعَيَّنُ لَذَلِكَ مِنْ أُمَّةِ الْأُمَمِ ، وَإِقَامَةِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ عَلَى قَوَاعِدِهِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ حُجَّةً وَآخْتِلَفَهُمْ رَحْمَةً ، وَفِي مَصَالِحِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَثَالِثِهِمَا الَّذِي تُشَدُّ الرِّحَالُ أَيْضًا إِلَيْهِ ، وَفِي إِقَامَةِ سُبُلِ الْحَجَّاجِ الَّذِينَ دَعَاهُمُ اللَّهُ فَلَبَّوْهُ وَأَسْتَدْعَاهُمْ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ ، وَفَوْضَ إِلَيْهِ كُلِّ مَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ خِلَافَتِهِ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ : مَا ذَكَرَ وَمَا لَمْ يُذَكَرْ ، تَفْوِضًا لِإِزْمَا ، وَتَقْلِيدًا جَازِمًا ، وَعَقْدًا مُحْكَمًا ، وَعَهْدًا فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مُحْكَمًا ، وَآكْتَفَى عَنِ الْوَصَايَا بِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ خُلُقُهُ الشَّرِيفُ مِنَ التَّقْوَى ، وَهَدَى نَفْسَهُ النَفِيسَةَ إِلَيْهِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالسَّنَدِ الْأَقْوَمِ وَالسَّبَبِ الْأَقْوَى ، فَمَا يُنْبِئُهُ عَلَى حُسْنَةٍ إِلَّا وَهُوَ أَسْبَقُ إِلَيْهَا ، وَلَا يُدِلُّ عَلَى خَلَّةٍ إِلَّا وَفِكْرُهُ الشَّرِيفُ أَسْرَعُ مِنْ فِكْرِ الدَّالِّ عَلَيْهَا ، وَقَدْ وَثِقَ بِبِرَاءَةِ الذِّمَّةِ مِنْ حَقِّ قَوْمٍ أَصْحَحُوا لِفَضْلِ مِثْلِهِ رَاجِينَ ، وَتَحَقَّقَ حُلُولُ النِّعَةِ عَلَى أُمَّةٍ أَمْسَوْا إِلَى « لَا حِينَ » لَا حِينَ ، وَقَدْ آسْتَخَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا ، وَجَلَأَ إِلَى اللَّهِ فِي تَوْفِيقِهِ وَتَوْفِيقِهِ عَلَى الصَّوَابِ مِمَّا يَجِدُهُ فِي الْحُكْمِ بِذَلِكَ هَادِيًا وَنُصِيرًا ، وَسَارَعَ إِلَى التَّسْلِيمِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا فَوَّضَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ بَعْبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا . وَأَشْهَدُ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْعَهْدُ الْكَرِيمَ ، وَحَكَمَ عَلَى الْأُمَّةِ بِمَقْتَضَاهُ فَنَ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ الْإِمَامِيُّ الْحَاكِمِيُّ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وعلى قريبٍ منه كتب القاضي شمس الدين إبراهيم بن القيسراني عهدَ
الملك الناصر «محمد بن قلاوون» عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان .
وهذه نسخته :

هذا عهدٌ يعمرُ بك للإسلام المعاهد ، وينصرُ منك الاعترامَ فتغنى عن الموالى
والمعاضد ؛ ويُلقي إليك مقاليد الأمور : لتجتهدَ في مراضى الله وتجاهدَ ، ويعتُك على
العمل بالكتاب والسنة : ليكونا شاهدين لك عند الله في أعظم المشاهد ؛ نفذُ كتاب
أمير المؤمنين بقوة تبركا بأخذ يحيى عليه السلام للكتاب ، وحاسب نفسك محاسبةً
تجدُ نفعها يوم يقوم الحساب ، وأعمل صالحا فالذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى
لهم وحسن ما ب .

من عبد الله وولَّيه الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد أمير المؤمنين :
إلى السلطان الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، الم رابط ، المظفر ، الملك ، الناصر ؛
ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ؛
فاتح الأمصار ، مبيد الأرمن والفرنج والتتار ؛ وارث الملك ، سلطان العرب والعجم
والترك ؛ خادم الحرمين ، صاحب القبلتين ؛ أبى الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين
أعز الله سلطانه ، ولد السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، قدس
الله روحه .

أما بعد ، فالحمد لله الذى أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر ، وأحل فى السلطنة
المعظمة من استحقها بذاته الشريفة وشرف العناصر ؛ ووضع الإصر بمن كثرت منه

وَمِنْ سَلَفِهِ الْكَرِيمِ عَلَى الرَّعَايَا الْأَوَاصِرِ، وَعَقَدَ لَوَاءَ الْمُلْكِ لِمَنْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعْيِ فَقِي حَالِيهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ؛ وَجَمَعَ كَلِمَةَ الْأُمَّةِ بِمُتَفَرِّدٍ فِي الْمَعَالَى مُتَوَحِّدٍ فِي الْمَفَاخِرِ، مُتَّصِفٍ بِمَنَاقِبِ أَرْبِيٍّ بِهَا عَلَى أَرْبَابِهَا مِنَ الْمُلُوكِ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ؛ وَأَقْرَبَ النُّوَاطِرَ وَالْخَوَاطِرَ بِنِ اشْرَاقِ عَلَيْهِمَا نُورُهُ الْبَاهِرُ، وَظَهَرَتْ آثَارُ وَجُودِهِ وَجُودِهِ عَلَى الْبَوَاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ؛ وَأَعَادَ شَيْبَةَ الْأَيَّامِ فِي اقْتِبَالِ سَرِّ السَّرَائِرِ، وَسَارَتْ بِشَائِرِ مَقْدَمِهِ فِي الْآفَاقِ سَيْرَ الْمَثَلِ وَمَاظُنَّكَ بِالْمَثَلِ السَّائِرِ؛ وَفَعَلَتْ مَهَابَتَهُ فِي التَّمْهِيدِ وَالتَّشْيِيدِ فَعَلَّ الْقَنَا الْمَتَشَايِرَ، وَشَفَّتِ الصُّدُورَ بِوُجُودِ الْإِتِّفَاقِ وَعَدَمِ الشَّقَاقِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ؛ وَأَوْرَثَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ صَفْوَةَ ذُرِّيَّةٍ وَرَثُوا السِّيَادَةَ كَارِبًا عَنْ كَارِبِ، وَسَرَى سِرُّهُ إِذَا وَلَدَ الْمَوْلُودُ مِنْهُمْ تَهَلَّلَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَاهْتَرَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَابِرُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَجْتَبَى سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشْرَفِ بَيْتٍ وَقَبِيلَةٍ، وَمَنَحَ الْأُمَّةَ بَرَسَاتِهِ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْوَسِيلَةَ، وَأَوْجَبَ الشَّفَاعَةَ لِمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لَهُ أَعْلَى دَرَجَةٍ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَهِيَ الْوَسِيلَةُ؛ وَجَعَلَ شَمْلَهُمْ بِمَبَايِعَتِهِ وَمَتَابَعَتِهِ فِي الْهَدَايَةِ نَظْمًا، وَحَضَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يَكْفِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وَبَلَّغَهُمْ بِهِ مِنَ السَّعَادَةِ غَايَةَ مَطْلُوبِهِمْ، وَأَيَّدَهُ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ؛ وَزَانَ شَرِيعَتَهُ الْمَطْهُرَةَ بِمَحَاسِنِ أَهْلِ مَنْظَرٍ وَخَبَّرَ مِنَ الْعُقُودِ، وَفَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْفُوا بِالْعُهُودِ وَالْعُقُودِ؛ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى حَمْلِ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَشْفَقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مِنْ حَمْلِهَا، وَأَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين من سُلالة عم نبيه العباس ، وأصطفى بيته المبارك من خير أُمَّة أُخْرِجَتْ للناس ؛ وقوى به جأش المسلمين وجيوش الموحدين على الملّحين ، وآتاه بسيادة جده وسعادة جده ما لم يؤت أحداً من العالمين ؛ وحفظ به للمؤمنين ذمّاماً ، وجعله للتّقين إماماً ؛ وخصّه بمزيد الشرفين : نسبه ومنصبه ، وجعل مزية الرتبين كلمةً باقيةً فى عقبه ؛ وصان به حوزة الدين صيانة العرين بالأسود ، وصير الأيدي البيض مشكورة لحاملي راياته السود .

يحمده أمير المؤمنين حمداً من اختاره من السماء فاستخلفه فى الأرض ، وجعل أمرته على المؤمنين فرضاً لثقام به السنة والقرض ؛ ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى أسرى بعبد له ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ ويشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى كشف بمبعثه عن القلوب حجب الغي ، وأشرقت أنوار نبوته فأضاء لها يوم دخوله المدينة كل شئ ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من أقامه فى الإمامة مقامه وأشار إلى الاقتداء به من بعده ، ومنهم من أعز الله به الإسلام فى كل قطر مع قربه وبُعده ؛ ومنهم من كانت اليد الشريفة النبوية فى بيعة الرضوان خيراً له من يده ، ومنهم من أمر الله تعالى بالمباهلة بالأبناء والنفس فباهل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم به وبزوجه وولده ؛ وعلى بقية العشرة ، الذين غدت بهم دعوة الحق مشتهرة منتشرة ؛ وعلى عمته أسد الله وأسد رسوله عليه السلام ، وجد الأئمة المهديين أمراء المؤمنين وحلفاء الإسلام ، وسلم تسليماً كثيراً .

وإن الله تعالى جعل سجيّة الأيام الشريفة الإمامية الحاكمة أدام الله إشراقها ، وقسم بها بين الأولياء والأعداء آجالها وأرزاقها ؛ ردّ الحقوق إلى نصابها ، وإعادتها

إلى مستحقيها ولو تَمَدَّتْ الأيامُ على اغْتِصَابِها ، وإِفْرَارِها عِنْدَ مَنْ هُوَ دُونَ الْوَرَى
أُولَى بِهَا : لِيَحَقِّقَ أَنَّ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ أَظْهَرَ عَلَى أَوَامِرِهِ دَلَائِلَ الْإِنْجَازِ ، وَحَلَّى كَلِمَاتِهَا
بِالْإِيْجَازِ وَهَيَاتِهَا بِالْإِنْجَازِ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِسْمَ الشَّرِيفَ الْحَاكِمِيَّ فِي الْحُكْمِ بِأَمْرِهِ
عَلَى خَيْرِ مَسْمًى ، وَقَوَّى مِنْهُ فِي تَأْيِيدِ كَلِمَةِ الْحَقِّ جَنَانًا وَعَزَمًا ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنْ
أَحْكَامِهِ عَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ قَضِيَّةً وَلَا حُكْمًا ؛ وَكُنْتُ أَيُّهَا السَّيِّدُ ، الْعَالِمُ ، الْعَادِلُ ،
السُّلْطَانُ ، الْمَلِكُ ، النَّاصِرُ ؛ نَاصِرُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبُو الْفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، سَيْفِ الدِّينِ قَلَاوُونَ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - أُولَى الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَلِكِ
الشَّرِيفِ : لِمَا لَسَلَفَكَ مِنَ الْحُقُوقِ ، وَمَا أَسْلَفُوهُ مِنْ فَضْلٍ لَا يَحْسُنُ لَهُ التَّنَاسِيُ
وَلَا الْعُقُوبُ ؛ وَلِمَا أَوْجَبَ لَكَ عَلَى الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَابِقُ الْإِيْمَانِ ، وَصَادِقُ
الْإِيْمَانِ : وَلَأَنَّكَ جَمَعْتَ فِي الْمَجْدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَفَقَّتَ بَرَكَتِي نَفْسٍ وَأَخٍ وَوَالِدٍ ؛
وَجَلَّالَهُ ، مَاوَرَتْهَا عَنْ كَلَالِهِ ؛ وَخِلَالَ ، مَا لَهَا بِالسِّيَادَةِ إِخْلَالٌ ؛ وَمَفَاحِرُ ، تُكَائِرُ الْبَحْرَ
الزَّائِحَ ؛ وَمَآثِرُ ، أَعْجَزَ وَصْفُهَا النَّازِمَ وَالنَّائِرَ ؛ وَكَانَ رِكَابُكَ الْعَالِيَّ قَدْ سَارَ إِلَى الْكَرْكِ
الْمَحْرُوسِ ، وَقَعَدَتْ عَنْكَ الْأَجْسَامُ وَسَافَرَتْ مَعَكَ النُّفُوسُ ؛ وَوَفَّقَتْ الْخَوَاطِرُ بِأَنَّكَ
إِلَى السُّلْطَنَةِ تَعُودُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجِدُّ لَكَ صُعُودًا إِلَى مَرَاتِبِ السُّعُودِ ؛ وَأَقَمْتَ بِهَا
وَذِكْرَكَ فِي الْآفَاقِ سَائِرَ ، وَالْأَمَالَ مَبَشِّرَةً بِأَنَّكَ إِلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِكَ صَائِرٌ . فَلَمَّا أَحْتَاجَ
الْمَلِكُ الشَّرِيفُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ إِلَى مَلِكٍ يَسْرُ سِرِّيهِ ، وَسُلْطَانٍ تَعْدُو بِاسْتِقْرَارِهِ عِيُونَُ
الْأَنَامِ وَالْأَيَّامِ قَرِيرِهِ : لِمَا لِلْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ مِنْ تَبْسِيرِ أَوْتَاطَرٍ وَتَعْمِيرِ أَوْطَانِ ،
وَلَأَنَّهُمْ لَا يَتَّقُونَ فِي الْمَصَالِحِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَّا بَسُلْطَانًا ؛ لَمْ يَدْرِ فِي الْأَذْهَانِ ، وَلَا خَطَرَ
لِقَاصِ وَلَا دَانَ ؛ إِلَّا أَنَّكَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالسُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَوَّلَاهُمْ بِرُبُوبَتِهَا الْمُنِيفَةِ ؛
وَلَا ذَكَرَ أَحَدٌ إِلَّا حُقُوقَ بَنِيكَ وَفَضْلَهَا ، وَلَا قَالَ عَنْكَ إِلَّا بِقَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقُّ
بِهَا وَأَهْلُهَا ﴾ : لِأَنَّ الْبِلَادَ فُتُوْحَاتُ سُيُوفِكُمْ ، وَرَعَايَاهَا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْخَيْرِ

بِمَنْزِلَةِ ضُيُوفِكُمْ ، وَلَئِنْ الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَسْتَرْقَّهَمْ وَلَاؤُكَ ، وَوَالُوكَ لَانْهَمُ أَرْقَاؤُكَ ؛
فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ : أَنَّى لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ؟ بَلْ أَفْتَرَكُلْ مِنْهُمْ لَكَ بِالْيَدِ وَقَرَّ بَوْلَايَتِكَ عَيْنَا ؛
وَأَخْلَصُوا فِي مَوَالِيكَ الْعَقَائِدَ ، وَاسْتَبَشَرُوا مِنْكَ بِمُبَارَكِ الْوَجْهِ مَاجِدٍ جَائِدٍ ؛ وَلَمْ يَغِبْ
غَائِبٌ خَلِيفَتُهُ جَيْشُ أَبِيهِ وَجَدَهُ الصَّاعِدَ ؛ وَرَفَعَتِ الْمَمَالِكُ يَدَ الضَّرَاعَةِ سَائِلَةً وَرَاغِبَةً ،
وَخَطَبَتِكَ لِعَقَائِلِهَا وَمَعَاقِلِهَا وَالْخُطْبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ لَكَ خَاطِبَةٌ وَبِدَعَائِكَ مُحَاطِبَةٌ ؛
وَقَصَدَتْ لَذَلِكَ أَبْوَابَكَ الَّتِي لَا تَزَالُ تُقْصَدُ ، وَدُعِيَتْ لِلْعُودِ الْمُبَارَكِ وَعُودٌ مُجْمَدٌ لِلْأُمَّةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ أَحْمَدُ ؛ وَقَعَلَتْ الْجِيُوشُ الْمَنْصُورَةُ مِنْ طَاعَتِكَ كُلِّ مَاسَرٍّ ، وَأَرْبَتَ فِي صِدْقِ
النِّيَّاتِ وَبِرِّهَا عَلَى كُلِّ مَنْ بَرَّ :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا * فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ !

فَمَا ضَرَّ بِحَمْدِ اللَّهِ بَعْدَ الدَّارِ وَالْأَمَالِ بِسَاكِنِهَا مُطِيفُهُ ، بَلْ كَانَ لَكَ الذِّكْرُ فِي قَلْبِ
الْخَلِيفَةِ نَعَمَ الْخَلِيفَةِ ؛ وَكُنْتَ لَدَيْهِ - وَإِنْ غَبْتَ - حَاضِرًا بِجَمِيلِ الذِّكْرِ ، وَنَأَيْتَ دَارَا
فَقَرَّبَكَ إِلَيْهِ حُسْنَ التَّصْوِيرِ فِي الْفِكْرِ . وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ شَاهَدَكَ يَافِعًا ، وَشَهِدَ
خَاطِرُهُ أَنْ سَتَصِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ نَافِعًا ؛ وَتَأَمَّلْ مِنْكَ أَمَّا زُرَّ أَحْضَى ! لَهَا لَتَرْقِيكَ آمِلًا ، وَهَلَا لَا
دَلَّتْهُ كِرَامَتُهُ - وَلَا تُتَكَرَّرُ الْكِرَامَةُ - عَلَى أَنْ سَيَكُونُ بِدَرًا كَامِلًا ؛ وَبَلَغَهُ عَنْكَ مِنَ الْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ ، مَا عَجَزَ وَصْفُهُ بِلَاغَتِي الْقَلَمِ وَاللِّسَانِ ؛ فَذَاكَ نِدَاءَهُ عَلَى بَعْدِ الْمَزَارِ ،
وَلَمْ يَجِدْ لَكَ نَظِيرًا فَأَطَالَ وَأَطَابَ لِمُقَدِّمِكَ السَّعِيدِ الْإِنْتَظَارَ ؛ إِلَى أَنْ أَقْدَمْتَ
إِقْدَامَ اللَّيْلِ ، وَقَدِمْتَ إِلَى الْبِلَادِ الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى نَظَرِكَ الشَّرِيفِ قُدُومَ الْغَيْثِ ؛
فَلَاحَ بِكَ عَلَى الْوُجُودِ دَلِيلُ الْفَلَاحِ ، وَحَمِدَ الرِّعَايَا سُرَّكَ عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْأَسْتِصْبَاحِ ؛
وَشَاهَدُوا مِنْكَ أَسَدًا فَاقَ بَوَثْيَاتِهِ وَثَبَاتِهِ الْأَوَّلَ ، وَشَخْصًا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِإِدَالَةِ دَوْلٍ
وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لِمُشْلِهِ الدَّوْلَ ؛ وَقَامَتْ بِاخْتِبَارِكَ عَلَى اخْتِيَارِكَ الدَّلَائِلُ ، وَعَمَرَكَ

سِرُّ الْمُلْكِ وَعَرَفَ فِيكَ مِنْ أُنْبِيَاءِ شَمَائِلٍ ، وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَجَابَتِكَ فَوْقَ
 مَا أَخْبَرْتُ بِهِ مُسْأَلَةَ الرَّجُلَانِ ، وَمِنْ مَهَابَتِكَ مَادَّلَ عَلَى خَفَضِ الشَّائِي وَرَفَعِ الشَّانِ ؛
 وَمِنْ مَحَامِدِكَ كُلِّ مَا صَغَّرَ الْخَبَرَ عَنْهَا الْخُبْرَ ، وَأَعْلَنَتْ أَلْسِنَةُ الْأَقْدَارِ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
 عَنْ تَقْلِيدِكَ الْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عُدْرٍ ؛ فَاخْتَارَكَ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ،
 وَاجْتَبَاكَ لِلدَّبِّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَاسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ نَفَارًا ، وَأَفَاضَ
 عَلَيْكَ مِنْ بَيْعَتِهِ الْمُبَارَكَةِ مَعَ نَفَرِكَ الْمَشْتَهَرِ حُلَّ الْفَخَارِ ، وَعَهْدَ إِلَيْكَ فِي كُلِّ مَا أَشْتَمَلَتْ
 عَلَيْهِ دَعْوَةُ إِمَامَتِهِ الْمُعَظَّمَةِ ، وَأَحْكَامُ خِلَافَتِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ بِهَا عَقُودَ الْمَالِكِ فِي الطَّاعَةِ
 مُنْظَمَةً ، وَفَوْضَ إِلَيْكَ سُلْطَنَةَ الْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةَ بَرًّا وَبَحْرًا ، شَامًّا وَمِصْرًا ، قُرْبًا
 وَبُعْدًا ، غَوْرًا وَنَجْدًا ؛ وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنَ الْبِلَادِ ، وَتَسْتَنْقِذُهُ مِنْ أَيْدِي
 ذَوِي الْإِلْحَادِ ؛ وَتَقْلِيدَ الْمُلُوكِ وَالْوُزَرَاءِ ، وَقَضَاةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ وَتَأْمِيرِ الْأُمَرَاءِ ؛ وَتَجْهِيْزَ
 الْعَسَاكِرِ وَالْبُعُوثِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَحَارِبَةٍ مِنْ تَرَى مُحَارِبَتَهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ ،
 وَمُهَادَنَةٍ مِنْ تَرَى مُهَادَنَتَهُ مِنْهُمْ ؛ وَجَعَلَ إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ الْعَقْدَ وَالْحُلَّ ، وَالْإِبْرَامَ
 وَالنَّقْضَ وَالْوِلَايَةَ وَالْعَزْلَ ؛ وَقَلَّدَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ تَقْلِيدًا يَقُومُ فِي تَسْلِيمِ الْمَالِكِ إِلَيْكَ مَقَامَ
 الْإِقْلِيدِ ، وَيَقْضِي لِقَرِيْبِهَا وَبَعِيدِهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَزِيدِ التَّهْمِيدِ وَالتَّشْيِيدِ : لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ
 اللَّهُ قَدْ جَعَلَ الْأَيَّامَ الشَّرِيفَةَ الْحَاكِمَةَ - أَدَامَهَا اللَّهُ تَعَالَى - فَلَكَ أَبَدِيٌّ سَالِفًا مِنْ
 الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمَنْصُورِيِّ أَقْمَارًا ، وَأَطْلَعَ مِنْهُمْ أَنْفًا بَدْرًا مَلَأَ الْخَافَقَيْنِ أَنْوَارًا ؛ فَكُلَّمَا
 ظَهَرَتْ لِسَلَفِهِ مَا ثَرَبَتْ مَا ثَرَّخَلَفَهُ أَظْهَرَ ، وَمِنْ شَاهِدِهِمْ وَشَاهِدِ شَمْسِ سَعَادَتِهِ
 الْمُنْتَهَى عَنْ الْأَقْوَالِ قَالَ هَذَا أَكْبَرُ ؛ وَكُلَّمَا ذُكِرَ لِأَحَدِهِمْ فَضْلٌ عِلِمٌ أَنَّهُ فِي أَيَّامِهِ
 مَتَرَدٍّ ، وَأَنَّهُ إِنْ مَضَى مِنْهُمْ سَيِّدٌ فِي سَبِيلِهِ ، فَقَدْ قَامَ بِأَطْرَافِ الْأَسْنَةِ مِنْهُمْ سَيِّدٌ ؛
 وَصِيرَ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ الْخَلِيفَةَ غَابًا إِنْ غَابَ مِنْهُمْ أُسُودٌ ، خَلَفَهُمْ شَيْبَلٌ بَشَّرَتْ
 حِمَايِلُهُ أَنَّهُ عَلَيْهَا يَسُودُ .

فَلْيَتَقَلَّدِ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرَ مَا قَلَّدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلْيَكُنْ لِدَعْوَتِهِ الْهَادِيَّةُ مِنَ الْمُبَلِّغِينَ وَعَلَيْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلْيَتَرَقَّ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي آسَتْحَقُّهَا بِحَسَبِهِ ، وَأَسْتَرْقُهَا بِنَسَبِهِ ؛ وَلْيَبَاشِرْهَا مُسْتَبَشِرًا ، وَيُظْهِرْ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا مَا يَغْدُو بِهِ مُسْتَظْهِرًا ؛ فَقَدْ أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِيَامَ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ الْحَنِيفِ فَأَقَامَكَ أَنْتَ مُقَامَهُ ، وَصَرَّفَ بَكَ بَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ إِكْرَامَهُ وَأَنْتَقَامَهُ ؛ رَعِيًّا لِعَهْدِ سَلَفِكَ الْكَرِيمِ ، وَلَمَّا آسَتْوَجَبَتْهُ نَفْسُكَ النَفِيسَةُ مِنْ وَفُورِ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ ؛ وَعِنَايَةً بِالْعَسَاكِرِ الْمُؤَيَّدَةِ الَّذِينَ وَجَّهُوا وَجُوهَ مَا لَهْمَ إِلَيْكَ ، وَأَبَتْ كَلِمَتُهُمُ الَّتِي صَانَهَا اللَّهُ عَنِ التَّفَرُّقِ أَنْ تَجْتَمَعَ فِي الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ إِلَّا عَلَيْكَ وَلَدَيْكَ ؛ وَمِنَّةً عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ مَابَرِحُوا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى يَطْلُبُونَهُ ، وَمَلِكٍ نَشَّوْا بِأَبْوَابِهِ الْعَالِيَةِ فَلِهَذَا يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُونَهُ .

فَاخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَ لَكَ فِي إِعَادَةِ الْمُلْكِ أَسْوَدَ بَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَدَّهُ إِلَيْكَ رَدًّا لَا أَنْفِصَالَ لِعُرْوَتِهِ وَلَا أَنْفِصَامَ ؛ فَأَضْحَيْتَ لِأُمُورِ عِبَادِهِ سَدَادًا ، وَلِثَغُورِ بِلَادِهِ سَدَادًا ؛ وَلِلْخَلِيفَةِ عَضُدًا فِي الْخَلِيقَةِ ، وَفِي الدَّهْرِ سَامِي الْحَقِيقَةِ حَامِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَلِلْمُلْكِ وَارثًا ، وَرَقَّاقًا رُقِيًّا أَصْبَحَتْ بِهِ فِي السُّلْطَانَةِ وَاحِدًا وَلِلْخَلِيفَةِ الْمَعْظَمَةِ ثَانِيًا وَلِلْقَمَرِينَ ثَالِثًا .

وَبُشْرَاكَ ! أَنَّ اللَّهَ أَبْرَمَ سَبَبَ تَأْيِيدِكَ إِبْرَامًا لَا تَصِلُ الْإَيْدَى إِلَى نَقْضِهِ ، وَأَنَّكَ سَأَلْتَ عَنْ أَمْرِ طَالِمَا أَتَعَبَ غَيْرُكَ سُؤَالُهُ فِي بَعْضِهِ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ يُحْسِنُ لَكَ الْعَوْنَ وَبِكَ الصَّوْنُ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ! لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا “ .

وبشراك ! أن أمير المؤمنين خَصَّكَ بمزيد الاعتناء ، وأقامك مقامه في حُسْن
 العناء ، وحقَّق أنَّ السعادة في أيامه موصولةٌ منكم بالآباء والأبناء ؛ وبلغك بهذا
 التقليد الشريف الأمانى ، وتَوَجَّهَ بيمين قريبةٍ عهد باستلام الركن اليماني ؛
 وأصطفاك بقلب أظهر له الكُشُوفُ إشراق تلك السُّتُور ، وغداً مغموراً بالهداية
 ببركة البيت المعمور ، ونظير زادته مشاهدة الحرم الشريف النبوي نوراً على نور ؛
 فقابل ذلك بالقيام في مهمات الإسلام ، وتدقيق النظر في مصالح الخاص والعام ؛
 واجتهد في صيانة الممالك اجتهداً يحرس منها الأوساط والأطراف ، وتنظيم به
 أحوالها أجل انتظام وتأنف أجل أثلاف .

والوصايا كثيرةٌ وأولاهها تقوى الله : فليجعلها حليَّةً لأوقاته ، ويحافظ عليها
 محافظةً من يتقيه حقُّ تقاته ؛ ويتخذها نجى فكره وأيس قلبه ، ويعظم حرَّمات الله :
 ﴿ وَمَنْ يَعِظْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ .

والشرع الشريف فهو لعقد الإسلام نظام ، وللدين القيم قوام ؛ فتجهد
 في آقتفاء سننه ، والعمل بمفروضه وسننه ، وتكريم أهله وقضاياه ، والتوسل بذلك
 إلى الله في ابتغاء مرصاته .

وأمرأء دولتك فهم أنصار سلفك الصالح ، وذوو النصائح فيما آثروه من المصالح ؛
 وخُلصاء طاعتهم في السر والنجوى ، وأعوانهم على البر والتقوى ؛ وهم الذين أحلَّهم
 والدك من العناية المحلَّ الأسنى ، والذين سبقت لهم بحسن الطاعة من الله الحُسنى ؛
 ولو لم يكن لهم إلا حُسْنُ الوفاء ، لكفاهم عندك في مزيد الاعتماد والاستيكفاء ؛ فإنهم
 جادلوا في إقامة دولتك وجالدوا ، وأوقوا بالعهد فهم الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ؛
 وهم للوصايا بخدمة وأعون ، وفيما آثمتهم عليه لأماناتهم وعهدهم راعون ؛ قدأصفوا

لك النيات بظهر الغيب ، وأخلصوا الطويّات إخلاصاً لاشكّ معه ولا ريب ؛
ونابوا عنك أحسن مناب ، وكفّوا كفّ العدوفا طال له لافتراس ولا اختلاس
ظفر ولا ناب ؛ واتخذوا لهم بذلك عند الله وعندك يداً ، وأثلّوا لهم به مجداً يبيّ
حديثه الحسن الصحيح عنهم مُسنّداً .

فاستوص بهم وبسائر عساكر المنصورة خيراً ، وأجمل لهم سريرة وفيهم سيراً ؛
وأحمدهم عُقبى هذه الخدمة ، وأوردهم منهل إحسانٍ يضاعف لهم النعمة والنعمة :
لتؤكد طاعتك على كل إنسان ، ويتقوا بحسن المكافاة : و﴿ هل جزاء الإحسان
إلا الإحسان ﴾ . ولتزداد أوامرك ونواهيك أمثالاً ، ولا يجردوا عن محبة أيامك
الشريفة أنتقالاً ، وليقال في حسن خدمتهم وإحسانك : هكذا هكذا وإلا فلا .

وأما الغزو والجهاد في سبيل الله تعالى ، وما أوجبه فيهما قوله : ﴿ اتقوا خفافاً
ونقالاً ﴾ ، فأقل ما يجزئ فرض الكفاية منه مرة في كل عام ، وأما فرض العين
فوجوبه على ذوى الاستطاعة من المسلمين عام ، وقد عرفت سنن السلطانين
الشهيدتين : والدك وإخيك - قدس الله روحهما - في الإعتناء بجهاد الكفار ، وغزوهم
في عُقر الدار ؛ وموقف أحدهما في موطن زلت فيه الأقدام عن الإقدام ، واجتمع
فيه الكفر على الإسلام ؛ وشاب من هؤلاء الوليد ، ومصابرته تُجَاه سيف من سيوف
الله تعالى الإمام خالد بن الوليد ؛ واستنفاذاً لآخر البلاد الساحلية التي أنقذها الله
من أيدي المشركين على يد الصّلاحيين ، وفتح لها أبواب الجنة بركة الافتتاحين ؛
وأن والدك وأخاك سداً على المشركين الفجّاج ، وطهراً من أرجاسهم العذب القرات
والملح الأجّاج ؛ فالكاتب المنصوريّ ، أبادت التار بالسيوف المشرفية ؛ والممالك

الإسلامية، زَهَتْ نِظَامًا بِالْفُتُوحَاتِ الْأَشْرَفِيَّةِ؛ فَاجْتَهَدَ فِي إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ أَتَمَّ
أَجْتِهَادٍ، وَعَزَّزَهُمَا بِثَلَاثٍ فِي الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ .

وَأَمَّا الرَّعَايَا بِعَيْدِهِمْ وَقَرِيبِهِمْ ، وَمَسْتَوِطُهُمْ وَغَيْرِهِمْ ، فَيُؤَفِّقُهُمْ مِنَ الرَّعَايَةِ
حَظَّهُمْ ، وَيُجْزِلُ صِيَابَتَهُمْ وَحِفْظَهُمْ ؛ وَكَمَا يَرَى الْحَقُّ لَهُ فَلْيَرِ الْحَقُّ عَلَيْهِ ، وَيُحْسِنِ إِلَى
رَعَايَاهُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ .

وَأَمَّا الْعَدْلُ فَإِنَّهُ لِلْبِلَادِ عِمَارُهُ ، وَلِلسَّعَادَةِ أَمَارُهُ ، وَلَا آخِرَةَ مَنَاجَاةٍ مِنَ النَّفْسِ
الْأَمَّارَةِ ؛ فَلْيُكِنِّ لَهُ شِعَارًا وَدِتَارًا ، وَلْيُؤَكِّدْ مَرَّاسِمَهُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحَافِظَةُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا يُذَكِّرُ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَيُشْكِرُ .

وَالْحُدُودُ الشَّرْعِيَّةُ فَلْيَحْلِلْ بِإِقَامَتِهَا لِسَانَهُ وَطِرْسَهُ ، وَلَا يَتَعَدَّهَا بِنَقْصٍ
وَلَا زِيَادَةٍ ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ . وَاللَّهُ يَخْلُدُ لَهُ رُتَبَةَ الْمُلْكِ
الَّتِي أَعْلَى بِهَا مَقَامُهُ ، وَيُدَيِّمُهُ نَاصِرًا لِلدِّينِ الْحَنِيفِ فَأَنْصَارُهُ لَا يَزُولُونَ ظَاهِرِينَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَيَجْعَلُ سَبَبَ هَذَا الْعَهْدِ الشَّرِيفِ مَدَى الْأَيَّامِ مَتِينًا ، وَيَجْعُدُ لَهُ
فِي كُلِّ وَقْتٍ نَصْرًا قَرِيبًا وَفَتْحًا مُبِينًا . وَالْخَطُّ الْحَاكِمِيُّ أَعْلَاهُ ، حِجَّةُ بَقْتَضَاهُ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَامُهُ ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وعلى نحو من ذلك كتب القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر عن المستكفي بالله،
أبي الربيع سليمان، عهد الملك المظفر ركن الدين "بييرس المنصوري" الجاشنكير.
وهذه نسخته :

هذا عهد شريف انتظمت به عقود مصالح الملك والممالك، وأبتسمت ثغور الثغور ببيعته التي شهدت بصحتها الكرام الملائك، وتمسكت النفوس بحكم عقده النضيد ومبرم عقده النظيم، ووثقت بميثاقه فتركت الألسن مستفتحة بقول الله الكريم: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

الحمد لله الذي جعل الملة الإسلامية تأوى من سلطانها إلى ركن شديد، ونحوى من متابعة مظفرها كل ما كانت ترومه من تأييد التأيد، وتروى أحاديث النصر عن ملك لا يمل من نصرة الدين الحنيفي وإن ملل الحديد من الحديد، وموتى ملكه من يشاء من عبادته، وملقى مقاليدته للولي الملى بقمع أهل عبادته، ومانحه من لم يزل بعزائه ومكارمه مرهوبا مرغوبا، ومواليا ومواليا من غدا محبوبا من الأنام بواجب الطاعة محبوبا، ومفوض أمره ونهيه إلى من طالما صرف خطيه عن حيي الدين أخطارا وخطوبا.

والحمد لله مجرى الأقدار، ومظهر سر الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسية بحسن الاختيار من المصطفين الأخيار، جامع أشات الفخار، ورافع لواء الاستظهار، ودافع لأواء الأضرار، بجمل الالتجاء إلى ركن أمسى بقوة الله تعالى على المنار، وفي المبار، بادى الآثار الجميلة والإيثار.

والحمد لله على أن قلد أمور السلطنة الشريفة لكافلها وكافياها، وأسند عقدها وحلها لمن يدرك بكرم فطنته وسليم فطرته عواقب الأمور من مبادئها، وأيد الكتاب الإيمانية بمن لم تزل عوالياه تبلغها من ذرى الأمانى معاليها.

يحمده أمير المؤمنين على إعلاء كلمة الإيمان بأعيان أعوانها، وإعزاز نصرها بأركان تشييدها وتشييد أركانها، ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة

لا تَبْرَحُ الْأَلْسِنَةُ تَرْوِيهَا وَالْقُلُوبُ تَنْوِيهَا، وَالْمَوَاهِبُ تُجْزِلُ لِقَائِهَا تَنْوِيلًا وَتَنْوِيهَا؛
وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَكْمَلَ نَبِيٍّ وَأَفْضَلَ مَبْعُوثٍ، وَأَشْرَفَ مُورَثٍ لِأَجَلِّ
مَوْرُوثٍ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَنْحِي بِرُكَاثُهَا وَتَنْمُ^(١)، وَتُخَصُّ حَسَنَاتُهَا
وَتَعْمُ؛ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ جَدِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ آبَائِهِ الْأُئِمَّةِ الْمُهَدِّينَ؛
الَّذِينَ وَرِثُوا الْخِلَافَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَسَمَتْ وَوُسِمَتْ بِأَسْمَائِهِمْ وَنُعُوتِهِمْ ذُرَى الْمَنَابِرِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا عَدَّقَ بِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَصَالِحَ الْجُمْهُورِ، وَعَقَدَ
لَهُ الْبَيْعَةَ فِي أَعْنَاقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ فَرَادَهُمْ نُورًا عَلَى نُورٍ؛ وَأَوْرَثَهُ عَنْ أَسْلَافِهِ الطَّاهِرِينَ
إِمَامَةَ خَيْرِ أُمَّةٍ، وَكَشَفَ بِمُصَابَرَتِهِ مِنْ بَأْسِ الْعِدَا ظَلَامَ كُلِّ عَمَةٍ؛ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ
السَّكِينَةَ فِي مَوَاطِنِ النُّصْرِ وَالْفَتْحِ الْمَدِينِ، وَثَبَّتَهُ عِنْدَ تَزَلُّلِ الْأَقْدَامِ وَثَبَّتَ بِهِ قُلُوبَ
الْمُؤْمِنِينَ؛ وَأَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ مَهَابَةِ الْخِلَافَةِ وَمَوَادِبِهَا مَا هُوَ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ
كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى آبَائِهِ مِنْ قَبْلِهِ - بِإِيجَازِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنْ يَخْتَارَ لِلتَّمْلِكِ عَلَى الْبَرَايَا،
وَالْتَحْكِيمِ فِي الْمَمَالِكِ وَالرَّعَايَا؛ مَنْ أَسَّسَ بُيَانَهُ عَلَى التَّقْوَى، وَتَمَسَّكَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
تَعَالَى بِالسَّبَبِ الْأَقْوَى؛ وَوَقَفَ عِنْدَ أَوَامِرِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ فِي قَضَائِهِ وَحُكْمِهِ،
وَنَهَضَ لِأَدَاءِ فَرِيضِ الْجِهَادِ بِمَعَالَى عَزَمِهِ وَخَزَمِهِ؛ وَكَانَ الْمَقَامُ الْأَشْرَفُ الْعَالِي،
الْمَوْلُوثُ، السُّلْطَانِيُّ، الْمَلِكِيُّ، الْمُظْفَرِيُّ، الرُّكْنِيُّ؛ سُلْطَانُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ،
سَيِّدُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ؛ نَاصِرُ الْمِلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ، مُجْبِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ؛ أَبُو الْفَتْحِ
«بَيْبَرَس» قَسِيمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى بَيْقَاتِهِ حِمَى الْخِلَافَةِ وَقَدْ فَعَلَ، وَبَلَغَ
فِي بَقَاءِ دَوْلَتِهِ الْأَمَلِ - هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي آتَعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى تَفْضِيلِهِ، وَشَهِدَتْ مَنَاقِبُهُ
الطَّاهِرَةُ بِإِسْتِحْقَاقِهِ لَتَحْوِيلِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ وَتَحْوِيلِهِ؛ وَحُكْمَ التَّوْفِيقِ وَالْإِتِّفَاقِ بِتَرْقِيهِ

إلى كُرى السلطنة وصُعوده ، وقضت الأقدارُ بأن يُلقي إليه أميرُ المؤمنين أزيمة
 عهوده ؛ والذي كم خفقت قلوبُ الأعداء عند رؤية آيات نصره ، ونطقت السنةُ
 الأقدارُ بأن سيكونُ ملكَ عصره وعزيزَ مِصره ؛ وأهتزت أعطافُ المنابرِ شوقاً بلافتخار
 باسمه ، وأعتزت الممالكُ بمن زاده الله بسطةً في علمه وجسمه ؛ وهو الذي ما برح
 مدُّ نَسْأٍ يجاهد في الله حقَّ جهاده ، ويساعد في كل معركة بمِرْهفاتِ سيوفه ومتلفات
 صِعادته ؛ ويُسدى في الهَيْجاء صفحته للصفاح فيقيه الله ويُنقيه : ليجعله ظلّه على
 عباده وبلاده ، فيُردي الأعداء في مواقف تأييده فكَم عَفْر من خدّ الملوك الكُفْر
 تحت سَنابك جيّاده ؛ ويسقي بضدور سيوفه ضدور قوم مؤمنين ، ويسقي ظلّه
 أسنّته فيرويه من مَوردٍ ويريد المشركين ؛ ويُطلع في سماء الملك من غرر آرائه
 نيرَاتٍ لا تأفل ولا تغور ، ويُظهر من مواهبه ومهابته ما تُحسّن به الممالك وتُحصن
 الثغور ؛ فما من حصنٍ استغلقه الكفرُ إلا وسيفه مفتاحه ، ولا ليلٍ خطب دجاً
 إلا وغرته الميمونة صباحه ؛ ولا عزٍّ أمل لأهل الإسلام إلا وكان في رأيه المسدّد
 نجاحه ، ولا حصل خللٌ في طرفٍ من الممالك إلا وكان بمشيئة الله تعالى وبسداد
 تدبيره صلاحه ؛ ولا اتفق مشهدٌ عدوٍ إلا والملائكة الكرامُ بمظافرتِه فيه أعدلُ
 شهوده ، ولا تجدد فتوحٌ للإسلام إلا جادَ فيه بنفسه وأجاد ؛ (والحدود بالنفس
 أقصى غاية الجود) .

كَمْ أَسْلَفَ فِي غَزْوِ أَعْدَاءِ الدِّينِ مِنْ يَوْمِ أَعْرَ مُحَمَّدٌ ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ
 اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَحَازَ الْفَخْرَ الْمَعْجَلُ وَالْأَجْرَ الْمُؤَجَّلُ ؛ وَأَحْيَا مِنْ مَعَالِمِ الْعُلُومِ وَدَوَارِسِ
 الْمَدَارِسِ كُلِّ دَائِرٍ ، وَحَسَّهِ إِيْمَانُهُ عَلَى عِمَارَةِ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى الْجَامِعَةِ لِكُلِّ تَالٍ

وذاكر : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ . وهو الذى مازالت الأولياءُ تَتَحَيَّلُ تَحَايِلَ السُّلْطَنَةِ فى إعطافه مَعْنَى وَصُورِهِ ، والأعداءُ يرومون إطفاء ما أفاضه الله عليه من أشعة أنواره : ﴿ وَيَأْتِىَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ . طالما تطاولت إليه أعناق الممالك فأعرض عنها جانباً ، وتطقلت على قُربه فكان لها - رعايةً لِدِمَّةِ الوفاء - مُجَانِباً ؛ حتى أَذِنَ اللهُ سبحانه لكلمة سلطانهِ أن تُرْفَعَ ، وحَكَمَ له بالصُّعود فى دَرَجِ المُلْكِ إلى المحلِّ الأعلى والمكانِ الأرفع ، وأدَّى له من المَوَاهِبِ ما هو على أَشْمِهِ فى ذخائر الغيوب مستودع .

فعند ذلك استخار الله تعالى سيِّدنا ومولانا الإمامَ المستكفى بالله أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان ، أبْنُ الإمام الحاكم (وذكّر نسبه على العادة) جعل الله الخلافة كلمة باقيةً فى عَقِبِهِ ، وأمتع الإسلامَ والمسلمين بشرقى حَسَبِهِ ونَسَبِهِ ؛ وعَهِدَ إلى المقام العالى السلطانى بكلِّ ما وراء سرير خلافتِهِ ، وقلَّده جميعَ ما هو مقلَّده من أحكام إمامتِهِ ؛ وبَسَطَ يَدَهُ فى السلطنة المعظَّمة ، وجعل أوامِرِهِ هى النافذة وأحكامه هى المُحْكَمَةُ ؛ وذلك بالديارِ المِصْرِيَّةِ ، والممالكِ الشاميَّةِ ، والفراتيَّةِ ، والجبليةِ ، والساحليةِ ، والقلاعِ والثغورِ المحروسةِ ، والبلادِ الحجازيةِ ، واليمانيةِ ، وكلِّ ما هو إلى خلافة أمير المؤمنين مَنسُوبٌ ، وفى أقطارِ إمامتِهِ مُحْسُوبٌ ؛ وألقى إلى أوامِرِهِ أَرْزَمَةَ البَسْطِ والقَبْضِ ، والإِبْرَامِ والتَّقْضِ ، والرفْعِ والخَفْضِ ؛ وما جعله اللهُ فى يده من حُكْمِ الأرضِ ، ومن إقامةِ سُنَّةٍ وفَرَضٍ ؛ وفى كُلِّ هبةٍ وتمليكٍ ، وتصرفٍ فى ولايةٍ أمور الإسلامِ من غير شريكٍ ؛ وفى توليةِ القضاةِ والحُكَّامِ ، وفَصْلِ القضايا والأحكامِ ؛ وفى سائر التحكُّمِ فى الوجودِ ، وعَقْدِ الأولويةِ والبُودِ ؛ وتجنيدِ الكتائبِ والجُنُودِ ،

وتجهيز الجيوش الإسلامية من التأييد إلى كل مقام محمود ؛ وفي قهر الأعداء الذين
 نرجو بقوة الله تعالى أن يملكه من نواصيرهم ، ويحكم قواضيه في استنزاهم من
 صياصيرهم ، واستئصال شأفة عاصيرهم ؛ حتى يحو إن شاء الله تعالى بمصاييح سيوفه
 سواد خطوب الشرك المذلّمه ، وتغدو سراياه في أفقلاع قلاع الكفر مستهمه ؛
 وترهبهم خيل بعوته وخيالها في القظة والنّام ، ويدخل في أيامه أهل الإسلام
 «مدينة السلام» بسلام - تفويضا تاما عاما ، منضدا منظما محكما محكما ؛ أقامه مولانا
 أمير المؤمنين في ذلك مقام نفسه الشريفه ، واستشهد الكرام الكاتبين في ثبوت هذه
 البيعة المنيفة .

فليتقدّم المقام الشريف العالى السلطاني - أعز الله نصره - عقد هذا العهد الذي
 لا تطمح لمثله الآمال ، وليستمسك منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا انفصال ؛
 فقد عول أمير المؤمنين على يمين آرائك التي ما برحت الأئمة بها في المعضلات تستشفي ،
 وأستكفي بكفائيتك وكفالتك في حياطة الملك فأضحي وهو بذلك المستكفي ؛
 وهو يقص عليك من أنباء الوصايا أحسن القصص ، وينصّ لديك ما أنت آخذ منه
 بالعزائم إذا أخذ غيرك فيه بالرخص ؛ فإن نهبت على التقوى فطالما تمسكت منها
 بأوثق عرويه ، وإن هديت إلى سبيل الرشاد فما زلت ترقى منه أشرف ذروه ؛
 وإن استرهفنا عزمك الماضي الغرار ، وأستدعينا حزمك الذي أضاء به دهرك
 وأستنار ، في إقامة منار الشرع الشريف ، والوقوف عند نهيه وأمره في كل حكم
 وتصريف ، فما زلت - خلد الله سلطانك - قائما بسنته وفرضه ، دائبا في رضا
 الله تعالى بإصلاح عقائد عباده في أرضه ؛ وما برح سيفك المظفر للأحكام الشرعية
 خادما ، ولمواد الباطل حاسما ، ولأنوف ذوي البدع راغما ؛ فكل ما نوصيك به

من خير قد جُلبت عليه طباعك ، ولم يزل مشتدًّا فيه ساعدك ممتدًّا إليه باعك ؛ غير
 أنا نورد لمعة اقتضاها أمر الله تعالى في الاقتداء بالتذكرة في كتابه المبين ، وأوجها
 نص قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ويندرج تحت أصولها
 فروع يستغنى بدقيق ذهنه الشريف عن نصها ، وبفكره الثاقب عن قصها ؛ فأعظمها
 للذة نفعها ، وأكثرها للباطل دفعا ، الشرع الشريف : فليكن - أعز الله نصره -
 عاملاً على تشييد قواعد إحكامه ، وتنفيذ أوامره أحكامه ؛ فالسعيد من قرن أمره
 بأمره ، ورضى فيه بمجلو الحق ومُره . والعدل فليشر لواءه حتى يأوى إليه الخائف ،
 وينكف برذعه حيف كل حائف ؛ ويتساوى في ظلة الغنى والفقر ، والمأمور والأمير ؛
 ويمسى الظلم في أيامك وقد نحدث ناره ، وعفت آثاره .

وأهم ما احتفلت به العزائم ، واشتملت عليه هم الملوك العظام ، وأشرعت له
 الأسنة وأرهفت من أجله الصوارم ؛ أمر الجهاد الذي جعله الله تعالى حصناً
 للإسلام وجنّه ، واشترى فيه أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ فجدد له الجنود واجمع
 له الكتائب ، وأقض في مواقفه على الأعداء من بأسك بالقواضي القواضب ؛
 وأغزهم في عقر الدار ، وأرهف سيفك البتار : لتأخذ منهم للمسلمين بالنار . والثغور
 والحصون ، فهي سرّ الملك المصون ، وهي معاقل النفوس إذا دارت رحي الحرب
 الزبون ؛ فليقلد أمرها لكفاتها ، ويخص حمايتها بمجتماتها ، ويضاعف لمن بها أسباب
 قوتها ومادة أقاتها . وأمراء الإسلام وجنود الإيمان فهم أولياء نصرك ، وحفظة
 شامك ومُصرّك ؛ وحزبك الغالب ، وفريقك الذين تفرق منهم قلوب العدا في المشارق
 والمغارب ؛ فليكن المقام العالی السلطاني - أعزه الله تعالى - لأحوالهم متفقدا ،
 وبسوط وجهه لهم متوددا ؛ حتى نتأكد لمقامه العالی طاعتهم ، ونعجّد لسلطانته العزيز

ضَرَعْتُمْ . وأما غير ذلك من المصالح ، فما بَرَحَ تديرُهُ الجميل لها يَنْفَذُ ورأيه الأصيل بها يُشِيرُ ، فلا يَحْتَاجُ مع علمه بَغَوَامِضِهَا إلى إِيضَاحِهَا ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ . والله تعالى يَخْصُ دولته من العدل والإحسان بأَوْفَرِ نصيب ، ويمُنَحُ سلطانه ما يَرْجُوهُ من النصر المَعْجَلِ والفتح القَرِيبِ ؛ إن شاء الله تعالى .

المذهب الثاني

(أن يَفْتَحَ العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وَكُنْيَتِهِ وَلَقَبِ الخِلافة ، « إلى فلان » باسم السلطان وَكُنْيَتِهِ وَلَقَبِ السلطنة كما في المكاتبات ، ثم يَأْتِي بعد ذلك بلفظ « أما بعد »)

ثم تارة يَأْتِي بعد البعدية بتحميد ، مثل أن يقول : « أما بَدْءُ الحمد لله » ويتخلص إلى ذكر أمر الولاية وما يَخْرِطُ في سِلْكِهَا ؛ وتارة يَأْتِي بعد البعدية بخطاب المولى والدعاء له ، ويتخلص إلى مقاصد العهد : من الوصايا وغيرها ، على اختلاف مقاصد الكُتَّاب ، وعلى ذلك كانت العهود في دولة الفاطميين بمصر .

قلت : وقد يُسَحِّنَ هذا المذهبُ فيما إذا كان المعهود إليه غائباً عن حضرة الخليفة : لأن العهد يصير حينئذ كالرسالة الصريحة إليه ، بخلاف ما إذا كان بحضرته فإنه لا يكونُ في معنى الرسالة الصريحة .

وعلى هذا المذهب كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله عهد شرف الدولة شيرزىك بن عضد الدولة بن بويه ، وهذه نسخته :

من عبد الله « عبد الكريم الإمام الطائع لله » أمير المؤمنين ، إلى شيرزىك بن عضد الدولة وتاج الملة أبى شجاع مولى أمير المؤمنين :

سلامٌ عليك ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمّدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمدٍ عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد - أطلال الله بقاءك ، وأدام عزك وتأيدك ، وسعادتك ونعمتك ، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالموهبة فيك وعندك - فإنَّ أمير المؤمنين يرى أن يحفظ على كل وليٍّ أحمدَ مذهبِهِ ، وأرضى ضرائبه ، وأنصرف عن الدنيا متمسكاً بطاعته ، متديناً بمشايعته ، حقوقه المتوحّده ، وحرُماته المتمهّده ، فيمن يخلّفه بعده من ولدٍ أمل أن يرث عنه محله ، ويقوم فيه مقامه ، وفاءً لأهل الولاية ، وتصرفاً على أحكام الرعايه ، وسياقةً للصنعة من سالفٍ إلى خالف ، وإمضاءها من تالٍ إلى طارف . هذا على الأمر الجامع ، والعموم الشامل ، فإذا اتَّفَقَ أنْ مُتِمَّتْ وِراثة القُرب إليه ، والمنازل لديه ، إلى التَّجَبُّاء الأفاضل ، والحُصَفَاء الأماثل ، الذين يَسْتَحِبُّونَ اسْتِثْنَاءَ الإِصْطِنَاع لهم ، واستقبالَ التفويض إليهم بالمناقب الموجودة فيهم ؛ لو انفردت عما حازوه عن آبائهم وأولياءهم ، أجرى أمير المؤمنين ما يُقِضُهُ عليهم من الأيادي ، ويرقيهم إليه من هَضَبِ المعالي ، مُجْرَى الأمر الواجب الذي كثرت الدّواعي إليه ، واتَّفَقَ الرأى والهوى عليه ، وتطابق الإيثار والإخبار فيه ، واقترن الصواب والسداد به ، وأشترك المسلمون في استِثْمار فائدته وعائدته ، والانتفاع بتأديته وعاقبته ، والله يخيّر لأمر المؤمنين فيما يُمِضُهُ من العزائم ، ويبيّنه من الدّعائم ، ويعتمده من المصالح ، ويتوخّاه من المناسج ، إنه على ذلك قدير ، وبه جدير ، وهو حسبُ أمير المؤمنين ونعم الوكيل .

وقد علمت - أدام الله عزك وأمتع أمير المؤمنين بك - أن شجرة بيتك [هى] التى تمكّنت فى الخدمة أصولها ، والفضيلة منوطه بها ، وأسباب النّام والدوام مجتمعة فيها ،

فذلك سبغت النعمة عليكم، وأمتد ظلها إليكم؛ ونقلت فيها أقداحكم، وتوفرت منها
حُظوظكم؛ فتداولتموها بينكم كإبراً عن كابر بمساعيكم الصالحة، ومناهيكم الواضحة؛
وتعاضدكم على ما لم تشعث الدولة الجامعة، وطرف عنها الأعين الحاسدة؛ وكان
شيخك عضد الدولة، وتاج الملة؛ أبو شجاع رضوان الله عليه، صاحب الرتبة الزعمى
عند أمير المؤمنين وهما مآها، والمتطى غاربها وسنامها؛ فعاش ماعاش مشكورا محمودا؛
ثم أنقلب إلى لقاء ربه سعيدا رشيدا؛ وأوجب أمير المؤمنين لك وله منك الحلول
بمكانه، وحيازة خطره وشانه؛ إذ كنت أظفر ولده، وأول المستحقين لوراثته؛
وكانت فيك مع ذلك الأدوات المقتضيات لأن يفوض الأمور إليك، ويعتمد فيها
عليك : من كفاية وغناء، وأستقلال ووفاء، وسياسة وتدبير، وشهامة وتسمير؛
وتصرف على طاعة أمير المؤمنين، وإشبال^(١) على إخوتك أجمعين؛ وحسن أثر فيما
أنفذ أمرك فيه، وإفاضة أمن فيمن أمضيت ولايتك عليه؛ وإحاطة بدلائل
الحواله، وتخايل الأصالة؛ بمثلها ثال الغايات الأفاصى، وتفترح الذوائب والنواصى؛
فتوكل أمير المؤمنين تلك المائثرة، وخوكل تلك المفخرة، وجعل أخاك صمصام
الدولة، وشمس الملة؛ أبا كاليبجار - أمتع الله [بك] أمير المؤمنين - بك تأييده،
والمقدم بعدك على ولد أبيك؛ وأجرا كما في التطبيق بينكما والتقرير لمنازلكما على مثل
ما جرى الأمر عليه بين ركن الدولة أبي علي ومعز الدولة أبي الحسين سالفًا، ثم بين
عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ومؤيد الدولة أبي منصور آفا؛ تولاهم الله بالرحمة،
ونفعهم بما قبضهم عليه من وثائق العصمة؛ وخصك أمير المؤمنين بعد ذلك
بما يخص به ذو القدر الشاوخ والقدم السابقة، والمحلة السامية؛ فذكرك بالتكنية،
ورفعك عن التسميه؛ ولقبك لقبين : أحدهما «شرف الدولة» لتشريفه بك أولياءه

(١) الإشبال التعطف على الرجل ومعونته . انظر اللسان ج ١٣ ص ٣٧٥ .

الذين أوطأهم عَقَبَكَ ، وأعلَقَهم حَبْلَكَ ، والآخِرُ «زَيْنُ الْمِلَّةِ» لَرِيْنَةُ أَيَّامِهِ بِمَعَالِكَ ،
وتَضَاعَفَ جَمَاهُا بِمَسَاعِيكَ ؛ وَعَقَدَ لَكَ بِيَدِهِ لَوَائِينَ يَلُوِيَانِ إِلَيْكَ الْأَعْنَاقَ بِالطَّوْعِ
مِنْ سَرَاتِهِ وَأَبْهَجَاهُ ، وَالكَرْهَ مِنْ رَاغَاهُ وَأَزْجَاهُ ؛ وَأَمْرٌ بِأَنْ تُقَامَ لَكَ الدَّعْوَةُ عَلَى مَنَابِرِ
مَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ بَيْنَ الدَّعْوَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ
الدَّعْوَةِ لَصَمِّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ ؛ أَمَتَعَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ ، وَأَحْسَنَ الدَّفَاعَ
لَهُ عَنْكَ ؛ الْخَافِقُ لَكَ وَلَهُ بِبَدِكَ بِأَبْيَكَمَا فِيمَا كَانَ شُرْفٌ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي لَمْ يُلْغُهَا
غَيْرُهُ ، وَلَا أَهْلٌ لَهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَأَنْ يُثَبَّتَ ذِكْرُكَ بِالْقَبْرِ وَالْكُنْيَةِ فِيمَا يُنْقَشُ مِنْ
سِكَكِ الْعَيْنِ وَالْوَرِقِ فِي دُورِ الضَّرْبِ بِإِدْيَا ، وَذِكْرُ صَمِّصَامِ الدَّوْلَةِ - كَلَّا كَمَا اللَّهُ -
تَالِيَا . وَحَبَاكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ ذَلِكَ بِخَلْعِ تَامَةٍ تُفَاضُ عَلَيْكَ ، وَفَرَسَيْنِ مِنْ حِيَادِ خَيْلِهِ
يُقَادَانِ إِلَيْكَ ؛ بِمَرْكَبِي ذَهَبٍ مِنْ خَاصِّ مَرَآكِبِهِ ، وَسَيْفٍ مَاضٍ مِنْ خِيَارِ أَسْيَافِهِ ؛
يُعِزُّ اللَّهُ مَنَكِيكَ بِنَجَادِيهِ ، وَيُنْذِلُ مَنَاكِيبَ أَعْدَائِكَ بِغَرَارِيهِ ، وَطَوَقَ وَسَوَارِيْنِ .
وَأَنْ تُجْرَى فِي الْمَكَاتِبَةِ عَنْهُ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي أَجْرَى أَبُوكَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا ، وَهَذَا الْكِتَابُ
نَاطِقٌ بِهَا وَدَالٌّ عَلَيْهَا . وَنَدَبٌ لِإِيصَالِ الْجَمِيعِ إِلَيْكَ عَلَى بَنِي الْحُسَيْنِ الْهَاشِمِيِّ الزَّيْنِيِّ ،
وَأَحْمَدَ بْنَ نَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ حَاجِبِهِ وَوَحْيِ خَادِمِهِ ؛ فَتَلَقَّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ
وَأَبَا الْفَوَارِسِ [ذَلِكَ] - أَدَامَ اللَّهُ عَزْرَكَ - بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ ،
وَمِرَاقَبَتِهِ فِي قَوْلِكَ وَعَمَلِكَ ، وَابْتِغَاءِ رِضَاهُ فِي مَخْتَلِجِ خَطَرَاتِكَ وَفِكَرِكَ ، وَاتِّبَاعِ
طَاعَتِهِ فِي مَخَارِجِ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ؛ وَقَابِلِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ بِالشُّكْرِ
الَّذِي مَوْقِعُهُ مِنَ النِّعْمَةِ مَوْقِعُ الْقِرَى مِنَ الضَّيْفِ ، فَإِنْ وَجَدَهُ لَمْ يَذُمَّ ، وَإِنْ فَقَدَهُ
لَمْ يُقِمَّ ؛ وَأَمَدَّدَ عَلَى مَنْ وُلِّيتَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ظِلَّكَ ، وَوَطَّئَ لَهُمْ كَنَفَكَ
وَأَعْمَرَهُمْ بِطَوْلِكَ ؛ وَسُسْنَهُمْ سِيَاسَةً يَكُونُ بِهَا صَلَاحُهُمْ مَضْمُونًا ، وَحَرِيمُهُمْ مَصُونًا ؛
وَبِلَادَهُمْ مَعْمُورَةً ، وَمَنَافِعُهُمْ مُؤْفُورَةً ؛ وَحَلَبُهُمْ دَارًا ، وَعَيْشُهُمْ رَغَدًا ؛ وَتَغُورُهُمْ

مُسَدُّودَه ، وَأَعَادِيهِمْ مَدُّودَه ؛ وَمَسَالِكُهُمْ مَحِيَّةٌ ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَرْعِيَّةٌ ؛ وَمُرُّهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ وَأَبْعَثَهُمْ عَلَى الْحَسَنَاتِ ، وَأَكْفَقَهُمْ عَنِ السَّيِّئَاتِ ؛ وَسَاوَى فِي الْحَقِّ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ وَمَشْرُوفِهِمْ ، وَقَوِيَّتِهِمْ وَضَعِيفِهِمْ ؛ وَقَرِيبِهِمْ وَغَرِيبِهِمْ ؛ وَمِلِّيَّتِهِمْ وَذَمِّيَّتِهِمْ ؛ وَقَوْمَ سَفَهَاءِهِمْ وَجُهَّالِهِمْ ، وَأَنْفِ دُعَارِهِمْ وَخُرَابِهِمْ ؛ وَأَكْرَمَ صَلَحَاءِهِمْ وَعُلَمَاءِهِمْ ، وَشَاوَرِ فُضَلَاءِهِمْ وَعُقَلَاءِهِمْ ؛ وَجَالَسَ أَدْنِيَاءَهُمْ وَأَعْلِيَاءَهُمْ ؛ وَأَنَلَهُمْ مَرَاتِبَهُمْ ، وَزَلَّزَهُمْ مَنَازِلَهُمْ ؛ وَأَرَاهِمُ تَمَسُّكَكَ بِالْدِينِ لِيَقْتَدُوا بِكَ فِيهِ ، وَرَغَبَتِكَ فِي الْخَيْرِ لِيَتَقَرَّبُوا إِلَيْكَ بِهِ ؛ وَخَذَ الْحَقَّ وَأَعْطَاهُ ، وَأَبْسَطَ الْعَدْلَ وَقُلَّ بِهِ ؛ وَأَدْرَأَ الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَقْفَاهَا وَأَمِضَهَا بِالْبَيِّنَاتِ : لَتَكُونَ الرِّغْبَةُ إِلَيْكَ فِي رَغَبٍ ، وَالرَّهْبَةُ مِنْكَ فِي رَهَبٍ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَاحْمِلِ النَّاسَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَزَّ - وَآدَابِهِ ، وَسُنَنِ الرَّسُولِ وَمَا جَاءَ بِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ جَعَلَ كِتَابَهُ هَذَا عَهْدًا إِلَيْكَ ، وَحِجَّةً لَكَ وَعَلَيْكَ ؛ وَأَنَّ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاحِيَ فِي الْعُهُودِ تَكُونُ كَثِيرَةً : وَإِنَّمَا قَصَّرَ فِيهِ عَنْ اسْتِيفَائِهَا ، لِارْتِفَاعِ طَبَقَتِكَ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى اسْتِقْصَائِهَا ، وَلِلخُرُوجِ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ فِي تَضَمِينِهِ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِنْهَا ؛ فَإِذَا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَعَ كَرَامَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهَا لَكَ ، فَالْبَسْ خِلْعَهُ ، وَتَقَلَّدْ سَيْفَهُ ؛ وَتَحَلَّ بِحِلَاةٍ ، وَأَبْرُزْ لِمَنْ يَلِيكَ عَلَى حُمْلَانِهِ ^(١) ، وَأُظْهِرْ لَهُمْ ضُرُوبَ إِحْسَانِهِ وَأَمْتِنَانِهِ ؛ وَأَنْصِبْ أَمَامَكَ اللَّوَاءَيْنِ ، وَتَكَنَّ وَتَلَقَّبْ بِاللِّقَبَيْنِ ؛ وَكَاتِبٌ مِنْ تُكَاتِبِ مَنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مُتَلَقِّبَا بِهِمَا مُتَكَنِّيَا ، إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْأَدَبَ أَنْ لَا تَكْتُبَهُ مُتَلَقِّبًا بِلِ مَتَسِّمِيَا ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ نَاقِصًا لَكَ فِيمَا أُعْطِيْتَهُ ، وَلَا مُرْتَجِمًا شَيْئًا مِمَّا حُيِّتَ بِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالرَّسْمُ الْمَأْلُوفُ ؛ وَصِلْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ

(١) فِي الْقَامُوسِ مَا نَصَّهُ « وَالْحَمْلَانُ بِالضَّمِّ مَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الدُّبَابِ فِي الْمَهَبَةِ خَاصَّةً » .

صَمِّصَامِ الدَّوْلَةَ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ - أَدَامَ اللهُ الْإِمْتَاعَ بِكَمَا - بِالْمُودَةِ ، كَمَا وَصَلَهُ اللهُ بِالْأُخُوَّةِ ؛
 وَكُنَّا جَمِيعًا يَدًا فِي طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاسْتَقِيًّا عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ فِي رِعَايَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛
 وَاتَّفَقْنَا عَلَى مَسَالِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَعَاضَدًا فِي مَحَارِبَةِ الْخَارِجِيِّينَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَرَابُ
 لِلصَّدْعِ ، وَأَحْتَمَ لِلْبَشْرِ ، وَأَنْظَمَ لِلشَّمْلِ ، وَأَلْيَقُ بِالْأَهْلِ . وَأَقِمِ الدَّعْوَةَ لِنَفْسِكَ عَلَى
 مَنَابِرِ الْمَمَالِكِ بَعْدَ إِقَامَتِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَكَاتِبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْبَارِكَ ، وَطَالِعُهُ
 بِأَثَارِكَ ؛ وَاسْتَدْعِ أَمْرَهُ فِيمَا اسْتَعْجَمَ مِنَ التَّدِيرِ عَلَيْكَ ، وَرَأْيَهُ فِيمَا اسْتَبْهَمَ مِنَ الْأُمُورِ
 دُونَكَ ؛ وَاسْتَرْشِدْهُ إِلَى الْحِظِّ يُرْشِدُكَ ، وَاسْتَهْدِهِ فِي الْخُطُوبِ يَهْدِكَ ؛ وَاسْتَمْتِدْهُ
 مِنَ الْمَعُونَةِ يُمِدِّدُكَ ، وَاشْكُرْ آلَاءَهُ يَزِدُّكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ وَأَدَامَ عِزَّكَ وَتَأْيِيدَكَ ، وَسَعَادَتَكَ وَنِعْمَتَكَ ؛ وَأَمَتَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 بِكَ وَبِالرَّغْبَةِ فِيكَ وَعِنْدَكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .



وَعَلَى هَذَا النِّمَطِ كَتَبَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ عَهْدَ أَسَدِ الدِّينِ شِيرَكُوهُ بِالْوِزَارَةِ
 عَنِ الْعَاضِدِ الْفَاطِمِيِّ ، وَالْوِزَارَةُ يَوْمَئِذٍ قَائِمَةٌ مَقَامَ السُّلْطَانَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ،
 وَهَذِهِ نَسْخَتُهُ :

مِنْ عَبْدِ اللهِ وَوَلِيِّهِ ، عَبْدِ اللهِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 إِلَى السَّيِّدِ ، الْأَجَلِّ ، الْمَلِكِ ، الْمَنْصُورِ ، سُلْطَانِ الْجِيُوشِ ، وَلِيِّ الْأُمَمِ ، نَخْرِ الدَّوْلَةِ ،
 أَسَدِ الدِّينِ ، كَافِلِ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَادِي دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبِي الْحُرْثِ شِيرَكُوهُ
 الْعَاضِدِيِّ ، عَضَّدَ اللهُ بِهِ الدِّينَ ، وَأَمَتَّعَ بِطَوْلِ بَقَائِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَدَامَ قُدْرَتَهُ ،
 وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فالحمد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعباده ، القادر الذى يعجز الخلق عن دفع ما ودع ضمائر الغيوب من مراده ، القوى على تقريب ما عزبت الهمم باستبعاده ، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد فى الله حق جهاده ، مؤتى الميث من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ، ونازعه ممن يشاء بما أقره من كجائر فساده ، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى فى نصرته العزائم ، وأستقبله الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم ، وفعلت له المهابة مالا تصنع الهمم ، وخلعت آثاره على الدنيا ما تخلعه الأنوار على الظلم ، وعديت نظراؤه بما وجد من محاسنه التى فاق بها ملوك العرب والعجم ، وأنتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم ، وذاد عن موارد أمير المؤمنين من هو [منه] أولى بها ويأبى الله سبحانه إلا إمضاء ما حتم ، ورام إخفاء فضائله وهل يشهر طيب المسك إلا إذا آكتيم ؟ مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينهم ، وقضى على يده من نصرته الدين دينهم : ﴿ لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ .

والحمد لله الذى خص جدنا محمدا بشرف الأصطفاء والإجتباء ، وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخر له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء ، وأقام به القسطاس ، وطهر به من الأدناس ، وأيده بالصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ،

والبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس ؛ وجعل النور سارياً منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه ، وهدى بمرآشد نوره إلى طرُق دار المقامه ، وأوضح به منار الحق وأعلامه ؛ وجعله شهيد عصره ، ومُجَّة أمره ؛ وباب رزقه ، وسبيل حقه ؛ وشفيع أوليائه ، والمستجار من الخطوب بولائه ، والمضمونة لذويه العقبى ، والمسئول له الأجر في القربى ؛ والمفترض الطاعة على كل مكلف ، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر في مضمار النجاة وتخلف المشفوع الذكر بالصلاة والتسليم ، والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؛ لا يقبل عمل إلا بخفارة ولائه ، ولا يضل من استضاءه بأنجم هدايته اللامعة ، ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه : ليتضح النهج القاصد ، ولتقوم الحجة على الجاحد ؛ وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع والرائد ، وليأتى الله به بَيَانُ الأعداء من القواعد ، وليبين لهم الذي اختلفوا فيه وليعلموا أنما هو الله واحد .

يمجده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبهراً ، وانتشر فعم نفعه البشر ؛ والإظهار الذي أشرك فيه جنود السماء والأرض ، والإظهار الذي عقد الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقض ، والانتصار الذي أبان الله به معنى قوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴾ .

ويسأله أن يصل على سيدنا محمد الأمين ، المبعوث رسولاً في الأميين ؛ الهادي إلى دار الخلود ، المستقل^(١) بيانه استقلال عوثر الجدود ، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود ؛ والصابية بشريعته مَشارِعُ النعمة ، والواضحة به الحنيفية البيضاء

(١) المستقل . من استقل الشيء إذا ارتفع يريد أن بيانه مرتفع ارتفع عوثر الجدود .

لَقَلَّا يَكُونُ أَمْرُ الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ عُمْهٌ ؛ وَعَلَى أَبِينَا أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ
أَبِي طَالِبٍ نَاصِرِ شَرِيعَتِهِ وَقَسِيمِهِ فِي النَّسَبِ وَالسَّبَبِ ، وَيَدِ الْحَقِّ الَّتِي حُكْمُهَا
فِي كُلِّ طَلَبٍ بِالْغَلَبِ ؛ وَعَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا وَسَائِطِ الْحِكْمِ ، وَمَصَابِيحِ الظُّلَمِ
وَمَفَاتِيحِ النَّعْمِ ؛ وَالْمُخَفِّقِينَ دَعْوَى مَنْ بَاهَاهُمْ وَفَانَحَرَ ، وَالْبَازِلِينَ جُهْدَهُمْ فِي جِهَادٍ مِنْ
أَتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ؛ وَسَلَّمْ وَرَدَّدْ ، وَوَالِي وَجَدَّدْ .

وَإِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا قَوَّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ إِيلَةِ الْخَلِيقَةِ ، وَمَنْحَهُ مِنْ كَرَمِ
السَّجِيَةِ وَكَرَمِ الْخَلِيقَةِ ؛ وَبَسْطَهُ مِنْ يَدِهِ عَلَى أَهْلِ الْخِلَافِ ، وَأَنْجَزَهُ مِنْ مَوْعُودِهِ الَّذِي
لَيْسَ لَهُ إِخْلَالٌ وَلَا إِخْلَافٌ ؛ وَأَوْصَحَهُ مِنْ بَرَاهِينِ إِمَامَتِهِ لِلْبَصَائِرِ ، وَحَفِظَ بِهِ عَلَى
الْإِسْلَامِ مِنْ طَلِيعَةِ الْمَبَادِيِّ وَسَاقَةِ الْمَصَائِرِ ؛ وَأَوْرَثَهُ مِنَ الْمَقَامِ الَّذِي لَا يَذْبَحِي إِلَّا لَهُ
فِي عَصْرِهِ ، وَاسْتَخْدَمَ فِيهِ السُّيُوفَ وَالصُّرُوفَ مِنْ تَأْدِيَةِ فَرَائِضِ نَصْرِهِ ؛ وَأَظْهَرَ لَهُ
مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ، الَّتِي لَا يَخْلُومُنَا زَمَنٌ ، وَظَاهَرَ لَهُ مِنَ الْكَرَامَاتِ ، الَّتِي زَادَتْ عَلَى أُمْنِيَّةِ
كُلِّ مُتَمَنَّ ، وَأُتِمَّنَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ النُّبُوَّةِ الَّتِي رَأَى اللَّهُ تَعَالَى لَهَا أَشْرَفَ مُودَعٍ وَعَلَيْهَا
أَكْرَمُ مُؤْتَمَنٍ ؛ وَأَجْرَى عَلَيْهِ دَوْلَتَهُ مِنْ تَذَلُّلِ الصَّعَابِ وَتَسْهِيلِ الطَّلَابِ ، وَتَفْهِيمِ
أَحْزَابِ الشُّرْكِ إِذَا اجْتَمَعُوا كَمَا اجْتَمَعَ عَلَى جَدِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلُ الْأَحْزَابِ -
يُوَاصِلِ شُكْرَ هَذِهِ النَّعْمِ التَّوَامِ ، وَيَعْرِفْ بِعَوَارِفِهَا الْفَرَادِيَّ وَالْأَتْوَامَ ؛ وَيَقْدَمْ بَيْنَ
يَدَيْ كُلِّ عَمَلٍ رَغْبَةً إِلَيْهِ فِي إِبْصَاحِ الْمَرَّاشِدِ ، وَنِيَّةً لَا تَضِلُّ عَنْهَا الْهَدَايَةُ وَلَا سِيَّمَا
وَهُوَ النَّاشِدُ ؛ وَيَسْتَخِيرُهُ عَالِمًا أَنَّهُ يَقْدَمُ إِلَيْهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ ، وَيُنَاجِيهِ فَيُطْلِعُهُ الْإِلْهَامُ
عَلَى مَا يَحِلُّ السَّيْرِ وَيَحِلُّ الْغَيْرِ ؛ وَيَأْخُذُ بِيَدِ اللَّهِ حَقَّهُ إِذَا اغْتَضَبَتْ حَقُّوقُهُ ، وَيَسْتَجِدُّ
بِاللَّهِ إِذَا اسْتَيْسَحَ خِلَافُهُ وَأَسْتُجِيزَ عَقُوبُهُ ؛ وَيَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِذَا قَرَعَ الضَّائِرُ ،
وَيَتَّقُ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا اسْتَهْلَكَتِ الشُّبُهَةُ الْبَصَائِرَ ؛ فَمَا اعْتَرَضَ لَيْلُ كُرْبَةٍ إِلَّا أَنْصَدَعَ

له عن بَخْرٍ وَضَّاحٍ ، ولا أَنْتَقَضَ عَقْدٌ غَادِرٌ إِلَّا عَاجِلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِأَمْرِ فَضَّاحٍ ؛
ولا أَنْقَطَعَتْ سَبُلُ نُصْرَةٍ إِلَّا وَصَلَهَا اللهُ تَعَالَى بِمَنْ يُرْسِلُهُ ، ولا أَنْصَدَعَتْ عَصَا أُلْفَةٍ
إِلَّا تَدَارَكَ اللهُ تَعَالَى بِمَنْ يَجْزُدُهُ تَجْرِيدَ الصَّفَاحِ ؛ وإذا عَدَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ النِّعَمَ
الْحَسِيمَةَ ، وَالْمِنَحَ الْكَرِيمَةَ ؛ وَاللِّطَائِفَ الْعَظِيمَةَ ، وَالْعَوَارِفَ الْعَمِيمَةَ ؛ وَالْآيَاتِ
الْمَعْلُومَةَ ، وَالْكِفَايَاتِ الْمُحْتَمَوَةَ وَالْعَادَاتِ الْمُنْظُومَةَ ؛ كُنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَجَلُ -
أَدَامَ اللهُ قُدْرَتَكَ ، وَأَعْلَى كَلِمَتِكَ - أَعْظَمَ نِعَمَ اللهِ تَعَالَى أَتْرَأَ ، وَأَعْلَاهَا خَطَرًا ،
وَأَقْضَاهَا لِلْأُمَّةِ وَطَرًا ؛ وَأَحَقَّهَا بِأَنْ تَسْمَى نِعْمَةً ، وَأَجْدَرَهَا بِأَنْ تُعَدَّ رَحْمَةً ؛ وَأَسْمَاهَا
أَنْ تَكْشِفَ غُمَّه ، وَأَنْضَاهَا فِي سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَزَمَةً ؛ وَأَمْضَاهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ
حَدًّا ، وَأَبْدَاهَا فِي الْجِهَادِ جِدًّا ؛ وَأَعْدَاهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ يَدًّا ، وَأَحْسَنَهَا فِعْلًا لِلْيَوْمِ
وَأَرْجَاهَا غَدًا ؛ وَأَفْرَجَهَا لِلْأَزْمَةِ وَقَدْ كَادَتْ الْأُمَّةُ تَصِيرُ سُدًى ، وَأَحَقَّ الْأَوْلِيَاءِ
بِأَنْ يَدْعَى لِلْأَوْلِيَاءِ سَيِّدًا ، وَأَبْقَاهُمْ فَعْلَةً لَا يَنْصَرِمُ فِعْلُهَا الَّذِي بَدَأَ أَبَدًا .

فَلْيَهَيِّئْكَ^(١) أَنْتَ حِزْبُ اللهِ الْغَالِبِ ، وَشِهَابُ الدِّينِ الثَّاقِبِ ، وَسَيْفُ اللهِ الْقَاضِبِ ؛
وظَلُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُدُودِ ، وَمَوْرِدُ نِعْمَتِهِ الْمُرُودِ ، وَالْمَقْدَمُ فِي نَفْسِهِ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا
لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ نَصْرَتُهُ حِينَ تَنْصَرُّ أَهْلُ الضَّلَالِ ، وَهَاجَرَتَ إِلَيْهِ هَاجِرًا بَرْدَ الزَّلَالِ
وَبَرْدَ الظَّلَالِ ؛ وَخُضَّتْ بِحَارَ الْأَهْوَالِ ، وَفِي يَدِكَ أَمْوَاجُ الْبَصَالِ ؛ وَهِيَ فِي جِيدِكَ الْيَوْمِ
عِقْدُ جَوَاهِرٍ مِنْهُ وَنَظْمُ لآلٍ ، بَلْ قَدْ بَلَغَتْ السَّمَاءَ وَزُيِّنَتْ مِنْكَ بِنُجُومٍ نَهَارَ لَا تُجُومُ
لَيْالٍ ؛ وَكُشِفَتِ الْغَمَاءُ وَهِيَ مُطْبِقَةٌ ، وَرَفَعَتْ نَوَاطِرَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَهِيَ مُطْرِقَةٌ ؛
وَعَقَصَتْ أَعْنَةَ الطُّغْيَانِ وَهِيَ مُطْلَقَةٌ ، وَأَعَدَّتْ بِمُحَنِّكَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ بَهْجَةً
شَبَابَهَا الْمُؤَنِقَةَ ؛ وَأَنْقَضَتْ الْإِسْلَامَ وَهُوَ عَلَى شَفَى جُرْفٍ هَارٍ ، وَنَفَذَتْ حِينَ لَا تَنْقُذُ

(١) فِي الْأَصْلِ فَلْيَهَيِّئْكَ . وَفِي السَّنَنِ ج ١ ص ١٨٠ « وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِيَهَيِّئْكَ الْفَارَسَ بِحِزْمِ الْهَمْزَةِ
وَلِيَهَيِّئْكَ الْفَارَسَ بِيَاءٍ سَاكِنَةٍ وَلَا يَجُوزُ لِيَهَيِّئْكَ كَمَا تَقُولُ الْعَامَّةُ » . فَتَنَهُ .

السَّهَامَ عَنِ الْأَوْتَارِ؛ وَسَمِعَتْ دَعْوَتَهُ عَلَى بُعْدِ الدَّارِ، وَأَبْصُرَتْ حَقَّ اللَّهِ بِبَصِيرَتِكَ وَكَمْ
 مِنْ أَنَاسٍ لَا يَرَوْنَهُ بِأَبْصَارٍ؛ وَأَجْلَيْتَ طَاغِيَةَ الْكُفْرِ وَسَوَاكَ أَجْتَذَبَهُ، وَصَدَقْتَ اللَّهَ
 سُبْحَانَهُ حِينَ دَاهَنَهُ مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ وَكَذَّبَهُ؛ وَأَقْدَمْتَ عَلَى الصَّلِيبِ وَجَرَائِهِ مُتَوَقِّدَهُ،
 وَقَاتَلْتَ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ وَعَمَرَاتِهِ مُتَمَرِّدَهُ؛ وَمَا يَوْمُكَ فِي نُصْرَةِ الدَّوْلَةِ بِوَاحِدٍ،
 وَلَا أَمْسُكَ بِمَجْهُودٍ وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ الْجَاهِدِ؛ بَلْ أَوْجِبْتَ الْحَقَّ بِهَجْرَةِ بَعْدِ هِجْرِهِ،
 وَأُجِبْتَ دَعْوَةَ الدِّينِ قَائِمًا بِهَا فِي عَمْرَةٍ بَعْدَ عَمْرَةٍ؛ وَأَفْتَرَعْتَ صَهْوَةَ هَذَا الْحَلِّ الَّذِي
 رَقَّكَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِاسْتِحْقَاقِكَ، وَأَمَاتَ اللَّهُ الْعَاجِزِينَ بِمَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
 حَسَرَاتٍ لِحَاقِكَ؛ وَكُنْتَ الْبَعِيدَ الْقَرِيبَ نُصْحُهُ، الْمَحْجُوبَ الْنَافِذَ بِحُجَّتِهِ الْمَذْعُورَةَ
 أَعْدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [به] إِنْ فُوقَ سَهْمُهُ أَوْ أَشْرَعَ رُحْمُهُ؛ وَمَا ضَرَّكَ أَنْ يَخِطُّكَ أَعْدَاءُ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ آرَتْصَاكَ، وَلَا أَنْ مَنَعَكَ الْمُعَانِدُ حَقَّكَ وَقَدْ قَضَى لَكَ
 وَأَقْتَضَاكَ؛ وَمَا كَانَ فِي مُحَاجَرَتِكَ عَنْ حِظِّكَ مِنْ خِدْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ
 مِنْهُ أَوْلَى، وَمُدَّافَعَتِكَ عَنْ حَقِّكَ فِي قُرْبِ مَقَامِهِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ طَوْلًا؛ إِلَّا مَغَالِبَةً
 اللَّهُ فِيكَ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَمُبَاعِدَتِكَ وَقَدْ قَرَّبَكَ اللَّهُ مِنْ سِرِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَإِنْ بَعُدْتَ مِنْ جَهْرِهِ؛ أَسْتَشْرِفُكَ الصُّدُورَ، وَتَطَلَّعْتُ إِلَيْكَ عَيْنُ الْجُمْهُورِ،
 وَأَسْتَوْجِبُتْ عَقِيلَةَ النِّعَمِ بِمَا قَدِمْتَ مِنَ الْمُهُورِ؛ وَنَصَرْتَ الْإِيمَانَ بِأَهْلِهِ، وَأَظْهَرْتَ
 الدِّينَ بِمُظَاهَرَتِكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ؛ وَنَاهَضْتَ الْكَفْرَةَ بِالْبَاعِ الْأَشَدِّ وَالرَّأْيِ الْأَسَدَ،
 وَنَادَيْتَهُمْ سَيُوفُكَ: - وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ - وَأَدَالَ اللَّهُ بِكَ مَنْ قَدِمَ عَلَى
 مَا قَدِمَ، وَنَدِمَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُ النَّدَمُ؛ حِينَ لَجَّ فِي جَهَالَتِهِ، وَتَمَادَى فِي ضَلَالَتِهِ؛
 وَأَسْتَمَرَّ عَلَى اسْتِطَالَتِهِ، وَتَوَالَتْ مِنْهُ عَثَرَاتٌ مَا أَتْبَعُهَا بِاسْتِقَالَتِهِ؛ فَكَمْ أَجْتَاكَ لِلدَّوْلَةِ
 رِجَالًا، وَضَيْقٌ مِنْ أَرْزَاقِهِمْ مَجَالًا؛ وَسَلَبٌ مِنْ خَزَائِنِهَا ذَخَائِرٌ وَأَسْلِحَةٌ وَأُمُورًا،
 وَنَقْلَهَا مِنْ أَيْدِي أَوْلِيَائِهَا إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَأَتَّسَعَتْ هَفَوَاتُهُ عَنِ التَّعْهِيدِ؛

وما العهد منها بعيد ، وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تُنسخ أحاديثها ،
وأتى الأئمة منك بمن هو وليها والأئمة بمن هو مغيبها ، ودعاك إمام عصرك بقلبه
ولسانه وخطه على بُعد الدار ، وتحقق أنك تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه
حيث دار ، وأختارك على ثقة من أن الله تعالى يُجده فيك عواقب الاختيار ؛ ورأى
لك إقدامك ورقاب الشرك صاغره ، وقُدومك وأفواه المخاوف فاعره ، وكرتك
في طاعته وأبى الله تعالى أن تكون خاسره ، وسطا بك حين تمالي بك المشركون ،
وتمثل لرسولهم بقوله سبحانه : (أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكْفِرُوا) وَأَنْفَتِ عِزَّتُهُ هُجْنَةً
الهُدْنَةَ ، وقال لأوليائه : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) وَأَزْدَرَى بَحَاذِيرِهِمْ أَنْتَظَارًا
لَوْصُولِكَ بِأَسُودِ الْإِسْلَامِ ، وصبر على علم أنك تُلَبِّي نِدَاءَهُ بِالسَّنةِ الْأَعْلَامِ قَبْلَ السَّنةِ
الْأَقْلَامِ ، فَكُنْتَ حَيْثُ رَجَا وَأَفْضَلَ ، وَوُجِدْتَ بِحَيْثُ رَعَى وَأَعْجَلَ ، وَقَدِمْتَ
فَكَتَبَ اللَّهُ لَكَ الْعُلُوقَ ، وَكَبَتَ بِكَ الْعَدُوُّ ، وَجَمَعَ عَلَى التَّوْفِيقِ لَكَ طَرَفِي الرِّوَاكِ
وَالْغُدُوِّ ، وَلَمْ يَلْبَسِ الْكَافِرُ لِسَهَامِكَ جُنَّةً إِلَّا الْفِرَارَ ، وَكَانَ (كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجَنْتَتْ
مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ) فَلَنَّهُ دَرَكٌ حِينَ قَانَلَتْ بِحَبْرِكَ ، قَبْلَ عَسْكَرِكَ ،
وَنُصِرْتَ بِأَنْيَرِكَ ، قَبْلَ عَشِيرِكَ ، وَأَكْرَمَ بِكَ مِنْ قَادِمِ خَطَوَاتِهِ مَبْرُورُهُ ، وَسَطَوَاتُهُ
لِلْأَعْدَاءِ مُبِيرُهُ ، وَكُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ يُعَدُّ سِيرِهِ ، وَإِنَّكَ لِمَبْعُوثٌ إِلَى بِلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بَعَثَ السَّحَابَ الْمُسَخَّرَ ، وَمَقَدَّمٌ فِي النَّبِيَّةِ وَإِنْ كُنْتَ فِي الزَّمَانِ الْمَوْتَرِ ، وَطَالِعَ بِفِئَةِ
الْإِسْلَامِ ذَيْرٌ بَعِيدٌ أَنْ يُفِيءَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِلَادَ الْكُفَّارِ ، وَرِجَالِ جِهَادٍ عَدَدَانَهُمْ عِنْدَنَا مِنْ
الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، وَأَبْنَاءِ جِلَادٍ يَشْتَرُونَ الْجَنَّةَ بِغَزَائِمِ كَالنَّارِ ، وَغُرَرِ نَصِيرِ سُكُونِ
الْعَدُوِّ بَعْدَهَا غُرُورٌ وَنَوْمُهُ غِرَارٌ .

ولما جرى من جرى ذكره على عادته في إيحاشك والإيحاش منك بكواذب
الظُّنُونِ ، وَرَامَ رَجْعَتَكَ عَنِ الْحَضَرَةِ وَقَدْ قَرَّتْ بِكَ الدَّارُ وَقَرَّتْ بِكَ الْعُيُونُ ، وَكَانَ

كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (١) هناك عَصَبَتْ نفوس الإسلام ففتكت به أيديها ، وكشفت له عن غطاء العواقب التي كانت منه مباديها ؛ وأخذه من أخذه أليمٌ شديد ، وعدل فيه من قال ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْبٌ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

ولما نشرت لواء الإسلام وطواه ، وعصدت الحق وأضعف قواه ؛ وجنبت عقيب ما نويت وجنى عقيب ما نواه ، وأبنت إلا إمضاء العزم في الشرك وما أمضاه ؛ ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ ﴾ ودفع الخطب الأشق ، وطلعت أنوار النصر مشرقة بك وهل تطلع الأنوار إلا من الشرق ؟ وقال لسان الحق : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ ﴾ ، قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عُدَّةً قدمها ثم قضاها ، وولاه كما ولي جده صلى الله عليه وسلم قبلةً يرضاها ؛ وأنصر له بك انتصاره لأهل البيت بسلمانه وعماره ، وأنطق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم وبالأمر كنت عقد إضماره ؛ وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته ، وتدير مملكته وحيطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما آسملت عليه دعوة إمامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ؛ وتدير ماعدقه الله بأمر المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ؛ وكافة راياء الحضرة بعديها ودانيها ، وسائر أعمال الدول باديها وخافيا ؛ وما يفتح الله تعالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ؛ وألني إليك المقاليد بهذا التقليد ؛ وقرب عليك كل غرض بعيد ؛ وناط بك العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع

(١) في اللسان "عصبت الابل وعصبت بالكسر اذا اجتمعت" . ولعل هذا مراده ان لم يكن أهمل

نقطه وأصله غضبت . تأمل .

الوطاة ما استطعت عنهم ؛ وبدلهم من بعد خوفهم أننا ، وكف من يعترضهم في عرض هذا الأدنى .

والجهاد فهو سلطان الله تعالى على أهل العناد ؛ وسطوة الله تعالى التي يُمضيها في شرّ العباد على يد خير العباد ؛ ولك من الغناء فيه مصرا وشاماً ، وثبات الجأش كراً وإقداماً ؛ والمصاف التي ضربت فكننت ضارب كُلماتها ، والمواقف التي اشتدت فكننت فارح هبواتها ؛ والتدريب الذي أطلق جدك ، والتجريب الذي أوري زندق ، [ما] يغني عن تجديد الوصايا البسيطة ، وتأكيد القضايا المحيطة ؛ وما زلت تأخذ من الكفار باليمن ، وتعظم فتوحك في بلاد الشمال فكيف تكون في بلاد اليمن ؛ فاطلب أعداء الله براً وبحراً ، وأجلب عليهم سهلاً ووعراً ؛ وقسم بينهم الفتكات قتلاً وأسراً ، وغارة وحصراً ؛ قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وتوفيق الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير ، وخبرتك تُدلك على مرشد الأمر : ﴿ وَلَا يَنْبُئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ فانت تبندع من المحاسن ما لا تُحيط به الوصايا ، وتخترع من الميامن ما يتعرف بركاته الأولياء والرعايا ؛ والله سبحانه وتعالى يحقق لأمر المؤمنين فيك أفضل الخايل ، ويفتح على يدك مستغلق البلاد والمعاقل ؛ ويصيب بيسهامك من الأعداء التحور والمقاتل ، ويأخذ للإسلام بك ماله عند الشرك من الثارات والطوائل ؛ ولا يضيع لك عملك في خدمة أمير المؤمنين إنه لا يضيع عمل دامل ، ويحري الأرزاق والآجال بين سيبك الفاضل وحكمك الفاضل ؛ فأعلم هذا من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، وأعمل بموجبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .



وعلى نحو منه كتب القاضى الفاضل أيضا عهدَ الملكِ الناصر ، صلاح الدين يوسف بن أيوبَ بالوزارة عن العاضد أيضا ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل (على نحو ما تقدم فى تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد ، فالحمد لله مصرفِ الأقدارِ ومشرِّفِ الأقدار ، ومُحْصِي الأعمالِ والأعمالِ ؛ ومُبْتَلِي الأخيارِ والأبرار ، وعالمِ سرِّ الليلِ وجَهْرِ النهار ؛ وجاعِلِ دولةِ أمير المؤمنين فلِكَا تتعاقبُ فيه أحوالُ الأقدارِ : بين آتِقاءِ سَرَارِ واستقبالِ إِبْدَارِ ؛ وروضاً إذا هوتَ فيه الدُّوحاتُ أينعتِ الفُروعُ سائِقَةً النُّوَارِ بِاسِقَةِ الثَّمارِ ؛ ومُنْجِدِ دعوته بالفُروعِ الشاهدة بفضلِ أوصولها ، والجواهرِ المستخرجة من أمضى نُصولها ، والقائم بُنصرة دولته فلا تزال حتى يرثَ الله الأرضَ ومنَ عليها قائمةً على أوصولها .

والحمد لله الذى اختار لأمر المؤمنين ودلَّهُ على مكانِ الاختيار ، وأغناه باقتضاب الإلهام عن رويةِ الاختبار ؛ وعَضَّدَ به الدينَ الذى أرتضاه وعَضَّدَ بمن أرتضاه ، وأنجز له من وعدِ السعد ما قضاه قبل أن أقتضاه ، ورفع محله عن الخلق فكلهم من مُضافٍ إليه غير مُضاه ؛ وجعل مملكته عَرِيْنًا لاعتزازها بالأسد وشبَّهه ، ونعمته مِرْاثًا أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهلِهِ ، وأظهر فى هذه القضية ما أظهره فى كلِّ القضايا من فضلِ أمير المؤمنين وعدله ؛ فأوليأوه كالأياتِ التى تَنَسَّقُ دَرَارِيْ أُنْقها المنير ، وتَنَسَّقُ دُرر عِقْدِها النظيمِ النَّصير : ﴿ ما نَسَخَ من آيةٍ أو نَسَاهَا نَأَتْ بِخَيْرِ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

والحمد لله الذى أتمَّ بأمر المؤمنين نعمة الإرشاد ، وجعله أَوْلَى مَنْ لَخَلَقَ سَادَ وَلَحَقَّ شَادَ ؛ وآثَرَهُ بِالْمَقَامِ الذى لا يُبْنَى إِلَّا لَهُ فى عَصْرِهِ ، وأظهر له من معجزات نَصْرِهِ مَا لا يَسْتَقِيلُ الْعَدُوُّ بِحَصْرِهِ ؛ وَجَمَعَ لِمَنْ وَالَاهُ بَيْنَ رَفْعِ قَدْرِهِ وَوَضْعِ إِصْرِهِ ، وجعل الإمامةَ مُحْفُوظَةً فى عَقِبِهِ وَالْمَعْقِبَاتِ تَحْفَظُهُ بِأَمْرِهِ ؛ وَأَوْدَعَهُ الْحِكْمَ التى رَأَاهَا أَحْوَطَ مَنْ أَوْدَعَهُ ، وَأَطْلَعَ مِنْ أَنْوَارِ وَجْهِهِ الْفَجَرَ الذى جَهَلَ مَنْ ظَنَّ غَيْرَ نُورِهِ مَطْلَعَهُ ؛ وَأَتَاهُ مَا لم يُؤْتِ أَحَدًا ، وَأَمَاتَ بِهِ غَيًّا وَأَحْيَا رَشْدًا ، وَأَقَامَهُ لِلدِّينِ عَاضِدًا فَأَصْبَحَ بِهِ مَعْتَصِدًا ؛ وَحَفِظَ بِهِ مَقَامَ جَدِّهِ وَإِنْ رَغِمَ الْمُسْتَكْبِرُونَ ، وَأُنْعِمَ بِهِ عَلَى أُمَّتِهِ أَمَانًا لَوْلَاهُ مَا كَانُوا يَنْظُرُونَ وَلَا يُصِرُّونَ ، ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

يُجَدُّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَتَاهُ مِنْ تَوْفِيقٍ يُذَلِّلُ لَهُ الصَّعْبَ الْجَالِحَ ، وَيُذِنُ مِنْهُ الْبَعِيدَ النَّازِحَ ؛ وَيُخَلِّفُ عَلَى الدِّينِ مِنْ صِلَاحِهِ الْخَلْفَ الصَّالِحَ ، وَيُلْزِمُ آرَاءَهُ جَدَّ السُّعُودِ الْوَاضِحَ ، وَيُرِيهِ آيَاتِ الْإِرْشَادِ فَإِنَّهُ نَازِحٌ (٩) قَدَحَ الْقَادِحَ ؛ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصَلِّيَ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ الذى أَنْجَى أَهْلَ الْإِيمَانِ بِبَعْثِهِ ، وَطَهَّرَ بِهِدْيِهِ مَنْ رَجَسَ الْكُفْرَ وَخَبَثَهُ ؛ وَأَجَارَ بِاتِّبَاعِهِ مِنْ عَنَتِ الشَّيْطَانِ وَعَبَثِهِ ، وَأَوْصَحَ جَادَةَ التَّوْحِيدِ لِكُلِّ مُشْرِكٍ الْاِعْتِقَادَ مِثْلَتَهُ ؛ وَعَلَى أَيْدِيهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ الذى جَادَلَتْ يَدُهُ بِلِسَانِ ذِي الْفَقَارِ ، وَقَسَمَ وَلَاؤَهُ وَعَدَاوَتَهُ بَيْنَ الْأَقْيَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ وَعَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ دُرَرِ يَتِيمَا الَّذِينَ أَذَلَّ اللَّهُ بَعِزَّتَهُمْ أَهْلَ الْإِلْحَادِ ، وَأَصْفَى بِمَا سَفَكُوهُ مِنْ دِمَائِهِمْ مَوَارِدَ الرِّشَادِ ، وَجَرَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِأَقْوَاتِ الْقُلُوبِ وَأَرْزَاقِ الْعِبَادِ ؛ وَسَلَّمْ وَمُجَدِّ ، وَوَالِى وَجَدِّ .

وإن الله سبحانه ما أخلى قط دولة أمير المؤمنين التي هي مهبط الهدى ومحط
الندى، ومورد الحياة للولى والردى للعدا، من لطف يتلافى الحادثة ويتسببها
ويرأبها، ونعمة تبلغ بها النفوس أربها، وموهبة تسد موضع الكلم، وتسد
موضع السلم، وتجل غمائم الغمم، وتخل مغامم النعم، وتستوفي شرائط المناسج،
وتستدنى فوارط المصالح، ولم يكن ينسئ الحادثة في السيد الأجل الملك المنصور
رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، التي كادت لها أوانى الملك^(١)
تزعزع، ومباني التدبير تتضعع، إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنور الله
من أصطفائك أيها السيد الأجل الملك الناصر: - أدام الله قدرتك - لأن تقوم
بخدمته بعده، وتسد في تقديمه جيوشه مسده، وتقو في ولاته أثره، ولا تفقد منه
إلا أثره، فوازت الفادحة فيه النعمة فيك، حتى تستوفي حظها من أمير المؤمنين بأجر
لا يضيع الله فيه عمله، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له
وحمله، واستحق أن ينضر الله وجهه بما أخلقه الله من جسمه في مواقف الجهاد
وبدله، ومضى في ذمام رضا أمير المؤمنين: وهو الذمام الذى لا يقطع الله منه
مأمره أن يصله، وأتبع من دعائه بخف أول ما تلقاه بالروح والريحان، وذخرت
له من شفاعته ما عليه معول أهل الإيمان في الأمان، فرعى الله له قطعه البيداء
إلى أمير المؤمنين وتجشمه الأسفار، ووطأه المواطى التى تغيظ الكفار، وطلوعه
على أبواب أمير المؤمنين طلوع أنوار النهار، وهجرته التى جمعت له أجرين: أجر
المهاجرين وأجر الأنصار، وشكره ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك النار، وبلغ

(١) الأوانى جمع أخية وهى عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه

الإسلام الإيثار . وما لقيَ رَبَّهُ حَتَّى تَعْرِضَ لِلشَّهَادَةِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الصَّفَاحِ ، ومُسْتَجَرِّ
الرَّمَاحِ ، ومُفْتَرِّقِ الأَجْسَامِ مِنَ الأَرْوَاحِ ؛ وكانت مشاهدته لأُمير المؤمنين أَجْرًا فوقَ
الشَّهادَةِ ، وَمِنَّةٌ لله تعالى عليه له بها ما لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيادَهُ ؛ وَحَتَّى رَأَى
أَيُّهَا السَّيِّدُ الأَجَلَ المَلِكِ النَّاصِرِ - أَدَامَ اللهُ قَدْرَتَكَ - قَدْ أَقَرَّتْ نَازِرَهُ ، وَأَرْغَمَتْ
مُنَازِرَهُ ؛ وَشَدَّدَتْ سُلْطَانَهُ ، وَسَدَّدَتْ مَكَانَهُ ؛ وَرَمَى بِكَ فَأَصَابَ ، وَسَقَى بِكَ
فَصَابَ ، وَجَمَعَتْ مَا فِيهِ مِنْ أَهْمَةِ المَشِيبِ إِلَى مَا فِيكَ مِنْ مَضَاءِ الشَّبَابِ ؛ وَلَقِنتِ
مَا أَفَادَتْهُ التَّجَارِبُ جُمْلَهُ ، وَأَعَانَتْكَ المَحَاسِنُ اتِّقَى هِيَ فِيكَ جُلَّةً ؛ وَقَلَّبَ عَلَيْكَ إِسْنَادَ
الْفَتَكَاتِ فَتَقَلَّبْتَ ، وَأَوْصَحَ لَكَ مِنْهَاجَ الْبَرَكَاتِ فَتَقَبَّلْتَ ؛ وَسَدَّدَكَ نَهْمَهَا ، وَجَرَّدَكَ
شَهْمَهَا ؛ وَأَتَتْصَاكَ فَارْتَضَاكَ غَرَبًا ، وَأَثَرَكَ عَلَى آثَرِ وَلَدِهِ إِمَامَةً فِي التَّيْدِيرِ وَحَرَبًا ؛
وَكُنْتَ فِي السَّلَامِ لِسَانَهُ الْآخِذَ بِجَمَاعِ القُلُوبِ ، وَفِي الحَرْبِ سِنَانَهُ النَّافِذَ فِي مَضَاقِ
الْخُطُوبِ ، وَسَاقَتَهُ إِذَا طَلِبَ ، وَطَلِيعَتَهُ إِذَا طَلَبَ ، وَقَلْبَ جَيْشِهِ إِذَا ثَبَتَ
وَجَنَاحَهُ إِذَا وَثَبَ ؛ وَلَا عُدْرَ لِشَبْلِ نَشَأَ فِي حَجَرِ أَسَدٍ ، وَلَا لَهْلَالٍ لَأَسْتَبْلِي النُّورَ مِنْ
شَمْسٍ وَأَسْتَمِدَّ :

هذا ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المُسْنَدُ الجامع من قديم
الفخر وحديث ؛ لأَغْنَتْكَ غَرِيزَةُ عَزِيزَةٍ وَبَحِيَّةٌ سَحِيَّةٌ وَشِيمَةٌ وَسِيمَةٌ ، وَخَلَائِقُ ، فِيهَا
مَا تُحِبُّ الْخَلَائِقُ ، وَتَحَازِرُ ، لَمْ يَحْزُ مِثْلُهَا حَازِرٌ ؛ وَتَحَاسِنُ ، مَاؤُهَا غَيْرُ أَسَنِ ، وَمَا ثَرُ ، جَدُّ
غَيْرُ عَائِرٍ ؛ وَمَفَاخِرُ ، غَفَلَ عَنْهَا الأَوَّلُ : لَيْسَتْ أَثَرُهَا الْآخِرُ ؛ وَبِرَاعَةُ لِسَانٍ ، يَنْسَجِمُ
قِطَارُهَا ، وَشِبَاعَةُ جَنَانٍ ، تَضْطَرِمُ نَارُهَا ؛ وَخِلَالُ جِلَالٍ عَلَيْكَ شَوَاهِدُ أَنْوَارِهَا
تَتَوَصَّحُ ، وَمَسَاعِي مُسَاعِدٍ لَدَيْكَ كَأَيْمُ نُورِهَا تَتَفَتَّحُ ؛ فَكَيْفَ وَقَدْ جَمَعْتَ لَكَ فِي المَجْدِ
بَيْنَ نَفْسٍ وَأَبٍ وَعَمٍّ ، وَوَجِبَ أَنْ سَأَلَكَ مِنْ أَصْطِفَاءِ أُمير المؤمنين مَاذَا حَصَلَ ثُمَّ
عَلَى الخَلْقِ عَمٍّ ، فَيَوْمُكَ وَاسْطَةُ فِي المَجْدِ بَيْنَ غَدِكَ وَأَمْسِكَ ، وَكُلُّ نَادٍ مِنْ أُنْدِيَةِ الْفَخَارِ

لك أن تقول فيه وعلى غيرك أن يُمسك ، فبُشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولةً
منكم بوالده وولده ، وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد .

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولآه من اختيارك قبله ، وقامت
حجته عند الله باستكفاءك وزيراً له ووزراً لله ، فناجته مرشد الإلهام ، وأضاءت
له مقاصد لا تعقلها كل الأفهام ، وعزم له على أن قللك تدير مملكته الذي أعرقت
في إزته وأغرقت في كسبه ، ومهد لك أبعاد غاية في الفخر بما يسر لك من قربه ؛
ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قول
ربه : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَأَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ . وقللك لأنك سيف من سيوف الله
تعالى يحق به التقليد وله التقليد ، وأصطفاك على علم بأنك واحد متعظم في معنى
العديد ؛ وأحيا في سلطان جيوشه سنة جدّه الإمام المستنصر بالله في أمير جيوشه
الأول ، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون أفضل من الأفضل ؛
ونخرج أمره إليك بأن يؤعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك
وزارته التي أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ؛ وحلاك نعمتها ، و
لك

نعمتها ؛ فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبها التي تناهت في الإفاة ، إلى أن لارتبة
فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافه ؛ وتوأم منها صدرا لا تتطلع إليه عيون الصدور ،
وأعقل منها في درجة على مثلها تدور البدور : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ : وقيل ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .
وباشر مستبشرا ، وأستوطن منديرا ؛ وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين
بسطا وقبضا ، وأرفع ناظرَكَ فقد أباح لك رفعا وخفضا ؛ وأثبت على درجات

السعادة فقد جعل لحُكْمِكَ تَثْبِيْتًا وَدَحْضًا ، وَأَعْقَدُ حُبِّي الْعَزَمَاتِ لِلصَّالِحِ فَقَدْ أَطْلَقَ
بِأَمْرِكَ عَقْدًا وَنَقَضًا ؛ وَأَنْقُذْ فِيمَا أَهْلَكَ لَهُ فَقَدْ أَدَّى بِكَ نَافِلَةً مِنَ السِّيَاسَةِ وَفَرْضًا ؛
وَصَرَّفْ أُمُورَ الْمَمْلَكَةِ فَإِلَيْكَ الصَّرْفُ وَالتَّصْرِيفُ ، وَتَقَفْ أَوْدَ الْأَيَّامِ فَعَلَيْكَ أَمَانَةُ
التَّهْدِيبِ وَالتَّثْقِيفِ ؛ وَاسْتَحْبُ ذُبُولَ الْفَخَّارِ حَيْثُ لَا تَصِلُ التِّيَّجَانُ ، وَأَمْلَأْ لِحَظًا مِنْ
نُورِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ تَتَّقِي الْأَبْصَارُ لِحَيْنِ الْأَجْفَانِ ؛ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ فَارْتَبِطْهُ
بِالتَّقْوَى الَّتِي هِيَ عُرْوَةُ النِّجَاطِ وَذَخِيرَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ ، وَصَفْوَةُ مَا تَلْقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ
مِنَ الْكَلِمَاتِ ؛ وَخَيْرُ مَا قَدَّمْتَهُ النُّفُوسُ لِنَفْسِهَا فِي أَمْسِهَا ، وَجَادَلْتَ [بِهِ] يَوْمَ تَجَادِلُ كُلُّ
نَفْسٍ عَنْ نَفْسِهَا ؛ قَالَ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ
آتَتْهُ لَا يُظْلَمُونَ فَيَلَا ﴾ . وَأَسْتَتِمَّ بِالْعَدْلِ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ، وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ
اللَّهُ إِلَيْكَ ؛ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ كَمَا كُنْتَ تَنْتَهَتْ عَنْ فِعْلِهِ .
وَأَوْلِيَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْصَارُهُ الْمَيَّامِينَ ، وَمَنْ يُحْفُ بِمَقَامِ مُلْكِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ
الْمَطُوفِينَ ، وَالْأَعْيَانِ الْمُعَصَّيْنِ ، وَالْأَمَانِلِ وَالْأَجْنَادِ أَجْمَعِينَ ؛ فَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ حَقًّا ،
وَمَمَالِكُهُ رِقًّا ، وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ سَبْقًا ، وَأَنْصَارُهُ غَرْبًا كَمَا أَنَّ عَسَاكَ
أَنْصَارُهُ شَرْقًا ؛ فَهُمْ وَهُمْ يَدٌ فِي الطَّاعَةِ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ؛ وَتَحْكُمُ
فِيهِمْ وَأَنْتَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَاهُمْ .

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور - رضى الله عنه - استمطر لهم [من]
إنعام أمير المؤمنين المسامحة بعلقتهم ، وواسى^(١) في هذه المنقبة التي استحق بها حسن
الذكر بين طوائفهم وفريقهم ، فصنهم من جائحات الاعتراض ، وأبدل لهم صالحات
الأغراض ؛ وأرفع دُونَهُمِ الْحِجَابَ ، وَيَسِّرْ لَهُمُ الْأَسْبَابَ ، وَأَسْتَوْفِ مِنْهُمْ عِنْدَ

(١) لعله وسأوى كما لا يخفى .

الحُضور إليك غاياتِ الخطاب ؛ وصرفهم في بلاد أمير المؤمنين ولاةً وحماة ،
كما تُصرفهم في أوقاتِ الحرب لُماةً وكُناه ؛ وعرفهم بركة سلطانك ، وأقتد قلوبهم
بزمام إحسانك .

وأما القضاة والُدعاةُ فهم بين كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرِك
ونهيك ؛ فاستعمل منهم مَنْ أحسنَ عملا ، فأما بالعنايات فلا .

والجهاد فانت راضعُ دَره ، وناشئةُ حَجَره ؛ وظهورُ الحيل مَواطِنك ، وظلال
الجلل مَساكِك ؛ وفي ظلماتِ مَساكِله ، تُجلى محاسِنك ، وفي أعقابِ نَوازله ، تُتلى
ميامِنك ؛ فشمرله عن ساقٍ من القنا ، وخُض فيه بحراً من الطّبا ؛ وأخلّ فيه عُقْدَة
كلماتِ الله سبحانه وثِقاتِ الحُبى ؛ وأسلِ الوهادَ بدماءِ العدا وأرفعَ برؤوسهم الرّبا ؛
حتى يأتِيَ اللهُ بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكونَ مذخوراً لأَيامك ، ومشهوداً
به يومَ مَقامك بين يديه من لسانِ إمامك .

والأموال فهى زُبدةُ حَلَب اللّطف لا العُنف ، وجمّةٌ يَمْتَرِيها الرِّفق لا العَسف ،
وما بِرِحتِ أجدَ ذخائرَ الدُّول للصفوف ، وأحدَ أسلِحَتِها التى تَمضى وقد تَنسُو
السُّيوف ؛ فقدمَ للبلادِ الاستِعمار ، تُقدِّمُ لك الاستِثمار ، وقطرةً من عدلِ تَنحُرُها
من مالِ بحار .

والرعايا فهم ودائعُ الله لأَمرِ المؤمنين وودائعُهم لَدَيْكَ ، فاقبِضْ عنهم الأيديَ
وَأَبْسِطْ بِالعدلِ فيهم يَدَيْكَ ؛ وَكُنْ بِهِمْ رَءُوفاً ، وعالِهم عَطُوفاً ؛ وَاجْعَلِ الضَّعِيفَ مِنْهُمْ
فى الحَقِّ قَوِيّاً واقْوِىْ فى الباطلِ ضَعِيفاً ؛ ووَكِّلْ بِرعايتِهِم نَاطِرَ أَجْتهادِكَ ، وَاجْعَلْ
أَلْسِنَتَهُم بالدُّعاء من سَلاحِكَ وقلوبَهُم بالحبّة من أَجْدادِكَ ؛ ولو جازَ أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَنْ

الوصية قائمٌ بأمر، أو جالسٌ في صدر، لَأَسْتَغْنِيَتْ عنها بِفِطْنَتِكَ الزَّكِيَّةَ ، وَفِطْرَتِكَ
الَّذِيكَ ؛ وَلِكِنَّهَا من أمير المؤمنين ذِكْرُكَ لَكَ وَأَنْتَ من المؤمنين ، وَعَرَابُهُ بَرَكَةٌ فَتَلَقَّ
رَايَتَهَا بِالْيَمِينِ ؛ وَاللَّهِ تَعَالَى يُؤَيِّدُكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَجَلُ - أَدَامَ اللَّهُ قُدْرَتَكَ - بِالنَّصْرِ
الْعَزِيزِ ، وَيَقْضِي لدولة أمير المؤمنين عَلَى يَدَيْكَ بِالْفَتْحِ الْوَحِيدِ ؛ وَلَأَهْلُهَا فِي نَظَرِكَ
بِالْأَمْرِ الْحَرِيزِ ، وَيَتَمَتَّعُ دَسْتُ الْمَلِكِ بِحِلْيَةِ مَجْدِكَ الْإِبْرِيزِ ؛ وَيُقَرَّرُ عِيُونَ الْأَعْيَانِ بِمَا
يُظْهِرُكَ فِي مَيْدَانِ السَّعَادَةِ مِنَ السَّبْقِ وَالتَّبَرُّيزِ ؛ وَيُمْلِكُكَ مِنْ نَحْلَةِ أَنْعَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِمَا مَلَكَكَ إِيَّاهُ مَلِكُ التَّحْوِيزِ ؛ وَيُلْحِقُ بِكَ فِي الْمَجْدِ أَوَّلَكَ ، وَيُجَدِّدُ فِيكَ الْعَوَاقِبَ
وَلَكَ ؛ فَأَعْلَمْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَسْمِهِ ، وَأَعْمَلْ بِمُوجِبِهِ وَحُكْمِهِ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

المذهب الثالث

(أَنْ يَفْتَتِحَ الْعَهْدَ بِخُطْبَةٍ)

وهو ما حكاه في " التعريف " عن صاحب نحر الدين إبراهيم بن لقمان ، فيما
كَتَبَ بِهِ لِلظَّاهِرِ بَيْرُسَ ، وَذَكَرَ أَنَّ أَبْنَ لُقْمَانَ لَيْسَ بِخُجَّةَ . ثُمَّ قَالَ : عَلَى أَنْ الْفَاضِلُ
مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ قَدْ تَبِعَهُ فِيمَا كَتَبَ بِهِ لِلنَّصُورِ قَلَاوُونَ .

قلت : لَيْسَ أَبْنُ لُقْمَانَ هُوَ الْمُبْتَكِرُ لِهَذَا الْمَذْهَبِ ، بَلْ كَانَ مَوْجُودًا مَعْمُولًا بِهِ .
اسْتَعْمَلَهُ كُتَّابُ الْإِنْشَاءِ بَدِيوَانُ الْخِلَافَةِ بِبَغْدَادَ قَبْلَ ذَلِكَ بَزَمَنِ طَوِيلٍ ، وَهُوَ مَنَبَعُ
الْكُتَابَةِ الَّتِي عَنْهُ يَصْدُرُ التَّرْتِيبُ ، وَقَاعَدَتُهَا الَّتِي يُنْبِئُ عَلَيْهَا الْمَصْطَلَحَ . وَعَلَيْهِ كُتِبَ
عَهْدُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَيُّوبَ أَنْحَى السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ « مِنْ بَغْدَادَ » .
وَإِلَيْهِ مَالُ أَبْنِ الْأَثِيرِ فِي " الْمَثَلِ السَّائِرِ " . وَذَكَرَ أَنَّ الْأَفْتَاتِحَ بِـ « هَذَا مَاعِهْدَ » قَدْ

(١) لعله للاملك الكامل ابن الملك العادل الخ كما يفيد ما يأتي في صلب العهد . تأمل .

أُتِنِدَ بِكَثْرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ ، وَأَبْنُ لِقْمَانَ تَابِعٌ لِمَتَّبِعٍ . عَلَى أَنْ إِنْشَاءَهُ يَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِهِ فِي الْكُتَابَةِ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ بِحُجَّةٍ فَابْنُ الْأَثِيرِ حُجَّةٌ فِي هَذَا الشَّانِ ، يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَيَعْمَلُ بِقَوْلِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثٌ : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْدَمٌ » . وَلِذَلِكَ مَالُ أَهْلِ الْعَصْرِ إِلَى اخْتِيَارِهِ وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَخَالَفَةً لِمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمْرُو بْنِ حَزْمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُهُودِ الصَّحَابَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَبِكُلِّ حَالٍ فَأَهْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ لَا يَخْرُجُونَ فِيهِ عَنْ ضَرِيَيْنِ : ضَرْبِ يَعْبُرُونَ عَنْ الْأَوَامِرِ الْوَارِدَةِ فِي الْعَهْدِ عَنِ الْخَلِيفَةِ بِقَوْلِهِ : « أَمْرُهُ بِكَذَا وَأَمْرُهُ بِكَذَا » وَهِيَ طَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ ، وَعَلَيْهَا كُتِبَ عَهْدُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ الْمَشَارِ إِلَى . وَضَرْبِ يَعْبُرُونَ بِقَوْلِهِمْ « أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا » وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَهِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ زَمَانِنَا .

وَهَذِهِ نَسْخَةُ الْعَهْدِ الْمَكْتُوبِ بِهِ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ بِبَغْدَادَ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، لِلْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَيُّوبَ أَنْحَى السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ « يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ » وَهِيَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْمَأَنَّتِ الْقُلُوبُ بِذِكْرِهِ ، وَوَجَبَ عَلَى الْخَلَائِقِ جَزِيلُ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ؛ وَوَسَّعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ ، وَظَهَرَتْ فِي كُلِّ أَمْرٍ حِكْمَتُهُ ؛ وَدَلَّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بِعَجَائِبِ مَا أَحْكَمَهُ صُنْعًا وَتَدْوِيرًا ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ؛ مُدِّ السَّائِرِينَ بِنِعْمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى عَدَدًا ، وَعَالِمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ؛ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ فِي الْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ ، وَلَا يَتَوَدُّهُ حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ

(١) تَقَدَّمَ قَبْلَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ . تَأَمَّلْ .

(٢) فِي الْأَصُولِ عَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ سَبْقُ قَلَمِ .

بُحْكِهِ الضَّمِير ، وَجَلَّ أَنْ يَبْلُغَ وَصْفَهُ الْبَيَانُ وَالتَّفْسِيرُ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ؛ وَابْتَعَثَهُ هَادِيًا لِلخَلْقِ ، وَأَوْصَحَ بِهِ مَنَاجِيحَ الرُّشْدِ وَسُبُلَ الْحَقِّ ؛ وَأَصْطَفَاهُ مِنْ أَشْرَفِ الْأَنْسَابِ وَأَعَزِّ الْقَبَائِلِ ، وَأَجْتَبَاهُ لِإِيضَاحِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدْلَالِ ؛ وَجَعَلَهُ لَدَيْهِ أَعْظَمَ الشُّفَعَاءِ وَأَقْرَبَ الْوَسَائِلِ ، فَقَدَفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ وَحَمَلَ النَّاسَ بِشَرِيعَتِهِ الْهَادِيَةِ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيضاءِ وَالسَّنَنِ الْعَادِلِ ، حَتَّى اسْتَقَامَ أَعْوَجَاجُ كُلِّ زَائِعٍ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ كُلُّ حَائِدٍ عَنْهُ وَمَائِلٌ ؛ وَسَجَدَ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ تَتَقِيًّا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْكَرَامِ الْأَفْاضِلِ ، صَلَاةً مُسْتَمِرَّةً بِالْغُدُواتِ وَالْأَصَائِلِ ؛ خُصُوصًا عَلَى عَمِّهِ وَصِوْءِ أَبِيهِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الَّذِي أَشْتَهَرَتْ مَنَاقِبُهُ فِي الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ ؛ وَدَرَّتْ بِرَكَّةِ الْإِسْتِسْقَاءِ بِهِ أَخْلَافُ الشُّعْبِ الْمَوَاطِلِ ، وَفَازَ مِنْ تَنْصِيصِ الرَّسُولِ عَلَى عَقِبِهِ فِي الْخِلَافَةِ بِمَا لَمْ يُفُزْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَوَائِلِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَازَ مَوَارِيثَ النُّبُوَّةِ وَالْإِمَامَةِ ، وَوَفَّرَ جَزِيلَ الْأَقْسَامِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْكَرَامَةِ ؛ لِعَبْدِهِ وَخَلِيفَتِهِ ، وَوَارِثِ نَبِيِّهِ وَمُحِبِّي شَرِيعَتِهِ ؛ الَّذِي أَحَلَّهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا مِنْ مَعَارِجِ الشَّرَفِ وَالْجَلَالِ فِي أَرْفَعِ ذُرُوهِ ، وَأَعْلَقَهُ مِنْ حُسْنِ التَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ بِأَمْتِنِ عِصْمَةٍ وَأَوْثَقِ عُرْوَةٍ ؛ وَاسْتَخْرَجَهُ مِنْ أُنْبَرَفِ نِجَارٍ وَعُغْصَرٍ ، وَأَخْتَصَّهُ بِأَزْكَى مَنِحَةٍ وَأَعْظَمِ مَفْتَخَرٍ ؛ وَنَصَبَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِلْمًا ، وَأَخْتَارَهُ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَامًا وَحَكَمًا ؛ وَنَاطَ بِهِ أَمْرَ دِينِهِ الْخَفِيفِ ، وَجَعَلَهُ قَائِمًا بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ؛ إِمَامًا الْمُسْلِمِينَ ، وَخَلِيفَةً رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ أَيْنِ جَعَفَرِ الْمَنْصُورِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛

أَبْنِ الْإِمَامِ السَّعِيدِ الثَّقِيِّ ، أَبِي نَصْرِ مُحَمَّدِ الظَّاهِرِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، أَبْنِ الْإِمَامِ السَّعِيدِ الْوَفِيِّ
أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ ، أَبْنِ الْإِمَامِ السَّعِيدِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْمُسْتَضَى بِأَمْرِ اللَّهِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ^(١) ، وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ ، الْأُئِمَّةِ
الْمُهْدِيِّينَ ؛ الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ، وَلَقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ
وَهُمْ عَنْهُ رَاضُونَ .

وبعد ، فَبِحَسَبِ مَا أَفَاضَهُ اللَّهُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - مِنْ
خِلَافَتِهِ فِي الْأَرْضِ ، وَفُوضَهُ إِلَى نَظَرِهِ الْمُقَدَّسِ فِي الْأُمُورِ مِنَ الْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ ،
وَمَا اسْتَخْلَصَهُ لَهُ مِنْ حَيَاطَةِ بِلَادِهِ وَعِبَادِهِ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى شَرِيفِ نَظَرِهِ وَمُقَدَّسِ
أَجْتِهَادِهِ ؛ لَا يَزَالُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - يَكَلِّفُ الْعِبَادَ بَعِينَ الرَّيَايَةِ ، وَيُسَلِّكُ بِهِمْ
فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ مَذَاهِبَ الرَّشْدِ وَسُبُلَ الْهِدَايَةِ ؛ وَيُنْشُرُ عَلَيْهِمْ جَنَاحِي
عَدْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَيُنْعِمُ لَهُمُ النَّظَرَ فِي آرْتِيَادِ الْأَمْنَاءِ وَالصَّلَاحِ مِنْ خُلَصَاءِ أَكْفَائِهِ
وَأَعْوَانِهِ ؛ مُنْخَبِرًا لِلِاسْتِعْرَاءِ مَنْ اسْتَحْمَدَ إِلَيْهِ بِمَشْكُورِ الْمَسَاعِي ، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِ
فِي سِيَاسَةِ الرَّعَايَا بِجَمِيلِ الْأَسْبَابِ وَالِدَّوَاعِي ؛ وَسَلَكَ فِي مَفْتَرَضِ الطَّاعَةِ الْوَاجِبَةِ عَلَى
الْخَلَائِقِ قَصْدَ السَّبِيلِ ، وَعُلِمَ مِنْهُ حُسْنُ الْأَضْطِلَاعِ فِي مَصَالِحِ الْمَسَامِينِ بِالْعِبَاءِ
الْقَبِيلِ ؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤَيِّدُ آرَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - بِالتَّأْيِيدِ
وَالْتَّسَدِيدِ ، وَيُمَدِّدُ أَبَدًا مِنْ أَقْسَامِ التَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ بِالْمَوْفُورِ وَالْمَزِيدِ ؛ وَيَقْرُنُ عِزَّ أَيْمَةِ
الشَّرِيفَةِ بِالْإِيْمَنِ وَالْجَاحِ ، وَيُسَنِّئُ لَهُ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ أَسْبَابَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ؛
وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يَنْيَبُ .

(١) لم نقف على استعمال هذه الصيغة في عهدود غير الفاطميين إلا في هذا العهد .

ولما وفق الله تعالى نصير الدين محمد بن سيف الدين أبي بكر بن أيوب من الطاعة المشهورة ، والخدم المشكورة ، والحظوة في جهاد أعداء الدين بالمساعي الصالحة ، والفوز من المراضى الشريفة الإمامية - أجلها الله تعالى - بالمغانم الجزيلة والصفقة الراجحة ؛ لما وصل فيه سالف شريف الاختصاص بأنفه ، وشفع تالده في تحصيل مآثور الاستخلاص بطاريفه ؛ وأستوجب بسلوكة في الطاعة المفروضة مزيد الإكرام والتفضيل ، وصرع في الإنعام عليه بمنشور شريف إمامي يسلك في أتباعه هُداة والعمل بمراشده سواء الصراط وقصد السبيل - أقتضت الآراء الشريفة المقدسة - زادها الله تعالى جلالاً متألّق الأنوار ، وقُدسا يتساوى في تعظيمه من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار - الإيعاز بإجابته إلى ما وجه أمله إلى الإنافة فيه به إليه ، والجذب بضبعيه إلى ذروة الاجتباء الذي تظهر أشعة أنواره الباهرة عليه ؛ فقلده - على خيرة الله تعالى - الزعامة والغلات ، وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والضيايع والصدقات ، والجواري وسائر وجوه الجبايات ؛ والعرض والعطاء ، والنفقة في الأولياء ؛ والمظالم والحسبة في بلاده ، وما يفتحه ويستولى عليه من بلاد الفرنج الملاحين ، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده من الشاذين عن الإجماع المنعقد من المسلمين ؛ و[من] يتعدى حدود الله تعالى بخالفته من يصل (?) من الأعمال الصالحات بولائه المفروض على الخلائق مقبولة ، وطاعته ضاعف الله جلاله بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم موصولة ؛ حيث قال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . واعتمد - صلوات الله عليه وسلامه - في ذلك على حسن نظره ومدد رعايته ، وألقى مقاليد التفويض إلى وفور آجتهاده وكإل سياسته ؛ وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما

يبقى له على تعاقب الدهر واستمراره، ويخلد له على مَمَر الزمان حسن ذكره وجزيل
نَحَارِه؛ وحباه بتقليد يُوطد له قواعد الممالك، ويفتح بإقليده رِجَال الأبواب والمسالك؛
ويفيد قاعدته في بلاده زيادة تقرير وتمهيد، ويطير به صيته في كل قريب
وبعيد؛ ووسمه بالملك الأجل، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط، نصير الدين،
ركن الإسلام، أثر الأنام، تاج الملوك والسلاطين، قانع الكفرة والمشركين، قاهر
الخورج والمتمردين، غازى بك محمد، بن أبى بكر، بن أيوب، معين أمير المؤمنين؛
رعاية لسوابق خدمة وخدم أسلافه وآبائه، عن وفور اجتباؤه، وكمال أزدلافه؛
وإنافه من ذروة القرب إلى محل كريم، واختصاصا له بالإحسان الذى لا يلقاه
إلا من هو كما قال تعالى: ﴿ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ﴾. وثوقا بصحة ديانتته التى يسلك فيها
سواء سبيله، واستنامة إلى أمانته فى الخدمة التى ينصح فيها لله تعالى ولرسوله؛
وركونا إلى [كون] الإنعام عليه موضوعا بحمد الله تعالى فى أحسن موضع، واقعا به
لديه فى خير مستقر ومستودع.

وأمير المؤمنين - صلوات الله عليه (لا زالت الحيرة موصولة بآرائه، والتأييد
الإلهي مقرونا بإنفاذه وإمضائه) يستمد من الله عز وجل حسن الإعانة فى أصطفائه
الذى آقتضاه نظره الشريف وأعماده، وأدى إليه آرتياده المقدس الإمامي
وآجتهاده؛ وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله تعالى التى هى الجنة الواقية، والنعمة الباقية؛ والمَلْجَأُ المنيع،
والعماد الرفيع؛ والذخيرة النافعة فى السر والتجوى، والجدوة المقتبسة من قوله
سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وأن يدرع بشعارها، فى جميع الأقوال
والأفعال، ويهتدى بأنوارها، فى مشكلات الأمور والأحوال؛ وأن يعمل بها سرا

وجَهْرًا، وَيُشْرَحُ لِلْقِيَامِ بِمُحْدُودِهَا الْوَاجِبَةِ صَدْرًا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِتِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ مُتَدَبِّرًا غَوَامِضَ عَجَائِبِهِ ، سَالِكًا سَبِيلَ الرِّشَادِ وَالْهُدَايَةِ فِي الْعَمَلِ بِهِ ؛ وَأَنْ يَجْعَلَهُ مِثَالًا يَتَّبِعُهُ وَيَقْتَفِيهِ ، وَدَلِيلًا يَهْتَدِي بِرَأْشِدِهِ الْوَاضِحَةِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ؛ فَإِنَّهُ الثَّقَلُ الْأَعْظَمُ ، وَسَبَبُ اللَّهِ الْمُحْكَمُ ، وَالنُّورُ الَّذِي يَهْدِي بِهِ إِلَى الْتِي هِيَ أَقْوَمُ ؛ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ لِعِبَادِهِ جَوَامِعَ الْأُمُثَالِ ، وَبَيْنَ لِهْمِ بَهْدَاهِ الرُّشْدَ وَالضَّلَالَ ، وَفَرَّقَ بِدَلَالَتِهِ الْوَاضِحَةِ بَيْنَ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ ؛ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلَّذِينَ يَلْتَمِعُونَ ۝ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِالْحِفَاظَةِ عَلَى مَقْرُوضِ الصَّلَوَاتِ ، وَالْدُخُولِ فِيهَا عَلَى أَكْمَلِ هَيْئَةٍ مِنْ قَوَائِنِ الْخُشُوعِ وَالْإِخْبَاتِ ؛ وَأَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ فِي مَوْضِعِ سَجُودِهِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَنْ يُمَثِّلَ لِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ مَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْعَرْضِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ۝ ﴾ . وَأَنْ لَا يَشْتَغَلَ بِشَاغِلٍ عَنْ أَدَاءِ فُرُوضِهَا الْوَاجِبَةِ ، وَلَا يَلْهُوَ بِسَبَبٍ عَنْ إِقَامَةِ سُنَنِهَا الرَّائِبَةِ ؛ فَإِنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ الَّذِي نَمَتْ أَعَالِيهِ ، وَمِهَادُ الشَّرْعِ الَّذِي تَمَّتْ قَوَاعِدُهُ وَمَبَانِيهِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝ ﴾ ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْتَمُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۝ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَسْعَى إِلَى صَلَوَاتِ الْجَمْعِ وَالْأَعْيَادِ ، وَيُقُومَ فِي ذَلِكَ بِمَا فَرَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ ؛ وَأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُتَوَاضِعًا ، وَيَبْزُرَ إِلَى الْمَصَلِّاتِ الضَّاحِيَةِ فِي الْأَعْيَادِ خَاشِعًا ؛ وَأَنْ يُحَافِظَ فِي تَشْيِيدِ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْوَاجِبِ

والمندوب ، ويعظم باعتماد ذلك شعائر الله التي هي من تقوى القلوب ؛ وأن يشمل بوافر اهتمامه واعتنائه ، وكلال نظره وإرعائه ؛ بيوت الله التي هي محال البركات ، ومواطن العبادات ؛ والمساجد التي تأكد في تعظيمها وإجلالها حُكْمُها ، والبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ وأن يرتب لها من الخدم من يتبتل لإزالة أدناسها ، ويتصدى لإذكاء مصابيحها في الظلام وإيناسها ؛ ويقوم لها بما تحتاج إليه من أسباب الصلاح والعجارات ، ويحضر إليها ما يليق من الفُرش والكِسوات .

وأمره باتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي أوصح جددها ، وثقف - عليه السلام - أودها ؛ وأن يعتمد فيها على الأسانيد التي نقلها الثقات ، والأحاديث التي صحّت بالطرق السليمة والروايات ؛ وأن يقتدى بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي تدب صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بسببها ، ورغب أمته في الأخذ بها والعمل بأدبها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

وأمره بمجالسة أهل العلم والدين ، وأولى الإخلاص في طاعة الله تعالى واليقين ؛ واستشارتهم في عوارض الشك والالتباس ، والعمل بأرائهم في التمثيل والقياس ؛ فإن الاستشارة لهم عين الهداية ، وأمن من الضلالة والغواية ؛ وبها تلقح عقم الأفهام والألباب ، ويقتدح زناد الرشد والصواب ؛ قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها ، والأمر في التمسك بجبلها : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ .

وأمره بمراعاة أحوال الجند والعسكر في ثغوره ، وأن يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره ؛ مستصاحبا نياتهم بإدامة التلطف والتعهد ، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التفحص والتفقد ؛ وأن يسوسهم سياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم ، ويهديهم

في انتظامها وأتساقها إلى الصراط المستقيم ؛ ويَجْلِسُهم على القيام بشرائط الخدم ،
والتمسك منها بأقوى الأسباب وأمتن العَصَم ؛ ويدعوهم إلى مصلحة التواصل
والإئتلاف ، ويصُدِّهم عن موجبات التخاذل والاختلاف ؛ وأن يعتمد فيهم شرائط
الحزم في الإعطاء والمنع ، وما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض والرفع ؛
وأن يُثَبِّبَ المحسن على إحسانه ، ويُسَيِّلَ على المسيء ما وسَّعه العفو واحتمله الأمر
ذيل صفحه وأمتناته ؛ وأن يأخذ برأى ذوى التجارب منهم والحنكة ، ويحتجى
بمشاورتهم في الأمر ثمر الشركة ؛ إذ في ذلك أمن من خطأ الأفراد ، وترجح عن
مقام الزَّيغ والاستبداد .

وأمره بالتبثُّل لما يليه من البلاد ، ويتَّصِلُ بنواحيه من ثغور أولى الشُّرك
والعناد ؛ وأن يصرف بجَمِيعِ الالتفات إليها ، ويخصَّها بوفور الإهتمام بها والتطلع
عليها ؛ وأن يَشمَلَ ما يبلاده من الحصون والمعافل بالإحكام والإتقان ، وينتهي
في أسباب مصالحها إلى غاية الوُسْع ونهاية الإمكان ؛ وأن يشحنها بالميرة الكثيرة
والذخائر ، ويمدّها من الأسلحة والآلات بالعدد المستصلح الوافر ، وأن يتخَيَّرَ
لحراستها [من يختارُه] من الأمانة الثَّقا ، ولسدّها من ينتخبه من الشُّجعان الكُماه ؛
وأن يؤكِّد عليهم في استعمال أسباب الحِفْظَة والإستظهار ، ويوقِّظهم للاحتراس من
غوائل الغفلة والإغترار ؛ وأن يكون المشار إليهم ممن ربوا في ممارسة الحروب على
مكافئة الشدائد ، وتدرَّبوا في نصب الجبائل للشركين والأخذ عليهم بالمرأصد ؛
وأن يعتمد هذا القبيل بمواصلة المدد ، وكثرة العدد ، والتوسُّع في النفقة والعطاء ،
والعمل معهم بما يقتضيه حالهم وتفاوتهم في التقصير والغناء ؛ إذ في ذلك حسم لمادة
الأطاع في بلاد الإسلام ، وردُّ لكيد المعاندين من عبدة الأصنام ؛ فَعُلوْمُ أنَّ هذا
الغرض أولى ما وُجِّهَتْ إليه العنايةاتُ وصُرِفَتْ ، وأحقُّ ما قُصِرَتْ عليه الهِمَمُ

وَوُقِفَتْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ مِنْ أَهَمِّ الْفُرُوضِ الَّتِي كَرَّمَ فِيهَا الْقِيَامَ بِحَقِّهِ ، وَأَكْبَرَ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي كَتَبَ الْعَمَلَ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَادِيًا فِي ذَلِكَ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ ، وَمَحَرِّضًا لِعِبَادِهِ عَلَى قِيَامِهِمْ بِفُرُوضِ الْجِهَادِ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ نَزَلَ مَنَزَلًا يُخِيفُ فِيهِ الْمُشْرِكِينَ وَيُخِيفُونَهُ ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ سَاجِدٍ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجْرٍ قَائِمٍ لَا يَقْعُدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجْرِ صَائِمٍ لَا يُفْطِرُ “ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” غَدَاةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ “ . هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَقِّ مَنْ سَمِعَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ فَوَقَفَ لَدَيْهَا ، فَكَيْفَ بِنَ كَانُوا قَالُوا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ : مِمَّنْ كُنَّ بَعْدَهُ فَرَسَهُ كُلُّهَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا “ .

وَأَمْرُهُ بِاِقْتِفَاءِ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي رَعَايَاهُ ، وَالْإِهْتِدَاءِ إِلَى رَعَايَةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالْإِحْسَانِ بِمَرَّاشِدِهِ الْوَاضِحَةِ وَوَصَايَاهُ ؛ وَأَنْ يَسْلُكَ فِي السِّيَاسَةِ [بِهِمْ] سُبُلَ الصَّلَاحِ ، وَيُشْمَلَهُمْ بِلَيْنِ الْكَنْفِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ ؛ وَيُمَدِّ ظِلَّ رِعَايَتِهِ عَلَى مُسْلِمِهِمْ وَمُعَاهِدِهِمْ ، وَيُزَحِّحَ الْأَقْدَاءَ وَالشَّوَابِبَ عَنْ مَنَازِلِهِمْ فِي الْعَدْلِ وَمَوَارِدِهِمْ ؛ وَيَنْظُرَ فِي مَصَالِحِهِمْ نَظْرًا يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الضَّعِيفِ وَالْقَوِي ، وَيُقِيمُ بِأَوْدِهِمْ قِيَامًا يَهْتَدِي بِهِ وَيَهْدِيهِمْ فِيهِ إِلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأمره باعتبار أسباب الإستظهار والأمانة، وأستقصاء الطاعة المستطاعة والقدرة المحيكة، في المساعدة على قضاء تفتي حجاج بيت الله الحرام، وزوار نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وأن يمدّهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام، ويحرسهم من التخطف والأذى في حاتّي الظعن والمقام؛ فإنّ الحجّ أحد أركان الدين المشيّد، وفروضه الواجبة المؤكّدة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ .

وأمره بقوة أيدي العاملين بحكم الشرع في الرعايا، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام والقضايا، والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوي الاستحقاق، والشّد على أيديهم فيما يرونه من المنع والإطلاق؛ وأنه متى تأخّر أحد الخصمين عن إجابة داعي الحكم، أو تقاعس في ذلك لما يلزم من الأداء والعُدْم، جَذَبَهُ بِعَنَانِ الْقَسْرِ إِلَى مجلس الشرع، وأضطرّه بقوة الإنصاف إلى الأداء بعد المنع . وأن يتوخى عمّال الوقوف التي تقرب المتقربون بها، وأستسكوا في ثواب الله بمتين حبّ لها . وأن يمدّهم بحيل المعاونة والمساعدة، وحسن الموازنة والمُعاضدة، في الأسباب التي تؤدّن بالعارّة والاستثناء، وتعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ .

وأمره أن يتخبر من أولى الكفاءة والنزاهة من يستخلصه للخدم والأعمال، والقيام بالواجب: من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال . وأن يكونوا من ذوي الأضطلاع بشرائط الخدم المعينة وأمورها، والمهتدين إلى مسالك صلاحها وتديرها . وأن يتقدّم إليهم بأخذ الحقوق من وجوهها المتيقّنة، وجبايتها في أوقاتها المعينة؛ إذ ذلك من لوازم مصالح الحُند ووفور الإستظهار، وموجبات قوة الشوكة

بكثير الأعوان والأنصار، وأسباب الحِفْظَةِ^(١) التي تُحْمَى بها البلاد والأمصار؛ ويأمرهم بالجرى في الطُّسُوقِ^(٢) والشُّرُوطِ على النمط المعتاد؛ والقيام في مصالح الأعمال على أقدام الحِدِّ والاجتهاد . وإلى العاملين على الصَّدَقَاتِ بأخذ الزكوات على مشروع السنن المهيَّج ، وقصد الصراط المتَّبَعِ ؛ من غير عدول في ذلك عن المنهاج الشرعي ، أو تساهل في تبديل حكمها المفروض وقانونها المرعى ؛ فإذا أُخِذَتْ من أربابها ، الذين يُطَهَّرُونَ وَيُزَكَّوْنَ بها ، كان العمل في صرفها إلى مستحقها بحكم الشريعة النبوية وموجبها . وإلى جُباةِ الحزبية من أهل الذمَّةِ بالمطالبة بأدائها في أول السنة ، واستيفائها منهم على حسب أحوالهم بحكم العادة في الثروة والمسكنة ؛ إجراءً في ذلك على حكم الاستمرار والإتظام ، ومحافظةً على عظيم شعائر الإسلام .

وأمره أن يتطلع على أحوال كل من يستعمله في أمر من الأمور، ويصرفه في مصلحة من مصالح الجمهور ، تطلعاً يقتضى الوقوف على حقائق أماناتهم ، وموجب تهديهم في حركاتهم وسكناتهم ؛ ذهاباً مع النصيح لله تعالى في بريته ، وعملاً فيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " .

وأمره أن يستصليح من ذوى الأضطلاع والغناء ، من يرتب العرض والعطاء ، والنفقة في الأولياء ؛ وأن يكونوا من المشهورين بالحزم والبصيرة ، والموسومين في المناجحة بإخلاص الطوية وإصفاء السريه ؛ حالين من الأمانة والصون بما يزين ، ناكين عن مظان الشبه والطمع الذي يصبم ويشين ؛ وأن يأمرهم بالتباع عادات أمثالهم في ضبط أسماء الرجال ، وتحلية الأشخاص والأشكال ؛ واعتبار شيات

(١) في القاموس « الحفظة بالكسر والحفيظة الحمية والغضب » .

(٢) الطسوق جمع طسق وهو شبه الخراج له مقدار معلوم وليس بعري خالص . أنظر اللسان .

الخيول وإثبات أعدادها ، وتحريض الجند على تخييرها وأقتناء جيادها ؛ وبذل الجُهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم ، والعمل بقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ . فاذا نظقت جرائد الجند المذكورين بما أثبت لديهم ، وحقق الاعتبار والعيان قيامهم بما وجب عليهم ؛ أُطلقت لهم المعاش والأرزاق بحسب إقراراتهم ، وأوصلت إليهم بمقتضى واجباتهم واستحقاقاتهم : فإن هذا الحال أصل حراسة البلاد والعباد ، وقيام الأمر بما أوجبه الله تعالى من الاستعداد بفرض الجهاد ؛ قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وأمره بتفويض أمر الحسبة إلى مَنْ يكون بأمرها مضطلعا ، وللسنة النبوية في إقامة حدودها متبعا ؛ فيعتمد في الكشف عن أحوال العامة في تصرفاتها الواجب ، ويسلك في التطلع إلى معاملاتهم السبيل الواضح والسنن اللائح ؛^(١) في الأسواق لأعبار المكايل والموازين . ويُقيمه [مقامه] في مؤاخذه المطففين وتأديبهم بما تقتضيه شريعة الدين ؛ ويحذرهم في تعدى حدود الإنصاف شدة نكاله ، ويقابل المستحق المؤاخذه بما يرتدع به الجمع الكثير من أمثاله ؛ قال الله تعالى : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ . وقال سبحانه : ﴿وَيْلٌ لِلطَّافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْمَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ زَنَوْهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١) يلخص في الأصل ولعله «ويطوف في الأسواق» الخ .

فليتولَّ الملكُ السَّيِّدُ، الكاملُ، المجاهدُ، المرباطُ؛ نصيرُ الدين، ركنُ الإسلام،
أثيرُ الأنام، جلالُ الدولة، فخرُ الملَّة، عزُّ الأُمَّة، سندُ الخِلافه، تاجُ الملوك
والسلطين، قانعُ الكُفَرَة والمشرِكين؛ قاهرُ الخَوارجِ والمتمرِّدين، أميرُ المجاهدين،
غازى بك معين أمير المؤمنين - مآقله عبدُ الله وخليفته فى أرضه، القائمُ له بحقه
الواجبِ وفرضه؛ أبو جعفرِ المنصورِ المستنصر بالله أمير المؤمنين، تقليدُ مطمئنٍ
بالإيمان، وينصحُ لله ولرسوله وخليفته - صلواتُ الله عليه - فى السِّرِّ والإعلان؛
وليُشرَحَ بما فُوِّضَ إليه من هذه الأمورِ صَدْرًا، وليُقَمَّ بالواجبِ عليه من شُكْرِ هذا
الإِنعامِ الجزيلِ سِرًّا وجهًّا؛ وليُعملَ بهذه الوصايا الشريفةِ الإمامية، وليُقَفَّ آثارُ
مَراشدها المقدَّسةِ النبوية؛ وليُظهِرَ من أثرِ الحَدِّ فى هذا الأمرِ والاجتهاد، وتحقيقِ
النظرِ الجميلِ لله والإرشاد، ما يكونُ دليلًا على تأييدِ الرأى الأشرفِ المقدَّس - أجله
الله تعالى - فى أصْطِناعه وأسْتِكفائه، وإصابةِ مَوَاقِعِ النُّجَحِ والرَّشْدِ فى التفويضِ
إلى حُسْنِ قِيَامِهِ وكِإلِّ اعْتِنَائِهِ؛ فَلْيَقْدَرِ النِّعْمَةُ فى هذه الحالِ حَقَّ قَدَرِها، وَلْيَمْتَرِ
بأداءِ الواجبِ بما غَلَبَ عليه من جَزِيلِ الشُّكْرِ غَيْرَ رَدِّها؛ وَلْيُطَالِعْ مع الأوقاتِ
بما يُشْكَلُ عليه من الأمورِ الغَوَامِضِ، وَلْيُنْهِ إلى العلومِ الشريفةِ المقدَّسة - أجلها الله
تعالى - ما يَلْتَبِسُ عليه من الشُّكُوكِ والغَوَامِضِ (؟)؛ لِيَرِدَ عليه من الأمثلةِ ما يُوَضِّحُ له
وجهَ الصوابِ فى الأمورِ، وَيَسْتَمِدَّ مِنَ المَراشِدِ الشريفةِ التى هى شفاءٌ لما
فى الصدورِ بما يَكُونُ وروده عليه وتتابعه إليه نُورًا على نُور؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة العهد الذى كتب به الصاحبُ فخرُ الدين : إبراهيم بن لقمان،
للاظاهر بَيْرَسَ، التى أنكر عليه القاضى شهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف"
آبتداءها بخطبة، وهى :

الحمد لله الذي أضفى^(١١) [على الإسلام] ملايس الشرف ، وأظهر دُرره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف ؛ وشيّد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف ، وقبض لنصره ملوكًا اتفق على طاعتهم من أختلف .

أحمد على نعمه التي رعت الأعين منها في الروض الأنف ، والطافه التي وقفت الشكر عليها فليس له عنها منصرف ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب من المخاوف أمنًا ، وتسهّل من الأمور ما كان حزنًا ؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهنا ، وصفيه الذي أظهر من المكارم فنونا لافتًا ؛ صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحّت مناقبهم باقية لا تنفى ، وأصحابه الذين أحسنوا في الدين فاستحقوا الزيادة من الحسن .

وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، واحقّهم أن يصبح القلم ساجدًا وراكعًا في تسمير مناقبه وبرّه ؛ من سعى فأضى بسعيه الجليل متقدمًا ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا ومُثمّرًا ؛ وما بدت يد من المكرّمات إلا كان لها زندا ومُعصما ، ولا استباح بسيفه حمى وعى إلا أضرمه نارًا وأجراه دما .

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الظاهرى ، الركنى ، شرفه الله تعالى وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز ، النبوى ، الإمامى ، المستنصرى - أعز الله تعالى سلطانه - تتويها بشريف قدره ، واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المُسَمَّية ولا تقوم بشكره ؛ وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانه الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان ؛ واستتب دهرها المسىء فأعتب ، وأرضى عنها زمانها وقد كان صال

عليها صَوْلَةٌ مُغْضَبٌ ، فَأَعَادَهُ لَهَا سَلَامًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَيْهَا حَرْبًا ، وَصَرَفَ أَهْتَامَهُ فَرَجَعَ كُلَّ مُتَضَائِقٍ مِنْ أُمُورِهَا وَإِسْعًا رَحْبًا ، وَمَنَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ حُتًوًا وَعَطْفًا ، وَأَظْهَرَ لَهُ مِنَ الْوَلَاءِ رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ مَا لَا يَخْفَى ، وَأَبْدَى مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِالْبَيْعَةِ أَمْرًا لَوْ رَامَهُ غَيْرُهُ لَا مَتَنَعَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ تَمَسَّكَ بِجَبَلِهِ مَتَمَسَّكَ لَا تَقَطَّعَ بِهِ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ؛ لَكِنَّ اللَّهَ أَذْخَرَ هَذِهِ الْحَسَنَةَ لِيُثَقِّلَ بِهَا فِي الْمِيزَانِ ثَوَابَهُ ، وَيُخَفِّفَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِسَابَهُ وَالسَّعِيدُ مِنْ خُفِّفَ حِسَابُهُ ؛ فَهَذِهِ مَتَقَبَّةُ أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَخْلِّدَهَا فِي صَحِيفَةِ صُنْعِهِ ، وَتَكْرِمَةً قَضَتْ لِهَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ بِجَمْعِهِ بَعْدَ أَنْ حَصَلَ الْإِيَّاسُ مِنْ جَمْعِهِ ؛ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَشْكُرُكَ هَذِهِ الصَّنَائِعُ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْلَا أَهْتَامُكَ لَا تَسَّعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ ؛ وَقَدْ فَلَدَكَ الدِّيَارَ الْمَصْرِيَّةَ وَالْبِلَادَ الشَّامِيَّةَ ، وَالدِّيَارَ الْبَكْرِيَّةَ وَالْحِجَازِيَّةَ وَالتِّمَنَِّةَ وَالْقُرَاتِيَّةَ ؛ وَمَا يَتَجَدَّدُ مِنَ الْفُتُوحَاتِ غَوْرًا وَنَجْدًا ، وَفَوْضَ أَمْرِ جُنْدِهَا وَرَعَايَاهَا إِلَيْكَ حِينَ أَصْبَحَتْ فِي الْمَكَارِمِ قَرْدًا ؛ وَلَمْ يَجْعَلْ مِنْهَا بَلَدًا مِنَ الْبِلَادِ وَلَا حِصْنًا مِنَ الْحِصُونِ مُسْتَنْثَى ، وَلَا جِهَةً مِنَ الْجِهَاتِ تُعَدُّ فِي الْأَعْلَى وَلَا الْأَدْنَى .

فَلَا حِظَّ أُمُورِ الْأُمَّةِ فَقَدْ أَصْبَحَتْ لَهَا حَامِلًا ، وَخَلَّصَ نَفْسَكَ مِنَ التَّبِعَاتِ الْيَوْمَ فَنِي غَيْدٍ تَكُونُ مَسْئُولًا لَا سَائِلًا ؛ وَدَعَّ الْإِغْتِرَارَ بِالدُّنْيَا فَمَا نَالَ أَحَدٌ مِنْهَا طَائِلًا ، وَمَا رَأَاهَا أَحَدٌ بَعِينَ الْحَقِّ إِلَّا رَأَاهَا خَيَالًا زَائِلًا ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ قَطَعَ أَمَالَهُ الْمَوْصُولَةَ ، وَقَدَّمَ لِنَفْسِهِ زَادَ التَّقْوَى فَتَقَدَّمَ غَيْرَ التَّقْوَى مُرَدُّودَةً لَا مَقْبُولَةَ ؛ وَأَبْسَطَ يَدَكَ بِالْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقِرَاءَانِ ؛ وَكَفَّرَ بِهِ عَنِ الْمَرْءِ دُنُوبًا وَأَتَانًا ، وَجَعَلَ يَوْمًا وَاحِدًا فِيهِ كِعِبَادَةِ الْعَالِيدِ سِتِّينَ عَامًا ، وَمَا سَلَكَ أَحَدٌ سَبِيلَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، إِلَّا وَاجْتُنِبَتْ ثَمَارُهُ مِنْ أَفْنَانٍ ؛ وَتَرَاجَعَ الْأَمْرُ فِيهِ بَعْدَ تَدَاوُعِ أَرْكَانِهِ وَهُوَ مُشْبِيذُ الْأَرْكَانِ ، وَتَحَصَّنَ بِهِ مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَانِ ؛ وَكَانَتْ

أَيَّامُهُ فِي الْأَيَّامِ أَهْيَى مِنْ الْأَعْيَادِ ، وَأَحْسَنَ فِي الْعْيُونِ مِنَ الْغُرَرِ فِي أَوْجِهِ الْجِيَادِ ،
وَأَحْلَى مِنَ الْعُقُودِ إِذَا حُلِّيَ بِهَا عَطَلُ الْأَجْيَادِ .

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى ثَوَابٍ وَحُكَّامٍ ، وَأَصْحَابٍ رَأَى مِنْ أَصْحَابِ
السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ؛ فَإِذَا أَسْتَعْنَتْ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي أُمُورِكَ فَتَقَبَّ عَلَيْهِ تَنْقِيًا ، وَاجْعَلْ
عَلَيْهِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ رَقِيًّا ؛ وَسَلِّ عَنْ أَحْوَالِهِ فَفِي الْقِيَامَةِ تَكُونُ عَنْهُ مَسْئُولًا وَبِمَا أَجَرَمَ
مَطْلُوبًا ، وَلَا تُؤَلِّمْ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَكُونُ مَسَاعِيهِ حَسَنَاتٍ لَكَ لَا ذُنُوبًا ؛ وَأَمْرُهُمْ
بِالْإِنْفَاقِ فِي الْأُمُورِ وَالرَّفَقِ ، وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى إِذَا ظَهَرَتْ أَدَلَّةُ الْحَقِّ ؛ وَأَنْ يَقَابِلُوا الضَّعْفَاءَ
فِي حَوَائِجِهِمْ بِالْفُتُورِ الْبَاسِمِ وَالْوَجْهَ الطَّلُقِ ، وَأَنْ لَا يُعَامِلُوا أَحَدًا عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِسَاءَةِ
إِلَّا بِمَا يَسْتَحِقُّ ؛ وَأَنْ يَكُونُوا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرِّعْيَةِ إِخْوَانًا ، وَأَنْ يُوسِعُوهُمْ
رِئًا وَإِحْسَانًا ؛ وَأَنْ لَا يَسْتَحِلُّوا حُرْمَاتِهِمْ إِذَا أَسْتَحَلَّ الزَّمَانُ لَهُمْ حَرَمَانًا ، فَلِلْمُسْلِمِ أَخُو
الْمُسْلِمِ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ أَمِيرًا وَسُلْطَانًا ؛ وَالسَّعِيدُ مَنْ نَسَجَ وَلَايَتَهُ فِي الْخَيْرِ عَلَى مَنَوَالِهِ ،
وَأَسْتَسَنَّ بِسُنَّتِهِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ ، وَتَحَمَّلَ عَنْهُ مَا تَعَجَّزَ قُدْرَتُهُ عَنْ حَمْلِ أَثْقَالِهِ .

وَمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ أَنْ يُحْيَى مَا أُحْدِثَ مِنْ سَيِّئِ السُّنَنِ ، وَجُدَّ مِنَ الْمَظَالِمِ الَّتِي هِيَ
مِنْ أَعْظَمِ الْمَحَنِّ ، وَأَنْ يُسْتَرَى بِإِبْطَالِهَا الْحَامِدُ رَخِيصَةً بِأَغْلَى ثَمَنٍ ؛ وَمَهْمَا جِيَّ مِنْهَا
مِنْ الْأَمْوَالِ فَإِنَّمَا هِيَ بَاقِيَةٌ فِي الذَّمِّ حَاصِلُهُ ، وَأَجْيَادُ الْخَزَائِنِ إِنْ أَصْحَحَتْ بِهَا حَالِيَةً
فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهَا عَاطِلَةٌ ؛ وَهَلْ أَشَقُّ مِمَّنْ أَحْتَقَبَ إِثْمًا ، وَأَكْتَسَبَ
بِالْمَسَاعِي الذَّمِّ دَمًا ؛ وَجَعَلَ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ [لَهُ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَصْمًا ، وَتَحَمَّلَ ظُلْمَ
النَّاسِ فِيمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ أَعْمَالِهِ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ .

وحقيق بالمقام الشريف المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الظاهرى ، الركنى
أن تكون ظلمات الأنام مردودة بعذله ، وطاعته تخفف ثقلًا لا طاقة لهم بحمله ؛

فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخره ؛ فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى يوجب لك منزلة التقديم ، ويثبت الخلائق على ما خصك الله به من الفضل العظيم ؛ وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ، ويؤاخذ عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين لك أنك صرت في الأمور أصلا وصار غيرك فرعاً .

ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصوائف مبيضا ؛ وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التى لا تغوف فيها ولا تأثيم ؛ وقد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرع فى سواد الحساد ، وعرفت منك عزمة وهى أمضى مما تحبته ضمائر الأغمداء ، وأشتهرت لك مواقف فى القتال وهى أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد ؛ وبك صان الله حى الإسلام أن يتبدل ، وبِعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ؛ وسيفك أثر فى قلوب الكافرين قروحا لا تسدمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأول ؛ فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكُنْ فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابع ، وأيد كلمة التوحيد فتجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا ؛ ولا تحل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور ، واحتفال بيدل مادجا من ظلماتها بالنور ؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وعلى العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ، والعدو إليه ملتفتا ناظرا ؛ لاسميا ثغور الديار المصرية فإن العدو وصل إليها راجعا وراح خاسرا ، وأستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا ؛ وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالإلهة ، وركابته سابقة بغير سائق مستقلة ؛ وهو أخو الجيش السليمانى فإن ذاك غدت الريح له حامله ،

وهذا تكفّلت بحمله الرياح السابله ؛ وإذا لحظها الطّرف جاريةً في البحر كانت
 كالأعلام ، وإذا شَبَّها قال : هذه ليالٍ تُقْلَعُ بالأيام ؛ وقد سئى الله لك من السعادة
 كلّ مطلب ، وآتاك من أصالة الرأى الذى يُريك المُغَيَّب ؛ وبسط بعد القبض منك
 الأمل ، ونشط بالسعادة ما كان من كسل ؛ وهداك إلى مناهج الحق ومازلت مهتدياً
 إليها ، وأزملك المراسد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها ؛ والله تعالى يمدك بأسباب نصره ،
 ويوزعك شكر نعمه فإن النعمة تستم بشكره ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة عهد كتب بها القاضى محي الدين بن عبد الظاهر ، للسلطان الملك
 المنصور قلاوون ، عن الخليفة الإمام أبى العباس أحمد الحاكم بأمر الله المتقدم
 ذكره على هذه الطريقة ، وهى :

الحمد لله الذى جعل آية السيف ناسخةً لكثير من الآيات ، وفاسخةً لعقود
 أولى الشك والشبهات ؛ الذى رفع بعض الخلق على بعض درجات ، وأهل
 لأمر البلاد والعباد من جاءت خوارق تملكه بالذى إن لم يكن من المعجزات
 فمن الكرامات .

ثم الحمد لله الذى جعل الخلافة العباسية بعد القُطُوب حسنةً الإتياسام ،
 وبعد الشُّحوب جميلةً الإتياسام ، وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من
 دار السلام .

والحمد لله على أن أشهدا مصارع أعدائها ، وأحد لها عواقب إعادة نصرها
 وإبدائها ، وردّ تشيبتها بعد أن ظن كل أحد أن شعارها الأسود ما بقي منه
 إلا ماصاته العيون في جفونها والقلوب في سويدائها . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده

لا شريك له شهادة يتلذذ بذكرها اللسان، وتتمطر بنفحاتها الأفواه والأردان،
وتتلقاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان. ونصلي على سيدنا محمد الذي أكرمنا
الله به وشرف لنا الأنساب، وأعزنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب؛ صلى الله عليه
وعلى آله الذين أنجب الدين منهم عن أنجب، ورضى الله عن صحابته الذين هم
خير صحاب؛ صلاة ورضوانا يوفي قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير
حساب (؟) يوم الحساب.

وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطاناً أشتدت
به للأمة الظهور وشفيت الصدور؛ وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور
كما أقامها فيما مضى بالمنصور، وأختار لإعلان دعوتها من ينجي معاملها بعد العفاء
ورسومها بعد الدثور؛ وجمع لها الآن ما كان جمح عليها فيما قبل من خلاف كل
ناجم، ومنحها ما كانت تبشرها به صُحف الملاحم^(١)؛ وأنفذ كلمتها في ممالك الدولة
العلوية بنخبر سيف مشحود ماضى العزائم، ومازج بين طاعتها في القلوب وذكرها
في الألسنة وكيف لا والمنصور هو الحاكم؟؛ وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكاً
تقسم البركات عن يمينه، وتقسم السعادة بنور جبينه؛ وتقهّر الأعداء بفتكاته،
وتهمر عقائل المعائل بأصغر راياته؛ ذو السعد الذي مازال نوره يشف حتى ظهر،
ومعجزه يرف إلى أن بهر؛ وجوهره ينتقل من جيد إلى جيد حتى علا الجبين،
وسره يكمن في قلب بعد قلب حتى علم - والحمد لله - نبأ تمكينه في الأرض بعد
حين؛ فاختره الله على علم، وأصطفاه من بين عباده بما جبّله الله عليه من كرم
وشجاعة وحلم؛ وأتى به الأمة المحمدية في وقت الاحتياج عوناً وفي إبان الاستمطار

غَنِيًّا ، وفي حينَ عَيْثِ الْأَشْبَالِ فِي غَيْرِ الْإِقْتِرَاسِ لَيْشَاءَ ، فَوَجَبَ عَلَى مَنْ لَهُ فِي أَغْنَاقِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مُبَايَعَةُ رِضْوَانِ ، وَعِنْدَ أَيْمَانِهِمْ مَصَالِحَةُ أَيْمَانٍ ، وَمَنْ وَجِبَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِمِيرَاثِ مَنْصِبِ النَّبَوَّةِ ، وَمَنْ تَصَحَّ بِهِ كُلُّ وَلايَةٍ شَرْعِيَّةٍ يُؤْخَذُ كِتَابُهَا مِنْهُ بِقُوَّةٍ ، وَمَنْ هُوَ خَلِيفَةُ الزَّمَانِ وَالْعَصْرِ ، وَمَنْ بَدَعَوَاتِهِ تَنْزِلُ بِالنَّصْرِ عَلَيْكُمْ مَعَاشِرَ الْإِسْلَامِ مَلَائِكَةُ النَّصْرِ ، وَمَنْ نَسَبُهُ بِنَسَبِ نَبِيِّكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَشَجِّحٌ ، وَحَسَبُهُ بِحَسَبِهِ مُمْتَرِجٌ ، أَنْ يَفُوضَ مَا فَوَّضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ ، إِلَى مَنْ يَقُومُ عَنْهُ بِفَرْضِ الْجِهَادِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ ، وَأَنْ يُؤَلِّيَهُ وَلايَةً شَرْعِيَّةً تَصَحُّ بِهَا الْأَحْكَامُ وَتَنْضَبِطُ أُمُورُ الْإِسْلَامِ ، وَتَأْتِي هَذِهِ الْعُصْبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ بِإِمَامِهِمْ مِنْ طَاعَةِ خَلِيفَتِهِمْ هَذَا بَخِيرِ إِمَامٍ ، وَنُحْرَجُ أَمْرُ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - شَرَفَهُ اللَّهُ - أَنْ يَكُونَ لِلْقَرَرِ الْعَالِي ، الْمَوْلَى ، السَّاطِنِ ، الْمَلَكِي ، الْمَنْصُورِي ، أَجَلَهُ اللَّهُ وَنَصْرَهُ ، وَأُظْفَرَهُ وَأَقْدَرَهُ ، وَأَبَدَهُ وَأَيَّدَهُ ، كُلُّ مَا فَوَّضَهُ اللَّهُ لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُكْمٍ فِي الْوُجُودِ ، وَفِي التَّهَائِمِ وَالتَّجُودِ ، وَفِي الْمَدَائِنِ وَالْخَزَائِنِ ، وَفِي الظُّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ ، وَفِي مَا فَتَحَهُ اللَّهُ وَفِي مَا سَيَفْتَحُهُ ، وَفِي مَا كَانَ فَسَدَ بِالْكَفْرِ وَالرَّجَاءِ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ سَيُصْلِحُهُ ، وَفِي كُلِّ جُودٍ وَمَنْ ، وَفِي كُلِّ عَطَاءٍ وَمَنْ ، وَفِي كُلِّ هِبَةٍ وَتَمْلِكٍ ، وَفِي كُلِّ تَفَرُّدٍ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ شَرِيكَ ، وَفِي كُلِّ تَعَاهُدٍ وَتَبَذٍّ ، وَفِي كُلِّ عَطَاءٍ وَأَخْذٍ ، وَفِي كُلِّ عَزَلٍ وَتَوَلِّيٍّ ، وَفِي كُلِّ تَسْلِيمٍ وَتَحْلِيٍّ ، وَفِي كُلِّ إِرْفَاقٍ وَإِنْفَاقٍ ، وَفِي كُلِّ إِنْعَامٍ وَإِطْلَاقٍ ، وَفِي كُلِّ تَجْدِيدٍ وَتَعْوِيضٍ ، وَفِي كُلِّ حَمْدٍ وَتَقْرِيضٍ ، وَلايَةٍ عَامَّةٍ تَامَّةٍ مُحْكَمَةٍ مُحْكَمَةٍ ، مَنْصُودَةٍ مَنْظُمَةٍ ، لَا يَتَعَقَّبُهَا نَسْخٌ مِنْ خَلْفِهَا وَلَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا ، وَلَا يَغْتَرِيهَا فَسْخٌ يَطْرَأُ عَلَيْهَا ، يَزِيدُهَا مَرَّةً الْأَيَّامَ جَدَّةً يُعَاقِبُهَا حُسْنُ شَبَابٍ ، وَلَا يَنْتَهِي عَلَى الْأَعْوَامِ وَالْأَحْقَابِ ، نَعَمْ يَنْتَهِي إِلَى مَا نَصَبَهُ اللَّهُ لِلْإِرْشَادِ مِنْ سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ،

وذلك من شرع الله أقامه للهداية علما ، وجعله إلى احتياز الثواب سُلما .
 فالواجب أن يعمل بِجُزْئِيَّاتِ أمره وَكُلِّيَّاته ، وأن لا يُخْرِجَ أَحَدٌ عن مَقَدَّماته ،
 والعدل فهو الغرس المُشْمِر ، والسحابُ المُمْطِر ، والروضُ المزهَر ، وبه تَنْتَزِلُ
 البركات ، وتُخْلَفُ الهِبَات ، وتُرَبَّى الصَّدَقَات ؛ وبه عِمَارَةُ الأرض ، وبه تُؤَدَّى السَّنَةُ
 والفرص ؛ فمن زرع العدلَ آجَتْنِي الخير ، ومن أحسنَ كُفْيَ الضرر والضَّيْر ؛ والظُّلمُ
 فعاقِبَتُهُ وَخِيمُهُ ، وما يطولُ عُمُرُ المُلْكِ إلا بالمَعْدَلَةِ الرحيمه ؛ والرعية فهمُ الوديعه
 عند أُولَى الأمر ، فلا يَخْصُصُ بِحُسْنِ النظر منهم زَيْدٌ ولا عُمَرُو ؛ والأموال ، فهي
 ذخائرُ العاقِبَةِ والمَال ؛ والواجبُ أن تُؤْخَذَ بِحَقِّهَا ، وتُنْفَقَ في مَسَاحِقِهَا ، والجهادُ
 بَرًّا وبحرًّا فمن كَنَانَةِ الله تُفَوَّقُ سِهَامُهُ ، وتَوَرَّخُ أَيَامُهُ ؛ وَيُنْتَضِي حُسَامُهُ ، وَتَجْرَى
 مُنْشَأَتُهُ في البحر كالأعلام وتُنْشَرُ أَعْلَامُهُ ؛ وفي عُقْر دَارِ الحرب يُحِطُّ رِكَابُهُ ، وَيُحِطُّ
 كِتَابُهُ ؛ وَتُرْسَلُ أَرْسَانُهُ ، وَتَجُوسُ خِلَالَهَا فُرْسَانُهُ ؛ فَلْيَلْزَمْ مِنْهُ دَيْدَنَا ، وَيَسْتَصِحِبْ
 مِنْهُ فِعْلا حَسَنًا ؛ وَجِيُوشُ الإِسْلَامِ وَكِبَاتُهُ ، وَأَمْرَاؤُهُ وَحُمَاتُهُ ؛ فهُمْ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ
 قِدَمَ هِجْرِهِ ، وَعِظَمَ نُصْرِهِ ؛ وَشِدَّةَ بَاسِ ، وَقُوَّةَ مِرَاسِ ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ شَهِدَ
 الْفَتْوحَاتِ وَالْحُرُوبِ ، وَأَحْسَنَ في المُحَامَاةِ عَنِ الدِّينِ الدُّعُوبِ ؛ وَهُمْ بَقَايَا الدُّوَلِ ،
 وَنَحَايَا المُلُوكِ الْأَوَّلِ ؛ لِأَسْمِيَّ أُولَى السَّعْيِ النَّاجِ ، وَمَنْ لَهُمْ نَسَبَةٌ صَالِحِيَّةٌ إِذَا نَفَرُوا بِهَا
 قِيلَ لَهُمْ : نَعَمْ السَّلَفُ الصَّالِحُ ؛ فَأَوْسِعْهُمْ بَرًّا ، وَكُنْ بِهِمْ بَرًّا ، وَهُمْ بِمَا يَجِبُ مِنْ
 خِدْمَتِكَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ بِمَا يَجِبُ مِنْ حُرْمَتِهِمْ أَدْرَى ؛ وَالثَّغُورُ وَالْحَصُونُ فَهُمْ ذَخَائِرُ
 الشَّدَّةِ ، وَخَزَائِنُ الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ ؛ وَمَقَاعِدُ الْقِتَالِ ، وَكَائِنُ الرَّجَاءِ وَالرَّجَالِ ؛ فَأَحْسِنْ لَهَا
 التَّحْصِينَ ، وَفَوِّضْ أَمْرَهَا إِلَى كُلِّ قَوِيٍّ أَمِينٍ ؛ وَإِلَى كُلِّ [ذِي] دِينٍ مَتِينٍ ، وَعَقْلٍ
 رَصِينٍ ؛ وَتَوَابِ الْمَالِكِ وَتَوَابِ الْأَمْصَارِ ، فَأَحْسِنْ لَهُمُ الْإِخْتِيَارَ ؛ وَأَجِلْ لَهُمُ
 الْإِخْتِيَارَ ، وَتَفَقَّدْ لَهُمُ الْأَخْبَارَ .

وَأَمَّا مَاسِوَى ذَلِكَ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حُدُودِ هَذِهِ الْوَصَايَا النَّافِعَةِ ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا
بِالتَّذَكُّيرِ ، لَكَانَتْ سَجَايَا الْمَقْتَرِ الْأَشْرَفِ السُّلْطَانِي ، الْمَلَكِي ، الْمَنْصُورِي ، مَكْتَفِيَةً
بِأَنْوَارِ الْمَعِيَةِ السَّاطِعَةِ ؛ وَزِمَامُ كُلِّ صَلَاحٍ يَجِبُ أَنْ يَشْغَلَ بِهِ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ ،
هُوَ تَقْوَى اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ .

فَلْيَكُنْ ذَلِكَ نُصَبَ الْعَيْنِ ، وَشَغَلَ الْقَلْبَ وَالشَّفَتَيْنِ ؛ وَأَعْدَاءُ الدِّينِ مِنْ أَرْمَنِ
وَفَرَنْجٍ وَتَتَارٍ ، فَأَذِفْهُمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ فِي كُلِّ إِيرَادٍ لِلْغَزْوِ وَإِصْدَارٍ ؛ وَتُرْلَانٍ تَأْخُذُ
لِلْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ الشَّرَّ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ نَصِيرُكَ عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ .

وَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِنْ مُجَاوِرِيهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَحْسِنْ بِاسْتِنْقَاذِكَ مِنْهُمْ الْعِلَاجَ ، وَطَهِّرْهُمْ
بِاسْتِصْلَاحِكَ فَبِالطَّبِّ الْمَلَكِيِّ وَالْمَنْصُورِيِّ يَنْصَلِحُ الْمِزَاجُ ؛ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .



وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَشَى الْمَقْتَرُ الْأَشْرَفُ النَّاصِرِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الْبَارِزِيِّ الْحَمَوِيُّ صَاحِبُ
دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِيِّ وَسَائِرِ الْمُلُوكِ الْإِسْلَامِيَّةِ : جَمَلَ اللَّهُ تَعَالَى
الْوُجُودَ بِوُجُودِهِ ، وَأَنَافَ بِقَدْرِهِ عَلَى كَيْوَانٍ^(١) فِي آرْتِقَائِهِ وَصُوعُودِهِ ، وَجَعَلَهُ لِسُلْطَانِهِ
الْمُؤَيَّدِ رِذَاءً مَابِدًا سَعْدُ الْمُلْكِ صَاعِدًا إِلَّا كَانَ لَهُ سَعْدُ سَعُودِهِ .

فَكُتِبَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدُ السُّلْطَانِ الْمُلْكِ الْمُؤَيَّدِ أَبِي النَّصْرِ « شَيْخ » خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ ، عَنْ الْإِمَامِ الْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَلِيفَةِ الْعَصْرِ -

(١) أَسْمَ لِكَوْكَبٍ زَحَلٍ وَهُوَ مَنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلْبِيَّةِ وَالْعَجْمَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَسْمَ عَيْنُهُ يَاءُ
وَلَامُهُ وَآوُ . انْظُرِ الْلِسَانَ فِي مَادَّةِ خ وَن ج ١٦ .

أيد الله تعالى به الدين - في شعبان المكرم سنة خمس عشرة وثمانمائة، بعد خلع
الناصر قرق؛ فأتى فيه بما أنجل الرّوض المنعم والنجم الزاهر، وأوجب على
العارف بنقد الأمرين أن يقول: كم ترك الأول للآخر؛ عدد فيه وقائعه المشهورة،
وذكر مناقبه التي صارت على صفحات الأيام مرقومة وعلى مرّ الليالي مذكورة،
وفي بطون التواريخ على توالى الجديدين وتعاقب الدهور مسطورة؛ (فكتب على ذلك
عهد السلطان الملك المؤيد أبي النصر شيخ خلد الله سلطانه)^(١)، ونصه:

الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيداً، وأنتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح
ومن مرهفات عزمه بادية بأئدة العدا، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له
عوارف العدل ومعارف الفضل فاستغنى - ولله الحمد - بسعيد السعدا، وأصلح
فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه فأصبحت مأمونة الرءاء آمنة من الردى؛
وآمن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سهم تدبيره الشريف فيهم مسدداً، ومياه
الظفر جارية من قناة غوره الذي بذلك تعودا، وبجر إحسانه الكامل وإن قدم
العهد المديد مجدداً.

والحمد لله الذي جعل وجوه هذه الأيام بالأمن مسفرة، وليالى جودها بالعدل
مقمره؛ وعدبات أوليائها بالأفراح مزهره، وحدائق أخصائها بالنجاح مثمره؛
ومنازل أعدائها مقفرة موحشه، ونوازلهم مدعرة مدهشه؛ وأجسادهم بأمراض
قلوبهم مشوشه، وأجسادهم بلوايح زفرائهم معطشه.

والحمد لله الذي جعل هذه الأيام الفاضلة الجلال جليلة الفضل، شاملة النظام
ناظمة الشمل، هامية بالمكرّمات هائمة بالعدل؛ دانية القُطوف، معروفة بالمعروف،
مغيثة الملهوف، مرهبة للألوف، متصرفة في الآفاق صارفة الصروف؛ حمداً يبرج

(١) تقدمت هذه الجملة بنصها قبل ستة أسطر فلعلها تكررت من قلم النسخ أو سهو من المؤلف فتنبه.

النُّفُوسَ ، وَيُزِيلُ الْبُوسَ ، وَيُدِيمُ السُّرُورَ ، وَيُذْهِبُ الْمَحْذُورَ ، وَ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

نَحْمَدُهُ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي تَفِيَّتِ الْأُمَمُ بِظِلَالِهَا ، وَبَلَّغَتْ بِهَا النُّفُوسَ غَايَةَ آمَالِهَا ، وَرَوَيْتْ بَعْدَ ظَلَمِ الْخَوْفِ مِنْ حِيَاضِ أَمْنٍ زُلَالِهَا ، وَأَسْتَسَرَّتْ بَعْدَ الْحَزَنِ بِأَفْرَاحِ قَبُولِهَا وَإِقْبَالِهَا ، وَارْتَفَعَتْ بَعْدَ انْخِفَاضِهَا رُءُوسُ أَبْطَالِهَا وَأَقْيَالِهَا .

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَدِيمُ النِّعْمَاءَ ، وَتُجْزِلُ الْعَطَاءَ ، وَتَكْشِفُ الْغَمَّاءَ ، وَتَقْهَرُ الْأَعْدَاءَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي قَرَنَ طَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ بِطَاعَتِهِ ، وَأَيَّدَ مِنْ أَهْتَدَى مِنْهُمْ بِهِدَايَتِهِ ، وَأَعَانَهُ لِمَا أَسْتَغْنَى بِعَيْنَاتِهِ ، وَأَظْلَمَ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَنْخَازُوا إِلَى حَوْزَتِهِ وَأَحْتَمَوْا بِجَانِبَتِهِ ، وَأَثْمَرُ لَهْمِ غَرْسِ دِينِهِ فَرَعُوهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ ، وَشَرَفُوا وَكْرَمُوا .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَغَضَبِهِ سَابِقَةً ، وَرَأْفَتُهُ بِعِبَادِهِ مِتْلَاحِقَةً ، وَكَانَتْ الْمَمَالِكُ الشَّرِيفَةُ قَدْ أَخْتَلَّتْ أُمُورُهَا ، وَصَارَ إِلَى الدُّثُورِ مَعْمُورُهَا ، وَأَشْرَفَ عَلَى الْبَوَارِ أَمِيرُهَا وَمَأْمُورُهَا ، فَالْشَّرَائِعُ مَتَغَيِّرَةٌ شَرَائِعُهَا ، وَالْعَوَائِدُ مَفْقُودَةٌ مَا تَرَاهَا ، وَالْمِظَالِمُ قَوِيٌّ سُلْطَانُهَا ، كَثِيرٌ أَعْوَانُهَا ، ضَعِيفٌ مُضَادُّهَا ، قَلِيلٌ مُعَانِدُهَا ، فَلَا نَائِبَ سِيَاسَةٍ إِلَّا مَشْغُولٌ بِالنَّوَائِبِ ، وَلَا حَاكِمٌ شَرَعَ إِلَّا وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ ، وَلَا تَاجِرٌ إِلَّا وَقَدْ خَسِرَتْ تِجَارَتُهُ فَمَا رِيحَتْ ، وَلَا ذُو قِرَاضٍ إِلَّا وَرُءُوسُ أُمُوالِهِ قَدْ أَنْقَرَضَتْ ، وَلَا صَاحِبُ تَرَاثٍ إِلَّا وَقَدْ مَحِيَتْ آيَةُ مِيرَاثِهِ وَنُسِخَتْ ، وَلَا رُكْنٌ مَمْلُوكَةٍ إِلَّا وَقَدْ أَنْهَدَمَ أَسَاسُهُ ، وَلَا عَضُدٌ دَوْلَةٍ إِلَّا وَقَدْ بَطَلَ إِحْسَاسُهُ . أَقَامَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِإِزَالَةِ هَذِهِ النَّوَازِلِ الْفَادِحَةِ ، وَإِخْلَاقِ نَارِ هَذِهِ الْقَبَائِحِ الْفَادِحَةِ ،

مَنْ تَوَفَّرَ الدَّوَاعِي عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ السُّلْطَنَةَ الشَّرِيفَةَ ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى انْتِحْصَارِ ذَلِكَ فِي أَوْصَافِهِ الْمُنِيفَةِ ؛ وَدَلَّتْ أَمَّاؤُ السُّعُودِ عَلَى مَحَلَّةِ الْجَلِيلِ ، وَجَنَابِهِ الَّذِي إِذَا لَازَبَهُ مِنْ خَافِ الدَّهْرِ رَجَعَ وَطَرَفُ الدَّهْرِ عَنْهُ كَلِيلٌ ؛ طَالَمَا أَضْفَى مُوَارِدَ الْعَدْلِ ، وَأَضْفَى أَذْيَالَ الْفَضْلِ ؛ وَأَمَّنَ الْخَائِفَ ، وَرَوَّعَ الْخَائِفَ ؛ وَأَمْضَى فِي الْجِهَادِ عَزَمَهُ ، وَأَنْفَذَ فِي السَّرَايَا إِلَيْهِ حُكْمَهُ ، وَسَدَّدَ إِلَى مَعَاوِنِهِ فِي غَرَضِ الْكُفَّارِ سَهْمَهُ ؛ وَفَتَحَ الطَّرِيقَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بَعْدَ الْإِنْسِدَادِ ، وَأَنْعَمَ عَلَى الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ بِالرَّاحِلَةِ وَالزَّادِ ؛ وَعَمَّرَ الْمَسَاجِدَ ، وَجَعَلَهَا أَهْلَةً بِالرَّاكِعِ وَالسَّاجِدِ ؛ وَجَلَّا عُرُوسَ الْأُمُومَى فِي حُلِّ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَأَعَادَ عُدَّةَ مَنَبْرِهِ الدَّائِلِ وَهُوَ نَضِيرٌ . هَذَا مَعَ شَجَاعَةٍ شَاهَدَهَا وَشَهِدَ بِهَا أَبْطَالُ الْإِسْلَامِ ، وَسَطُوعَةٌ تَحْشَاهَا الْأُسُودُ فِي الْآجَامِ ، وَوَقَارٍ يُخَضِّعُ بِالْهِيبَةِ رُعُوسَ الْأَعْلَامِ ؛ وَبَشِيرٍ يَطْلُعُ بَغْرُهُ مِنْ طَالِعِ جَبْهَتِهِ ، وَنُورٍ سَاطِعٌ مِنْ جِهَةِ جَبْهَتِهِ ؛ وَحَيَاءٍ مَتَطَلَّعٍ مِنْ طَلْعَتِهِ ، وَحِبَاءٍ مَتَدَفِّقٍ مِنْ أَمْتَلَتِهِ ؛ وَكُنْتُ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ الْمُؤَيَّدُ - لَا زَالَ شَمْلُ الدِّينِ بِكَ مُجْمُوعًا ، وَعِلْمُ الْإِسْلَامِ مَرْفُوعًا ، وَقَلْبُ أَهْلِ الشَّرْكِ وَالنِّفَاقِ مَرْوَعًا - أَنْتَ الْمُتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ، وَالْكَاشِفُ لِنُكْثِ الشَّدَائِدِ الشَّدِيدَةِ ؛ فَلَمْ يَرَعْكَ خَطَرُ الْخَطَارَةِ ، وَلَا انْخِلَالُ أَهْلِ صَرْخَدَ حَيْثُ أَشْهَرْتَ عِزَّتَهُ صَوَارِمَكَ الْبِتَّارَةَ ؛ وَلَا خَطَرْتُكَ مِنَ الْقَيْسَارِيَّةِ إِلَى الرِّيدَانِيَّةِ فِي أَسْرَعِ مَنْ غَفَوُ ، وَالشَّيْخُ لَا تُتَكَّرُ لَهُ الْخَطُوءُ ؛ وَلَا مَشَاهِدَةُ الْحِمَامِ فِي الْحِمَامِ ، وَلَا زَاغَ بَصْرِكَ بِاللُّجُونِ حِينَ أَظْلَمَ الْقَتَامُ ؛ حَتَّى زَالَ الْمَانِعُ ، وَهَجَعَ الْهَاجِعُ ؛ وَأُمِنْتَ الْخُطُوبَ ، وَفُرِّجْتَ الْكُرُوبَ ؛ وَحَلَّ دَسْتُ السُّلْطَنَةِ مِمَّنْ نَكَّتْ الْإِيْمَانُ ، وَأَصَرَ عَلَى الْإِيْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَأَقْرَرْتَ أَسْمَ الْخِلَافَةِ عَلَى الْإِنْفِرَادِ ، لَيْسْتَ خَيْرَ اللَّهِ فِي الْأَصْلَحِ لِلْعِبَادِ وَالْبِلَادِ .

هَذَا وَرَأَى أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ وَأَمْرَائِهِ ، وَقُضَاتِهِ وَعِلْمَائِهِ ، وَمَشَائِخِهِ وَصُلَحَائِهِ ؛ وَخَاصَّتُهُ وَعَامَّتُهُ ، وَرَأَى مُوَلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ

الدين ، وجمع بين بركته شمل الإسلام والمسلمين ؛ مُجِّعٌ عَلَى تَفْوِيضِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ
 وولاية عهدهم وكفالة السلطنة الشريفة والإمامة العظمى إليك - خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَكَ ،
 وجعل الدهر خديك والملائكة أعوانك ؛ فَقَدَّمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِسْتِخَارَةِ أَمَامَ
 هذا التقليد ما يُعْتَبَرُ فِي السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ وَيُقَدَّمُ ، وعلم أَنَّ المصلحة فيما خارَهُ اللهُ لَهُ
 وللأمة من وِلايتِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُبْجَلُ وَالسُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ؛ وَأَنْكَ أَبْرَأَ لِلدَّيْمِ ، وَأَبْرَ
 بِالْأَمَّةِ ؛ وشاهد بإجماع الأمة على ساطتِكَ من التَّائِفِ وَالْإِتِّفَاقِ ، مانعُ الْخِلَافِ
 وَالشَّقَاقِ ؛ وما سَرَّ الْجُمْهُورَ الطَّائِعِينَ مِنْ غَيْرِ دِفَاعٍ ، وَالْحَمَّ الْغَفِيرَ لِبَدِيعِ آرائِكَ وَرَفِيعِ
 رايَاتِكَ مُذْعِنِينَ لِحَسَنِ الْإِتِّبَاعِ ؛ وَأَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ لِأَمْرِكَ وَنَبِيكَ قَدْ خَضَعَتْ
 مِنْهُمْ الرِّقَابُ ، وَسَارَعُوا إِلَى إِبَاجَةِ دَعْوَتِكَ حِينَ أَنْضَحَتْ لَهُمْ أَدْلَةُ الصَّوَابِ .
 وَالزَّمَانَ بِإِفْضَاءِ الْأَمْرِ إِلَيْكَ قَدْ طَابَ وَأَعْتَدَلَ ، وَالْأَرْضَ فِي مِشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا
 بِمَهَاتِكَ قَدْ أَمِنَتْ مِنَ الْوَجَلِ ، وَالنَّفُوسَ الْآيِيَّةَ قَدْ أَدْعَنْتْ لِمَبَايَعَتِكَ مِنْ غَيْرِ مَهَلٍ ؛
 وَالْفِتْنَةَ وَقَدْ رَدَّ اللهُ بِالْغَيْظِ مُيَّيَّرَهَا ، وَالْأُلُفَةَ وَقَدْ بَرَقَتْ مِنْ سِرَائِرِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ
 أَسَارِيرُهَا ؛ وَالْعَسَاكِرَ الْمَنْصُورَةَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ كَمَا أَحَاطَتْ بِالْبُدُورِ الْهَالَةِ ، وَقَدْ أُنْزِلَ
 اللهُ عَلَيْكَ نَامُوسَ الْمَهَابَةِ وَالْحِلَالَةِ ؛ وَفَوَّضَ إِلَيْكَ مَا وَلَّاهُ اللهُ مِنْ أُمُورِ الْإِسْلَامِ
 وَالْمُسْلِمِينَ ، وَأَسَنَدَ إِلَيْكَ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : لَتُقِيمَ عَلَى أُسَاسِ
 أَحْكَامِكَ دَعَائِمُ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، وَتُسَيَّرَ الْخِلَاقُ عَلَى مِنْهَاجِ طَرِيقِكَ الْمُسْتَقِيمِ ؛
 وَتَحْسُنَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - بِرِعَايَتِكَ عَاقِبَةُ الرِّعْيَةِ ، كَمَا أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ بِكَ رَاضِيَةً
 مَرْضِيَّةً .

وَعَهْدَ إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَا وَرَاءَ سِرِّرِ خِلَافَتِهِ ، وَفِي كُلِّ مَا يَرْتَبِطُ بِأَحْكَامِ
 إِمَامَتِهِ ؛ وَقَدْ لَكَ ذَلِكَ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَبُعْدًا وَقُرْبًا ، وَبَرًّا وَبَحْرًا ، وَسَهْلًا وَوَعْرًا ؛
 وَفِي كُلِّ مَالِهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِكِ ، وَمَا يَفْتَحُهُ [اللهُ] عَلَى يَدِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ تَفْوِيضًا

شاملاً، وتقليداً كاملاً؛ وعهداً تاماً، وإسناداً عاتماً؛ ولَايَةً مَكَّةَ الْبَنِيَانِ، مؤسَّسةً
على تَقْوَى من الله وِرْضوان؛ وسلطنةً آخذةً بالذَّم، مشتملةً على جميع الأمم؛ يدخل
في هذا العهد العامّ والتفويض التام، والرأى الذى شهد له إجماع الأئمة بالإحكام؛
[يدخل في ذلك] ^(١) مَفْضُولُ النَّاسِ وَفَاضِلُهُمْ، وعالمُهُمْ وَجاهِلُهُمْ؛ وخاصُّهُمْ وعامُّهُمْ،
وناقِصُهُمْ وتامُّهُمْ؛ وشريفُهُمْ ومشروفُهُمْ، وقويُّهُمْ وضعيفُهُمْ؛ وأمْرُهُمْ ومأمورُهُمْ،
وقاهرُهُمْ ومقهورُهُمْ؛ والجمعُ والجماعات، وبيوتُ العبادَةِ والطاعات؛ والقضاةُ
وأحكامُها، والخطباءُ ومنابرُها وأعلامُها؛ والجيوشُ والعساكرُ والكُتَّابُ، وربُّ سيفٍ
وكتابٍ لإنشاء وقلمٍ حاسب؛ وطوائفُ الرعايا على اختلاف أطوارهم، وتفاوتِ أرزاقهم
وأقدارهم؛ والعربانُ والعشائرُ، وبيوتُ الأموال والذخائر؛ ودانِي الأُمم وقاصِيها،
وطائعُها وعاصِيها؛ والخراجُ وجبايئُها، والمصروفُ وجهائُها؛ والصدقاتُ ومستحقُّوها،
والرزقُ ومرترِقُوها؛ والإقطاعاتُ والأجنادُ، وما يُستَعَدُّ [به] لمواطنِ الجهاد؛
والمنعُ والعطاءُ، والقبضُ والإمضاء؛ والخمسُ والزكوات، والهدنُ والمعاهدات،
والبيعُ والقَائمات؛ وما يَظهر من أمور الملك وما يخفى، وما تستدعيه براعتك فى السرِّ
والخفَا؛ وشِعَارُ السلطنة وأُهبَّتُها، ونواميسُ المُلِك وحُرْمَتُها .

فأجبت - رعاك الله - دعوة أمير المؤمنين ودعوتهم لقبول ذلك مَسْئَلاً، معتمداً
على أن الله سَيَزِيلُ إِلَيْكَ مِنْ يُسَدِّدُكَ مِنَ الْمَلَائِكِ فِعْلاً وَقَوْلًا؛ فأجلس - أيدك الله -
على تَحْتِ مُلْكٍ قَدْ هَيَّاهُ اللهُ لِمَوَافِقِكَ الْمَطْهَرَةِ، وسريرِ سلطنةٍ علَّقتْ سررَ سَعْدِكَ
الْأَمْجَدِ فَقَاعَسَتْ إِلَيْهِمْ عَنْهُ مَقْصَرُهُ .

فالحمد لله ثم الحمد لله عن الدهر وأبنائه، ولا مثل هذه النعمة بهذا الخبر وأبنائه؛
(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) وهذا ما كان من قِصَّةِ الدين على رَغَمِ

(١) ما بين القوسين فى الأصل وهو من زيادة النسخ كما لا يخفى .

الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ ؛ وهذا ما كانت الآمالُ تنتظرُ وروده، وجواري القِدمِ ترتقبُ
سُعوده :

والله ما زادوك مُلكاً إلماً * زادوا أُكُفَّ الطالِبِينَ نوالاً!

وأما الوصايا، فانت بحمد الله طالماً ملأت بها الأسماع، وكشفت عاطفتك لمن
أردت ترتيبه عنها القناع ؛ ولكن عهد من تعبداتك السماع لشدوها، والطرب
لحدوها؛ فعليك بتقوى الله، فيها تورق أغصان الأرب الدوابل، ويُغرّد طائرُ عزك
الميمون بالأنحار والأصائل؛ فاجعلها ربيع صدرك، وأينع بها حدائق فكرك؛
وروح بعرفها الأريج أرجاء مُلكك، وأجرِ الشرع الشريف على ما عودته من نصرك،
والعلماء على ما ألقوه من برك وخيرك؛ فهم ورثة الأنبياء عليهم السلام، والدالون على
الشريعة بأسنة أعلامهم ما يكل عنه حد الحسام ؛ وطهر منصب الشرع الشريف
من الرذائل، وضمن أيام مُلكك الشريف عن الجهال والآكلين أموال الناس
بالباطل؛ والعدل - ونستغفر الله - فإنك مُتمر لغراسه، رافع ما أنهدم من أساسه؛
قد جعلته مجلس محاكماتك، وأنيس خلواتك؛ والفضل - وبرك أنجمل الأعلام
فلومر بك راجيك على الصفا لأرتاح للعروف، أو شاهد هباتك حاتم لرجع طرفه
عنها وهو مطروف؛ ولا سرف في الخير، ولا ضرر ولا ضير؛ وأمر بالمعروف وأنه
عن المنكر فانت المسئول بين يدي الله عن ذلك، وأنه نفسك عن الهوى بحيث
لا يراك الله هنالك؛ وحدود الله فلا تتعداها، والرايا فخطها بعين رعايتك وأرعاها؛
وجند الجنود برأ وبجرا، وأنل أعداءك قهراً وقسراً؛ وراجع النظر في أمر تواب
السلطنة الشريفة مراجعة الناقد البصير، وتيقظ لصيانة قلاع الممالك ومعاقلها
وحصونها، وتخبر لها من ليس بمشكوك المناصحة ولا مظنونها؛ وحطها مع عمارتها

بالعدة والعدد، والأقوات لكي تطمئن النفوس بمددها منها إذا طالت المدد؛ وتفقد أحوال من فيها من المستخدمه، وأرع حقوق من له بها خدمة متقدمه؛ وأجعل الشغور باسمه بحفظتها، ولا حظ الأمور بحسن تدبيرك المألوف في سياستها. وأستوص خيراً بأمرائك الخالصين من الشكوك، السالكين في طاعتك أحسن السلوك؛ وضاعف لهم الحرمه، وأرع لهم الذمه؛ لاسيما أولى الفكر الثاقب، والرأي الصائب؛ فشاوهم في مهمات الأمور، وأشرح بإحسانك منهم الصدور؛ وأرع حقوق المهاجرين والأنصار، الذين سلكت معك مطاياهم البطاح والقفار، وهجروا محبوبهم من الوطن والدار؛ وجادلوا وجادلوا، وآووا في سبيلك وقاتلوا؛ وأبل كلاً منهم ما يرجوه، وأشرح صدورهم بإدراك ما أمّلوه؛ وجيوش الإسلام فاغرس محبتك في قلوبهم بإحسانك، وكما سبقهم حساً فتحبب إليهم بجزيل أمتنانك؛ وجيوش البحر فكُن لها محيطاً، وبجليات مشيهاً محيطاً؛ فإنها توجه للأصقاع، سليمانية الإسراع؛ تقذف بالرعب في قلوب أعداء الدين، وتقلع بقلوعها آثار الملحدين؛ فواصل تجهيز السرايا لركوب ثبجه، والغوص إلى أعداء الله في عميق ثبجه. وأجمل النظر في بيت الله الحرام، وحرم رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام؛ لتسلك عين الأمن الأباطح، وتقر عيون حمره بالمائع والمائع؛ وتتعرف بعرفانك عرفات، وترى مخاوف الخيف من أيدي مهاتيك بالجمرات؛ وصل جيرانهما بصلاتك؛ لتسهر أعينهم بالدعاء لك وأنت في غفواتك. والقدس الشريف الذي هو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال فردّ تقديسه، وأجعل ربوع عباداته بالصلوات مانوسه. وإقامة موسم الحج كل سنة فانت بعد حركة تيمور فاتح سبيله، وكاسي تحمله حلل توقيره وتبجيله.

هذه الوصايا تذكّرة للخاطر الشريف وحاشاك من النسيان ، وهذا عهد أمير المؤمنين ومبايعة أولى الحل والعقد قد تفاضيا إلى حَقِّكَ على الزمان ، وعندك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ماضل من تمسك بهما ولا مان ، فاتّبع أحكام الله يوسع الله لك في مُلكك ، وأجعل هديك بهما إمام نبيك وأمرك ؛ وأد ماقلدك الله من حقوق الإمامة والأمانة إلى خلقه أداء موفورا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

قلت : ولما كان هذا العهد قد آدرج جُلُباب العجائب فأعجب ، وأرتدى برداء الغرائب فأغرب ؛ وسقى غرسه ماء البلاغة فأعجب ، وشفّ الأسماع إذ أسمع فأرقص على السماع وأطرب ؛ وأمتطى صهوة جياذ البيان فتنقل فيها من كميت إلى أشقر ومن أحوى إلى أنشهب - أحببت أن آتي له بطرة هي له في الحقيقة ذيل ، ونقبة من بحر وقطرة من سيل ؛ لأجرم جعلتها في الوضع في الكتاب له للاحقه ، وإن جرت العادة أن تكون الطرة للعهد سابقه ؛ وهو :

هذا عهد شريف ترقه أعلام أشعة الشمس بذهب الأصيل على صفحات الأيام ، وتعيجمه كف الثريا بنفط النجوم الزواهر وإن كان لعهده للعهود بالإعجام ، وتعترف ملوك الأرض أن صاحبه شيخ الملوك والساطين فتقدمه في الرأي ونجته في الرتبة وتعامله بالإجلال والإعظام ؛ من عبد الله ووليّه ، وخليفته في أرضه وصفيه ، وسليل خلفائه الراشدين وآبن عم نبيه ؛ الإمام الفلاني (إلى السلطان الأعظم الملك الفلاني إلى آخر الألقاب) .



وهذه نسخة عهد على هذا المذهب ، كُتِبَ به عن أمير المؤمنين المستعين بالله
أبي الفضل العباس خليفة العصر، للملك العادل شمس الدنيا والدين «مظفر شاه»
بالسلطنة بالملكة الهندية ، في شوال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بدمشق المحروسة ؛ من
إنشاء الشيخ الإمام علامة العصر، جامع أشتات الأدب ومالك زمامه ، تقي الدين
محمد بن حجة ، الشاعر الحموي ، ومفتي دار العدل بحجة المحروسة ، مما كُتِبَ بخط
المولى تاج الدين عبد الرحمن بن التاج ، أحد كُتَّاب الإنشاء الشريف بالأبواب
الشريفة ، في قطع البغدادى الكامل بخفيف الطومار ، وكانت الطرة المكتتبة
في الوصل الأول خمسة أسطر بالقلم المذكور ، وسطرين بخفيف الحقق ، والطرة
البيضاء خمسة أوصال ، والياض بين كل سطرين ثلث ذراع ، وبيت العلامة
الشريفة ضعف ذلك ، والهامش ربع الورق على العادة . وصورة الطرة :

عهد شريف عهد به عبد الله ووليه سيدنا ومولانا الإمام الأعظم العباس أبو الفضل
المستعين بالله أمير المؤمنين ، وأبن عم سيد المرسلين ، أعز الله به الدين ، وأمتع ببقائه
الإسلام والمسلمين ؛ إلى المقام الأشرف ، العالى ، السلطاني ، العادلى ، الشمسى ،
أبى المجاهد «مظفر شاه» أعز الله تعالى أنصاره . وقلده السلطنة المعظمة بحضرة
«دهلى» وأعمالها ومضافاتها على عادة من تقدمه فى ذلك ؛ ولاية عامة شاملة كاملة
جامعه ، وازعة قاطعة ساطعه ؛ شريفة منيفة : فى سائر الممالك الهندية وأقاليمها ،
وتغورها وبلادها ، وعساكرها وأكابرها وأصاغرها ، ورعاياها ورعاتها ، وحكامها
وقضااتها ، وما آخوت عليه شرقا وغربا ، بعدا وقربا على ما شرح فيه .

الصدر بعد البسملة الشريفة :

الحمد لله الذى وثَّقَ عهدَ النَّجاحِ للمستعين به ، وثَبَّتْ أوتادَه : لِيُفُوزَ من تَمَسَّكَ من غيرِ فاصلةٍ بَسْبِبه ؛ وَزَيَّنَ السماءَ الدنيا بمصابيحٍ وَحِفْظًا ، وَأَفْرَغَ على أَعْطَافِ الأرضِ حُلَّ الخِلافةِ الشريفة ، وعلم أَنَّ خَلَفَها الشريفَ زَهْرَةَ الحِياةِ الدنيا فقال عز من قائل : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . وَأَخْتَارَها من بَيْتِ بَراعةٍ أَسْتَهْلَلهُ فى أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ للناسِ ، وَسَبَقَتْ إِرَادَتُهُ - وله الحمد - أَنْ تَكُونَ هَذِهِ النُّهْلَةُ من سِقَايةِ العَبَّاسِ .

فالحمد لله على أَنْ جَعَلَ هَذِهِ السَّقَايَةَ عَيْنًا يَشْرَبُ بها الْمُقَرَّبُونَ ، ومن عِلْمِ شَرَفِها تَمَيَّزَ وَتَمَسَّكَ بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والحمد لله الذى أَسْتَخْلَفَ آلَهَ فى الأرضِ وَفَضَّلَهُمْ ، فَإِنْ تَحَدَّثَ أَحَدٌ فى شَرَفِ بَيْتِ فَاللهُ سُبْحَانَهُ قد جَعَلَ البَيْتَ والحديثَ لَهُمْ ؛ فَأَكْرَمَ بِهِ بَيْتًا من أَقَرَّ بِعُبُودِيَّتِهِ كانَ لَهُ بِمَجْدِ اللهِ مِنَ النَّارِ عِشْقًا ، وَتَمَتَّعَ بِبَرَكَتِهِ التى لا تَجَنَّبُهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، وَهُوَ البَيْتُ الذى بَعَثَ اللهُ مِنْهُ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وداعيًا إلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، وَصَفَّى أَهْلَهُ مِنَ الْأَدْناسِ وَأَنْزَلَ فى حَقِّهِمْ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . وَصَيَّرَ عِلْمَهُمُ الخُلَيفَةَ على وَجْهِ الدَّهْرِ شَامَةً ، وَخَصَّصَهُمُ بالتقديمِ فَالحمد لله واللهُ أَكْبَرُ لَهُذِهِ الإِمَامَةِ ؛ وَإِذَا كانَ النِّسَبُ مَقْدَمًا فى المَدْحِ وَهُوَ فى النِّظْمِ واسِطَةٌ العُقُودِ ، فَهَذَا هُوَ النِّسَبُ الذى كَانَّ عَلَيْهِ من شَمْسِ الضُّحَى نُورًا ومن فَلَقِ الصَّبَاحِ عُمُودٌ ؛ وَهَذَا هُوَ الرُّكْنُ الذى مِنْ أَسْتَمَدَ إِلَيْهِ قِيلَ لَهُ : فُزْتَ بَعْلُو سَدَاكَ ، فَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ لَعَمْرُ العَبَّاسِ : ” يَا عَمَّ أَلَا أُبَشِّرُكَ ؟ ” قالَ : بلى يا رَسُولَ اللهِ - قالَ : إِنَّ اللهَ فَتَحَ الْأُمْرَ بى

وَيَحْتَمِيهِ بَوْلَدِكَ“ . وهذا الحديث يُرشد إلى التمسك بِطِيبِ الْعُهُودِ الْعَبَاسِيَّةِ لِتُفِيضَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا نَيْلَ الْوَفَاءِ، وَتُعِينَ مِنْ أَسْتِعَانِ بِالْمُسْتَعِينِ وَعِلْمِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِحَدِّثِهِ : ” أَنْتَ أَبُو الْخُلَفَاءِ “ . وَنَاهِيكَ أَنْهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُمِّ فَضْلٍ وَهِيَ شَاكَّةٌ فِي الْحَمْلِ : ” أَذْهَبِي بِأَبِي الْخُلَفَاءِ “ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ الْمُتَنَزِّهُ بِهِ هَذَا الشَّمْلُ فَأَحْبَبَ بِهَا شَجَرَةً زَكَرَ غَرْسُهَا وَنَمَا، وَتَسَامَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَكَيْفَ لَا ؟ وَأَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ؛ فَسَلَامٌ عَلَى هَذَا الْخَلْفِ الَّذِي مِنْهُ الْمُسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَيْهِ وَالْوَاتِقُ بِهِ وَالْمُعْتَصِمُ وَالرَّشِيدُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ عِلْمُ أَنَّ آلَ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ كَسْفِينَةِ نُوحٍ وَتَعَلَّقَ بِهِمْ فَتَجَا، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ مَالَ إِلَى الدُّخُولِ تَحْتَ الْعِلْمِ الْعَبَّاسِيِّ وَتَتَّصِلُ مِنَ الْخَوَارِجِ فَوَجَدَ لَهُ مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَزَّجُوا أَنْ تَكُونَ مَقْبُولَةً عِنْدَ الْحَاكِمِ وَقَتِ الْأَدَاءِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي حَرَّضَنَا عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْعُهُودِ وَأَرْشَدَنَا إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وَقَّوْا بِالْعُهُودِ، وَكَانُوا فِي نِظَامِ هَذَا الدِّينِ وَجَعَهُ فَرَائِدَ الْعُقُودِ؛ صَلَاةً يَسْقِي عَهَادَ الرَّحْمَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - عَهْدَهَا، وَيَنْتَظِمُ فِي سِلْكِ الْقَبُولِ عَقْدَهَا؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَلْهَمَنَا الرَّشْدَ وَجَعَلَ مِنَّا الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ، وَهَدَانَا بَنِيَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَصَّنَا مِنْ بَيْتِهِ الشَّرِيفِ بِالْأُتَمَّةِ الْمُهْدِيِّينَ؛ وَأَصْطَفَى مِنْ هَذَا الْخَلْفِ خُلَائِفَ الْأَرْضِ، وَسَنَّ مَوَاضِيَ الْعُقُولِ الَّتِي قَطَعَتْ أَنْ طَاعَتَنَا قَرَضَ؛ فَإِنَّ لِعَهْدِنَا الْعَبَّاسِيِّ شَرَفًا لَا يُرْفَلُ فِي حُلَلِهِ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ عَهْدًا وَأَتَاهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَعْوَدُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . وَلَا يَتَمَسَّكُ بِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا مَنْ صَحَّ إِلَى الْقِيَامِ

بواجب الطاعة وترك أهل الجهل في سكرتهم يعمهون، وانتظم في سلك من أنزل الله في حقهم : ﴿ وَالْمُؤُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

فمن نهض إلى المشي في مناجاه مشى بعين البصيرة في الطريق القويم، وتلا له لسان الحال : ﴿ أَفَنَنْ يَمْشِي مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وهو قبضة من آثار البيعة النبوية ، وشعار يتشرف به من مشى تحت ألوته العباسية ؛ وما أرسل هذا العهد النبوي إلى أحد من ملوك الأرض إلا عمه الشرف من جميع جهاته ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وشادت أعواد منبره طربا ، وأزهرت رونقا وأثمرت أدبا ؛ وأستطالت بيد الخلافة لإقامة الحد ، وكيف لا ويد الخلافة لا تطاويلها يد ؛ وكان المقام الأشرف (إلى آخر الألقاب المذكورة في التعريف وأسمه المكتتب في الطرة) هو الذي رغب في التمسك بهذا العهد الشريف ليزيل عن ملكه الإلباس ، وأستند إليه ليروي بسنده العالى عن ابن عباس ؛ فإنه الملك الذى ظفره الله بأعداء هذا الدين وسماه مظفرا ، ولقبه بالشمسى وأختار له أن يقارن من الطلعة المستعينة قمرأ ؛ أبلغ زهر العدل من حضرة ”دهلى“ فعطر الآفاق ، وضاع نشره بالهند فعاد الشم إلى المزكوم بالعراق ؛ وصارت دمن ”صومنات“^(١) عامرة بقيام الدين ، وأيده الله فيها بعد القتال بالفتح المبين ؛ ولم يترك للعدو في بيت بيت ليله ، وأبطل مادهره أهل دهلى بحسن اليقظة وقوة الصولة ؛ وأباد الكفرة من أهل ديو ولم يقبل لهم ديه ، وفأوا إلى غير أمر الله فأبادهم بسيفه الهندى فلم تقم لهم فيه ؛ وفطر أجداد من ناواه بها فلازموا عن رؤيتها الصوم ، ونادى منادى عدله

(١) تقدم في (ج ٥) من هذا المطبوع أنها ”صومنات“ بالصاد المهملة ويقال أيضا بالسين المهملة بدل الصاد .

بالبلاد الهندية : لا ظُلمَ اليومَ ؛ ودانت له تلك الممالك برًّا وبحرا ، وسهلا ووعرا ؛
ما نظم الأعداءُ على البحرِ المديدِ بيتا إلا أبان زحافه وأدار عليه دوائره ، فكم نظم
شمل الرعايا بالعدلِ ونثر رُعوس الطُغاة بالسيف فلا عَدِمَ الإسلامُ ناظمه ونائره ؛
سُئِلَتِ الرُّجبانُ في البرِّ عن مناقبه الجميلة وعمَّ يتساءلون وقد صار لها عَظيمُ النبا ،
وصرح راكبُ البحرِ بعد التسمية باسمه ﴿ وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَجْجَابًا ﴾ فظله في البرِّ
ظليل ، وعدله في البحرِ بسيط وطويل .

(١)

هذا ولم يبقَ في تلك الممالكِ الهندية بقعة إلا ولم يصغر الله بسنابك الخيل فيها
مُشاه ، ولا نفسٌ خارجة عن الطاعة إلا وماتت في رُقعة الأرض بمظفر شاه ؛ فذلك
رُسم بالأمر الشريف العالی ، المولوی ، السیدی ، الإمامی ، الأعظمی ، النبوی ،
المستعینی ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس (ونسبه
إلى الحاكم بأمر الله ، والدعاء) بعد أن استخار الله تعالى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين
كثيرا ، واتخذ هاديا ونصيرا ، وصلى على ابن عمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم -
أن يفوض إلى المقام الأشرف المشار إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة ،
بحضرة دهلِي وأعمالها كما في الطرة كما هو المعهود : ليَهْطَلَ جُودُ الرحمة على تلك البقاع
المباركة إن شاء الله ويَجُود : لما رآه من صلاح الأئمة ومصالح الخلق ، استخلافا
تَحَلَّى بذكره الأفواه ، وتستند إليه الرواه ، وتترنم به الحُداه ، وتستبشر به كافة الأئمة ،
ويقطع به ويحفظه رب كل سيف وقلم ، ويعتمد عليه كل ذی علم وعلم ، فلا زعيمَ
جيش بها إلا وهذا التفويضُ يسعه ويشمله ، ولا إقليمَ من أقاليمها إلا ومن به
يُقبَله ويُقبَله ، ويمثَل به ويمثله ، ولا منبرَ يجوامعها إلا وخطيبه يتلو برهان هذا
التفويض ويرثله .

وأما الوصايا فعنده - إن شاء الله - تَهَبُ نَسَائِكَ قَبُولَهَا ، وتُعَرِّبُ عَنْ نَصْبِ مَفْعُولِهَا ؛ وهو بحمد الله تعالى لوصايا هذا العهد المبارك نِعَمَ الْقَابِلِ ، ففى الصَّحِيحِينَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ مِنْهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ “ والوصية بالرعايا واجبة والعدل فيهم قد حَرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : ” يَوْمَ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا أَحْوَجَ مَا تَكُونُ الْأَرْضُ إِلَيْهِ “ . وقال أَبُو عَمْرٍاءَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « الْمُلْكُ وَالِدَيْنِ أَخَوَانِ لَا غِنَى لِأَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ ، وَتَشْرَهُمَا فِي الرِّعْيَةِ ضَائِعٌ ، فَالِدَيْنِ أَسُّ وَالْمُلْكُ حَارِسٌ ، فَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَسٌّ فَهُدُومٌ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَارِسٌ فَضَائِعٌ » - فليأمر بالمعروف وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ غَالِبًا أَنَّهُ لَيْسَ يُسْأَلُ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ عَنْ ذَلِكَ سَوَانًا وَسَوَاءً ، وَيَنْهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَىِّ فَلَا يَحْسُنُ لِعُودِ قَدِّهِ أَنْ يَمِيلَ مَعَ هَوَاهُ - وَلِيَتْرِكَ التَّغُورَ بَعْدَ بَسْمِهِ ، وَقَوَاعِدَ الْمُلْكِ بِفَضْلِهِ قَائِمَةً - وَلِيَجَاهِدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَيَلْطَفَ بِالرَّعَايَا وَيَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ - وَلِيُشْرَحَ لَهُمُ بِالْإِحْسَانِ صَدْرًا ، وَيُجَرِّهَمُ إِذَا وَقَفَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ أَحْسَنَ جُجْرٍ ؛ وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى التَّأَكِيدِ : لِأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ فِكْرٌ ، وَلَكِنَّهُ تَجْدِيدُ ذِكْرِ عَلَى ذِكْرٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْتَعُ بِطَوْلِ بَقَائِهِ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ ، وَلَا بَرَحَتْ سَيُوفُهُ الْهِنْدِيَّةُ تَكَلِّمَ أَعْدَاءِ هَذَا الدِّينِ بِالسَّنَةِ حَدَادٍ ؛ وَثَبَّتْ مُلْكُهُ بِالْعَدْلِ وَشَيَّدَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ ، وَخَتَمَ بِالصَّالِحَاتِ أَعْمَالَهُ ؛ وَالْأَعْتَادُ عَلَى الْخَطِّ الْإِمَامِيِّ الْمُسْتَعِينِيَّ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : ولم يُعْهَدَ أَنَّهُ كُتِبَ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْقَائِمِينَ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ عَهْدُ الْمُلْكِ مِنْ غَيْرِ مَلُوكِ الْبُلْدَانِ الْمَصْرِيَّةِ سِوَى هَذَا الْعَهْدِ .

المذهب الرابع

(١) [أن يفتح العهد بقوله أما بعد] « فالحمد لله » أو « أما بعد
فإن أمير المؤمنين » أو « أما بعد فإن كذا » ونحو ذلك)

ويأتى بما يناسب من براعة الاستهلال وحال المتولى والمولى وما يجري مجرى ذلك مما يستحسن للكتاب ذكره مما يناسب الحال ، ويأتى من الوصايا بما يناسب المقام : إما بلفظ الغيبة أو بلفظ الخطاب كما فى غيره من المذاهب السابقة ، وهى طريقة اقترحها الوزير ضياء الدين بن الأثير فى " المثل السائر " أنشأ عليها عهدا فى معارضة المكتوب للسلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب » من ديوان الخلافة ببغداد الآتى ذكره فى المذهب الخامس ، وهذه نسخته :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قيادا ، ولكل أمر مهادا ، ويستريده من نعمه التى جعلت التقوى له زادا ، وحمته عبء الخلافة فلم يضعف عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهدا ، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرست عليه جادا ، وحققت فيه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ . ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره إمدادا ، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا ، وتجلّى له ربه فلم يزغ منه بصرا ولا أكذب فؤادا ، ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا ، وورث النور المبين تلامدا ، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشادا ، وخصوصا عمه العباس المدعوله بأن يحفظ نفسه وأولادا ، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تحشى نقادا .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

وَإِذَا اسْتَوْفَى الْقَلَمُ مِدَادَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَمْدِ لَهُ ، وَأَسْنَدَ الْقَوْلَ فِيهَا عَنْ فَصَاحَتِهِ الْمُرْسَلَةِ ؛ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ فِي إِنْشَاءِ هَذَا التَّقْلِيدِ الَّذِي جَعَلَهُ حَلِيقًا لِقِرْطَاسِهِ ، وَاسْتِدَامَ سُجُودَهُ عَلَى صَفْحَتِهِ حَتَّى لَمْ يَكُنْ يَرْفَعُ مِنْ رَأْسِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِإِفَاضَتِهِ فِي وَصْفِ الْمَنَاقِبِ الَّتِي كَثُرَتْ فَحُسِّنَ لَهَا مَقَامُ الْإِكْثَارِ ، وَاسْتَبَنَ التَّطْوِيلُ فِيهَا بِالِاخْتِصَارِ ؛ وَهِيَ الَّتِي لَا يَفْتَقِرُ وَاصِفُهَا إِلَى الْقَوْلِ الْمُعَادِ ، وَلَا يَسْتَوْعِرُ سُلُوكُ أَطْوَادِهَا وَمِنْ الْعَجَبِ وَجُودُ السَّهْلِ فِي سُلُوكِ الْأَطْوَادِ ؛ وَتِلْكَ مَنَاقِبُكُ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِرُ الْأَجَلُّ ، السَّيِّدُ الْكَبِيرُ ، الْعَالِمُ ، الْعَادِلُ ، الْمَجَاهِدُ ، الْمُرَابِطُ ؛ صَلَاحُ الدِّينِ أَبُو الْمُظَفَّرِ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ ؛ وَالِدِيوَانُ الْعَزِيزُ يَتْلُوهَا عَلَيْكَ تَحَدُّثًا بِشُكْرِكَ ، وَيَبَاهِي بِكَ أَوْلِيَائَهُ تَتَوِيهَا بِذِكْرِكَ ؛ وَيَقُولُ : أَنْتَ الَّذِي تُسْتَكْفَى فَتَكُونُ لِلدَّوْلَةِ سَهْمَهَا الصَّائِبَ ، وَشَهَايَا الشَّاقِبَ ؛ وَكَثَرَتِهَا الَّتِي تَذْهَبُ الْكَنُوزُ وَلَيْسَ بِذَاهِبٍ ، وَمَا ضَرَّهَا وَقَدْ حَضَرَتْ فِي نُصْرَتِهَا إِذَا كَانَ غَيْرُكَ هُوَ الْغَائِبَ ؛ فَأَشْكُرُ إِذَا مَسَاعِيكَ الَّتِي أَهْلَتَكَ لِمَا أَهْلَتَكَ ، وَفَضَّلْتَكَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ بِمَا فَضَّلْتَكَ ؛ وَلَتَنْ شُورِكَتْ فِي الْوَلَاءِ بِعَقِيدَةِ الْإِخْصَارِ ، فَلَمْ تُشَارِكْ فِي عَزَمِكَ الَّذِي آتَتْصَرَ لِلدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُ بَسْطَةُ الْإِخْصَارِ ؛ وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ أَمَدَ بَقْلَهُ وَمَنْ أَمَدَ بِيَدِهِ فِي دَرَجَاتِ الْإِمْدَادِ ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْقَاعِدِينَ كَالَّذِينَ قَالُوا ”لَوْ أَمَرْتَنَا لَضَرَبْنَا أَعْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْعِمَادِ“ . وَقَدْ كَفَاكَ مِنَ الْمَسَاعِي أَنْكَ كَفَيْتَ الْخِلَافَةَ أَمْرَ مَنَازِعِهَا ، فَطَمَسْتَ عَلَى الدَّعْوَةِ الْكَاذِبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَدْعِيهَا ؛ وَلَقَدْ مَضَى عَلَيْهَا زَمَنٌ وَمِحْرَابٌ حَقَّهَا مُحْفُوفٌ مِنَ الْبَاطِلِ بِخُرَائِنٍ ، وَرَأَتْ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ السُّوَارِينَ الَّذِينَ أَوَّلَهَا كَذَّابِينَ ؛ فَبِمَضَرٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ تَاهَ بِمَجْرَى أَنْهَارِهَا مِنْ تَحْتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ طَاغُوتِهِ وَجِبْتِهِ ، وَلَعِبَ بِالْبَدِينِ حَتَّى لَمْ يَذَرْ يَوْمَ جُمُعَتِهِ مِنْ [يَوْمِ أَحَدِهِ وَلَا] ^(١) يَوْمِ سَبْتِهِ ؛ وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ رَمَى اللَّهُ بَصَائِرَهُمْ

بالعمى والصمم، وأتخذوه صنماً [بينهم] ^(١) ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجل أو صنم؛ فقامت أنت في وجهه باطله حتى قعد، وجعلت في جيده حبلاً من مسد، وقلت ليدِه : تَبَّتْ فَأَصْبَحَ [وهو] ^(١) لَا يَسْعَى [بِقَدَم] وَلَا يَبْطِشُ بِيَدٍ ؛ وكذلك فعلت بالآخر الذى نَجَمَتْ باليمن نَاجِئَتُهُ ، وسامت فيه سائمتُهُ ؛ فوضع بيته موضع الكعبة الأيمانية ، وقال : هذا ذو الخَلَصَةِ الثانية ؛ فأبى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه ، أم أيهما يقوم بأداء حقِّه ؛ وهاهنا فليُصْبِحَ القلم للسيف من الحُسَّاد ، ولتَقْصُرْ مكانتُهُ عن مكانتِهِ وقد كان له من الأنداد ؛ ولم يحَظْ بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً ، ونَفَرَ بك حتى طال نَحْراً كما عَزَّ جانباً ، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حُدّه قاضياً .

وقد قلّك أمير المؤمنين البلاد المصرية والأيمانية غوراً ونَجْداً ، وما آسَمْتَ عليه رعيةً وجُنْداً ؛ وما آنتَهتْ إليه أطرافها براً وبحراً ، وما يُسْتَمَقْدُ من مجاورها مسالمةً وقهراً ؛ وأضاف إليها بلاد الشام وما تحوى عليه من المَدُن الممدّنة ، والمراكز المحصنة ؛ مستثنياً منها ما [هو] بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله : وهو حلبٌ وأعمالها ، فقد مضى أبوه على آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين ، وتخلّفه في عقبه في الغابرين ؛ وولده هذا قد هدّبتَه الفطرة في القول والعمل ، وليست هذه الربوة إلا من ذلك الجبل .

فليكنْ له منك جارٍ يدنو منه وداًداً كما دنا أرضاً ، ويصبح وهو [له] كالْبُنْيَان يُشَدُّ بعضُهُ بعضاً ؛ والذي قدّمناه من الثناء عليك ربِّماً تجاوز بك درجة الإقصاد ، وألقتك عن فضيلة الأزياد ؛ فإياك أن تنظر إلى سَعْيِكَ نظر الإعجاب ، وتقول : هذه بلادٌ أنا أفتتحها بعد أن أضرب عنها كثيرٌ من الأضراب ؛ ولكن أعلم أن

الأرض لله ولرسوله ثم خليفته من بعده ، ولا مئة للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده ؛ وكم سلف قبلك ممن لورام مارمته لدنا شاسعه ، وأجاب مانعه ؛ لكن ذخره الله لك لتخطي في الآخرة بمفازه ، وفي الدنيا برقم طرازه ؛ فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم ، وقل : «لَعَلَّمَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» .

وقد قرن تقليدك هذا بخلة تكون لك في الاسم شعارا ، وفي الرسم فخارا ، وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملايس الأولياء ماناسب قلوبا وأبصارا ؛ ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطفاء الأطواق بالأعناق ؛ ثم إنك قد خوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالإشراح ، ولأملك بالإنفاس ، وتؤمر معه بمد يدك إلى العلياء لا بضمها إلى الجناح ؛ وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة ، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال : إنها الحسنى وزياده ؛ فإذا صارت إليك فانصب لها يوما يكون في الأيام كريم الأنساب ، وأجعل لها عيدا وقل : هذا عيد التقليد والخلة والخطاب ؛ هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضرا وأنت ناء عن الحضور ، وتضمن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور ؛ وهذه المكانة قد عرفتكم أنفسها وما كنت تعرفها ، وما نقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ؛ فأحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، وأعمل لها فإن الأعمال بخوانيمها ؛ وأعلم أنك قد تقلدت أمرا يفتن به تقي الحلوم ، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيرا ما ترى حسنة يوم القيامة وهي مقتسمة بأيدي الخصوم ؛ ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار ؛ وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار . قال النبي صلى الله عليه وسلم : «يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم» .

فانظر إلى هذا القول النبوي نَظَر من لم يُخَدِّع بِحَدِيثِ الْحِرْصِ وَالْآمَالِ ، وَمَثَلِ الدُّنْيَا وَقَدْ سَيِّئَتْ [إِيكَ] بِخِذَائِهَا أَلَيْسَ مَصِيرُهَا إِلَى زَوَالٍ ؟ . وَالسَّعِيدُ مَنْ إِذَا جَاءَتْهُ قَضَىٰ بِهَا أَرْبَ الْأَرْوَاحِ لَا أَرْبَ الْجُسُومِ ، وَاتَّخَذَ مِنْهَا وَهِيَ السُّمُّ دَوَاءً وَقَدْ تُتَّخَذُ الْأَدْوِيَةُ مِنَ السُّمُومِ ، وَمَا الْإِغْتِبَاطُ بِمَا يَخْتَلِفُ عَلَى تَلَاشِيهِ الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ ؟ وَهُوَ ﴿ كَإِذَا أُنْزِلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ﴾ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يَعِصُّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَاةَ أَمْرِهِ مِنْ تَبِعَاتِهَا الَّتِي لَا بَسْتَهُمْ وَلَا بَسُوها ، وَأَحْصَاهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَنُسُوها ؛ وَلَكِ أَنْتَ مِنْ هَذَا الدَّعَاءِ حَظٌّ عَلَى قَدَرِ مَحَلِّكَ مِنَ الْعَنَاءِ الَّتِي جَذَبَتْ بِضَبْعِكَ [وَمَحَلِّكَ مِنَ الْوَلَايَةِ الَّتِي بَسَطَتْ مِنْ دِرْعِكَ ^(١)] .

نُفِذَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَقَلَّدْتَهُ أَخَذَ مِنْ لَمْ يَتَعَقَّبَهُ بِالنَّسِيَانِ ، وَكُنْ فِي رِعَايَتِهِ مِمَّنْ إِذَا نَامَتْ عَيْنَاهُ كَانَ قَلْبُهُ يَقْطُظَان .

وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي إِسْبَاغِ الْعَدْلِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ ثَالِثَ الْحَدِيثِ وَالْكِتَابِ ، وَأَغْنَىٰ بَشَوَاهِ وَحُدَّهِ عَنْ أَعْمَالِ الثَّوَابِ ، وَقَدَّرَ يَوْمَانَهُ بِعِبَادَةِ سَتَيْنِ عَامًا فِي الْحِسَابِ ؛ وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ أَمْرٌ إِلَّا زَيْدَ قُوَّةٍ فِي أَمْرِهِ ، وَتَحَصَّنَ بِهِ مِنْ عُدُوِّهِ وَمِنْ دَهْرِهِ ؛ ثُمَّ يَجَاءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي يَدَيْهِ كِتَابًا أَمَانًا ، وَيَجْلِسُ عَلَى مَنبَرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ؛ وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ مَرْكَبَهُ صَعْبٌ لَا يَسْتَوِي عَلَى ظَهْرِهِ إِلَّا مَنْ أَمْسَكَ عِنَانَهُ نَفْسُهُ قَبْلَ إِمْسَاكِ عِنَانِهِ ، وَغَلَبَتْ لَمَّةُ مَلَكِهِ عَلَى لَمَّةِ شَيْطَانِهِ ، وَمَنْ أَوْكَدَ فُرُوضَهُ أَنْ يَمْحَى السَّنَنَ السَّيِّئَةَ الَّتِي طَالَتْ مُدَدَ أَيَّامِهَا ، وَيَنْسِيَ الرِّعَايَا مِنْ رَفْعِ ظُلَامَاتِهَا فَلَمْ يَجْعَلُوا أَمَدًا لِانْحِسَارِ ظُلَامَاتِهَا ؛ وَتِلْكَ هِيَ الْمُكْحُوسُ الَّتِي أَنْشَأَهَا الْهِمَمُ الْحَقِيرَةُ ، وَلَا غِنَى لِلْأَيْدِي الْغَنِيَّةِ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ [تَ] نَفُوسٍ فَقِيرَةٍ ؛ وَكُلَّمَا زِيدَتِ الْأَمْوَالُ الْحَاصِلَةُ مِنْهَا قَدْرًا زَادَهَا اللَّهُ مُحَقًّا ،

وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسموها حقاً ؛
ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقابه ، ومثلت توبه المرأة
الغامدية بمتابه ؛ وهل أشقى من يكون السواد الأعظم له خصماً ، ويصبح وهو
مطالب منهم بما يعلم وبما لم يحيط به علماً . وأنت مأمور بأن تأتي هذه الظلمات
فتنحي على إبطالها ، وتلحق أسماءها في المحو بأفعالها ؛ حتى لا يبقى لها في العيان صور
منظورة ، ولا في الألسنة أحاديث مذكورة ؛ فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن
الماضي سنة سوء ستتها يدها ، وعن الآتي متابعة ظلم وجدّه طريقاً مسلوكةً بجرى
على مدها .

فبادر إلى ما أمرت به بمبادرة من لم يرضق به ذراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه
فراها في الآخرة متاعاً ، وأحمد الله على أن قيض لك إمام هدى يقف بك على هداك ،
ويأخذُ بججزتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عداك ؛ وهذه البلاد
المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة ، وتفترق في سياستها إلى أيدٍ مساعده ؛
وهذا تكثر فيها قضاة الأحكام ، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام ؛ وكل من هؤلاء
ينبغي أن يقتن على نار الاختبار ، ويسلّط عليه شاهداً عدل من أمانة الدرهم
والدينار ؛ فإضل الناس شيء كحب المال الذي فورك من أجله الأديان ،
وهجرت بسببه الأولاد والإخوان ، وكثيرا ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له
عبادة الأوثان ؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك فأضرب عليه
بالأرصاء ، ولا ترص بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تتقلّ تتقلّ الأجساد ،
وإياك أن تُخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بالربيع
ابن زياد ؛ وكذلك قائم هؤلاء على اختلاف طبقاتهم أن يأمرؤا بالمعروف مؤاظبين ،
وينهؤا عن المنكر محاسنين ، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم

الغالبين ؛ وليدعوا أولا بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرون به من سواها ؛ ولا يكونوا من هدى إلى طريق البر وهو عنه حائد ، وانتصب لطب المرضي وهو محتاج إلى طيب وعائد ؛ فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه ، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ؛ فإذا صلحت الولاية صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصاييح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم .

ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا في الإصطحاب ، وأعوانا في توزع الحمل الذي يتقل على الرقاب ؛ فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميرا ، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا ؛ وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفي ، ويتولاها بالوطء العنيف ؛ وليكنها لمن يمال على جوانبه ، ويؤكل من أطايبه ؛ وإن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر ، وإذا ألحف في سؤاله لم يلحق الإلحاف بخلق الضجر ؛ وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر ؛ فذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين ، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوى الأمين ؛ ومن سعادة المرء أن يكون ولأته متأدبين بأدابه ، وجارين على نهج صوابه ، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانت حسناته مثبتة في كتابه .

وبعد هذه الوصية فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأمم الولود ، ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود ، وتيقظت لنصره والعيون رقود ؛ وهي التي تُسبغ لها الآلاء ، ولا يتخطاها البلاء ؛ ولا أمير المؤمنين بها عناية تبغها الرحمة الموضوعة في قلبه ، والرغبة في المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه ؛ وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمنية إفضالها ، وجعلها سببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالها . وهو يأمرك

أَنْ تَتَفَقَّدَ أحوَالَ الفقراء الذين قُدِّرَتْ عليهم مَادَّةُ الْأَرْزَاقِ ، وَأَلْبَسَهُمُ التَّعَفُّفُ ثَوْبَ الْغِنَى ، وَهُمْ فِي ضَيْقٍ مِنَ الْإِمْلَاقِ ؛ فَأُولَئِكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ مَسَّتْهُمْ الضَّرَاءُ فَصَبَرُوا ، وَكَثُرَتْ الدُّنْيَا فِي يَدِ غَيْرِهِمْ فَمَا نَظَرُوا إِلَيْهَا إِذْ نَظَرُوا ؛ وَيَنْبَغِي أَنْ يَهَيَّيْ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ مَرَقًا ، وَيَضْرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَقْرِ مَوْقِفًا .

وَمَا أَطْلُنَا لَكَ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ إِلَّا إِعْلَامًا بِأَنَّهَا مِنَ الْمُهِّمِّ الَّذِي يُسْتَقْبَلُ وَلَا يُسْتَدْبَرُ ، وَيُسْتَكْتَرُ مِنْهُ وَلَا يُسْتَكْتَرُ بِهِ ؛ وَهَذَا يُعَدُّ مِنْ جِهَادِ النَّفْسِ فِي بَذْلِ الْمَالِ ، وَيَتْلُوهُ جِهَادُ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ فِي مَوَاقِفِ الْقِتَالِ ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَعْرِفُكَ مِنْ ثَوَابِهِ مَا تَجْعَلُ السَّيْفَ فِي مَلَازِمَتِهِ أَخًا ، وَتَسْخُو لَهُ بِنَفْسِكَ إِنْ كَانَ أَحَدٌ بِنَفْسِهِ سَخَا ؛ وَمِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ الْعَمَلُ الْمَحْبُوبُ بِفَضْلِ الْكَرَامَةِ ، الَّذِي يَنْبَغِي أَجْرُهُ بَعْدَ صَاحِبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَبِهِ تُمْتَحَنُ طَاعَةُ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، وَكُلُّ الْأَعْمَالِ عَاطِلَةٌ لِاخْلُوقِ لَهَا وَهُوَ مَخْتَصُّ دُونَهَا بِزِينَةِ الْخَلْقِ ؛ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمَا كَانَ مُحْسَبًا بِشَطْرِ الْإِيمَانِ ، وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لَهُ ثَمًّا وَلَيْسَتْ لغيرِهِ مِنَ الْأَثْمَانِ ؛ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْعَدُوَّ هُوَ جَارُكَ الْأَدْنَى ، وَالَّذِي يَبْلُغُكَ وَتَبْلُغُهُ عَيْنَا وَأُذُنَا ؛ وَلَا يَكُونُ لِلْإِسْلَامِ نِعَمُ الْجَارِ حَتَّى تَكُونَ لَهُ نِئْسُ الْجَارِ ، وَلَا عُذْرَ لَكَ فِي تَرْكِ جِهَادِهِ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ إِذَا قَامَتْ لغيرِكَ الْأَعْدَارُ ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَرْضَى مِنْكَ بَأَنْ تَلْقَاهُ مُكَافِحًا ، أَوْ تَطْرُقَ أَرْضَهُ مَمَاسِيًا أَوْ مُصَاحِبًا ؛ بَلْ يُرِيدُ أَنْ تَقْصِدَ الْبِلَادَ الَّتِي فِي يَدِهِ قَصْدَ الْمُسْتَنْقِذِ لَا قَصْدَ الْمُغِيرِ ، وَأَنْ تَحْكُمَ فِيهَا بِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي قَضَاهُ عَلَى لِسَانِ سَعْدٍ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسُ فَإِنَّهُ تِلَادُ الْإِسْلَامِ الْقَدِيمِ ، وَأَخُو الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي شَرَفِ التَّعْظِيمِ ، وَالَّذِي تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ الْوُجُوهُ مِنْ قَبْلِ بَاسْجُودِ وَالتَّسْلِيمِ ؛ وَقَدْ أَصْبَحَ وَهُوَ يَشْكُو طَوْلَ الْمَدَّةِ فِي أَسْرَرَقَتِهِ ، وَأَصْبَحَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَهِيَ تَشْكُو طَوْلَ الْوَحْشَةِ فِي غُرْبَتِهَا عَنْهُ

وغربته ، فانهضْ إليه نهضةً تُوغِلْ في قرحه ، وتبدلْ صعبَ قياده بسمِّحه ، وإن
 كان له عامٌ حديبيةً فاتبعه بعامٍ فتحه ، وهذه الاستزادة إنما تكونُ بعدَ سداد
 مافي اليد من تغرٍ كان مُهملاً فحميت موارده ، أو مُستهدماً فرفعت قواعده ، ومن
 أهمِّها ما كان حاضراً البحر فإنه عورةٌ مكشوفة ، وخِطةٌ مخوفة ، والعدو قريبٌ منه
 على بُعدهِ ، وكثيراً ما يأتيه بقاءٌ حتى يسبقَ برقه برعده ، فينبغي أن ترتب بهذه الثغور
 رابطةً تكثُرُ شجعانها ، وتقلُّ أقرانها ، ويكون قتلها لأن تكون كلمة الله هي العليا
 لا لأن يرى مكانها ، وحينئذ يُصبح كلُّ منها وله من الرجال أسوار ، ويعلم أهله
 أن بناء السيف أمتع من بناء الأحجار ، ومع هذا لا بد من أضطول يكثُر عدده ،
 ويقوى مدده ، فإنه العدة التي تستعين بها في كشف الغمِّ ، والاستكثار من سبأيا
 العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السُّلَماني : فذاك يسيرُ على متن الريح وهذا على
 متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار ، وتساوت أقدارُ خلقها
 على اختلاف مُدَّة الأعمار ، وإذا أُشرعت قيل جبالٌ متلفعة بقطع من العيوم ،
 وإذا نُظر إلى أشكالها قيل : إنها أهلةٌ غير أنها تهتدي في مسيرها بالنجوم ، ومثلُ
 هذه الخيل ينبغي أن يُغالى في جيادها ، ويستكثرَ من قيادها ، وليؤمِّر عليها أميرٌ يليقُ
 البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طُرُقَه سلوكاً من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها
 بحبره ، وكذلك فليكن من أفنت الأيام تجاربه ، وزحمتها منابكه ، ومن يذل الصَّعب
 إذا هو ساسه وإن سيسَ لأن جانبهِ ، وهذا هو الرجل الذي يرأس على القوم فلا يجد
 هزّةً بالرياسة ، وإن كان في الساقية ففي السَّاقة أو في الحراسة ففي الحراسه ، ولقد
 أفلحت عصابةٌ أعتصبت من ورائه ، [وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر
 من رائه ^(١)] .

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ أُخِلَّ مِنَ الْجِهَادِ بَرَكُنٌ يَقْدَحُ فِي عَمَلِهِ ، وَهُوَ تَامُهُ الَّذِي يَأْتِي فِي آخِرِهِ
 كَمَا أَنَّ صِدْقَ النِّيَّةِ يَأْتِي فِي أَوَّلِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ قَسْمُ الْغَنَائِمِ فَإِنَّ الْأَيْدِيَ قَدْ تَدَاوَلَتْهُ
 بِالْإِحْجَافِ ، وَخَلَطَتْ جِهَادَهَا فِيهِ بَغْلُوطًا فَلَمْ تَرْجِعْ بِالْكَفَافِ ، وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ الظُّلْمَ
 فِي تَعَدَّى حُدُودِهِ الْمَحْدُودَةِ ، وَجَعَلَ الْأَسْتِثْنَاءَ بِالْمَغْنَمِ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْمَوْعُودَةِ ،
 [وَنَحْنُ نَعُوذُ بِهِ] ^(١) أَنْ يَكُونَ زَمَانُنَا هَذَا شَرَّ زَمَانٍ وَنَاسُهُ شَرَّ نَاسٍ ، وَلَمْ يَسْتَخْلِفْنَا عَلَى
 حِفْظِ أَرْكَانِ دِينِهِ ثُمَّ نُهْمِلَهُ إِهْمَالًا مُضَيِّعًا وَلَا [إِهْمَالًا] ^(١) نَاسٍ ، وَالَّذِي نَأْمُرُكَ بِهِ أَنْ
 تُجَرِّى [هَذَا] الْأَمْرَ عَلَى الْمَنْصُوصِ مِنْ حَكْمِهِ ، وَتُبَرِّى ذِمَّتَكَ مِمَّا يَكُونُ غَيْرُكَ الْفَائِزَ
 بِفَوَائِدِهِ وَأَنْتَ الْمُطَالِبَ بِإِثْمِهِ ، وَفِي أَرْزَاقِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ مَا يُغْنِيهِمْ
 عَنْ هَذِهِ الْأُكْلَةِ الَّتِي تَكُونُ غَدًا أَنْكَالًا وَجَحِيماً ، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً .

فَنَصَفَحَ مَاسْطَرَانَهُ لَكَ فِي هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي هِيَ عِزَائِمُ مُبَرِّمَاتٍ ، بَلْ آيَاتٍ
 مُحْكَمَاتٍ ، وَتَحَبَّبَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقْتِفَاءِ كِتَابِهَا ، وَأَبْنَى لَكَ مِنْهَا مَجْدًا
 يَبْقَى فِي عَقَبِكَ إِذَا أُصِيبَتِ الْبُيُوتُ فِي أَعْقَابِهَا ، وَهَذَا التَّقْلِيدُ يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَأَلْ
 فِي الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَاهَا ، وَأَنَّهُ لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ خَتَمَ
 بِدَعَاوَاتٍ دَعَا بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ خَتَامِهِ ، وَسَأَلَ فِيهَا خَيْرَةَ اللَّهِ الَّتِي تَنْزِلُ مِنْ كُلِّ
 أَمْرٍ بِمَنْزِلَةِ نِظَامِهِ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَى مَنْ قَلَدْتَهُ شَهَادَةً تَكُونُ عَلَيْهِ
 رَقِيبَةً ، وَلَهُ حَسِيبَةٌ ، فَإِنِّي لَمْ أَمُرْهُ إِلَّا بِأَوَامِرِ الْحَقِّ الَّتِي فِيهَا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ ، وَهِيَ
 لِمَنْ أَتَّبَعَهَا هَدًى وَرَحْمَةٌ وَبُشْرَى ، فَإِذَا أَخَذَهَا فَلَجَّ بِحُجَّتِهِ يَوْمَ يُسْأَلُ عَنِ الْحُجَجِ ،
 وَلَمْ يُخْتَلَجْ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ عَنِ الْحَوْضِ فِي جَمَلَةٍ مِنْ يُخْتَلَجُ ، وَقِيلَ لَهُ : لَا حَرَجَ عَلَيْكَ
 وَلَا إِثْمٌ إِذْ نَجَوْتَ مِنْ وَرَطَاتِ الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ ، وَالسَّلَامُ .

(١) الزيادة من كتاب "المثل السائر" ص ١٤٧ وهي لازمة لاستقامة الكلام .

المذهب الخامس

(أن يفتتح العهد بـ «إِنَّ أَوْلَى مَا كَانَ كَذَا» ونحوه)

وهى طريقة غريبة، كُتِبَ عليها عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب»
بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد . وهو الذى عارضه الوزيرُ ضياءُ الدين بن
الأثير فى العهد المتقدم ذكره فى المذهب [الرابع] ^(١) . وهذه نسخته :

إِنَّ أَوْلَى مَا جَادَتْ رِباعَهُ مُحِبُّ الإِصْطِنَاعِ ، وَخُصَّ مِنَ الإِصْطِفَاءِ وَالْإِجْتِنَاءِ
بِالصَّفَايَا وَالْمِرْبَاعِ ، مَنْ تَرَسَّمَ أَنْتَهَاجَ الْجَدِّ الْقَوِيمِ ، وَالطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَاعْتَلَقَ
مِنَ الْوَلَاءِ بِأَوْثَقِ عَصَمِهِ وَحِبَالِهِ ، وَالْفِئَاءِ الَّذِى يَهْتَدِى بِأَنْوَارِهِ فِي مَتَصَرِّفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ ،
والتَّحَلَّى بِجَمِيلِ الذِّكْرِ فِي سِيرَتِهِ ، وَخُلُوصِ الإِعْتِنَاءِ بِأُمُورِ رِعْيَتِهِ ، وَكَانَ رَاغِبًا فِي أَقْنَاءِ
حَمِيدِ الْحَلَالِ ، مُجْتَهِدًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ بِمَا يُرِضِيهِ مِنَ الْعَدْلِ الْمُتَدِّ الظَّلَالِ ، عَامِلًا
فِي مَا يُنَاطُ بِهِ بِمَا يَتَضَوُّعُ تَسْرُخَبَرِهِ ، وَيُجْتَنَى بِحُسْنِ صُنْعِهِ يَانِعُ ثَمَرُهُ ، بِإِذْلَالِ وَسْعِهِ
فِي الصَّلَاحِ ، مُؤَذِّنَةً مَسَاعِيهِ بِقَوْزِ الْقَدَاحِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَلِكُ الْأَجَلُ ، السَّيِّدُ ، صَلاحُ الدِّينِ ، نَاصِرُ الْإِسْلَامِ ، عِمَادُ الدَّوْلَةِ ،
جَمَّالُ الْمُلْكِ ، نَخْرُ الْمَلَّةِ ، صَفِيُّ الْخِلَافَةِ ، تَاجُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، قَامَعَ الْكَفَرَةَ
وَالْمَشْرِكِينَ ، قَاهَرَ الْخَوَارِجَ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ، عَزَّ الْمَجَاهِدِينَ ، أَلْبَ غَازِي بَكْ أَبْنِ يَوْسُفَ
أَبْنِ أَيُّوبَ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - عَلَى هَذِهِ السَّجَايَا مُقْبِلًا ، وَبِصِفَاتِهَا الْكَامِلَةَ مُشْتَمِلًا ،
مُؤَثِّرًا تَضَاعَفَ الْمَأْثُرَاتِ ، مُتَابِرًا عَلَى مَا تَرَكُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ، مُتَحَلِّيًا بِالْحَمَامِدِ
الرَّائِقَةِ ، مُسْتَبِدًّا بِالنَّاقِبِ الَّتِى هِيَ لِجَمِيلِ أَعْمَالِهِ مُوَافِقَةٌ مُطَابِقَةٌ ، مُحَصِّلًا مِنْ رِضَا اللَّهِ
تَعَالَى مَا يُؤَثِّرُهُ وَيُروِّمُهُ ، [و] مِنْ طَاعَةِ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ - لَا زَالَتْ مُشِيدَةُ الْبِنَاءِ ، سَابِقَةٌ

(١) بياض بالأصل والنصح مما تقدم .

النِّعْمَةُ ، دَائِمَةُ الْإِسْتِبْشَارِ ، عَزِيزَةُ الْأَنْصَارِ - [و] من أَسْتَمَرَّ الزَّفَرُ مَا يَسْتَدِيمُهُ ، -
 أَقْتَضَتِ الْأَرْأُ الشَّرِيفَةُ - لَزَالِ التَّوْفِيقِ قَرِينَهَا ، وَالتَّائِيدُ مُظَا فِرَهَا وَمُعِينَهَا - إِمْضَاءُ
 تَصَرُّفِهِ وَإِنْفَازَ حُكْمِهِ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّعِيدِ الْأَعْلَى ، وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ ،
 وَمَا يَفْتَحُهُ مِنْ بِلَادِ الْغَرْبِ وَالسَّاحِلِ ، وَبِلَادِ الْيَمَنِ وَمَا أَفْتَحَهُ مِنْهَا وَيَسْتَخْلَصُهُ بَعْدُ
 مِنْ وَلَايَتِهَا ، وَالتَّعْوِيلُ فِي هَذِهِ الْوَلَايَاتِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِنْقَازَ مَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْكُفَّارُ
 مِنَ الْبِلَادِ ، وَإِعْزَازَ كُلِّ مَنْ أَذَلُّهُ وَأَضْطَهَّدُوهُ مِنَ الْعِبَادِ : لِنَعُودِ الثُّغُورِ بِمَنْ نَقِيبَتِهِ
 ضَاحِكَةُ الْمَبَاسِمِ ، وَبِإِصَابَةِ رَأْيِهِ قَائِمَةُ الْمَوَاسِمِ .

أَمْرُهُ بَادئًا بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ الْوَاقِيَةُ ، وَالذَّخِيرَةُ الْبَاقِيَةُ ، وَالْعِصْمَةُ
 الْكَافِيَةُ ، وَالزَّادُ إِذَا أَنْفَضَ وَفَدُ الْآخِرَةُ وَأَرْمَلُوا ، وَالْعَتَادُ النَّافِعُ إِذَا وَجَدُوا شَاهِدًا
 لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَمِلُوا : فَإِنَّهَا الْعِلْمُ الْمَنْصُوبُ لِلرَّشْدِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ كِتَابَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ الْعِلْمَ الَّذِي بِهِ يَقْتَدِي ، وَبِأَنْوَارِهِ إِلَى حُدُودِ
 الصُّوَابِ يَهْتَدِي ، وَيَسْتَمِيعُ لَزَوَاجِرِهِ وَمَوَاعِظِهِ ، وَيَعْتَبِرُ بِتَخْوِيفِهِ وَمَلَا حِظِهِ ، وَيُصْنِغِي
 إِلَيْهِ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَوَازِحِهِ وَلُبِّهِ ، وَيَعْمَلُ بِأَوَامِرِهِ الْمُحْكَمَةِ ، وَيَقِفُ عِنْدَ نَوَاهِيهِ
 الْمُبْرَمَةِ ، وَيَتَدَبَّرُ مَا حَوَتْهُ آيَاتُهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالزَّجْرِ وَالتَّهْدِيدِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ
 مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى صَلَاتِهِ مُحَافِظًا ، وَلِنَفْسِهِ عَنِ الْإِخْلَالِ وَالتَّقْصِيرِ فِي آدَاءِ
 فَرَضِهَا وَإِعْطَا ، فَيُغْتَنِمَ الْأَسْتِعْدَادَ أَمَامَ أَوْقَاتِهَا لِلْآدَاءِ ، وَيَحْتَرِزُ مِنْ فَوَاتِهَا وَالْحَاجَةَ إِلَى
 الْقَضَاءِ ، مُوفِيًا حَقَّهَا مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، عَلَى الْوَصْفِ الْوَاجِبِ الْمَحْدُودِ ، مُحْلِصًا
 سِرَّهُ عِنْدَ الدُّخُولِ فِيهَا ، وَنَاهِيًا نَفْسَهُ عَمَّا يُصْطَدُّهَا بِالْأَفْكَارِ وَيُلْهِمُهَا ، مُجْتَهِدًا فِي تَقَى

الفكر والوسواس عن قلبه، متصبباً في إخلاص العباد لربه : لِيُغْدُو بِوَصْفِ الْأَبْرَارِ
مَنْعُوتًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره بقصد المساجد الجامعة في أيام الجمع ، أمثالاً لأمر الله المتبع ؛ بغزمية
في الخير صافيه ، ونية للعبادة موافقه ؛ وفي الأعياد إلى المصلبات المصحرة المجملة
بالمنابر الحالية ، التي هي عن الأذناس مطهرة نائية ؛ فإنها من مواضع العبادة
ومواطنها ، ومطآن تلاوة القرآن المأمور بحفظ آدابها وسننها ؛ فقد وصف الله تعالى
من وفقه لتحميل مؤنه بالعمارة ، بما أوضح فيه الإشاره ؛ وشرفه بوضع سمة
الإيمان عليه بالإكرام الفاجر ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ : فيقيم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من تقدمه ، ومُنْتَهيا فيها إلى
أحسن ماعهده وعلمه .

وأمره بلزوم نزاهة الحرمات ، واجتناب المحرمات ؛ والتحلي من العفاف والورع
بأجل القلائد الرائقة ، والتقصص بملابس التقوى التي هي بأمثاله لائقه ؛ وسلوك
مناهج الصلاح الذي يجمل به فعله ، ويصفوه له عليه ونهله ؛ وأن يمنع نفسه من
الغضب ؛ ويردها عما تأمر به من سوء المكتسب ؛ ويأخذها بآداب الله سبحانه
في نهيا عن الهوى ، وحملها على التقوى ؛ وردعها عن التورط في المهادي والشبهه ،
وكل أمر يلتبس فيه الحق ويشتهيه ؛ ويلزمها الأخذ بالعفو والصفح ، والتأمل لمكان
الأعمال فيه واللح ؛ قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وأمره بإحسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد ، واختصاصهم بالصون الرائع الغاد ؛
وتشريع جناح الرعاية على البعيد منهم والقريب ، وإحلال كل منهم محله على القاعدة

والترتيب ؛ وإشاعة المعدلة فيهم ، وإسهام دانيهم من وإفر ملاحظته وقاصيهم ؛ وأن ينحى سرحهم من كل داعر ، ويدود عنهم كل مؤارب بالفساد ومظاهر ؛ حتى تصفوقهم من الأمن الشرائع ، وتصفوق عليهم من بركة ولايته المدارع ، وتستثير بضوء العدل منهم المطالع ؛ ويحترم أكابرهم ، ويحنو على أصاغرهم ؛ ويشملهم بكفه ودرعه ، وينتهي في مصالحهم إلى غاية وسعه ؛ ولا يألوهم في النصيح جهدا ، ولا يخلف لهم في الخير وعدا ؛ ويشاورهم في أمره فإن المشورة داعية إلى الفلاح ، ومفتاح باب الصلاح ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأمره بإظهار العدل في الرعية التي تضمها جميع الأكاف والأطراف ، والتحلل من النصفة بأكل الأوصاف ؛ وحمل كافتهم على أقوم جدد ، وعصيان الهوى في تهويم كل أود ، والمساواة بين الفاضل والمنفضول في الحق إذا ظهر صدق دليله ، والاشتغال عليهم بالأمن الذي يعذب لهم برد مقيله ؛ وكشف ظلامه من أنبسط إلى تحيفه الأيدي والأطماع ، وأعجزته النصرة لنفسه والدفاع ؛ وتصفح أحوالهم بعين لا تروى إلى هوى يميل بها عن الواجب ، وسمع لا يصغي إلى مقالة مائى ولا كاذب ؛ ولا يفعل عن مصلحة تعود إليهم ، ويرجع نفعها عليهم ؛ ولا عن كشف ظلمات بعضهم من بعض ، وردهم إلى الحق في كل رفع من أحوالهم وخفض ؛ فلا يرى إلا بالحق عاملا ، وللاُمور على سنن الشريعة حاملا ؛ مجتنباً إغفال مصالحهم وإهمالها ، وحارساً نظامها على نتائج الأيام واتصالها ؛ ليكون ذلك إلى وفور الأجر داعياً ، وبحسن الأحداث قاضياً ؛ مقتدياً بما نطق به القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ .

وأمره أن يأمر بالمعروف ويُقيم مناره، وينهى عن المنكر ويحو آثاره ؛ فلا يترك
 ممكنا من إظهار الحق وإعلانه، وقمع الباطل وإنجاد نيرانه ؛ ويعتمد مساعدة كل
 مُرشد إلى الطريق الأَقْصَد، ونَاهٍ عن التظاهر بالمحظور في كل مشهد ؛ وكل من^(١)
 تضحى معونته مشاركة في إحراز المثوبة ومسايمه ، ومُساومة في آقنناء الأجر
 ومُقاسمته ؛ وأن يؤخر بإزالة مَظَانِّ الرِّيب والفساد في الداني من الأعمال والقاصي ،
 فإنها مواطنُ الشيطان وأما كنُ المعاصي ؛ وأن يُشدَّ على أيدي الأمرين بالمعروف
 والناهين عن المنكر، ويُعينهم على ذلك بما يَطِيبُ ذكره في كل مشهد ومحضر ؛
 ويحتشد في إزالة كل محظور ومنكر، مقدِّم في الباطل ومؤخر ؛ قال الله تعالى :
 ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

وأمره أن يُقدِّم الاحتياط في حفظ الثُّغُور ومجاوريها من الكُفَّار، ويستعمل
 غاية التيقظ في ذلك والاستظهار : ليأمن عليها غوائل المكائد ، ويُفوز من التوفيق
 لذلك بأنواع المحامد ؛ ويتجود لجهاد أعداء الدين ، والانتقام من الكفرة المارقين ؛
 أخذًا بقول رب العالمين : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . وأن يعمل فيما يحصل من الغنائم
 عند قلِّ مجموعهم ، وافتتاح بلادهم وربوعهم ، بقول الله وما أمر به في قسمتها ،
 وإيفاء كل صاحب حصته منها ؛ سالكا سُبُلَ مَنْ غدا لآثارِ الصلاح مُقتفيا ،
 وللقرض في ذلك مؤديا ؛ ويهْدِي ذَوِي الرشد مُهْتَدِيًا . قال الله تعالى في محكم
 التنزيل : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

(١) في الأصل فانه من تضحى الخ تأمل .

وأمره أن يُجيبَ إلى الأمان من طلبه منه ، ويكونُ وفاءً مقتراً بما تضمَّنه ،
غير مُضمِرٍ خلافٍ ما يُعطى به صَفَقَة أمانه ، ويحتنب الغدر وما فيه من العار ،
وإنخراط الملك الجبار ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وأمره بأن يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام ، ومعاونتهم بما
يَقْضِي [بَلِّغْ] شَمْلَ الصلاح في تنفيذ القضايا والأنظمة ؛ وأخذ الخُصوم بإجابة الداعي
إذا استُحضر [وا] إلى أبوابهم للإِنصاف ، والمُسارعة إلى الحقِّ الواجب عليهم من
غير خلاف ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ .

وأمره بالتعويل في المطالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة على مَنْ يَأْوِي
إلى عَفَافٍ ودين ، وعِلْمٍ بأحكام الشريعة وصِحَّةِ يَقِين ؛ لا يخفى عليه ما حرَّمه الله تعالى
وأحلَّه ، ولا يلتبسُ على علمه ما أَوْضَحَ إلى الحقِّ الواضح سُبُلَه ؛ وإلى مَنْ يتولى المطالم
بإيصال الخُصوم إليه ، وإِنصافهم كما أوجبه الله تعالى عليه ؛ واستماع ظَلَاماتهم ،
وإحسان النظر في مشاجراتهم ؛ فإن أسفرَ للحق ضياءً تبعه ، أو أشتبه الأمرُ رده إلى
الحُكَّام ورفعَه . و[إلى] الناظر في أسواق الرقيق بالأحتراز والاستظهار ، وتَعْرِيةِ
الأحوال من الشبهة في امتِراج العبيد بالأحرار : لتضحى الأنسابُ مَصُونَةً مرعيةً ،
والأموالُ عن الثلمِ محروسةً محميةً . وإلى من ينظر في الحسبة بتصفُّح أحوال العامة
في متاجرهم وأموالهم ، وتتبع آثارِ صحتهم في المعاملة واعتلالهم ؛ واعتبار الموازين
والمكاييل ، وإلزام أربابها الصِّحَّة والتعديـل ؛ قال الله سبحانه وتعالى :
﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

وَأَنْ يُعْمَلَ الْجَفْنَ فِي تَطْهِيرِ الْبِلَادِ، مِنْ كُلِّ مَدْخُولِ الْإِعْتِقَادِ، بِمَعْرُوفٍ بِالشُّبْهِ فِي دِينِهِ وَالْإِلْحَادِ، وَمَنْ يَسْعَى مِنْهُمْ فِي الْفَسَادِ، وَيَأْمُرُ الْمُرْتَبِينَ فِي الْمَرَكَزِ وَالْأَطْرَافِ بِاقْتِنَاصِهِمْ، وَكَفِّ فُسَادِهِمْ وَإِجْلَاسِهِمْ عَنْ عِرَاصِهِمْ، وَأَنْ يُجْرَى عَلَيْهِمْ فِي السِّيَاسَةِ مَا يَجِبُ عَلَى أَمْثَالِهِمْ مِنَ الزَّادَةِ وَالَّذِينَ تَوْبَتُهُمْ لَا تُقْبَلُ، وَأَمْرُهُمْ عَلَى حُكْمِ الْمُخَاطَبِينَ لَا يَجِلُّ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ .

وَأَمْرَهُ أَنْ يَتَلَقَّى النِّعْمَةَ الَّتِي أُفْرِغَتْ عَلَيْهِ، وَأَنْسَاقَتْ إِلَيْهِ، بِشُكْرِ يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُهُ، وَيُتَرْجَمُ عَنْهُ بَيَانُهُ : لَيْسَتْ دِيمَ بِذَلِكَ الْإِكْرَامِ، وَيَقْتَرِنُ الْإِحْسَانُ عِنْدَهُ بِالْإِلْتِمَامِ، وَأَنْ يُوقِفَهَا حَقَّهَا مِنْ دَوَامِ الْحَمْدِ، وَالْقَصْدُ إِلَى شُكْرِهَا وَالْعَمْدُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ .

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَيَّنَّ لَهُ مِنَ الصَّلَاحِ مَا اتَّضَحَتْ أَعْلَامُهُ، وَأُثْبِتَتْ فِي الْمَرَامِيِّ سِهَامُهُ، وَأُرْشِدَ إِلَى مَا أودَعَ هَذَا الْمُنْشُورُ مِنْ جَدِّ الْفَوْزِ بِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِ عِبَادِهِ، عَامِلًا فِي ذَلِكَ بِمَقْتَضَى جِدِّهِ وَاجْتِهَادِهِ : لِيُحْزِرَ السَّبْقَ فِي دُنْيَاهِ وَعُقْبَاهِ، وَيَتَوَقَّرَ عِنْدَهُ مَا مُنِحَ بِهِ مِمَّا أَرْهَفَ عَزَمَهُ وَجَبَّاهُ، وَغَدَا بِمَكَانِهِ رَافِلًا فِي مَلَابِسِ الْفَخْرِ وَالْبَهَاءِ، نَائِلًا مَنَى مَا طَالَ بِهِ مَنَاكِبَ الْقُرْنَاءِ، وَأَخْتَصَّ بِمَا أَعْلَى دَرَجَتَهُ فَتَقَاعَسَتْ عَنْهُ آمَالُ حَاسِدِيهِ، وَتَفَرَّدَ بِالمَكَانَةِ عَنْ مَقَامٍ مِنْ يُبَارِيهِ وَيُنَاوِيهِ، وَأَوَّلَى مِنَ الْإِنْعَامِ مَا أَمَّنَ بِهِ سِرْبَ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ، وَأَصْفَى مِنْ مَنَاهِلِ الْإِحْسَانِ وَرَدَّهُ، وَأَهْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ مَا يَجِبُ أَنْ يُودِعَهُ وَاعِيَةَ الْأَسْمَاعِ، وَيَأْخُذَ بِالْعَمَلِ بِهِ كُلِّ رَاحٍ، فَيَنْهَجُ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - حَاجَّ الْوَلَاءِ، الَّذِي عَهْدُهُ مِنْ أَمْثَالِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ وَهُوَ غَيْرُ مَوَاقٍ لِبَاقِ الْكَلَامِ كَمَا لَا يَجْنَى .

متزّها عن تقصير منه في عامّة الأوقات ، ومراعيا أفعاله في جميع التصرفات ؛ ويعلم
أنّه مسؤل عن كل ما تلفظ به لسانه ناطقا ، ونظر طرّفه إليه رامقا ؛ قبل أن يُجانب
هواه ، ويتيقّ رهيئنا بما اكتسبت يداه ؛ ولا يغترّ من الدنيا وزخرفها بغير أن ليس
الوفاء من طباعه ، ومُعير ما أقصر مدّة ارتجاعه ؛ وسبيل كافّة القضاة والأعيان
ومقدّمى العساكر والأجناد ، ورؤساء البلاد ، متابعتة وموافقته ، وطلب مصالحهم
من جنابه ، والتصرف على استصوابه ؛ وقد أُكِّدت وصائته في الفرق بهم والاشتغال
عليهم ، والإحسان إليهم ، وإجمال السيرة فيهم ؛ وكلّما أشكل عليه أمر من
المتجدّات يطالع به الديوان العزيز - مجده الله تعالى - لينهج له السبيل إلى فتح
رتاجه ، وسؤلوك منهاجه ؛ والله وليّ التوفيق والهداية ، وجمع الكلبة في كلّ إعادة
وبدايه ، والمعونة على العصمة من الزلل ، والتأييد في القول والعمل ؛ إن شاء الله
تعالى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الوجه السابع

(فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة ، وما يكتبه الخليفة في بيت
العلامة ، وما يكتب في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها)

أما ما يكتب في المستند ، فقد جرت العادة أن يكتب فيه نحو ما تقدّم في البيعات
وعهود ولاية العهد بالخلافة : وهو : « بالإذن العالى ، المولوى ، الإمامى ، النبوى ،
الفلانى » (بقلب الخلافة) أعلاه الله تعالى .

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة ، فإنه يكتب علامته وتحته : « فوضت إليه
ذلك ، وكتب فلان بن فلان » . ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن الحاكم بأمر الله

أبى العباس [ابن الخليفة] المستكنى بالله أبى الربيع سليمان [أنه] كان يكتب :
« وكتب أحمد ابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » .

وأما ما يكتب في نسخة العهد من الشهادة ، فقد جرت العادة أن يكتب قاضيان
فأكثر من قبضة القضاة الأربعة في حاشية العهد أو في ذيله ماصورته : « أشهدنى
مولانا أمير المؤمنين العاهد المشار إليه فيه - أدام الله تعالى أيامه - بما نسب إليه
فيه من العهد إلى فلان بن فلان » أو ما في معنى ذلك .

قلت : والواجب أن يضموا في رسم شهادته الشهادة على السلطان بقبول العهد ؛
بأن يقال قبل على مانص وشرح فيه : « وعلى مولانا السلطان المشار إليه فيه بقبول
مافوض إليه فيه » أو نحو ذلك : لأنه كما يعتبر العهد من العاهد يعتبر القبول من
المعهود إليه كما تقدم في موضعه .

الوجه الثامن

(في قطع الورق الذى تكتب فيه عهد الملوك عن الخلفاء ، والقلم الذى
يكتب به ، وكيفية كتابتها ، وصورة وضعها فى الورق)

أما قطع الورق فلا نزاع فى أنه يكتب فى قطع البغدادى الكامل ، على ما هو
مستقر العادة إلى الآن . وقد تقدم فى الكلام على مقادير قطع الورق فى المقالة الأولى^(١)
من الكتاب أن عرضه ثلاثة أشبار وخمسة أصابع ، وطول الوصل كذلك .

(١) كذا فى الأصل مضببا عليه ولم يتقدم فى الأولى وإنما تقدم فى المقالة الثالثة الكلام على
المقادير وأن عرض البغدادى الكامل ذراع واحد بذراع القماش المصرى . انظر ج ٦ ص ١٩٠
من هذا المطبوع .

وأما القلم الذى يكتب به ، فمختصر قلم الطومار لمناسبته له على ما تقدم فيما يناسب كل قطع من الورق من الأقلام .

وأما كيفية كتابة العهد وصورة وضعه فى الورق ، فعلى ما تقدم فى البيعات وعهود أولياء العهد بالخلافة : وهو أن يبدأ بكتابة الطرة فى أعلى الدرج من أول عرض الورق إلى آخره سطوراً متلاصقة من غير هامش ، وفى أعلاه قدر أصبع بيضاء ، ثم يترك ستة أوصال بيضاء من غير كتابة غير الوصل الذى فيه الطرة ، ثم تكتب البسملة فى أول الوصل الثامن بحيث تكون أعلى ألفاتها تكاد تلتحق بالوصل الذى فوقه ، بهامش عن يمين الدرج قدر أربعة أصابع مطبوعة أو خمسة ، ثم يكتب سطراً من أول العهد تحت البسملة ملاصقاً لها بحيث تكاد أعلى ألفاته تلتحق بالبسملة ، ثم تحلى بيت العلامة قدر شبر ، ثم يكتب السطر الثانى من العهد على سمت السطر الذى تحت البسملة ، ويترسل فى كتابة بقية العهد .

ثم الذى رأيت فى دستور معتمد ينسب للقتر العلاء بن فضل الله أنه يكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع . وأخبرنى بعض فضلاء الكتاب أنه رأى فى بعض الدساتير أن سطورَه تكون مزدوجة على نظير البسملة والسطر الأول ، وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقدير خمسة أصابع مطبوعة .

قلت : ولعل ذلك تفنن من الكاتب وتطريز للكتابة ، لأعلى سبيل اللزوم .

فإن قيل : لم كان مقدار البياض بين سطور العهد مع كبر قطع الورق دون بياض ما بين سطور التقاليد ونحوها مما يكتب عن السلطان على ما سأتى ذكره ؟ فالجواب أن العهد كالمكتبة من العاهد للعهد إليه ، كما أن التقليد كالمكتبة من المقلد للمقلد ، والأعلى فى حق المكتوب إليه أن تكون السطور متضائقة على ما تقدم

في الكلام على المكتّبات؛ فناسب أن تكون سطور العهد أكثر تقارباً من سطور التقليد وما في معناه، تعظيماً لشأن السلطان في الحالتين .

فإن قيل : يُنقَضُ ذلك بعظم قلم العهد ، ضرورة أنه كلّما غلظ القلم كان أنزل في رتبة المکتوب إليه على ما تقدّم أيضاً ، فالجواب : أن غلظ القلم في العهد تابع للورق في كبر قطعه ، وقاعدة ديوان الإنشاء أنه كلّما كبر قطع الورق في المكتّبات ، كان تعظيماً للمكتوب إليه ، بدليل أن كلّ من عظم مقداره من الملوك كان قطع الورق في مكاتبه أكبر ، ولو كتبت العهد بقلم دقيق مع ضيق السطور وسعة الورق لجاء في غاية القصر . ثم قد جرت العادة أن تكون كتابة العهد من أوله إلى آخره من غير نقط ولا شكل ، وعليه عمل الكُتّاب إلى آخر وقت .

قلت : هذا بناء على المذهب الراجح في أن المكتّبة إلى الرئيس تكون من غير إعجام ولا ضبط : لما في الإعجام والضبط من استجهال المکتوب إليه ونسبته للعبّادة وقلة الفهم ، بخلاف من ذهب إلى أن الكتابة إلى الرئيس تُقيّد بالإعجام والضبط كي لا يعتريه الشك ، ولا يكلف إعمال الفكر ، على ما تقدّم ذكره في أوائل المكتّبات ، فإنه يرى نقط العهد وشكله .

وإذا انتهى إلى آخر العهد كتب المشيئة ، ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الحسبلة ، على ما تقدّم في الكلام على الفواتح والخواتم في أوائل المقالة الأولى من الكتاب .

وهذه صورة وضعه في الورق ، ممثلاً له بالطرّة التي أنشأها القاضي علاء الدين آبن عبد الظاهر ، والعهد الذي أنشأه القاضي شمس الدين إبراهيم بن القيسراني للملك الناصر "محمد بن قلاوون" وهو العهد الأخير من المذهب الأول .

الطزّة

هذا عهدٌ شريفٌ تجددتْ مَسَرَّاتُ الإسلامِ بتجديده، وتأكّدتْ أسبابُ الإيمانِ
بتأكيده، ووُجدَ النصرُ العزيزُ والفتحُ المبينُ بوجُوده، ووَقَدَ اليَمَنُ والإقبالُ على الخَلِيقَةِ
بوفُوده، ووردَ الأَناؤُ مُورِدَ الأَمانِ بورُوده . من عبدَ الله وولِيَه الإمامَ المُستَكفِي بالله
أبى الرّبيعِ سليمانَ أميرَ المؤمنين، أبَنَ الحاكِمِ بأمرِ الله أبى العباسِ أحمدَ، عَهِدَ به
إلى السلطانِ الملكِ الناصرِ أبى الفتحِ مُحَمَّدٍ خَلَدَ الله سُلطانَه، أبَنَ السلطانِ الملكِ
المنصورِ سيفِ الدينِ قلاوونِ الصالحِ قَدَسَ الله روحَه على ما شَرَحَ فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الهامش هذا عهدٌ شريفٌ يَعُمُّ بِكَ للإسلامِ المَعَاهِدُ، وَيُنصِّرُ مِنْكَ الإِعْتِزَامَ

بيت العلامة

فَتَغْنِيْ عَنْ أُمُوالِ والمُعاضِدِ، وَيُلْقِيْ إِلَيْكَ مَقاليدَ الأُمُورِ لَتَحْمِيْ فِي مَرَضاةِ

تقدير ربع ذراع

الله وُجُهاً، وَيَعْنُكَ عَلَى العَمَلِ بِالكُتُبِ والسُّنَّةِ : لِيَكُونَا شَاهِدِينَ لَكَ

تقدير ربع ذراع

عِنْدَ الله فِي أعْظَمِ المَشَاهِدِ - إِلَى أَنْ يَأْتِيَ إِلَى قَوْلِهِ فِي آخِرِهِ : والله تَعَالَى

الهامش يخلّد له رُتبة المُلْك التي أعلى بها مقامه ، ويُدِّمُه ناصراً للدين الحنيف

فأنصاره لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ؛ ويجعل سببَ هذا العهد

مدى الأيام متيناً ، ويجدّد له في كل وقت نصراً قريباً وفتحاً مبيناً ؛

والخط الحاكى أعلاه ، حجةً بمقتضاه

إن شاء الله تعالى

كتب في من شهر كذا

سنة كذا

بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى الحامى

أعلاه الله تعالى

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النوع الثالث

(من العهود عهودُ الملوك لولاية العهد بالملك)

وهو أن يعهد الملك بالملك بعده لمن يختاره من أولاده أو إخوته أو غيرهم من الأقارب أو الأجانب .

ويتعلق النظرُ به من سبعة أوجه :

الوجه الأول

(في بيان صحّة ذلك)

لما صحّت إمارة الاستيلاء إجماعاً للفتن ، وتنفيذاً للأحكام الشرعية على ما تقدّم من كلام الماوردي في النوع الثاني من العهود ، اقتضت المصلحة تصحيح العهد بالملك لما فيه من المعنى المتقدم . وقد جرت عهودُ من الملوك لأبنائهم بالديار المصرية وغيرها بحضرة الجُمّ الغفير من العلماء وأهل الحلّ والعقد فأَمْضَوْا حكم ذلك ولم ينكروه ، وذلك منهم دليلُ الجواز .

فإن قيل : قد تقدّم في النوع الثاني من العهود من كلام الماوردي أن وزير التفويض لا يجوز له أن يعهد بالوزارة لغيره ، ووزارة التفويض في معنى السلطنة الآن أو قريبةً منها على ما تقدّم هناك ، فالجواب : أنه قد تقدّم أن السلطنة الآن مُركّبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء ، بل السلطان الآن كالمستبد بالأمر ، والشوكة مصحّحة لأصل الولاية فلأن تكون مصحّحة لفرعها أولى .

الوجه الثاني

(فيما يكتب في الطرّة)

ينبغي أن يكون ما يكتب فيها على نحو ما يكتب في طرر عهود الملوك عن الخلفاء ،
إلا أنه يُزاد فيها : « عهد إليه بالملك بعده » كما يقال في عهود الخلفاء عن الخلفاء :
« عهد إليه بالأمر بعده » .

وهذه نسخة طرّة :

« هذا عهد شريف جليل قدره ، رفيع ذكره ، على ثخره ، متبلج صبحه صوى
بحره . من السلطان الأعظم الملك الفلاني فلان الدنيا والدين فلان ، خلد الله تعالى
سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه - بالسلطنة الشريفة لولده المقام العالي السلطاني
الملك الفلاني ، بلغه الله تعالى فيه غاية الآمال ، وحقق فيه للرعية ما يرجونه من مزيد
الإفضال ، على ما شرح فيه » .

الوجه الثالث

(في الألقاب التي تكتب في أثناء العهد)

وقد ذكر في " التعريف " أنه يكتب له : المقام الشريف أو الكريم ، أو العالي
محترداً عن الشريف والكريم ، ويُقتصر فيها على الألقاب المفردة دون المركبة .

قلت : وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ألقاب
الملك الصالح على بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده المذكور ،
فقال : « ولما كان المقام العالي الولدي السلطاني الملكي الصالح العبادي » .

وعلى نحو من ذلك كتب المشار إليه ألقاب الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس في عهده بالسلطنة عن والده المذكور ، فقال : « وخرج أمرنا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد » إلا أنه قد خالف ذلك فيما كتب به في ألقاب الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده فجمع بين الألقاب المفردة والمركبة ، فقال : « هذا عهدنا للسيد الأجل الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين ، نحر الملوك والسلاطين ، خليل أمير المؤمنين » ولم يتعرض في التعريف لحكاية هذا المذهب ، مع كون كلام ابن عبد الظاهر حجة يرجع إليه في هذا الفن .

الوجه الرابع

(ما يكتب في المستند)

ويتعين أن يكتب فيه « حسب المرسوم الشريف » لصُدوره عن السلطان كما يكتب في التقاليد .

الوجه الخامس

(ما يكتب في متن العهد)

وللكتاب فيه طريقتان :

الطريقة الأولى — أن يفتح العهد بعد البسملة بلفظ « هذا » ونحوه على ما تقدم في عهود الملوك عن الخلفاء .

وعلى هذه الطريقة كتب أبو بكر بن القصيرة المغربي الكاتب عن أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » سلطان المغرب بولاية عهده لابنه أبي الحسن على ما بيده من الغرب والأندلس ، في ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وهو :

كُتِبَ تَوَلِيَّةٌ عَظِيمٌ جَسِيمٌ ، وَتَوْصِيَّةٌ حَمِيمٌ كَرِيمٌ ، مُهَّدَتْ عَلَى الرِّضَا قَوَاعِدُهُ ،
وَأُكِّدَتْ بِيَدِ التَّقْوَى مَعَاقِدُهُ ، وَأُبْعِدَتْ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالْهَوَى مَصَادِرُهُ وَمَوَارِدُهُ ،
أَنْفَذَهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرُ الدِّينِ ، أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ ، أَدَامَ اللَّهُ أَمْرَهُ ،
وَأَعَزَّ نَصْرَهُ ، وَأَطَالَ فِيهِمَا يُرْضِيهِ وَيَرْضَى بِهِ عَنْهُ عُمَرَهُ ، غَيْرَ مُحَابٍ ، وَلَا تَارِكٍ
فِي النَّصِيحَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ مَوْضِعَ آرْتِيَابٍ لِمُرْتَابٍ - لِلْأَمِيرِ الْأَجَلُ أَبُو الْحَسَنِ
عَلَى ابْنِهِ الْمُتَقَبِّلِ شَيْمِهِ وَهَمَمِهِ ، الْمُتَأَنِّلِ حِلْمِهِ وَتَحَلُّمِهِ ، النَّاشِئُ فِي حَجَرِ تَقْوِيمِهِ وَتَأْدِيبِهِ ،
الْمُتَصَرِّفُ بَيْنَ يَدَيِ مُتَحَدِيهِ وَتَهْدِيهِ ، أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ وَتَوْفِيقَهُ ، وَأَنْهَجَ إِلَى كُلِّ صَالِحٍ
مِنَ الْأَعْمَالِ طَرِيقَهُ ، وَقَدْ تَهَمَّ بِمَنْ تَحْتَ عَصَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا فِيمَنْ يُخَلِّفُهُ
فِيهِمْ هُدًى لِلتَّقِينَ ، وَلَمْ يَرَأَنَّ يَتَرَكُهُمْ سُدًى غَيْرَ مَدِينِينَ ، فَأَعْتَمَّ فِي النَّصَابِ الرَفِيعِ
وَأَخْتَارَ ، وَاسْتَنْصَحَ أُولَى الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ وَاسْتَشَارَ ، وَاسْتَضَاءَ بِشِهَابِ
اسْتِخَارَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَنَارَ ، فَلَمْ يُوقِعِ اللَّهَ بَعْدَ طُولِ تَأَمُّلٍ ، وَتَرَاحِي مُدَّةٍ وَتَهْمَلٍ ،
اِخْتِيَارَهُ وَلَا اخْتِيَارَ مَنْ فَاوَضَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ أُولَى التَّقْوَى وَالْحِكْمَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ
وَاسْتَشَارَهُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا صَارَ بِهِ وَبِهِمُ الْإِجْتِهَادُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا التَّقْيُّنُ وَرَادُّ التَّرَائِي
وَالْتَشَاوُرُ إِلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَوَلَّاهُ عَلَى اسْتِحْكَامٍ بَصِيرَةٍ وَبَعْدَ طُولِ مَشُورَةٍ عَهْدَهُ ،
وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ بَعْدَهُ ، وَجَعَلَهُ خَلِيفَتَهُ فِي رِعَايَا مَسْنَدِهِ
وَأَوْطَأَ عَقِبَهُ جَمَاهِيرَ الرِّجَالِ ، وَنَاطَهُ بِمُهِمَّاتِ الْأُمُورِ وَالْأَحْوَالِ ، وَعَهَّدَ إِلَيْهِ أَنْ
يَتَّقِيَ اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ ، وَلَا يَعْدِلَ عَنْ سَبْتِ الْعَدْلِ وَحُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي أَحَدٍ
عَصَى أَوْ أَطَاعَ ، وَلَا يَنَامَ بِهِ عَنْ حِمَايَةِ مَنْ أَسْهَرَ الْحَيْفَ وَالْخَوْفَ وَالْإِضْطِجَاعَ ،
وَلَا يَنْتَهَى دُونَ مَعْلَنِ شَكْوَى ، وَلَا يَتَصَمَّمُ عَنْ مُسْتَصْرِخٍ لِدِفَاعِ بَلْوَى ، وَأَنْ يَنْتَظِمَ
أَقْصَى بِلَادِهِ وَأَدْنَاهَا فِي سِلْكِ تَدْبِيرِهِ ، وَلَا يَكُونَ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ مِنْ رِعْيَتِهِ بَوْنٌ

في إحصائه وتقديره؛ ثم دَعَا - أدام الله تأييده - لمبايعته مَنْ دَنَا ونَأَى من المسلمين، فلبَّوْا مسرِّعين وأَتَوْا مُهْطِعِينَ، وأَعْطَوْا صَفْقَةَ أَيْمَانِهِمْ متبرِّعين متطوِّعين؛ وبأبْغَوْهُ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ، والْتِزَامَ سَنَنِ الْجَمَاعَةِ؛ وبَدَّلَ النصيحة، وإِصْفَاءَ النَّيَّاتِ الصَّحِيحَةِ؛ ومُؤَادَّةَ مَنْ صَاحَبَهُ، ومُحَارَبَةَ مَنْ حَارَبَهُ؛ ومُكَايَدَةَ مَنْ كَايَدَهُ، ومُعَانَدَةَ مَنْ عَانَدَهُ؛ لَا يَدْنَحُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى حَالِ الْمَكْرِهِ وَالْمُنْشَطِ مَقْدِرِهِ، وَلَا يَحْتَجُّونَ فِي وَقْتِ السُّخْطِ وَالرِّضَا بِمَعْدِرِهِ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِخَاطِبَةِ أَهْلِ الْبِلَادِ لِتُبَايَعِهِ كُلِّ طَائِفَةٍ فِي بِلَدِهَا، وَتُعْطِيَهُ كَمَا أَعْطَاهُ مَنْ حَضَرَ صَفْقَةَ يَدِهَا؛ حَتَّى يَسْتَوِيَ فِي الْإِتْرَامِ بَيْعَتُهُ، الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَيَجْتَمِعَ عَلَى الْإِعْتَصَامِ بِحُجْلِ دَعْوَتِهِ، الْغَائِبُ وَالشَّهِيدُ؛ وَتَطْمَئِنَّ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ وَخَيْرِهِمْ قُلُوبٌ كَانَتْ مِنْ تَرَاخِي مَا آتَنَجَزَ قَلْقَهُ، وَلَمْ تَزَلْ بِبَقِيَةِ التَّأَثُّرِ أَرْقَهُ؛ وَيَشْمَلُ النَّاسَ السُّرُورُ وَالْأَسْتِيشَارُ، وَتُمْكِنُ لَهُمُ الدَّعْوَةُ وَيَتَمَهَّدُ الْقَرَارُ؛ وَتَشَأُ فِي الصَّلَاحِ لَهُمْ آمَالٌ، وَيَسْتَقْبِلُهُمْ جَدُّ صَاعِدٌ وَإِقْبَالٌ، وَاللَّهُ يُبَارِكُ لَهُمْ فِيهَا بَيْعَةَ رِضْوَانٍ، وَصَفْقَةَ رُحْمَانٍ، وَدَعْوَةَ إِيْمَانٍ؛ إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ .

شهد على أمير المسلمين ناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين - أدام الله أمره، وأعز نصره - بكلِّ ما ذكر عنه من الْإِتْرَامِ الْبَيْعَةِ الْمَنْصُوصَةِ فَوْقَ هَذَا، وَأَعْطَى صَفْقَةَ يَمِينِهِ مَتَبَرِّعًا بِهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ . وَذَلِكَ بِحَضْرَةِ قُرْطُبَةَ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى .

الطريقة الثانية - أَنْ يُفْتَتَحَ الْعَهْدُ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ بِمُخْطَبَةٍ مُفْتَتَحَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْمِصْرِيِّينَ، وَعَلَيْهَا أَقْتَصَرَ الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التعريف" وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ كَتَبَ الْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ عَنِ الظَّاهِرِ بَيْرُوسَ عَهْدَ وَلَدِهِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ بَرَكَةً، وَهَذِهِ نَسْخَتُهُ :

(١) فِي الْأَصُولِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ سُوْعَمَا تَقْدَمُ فَعْنَبُهُ .

الحمد لله منمى الغروس، ومبجج النفوس، ومزين سماء المملكة بأحسن الأهلّة
وأضواء البدور وأشرق الشموس؛ الذى شدّ أزر الإسلام، بملوك يتعاقبون مصالِح
الأنام، ويتناوبون تديرهم كتّاب العيين واليدى فى مهمّات الأجساد وملمّات
الأجسام.

نحمده على نعمه التى أبقت جفن الشكر المتغافى، وأوردت نهل الفضل الصافى،
وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوفى وأخذت بالوزن الوافى؛
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبّد كثر الله عدده وعدّده،
وأحمد أمسه ويومه ويحمده - إن شاء الله تعالى - غده؛ ونصلى على سيدنا محمد
الذى أطلع الله به نجم الهدى، وألبس المشركين به أردية الردى؛ وأوضح به
منهج الدين وكانت طرائق قددا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة
لا تنقضى أبدا.

وبعد، فإننا [بما] ألهمنا الله من مصالح الأمم، وخولنا من الحرص على مهمّات
العباد الذى قطع به شافة الكفر وختم، وأتى به والشرك قد علم كل أحد اشتعال
ناره فكان علما بنار مضرمة لا نارا على علم؛ وقدّره من رفع الكفر من جميع
الجوانب، وقفوهم من كل جهة حتى رماهم بالحنف الواصل والعذاب الواصب؛
فأصبح الشرك من الإبادة فى شرك، والإسلام لا يحشئ من قتل ولا يخاف من
درك؛ وتغور الإسلام عالية المبتنى، جانية مमार الإِدْخار من هنا ومن هنا؛ تراحم
بروجها فى السماء البروج، وتشاهد الأعداء منها سماء قد بنيت وزيّنت وما لها من
فروج؛ وعساكر الملة الحمديّة فى كل طرف من أطراف الممالك تجول، وفى كل
وايدٍ تهم حتى تشعّر بالنصر ولكنها تفعل ما تقول؛ قد دوّخت البلاد فقتلت الأعداء

(١) تارةً بالإلمام وتارةً بالإذهام ، وسلَّتْ سُيوفُها فراعَتَهُمْ يَقْظَةً بِالْقِرَاعِ وَنَوْمًا بِالْأَحْلَامِ ؛ ترى أَنَا قد لَدَّ لَنَا هذا الأَمْرُ التِّدَاذَ المُسْتَطِيبَ ، وَحَسُنَ لَدَيْنَا مَوْقِعُهُ فَعَكْفُنَا عَلَيْهِ عُكُوفَ المُسْتَجِيدِ وَلَبَّيْنَاهُ تَلْبِيَةَ المُسْتَجِيبِ ؛ وَجَعَلْنَا فِيهِ جَمِيعَ الآلَاتِ وَالْحَوَاسِ ، وَتَقَسَّمتْ مَبَاشِرَتُهُ وَمُؤَامَرَتُهُ سَائِرَ الزَّمَنِ حَتَّى غَدَا أَكْثَرَ تَرَدُّدًا إِلَى النَّفْسِ مِنَ الْإِنْفَاسِ ؛ وَاسْتَنْفَدْنَا السَّاعَاتِ فِي أَمْتِطَاءِ الْمُضْمَرِّ الشَّمُوسِ ، وَأَدْرَاعِ مُحْكَمِ الدَّلَاصِ الَّتِي كَانَهَا وَمِضُّ بَرَقٍ أَوْ شُعَاعُ شَمْسٍ ؛ وَتَجْرِيدِ الْمُرْهَفَاتِ الَّتِي جَفَتْ لِحَاطِهَا الْأَجْفَانِ ، وَجَرَتْ فَكَالْمِيَاهِ وَأُضْرِمَتْ فَكَالنَّيرانِ ؛ وَتَفْوِيقِ السَّهَامِ الَّتِي غَدَتْ قِسِيهَا مَرَابِعًا نَبَالُهَا بَانَ (؟) ، وَاعْتِقَالِ السَّمْهَرِيَّةِ الَّتِي تَقَرَّعَ الْأَعْدَاءُ سِنَهَا نَدَمَا كَمَا قَرَعَتْ هِيَ السِّنَانَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ غَارَةٍ شَعَوَاءَ نُسَى لِّلْكَفَّارِ الصَّبَاحِ ، وَتَصْدِمُ كَالْجِبَالِ وَتَسِيرُ كَالرِّيَّاحِ ؛ وَمُنَازَلَاتٍ كَمْ اسْتَلَبْتُ مِنْ مَوْجُودٍ ، وَكَمْ اسْتَنْجَزْتُ مِنْ نَصِيرٍ مَوْعُودٍ ، وَكَمْ مَدِينَةٍ أَصَحَّتْ لَهَا مَدِينَةٌ وَلَكِنْ أَخْرَهَا اللَّهُ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ .

وكانت شجرتنا المباركة قد أمتدَّتْ مِنْهَا فَرْعٌ تَفَرَّسْنَا فِيهِ الزِّيَادَةَ وَالنُّمُوَّ ، وَتَوَسَّمتْنَا مِنْهُ حُسْنَ الْجَنَى الْمَرْجُوقِ ؛ وَرَأَيْنَا أَنَّهُ الْهَلَالُ الَّذِي قَدْ أَخَذَ فِي تَرْقِيٍّ مَنَازِلِ السُّعُودِ إِلَى الْإِبْدَارِ ، وَأَنَّهُ سِرْنَا الَّذِي صَادَفَ مَكَانَ الْإِخْتِبَارِ لَهُ مَكَانَ الْإِخْتِيَارِ ؛ فَأَرَدْنَا أَنْ نَنْصِبَهُ فِي مَنْصِبٍ أَحَلَّنَا اللَّهُ فِيسِيحِ غُرْفِهِ ، وَنُسَرِّفَهُ بِمَا خَوَّلَنَا اللَّهُ مِنْ شَرَفِهِ ؛ وَأَنْ تَكُونَ يَدُنَا وَيَدُهُ تَلْتَقِطَانِ مِنْ ثَمَرِهِ ، وَجِيْدُنَا وَجِيْدُهُ يَتَحَلَّيَانِ بِجَوْهَرِهِ ؛ وَأَنَا نَكُونُ لِلْسَّاطِنَةِ الشَّرِيفَةِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ، وَلِلْمَلِكَةِ الْمُعْظَمَةِ فِي التَّنَاوُبِ بِالْإِضَاءَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ؛ وَأَنْ تَصُولَ الْأُمَّةُ مِنَّا وَمِنْهُ بِحَدِّينَ ، وَيَطِطُّوا مِنْ أَمْرِنَا وَأَمْرِهِ بِيَدَيْنِ ، وَأَنْ نُزَيِّبَهُ عَلَى حُسْنِ سِيَاسَةٍ تَحْمَدُ الْأُمَّةُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عَاقِبَتَهَا عِنْدَ الْكِبَرِ ، وَتَكُونُ

الأخلاق الملوكة منتشة منه ومنتشة به من الصغر؛ ونجعل سعى الأمة حميدا، ونهب لهم منه سلطانا نصيرا ومُلْكا سعيدا؛ ونقوى به عضد الدين ونريش جناح الملكة، ونُفِّح مَطْلَبَ الأمة بآياله وكيف لا يُنْجَح مَطْلَبُ فيه بركه؟ .

ونخرج أمرنا لا بَرَح مُسْعِدا ومُسْعِفا، ولا عَدِمَتِ الأمة منه خَلْفًا مُنِيلاً ونَوْءًا مُخْلِفا؛ بأن يُكْتَبَ هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين « بركة خاقان محمد » جعل الله مَطْلَعَ سعده بالإشراق مُحْفُوفًا، وأرى الأمة من مِيَامِنِهِ ما يُدْفَعُ لِلدَّهْرِ صَرْفًا وَيُحْسِنُ بالتدبير تَصْرِيفًا - بولاية العهد الشريف على قُرْبِ البلاد وبعدها، وغورها ونَجْدِها؛ وقلاعها وتُغُورِها، وبرورها وبحورها؛ وولاياتها وأقطارها، ومُدُنِها وأمصارها؛ وسهْلِها وجبْلِها، ومُعْطَلَّها ومُغْتَلَّها؛ وما تَحْوِي أقطاره الأحلام، وما يُنْسَبُ للدولة القاهرة من يَمِينٍ وَحِجَازٍ وَمِصْرٍ وَغَرْبٍ وَسَوَاحِلٍ وَشَآمٍ بعد شام؛ وما يتداخل ذلك من قِفَارٍ ومن بَيْدٍ في سائر هذه الجهات، وما يتخلَّلُها من نِيلٍ ومِلْحٍ وَعَذَبٍ فُرَاتٍ؛ ومن يسكنُها من حَقِيرٍ وَجَلِيلٍ، ومن يَحُلُّها من صَاحِبِ رُغَاءٍ وَتُغَاءٍ وَصَلِيلٍ وَصَهِيلٍ؛ وجعلنا يده في ذلك كله المَبْسُوطَ، وطاعته المَشْرُوطَ ونَوَامِيسَه المَضْبُوطَ؛ ولا تَدِيرُ مُلْكٌ كُلِّيًّا إِلَّا بِنَا أَوْ بَوْلَدُنَا يُعْمَلُ، ولا سَيْفٌ ولا رِزْقٌ إِلَّا بِأَمْرِنَا هَذَا يُسَلُّ وَهَذَا يُسَالُّ؛ ولا دَسْتُ سُلْطَنَةٍ إِلَّا بِأَحْدَانَا يَتَوَضَّعُ مِنْهُ الإِشْرَاقُ، ولا عُصْنُ قَلَمٍ فِي رَوْضِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ إِلَّا وَلَدِنَا وَلَدِيهِ تَمْتَدُّ لَهُ الْأَوْرَاقُ؛ ولا مَنَبَرُ خُطْبَةٍ إِلَّا بِاسْمِنَا يَمِيسُ، ولا وَجْهَ دِرْهَمٍ ولا دِينَارٍ إِلَّا بِنَا يُشْرِقُ وَيَكَادُ تَبَرُّجًا لَا بَهْرَجًا يَتَطَّلَعُ مِنْ خِلَالِ الْكِيسِ .

فَلْيَتَقَلَّدْ الْوَلَدُ مَا قَلَّدَنَاهُ مِنْ أُمُورِ الْعِبَادِ، وَلْيَشْرُكْنَا فِيمَا نُبْشِرُهُ مِنْ مَصَالِحِ الثُّغُورِ وَالْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ؛ وَسَتُعَاهِدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنَ الْوَصَايَا بِمَا سَيَدْشَأُ مَعَهُ تَوْعَمًا، وَيَمْتَرِجُ

(١) يقال أنبلت الرجل ونبلته اذا ناولته النبل ليرى والمراد أنه نافع معين تأمل .

بَلِّغْهُ وَدَمِهِ حَتَّى يَكَادَ يَكُونُ ذَلِكَ إلهَامًا لَا تَعْلَمُ ؛ وَفِي الْوَلَدِ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ نَفَازِ
الذَّهْنِ وَصِحَّةِ التَّصَوُّرِ مَا تَتَشَكَّلُ فِيهِ الْوَصَايَا أَحْسَنَ التَّشْكِيلِ ، وَتُظْهَرُ صُورَةُ الْإِبَانَةِ
فِي صِفَائِهِ الصَّغِيرِ ؛ فَلِذَلِكَ آسْتَعِينَا عَنْ شَرْحِهَا هَاهُنَا مَسْرُودَةً ، وَفِيهِ - بِحَمْدِ اللَّهِ -
مِنْ حُسْنِ الْخَلِيقَةِ مَا يَحَقِّقُ أَنَّهَا بَشَرَفُ الْإِلْهَامِ مُوجُودَةٌ ؛ وَاللَّهُ لَا يُعْذِمُنَا مِنْهُ إِشْفَاقًا
وَرِيًّا ، وَيَجْعَلُهُ أَبَدًا لِلْأُمَّةِ سَنَدًا وَدُخْرًا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر أيضا عن المنصور « قلاوون »
عهد ولده الملك الأشرف صلاح الدين « خليل » وهذه نسخته :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لَهُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَمَرَ ، وَالرِّضَا وَالشُّكْرُ فِيمَا هَدَمَ مِنْ
الْأَعْمَارِ وَمَا عَمَرَ ، وَالتَّقْوِيضُ فِي التَّعْوِيضِ إِنْ غَابَتِ الشَّمْسُ بِقِي الْقَمَرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَ سُلْطَانَنَا ثَابِتَ الْأَرْكَانِ ، كُلِّ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِهِ ذَاتُ أَفْنَانٍ ؛
لَا تُزْعِزُهُ رِيحٌ عَقِيمٌ ، وَلَا يُخْرِجُهُ رُزْءٌ عَظِيمٌ عَنِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ ؛ وَلَا يُعْتَبِطُ مِنْ جَمَلَتِهِ
كَرِيمٌ إِلَّا وَيُعْتَبِطُ مِنْ أَسْرَتِهِ بِكَرِيمٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
تَزِيدُ قَائِلَهَا تَقْوِيضًا وَتُجْزِلُ لَهُ تَعْوِيضًا ، وَتُحْسِنُ لَهُ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فِي كُلِّ
خَطْبٍ جَلِيلٍ تَحْرِيزًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي التَّسْلِيمِ :
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ . وَالنَّبِيُّ الَّذِي أَوْضَحَ بِهِ الْمَنَاجِحَ
وَبَيَّنَ بِهِ السُّبُلَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا تَجَاوَبَتِ الْحَاوِيَةُ وَالْمَنَابِرُ فِي الْبُكْرِ
وَالْأَصْلِ ؛ وَمَا ثَبَرَتْ عُقُودُ وَنُظِمَتْ ، وَنُسِخَتْ آيَاتُ وَأُحْكِمَتْ ؛ وَنُقِضَتْ أُمُورٌ
وَأُبْرِمَتْ ، وَمَا عَزَمَتْ آرَاءُ فَنَوَكَلْتُ وَتَوَكَّلْتُ فَعَزَمْتُ ؛ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ

الذين منهم من كان للخليفة نعم الخليفة ، ومنهم من لم يدرك أحد في تسويد النفس الحصىفة ولا في تبيض الصحيفة مدّه ولا نصيفه ، ومنهم من يسره الله لتجهيز جيش العسرة فعرف الله ورسوله معروفه ، ومنهم من عمل صالحاً أرضى ربه وأصلح في ذريته الشريفه .

وبعد ، فإن من ألطاف الله تعالى بعباده ، واكتناف عواطفه ببلاده ؛ أن جعلنا كُلماً وهى لللك ركن شديد شيدنا ركنًا عوضه ، وكلما أعتزت للقادير جملة بدلنا آية مكان آية وتناسينا - تجلدا - تلك الجملة المعترضه ؛ فلم يُجوج اليوم لأمسه ، وإن كان حميدا ، ولا الغارس لغرسه ، وإن كان ثمره يانعا وظله مديدا ؛ فأطاعنا في أفق السلطنة كوكبا سعيذا كان لحسن الاستخلاف معدا ، ومن لقييل المسلمين خير ثوبا وخير مرّدا ؛ ومن يبشر الله به من الأولياء المتقين وينذر من الأعداء قوما لدا ، ولم يبق [إلا] به أنسنا بعد ذهاب الذين تحسبهم (كالسيف فردا) ؛ والذي مامضى حده ضريبة إلا (قد البيض والأبدان قدا) ؛ ولا جهز راية كتيبة إلا أغنى غناء الذاهبين وعدّ الأعداء عدا ؛ ولا بعثه جزع فقال : (كم من أخ لي صالح) إلا لقيه ورع فقال : (وخلقت يوم خلقت جلدا) ؛ وهو الذى بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف وبالرعايا الأرف ؛ وهو الذى ما قبل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا بناء مثله منه أنسى ملك أشرف . والذي ما برح النصر يتسم من مهاب تأمله الفلاح ، ويتسم ثغره فتوسم الثغور من مبسمه النجاح ؛ ويقسم نوره على البسيطة فلا مضر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح ، ويتفتق اشتقاق الثعوت فيقول التسلى للتلى : سواء الصالح والصلاح ؛ والذي ما برح لشعار السلطنة إلى توقله وتنقله أتم حنين ، وكأنما كوشفت الإمامة العباسية بشرف مسماه فيما تقدّم من زمن سلف ومن حين ؛ فسمت ووسمت باسمه

أَكْبَارِ الْمُلُوكِ وَأَخْيَارِ السَّلَاطِينِ ، نُحُوطَبَ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَا جَازَا لَا كَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ «بِجَلِيلِ»
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَالَّذِي [كَمْ] جَلَّابِهِىَّ جَبِينَهُ مِنْ بِيْهِمْ ، وَكَمْ غَدَا الْمُلْكُ بِحُسْنِ رُؤَايِهِ
 وَيُمْنِ آرَائِهِ يَسِيمِ ، وَكَمْ أَبْرَأَ مَوْرُدُهُ الْعَذْبُ هَيْمَ عِطَاشٍ وَلَا يُتَنَكَّرُ الْخَلِيلُ إِذَا قِيلَ عَنْهُ
 أَبْرَاهِيمُ ؛ وَمَنْ تَشَخَّصَ الْأَبْصَارُ لِكَمَالِهِ يَوْمَ رُكُوبِهِ حَسِيرِهِ ، وَتَلْقَى الْبَنَانُ سِلَاحَهَا ذَهَلًا
 وَهِيَ لَا تَدْرِي لِكثَرَةِ الْإِيْمَاءِ إِلَى جَلَالِهِ إِذَا يَبْدُو مَسِيرِهِ ؛ وَالَّذِي أَلْهِمَ اللَّهُ الْأُمَّةَ لِحُودِهِ
 وَوُجُودَهُ صَبْرًا جَمِيلًا ، وَأَتَاهُمْ مِنْ نَفَاسَةِ كَرَمِهِ وَحِرَاسَةِ سَيْفِهِ وَقَلَمِهِ تَأْمِينًا وَتَأْمِيلًا ؛
 وَعَظُمَ فِي الْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ بِمَا مِنْ بَرٍّ سَيَكُونُ فَسَمَتَهُ الْأَبُوتَةُ الشَّرِيفَةُ وَلَدَا وَسَمَّاهُ اللَّهُ
 « خَلِيلًا » .

وَلَمَّا تَحْتَمَّ مِنْ تَفْوِيضِ أَمْرِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ مَا كَانَ لَوْفَتِهِ الْمَعْلُومُ قَدْ تَأَنَّرَ ، وَتَحَيَّنَ
 حِينَهُ فَكَبَّلَ زِيَادَةَ كَرِيَادَةِ الْهَلَالِ حَتَّى بَادَرَ تَمَامَهُ فَأَبْدَرَ ؛ أَقْتَضَى حُسْنَ الْمُنَاسِبَةِ
 لِنَصَائِحِ الْجُمْهُورِ ، وَالْمِرَاقَبَةِ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ ؛ وَالْمُصَاقَبَةِ لِمَنَاجِحِ الْبِلَادِ وَالثُّغُورِ ، وَالْمُقَارَبَةِ
 مِنْ قَوَاتِحِ كُلِّ أَمْرٍ مَيَسُورٍ ؛ أَنْ تُفَوِّضَ إِلَيْهِ وَلَايَةَ الْعَهْدِ الشَّرِيفِ بِالسُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ
 الْمَعْظُمَةِ ، الْمَكْرَمَةِ الْمَفْخَمَةِ الْمُنَظَّمَةِ ؛ وَأَنْ يَبْسُطَ يَدَهُ الْمُتَيْفَةَ لِمَصَاحِفِهَا بِالْعُهُودِ ،
 وَتَحْكُمُهَا فِي الْعَسَاكِرِ وَالْجُنُودِ ، وَفِي الْبُحُورِ وَالثُّغُورِ وَفِي التَّهَائِمِ وَالتَّجُودِ ؛ وَأَنْ يُعَدِّقَ
 بِبَسْطِهَا وَقَلَمِهَا كُلَّ قَطْعٍ وَوَصْلٍ ، وَكُلَّ فَرْعٍ وَأَصْلٍ ، وَكُلَّ نَصْرٍ وَنَصْلٍ ؛ وَكُلَّ مَا يَجِبُ
 سَرَحًا ، وَيَهْمِي مَنَحًا ، وَفِي الْمُتَشِيرَاتِ فِي الْإِعْدَاءِ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَقْعًا وَفِي الْمُغِيرَاتِ
 صُنْبًا ؛ وَفِي الْمَنْعِ وَالْإِطْلَاقِ ، وَفِي الْإِرْفَادِ وَالْإِرْفَاقِ ؛ وَفِي الْخَمِيسِ إِذَا سَاقَ ،
 وَفِي السُّيُوفِ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي وَقِيلَ مَنْ رَاقَ ، وَفِي الرِّمَاحِ إِذَا أَلْتَفَتِ السَّاقُ
 بِالسَّاقِ ؛ وَفِي الْمُعَاهَدَاتِ وَالْهَدَنِ ، وَفِي الْفِدَاءِ بِمَا عَرَضَ مِنْ عَرَضٍ وَبِالْبُدْنِ
 بِالْبَدْنِ ؛ وَفِيمَا ظَهَرَ مِنْ أُمُورِ الْمُلْكِ وَمَا بَطَنَ ، وَفِي جَمِيعِ مَا تَسْتَدْعِيهِ بَوَاعِثُهُ ، فِي السَّرِّ
 وَالْعَلَنِ ، وَتَسْتَرِعِيهِ نَوَافِثُهُ ، مَنْ كَبَتْ وَكُتِبَ مُتَفَرِّقَيْنِ أَوْ فِي قَرْنٍ ؛ عَهْدًا مَبَارَكًا عَوْدُهُ

وتماثمه ، وفواتحه وخواتمه ؛ ومناسمه ومياسمه ، وشروطه ولوازمه ؛ وعلى عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبار السموات قائمه ؛ لا راد لحكمه ولا ناقض لبرمه ، ولا داحض لما أثبتته الأقاليم من مكنون علمه .

[و] يزيده مرّ الليلي جدّة * وتقادّم الأيام حسن شباب

وتلزم السنون والأحقاب ، استيداعه للذرائع والأعقاب ؛ فلا سلطان ذو قدر وقدره ، ولا ذو أمر وإمره ؛ ولا نائب في مملكة قربت أو بعدت ، ولا مقدم جيوش أتهمت أو أنجذت ، ولا راجع ولا رعية ، ولا ذو حكم في الأمور الشرعية ؛ ولا قلم إنشاء ولا قلم حساب ، ولا ذوو أنساب ولا ذوو أسباب ؛ إلا وكلّ داخل في قبول هذا العقد الميمون ، وتمسك بحكم كتابه المكنون ، والتسليم لنصّه الذي شهد به من الملائكة الكرام الكاتبون ؛ وأمست بيعته بالرضوان محفوفة ، والأعداء يدعونها تضرعاً وخيفة ، وليشكروا الصنيع الذي بعد أن كانت الخلفاء تسلمن المملوك قد صار سلطانهم يقيم من ولاية العهد خليفة بعد خليفه .

وأما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف - أعزك الله - بها الدرب ، ولسماع شدوها وحدوها الطرب ، الذي للغو لا يضطرب ؛ فعليك بتقوى الله عز وجل فإنها ملاك سدادك ، وهلاك أضدادك ؛ وبها يراش جناح نجاحك ، ويحسن اقتداء اقتداحك ؛ فاجعلها دفين جوانج تأمليك ووعيك ، ونصب عيني أمرك ونهيك ؛ والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع ، ومأمون الأمر المستمع ؛ وعليه مدار إعاء كل إيعاز ، وبه يتمسك من أشار وأمتاز ، وهو جنة والباطل نار : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ . فلا تخرج في كل حال عن لوازمه وشروطه ، ولا تتكبر عن معلقه ومنوطه . والعدل فهو مثمر غروس الأموال ، ومعمّر بيوت

الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال؛ فاجعله جامع أطراف مراسمك، وأفضل أيام مواسمك؛ وسم به فعلك، وسم به فرضك ونفلك، ولا تُفرد به فلانا دون فلان، ولا مكانا دون مكان، وأقرنه بالفضل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. وأحسن التخويل، وأجل التتويل؛ وكثر لمن حولك التتوين والتتويل، وضاعف الخير في كل مضاف لقامك، ومُستضيف بإنعامك؛ حتى لاتعدم في كل مكان وكل زمان ضيافة الخليل؛ والشُّغور فهي للمالك مباسمها، وللسالك مناسمها؛ فاجعل نواجذها تفتُر عن حسن ثنايا الصون، ومراسفها شنية الشفاه بحسن العون؛ ومنها، بما يجي السرح منها، وأعنها، بما يدفع المكاره عنها؛ فإنها للنصر مقاعد، وبها حفظ البلاد من كل مار من الأعداء وارد؛ وأمرأ الجيوش فهم السور الواقي بين يدى كل سور، وما منهم إلا كل بطل بالنصر مشهور، كما سيفه مشهور؛ وهم ذخائر الملوك، وجواهر السلوك، وأخير الأكار الذين خلصوا من الشكوك؛ وما منهم إلا من له خدمات سلفت، وحقوق عرفت، وموات على استلزام الرعاية للعهد وقفت؛ فكُنْ لجنودهم منجبا، ولمرأبهم محصبا، ولمصلحهم مرثبا، ولآرائهم مستصوبا، ولاعتصادهم مستصحبا، وفي حمدهم مطمئنا، وفي شكرهم مُسبها؛ والأولياء المنصورين الذين هم كالأولاد، ولهم سوايق أمت من سوايق الإيجاد؛ وهم من علمت استكانة من قربنا، ومكانة من قلبنا؛ وهم المساهمون فيما ناب، وما برحوا للدولة الظفر والناب؛ فأُسبهم لكل منهم من احترامك نصيبا، وأدم لهم آرتياحك، وألن جماحك، وقوهم بسلاحك، تجد منهم ضروبا؛ وترى كلاً منهم في أعدائك ضروبا.

وكما أنا نوصيك بجيوش الإسلام، كذا نوصيك بال جيش الذى له الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام؛ فهو جيش الأمواه والأمواج، المضاف إلى الأفواج من جيش

الْفَجَاجُ ؛ وَهُوَ الْجَيْشُ السَّلِيمَانِيُّ فِي إِسْرَاعِ السَّيْرِ ، وَمَا سُمِّيَتْ شَوَانِيهِ غِرْبَانَا
إِلَّا لِجَمْعِهَا بِهَا لَنَا مَا أَجْتَمَعَ لِسُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ وَالطَّيْرِ ؛
وَهِيَ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى شَجِّ الْبَحْرِ الْأَسْوَارِ ، فَإِنْ قُدِّتْ قَذِفَتْ الرِّعْبَ فِي قُلُوبِ
الْأَعْدَاءِ وَإِنْ أَقْلِعَتْ قَلَعَتْ مِنْهُمْ الْآثَارَ ؛ فَلَا تُحْلِلُهُ مِنْ تَجْهِيْزِ جَيْشِهِ ، وَسَكَنُ طَيْشِ
الْبَحْرِ بَطْنِشِهِ ؛ فَيُصْبِحُ لَكَ جَيْشَانِ كُلُّ مِثْمَا ذَوْكَرٌّ وَقَرْ ، : هَذَا فِي بَرْجَرٍ وَهَذَا بِحَرِّ
بَرْ ؛ وَبُيُوتُ الْعِبَادَاتِ فَهِيَ الَّتِي إِلَى مَصْلَى سَمِيَّكَ « خَلِيل » اللَّهُ تَنْتَهَى مَحَارِبُهَا ،
وَبِهَا لَنَا وَلَكَ وَلِلْمُسْلِمِينَ سُرَى الدَّعَوَاتِ وَتَأْوِيْهَا ؛ فَوْفَهَا نَصِيْبُهَا الْمَفْرُوضَ غَيْرَ مَنْقُوصَ ،
وَمُرَّ بَرْعِهَا وَذَكَرِ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى [فِيهَا] لِلْأَمْرِ الْمَنْصُوصِ ؛ وَأَخَوَاتُهَا مِنْ بُيُوتِ
الْأَمْوَالِ الْوَاجِبَاتِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا كُلُّهَا بُيُوتُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ : هَذِهِ
لِلصَّلَاةِ وَهَذِهِ لِلصَّلَاتِ ؛ وَهَذِهِ كَهَذِهِ فِي رَفْعِ الْمَنَارِ وَجَمْعِ الْمَبَارِ ، وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ
مِمَّا أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ فَهَذِهِ تُرْفَعُ وَيَذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ حَتَّى عَلَى الدَّرْهِمِ
وَالدِّيْنَارِ ؛ فَاصْرِفْ إِلَيْهَا أَجْتِهَادَكَ فِيمَا يُعُودُ بِالنَّشْمِيرِ ، كَمَا يُعُودُ عَلَى تِلْكَ بِالتَّنْوِيرِ ؛ وَعَلَى
هَذِهِ بِاشْتِحَانِهَا بِأَنْوَاعِ الصُّرُوفِ ، كَإِشْتِحَانِ تِلْكَ بِاسْتِوَاءِ الصُّفُوفِ ، فَإِنَّهَا إِذَا أَصْبَحَتْ
مَصُونَةً ، أَجْمَلَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ الْمَعُونَةِ ؛ وَكَفَلَتْ بِالْمَعُونَةِ وَبِالزِّيَادَةِ عَلَى الْمَعُونَةِ ، فَتُكَمَّلُ
هَذِهِ لِكُلِّ وَلِيٍّ دُنْيَاهُ كَمَا كَمَلَتْ تِلْكَ [لِكُلِّ] وَلِيٍّ دِينُهُ ؛ وَحُدُودُ اللَّهِ فَلَا يَتَعَدَّاهَا أَحَدٌ ،
وَلَا يَرَأْفُ فِيهَا وَلَدٌ بَوَالِدٍ وَلَا وَالِدٌ بَوْلَدٍ ؛ فَأَقِمَّهَا وَقُمْ فِي أَمْرِهَا حَتَّى تَنْضَبِطَ أَمَّ الضَّبِطِ ،
وَلَا تَجْعَلْ يَدَ الْفَتَكِ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِهَا وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ؛ فَلِكُلِّ مِنَ الْجَنَائِثِ
وَالْقِصَاصِ شَرْطُ شَرْطِهِ اللَّهُ وَحْدٌ حَدُّهُ فَلَا يَتَجَاوَزُ أَحَدٌ ذَلِكَ الْحَدَّ وَلَا يَخْرُجُ عَنْ

(١) لعل الصواب بشحنها من شحن الثلاثي يقال شحنة يشحنه ملاءه ، وأما الرباعي فعناه الاعتماد يقال

سيوف مشحنة أي مغمدة وأشحن الرجل اشحنانا تهيأ للبكاء وهو غير مناسب هنا تأمل .

(١)

ذلك الشرط ؛ والجهد فهو الدِّين المألوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك
 وفي ظهور الخيل ، فإل على الأعداء كل الميل ؛ وصَبَّحهم من فتَكَتْكَ بالويل بعد
 الويل ، وأرْمِهِمْ بِكُلِّ شِمْرِي^(٢) قد شَمَّر من يده عن الساعد ومن رُمحه عن الساق ومن
 جَوَّادَهُ الدَّيْل ؛ وأَذْهَبَ لَهُمْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَذْهَب ، وَأَنْزَلَ بِجُومِ الْخِرْصَانِ كُلَّ غَيٍّ
 وَغَيْب ؛ وَتَكَثَّرَ فِي غَزْوِهِمْ مِنَ اللَّيْلِ بِكُلِّ أَدْهَمٍّ وَمِنْ الشَّقَقِ بِكُلِّ أَحْمَرٍ وَأَشْقَرٍ
 وَمِنْ الْأَصِيلِ بِكُلِّ أَصْفَرٍ وَمِنْ الصَّبِيحِ بِكُلِّ أَشْهَبٍ ، وَأَسْتَنْبَ أَعْمَارَهُمْ وَأَجْعَلَهَا
 آخِرَ مَا يُسَلَبُ وَأَوَّلَ مَا يُنْهَب ؛ وَنَزَّجُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَبَأَ لَكَ مِنَ الْفُتُوحَاتِ
 مَا يَسْتَنْجِزُهَا لَكَ صَادِقٌ وَعِدَةٍ ، وَأَنْ يَنْصُرَكَ جُيُوشُ الْإِسْلَامِ ، فِي كُلِّ إِنْجَادٍ
 وَإِثْمَامٍ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ؛ وَبَيَّتَ اللَّهُ الْمَجْجُوحُ مِنْ كُلِّ بَغٍّ ، الْمَقْصُودُ مِنْ
 كُلِّ نَهْجٍ ؛ فَسِيرَ سَبِيلَهُ ، وَوَسَّعَ [لَهُ] الْخَيْرَ وَأَحْسَنَ تَسْيِيلَهُ ؛ وَأَوْصَلَ مِنْ بَرِّكَ لِكُلِّ
 مِنَ الْحَرَمَيْنِ مَاهُولَهُ ، لَتُصْبِحَ رُبُوعُهُ بِذَلِكَ مَاهُولَهُ ؛ وَآخِرُهُ مَنْ يُرِيدُ فِيهِ بِالْحَادِ بُظْلُمٍ ،
 وَطَهْرُهُ مِنْ مَكْسٍ وَغُرْمٍ : لِيَعُودَ تَفْعُكَ عَلَى الْبَادِي وَالْعَاكِفِ ، وَيُصْبِحَ وَادِيهِ
 وَنَادِيهِ مُسْتَغْنَيْنِ بِبِذَلِكَ عَنِ السَّحَابِ الْوَائِكِ ؛ وَالرَّعَايَا فَهَمٌ لِلْعَدْلِ زُرُوعُ ،
 وَلِلْإِسْتِمَارِ فُرُوعُ ، وَلِاسْتِزَامِ الْعَارَةِ شُرُوعُ ؛ فَتَمَّ جَادَهُمْ غَيْثٌ أَعْجَبَ الزَّرَّاعَ نَبَاتَهُمْ ،
 وَتَمَّتْ بِالصَّلَاحِ أَقْوَانُهُمْ ، وَصَلَحَتْ بِالنَّمَاءِ أَوْقَاتُهُمْ ؛ وَكَثُرَتْ لِلْجُنُودِ مُسْتَغَلَاتُهُمْ ،
 وَتَوَفَّرَتْ زَكَوَاتُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ مِشْكَاتُهُمْ ؛ وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ .

هذا عهدنا للسيد الأجل ، الملك ، الأشرف ، صلاح الدنيا والدين ، نحر الملوك
 والسلطين ، خليل أمير المؤمنين ، أعزَّ الله تعالى ببقائه الدين ؛ فليكن بعروته
 متمسكا ، وبفتحته متمسكا ؛ وليتقلد سيف هذا التقليد ، ويفتح مغلق كل فتح منه

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة صغيرة .

(٢) الشمري بفتح الشين وكسرها مع شد الميم فيما في الماضي في الأمور المحرَّب انظر اللسان ج ٦ ص ٩٦ .

بخير إقليد؛ وها نحن قد كثرنا لديه جواهره فدونه ما يشاء تحليته من تتويج مفرق
وتحتم أنامل وتسوير زند وتطويق جيد، ففي كل ذلك تجميل وتمجيد؛ والله تعالى
يجعل استخلافه هذا للثقلين إماماً، وللدين قواماً، وللجاهدين اعتصاماً، وللمتدين
أنفصاماً؛ ويظفي بمياه سيوفه نار كل خطب حتى يضح كما أصبحت نار سميته
صلّى الله عليه وسلم برداً وسلاماً؛ إن شاء الله تعالى .



وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، عن المنصور « قلاوون »
المتقدم ذكره، عهد ولده الملك الصالح « علاء الدين على » وهذه نسخته :

الحمد لله الذي شرف سرير الملك منه بعلية، وحاطه منه بوصية، وعضد منصوره
بولاية عهد صالحه وأسمى حاتم جوده بمكارم حازها بسبق عديّه ، وأبهج خير الآباء
من خير الأبناء بمن سمو أبيه منه بشريف الخلق وأبيه، وغذى روضه بمتابعة وسميه
وبمسارعة وليّه .

نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر، وداركت بالبحر وباركت في النهر؛
وأجملت المبتدأ وأحسنّت الخبر، وجمعت في لذات الأوقات وطيبها بين روق
الآصال وريقة البكر. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نلّيس الألسنة
منها في كل ساعة [ثوباً] جديداً ، وتنقياً منها ظلاً مديداً ، ونستقرب من الآمال
ما يراه سوانا بعيداً . ونصلّي على سيدنا محمد الذي طهر الله به هذه الأمة من الأدناس ،
وجعلها بهدايته زاكية الغراس ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فهم
حسن استخلافه بالأمر له بالصلاة بالناس ، ومنهم من بنى الله به قواعد الدين
وجعلها موطدة الإساس ، ومنهم من جهّز جيش العسرة وواسى بماله حين الضراء

والباس ، ومنهم من قال عنه صلى الله عليه وسلم : ”لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّهُ
اللهُ ورسوله وَيُحِبُّ اللهَ ورسوله“ فحُسنُ الْإِلْتِمَاسِ بِذَلِكَ وَالْإِقْتِبَاسُ ، وزاد في شرفه
بأن طَهَّرَ أَهْلَ بَيْتِهِ وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ الْأَرْجَاسَ ، صَلَاةً لَا تَزَالُ تَرْدُدُ تَرْدُدَ الْأَنْفَاسِ ،
وَلَا تَبْرَحُ فِي الْإِنَاءِ حَسَنَةَ الْإِيْنِاسِ .

وبعد ، فَإِنَّ خَيْرَ مَنْ شَرَّفَتْ مَرَاتِبُ السُّلْطَانَةِ بِجُلُودِهِ ، وَفُوتَ مَلَابِسُ التَّحْكِيمِ
بِقُبُولِهِ ؛ وَمَنْ تَزَهَّى مَطَالِيعُ الْمُلْكِ بِإِشْرَاقِهِ ، وَتَبَادُرُ الْمَمَالِكُ مُدْعِنَةً لَأَسْتِحْقَاقِهِ ؛ وَمَنْ
يَزِدُّهُي مُلْكٌ مَنْصُورُهُ - نصره الله - بَوْلَدِهِ وَوَلَى عَهْدِهِ مَكْنَةً بَانِيَهُ ، وَمَنْ يَتَشَرَّفُ
إِيوَانُ عَظَمَةٍ : إِنْ غَابَ وَالِدُهُ فِي مَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ صَدْرُهُ وَإِنْ حَضَرَ فَهُوَ
ثَانِيهِ ؛ وَمَنْ يَتَجَمَّلُ غَابُ الْإِيَالَةِ مِنْهُ بِخَيْرِ شَيْءٍ كَفَلَ لَيْثًا ، وَيَتَكَفَّلُ غَوْتُ الْأُمَّةِ بِخَيْرِ
وَأَيْلٍ خَلَفَ غَيْثًا ؛ وَمَنْ أَلْهَمَ الْأَخْلَاقَ الْمُلُوكِيَّةَ وَأَوْقَى حُكْمَهَا صَيِّبًا ، وَمَنْ خَصَّصَتْهُ
الْأَدْعِيَةُ الشَّرِيفَةُ بِصَالِحِهَا وَلَمْ يَكُنْ بُدْعَانِهَا شَقِيًّا ، وَمَنْ رُِعِتْ بِهِ هَضْبَةُ الْمُلْكِ حَتَّى
أَمْسَى مَكَائِنُهَا عَلَيْهِ ؛ وَمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِأَنْ يُحِبَّ الْأَمَلَ وَيُنْجَحَ ، وَأَوْلَى بِأَنْ يُتَى لَهُ :
(« أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ») . وَمَنْ هُوَ بِكُلِّ خَيْرٍ مَلِي ، وَمَنْ إِذَا فُوضَتْ إِلَيْهِ أُمُورُ
الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ لَأُمُورِهِمْ بَلِي ؛ وَمَنْ يَتَحَقَّقُ مِنَ وَالِدِهِ الْمَاضِي الْغِرَارَ ، وَمَنْ
أَسْمَهُ الْعَالِي الْمَنَارَ ، أَنْ لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَلَا قَتْلَ إِلَّا عَلِيًّا .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ الْعَالِي ، الْوَلَدِيُّ ، السُّلْطَانِيُّ ، الْمَلِكِيُّ ، الصَّالِحِيُّ ، الْعَلَائِيُّ -
عِزَّهُ اللهُ بِهِ الدِّينَ ، وَجَمَعَ إِذْعَانَ كُلِّ مُؤْمِنٍ عَلَى إِيجَابِ طَاعَتِهِ لِمَبَاشَرَةِ أُمُورِ
الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى يُصْبِحَ وَهُوَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ - هُوَ الْمَرْجُوُّ لِتَنْدِيرِ هَذِهِ الْأُمُورِ ، وَالْمَأْمُولُ
لِصَلَاحِ الْبِلَادِ وَالثُّغُورِ ؛ وَالْمَدْنَحُ فِي النَّصْرِ لِشِفَاءِ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَالَّذِي تَشْهَدُ الْفِرَاسَةُ
لَأَبِيهِ وَلَهُ بِالتَّحْكَمِ : أَوَلَيْسَ الْحَاكِمُ أَبُو عَلِيٍّ هُوَ الْمَنْصُورُ ؟ . فَلِذَلِكَ أَقْتَضَتْ رَحْمَهُ ،

والشفقة على الأمة ؛ أن يُنصب لهم ولي عهد يتمسكون من الفضل بعروة كرمه ،
ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمه ؛ ويقتطفون أزاهر العدل وثمار الجود
من كلمه وقلمه ، وتستسعد الأمة منه بالملك الصالح الذى تقسم الأنوار لجبينه وتقسم
المبار من كراماته وكرمه .

فلذلك خرج الأمر العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، السيفى -
أخذه الله القدر ، ولا زالت الممالك تتباهى منه ومن ولي عهده بالشمس والقمر -
أن يفوض إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة ، ولاية تامة عاتمة شاملة
كامله ؛ شريفة منيفه ، عطوفة رعوفه ؛ فى سائر أقاليم الممالك وعساكرها وجندها ،
وعربها وتركمانها وأكرادها وتوابها وولاتها ، وأكبرها وأصاغرها ورعاياها ورعاتها ،
وحكامها وقضاتها ، وسارحها وسانحها ؛ بالديار المصرية ونغورها وأقاليمها
وبلادها ؛ وما آتوت عليه . والمملكة الحجازية ، وما آتوت عليه . ومملكة الثوبة ،
وما آتوت عليه ، والفتوحات الصفدية والفتوحات الإسلامية الساحلية وما آتوت
عليه . والممالك الشامية وحصونها ، وقلاعها ومدنها ، وأقاليمها وبلادها ، والمملكة
الحصينة ، والمملكة الحصينة الأكرادية والحبيلية وفتوحاتها ، والمملكة الحلبية ونغورها
وبلادها ، وما آتوت عليه ، والمملكة الفراتية ، وما آتوت عليه ؛ وسائر القلاع
الإسلامية برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ؛ شاما ومصر ، يما وحجازا ، شرقا وغربا ،
بعدا وقربا . وأن تلقى إليه مقاليد الأمور فى هذه الممالك الشريفة ، وأن تستخلفه
سلطنة والده - خلد الله دولته - لتشهد الأمة منه فى وقت واحد سلطانا وخليفة ؛
ولاية واستخلاقا تسندهما الرواه ، وترتم بهما الحداة ، وتعيهما الأسماع وتنطق بهما
الأفواه ؛ تفويضا يعلن لكافة الأمم ، ولكل رب سيف وقلم ، ولكل ذى علم وعلم ؛
بما قاله صلى الله عليه وسلم لسميه رضى الله عنه حين أولاه من الفخار ما أولاه :

”مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَّ مَوْلَاهُ“ . فَلَا مَلِكُ إِلَّا هَذَا الْخَطَابُ يَصِلُهُ وَيُوصَلُهُ ،
وَلَا زَعِيمٌ جَيْشٍ إِلَّا وَهَذَا التَّفْوِیْضُ يَسْعُهُ وَيَشْمَلُهُ ؛ وَلَا إِقْلِيمٌ إِلَّا وَكُلُّ مَنْ بِهِ
يُقْبَلُهُ وَيَقْبَلُهُ ، وَيَتَمَثَّلُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُمَثِّلُهُ ، وَلَا مَنَبْرٌ إِلَّا وَخَطِيبُهُ يَتْلُو فُرْقَانَ هَذَا
التَّقْدِيمِ وَيَرْتَلُهُ .

وَأَمَّا الْوَصَايَا فَقَدْ لَقْنَا وَلَدَنَا وَوَلَّى عَهْدَنَا مَا أَنْطَبَعَ فِي صِفَاءِ ذَهْنِهِ ، وَسَرَتْ تَغْذِيتهُ
فِي نَمَاءِ غَضَنِهِ ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ لَوَامِعَ لِلتَّبَرُّكِ بِهَا فِي هَذَا التَّقْلِيدِ الشَّرِيفِ تُبِيرُ ، وَجَوَامِعَ
بَعْدَ لَحْرِهَا ^(١) ؟) حَيْثُ يَصِيرُ ، وَوَدَائِعَ يُنَبِّئُكَ عَنْهَا وَلَدُنَا - أَعَزَّنَا اللَّهُ بِبَقَائِهِ -
وَلَا يَنْبَغُكَ مِثْلُ خَيْرٍ : فَاتَّقِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، وَأَنْصِرِ الشَّرْعَ
فَإِنَّكَ إِذَا نَصَرْتَهُ يَنْصُرَكَ اللَّهُ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ وَعِدَاكَ ؛ وَأَقِضْ بِالْعَدْلِ مَخَاطِبًا وَمَكَاتِبًا
حَتَّى يَسْتَبِقَ إِلَى الْإِعْزَازِ بِهِ لِسَانَكَ وَيُمْنَاكَ ، وَأُمُرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَالِمًا أَنَّهُ
لَيْسَ يُخَاطَبُ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ سِوَانَا وَسِوَاكَ ، وَأَنَّهُ نَفْسَكَ عَنِ الْهَوَى
حَتَّى لَا يَرَاكَ اللَّهُ حَيْثُ نَهَاكَ ؛ وَحُطِّ الرِّعْيَةِ ، وَمُرِ الثُّوَابُ بِمَجْلَهْمٍ عَلَى الْقَضَايَا
الشَّرْعِيَّةِ ؛ وَأَقِمِ الْحُدُودَ ، وَجَنِّدِ الْجُنُودَ ، وَأَبْعَثْ بَرًّا وَبَحْرًا مِنَ الْغَزْوِ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ
مُجُودٍ ؛ وَأَحْفَظِ الثُّغُورَ ، وَلاَحِظِ الْأُمُورَ ، وَازْدَدْ بِالْإِسْتِرْشَادِ بَارِئًا نُورًا عَلَى نُورٍ ؛
وَأَمْرَاءَ الْإِسْلَامِ الْأَكْبَارِ وَزُعَمَاءَهُ ، فَهَمَّ بِالْجِهَادِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعِبَادِ أَصْفِيَاءُ اللَّهِ
وَأَحِبَّاءُهُ ؛ فَضَاعَفْ لَهُمُ الْحُرْمَةَ وَالْإِحْسَانَ . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَصْطَفَانَا عَلَى الْعَالَمِينَ
وَالْأَقْوَمُ إِخْوَانٌ ؛ لَا سِيَّامًا أَوَّلُو السَّعْيِ النَّاجِحِ ، وَالزُّرَى الرَّاجِحِ ، وَمَنْ إِذَا نَفَرُوا
بِنِسْبَةِ صَالِحِيَّةٍ قِيلَ لَهُمْ : نَعَمْ السَّلَفُ الصَّالِحُ ؛ فَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَحَاوِرْهُمْ فِي مَهَمَّاتِ
الْأُمُورِ فِي كُلِّ سِرٍّ وَجَهْرٍ ؛ وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ تَحَايَا

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ وَلَعَلَّهُ تَعَبَّرَ بِمَجِيئِهَا حَيْثُ تَسِيرُ . تَأَمَّلْ .

الدُّول، وذخائر الملوك الأول؛ أجرهم في هذا المجزئ، وأشرح لهم بالإحسان صدرا؛ وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان، فوال إلهم الأمتين؛ وأجعل محبتك في قلوبهم بإحسانك إليهم حسنة المرئى، وطاعتك في عقائدهم قد شغفها حباً: ليُصبحوا بحسن نظرك إلههم طوعاً، وليُحصل كل جيش منهم من التقرب إليك بالمناسبة نوعاً، والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعه، فأجعل أوامرك [لهم] بصيرة وسميعه .

وأما غير ذلك من الوصايا، فسُخِّوْكَ منها بما يَشْتَأُ معك تَوْءِماً، ونلقنك من آياتها مُحْكَمًا مُحْكَمًا؛ والله تعالى يُتِمِّي هَلَاكَ حَتَّى يُوصِّلَهُ إِلَى دَرَجَةِ الْإِبْدَارِ، وَيَغْذِي غُصْنَكَ حَتَّى زَاهٍ قَدْ أُنِيعَ بِأَحْسَنِ الْأَزْهَارِ وَأُنِيعَ الثَّمَارِ؛ وَيرزُقُكَ سَعَادَةَ سُلْطَانِنَا الَّذِي نَعَتْ بِنَعْتِهِ تَبَرُّكًا، وَيُلْهِمُكَ الْأَعْتَصَادَ بِشِيعَتِهِ، وَالْأَسْتِنَانِ بِسُنَّتِهِ، حَتَّى تُصْبِحَ كَتَمَسَّكُنَا بِذَلِكَ مَتَمَّسِكًا، وَيَجْعَلَ الرِّعْيَةَ بِكَ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ حَتَّى لَا تُحْشَى سُوءًا وَلَا تُخَافَ دَرَكًا؛ وَالْأَعْتَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ - أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَعْلَاهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوجه السادس

(فيما يُكْتَبُ فِي مُسْتَنَدَ عَهْدٍ وَلَى الْعَهْدِ بِالسُّلْطَنَةِ ، وَمَا يَكْتُبُهُ السُّلْطَانُ

فِي بَيْتِ الْعَلَامَةِ ، وَمَا يَكْتُبُ فِي ذَيْلِ الْعَهْدِ)

أما ما يَكْتُبُ فِي مُسْتَنَدَ الْعَهْدِ وَمَا يَكْتُبُهُ السُّلْطَانُ فِي بَيْتِ الْعَلَامَةِ ، فَكَفِيرُهُ مِنْ سَائِرِ الْوَلَايَاتِ مِنَ التَّقَالِيدِ وَغَيْرِهَا : وَهُوَ أَنَّهُ يَكْتُبُ فِي الْمُسْتَنَدِ « حَسَبَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ » كَمَا يَكْتُبُ فِي الْمَكَاتِبَاتِ الَّتِي هِيَ بِتَلْقَى كَاتِبُ السَّرْعَى مَا تَقْدَمُ ذِكْرُهُ فِي بَابِهِ . وَيَكْتُبُ السُّلْطَانُ فِي بَيْتِ الْعَلَامَةِ اسْمَهُ وَأَسْمَ آبِيهِ .

وأما ما يكتب في ذيل العهد وشهادة الشهود على السلطان بالعهد ، فيثل أن يكتب : « شهدت على مولانا السلطان الملك الفلاني العاهد المشار إليه فيه خلد الله ملكه ، أو خلد الله سلطانه » وما أشبه ذلك من الدعاء « بما تُسب إليه فيه من العهد بالسلطنة الشريفة إلى ولده المقام الشريف العالي السلطاني ، الملكي ، الفلاني ، وعلى المعهود إليه - أعز الله أنصاره - بقبول العهد المذكور ، وكتب فلان بن فلان » .

الوجه السابع

(في قطع ورق هذا العهد وقلمه الذي يكتب به ، وكيفيّة كتابته ،

وصورة وضعه في الورق)

أما قطع ورقه فمقتضى إطلاق المقرّ الشهابي بن فضل الله في « التعريف » أن للمعهود قطع البغدادى الكامل أنه يكتب في البغدادى أيضا .

قلت : وهو المناسب لعظمة السلطنة ، وشماخة قدرها ^(١) . إذ الملك إلى ولي العهد آتئ ، وللدخول تحت أمره صائر ، خصوصا إذا كان المعهود إليه ولدا أو أخا .
وحيثئ فيكتب مختصر قلم الطومار لمناسبته له ، على ما تقدم في غير موضع .

وأما كيفية كتابته وصورة وضعها في الورق ، فهو أن يخلّى من أعلى الدّرج قدر إصبع بياضا . ثم يكتب في وسطه بقلم دقيق ماصورته « الأسم الشريف » كما يكتب في التقاليد وغيرها على ماسياتى . ثم يتدئ بكتابة الطّرة بالقلم الذى يكتب به العهد من أول عرض الورق من غير هامش سطورا متلاصقة إلى آخر الطّرة . ثم يترك ستة أوصال بياضا من غير كتابة غير الوصل الذى فيه الطّرة . ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث تلحق أعلى ألفاته بالوصل الذى فوقه ، بهامش عن

(١) لعل الصواب وشيوخ قدرها فإنما لم تقف على هذا المصدر فما بين يدينا من كتب اللغة فليحذر .

يمين الورق قدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوعة . ثم يكتب تحت البسملة سطرا من أول العهد ملاصقا لها . ثم يخلى بيت العلامة قدر شبر كما في عهد الملوك عن الخلفاء . ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على سمت السطر الذى تحت البسملة ، ويسترسل فى كتابة بقية العهد إلى آخره ؛ ويجعل بين كل سطرين قدر رُبع ذراع بذراع القماش . فإذا آتتهى إلى آخر العهد كتب « إن شاء الله تعالى » ثم المستند ، ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبة ، على ماتقدم فى الفواتح والخواتم . ثم يكتب شهود العهد بعد ذلك .

وهذه صورة وضعه فى الورق ، ممثلا له بالطرة التى أنشأها لذلك ، وبالعهد الذى أنشأه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر عن المنصور « قلاوون » بالعهد بالسلطنة لولده الملك الصالح « علاء الدين على » وهى :

هذا عهد شريف جليل قدره ، رفيع ذكره ، على فخره ، متبليج صبحه ضوى فخره ؛ من السلطان الأعظم الملك الظاهر ، ركن الدنيا والدين « بيبرس » خلد الله تعالى سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه ، بالسلطنة الشريفة لولده المقام العالى السلطانى ، الملكى ، السعيدى ، بلغه الله تعالى فيه غاية الآمال ، وحقق فيه للرعية ما يرجونه من مزيد الإفضال .
على ما شرح فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرف سرير الملك منه بعليه ، وحاطه هاش

منه بوصيه ، وعضد منصوره بولاية عهد صالحه ، وأسمى حاتم جوده

هَامِشْ بِمَكَارِمِ حَازَهَا بَسَبَقَ عَدِيَّةً ، وَأَمْهَجَ خَيْرَ الْآبَاءِ مِنْ خَيْرِ الْأَبْنَاءِ بِنِ سُمُو أَبِيهِ

مِنْهُ بِشَرِيفِ الْخُلُقِ وَأَبِيَّةً ، وَغَذَّى رَوْضَهُ بِمَتَابَعَةِ وَشَمِيَّةٍ ، وَبِمَسَارَعَةِ وَلِيَّةٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ إِلَى الزَّهْرِ الثَّمَرَ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ إِلَى قَوْلِهِ : وَلَا يَخَافُ

دَرْكَاءَ وَالْأَعْمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ - أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَعْلَاهُ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

كُتِبَ فِي

سَنَةِ

حَسَبِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَامِهِ

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

النوع الرابع

(من العهود عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغار البلدان)
ويتعلق النظر به من أربعة أوجه :

الوجه الأول

(فى بيان أصل ذلك وأول حدوثه فى هذه المملكة إلى حين زواله عنها)

قد تقدم فى المكاتبات ، فى الكلام على مكتبة صاحب حماة أن ذلك مما كان فى الدولة الأيوبية ، ثم فى الدولة التركىة فى الأيام المنصورية « قلاوون » والأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » ثم بطل ذلك . وذلك أن السلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب » حين استولى على البلاد الشامية مع الديار المصرية بعد موت السلطان نور الدين « محمود بن زنكى » صاحب الشام ، فرق أقاربه فى ولاية الممالك الشامية : كدمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها واستمرت .

وكان السلطان صلاح الدين قد وثى حماة لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ، فبقيت بيده حتى توفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة . فوليا بعده ابنه المنصور ناصر الدين محمد وبقي بها حتى توفى سنة سبع عشرة وستمائة . فوليا ابنه الناصر قليج أرسلان بقي بها إلى أن أترعها منه أخوه المظفر فى سنة ست وعشرين وستمائة ، وأقام بها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة . فوليا ابنه المنصور محمد ، فبقي بها إلى أن غلب هولاكو ملك التتار على الشام وقتل من به من بقايا الملوك الأيوبية ، فهرب المنصور إلى مصر وأقام بها إلى أن سار المظفر قطز صاحب مصر إلى الشام ، وأترعه من يد التتار ، وصار الشام مضافاً إلى مملكة الديار المصرية ،

فَرَدَ المنصورَ إلى حَمَاةَ ، فَبَقِيَ بِهَا حَتَّى تُوُفِيَ سَنَةَ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ وَسِمِئَاءَةَ . فَوُلِّيَ
 المنصورُ قَلاوُونَ أَبْنَاهُ المظفَّرَ شَادِي مَكَانَهُ ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عَهْدًا عَنْهُ ، فَبَقِيَ بِهَا حَتَّى
 تُوُفِيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَسِمِئَاءَةَ ، فِي الْيَوْمِ النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلاوُونَ » فِي سُلْطَنَتِهِ
 الثَّانِيَةِ بَعْدَ « لَاحِينَ » . فَوُلِّيَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ قَرَأْسُقُرَ أَحَدَ أَمْرَائِهِ نَائِبًا ، فَلَمَّا أَسْتَوْلَى
 غَازَانُ مَلِكُ التَّتَارِ عَلَى الشَّامِ ، كَانَ الْعَادِلُ كُتُبًا بَعْدَ خُلْعِهِ مِنْ سُلْطَنَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ
 نَائِبًا بِصَرْخَدَ ، فَظَهَرَ فِي قِتَالِ التَّتَارِ قُوَّةٌ وَجَلَادَةٌ ، فَوَلَّاهُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ حَمَاةَ ، وَحَضَرَ
 هَزِيمَةَ التَّتَارِ مَعَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ وَرَجَعَ إِلَى حَمَاةَ فَاتَ بِهَا .
 فَوُلِّيَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مَكَانَهُ سَيْفَ الدِّينِ قَبْجَقُ نَائِبًا ، ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى حَلَبَ ، وَوُلِّيَ
 أَسْتَدْمَرْكَجِي نِيَابَةَ حَمَاةَ مَكَانَهُ . وَلَمَّا رَجَعَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مِنَ الْكُرْكِ نَقَلَ
 أَسْتَدْمَرْكَجِي مِنْ حَمَاةَ إِلَى حَلَبَ ، وَوُلِّيَ الْمُؤَيَّدَ عَمَادَ الدِّينِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ الْأَفْضَلِ
 عَلِيَّ بْنَ الْمَظْفَرِ عَمَرَ ، مَكَانَهُ بِحَمَاةَ سَنَةَ سِتِّ عَشْرَةٍ وَسَبْعِمِائَةٍ عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقْدِمِهِ مِنْ
 الْمُلُوكِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ تُوُفِيَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . فَوُلِّيَ الْمَلِكُ
 النَّاصِرُ أَبْنَاهُ الْأَفْضَلَ مُحَمَّدًا مَكَانَهُ ، فَبَقِيَ بِهَا حَتَّى مَاتَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ
 إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَأَسْتَقَرَّ فِي السُّلْطَنَةِ بَعْدَهُ أَبْنَاهُ المنصورُ أَبُو بَكْرٍ ، وَقَامَ
 بِتَدْيِيرِ دَوْلَتِهِ الْأَمِيرُ قُوصُونُ . فَكَانَ أَوَّلُ مَا أَحْدَثَ عِزْلَ الْأَفْضَلِ بْنِ الْمُؤَيَّدِ عَنْ
 حَمَاةَ ، وَوُلِّيَ مَكَانَهُ بِهَا الْأَمِيرَ قُطُزَ نَائِبًا . وَسَارَ الْأَفْضَلُ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا حَتَّى
 تُوُفِيَ بِهَا سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَهُوَ آخِرُ مَنْ وَلِيَهَا مِنْ بَنِي أَيُّوبَ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي ” مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ “ أَنَّ سُلْطَانَهَا كَانَ
 يَسْتَقِلُّ بِاعْطَاءِ الْإِمْرَةِ وَالْإِقْطَاعَاتِ ، وَتَوَلِيَةِ الْقُضَاةِ وَالْوُزَرَاءِ وَكُتَابِ السَّرِّ وَكُلِّ
 الْوُظَائِفِ ، وَتَكْتُبُ الْمُنَاشِيرَ وَالتَّوَاقِيعَ مِنْ جِهَتِهِ . وَلَكِنَّهُ لَا يُعْضِي أَمْرًا كَبِيرًا فِي مِثْلِ

إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفة كبيرة حتى يُشاور صاحب مصر، وهو لا يُجيبه إلا أن
الرأى ما يراه . ومن هذا ومثله . قال : وإن كان سلطاناً حاكماً وملياً متصرفاً
فصاحب مصر هو المتصرف في تولية وعزل، من أراد ولّاه ومن أراد عزله .

قلت : وكان للملكة بذلك زيادة أبهة وجمال : لكون صاحبها تحت يد [هـ] من هو
متصرف بأسم السلطنة، يتصرف فيه بالولاية والعزل . على أن هذا القسم لم يتعرض
له المقتر التقي بن ناظر الجيش في "التثقيف" نخلق الملكة الآن عن مثله ؛ وإنما
أشار إليه المقتر الشهابي بن فضل الله رحمه الله في "التعريف" حيث قال :
وأما ما يكتب للملك عن الملوك، مثل ولاية العهود والمنفردين بصغار البلدان فإنه
لا تستفتح عهدهم إلا بالخطب . وذلك أن حماة كانت في زمنه بأيدي بني أيوب
على ما تقدم ذكره، ولذلك قال في "مسالك الأبصار" : ومما في حدود هذه المملكة
من له أسم سلطان حاكم وملك متصرف صاحب حماة .

الوجه الثاني

(في بيان ما يكتب في العهد ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب في الطرة، وهو تلخيص ما يشتمل عليه العهد)

وهذه نسخة عهد كتب بها المقتر الشهابي بن فضل الله عن الملك الناصر
«محمد بن قلاوون» للملك الأفضل «محمد ابن المؤيد عماد الدين إسماعيل» بسلطنة
حماة أيضاً، في رابع صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة . وهو آخر من ملكها من بني
أيوب، وهي :

الحمد لله الذي أقربنا المُلْك في أهلة أهلِه ، وتدارك مُصَابِ مَلِكٍ لولا ولده
الأفضل لم يكن له شَيْبَةٌ في فضله ، ووهبَ بنا بيتَ السلطنة من أبقى البقايَا ما يلحق
به كلُّ فرع بأصلِه ، ويظهرُ به رَوْنُ السيفِ في نصلِه .

نحمدُه على ما أفاض بمواهبنا من النعم الغزار ، وأدخلَ في طاعتنا الشريفة من
ملوك الأقطار ، وزاد عطايانا فأضحتْ وهي ممالكُ وأقاليمُ وأمصارُ ، ونشهدُ أن
لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أفلحَ مَنْ ماتَ من ملوك الإسلام عليها ،
وحَرَّضَ بها في الجهاد على الشهادة حتى وصلَ إليها ، ومدَّ يده لمبايعتنا على إعلائها
فسابقتِ الثريا بسطَ يديها ، ونشهدُ أن محمداً عبده ورسوله الذي شَرَّفَ من تسمي
بأسمِه أومتَّ بالقرْبى إلى نَسَبِه ، وصَرَّفَ في الأرض مَنْ تَمَسَّكَ من رعاية الأُمَّة
بسببِه ، وأكْرَمَ به كريمَ كلِّ قومٍ وجعلَ كلمةَ الفَخارِ كلمةً باقيةً في عقبِه ، صلى الله
عليه وعلى آله وأصحابِه مانحُ الحمام لحُزنِه ثم غنى من طَرَبِه ، وسلمَ تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فإننا - والله الحمد - مَن نَحْفَظُ بإحساننا كلَّ وديعه ، ونَتَقَبَّلُ لمن أقبل
من الملوك على سؤالِ صَدَاقَتنا الشريفة كلَّ ذَرِيعِه ؛ ونتكفلُ لمن ماتَ وهو على
ولائنا بما لو رآه في ولده لَسَرَّه ما جرى ، وعلم أن هذا الذي كان يَتَمَنَّى أن يعيش
حتى يُبَصِّرَ هذا اليومَ ويرى ؛ وكان السلطانُ المَلِكُ المؤيَّدُ عماد الدين - قدس الله
رُوحه - هُوَ بَقِيَّةُ بَيْتِ الشَريف ، وأَحْرَمَ مَنْ حَلَّ من ملوكهم في ذِرْوَةِ عِزِّهِ المُنِيفِ ؛
ولم يَزَلْ في طاعتنا الشريفة على ما كان من الحُسْنَى عليه ، ومن المحاسن التي لقيَ الله
بها ونورَ إيمانِه يَسْعَى بين يديه ؛ فوهبنا له من المملَكة الحمويَّة المحروسة ما كان قد
طال عليه سالفُ الأمد ، ورسمنا له بها عَطيَّةً باقيةً للوالد والولد ؛ فلَمَّا قاربَ انقضاء
أجلِه ، وأشرفَ على ماقدَمِه إلى الله وإلينا من صالحِ عملِه ؛ لم يَسْغَلْه ما به عن مطالعة

أَبَوَانِ الشَّرِيفَةِ وَالتَّدْكَارِ بَوْلَدِهِ ، وَتَقَاضَى صِدْقَاتِنَا الْعَمِيمَةِ بِمَا كَانَ يَنْتَظِرُهُ قَمَرُهُ الْمَذِيرُ
لِفَرَقِهِ ؛ وَوَرَدَ مِنْ جِهَةِ وَلَدِهِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ ، الْعَالِي ، الْوَلَدِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ،
الْمَلِكِيِّ ، الْأَفْضَلِيِّ ، النَّاصِرِيِّ - أَعَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ - مَا أَرْجَحَ الْقُلُوبَ بِمُصَابِهِ فِي أَبِيهِ ،
وَأَجْرَى الْعُيُونِ عَلَى مَنْ لَا تَقَعُ لَهُ عَلَى شَيْبِهِ ؛ فَوَجَدْنَا مِنَ الْحُزْنِ عَلَيْهِ مَا بَكَى كُلَّ سَيْفٍ
دَمًا ، وَأَنَّ كُلَّ رُحٍّ يَفْرَعُ سَنَّهُ نَدَمًا ؛ وَتَأَسَّفْنَا عَلَى مَلِكٍ كَادَ يَكُونُ مِنَ الْمَلَائِكِ ، وَأَخٍ
كَرِيمٍ أَوْ أَعَزَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَسُلْطَانٍ عَظِيمٍ طَالَمَا ظَهَرَ شَنْبُ بَوَارِقِهِ فِي تُغُورِ الْمَمَالِكِ ؛
وَقُنْنَا مِنَ الْحُزْنِ فِي مِشَارَكَةِ أَهْلِهِ بِالْمُنْدُوبِ ، ثُمَّ قُلْنَا : لَكُمْ فِي وَلَدِهِ الْعِوَضُ وَلَا يُنْكَرُ
لَكُمْ الصَّبْرُ يَا آلَ أَيُّوبَ .

فَاقْتَضَتْ مَرَامِنَا الْمَطَاعَةَ أَنْ نَرْقِيَهُ إِلَى مَقَامِنَا الْعَالِي ، وَنَعْقِدَ لَهُ مِنَ أُلُويَةِ الْمُلْكِ
مَاتَهَرَتْ بِهِ أَطْرَافُ الْعَوَالِي ؛ وَنُزِكَبَهُ مِنْ شِعَارِ السُّلْطَانَةِ بِمَا نَجْمَلُ بِهِ مَوَاقِبَهُ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ
عَصَابَتُهُ ، وَتَمِيسُ مِنَ الْعُجْبِ وَتَمْتَدُّ رِقَابُهَا بِالرَّقَبَةِ السُّلْطَانِيَّةِ جَنَائِبُهُ ؛ تَنْزِيهَاً لَخَوَاطِرِكُمُ
الْكَرِيمَةِ عَلَيْنَا عَنْ قَوْلِ لَيْتَ ، وَتَنْوِيهَاً بِقَدْرِ بَيْتِكُمُ الَّذِي رَفَعَ لَكُمْ إِسْمَاعِيلُ بِهِ قَوَاعِدَ
الْبَيْتِ : لِمَا نَعْلَمُهُ مِنَ الْمَقَامِ الْعَالِي الْمَلِكِيِّ الْأَفْضَلِيِّ النَّاصِرِيِّ - أَمْتَعَ اللَّهُ بَقَائَهُ -
مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي أَسْتَحَقُّ بِهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْكُمْ الْمُلْكُ ، وَالْعَزَائِمُ الَّتِي قُلَّدَ بِهَا مِنَ الْمَمَالِكِ
مَاتَجَوَّلُ بِهِ الْحَيَادُ وَتَجَرَّى بِهِ الْفُلُكُ ؛ مَعَ مَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ الَّذِي هُوَ أَوفَى مِنَ الْعِهَادِ
بِعَهْدِهِ ، وَالْفَضْلِ الَّذِي أَتَّصَلَ بِهِ مِيرَاثُ الْأَفْضَلِيَّةِ عَنْ جَدِّهِ ؛ وَالْجُودِ الَّذِي جَرَى
الْبَحْرُ مَعَهُ فَاحْمَرَّتْ مِنْ أَنْجَلِ صَفْحَةِ خَدِّهِ ، وَالْوَصْفِ الَّذِي لَمْ يَرْضَ بِالْجُورَاءِ
وَاسْطَلَّ لِعَقْدِهِ ؛ وَالْعَدْلِ الَّذِي أَشْبَهَ فِيهِ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ ، وَالْعِلْمَ الَّذِي مَآخِلًا بِهِ بَابُهُ مِنْ
طَلَبِ : إِمَّا لَهْدَى وَإِمَّا لَكُمْ ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنْ كَفَالَةِ وَالِدِهِ إِلَّا إِلَى كِفَالَتِنَا الَّتِي أَظْلَمَتْهُ
بُسُحْبَاهَا ، وَحَلَّتْ سَمَاءَ مَمْلَكَتِهِ بِشُهْبَاهَا ؛ وَخَاطَبْنَاهُ كَمَا نُنْكَأُ نَخَاطِبَ وَالِدِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ ، وَأَجْرَيْنَاهُ فِي أَلْقَابِهِ مُجْرَى الْوَلَدِ زِيَادَةً لَهُ فِي التَّشْرِيفِ ، وَصَرَّفْنَا

أمره في كل ما كان للملوك أهله فيه تصريف ؛ وسنرشده إلى أوضح طريقه ، ويقوم مقام أبيه أو ليس « الناصر » هو أبو الفضل حقيقه ؛ ورسمنا بطلبه إلى [ما] بين أيدينا الشريفة لندد له من نظرنا الشريف ما يتضاعف به سعوته ، ويزداد صعوده ، ويتمثل في هذا البيت الشاهنشاهی أبناءه وآبائه وجدوده : لتعمل معه صدقاتنا الشريفة ما هو به جدير ، وترفعه إلى أعز مكان من صهوة المنبر والسرير ، وتكاثره كل سلطان وما هو إلا بحفل يسير ؛ لتشيد به أركان هذا البيت الكريم ، وتحيا عظامه وهي في اللود عظم رميم ، وتعرف الناس أن عنايتنا الشريفة بهم تزيد على ما عهدوه لجدهم القديم من سميننا الملك الناصر القديم .

نخرجت المراسيم الشريفة ، العالية ، المولوية ، السلطانية ، الملكية ، الناصرية : لا زالت الملوك تتقلد منها في أعناقها ، ولا برحت الممالك من بعض مواهبها وإطلاقها ؛ أن يقلد هذا السلطان الملك الأفضل - أدام الله نصره - من المملكة الخموية وبلادها ، وأمرائها وأجنادها ، وعربها وتركمانها وأكرادها ؛ وقضايها وقضاتها ، ورعاياها ورعاتها ؛ وأهل حواضرها وبواديها ، وعمرانها وبراريها - جميع ما كان والده - رحمه الله - يتقلده ، وبسيفه وقلبه يحريه ويحرده : من كل قليل وكثير ، وجليل وحقير ، وفي كل مأمور به وأمير ؛ يتصرف في ذلك جميعه ، ويقطع إقطاعاتها بمناسيره ويؤتي وظائفها بتواقيعه ؛ وينظر فيها وفي أهلها بما يعلم أن له ولهم فيه صلاحا ، ويقيم من هيئة سلطانه ما يغنيه أن يعمل أسنة ويجرد صفاحا .

وليحكم فيها وفيمن هو فيها بعد له ، ويجمع قلوب أهلها على ولائه كما كانوا عليه لأبيه من قبله ؛ وليكن هو وجنوده وعساكره أقرب في النهوض إلى مصالح الإسلام من رجع نفسه ، وأمضى في العزائم مما يشتهه (؟) بها من سيفه وقبسه .

وأما بَقِيَّةُ مَائِمِلِيٍّ مِنَ الْوَصَايَا ، أَوْ يُدَلُّ عَلَيْهِ مِنْ كَرَمِ السَّجَايَا ؛ فَهُوَ - بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى -
 غَرِيزَةٌ فِي طِبَاعِهِ ، مَمْتَرِجٌ بِهِ مِنْ زَمَانِ رَضَاعِهِ ؛ وَإِنَّمَا نَذَرَهُ بَعْضُ مَا بِهِ يُتَبَرَّكُ ،
 وَنَحَضَّهُ عَلَى اتِّبَاعِ أَبِيهِ فَإِنِهَا الْغَايَةُ الَّتِي لَا تُدْرَكُ ؛ وَالشَّرْعُ الشَّرِيفُ أَهْمُ مَا يَشْغَلُ
 بِهِ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ ، وَتَقْوَى اللَّهِ فَمَا يَنْتَصِرُ الْمَلِكُ إِلَّا بِتَقَاتِهِ ، وَالْفِكْرَةُ فِي مَصَالِحِ الْبِلَادِ
 وَالرَّعَايَا فَإِنِهَا مَادَّةُ نَفَقَاتِهِ ، وَاسْتِكْثَارُ الْجُنُودِ فَإِنَّهُمْ حِصْنُهُ الْمَنِيعُ فِي مُلَاقَاتِهِ ، وَمُبَادَرَةُ
 كُلِّ مَهْمٍ فِي أَوَّلِ مِيقَاتِهِ ، وَوَلَايَاتُ الْأَعْمَالِ لَا يَعْتَمِدُ فِيهَا إِلَّا عَلَى تِقَاتِهِ ، وَإِقَامَةُ
 الْحُدُودِ حَتَّى لَا يُنْصِتَ فِي تَرْكِهَا إِلَى رَفِي رِقَاتِهِ ؛ وَرِعَايَةُ مَنْ لَهُ عَلَى سَلَفِهِ خِدْمَةٌ
 سَابِقَةٌ ، وَاسْتِجْلَابُ الْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ لَنَا وَلَهُ فَإِنِهَا لِلْسَّهَامِ مَسَابِقَةٌ ، وَيُمْنٌ فِي الْأُمُورِ
 عِزُّهُ فَإِنَّهُ مُدْرَبٌ ، وَيَسْطِرُّ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ فَإِنَّهُ بِهِمَا إِلَيْنَا يَتَقَرَّبُ ؛ وَلْيَأْخُذْ
 بِقُلُوبِ الرِّعَايَا فَإِنَّهَا تَنْقَلِبُ ، وَلْيُكْرِمْ وَفَادَةَ الْوُفُودِ لِيَقِفَ بِهِمْ - لِنَجَاحِ مَقَاصِدِهِمْ -
 عَلَى بَابِ صَحِيحٍ مَجْرَبٍ ؛ وَلْيَجْتَهِدْ فِي الْجِهَادِ ، وَيَتَقَيَّظْ وَالسَّيْفَ مَكْتَحِلُ الْحَقْنِ
 بِالرُّقَادِ ؛ وَيَهْتَمَّ فَإِنَّ الْأَهْمَّ الْعَالِيَةَ تُقَوِّمُ بِهَا عَوَالِي الصَّعَادِ ، وَيُقَوِّمُ الْبَرِيدَ فَإِنَّ فِي تَقْوِيهِ
 بَقَاءَ الْمُلْكِ وَعِمَارَةَ الْبِلَادِ ؛ وَلْيَقِفْ عِنْدَ مَرَاثِمِ الشَّرِيفَةِ لِتَهْدِيهِ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ ،
 وَيُحَسِّنْ سُلُوكَهُ لِيَطْرَبَ بِذِكْرِهِ كُلُّ أَحَدٍ وَيَتَرَنَّمُ كُلُّ حَادٍ ؛ وَغَيْرُ هَذَا مِنْ كُلِّ مَا عَهَدْنَا
 وَالِدَهُ - سَقَى اللَّهُ عَهْدَهُ - لَهُ سَالِكًا ، وَلِأَزْمَةِ أُمُورِهِ الْجَمِيلَةِ مَالِكًا ؛ مِمَّا لَا يَحْتَاجُ -
 مِمَّا نَعْرِفُهُ مِنْ سِيرَتِهِ الْمُثْنَى - إِلَى شَرْحِهِ ، وَلَا يُدَلُّ نَهَارُهُ السَّاطِعُ عَلَى صَبَاحَةِ صُبْحِهِ ؛
 وَلْيُبَشِّرْ بِمَا جُعِلَ لَهُ مِنْ فَضْلِنَا الْعَمِيمِ ، وَيَتَمَسَّكْ بِوَعْدِنَا الشَّرِيفِ أَنَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ
 لَهُ وَلِأَبْنَائِهِ وَأَبْنَاءِ أَبْنَائِهِ مَا وَجَدَ كُفًّ مِنْ تَسْمِيهِمُ الصَّمِيمِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُمِثِّدُ
 - أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ - بِأَفْضَلِ مَزِيدِهِ ، وَيَحْفَظُ بِكَ مَا أَبْقَاهُ لَكَ أَبُوكَ « الْمَوْيِدُ »
 مِنْ تَأْيِيدِهِ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوجه الثالث

(فيما يُكْتَب في المِستَدَّ عن السلطان في هذا العهد ، وما يكتبه

السلطانُ في بيت العَلَامَةِ)

والْحُكْمُ في ذلك على ما مرَّ في عهود أولياء العهد بالسلطنة : وهو أن يكتب في مِستَدَّ العهد « حَسَبَ المرسوم الشريف » كما في غيره من الولايات ، ويكتب السلطان في بيت العلامة أَسْمَهُ من غير زيادة .

قلت : ولا يُكْتَب فيه شهادة على السلطان كما يُكْتَب في عُهُود أولياء العهد بالسلطنة : لأن العهد بالسلطنة العظمى شَيْبُهُ بِالْبَيْعَةِ ، والشهادة فيها مطلوبةٌ للخروج من الخلاف ، على ما تقدّم في موضعه . والعهد بولاية سلطنة بعض الأقاليم شَيْبُهُ بِالْتَقْلِيدِ ، والشهادة في التقاليد غير مطلوبة ، وذلك أن السلطنة لا تنتهي إلى ولي العهد إلا بعد موت العاهد ، ورُبَّمَا يَحْدُ بعض الناس العهد إليه ، وولاية بعض البلدان إنما تكون والسلطان المولى منتصبٌ فلا يُوَثَّرُ الجُودُ فيها .

الوجه الرابع

(في قَطْع ورق هذا العهد وقلمه الذي يُكْتَب به ، وكيفيّة

الكتابة ، وصورة وضعها في الورق)

أما قطع الورق فمقتضى عموم قول المقرّ الشهابيّ بن فضل الله في "التعريف" :

إن للعهود قطع البغداديّ الكامل أنه يُكْتَب في قطع البغداديّ أيضا .

قلت : والذي يقتضيه القياس أن تكون كتابته في الورق البغدادي لمعنى السلطنة ، ولكن في قطع دون القطع الكامل : لئلا تصان رتبة هذه السلطنة عن السلطنة العظمى ؛ ألا ترى مكتبة صاحب مملكة إيران كانت في زمن القان «أبي سعيد» تكتب في قطع البغدادي الكامل كما ذكره في "التعريف" وغيره ؛ ومكتبة صاحب مملكة بيت بركة المعروفة بمملكة أذربك من مملكة توران تكتب له في قطع البغدادي بنقص أربعة أصابع مطبوعة كما ذكره في "التتيف" لأخطاط رتبته عن رتبة القان أبي سعيد ، على ما تقدم ذكره في المكتبات .

وأما قلعه الذي يكتب به ، فينبغي إن تكتب في قطع البغدادي الكامل أن يكون مختصر قلم الطومار كما في غيره من العهود التي تكتب في القطع الكامل . وإن كتب في دون الكامل ، فينبغي أن يكون القلم دون ذلك بقليل .

وأما صورة وضعه في الورق ، فعلى ما مر في عهود أولياء العهد بالسلطنة من غير فرق : وهو أن يكتب في رأس الدرج بقلم دقيق الاسم الشريف ، ثم يتدنى بكتابة الطرة في عرض الورق من غير هامش سطورا متلاصقة إلى آخر الطرة ، ثم يخل سته أوصال بياضا ، ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بهامش قدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوعة ، ثم يكتب سطرا من أول العهد ملاصقا للبسملة ، ثم يخل بيت العلامة قدر شبر على ما تقدم ، ويكتب السطر الثاني على سمت السطر الذي تحت البسملة ، ثم يسترسل في كتابة بقية العهد إلى آخره ، ويكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع على قاعدة العهود . فإذا انتهى إلى آخر العهد كتب «إن شاء الله تعالى» ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبة . وتكون كتابته من غير نقط ولا شكل كسائر العهود .

قلت : ولو وسّع ما بين سطوره ونقطت حروفه وشكلت : لما فيه من معنى التقاليد ، لكان به أليق .

وهذه صورة وضعه في الورق ، ممثلاً لها بالطرّة التي أنشأها في معنى ذلك ، والعهد الذي أنشأه المقرّ الشهابي بن فضل الله للملك الأفضل «محمد» بن الملك المؤيد «عماد الدين إسماعيل» آخر ملوك بني أيّوب بها ، وهي :^(١)

هذا عهد شريف عذبت موارده ، وحسنت بحسن النية فيه مقاصده ، وعاد على البرية باليمن عائده . من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين الملك الناصر أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد «قلاوون» خلد الله تعالى ملكه ، وجعل الأرض بأسرها ملكه - للقام الشريف العالي السلطاني ، الملكي ، الأفضل ، محمد ابن المقام العالي المؤيد إسماعيل أعز الله تعالى أنصاره ، وأحمد آثاره ، بالسلطنة الشريفة بحماة المحروسة وأعمالها ، على أكل العوائد وأتمها ، وأجمل القواعد وأعمها ، على ما شرح فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أقرّبنا الملوك في أهلة أهله ، وتدارك مصاب ملك لولا هامش

ولده الأفضل لم يكن له شيء في فضله ، ووهب بنا بيت السلطنة

(١) أي بحماة ولم يتقدم لها ذكر فتنه .

هامش من أبقى البقايَا ما يَلْحَقُ به كُلُّ فرع بأصله ، ويظهر به رَوْنُ السيف

في نصله . إلى أن يأتى إلى قوله في آخره : والله تعالى يُرِيدُك أَيُّهَا الْمَلِكُ

الأفضل بأفضل مَرِيدِهِ ، ويحفظُ بك ما أبقاه لك أبوك المؤيد من

تأييده ، والاعتمادُ على الخط الشريف - أعلاه الله تعالى - أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب في

سنة

حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

الباب الرابع

من المقالة الخامسة

(في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب

(١) السيف والأقلام، وفيه [ثلاثة] فصول)

الفصل الأول

(فيما كان يُكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة أطراف)

الطرف الأول

(فيما كان يُكتب عن الخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم)

وكان الرسم في ذلك أن يفتَح العهد بلفظ : « هذا ما عهد » أو « هذا عهد من فلان لفلان » ويؤتى على المقصد إلى آخره . ويقال فيه : « أمره بكذا وأمره بكذا » .

والأصل في ذلك ما كتب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردّة، وعليه بنى من بعده . وهذه نسخته :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لفلان حين بعثه [فيمن بعثه] لقتال من رجّع عن الإسلام . عهد إليه أن يتقي الله ما أستطاع في أمره : كله سرّه وجهره . وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه ورجّع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان، بعد أن يُعذر إليهم : فيدعوهم بدعاية الإسلام :

(١) بياض في الأصل والنصح من ج ١ ص ٢٥ من هذا المطبوع .

فَإِنْ أَجَابُوهُ أَمْسَكَ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يُجِيبُوهُ شَنَّ غَارَتَهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَقْرُوا لَهُ؛ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِالَّذِي عَلَيْهِمَ وَالَّذِي لَهُمْ، فَيَأْخُذُ مَا عَلَيْهِمْ وَيُعْطِيهِمَ الَّذِي لَهُمْ؛ لَا يُنْظِرُهُمْ وَلَا يَرُدُّ الْمُسْلِمِينَ عَنْ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ؛ فَمَنْ أَجَابَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَقْرَبَ لَهُ، قَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنَّمَا يُقَاتِلُ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ عَلَى الْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَإِذَا أَجَابَ الدَّعْوَةَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، وَكَانَ اللَّهُ حَسْبِيهِ بَعْدُ فِيمَا اسْتَسَرَّ بِهِ. وَمَنْ لَمْ يُجِبْ إِلَى دَاعِيَةِ اللَّهِ قَتَلَ وَقُوتِلَ حَيْثُ كَانَ وَحَيْثُ بَلَغَ مَرَاغِمَهُ، لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا أَعْطَاهُ إِلَّا الْإِسْلَامَ؛ فَمَنْ أَجَابَهُ وَأَقْرَبَهُ قَبِلَ مِنْهُ وَعَلَّمَهُ؛ وَمَنْ أَبَى قَاتَلَهُ؛ فَإِنْ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، قَتَلَ فِيهِمْ كُلَّ قِتْلَةٍ بِالسَّلَاحِ وَالنَّيْرَانِ، ثُمَّ قَسَمَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخُمْسَ فَإِنَّهُ مُبَلَّغُهُ. وَأَنْ يَمْنَعَ أَصْحَابَهُ الْعَجَلَةَ وَالْفَسَادَ، وَأَنْ لَا يُدْخِلَ فِيهِمْ حَشَوًا حَتَّى يَعْرِفَهُمْ وَيَعْلَمَ مَا هُمْ؛ لئَلَّا يَكُونُوا عِيُونًا، وَلئَلَّا يُؤْتِيَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِبَلِهِمْ؛ وَأَنْ يَقْصِدَ بِالْمُسْلِمِينَ وَيَرْفُقَ بِهِمْ فِي السَّيْرِ وَالْمَنْزِلِ؛ وَتَتَفَقَّدَهُمْ وَلَا يُعْجَلَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَيَسْتَوْصِيَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي حُسْنِ الصُّحْبَةِ وَلِيْنِ الْقَوْلِ.



وهذه نسخة عهد كتب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه، حين ولَّاهُ القضاء :

أما بعد، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ؛ فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، وَأَنْفَذْ إِذَا تَبَيَّنَ لَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَازَ لَهُ. آسَ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلُكَ وَمَجْلِسُكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَبْتَاسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَوْنِكَ ^(١). الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ، وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا

(١) في العقد الفريد (ج ١، ص ٣٣) "ولا يخاف ضعيف من جورك".

أَوْ حَرَّمَ حَالًا . لَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ بِالْأَمْسِ فَرَاغَتْ فِيهِ عَقْلَكَ وَهَدَيْتَ فِيهِ
لِرَشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ : فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّيَادِي
فِي الْبَاطِلِ .

الْفَهْمُ الْفَهْمَ فِيمَا تَلَجَّجَ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنةٍ ، ثُمَّ اعْرِفْ
الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ ، وَقَسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ بِنَظَائِرِهَا ، وَأَعْمِدْ إِلَى أَقْرَبِهَا إِلَى اللَّهِ ^(١)
وَأَشْبِهَا بِالْحَقِّ ، وَأَجْعَلْ لِمَنْ آدَعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ : فَإِنْ أَحْضَرَ
بَيِّنَةً ، أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَحَلَلْتَ الْقَضِيَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى .
الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ ، أَوْ مَجْرَبًا عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ ،
أَوْ ظَنِينًا فِي وِلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمْ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْإِيمَانِ .
وَمَا يَأْكُ وَالْقَاتِقَ وَالضَّجَرَ ، وَالتَّادِي بِالْخُصُومِ ، وَالتَّنَكُّرَ عِنْدَ الْخُصُومَاتِ : فَإِنَّ الْحَقَّ
فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يُعَظِّمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ ، وَيُحَسِّنُ عَلَيْهِ الذُّخْرَ وَالْجَزَاءَ . فَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ
وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ تَحَلَّقَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ
لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَانَهُ اللَّهُ ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ ،
وَالسَّلَامِ .

قُلْتُ : هَذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ رَبِّهِ فِي « الْعِقْدِ » . وَيَقَعُ فِي بَعْضِ الْمَصْنُفَاتِ
أَبْتَدَأُوهُ : مِنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ - سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَا بَعْدُ .

وَوَقَعَ فِي مُسْنَدِ الْبَزَّازِ أَنْ أَوَّلَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، مَعَ تَغْيِيرِ بَعْضِ
الْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِ بَعْضٍ وَتَأْخِيرِ بَعْضٍ .

الطرف الثانى

(فما كان يكتب عن خلفاء بنى أمية)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب، عن مروان بن محمد لبعض من ولده^(١).

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين - عند ما أعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الحلف الجاني الأعزاي ، المتسكع في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنة ، ومهاوى الهلكة . ورعاه الذين عاثوا في أرض الله فساداً ، وآتوه حُرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، وأستحلوا [دماء أهل]^(٢) سلمه جهلاً - أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك ، وعوام شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومضطرف تنقلك عهداً يحملك فيه أدبه ، ويشرع لك به عظمته ، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث أصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحنك وبني أهلك . ولولا ما أمر الله تعالى به ، دالاً عليه ، وتقدمت فيه الحكماء أمرين به : من تقديم العظة ، والتذكير لأهل المعرفة وإن كانوا أولى سابقة في الفضل وخصيصاء في العلم ، لاعتمد أمير المؤمنين على أصطناع الله إياك ، وتفضيله لك بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين ، وسبقك إلى رغائب أخلاقه ، وأتزعاك محمود شيمه ، وأستيلائك على مشايه تديره . ولو كان المودبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أولقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم نصبهم تعلموا شيئاً من غيرهم ، لنحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته وسابق لأهويته ، احتجاجاً منهم لتعقب في حكمه ، وتثبت في سلطانه وتنفيذ إرادته ،

(١) المولى هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ٢٣٠) وغيره وهي لازمة .

على سابق مشيئته . ولكن العالم الموفق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبوب بمزية العلم وصفوته ، أدركه معاناً عليه بلطف بحثه ، وإذلال كنفه ، وصحة فهمه ، وهجر سأمته .

وقد تقدم أمير المؤمنين إليك ، آخذاً بالحنة عليك ، مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حَقِّك ، وما ينظر به الوالد المعنى الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاقٍ بأحد ، وأن يحصنك من كل آفة استولت على أمرئ في دين أو خلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعودُه ويُرِيه من آثار نعمة الله عليك ، ساميةً بك إلى ذروة الشرف ، متبججةً بك بسطة الكرم ، لائحةً بك في أزهر معالي الأدب ، مؤثرةً لك أنفس ذخائر العز ، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأل حياطتك ، وأن يعصمك من زيغ الهوى ، ويحضرك داعي التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو .

إعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أمها سالكا ، وركب أخطارها قاصداً ، إلى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزها ، وأنها لا تعار بسخف الخفة ، ولا تنشأ بتفريط الغفلة ، ولا يتعدى فيها بأمرئ حده ؛ وربما أظهرت بسطة التي مستور العيب . وقد تلقى أخلق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا متناول لمناولة ذروتها ؛ بل تأملت منها أكرم نبعاتها ، واستخلصت [منها] أعتق جواهرها ؛ ثم ستمت إلى لباب مباحها ، وأحرزت منفس ذخائرها ، فأقتعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَحْتَوَاكَ عَلَى ذَلِكَ وَسَبَقْتُ إِلَيْهِ بِإِخْلَاصِ تَقْوَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ
مُؤَثِّرًا لَهَا، وَإِضْمَارِ طَاعَتِهِ مُنْطَوِيًّا عَلَيْهَا، وَإِعْظَامِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ شَاكِرًا لَهُ،
مُرْتَبِطًا فِيهِ لِلزَّيْدِ بِحُسْنِ الْحَيَاةِ لَهُ وَالذَّبِّ عَنْهُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَكَ مِنْهُ سَامَةٌ مَلَالٍ،
أَوْ غَفْلَةٌ ضَيَاعٍ، أَوْ سِنَّةٌ تَهَاوُنٍ، أَوْ جَهَالَةٌ مَعْرِفَةٍ: فَإِنَّ ذَلِكَ أَحَقُّ مَا يُدْىَى بِهِ وَنُظَرُ
فِيهِ، مَعْتَمِدًا عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ وَالْآلَةِ وَالْعُدَّةِ وَالْإِفْرَادِ بِهِ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْحَامَةِ .
فَتَمَسَّكَ بِهِ لِاجْتِنَاءِ إِلَيْهِ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ مُؤَثِّرًا لَهُ، وَالتَّجَيَّأُ إِلَى كَنَفِهِ مَتَحِيرًا إِلَيْهِ: فَإِنَّهُ
أَبْلَغُ مَا طَلِبَ بِهِ رِضَا اللَّهِ، وَأَنْجَحُهُ مَسْأَلَةٌ، وَأَجْزَلُهُ ثَوَابًا، وَأَعُوذُهُ نَفْعًا، وَأَعَمُّهُ
صَلَاحًا؛ أَرَشَدَكَ اللَّهُ لِحَظِّكَ، وَفَهَّمَكَ سَدَادَهُ، وَأَخَذَ بِقَلْبِكَ إِلَى مُجُودِهِ . ثُمَّ أَجْعَلْ
لِلَّهِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يُنْعِمُ عَلَيْكَ بِبُلُوغِهِ، وَيُظْهِرُ مِنْكَ السَّلَامَةَ فِي إِشْرَاقِهِ [مِنْ نَفْسِكَ]^(١)
نَصِيبًا تَجَمُّلُهُ لَهُ شُكْرًا عَلَى إِبْلَاغِهِ إِيَّاكَ يَوْمَكَ ذَلِكَ بِصِحَّةِ جَوَارِحَ وَعَافِيَةِ بَدَنٍ، وَسُبُوحِ
نِعَمٍ، وَظُهُورِ كَرَامَةٍ . وَأَنْ تَقْرَأَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - جُزْءًا تَرُدُّدُ رَأْيِكَ
فِي آيِهِ، وَتُرْتِّلُ لِفُطُكِ بَقْرَاتِهِ، وَتُحْضِرُهُ عَقْلَكَ نَاطِرًا فِي مُحْكَمِهِ، وَتُنْفَعُهُ مَفْكَرًا
فِي مُتَشَابِهِهِ: فَإِنَّ فِي الْقِرَاءَنِ شِفَاءَ الصُّدُورِ مِنْ أَمْرَاضِهَا، وَجِلَاءَ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ^(٢)
وَصَعَاعِصِهِ، وَضِيَاءَ مَعَالِمِ النُّورِ، تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يَوْمِنُونَ .
ثُمَّ تَعَهَّدْ نَفْسَكَ بِجَاهِدَةِ هَوَاكَ: فَإِنَّهُ مِغْلَاقُ الْحَسَنَاتِ، وَمِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ،
وَحَصْمُ الْعَقْلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَهْوَاكَ لَكَ عَدُوٌّ يُحَاوِلُ هَلَكَتَكَ، وَيَعْتَرِضُ غَفْلَتَكَ: لِأَنَّهَا خُدَعُ
إِبْلِيسَ، وَخَوَاتِلُ مَكْرِهِ، وَمَصَائِدُ مَكِيدَتِهِ؛ فَاحْذَرُهَا مُجَانِبًا لَهَا، وَتَوَقَّهَا مُحْتَرِسًا مِنْهَا؛

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره:

(٢) في مفتاح الأفكار (ص ٢٣٢) وغيره «وترين» وهي أنسب .

(٣) الصعاصع جمع صمصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب شبه وسوسة الشيطان به وفي بعض المؤلفات

وسواسفه .

(١) وَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّهَا، وَجَاهِدْهَا إِذَا تَنَاصَرَتْ عَلَيْكَ بِعَزْمٍ صَادِقٍ لَا وَيْتَةَ
 فِيهِ، وَحَزْمٍ نَافِذٍ لَا مَثْنَوِيَّةَ لِرَأْيِكَ بَعْدَ إِصْدَارِهِ، وَصِدْقٍ غَالِبٍ لَا مَطْمَعَ فِي تَكْذِيبِهِ؛
 وَمَضَاءَةٍ صَارِمَةٍ لَا أُنَاةَ مَعَهَا، وَنِيَّةٍ صَحِيحَةٍ لَا خَاجَةَ شَكٍّ فِيهَا: فَإِنَّ ذَلِكَ ظَهْرِي
 صِدْقٍ لَكَ عَلَى رَدْعِهَا عَنْكَ، وَقَمْعِهَا دُونَ مَا تَنْتَطِلِعُ إِلَيْهِ مِنْكَ؛ فَهِيَ وَاقِيَةٌ لَكَ سُخْطَةَ
 رَبِّكَ، دَاعِيَةٌ إِلَيْكَ رِضَا الْعَامَةِ عَنْكَ، سَاتِرَةٌ عَلَيْكَ عَيْبَ مَنْ دُونَكَ؛ فَازْدَنْ بِهَا
 مَتَحَلِّيًّا، وَأَصِْبْ بِأَخْلَاقِكَ مَوَاضِعَهَا الْحَمِيدَةَ مِنْهَا، وَتَوَقَّ عَلَيْهَا الْآفَةَ الَّتِي تَقْتَطِعُكَ عَنْ
 بُلُوغِهَا، وَتُقْصِّرُكَ دُونَ شَاوِهَا: فَإِنَّ الْمُثُونَةَ إِنَّمَا أَشْتَدَّتْ مُسْتَضْعِبَةً، وَفَدَحَتْ
 بَاهِظَةً أَهْلَ الطَّلَبِ لِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْكَرَمِ الْمُتَحِلِّينَ سُمْوُ الْقَدَرِ، بِجَهَالَةِ مَوَاضِعِ ذَمِّمِ
 الْأَخْلَاقِ وَمُجْمُودِهَا، حَتَّى قَرِطَ أَهْلُ التَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ أُمُورِهِمْ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ
 الْآفَاتُ مِنْ جِهَاتٍ أَمِنُوهَا، فَانْسَبُوا إِلَى التَّفْرِيطِ، وَرَضُوا بِذُلِّ الْمَنْزِلِ، فَأَقَامُوا بِهِ
 جَاهِلِينَ بِمَوْضِعِ الْفَضْلِ، سَمَّيْهِمْ عَنْ دَرَجِ الشَّرَفِ، سَاقِطِينَ دُونَ مَثَلَةِ أَهْلِ الْحِجَابِ.
 فَاوَلُ بُلُوغَ غَايَاتِهَا مُحَرِّزًا لَهَا بِسَبْقِ الطَّلَبِ إِلَى إِصَابَةِ الْمَوْضِعِ، مُحَصِّنًا أَعْمَالَكَ مِنْ
 الْعُجْبِ: فَإِنَّهُ رَأْسُ الْمَهْوَى، وَأَوَّلُ الْغَوَايَةِ، وَمَقَادُّ الْهَلَاكَةِ؛ حَارِسًا أَخْلَاقَكَ مِنْ
 الْآفَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِمَسَاوِي الْأَلْقَابِ وَذَمِّمِ تَنَابُزِهَا، مِنْ حَيْثُ أَتَتْ الْغَفْلَةُ، وَانْتَشَرَ
 الضَّيَاعُ، وَدَخَلَ الْوَهْنُ. فَتَوَقَّ غُلُوبَ الْآفَاتِ عَلَى عَقْلِكَ، فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحَقِّ سَتُظْهِرُ
 بِأَمَارَاتِهَا تَصْدِيقَ آرَائِكَ عِنْدَ ذَوِي الْحِجَابِ، وَحَالَ الرَّأْيِ وَخَصَّ النَّظَرَ. فَاجْتَلِبْ
 لِنَفْسِكَ مَحْمُودَ الذِّكْرِ وَبَاقِيَ لِسَانِ الصَّدْقِ بِالْحَذَرِ لِمَا تَقْدَمُ إِلَيْكَ فِيهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) من قولهم افعل ذلك بلا ونية أى بلا توان .

(٢) هو من قولهم تأتى بالأمر ترقى وتنظر . أى لا رفق معها .

(٣) فى بعض المؤلفات بمساوى العادات وذمى إثارتها .

(٤) أى غلبة الآفات ولم تقف على هذا المصدر فى بأيدينا من كتب اللغة .

متحرّزا من دُخُول الآفَاتِ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ أَمْنُكَ وَقِلَّةُ نَفْتِكَ بِمُحْكَمِهَا : مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَمْلِكَ أُمُورَكَ بِالْقَصْدِ ، وَتُدَارِيَ جُنْدَكَ بِالْإِحْسَانِ ، وَتَصُونَ سِرَّكَ بِالْكَيْمَانِ ، وَتُدَاوِيَ حِقْدَكَ بِالْإِنْصَافِ ، وَتُذَلِّلَ نَفْسَكَ بِالْعَدْلِ ، وَتُحَصِّنَ عُيُوبَكَ بِتَقْوِيمِ أَوْدِكَ ، وَتَمْنَعَ عَقْلُكَ مِنْ دُخُولِ الْآفَاتِ عَلَيْهِ بِالْعُجْبِ الْمُرْدِي . وَأَنَاتُكَ فَوْقَهَا الْمَلَالُ وَفُوتَ الْعَمَلُ ، وَمَضَايَاكَ فَدَرَّعَهَا رِيَّةَ النَّظَرِ وَآكُفْنَهَا بَأَنَاءَ الْحِلْمِ . وَخَلَوْتَكَ فَاحْرَسْهَا مِنَ الْغَفْلَةِ وَاعْتِمَادِ الرَّاحَةِ ، وَصَمْتَكَ فَانْفِ عَنْهُ عَنِ اللَّفْظِ ، وَخَفِ سُوءَ الْقَالَةِ ، وَاسْتِمَاعَكَ فَارْعِهِ حُسْنَ التَّفَهُّمِ ، وَقُوَّةَ بَيِّنَاتِ الْفِكْرِ ، وَعِطَاءَكَ فَاْمَهْدْ لَهُ بَيُوتَاتِ الشَّرَفِ وَذَوِي الْحَسَبِ ، وَتَحَرَّزْ فِيهِ مِنَ السَّرَفِ وَاسْتِطَالَةِ الْبَدَخِ وَامْتِنَانِ الصَّبِيعَةِ ، وَحَيَاةَكَ فَاْمَنْعِهِ مِنَ الْخَجَلِ ، وَبِلَادَةِ الْحَصْرِ ، وَحِلْمَكَ فِرْزِهِ عَنِ التَّهَاوُنِ وَأَحْضِرْهُ قُوَّةَ الشَّكِيمَةِ ، وَعُقُوبَتَكَ فَقَصِّرْ بِهَا عَنِ الْإِفْرَاطِ ، وَتَعَمَّدْ بِهَا أَهْلَ الْإِسْتِحْقَاقِ ، وَعَفْوِكَ فَلَا تُدْخِلْهُ تَعْطِيلَ الْحَقُوقِ ، وَخُذْ بِهِ وَاجِبَ الْمُفْتَرَضِ ، وَأَقِمْ بِهِ أَوْدَ الدِّينِ ، وَاسْتِنْسَاسَكَ فَاْمَنْعْ مِنْهُ الْبَدَاءَ وَسُوءَ الْمُنَاقَاةِ ^(١) . وَتَعْمَدُكَ أُمُورَكَ فَخُذْهُ أَوْقَاتًا ، وَقَدْرَهُ سَاعَاتٍ ، لَا تَسْتَفْرِغْ قُوَّتَكَ ، وَلَا تَسْتَدْعِي سَأَمَتَكَ ، وَعَزِمَاتِكَ فَانْفِ عَنْهَا عَجَلَةَ الرَّأْيِ ، وَلِحَاجَةَ الْإِقْدَامِ ، وَقَرَحَاتِكَ فَاشْكُهَا عَنِ الْبَطَرِ ، وَقَيِّدْهَا عَنِ الزُّهْوِ ، وَرَوَعَاتِكَ فَخُطْهَا مِنْ دَهْشِ الرَّأْيِ ، وَاسْتِسْلَامِ الْخُضُوعِ ، وَحَدَرَاتِكَ فَاْمَنْعْهَا مِنَ الْجُبْنِ ، وَاعْمِدْ بِهَا الْحَزْمَ ، وَرَجَاءَكَ فَقَيِّدْهُ بِخَوْفِ الْفَائِتِ ، وَامْنَعْهُ مِنْ أَمْنِ الطَّلَبِ .

هذه جوامعٌ خلال دَخَالِ النَقِصِ مِنْهَا وَاصِلٌ إِلَى الْعَقْلِ بِلَطَائِفِ أُنْبِهِ وَتَصَارِيفِ حَوِيلِهِ ، فَأَحْكُمُهَا عَارِفًا بِهَا ، وَتَقَدَّمْ فِي الْحِفْظِ لَهَا ، مَعْتَرِمًا عَلَى الْأَخْذِ بِمَرَاشِدِهَا وَالْإِتِّهَاءِ مِنْهَا إِلَى حَيْثُ بَلَغَتْ بِكَ عِظَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدَبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) يقال ناقت فلان فلانا بالكلام آذاه انظر القاموس مادة ن ق ث .

ثُمَّ لَتَكُنْ بِطَانَتِكَ وَجُلَسَاؤِكَ فِي خَلَوَاتِكَ ، وَدُخْلَاؤِكَ فِي سِرِّكَ ، أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْوَرَعِ
 مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَعَامَّةِ قُودِكَ مِنْ قَدْ خَنَكْتَهُ السَّنُّ بِتَصَارِيفِ الْأُمُورِ ،
 وَخَبَطْتَهُ فِصَالُهَا بَيْنَ فَرَاسِنِ الْبُزْلِ مِنْهَا ، وَقَلْبَتَهُ الْأُمُورِ فِي فُنُونِهَا ؛ وَرَكِبَ أَطْوَارَهَا :
 عَارِفًا بِحَاسِنِ الْأُمُورِ وَمَوَاضِعِ الرَّأْيِ وَعَيْنِ الْمَشُورَةِ ؛ مَأْمُونًا النَّصِيحَةِ ، مُنْطَوًى
 الضَّمِيرُ عَلَى الطَّاعَةِ . ثُمَّ أَحْضَرَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ وَقَارًا يَسْتَدْعِي لَكَ مِنْهُمْ الْهَيْبَةَ ،
 وَأَسْتِثْنَانَسًا يَعْطِفُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ الْمَوَدَّةَ ، وَإِنْصَاتًا يَفْلُ إِفَاضَتَهُمْ لَكَ عِنْدَكَ بِمَا تَكْرَهُ أَنْ
 يُنْشَرَّ عَنْكَ مِنْ سَخَافَةِ الرَّأْيِ وَضَيَاعِ الْحَزْمِ . وَلَا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ هَوَاكَ فَيَصْرِفَكَ عَنْ
 الرَّأْيِ ، وَيَقْطِعَكَ دُونَ الْفِكْرِ . وَتَعْلَمُ أَنَّكَ - وَإِنْ خَلَوْتَ بِسِرِّ قَلْبَيْتِ دُونَهُ سَتُورَكَ ،
 وَأَعْلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَكَ - فَذَلِكَ لِاحْمَالَةِ مَكْشُوفٍ لِلْعَامَّةِ ، ظَاهِرٌ عَنْكَ وَإِنْ أَسْتَرْتِ [ت]
 بَرُّبًا وَلَعَلَّ وَمَا أَرَى إِذَاعَةَ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ ، بِمَا يَرُونَ مِنْ حَالَاتٍ مِنْ ^(١) يَنْقَطِعُ بِهِ
 فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ . فَتَقَدَّمَ فِي أَحْكَامِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَسَدَّدَ خَلْلَهُ عَنْكَ : فَإِنَّهُ
 لَيْسَ أَحَدٌ أَسْرَعَ إِلَيْهِ سُوءُ الْقَالَةِ وَلَفْطُ الْعَامَّةِ بَخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مِنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِكَ
 وَمَكَانِكَ الَّذِي أَصْبَحْتَ بِهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ الْمُنْتَظَرِ فَيْكَ . وَلِيَاكَ أَنْ
 يُغْمَزَ فَيْكَ أَحَدٌ مِنْ حَامَتِكَ وَبِطَانَةِ خَدَمَتِكَ بَضْعْفَةٍ يَجِدُهَا مَسَاغًا إِلَى النُّطْقِ عِنْدَكَ
 بِمَا لَا يَعْتَرِلُكَ عَيْنُهُ ، وَلَا تَحُلُو مِنْ لَائِمَتِهِ ، وَلَا تَأْمَنُ سُوءَ الْأَحْدُوثَةِ فِيهِ ، وَلَا يَرْخُصُ
 سُوءُ الْقَالَةِ بِهِ إِنْ نَجَّمَ ظَاهِرًا أَوْ عَلَنَ بَادِيًا ، وَلَنْ يَجْتَزُوا عَلَى تِلْكَ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْ يَرَوْا
 مِنْكَ إِصْغَاءً إِلَيْهَا ، وَقَبُولًا لَهَا ، وَتَرْخِيصًا لَهُمْ فِي الْإِفَاضَةِ بِهَا . ثُمَّ إِيَّاكَ وَأَنْ يُفَاضَ
 عِنْدَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفُكَاكَهَاتِ وَالْحِكَايَا ، وَالْمِزَاحِ وَالْمُضَاحِكِ الَّتِي يَسْتَخِفُّ بِهَا أَهْلُ
 الْبَطَالَةِ ، وَيَتَسَرَّعُ نَحْوَهَا ذَوُو الْجَهَالَةِ ؛ وَيَجِدُ فِيهَا أَهْلُ الْحَسَدِ مَقَالًا لَعِيبٍ يُذَيِّعُونَهُ ،

(١) كذا في الأصل ومفتاح الأفكار مع توقف والمراد أنه يحذر من نشر هذه الألفاظ .

وَطَعْنَا فِي حَقِّ يَحْجِدُونَهُ ؛ مع مافى ذلك من نَقْصِ الرَّأْيِ ، وَدَرَنِ الْعِرْضِ ، وَهَذَا الشَّرْفُ ، وَتَأْثِيلُ الْغَفْلَةِ ، وَقُوَّةُ طِبَاعِ السُّوءِ الْكَامِنَةِ فِي بَنَى آدَمَ كَكُؤُنِ النَّارِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ ، إِذَا قُدِحَ لَاحَ شَرُّهُ ، وَتَلْهَبَ وَمِضْبُهُ ، وَوَقَدَ تَضَرُّهُ . وَلَيْسَتْ فِي أَحَدٍ أَقْوَى سَطْوَةً ، وَأَظْهَرُ تَوْقُذًا ، وَأَعْلَى كُؤُنًا ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ بِالْعَيْبِ وَتَطَّرِقُ الشَّيْنِ مِنْهَا لِمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ : مِنْ أَغْفَالِ الرِّجَالِ وَذَوَى الْعُنُفُونِ فِي الْحَدَاثَةِ ، الَّذِينَ لَمْ يَقْعِ عَلَيْهِمْ سِمَاتُ الْأُمُورِ ، نَاطِقًا عَلَيْهِمْ لِأَحْجَاهَا ، ظَاهِرًا فِيهِمْ وَسَمُومًا ، وَلَمْ تَمَحَّضْهُمْ شَهَامَتَهَا ، مَظْهَرَةً لِلْعَامَّةِ فَضْلَهُمْ ، مُذِيعَةً حَسَنَ الذِّكْرِ عَنْهُمْ ؛ وَلَمْ يَبْلُغْ بِهِمُ الصَّيْتُ فِي الْخُنْكَ مَسْتَمَعًا يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ نَوَاطِقَ الْأُسْنِ أَهْلَ الْبَغْيِ ، وَمَوَادَّ أَبْصَارِ أَهْلِ الْحَسَدِ .

ثم تعهّد من نفْسِكَ لَطِيفَ عَيْبٍ لَا زِمَ لكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ : مِنْ أَبْطَالِ الذَّرْعِ وَنَحْوَةِ الشَّرْفِ وَالتَّيِّهِ وَعَيْبِ الصَّلَفِ ؛ فَإِنَّمَا تُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى فَسَادٍ وَتَهْجِينِ عَقُولِهِمْ فِي مَوَاطِنَ جَمَّةٍ ، وَأَنْحَاءِ مُضْطَرِّفَةٍ ، مِنْهَا قَلَّةٌ أَقْتَدَارُهُمْ عَلَى ضَبْطِ أَنْفُسِهِمْ فِي مَوَاقِبِهِمْ وَمَسَايِرِهِمْ الْعَامَّةِ : فَمِنْ مَقْلِقِلِ شَخْصِهِ بِكَثْرَةِ الْإِلْتِفَاتِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، تَزْدِيهِهِ الْخَفَّةَ ، وَيُطِطِرُهُ إِجْلَابُ الرِّجَالِ حَوْلَهُ . وَمِنْ مُقْبِلٍ فِي مَوْكِهِ عَلَى مُدَاعِبَةِ مُسَايِرِهِ بِالْمُقَافَاكِهِ لَهُ وَالتَّضَاحُكِ إِلَيْهِ ، وَالْإِيْجَافِ فِي السَّيْرِ مَرَحًا ، وَتَحْرِيكِ الْجَوَارِحِ مَتَسَرِّعًا ، يَحَالُ أَنَّ ذَلِكَ أَسْرَعُ لَهُ وَأَحْتُ لِمَطِيئَتِهِ ، فَلْتَحَسَّنْ فِي ذَلِكَ هَيْئَتَكَ ، وَلْتَجَمِّلْ فِيهِ دَعَتَكَ ؛ وَلْيَقِلَّ عَلَى مُسَايِرِكَ إِقْبَالُكَ إِلَّا وَأَنْتَ مُطَّرِقُ النَّظَرِ ، غَيْرُ مُلْتَفِتٍ إِلَى مُحَدَّثٍ ، وَلَا مُقْبِلٍ عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ فِي مَوْكِكَ لِمُحَادَثَتِهِ ، وَلَا مُوْجِفٍ فِي السَّيْرِ مَقْلِقِلِ الْجَوَارِحِ بِالتَّحْرِيكِ وَالْإِسْتِنْهَاضِ ؛ فَإِنَّ حُسْنَ مَسَايِرَةِ الْوَالِي وَاتِّدَاعَهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ دَلِيلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ غُيُوبِ أَمْرِهِ وَمُسْتَتَرِّ أَحْوَالِهِ .

(١) فِي مِفْتَاحِ الْأَفْكَارِ «مِنْ أَبْطَالِ الْبَدْعِ» وَفِي غَيْرِهِ «مِنْ أَقْطَارِ الذَّرْعِ» وَفِي كِلَيْهِمَا عَلَامَةُ التَّوْقُفِ تَامِلٌ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَقْوَامًا يَتَسَرَّعُونَ إِلَيْكَ بِالسَّعَايَةِ ، وَيَأْتُونَكَ عَلَى وَجْهِ النَّصِيحَةِ ،
وَيَسْتَمِيلُونَكَ بِإِظْهَارِ الشَّقِيقَةِ ، وَيَسْتَدْعُونَكَ بِالْإِغْرَاءِ وَالشُّبْهَةِ ، وَيُوطِئُونَكَ عُشْوَةَ
الْحَيَرَةِ : لِيَجْعَلُوكَ لَهُمْ ذَرِيعَةً إِلَى أَسْتِكَالِ الْعَامَّةِ بِمَوْضِعِهِمْ مِنْكَ فِي الْقَبُولِ ^(١) [مِنْهُمْ]
وَالْتَصْدِيقِ لَهُمْ عَلَى مَنْ قَرَفُوهُ بِثَمَةٍ ، أَوْ أَسْرَعُوا بِكَ فِي أَمْرِهِ إِلَى الظَّنَّةِ ؛ فَلَا يَصِلَنَّ
إِلَى مُشَافَهَتِكَ سَاعِ شُبْهَةٍ ، وَلَا مَعْرُوفٍ بِثَمَةٍ ، وَلَا مَنْسُوبٍ إِلَى دِدْعَةٍ [فَيَعْرِضُكَ] ^(٢)
لِإِتْيَاحِ دِينِكَ ، وَيَحْمِلُكَ عَلَى رِعْيَتِكَ بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَكَ ، وَيُلْحِمَكَ أَعْرَاضَ
قَوْمٍ لَا عِلْمَ لَكَ بِدَخْلِهِمْ ، إِلَّا بِمَا أَقْدَمَ [بِهِ] عَلَيْهِمْ سَاعِيًا وَأَظْهَرَ لَكَ مِنْهُمْ مُتَصِحًّا .
وَلِيَكُنْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ الْمُتَوَلَّى لِإِنْهَاءِ ذَلِكَ هُوَ الْمَنْصُوبُ لِأَوَّلِكَ ، وَالْمُسْتَمَعَ ^(٣)
لَأَقَاوِيلِهِمْ ، وَالْفَاحِصَ عَنْ نَصَائِحِهِمْ ؛ ثُمَّ لِيُنْهَ ذَلِكَ إِلَيْكَ عَلَى مَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ مِنْهُ
لِتَأْمُرَهُ بِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَتَقِفَهُ عَلَى رَأْيِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ لِلْعَامَّةِ : فَإِنْ كَانَ صَوَابًا
نَالَتْ خَيْرُهُ ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً أَقْدَمَ بِهِ عَلَيْكَ جَاهِلٌ أَوْ فَرَطَةٌ سَعَى بِهَا كَاذِبٌ
فَنَالَتْ السَّاعِي مِنْهُمَا أَوْ الْمَظْلُومَ عِقُوبَةً ، أَوْ بَدَرَ مِنْ وَإِلَيْكَ إِلَيْهِ عُقُوبَةٌ وَنَكَالٌ ،
لَمْ يَعْصِبْ ذَلِكَ الْخَطَأُ بِكَ وَلَمْ تُنْسَبْ إِلَى تَفْرِيطٍ ، وَخَلَوْتَ مِنْ مَوْضِعِ الذَّمِّ فِيهِ :
مُحْضِرًا إِلَيْهِ ذِهْنَكَ وَصَوَابَ رَأْيِكَ . وَتَقَدَّمْ إِلَى مَنْ تَوَلَّى ذَلِكَ الْأَمْرَ وَتَعَمَّدْ عَلَيْهِ
فِيهِ أَنْ لَا يُقَدِّمَ عَلَى شَيْءٍ نَاطِرًا فِيهِ ، وَلَا يُجَاوِلَ أَخَذَ طَارِقًا لَهُ ، وَلَا يُعَاقِبَ

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره وهي لازمة . وفي القاموس في مادة (وت غ) وأوتغ دينة

بالاتم أفسده .

(٣) دخل الرجل بالفتح والكسر نيته ومذهبه .

(٤) الذي في "مفتاح الأفكار" وغيره «ولیکن صاحب شرطتك ومن أحیبت أن يتولى ذلك من قوادك
إليه آتتهاء ذلك وهو المنسوب الخ» .

أحداً مُنْكَلا به ، ولا يُحَلَّى سَبِيلَ أَحَدٍ صَاحِفاً عَنْهُ : ^(١) لِإِصْحَارِ بَرَاءَتِهِ ، وَصِحَّةِ طَرِيقَتِهِ ؛ حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْكَ أَمْرَهُ ، وَيُنْهِيَ إِلَيْكَ قَضِيَّتَهُ عَلَى جِهَةِ الصَّدَقِ ، وَمَنْحَى الْحَقِّ ، وَيَقِينُ الْخَبَرَ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهِ سَبِيلاً لِمَحْبَسٍ أَوْ مَجَازاً لِعُقُوبَةٍ ، أَمْرَتَهُ بِتَوَلَّى ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ إِدْخَالِهِ عَلَيْكَ ، وَلَا مُشَافَهَةٍ لَكَ مِنْهُ ؛ فَكَانَ الْمَتَوَلَّى لِذَلِكَ وَلَمْ يَجْرِ عَلَى يَدَيْكَ مَكْرُوهٌ رَأَى وَلَا غِلْظَةٌ عُقُوبَةٍ . وَإِنْ وَجَدْتَ إِلَى الْعَفْوِ [عَنْهُ] سَبِيلاً ، أَوْ كَانَ مِمَّا قُرِفَ بِهِ خَلِيّاً ؛ كُنْتَ أَنْتَ الْمَتَوَلَّى لِلْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ ، وَالصَّفْحِ عَنْهُ بِإِطْلَاقِ أَسْرِهِ ؛ فَتَوَلَّيْتَ أَجْرَ ذَلِكَ وَاسْتَحَقَّقْتَ ذَنْبَهُ ، وَأَنْطَقْتَ لِسَانَهُ بِشُكْرِكَ ، وَطَوَّقْتَ قَوْمَهُ حَمْدَكَ ، وَأَوْجِبْتَ عَلَيْهِمْ حَقَّكَ ؛ فَفَرَّقْتَ بَيْنَ خَصْلَتَيْنِ ، وَأَحْرَزْتَ حُطُوتَيْنِ : ثَوَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَمُجُودَ الذِّكْرِ فِي الدُّنْيَا .

ثُمَّ وَإِيَّاكَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِكَ وَجُلَسَائِكَ وَخَاصَّتِكَ وَبِطَانَتِكَ بِمَسْأَلَةٍ يَكْشِفُهَا لَكَ ، أَوْ حَاجَةٍ يَبْدُهَا بِطَلِبِهَا ، حَتَّى يَرْفَعَهَا قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى كَاتِبِكَ الَّذِي أَهْدَفْتَهُ لِذَلِكَ وَنَصَبْتَهُ لَهُ ، فَيَعْرِضُهَا عَلَيْكَ مُنْهِيّاً لَهَا عَلَى جِهَةِ الصَّدَقِ عَنْهَا ، وَتَكُونُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ قَدَرِهَا : فَإِنْ أَرَدْتَ إِسْعَافَهُ بِهَا وَنَجَاحَ مَسْأَلِهَا مِنْهَا ، أَذِنْتَ لَهُ فِي طَلِبِهَا ، بِأَسْطَلِّهِ كَفَنَكَ ، مُقْبِلاً عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ ؛ مَعَ ظُهُورِ سُورِكَ بِمَا سَأَلَكَ ، وَفَسَحَةٍ رَأَى وَبَسْطَةِ ذَرْعٍ ، وَطِيبِ نَفْسٍ . وَإِنْ كَرِهْتَ قَضَاءَ حَاجَتِهِ ، وَأَحْبَبْتَ رَدَّهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ؛ وَثَقُلَ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ إِلَيْهَا ، وَإِسْعَافُهُ بِهَا ، أَمَرْتَ كَاتِبَكَ فَصَفَحَهُ عَنْهَا ، وَمَنْعَهُ مِنْ مُوَاجَهَتِكَ بِهَا ؛ نَخَفْتُ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ الْمُثُونَةَ ، وَحَسُنَ لَكَ الذِّكْرُ ، وَلَمْ يُنْشَرْ عَنْكَ تَجَهُمُ الرَّدِّ ، وَبَيْنَكَ سُوءُ الْقَالَةِ فِي الْمَنْعِ ، وَحِمْلُ عَلَى كَاتِبِكَ فِي ذَلِكَ لِأُتْمَةِ أَنْتَ مِنْهَا بِرِيءُ السَّاحَةِ .

(١) أى لوضوح براءته ففي حديث عليّ فأصحر لعدوك أى كن من أمره على أمر واضح انظر اللسان

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طراً عليك من الوُفود وأتاك من الرُّسل ،
 فلا يصلنَّ إليك أحدٌ منهم إلَّا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ماقدّم له عليك ؛ وجهته
 ما هو مكّلك به ، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك ، فأصدرت رأيك
 في حوائجه ، وأجلت فكرك في أمره ، وأخترت معترماً على إرادتك في جوابه ،
 وأنفذت مضدور رويّتك في مرجوع مسأله قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول
 حاله إليك ؛ فرفعت عنك مئونة البديهة ، وأرخت عن نفسك خناق الروية ،
 وأقدمت على ردّ جوابه بعد النّظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم
 فكلّمك بخلاف ما أنهى إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا
 جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعا ؛ ثم أمرت حاجبك بإظهار الحقّوة له ، والغلظة
 عليه ، ومنعه من الوصول إليك ؛ فإنّ ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ،
 صارفاً عنك مئوتها ، ومسهلاً عليك مستصعبها .

احذر تضييع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب وأعتوارهما
 إياك ، فلا يزدهينك إفراط عجب تستخفك روائعه ، ويستهويك منظره ،
 ولا يبدرت منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلّ بك ، أو حادث إن طراً
 عليك . وليكن لك من نفسك ظهري ملجأ تحجز به من آفات للردي ، وتستعصد^(١)
 في موهم النازل ، وتتعبّ به أمورك في التدبير . فإن احتجت إلى مادة من عقلك ،
 وروية من فكرك ، أو أنيساط من منطقتك ؛ كان أنحيازك إلى ظهرك مُزدادا مما
 أحببت الإمتياح منه والإمتيار ؛ وإن استدبرت من أمورك بوادر جهل أو مضى^(٢)
 زلل أو معاندة حق أو خلل تدبير ، كان ما احتجنت إليه من رأيك عذراً لك عند

(١) في رسائل البلغاء وتستعده في مهم نازل .

(٢) كذا في المفتاح ورسائل البلغاء أيضاً ولعله وإن آتدبرت الخ . تأمل .

نَفْسِكَ ، وظَهْرِيًّا قَوِيًّا عَلَى رَدِّ مَا كَرِهْتَ ، وتَخْفِيفًا لِمُؤْنَةِ الْبَاغِينَ عَلَيْكَ فِي الْقَالَةِ
وَأَنْتِشَارِ الذِّكْرِ ؛ وَحِصْنًا مِنْ غُلُوبِ الْآفَاتِ عَلَيْكَ ، وَأَسْتِعْلَاهَا عَلَى أَخْلَاقِكَ .

وَأَمْنَعَ أَهْلَ بَطَانَتِكَ وَخَاصَّةَ خَدَمِكَ مِنْ أَسْتِلْهَامِ أَعْرَاضِ النَّاسِ عِنْدَكَ بِالْغِيْبَةِ ،
وَالْتَقَرُّبِ إِلَيْكَ بِالسَّعَايَةِ ، وَالْإِغْرَاءِ مِنْ بَعْضِ بَعْضٍ ؛ أَوِ التَّيْمَةِ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ مِنْ
أَحْوَالِهِمُ الْمُسْتَتِرَةِ عَنْكَ ، أَوِ التَّحْمِيلِ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ بِوَجْهِ النَّصِيحَةِ وَمَذْهَبِ
السَّفَقَةِ : فَإِنَّ ذَلِكَ أْبْلَغُ بِكَ سُبُورًا إِلَى مَنَالَةِ الشَّرَفِ ، وَأَعُوذُ لَكَ عَلَى مَحْوُودِ الذِّكْرِ ،
وَأُطْلِقُ لِعِنَانِ الْفَضْلِ فِي جَرَالَةِ الرَّأْيِ وَشَرَفِ الْهِمَّةِ وَقُوَّةِ التَّنْذِيرِ .

وَأَمْلِكُ نَفْسَكَ عَنِ الْإِتْسَاطِ فِي الضَّحْكَ وَالْإِنْفِهَاقِ ، وَعَنِ الْقُطُوبِ بِإِظْهَارِ
النَّغْصِ وَتَحْلِهِ : فَإِنَّ ذَلِكَ ضَعْفٌ عَنْ مِلْكِ سَوْرَةِ الْجَهْلِ ، وَخُرُوجٌ مِنْ آتِنَانِ آسِمِ
الْفَضْلِ . وَلِيَكُنْ ضَحِكُكَ تَبَسُّمًا أَوْ كَشْرًا فِي أَحَاطِينَ ذَلِكَ وَأَوْقَاتِهِ ، وَعِنْدَ كُلِّ رَائِعِ
مُسْتَحْفٍ مُطْرَبٍ ؛ وَقُطُوبِكَ إِطْرَاقًا فِي مَوَاضِعِ ذَلِكَ وَأَحْوَالِهِ ، بِلَا عَجَلَةٍ إِلَى
السَّطْوَةِ ، وَلَا إِسْرَاجٍ إِلَى الطَّيْرِ ، دُونَ أَنْ يَكُنْفَهَا رَوِيَّةُ الْحِلْمِ ، وَتَمْلِكَ عَلَيْهَا بِادِرَةِ
الْجَهْلِ .

إِذَا كُنْتَ فِي مَجْلِسِ مَلِكِكَ ، وَحَيْثُ حُضُورُ الْعَامَّةِ مَجْلَسِكَ ، فَإِيَّاكَ وَالرَّمْيَ بِنَظَرِكَ
إِلَى خَاصٍّ مِنْ قُوَادِكَ ، أَوْ ذِي أَثَرَةٍ عِنْدَكَ مِنْ حَشَمِكَ . وَلِيَكُنْ نَظَرُكَ مَقْسُومًا
فِي الْجَمِيعِ ، وَإِرَاعَتُكَ سَمْعَكَ ذَا الْحَدِيثِ بِدَعَةٍ هَادِيَةٍ ، وَوَقَارٍ حَسَنٍ ، وَحُضُورِ
فَهْمٍ مُجْتَمِعٍ ، وَقِلَّةٍ تَصْجُرُ بِالْمَحَدَّثِ . ثُمَّ لَا يَبْرَحُ وَجْهُكَ إِلَى بَعْضِ حَرَسِكَ وَقُوَادِكَ
مُتَوَجِّهًا بِنَظَرٍ رَكِينٍ ، وَتَفَقُّدٍ مُحْضٍ . وَإِنْ وَجَّهَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَظْرَهُ مُحَدِّقًا ،
أَوْ رَمَاكَ بِبَصَرِهِ مُلِحًّا ، فَاخْفُضْ عَنْهُ إِطْرَاقًا جَمِيلًا بِأَنْدَاعِ وَسُكُونِ . وَإِيَّاكَ

والتَّسْرَعُ فِي الْإِطْرَاقِ ، وَالْحِفَّةُ فِي تَصْرِيفِ النَّظَرِ ، وَالْإِلْحَاحُ عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْكَ فِي مَخَاطَبَتِهِ إِيَّاكَ رَاقِبًا بِنَظَرِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَصَفُّحَكَ وَجْهَ جَلَسَائِكَ وَتَفَقُّدَكَ مَجَالِسَ قُودَاكَ ، مِنْ قُوَّةِ التَّسْدِيرِ ، وَشَهَامَةِ الْقَلْبِ ، وَذَكَاءِ الْفِطْنَةِ ، وَآتِبَاءِ السَّنَةِ . فَتَفَقَّدَ ذَلِكَ عَارِقًا بَيْنَ حَضْرِكَ وَغَابَ عَنْكَ ، عَالِمًا بِمَوَاضِعِهِمْ مِنْ مَجْلِسِكَ ، ثُمَّ أَعْدَبَهُمْ عَنْ ذَلِكَ سَائِلًا لَهُمْ عَنْ أَشْغَالِهِمُ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ مِنْ حَضُورِ مَجْلِسِكَ ، وَعَاقَبْتَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ عَنْكَ .

إِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ حَشَمِكَ وَأَعْوَانِكَ يَتَّقُ مِنْهُ بَغِيبٌ ضَمِيرٌ ، وَتَعْرِفُ مِنْهُ لَيْنَ طَاعَةٍ ، وَتُسْرِيفُ مِنْهُ عَلَى صِحَّةِ رَأْيٍ ، وَتَأَمُّنُهُ عَلَى مَشُورَتِكَ ، فَإِيَّاكَ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَادِثٍ يَرِدُ عَلَيْكَ ، وَالتَّوَجُّهَ نَحْوَهُ بِنَظَرِكَ عِنْدَ طَوَارِقِ ذَلِكَ ، وَأَنْ تُرِيَهُ أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِكَ أَنَّ بَكَ حَاجَةً إِلَيْهِ مُوحِشَةً ، أَوْ أَنَّ لَيْسَ بِكَ عَنْهُ غَيٌّ فِي التَّسْدِيرِ ، أَوْ أَنَّكَ لَا تَقْضِي دُونَهُ رَأْيًا ، إِشْرَاقًا مِنْكَ لَهُ فِي رَوِيَّتِكَ ، وَإِدْخَالًا مِنْكَ لَهُ فِي مَشُورَتِكَ ، وَأَضْطِرَارًا مِنْكَ إِلَى رَأْيِهِ فِي الْأَمْرِ يَعْرُوكَ : فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ دَخَائِلِ الْعُيُوبِ الَّتِي يَنْتَشِرُ بِهَا سُوءُ الْقَالَةِ عَنْ نَظَرَاتِكَ فَأَنْفِهَا عَنْ نَفْسِكَ خَائِفًا لِاعْتِلَاقِهَا ذِكْرَكَ ، وَأَحْجِبْهَا عَنْ رَوِيَّتِكَ قَاطِعًا لِأَطْمَاحِ أَوْلِيَائِكَ عَنْ مَثَلِهَا عِنْدَكَ ، أَوْ غُلُوبِهِمْ عَلَيْهَا مِنْكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلشُّورَةِ مَوْضِعَ الْخُلُوءِ وَانْفِرَادِ النَّظَرِ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ غَايَةٌ تُحِيطُ بِمُحْدُودِهِ ، وَتَجْمَعُ مَعَالِمَهُ . فَأَبْنِهَا مُحَرِّزًا لَهَا ، وَرُمِّهَا طَالِبًا لِنَيْلِهَا ، وَإِيَّاكَ وَالْقُصُورَ عَنْ غَايَتِهَا أَوْ الْعَجَزَ عَنْ دَرَكِهَا ، أَوْ التَّفْرِيطَ فِي طَلَبِهَا . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إِيَّاكَ وَالْإِغْرَامَ عَنْ حَدِيثٍ مَا أَعْجَبَكَ ، أَوْ أَمْرٍ مَا أَزْدَهَاكَ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ ، أَوْ الْقَطْعَ لِحَدِيثٍ مَنْ أَرَادَكَ بِحَدِيثِهِ حَتَّى تَنْقُضَهُ عَلَيْهِ بِالْخَوْضِ فِي غَيْرِهِ أَوْ الْمَسْأَلَةِ

عَمَّا لَيْسَ مِنْهُ : فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْعَامَّةِ مَنْسُوبٌ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ وَقِصَرِ الْأَدَبِ عَنْ تَنَاقُلِ
نَحَاسِنِ الْأُمُورِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَسَاوِيهَا ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ لِمَحَدِّثِكَ وَأَرْعِهِ سَمْعَكَ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ
قَدْ فِهَمْتَ حَدِيثَهُ ، وَأَحْطَطَ مَعْرِفَةً بِقَوْلِهِ : فَإِنْ أُرِدْتَ إِيَّاجَتَهُ فَعِن مَعْرِفَةٍ بِحَاجَتِهِ
وَبَعْدَ عِلْمِ بَطْلَانِهِ ، وَإِلَّا كُنْتَ عِنْدَ أَنْقِضَاءِ كَلَامِهِ كَالْمَتَعَجِّبِ ^(١) مِنْ حَدِيثِهِ بِالتَّبَسُّمِ
وَالِإِغْضَاءِ ، فَأَجْزِئُ عَنْكَ الْجَوَابَ ، وَقَطْعُ عَنْكَ أَلْسُنَ الْعُتْبِ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَظْهَرَ مِنْكَ تَبَرُّمٌ بِطُولِ مَجَالِسِكَ ، أَوْ تَضَجُّرٌ مِنْ حَضْرِكَ ، وَعَلَيْكَ
بِالتَّثَبُّتِ عِنْدَ سَوْرَةِ الْغَضَبِ ، وَحِمِيَةِ الْأَنْفِ ، وَمَلَالِ الصَّبْرِ فِي الْأَمْرِ تَسْتَعْجِلُ بِهِ
وَالْعَمَلِ تَأْمُرُ بِإِنْفَازِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ سُخْفٌ شَائِنٌ ، وَخِيفَةٌ مُرْدِيَةٌ ، وَجَهَالَةٌ بَادِيَةٌ .
وَعَلَيْكَ بِدُبُوتِ الْمَنْطِقِ ، وَوَقَارِ الْمَجْلِسِ ، وَسُكُونِ الرِّيحِ ، وَالرَّفْضِ لِحَشْوِ الْكَلَامِ ،
وَالْتَّرْكِ لِفَضُولِهِ . ^(٢) وَالِإِغْرَامَ بِالزِّيَادَاتِ فِي مَنْطِقِكَ وَالتَّرْدِيدَ لِلْفُظْكَ : مِنْ نَحْوِ أَسْمِعْ ،
وَأَفْهَمْ عَنِّي ، وَيَاهَنَاهُ ، وَالْأَتْرَى ، أَوْ مَا يُهَاجِرُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْفَضُولِ الْمُقْصَرَةِ بِأَهْلِ
الْعَقْلِ ، الشَّائِنَةِ لَذَوِي الْحِجَا فِي الْمَنْطِقِ ، الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِمْ بِالْعِيِّ ، الْمُرِيَةِ لَهُمْ بِالذِّكْرِ .
وَخِصَالٌ مِنْ مَعَايِبِ الْمُلُوكِ وَالسُّوْقَةِ عَنْهَا غِيَّةُ النَّظَرِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا مِنْ أَهْلِ
الْأَدَبِ ، وَقَلَّمَ حَامِلٌ لَهَا ، مَضْطَلَعٌ بِهَا ، صَابِرٌ عَلَى ثِقَلِهَا ، آخِذٌ لِنَفْسِهِ بِجَوَامِعِهَا .
فَانْفِهَا عَنْ نَفْسِكَ بِالتَّحْفِظِ مِنْهَا ، وَأَمْلِكْ عَلَيْهَا أَعْتِيَادَكَ إِيَّاهَا مَعْنِيَا بِهَا : مِنْهَا كَثْرَةُ
التَّنَحُّمِ ، وَالتَّبَصُّقِ ، وَالتَّنَحُّعِ ، وَالتَّوْبَاءِ ، وَالتَّمَطِّيِّ ، وَالجُشَاءِ ، وَتَحْرِيكُ الْقَدَمِ ،
وَتَقْيِصُ الْأَصَابِعِ ، وَالْعَبَثُ بِالْوَجْهِ وَالثَّلْمَةُ أَوْ الشَّارِبُ أَوْ الْمَخْصَرَةُ أَوْ دُؤَابَةُ السَّيْفِ ،
أَوْ الْإِيْمَاضُ بِالنَّظَرِ ، أَوْ الْإِشَارَةُ بِالطَّرْفِ إِلَى بَعْضِ خَدَمِكَ بِأَمْرٍ إِنْ أُرِدْتَهُ ، أَوِ السَّرَارُ
فِي مَجَالِسِكَ ، أَوِ الْإِسْتِعْجَالُ فِي طَعْمِكَ أَوْ شُرْبِكَ . وَلِيَكُنْ طَعْمُكَ مَتَدَعَا ، وَشُرْبُكَ

(١) فِي الْمَفْتَاحِ وَغَيْرِهِ كَالْمَتَعَلَّلِ وَهِيَ وَاضِحَةٌ .

(٢) مَرَادُهُ وَالتَّرْكَ لِلْإِغْرَامِ أَيْ الْوُلُوعَ بِالزِّيَادَاتِ الْخِ فَهُوَ مِنَ الْمُنْهَى عَنْهُ بِدَلِيلِ بَقِيَةِ الْكَلَامِ فَتَنَبَّهُ .

أنفاسا ، وَجَرُّكَ مَصًّا . وَإِيَّاكَ وَالتَّسْرِعَ إِلَى الْإِيمَانِ فِيما صَغُرَ أَوْكَبَرُ مِنَ الْأُمُورِ ،
وَالشَّيْئَةَ بِقَوْلِ يَا أَبْنَ الْهَنَاءِ ؛ أَوِ الْغَمِيزَةَ لِأَحَدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ بِتَسْوِيفِهِمْ مَقَارَفَةَ
الْفُسُوقِ بِحَيْثُ مُحْضَرُكَ أَوْ دَارُكَ وَفَنَائُكَ : فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يَقْبَحُ ذِكْرَهُ ، وَيُسُوءُ
مَوْقِعَ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَتَحْمُلُ عَلَيْكَ مَعَايِيهِ ، وَيُنَالُكَ شَيْنُهُ ، وَيَنْتَشِرُ عَلَيْكَ سُوءُ النَّبِيَا بِهِ .
فَاعْرِفْ ذَلِكَ مَتَوَقِّيًا لَهُ ، وَاحْذَرِهِ مَجَانِبًا لِسُوءِ عَاقِبَتِهِ .

أَسْتَكْثِرُ مِنْ فَوَائِدِ الْخَيْرِ : فَإِنَّهَا تَنْشُرُ الْمَحَمْدَةَ ، وَتُقِيلُ الْعَثْرَةَ ، وَأَصْبِرُ عَلَى كَظْمِ
الْغَيْظِ : فَإِنَّهُ يُورِثُ الرَّاحَةَ ، وَيُؤَمِّنُ السَّاحَةَ ، وَتَعَهَّدُ الْعَامَّةَ بِمَعْرِفَةِ دَخْلِهِمْ ، وَتُبْطِنُ
أَحْوَالَهُمْ ، وَاسْتِثَارَةَ دَفَائِنِهِمْ ؛ حَتَّى تَكُونَ مِنْهَا عَلَى رَأْيِ عَيْنٍ ، وَيَقِينِ خُبْرَةٍ ؛ فَتُنْعِشَ
عَدِيمَهُمْ ، وَتَجْبِرَ كَسِيرَهُمْ ، وَتُقِيمَ أَوْدَهُمْ ، وَتُعَلِّمَ جَاهِلَهُمْ ، وَتَسْتَصْلِحَ فَاسِدَهُمْ : فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْ فِعْلِكَ بِهِمْ يُورِثُكَ الْعِزَّةَ ، وَيَقْدِمُكَ فِي الْفَضْلِ ؛ وَيُبْقِي لَكَ لِسَانَ الصِّدْقِ
فِي الْعَاقِبَةِ ، وَيُجَرِّزُ لَكَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ، وَيُرِدُّ عَلَيْكَ عَوَاطِفَهُمُ الْمُسْتَفْرِغَةَ مِنْكَ ، وَقُلُوبَهُمْ
الْمُنْتَحِجَّةَ عَنْكَ .

قَسِّمِ بَيْنَ مَنَازِلِ أَهْلِ الْفَضْلِ فِي الدِّينِ وَالْجَمْعِ وَالرَّأْيِ ، وَالْعَقْلِ وَالتَّنْذِيرِ ،
وَالصَّبْرِ فِي الْعَامَّةِ ، وَبَيْنَ مَنَازِلِ أَهْلِ النِّقْصِ فِي طَبَقَاتِ الْفَضْلِ وَأَحْوَالِهِ ،
وَالْخُجُولِ عِنْدَ مُبَاهَاةِ النَّسَبِ ؛ وَأَنْظُرْ بِصُحْبَةِ آيِهِمْ تَنَالُ مِنْ مَوَدَّتِهِ الْجَمِيلِ ، وَتَسْتَجْمِعُ
لَكَ أَقَاوِيلَ الْعَامَةِ عَلَى التَّفْضِيلِ ؛ وَتَبْلُغُ دَرَجَةَ الشَّرَفِ فِي أَحْوَالِكَ الْمُنْصَرِّفَةِ بِكَ .
فَاعْتَمِدْ عَلَيْهِمْ مُدْخِلًا لَهُمْ فِي أَمْرِكَ ، وَآثِرْهُمْ بِمَجَالَسَتِكَ لَهُمْ مُسْتَمِعًا مِنْهُمْ ؛ وَإِيَّاكَ
وَتَضْيِيعَهُمْ مَفْطَرًا ، وَإِهْمَالَهُمْ مُضَيِّعًا .

هَذِهِ جَوَامِعُ خِصَالٍ قَدْ لَخَّصَهَا لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُفَسِّرًا ، وَجَمَعَ لَكَ شَوَاهِدًا
مَوْثِقًا ، وَأَهْدَاها إِلَيْكَ مُرَشِّدًا ؛ فَقَفْ عِنْدَ أَوَامِرِهَا ، وَتَنَاهَ عَنْ زَوَاجِرِهَا ، وَتَثَبَّتْ

في مجامعها؛ وحُذِّبَ بوثائق عُرِّاها تَسَلَّم من معَاطب الرَّدَى ، وتَسَلَّ أنفَسَ الحُطُوظ
وَرِغِبَ الشَّرَفَ ، وأَعْلَى دَرَجَ الذِّكْرِ ، وتَأَثَّلَ سَطْرَ العِزِّ (١) ، والله يَسْأَلُ لك أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
حُسْنَ الإِرشادِ ، وتَتَأَيَّجُ المَزِيدَ وبلوغَ الأَمَلِ ، وأن يجعلَ عاقِبَةُ ذلكَ بك إلى غِبْطَةِ
يُسُوءُكَ إِيَّاهَا ، وعَافِيَةٍ يُحِلُّكَ أَكْثَافَهَا ، ونِعْمَةٌ يُلْهِمُكَ شُكْرَهَا : فإنه المَوْفَّقُ للخَيْرِ ،
والمَعِينُ على الإِرشادِ ؛ مِنْهُ تَمَامُ الصَّالِحَاتِ ، وهو مُؤْتَى الحَسَنَاتِ ، عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ
الخَيْرِ ، وَبِيَدِهِ المُلْكُ وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فإذا أَفْضَيْتَ نَحْوَ عُدُوكَ ، وَأَعَزَّمْتَ على لِقَائِهِمْ ، وَأَخَذْتَ أَهْبَةَ قِتَالِهِمْ ، فَاجْعَلْ
دِعَامَتَكَ الَّتِي تَلْجَأُ إِلَيْهَا ، وَثِقَتَكَ الَّتِي تَأْمَلُ النِّجَاةَ بِهَا ، وَرُكْنَكَ الَّذِي تَرْتَجِي مَنَالَةَ
الظَّفَرِ بِهِ ، وَتُكْتَمِفُ بِهِ لِمَعَالِقِ الحَذَرِ تَقْوَى اللَّهِ مُسْتَشْعِرًا لَهَا بِمِرَاقِبَتِهِ ، وَالْأَعْتَصَامِ
بِطَاعَتِهِ مُتَبَعًا لِأَمْرِهِ ، مُجْتَنِبًا لِسُخْطِهِ ، مُحْتَذِيًا سُنَّتَهُ ، وَالتَّوَقُّقَ لِمَعَاصِيهِ فِي تَعْطِيلِ
حُدُودِهِ ، أَوْ تَعَدِّي شَرَائِعِهِ ؛ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ فِيمَا صَدَمَتْ لَهُ ، وَاثِقًا بِنَصْرِهِ فِيمَا تَوَجَّهَتْ
نَحْوُهُ ، مُتَبَرِّئًا مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ فِيمَا نَالَكَ مِنْ ظَفَرٍ ، وَتَلَقَّأكَ مِنْ عِزٍّ ؛ رَاغِبًا فِيمَا أَهَابَ^(١)
بك أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ الجِهَادِ وَرَمَى بِكَ إِلَيْهِ ، مَحْمُودَ الصَّبْرِ فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
قِتَالِ عَدُوِّ المُسْلِمِينَ ، أَكْلَبَهُمْ عَلَيْهِ وَأَظْهَرَ عِدَاوَةً لَهُمْ ، وَأَفْدَحَهُ ثِقْلًا لِعَامَّتِهِمْ ، وَأَخَذَهُ
بِرَبْقِهِمْ ، وَأَعْلَاهُ عَلَيْهِمْ بَغْيًا ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهِمْ فِسْقًا وَجُحُورًا ، وَأَشَدَّهُ على فَيْئِهِمُ الَّذِي
أَصَارَهُ اللَّهُ لَهُمْ وَفَتَحَهُ عَلَيْهِمْ مَثُونَةً وَكَلًّا . والله المُسْتَعَانُ عَلَيْهِمْ ، وَالْمُسْتَنْصَرُّ على
جَمَاعَتِهِمْ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِيَّاهُ يَسْتَضِيحُ عَلَيْهِمْ ، وَإِلَيْهِ يَفْوُضُ أَمْرَهُ
وَكُفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا ، وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ .

(١) هو من قولهم أهاب بالابل إذا دعاها فتنه .

ثم خُذْ مَنْ مَعَكَ مِنْ تَبَاعِكَ وَجُنْدِكَ بِكَفِّ مَعَرَّتِهِمْ ، وَرَدِّ مَشْتَعِلِ جَهْلِهِمْ ،
وإحكام ضياع عملهم ، وَضَمِّ مَنَشْرِ قَوَائِمِهِمْ ، وَلَمْ شَعَتْ أَطْرَافُهُمْ ، وَتَقْيِيدِهِمْ عَمَّنْ
مَرَّوَا بِهِ مِنْ أَهْلِ ذِمَّتِكَ وَمِلَّتِكَ بِحُسْنِ السَّيْرِ ، وَعَقَافِ الطُّعْمَةِ ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ ، وَهَدَى
الدَّعَةِ ، وَحِمَامِ الْمُسْتَحْجَمِ ، مُحْكَمًا ذَلِكَ مِنْهُمْ ، مُتَفَقِّدًا لَهُمْ تَفَقُّدَكَ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ .
ثم أَصْحَدِ لِعَدُوِّكَ الْمُنْتَسَمَى بِالْإِسْلَامِ ، الْخَارِجِ مِنْ جَمَاعَةِ أَهْلِهِ ، الْمُتَحَلِّ لَوْلَايَةِ الدِّينِ
مُسْتَحِلًّا لِدِمَائِهِ أَوْلِيَائِهِ ، طَاعِنًا عَلَيْهِمْ ، رَاغِبًا عَنْ سُنَّتِهِمْ ، مُفَارِقًا لَشَرَائِعِهِمْ ؛ يَبْغِيهِمْ
الْعَوَائِلُ ، وَيَنْصِبُ لَهُمُ الْمَكَائِدَ ؛ أَضْرَمُ حَقْدًا عَلَيْهِمْ ، وَأَرْصَدُ عِدَاوَةً لَهُمْ ، وَأَطْلُبُ
لِنِزَاتِ فُرْصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ ، وَأُتَمِّمُ الشَّرْكَ ، وَطَوَاغِي الْمَلْلِ ؛ يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْفُرْقَةِ ،
وَالْمُرُوقِ مِنْ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتْنَةِ ، مُخْتَرِعًا بَهْوَاهُ لِلأَدْيَانِ الْمُتَحَلَّةِ وَالْبِدْعِ الْمُنْفَرِقَةِ
خَسَارًا وَتَخْسِيرًا ، وَضَلَالًا وَتَضْلِيلًا ، بَغِيرَ هُدًى مِنْ اللَّهِ وَلَا بَيَانَ . سَاءَ مَا كَسَبَتْ
لَهُ يَدَاہُ [وَمَا اللَّهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(١)] وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ ، وَاللَّهُ مِنْ
وَرَائِهِ بِالْمِرْصَادِ : ﴿ وَسِعَ الْعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُتَقَلِّبٍ يَتَقَلَّبُونَ ﴾ .

حَصَّنَ جُنْدَكَ ، وَأَشْكَمَ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي مَجَاهِدَةِ أَعْدَائِهِ ، وَأَرْجُ نَصْرَهُ ، وَتَنْجِزَ
مَوْعُودِهِ ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلَبِ ثَوَابِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ ، مُعْتَرِمًا فِي آبَتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى
لِقَائِهِمْ : فَإِنَّ طَاعَتَكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ ، وَمِرَاقِبَتَكَ لَهُ وَرَجَاءَكَ نَصْرَهُ مُسَهِّلٌ لَكَ وَعُورَةٌ ،
وِعَاصِمٌ مِنْ كُلِّ سُبَّةٍ ، وَمُنْجِيكَ مِنْ كُلِّ هُوَةٍ ، وَنَاعِشٌ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ ، وَمُقِيلٌ
مِنْ كُلِّ كَبُوءَةٍ ، وَدَارِيٌّ عَنْكَ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَمُذْهِبٌ عَنْكَ لَاطْخَةَ كُلِّ شَكٍّ ، وَمُقَوِّيكَ
بِكُلِّ أَيْدٍ وَمَكِيدَةٍ ، وَمُعِزُّكَ فِي كُلِّ مَعَرَكَةٍ قَتَلَ ، وَمُؤَيِّدَكَ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ لِقَاءٍ ، وَكَالِئِكَ

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٣ .

عند كل فتنة مُغْشِيه ^(١) ، وحائطك من كل شبهة مُرْدِيه ، والله وليك وأمير المؤمنين
فيك ، والمستخلف على جُندك ومن معك .

اعلم أَنَّ الظفر ظَفَرَان : أحدهما وهو أعم منفعة ، وأبلغ في حُسن الذكر قالة ،
وأحوطه سَلَامَة ، وأتمه عافية ، وأحسنه في الأمور وأعلاه في الفضل شرفاً ،
وأصحّه في الرويَّة حرماً ، وأسلمه عند العامة مَصْدرًا - مانيل بسلامة الجنود ،
وحُسن الجيلة ، ولطف المَكيدة [ويمن النقيية ^(٢)] واستتزال طاعة ذوى الصُدوف
بغير إخطار الجيوش في وقدة جَمرة الحرب ، ومبارزة الفُرسان في معترك الموت ،
وإن ساعدتك طُلُوق الظفر ، ونالك مزيد السعادة في الشرف ، ففي مُخاطرة التَلَف
مكروه المصائب ، وعِصَاضُ السيوف وألم الجراح ، وقِصَاص الحروب وسبيلها
بمُغاورة أبطالها . على أنك لا تَدْرِي لَأَيَّ يكون الظفر في البديهة ، ومن المغلوب
بالدولة ، ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص . فحاول إصابة أبلغهما في سلامة
جُندك ورعيّتك ، وأشهرهما صيتاً في بدو تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لألفة وليك
وعُدوك ، وأعونهما على صلاح رعيّتك وأهل ملّتك ، وأقواهما شكيمة في حزمك ،
وأبعدهما من وِصَم عِزَمك ، وأعلّقهما بزمام النجاة في آخرتك ، وأجزلها ثواباً
عند ربك .

وَأَبْدَأْ بالإعذار إلى عِدوك ، والدُّعاء لهم إلى مراجعة الطاعة ، وأمر الجماعة ، وعِزِّ
الألفة ؛ أَخْذًا بالجمّة عليهم ، متقدّمًا بالإِنْذار لهم ، باسْطًا أمانك لمن لجأ إليك منهم ،
داعياً [لهم إليه ^(٢)] بِالْإِين لَفْظُك وَالطَّف حِيلُك ، متعطفًا برأفك عليهم ، مترققًا بهم

(١) أى مدلهمة سوداء من قولهم أغشى الليل إذا أظلم . تأمل .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٤ وغيره .

فِي دُعَاكَ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ مِنْ غَلَبَةِ الْغَوَايَةِ لَهُمْ ، وَإِحَاطَةً الْهَلَكَةِ بِهِمْ ، مِنْقِذًا رُسُلَكَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْإِنْذَارِ ، تَعِدُّهُمْ إِعْطَاءَ كُلِّ رَغْبَةٍ يَهْشُ إِلَيْهَا طَمَعُهُمْ فِي مَوَافَقَةِ الْحَقِّ ، وَبَسْطَ كُلِّ أَمَانٍ سَأَلُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ ؛ مَوْطِنًا نَفْسَكَ فِيمَا تَبْسُطُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِكَ ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَا أُعْطِيَتْهُمْ مِنْ وَثَائِقِ عَقْدِكَ ؛ قَابِلًا تَوْبَةَ نَازِعِهِمْ عَنِ الضَّلَالَةِ ، وَمُرَاجِعَةً مُسِيئَتِهِمْ إِلَى الطَّاعَةِ ؛ مُرْصِدًا لِلتُّخَازِ إِلَى فِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَاعَتِهِمْ إِبْجَابَةً إِلَى مَا دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ وَبَصَرَتُهُ إِيَّاهُ مِنْ حَقِّكَ وَطَاعَتِكَ ، بِفَضْلِ الْمِزْلَةِ ؛ وَإِكْرَامِ الْمَثْوَى ، وَتَشْرِيفِ الْحَاضِرِ . وَلِيُظْهِرَ مِنْ أَتْرَكَ عَلَيْهِ ، وَإِحْسَانِكَ [إِلَيْهِ] مَا يَرِغُبُ فِي مِثْلِهِ الصَّادِقُ عَنْكَ ، الْمُصْرُّ عَلَى خِلَافِكَ وَمَعْصِيَتِكَ ؛ وَيَدْعُو إِلَى آَعْتِلَاقِ حَبْلِ النِّجَاطِ وَمَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ فِي الْإِعْتَصَامِ عَاجِلًا ، وَأُنْجِي لَهُ مِنَ الْعِقَابِ آَجَلًا ، وَأُحِيطُ لَهُ عَلَى دِينِهِ وَمُهِجَّتِهِ بَدَأَ وَعَاقِبَتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَدْعِي بِهِ مِنْ اللَّهِ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَعْتَصِدُّ بِهِ فِي تَقْدِيمِهِ الْحُجَّةَ إِلَيْهِمْ ، مُعْذِرًا أَوْ مُنْذِرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ أَذْكُ عِيُونَكَ عَلَى عَدُوِّكَ مُتَطَّلِعًا لَعَلَّ أَحْوَالَهُمُ الَّتِي يَتَقَبَّلُونَ فِيهَا ، وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي هُمْ بِهَا ، وَمَطَامِعِهِمُ الَّتِي قَدِمَتْهُوا أَعْنَاقَهُمْ نَحْوَهَا ، وَأَيُّ الْأُمُورِ أَدْعَى لَهُمْ إِلَى الصُّلْحِ ، وَأَقْوَدُهَا لِرِضَاهُمْ إِلَى الْعَافِيَةِ ، وَأَسْهَلُهَا لِاسْتِزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَمِنْ أَيِّ الْوُجُوهِ مَأْتَاهُمْ : أَمِنْ قَبْلِ الشَّدَةِ وَالْمُنَافَرَةِ وَالْمَكِيدَةِ وَالْمُبَاعَدَةِ وَالْإِرْهَابِ وَالْإِيْعَادِ ، أَوِ التَّرْغِيبِ وَالْإِطَاعِ ، مُتَبَيِّنًا فِي أَمْرِكَ ، مُتَخَيِّرًا فِي رُؤْيَيْكَ ، مُسْتَمَكِّمًا مِنْ رَأْيِكَ ، مُسْتَشِيرًا لَدَوِي النَّصِيحَةِ الَّذِينَ قَدْ حَنَكْتَهُمُ السَّنَّ ، وَخَبَطْتَهُمُ التَّجْرِبَةَ ، وَنَجَّدْتَهُمُ الْحُرُوبَ ؛ مُتَشَرِّفًا ^(١) فِي حَرْبِكَ ، آَخِذًا بِالْحَزْمِ فِي سُوءِ الظَّنِّ ، مُعِدًّا لِلْحَدَرِ ، مُحْتَرِسًا مِنَ الْغِرَّةِ ؛ كَأَنَّكَ فِي مَسِيرِكَ كُلَّهُ وَزُورِكَ أَجْمَعَ مُوَافَقٌ لِعَدُوِّكَ رَأَى عَيْنٍ تَنْتَظِرُ حَمَلَاتِهِمْ ، وَتَخَوُّفُ

(١) هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشَرَّفَ لِلْمَرْتَابِ .

كَرَّاهَتِهِمْ ، مُعَدًّا أَقْوَى مَكَائِدِكَ ، وَأَرْهَبَ عَتَادِكَ ، وَأُنْكَأَ جُنْدِكَ ، وَأَجَدَ تَشْمِيرِكَ ، مُعْظَمًا
أَمْرَ عَدُوِّكَ لِأَعْظَمَ مِمَّا بَلَغَكَ ، حَدَرًا يَكَادُ يُقْرِطُ ^(١) : لِنُعْدَلَهُ مِنَ الْإِحْزَارِ عَظِيمًا ، وَمِنْ
الْمَكِيدَةِ قَوِيًّا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْثَاكَ ذَلِكَ عَنْ إِحْكَامِ أُمُورِكَ ، وَتَدْيِيرِ رَأْيِكَ ، وَإِصْدَارِ
رَوِيَّتِكَ ، وَالتَّأْهِبِ لِمَا يَحْزُبُكَ ، مَصْغَرًا لَهُ بَعْدَ اسْتِشْعَارِ الْحَذَرِ ، وَأَضْطِرَّارِ الْحَزْمِ ،
وِإِعْمَالِ الرُّوِيَّةِ ، وَإِعْدَادِ الْأَهْبَةِ : فَإِنْ أَلْفَيْتَ عَدُوَّكَ كَلِيلَ الْحَدِّ ، وَقَمَّ الْحَزْمُ ،
نَضِيبُ الْوَفْرِ ^(٢) ، لَمْ يَضُرَّكَ مَا أَعْتَدَدْتَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ، وَأَخَذْتَ لَهُ مِنْ حَزْمٍ ، وَلَمْ يَزِدْكَ
ذَلِكَ إِلَّا جُرْأَةً عَلَيْهِ ، وَتَسْرَعًا إِلَى لِقَائِهِ . وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ مَتَوَقِّدَ الْحَرْبِ ، مُسْتَكْنِيفَ
الْجَمْعِ ، قَوِيَّ التَّبَعِ ، مُسْتَعْلَى سُورَةِ الْجَهْلِ ، مَعَهُ مِنْ أَعْوَانِ الْفِتْنَةِ وَتَبَعَ الْإِلْيَسَ مِنْ
يُوقِدُ لَهَبَ الْفِتْنَةِ مَسْعَرًا ، وَيَتَقَدَّمُ إِلَى لِقَاءِ أَبْطَالِهَا مَتَسْرِعًا ، كُنْتَ لِأَخْذِكَ بِالْحَزْمِ ،
وَأَسْتِعْدَادِكَ بِالْقُوَّةِ ، غَيْرَ مُهِينِ الْجَنْدِ ، وَلَا مُقَرِّطٍ فِي الرَّأْيِ ، وَلَا مُتْلَهِّفٍ عَلَى إِضَاعَةِ
تَدْيِيرٍ ، وَلَا مُحْتَاجٍ إِلَى الْإِعْدَادِ وَعَجَلَةِ التَّأْهِبِ مَبَادِرَةً تَدْهَشُكَ ، وَخَوْفًا يُقْلِقُكَ .
وَمَتَى تَغْتَرَّبَ تَرْبِيقَ الْمُرَقِّقِينَ ، وَتَأْخُذَ بِالْهُوَيْنَى فِي أَمْرِ عَدُوِّكَ لِتَصْغِيرِ الْمَصْغَرِينَ ، يَنْتَشِرُ
عَلَيْكَ رَأْيُكَ ، وَيَكُونُ فِيهِ انْتِقَاضُ أَمْرِكَ وَوَهْنُ تَدْيِيرِكَ ، وَإِهْمَالُ الْحَزْمِ فِي جُنْدِكَ ،
وَتَضْيِيعٌ لَهُ وَهُوَ مُمَكِّنُ الْإِصْحَارِ ، رَحْبُ الْمَطْلَبِ ، قَوِيَّ الْعِصْمَةِ ، فَسِيحُ الْمَضْطَرَبِ ؛
مَعَ مَا يَدْخُلُ رَعِيَّتِكَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ وَالْعَفْلَةِ عَنْ إِحْكَامِ أَحْرَاسِهِمْ ، وَضَبْطِ مَرَاكِزِهِمْ ؛
لَمَّا يَرُونَ فِيهِ مِنْ اسْتِنَامَتِكَ إِلَى الْغُرَّةِ ، وَرُكُونِكَ إِلَى الْأَمْنِ ، وَتَهَاوُنِكَ بِالتَّدْيِيرِ ؛ فَيَعُودُ
ذَلِكَ عَلَيْكَ فِي اتِّشَارِ الْأَطْرَافِ ، وَضِيَاغِ الْأَحْكَامِ ، وَدُخُولِ الْوَهْنِ بِمَا لَا يُسْتَقَالُ
مَحْذُورُهُ ، وَلَا يُدْفَعُ مَخُوفُهُ .

(١) بِالْقَاءِ وَالْثَاءِ الْمَثْلَتَيْنِ أَيْ يَكْسِرُكَ وَيُؤْخِرُكَ عَنْ الْحِجَابِ .

(٢) أَيْ قَلِيلُ الْوَفْرِ وَالْمَالِ مِنْ قَوْلِهِمْ نَضِيبُ الْحَمِّ قَلِيلُهُ .

احْفَظْ مِنْ عَيْونِكَ وَجَوَاسِيْسِكَ مَا يَأْتُونَكَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ عَدُوِّكَ . وَإِيَّاكَ وَمَعَاقِبَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى خَبَرٍ إِنَّ أَتَاكَ بِهِ أَتَمَّهُمْ فِيهِ أَوْ سُوتَ بِهِ ظَنًّا وَأَتَاكَ غَيْرُهُ بِخِلَافِهِ ، وَأَنْ تَكْذِّبَهُ فِيهِ فُتْرَدَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّه أَنْ يَكُونَ قَدْ حَضَّكَ النِّصِيحَةُ وَصَدَّقَكَ الْخَبَرُ ، وَكَذَبَكَ الْأَوَّلُ ، أَوْ خَرَجَ جَاسُوسُكَ الْأَوَّلُ مُتَقَدِّمًا قَبْلَ وَصُولِ هَذَا مِنْ عِنْدِ عَدُوِّكَ ، وَقَدْ أBRُمُوا لَكَ أَمْرًا ، وَحَاوَلُوا لَكَ مَكِيدَةً ، وَأَرَادُوا مِنْكَ غِرَّةً ، فَازْدَلَفُوا إِلَيْكَ فِي الْأَهْبَةِ ثُمَّ أَنْتَقَضَ بِهِمْ رَأْيُهُمْ ، وَاخْتَلَفَ عَنْهُ جَمَاعَتُهُمْ ؛ فَأَرَادُوا رَأْيًا ، وَأَحْدَثُوا مَكِيدَةً ، وَأَظْهَرُوا قُوَّةً ، وَضَرَبُوا مَوْعِدًا ، وَأَمَّوْا مَسْلَكًا لَمَدَّدَ أَتَاهُمْ ، أَوْ قُوَّةً حَدَّثَتْ لَهُمْ ، أَوْ بَصِيرَةً فِي ضَلَالَةٍ شَغَلَتْهُمْ ؛ فَالْأَحْوَالُ بِهِمْ مُتَنَقِّلَةٌ فِي السَّاعَاتِ ، وَطَوَارِقُ الْحَادِثَاتِ . وَلَكِنْ أَلْبَسَهُمْ جَمِيعًا عَلَى الْإِنْتِصَاحِ ، وَأَرْضَخَ لَهُمُ بِالْمُطَامَعِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَعِيدَهُمْ بِمِثْلِهَا . وَعِنْدَهُمْ جَزَالَةُ الْمَثَاوِبِ ، فِي غَيْرِ مَا أَسْتِنَامَةٍ مِنْكَ إِلَى تَرْقِيقِهِمْ أَمْرَ عَدُوِّكَ ، وَالْإِغْتِرَارِ إِلَى مَا يَأْتُونَكَ بِهِ دُونَ أَنْ تُعْمَلَ رَوِيَّتُكَ فِي الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ ، وَالِإِسْتِكْثَارِ مِنَ الْعُدَّةِ . وَاجْعَلْهُمْ أَوْثَقَ مِنْ تَقْدِيرِ عَلَيْهِ ، وَأَمِّنْ مِنْ تَسْكُنِ إِلَى نَاجِيَّتِهِ : لِيَكُونَ مَا يُبْرِمُ عَدُوِّكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَكَ إِنْ أَسْتَطَعْتَ ذَلِكَ ، فَتَنْقُضَ عَلَيْهِمْ بَرَأْيُكَ وَتَنْدِيرُكَ مَا أBRُمُوا ، وَتَأْتِيَهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَّنُوا ، وَتَأْخُذَ لَهُمْ أَهْبَةُ مَا عَلَيْهِ أَقْدَمُوا ، وَتَسْتَعِدَّ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا حَذَرُوا .

وَأَعْلَمْ أَنَّ جَوَاسِيْسِكَ وَعُيُونَكَ رُبَّمَا صَدَقُوكَ ، وَرُبَّمَا غَشُّوكَ ، وَرُبَّمَا كَانُوا لَكَ وَعَالِيكَ فَنَصَحُواكَ وَغَشُّواكَ وَعَشُّوكَ وَغَشُّوكَ وَنَصَحُواكَ ، وَكَثِيرًا مَا يَصْدُقُونَكَ وَيَصْدُقُونَهُ . فَلَا تَبْدُرَنَّ مِنْكَ فَرْطَةُ عَقُوبَةٍ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا تَعْجَلْ بِسُوءِ الظَّنِّ إِلَى مَنْ أَتَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَسْتَنْزِلْ نَصَائِحَهُمْ بِالْمِالِاحَةِ وَالْمَنَالَةِ ، وَأَبْسُطْ مِنْ أَمَالِهِمْ فِيكَ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّكَ أَخَذْتَ مِنْ قَوْلِهِ أَخْذَ الْعَامِلِ بِهِ وَالْمُتَّبِعِ لَهُ ، أَوْ عَمِلْتَ عَلَى رَأْيِهِ عَمَلَ الصَّادِرِ عَنْهُ ، أَوْ رَدَدْتَهُ عَلَيْهِ رَدَّ الْمَكْذَبِ بِهِ ، الْمُتَّهِمِ لَهُ ،

المستخف بما أتاك منه ، فتفسد بذلك نصيحته ، وتستدعي غشه ، وتجتر عداوته .
 وأحذر أن يعرفوا في عسكرك أو يشار إليهم بالأصابع ، وليكن منزهم على كاتب رسائك .
 وأمين سرك ، ويكون هو الوجه لهم ، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم .

وَأَعْلَمْ أَنَّ لَعْدُوكَ فِي عَسْكَرِكَ عُيُونًا رَاصِدَةً ، وَجَوَاسِيسَ مُتَجَسِّسَةً ، وَأَنَّهُ إِنْ يَرَى رَأْيُهُ عَنْ مَكِيدَتِكَ بِمَثَلِ مَا تُكَايِدُهُ بِهِ ، وَسِيحْتَالُ لَكَ كَاحْتِيَالِكَ لَهُ ، وَيُعَدُّ لَكَ كِعَادَتِكَ فِيمَا تُزَاوِلُهُ مِنْهُ ، وَيُحَاوِلُكَ كِمَحَاوِلَتِكَ إِيَّاهُ فِيمَا تُقَارِعُهُ عَنْهُ ؛ فَاحْذَرُ أَنْ يُشَبِّهَ رَجُلٌ مِنْ جَوَاسِيسِكَ فِي عَسْكَرِكَ فَيُبْلَغَ ذَلِكَ عُدُوكَ وَيَعْرِفَ مَوْضِعَهُ ، فَيُعَدَّ لَهُ الْمَرَّاصِدُ ، وَيَحْتَالُ لَهُ بِالْمَكَايِدِ . فَإِنْ ظَفِرَ بِهِ فَأَظْهَرَ عَقُوبَتَهُ ، كَسَرِ ذَلِكَ ثِقَاتِ عُيُونِكَ ، وَخَدَلَهُمْ عَنْ تَطَلُّبِ الْأَخْبَارِ مِنْ مَعَادِنِهَا ، وَأَسْتَقْصَائِهَا مِنْ عُيُونِهَا ، وَأَسْتِعْذَابِ اجْتِنَائِهَا مِنْ بِنَايِعِهَا ، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى أَخْذِهَا مِمَّا عَرَضَ مِنْ غَيْرِ الثَّقَةِ وَلَا الْمُعَانَةِ ، لَقَطًا لَهَا بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ الْمُرْجَفَةِ . وَاحْذَرُ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُ عُيُونِكَ بَعْضًا : فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَيْكَ ، وَمُمَالَاتِهِمْ عُدُوكَ ، وَاجْتِمَاعَهُمْ عَلَى غِشِّكَ ، وَتَطَابُقَهُمْ عَلَى كَذِبِكَ ، وَإِصْفَاقِهِمْ عَلَى خِيَانَتِكَ ^(٣) ، وَأَنْ يُورِطَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ عُدُوكَ . فَاحْكِمْ أَمْرَهُمْ فَإِنَّهُمْ رَأْسُ مَكِيدَتِكَ ، وَقِوَامُ تَدْبِيرِكَ ؛ وَعَلَيْهِمْ مَدَارُ حَرْبِكَ ، وَهُوَ أَوَّلُ ظَفَرِكَ . فَاعْمَلْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ وَحَيْثُ رَجَاؤُكَ بِهِ ، تَلْ أَمْلَكَ مِنْ عُدُوكَ ، وَقُوَّتَكَ عَلَى قِتَالِهِ ، وَاحْتِيَالَكَ لِإِصَابَةِ غُرَّتِهِ وَاتِّهَازِ فُرْصِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فإذا أحكمت ذلك وتقدمت في إتقانه ، وأستظهرت بالله وعونه ، فول شرتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك ، وأظهرهم نصيحة لك ، وأنقذهم بصيرة

(١) في "مفتاح الأفكار" وغيره « كامة » .

(٢) كذا في الأصول . وفي "رسائل البلغاء" « وأن رأيه في مكيدتك مثل ما تكايد به » . تأمل .

(٣) أى اجتمعوا من قولهم اصفقوا على الأمر اجتمعوا عليه .

في طاعتك ، وأقواهم شكيمةً في أمرك ، وأمضاهم صريمةً ^(١) ، وأصدقهم عفاً ، وأجزأهم غناءً ، وأكفاهم أمانةً ، وأصحهم ضميراً ، وأرضاهم في العامة ديناً ، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً ، وأعطفهم على كآبتهم رافةً ، وأحسنهم لهم نظراً ، وأشدهم في دين الله وحقه صلابةً . ثم فوض إليه مقوياته له ، وأبسط من أماله مظهرًا عنه الرضا ، حامداً منه الابتلاء . وليكن علماً بمرآة الجنود ، بصيراً بتقدم المنازل ، مجرباً ، ذا رأى وتجربة وحرم في المكيمة ، له نباهة في الذكر ، وصيت في الولاية ، معروف البيت ، مشهور الحسب . وتقدم إليه في ضبط معسكره ، وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره ، ثم حذره أن يكون منه إذن لجنوده في الانتشار والأضطراب ، والتقدم لطلائعك ، فتصاب لهم غرة يجترئ بها عدوك عليك ، ويسرع إقداً إليك ، ويكسر من إباد جُندك ويوهن من قوتهم : فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جُندك أو عبيدهم مطمع لهم فيك ، مقو لهم على شحذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك ، وتوهينهم تدبيرك . فحذره ذلك وتقدم إليه فيه . ولا يكون منه إفراط في التضييق عليهم ، والخصر لهم ، فيعمهم أزلُّه ، ويشملهم ضنكُه ، وتسوء عليهم حاله ، وتستد به المؤونة عليهم ، وتخبث له طُنُونهم . وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم ، مستديراً بهم جامعاً لهم ، ولا يكون منبسطة منتشرة متبدداً ، فيشق ذلك على أصحاب الأحراس ، وتكون فيه التهمة للعدو ، والبعد من المادة إن طرق طارق في فجأت الليل وبقناته . وأوعز إليه في أحراسه ، وتقدم إليه فيهم كأشد التقدم وأبلغ الإيعاز . ومرة فيلؤل عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جرىء الإقدام ، ذاكى الصرامة ،

(١) الصريمة العزيمة .

(٢) في مفتاح الأفكار وغيره « أفئدة » وفي بعض الأصول من إباد بالباء الموحدة وهاء التأنيث وفي اللسان في مادة أي دلياذ « العسكر الميمنة والميسرة وكل ماتحزبه فهو إباد » . تأمل .

جَلَدَ الْجَوَارِحَ ، بصيراً بمَوَاضِعِ أَحْرَاسِهِ ، غَيْرَ مُصَانِعٍ وَلَا مَشْفَعٍ لِلنَّاسِ فِي التَّنَجُّحِ إِلَى الرَّفَاقَةِ وَالسَّعَةِ ، وَتَقَدَّمَ الْعِسْكَرَ وَالتَّأَخَّرَ عَنْهُ ، فَإِنْ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُ الْوَلِيَّ وَيُوهِنُهُ لَاغْتِنَامَتُهُ إِلَى مَنْ وَلَّاهُ ذَلِكَ وَأَمَّنَهُ بِهِ عَلَى جَيْشِهِ .

وَأَعْلَمَ أَنَّ مَوَاضِعَ الْأَحْرَاسِ مِنْ مُعَسَّكَكَ ، وَمَكَانَهَا مِنْ جُنْدِكَ ، بِحَيْثُ الْغَنَاءُ عَنْهُمْ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ ، وَالْحِفْظُ لَهُمْ ، وَالْكَلاَةُ لِمَنْ بَغَتْهُمْ طَارِقًا ، أَوْ أَرَادَهُمْ خَاتِلًا ؛ وَمَرَاصِدُهَا الْمُنْسَلَّ مِنْهَا وَالْآبِقَ مِنْ أَرْقَائِهِمْ وَأَعْبُدِهِمْ ؛ وَحِفْظُهَا مِنَ الْعِيُونَ وَالْجَوَاسِيسِ مِنْ عَدُوِّهِمْ . وَاحْذَرِ أَنْ تَضْرِبَ عَلَى يَدَيْهِ أَوْ تَشْكُكَهُ عَنِ الصَّرَامَةِ بِمَوَاصِرِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ حَادِثٍ وَطَارِئٍ إِلَّا فِي الْمُهَمِّ النَّازِلِ وَالْحَادِثِ الْعَامِ : فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِهِ ، دَعَوْتَهُ إِلَى نُصْحِكَ ، وَاسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحْصُولِ ضَمِيرِهِ فِي طَاعَتِكَ ؛ وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي تَرْتِيكِ ، وَأَعْمَلَ رَأْيَهُ فِي بُلُوغِ مَوَافَقَتِكَ وَإِعَانَتِكَ ؛ وَكَانَ نِقَتَكَ وَرِدَّاكَ وَقُوتَكَ وَدِعَامَتَكَ ، وَتَفَرَّغْتَ أَنْتَ لِمُكَايَدَةِ عَدُوِّكَ ، مُرِيحًا لِنَفْسِكَ مِنْ هَمِّ ذَلِكَ وَالْعَنَاءِ بِهِ ، مُلْقِيًا عَنْكَ مَشُونَةً بَاهِظَةً وَكُلْفَةً فَادِحَةً .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنْ اللَّهِ بِمَكَانٍ لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَلَا بِمَثَلٍ مَحَلَّهُ أَحَدٌ مِنَ الْوَلَاةِ : لَمَّا يَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ مِنْ مَغَالِيطِ الْأَحْكَامِ وَمَحَارِيِ الْحُدُودِ . فليَكُنْ مِنْ تَوَلَّيَةِ الْقَضَاءِ فِي عِسْكَرِكَ [مِنْ ذَوِي] الْخَيْرِ فِي الْقَنَاعَةِ وَالْعَفَافِ وَالنَّزَاهَةِ وَالْفَهْمِ وَالْوَقَارِ وَالْعِصْمَةِ وَالْوَرَعَ ، وَالْبَصَرَ بِوُجُوهِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِهَا ، قَدْ حَنَّنَهُ السَّنُّ وَأَيَّدَتْهُ التَّجَرُّبَةُ وَأَحْكَمَتْهُ الْأُمُورُ ، مِمَّنْ لَا يَتَصَنَّعُ لِلْوَلَايَةِ وَيَسْتَعِدُّ لِلنَّهْزَةِ ، وَيَجْتَزِي عَلَى الْحُبَابَةِ فِي الْحُكْمِ ، وَالْمُدَاهَنَةِ فِي الْقَضَاءِ ، عَدْلُ الْأَمَانَةِ ، عَفِيفُ الطَّعْمَةِ ، حَسَنُ الْإِنْصَافِ ، فَهْمُ الْقَلْبِ ، وَرِعُ الضَّمِيرِ ، مَتَحَشَّعُ السَّمْتِ ، بَادِي الْوَقَارِ ، مُحْتَسِبٌ لِلْخَيْرِ . ثُمَّ أَجْرُ

عليه ما يَكْفِيهِ وَيَسَعُهُ وَيُصْلِحُهُ ، وَفَرَّغَهُ لِمَا حَمَلَتْهُ ، وَأَعْنَهُ عَلَى مَا وَلَّيْتَهُ : فَإِنَّكَ قَدْ عَرَضْتَهُ لَهْلَكَةِ الدُّنْيَا وَبَوَارِ الْآخِرَةِ ، أَوْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَحُظْوَةِ الْآجِلَةِ ، إِنْ حَسُنَتْ نَيْتُهُ ، وَصَدَقَتْ رُؤْيَايَتُهُ ، وَصَحَّتْ سِرِّيَّتُهُ وَسَلَّطَ حَكَمَ اللَّهِ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، مُطْلَقًا عَنَانَهُ ، مُنْفَذًا قَضَاءَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، عَامِلًا بِسُنَّتِهِ فِي شَرَائِعِهِ ، آخِذًا بِمُجْدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ .

(١)
وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ جُنْدِكَ بِحَيْثُ وَلَايَتِكَ ، الْجَارِيَةِ أَحْكَامُهُ عَلَيْهِمْ ، النَّاظِرَةُ أَفْضِيَّتَهُ فِيهِمْ ، فَاعْرِفْ مَنْ تَوَلَّيْتَ ذَلِكَ وَتُسْنِدَهُ إِلَيْهِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ فِي طَلَاعِكَ فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَرَأْسُ حَرْبِكَ ، وَدِعَامَةُ أَمْرِكَ ، فَاتَّخِذْ لَهَا مِنْ كُلِّ قَادَةٍ وَصَحَابَةٍ رَجُلًا ذَوِي نَجْدَةٍ وَبَأْسٍ ، وَصَرَامَةٍ وَخُبْرَةٍ ، حِمَاةً كُفَّةً ، قَدْ صَلَّوْا بِالْحَرْبِ وَذَاقُوا سِجَاظَهَا ، وَشَرِبُوا مِرَارَ كُثُوسِهَا ، وَتَجَرَّعُوا غُصَصَ دِرَّتِهَا ، وَزَبَنَتْهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا ، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِبِهَا ، وَذَلَّلَتْهُمْ بِثِقَافِ أَوْدِهَا . ثُمَّ أَنْتَقِهِمْ عَلَى عَيْنِكَ ، وَأَعْرِضْ كُرَاعَهُمْ بِنَفْسِكَ ، وَتَوَخَّ فِي آتِقَاتِكَ ظُهُورَ الْجَلْدِ ، وَشَهَامَةَ الْخُلُقِ ، وَكَيْلَ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِهِمْ إِلَّا الْإِنَاثَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ طَلَبًا ، وَأَنْجَى مَهْرَبًا ، وَالْأَيْنُ مَعْطَفًا ، وَأَبْعَدُ فِي التُّخُوقِ غَايَةً ، وَأَصْبَرُ فِي مَعْرَكَةِ الْأَبْطَالِ إِقْدَامًا . وَخُذْهُمْ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدُّرُوعِ ، مَازِيَّةِ الْحَدِيدِ ، شَاكَّةِ النَّسْجِ ، مُنْقَابَةِ الْخَلْقِ ، مُتَلَحِّمَةِ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوَاقِ الْحَدِيدِ ، مُمَوَّهَةِ الرِّكَبِ ، مُحْكَمَةِ الطَّبْعِ ، خَفِيفَةِ الصَّوْغِ ، وَسَوَاعِدِ طَبْعِهَا هِنْدِيٍّ ، وَصَوْنِهَا فَارِسِيٍّ ، رَقَاقِ الْمَعَاطِفِ بِأَكُفِّ وَاقِيَةٍ وَعَمَلٍ مُحْكَمٍ . وَيَلْمُقُ الْبَيْضَ مُذْهَبَةً وَمُجَرَّدَةً ، فَارِسِيَّةَ الصَّوْغِ ، خَالِصَةً الْجَوْهَرِ ، سَائِفَةَ الْمَلْبَسِ ، وَاقِيَةَ الْخَنْنِ ، مُسْتَدِيرَةَ الطَّبْعِ ، مُبْهَمَةَ السَّرْدِ ، وَاقِيَةَ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ النَّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ وَأَسْتَدَارَةَ التَّقْيِيبِ ، وَأَسْتَوَاءِ الصَّوْغِ ، مُعْلَمَةً بِأَصْنَافِ

(١) في "مفتاح الأفكار" وغيره بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية الخ تأمل .

الحرير وألوان الصَّعْب، فإنَّها أهيبُ لعدُوهم، وأفَتْ لأعضاء مَنْ لقيهم، والمُعْلِمُ مَخْشَى
مَحْذُور، له بَدِيئَةٌ رَادِعَةٌ، وهَيْبَةٌ هَائِلَةٌ، معهم السُّيُوفُ الهِنْدِيَّةُ، وَذُكُورُ البَيْضِ
الْيَمَانِيَّةِ، رِقَاقُ الشَّقَرَاتِ، مَسْنُونَةُ الشَّحْذِ، مُشْطَبَةُ الضَّرَائِبِ، مَعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ،
صَافِيَةُ الصَّفَافِحِ، لم يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ، ولا عَابَهَا أَمْتُ الصَّوْغِ، ولا شَانَهَا خِفَّةُ
الْوِزْنِ، ولا فَدَحَ حَامِلُهَا بُهْرُ الثَّقَلِ، قد أَشْرَعُوا لَدُنَّ القَنَاءِ طَوَالَ الْهَوَادِي،
مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ، زُرُقِ الْأَسِنَّةِ، مَسْتَوِيَةِ الثَّعَالِبِ، وَمِيضُهَا مَتَوَقِّدٌ، وَسِنْخُهَا ^(١)
مَتَلَهَّبٌ، مَعَاقِصُ عَقْدِهَا مَنْحُوتَةٌ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقْوَمَةٌ، وَأَجْناسُهَا مُخْتَلِفَةٌ،
وَكُغُوبُهَا جَعْدَةٌ، وَعُقْدُهَا حَبْكَةٌ، شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ، مُؤَهَّةُ الْأَطْرَافِ، مَسْتَحِدَّةُ
الْجَنَبَاتِ، دِقَاقُ الْأَطْرَافِ، ليس فيها أَلْتِوَاءُ أَوْدٍ، ولا أَمْتُ وَصَمٍ، ولا بها مَسْقَطُ
عَيْبٍ، ولا عنها وَقُوعُ أَمْنِيَّةٍ، مَسْتَحْقِي كَثَائِنِ النَّبْلِ وَقِسِي الشَّوْحَطِ وَالنَّبْعِ،
أَعْمَرِيَّةُ التَّعْقِيبِ، رُومِيَّةُ النَّصُولِ، مَسْمُومَةُ الصَّوْغِ، وَلِتَكُنْ سِهَامُهَا عَلَى خَمْسِ
قَبْضَاتِ سِوَى النَّصُولِ، فإنَّها أَبْلَغُ فِي الْغَايَةِ، وَأَنْفَذُ فِي الدُّرُوعِ، وَأَشَكُّ فِي الْحَدِيدِ،
سَامِطِينَ حَقَائِبِهِمْ عَلَى مُتُونِ خِيُوطِهِمْ، مَسْتَحْفِينَ مِنَ الْآلَةِ وَالْأَمْتَةِ وَالزَّادِ [إِلَّا مَا لَا
غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] ^(٣).

وَأَحْذَرُ أَنْ تَكَلَ مَبَاشِرَةً عَرَضَهُمْ وَأَتَتْجَاهَهُمْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْوَانِكَ وَكُتَّابِكَ : فَإِنَّكَ
إِنْ وَكَلْتَهُ إِلَيْهِمْ أَضَعْتَ مَوَاضِعَ الْحَزْمِ، وَفَرَطْتَ حَيْثُ الرَّأْيُ، وَوَقَفْتَ دُونَ عَزْمِ
الرَّوِيَّةِ، وَدَخَلَ عَمَلُكَ ضِيَاعُ الْوَهْنِ، وَخَلَصَ إِلَيْكَ عَيْبُ الْحَابَةِ، وَنَالَهُ فُسَادُ

(١) الثعلب طرف الرمح الداخل في جبة السنان، وفي "مفتاح الأفكار" وغيره «وشحذها متلهب».

(٢) في الأصول والمفتاح بالغين والفاء، ولم تقف له على معنى مناسب.

(٣) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥١.

المداهنة، وغلب عليه مَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ طليعةً للمسلمين ولا عُدَّةً ولا حِصْنًا يَدْرِيُونَهُ ، وَيَكْتَفُونَ بِمَوْضِعِهِ . وَالطَّلَائِعُ حِصُونُ الْمُسْلِمِينَ وَعُيُونُهُمْ ، وَهُمْ أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَعُرْوَةُ أَمْرِكَ ، وَزِمَامُ حَرْبِكَ . فليكنَ أَعْتِنَاؤُكَ بِهِمْ ، وَأَتَقَاؤُكَ لِإِيَّاهُمْ بِحَيْثُ هُمْ مِنْ مُهِمِّ عَمَلِكَ ، وَمَكِيدَةِ حَرْبِكَ ؛ ثُمَّ آتَنِيَبِ لِلْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ رَجُلًا بَعِيدَ الصَّوْتِ ، مَشْهُورَ الْإِسْمِ ، ظَاهِرَ الْفَضْلِ ، نَبِيَهَ الذِّكْرِ ؛ لَهُ فِي الْعُدُوقِ وَقَعَاتُ مَعْرُوفَاتٍ ، وَأَيَّامُ طَوَالٍ وَصَوَلَاتُ مَتَقَدِّمَاتٍ ؛ قَدْ عَرِفْتَ نِكَايَتَهُ ، وَحَذِرْتَ شَوْكَتَهُ ، وَهَيْبَ صَوْتِهِ ، وَتُنَكَّبَ لِقَاؤُهُ ؛ أَمِينَ السَّرِيرَةِ ، نَاصِحَ الْحَيْبِ ؛ قَدْ بَلَّوْتَ مِنْهُ مَا يُسَكِّتُكَ إِلَى نَاحِيَتِهِ : مِنْ لَيْنِ الطَّاعَةِ ، وَخَالِصِ الْمَوَدَّةِ ، وَرَكَائَةِ الصَّرَامَةِ ، وَغُلُوبِ الشَّهَامَةِ ، وَأَسْتِجَاعِ الْقُوَّةِ ، وَحَصَافَةِ التَّدْيِيرِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حُسْنِ سِيَاسَتِهِمْ ، وَأَسْتِزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَأَجْنَابِ مَوَدَّاتِهِمْ ، وَأَسْتِعْدَابِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَأَجْرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَرْزَاقًا تَسَعُّهُمْ ، وَتُدِّدُ مِنْ أَطْعَامِهِمْ سِوَى أَرْزَاقِهِمْ فِي الْعَامَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَسْتِنَامَةِ إِلَى مَا قَبْلَهُمْ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي أَهَمِّ الْأَمَاكِنِ لَكَ ، وَأَعْظَمِهَا غَنَاءً عَنْكَ وَعَمَّنْ مَعَكَ ؛ وَأَقْعَبَهَا كَبْتًا لِحُدَاكَ ، وَأَشْجَبَهَا غَيْظًا لِعُدُوكَ ؛ وَمَنْ يَكُنْ فِي الثَّقَةِ ، وَالْجَلَدِ ، وَالْبَأْسِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنَّصِيحَةِ ، وَالْعُدَّةِ ، وَالنَّجْدَةِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ ، يَضَعُ عَنْكَ مَثُونَةَ الْهَمِّ ، وَيُرْخِ مِنْ خِنَاقِكَ رَوْعَ الْخَوْفِ ، وَتَلْتَجِي إِلَى أَمْرِ مَنِيْعٍ ، وَظَهَرِ قُوَّيْ ، وَرَأْيٍ حَازِمٍ ، تَأْمَنُ بِهِ بِجَفَاتِ عُدُوكَ ، وَغِرَّاتِ بَغَاتِهِمْ ، وَطَوَارِقِ أَحْدَاثِهِمْ ؛ وَيَصِيرُ إِلَيْكَ عِلْمُ أَحْوَالِهِمْ ، وَمَتَقَدِّمَاتِ خُبُورِهِمْ ؛ فَانْتَجِبْهُمْ رَأْيَ عَيْنٍ ، وَقُوَّهُمْ بِمَا يُصْلِحُهُمْ مِنَ الْمَنَالَاتِ وَالْأَطْعَامِ وَالْأَرْزَاقِ ، وَاجْعَلْهُمْ مِنْكَ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُمْ بِهِ مِنْ مَحَارِزِ عِلَاقَتِكَ ، وَحَصَانَةِ كُهُوفِكَ ، وَقُوَّةِ سَيَّارَةِ عَسْكَرِكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تُدْخِلَ فِيهِمْ أَحَدًا بِشَفَاعَةٍ ، أَوْ تَحْتَمِلَهُ عَلَى هَوَادَةٍ ، أَوْ تَقَدِّمَهُ لِأَثَرَةٍ ؛ أَوْ أَنْ يَكُونَ

مع احدٍ منهم بغل نفل ، أو فضل من الظهر ، أو ثقل فادح ، فتشتد عليهم مئونة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السامة فيما يعالجون من أنقاعهم ، ويستغلون به عن عدوهم إن دهمهم منه رافع ، أو فخا هم منه طليعة . فتفقد ذلك محمكا له ، وتقدم فيه آخذا بالحزم في إمضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الحظ ، ووفقك ثمن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأي وأعوذه نفعاً في العاجل والآجل ، وأكتبته لعدوك وأشجاء لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ول دراجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكبهم رجلاً من أهل بيوتات الشرف ، محموداً خبره ، معروفاً بالنجدة ، ذا سن وتجربة ، لين الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمون السرية ، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه ، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه . وأضنهم إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم يكونون شرطاً معه ؛ ثم تقدم إليه في إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس ، وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ، ومروءة فليضع القواد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم ، كل قائد بإزاء مكانه ، وحيث منزله ، قد سد ما بينه وبين صاحبه بالرمح شارعة ، والترسة موضونة ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحراس ، وجلة الروع ، خائفة طوارق العدو وبياته . ثم مره فليخرج كل ليلة قائداً في أصحابه أو عدة منهم إن كانوا كثيراً ، على غلوة أو اثنتين من عسكرك ، متبديداً عنك محيطاً بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قلقة التردد ، مفرطة الحذر ، معدة للزوع ، متأهبة للقتال ، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرقين في اختلافهم كُردوساً كُردوساً ؛ يستقبل بعضهم بعضاً [في الاختلاف ^(١)] ويكسع تال متقدماً في التردد ، وأجعل ذلك بين قوادك وأهل

عسركَ نوباً معروفة ، وحِصصاً مفروضة ، لا تُعَرِّمُهَا مِنْ دَلِيقَا مِنْكَ بِمَوَدَّةٍ ،
ولا تَحْمَلْ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمَوْجِدَةٍ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوْضَ إِلَى أَسْرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُودَ خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخْذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ،
رِيَاضَةً مِنْكَ لَهُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَسْرَائِهِمْ ، وَالْإِتْبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ
نَهْيِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى أَسْرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ إِيَّاهَا ، وَالْأَعْمَالَ الَّتِي
أَسْتَجَدَّتْهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةَ وَالْكَرَاعَ الَّتِي كَتَبَتْهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَاحْذَرِ ابْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ
قُودِكَ عَلَيْكَ بِمَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جُنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَعْمِهِمْ عَنِ
الْإِخْلَالِ بِمَرَاكِرِهِمْ لَشَيْءٍ مِمَّا وَكَلُوا بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لِلْجُنْدِ ، مَفْتَاءَةٌ
لِلْقُودِ عَنِ الْحَذِّ وَالْإِيثَارِ لِلْمُنَاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُودِهِمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤُسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى
أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتُمُّونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْتَبِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُودِ
أَنْ لَا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عِقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عُقُوبَةً تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ،
وَتَقْطِيفِ أَوْدٍ ؛ فَأَمَّا عِقُوبَةُ تَبْلُغُ تَلَفَ الْمُهْجَةِ وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قِطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٍ فِي ضَرْبٍ
أَوْ أَخْذِ مَالٍ ، أَوْ عِقُوبَةُ فِي شَعَرٍ فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ
شَرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ؛ وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجُنْدَ لِقُودِهِمْ ، وَتُضَرِّعَهُمْ
لِأَسْرَائِهِمْ ؛ تُوجِبْ لَهُمْ عَلَيْكَ الْمُحْجَةَ بِتَضْيِيعِ - إِنْ كَانَ مِنْهُمْ - لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَلٍ
- إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ - مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجْزٍ - إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ - فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلْتَهُمْ بِهِ
أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللُّومِ وَعِصِّ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ مَجَازًا
تَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَفْرِيطِكَ فِي تَذْلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَهُمْ ، وَإِسَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْكَ
وَعَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمْ فِيهِ بِرَفْقٍ تَقْدُّمًا بَلِيجًا ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ

يَدْخُلُ حَزْمَكَ وَهْنٌ ، أَوْ يَشُوبَ عَزْمَكَ إِثَارٌ ، أَوْ يَخْلُطَ رَأْيَكَ ضِيَاعٌ ، وَاللَّهِ يَسْتَوْدِعُ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَفْسَكَ وَدِينَكَ .

إِذَا كُنْتَ مِنْ عَدُوِّكَ عَلَى مَسَافَةٍ دَانِيَةٍ وَسَنَنْ لِقَاءَ مَخْتَصَرٍ ، وَكَانَ مِنْ عَسْكَرِكَ
مُقْتَرِبًا قَدْ شَامَتْ طُلُوعُكَ مُقَدِّمَاتِ ضَلَالَتِهِ ، وَحُمَاةَ فِتْنَتِهِ ، فَتَاهَبْ أَهْبَةَ الْمُنَاجِزِ ،
وَحُذِّ اعْتَدَادِ الْحَذَرِ ، وَكُتِّبَ خُبُولُكَ ، وَعَبَّ جُنْدُكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْمَسِيرَ إِلَّا فِي مُقَدِّمَةِ
وَمَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرَةٍ وَسَاقَةٍ ، قَدْ شَهَرُوا الْأَسْلِحَةَ ، وَنَشَرُوا الْبُيُودَ وَالْأَعْلَامَ ، وَعَرَّفَ
جُنْدُكَ مَرَكَزَهُمْ سَائِرِينَ تَحْتَ أَلْوِيَتِهِمْ ، قَدْ أَخَذُوا أَهْبَةَ الْقِتَالِ ، وَاسْتَعَدُّوا لِلْقَاءِ ،
مُلْتَجِئِينَ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ ، عَارِفِينَ بِمَوَاضِعِهِمْ فِي مَسِيرِهِمْ وَمُعَسَّكَرِهِمْ . وَلِيَكُنْ تَرْحُلُهُمْ
وَتَنَزُّلُهُمْ عَلَى رَايَاتِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ وَفِي مَرَكَزِهِمْ ، قَدْ عَرَّفَ كُلُّ قَائِدٍ مِنْهُمْ أَصْحَابَهُ
مَوَاقِفَهُمْ : مِنَ الْيَمِينَةِ وَالْمَيْسَرَةِ وَالْقَلْبِ وَالسَّاقَةِ وَالطَّلِيعَةِ ، لَازِمِينَ لَهَا ، غَيْرَ مُخْلِئِينَ
بِمَا اسْتَنْجَدُوا لَهُ ، وَلَا مُتَهَاوِنِينَ بِمَا أَهْيَبَ بِهِمْ إِلَيْهِ ، حَتَّى تَكُونَ عَسَاكِرُكَ فِي مَنَهِلٍ
تَصِلُ إِلَيْهِ وَمَسَافَةٍ تَخْتَارُهَا كَأَنَّهَا عَسْكَرٌ وَاحِدٌ فِي أَجْتِمَاعِهَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَخَذَهَا بِالْحَزَمِ ،
وَمَسِيرِهَا عَلَى رَايَاتِهَا ، وَزُورُهَا فِي مَرَكَزِهَا ، وَمَعْرِقَتِهَا بِمَوَاضِعِهَا : إِنْ ضَلَّتْ دَابَّةٌ مِنْ
مَوَاضِعِهَا ، عَرَفَ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مِنْ أَىِّ الْمَرَكَزِ هِيَ ، وَمَنْ صَاحِبُهَا ، وَفِي أَىِّ
الْمَحَلِّ حُلُولُهَا مِنْهَا فَرَدَّتْ إِلَيْهِ ، هَدَايَةً مَعْرُوفَةً بِسَمْتِ صَاحِبِ قِيَادَتِهَا ، فَإِنْ تَقَدَّمَكَ
فِي ذَلِكَ وَإِحْكَامُكَ لَهُ طَارِحٌ عَنْ جُنْدِكَ مَثُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعِنَايَةَ الْمَعْرِفَةِ ،
وَأَبْتِغَاءَ الضَّالَّةِ .

ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى سَاقَتِكَ أَوْثَقَ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فِي نَفْسِكَ صَرَامَةً وَنَفَازًا وَرِضًا فِي الْعَامَّةِ ،
وَإِنصَافًا مِنْ نَفْسِهِ لِلرَّعِيَّةِ ، وَأَخْذًا بِالْحَقِّ فِي الْمَعْدِلَةِ ، مُسْتَشِيرًا تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتَهُ ،
أَخْذًا بِهَدْيِكَ وَأَدَبِكَ ، وَاقِفًا عِنْدَ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ، مُعْتَرِمًا عَلَى مَبَاحِيثِكَ وَتَرْيِينِكَ ، نَظِيرًا

(١)

لك في الحال ، وشيئاً بك في الشرف ، وعديلاً في الموضع ، ومُقارباً في النسب ؛
ثم أَكثِفَ معه الجمع ، وأَيَّدَ بالقوة ، وقوَّه بالظَّهر ، وأَعْنَه بالأموال ، وأَعْمَدَه بالسلاح ،
ومُرَّه بالتعطُّف على ذَوِي الضَّعْف من جندك ومن أَرْحَفَتْ به دَابَّتُهُ وَأَصَابَتْهُ
نَكْبَةٌ : من مرض أو رُجُلَةٌ أو آفَةٍ ، من غير أن يأذن لأحدٍ منهم في التَّخَيُّعِ عن
عسكره ، أو التَّخَلُّفِ بعد تَرْحَلِهِ ، إلا لِجُهودٍ سُقْمًا ، أو لِمَطْرُوقٍ بَآفَةٍ جَائِئَةٍ . ثم تَقَدَّمْ
إليه مُحَدِّراً ، ومُرَّه زاجراً ، وأنه مُعْلِظاً في الشَّدَّةِ على من مرَّ به مَنْصَرِفاً عن معسكرك
من جندك بغير جَوَازِكَ ، شَادًّا لهم أَسْرًا ، ومُوقِرهم حديدًا ، ومُعَاقِبهم مُوجِعًا ،
ومُوجِّههم إِلَيْكَ فَتَهَكِّمهم عُقُوبَةً ، وتجعلهم لغيرهم من جندك عِظَةً .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تَسْكُنَ إليه واثقًا بِنَصِيحَتِهِ قد بَلَوَتْ منه
أمانة تُسَكِّتُك إليه ، وصرامة تُؤَمِّنُكَ مَهَاتَّتَهُ ، ونَقَادًا في أَمْرِكَ يُرِنُّ عِنكَ خِثَاقُ
الْخَوْفِ في إِضَاعَتِهِ - لم يَأْمَنْ أمير المؤمنين تَسَلَّلَ الْجُنْدُ عَنكَ لَوَادًا ، وَرَفَضَهُم
مَرَاكِزَهُمْ ، وإِخْلَالَهُمْ بِمَوَاضِعِهِمْ ، وَتَخَلُّفَهُمْ عَن أَعْمَالِهِمْ ، آمِنِينَ تَغْيِيرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ؛
وَالشَّدَّةَ عَلَى مَنْ أَجْتَرَمَهُ مِنْهُمْ ، فَأَوْشَكَ ذَلِكَ فِي وَهْنِكَ ، وَخَذَلَ مِنْ قُوَّتِكَ ، وَقَلَّ
مَنْ كَثُرَتْكَ .

اجْعَلْ خَلْفَ سَاقَتِكَ رُجُلًا مِنْ وَجُوهِ قُودَاكَ ، جَلِيدًا ، مَاضِيًا ، عَفِيفًا ، صَارِمًا ،
شَهْمَ الرَّأْيِ ، شَدِيدَ الْحَذَرِ ، شَكِيمَ الْقُوَّةِ ، غَيْرَ مُدَاهِنٍ فِي عُقُوبَةٍ ، وَلَا مَهِينٍ فِي قُوَّةٍ ،
فِي خَمْسِينَ فَارِسًا يَحْشُرُ إِلَيْكَ جُنْدَكَ ، وَيُلْحِقُ بِكَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنكَ بَعْدَ الْإِبْلَاحِ
فِي عُقُوبَتِهِمْ ، وَالتَّهَكُّمِ لَهُمْ وَالتَّنْكِيلِ بِهِمْ . وَلْيَكُنْ بِعُقُوبَتِكَ فِي الْمَتَرِ الَّذِي تَرْحَلُ عَنْهُ ،
وَالْمَنْهَلِ الَّذِي تَتَقَوَّضُ مِنْهُ ، مُنْطَرًا فِي النَفْضِ لَهُ ، وَالتَّبَتُّعِ لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنكَ بِهِ ،

(١) في مفتاح الأفكار وغيره « في الصيت » وهي أوضح .

مشتداً في أهل المنزل وساكته بالتقدم، موعزاً إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم؛ وإبعاد العقوبة الموجهة والنكال المبسل في الأشعار والأبشار، واستصفاة الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله. وحدّره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والاختصاص بذلك لذي أثره وهوادة. ولتكن فرسانه متخين في القوة، معروفين بالنجدة؛ عليهم سوايغ الدروع دونها شعار الحشو وجب الاستجنان؛ متقلدين سيوفهم، سامطين كائنهم، مستعدين لهيج إن بدّهم [أو كين إن يظهر لهم] ^(١). وإياك أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرساً قوياً أو رذونا ويحيا: فإن ذلك من أقوى القوة لهم، وأعون الظهري على عدوهم، إن شاء الله.

ليكن رحيلك إيانا واحداً، ووقنا معلوماً: لتخف المئونة بذلك على جندك، ويعلموا وأن رحيلهم، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلام دوابهم، وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل، ومتى يكن رحيلك مختلفاً، تعظم المئونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السّفه ^(١) [والترق] يترحلون بالإرجاف ويترلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلاً، أو تئادى برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمر صاحب تعبئك بالوقوف بأصحابه على معسكرك آخذاً بجنبتي فوهته، بأسلحتهم عدّة لأمر إن حضر، أو مفاجأة من طليعة العدو إن رأيت منكم نهزةً، أو لمحت عندهم غيرة. ثم مرّ الناس بالرحيل وخيلك واقفة، وأهبتك معدّة، وجبتك

(١) الزيادة عن «مفتاح الأفكار» وغيره.

واقية، حتى إذا استقلتم من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم، سرتهم على تعبثكم
بسكون ريح، وهذو حمة، وحسن دعة. فإذا انتهيت إلى مهل أردت نزوله
أو هممت بالمعسكر به، فأياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله، والمعرفة بمرافقه، ومُر
صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستثيرك علم دفينه، ويستبطن علم
أمره ثم يُنهيها إليك على ما صارت إليه: لتعلم كيف آتاه لعسكرك، وكيف ماؤه
وأغلافه وموضع معسكرك منه، وهل لك - إن أردت مقاماً به، أو مطاولة عدوك
أو مكائده فيه - قوة تملك ومدد يأتيه: فإنك إن لم تفعل ذلك، لم تأمن أن تهجم
على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه، وقلة مياهه، وأقطاع مواده،
إن أردت بعدوك مكيدة، أو أحتجت من أمورهم إلى مطاولة. فإن آرتحلت منه
كنت غرضاً لعدوك، ولم تجد إلى المحاربة والاختار سبيلاً، وإن أقت به أقت على
مشقة وحصر وفي أزل وضيق، فاعرف ذلك وتقدم فيه. فإن أردت نزولاً أمرت
صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متحية من معسكرك، عدة لأمر
إن غالك، ومفرعاً لبديهة إن راعتك، فقد أمنت بحمد الله وقوته بقاء عدوك،
وعرفت موقعها من حرك، حتى يأخذ الناس منازلهم، وتوضع الأتقال مواضعها،
ويأتيك خبر طلائعك، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودباباً محيطين بعسكرك،
وعدة إن أحتجت إليها. ولكن دبابات جندك أهل جلد وقوة، قائداً أو اثنين
أو ثلاثة بأصحابهم، في كل ليلة ويوم نوباً بينهم، فإذا غربت الشمس ووجب
نورها، أخرج إليهم صاحب تعبثك أبداهم، عسساً بالليل في أقرب من مواضع
دبابي النهار، يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محابة لأحد فيه ولا إدهان.

إياك وأن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستنيم فيه
إلى الحزم من مكيدتك إذا وضعت الأتقال وحطت أبنية أهل العسكر، لم يمدد

طُنب ، ولم يُرْفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناءٌ حتى تَقَطَّعَ لكلِّ قَائِدٍ ذَرْعًا مَعْلُومًا من الأرض بقدر أصحابه ، فيَحْفِرُوهُ عليهم خَنْدَقًا يُطِيفُونَهُ بعد ذلك بِخَنْدَاقِ الْحَسَكِ ، طَارِحِينَ لها دُونَ أَشْتِجَارِ الرِّمَاحِ ، وَنَصَبِ التَّرْسَةِ ، لها بَابَانِ قد وَكَّلتَ بِحِفْظِ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمَا رَجُلًا من قُوَّادِكَ في مِائَةِ رَجُلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغَ من الْخَنْدَقِ كَانَ ذَانِكَ الرَّجُلَانِ الْقَائِدَانِ بَيْنَ مَعَهُمَا من أصحابهما أَهْلَ ذَلِكَ الْمَرْكُزِ ، وَمَوْضِعَ تِلْكَ الْخَلِيلِ ، وَكَانُوا هم الْبَوَايِنَ وَالْأَحْرَاسَ لِدَيْنِكَ الْمَوْضِعَيْنِ ، قد كَفَّوْهُمَا وَضَبَطَوْهُمَا وَأَعْفَوْا من أَعْمَالِ الْعَسْكَرِ وَمَكْرُوْهُ غَيْرِهَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ في خَنْدَقٍ ، أَمِنْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ طَوَارِقَ عَدُوِّكَ وَبَقَاتِهِمْ ، فَإِنْ رَامُوا تِلْكَ مِنْكَ ، كُنْتَ قد أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَأَخَذْتَ بِالْحَزْمِ فِيهِ ، وَتَقَدَّمْتَ في الإِعْدَادِ لَهُ ، وَرَتَقْتَ مَجُوفَ الْفَتَقِ مِنْهُ ؛ وَإِنْ تُكِنِّ الْعَافِيَةُ أَسْتَحْقِيتَ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَارْتَبَطَتْ شُكْرُهَا بِهَا ، وَلَمْ يَضُرَّكَ أَخْذُكَ بِالْحَزْمِ : لِأَنَّ كُلَّ كُفْلَةٍ وَنَصَبٍ وَمَثْوَةٍ إِنْفَاقٍ وَمَشَقَّةٍ عَمَلٍ مَعَ السَّلَامَةِ غُتْمٌ وَغَيْرُ خَطَرٍ بِالْعَاقِبَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَإِنْ أَتَيْتَ بَيِّنَاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَفَكَ رَائِعًا في لَيْلِكَ ، فَلْيُلْفِكَ حَدَرًا مُشْمِرًا عَنْ سَاقِكَ ، حَاسِرًا عَنْ ذِرَاعِكَ ، مُتَشَرِّنًا لِحَرْبِكَ ؛ قد تَقَدَّمْتَ دَرَجَتُكَ إِلَى مَوَاضِعِهَا عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدَبَّابُكَ في أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرَكَ ، وَطَلَّائِعُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ، وَجُنْدُكَ عَلَى مَا عَبَّأَ لَكَ قد خَطَرْتَ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِكَ ؛ وَتَقَدَّمْتَ إِلَى جُنْدِكَ إِنْ طَرَقَهُمْ طَارِقٌ ، أَوْ فَاجَأَهُمْ عَدُوٌّ ، أَنْ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَافِعًا صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ مُغْرَقًا في الإِجْلَابِ ، مُعَلِّينًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا ، وَلِيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ نَاشِئِينَ بِهَا في وُجُوْهِهِمْ ، وَيَرْشُقُونَهُم بِالنَّبْلِ مُكْتَنِينَ بِأَثَرِ سَيْتِهِمْ ، لِأَزِمِينَ لَمَرًّا كَرَهُمْ ،

(١) في المفتاح وغيره « ملبدین ترستهم » وفي الأصل أترستهم وقال ابن السكيت لا يقال أترسة أترسة وزان أرغفة وإنما جمع الترس ترسة وتروس وتراس وربما قيل أتراس فنبه .

غير مُزِيلٍ قَدَمٍ عَنْ مَوْضِعِهَا ، وَلَا مُتَجَاوِزِينَ إِلَى غَيْرِ مَرَكَبِهِمْ . وَلْيَكْبَرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَائِرُ الْجُنْدِ هَادُونَ ، لَتَعْرِفَ مَوْضِعَ عَدُوِّكَ مِنْ مُعَسِكَرِكَ ، فُتَمِدَّ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَعْوَانِكَ وَشُرَطَتِكَ ، وَمَنْ أُنْتَخِبَتْ قَبْلَ ذَلِكَ عُدَّةٌ لِلشَّدَائِدِ بِحَضْرَتِكَ ، وَتَدَسَّ إِلَيْهِمُ النَّشَابُ وَالرَّمَاحُ .

وَأَيَّاكَ وَأَنْ يَشْهَرُوا سَيْفًا يَتَجَالَدُونَ بِهِ . وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ لَا يَكُونَ قَنَاهُمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ لَمْ يَطْرُقْهُمْ إِلَّا بِالرَّمَاحِ مُسْنِدِينَ لَهَا إِلَى صُدُورِهِمْ ، وَالنَّشَابِ رَاشِقِينَ بِهِ وَجُوهَهُمْ ، قَدْ أَلْبَدُوا بِالْأَثَرِ سَ، وَأَسْتَجَنُوا بِالْبَيْضِ ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ سَوَابِغَ الدَّرُوعِ وَجِبَابِ الْحَشَوِ ، فَإِنْ صَدَّ الْعَدُوُّ عَنْهُمْ حَامِلِينَ عَلَى جِهَةٍ [أُخْرَى ، كَبَرٌ] أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا كِفْعَلُ النَّاحِيَةِ الْأُولَى ، وَبَقِيَّةُ الْعَسْكَرِ سَكُوتٌ وَالنَّاحِيَةُ الَّتِي صَدَّ عَنْهَا الْعَدُوُّ لَازِمَةٌ مَرَاكِبُهُمْ مُتَطَقَّةٌ الْهَدُوسَا كُنَّةُ الرِّيحِ ، ثُمَّ عَمِلَتْ فِي تَقْوِيَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ بِمِثْلِ صَنِيعِكَ فِي إِخْوَانِهِمْ .

وَأَيَّاكَ أَنْ تُنْجِدَ نَارَ رُؤُوفِكَ [وَإِذَا وَقَعَ الْعَدُوُّ فِي مُعَسِكَرِكَ نَاجَّهَا سَاعِرًا لَهَا وَأَوْقَدَهَا حَطْبًا جَزَلًا يَعْرِفُ بِهِ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مَكَانَكَ وَمَوْضِعَ رُؤُوفِكَ] ^(١) فَيَسْكُنُ نَافِرُ قُلُوبِهِمْ ، وَيَقْوَى وَاهِي قُوَّتِهِمْ ، وَيَشْتَدُّ مُنْخِذِلُ ظُهُورِهِمْ ، وَلَا يَرْجُمُونَ بِكَ الظُّنُونِ ، وَيَجْعَلُونَ لَكَ آرَاءَ الشُّوءِ ، وَيَرْجِفُونَ بِكَ آثَاءَ الْخَوْفِ ، وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِكَ رَادُّ عَدُوِّكَ بِغِيظِهِ لَمْ يَسْتَغْلِلْ مِنْكَ ظُفْرًا ، وَلَمْ يَبْلُغْ مِنْ نِكَائِكَ سُورًا . وَإِنْ أَنْصَرَفَ عَنْكَ عَدُوُّكَ وَنَكَلَ عَنِ الْإِصَابَةِ مِنْ جُنْدِكَ وَكَانَتْ بِجَيْشِكَ قُوَّةٌ عَلَى طَلَبِهِ أَوْ كَانَتْ لَكَ مِنْ فُرْسَانِكَ خَيْلٌ مُعَدَّةٌ وَكُتَيْبَةٌ مُنْتَخَبَةٌ ، [وَأَقْدَرْتَ عَلَى أَنْ تَرَكَّبَ بِهِمْ أَكْسَاءَهُمْ ، وَتَحْمِلَهُمْ عَلَى سَنَنِهِمْ ، فَاتَّبَعَهُمْ بِرِيْدَةِ خَيْلٍ عَلَيْهَا الثَّقَاتُ مِنْ فُرْسَانِكَ ، وَأُولُو النِّجْدَةِ مِنْ حُمَاتِكَ ، فَإِنَّكَ تَرَهَّقُ عَدُوُّكَ وَقَدْ أَمِنَ مِنْ بَيَاتِكَ ، وَشَغِلَ بِكَالَالِهِ عَنِ التَّحَرُّزِ

(١) الزيادة من مفتاح الافكار وغيره وهي من سقطات النسخ كما لا يخفى .

منك والأخذ بأبواب معسكره ، والضبط لمحارسه عليك ، موهنة محاسنهم لغبة
أبطالهم : لما ألقوكم عليه من التشمير والحد ، قد عقر الله فيهم ، وأصاب منهم ،
وجرح من مقاتلتهم ، وكسر من أمانى ضلّالهم ، وردّ من مستعلى جمّاحهم .

وتقدّم إلى من توجهه في طلبهم ، وتنبّه أكسائهم : في سكون الرّيح ، وقلة الرّفث ،
وكثرة التسييح والتهيل ، وأسئّنصار الله عزّ وجلّ بالسّننهم وقلوبهم سرّاً وجهراً ،
بلا لحبّ صحّة ، ولا ارتفاع ضوّاء ؛ دون أن يردوا على مطلبهم ، ويتنزّوا فرصتهم .
ثمّ ليشهروا السّلاح ، وينتضوا السيوف ، فإنّ لها هيبة رائعة ، وبديهة مخوفة ،
لا يقوم لها في بهمة الليل وحندسه إلا البطل المحارب ، وذو البصيرة المحامي ،
والمستमित المقاتل ، وقليل ما هم عند تلك الحميّة وفي ذلك الموضع .

ليكنّ أوّل ما نتقدّم به في التهيؤ لعدوك ، والاستعداد للقائه ، انتخابك من فُرسان
عسرك وحمّة جنّدك ذوى البأس والحنكة والحدّ والصّرامة ، ممن قد اعتاد
طراد الكماة ، وكشّر عن ناجذه في الحرب ، وقام على ساق في منازلة الأقران ،
ثقف الفروسية ، مجتبع القوّة ، مستحصّد المريّة ، صبوراً على هول الليل ، عارفاً
بمناهزة الفرص ؛ لم تمهّنه الحنكة ضعفاً ، ولا بلغت به السنّ كلالاً ، ولا أسكرته
غرّة الحدّاثه جهلاً ، ولا أبطرتّه نجدة الأغمار صلّفاً ، جريئاً على مخاطرة التلف ،
مقيماً على أدراع الموت ، مكابراً لمهيب الهول ، متقحماً مخشى الخوف ، خائضاً
عمرات المهالك ، برأى يويده الحزم ، ونية لا يخالجها الشكّ ، وأهواء مجتمعة ،
وقلوب مؤتلفة ؛ عارفين بفضل الطاعة وعزّها وشرّها ، وحيث محلّ أهلها من
التأييد والظفر والتحكين ، ثمّ أعرضهم رأى عين على كراعمهم وأسلحتهم . ولتكنّ
دوابهم إناث عتاق الخيل ، وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب ، متقلّدين

سُوفَهُمُ الْمُسْتَخْلَصَةُ مِنْ جَيِّدِ الْجَوْهَرِ وَصَافِي الْحَدِيدِ، الْمُنْتَخِرَةُ مِنْ مَعَادِنِ الْأَجْنَاسِ،
 هِنْدِيَّةِ الْحَدِيدِ يَمَانِيَةِ الطَّعْجِ، رِقَاقِ الْمَضَارِبِ، مَسْمُومَةِ الشَّحْدِ، مُشْطَبَةِ الصَّرِيَّةِ،
 مُبْلَدِينَ بِالْتَّرْسَةِ الْفَارِسِيَّةِ، صَيِّدِيَّةِ التَّعْقِيبِ، مُعَلِّمَةِ الْمَقَايِصِ بِحَلَقِ الْحَدِيدِ، أَتْحَاؤُهَا
 مَرْبَعَةٌ، وَخَارِزُهَا بِالتَّجْلِيدِ مُضَاعَفَةٌ، مَحْمَلُهَا مُسْتَخَفٌّ، وَكَثَائِنُ النَّبْلِ وَجِعَابُ الْقِسِيِّ
 قَدْ أَسْتَحْقَبُوهَا، وَقِيسَى الشَّرِيَانِ وَالنَّبْعِ أَعْرَاشِيَّةُ الصَّنْعَةِ، مُخْتَلِفَةُ الْأَجْنَاسِ، مُحْكَمَةُ
 الْعَمَلِ، مُقَوِّمَةُ التَّنْقِيفِ، وَنُصُولُ النَّبْلِ مَسْمُومَةٌ، وَعَمَلُهَا مَصْيَعِيٌّ، وَتَرْكِيبُهَا
 عِرَاقِيٌّ، وَتَرْيِيشُهَا بَدَوِيٌّ، مُخْتَلِفَةُ الصَّوْغِ فِي الطَّعْجِ، شَتَّى الْأَعْمَالِ فِي التَّشْطِيبِ
 وَالتَّجْنِيعِ وَالْإِسْتِدَارَةِ. وَلِتَكُنِ الْفَارَسِيَّةُ مَقْلُوبَةُ الْمَقَايِصِ، مِنْبَسِطَةُ السِّيَةِ،
 سَهْلَةُ الْإِنْعِطَافِ، مُقَرَّبَةُ الْإِنْخِئَاءِ، مُمَكِّنَةُ الْمَرْمَى، وَاسِعَةُ الْأَسْهُمِ، فُرْضُهَا سَهْلَةٌ
 الْوُرُودِ، وَمِعَاطِفُهَا غَيْرُ مُقَرَّبَةٍ الْمَوَاتِنَةِ. ثُمَّ وَلَّ عَلَى كُلِّ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ
 خَاصَّتِكَ وَنِقَاتِكَ وَنُصَحَاتِكَ، لَهُ صِيَّتٌ فِي الرِّيَاسَةِ، وَقَدَمٌ فِي السَّابِقَةِ، وَأَوَّلِيَّةٌ
 فِي الْمَشَايِعَةِ. وَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ فِي ضَبْطِهِمْ، وَكَفَّ مَعَرَّتِهِمْ، وَأَسْتَنْزَالَ نَصَائِحَهُمْ،
 وَأَسْتَعْدَادَ طَاعَتِهِمْ، وَأَسْتِخْلَاصَ ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعَاهُدَ كِرَاعِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ: مُعْغِيًا لَهُمْ
 مِنَ النَّوَائِبِ الَّتِي تَلَزُمُ أَهْلَ عَسْكَرِكَ وَعَامَّةَ جُنْدِكَ، وَاجْعَلْهُمْ عُدَّةً لِأَمْرِ إِنْ حَرَبَكَ
 أَوْ طَارِقَ إِنْ أَتَاكَ، وَمُرَّهُمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ مُعَدَّةٍ، وَحَذَرِ نَافِ لِسَنَةِ الْغَفْلَةِ
 عَنْهُمْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّ السَّاعَاتِ مِنْ لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ تَكُونُ إِلَيْهِمْ حَاجَتُكَ. فَلْيَكُونُوا
 كَرَجُلٍ وَاحِدٍ فِي التَّشْمِيرِ وَالتَّرَادُفِ وَسُرْعَةِ الْإِجَابَةِ، فَإِنَّكَ عَسَيْتَ أَنْ لَا تَجِدَ عِنْدَ
 جَمَاعَةِ جُنْدِكَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الرَّوْعَةِ وَالْمُبَاغَةِ - إِنْ أَحْنَجْتَ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ - مَعُونَةً
 كَافِيَةً، وَلَا أَهْبَةَ مُعَدَّةٍ، بَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ. فَلْيَكُنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَنْتَخِبُ عُدَّتَكَ
 وَقُوَّتَكَ، بَعُوثًا قَدْ وَظَّفَتْهَا عَلَى الْقَوَادِ الَّذِينَ وَلِيَتْهُمْ أُمُورُهُمْ، فَسَمِيتَ أَوَّلًا وَثَانِيًا وَثَالِثًا
 وَرَابِعًا وَخَامِسًا وَسَادِسًا، فَإِنْ أَكْتَفَيْتَ فِيمَا يَطُرُكَ وَيَبْدُهَاكَ بَيْعَتْ وَاحِدًا، كَانَ

مُعَدًّا لَمْ تَحْتَجْ إِلَى اتِّخَاذِهِمْ فِي سَاعَتِكَ تِلْكَ فَقَطَّعَ الْبُعْثَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرَهَّقُكَ . وَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى أَثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَاتَرِي قُوَّتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُلُّ بَخْرَائِكَ وَدَوَاوِينِكَ رَجُلًا نَاصِحًا أَمِينًا ، ذَا وَرَعٍ حَاجِزٍ ، وَدِينٍ فَاصِلٍ ، وَطَاعَةٍ خَالِصَةٍ ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ ؛ وَأَجْعَلْ مَعَهُ خِيَلًا يَكُونُ مَسِيرُهَا وَمَنْزِلُهَا وَمَرْحَلُهَا مَعَ خِزَانَتِكَ وَحَوْهَا . وَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا ، وَالتَّوَقَّى عَلَيْهَا ، وَأَتِّمَّامِ كُلِّ مَنْ تُسَيِّدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِضَاعَتِهِ وَالتَّهَانِ بِهِ ، وَالشَّدَةِ عَلَى مَنْ دَنَا مِنْهَا فِي مَسِيرٍ ، أَوْ ضَاعَتْهَا فِي مَنْزِلٍ ، أَوْ خَالَطَهَا فِي مَنَهِلٍ . وَلْيَكُنْ عَامَّةُ الْجُنْدِ وَالْجِيشِ - إِلَّا مَنْ آسَتْخَلَصْتَ لِلْمَسِيرِ مَعَهَا - مُتَحَنِّنِينَ عَنْهَا ، مُجَانِبِينَ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ الْجَوْلَةُ وَحْدَنِيَّةَ الْفَرْعَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْخَزَائِنِ مَنْ يُوَكِّلُ بِهَا أَهْلَ حِفْظِهَا وَذَبَّ عَنْهَا ، وَحِيَاطَةِ دُونِهَا ، وَقُوَّةَ عَلَى مَنْ أَرَادَ اتِّهَابَهَا ؛ أَسْرَعَ الْجُنْدُ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا نَحْوَهَا حَتَّى يَكَادَ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتْهَابِ الْعُسْكَرِ ، وَأَضْطِرَابِ الْفِتْنَةِ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْفِتَنِ وَسُوءِ السَّيْرِ كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا هَمَّتْهُمُ الشَّرُّ ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي خَزَائِكَ وَدَوَاوِينِكَ [وَبُيُوتِ أَمْوَالِكَ] مَطْمَعٌ ، أَوْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى اغْتِيَابِهَا وَمَرْزَأَتِهَا .

اعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَامَّةِ ، وَأَبْعَدَهَا صِيتًا فِي حُسْنِ الْقَالَةِ ، مَا نِلْتَ الظَّفَرَ فِيهِ بِحَزْمِ الرُّوِيَّةِ ، وَحُسْنِ السَّيْرِ ، وَلُطْفِ الْحِيلَةِ . فَلْتَكُنْ رَوِيَّتَكَ فِي ذَلِكَ وَحِرْصَكَ عَلَى إِصَابَتِهِ بِالْحِيلِ ، لَا بِالْقِتَالِ وَأَخْطَارِ التَّلَفِ ؛ وَأَدْسُسْ إِلَى عَدُوِّكَ ، وَكَاتِبْ رُؤْسَاءَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَعِنْدَهُمُ الْمَنَالَاتِ ، وَمِنْهُمْ الْوَلَايَاتِ ، وَسَوِّغْهُمْ الثَّرَاثَ ، وَضَعْ عَنْهُمْ الْإِحْنَ ، وَأَقْطَعْ أَعْنَاقَهُمْ بِالْمَطَامِعِ ، وَاسْتَدْعِهِمْ بِالْمَنَاقِبِ ؛ وَأَمْلَأْ قُلُوبَهُمْ بِالْتَرَهيبِ إِنْ أَمَكَّنْتَهُ مِنْهُمْ الدَّوَائِرَ ، وَأَصَارَتْهُمْ إِلَيْكَ الرُّوَاجِعَ ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَزَلِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْوُثُوبِ عَلَيْهِ طَاقَةٌ ؛ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى

بعضهم كُتِبَ كَأَنَّهَا جَوَابُ كُتِبَ لَهُمْ إِلَيْكَ ، وَتَكْتُبُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كُتِبَ إِلَيْكَ تَدْفَعُهَا إِلَيْهِمْ ، وَتَحِلُّ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ وَتَنْزِلُهُمْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ التَّهْمَةِ وَمَحَلِّ الظَّنِّ ؛ فَلَعَلَّ مَكِيدَتَكَ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا آفِرَاقُ كَلِمَتِهِمْ ، وَتَشْتَبِهَتْ جَمَاعَتُهُمْ ، وَإِخْنُ قُلُوبِهِمْ ، وَسُوءُ الظَّنِّ مِنْ وَالِيهِمْ بِهِمْ ، فَيُوحِشُهُمْ مِنْهُ خَوْفُهُمْ إِيَّاهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَيْقَنُوا بِاتِّهَامِهِ إِيَّاهُمْ ؛ فَإِنْ بَسَطَ يَدَهُ فَقَتَلَهُمْ ، وَأَوَّلَعَ سَيْفَهُ فِي دِمَائِهِمْ ، وَأَسْرَعَ الْوُثُوبَ بِهِمْ ، أَشْعَرَهُمْ جَمِيعًا الْخَوْفَ ، وَشَلَّاهُمُ الرُّعْبَ ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْكَ الْهَرَبُ فَهَاقُوا نَحْوَكَ بِالنَّصِيحَةِ وَأَمْوَاكُ بِالطَّلَبِ . وَإِنْ كَانَ مَتَانِيًا مَحْتَمِلًا رَجَوْتَ أَنْ تَسْتَمِيلَ إِلَيْكَ بَعْضَهُمْ ، وَيَسْتَدْعِي الطَّمَعُ ذَوِي الشَّرِّ مِنْهُمْ ، وَتَنَالَ بِذَلِكَ مَا تُحِبُّ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

إِذَا تَدَانَى الصَّفَّانِ ، وَتَوَاقَفَ الْجَمْعَانِ ، وَآحْتَضَرَتِ الْحَرْبُ ، وَعَبَّاتِ أَصْحَابَكَ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ ؛ فَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلٍ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَالتَّوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّفْوِيضِ إِلَيْهِ ، وَمَسْأَلَتِهِ تَوْفِيقَكَ وَإِرْشَادَكَ ، وَأَنْ يَعْزِمَ لَكَ عَلَى الرِّشْدِ الْمُنْجِي ، وَالْعِصْمَةِ الْكَالِثَةِ ، وَالْحَيَاظَةِ الشَّامِلَةِ . وَمُرُّ جُنْدِكَ بِالصَّحْتِ وَقَلَّةُ التَّلَقُّتِ عِنْدَ الْمُصَاوَلَةِ ، وَكَثْرَةُ التَّكْبِيرِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَالتَّسْبِيحُ بِضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلَا يُظْهِرُوا تَكْبِيرًا إِلَّا فِي الْكَثَرَاتِ وَالْحَمَلَاتِ ، وَعِنْدَ كُلِّ زُلْفَةٍ يَزْدَلِفُونَهَا ؛ فَأَمَّا وَهُمْ وَقُوفٌ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْفَشَلِ وَالْجُبْنِ ، وَلْيَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَسْأَلُوهُ نَصْرَهُمْ وَإِعْزَازَهُمْ ، وَلْيُكْثِرُوا مِنْ قَوْلٍ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، اللَّهُمَّ أَنْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنَا الْبَاغِي ، وَآكِفِنَا شَوْكَةَ الْمُسْتَحِدَّةِ ، وَأَيِّدْنَا بِمَلَائِكَتِكَ الْغَالِبِينَ ، وَاعْصِمْنَا بِعَوْنِكَ مِنَ الْفَشَلِ وَالْعَجْزِ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وَلْيَكُنْ فِي مَعْسِكَ الْمَكْبَرُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَبْلَ الْمُؤَاقَبَةِ ، وَقَوْمٌ مَوْقُوفُونَ يُحْضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَيَحْضُرُونَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَيَصِفُّونَ لَهُمْ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَثَوَابِهِمْ ،

وَيَذْكُرُونَهُمُ الْجَنَّةَ وَدَرَجَاتِهَا وَيُعِيمُ أَهْلَهَا وَسُكَّانَهَا، ويقولون : أَذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ ،
وَأَسْتَنْصِرُوهُ يَنْصُرْكُمْ ، وَالتَّجِئُوا إِلَيْهِ يَمْنَعْكُمْ . وَإِنْ أَسْطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُبَاشِرَ
لَتَعِيبَةَ جُنْدِكَ ، وَوَضَعَهُمْ مَوَاضِعَهُمْ مِنْ رَأْيِكَ ، وَمَعَكَ رَجُلٌ مِنْ ثِقَاتِ فُرْسَانِكَ ،
ذُووِ سِنَّةٍ وَتَجْرِبَةٍ وَنَجْدَةٍ عَلَى التَّعْبَةِ الَّتِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفُهَا لَكَ فِي آخِرِ كِتَابِكَ ،
فَأَفْعَلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَيْدِكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ ، وَغَلَبَ لَكَ عَلَى الْقُوَّةِ ، وَأَعَانَكَ عَلَى الرَّشْدِ ، وَعَصَمَكَ مِنَ
الزَّيْغِ ، وَأَوْجَبَ لِمَنْ أَسْتَشْهَدَ مَعَكَ ثَوَابَ الشُّهَدَاءِ وَمَنَازِلَ الْأَصْفِيَاءِ ، وَالسَّلَامُ
عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

الطرف الثالث

(فيما كان يُكْتَبُ عَنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِيغْدَادَ إِلَى حِينَ أَنْقَرَضَ
الْخِلَافَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ مِنْ بَغْدَادِ)

وهو على أربعة أنواع :

النوع الأول

(ما كان يُكْتَبُ لَوْزَرَاءِ الْخِلَافَةِ)

وكان رسمهم فيه أَنْ يَفْتَحَ بِلَفْظِ « أَمَّا بَعْدُ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ » وَيُؤْتَى فِيهِ بِثَلَاثِ
تَحْمِيدَاتٍ ، وَرَبْمَا اقْتَصِرَ عَلَى تَحْمِيدَةٍ وَاحِدَةٍ . وَعَلَى ذَلِكَ كَانَتْ تَقَالِيدُ وَزَرَائِهِمْ مِنْ
أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ .

وهذه نسخة تقليدٍ من ذلك كتب بها العلاء بن موصلايا ، عن القائم بأمر الله ،
للوزير نجر الدولة بن جَهِير ، في شهور سنة آئنتين وسبعين وأربعمائة ، وهو :

أما بعدُ ، فالحمد لله ذي الآلاءِ الصافيةِ المواردِ ، والتَّعَمُّاتِ الصادقةِ الشَّواهدِ ،
والطُّولِ الجامعِ شَمَلِ أسبابِ المنحِ الشَّواردِ ؛ ذي القُدرةِ المَصْرِفةِ على حُكْمِهَا مَجَارِي
القَدَرِ ، والمشيئةِ الحَالِيَةِ بالِنَفَازِ في حَالَتِي الْوَرْدِ والصَّدَرِ ؛ المِذَلِّ بِمِجَالِ صُنْعِهِ أَعْنَاقَ
المَصَاعِبِ ، المَدِيمِ بِكَرِيمِ لُطْفِهِ من أَمْتِدَادِ ذَوَائِبِ النَّوَائِبِ ؛ الذي جَلَّ عن إدراكِ
صِفَاتِهِ بَعْدَ أَوْحَدٍ ، ودَلَّ بِيَاهِرِ آيَاتِهِ على كونه الْفَرْدِ الْوَلِيِّ بِكُلِّ شُكْرٍ وَحَمْدٍ ؛ سُبْحَانَهُ
وتعالى عما يَصِفُونَ .

والحمد لله الذي أَخَصَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرَّسَالَةِ واجْتَبَاهُ ، وَحَبَّاهُ
بِالْكَرَامَةِ بِمَا أَشْرَقَ لَهُ مَطْلَعُ الْجَلَالِ ، وَأَخْتَارَهُ وَبَعَثَهُ لِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْحَقِّ بَعْدَ أَنْ
مَدَّ الضَّلَالُ رُوقَهُ ؛ فلم يَزَلْ يَأْعِزُّ الشَّرْعَ قَائِمًا ، وَلِسَاعَاتِ زَمَانِهِ فِي طَلَبِ رِضَا
اللهِ قَاسِمًا ؛ لَا يَنْحَرِفُ عَنْ مَقَاصِدِ الصَّوَابِ وَلَا يَمِيلُ ، وَلَا يُخْلِي مَطَايَا جِدِّهِ فِي تَقْوِيَةِ
الَّذِينَ مِمَّا يُتَابِعُ فِيهِ الرِّسِيمَ وَالذَّمِيلَ ، إِلَى أَنْ أَزَالَ عَنْ الْقُلُوبِ صَدَأَ الشُّكُوكِ وَجَلَا ،
وَأَجْلَى مَسْعَاهُ عَنْ كُلِّ مَا أَوْدَعَ نُفُوسَ أَحْلَافِ الْبَاطِلِ وَجَلَا ؛ وَمَضَى وَقَدْ أَضَاءَ
لِلْإِيمَانِ هَلَالُ أَمْنٍ سِرَّارُهُ ، وَأَنْتَضَى لِإِبَادَةِ الشَّرِّ حُسَامًا لَا يَنْبُوقُ غِرَارُهُ ؛
فَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الْمُنْتَخَبِينَ ؛ صَلَاةً يَتَّصِلُ الْأَصِيلُ فِيهَا
بِالْعُدُوِّ ، وَتَرَى قِيَمَتَهَا فِي الْأَجْرَوافَةِ الْعُلُوِّ وَالْعُلُوِّ .

والحمد لله الذي أَصَارَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِرْثِ النُّبُوَّةِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى ،
وَأَنَارَ لَهُ مِنْ مَطَالِعِ الْعِزِّ مَا أَسْدَى بِهِ كُلَّ نِعْمَةٍ وَأَوْلَى ؛ وَأَحَلَّهُ مِنْ شَرَفِ الْإِمَامَةِ

بِحَيْثُ عَنَتْ لَطَاعَتَهُ أَعْنَاقُ الرِّقَابِ الصَّعَابِ ، وَأَذَعَتْ لَهُ الْقُلُوبُ بِالْأَنْطَوَاءِ عَلَى
الْوَلَاءِ الْفَسِيحِ الرَّحَابِ وَالشَّعَابِ ؛ وَجَعَلَ أَيَّامَهُ بِالنَّضَارَةِ أَهْلَةَ الْمَغَانِي ، مُتَقَابِلَةً
أَسْمَاؤُهَا فِي الْحُسْنِ بِالْمَغَانِي ؛ فَمَا يَجْرِي فِيهَا إِلَّا مَا الصَّوَابُ فِي فِعْلِهِ كَامِنٌ ، وَالْحَظُّ
يَأْتِيهِاجُ سُبُلِهِ كَائِنٌ ؛ إِبَانَةً عَنْ اقْتِرَانِ الرَّشْدِ بَعِزَائِهِ فِي حَالَتِي الْعَقْدِ وَالْحَلِّ ، وَاقْتِرَابِ
مَرَامِ كُلِّ مَا يَحُلُّ مِنَ الصَّلَاحِ فِي الدَّهْرِ أَفْضَلَ الْحَلِّ .

(١) ثم إنه يرى من إقرار الحقوق في نصابها ، وإمرار جبال التوفيق في جانبها من
الأطباع الممتدة إلى اغتصابها ؛ ما يُعْرِبُ عن الإِهْتِدَاءِ إِلَى طُرُقِ الرَّشْدِ ، وَالْإِقْتِدَاءِ
بِمَنْ وَجَدَ ضَالَّةَ الْمَرَادِ حِينَ تَشَدُّ ؛ وَيَقْصِدُ مِنْ تَجْدِيدِ الْعَوَارِفِ ، عِنْدَ كُلِّ عَالَمٍ بِقَدْرِهَا
فِي الزَّمَانِ عَارِفٌ ؛ مَا يَحُلُوجُنِي ثَمَرُهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، وَيَحْدُو أَنْشَارُ خَبَرِهِ عَلَى إِعَانَةِ كُلِّ
فِكْرٍ فِي وَصْفِهِ عُنْوَانٌ ؛ فَيَتَنَاوَلُ الرُّوَاةُ ذِكْرَ ذَلِكَ غَوْرًا وَنَجْدًا ، وَتَلْقَى إِلَهُمُ الْعِلْيَةَ
أَدْخَارَ الْجَمَالِ بِهِ أَنْفَعُ مِنْ كُلِّ قِنِيَّةٍ وَأَجْدَى ؛ اسْتِمْرَارًا عَلَى شَاكِلَةِ تَحَلَّتْ بِالكَرَمِ ، وَحَلَّتْ
مِنَ الْجَلَالِ فِي الْقَلَلِ وَالْقِمَمِ ، وَحَلَّتْ آثَارُهَا فِي إِيْلَاءِ نَفِيسِ الْمَنْعِ وَجَزِيلِ الْقِسَمِ .

ولما غدا منصِبُ الْوِزَارَةِ مَوْقُوفًا عَلَى الَّذِينَ طَالَمَا جَزَّوْا بِهِمَّهِمْ نَوَاصِي الْخُطُوبِ ،
وَحَازُوا بِذِمَّتِهِمُ الْمَنَالَ فِي مَقَاصِدِ اسْتَشْهَدُوا بِهَا عَلَى إِحْرَازِ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَأَسْتَدْلَوْا ؛
وَكَفُّوا بِكَفَايَتِهِمْ أَكْغَفَ الْفَسَادِ وَرَدُّوْا ، وَحَازُوا الْفَعَالَ فِي كُلِّ مَاسَعَوْا لَهُ وَجَدُّوْا ؛
وَحَلَا الزَّمَانُ مِمَّنْ يَنْهَضُ بَعْبُ هَذَا الْأَمْرِ الْجَسِيمِ ، وَتُصْبِحُ أَنْبَاؤُهُ فِيهِ ذِكْيَةُ الْأَرْجِ
وَالنَّسِيمِ - لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّخْيِيمَ فِي عِرَاصِهِ ، وَالتَّحْكِيمَ فِي آجِنَاءِ الْفَخْرِ
مِنْهُ وَأَسْتَخْلَاصِهِ ؛ وَكَانَ الْقَدَرُ سَبَقَ بِإِفْصَالِكَ عَنْ الْخِدْمَةِ لِالضَّعْفِ سِرِّيهِ ،
وَلَا لِقُوَّةَ جَرِيهِ ، وَلَا لِكُدْرٍ سِيرِهِ ؛ وَكَيْفَ وَأَنْتَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْكَمَالِ ، وَالْمُتَجَرِّدُ فِي كُلِّ

(١) لعله في صيانتها .

(٢) أى يبعث ويسوق أنشأراخل .

مقام سليم حَدِّتْكَ فيه من حَدِيثِ الْكَلَالِ ؛ ولك في الدولة الْحَقُوقُ الَّتِي أَعْتَدْتَ
 لَكَ من وَقَعِ الْإِسْتِرَادَةِ مَحَنًا ، وَالْمَوَاقِفُ الَّتِي أَعْتَدْتَ من دِرَّةِ الْإِحَادِ بِمَا أَيْنَ الظُّرُّ^(١)
 لَهَا وَأَنَا ، وَالْمَقَاصِدُ الَّتِي أَعْدَمْتَ مِنْكَ الْبَدَلَ ، وَلَا تُحَرِّفْ لَكَ مِنْهَا مَسْعَى عَنْ مَنَاجِ
 الْإِصَابَةِ وَلَا عَدَلَ ؛ وَتَمَكَّنْتَ فِيهَا مِنْ عِنَانِ التَّوْفِيقِ بِمَا لَا يُجَارَى سَيْفَكَ فِيهِ قَطْ ،
 وَلَا يُحْسَنُ لَهُ حَالُ الْمَسْرَى إِلَيْهِ الْمَحَطُّ ؛ وَالْآثَارُ الَّتِي أَثَارْتَ مِنْ كَوَامِنِ الرِّضَا أَفْضَلَ
 مَا يُذْنَرُ وَيُقْتَنَى ، وَأَنَارْتَ مِنْ دَلَائِلِ الزُّلْفَى مَا يُتَجَزَّبُ بِهِ وَعُدُّ الْمُنَى وَيُقْتَضَى ؛ لَكِنْ
 كَانَ ذَلِكَ مَسْطُورًا فِي الْكِتَابِ ، وَلِيَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا عِوَضَ عَنْكَ فِي الْإِسْتِحْقَاقِ لِلْأُمْرِ
 وَالْإِسْتِجَابِ ؛ لَمْ يُوجَدْ لِهَذِهِ الرِّتْبَةِ كُفُوًا سِوَاكَ ، وَلَا يُزَيَّرُهَا عَنْ الْعَطْلِ غَيْرُ رَائِقِ
 حِلَاكَ ؛ فَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْلِيمَ مَقَالِيدِهَا إِلَيْكَ إِذْ كُنْتَ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَمَنْ
 يَجْعَلُ بَعْدَ الشَّتَاتِ شَمْلَهَا ؛ فَطَوَّقَكَ مِنْ قَلَائِدِهَا مَا هُوَ بِأَعْطَافِكَ الْصَّقِ ، وَبِتَمَامِ أَوْصَافِكَ
 أَلْقَى : لَتَدْرِعَ مِنْ عِزِّ الْوِزَارَةِ جَلْبَابًا لَا تُخْلَقُ الْأَيَّامُ لَهُ جِدَّةٌ ؛ وَلَا تَزَالُ السُّعُودُ
 بِمَا يَسُوءُ إِلَى دَوَامِ مُدَّتِهِ مُمْتَدَّةٌ ؛ وَتَرْتَضِعَ مِنْ لِبَانِ خِلَالِهَا مَا يَقْضِي لَكَ بِأَنْ تَقِفَ
 نَفْسَهَا عَلَيْكَ ، وَتَقِفَ آمَالُ الْأَمْثَالِ دُونَ مَا أَتَتْهُ الْغَايَةُ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ وَتَعْتَمِدَ فِيمَا عَدَقَهُ
 بِكَ مِنْهَا وَنَاطَهُ ، وَوَقَّالَكَ فِيهِ حَقُوقَ النَّظَرِ وَأَشْرَاطَهُ ؛ بِحَكْمِ تَوَحُّدَاتِ فِي إِحْرَازِ أَدَوَاتِهَا
 الَّتِي لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ لَكَ مِنْهَا مَدًى ، وَلَمْ يَمُدَّ طَامِعٌ إِلَى مَسَاجِلَتِكَ فِيهَا يَدًا - مَا يُرِضِي اللَّهَ
 تَعَالَى وَيُرْضِيهِ ، وَيُحْصَى ذِكْرُكَ بِالطَّيِّبِ وَيُحِيطُهُ فَتُفُوزُ فَوْزًا كَبِيرًا ، وَتُعِيدُ السَّاعِي
 فِي إِدْرَاكِ شَاوِكَ ظَالِمًا حَسِيرًا .

ثم إنه شفع هذه المنحة التي قصصك مجاسد نقرها بالوجوب ، وعوضك فيها الدهر
 بحديث البشر عن سابق القُطُوب - بإيصالك إلى حضرة ، وإدنائك من سُدَّتِهِ ؛
 وَمُنَاجَاتِكَ بِمَا يُتَبَيَّنُ لَكَ أَمْتِطَاءُ غَارِبِ الْمَجْدِ وَصَهْوَتُهُ ، وَالْإِحْتَوَاءُ عَلَى خَالِصِ السَّعْدِ

(١) لعل الصواب أن يقال شرب الرجل حتى أنون أي امتلا .

وَصَفْوَتِهِ ؛ وَجَبَّائِكَ مِنْ صُنُوفِ التَّشْرِيفَاتِ الَّتِي تَرُوقُ حِلْيَ خِلَافَتِهَا ، وَتُتَوَقُّ الْآمَالُ
إِلَى إِدْرَاكِهَا وَمَنَاطِلُهَا ؛ وَصَفَتْ الْكَرَامَاتُ الَّتِي وَقَّتْ الْمُنَى بِهَا بَعْدَ مِطَاطِلِهَا ، وَنَفَتْ
الْقَدَى عَنْ مُقَلِّ مَغْضُوضَةٍ بِسُوءِ فِعَالِ الْإِيَّامِ وَمَقَالِهَا ؛ بِمَا يُوْطِئُ عَقَبَكَ الرِّجَالُ ،
وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يُجَاهِلُ مُجَارَاتَكَ الْمَسْرَحَ وَالْمَجَالَ ؛ وَلَمْ يَقْتَنِعْ بِذَلِكَ فِي حَقِّ النِّعْمَى الَّتِي
أَعْدَدَ فِيهَا عَلَى الْغَيْرِ ، وَأَعْدَدَكَ مِنْهَا فِي ظِلٍّ مِنَ الْأَمْنِ الْبَادِي الْأَوْضَاحِ وَالْغُرَبِ ؛
حَتَّى أَلْحَقَ بِسِمَاتِكَ «تَاجَ الْوُزَرَاءِ» تَتْوِيهَا بِذِكْرِكَ فِي الزَّمَانِ ، وَتَتِيهَا عَلَى اخْتِصَاصِكَ
لَدَيْهِ بِوَجَاهَةِ الرَّثْبَةِ وَالْمَكَانِ ؛ فَصَارَ مَكْرُوهَ الْأُمُورِ فِي مَحَبُّوبِهَا سَبَابًا ، وَخَبَتْ نَارُ كُلِّ
مَنْ سَعَى فِي تَفْصِيلِ النِّزَامِ وَجِيفًا وَخَبِيَا ، حَتَّى الْآمِلُونَ أَنْ يَجْعَلُوا تَحْتَ الْخِلَافَةِ^(١)
زِمْنًا ، وَتُصْبِحَ رِبَاعُهُ بَعْدَ النَّصَارَةِ دِمْنًا ؛ لِيُعْقِبَهُمْ ذَاكَ نَيْلَ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْإِمْنَاءُ (؟)
لِذَا الْعَزْمِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالْإِسْمَاءُ وَاقِعَةٌ مِنْ تَتَابُعِ هَذِهِ الشُّكُوكِ ، وَقَدْ كَانَ الْأَحَبُّ أَنْ
لَا يُضْمِنَ الْكُتُبَ النَّافِذَةَ سِوَى تَعْهُدِ الْأَنْبَاءِ ، لَا زَالَ عَرُفُهَا أَرْجَا مِنْ سَائِرِ الْأَرْجَاءِ
وَالنَّوَاحِي . لَكِنْ تَأْتِي بِمَجَارِي الْأَقْدَارِ ، وَدَوَاعِي الْإِضْطِرَارِ ، إِلَى مَا يُرْتَقَى مَاءَ الْإِرَادَةِ^(٢)
وَالْإِيثَارِ ؛ وَالْآنَ فَقَدْ بَلَغَ الْمَاءُ ، وَجَلَبَ مِنْ عَدَمِ الصَّبْرِ الْحِنَاءَ ؛ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ هِزَّةٍ
دِينِيَّةٍ مِنْكَ تَكْشِفُ بِهَا هَذِهِ الْمَعْرَةَ ، وَتُخَفِّفُ مِنْهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُتِمُّ لَدَيْهِ أَكْمَلَ
الْمَسَرَّةِ ؛ فَقُمْ فِي ذَلِكَ مَقَامَ مِثْلِكَ - وَإِنْ كَانَ لَا نَظِيرَ لَكَ يُوجَدُ - تَحْظُ بِمَا يُمَضَى
لَكَ فِيهِ آسْتَحَقَّاقَ كُلِّ الْحَمْدِ وَيُوجِبُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد من ذلك ، كتب بها عن المسترشد - فيما أظن - لبعض
وُزَرَاءِهِ ، وَهِيَ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنْفَرِدِ بِكِبَرِيَّاتِهِ ، الْمُتَنَفِّضِ عَلَى أَوَّلِيَّائِهِ ؛ مُجْزِلِ النِّعَمَاءِ ،
وَكَاشِفِ النِّعَمَاءِ ؛ وَمُسْبِغِ الْعَطَاءِ ، وَمُسْبِلِ الْغِطَاءِ ؛ وَمُسْنِي الْحَبَاءِ ، وَمُسْدِي الْآلَاءِ ؛

(١) فِي الْأَصْلِ الْخَافَةُ وَلَا مَعْنَى لَهُ . (٢) لَعَلَّهُ بِمَا يَرْتَقَى .

الذى لا يؤوده الأعباء ، ولا يكيده الأعداء ؛ ولا تبلغه الأهوام ، ولا يُحيط به
الآفهام ؛ ولا تُدرّكه الأبصار ، ولا تُخَيِّله الأفكار ؛ ولا تُهزِّمه الأعوامُ بتواليها ،
ولا تُعجزه الخطوبُ إذا أدلَّهت ليلها ؛ عالمٌ هو أجس الفكر ، وخالق كل شيء
بقدر ؛ مصرِّف الأقدار على مشيئته ومُجَرِّبها ، ومانح مواهبه من أخصى بيد الشكر
يتمريها ؛ حمداً يصوب حياته ، ويعذب جناته ؛ وتهلل أسرة الإخلاص من مطاويه ،
ويستدعى المزيد من آلائه ويقتضيه .

والحمد لله الذى استخلص محمداً صلى الله عليه وسلم من زكيّ الأَصْلَاب ، وأنَّخَبه
من أشرف الأنساب ؛ وبعثه إلى الخليقة رسولا ، وجعله إلى منهج النجاة دليلا ؛
وفدو الشرك بورك لذل وقضاه (١) وشهر غضب العزِّ وانتفضاه ؛ والأُمم عن طاعة
الرحمن عازفه ، وعلى عبادة الأوثان عاكفه ؛ فلم يزل بأمرٍ ربّه صادعا ، وعن التمسك
بعرا الضلال الواهية وازعا ؛ وإلى ركوب محجة الهدى داعيا ، وعلى قدم الاجتهاد
فى إبادة الغواية ساعيا ؛ حتى أصبح وجه الحق منيرا مشرقا ، وعوده بعد الذبول
أخضر مورقا ؛ ومضى الباطل موليا أدباره ، ومستصجبا لتغييره وبواره ؛ وقضى صلى
الله عليه وسلم بعد أن مهد من الإيمان قواعده ، وأحكم أساسه ووطائده ؛ وأوضح
سبل الفوز لمن اقتفاه ، ولحب طريقها بعد مادّثت صواها ؛ فصلّى الله عليه وعلى
آله الطاهرين ، وصحبه الأكرمين ؛ صلاة متصلا سح غمامها ، مسفرا صبح دوامها .
والحمد لله على أن حاز لأئير المؤمنين من إرث النبوة ما هو أجدرُ بجائزة مجده ،
وأولى بفيض عده ؛ ووطأ له من الخلافة المعظمة مهادا أحفرته نحوه حوافز
أرتياحه ، وجذبته إليه أزمة راعه والتياحه ؛ إلى أن أدرك من ذلك مناه ، وألقى
الاستقرار الذى لا يريم عصاه ؛ وعصّد دولته بالتأييد من سائر أنحائه ومراميه ،

(١) كذا فى الأصول على هذه الصورة ولم نهند إلى تحقيقه .

وأعراضه ومغازيه ؛ حتى فاقَتِ الدُّولَ المتقادمةَ إشراقاً ، وأعطتها الحوادثُ من التغيرِ عهداً وفيّاً وميثاقاً ؛ وأضحتْ أيامه - أدامها الله - حاليةً بالعدلِ أجيادها ، جاليةً في مبادِينِ النُّصرةِ جياذها ، وراح الظُّلمُ دارسةً أطلاله ، مقلّصاً سرباله ، قد آنجَمَ سحابه ، وزُمّتْ للرحلةِ ركابُه ؛ فما يستمرّ منها أمرٌ إلا كان صُنْعُ الله سبحانه مؤيِّده ، والتوفيقُ مصاحبَه أثى يَمِّ ومُسَدِّده ؛ وهو يستوزعه - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - شُكْرُهذه النعمة ، ويستريدهُ بالتحديثِ بها من آلائِه الجمَّة ؛ ويستمدُّ منه المعونةَ في كلِّ أربِ قصده وأمه ، وشحذَ لا تحائِه عَزمُه ؛ وما توفيقُه إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُتنب .

ولما كانتِ الوزارةُ قُطْبَ الأمور الذي عليه مدارُها ، وإليه إيرادُها وعنه إصدارُها ؛ وحلاً منصَّبها من كافٍ يكونُ له أهلاً ، وينظِّم من شماله شَملاً ، أجال أميرُ المؤمنينَ فيمن يَخْتار [لذ] لك فكره ، وأنعم [النظر] لأهل الأصطفاء لهذه المنزلةِ حتى صرَّحَ مُحضُ رأيه عن زُبدةِ اختيارِك ، وهداه صائبُ تديره إلى اقْتِرَاحِك وإيثاريك ؛ وألقى إليك بالمقاليدِ ، وعوَّلَ في دولتهِ القاهرةِ على تديريك السَّديد ؛ وناطَ بك من أمرِ الوزارةِ ما لم يُلَفِّ له سِوَاكَ مستَحَقّاً ، ولا لنَسيمِ استِيجابِه مستَرَقّاً ؛ علماً بما تُبْديه كفايتك المشهورة ، وإيالتك المخبورة ؛ من تقويم ما أعجزَ مِياذُه ، وإصلاح ما استشرى فساده ؛ وأستقامة كلِّ حالٍ وهي عِمادُها ، وأصلَّتْ على كثرةِ الاقتداحِ زنادُها ؛ وتبَّتْ لما تبسَّم عنه الأيامُ من آثارِ نظركِ المعربةِ عن آحتوائك على دلائلِ الجزالةِ ، وأستيلائك على تخاليلِ الأصالةِ ؛ اللذين تُنالُ بهما غاياتُ المعالي ، وتُفرَّعُ الذُّرى والأَعالي .

ثم إنَّ أميرَ المؤمنينَ بمقتضى هذه الدَّعاوى اللازمه ، وحرُماتِ جدِّك وأبيك السالفةِ المتقاهِ ؛ التي استحصَدتْ في الدارِ العزيزةِ قُوى أمراسِها ، وأدنتْ منك

الآن ثَمرة غراسِها ، رأى أن يُشيد هذه العارفة التي تَأرجَ لَدَيْكَ نَسِيمُها ، وبدتْ
على أَعناقِ نَفَرِكَ رُسُومُها ، وجادتْ رِبَاعَكَ شَائِبُها ، وضفتْ عَلَيْكَ جَلَابِيبُها ،
بما يَزِيدُ أَزْرَكَ أَشْتِدَادًا ، وباعَ أَمْلِكَ طُولًا وَأَمْتِدَادًا ؛ فَأَدْنَاكَ من شَرِيفِ حَضْرَتِهِ
مُنَاجِيًا ، وَمَنَحَكَ من مَرَايا الأَيَّامِ ما يُكْسِبُكَ ذِكْرًا في الأَعقابِ ساريًا ، وعلى الأَحْقَابِ
بَاقِيًا ، وَأَفَاضَ عَلَيْكَ من المَلابِسِ الفَاخِرَةِ ما حَزَتْ به أوصافُ الجَمالِ ، وجمعَ لك
أَبَديدَ الآمالِ ؛ وَقَلَّدَكَ وَحْصَلُ (١) بَدَاوَهُ ، وَأَمْطَاكَ صَهْوَةَ سَاحِجِ يُسَاوِي الرِّيحِ
سَبَقًا ، ووسَّمَكَ بِكَذا وكذا في ضَمَنِ التَّاهِيلِ لِلتَّكْنِيَةِ ، إِبَانَةً عن جَمِيلِ مَعْتَقَدِهِ فَيَكْ ،
ورعايةً لوسائلكَ المُحْكَمَةِ المَرَّاءِ وَأَوَاخِيكَ .

وأمرَكَ بِتَقْوَى اللهِ التي هي أَحْصَنُ المَعَاوِلِ ، وأَعْدَبُ المَنَاهِلِ ؛ وَأَنْفَعُ الذَّخَائِرِ ،
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ؛ وَأَنْ تَسْتَشِيرَها فيما تُبْذِرُهُ وتُخْفِيهِ ، وتَذَرُهُ وتَأْتِيهِ ؛ فإنَّها أَفْضَلُ الأَعْمَالِ
وأَوْجِبُها ، وَأَوْضَحُ المَسالِكِ إلى الفَوْزِ بِرِضا اللهِ وأَلْجَبُها ، وأَجْلِبُ الأشياءَ للسَّعَادَةِ
الباقية ، وأَجْنِها لِقُطُوفِ الحِنانِ الدَّانِيَةِ ؛ عالِمًا بما في ذَلِكَ من نَفْعٍ تَتَكَمَّلُ أَقْسامُهُ ،
وَتَنْفَتِّحُ عن نَوْرِ الصَّلَاحِ الجامِعِ أَكْمامُهُ ؛ قال اللهُ جَلَّتْ أَلَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْماءُهُ :
﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمُواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .
وقالَ تَعَالَى حاضًّا على تَقْوَاهُ ، ومُخْبِرًا عما خَصَّ به مَتَّقِيهِ وَجَبَّاهُ ؛ وكَفَى بِذَلِكَ دَاعيًا
إِلَيْها ، وَباعِثًا عَلَيْها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأمرَكَ أَنْ تَتَوَحَّيَ المَقاصِدَ السَّليمةَ وتَأْتِيها ، وتَتَوَخَّ المَوارِدَ الوَخيمةَ وتَجْتَنِيها ؛
وَأَنْ تُتَبِعَ بِالْحَزْمِ أَفْعالَكَ ، وتَجْعَلَ كِتابَ اللهِ تَعَالَى إِمَامَكَ الذي تَهْتَدِي بِهِ وَمِثالَكَ ؛
وَأَنْ تُكَفِّفَ من نَفْسِكَ عِنْدَ جَماعِها وإِبابِها ، وتَصُدِّها عن مِتابَةِ أَهْوائِها ؛ وَتُنْثِي عِنْدَ
أَحْتِدَامِ سَورَةِ الغَضَبِ عِنايَها ، وتُسْعِرَها من حَمِيدِ الخِلائِقِ ما يُوافِقُ إِسْرارَها فيهِ

(١) كذا في الأصل على هذه الصورة والمراد أنه انعم عليه بخلة وسيف وجواد . تأمل .

إِعْلَانَهَا : فَإِنَّهَا لَمْ تَزَلْ إِلَى مُنْزِلَةِ السُّوءِ الْمُؤَيَّدَةِ دَائِعِيَّةٍ ، وَعَنْ سُؤْلِكَ مَنَاجِجَ الْخَيْرِ الْمُنْجِيَةِ نَاهِيَةً ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ﴾ .

وأمرَكَ أَنْ تَخَيِّرَ لِلْخِدْمَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْ بَلَوَاتِ أَخْبَارِهِ ، وَاسْتَشْفَقْتَ أَسْرَارَهُ ؛
فَعَلِمْتَهُ جَامِعًا أَدَوَاتِ الْكِفَايَةِ ، مُوسِمًا بِالْأَمَانَةِ وَالذَّرَايَةِ ؛ قَدْ عَرَكْتَهُ رَحَا التَّجَارِبِ
عَرَكَ الثَّقَالِ ، وَحَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ عَلَى تَصَارُيفِ الْأَحْوَالِ : لِيَكُونَ أَمْرُ مَائُولَاهُ
عَلَى مَنَهِجِ الْأَسْقَامَةِ جَارِيًا ، وَعَنِ مَلَأْسِ الْخَلَلِ وَالْأَرْتِيَابِ عَارِيًا ؛ فَلَا يَضَعُ
فِي مَرْلَقَةٍ قَدَمًا ، وَلَا يَأْتِي مَا يَقْرَعُ سِنَّهُ لِأَجَلِهِ نَدَمًا ؛ وَأَنْ تَمْنَحَ رَعَايَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
مِنْ شِرْكَ مَا يَعْقِلُ شَوَارِدَ الْأَهْوَاءِ ، وَيَلْوِي إِلَيْكَ بِأَعْنَاقٍ نَوَافِرِهَا اللَّائِي اعْتَصَمْنَ
بِالْحِمَاحِ وَالْإِبَاءِ ؛ مَا زَجًّا ذَلِكَ بِسِدَّةٍ تَسْتَوِي حُمِيًّا رَهْبَتَهَا عَلَى الْقُلُوبِ ، وَتَقُلُّ مَرْهَفَاتُ
بَاسِهَا صَرْفَ الْخُطُوبِ ، مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ فِي اسْتِدْمَاعِ ذَلِكَ يَضِيقُ نِظَامَهَا بِهِ ، وَيُغْرِيهَا
اتِّصَالُهُ بِاسْتِشْعَارِ وَغَرِ الْخَطِ وَأَسْتِطَاءِ مَرْكَبِهِ .

وأمرَكَ أَنْ تُعَذِّبَ مُورِدَ الْإِحْسَانِ لِمَنْ أَحَدَتْ بِلَاةَهُ ، وَتَحَقَّقَتْ غِنَاةُهُ ،
وَأَسْتَحَسَنْتَ أَثَرَهُ ، وَأَرْتَضَيْتَ عِيَانَهُ وَخَبَرَهُ ، وَتُسَدِّلَ أَسْمَالَ الْهَوَانِ عَلَى مَنْ بَلَوْتَ
فَعْلَهُ ذَمِيمًا ، وَالْفَيْتَةَ بِعِرَاصِ الْإِسَاءَةِ مُقِيمًا ، وَإِلَى رِبَاعِهَا الْمُوَحِّشَةِ مُسْتَأْنِسًا مُسْتَدِيمًا ،
يَكَلِّلُ لِكُلِّ أَمْرٍ بِصَاعِهِ ، وَاتَّبَاعًا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِ ، وَتَجَنُّبًا لِلْإِهْمَالِ الْجَائِلِ الْحُسَيْنِ
وَالْمُسِيءِ سِوَاهُ ، وَالْمُعِيدِ هِمَا فِي مَوْقِفِ الْجَزَاءِ أَكْفَاءَ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيدًا لَذَوِي
الْحُسْنَى فِي الْإِحْسَانِ ، وَتَتَابُعًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ فِي الْعُدْوَانِ ، وَلَوْ لَا مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِيْجَابِ الْحُجَّةِ ، وَالْفَلَكَ مِنْ رِبْقَةِ الْأَجْتِهَادِ بِلَاغِ الْمَعْذَرَةِ ، لَنُفِيَ
عَنَّا الْإِطَالَةُ مُقْتَصِرًا ، وَأَكْتَفَى بَعْضُ الْقَوْلِ مُخْتَصِرًا ، ثَقَّةً بِأَمْتِنَاعِ سَدَادِكَ وَنَهَاكَ ،

أَنْ يَرَاكَ صَوَابُ الْفِعْلِ حَيْثُ نَهَاكَ ؛ وَاسْتِنَامَةٌ إِلَى مَا خَوَّلَكَ اللَّهُ مِنَ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ ،
 الْمُطَّلِعِ مِنْ خِصَائِصِ الْبَدِيَّةِ عَلَى مُحْتَاجِبِ الْعَوَاقِبِ . فَأَرْتَبِطُ يَا فُلَانُ هَذِهِ النُّعْمَى
 الَّتِي جَادَتْ دِيمَهَا مَغَانِيكَ ، وَحَقَّقَتْ الْأَيَّامُ بِمَكَاتِبِهَا أَمَانِيكَ ؛ بِشُكْرِ يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُ
 الْإِعْتِرَافِ ، فَيُؤْمِنُ وَحِشَى النَّعْمِ مِنَ النِّفَارِ وَالْإِنْحِرَافِ ؛ وَأَسْلُكَ فِي جَمَالِ السَّيْرِ ،
 وَالْإِقْتِدَاءِ بِهَذِهِ الْأَوَامِرِ الْمُبَيَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، جَدِّدًا يُغْرِى بِجَمْدِكَ الْأَلْسِنَةَ ، وَيُعْرِبُ عَنْ
 كَوْنِكَ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ؛ وَاللَّهُ يَصَدِّقُ مُحِمِّلَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 فِيكَ ، وَيُوزِعُكَ شُكْرًا مَا أَوْلَاكَ وَيُؤَلِّسُكَ ؛ وَيَجْعَلُ الصَّوَابَ غَرَضًا لِنَيْلِ عِزِّهِ ،
 وَيَذُودُ عَنْ دَوْلَتِهِ الْقَاهِرَةِ كَتَّابَ الْخُطُوبِ بِصَوَارِمِ السَّعْدِ وَلَهَازِمِهِ ؛ وَيَصِلُ أَيَّامَهُ
 الزَّاهِرَةَ بِالْخُلُودِ ، وَيَسْطُ عَلَى أَقَاصِي الْأَرْضِ ظِلَّهُ الْمُدُودِ ؛ مَا أَسْتَهْلَ جَفْنَ الْغَيْثِ
 الْمُدْرَارِ ، وَابْتَسَمَتْ تُغُورُ الثُّوَرِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(مِمَّا كَانَ يَكْتُبُ لِأَرْبَابِ الْوُظَائِفِ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ بِبَغْدَادَ مَا كَانَ يُكْتَبُ
 لِأَرْبَابِ الْوُظَائِفِ مِنْ أَصْحَابِ السُّيُوفِ ، وَهُوَ عَلَى ضَرَبَيْنِ)

الضرب الأول

(الْعُهُودُ ، وَهِيَ أَعْلَاهَا رُتْبَةً)

وَطَرِيقَتُهُمْ فِيهَا أَنْ تُفْتَحَ بِلَفْظٍ : « هَذَا مَا عَاهَدَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَلِيُّهُ فُلَانٌ أَبُو فُلَانٍ
 الْإِمَامُ الْفُلَانِيُّ إِلَى فُلَانِ الْفُلَانِيِّ حِينَ عَرَفَ مِنْهُ » وَيَذْكُرُ بَعْضُ مَنَاقِبِهِ ، وَرُبَّمَا
 تَعَرَّضَ لِثَنَاءِ سُلْطَانِ دَوْلَتِهِ عَلَيْهِ . ثُمَّ يَقَالُ : « فَقَلَّدَهُ كَذَا وَكَذَا » ثُمَّ يَقَالُ : « وَأَمْرَهُ
 بِكَذَا » وَيَأْتِي بِمَا يُنَاسِبُ مِنَ الْوَصَايَا . ثُمَّ يَقَالُ : « فَقَلَّدَهُ كَذَا وَكَذَا » ثُمَّ يَقَالُ :

«هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكَ» أو نحو ذلك ؛ ولا يُؤْتَى فيه بتحميد في أول العهد ولا في أشائه كما تقدّم في عهود الخلفاء للملوك .

عهد أرباب السيوف

(وهى عدة ولايات)

منها — النظر في المظالم .

وهذه نسخة عهد كتب به أبو إسحاق الصابى ، عن المطيع لله ، إلى الحسين ابن موسى العلوى ، بتقليد المظالم بمدينة السلام ، وهى :

هذا ما عهد عبد الله الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين ، إلى الحسين بن موسى العلوى ، حين اجتمع فيه شرف الأعراق ، والأخلاق ؛ وتكامل فيه يمن النقائب ، والضرائب ؛ وعرف أمير المؤمنين فيه فضل الكفاية والغناء ، ورشاد المقاصد والأنحاء ؛ فى سالف ما ولّاه إياه من أعماله الثقيلة التى لم يزل فيها محمود المقام ، مستمرا على النظام ؛ مُصِيبَ النَّقْضِ والإبرام ، سديد الإساءة والإلحام ؛ زائداً على المرّايدين ، راجحاً على الموازين ؛ فائتاً للحاذين ، مُبراً على المبارين ؛ فقلّده النظر فى المظالم بمدينة السلام وسوادها وأعمالها ، وما يتجرى معها ؛ ثقة بعلمه ودينه ، واعتماداً على بصيرته ويقينه ؛ وسكوناً إلى أن الأيام قد زادتة تحليماً وتهدياً ، والسّن قد تاهت به تحنيكا وتجربيا ؛ وأن صنعة أمير المؤمنين ^(١) مستقرة منه عند أكرم أكفائها ، وأشرف أوليائها ؛ برحمه المتأ الدانية ، وحرمة الشايحة العالیه ، ومعرفة الناقبة الداعية إلى التفويض إليه ، الباعثة على التعويل عليه ؛ وأمير المؤمنين يستمد

الله في ذلك أحسن ماعوده من هداية وتسديد، ومعونة وتأيد؛ وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنب .

أمره بتقوى الله التي هي الجنة الحَصِينَة ، والعِصْمَة المَتِينَة ؛ والسبب المتَّصِلُ يومَ انقطاع الأسباب ، والزيادة المبلغ إلى دار الثواب ؛ وأن يستشعرها فيما يُسرّ ويُعلن ، ويعتمدها فيما يُظهر ويُبطن ؛ ويجعلها إمامه الذي يَحْجُوهُ ، ورائده الذي يَقْفُوهُ ؛ إذ هي شِمة الأبرار والأخيار . وكان أولى مَنْ تعلق بعلائقها ، وتمسك بوثائقها ؛ لمفخره الكريم ، ومنصبه الصِّمِّم ؛ واستظلاله مع أمير المؤمنين بدوحة رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله - التي يَكْتَنُّان في فَنَائِها ، ويَأْوِيَان إلى أُمِّيَّاتِها ؛ وحقيق على من كان منها مَنَزَعُهُ ، وإليها مَرَجِعُهُ ؛ أن يكون طيباً زكياً ، طاهراً نقيّاً ، عفيفاً في قوله وفعله ، نظيفاً في سرّه وجهره ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وأمره بتلاوة القرآن ، وتأمل ما فيه من البرهان ، وأن يجعله نصباً لناظره ، ومألفاً لخاطره ؛ فأخذ به ويعطى ، ويأتمر له ويتبهي ؛ فإنه الحجة الواضحة ، والمحجة اللائحة ؛ والمعجزة الباهرة ، والبينة العادلة ؛ والدليل الذي من أتبعه سَلَمٌ ونجاء ، ومن صدّف عنه هَلَكٌ وهوى ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُ لِكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يجلس للخصوم جلوساً عامّاً ، ويُقبل عليهم إقبالاً تامّاً ؛ ويتصفح ما يُرْفَعُ إليه من ظلماتهم ، ويُنعم النظر في أسباب مُحَادَاتِهِمْ ؛ فإكان طريقه طريق المنازعة المتعلقة بنظر القضاة وشهادات العدول رده إلى المتولّى للحكم ، وما كان طريقه الغُصُوب المحتاج فيها إلى الكشف والفحص ، والاستشفاف والبحث ؛

نظر فيه نظرَ صاحبِ المظالم ، وانتزع الحقَّ من غصبِ عليه ، وأستخلصه ممن
 أمتدت له يدُ التعدي والتغرر إليه ؛ وأعادته إلى مستحقِّه ، وأقره عند مستوجبِه ؛
 غيرَ مراقبٍ كبيراً لكبره ، ولا خاصاً لخصوصه ، ولا شريفاً لشرفه ، ولا متسلطناً
 لسلطانه ؛ بل يقدمُ أمرَ الله جلَّ ذكره في كلِّ ما يأتى ويذكر ، ويتوكلُ رضاه فيما
 يُورد ويصدر ؛ ويكونُ على الضعيفِ المحقِّ حدياً رءوفاً حتى يذُصر ويذُصف ،
 وعلى القوى المبتطلِ شديداً غليظاً حتى يتقادر ويُدعِر ؛ قال الله جل وعز :
 ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
 فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
 يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .

وأمره أن يفتح بابَه ، ويسهل حجابَه ، ويسطو وجهَه ، ويلين كنفَه ؛ ويصير
 على الخُصوم الناقصين في بيانهم حتى تظهر حجَّتُهم ؛ وينعم النظر في أقوال أهل اللسان
 والبيان منهم حتى يعلم مصيبهم ؛ وربما استظهر العريض المبتطل بفضل بيانه ، على
 العاجز المحقِّ ليعي لسانه ؛ وهناك يجب أن يقع التصفح على القولين ، والاستظهار
 للأمرين : ليؤمن أن يزول الحق عن سَنَنِه ، ويزور الحكم عن طريقه ؛ قال الله
 عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
 فَتُصْحِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ .

وأمره بأن لا يرد للفضاة حكماً يعضونه ، ولا سحلاً ينفذونه ؛ ولا يعقب ذلك
 بفسخ ، ولا يطرق عليه التقض ؛ بل يكون لهم موافقاً مؤازراً ، ولأحكامهم عاضداً
 ناصراً ؛ إذ كان الحق واحداً وإن اختلفت المذاهب إليه . فإذا وجد القصة قد
 سيقَّت ، والحكومة قد وقعت ؛ فليس هناك شكٌّ يوقف عنده ، ولا ريبٌ يحتاج

إِلَى الْكَشْفِ عَنْهُ ؛ وَإِذَا وَجَدَ الْأَمْرَ مُشْتَبِهًا ، وَالْحَقَّ مُلْتَبِسًا ؛ وَالتَّغَرُّرَ مُسْتَعْمَلًا ،
وَالْتَغْلِبَ مُسْتَجَازًا ، نَظَرَ فِيهِ نَظَرَ النَّاصِرِ لِحَقِّ الْمُحَقِّقِ ، الدَّاحِضِ لِبَاطِلِ الْمُبْطِلِينَ ؛
الْمُقَوِّى لِأَيْدِي الْمُسْتَضْعَفِينَ ، الْآخِذِ عَلَى أَيْدِي الْمُعْتَدِينَ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَاَوْا
أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ .

وأمره أن يستظهر على معرفته بمشاورة القضاة والفقهاء ، ومباحثة الربانيين والعلماء ؛ فإن أشتبه عليه أمر استرشدهم ، وإن عزب عنه صواب استدلَّ عليه بهم ؛ فإنهم أزمته الأحكام ، وإليهم مرجع الحكم ؛ وإذا اقتدى بهم في المشكلات ، وعمل بأقوالهم في المعضلات ؛ أمِن من زلة العائر ، وغلطة المستأثر ؛ وكان خليقا بالأصالة في رأيه ، والإصابة في أبحاثه ؛ وقد أمر الله - تقدست أسماؤه - بالمشاورة فعرَف الناس فضلها ، وأسلكهم سُبُلها ؛ بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : **﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾** .

وأمره أن يكتب لمن توجب له حق من الحقوق إلى صاحب الكوفة بالشّد على يده والتّكّن له منه ، وقبض الأيدي عن مُنازعتِهِ ، وحسّم الأطاع في مُعارضتِهِ ؛ إذ هو مندوبٌ لتنفيد أحكامه ، ومأمورٌ بِإمضاء قضاياه ؛ ومتى أخذ أحدٌ من الخصوم إلى مكاذبةٍ في حقّ قد حُكم عليه به ، أخذ على يده وكفّه عن عدوانه ، وردّه إلى حكم الله الذي لا يعدل عنه ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وَحَجَّتْهُ عَلَيْكَ ؛ قَدْ أَرْشَدَكَ وَذَكَرَكَ ، وَهَدَاكَ
وَبَصَّرَكَ ؛ فَكُنْ إِلَيْهِ مُتَّبِعًا ، وَبِهِ مُقْتَدِيًا ؛ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ يُعِزَّكَ ، وَاسْتَكْفِهِ يَكْفِكَ .
وكتب الناصح أبو الطاهر في تاريخ كذا .



ومنها — نِقَابَةُ الطَّالِبِينَ : وهى المعبر عنها الآن بِنِقَابَةِ الْأَشْرَافِ .

وهذه نسخة عهد بنقابة الطالبيين ، كتب به أبو إسحاق الصابى ، عن الطائفة لله
إلى الشريف أبى الحسن محمد بن الحسين العلوى الموصى ، مضافاً إليها النظر
فى المساجد وعمارتها ، واستخلافه لوالده الشريف أبى أحمد الحسين بن موسى على
النظر فى المظالم والحج بالناس ، فى سنة ثمانين وثلثمائة ، وهى :

هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم ، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن
الحسين بن موسى العلوى ، حين وصلته به الأنساب ، وقُرِنت لديه الأسباب^(١) ؛
وظهرت دلائل عقله ولبابته ، ووضحت مخايل فضله ونجابته ؛ ومهد له بهاء الدولة
وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة مامهد عند أمير المؤمنين من المحلل المكين ،
وصفقه به من الحلم الرزين ؛ وأشار به من رفع المنزلة ، وتقديم الرتبة ؛ والتأهيل
لولاية الأعمال ، وتحمل الأعباء والأثقال ؛ وحيث رغبه فيه ، سابقة الحسين أبيه ،
فى الخدمة والنصيحة ، والمشايع الصالحة ، والمواقف المحموده ، والمقامات
المشهوده ؛ التى طابت بها أخباره ، وحسنت فيها آثاره ؛ وكان محمد متخلقا بخلائقه ،
وذاهباً على طرائقه : علماً وديانة ، وورعاً وصيانة ؛ وعفة وأمانة ، وشهامة وصرامة ؛

(١) فى " المثل السائر " ص ١٢٢ « وتأكدت له الأسباب » .

وتَفَرَّدًا بِالْحِزْبِ الْحَزِيلِ : من الفضل الجميل والأدب الجزل ، والتوجه في الأهل ؛ والإيفاء في المناقب على لداته وأترابه ، والإبرار على قُرَّانته وأضرابه - فقلده ما كان داخلًا في أعمال أبيه من نِقَابَةِ ثِقَبَاءِ الطَّالِبِينَ بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار ؛ شرقًا وغربًا ، وبعْدًا وقربًا ؛ واختصه بذلك جذبًا بضبعه ، وإنافه بقدره ، وقضاء لحقِّ رحمه ؛ وترفيها لأبيه ، وإسعافًا له بليثاره فيه ؛ إلى ما أمر أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر في المظالم ، وتسيير الحجيج في أوَّانِ المَوَاسِمِ ؛ والله يُعرِّفُ أمير المؤمنين الحليَّةَ فيما أمرَ ودبرَ ، وحسنَ العاقبةَ فيما قضى وأمضى ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيبُ .

أمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين ، وسيمًا للصالحين ، وعِصْمَةً لعباد الله أجمعين ؛ وأن يعتقدها سرًّا وجهرًا ، ويعتمدها قولًا وفعلًا ؛ فيأخذ بها ويعطي ، ويريش ويرى ؛ ويأتي ويذر ، ويورد ويصدر ؛ فإنها السببُ المتين ، والمعقل الحصين ؛ والزادُ النافع يوم الحساب ، والمسلكُ المُقْضَى إلى دار الثواب ؛ وقد حصَّ الله أوليائه عليها ، وهداهم في مُحْكَمِ كتابه إليها ؛ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه مواظبًا ، وتصفحه مداومًا ملازمًا ؛ والرجوع إلى أحكامه فيما أحلَّ وحرم ، ونقض وأبرم ، وأثاب وعاقب [وباعد وقارب] ؛ فقد صحَّح الله برهانه [وحجته] ، وأوضح مناجاه ومحجته ؛ وجعله جفرا في الظلمات طالعا ، ونورا في المشكلات ساطعا ؛ فمن أخذ به نجا وسلم ، ومن عدل عنه هلك وهوى

(١) في "المثل السائر" بدله «ويسروني» .

(٢) الزيادة من "المثل السائر" .

[وَنَدِمَ] ^(١) . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بتزيره نفسه عما تدعو إليه الشهوات ، وتتطلع إليه الزوات ؛ وأن يضبطها ضبط الحكيم ، ويكفها كف الحليم ؛ ويجعل عقله سلطاناً عليها ، وتميزه أمراً ناهياً لها ؛ فلا يجعل لها عدراً إلى صبوة ولا هفوة ، ولا يطلق منها عناناً عند ثورة ولا فورة ؛ فإنها أماراة بالسوء ، منصبة إلى النقي ؛ فالحازم يثبتهما عند تحرك وطره وأربه ، وأهتياج غيظه وغضبه ؛ ولا يدع أن يغضها بالشكيم ، ويعركها عرك الأديم ؛ ويقودها إلى مصالحها بالخراتم ، ويعتقلها عن مقارفة المحارم والمآثم ؛ كما يعز بتذليلها وتأديبها ، ويجعل رياضتها وتقويمها ؛ والمفترط في أمره تطمع به إذا طمحت ، ويحجم معها أئى جمحت ؛ ولا يلبث أن توردته حيث لا صدر ، وتلجته إلى أن يعتذر ؛ وتقيمه مقام النادم الواجم ، وتنتكب به سيدل الراشد السالم ؛ وأحق من تحلى بالمحاسن ، وتصدى لاكتساب المحامد ؛ من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف ، ومنصبه المنيف ؛ واجتمع معه في ذؤابة العثرة الطاهره ، وأستظل بأوراق الدوحة الفاسحه ؛ فذاك الذى نتضاعف له المآثر إن أثرها ، والمثالب إن أسف إليهما ؛ ولا سيما من كان مندوباً لسياسة غيره ، ومُرشحاً للتقليد على أهله ؛ إذ ليس ينفي بإصلاح من ولى عليه ، من لا يفي بإصلاح ما بين جنبه ؛ وكان من أعظم الهجنة أن يأمر ولا يأتمر ، ويأمر ولا يذبح ؛ قال الله عز وجل : ﴿ أَمَّا مَرُؤُنَ النَّاسِ بِالرِّئَاسَةِ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكَلْبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وأمره بتصفّح أحوال من وُلّي عليهم واستقراء مذاهبهم ، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم ؛ وأن يعرف لمن تقدّمت قدمه منهم وتظاهر فضله فيهم منزله ، ويوقّيه حقه ورتبته ؛ وينتهي في إكرام جماعتهم إلى الحدود التي توجبها أنسابهم وأقدارهم ، وتقتضيها مواقفهم وأخطارهم : فإن ذلك يلزمه لشئيين : أحدهما يحضه وهو النسب الذي بينه وبينهم ، والآخريعه والمسلمين جميعا ، وهو قول الله جلّ ثناؤه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ فالموَدَّة لهم والإعظام لأكارهم ، والإشبال على أصاغرهم ؛ [واجب] متضاعف الوجوب عليه ، ومتأكد اللزوم له ؛ ومن كان منهم في دُون تلك الطبقة من أحداث لم يَحْتَنِكُوا ، أو جُدعان لم يقرحوا ؛ مُجَرِّينَ إلى ما يُزَيَّرُ بأنسابهم ويعُضُّ من أحسابهم ، عدلهم ونههم ، ونهاهم ووعظهم ؛ فإن زَعَوْا وأَقْلَعُوا فذاك المراد بهم ، والمقصود إليه فيهم ؛ وإن أَصْرُوا وِتَابَعُوا ، أَنَالَهُم من العقوبة بقدر ما يَكْفُفُ وَيَدَعُ ؛ فإن نَفَعَ وإلا تجاوزته إلى ما يُوجَعُ ويلدَعُ ؛ من غير تطرُق لأعراضهم ، ولا آتِهَاءٍ لأحسابهم ؛ فإن الغرض منه الصيانة ، لا الإهانة ؛ والإدالة ، لا الإذالة . وإذا وجبت عليهم الحقوق ، أو تعلقت بهم دواعي الخُصُوم ، قَادَهُم إلى الإغفاء بما يصح منها ويحب ، والخروج إلى سَنَنِ الحق فيما يَسْتَبِيهِ وَيَلْتَبِسُ . ومتى لَزِمَتْهُمُ الحدودُ أقامها عليهم بحسب ما أمر الله به فيها ، بعد أن ثُبُتَ الجرائمُ وَتَصَحَّحَ ، وَتَبَيَّنَ وَتَضَحَّحَ ؛ وَتَجَرَّدَ عن الشكِّ والشبهة ، وَتَحَيَّلَ من الظنِّ والتهمة ؛ فإن الذي يُسْتَحَبُّ في حدود الله أن تُدْرَأَ عن عباده مع نقصان اليقين والصحة ، وأن تُحْضَى عليهم مع قيام الدليل والبيّنة . قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

(١) الإشبال العطف وفي "المثل السائر" « والاشتغال » وهو بمعناه .

(٢) الزيادة عن "المثل السائر" .

وأمره بجياطة هذا النسب الأظهر، والشرف الأفخر، عن أن يدعيه الأدياء،
أو يدخل فيه الدخلاء؛ ومن آتى إليه كاذبا، وانتحل به باطلا، ولم يوجد له بيت
في الشجرة، ولا مصداق عند النسابين المهره، أوقع به من العقوبة ما يستحقه،
ووسمه بما يعلم به كذبه وفسقه؛ وشهره شهرة ينكشف بها غشه ولبسه، ويترفع
بها غيره ممن تسول له مثل ذلك نفسه. وأن يحصن الفروج عن مناحكة من ليس لها
كفؤا، ولا مشاركتها في شرفها ونفخها؛ حتى لا يطمع في المرأة الحسبية النسبية
إلا من كان مثلا لها مساويا، ونظيرا موازيا؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وأمره بمراعاة متبلى أهله ومتجديهم، وصالحاتهم ومجاورهم، وأراملهم
وأصاغرهم؛ حتى يسد الخلة من أحوالهم، ويدبر المواد عليهم، وتتعادل أقساطهم
فيما يصل إليه من وجوه أموالهم؛ وأن يزوج الأيما، ويربي اليتامى؛ ويلزمهم
المكاتب ليتقنوا القرآن، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان؛ ويتأدبوا بالآداب،
اللائقة بدوى الأحساب؛ فإن شرف الأعراق، محتاج إلى شرف الأخلاق؛ ولا حمد
لمن شرف نسبه، وتخف أدبه؛ إذ كان لم يكسب الفخر الحاصل له بفضل سعى
ولا طلب، ولا اجتهد ولا دأب؛ بل بصنع من الله عز وجل له، ومزيد في المنة
عليه؛ وبحسب ذاك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية، والاعتداد
بما فيها من المزية، وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب، والترفع عن
الذائل والمثالب.

وأمره بإحمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى؛ فيما أمره أمير المؤمنين
باستخلافه عليه من النظر في المظالم، والأخذ للظلم من الظالم؛ وأن يجلس للترافعين

إليه جُلُوساً عاماً ، ويتأَمَّل ظُلُمَاتِهِمْ تأَمُّلاً تاماً ؛ فما كان منها متعلّقاً بالحَاكِمِ رَدّه إليه ، ليَحْمِلَ الخُصُومَ عليه ؛ وما كان طَرِيقُهُ طَرِيقَ الغِشِّ والظُّلْمِ ، والتَّغْلِبِ والغِصْبِ ، قَبِضَ عنه اليَدَ المُبْطِلَةَ ، وثَبَّتَ فيه اليَدَ المُسْتَحِقَّةَ ؛ وتَحَرَّى في قَضَاياه أَنْ تَكُونَ مُوَافِقَةً لِلْعَدْلِ ، وَجَانِبَةً لِلْغَدْلِ ؛ فَإِنْ غَايَبَ الحَاكِمُ وصاحبُ المَظَالِمِ واحدة : وهى إقامَةُ الحقِّ ونُصْرَتُهُ ، وإِبَانَتُهُ وإِنَارَتُهُ ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ سِيْلَاهُمَا فِي النِّظَرِ : إِذَا الحَاكِمُ يَعْمَلُ عَلَى مَا ثَبَّتَ وَظَهَرَ ، وصاحبُ المَظَالِمِ يَفْحَصُ عَمَّا غَمَضَ وَأَسْتَرَّ ؛ وَلَيْسَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَرُدَّ حَاكِمَ حُكُومِهِ ، وَلَا يُعِلَّ لَهُ قَضِيَّةً ؛ وَلَا يَتَعَقَّبَ مَا يُفِذُهُ وَيُخْصِيهِ ، وَلَا يَتَّبِعَ مَا يَحْكُمُ بِهِ وَيَقْضِيهِ ؛ وَاللَّهُ يَهْدِيهِ وَيُسَدِّدُهُ ، وَيُوقِّعُهُ وَيُرْشِدُهُ .

وأمره أَنْ يَسِيرَ حَجيْجَ بَيْتِ اللَّهِ إِلَى مَقْصِدِهِمْ ، وَيُجِيبَهُمْ فِي بَدَائِهِمْ وَعَوْدَتِهِمْ ؛ وَيَرْتَبَهُمْ فِي مَسِيرِهِمْ وَمَسْلِكِهِمْ ، وَيُرَاعَهُمْ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ؛ حَتَّى لَا تَنَالَهُمْ شِدَّةٌ ، وَلَا تَصُلَّ إِلَيْهِمْ مَضَرَّةٌ ؛ وَأَنْ يُرِيحَهُمْ فِي الْمَنَازِلِ ، وَيُورِدَهُمُ الْمَنَاهِلَ ؛ وَيُنَاوِبَ بَيْنَهُمْ فِي النَّهْلِ وَالْعَلَلِ ، وَيُمَكِّنَهُمْ مِنَ الْإِرْتِوَاءِ وَالْإِكْتِفَاءِ ؛ مُجْتَهِداً فِي الصِّيَانَةِ لَهُمْ ، وَمُعْذِراً فِي الذَّبِّ عَنْهُمْ ؛ وَمُتَمَلِّماً عَلَى مَتَانَتِهِمْ وَمُتَخَلِّفَهُمْ ، وَمُنْهِيضاً لضعيفِهِمْ وَمُهَيِّضَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ حُجَّاجُ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَزُورَةُ قَبْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ قَدْ هَجَرُوا الْوَطَانَ ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْإِخْوَانَ ؛ وَتَجَشَّمُوا الْمَغَارِمَ الثَّقَالَ ، وَتَعَسَّفُوا السُّهُولَ وَالْحِبَالَ ؛ يَلْبُونُ دَعَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُطِيعُونَ أَمْرَهُ وَيُؤَدُّونَ فَرْضَهُ وَيَرْجُونَ ثَوَابَهُ ؛ وَحَقِيقٌ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحْرَسَهُمْ مَتَبَرِّعاً ، وَيُحَوِّطَهُمْ مَتَطَوُّعاً ؛ فَكَيْفَ مَنْ تَوَلَّى ذَلِكَ وَصَمِنَهُ ، وَتَقَلَّدَهُ وَأَعْتَقَهُ ، قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

وأمره أن يُراعى أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها ، وأقطارها وأكافها ؛
وأن يُنحى أموال وقوفها ، ويستقصى جميع حقوقها ؛ وأن يلم شعنها ، ويسد خللها ؛
بما يتحصل من هذه الوجوه قبله ، حتى لا يتعطل رسم جرى فيها ، ولا تنقض عادة
كانت لها ؛ وأن يثبت اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها ، ويذكر اسمه بعده
بأن عمرانها جرى على يديه ، وصلاحها أداه قول أمير المؤمنين إلى فعله ؛ فقد فسح له
أمير المؤمنين بذلك تنويهاً باسمه ، وإشادةً بذكره ؛ وأن يولى ذلك من قبله من حسنت
أمانته ، وظهرت عفته وصيانتته ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ
أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

وأمره أن يستخلف على ما يرى الاستخلاف عليه من هذه الأعمال : في الأمصار
الدانية ، والبلاد القريبة والبعيدة ، من يثق به من صلحاء الرجال ، وذوى الوفاء
والاستقلال ؛ وأن يعهد إليهم مثل الذى عهد إليه ، ويعتمد عليهم فى مثل ما اعتمد
عليه ؛ ويستقرى مع ذلك آثارهم ، ويتعرف أخبارهم ؛ فمن وجده محموداً أقره
ولم يزله ، ومن وجده مذموماً صرفه ولم يمهله ؛ وأعتاض منه من ترجى الأمانة
عنده ، وتكون الثقة معهودةً منه ؛ وأن يختار لكتابته وحجته والتصرف فيما قرب
منه وبعد عنه ؛ من يزينه ولا يشينه ، وينصح له ولا يعشيه ، ويحمله ولا يهجنه ، من
الطبقة المعروفة بالظلف ، المتصونة عن اللطف ؛ ويجعل لهم من الأرزاق الكافية ،
والأجرة الوافية ، ما يصدّهم عن المكاسب الذميمة ، والمأكلي الوخيمة ؛ فليس تجب
عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ
وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ﴾ .

وأمره بأن يكتب لمن يقوم بيئته عنده وتكشف حجتَه له ، إلى أصحاب
المعان بالشَّد على يديه ، وإيصال حَقِّه إليه ، وحسَم الطمع الكاذب فيه ،
وقبض اليد الظالمة عنه ؛ إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه ، والوقوف عند
رسمه وحدّه .

وهذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجَّتُه لك وعليك ؛ قد أنار فيه سيِّلك ، وأوضح
دليلك ؛ وهداك وأرشدك ، وجعلك على بينة من أمرك ؛ فاعملْ به ولا تخالفه ،
وأتته إليه ولا تتجاوزَه ؛ وإن عرض لك أمرٌ يعجزك الوفاء به ، ويشتبه عليك وجهُ
الخروج منه ، أنهتَه إلى أمير المؤمنين مبادرا ، وكنتَ إلى ما يأمرُك به صائرا ؛
إن شاء الله تعالى . وكتب في مستهلِّ شعبان سنة ثمانين وثلاثمائة .



ومنها - ولاية الصلاة .

وهذه نسخة عهد كتب بها أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله ، لأبى الحرث
محمد بن موسى العلوئى الموسوى ، بتقليده الصلاة في جميع النواحي والأمصار
والأطراف ، وتوقَّف عن إظهاره لرأى رآه في ذلك ، وهى :

هذا ما عهدَ عبدُ الله إلى محمد بن موسى العلوئى ، لما استكفاه النظر في نقابة
الطالبيين فكفاه ، وتمجَّل ذلك العبد فآغناه ، وفات النظراء في الإستقلال والوفاء ؛
وبدَّ الأمثال في الإضطلاع والغناء ؛ جامعا إلى شرف الأحساب والأعراق ، شرف
الآداب والأخلاق ؛ وإلى كرائم المفاخر والمناقب ، مكارم الطباع والضرائب ؛
على الحداثة من سنَّه ، والغضاضة من عوده ؛ مستوليا من البراعة والنجابة ؛ والفراهة
واللبابه ؛ على التى لا يبلغها الشيبُ المفارق ، فضلا عن البالغ المراهق ؛ وغايات

تَقَطَّعَ دُونَهَا أَنْفَاسُ الْمَنَافِسِينَ ، وَتَضَرَّعَ عَلَيْهَا أَحْشَاءُ الْحَاسِدِينَ ؛ لِأَسْمَاءٍ وَقَدْ أَطَّتْ^(١) بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ شَوَاجِنُ الْأَرْحَامِ ، وَعَطَفَتْهُ عَلَى أَصْطِنَاعِهِ عَوَاطِفُ الْآبَاءِ وَالْأَعْمَامِ ؛ وَأَقْتَضَتْ آثَارُهُ الْمَحْمُودَةَ ، وَطَرِائِقُهُ الرَّشِيدَةَ ؛ أَنْ يُنَاوِبَهُ عَلَى رُتْبَةٍ لَمْ يَبْلُغْهَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ أَبِيهِ ، وَلَمْ يَقْتَرِعْ دَوَائِبُهَا رَجُلٌ دُونَهُ ؛ فَقَلَّدَهُ الصَّلَاةَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ فِي نَحْسَةِ جَوَامِعِهَا : فَأَوَّلُهَا الْجَامِعُ الدَّخْلُ فِي حَرِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَامِعُ الرِّصَافَةِ ، وَجَامِعُ الْمَنْصُورِ ، وَجَامِعُ بُرَائِي ، وَجَامِعُ الْكَفِّ الَّذِي تَوَلَّى أَبُوهُ إِشَادَتَهُ وَعِمَارَتَهُ ، وَحُسْنُ آثَارِهِ فِي إِنْشَائِهِ وَإِعْلَانِهِ ؛ وَحَيْثُ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَيْهِ ، وَبَذَلَ الْمَجْهُودَ فِي إِنْتَاقِ الْأَمْوَالِ الدَّثَرَةِ عَلَيْهِ ؛ وَاسْتَزَلَّ بِذَلِكَ مِنْ اللَّهِ أَجْرَ لَإِنَابَةِ الْمُتَّائِبِينَ ، وَأَوْفَرَ أَجْرَ الْمَاجُورِينَ ؛ وَجَمِيعَ الْمَنَابِرِ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا ، وَبَعِيدِ الْأَقْطَارِ وَقَرِيبِهَا ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَ التَّسْهِيدِ فِي ذَلِكَ وَسَائِرِ مَرَامِيهِ ، وَجَمِيعَ مَطَالِبِهِ وَمَغَازِيهِ ؛ وَجَوَارِي هِمَمِهِ الَّتِي يُمِضُّهَا ، وَسَرَائِي عَزَمَاتِهِ الَّتِي يَنْوِيهَا ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ النِّجَاحَ قَائِدَهَا وَسَائِقَهَا ، وَالصَّلَاحَ أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا ؛ وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ أَحَرُّ الْمَعَاقِلِ ، وَأَحْصَنُ الْجُنُنِ عِنْدَ النَّوَازِلِ ؛ وَأَعْظَمُ مُلْجَأٍ يُلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَأَمْنٌ مَوْثَلٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ؛ وَأَنْ يَعْتَقِدَهَا فِي خَلْوَتِهِ وَحَفَلَتِهِ ، وَيَعْتَمِدَهَا فِي سِرِّهِ وَعِلَانِيَتِهِ ؛ وَيَجْعَلَهَا سَبَبًا يَتَّبِعُهُ ، وَلِبَاسًا يَدْرِعُهُ ؛ فَيُنَازِعُ بِهَا مَنْ نَازَعَهُ ، وَيُؤَادِعُ بِهَا مَنْ وَادَعَهُ : فَإِنَّهَا أَوْكَدُ الْأَسْبَابِ ، وَأَوْصَلُ الْقُرْبِ وَالْأَنْسَابِ . وَأَوَّلَى النَّاسِ بِالْتَّمَسْكِ بِحَبْلِهَا ، وَالْإِسْتِمَالِ بِظُلْمِهَا ؛ مَنْ كَانَ بِأَجَلٍ الْمُنَاسِبَ تَعَلُّقُهُ ، وَبِأَشْرَفِ الْخَلَائِقِ

(١) فِي الْقَامُوسِ « أَطَّتْ لَهُ رَحِمِي رَفَتْ وَتَحَرَّكَتْ » فَانْظُرْهُ .

(٢) فِي اللِّسَانِ ج ٥ ص ٣٦٢ « الدُّثْرُ بِالْفَتْحِ الْمَالُ الْكَثِيرُ لَا يَتَنَبَّهُ وَلَا يَجْمَعُ بِقَالَ مَالٌ دَثْرٌ وَمَالَانٌ دَثْرٌ وَأَمْوَالٌ دَثْرٌ » فَلَمَّا هَاءُ التَّأْنِيثِ زَائِدَةٌ مِنْ قَلَمِ النَّاسِخِ . تَأَمَّلْ .

تَحْلُقُهُ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

وأمره بتلاوة القرآن ، والمواظبة عليه والإدمان ، والأثمار بما فيه من الأوامر ، والأزديجار عما تَضُمَّن من الزواجر ؛ وأن يجعله الإمام المتَّبِع فيَقْفُوهُ ، والطريقَ المَهْمَج فيَقْصِدَهُ وَيُخَوِّهُ : فإنه العَلَمُ الْمُنْجِي من الغَوَايِهِ ، والدَلِيلُ الْقَائِدُ إِلَى الْهَدَايَةِ ؛ والنور الساطع للظلام إذا أَشْكَل مُشْكِلا ، والحَاكِمُ الْقَاضِي بِالْحَقِّ إِذَا أُعْضِل مُعْضِلا ؛ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بتَهْذِيب لُبِّهِ ، من جَوَامِج الْوَسَاوِس ، وتطهير قَلْبِهِ ، من مَطَامِح الْهَوَاجِس ؛ وَأَنْ يَتَوَقَّى اللَّحْظَةَ الْعَارِمَةَ ، وَيَتَجَنَّبَ اللَّفْظَةَ الْمُؤْلِمَةَ ، عَاصِيًا جَوَادِبَ الْخَلَاعَةِ ، وَمُطِيعًا أَوَامِرَ التَّرَاهَةِ ؛ حَتَّى يَسْتَوِيَ خَافِيهِ وَعَالِيَتُهُ ، وَيَتَّفَقَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ ؛ فِعَالٌ مِنْ جَعَلَهُ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ إِمَامًا ، وَقَدَمَتَهُ الرِّعْيَةُ أَمَامًا ؛ وَكَانَ إِلَى اللَّهِ دَاعِيَا ، وَلَهُ عَنْ عِبَادِهِ مُنَاجِيَا ؛ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَالِقِهِمْ وَسَيْطَا ، وَعَلَى مَا قَلَّدَهُ مِنَ الصَّلَاةِ بِهِمْ أَمِينَا : لَتَصِحَّ شُرُوطُ صَلَاتِهِ ، وَيُقْبَلَ مَرْفُوعُ دَعَوَاتِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بِالْمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَاتِّهَازِ فُرْصَتِهَا مِنَ الْأَوْقَاتِ ؛ وَالدُّخُولِ فِيهَا بِالرَّقَّةِ وَالْخُشُوعِ ، وَالتَّوَفُّرِ بِالْإِخْبَاتِ وَالْخُضُوعِ ؛ وَحَقِيقُ عَلَى كُلِّ مُسْتَشْعِرٍ شِعَارَ الْإِسْلَامِ ، وَمَتَجَلِّبٍ جِلْبَابَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مُسْتَوْفِيًا شُرُوطَهُ ، وَمُسْتَقْصِيَا حُدُودَهُ وَرُسُومَهُ ، فَكَيْفَ بِنِ أَقَامَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ [مقامه] فِي أَمْتِطَاءِ غَوَارِبِ الْمَنَابِرِ

وَذَرَاهَا ، وَنَصَبَهُ مَنْصِبَهُ فِي أَمِّ الرِّعْيَةِ أَدْنَاهَا وَأَقْصَاهَا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَايَئُهَا آيِنَ
آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . وَقَالَ : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تُمُونُوا إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِالسَّعْيِ فِي الْجَمْعِ إِلَى الْمَسَاجِدِ الْجَامِعَةِ ، وَفِي الْأَعْيَادِ إِلَى الْمُصَلَّاتِ
الضَّاحِيَةِ ؛ وَأَنْ يُخَصَّ أَحَدُهَا بِصَلَاتِهِ فِيهِ وَقَصْدُهُ لَهُ ؛ وَيَأْمُرُ خَلْفَاءَهُ عَلَى الصَّلَاةِ
بِالْإِقْتِرَاقِ فِي سَائِرِ الْجَوَامِعِ وَبِاقِي الْمَنَابِرِ ؛ بَعْدَ الْأَمْرِ بِجَمْعِ الْمُؤَذِّنِينَ وَالْمَكْبُرِينَ ،
وَإِحْضَارِ الْقَوْمِ وَالْمُرْتَبِينَ ، فِي أَتَمِّ أَهْبَةِ وَأَجْمَلِ هَيْئَةٍ ، بِقُلُوبٍ مُسْتَشْعِرَةٍ لِلخُشُوعِ ،
مَتَصَدِّقَةٍ لِلدُّمُوعِ ؛ وَالسُّنَنِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ مُنْطَلِقَةٍ ، وَأَمَالٍ فِي حُسْنِ الْجَزَاءِ
وَجَزِيلِ الثَّوَابِ مَنْفَسِحَةٍ ، حَتَّى تَعَبَّرَ أَلْسِنَتُهُمْ إِذَا أَقْرَعُوا الْخُطْبَ وَأَفْتَتَحُوا الْكَلِمَ
عَنْ مَكُونِ ضَمَائِرِهِمْ ، وَمُضْمُونِ سَرَائِرِهِمْ ؛ فَتَجِيءَ الْمَوَاعِظُ بِالْفَعْلِ ، وَالزَّوْجَرُ نَاجِعَةً ؛
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِمُرَاعَاةِ الْمَسَاجِدِ ، وَتَعَهُدِ الْجَوَامِعِ ؛ وَسَدِّ خَلَلِهَا ، وَلَمْ شَعْنَهَا ؛ فَإِنَّهَا مَقَامُ
عِزِّهِ وَنَفَرِهِ ، وَمَحَاضِرِ صِيَّتِهِ وَذِكْرِهِ ؛ وَمَرَاكِزِ أَعْلَامِ الدِّينِ الْخَافِقَةِ ، وَمَطَالِعِ
شُمُوسِ الْإِسْلَامِ الشَّارِقَةِ ؛ وَمَوَاقِفِ الْحَقِّ الْمَشْهُودَةِ ، وَقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الْمُوْطُودَةِ ؛
مِمَّا لَا يَتَضَعُّعُ أَحَدُهَا إِلَّا تَضَعُّعَ مَنْ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ لَهُ رُكْنٌ ، وَلَا آتَاتَ بَعْضُهَا
إِلَّا آتَاتَ مِنْ أَعْضَاءِ الدِّينِ عَضْوٌ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ
أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

(١) جمع مقوم وفي اللسان « المقوم الخشبة التي يمسكها الحراث » ولعله يريد أنها آلات عزه ونفخه .

تأمل .

وأمره في خُطْبَتِهِ بِكَثْرَةِ التَّحْفِظِ ، وعندَ افْتِتَاحِهِ وأخْتتامِهِ بِطُولِ التَّيَقُّظِ ؛
 فإنَّ العُيُونَ به مُنَوِّطَةٌ ، والأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مَمْدُودَةٌ ؛ والمَسَامِعُ فَارِغَةٌ تَتَلَقَّفُ ما يَقُولُهُ ،
 والْقُلُوبُ فَارِغَةٌ لِحَفْظِ ما يُبْدِي وما يُعِيدُ ؛ فقليلُ الزَّلَلِ ، في ذلك المَوْقِفِ كَثِيرُ ،
 وصَغِيرُ الخَطَلِ ، في ذلك المَقامِ كَبِيرُ ؛ واللهُ تعالى يُسَدِّدُهُ إلى المَحَجَّةِ الوُسْطى ،
 وَيَقِفُ به على الطَّرِيقَةِ المِثْلَى ، بِمَنِهِ .

وأمره بالسَّكِينَةِ في آتِنصابِهِ لِلصَّلَاةِ الجَامِعَةِ ، وتَقَدُّمِهِ لِقضاءِ الفُرُوضِ اللّازِمَةِ ؛
 وأنَّ يَسْكُنَ [في كُلِّ] حَدٍّ من حُدُودِها في الرُّكُوعِ والسُّجُودِ ، والقِيامِ والقُعُودِ ؛
 فإنَّهُ عليها مُحاسَبٌ ، وبِما يَلْحَقُ من يَأْتُمُّ به في جَميعِها مُطالَبٌ ؛ وأنَّ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ
 لما يَتْلُوهُ من البَيانِ ، ويرْفَعُ صَوْتَهُ بما يَتَرَبَّه من قَوَارِعِ القُرْآنِ ؛ مَرَّتَلا لِقِراءَتِهِ ،
 ومُسْتَرَسِّلا في تَلاوَتِهِ : لِيَشْتَرِكَ في سَماعِها الأَقْرَبُ والأَقْصَى ، وَيَنْتَفِعَ بِمَواعِظِها
 الأَبْعَدُ والأَدْنَى ، بَعْدَ إِخلاصِ سِرِّهِ وأَتْراعِهِ ، وتَسْوِيَتِهِ في الطَّهَورِ بَيْنَ بَاديهِ
 وخَافِيهِ ، وغائِبِهِ وحاضِرِهِ ؛ فليسَ بالطَّاهِرِ عِنْدَ اللهِ تعالى من يُصِيبُ بالماءِ أَطرافَهُ ،
 وأُدرْنَ بالخَبائِثِ شِغافَهُ ؛ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ
 مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ . وقالَ : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ
 عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره أن يُقِيمَ الدَّعْوَةَ على مَنابرِ أَعمالِهِ القاصِيَةِ والدانِيَةِ والغائِبَةِ والحاضِرَةِ
 لأُمَمِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ ثمَّ لِلناهِضِ عَنهُ بالأَعْباءِ ، والقائِمِ دُونَهُ في البَأْساءِ والضَّرَّاءِ ؛ الَّذِي
 عُذِّي بِإِلْبانِ الطَّاعَةِ ، وأَتقادِ بَرِّمَامِ المِتابَةِ : بِهَآءِ الدَّوْلَةِ ؛ وَلِوَلَاةِ الأَعْمالِ من بَعْدِهِ
 الَّذينَ يُدْعَى لَهُمُ على المَنابِرِ ، ما يُكونُ مِنْها على العادَةِ الجاريةِ فيها ، فإنَّها دَعْوَةٌ تَلْزِمُ
 إقامَتُها ، وكَلِمَةٌ تَجِبُ إِشادَتُها ؛ إِذْ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِطاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وقد أَوْجَبها اللهُ

تبارك وتعالى على كافة المسلمين وجميع المعاهدين ، إذ يقول [وهو] اصدق القائلين :
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ؛ وعائدتُها
 نعمُّهم ، وفائدُتها تشمُّلُهم ؛ إذ كان صلاح الرعية مقرونا بصلاح راعيها ، وفسادُ
 الأئمة منوطا بفسادِها .

وأمره باستخلاف من يرى استخلافه على الصلاة في الأفطار والأطراف والنواحي
 والبلدان ، وأن يختار من الرجال كلَّ حسن البيان ؛ مضجع اللسان ؛ يليل الريق إذا
 خطب ، بليغ القول إذا وعظ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته لك وعليك ؛ قد أعذر فيه وأنذر ، وهدى
 من الضلالة وبصر ؛ وأعلقك زمام رشدك وغيك ، وقلدك عنان هلكك وفوزك ؛
 وخيرك في كلا الأمرين ، ووقفك إزاء الطريقين ؛ فإن سلكت أهداهما لم تلبث أن
 تعود غائما ، وإن ولجت أضلَّهما فغير بعيد أن تثوب نادما ؛ وأستعين بالله يُعَنِّكَ ،
 وأسترده من الكفاية يزدك ؛ وأستليسه الهداية يُلِيْسَكَ ، وأستدله على نجاح
 المطالب يذلِّلك ، إن شاء الله ، والحمد لله وحده .

ومنها — نظر الأوقاف .

وهذه نسخة عهد من ذلك ، كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله -
 للحسين بن موسى العلوى ، وهى :

هذا ماعهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى الحسين بن
 موسى العلوى ، حين طابت منه العنصر ، ووصلته بأمر المؤمنين الأواصر ؛ جمع
 إلى شرف الأعراق الذى ورثه ، شرف الخلق الذى اكتسبه ؛ ووضعت آثار دينه

وأمانته ، وبانت أدلة فضله وكفايته ، في جميع ما أسنده أمير المؤمنين إليه من الأعمال ، وحمله إياه من الأثقال ؛ فأضاف إلى ما كان ولآه من [ذلك] النظر في الوقوف التي كانت يد فلان فيها بالحضرة وسواها ، ثقة بسداده ، وسكونا إلى رشاده ؛ وعلمنا بأنه يعرف حق الصنيعه ، ويرعى ما يستحفظه من الوديعه ؛ ويجري في المنهل الذي أحده أمير المؤمنين منه ووكل إليه . والله يمد أمير المؤمنين بصواب الرأي فيما تحاه وتوحاه ، ويؤمنه في عاقبته الندم فيما قضاه وأمضاه ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنب .

أمره بتقوى الله التي هي عماد الدين ، وشعار المؤمنين ، وأن يعتقدها في سره ونجواه ، ويجعلها الذخيرة للأولاد وأخراه ؛ ويتجنب الموانع المونية ، ويتوقى الموارد المريبة ؛ وينص طرفه عن المطامع المغوية ، ويذهب بنفسه عن المطارح المخزية ؛ فإنه أحق من فعل ذاك وآثره ، وأولى من اعتمده واستشعره ؛ بنسبه الشريف ، ومفخره المنيف ؛ وعادته المشهورة ، وشاكلته الماثورة ؛ وتلاوة كتاب الله الذي هو وعرة رسول الله الثقلان المخلفان في الأمة ، وقد جمعته ، وأخرهما الأنساب وجمعه والثاني عصمة أولى الألباب ، وتوجهت حجة الله بما يرجع من هذه الفضائل إليه ، وأنه غصن من دوحة أمير المؤمنين ، التي تحداها الله بالإنذار قبل الخلائق أجمعين ؛ إذ يقول لرسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ . وقد حصّ تبارك وتعالى على التقوى ، ووعد عباده عليها الزلفى ؛ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بالإشتغال على ما أسنده إليه أمير المؤمنين من هذه الوقوف مستنفدا طوقه في عمارتها ، مستفرغا وسعته في مصلحتها ، دأباً في استغلالها وتشميرها ، مجتهداً

(١) هذه الجمل هكذا في الأصول وهي غير مستقيمة .

في تدبيرها وتوفيرها ؛ وأن يصرف فاضل كل وقف منها بعد الذي يُخرج منه للنفقة على حفظ أصله ، واستدراار حبله ؛ والمثونة الراتبه للقوام عليه ، والحفظة له ؛ إلى أربابه الذي يعود ذلك عليهم في وجوها التي سبل لها ، ووقف عليها ؛ واضعاً جميع ذلك مواضعه ، موقعا له مواقع ، خارجاً إلى الله من الحق فيه ، مؤدياً الأمانة إليه ؛ وأن يُشهد على القابضين بما يقبضونه من وقوفهم ، ويكتب البرات عليهم بما يستوفونه من أموالهم ؛ ويستظهر لنفسه بإعداد الشواهد والأدلة على ما ينفعه من أموال هذه الوقوف على مصالحه ، ويصرفه منها إلى أهلها ؛ ويخرجه منها في حقوقها وأبواب ربها ، وسائر سبلها ووجوها ؛ سالكا في ذلك مذهبه المعروف في أداء الأمانة ، واستعمال الظلف والتزاه ؛ معقبا على من كان ناظراً فيها من الخونة الذين لم يرعوا عهدا ، ولم يتصونوا عن سحت المطاعم ، وظلم المآثم .

وأمره باستكتاب كاتب معروف بالسداد ، مشهور بالرشاد ؛ معلوم منه نصيحة الأصحاب ، والضبط للحساب ؛ وتفويض ديوان الوقوف وتديره إليه ، وتوصيته بصيانة ما شتمل عليه من أصول الأعمال وفروعها ، وقليل الحجب وكثيرها ؛ وأن يحتاط لأربابها في حفظ رؤسومها ومعاملاتها ، وحراسة طسوقها ومقاسماتها ؛ حتى لا يستمر عليها حيف يبق أثره ، ولا يتغير فيها رسم يُخاف ضرره ؛ وأن ينصف الأكره فيها والمزارعين ، وسائر المخالطين والمعاملين ؛ ولا يحشمهم حيفا ، ولا يسومهم خسفا ؛ ولا يفضي لهم عن حق ، ولا يسمح لهم بواجب ، خلا ما عادت السماحة به بزيادة عماراتهم ، وتأليف نياتهم ، واجتلاب الفائدة منهم والعائدة بهم ؛ فإنه مؤتمن في ذلك كله أمانة ، وعليه أن يؤديها ويخرج عن الحق فيها .

وأمره باختيار خازن حصيف ، قنوم أمين ؛ يخزن حجب هذه الوقوف وسجلاتّها ، وسائر دفاترها وحسباناتها ؛ فإنها ودائع أربابها عنده ، وواجب أن يحتاط عليها

جُهِدَهُ، فَمَتَى شَكَّ فِي شَرْطٍ مِنَ الشُّرُوطِ، أَوْ حَدٍّ مِنَ الْحُدُودِ، أَوْ عَارِضٍ مُعَارِضٍ، أَوْ شَاغِبٍ مُشَاغِبٍ، فِي أَيَّامِ نَظَرِهِ وَأَيَّامِ مَنْ عَسَى أَنْ تُثَقِّلَ وَلَايَةُ هَذِهِ الْوُقُوفِ إِلَيْهِ، وَيُنَاطَ تَدْيِيرُهَا بِهِ، دَفَعَ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْحُجَجِ الَّتِي هِيَ مَعَارِفُ الْبُرْهَانِ، وَقَوَاعِدُ الْبُنْيَانِ، وَإِلَيْهَا الْمَرْجِعُ فِي كُلِّ بِنْتَةٍ تُنْصَرُ وَتُقَامُ، وَشُبْهَةٍ تُدْحَضُ وَتُضَامُ.

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ، وَوَثِيقَتُهُ الْحَاصِلَةُ فِي يَدَيْكَ، فَاتَّبِعْ آثَارَ أَوَامِرِهِ، وَازْدَرِجْ عَنْ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ، وَاسْتَمْسِكْ بِهِ تَتَجَّ وَتَسْلَمْ، وَاعْمَلْ عَلَيْهِ تَقْزُ وَتَغْنَمَ، وَاسْتَرْشِدِ اللَّهَ يُرْشِدَكَ، وَاسْتَهْدِهِ يَهْدِكَ، وَاسْتَعِنْ بِهِ يَنْصُرْكَ، وَفَوِّضْ إِلَيْهِ يَعْصَمَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الضرب الثاني

(مِمَّا يُكْتَبُ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ لِأَرْبَابِ السُّيُوفِ النُّقَالِيدُ. وَهِيَ لِمَنْ دُونَ
أَرْبَابِ الْعُهُودِ فِي الرَّتَبَةِ، وَلَيْسَ لَأَفْتَاتِحِهَا عَنْدهُمْ ضَابِطٌ)

وَهَذِهِ نَسْخَةُ تَقْلِيدِ بَحَايَةِ الْكُوفَةِ، لِأَبِي طَرِيفِ بْنِ عَلِيَّانِ الْعُقَيْلِيِّ، مِنْ إِنْشَاءِ
أَبِي إِسْحَاقِ الصَّابِيِّ، وَهِيَ :

قَدْ رَأَيْنَا تَقْلِيدَكَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ - الْحِمَايَةَ بِالْكُوفَةِ وَأَعْمَالِهَا وَمَا يَجْرِي مَعَهَا
ثِقَةً بِشَهَامَتِكَ وَغَنَائِكَ، وَسُكُونًا إِلَى أَسْتِقْلَالِكَ وَوَفَائِكَ، وَاعْتِقَادًا لِأَصْطِنَاعِكَ
وَأَصْطِفَائِكَ، وَحُسْنِ ظَنِّكَ فِي شُكْرٍ مَا يُسَدِّدُ إِلَيْكَ، وَمُقَابَلَتِهِ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ،
مِنَ الْأَثَرِ الْجَمِيلِ فِيمَا تُؤَلَّاهُ، وَالْمَقَامِ الْحَمِيدِ فِيمَا تُسْتَكْفَاهُ، فَتَوَلَّ - أَيْدِكَ اللَّهُ - ذَلِكَ
مَقْدَمًا تَقْوَى اللَّهَ وَمَرَاقِبَتَهُ، وَمُسْتَمْدًا تَوْفِيقَهُ وَمُعَوْنَتَهُ. وَأَحْرُسِ الرِّعْيَةَ فِي مَسَاكِنِهَا،
وَالسَّابِلَةَ فِي مَسَالِكِهَا. وَأَدْفَعْ عَنْ عَمَلِكَ وَنَوَاحِيهِ أَهْلَ الْعَيْثِ جَمِيعًا، وَأَطْلُبْهُمْ طَلَبًا

شديداً ، وأطرقهم في مكاينهم ، وتَوَجَّحَ عليهم في مظانهم ؛ ونكَّلَ بمن تظفر به منهم
نكالا يُقيم به حُكْمَ الله عليهم ، وحُدودَه في أمثالهم ؛ وبَالِغُ في ذلك مبالغةٌ تُخيف
الظَّئِينَ وتُوجِّسُهُ ، وتُؤمِّنُ السَّليم وتُؤنِّسُهُ . وراعى الأَكْرَةَ والمُزَارِعِينَ حتَّى يَنْبَسِطُوا
في معاشيهم ، ويتَصَرَّفُوا في مصالحهم ؛ وتيسَّرَ عوامِلُهم في عِمَارَاتِها ، ومَواشِيهم
في مَسَارِحِها ؛ ومتى طُرِدَتْ لأحدٍ منهم طريدةٌ أو أمتدَّتْ إليهم يدٌ عاتيةٌ ، أرتجعتْ
ما أَخَذَ له ، وردَّدته بعينه أوقمةً مثله . وخَفَّفَ عمن وُلِّيت عليه الوطأة ، وأَرْفَعَ
عنهم المَؤنَةَ والكُفَّة ؛ وحَذَمَ بالتناصُف ، وأَقْبَضَهم عن التَّظالم ، وأَمْنَعَ قَويَّهم من
تَحْيِيفِ المَضعُوف ، وشرَّيَفَهم من استِزامةِ المَشْرُوف ؛ وأَوَّلَهم من عدلِكَ وحُسنِ
سَيرَتِكَ ، وأسَقِامةِ طَريقَتِكَ ، ما يَتَّصِلُ عليه شُكْرُكَ ، وَيَطِيبُ به ذِكرُكَ ؛ ويَقْتَضِي
لَكَ دَوامَ الوِلايَةِ ، وتَضاعُفَ العِناية .

وَأَعْلَمُ بِأنكَ فيما وُلِّيتَه من هذا الأمرِ متضمَّنٌ للمال والدم ، وما أُخْذَ بكل
ما يَهْمُكَ من ذمةٍ ومُحرَمٍ ؛ فليكن أَجْتِهَادُكَ في الضَّبطِ والحِمايَةِ ، وأَحْتِراسُكَ من
الإِهْمالِ والإِضاعَةِ ، بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَأَكْتُبُ بِأَخْبَارِكَ على سَياقَتِها ، وآثَارِكَ لَأَوقَاتِها :
لِيَتَّصِلَ لَكَ الاحْمادُ عليها ، والمجازاةُ عنها ؛ إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى .^(١)

النوع الثالث

(مما كان يُكْتَبُ لأَرَبابِ الوظائفِ من ديوانِ الخلافةِ ببغدادَ ما كان يُكْتَبُ
لأَرَبابِ الوظائفِ ببغدادَ من أصحابِ الأَقلامِ)

وهي على ضربين :

(١) من أحمده استبان له أنه مستحق للحمد .

الضرب الأول

(العُهود)

ورسّمها على نحو ما تقدّم في عُهود أرباب السُيوف ، تفتّح بـ «هَذَا مَا عَهْدُ»
إلى آخر الترتيب المتقدّم ذكره .

وهذه نسخة عَهْد بولاية قضاءِ حاضرةِ بغدادِ وسائرِ الأعمال ؛ كَتَبَ به المسترشدُ
بِالله لقاضي القضاة أبي القاسم عليّ بن الحسين الزينبي ، وهى :

هذا ما عَهْدَ عبدُ الله أبو منصور الفضل ، الإمامُ المسترشدُ بالله أميرُ المؤمنين ،
إلى قاضي القضاة عليّ بن الحسين الزينبي : لَمَّا تَأَمَّلَ طَرِيقَتَهُ ، وَشَخَّذَ عَقِيدَتَهُ ؛
وَأَحْمَدَ مَذَاهِبَهُ ، وَأَرَضَى ضَرَائِبَهُ ؛ وَتَكَاثَرَتْ دَوَاعِيهِ ، وَحَسُنَتْ مَسَاعِيهِ ؛ وَوَجَدَهُ
عِنْدَ الْإِخْتِبَارِ ، وَفِي مِضْمَارِ الْأَعْتِبَارِ ، رَاجِعًا إِلَى عَقْلِ رَصِينٍ ، وَدِينٍ مَتِينٍ ؛ وَأَمَانَةٍ
مَشْكُورَةٍ ، وَنَزَاهَةٍ مَحْبُورَةٍ ؛ وَوَرَعَ ثَمَرِ الْمَشْرِعِ ، عَارٍ مِنْ دَسِّ الْمَطْمَعِ ؛ وَعِلْمٌ تَوْفَّرَ مِنْهُ
قِسْمُهُ ، وَأَصَابَ فِيهِ سَهْمُهُ . وَحِينَ رَاعَى فِيهِ مَوْرُوثَ شَرَفِ النَّسَبِ ، إِلَى شَرَفِ
الْعِلْمِ الْمَكْتَسَبِ ، مَعَ مَاسَلَفِ لَبِيئَتِهِ مِنَ الْحُرُمَاتِ الْمُرْعِيَةِ الْمُنَآكِدَةِ ، وَالْقُرْبَاتِ الْمَرْضِيَّةِ
الْمُتَمَهِّدَةِ ؛ وَالسَّوَابِقِ الْمُحْكَمَةِ الْمَرَارِ ، الْحَمِيدَةِ الْمُبَادِيِّ وَالْمَصَابِرِ ؛ فَقَلَّدَهُ قَضَاءَ الْقَضَاةِ
بِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْأَمْصَارِ ، فِي الْآفَاقِ وَالْأَفْطَارِ ؛ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَبُعْدًا وَقُرْبًا ؛
إِنَافَةً بِهِ إِلَى مَا أَصْبَحَ لَهُ مَسْتَحَقًّا ، وَأَسْتَرَّ اسْتِجَابُهُ مَسْتَرَقًّا ؛ وَجَدَّابًا بَضْبَعُهُ إِلَى
مَا يَتَحَقَّقُ نُهْوضُهُ بِأَعْبَانِهِ ، وَحُسْنِ اسْتِقْلَالِهِ بِهِ وَغَنَائِهِ ؛ وَأَقْنَعَاءَ لَأَنَارِ الْأُئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ
فِي إِيدَاعِ الْوَدَائِعِ عِنْدَ مُسْتَحَقِّهَا ، وَتَفْوِيضِ الْأُمُورِ إِلَى أَكْفَائِهَا وَأَهْلِهَا ؛ لِاسِيَّ
أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِهِمْ ، وَأَعْذِيَاءِ نِعْمَتِهِمْ ؛ الَّذِينَ كَشَفَتْ عَنْ سَجْفِ خَبْرَتِهِمُ التَّجَارِبُ ، وَوَرَدُوا
مِنْ الْخِلَالِ الرَّشِيدَةِ أَعْدَبَ الْمَشَارِبِ ؛ وَاتَّهَجُّوا الْجَدِّدَ الْوَاضِحَ ، وَتَقَبَّلُوا الْخُلُقَ

الصالح ؛ والله سبحانه يَقْرُنُ عِزَّائِمَ أمير المؤمنين بِالْخَيْرَةِ فِي كُلِّ رَأْيٍ يَرْتَبِيهِ ، وَأَمْرٍ يُؤْمُهُ وَيُنْجِيهِ ؛ وَيَصَدِّقُ مَخِيلَتَهُ فِي كُلِّ حَالٍ يَأْتِيهَا ، وَيُضَيِّعُ عِزَّهَ فِيهَا ؛ وَمَا تَوَفَّقُهُ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

أمره بتقوى الله التي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِالتَّسَكُّ بِسَبْهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ إِضَاعَتِهَا ؛ فَإِنَّهَا الْجَنَابُ الْمَرْيَعُ ، وَالْمَعْقِلُ الْمَنْبَعُ ؛ وَالنَّجَاةُ يَوْمَ الْفَرَجِ الْأَكْبَرِ ، وَالْعُدَّةُ النَّافِعَةُ فِي الْمَعَادِ وَالْمَحْشَرِ ، وَالْعِصْمَةُ الْحَامِيَةُ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَحَالِلِهِ ، الْمُنْقِذَةُ مِنْ أَشْرَاكِهِ وَحَبَائِلِهِ ؛ وَبِهَا تُمَحَّصُ الْأَوْزَارُ ، وَتُنَالُ الْأَوْتَارُ ؛ وَتُدْرَكُ الْمَارِبُ ، وَتَبْجَحُ الْمَطَالِبُ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وأمره باستشعار خشية الله سبحانه في قوله وفعله ، واختلاف أطواره وأحواله ؛ وَتَذَكُّرُ مَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ ، وَوَأَفْدٌ إِلَيْهِ : يَوْمَ ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ . فَلَا يَقُودُهُ الْهَوَىٰ إِلَىٰ اتِّبَاعِ شَهْوَاهِ ، أَوْ إِجَابَةِ دَاغِي هَفْوَةٍ أَوْ صَبْوَةٍ ، إِلَّا كَانَ الْخَوْفُ قَادِمَةً ، وَالْحَذَارُ مَانِعَةً ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ التَّوَاضُّعَ وَالْوَقَارَ شِمَتَهُ ، وَالْحِلْمَ دَابَّةَ وَحَلِيقَتَهُ ؛ فَيَكْظِمُ غَيْظَهُ عِنْدَ احْتِدَامِ أَوَارِهِ ، وَأَضْطِرَامِ نَارِهِ ؛ مُحْتَبِئًا عِزَّةَ الْغَضَبِ الصَّائِرَةِ إِلَىٰ ذُلِّ الْإِعْتِذَارِ ، وَمَتَوَخِّيًا فِي كُلِّ حَالٍ لِلْقَاصِدِ السَّلِيمَةِ الْإِيرَادِ وَالْإِضْدَارِ . وَأَنْ يَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ غَيْرِهِ تَأَمُّلَ مَنْ جَعَلَهَا لِنَفْسِهِ مِثَالًا ، وَأَتَّخَذَهَا لِنَسْجِهِ مِثْوَالًا ؛ فَمَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْهَا فَيَأْتِيهِ ، وَمَا كَرِهَهُ فَيَجْتَوِيهِ ؛ غَيْرَ نَاهٍ عَمَّا هُوَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَا آمِرٍ بِمَا هُوَ مُجَانِبٌ لِفِعْلِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً ، والإكثار من قراءته دائماً ، وأن يجعله إماماً يقتفيه ، ودليلاً يتبعه فيهديه ، ونوراً يستضيء به في الظلمات ، وهادياً يسترشده عند اعتراض الشبهات ، وموثلاً يستند إليه في سائر أحكامه ، وحضناً يلجأ به في نقضه وإبرامه ، عاملاً بأوامره ، ومزدهراً بزواجره ، ومنعياً نظره في محكم آياته ، وصادعاً ببناته ، ومعملاً فكره في خوض غماره ، وأستخراج غوامض أسرارهِ ، فإنه الحق الذي لا يبور متبعه ، والمتجر الذي لا يبور مبتضعه ، والمنار الذي به يقتدى ، والمنهج الذي بأعلامه يهتدى ، والمصدر الذي تغرى به الأمور في ملئ الإشكال ، وتشرع معه الأحوال المستبهمة في ورود الوضوح السلسال ، وينبوع الحكمة الذي ضرب الله فيه الأمثال ، وفرق فيه بين الحرام والحلال ، والهداية والضلال ، قال الله سبحانه : ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بدراسة السنن النبوية صلوات الله على أصحابها ، والافتداء بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي ندب إليها ، وحض عليها ، وتتبع ما يتداخلها من الأخبار الجريئة ، والروايات غير الصحيحة ، والفحص عن طرقها وإسنادها ، وتمييز قويمها وميادها ، والبحث عن رواياتها ، منحوزها وثقاتها ، فما ألفاه بريئاً من الطعن ، آمنة من القدح والوهن ، عارياً من ملابس الشك والارتباب ، عاطلاً عن حلي الشبهة والإغتياب ، أتبعه وأقتفاه ، وتمثله وأحتذاه ، وكان به حاكماً ، ولأدواء الباطل بآتباعه حاسماً ، وما كان مترجماً بين كفتي الشك واليقين ، ولم تبد فيه تحايل الحق المبين ، جعل الوقف حكمه ، وردع عن العمل به عزمه ، إلى أن يضح الحق فيه ، فيعتمد ما يوجبُه ويقتضيه : فإنه - عليه السلام - الداعي إلى الهدى ، والرحمة

التي عصم الله بها من عَوَادِي الرَّدَى؛ والهادى الذي لم يفصل بين العمل بفرائض كتابه وسُنَنه في قوله تقدست أسماؤه، وجلّت آلاؤه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره بإقامة الصَّلوات الخمس المفروضة في أوقاتها ، والمبادرة إليها قبل فواتها ، والإتيان بشرائطها المحدودة وأركانها .

وأمره بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء، ومناقشة ذوى البصيرة والفهم، والفطنة والحزم، ومشاورتهم في عَوَارِض الأمور المُشْكِلَة ، وسوانح الأحكام المستبهمة المُعْضِله ؛ حتى يُصَرِّح محض رأيه وآرائهم عن زُبْدَةِ الصَّواب، وتُنتِج أفكارهم باستِجَامِها نظراً شافياً بالجواب، رافعاً عنه مُنْسِدِل الحجاب؛ وإن في ذلك تَلْجَا للصدور، واستظهاراً في الأمور؛ واحترازاً من دواعي الزَّلَل، واستمرار الخَلَل؛ وأمناً من غوائل الإِنْفِرَاد، وحطاً للتعويل على الإِسْتِبدَاد؛ فَلَربَّ ثَقَّةٍ أدَّتْ إلى نَجَل، وأمن أفضى إلى وَجَل؛ وما زالت الشورى مقرونة بالإِصَابَة، مُحْكَمَةٌ عُرِىَ الحق وأسبابه؛ حارسة من عواقب النَّدَم، داعية إلى السلامة من زَلَّةِ القَدَم؛ وقد أمر الله نبيه صلى الله وسلم عليه، وأزَلَفَ محله لديه، بالإِستظهار بالمُشاوَرَة مع عَظَم خَطَره، وشرف قَدَره؛ فقال : ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

وأمره أن يختار للحكم الأماكن الفسيحة الأرجاء، الواسعة الفضاء؛ وينظر في أمور المسلمين نظراً تَقَرَّرَ ثُغُورُ العَدَل فيه، وتُلَوَّحَ خَشْيَةُ الله من مَطَاوِيه؛ فيوصل إليه كافّة الخصوم، ويبرز لهم على العموم؛ غير مُشَدِّد حِجَابِه، ولا مُرْتَجٍ دُونَ المتراfcين إليه بابَه؛ وأن يُولِيَ كُلًّا من الإقبال عليه، وحُسن الإِصْغَاءِ إليه، ما يَكُونُ بينهم فيه

مُسَاوِيَا ، وَلَهُمْ فِي جَمْعِ الْمَوَازَاةِ حَاوِيَا ؛ وَلَا يُعْطَى مِنْ أَلْفَاتِهِ [إِلَى] الشَّرِيفِ لَشَرَفِهِ ،
 وَذِي الشَّارَةِ الْحَسَنَةِ مِنْ أَجْلِ تَوْبِهِ وَمِطْرَفِهِ ، مَا يَمْنَعُهُ مِنْ تَقَحُّمِهِ الْعُيُونِ ، وَتَرْجَمَ
 فِي نُحْمُولِهِ الظُّنُونِ : فَإِنَّ ذَلِكَ مُطْمَعٌ لَدَى الرُّوَاءِ فِي دَفْعِ الْحَقِّ إِذَا وَجِبَ عَلَيْهِ ،
 وَاتِّمَّاسِ الْبَاطِلِ وَإِنْ ضَعُفَتِ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ ؛ مُؤَيِّسٌ لَدَى الْخُجُولِ مِنَ الْإِتِّصَارِ
 لِحَقِّهِ ، وَإِنْ أَسْفَرَ صَبْحُ يَقِينِهِ وَنَطَقَتْ أُنْسُهُ أَدْلَتُهُ ؛ فَالِنَّاسُ وَإِنْ تَبَايَنُوا فِي الْأَقْدَارِ
 وَالْقِيَمَةِ ، وَتَفَاوَتُوا فِي الْأَرْزَاقِ الْمَقْسُومَةِ ، فَلَا إِسْلَامَ لَهُمْ جَمْتَمَعٌ ، وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ
 يَتَّبَعَ ؛ وَهُمْ عِنْدَ خَالِقِهِمْ سَوَاءٌ إِلَّا مَنْ مِيزَتْهُ التَّقْوَى ، وَتَمَسَّكَ بِسَبِيلِهَا الْأَقْوَى ؛
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمُ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ لَمْ تَلَوْا فَرَأَوْهُ أَنَّ اللَّهَ
 كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ الْمُتَرَفِّعِينَ إِلَيْهِ ، وَالْخُصُومَ لَدَيْهِ ، وَيَتَطَلَّبَ مَا وَقَعَ نِزَاعُهُمْ
 لِأَجْلِهِ فِي نَصِّ الْكِتَابِ ، وَيَعْدِلَ إِلَى السُّنَّةِ عِنْدَ عَدَمِهِ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ فَإِنَّ قُنْدَ
 مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَا اخْتَارَهُ السَّلَفُ الْمُهْتَدُونَ ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ
 الْمُجْتَهِدُونَ ؛ فَإِنْ لَمْ يُلَفَّ فِيهِ قَوْلًا وَلَا إِجْمَاعًا ، وَلَا وَجَدَ إِلَيْهِ طَرِيقًا مُسْتَظَاعًا ، أَعْمَلَ
 رَأْيَهُ وَأَجْتَهِدَهُ ، وَأَمْتَطَى رِكَابَ وَسْعِهِ وَجِيَادِهِ ؛ مُسْتَظْهِرًا بِمَشُورَةِ الْفُقَهَاءِ فِي هَذِهِ
 الْحَالِ ، وَمُسْتَخْلَصًا مِنْ آرَائِهِمْ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ الْآمِنُ الْإِعْتِلَالُ : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ
 الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِاسْتِعْمَالِ الْأَنَاءَةِ عِنْدَ الْحُكُومَاتِ ، وَاسْتِمَاعِ الدَّعَاوِي وَالْيَبِّنَاتِ ؛ مِنْ غَيْرِ
 سُرْعَةٍ تُنْجِثُ خَطَلًا ، وَلَا إِفْرَاطٍ فِي التَّأَنِّي يُورِثُ مَلَلًا ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ بَيْنَ ذَيْنِكَ عَلَى شَقَا
 خَطَرٍ ، وَظَهَرَ غَرَرٌ ؛ وَلَا سِيَّأًا إِذَا كَانَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ مِنْطِيقًا ، يَتَّقِي كَلَامَهُ تَمْتِيقًا ؛

فإنه يَحْتَلِبُ بِلَاغَةِ نُطْقِهِ مَسْتَمِعَهُ ، وَيُعْطِي وَجَهَ الْبَاطِلِ بِالْفَاظِلَةِ الْمَوْشَعَةِ ؛ فَإِذَا اتَّفَقَ
لَدَيْهِ مَاهَذَا سَبِيلَهُ ، تَحَدَّ لَهُ غَرْبَ فِطْنَتِهِ ، وَأَرْهَفَ غَرَارَ فِكْرِهِ وَبَصِيرَتِهِ ؛ وَمِنْحَ
كُلٍّ مِنَ الْإِنْصَاتِ مَا يَحْتَلِي وَجَهَ التَّنْصِفِ مُنِيرًا ، وَيَعْدُو لِأَشْيَاعِ الْخَوَرِ مُبِيرًا .
وَإِنْ ذُو اللَّسَنِ رَوَّعَهُ ، وَأَوْهَمَهُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ ، بِمَا يَلْفَقُهُ مِنْ كَلَامٍ يَقْصُرُ خُصْمُهُ
عَنْ جَوَابِهِ ، وَيَتَحَصَّرُ عَنْ جِدَالِهِ وَأَسْتِيفَاءِ خِطَابِهِ ؛ مَعَ عَدَمِ الْبَيِّنَةِ الْمَشْهُودَةِ ، وَتَعَدُّرِ
الْحُجَّةِ الْمَوْجُودَةِ ، أَسْتَعَادَ كَلَامَهُ وَأَسْتَنْطَقَهُ ، وَأَسْتَوْصَحَّ مَغْزَاهُ وَتَحَقَّقَهُ ؛ مِنْ غَيْرِ إِظْهَارِ
إِعْجَابٍ بِمَا يَذْكُرُهُ ، وَلَا اغْتِرَارٍ بِمَا يَطْوِيهِ وَيَنْشُرُهُ ؛ وَلَا إِصْغَاءٍ يَبْدُو أُنْزَالُ الرَّاغِبِ
مِنْ قَوَاهُ ، وَلَا اخْتِصَاصٍ لَهُ بِمَا يَمْنَعُ صَاحِبَهُ شُرَاهُ : لَوْلَا يَوْلَدُ ذَلِكَ لَهُ أَشْطِطَا ،
وَيُحْدِثُ لَهُ أَنْطِلَاقًا فِي الْخُصُومَةِ وَأَنْبِسَاطًا ؛ حَتَّى إِذَا أَبْتَسَمَ الْحَقُّ ، وَأَنْتَصَرَ الصِّدْقُ ؛
وَفَلَجَ أَحَدُهُمَا بِحُجَّتِهِ ، وَلَحَنَ بَيِّنَتَهُ ، أَفْتَرِ الْوَاجِبَ فِي نِصَابِهِ ، وَأَدَالَهُ مِنْ جُنُودِ الظُّلْمِ
وَأَحْرَابِهِ ؛ وَأَمْضَى الْحُكْمَ فِيهِ بِاعْتِرَافٍ صَادِقٍ ، وَرَأْيٍ مُحْصَدٍ الْوَنَائِقِ ؛ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ
إِلَى مُرَاجَعَةِ الْخُصُومِ وَتَشَاوُجِهِمْ ، وَشُكُوهِهِمْ وَتَنَافُؤِهِمْ ؛ أَعْتِمَادًا لِلوَاجِبِ ، وَأَتْبَاجًا
لِحَدِّ الْعَدْلِ الْأَلْحَبِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

وَأَمْرُهُ إِذَا أُنْتَدِبَ لِلْقَضَاءِ أَنْ يُفَرِّغَ بَالَهُ ، وَيَقْضِيَ أَمَامَهُ أَوْطَارَهُ وَأَشْغَالَهُ ؛ وَيُحَلِّيَ
مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا سِرَّهُ ، وَيُشْرَحَ لِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ صَدْرُهُ ؛ فَلَا تَتَرَعُ نَفْسُهُ إِلَى تَحْصِيلِ
مَأْرَبٍ ، وَلَا تَتَطَلَّعُ إِلَى دَرْكِ مَطْلَبٍ ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَكْتَفَتْهُ شُجُونُهُ ، وَأَحَاطَتْ بِهِ
شُؤْنُهُ ، كَانَ عُرْضَةً لِلشَّعْبِ أَفْكَارِهِ ، وَحِمْلَةً عَلَى مَرْكَبِ اضْطِرَارِهِ الْجَارِي بِضَدِّ
إِيثارِهِ وَاخْتِيَارِهِ ؛ حَرِيًّا بِالتَّقْصِيرِ عَنِ الْفَهْمِ وَالْإِفْهَامِ ، وَالضَّجَرِ عِنْدَ مُشْتَجَرِ الْخِصَامِ .

وأمره بالتثبت في الحدود، والاحتياط عند إقامتها بمن يسكن إلى قوله من الشهود؛ والاحتياط من عجل يُحيل الحكم عن بيانه، أو ريث يرجيه عند وضوحه وتبينه؛ وأن يتجافى عما لم يصرح له بذكره وشرحه، ولا يسرع إلى تصديق ساع وإن تشبه بالناصحين في نصحه؛ حتى يستبين له الحق فيمضيه، عاملاً بما يوجب حُكم الله فيه. وأن يذُر من الحدود ما عترضت الشبهة لدلله، وكانت شواهد مدخوله؛ ويُقيم منها ما قامت شهوده، ولم يمكن إنكاره وجحوده؛ قال الله تعالى: مَكْرًا لِتَجَافِيَهَا، وَمُعْظَمًا لِلتَّجَوُّزِ فِيهَا: ((وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)).

وأمره بتصفّح أحوال الشهود المعدّلين، المسموعة أقوالهم في أمور المسلمين وأحوال الدين؛ ومواصلة البحث عن طرائقهم، واستشفاف خلائقهم؛ مستخدماً في ذلك سره وجهره، وواصلًا بعوان دأبه فيه بكره؛ فمن علمه سليماً في فعله، غير ظنين في أصله؛ متحرّياً في كسبه، مرضياً في مذهبه؛ حافظاً لكتاب الله سبحانه، متمسكاً من علم الشريعة بما يلوى عن مهاوى الخطأ عنانَه؛ حاليّاً بالديانة المنيرة المطالع، حامياً نفسه عن الإسفاف إلى دنايا المطامع، حاوياً من الظلف والأمانه، والقدر والصيانة، والاحتراش والتحفظ، والتحرّز واليقظ؛ ماثمّ به على أشكاله وأثرابه، وطال منا كب أمثاله وأضرابه، فقد كملت صفاته، واقتضت تقديمه أدواته؛ ووجب أن يُمضى كونه عدلاً، ويجعله لقبول الشهادة أهلاً. ومن رآه عن هذه الخلال مقصراً، وبيعضها مستظهِراً؛ وكان موسوماً بديانة مشكوره، ونزاهة مأثوره، رضى بذلك منه قانعا، وحكم بقوله سامعا. ومن كان عن هذين الفريقين نائياً، ولأحوالهم المبين ذكرها نافياً، ألغى قوله مطرحاً، وردّ شهادته مصرّحاً؛ فإن هؤلاء الشهود أعوان الحق على انتصاره، وحرب الباطل على تبثيره وبواره؛

وَمَحَجَّةَ الْحَاكِمِ إِلَى قَضَائِهِ ، وَوَزَّرَهُ الَّذِي يَسْتَعِدُّ إِلَيْهِ فِي سَائِرِ أُنْحَائِهِ ؛ فَإِذَا أُعْدِرَ
فِي آرْتِيَادِهِمْ ، وَاسْتَفْرَغَ وَسْعَهُ فِي آتِقَادِهِمْ ، فَقَدْ خَرَجَ مِنْ عَهْدَةِ الْاجْتِمَاعِ ،
وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ جَزَاءَ الْمُجْتَمِدِ يَوْمَ التَّنَادِ ؛ وَمَتَى غَرَّرَ فِي ذَلِكَ تَوَجُّهَاتِ اللَّائِمَةِ عَلَيْهِ ،
وَكَانَ قِمْنًا بِنِسْبَةِ التَّقْصِيرِ فِي الْإِحْتِيَاظِ إِلَيْهِ ؛ وَاللَّهُ يُتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، وَيَتْلُو خَفِيَّاتِ
الضَّائِرِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ . وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ :
﴿ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَكِلَ أُمُورَ الْيَتَامَى فِي أَمْلَاكِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَمِرَاعَاةَ شُؤْنِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ؛
إِلَى الثَّقَاتِ الْأَعْقَاءِ ، وَالْكَفَاةِ الْأَتْقِيَاءِ ؛ الَّذِينَ لَا تَسْتَهْوِيهِمْ دَوَاعِي الطَّمَعِ ،
وَلَا يُورِدُهُمُ الْإِسْفَافُ مَوَارِدَ الطَّبَعِ ؛ وَأَنْ يَتَّبِعَ أُمُورَهُمْ وَيَتَصَفَّحَهَا ، وَيُسَارِفَهَا
بِنَفْسِهِ وَيَسْتَوْضَحَهَا ؛ عَلِمَا أَنَّهُ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ مُسْئُولٌ ، فَإِنَّ عُدْرَةَ فِي إِهْمَالٍ يَتَخَلَّلُهُ غَيْرُ
مَقْبُولٍ ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

وَأَنْ يُوعِزَ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى أَرْبَابِهَا بِالْمَعْرُوفِ : لِيَتَهَجَّجُوا فِيهَا جَدَدَ الْقَصْدِ
الْمَأْلُوفِ ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ ، وَأَوْنِسَ مِنْهُمْ الرُّشْدَ وَعُلِمَ ؛ وَسَاغَ لَهُمُ التَّصَرُّفُ
فِي نُفُوسِهِمْ ، وَوَثِقَ مِنْهُمْ بِاسْتِدْرَارِ مَعَانِيهِمْ ، دَفَعَ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ مَحْرُوسَةً ، وَوَقَّاهُمْ
إِيَّاهَا كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ ؛ مُسْتَظْهِرًا بِالشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْبَرَاءَةِ مِنْهَا بِتَسْلِيمِهَا إِلَيْهِمْ ؛
اتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا
فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ
وَكُنْ بِإِلَهِ حَسْبًا ﴾ .

وأمره بترويح الأيامى اللواتي فقدن الأولياء ، واعتدى عليهن صرف الدهر
وأساء ، وأضر بهن طول الإزمال ، وبدت عليهن آثار الخلة في الحال ، فينكحهن
أكفأهن من الرجال ، ويتم عقد نكاحهن على مهور الأمثال .

وأمره بتفويض أمر الوقوف الجارية في نظره إلى من يأمنه ويختاره ، وتقرن
بإعلانه في ارتضائه أسراره : من أهل التجربة والحياء ، ذوي الاضطلاع والغناء ؛
فإنهم أقل إلى المطامع تشوفاً ، وأبعد في عواقب الأمور نظراً وتلطفاً ؛ وأن يوسع
عليهم في الأرزاق ، فيوصلها إليهم مهنة عند الوجوب والاستحقاق ؛ فبذلك يملك
المرء نفسه ويستصلحها ، ويتجنب مواقف التهم ويطرأها ؛ وتجنب عليه الحجة
إن نلأ أمانه ، أو قارف خيانه ؛ مستظهِراً بترتيب المشرفين الذين خبر أحوالهم ،
وسبر أفعالهم .

وأنت يتقدم إلى المستنابين قبله بالإنفاق عليها حسب الحاجة من محضوها ؛
حافظاً بما تعتمد من ذلك لأصولها ؛ وجباية ارتفاعها من مظانها ؛ وألتباس حقوقها
في أوانها ؛ وصرفها في وجوها التي شرطها واقفوها ، وعين عليها أربابها وأهلؤها ؛
غير محجل مع ذلك بالإشراف والتطلع ، ولا مهمل للفحص والتبليغ ؛ فمن ألفاه حميد
الآثر ، ورضى العيان والخبر ، عول عليه ، وفوض مستينياً إليه ؛ ومن وجده قد مد
إلى خيانة يده استبدل به وعزله ، جزاء بما فعله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ .

وأمره أن يستخلف على مانأى عنه من البلاد من جمع [إلى الوقار] الحلم ،
وإلى الدراية الفهم ؛ وإلى التيقظ الاستبصار ، وإلى الورع الاستظهار ؛ من
لا يضيق بالأمور ذرعاً ، ولا تُحدث له مراجعة الخصوم سجراً ولا تبرماً ؛ ولا يتأدى

في أسباب الزَّلَّة ، ولا يُقَصِّر عن الرجوع إلى الحقِّ إذا اتَّضح له ، ولا يكتفى بأدنى معدلة عن بلوغ أقصاها ، ولا تتهاقَّت نفسه على طاعة هواها ، ولا يرجئ الأخذ بالحجة عند أنكشافها ، ولا يعجل بحكم مع اعتراض الشبهة وأكتنافها ، ولا يستميله اغراء ، ولا يزدهيه مدح وإطراء ، وأن يعهد بمنل ماعهد أمير المؤمنين إليه ، ويعذر في الإجهاد بإيجاب الحجة عليه : ليبراً من تبعه بادرة عساه يأتيها ، أو مزلة تناديه فيهب ملبياً لداعياها ، قال الله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

وأمره أن يُمِضَى ما مضاه الحكم قبله ولا يتعقب أحكامهم بتأويل ، مجتنباً تتبع عثراتهم ، والبحث عن هفواتهم ؛ ومهما رُفِع إليه من ذلك مما الإجماع عليه موافق ، ولسان الكتاب والسنة به ناطق ، أمضاه وحكم به ، وإن كان مبانياً لمذهبه : فإن الحكومات كلها ماضية على اختلاف جهاتها ، مستمرة على تنافى صفاتها ؛ محمية عن التأويل والتعليل ، محروسة من التغيير والتبديل ؛ ما كان لها مخرج في بعض الأقوال ، أو وجد لها عند الفقهاء احتمال ؛ إلا أن يكون الإجماع منعقداً على ضدها ، أخذاً بالغائها وردّها ؛ فيستفرغ في إيضاحها جهده ، ويُنفق في تلافيها من الاستطاعة وجده ، حتى يعيدها إلى مقرّها من الواجب ، ويُمِضِيها على الحقِّ اللازب ؛ قال الله عز وجل : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وأمره أن يتخذ كتاباً بالظلف مؤسوماً ، وبأدق ما ينط به قسوماً ، خبيراً بما يسطره ، عالماً بما يدكره ، عارفاً بالشروط والسجلات ، وما يتوجه نحوها من التأويلات ، ويتداخلها من الشبهة والتلييسات ؛ مطلعاً على أسرارها وعللها ، وتصاريف حيلها ؛ متحرراً في كل حال ، متزهاً عن مذموم الفعال ؛ متخذاً خشية

الله شعارا ، مُسِيلاً دُونَ عَصِيَانِهِ مِنَ التَّقِي أَسْتَارَا : فَإِنَّمَا نِظَامَاتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا ، وَيَدُّهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَيَعُولُ عَلَيْهَا ، وَمَتَى لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَازِعٌ ، وَلَا مِنْ عَقْلِهِ وَدِينُهُ رَادِعٌ ؛ لَمْ يُؤْمِنْ أَنْ تَدْبَ عَقَارُ بِهِ لَيْلًا ، وَيَسْحَبَ عَلَى الْغَوَائِلِ وَالْمُؤَبِّقَاتِ ذَيْلًا ؛ فَيَعِمُّ الضَّرَرُ بِمَكَانِهِ ، وَيُشْرِعُ أَذَاهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ حَدَّ سِنَانِهِ . وَأَنْ يَتَخَيَّرَ حَاجِبًا طَاوِيًا كَشَحَهُ دُونَ الْأَشْرَارِ ، جَامِعًا لِأَدَبِ الْأَخْيَارِ ؛ مُدْرِعًا جِلْبَابَ الْحَيَاءِ ، طَلَّقَ الْوَجْهَ عِنْدَ اللَّقَاءِ ؛ سَهَّلَ الْجَانِبَ لِيَنَّهُ ، مُسْتَشْعِرًا الْخَيْرَ مُتَبَقِّنَةً ؛ غَيْرَ مُتَجَهِّمٍ لِلنَّاسِ ، وَلَا مُعَامِلِهِمْ بِغَيْرِ الْبَشَاشَةِ وَالْإِيْنِاسِ ؛ فَإِنَّهُ الْبَابُ إِلَيْهِ ، وَالْمَعْتَمَدُ فِي لِقَائِهِ عَلَيْهِ ؛ فَلْيَنْتَخِبْهُ آتِخَابَ مَنْ عِلْمُ أَنَّ حُسْنَ الثَّنَاءِ خَيْرُ زَادٍ ، وَأَنْفُسُ ذُخْرُ عَتَادٍ ؛ وَرَأَى طَيِّبَ الْمُحَمَّدَةِ أَجْمَلَ كَسْبٍ مُرَادٍ ، وَحَظَّ مُجَسَّدَ مُسْتَفَادٍ . وَمَتَى كَانَ عَنْ هَذِهِ الْخِلَالِ مُتَخَلِّيًا ، وَبِخِلَافِهَا مُتَحَلِّيًا ، أَعْتَاضَ عَنْهُ بِمَنْ هُوَ أَسْلَمُ غِيَا ، وَأَمْنُ رِيَا ، وَأَنْبَى جِيَا ، وَأَقْلَ عِيَا ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَسَلَّمَ دِيوَانَ الْقَضَاءِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالسَّجَلَاتِ ، وَالْوَثَائِقِ وَالْكَفَالَاتِ ، وَالْمَحَاضِرِ وَالْوَكَالَاتِ ؛ بِمُحَضَّرٍ مِنَ الْعُدُولِ لِيَكُونُوا لَهُ مُشَاهِدِينَ ، وَعَلَيْهِ شَاهِدِينَ ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ خَزَائِنَهَا مِنْ يَرْتَضِيهِ ، بِاجْتِمَاعِ أَدْوَاتِ الْخَيْرِ فِيهِ ؛ عَامِلًا فِي حِفْظِهَا بِمَا تَقْتَضِيهِ الْأَمَانَةُ الَّتِي أَشْفَقَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مِنْهَا ، وَأَقَرَّرْنَ بِالْعِزِّ عَنْهَا ؛ مُتَحَرِّيًا مِنْ أَمْرِ يَبُوءُ مَعَهُ بِالْأَثَامِ ، فِي دَارِ الْمَقَامِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْتَمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِمِرَاعَاةِ أَمْرِ الْحِسْبَةِ فَإِنَّهَا أَكْبَرُ الْمَصَالِحِ وَأَهْمُهَا ، وَأَجْمَعُهَا لِنَفْعِ النَّاسِ وَأَعْمُهَا ؛ وَأَدْعَاهَا إِلَى تَحْصِينِ أَمْوَالِهِمْ ، وَانْتِظَامِ أَحْوَالِهِمْ ، وَحَسْمِ مَوَادِّ الْفَسَادِ ،

وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ الْإِمْتِدَادِ ، وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُسْتَنَابِ فِيهَا بِدَاوِمَةِ الْأَطْلَاعِ عَلَى كَمِّيَّةِ الْأَسْعَارِ ، وَالْفَحْصِ عَنْ مَادَّةِ الْمُخْلُوقَاتِ فِي الْإِتْقَاعِ وَالِاسْتِمْرَارِ ؛ وَمَوَاصِلَةِ الْجُلُوسِ فِي أَمَاكِنِ الْأَقْوَاتِ وَمَطَانِهَا : لِيَكُونَ تَسْعِيرُهَا بِمُقْتَضَى زِيَادَتِهَا وَقُصَايَاهَا ؛ غَيْرَ خَارِجٍ فِي ذَلِكَ عَنْ حُدِّ الْإِعْتِدَالِ ، وَلَا مَائِلٍ إِلَى مَا يُخْجِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنْ إِكْثَارٍ وَإِقْلَالٍ ؛ وَأَنْ يُرَاعِيَ عِيَارَ الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ ، لِيُمَيِّزَ ذَوِي الصَّحَّةِ مِنَ الْمَطْفَفِينَ ؛ يَقُولُ لِمَنْ حَسُنَ آخِتَابُهُ [مَرَّ] حَيٌّ وَيُقَابِلَ مَنْ سَاءَ آخِتَابُهُ بِمَا يَجْعَلُهُ لَأُمَثَالَهُ رَادَعًا ، حَتَّى يَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَيَتَجَنَّبُوا التَّطْفِيفَ بِقَلْبٍ مِنْ إِضْمارِ الْمَعَاوِدَةِ سَلِيمٍ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَلْ لِلطَّافِّينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، وَحُجَّتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ؛ وَفَقَّكَ [فِيهِ] عَلَى مَنَهِجِ الصَّلَاحِ ، وَأَعْلَقَكَ مِنْهُ إِنْ اتَّبَعْتَهُ بِأَسْبَابِ النَّجَاحِ ؛ وَأَدَّرَ بِهِ عَلَيْكَ خَلْفَ السَّعَادَةِ إِنْ أَمَرْتَهُ بِبَيْدِ الْقَبُولِ ، وَجَمَعَ لَكَ مَعَ آخِتَابِهِ بِدَائِدِ الْمَأْمُولِ ، وَعَطَفَ لَدَيْكَ مَتَى تَمَثَّلَتْهُ شَوَارِدُ السُّوْلِ ؛ وَأَوْجَدَكَ ضَالَّةً مُتَاعِكَ إِنْ أَصْغَيْتَ إِلَيْهِ سَامِعًا مُطِيعًا ، وَأَعَادَ إِنْ أَثْمَرَتْ بِأَوَامِرِهِ تَمَثُّلَ أَقْوَالِكَ جَمِيعًا ، وَأَرَادَكَ مَرَعَى النِّجَاةِ إِنْ نَهَضْتَ بِأَعْبَائِهِ مَرِيعًا ؛ لَمْ يَذْخَرْكَ فِيهِ شَفِيفًا ، وَلَا حَقَرَكَ إِرْشَادًا وَتَعْرِيفًا ؛ خَلَعَ بِهِ رِبْقَةَ الْأَمَانَةِ عَنْ عُقُقِ اجْتِهَادِهِ ، وَأَوْصَحَ لَكَ مَا يُسْأَلُ غَدًا عَنْ فَعْلِهِ وَأَعْمَادِهِ .

فَبَادِرْ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ مُسْرِعًا ، وَقُمْ بِالْمَحْدُودِ فِيهِ مُضْطَلِعًا ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَهُ ، وَلِكُلِّ جَوَادٍ كَبْوَهُ ؛ فَاغْضُضْ عَنْ مَطَايِحِ الْهَوَى طَرَفَكَ ، وَاتَّنِ عَنْ أَضَالِيلِ الدُّنْيَا

(١) مَرَحَى كَلِمَةُ تَقَالِ لِلرَّامِي إِذَا أَصَابَ تَعْجِبًا مِنْ رَمِيهِ .

(٢) مَرَى الدَّمِ وَأَمْرَاهُ اسْتَخْرَجَهُ . (٣) لَعَلَّهُ مَعَ آخِتَابِهِ . تَأَمَّلْ

الْعَزَاةَ عِطْفَكَ ، وَأَخْشَ مَوْقِفًا تَشَخَّصَ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، وَتَعَدَّمَ الْأَعْوَانُ وَالْأَنْصَارُ ؛
يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، وَتَنْقُطُعُ الْوَسَائِلُ إِلَّا مَنَ أُطَاعَ اللَّهُ وَاتَّقَاهُ ؛ يَنْعَمُ
عَوْفُكَ^(١) ، وَيَأْمَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَوْفُكَ ؛ وَمَهْمَا عَرَضَ لَكَ مِنْ شُبْهَةٍ لَمْ تُلَفِّ مَحْرَجًا مِنْهَا ،
وَلَا صَدْرًا عَنْهَا ، وَلَا وَجَدْتَ لَسْقِيَهَا هِنَاءً ، وَلِدَائِهَا شِفَاءً ، فَطَالَعَ حَضْرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِحَالِهَا مُسْتَعْلِمًا ، وَأَنْهِيَهَا إِلَيْهِ مُسْتَفْتِحًا بِاسْتِدْعَاءِ الْجَوَابِ عَمَّا أَصْبَحَ لَدَيْكَ مُسْتَغْلِقًا
مُبْهَمًا ، يُدِدُكَ مِنْهُ بِمَا يُرِيكَ صُبْحَ الْحَقِّ مَنِيْلَجًا ، وَضِيقَ الشَّكِّ مُنْفَرَجًا ؛ عَنْ عِلْمِ
عِنْدِهِ الْبَحْرِ كَالْقِيَاسِ ، إِلَى أَوْشَالِ النَّاسِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعْضِدُ آرَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِالصَّوَابِ ، وَيُمِدُّهُ بِالتَّوْفِيقِ فِي سَائِرِ الْآرَابِ ؛ وَيُقَوِّدُ لِمَرَادِهِ أَزِمَّةَ جَوَائِحِهَا الصَّعَابِ ،
مَا أَنْجَمَ سَحَابٌ ، وَأَنْجَمَ رَبَّابٌ ، بِمَنَّةٍ وَسَعَةٍ فَضْلِهِ .



وهذه نسخة عهد بولاية القضاء بسر من رأى ، كتب بها أبو إسحاق الصابى ،
عن الطائع لله ، للقاضى أبى الحسين محمد ابن قاضى القضاة أبى محمد عبيد الله ،
ابن أحمد بن معروف ، حين ولّاه القضاء بسر من رأى وغيرها ، وما أضيف إلى
ذلك من أعمال الجزيرة ، وهى :

هذا ماعهد عبد الله عبد الكريم ، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى محمد ابن
قاضى القضاة عبيد الله بن أحمد ، حين عرفت الفضيلة فيه ، وتقبل مذهب أبيه^(٢) ،
ونشأ من حضنه فى المنشأ الأمين ، وتبوأ من سببه ونسبه المتبوأ المصون ؛ ووجده
أمير المؤمنين مستحقاً لأن يؤسم بالصنيعة ، والمنزلة الرفيعة ؛ على الحدّثة من سنّه ،

(١) العوف من معانيه البال والحال ومنه يقال فى الدعاء نعم عوفك .

(٢) يقال تقبل فلان أباه [أى بالياء المثناة] تقبلاً اذا نزع اليه فى الشبه .

وَالْقَضَاةَ مِنْ عُوْدِهِ ، سَامِيًا بِهِ فِي ذَلِكَ إِلَى مَرَاتِبِ أَعْيَانِ الرِّجَالِ ، الَّتِي لَا تُدْرَكُ إِلَّا مَعَ الْكَمَالِ وَالْأَكْتِهَالِ : لِمَا آتَسَّ مِنْ رُشْدِهِ وَنَجَابَتِهِ ، وَأَسْتَوْضَحَّ مِنْ عَقْلِهِ وَلَبَابَتِهِ ، وَأَسْتَرْجَحَّ مِنْ وَقَارِهِ وَحِلْمِهِ ، وَأَسْتَغَزَرَ مِنْ دِرَايَتِهِ وَعِلْمِهِ ، وَلِلَّذِي عَلَيْهِ شَيْخُهُ قَاضِي الْقَضَاةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ مِنْ حَصَافَةِ الدِّينِ ، وَخُلُوصِ الْيَقِينِ ، وَالتَّقَدُّمِ عَلَى الْمُتَحَلِّينَ بِحِلِّيَّتِهِ ، وَالْمُتَحَلِّينَ لِصِنَاعَتِهِ ، وَالْأَسْتَبْدَادِ عَلَيْهِمُ بِالْعِلْمِ الْحَقِّ ، وَالْمَعْنَى الْفَخْمِ ، وَالْإِفْتِنَانِ فِي الْمَسَاعِي الصَّالِحَةِ الَّتِي يُسَوِّدُ أَحَدُهُمْ بِأَحَدِهَا ، وَيَسْتَحِقُّ التَّجَاوُزَ لَهُمْ مِنْ أَسْتَوْعِبِهَا بِأَسْرَافِهَا ، وَبِالثَّقَّةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالتَّزَاهَةِ ، الَّتِي صَارَ بِهَا عَلَمًا فَرْدًا ، وَوَاحِدًا فَرْدًا ، حَتَّى تَكْلَفَهَا مِنْ أَجْلِهِ مَنْ لَيْسَتْ مِنْ طَبْعِهِ وَلَا سِنَخِهِ ، فَهُوَ الْمُحْمُودُ بِأَفْعَالِهِ الَّتِي أَخْتَصَّ بِهَا وَبِأَفْعَالِ غَيْرِهِ مِنْ حَذَاهِ فِيهَا ، وَبِمَا نَفَقَ مِنْ بَضَائِعِ الْخَيْرِ بَعْدَ كِبَادِهَا ، وَبِالسَّابِقَةِ الَّتِي لَهُ فِي خِدْمَةِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ أَوْلَا ثُمَّ خِدْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثَانِيًا ، فَإِنِهَا [سَابِقَةٌ] شَائِعٌ خَبَرُهَا ، وَجَمِيلٌ أَثَرُهَا ، قَوِيَّةٌ دَوَاعِيهَا ، مَتَمَكِّنَةٌ أَوَاخِيهَا . وَلِلْمَكَانَةِ الَّتِي خُصَّ بِهَا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [وَمِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ أَبِي مَنْصُورٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْدَهُ اللَّهُ] (١) وَمِنْ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ النَّاصِحِ أَبِي طَاهِرٍ رَعَاهُ اللَّهُ ، وَمِنْ عِظَمَاءِ أَهْلِ حَوْزَتِهِمْ ، وَأَفَارِيقِ عَوَامِّهِمْ وَرِعِيَّتِهِمْ ، فَلَمَّا صَدَّقَ مُحَمَّدٌ فِرَاسَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَحَائِلَهُ ، وَأَخْتَذَى سَبَجَايَا أَبِيهِ وَشِمَائِلَهُ ، وَحَصَلَ لَهُ مَا حَصَلَ مِنَ الْحُرُمَاتِ الْمُتَنَائِلَةِ ، وَالْمَوَاتِ الْمُتَنَاصِلَةِ ، أَحْرَزَ مِنَ الْأَثَرَةِ عَلَى قُرْبِ الْمَدَى ، مَا لَا يُحْزِرُهُ غَيْرُهُ عَلَى بُعْدِ الْمَرْمَى ، وَأَسْتَغْنَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ عَنْ طَوْلِ التَّجَرُّبَةِ وَالْإِخْتِبَارِ ، وَتَكَرَّرِ الْأَمْتِحَانِ وَالْإِعْتِبَارِ . فَقَلَّدَهُ الْحُكَمَاءُ بَيْنَ أَهْلِ سُرٍّ مَنْ رَأَى ، وَتَكَرَّيْتُ ، وَالطَّبْرَهَانَ ، وَالسَّنَّ ، وَالْبَوَازِيحَ ، وَدَقُوقًا ، وَخَانِجِيَّارَ ، وَالبَنْدِييَيْنِ ، وَبُوحَسَابُورَ ، وَالرَّادَانِيْنَ ، [وَمَسْكِنَ] (٢) وَقُطْرَبُلَ ، وَنَهْرَبُوقَ ، وَالدِّينَ ، وَجَمِيعَ الْأَعْمَالِ

(١) الزيادة من "رسائل الصافي".

(٢) أفاريق جمع أفراف وأفراف جمع فرقة .

المُضَافَةُ إِلَى ذَلِكَ وَالْمُنَسُوبَةُ إِلَيْهِ ، وَشَرَّفَهُ بِالْخَلْعِ وَالْجُمْلَانِ ، وَضُرُوبِ الْإِنْعَامِ
وَالْإِحْسَانِ ؛ وَكَانَ فِيهِمَا أُعْطَاهُ مِنْ هَذَا الصِّيتِ وَالْمَجْدِ ، وَنَحْلَهُ إِيَّاهُ مِنَ الْمَفْخَرِ الْعَدْبِ ،
مُبْتَغِيًّا مَا كَسَبَهُ مِنْ اللَّهِ الرَّضَا وَالزُّلْفَى ، وَالسَّلَامَةَ فِي الْفَاتِحَةِ وَالْعُقْبَى ؛ وَرَاعِيًّا
لِمَا يُوجِبُهُ لِقَاضِي قُضَايَاهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ مِنَ الْحَقُوقِ الَّتِي أَخْفَى مِنْهَا أَكْثَرَ
مِمَّا أَبْدَى ، وَأَمْسَكَ عَنْ أَضْعَافِ مَا أَحْصَى ؛ وَذَاهِبًا عَلَى آثَارِ الْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ ،
وَالْوَلَاةِ الْمُجْتَهِدِينَ ، فِي إِقْرَارِ وَدَائِعِهِمْ عِنْدَ الْمُرْتَبِعِينَ لِحِفْظِهَا ، الْمُضْطَلَعِينَ بِمَجْلِهَا ، مِنْ
أَوْلَادِ أَوْلِيَائِهِمْ ، وَذُرِّيَّةِ نُصَحَائِهِمْ : إِذْ كَانَ لَا بُدَّ لِلْأَسْلَافِ أَنْ تَمْضَى ، وَلِلْأَخْلَافِ
أَنْ تَتِمَّ ؛ كَالشَّجَرِ الَّذِي يُغْرَسُ لَدُنَّا فَيَصِيرُ عَظِيمًا ، وَالنَّبَاتِ الَّذِي يَنْجُمُ رَطْبًا فَيَصِيرُ
هَشِيمًا ؛ فَالْمُصِيبُ مِنْ تَخْيَرِ الْغُرْسِ مِنْ حَيْثُ آسَتْجَبَ الشَّجَرُ ، وَأَسْتَحْلَى الثَّمَرُ ،
وَتَعَمَّدَ بِالْعُرْفِ مَنْ طَابَ مِنْهُ الْخَبَرُ ، وَحَسُنَ مِنْهُ الْآثَرُ ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى
تَسْدِيدًا لِمُحَمَّدٍ عَائِدَتُهُ ، وَتَدَرُّدًا عَلَيْهِ مَا دُنَتْهُ ؛ وَبِتَوَلَّاهُ فِي الْعَزَائِمِ الَّتِي يَعْرِضُهَا ، وَالْأُمُورِ الَّتِي
يُزِمُّهَا ، وَالْعُقُودِ الَّتِي يَعْقِدُهَا ، وَالْأَغْرَاضِ الَّتِي يَعْتَمِدُهَا ؛ وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يَنْتَبِ .

أَمْرُهُ بِاعْتِمَادِ التَّقْوَى ، فَإِنَّهَا شِعَارُ أَهْلِ الْهُدَى ؛ وَأَنْ يُرَاقِبَ اللَّهُ مَرَاقِبَةَ الْمُتَحَرِّزِ
مِنْ وَعِيدِهِ ، وَالْمُتَنَجِّزِ لِمَوَاعِيدِهِ ؛ وَيَطَهِّرَ قَلْبَهُ مِنْ مُوَبِقَاتِ الْوَسَاوِسِ ، وَيَهْدِيَهُ مِنْ
مُرْدِيَّاتِ الْهَوَاجِسِ ؛ وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِمَآخِذِ أَهْلِ الدِّينِ ، وَيَكْلِفَهَا كُلْفَ الْأَبْرَارِ
الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَيَمْنَعَهَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْهَوَى ، وَأَضَالِيلِ الْمُنَى ؛ فَإِنَّهَا أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ، صَبَّةٌ إِلَى
الْعَنَى ؛ صَادَّةٌ عَنِ الْخَيْرِ ، صَادِفَةٌ عَنِ الرَّشْدِ ؛ لَا تَرْجِعُ عَنْ مَضَارِهَا إِلَّا بِالشَّكَاكِمِ ،
وَلَا تَتَقَادُّ إِلَى مَنَافِعِهَا إِلَّا بِالْخَزَائِمِ ؛ فَمَنْ كَبَحَهَا وَشَتَّاهَا نَجَّاهَا ، وَمَنْ أَطْلَقَهَا وَأَمْرَجَهَا

(١) أى مائلة الى الخ . (٢) فى الأصول والرسائل وأمرجها بالهاء ولعله تصحيف فى اللسان

”وأمرجها [أى الدابة] تركها تذهب حيث شئت“ فتنبه .

أرداها . وأولى مَنْ جعل تقوى الله دأبه ودينه ، والحيفة منه منهاجه وسننه ؛ مَنْ
أرتدى رداء الحُكَّام ، وأمر ونهى فى الأحكام ، وتصدى لكف الظالم ، ورد المظالم ؛
وإيجاب الحدود ودرئها ، وتحليل الفروج وحظرها ؛ وأخذ الحقوق وإعطائها ،
وتففيذ القضايا وإمضاءها : إذ ليس له أن يأمر ولا يأمر ، ويُزجر ولا يزجر ؛ ويأتى
مثل ما ينهى عنه ، وينهى عما يأتى مثله ؛ بل هو محقوق بأن يصلح ما بين جنبيه ،
قبل أن يصلح ما رُدَّ أمره إليه ؛ وأن يهدب من نيته ، ما يحاول أن يهدب من
رعيته ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴾ : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

وأمره بالإكثار من تلاوة القرآن الواضح سبيله ، الراشد دليله ؛ الذى من استضاء
بمصايحه أبصر ونجا ، ومن أعرض عنها زلَّ وغوى ؛ وأن يتخذ إماماً يهتدى بأياته ،
ويقنئ ببيئته ؛ ومثلاً يُحذو عليه ، ويردُّ الأصول والفروع إليه ؛ فقد جعله الله
مُحَجَّتَهُ الثابتة الواجبه ، ومَحَجَّتَهُ المستبينة اللاجبه ؛ ونوره الغالب الساطع ، وبرهانه
الباهر الناصع ؛ وإذا ورد عليه معضل ، أو غم عليه مُشْكِل ، اعتصم به عائداً ،
وعطف عليه لاإذا ؛ فبه يكشف الخطب ، ويذل الصعَب ؛ وينال الأرب ،
ويذكر المطلب ؛ وهو أحد الثقلين اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وعلى آله
وسلم فينا ، ونصبهما معلماً بعده لنا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْغَائِبِينَ خَصِيماً ﴾ . وقال تعالى :
﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بالجلوس للصوم ، وفتح بابهم على العموم ؛ وأن يوازى بين الفريقين إذا تقدما إليه ، ويحاذى بينهما فى الجلوس بين يديه ؛ ويقسم لهما أقساما متماثلة من نظره ، وأقساطا متعادلة من كلمه : فإنه مقام توازن الأقدام ، وتكافؤ الخواص والعوام ؛ ولا يقبل على ذى هيئة لهيئته ، ولا يعرض عن دميم لدمايته ؛ ولا يزيد شريقا على مشروف ، ولا قويا على مضعوف ؛ ولا قريبا على أجنبي ، ولا مسلما على ذمى ، ماجعهما التخاصم ، وضمهما التحاكم . ومن أحس منه بنقصان بيان ، أو عجز عن برهان ؛ أو قصور فى علم ، أو تأخر فى فهم ، صبر عليه حتى يستنيط ماعنده ، ويستشف ضميره ؛ ويتفقد بالإقناع غلته ، ويخرج بالإيضاح غلته . ومن أحس منه بلسن وعبارة وفضل من بلاغه ، أعمل فيما يسمعه منه فكره ، وأحضره ذهنه ؛ وقابله بسد حلة خصمه ، والإبانة لكل منهما عن صاحبه ؛ ثم سأل على أقوالها ودعائيهما تأمله ، وأوقع على بيناتهما ومججها تدبره ؛ وأنفذ حينئذ الحكومة إنفاذا يعلمان به أن الحق مستقر مقرره ، وأن الحكم موضوع موضعه ؛ فلا يبق للحكوم عليه استراة ولا للحكوم له استراة ؛ وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأظهر

الخلائق وأحمدها ، وأهدى السجايا وأرشدّها ، وأن يقصد في مشيه ، ويُغصّ من صوته ، ويحذف الفضول من ^(١) [لفظه و] لحظه ؛ ويخفف من حركاته ولفظاته ، ويتوقّر من سائر جنابه ^(١) [وجهاته] ، ويتجنب الخرق والحدة ، ويتوقّ الفظاظّة والشدة ؛ ويلين كنفه من غير مهانة ، ويربّ هيئته في غير غلظة ؛ ويتونّ في ذلك وقوفاً بين غايته ، وتوسطاً بين طرفيه ؛ فإنه يخاطب أخلّاطاً من الناس مختلفين ، وضروباً غير متّفين ؛ ولا يخلو فيهم من الجاهل الأهوج ، والمظلوم المحرج ، والشيخ الهرم ، والناشئ الغز ، والمرأة الركيكة ، والرجل الضعيف النخيز ؛ وواجب عليه أن يغمرهم بعقله ، ويشملهم بعذله ؛ ويقيمهم على الاستقامة بسياسته ، ويعطف عليهم بحلمه ورياسته . وأن يجلس وقد نال من المطعم والمشرب طرّاً يقف به عند أول الكفاية ، ولا يبلغ منه إلى آخر النّياه ؛ وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلّها ؛ وعوارض البشريّة بأسرها : لئلاّ يلمّ به من ذلك ملّم أو يطيف به طائف فيحيلانه عن جلده ، ويحولان بينه وبين سده . وليكن همّه إلى ما يقول ويقال له مصروفاً ، وخاطره على ما يرد عليه ويصدر عنه موقوفاً ؛ قال الله تعالى :

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .

وأمره إذا ثبت عنده حق من الحقوق لأحد من الخصوم . أن يكتب له متى أتمس ذلك إلى صاحب المعونة في عمله بأن يمكنه منه ، ويحسم المعارضات فيه عنه ، ويقبض كلّ يد تمتد إلى منازعته ، أو تتعدى إلى مجاذبته ؛ فقد ندب الله

النَّاسَ إِلَى مُعَاوَنَةِ الْمُحِقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ ، وَالْمُظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ ؛ إِذْ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ :
 ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

وأمره أَنْ يَسْتَصْحِبَ كَاتِبًا دَرَبًا بِالْمَحَاضِرِ وَالسَّجَلَاتِ ؛ مَاهِرًا فِي الْقَضَايَا
 وَالْحُكُومَاتِ ؛ عَالِمًا بِالشُّرُوطِ وَالْحُدُودِ ؛ عَارِفًا بِمَا يُجُوزُ وَمَا لَا يُجُوزُ ؛ غَيْرَ مَقْصَّرٍ عَنِ
 الْقَضَاةِ الْمُسْتَوْرِينَ ، وَالشُّهُودِ الْمُقْبُولِينَ ، فِي طَهَارَةِ ذَيْلِهِ ، وَنَقَاءِ جَبِيهِ ، وَتَصَوُّنِهِ عَنِ
 خُبْتِ الْمَاكِلِ وَالْمَطَاعِمِ ، وَمُقَارَفَةِ الرَّيْبِ وَالثَّهْمِ ؛ فَإِنَّ الْكَاتِبَ زِمَامُ الْحَاكِمِ الَّذِي إِلَيْهِ
 مَرْجِعُهُ ، وَعَلَيْهِ مُعَوَّلُهُ ؛ وَبِهِ يَحْتَرِسُ مِنْ دَوَاهِي الْحَيْلِ ، وَكَوَامِنِ الْغِيلِ . وَحَاجِبًا
 سَدِيدًا رَشِيدًا ، أَدِيًّا لَيْبًا ؛ لَا يُسِفُّ إِلَى ذَنْبَةٍ وَلَا يُلِمُّ بِمَنْكَرَةٍ ؛ وَلَا يَقْبَلُ رِشْوَةً ،
 وَلَا يَلْتَمِسُ جَعَالَةً ؛ وَلَا يَجْجِبُ عَنْهُ أَحَدًا يُحَاوِلُ لِقَاءَهُ فِي وَقْتِهِ ، وَالْوَصُولَ إِلَيْهِ
 فِي حِينِهِ . وَخُلَفَاءُ يَرُدُّ إِلَيْهِمْ مَا بَعَدَ مِنَ الْعَمَلِ عَنْ مَقَرِّهِ ، وَأَعْجِزُهُ أَنْ يَتَوَلَّى النَّظَرَ فِيهِ
 بِنَفْسِهِ ؛ يَنْتَخِبُهُمْ مِنَ الْأَمَائِلِ ، وَيَتَخَيَّرُهُمْ مِنَ الْأَفْضَالِ ؛ وَيُعْهَدُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ مَاعُهِدٍ
 فِيهِ إِلَيْهِ ، وَيَأْخُذُهُمْ بِمِثْلِ مَا أَخَذَ بِهِ ؛ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ رِزْقًا يَكْفِيهِ
 وَيَكْفِيهِ ، وَقُوَّةً يُجْزِيهِ وَيُغْنِيهِ ؛ فَلَيْسَ تَلْزِمُهُمُ الْحُجَّةُ إِلَّا مَعَ إِعْطَائِهِمُ الْحَاجَةَ ،
 وَلَا تُؤْخَذُ عَلَيْهِمُ الْوَثِيقَةُ إِلَّا مَعَ إِزَاحَةِ الْعِلَّةِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ
 لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ﴾ .

وأمره بِإِقْرَارِ الشُّهُودِ الْمَوْسُومِينَ بِالْعَدَالَةِ عَلَى تَعْدِيلِهِمْ ، وَإِمضَاءِ الْقَضَايَا بِأَقْوَالِهِمْ ؛
 وَحِمْلِهِمْ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ ، وَشِعَارِ الْأَسْتِقَامَةِ ؛ وَأَنْ يَعْتَمِدَ مَعَ هَذَا الْبَحْثِ عَنِ
 أَدْيَانِهِمْ ، وَالْفَحْصِ عَنْ أَمَانَاتِهِمْ ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى الْأَحَادِيثِ عَنْهُمْ : مِنْ ثَنَاءٍ يَتَكَرَّرُ ،
 أَوْ قَدَحٍ يَتَرَدَّدُ ؛ فَإِذَا تَوَاتَرَ عِنْدَهُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ ، رَكَنَ إِلَى الْمَزَكِّيِّ الْأَمِينِ ، وَنَبَا عَنِ
 الْمَتَّهِمِ الظَّنِّينِ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ آغْتَبَطَ أَهْلُ الْأَمَانَةِ بِأَمَانَاتِهِمْ ، وَنَزَعَ أَهْلُ الْخِيَانَةِ

عن خياناتهم ؛ وتقرّبوا إليه بما تنفق سوفه ، ويستحقّ به التوجّه عنده ، واستمرّ شهوده وأمنائوه ، وأتباعه وخلفاؤه ، على المنهج الأوضح ، والمسلك الأنجح ؛ وتحصّنت الأموال والحقوق ، وصيّنت الحرّات والفروج ؛ ومتى وقّف لأحدٍ منهم على هفوة لا تغفر ، وعثرة لا تقال ، أسقطه من عددهم ، وأخرجه عن مجتمعتهم ؛ واعتاض منه من يحمّد دينه ، ويرضى أمانته ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ . وقال في الشهادة : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ .

وأمره بالضبط لما يجري في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه ؛ والتعويل فيها على الأمانة الثقات ، والحصفا الكفاة ، المعروفين بالظلف والورع ، المتترّين عن النطف والجشع ؛ والتقدّم إليهم في حفظ أصولها ، وتوفير فروعها ؛ وتثير غلاها وارتفاعها ؛ وصرفها إلى أهلها ومستحقّيها وفي وجوها وسبلها ؛ ومطالبتهم بحساب ما يجري على أيديهم ، والاستقراء لآثارهم فيه وأفعالهم ؛ وأن يحمّد منهم من كفى وكف ، ويذم من أضاع وأسف ؛ ويُنزل كلّاً منهم منزله التي استحقّها بعمله ، واستوجبها بأثره ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

وأمره بالاحتياط على أموال الأيتام ، وإسنادها إلى أعفّ وأوثق القوام ؛ والتقدّم إلى كل طائفة بأن يجريهم مجرى ولده ، وقيمهم مقام سلالته ، في الشفقة عليهم ، والإصلاح لشؤونهم ، والإشراف على تأديبهم ؛ وتلقينهم مالا يسمع المسلم جهله من الفرائض المفترضة ، والسّنن المؤكّدة ؛ وتحرّيجهم في أبواب معاشهم ،

وأَسباب مَصَالِحِهِمْ ؛ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَرَضِ أَمْوَالِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي لَا شَطَطَ فِيهِ وَلَا تَبَذُّرَ ، وَلَا تَضْيِيقَ وَلَا تَقْتِيرَ ؛ فَإِذَا بَلَغُوا مَبَالِغَ كَمَالِهِمْ ، وَأَوْنِسَ مِنْهُمْ الرُّشْدُ فِي مَتَصَرِّفَاتِهِمْ ، أَطْلَقَ لَهُمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَأَشْهَدَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ بِمَا تَقَلَّدَهُ مِنْ الْحُكْمِ ، خَلْفًا مِنَ الْآبَاءِ لِدَوَى الْيَتَمِ ؛ وَصَارَ بِهِذِهِ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِمْ مَسْئُولًا عَنْهُمْ ، وَجَزِيًّا عَمَّا سَارَ بِهِ فِيهِمْ ، وَأَوْصَلَهُ مِنْ خَيْرِ أَوْشَرِّ إِلَيْهِمْ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِحِفْظِ مَا فِي دِيَوَانِهِ مِنَ الْوَنَائِقِ وَالسَّجَلَاتِ ، وَالْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ، وَالْوَصَايَا وَالْإِقْرَارَاتِ : فَإِنَّهَا وَدَائِعُ الرِّعْيَةِ عِنْدَهُ ، وَوَاجِبٌ أَنْ يَحْرُسَهَا جُهْدَهُ ؛ وَأَنْ يَكِلَهَا إِلَى الْخَزَائِنِ الْمَأْمُونِينَ ، وَالْحَفِظَةِ الْمُتَّقِظِينَ ؛ وَيُوعِزُّ إِلَيْهِمْ بِأَنْ لَا يُخْرِجُوا شَيْئًا مِنْهَا عَنْ مَوْضِعِهِ وَلَا يُضَيِّفُوا إِلَيْهَا مَا لَمْ يَكُنْ بَعْلَمِهِ ؛ وَأَنْ يَتَّخِذَ لَهَا بَيْتًا يَحْصُرُهَا بِهِ ؛ وَيَجْعَلُهُ بِحَيْثُ يَأْمَنُ عَلَيْهِ : لِيَرْجِعَ مَتَى أَحْتَاجَ الرُّجُوعَ إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ إِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرٌ يُعِينُهُ فَصْلُهُ ، وَيُسْتَبْتِ عَلَيْهِ وَجْهُ الْحُكْمِ فِيهِ ، أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَيَطْلُبَ بِهِ سَبِيلَ الْخَلَصِ مِنْهُ ، فَإِنْ وَجَدَهُ وَإِلَّا فَفَى الْأَثَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ أَدْرَكَهُ وَإِلَّا أَسْتَفْتَى فِيهِ مَنْ يَلِيهِ مِنْ ذَوِي الْفِقْهِ وَالْفَهْمِ ، وَالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمِ ؛ فَمَا زَالَتِ الْأُئِمَّةُ وَالْحُكَّامُ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَطُرُقُ السَّنَنِ الْوَاضِحِ ؛ يَسْتَفْتِي وَاحِدًا مِنْهُمْ وَاحِدًا ، وَيَسْتَرْشِدُ بَعْضُ بَعْضًا ؛ لَزُومًا لِلْإِجْتِهَادِ ، وَطَلَبًا لِلصَّوَابِ ؛

وتحرزا من الغلط ، وتوقيا من العثار ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وأمره أَنْ لَا يَتَّقُضَ حكما حكم به مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَلَا يَفْسَخَهُ ، وَأَنْ يَعْمَلَ عَلَيْهِ وَلَا يَعْدِلَ عَنْهُ ، مَا كَانَ دَاخِلًا فِي إجماع المسلمين ، وسائغا في أوضاع الدين ؛ فَإِنْ خَرَجَ عَنِ الإجماع ، أَوْضَحَ الحال فِيهِ لِمَنْ بَحْضَرْتَهُ مِنَ الفقهاء والعلماء حَتَّى يَصِيرُوا مثله فِي إنكاره ، وَيَجْتَمِعُوا معه عَلَى إيجاب رَدِّهِ ، ثُمَّ يَقْضِيهِ حِينَئِذٍ تَقْضَا يَشِيعُ وَيَذِيعُ ، وَيُعَوِّدُ بِهِ الأمر إِلَى واجبه ، وَيَسْتَقِرُّ معه الحقُّ فِي نِصَابِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إِلَيْكَ ، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكَ ؛ قَدْ شَرَحَ بِهِ صَدْرَكَ ، وَأَوْضَحَ بِهِ سُبُلَكَ وَأَقَامَ أَعْلَامَ الهداية لَكَ ، وَلَمْ يَأْلُكَ تبصيرا وتذكيرا ، وَلَمْ يَدْنَحْكَ تعريفاً وتوقيفاً ؛ وَلَمْ يَجْعَلْكَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ عَلَى شُبْهَةِ تعْزِضِكَ ، وَلَا حَيْرَةٍ تَعْتَاقُكَ ؛ وَاللَّهُ شَاهِدُهُ بِجُحُوجِهِ مِنَ الحقِّ فِيمَا وَصَّى وَعَهْدِهِ ، وَعَلَيْكَ بِقَبُولِكَ مَا قَبِلْتَ مِمَّا وُلِّىَ وَقَلَّدَ ؛ فَإِنْ عَدَلْتَ وَأَعْتَدَلْتَ - وَذَلِكَ خَلِيقُكَ بِكَ - فَقَدْ فَازَ وَفُزْتَ معه ، وَإِنْ تَجَانَقْتَ وَزَلَلْتَ - وَذَلِكَ بَعِيدٌ مِنْكَ - فَقَدْ رَجَحَ وَخَسِرْتَ دُونَهُ ؛ فَلْتَكُنِ التقوى زَادَكَ ، وَالاحْتِرَاسُ شِعَارَكَ ؛ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ يُعِينَكَ ، وَاسْتَهْدِهِ يَهْدِكَ ؛ وَأَعْتَصِدْ بِهِ يُعْصِدَكَ ، وَاسْتَمْدْ مِنْ تَوْفِيقِهِ يُمِدِّدَكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم كذا من رجب سنة ست وستين
(١) وثلاثمائة] .



وهذه نسخة عهد بقضاء القضاة شرقاً وغرباً ، كُتِبَ به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد ، للقاضي محي الدين أبي عبد الله محمد بن فضَّالان ؛ من إنشاء أستاذ الدار عضد الدين بن الضحَّاك ، وهي :

هذا ماعِهدَ عبدُ الله وخليفته في العالمين ، المقترَضُ الطاعة على الخلق أجمعين ، أبو العباس أحمدُ الناصر لدين الله أمير المؤمنين ؛ إلى محمد بن يحيى بن فضَّالان : حين سَبَرَ خِلاله وأَسْتَقْرَاهَا ، وأَعْتَبَرَ طَرَائِقَه وأَسْتَبْرَاهَا ؛ فأَلْفَاه رَشِيداً في مَذَاهِبِه ، سَدِيداً في أَعْمَالِه وَضَرَائِبِه ؛ مُوسُوماً بِالرَّصَانِه ، حَالِيّاً بِالْوَرَعِ والدِّيانَةِ ؛ مَبْرَزا من العلوم في فُنُونِهَا ، عالِماً بِمَقْرُوضِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ وَمُسْتَسْنُونِهَا ؛ مُدْرِعا مَلَأَ عِفَافِ ، قَدْ أَنَافَ على أَمْثَالِه في بَوَارِعِ الْأَوْصَافِ ؛ فَقَلَّدَه قَضَاءَ الْقُضَاةِ في مَدِينَةِ السَّلَامِ وَجَمِيعِ الْبِلَادِ والأَعْمَالِ ، والنَّوَاحِي والأَمْصَارِ : شَرْقاَ وَغَرْباَ ، وَبُعْداً وَقُرْباً ؛ سُكُونًا إلى ما عِلِمَ من حاله ، وَأَضْطِلاعه بالنَهْضَةِ الْمُتَوَطَّئَةِ به وَأَسْتِقْلَالِه ، وَرُكُونًا إلى قِيَامِه بِالْوَاجِبِ فيما أُسْنَدَ إِلَيْه ، وَنُهُوضِه بِعِبءِ مَاعُوَلٍ في حِفْظِ قَوَانِينِه عَلَيْهِ ؛ وَأَسْتِنَامَةً إلى حُلُولِ الْأَصْطِنَاعِ عِنْدِه ، وَمُصَادَفَتِه مِنْهُ مَكَانًا تَبَوَّأَه بِالْأَسْتِحْقَاقِ وَحْدَه ؛ وَاللهُ تَعَالَى يَعْضُدُ آراءَ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَزِيدِ التَّوْفِيقِ في جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَيُحَسِّنُ لَهُ الْخِيَرَةَ فيما يُؤْتِمُّه من مَنَاطِمِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الْجُمْهُورِ ؛ وَما تَوَفَّقُ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يَنْيَبُ .

أمره بتقوى الله تعالى في إعلانه وإسراره ، وتَقَمُّصِ شِعَارِها في إظهار أمره وإضمِّارِه ؛ فإنَّها العُرْوَةُ الْوُثْقَى ، وَالذُّخْرُ الْأَبْقَى ، وَالسَّعَادَةُ الَّتِي مَادُونَهَا فَوْزٌ وَلَا فَوْقَهَا مَرَقٌ ؛ وَهِيَ حُلِيَّةُ الْأَبْرارِ ، وَسَيِّمَةُ الْأَخْيَارِ ؛ وَالْمَنْهَجُ الْوَاضِعُ ، وَالْمَنْجَرُ الرَّابِحُ ؛ وَالسَّبِيلُ

المؤدى إلى النجاة والخلاص ، يوم لا وزر ولا ت حِينَ مَنَاصٍ ، وأنفع العَدَدِ
والذخائر ، وخير العَتَادِ يوم تُنْشَرُ الصُّحُفُ وتُبْلَى السَّرَائِرُ ؛ يومَ تَشْخَصُ الأبْصَارُ ،
وتَعْدَمُ الأنْصَارُ : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ
وَتَعْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ . ولا ينجو من عذاب الله يومئذٍ إلا مَنْ كَانَ زَادَهُ التَّقْوَى ،
وَتَمَسَّكَ مِنْهَا بِالسَّبَبِ الْأَقْوَى ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى
وَأَتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ .

وأمره أن يجعل كتاب الله إماماً يَهْتَدَى بِمَنَارِهِ ، وَيَسْتَصْبِحُ بِبَوَاهِرِ أَنْوَارِهِ ؛
وَيَسْتَضِيءُ فِي ظُلْمِ الْمَشْكَلاتِ بِمِيزِ مَضْبَاحِهِ ، وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ مُحْظُورِهِ وَمُبَاحِهِ ؛
وَيَتَّخِذُهُ مَثَلاً يَحْتَدِيهِ ، وَدَلِيلًا يَتَّبِعُ أثرَهُ فِيهِدِيهِ ؛ وَيَعْمَلُ بِهِ فِي قَضَايَاهُ وَأَحْكَامِهِ ،
وَيَقْتَدِي بِأَوَامِرِهِ فِي تَقْضِيهِ وَإِبْرَامِهِ : فإنه دليل الهدى ورائده ، وسائق النجح
وقائده ؛ ومعدن العلم ومنبعه ، ومنجم الرِّشَادِ وَمَطْلَعُهُ ؛ وأحد الثقلين اللذين خلقهما
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمّة ، والدَّكْرُ الَّذِي جعله الله تعالى تبياناً لكل
شيءٍ وهدى ورحمة ، فقال عز من قائل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بأنتراع الآثار النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه ، والأهتداء^(١)
بُشْمُوسِهَا الَّتِي تَجَلِي بِهَا دُجْنَةُ كُلِّ مَشِئِلٍ وَظِلَامُهُ ؛ وَالْإِقْتِدَاءُ بِسُنَّةِ الشَّرِيعَةِ الْمَتَّبُوعَةِ ،
وَتَصَفُّحُ الْأَخْبَارِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ وَالْعَمَلُ مِنْهَا بِمَا قَامَتْ أَدَلَّةٌ صَحَّحَتْهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ،
وَأَسْتَحْكَمَتِ الثَّقَنَةُ بِقَلْبِهِ عَنْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَرُؤَايَاهُ ؛ وَسَابَتِ أَسَانِيدُهُ مِنْ قَدَحِ ،
وَرَجَالُهُ مِنْ ظُلْمَةٍ وَجَرَحِ ، فَإِنَّهَا التَّالِيَةُ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي وَجُوبِ الْعَمَلِ بِأَوَامِرِهِ ،

(١) في اللسان ج ١٠ ص ٢٢٩ « آتزع بالآية والشعر تمثل ويقال للرجل إذا استنبط معنى آية من
كتاب الله قد آتزع معنى جيداً » .

والإتهاء برؤاده وزواجه ، وهو عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين الذي ماضل
وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ؛ وقد قرّن الله سبحانه طاعته بطاعته ، والعمل
بكتابه والأخذ بسنته ؛ فقال عز من قائل : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ
عَنْهُ فَاتَّقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره بمجالسة العلماء ، ومباحثة الفقهاء ، ومشاركتهم في الأمور المشيكله ،
وعوارض الحكومات المعضله : لتستبين سبيل الصواب ، ويعرّى الحكم من ملبس
الشبه والارتياب ؛ ويخلص من خطا الأفراد ، وغوائل الاستبداد ؛ فالمشورة باليمن
مقرونة ، والسلامة في مطاويها مضمونة ؛ وقد أمر الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه
وسلم مع شرف منزلته وكمال عصمته ، وتأبيده بوحيه وملائكته ؛ فقال سبحانه :
﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأمره بفتح بابه ، ورفع حجابيه ؛ وأن يجلس للخصوم جلوساً عادياً ، وينظر
في أمورهم نظراً حسناً تاماً ؛ مساوياً بينهم في نظره ولحظه ، وإصغائه ولقطه ؛ محترزاً
من ذى اللسن وجراً جنانه ، متأنياً بذى الحصر عند إقامة برهانه ، فربما كان
أحد الخصمين ألحن بحجته ، والآخر ضعيفاً عن مقاومته ؛ هذا مقام الفحص
والاستفهام ، والتثبت وإمضاء الأحكام : ليسلم من خديعة محال ، وكيد مقتال ؛
مائلاً في جميع ذلك مع الواجب ، سالكاً طريق العدل الأحب ؛ غير فارق في إمضاء
الحكم بين القوى والضعيف ، والمشروف والشريف ؛ والمالك والمملوك ، والغني
والصعلوك ، قال الله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وأمره أن يتصفّح أحوال الشهود، المسموعة أقوالهم في الحقوق والحدود؛
المرجوع إلى أمانتهم، المعمول بشهادتهم؛ الذين بهم تُقام الحجج وتُدحض، وتبرم
الأحكام وتُنقض؛ وتثبت الدعاوى وتبطل، وتُمنى القضايا وتُسجل؛ مجتهداً
في البحث عن طرائقهم وأحوالهم، وانتقاد تصاريقهم وأفعالهم، واستشفاف
سجائهم، وعرفان مزاياهم؛ مخصّصاً بالتمييز من كان حميداً لئلا يخلط، مرضي الفاعل؛
راجعاً إلى ورع ودين، متمسكاً من الأمانة والزّاهة بالسبب المتين، قال الله تعالى:
﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وأمره بالنظر في أمور اليتامى وأموالهم، ومراعاة شئونهم وأحوالهم؛ وأن يرتب
بسبب اتساق مصالحهم الثقات الأعفاء، والأمناء الأتقياء؛ ممن ظهرت ديانته،
وحسنت سيرته؛ وأشهر بالظلف والعفاف، والتزّه عن الطمع والإسفاف؛
ويأمرهم بحفظها من خلل يتخلّلها، ويد خائفة تدخلها؛ وليكن عليهم حدياً، وفي قرط
الحق أبا؛ وخلفاً من آبائهم في الإشفاق عليهم، وحسن الكفالات إليهم؛ فإنه عنهم
مسئول، والعدر عند الله تعالى في إهمالهم غير مقبول؛ وأن يأذن لهم في الإنفاق
عليهم بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير، ولا تضيق ولا تبذير؛ فإذا بلغ أحدهم
النكاح، وآس منه أمارات الرشد والصلاح، دفع ماله إليه، وأشهد بقبضه عليه؛
على الوجه المنصوص، غير منقوص ولا منغوص؛ ممثلاً أمر الله تعالى في قوله
سبحانه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

وأمره بترويج الأيامى اللواتي لأولياءهن من أكفائهن، بمهور أمثالهن؛ وأن
يشمل ذوات الغنى والفقير منهن بعدله، ويتحرى لهن المصلحة في عقدته وحله.

وأمره أن يستنبط فيما بعد عنه من البلاد ودنأ، وقرب منه ونأى، كل ذي علم واستبصار، وتيقظ في الحكم واستظهار، ونزاهة شائعه، وأوصاف لأدوات الاستحقاق جامع، ممن يتحقق هوضه بذلك وأضطلاعه، ويأمن استزلاله وأخذاعه، وأن يعهد إليهم في ذلك بمثل ما عهد إليه ولا يألوهم تنبيها وتذكيرا، وإرشادا وتبصيرا، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .

وأمره بامضاء ما أمضاه قبله الحكم، من القضايا والأحكام، غير متعقب أحكامهم بنقض ولا تبديل، ولا تغيير ولا تأويل، إذا كانت جائزة في بعض الأقوال، ثمضاء على وجه من وجوه الاحتمال، غير خارقة للإجماع، عارية من ملابس الابتداع، وإن كان ذلك منافيا لمذهبه، فقد سبق حكم الحاكم به، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأمره أن يتخذ كاتباً قيماً بشروط القضايا والسجلات، عارفاً بما يتطرق نحوها من الشبه والتأويلات، ويتداخلها من النقص والتليسات، متحرراً في كل حال، متزهاً عن دميم الأفعال . وأن يتخير حاجباً نقي الجيب، مأمون المشهد والغيب، مستشعراً للتقوى، في السر والنجوى، سالكاً للطريقة المثلى، غير متجهم للناس، ولا معتمد ما ينافي بسط الوجه لهم والإيناس: فإنه وُصِّلَهم إليه، ووجهه المشهود قبل الدخول عليه، فلينخبه من بين أصحابه، ومن يرتضيه من أمثاله وأضرابه .

وأمره بتسليم ديوان القضاء والحكم، والاستظهار على ما في خزائنه بالإثبات والختم، والاحتياط على ما به من المال والسجلات، والمجئج والمحاضر والوكالات؛

والقبوض والوثائق والأثبات والكفالات ، بحضرة من العُدول الأمانة الثقات ؛
وأن يرتب لذلك خازناً يؤدى الأمانة فيه ، ويتولى ما توجبه الديانة وتقتضيه .

وأمره بمراعاة أمر الحسبة : فإنها من أكبر المصالح وأهمها ، وأجمعها لمنافع
الخلق وأعمها ؛ وأدعاها إلى تحصيل أموالهم ، وانتظام أحوالهم ؛ وأن يأمر المستناب
فيها باعتبار سائر المبيعات فيها : من الأقوات وغيرها في عامة الأوقات ؛ وتحقيق
أسباب الزيادة والتقصان في الأسعار ، والتصدي لذلك على الدوام والاستمرار ؛ وأن
يُجرى الأمر فيها بحسب ما تقتضيه الحال الحاضرة ، والموجبات الشائعة الظاهرة ؛
واعتبار الموازين والمكاييل ، وإعادة الزائد والناقص منها إلى التسوية والتعديل ؛
فإن أطلع لأحد من المتعاملين على خيانة في ذلك وفعل دميم ، أو تطفيف عدل فيه
عن الوزن بالقسطاس المستقيم ، أناله من التأديب ، وأسباب التهذيب ، ما يكون
له رادعاً ، ولغيره زاجراً وإزاعاً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيَلْ لِلظَّافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا
عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وهذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله تعالى عليك ؛ قد أولاك من
صنوف النعم والآلاء ، وجزيل الكرم والحباء ؛ ما يوجب عليك الاعتراف بقدره ،
وأستيزاع شكره ؛ ووقف بك على محجة الرشد ، وهداك إلى منهج الحق وسنن
السداد ؛ ولم يالك تقيفاً وتبصيراً ، وتنبهاً وتذكيراً . فتأمل ذلك متدبراً ، وقف
عند حدود أوامره ونواهيه مستبصراً ؛ وأعمل به في كل ما تاتي به وتدبره ، وتورده
وتصدّره ؛ وكن للخيلة في آرتيادك محققاً ، وللمعتقد فيك مصداقاً ؛ تفز من خير
الدارين بمعلّى القداح ، وإحماد السرى عند الصّباح ؛ وحسب أمير المؤمنين الله
وبنعم الوكيل .

الضرب الثاني

(مما كان يكتب يديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف
من أصحاب الأقلام التواقيع)

وطريقهم فيها أن يفتح التوقيع بلفظ «أحقّ» أو «أولى» أو «أقنن من أبيضت
عليه النعم» أو «من فؤض إليه كذا» أو «من نوه بذكره» ونحو ذلك «من كان
بصفة كذا وكذا» ثم يقال : «ولما كان فلان بصفة كذا وكذا، فؤض إليه كذا
وكذا» أو «أسند إليه كذا وكذا» ونحو ذلك .

وهذه نسخة توقيع بتدريس، كُتب به عن الإمام الناصر لدين الله، للقاضي
محيي الدين «محمد بن فضلان» بتدريس المدرسة النظامية ببغداد، في سنة
أربع عشرة وستمائة، وهي :

أحقّ من أبيضت عليه بحاسد النعم^(١)، وجذب بضبعه إلى مقام التنويه وتقدم
القدم، من أسفر في أفضية الفضائل صباحه، وانتشر في العالم علمه وأزهـر
مضباحه .

ولما كان الأجل الأوحـد، العالم، محيي الدين، حجة الإسلام، رئيس
الأصحاب، مفتي الفريقين، مفيد العلوم، أبو عبد الله «محمد بن يحيى بن فضلان»
أدام الله رفعة، من نظم فرائد المحامد عقده النضيد، وأوى من العلم والعمل إلى
ركن شديد، وثبت قدمه من الديانة على مستتب راسخ وقرار مهيد - رأى التعويل
في تفويض التدريس بالمدرسة النظامية إليه : ثقة بأضطلاعـه وأستقلاله، وتبريزه

(١) المجاسد جمع مجسد بالضم والكسر الثياب التي تلى الجسد وقد تكون مصبغة بالجسد وهو الزعفران .

فِي حَلَبَاتِ الْإِسْتَبَاقِ عَلَى نُظَرَائِهِ وَأَمَنَالِهِ ، وَتَرَاوَجِ الْمُسَاجِلِينَ لَهُ عَنْ قُوْتِ غَايَتِهِ وَبُعْدِ مَنَالِهِ ؛ وَأُسْنِدِ إِلَيْهِ - أَدَامَ اللَّهُ رَفْعَتَهُ - النَّظْرُ فِي أَوَاقِفِ الْمَدْرَسَةِ الْمَذْكُورَةِ بِأَجْمَعِهَا ، وَاعْتِمَادِ مَا شَرَطَهُ الْوَاقِفُ فِي مَصَارِفِهَا وَسُبُلِهَا ؛ سَكُونًا إِلَى كِفَايَتِهِ ، وَرُكُونًا إِلَى سَدَادِهِ وَأَمَانَتِهِ .

وَرِسْمٍ لَهُ تَقْدِيمُ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي مَا زَالَ مُنْتَهَجًا لَطَرَاتِقِهَا ، مَتَمَسِّكًا بِعَصَمِهَا وَوُثَائِقِهَا ؛ وَأَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلتَّعَلُّمِينَ ، وَلَا تَأْخُذَهُ شُجْرَةٌ مِنَ الْمُسْتَفِيدِينَ ، وَلَا تَعْدُو عَيْنَاهُ عَنْ جُهَلَاءِ الطَّالِبِينَ ؛ وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْمُبَالَغَةِ فِي تَفْهِيمِ الْمُبْتَدِئِ ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ تَذْكِيرِ الْمُنْتَهَى : فَإِنَّهُ إِذَا أَحْتَمَلَ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ ، وَأَعْطَى كُلَّ تَلْمِذٍ حَقَّهُ ، كَانَ اللَّهُ تَعَالَى كِفِيلًا بِمَعُونَتِهِ ، بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ حِرْصِهِ عَلَيْهِمْ وَإِخْلَاصِ نِيَّتِهِ . وَلِيَكُنْ بِسَائِرِ الْمُتَفَقِّهَةِ مَعْتَنِيًا رَفِيقًا ، وَعَلَيْهِمْ حَذًّا شَفِيقًا ؛ يُفَرِّغُ لَهُمْ مِنَ الْفِقْهِ مَا وَضَّحَ وَتَسَهَّلَ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَا أَلْتَبَسَ مِنْ غَوَامِضِهِ وَأَشْكَلَ ؛ حَتَّى تَسْتَنِيرَ قُلُوبُهُمْ بِأَضْوَاءِ عُلُومِ الدِّينِ ، وَتَنْطِقَ أَلْسِنَتُهُمْ فِيهَا بِاللَّفْظِ الْفَصِيحِ الْمُبِينِ ، وَتُظْهِرَ أَنَارُ بَرَكَاتِهِ فِي مَرَاشِدِهِ وَتُبَيِّنَ ؛ وَلِتَتَوَفَّرَ هِمَّتُهُ فِي عِمَارَةِ الْوُقُوفِ وَاسْتِنَائِهَا ، وَالتَّوَفُّرِ عَلَى كُلِّ مَا عَادَ بِتَرَايُدِهَا وَزَكَائِهَا ؛ بِحَيْثُ يَتَضَحَّ مَكَانُ نَظَرِهِ فِيهَا ، وَيَبْلُغَ الْغَايَةَ الْمَوْفِيَّةَ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُ وَيُوفِيهَا ؛ وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِمَنْ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ وَيُوفِيهَا ، وَيَقُومُ بِشَرَايِطِ الْأَسْتِحْفَاطِ وَيُكْفِيهَا ؛ وَهُوَ - أَدَامَ اللَّهُ رَفْعَتَهُ - يَجْرَى مِنْ عَوَائِدِ الْمُدَرِّسِينَ وَالْمُتَوَلِّينَ قَبْلَهُ عَلَى أَوْفَى مَعْهُودٍ ، وَيُسَامِي بِهِ إِلَى أَعْدَ مُرْتَقَى وَمَقَامٍ مُجُودٍ ؛ وَأَذِنَ لَهُ فِي تَسَاوُلِ إِيحَابِ التَّدْرِيسِ وَنَظَرِ الْوُقُوفِ الْمَذْكُورَةِ ، أُسْوَةً مَنْ تَقَدَّمَ فِي التَّدْرِيسِ وَالنَّظَرِ فِي الْوُقُوفِ ، عَلَى مَا شَرَطَ الْوَاقِفُ فِي كُلِّ وَرْدٍ وَصَدَرٍ ، وَاعْتِمَادِ كُلِّ مَا حَدَّثَهُ فِي ذَلِكَ وَمَثَلَهُ مِنْ غَيْرِ تَجَاوُزِ .

النوع الرابع

(مما كان يُكْتَب من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لِزُعماء أهل الذِّمة)

وطريقهم فيه أن يُفْتَح بلفظ : « هذا كتابُ أمرٍ بكتبه فلانُ أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين لفلان » ثم يقال : « أما بعدُ فالحمدُ لله » ويؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميدات إن قُصِدَ المبالغة في قهر أهل الذِّمة بدُخولهم تحت ذِمة الإسلام وأتقيادهم إليه . ثم يذكر نظر الخليفة في مصالح الرعية حتى أهل الذِّمة ، وأنه أُنهى إليه حال فلان وسُئِل في توليته على طائفته قَوْلَهُ عليهم للميزة على غيره من أبناء طائفته ونحو ذلك ؛ ثم يُوصيه بما يناسبه من الوصايا .

وهذه نسخة من ذلك ، كُتِب بها عن القائم بأمر الله ، لعبد يسوع الجاثليق ، من إنشاء العلاء بن موصلايا ، وهي :

هذا كتابُ أمرٍ بكتبه عبدُ الله أبو جعفر عبد الله الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، لعبد يسوع الجاثليق الفطرك .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله الواحدِ بغيرِ ثانٍ ، القديمِ لأَعَنَ وجودِ زمانٍ ؛ الذي قَصُرَتْ صنيعَةُ الأوهام ، عن إدراكِهِ وحارَتْ ؛ وَصَلَتْ صنيعَةُ الأفهام ، عن بُلُوغِ مَدَى صِفَاتِهِ وحالَتْ ؛ المتنزّه عن الولدِ والصاحبه ، العاجزة عن إحاطة العلم به دلائلُ العُقُولِ الصافيةِ الصائبَةِ ؛ ذِي المَشِيئَةِ الحَالِيَةِ بالمَضَاءِ ، والقُدْرَةِ الجاريةِ عليها تصاريِفُ القَدَرِ والقضاءِ ؛ والعظمةِ الغنيّةِ عن العَوْنِ والظَّهيرِ ، المتعالى بها عن الكُفِّ والنظيرِ ؛ والعِزَّةِ المكتفية عن العَضُدِ والنصيرِ ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) .

(١) والحمد لله الذى آختر الإسلام ديناً وأرنا نضاه، وشام به عَضْبَ الحقِّ على الباطل
وَأَنْتَضَاهُ ؛ وأرسل محمداً - صلى الله عليه - مُنْقِذاً من أَشْرَاكِ الضَّلَّه ، وكاشفاً عن
الإيمان ماعمره من الإِشْرَاكِ وَأَظْلَه ؛ وبعثه ماحياً أثر الكُفْرِ من القلوب والأسماع ،
وناحياً فى أَتْبَاعِ أوامره ماجد فى البِدَارِ إلیه والإِسْرَاعِ ؛ وأدّى ما حَمَلَه أحسن الأداء ،
(٢) وداوَى بِمُعْجَزِ النُّبُوَّةِ من النفوس مُعْضِلِ الداء ؛ ولم يزل لأعلام الهدى مُبِيناً ، ولِحَبَائِلِ
النِّجَى حاسماً مُبِيناً ؛ إلی أن خَلَصَ الحقُّ وَصَفَا ، وغدا الدِّينُ من أضداده متصفاً ؛
وَأَتَضَحَّ لِلْحَائِرِ سُنَنِ الرَّشْدِ ، وَأَنقَادِ الْأَيْبِ بِاللَّيْنِ وَالْأَشَدِّ ؛ فَصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
الطاهرين ، وأصحابه المتحيين ، وخُلَفَائِهِ الْأَئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً .

والحمد لله الذى آسْتَخْلَصَ أمير المؤمنين من أَرْكَائِ الدَّوْحَةِ والأَرْوَمَةِ ، وأَحَلَّهُ من
عِزِّ الْإِمَامَةِ ذِرْوَةً لِلْجَدِّ غَيْرِ مَرُومَةٍ ؛ وَأَصَارَ إلیه من تَرَاثِ النُّبُوَّةِ مَا حَوَاهِ بِالْأَسْتَحْقَاقِ
وَالْوُجُوبِ ، وَأَصَابَ بِهِ مِنْ مَرَامِي الصَّلَاحِ مَا حَمَيْتْ شُمُوسُهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْوُجُوبِ ؛
وَأَوْلَاهِ مِنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ مَا أَسْتَقْدَمَ بِهِ الْفَخْرَ قَلْبِي ، وَأَسْتَخْدَمَ مَعَهُ الدَّهْرَ فَمَا تَأْتِي ؛
وَمَنْحَ أَيَّامِهِ مِنْ ظُهُورِ الْعَدْلِ فِيهَا وَأَنْتِشَارِهِ ، وَلَقَاحِ حَوَامِلِ الْإِنْصَافِ فِيهَا وَوَضْعِ
عِشَارِهِ ، مَا فَضَّلَ بِهِ الْعُصُورَ الْخَالِيَةَ ، وَظَلَّتْ السَّيْرُ مُتَضَمِّنَةً مِنْ ذَكَرَهَا مَا كَانَتْ
مِنْ مِثْلِهِ عَارِيَةً خَالِيَةً ؛ وَهُوَ يَسْتَدِيمُهُ - سُبْحَانَهُ - الْمَعُونَةَ عَلَى مَا يَقْرُبُ لَدَيْهِ
وَيُزِلُّ عَنْهُ ، وَيَسْتَمِدُّهُ التَّوْفِيقَ الَّذِي يَغْدُو لِعِزَائِمِهِ الْمَيْمُونَةَ أَوْفَى الْعَضْدِ وَالْعُدَّةِ ؛
وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يَنْبِي .

(١) شام السيف شياً سله .

(٢) فى الأصول وأدلى الادلاء . وهو تصحيف كما لا يخفى .

وأُمير المؤمنين مع ما أوجب الله تعالى عليه من اختصاص رعاياه [بالمواهب]
 التي يُمَدُّ عليهم رُؤاؤفها ، ويردُّ بها إلى أغصان صلاحهم أوراقها ؛ ويُلقَى على أجيادهم
 عُقودها ، ويقي رِيَّاح أَثْثَلِ فِهم رُكُودَها ، يرى أن يُولِيَ أُولَى الاستقامة من أهل
 ذِمَّتِهِ ضُرُوبَ الرَّأْفَةِ وَصُنُوفِها ، وأقسام العاطفة الدافعة عنهم حوادث الغيرة وَصُروفِها ؛
 بمقتضى عُهُودِهِم القويَّة القويَّة ، وأذِمَّتِهِمْ^(١) التي يلزم أن يحافظ عليها أهل العدل
 والتقوى ؛ ويعتمدُهم من الضَّرَرِ الغامر ، والإجْرامِ المضاهي الآتِفِ منه الغابر ؛
 بما يَقْبِضُ يَدَ الضَّيْمِ وَكَفَّهُ ، وأن يحبَّوهم من الحياطة بما يحرسُ رُسُومَهُم المستمرة
 من أسباب الاختلال ، ويحرِّمهم فيها على ماسنَّه السلف معهم من مألُوف السَّجَايَا
 والخلال .

ولما أُنْهِى إلى حضرة أمير المؤمنين تمييزك عن نظرائك ، وتخليك من السداد
 بما يستوجب معه أمثالك المبالغة في وصفك وإطرائك ؛ وتخصُّصك بالأنحاء التي
 فُتَّ فيها شأوا أقرانك ، وأُفِدَّتْ بها ماقصر معه مساجلك من أبناء جنسك أن يعدلك
 في ميزانك ؛ وما عليه أهل نِحْلَتِكَ من حاجتهم إلى جائلق كافٍ بأمرهم ، كاف
 في سياسة جمهورهم ؛ مستقِلٌّ بما يلزمه القيام به ، غير مُقِلٍّ بما يتعين مثله في أدوات
 مَنْصِبِهِ ؛ وأنَّ كُلاً من يرجع إليه منهم لما تصفح أحوال متقدِّمي دينهم وأسْتَشَفَّ ،
 وأعمل الفكر في اختيار الأرجح منهم والأشَفَّ ؛ وآتَفَقُوا من بعد على إجلالة الرأي
 الذي أفاضوا بينهم قَدَاحَهُ ، وراضوا به زَندَ الاجتهاد إلى أن أورى حين راموا
 أَقْبِدَاحَهُ ؛ فلم يُصادفُوا مَنْ هو بالرياسة عليهم أحقُّ وأحرى ، وللشروط الموجبة
 التقديم فيهم أجمع وأحوى ؛ وعن أموال وقوفهم أعفَّ وأورع ، ومن نفسه لداعى
 التحزى فيها أطوع وأتبع ، منك . اختاروك لهم راعياً ، ولما شدَّ نظامهم ملاحظاً

(١) جمع ذمام بالذال المعجمة وفي اللسان الذمام والمذمة الحق والحرمة .

مُراعياً؛ وسألوا إِمضاء نَصِّهم عليك والإِذْنَ فيه ، وإِجراء الأَمْرِ فيما يُخَصُّكَ أَسَدٌ
بِجَارِيهِ ؛ وَتَرْتِيكَ فيما أَهَّلْتَ لَهُ وَحَمَلْتَ ثِقْلَهُ ، وَآخِطَصَاكَ عَلَى مِنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ
الْأَضْرَابِ ، بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِرْعَاءِ وَالْإِيْجَابِ ؛ وَحَمَلَكَ وَأَهْلَلَ نَحْلَكَ عَلَى الشُّرُوطِ الْمُعْتَادَةِ ،
وَالرُّسُومِ الَّتِي إِمضاءُ الشَّرِيعَةِ لَهَا أَوْفَى الشَّهَادَةِ - رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْإِجَابَةَ إِلَى
مَا وَجَّهَتْ إِلَيْهِ فِيهِ الرِّغْبَةُ ، وَاسْتِخَارَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ عَزْمٍ يُطْلَقُ شَبَابُهُ وَيُمِضَى
غَرَبُهُ ؛ مَقْتَدِيَا فيما أَسَدَاهُ إِلَيْكَ ، وَأُسْنَاهُ مِنْ أَنْعَمِهِ لَدَيْكَ ؛ بِأَفْعَالِ الْأُئِمَّةِ الْمَاضِينَ ،
وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، مَعَ أَمْثَالِكَ مِنَ الْخُلَائِقَةِ الَّذِينَ سَبَقُوا ،
وَفِي مَقَامِكَ أَتَسَقُّوْا ؛ وَأَوْعَزَ بِتَرْتِيكِ جَانِلِيْقًا لِنُسْطُورِ النِّصَارِيِّ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ
الْبِلَادِ وَالْأَصْقَاعِ ، وَزَعِيًّا لَهُمْ وَلِلرُّومِ وَالْيَعَاقِبَةِ طَرًّا ، وَلِكُلِّ مَنْ تَحْوِيهِ دِيَارُ الْإِسْلَامِ
مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ مَنَ بِهِا يَسْتَقِرُّ وَإِلَيْهَا يَطْرَأُ ؛ وَجَعَلَ أَمْرَكَ فِيهِمْ مِمْتَثَلًا ، وَمَوْضِعَكَ
مِنْ الرِّيَاسَةِ عَلَيْهِمْ مَثَلاً ؛ وَأَنْ تَتَفَرَّدَ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى هَذِهِ الطَّوَائِفِ أَجْمَعٍ : لِيَكُونَ قَوْلُكَ
فِيما يُجَيِّزُهُ الشَّرْعُ فِيهِمْ يُقْبَلُ وَإِلَيْكَ فِي أَحْوَالِهِمْ يُرْجَعُ ؛ وَأَنْ تُتَمِيزَ بِأَهْبَةِ الرِّعَايَةِ ،
فِي مَجَامِعِ النِّصَارِيِّ وَمُصَلِّياتِهِمْ عَامَّةً ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْرَكَكَ فِيهَا أَوْ يَشَاكِكَ فِي النِّسْبَةِ
الدَّالَّةُ عَلَيْهَا مَطْرَانٌ أَوْ أَسْقُفٌ لِلرُّومِ أَوْ الْيَعَاقِبَةِ : تَتَغَدَّوْا شَوَاهِدُ وَلَايَتِكَ بِالْأَوَامِرِ
الْإِمَامِيَّةِ بَادِيَةً لِلْسَّامِعِ وَالنَّاظِرِ ، وَأَنْتَ أَرْقُصُورُهُمْ عَنْ هَذِهِ الرِّبَّةِ الَّتِي لَمْ يَلْفُوهَا كَافَّةً
لِلْمُجَادِلِ مِنْهُمْ وَالْمُنَاطِرِ ؛ وَمُنِعُوا بِأَسْرِهِمْ عَنْ مَسَاوَاتِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ هُوَ مِنْ شُرُوطِ
الرِّعَايَةِ وَرُسُومِهَا ، وَالتَّزَيُّيِّ بِمَا هُوَ مِنْ عِلَامَاتِهَا وَوُسُومِهَا ؛ إِذْ لَا سَبِيلَ لِأَحَدِهِمْ أَنْ
يُمْتَدَّ فِي مُبَارَاتِكَ بَاعَهُ ، وَلَا أَنْ يُخْرَجَ عَنِ الْمَوْجِبِ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَكَ وَالتَّبَاعَةِ ؛
وَحَمَلَكَ فِي ذَاكَ عَلَى مَا يُدِلُّ عَلَيْهِ الْمَنْشُورُ الْمَنْشَأُ لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، الْمُخْضَى لَكَ وَلِكُلِّ مَنْ
يَأْتِي بَعْدَكَ ؛ الْمَجْدُّدُ بِمَا حَوَاهُ ذِكْرُ مَا نَطَقَتْ بِهِ الْمُنَاشِيرُ الْمُقْتَرَرَةُ فِي أَيَّامِ الْخُلَفَاءِ
الرَّاشِدِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، لِمَنْ تَقَدَّمَكَ فِي مَقَامِكَ ، وَأَحْرَزَ سَبْقَ مَقْرَاكَ

ومرامك : من كون المنصوب في الخلقه إليه الزعامة على ما تضمنه ديار الإسلام من هذه الفرق جمعا ، والمنصوص عليه في التقدم الذي ليس لغيره من رياضه مرعى ؛ وتقدم أمير المؤمنين بجياطتك وأهل نحتك في نفوسكم وأموالكم وبيعكم ، ودياركم ومقار صلواتكم وحراسة أموالكم ، وأعتادكم بأقسام الكلاءة على أجمل الرسم معكم ؛ وأن تمحووا من نقض سنة رضية قزرت لكم ، ودحض وتيرة حميدة استعملت في فرضكم ؛ وأن تقبض الحزية من رجالكم ذوي القدرة على أدائها بحسب ما جرت به عاداتكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم دفعة واحدة في السنه ، وتجرؤوا في ذلك على السجية التي تناقلها الرواة وتداولتها الألسنه ؛ من غير تئنه ولا تكرير ، ولا تزنيق لمنهل المعدلة عندكم ولا تكدير ؛ وأن تحجب بالشدد دائما وتقوية يدك على من نصبته في أمورهم ناظرا ولشملهم ناظما ؛ ويفسح لك في فصل ما يشجر بينهم على سبيل الوساطه : لتقصده في ذاك ما يحسم دواعي الخلف ويطوى بساطه ؛ وأن تمضي بتقيفك لهم وأمرك فيهم ، أسوة ما جرى عليه الأمر مع من كان قبلك يليهم ؛ لتحسن معه السيرة العادلة عليهم ^(١) بحفظ السوام ، المطابقة للشروط السائغة في دين الإسلام .

وأمر بإنشاء هذا الكتاب مشتملا على ما خصصك به ، وأمضى أن تعامل بموجبه ؛ فقابل نعمة أمير المؤمنين عندك بما تستوجب من شكر تبلغ فيه المدى الأقصى ، وبشير لا يوجد التصفح له عندك قصورا ولا تقصا ؛ وواظب على الاعتراف بما أوليته من كل ما جملك ، وصدق ظنك وأملك ؛ وأسترد الإنعام بطاعة تطوى عليها الجوانح ، وأدعية لأيامه تبتغ الغاوى منها بالرائح ؛ وتجنب التقصير فيما بك عدى ، وإليك وكل وعليك علق ؛ واحتفظ بهذا الكتاب جنة تمنع عنك ريب الدهر وغيره ،

وحجة تحمل فيها على ما ينحى مأمِنحته من كل ماسعته (٩) وغيره ؛ وليعمل بهذا المثال كافة المطارنة والأساقفة والقسيسين ، والنصارى أجمعين ؛ وليعتمدوا من التباعة لك ما يستحقه تقديمك على الجماعة ، وليثقوا بما يغمرهم من العاطفة الحامية سربهم من التفريق والإضاعة ؛ إن شاء الله تعالى .

وكتب في شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وأربعمائة .

الطرف الرابع

(فيما كان يكتب عن مدعى الخلافة ببلاد المغرب والأندلس)

وكانوا يعبرون عما يكتب من ذلك بالظواهر والصُّكوك : فالظواهر جمع ظهير ، وهو المعلن ، سمي مرسوم الخليفة أو السلطان ظهيراً لما يقع به من المعاونة لمن كتب له . والصُّكوك جمع صك وهو الكتاب ، قال الجوهري : وهو فارسيّ معربٌ والجمع أصك وصكاك وصُّكوك ؛ ثم تحامى المتأخرون منهم لفظ الصك ، لما جرى به عرف العامة من غلبة استعماله في أحد معنيي الاشتراك فيه وهو الصفع ، واقتصرُوا على استعمال لفظ الظهير .

ولذلك حاليان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه في الزمن القديم)

وأعلم أنه لم يكن لهم مصطلح يَقُون عند حدّه في الابتداءات ، بل بحسب ما تقتضيه قريحة الكتاب ؛ فتارةً يتبدأ بلفظ : « من فلان إلى فلان » أو « من فلان إلى أهل فلانة » أو « إلى الأشياء بفلانة » أو « يصلح فلان بهذا الكتاب » .

وتارة يُبتدأ بـ «أما بعد حمد الله» . وتارة يُبتدأ بلفظ «تقدّم فلان بكذا» . وتارة يُبتدأ بلفظ «مكتوبنا هذا» وغير ذلك مما لا يَنْحَصِرُ .

فمن الظواهر المكتّبة لأرباب السيوف عندهم، ما كُتِبَ به بولاية ناحية، وهي:
من فلان إلى أهل فلانة أدام الله لهم من الكرامة أتمّها ومن الرعاية أوفّاها،
وأسبغ عليهم برود نعمة الجزيلة وأضفاها .

أما بعد حمد الله ميسر أسباب النجاح، ومُسْنِي مَرامِ الرّشاد والصّلاح، والصلاة
على سيدنا محمد رسول الله نبي الرحمة والرّفق والإِسْجَاح^(١)، وعلى آله وصحبه المتّصّفين بالقوّة
في ذات الله تارة وتارة بَحْفُضِ الجَنَاح؛ والرّضا عن الخليفة أمير المؤمنين ذي الشّرف
الذي لم يزل بالهدى النبوي متوقّد المصباح، والدعاء للقام الإِمَارِي بالنصر الذي يُؤْتِي
مقاليد الافتتاح، والتأييد الماضي حدّ رُعيه حيث لا يَمُضِي غِرَارُ المَهْنَد وشبّا الرّماح
- فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سُكُونَ الأَرْجاء وهُدُوها، وأجرى لكم بالصّلاح
رَوَاحَ الأَيّام وغُدُوها «من فلانة» وللدّولة العليّة بركات تَكَثُرُ الشّعب في أنسكابها
وأنسجامها، وتقوّد الخيرات والمسرات في كل أَوْبٍ بزِمَامِها، والحمد لله حمدا يقضى
بوفور جزيلات النعم وجسامها .

وإنّ الأهتمام بكم لمستدقّ على كل غرض جميل، ومقدّم فيما يُخَيِّطُكم بكلّ بُغْيَةٍ
وتأميل، وبحسب هذا لا يزال يُختار لكم من الولاة كلّ مختار مُتَخَب، ولا يُقدّم
عليكم إلّا مَنْ يَنْتَهِي إلى أثيل حسبٍ وكريم مُنْتَسَب، ولا يزال يُدَاوِلُ موضِعكم بين
كل طريقة تتصل من حُسن السّير وسداد النظر بآمتن سبب، وعلى هذا الأصل
أستخرنا الله وهو المستخار، والذي يقضى ما يشاء ويُختار، في أن قدّمنا عليكم،

وولينا للنظر فيما لديكم، من له التقدم في الإقدام، والأضطلاعُ الشابتُ الأقدام؛
وذلك فلان . وآثرناكم به أعتناءً بجانبيكم وأهتبالاً،^(١) وخصصناكم منه بمن يُفسح
في كل أثر حميد مجالاً؛ والمعتقدُ فيه أن يعمل على شاكلته بنباهة مكانه، وأن يبذل
في الاتهاض والأكتفاء غايةً وسعةً وإمكانه؛ وعليه أن يلزم تقوى الله العظيم
في سره وعَلَنه، ويَجْرِى على سبيل العدل وسننه؛ ويُشمر عن ساعده في الدفاع عن
أحوالكم كُلِّ التشمير، ويأخذ على أيدي أهل التعدي أخذاً يقضى على الفساد وأهله
بالتنبيه؛ ويقصد بكم سيد السعى ورشيد الرأي في الدقيق والخليل والصغير والكبير؛
ويسوّى في الحق بين الحافل والتافه والغني والفقير؛ وعليكم أن تسمعوا وتطيعوا،
ولا تهملوا حق الامتثال والائتمار ولا تضيعوا؛ وأن تكونوا يده التي تبطش،
وأعوائه فيما يحاول من مستوفى المساعي المرضية ومستوعبها، وأن تتعاونوا على التقوى
والبر، وتقفوا له عند النهي والأمر؛ وتجاهدوا معه في مصالحكم كُلِّ الاجتهاد،
وتعتمدوا على ما رسمناه لكم أتم الاعتماد؛ وستجدون من مواليكُم - إن شاء الله -
ما يوافق الظن به، ويلائم العمل بحسب حسبه؛ إن شاء الله تعالى والسلام .



ومنها ما كُتب به في ولاية ناحية أيضاً، وهي :

من فلان إلى أهل فلانة أدام الله تعالى كرامتهم بتقواه، وعرفهم أحق النظر
بمصالحهم وأحراهم .

وبعد، فإننا كتبناه لكم - كتب الله لكم أحوالاً متصلةً الصلاح، حميدة الاختتام
والافتتاح - من فلانة ونعم الله سبحانه موفورة الأقسام، صيبة الغام، وقد اقتضى

(١) أى اشتغالا بشأنكم من قولهم اهتبل هبلك أى اشتغل بشأنك انظر اللسان ج ١٤ ص ٢١٢ .

ما تَوَخَّاهُ مِنَ الْاِحْتِطَاطِ عَلَى جَوَانِبِكُمْ ، وَنَعْتِمِدُهُ مِنَ الْاِيشَارِ لَكُمْ وَالْاِعْتِنَاءِ بِكُمْ ،
أَنْ نَتَّخِيزَ لِلتَّقْدِيمِ عَلَيْكُمْ مَنْ نَعْلَمُ مِنْهُ الْأَحْوَالَ الْمَرْضِيَّةَ حَقِيقَةً ، وَنُحَمِّدُ سِيَرَهُ فِيمَا يُحَاوِلُهُ
وَطَرِيقَهُ .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ مِنْ حُدُثِ مَقَاصِدُهُ ، وَشُكِرَتْ فِي الْمَحَاوِلَاتِ الْاجْتِهَادِيَّةِ عَوَائِدُهُ ،
وَحُسِّنَتْ فِيمَا نُصَرِّفُهُ فِيهِ مَصَادِرُهُ وَمَوَارِدُهُ ، رَأَيْنَا وَاللَّهُ الْقَاضِي فِيمَا نَذَرَهُ وَنَأْتِيهِ ،
بِالتَّوْفِيقِ الَّذِي يُكُونُ بِهِ اِتِّقَادُ النَّجْحِ وَتَأْتِيهِ ، أَنْ نَقْدِّمَهُ لِحِفْظِ جِهَاتِكُمْ ، وَتَأْمِينِ
أَرْجَائِكُمْ وَجَنَابَاتِكُمْ ، وَوَصَّيْنَاهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيمَا قَلَّدْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ الْاجْتِهَادِ ، وَيَتَنَبَّضَ
فِي إِذْهَابِ الشَّرِّ وَإِرْهَابِ أَهْلِ الْفَسَادِ ، وَبِأَنْ يَسْلُكَ فِيمَا يَتَوَلَّاهُ مِنَ الْأَحْكَامِ سَنَنَ
الْحَقِّ ، وَيَجْرِيَ عَلَى سَبِيلِ الْعَدْلِ وَالرَّفْقِ ، وَيُدْفَعُ أَسْبَابَ الْمَظَالِمِ ، وَيُصِيفَ الْمَظْلُومَ
مِنَ الظَّالِمِ ، فَإِذَا وَافَاكُمْ فَتَلَقَّوْهُ بِنُفُوسٍ مَبْسُطَةٍ ، وَعَقَائِدَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَرْتَبِطَةٍ ،
وَكُونُوا مَعَهُ عَلَى تَمْثِيلَةِ الْحَقِّ يَدًا وَاحِدَةً ، وَفِئَةً فِي ذَاتِ اللَّهِ مُتَعَاوِنَةً مُتَعَايِضَةً ، بِحَوْلِ
اللَّهِ سُبْحَانَهُ .



وَمِنْهَا مَا كُتِبَ بِهِ بِإِعَادَةِ وَالٍ إِلَى نَاحِيَةٍ ، وَهِيَ :

وَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كَتَبَكُمْ اللَّهُ مِنَ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَأَعْلَقَكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ
بِالْحَبْلِ الْأَمْتَنِ الْأَقْوَى - مِنْ فُلَانَةٍ : وَالَّذِي نُوَصِّيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلُ
بِطَاعَتِهِ ، وَالْاِسْتِعَانَةُ بِهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ صَرَّفْنَا إِلَيْكُمْ فُلَانًا بَعْدَ أَنْ أَقَامَ هُنَا شَاهِدًا
مَشَاهِدًا لِلتَّعْلُمِ نَافِعَهُ ، مُبَاشِرًا مِنَ الْمَذَاكِرَةِ فِي الْكُتَابِ وَالسُّنَنِ بِمَجَالِسِ ضَامِنَةٍ خَيْرِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَامِعَةٍ ، مُطَالِعًا لِأَحْوَالِ الْمُوَحِّدِينَ أَعَزَّهُمُ اللَّهُ فِي مَا أَخَذَهُمُ الدِّينِيَّةُ ،
وَمَقَاصِدِهِمُ الْمُحْيِيَّةَ لِمَا دَرَسَ مِنَ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ ، فَنَالَ بِذَلِكَ كُلَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَحْرَزَ بِهِ

حظًا من السعادة كيرا، وظفر منه بما يكون له في كل ما ينظر فيه سراجًا منيرا؛
وقد أعدناه إلى الشغل الذي كان يتولاه لجهتكم حرسها الله، ووصيناها بتقوى الله
تعالى الذي لا يطالع على السرائر سواه؛ وأن يكون بما شاهدته مما تقدم ذكره
مقتديا، وبأنواره الساطعة التي لا يضل من أهتدى بها مهتديا، ولا يستند في شيء
من أحكامه إلى من لا يقوم على عصمته دليل، ولا جعل إليه تحريم ولا تحليل؛
فأعينوه - وفقكم الله - على تمشية هذه المقاصد الكريمة أكرم إمانه، وأسلكوا
من مظاهرتة على الحق وموازرتة على المسالك التي تستبين هنالك أتم استبانته؛
إن شاء الله تعالى.



ومن الظواهر المكتبة بالوظائف الدينية ما كتب به في ولاية قاض، وهو:

أما بعد حمد الله رافع علم الحق لمن أهتدى، وواضع يزان القسط بالشرعية
المحمدية الآخذة بالجزع عن مهاوى الردى؛ ومؤيد الدين الحنيفي بمن ارتضى لتحديد
حدوده وتجديد عهوده وهدى. والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي أرسله
إلى الناس كافة غير مستثنى عليه من الخلق أحدا؛ وعلى آله وصحبه الذين سلكوا
في نصره وإظهار أمره جددا. والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العباسي الأطيب
عنصرا ومحتدا، فإننا كتبناه إليكم - كتبكم الله ممن أعتز بطاعته وتقواه، واعتصم من
حبله المتين بأوقفه وأقواه - من فلانة وفضل الله سبحانه مديد الظلال، وتوكلنا
عليه - عز وجهه - ظهيرنا المعتمد به في كل حال، وعمادنا الذي تقدمه فيما ندبره
من الأعمال؛ وإنكم من عنايتنا، وموصول رعايتنا، ليالحل الأدنى؛ ومن خاص

نظرنا وأهتما منا لمن نكف بشأنه كله ونعني ، ونعتمد من ذلك بالأحسن فالأحسن
فجزاء الذين أحسنوا الحسن .

وقد علمتم - وصل الله كرامتكم - أن الأحكام الشرعية هي ملاك الأمور
ونظامها ، وعليها مدار الأعمال الدينية وبها تمامها ، وأنه لا يصلح لها إلا من تجرد
عن هواه ، وآثر الحق على ماسواه ، وأتبع حكم نبيه - عليه السلام - في كل ماعمله
ونواه ، وتجل بالدراية وحمل الرواية فكانتا أظهر حلاه ، وأتسم بالعدل والاعتدال
فيما وليه من ذلك أو تولاه ، وكان ممن أطلق الحق لسانه وقيد الورع يمينه ، وقد أمعنا
النظر فيمن له من هذه الأوصاف أو في نصيب ، ومن إن رمى عن قوس نظره
الموفق كان سهمه المسدد مصيب : لنخصمكم به قاضيا في هذه الأحكام ، ونقدمه
للفصل بينكم في القضايا الشرعية حكما من صالح الحكماء ، فرأينا أهلا لذلك ومحللا
من اختبرت على [النهج] القويم أحواله ، وأرضيت فيما نيظ به من ذلك أعماله
وأقواله ، وشهد له الاختبار بالانكشاف عن كل سابق وغائب ، وعن ارتكاب
التيات إلى السنن اللاحب ، وذلكم « فلان » أدام الله كرامته وتوفيقه ، ويسر إلى
مسالك النجاة مسلكه وطريقه ، فأنفذناه إليكم حكما مرضى السير ، وإفر الحظ
من المعارف المصورة للحق في أجمل الصور ، مكتفيا بما لديه من استقامة الأحوال
عن الوصايا ما خلا التذكير والتنبية ، والوصية بتقوى الله فهي التي تعصم العامل بها
وتنجيه ، فقد وصى بها الله من اختاره من خلقه لإقامة حقه وأرضاه ، فقال تعالى :
﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ . فتلقوه
- أدام الله كرامتكم - بنفوس منبسطه ، وقلوب مبهجة مغتبطه ، وأهواء على التظافر

والتناصر في الحق مجتمعة مرتبطة ؛ وتعاونوا في ذات الله على الطاعة ، وكُونُوا في سبيل الله يدًا واحدة فيد الله مع الجماعة ؛ واستعينوه سبحانه على الخير يُعْنِكُمْ ، وأشكروا الله يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مما أخذَ منكم ؛ وهو سبحانه يتولّاكم بالحفظ الشامل ، ويستعملكم من طاعته وسُلوِك سبيل مَرْضَاتِهِ بأُجْحى ما أَسْتَعْمِل به عامل ؛ والسلام .



ومنها ما كتب به أبو الحسن الرُّعَيْنِي في ولاية قاضٍ ، وهي :

من فلانٍ إلى الأشياخ بفلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ، وأَسْتَعْمَلهم فيما يُحِبُّه ويرضاه .

أما بعدُ ، فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله لكم حُسْنَه ، وأَوْزَعكم شُكْرَ ما حَوَّلكم من نِعْمَاه ورُحْمَاه ؛ ومن مقاصد هذا الأمر العزيز - أدامه الله - ما يُعْلِي يد الحق ويُسَمِّيها ، ويسدّد سهام العدل إلى أغراضها ومَرامِها ، ويتكفّل بالجزاء لمن لا ذَء بأكاف الطاعة وتواحيها ، والحمد لله على نِعَمِهِ التي لا تُحْصَرها ولا تُحْصِيها .

وإلى ذلكم فإنّ فلانا لمّا تمكنت الثقة بجُميل صِفَتِهِ ، وأسْتَنَامَتِ البصيرةُ إلى أَسْتِحْكامِ سُنَنِهِ ومَعْرِفَتِهِ ؛ وقد كان تقدّم له من خِدْمَةِ الأمر وأولِيائِهِ ما نَجَّدَهُ مع الأَيَّام وخرَّجَهُ ؛ وخصَّصَهُ من كريم الاستعمال بما أَسْتَدْنَاهُ إلى مَراقِي الذِّكَاةِ وأسْتَدْرَجَهُ ؛ رأينا - والله المستعان - أن نقدّمه للنظر في قضاياكم الدِّينِيَّةِ ، وأحكامكم الشرعيَّةِ ؛ بعد أن وصَّينا بتقوى الله فقَدَّمْها ، وعرضنا عليه ما يعلمه ويلزُمه من شروط الحكومة فالتزمها . فليَنهَضْ إلى ما قدَّمناه على بركة الله تعالى

(١) في الأصل أنجده بالهمز وهو غير مناسب .

مشمراً عن ساعد الحزم، آخذاً في كافة أموره بما يأخذه أولو العزم؛ جاريّاً على السنن الواضح المعروف؛ مسوياً في الحق بين النبيه والخامل والشريف والمشروف؛ محتسباً على إقامة فروض الدين أكرم احتساب، مكتسباً من الأجر في ردع الظلم والباطل أفضل اكتساب، راجياً في تمشية العدل على رغم من أباه ما يرجو المؤمن المحقق من زلفى وحسن مآب؛ ولدينا من عقده على ذلك ما يحسن مقصده، ويمكن في بسطة الحق مقعده؛ فإذا وافاكم فاستبشروا بموافاته، وقفوا عند ما يمضيه من لوازم الشرع وموجباته، وتعاونوا على الخير تعاوناً يجرل حظكم من فضل الله وبركاته؛ فهو المؤمل في ذلك لأرب سواه.



ومن الظهائر المكتتة بالوظائف الديوانية ما كتب به أبو المطرف بن عميرة بولاية وزارة، وهو:

مكتوبنا هذا بيد فلان أدام الله علاءه، وحفظ عنايته وغناؤه؛ يجد به مكان العزة مكننا، ومورد الكرامة عذاباً معيناً، وسبيل الحرمة المتأكدة واحداً مستتبناً؛ ويتقلد وزارتنا تقلد تفويض وإطلاق، ويلبس ما خلع عليه منها لبسة تمكن وآسحقاق، وينزل من رتبته العليا منزلة شرفها ثابت وحماها باق؛ ويسوغ الدار المخزنية التي يسكنها بفلانة تسويها يملكه إياها أصح تملك، ويفرد فيها من غير تشريك؛ إن شاء الله تعالى والسلام.



ومنها ما كتب به أبو عبد الله بن الأبار في مشاركة ناحية، وهو:

عن إذن فلان ، يتقدم فلان للنظر في الأشغال الخزنية بفلانة ، موفياً بما يجب عليه من الاجتهاد والتشمير ، والحد الذي أرسم في الإنماء والتثمين ، مصداقاً ما قدر فيه من الانتهاض والاستقلال ، وقرر عنه من الأمانة التي رشتته وأهله لاتبه الأعمال ، جارياً في ضبط الأمور الخزنية والرفق بجانب الرعية على المقاصد الجليلة والمذاهب المرضية في عامة الشؤون والأحوال ، عاملاً بما تقدمت به الوصية إليه ، وتأكدت الإشارة [به] عليه ؛ من تقوى الله في السر والعلن ، علماً أن المرء بما قدمته يداه مرتين .



ومنها ما كتب به المذكور بإعادة مشارف إلى ناحية ، وهو :

يُعاد بهذا المكتوب فلان^١ إلى حطة الإشراف بفلانة : رافلاً من ملابس التكرمة والحظوة في شقوقها ، محلى بينه وبين النظر في ضروب الأشغال الخزنية وصنوفها ، فهو المعروف بالكفاية والاجتهاد ، الموصوف بحسن الإصدار والإيراد ، وأولى الناس بالانتماء النصيحة ، والأزدياد من بضائع الأعمال الريحية ، من كثرت النعم السلطانية لديه ، ودفع إلى الخطط ودفعته إليه . فليتق الله هذه الخططة بحقها من الانتهاض والتشمير ، وتأدية الأمانة بالإنماء والتثمين ، وليتروذ تقوى الله تعالى ليوم يسأل عن التقير والقطمير ، جارياً في أموره كلها على الطريقة السوية ، جامعاً بين الاحتياط للخزن والرفق بالرعية ، غير عادل في حال من الأحوال وفق من فنون الأعمال عن مقتضى هذه الوصية ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) الخزن بفتح الزاى ما يخزن فيه الشيء .

الطرف الخامس

(فيما كان عليه الأمر في الدولة الفاطمية بالديار المصرية)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة أنه كان بها من وظائف أرباب السيوف
الوزارة إذا كان الوزير صاحب سيف ، والنظر في المظالم ، وزم الأقارب ، وتقابة
العلويين ، وزم الرجال والطوائف : كالأموية ، والحافظية ، والأفضلية ، وغيرهم
ممن تقدّم ذكره في ترتيب دولتهم ، وولاية الشرطة ، وولاية المعاون والأحداث ،
وولاية الحاية ، وولاية حفظ الثغور ، والإمارة على الحج ، والإمارة على الجهاد ،
وولاية الأعمال ، وغير ذلك . ومن الوظائف قضاء القضاة ، والدعوة إلى مذهبهم ،
والنظر في الأوقاف والأحباس ، والنظر في المساجد وأمر الصلاة ، وغير ذلك .

وكانت كتابة ما يكتب لديهم لأرباب الولايات على نوعين :

النوع الأول

(ما كان يكتب به عن الخليفة نفسه)

وكان من شأنهم أنهم يتعرضون في أثناء الولاية لإشارة الوزير بتولية المولى وشأنه
عليه ، وربما أهملوا ذلك . وكانوا يسمون جميع ما يكتب من ديوان الإنشاء
سجلات ، وربما سموه عهدودا ، وعليه يدل ما كتبه العاضد آخر خلفائهم في طرة
سجل السلطان صلاح الدين بالوزارة : « هذا عهد لأعهد لوزير بمثله » على ما تقدّم
ذكره في الكلام على عهد الملوك .

ولهم فيها أربعة مذاهب :

(١) لعله « ومن وظائف أرباب الأعلام قضاء » الخ فتنبه .

المذهب الأول

(أن يفتتح ما يكتب في الولاية بالتصدير)

وهو « من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين ، إلى فلان ابن فلان » بالألقاب المنعوت بها من ديوان الخلافة ، ويدعى له بدعوتين أو ثلاث ؛ ثم يقال : « سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصليّ على جدّه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أخيه وأبن عمّه أمير المؤمنين على بن أبي طالب » ويؤتى من وصف الخليفة ومدحه بما يناسب المقام .

ثم هو بعد ذلك على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى

(أن يقال بعد التصدير المقدم «أما بعد فالحمد لله»)

ويؤتى من التحميد بما يناسب تلك الولاية ، ثم يؤتى بتحميدة ثانية وثالثة ، وتكون الثالثة متعلّقة بالنعم الشاملة لأمر المؤمنين ؛ ثم يقال : « وإن أمير المؤمنين لما اختصّه الله به من كذا وكذا » ويذكر ما سنع من أوصاف الخليفة ، ويذكر أنه تصفّح الناس وسبرهم فلم يجد من يصلح لتلك الولاية إلا هو ؛ ويذكر من صفته ما اتفق ذكره ، ثم يذكر تفويض الولاية إليه ، ويوصيه بما يناسب ، ويختتم بالدعاء ثم بالسلام مع التفتن في العبارة ، واختلاف المعاني والألفاظ ، والتقديم والتأخير بحسب ما تقتضيه حال المنشي ، وتودى إليه قريحته .

وهي على ضربين :

الضرب الأول

(١) سِجَّلاتُ أربابِ السيوفِ)

وعلى ذلك كَتَبُ سِجَّلاتِ وُزرائِهِم أَصحابِ السيوفِ القائمين مقام السلاطين الآنَ، من لَدُنْ وزارةِ أميرِ الجيوشِ بَدْرِ الجَمَالِيِّ وزيرِ المستنصرِ : خامسِ خلفائِهِم وإلى أنقراضِ دولتِهِم . وقد تقدّم منها ذكر عَهْدِي المنصور : أسد الدين شيركوه ابن شادى ، ثم ابن أخيه الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد فى جملة عُهُودِ الخلفاء والملوك ، حيث أشار فى "التعريف" إلى عَدَمِهِما من جملة عهود الملوك .

ومن أحسنها وصفًا، وأبعجها لفظًا، وأدقّها معنى، ما كتب به الموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء عن العاضد المتقدم ذكره، بالوزارة لشاور السعدى، بعد أن غلبه ضرغام عليها ثم كانت له الكثرة عليه . وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، سلطان الجيوش ، ناصر الإسلام ، سيف الإمام ، شرف الأنام ، عمدة الدين ، أبى فلان فلان .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جدّه محمد خاتم النبیین ، وإمام المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ؛ وسلّم تسليماً .

أما بعد ، فالحمد لله مانح الرغائب ، ومُنِيلِها ، وكاشِفِ المصاعِبِ ، ومُزِيلِها ؛ ومُذِلّ كل عُصْبة كَفَّتْ بِالْعَدْرِ والشَّقَاقِ ومُذِيلِها . ناصر من بُغِيَ عليه ، وعاكس

(١) لم يترجم فيما يأتى للضرب الثانى وهو سِجَّلاتُ أربابِ الأقلام وإن كان قد ذكرها ضمن المراتب الثلاث الآتية فتنبه .

كَيْدِ الْكَائِدِ إِذَا فَوْقَ سَهْمِهِ إِلَيْهِ ؛ وَرَادَّ الْحَقُّوقَ إِلَى أَرْبَابِهَا ، وَمَرْتَجِعَ الْمَرَاتِبَ إِلَى مَنْ هُوَ أَجْدَرُ بِرُقِيَّتِهَا وَأَوْلَى بِهَا ؛ وَمُسْنَى الْخَيْرِ بِتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ ، وَمَسْهَلِ الرَّتَبِ بِتَمْهِيدِ طَرَفِهِ وَفَتْحِ أَبْوَابِهِ ، وَمُدْنَى نَائِيِ الْحِطِّ بَعْدَ نُفُورِهِ وَأَعْتَرَابِهِ ؛ وَمُطْلِعِ الشَّمْسِ بَعْدَ الْمَغِيبِ ، وَمُتْدَارِكِ الْخَطْبِ إِذَا أَعْضَلَ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ ؛ مُبْدِعِ مَا كَانَ وَيَكُونُ ، وَمُسَبِّبِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ؛ مُحْسِنِ التَّسْدِيرِ ، وَمَسْهَلِ التَّعْسِيرِ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخَصَّ أَوْلِيَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْرَارَ بِالْأَسْتِعْلَاءِ وَالظُّهُورِ ، وَذَلَّلَ لَهُمْ جَوَارِحَ الْخُطُوبِ وَمَصَابِعَ الْأُمُورِ ؛ وَآتَاهُمْ مِنَ التَّائِيدِ كُلِّ بَدِيعٍ مُسْتَعَرَّبٍ ، وَأَنَالَهُمْ مِنْ كُلِّ غَرِيبٍ إِذَا أُورِدَ قَصَصُهُ أَطْرَبَ ؛ وَمَكَّنَهُمْ مِنْ نَوَاصِي الْأَعْدَاءِ ، وَشَمَلَهُمْ بِعَنَائِيَّتِهِ فِي الْإِعَادَةِ وَالْإِبْدَاءِ ؛ وَضَمَّنَ لَهُمْ أَحْمَدَ الْعَوَاقِبِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي ثَبَّتَتْ لَهُمْ فِي صَحَائِفِ الْأَيَّامِ أَفْضَلَ الْمَنَاقِبِ ؛ وَهَدَاهُمْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَارَاقِ زُلَّالِهِ ، وَتَمَّ غَايَةَ التَّمَامِ كَمَا أَنَّهُ كَانَ لِرِضَا اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَحُسْنِ ثَوَابِهِ مَالَهُ ؛ وَيُمِدَّهُمْ فِي الْمَجَاهِدَةِ عَنْ دَوْلَتِهِ بِالتَّائِيدِ وَالتَّحْكِينِ ، وَيُحْظِيهِمْ مِنْ أَنْوَارِ الْيَقِينِ ، بِمَا يَجْلُو عَنْ أَفْئِدَتِهِمْ دُجَى الشُّكِّ الْبَهِيمِ ؛ وَيُظْهِرُ لِأَفْهَامِهِمْ خِصَائِصَ الْإِمَامَةِ فِي حُلَلِ التَّفَخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَيُرِيهِمْ أَنَّ خُلُوصَ الطَّاعَةِ مَنَجَّةٌ فِي الْمَعَادِ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْتَثْمَرَ مِنْ دَوْحَةِ النُّبُوَّةِ الْأُئِمَّةَ الْهَادِينَ ، وَأَقَامَهُمْ أَعْلَامًا مُرْشِدَةً فِي مَحَجَّةِ الدِّينِ ؛ وَبَيَّنَّ بِتَبْصِيرِهِمُ الْحَقَائِقَ وَوَرَّثَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَرَفَ مَقَامَاتِهِمْ ،

(١) مراده الصعب . والرتب بالتحريك من معانيه الشدة والغلظة يقال ما في هذا الأمر رتب ولا عتب أى عناء وشدة .

(٢) لم يتقدم ما يعطف عليه وهو من متعلقات أمير المؤمنين كما لا يخفى .

وجعله مُحَرِّزَ غَايَتِهِمْ ، وَجَامِعَ مُعْجَزَاتِهِمْ وَأَيَاتِهِمْ ؛ وَقَضَىٰ لِمَنْ أَلْتَحَفَ بِظُلِّ فَنَائِهِ ،
وَأَشْتَمَلَ بِسَايِغِ نِعْمِهِ وَأَلَائِهِ ، وَتَمَسَّكَ بِطَاعَتِهِ وَاعْتَصَمَ بِوَلَائِهِ ؛ بِالْخُلُودِ فِي النِّعَمِ
الْمُقِيمِ ، وَالْحُلُولِ فِي مَقَامِ رِضْوَانِ كَرِيمٍ : ﴿ ذَلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ .

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي جَعَلَتْهُ لِلبَشَرِ إِمَامًا ، وَأَمَضَّتْ لَهُ فِي الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ أَوَامِرَ وَأَحْكَامًا ؛ وَجَرَّدَ مِنْ عَزَمِهِ فِي حَيَاةِ دِينِ اللَّهِ عَضْبًا مُرْهَفًا
حُسَامًا ، وَأَسْتَخْلَصَ لِإِنْجَادِ دَوْلَتِهِ مِنْ أَوْلِيَائِهَا أَكْلَهُمْ شَجَاعَةً وَإِقْدَامًا ؛ وَأَحْسَنَهُمْ
فِي تَدْيِيرِ أُمُورِهَا قَانُونًا وَنِظَامًا ؛ وَأَتَمَّهُمْ لِمَصَالِحِ أَجْنَادِهَا وَرِعَايَاهَا تَفَقُّدًا وَأَهْتِمَامًا ،
وَأَوَّلَاهُمْ بِأَنْ لَا يُوجَّهَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ مَلَامًا ، وَأَجْدَرَهُمْ بِأَنْ يُحْلَلَ
مِنْ جَبِيلِ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دَارَ سَلَامٍ يَلْقَىٰ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ؛ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصِلَّى
عَلَىٰ جَدِّهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ الَّذِي أَعْلَنَ بِالتَّوْحِيدِ وَجَهَرَهُ ، وَغَلَبَ بِالتَّائِيدِ وَقَهَرَ ؛ وَأَظْهَرَ
الْمُعْجِزَ الْبَدِيعَ وَأَسْتَطَالَ إِعْجَازَهُ وَبَهَرَ ، وَأَطْلَعَ نُورَ الْإِسْلَامِ وَأَشْتَهَرَ فِي الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ إِشْرَاقَهُ وَظَهَرَ ؛ وَعَلَىٰ أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَهْلَنَا عَلَىٰ بَنِي أَبِي طَالِبٍ سَيْفُ اللَّهِ
الَّذِي شَهَرَهُ عَلَى الْكُفْرِ وَسَلَّهُ ، وَكَفَّلَهُ إِعْزَازَ الدِّينِ فَأَعْظَمَهُ بِجِهَادِهِ وَأَجَلَّهُ ؛ وَقَرَعَ
بِعِزِّهِ صَفَاةَ الْإِلْحَادِ فَأَعَانَهُ (؟) بِعِزِّهِ وَأَذَلَّهُ ، وَقَصَّدَ الْأَصْنَامَ وَأَرْغَمَ مِنْ أَسْتَعْوَاهِ
الشَّيْطَانُ بِاتِّبَاعِهَا وَأَضَلَّهُ ؛ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَعْلَامِ الدِّينِ ، وَهُدَاةِ الْمُتَّقِينَ ؛
وَمَوْصِيٍّ سَبِيلِ الْحَقِّ لِأَهْلِ الْيَقِينِ ؛ وَمَوْصِلِ الْأَنْوَارِ الدِّينِيَّةِ إِلَىٰ بَصَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
صَلَاةً تُتَكَرَّرُ وَتَتَرَدَّدُ ، وَتُدَوِّمُ مَدَى الْأَيَّامِ وَتُتَجَدَّدُ .

وَإِنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا آخَتْصَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمُنْصِبِ الشَّرِيفِ ، وَسَمَّا بِهِ إِلَيْهِ مِنَ
الْمَحَلِّ الشَّائِخِ الْمُتَنِيفِ ؛ وَفَوَّضَهُ إِلَيْهِ مِنْ تَدْيِيرِ خَلْقِهِ ، وَأَفْرَدَهُ بِهِ مِنْ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَالْقِيَامِ

بحقّه ؛ وناطه به من المحاماة عن المِلَّة الحنيفيّة ، والاجتهاد في أن يشمّل أهلها بالحالة
السنيّة والعيشة الهنيئة ؛ وإعانتة في إظهار شعاعها ، وتأنيده في إظهار علوّها على
الملوك وأقنندارها - يَبْدُلُ جُهدَه في الاستعانة بمن تقوم به حجّته عند الله بالأعتماد عليه ،
ويتوثّق لنفسه في اختيار من يقوم برضا الله في إسناد الأمور إليه ؛ ويَحْرُصُ على
التفويض لمن يَكْفِي في التدبير ، وتُحِيطُ غايةً نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير ،
تقرباً إلى الله بالعمل فيما ولّاه بما يُرضيه ، وأزديلاً بما يتّباع أمره في كل ما يُنفذه
ويُخِضه . وقد كان أمير المؤمنين تصبّح أولياء دولته ، وعطاء مملكته وأكارب شيعته
وأنصار دعوته ؛ فوجدك أيّها السيد الأجلّ أكلهم فضلاً ، وأقلهم مثلاً ؛ وأمّهم
في التدبير والسياسة إنصافاً وعدلاً ، وأحقّهم بأن تكون لكلّ رياسة وسيادة أهلاً ؛
ففوض إليك في أمور وزارته ، وعوّل عليك في تدبير مملكته وجمع لك النظر فيما
وراء سرير خلافته ؛ فخرّت الأمور بمقاصدك السعيدة على إيثار أمير المؤمنين
وإرادته ، واستمرّ أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته ، وشملت الميامن
والسعود أتمّ استمّال على تفصيله وجملته ؛ وأنحسمت الأدواء ، وذلت بسطوتك
الأعداء ، وزالت في أيامك المظالم والأعتداء ؛ وحسنت بأفعالك الأمور ، وظهرت
الصّلاح وكان قبل وزارتك قليل الظهور ؛ فانبسطت الآمال ، وأنسقت الأعمال ؛
وأفقع الضلال ، وأمنت الأهوال ؛ وخلصت من الرأى السقيم ، وحظيت بالملك
العقيم ، وغدا جُنْدُها ورعاياها بركة رأيك في النعم المقيم .

فلما رمقت عين الكمال ، وألهب قلوب حسدتك مأوتيته من تمام الخلال ،
تكاثرت من يحوك المكاييد ، وتظافرت عليك المنافس والمعاند ؛ ورنّت إليك إساءة من
عاملته بالإحسان ، وعدت عليك خيانه من أتمته أتمّ أثماناً ؛ وتمّ له المراد بوفائك^(١)

وَعَدْرَهُ ، وَسَلَامَةِ صَدْرِكَ وَمَكْرِهِ ، وَاتِّفَاقِ ظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ وَمُبَايَنَةِ سِرِّهِ لَجْهَرِهِ ؛
فَكَانَ مَا هَوَّنَهُ فِي نَفْسِهِ سَلَامَةُ النَّفْسِ وَأَكْبَرُ الْوَلَدِ ، وَمُنَحٌ فِي اسْدَادِهِ نِعْمًا لَا تَحْصِرُ
بَعْدَ ؛ وَأَفْطَحَ مَا كَانَ فِيهِ مَا أُصِيبَ بِهِ وَلَدُكَ الْأَكْبَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أُصِيبَ
وَهُوَ مَظْلُومٌ ، وَلَوْ لَمْ يُصَبِّ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنَ الْأَجَلِ الْمُحْتَمُومِ ؛ فَرِحْتَ بِمَا نَالَكَ ثَوَابًا ،
وَأَسْتَفْتَحَ لَكَ الْحِطُّ مِنَ النَّصْرِ عَلَى الْبَاغِي بَابًا ؛ وَأَغْتَصَبَ الْغَادِرُ مَا لَا يَسْتَحِقُّ ،
وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِصُورَةِ الْمُبْطِلِ وَرَأَى بِصُورَةِ الْمُحَقِّ ؛ وَهَدَتْكَ السَّعَادَةُ إِلَى الْعَمَلِ
بِسِيرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، فِي الْأَنْحِيَازِ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالتَّبَاعِدِ عَنْ أَهْلِ الْغَيِّ وَالْإِعْتِدَاءِ ؛ فَانْسَلَتْ
مِنَ الْغَوَاةِ أُنْسَالُ الصَّارِمِ مِنْ غَمِّهِ ، وَتَوَارَيْتَ مِنَ الْعَتَاةِ تَوَارَى النَّارُ فِي زَنْدِهِ ؛
وَقَطَعْتَ الْمَفَاوِزَ مَصَاحِبًا لِلْعُقْرِ وَالْعَيْنِ ، حَتَّى حَلَلْتَ بَرَبَوِيَّةَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ؛
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُمِدُّكَ فِي ذَلِكَ بُدْعَانَهُ ، وَيُعِدُّكَ لِتُدِيرَ دَوْلَتَهُ وَقَعَ أَعْدَائُهُ ؛ وَرَأَى
وَأَنَّ أَبْعَدَتْكَ الضَّرُورَاتُ عَنْ بَابِهِ ، وَأَنَّكَ الْحَادِثَاتُ عَنْ جَنَابِهِ ، أَنَّكَ وَزِيرُهُ
الْمَكِينُ ، وَخَالِصَتُهُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ؛ الَّذِي لَا يَنْزِعُ عَنْهُ شَمْسَ وَزَارَتِهِ ، وَلَا يُؤْمِرُهُ
غَيْرَ سُلْطَانِهِ وَمَمْلَكَتِهِ .

وَلَمَّا وَجَّهْتَ إِلَى أَعْمَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِنِ اسْتَصْحَابَتِهِ رَاجِعًا مِنْ عُدُوكَ الْأَنْتِصَارِ ،
قَاصِدًا إِدْرَاكَ الثَّارِ ؛ وَحَلَلْتَ بِعَقْوَتِهِ ^(١) ، وَخِيَّمْتَ فِي جِهَتِهِ ؛ فَاتَّصَلَتْ بَيْنَكُمْ الْحُرُوبُ ،
وَعَزَّ عَلَى كُلِّ مِنْكُمَا نَيْلُ الْمَطْلُوبِ - أُنْجِدْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ عِلْمِهِ بِبُلُوغِ الْكُتَابِ
أَجَلَهُ ، وَاسْتِيفَاءِ الْوَقْتِ الْمَحْدُودِ مَهَلَهُ ، بِإِظْهَارِ مِيلِهِ إِلَيْكَ وَمِيلِهِ عَنْ ضِدِّكَ ، وَأَنَّ
قَصْدَهُ مُبَايَنٌ لِقَصْدِ الْمَذْكُورِ مُوَافِقٌ لِقَصْدِكَ ؛ فَسَبَّبَ ذَا نَصْرِكَ وَخِذْلَانَهُ ،
وَتَقْوِيَتَكَ وَإِيهَانَهُ ؛ وَلَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَالِهِ عَنَاءٌ تُسْعِدُكَ ، وَرِعَايَةٌ تُؤَيِّدُكَ .

(١) أى بساحته يقال ما بعقوة هذه الدار مثل فلان .

فحين عُدت إلى بابه عودَ الشُّموس إلى مشارِقها قَبْلَكَ أَحْسَنَ قَبُولٍ ، وتلقَّاك
بتبليغِ السُّول ؛ وكشفَ الغطاءَ عما كان يُسرُّه إليك ويُضمره ، ويريده بك ويؤثره ؛
وجدت لك ما كنت تنظر فيه من الوزاره ، ومباشرة ما كان مردودا إليك من السفارة
والظَّهارة : لأنك أوحدُ ملوكِ العصر كمالا ، وأوسعهم في حسن التدبير مجالا ؛ وأشرفهم
شيما بديعة وخلا ، وأصلحهم آثارا وأعمالا ؛ وأتمهم سعادة وإقبالا ، وأكثرهم
تقيَّة لله تعالى ؛ وما زلت لأفانرجامعا ، ولراية المجد رافعا ؛ ولذرى العلاء والسَّناء
فارعا ؛ تردأُ العصور بعصرك ، وتجمَلُ الدنيا ببقاء نبيك وأمرك ؛ وتتعجب
الأفلاك العلية من سعة صدرك ، وتتضاءلُ الأقدارُ السامية لعظيم قدرك ؛ وكم لك
من منقبة تجلُّ أن يكيِّفها بديعُ الأقوال ، وتعظمُ أن يمتَّاها بديعُ الأقوال ؛ فالدولة
العلوية بتدبيرك مخنلة زاهية ، وأركانُ أعدائها وأضدادها بحزمك وعزمك وإهيته ،
وسعادات من تضمه وتشتمل عليه متضاعفة غير منقطعة ولا متناهية ؛ ولم تزل
للإسلام سيفا قاطعا ماضيا ، وعلى الإلحاد سيفًا مرهفا قاضيا ؛ تدودُ الشرك عن
التوحيد ، وتصد الكفر عن الإيمان فيجيدُ مرعما ويبيد . وكم لك في خدمة أئمة
الهدى من مأثرة تؤثّر فتبهج ، ويورد ذكرها فيغري بالثناء عليك ويلهج ؛ وتبذل
في طاعتهم النفس والولد ، وتنتهى في مناصحتهم إلى الأمد الذي ليس بعده أمد ؛
فلذلك فزت بدعواتهم التي أعقبك حسن العواقب ، وأحلتك المحل الذي لا تسمو
إلى رقيه النجوم الثواب ؛ فإذا رفعك أمير المؤمنين إلى منزلة سامية ، وجد محلك
لديه عنها يجلُّ ويسمو ، وإذا خصك بفضيلة ما ، صادف استحقاقك عنها يرتفع
ويعلو ؛ وإذا استشف خصائصك ، وجدها بديعة الكمال ، يمتنع أن يدرك مثلها

(١) الأقوال جمع قَل (وأصله من ذوات الواو) وهم ملوك حير ويجمع أيضا على أقيال على

يُحْرِصُ سَائِعَ أَوْيُنَالَ ؛ وقد تَوَافَقَتِ الْخَوَاطِرُ عَلَى أَنَّكَ أَوْحَدُ وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ
ظَفَرًا وَنَظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي طَاعَتِهَا وَغَالِصَتِهَا أَتَمًّا ، وَأَفْضَلُهُمْ خُبْرًا وَأَطْيَبُهُمْ خَبْرًا ؛
وقد جَدَّدَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَصْطَفَاءَكَ لَوِزَارَتِهِ ، وَاجْتِبَاءَكَ لِتَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ ، وَجَعَلَكَ
الْفَرْدَ الْمَشَارَكَ فِي دَوْلَتِهِ .

فَتَقَلَّدَ مَا قَلَّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْمِهْمَاتِ الْحَسَامِ ، وَتَسَمَّى مَا وَطَّدَهُ لَكَ مِنْ
هَذِهِ الرُّتَبِ الْعِظَامِ ؛ وَتَلَقَّى آلاءَهُ بِمَا يُثَبِّتُكَ فِي جَرَائِدِ الْأَبْرَارِ ، وَيَمْتَحُكُ مَصَاحِبَةَ التَّوْفِيقِ
فِي الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ ؛ وَبَاشَرَ مَا نَاطَ إِلَيْكَ مِنْ كَبِيرِ الْأُمُورِ وَصَغِيرِهَا ، وَجَلِيلِ الْأَحْوَالِ
وَحَقِيرِهَا ؛ وَأَبْسَطَ يَدَكَ فِي تَدْبِيرِ دَوْلَتِهِ ، وَأَنْفَذَ أَوْامِرَكَ فِي أَرْجَاءِ مَمْلَكَتِهِ ؛ وَأَعْنَبَ بِمَا
جَعَلَهُ لَكَ مِنْ تَدْبِيرِ جُيُوشِ الْمَيَّامِينَ وَأَوْلِيَاءِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَكَفَالَةِ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَدَايَةِ
دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَبَّ أَحْوَالِ جُنُودِهِ وَرَعَايَاهُ أَجْمَعِينَ ؛ وَأَعْمَلَ فِي ذَلِكَ بِتَقْوَى اللَّهِ
الَّذِي مَابَرَحْتَ لَكَ دَابًّا وَطَرِيقَهُ ، وَشِمَّةً وَخَلِيقَهُ ؛ وَبِهَا النِّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، وَالسَّلَامَةُ
فِي دَارِ الْقَرَارِ ؛ وَالْفَوْزُ بِمَعْنَى الْخَلَاصِ ، فِي يَوْمِ الْمُنَاقَشَةِ وَالْقِصَاصِ . فَالْعَارِفُ مِنْ
مَهْدِهَا مَقَامَهُ فِي الْآخِرَةِ تَهْنِئِدًا ، وَأَحْزَنَ بِهَا مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ مَزِيدًا ؛ بِقَوْلِ اللَّهِ
فِي الْكُتَابِ الَّذِي جَعَلَهُ فِي الْإِعْجَازِ فَرِيدًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا
قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

وَرَاقِبِ اللَّهَ فِيمَا أَلْفَاهُ إِلَيْكَ فَقَدْ فَوَّضَ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ ، وَالرَّفْعِ
وَالْخَفْضِ ؛ وَالْوِلَايَةِ وَالْعَزْلَ ، وَالْقَطْعَ وَالْوَصْلَ ؛ وَالتَّوْلِيَةَ وَالتَّصْرِيفَ وَالصَّرْفَ ،
وَالْإِمْضَاءَ وَالْوَقْفَ ؛ وَالغَضَّ وَالتَّيْنِيهِ ، وَالْإِنْخَالَ وَالتَّنْوِيهِ ؛ وَالْإِعْزَازَ وَالْإِذْلَالَ ،
وَالْإِسَاءَةَ وَالْإِجْمَالَ ؛ وَالْإِبْدَاءَ وَالْإِعَادَةَ ، وَالنَّقْصَ وَالزِّيَادَةَ ؛ وَالْإِنْعَامَ وَالْإِرْغَامَ ،

وكل ما تُحدثه تصاريُف الأيام، وتقتضيه مطالبُ الأنام ؛ فهو إليك مُردود، وفيما عُدقَ بنظرك معدود .

وأما العدلُ ومدُّ رواقه ، وإقامةُ مَوَاسِمِه وأسواقِه ؛ والإنصافُ وأتباعُ حُجَّتِه ، والاعتمادُ على أحكامِه وأفضيَّتِه ؛ وكُفُّ عوادي الجورِ والمظالم ، وحملُ الأمرِ على قصدِ التصاحبِ والتَّسالمِ ؛ وإظهارُ شعارِ الدِّينِ ، في إنصافِ المتداعين إلى الشرعِ المتحاكين ؛ والدعوةُ الهاديةُ وفتحُ أبوابها للمستجيبين ، وإعزازُ من يَتَمَسَّكُ بها من كافَّةِ المؤمنين ؛ والأموالُ والنظرُ فيها ، والأعمالُ أفاضلُها وأدانيها - فكلُّ ذلك محرَّرٌ في تقليدِ وزارَتِكَ الأولِ ، وأنتَ أوَّلُ مَنْ حافِظٌ على العملِ به وأكمل .

وأما أمراء الدولةِ الأكابرِ ، وصُدُورها الأماثلِ ؛ وأمرؤها الأعيانُ ، وأولياؤها الذين بسُيُوفِهِم تُقامُ دعائمُ الإيمانِ - فانت شفيعُهُم في كلِّ مكانٍ ، ومُعِينُهُم الذي يُبدِّلُ جُهدَه بغايةِ الإمكانِ ؛ والجاهدُهُم في النَّفْعِ والصَّلاحِ ، والحريصُ على دَفْعِ مايلُهم بكلِّ منهم من الضَّرَرِ والأجْتِياعِ ؛ ومازَلْتَ لهم في الأغراضِ بحضرةِ أميرِ المؤمنين مساعداً ، وعلى مايلُفَّهُم الآرابَ حريصاً جاهداً ؛ وتَحُصُّهُمْ دائماً بعنايتِكَ ، وتُمدِّهم برِعايتِكَ ، وتُعَمِّلُ لهم في الحاجاتِ صائبَ رأيِكَ ؛ فأَجْرَهُم على ما أَلْفَوْه من الاعتناء والإجمالِ ، وبلَّغَهُم من محافظَتِكَ نهاياتِ الآمالِ ؛ فهم أبناءُ الملاحِمِ ، ومُصْطَلُو هَبِّ الجمرِ الجاحِمِ ، ومُصاحِفُو الصَّفاحِ ، المُرهِّفةِ الضُّروبِ ، ومُلاعِبُو الرِّماحِ ، العاسلةِ ذاتِ الكُعُوبِ ؛ ومُعَمِّلُو العِناقِ الأعوجِيَّةِ ، ومُرْسِلُو السَّهامِ المَرِيضَةِ المَبْرِيَّةِ .

وأميرُ المؤمنين يعلمُ أنك بفضلِ فِطرتِكَ ، وثاقِبِ فِطنتِكَ ، وما مَيَّزَكَ اللهُ به من قديمِ حُكْمَتِكَ وتَجَرُّبَتِكَ ؛ تَغْنِي عن الوصايا ، وتُنَزِّه عن توسيعِ الشَّرْحِ في القَضايَا ؛ وإنما أوردَ لك هذا التَّزَرُّعَ منها على جهةِ التَّيَمُّنِ بأوامرِ الأئمَّةِ ، والتَّبَرُّكِ بمَراسِمِ هُداةِ

الأمه ؛ والله يحقق لأمر المؤمنين فيك الأمل ، ويوفّقك في خدمته للقول والعمل ؛
ويعينك على إصلاح دولته ، وأغتنم فرص طاعته ؛ وبذل الجُهد والطاقة
في مناصحته ، والاجتهاد في رفع منار دعوته ؛ ويؤيدك على أعداء مملكته ، ويرشدك
إلى العمل بما يُسبغ عليك لباس نعمته ؛ فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ،
وانته إلى موجب حركه ؛ إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ،
والتحميد .



وعلى ذلك كتب الموفق بن الخلال أيضا عن العاضد بولاية ابن شاوّر السعدي
نيابة الوزارة عن أبيه ، وتفويض الأمور إليه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه (بالقباب الخلافة) إلى فلان (بالنعوت اللائقة به) .

سلام عليك (إلى آخر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقدم
في سبيل الوزارة لأبيه) .

أما بعد ، فالحمد لله مؤيد الحقائق بأفضل الأنصار ، ومُعزّ الممالك بأكمل ذوي
النفاذ والاستبصار ؛ وجاعل الولد البار لوالده رُحماً وسنداً ، والنجل المختار لناجليه
تجدة ومداً ؛ مرتّب الممالك على أفضل نظامها ، ومرقّ الدول إلى المؤثر من إجلالها
وإعظامها : ليتّضح للتأملين فضل تأكيد الأواصر ، ويستبين للناظرين فصل تباين
العناصر ؛ إبراماً منه - جل وعزّ - لأسباب الحكمة ، وتوسيعاً لسبيل الحنان
والرحمة ؛ وشمولاً لما يتتابع به إحسانه من المنّ الجسيم (فضلاً من الله ونعمة
والله عليم حكيم) .

والحمد لله مُعَلِّي الدَّرَجَاتِ وِرَافِعِهَا، وَمُفِيدِ الْأُمَمِ وَنَافِعِهَا؛ وَمُزِيلِ الْبَاسَاءِ وَدَافِعِهَا،
وَجُجِبِ الدَّعَوَاتِ وَسَامِعِهَا، وَمُضَاعِفِ الْمَصَالِحِ وَجَامِعِهَا؛ الَّذِي وَقَفَ عَلَى الدَّوْلَةِ
الْعَلَوِيَّةِ أَحْسَنَ السَّيْرِ، وَخَصَّهَا فِيمَنْ تُؤَثِّرُ أَصْطِفَاءَهُ بِمُسَاعَدَةِ الْقَدَرِ، وَيَسِّرُهَا رَاقِقَ
التَّدْيِيرِ بَعْدَ مَلَاسَةِ الرِّثْقِ وَالْكَدَرِ؛ وَأَدَّخَرَهَا مِنَ الْأَصْفِيَاءِ مَنْ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِأَنْوَارِهِ،
وَتُزَيِّنُ الدُّهُورَ بِحَاسِنِ آثَارِهِ؛ وَتَسْمُوُ الْمَفَاخِرُ بِمَفَاحِرِهِ، وَيَتَوَالِي الثَّنَاءُ عَلَى مَا أَبْتَكَرَهُ
مِنَ الْمَكَارِمِ فِي أَوَّلِ نَسَبِهِ وَآخِرِهِ؛ وَيَتَنَابَعُ الْإِحْسَادُ لِمَنْ يَخْتَارُهُ وَيَحْتَبِيهِ، وَتَتَضَاعَلُ
أَقْدَارُ الْمُلُوكِ إِذَا ذُكِرَ فَضْلُهُ وَفَضَّلُ أَبِيهِ؛ وَتَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَى تِمَامِ وَرَعِهِ وَدِينِهِ،
وَيَتَنَقَّلُ لِسَانُ الْإِجْمَاعِ بِصِحَّةِ مَعْتَقَدِهِ وَيَقِينِهِ .

والحمد لله الَّذِي شَمِلَ الْبَرَايَا فَضْلُهُ، وَعَمَّ الْخَلَائِقَ عَدْلُهُ، وَأَقَرَّتِ الْعُقُولُ بِأَنَّهُ إِلَيْهِ
يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي أَحْظَتْ دَوْلَتَهُ الظَّاهِرَةَ، بِمُؤَاظَرَةِ الْبَيْتِ
الْجَلِيلِ الشَّائِرِيِّ، وَأَيَّدَتْ مَمْلَكَتَهُ الْقَاهِرَةَ، بِحِمَايَتِهِ عَنْ حَوَزَتِهَا بِالْعَضْبِ الْمُرْهَفِ
وَالسَّمْهَرِيِّ؛ وَيَشْكُرُهُ عَلَى مَنِّهِ الَّتِي اسْتَخْلَصَتْ لَهُ مِنْهُ أَنْصَارًا يُرْهِفُونَ فِي طَاعَتِهِ
الْعِزَّاءِ، وَيُحَقِّقُونَ فِي إِرَادَتِهِ الْعِظَائِمِ، فَيُدْبُونُ عَنْ حَوَزَتِهِ وَلَا يَخَافُونَ فِي ذَاتِ اللَّهِ
لَوْمَةَ لَائِمٍّ؛ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصِلِّيَ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ الدَّاعِي إِلَى الْهُدَى، وَالْمَبْعُوثِ إِلَى الْخَلَائِقِ
وَهُمْ إِذْ ذَاكَ سُدَّيْ؛ وَالْمُنَاضِلِ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ بِالْأُسْرَةِ وَالْآلِ، وَالْمُطَّرِحِ
عَاجِلِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ لِأَجْلِ الْمَالِ؛ وَعَلَى أَبِيهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي
أَقَامَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَنَكَرَ الْأَوْدِ، وَقَامَ لِنَبِيِّ اللَّهِ مَقَامَ النَّجْلِ الْمُرْتَضَى وَالْوَلَدِ؛ وَقَطَّ مِنْ
طَوَاغِيتِ الْكُفْرِ شَائِخَ الْهَامِ، وَأَوْضَحَ غَامَضَ التَّنْزِيلِ بِمَا أَفْرَدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ مَزَايَا

الإلهام؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِهِمَا أبناءِ الرِّسَالَةِ والإمامه، والمختصِّين بِإِثْرِ بَيْتِهِ المُحِبِّو
بِتَظْلِيلِ الْعَمَامَةِ؛ والقائمين بِبُصْرَةِ الدِّينِ، والمتفردِينَ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

وإنَّ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا أَقامه اللهُ لَهُ من تَمَكِّينِ قَوَاعِدِ الدِّينِ، واختاره لإيضاحه
من إرشادِ فِرْقِ المُسْلِمِينَ؛ وأفضى بِهِ إليه من سِرِّ الإمامَةِ المُكْنُونِ، وألقاه إليه من
خَفَايَا الإلهَامِ الذِي تُسْتَبْطِطُ من أنوارها عِلَّةُ مَا كَانَ وَيَكُونُ؛ وأمدَّهُ [بِهِ] من التأييدِ
الذِي يَسْتَأْصِلُ طَوَاغِيتَ التَّفَاقُقِ بِقَوَارِعِ المَهَالِكِ، وَيُسَلِّكُ بِمَرَدَةِ أَهْلِ العِنَادِ أَوْعَرَ
السُّبُلِ والمَسَالِكِ؛ وَأعجدهُ فِي كُلِّ الحَالَاتِ بِالْأُلَاطِفِ الخَفِيَّةِ الَّتِي تُنْكَفِلُ بِإِعْلَاءِ
كَلِمَتِهِ، وتُتَضَمَّنُ نَصْرَ أعلامه وَذُخْرَ دَعْوَتِهِ؛ وآتاه جوامِعَ المعارِفِ والحِكَمِ، وفرضَ
طَاعَتَهُ عَلَى مَنْ دَانَ بالتَّوْحِيدِ مِنْ جَمِيعِ الأُمَمِ؛ وألزمَ مَقاصِدَهُ وأَنْجَاءَ التَّوْفِيقِ،
وأوجبَ لَهَا السَّعَادَةَ فِي كُلِّ جَلِيلٍ ودَقِيقٍ - يَفُوضُ أَمْرَهُ إِلَى الخَالِقِ، وَيُفِيضُ
جُودَهُ وَرِيَّهُ فِي الخَلَائِقِ؛ فلا يَزَالُ لأحوالِ دَوْلَتِهِ مُرَاقِبًا، ولا يَنْفَكُ يُفِيدُ كُلَّ
مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا نَظْرًا ثاقِبًا؛ فإذا لَاحَظَ لَهُ لَأَمَحَةً صَلاَحَ، أو بَدَتْ لِنَظَرِهِ مَحْمِلَةٌ نَجَاحَ،
أَجْتَهِدَ فِي تَوْسِيعِ نَجَاحِهَا، وَحَرَّضَ عَلَى حَتْمِهَا وَقَصْدِ إِعْجَالِهَا؛ وَأَتَمَسَّ لِلدَّوْلَةِ أَجْتِلَابَهَا،
وَفَتَحَ إِلَى اسْتِدْعَاءِ النِّفْعِ بَابَهَا: لِيَنْمِيَ الخَيْرُ العَمِيمُ، فِي دَوْلَتِهِ، وَيَتَضَاعَفَ النِّفْعُ
الجَسِيمُ، لِرَعِيَّتِهِ؛ وتَكُونُ كَافَّةُ الخَلْقِ فِيهَا بِالأَمْنَةِ والسُّكُونِ مَغْمُورِينَ، وَبِحُسْنِ
صَنِيعِ اللهِ بِهِمْ فَرِحِينَ مُسْرُورِينَ .

ولَمَّا تَصَفَّحَ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ أحوالَ دَوْلَتِهِ، وتأمَّلَهَا تأمُّلًا من يُؤْثِرُ أَنْ يَفْقَهُ الفَحْصَ
فِي كُلِّ مَهْمٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ، رَأَى أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ مَنَحَ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خَالِصَتِهِ
وَصِفِيَّتِهِ، وَوزِيرَهُ وَكَافِيَهُ وَوَلِيَّهُ؛ السَّيِّدَ الأَجَلَّ (بالنعوتِ والدعاء) الذِي قَامَ بِبُصْرَتِهِ،
وَكَفَّلَ أَهْوَالَ الحُرُوبِ بِنَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأُسْرَتِهِ؛ وحالفَ التَّغَرُّبَ والأسْفَارَ،

واستبدل من لين العيش بملاقاة السهام واللهازم والشفار؛ واتخذ ظهور الجياد عوضاً من الحشايا، ومنازلة الأبطال دأباً في الحنادس والبكر والعشايا؛ وآثر على لبس الغصص المونق الحديد، لباس اليلب ولألمات الحديد؛ ولازم في ذات الله قرع أبواب الخُوف، والتهجم على كل مخشى مخوف؛ حتى ذل الأعداء، وقمع الاعتداء، وحسم الأدواء، وأزم الدهر بعد خطئه الاستهواء؛ وأفاد دولة أمير المؤمنين باجتهاده عزاً، وأذخر لها عند الله من الأجر والثوبة كنزاً؛ وسير عنها في الآفاق أحسن الأحاديث، وبين فضلها على غيرها في القديم من الدهر والحديث؛ وأخلص لأمر المؤمنين في الطاعة حتى استخدم الموالى الموافق، والمباين المنافق؛ وكل فضائله التي لا تُحَد، ومحاسنه التي لا تُحصَر ولا تُعد؛ بفضيلة تفتت الفضائل، ومُنْجبة تفوق بفخرها المناقب الجلائل: وهى ما وجهه الله [له] من بؤة الأجل فلان الذى لم يزل للدولة عزاً حاضراً، وولياً ناصراً، وعوناً قاهراً، ومجداً ظاهراً، وجملاً باهراً. وما برح الله - جلّ وعلا - مراقباً، ولِرِضاه وغفرانه طالباً؛ قد جمع إلى كمال الدين وصحة اليقين، المخالصة في طاعة أمير المؤمنين؛ لا يفتر منذ مدة الطُفُولَةِ [عن] درس القرآن، ولا يبارى بغير الأمور الدينية نُجباء الأقران؛ إن تصفّحت محاسنه الدنيوية عدّ ملكاً مهذباً، وإن تأملت مناقبه الدينية حسب ملكاً مقرباً؛ وكم له من منقبة تستنقص الغيوث، وشجاعة تستجيب اللبوث؛ ومهابة تردّ أحاديثها الجيوش على الأعقاب، وتغريها بموالاة الحذر والارتقاب؛ إذا أسهبت الخطوب أوجز تدييره، وإذا استطالت الحوادث قصّر طولها فأعجب تقريره؛ فالدولة العلوية من ذبّه في الحرم الآمن، والخلافة العاضدية من ملاحظاته في تدبير يجمع أشنات الميامن؛ فأجتمع المآثر قد وحده، بشهادة الإجماع، وتوالى المحامد قد أفردته، بما شاع منه في الممالك وذاع؛ تتحاسد عليه غر الأخلاق، وتنافس فيه المكارم منافسة

ذوات الإشراف؛ فلا تُوجد خَلَّةٌ فضليّ بارِع إلا وقد جَمَعها، ولا مِكنةٌ جَبَر قارع إلا وهو الذي مَهَّد مَحَجَّتْها ووسَّعها، ومَقاماتُه في الجهاد والحِداد مقاماتٌ أوضَحَت الحقائق للأفهام، وثَبَّت الدقائق تَثْبِيَتًا يَبْقَى على غَايَر الأيام؛ وأَعَزَّت دعوة الدولة العَلَوِيَّة وأَيَّدَتْها، ونَصَرَتْ أعلامها ونَشَرَتْها، وأَكسَفَتْ بالتفضيل والإحسان رِجالها، وأزالَتْ بِالْحَدِّ والتَّشْمِيرِ أَوْجَها؛ ومَحَتْ آثارَ عُدَّتِها بالسُّيُوف، وأَلْفَتهم عن النِّكَايات المُجَحِّفة بوزع المَنَايا والخُتُوف .

والحُرُوبُ قَرِيباه في مُهُودها، وَمَنَشاها بَيْنَ أُسُودها، ورُعاتُها وَقَفَّ على إضرامها وإِخمادِ وَقُودها؛ فإذا تَوَرَّدَها تَوَرَّدَها بِاسْمِها مَتَهَّلًا، وإذا أَقْتَحَمَ مَضايِقَها تَصَرَّفَ فيها مَتَوَقِّفًا مَتَهَّلًا؛ لا يَحْفِظُ بِأَهْوَها، ولا يُرَى لِقارِعَةٍ من عِظائِمِ قَواريِعِها وإِلْها؛ وَحَسْبُكَ فَتَكَاتُه في طُغاةِ الكُفَّار، وقَصْدُ أولِياءِ الدولة بالإِظْهَار: فَإِنَّ الكُفَّار حينَ نَهَدُوا لِلنِّفاق، وَاجْتَلَبُوا أَشْباهُهم من بَعِيدِ الآفاق؛ وَتَهَجَّمُوا على الأَعْمالِ بِجَاهِهم بِعِزَّةٍ من عِزَماتِه أَقامت رايةَ الدين، وجعلَتْهم حَصِيدًا خامِدِينَ؛ وَأَفْنَتْ مِنْهم الصَّنَادِيدَ، وَأَصْطَلَمَتْهم بِبَلَايا تَرِيدُ على التَّعْدِيدِ؛ وَاجْتَحَقَّتْهم بِالْقَتْلِ والأَسْرِ والتَفْرِيقِ، ورَمَتْهم بِدِوَاهٍ لا يَقْدِرُ بَشَرٌ على دِفَاعِها ولا يُطِيقُ؛ وَلَمَّا أَلْتَجَأ طاعِيَةُ الكُفْرِ إلى الحَيَرَةِ وَرَكَدَ، ورَأَمَ الأَعْتِصامَ بِعُروتِها وَاجْتَهَدَ، وَاعْتَرَبَ بِما مَعَهُ من الجَمْعِ وَكَثْرَةِ العَدَدِ؛ نَهَدَ إِلَيْهِ في الأَبْطالِ الأَنْجَادَ، وَنَهَضَ نَحْوَها ثابِتًا لِلِقَراعِ والحِدادِ؛ فَأزاله عن مَجْمَعِهِ، وَذَعَرَهُ دُعْرًا شَرَدَهُ عن مَعْلَمِهِ؛ ورَماه بِالْحَرَكَ بعد السُّكُونِ، والتَّعَبِ الذي قَدَّرَ بِاعْتِزَالِهِ أَنَّ مِثْلَهُ لا يَكُونُ؛ وَكَمَ لَهُ فَتْكَةٌ في أَهْلِ العَمُودِ ذَلَّتْ جِماحُهم، وَاسْتَلَبَتْ أرواحُهم، وَأَعادَتْ لَيْلاً بِالنَّقْعِ صَباحُهم .

وعند تَمَادِي عَتَاةِ الْكُفَّارِ فِي الْإِصْرَارِ، وَجَوَسِهِمْ خِلَالَ الدِّيَارِ؛ وَفَقْهِهِمْ فِي وُجُوهِ الْأَذَى وَالْإِضْرَارِ، وَطَمَعِهِمْ فِي أَجْتِيَاكِ أَهْلِ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْطَارِ - عَوَّلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَسْتِثْصَالِهِمْ عَلَى عَزَمِهِ، وَاعْتَصَدَ بِذَبِّهِ وَحَسَمِهِ؛ وَجَعَلَ إِلَيْهِ التَّدِيرَ بِالْقَاهِرَةِ الْحُرُوسَةِ الَّتِي هِيَ عُمْدَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَدَارُ هِجْرَةِ الْإِمَامِ، وَمَعْقِلُ الْخِلَافَةِ مُنْذُ غَابِرِ الْأَيَّامِ؛ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِي رَبِّ جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، وَتَأْمِينِهَا مِنْ بَوَائِقِ الْأَوْجَالِ؛ فَبَثَّ بِالْحَضَرَةِ وَالْأَعْمَالِ مِنْ مَهَابَتِهِ مَاشَرَتِ الْأَوْغَارِ، وَسَهَّلَ الْأُمُصَارَ، وَمَحَقَ الضَّلَالَ، وَأَذَقَهُمُ النَّكَالَ؛ فَعَمَّ السُّكُونُ وَالْأَمْنَةُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَى الْأَعْمَالِ السِّيَاسَةُ الْمُسْتَحْسَنَةُ؛ بِخَادَتِ بَنْصَرَةِ الْأَيَّامِ وَصَلَاكِ الْوُجُودِ، وَاعْتَبَطُوا مِنْ تَدْيِيرِهِ بِصُعُودِ الْجُدُودِ، وَرَتَعُوا مِنْ عِنَايَتِهِ فِي عَيْشِ يُضَاهِي عَيْشَ جَنَّاتِ الْخُلُودِ؛ فَالْبَلَاغَاتِ بِأَسْرَافِهَا لَا تَقُومُ بِمَدْحِ مَا أُوتِيَ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَلَا يُوَازِي مَجْمُوعُهَا مَنَقِبَةً مِنْ مَنَاقِبِهِ الَّتِي أَرَبَى بِهَا عَلَى الْمُلُوكِ الْأَوَاخِرِ وَالْأَوَائِلِ؛ وَالْخَصَائِصُ الْمُلُوكِيَّةُ يُجْمَلُهَا فِيهِ جِلَّةٌ وَفِطْرُهُ، وَإِذَا قِيسَتْ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ فَضْلِهِ بِمَا تَفَرَّقَ فِي جَمِيعِ الْمُلُوكِ كَانَتْ فَضَائِلُهُ بِمَنْزِلَةِ الْبَحْرِ وَمَجْمُوعُ فَضَائِلِ الْمُلُوكِ بِمَنْزِلَةِ الْقَطْرَةِ؛ وَقَدْ طَرَزَ فَضَائِلُهُ الْبَدِيعَةَ، وَخِلَالَ السَّامِيَةِ الرَّفِيعَةَ، مِنْ مُوَالَاةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنَاصِحَةِ دَوْلَتِهِ بِمَا تَكْفُلُ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنِهَايَاتِ مَغَانِمِ الثَّوَابِ الشَّرِيفَةِ الْفَاحِرَةِ؛ فَلَيْلَهُ وَنَهَارُهُ مَضْرُوفَانِ إِلَى الْمَجَاهِدَةِ عَنْ دَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي هِيَ دَوْلَةُ التَّوْحِيدِ، وَالْمُخْلِصِ فِيهَا مُعْرَضٌ لِكُلِّ مَقَامٍ سَعِيدٍ؛ فَحَاسِنُهُ تَرْفَعُ عَنْ قَدْرِ التَّقْرِيزِ وَالْمَدِيحِ، وَلَا تُقَابِلُ إِلَّا بِمُوَالَاةِ التَّسْبِيحِ .

وَمَا أَحَدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَثَرَهُمَا فِي خِدْمَتِهِ، وَشَكَرَ قَصْدَهُمَا فِي دَوْلَتِهِ؛ وَكَانَ السَّيِّدُ الْأَجَلُّ قَدْ بَلَغَ إِرْبَهُ فِي الْخِلَالِ، وَحَلَّ الْمَحَلَّ الَّذِي لَا تَتَعَاطَاهُ جَوَائِحُ الْأَمَالِ؛ وَقَدْرُهُ يَشْرَفُ عَنْ كُلِّ تَكْرِيمٍ، وَمَوْضِعُهُ يَتَيَّزُ عَنْ كُلِّ مَنْ جَسِيمٍ، وَمَنْزِلَتُهُ تَسْمُو عَنْ كُلِّ تَعْظِيمٍ - فَأَوْصَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَ الْأَجَلُّ أَنْ يُقَرِّرَ لَهُ جَمِيعَ خِدْمَتِهِ، وَيُسَيِّغَ عَلَيْهِ

فِي الْمُسْتَأْنَفِ أَضْفَى نَعْمَهُ : فَإِنْ مَحَلَّهُ يَرْتَفِعُ عَنْ مَحَلِّ الْخِدْمِ الْجَلِيلَةِ ، وَيَسْمُو عَنْ كُلِّ تَصَرُّفٍ يَسِمُهُ فِي الدَّوْلَةِ بِسِمَةِ جَمِيلَةٍ ؛ وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّدَ الْأَجَلَ أَنْ يُعْلَنَ بِإِسْنَادِ النِّيَابَةِ عَنِ وَالِدِهِ فِي أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ إِلَيْهِ ، وَيُشْهَرَ أَنَّ ذَلِكَ مَعُولٌ فِيهِ عَلَيْهِ : لِيُخَفَّفَ عَنِ السَّيِّدِ الْأَجَلَ أَمِيرَ الْجِيُوشِ أَمْرَ أَثْقَالِهَا ، وَيَتَحَمَّلَ عَنْهُ تَكْلِفَهُ بَعْضَ أَحْوَالِهَا ؛ تَرْفِيهَا لِلْسَّيِّدِ الْأَجَلَ عَنِ التَّعَبِ ، وَتُخَفِّفًا مِنْ كَثْرَةِ النَّصَبِ ؛ عَلَى أَنْ عُلُوُّ قَدْرِهِ الْأَجَلَ لَمْ يُحْلِهِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مِنْ مِشَارَكَةٍ فِي التَّدِيرِ ، وَلَا صَدَّهُ عَنْ مِمَّا جَرَتْ فِيهِمْ كَبِيرٌ ؛ بَلْ مَا بَرِحَتْ يَدُهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ جَائِلًا ، وَجَلَّالَةً مَنْصِبُهُ تَقْضَى بِأَنْ تَكُونَ تَصَرُّفَاتُهُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ شَامِلَةً ؛ وَتَوْقِيعَاتُهُ مَاضِيَةً فِي الْأُمُورِ وَالرِّجَالِ ، وَالْجِهَاتِ وَالْأَعْمَالِ ؛ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّدَ الْأَجَلَ يَسْتَسْعِدَانِ بِأَدَاتِهِ ، وَيَتَّبِعَانِ فِي كُلِّ السِّيَاسَاتِ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِإِرَادَاتِهِ : لِمَا خَصَّهُ اللَّهُ [بِهِ] مِنَ الْمَرَامِي الصَّائِبَةِ ، وَلِلْمَقَاصِدِ الَّتِي السَّعَادَةُ عَلَى مَا يَرِدُ مِنْهَا مُوَاطِبَةٌ ، وَجَبَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَافِظَةِ عَلَى حُسْنِ الْمَرْجِعِ وَحَمِيدِ الْعَاقِبَةِ - نَخَرَجَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى السَّيِّدِ الْأَجَلَ بِالْإِيعَازِ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنِّشَاءِ بَكْتَبِ هَذَا السَّجَلِّ لَكَ : فَتَقَلَّدَ مَا قُلَّدْتَهُ مِنَ النِّيَابَةِ عَنِ وَالِدِكَ فِيمَا إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَأَحْوَالِ دَوْلَتِهِ ؛ مُعْتَمِدًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي بِهَا نَجَاةُ أَهْلِ الْيَقِينِ ، وَفَوْزُ سَعْدَاءِ الْمُتَّقِينَ ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ . وَاحْمِلْ عَنِ السَّيِّدِ الْأَجَلَ وَالِدِكَ مَا يُؤَثِّرُ أَنْ تَحْمِلَهُ عَنْهُ مِنَ الْأَثْقَالِ ، وَتَكْفُلْ مَا يَكْفُلُكَ إِيَّاهُ مِنَ الْأَشْغَالِ ؛ وَنَفَّذْ مَا يَخْتَارُ أَنْ تُنَفِّذَهُ ، وَأَنْجِزْ مَا يُؤَثِّرُ أَنْ تُنْجِزَهُ ؛ وَأَمِضْ مَا يُسِيرُ إِلَيْكَ بِإِمضَائِهِ مِنْ أَسَالِبِ التَّوْقِيعَاتِ ، وَفُتُونِ الْمُهِّمَاتِ ؛ وَقُمْ فِي كُلِّ مِنْ أُمُورِ نِيَابَتِكَ الْمَقَامَ الَّذِي يُرِضِيهِ ، وَيُوجِبُهُ بَرُّكَ وَيَقْتَضِيهِ ؛

(١) فِي الْأَصْلِ «إِلَيْكَ إِلَى إِمضَائِهِ» وَلَا يَخْفَى ضَعْفُهُ أَوْ بَطْلَانُهُ .

وقد جعلك الله ميمون القيبه ، مسعود الضريبه ، مكلل الآدوات ، موهلا لترقى
الغايات ، لا تكبر عن مباشرتك كبيره ، ولا تشف^(١) عن ربتك رتبة خطيره ، وأجر
على عادة والدك فى حسن السياسة والتدير ، والإجمال للأولياء لكما فى كل صغير
من الأمور وكبير .

والوصايا متسعة الفنون ، كثيرة الشجون ، ولك من مزية الكمال ، وفضيلة
الجلال ، ومساعدة الإقبال ، والخبرة بالجهات والأعمال ، وطوائف الأولياء والرجال ،
مأعينك على استنباط دقائقها ، والعمل بحقائقها ، وسلوك أحسن طرائقها .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عليك ، فاعمل بأحكامه ، وأجر أمورك على
نظامه ، وبالغ أيها السيد الأجل أمير الجيوش فى شكر نعمة الله التى ألهمت الملوك
إشاعة فضلك ، وربت السعود على اكتناف عقدك وحلك ، ومنحتك آية كلم الله
بفعلت لك وزيراً من أهلك ، فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك
ورحمة الله وبركاته .



وعلى ذلك كتب بعض كتابهم عن العاضد ، لرزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ،
بولاية المظالم وتقديمه العسكر فى وزارة أبيه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه فلان أبى فلان الإمام الفلانى (بلقب الخلافة) أمير المؤمنين ،
إلى فلان (بلقبه وكنيته) .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن
يصلّى على جدّه محمّد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه
وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلّم تسليماً كثيراً .

(١) فى القاموس "شف يشف شفا زاد ونقص" .

أما بعد، فالحمد لله الغامر بالطول والفضل، الأمر بالإحسان والعدل؛ موسّع
سُبُل الصّلاح لبريّه، ومسبّب أسباب النّجاح لدينه الخفيف ومثله؛ وجاعل أبرار
أوليائه ذخائر معدّة لنفع الخلق، ومُصطفى سعادٍ أحبّائه لإعلاء منار الشرع وإقامة
قسطاس الحق؛ وميسّرهم للنهوض بالأعباء التي تتكفّل بعصّد الدولة العلوية وتقوم،
ومحتّيهم للفصل بمرضاة فيما يقضى بإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم؛ الذي تنقاد
بمشيئته الأمور، وتتصرف بإرادته الدّهور، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛
ويعدّو فضله على عباده جسيما، ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والحمد لله الذي أوضح بآنيائه سُبُل الهدى للأَنَام، وأتقدّ بإرشادهم من عبادة
الأوثان والأصنام؛ وأقام بجتهادهم أحكام مآشره من الملل والأديان، وأذهب
بأنوارهم ماعمر الأمم من غياهب الظلم والعدوان؛ وقفى على آثارهم بمن لانبوة بعد
نبوته، ولا حجة أقطع من حجته؛ ولا وصلة أفضل من وصلة ذنرها لأمتّه، ولا ذرية
أقوم بحق الله في حفظ نظام الإيمان من عثرته وذريته.

يمجّده أمير المؤمنين على أن مكر له في الأرض، وذخر شفاعته لذوي الولاء
في يوم النشور والعرض؛ وأورثه خصائص من مضى من أئمة الهدى آبائه، وأفرده
بمعجز التأييد الذي أضاعت الآفاق بمشرق أنبائه؛ ويشكره على أن أئمة دولته
بكفيل جدّد جلبابها، وظهير أحكم أسبابها، ونصير بلغ بها في الولي والعدو مطالبها
وآرابها؛ واستنجب له من نجله خيلا يتلوه في الفضائل البارعة، وناصرًا يحاول
في الدبّ عن حوزته عزما أمضى من السيوف القاطعة؛ وعصدا يقوم له بإرضاء
الخالق والمخلوق، ومُسعدا لا يألو جهدا في إيصال المستحقين إلى ما جعله الله لهم

من الحقوق . ويسأله أن يصلي على جدّه محمّد سبيد من بلغ عن الله رسالةً وأمرًا ، وأفضّل من دعا إلى توحيد بارئهِ سرًّا وجهراً ؛ وأكمل من جاهد عن دينه حتى ظهرت بعد الدُّروسِ جدّته ، وفهرت إثر الخُضوعِ عزّته ، وانتشرت في المشارق والمغارب كلمته ودعوته ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمّه أبينا على بن أبي طالب قسيمه في الشرف والأبوة ، وصديقه الأكبر فيما جاء به من النبوة ؛ والمكمل بالنصّ على إمامته الدّين ، وخامس الخمسة الذين سادسهم الرّوح الأمين ؛ وأبي الأئمة الأبرار ، والهازم بمُفرده كلّ جيش جرّار ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام محبّة الهدى ، وأنوار سُبُل الإيمان التي بأنوارها يُستبصر ويُقتدى ؛ وأدلةٍ منهاج النجاة ، وكاشفي غمِّ الشكّ إذا الظلم دجّاه ؛ وسلّم ومجّد ، وتابع وردّد .

وإنّ أمير المؤمنين لما أصطفاه الله له من إرث سرّ الإمامة المصنّون المكنون ، وحقّ بيانه العظيم الذي بالخُشوع لجلاله أفلح المؤمنون ؛ وأختره [له] من نشر لواء الحقّ ونصره ، وتأكيّد أحكام الإنصاف ليحظى بعائدتها كافّة أهل زمنه وعصره ؛ وألبسه إياه من تاج خلافة الذي أشرق لبصائر العارفين نُوره الساطع ، وتجلّى لأفهام الموقنين برهانه الصادع ودليله القاطع ؛ وأودعه من خفايا الحكم التي عدّب سلسيلها ، وبلغ إلى النعيم الخالد دليلها وسيلها ؛ وكلّه لأيّامه من الإقبال الذي جعلها مواسيم زاهية بهجة النصر المبين ، وأعياد ظفّر تروّق بتوالي إبادة العادلين عن الطاعة النّاكبين ؛ وأوقاتا سعيدة تُفيد الدّين وأولياءه عزّا وأعْتلاء ، وتوجب للإيمان وأنصاره أقدارًا وأسْتيلاء ، وتُسبغ عليهم كيفما تصوّرت بهم الأحوال مِننا ضافية وآلاء ؛ ويسرّه لعلمه من الإحاطة بكلّ مُغيّب مستور ، وأوجبه لأغراضه في كل ما يرومه من مظاهر المقدور ؛ ومهّده لحلّوله من أشمخ منازل التطهير والتقديس ، وشرف به شيمه من كل خلق نبوّى بارع نفيس ؛ وفَضّله به من الكرم الذي لا ترأل

سَخْبُهُ تَجُودُ الْأُمِّ سَرَفًا، وَلَا تَنْفَكُ غِيُوْتُهُ تُجِدُّ لِمَنْ مُطْرِبُهُ عَلَاءٌ وَشَرَفًا؛ وَلَا بَرَحَ وَابِلُهُ
 يَمُّ بِالنَّعْمِ الْغَرِّ الْحَسَامِ، وَلَا تَكْفُفُ سَيُوبُهُ عَنْ إِفَاضَةِ الْمَنِّ الَّتِي عَلَتْ وَغَلَتْ فَلَا
 تُسَامِي وَلَا تُسَامِ؛ وَخُصَّ بِهِ إِحْسَانُهُ مِنَ الْمُنَابَرَةِ عَلَى إِعْظَامِ الْمَنَاحِ لِلْمُسْتَوْجِبِينَ،
 وَالْحَافِظَةِ عَلَى إِجْزَالِ الْمَوَاهِبِ لِلزَّادِلِينَ إِلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُتَقَرِّينَ - يُجْهَدُ آرَاءَهُ
 فِي آرْتِيَادٍ مِنْ تَضَاعُفٍ لِلْبَرِيَّةِ بِالْأَسْتِعَانَةِ بِكَالِهِ أَسْبَابُ الْمَصَالِحِ، وَتَتَأَكَّدُ لِلْأُمَّةِ
 بِالْعَوِيلِ عَلَى بَارِعِ فَضْلِهِ أَحْكَامُ النُّجْحِ وَالْمَنَاجِ؛ وَتَقُومُ الْحُجَّةُ عِنْدَ اللَّهِ بِالْإِعْتِضَادِ
 بِهِ فِيمَا يَقْضَى بِنَفْعِ [الْعِبَادِ]، وَيُسَهِّلُ الْإِعْتِدَادَ عَلَى دِيَانَتِهِ بِالنُّصْحِ لِلَّهِ فِي الْحَاضِرِ مِنْ بَرِيَّتِهِ
 وَالْبَادِ؛ وَيَنْطِقُ شَرْفُ خَلِيقَتِهِ بِتَوْفَرِهِ عَلَى إِحْرَازِ مَغَانِمِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَتُعْرَبُ طَرَائِقُهُ
 عَنْ السَّعْيِ الَّذِي لَا يَقِفُ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ دُونَ بُلُوغِ الْغَايَةِ الْقُصُوبِ؛ وَتَدُلُّ أَحْوَالُهُ
 عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي كُلِّ مَا فَعَلَ وَيَقُولُ، وَتُوضِّحُ أَخْبَارُهُ حُسْنَ تَأْتِيهِ
 فِي مَصَالِحِ الْأُمِّ لِمَا يَعْجِزُ عَنْ أَسْتِنْبَاطِهِ رَوَاجُ الْعُقُولِ؛ وَيَقْتَدِحُ نَظَرُهُ أَنْوَارًا يُسْتَضَاءُ
 بِهَا فِي طُرُقِ السِّيَاسَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَيَفْتَتِحُ فِكْرُهُ أَبْوَابًا تَصْحِي بِهَا الْخَلِيقَةُ إِلَى الْخَيْرَاتِ
 الْكَامِلَةِ وَاصِلُهُ؛ وَيَبْعَثُهُ حُسْنُ جِلَّتِهِ عَلَى أَنْ يَخْتَفِرَ فِي إِعَانَةِ الْبَرَايَا، عَظَائِمِ الْمَشَاقِّ،
 وَيَدْعُوهُ كَرَمُ سَجِيَّتِهِ إِلَى أَنْ يَخْنُو عَلَى الرِّعَايَا، حُنُوً مَنْ يَتَوَحَّاهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ؛
 وَيَقْوَى بِإِعَانَتِهِ الْمُسْتَضْعَفُ قُوَّةً تُخَصِّنُهُ مِنْ عَدَوِي الْإِهْتِضَامِ، وَيَعِزُّ بِمَلَاَحِظَتِهِ
 الْمُسْتَذِلُّ عِزَّةً تُخْرِجُهُ عَنْ صُورَةِ الْمَقْهُورِ الْمُسْتَضَامِ؛ وَيَقْتَنِي الْآثَارَ الصَّالِحِيَّةَ فِي عَدْلِ
 الطَّبَاعِ وَحُسْنِ الشِّيمِ، وَيَتَّبِعُ السُّنَنَ الْغِيَاثِيَّةَ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَيَقْصِدُ
 فِي اللَّطْفِ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ قَصْدَهَا، وَيَنْتَجِي نَوَاجِمَ الْبَاطِلِ فَيَعْتَمِدُ أَجْتِنَاطَهَا
 وَحَصْدَهَا؛ وَيَكُونُ تَفْوِيضُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ تَوْثِقًا عِنْدَ خَالِقِهِ وَبَارِيهِ، وَاحْتِيَاطًا
 لِنَفْسِهِ فِي أَسْتِنَادِ الْمَهْمَاتِ مِنْهُ إِلَى مَنْ لَا يُدَانِيهِ مُدَانٍ وَلَا يُبَارِيهِ؛ وَنَتِيجَةً لِلدَّوْلَةِ
 الْعُلَوِيَّةِ بِمَبَاشَرَتِهِ لِلْأَحْوَالِ تَيْمَنًا يُؤْذَنُ لَهَا بِإِدْرَاكِ كُلِّ مَطْلَبٍ بَعِيدٍ، وَتُسَاعِدُ بِحُسْنِ

سيرته استسعاداً يقضى للناسح بتمكين تَبْدَى فيه وتُعِيد ؛ وتَحْتَالُ الأيَّامُ بما أَجْتَلَتْهُ
من جواهر مَفَاحِرِهِ ، وتَزْدَانُ الأزمانُ بما تَوَسَّخَتْهُ من مناقبه التي حَقَرَتِ الملوكَ
في أولِ الدهرِ وآخِرِهِ .

وقد آكْتَفَيْتُكَ أَيُّهَا الأَجَلُ عَنَايَاتُ الله سبحانه وأَشْتَمَلْتُ عَلَيْكَ ، وَتَتَابَعْتُ
موادَّ أَصْطِفَائِهِ وَأَجْتَبَائِهِ إِلَيْكَ ؛ وَأَنَالَتُكَ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بَارِعٍ ، غَايَتُهُ ، وَأَظْهَرْتُ
فِيكَ لِكُلِّ كَمَالٍ رَائِعٍ ، آيَتُهُ ؛ وَجَمَعْتُ لَكَ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْحَاسِنِ مَا لَوْلَا مُشَاهَدَتُكَ
لَوَجِبَ اسْتِحَالَةُ جَمْعِهِ ، وَلَأَنْكَرُ كُلَّ مُتَدَبِّرٍ صَدَرَ حَدِيثُهُ عَنْ صَدَرِ صَدْرِهِ أَوْ وُرُودِ
سَمْعِهِ ؛ وَيَسَّرَ لَكَ تِمَامَ السَّعْدِ وَالْإِقْبَالِ ، التَّرَقَّى إِلَى ذِرْوَةِ الْعُلَى الَّتِي يَهَابُ النُّجُومُ أَنْ
تَمُرَّ مَلَا حَظَّتْهَا مِنْهُ بِيَالٌ ؛ وَتَأَقَّتْ الْحُظُوظُ فِي إِعْظَامِ مَا خَوَّلَتْكَ مِنَ الْفَضَائِلِ الْبَاهِرَةِ
فَبَالَغَتْ وَتَنَاهَتْ ، وَأَغْرَقَتْ فِيمَا أَتَحَفَّتُكَ بِهِ مِنَ الْحَاسِنِ النَّادِرَةِ فَشَرَفَتْ بِكَ
وَتَبَاهَتْ ؛ حَتَّى غَدَا جَسِيمٌ مَأْقَدَمُ شَرْحِهِ مِنَ الشَّاءِ وَذِكْرُهُ ، وَعَظِيمٌ مَأَوْجِبُ مِنْهُ نَشْرِهِ
فَتَضَوَّعَ أَرْجُهُ وَنَشْرُهُ ، نَغْبَةٌ مِنْ بَحَارِهَا الزَّائِرُهُ ، وَشُدْرَةٌ مِنْ عُقُودِهَا الْفَاحِرُهُ ؛ وَقَلِيلاً
مِنْ كَثِيرِهَا الْجَسِيمِ ، وَضَيْلًا مِنْ جَزِيلِهَا الَّذِي آسَتْ كَلَّ خَصَائِصَ التَّعْظِيمِ .

وَاسْتَثْمَرَ فَأَنْتَ الْجَامِعُ لِمُفْتَرِقِ الْفَضَائِلِ الْمُلْكِيَةِ ، وَالْفَارِعُ ذُرَى الْجَلَالِ الَّذِي
أَفْرَدَتْكَ بِهِ الْمَوَاهِبُ الْمُلُوكِيَّةُ ؛ وَالْمُنَوَّحُ أَعْلَى رُتَبِ السِّيَادَةِ السَّارِيَةِ إِلَيْكَ مِنْ أَكْرَمِ
الأَصُولِ ، وَالْمُلَمَّوحُ بَارْتِقَاءِ هِضَابِ الْمَجْدِ الَّتِي تَعْجَزُ مُلُوكُ الْآفَاقِ عَنْ [الْإِتِّهَاءِ] إِلَيْهَا
وَالْوُصُولِ ؛ وَالْأَوْحُدُ الَّذِي بَدَّ الْعِظَاءَ فَعَظُمَ خَطَرُهُ وَقُدْرُهُ ، وَالْأَرْوَعُ الَّذِي أَنْقَادَتْ لَهُ
الصَّعَابُ فَرَحْبُ بَاعًا وَصَدْرًا ، وَالْعَالَمُ بِالْأُمُورِ الَّذِي أَصْبَحَ أَعْلَمَ مُلُوكِ الْأَرْضِ بِأَحْسَنِ
التَّدْبِيرِ وَأَدْرَى ؛ وَالْمُدْكِيُّ بِأَنْوَارِ ذِكَاثِهِ فِي عَاتِمِ النُّوبِ سِرَاجًا وَهَاجًا ، وَالْمُشْمَرُ فِي ذَاتِ
اللهِ فَلَا يُوجَدُ لَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَرْضَاهُ مَعَاجَا ، وَالْمُبْتَكِرُ مِنْ غَرَائِبِ السِّيَاسَاتِ مَا لَا تَرَالُ
مَحَاسِنُهُ عَلَى مَفَرِّقِ الزَّمَنِ تَاجَا ؛ وَالْمُجَدِّ اللَّهْجُ بِتَجْجِيدِهِ كُلِّ مَقُولٍ وَلِسَانٍ ، وَالْمُعْجَزُ

كُلُّ مُتَعَاطٍ وَإِنْ كَانَ بَلِغًا بَدِيعَ الْإِحْسَانِ ؛ وَالْمُنْمُوخُ الْمُعْرِقُ فِي السِّيَادَةِ وَالْمُلْكَةِ ،
 وَالْمُبْتَدِعُ الْمَكَارِمِ أَبْكَارًا تَجَلُّ عَنْ أَنْ يُشَابِهَهُ أَحَدٌ فِيهَا أَوْ يُشْرَكَه ؛ فَآيَاتُ مَجْدِكَ
 ظَاهِرَةٌ بَاهِرَةٌ ، وَغُرٌّ خَلَاتِكَ فِي اخْتِرَاعِ الْمَآثِرِ وَأَفْتِرَاعِهَا مَاهِرَةٌ ؛ وَإِلَيْكَ إِيْمَاءُ
 السَّعَادَةِ وَإِشَارَاتُهَا ، وَالذُّسُوتُ بِاعْتِلَاكَ مَنَازِلَهَا تُسَامِي السَّمَاءَ أَرْجَاؤُهَا ، وَيَتَحَقَّقُ
 فِي الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ بِتَصَدُّرِكَ فِيهَا رَجَاؤُهَا ؛ فَلَا كَيْلَ إِلَّا مَا أَصْبَحَ إِلَيْكَ يُنْسَبُ ، وَلَا جَلَالَ
 إِلَّا مَا يُعَدُّ مِنْ خَصَائِصِكَ وَيُحْسَبُ ؛ وَلَمْ تَزَلْ لِرَبِّكَ خَاضِعًا ، وَلَشْرَفِكَ مُتَوَاضِعًا ؛
 وَأَنْوَارُ الْأَلَمِيَّةِ تُوضِّحُ لَكَ مِنْ طُرُقِ الْأَمَانَةِ مَا يَعِجْزُ عَنْ إِدْرَاكِهِ قَوَىُّ التَّجْرِبِ ،
 وَتُحْكَمُ لَكَ مِنْ أَحْكَامِ السِّيَاسَةِ مَا تَقْصُرُ عَنْ أَقْلِهِ فِطْنُ الْحُكَمَاءِ الشَّيْبِ ؛ وَتُبْدَى لَكَ
 أَسْرَارُ الْأَزْمَنَةِ الْمُتَطَوِّلَةِ فِي إِقْبَالِ سِنِّكَ ، وَتُلَيْنُ بِتَلَطُّفَاتٍ صَلَابَةِ الْخُطُوبِ مَعَ نَضَارَةِ
 غُصْنِكَ ؛ وَمَا بَرِحَ ذِكْرُ أَخْبَارِ صَوْلَتِكَ ، وَحَدِيثُ مَا أَعْظَمَهُ اللَّهُ مِنْ قُرُوسِيَّتِكَ
 وَشَجَاعَتِكَ ، يُوقِرُ حُلُومَ الْأَبْطَالِ فِي الْمَلَّاحِمِ إِذَا أَطَارَهَا الذُّعْرُ فُطَاشَتْ ، وَيُسَكِّنُ
 نَفُوسَ الْأَتْجَادِ فِي الْمَلَّاحِمِ إِذَا أَطَارَهَا الذُّعْرُ بَخَاشَتْ ؛ وَيُحَدِّثُ لِلْجِنَاءِ جُرْأَةً وَإِقْدَامًا ،
 وَيَجْعَلُ الْكَهَامَ فِي الْحُرُوبِ مُدَلِّقًا حُسَامًا ؛ خَفِيلَاءُ الْأَعْوَجِيَّةِ زَهُومًا تَرْقُبُهُ مِنْ شَرَفِ
 أَمْتِطَائِكَ ، وَصَلِيلُ الْمَشْرِفَةِ تَرْثُمُ بِمُطَرِبِ قَصَصِكَ وَأَنْبَائِكَ ؛ وَاهْتِرَازُ السَّمْهَرِيَّةِ جَدَلُ
 بَمَا كَفَّلَتْهَا مِنْ إِشَادَةِ عِلَائِكَ ، وَضَمَّتْهَا مِنْ إِبَادَةِ أَعْدَائِكَ ؛ وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ أَنْ تَفْضَلَ
 الْأَمْلَاكُ ، وَتَطَّأَ أَخَامُصُكَ السَّمَاءَ ؛ وَتَخْتَالَ فِي وَشَى الْوَصْفِ الْبَدِيعِ ، وَتُشْرِقَ أَسْرَةُ
 مُحَاسِنِكَ فَتُخْجَلَ ضَوْءَ الصُّبْحِ الصَّدِيعِ ؛ وَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ مَعَ فَضْلِ الْخَلِيقَةِ وَالْفِطْرَةِ ،
 وَكَيْلِ الْخَصَائِصِ الَّتِي غَدَا كُلُّ مِنْهَا فِي يَدَيْهِ الْمُعْجَزَاتِ نَذْرُهُ ، بِبُتُوَّةٍ مُغِيثِ الْأَنَامِ ،
 وَمُصْلِحِ الْأَيَّامِ ؛ وَكَفِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَافِيهِ ، وَمُبْرِيئِ مُلْكِهِ مِنْ أَسْقَامِ الْحَوَادِثِ
 وَشَافِيهِ ؛ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْمَلِكِ (وَنَمَّةُ النُّعُوتِ وَالِدَعَاءِ) الَّذِي أَنْتَضَاهُ اللَّهُ لِكَشْفِ
 الْعَمَمِ ، وَارْتِضَاهُ لِتَدْيِيرِ الْأُمَمِ ، وَفَضْلُهُ عَلَى مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ؛ وَشَمَخُ عِلَاوَتِهِ فَطَامَنَ

له كل على ودان، وسمت مواطئ أقدامه فتمنت منالها مواطئ التيجان؛ وحاز بالمساعي
الفضل الباهر أجمع، وأستولى على بواهر الحكم بالنظر الناقب والقلب الأصمع؛ وأفرِد^(١)
بكال عز أن تدركه الآمال، أو يكون لأشتطاطها فيه مطمع أو مجال؛ وغدا النصر
المبين تابعا لعذب الويته، وحسن إقباله في كل موطن كفيلا بإدبار العدو وتوليته؛
وأجاب داعي الله إذ استنصر لآل بيت النبوة واستصرخ، ولبي دعاءه تلبية تستطر
أخبارها على ممر الزمان وتورخ؛ وأجلى شياطين الضلال وقد تبع في زعيمها
الجاحد وثنا، وصدها بالعزم المرهف عما أصرت عليه من منكر الإلحاد وثنا؛
وبدلت سطاء جبابرة الطغاة من الأوطان بعدا وشحقا، وأمتعهم فتكاته من الأعداء
الوافرة إفناء وشحقا، وأذاقتهم حملا جيوشه وبال أمر من عاضد باطلا وعاند
حقا؛ وجعلتهم شفار سيوفه الباترة في التنايف حصيدا، ورمت بالإرغام والإضرع
معاطسهم وخدودهم بعد أن عمروا شتى وصيدا؛ وقصد بمواضيا أشلاءهم ودماءهم
فألجم غروبها وسقى، وكشف بلوامعها عن الدولة الفاطمية من معزتهم جنح عاتما
وغسقا؛ وكفل أمورهم فأحسن الإيالة والكفالة، وأعادها إلى أفضل ما تقدم لها
من القوة والفخامة والجلالة؛ ونظر أحوالها فقوم كل معوج وعدل كل مائل،
وحباها ملبس جمالي تقبح عند بهجته ملابس الخائل.

ولما أباد عصب العناد، عطف على الاجتهاد في الجهاد؛ فجابت بحافله متقاف
الأقطار، ونالت من الفتك بالكفرة في أقصى بلادها نهاية الأوطار، وانتزعت منهم
الحصون، واستباححت المنع المصون؛ حتى أصارت جلدتهم المشهور فشلا، وقبض
إقدامهم المذكور وشلا؛ وشمل الأمة بسيرة عرفت بالعدل والإحسان، وأحظت

الخلائق بالأمن المديد الظلال؛ وأرضتهم بالعيش الرائق الزلال؛ وأنالتهن من المطالب ما أئسعت لإدراكه خطأ الآمال؛ وجاد ففضح الغائم؛ ومن على ذوى الذنوب حتى كاد يتقرب إليه بالجرائم؛ وأقال عثرات كبرت فلولا كرم سجيته لم يرم الإقالة من خطرهما رائم؛ وأمدته الله من معجزات البلاغة والبيان، وغرائب الحكم البديعة الإفتنان، ما يستخف الأحلام بفرط الطرب والإفتان؛ ولم يزل منذ كان يحى سرح الدين، ويضم نشر المؤمنين، وينذل نفسه الشريفة في نصرة الدولة العلوية بذل أكمل ناصر وأفضل معين؛ وتكبر عظام الخطوب فيكون عزمه أعظم وأكبر، وترهى الأيام بغر محاسنه وهو لا يزهى ولا يتكبر؛ فقد عز جانب كماله، عن أن يناهضه جهد المديح، وارتفع محل جلاله، فلا ينال تكييفه بإشارة ولا تصريح، وعظم قدر مفاخره فلم يقابل إلا بموالاة التمجيد خالقه والتسبيح؛ ووجب على متصفح خصائصه الموالاة في التعظيم، ولزوم منهج استيداع لا يبرح عنه ولا يريم؛ ومبالغة قوله تعالى :
 ((ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم)) .

فبلغ الله أمير المؤمنين في إطالة مدته الآمال، وأبقى لمدته باستمرار نظره الخط والجمل؛ وفتح له المشارق والمغارب بهمه العالية وعزائمه، وجعل نواجم الإلحاد حصائد سفار صوارمه؛ فانخرأيتها الرجل بأصلك وفرعك كيف شئت، وأبجح بما منحت منه وأوتيت، ووال شكر خالقك على ما حولت وأوليت؛ فما نخر بمثل تحرك ملك سميع، ولا تباهى الدهر لأحد بمثل ماتباهى في حقك ولا أبدع .

ولما تكامل لك أيها الأجل بلوغ هذا الفضل الجسيم، وتم ما منحته من المجد الحادث والقديم، جدد أمير المؤمنين لك شعار التعظيم، وكل لديك المفاخر تكميل العقد النظيم؛ وجعل الخير في امرته لك عيانا، وأقامك للدولة الفائزة والمملكة

الصالحية بُرْهانا، وجعلك لكافة المسلمين في أقطار الأرض سُلطاناً؛ وطابق بين ماخصك به من السمات السنية، وبين مامكنه لك من المراتب العلية؛ فأتحذك لدولته ناصراً وعضداً، وانتخبك للإسلام مجداً وسنداً، وأحيا بمُرافدتك أنصار الدين، وشفى بنظرك صدور المؤمنين؛ واستخلصك لنفسه النفيسة حياً وخليلاً، وبلغ بك إلى الغاية القصوى إعلاءً وتجيلاً؛ وشرَّفك بخلع بدعية من أخص ملايس الخلافه تروق محاسنها كل النواظر، وتفوق بدائعها ماديجه زهر الروض الناضر؛ وقلَّدك سيفاً يؤذن بالتقليد، ويشير بالنصر الدائم المزيدي؛ تتنافس في ممتنه وفريده الجواهر، ويستولي ناصعها على الباطن منه والظاهر؛ وعززها بالتشريفات التي اكتسبتها البهجة والبهاء، وبلغتها في العلى إلى الغاية التي ليس بعدها انتهاء؛ وآثر أن تبسط يدك في التدبير، ويعدق بك ما هو عنده بالمحل الكبير؛ ويجمع لك من أشات دولته ما لم يعرف لجمع مثله في سالف الزمن نظير، ويسند إلى كمالك ما يعود النفع بصلاحه على المأمور من الأنام والأمير.

فقاوض أيها السيد الأجل الملك الصالح والدك أدام الله قدرته، وأعلى كلمته؛ في ذلك مفاوضة أفضت إلى وقوع الإجماع على أنك أكل ملوك دهرِكينا، وأصحهم يقينا؛ وأشرفهم نفساً وأخلاقاً، وأكرمهم أصولاً وأعرافاً؛ وأمثلهم طريقةً وأحسنهم سيره، وأتقاهم صدراً وأطهرهم سريره؛ وأشفهم جوهرًا وأزكاهم ضريبةً وأتقاهم لله سرًّا وعَلَنًا، وأولاهم بأن لا يصدر عنه من الأفعال إلا جميلًا حسنًا؛ وأنت أفضل من عدق أمير المؤمنين بنظره أمر الدنيا والدين، وأُسند إلى ملاحظته أحوال أمراء الدولة ورجالها أجمعين، وفوض مصالح المسلمين منه إلى التقي الأمين؛ وأنَّ السيد الأجل الملك الصالح أدام الله قدرته لما أخلص محله عند أمير المؤمنين بتأيع الإشادة، وتفرد باستمرار المضاعفة بإذن الله تعالى والزيادة؛

وَأَسْتَوِي عَلَى الْأَمْدِ الْأَقْصَى فِي السَّمَوَاتِ وَالتَّعَالَى، وَانْخَفَضْتُ عَنْ ثَرَاهُ دُرَى أَشْمَخِ
الْمَعَالَى، كَانَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِ فِي الْحَلَالِ وَأَنْتَ ثَانِيهِ، وَالسَّابِقِ فِي الْفَخَارِ
وَأَنْتَ تَالِيهِ؛ وَدَلَّ بِفَضْلِكَ عَلَى فَضْلِهِ دِلَالَةُ الصَّبْحِ عَلَى النَّهَارِ، وَالنَّمَاءِ عَلَى الْإِبْدَارِ،
وَالنَّيْرِ الطَّيِّبِ عَلَى فَضِيلَةِ الْأَصْلِ وَالنَّجَارِ؛ فَتَبَارَكَ مُوَلِي الْمَنِّ لِأَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ، الْقَائِلُ
فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ .

وَقَرَّرَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ اسْتِشْفَافَ أُمُورِ الْمَظَالِمِ، وَإِنْصَافَ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ؛
وَالنَّظَرَ فِي آسَفْهَسَلَارِيَةِ الْعَسَاكِرِ الْمُؤَيَّدَةِ الْمَنْصُورَةِ إِثَارًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ
لَكَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَيْسَرًا، وَيُثَبِّتُ لَكَ فِي كُلِّ مِنْ أُمُورِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ حَدِيثًا
حَسَنًا وَآثَرًا؛ وَرَتَّبَ ذَلِكَ لَكَ تَرْتِيبًا يَصْحَبُهُ التَّوْفِيقُ وَيُلْزِمُهُ، وَيَكْمَلُهُ السَّعْدُ وَيَتِمُّهُ؛
وَيُحِيطُ بِهِ الْيَمْنُ وَالنَّجَاحُ، وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْحِظُّ وَالْفَلَاحُ . فَقُلِّدْ مَا قُلِّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ، مَتَمِّسًا بِأَسْبَابِ وَلَائِهِ وَعِصْمِهِ؛ جَارِيًا عَلَى أَحْسَنِ عَادَاتِكَ فِي مِرَاقَبَةِ
اللَّهِ وَخِيفَتِهِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى أَفْضَلِ حَالَاتِكَ فِي خَشْيَتِهِ؛ مُتَّبِعًا أَوَامِرَهُ فِي الْعَمَلِ بِتَقْوَاهُ،
وَزَاجِرًا لِلنَّفْسِ عَمَّا تُؤْثِرُهُ وَتَهْوَاهُ؛ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَظَالِمَ كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الرَّحْمَةِ، وَبَابٌ يُتَوَصَّلُ مِنْهُ إِلَى مُصْلَحَةِ الْأُمَمِ،
وَوَسِيلَةٌ يُتَوَسَّلُ بِهَا السُّعْدَاءُ إِلَى خَالِقِهِمْ فِي اسْتِبْقَاءِ مَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ؛
فَاجْلِسْ لَهَا جُلُوسًا عَامًّا تَرْفَعُ فِيهِ الْحِجَابَ، وَتُسِّرُ لِلْوُصُولِ إِلَيْكَ عِنْدَهُ الْأَسْبَابَ؛
وَتَأْمُرُ بِتَقَرُّبِ الْمُتَظَلِّمِينَ، وَتُوَعِّزُ بِإِدْنَائِهِمْ لِتَسْمَعَ كَلَامَ الشَّاكِينَ؛ وَتَوْفِّرْ عَلَى الْأَخْذِ
بِيدِ الْمُسْتَضْعَفِ الْقَرِيعِ (٢)، وَالْحُرْمَةِ الَّتِي لَا تَجِدُ سَبِيلًا لِلْإِنْصَافِ وَلَا تَسْتَطِيعُ؛ وَتَتَقَدَّمُ

(١) يريد ولاية المظالم . (٢) من معاني القرع المغلوب وهو المناسب هنا .

بأن تُحْضَر بين يديك النَّائِبَ في الحُكْمِ العَزيزِ الذی علی فُتْيَاهِ مَدَارُ أَحْكَامِ الدِّينِ ،
وَمَنْ تَحْتَاجُهُ مِنَ المَوْقِعِينَ والدَّوَائِنِ ؛ وتَأْمُرُ بِإِحْضَارِ القِصَصِ وعَرَضِهَا ، وتَتَأَمَّلُ
دَعَاوِي المُنْتَظَمِينَ في إِبْرَامِهَا ونَقْضِهَا ؛ وتَوَقُّعُ عَلَى كُلِّ مِنْهَا بِمَا يَتَقَضِيهِ الشَّرْعُ
وَأَحْكَامُهُ ، وَيُوجِبُهُ العَدْلُ ونِظَامُهُ .

وَأَنْظُرْ في مُشْكِكِ القِصَصِ نَظْرًا يُزِيلُ إِشْكَالَهَا ، وَيَجْعَلُ إِلَى لَوَازِمِ الشَّرْعِ وَالْحَقِّ
مَآلَهَا ؛ وَرَاعِ أَمْرَ المُنَازَعَاتِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْإِوَاحِرِ ، وَلَا يَبْقَ فِيهَا تَأَمُّلٌ لِمَتَأَمَّلِ
وَلَا نَظْرٌ لِنَظَرٍ ؛ وَخُجِّرْ أَوَامِرَكَ بِإِيصَالِ كُلِّ ذِي حَقٍّ إِلَى حَقِّهِ ، وَكُفِّ كُلَّ مُتَعَدٍّ
عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ العُدْوَانِ وَطَرَفِهِ . وَلِيَكُنِ الضَّعِيفُ أَقْوَى الْأَقْوِيَاءِ عِنْدَكَ إِلَى أَنْ يَصِلَ
إِلَى حَقِّهِ مَوْقَرًا ، وَالْقَوِيُّ أَضْعَفَ الضُّعَفَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا عَلَيْهِ طَائِعًا أَوْ مُجْبَرًا ؛ وَالشَّرْعُ
وَالْعَدْلُ فَهُمَا قِسْطَا سَا الله فِي أَرْضِهِ ، وَمُعِينَا [نَ عَلَى] الْحَقِّ مِنْ أَرَادَ الْعَمَلَ بِوَاجِبِ
الْحَقِّ وَفَرَضِهِ ؛ نَحْذِهِمَا وَأَعْطِ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَأَنْتِ أَحْكَامُهُمَا فِيمَا قَرُبَ وَبُعُدَ مِنْ
الْبِلَادِ ؛ وَسَاوِ بِهِمَا فِي الْحُقُوقِ بَيْنَ الْأَنْامِ ، وَصَرِّفِ النِّصْفَةَ بِحُكْمِهِمَا بَيْنَ الْخَوَاصِّ
وَالْعَوَامِ ، حَتَّى يَتَصَوَّفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَالضَّعِيفُ مِنَ ذِي الْقُوَّةِ الْعَنِيفِ ؛
وَالْمَغْمُورُ مِنَ الشَّهِيرِ ، وَالْمَأْمُورُ مِنَ الْأَمِيرِ ، وَالصَّغِيرُ مِنَ الْكَبِيرِ ؛ وَأَسْتَكْثِرِ بِإِغَاثَةِ عِبَادِ
اللهِ ذَخَائِرَ الرِّضْوَانِ ، وَأَسْتَفْتَحِ بِقِيَامِكَ بِحُقُوقِ الله فِيهِمْ أَبْوَابَ الْخِنَانِ ؛ وَأَعْمَمْ بِسَعِيدِ
نَظَرِكَ وَتَأَمَّنْ تَفَقُّدَكَ وَمَلاحِظَاتِكَ جَمِيعَ صُدُورِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ وَكِبَرَائِهَا ، وَمُقَدِّمِيهَا
الْمَطْوَوقِينَ وَأَمْرَائِهَا ؛ وَمَيِّزْهَا الْأَعْيَانِ ، وَرَجَالَهَا الظَّاهِرَةَ نَجْدَتِهِمُ لِلْعِيَانِ ؛ وَتَوَخَّ الْوُجُوهَ
مِنْهُمْ بِالْإِجْلَالِ وَالْإِتْجَارِ ، وَتَبْلِيغِ الْأَغْرَاضِ وَالْأَوْتَاطَارِ ؛ وَالتَّمْيِيزِ الذِي يَحْفَظُ نِظَامَ
رُتَبِهِمْ ، وَيُنِيلُهُمْ مِنْ حِرَاسَةِ الْمَنَازِلِ غَايَةً أَرَبَهُمْ ؛ وَأَلْقَهُمْ مُسْتَبْشِرًا كَعَادَتِكَ الْحُسْنَى ،
وَأَجْرِ مَعَهُمْ فِي كَرَمِ الْأَخْلَاقِ عَلَى مَذْهَبِكَ الْأَسْنَى ؛ وَعَرَفْتَهُمْ بِإِقْبَالِكَ عَلَى مَصَالِحِ
أُمُورِهِمْ ، وَأَتَّجَاهَكَ لِمَصَالِحِ شُؤْنِهِمْ ، بَرَكَهَ أَشْتَمَلَهُمْ بِفَضْلِكَ ، وَالتَّحَافُظَ بِظُلْمِكَ ؛

وَأَقْصَدَ مَنْ يَلِيهِمْ بِمَا يَبْسُطُ آمَالَهُمْ ، وَيُوسِعُ فِي التَّكْرِمَةِ مَجَالَهُمْ ، وَيُكْسِبُهُمْ عِزَّةَ
 الإِدْنَاءِ وَالتَّقَرُّيبِ ، وَيُحْصِيهِمْ مِنْ إِحْفَائِكَ بِأَوْفَرِ سَهْمٍ وَنِصِيبٍ ، وَكَافَّةَ الرِّجَالِ فَاحْفَظْ
 نِظَامَهُمْ بِحُسْنِ التَّنْذِيرِ ، وَأَثْرِفِهِمْ بِجَمِيلِ النَّظَرِ أَحْسَنَ التَّأْثِيرِ ، وَتَوَخَّهِمْ بِمَا يُشَدُّ
 بِاهْتِمَاكَ أَزْرَهُمْ ، وَيُصْلِحْ بِتَقَقُّدِكَ أَمْرَهُمْ ، وَيقِفْ عَلَى الطَّاعَةِ سِرَّهُمْ وَجَهْرَهُمْ ،
 وَيُسِّرْ لَهُمْ أَسْبَابَ الْمَصَالِحِ وَيُسَهِّلْهَا ، وَيَتِمِّمْ لِمَطْلَبِهِمْ أَحْكَامَ الْمَيَامِنِ وَيُكَمِّلْهَا ،
 وَأَصِفْ لِمَجْمُوعِ ذِكْرِهِمْ مِنْ سَابِقِ فِي التَّقْدِيمَةِ وَتَالِ ، وَمُخْلِصِ فِي الْمَشَايِعَةِ وَمُؤَالِ ، مَنَاهِلَ
 إِحْسَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّامِيَةِ الْجَمَامِ ، الْمُتَعَرِّضَةِ مَوَارِدُهَا الْعَذْبَةَ لِأَدْوَاءِ كَافَّةِ الْأَنَامِ ،
 فَهَمِ أَنْصَارُ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانُهَا ، وَأَبْنَاءُ الدَّعْوَةِ وَخُلَصَاؤُهَا وَشُجْعَانُ الْمُلْكَةِ وَقُرَسَانُهَا ،
 وَتَجَدَّةُ خِلَاصِهَا عِنْدَ آعْتِرَاضِ الْكُرُوبِ ، وَسَيُوفُهَا الْمَذْرَبَةُ الْقَاطِعَةُ الْغُرُوبِ ،
 وَأَسْتَنْتَاهَا الْمُتَوَغِّلَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ فِي سُودِيَاءِ الْقُلُوبِ ، وَخِزْبُهَا الَّذِي أُذِنَ اللَّهُ بِأَنَّهُ الْغَالِبُ
 غَيْرُ الْمَغْلُوبِ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مَنَزِلُهُ مِنَ التَّقْدِيمِ ، وَمَوْضِعُهُ مِنَ الْأَشْتِمَالِ بِظِلِّ الطَّوْلِ
 الْعَمِيمِ ، وَمَحَلُّهُ مِنَ الْغَنَاءِ وَمَكَانُهُ مِنَ الْكِفَايَةِ الَّذِي بَلَغَ إِلَيْهِ فَسَدَّهُ . فَرَتَّبَ كُلًّا مِنْ
 الْمُقَدِّمِينَ فِي الْمَوْضِعِ الْجَدِيدِ بِهِ اللَّاتِقُ ، وَأَوْضَحَ لِلْمُؤَقِّقِينَ أَنْوَارَ مَرَاثِدِكَ لِيَلْحَقَ
 بِتَهْذِيكِ السُّكَيْتِ مِنْهُمْ بِالسَّابِقِ .

وَالْوَصَايَا مَتَسِعَةُ النَّطَاقِ ، مَتَشَعِّبَةُ الْإِسْتِثْقَاقِ ، وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 أَقْسَامَهَا ، وَلَا حَاوَلَ إِتِمَامَهَا : لِلْإِسْتِغْنَاءِ بِمَا لَكَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي غَدَتْ فِي أَسْتِنْبَاطِ
 حِكْمِ السِّيَاسَاتِ أَكْبَرُ مَعِينٍ ، وَالْفَطَرَةِ النَّفْسِيَةِ الَّتِي تُمَدِّدُكَ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ بِأَغْزَرِ مَعِينٍ ،
 وَلَا يَزَالُ يُضِيءُ لِبَصِيرَتِكَ مِنْ أَنْوَارِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْمَلِكِ الصَّالِحِ - أَدَامَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ -

(١) لعله وأصف لجميع من ذكرتهم من سابق الخ . تأمل .

(٢) فِي الْأَصْلِ "أَخْتَلَفْنَاهَا" . تأمل .

التي لا تَبْرَحُ للبصائر لَامِعَةً ، ولِحَاسِنِ الأفعال وَغُرَرِهَا جَامِعَةً ؛ مَا تَسْتَعِينُ بِأَضْوَائِهَا ^(١) عَلَى الغرض المطلوب من الإصابة وأكثر .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وإنعامُهُ عليك ؛ فَتَلَقَّه من الشُّكْرِ بما يكون لِلزَّيْدِ سَبَبًا مُؤَكَّدًا ، وَيَغْدُو الإحسان معه مُرَدَّدًا مُجَدَّدًا ؛ وَأَبْدُلْ جُهِدَكَ فيما أَرْضَى اللهُ وَأَرْضَى إِمَامَ العَصْرِ ، وَثَابِرْ عَلَى الأَعْمَالِ الَّتِي تُنَاسِبُ فضائلَك المتجاوزةَ حَدَّ الحَصْرِ ؛ وَاللهُ يُعْضِدُكَ بالتوفيق ، وَيُمَهِّدُكَ إلى السعادة أسهلَّ طريق ؛ وَيُرْهِفُ في الحرب عزائمَكَ ، وَيُمِضِي في الأعداء صَوَارِمَكَ ؛ وَيَضَاعِفُ لك موادَّ النصر والتأييد ، وَيُخَصِّصُ بِنَاءَ مَجْدِكَ بالإِعْلَاء والتشديد ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : والذي يظهر أن مما كان يكتب في دولتهم على هذه الطريقة سِجَلَاتِ كِبَارِ نِيَابَاتِهِمْ ، حَالِ اسْتِفْحَالِ الدولة في مبادئ أمرِهَا ، قَبْلَ نُحْرُوجِ البلادِ الشاسعة عنها واستِقْلَاعِهَا من أيديهم : كِدْمَشْقَ ومُضَافَاتِهَا من البلادِ الشامية قَبْلَ نُحْرُوجِهَا عَنْهُمْ لِبَنِي أُرْتُقَ في زمنِ المستنصرِ أحدِ خَلْقَائِهِمْ ؛ وَكَأَفْرِيقَةٍ وما معها من بلادِ الغربِ قَبْلَ تَغْلِبِ المعزِّ بنِ باديسِ نَائِبِ المستنصرِ المتقدم ذِكْرُهُ بِهَا وَقَطْعِ الخُطْبَةِ لَهُ ؛ وَبِكَزِيرَةِ صِقْلِيَّةَ من جزائرِ البحرِ الرُّومِيِّ قَبْلَ تَغْلِبِ رُجَّارِ أَحَدِ ملوكِ الفَرَنْجِ عَلَيْهَا وَأَنْتَزَاعِهَا من أيديهم في زمنِ المستنصرِ المذكورِ أيضًا ؛ فَإِنَّ مَشْقَ وَأَفْرِيقَةَ وَصِقْلِيَّةَ كَانَتْ من أعظمِ نِيَابَاتِهِمْ ، وَأَجَلُّ ولاياتِهِمْ ؛ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ في كِتَابَةِ السِّجَلَاتِ عندهم من هذه الطبقة .

(١) في الأصل " فاستمد " . تأمل .

المرتبة الثانية

(من المذهب الأول من سَجَلَاتِ ولايات الفاطميين أن يُقْتَح السَّجَلُ بالتصدير، فيقال : « من عبد الله وولَّيه » إلى آخر التصلية ، ثم يُؤْتَى بالتحميد مرة واحدة ويؤْتَى في الباقي بنسبة ما تقدّم ، إلا أنه يكونُ أخَصَر مما يؤْتَى به مع التحميدات الثلاث)

ثم هي إما لأرباب السُّيُوف أو لأرباب الأقلام من أرباب الوظائف الدِّينية والوظائف الدِّيوانية .

فأما السَّجَلَات المَكْتَبَةِ لأرباب السُّيُوف ، فمن ذلك نسخة سَجَلِ بولاية القاهرة من هذه الرتبة : لِرَفْعَةٍ قدر متولَّيها حينئذٍ ، وهي :
من عبد الله وولَّيه (إلى آخره) .

أما بعدُ ، فالحمد لله رافع الدَّرَجَات ومُعَلِّمها ، ومُؤَلِّي الآلاء ومُؤَالِيها ؛ ومُحَسِّن الجزاء لمن أحسن عَمَلًا ، ومُضَاعِف الحِباء للذين لا يَبْغُونَ عن طاعته حَوْلًا ؛ ومنيل أفضل المَوَاهِب ومُحَوِّلها ، ومُتَمِّم النعمة على القائم بِشُكْرِها ومُكَمِّلها ؛ مُتَّبِع المِنَّة السالفة بنظائرها وأشكالها ، والمُجَازِي على الحَسَنَةِ بعَشْرِ أمثالها ؛ وصلى الله على جدِّنا محمدٍ رسولِهِ الذي أقام عِمَادَ الدين الخَفيف ورفَعَهُ ، وخَفَضَ بِجِهَادِهِ مَنَارَ الإلحاد ووضَعَهُ ؛ وأرَغَمَ عِبْدَةَ الصَّليب والأوثان ، ونَشَرَ في أَقْطَارِ المَلَكَةِ كلمةَ الإسلام والإيمان ؛ وكَشَفَ غِيَاظَ الضَّلال بأنوار الهدى الألامِية ، وهَتَكَ حِجَابَ الكُفْرِ بِبراهين التوحيد الصاعدة وسُيُوفِ النصر القاطعة ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمِّه أئِمَّتِنَا أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، سيف الحقِّ الماضي المَضَارِب ، وبَحْرُ العلم الطامى

الْبَلَجِ وَالْعَوَارِبِ ؛ وَمَعِينِ الْحِكْمَةِ الْعَذْبِ الْمَشَارِعِ ؛ وَالْمَخْصُوصِ بِكُلِّ شَرَفٍ بَاسِقٍ وَفَضِيلٍ بَارِعٍ ؛ وَعَلَى أَيْمَانِ سَادَةِ الْأَنْامِ ، وَحِمَاةِ سَرَحِ الْإِسْلَامِ ؛ وَمَوْصَحَى حَقَائِقِ الدِّينِ ، وَقَاهِرَى أَحْزَابِ الْمُؤَلِّدِينَ ؛ وَسَلَمَ وَمَجَّدَ ، وَضَاعَفَ وَجَدَّدَ .

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ شَرَفِ الْمُحْتَدِ وَالنَّجَارِ ، وَتَوَجَّهَ بِهِ مِنْ تَيْجَانِ الْإِمَامَةِ الْمُشْرِقَةِ الْأَنْوَارِ ، وَأَلْقَاهُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَالِيدِ الْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ ، وَأَنَالَهُ إِيَّاهُ مِنْ اخْتِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَالشَّفَاعَةِ فِي يَوْمِ الْعَرْضِ ؛ وَعَدَقَهُ بِهِ مِنْ إِيضَاحِ سُبُلِ الْهُدَى الْأَلَمَعِ ، وَهَتَكَ حِجَابِ الْكُفْرِ بِرَاهِينِ التَّوْحِيدِ الصَّادِعَةِ وَسُيُوفِ النُّصْرِ الْقَاطِعَةِ ؛ إِلَى الْأَنْامِ ، وَأُطْلِعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْحِكْمَةِ بِمُنَاجَاةِ الْإِلَهَامِ ؛ وَأَقَامَهُ لَهُ مِنْ إِعْلَاءِ مَنَارِ الْمِلَّةِ وَتَقْوِيمِ عِمَادِ الْحَقِّ ، وَأَمَدَّ بِهِ آرَاءَهُ مِنَ الْعَنَائَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَأَمْضَاهُ لَهُ فِي الْأَفْطَارِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَأَفْرَدَهُ بِهِ مِنَ الْخَصَائِصِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَقْصُرُ عَنْ تَعْدِيدِهَا إِسْهَابُ الْوَاصِفِ الْمُتَنَاهِي ؛ وَيَسَّرَهُ لِإِرَادَتِهِ مِنْ أَقْبَادِ كُلِّ أَبِي جَاحٍ ، وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْتِعْمَالِ السَّيْرِ الْمُسْتَدْنِيَّةِ مِنَ الْمَصَالِحِ كُلِّ بَعِيدٍ نَازِحٍ - يُضَاعِفُ بِهِآءَ أَبَائِهِ بِاصْطِفَاءِ ذَوِي الصَّفَاءِ ، وَيَزِيدُ فِي بَهْجَةِ زَمَانِهِ بِاسْتِكْفَاءِ أَوْلَى الْوَفَاءِ ؛ وَرَفَعَ مَنَازِلَ الْمُعْرِقِينَ فِي الْوَلَاءِ إِلَى غَايَاتِ السَّنَاءِ ، وَيُنِيلُ الْمَخْلَصِينَ مِنَ الْحَبَاءِ ، مَا يُدِلُّ عَلَى مُوَاضِعِهِمُ الْخَطِيرَةِ مِنَ الْأَجْتِنَاءِ ؛ وَيُسْنِدُ مَعَالِيَ الْأُمُورِ ، إِلَى الْأَعْيَانِ الصُّدُورِ ؛ وَيَعْدِقُ الْوَلَايَاتِ الْخَطِيرَةَ ، بِمَنْ حُسُنَتْ مِنْهُ الْآثَارُ وَالسَّيَرَةُ ، وَأَظْهَرَ تَغَايُرُ الْأُمُورِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُوصِ النَّيَّةِ وَتَقَاءِ السَّرِيرَةِ ؛ وَأَسْتَوَلَى عَلَى جَوَامِعِ الْفَضْلِ وَغَايَاتِهِ ، وَقَصُرَتْ هَمُّهُ الْأَكْفَاءُ عَنْ مِمَّا لَتَتْهُ فِي الْغَنَاءِ وَمُسَاوَاتِهِ ؛ وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ الْمَنَاقِبُ قِيَادَ الْمُسْتَسْلِمِ الْمُسْلَمِ ،

(١) جمع عارب أو عاربة . يقال ماء عرب كثير ونهر عرب و بئر عربية كثيرة الماء والفعل من كل ذلك

عرب عربا فهو عارب وعاربة . انظر اللسان ج ٢ ص ٨١ .

(٢) متعلق بإيضاح سبل الهدى فتنبه .

وأعجز تعديد محاسنه البارعة كل ناطق ومتكلم ؛ وسمت همته إلى آكتساب الفخار ،
 وأستكمل فنون المحامد فحصلت لديه حصول الأقتناء والإدخار ؛ وفاز من كل مأثرة
 بالنصيب الوافر المثل ، وتشوقت إليه الرتب السنية تشوق [من] رأته لها دون
 الأكفاء أهلا ؛ وكفى المهمات بيجان ثابت وصدر واسع ، وقوت عليه أفعاله
 المرضية من الميامن كل بعيد شاسع ؛ ووسم جلائل التصرفات بما خلقه بها من
 مستحسن الآثار ، وخلصت مشايعته من الأكدار فحل في أميز محل من الإيثار ؛
 وجارى المبرزين من أرباب الرياسات فسبق وأبر ، وأحرز جميل رأي ولي نعمته
 فيما ساء وسر .

ولما كنت أيها الأمير المعني بهذا الوصف الرفيع ، المخصوص من مفاخره بكل
 رائع بديع ؛ الحال من الإصطفاء في أقرب محل وأدناه ، المرتقى من الرياسة أشمخ
 مكان وأسناه ؛ الأوحد في كل فضيلة ومنقبه ، الكامل الذي أوجب له الكمال
 صعود الجدد وسمو المرتبة ؛ المصلح ما يرد إلى نظره بالتدبير الفائق ، الشامل ما يصدق به
 بحزمه الذي لا تخشى معه البوائق ؛ المجمع على شكر خصائصه وخلالله ، الفائق جهد
 الأعيان الأفاضل بعفو استقلاله ؛ المعصم من المشايعة بالسبب المتين ، المتميز على
 الأكفاء بآثره الماثورة وفضله المكين ؛ وما زالت مساعيك في طاعة أمير المؤمنين
 توجب لك منه المزيد ، وتستدعي لمنزلتك من جميل رأيه مضاعفة التشييد ؛
 وتحصك من الإجتباء بالنصيب الوافر الجزيل ، وتبلغك من تتابع النعم ما يوفى على
 الرجاء والتأمل .

وقد باشرت جلائل الولايات ، وعقد بك أنعم المهّمات ، فاستعملت السيرة
 العادلة ، وسست السياسة الفاضلة ؛ وجمعت على محبتك القلوب ، وبلغت الرعية

من إفاضة الإنصاف كل مؤثر ومطلوب؛ وإذا برقت بارقة نفاق، ونجم ناجم من مرردة المراق، كنت الولي الوفي، والمخلص الصفي، والمدافع عن الحوزة بجهاد، والمجاهي عنها بماضي عزمه وصادق جلاده، والباذل مهجته دون ولي نعمته، والجاهد فيما يحظيه بنائل مواته وتأكد أذمته؛ ومجلى ظلام الخطب الدامس بحسامه، ومزيل الخطب الكارث برأيه واعتزاه؛ ومواقفك في الحروب، تكشف الكروب، وتروى من دماء الأبطال ظامئات الغروب؛ وتورد سنان اللذن العاسل، ويريد الكمي الباسل، وتحمك طلبا المناصل، في الهامات والمفاصل؛ وتستبيح من مهج الأقران كل مصون، وترميمهم من قوارع الدمار بضروب متسعة الفنون؛ فأتارك في كل الحالات مجوده، وشرائط الأصطفاء فيك فاضلة موجوده. وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه وزيره، وكافل ملكه وظهيره؛ السيد الأجل الملك الذي

فأثنى عليك ثناء وسع فيه المجال، وخصك من شكره وإحماده بما أفاض عليك حلل الفخر والجمال؛ وقرر لك الخدمة في ولاية القاهرة المحروسة. فنقلد ماقلدك أمير المؤمنين من ذلك : عاملا بتقوى الله الذي تصير إليه الأمور، ويعلم خائنة الأئمين وما تخفي الصدور؛ قال الله في كتابه المبين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ .

وأعلم أن هذه المدينة هي التي أسس على التقوى بُنائها، ولها الفضيلة التي ظهر دليلها ووضح برهانها : لأنها خصت بفخر لا يدرك شأوه ولا تدرك آماده، وذلك أن منارها لم يدكر عليها إلا أئمة الهدى آباء أمير المؤمنين وأجداده؛ ثم إننا الحرم الذي أضحي تقديسه أمرا حتما، وظل ساكنه لا يخاف طلبا ولا هضا؛ وغدت

النعمةُ به ممتمةٌ مكملةٌ ، والأدعيةُ في بيوتِ العباداتِ به مرفوعةٌ متقبلةٌ : للقرب
من أمير المؤمنين باب الرحمة ومعدن الجلالة ، وثمرَةُ النبوة وسُلالة الرسالة ؛ فاشتمل
كافةَ الرعايا بها بالصيانة والعناية ، وعمهم بتأم الحفظ والرعاية ؛ وأبسط عليهم ظلَّ
العدل والأمنه ، وسرفهم بالسيرة العادلة الحسنه ؛ وساو في الحق بين الضعيف
والقوي ، والرَّشيد والغوي ؛ والمليّ والذمي ، والفقر والغني ؛ وأعتمد من فيها
من الأمراء والمميزين ، والأعيان المقدمين والشهود المعدلين ؛ والأماثل من الأجناد ،
وأرباب الخدم من القواد بالاعزاز والإكرام ، وبلغهم نهاية المراد والمرام ؛ وأقم
حدودَ الله على من وجبت عليه بمقتضى الكتاب الكريم ، وسنة محمد عليه أفضل
الصلاة والتسليم ؛ وتفقد أمور المتعيشين ، وأمنع من البخس في المكايل والموازين ؛
وحذر من فساد مدخل على المطاعم والمشارب ، وأنتهج في ذلك سبيل الحق وطريق
الواجب ؛ وأحظر أن يخلو رجلُ بامرأة ليست له بحرم ، وأفعل في تنظيف الجوامع
والمساجد وتزيينها عن الابتذال بما تعز به وتكرم ؛ وأشد من أعوان الحكم في قود
أباة الخصوم ، وأعتمد من نصرة الحق ما تبقى به النعمة عليك وتدوم ؛ وأوعز
إلى المستخدمين بحفظ الشارع والحارات ، وحراستها في جميع الأزمنة والأوقات ؛
وواصل التطواف في كل ليلة بنفسك في أوفى عده ، وأظهر عده ؛ وأنته في ذلك
وفيما يجاريه إلى ما يشهد باجتهادك ، ويزيد في شكرك وإحماذك ؛ والله تعالى يوفقك
ويُرشدك ، ويسددك في خدمة أمير المؤمنين ويسعدك ؛ فاعلم ذلك وأعمل به ،
وطالع مجلس النظر الأجل الملوك بما تحتاج إلى علمه ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا النمط كان يكتب سجل ولاية الشريعة من أعمال الديار المصرية
دون غيرها من سائر الولايات ، إذ كانت هي خاص الخليفة كالجيزة والمنفلوطية
الآن ، وكان واليها هو أكبر الولاة عندهم لذلك .

وأما الوظائف الدينية .

فنها — ما كتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية قاض :

من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى
القاضي المؤمن الأمين ، علم الدين ، خالصة أمير المؤمنين ، وفقه الله لما يرضيه ،
وسدده فيما يدره ويأتيه ، وأعانه على ما عدى به ووليه .

سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلّى
على جدّه سيّد ولد آدم ، وعالم كل عالم ، ومُبقى كلمة المتقين على اليقين ، ومُعلي منار
الموحدين على المُلحدين ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وعلى أُمراء المؤمنين ،
صلاة تنصلّ فى كلّ بُكرة وأصيل ، ويُعدها أهل الفضل وأهل التحصيل ؛ ووالى
وجدد ، وعظّم ومجّد ، وكرّر ورّد .

وإن أمير المؤمنين لما آتاه الله إياه من نفاذ حكمه ومضاء حكمه ، وفوضه إليه
من إمامة أمته ؛ وأفاضه عليه من أنوار كسفت غمامة كلّ عُمة ، وشردت بَعْدَه
من بسطة ظلم وسطوة ظلمه ؛ وأظهره له من حقّ نصب للنصر علمه وللهداية
علمه ؛ وأيده به من كلّ عزيمة فتكت بكلّ أزمه ، ووكل به همه من إتمام نعمة
وأبتداء نعمة ؛ وأطلق به يده من معروف روض الآمال صوب مدراره ، وبدت
على الأحوال آثار إثاره ؛ وأخذ به الحصب من المحل ثاره وأستقال به الرخاء
من وهّادات عثاره ؛ وعضّد به أفعاله من أمور التوفيق أتباعا وأقتضابا ، وألممه
من موالاة الآلاء التى لا تذهب عهود عهادها أنقضاء ولا أنتضابا ؛ ويسر له عزيمة
من الآراء التى لا تُكسب إلا حمدا أو ثوبا — يختص بإحسانه من ينص الاختبار
على أنه أهل للاختيار ؛ وتفيض الأحوال من حوالى أوصافه ما يُديم المطار

فى الأوطار؛ وَيُنْعِمُ عَلَى النعمة بإهدائها إلى ذوى الاستِجاب، وَيَضْطَنِعُ الصَّديعةُ بإقرارها فى مَغارِسِ الاستِطابةِ والاستِنجابِ؛ ويرشِّحُ لخدمته من عُرف ذِكره بأنه فائِخ، وعُرفُ عُرفه ناصعٌ ناصِحٌ؛ ويؤى جَنانَ إنعامه من أحسن عملا، وأستحقَّت منزلته من الكفاية أن تكون له بدلا، ولم تنبَغِ تصرفاته فى كل الأحوال عنها حولا؛ ودرَجَتُه خصائصُه العليةُ فاقَعدَ صهوات الدَّرجاتِ العُلى، وأستحقَّ بفضل تفضيله أن يؤلى الجميل جملا؛ وعُمرِضتْ خِلاله على تعيين الانتقاد فاقترضها ولا يتضاها، وزويتْ مسالكُ الغناء بصدِّره فضاها فضاها .

ولما كنت أيتها القاضى المشتمل على هذه الخلال أشتمال الرُّوض على الأزاهر، والأفق على النجوم الزواهر؛ والعقود على فاجر الجواهر، والخواطر على خطراتها الخواطر، والنواظر على ماتصافح من الأنوار وتُبأشر؛ المثرى من كل وَصِفِ حَسَن، المتبوع الأثرى بما قَرَضَ من المحاسن وسَنَ؛ الكالى ما تُستحفظ بعين كفاية لا يَصاغُ أجفانها وسَنَ؛ الأمين الذى تُريه أمانته متاع الدنيا قليلا، وتُضجبه ناظرا عن نضارتها كليلا؛ المؤثر دينه على دنياه؛ المطيع الذى لا يسئلُ العصبة عن هواه، المخلص النية فى الولاء و”لِكُلِّ امرئ ما نواه“ الناصح الذى يُتره ما يلبسه عن لباس الرِّيب، البعيد عن مظانِّ الظنون فلا تتطلع الأوهام منه على عيب غيب؛ النقي الساحة أن يفرس بها وضمه، التقي الذى لا تُخدع يده عن التمسك ما أستطاع بجبل عصمه؛ المحتوم الحقوق بأن يُستودع دهر الوفاء، المتوسِّل بموات تُوجب له الإيفاء على الأَكفاء؛ المستقيم على مثل الظَّهيرة كهلا ويافعا، الشافع بنفسه لنفسه وكفى بالاستحقاق شافعا؛ وحسبك أنك حملت الأمانة وهى حفظ الكتاب، وأطلق الله به لسانك فشفيت القلوب من الأوصاب، ووصل به سببك إلى رحمة يوم

تقطع الأسباب ؛ وأصبح محلك في الدارين أهلاً أنيرا ؛ وكنت ممن قال الله فيه :
﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقد خالطت في مَوَاقِب أمير المؤمنين المعقبات التي من بين يديه ومن خلفه ،
وقربت من مجالسه المشتملة منه على عُنْوَانِ عناية الله بالبرية ولطفه ، ونوره الذي
كَلَّتِ العُيُونُ عن كشفه والحِيلُ عن كسفه ؛ وتقدّمت بخدمة الخلفاء الراشدين ،
أمراء المؤمنين ، إلى سوايق سبقت بها في كل مضمار ، وجمعت في المخالصة فيها
بين الإعلان والإضمار ؛ وسبر التجريب حاليك بصحائف خبره ، واستمرت بك
الحال في القرب منهم وفي تقلب الأحوال عبره ؛ وتدرجت في حُجُب القُصُور ،
وبدت لك الغايات فما كنت عنها ذا قُصُور ؛ فكانت التقدمة لك مظنونة وبك
مضمونه ، وسريتك على الأسرار المصونة مأمونه ؛ وما أعوجت معالم إلا وكان
تقويمها بتقويمك ، ولا استيةظت حيلة نخاف الحق سبيل غيها تهويمك ؛ وإن كل
قائل لا يملك من إصغاء أمير المؤمنين ما تملك بتلاوة الذكر الحكيم ، ولا يسلك من قلبه
ما تسلك بمعجز جده العظيم ؛ فانت تخدم أمير المؤمنين بقلبك مواليا ، ولسانك
تاليا ؛ وبنظرك مؤتمنا ، وبيدك مُحْتَرِنا ؛ لاجرم أنك حصدت مازرعت طيبا ، وسقاك
ما استمطرت صيبا ، وزقت لك الأيادي بكرا وثيبا ، وحللت يقاع المنازل مستأنسا
إذا حل غيرك وهدأتها متيبا .

فأما حرمتك التي بَوَّأتك من الاختصاص حرما ، وجعلتكَ بين الخواص علما ؛
وتوالى يدك بلمس ماحظي من الملابس بصحبة جسده الطاهر ، واشتمل على زهر
النضار وزهر الجواهر ، فذلك جار مجرى السكة والدعوة في أنهما أمانة تعم العباد
والبلاد ، وهذه أمانة تحض النفوس والأجساد ؛ ولك مما في خزائنه وكالة التخخير

(١) التويم النوم الخفيف . يريد أنه لا ينام عن ابطال كل حيلة .

والتعير ، وعن أغراضه الشريفة سفارة الإفراج والتغير ؛ وهذه موات تجعل سماء
السّامح لك دائمة الدّيم ، وتُسكن آمالك في حرم الكرم ، وتعقد بينك وبين السعادة
أوكد الدّم ، وتتقاضى لك جدود الجدد بقدّم الخدم .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ، الذي رُهي الزمان به فتاه ؛ ووزيره ، الذي
عزّه به منبره وسيره ، السيد الأجل أفضل الملوك قدرا ، وأكثرهم قدرة ، وأعظمهم
صبرا ؛ وأدرّبهم نصرة ، وأفيضهم جودا غمرا ، وأكشفهم لغمرة ، وأمضاهم على الهول
صدرا ، وأردّهم لكزه ، وأثبتهم جاشا وصليل السيوف يحطّب والمقاتل تسمع ، وأوضحهم
في استحقاق المجد حجة شرعتها الزّماح الشرع ؛ وأركبهم في طاعة أمير المؤمنين
لمشقه ، وأشدّهم وطاة على من بحمد نوزه وعقّ حقه ؛ فالدنيا مبتسمة به عن ثغور
السّور ، والمُلك بكفّالته بين ولي منصور وعدو محصور ؛ فأسفرت سفارته عن أنك
من أمثل ودائع الصّنائع وأكفاء الاستكفاء ، وأعيان من يحقق اختيارهم وفضلهم
العيان ، وأفاضل من هو أهل لإسداء الفواضل ؛ وأن الصنعة ثوب عرك (؟) داره ،
وجار قد عقد بين شكرك وبينه جواره ؛ وقرّر لك تقدمة في الحضرة لأنك فارسهم
أسما وفعلا ، وأولهم حين نتلو وحين تتلى ؛ والنظر على المؤذنين بالقصور الزاهرة ،
والمساجد الجامعه ؛ وبالمشاهد الشريفة : لأن الأذان مقدّمة بين يدي القراء ،
وأمانة على معالم الإيمان ؛ والنظر في تقويم ما يرد إلى الخزانة العالية الخاصة والعامة
من الملابس على اختلاف أصنافها ، والأمتعة على آتلاف أوصافها ؛ ومشاركة
خزانة الفروش ليكمل لك النظر في الكسوات التي تصان لللبوس ، والكسوات التي
تبتذل للجلوس ؛ وتخزن بيت المال الخاص ليكمل لك النظر في الذهب مصوغا
ومرقوما ، وتخزن وتقويم ؛ واستصوب أمير المؤمنين ماراه ، وأمضى ما أمضاه ؛
ونخرج أمره إلى ديوان الإنشاء أن يكتب هذا السجل لك بذلك .

فَاعْرِفْ قَدْرَ مَا عَدِقَ بِكَ مِنْ أُمُورِ دِينٍ وَدُنْيَا ، وَخِدْمِ لَاتَقْوَىٰ عَلَيْهَا إِلَّا بِلِبَاسِ
التَّقْوَىٰ ؛ وَأَنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لِحَنَاتِ أَنْعَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانَا ، وَيُذَكُّكَ لِلْفُظْ
إِحْسَانِهِ لِسَانَا ؛ وَبِإِشْرَ ذَلِكَ مُسْتَشْعِرًا خَشْيَةَ اللَّهِ فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ ، مُحْتَقِقًا أَنَّهُ
غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِكَ ؛ مَذْخَرًا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَبْقَىٰ عِنْدَ فَنَاءِ ذَنْكَ ، مُسْتَدِيمًا
لِلنِّعْمَةِ بِمَا يَقِيْدُهَا مِنْ شُكْرِكَ ، وَمَا يُصُونُهَا أَنْ تُبْتَدَلَ مِنْ بَشْرِكَ ؛ عَالِمًا أَنَّ التَّقِيَّةَ حِلْيَةُ
الْإِيمَانِ ، وَضَمَانُ الْإِمَانِ ، وَزَادَ أَهْلَ الْحِنَانِ إِلَىٰ الْحِنَانِ ، بِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ
الْعَزِيزِ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ .

وَأَخْلَصَ نَيْتَكَ فِي خِدْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَعِ الْإِخْلَاصَ الْخَلَاصَ ، وَأَدِّ لَهُ الْأَمَانَةَ
فَإِنَّ أَدَاءَهَا أَطْيَبُ الْقَصَصِ يَوْمَ الْقِصَاصِ ؛ وَفُتْ فِي خِدْمَتِهِ الْمَقَامَ الْحَمْدُودَ ، وَأَسْتَدِمُ
بِهَا صُغُودَ رِكَابِ السُّعُودِ ؛ فَقَدْ عَرَفَكَ اللَّهُ بِرَكَّةِ النَّصِيحَةِ وَعَوَائِدِهَا ، وَأَنْجَزَتْ لَكَ
الْأَمَالَ الْمُنْبَسِطَةَ مَوَاعِدِهَا ؛ وَأَسْتَشْرِفُ أَحْوَالَ الْقِرَاءِ فَهَمَّ أَحَقُّ قَوْمٍ بِالْتِهَذِيبِ ،
وَلِزُومِ أَسَالِيْبِ التَّأْدِيبِ ؛ فَمَنْ كَانَ لِلآيَاتِ مَرَاتِلًا ، وَلِلدِّرَاسَةِ مَتَبَتَّلًا ؛ وَبِأَثْوَابِ
الصَّلَاحِ مُتَقَمِّصًا ، وَبِخَصَائِصِ الدِّينِ مُتَخَصِّصًا ؛ وَلَمَّا فِي صَدْرِهِ بِقَلْبُهُ لَا بِإِسَانِهِ
حَافِظًا ، وَعَلَىٰ آدَابِ مَا حَفِظَ مُحَافِظًا ؛ فَذَلِكَ الَّذِي تُشَافُهُ تِلَاوَتُهُ الْقُلُوبَ ، وَتَرُوضُ
بِأَنْوَاءِ الْمَدَامِعِ جُدُوبَ الذُّنُوبِ ؛ وَمَنْ كَانَ دَائِمَ الْإِطَالَةِ فِي سَفَرِ الْبَطَالَةِ ، سَاتِرًا لِأَنْوَارِ
الْمَعْرِفَةِ بِظُلَمِ الْجَهَالَةِ ؛ فَحَقُّ عَلَيْكَ أَنْ تُصْرِفَهُ وَتُبْعِدَهُ ، وَتَجْعَلَ التَّوْبَةَ لِلْعُودِ مُوَعِدَهُ ؛
وَكَذَلِكَ الْمُؤَذِّنُونَ فَهَمُّ أَمْنَاءِ الْأَوْقَاتِ ، وَمُتَقَاضُونَ دُيُونِ الصَّلَوَاتِ ؛ وَلَا يَصْلُحُ
لِلتَّأْذِينِ إِلَّا مَنْ كَلَّمَ أَوْصَافَ عَدَالَتِهِ ، وَأُْمِنْتَ أَوْصَامُ جِهَالَتِهِ .

وَأَمَّا الْأَمَانَةُ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي وَكَلْتَ إِلَىٰ حَزْنِكَ وَخَتَمْتَكَ ، وَالْأَمْتَعَةُ الَّتِي وَكَلْتَ
إِلَىٰ تَقْوِيْمِكَ وَحُكْمِكَ ؛ فَإِنَّ تَوَدُّدِي بِسُلُوكِ أَخْلَاقِكَ وَهِيَ الْأَمَانَةُ ، وَأَتَّبَاعِ طِبَاعِكَ

وهي الإباء للخيانة ؛ وأن تستمر على وتيرتك ، ومشكور سيرتك ؛ ومشهور سريرتك ،
ومُنير بصيرتك ؛ وأن لا تُؤتَى من هوى تَبَّعه ، ولا حيف تبتدعه ، ولا قوى تُخَدِّع له ،
ولا ضعيف تُخَدِّع به ، ولا من محابة وإن أُحِبَّت ، ولا من مُدَا جاة كيفما تَقَلَّبَتْ ؛
وأذكر ما يُنتَلَى من آيات الله في مثلها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾
والله يتولى توفيقك وتوفيقك ، ويُديم [على] ما يُحِبُّ تصريفك ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنها - ما كتب به القاضى الفاضل أيضا ، وهى :

من عبد الله وولَّيه (إلى آخره) .

أما بعد ، فإن رُتَبَ الولايات متفاوتةُ الأقدار ، متباينةُ الأخطار ؛ وكلُّ شىءٍ منها
عند أمير المؤمنين بمقدار ؛ ولها رجال مشرفو الأقدار ، ومحامِلُا بحضرته مقدرة تقدير
منازل الأقدار ؛ ومحامِلُ الأولياء بمقامه محالُّ الأهله تتنقل بين أول النماء إلى آتئاء
الإبدار ؛ ومن أُمِيزها قدرا ، وأحقُّها بأن يكون صدرا ، وأن يشرح لمن حلَّه صدرا ،
وأن يسوق إليه الخاطب من استحقاقه مهرا ؛ ولايةُ مدينة مصر : لأنها المجاورة لمحل
الخلافه ، وكلُّ مضرٍ بالنسبة إليها معها بالإضافه ؛ وهى خِطَّة النبل ، وفُرْضة المنيل ؛
وبها إذا هجمت الخطوب المنيل ، ومنها من عثرت الأيام المقييل ؛ ومنها تؤنس
أنوار الإمامة على أنها تتوصَّح بغير التأميل وبدء التأميل ، ولا يؤهل لولايتها إلا كل
حامِلٍ لِعَبْئِها الثقيل ؛ ولا تسندُ الخدمة فيها إلا لكل مُثَرٍّ من ذخائر السياسة غير فقير
ولا مُقِلٍّ ، ولا يتوقَّل رُتبتها إلا من تكونُ به الرتب مُنيعة ومحاسنُه لا تَمُلُّ مما يُمِلُّ ؛
ولا يمتطى صَهوَتُها إلا من لا يَطْأُطى للأطاع عِزَّة زاهيته ولا يذِلُّ ، ولا يرتقى درجتها
إلا من يهتدى بأعلام الديانة التى لا تُضِلُّ ، ولا يُقرأ سِجِّلُها إلا لمن يَطْوِي مَظالمِ
الرعية طىَّ الكتابِ للسَّجِّل .

ولما كنت أيها الأمير من توقدت هذه الأوصاف فيه توقد النار في ذرى علمها ،
وأوجد معاني معاليها وأنقذها من إسار عدمها ؛ وأرتقى إلى هضبات الرياسة المنيرة
بما جعل خلاله المسلم فضلها مثل سلمها ، وناولته الدراية عناني سيفها وقلمها ؛
وشهدت الأيام بتقدم قدمه في مراتبها وقدمها ، وأمنت الصواب أن يتبع أفعاله
إذا أمضاها بعب (؟) بدمها ؛ وكتبت أفلام رماحه سطور الطعن في صدور العدا
مستمدة من دمها ؛ وتجمش مشقات المعالي فأثرته تعفى راحة بجسمها ؛ واجتمعت
فيه صفات المحاسن المتفرقة ففضى عليها بتجسيمها ؛ وتصدر الدرجات المحصنة
من مطالع الحاضر لحظه من رقتها ونسيمها ؛ وتعرضت ذخائر المحامد لما في طبعه
من اقتناصها ونعيمها ؛ وقزت عين المنازل فما زوت وجه إقبالها ولا بسطت راحة
تظلمها ، وأثنت إليه عقائلها المصونة فما ثنت دون ديانتها عنان تلومها ؛ وأثرك
في كل ولاية مشكور ، وسعك في كل غاية غير مقصور ؛ وغناؤك في المهمات
معد مذخور ، ومساجلك عن أسير ما وصلت إليه مدفوع مذخور ؛ وليل شبابك
بالكوكب الدرى من صولتك منحور ، وأفعالك أفعال من لا يجوز غير محرز كسب
الأجور ، وخلالك خلأل من أنتظم في سلك الذين يرجون تجارة لن تبور .

وقد سلفت لك خدام تصرفت فيها وتدرجت ، وعرفت بطهر الذكر من رعيته
وتأرجت ؛ وتحوت من الأوزار على ما يوقع ذنبك وتحرجت ؛ وجريت على أجمل
عاده ، وأقضيت عند آقضاء شأو الإبداء استئناف شأو الإعادة . ومثل بحضرة
أمير المؤمنين لسان أمره ، وسيف زجره ، السيد الأجل الذى قام بما استكفاه
فأحسن وحسن ، وصان حمى الملك فأحصن وحصن ؛ وجاد بنفسه في سبيل الله
فما ضن ، وكان مكان ما أمل عند أصفائه وفوق ما ظن ؛ وستد قصوده ، فمركت
سهاها وما مركت عن طاعته ، وأطلع سعوته ، فأثارت نجومها لأوليائه ورجومها لأهل

خلافِ خلافته ، وأطلقت أحكام عدل الله في خلق الله أحكاماً مرأته وسيف إخافته ؛ فالدنيا بين أياته عن مأخذ السراء ، وطلقاء الجود بما عملته يده من قيود الإحسان في عداد الأسراء ؛ ورضا أمير المؤمنين عنه كافل له بأن يرضى الله في الأعداء ، وملوك الأرض إن فدت السماء (؟) طيبةً أنفسها له بالفداء ؛ والدنيا متأرجحة بطيب خبره ، والعلواء متبرجة بحسن نظره ؛ وبحار التدبير لا تُفارق زبد أمواجه إلا بفاجر جواهره ، وقوانين السياسة لا توجد مستدة إلا عن أتباع أثره ؛ ولا حظ لمحاربه إلا سلمه بعثاره وتشلمه بعثيره ، فأثنى عليك بحضرته وإصفا ، وثنى إليك عنان عنايته عاطفا ، ورأى تقليدك ولايتها معرباً باستحقاقك عارفاً - خرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يُوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك ولاية المعونة والحسبة بمدينة مصر والحيزة والقرافة ، إنافةً بك عن النظراء ، وإبانة عمالك من جميل الآراء ؛ وتطريةً لحظك بما حصل به من الإطراء ، ورعاية لما لك من الانتهاء إلى أقصى غايات الإحسان والإجراء ، وإيجاباً لما تتوسل به من العناء ، وذخائر الغناء والإثراء ، وإشادةً لقدرك الذي أشاده ما أنت عليه من الإيواء إلى ظل الزاهة والاستيناء .

فتقلد ما قلده من هذه الخدمة ، وأرسل بما ضفاً عليك من ملابس هذه النعمة وبما صفاً لديك من موارد هذه الجمه ؛ وقدم تقوى الله أمامك ، وأتبع وصيتها التي آستعمل الله بها إمامك ؛ فيها النجاة مضمونه ، والرحمة متيقنة لا مظنونه ؛ قال الله سبحانه في كتابه المكنون : ﴿ وَيَجْئِ اللَّهُ الَّذِينَ آتَقُوا بِمَقَازِهِمْ لَا يَسْمُحُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وآعتمد المساواة بين الناس فيما هو حكم ، والنظر بالعدل في كل ما هو ظلم ؛ ولا تجعل بين الغنى والفقر في الحق فرقا ، وأسلك فيهم طريقاً واحداً فقد ضل

مَنْ سَلَكَ فِيهِمْ طُرُقًا، وَاشْتَمَلَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِطُمَأْنِينَةٍ تُنِيمُ الْأَخْيَارَ وَتُوقِظُ الْأَشْرَارَ،
 وَأَمْنِيَّةٍ تَسَاوِي فِيهَا بَيْنَ ظِلَامِ اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهَارِ: لَتَكُونَ وَلَايَتُكَ لَهُمْ مَوْسِمًا، وَمَوْرِدَهَا
 لَتُثْقِرَ الْأَمْرَ مَبْسِئًا، وَأَنْصِفَ الْمَظْلُومَ وَأَقْضَ الظَّالِمَ، وَكُنْ لِنَفْسِكَ زَعِيًّا بِنَجَاتِهَا فَالزَّعِيمُ
 لَهَا غَارِمٌ؛ وَأَنَّهُ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَحَسْبُكَ
 أَنْ تُعَرِّفَ بِهِ وَتُذَكِّرَ؛ وَخُذْ فِي الْحُدُودِ بِالْإِعْتِرَافِ أَوْ الشَّهَادَةِ، وَلَا تَتَعَدَّ حَدَّهَا بِنَقْصٍ
 وَلَا زِيَادَةٍ؛ وَكَيْ تَقِيمَهَا بِالْبَيِّنَاتِ، فَكَذَلِكَ تَدْرُؤُهَا بِالشُّبُهَاتِ. وَفِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ
 مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ وَوُجُوهِهَا، وَكُلِّ سَامِي الْأَقْدَارِ نَبِيٍّ بِهَا، وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ،
 وَالْمَعْدُودِينَ فِي الْعُلَمَاءِ وَالْأَعْلَامِ، وَالْمُعَدِّلِينَ الَّذِينَ هُمْ مَقَاطِعُ الْأَحْكَامِ، وَالتَّجَارِ
 الَّذِينَ هُمْ عَيْنُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالرَّعِيَّةِ الَّذِينَ بِهِمْ قِوَامُ الْعَيْشِ فِي الْأَيَّامِ؛ مَنْ يَلْزِمُكَ
 أَنْ تَكُونَ لَهُمْ مُكْرِمًا، وَلَا يَبَالِغُ فِيهِمْ مُحْكِمًا، وَمَنْ ظَلَمَهُمْ مَتَحَرِّجًا مُتَأَمِّمًا، وَلَسَانُهُمْ
 فِي الشُّكْرِ عَنْ لِسَانِكَ مُتَكَلِّمًا، وَإِلَى قُلُوبِهِمْ بِجَمِيلِ السَّيَرَةِ مُتَحَبِّبًا، وَلَمَسَاخِطِهِمْ - مَا لَمْ
 تُسْخِطِ اللَّهَ - مُتَجَنِّبًا. وَأَشَدُّ مِنَ الْمُسْتَخْدَمِينَ بَابَ الْحُكْمِ فِي إِشْخَاصٍ مَنْ يَتَقَاعَدُ
 عَنِ الْحُضُورِ مَعَ خَصْمِهِ، وَيَتَّبِعُ حُكْمَ جَهْلِهِ فَيُخْرِجُ عَنْ قَضِيَّةِ الشَّرْعِ وَحُكْمِهِ؛
 وَأَوْعِزْ إِلَى أَصْحَابِ الْأَرْبَاعِ بِإِطْلَاعِكَ عَلَى الْخَفَايَا، وَإِبَانَةِ كُلِّ مُسْتَوْرٍ مِنَ الْقَضَايَا؛
 وَأَنْ يَتَّقُوا لَسَكَّاتِ اللَّيْلِ وَغَفَلَاتِ النَّهَارِ، وَخُدْهُمْ فِي اللَّيْلِ بِمَا أَلْتَرَمَوْهُ مِنَ الْحَرَسِ
 مِنْ مَكَائِدِ الْأُصُوصِ وَالْأُدْوَارِ، وَأَيِّقِظْهُمْ لِأَنْ يَتَّقُوا فَرُبَّمَا آجَتْنِي ثَمَرُ الْأَمْنِ
 مِنْ غَرَسِ الْحِذَارِ؛ وَإِذَا ظَفِرَتْ بِجَانٍ قَدْ أَوْبَقَهُ عَمَلُهُ، وَطَمَحَ إِلَى الْفَسَادِ أَمَلُهُ،
 فَاجْمَعْ لَهُ بَيْنَ التَّنْكِيلِ وَالتَّوَكُّلِ، أَوْذَى رِييَّةٍ إِنْ زَادَ رِييَّةً بِالْحُبْسِ الطَّوِيلِ،
 وَإِلَّا فَطَالَعِ بِأَمْرِهِ إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْقَبِيلِ. وَوَاصِلِ التَّطَوُّافَ فِي الْعَدَدِ الْوَافِرِ،
 وَالسَّلَاحِ الظَّاهِرِ، فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ وَأَطْرَافِهَا، وَعَمَّرْ بِسَرِّكَ سَائِرَ أَرْجَائِهَا وَأَكْثَافِهَا.
 وَأَنْظِرْ فِي الْحُسْبَةِ نَظْرًا مِنْ يَحْتَسِبُ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَبْقَى؛ وَمَنْ يَرْغَبُ فِي الْأَجْرِ

وَيُعْرِضُ عَنْ شِعَارِ لِبَاسِ التَّقْوَى وَاللَّبَسِ . وَأَمْنَعُ أَنْ يُخْلَوْ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ لَيْسَتْ بِذَاتِ
تَحَرَّمَ : لَتَكُونَ قَدْ سَلِمْتَ وَسَلِمْتَ مِنْ شُبُهَتِي الْمَطْمَعِ وَالْمَطْعَمِ . وَأَسْتَوْضِحُّ آلَاتِ
الْمَعَامَلَاتِ ، وَغَيْرَهَا فِيهَا تَخَفُ الْمَوَازِينِ أَوْ تَرْجَحُ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ ﴾ . وَاعْتَمِدْ فِي تَهْذِيبِهَا وَتَضْوِيئِهَا مَا تُحْسِنُ فِيهِ لِلِسَى وَالْحُسْنِ ، لِأَنَّكَ
تُكْفُ أَحَدُهُمَا عَنْ عَمَلِ الْمُتَهَايِفِ وَعَنْ الْمُهَوَّبِ الْمُعْنِ .

وَتَقْدِمُ بِنَفْضِ الْأَدْيِ عَنْ جَادَةِ الطَّرِيقِ ، وَأَنَّهُ أَنْ تَحْمَلَ دَابَّةً أَكْثَرَ مِمَّا تُطِيقُ ؛
وَتَقْفِدُ الْجَوَامِعَ وَالْمَسَاجِدَ بِالتَّنْظِيفِ بِإِبَانَةٍ لِحَالِهَا ، وَصَيَانَةٍ مِنْ أَتْدَالِهَا ؛ وَلَا تَمَكِّنْ
أَحَدًا أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَّا مُؤَدِّيًّا لِلْفَرَضِ أَوْ مُنْتَظِرًا أَوْ مُطْلَوْعًا ، أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا
أَوْ مُسْتَمِعًا ؛ فَإِنَّهَا أَسْوَاقُ الْآخِرَةِ ، وَمَنَازِلُ التَّقْوَى الْعَامِرَةِ ؛ وَأَجْرُ الْأُمُورِ عَلَى عَادَاتِهَا ،
وَأَسْتَرِشِدْ فِي طَارِئَاتِهَا وَمُشْكَلاتِهَا ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة سيجل بولاية قاضي بنغر الإسكندرية ، من إنشاء القاضي الفاضل ،
من هذه الرتبة ، وهي :

من عبد الله ووليه (إلى آخره) .

أما بعد ، فالحمد لله الذي نَشَرَ رَايَةَ التَّوْحِيدِ وَأَعَزَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَهَدَى بِكَرَمِهِ
مِنْ أَتْبَعِ رِضْوَانِهِ سُبُلَ السَّلَامِ ؛ رَافِعَ مَنَارَ الشَّرْعِ وَحَافِظَ نِظَامِهِ ، وَنَجَزِلَ الثَّوَابَ
لِمَنْ عَمِلَ بِأَمْرِهِ فِي تَحْلِيلِ حَالِهِ وَتَحْرِيمِ حَرَامِهِ ؛ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، وَسَاوَى
بَيْنَ الْخَلِيقَةِ فِيمَا كَانَ حُكْمًا ، وَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ . سُبْحَانَهُ مِنْ خَالِقٍ لَمْ يَزَلْ رُعُوفًا
بِرَبِّيَّتِهِ ، عَادِلًا فِي أَقْضِيَّتِهِ ، مُضَاعِفًا أَجْرَ مَنْ خَشِيَ وَعَمِلَ بِخِفَتِهِ ، مُوفِّرًا ذَلِكَ لَهُ
يَوْمَ يَوْمِ الْحُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ .

يحمده أمير المؤمنين أن أفاض عليه أنواراً إلهية ، وتعبّد البرية بأن جعلها بطاعته مأمورة وعن مخالفته منيية ؛ وأستخلف منه على الخليفة القوى الأمين ، وآتاه مالم يؤت أحدًا من العالمين ؛ ويسأله أن يصلّي على جدّه الذي عمّ إرساله بالرحمة ، وكشف بمبعثه كلّ عُمة ، وجعل شرعه خيرَ شرع وأُمّته خيرَ أمة ؛ فأحيا من الإيمان ما كان رَمِيًّا ، وهدى بالإسلام صراطًا مستقيمًا ، وخاطبه الله فيما أنزل عليه بقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ وعلى أبينا أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذى وقر الله نصيبه من العلم والحكمة ، وجعل خلافة في أرضه لا تخرج عن ذريته الهداة الأئمة ؛ وعلى أئمة الأطهار ، وعترتهما السادة الأبرار ، الذين ولأوهم يحظى بالجنة ومحبتهم تتجى من النار؛ وسلّم عليهم أجمعين [سلامًا] باقياً إلى يوم الدين .

وإن أمير المؤمنين لما أفرد الله به من المآثر، وتوحده به من المناقب والمفانر، وخصّه بشرفه من الإحسان إلى أوليائه بالإنعام إليهم في الدنيا والشفاعة لهم في اليوم الآخر - يرتاد لجلال الخدم من يُشار إليه ويؤمى ، ويختار لتوليها من يكون بأفعالها ناهضاً وبأعبائها قووماً ؛ ويسند أمرها إلى من لا يُتَمَارَى في سُودده ولا يُخْتَلَف في فضله ، ويعدّق شُونها بمن عِدقت الرياسة به وبأسلافه من قبله ؛ فيكون إذا شُرف بها عرّف منزلتها ومحلّها ، ووقع الاتفاقُ على التمثل بقوله : ﴿ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا ﴾ .

ولما كنت أيها القاضي المكين من البيت الذى آشتهر قدره ، وأرتفع ذكره ، وحلّت رتبته ، بأوصاف كلّ من أهله في قوله وفعله ؛ وتردّدت رياسته ، في عدد كثير لاعهد للرياسة بالتردد في مثله ؛ وكانت لك ولن مضى من أسلافك آثار في الخدم خلّدت لكم مجدًا يبقى ، وأقرت من الحديث به ما لا يسمو إليه النسيان ولا يرقى ؛

فكل ما تتولونه متجمل بكم ولا يُريد معكم زياده، وكل ما يُعتمد فيه عليكم قد نال مطلوبه وبلغ الغية والإرادة، والذي يخرج عن نظركم يتلَهف عليكم حينئذ إليكم وأشتياقاً، وإن رد إليكم لم يأل تشبثاً بكم وتمسكاً واعتِلاقاً.

هذا إلى ما لم من الحُرُمات المرعيه، والمَوَات التي ليست بمنسيه. والسيد الأجل الأفاضل الذي حسبته من المفاخر قيامه بحق الله لما غفل الملوك عنه وقعدوا، وأستيقاظه بمُفرده حين ناموا دُونَ استخلاصه مما عراه ورقدوا؛ وإن أنتصابه آيةً أظهرها الله للهِ، وحسم بها في رفع منار الدين كلِّ علّه؛ فإذا أنفقت الأعمار في [بيان] أوصافه كانت جديرهً بذلك حريه، وإذا ذُكرت آثاره في الإسلام كان العلم بكمها لاحقاً بالعلوم الضرورية؛ فما يُنسب المتوسّع في التقرّيب له إلى تغال، ولا تضييع وقت يُقضى في آهتِهم بالشاء على مناقبه وأشتغال - يواصلُ الشاء عليك والشكر لك، ويتابع من ذلك ما إذا ذكر اليسير منه شرفك وجملك؛ ويصف ما كان لأخيك القاضي المكين - رحمه الله - من الاجتهاد في المناصحات، ومن الأفعال الحسنة والأعمال الصالحات، ومن الوجاهة التي أحلته مكاناً متجاوزاً غاية الآمال الطامحات، ما رفّعه عن طبقات كثير من سادات الناس، وجعل حاسديه في راحة لما شملهم من دعة الياس. وإنك أيها القاضي المكين، الأشرف الأمين؛ قد بلغت مداه في الجلاله، وورث مجده لا عن كلاله؛ وحويت فضله ونفقه، وقفوت أثره وأحييت ذكره؛ وحزرت خلاله الجميلة وأفعاله الرضيه، وحصلت الفضيلتين الذاتية والعرضيه؛ ولذلك تقررت نُعوتك «القاضي المكين» لاستيجابك فيما تقضى به جزيل الثواب، ولتكن أفعالك في محل الصواب؛ و«الأشرف الأمين» لشرف نفسك، وكون أمانتك في حاضر يومك على ما كانت في ماضى أمسك؛ و«تاج الأحكام» لأن ما يصدر منها سامى المنهاج، وقد ارتفع محله كما

أرتفع محلُّ التاج ؛ و « جمالُ الحُكَّام » لأنك لما وَلَّيتَ ماؤلُوا ، جملتهم إذ فعلتَ من الواجب فوق ما فعلُوا ؛ و « عمدةُ الدين » لأنَّ من كان مثلك ركنَ إليه الدينُ وآسَند ، وتوَكَّأ على جانبه وأَعتمدَ ؛ و « عمدةُ أمير المؤمنين » لأنك ذخيرةُ لدولته ، ونِعَمَ البقيةُ الصالحةُ لمملكته .

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية - حماه الله تعالى - الثغرُ الرفيعُ المقدار ، الذى هو فُرةُ العين للإسلام وقدَّى فى عيون الكُفَّار ؛ ومحلهُ مما تتطامن له معاقلُ التوحيد وحُصُونُهُ ، وهو مشتملٌ من الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهل الدين على مَنْ لم يزل يحفظه ويصونه ؛ وإليه تَنَنَّا^(١)لُ السُّفَّار ، وتَرَدَّدُ التُّجَّار ، وهو المقصود من الأقطار القصيةِ النائيةِ ، ومن البلاد القريبةِ الدانيةِ ؛ وما زالت أحواله جاريةً بنظرك على أحسن الأوضاع وأفضلها ، وأوفى القضايا وأكملها ؛ وما كان أَسْتَخدامُ غيرك فيه إلا ليظهر إشرافُ شَمْسِكَ ، ولِيُزولَ الشكُّ فى تَبَرُّزِكَ على جَنَسِكَ ، ولِيَتبينَ فضلُ مباشرتك وتَوَلُّيك على أن ذلك لم يَكُنْ مكتماً ، ولِيَتَحَقَّقَ أَنَّ عقدَ صلاحه لا يكون بتولى غيرك متَّسقاً ولا منتظماً .

وقد رأى أمير المؤمنين إمضاءَ ما رآه السيدُ الأجلُّ الأفضل من إقرارك على الحكم والقضاء : لأَطلاعِكَ من ذلك على سرِّه ، ونَفَازِكَ فى جميع أمرِهِ ؛ ونَجْرتِكَ به ودُرْبَتِكَ ، ولأَسْتقلالِكَ ومضائِكَ ومَعْرِفَتِكَ ؛ وإنك إذا أَسْتَمَرَّرت على عادتك ، غَنَيْتَ عن تجديد وصيَّتِكَ ؛ فَمَادَ على سُنَّتِكَ ، ولا تَخْرُجَ عن سبيلِكَ ومَحَجَّتِكَ ؛ وأنت تعلم أن الشُّهودَ بهم يُعطى الحُكَّام ويمنعون ، وبأقوالهم يُفصلون ويُقَطَّعون ؛ وبشهاداتهم تثبتُ الظُّلُمات وتبطلُ ، وعليها يَعْتَمَدُ فى اتِّزاعِ الحقوقِ مَنْ يُدافع ويمْطَل ؛ فواجبٌ أن يكونوا من أَتقياءِ الورى ، ومن لا يَتَّبِعِ الهوى ؛ فَاسْتَشَفَّ

(١) أى تنصب وترد عليه كثيرا انظر اللسان والقاموس .

أحوالهم، وأستوضح أمورهم وأفعالهم؛ فمن كان بهذه الصفة فأجره على عادته في استماع مقالته، ومن كان بخلافه ففقد الأمر على عدالته، وأحسب مادة الضرر في قبول شهادته؛ وقد جعل لك ذلك من غير استئذان عليه، ولا اعتراض لك فيه؛ ولا تقرب أحدا من رتبة العدالة، وأرفعها بإزالة الأطماع فيها عن الإهانة والإذالة؛ وأغضض من أبصار المتطلعين إليها، والمتوسلين عليها، بالتطأرح على الجهات، والتماسها بالعنايات التي هي من أقوى الشبهات؛ وإن ورد إليك توقيع وتزكية من الباب فأصدره [في] مطاعتك ليحيط العلم به، ويخرج إليك من الأمر ما تفعل على حسبه؛ وأفعل في دار الضرب وأحوال المستخدمين والمتصرفين على ما أنت به العالم البصير، والعارف الخبير.

وقد جعل لك إضافة إلى ذلك النظر في أمر جميع هذا الثغر المحروس وأُسند إليك ووكل إلى صائب تديرك، وإلى حُسن تهديك؛ وإلى بركة سياستك، وإلى عملك فيه بمقتضى دياتك؛ وصار جميع المستخدمين به من قبلك متصرفين، ولأوامرك متوكفين، وعند ما تحده واقفين، ولمراسمك متابعين غير مخالفين؛ فمن أحدثه منهم وعلمت نهضته فأجره على عادته ورسمه، ومن كان بخلاف ذلك فاستبدل به وأُخ من الخدمة ذكر اسمه؛ فلا يد مع يدك، ولا عدول عن مقصدك؛ والاستخدام في هذا الأمر قد أُسند إليك ورُد، وكونه من جهة غيرك أغلق بابه وسُد؛ فلا تصرف فيه إلا لمن صرّفه، ولا خدمة إلا لمن أستخدمته.

وتأكيد القول عليك لا يزيدك حرصا، والمعرفة بهمتك وخبرتك تغنيك عن أن توصي؛ والذي تقدم ذكره في هذا السجل إلهاف لحدك، وإعلاء لحدك، وإطلاع لكوكب سعدك؛ والله يتولى تأييدك وتوفيقك، ويوضح إلى الخير سبيلك وطريقك؛

فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجلس النظر بأمر خدمتك ، وما تحتاج إلى عمله في جهتك . إن شاء الله عز وجل .



وأما السجلات المكتتة بالوظائف الديوانية ، فكما كتب به بعض كتابهم بولاية ديوان المراجع :

لسني الدولة وجلالها ، ذى الرياستين ، أبى المنجى سليمان بن سهل بن عمران .
أما بعد ، فإنه من حسنت آثاره في مناصحات الأئمة الخلفاء ، وأرتفع محله في طاعتهم عن الأنظار والأمثال والأكفاء ، وظهرت بركات أفعاله فيما يتولاه ظهور الشمس ليس بها من خفاء ، وباهى بتديره كل ما يشره من أمر خطير قدره ، واستدعت من الثناء والإطراء ما يتأرجح نشره ويتضوع ذكركه ، وتساوى عنده القول والعمل ونافس فيه الخبر الخبر ، ورتبه مرتبه مقدما على من مضى من طبقته وغبر ، ووسم الأعمال بسمات في العمار تضاف إليه وتنسب ، وغدت الخدم ترضى به وتعجب ، وهو لا يزهى ولا ينظر ولا يعجب - كان رد المهمات إليه حسن نظرها ، وإذا حطرت جلاله توليها على غيره أضحى نفاذه متعجلا له محلها ، وكان التنويه به حقا من حقوقه وواجبا من واجباته ، والمبالغة في تكريمه وتفخيمه مما يتعين الانتهاء فيه إلى أقصى أماده وأبعد غاياته .

ولما كنت في متولى الدواوين ، مشهور الشأن والقدر ، وحالا من مراتب الكفاة المقدمين ، في حقيقة الصدر ، إن أنتظموا عقدا كنت فيه الواسطة ، وإن قسط غيرك على معامل لم تكن أفعالك قاسطه ، ولك السياسة التي ظلت ساحاتها رحابا ،

والرياسة التي من وَصَفَكَ بها فما تَمَلَّقَ ولا داجى ولا حابى؛ والصَّنَاعَةُ البَارِعَةُ التي
تَشْهَدُ بها الطُّرُوسُ واليَرَّاعُ ، والأُمَانَةُ الوَافِيَةُ التي أَرْتَفَعَ فيها الخِلَافُ ووقَعَ عليها
الإِجْمَاعُ ؛ والتَصَرُّفُ في أنواعِ الكِتَابَةِ على تَبَيُّنِ ضُرُوبِهَا ، والأَسْتِیْلَاءُ على ظَاهِرِهَا
ومُسْتُورِهَا ووَاضِحِهَا ومَكْتُومِهَا ، والأَخْذُ لَهَا عن أَهْلِ بَيْتِكَ الَّذِينَ لم يَزَالُوا فِيهَا
عَمِيقِينَ ، ولم يَنْفِكُوا في مَدَاهَا سَابِقِينَ غَيْرَ مَلْحُوقِينَ ؛ وقد زِدْتَ عَلَيْهِمْ بِمَا حُرِّتَهُ
بِهَيْمَتِكَ ، وَلِئَلَّه بَقَرِيحَتِكَ ؛ حَتَّى بَلَغْتَ مِنْهَا ذِرْوَةً شَامِخَةً عَلَيْهِ ، وَحَصَلَتْ فَضِيلَتَيْنِ
فَضِيلَةً ذَاتِيَّةً وَفَضِيلَةً عَرَضِيَّةً ؛ وَأَمِنْتَ مِنْ يُبَارِيكَ وَيَسَاجِلُكَ ، وَكُفِّتَ مَنْ
يَنَازِلُكَ وَيُطَاوِلُكَ ؛ وَكَانَ الدِّيَوَانُ الْمُتَرَجِّعُ عَنْ بَهْرَامَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَجْلِ الدَّوَاوِينَ
وَأَوْفَاهَا ، وَأَحَقُّهَا بِالتَّقْدِيمِ وَأَوَّلَاهَا : لِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى نَوَاجِحِ مَخْتَارِهِ ، وَيَحْتَوِي عَلَى
ضِيَاعٍ مَكْنُوفَةٍ بِالْعَارِهِ ؛ وَقَدْ زَادَهُ مِزَّةٌ عَلَى غَيْرِهِ كَوْنُكَ نَازِرًا فِيهِ ، وَأَنَّكَ مَدَبِّرُ
أَمْرِهِ وَمُسْتَوْفِيهِ .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه وزيره السيد الأجلُّ الأفضَلُ الذي عَزَّ بِحُسْنِ
سِيرَتِهِ الْمُلُوكُ وتَضَاعَفَ بِهَأْوِهِ ، وَصَمِنَتْ مَصَالِحُ الْأُمُورِ تَدِيرَاتُهُ وَأَرَاؤُهُ ؛ وَظَلَّتْ
شُؤْنُ الدَّوْلَةِ بِمَا يَقَرُّرُهُ مَتَظَمَّةٌ مُسْتَقِيمَةٌ ، وَغَدَتِ الْمِيَامُنُ وَالسُّعُودُ مَحِيْمَةً فِي دَارِهِ
مُقِيمَةٍ ؛ وَاتَّفَقَتْ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَخْتَلِفَاتُ الْأَقْوَالِ ، وَقَضَتْ مَهَابَتُهُ بِحِمَايَةِ النُّفُوسِ
وَصِيَانَةِ الْأَمْوَالِ . وَفَاوَضَهُ فِي أَمْرِ هَذَا الدِّيَوَانِ فَأَفَاضَ فِي وَصْفِكَ وَشُكْرِكَ ، وَأَطْنَبَ
فِي تَقْرِيطِكَ وَإِجْمَالِ ذِكْرِكَ ؛ وَنَبَّهَ عَلَى الْحِظِّ فِي تَوَلِّيكَ إِيَّاهُ ، وَوَاصَلَ مِنْ مَدْحِكَ
بِمَا يَتَضَوَّعُ عَرَفُهُ وَيَطِيبُ رِيَّاهُ ؛ وَقَرَّرَكَ مِنْ تَوَلِّيهِ مَا يَصِلُ سَبَبَ الْخَيْرَاتِ
بِسَبَبِهِ ، وَمِيزَكَ بِمَا لَمْ يَطْمَعُ أَحَدٌ مِنْ كَافَّةِ مَتَوَلِّي الدَّوَاوِينَ بِهِ ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ فِيهِ يَدًا
مَعَ يَدِكَ ، وَلَا نَظْرًا إِلَّا لَكَ بِمَقَرِّدِكَ ؛ فَلَا يَرْفَعُ [أَحَدٌ] شَيْئًا إِلَى غَيْرِ دِيْوَانِكَ مِنْ حِسَابِ
مَا يَجْرِي فِي أَعْمَالِهِ ، وَلَا مُعَامَلَةً لِبَيْتِ الْمَالِ إِلَّا مَعَكَ فِيمَا يَحِلُّ مِنْ أَمْوَالِهِ . فَأَمَضَى

أمير المؤمنين ذلك وأمر به ، ونخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الديوان المرتجع المذكور : ثقة بأنك تأتي فيه على الإرادته ، ونتأني لبُلوغ الغرض وزيادة .

فاستخِر الله تعالى وباشِر أمره بجِدِّك المعهود ، وشمر عن ساق عزمك المشهود وسعيك المحمود ؛ وأجر على ربك في العمل بما يحفظ أوضاعه ، ويُزجي ارتفاعه ، ويُزيح علقته ، ويُغزِر مادته ؛ فاعتقد مواصلة الليل والنهار في مصالحه فرضاً إذا اعتقدها غيرك قفلاً ، وأجعل اجتهادك لاستخراج أمواله وكُن عليها إلى أن تصل إلى بيت المال قفلاً ؛ واستنظف ما فيه من تقاوٍ وباق ؛ وأفعل في تديره ما يُجري أمره على الوفاق ؛ واستخدم من الكتاب من تحمده وترتضيه ، ونصهم إلى الأفعال التي تستدعي شكرهم وتقضيه ؛ ولا تُسوغ لضايف ولا عامل أن يقصر في العماره ، وأعتد من ذلك ما يكون على كفايتك أوضح دلالة وأصح أماره .

وقد أمر أمير المؤمنين أن تُجرى الحال على ما كانت عليه من دخول ذلك وبيعه بغير مكس في جميع الأعمال ؛ وأزاح مع ذلك علقك ببسط يدك وإنفاذ أمرك وإمضاء قولك ، وإفراذك بالنظر من غير أن يكون لأحد من متولّي الدواوين على اختلافهم نظر معك ؛ فتماد في حسن تديره على سنتك ، ولا تخرج عن مذهبك وطريقتك ؛ والله يوفقك ويُسعدك ، ويُعينك ويعضدك ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله عز وجل .

المرتبة الثالثة

(من المذهب الأول من سجلات ولايات الفاطميين أن تفتح

بالتصدير أيضا ، وهو « من عبد الله ووليه » إلى آخر التصلية على

النبي صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين على رضى الله عنه ؛ ثم يُؤتى بالبعدية ،

لكن من غير تحميد ، بل يقال : « أما بعد فإن أولى » أو « إن أحق »

ونحو ذلك ؛ ويذكر مناقب المولى ثم يأتي بالوصايا)

وَأعلم أنَّ هذه المرتبة من السجلات يشترك فيها أرباب السيوف وأرباب الأقلام
من أصحاب الوظائف الدينية والوظائف الدنيوية .

فأما سجلات أرباب السيوف فكأصحاب زُوم طوائف الرجال ، يعنى التقدمة
عليهم والولايات ونحو ذلك ، على ماسياتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخ ولايات لأرباب السيوف بالحضرة من هذه المرتبة .

نسخة سجل بزّ طائفة ، من إنشاء القاضى الفاضل ، وهى :

من عبد الله ووليه (إلى آخره) .

أما بعد ، فإنَّ أمير المؤمنين يَصْطَنع مَنْ يَرْضِيهِ لِنَافِعِ عَيْدِهِ وَصَحَّهِمْ ، وَيَسْتَوْفِقُهُ
لِلنَّظَرِ فِي تَقْدِيمِ رِجَالِ مَمْلَكَتِهِ وَزَمَّهِمْ ، وَيَخْتَارُ مَنْ يَحْتَبِيهِ لِإِحْرَازِ مَدَحِهِمْ بِالْبُعْدِ
مِنْ مُوجِبَاتِ ذَمِّهِمْ ؛ وَلَا يُؤْهِلُ لِدَلَالِكَ إِلَّا مَنْ تَوَسَّلَ بِالْغَنَاءِ وَتَقَرَّبَ ، وَاسْتَقَلَّ بِالْأَعْبَاءِ
وَتَدَرَّبَ ؛ وَأَطْلَقَ حَدَّهَ التَّوْفِيقُ فَضْلِي وَتَدَرَّبَ ، وَأُودِعَ الْإِحْسَانَ فَمَا زَايَلَ مَحَلَّهُ
وَلَا تَقَرَّبَ ، وَلَا بَسَ الْأُمُورَ مَلَابَسَةً مِنْ فُطُنٍ وَجَرَّبَ ؛ وَقَدْ أَيْدَى اللَّهُ دَوْلَتَهُ بِفَتَاهِ
وَأَمِينِهِ ، وَعَقْدَهُ وَثَمِينِهِ ؛ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الَّذِي غَدَتْ أَرَاؤُهُ لِلصَّالِحِ كَوَافِلَ ، وَأَذْكَى
لِلتَّنْذِيرِ عُيُونَ حَرَمٍ غَيْرِ مُلْتَفِتَاتٍ عَنْهُ وَلَا غَوَافِلَ ؛ وَأُطْلِعَ مِنَ السَّعْدِ نَجُومًا غَيْرَ غَوَارِبَ

ولا أوَّيْلَ ، وقام بفرائض النَّصائح قيامَ من لم يُحَوِّزَ فيها رُخْصَ النَّوافِلِ ، وتحدَّثَتْ بأفعاله رِمَاحُه في المحافلِ فما راعت الجحافلُ .

ولمَّا مَثَلَ بحضرة أمير المؤمنين أَجْمَلَ ذِكْرُك وإطابه ، وقصَّـدَ بك غَرْضَ الإِصْطِناعِ فأصابه ، وأسَمَّطَـرَ لك الإِنعامَ الغَدَقَ السَّحابِ فأجابَه ؛ ووصَفَ ما أنت عليه من شَهامةٍ شَهِدَتْ وشَهِرَتْ ، وصرامةٍ تَظَاهَرَتْ وظَهَرَتْ ؛ وكَفَايةٍ بَرَعَتْ وفَرَعَتْ ، ونِزَاهةٍ أَسْتَوْدَعَتْ الأمانةَ فَرَعَتْ ؛ ومُناسِحةٍ أَنْفَرَدَتْ بوصفها ، وتَحَلَّتْ واسطةَ عِقْدٍ صَقَّها ؛ وجهادٍ لم يَزَلْ به القُرْءَانُ مُغْرِبًا ، والصَّعْبُ المَقَادِ مُدْعَاً والخطبَ عابياً (؟) في قيادها مدعيًا ، وقَرَّرَ لك الإِستخدامَ في زَمِّ الطائفةِ فأَمْضَى تَقْرِيرَه ، وأسْتَصَابَ تَدْيِيرَه ؛ وخرَجَ أمرُه إليه بأنْ يُوعِزَ إلى ديوانِ الإنشاءِ بَكْتَبِ هذا السَّجَلِ وإيداعه ماتَهْتَدِي به ، وتَعَمَّلُ بِتَأْدِيهِ .

فَتَقَلَّدَ مَأْقُلْدَتَهُ مِنْ ذَلِكَ عاملاً بِالتَّقِيَّةِ فإنَّها الحِجَةُ والمَحِجَّةُ ، والجَنَّةُ والجَنَّةُ ؛ والمَدَدُ السَّليمُ ، والمَرْبِجُ القَوِيمُ ، والنِّعْمَةُ والنِّعَمُ ، بقولِ الله سبحانه في كتابه الحكيم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

فانهضْ بِشُرُوطِ هَذَا الزَّمَنِ هُوضًا يُؤَدِّي عَنْكَ مِنَ النُّصْحِ مَفْرُوضًا ، وَيَجْعَلُ لَكَ كُلَّ يَوْمٍ كِتَابَ شُكْرٍ مَفْضُوضًا ؛ وَنُسْ هَذِهِ الطَّائِفَةَ بِمَا يُؤَلِّمُهَا دَوَاعِيَ الْوَفَاقِ ، وَيَجْمِيعُهَا مِنْ عَوَادِي الْإِفْتِرَاقِ ؛ وَأَجْهَدْ فِي مَنَافِعِهَا مُجْتَلِبًا ، وَلَا أُخْلَافَ دَرَّهَا مُحْتَلِبًا ؛ وَأَنْتَصِبْ لِاسْتِشْفَافِ أَحْوَالِهَا وَتَعَهُّدِهَا ، وَمَلَا حِظَةَ أَفْعَالِهَا وَتَفَقُّدِهَا ؛ فَمَنْ أَلْفَيْتَهُ إِلَى فَرَائِضِ الخِدْمَةِ مُسْرِعًا ، وَبِنَوَافِلِهَا مَتَّطُوعًا ، وَبِكَرَمِهِ عَمَّا يَشِينُهُ مَتَرَفًّا ؛ شَحَّدَتْ بِصَبْرِهِ بِالتَّكْرِمِ ، وَرَشَّحَتْ هِمَّتَهُ لِلتَّقْدِيمِ ؛ وَمَنْ وَجَدْتَهُ لِنُكْلِ الصِّفَاتِ الزَّائِنَةِ مُخَالَفًا ، وَلِلصِّفَاتِ الشَّائِنَةِ مُؤَالَفًا ، وَلِنَفْسِهِ عَمَّا يَرْفَعُهَا صَارِفًا ؛ قَوِّمْتَ أَوْدَهُ وَتَقَفَّتْهُ ، وَأَشْرَفَتْ بِهِ عَلَى مَنْهَجِ الصَّرَاطِ وَوَقَفَّتْهُ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة سَجِّلْ بولاية الفُسطاط المعبَّر عنها بمصر على نحو ما تقدَّم في ولاية القاهرة، وهي :

أما بعدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين لِمَا خَصَّ الله به آراءه من التأييد الذي يُستَدَّ سِهَامُهَا ، وَيُجْزَل من التوفيق سِهَامُهَا ؛ وأُطْلِق به يَدَه من أَيَادٍ تَسْبِقُ آمَادَ الآمالِ وَتُكَاثِرُ أَوهَامُهَا ، وَأَلْبَسَ الدِّينَ ببقائه من مهابةٍ تُصَيِّرُ قُلُوبَ أعدائه مَهَامُهَا ؛ وَمَيِّزَ به عَصْرَه من خصائص نصرٍ لَا تُطِيلُ الأَيَّامَ اسْتِفْهَامُهَا وَلَا تُخْشِي اسْتِبْهَامُهَا ، وَيَسِّرَه من نبإٍ دَعَوَتِهِ الَّتِي طَبَّقَتْ أَنْجَادَ الأَرْضِ وَتِهَامُهَا ، وَرَقَّاه من محلٍّ أَمَانَةِ الإمامَةِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ أَرْبَابُ الأَلْبَابِ عَلَى أسرارِ الله وَلَا آتَمَامُهَا ؛ وَنَاطَه بِتدبيره من إِبَالَةِ البرِّيَّةِ والأَعْتِنَاءِ بِمَصَالِحِهَا ، وَأَصَابَه من مَرَاشِدِ اليقين الَّتِي تَسْتَضِيءُ الْعُقُولَ بِمَصَابِحِهَا ؛ وَأَتَى به الأَنْفُسَ الصَّالِحَةَ من تَقْوَاهَا ، وَصَرَفَ بِمَا صَرَفَه عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْحُكْمِ عَنْهَا مَضَارَّ الشُّبُهَةِ وَطَوَاهَا ، وَأَلْبَسَه من هَدْيِ النُّبُوَّةِ الَّتِي قَرَّبَ اللهُ إِسْنَادَ مَنْ رَأَاهَا وَفَضَّلَ مَنْ رَوَاهَا - يَسْتَغْزِرُ مَوَادَّ التَّوْفِيقِ مِنْ خَالِقِهِ بِنُصْحِهِ فِي الْخَلَائِقِ ، وَيَقْدِّمُ الاسْتِخَارَةَ بَيْنَ يَدَيْ أَفْعَالِهِ فَهِيَ بِهِ أَمْلَكُ الْخِلَالِ وَأَخْصُ الْخَلَائِقِ ؛ وَيَعْتَمِدُ لِلْقِيَامِ بِتَكْلِيفِ الاسْتِنْهَاضِ ، وَيَخْتَارُ لِقَوِيمِ الْمَيَادِنِ أَشْهَرُ بِالتَّدْبِيرِ وَجَبْرُ الْمُنْهَاضِ ؛ وَيُقَدِّمُ لِكِبَارِ الْوِلَايَاتِ وَعَوَالِيهَا ، وَخِصَائِصِ الرُّتَبِ وَغَوَالِيهَا ، مَنْ تَكَافَأَتْ فِي اسْتِعَابِ الْحَاسِنِ خِلَالَهُ ، وَخَطَبَ الْخِدْمَ الْمُتَكَثِّرَةَ لِأَوَّلَى الْحُظُوظِ اسْتِقْلَالَهُ ، وَعَلِمَ اسْتِبْدَادَهُ بِطِيبِ الذِّكْرِ وَأَمِنْ أَنْفِصَالِهِ ، وَأَوَى إِلَى جَنَّةٍ مَرِيْعَةٍ وَجَنَّةٍ مَنِيْعَةٍ مِنَ الْوَلَاءِ وَالْحَقَّةِ ظِلَالَهُ ، وَاسْتَقَامَ عَلَى مَحَجَّةٍ وَاضِحَةٍ مِنَ الْمَخَالِصَةِ وَلَمْ يُخَفِّ زَيْغُهُ وَلَا ضَلَالَهُ ، وَمَضَتْ ضَرَائِبُهُ فِي الْمِهْمَاتِ مَضَاءَ الْحُسَامِ الَّذِي لَا يَنْبُو حُدُّهُ وَلَا يَثْبُتُ أَنْفَالُهُ ، وَصَحَّ بِصِيرَةٍ

في المناصحة فاسر الأعداء شكه ولا اعتلاله ، وأعطى الخدم حقوقها من إقامة القوانين ، ونهض بأعبائها المثقلة نهضة المشمرين غير الوائين ، واشتدت وطأة تبادره على المفسدين والجانين ، وتظاهرت شواهد ميزته بما يكثر له الحساد ويُرغم الشائين ، وأقننى من نفائس المحامد ما يعده أهل النظر قنية القانين ، وأستبقى من جميل الأحداث ما يبقى ذكره بعد فناء القانين ، ووفقت في الخدمة مصادره وموارده ، وانتظمت دُرر الذكر بحسن ذكره فأثقلت فوارده ، ونُسدت ضوأل الغناء فآلقت عنده غرائب وشوارد ، وأختصت مساعيه بالإبرار على الأنظار ، وصحت خلاله على عيب النقد كما صحح النار نور الأبصار ، ونظر لمن أسند إليه أمره نظراً يعفيه من تطرق الأكدار والمضار ، ورعى له ما هو متوسل به من آثار حقيقة بالإيثار ، وكفاية تأخذ للخدم من الفخر بالنار .

ولما كنت أيها الأمير المراد بهذا الإيراد ، المطرد إليه هذا الاستطراد ، المعدود في أمراء الدولة العلوية من الأعيان الأفراد ، المحلى سيفه بين المساعي الجميلة ينتقى منها ما أختار ويصطفى ما أريد ، المهادى الصفات الحسنة فلا جاحد من عاداته ولا راد ، المضطلع بما يعي حمله الحازم المطبق ، المستنفذ في أفعاله المشكورة أقوال الواصف المنطبق ، الواصل بمحمود مساعيه إلى غايات السابقين في مهل ، الجامع في تدبير المهمات بين رأيي أحتك وحزم أكتهل ، المنظور بعين الحزم بآيات دواعيه ، المترقى إلى أمانيته في درج مساعيه ، المحيب دعوة العزم إذا قام فلم يسمع المقصرون داعيه ، المجتهد في تشييد أركان التدبير إذا ارتقب اضطرابه وخيف تداعيه ، الممثل وصايا الأدب الصالح فهو بقلبه راعيه وبسمعه واعيه ، الشهم الذى ينفذ في الأمور نفاذ الشهم ، الأملعى الذى علا أن يماثل بما أوتي من بسطة الفهم ، المتبوى من النعمة منزلة شكر لا يروم ضيقها أن يريمه ، ومرجع حمد لا يسوم نازها غير

أن يُسَيِّمه ؛ المباشر من ماثور السياسة ما استفاض ذكره فلم تتطرق عليه أسباب
المحمد ، البالغ بسمو المساعي ما قصر الأكفاء عنه ولم يقصروا عن الجهد ؛ الحال
من التقدم في هضابها إذا نزل الأكفاء منها في الوهد ، الحامل من أعباء المشايعة
ماغدا به من الموفين على الأنظار الموقنين بالعهد ؛ المحقوق من الوسائل بأن يجودها
النجاح بأعز رديمة وأسقى عهد ؛ المؤدى فيما يسند إليه فروض التفويض ، الملى
بأن لا تنوب فرصة حزم إلا كان ملياً بالحق والتعويض ؛ المكتفى من وصايا الحزم
بما يقوم له مقام التصريح من التعريض ، المستوجب أن تجدى إلى استحقاقه
وتهدى سخائب الطول الطويل العريض ؛ المستوعب شرائط الرياسة بالاستيلاء
على أدواتها ، المتبع مظان الخطوب بمفاجأة الغرض في مداواتها ؛ المبرز على القرناء
بخلال لا تطمع الهمم في مساماتها ولا مساواتها ، الآخذ من كل شيء بأحسنه فأى
حسنة لم يؤتها ولم ياتها ، النافذ الآراء إذا المشكلات لم يتضح لأرباب الألباب
مُصنعت بيانها ، المصيب شواكل الضرائب فسهاهم آرائه مذلولة على شواتها ، المتبرج
المقاصد لعيان الحمد إذا تحفرت الأفعال ووارت سواتها ، المعروف بثبوت الجنان ،
حين يلتبس الشجاع بالجبان ، المشكور في مواقف الحرب بأفواه الجراح ولسان
السنان ؛ المقدم حيث الأعضاء تتزيل والأقدام تتزلزل ، المقتحم غمرات الهيجاء
والأرواح عن ولايات الأجسام تعزل . وقد وليت الولايات فاستقلت بها أحسن
استقلال ، ورفع لك منار العدل فاستدلت منه بأوضح استدلال ؛ وجعلتها على من
تؤويه حرماً ، وعلى من يطرقها حمى ؛ وكنت لجمهور زمانك في المصالح والنصائح
مقسماً ، ولحكم التقوى ولو ضقت مشقاتها دون حكم الهوى محكماً .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين قتاه ووزيره السيد الأجل الذي حل المشكلات
من رأيه ورأياته بالشمس وضحها ، وتعرضت له آية الليل من العدا بخلاها بسيفه

ومحآها ، وثبت نصاب الملك الفاطمي حين أدارت الحرب على فتكاته رحاها ،
وأقناده الأعداء إلى مصارعها بخزائم من العزائم وأوحاها ، وقام بنصر أئمة
الهدى حين قعد الناس ، وزعى الله عزيمته الصابرة في البأساء والضراء وحين
الباس ، وخاطر في حفظ الدين بنفس تجرى محبتها مع الأنفاس ، وحل من ملوك
الأرض محل العين من الراس بل الراس من الحواس ، وأتعبت الأجسام هممه
الحسام ، وأعدى الزمان فتيسم جدلا بعدله البسام ، وقسمت المطامع أمواله فحمى
المجد الموقر عليه من الانقسام .

فطالع أمير المؤمنين بأخبارك بعد اختبارك ، وتوسلك إلى التقدمة بمرضى آتارك ،
وما أظهره الامتحان من نقاء سريرتك وأسرارك ، وأستقامتك على مثلى الطريقة
وأستبصارك ، وأن ولاية مصر من أنفس الولايات محلا ، وأثبتها على غيرها فضلا ،
مجاورتها لل مقام الكريم ، وحصولها من استقلال الركاب الشريف إليها على الشرف
العظيم ، واختصاصها من مجال الخلافة بما جمع لها بين الفخرين الحادث والقديم ،
وأوجب لها على غيرها من البلاد مزية ظاهرة التكریم والتقديم ، وما يمت به أهلها
من شرف الحوار الذى لا ملهم به التخيير في الإحسان والتحكيم .

وما رأى من إسناد ولايتها إليك علما أنك ممن تركو لديه الصنيعه ، وتروى
في جيد كفايته فرائد المن البضيعة ، وتتطامن لأستحقاقه ذروة كل مرتبة رفيعة -
نرج أمر أمير المؤمنين إليه ، بأن يؤعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك
بالولاية المذكورة . فتقأ ماقلدك منها مقدما تقوى الله على كل فعل وقول ، متبرئا
إليه من طول الحول ، معدا ذخيرتها النافعة ليوم الهول ، قال الله فى مُحكم الكتاب :
﴿ وَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقُونُ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ .

وَأَنْظُرْ فِي هَذِهِ الْوَلَايَةِ حَاجِكًا بِالْقِسْطِ ، وَسَاوِي الْحَقِّ بَيْنَ طَبَقَاتِ النَّاسِ ؛
وَلَا تُمَيِّزْ فِيهِ رَفِيعًا عَلَى حَقِيرٍ ، وَلَا غَنِيًّا عَلَى فَقِيرٍ ؛ وَأَقِمِ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ
إِقَامَةُ يَرْتَدِعُ بِهَا الْمَغْرُورُ ، وَتُسْتَقِيمُ بِهَا الشُّؤُنُ وَتُنْتَظَمُ الْأُمُورُ ؛ وَرَاعِ مَنْ بِهِذِهِ الْمَدِينَةُ
الْمَحْرُوسَةُ مِنْ شُهُودِهَا ، وَمُمَيِّزَى أَهْلِهَا ، فِيهَا الْفُقَهَاءُ وَالْأَتَقِيَاءُ ، وَالْقُرَّاءُ وَالْعُلَمَاءُ ؛
وَالْمُمْتَرِزُونَ الْأَعْيَانُ الْوُجُوهُ ، وَأَهْلُ السَّلَامَةِ الَّذِينَ يَسْتَوْجِبُ كُلُّ مِنْهُمْ نَيْلَ مَا يَأْمُلُهُ
وَبُلُوغَ مَا يَرْجُوهُ ؛ فَاعْتَمِدْ أَعْمَارَهُمْ ، وَتَوَخَّ تَكْرِمَتَهُمْ ؛ وَوَقِّهِمْ مَا يَجِبُ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
وَأَلْقِهِمْ بِالْوَجْهِ الْمُسْفِرِ الطَّلُقِ ؛ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَنُصِّ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَعَاقِبُ
عَلَيْهِ ؛ وَتَفَقَّدْ أَحْوَالَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ ، وَحَافِظُ عَلَى إِجْرَائِهَا عَلَى أَحْكَامِ الصَّوَابِ
وَقَضَايَا الْوَاجِبِ ؛ وَاحْظُرْ فِي الْمَكَائِلِ وَالْمَوَازِينِ الْبَخْسَ وَالتَّطْطِيفَ ، وَقَدِّمِ الْإِنْذَارَ
فِي ذَلِكَ وَالتَّحْذِيرَ وَالتَّخْوِيفَ ؛ وَأَوْعِزْ بِتَنْظِيفِ الْمَسَالِكِ وَالسَّاحَاتِ ، وَأَمْنَعْ مِنْ
تَوَعِيرِ السُّبُلِ وَالطَّرِيقَاتِ ؛ وَاعْتَمِدْ كُلَّ لَيْلَةٍ مُوَاصِلَةَ التَّطَوُّافِ عَلَى أَرْجَاءِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ
وَأَخْفَاهَا ، وَمُتَابَعَةَ الْإِطْلَالِ عَلَى نَوَاحِيهَا وَأَطْرَافِهَا ؛ وَاعْمَلْ فِيمَنْ تَظْفَرُ بِهِ مِنْ عَائِثٍ
وَعَادٍ ، وَمُنْتَهَجِ طَرِيقِ الْفُسَادِ ، مَا يَرْتَدِعُ بِهِ سِوَاهُ ، وَيَجْعَلُهُ مَوْعِظَةً لِمَنْ يَعْدِلُ
عَنِ الصَّوَابِ وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ ؛ وَاشْدُدْ مِنَ الْمُتَصَرِّفِينَ عَلَى بَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ فِي قُوْدِ آبَاةِ
الْخُصُومِ ، لِيُنْظَرَ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَنْتَصِفُ بِهِ الْمَظْلُومُ مِنَ الظَّالِمِ ؛ وَتَقَدَّمْ بِتَوْقِيرِ الْجَوَامِعِ
وَصِيَّاتِهَا ، وَحَافِظُ عَلَى مَاعَادِ بَيْهَجَتِهَا وَنَفَاقَتِهَا ؛ وَخُذِ الْمُسْتَخْدِمِينَ فِي الْأَرْبَاعِ بِأَنْ
يَتَّقِظَ كُلُّ مِنْهُمْ لِمَا يَجْرِي فِي عَمَلِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا يَحْدُثُ وَيُنْهَى إِلَيْكَ مِنْ قِبَلِهِ ؛
وَأَنْظُرْ فِي الصَّنَاعَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَفِي عَمَائِرِ الْأَسَاطِيلِ الْمَظْفَرَةِ الْمَنْصُورَةِ ؛ وَتَوَقَّرْ عَلَى تَدْيِيرِ
أُمُورِهَا وَالْإِهْتِمَامِ بِشُؤْنِهَا ؛ وَحِفْظِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَخْشَابِ ، وَالْحَدِيدِ وَالْعُدَدِ وَالْآلَاتِ
وَالْأَسْبَابِ ؛ وَأَبْعَثِ الْمُسْتَخْدِمِينَ عَلَى الْمَنَاصِحَةِ فِيهَا ، وَبَذِلِ الْجُهْدَ فِي قَصْدِ مَصَالِحِهَا
وَتَوَخَّيْهَا ؛ وَأَجْرَأْ مَرَّ هَذِهِ الْوَلَايَةِ عَلَى مَا يَشْهَدُ بِحُسْنِ أَثَرِكَ ، وَجَمِيلِ ذِكْرِكَ وَطِيبِ

خبرك؛ فاعلم هذا وأعمل به، وطالع مجلس النظر السيدى الأجلّى بأمور خدمتك، وما يحتاج إليه من جهتك؛ إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة سجل بولاية الأعمال القوصية، وهى بعد التصدير:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين لموضع من خلافة الله التى أعمره إياها، وأنا بنظره محيّاها، والإمامة التى أقره ذراها، وناط به عراها؛ وما وكله إليه من القيام، بحفظ الإسلام، الذى رضىه ديناً، وألبسه بعدله تحسناً، وبذبه عنه تحصيناً؛ وما استودعه إياه من جوامع الحكم، وعدقه بكفالاته من رعاية الأمم، وعضده برأيه من التأييد والتوفيق، وأوجبه من فرض طاعته على كل مطبق - يصطفى لمعونه على النهوض بما حمّله الله من أعباء الأمانة، والشكر على ما أختصه به من الوجاهة عنده والمكانة؛ ويستكفى فيما أمر به من إحسان الإيالة فى بريته، وينتخب لتفويض أمورهم والسلوك بهم مسالك رأفته فى سيرته - من يكون أصطفاؤه لرضا الله عنه مطابقاً، وأجتنابؤه لشرائط المراد والإقتراح موافقاً؛ وانتصابه للهمم أفضل ما يدي به وقدم أعمّاده، وإسناد الأمر الجسم إليه أوفى ما عظم بتدبره شأنه ورفع بنظره عماده؛ وإن ولى ولاية، جعلها بمهابته حرماً آمناً على أهلها من المخاوف، وغداً حسن سيرته برهاناً على فضله يضطر إلى التصديق به المؤلف والمخالف؛ وأعاد حميد أثره محلها ربيعاً مرمعاً، وقرب حسن شأنه من المطالب ما كان بعيداً ممتنعاً؛ وإن نذب للخلج، عاد مظفر المقاصد، محفوفاً باليأمن والمساعد؛ ساحباً ذيل الفخر، حائزاً لكنوز الأجر؛ مستعيناً بتوحيده على العدد الجم، والعسكر الدهم^(١).

وإنَّ هذه الأوصاف قد أصبحت لك أيُّها الأميرُ أسامي لم تزدك معرفه، وخواصَّ المهيمَّات إلى ملابسيتك إياها متطلعة متشوفة، وأفعالك الحميدة قد بنت لك بكلِّ ريع منارا، وجعلت لك في كلِّ مكرمة سماء وآثارا، وجميل رأى أمير المؤمنين فيك، قد زاد توفيق مساعيك، وضاعف ارتقاء معاليك، وجعل الخيرة مقترنة بمقاصدك ومراميك، وسمَّا بك إلى رتبة من الوجاهة تتذبذب دُونها مطارح الهيم، وأحلَّك من الثقة بك منزلة لا تُفْضَى إليها خواطر الظنِّ والتهم، وتحقق من يقينك ومضاء عزميتك، وعدل سيرتك وصفاء سيريرتك، ماجعل حظك عنده زائد النماء، وذَكَرك بحضرته مكنوفاً بالشكر والثناء، ووسائلك إليه متقبلة، وقد أدركت في ريق الشباب حُرَّامة الكهول، واستنجحت في مقاصدك بضمير من الولاء مأهول، ولك البيت الذي كثُر فيه الأبحاد والأفاضل، وأحلَّك في دعة الناس من يخافهم المباري والمناضل، وتساوت في اعتقاد تفضيلهم حالتا السرِّ والجر، وأصلح بعزائمهم مظاهر من الفساد في البر والبحر، وفَتَّ المطاعم بفضيلة هذا النسب وفضيلة النفس، ودلت ما ترك على ما ظهر من خصائصك دلالة الفجر على الشمس.

ولما رآك أمير المؤمنين أهلاً للعون على استيجابه لطفاً لله عنده، والتماس عوائد صنعه الجميل فيمن فارق سعيه ونبد عهده - انتضى منك حساماً حاكماً للدواء، معينا في اللاءاء، طباً بتأليف الأهواء، لا ينبو غراره، ولا يخشى اغتراره، ولا يفلح حده، ولا يؤويه غمده، فانهقنت الدماء، وسكنت الدهماء، وعم الأمن، وعظم من الله تعالى الطول والمن، وأصبح مكان القول فيك ذا سعة فسيحا، ولسان الإجماع لأفعالك منطلقاً فصيحاً، وحصلت من الوجاهة عند أمير المؤمنين بحيث [لاتأباك] رتبة خطيره، ولا تتأى عنك بجانها [منزلة] رفيعة أثيره، بل غدت خواصها فيك

لأَسْتَجْزَالَ حَظَّهَا مِنَ الْجَمَالِ بِكَ رَاغِبَهُ ، وَمَتَنَعَاتُهَا لِأَسْتَكْرَامِ الْإِكْفَاءِ طَالِبَةً لِلْإِفْضَالِ
بِلِ خَاطِبَةٍ ؛ إِذْ كَانَ مَا يَعْدَمُ التَّسْمَةَ بِكَ لَا يَعْدَمُ شَعْنًا وَأَخْتِلَالًا ، وَمَا حِطَى مِنْهَا
بِمَقَارِبَتِكَ يَتَبَهَّ زُهْوًا بِكَ وَأَخْتِلَالًا ؛ فَإِذَا أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَمَلٍ
مِنْ أَعْمَالِ مَمْلَكَتِهِ وَيَرْفَعَ مِنْ مَحَلِّهِ ، وَيُفِيضَ عَلَيْهِ مِنْ سَحَائِبِ رَأْفَتِهِ مَا يَكُونُ مَاحِيًا
لِأَثَارِ جَذْبِهِ وَمَحَلِّهِ ؛ وَيُعِمُّ بِالْبَرَكَاتِ أَقْطَارَهُ ، وَيَبْلُغُ كَلًّا مِنْ أَهْلِهِ مَا رَبَّهُ مِنَ الْعَدْلِ
وَأَوْطَارِهِ - أَسْتَنْدَ مِنْكَ إِلَى الْقَوِيِّ الْأَمِينِ ، وَالْكَامِلِ الَّذِي لَا يُخَدَعُ الظَّنُّ فِيهِ وَلَا يَمِينُ ؛
إِذَا اسْتَكْفَى أَمْرًا حَيًّا حَمَاهُ بِالْمَاضِيَيْنِ : حُسَامِهِ وَأَعْتِرَامِهِ ، وَتَمَسَّكَ فِي حِفْظِ
نِظَامِهِ بِالْحُسَيْنَيْنِ : طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ إِمَامِهِ .

وَمَا كَانَتْ مَدِينَةُ قُوصَ وَأَعْمَالُهَا أَمْدَى أَعْمَالِ الْمَلِكَةِ مَسَافَهُ ، وَأَبْعَدَهَا مِنْ دَارِ
الْخِلَافَةِ ؛ وَتَشْتَمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَجْناسِ النَّاسِ ، وَأَخْلَاطٍ يُحْتَاجُ فِيهِمْ إِلَى إِحْسَانِ
السِّيَاسَةِ وَالْإِنْسَانِ ؛ وَعَلَيْهِ مَعَاجُ الْمَسَافِرِينَ مِنْ كُلِّ فُجٍّ عَمِيقٍ ، وَإِلَيْهِ يَقْصِدُ الْمُجْتَاجُ
إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْعَتِيقِ - رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَبِاللَّهِ تَوْفِيقَهُ أَنْ يَرُدَّ وَلَايَةَ الْحَرْبِ بِهَا
إِلَيْكَ ، وَيُعَوَّلَ فِي تَقْوِيمِ مَائِدَتِهَا وَضَمِّ نَشْرِهَا عَلَيْكَ ؛ وَأَنْ يَحْسِمَ بِكَ دَاءَهَا ؛ وَيُحَسِّنَ
بِنَظَرِكَ رُوءَاءَهَا ؛ وَيُعِمُّ أَهْلَهَا بِكَ رَأْفَةً وَمَنًّا ، نَفْرَجُ أَمْرَهُ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِكُتُبِ
هَذَا السَّجَلِ [لَكَ] بِالْوَلَايَةِ الْمَذْكُورَةِ .

فَتَقَلَّدَ مَا قَلَّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْتَمَدَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي جَعَلَهَا شَرْطًا فِي الْإِيمَانِ ،
وَأَمَرَ بِاعْتِمَادِهَا فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ ؛ فَقَالَ فِي تَأْبِهِ الْمُبِينِ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَبْسَطَ عَدْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْبَايِنِ وَالْحَضَرِ ؛
وَأَقَمَ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ بِمَقْتَضَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقُمَّ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ

من ذلك بأنْفَذَ عَزَمٍ وَأَقْوَى مُنْه ؛ وساوٍ في الحَقِّ بين الضعيف والقوى ، وآس
 بين العدو والولي [والذمي] والملي ؛ وأجعل من تَضُمُّه هذه الولاية ساكنين
 في كَنَفِ الوَقَاية ، مشمولين بالصَّون والحماية ؛ وليكنَّ أَرْهَمُ في الصَّلاح من أَرْبِكَ ،
 فكلُّ منهم شاكرٌ لله على النعمة بك ؛ وبُتَّ في أَقْطَارِها ما يَحْجُزُ النفوسَ العاديَّةَ
 عن النِّظام ، ويُعيد شِيتَمَهم بَعْدَ العُدوانِ مُخلِّدةً إلى التَّوَادُّعِ والتَّسَالُمِ ؛ ومن أَقْدَمَ
 على كِبائرِ الإِجْرامِ ، ولم يَخْرُجْ عن الدِّمِ الحرامِ ؛ فأمْتثلْ فيه ما أَمَرَ الله به في قوله :
 ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا
 أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ
 فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

واعتمد المستخدَم في الحكم العزيز والدعوة الهاديَّة - بثبتهما الله - بما يُقَوِّ
 عَزَمَهُ ، وينفِّذ حُكْمَهُ ؛ وأَجْزَلُ حَظُّهُ من إعزاز الجانب ، وتيسير المطالب ؛ وأَحْسَنُ
 إليه العَوْنُ على صَوْنِ المؤمنين ، وأَجْتلابِ المستخِثين . والمستخدَمون في الأموال
 من مُشارِفٍ وعامل وغيرهما فأنْدَبْهم في عِمارة الأعمال ، وبلغْهم في المِرْافدةِ
 كُنْهَ الآمال ؛ وأشدُّدْ منهم في صَوْنِ الأرتفاع ، وحِفْظِهِ من الإفراط والضياع ؛
 وضافِهم على أَسْتِخْراجِ الخِراجِ ، وخُذْهم بِجَلِّ المعاملين على أَعْدَلِ مِنْهَاجٍ . والرجالُ
 العسكريَّةُ المركزيَّةُ المستخدَمون معك فاستخدِمْهم في الحِدْمِ السانِحةِ ، وصَرِّفْهم
 في المُهِمَّاتِ اتقريبية والنازحة ؛ فمن أَسْتَقَامَ على طريق الصواب ، أُجريتْ أموره
 على الإِتِّنَاطِ والإِسْتِتابِ ؛ ومن كان للإِخْلالِ آلفاً ، وللواجبِ مُخالِفاً ، قَوِّمَتْ
 بالتأديب أودَّه ، وحَلَّاهُ عن مَوْرَدِ الفساد الذي تَوَرَّده .

هذه دُرَرٌ من الوصايا فأبعث (٩) على إحصاءِ الثقة بهدايتك إلى كُلِّ صواب ،

(١) لعله بعث على اختصارها الثقة الخ تأمل .

وَأَعْتَلَقَكَ مِنَ الدِّينَةِ وَالْأَمَانَةِ بِأَوْتَقَى الْأَسْبَابِ ؛ وَإِحَاطَةِ عِلْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَسْتِغْنَائِكَ
بِذَاتِكَ ، وَكِلَالِ أَدَوَاتِكَ ، عَنِ الْإِيقَاطِ وَالتَّنْبِيهِ ، وَالْإِرْشَادِ فِيمَا تَنْظُرُ فِيهِ ؛ وَاللَّهُ يَوْفُقُكَ
إِلَى مَا يُرِضِيهِ ، وَيَجْعَلُ الْخَيْرَ مَكْتَنَفَةً لِمَا تَرْوِيهِ وَتُضِيهِ ؛ فَأَعْمَلْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وهذه نسخةٌ بحجّل بولاية الأعمال الغريّة ، وهى :

أما بعد ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمَامَةِ الْبَشَرِ وَشَرَفِهِ ، وَأَنَالَهُ إِيَّاهُ
مِنَ الْخِلَافَةِ الَّتِي نَظَّمَ بِهَا عَقْدَ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَأَلْفَهُ ؛ وَأَمْضَاهُ اللَّهُ لَهُ فِي أَقْطَارِ الْبَيْسِطَةِ
مِنَ الْأَوَامِرِ ، وَنَقَلَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْخِصَائِصِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي تَجَلَّتْ بِذِكْرِهَا فُرُوقُ الْمَنَابِرِ ،
وَمَكَّنَهُ لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ الَّذِي تَخَضَّعَ لَهُ الْجَبَابِرَةُ وَتَدِينُ ، وَعَضَّدَهُ بِهِ مِنَ التَّأْيِيدِ الَّذِي
أَرْغَمَ الْمُشْرِكِينَ وَخَفَضَ مَنَارَ الْمُلْحِدِينَ ؛ وَآثَرَهُ بِهِ مِنْ مَرَايَا التَّقْدِيسِ وَالتَّمْجِيدِ ،
وَأَلْهَمَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَسْتِكْمَالِ السَّيْرِ الَّتِي أَصْبَحَ الزَّمَنُ بِجَاهِلِهَا حَالِي الْحِيدِ ؛ وَأُنْجَدَ بِهِ مُلْكُهُ
مِنْ مُوَالَاةِ النَّصْرِ وَمُتَابَعَةِ الْإِظْفَارِ ، وَحَازَهُ لَهُ مِنْ مَوَارِيثِ النَّبَوَةِ الْمُنْتَقِلَةِ إِلَيْهِ عَنْ آبَائِهِ
الْأَطْهَارِ ؛ وَأَصْطَفَاهُ لَهُ مِنْ إِيضَاحِ سُبُلِ الْهُدَى الْمُعْتَادِ ، وَأَلْهَمَهُ إِيَّاهُ مِنْ إِسْبَاحِ
مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْحَاضِرِ مِنَ الْأُمَمِ وَالْبَادِ ؛ وَوَقَّرَ عَلَيْهِ أَجْتِهَادَهُ مِنْ أَسْتِدْنَاءِ الْمَصَالِحِ
وَأَجْتِلَابِهَا ، وَصَرَفَ إِلَيْهِ هِمَمَهُ مِنْ تَهْيِيدِ مَسَالِكِ الْأَمْنَةِ وَفَتْحِ أَبْوَابِهَا - يَتَصَفَّحُ أُمُورَ
دَوْلَتِهِ تَصَفَّحَ الْعَانِي بِتَهْدِيدِ أَحْوَالِهَا ، وَيَتَفَقَّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ تَفَقُّدًا يُزِيلُ شَعْبَهَا
وَيُؤْمِنُ مِنْ أَخْتِلَافِهَا ؛ وَيَعِدُّ الْمَهْمَاتِ الْخَطِيرَةَ بِالْصُدُورِ الْأَفْضَلِ مِنْ أَصْفِيَانِهِ ،
وَيَزِيدُ فِي رَفْعِ مَنَازِلِ أَوْلِيَائِهِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي تَشْهَدُ بِجَلَالَةِ مَوَاضِعِهِمْ مِنْ جَمِيلِ آرَائِهِ ؛
وَيُقَيِّضُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَارِ سَعَادَتِهِ مَا يَظْهَرُ سَنَاهُ لِلْأَبْصَارِ ، وَيَمْتَحِنُهُمْ مِنْ أَصْطِفَائِهِ
مَا لَا يَزَالُ دَائِمَ الثَّبَاتِ وَالْإِسْتِقْرَارِ ؛ وَيُعَوِّلُ فِي صِيَانَةِ الرِّعَايَا مِنَ الْمَضَارِّ ؛ وَحِرَاسَةِ
الْأَعْمَالِ الْمُتَمَيِّزَةِ مِنْ عَيْثِ الْمُفْسِدِينَ وَالِدُّعَارِ ، عَلَى مَنْ تَرُوعُ مَهَابَتُهُ ضَوَارِي

الآساد، وتكفل عزائمهم بقطع دابر الفساد؛ ويُدع في السياسة الفاضلة ويُغرب،
وتُعجب أنباؤه في حسن التدبير وتُطرب؛ ويعمُّ الرعايا بضروب الدعة والسكون،
ويشملهم من الأمانة والطمأنينة بأنواع وفنون؛ وتقوم كفايته بسد الخلل وتقويم
الأود، ويبلغ في تيمنه في اكتساب المحامد إلى أقصى غاية وأبعد أمد؛ ويعنى
بمحافظة التواميس وإقامة القوانين، ويذأب في استعمال السيرة الشاهدة له باستكمال
الفضل المبين؛ ولا يألو جهداً في تقريب الصلاح واستدناؤه، ويقصد من الأفعال
الجميلة ما تلهج به الألسن بإطابة شأنه .

ولما كنت أيها الأمير تُنجما من نجوم الدين المضيئة المشرقة، وثمره من ثمرات
دوحة العلاء الزكية المورقة؛ وقدأ في الفضائل البديعة، وفردا في المحاسن التي لم تفر
بنظير ذكرها أذن سميعه؛ وسيفاً يحسم داء الفساد حداه، وكافياً لا يتجاوزهُ الإقتراح
ولا يتعداه؛ وماجداً حاز المفاخر عن أهل بيته كابر عن كابر، وعلماً في المآثر يهتدى
به الأعيان الأكابر؛ وهماماً تملأ مهابته القلوب، وماضياً تلوذ بمضائه الأعمال
الخطيرة وتثوب؛ وصدره يُقرله الرؤساء بارتفاع المنزلة، ومهذباً أغرته شيمه الرضية
ببث الإنصاف وبسط المعدل؛ وحازماً لا يُخشى أخذاعه وأغتراره، وعازماً لا يكتهم
عزمه ولا يكل غراره . وقد ألفت إليك المناقب قيادها مطيعه، وأحطتكم الرئاسة
في أشمخ ذروة رَفيعه؛ وتألفت عندك الفضائل تألفت الجواهر في العقود، وتكفلت
لك مساعيك المحموده بتضاعف الميامن وترادف السعود؛ وتكاملت فيك الخلال
المطابقة لكم أعراقك، وأستعملت الأفعال الشاهدة بمبالغتك في ولاء أتمتك
وإغراقك؛ وحصل لك من الانتماء إلى البيت الصالحى الكريم ما كسبك فخرا
لا يبرح ولا يريم؛ وخصك في كل زمن بمضاعفة التفخيم والتقديم؛ وأنا لك من الإقبال
غاية الرجاء، وجعل وجهتك فسيحة الفناء؛ وسيرة الأرجاء . ولك المهابة التي تُغني

غناء الحيوش المتكاثرة العَدَد ، والشجاعة التى تُسَلِّط قَوَارِعَ الدِّمَارِ عَلَى مَنْ كَفَرَ
وعند؛ والعزم الذى آسَمَدَتِ السُّيُوفُ الباترة من مَضَائِهِ ، وعَزَّ جَانِبُ التَّوْحِيدِ
بِأَنْتِصَائِهِ لِحِجَاهِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَآرِثِيَّائِهِ ؛ وَالْإِقْدَامُ الذى تَلُوذُ مِنْهُ أَسْوَدُ الْوَقَائِعِ بِالْفِرَارِ ،
وَالْبَأْسُ الذى لَا يَعْصِمُ مِنْهُ الْهَرَبُ وَلَا يُنَجِّي مِنْ بَوَادِرِهِ الْحِدَارُ .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره ، وصائِنُ مُلْكِهِ وَظَهْرُهُ ؛ السَّيِّدُ الْأَجَلُ
الذى ^(١) فَأُتِيَ عَلَيْكَ ثَاءٌ طَالَ وَطَابُ ، وَحَرَّرَ فِي ذِكْرِ مَنَاقِبِكَ وَمَحَاسِنِكَ
القولَ والخطاب ؛ وَذَكَرَ مَالِكَ [مِنَ الْأَعْمَالِ] فِي الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ، الَّتِي أَعَادَتْ
الْأَمْنَةَ عَلَى الرِّعْيَةِ ؛ وَمَا آسَمَعَمْتُ فِيهِمْ مِنَ السَّيْرِ الْعَادِلَةِ ، وَالسِّيَاسَاتِ الْفَاضِلَةِ ؛
وَقَرَّرَ لَكَ الْخِدْمَةَ فِي وِلَايَةِ أَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ - نَفَرَجَ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ بِأَنْ يُوعِزَ
إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِكُتُبِ هَذَا السَّجَلِّ لَكَ بِالْوِلَايَةِ الْمَذْكُورَةِ .

فَتَقَلَّدَ مَا قُلَّدَتْهُ عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ الِذِى إِلَيْهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ، وَيَعْلَمُ حَاطَّةَ
الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ؛ وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فَاعْتَمِ بِالْعَدْلِ مَنْ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْوِلَايَةُ ، وَأَنْتَهُ
فِي حَيَاتِهِمْ وَكَلَاءَتِهِمْ إِلَى الْغَايَةِ ؛ وَصُنْهُمْ مِنْ كُلِّ أَدَى يُلْمُ بِسَاحَتِهِمْ ، وَتَوَفَّرَ عَلَى مَا عَادَ
بِاسْتِثْبَابِ مَصْلَحَتِهِمْ ؛ وَأَخْصِصْ أَهْلَ السِّرِّ وَالسَّلَامَةِ بِمَا يُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ ، وَيُشْرَحِ
صُدُورَهُمْ وَيُسِّطِ أَمَلَهُمْ ؛ وَقَابِلِ الْأَشْرَارَ مِنْهُمْ بِمَا يُدَوِّخُ شَرَّهُمْ ، وَيَكُفِّ عَنْ ذُنُوبِ
الْخَيْرِ مَضَرَّتِهِمْ ؛ وَأَشْدِّدْ وَطَأَتَكَ عَلَى الدُّعَارِ وَأَهْلِ الْعِنَادِ ، وَتَطْلُبْهُمْ حَيْثُ كَانُوا
مِنَ الْبِلَادِ ؛ وَأَقِصِدْ حِمَايَةَ السُّبُلِ وَالطَّرِيقَاتِ ، وَصُنْهَا مِنْ غَوَائِلِ الْمُفْسِدِينَ عَلَى مِثْرِ
الْأَوْقَاتِ ؛ وَمَنْ ظَفِرَتْ بِهِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ فَاجْعَلْهُ مُزْدَجِرًا لَأَمْثَالِهِ ، وَمَوْعِظَةً لِمَنْ
يَسْلُكُ مَسْلِكَ ضَلَالِهِ ؛ وَالْمُقَدِّمُونَ عَلَى سَفْكِ الدِّمِ الْحَرَامِ ، وَالْمُرْتَكِبُونَ لِكِبَاثَةِ الذُّنُوبِ

والإجرام، فامتثل فيهم ما أمر الله تعالى به في كتابه الكريم، إذ يقول: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وأجزل حظ الثواب في الحكم العزيز من عنايتك ، واجعل لهم نصيباً وافراً من اهتمامك ورعايتك ؛ وعاضدكم على إقامة منار الشرع ، وأجر أحوالهم على أجل قضية وأحسن وضع . والمستخدمون في الأموال ، تُسد منهم شداً يبلغهم الآمال ، ويقضى بتزجية الارتفاع وتثير الاستغلال ؛ وعاضدكم على عمارة البلاد ، ووازركم على ما تكون به أحوالها جارية على الأطراد . والرجال المركزية والمجردون فاستنهمهم في المهمات القريبة والبعيدة ، وخذهم بلزوم المناهج المستقيمة السديدة ؛ وقابل الناهض منهم بما يستوجب له نصته ، وقوم المقصر بما يوزع من يسلك مسلكه ويقتنى طريقته ؛ فاعلم هذا وأعمل به وطالع ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة سجل بولاية نجر الإسكندرية ، كُتب به لابن مصل ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهي :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لما أكرمه الله به من شرف المنصب والنصاب ، وأجار العباد بآبائه الطاهرين من عبادة الأوثان والانصباب ؛ وأوردتهم من موارد حكمه التي كل صادر عن ربي قلبه منها صاد ، وسخره بأمره من رياح الصواب التي تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ؛ وأضفى بسهام عزائمه ، من مقاتل الباطل ، وحلّ بأنوار مكارمه ، من أجياد الأمانى العواطل ، وأنجزه على يد أيديه من وعود سعود تظل السحب المواطر بمثلها هواطل ؛ وتوحد به من الإمامة التي أعز بها

أحزاب التوحيد، وأجراه من بركاته التي لا تقول الآمال لها هل من مزيد؛ وأوراه من فِكَاتِهِ التي لا تقول لها الآجال هل من محيد، وأجده من إرادته لأزمة الأيام فهي بين إنعامه وإسقامه تُفِيد وتُيِيد ؛ وأحدثه له من مُعْجَزَاتِ التأييد التي تملك أحاديثها رِقَّ التأبید، وشرف به قدره في ملكوت السموات والأرض والملائكة له أنصارُ والملوك له عبيد ؛ وألهمه من إبداع جَلِيّ صنائعه حيث لا يُنكر المقلد ولا يُستغرب التقليد ، وأنطق به لسان كرمه من بدائع إحسان تروق بين التريد والتوليد - ينظر بنور الله فيمن ينظر به للجمهور، ويحلو عقائل المكارم على من هو ماهر في تقدمة المهور؛ ويرى الذين يرجون بولائه تجارة لن تبور، ويقتدح الأنوار المودعة في سواد الشباب كما يودع في سواد العين بياض الثور؛ ويرفع رتب الأعيان حتى إذا تعاطاها سواهم ضرب بينه وبينها سور، وتعود أياديه إلى بيوت النعم فكل بيت تولاه كالبيت المعمور؛ ويهدي السرور بهم إلى صدور الثغور، والابتسام إلى ثغور الصدور؛ ويرى أنهم يستوجبون فواضله ميراثا، وإذا سلمت إليهم أئنة الولايات كانت لهم ترانا، وإذا تبوءوا الرتب العلية كانت الرئاسة لهم دارا والسياسة أئانا؛ لا سيما الصدر الذي عرفته السعادة لدولة أمير المؤمنين واحدا يجمع فضل سلفه، وتدبا ما عرضت عليه جواهر الدنيا فضلا عن أعراضها إلا ولأها عطف نراهته وظلفه؛ وألمعيا تتناثر معاني المعالي من شمائله كما تنتثر من غصن القلم نمار أخرفه، وكفا للصدور من أنهضه بها بنص تكلفه أنهضه بها فضل كلفه؛ وقواما بالأمور يَمْضِي عليها مضاء النجم في بحر حنْدِسِه لا السهم في نحر هدفة، وملاكا للثغور إذا حل منها في إسكندريتها فهو على الحقيقة نجم حل برج شرفه؛ وطودا للوقار يعتري الحلم منه إلى أقومه لا إلى أخفه، وشرطا للاختيار، يكتفى مصطفىه منه معرفه ومؤونة معنّه؛ ومعنى للفخار، لم ينتصف فيه من لسان

واصفه ^{مُسَمَّعٌ} مُسْتَوْصَفُهُ ، وَعَلِمَا لِلْأَنْظَارِ ، يَدُورُ لَهُمْ مَنَارٌ إِشْرَاقُهُ وَيَخْفَى عَلَيْهِمْ
مَنَالُ شَرَفِهِ .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَاسِطَةً عَقْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْحُسْنَى ، وَمُنْجِدَ أَلْفَاظِهَا
مِنَ الْحَقِيقَةِ بِالْمَعْنَى الْأُسْنَى ؛ الْمُتَوَحَّدَ مِنَ الرِّيَاسَةِ بِاسْمٍ لَا يَجْمَعُ بَعْدَهُ وَلَا يُتَى ،
الْجَارِيَ إِلَى غَايَةٍ مِنَ الْمَجْدِ لَا يُرَدُّ عَنْهَا عِنَانُهُ وَلَا يُثْبِتُ ؛ الْجَدِيدَ إِذَا وَلَّى أَنْ يُسْكِنَ
الرَّعِيَّةَ الْيَوْمَ عَدْلًا لَا تُسْكِنُهُ فِي غَدٍ عَدْنَا ؛ وَيُخْزِرُ فِيهِمْ وَعَدَ اللَّهِ الصَّادِقَ فِي قَوْلِهِ :
(وَلْيَبْدُلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) . الْمُسْتَبِدَّ بِالْمَحْمَدِ حَتَّى آسَقَرَتْ فِيمَا يَفْعَلُ وَآسَقَرَتْ
فِيمَا يُكْنَى ؛ الثَّبَتَ الَّذِي لَا تَقْرَعُ الْأَهْوَالُ صِفَاتِهِ ، النَّدْبَ الَّذِي لَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالُ
صِفَاتِهِ ، الْوَلِيَّ الَّذِي لَا تَكْذُرُ الْأَحْوَالُ مُصَافَاتِهِ ؛ الْجَامِعَ بَيْنَ فَضْلِ السَّوَابِقِ وَفَضْلِ
الْوَاحِقِ ، الْمُتَجَلَّى فِي سَمَاءِ الرِّيَاسَةِ نِيرًا لَا تَهْتَضِمُهُ صُرُوفُ اللَّيَالِي الْمَوَاحِقِ ؛ الْمَشْكُورَ
الْفَعَالَ لَا بِالْسِّنَةِ الْحَقَائِبِ بَلْ بِالْسِّنَةِ الْحَقَائِقِ ، الْمُسْتَبِدَّ بِالْهَمِّ الْجَلَائِلِ الْمَدْلُولَةِ
عَلَى الْمَحَاسَنِ الدَّقَائِقِ ؛ الْمُسْتَمَدَّ صَوَّبَ الصَّوَابِ مِنَ خَاطِرٍ غَيْرِ خَاطِلٍ ، الْمُسْتَجِدَّ
ثَوْبَ الثَّوَابِ لِسَعْيٍ يَنْصُرُ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ الْمُسْتَعَدَّ لَعُقْبِ الْأَيَّامِ بِأَقْرَانٍ مِنَ الْحَزْمِ
تَثْنِيهَا عَلَى الْأَعْقَابِ ، الْمُسْتَرَدَّ بِمَسَاعِيهِ قَوَارِطِ مَحَاسِنِ كَانَتْ مَطْوِيَّةً فِي ضَمَائِرِ الْأَحْقَابِ ؛
السَّامِيَ بِهَيْمَتِهِ ، إِلَى حَيْثُ نَتَقَاصَرُ النِّوَاطِرُ السَّوَامِي ، الْمُقَرِّطُسَ بِعَزِيمَتِهِ ، حَيْثُ لَا تَبْلُغُ
الْأَيْدِي الرُّوَامِي ؛ الْمُسْتَقِيلَ بِقَطِّ نَوَاجِمِ الْخُطُوبِ وَحَسْمِهَا ، الْمُسْتَقَرَّ فِي النُّفُوسِ أَنَّهُ
يُقُومُ فِي ظُلَمَانِهَا مَقَامَ نَجْمِهَا ؛ الْمُطَاقَ وَجْهًا فَلَا غُرُوَّ أَنْ تُجَلِّيَ بِهِ الْجُلِّيَّ ، الْمَطْلُقَ وَضْفًا
حَسَنًا فَلَا يَعْزُضُ لَهُ لَوْلَا وَلَا إِلَّا ؛ الْمُؤَيَّدَ الْعَزَمَاتِ ، فِي صَوْنٍ مَا يَفُوقُ إِلَيْهِ وَيَلِيهِ ،
الْمُتَّقِيَ الْوَثَبَاتِ ، مِمَّنْ يُجَاوِرُهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيَلِيهِ ؛ الْمُحْيِيَّ بِمَسْعَاهِ مَا شَادَهُ أَوَّلُوهُ ، وَالْمُتَوَصِّحَةَ
فِيهِ نَصُوصُ الْمَجْدِ الَّذِي كَانُوا تَأَوَّلُوهُ ؛ وَالْأَوَى إِلَى بَيْتٍ تَنَاسَقَتْ فِي عُقُودِهِ الرُّؤَسَاءُ
الْجِلَّةُ ، وَالطَّالِعَ مِنْهُ فِي سَمَاءٍ إِذَا غَرَبَتْ مِنْهَا الْبُدُورُ أَشْرَقَتْ فِيهَا الْأَهْلَةُ .

ولقد زدت عليهم وما قصرُوا زيادةً أبيضَ الفجرِ على أزرَقِهِ ، وكنتَ شاهدَ من يروى مناقبَهُم البديعِ ، ودليلَ من ادَّعى أن المكارمَ لكم ملكَةٌ وعندِ سِوَاكم وديعهُ ؛ وقيلَت وصاياهم في المعالي فكأنما كانت لديكم شريعهُ ، ونصرتُم الدولة العلويةَ فكنتم لها أمثالَ أولياءٍ وأخصَّ شيعهُ ؛ وتجلَّتْ أنسابُكم باصطناعها وكفاكم إن عُدتم لصنائعِ الله صنيعهُ ، وأباحَكم من اصطفأها كلَّ درجةٍ على تعايطِ الأَطَاعِ عليه منيعهُ ؛ وقد متُّكم جيشَ برّها وبحرّها ، وكان منكم سيفُ جهادها ونجمُ ليها وفارسُ كرّها ؛ وصالتُ بكم على أعدائها كلَّ مَصَالٍ ، وأغرِبتُ من يلبسها إلا إذا استقرتْ في داركم إلى مَصَالٍ ؛ وحينَ خرجتَ منها خائفاً تترقّب ، وأبقيتَ فيها حائفاً يتعقّب ؛ كنتَ الذهبَ المشهورَ ، الذي ما بهرجه الرّغامُ ، والحَرْفَ المجهُورَ ، الذي ما أدرجه الإدغامُ ؛ وكنتَ وإن كنتَ بينَ الكُفَّارِ ، عنهم شديدَ النّفارِ ، وحلّتَ فيهم محلُّ مؤمنِ آلِ فرعونَ يدعُوهم إلى النّجاةِ وإن دعوهُ إلى النارِ ؛ وعدتَ إلى بابِ أميرِ المؤمنين عودَ الغائبِ إلى رحلِهِ ، والآيِبِ إلى أهلِهِ ؛ وآستقررتَ به آستقرارَ الجواهرِ في فصلِهِ ، والفرعِ في أصلِهِ ؛ وأبانَ الاستشفافُ عن جوهرِكَ الشّفافِ ، وخرجتَ من تلكَ الهفواتِ خروجَ الرياحِ لأخروجِ الكفّافِ ؛ وأعرِبتَ السّعادةَ إذ حيّتكَ بمشيبِ أسودَ ، وتبعَ الأماجدُ غبارَكَ الذي يُرفعُ من طريقِ السّوددِ ؛ وأعتلقتُ بعروةَ الحُدّ ، فلستَ من ددٍ ولا منك ددٌ ، وضربتَ قلبَ العيشِ الأصفى بعدَ العيشِ الأنكدِ ؛ لاجرم أن أميرَ المؤمنين أنساكَ سيئةً أمسِكَ بحسنةٍ يومك ، وسَمّا بك إلى أعلى رُتبِ الأولياءِ وأغناكَ عن تعرّضِ سِوَمك ، وأنعمَ بك على قَويمِ ماعزُ قَومِ إلا رياسةَ قَومك .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين أمين مملكته ، ويمين فتكته ، السيد الأجل الذي أتى الله به سَهْمَا إلى مَصَرٍ وهى كَنَانَتُهُ ؛ وأفرده بمزية السبق فلا حظَّ لمُساجلِهِ إلا أن

تَدْمِي بَنَاتِهِ ، ورعى الرعيّة منه ناظرٌ لَا تُلِمُ بناظره مَرَاوِدُ الْمُحْجُودِ ، وقام بالملك منه قائمٌ لَا يَزَالُ يُورِدُهُ مَوَارِدَ الْجُودِ ؛ وأَغْنَتْهُ يَدُ الْغَلَابِ عن لسانِ الْجَلَابِ ، ونال نَادِرَةَ الْأَمَلِ في نَادِرَةِ الطَّلَابِ ؛ وَجَعَتْ فَتَكَاتُهُ من الْهَرَمَيْنِ إِلَى الْهَرَمَيْنِ ، وَصَرَفَ الرِّيحَ تَصْرِيفَ الْقَلَمِ وكأنه يُصَوِّلُ وَيَصِلُّ بِقَلَمَيْنِ ؛ وَرَدَّ اللَّهُ به الْعُدُوَّ مُنْخَذِلًا ، وَطَلَّمَ لَقَبِيهِ فَأَقَامَ مُنْجَذِلًا ؛ وَأُضْحِيْ بِهِ ذَيْلُ النِّعْمَةِ مُنْسَحِبًا وَسِترُ الْأَمْنَةِ مُنْسَدِلًا ، وَدَبَّرَ الْأُمُورَ فَأَمْسَكَهَا حَازِمًا وَعَقَلَهَا مَتَوَكِّلًا - فَأَنْهَى مَالِ سَلَفِكَ عِنْدَ الْأُتَمَّةِ الْخُلَفَاءَ مِنْ مَزِيَّةِ الْأَصْطِفَاءِ ، وَمَا لَكَ فِي نَفْسِكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي مَا بَرِحَتْ بَارِحَةً الْخَفَاءِ ؛ وَمَا أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْ خِلَالِكَ الَّتِي مَا أُخْلَتْ بِمَقْبِهِ ، وَأَفْعَالِكَ الَّتِي مَا تَغَايَرَتْ فِي يَوْمٍ ذِي نِعْمَةٍ وَلَا يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ؛ وَمَا لَكَ مِنْ وَثَائِقِ الْعُقُودِ ، وَمَا فِيكَ مِنَ الْأَوْصَافِ الْمُؤَكَّدَةِ لِعَلَائِقِ السُّعُودِ ؛ وَقَرَّرَ لَكَ الْخِدْمَةَ فِي كَذَا وَكَذَا - خَرَجَ أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ بِأَنْ يُوعِزَ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِكُتُبِ هَذَا السَّجَلِ لَكَ بِالْخِدْمِ الْمَذْكُورَةِ وَهِيَ الَّتِي فُرِّقَتْ لِسَلَفِكَ وَجُمِعَتْ لَدَيْكَ ، كَمَا أَنَّ مَحَاسِنَهُمُ الْمَفْرَقَةَ مُنْتَظِمَةُ الْعُقُودِ عَلَيْكَ : لِيُجَلَّ لَكَ وَلَا يَتَّيَ النَّغْرُ وَالسِّيَادَةُ فِي حَالٍ ، وَلِيُسَدَّ بِكَ نَغْرُ الْجِهَادِ وَنَغْرُ الْإِحْمَالِ ، وَلِتَقُومَ [فِي هَذَا] مَقَامَ الْمُجَفَّلِ الْجَرَّارِ فِي ذَلِكَ مَقَامَ الْحَيَاةِ الْهَطَّالِ . وَلِتَكُونَ فَرَائِدُ الْإِنْعَامِ عِنْدَكَ تُؤَامًا ، وَلِيَجْعَلَ آبَتَدَاءُ تَصَرُّفِكَ لَغَيْرِكَ تَمَامًا ، وَلِيَخْتَصَرَ لَكَ طَرِيقَ الْكَمَالِ ، وَلِيَجْرِيَ بِكَ فِي مِيدَانِ الشُّكْرِ طَلِيقُ الْأَمَالِ .

فَتَقَلَّدَ مَا قَلَّدَتْهُ مِنْهَا عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ مَصَالِحُ الْأَعْمَالِ ، وَمِيدَانُ الْإِتْحَافِ وَالْإِحْمَالِ ، وَسَبَبُ النِّجَاحِ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَعِنْدَ الْمَالِ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ .

(١) جمع توأم . قال الأزهري ومنسله غنم رباب وإبل ظوار وهو من الجمع العزيز . انظر اللسان

وَأَبْسَطَ الْعَدْلَ عَلَى مَنْ يَحْوِيهِ هَذَا الثَّغْرُ الَّذِي هُوَ ثَغْرُ الثُّغُورِ الْبَاسِمِ ، وَأَوَّلَاهَا بِأَنْ
تَكُونَ أَيَّامُهُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَوَاسِمَ ، فِيهِ مِنْ صُدُورِ الْحَافِلِ ، وَقُلُوبِ
الْحَافِلِ ؛ وَعُيُونِ الْمَدَارِسِ ، وَأَعْيَانِ الْفَوَارِسِ ؛ وَتُجَّارِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَخْيَارِ الْأُمَّةِ
الْمَقِيمَةِ وَالْمَسَافِرَةِ ؛ وَوُقُورِ مَكَارِمِ عَدْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي هِيَ بِالرَّجَاءِ وَارِدَةٌ وَبِالرِّضَا
صَادِرَةٌ ، مَنْ يُؤْثَرُ أَنْ يَكُونَ فَضْلُ السُّكُونِ لَهُمْ شَامِلًا ، وَرَدَاءُ الْأَمْنِ عَلَيْهِمْ سَائِلًا ؛
وَسَحَابُ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ هَاطِلًا ، وَحَالُهُمْ فِي الْأَتْسَاقِ لَا مَتَغَيِّرًا وَلَا حَائِلًا . وَسَاوَى فِي الْحَقِّ
بَيْنَ أَعْدِهِمْ وَأَقْرَبِهِمْ ، وَمَقِيمِهِمْ وَمَتَغَرِّبِهِمْ ؛ وَاعْتَمَدَ مِنْهُمْ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ بِمَا يُرْفَعُ
فِي الطَّاعَةِ خَاطِرُهُ وَيُسَحِّدُهُ ، وَيَصُونُهُ مِنْ تَحِيْفِ الْأَيْدِي الْجَائِرَةِ وَيُنْقِذُهُ ؛ وَأَخْصَصَ
الْعُلَمَاءَ بِكَرَامَةِ تَعْيِينِهِمْ عَلَى التَّعْلِيمِ ، وَالْأَعْيَانَ بِمَزِيَّةِ تَوْضُّعِهِمْ لِمَا لَهُمْ مِنْ مَزِيَّةِ التَّقْدِيمِ ؛
وَأَكْفَفَ عَوَادِي أَهْلِ الشَّرِّ وَالشَّرِّ ، وَأَقْمَعَ غُلُوءَ مَنْ أَعْتَرَّ بِغَيْرِ اللَّهِ وَاعْتَرَّ ؛ وَتَوَخَّاهُمْ
بِإِقَامَةِ الْمَهَابَةِ وَبَسْطِهَا ، وَكَفَّ الشُّوْكَةَ وَقَطَّهَا ؛ وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَأَقَمَ الْحُدُودَ لِإِقَامَةِ مَنْ يُثَابُ عَلَيْهَا وَيُؤَجَّرُ ، وَتَفَقَّدَهَا عَلَى حَدِّهَا غَيْرَ دَاخِلٍ فِي الْأَقْلَلِ
وَلَا خَارِجٍ إِلَى الْأَكْثَرِ ؛ وَأَذْكُ الْعُيُونِ عَلَى مَنْ يُلِمُّ بِسَوَاحِلِ الثَّغْرِ مِنْ أَسْطُولِ الْعَدُوِّ
اللَّعِينِ وَمَرَائِكِهِ ، وَأَحْجَزَ بِالْقِظَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَلْصِيصِ مَطَالِبِهِ ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِاتِّخَاذِ
الْأَسْلِحَةِ الَّتِي يُعِزُّ اللَّهُ بِهَا جَانِبَهُ ، وَيُذِلُّ مِجَانِبَهُ ؛ وَتُبَلِّغِ الْعَدُوَّ اللَّعِينَ مِنْ ذِكْرِهَا مَا يُعْمِلُهَا
وَهِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مَوْفَرَةٌ ، وَيَبْذُلُهَا فِي مَقَاتِلِهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ بِهَا مَعْمَرَةٌ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
فِي آيَاتِهِ الْمَتْلُوءَةِ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ۖ ﴾ .

وَاعْتَمَدَ لِلْأَعْمَالِ الْبَحْرِيَّةِ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ مِنْ تَأْمِينِ الْأَخْيَارِ وَتَرْوِيعِ الْأَشْرَارِ ،
وَتَتَبُّعِ كُلِّ مُرِيبٍ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ؛ وَمَنْ ظَفِرَتْ بِهِ قَدْ حَارَبَ اللَّهَ
فِي أَرْضِهِ ، وَصَارَ قَتْلُهُ مِنْ قَرَضِهِ ، فَتَقَدَّ حُكْمُ اللَّهِ فِيهِ فِي آيَةِ السِّيفِ وَأَمِضُهُ ؛ وَادَّعَى
إِلَى عِمَارَةِ بِلَادِهَا وَتَحَفُّرِهَا ، وَتَفَقَّدَ الْمَصَالِحَ بِهَا وَتَكَثَّرَ بِهَا ؛ وَإِطَابَةَ أَنْفُسِ الْمَزَارِعِينَ

بما تخففه عنهم من وطأة كانت ثقيله ، وتقلله عنهم من مغارم لم تكن قليلة ، فما عمّرت البلاد بمثل النزاهة التي هي شيمتك المعتادة ، والمعدلة التي هي من خلائك مستفاده ، وأعتمد كلاً من النائب في الحكم العزيز والناظر في الدعوة الهادية والمُشارف بالثغر والعُمال برعاية تحفظ مراتبهم ، وتلحظ مطالبهم ، وتنفذ الأحكام ، وتبلغ بما ينظرون فيه من المصالح غايات التمام ، وتُعز طائفة الإيمان ، وتظهر عليهم أثر الإحسان ، وتستدرّ حلب الأموال ، وتستديم عمارة الأعمال ، وتفضي بمواصلة الجول وتحصيل الغلال ، وتعود بها عليك عوائد الأجر والجمال ، ومثلك أشتهاراً أيها الأمير من ولى فلم تطل له الوصايا التي يحتاج إلى إطاقتها سواء ، ويوثق بما يذكيه من عُيون حزم غير غوافل ولا سواه ، ويحقق أن تقواه رقيب سره ونجواه ، وأن أمير ورعه يحكم على أسير هواه ، والله سبحانه يجعل نعمة أمير المؤمنين لديك مأمولة الدوام موصولة الحبل ، ويُتمها عليك كما أتمها على أبويك من قبل ، إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا النمط كانت سبجلات سائر ولايات أعمال الديار المصرية ، فكانت تُكتب على نظير ذلك في الوجه القبلي ولاية الجيزة ، وولاية الإطفيحية ، وولاية البهنساوية ، وولاية البوصيرية ، وولاية الأشمونين والطحاوية ، وولاية الشبوطية ، وولاية الإنجيميّة ، وولاية الفيوم ، وولاية واج البهنسا ، وولاية الواح الداخلة ، وولاية الواح الخارجة . ومن الوجه البحري ولاية القليوبية ، وولاية منية تردى وهي منية عمر ، وولاية المرتاحية ، وولاية الدقهلية ، وولاية مدينة تيس - وبها كانت دار الطراز - وولاية المنوفية ، وولاية جزيرة بني نصر وربما أضيفت إلى المنوفية وعبر عنهما بالمنوفيتين ، وولاية جزيرة قوسينياً ، وولاية البحيرة ، وولاية ثغر رشيد المحروس ، وولاية ثغر ستراره ، وولاية ثغر دمياط ، وولاية القرمّا ، بساحل الشامى فيما دون العريش .

وأما البلاد الشامية فقد تقدم أنها كانت خرجت عنهم وتملكت الفرنج غالب سواحل الشام ، ولم يبق معهم إلا ساحل عسقلان ومقاربته وكان مقر الولاية بها في عسقلان .

وهذه نسخة سجل بولايتها ، وهي :

أما بعد ، فإن أولى ما وفر أمير المؤمنين حظّه من العناية والاشتمال ، واعتقد العكوف على مصالحه من أشرف القربات وأفضل الأعمال ، وأسند أمره إلى من يستظهر على الأسباب المعينة بحسن صبره ، وعدق النظر فيه بمن لا يشكّل عليه أمر لمضائه ونفاذه ومعرفته وخبره ، ما كان حرجاً للرباطين ومعقلاً ، وملتجداً للجاهدين ومؤثلاً ، وموجباً لكل مجتهد أن يكون لدرجات الثواب مرتقياً متوقلاً ، عملاً بالحوطة للإسلام الذى جعله الله فى كفالاته وصمائه ، وتمادياً على سياسته التى أقر بفضلها إقرار الضرورة كافة ملوك زمانه ، وحرصاً على الأفعال التى لم يزل مقصوداً فيها بأطاف الله تعالى وتوفيقه ، وتبتلاً للأموال التى أرشده الله سبحانه فى تدبيرها إلى منهج الصواب وطريقه ، ومضاعفة من الحسنات عند أوليائه أهل الحق وحزبه وفريقه .

ولما كانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - غرّة فى بهيم الضلال والكفر ، وحرماً يمتاز عن البلاد التى كلّها الشّرك بالناب والطّفّر ، وهو من أشرف الثغور والحصون ، وأهلّه أنصار الدين القيم المحفوظ المصون ، وكنت أيها الأمير من أعيان أمراء الدولة وكبرائهم ، ووجوه أفاضلهم ورؤسائهم ، ولك فى الطاعة استرسال الأمان فى مواطن المخاوف ، وفى الذّب عنها وحمايتها مواقف كريمة لا توازى بالمواقف ، وقد وصلت فى ولأئها القديم بالحديث والتالد بالطريف ، وحين وليت مهمات

أَسْتَجِدُّ فِيهَا بِعَزَمِكَ ، وَأَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِحَزَمِكَ ؛ تَهَيَّبِ الْأَعْدَاءَ فِيهَا ذِكْرَ اسْمِكَ ، وَكَانَ
 مِنْ آمَنَارِكَ فِيهَا مَا شَهِرَ غُفْلَهَا ^(١) بِوَسْمِكَ ؛ فَلَا يُبَارِكُ مُبَارٍ إِلَّا أَرَبَّتْ عَلَيْهِ وَزِدَتْ ،
 وَلَا يُنَاوِيكَ مُنَاوٍ إِلَّا أُنْسِيَتْ ذِكْرَهُ أَوْ كِدَتْ ؛ فَكَمْ لَكَ مِنْ مَقَامٍ مَحْمُودٍ لَيْسَ شَأْؤُهُ
 وَوَصْفُهُ ، وَكَمْ لَكَ مِنْ ذِكْرِ جَمِيلٍ يُفَوِّحُ أَرْجَهُ وَيَتَضَوِّعُ عَرْفَهُ ، وَكَمْ لَكَ مِنْ جَمَالٍ
 فِي الْمَشَايِعَةِ لَا يَقْصُرُ أَمْدُهُ وَلَا يَكْبُورُ طَرْفُهُ ؛ وَالسَّيِّدُ الْأَجَلُ الْأَفْضَلُ الَّذِي عَظَّمَ اللَّهُ
 قُدْرَهُ وَرَفَعَ مَجْدَهُ ، وَجَعَلَهُ فِي الْغَضَبِ لِتَوْحِيدِهِ دُونَ جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ أُمَّةً وَحِدَةً ؛ وَأَلْهَمَهُ
 التَّجَرُّدَ لِنُصْرَةِ الْإِيمَانِ فَحَقَّ اللَّهُ لِمَا غَفَلَ الْمُلُوكُ وَقَعَدُوا ، وَأَمَدَّهُ بِمَوَادِّ السَّعْدِ
 فَاسْتَيْقِظَ بِمُفْرَدِهِ حِينَ نَامُوا عَنْ اسْتِخْلَاصِهِ مِمَّا عَرَاهُ وَرَقَدُوا ؛ وَأَضْحَى أَنْتِصَابُهُ آيَةً
 أَظْهَرَهَا اللَّهُ لِلَّهِ ، وَغَدَا أَنْتِصَارُهُ مُعْجِزَةً حَسَمَ بِهَا فِي رَفْعِ مَنَارِ الدِّينِ كُلِّ عَلَيْهِ ؛ فَهِمَّتْهُ
 مَصْرُوفَةٌ عَلَى مَا يُعْزُ الشَّرِيعَةُ الْحَنِيفِيَّةُ ، وَعَزَمَتْهُ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الدَّفْعِ عَنْهَا بِأَطْرَافِ
 الدُّوَابِلِ وَحَدِّ الْمَشْرِفِيَّةِ ؛ فَلَبَّغَهُ اللَّهُ فِي كُلِّ مَا يَحَاوِلُهُ مَا يُضَاعَفُ نَفْرَهُ ، وَأَعَانَهُ عَلَى
 مَا يَقْدَمُهُ لِمَعَادِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي الْآخِرَةِ دُنْهَرَهُ ؛ بِحَوْلِهِ وَمَنَّةٍ ، وَطَوْلِهِ وَفَضْلِهِ .

فَلَا يَزَالُ هَذَا السَّيِّدُ الْأَجَلُ يُثْنِي عَلَيْكَ ثَنَاءً يَخْلُدُ لَكَ وَلَعَقِبِكَ مَجْدًا بَاقِيًا ، وَيَحْبُوكُ
 مِنَ الْوَصْفِ وَالْإِطْرَاءِ بِمَا يَجْعَلُكَ فِي مَرَاتِبِ الْوَجَاهَةِ وَالنَّبَاهَةِ سَامِيًا رَاقِيًا ؛ وَيُرَشِّحُكَ
 مِنْ الْخِدْمِ لِأَجَلِهَا قَدْرًا ، وَيُطْلِعُ مِنْكَ فِي آفَاقِ سَمَائِهَا بَدْرًا ، وَيَجْعَلُ لَكَ بِمَا يُؤْهِلُكَ
 لَهُ صِيَّتًا وَيُسَيِّرُكَ ذِكْرًا ؛ وَحِينَ جَدَّدَ شُكْرَكَ ، وَأَوْصَلَ عَلَى عَادَتِهِ مَا يُشِيدُ أَمْرَكَ ؛
 قَرَّرَ لَكَ وَلَايَةً «تَغْرَعُ سَقْلَان» - حَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - الَّذِي هُوَ ثَغَرُ الدِّينِ ، وَكَانَهُ
 الْمَوْحِدِينَ ؛ وَوَزَّرَ الْأَتَقِيَاءَ الْمَجَاهِدِينَ ، وَشَجَّى فِي صُدُورِ الْكُفَرَةِ الْمَعَانِدِينَ ؛ فَامْضِ
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَاهُ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ ، وَعِلِمَ أَنَّ الْبَرَكَתَ مَضْمُونَةً فِيمَا يَتَكَلَّفُهُ مِنَ التَّدْيِيرِ ؛

(١) الغُفْلُ بالضم مالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها وما لاسمه عليه من الدواب . انظر القاموس .

ونخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ولاية هذا الثغر المحروس وعمله ، وما هو منتظم معه من سهله وجبله .

فأعريف قدر هذه النعمة التي رفعتك على جميع الأمراء ، وأغناك فيها حسن رأى أمير المؤمنين ووزيره السيد الأجل الأفضل عن الوسائط والسفراء ، وأحلتك أعلى مراتب الرفعة والسمو ، وأحطتك مع بعد الدار بمزية القرب من قليهما والدؤو .

فتقلد ما قللك أمير المؤمنين من هذه الولاية الشاخرة المحل ، التي غدا محطورها على غيرك من المباح لك المحل ، وتلقها من الشكر بما يجعلها إليك آويه ، ولديك مقيمة ناويه ، وأعمل فيها بتقوى الله التي إذا أظلمت الخطوب طلعت في ليها جفرا ، قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ .

وأشمل أهل هذه الولاية بالممانلة بينهم فيما كان حقا ، ولا تجعل بين الشريف والمشروف في الواجب فرقا ، وأمر بالمعروف وأبعث عليه ، وأنه عن المنكر وأمنع من الإجراء إليه ، وأقم الحدود مستمرا في إقامتها على العادة ، ومتوقيا من نقص ما يؤمر به منها أوزياده ، وأصرف النصيب الأجل ، الأوفر الأكل ، إلى الاستيقاظ للعدو المخدول المجاور لك والبحث عن أخباره وعمل المكيد له ، ومواصلته بما يديم محافته ووجهه ، وأغزه في عُقد داره ، وأقصده بما يقضى بخفض مناره ، ولا تهمل تسيير السرايا إليه ، وإطلاع الطلائع بالمكاره عليه ، واعتمده بما يشترده عنه لئيد منامه ، وأزرع في قلبه خوفا يهابك به في يقظته وفي أحلامه . وأفعل في أمر من يجرد إليك من عسكر البدل المنصور في تقرير نوب المناسر ، ولتخيرها كل متوئب على الإقدام منجاسر ، ما تقتضيه الحال مما أنت [أ] قوم لمعرفة ، وأهدى الناس في سبيله ومحجته . ووفر حظ القاضى المكين متولى الحكم والمشاركة من

إِعْزَازِكَ وَإِكْرَامِكَ ، وَأَشْتَمَالِكَ وَأَهْتِمَامِكَ ، وَرِعَايَتِكَ وَمَعَاوَدَتِكَ ، وَالْعَمَلِ فِي ذَلِكَ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ سِيَاسَتِكَ ، وَمَشْهُورٌ مِنْ رِيَاسَتِكَ ؛ وَكَذَلِكَ الْمُسْتَخْدَمُ فِي الدَّعْوَةِ الْهَادِيَّةِ ثَبَتَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَاعْتَمَدَهُ بِمَا يُعْزِزُ أَمْرَهُ ، وَيُسْطُ أَمَلَهُ وَيُشْرَحُ صَدْرَهُ . وَضَافِرٌ عَلَى أَمْرِ الْمَالِ ، وَوُقُورٌ الْإِسْتِغْلَالِ ؛ وَالْعَمَلِ مِنْ ذَلِكَ بِمَا فِيهِ أَكْبَرُ حِظٌّ لِلدِّيَّانِ . وَأَجْرٌ عَلَى مَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْكَ فِي وِلَايَتِكَ مِنْ حُسْنِ السِّيَاسَةِ ، وَالْعَمَلِ بِقَضَايَا الْمَصْلَحَةِ ، وَالتَّبَثُّلِ لِمَا تَسْتَقِيمُ بِهِ أُمُورُ الْخِدْمَةِ ، وَحِفْظِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَأَرْبَابِ الدِّينِ ، وَإِعْمَالِ السَّيْفِ فِي مُسْتَوْجِبِهِ مِنَ الْمَفْسِدِينَ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ، مِمَّا أَنْتَ أَنْفَذُ الْوَلَاةِ فِيهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِمَا يُوْجِبُهُ الصَّوَابُ وَيَقْتَضِيهِ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَأَعْمَلْ بِهِ ، وَطَالِعْ مَجْلِسَ النَّظَرِ بِمَا تَجِبُ الْمَطَالَعَةُ بِمَثَلِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .^(١)

المذهب الثاني^(٢)

(أَنْ يَفْتَحَ مَا يُكْتَبُ فِي الْوَلَايَةِ بِلَفْظِ « هَذَا مَاعَهْدَ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ فَلَانْ أَبُو فَلَانْ ، الْإِمَامُ الْفُلَانِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، لِفُلَانِ الْفُلَانِيِّ حِينَ وَلَّاهُ كَيْتَ وَكَيْتَ » مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِتَحْمِيدِ فِي أَوَّلِ مَا يُكْتَبُ وَلَا فِي أَثْنَائِهِ ؛ ثُمَّ يَقَالُ : « أَمْرُهُ بِكَذَا وَأَمْرُهُ بِكَذَا » عَلَى قَاعِدَةٍ مَا كَانَ يَكْتَبُ فِي الْعُهُودِ بِدِيَّانِ الْخِلَافَةِ بِبَغْدَادَ ، وَهُوَ قَلِيلُ الْإِسْتِعْمَالِ عِنْدَهُمْ لِلْغَايَةِ الْقُصُوبِ ، وَلَمْ أَطْفَرْ مِنْهُ بِغَيْرِ هَذَا الْعَهْدِ)

وهذه نسخة عهد على هذه الطريقة ، كُتِبَ بِهِ عَنْ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ ، لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ النُّعْمَانِ ، بِقَضَاءِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ وَأَجْنَادِ الشَّامِ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ ، مُضَافًا إِلَى ذَلِكَ النَّظَرُ فِي دُورِ الضَرْبِ وَالْعِيَارِ وَأَمْرُ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ ، وَهُوَ :

(١) فِي بَعْضِ النُّسخِ هَذَا زِيَادَةٌ نَصَهَا « وَأَمَّا الْوُظَائِفُ الدِّينِيَّةُ فَهِيَ » ثُمَّ تَرَكَ بَيَاضًا بِقَدْرِ نِصْفِ صَفْحَةٍ .

(٢) وَقَعَ فِي الْأَصُولِ الضَّرْبُ الثَّانِي وَهُوَ سَهْوٌ مِنَ النَّاسِخِ .

هذا ما عهد عبد الله ووليه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، للقاضي حسين بن علي بن النعمان حين ولّاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر، والإسكندرية وأعمالها، والحرمين حرسهما الله تعالى، وأجناد الشام، وأعمال المغرب، وإعلاء المنابر، وأئمة المساجد الجامعة، والقومة عليها والمؤذنين بها، وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد، والنظر في مصالحها جميعا، ومشاركة دار الضرب وعيار الذهب والفضة، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتجاه، وقصده وتوخاه: من آتفائه لآثاره، وآتفائه إلى إيثاره؛ في كلّ عليّة للدولة ينشرها ويحييها، وذنيّة من أهل القبلة يذثرها ويعفيها؛ وما التوفيق إلا بالله ولي أمير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه، من أمورهم وولّاه.

أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى، في السر والظهر والتجوى؛ ويعتصم بالثبات واليقين والنهي، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى: فإن تقوى الله تبارك وتعالى مؤئلا لمن وآل إليها حصين، ومعقل لمن آتفأها أمين، ومعوّل لمن عوّل عليها مكين؛ ووصية الله التي أشاد بفضلها، وزاد في سناها بما عهد أنه من أهلها، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

وأمره أن لا يُنزل ما ولّاه أمير المؤمنين [إياه] من الأحكام في الدماء والأشعار والأبشار، والفروج والأموال، [عن] منزله العظمى من حقوق الله المحترمة، وحرّماته المعظمة، وبيناته الميمنة في آياته المحكّمة؛ وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء، والمأثور عن أبينا على سيد الأوصياء، وآبائنا الأئمة النجباء - صلى الله على رسوله وعليهم - قبلة لوجهه إليها يتوجه، وعليها يكون المنجّه. فيحكم

(١) في الأصل «إلينا يتوجه وعليها لا يكون متجه» وهو غير مستقيم. تأمل.

بالحق ويقضى بالقسط ، ولا يحكم الهوى على العقل ، ولا القسط على العدل ، إيثارة
 لأمر الله عز وجل حيث يقول : ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
 فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
 يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
 لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وأمره أن يُقابل مآرسته أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان ، من إعزازه والشدة
 على يده ، وتنفيذ أحكامه وأقضيته ، والقصر من عنان كل متناول على الحكم ،
 والقبض من شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه : من ترك
 المجاملة فيه ، والمحابة لذي رحم وقربى ، وولي للدولة أو مولى ، فالحكم لله ولخليفته
 في أرضه ، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتناول عليه ، والمباين
 للإجابة إليه ، حقيق بالإذالة والنهوض ، فليقلق الله أن يستحي من أحد في حق له :
 ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للتحاكين ويرفع عنهم حجاب ،
 ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمة لا يحابي
 فيها قويا لقوته ، ولا يردى فيها ضعيفا لضعفه ، بل يميل مع الحق ويحنح إلى جهته ،
 ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته ، ويذكر بموقف الخصوم ومحباتهم بين يديه موقفه
 ومحباته بين يدي الحكم العدل الديان : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا
 وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ .

وأمره أن ينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يقطع في منافع القضايا
 ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا ، ويتعرف دخالهم

تعرّفاً كافياً ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلّيبهم في سرهم وجهرهم ، والخلّى والخنّى من أمورهم ، فمن وجده منهم في العدّالة والأمانة ، والزّاهة والصّيانة ، وتحريّ الصّدق ، والشهادة بالحق ، على الشّيمة الحسنى ، والطريقة المثلى ، [أبقاه] وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى . وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدّله أو يردّ شهادته ولا يقبله : ليكون في الأمرين على ما يحدّد له ويمثله ، ويأمن فيما هذه سبيله كلّ خلل يدخله ، إذ كانت الشهادة أسّ الأحكام ، وإليها يرجع الحكم ، والنظر فيمن يؤهل لها أحقّ شيء بالأحكام ، قال الله تقدّست أسماؤه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل في عقولهم ، والعجز عن القيام بأموالهم ، حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليّه : من حياتها وصياتها من الأمانة عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم لما يحرم ولا يخلّ أكله منها ، فيتبوأ عند الله بعداً ومقتناً ، كلّ الحرام والموكل له سُخْتاً ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

وأمره أن يُشارف أئمة المساجد والقومة عليها ، والخطباء بها والمؤذنين فيها ، وسائر المتصرّفين في مصالحها ، مشاركة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله : من تطهير ساحتها وأفنيّتها ، والاستبدال بما تبدّل من حصّرها في أحيائها ، وعمارتها بالمصايح

في أوقاتها، والإنذار بالصلوات في ساعاتها، وإقامتها لأوقاتها، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها، مع المحافظة على رؤسوها وحدودها، من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس، ولا يمتكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس؛ إذ كان بالعين والورق تُتناول الرباع، والضياغ والمتاع؛ ويبتاع الرقيق، وتتعد المناكح وتتناقض الحقوق؛ فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحه للدين، وضرر على المسلمين؛ يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين .

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التي لا يمكنه أن يشاهدها بأفضل وأعلم وأرشد وأعمد من يمكنه الاستعانة به على ما طوّقه أمير المؤمنين في استعماله . قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

هذا ماعهد أمير المؤمنين فأوف بعهده، تهتد بهديه، وترشد برشده؛ وهذا أول إمرة أمرها لك فاعمل بها، وحاسب نفسك قبل حسابها؛ ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لما بها : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وكتب في يوم الأحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ٣٨٩ .

المذهب الثالث

من مذاهب كُتَاب الدولة الفاطمية

(أن يُفْتَحَ مَا يُكْتَبُ فِي الْوَلَايَاتِ بِخُطْبَةٍ مُبْتَدَأَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ كَمَا يَكْتُبُ فِي أَعْلَى الْوَلَايَاتِ فِي زَمَانِنَا، وَيَقَالُ : « يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَذَا وَكَذَا، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَعَلَى جَدِّهِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ » ثُمَّ يَقَالُ : « وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ فِيمَنْ يَصْلُحُ لِهَذِهِ الْوَلَايَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَنْ هُوَ كُفُوٌّ لَهَا غَيْرَ الْمُوَلَّى، وَإِنَّهُ وَلَاَهُ تِلْكَ الْوِظِيفَةُ » ثُمَّ يُوضَى بِمَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْوَصِيَّةِ؛ ثُمَّ يَقَالُ : « هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكَ، فَاعْمَلْ بِهِ » أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يُعْطَى هَذَا الْمَعْنَى)

وقد أورد عليّ بن خلف من إنشائه في كتابه " مواد البيان " المؤلف في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدة تقاليد لأرباب السيوف .

منها — تقليد في رسم ما يكتب للوزير، [وهو] :

الحمد لله المنفرد بالملكوت والسلطان، المستغنى عن الوزراء والأعوان ؛ خالق الخلق بلا ظهير، ومصورهم في أحسن تصوير ؛ الذي دبر فأتقن التدبير، وعلا عن المكلف والمشير؛ المانّ على عبادته بأن جعلهم بالتوازر إخوانا، وبالتظافر أعوانا ؛ وأقر بعضهم إلى بعض في انتظام أمورهم، وصلاح جمهورهم .

يحمدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ اسْتَخْلَفَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَنَاطَ بِهِ أَسْبَابَ الْبَرِّمِ وَالنَّقْضِ ؛ وَاسْتَرْعَاهُ عَلَى بَرِّيَّتِهِ ، وَاسْتَخْلَصَهُ خِلَافَتِهِ ؛ وَقِيَّضَهُ لِإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ ، وَحَيَاطَةِ الْأَنْأَمِ ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَتَنْفِيزِ الْأَحْكَامِ ؛ وَيَسْأَلُهُ الصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَخَيْرِ الْأَصْفِيَاءِ ؛ الْمُؤَيَّدِ بِأَفْضَلِ الظُّهَرَاءِ ، وَأَكْلِ الْوُزَرَاءِ : عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْمُتَكَفِّلِ فِي حَيَاتِهِ ، بَنَصْرِهِ وَإِظْهَارِ شَرِيعَتِهِ ، وَالْقَائِمِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، مَقَامَهُ فِي أُمَّتِهِ ؛

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا، وَعَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا، مَفَاتِيحَ الْحَقَائِقِ، وَمَصَابِيحَ الْخَلَائِقِ؛
وَسَلَّمَ، وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ.

وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَظَرَ لَخَلْقِهِ بَعِينَ رَحْمَتِهِ، وَخَصَّ كُلًّا مِنْهُمْ بِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ
نِعْمَتِهِ، وَأَقْدَرَهُمْ بِالْتَعَاظِدِ، عَلَى أَنْتِظَامِ أُمُورِهِمُ الْوُجُودِيَّةِ، وَأَوْجَدَهُمُ السُّبُلَ بِالْتَرَاغُدِ،
إِلَى أَسْتِقَامَةِ شُؤْنِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ : لَتُبْجَسَ عِيُونُ الْمَعَاوِنِ بِتَوَازُرِهِمْ، وَتَدَّرَ أَخْلَافُ
الْمَرَافِقِ بِتَظَافُرِهِمْ.

وَأَوَّلَى النَّاسِ بِاتِّخَاذِ الْوُزَرَاءِ، وَأَسْتِخْلَاصِ الظُّهَرَاءِ، مَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى
إِلَى حَقِّهِ دَاعِيَا، وَلِخَلْقِهِ رَاعِيَا، وَلِدَارِ الْإِسْلَامِ حَامِيَا، وَعَنْ حِمَاةِ مُرَامِيَا، وَأَسْتَخْلَفَهُ
عَلَى الدُّنْيَا وَكَلَّفَهُ سِيَاسَةَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُعَاهِدِينَ، وَلِذَلِكَ سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، فِي أَسْتِخْلَاصِ أَخِيهِ هَارُونَ لِوِزَارَتِهِ، وَشَدَّ أَزْرَهُ بِمُوَازَرَتِهِ، فَقَالَ :
﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَنِّي أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴾. وَأَسْتَوْزَرَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الْمُؤَيَّدُ الْمَعْصُومُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ أَبْنِ عَمَّهُ عَلِيًّا سَيِّدَ الْأَوْصِيَاءِ؛
بِدَلِيلِ قَوْلِهِ لَهُ : « أَنْتَ مَنِّي كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » لِأَنَّ الْإِمَامَ
لَوْ تَوَلَّى كُلَّ مَاقَرَّبٍ وَبَعْدَ بِنَفْسِهِ، وَعَقُولَ فِي حَيْطَتِهِ عَلَى حَوَاسِهِ؛ لَنَصَّ ذَلِكَ بِتَطَرُّقِ
الْخَلَلِ، وَدُخُولِ الْوَهْنِ وَالشَّلَالِ؛ وَإِنَّمَا تَسْتَعِينُ الْأُئِمَّةُ عَلَى مَا كَفَّلَهَا اللَّهُ بِكُفَاةِ
الْأَعْوَانِ، وَأَهْلِ النُّصْرَةِ فِي الْأَدْيَانِ؛ وَذَوِي الْإِسْتِقْلَالِ وَالتَّشْمِيرِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ
السِّيَاسَةِ وَالتَّدْيِيرِ؛ وَالْخِبْرَةِ بِتَجَارِي الْأَعْمَالِ، وَأَبْوَابِ الْأَمْوَالِ، وَمَصَالِحِ الرِّجَالِ.

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَزَلْ يَتَأَدُّ لِوِزَارَتِهِ حَقِيقًا بِهَا مُسْتَحَقًّا نَعْتَهَا؛ جَامِعًا بَيْنَ
الْكِفَايَةِ وَالْغِنَاءِ، وَالْمَنَاصِحَةِ وَالْوَلَاءِ، وَالْأَبُوَّةِ وَالْإِخْتِصَاصِ، وَالطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ؛
وَالنُّصْرَةِ وَالْعَزْمِ، وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ وَالْحَزْمِ؛ وَنَفَاسَةِ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْيِيرِ، وَالنَّظَرِ بِالْمَصْلَحَةِ
فِي الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ؛ وَالْإِحْتِيَالِ وَالتَّأْدِيبِ، وَمَلَابَسَةِ الْأَيَّامِ وَالتَّجْرِيبِ؛ وَالْإِنْتِمَاءِ

إلى كريم المناجب ، بضمير المناصب ؛ ويكرّر في الاختيار تقليده ، ^(١) ويحيل في الانتقاء تأمله وتدبره . وكلما عرّضت له مخيلة قمن توافق إيثاره ، أخلف نوعها ، وكلما لاحث له بارقة تطابق اختياره ، خبا ضوعها ، حتى آتته رويته إليك ، وأوقفه آرتياده عليك ؛ فراك لها من بينهم أهلا ، وبتقمص سرّ بالها أولى ؛ وبالأستبداد بإمرتها أحق وأحرى : لأشتمالك على أعيان الخصائص التي كان زياد [لها] جامعا ، وحلولك في أعيان المناقب التي لم تزل ترومها متحليا بفرائدها ، وما شيرت به من إفاضة العدل والإنساق ، وإغاضة الجور والإشطاط ؛ وإنالة الحق والإنصاف ، وإزالة الظلم والإجحاف ؛ ومراعاة النصح بانسانك شاهدا ، ومناجاته بحذارك جاهدا ؛ ولئهوؤنك بالخطب إذا ألمّ وأشكل ، والحادث إذا أهمّ وأعضل ؛ وتقرّذك بالمساعي الصالحة ، والآثار الواضحة ، والطرائق الحميدة ، والمذاهب السديده ؛ والتحلي بالنزاهة والظلف ، والعطل من الطبع والتطف ؛ وفضل السيرة ، وصدق السريه ؛ ومحبة الخاصة والعامة ، والمعرفة بقدر الأمانة ؛ والأضطلاع بالصنيعه ، والحفظ للوديعه .

فراى أمير المؤمنين برأيه فيما يريه ، ويقضى له بالصلاح فيما يعزم عليه ويمضيه ويسدّد مراميه ومساعيه ؛ ويتعهده في جميع مقاصده بلطف تحلو بمأره ، وتحسّن عليه وعلى الكافة آثاره ؛ أن قد ولّك النظر في مملكته ، وأعمال دولته : برّها وبحريها ، وسهّلها ووعرها ، وبدوها وحضرها ؛ وردّ إليك سياسة رجالها وأجنادها ، وكتابها وعرفائها ، ورعيّتها ودواوينها ، وارتفاعها ووجوه جباياتها وأموالها ؛ وعدق بك البسط والقبض ، والبرم والنقض ؛ والخط والرفع ، والعطاء والمنع ، والإنعام والودع ، والتصريف والصرف ؛ ثقة بأن الصواب منوط بما تُسدى وتلحم ، وتفيض وتنظم ، وتتقضى وتبرم ؛ وتصدر وتورد ، وتقرر وتأتى وتدر .

فَلْتَهْنَأْ هَذِهِ النِّعْمَةُ مِمَّا بَلَّسَهَا ، سَارِيًّا فِي قَبْسِهَا ، وَتَلَقَّهَا مِنَ الشُّكْرِ بِمَا يَسْتَرِيهَا
وَيُخَلِّدُهَا ، وَيُقَرِّطُهَا عَلَيْكَ وَيُؤَبِّدُهَا ، وَأَعْرِفْ مَا أَهْلَكَ لَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ
الْأَثِيرِ ، وَالْحَلِّ الْخَطِيرِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .
وَأَنْتَ وَإِنْ كُنْتَ مَكْتَفِيًّا بِفَضْلِ حَصَافَتِكَ ، وَتَقَابَةِ فِطْنَتِكَ ، وَحُسْنِ دِيَانَتِكَ ،
وَوَثَاقَةِ تَجَرُّبَتِكَ - عَنِ التَّبَصِيرِ ، مُسْتَغْنِيًّا عَنِ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ ؛ فَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَزِيدَكَ مِنْ مَرَّاشِدِهِ ، مَا يَقْفُكَ عَلَى سَنَنِ الصَّوَابِ وَمَقَاصِدِهِ ؛ وَهُوَ
يَأْمُرُكَ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ ، وَاسْتِشْعَارِ خَشْيَتِهِ وَمِرَاقَبَتِهِ ؛ وَاللَّهُ قَدْ
جَعَلَ لِمَنْ آتَقَاهُ مَخْرَجًا مِنْ ضِيقِ أَمْرِهِ وَحَرَجِهِ ، وَنَصَبَ لَهُ أَعْلَامًا عَلَى مَنَاجِحِ قَرَجِهِ .
وَأَنْ تَسْتَعْمَلَ الْإِنْصَافَ وَالْعَدْلَ ، وَتُسَبِّحَ الْإِحْسَانَ وَالْفَضْلَ ، وَتُتْلِينَ كِتَابَكَ ، وَتُظْهِرَ
لَطْفَكَ ، وَتُحْسِنَ سَيْرَكَ ، وَتُفِيضَ بَرَكَ ، وَتَصْفَحَ وَتَحْلُمَ ، وَتَعْفُوَ وَتَكْرُمَ ؛ وَتُبَصِّرَ
مَنْ تَرْجُو صَلَاحَهُ وَتَقَهَّمَهُ ، وَتُنْصِفَ مَنْ أَفْرَطَ جِمَاحَهُ وَتُقَوِّمَهُ ؛ وَتَأْخُذَ بِوَثَائِقِ
الْحَزْمِ ، وَجَوَامِعِ الْعَزْمِ ؛ وَالْغَلْظَةِ وَالشَّدَةِ عَلَى مَنْ طَغَى وَلَجٌّ فِي غِيٍّ وَعَتَا ؛ وَبَارَزَ اللَّهَ
وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخِلَافِ وَالشَّقَاقِ ، وَالْإِنْحِرَافِ وَالنِّفَاقِ ؛ مُسْتَعْمَلًا فَاضِلَ التَّدْيِيرِ عِنْدَ
الْمُؤَادَعَةِ ، وَفَاصِلَ الْمُكَافَةِ عِنْدَ الْمُقَارَعَةِ ؛ مُصْلِحًا لِلْفَاسِدِ ، مُسْتَنًا لِلشَّارِدِ ؛ مَكْتَرًا
لِأَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ وَخُلَصَائِهَا ، وَحَاصِدًا لِبَغَاتِهَا وَأَعْدَائِهَا ؛ وَاعْظًا مَذْكُرًا لِلْغَافِلِ ، مُؤَمِّنًا
لِلظُلُومِ الْخَائِفِ ، مُخَيِّفًا لِلظَّالِمِ الْخَائِفِ ؛ مُسْتَصْلِحًا لِلْسَّيِّئِينَ ، مَذْكُرًا بِإِحْسَانِ الْحَسَنِينَ ؛
مُتَنَجِّزًا لَهُمُ الْجَزَاءَ عَلَى بِلَاقَتِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَآثَارِهِمْ فِي الْخِدْمَةِ . وَأَنْ تَنْظُرَ فِي رِجَالِ الدَّوْلَةِ عَلَى
اِخْتِلَافِهِمْ نَظْرًا يَسْلُكُ بِهِمْ سَبِيلَ السَّدَادِ ، وَيُجَرِّى أُمُورَهُمْ عَلَى أَفْضَلِ الْعُرْفِ الْمَعْتَادِ .
فَأَمَّا الْأُمَانُ وَالْأَمْرَاءُ ، وَالْأَعْيَانُ وَالرُّؤَسَاءُ ، فَتَحْفَظْ عَلَى مَنْ أَحْمَدْتَ طَرِيقَتَهُ ،
وَعَرِّفْ إِخْلَاصَهُ وَطَاعَتَهُ ، شِعَارَ رِيَاسَتِهِ ، وَتَزِيدْ فِي تَكْرِمَتِهِ ، وَتَنْتَهِي بِهِ إِلَى مَا تَرْتَأَى
إِلَيْهِ مَوَاضِيَ هِمَّتِهِ .

وأما طوائف الأجناد فُتِقِرْهم على مرّاتهم في ديوان الجيش المنصور، وتخصّصهم من عنايتك بالنصيب الموفور، وتستخدمهم في سدّ الثغور وتسيّد الأمور؛ وتراعى وصول أطعمهم إليهم، وأوقات الاستحقاق إليهم؛ وانفاقهم نصاب الوجوب منهم .

وأما الكتاب المستخدمون منهم في استخراج الأموال، وعمارة الأعمال، فتخصّص كفتهم بما تقتضيه كفايتهم، وأمناءهم بما توجبه أماناتهم؛ وتستبدل بالعاجز الخبيث الطعمه، والطبع المستشعر شعار المذمة : لينحفظ التره المأمون بنزاهته وأمانته، ويقلّع الدنس الخئون عن دَنَسه وخيائنه؛ وتأمّر من تختاره لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يسيروا بالسّير الفاضله، ويعملوا على الرّسوم العادله؛ فلا يضيّعوا حقّا لبيت مال المسامين، ولا يخيّفوا أحداً من المعاملين .

وأما الرعية، فيأمرُك أن تحكم بينها بالسّويه، وتعتمدَها بعدل القضاء؛ وترفع عنها نير الجور، وتحميها من ولاة الظلم؛ وتسوسها بالفضل والرافة متى استقامت على الطاعة، وتأدب في التّباعه؛ وتقومها متى أجرت إلى المنازح والأفئتان، وأصرّت على مغضبة السلطان .

وأما الأموال وهي العدة التي تُرهف عزائم الأولياء، وتغض من نواظر الأعداء؛ فتستخرجها من محققها، وتضعها في مستحقّها؛ وتجتهد في وفورها، وتتوفر على ما عاد بدورها؛ وأن تطالع أمير المؤمنين بذره وجلّه، وعقد أمرك وحلّه؛ وتنبى إليه كل ماتعزّم على إهائنه، وترجع فيه إلى رائه : ليكرّمك من موادّ تبصيره وتعريفه، ويزيدك من هدايته وتوقيفه؛ بما يفضى بك إلى جادة الخير وسبيله، ويوضح لك علم النّجاح ودليله .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك : وقد أودعه من تلويح الإشارة ، ما يكفي به عن تصريح العبارة ، ثقةً بأنك الأريبُ الأملئ ، والفطنُ اللودعي ، الذي تنتهي به متونُ التذكير إلى أطرافه وحواشيه ، وتفضي به هوادي القول إلى أعجازه وتواليه .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين ، وكُنْ عند حسن ظنه في فضلك ، وصدق مخيلته في كمالك ، والله تعالى يعترف أمير المؤمنين وجه الخيرة في تصيير أمره إليك ، وتحويله في مهماته عليك ، ويوفقك لشكر الموهبة في استخلاصك ، والمنحة في اجتباك ، ويمنحك بما حلك من أعباء مظاهرتيه ، وجشمتك من أثقال دولته ، ويسدك إلى ما يدرك عليك أخلاف [نعمته] ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .



ومنها - ما أورده في رسم تقليد زمّ الأقارب : وهو التقدمة على أقارب الخليفة ، وهذه نسخته :

الحمد لله الذي ابتداءً بنعمته ابتداءً وأقتضاباً ، وأعادها جزاءً وثواباً ، وميز من اختصه بهداية خلقه ، وأستخلصه لإظهار حقه ، بأضفاها عطافاً ، وأضفاها نطافاً ، وأحسنها شعاراً ، وأجملها آثاراً ، وأستخرجهم من أطيب البرية أعراقاً ، وأطهرها شيماً وأخلاقاً ، وأقدمها سُودداً ومجداً ، وأكرمها أباً وجداً ، وتوحد بأفضل ذلك وأعلاه ، وأكمله وأسناه ، محمداً صفوته من خلصائه ، وخيرته من أنبيائه ، فأظهره من المنجب الكريم ، والمنجم الصميم ، والدوحة الطاهر عنصراً ، الشريف جوهرها ، الحلو ثمرها ، ورشح من اختاره من عثرته لسياسة بريته ، والدعاء إلى توحيده وطاعته .

يحمده أمير المؤمنين أن شرفه بمراث النبوة ، وفضله بأكرم الولادة والأبوة ؛ وأحلّه في الدروة العالية من الخلافه ، وناط به أمور الكافه ؛ ويسأله الصلاة على جدّه محمد وعلى أبيه ، صلى الله عليهما .

وإن أمير المؤمنين يرى أنّ من أشرف نعم الله عليه موقعا ، وألطف مواهبه لديه موضعا ؛ توفيقه للحافظة على من يؤاخذ به في كريم نَسبه ، ويمارجه في صميم حسبه ؛ ويُدانيه في طاهر مولده ، ويُقاربه في طيب محتده ؛ وتنزيل كل ذي تميز منهم في دين وعلم ، ودراية وفهم ، وإحلاله بالمنزلة التي يستوجبها بفاضل نَسبه ، وفضل مكتسبه ؛ ويعتُّ أنظاره على التحلّي بخصاله ، والترّين بخلاله ؛ ليحصل لهم من فضل الخلاق والآداب ، ما يضاعى الحاصل لهم من عَرَاقَة المناجب والأنساب ؛ ولذلك لا يزال يُنوطُ أمورهم ، ويكلُّ تدبيرهم ، إلى أعيان دولته ، وأمانل خاصته ؛ الذين يعتادون حضرته ويراوحونها ، ويطالعونه بحقائق أحوالهم ويُنهنونها ، ويستخرجون أمره في مصالحهم بما يذلل لهم قُطوف إحسانه وطوله ، ويُعذب لهم مَشارِعَ برّه وفضله ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنيب .

فإن كان العهد إلى خادم ، قال :

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين معذودا في أولى النباهه ، المترشّحين للاستقلال بأعباء دولته وذوى الوجاهه ، المُستخلصين لاستكفاء جلائل مملكته : لما أجمع فيك من إباء النفس وعزّتها ، ووثاقه الديانة وخصاقتها ؛ وسداد السيرة واستقامتها ، وتقاء السريرة وطهارتها ؛ وتقيُّك منهج أمير المؤمنين ومذهبه ، وتمثلك بهديه وأديه ؛ ونشئك في قُصُور خلافته ، وأرتضاعك دَر طاعته - رأى - والله تعالى يعزّم له على الخير في آرائه ، ويوفّقه لصالح القول والعمل في أنحائه - أن قلّدك زَم بنى عمّه

الأشراف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحديد طريقتك ، وإنافةً لمزلتك وإعرايا
عن أمير مكاتك .

وإن كان العهد إلى شريف قيل بدلاً من هذا الفصل :

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين ممن زين شريف محته ، بمنيف سُودده ،
وطاهر مولده ، بظاهر محته ؛ وكریم تالده بنفيس طارفه ، وجليل سالفه ، بنيل
آنيه ؛ مقتفياً سنن أوليتك ، مفرعاً على أصول دوحك ؛ ضارباً بالسهم المعلى في الدين
والعلم ، حائزاً خصل السبق في الرجاحة والفهم - رأى أمير المؤمنين أن قللك نقابة
بن عمه الأشراف الفلانيين : ثقةً بأنك تعرف ما يجمعهم وإياك من الأرحام الواشجة ،
والأواصر المتمازجة ؛ وتحسن السيرة بهم ، والتعهد لهم والتوفر عليهم .

ثم يوصل الكلام بأى الخطابين قُدم فيقال :

فتقلد ما قللك أمير المؤمنين مستشعراً تقوى الله وطاعته ، معتقداً خيفته
ومراقبته ؛ سائراً فيمن ولأك أمير المؤمنين بسيرته ، مستنّاً بسنته ؛ متأدباً بأدابه ،
مقتفياً مناهج صوابه ؛ وإكراماً هذه الأسرة [التى] خصها الله تعالى بكرامته ، وفرض
مودتها على أهل طاعته ؛ ونزهها عن الأدناس ، وطهرها من الأرجاس ؛ فقال جل
قائلاً : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وَأَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ مَرَاتِبِهِم الدانية من أمير المؤمنين ، ونزلهم بحيث نزلهم الله من
الدنيا والدين ؛ وأعتدّ تعظيم مشايخهم وتوقيرهم ، وسياسة شُبانهم وتديبرهم ، وتقويم
أخلاقهم وتنقيفهم ؛ وحُذهم بلزوم الطرائق الحميدة ، والمذاهب السديده ؛ التى تليق
بأصولهم الطاهرة ، وفروعهم المثمرة ؛ ومناحيهم الصميمة ، ومناجيبهم الكريمة ؛
وتفقد منشاهم ومرباهم ، وحُطاطهم وقُرباهم ؛ فبن تناكرت أعرافه ، وأخلاقه ،

وأنسابه، وآدابه، بالغت في تنبيهه وتعريفه، فإن نجح ذلك فيه وإلا بسطت يدك إلى تهذيبه، وإصلاحه وتأديبه : ليستيقظ من منامة غرته ، ويرجع إلى اللائق بشرف ولادته ؛ وأنظر فيما أوقف عليهم من الأملاك والمستغلات، والضّيايع والإقطاعات، والرّسوم والصّلات ؛ وأنذب لتولّى ذلك من تسكن إلى ثقته وأمانته من الكُتاب ؛ وراع سيرته في عمّارته ، وطريقته في تثير ماله وزيادته ؛ فإن ألفتته كافيًا أمينًا أقرّته ، وإن وجدته عاجزًا خثونا صرفته ؛ وأسبدلت به من يحسن خبرك ، ويطيب أثرك ؛ وأجر الأمر في قسمته بين ذكورهم وإناثهم على الرسوم التي يشهد بها ديوانهم ؛ وأكتب الرّقاع عنهم إلى الحضرة في اقتضاء رُسومهم ، وما يعرض من مهمّات أمورهم ، وتنجز كلّ ما يتعلق بهم وتوبّ عنهم فيه : لتستقيم شُؤونهم بسياستك، وتنظّم أحوالهم بحسن سيرتك .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاعمل به وأنته إلى متضمّنه، إن شاء الله تعالى :



ومنها — مأورده في رسم تقليد بنقابة العلويين، وهو :

الحمد لله الذي أنجب من أسرار عباده قادة جعلهم لمصالحهم نظاما ، وأنجب من اختيار خليقته سادة صيرهم لأموهم قواما ؛ وعدق بهم هداية من ضلّ ، وتقويم من دلّ ؛ وتعليم من جهل ، وتذكير من غفل ؛ ونصّبهم أعلاما على طرق الرّشاد ، وأدلة على سبل السّداد .

يحمد أمير المؤمنين أن اختصّه بأثرة الخلافة والإمامه ، وميزه بمزية الولاية على الأمة والزّعامة ؛ وأنهضه بما كلفه من سياسة بريته وتنزيلهم منازلهم من اختصاصه وإيثاره، وإحلالهم في محالهم من استخلاصه واختياره ؛ ويسأله الصلاة على أشرف

الأئمة نَجَارًا وَأَطِيبِهِمْ عُصْرًا، وَأَعْظَمَهُمْ مَفْخَرًا؛ سَيَدُنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ، وَبَابُ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ؛ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الرَّاسِخُ فِي نَسَبِهِ، الْمُدَانِيُّ [لَهُ] فِي حَسَبِهِ؛ سَيْفُهُ الْبَاتِرُ، وَمُعْجِزُهُ الْبَاهِرُ، وَمُكَاتِفُهُ الْمُظَاهِرُ؛ وَعَلَى الْأُئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الْمَهْدِيِّينَ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا .

وإنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَرَفِ الْمَنَجِّمِ وَالْمَوْلَدِ، وَكَرَمِ الْمُخْتَدِ؛ وَخَوَلَهُ مِنْ مَنَاصِبِ الْخُلَفَاءِ وَالْأُئِمَّةِ، وَنَاطَقَهُ بِهِ مِنْ إِمَامَةِ الْأُئِمَّةِ - يَرَى أَنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي يَجِبُ التَّحَدُّثُ بِشُكْرِهَا، وَتَحَقُّقُ الْإِفَاضَةِ فِي نَشْرِهَا، تَوْفِيقَهُ لِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ ذَوِي لُحْمَتِهِ، وَأَوَّلَى مُنَاسَبَتِهِ؛ الْمُوَاشِحِينَ لَهُ فِي أَرْوَمَتِهِ، الْمُعْتَرِينَ إِلَى كَرَمِ وِلَادَتِهِ؛ وَتَوْخِيهِمْ بِمَا يُرْفِلُهُمْ فِي مَلَابِسِ الْجَمَالِ، وَيُوقِّلُهُمْ فِي هَضَبَاتِ الْجَلَالِ؛ وَيُرْتَبُّهُمْ فِي الرُّتَبِ الَّتِي يَسْتَوْجِبُونَهَا [وَيَرَاهَا] أَوَّلَى بِمَغَارِسِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ، وَمَاسًّا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَدَابِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ يَصْرِفُ أَهْتَامَهُ إِلَى مَا يَجْمَعُ لَهُمْ بَيْنَ شَرَفِ الْأَعْرَاقِ، وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ؛ وَطَهَارَةِ الْعُنَاصِرِ وَالْأَوَاصِرِ، وَحَيَازَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَأَثَرِ .

وَمَا كُنْتُ بِمَحْضَرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِلَّتِهِمُ الْعُلَمَاءِ، وَطَهَرَتِهِمُ الْأَزْكَيَاءِ؛ وَأَبْرَارِهِمُ الصُّلَحَاءِ، وَخِيَارِهِمُ الْفَضْلَاءِ، الَّذِينَ تَضَارَعَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَأَعْرَاقُهُمْ، وَتَقَارَعَتْ أَنْسَابُهُمْ وَأَدَابُهُمْ؛ وَتَشَاكَهَتْ مَوَارِدُهُمْ وَمَصَادِرُهُمْ، وَتَشَابَهَتْ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ، وَأَنْفَقَتْ جُيُوبُهُمْ وَدَخَائِلُهُمْ، وَتَوَصَّحَتْ عَنِ الدِّينِ وَالْخَيْرِ مَخَالِلُهُمْ .

هَذَا مَعَ مَا رَعَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَرِيمِ مَسَاعِيكَ فِي خِدْمَتِهِ، وَإِصَابَةِ مَرَامِكَ فِي طَاعَتِهِ؛ وَاعْتَصَامِكَ بِجَبَلِ مَتَابَعَتِهِ، وَنُهُوضِكَ بِحَقُوقِ مَا أَسْبَغَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَتِهِ - رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْضِي لَهُ فِي آرَائِهِ بِحُسْنِ الْأَخْتِيَارِ، وَيُمِدُّهُ بِالْعَوْنِ وَالتَّيَايُدِ فِي مَجَارِي الْأَقْدَارِ - أَنْ قُلِّدَكَ النَّقَابَةَ عَلَى الْأَشْرَافِ الطَّالِبِينَ أَجْمَعِينَ، الْمُقِيمِينَ

با لضره وسائر أعمال المملكة شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، ثقةً بأنك تصدق بحيلته
فيك واعتقاده ، وتستدعي بكفاية ما استكفاك شكره وإحماده ، وتستدر بالاستقلال
والغناء أخلاف إحصانه وفضله ، وتمتري بالأضطلاع بمضليع الأثقال فائض أمانته
وطوله .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين عاملاً بتقوى الله وطاعته ، مستشعراً لحيفته
ومراقبته ، وأحسن رعاية من عدك بك رعايته ، وسياسة من وكل إليك سياسته .

وأعلم أن أمير المؤمنين قد ميزك على كافة أهل نسبك ، وجميع من يؤشجك
في حسبك ، وجعلك عليهم رئيساً ولهم سائساً ، فأعرف لهم حق القرابة والمشاكلة ،
وتشاجر الأنساب والمشاركة ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وعمهم جميعاً بالتوقير والإكرام ، والتفقد والإهتمام ، واتخذ
شيخهم أبا ، وكهلهم أخا ، وطفلهم ولداً ، وأفرض لهم من الحنان ، والإشفاق
والفضل والإحسان ، ما تقتضيه الرحم الدائيه ، والأواصر المتقاربة ، وكُن مع ذلك
متفقدا لأحوالهم ، مطالعاً لسيرهم وأفعالهم ، فمن ألفتهم سالكا لأقصد الطرائق ، متخلقا
بأجمل الخلائق ، حارساً لشرفه ، متشبهاً بسلفه ، فزده في الأثرة زيادةً تُرغب أمثاله
في آفتاء مذهبه ، وتبعته على التأدب بأدبه ، ومن وجدته مستحسناً مالا يليق بصريح
عرفه ، راكبا ما ليس من طُرقه ، فأيقظه بنافع الوعظ ، وذكَّره بنافع اللفظ ، فإن
استقام على الطريقة المثلى ، ورجع إلى الأجدر والأولى ، عرفت ذلك من فعله ،
وفرضت له ما تقرضه لصلحاء أهله : فإن الله تعالى قد فتح باب التوبة ، ووعد بإقالة
أهل الإنابة ، ومن انحرف عن التذكير ، وأنصرف عن التبصير ، وأصر وتمادى ،
وآرتكب ما يوجب حداً ، آمنت أمر الله تعالى فيه ، وأقمت الحد عليه ، غير مُضع

إلى شَفَاعِهِ ، ولا مُوجب لحَقِّ ذَرِيَعِهِ : فإن أمير المؤمنين يَصِلُ من ذَوَى أنسابِهِ ، من وَكَّدَهَا بِأسبابِهِ ؛ ويقطَعُ من أوجب الحقِّ قطيعَتَهُ ، ولا يراعى رَحِمَهُ وقربَتَهُ .
 ووَكَّلَ بِهِم من يَرَوِي إِلَيْكَ أَخْبَارَهُمْ ، ويَكْشِفُ لَكَ آثارَهُمْ : ليعلموا أَنَّهُم بِبَالٍ من مطالعتِكَ ، وبعينٍ من أَهْتِمَامِكَ ومشارفَتِكَ ؛ فيَكْبَحُ ذلك جامعَهُم عن العِثَارِ والسَّقَطِ ، ويمنع طامِعَهُم من الزَّلَلِ والغَلَطِ . وتَوَخَّاهُمْ في خطابِكَ بالإِكْرَامِ ، وميزَهُم عن محاورَةِ العَوَامِ ؛ ولا تقابِلْ أَحداً منهم بِنَدَاءٍ ولا سَبٍّ ، ولا قَدْحٍ في أمٍّ ولا أبٍّ ؛ فإنَّهُم فروعُ دوحَةِ أمير المؤمنين وعِترَتُهُ الذين طَهَّرَهُم الله من الأرجاس ، وفَرَضَ قِرَاهِمَ على الناس . ووَفَّرَ أَهْتِمَامَكَ على صِيَانَةِ النَّسَبِ من الوُكُوسِ ، وحياطتِهِ من اللَّبَسِ ؛ فإنه نَسَبُ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم الذي يتصل يومَ انْقِطَاعِ الأَنْسابِ ، وسَبَبُهُ الذي يتشجَعُ يومَ انْفِرَاطِ الأسبابِ ؛ وأُنِيتْ أَسْمَاءُ كَافَّةٍ من يَعْتَرِي إلى هذا البيتِ منسوبةٌ إلى أَصُولِهَا : لتَأْمَنَ من دَخِيلٍ مُلْصَقٍ يَتَرَوَّرُ عَلَيْهَا ، ومُخْتَلِقٍ مُلْحَقٍ يَنْضُمُ إِلَيْهَا . وإن عَرَفَ مَدَّجٍ نَسَباً لاحتِجَّةٌ لَهُ فِيهِ ، ولا بَيِّنَةٌ عِنْدَهُ عَلَيْهِ ؛ فغَلَّظَ لَهُ العِقَابَ ، وأشْهَرَهُ شُهْرَةً تَحْجُزُهُ عن معاوَدَةِ الكَذَابِ ؛ وأَحْتَطَّ في أَمْرِ المَنَاحِكِ وَصُنْهَا عن العَوَامِ ، ووَفَّرَ كِرَائِمَ أَهْلِ البَيْتِ عن مُلَابَسَةِ اللَّثَامِ ؛ وإن آدَعَى أَحَدٌ من الرِّعْيَةِ حَقًّا على شَرِيفٍ فَاحِجِلْهَا على السُّوِيَّةِ وَعِدَهُ بِإِنْصَافٍ خَصِمِهِ ، وَأَمْنَعَهُ من ظُلْمِهِ ؛ وإن ثَبَّتَ أَيْضاً في مَجْلَسِ الحُكْمِ حَقَّ على أَحَدٍ من الأَشْرَافِ فَانْزَعَهُ مِنْهُ [وول] ^(١) على من في البلادِ ، أَهْلَ السَّدَادِ مِنْهُمْ والرِّشَادِ ؛ ومُرَّهُمْ بِتَقْيِيلِ مَذْهَبِكَ ، ونَقْلِ أَذْيِكَ ؛ وَأَصْرِفَ أَهْتِمَامَكَ إلى حِفْظِ أَوْقَافِهِمْ وَأَمْلَاكَهُمْ وَمُسْتَغْلَاثِهِمْ في سائرِ الأَعْمَالِ ، وَحُطِّهَا من العَفَاءِ وَالإِضْمِحْلالِ ؛ وتَوَفَّرَ على تَحْمِيلِ أَرْتِفَاعِهَا ، وَتَرْجِيَةِ مَالِهَا ؛

وَأَسْتَحْدِمُ لَضَبْطِ حَاصِلِهَا ، وَجِهَاتِ مُنْفَقِهَا ، مِنْ تَسْكُنِ إِلَى ثَقْتِهِ ، وَتَثِقِ بِنَهْضَتِهِ ؛
وَوَزْعِ مَا يَرْتَفِعُ مِنْ أَسْتَغْلَالِهَا بَيْنَهُمْ عَلَى رُتَبِهِمُ الَّتِي يَشْهَدُ بِهَا دِيَوَانُهُمْ .

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ فَانْتِهِ إِلَيْهِ مُنْتَهَجًا لِمُثْلِهِ ؛ مَعْتَمِدًا بِدَلِيلِهِ ؛ وَطَالَعُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَلْبَسَ عَلَيْكَ وَأَبْهَمَ ، وَأَشْكَلَ وَأَسْتَعْجَمَ : لِيَقِفَكَ عَلَى وَاضِحِ السَّنَنِ ،
وَيُرْشِدَكَ إِلَى أَحْسَنِ السَّنَنِ ؛ وَأَسْتَعِينَ بِاللَّهِ يَهْدِكَ لِمَعُونَتِهِ ، وَأَسْتَمِدَّ بِكَ بِهَدَايَتِهِ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



ومنها — ما أورده في رسم تقليد بزم طوائف الرجال .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْبَدِيعِ تَقْدِيرُهُ ، الْحَكِيمِ تَدْبِيرُهُ ؛ الَّذِي أَتَقَنَ مَاصِنَعَ وَأَحْكَمَ ، وَكَمَّلَ مَا بَدَعَ
وَتَمَّمَهُ ؛ وَأَعْطَى كُلَّ مَصْلُحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِهِ نِظَامًا ، وَكُلَّ مَرَفَقٍ مِنْ مَرَافِقِ
خَلْقِهِ قِوَامًا ؛ فَلَا يُقَارَبُ فِيهَا خَلْقٌ وَصُورٌ ، وَلَا يُسَاوَى فِيهَا قَدْرٌ وَدَبْرٌ ؛ وَرَأْبَ ثَلَمَ بَرِيَّتِهِ
بِمَنْ أَسْتَخْلَصَهُ مِنْ خَاصَّتِهَا ، لِسِيَاسَةِ عَامَّتِهَا ؛ وَأَتَخَبَّهَ مِنْ أَشْرَافِهَا ، لِتَسْدِيدِ أَطْرَافِهَا ؛
وَلِإِقَامَةِ مِنْ سَادَهَا لِإِصْلَاحِ فَاسِدِهَا ، وَتَقْوِيمِ مَائِدِهَا ؛ وَتَوْقِيفِهَا عَلَى سَنَنِ الصُّوَابِ ،
وَتَعْرِيفِهَا بِحَاسَنِ الْآدَابِ .

يُحْمَدُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَحَلَّهُ فِي الْمُنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ : مِنْ أَصْطِفَائِهِ وَأَسْتَخْلَاصِهِ ، وَالذَّرُورَةِ
السَّنِيَّةِ : مِنْ أَجْتَبَائِهِ وَأَخْتِصَاصِهِ ؛ وَفُؤُضَ إِلَيْهِ تَنْزِيلَ الرِّتَبِ وَتَحْوِيلَهَا ، وَإِقْرَارَ
الْمَنَازِلِ وَتَحْوِيلَهَا ؛ وَنَاطَ بِهِ الْبَرَمَ وَالتَّقْضَ ، وَالرَّفْعَ وَالْخَفْضَ ؛ وَالرِّيشَ وَالْحِصْنَ ،
وَالزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَ ؛ وَسَوَّغَهُ الشُّكْرَ عَلَى مَوَاهِبِهِ السَّابِغِ عِطَافُهَا ، الْفَسِيحَةِ أَكْثَافُهَا ،
الْبَعِيدَةِ أَطْرَافُهَا ؛ وَ[يَسْأَلُهُ] أَنْ يَصِلَى عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، وَمُفِيدِ الْحِكْمَةِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ

الرُّسُل ، وَمَوْصِحَ السُّبُل ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وآبنِ عمِّه ، وخليفته على أُمَّته وقومه : على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، ومَوَلَى المسلمين ؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِهِما الطاهرين .

وإنَّ أمير المؤمنين بما فَوَضَّه الله تعالى إليه من حِجَاية الأَنَام ، والمُرَامَاة عن دار الإسلام ؛ وَكَفَّلَه من غَضِّ نواظر أهل العناد ، وتكيسِ رؤوس رؤساء الإلحاد ؛ لا يزال ينظر في مصالح عبيده ، وتوفّر سياسة رجال دولته وجنوده ؛ الذين هم حَرْبُ الله الغالبون ، وجنُده المنصورون ؛ ويرُدُّ النظر في أمورهم ، والتقدّم عليهم ؛ وزَمَّ طوائفهم ، إلى خواصّ دولته ، وأعيان مملكته ، الذين بلا طرائقهم ، وحِدِّ خلائقهم : من الغناء والكفاية ، والسداد وحُسن السياسة ؛ وتَقْلَهُم في الخدم فاستقلُّوا بأعبائها وأثقالها ، ونهضوا بناهض أعمالها ؛ ومضتْ عزائمهم في حياطة البيضة ، وأشتدتْ صرائعهم في تحصين الحوزة ، وصدقتْ نياتهم في المُرَامَاة عن الملّة ، والمحاماة عن الدعوة والدّولة .

ولمّا كنت بحضرة أمير المؤمنين مُعدّاً لمِهْمَّاته ، معدوداً في أمائل كُفَّاته ؛ مشهوراً بحسن السياسة لما تُورده وتُصدِّره ، معروفاً بفضل السيرة فيما تأتيه وتذرّه - رأى أمير المؤمنين - والله يُرشده لأعوْدِ الآراء بالصّلاح والإصلاح ، وأدناها من الخير والنجاح - أن قُلْدَكَ زَمَامَ طائفة الرجال الفلانيين (ويوصفون بما تقتضيه مكانتهم من الدولة وحسن سيرهم في الخدمة) إنافةً بقَدْرِكَ ، وإبانةً عن خَطَرِكَ ، وتنوّهًا بذِكْرِكَ ، وتفخيمًا لأمرِكَ .

وهو يأمرُك بتقوى الله تعالى وطاعته ، وأستشعارِ مراقبته ؛ ورياضةِ خلائِكَ على محبة العدل ، وإيثار الفضل ؛ وأتباع اللطف ، واجتناب العسف ؛ وتونّجى

الإنصاف، وبَسْطِ الهيبة من غير إجحاف؛ وأن تُحَصَّ هذه الطائفة من النظر في أمورها، وتعهد صغيرها وكبيرها، بما يُسدّد أحوالها، ويحقق آمالها؛ وتأخذها بأحسن الآداب اللائقة بأمثالها، وسلوك الطريقة المعهودة من أعيانها وأماثلها؛ وتُشعرها من أمير المؤمنين بما يشرح صدرها في خدمته، ويُقرّ عينها في طاعته؛ والمصارعة إلى مكافئة أعدائه، والتمييز في نُصرة أوليائه؛ وتُطالع بحال من يستحقّ الاحترام، ويستوجب إفاضة الإنعام؛ وتكتب الرّقاع عنها (مستدعيًا للربّاطات، في الأَطْلاع والعاجزين شاملاً في التعويد والتأْمير والتلقيب والولايات قاصداً في ذلك ما يفسّح آمالها في الآجال، ويوثّقها بَدْرُور الأمثال^(١))؛ فإنهم أمراء الحروب، وكُفّة الخطوب، الذين يجاهدون عن الحوزة، ويرامون عن الدولة؛ وأُفْرِضَ لهم من الإكرام، وتأمّ الآهتمام؛ ما تقتضيه مكاتبتهم في الدولة، وموضعهم من الخدمة؛ وتكفّل أوساطهم بالرعاية، وأصرف إليهم شطراً موفوراً من العناية؛ وألحق من برز منهم وتقدّم، ونهض وخدم، بنظرائه وأمثاله، وساو بينه وبين أشكاله؛ وتعهد أطرافهم بملاحظتك، وتفقدتهم بسياسيتك؛ وحُدِّم بلزوم السير الحميدة، والمذاهب السديده؛ والتوفّر على ما يُرهف عزائمهم، ويؤيّد أيديهم؛ ولا تُفسّح لأحد من هذه المذاهب في مخالطة العوام ولا مشاركة التجار والإحتراف، ووكل بهم من الثّقاء من يتبلى سيرهم، وينهى إليك أخبارهم؛ فمن علمته قد أجتراً إلى نسخ المذهب، فتناوله باليم الأدب؛ وأحضضهم على الإدمان في نقل السلاح، والضرب بالسيف، والمطاعنة بالرمح، والإزماء عن القوس؛ وميز من مهر وأستقل، وقصّر بمن صجّع وأخلّ؛ فهم كالجوارح التي ينفعها التعليم والإجراء، ويضرّها الإهمال والإبقاء؛ وفي صرفك الإهتمام إليهم ما يزيد في رغبة ذى الهمة العليّه، ويبعث المعروف

(١) كذا في النسخ ولم نهند الى المراد منها .

في النفس الدنيّة؛ وأن تُطالبهم بالاستعداد، وأرتباط الحُيُول الجياد؛ والاستكثار من السّلاح الشاك والجُنَن . وليُكُنْ ما تُطالبهم بإعداده من هذه الأصناف على حَسَب الفُروض من العطاء، ولا تُرَخِّص لأحد في الاقتناع بما لا يليقُ بمُتَزلّته ، والرضا بما يَقَع دُون ما يعبُثُه أمانيلُ طبَقَتِه . وَمَنْ مات من هذه الطائفة وخلف ولدا يتيماً فُضِّمَه إلى أمثاله ، وأنظُر في حاله ؛ ووَكِّل به من يَقْهه في دينه ، ويعلمه ما لا غنىَ به عن تعلّيمه من كتاب الله وسُنَّتِه ، وَمَنْ يهذبه في الخدمة ويعلمه العملَ بالآتها، والتَّنَقُّل في حالاتها؛ ويطلِّق له من إناعام أمير المؤمنين ما يقوم بكُفَّتِها ولوازمها، وخُذْ كُلَّ من تُقدِّمهم بخدمة والجرى على عادتها في النُّهوض بما يَسْتَنَهِض به ، ولا يُفَسِّح لها في التناقل عنه ؛ وسوِّينهم في الاستخدام ؛ ولا تُخَصَّ قوماً دون قوم بالترفيه والإجماع؛ فإنّ في ذلك إرهاباً لعزائمهم ، وتقويةً لِمُنَهم ، وإفاضة العدل عليهم .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، قد وَكَّدَ به الحجة عليك؛ فتأمّله ناظراً، وراجعه متدبّراً؛ وآتته إلى مَصَابرِه ومَراشِدِه ، وأعمل على رُسُومِه وحدُودِه ، يُوفِّق الله مقاصدك، ويُسَعِد مَصالحك ويتولّاك، إن شاء الله تعالى .

ورُسُوم هذه العهود يتفاضل الخطابُ فيها بحسب تفاضل الطوائف ومن يُولَّى عليها . وهذا الأُمُودَج متوسطٌ تُمكن الزيادةُ عليه والنقصُ منه .



ومنها — ما أورده في رسم تقليد بإمارة الحج، وهذه نسخته :

الحمد لله الذي طهّر بيته من الأرجاس، وجعله مثابةً للناس؛ وآمنَ مَنْ حلّه ونَزَلَه ، وأوجبَ أجرَ مَنْ هاجر إليه ووصلَه .

يحمده أمير المؤمنين أن خصه بحيازة البيت الأعظم ، والحجر المكرم ، والحطيم وزمزم ، وأفضى إليه ميراث النبوة والإمامه ، وثرث الخليفة والزعامه ، وجعله لفرضه موفيا ، ولحقوقه مؤديا ، ولحدوده حافظا ، ولشرائعه ملاحظا ، ويسأله أن يصلّي على من أمره بالتأذين في الناس بالحج إلى بيته الحرام لشهادة منافعهم ، وتأدية مناسكهم ، وقضاء نفثهم ، ووفاء نذرهم ، وذكر خالقهم ، والطواف بحرمه ، والشكر على نعمه : سيدنا محمد رسوله صلى الله عليه وعلى وصيه وخليفته ، وباب مدينة علمه وحكمته : على بن أبى طالب سيد الوصيين ، وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين .

وإن أولى ما صرف أمير المؤمنين إليه همته ، ووفر عليه رعايته ، مثابرا عليه ، وناهضا لحق الله تعالى فيه ، النظر في أمر رفق الحجيج الشاحصة إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وردّه إلى من حلّ محلّك من الدين ، وتميز بما تميز به صلحاء المسلمين : من العلم ، ورجاحة الحلم ، ونفاذ البصيرة ، وحسن السريره ، وعدل السيره ، ولذلك رأى أمير المؤمنين أن قلّدك أمر رفق الحجيج المتوجهة من موضع كذا إلى الحرمين المحروسين ، وولّاك الحرب والأحداث بها : واثقا باستقلالك وغنائك ، وسدادك وإصابة آرائك ، فتقلّد ماقلّدك أمير المؤمنين بعزم ثاقب ، ورأي صائب ، وهمّة ماضيه ، ونفس ساميه ، وشمر فيه تسميرا يعرب عن محلك من الاضطلاع ، ويدلّ على استقلالك بحق الاضطناع ، وخصّ الحاجج بأتمّ الاحتظ ، وكُن من أمرهم على تيقظ ، وأعتمد ترقبهم في المسير ، وسوّ في رعايتهم بين الصغير والكبير ، فإنهم جميعا إلى الله متوجهون ، وإلى بيته الحرام قاصدون ، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وافدون ، قد استقربوا بعيد الشقه ،

وَأَسْتَدْمُوا خَشِنَ الْمَشَقَّةَ ، رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَسَطْوِهِ ؛ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِارْتِسَامِ أَمْرِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَإِيجَابًا لِلْحَرَمَةِ بِالْحُلُولِ فِي عِرَاصِ بَيْتِهِ وَأَفْنِيَتِهِ ؛ فُرُافِدَتُهُمْ وَاجِبُهُ ، وَمُسَاعَدَتُهُمْ لِازْبِهِ ؛ حَتَّى يَصْلُوا إِلَى بُغْيَتِهِمْ وَقَدْ شَمِلَتْهُمْ السَّلَامَةُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، وَالْأَمْنَةُ فِي الْحَيْلِ وَالرِّجَالِ : مُتَوَجِّهِينَ وَقَارِينَ وَقَافِلِينَ ، بَعْدَ أَنْ يَشْهَدُوا مَنَافِعَهُمْ ، وَيُؤَدُّوا مَنَاسِكَهُمْ ، وَيَعْمَلُوا بِمَا حُدَّ لَهُمْ . وَرُدَّاهُمْ فِي سَيْرِهِمْ عَنِ الْإِزْدِحَامِ ، وَرَتَّبَهُمْ عَلَى الْإِنْتِظَامِ ؛ وَرَاعَاهُمْ فِي وُرُودِ الْمَنَاهِلِ ، وَأَمْنَعَهُمْ مِنَ التَّحَادُثِ عَلَيْهَا وَالتَّكَاثُرِ فِيهَا ؛ حَتَّى لَا يَنْفَصِلُوا مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْإِرْتَوَاءِ ، وَوُقُوعِ التَّسَاوِيِ وَالْإِكْتِفَاءِ ؛ وَقَدَّمَ أَمَامَهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّسَرُّعِ ، وَأَخَّرَ وَرَاءَهُمْ مَنْ يَحْفَظُهُمْ مِنَ التَّقَطُّعِ ؛ وَرَتَّبَ سَاقَتَهُمْ ، وَلَا تُخَلَّ بِحِفْظِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ؛ وَطَالَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَنَزِلٍ تَنْزِيلُهُ وَمَحَلٍّ تَحُلُّهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِكَ لِقَفِّ عَلَيْهَا ، وَيُمَدِّكَ بِمَا يُنْهَضُكَ فِيهَا .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فتدبره عاملاً عليه ؛ متبصراً بما فيه ، عاملاً بما يحسن موقعه لك ، ويزيدك من رضا الله وثوابه ، إن شاء الله تعالى .



ومنها — مأورده في رسم تقليد الإمارة على الجهاد ، وهذه نسخته :

الحمد لله الصادق وعده ، الغالب جُنْدُهُ ؛ ناصر الحق ومُديله ، وخاذل الباطل ومُديله ؛ مُحِلُّ النَّكْبِ بِنِ أَنْصَرَفَ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَمُنْزِلِ الْعِقَابِ بِنِ تَحَرَّفَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ الَّذِي اخْتَارَ دِينَ الْإِسْلَامِ فَأَعْلَى مَنَارَهُ ، وَوَضَعَ أَنْوَارَهُ ؛ وَأَسْتَخْلَصَ لَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ أَعْضَادًا لَا تَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَلَا يُغْمِضُونَ عَنْ الْمَكَالِفَةِ دُونَهُ جَفَنَ حَالِمٌ ؛

وجزاهم على سعيهم في نصرته جزاء فيه يتنافس المتنافسون ، وإلى غايته يرتقى بالهمم المحيّدون ؛ قصداً من الله تعالى في إعزاز دينه ، وإنجاز ما وعد به خلفاءه من إظهاره وتمكينه ؛ وقطاً لشوكة أهل العناد ، وتعفية لآثار ذوى الفساد ؛ وتوفيراً لأحاطى من بذل الاجتهاد ، من سعداء عبادته في الجهاد .

يحمده أمير المؤمنين أن اختصه بلطيف الصنع فيما استرعاه ، ووفقه للعمل بما يرضيه فيما ولّاه ؛ وأعانه على المراماة عن دار المسلمين ، والمحاماة عن دمار الدين ؛ ومجاهدة [من] ندغنهما صادفاً ، ونكّب عن سبيلهما منصرفاً ؛ وإبادة من عند عن طاعته واتخذ معه إلهاً آخر لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً ؛ واستترأهم من صياصيم قهراً وأقتساراً ، وإخراجهم عن بيوتهم عزراً وأقندراً ؛ وإذا قهرهم وبأل أمرهم [و] عاقبة كفرهم ، أتباعا لقول الله تعالى إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

ويسأله أن يصلى على أشهر الخلق نورا وفضلا ، وأظهر البرية فرعاً وأصلاً ؛ وأرشد الأنبياء دليلاً ، وأقصد الرسل سبيلاً : محمد رسول الله الذى آتبعته وقد توعر طريق الحق عافياً ، وتغور نور الهدى خافياً ؛ والناس يتسكعون فى حنادس الغمرات ، ويتورطون فى مهاوى الهلكات ؛ لا يعرفون أنهم ضلال فيستهدون ، ولا عظمى فيستبصرون ؛ فأيدّه وعصده ، ووفقه وسدده ؛ ونصره وأظهره ، وأعانه وأزره ؛ وأنتخب له من صفوة خلقه ، أولياء كاتفوه على ظهور حقه ، سمحوا بالأنفس العريزة ، والأموال الحريزة ؛ وجاهدوا معه بأيدٍ باسطة ماضيه ، وعزائم متكافية متوافيه ؛ وقلوب على الكفار قسيّة قاسيه ؛ وعلى المؤمنين رعوفة حانية . فلما صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأرتموا أمره وأتتهوا إليه ، شركهم معه فى الوصف والثناء ،

وأضافهم إليه في المدح والإطراء ؛ فقال جل قائلا : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ . صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب سيف الله الفاضل ، وسنانه العامل ، ومُعْجَزُ رَسُولِهِ الباهر ، ووزيره المظاهر ، مُيَسِّدُ الشُّجْعَانِ ، ومُيَسِّرُ الْأَقْرَانِ ؛ ومَقْطَرُ الْفُرْسَانِ ، ومُكَسِّرُ الصُّلْبَانِ ؛ ومنكس الأوثان ، ومُعِزُّ الْإِيمَانِ ، الذي سبق الناس إلى الإسلام ، وتقدّمهم في الصلوة والصيام ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الميامين ، البررة الطاهرين ، وسلم تسليما .

وإنَّ أمير المؤمنين بما كلفه الله تعالى من [أمر] دينه ، ووَعَدَهُ من إظهاره وتمكينه ؛ يرى أنَّ أفضلَ مَا رَأَى إِلَيْهِ بَصَرٌ بِصِيرَتِهِ ، ورمى نحوه بطاميح همته ، مَاشِيَتِ الدِّينَ والدنيا بركته ، وعَمَّتِ الْإِسْلَامَ والمسلمين عائدته ؛ وحلَّ محلَّ الغيث إذا تَدَفَّقَ وَهَمَّعَ ، والنهار إذا تَأَلَّقَ وَلَمَعَ . ولا شيء أعودُ على الأئمة ، وأدعى إلى سُبُوغِ النِّعْمَةِ ، من عُلوِّ كَلِمَتِهِمْ ، وارتفاع رأيَتِهِمْ ؛ وتحصين حوزَتِهِمْ ، وإيمان مَنْصَتِهِمْ ؛ وتأدية الفريضة في مجاهدة أعدائهم ، وصرفهم عن غلوائهم ؛ وأقتيادهم بالإذلال والصغار ، وكبحهم بشكائم الإهوان والأقتسار ؛ ومواصلتهم بغزو الديار ، وتغفية الآثار ؛ وإيداع الرعب في صدورهم ، وتكذيب أمانِي غُرُورِهِمْ ؛ ووَعظهم بالسنة القواضب ، ومكاتبتهم على أيدي الكُتَّابِ : لما في ذلك من ذلِّ الشُّرْكِ وَثُبُورِهِ ، وعِزِّ التَّوْحِيدِ وَظُهُورِهِ ؛ ووُضُوحِ حُجَّةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تعالى على أعدائه بما يُنْزِلُهُ عليهم من نَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ ، ويؤيِّدُهُم بِهِ من تأييده وعِنايته ؛ لا جرم أن أمير المؤمنين مَصْرُوفُ الْعَزْمَةِ ، مَوْقُوفُ الْهِمَّةِ ، على تنفيذ البُعُوثِ والسرايا ، والمواصلة بالجُيُوشِ والعرايا ؛ وتجهيز المرتبة من أولياء الدولة ، وحَضِّ الْمُطَوَّعَةِ من أهل الملَّة ، على ما أمر الله تعالى به من غزو المشركين ، وجهاد الملحدين ؛ نافذاً في ذلك بنفسه ، وبأذلا فيه

عزيمته ، عند سهل السبل إلى البعثة ، وجود الفسحة ؛ ومولا فيه عند
التعذر على أهل الشجاعة والراحة من أعيان أهل الإسلام الذين أيقنت ضمايرهم ،
وخلصت بصائرهم ؛ ورغبوا في عاجل الذكر الجميل ، وأجل الأجر الجزيل ؛
وأمر المؤمنين يسأل الله تعالى أن يجريه فيما يصدر ويورد ، على أفضل مالم يزل
يولى ويعود : من التوفيق في رأيه وعزمه ، والتسديد في تديره وحزمه ؛ ويؤتيه من
ذلك أفضل ما آتاه وليا استخلفه ، وأميناً كفله عباده وكلفه ؛ وما توفيق أمير المؤمنين
إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب .

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين من بعده لجلال مهماته ، ويعده من أعيان
كفاته ؛ وراه سدادا للخلل ، وعمادا في الحادث الجلل ، وسهما في كتابته صائبا ،
وشهابا في سماء دولته ثاقبا ؛ وسيفا بيد الدين قاطعا ، ومجنا عن الحوزة دافعا - رأى
- وبالله التوفيق - أن يقدمك على جيوش المسلمين ، وبعوهم الشاخصة إلى جهاد
المشركين ؛ فقلدك الحرب والأحداث بها ، وعقد لك لواء بيده يلوى إليك الأعناق ،
وينكس لك رؤوس أهل الشقاق ؛ وشرّك بفاخر ملايسه وحملانه ، وضاعف لديك
مواد إحسانه ؛ وحبأك بطوق من التبر ، مرصع بفاخر الدر ؛ عادقا هذه الخدمة منك
بالنصيح المأمون ، والنجيج الميمون ؛ الذي تتوصح فيه أنوار اللبابة ، وتلوح عليه
آثار النجابه ؛ واثقا بما تتطوى عليه من الإخلاص والولاية ، وتحتل به من الغناء
والكفاية ؛ وتفترضه من الاستمرار على سنن الطاعة ، والاستقامة على سمت الأقياد
والتبابة ؛ وتوجب من مناصحة المسلمين ، والتشمير في نصرة الدين .

فقلد مقلدك أمير المؤمنين مستشعرا تقوى الله وطاعته في الإسرار والإعلان ،
معتقدا خيفته ومراقبته في الإظهار والإبطان ؛ مخلص القلب ، رابط اللب ؛ واثقا

بَنَصْرَ اللَّهِ الَّذِي يُسَبِّغُهُ عَلَى خُلَصَائِهِ ، وَيُفْرِغُهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ؛ أَخَذًا بَوَثَائِقِ الْحَزْمِ ،
مَتَمِّسًا بِعَلَائِقِ الْعَزْمِ ؛ نَاطِرًا مِنْ وَرَاءِ الْعَوَاقِبِ ، مَتَفَرِّسًا فِي وُجُوهِ التَّجَارِبِ ؛
مَقْلَصًا سُجُوفِ الْآرَاءِ بِإِضْفَاءِ غِيَارِ التَّدْيِيرِ ، مُمَرًّا مَرَارِئِ التَّقْرِيرِ ؛ مُوْغِلًا فِي الْخَفَائِلِ
وَالْمَكَايِدِ ، حَارِسًا لِلطَّلَاعِ وَالْمَرَاصِدِ ؛ يَقْظَانِ النَّفْسَ وَالنَّاطِرَ ، مَتَحَرِّزًا فِي مَوْقِفِ الْوَانِي
وَالْمُخَاطِرِ . وَأَنْ تَتَوَجَّهَ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَحَسَنِ تَوْفِيقِهِ ، وَيُثْمِنَ تَأْيِيدَهُ ؛ بَعْدَ أَنْ
تَتَسَلَّمَ مِنَ الْجِيُوشِ الْمَنْصُورَةِ جَرَائِدَ بَعْدَةِ رِجَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّائِرِينَ تَحْتَ رَايَتِكَ ،
الْمُنَوِّطِينَ بِسِيَاسَتِكَ ؛ وَتَعْرِضَهُمْ عَلَيْهَا ، فَتَخَيَّرُ مِنْ شُهْرَتِ بَسَائِلِهِ وَكِفَاحِهِ ، وَعَتَقَ
جَوَادَهُ وَكُلَّ سِلَاحِهِ ؛ وَعَرِفَ بِصَدْقِ الْعَزِيمَةِ فِي مُقَارَعَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَحُسْنِ الطَّوِيَّةِ
فِي الْإِحْلَاصِ وَالْوَلَاءِ ؛ وَتَسْتَبْدِلُ بِالْوَرَعِ الْجَبَانَ ، وَالرَّعْدِيدِ الضَّعِيفَ الْجَبَانَ ؛
الْمُنَاقِصِ الْعُدَّةَ ، الْمَقْصَرِ النَّجْدَةَ ؛ الْمَدْخُولِ النَّيَّةَ ، ^(١) التَّغْلِ الطَّوِيَّةَ ؛ فَإِذَا كَلَّتِ الْعِدَّةُ
مِنْ أَهْلِ الْجَلَدِ وَالشَّهَامَةِ ، وَأُولَى الْحِمَاسَةِ وَالصَّرَامَةِ ؛ أَسْتَدْعَيْتَ مِنْ بَيْتِ
الْمَالِ مَا يُنْفِقُ فِيهِمْ مِنْ مَسْتَحَقِّ أَطْعَامِهِمْ ، وَمَعُونَةِ طَرِيقِهِمْ ؛ وَأَجْرَتِ النِّفْقَةِ فِيهِمْ
عَلَى أَيْدِي عَارِضِيهِمْ وَكُنَّاهِمِمْ ؛ فَإِذَا أَرْحَتَ عَلَيْهِمْ فَاسْتَصْحَبَ مِنْ الْعُدَدِ وَالسَّلَاحِ
وَالْحِمِيمِ وَالْأَزْوَادِ وَالْأَمْوَالِ مَا يُرْهَبُ الْأَعْدَاءُ ، وَيُنْهَضُ الْأَوْلِيَاءُ ؛ وَأَذَّنَ فِي مُطَوَّعَةِ
الْمُسْلِمِينَ ، بِجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ ؛ فِي [كُلِّ] بَلَدَةٍ تَنْزِلُهَا ، وَحَمَلَةٍ تُحْلِلُهَا ؛ وَأَبْدَلُ لَهَا الظَّهْرَ
وَالْمِيرَةَ وَالْمَعُونَةَ بِالسَّلَاحِ وَمَا يَسْتَدْعُونَهُ ؛ وَأَرْهَفَ عَزَائِمَهُمْ فِي غَزْوِ الْكُفَّارِ ،
وِإِجْلَائِهِمْ عَنِ الْأَوْطَانِ وَالْأُيُودِ ؛ وَأَسْلَكَ الطَّرِيقَ الْقَاصِدَ ، وَلَا تُفَارِقُ أَهْلَ الْمَنَازِلِ
وَالْمَوَارِدِ ؛ وَلَا تُغَدِّ السَّيْرَ إِذَا تَقَطَّعَ لَهُ الرِّجَالُ وَتَتَأَخَّرُ بِهِ الْأَزْوَادُ ، وَلَا تَتَلَوَّمُ
فِي الْمَنَازِلِ تَلَوَّمًا تَتَصَرَّمُ فِيهِ الْآمَادُ ؛ وَيُوجَدُ الْمُشْرِكِينَ مُهْلَةً لِلْإِحْتِيَالِ وَالْإِسْتِعْدَادِ ؛
وَرَاعَ جَيْشَكَ عِنْدَ الْحَلِّ وَالتَّرْحَالِ ، وَلَا تُتَبَاعَدُ بَيْنَ مَضَارِبِهِمْ إِذَا نَزَلُوا ، وَلَا تَمَكَّنَهُمْ

(١) فِي الْأَصُولِ الْمَهْرُوقِ الطَّوِيَّةُ وَلَمْ نَجِدْ هَذِهِ الْمَادَّةَ .

من التفرّد إذا ارتحلوا ، وخُذهم بالاجتماع والالْتِئام ، والتألف والانتظام ، ولاسيّما إذا حصلوا في أرض العدو فإنهم ربّما أهتبلوا^(١) الفرصة في المسير المتسرّع ، والمديت المتفرّد ، ونالوا منه ما تُوسّم به الهزيمة على أهل الإسلام ، والعياذ بالله .

وإذا دانيّت القوم فأعط الحزامه حقّها ، مستعملا تارةً للدّهاء والحدّاع ، وأخرى للقاء والقراع ؛ فربما أغنت المُسارّة ، عن المُكاشرة ؛ ونابت مخايل التّلطف ، عن مداخل التعسف ؛ وكفّت غوائل المخادعة ، عن مواقف المماصّة ؛ وقد قال إمام الحرب ؛ وزعيم الطّعن والضّرب : ”الحَرْبُ خَدْعَةٌ“ .

وإذا عزمت على المصاع والمناخه ، والإيقاع والمُكالمه ، فبُث من سرعان الفُرسان الذين لا تُشكّ في محض نُصحهم ، ولا ترتأب بصدق نيّاتهم ، طلائع تطلّعت على الأخبار ، وعيونا تُكشِف لك حقائق الآثار ، وتُغضّ الطّرف عن مجاورى الديار ؛ ومُر من تقدّمه عليهم بأن لا يقتحم خطرا ، ولا يركب غررا ؛ وليكن من تُنفذه في ذلك [من] أهل الخبرة بالطّرق والساحات ، والدخلات والأودية والفجوات ؛ حتى لا يتمّ العدو فيهم حيله ، ولا ينالهم منه غيلة ؛ فإذا أتوك بالخبر اليقين ، وأقبسوك قبس النور المبين ؛ بدأت الحرب مستخيرا لله تعالى ، مقدّما أمامك الاستنجاح به ؛ وأستزأل النصر من عنده ، مرّبا للكتاب ، معبيا للصفوف والمقائب ؛ زاحفا بالراجل محصّنا بالفارس والرامي مجتثا بالنارس ؛ وأشحن القلب والجنّاحين بالشجعان المستبقيين ، والأبطال الحلاسين ؛ وأنزل إلى رضى الحرب من خف ركابه من الانجّاد الراغبين في علو الصّيت والذكر ، الطالبين الفوز بالثواب والأجر ؛ وأجعل وراءهم رداء ، وأعدّ لهم مددا يوازرونهم إن يحتمهم ما لا يطيّقونه ويحين(?) ، ويطايرونهم على

(١) أى أغتبلوا الفرصة الخ .

ما خلاص إليهم وادعين؛ وقِف من التأخير والإقدام، والتفؤذ والإحجام، موقفًا تُعْطَى الحِزَامَةُ فِيهِ حَظُّهَا، وَالرَّوِيَّةُ قِسْطُهَا؛ مَصَمًّا مَا كَانَ التَّصْمِيمُ أَذْنَى لَاتِهَازِ الْفُرْصَةِ، وَأَهْتِبَالِ الْعِرَّةِ؛ مَتَلُومًا مَا كَانَ التَّلُومُ أَحْمَدَ لِلْعَاقِبَةِ، وَأَسْلَمَ لِلْعَبَةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ رِيحَ النَّصْرِ قَدْ تَهَبَّتْ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَكُنْ ذَلِكَ قَادِحًا مِنْكَ فِي الدِّينِ . فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْتَدْرِجُ بُسْنَةَ الْبَاطِلِ لِبُسْنَةِ الْإِظْفَارِ، وَيُرِيهِمُ الْإِقْدَارَ فِي تَحَايِلِ الْأَقْدَارِ؛ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أوردتهم كَوَازِبُ أَمَانِيهِمْ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ، وَأَخَذُوا بَغْتَةً، وَدَالَتْ دَوْلَةُ الْحَقِّ لِأَوَّلِيَّائِهَا مَرْفُوعَةَ الْأَعْلَامِ، أَخَذَةً بِنَوَاصِي الْعُدَاةِ وَالْأَقْدَامِ؛ وَتَحَقَّقُ أَنَّ الْأُمُورَ بِخَوَاتِيمِهَا، وَالْأَعْمَالَ بِتَمَامِهَا؛ وَأَنَّهُ وَلِيُّ [الْمُؤْمِنِينَ] .

مَاجِعَ مَوْقِفٍ فَتَنَى شَكَّ وَيَقِينَ، وَكُفْرَ وَدِينَ؛ إِلَّا كَانَ الْقَلْجُ وَالنَّصْرُ لِأَهْلِ التَّقَى وَالِدِينَ، وَالْحُسَارَةُ وَالْبَوَارُ عَلَى الشَّاكِّينَ الْكَافِرِينَ، تَصَدِيقًا لَوَعْدِهِ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ : ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَمَنْ مَنصُورُونَ وَإِنَّا جُنْدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

وَتَحْفَظُ بِنَفْسِكَ وَلَا تُلْقِهَا فِي الْمَهَالِكِ مَتَهَوِّرًا، وَلَا تَرْمِ بِهَا فِي الْمَتَالِفِ مُخَاطِرًا؛ وَلَا تُسَاعِدْهَا عَلَى مَطَاوِعَةِ الْحِيَّةِ وَالنَّخْوَةِ، وَتَحْتَزْ قَبْلَ السَّقْطَةِ وَالْهَقْوَةِ؛ فَإِنَّكَ - وَإِنْ كُنْتَ وَاحِدًا مِنَ الْجَيْشِ - أَوْحَدُهُمُ الَّذِينَ يَتَبَادَرُونَ إِلَيْهِ، وَيَعْتَمِدُونَ فِي السِّيَاسَةِ عَلَيْهِ؛ وَمَادَمْتَ مُحْفُوظًا مُحْفُوظًا فَالْهَيْبَةُ عَلَيْهِ، وَالْعَيْنُ سَامِيَةٌ؛ وَإِنْ أَلَمَّ بِكَ - وَاللَّهُ يَعِصُوكَ - خَطْبٌ، أَوْ نَالَكَ - وَاللَّهُ يَكْفِيكَ - رَيْبٌ، تَوَجَّهَ الْخَلَلُ، وَأَرْهَفَ حَدُّ الْوَهْنِ وَالشَّلَلِ . وَإِنْ دَعَاكَ نَفْسُكَ إِلَى الْجِهَادِ، وَحَمَلَكَ تَصَرُّفُكَ عَلَى الْكِفَاحِ وَالْجِلَادِ؛ فَلْيَكُنْ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِحْجَامِ، وَتَزَلُّلِ الْأَقْدَامِ : فَإِنَّ ذَلِكَ يَشْحَذُ عِزَّائِمَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَقْوِي شَكَاكِي الْمَتَأَخِّرِينَ؛ ذَيْرَ مُضَيِّعٍ لِلْحَذَرِ، فِي الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ؛ وَكَذَلِكَ فَاحْرُسْ أَمَاثِلَ الْقَوَادِ، وَوَجُوهَ الْأَجْنَادِ، الَّذِينَ تُسْفَى صُدُورُ الْكَفَّارِ بِمَصَارِعِهِمْ،

وَتُنْفَعُ غُلَّهِمْ بِمَضَائِعِهِمْ ؛ وَحَامٍ عَنْهُمْ حِمَايَةَ الْخُفُونِ عَنِ الْمَقَلِّ ، وَصُنْهُمْ صِيَانَةَ الصَّوَارِمِ
 مِنَ الْخُلَلِ ؛ وَدَافِعٌ عَنْ كَافَةِ [جند] المسلمين المرتزقين والمنطوعين ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ
 كَفَى بَيْنَ دِمَائِهِمْ ، وَسَوَى بَيْنَ ضَعْفَائِهِمْ وَأَقْوِيَائِهِمْ ؛ عَلَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ وَعَدَهُمْ عَنْ
 بَذْلِ الْأَنْفُسِ فِي مَجَاهِدَةِ الْمُتْلِحِينَ ، وَإِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ ، الْجَزَاءَ الْجَسِيمَ ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ ؛
 وَالْبَقَاءَ الَّذِي لَا يَعْتَوِرُهُ فَنَاءٌ ، وَالْجَدَلَ الَّذِي لَا يَعْتَرِضُهُ أَنْقِضَاءٌ .

وَقَدَّمَ عَلَى الْأَسَاطِيلِ وَالْمَرَائِبِ الْحَرْبِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا وَرِجَالِ الْبَحْرِ مِنْ تَخْتَارِهِ لِنَدَاكَ
 مِنْ أَمَاثِلِ الْأَمْرَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِالشَّدَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْبَصَارَةِ وَالْمَهَارَةِ وَالْخَبْرَةِ بِشُقَّةِ
 الْبَحْرِ وَالْقِتَالِ فِيهِ ؛ وَمُرُهُ بِالتَّسْحِيلِ وَمِلَازِمَةِ السَّيْفِ وَالْإِرْسَاءِ مِنَ الشُّطُوطِ بِحَيْثُ
 يَتِمُّ مَضَارِبُكَ ، لِيَكُونَ مَأْجِلٌ عَلَيْهَا مِنْ مِيرَةٍ وَعُدَّةٍ قَرِيبًا مِنْكَ ؛ فَإِنْ نَازَلَتْ نَعْرًا
 مِنْ ثَغُورِ السَّاحِلِ فَامْلَأْهُ بِالْخَلِيلِ مِنْ بَرِّهِ ، وَبِالسَّفَائِنِ مِنْ بَحْرِهِ ؛ وَاسْتَخْذِمْ لِحِفْظِ مَا فِيهَا
 مِنَ الْأَزْوَادِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْعُدَدِ وَالتَّنْفِطِ وَدُهْنِ الْبَلَسَانِ وَالْجِلْبَابِ وَالْعَرَّادَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ
 الْأَلَاتِ مَنْ تَتَّقِ بِأَمَانَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ . وَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمْ بِالْحَوَاطِطِ عَلَى مَا يَخْرُجُونَهُ مِنَ الْعَوَارِي
 وَاسْتَرْجَاعِهِ بَعْدَ الْغِنَى عَنْهُ ؛ وَاسْتَظْهِرْ بِذَلِكَ اسْتَظْهَارًا يُجَمِّدُ مَوْقِعَهُ لَكَ ، وَيَعْرِفُ بِهِ
 رَصِينُ رَأْيِكَ ؛ وَسَدِيدُ مَذْهَبِكَ . وَاسْتَخْلِصْ لِمَجَالِسَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْأَصَالَةِ وَالْحَزَمِ ،
 وَالرَّاحَةِ وَالْفَهْمِ ، وَالدَّرَايَةِ وَالْعِلْمِ ، وَالتَّجَارِبِ فِي مِمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَمَلَابِسَةِ
 الْخُطُوبِ ، مَنْ تَرْجِعُ إِلَى رَأْيِهِ فِيمَا أَشْكَلُ ، وَتَعْتَمِدُ عَلَى تَجَرِبَتِهِ فِيمَا أَعْضَلَ ؛
 وَلَا تَسْتَبِدَّ بِرَأْيِكَ فَإِنَّ الْأَسْتِبْدَادَ يَعْمَى الْمَرَّاشِدُ ، وَيُبْهِمُ الْمَقَاصِدُ .

وَلَمَّا كَانَتْ الشُّورَى لِقَاحِ الْأَفْهَامِ ، وَالكَاشِفَةَ لِعَوَاشِي الْإِبْهَامِ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
 بِهَا نَبِيَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وَلَا تُشَاوِرْ جَبَانًا وَلَا مَبْطِئًا عَنْ آتِهَازِ الْفُرْصَةِ الْمُمْكِنَةِ ، وَلَا مَتَهَوِّرًا يَحْمِلُكَ عَلَى الْغِرَّةِ
 الْمُهْلِكَةِ ؛ وَتَأْتِ فِي الْآرَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يُحِبُّونَ الْأَلْبَابَ ، وَيَجْلُو وَجْهَ الصُّوَابِ ، وَيَقْلُصُ
 سَجُوفَ الْأَرْتِيَابِ ؛ وَأَضْرِبْ بَعْضَ الْآرَاءِ بَبَعْضٍ وَسَجِّلْهَا ، وَأَجَلْ فِكْرَكَ فِيهَا وَتَأَمَّلْهَا ؛
 فَإِذَا صَرَّحْتَ عَنْ زُبْدَتِهَا ، وَأَنْشَقَّتْ أَكْثَمُهَا عَنْ ثَمَرَتِهَا ، فَأَمِضْ صَحِيحَهَا ، وَأَعْتَمِدْ
 نَجِيحَهَا ؛ وَإِذَا أَسْتَوَيْتَ بِكَ وَالْعَدُوَّ مَرَحَى الْحَرْبِ خَرَقَهُمْ بِنَارِ الطَّغْنِ ، وَأَذِقَهُمْ
 وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَعَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ ؛ وَلَا تَرَقِّ لَهُمْ ؛ وَأَتَّبِعْ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْعِلَظَةِ
 عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ
 غِلْظَةً وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . فَإِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ وَالْمُؤَادَعَةِ مَصَانِعِينَ ، فَقَابِلْ
 بِالْقَبُولِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
 إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وَأَبْذِلِ الْأَمَانَ مَنْ طَلَبَهُ ، وَأَعْرِضْهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَطْلُبْهُ ، وَفِي مَنْ تُعَاهِدُهُ بَعْهَدَهُ ،
 وَأَثْبُتْ مَنْ تُعَاقِدُهُ عَلَى عَقْدِهِ ؛ وَلَا تَجْعَلْ مَا تُفْرِطُهُ مِنْ ذَلِكَ دَرِيْعَةً ، إِلَى الْخُلْدِيْعَةِ ،
 وَلَا وَسِيلَةً ، إِلَى الْغِيْلَةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا
 بِالْعُقُودِ ﴾ . وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ” النَّاسُ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ “ وَإِذَا
 أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى افْتِتَاحِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَسْتَضَاقَتِهِ إِلَى مَا بِيَدِي الْمُسْلِمِينَ ،
 فَارْفَعْ السِّيفَ عَنْ قَاطِنِيْهِ ، وَأَعْتَمِدِ اللَّطْفَ بِالْمُقِيمِينَ فِيهِ ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
 وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ أَهْلَهُ مِنْ كَرِيمِ الْمَقَامِ ؛ فَمَنْ أَجَابَكَ إِلَى اسْتِشْعَارِ ظِلِّهِ ،
 وَالْإِعْتَصَامِ بِحَبْلِهِ ؛ فَافْرِضْ لَهُ مَا تَفْرِضُهُ لِإِخْوَانِكَ فِي الدِّينِ ، وَأَصْنَمْ إِلَيْهِمْ مِنْ عِلْمَاءِ
 الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُبَصِّرُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ ، وَيُثَقِّفُهُمْ وَيَسُدُّهُمْ ؛ وَخَيْرٌ مِنْ أَثَرِ الْمَقَامِ عَلَى دِينِهِ
 بَيْنَ تَأْدِيَةِ الْجُزْيَةِ ، وَالْإِسْتِعْبَادِ وَالْمُلْكَةِ ؛ فَإِنْ أَدَّوْا الْجُزْيَةَ فَأَجْرُهُمْ مُجْرَى أَهْلِ الذِّمَّةِ

المعاهدين، وخصهم من الرعاية بما أمر به في الدين؛ وإن أبوا ذلك فإن الله تعالى قد أباح دماء رجالهم، واستعباد ذراريهم ونسائهم؛ وأبتن بالمعقل مسجدا جامعاً يجمع فيه بالمسلمين، ويخطب على منبره لأمر المؤمنين؛ وأرفع منارته حتى تعلو على كنائس المشركين؛ وأنصب فيه إماماً يؤدي الصلاة في أوقاتها، وخطيباً مصقعا يخطب الناس ويعظهم، ومكبرين يدعون إلى الصلوات، ويذنبون على حقائق الأوقات؛ وقواماً وخداماً يتولون توير مصابيحهم، وتعهد تنظيفه وفرشه؛ وأطلق لهم من الأرزاق والجرايات ما يبعثهم على ملازمته ويعينهم على خدمته؛ واحتط على من يحصل في يدك من أسرى المشركين، لتفدى بهم من في قبضتهم من أسراء المسلمين؛ وإذا عرضوا عليك الفداء فاحذر من خديعة تتم فيه، أو حيلة تتوجه في آفتك معروف منهم يجهول من أهل الإسلام؛ وإن كان الله تعالى قد فضل أذنياء المسلمين على عطاء الملحين، ولم يسو بينهم في دنيا ولا آخرة ولا دين؛ إلا أن هذا مما يوجب الحرزم الحوطة فيه. وإن ظفرت بنسيب لطاغيته الممتلك عليهم أو خصيص به^(١) فاحمله إلى حضرة أمير المؤمنين، ليقر بها رهينة على من قبلهم من المأسورين، وسبيلاً إلى أتراع ما يبدلونه في فدياته من المعادل والحصون. وقد أمضى لك أمير المؤمنين أن تعقد الهدنة معهم إذا رغبوا فيها على الشرائط التي تعود بعلو كلمة الله، وتجمع الخواطر والأستظهار للدولة؛ فعاقدهم محتاطاً، واشترط عليهم مشطاً، وتجرز في العقد مما يوجب تأولاً، ويدخل وهناً، ويطرق وهياً. وتحفظ بجوالى المعاهدين والأموال المقبوضة في إداء الغلات والغنائم وسبي المشركين حتى يُحمل ذلك إلى بيت مال المسلمين؛ فينظر أمير المؤمنين في تفريقه على مستحقه، وإيصاله

(١) اشتهر هذا البناء على الألسنة وفي رسائل الأفاضل ولكن لم تجده في كتب اللغة وإنما الذي فيها بهذا المعنى «فلان مخصص بفلان أى خاص به وله به خصية» فنأمل.

إلى مستوجبِهِ ، وَأَخْصَ عن أحوالِ الْمُسْتَأْمِنِينَ إِلَيْكَ تَفْحَصًا يَكْشِفُ ضَمَائِرَهُمْ ، وَيُلْوِ سِرَائِرَهُمْ ؛ وَتَحَرَّزُ مِنْهُمْ تَحَرُّزًا يُؤَمِّنُكَ مَكَائِدَهُمْ وَحِيلَهُمْ ، وَخَدَائِعَهُمْ وَغِيْلَهُمْ ؛ وَإِذَا نَازَلْتَ حِصْنًا مِنْ حُصُونِ الْكُفَّارِ ، فَكُنْ عَلَى يَقْظَةٍ مِنْ تَخَاتِلِهِمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ؛ وَانْصِبِ الْحَرَسَ وَالْأَرْصَادَ ، وَأَحْذَرِ الْغِيْرَةَ وَلَا تُهْمِلِ الْإِعْتِدَادَ : لَتَعْرِفَ أَعْدَاءَ اللَّهِ أَنْ طَرَفَكَ سَاهِدٌ ، وَجَنَانُكَ رَاصِدٌ ؛ وَتَفْقِدُ أَمْرَ الْجَيْشِ وَأَرْحُ عَلَّةً مِنْ تَرْقُبِهِ فِي الْأَطْمَاعِ وَالْمَوَاكِدَاتِ ، وَمُطَوَّعَتِهِ فِي الْمَعَاوِنِ وَالْجَرَايَاتِ ؛ وَلَا تَغْفُلْ عَنْهُمْ غَفْلَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِنْفِلَالِ ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِنْفِصَالِ ؛ وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ حَسُنَ فِي الْكَفَاحِ أَثَرُهُ ، وَطَابَ فِي الْإِبْلَاءِ خَبَرُهُ ؛ وَعِدْهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَبَاءِ الْجَزِيلِ ؛ وَالْعَطَاءِ وَالتَّوْبِيلِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ قَادِحٌ لِعِزَائِمِ الْأَوْلِيَاءِ ، بَاعَثُ لَهُمْ عَلَى التَّصَمُّمِ فِي اللَّقَاءِ ؛ فَإِذَا أَنْتَ - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - شَفِيتَ الصُّدُورَ ، وَأَحْدَثْتَ الْمَأْمُورَ ، وَأَعَزَّزْتَ الدِّينَ ، وَذَلَّلْتَ الْمُلْحِدِينَ ؛ وَدَوَّخْتَ الْبِلَادَ ، وَنَكَّسْتَ رُءُوسَ أَهْلِ الْعِنَادِ ، فَأَتَقَلَّبَ بِعَسَاكِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُطَوَّعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَى حَضْرَتِهِ وَائْتَقًا بِجَبِيلِ جَرَائِهِ ، وَجَلِيلِ حَبَائِهِ ؛ وَطَالِعَ فِي مَوْرِدِكَ وَمَصْدَرِكَ ، بِمَا يَجِدُّهُ اللَّهُ لَكَ وَيَفْتَحُهُ عَلَى يَدِكَ ؛ وَأَذْكُرُ مَا أَشْكَلُ عَلَيْكَ لِيُحْمَدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّبْصِيرِ وَالتَّوْقِيفِ ، وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّعْرِيفِ ؛ وَأَسْتَغْنِي بِاللَّهِ فَهُوَ خَيْرُ مُعِينٍ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ نَعَمُ الْوَكِيلُ .

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، فَاعْمَلْ بِهِ وَأَنْتَ إِلَيْهِ يَسُدُّ اللَّهُ مَسَاعِيكَ ، وَيَصُوبُ مَرَامِيكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وَأُورِدَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنْ تَقَالِيدِ أَرْبَابِ السِّيُوفِ جُمْلَةً أَسْقَطَ مِنْ صَدْرِهَا التَّحْمِيدَاتُ .

مَا أُورِدَهُ فِي رِسْمِ تَقْلِيدِ الْإِمَارَةِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ التَّحْمِيدِ مَا مِثَالُهُ :

وإنَّ الله تعالى أوجب طاعة أولى الأمر على كافة المؤمنين ، وأكَّد فرضها على جميع المسلمين ، فقال جل قائلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . علمًا منه تعالى بأنَّ الطاعة لملاك الأمر ونظامه ، ومساك الجمهور وقوامه ، وأنه لا يتم سياسة مع الشقاق والانحراف . وأمر سبحانه باستينابة من ألقى العِصمة من يده ، ونبذ الطاعة وراء ظهره ، بشافي المَوَاعِظ والتبصير ، ونافع التنبيه والتذكير ؛ فإن ألقَع وتاب ، ورجع وأناب ؛ وإلا جُوهِد وقُوتِل ، وقُوتِل بالردع حتى يُقبِل ويعتصم بالطاعة ، وينتظم في سلك الجماعة ؛ فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ . وقال : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ . وإنَّ الغلاة فارَّقوا اجتماع المسلمين ، وأنسلخُوا من طاعة أمير المؤمنين ؛ ناذين لبِيعته ، شائين بطل دعوته ؛ وشقُوا عصا الإسلام ، واستخفُّوا محمل الحرام ، واستوطئوا مرَّكَب السيئات والآثام ؛ وعَرَّجوا عن قَويم السَّنَنِ ، وسَمَّوْا بأراذل البدع أفاضل السَّنَنِ ؛ وسَعَوْا في الأرض بالفساد ، وجَاهَرُوا بالعِصْيَان والعِناد ؛ وكَاتَبَهُم أمير المؤمنين مبصرًا ، ومُعَذِّرًا مُنْذِرًا ونَحْوًا مُحَدِّثًا ؛ ودَعَاهُمْ إلى التي هي أصلح في الأولى والأخرى ، وأرجح في البدء والعقب ؛ وأعلمهم أنَّ الله تعالى لا يقبل صلاتهم ولا صيامهم ، ولا حجَّهم ولا زكَّاتهم ، ولا يُمِضِي قضاياهم ولا حُكوماتهم ، ولا عقودهم ومُنَاحَاتِهِمْ ، مادَّامُوا على معصية إمامهم ، ومُفَارَقَةِ وَلِيِّ أَمْرِهِمْ ؛ الذي أوجب عليهم طاعته ، وفرض في أعناقهم تِباعته ؛ وتابَعَ في ذلك مواصلا ، ووالاه مَكَاتِبًا ومُرَاسِلًا ، فَأَصْرُوا على العُقُوق ، واستمرَّوْا على أطراح الحُقُوق ؛ ودَعَوْا إلى الأسوأ لها من إقدام الجيوش عليهم ، ونَقَلَ العساكر إليهم ؛ ومقابلتهم بما يقوم أودهم ، ويصْلِح فاسدهم ، ويزع جاهلهم ، ويوقظ غافلهم .

(١) في الأصل الغلاب وليس بواضح المعنى والمراد البغاة .

وإنَّ أمير المؤمنين تخيَّرَكَ للتَّقدُّمِ على الجيشِ الهاتِفِ نحوهم : لما يعلمه من شهادتك وصراحتك ، وسدادك وسياسيتك ، وإخلاصك ووفائك ، وكفايتك وغنائك ، (ويوصف بما تقتضيه منزلته ، والأمر الذي هو أهل له) .

وهو يأمرُك أن تقدم النفوذ إليهم ، مستنجِحا دعاء أمير المؤمنين ، مستنزِلا لُصُوف الغالبين ، مستشعِرا لباس التقوى ، في الإعلان والتَّجوى ، فإذا نازلتهم في عُقر دارهم ، فأذِقْهم بالمضايقة وبال أمرهم ، وأسلكْ بهم سبيلَ أمير المؤمنين وأفتَحْهم بالإرشاد ، وحُضِّمْهم على ما يقضى بصلاح الدنيا والمعاد ، فإن استقاموا وتنصَّلُوا وراجعُوا ورجعُوا فأعطِهم الأمان ، وأفِضْ عليهم ظِلَّ الإحسان ، وإن أصرُّوا وتمردُّوا ، وجاهدُوا واعتدُوا ، فشمِّرْ لِمنازلتهم ، وصمِّمْ في مقاتلتهم ، واثقا بأن الله تعالى قد قضى بالنصر لأوليَّاء أمير المؤمنين وأهل طاعته ، وإلخِذْ لَأعدائه وأهل معصيته ، إبانةً بذلك عن تأييده لمن اعتَصَمَ بحبله ، ودفعه لمن أنسلخَ من ظِلِّه ، وحُجَّةً بالغةً لمن تمسَّك بطاعته ، وموعظةً شافيةً لمن استخَفَّ بحمل معصيته ، فإن ملكك الله تعالى البلاد ، وطهرها من أهل الفساد ، وشرَّدَ عنها الدُّعار والأشرار ، إلى أفاضِ الديار ، فأجْبِبْ نَواعِيقَ الفتنَةِ والضَّلالَةِ ، وعَفِّ آثارَ ذَوِي النِّيّاتِ والجهالة ، وأسبِغِ الأمانَ على أهل السَّلامَةِ ، وأفرِغِ العدلَ على مَنْ سلك سبيلَ الاستقامة ، وأجرِ الأُمُورَ في الخُطْبَةِ لِأَمير المؤمنين على الرِّسْمِ المحدود ، والمنهج المعهود ، وطالعُه بما آتَيْتَ إليه ، ليكاتِبَكَ بما تعتمدُ عليه .

ويضمَّن هذا العهد ما يقع فيه من شروط العهد المتقدِّم ، ويؤمَّر أن لا يستصحب من الجُنْد إلَّا من يثق بإخلاصه وصفائه ، ويسكن إلى أمانته ووفائه ، وأن يرفض المدخول النَّيَّة ، النِّغْل الطويَّة ، فإنه لا شيءَ أضرَّ على المحاربة من لقاء عدوٍّ بجيش

مُخَامِرِينَ، وَجَنْدُ مَمَّا كَرِينْ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الْعَسَاكِرِ مَنْ يُدَاهِنُ وَيُظْهِرُ الْخِدْمَةَ وَهُوَ فِي مِثْلِ الْعَدُوِّ: إِمَّا لَأَنَّ بَيْنَهُمَا سَالِفَ وِدَادٍ وَوَلَايَةٍ قَدْ تَأَصَّلَتْ بِإِطَاعٍ وَإِفْسَادٍ، أَوْ يَكُونُ لِسُلْطَانِهِ قَلِيلَ الْإِحْمَادِ. وَهَذَا الَّذِي أوردناه لَيْسَ بِمِثَالِ جَامِعٍ وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ هَذَا الْعَهْدُ عَمَّا تَقَدَّمَ، وَالكَاتِبُ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ رَتَّبَهُ وَقَدَّمَ مَا يَجِبُ تَقْدِيمُهُ، وَأَخَّرَ مَا يَجِبُ تَأْخِيرُهُ [أَضَافَ إِلَيْهِ مَا تَجِبُ] إِضَافَتَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة سبجل بولاية مصر، وهى :

الحمد لله، الموفق إلى دواعى رضاه، المحسن العون على ما أوجب المزيد من إفضاله وأقتضاه، المتيب على ما هدئ إليه من طاعته، القابل عمل من استنفد في الشكر أقصى طاقته، المتكفل بمصالح عبادِهِ، المولى من مواهبه ما تعجز الخواطر والألسنة عن تعدادِهِ، وصلى الله على جدنا محمد الذى جعل أتباعه سبيلاً إلى سكن جنات الخلود، وآلت بهداه نار الكفر إلى الهمود والجمود، وأنقذ من مهاوى الضلال، ووسم من حادّه وحاد عن سبيله بالصغار والإذلال، وخلف في أمته الثقلين كتاب الله وعترته، وأبقى بهما فيهم آيته وهدايته، وعلى أخيه وأبن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب مبرم أسباب الشريعة ومحكها، ومطلق سيوفه في نفوس أعداء الملة ومحكها، وباب مدينة علم النبوة التى لا يدخل إليها إلا منه، وسيد من عناهم الله بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعلى أئمة الهداة قوام الإسلام، وساسة الأنام، وخلفاء الله فى أرضه، والموفين بعهده والأمينين بأداء سنته وفرضه، وركن العصمة الذى من لجأ إليه نجا، والحصن الذى ماخاب من أمه فرجاً منه فرجاً، وسلم وعظم، ووالى وكرم.

وإنَّ أمير المؤمنين لما أودعه الله إياه من أسرار الحكمه ، وأجتنابه له من إمامه الأئمه ، واختاره له من كَلَاءَةِ الخليفة وإيالتها ، وحفظ حوزتها من المخاوف ورعايتها ، وما خصه به من بُنُوَةِ النبوة والرسالة ، وأفرد به رأيه من الجزالة والأصالة ، وأكتنف به أنحاه من التوفيق الذي لا يصدف عن غرض الإصابة ولا يجحد ، وعصده به من التأييد القاضى لعزائمه ببلوغ الغرض فى نُصرة التوحيد ، وأستودعه إياه من الإقبال الذى يجعل المستحيل لمُرادِهِ إمكانيًا ، والتأييد الذى أوضح به لإمامته بُرْهَانًا ، وتوَحَّده به من العِصْمة التى تُصيب بها مَرَامِيهِ مَوَاقِعَ الرِّشَادِ ، وتضمن الخيرة لما يعانیه من الأمور مما سَدَّ وساد - يُعْمِلُ خَوَاطِرَهُ فىما يكفل للنفوس بِرِضاها ، ويُجْزِلُ للدين والدنيا به حِظَّاهَا ، وتظاهُرُ به ضروبُ الصِّلاحِ على الأئمة ، وتحيا به سُنَنُ الخيرات وتتمُّ النعمة ، وينظر لمن أَسْتودعه الله إياهم من بريته نظر المؤدى الأمانة إلى مؤتمنه ، المستودع فىما يُتَقَرَّبُ به إليه من البرِّ شُكْرُ سَوَابِغِ مَنَائِحِهِ مِنْتَهَ ، ويُقَرَّبُ على الأمة مِنَالِ الخير بأصطفائه من يكون لأفاضل الشَّيْمِ مستكلاً ، وإلى ما أزلفه إلى الله سبحانه من طاعة أمير المؤمنين متوصلاً ، ولشَوَادِّ الثناء بفاضل سيرته متحليًا ، وللتسَّمُّحِ فى قوانين السَّياسَةِ مجتنبًا ، ولما علم [رَغْبَةً] الرعية فيه متصبا ، وفىما بلغهم أقصى الآمالِ متسببًا ، وبمراقبة الله فىما يأتى ويذر متدينًا ، وبِحُسْنِ الجزاء على العمل بِمَرْضَاتِهِ متيقنًا : ليكون أمير المؤمنين قد قضى [ما أوجبه عليه] مستخلفه بأجتنابه وأصطفائه ، وأستَحَمَدَ إليه بإسناد جلائل الخِدمِ إليه وأستَكْفَاهُ به ، وأتى ما تكون السَّلامَةُ مضمونَةً فى مباديه وعواقبه ، وأحظى بنيل المُرادِ فى جميع جهاته وجوانبه ، مستديمًا نِعَمَ الله التى أسداها إليه وأولاهَا ، مُوَاصِلًا حمده على مِنِّهِ التى ظاهرها عليه وآلاها ، ويستعينه على لَوَازِمِ عَوَافِهِ التى من أجلها خطرًا ، وأحمدُها فى البرية أثرًا ، وأجمعها لمَنَافِعِ الخاص والعام ، وأعوذُها بحماية حوزة الإسلام ، وأشهدها

ببراهين الأئمة ، وأدلهما على عناية الله بهذه الأئمة ، مأمّنه أمير المؤمنين من موازنة
فناه ووزيره ، ومعينه على المصالح وظهيره ، السيد الأجل العادل أمير الجيوش
أبى الحسن على الظافرى ، - والدعاء - الذى أظهر الله به لأمر المؤمنين آيات
حقوقه ، وأستأصل بئاسه شأفة من تتابع فى مروقه وبالغ فى عقوقه ، وكسا الدهر
بإياله ملبس الجلال ، وفسح بفاضل سيرته مجال الآمال ، وبذل من الجهاد غاية
الاجتهاد ، ووالى من عمارة البلاد ما أنطق بحمده الجماد ، وأستخلص نخائل الصدور
بلطف سياسته ووسع عدله ، ورغبت غرائب الآمال فى الإيواء إلى سابغ فضله ،
وتبارت الليالى والأيام فى خدمة أغراضه فى أعاديه ، وأسترقّ قلوب الأولياء بما يؤايله
من بيض أياديه ، ووضع الأشياء فى مواضعها غير محاب ولا مرخص ، ولم يحظ
بأيامه النيرة غير الطائع الخالص ، ولم يتفق للباطل سوق ، وأنت سيرته بما يرضى
الخالق والمخلوق ، فالله تعالى يجعل مدته غير متناهية إلى مدى ، والنصر والتوفيق
لآرائه مددا ، ويخلد أبدا سعده ، ويخزل لأمر المؤمنين على يده وعده .

ولما كانت منزلته عند أمير المؤمنين المنزلة التى نتطامن دونهما المنازل والرتب ،
وجلّت أن ينالها أحد ممن بعد أو قرب ، وأفعاله قدوة يهتدى بأمثالها فى الشكوك ،
وسيرته قد عظمت عن أن تتعاطى مماثلتها هم الملوك ، ومحله عنده من الكمال بحيث
تستحكم الثقة بأختياره ، ويرجع فى عقد الأمور وحلّها إلى اتباع آثاره وموافقة
إيثاره ، وكانت مراتب الأولياء عند أمير المؤمنين بحسب مراتبهم من قربه ،
وموضعهم من رضاه مضاهياً لموضعهم من قلبه ، ومكانهم من الخطوة لديه مناسبا
لمكانهم من الرتبة عنده ، وأحفظهم بسناء الرتب من أقبحه زنده وكساه مجده ، ولا سيما
من لم يخرج منه عن حكم الولد ، وحلّ منه محلّ القلب من الكيد ، ونشأ فى دوحته
غصنا نصيرا ، وطلع فى سماء جلاله قمر منيرا ، وأعتلى بجده ، وقطع بجده ، وتظاهرت

شواهد سَعْدِهِ فِي مَهْدِهِ ؛ وَكُنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْحَاوِي لِهَذَا الْفَضْلِ الْمَبِينِ ، الْمَعْتَلِقَ مِنْ وِلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَبْلِ الْمَتِينِ ، الَّذِي نَشَأَ مُتَوَقِّلاً فِي دَرَجِ الْمَعَالَى ، وَغَدَا مُتَقَبِّلاً فِي ظِلَالِ الصُّورِ وَالْعَوَالِي ؛ وَأَخَذْتَ بِمَرَّاشِدِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْعَادِلِ فَرِدْتَ عَنِ الظُّنُونِ وَأَوْفَيْتَ ، وَوَعَدْتَ عَنْكَ فَصَدَقَتْ ضَمَانُهَا وَوَفَّيْتَ ؛ وَمَا زِلْتَ بَعِينَ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ مَمْلُوحاً ، وَبِأَفْضَلِ خِلَالِ الرُّؤَسَاءِ مُنْوَحاً ؛ وَجَلَّائِلِ الْمَرَاتِبِ مُؤَهَّلًا ، وَبِلِسَانِ الْإِجْمَاعِ مَفْضَلًا ؛ وَلِمَا أَعْيَا مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَاقُ حَاسِمًا ، وَفِي مَوَاقِفِ الْخَوَافِ رَابِطَ الْجَلَّاشِ حَازِمًا ؛ وَلِمَا يُعَدُّ الْأَمَاجِدُ لَهُ مَذْخُورَ الْمَضَاءِ ، وَفِيهَا تُعَانِيهِ وَتَلَايِسُهُ مُوَفِّقُ الْآرَاءِ ؛ وَقَدْ أَكْتَشَفَكَ مِنْ أَتْبَاعِكَ هَدَى السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْعَادِلِ - أَدَامَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ وَوِلَاةَهُ - نَاصِرَ الدِّينِ ، الْأَجَلِّ الْمَظْفَرِ الْمُقَدِّمِ الْأَمِينِ ؛ سَيْفِ الْإِمَامِ ، رَكْنِ الْإِسْلَامِ ، شَرَفِ الْأَنَامِ ؛ نَخْرِ الْمُلُوكِ ، مُقَدِّمِ الْجِيُوشِ ، ذِي الْفَضَائِلِ ، خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبِي الْفَضَائِلِ عَبَّاسِ الظَّافِرِ الْعَادِلِ ، أَدَامَ اللَّهُ بِهِ الْإِمْتِنَاعَ ، وَعَضَّدَهُ وَأَحْسَنَ عَنْهُ الدِّفَاعَ ، الَّذِي هُوَ نَخْرُ الْمُلُوكِ وَنَجْلُهُمْ ، وَأَثَرُهُمْ مِنَ الْمَفَاحِرِ وَأَجْلُهُمْ ؛ وَأَقْدَمُهُمْ فِي الرِّيَاسَةِ قَدَمًا وَأَعْرَفُهُمْ ، وَأَطْيَبُهُمْ أَرْجَ شَاءٍ وَأَعْبَقُهُمْ - مَا جَعَلَكَ أَعْلَى الْأَعْيَانِ مَفْخَرًا ، وَأَكْرَمَ الْجَوَاهِرِ عُصْرًا ؛ وَأَوْلَاهُمْ بِالْأَلَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَطَانُهُ ، وَأَسْبَقَهُمْ فِي مِضْمَارِ اخْتِيَارِهِ وَأَجْتَبَانِهِ ؛ وَأَثَبْتَهُمْ عِنْدَهُ مَكَانَهُ ، وَأَحْرَاهُمْ فِي خِدْمَةِ بَتَادِيَةِ الْأَمَانَةِ ؛ وَقَدْ عَرَفَ مِنْ مَوَاقِفِكَ الْمَشْهُودَةَ ، وَمَقَامَاتِكَ الْمُحْمَدَةَ ؛ مَا كَانَ مِنْكَ فِي نَوْبَةِ ابْنِ مَصَالٍ وَجُمُوعِ ضَلَالَةٍ ، وَمَا اسْتِفَاضَ مِنْ كَوْنِكَ سَبَبَ أَنْهَزَامِهِ وَأَنْفِلَالِهِ ؛ وَأَقْلَابِ تَدْيِيرِهِ عَلَيْهِ وَأَنْعِكَاسِهِ ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جَسَدِهِ وَرَأْسِهِ ؛ وَحَصَلَ لَكَ بِذَلِكَ مِنْ إِحْسَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا يَبْلُغُ الْوَصْفُ مَدَاهُ ، إِذْ كَانَ قَدْ جَرَّدَ سَيْفَ نَصْرِهِ وَالْأَجَلِّ الْمَظْفَرِ وَأَنْتَ حَدَاهُ - رَأَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - وَبِاللَّهِ تَوْفِيقُهُ - أَنْ لَا يُضَيِّعَ مَا فِيكَ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ ، وَلَا يَرْجِعَ فِي أَمْرِ نَبَاهَتِكَ إِلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّنُونُ ؛ إِذْ كُنْتَ لِلْكَمَالِ مَعَ فَتَاءِ السَّنِّ

حائرا ، وبمزية أصطناع أمير المؤمنين واختياره إياك فائزا ؛ وفاوض السيد الأجل العادل - أدام الله قدرته - في تشريفك بولاية يكشف بها شقوق جوهرك ، ويوضح لكافة البرية بمباشرتك إياها ما استقر عنده من جميل مختبرك ؛ ووقع التعيين على تقليدك ولاية مصر وما مع ذلك من الصناعتين وغيرهما من حقوقهما . فامضى أمير المؤمنين ذلك لما لهذه الولاية من الخطوة بالقرب والدق ، وليوقر على الإشار على أن يبلغ نظرك إلى غايات العلو والسمو ؛ ونرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الخدمة المذكورة : علما بانتظام شئونها بإيالك ، وحياطة حوزتها بسطاك ومهاتيك ؛ وتحقيقا أن بسياستك تعمها المصالح ، وتظاهرها عليها الميامن والمناسج ؛ وتظهر لها الحجة في الافتخار ، على سائر الأمصار ، وتستأنف بمقارنتك من الميزة ما لم تحظ به فيما سلف من الأعصار ؛ ويتضح بك البرهان لمن بالغ في تفضيلها ، وتآل من فائض العدل بسيرتك ما تكاد تغنى به عن نيائها .

فتقلد ما قلذك أمير المؤمنين من ذلك : معتمدا على تقوى الله الذى إليه تصير الأمور ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ قال الله تعالى فى محكم كتابه المبين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ . وأجعل من تحويه هذه المدينة بالعدل مشمولين ، وعلى أجمل السيرة والرسوم محمولين ؛ وساو فى الحكم بين الشريف والدنى ، وآس فى المقدار بين الملى والدنى ؛ وأقم الحدود على من يجب عليه بمقتضى الكتاب وصحيح الآثار ، ولا تتعداها بإقلال ولا إكثار . وفى هذه المدينة من ذوى الأنساب ، وأعيان الأجناد ومتميزى الكتاب ؛ وأماثل الشهود : فأعتمد تمييزهم والاحتفاء بهم ، ومعوتههم على مطالبهم ومحابهم ؛ وكذلك من تضمنت هذه الولاية من التجار والرعية . وتوخرهم بما يسكن جاشهم ، ويزيل أسديحاشهم ؛ ويفسح لهم فى الرجاء والأمل ، ويعينهم على صالح العمل . وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصورته

وتوفيره ، على ما يليق به وتوقيره ؛ وأمنع من آتذاله في غير ما جُعل له ، ونصب له ، من الإعلان بذكره فيه وأهله ؛ ووفرَّ تامَّ العناية ، وشاملَ الرعاية ؛ على مَنْ به من الفقهاء والعلماء ، والمتصدِّرين والقُرَّاء ؛ وحضَّهم بالتركمة على المبالغة في طلب العلوم ، والترقُّد من صالح الأعمال ليوم الوقتِ المعلوم ؛ وخدَّ جميع المستخدِّمين معك بلزوم الطرائق الحميدة ، والمقاصد المستوفقة السديده ؛ فن استمرَّ على ما رضاه من أجهاده ، وتستوفقه من صواب أعماده ، أبحرته على رُسمه في الرعاية ، وتوخَّيته بالصون والحماية ؛ ومنَّ كان بالخدم مُحلًّا ، وسلوكه عما يلزمه ضلًّا مضلًّا ؛ فأوعز بتأديبه ، وما يقضى بتقويمه وتهذيبه ؛ والثقة بوفور حظك من الصواب ، وإجرائك على ما يئناط بك على الاستتباب ، أغنى عن الإطالة لك في الوصايا والإسهاب ؛ والله تعالى يقرن الخير بما تنظر فيه ، ويجعل التوفيق مضموناً فيما تدره وتأتيه ؛ ويُنيك من رتب السعادة ما أنت له أهل ، ويُتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



ومن السجلات بالوظائف الدينية على هذه الطريقة ما كتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية بعض القضاة ، وهو :

الحمد لله الواسعة عطاياه ، الوازعة قضاياه ؛ المشتملة على أقسام الخلق قسمه ، المبرور في سؤالهم يوم فصل القضاء قسمه ؛ المسطور في كتابه الذي ما قرط فيه من شيء محلل الشرع ومحرمه ؛ المتمثل فيه لمن مثله مطاع الأمر ومسلمه ؛ الكريم الذي لا يضيع ثواب العاملين ، ولا يقطع أسباب الآملين ، ولا يمنع طلاب السائلين ؛ العدل الذي قامت حجته على الناكبين والعادلين ، والحق الذي يقضى بالحق وهو خير

الفاصلين؛ مَصْنَعِي مَسَارِعِ الشريعةِ من أعراض الكَدَرِ ، وحامِي مَعَاقِلِ المِلَّةِ من آنتِقَاضِ المَدَرِ ؛ ومَنَزَّةُ أوليائه من مَحَاسِنِهَا في رِيَاضِ الفِكْرِ ، ومَعْرِفُهُمْ بِمَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ من إِنْقَافِهَا لِأَرْتِيَاضِ النَظَرِ ، وَأَرْتِكَاضِ الْفِطَنِ وَالْفِطَرِ ؛ جَاعِلِ الْحُكْمِ سُلْطَانَهُ الَّذِي يَأْوِي اللّهِيفَ إِلَى ظِلِّهِ ، وَحِمَاهُ الَّذِي يَلْجَأُ الضَّعِيفُ إِلَى عَدْلِهِ ؛ وَمَقَرَّعَ الرَّائِعِ الَّذِي يَقِفُ الْمَشْرُوفُ وَالشَّرِيفُ عِنْدَ فَضْلِهِ ، وَشِفَاءَ الْعِلَلِ الَّذِي يَذْهَبُ بِكُلِّ [مَافِي] صَدْرٍ مِنْ عِلَّةٍ ؛ وَمَشْرَعَ الْإِنْصَافِ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الظَّلَامِ فَيُضِ سَبِيلَهُ ، وَمَوْعِدَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ تُطْوَى السَّمَاءُ كَطَيِّ سَبِيلِهِ ، وَمُظْهِرَهُ لِيُظْهِرَ بِهِ هَذَا الدِّينَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ؛ وَالْأَمْرَ فِيهِمَا أَشْكَلَ مِنْهُ بِالتَّعْرِيجِ إِلَى مُسْتَنْبِطِهِ مِنْ أَهْلِهِ ، وَجَاعِلِ الْأُئِمَّةِ الْهَادِينَ الْجُجَجَ عَلَى مَنْ رَجَعَ إِلَى قِيَاسِ عَقْلِهِ أَوْ تَقْلِيدِ جَهْلِهِ ؛ وَأَحَدَ الثَّقَلَيْنِ الَّذِي يَخْفَفُ عَنْ كُلِّ غَارِبٍ كُلِّ ثِقَلِهِ ، وَأَخُوهُ الْكِتَابُ فَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا الْحَوْضَ يَوْمَ نَهْلِهِ وَعَلَّهِ ؛ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي مِنْ أَتَى الْيَوْمَ فِيهِمَا بَزَلَةً رَأَاهُ أَتَى غَدَا بَزَلَةً فِعْلُهُ ، وَتَمَارَ الْأَنْوَارِ الْمَضْرُوبَ عَلَى طُرُقِ السَّارَى فِي لَيْلِ الضَّلَالِ وَسُبُلِهِ ، وَسَبَبَ الْعِصْمَةِ الَّتِي أَشَارَ فِيهَا إِلَى الْأَعْتَصَامِ بِحَبْلِهِ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى جَدِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي عَظُمَ بِهِ جَدَّنَا ، وَأَعْتَلَقَ بِسَبَبِهِ مَجْدُنَا ؛ وَوَجَبَ بِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ وَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَدُنَا ، وَأَوْرَثَنَا مِنْ عِلْمِهِ مَا حَازَلْنَا شَرَفِي الدِّينِ وَالْدُّنَا ؛ وَحَلَمَ بِهِ نَجِيرٍ مِنْ ضَاقَتْ بِهِ الْمَذَاهِبُ فَرَجَا فَرَجًا ، وَحَكَمَهُ الْمَشْرُكُونَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ بِمَا قَضَى حَرَجًا ؛ وَعَلَى أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ ، الْقَائِمِ مَقَامَهُ بِفَضْلِ حَكَمِهِ وَفَضْلِ عِلْمِهِ ؛ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي حُرَّزَ لَهُ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ أَلْبَابُهَا ، وَطَابَتْ بَغَارُ حِلْمِهِ إِقَامَةُ الْأَلْبَابِ وَإِلْبَابُهَا ؛ وَمِيزَهُ عَلَى الْكَافَّةِ بِقَوْلِهِ : ” أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلَى بَابِهَا “ وَشَهِدَ طَوْرًا بِأَنَّهُ

أفتاهم ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَقْرَبُهُمْ بِهِ شَبَهاً وَفِي مَدَى الْفَضْلِ أَقْصَاهُمْ ؛ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذَرِّيَّتِهِمَا الَّذِينَ أَنْعَمُوا فَأَجَزَلُوا ، وَحَكَمُوا فَعَدَلُوا ؛ وَحَمَلُوا ثِقَلَ الْأَمَانَةِ فَحَمَلُوا ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَعَلُوا بِمَا فَعَلُوا ؛ وَاسْتَوْجَبُوا الْحَمْدَ بِمَا أَوْلُوا وَالْأَجْرَ بِمَا وُلُّوا ؛ صَلَاةً مَأْمُونَةً مِنَ الشُّبُهَاتِ ، مَتَوَصَّحَةً الشَّيَاتِ .

ولما كان حُكْمُ الصَّوَابِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يُخْتَارَ مَنْ بَانَ صَوَابُهُ وَأَتَّضَحَ ، وَبَانَ عَنْهُ حُكْمُ الْهَوَى الَّذِي فَضَحَ ؛ وَأَصْغَى ضَمِيرَهُ إِلَى لِسَانِ الْحَقِّ الَّذِي فَصَحَ ، وَعَرِضَ جَوْهَرُهُ عَلَى حَكِّ النَّقْدِ فَصَحَ ؛ وَمِيزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرِّجَالِ فَتَقَلَّ وَزَنَا وَرَجَحَ ، وَاحْتَجَّ بِهِ الْإِسْلَامُ عَلَى مَنْ نَوَى مُنَاوَاتِهِ فَتَجَحَّ ؛ وَوَلَّى الْأَحْكَامَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَأُصْلِحَ وَصَلَحَ ، وَتَسَمَّحَ إِذَا كَانَ الْحَقُّ لَهُ وَإِذَا مَا كَانَ فِيهِ فَمَا أَسْمَحَ وَلَا سَمَحَ ؛ وَجَدَّدَ جَدَّهُ مِنْ مَعَالِمِ الْعُلُومِ مَا صَحَّ رُسْمُهُ وَأُحِّحَ ^(١) ، وَأَطْلَعَتْهُ عَلَى خَفَايَا الْمَشْكَلاتِ بِدِيهَةِ فِكْرِهِ لَمَّا لَمَحَ ؛ وَمَلَكَ عِنَانَ هَوَاهُ رَأْيَهُ فَخَنَحَ إِلَى هَوَاهُ وَمَا جَمَحَ ، وَشَرَحَ صَدْرَ الْأَخْتِيَارِ بِمَا مَلَأَ الْأَخْيَارَ مِنْ مُحَاسِنِهِ وَشَرَحَ ، وَتَعَالَى الْإِقْتِرَاحُ لِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ فَكَانَ وَفَقَ مَا أَرَادَ وَفَوْقَ مَا اقْتَرَحَ ؛ وَتَشَبَّثَ بِعَيْنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَتَمَسَّكَ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ دَاءٍ يَلَازِمُهَا وَأَعْرَاضَ تَشْبِيهِهَا وَتَنَسَّكَ ؛ وَكَثُرَ الْخَوْضُ فِي الْبَاطِلِ فِيمَا صَدَعَ بِالْحَقِّ وَإِمَامًا أَمْسَكَ ، وَأَعْدَى فَضْلَهُ وَفَضْلَهُ عَلَى مَنْ شَكَا أَوْشَكَ ؛ وَغَضَّ عَيْنَيْهِ عَمَّا أُعْطِيَ سِوَاهُ وَمَتَّعَ بِهِ ، وَأَشْتَرَى طُولَ رَاحَتِهِ بِنَصْبِيهِ الْآنَ مِنْ نَصْبِهِ ، وَحَسَرَهُ (؟) النِّعْمَةُ مِنْ تَعْبِهِ ؛ وَأَيْسَ الظَّالِمُ مِنْ مُمَالَاتِهِ وَمُبَالَاتِهِ ، وَطَمِعَ الْمَظْلُومُ بِقُرْبِ إِعَانَتِهِ وَبَعْدَ إِعْنَاتِهِ ؛ وَمَرَّ مَرُّ الدَّهْرِ وَحَلَا حُلُوهُ فَلَمْ يَشْهَدْ بِاسْتِمَالَاتِهِ عَنْ حَالَاتِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ أَحَدُهُ حُكْمَ صَرَفِ دَهْرِ يَجْرِي بِأَذَاتِهِ ؛ وَلَا كَشَفَتْ مِنْهُ التَّجَارِبُ إِلَّا عَنِ الْبَصَائِرِ الَّتِي تَرُوقُ السَّمَاعُ

(١) أى فما أنقاد ولان ولا سمح أى جاد وسخا .

(٢) أى درس وعفا . انظر اللسان .

والتَّظَارُ، والحَسَنَاتِ الَّتِي قَضَتْ بِصَائِرِهَا بِقَضَاءِ مَنَاطِرَةِ الْأَنْظَارِ؛ وَالدِّينَانِ الَّتِي عَمَرَتْ
الْحَارِيبَ فِي اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَالْأَمَانَةِ الَّتِي اسْتَمْسَكَ عَقْدُهَا فَمَا خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ
يَتَدَاعَى وَلَا أَنْ يَنْهَارَ، وَالصَّبَابَةِ الَّتِي آسَتَوْى فَوْقَ مَرْكَبِهَا فَخَلَّتْ بِجَنَاطِ عَدْنٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْقَاضِي مُتَّقِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ وَطِيعَهَا، وَمَشْرِقَ نَحْرِهَا وَمَطْلَعَهَا،
وَمُلْقَى عَصَا أَرْتِيَادِهَا وَمَنْجَعَهَا، وَمَوْرِدَ فَرْطِ تِلْكَ الْأَمْوَالِ وَمَشْرِعَهَا، وَمُرَادَ هَذِهِ
السَّمَاتِ الَّتِي تَقَعُ مِنْكَ مَوْقِعَهَا، وَتَأْلَفُ عِنْدَكَ مَوْضِعَهَا، وَأَصَلَ هَذِهِ الْمَحَامِدِ الَّتِي إِنْ
اسْتَعْلَقَتْ بِسِوَاهِ فَتَنَهُ فَرَعَهَا، وَقَارَعَ صَفَاةَ هَذِهِ الذَّرْوَةِ الَّتِي مَا كَانَ لغيرِهِ أَنْ يَقَرَّعَهَا،
وَمَنْ تَعُدَّهُ الْخَنَاصِرُ اتَّقَى كُفَاةَ الرِّبِّ وَأَوْرَعَهَا، وَأَبْلَجَ أَبَاةَ الرِّيبِ وَأَرْدَعَهَا، وَأَشَدَّهَا
قِيَامًا وَمَقَامًا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ أَطْوَعَهَا، وَأَمْضَاهَا حَدًّا إِذَا كَفَّ الْبَاطِلَ
الْغُرُوبَ، وَأَشْرَقَهَا شَمْسًا لَا تَتَوَارَى بِحِجَابِ الْغُرُوبِ، وَأَقْوَاهَا سَلَّةً فِي تَنْفِيزِ حَكِيمِ
حَقِّ إِذَا ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ، وَأَنْقَاهَا صَحِيفَةً بِمَا أَوْدَعَهَا مِنْ نُورِ الْعَمَلِ
الْمَكْتُوبِ، وَأَبْدَاهَا زُهْدًا فِي دُنْيَاهُ إِذَا أُنْمُوًا بوعْدِهَا الْكَاذِبِ أَمَلِ إِيْتَائِهَا الْمَكْذُوبِ،
وَأَدْوَمَهَا مَصَاحِبَةً لَشُكْرِ لَا يَسْتَقِيلُ بِهِ رَفِيقُهَا الْمَصْحُوبِ، وَأَقْوَمَهَا طَرِيقَةً فِي الْحَسَنَاتِ
فَمَا طَرِيقُهُ إِلَى الْحُبِّ بَلْحُوبِ، وَأَقْوَاهَا طُمَأْنِينَةً قَلْبٍ إِلَى ذِكْرِ الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ
الْقُلُوبُ، وَأَنْهَضَهَا عَزْمًا بِمَا أَعْيَا الْهِمَمَ مِنْ تَكَالُيفِ الطَّاعَةِ وَآدَ بَسْمَعٍ وَبَصَرٍ وَفَوَادِ،
وَأَقْدَرَهَا عَلَى مُجَاهَدَةِ الشَّهَوَاتِ أَشَدَّ الْجِهَادِ، وَأَنْظَرَهَا لِنَفْسِهِ فِي تَحْصِيلِ عَمَلٍ يَشْهَدُ
لَهُ يَوْمَ قِيَامِ الْأَشْهَادِ، وَأَمَهَّدَهَا لِحَبْنِهِ وَذَخَائِرِ التَّقْوَى نِعَمَ الْمِهَادِ .

(١)
وإِلَى الْيَقِينِ الَّذِي ظَهَرَتْ شَوَاهِدُهُ، وَالْعَمَلِ الَّذِي جُمِعَتْ إِلَيْكَ شَوَارِدُهُ،
وَالَّذِينَ صَفَتْ إِلَيْكَ مَوَارِدُهُ، وَالْعِلْمِ الَّذِي هَبَّتْ بِمَذَاكَرَتِكَ رَوَاكِدُهُ، وَالْفَهْمِ

الذى تظاهرت بمناظرتك مرشده؛ والنظر الذى ألقى فُرسانَ الجدال بالجدالَه،
والأثر الذى يُقضى به عليك بالعدالَه، والمحاماة عن الحق بما يقضى لمخالفه بالإدالةِ
ولمؤالفه بالإدالَه، والإرشاد الذى مابدا لفهم الشاك إلا بدالَه، والفتيا التى ضربت
نَبَجَ الباطل بُسُوفها، وحلّت مَسامِعَ المستفيدين بُسُوفها، والجلالة التى لا يُملُّ
مسموع أوصافها، والعدالة التى لا يُملُّ (؟) مشرّع إنصافها، وكَم ليلةٍ أغمدت ظلامها
فى نور التهجّد والناس هُجُود، وسكّنت جُفونَ مناقبها بيقظات السُجُود، وأنشأت
الخشية غمامها فاطفأت بماء الدمع النار ذات الوُود؛ وبلغت رياضة الجوارح
التي تُريد ورياض القلب التى تُرود؛ فأسفر الصبحُ منك عن سارٍ واقِف، وأستسرَّ
لك القبول عن أنس خائف؛ وتارّجت أنفاسُ الأسمار باستغفاركَ، وتمَّ عنوانُ
السُجود بأسراركَ، وأبيضّت شية الليل بحلّ آثارِكَ؛ وأكتفتك الطهارة حتى كأنك
مُصحّف، وأرهقتك الديانة حتى كأنك مُرهف؛ وحالفتك الرّكّانة وكأنك مع
سلامة الخلق أحف، وثقتك السنُّ فأبقت منك ما أبقت من سنان المثقّف؛
وعرفتكَ الأحكام بأنك ماضٍ على الحقائق عند الشّبه تتوقّف، وألفتكَ الزّاهة
فشهد عدولُ أن نكرة المطامع عندك لا تتعرّف؛ وصرفتكَ الزّاهة عن دُنيا إن كانت
عرائسها تُرّف فعدداً مواردُها تُتَرّف، وأستشرفتكَ المنازل التى لا ترأل بأعناق الأشراف
تُستشرف؛ وما رأست، حتى درست؛ ولا تنبّهت، حتى تفقّهت؛ ولا أقنيت
حتى أفنيت الحابر، ولا تصدّرت حتى تصبّرت على كُلف تغلب الصابر؛ فما
حباك من حباك، ولا قدّمك حتى علم أن سواك ماساواك؛ فرياستك لم تكن قلته،
وأستشرف وجه الرياسة لك لم يكن لفته؛ بل تنقلت متدرّجاً، وأخني عليك لسانُ
حقيقة ما كان متلجّجاً؛ ولو أفعَدك حسَبُك أو أباك، لقلبك المجد وما أباك؛

فكيف ولك نفس بنت لك الشرف الخالد ، وجمعت الطريف منه إلى التاليد ، ولم تقنع بما ورثت من تراث رياسة الوالد .

والسيد الأجل الذي أعاد إلى الدولة رونق نضارتها ، بعد رونق إضارتها ، وأفاضت عليه حيا إشارتها ، وأضافت إليه نص إشارتها ، وأعطته السعادة أفضل إمارتها ، بما أعطته من فضل وزارتها ، وأشملت معاني النجاح من صفحة بشره التي تجللك الآمال بشارتها ، وأقرت حركاته الخلافة في دارها والأنوار في دارتها ، وقصرت مهابته أيدي الأعداء بعد استطالتها ، وأنجحت نارهم بعد آس تطارتها ، وذلت رياضته الأسود فلم ترع الأسماع بزورها ولا العيون بزيارتها - يعذك للصدور صدرا ، ويعذك بما يرفع ذوى الأقدار قدرا ، ويذكرك بما تطيب به نشرنا ، ويحسن ملبوسه بشرا ، ويراك أولى من أقام الحق لازما جواده ، وأقعد الباطل حاسما مواده ، ويصفك بالعدل الذى يتألم عليه الأضداد ، والسداد الذى لا يضرب بينك وبينه بالأسداد ، والنزاهة المنزهة عن التصنع بالرياء ، والسريرة الطيبة النشروالسيرة الحسنة الرواء .

ولما قزر لك النيابة عنه فى الصلاة والخطابة والقضاء والمظالم والإشراف على الجوامع والمساجد ودار ضرب العين والورق والسكة بالحضرة وسائر أعمال المملكة ، أمضى أمير المؤمنين ماقرر ، وتخير لهذه العطية من تخير سكونا إلى أمانتك التى حملت نوقها ، وركونا إلى ديانتك التى أوجبت تطلع هذه الرتبة إليك وسوقها ، وعلم أنك فارسها الذى آتسع ميدانه ، وواحدنا الذى ربح ميزانه ، وكفؤها الذى تمكن مكانه .

فتقلد ما قلدت من ذلك عاملا بتقوى الله التى يفوز العامل بها فى مواقف الإسقاط ، ويحوز بها السالك متالف الصراط ، ويحوز بها الآمل معارف الاحتياط ،

قال الله في فُرْقَانِهِ الذي نزل على عبده ليكون للعالمين نذيرا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا﴾ .

والحكم فهو عقد اللباس دُنْيَا وَدِينَا ، وسبيل الحق الذي يسلكه مَنْ جَرَى شِمَالًا وَسَلَكَ يَمِينًا ، وبه كَفَّ الله الأيدي المتعديّة ، وأنقَذَ من النار النفوس المتردّية ؛ وأقام حدودَ كُلِّ مَنْ أَسْتَحَقَّهَا ولم يتوقَّها ، وأوجبَ قِصاصَ الدماء على مَنْ أَرَاقَهَا وَأَسْتَبَاحَ رَقَّهَا ؛ وبه يقف القوى والضعيف مَوْقِفًا واحدًا ، وَيَظْهَرُ أُولُو عَدْلِ اللَّهِ لمن كان بعين قلبه مُشَاهِدًا ؛ وبه نَتَبَّنُ مواقعَ التحليل والتحرّيم ، وفيه نَتَّعِنُ مقاطعَ الْحُكْمِ بِالْحُكْمِ ، وَلِمَجَالِسِهِ الْوَقَارُ فَهِيَ جَنَّةٌ لَا تَغَوُّ فِيهَا وَلَا تَأْتِمُّ ، وَالظَّالِمُ فِيهِ وَإِنْ ظَفِرَ فَإِنَّمَا ظَفِرٌ بِمَا يُقْطَعُ لَهُ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ . وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ إِلَيْكَ مِنْ فَرْقٍ ، وَسَاوِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ كَافَّةِ الْخَلْقِ ؛ وَلَا تَحْكُمْ بِحُجَّةِ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ وَإِنْ كَانَ لَهَا السَّبْقُ : ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ . وَلَا تَقْطَعْ بِعِلْمِكَ وَإِنْ كُنْتَ عَلِيمًا ، وَلَا تُبَالِ فِي اللَّهِ أَنْ تُغْضِبَ ظَالِمًا وَتُرْضِيَ مَظْلُومًا ؛ وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَظَرِكَ وَإِصْغَائِكَ بَيْنَ الْمُتَرَاغِبِينَ إِلَيْكَ مَقْسُومًا ، فَلَا تَحْقِرْ خَطَا الْحُكْمِ وَتَجْنِبْ مِنْهُ بَيْنَهُمَا مَا تَجِدُهُ [عند] اللَّهِ عَظِيمًا : وَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَتَجَلَّبَبْ بِالْوَقَارِ الَّذِي يَبَيِّنُ فَضْلَ الْمَلِكِ ، وَيَشْهَدُ لِلْكَفَرِ بِاللَّهِ ، وَيُلْبِسُكَ نَخْرَ السَّرَاةِ الْحَلَّةَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ مَذْمُومُ التَّكَبُّرِ ، عَنْ مَجْمُودِ التَّدَبُّرِ ، وَلَا جَبَرُ الْكَسْرِ التَّجَبُّرِ ، وَلَا خَيْرٌ فِيمَنْ لَا يُمِيلُ رُويَةً التَّحِيرِ فَالْعَجَلَةُ تُضَيِّقُ مَيْدَانَ التَّخِيرِ ؛ وَإِذَا أُورِضَ الْمُتَنَبِّسُ لِقَهْمِكَ ، وَعَزَّ الْقَطْعُ بِفَضْلِ حُكْمِكَ ، فَأَفْهَمِ الظَّالِمَ مَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِ نَخْصَمُهُ ، فَرُبَّمَا أُوتِيَ مِنْ سُوءِ فَهْمِهِ لَامِنْ طَرِيقِ ظُلْمِهِ ؛ وَلَعَلَّهُ لَا يَجْمَعُ عَلَيْهِ بَيْنَ قَوْتٍ مَرَادِهِ وَبِقَاءِ إِمْنِهِ ؛ وَذَاكَ الْمُقَدِّمِينَ عَلَى الْيَمِينِ ، بِمَا عَلَى مَنْ يَمِينُ ؛ وَأَنْ كَاذِبَهَا يَدَعِ الدِّيَارَ

بَلَّاقٍ ، وَأَنْ خَرَقَ الْجُرْأَةَ عَلَى اللَّهِ مَالَهُ مِنْ رَاقِعٍ ، وَصَرَعَةَ الْفَاجِرَ مَالَهَا مِنْ مَزِيلٍ
وَلَا رَافِعٍ ؛ وَمَنْ قَطَعَهُ الْحَصَرَ عَنِ الْإِفْصَاحِ ، وَصَرَفَهُ الْبَيْتَ عَنِ الْإِيضَاحِ ، فَاسْتَعْمِلَ
مَعَهُ أَنَاةً تَوْضَحُ مَا يَخْتَلِجُ فِي صَدْرِهِ ، وَرِفْقًا يُفْصِحُ مَا يَخْتَلِجُ فِي فِكْرِهِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ” إِنَّكُمْ لَتَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخَنَ
بِحُجَّتِهِ مِنَ الْآخِرِ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ “ وَلَدْخُولِ الْمَجَالِسِ دَهْشَةً تُورِثُ اللِّسَانَ
عُقْلَهُ ، وَلِمَفْاجَأَةِ الْحَافِلِ حَيْرَةً تُعْقِبُ الْبَيَانَ مُهْلَهُ ؛ فَوَاجِبٌ عَلَيْكَ مِمَّنْ تَدْلَهُ أَنْ تَدْلَهُ ،
وَمِمَّنْ يُسْأَلُهُ أَنْ تُسْأَلَهُ : لَتَقْضَى بِمَا تَقْضَى ، وَتُقْضَى الْحَكَمُ بِحَقِيقَةِ تَمْضَى ؛ وَإِنْ
تَجَعَّرَتْ قَضِيَّةٌ قَدْ فَرَطْتَ ، وَتَدَبَّرَتْ نَوْبَةٌ قَدْ أَفْرَطْتَ ؛ فَبَادِرْ بِأَسْتِدْرَاكِهَا ، قَبْلَ
وُقُوعِكَ فِي أَدْرَاكِهَا ، وَتَعَذُّرِكَ عَنْ إِدْرَاكِهَا ؛ وَلَسْتَ مَعْصُومًا مِنَ الْمَغَالِطِ ، وَلَا مَوْصُومًا
بِالْخَطِ الْفَارِطِ ، وَلَا مَلُومًا [إِلَّا] إِذَا أَقْبَتَ عَلَى مَا اللَّهُ مِنْهُ سَاخِطٌ ؛ فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ مَنْ
أَتَى الْخَلَائِقَ وَلَمْ يَتَّقِ الْخَلَاقَ ؛ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ .

وَكُتِبَ اللَّهُ وَسَنَةُ رَسُولِهِ السَّرَاجَانِ اللَّذَانِ مَاضِلٌ هُدَاهُمَا ، وَالْمِهَادَانِ اللَّذَانِ
مَا أَوْصَحَهُمَا إِلَيْهِ وَأَبْدَاهُمَا ؛ وَقَدْ أَغْنَتْ نَصُوصُهُمَا عَنِ الْأَقْيَيسِ ، وَأَوْضَحَ خُصُوصُهُمَا
عَامَّةَ الْأُمُورِ الْمُلْتَبَسَةِ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . وَقَالَ
تَعَالَى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وَإِنْ أَشْكَلَتْ نَازِلَةٌ غَيْرُ
مَسْطُورَةٍ ، وَأَعْضَلَتْ وَاقِعَةً غَيْرُ مُحْصُورَةٍ ؛ فَاسْتَرْشِدْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِهَا ، وَقِفْ
عَلَى بَحَارِ عِلْمِهِ فَلَنْ تَعْدَمَ سَبِيحَ دَرِّهَا ؛ فَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عِنْدَ التَّنَازُعِ بِأَنْ
نَزِدَ [إِلَيْهِ] مَا أَعْضَلُ ، وَأَنْتُمْ أَخَذْتُمْ لَلِاسْتِنْبَاطِ [إِلَامِنْ] ^(١) الَّذِينَ حَكَمَ اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ
مَا أَشْكَلَ .

(١) زدنا هاتين الكلمتين على ما في الاصل لأن الكلام بدون زيادتهما لا يفهم . تأمل .

والشهادة فلقد أمر الله بإقامتها وكفى بالله شهيدا ، وكفى بذلك جلالة وتمجيدا ؛
ولا نتخذ إلا العدول المقانع ، ولا نسمع منهم إلا لمن هو لأمر الله سامع ؛ فهم
الأعوان التي تدفع بها نار جهنم ، والجئن التي يتقى بها الحاكم سهام الآثام فيما حلل
وحرّم ؛ وإلى علمهم آتته مقاطع الحقوق التي الله بها أعلم ؛ وما سرى حكم إلا بعد
أن تجد أقواله دليلا ، ولك السمع ولهم البصر وكل أولئك كان عنه مسئولا ؛
وأستشف أمورهم فمن ألفتهم ألفا لمحجة الصواب ، عائفا لمصلحة الإرتياب ؛ لأيحاف
بالإغصاب ؛ ولا يحاف بالإرهاب ، ولا يحسب حسابا إلا ليوم الحساب ، فاسمع
مقاتلته ، وأقر عدالته . ومن كان عن السبيل ناجيا ، وللهوى راكبا ؛ فأرجله عن
ظهر العدالة ، وتبع زلله بالإزالة ؛ وواصل فيهم السنة حكك ، وأوجه عليك ؛
فلا تستنب إلا من تعلم أن خطاه عليك وصوابه لك ، ولا تعول إلا على من لا ينجل
نفسك ولا يذم تعويلك .

وكتبك فقلمه لسانك ، ولسانه ترجمانك ؛ إن وقع فإليك تنسب مواقع توقيعه ،
وإن وصل حكما بمسطوره فمقدارك مسطور من مسموعه ؛ فلا ترض بالدون فما
يدون ، ولا تعول إلا على كل من تصور وتصون .

وحاجبك فهو عينك وإن سمي حاجبا ، ووجهك الذي تلقى به إذا كنت غائبا ؛
فاختر من يكون متخيلا في المقال ، متحليا بحسن الفعال ، مجربا في جميع الأحوال ؛
لا يلتفت إلى دنياه دينه ، ولا يخونك أمانته ولا تمتد يمينه ، ولا يقول عنك
ولا عن نفسه إلا ما يزينك ويزينه ، ولا يخف إلى ما تخف به موازينه .

والخطباء قرسان المنابر ، وألسنة المحاضر ، وتراجم الشعائر ؛ وأئمة المجامع ، وسفراء
القلوب بوساطة المسامع لمقامها الرافع ، ومبرها الفارع من القلوب على دأها ، وتدر

حرُّهُ شياطينَ الأمم عند آعدائها؛ ويُعرب عن الهداية ويبالغ بلاغته في إهدائها؛
ويتقنُ مخارجَ الحروف مُحسِّناً في أدائها وإبدائها، وتُحُلُّ موعظته عن العيون الحامدة
عُقْدَ وكائها، وينادى القلوب الصِّديَّة فيكون صداه صوب بكائها، ويستشعرُ أُرْدِيَّة
الوقار فتشهد المنابرله بارتدائها؛ وتغذى النفوس موعظه إذا قصده باستنصارها
على القلوب وآستعدادها .

والأيتام فانت لهم والد ، وأجرُ نفقتك عليهم في الصحيفة وارد؛ وهم ودائع الله
لديك ، وذخائرُ الآباء [١] لا أنهم في يدك ؛ فأحسن بهم السياسة بالشفقة ، وأحسن
لهم التدبير بالشفقة ؛ ومن آنست رُشدَه ، فادفع ماله إليه ، ومن لم تسترشد قصده ،
فأنفق منه عليه ؛ قال الله تنبيهاً وتحذيراً : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ
حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

والمساجد بيوت الله التي يُسبِّحُ له فيها بالغُدُو والآصال ، ومَظَانُّ العبادة التي يعمرها
أهل الاعتلاق بمعروفه والإفضال ؛ ومَصَاعِدُ الكَلِم الطيب والعملِ الصالح ، وأسواقُ
الآخرة التي يُوجب فيها المشترُّون صفقة البيعِ الرابح ؛ فعبّد الطريق إلى زيارتها ، وأشرح
قلوبَ المنطهرين بطهارتها ، وآنيسَ القائمين بالليل والمستغفرين بالأشجارِ بإنارتها .

والمضروبُ بدار الضرب فهو عينٌ ما تجب عليه الزكوات ، ونفس ما تُحَارُ [به]
المستملكات ؛ ومدارُ ما تستملُّ عليه المعاملات ، وقيمٌ ما تُحَقِّن به الدماء في الديات ،
ومنتهى ما تُوفِّي به الصَّدقات ؛ وتوصى به الصدقات ؛ فتولُّ أخذَ عيَّاره ،
ومباشرةَ تصفيةِ درهمه وديناره ، وأخلصه لتنجو من النار بلفحات ناره ؛ وأحفظ
شكله الذي ينقش خاتم جوارزه ؛ والأسماءُ المسطرة عليه وسيلةٌ أمتيَّازه على بقية
الأحجار وإعزازه .

والوكالة على باب الحكم فهي كفاح المتناضلين ، وسلاح المتناصلين ؛ ومن يتفجع بها لا يُعزل من الخطاب ، كما لا ينصب بها من يفتح له الباطل الأبواب ؛ فلا تُوعى إلا لمن حسنته الدربة ، في السرعة من القربة ، وتدبر قول الله : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ ممن يؤمن على النساء والرجال ، ولا يُعجبه إرسال لسانه في الحلال ، ولا يبطّل الحق إذا أطلق لسانه في سعة المجال .

والتصرفون الذين هم أيدي الشريعة التي تُشخص الخصوم ، ويُستعان بهم على قمع الظلوم ونفع المظلوم ؛ فتخير أن يكون أكبرهم من أهل طبقتهم ، وأمدتهم تحسبنا لسمعتهم وتحسبنا لأمانتهم .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاهد بهديه ، وقم بفرض رعيه وحق وعيه ؛ وكريم سعى الآخرة أحسن سعيه ، وتصرف بين أمر الحق ونهيه ؛ والله سبحانه يبلغك من مناجح أمرك ، ما لا تبلغه بمطامح فكرك ؛ ويسر لك من بديهة الإرشاد ، ما تعجز عنه روية الارتياذ ؛ فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ، وأعمل بموجبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك ما أورده على بن خلف الكاتب في كتابه "مواد البيان" في سجل بالدعوة للدولة والمشايع لها ، والموافقة على مذهبها ، وهو :

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس ^(١) ، والمتعالى عن أن تُدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالإيناس ؛ الذى اختار الإسلام فأظهره وعظمه ، وأستخلص الإيمان فأعزّه وأكرمّه ؛ وأوجب بهما الحجّة على الخلائق ، وهداهم بأنوارهما إلى أقصد الطرائق ، وحاطهما بأوليائه الراشدين شُموِس الحقائق ؛ الذين نصّبهم فى أرضه

(١) يريد بالقياس المعقول .

أعلاما، وجعلهم بين عباده حُكَّامًا؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَايِدِينَ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين أن أصطفاه لخلافته ، وخصه بلطائف حكيمته ؛ وأقامه دليلاً على مناهج هدايته ، وداعياً إلى سبيل رحمته ؛ ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذي أتبعته رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للسالمين ؛ وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين : على بن أبي طالب أمير المؤمنين ؛ وفوض إليه هداية المستجيبين ، والتأليف بين قلوب المؤمنين ؛ ففجر ينابيع الرشد ، وغور ضلالات الإلحاد ؛ وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل ، حتى أثار وأوضح السبيل ؛ وحسّر نقاب البيان ، وأطلع شمس البرهان ؛ صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذريتهما ؛ مصابيح الأديان ، وأعلام الإيمان ، وخلفاء الرحمن ؛ وسلم عليهم ماتعاقب الملوان ، وترادف الجديدان .

وإنَّ أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة ؛ وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتمد بحبله من المؤمنين ، وتويز بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين - يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسُبُوغ ظلّها على أشياعه وخُلصائه ؛ وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاق عقولهم ببيانها ؛ وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإيقادهم من حيرة الشكوك بمعارفها ؛ وتوقيفهم من علومها على ما يلحّب لهم سبيل الرضوان ، ويُفضي بهم إلى رُوح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدي في جوار الجواهر المنان - ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بناشي في حجرها ، مغتذٍ بدرّها سارٍ في نورها ؛ عالم بسرّائها المدفونة ، وغوامضها المكنونة ؛ موقراً على ذلك اختياره ، وقاصية انتقاده واختياره ؛ حتى أذاه الاجتهاد إليك ، ووقفه الارتياض عليك ؛ فأسندها منك إلى

كفيتها وكافيتها ، ومِدْرَها المبرِّز فيها ؛ ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ، ودقائقها المطوية ؛ ثقةً بوثاقة دينك ، وصحة يقينك ؛ وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك في كل ما ولأك ؛ ومحض إخلاصك ، وقديم اختصاصك ؛ وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والأملان ، والتنويه ومضاعفة الإحسان .

فتقلّد ما قلّدتك أمير المؤمنين مستشعرا للتقوى ، عادلا عن الهوى ، سالكا سبيل الهدى ؛ فإنّ التقوى أحصن الجنّ ، وأزین الزین ، و﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . وحضّ على ذلك فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشدّ العقد على كل مُنْقَادٍ ظاهر ، من يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصحّ عندك عفافه ودينه ؛ وحضّم على الوفاء بما تُعَاهِدُهُمْ عليه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ . ويقول جل من قائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبِيعُونَكَ بِمَا يَبِيعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ . و [كف] كافة أهل الخلاف والعناد ، وجادلهم باللطف والسداد ، وأقبل منهم من أقبل إليك بالطّوع والانتقاد ؛ ولا تُكرِه أحدا على متابعتك والدخول في بيعتك ، وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة : فإنّ الله تعالى يقول لمن بعثه داعيا إليه بإذنه : محمّد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ولا تُلقِ الوديعة إلا لحفظ الودائع ، ولا تُلقِ الحبّ إلا في مَرَرَةٍ لا تُكْدَى على الزارع ؛ وتوخّ لغرسك أجلّ المغارس ، وتوردّهم مشارع ماء الحياة المعين ،

وَقُرْبَهُمْ بِقُرْبَانِ الْمَخْلِصِينَ ؛ وَتَخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ ، إِلَى نُورِ الْبَرَاهِينِ
وَالْآيَاتِ ؛ وَاتَّلْ مَجَالِسَ الْحِكْمِ الَّتِي تَخْرُجُ إِلَيْكَ فِي الْحَضْرَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ؛
وَالْمُسْتَجِيبِينَ وَالْمُسْتَجِيبَاتِ ، فِي قُصُورِ الْخِلَافَةِ الزَّاهِرَةِ ، وَالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْمَعْرِزَةِ
الْقَاهِرَةِ ؛ وَضَنْ أَسْرَارِ الْحِكْمِ إِلَّا عَنْ أَهْلِهَا ، وَلَا تَبْذُلْهَا إِلَّا لِمُسْتَحِقِّهَا ؛ وَلَا تَكْشِفْ
لِلْمُسْتَضْعِفِينَ مَا يَعْجِزُونَ عَنْ تَحْمِلِهِ ، وَلَا تَسْتَقِلْ أَفْهَامَهُمْ بِتَقْبَلِهِ ؛ وَاجْمَعْ مِنَ التَّبَصُّرِ
بَيْنَ أَدَلَّةِ الشَّرَائِعِ وَالْعُقُولِ ، وَدَلِّ عَلَى اتِّصَالِ الْمَثَلِ بِالْمَثْنُونِ ؛ فَإِنَّ الظَّوَاهِرَ أَجْسَامٌ
وَالْبَوَاطِنَ أَشْبَاحُهَا ، وَالْبَوَاطِنَ أَنْفُسٌ وَالظَّوَاهِرَ أَرْوَاحُهَا ؛ وَإِنَّهُ لَا قِيَامَ لِلْأَشْبَاحِ
إِلَّا بِالْأَرْوَاحِ ، وَلَا قِيَامَ لِلْأَرْوَاحِ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا بِالْأَشْبَاحِ ، وَلَوْ افْتَرَقَا لَفَسَدَ النَّظَامُ ،
وَأَنْتَسَخَ الْإِيحَادُ بِالْإِعْدَامِ . وَأَقْصِرْ مِنَ الْبَيَانِ ، عَلَى مَا يَحْرُسُ فِي النُّفُوسِ صُورَ الْإِيمَانِ ،
وَيَصُونُ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْإِفْتِنَانِ ؛ وَأَنْهَهُمْ عَنِ الْإِثْمِ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، وَكَامِنِهِ
وَعَالِنِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ .

وَاتَّخِذْ كِتَابَ اللَّهِ مِصْبَاحًا تَقْتَبِسُ أَنْوَارَهُ ، وَدَلِيلًا تَقْتَنِي آثَارَهُ ؛ وَأَتْلُهُ مُتَبَصِّرًا ،
وَرَدَّدَهُ مُتَذَكِّرًا ، وَتَأَمَّلَهُ مُتَفَكِّرًا ؛ وَتَدَبَّرْ غَوَامِضَ مَعَانِيهِ ، وَأَنْشُرْ مَا طَوَى مِنَ الْحِكْمِ
فِيهِ ؛ وَتَصَرَّفْ مَعَ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَنَقَضَهُ وَأَبْرَمَهُ ، فَقَدْ فَصَّلَهُ اللَّهُ وَأَحْكَمَهُ ؛ وَاجْعَلْ
شَرْعَهُ الْقَوِيمَ الَّذِي خَصَّ بِهِ ذَوِي الْأَلْسَابِ ، وَأَوْدَعَهُ جَوَامِعَ الصَّلَوَاتِ وَمَحَاسِنَ
الْآدَابِ ، سَبَابًا تَتَّبِعُ جَادَّتَهُ ، وَتَبْلُغُ فِي الْاِحْتِجَاجِ مَحِجَّتَهُ ، وَتَمْسُكُ بِظَاهِرِهِ وَتَأْوِيلِهِ
وَمَثَلِهِ ، وَلَا تَعْدِلْ عَنْ مَنَهْجِهِ وَسُبُلِهِ ؛ وَأَضْمِمْ لَشَرِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاجْمَعْ شَمْلَ الْمُسْتَجِيبِينَ ،
وَأَرْشِدْهُمْ إِلَى طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَسَوِّ بَيْنَهُمْ فِي الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَقُولُ فِي بَيْتِهِ الْحَرَامِ : ﴿ سَوَاءٌ أَلْعَاكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ ﴾ . وَزِدْهُمْ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَوَادِّ
عَلَى حَسَبِ قُوَاهُمْ مِنَ الْقَبُولِ ، وَمَا يَظْهَرُ لَكَ مِنْ جَوْدَةِ الْمُحْصُولِ ؛ وَدَرِّجْهُمْ بِالْعِلْمِ
وَوَفِّ الْمُؤْمِنَ حَقَّهُ مِنَ الْأَحْقَامِ ، وَلَا تُعْذِمِ الْجَاهِلَ عِنْدَكَ قَوْلًا سَلَامًا كَمَا عَلَّمَ رَبُّ

السلام . وتوخَّ رعاية المؤمنين ، وحماية المعاهدين ، وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين ؛ وألن لهم جانبك وأحنَّ عليهم وألطف ، وأبسط لهم وجهك وأقبل إليهم وأعطف ؛ فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين :

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولا تُفْسَحْ لأحد منهم في التطاول بالدين ، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميين ، وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين ؛ وإذا ألبس عليك أمرًا وأشكل ، وصعب لديك مرأً وأعضل ، فأنه إلى حضرة الإمامة متبعا قول الله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ : ليخرج إليك من بصائر توقيفها ، ومرآشد تعريفها ؛ ما يقفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب [بك] في لاجب الطريقه ؛ وأقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والحزب والأنحاس والقربات وما يجرى هذا المجرى ؛ وتتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه ، وأحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع بخرجه بتقليله له ووصوله إليه ، وتبرأ ذمهم عند الله منه . وأستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تتق بديانته ، وتسكن فيه إلى وفور صناعته ؛ وأعهد إليهم كما عهد إليك ، وأخذ عليهم كما أخذ عليك ؛ وأستطاع لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ؛ وأستخدم كاتباً ديناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً ، حقيقاً بالإطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصياتها وكتبتها عن غير أهلها ، نقياً حصيفاً لطيفاً ، يتر لهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل .

(١) جمع جزية وهي خراج الارض وما يؤخذ من الذمى .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره متبصراً ، وراجعته متدبراً ، وبه الوصايا تهدي
وئسدد ، وتوفق وتُرشد ؛ وأستعين بالله يُمدك بمعونته ، ويُدِّم حظك من هدايته ؛
إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا سائر السجلات من هذا النوع . وقد أورد في "مواد البيان"
سجلات غير هذه حذف منها التحيمة وأقتصر على مقاصدها ، وفيما ذكر من ذلك مَقْنَع .

المذهب الرابع

(مما كان يكتب لأرباب الولايات بالدولة الفاطمية
مرتبة الأصاغر من أرباب السيوف والأقلام)

وليس لهذه الرتبة صِيغٌ محصورة في الافتتاح ، بل تُفْتَح بلفظ : «إنَّ أمير المؤمنين
لما آتاه الله [من] كذا يفعل كذا وكذا ولما كنت بصفة كذا ، وحضر بحضرة
أمير المؤمنين فتاه وزيره فلان وأشار بكذا ، فترك أمير المؤمنين في كذا » أو يقال :
«إن أولي» أو «إنَّ أحقَّ» أو «إنَّ أجدر» أو «أقن» أو «من حسنت طريقته»
أو «من كان متصفاً بكذا كان خليقاً بكذا» أو «ولما كان كذا» أو «منشور تقدم
بكتبه فلان » ونحو ذلك .

فمن المكتتب عن الخليفة من هذه المرتبة لأرباب السيوف نسخة سِجِلٍّ بزم .
إنَّ أمير المؤمنين لما آتاه الله من المحلِّ الأرفع ، وجعله اليوم الأمر المطاع وغداً
الشفيع المشفع ؛ يتعهد عبيده بعهد كرمه ، ويُخَيِّر من هجر النوائب من يُحاول ظِلَّ

(١) الهجير والهجرة والهجر والهجرة نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر وقيل في كل ذلك انه

حَرَمَهُ ، وَيَقْبَلُ وَسِيلَةً مِنْ كَانَتْ النِّجَابَةُ أَقْوَى وَسَائِلِهِ وَذِمَّةً ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنَ الْخَافِ
 حَوَادِثِ الدَّهْرِ بِهِ وَنَمَةٍ ، فَلَا زَالَ بِأُمُورِهِمْ عَانِيَا ، وَبِمَكَارِمِ شِمْتِهِ عَنْ رَفْعِ مَسَائِلِهِمْ
 غَانِيَا ، لِاسْتِيْمَا مِنْ حَسْنٍ فِي الْخِدْمَةِ أَثَرًا وَطَابَ خَبَرًا ، وَنُشِرَتْ أَوْصَافُهُ فِي أَيْدِي الثَّنَاءِ
 فَكَانَتْ بُرُودًا وَحَبْرًا ، وَتَمَنَّى لَهُ الْإِحْسَانُ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَنْ يَأْتِيَ مُسْتَحْمِدًا لَامَعْتَدِرًا ،
 وَعُدِيقَتْ بِهِ بِحَارِ الْحَمَامَةِ فَمَا أُخْرِجَتْ مِنْهُ إِلَّا جَوْهَرًا ، وَغَرَسَ مَقَدِّمَاتِ الْمَخَالِصَةِ
 وَكَانَ لِسَانِجَ الْإِنْعَامِ مُسْتَثْمَرًا ، وَصَقَلَ التَّجْرِبُ صَفِيحَةَ طَبْعِهِ وَكَانَ لَضَرِيئَةِ
 الْحَزْمِ مُسْتَأْمِرًا ، وَأَسْتَبَدَّ بِمُوجِبَاتِ الْحَامِدِ مَوْثَرًا لَهَا وَمُسْتَأْمِرًا ، وَجُعِلَتْ لَدَيْهِ أَسْبَابُ
 الْأَسْتِقْلَالِ الَّتِي قَلَّتْ عِنْدَ سِوَاهُ فَظَلَّ مِنْهَا مَهْدًا (١) مُتَكَثَرًا .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مِنْ قَامَ لَهُ هَذَا الْوَصْفُ مَقَامَ الْأَسْمِ [مِنْ] الْمُسَمَّى ،
 وَتَوَصَّحْتُ مَخَالِيلَهُ بِهِ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ اللَّغْزِ الْمُعْمَى ، وَقَامَ يَقْرُرُ مِنَ الْخِدْمَةِ مُشْتَمِلًا ،
 وَأَسْتَقِلَّ بِشَرَائِطِ التَّعْوِيلِ مُسْتَكْمِلًا ، وَأَدْرَكَ غَايَاتِ الْحَاسَنِ عِجَالًا مَتَمِّهًا (١) ، وَضَمِنَتْ لَهُ
 الشَّيْبَةُ أَنْ يَعْلُو كَاهِلَ الرِّيَاسَةِ مَتَكِّهًا ، وَأَشْتَهَرَ بِالتَّقَدُّمِ فَلَمْ تَعْرِفْ بِهِ أَوْضَاحَ الصَّنَائِعِ
 غُفْلًا وَلَا مَجْهَلًا ، وَأَسْتَوْجَبَ أَنْ لَا يَزَالَ فِي أَفْقِ الْإِنْعَامِ مُنْهَلًا عَلَيْهِ يُغَادِرُ لَدَيْهِ غَدِيرًا
 وَمَنْهَلًا ، وَأَسْتَحَقَّ أَنْ يَمْلَأَ يَدَيْهِ مِنْ (٢) نَظَرِهِ مُتَأَمِّلًا ، وَأَدَّى فَرِيضَةَ الْهَضْبَةِ
 كَافِلًا مُتَكَفِّلًا وَمُعْمَلًا لَامْتَعَمِّلًا ، وَنَهَضَ بِتَكَالِيفِ الْخِدْمَةِ مُتَحَمِّلًا فِيهَا مَا لَمْ يَزَلْ
 مُتَحَمِّلًا .

وَحَضَرَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَاهُ الَّذِي أَفْتَاهُ التَّوْفِيقُ بِاسْتِزَارِهِ ، وَوَلِيَّهُ الَّذِي
 جَمَّ بِهِ مَوْرِدُ السَّعْدِ بَعْدَ اسْتِزَارِهِ : السَّيِّدُ الْأَجَلُّ سَيْفُ نَصْرِهِ الْمُهَنْدُ بِأَسْهِ ،

(١) التَّهْمِلُ التَّقَدُّمُ وَتَهْمِلُ فِي الْأَمْرِ تَقَدَّمُ فِيهِ . انْظُرِ اللِّسَانَ .

(٢) بِيَاضٍ بِقَدْرِ كَلْبَةٍ .

ولَيْتُ حَرْبَهُ وَالسَّانِ نَابَ ، وَنَحَابُ الرِّحْمَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِهَا حَصَلَ رِجْحِي خَضِرَ
الْجَنَابَ ، وَمَتَعَبَ الرَّائِحِ فِي غِيَّهِ حَتَّى عَزَبَ فِي سُهوبِ الْإِسْهَابِ بِأَطْنَابِ
الْإِطْنَابِ ، وَمَسْتَحَقُّ الْمَدَائِحِ الَّتِي يُعْطَرُ بِهَا الْجَنَابَ ، وَيُعْطَلُ بِهَا الرَّكَّابُ ؛ وَالْمَلِكُ
الَّذِي خَدَمَهُ الْمُلُوكُ لِارْتَبَةِ الْغَنَاءِ عَنْهُ بَلْ لَرُتْبَةِ الْمَنَابِ ؛ فَذَكَرَكَ بِمَا جَمَّلَكَ ، وَاسْتَمْتَرَ
لَكَ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا جَمَّ لَكَ ، وَاسْتَوْفَقَ فِي مُنَاصِحَةِ الدَّوْلَةِ عَمَلَكَ ، وَقَرَّبَتْ عَلَيْكَ
بِسِفَارَتِهِ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْلَكَ ؛ وَقَزَرَ لَكَ الْخِدْمَةَ بِالزَّمِّ الْفُلَانِي لِإِخْلَادًا إِلَى
مَاتَطْوَى عَلَيْهِ جُمْلَتُكَ ، وَاعْتِمَادًا عَلَى مَا تَعَزَّ بِهِ كَلِمَتُكَ ؛ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا أَجَابَكَ
إِلَيْهِ ، وَتَقَدَّمَ أَمْرُهُ بِاسْتِخْدَامِكَ فِيمَا عَيْنٌ عَلَيْهِ ؛ وَنَحَرَ أَمْرَهُ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ
بِكُتُبِ هَذَا السَّجْلِ بِتَقْلِيدِكَ ذَلِكَ .

فَنَقَلَهُ مَأْقَلَدَتَهُ مُسْتَشْعِرًا لِبَاسِ التَّقْوَى ، نَاهِيًا لِنَفْسٍ عَنِ الْهَوَى ؛ سَالِكًا الطَّرِيقَةَ
الْمِثْلِيَّ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ . وَهَذِهِ الْخِدْمَةُ مِنْ أُمَرَاءِ قِبَائِلِ
الْعَرَبِ ، وَهِيَ الْمَنْبَعُ وَسِوَاهَا الْعَرَبُ ، وَمَا فِيهَا مِنْ يُدْعَى إِلَى خِدْمَةِ إِلَّا طَبَقَ الْمِفْصَلُ^(١)
وَأَتَى عَلَى الْأَرْبِ ؛ نَخَذَهَا بِالْمَرْسُومِ لِمَا تُثَدِّبُ لَهُ مِنَ الْمِهْمَّاتِ السَّانِحَةِ وَالْعَوَارِضِ ؛
وَالْخُفُوفِ إِلَيْهَا بِالْأَسْلِحَةِ الرَّوَاعِ وَالْخَيُْولِ النَّوَاضِ ؛ وَالزَّمَّ رَجَالَهَا أَنْ تَحْفَظَ مِنَ
الطَّرِيقَاتِ مَا يُصَاقِبُهَا ، وَأَنْ تَسُوقَ كُلَّ نَفْسٍ بِجَنَائِهَا إِلَى مَنْ يَعْقُوبُ عَنْهَا أَوْ يُعَاقِبُهَا ؛
وَقَدَّمَ الْعَرْضَ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَنْ كَانَ بِالْوَفَاءِ سَاقِطًا ، وَعَنْ أَعْمَالِ الْمَمْلَكَةِ
سَاحِطًا ؛ لِيَسْتَرْجِعَ الدِّيْوَانُ مَا كَانَ بِيَدِهِ ، وَيَفْتَضَحَ مِنْ كَانَتْ الْحَيَانَةُ سَرِيرَةً
مُقْصَدَةً ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ .

(١) الغرب بالتحريك من معانيه الماء . يقطر من الدلو بين الحوض والبر أنظر القاموس .



ومن ذلك نسخة سجل بولاية نغرة، وهي :

إِنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ رَقَاهُ إِنْعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمَحَلِّ الْيَفَاعِ ، وَشَفَعَتْ فِيهِ وَسَائِلُ
فَضَائِلِهِ فَعَنِي عَنِ الْإِسْتِشْفَاعِ ، وَعَظُمَ لَهُ النِّفْعُ لِمَا بِهِ مِنْ عَظِيمِ الْإِنْتِفَاعِ ، وَجَزَدَتْهُ
يَدُ الْإِخْتِيَارِ سَيْفًا مِنْ سُيُوفِ الذَّبِّ عَنِ الْمَلَّةِ وَالِدَّفَاعِ ، وَاسْتَقَرَّ فِي الرُّتَبِ الَّتِي لَا تُثْقَلُ
إِلَّا إِلَى الزِّيَادَةِ وَلَا تُغَيَّرُ إِلَّا إِلَى الْإِرْتِفَاعِ ، وَجُلِّيَتْ عَلَيْهِ وَجُوهُ النِّعَاءِ وَاضِحَةٌ اللَّثَامِ
وَاضِعَةٌ الْفَلَّاحِ ، وَنِيْطَتْ مِنْهُ وَصَايَا الْحَزْمِ بِحَافِظِ لَهَا وَاعٍ ، وَتَوَفَّرَتْ عَلَيْهِ بَوَاعِثُ
الصَّنَائِعِ وَدَعَتْ إِلَيْهِ دَوَاعٍ - مَنْ تَرَشَّعَ بِالْإِسْتِحْقَاقِ لِلرُّتَبِ السَّنِيَّةِ وَتَأَهَّلَ ، وَسَبَقَ
الْمَجَارِينَ فِي حَلَبَةِ الْإِحْلَاصِ عَلَى أَنْهُمْ جَهَدُوا وَتَمَهَّلَ ، وَاسْتَوْجَبَ آمْتِطَاءَ كَاهِلِ
الرِّيَاسَةِ بِالْفَتَكِ الَّذِي شَبَّ وَالرَّأْيِ الَّذِي تَكَهَّلَ ، وَثَبَتَ جَأْشُهُ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي يُرَاعُ
لَهَا كُلُّ رُوعٍ وَيَذْهَلُ ، وَمَنْعَتْ مَهَابَتُهُ الْعُدُوَّ أَنْ يَجْهَلَ عَلَيْهِ وَأَبَتْ لَهُ حَصَافَتُهُ أَنْ
يَجْهَلَ ، وَغَرِيْبَتْ هِمَّتُهُ بِالْمَطْلَبِ الْأَصْعَبِ مِنَ الْعَلَاءِ وَأَنْفَتَ مِنَ الْمَطْلَبِ الْأَسْهَلِ ؛
وَوَلَّى الْوَلَايَاتِ الْجَلِيلَةَ فَظَلَّتِ الرِّعَايَا تَعْلُ مِنْ مَوَارِدِ عَدْلِهِ وَتَنْهَلُ ، وَنَشَأَتْ لَهُمْ
سُحْبُ الرِّكَابِ الَّتِي بَرَّقَهَا يَتَهَلَّلُ وَعَارَضَهَا يَنْهَلُ .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ النَّاهِضَ بِحُقُوقِ هَذِهِ السَّمَاتِ ، الْبَعِيدَ الْقَدْرَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ
وَالْمُسَامَاتِ ، الْمُنْتَقِلَ فِي دَرَجَاتِ التَّقْدِيمَةِ وَالْكَرَامَاتِ ، الْمُنْفَرِجَةَ عَنْ أَنْوَارِ فَتَكَاتِهِ
ظُلُمَاتِ الْمَقَامَاتِ ، الْمُعَدَّةَ النَّجْدَةَ لِمَوَاقِفِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَالرَّادِّ عَلَى أَعْقَابِهَا الْأَبْطَالَ
الْمُعْلَمَةَ بِالْفَتَكَاتِ الْمُعْلَمَاتِ ، الدَّائِمَ الْغَرَامَ بِمَقَامَاتِ الرِّيَاسَةِ وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً الْمُؤْنِ
جَسِيمَةً الْغَرَامَاتِ ، الْقَائِمَ بِمَا تُوجِبُهُ عَلَيْهِ صَنَائِعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُقُوقِ الْمُدَافَعَةِ
عَنِ الْحَوَظَةِ وَفُرُوضِ الْمُرَامَاتِ ، الْمُنْتَظَاهِرَةَ فِيهِ شَوَاهِدُ الْفَضَائِلِ بِأَصْدَقِ الْأَعْذَارِ

وأوضح العلامات ؛ المشهور المقامات ، إذا جرت من مُتون الصّباح جداولُ وأهترت
من عُصون الرّماح قامات ؛ الآخذ بالأرصاد على العدا بسُيوف ترقب الرّقاب وتهم
في الهامات ؛ الكافي الذي تنقل في الخدم فكان من الشكر مُثري الأثر ، وأنّ تدب
في المهمّات فكان مثاب التّواء مُسفر السّفر ؛ المعروف في تصرّفاته بانتهاز النّجح
وقصر البجح ، والمعول على أن تصفه أفعاله بشرح لصدر الاختيار به شرح ، المعداد
يوم الرّوع من كفاة الخطب وحمّة السّرح ، الماضي الحدّ إذا كان السيّف لعدم
الضارب مشتيه الحدّ بالصّفح ؛ وقدم فعل الاستقلال ، وأخر سؤال الاستغلال ،
وأسكنه من المخالصة إلى دار ببلوغ الآمال محال ، وآرتفت كاهل المجد بسعى
محظورها به استغلال ؛ وسهلت إلى الطاعة كلّ مُعتاص من المطالب ، وغدا
الاستحقاق بمُرادك نعم الكفيل وبأملك نعم الطالب ، وأشهرت بخلالٍ أقتضت
الرغبة فيما أقتضته إليك من الرغائب ، وعظم النفع بك حتى لا نفع مع غيبتك بحاضر
ولا ضرر مع حضورك بغائب . ومثل بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووليّه وأمينه السيّد
الأجل ، الذي سارت أوصافه مسير الشمس وأنارت إنارتها ، وسقت مكارمه سقى
الغيوث وأمارت إمارتها ؛ وسرت خيوله مسرى طيف الخيال وإن كره الأعداء
زيارتها ، وقامت مهابتها مقامها في البلاد وأغارّت على القلوب إغارتها ، ونازع الأقمار
بعلو القدر دارها وما حسبوا الدّست له دارتها ، وأشارت له السعادة العلوية
وأمضى التلطف إشارتها وأحسن به شارتها ؛ وطالع بما أنت عليه من طاعة تبدّل
فيها الطّاقة ، وكفاية إذا تعاطاها الوصف المتسع ضيق عنها النطق نطاقة ؛ وعدك
في سرعان الأولياء إذا رتب سواك في الساقه ، وأحتسب بمالك من حسنات نظمها
نظم السّياقه . وبما قرره لك من الخدّمة إلى ولاية كذا - خرج أمر أمير المؤمنين بأن
يُوعز إلى ديوان الانشاء بكتب هذا السجل لك بالخدّمة المذكورة ، سكونا إلى

مُنَاصِحَتِكَ الَّتِي سَكَنْتَ ضَمِيرَكَ، وَرُكُونًا إِلَى مَوَالَتِكَ الَّتِي حَقَّقْتَ أَمْلَكَ وَتَقْدِيرَكَ،
وَمِيرَادًا لَكَ إِلَى الْمَوَارِدِ الَّتِي تُوجِبُ تَقْدِيمَكَ وَتَصْدِيرَكَ .

فَتَقَلَّدَ مَا قُلَّدْتَهُ مِنْهَا بَادِئًا بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي إِنْ جَعَلْتَهَا جُنَّتَكَ كَانَتْ جَنَّتَكَ ، وَإِنْ
أَسْتَشَعَرْتَهَا عُمِدَتَكَ أَنْجَزْتَ فِي الدَّارَيْنِ مِنَ السَّعَادَتَيْنِ عِدَّتَكَ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ
الْمُكْنُونِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى :
﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . وَأَبْدَأُ فِي هَذَا
النَّغْرِ الْجَلِيلِ قَدْرَهُ ، الْمَصَاقِبِ لِمَا بِهِ مَحَلُّ السَّعْدِ وَمَقَرُّهُ ، الْمَيْسَرِ بِهِ لِكُلِّ عَامِلٍ
ثَوَابُهُ وَأَجْرُهُ ، الْمُحْضُوضِ عَلَى رِبَاطِهِ لِمَنْ تَوَفَّرَ حُظُّهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْآخِرَةِ فَأَحْسَنُ
ذُخْرِهِ بَعْدَ الْقَضَايَا ، وَصَوْنِ الرَّعَايَا ؛ وَبَثِّ السَّرَايَا ، وَتَرْوِيعِ الْعَدُوِّ مِنْ جَمِيعِ الْمَطَالِعِ
وَالنَّشَايَا ، وَإِهْدَاءِ الْمَنَايَا إِلَيْهِ فِي الْغُدُودَاتِ وَالْعَشَايَا ، وَالتَّطَلُّعِ عَلَى مَا يُجِنُّهُ مِنَ الْمَكَايِدِ
وَالْخَفَايَا ، وَكَفَايَةِ أَوْسَاطِ الصَّفَاحِ مَصَاحِفَةَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ تَحَايَا ، وَلَا تَخْلِيهِ أَنْ تُجَهِّزَ
فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَيْهِ رَايَةً أَوْ تُتَفَقَّذَ فِيهِ رَايَا ، وَأَنْ تَسْتَرْزِقَ اللَّهُ أَمْوَالَهُ مَغَانِمَ وَحَرِيمَهُ
سَبَايَا ، وَتُطْلَعَ عَلَيْهِمْ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ طَوَالِعَ الْمَنَايَا وَقَوَارِعَ الرِّزَايَا ؛ حَتَّى لَا تَلُوحَ
فُرْجَةٌ إِلَّا أَقْتَحَمْتَهَا ، وَلَا تَعِنَ فُرْصَةٌ إِلَّا آغْتَنَمْتَهَا ، وَأَمُدُّ عَلَى مَنْ يَهَذَا النَّغْرَ جَنَاحَ
الرَّعَايَةِ وَالذَّبِّ ، وَمَهَّدَ لَهُمْ جَانِبَ الْعَدْلِ لِيَتَبَوَّأُوا فِيهِ آمِنِي السَّرِّ وَالسَّرْبِ ؛ وَصُنِّمَ
صَيَانُهُ تَرْفَعُ عَنْهُمْ عَوَادِي الْمَضَارِّ ، وَتُوطِدَ لَهُمْ أَكْثَافُ السَّكُونِ وَالِاسْتِقْرَارِ ؛
وَأَعْتَمِدَ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَا يَطْلُقُ فِيكَ أَلْسِنَةُ الْمَادِحِينَ ،
وَيَنْظُمُكَ فِي سَبِيلِكَ مِنْ نَحَاهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وأَقِمِ الحَدَّ عَلَى مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ إِقَامَةٌ لَانْتَعَدَى فِيهَا الْوَاجِبَ ، وَلَا تُفَارِقْ بِهَا مَنْهَجَ الْحَقِّ الْأَلَّاحِبِ ، وَتَوَخَّ متَوَلَّى الْحُكْمِ بِإِعْزَازٍ يَنْفَذُ حُكْمَهُ ، وَإِكْرَامٍ يَشُدُّ فِي الْحَقِّ عَزَمَهُ ، وَيُرَدِّعُ الظَّالِمَ وَيَمْنَعُ ظُلْمَهُ ؛ وَكَذَلِكَ الْمُسْتَخْدَمُ فِي الدَّعْوَةِ الْهَادِيَةِ عَامِلُهُ بِمَا يَشُدُّ أَرْزَهُ ، وَيُشْرَحُ فِي دَعَاءِ الْمُسْتَجِيبِينَ صَدْرَهُ ؛ وَبِالْبُغْ فِي عَضْدِ الْمُسْتَخْدَمِينَ مِبَالِغَةً تُدْرِجُهَا الْأَمْوَالُ ، وَتُوجِدُ بِهَا السَّبِيلَ إِلَى تَوْفِيرِ عَطِيَّاتِ الرِّجَالِ ، وَتُوسِّعُ عَلَيْهِمْ فِيهَا الْمَجَالَ ؛ وَأَمْنَعُ مَنْ يَتَعَرَّضُ لَكُسْبِ الضَّرَائِبِ ، وَالْإِخْلَالِ بِالْإِزَامِ الْوَاجِبِ ؛ وَشُرُورِ الْأَقْلَابِ ، وَقَصْدِ سِرْحِ الْمَالِ بِالتَّبَابِ ؛ وَأَقِمِ لِلسُّورِ شَطْرًا مِنْ آهَتِكَ تَعْمُرُ أَرْجَاهُ وَأَبْدَانَهُ ، وَتُسْتَخْدِمُ حُرَّاسَهُ وَأَعْوَانَهُ ؛ وَتَرْتَّبْ عَلَيْهِ الْوَقُودَ فِي اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ ، وَتُعِجِزْ [عَنْ] مِثَالِهِ الْمَطَامِعَ الْمِسُورَةَ وَالْأَيْدِيَ الْمُتَسَنِّمَةَ ؛ وَوَاصِلُ مِنْ عَمَائِرِهِ مَا يَتَلَفَى الْخِلَالَ قَبْلَ أَنْفِرَاجِهِ ، وَيُعِيدُ مَبْدَأَ الْغَارَةِ عَلَى أَدْرَاجِهِ ؛ فَالْقَلِيلُ بِالْغَفْلَةِ يَسْتَدْعِي كَثْرَةَ الْأَهْتَامِ ، وَرَبَّمَا لَمْ تُصَبِّ فِيهِ الْمَرْمَى وَلَمْ يَنْجِعِ الْمَرَامُ .

ومرَاكِبُ الْأَسْطُولِ الْمَنْصُورَةِ فَوْقَهَا مَنْ تَرْضَى نُهُوضَهُ ، وَمَنْ يَقُومُ بِشَرَائِطِ الْجِهَادِ الْمَفْرُوضَةِ ؛ وَإِذَا آتَتْ فُرْصَةً لَمْ يَعْترِضْهَا التَّفْوِيتُ ، وَإِذَا نَزَلَ بِهِ الْقِرْنُ نَادَاهُ بِعَزْمِ الْمُسْتَمِيتِ ، وَإِذَا عَرَا الْمُجْتَمِعَ عَرَّضَ جَمْعَهُ لِلتَّشْتِيتِ ؛ وَاحْتَطَّ عَلَى حَوَاصِلِ هَذِهِ الْمَرَائِكِبِ فِيهَا قُوَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى عُدُوِّهِ ، وَمَدَدُ اسْتِظْهَارِهِ وَعُلُوُّهُ ؛ وَأَقِمِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ مِنْ لَهُ حِيلَةٌ فِي الْأَسْفَارِ ، وَخُبْرَةٌ بِمَكَايِدِ الْغَارَاتِ وَالْحِصَارِ ، وَمُثَابَرَةٌ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ الْمَنَافِعِ وَسَدِّ أَبْوَابِ الْمَضَارِّ ؛ وَلَكَ مِنَ الْبَصِيرَةِ الْجَامِعَةِ ، وَالْأَلْمَعِيَّةِ الْأَلَامِعَةِ ، مَا أَنْتَ بِهِ جَدِيرٌ أَنْ تَكُونَ لَكَ الذِّكْرَى نَافِعَةً ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(مما كان يكتب في الدولة الفاطمية بالديار المصرية

ما كان يكتب عن الوزير)

وقد علمت في الكلام على "المسالك والممالك" أنَّ الوزير إذ ذاك كان في منزلة
 (١) السلطان الآن، وكان الشأن فيما يكتب فيه أن يفتتح بما يفتتح به المذهب الثالث
 مما كان يكتب عن الخليفة . وهو أن يفتتح ما يكتب بلفظ : « إنَّ أولى »
 أو « إنَّ أحقَّ » أو « إنَّ أجدر » أو « إنَّ أقنن » أو « من حسنت طريقته »
 أو « من كان متصفا بكذا كان خليفًا بكذا » و « بلما كان فلان » أو « لما كنت »
 على نحو ما تقدم .

ثم ما يكتب عن الوزير : تارة يكتب بأمر الخليفة ، وتارة يصدر عن الوزير
 استقلاً ، فيبينه الكاتب في كتابته . وهي : إما لصاحب سيف ، أو قلم .
 فمن المكتتب عن الوزير في الدولة الفاطمية لأصحاب السيوف نسخة سجل
 بولاية الاسكندرية من إنشاء القاضي الفاضل رحمه الله ، وهي :

من عُدَّ من الأولياء الأماثل ، ووجد عند الانتقاد قليل المائل ؛ وتوسَّل بالحسنات
 التي يُقبل عنده منها تشجيع الوسائل ، وتُقبل السفارة له الشاملة الاستحقاق الذي
 يُغني عن المسائل ؛ ولطف فكره لأقتناء الشيم الموجبة لارتقاء الدرجات الجلائل ،
 وألقت الرتب قناعها له عند الكفء الذي يُقدم لها أفضل مهوور الجلائل ،
 وأسفرت موافق الغناء منه عن الهزبر الشهم واللوذعي الحلال ، وأفرج له الكفاة

عن صدور المنازل الرفيعة فلم يكن بينه وبينها حائل ، وأستقلّ عظيم ما يقوِّض إليه فلم تحمل الأقوام ما هو حامل ، وأتسع مجال كفايته في كل أمر يضيق بالمباشر ضيق كفة الحابل ، وتتبع آثار الخلل بعزماته تتبع الغيث آثار الديار الموأجل - كانت الولايات الحليسات له من المعدّ المدخر ، وقربت عليه منازل الآثار التي يُجمل بها ويفتخر .

ولما كان الأمير جامعاً لما أفيض فيه من هذه الصفه ، وموصوفاً بها من كل لسان صادق ونية منصفه ، جارية على غيره مجرى النكرة ومستندة إليه استناد المعرفة ، مشتملاً على خلال كغرائب المكارم مستوفية مثالبه ، كليفاً بالشيم الحميدة إذا أفصححت بها الشيم المتكلفة ، قننا أن يوقّ فيقرض سعيه إذا أقرضت المساعي المتسلّقة ، نهاضاً بالمصاعب عند ما تختلف في إعطائها الغرائم المتخلّقة ، آوياً من رجاوته إلى المعقل الحريز والحصن الحصين ، حاوياً لفضائل حسنة منها الفتك الجري والرائي الرّصين ، مقدماً على الأحوال إذا تغلّقت وجوهاً غبرا ، مُصرّاً على الخطرات حتى يظنه الغمر عُمرّاً ، مصالحاً للرماح ، إذا بدت أنامل الأسنة ، مباشراً للصفاح ، إذا دُعمت لها النفس المطمئنة ، جديراً أن يردّ الخيل المغيرة تدمي نحرها ، وتمدحك وتدممها الجراح التي أشتملت عليها ظهورها ، وسمّاً للأعداء سيوفك فعندك عُمودها وفيهم صدورها - رأينا بما آتاه الله من رأى لا يستأخر أن يستخير ، ونظرٍ يستمر أن يمتاح من موارد الرّشاد ويستنير ، ما خرج به أمرنا من ولايتك لثغر الإسكندرية بعد أن طالعنا مولانا صلوات الله عليه بما رأينا ، وأسترشدنا بيمان إمضائه مأمضينا ، وفأوضناه فيما فوضناه إليك وأفضينا ، وقضينا حق الخدمة فيما استمطرنا من صوب وأقضينا ، إذ كان الله قد خصّ خلاله بمواتاة الأقدار ، ووقف الميامن على ما يُمضيه ويوقفه من أعنة الإيراد والإصدار ، وجعل الحيرة فيما

يختار، والحق دأراً حيث دار، وأخلص للأولياء المستشعرين بولائه بخالصة ذكركم
الدار، وجعل رأيه قطباً في سماء الخلافة عليه في مصالح خلق الله المدار،
فصح ما عرضناه على مقام خلافته وصوبه، وناجته بديهة الإلهام بما أعتته
عما صعد فيه المستشير وصوبه، وخرج الينا بأن يمضى لك هذا الأمر، ويفوض
إليك هذا الثغر.

فانقبأ هذه النعمة بشكر يوجب استيفاء باقيها، واعتداد يمهّد درجات
مراقبها، متنجزاً وعد الله لمستوفيه بإيلاء المزيد، الجدير بحالته من حالة التقليد إلى
حالة التخليد، جاعلاً تقوى الله حجة فيما يقطعه ويصله، وعمدته فيما يمنعه ويبدله.
قال الله سبحانه في كتابه الذي فضله على كل كتاب: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ
وَأَتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾. ولا تجعل في حكمك بين الخصماء فرقا وإن عدل
أحدهما، وليكن على الحق الذي لا مفاضلة فيه مقعدهما عندك وموردُهما،
وأنتصف للظلم من الظالم، وأعمل في ذلك عمل من لا تأخذه في الله لومة لائم،
وأقيم الحدود متحرّياً، وأمضها إمضاء من لا يزال بعين طاعة الله متحلياً، ونفّذها
غير مكثّر ولا مقلّ، فإن المكثّر متعدّ والمقلّ محلّ.

وقد علمت ما للقاضي من التقدّم الشبيه، والرتبة الأثيرة، والمساعي التي هي
بالسنة الحمد مأثوره، والأقوال التي هي في صحائف حسن الذكر مسطوره، والحرّمات
التي شهدت بها الأيام والليالي، والموات التي انتظمت في سلوك التصرفات انتظام
الآلاتي، والصفات التي زهت بها أجياد المحامد الحوالى، وله الخبرة بقوانين هذا
الثغر وأحكامه، والعادة التي لا خلاف أنها لمصالح ما يباشره وإحكامه، وأنت
مقدم أرباب السيوف في الثغر وهو مقدم أرباب أقلامه، فأعريف له منزله

فِي الْحَدَمِ الْمَنُوطَةِ بِكَفَالَتِهِ ، وَالْأُمُورِ الْمَحُوطَةِ بِإِيَالَتِهِ ؛ وَوَفَّهَ مِنْ أَثَرِ الْإِبْكَارِ حَقَّهُ ،
وَيَسِّرَ فِيمَا أَشْتَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مَعُونَتِكَ طُرْقَهُ ؛ وَأَعِنِ الدَّاعِيَ عَلَى مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْإِرْشَادِ ،
وَقُمْ فِي إِعْلَاءِ مَنَارِهِ قِيَامَ الْمُغْرَمِ الشَّادِ .

وَالْأَمْوَالُ أَوْلَى مَا صَرَفْتَ إِلَيْهَا هَمَّكَ ، وَوَقَفْتَ عَلَيْهَا عَزَمَكَ ؛ فَاسْتَنْهِضِ
الْمُسْتَخْدَمِينَ فِيمَا يُسْتَادَى ، وَلَا تَمَكَّنْهُمْ أَنْ يُحْدِثُوا رُشْمًا وَلَا يُسْقِطُوا مُعْتَادًا ؛ وَلَا بَدْ
مِنَ الْمَقَامِ بِظَاهِرِ الْبَحْرِ مَدَّةَ أَنْفِتَاحِهِ ، وَتَفْقُدَ الْأَسْطُولَ الْمَقِيمَ بِالْمِينَاءِ تَفْقُدًا يَسْتَوْعِبُ
أَسْبَابَ إِصْلَاحِهِ ؛ وَأَذْكِ الْعُيُونَ عَلَى سَوَاحِلِهِ فَلَمْ يَحُلْ أَمْرُ الْعَدُوِّ مِنْ طَارِقٍ لَيْلٍ
وَخَاطِفٍ نَهَارٍ ، وَذُدَّهُمْ عَنْ بَغَاتٍ هُجُومِهِمْ بِمَا يَبْلُغُهُمْ عَنْكَ مِنْ دَوَامِ التَّقِيطِ
وَالْإِسْتِظْهَارِ ؛ وَاسْتَنْهِضِ الرِّجَالَ فِي نَوَائِبِ الْحَدَمِ وَحَوَادِثِهَا ، وَصَرِّفْهُمْ عَلَى مُوجِبَاتِ
الْمُتَجَدِّدَاتِ وَبَوَاعِثِهَا .

وَهَذَا الشُّعْرُ فَيهِ مِنْ أَرْبَابِ الزَّوَايَا الْعَاكِفِينَ عَلَى الْعِبَادَاتِ ، وَالْعَالِمَاءِ الدَّاعِينَ
النَّاسَ إِلَى الْإِفَادَاتِ ، مِنْ لَا يُدْنَحَرُ الْإِكْرَامُ إِلَّا لِأَنْ يُوْدَى إِلَى اسْتِحْقَاقِهِمْ ، وَلَا يُصَانُ
الْمَالُ إِلَّا لِأَنْ يُبْدَلَ لَاسْتِحْقَاقِهِمْ ؛ فَأَوْصِلْ إِلَيْهِمْ مَا هُوَ مَقَرَّرٌ لَهُمْ لِإِصْلَاحِ هِنِيَاءِ ،
وَأَعْفِهِمْ مِنْ مَثُونَةِ الْهَزِّ وَسَاقِطِ عَلَيْهِمْ رُطْبَا جَنِيَاءِ ؛ وَاسْتَنْهِضْ لَنَا دَعَوَاتِهِمْ فَإِنَّهَا أَسْهُمُ
الْأَسْبَحَارِ ، وَاسْتَخْلَصْ لَنَا نِيَّاتِهِمْ فَهُمْ لَنَا جُنْدُ اللَّيْلِ وَغَيْرُهُمْ لَنَا جُنْدُ النَّهَارِ ؛ وَالسَّلَامُ .



وَمِنْ ذَلِكَ نَسْخَةُ سَجَلٍ بِحِمَايَةِ الرَّبَّاعِ ، وَهِيَ :

مَنْ كَانَ فِيمَا يَتَوَلَّاهُ مَشْكُورَ السَّعْيِ مَحْمُودَ الْأَثَرِ ؛ مُسْتَعْمِلًا مِنَ النَّصِيحِ وَبَدِّلَ الْجُهْدِ
مَا يَزِيدُ الْخُبْرَ فِيهِ عَلَى طَيِّبِ الْخَبَرِ ؛ مُعْتَمِدًا مَا يَدُلُّ عَلَى دِرَايَةِ وَخْبَرَةٍ وَدُرْبَةٍ ، مُتَوَخِّيًا

(١) لعله لاستيجابهم .

ما يجعل الخدم إذا ما ردت إليه لم تحل في دار غربه - استحق أن يورى زنده ،
ويرهف حده ، وتقوى منته ، وتُشحد قريحته .

ولما كنت أيها الأمير من عرف نفاذه وأُنعت خلاله ، وشكرت طرائقه
وآرتضيت أفعاله ؛ وظهر فيما يباشره غناؤه وأستقلاله ؛ وجمع إلى الكفاية نزاهه ،
وإلى الأمانة نباهه ؛ وإلى اليقظة عفافا وسدادا ، وإلى النهضة حزاما لا يجد الطالب
عليها مسترادا - تقدم في مولانا وسيدنا باستخدامك في حماية الرباع السلطانية بالمعزية
القاهرة المحروسة : سكونا إلى جذك وتشميرك ، وتعويا على تأتيك وتذكرك ؛
فاستخير الله وباشر ما ردت إليك من هذه الحماية بعزم لا يمازجه فتور ، وحزم لا يصاحبه
قصور ؛ واكشف أحوال هذه الرباع كشفا يعرف به حالها ، ويعلم منه استقامتها
وأختلاها ؛ وأنصب لاستخراج ما لها من الشكان ، وأستعمل في أسيديته غاية
الاستطاعة والإمكان .

وملاك الأمر فيها أن نتعهدا بالطواف فيها ، وأن تحافظ على حراسة غيرها ،
وتناول أجرها ؛ ورم مالعه يسترم منها ويتشعث ، والعكوف على ذلك بحيث لا يتوقف
فيه أمر ولا يترث ؛ وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يصرف
في مصالحها ، ويطلق فيما ينبت به عليها ؛ ولك من الأمير من يعينك ويخجك ،
ويبلي دعوتك ويعضدك ؛ ويظافرك على انتظام شئونك ومقصدك : من الاشتمال
بما يزيد على تأميلك ؛ فأجعل عليه اعتمادك ، وبه في الحل والعقد أسترشادك ؛ فاعلم
هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن الوظائف المكتتة عن الوزير لأرباب الوظائف الدينية نسخة سجيل بالحكم بقوص ومشاركة أعمال الصعيد، وهي :

من تقدمت لأسلافه خدام ومناصحات، وكانوا مشهورين بأن طرائقهم في السداد مستقيماً واضحاً، وعُرف جميعهم بالصيانة والديانة، والثقة والأمانة، والمحافضة على ما يُحفظهم عند ولي نعمتهم، والعمل بما يقضى بطيب ذكركم وحسن سمعتهم، كان ذلك ذريعة له ووسيلة، ومائة ينال بها المواهب الجزيلة .

ولما كنت أيها القاضي على القضية المرضية من ولاء الدولة وطاعتها، والحرص على الإخلاص لها ومشايعتها، والتحلي بالعلم والتميز في أربابه، والتعلق بفعل الخير والتمسك بأسبابه، والعمل بما ينفعك في عاجلتك وآجلتك، والاجتهاد فيما يبعث على وفور حظك من الإنعام وزيادتك، وكانت لك دربة فيما تُعانيه ودرابه، وصولة في حسن التأني إلى أمد بعيد وغايه، وقد تقدمت لأخيك القاضي الرشيد - رحمه الله - خدمة أبانت عن حرصه ومناصحته، وأعربت عن وفور نصيبه من النهي ورجاحته، فأدنى ذلك إلى بلوغه من رتب أمثاله أقصاها، وإلى أن استقرت خدمه عليه وألقت عنده عصاها، وهذه نصيبك إذا أقتفيتا فقد عرفت مفضاها، وإذا عكفت عليها نالك من الإحسان على حسبها ومقتضاها - تقدم قتي مولانا وسيدنا باستخدامك في النيابة في الحكم بمدينة قوص والمشاركة بأعمال الصعيد الأعلى : تنويعاً بك وتكريماً لك، وتمهيداً لمكان الإصطناع الذي رتبك فيه وأحللك، فأعرف قدر هذه النعمة، وقابلها ببذل الطاقة في النصيح في الخدمة، وبالغ في الشكر الذي يُبثها عندك ويُدِيمها لك، وأحرص على القيام بحققها حرصاً تبد به

نظراءك وأمثالك ؛ وأعمل في ذلك بما تضمنه التقليد المكتتب لك من مجلس
القاضي الأعز الماجد أدام الله تمكينه ، وما أودعه من وصايا مُرشده ، وهدايات
إلى الصواب مُقرّبة وعن الخطأ مُباعدة ؛ وأفعل في أمر المشارفة ما آثمت
عليه التذكرة المعمولة من الديوان فإنه يُوضح لك منهج الصّلاح ، ويأتيك منه
بما يزيد على البغية والاقتراح ؛ وانتصب للعمارة والاستثمار من الزراعة بالمعدلة
على المُعاملين ، والاستخراج لحقوق بيت المال على أحسن القوانين ؛ وواصل
من الجُمول ، ما يكون محققاً للظنون فيك والمأمول ؛ فأعلم هذا وأعمل به ،
إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك نسخة سجل بالنيابة في الحكم والأجاس والحوالى بتغرديمياط ، وهي :
أحق من كانت المواهب عنده مُحلّده ، والمنائح إليه متواصلة متجدّده ؛
والعوارف تفد عليه فتُخيم في مَغناه وتُقيم ، والفواضل تأتي نحوه فتستقر في مَثواه
ولا تريم ؛ والنعم الشتى لا تشكو في موطنه آستيحاشا ولا أغترابا ، والمِنَّن إذا حُبى
بها كان نيلُه لها استحقاقاً منه لها وآستيجابا - من كُرمَت أعرافه ومحاتده ، وشُهرت
أوصافه ومحامده ؛ وصفت في المُخالصة مصادره وموارده ، وكثرت في تقرّيطه
غرائب النّاء وشوارده ؛ وشيّد منار أسلافه بالتخلّق بخلائقهم ، وأبقى الحديث عنهم
باتّهاج سُبُلهم وطرائقهم ؛ وأحسن رَهم ، في الاقتفاء لأثرهم والاقتداء بهديهم ،
وإحياء ذكّهم ، بالعمل بما كانوا عليه في عودهم وبدّهم .

ولما كنت أيها القاضي لهذه الخلال جامعا ، وإلى المرآشد مُصغيا سامعا ،
ولُبوغ ماناله أسلافك بالمناصحات راجيا طامعا ؛ ولك فيما يُسند إليك نظرٌ يدل

على صواب آرائك ؛ وفيما يُرَدُّ إلى توليك كفاية تميزك على نظرائك ؛ ولما نُدِبْتَ
للأحكام الشرعية ، أُنْتِ عن الديانة والألمعية ؛ وحين باشرت الأعمال الديوانية ،
نصحت وأجهدت وأخلصت النية ؛ والذي بيدك يتمسك بك ، ويتعلق بسبك ؛
لأنك لما أَسْتُكْفِيْتَهُ نهضت وأحسنت ، فلذلك يأبى أن يُكَلِّفَهُ غيرك وأن
لا يتكفله إلا أنت - تقدم في مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشور بتجديد نظرك فيما
هو بيدك من النيابة في الحكم العزيز بغير دُمِيَّاط - حماه الله تعالى - والمشاركة على
الأعباس به ، وعلى مستخرج الجوال فيهِ ، تقوية لعزمك ، وإمضاء لحكمك ،
وشدًا لأزرك ، وتأكيذاً لأمرك ، وإنفاذاً لقولك ، وبَسْطاً ليدك ، وإيضاحاً
لميزتك ، وإظهاراً لتكريمك ، وإبانة عن حسن النية وإعراباً عن جميل الرأي فيك ؛
فاجر على رَسْمِكَ وعادتك ، وأستغني بما أودعته تقاليدك من الوصايا ، وأستمر على
نهجك الذي أفضى بك إلى أحد الأفعال وأجمل القضايا ؛ وأرتبط النعمة عندك
بمَنَادِيكَ على عادتك ، وتوسل بمشكور السعي إلى نمو حظك وفور زيادتك ؛ فاعلم
هذا وأعمل به ، إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك نسخة سجل بالحكم بالأعمال الغربية ، وهي :

مَنْ كان بالعلوم الدينية قُومًا ، وفي الأمور الشرعية مَنْ يشار إليه ويؤمى ، وظلَّ
مَنْ يُجَارِيهِ من طبقته قليلًا إذا لم يكن معدومًا ؛ وعلم نفاذه الذي سَلِمَ من المناقضة
فيه والإختلاف ، وعُرفَ آعماده الواجب من غير ميل عنه ولا انحراف ؛ وكان
لشَمْلِ الديانة والأمانة مؤلفًا جامعًا ، وغدا الوصفُ بجميل الحلال وحميد الأفعال
عنه مسموعًا ذائعًا ؛ وآثاره في كل ما يتولاه مُدَاخِهُ وخُطْبَاؤُهُ ، وسفراؤُهُ في الرتب

الجليلة نزاهته وظلّف نفسه وإباؤه - صارت الأحكام بنظره مزهّوة، وأضحت الحِدم الخطيرة تتوقّع بإسنادها إليه استظهاراً وقوّه، فهي تشوّف إلى أن يُوليها حظّاً من محاسنِه يُكسبها نَصرة وبهاء، وتتصدّى من نظره فيها لما يضمن لها إدراكاً للإرادة وبلوغاً إليها وأنتهاء.

ولما كنت أيّها القاضى حائزاً لهذه الصّفات، محيطاً بما أشتملت عليه من الأدوات؛ سالكاً أعدل طريق في الأمور إذا أشكلت، عاملاً بقضايا الواجب إذا اعتمدت الإقبال عليك وأتكلت؛ ولك الحِدمة السنية، التي لا تطمح إليها كل أمنيّة، والرتب الرفيعة التي لا ينالها إلّا مَنْ كان عمله موافقاً لصديق النية؛ وكلّ ما تباشره يغتبط بك ويأسى على فراقك، وكلّ ما حُظر على غيرك مباح لك لا يستجيبك له وأستحقاقك؛ فمن العدل أن تكون كفايتك على الأعمال مقسّمة، وأن تكون آثارك في كل ماتعائنه من أمور المملكة علامة لك عليها وسمّه؛ وكانت الخدمة في الحكم بالغبية من التصرفات الوافية المقدار، السامية الأخطار؛ التي لا يسمو كلّ أمل إليها، ولا يحدث كلّ أحد نفسه بتوليّها؛ وقد أشتهرت خبرتك بالأحكام، وحفظك فيها للنظام؛ وبثّك للقصاص المشكّله، ورفعك للنوب المعضله - فرأينا استخدامك نائباً عن القاضى الأعزّ الماجد في الصّلاة والخطابة والقضاء بالأعمال الغريبة المقدم ذكرها: إذ كنت تعدل في أحكامك، ولا تخرج عن قضايا الصواب في نقضك وإبرامك؛ ولا تُحايي في الحقّ ذا منزله، ولا تنفك معتمداً ما يقضى لك بالميزّة المتأكّدة والرتبة المتأثله؛ وأمرنا بكتب هذا المسطور شداً لأزرك، وتشييداً لأمرك؛ وإبراءً لزندك وتقويةً لعزمك؛ وضمنّا ما تقدّم ذكره من وصفك وشكرك، وتقريظك وإجمال ذكرك؛ والثناء على علمك، والإبانة عن قضيتك في قضائك وحُكّمك.

فاعمل بما اشتمل عليه التقليد المكتتب لك من مجلس الحكم العزيز وأنته إلى ما أودع من فضوله ، وكن عاملاً بمضمونه متبعاً لدليله ؛ والله يوفقك ويرشدك ، ويعينك ويسدّدك ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك نسخة سجل بالحكم والمشارفة بغير عسقلان من سواحل الشام ، وهى :

الذى منحنا الله من المفائر الدالة على محلّنا عنده ، والمآثر التى أوصلنا بها من الشرف إلى أمد لا غاية بعده ؛ والقضايا العادلة التى أبانت عما أجراه الله لنا من اللطائف ، والسياسة الفاضلة التى تشهد لنا ببياض الصحائف ، قد ضاعف حظنا من التأييد فيما نراه وتمضيه ، وضمن لنا الهداية فى حق الله تعالى إلى ما يرضيه ؛ وأجزل قسطنا من التوفيق فى اجتناء من تجتنيه ، وحجب لنا إسناء المواهب لمن كان قليل النظير والشبيه ؛ ووقف آهتما منا على التنبيه (؟) على كل مشكور المساعى ، وصرف أعترامنا إلى التفقّد للقاصد التى هى على الإصطفاء من أقوى الدواعى ؛ ووفّر ألففاتنا إلى تأمل الإخلاص الذى صفت موارده ، وصحّت سرائره ، وأحكمت معاقده ، وأحصدت مرائره ؛ وتوكل لصاحبه فى بلوغ المطالب البعيدة المطارح ، وتبتّل لمن وفق له فى سُبُوغ العوارف المُخَصَّصة المسارح ؛ وجعلنا لا نفعل عمن بذل فى الطاعة مُهْجَتَهُ ، وأظهر بدوّه وانتصابه دليله على الولاء المحض ومُحَبَّتِهِ ؛ وأبان عن تقواه وحسن إيمانه ، وتقرب باستفراغ وسعه إلى الله تعالى وإلى سلطانه ؛ وعمل فيما أوْثَمَ عليه ما استوجب به جزيل الأجر ، وكان له من رأيه فى أعداء المِلَّة ما يقوم مقام العسكر الجَرّ ؛ وعلم أنّ تجارتَه فى الخالصة نافقة مُرْجِه ، وأن مراميه فى المناصحة صائبة مُنْجِجِه ؛ وتيقن أنا بحمد الله لأُحِبَّ أملاً ، ولا نُضِيعُ أجراً من أحسن عملاً .

ولما كنت أيها القاضي المكين المرتضى ثقة الإمام جلال الملك وعماده
 ذو المعالي صفى أمير المؤمنين، مستولياً على هذه الخلال، التي تكفلت لك بإعلاء
 القدر، ومحتوياً على هذه الخصال، التي رتبك على نظرائك في الصدر؛ ولك من
 الحرمات سواي لا يطمع فيها بلحافك، ومن الموات شوافع تجعل جسام النعم وقفا
 لأستحقاقك؛ وقد عرفت بالحد والتشهير، واشتهرت بصادق العزم وصائب
 التدبير؛ وجعلت مؤهلاً لكل أمر خطير ومهم كبير، واستقر أنك إذا استكفيت
 جسيماً فقد وكل منك إلى الأمين الخير : لأنك لك الرياسة التي لا تجارى فيها
 ولا تُبارى، والكفاية التي لا يُختلف فيها ولا يُتمارى، والفضائل التي تشهد بها
 أعدائك وحسادك اضطراباً، وما زالت أفعالك في كل ماثولاه من الخدم الحليلة
 دالة على كرم طباعك، وأثارك معربة عن سعة ذرعك في الخير وامتداد باعك،
 وأخبارك ناطقة بإثائك عن الباطل واقتفائك للحق وأتباعك؛ ولما نظرت في القضاء
 تهلل بنظرك وجه الشرع، وأبنت عن اضطلاعك من علمه بالأصل والفرع؛
 وعدلت في أحكامك، ولم تعدل عن الواجب في نقضك وإبرامك؛ وفعلت ما أقر
 عين الله، وأربيت على من تقدمك من القضاة الحلة، واعتمدت من الإنصاف
 ما بردت به الغلة وأزحت به كل علة؛ ووقيت هذه الخدمة جميع شروطها،
 وفسحت في توليك أمانى المظلومين بعد ضيقها وقنوطها؛ وقت في ذلك المقام الذى
 يقضى بنبوت النعمة عندك وخلودها، وبالغت في ارتباطها بالشكر لعلمك أن شرودها
 بكونودها . فاما الإشراف فإنك أتيت فيه ما دل على حسن المعرفة، واستقبلت
 في وجهه كل صفة؛ وأوضح أن كل من باشره لم يبلغ مداك، ولا جرى مجراك؛
 ولا وصل إلى غايك، بل ما طمع بمدانك ولا مقاربتك؛ وكل ماعدق بكفايتك فقد
 أتيت بحمد الله فيه على الأغراض، لاجرم أنه مستدع لزيادتك ومطالب ومتقاض؛

فحينَ اجتمعتَ لك هذه الأسبابُ استوجبتَ من إنعامنا ما يتزده كرمنا عن تعويقه ،
ومن جزيل إحساننا ما يكون تعجيله حقاً من حقوقه ؛ فشرّفناك بتجديد ما هو بيدك
من الحكم العزيز والمشاركة بثغر عسقلان حماه الله تعالى ، وجعلنا النيابة في الحكم عنا
تنوياً بك ورفعاً لشانك ، وتبييناً لموضعك عندنا ومكين مَكَانِكَ .

فأعمل بتقوى الله التي أمر بها في كتابه الذي به يهتدى المؤمنون فقال عزّ من
قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . وأجر على عادتك فيما حسن أثرك ، وأطاب خبرك ، معتمداً
على ماتضمنته عهدك ، وأشملت عليه تقاليدك : من المساواة بين القوى والضعيف
في الحق ، وإجراء الشريف والمشروف في المحاكمة مجرى واحداً من غير فرق ؛
والنظر فيمن قبلك من الشهود ، وحملهم على القانون المألوف المعهود : من إقرار
من ترتضيه ، والمطالبة بحال من تأباه لما توجبه طريقته وتقتضيه ؛ والمحافظة
على أن لا يتعلّق بشيء من أمور الحكم إلا من أحمده فعله ، وحصل له من التركية
ما يزكّي به مثله ؛ إلى غير ذلك مما أودع فيها ، وأحاطت بها الوصايا التي لم يزل
يستوعبها ويستوفيها .

وأستقيم على سبيلك في ضبط المال وحفظه وصونه ، وأستعين على بلوغ المراد
في ذلك بتأييد الله وتوفيقه وعونه ؛ وتماد على سنتك في النظر في أحوال الثغر
المحروس والانتصاب لمصلحه ، والتوقر على منافعه ، والاجتهاد في الجهاد بآرائك ،
والاستمرار في ذلك على سيد أئمتك ، والله وليّ عونك وإرشادك ، والمأث بتبليغك
فيما أنت فيه أقصى مرادك ؛ فاعلم هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة سجل بتدريس ، وهى :

أمير المؤمنين لما مَنَحَهُ الله من الخِصَائِصِ التى جعلتهُ لدينه حَافِظًا ، ولصالح أمور المسلمين مُلَاحِظًا ؛ وَلَمَّا عَادَ بِسُؤَالِ المنافع لهم مَوَاتِرًا ، وبما أَحْظَاهُمْ عنده تبارك وتعالى مُعِينًا وعليه مُتَابِرًا ؛ لا يَزَالُ يُؤَلِّمُهُم إِحْسَانًا وَفَضْلًا وَمَنًّا ، وَيُسَبِّحُ عَلَيْهِم إِنْعَامًا لَمْ يَزَلْ تَسْمِ (?) هَمَمُهُمْ إِلَى أَنْ نُنْتَهَى ؛ وَقَدْ يَسِّرَ اللهُ تَعَالَى خِلَافَتَهُ وَدَوْلَتَهُ ، وَوَهَبَ لِإِمَامَتِهِ وَمَمْلَكَتِهِ ؛ مِنْ السَّيِّدِ الْأَجَلِ الْأَفْضَلِ ، أَكْرَمَ وَلِيٍّ ضَاعَفَ تَقْوَاهُ وَإِيمَانَهُ ، وَأَكَمَلَ صَفَى وَقَفَ أَهْتَامُهُ وَاعْتَرَاهُ عَلَى مَا يُرِضِيهِ سَبْحَانَهُ ؛ وَأَعَدَّ وَزِيرَ لَمْ يَرْضَ فِي تَدْيِيرِ الْكَافَّةِ بِدُونِ الرِّتْبَةِ الْعُلْيَا ، وَأَفْضَلَ ظَهِيرٍ أَبْتَغَى فِيمَا آتَاهُ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَمْ يَنْسَ نَصِيْبَهُ مِنَ الدُّنْيَا ؛ فَهُوَ يُظَافَرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا عَمَّ صَلَاحُهُ عَمُومَ الْهَوَاءِ ، وَيَفَاوِضُ حَضْرَتَهُ فِيمَا يَسْتَخْلَصُ الضَّائِرَ بِمَا يَرْفَعُ فِيهِ مِنْ صَالِحِ الدَّعَاءِ .

وَلَمَّا أَتَتْهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِيزَةُ نَعْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ - حَمَاهُ اللهُ تَعَالَى - عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الثُّغُورِ ، فَإِنَّهُ خَلِيقٌ بَعْنَايَةٍ تَامَةٍ لَا تَزَالُ تُنْجِدُ عَنْده وَتُغَوِّرُ : لِأَنَّهُ مِنْ أَوْفَى الْحَصُونِ وَالْمَعَاقِلِ ، وَالْحَدِيثِ عَنْ فَضْلِهِ وَخَطِيرِ مَحَلِّهِ لَا تَهْمَةُ فِيهِ لِلرَّأْيِ وَالنَّاقِلِ ؛ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْقُرَاءِ وَالْفَقَهَاءِ ، وَالْمُرَابِطِينَ وَالصُّلَحَاءِ ؛ وَأَنْ طَالَبِي الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَنْ الْوَارِدِينَ إِلَيْهِ ، وَالطَّارِئِينَ عَلَيْهِ ، مَتَشَتَّتُو السَّمْلَ ، مَتَفَرَّقُوا الْجَمْعَ - أَبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا حَائِرِينَ مَتَلَدِّينَ ، وَلَمْ يَرْضَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا مَذَبَّيْنِ مَتَبَدِّينَ ؛ وَخَرَجَتْ أَوَامِرُهُ بِإِنْشَاءِ الْمَدْرَسَةِ الْحَافِظِيَّةِ بِهَذَا الثُّغْرِ الْمَحْرُوسِ بِشَارِعِ الْحَجَّةِ مَنَّا عَلَيْهِمْ وَإِنْعَامًا ؛ وَمَسْتَقَرًّا لَهُمْ وَمُقَامًا ؛ وَمَتَوًى لَجَمْعِهِمْ وَوَطَنًا ، وَمَحَلًّا لِكَاثَمِهِمْ وَسَكَنًا ؛ بِجَدِّدِ السَّيِّدِ الْأَجَلِ الْأَفْضَلِ أَدَامَ اللهُ قُدْرَتَهُ الرَّغْبَةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنْ يَكُونَ مَا يَنْصَرِفُ إِلَى مُؤْنَةِ

كل منهم والقيام بأوده، وإعانتِه على ما هو بسبيله وبصدده: من عينٍ وغلة، مطلقاً من ديوانه، وأستفدَ أمير المؤمنين المثوبةَ في ذلك فأجابه جرياً على عادة إحسانه؛ وأستقرتْ التقدمةُ في هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبوالطاهر: لنفذك وأطلاعك، وقوتك في الفقه وأستضلاعك؛ ولأنك الصدرُ في علوم الشريعة، والحالُ منها في المنزلة الرفيعة؛ والمستغلُّ الذي أجمع له الأصول والقُروع، ومن إذا أختلِف في المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع؛ هذا مع ما أنت عليه من الورع والثَّقَى، وأنَّ مجاريك لا يكون إلا ناكصاً على عقبه مُحَقِّقاً، وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين، وتعلم ما علمك الله إياه لمن يُريد ذلك من المؤثرين والطالبين؛ ونرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شداً لأزرك، وتقويةً لأمرك ورفعاً لذكرك.

فأخلص في طاعة الله سراً وجهراً، فإنه تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . وأعتدّ توزيع المطلق عليهم، وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدّي اجتهداك إليه، ويوفّقك نظرك عليه؛ وقرب من آرْتضيتَ طريقته، وأبعد من أنكرت قضيتّه؛ فقد وكل ذلك إليك، وعُدق بك من غير اعتراض فيه عليك؛ فمن قرأه أو قرئ عليه من الأمير المظفر والقاضي المكين - أدام الله تأييدهما - وكافة الحماة والمتصرفين، والعُمال والمستخدمين؛ فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن آحتوت عليه من الطلبة وإعزازهم، والأشتمال عليهم، والاهتمام بمصالحهم، والتونحي على منافعهم؛ وليتل هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع، وليخلّد بهذه المدرسة حجة بما تضمّنه، إن شاء الله عز وجل.



ومن ذلك سجل بولاية الحسبة من إنشاء انقاضى الفاضل ، وهى :

مَنْ شَكَرْتُ خَلَاتُكُ ، وَتَهَدَّبْتُ طَرَاتُكُ ، وَأُمِنْتُ فِيمَا يَتَوَلَاهُ بَوَاتُكُ ؛ وَنِيَطْتُ
بِعُرَى الصَّوَابِ عِلَاقُكُ ، وَفَرَجْتُ بِسَدَادِهِ مَسَالِكُ الْإِشْكَالِ وَمَضَاقُكُ ؛ وَأَسْتَحْوِى
مِنَ الْأَمَانَةِ قَرِينًا فِي التَّصَرُّفَاتِ يُرَافِقُكُ وَلَا يُفَارِقُكُ ، وَنَهَضُ إِلَى الْأَسْتَحْقَاقِ وَلَمْ تَعْقُكُ
دُونَهُ عَوَاقُكُ ، وَأَتْنِى عَلَيْهِ لِسَانُ الْإِخْتِبَارِ وَهُوَ صَحِيحُ الْقَوْلِ صَادِقُكُ - اسْتَوْجَبَ أَنْ
يُخَصَّصَ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ بِأَجْمَلِهِ ، وَأَنْ يُعَانَ عَلَى نَيْلِ رَجَائِهِ وَبُلُوغِ أَمَلِهِ ؛ وَأَنْ يُقْتَدَحَ
زَنْدُ نَيْتِهِ لِيُرَى نُورُ عَمَلِهِ ، وَتَيْسَّرَ إِلَى النِّجَاحِ مَتَوَعَّرَاتُ طُرُقِهِ وَمَشْكَلاتُ سُبُلِهِ ؛
وَأَنْ يُقَابَلَ جَرَيَانُهُ فِي الْوِلَايَةِ قَبْلَهُ فَيُظْهِرَ عَلَيْهِ أَثْرَ الْإِحْسَانِ فَيَكُونَ الشُّكْرُ مِنْ قَبْلِ
الْإِحْسَانِ لَا مِنْ قَبْلِهِ ؛ وَيُورَدَ مِنْ مَوَارِدِ النِّجَاحِ مَا يَتَكَفَّلُ لَهُ بِالرِّىِّ مِنْ غُلَّةٍ ، وَيُوسَمَ
مِنْ مَيَاسِمِ الْأَصْطِنَاعِ مَا يَكُونُ حَلِيَّةَ أَوْصَالِهِ وَيُسْقَعُ سَدَادُ خِلَالِهِ فِي سَدِّ خَلَلِهِ .

ولما كنت أيها الشيخ المشتمل على ما تقدم ذكره، المستكمل من الوصف
ما يوجب شكره ؛ الآوى إلى حرز من الصيانة حريز، المستغنى بغنائه عن الاستظهار
بعزوة العزيز^(١)؛ المستوجب إلى أن يعد من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز، المستوعب
من الخلال الجميلة ما لا يقتضيه القول الوجيز ؛ المخرج من قضايا الدنابا فما يستبيح
محرمها ولا يستحيز، المدح في خديم كلها أخلصته خلاص الذهب الإبريز؛ وكانت له
مضماراً تشهد له أفعاله [فيها] بالسبق والتبريز، المتوسل بأمانة عزبها جنابها عن
الشبهة ووجدانها في الناس عزيز - تقدم فتى مولانا السيد الأجل باستخدامك على

(١) العزوة بالكسر الاعتزاء . أى انه غنى بنفعه عن الاستظهار بالاعتزاء الى أحد . وفي الأصل بعزوة

الحسبة بمدينة كذا : فباشر أمرها مباشرة من يبدل في التقوى جهداً ، فلا يرى غيرها على ظملي ورداء ؛ ولا يراه الله حيث نهاه ، ولا يأمره أبداً وينهاه إلا نهاه ، ولا يرى ما كشفته إلا وهو عالم أن الله يراه ؛ وأنته فيها إلى ما ينتهي إليه من بذل غاية وسعه ، ومن لا يرتد عن جرركه من عموم نفعه ؛ ومن يبدل بتهديب طباع الناس على طهارة طبعه ، ومن يستجزل حسن صنع الله لديه بحسن صنعه ، ومن يستدعي منه بذل فضله بحظر مأمير بحظره ومنعه . وأسلك فيما تستعمله من أمرها المذهب القصد والمنهج الأقوم ، واجتهد فيها اجتهد معتصم بحبل التقوى المتين وسببها الملبم . وأمنع أن يخلو رجل بامرأة ليست بذات محرم . وأستوضح أحوال المطاعم والمشارب ، وقوم كل من يخرج في شيء منها عن السنن الواجب . وعير المكاييل والموازين فهي آلات معاملات الناس ، واجتهد في سلامتك من الآثام بسلامتها من الإلباس والأدناس ؛ وحذر أن تحمل دابة ما لا تطيق حمله ، وأدب من يحجى إلى ذلك يتوخى فعله ؛ وأوعز بتنظيف الجوامع والمساجد لتتبر بالنظافة مسالكها ، كما تتبر بالإضاءة حواليكها ؛ ففي ذلك إظهار لبهجتها وجمالها ، وإيثار لصياتها عن إخلال نصرتها وأبتذالها ؛ ولا تمكن أحداً أن يحضرها إلا لصلاة أو ذكر ، قاطعا لسان الخصام وموقفا لعين الفكر ؛ فأما من يجعلها سوقاً للتجارة ، فقد حصل بهذه الحسارة على الخسارة ؛ فهي ميادين الضمر ، وموازين الرُجح في الظاهر من أعمالهم والمُضمر ؛ وما أحق لياليتها أن تقوم بها المجدد لا السمر ، وهل إذن الله أن ترفع لغير اسمه أو تُعمر ؛ وأحظر أن يحضر الطرقات ما يمنع السلوك أو يوعره ، وأفعل في هذا الأمر ما يردع العايب ويزجره . وخذ النصارى واليهود والمخالفين بلبس الغيار وشد الزنار ، ففي ذلك إظهار لما في الإسلام من العزة وفي المخالفة من الصغار ؛ وإبانه بالشدة للتأهب للسير إلى النار ، وتفريق بين المؤمنين والكفار ؛ وأدب من يكبل

مطققاً، أَوْ يَزِنُ متحقيقاً، أدباً يكون لمعاملته مزيّفاً، وله من معاودة على فعله زاجراً
ومخوفاً؛ فاعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى .



ومن المكتتب عن الوزير لأرباب الوظائف الديوانية سجلٌ بمشارفة الجوالى
بالصعيد الأدنى والأشْمُونين، وهى :

مَنْ حُسِنَتْ آثارُهُ فيما يتولاه، وآسْتَعْمَلَ من الإِجْتِهَاد ما يُدِلُّ على معرفته بقدر
ماتولاه؛ كان آعْتَمَدُهُ بما يُؤَكِّد سَبَبَهُ وَيُنْجِصُ قَصْدَهُ وَيَسْطُرُ يَدَهُ، وَيُرْهِفُ حَذَّه
فِيما يَضْمَنُ مَصَالِحَ خِدْمَتِهِ، وَيَنْظِمُ أَمْرَهَا فِي سِلْكِ إِيْثَارِهِ وَبُغْيَتِهِ .

ولما كُنْتَ ^(١) لَمَّا نُدِبْتَ إِلَى مُشَارَفَةِ الْجَوَالَى بِالصَّعِيدِ الْأَدْنَى
وَالْأَشْمُونِينَ قَدْ أَبْنَتْ عَنِ الْحُبْرَةِ وَالْدَّرَايَةِ، وَالْأَمَانَةِ وَالْكِفَايَةِ، وَالْإِتْتِصَابِ
لِلْإِسْتِخْرَاجِ وَالْحَيَايَةِ، وَالْإِجْتِهَادِ فِي الْوَفَاءِ بِمَا كُتِبَتْ بِهِ خَطُّكَ، وَالْحَرِصِ عَلَى
مَا يُجْزِلُ نَصِيصِكَ مِنْ جَمِيلِ الرَّأْيِ وَقِسْطِكَ - تَقَدَّمَ فَنِيْ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا بِكُتُبِ هَذَا
الْمَنْشُورِ مَضْمُنًا شُكْرَكَ وَإِحَادَكَ، وَمُودَعًا مَا يَلْفُغُكَ فِي الْخِدْمَةِ بِغَيْتِكَ وَمِرَادَكَ؛
وَتَجْدِيدَ نَظَرِكَ وَتَقْوِيَةَ يَدِكَ، وَإِعْزَازَ جَانِبِكَ، وَتَوْخِيكَ بِمَا يَشْرَحُ صَدْرَكَ،
وَيُسَدِّدُ أَرْكَكَ، وَيَرْفَعُ مَوْضِعَكَ وَيُزِيحُ عِلْلَكَ، وَيُقِيمُ هَيْبَتَكَ وَيُقَسِّحُ مَجَالَكَ،
وَيَلْفُغُ آمَالَكَ .

فاجر على رَسْمِكَ فِي هَذِهِ الْمَشَارَفَةِ وَاسْتَمَرَّ عَلَى عَادَةِ دُعُوبِكَ، وَاجْعَلِ التَّقَرُّبَ
بِالنَّصِيحَةِ غَايَةَ مَطْلُوبِكَ؛ وَوَاصِلِ الْإِتْتِصَابِ لِإِسْتِخْرَاجِ مَالِ هَذِهِ الْجَوَالَى

(١) بياض بالأصل . ومراده "أيها الأمير" أو نحوه .

وَاسْتِنْضَاضُهُ وَاسْتِيفَائُهُ وَاسْتِنْظَافُهُ ، وَتِمَادٌ فِي ذَلِكَ عَلَى سُنَّتِكَ الْحَمِيدَةِ ، وَطَرِيقَتِكَ
السَّيِّدَةِ ، وَثَقُّ بِأَنَّ ذَلِكَ يُسْفِرُكَ عَنْ بُلُوغِ أُرَاجِيكَ ، وَيَضَاعِفُ سَهْمَكَ مِنْ حَسَنِ
الرَّأْيِ فِيكَ ؛ فَلْيَعْتَمِدِ الْأَمِيرَانُ مُعَاوَضَةَ الْمَذْكُورِ وَمُؤَازَرَتَهُ ، وَإِعَانَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ ،
وِإِجَابَةَ نِدَائِهِ ، وَتَلْبِيَةَ دَعَائِهِ ؛ وَالشَّدَّ مِنْهُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْبَوَاقِي مَعَ الْمَالِ الْحَاضِرِ :
لِيَجِدَ السَّبِيلَ إِلَى الْوَفَاءِ بِمَا شَرَطَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَتَبَ خَطَّهُ بِهِ ؛ وَالْمُبَالَغَةَ فِي ذَلِكَ
مُبَالَغَةً يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَى الدِّيَوَانِ ، وَيَشْهَدُ لَهَا بِبَذْلِ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ ؛ فَلْيَعْلَمْ ذَلِكَ
وَلْيَعْمَلْ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .



وَمِنْ ذَلِكَ سَجَلٌ بِاسْتِيفَاءِ الْأَعْمَالِ الْقَبِيلَةِ ، وَهُوَ :

مِنْ كَرَمِ أَصْلِهِ وَمَحَبَّتِهِ ، وَحُسْنِ فِي الْوَلَاءِ ظَاهِرُهُ وَمَعْتَقَدُهُ ؛ وَلَقِّنَ الْمُخَالَصَةَ
عَنِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسْلَافِهِ ، وَلَزِمَ فِي الْمُنَاصَحَةِ مَنَهِجًا لَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ إِلَى خِلَافِهِ ، وَتَقَلَّلَ
فِي جَلَائِلِ الْخِدْمِ بِكَثْرَةِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالتَّعْدِيدِ لِأَوْصَافِهِ ؛ وَكَانَ فِي كُلِّ مَا يَبْشُرُهُ عَلَى
قَضِيَّةٍ تَشْهَدُ بِفَضْلِهِ ، وَتَدُلُّ مِنْ مَحَاسِنِ الْخِلَالِ عَلَى مَا لَا يَجْتَمِعُ إِلَّا فِي مِثْلِهِ ؛ عَلَى أَنَّهُ
قَلِيلُ النَّظَرَاءِ وَالْأَكْفَاءِ ، كَلَّفَ بِالْاِقْتِدَاءِ بِمَكَارِمِ الْأَفْعَالِ وَالْإِتِّبَاعِ لَهَا وَالْاِقْتِفَاءَ -
أَسْتَوْجِبُ أَنْ يُرْفَعَ مَكَانُهُ وَمَحَلُّهُ ، وَأَسْتَحِقُّ أَنْ يُجَمَّلَ مِنْ أَعْبَاءِ الْمَهْمَاتِ مَا لَا يَنْهَضُ بِهِ
[إِلَّا] مِثْلُهُ ؛ وَصَلَحَ أَنْ يُجْعَلَ لَهَا يَرَاعِي أَمْرَهُ سَهْمًا مِنْ نَظَرِهِ فِيهِ ، وَأَنْ يَبْرَزَ مِنْ
تَوَلِيَّتِهِ إِيَّاهُ فِي مَلَبَسِ جَمَالٍ يُسَيِّغُهُ حَسَنُ التَّنْذِيرِ عَلَيْهِ وَيُضْفِيهِ .

وَلَمَّا كُنْتُ أَيُّهَا الشَّرِيفُ ، تَأَجَّ أَنْخِلَافَةَ ، عَضُدُ الْمَلِكِ ، صَنِيعَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
مِنْ جِلَّةِ آلِ أَبِي طَالِبٍ ، وَالْمَوْفُورَى الْحَظُّ مِنَ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ؛ وَلَكَ مَعَ تَسَبُّكِ
الشَّرِيفِ مِيزَةُ بَيْتِكَ فِي الدَّوْلَةِ الْعُلُويَّةِ - خَلَدَ اللَّهُ مَلِكَهَا - وَتَقَدَّمَهُ ، وَأَسْتَثْقِرُ أَرْكَ

بِحُجَّةٍ مِنَ السَّاءِ لَا يَضَائِقُهُ أَحَدٌ مِنْ طَبَقَتِكَ فِيهَا وَلَا يَزِمُهُ ؛ وَقَدْ تَوَلَّيْتَ أُمُورًا جَلِيلَةً
فَكُنْتَ عَلَيْهَا الْقَوَى الْأَمِينَ ، وَأَهْلْتَ لِمَنَازِلَ سَنِيَّةٍ فَأَوْصَحْتَ لَكَ الْإِثْرَ الْحَسَنَ وَأَظْهَرْتَ
مِنْكَ الْجَوْهَرَ الثَّمِينَ ؛ وَلَمْ تَنْتَقِلْ قَطُّ مِنْ شَيْءٍ تَتَوَلَّاهُ ، إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا تُسْتَحْفَظُهُ
وَتُسْتَكْفَاهُ ، إِلَّا كَانَ الْأَوَّلُ عَلَيْكَ يَتَلَهَّفُ ، وَالثَّانِي إِلَيْكَ يَتَطَلَّعُ وَنَحْوُكَ يَتَشَوَّفُ ؛
وَمَا بَرِحْتَ مَلْتَمَسًا مِنَ الرُّتَبِ الْخَطِيرَةِ مَخْطُوبًا : لِأَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي غَدَتْ فِي غَيْرِكَ
مُتَشَتِّتَةٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، قَدْ أُلْفِيَتْ عِنْدَكَ مَجْتَمِعَةً مُتَأَلِّفَةٌ مُتَّسِقَةٌ ؛ فَلَكَ النَّزَاهَةُ السَّابِقَةُ بِكَ
كُلٌّ مِنْ يَجَارِيكَ ، وَالْوَجَاهَةُ الرَّافِعَةُ قَدْرَكَ عَلَى مِنْ يُنَاوِيكَ ؛ وَالْأَمَانَةُ الَّتِي يَشْهَدُ لَكَ
بِهَا مِنْ لَا يُجَاهِيكَ ، وَالِدِيَانَةُ الَّتِي حُرَّتْهَا عَنِ الشَّرِيفِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ أَبِيكَ - تَقْدَمُ قَتَى
مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا بِالتَّعْوِيلِ عَلَيْكَ فِي تَوَلَّى دِيَوَانَ الْأَسْتِيفَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ الْقَبْلِيَّةِ وَمَا جُمِعَ
إِلَيْهِ ، الَّذِي هُوَ مِنْ أَجْلِ الدَّوَاوِينَ قَدْرًا ، وَأَنْبَهَاهَا ذِكْرًا ، وَأَرْفَعَهَا شَانًا ، وَأَشْمَخَهَا
مَكَانًا ؛ وَخَرَجَ أَمْرُهُ بِكُتُبِ هَذَا التَّقْلِيدِ لَكَ ؛ فَبَاشَرْ ذَلِكَ مُتَقِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى فِيهِ ،
جَارِيًّا عَلَى مِرَاقِبَةٍ عَادَتْكَ الَّتِي تُرْتَلَفُ فَاعْلَمَهَا وَتُحْطِظُ بِهَا ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ إِرْشَادًا لِعِبَادِهِ
وَتَفْهِيمًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ﴾ .

وَتَبَتَّلَ إِلَى عِمَارَةِ الْأَعْمَالِ ، وَتَرَجَّحَ الْإِرْتِفَاعُ وَاسْتَخْرَاجُ الْأَمْوَالِ ؛ وَأَعْتَمَدَ
مُوَاصَلَةَ الْحَدِّ وَالتَّشْمِيرَ ، وَأَعْكُفَ عَلَى الْأَجْتِهَادِ الَّذِي يَشْهَدُ لَكَ بِقَلَّةِ الشَّبِيهِ وَعَدَمِ
النَّظِيرِ ؛ وَأَسْتَنْظَفَ الْبَوَاقِيَّ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ وَالْأَمَاكِنِ ، وَكُنْ عَلَى ضَبْطِ مَا اسْتَخْرَجَ
وَصُونِهِ أَحْقَقَ لَهُ مِنَ الْخِزَائِنِ ؛ وَانْظُرْ فِي أَمْرِ الْكُتَّابِ نَظْرًا مِنْ يَكْشِفُ عَنْ جَمِيعِ
أَسْبَابِهِمْ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ الْمَخَاطَبُ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ وَصَوَابِهِمْ ؛ وَخُذْهُمْ بِمُلَازِمَةِ الْأَشْغَالِ ،
وَالْمُوَاطَّأَةِ عَلَى التَّنْفِيزِ وَعَلَى اسْتِيفَاءِ الْأَعْمَالِ ؛ وَلَا تُسَوِّغْ لِمُضَامِنٍ وَلَا عَامِلٍ أَنْ
يُضْجَعَ فِي الْعِمَارَةِ ، وَلَا أَنْ يَمَاطِلَ بِهَا مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ فَإِنْ فَاثَتْ ذَلِكَ لَا يُلْحَقُ ،

وفارطه لا يدرك ؛ وقد أزيحت علتك بسط يدك وإنفاذ قولك وإمضاء حكك ؛
فماد على سنتك واستمر على رسمك ؛ وأعلم هذا وأعمل به ، وطالع بما تحتاج إلى
المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله تعالى .



سجل بمباشرة الأغنام والمطابخ .

لما كانت الأمانة كافلةً بالنويه لأربابها ، والكفاية سافرةً في التمييز لمن يتعلق
بأسبابها ، والخبرة خلة لا يليق التصرف ولا يحسن إلا بها ؛ وكنت أيها القاضي
مشهور النفاذ والمعرفة ، خليقاً إذا ذكر المرشعون للهمات بأجل صفه ؛ وقد علمت
نباهتك ، واستقرت نزاهتك ؛ وحسن فيما نتولاه أترك ، وطاب فيما تبأشره خبرك .
وحين عُدقت بك الخدم فيما يستدعى ويُبتاع من الأغنام برسم المطابخ السعيدة
وما يُنفق ويُطلق منها ، متصرفاً في ذلك بين يدي المخلص السديد صفى الملك
مأمون الدولة أبي الحسن : فرج الحافظي أدام الله تأييده ؛ فشكر سعيك ، وأحمد
قصدك ، ورضى آجتهادك ، واستوفى اعتمادك - تقدم فتى مولانا وسيدنا فلان
بكتب هذا المنشور لك ، مضمناً ما يقضى بشد أزرك ، وشرح صدرك ، وتقوية
مُتتك ، وإرهاق عزمك في خدمتك ؛ واعتمادك بما يؤدي إلى استقامة الأمر
فيما عُديك بك ، ومساعدتك ومعاضدتك ومعونتك في أسبابك ؛ وتبلغك أقصى
طالبك ، والأميران يعتمدان رعايتك ، والشدة منك وإعانتك ، والمحافظة على مصالح
أمرك والتولية لدعوتك ، وتوفير حظك من الملاحظة لشؤونك . فلتعلم هذا
ولتعمل به ، إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة منشور بمشارفة المواريث الحشرية ، والفروض الحُكْمِيَّة ،
وهي :

منشورٌ تقدّم بكتبه قتيّ مولانا وسيدنا السيّد الأجل الأفضّل لك أيها القاضي
الرّشيد ، سيّد الدولة ، أبو الفُتُوح محمد بن القاضي السعيد عين الدولة أبي محمد
عبد الله بن أبي عقيل - أدام الله عزك - لما أشتهرت كفايتك أشتهار الشمس ،
وأمنت أمانتُك دخولَ الشبهة واللبس ، وسلكتَ مذهبَ أسلافك في العَقَاف
والنزاهة وظَلَفَ النفس ؛ وظلّت آثارُك فيما تتولاه شاهدة بديانتك ، وأفعالك فيما
تُستَكفاه معربةٌ عن نباهتِك ؛ وسيرتُك فيما تتكلفه منتهيةٌ بك إلى أقصى أمد
الاحتياط مُفضّية ، وقد أضحي سبيل تقديمك مُعبداً مثلاً ، وغدوت لما يُناسب
كرّم بيتك مرثعاً مؤهلاً ؛ وإنما إبقاؤك على ما بيدك لتُكمل إصلاحه وتهذيبه ،
ونُعم تثقيفه وترتيبه ؛ ولذلك كتب هذا المنشورُ مقصوداً على إقرارك على ما أنت
متولّيه من الخدمة في مشارفة المواريث الحشرية ، وتقرير الفروض الحُكْمِيَّة .

فاجر على رَسْمك وعاداتك ، وأستمر على منْهَجك في بَدَل أستطاعتك ؛ وألزم المعهودَ
منك فإنه مُغْنٍ عن الاستراذه ، وتماد على ما أتيت فيه على البُغْيَةِ والإرادة ؛ وآكتفِ
بما تضمّنته التذكرة الديوانية المعمولة لهذه الخدمة ، وحافظ من الاجتهاد على
ما يجتدّد لك كلّ وقت ملبّس نعمه ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وليُنسخ هذا المنشور
بحيث يُنسخ مثله ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة منشور بعمالة، وهى :

عند ما وصفت به من آجتهد ومناصحه ، وأمانة ليس فيها مساهلة ولا مسامحة ؛
ومخالصة استمرت فيها القضية المستقيمة الواضحة ، وكفاية تمسكت منها بالسبب
الوثيق وحصلت على الصفة الراجحة ؛ ومعاملة تحريت فيها نهج من حُبب إليه
الأعمال الصالحة ، وكفاية إذا باشرت الدهمة الكالحة أبدلتها بالقرّة الواضحة ، وسُمتة
ما برحت الألسن لذخائر ثنائها مبيحةً ولسرائر أسبابها بأئحة ؛ وإنك إذا أهلت لخدمة
جعلتها لشُكرك لسانا ، وليكتاب كفايتك عنوانا ؛ ومن كان بها ملما (؟) إذا رأته
دواءه كان مستعارا بك أحيانا .

فأعتمد في هذه الخدمة ما يحقق بك ظنا ، ويقيم لك وزنا ، ويُسدّ بك رُكنا
ويضاعف لديك منّا ، ويُنيك من الإحسان مائتتى ، ويُسنى لك من الزيادة
والحسنى ، ويتوكل في اقتضاء الحظ الجزيل الأسنى ؛ وأسترفع (؟) الحسابات التى
ما يلزم رفعها ، ويُحفظ به شرط الكفاية ووضعها ؛ وأكشف ولا تُبق ممكنا حتى
تكشفه ثم أستنطقه ، وحاصل به أصله ثم تجله ؛ وحافق الجهاد على ما خرجت به
البرأت ، ورُفعت به الختمات ؛ ولا تُخل وُصولا ، من أن تكون بخطك موصولا ؛
وأستخرج حقوق الديوان على ما مضت به مواضى سُننه ، وخذ من كل شيء
في خدمتك بأحسنه ، وأزل نفسك من شعور السنة بأمنع ظل وأحصنه ؛
وأحمل التّجار والسّفار على عوائد العدل وشرائطه ، وقضايا الصوب وحوائطه ؛
وشواهد الديوان وضرائب ، ولا تتعدّ فيهم مألوف مطالبه ؛ وأنظر فى الأملاك

السلطانية نظراً يصلح معتلها، ويصحح محتلتها؛ ويوفر أجرها، ويُرْحَى غَيْرُهَا؛
وكذلك الأجباس والأحكار والمواريث : لحافظ على حفظ استغلاها ، وكَفَّ
كَفَّ من يرى باستباحة أمر الحرمة واستحلالها؛ وقد وردت لك من الديوان
تذكرة فاهتد بمنظومها، وأقند بمرسومها؛ ولك من الآراء ما يشهد عزمك، وينفذ
حكك؛ ويُسْنِي مَورِدَكَ، ويعلى يدك؛ ويمثل الرعاية فيك ، ويقيم على أن تكفي
الديوان بما يكفيك؛ والسلام .

تم الجزء العاشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي عشر

وأوله الفصل الثالث

(من الباب الرابع من المقالة الخامسة)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء العاشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الوجه الخامس — فيما يكتب في ألقاب الملوك عن الخلفاء ،
وهو نمطان ٥
- النمط الأول — ما كان يكتب في قديم الزمن ٥
- » الثاني — ما يكتب به الملوك الزمان ٦
- الوجه السادس — فيما يكتب في متن العهود ، وفيه ثلاثة (خمسة)
مذاهب ٨
- المذهب الأول — أن يفتح العهد بلفظ « هذا » ، وللكتاب فيه طريقتان
الطريقة الأولى — أن لا يأتي بتحميد في أثناء العهد في خطبة ولا غيرها أنح ٨
- » الثانية — أن يأتي في أثناء العهد بخطبة أو تحميد ٤٦
- المذهب الثاني — أن يفتح العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة
وكنيته ولقب الخلافة « إلى فلان » بأسم السلطان
وكنيته ولقب السلطنة ٧٥
- » الثالث — أن يفتح العهد بخطبة ٩٨
- » الرابع — « » « بقوله « أما بعد فالحمد لله » أو
« أما بعد فإن أمير المؤمنين » أو « أما بعد فإن كذا » ١٣٥
- » الخامس — أن يفتح العهد بـ « إن أولى ما كان كذا » ونحوه ... ١٤٥
- الوجه السابع — فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة ،
وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة ، وما يكتب
في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها ... ١٥٢
- » الثامن — في قطع الورق الذي تكتب فيه عهود الملوك عن
الخلفاء ، والقلم الذي يكتب به ، وكيفية كتابتها ،
وصورة وضعها في الورق ١٥٣

صفحة

النوع الثالث - من العهود - عهود الملوك لولاية العهد بالملك ، وفيه

سبعة أوجه ١٥٨

الوجه الأول - في بيان صحة ذلك ١٥٨

» الثاني - فيما يكتب في الطرة ١٥٩

» الثالث - في الألقاب التي تكتب في أثناء العهد ١٥٩

» الرابع - ما يكتب في المستند ١٦٠

» الخامس - ما يكتب في متن العهد ١٦٠

» السادس - فيما يكتب في مستند عهد ولي العهد بالسلطنة ،

وما يكتبه السلطان في بيت العلامة ، وما يكتب

في ذيل العهد ١٧٧

» السابع - في قطع ورق هذا العهد ، وقلمه الذي يكتب به ،

وكيفية كتابته ، وصورة وضعه في الورق ، ١٧٨

النوع الرابع - من العهود - عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين

بصغار البلدان ؛ وفيه أربعة أوجه ١٨١

الوجه الأول - في بيان أصل ذلك وأول حدوثه في هذه المملكة

إلى حين زواله عنها ١٨١

» الثاني - في بيان ما يكتب في العهد ، وهو على ضربين ... ١٨٣

الضرب الأول - ما يكتب في الطرة ، وهو تلخيص ما يشتمل عليه

العهد (ولم يذكر الضرب الثاني) ١٨٣

الوجه الثالث - فيما يكتب في المستند عن السلطان في هذا العهد ،

وما يكتبه السلطان في بيت العلامة ١٨٨

صفحة

- الوجه الرابع - في قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذي يكتب به،
وكيفية الكتابة، وصورة وضعها في الورق ... ١٨٨
- الباب الرابع - من المقالة الخامسة في الولايات الصادرة عن الخلفاء
لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام،
وفيه ثلاثة فصول... ١٩٢
- الفصل الأول - فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة
أطراف ... ١٩٢
- الطرف الأول - فيما كان يكتب عن الخلفاء الراشدين ... ١٩٢
- » الثاني - » » عن خلفاء بني أمية ... ١٩٥
- » الثالث - » » » بنى العباس ببغداد إلى
حين أنقراض الخلافة العباسية من بغداد،
وهو على أربعة أنواع... ٢٣٣
- النوع الأول - ما كان يكتب لوزراء الخلافة... ٢٣٣
- » الثاني - مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان
الخلافة ببغداد - ما كان يكتب لأرباب الوظائف
من أصحاب السيوف، وهو على ضربين ... ٢٤٢
- الضرب الأول - اليهود ... ٢٤٢
- » الثاني - مما يكتب من ديوان الخلافة لأرباب
السيوف - التقاليد... ٢٦٢
- النوع الثالث - مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان
الخلافة ببغداد - ما كان يكتب لأرباب الوظائف
ببغداد من أصحاب الأقلام، وهي على ضربين ... ٢٦٣

صفحة

الضرب الأول - العهد ٢٦٤

» الثاني - مما كان يكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب

الوظائف من أصحاب الأقلام - التواريخ ... ٢٩٢

النوع الرابع - مما كان يكتب من ديوان الخلافة ببغداد -

ما كان يكتب لرعاة أهل الذمة ٢٩٤

الطرف الرابع - فيما كان يكتب عن مدعى الخلافة ببلاد المغرب

والأندلس، ولذلك حالتان ٢٩٩

الحالة الأولى - ما كان الأمر عليه في الزمن القديم (ولم يذكر

الحالة الثانية) ٢٩٩

الطرف الخامس - فيما كان عليه الأمر في الدولة الفاطمية بالديار

المصرية، وهو على نوعين ٣٠٨

النوع الأول - ما كان يكتب به عن الخليفة نفسه، ولهم فيها

أربعة مذاهب ٣٠٨

المذهب الأول - أن يفتح ما يكتب في الولاية بالتصدير، وهو على

ثلاث مراتب ٣٠٩

المرتبة الأولى - أن يقال بعد التصدير المقدم « أما بعد فالحمد لله »

وهي على ضربين ٣٠٩

الضرب الأول - سجلات أرباب السيوف (ولم يترجم للضرب

الثاني) ٣١٠

المرتبة الثانية - أن يفتح السجل بالتصدير إلى آخر التصليية ثم يؤتى

بالتحميد مرة واحدة ٣٣١

صفحة

- المرتبة الثالثة — أن يفتح بالتصدير أيضا إلى آخر التصلية ثم يؤتى
 بالبعدية من غير تحميد ٣٦٠
- المذهب الثاني — أن يفتح ما يكتب في الولاية بلفظ «هذا ما عهد
 عبد الله ووليه الخ» ٣٨٤
- « الثالث — أن يفتح ما يكتب في الولايات بخطبة مبتدأة
 بـ«الحمد لله» ٣٨٩
- « الرابع — مرتبة الأصاغر من أرباب السيوف والأقلام ... ٤٣٩
- النوع الثاني — ما كان يكتب عن الوزير ٤٤٦

(تم فهرس الجزء العاشر من كتاب صبح الأعشى)

صُبحُ الأَسبَحِ

الجزء الحادي عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالت

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الحادي عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

س ١٣٣٥ هـ
م ١٩١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثاني^(١)

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكْتَب من الولايات عن الملوك ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرَفُ الأوَّل

(في مصطلح كُتِّبَ الشَّرق)

قد تقدّم في الكلام على ما كان يُكْتَب عن الخلفاء أنّ الولايات في الخلافة العباسية ببغداد كانت تصدر عن الخلفاء دون الملوك المساهمين لهم في الأمر ، لا يُشاركونهم في شيء من الولايات أصلاً . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الولايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكْتَب عن ملوك بني جنك خان من البيت الهولاكوى فمن بعدهم . ولم أقف على شيء من مصطلحهم في ذلك فأوردته هنا .

(١) وقع سهواً في آخر الجزء العاشر أن أول الجزء الحادى عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثاني"

الطرف الثانى

(فى مصطلح كُتَابِ الْغَرْبِ وَالْأَنْدَلُسِ فيما يُكْتَبُ من الولايات عن الملوك)

وأعلم أنهم يعبرون عما يُكْتَبُ فى جميع ولاياتهم بالظَّهائر: جمع ظَهِير ^(١)، يفتتحونه بلفظ «هذا ظهير» كما تقدم بيانه فى الكلام على ما كان يكتب عن خلفاء المغرب . ثم هى على ثلاثة أضرب :

الأول الضرب

(ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف)

وهذه نسخة ظَهِيرِ بِنِيَابَةِ السُّلْطَانَةِ بِالْحَضْرَةِ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ ، وهى :

هذا ظهيرٌ كريمٌ ، مُزِيلُهُ فى الظَّهائرِ منزلةُ المعتمدِ به من الظُّهراءِ ، ومَحَلُّهُ من الصُّكوكِ ، الصادرةِ عن أعظمِ الملوكِ ، محلُّ أُولَى الراياتِ ، الخافقةِ العَدَباتِ ، والآراءِ . فَتَحَ على الإسلامِ ، من بعد الإبهامِ ، أبوابَ السَّراءِ ، وراقَ طرازًا مُذهَّبًا على عاتقِ الدَّولةِ الغراءِ ، وأعملَ عواملَ الجهادِ فى طاعةِ رَبِّ العبادِ ، شارعةً لأهل الكفرِ والعنادِ ، من بابِ الأعمالِ والإغراءِ .

أمر به فلان لصدر صدور أودائِهِ ، وحُسامِهِ المشهورِ على أعدائِهِ ، ووليِّهِ الذى خَبَرَ صدقَ وفائِهِ ، وجَلَّى فى مِضْمارِ الخُلوصِ له مُغَبَّرًا فى وجوهِ أكفائِهِ . شيخُ شيوخِ المجاهدينِ ، وقائدِ كتائبِهِ المنصورةِ لغزو الكافرينِ والمعندينِ ، وَعُدَّتِهِ التى يُدافعُ بها عن الدِّينِ ، وسائِقِ وَرْدِهِ المبرزِ فى الميادينِ ، الشيخُ الأجلُّ الأعزُّ الأسنى ، الأجدِ ،

(١) فى اللسان وغيره "الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع" . وقد جمعه القراء على ظهراء . وفى شرح الأتشنوفى عن بعض النحويين أنه يشترط فى جمع فاعل على فاعل أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأُسْعِدِ ، الأَصْعَدِ ، الأَعْنَى ، الأَحْمَى ، الأَحَبِ ، الأَوْصَلِ ، الأَفْضَلِ ، المجاهد ،
الأَقْصَى ، الأَرْضَى ، الأَمْضَى ، الشهيد ، المقدّس ، المرحوم أبى عبد الله بدر الدين
أبن شيخ الشيوخ وعلم الأعلام ، المدافع عن حوزة الإسلام ، البعيد الغارة فى نُحُوم
عَبْدَةِ الأَصْنَامِ ، الشيخ الكبير ، الجليل الخطير ، الرفيع ، الصّدر ، المعظم ، الموقر ،
صاحب الجهاد الأرضى ، والعزم الأَمْضَى ، المقدّس ، المرحوم أبى عمران (موسى)
أبن أبى زيد رحو بن محيو بن عبدالحق بن محيو ، وصل الله سعده ، وحرس مجده ،
وبلّغه من مظاهرة دولته وموازرة خلافته قَصْدَه . رَفَعَ قِبْصَةَ العنَاية والأَخْتِيَارِ
على عمّاد ، وأشاد بدعوة التعظيم [مُسْمِعًا ^(١)] كُلَّ حَىٍّ وَجَمَادٍ ، وقابل السعى الكريم
بإِحْصَادٍ ، وأورد من البر غير ثمّاد ، واستظهر بالوفاء الذى لم تستتر ناره برّماد ،
ولا قصّرت جياؤه عن بلوغ آماد ، وقلّد سيف الجهاد عاتق الحسب اللّباب ، وأعلّق
يدى الاستظهار بأوثق الأسباب ، واستغلّظ على الأعداء بأحبّ الأحياب .
لَمَّا قَامَتْ لَهُ البراهينُ الصادقةُ على كرمِ شيمه ، ورُسُوخَ قَدَمِهِ ، وَجَنَى مِنْهُ عِنْدَ
الشّدّةِ والتّحيصِ ثَمَرَةً ماؤُولاهُ مِنْ نِعَمِهِ ، قابل بالرّعى كرائمَ ذِمِّهِ ، وعظائمَ خِدْمِهِ ،
وشدّ اليَدَ على عهده الذى عرفه حينَ آنكشت العُقدَ وأخْلَقَ المعتقدَ ، وأسّأَسَدَ
النّقْدِ ، وتَنَكَّرَ الصّدِيقَ ، وفَرِقَ الفَرِيقَ ، وسُدّتْ على النّظرة الطّريقَ ، وتميّز المغرق
والغريقُ ؛ فأثقلَ له ميزانَ المكافآتِ ، وسجّلَ له رُسمَ المُصافاةِ ؛ وجعله يمينَ المُلْكِ
الذى به يُناضِلُ ، ويُقاطِعُ ويُواصِلُ ؛ وسيفَ الجهادِ ، الذى يجى بِمَضَائِهِ حَوْزَةُ
البلادِ ، ومِرْآةَ النّصْحِ التى تَنجَلّى بها وجوهُ الرّشادِ . فقَدّمه - أعلى الله قَدَمَهُ ، وشكّر

(١) الزيادة عن "ريحانة الكتاب" لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفلى من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذلّ من
النقد . أنظر اللسان .

نِعْمَهُ ، وَأَسْعَدَهُ فِيمَا يَمْنَحُهُ ، وَنَشَرَ بِالنَّصْرِ عَلَمَهُ - شَيْخَ الْغَزَاةِ بِحَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَسَائِرِ
بِلَادِهِ النَّصْرِيَّةِ : تَرْجِعُ الْقِبَائِلُ وَالْأَشْيَاحُ إِلَى نَظَرِهِ فِي السَّكَنَاتِ ، وَتَسْتَدِرُّ عَلَى يَدِهِ
مِنْ مَقَامِهِ الْكَرِيمِ غُيُومَ الْبَرَكَاتِ ، وَتُقَرَّرُ وَسَائِلُهَا بِوَسَاطَةِ خُطْوَتِهِ ، وَتَقْصُرُ خُطَاها
أَعْتِرَافًا بِحَقِّهِ الْوَاجِبِ عَنْ خُطْوَتِهِ . فَعَلَيْهِ تَدُورُ أَفْلاكُ جَمَاعَاتِهِمْ كُلِّهَا أَجْتَمَعُوا
وَأَتْلَفُوا ، وَبِحُجَّةِ فَضْلِهِ يَزُولُ إِشْكَالُهُمْ مَهْمَا اخْتَلَفُوا ، وَبِلِسَانِهِ الْمُبِينِ يَقَرَّرُ لَهُمْ
مَا أَسْلَفُوا ، وَفِي كَنْفِ رَعْيِهِ يَنْشَأُ مَنْ أَعْقَبُوا مِنَ النَّشْأَةِ وَخَلَقُوا ، وَبِإِقْدَامِهِ تَهْضُ
أَقْدَامُهُمْ مَهْمَا تَوَقَّعُوا . فَهُوَ يَحْسُوبُ كِتَابَهُمِ الْمُلْتَفَّةَ ، وَفِرْزَانُ قِطْعَتِهِمِ الْمُصْطَفَّةَ ،
وَشَهْمُ جَوَارِحِهِمِ الْفَارِغَةَ ، وَعَيْنُ عِيُونِهِمِ النَّابِغَةَ ، وَتَأْوِيلُ أُمُورِهِمِ الْمُتَشَابِغَةَ ، عَنْ
نَظَرِهِ يَرْدُونَ وَيَصْدُرُونَ ، وَبِإِشَارَتِهِ يَرِيشُونَ وَيَبْرُونَ وَأَثَارُهُ يَقْتَفُونَ ، وَبِتَلْعَةِ
دَوَارِهِ الْمَرِيئِيَّ فِي خِدْمَةِ مَقَامِهِ النَّصْرِيِّ يَقْفُونَ . فَهُوَ الَّذِي لَا تَأْنِفُ أَشْرَافُ الْقِبَائِلِ
مِنْ أَقْتِئَاءِ آثَارِهِ ، وَلَا تَجْهَلُ رِفْعَةَ مِقْدَارِهِ ، فَلَيْتَهُ الْمَرْيَةُ بِالْحَقِّ ، الْمُسْتَوْجِبَةُ لِلْفَخْرِ
بِسَابِقَةِ السَّعَادَةِ لِعَبْدِ الْحَقِّ ، وَلِذَاتِهِ قَصَبُ السَّبْقِ ، وَلَوْفَاتِهِ الشُّهُرَةُ فِي الْغَرْبِ
وَالشَّرْقِ .

فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ - تَوْلَاهُ اللَّهُ - مَنْشِرًا بِالْعِزِّ صَدْرُهُ ، مُسْتَمِدًّا مِنْ شَمْسِ سَعَادَتِهِ بِدُرِّهِ ،
مَعْرُوفًا حَقَّهُ مَعْظَمًا قَدْرُهُ ، فَهِيَ خُطَّةُ قَوْمِهِ ، وَفَرِيْسَةُ حَوْمِهِ ، وَطِيَّةُ أَمْسِهِ وَيَوْمِهِ ،
وَكُفُّ خُطْبَتِهِ ، وَمَرْحَى رُبَّتِهِ ، وَحَلَى جَمِيدِهِ ، وَمُظْهَرُ تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ . مُطْلَقًا مِنْ
عِنَانِ الثَّنَاءِ ، عَلَى أَهْلِ الْغَنَاءِ ، مَعَامِلًا بِصَادِقِ الْإِطْرَاءِ ، لَذَوَى الْآرَاءِ ، مُتَغَمِّدًا بِالْإِغْضَاءِ ،
هَفَوَاتِ أَهْلِ الْمَضَاءِ ، مَعْرِفًا بِالْقِبَائِلِ ، وَالْعِشَائِرِ وَالْفَصَائِلِ ، كُلِّهَا وَفَدُوا مِنَ الْآفَاقِ
لِلْإِسْتِحْقَاقِ ، مِنْهَا عَلَى مَظَانِّ الْأَسْتِحْقَاقِ ، مُطَبَّقًا لِلطَّبَاقِ ، مِمَّا لِحْيَاها يَوْمَ السَّبَاقِ ،
حَرِيصًا عَلَى إِيْمَاءِ الْأَعْدَادِ ، مُطَبَّقًا مَقَاصِلَ الشَّرَادِ ، مُحْتَاطًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي تَمْتَرِي

بها أكَفَّ الجباية ضُرُوعَ العباد، واضعاً مَالَ الله حيثُ وضعه ألحق من الورع والاستداد، [لا] سِيَّما في هذه البلاد؛ حتَّى تعظم المزايا والمزاين، وتتوفر الكتاب والخزائن ويتمتع السامع ويُسَرُّ المعين؛ ويظهر الفضلُ على من تقدّم، وأنَّ الظُّهراءَ كم غادرت من متردّم، ويتحسّر من قَصْر ويتندّم، وعند الله يجد كل ماقدّم . فهي قلادةُ الله التي يُضِيع من أضاعها، ويرضى^(١) عن أعمل فيها أوامرِه وأطاعها . وهو، - وصلَّ الله سعادته ! وحرس مجادته ! - أولى من لاحظ ضرائرها، وأستطلع من ثنائيا التوكل على الله بشائرها : نسباً وحسباً، وجداً وأباً، وحدّاً وشعباً، ونجدةً وصحت مذهبها .

وعلى الغزاة - وقر الله جموعهم ! وأنجد تابعهم ومتبوعهم ! - أن يعرفوا قدر هذا التعظيم الذي خفقت أعلامه، ووضحت أحكامه، والاختصاص الذي لطف محله، والاعتناء الكريم الذي ضفا ظله ؛ فيكونوا من إيجاب حقه حيث حدّ ورسم، وميز ووسم ؛ لا يتخلّف أحد منهم [في خدمته] أيده الله عن إشارته الموقفة، ولا يشدّ عن رياسته المطلقة ؛ بحول الله تعالى وقوّته .



وهذه نسخة ظهير بناية السلطنة ببعض الأعمال، وهي :

هذا ظهير كريم، مضمّنه استجلاء لأُمور الرعايا واستطلاع، ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع؛ وعدلٌ بهر منه شعاع، ووصايا يجب لها إهطاع .

أصدرناه للفقير أبي فلان . لمّا تقرر لدينا دينه وعدله وفضله رأينا أنه أحقّ من نُقلده المهّم الأكيد، ونزجى [به] من أغراض البرّ الغرض البعيد؛ ونستكشف به

(١) في "ريحانة الكتاب" التي لا يضيع من أضاعها، ويوفى صاعها .

(٢) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها، ولا يتطرق إليها طارق من إهمالها، ويُنهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها لإنهاء تكفل بحياطة أبشارها وأموالها . وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا - حاطها الله - فيجمع الناس في مساجدهم، ويندبهم من مشاهدتهم . ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم، وإحساب آمالهم، ومكابدتنا المشقة في إدارة عدوهم الذي يعلم من أحوالهم ما غاب عنهم - دفعه الله بقدرته، ووقى نفوسهم وحريمهم من معزته - وبما رأينا من آتيات الأسباب التي فيك تؤمل، وعجز الحيل التي كانت تعمل . ويستدعى لإنقاذهم بالدعاء، وإخلاصهم فيه إلى رب السماء . ويسأل عن سيرة القواد، وولاة الأحكام بالبلاد : فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه، ويقصها عليه : ليلغها إلينا، ويوفدها مقررة الموجبات علينا . ويختبر ما أفتراض صدقة للجبل، وما فضل عن كريم ذلك العمل : ليعين لبناء الحصن بجبل قارة يسر الله لهم في إتمامه، وجعل صدقتهم تلك مسك ختامه، وغيره مما أفتراض إعانة للسافرين، وإنجاداً للجهاد الكافرين؛ فيعلم مقداره، ويتولى اختباره؛ حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف، ولا يعدل به لمشروف عن شريف، ولا تقع فيه مضايقة ذى الجاه، ولا مخادعة غير المراقب لله . ومتى تحقق أن غنياً قُصر به فيه عن حقه، أو ضعيفاً كُلف منه فوق طوقه، فيجبر الفقير من الغنى، ويحجى من العدل على السنن السوى - ويعلم الناس أن هذه المعونة وإن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافاً كثيرة؛ ليست مما يلزم، ولا من المعاون التي بتكريرها يُجزم - وينظر في عهود المتوفين فيصرفها في مصارفها المتعينة، وطرقها الواضحة البينة - ويتفقد المساجد تفقداً يكسو

عاريها ، ويَتَمَّم منها المآرب [نقيما] يُرضى باريها - ويندبُ الناس إلى تعليم
القرءان لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم . ويحذّرهم المغيب عن كل شيء من
أعشارهم فالزكاة أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام ، وقد اخترنا لهن بأقصى الحد
والاعتزام ، ورفعنا عنهن رسم التعريف نظراً إليهن بعين الاهتمام ؛ وقدّمنا الثقات
لهذه الأحكام ، وجعلنا الخرص شرعياً في هذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله
من الأعوام .

ومن أهم ما أسندناه إليه ، وعوّلنا فيه عليه ، البحث بتلك الأحواز عن أهل
البدع والأهواء ، والسائرين من السبيل على غير السواء ؛ ومن ينبز بفساد العقْد ،
وتحريف القصد ؛ والتلبس بالصوفيّة وهو في الباطن من أهل الفساد ، والذاهبين
إلى الإباحة وتأويل المعاد ؛ والمؤلفين بين النساء والرجال ، والمتبّعين لمذاهب
الضلال . فهما عثر على مُطَوَّق بالتهمة ، منبّز بشيء من ذلك من هذه الأمة ؛ فليُشَدَّ
وثاقه شدّاً ؛ وليُسَدَّ عليه سبيل الخلاص سدّاً ؛ ويستَرَع في شأنه المُوجِبَات ،
ويستوعِب الشهادات ، حتّى ننظر في حَسَم دائه ، ونُعَالِج المَرَض بدوائه ؛

فليتولّ ما ذكرنا نائباً بأحسن المناب ، ويقتصد وجه الله راجياً منه جزيل الثواب ،
ويعمل عمل مَنْ لا يخاف في الله لومة لائم ليجد ذلك في مواقف الحساب ؛

وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكّام أن يكونوا معه يداً واحدة على
ماقرّناه في هذه الفصول : من العمل المقبول والعدل المبذول . ومن قصّر عن غاية
من غاياته ، أو خالف مقتضى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصى أمر الله
وأمرنا فلا يلو من إلا نفسه التي غرّته ، وإلى مَصْرَع النكير بحرته ، والله المستعان .



وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد ، وهى :

هذا ظهير كريم بلغ فيه الاختيار، الذى عضده الاختبار، الى أقصى الغاية؛^(١) وجمع له الوفاق، الذى خدّمه البخت والاتفاق، والأهلية التى شهدت بها الآفاق، بين نُجْحِ الرأى ونَصْرِ الرايه؛ وأنجبت به مقدمات الولاء نتيجة هذه الرتبة السامية العلّاء والولاية. وأستظهر من المعتمد به، على قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبه، بليث من ليوث أوليائه شديد الوطأة على أعدائه والنكايه، وفرع من فروع الملك الأصيل معروف الأبوّة والإبايه؛ لتتضح حجة النصر العزيز والفتح المبين ذى القوة المتين محكمة الآيه، وتدل بداية هذه الدولة الرافعة لمعالم الدين، المؤيدة فى الأقوال والأفعال بمدد الروح الأمين، على شرف النهايه .

أصدر حركته وأبرز حُكْمَه، وقزّر حدّه الماضى ورسمه، عبدُ الله، الغنى بالله [محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر]^(٢) - عضد الله كتابه وشدّ عضده، ويسّر فى الظهور على أعداء الله قصده - لوليّه المستولى على ميادين خطوته وإيثاره، الفائز بالقدح المعلن من إجلاله وإكباره؛ ظهير استنصاره، وسيف جهاده المعّد لصديق ضريته ويوم افتخاره، ويعسوب قبائل الغزاة بأصقاعه الجهادية وأقطاره؛ الأمير أبى عبد الرحمن، أبى الأمير أبى على، أبى السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبدالحق - وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للمسلمين بمظاهرة إيّاه على الكافرين سابق وعده، لمّا وفد على بابه الكريم

(١) فى ربحانة الكتاب « بلغ فيه الاختيار النهايه والاختبار الى » انخ .

(٢) الزيادة "من الريحانة".

(١) مؤثراً على ما كان بسبيله عن جواره، ملقياً بحملة الجهاد عصاً تسياره، مفضلاً ما عند الله على رغب أوطانه وأقطاره؛ شجماً من أسرع إلى خير الآخرة ببداره، قبل اكتمال هلاله وإبداره، وعلى أنبغات أمله وتراعى هممه وأستقامة مداره - قابل أيده الله وقادته بالقبول المدوح، والصدر المشروح، والعناية العالية المظاهر والصروح؛ وجعل له الشرب المهي في مناهل الصنائع التي صنع الله للملكه والفتوح؛ ولم يدخر عنه تقريباً يقف الأولياء دون مداه، وترفعاً تشهد به محافل الملك وممتداه؛ إلى أن ظفرت بحقيقة الموالات الكريمة يذاه، ثم أستظهر به على أعداء الله وعداه، فوق النصح لله وأذاه، وأضمره وأبداه، وتحلى بالبسالة والحلالة والطهارة، اللاتقية بمنصب الإمارة، في رواجه ومغده؛ حتى آتفت الأهواء على فضله وعفافه، وكمل أوصافه وظهرت عليه مخايل أسلافه. ثم رأى الآن - سدّد الله رأيه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه - أن يوفد ركائب الاعتقاد الجميل على جنابه، ويفسح ميدان الاستظهار بحسن منابه، ويصل أسبابه بأسبابه؛ ويضعف بولائه الصادق أهتاه، ويقيمه في قود عساكره لجهاد البر مقامه؛ فأضفى ملابس وده عليه، وجعله فاتح أبواب الجنة بفضل الله بين يديه؛ وأجراه مجرى عضده الذي تصدق عنه الضريبة في المجال، وسيفه الذي يفرج به مضايق الأهوال؛ ونصبه للقبائل الجهادية قبلة في مناصحة الله ومناصحة مشروعه، وراية سعيدة في مظاهرة متبوعة؛ وعقد له الولاية الجهادية التي لا تعدل بولايه، ولا توازن عناية المعتمد بها بعنايه؛ يشهد بصراحة نسبها الدين، وتتحلّى بحلى غرّتها الميادين. فالجهاد في سبيل الله نحلة نبي الأمّة، ومن بعده من الأمّة؛ لاسيّما في هذا القطر المتأكد فيه ذلك لأولى الدين والهمّة.

(١) لعله "مؤثراً له على ما كان يشغله عن جواره"، تأمل.

فليتولَّ ذلك تولَّى مثله وإن قلَّ وجودُ مثله ، جارياً على سَنَنِ مَجْدِهِ وفضله ، سائرًا من رضا الله على أَوْصَحِّ سَبِيلِهِ ، معتمداً عليه فى الأمر كُلِّهِ .

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الذى يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ قد هَيَّأَ له من أمرِهِ رَشْداً ، وسَلَكَ به طَرِيقاً سَدَّداً ، واستعمله اليومَ فيما يُحِيطُ بِهِ غداً ، وجعل حَظَّهُ الذى عَوَّضَهُ نُوراً وهُدًى ، وأبعدَ له فى الصالحاتِ مَدًى - ولينظرَ فيما لديه من القبائلِ الموقورة ، والجموعِ المؤيَّدة المنصورة ؛ نظراً يُزِيحُ العِلَلَ ، ويبلغُ الأَمَلَ ، ويرعى الهَمَلَ ، وَيُحَسِّنُ القولَ وَيُنَجِّحُ العملَ ؛ مِنبَهاً على أَهْلِ الغَناءِ والأَسْتِحقاقِ ، مُستَدِرّاً للعوائدِ والأرزاقِ ، معرِّفاً بالغرباءِ الواردين من الآفاقِ ، مُطَبِّقاً منهم للطَباقِ ، مُتَعَمِّداً للهَفَواتِ بحسَنِ الأخلاقِ ؛ مُستَجِيداً للأَسْلِحَةِ والكِرَاعِ ، مُبادِراً هَيْعَاتِ الصَّرِيخِ بالإسراعِ ؛ مُستَرعِياً للشُّورَةَ التى يَقَعُ الحَكْمُ فيها عن حَصولِ الإجماعِ ، رَفيقاً بمن ضَعُفَ عن طُولِ الباعِ ؛ مُحْتَاطاً على الإسلامِ فى مَوَاقِفِ الدِّفاعِ ، مُقَدِّماً عندَ اتِّجَاهِ الأَطَاعِ ؛ صابِراً فى المَضايِقِ على القِرَاعِ ، مُتَقَدِّماً للأَبْطالِ بالأَصْطِناعِ ، مُقابِلاً نَصائِحَ أُولَى الحِجْرةِ بِحُسْنِ الاستماعِ ، مُستَعِمِلاً فى الحروبِ ما أَجازَهُ الشَّرْعُ من وُجُوهِ الحِذَاعِ ؛ حَتَّى يَكُونَ عَمَلُهُ وَفَّقَ شُهرَتِهِ البعيدَةِ المَطَارِ ، وَسِيرَتُهُ فيما أُسْنِدَ إِلَيْهِ مَثَلاً فى الأَفْطَارِ ، واستقامَةُ التَّدبِيرِ على يَدَيْهِ ذَرِيعَةً إلى إِرْغامِ أنُوفِ الكُفَّارِ ؛ بِقُوَّةِ الله وحولِهِ ، وَعِزَّتِهِ وطَوْلِهِ .

وعلى الغُزاةِ بالحِضرةِ العَليَّةِ ، وسائرِ البلادِ النَّصْرِيَّةِ ؛ من بنى مَرِيٍّ ، وسائرِ القبائلِ المُجاهِدينِ ، أَن يَعْرِفُوا قُدْرَهُ ، وَيَمْتَثِلُوا فى مَرْضاتِنا أَمْرَهُ ؛ وَيَكُونُوا مَعَهُ رُوحاً وَيداً

(١) السدد القصد والاستقامة والسدد أيضاً مقصور من السداد . انظر اللسان .

(٢) الهمل اسم جمع لهامل لأن فاعلا لا يكسر على فعل ونظيره راح وروح . انظر اللسان .

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل . والهيعة الصوت تفرع منه وتحافه من عدو . انظر القاموس .

وجَسَدًا ، وساعداً وعَضُدًا ؛ فبذلك يَشْمَلُهُ من الله ومن مَقَامنا الرضا والقَبُول ، والعزُّ
الموصول ؛ وَيُمِضِي في عَدُو الله النُّصُول ، ويتأثَّى على خير الدنيا والآخرة الحُصُول ،
إن شاء الله . ومن وقف عليه ، فليعرف مآلديه ؛ بحول الله تعالى .



وهذه نسخة ظهير بالتقدمة على الطبقة الأولى من المجاهدين ، لولد السلطان ،

وهي :

هذا ظهيرٌ كريمٌ ، فاتحٌ بنشر الألوية والبُنود ، وقود العساكر والجنود ؛ وأجال
في ميدان الوجود ، جِياذ البأس والجُود ؛ وأضفى سِتر الحِماية والوقاية بالتهائم
والنُّجود ، على الطائفين والعاكفين والركع السُّجود - عقد للعتمد به عقد التشريف
والقدر المُنيف زاكِي الشُّهود ؛ وأوجب المناقسة بين مجالس الشُّروج ومَصْاجِع
المُهود ، وبشَّر السيوف في الغُمود ، وأنشأ رِيح النصر آمنةً من النُّجود - أمضى
أحكامه ، وأنهد العِزَّ أمامه ، وقَتَح عن زهر السُّرور والحبور أكرامه ، أميرُ المسلمين
عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ابن مولانا أمير المسلمين
أبي الوليد فرج بن نصر - أيد الله أمره ، وخلد ذكره - لكبير ولده ، وسابق أمده ،
ورِيحانة خَلده ، وياقوتة الملك على يده ؛ الأمير الكبير ، الطاهر الظاهر ، الأعلى ،
واسطة السلك ، وهلال سماء الملك ، ومُصباح الظلم الخُلُك ، ومِظَنَّة العناية الإلهية
من مدبر الفلك ومُجرى الفلك ؛ عُنْوَان سَعْدِهِ ، وحُسام نصره وعَضْدِهِ ؛ وسميَّ
جَدَّهُ ، وسلالة فضله ومجده ؛ السعيد ، المظفر ، المُمام ، الأعلى ، الأمضى ، العالم ،
العاذل ، العامل ، الأرضي ، المجاهد ، المؤمل ، المعظم ، أبي الحجاج يوسف - ألبسه
الله من رضاه عنه حللاً لا تُخْلَق جَدَّتْها الأيام ، ولا تبلغُ كُنْهها الأفهام ؛ وبلغه
في خدَمه المبالغ التي يُسرُّها الإسلام ، وتسبح في بحار صنائعها الأقلام ، وحرس

معاليه الباهرة بعينه التى لاتتأَم ، وكنفه برُكنه الذى لا يُضام - فهو الفرع الذى جرى بخصله على أصله ، وأرتسم نصره فى نصله ، واشتمل جذه على فضله ، وشهدت ألسن خلاله ، برفعة جلاله ، وظهرت دلائل سعادته ، فى بدء كل أمر وإعادته .

ولما صرف وجهه إلى ترشيحه لأفتراع هضاب المجد البعيد المدى ، وتوشيعه بالصبر والحلم والبأس والندى ، وأرهف منه سيفاً من سيوف الله لضرب هام العدا ، وأطلعه فى سماء الملك بدر هدى ، لمن راح وغدا ، وأخذ بالآداب التى تُقيم من النفوس أودا ، وتُبدّر فى اليوم فتُجنى غدا ، ورقاه فى رتب المعالى طورا فطورا ، ترقى النبات ورقاً ونورا ، ليجده بحول الله يداً باطشة على أعدائه ، ولسانا مجيباً عند ندائه ، وطراراً على حلة عليائه ، وغماماً من غمام آلائه ، وكوكباً وهاجاً بسائه .

وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل من مهده ، وظلّه بجناح رايته ، وهو على كند دايته ^(١) ، واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنوياً بمجادته ، وأثبت فى غرض الإمارة النصرية سهم سعادته - رأى أن يزيده من عنايته ضروباً واجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناساً ، قد اختلفوا لساناً ولباساً ، وآتفقوا آبتغاء لمرضاة الله والتمساً ، ممن كرم أنتمائهم ، وأزيت بالحسب الغرسمائهم ^(٢) ، وعُرف غنائهم ، وتأسس على المجادة بناؤهم ، حتى لا يدع من العناية فناً إلا جلبه إليه ، ولا مقادة نخر إلا جعلها فى يديه ، ولا حلة عن إلا أضفى ملابسها عليه .

وكان جيش الإسلام فى هذه البلاد الأندلسية - آمن الله خالها ، وسكن زلزالها ، وصدق فى رحمة الله التى وسعت كل شئ آمالها - كلف همته ، ومرعى

(١) الكند بفتح الناء وكسرهما أعلى الكنف والذاية الظئر ، أنظر اللسان .

(٢) لعله الاغر وفى ربحانة الكتاب « الخالص » .

أَذِمَّتْهُ ، وَمَيِّدَانِ جِيَادِهِ ، وَمَتَعَلَّقِ أَمْدِ جِهَادِهِ ، وَمِعْرَاجِ إِرَادَتِهِ ، إِلَى تَحْصِيلِ
سَعَادَتِهِ ، وَسَبِيلِ خِلَالِهِ ، إِلَى بُلُوغِ كَمَالِهِ ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُ عِلَّةً إِلَّا أَزَاحَهَا ، وَلَا طَالِبَةً
إِلَّا أَجَالَ قِدَاحَهَا ، وَلَا عَزِيمَةً إِلَّا أَوْرَى أَفْتِدَاحَهَا ، وَلَا رَغْبَةً إِلَّا فَسَّحَ سَاحَهَا ،
أَخَذَا مُرُوءَتَهُ بِالْتِهْدِيبِ ، وَمَصَافَّهُ بِالْتَرْتِيبِ ، وَأَمَالَهُ بِالتَّقْرِيبِ ، وَتَأْنِيسَ الْمُرِيبِ ،
مُسْتَنْجِزًا لَهُ وَبِهِ وَعَدَ النُّصْرَ الْعَزِيزَ وَالْفَتْحَ الْقَرِيبَ ، وَرَفَعَ عَنْهُ لِهَذَا الْعَهْدِ نَظَرَ مَنْ
حَكَّمَ الْأَغْرَاضَ فِي حُمَاتِهِ ، وَأَسْتَشْعَرَ عُرُوقَ الْحَسَائِفِ لِشَرِيفِ كُنْكَاتِهِ ، وَاشْتَغَلَ
عَنْ حُسْنِ الْوَسَاطَةِ لَهُمْ بِمَصْلَحَةِ ذَاتِهِ ، وَجَلَّبَ جُبَاتِهِ ، وَتَثْمِيرَ مَالِهِ وَتَوْفِيرَ أَقْوَاتِهِ ،
ذَاهِبًا أَقْصَى مَذَاهِبِ التَّعْمِيرِ بِأَمْدِ حَيَاتِهِ ، فَانْفَرَجَ الضِّيقُ ، وَخَلَّصَ إِلَى حَسَنِ نَظَرِهِ
الطَّرِيقُ ، وَسَاغَ الرِّيقُ ، وَرَضِيَ الْفَرِيقُ .

رَأَى - وَاللَّهُ الْكَفِيلُ بِخُجْجِ رَأْيِهِ ، وَشُكْرِ سَعْيِهِ ، وَصَلَةِ حِفْظِهِ وَرَعْيِهِ - أَنْ يُجْمَدَ
لَهُمْ اخْتِيَارُهُ ، وَيُحْسَنَ لَدَيْهِمْ آثَارُهُ ، وَيُسْتَنْبَى فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَيُوفِ جِهَادِهِ ، وَأَبْطَالِ
جِلَادِهِ ، وَحُمَاةِ أَحْوَارِهِ ، وَأَلَاتِ اعْتِرَازِهِ ، مَنْ يَجْرَى تَجْرَى نَفْسِهِ النَفِيسَةِ فِي كُلِّ
مَعْنَى ، وَمَنْ يَكُونُ لَهُ لَفْظُ الْوَلَايَةِ وَلَهُ - أَيْدِ اللَّهِ - الْمَعْنَى ، بِفَقْدَمِهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ الْأُولَى
كِبْرَى الْكُتَّابِ ، وَمَقَادِرِ الْجَنَائِبِ ، وَأَجَمَةِ الْأَبْطَالِ ، وَمُزْنَةِ الْوَدْقِ الْهَطَّالِ ، الْمَشْتَمَلَةِ
مِنَ الْغَزَاةِ عَلَى مَشْيَخَةِ آلِ يَعْقُوبَ نُسَبَاءِ الْمُلُوكِ الْكَرَامِ ، وَأَعْلَامِ الْإِسْلَامِ ، وَسَائِرِ
قِبَائِلِ بَنِي مَرَيْنَ ، لُيُوثِ الْعَرِينِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْقِبَائِلِ ، وَأُولَى الْوَسَائِلِ ،
لِيَحُوطَ جَمَاعَتَهُمْ ، وَيَرْفَعَ بِتَفَقُّدِهِ إِضَاعَتَهُمْ ، وَيَسْتَخْلَصَ اللَّهُ وَلَآئِيَهُ - أَيْدِ اللَّهِ -
طَاعَتَهُمْ ، وَيُسَرِّفَ بِإِمَارَتِهِ مَوَازِينَهُمْ ، وَيَزِينُ بِهَلَالِهِ النَّاهِضَ إِلَى الْإِبْرَارِ ، عَلَى فَلَكِ
سَعَادَةِ الْأَفْدَارِ ، كَوَاكِبَهُمْ ، تَقْدِيمًا أَشْرَقَ لَهُ وَجْهَ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَتَهَلَّلَ ، وَأَحْسَسَ
بِاقْتِرَابِ مَا أُمِّلَ ، فَلِلْخَيْلِ اخْتِيَالِ وَمِرَاحِ ، وَلِلْأَسَلِ السُّمْرِ أَهْتَازُ وَآرْتِيَا حِ ، وَلِلْصُّدُورِ
النَّشْرَاحِ ، وَلِلْأَمَلِ مَغْدَى فِي فَضْلِ اللَّهِ وَمِرَاحِ .

فليتول ذلك - أسعده الله - تولى مثله من أسرة الملك أسرته ، وأسرة النبي صلى الله عليه وسلم أسرته ، والمملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربى مفخر لطيب^(١) طبعه ، أخذًا أشراقهم بترفع المجالس بنسبة أقدارهم ، مقرَّبًا حُسن اللقاء بإيثارهم ، شاكرًا غنائهم ، مستديمًا ثنائهم ، مستندرا لأرزاقهم ، موجبًا للزينة بحسب استحقاتهم ، شافعًا لديه فى رغباتهم المؤمله ، ووسائلهم المتحمله ، مسهلًا الإذن لوُفودهم المتلاحقه ، مُنقِّحًا لبضائعهم النافقه ، مؤنسًا لغرائبهم ، مستجلبًا أحوال أهلهم وآبائهم ، مميزًا بين أغفالمهم ونُبَاهم .

وعلى جماعتهم - رعى الله جهادهم ، ووفر أعدادهم - أن يطيعوه فى طاعة الله وطاعة أبيه ، ويكونوا يدًا واحدة على دِفَاع أعادى الله وأعاديه ، ويشتدوا فى المواقف الكريهة أزره ، ويمثلوا نهيه وأمره ، حتى يعظم الانتفاع ، ويُنْجِر الدِّفاع ، ويخلص القصد لله والمطاع ؛ فلو وجد - أيده الله - غاية فى تشريفهم لبلغها ، أو موهبة لسوغها ؛ لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه مرغب ؛ والله منتج الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المآل .

فمن وقف على هذا الظَّهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمَّنه من أمرٍ مُطاع ، ونُفَرٍ مستند إلى إجماع ، ووجوبٍ أتباع ، وليكن خيرَ مرعى لخير راع ، بحول الله .

وأقطعه - أيده الله - ليكون بعض المدد لأزواد سقره ، وسِمَاط قفره ، فى جملة ما أولاه من نعمه ، وسوغه من موائد كرمه - جميع القرية المنسوبة إلى عرب غسان : وهى الحلة الأثيره ، والمنزلة الشهيره ؛ تنطلق عليها أيدى خدامه ورجاله ،

(١) فى الريحانة « منجد لطيب » الخ .

جاريةً مجرى صالح ماله ، محررةً من كل وظيف لأستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا .



وهذه نسخة ظهير لمشيخة الغزاة بمدينة مائقة ، وهو :

هذا ظهير كريم أطلع الرضا والقبول صباحا ، وأنشأ للعناية في جَوِّ الوجود ، من بعد الرُّكود ، رِيَّاحا ، وأوسع العيون قُرَّةً ^(١) [وإبصارا] والصدور أنشراحا ، وهياً للتعتمد به معدي في السعادة وفرّاحا ، وهزّ منه سيفاً عتيقاً يفوق اختيارا ويروق أنشراحا ، وولاه رياسة الجهاد في القطر الذي تقدّمت الولاية فيه لسلفه فنال عزّاً شهيراً وآزاداً نفراً صراحاً ، وكان ^(١) [له] ذلك إلى أبواب السعادة مفتاحاً .

أمر به وأمضاه ، وأوجب العمل بحسبه ومقتضاه ، الأمير عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحجاج ^(١) [يوسف] ابن مولانا أمير المسلمين ، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر - أيد الله أمره وأعز نصره ، وأسعد زمانه وعصره - لوليه في الله الذي كساه موله من جميل آعتقاده حللاً ، وأورده من عذب رضاه منهل ، وعرفه عوارف قبوله مفصلاً خطبها ومجسلاً ، الشيخ أبي العلا ، إدريس ، ابن الشيخ أبي سعيد عثمان ، بن أبي العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس عليّ ^(٢) مجادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه عليّ [أحمد] عادة سلفه ^(١) [وعادته] .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) في ريحانة الكتاب «أخاف» .

ولمّا كان له القَدْرُ الجليل ، والمجدُّ الأثيل ، والذكرُ الجميل ، والفضائلُ التي كَرُمَ منها الإجمال والتفصيل ، وأحرزَ قَصَبَ السَّبْقِ بذاته وسلفه إذا ذُكِرَ المجدُّ العريض الطويل ، وكان قد أعملَ الرِّحْلَةَ إليه يَحْدُوهُ إلى خدمته التَّامِيلُ ، ويَهْوَى به الحُبُّ الذي وَصَحَ منه السبيل ، وعاق عنه الواقعُ الذي تبيّن فيه عُذْرُهُ الجميل ، ثم خلّصه الله من مَلَكَةِ الكفر الخِلاصَ الذي قام به على عُنائِهِ الدليل - قابله بالقبُول والإقبال ، وفَسَّحَ له مَيدانَ الرضا رَحَبَ المَجَال ، وصَرَفَ إليه وَجَهَ الاعتداد بمضائه رائقَ الجمال ، سافِراً عن بلوغ الآمال ، وآواه من خدمته إلى رُبُوةٍ مَتَّسعة الأرجاء وارفة الظلال ، وقطَعَ عنه الأطلعَ بمقتضى هِمَّتِهِ البعيدة المَنال . ثم رأى - والله يُنَجِّحُ رأيهِ ، ويشكرُ في سبيلِ الله عن الجهادِ سَعِيَهُ - أن يستظهرَ بِمَضَائِهِ ، ويرسلَ عليه عَوَارِفَ آلائِهِ ، ويعمُرَ به رُتَبَ آبائِهِ . فقدمه - أعلى الله قَدَمَهُ ، وشكر [آلاه] ^(١) ونِعَمَهُ - شيخَ الغزاة والمجاهدين ، وكبيرِ أُولَى الدِّفاع عن الدين ، بمدينة (مالقة) حرسها الله أختَ حضرة [دار] ^(١) ملكه ، وثانيةِ الدُّرَةِ الثمينة من سُلُوكِهِ ، ودارِ سلفه وقرارةِ مَجْدِهِ ، والأفقي الذي تألَّقَ منه نُورُ سَعْدِهِ ، راجعاً إليه نظرَ القواعد الغربية رُنْدَةً وركوان (؟) وما إليه رجوعُ الاستغلال والاستيراد ، والعزِّ الفسيح المَجَال البعيد الآماد ، يقودُ جميعها إلى الجهاد ، عاملاً على شاكلةِ مَجْدِهِ في الإصدار والإيراد ، حتّى يظهر على تلك الجهاتِ المباركة آثارُ الحِماية والبَسالة ، ويعودَ لها عهدُ المِجادَةِ والجلالة ، وتترنَّ مَلابِسَ الإيالة . وهو يعمل في ذلك الأعمالَ التي تليق بالمجدِّ الكريم ، والحسبِ الصميم ، حتّى ينموَ عددُ الجُساه ، ويكفَّ البأسُ أكْفَ الغزاة ويعظمُ أثرُ الأبطال النُكاه ، وتظهر ثمرة الاختيار ، ويشمل الأمنُ جميعَ الأقطار ، وتحسِمَ عنه أطلُعُ الكفار .

(١) الزيادة من "الريحانة" .

وعلى من يقف عليه من الفرسان - وفر الله أعدادهم ، وأعز جهادهم - أن يكونوا ممثلين في الجهاد لأمره ، عارفين بقدره ، مُضِينَ فيما ذُكر لحكمه ، واقفين عند حدّه ورسمه . وعلى من سواهم من الرعايا والخدام ، والولاة والحكام ، أن يعرفوا قدر هذا الاعتناء الواضح الأحكام ، والسير المشريق القسام ، فيعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام ، والترفيح والإعظام . على هذا يُعتمد ، وبحسبه يعمل ، بحول الله وقوته .

الضرب الثاني

(من ظهائر بلاد المغرب ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية
من أصحاب الأقلام)

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة ، وهو :

هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ، ودلّ على ما يُرضى الله عز وجل آتماسه ، وأطلع نور العناية يجلو الظلام نبراسه ، وأعتمد بمثابة العدل من عرف بافتراح هضبتها بأسه ، وألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد الجميل تروق أنواعه وأجناسه ، وشيّد مبنى العز الرفيع في فنة الحسب المنيع وكيف لا والله بانيه والمجد أساسه .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر - أيد الله أمره ، وخلد نخره - لقاضى حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية ، المخصوص لديه بترفيح المزية ، المصروف إليه خطاب القضاة بإيالته النصريه ، قاضى الجماعة ، ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة ،
الشيخ أبي الحسن ابن الشيخ أبي محمد بن الحسن وصل الله سعادتة ،

وَحَرَسَ مَجَادَتَهُ ، وَسَنَى مِنْ فَضْلِهِ إِرَادَتَهُ . عَصَبَ مِنْهُ جَبِينَ الْمَجْدِ بَتَاجِ الْوِلَايَةِ ،
وَأَجَالَ قِدَاحَ الْأَخْتِيَارِ حَتَّى بَلَغَ الْغَايَةَ وَتَجَاوَزَ النِّهَايَةَ ، فَأَلْقَى مِنْهُ بَيْمِينَ عَرَابَةَ الرَّايَةِ ،
وَأَحْلَهَ مِنْهُ مَحَلَّ اللَّفْظِ مِنَ الْمَعْنَى وَالْإِعْجَازَ مِنَ الْآيَةِ ، وَحَشَرَ إِلَى مِرَاعَاةِ تَرْفِيعِهِ وَجُوهَ
الرِّوَاءِ وَأَعْيَانَ الْعَنَاءِ ، وَأَنْطَقَ بِتَبْجِيلِهِ ، أَلْسُنَ أَهْلِ جِيلِهِ ، بَيْنَ الْإِفْصَاحِ وَالْكِتَابَةِ .

وَمَا كَانَ لَهُ الْحَسَبُ الَّذِى شَهِدَتْ بِهِ وَرَقَاتُ الدَّوَاوِينِ ، وَالْأَصَالَةُ الَّتِى قَامَتْ
عَلَيْهَا صِحَاحُ الْبَرَاهِينِ ، وَالْآبَاءُ الَّذِينَ أَعْتَرَّ بِمُضَاءِ قُضَاتِهِمُ الدِّينَ ، وَطَبَّقَ^(١) مَفَاصِلَ
الْحُكْمِ بِسُيُوفِهِمُ الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَأَزْدَانُ بِمُجَالَسَةِ وَزَرَائِهِمُ السُّلَاطِينِ : فَمِنْ فَارِسِ حُكْمِ
أَوْ حَكِيمِ تَدْبِيرِ ، أَوْ قَاضٍ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ وَوَزِيرِ ، أَوْ جَامِعٍ بَيْنَهُمَا جَمَعَ سَلَامَةَ
لَا جَمَعَ تَكْسِيرَ ، تَعَدَّدَ ذَلِكَ وَأَطْرَدَ ، وَوَجَدَ مَشْرَعَ الْمَجْدِ عَذْبًا فَوْرَدَ ، وَقَصَّرَتْ
النُّظْرَاءُ عَنْ مَدَاهِ فَانْفَرَدَ ، وَفَرَى الْفِرَى فِي يَدِ الشَّرْعِ فَأَشْبَهَ السَّيْفَ الْفِرْنَْدَ ، وَجَاءَ
فِي أَعْقَابِهِمْ مُجِيًّا لِمَا دَرَسَ ، بِمَا حَقَّقَ وَدَرَسَ ، جَانِيًّا لِمَا بَذَرَ السَّلَفُ الْمُبَارَكُ
وَأَغْتَرَسَ ، طَاهِرَ النَّشْأَةِ وَقُورَهَا ، مَحْمُودَ السَّجِيَّةِ مَشْكُورَهَا ، مَتَحَلِّيًا بِالسَّكِينَةِ ،
حَالًّا مِنَ التَّزَاهَةِ بِالْمَكَانَةِ الْمَكِينَةِ ، سَاحِبًا أَذْيَالَ الصَّوْنِ ، بَعِيدًا عَنِ الْإِتِّصَافِ
بِالْفَسَادِ مِنْ لَدُنِ الْكَوْنِ ، نَخْطَبَتَهُ الْخُطَطُ الْعَلِيَّةُ ، وَأَغْتَبَطَتْ بِهِ الْمَجَادَةُ الْأَوَّلِيَّةُ ،
وَأَسْتَعْمَلَتْهُ دَوْلَتُهُ الَّتِى تَرْتَادُ أَهْلَ الْفَضَائِلِ لِلرُّتَبِ ، وَتَسْتَظْهَرُ عَلَى الْمَنَاصِبِ بِأَبْنَاءِ
التَّقَى وَالْحَسَبِ ، وَالْفَضْلِ وَالْمَجْدِ وَالْأَدَبِ ، مِمَّنْ يَجْمَعُ بَيْنَ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ وَالْإِرْثِ
وَالْمَكْتَسَبِ ، فَكَانَ مَعْدُودًا مِنْ عُدُولِ قُضَاتِهَا وَصُدُورِ نُبَاهِئِهَا ، وَأَعْيَانَ وَزَرَائِهَا ،
وَأَوَّلَى آرَائِهَا .

فَلَمَّا زَانَ اللَّهُ خَلِيفَتَهُ بِالتَّحْيِصِ ، الْمَتَجَلَّى عَنِ التَّخْصِصِ ، وَخَلَصَ مُلْكُهُ
الْأَصِيلَ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ مِنْ بَعْدِ التَّخْلِصِ ، كَانَ مِنْ صَحْبِ رِكَابِهِ الطَّالِبَ لِلْحَقِّ

(١) بِقَالَ طَبَّقَ السَّيْفَ إِذَا أَصَابَ الْمُفْصِلَ فَأَبَانَ الْعُضْوُ . انْظُرِ اللِّسَانَ .

بَسَيْفِ الْحَقِّ ، وَسَلَكَ فِي مَظَاهِرَتِهِ أَوْضَحَ الطُّرُقِ ، وَجَادَلَ مَنْ حَادَّهُ بِأَمْضَى مِنْ
الْحِدَادِ الدُّلْقَى ، وَأَشْتَهَرَ خَيْرُ وَقَائِهِ بِالْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، وَصَلَّى بِهِ صَلَاةَ السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ،
وَالْأَمْنِ وَالْحَذَرِ ، وَخَطَبَ بِهِ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي بَعْدَ بَذْرِ اللَّهِ عَهْدَهَا ، وَخَاطَبَ
عَنْهُ - أَيْدِي اللَّهِ - الْمَخَاطَبَاتِ الَّتِي حُدَّ قَصْدُهَا ، حَتَّى اسْتَقْلَّ مُلْكُهُ فَوْقَ سَرِيرِهِ ،
وَأَبْتَهَجَ مِنْهُ الْإِسْلَامَ بِأَمِيرِهِ وَأَبْنِ أَمِيرِهِ ، وَنَزَلَ السُّتْرَ عَلَى الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ بِبِرْكَةِ إِيَالَتِهِ
وَيُمْنِ تَدْبِيرِهِ ، وَكَانَ الْجَلِيسَ الْمُقَرَّبَ الْمُحْسِلَ ، وَالْحَظِيَّ الْمَشَاوِرَ فِي الْعَقْدِ وَالْحَلِّ ،
وَالرَّسُولَ الْمُؤْتَمَنَ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَالْأَمِينَ عَلَى الْوُظَائِفِ الْيَجَارِ ، مَزِينِ الْمَجْلِسِ
السُّلْطَانِيِّ بِالْوَقَارِ ، وَمَتَحِفِّ الْمَلِكِ بِغَرِيبِ الْأَخْبَارِ ، وَخَطِيبِ مَنبَرِهِ الْعَالِي فِي الْجُمُعَاتِ ،
وَقَارِيَّ الْحَدِيثِ لَدَيْهِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ .

ثُمَّ رَأَى - أَيْدِي اللَّهِ - أَنْ يُشْرِكَ رَعِيَّتَهُ فِي نَفْعِهِ ، وَيَصْرِفَ عَوَامِلَ الْخُطُوةِ
إِلَى مَزِيدِ رُفْعِهِ ، وَيُجْلِسَهُ مَجْلِسَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِإِيضَاحِ شَرْعِهِ ،
وَأَصْلِهِ الْوُثِيقِ وَفِرْعِهِ ، وَقَدَّمَهُ - أَعْلَى اللَّهِ قَدَمَهُ ، وَشَكَرَ آلاءَهُ وَنِعَمَهُ - قَاضِيًا فِي الْأُمُورِ
الشَّرْعِيَّةِ ، وَفَاصِلًا فِي الْقَضَايَا الدِّيْنِيَّةِ ، بِحَضْرَةِ غَرْنَاطَةِ [الْعَلِيَّةِ] حَرَمِهَا اللَّهُ تَقْدِيمَ
الْإِخْتِيَارِ وَالِاتِّقَاءِ ، وَأَبْقَى لَهُ نَخْرَ السَّلَفِ عَلَى الْخَلْفِ وَاللَّهُ يُمَتِّعُهُ بِطَوْلِ الْبَقَاءِ .

فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ عَادِلًا فِي الْحُكْمِ ، مُهْتَدِيًا بِنُورِ الْعِلْمِ ، مَسْوِيًا بَيْنَ الْخَصُومِ حَتَّى
فِي لَحْظِهِ وَالْتِفَاتِهِ ، مُتَصِفًا مِنَ الْحِلْمِ بِأَفْضَلِ صِفَاتِهِ ، مُهَيِّبًا بِالذِّينِ ، رُفُوفًا بِالْمُؤْمِنِينَ ،
مَسْجَلًا لِلْحَقُوقِ ، غَيْرُ مُبَالٍ فِي رِضَا الْخَالِقِ بِسُخْطِ الْمَخْلُوقِ ، جَزَلًا فِي الْأَحْكَامِ ،
مُجْتَهِدًا فِي الْفَضْلِ بِأَمْضَى حُسَامٍ ، مُرَاقِبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ ، بَارًّا
بِمَشِيخَةِ أَهْلِ التَّوَثِيقِ ، عَادِلًا إِلَى سَعَةِ الْأَقْوَالِ عِنْدَ الْمَضْيِيقِ ، سَائِرًا مِنْ مَشْهُورِ
الْمَذْهَبِ عَلَى أَهْدَى طَرِيقٍ - وَأَوْصَاهُ بِالْمَشُورَةِ الَّتِي تَقْدَحُ زِنَادَ التَّوْفِيقِ ، وَالتَّثَبُّتِ

حتى يَنْبَلِجَ قِياسُ التحقيق ؛ وصِيَّةٌ أَصْدَرُهَا لَهُ مَصْدَرُ الذِّكْرِ الَّتِي تَنْفَعُ ، وَيُعَلِّي اللَّهُ بِهَا الدَّرَجَاتِ وَيَرْفَعُ ، وَإِلَّا فَهُوَ عَنِ الْوَصَاةِ غَنِيٌّ ، وَقَصْدُهُ قَصْدُ سَنِيٍّ ؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِيُّ إِعَانَتِهِ ، وَالْكَفِيلُ بِحِفْظِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَصِيَّانَتِهِ .

[وَأَمْرُهُ - أَيْدُهُ اللَّهُ - أَنْ يَنْظُرَ فِي الْأَحْبَاسِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، وَالْأَوْقَافِ عَلَى شَتَّى أَصْنَافِهَا] ^(١) وَالْيَتَامَى الَّتِي آتَسَدَتْ كِفَالَةُ الْقُضَاةِ عَلَى ضِعْفِهَا . فَيَذُودُ عَنْهَا طَوَارِقَ الْخَلَلِ ، وَيُجَرِّى أُمُورَهَا بِمَا يَتَكَفَّلُ لَهَا بِالْأَمَلِ .

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرَاهُ ، وَأَنْ فَلَتَاتِ الْحُكْمِ تُعَاوِذُهُ الْمَرَاجِعَةَ فِي أَنْوَاعِهَا ، فَيُدْرِعُ جُبَّةَ تَقْوَاهُ ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ أَهْلُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ .

فَعَلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ حَقَّ هَذَا الْإِجْلَالِ ، صَائِنًا مَنْصِبَهُ عَنِ الْإِخْلَالِ ، مُبَادِرًا أَمْرَهُ الْوَاجِبَ بِالْأَمْتِثَالِ ؛ بِحَوْلِ اللَّهِ .

وَكُتِبَ فِي الثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ اللَّهِ الْحَرَمِ فَاتِحِ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَسِتِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، عَرَّفَ اللَّهُ فِيهِ هَذَا الْمَقَامَ الْعَلِيِّ عَوَارِفَ النُّصَرِ الْمُبِينِ وَالْفَتْحِ الْقَرِيبِ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ، فَهُوَ الْمُسْتَعَانَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .



وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا ، وهو :

هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ أَعْلَى رُتْبَةِ الْأَحْتِفَاءِ [وَالْأَحْتِفَالِ] ^(١) اخْتِيَارًا وَآخْتِبَارًا ، وَأَظْهَرَ مَعَانِيَ الْكِرَامَةِ وَالتَّخْصِصِ انْتِقَاءً وَأَصْطِفَاءً وَإِثَارًا ، وَرَفَعَ لَوَاءَ الْجَلَالَةِ عَلَى مَنْ أَشْتَمَلَ عَلَيْهَا حَقِيقَةً وَاعْتِبَارًا ، وَرَفَعَ فِي دَرَجَاتِ الْعِزِّ مَنْ طَافَهَا عِلَاءً بِهَرَّ أَنْوَارٍ ، وَدِينًا كَرَمٍ فِي الصَّالِحَاتِ آثَارًا وَزَكَا فِي الْأَصَالَةِ نِجَارًا ، وَخُلُوصًا إِلَى هَذَا الْمَقَامِ الْعَلِيِّ السَّعِيدِ

(١) الزيادة عن ربحانة الكتاب ، ونفع الطيب ص ٧٣ ج ٣ .

راق إظهاراً وإظهاراً. أمر به وأمضاه، وأنفذ العمل بحكمه ومقتضاه، فلان للشيخ
القاضي، العدل، الأرضي، قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية، المخصوص
لدئ المقام العليّ بالحظوة السنيّة والمكانة الحفيّة، الفاضل، الحافل، الكامل،
الموقر، المبرور أبي الحسن ابن الشيخ الفقيه، الوزير، الأجل، الأعزّ، المساجد،
الأسنى، المرفّع، الأحفل، الأصالح، المبارك، الأكل، الموقر، المبرور، المرحوم
أبي محمد بن الحسن - وصلّى الله عزّته، ووالى رفعتّه ومبرّته، ووهب له من صلة
العناية الربّانية أمله وبقيته - لمّا أصبح في صدور القضاة العلماء مُشاراً إلى جلاله،
مستنداً إلى معارفه المخصوصة بكمالها، مطرّزا على الإفادة العلمية والأدبيّة بحاسنه
البديعة وخياله، محفوفاً مقعداً الحكم النبويّ ببركة عدالتّه وفضل جلاله، وحلّ
في هذه الحضرة العلية المحلّ الذي لا يرقاه إلاّ عيّن الأعيان، ولا يتبوء مهاده إلاّ مثله
من أبناء المجد الثابت الأركان، وموالى العلم الواضح البرهان، والمبرزين بالماثر العلية
في الحُسن والإحسان. وتصدّر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة
الميزان، والأنظار الحسنة الأثر والعيان، والمقاصد التي وفّت بالغاية التي لا تُستطاع
في هذا الميدان، فكم من قضية جلا بمعارفه مشكلها، ونازلة مبهمّة فتح بإدراكه
مُقفَلها، ومسألة مُهمّلة عرّف نكبتها وقرّر مهمّلتها، حتى قرّرت بعدالته وجزّالته
العيون، وصدّقت فيه الآمال الناجحة والظنون، وكان في تصديره لهذه الولاية
العظمى من الخير والخيرة ماعسى أن يكون - كان أحقّ بالتشفيع لولاياته وأولى،
وأجدر بمضاعفة النعم التي لا تزال تترادّف على قدره الأعلى.

فلذلك أصدر له - أيده الله - هذا الظهير الكريم مشيراً بالترفيح والتنويه، ومؤكّداً
للاحتفاء الوجيه، وقدمه - أعلى الله قدمه، وشكر نعمه - خطيباً بالجامع الأعظم

(١) [من حضرته] - عمره الله بذكره - من عليّة الخطباء، و كبار العلماء، و خيار الفقهاء الصّالحاء؛ فليتولّ ذلك فى جمعاته، مظهرها فى الخطبة أثر بركته و حسناته، عاملاً على ما يقتر به عند الله من مرضاته، و يُظهره بجزيل مَثوباته؛ بحول الله و قوّته .

الضرب الثالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلى المعبر عنه فى بلادنا بكتابة السر؛ وهى :

هذا ظهير كريم نصب للمعتمد به الإنافة الكبرى ببابه فرّعه، وأفرد له مثلّ العز (٢) جمعه ووتره وشفّعه، وقرّبه فى بساط الملك تقريباً [أرغم به أنف عداه ووضعه] (٣)، وفتح له باب السعادة وشرّعه، وأعطاها لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته، من أولى صنّعه، أن يتّبعه؛ ورعى له وسيلته السابقة عند استخلاص الملك لما أبتّره الله من يد الغاصب وآنترعه، وحسبك من ذمام لا يحتاج إلى شىء معه .

أمر به الأمير فلان لفلان - وصل الله سعادته، وحرس مجادته - أطلع له وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم، وأقطعه جناب الإنعام الجسيم، وأنشقه أرج الحظوة عاطر النسيم، ونقله من كرسيّ التدريس والتعليم، إلى مرقى التنويه والتكريم، والرتبة التى لا يلقّاها إلا ذو حظّ عظيم؛ وجعل أقلامه جياداً لإجالة أمره العلى، وخطابه السنّى، فى مآدين الأقاليم؛ ووضع فى يده أمانة القلم الأعلى، جارياً من

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

(٢) فى الريحانة «نصب المعتمد به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام .

(٣) من "ريحانة الكتاب".

الطريقة المثلى، على التهج القويم، واختصه بمزية الشفوف على كتاب باب الكريم .
 لما كان ناهض الوكر في طلبة حضرته من البدايه ، ولم يزل تظهر عليه لأولى التميز
 تحايل هذه العناية : فإن حضر حلق العلم جلّ في حلبة الحفاظ إلى الغايه ، وإن نظم
 أو نثر أتى بالقصائد المصقوله ، والمحاطبات المنقوله ، فاشتهر في بلده وغير بلده ،
 وصارت أزمّة العناية طوع يده ، بما أوجب له المزية في يومه وغده .

وحين ردّ الله عليه ملكه الذي جبر به جناح الإسلام ، وزين وجوه الليالي
 والأيام ، وأدال الضياء من الظلام ، وكان ممن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك
 عود خلوصه وخبره ، فحمد أثره ، وشكر ظاهره ومضمرة ، وأستصحب على ركابه
 الذي صحب اليمن سقره ، وأخلصت الحقيقة نقره ، وكفل الله ورده وصدره ،
 ميمون النقيب ، حسن الضريبه ، خالصا في الأحوال المريبه ، ناطقا عن مقامه
 بالمحاطبات العجيبه ، واصلا إلى المعاني البعيدة بالعبارات القريبه ، مبرزا بالخدم
 الغريبه ، حتى آستقام العباد ، ونطق بصديق الطاعة الحى والجماد ، ودخلت
 في دين الله أفواجا العباد والبلاد ، لله الحمد على نعمة الثرة العباد ، وآلائه المتواليه
 الترداد - رعى له - أيده الله - هذه الوسائل وهو أحق من يرعاها ، وشكره الخدم
 المشكور مسعاها ، فقصر عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوقائه ، وألبسه أثواب
 اعتنائيه ، وفسح له مجال آلائه ، وقدمه - أعلى الله قدمه ، وشكر نعمة - كاتب السر ،
 وأمير النهى والأمر ، تقديم الاختبار ، والأغبتاب بخدمته الحسنة الآثار ، والتمين
 باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والاستقرار ، وغير ذلك من موجبات الإيثار .

فليتول ذلك عارفا بمقداره ، مقتفيا لآثاره ، مستعينا بالكتم لأسراره ، والأضطرار
 بعظام أموره وكرامه ، متصفا بما يجمل من أمانته وعفافه ووفاره ، معطيا هذا الرسم

حقه من الرئاسة ، عارفاً بأنه أكبر أركان السياسة ؛ حتى يتأكد الاعتبار بتقريبه وإدناؤه ، وتوفر أسباب الزيادة فى إعلائه ؛ وهو - إن شاء الله - غنى عن الوصاة فهماً ثاقباً ، وأدباً لعيون الكمال مُراقباً ؛ فهو يعمل فى ذلك أقصى العمل ، المتكفل ببلوغ الأمل .

وعلى من يقف عليه : من حملة الأعلام ، والكتّاب الأعلام ، وغيرهم من الكفاة والخدم ، أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام ، والتقديم الراجح الأقدام ، ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام ، والإجلال والإعظام ؛ بحول الله وقوته ، وكتب فى كذا .

الطرف الثالث

(فى مصطلح كتاب الديار المصرية فيما قبل الخلفاء الفاطميين
وفى بعدهم إلى زماننا)

وفيه أربع حالات :

الحالة الأولى - ما كان عليه أمر نواب الخلفاء بهذه المملكة إلى ابتداء الدولة الطولونية .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية ، تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تصرف الهمم لتدوينه مع تطاول الأيام وتوالي الليالى .

الحالة الثانية — ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم إلى انقراض الدولة الأخشيدية .

وقد تقدم أن أحمد بن طولون أول من أخذ في ترتيب الملك وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية . ولما شَمَخَ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات ، فاستكتب ابن عبد كان ، فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره ؛ وكان يفتتح ما يكتبه عنه في الولايات بلفظ « إن أولى كذا » أو « إن أحق كذا » وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة عهد كتب به ابن عبد كان عن أحمد بن طولون بقضاء برقة ترشد إلى ما عداها من ذلك وهي :

إِنَّ أَحَقَّ مَنْ آثَرَ الْحَقَّ وَعَمِلَ بِهِ ، وَرَاقِبَ اللَّهَ فِي سِرِّ أَمْرِهِ وَجَهْرِهِ ، وَأَحْتَرَسَ مِنَ الزَّيْغِ وَالزَّلَلِ فِي قَوْلِهِ وَفَعَلَهُ ، وَعَمِلَ لِمَعَادِهِ وَرَجَعْتِهِ ، إِلَى دَارِ فَاقَتِهِ وَفَقَرِهِ وَمُسْكِنَتِهِ ، مَنْ جُعِلَ بَيْنَ الْمَسَامِينَ حَاكِمًا ، وَفِي أُمُورِهِمْ نَازِلًا : [فَأَرَأَى] ^(١) الدَّمَاءَ وَحَقَّهَا ، وَأَحَلَّ الْفُرُوجَ وَحَرَمَهَا ، وَأَعْطَى الْحَقُّوقَ وَأَخَذَهَا ؛ وَمَنْ عَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَائِلُهُ عَنْ مِثْقَالِ الذَّرَّةِ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقَلَّبُ فِي قَبْضَتِهِ ، أَيَّامَ مُدَّتِهِ ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ دُنْيَاهُ نَخْرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، إِمَّا سَعِيدًا بِعَمَلِهِ وَإِمَّا شَقِيًّا بِسَعْيِهِ .

وإِنَّا لِمَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَدِيدِ مَذْهَبِكَ وَقَوِيمِ طَرِيقَتِكَ ؛ وَجَمِيلِ هَدْيِكَ وَحُسْنِ سِيرَتِكَ ؛ وَرَجَوْنَاهُ فِيكَ ، وَقَرَّرْنَاهُ عِنْدَكَ : مِنْ سُؤْلِكَ الطَّرِيقَةَ الْمُسْتَلَى ، وَاقْتِنَاءِ آثَارِ أُمَّةِ الْهُدَى ، وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ لَا بِالْهَوَى — رَأَيْنَا تَقْلِيدَكَ الْقَضَاءَ بَيْنَ أَهْلِ نَعْرِ بَرَقَةٍ ، وَأَمْرًا نَاكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مِنْ طَلَبٍ ، وَلَا يَقُوتُهُ مِنْ هَرَبٍ — وَبَطَاعَتِهِ الَّتِي مَنْ آثَرَهَا

(١) بياض في الاصل والتصحيح من المقام .

سعيد، ومن عمل بها حُمد، ومن لزمها نجا، ومن فارقتها هوى - وأن تُواصل
الجلوس لمن بحضرتك من الخُصوم : صابرا بنفسك على تنازعهم فى الحقوق ،
وتدافعهم فى الأمور، غير برِّم بالمراجعات ، ولا صَخر بالمُحاكات : فإن من حاول
إصابة فصل القضاء ، وموافقة حقيقة الحكم بغير مادة من حلم ، ولا معونة من
صبر ، ولا سُهمة من كظم ، لم يكن خليقا بالظفر بهما ، ولا حقيقا بالدرك لهما -
وأن تقسم بين الخصمين إذا تقدما إليك ، وجلسا بين يديك ، فى لحظك ولَفْظك ،
وتوفى كل واحد منهما قسمه من إنصافك وعدلك ، حتى يئأس القوى من ميلك ،
ويأمن الضعيف من حيفك : فإن فى إقبالك بنظرك وإصغائك بسمعك إلى أحد
الخصمين دون صاحبه ما أضل الآخر عن حُجته ، وأدخل الحيرة على فكره ورويته -
وأن تُحضر مجلس قضائك من يُستظهر برأيه ، ومن يرجع إلى دينٍ وحجٍّ وتقى :
فإن أصبت أيديك ، وإن نسيت ذكرك - وأن تقتدى فى كل ما تعمل فيه
رويتك ، وتُضئى عليه حكمك وقضيتك ، بكتاب الله الذى جعله صراطا مستقيما ،
ونورا مستبيناً ، فشرع فيه أحكامه ، وبين حلاله وحرامه ، وأوضح به مشكلات
الأمر ، فهو شفاء لما فى الصدور . وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصه
فإن فيما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم حكمه ، وما لم يكن فى حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم أقتفيت فيه سبيل السلف الصالح من أئمة الهدى رضى الله
عنهم الذين لم يألوا الناس اختبارا ، ولا أدخروهم نصيحةً واجتهادا ، علما أنك
أسعد بالعدل ممن تعدل عليه ، وأحظى بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجله
من جميل أحوثه وذكره ، ويُدخلك من عظيم ثوابه وأجره ، ويُصرف عنك من
حُوب ما تنقلده ووزره - وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهل الثقة فى أديانهم ،
والمعروفين بالأمانة فى معاملاتهم ، والموسومين بالصدق فى مقالاتهم ، والمشهورين

بالتقدم في عدالاتهم : فإنك جاعلهم بين الله وبينك في [كل] كلام تُصدِّره ، وحكم
تُبرِّمه ، وحقيق بأن لا ترضى لنفسك منهم إلا بما يرضى منك ، وتعلم أن ذلك هو
الصدق ، وأنت قد أبلت عُذرك في تخييرهم ، فإنه بعلم أن ذلك هو الصدق من نيتك ،
والصحة من يقينك ، تحسن عليه معونتك ، ويحضرك التوفيق في جميع أقضيتك -
وأن يكون من تستعين به على المسألة عن أحوال هؤلاء الشهود ومذاهبهم ،
وما يعرفون به وينسبون إليه في رحالهم ومساكنهم أهل الورع والأمانة ، والصدق
والصيانة - وأن تجدد المسألة عنهم في كل مرة ، وتفحص عن خبرهم في كل قضية ،
ثم لا يمتنع وقوفك على سقوط عدالة من تقدمت بتعديله من استقبال الواجب
في مثله ، واستعمال الحق في أمره - وأن تُشرف على أعوانك وأصحابك ، ومن تجرى
أمرؤك على يديه من خلفائك وأسبابك ، إشرافا يمنعهم من الظلم للريعيه ، ويقبض
أيديهم عن المآكل الرديئة ، ويدعوهم إلى تقويم أودهم ، وإصلاح فاسدهم ، ويزيد
في بصيرة ذوى الثقة والأمانة منهم ، فمن وقفت منه على أمثالٍ لمذهبك ، وقبول
لأدبك ، واقتصار فيما يتقلده لك ، أقررت وأحسن مكافأته ومثوبته ، ومن شمت
منه حيفا في حكمه ، وتعديا في سيرته ، وبسطا ليدِه إلى ما لا يجب له ، تقدمت
في صرفه ، وألزمته في ذلك ما يلزمه - وأن تختار لكتابك من تعرف سداد مذهبه ،
وأستقلاله بما يتقلده ، وإشارا لرس (١) من صحته ، ومن تقدّر عنده تقديرا
في نصيحتك فيما يجرى على يديه ، وتوخيا لصدقك فيما يحضره وتغيب عن مشاهدته ،
فإنك تأمنه من أمر حكمك على ما لا يؤمن على مثله إلا الأمين ، وتفوض إليه
من حجب الخصوم المرفوعين إليك ما لا يفوض إلا لذي العفاف والدين - وأن تتفقد

(١) لعله « وإشارته للتأكد من صحته » . تأمل .

(٢) لعله « تحريا » تأمل .

مع ذلك أمره ، ومنتصفحه عمله ، وتُسْرِف على ماتحت يديه بما يؤدّيك إلى إحكامه وضبطه ، ويؤمّنك من وقوع خلل فيه - وأن تختار لمجابتك من لا يتجهّم الخُصوم ، ولا يختصّ بعضها دون بعض بالوصول ؛ وتوعز إليه فى بسط الوجه ، ولين الكنف ، وحسن اللفظ ، ورفع المؤنة ، وكف الأذى .

فتقلّد ماقلّدناك من ذلك عاملا بما يحقّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره ، ومستعينا به فى أمرك كلّ : فإنّا قلّدناك جسيما ، وحملناك عظيما ، وتبرّأنا إليك من وزره وإضره ، واعتمدنا عليك فى توى الحق وإصابته ، وبسط العدل وإفاضته ؛ وأقبض لأرزاقك وأرزاق كُتّابك وأعوانك ومن يحجّبك ولئن قراطيسك وسائر مؤنك فى كل شهر أربعين دينارا ؛ فقد كتبنا إلى عامل الخراج بازاحة ذلك ، أوقات استحقاقك إياه ووجوبه لك ، وإلى عامل المدينة بالشّد على يدك ، والتقوية لأمرك ؛ وضَمّ العِدّة التى كانت تُضمّ إلى القضاة من الأولياء إليك ، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالى .

الحالة الثالثة - ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيوب .

وكانوا يسمّون ما يكتب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام «تقاليد» و «تواقيع» و «مراسيم» وربّما عبّروا عن بعضها بـ «لمنّاشير»

وهى فى الافتتاحات على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى - أن تفتح الولاية بخطبة مبتدأة بالحمد لله تعالى ثم يؤتى بالبعدية ، ويذكر ما سبّح من حال الولاية والمولى ، ويوصى المولى بما يليق بولايته ، ثم يقال : «وسبيل كلّ واقف عليه من النّواب العمل به» أو نحو ذلك .

وهى على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحية وإقطاع بلادها لمتوليها ، وهي :

الحمد لله على عوائده الجميلة وعواطفه ، وفوائده الجزيلة وعوارفه ، ناصب الحق وناصره ، وقاصم الباطل وقاصره ، ومُنير الدين ومُدِيله ، ومُبِير الكُفْر ومُذِيله ، وشادّ أزر أوليائه وسادّ ثغرىهم ، وناصر مُعِزِّهم ومُعِزِّ نَصْرِهِم ، الذى أضفى علينا مَدَارِعَ نِعَمِهِ ، وأضفى لدينا مَشارِعَ كَرَمِهِ ، وأعلق أَيْدِيَنَا مِنَ الْعَدْلِ بِأَوْكِدِ الْأَسْبَابِ وَالْأُمُورِ ، وَصَرَفَ بِنَا صَرْفَ الْعَسْفِ وَكَفَّ بِكَفَايَتِنَا كَفَّ الْبُؤْسِ عَنِ الرِّعْيَةِ وَالْبَاسِ ، وَجَلَبَ إِلَى اسْتِجْلَابِ الشُّكْرِ مِنَ النَّاسِ هِمَّتَنَا ، وَطَوَى عَلَى حُبِّ الْبِرِّ وَإِبْرَارِ الْحُبِّ طَوَيْتَنَا ، وَحَسَمَ بِمَا أَوْلَانَاهُ مِنْ أَيْدٍ مَادَّةَ كُلِّ يَدٍ تَمْتَدُّ إِلَى مُحْظُورٍ ، وَيَسِّرْنَا بِسَاطِ الْعَدْلِ الْمَطْوَى لِمَا طَوَى بَعْدُنَا بِسَاطَ الظُّلْمِ الْمُنْشُورِ ، وَأَبَى لَنَا أَنْ نَكْفُرَ نِعْمَةً أَوْ نَنْهَبَهَا لِكَافِرٍ ، أَوْ نَدَعَ شُكْرَ مَنَّةٍ أَوْ نُودِعَهَا عِنْدَ غَيْرِ شَاكِرٍ .

وَلَمَّا كَانَ الْأَمِيرُ فَلَانٌ مِمَّنْ سَبَقَتْ لِحْدَهُ وَلَأْيِيهِ — تَعَاهَدَ اللَّهُ بِالْعَهْدِ مَثَوَاهُمَا ، وَخَصَّ بِثَرَارِ الرَّحْمَةِ ثَرَاهُمَا — الْحَرَمَ الْأَكِيدَ ، وَالْخِدْمَ الطَّرِيفَةَ وَالتَّلِيدَةَ ، وَلَمْ يَزَلَا مُجْتَهِدِينَ فِي تَعْمِيرِ هَذَا الْبَيْتِ وَتَشْيِيدِ أُسُسِهِ ، مَلَازِمِي الْإِدَابِ فِي إِنْمَائِهِ وَتَشْدِيدِ غُرْسِهِ ، مُقْضِيَيْنَ بِالْمَوَالَاةِ إِلَى مُوَالِيهِ ، مُقْصِحِينَ بِالْمُعَادَاةِ لِمُعَادِيهِ ، رَأَيْنَا — لَا زَالَ الْإِقْبَالَ لَا رَأَيْنَا مُقَابِلًا وَمُرَاقِقًا ، وَالسَّعْدُ مُسَاعِدًا وَالتَّوْفِيقُ مُوَافِقًا — أَنْ نُلْحِقَهُ بِدَرَجَةِ أَوْلِيهِ ، وَنُورِدَهُ مِنْ كَرَمِنَا مُورِدَ جِدِّهِ وَأَبِيهِ ، وَنُنْقِىَ إِلَيْهِ عِنَانِ عِنَايَتِنَا ، وَنَرْعَاهُ بِعَيْنِ رِعَايَتِنَا ، وَنُلْحِقَهُ بِجَنَاحِ طُفْقِنَا ، وَنُبَوِّئَهُ مَقْعَدَ شَرَفٍ تَحْتَ ظِلِّنَا ، وَنُحْرُسَ حَدَّهُ مِنَ الْقُلُولِ ، وَجَدَّهُ مِنَ الْخُمُولِ ، وَوَعْدَهُ مِنَ الْخَوَرِ ، وَوَرْدَهُ مِنَ الْكَدَرِ ، وَأَنْ نَقَرَّهُ

على ما بؤنا فيه والدّه من الهبات والإنعام والإفضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت أسمه من المعافى والبُدان، وسيُصحّ ذلك بقلم الديوان .

فليقابل هذا الإنعام من الشكر بمثله، ويواز هذا الإفضال من حُسن القبول بعِذله؛ وليرتبط نعم الله عنده بالشكر الوافى الوافر، فالسعيد من أطرح حلّة الشاكر وأدرع حلّة الشاكر، وليدمن التحدّث بها فالتحدّث بالنعم من الشكر، ويستجذب موادّها بإيضاح سُبُل البر؛ ويجعل التقوى شعاره وديناره، ويخلص الطاعة لله إرادته وإصداره .

وليكن العدل ربيئته ورائده، والأمر بالمعروف دليله وقائده؛ وليتم فيما نيّط به حقّ القيام، ويشمر في حفظ ما استرعيناه عن ساق الإهتمام، ويعلم أن منزلته عندنا أسنى المنازل وأعلاها، ومرتبته لدينا أبهج المراتب وأبهاها؛ ومحله عندنا السامى الذى لا يضاهيه سامى، ومكانه المكان الذى ليس له فى الممكن أن يفترع عليه سامى؛ فسبيله علم ذلك وتحقيقه، وتيقنه وتصديقه، وسبيل كل واقف على هذا المثال، [أن] يقابله بالامتثال، من سائر العَمال، وأرباب الولايات والأعمال . والاعتماد على العلامة الشريفة فى أعلاه، إن شاء الله تعالى .

الصف الثاني — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسة والنظر عليها، والتحدّث على أوقافها وسائر تعلقاتها، وهى :

الحمد لله الظاهر إحسانه، الباهر برهانه، القاهر سلطانه، المتظاهر آمتنانه، نحمده على إنعامه حمداً يدوم به من حلب غزارته وحلى نضارته ازدياده وازديانه،

ونسأله أن يصلّي على سيدنا محمد نبيّه الشارح الشارح بيأنه ، وعلى آله وصحبه الذين هم أعضاد شرعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّا لما نراه من تشييد بيوت ذوى البيوتات ، وإمضاء حكم المروءة في أهل المروءات ، وإرعاء موات ذوى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء الموات ، وموالات النعم الشامل عمومها لأولى الخصوص والخلوص في الموالات ، ما نزال نلحق درجات الأخلاف منهم في الاختصاص بالاستخلاص بالأسلاف ، فنوردهم من مشاريع دولتنا ومشارب نعمتنا في الأصطفاء والأصطناع أعذب النطاف ، ونجنّهم من مغارس الرجاء ، ومجارى النماء ، في الإدناء والاجتباء ، ثمرات النعم الدانية القطاف ، ونفيض عليهم من مدارع البهجة والبهاء ، وحلل الثناء والثناء ، في الاكرام ، بالاحترام ، ما يصفو على الأعطاف .

ولما كان الشيخ فلان متوحّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجليّ الجليل ، والمحتد الأكيد الأصيل ، والفضل الموروث والمكتسب ، والزرّاء في المنتمى والمنتمسب ، والذكاء الذى أنارت في أفق التوفيق ذكأؤه ، والولاء الذى بان في شرعة الإخلاص صفأؤه ، والدين الذى علا سناسنته ، فى منار التحميد ، والخلوص الذى حلا جنى جنته ، فى مذاق التوحيد ، والرياسة التى تصوّع رياء رياضها المؤنقه ، والسماحة التى تتوّح حيا حياضها المغدقه ، والأمانة التى نهضت بها فضائله ، والموالات التى تجحّت بها عندنا وسائله - رأينا إجراءه على عادة والده فى تولّى المدرسة المعمورة التى أنشأها جدّه للشافعية بحلب ، وأوقافها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتها ، وأستناية من يراه وينخاره فى ذلك كله ، والنظر فى جميع ما يتعلق بها كثره وقلة ، وترتيب الفقهاء فيها ، وتقرير مشاهراتهم على ما يراه من تفضيل وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتنظيم ، وحفظ الوقوف بالأحتياط
 فى مصارفها ، والعمل فيها ، بشروط محبستها وإطلاقها بقيود واقفيها ، بالابتداء
 بالعمارات ، التى تؤذن بتوفير الارتفاعات ، وتكثير المغلات ، وتنمية الثمرات ؛
 مستشعرا تقوى الله التى هى حلية الأعمال الصالحات ، والعصمة الباقية والحننة
 الواقية عند النائبات . وفوضنا ذلك إلى أمانته ، وبعده إلى من يقوم مقامه من
 إخوته ، تشييدا لبיתهم الكريم ، وتجديدا لمجدهم القديم ؛ ورفعنا لمكاتهم المكيه
 وحفظا لمرتبتهم المصونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم ،
 وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب ، والنواب والشوائب ،
 والعوارض والعراض واللوازم والكلف ، والمؤون والسخر ، والتبن والخطب ،
 والأطباق والأنزال ، وسائر التوزيعات والتقسيمات والأنفال ؛ وإعفاء فلاحيها
 ومزارعيها من جميع ذلك ؛ وإطلاق كل ما يصل من مغلات الأوقاف والأملاك
 المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤون على الإطلاق ، وكذلك جميع ما لهم من
 البضاعات والبياعات والتجارات مفعاة مطلقه لا اعتراض عليها لأحد ، ولا تمتد إلى
 شئ منها يد يد . وليتول ذلك على عادته المشكوره ، وأمانته المشهوره ؛ بنظر
 كاف شاف ، وكريم وافر وإف ؛ وورع من الشوائب صاف ، وعزوف عن الدنيات
 بالدنيات متجاف ؛ وسداد لركن المصالح شائد ، وتذكر لترقى مواد المناسج رائد ؛
 ورأي فى ذمة الصواب راجح ، وسعى برتبة الرشاد ناجح ؛ وهمة عالية فى نشر العلم
 بالمدرسة وإعلاء مناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ؛
 ومروءة تامة فى الاشتغال على إخوته ومخلفي أبيه بما يصل به الرحم ، ويظهر به
 الكرم ، ويحيى من مفانح آباءه الرحم ، ويقوى لهم من معاهد مكارمه العصم . وسبيل
 الولاة والنواب وكل واقف على هذا المشال إمضاء ذلك كله على سبيل الاستمرار ،

وتصمّم الأعمار ، وتصرف الأعصار ، وتقلب الأحوال والأدوار ، وحفظه فيهم
وفي أعقابهم على العصور والأحقاب ، ووصل أسبابه عند انقطاع الأسباب ،
من فسح ينقض مبرم معاقده ، أو نسخ يقوض محكم مقاعده ؛ أو تبدل يكدر صفى
موارده ومشارعه ، أو تحويل يقلص ضايف ملبسه ومدارعه . وليبدل لهم المساعدة
في كل ما يعود له ولجماعته بصلاح الحال ، وفراغ البال ونجاح الآمال ، وإقامة الجاه
في جميع الأحوال . والعمل بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتماد على التوقيع الأشرف
به إن شاء الله تعالى .

الصف الثالث — أرباب الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوزارة ، من إنشاء بعض بني الأثير ، وهى :

الحمد لله الذى فضّلنا على كثير من عباده ، وأغنانا بمزيد عطائه عن أزدیاده ،
وجعلنا من استخلفه فى الأرض فشكر عواقب إصداره ومبادئ إیراده .

نحمده ولسان أنعمه أفصح مقالاً وأفسح مجالاً ، وإذا اختلفت خواطر الحامدين
روية كآثرها أرتجالاً ، ونسأله أن يوفّقنا لتلقى أوامره ونواهيه بالاتباع ، وأن يصنّى
بقلوبنا إلى إجابة داعى العدل الذى هو خير داع ، ويُنقِذنا من تبعات ما استرعانا
يوم يسأل عن رعيته كل راع .

أما بعد ، فإن الله قرّن استخارته برشده ، وجعلها نورا يهتدى به فى سلوك جده ،
ويستمد من يمين صوابه ما يغنى عن رأى ومدده . ومن شأننا أن نتأدّب بأداب الله
فى جليل الأمر ودقيقه ، وإذا دلّ التوفيق أمراً على عمله دلّ عملنا على توفيقه ؛
فمن عنوان ذلك أنا أصحابنا لوزارتنا من تحمّسنا الأيام من أجله ، وتحسّسنا الملوك
على مثله ، ويعلم من أتى فى عصره أنه فات السابقين من قبله ، وهو الوزير الأجل

السيد الصدر الكبير؛ جلال الدين، شرف الإسلام، مجتبي الإمام نحر الأنام؛
وليست هذه النعوت مما تزيد مكانة عرفا، ولا تستوفى من أوصافه وصفا؛
وإن عدها قوم جل ما يدخرونه من الأحساب، ومعظم ما يخلفونه من التراث
للأعقاب؛ ولا يفخر بذلك إلا من أعدم من ثروة شرفه، ورضى من الجوهر
بصدقه؛ وأنت فغير فاجر به ولا بما ورثته من مجد أبيك الذى أضحيت الأيام به
شهودا، والجُدود له جُدودا، وغدا وكأنّ عليه من شمس الضحى نورا ومن الصباح
عمودا؛ وقد علمت أنه كان إليه نسب المكارم وسيمها، وكان ما بلغه منها أعظم
ما بلغه من دنياه على عظيمها؛ لكك خلفت لنفسك مجدا منك ميلاده، وعنك
إيجاده؛ وإذا أقترن سعى الفتى بسعى أبيه فذلك هو الحسب الذى تقابل شرفاه،
وتلاقى طرفاه، وغض الزمان عنه طرفه كما فتح بمدحه فاه؛ وإذا استطرفت سادة
قوم بنيت بالسؤدد الطريف التليد، ولقد صدق الله لهجة المثنى عليك إذ يقول:
إنك الرجل الذى تضرب به الأمثال، والمهدب الذى لا يقال معه: أى الرجال؛
وإذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها، وسد ثغرها، وأصبحت وأنت
صدر قلبها وقلب لصدرها؛ فهى مزدانة منك بالفضل الميسين، معانة بالقوى
الأمين؛ فلا تبيت إلا مستخدما ضميرك فى ولائها، ولا تغدو إلا مستجديا كفايتك
فى تمهيدها وإعلائها.

ومن صفاتك أنك الواحد فى عدم النظير، والمعدود بألف فى صواب التدبير،
والمؤازر عند ذكر الخير على الإعانة وعند نسيانه على التذكير؛ ولم ترق إلى هذه
الدرجة حتى نكحت عقبات المعالي فقضيت أجلها، وآنست من طور السعادة نارا
فهديت لها؛ ولم تبلغ من العمر أشده، ولا نزع عنك الشباب برده؛ بل أنت
فى ريعان عمرك المتجمل بريعان سؤدده، المتقمص من سيم الخلال ما أبرز وقار

المشيب في أسوده . وهذا المنصب الذي أهلت له وإن كان ثاني الملك محلاً ، وتلوه عقداً وحلاً ، فقد علا بك قدره ، وتأبل بك أمره ؛ وأصبح وشخصك في أرجائه منار ، ورأيك وفضلك من حوله سور وسوار ؛ وله من قلمك خطيب يجادل عن أحساب الدولة فينفخها فخرًا ، وسيف يجالد عن حوزتها فيمنحها نصرًا ؛ ولقد كان من قبلك وقبل أبيك مكرها على إجابة خاطبه ، والتزوي إليه عن مراتبه ؛ فلما جئته استقر في مكانه ، ورضي بعلو شأنكما لعلو شأنه ؛ وقد علم الآن بأنك نزلته نزول الليث في أجبه ، وأستقلت به استقلال الرمح بأحدمه (؟) ؛ وما زالت المعالي تسفر بينك وبينه وأنت مشغول بالسعى للسيادة وآدابها ، عن السعى للسعادة وطلابها . فخذ ما وصلت إليه باستحقاق فضلك ومناقبه ، لا باتفاق طالعك وكواكبه .

وأعلم أن هذه النعمة وإن جاءتك في خفها ، وأناخت بك بصاحبها وأهلها ؛ فلا يؤنسها بك إلا الشكر الذي يجعل دارها لك دارًا ، وودها مستملاكًا لك لا معارًا ؛ وقد قيل : إن الشكر والنعمة توءمان ، وإنه لا يتم إلا باجتماع سر القلب وحديث اللسان ؛ فاجعله معروفها الذي تُمسكها بإحسانه ، وتقيدها بأشطانه .

وقد أفردنا لك من بيت المال ما تستعين به على فرائض خدمك ونوافله ، وترد فضله على آبناء مجديك وفضائله ؛ وذلك شيء عائد على الدولة طيب سمعته ، فلها محمود ذكره ومنك موارد شرعته ؛ وإذا حُمدت مناهل الغدر كان الفضل للسحاب الذي أغدرها . والمفرد باسمك من بيت المال كذا وكذا .

وكل ما تضمنته تقليد غيرك من الوصايا التي قرعت له عصاها ، ونبتت له حصاها ، فانت مستغن عن استماعها ، مكتفٍ بأطلاع فكرك عن اطلاعها ؛ غير أنا نسألك كما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذًا ، ونسأل الله أن يجعل لك

من أمرك يُسرًا ومن عَزَمِكَ نَقَازًا ، وقد أجبنا لسانَ حالك بأنك تأخذ بتقوى الله
التي ضمنَ لها العاقبة ، وجعل شيعتنا الغالبة ، وأنك تجعلها بينك وبينه سببا ممدودا ،
وبينك وبين الناس خُلُقًا معهودا ، حتى تُصبح وقد أمنتَ من دهرِكَ عِثَارًا ، ومن
أبنائه أَسْمَاعًا وأَبْصَارًا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذي سلم الناسُ
من يده ولسانه ، وفي هذين كفاية عن غيرهما من الشَّيم ، التي تُحفظ بها سياساتُ
الأمم : فإنَّ العدل هو الميزان الذي جعله الله ثانيَ الكتاب ، والإحسان الذي هو
الطينة التي شاركتها القلوبُ في جيلاتها مشاركةَ الأحاب .

وأما ماسوى ذلك من سياسة الملك في تقرير أصوله ، وتديير محصولة ، كالبلاد
وَأَسْتِعْمَارِهَا ، والأموال وَاِسْتِثْمَارِهَا ، وولاية الأعمال وَاِخْتِبَارِهَا ، وتجنيد الجنودِ
وَاِخْتِيَارِهَا ، فكلُّ ذلك لا يصدر تدييره إلا عن نظرك ، ولا يُمشى فيه إلا على
أثرك ، وأنت فيه الفقيهُ أبْنُ الفقيه الذي سرى إليك علمه نفسا ودرسا ، وثمرَةً
وغرسا ، فهذا كتابُ عهدنا إليك : نَحْذِهِ بِقُوَّةِ الأمانة التي أبتِ السموات والأرض
حملها ، وما أطاقَتْ ثِقْلَهَا ، والله يسئلك بك سَدَادًا ، ويَتَحَرَّى بك رَشَدًا ، ويلزمك
التوفيقَ قلبًا ولسانًا ويَدًا ، إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخةٌ توقيع باعادة النظر بَشْرَ الإسكندرية لابْنِ بَصَّاصَةٍ في شهر
سنة ثمان وسبعين وستائة ، وهي :

الحمد لله الذي أضْحَكَ الثُّغُورَ بعد غُوسِهَا ، ورَدَّ لها جَمَالَهَا وأَنَارَ أَفْقَهَا بِطُلُوعِ
شَمْسِهَا ، وأَحْيَا مَعَالِمَ الخِيرِ فيها وقد كَادَتْ أَنْ تُشْرِفَ على دُرُوسِهَا ، وأَقَامَ
لمَصَالِحِ الأُمَّةِ مِنْ يُشْرِقُ وَجْهَهُ الحق بَيَاضَ آرائِهِ ، وتَلَدُّ الأَسْمَاعِ بِتِلَاوَةِ أوصافه

الجميلة وأنبائه ؛ حمد من أُسبغت عليه النعماء ، وتهادت إليه الآلاء ، وخطبته لنفسها العلياء .

وبعد ، فأحق من ماس في أندية الرياسة عطفاً ، وأستجلى وجوه السعادة من حجب عزها فأبدت له جمالاً ولطفاً ، وأصطفته الدولة القاهرة لمهمات ما رآته خير كافل ، وتنقل في مراتبها السنية تنقل النيرات في المنازل ^(١) .

ولما كان المجلس السامى القاضى ، الأجل ، الصدر ، الكبير ، الرئيس ، الأوحد ، الكامل ، المحتجب ، المرتضى ، الفاضل ، الرشيد ، جمال الدين ، نحر الأنام ، شرف الأكاير ، جمال الصدور ، قدوة الأمناء ، ذخر الدولة ، رضى الملوك والولاطين ، الحسين ابن القاضى زكى الدين أبى القاسم - أدام الله رفعتة - ممن أشارت إليه المناقب الجليله ، وصارت له إلى كل سؤال نعم الوسيله - رسم بالأمر العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، العادلى ، البدرى ، - ضاعف الله علاءه ونفاذه - أن يقوض إليه نظر ثغر الإسكندرية المحروس ونظر متاجره ، ونظر زكواته ونظر صادرة ، ونظر قوة والمزاحمتين ، فيقدم خيرة الله تعالى ويناشر هذا المنصب المبارك ، بعزماته الماضيه ، وهممه العاليه ؛ برأى لا يساهم فيه ولا يشارك ، ليصبح هذا الثغر بمباشرة باسمه حالياً ، وتعود بهجته له بجميل نظره ثانيا . ويتنصب لتدبير أحواله على عادته ، ويقرر قواعد بهالى همته ؛ ويجهد في تحصيل أمواله وتحصيل ذخائره ، وأستخراج زكاته وتسمية متاجره ، ومعامله التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ؛ فإنهم هدأيا البحور ، ودوالبه

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناصح وأصله « من اشتهر بحسن الخلال ، ومحمد الخصال ،

وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بسعيه الناجح ، ولما « الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثغور، ومن ألسنتهم يطَّلَعُ على ما يُخِجُّهُ الصُّدُور، وإذا بَدَّرَ لهم حَبَّ الإحسان
نَشَرُوا له أجنحةَ مراكِبهم وحاءوا عليه كالطُّيور . وليعتمدُ معهم ما تضمَّنته المراسيمُ
الكريمةُ المستقرَّةُ الحُكم إلى آخرِ وقتٍ ، ولا يسلكُ بهم حالةٌ تُوجب لهم القلق والتظلمُ
والمقْت ؛ وليواصل بالحمول إلى بيت المال المعمور ، ويملأ الخزائن السلطانية
من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ما يُستغنى به عن الواصل في البرور
والبُحور ؛ وليصرف همته العالية إلى تدبير أحوال المتأجر بهذا الثغر بحيث ترتفع
رؤوس أموالها وتتمى ، وتجوِّدُ سحاب فوائدها وتهيم ؛ وليراعِ أحوال المستخدمين
في مباشراتهم ، ويكشف عن باطن سيرهم في جهاتهم ؛ ليتحقَّقوا أنه مهيمٌ عليهم ،
وناظرٌ بعين الرأفة إليهم ؛ فتسكف يد الخائن منهم عن الخيانة ، وتحتل أنامل الأمين
بمحاسن الصيانة ؛ وليتفق فيما يأتيه ويذره ، ويقدمه من المهمات ويؤخره ، مع المجلس
السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المقدم ، الأوحيد ، النصير ، شمس الدين ،
متولَّى الثغر المحروس - أدام الله نعمته - فإنه نعم المعين على تدبير المهمات ، ونعمت
الشمسُ المشرقة في ظلم المشكلات . وليطالع بالمتجددات في الثغر المحروس ، ليرد
الجواب عليه عنها بما يشرح الصدور ويُطيب النفوس ؛ وليتناول من الجامكية
والجراية عن ذلك في غرة كل شهر من استقبال مباشرته ما يشهد به الديوان المعمور
لمن تقدمه من النظار بهذه الجهات ، وهى نظر الثغر وما أضيف إليه على ما شرح
أعلاه .

المرتبة الثانية

(أن تفتتح الولاية بلفظ « أما بعد حمد الله » أو « أما بعد فإن كذا »

ويؤتى بما يناسب من ذكر الولاية والمولى ، ثم يذكر ما سنع

من الوصايا ، ثم يقال « وسبيل كل واقف عليه »)

فمن المكتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة ما كان يكتب لبعض الولاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية ، وهى :

أما بعد ، فإننا لما منحنا الله إياه من معجزات النصر المستنطق الألسنة بالتسبيح ،
وآتانا من نظرحى ناضر عيش الأمة من التصويح ، وألبسناه من ثياب العظمة
المخصوصة بأحسن التوشيع والتوشيح ، ووقفنا له من أصطفاء من تقبل عليه بوجه
التأهيل للهات والترشيح ، وقواه من عزائنا التى ترج بها أرض الكفر وتدوخ ،
ووسعه لنا من الفتوح التى أنبأها خير ما تصدر به السير وتؤرخ - لا نزال نبالغ فيما
صان الحوزة وحاطها ، ومدد رواق الأمانة ومهد بساطها ، وقرب نوازيح المصالح
وجمع أشتاتها ، وأوجب أنصرام حبال اختلال الأمور وأقتضى أنبتاتها .

ولما كانت الأعمال الشرقية جديرة بمتابعة الاعتناء وموالاته ، وإعراق كرم التعهد
فما يحفظ نظامها بمغالاته ، وأحقها بأن تصرف إلى صونها وجوه المهمة الطوامح ،
ويوقف عليها حسن الاحتفال الجامع دواعى تذليل الجاه ؛ إذ كانت أجدر الأعمال
بكلاءة الفروع من أوضاعها والأصول ، والباب الذى لا يجب أن يدخله إلا من
أذن له فى القدوم إليها والوصول ، ويتعين التحرز على الطرقات التى منها إليها
الإفضاء ، ويوكل بما دونها من المياه عيون حفظة لا يلزمها النوم والإغضاء ،

— وكنت أيها الأمير أشدَّ الأُمراء باسا، وأوفاهم لحسن الذكر الجميل لباسا، وأكثرهم لمُهَج الأعداء اختلاسا، وأجمعهم للحاسن المختلفة ضُروبا وأجناسا، وقد تناصرت على قُصودك الحسنة وإِصحات الدلائل، وتخلت أجيادُ خِلاك من جواهر المفآخر بقلائد غير قلائل، واستطار لك أجهلُ سُمعه، وفطمتُ سيوفك أبناء الكُفر عن ارتضاعها من المِلَّة الإسلامية ثدى طمعه، ولا استبهمت طُرُق السياسة إلا هُديت إلى مجاهلها، ولا حلاَّ القصير سِواك عن شرائع النعم إلا غدوت بكفآيتك وارد مناهلها، وكُم شهدت مقام جَلاد، وموقف جهاد، فمَرقت ثوبَ مارقه نَسجا، وأدلت في ليل قسطله عوادي صواريك شرجا، وقُتت فيا وكل إليك من أمور الفاقوسية وقلعتي صدرٍ وأيلة حرسهما الله تعالى قيامًا أحظاك بالثناء والثواب، وأسنتبت في كلٍّ منها من أجرى أمورها على الصواب — خرج أمرُ الملك الناصر بكتُب هذا السجل بتقليدك ولاية الأعمال الشرقية المقدم ذكرها .

فاعتمد مباشرتها عاملاً بتقوى الله التي مَغْنَمها خيرُ ما آقتاده مستشعروها لأنفسهم واستأقوه . قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاكُوهُ ﴾ وأبسط العدل على أهل هذه الولاية ، وأخصص أهل السَّلامة بما يُسبِّل عليهم ستر الحياطة والحمايه ، وتطلَّب المفسدين أتمَّ تطلَّب ، وأحظُر عليهم التنقل في هذه البلاد والقلب ، ومن ظفرت به منهم فقابلهُ بما يُوجبهُ حكم جريته ، ويقتضيه موقعُ جريمته ، ويجعله مُزدجرا لسالكى طريقته . وشُد من المستخلف على الحكم العزيز شدا ينصر جانب الشرع ويعزّه ، ويكثر به على الباطل ترويع الحق وأزه ، وأعين المستخدمين في المال على استيفائه من وجوهه عند وجوبه ، وبلغ كلاً منهم من الإعانة على تحصيله أقصى مطلوبه ، وقوأيديهم في تخضير البلاد وتعميرها ،

وَأَبْعَثِ الْمُزَارِعِينَ عَلَى مَبَاشَرَةِ أَحْوَالِ الزَّرَاعَةِ وَتَقْرِيرِ أُمُورِهَا ؛ وَفِيهَا يُسْتَرْعَوْنَ مِنْ مَصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَيُعُودُ عَلَيْهِمْ فِي مَوْجِبَاتِ الرِّجَاءِ بِمَنَاجِحِ الْأَمَالِ . وَرَاعِ أَمْرَ السُّبُلِ وَالطَّرِيقَاتِ ، وَاجْعَلِ احْتِرَاسَكَ عَلَيْهَا الْآنَ مُوفِيًا عَلَى الْمُتَقَدِّمِ مِنْ سَالِفِ الْأَوْقَاتِ ؛ وَلَا تَنْ فِي إِنْفَازِ الْمُتَخَبِّرِينَ إِلَى بِلَادِ الْعُدُوِّ ، وَتَحْدِيثِهِمْ فِي الرُّوَاكِ وَالْغُدُودِ ، بِمَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْمُدُودِ ، وَكَشْفِ أَخْبَارِهِمْ ، وَتَتَبُعِ آثَارِهِمْ ، وَتَسِيرِ الْجَوَاسِيسِ إِلَى دِيَارِهِمْ ؛ حَتَّى لَا تَخْفَى عَنْكَ مِنْ شُؤْنِهِمْ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَجِدُوا سَبِيلَ غَرَّةٍ يَهْتَلُونَهَا . وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بِالْجُمْلَةِ الْكَافِيَةِ . وَطَالِعْ بِمَا يَتَجَدَّدُ لَكَ وَمَا يَرِدُ مِنَ الْأَنْبَاءِ عَلَيْكَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَى عِلْمِهِ مِنْ جِهَتِكَ ، وَمَا تَجْرَى عَلَيْهِ أَحْكَامُ خِدْمَتِكَ ، فَاعْلَمْ هَذَا وَأَعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المرتبة ، وهي :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا لِمَا آتَانَا اللَّهُ مِنْ سَعَادَةٍ لَطَرَقَ الْإِرَادَاتِ فِيهَا تَعْيِيدُ ، وَأُسْبَغَهُ بِنَا مِنْ نِعَمٍ لَا يَعُدُّهَا التَّحْدِيدُ ، وَلَا يَحُدُّهَا التَّعْدِيدُ ؛ وَأُبَهِّجُنَا بِهِ مِنْ أَكْتِنَافِ الْمَطَالِبِ بِنِجَاحٍ لَا يَعْقِبُهُ تَعْسِيرٌ وَلَا يَعْسُرُهُ تَعْقِيدٌ ؛ وَأَمْضَاهُ مِنْ عِزَائِمِنَا الَّتِي مَا فَتَكَتْ قَطُّ بِالْأَعْدَاءِ فَقَيْدَ مِنْهُمْ فَقِيدٌ ؛ وَلَقَّاهُ الْأَمْنَةُ بِنَظَرِنَا مِنْ نَضْرَةِ عَيْشٍ جَانِبِ الْخَفَافِ دَوَّاحَةِ الْمُخْضَلِّ ، وَأَهْدَاهُ بِتَبْصِيرِنَا مِنْ أَنْوَارِ الْهَدَى الْمُتَقَدِّمَةِ كُلِّ ذِي جَهْلٍ ظَلٍّ مِنْ ضَلٍّ - لَا تَزَالُ نَسْتَوْضِحُ أُمُورَ أَمْرَاءِ دَوْلَتِنَا مُتَصَفِّحِينَ ، وَنَبْلُو أَخْبَارَ الْمُؤَهَّلِينَ مِنْهُمْ لِسِيَاسَةِ الرِّعْيَةِ الْمُرْتَجَّحِينَ ، وَنَكْشِفُ شُؤْنَهُمْ غَيْرَ مُتَجَوِّزِينَ وَلَا مُتَسَمِّحِينَ ؛ وَنُظْهِرُ فِي أَحْوَالِهِمْ آثَارَ الْإِثَارِ لِرَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ ، وَأَمَارَاتِ الرِّفْعِ مِنْهُمْ مُقَابِلَةً عَلَى حَيَاطَةِ أَمْوَالٍ مَنْ نَكُونُ عَلَيْهِ وَصُونَ مِنْحَاتِهِمْ ، وَنُبَوِّئُهُمْ مُبَوِّأَ صَدَقٍ مِنْ تَصَدِيقِ أَمَالِهِمْ وَتَحْقِيقِهَا ؛ وَنَرْفُؤُ إِلَيْهِمْ

عقائل المَنَحِ المَانِعِ شُكْرَهُمْ مِنْ تَسْيِبِ سَيِّئِهَا وَتَطَرُّقِ تَطْلِيْقِهَا ؛ وَنَحْلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَا يُؤَمِّلُهُ مِنْ أَجْتِهَادِهِ وَيُؤَثِّرُهُ ؛ وَلَا نُلْغِي الْأَهْتَامَ بِمَا يُوْطِئُ لَهُمْ مِهَادَ الطُّولِ الْجَزِيلِ وَيُؤَثِّرُهُ ؛ عَمَلًا بِآدَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي إِجْزَالِ حُظُوظِ الْحَسَنِينَ مِنْ إِحْسَانِ الْمَجَازَاهِ ، وَإِبْلَاءِهِمُ الْمَزِيدَ الْحَاكِمَ بِنَقْصِ أَعْتِدَادِهِمْ عَنِ الْمُوَازَنَةِ لَهُ وَالْمُوَازَاهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَقَوْلُهُ هَدَى وَنَوَّرَ وَشَفَّاءُ لِمَا فِي الصَّدُورِ : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

وَمَا كَانَ الْأَمِيرُ (وَالنُّعُوتُ وَالِدَعَاءُ) مِنْ أَنْجَحِهِمْ فَلَا ، وَأَرْجَحِهِمْ مَصَالًا ، وَأَصْلَحِهِمْ أَعْمَالًا ، وَأَوْصَحِهِمْ كَلَالًا ؛ وَمَا زَالَتْ أَغْصَانُ نَهَاهُ مُتَتَابِعَةً فِي بُسُوقِهَا ، وَضُرَائِبُهُ نَافِقَةٌ أَعْلَاقُ الْحَامِدِ يُسَوِّقُهَا ؛ وَعِزَائِمُهُ فِي إِذْلالِ الْفِرْقِ الْمُبَالِغَةِ فِي فُسُوقِهَا ، مُشْمِرَةٌ عَنْ سُوقِهَا ؛ وَمَا بَرَحَ فِي شَوَاطِيفِ الْفَخْرِ رَاكِضًا ، وَلَعُقُودِ مَكْرِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تُزِيغُ الْأَمَانَةَ رَافِضًا ، وَبَأْعَاءِ الْقِيَامِ بِفَرَائِضِ الْأَلَاءِ نَاهِضًا ؛ وَمَا أَنْفَكْتَ مَنَاقِبُهُ تُعَيِّ بَيَانَ الْوَاصِفِ وَبَنَانِ الْعَادِ ، وَمَسَاعِيهِ مُدْرِكَةً وَهِيَ وَادِعَةٌ مَا يَعِجْزُ عَنْ أَقْلِهِ جِدُّ الْجَادِ ؛ وَرَأْيُهُ [يَرْتَقِ] كُلَّ مُتَفَقِّقٍ وَمُنْبَثِقٍ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ بِسَدَادِ الرَّاتِقِ السَّادِ ، وَجَمِيلُ ذِكْرِهِ يَفُوحُ بِمَا يَفُوقُ الْمِسْكَ فَيُثُوبُ إِلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ بِالنَّائِي النَّادِ ؛ وَمَا قَتَّى دَابَّ شِمْتِهِ الْإِعْرَاضُ ، عَنْ الْمُؤَبِّقِ مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ وَاخْتِيَارِ الرَّفِّقِ ، وَالْإِعْرَاقِ فِيمَا يُدِيمُهُ إِلَى فَكِّ أَعْنَاقِ أُسْرَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ سَرَى الْعَتَقِ - نَخْرَجُ أَمْرَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ بِكُتُبِ هَذَا السِّجْلِ لَهُ بِتَقْلِيدِهِ وَلَايَةِ الْأَعْمَالِ الْغَرِبِيَّةِ .

فَلْيَتَقَلَّدْ مَا قُلَّدَهُ مَعْتَمِدًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي صَرَفَ عَنْ مَعْتَمِدِهَا شَرِبَ التَّكْدِيرِ ، وَمَنْحَهُ مِنَ الْمَكَارِمِ عِنْدَهُ مَا يُؤْنِسُ عَلَى التَّقْدِيرِ ؛ وَلْيَجْرِ عَلَى عَادَتِهِ فِي بَسْطِ ظِلِّ الْمَعْدِلَةِ وَمَدِّ رُواقِهَا ، وَصُونَ مَسَاحِي الرِّعَايَا عَنْ إِمْلَاقِهَا مِنْهَا وَإِخْفَاقِهَا ؛ وَالْمَسَاوَاةِ بَهَا بَيْنَ

الأقوى والأضعف، والأدنى والأشرف؛ والبادى والحضار، والمناوين والأنصار؛
والخاص والعام، والأجنبي وربّ الحرمة والذمام: لينام المستورون على مهاد الأمن،
ويسلم جانب سلامة أموالهم وأرواحهم من الوهن. وليعامل المستخلف على الحكم^(١)
العزیز بما يستوجبه مثله من نصرة الأحكام «وكل إليه أمر الأمراء لمن أثرها
والإحكام» والإكرام الشامل لقدره، والأهتمام الشارح لصدّره. وليتوخّ المستخدمين
فى الأموال بما يكون لعلّهم منيحا، ليصل إليهم ما يرومونه نجيحا. ويلزم من
جرت عادته بلزوم الحدود واجتناب تعديها، والتوقر على حفظ مسالكها والمترددین
فيها، وليطالع بما يتجدد قبله من الأحوال الطارئة، وما لم تزل الرسوم بإنهاء مثيلها
جاريه، إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثالثة

(أن تفتّح الولاية بلفظ «رسم» ثم يذكر أمر الولاية والمولى ويوضح ،
ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمن المكتتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناجية، وهى:
رسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها - بالإنعام على الأمير فلان بما يفيض عليه
ملابس الأصطفاء ويضيفها، ويسمى لقدمه فى الثبات مدارج الارتقاء ويسنيها،
ويعرب عن اختصاصه بالمتزلة التى يفضل بها على مباريه، وأستخلاصه للمرتبة التى
يفوت بها شأو مجاريه، ويؤهله لشغل حريم المحروس وشده، وتوليّه أمورَه بكفايته
ونهضته وحزّامته وجدّه، وقد أمرنا بتسليم قلعة حريم وأعمالها وسائر ما يختص
بها ويضاف إليها من ضياعها ومواضعها إليه، والتعويل فى ولايتها وتعميرها وتثريها

(١) كذا فى غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود .

عليه ، بموجب ما يُفَصِّل من الديوان على ما كان جارياً فى الإقطاع المحروس للحال ،
وسبيل أهل الديوان - أيدهم الله - العمل بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتماد على
التوقيع الأشرف به ، إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة مرسوم بشد وقف ، وهى :

رُسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها - بالتحويل على الأمير فلان فى تولية
الوقوف بالجامع المعمور بحلب المحروسة ، والبيمارستان ، والمساجد ، والمشاهد
بالأماكن والمواضع ، وظاهرها وباطنها وأعمالها ، وتفويضها إليه ، والاعتماد
فى جميعها عليه ، سكوتاً إلى نهضته وكفايته ، ووئوفاً بخبرته ومعرفته وعلمها بنزاهته ،
وسداده وأمانته ، وذلك لاستقبال سنة سبع وثمانين وخمسة .

فليتول ذلك بكفاية كافيه ، ونهضة وافية ، وهمة لأدواء الأحوال شافية ، ونظر
تام ، لشمل المصالح ضام ، وتدبير جميل فى كل خاص من أسباب عمله وعامه ،
وتقوى لله عز وجل تقوى بها يده ، ويضح بالاستقامة على سننها جدده ، ناظراً
فى الوقوف ومصاريفها ، وتتبع شروط واقفها ، بكل ما يعود بتعمير أعمالها ، وتثمين
أموالها ، وتدبير أحوالها ، مطالباً بحساب من تقدمه وتحقيق مبالغه تكميلاً وإضافة ،
واحتساباً وسياقه ، وليطلب شواهد ، وليبين على الصحة قواعده ، وليتمس ما يصح
من بواقيه من جهاتها ، وليكشف بما يوضحه من سبل الأمانة وجوه شبهاتها ، وقد أذن
له فى استخدام من يراه من الثواب والمتصرفين والمشارفين ، والوكلاء والمستخدمين ،
على ما جرت به العادة ، من غير زياده . وسبيل الثواب - أيدهم الله - العمل بالأمر
العالى وبمقتضاه ، والاعتماد على العلامة الشريفة ، إن شاء الله تعالى .

المرتبة الرابعة

(أن يفتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولى» أو «من كانت صفته كذا» وما أشبه ذلك)

فمن ذلك نسخة منشور بتقابة الأشراف ، وهى :

مَنْ كَانَتْ أَوْصَافُهُ شَائِعَةً بَيْنَ الْأَنْامِ ، وَصُحُفُ فَضَائِلِهِ مَنشُورَةً لَدَى الْخَاصِّ وَالْعَامِ ، مَعَ شَرَفِ نَسَبِ شَايِخِ الْأَعْلَامِ ، وَتَقَيَّ فَخْرَهُ عَلَى الْأَنْامِ ، وَعِلْمُ يُحْلِي بِهِ صَدَأُ الْأَفْهَامِ ، وَعِفَّةٌ مَرَاتُهَا مُحْكَمَةُ الْإِبْرَامِ - كَانَ جَدِيرًا بِإِفَاضَةِ سَبَالِ النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَفِينَا بِإِرْسَالِ سَيْلِ الْمَوَاهِبِ إِلَيْهِ .

ولما كان الشيخ فلان متصفًا بهذه الصفات الجميلة ، ومتخصِّصًا بمزاياها الجليلة ؛ وضاربًا فيها بالسَّهْمِ الْمُعْلَى ، وَنَازِلًا مِنْهَا فِي الشَّرَفِ الْأَعْلَى ، وَتَقَمُّصًا ثَوْبَ الْإِخْلَاصِ وَالصَّفَاءِ ، وَمُتَشِّحًا بِوَسَّاحِ الْعِفَّةِ وَالْوَلَاءِ - أَخْتَصَصْنَاهُ بِزِيَادَةِ التَّقْدِيمِ وَالْإِجْتِبَاءِ ، وَحَبُونَاهُ بِوُفُورِ الْكَرَامَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ ؛ وَأَجْرَيْنَاهُ عَلَى مُسْتَمَرِّ رِسْمِهِ بِالرَّعَايَةِ عَلَى ذُرِّيَّةِ أَهْلِ الْعِبَادَةِ ، حَسَبَ عَادَتِهِ الْمُسْتَقَرَّةِ إِلَى آخِرِ عَهْدٍ مَنْ كَانَتْ الْإِيَالَةُ إِلَيْهِ وَإِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ مُضَى : لَيْسَ فِيهِمْ بَكِتَابُ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ، وَيَسْلُكُ جَدَدَ الْحَقِّ الَّذِي يُوصِّلُهُ مِنَ الزُّلْفَى إِلَى أَقْصَى مُنَاهِ وَسُؤْلِهِ ؛ وَيُحْضِرُهُمْ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَمَعْرِفَةِ مَا يَصْلُحُ لِلْأَدْيَانِ . وَلَيْسَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الضَّعِيفِ فِيهِمْ وَالْقَوِيِّ ، وَيَعْمُ بِالْإِنْصَافِ الْفَقِيرَ وَالْغَنَى . وَلِيُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ ، وَلِيَجْرِ عَلَى فَضْلِهِ لِمُسِيئِهِمْ ؛ بَعْدَ أَنْ يَقْدَمَ إِلَيْهِ زَجْرًا وَوَعِيدًا ، وَيُوسِعَهُ إِنْ ذَارَا وَتَهْدِيدًا ؛ فَإِنْ وَعَى وَأَرْعَوَى وَإِلَّا سَاطَ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْأَذَى ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْجَزَاءِ ؛ وَيَعِيدُهُ إِلَى حَالَةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْأَسْتَوَاءِ ، وَيَكْفُهُ عَنِ دَوَاعِي الْهَوَى . وَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ حَدُّ أَقَامِهِ فِيهِ ، وَبَادَرَ إِلَى اعْتِمَادِهِ وَتَوَخَّيهِ ، حَسَبَ مَا يَوْجِبُهُ حُكْمُ الشَّرْعِ وَيَقْتَضِيهِ .

وليكن رُؤوفاً بهم ما استقاموا، ومنتقياً منهم ما أعوجوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حق لملىّ أو دنىّ، استخلصه منه ولم يمنعه تعلقه بنسب شريف على؛ وإن أفترى منهم مفترٍ على أحد من الملل، قابله عليه بما يزجره عن قبيح العمل: فإنّ الناس في دار الإسلام ومن هو تحت الدّمام سواسية وأقربهم إلى الله تعالى من كانت سيرته في الإسلام رضيّه، وطويته في الإيمان خالصة نقيّة؛ ومن حكم عليه حاكم من الحكماء، بحقّ ثبت عنده بالبيّنة العادلة أو الإعلام، أنترعه منه أو سجنه عليه، إلى أن يرضى خصمه أو يردّ أمره إلى الحاكم ويفوضه إليه .

وليحرس أنسابهم بإثبات أصولها، وتحقيق فروعها؛ ومن رام دخولاً فيه بدعوى يُبطل فيها نقب عن كشف حاله، وإظهار محاله؛ وجازاه بما يستحقّه أمثاله، ويرتدّع فيما بعد مثاله: ليخلص هذا النسب الكريم، من دعوى المجهول، وأندماجه في أسرة الرسول؛ عليه أفضل الصلاة والتسليم . ويمنع من اتصال أئمّ من الأسرة إلى عامي، ولا يفسّح أن يعقد عليها عقد إلا لكفء ملىّ: ليبرأ هذا المجد الشريف من التكدير، ولا تُزيّفه شوائب التغير .

ولينظر في الوقوف على المشاهد والنّزىة، نظراً يحمده عليه من يعامه من البرية، ويحظيه بالثواب عند مالك المشيئة . ويتبدى بعمارة أصولها وأستكمال فروعها، وقسمة مغلّها على ما تضمنه شرط الواقفين لها . وليحتط على النّدور، وينفقها على عاداتها في المصالح والجمهور؛ عالماً أنّ الله تعالى سائله عمّا توحّاه في جميع الأمور، وأنه لا يخفى عليه كلّ خفيّ مستور . قال الله سبحانه: ((يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

وَأَذِنَّا لَهُ أَنْ يَسْتَنِيبَ عَنْهُ فِي حَالِ حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ - فَسَّحَ اللَّهُ لَهُ فِي الْمُهَلِّ ،
وَحَوَّلَهُ صَالِحَ الْعَمَلِ - الْأَرشَدَ مِنْ بَنِيهِ ، وَمَنْ يَخْتَارُهُ لِهَذَا الْأَمْرِ وَلَهُ يَرْتَضِيهِ . وَقَدْ
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِإِجْرَاءِ مَا كَانَ بِاسْمِهِ مُسْتَمِرًّا إِلَى الْآنَ ، وَأَضْفَنَّا إِلَيْهِ مَا يُعِينُهُ عَلَى النَّظَرِ
فِي مَصَالِحِ الْأُسْرَةِ أَدَامَ اللَّهُ لَهُ عُلُقَ الشَّانِ ؛ مِنْ تَمْلِيكِ وَإِدْرَارٍ وَتَيْسِيرٍ ، وَجَعَلْنَاهُ لَهُ
مُسْتَمِرًّا ، وَعَلَيْهِ مُسْتَقَرًّا ؛ وَلَمَّا بَعْدَهُ مِنْ نَسْلِهِ وَالْأَعْقَابِ ، عَلَى تَوَالِي الْأَزْمَانِ
وَالْأَحْقَابِ ؛ وَحَظَرْنَا تَغْيِيرَهُ وَفُسْخَهُ ، وَتَبْدِيلَهُ وَنَسْخَهُ : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ
فَأْتَمَّا إِيْمَهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وَهُوَ مُعَيَّنٌ مِنْ دِيْوَانِ الْأَسْتِيفَاءِ
الْمَعْمُورِ ، بِهَذَا الْمُنْشُورِ الْمُسْطُورِ ، بِالْأَمْرِ الْعَالِي أَعْلَاهُ اللَّهُ وَأَمْضَاهُ ، عَمَّا كَانَ قَدِيمًا ،
وَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ آخَرًا ، وَهُوَ الْقَدِيمُ الَّذِي كَانَ لَهُ وَشَهِدَ بِهِ الدِّيْوَانُ الْمَعْمُورُ ، وَهُوَ
الْإِقْطَاعُ مِنْ نَاحِيَةِ كَذَا ، وَيُجْرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي إِطْلَاقِ مَا قُرِّرَ لَهُ مِنْ نَاحِيَةِ كَذَا
بِشَهَادَةِ الدِّيْوَانِ الْفُلَانِي ، وَالْمَجْدُّ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ لِأَسْتِقْبَالِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ
وَمَا بَعْدَهَا . وَسَبِيلُ كَافَّةِ الْأُسْرَةِ الطَّالِبِينَ بِمَدِينَةِ كَذَا الْإِتْقَادُ إِلَى تَبَاعَتِهِ ، وَالْأَمْتِثَالِ
لِإِشَارَتِهِ ، وَالتَّوَفُّرُ عَلَى إِجْلَالِهِ وَكَرَامَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ زَعِيمُهُمْ ، وَمَقْدَّمُهُمْ وَرَأْسُهُمْ ؛ وَمَنْ
خَالَفَهُ مِنْهُمْ قَابِلْنَاهُ ، وَبِأَلِيمِ الْعِقَابِ جَازَيْنَاهُ ، وَالْأَعْتَادُ فِي ذَلِكَ أَجْمَعَ عَلَى التَّوْقِيعِ
الْأَشْرَفِ الْعَالِي أَعْلَاهُ اللَّهُ ، وَالْعَلَائِمُ الدِّيْوَانِيَّةُ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة بولاية الشرقية ، وهى :

لَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ الشَّرْقِيَّةُ أَجْدَرَ الْبِلَادِ بِأَكِيدِ الْأَهْتَامِ وَأَخْلَقَ ، وَأَوَّلَاهَا بِإِضْفَاءِ
سِرِّبَالِ الْأَهْتِبَالِ الَّذِي لَا يُخْلَقُ إِذَا رَثَ سِوَاهُ وَأَخْلَقَ ، وَأَقْنَمَهَا بِحُسْنِ نَظَرٍ يُرْسِلُ
لِرَسُولٍ عَلَى الرَّسْمِ الْأَعْنَةِ فِي إِدَامَةِ نَضْرَةِ الْعِمَارَةِ عَلَيْهَا وَيُطْلَقُ ، وَأَحَقَّهَا بِأَنْ يُرْمَ لَهَا

سَبَبُ تَفْقِيدِ لَا يَلْتَصِقُ بِهِ رَهْنٌ وَلَا يَغْلَقُ ؛ وَأَحْرَاهَا بَاعْتِنَاءُ يَقْضَى لِأَمْرِهَا بِالْإِطْرَادِ ،
وَأَوَّلَاهَا بَتَعَهُدٍ يَجْعَلُ مَصَالِحَ الشُّعُونَ آلفَةً لِلثَّوَاءِ بِهَا وَالْمُقَامَ عَائِفَةً لِلنَّشُوزِ عَنْهَا
وَالشَّرَادِ ؛ لِأَنَّهَا بَابُ الشَّامِ ، وَإِلَيْهَا تَرْدُ الْقَوَائِلُ الْمُرْتَدَّةُ مِنْهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ؛ وَمِنْهَا
يَسْتَكْشِفُ الْأَخْبَارَ وَيَسْتَنْهَضُ الطَّوَالِغَ وَالْمُتَخَبِّرِينَ ، وَبِمَوَاصِلَةِ التَّفَقُّدِ تَعْلَمُ الْأَحْوَالُ
الطَّارِئَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينَ ؛ فَتَجِبُ الْمُبَالَغَةُ فِي حِفْظِ طُرُقَاتِهَا وَمِيَاهِهَا ، وَأَنْ تَصْرِفَ
الْهِمَمُ إِلَى ضَبْطِ أَحْوَالِهَا ، وَعَامَةِ أَنْقَابِهَا وَأَتَّجَاهِهَا ، وَيُوضَعُ بِنَاءُ الْحَزْمِ فِي صَوْنِ
أَطْرَافِهَا عَلَى اثْبَتِ قَاعِدَةٍ وَيُؤَسَّسَ ، وَيَبْلَغَ فِي إِذْكَاءِ الْعِيُونِ عَلَى كُلِّ طَارِقٍ يَتَخَبَّرُ
لِلْعَدُوِّ الْمَلْعُونِ وَيَتَجَسَّسَ ؛ وَكَانَتْ أَيْهَا الْأَمِيرِ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ ،
وَدَوَى الْكَفَايَةِ الْمُؤَيِّ ثَرَاؤُهُمْ فِيهَا [عَلَى] عَارِضِ الْإِعْدَامِ ، وَمَا زِلْتَ مَعْدُودًا مِنْ خَاصِ
الْأَتْرَاقِ الْأَعْيَانِ لِسَمِّهِ (؟) ، الْمَقْصَرُ مَجَارَوْهُمْ إِلَى غَايَةِ الْبَسَالَةِ عَنْ التَّلَاقِ بِهِمْ وَالْإِدْرَاكِ
وَقَدْ تَقَدَّمَتْ وَلَا يَتَكُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ فَقَصَدَتْ مِنْهَا قَصْدًا سَدِيدًا ، وَأَلْحَقَتْ الرِّعَايَا
ظِلًّا مِنَ الْأَمْنَةِ مَدِيدًا - خَرَجَ الْأَمْرُ بِإِيدَاعِ هَذَا الْمَنْشُورِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ إِعَادَتِكَ
إِلَى وَلَايَتِهَا ، فَبَالِغَ فِي أَسْتِضَاحِ الْأَنْبَاءِ وَكَشْفِهَا ، وَرَفْعِ الْوَيْتَةِ فِي ذَلِكَ وَصَرَفِهَا ؛
وَوَكَّلَ بِهِ عَزْمَةً لَا تُلْمَسُ سِنَةً بِطَرَفِهَا ، وَأَنْتَ فِيهِ إِلَى غَايَةِ تَضِيقِ سَعَةِ الْقَوْلِ بَوْصَفِهَا ؛
وَتَابِعَ فِي تَسْيِيرِ الطَّلَائِعِ وَنَدْبِهَا ، وَعَوَّلَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعُرَبَانِ الْمُسْتَنْهَضِينَ عَلَى
شَهْمِهَا وَنَدْبِهَا ؛ وَاجْتَهَدَ فِي حِفْظِ الطُّرُقَاتِ وَالْمَسَافِلِ ، وَاسْتَنْهَضَ لِلتَّحَرُّزِ عَلَيْهَا
مَنْ هُوَ عَالِمٌ بِهَا غَيْرُ جَاهِلٍ ؛ وَتَحَفَّظَ مِنْ جَلَلٍ يَتَطَرَّقُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - عَلَى الْبِلَادِ
وَحَلَّ يَتَخَلَّلُهَا ، وَأَنْتَضَ لِهَذِهِ الْمَهْمَاتِ بَصَارِمَ حَدٍّ تَسْلَمُ مَضَارِيهُ مِنْ عَجْزٍ يَفْلُلُهَا ؛
وَلَا تُبْقِ مِمَّا فِي إِنْقَاذِ الْمُتَخَبِّرِينَ ، وَإِرْسَالِ مَنْ يُغِيرُ عَلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ مِنَ الْخَبِيرِينَ ،
بِمَا [أَنْ] هَذِهِ سَبِيلُ التَّدْرِيبِ ، وَأُلْزِمَ أَرْبَابَ الْحُدُودِ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْطَارِ حِرَاسَةَ
حُدُودِهِمْ ، وَخُدْمَهُمْ بِاسْتِنْفَادِ وَسْمِهِمْ فِي الْأَحْيَاظِ وَاسْتِفْرَاغِ مَجْهُودِهِمْ ؛ وَطَالِعَ

بما يُورَد قبلك ، وأنه ما يُزِيح بُسرعة إجابتك عنه في الخدمة عليك ، فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية المُرَاحية ، وهى :

خرج الأمر بكتب هذا المنشور وتضمينه : إن من أظهر خلاصة جواهره السُّبْك ، وأرتفع في إشكائه بالإنصاف عن كل شاك الشك ، وحصل عنده [من] الخلال الزكية نظم لا يحل وعقد لا ينقك ، وأوفى على التقدير والظن في التدبير المفرح به عن الرعية الضنك - أستوجب أن تُسند إليه حمايتهم ، وتجعل إليه كلائتهم .

ولما كنت أيها الأمير من أحمَد عند تحز عزمه ، وتجريب نصل حزمه ، وأعتبار فصل مقالته ، وأختبار أصل أصالته ، وشكر استناره على الاتصاف بمحض الولاء ، واستناده أخلاف غرر الآلاء ، واستثماره أصناف جنى الشاء ، واستقراره أكفاف وهبى الاعتناء ، ولم تزل في رفعتك وجيها ، وما برح جميل الرأى يديم بعثا لتحف الإحسان نحوك وتوجيها ، وما أنفكت مجاهدتك مجاهدة في مهام إقدام تنويعا ، وشجاعتك مائة على الكفار كل كفاح يلقون منه كلاً ثقيلاً ويوماً كريهاً - أودع هذا المنشور ما رسم من استخدامك في ولاية الأعمال المُرَاحية .

فباشرها معتمدا على تقوى الله سبحانه التى تقوى بها أسباب توفيقك وتناله ، وتسلم أمور مباشرتك من خلل يكدر استبشارك ويتكد . وأعتمد العدل على من تشتمل عليه هذه الولاية وتحويه ، وبالغ فيما يزيل عنهم الحيف ويؤويه ، وأقصد ما يقضى لسرهم بالتأمين ، ويبلغهم من تحصين أوطانهم غاية التأميل . وأجعل أيدى المفسدين مكفوفة عن كافتهم ، ووجوه المعتدين مصروفة عن إحاقهم ،

وتطلب الأشرار ، وتبتع الدعار ، ومن ظفرت به منهم فلا تكن عن التنكيل به ناكلا ، ولا تقصر في الحوطة عليه والمطالعة به عاجلا . وعامل النائب في الحكم العزيز بإنهاضه ، وصون مديد باعه في تنفيذ الأحكام عن أنقباضه ، وأعضده في إنفاذ قضاياه ، واختصاصه بإكرام يقبل عليه مطلق محياه . وشد من الضامن في استيداء حقوق الديوان واستئطافها على أحسن حال من غير خروج عن الضرائب المستقره ، وعوائد العدل المستمره . وتحرز أن يكون لمناهضة العدو طروق إلى ناحيتك أو أنياب ، وشمر لتتخفظ من مكائدهم تسميرا يزول عن حقيقته عارض الأرتياب ، ولا تبق شيئا يمكن لأهل ولايتك قواعد الأمانة منهم ، وتبتل لوقايتهم أذاهم تبتل من لا ينام عنهم . وطالع بما يحتاج إلى علمه من جهتك إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية السمنودية ، وهى :

إن أولى من ولي الأعمال ، وتعلقت بكفائته الآمال ، وعُدقت به المهمات ، وأسندت إليه الولايات ، من نطقت بمعدلاته الألسنه ، وانتفت عن عين خبرته السنه ، وكان حسن السياسة لرعيته ، كثير العارة مدة توليته ، شهما في استخراج الحقوق من جهاتها ، صارما في ردع المجرمين عن زلات النفس وهفواتها ، حسنة سيرته ، خالصة مناصحته وسريته .

ولما كنت أيها الأمير فلان - أدام الله تأييدك وتسديدك ، وحراستك وتمهيدك - أنت المتوشح بهذه الصفات الحسان ، المتصف بما تقدم من الشرح والبيان ، الذى نطقت شمائك بشهامتك ، وشهدت محابلك بنبأهتك - خرج الأمر الفلانى بأن نتولى مدينة سمنود وضواحيها ، وما هو معروف بها ومنسوب إليها ، بشرط بسط

العدل ونشره، وإعباق عَرَف الحق ونشره؛ وأن تُخَفَّف الوطأة عنهم وتُفَعَّل ما هو أولى، وتَعْلَم أنك تُسأل من الله تعالى في الأخرى ومِنَّا في الأولى؛ وأن تَصَوَّن الرعايا وتُجْتَلَب لنا أدعيتهم، وتعاملهم بما يُطِيب نفوسهم ويُلْغَم بُغيتهم؛ حتى يتساوى في الحق ضعيفهم وقويهم، ورشيدهم وغويهم، ومليهم ودنيهم؛ وأن لا تُقيم الحدود على مَنْ وجبت عليه إلا بمقتضى الشرع الشريف، والعدل المنيف؛ وأن تُسَدَّ من ثواب الحكم العزيز، وتُفَعَّل في ذلك فعل المهدب ذى التمييز؛ وأن تَحْمَسَ عن ساعد الاجتهاد فى الجمع بين استخراج جميع الحقوق الديوانية والعِمَارَة، وتجعل تقوى الله هى البطانة لك والظَّهَارَة؛ وأن تبدل النهضة فى استِخراج الأموال، وتحصيل الغلال على التمام والكمال؛ بحيث لا يتأثر منها الدرهم الفرد ولا القَدَح الواحد، وتُفَعَّل فى ذلك فعل المُشْفِق المشمر الجاهد؛ وأن تُدِيم مباشرتك للأقصاب فى حال برشها وزراعتها وتربيتها وحملها، واعتصارها وطبخها، وتزكية أثمارها؛ بحيث لا تكل الأمر فى شيء من ذلك إلى غير ذى ذِمَّة بمفرده، ولا إلى من ليس بذى خبرة لا يعلم مُشَقِي التصرف من مُسْعِدِهِ. وقد جعلنا لك النظر على جميع النواحي الجارية فى ديواننا بالوجه البحرى خاصة لتُنْظَر فى أمرها، وتزجر أهل الخنايات بها؛ وتُفَعَّل فيها كل ما يَجِدُّ به الأثر، وَيَطِيب بِسَمَاعِهِ الْخَبَرَ.

فَقَلَّدْ مَا قُلَّدْتَ، وَقُمْ حَقَّ الْقِيَامِ بِمَا إِلَيْهِ نُدِبْتَ؛ وَأَعْمَلْ فِيهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فى سِرِّكَ وَجَهْرِكَ، وَقَدِّمِ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ على جميع ما تَأْتِيهِ أَوْ تَذَرُهُ من أَمْرِكَ؛ وَتَسَلِّمُهُ شَاكِرًا لِمَا أَسَدَيْنَاهُ إِلَيْكَ، مَتَمِّسِكًا بِمَا أَوْجَبْنَاهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ يُوجِبُ مَزِيدَكَ، وَيُكَثِّرُ عَدِيدَكَ.



وهذه نسخة بولاية النستراوية، وهى :

من عادتنا فى التدبير وشيئتنا، وسنننا فى السياسة وسيرتنا؛ إسباغ المواهب والنعم، وتنقيل عبيدنا فى مراتب الخدم؛ استرشادا بأسلافنا الملوك وأقدياء، واستضاءةً بأنوارهم المشرقة وأهتداءً .

ولما كنت أيها الأمير من عرفت بسالته، وأشتهرت شجاعته وصرامته؛ وأستحق أن يُحفظ بعين الرعايه، وأن يشرف بالإرتضاء للتعويل عليه فى ولاية، - رأينا - وبالله توفيقنا - استخدأنا فى ولاية الأعمال النستراوية، وخرج أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ذلك، وتضمينه ماتعمد عليه، وتنتهى إلى المثل لك فيه .

فتقلد ما قلده حاملا بتقوى الله فيما تُسرّه وتعلنه، معتمداً فيها غاية ما يستطيعه المكلف ونهاية ما يمكنه؛ فالله تعالى يقول إرشاداً للمؤمنين وتفهماً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . وساو بين القوى من هذه الولاية والضعيف، ولا تجعل فى الحق فرقاً بين المشروف والشريف؛ وأمدد على كافتهم رواق السكون والأمنه، وأجرهم فى المعدلة على العادة الجميلة الحسنه؛ وأفعل فى إقامة الحدود على من تجب عليه ما يوجبهُ كتابُ الله الكريم، وتقضى به سنة نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ وأدأب فى حفظ السبل والمسالك، واجتهد فى ذلك الاجتهاد الذى يجب على أنظارك وأمثالك؛ ومتى ظفرت بمن يؤذى مسافرا، أو يخيف وارداً أو صادرا؛ فطالع بحاله ليمثل لك فى التمثيل بما تعتمده، وتؤمر فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقصده . وراع المستخدمين على الحكم والدعوة فهما يتولين ما بإعزازه يقوم
متأرا الإسلام ، وتجرى أمور الشريعة على أجمل وضع وأحسن نظام . وخذ
المستخدمين في الأموال الديوانية بالأجتهد في العماره ، وحل المعاملين على ما توجبه
المعدلة والحرص على ما وفر الارتفاع ، وحماء من أسباب التفريط والضِّياع ،
واستئحض الرجال المستخدمين معك فيما ترى نديهم إليه ، واستنهاضهم فيه ، فاعلم
هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهي :

أهتما منا بما حاط ثغر الإسكندرية - حماه الله تعالى وحصنه ، ومنحه أتم حظ
التفقد وأكمله وأجمل وضع التعهد وأحسنه ، وقوى سبب استقامة شؤنه وأتساق
أموره ومكثه ، ومد ظل الدعة والسكون على كافة من تديره وسكته ، وحفظ
عليه نظام النضاره ، وأماط عنه مكروه الأحوال الضاره ، وأنام أهله على مضجع
الأمن ومهاده ، وحكم بإحلالهم نُجود الاتحاد على المصالح وإجلالهم عن وهاده ،
وحى سوام أموالهم من مشروب ورد أجاج ومرعى نبت وخيم ، وحباهم من
رسوم الإحسان وعوائده مالا ينطق لسأ على زوائده بترخيم ، وملا آمال الأعداء
عن التطرق إليه إخفاقا ، ورد نصول سهام مكايدهم عنه على ما عهد من فضل الله
سبحانه أفواجا - إذ كان من أجل الثغور الإسلامية أوزارا ، وأسبقها إلى غاية
التفضيل آتدارا ، وأكثرها بمن حواه من صدور الدين وأئمة المسلمين آفتخارا ،
وأفضلها محلا ولم يزل مفزع السفار من كل جهة رسلا وتجارا - أوجب أن تُسند
ولايته ، ونرد كلاءته ، إلى من يجرى في التدبير على حكم سياسته المعلوم ، الحسن

الأخذ بيدِ المظلوم ، ويقومُ بحسن التفويض والأيثان ، ويعطى بدل السّلامة من حقوق انتقامه عهدّة الأمان ؛ ويسلكُ فيما يُعَدَّق به طريق السّداد ويلزم نهجه ، ولا يمكنُ أن يكونَ له على غير الصواب معاج ولا عرجه ؛ ويأخذُ في كل أحواله بوثائق الحزم ، ويُحِلُّ له أعماله الصالحة من مَثْوَى المنازل الرفيعة ما هو على غيره من الحرام الحزم .

ولما كان الأمير المعنى بهذا الوصف الواضح البيان ، المتكافئة في ذكر مناقبه شهادة السّماع والعيان ؛ الكائى ما يُناطُ به بقلب المعنى وطرف يقظان ، الحال من الورع فى أسمى مكان وأعلى مظان ؛ الجامع فى إقامة شرع الإخلاص بين الفرائض والسّنن ، الموفية عزائمه على مضارب المهتدة التى لا تقي منها ما نعات الجنّ ، الفائح من نبئه ما تُؤثر صحاح الأنباء عن عليل نسيمه ، الجدير بما يُرفُ إليه من عقائل جزيل الإنعام وجسيمه ؛ وقد أبان فى ولايته بمطابقته بين شدّته ولينه ، وإقامة منار الإنصاف المُعرب عن امتداد باعه فى الحرب وانتقاض يمينه ؛ وإروائه كافّة أهلها من تمير العون على استتباب الأمور ومعينه — خرج أصرُ الملك العادل بتقليده ولاية نجر الإسكندرية حماه الله تعالى والبحيرة .

فلتقلدْ ماقلده إياه ، وبياسره منشرا صدره متهللاً بحيّاه ؛ وليعتمدْ على تقوى الله التى هى خير عتاد ، وأفضل ما أعتد عليه فى الحياة الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد ؛ وهى نجاة أهل اليقين ، وفوز المتقين ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وليأبلغ فى نشر راية العدل ومدّ جناحه ، وتعفيّة أذى الجور واجتياحه ؛ وليشمل الصغير والكبير من أهل هذه الولاية برداء النصفه ، ويعاملهم بالجميل الموفى على

الصفه ، ويُقيم الحدود على مستوجبها ، وينته إلى الغاية في تجنب إضاعتهما وتوقيها ،
 وليدل على المفسدين عين من يتبع وقوعهم في قبضته ويتطلب ، ويقابل كلاً منهم
 بما يرى متعقبا بإيماض برق المعاقبة غير خلب ، ولا يبق ممكنا في التنقيب على
 مرتكبي الآثام ، والمرتكبين على سفك الدم الحرام ، ومن ظفربه منهم فليحكم فيه
 شبا ظفر الانتقام ونابه ، ويقابله من الردع بما يؤمن من معاودة عادات التعدي
 على كل حقير ونابه . وليجر على عادته فيما يسير عنه أحسن السمع ، ويشهد له بالتزهد
 عن خبيث الطعمة وقبيح الطمعه . ويشد من القاضي متولى الحكم فيما يصدره
 ويورده ، ويحلّه ويعقده ، ويمضيه من الأحكام الشرعية ، ويعتمده في القضايا بما
 لديه من الألفية . ويعاضد المستخدمين في الأموال معاودة شمره ، وتمي الارتفاع
 وتوفده ، وتعود على الديوان بالحظ الوافي ، وتغرب عن كونه بمثل هذه الولاية نعم
 الكف الكافي . ويعامل التجار على تباين بلدانهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم ،
 معاملة يجمل أثرها ويحسن ، ويتلقهم ببشر وطلاقة تنطق بشكر استبشارهم بها
 الألسن . ويحفظهم في أنفسهم وبضائعهم ، ويستنهد الوسع في دفع مضارهم
 وروائعهم . ويعتمد بعث رجاله على الاستعداد للجهد ، والتأهب لقرع الأضداد .
 وينته إلى الغاية فيما يزيل منهم اعتذارا ويزيح اعتسلا ، ويوجب لهم الاقتدار على
 مكافحة عدو إن طرق الثغر والعياذ بالله تعالى .



وهذه نسخة بولاية برقة ، وهي :

من حق الأطراف المتناهية في بُعد أقطارها ، والبلاد الشاسعة عن ثواء المملكة
 وحل استنقرارها ، التي انتظمت في سلك أعمال المملكة الناصرية وأنخرطت ،

وَأَسْتَدْرَكْتَ مُعْدَاتُهَا لِمَنْ حَوَتْهُ فَوَائِتُ الْفَوَائِدِ الَّتِي سَلَفَتْ وَفَرَطْتَ - أَنْ يُدِيمَ أَكِيدُ
الْأَهْتَامَ لَهَا التَّحْصِينَ وَالتَّحْسِينَ ، وَلَا يُغِبُّ أَهْلُهَا مَا يَغْشَاهُمْ مِنَ الْمَلَاخِظَاتِ مُصْبِحِينَ
وَمُسِينَ ، وَتُرْجَى لَهَا سَحَابُ كَرَمِ التَّعْهُدِ عَهْدَهُ غَدَقًا ، وَيُعْمَلُ الْأَوْلِيَاءُ فِي حَيَاطَتِهَا
مِنَ الْغُمُودِ أَلْسِنَةً وَيُذَكَّرُونَ دُونَهَا مِنَ الْقَنَاءِ حَقًّا ، وَيَفُوضُ أُمُورَهُمْ إِلَى مَنْ تَخَفُّ
عَلَى يَدِهِ كُلْفَتُهُمْ ، وَتَجْتَمِعُ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ أَلْفُهُمْ ، وَيَشْتَمِلُ مِنْ عِنَايَتِهِ عَلَيْهِمْ أَشْتَمَالٌ
الصَّدْفَةِ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَتَنِيلُهُمْ مَهَابَتُهُ مِنْ كَفِّ عَدَوَى الْعِدَا كُلِّ مُؤَثَّرٍ مُطْلُوبٍ .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مِنْ أُمِيزِ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرَائِقِ ، وَأُمَثِلِ فُرْسَانَ الْحُرُوبِ
وَحِمَاةَ الْحَقَائِقِ ، وَأَشْجَعَ الْمَجَاهِدِينَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَأَجْسِرَهُمْ عَلَى إِصْلَاءِ الشَّرِّكَ
ضَرَامَ فَتْكٍ لَا يُخْشَى إِصْلَادُ زِنَادِهِ ، وَلَكِ السِّيَاسَةُ الَّتِي تُرْتَّبُ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالْظُّبَاءِ
أَصْطَحَابًا ، وَالْمَخَالِصَةُ الَّتِي لَا تُنَاجَى إِذَا وُصِفَتْ بِالتَّغَالَى فِيهَا وَلَا تُحَابَى - خَرَجَ أَمْرُ
الْمَلِكِ الْعَادِلِ بِكُتُبِ هَذَا الْمَنْشُورِ لَكَ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِوِلَايَتِهِ وَإِقْطَاعِهِ : وَهُوَ بَرَقَةٌ
بِجَمِيعِ أَعْمَالِهَا وَحُقُوقِهَا : مِنَ الْعَقَبَةِ الصُّغْرَى وَإِلَى آخِرِ حُدُودِهَا ، وَبِمَا أَمَرَ بِهِ كَافَّةَ
الْعُرَبَانِ الْمُقِيمِينَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، وَجَمِيعِ أَهْلِهَا مِنْ حَاضِرٍ وَبَادٍ : مِنَ الْإِعْلَانِ لَكَ بِشِعَارِ
الطَّاعَةِ ، وَصَوْنِ مَا يَلْزِمُهُمْ أَدَاؤُهُ إِلَيْكَ مِنْ فُرُوضِ النَّصْحِ عَنِ الْإِضَاعَةِ ، وَأَنْ يَبْدُلُوا
فِي مُوَافَقَتِكَ غَايَةَ الْأَجْتِهَادِ ، وَيَعْتَمِدُوا مِنْ أَمْتَالِ مَرَاثِمِكَ أَحْسَنَ اعْتِمَادٍ ، وَيَحْذَرُوا
مِنَ الْعُدُولِ عَنْ أَمْرِكَ ، وَيَحْتَنِبُوا مَخَالَفَةَ نَهْيِكَ وَزَجْرَكَ .

فَاسْتَمْسِكْ بِجَبَلِ التَّقْوَى الْفَائِزِ مِنْ يَعْتَصِمُ بِهِ وَيَتَعَلَّقُ ، وَاسْتَشْعِرْ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ
مَا يُشْرِقُ لِأَجَلِهِ عَلَيْكَ نُورُ الرِّضْوَانِ وَيَتَأَلَّقُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ :
(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) . وَعَامِلْ أَهْلَ هَذِهِ الْوِلَايَةِ بِالْإِنْصَافِ ،
وَأَيَّاكَ وَمَكْرُوهُ الْعُدُولِ عَنْ حَجَّةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْخِرَافِ ، وَتَوَقَّ الْعَسْفَ بِهِمْ وَالْحَيْفَ

عليهم ، وأجتنب الترخيص لأصحابك في مد يد أحد منهم بعدوان إليهم ؛ وسرفهم
سيرة ترؤف بهم وترؤف ، وجانب سبيل من تقوم عنده أسواق اختلاق المتخربين
وتنفق ؛ ولا تخرج في تدبير الأمور عن قانون الشريعة ، ولا تجعل لك إلى فوز الآخرة
عن تقديم العمل الصالح من ذريعه . وغل عنهم أيدي حاضري المفسدين وباديهم ،
وأنهم بالمهابة عن إصرارهم على المنكرات وتماديهم ؛ وكل بهم عزما رادعا لهم
وازياء ، ونكل بمن ظفرت به منهم تنكيلا يزجر من يضل بجر الضلال نازعا . وشد
من خلفاء الحكم العزيز في تنفيذ قضاياه ، وخصهم من الكرامة بما تقتضيه إقامة
مناره وإنارة مزاياه . وأعتمد ما يعيد الحقائق بوجوه ناضره ، ويرد الأباطيل
بصفقة خاسره . وراع أمور التجار والحجاج مراعاة شملهم في السفر والإقامة ،
وتحميهم من تطرق استهانة إلى أحد منهم واستنصاه ؛ وطالع بما يتجدد من أحوال
خدمتك ، وما يحتاج إلى علمه من جهتك ؛ إن شاء الله عز وجل .



وهذه نسخة بولاية الفرما ، وهي :

نحن لما ضاعف الله لدينا من إحسانه وأجزله ، وعدقه بنا من تدبير أمور الخلق
وأسنده إلينا ووكله ، نعتمد عبيدنا بتوفير الرعاية لهم والإكرام ، ونحافظ على ما يغمرهم
من شامل الإفضال وسابغ الإنعام ؛ فنقدم للخدم من خطبها بخلوص طاعته ، ونؤهل
للرتب من أبانت شيمه عن خبرته ومناصحته .

ولما كنت أيها الأمير ممن ظهرت مشايعته ومولاته ، وحسنت في مكافئة
الأعداء مشاهدته ومقاماته ، ووضحت في أفعاله دلائل النصيح وبانت عليه سمائه ؛
ولك مساع مشكوره ، ومواقف مشهوره ، ومقاصد هي من ما شريك معدودة

(١) وفى فضائك مذكوره؛ رأينا - وبالله توفيقنا - استخدامك فى ولاية الفرما والجفار :
سكوناً إلى رضا مذهبك ، وثقةً بانتظام الحال فيما يرد إليك ويناط بك ؛ وخرج
أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الولاية المذكورة وتضمينه
ماناً به ونزعه ، مما يهديك إلى الصواب فتتمسك به وتعكف عليه وتلزمه .

فتقلد ما قلده شاكراً على هذه النعمى ، عاملاً بطاعة الله تعالى ومراقبته فى السر
والنجوى ؛ وأعتدّها زاداً إلى الآخرة تطمئن به القلوب وتقوى ، قال الله عز من
قائل فى كتابه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ . وأعتد فى أهل هذه الولاية
نصفه تهمهم ومعدله ، وسنهم سياسة تكون لسنة الخير مؤكدة لسنة الجور
مبدله . ومائل فى الحق بين قويهم وضعيفهم ، ولا تجعل مزية فى الواجب
لشريفهم على مشروفهم ؛ وأنصف للظالم من المعتدى الظالم ، وأعمل بالكتاب
والسنة فى الحدود التى تقيمها على ذوى الجرائر والجرائم ؛ وأنصب لحفظ
الطرق ، وصون الصادرين والواردين فى جميع الأوقات ؛ ونكل بمن تنظر به من
المفسدين ، وأجعله عظة لأمثاله من الظالمين والمعتدين ؛ وعاضد النائب فى الحكم
العزیز معاضدة تقضى بإعزاز الجانب ، وساعده مساعدة تنفذ بها أحكامه على قضية
الواجب ؛ وكذلك متولى الدعوة الهادية فهى مصباح الزمان ، وبإشادة ذكره تقوى
دعائم الإيمان ؛ فاجتهد فى تميز متولّيها وإكرامه ، وبلغه فى ذلك غاية مطلوبة
ومرامه . وتوفّر على الشد من المستخدمين فى الأموال ، وراع [ما يحسن] لدينا فيما
تنظر فيه من الأعمال ؛ وأحرص على ما عاد بوفور ارتفاعها ، وأجر أحوالها على أفضل
رؤسومها وأوضاعها ؛ بحيث يكون العدل منبسطاً منبثاً ، والحيث منحيماً مستأصلاً
مجتثاً ؛ وأجمل صحبة الرجال المستخدمين معك ، وأحسن معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدة قرى ومن مدنها العريش والورادة ورغ وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخدمه ، وأستنهاضهم في الأمور الشاقة المهمة ، فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع بما تحتاج إلى المطالعة به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية عسقلان ، وهى :

من شيمنا التى غدت للصالح ضوا من ، وعلت فكل متناول عندها متطامن ، وهممنا الكافلة [للمرية] بما يقر عيوننا ، والقاضية للخاصة والعامة بما يوجب طمأنينتها وسكونها ، أنعمنا النظر فيما نرعاها به ونسوسها ، وأعملنا الفكر فيما يستقيم به أمرها وينزل معه بوسها ، فيقف [بنا] الاجتهاد في ذلك على محجة الصواب التى لا ضلال في سلوكها ، ويقضى منا الحرص إلى غاية لم يبلغها أحد من مدبرى الدول وملوكها ، فنتخب لخطر الخدم من كان قسوما بها مستقلا بأصارها ، ونتجب لجليل الرب الأعيان من أمراء دولتنا وأنصارها ، حفظا لما أستحفظناه من أمور العباد والبلاد ، ورفعنا لعماد الصلاح وحسنا لمواد الفساد .

ولما كنت أيها الأمير من الأولياء الذين صفت في الخلاصة ضمائرهم ، وحسنت في الطاعة عقائدهم وسرائرهم ، ونالوا من نبيه الحظ ما أطنب الواصف فيما يذكره منه ويرويه ، وأحمدوا المناصحة فيما رقوا فيه من درج التنويه ، وقد استكفيت مهمات من الخدم فكفيت همها وخففت ثقلها ، وأهلت لولايات سنية فحملت كلفها ، وكنت مستحقا لها وأهلها ، فلك موات حميدة من حسن المقاصد ومشكور المساعي ، وحرمت أكيدة ظلت على أصطفائك من أوفى البواعث وأقوى الدواعي ، وكانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - نغر الإسلام الذى لا تغرله في الشام سواه ، والرباط الذى من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه وحواه ، وهو فى عيون الكفار - خذلهم الله - نكته ، وأسباب طمعهم فيه منقطعة بحاماته منبته ، ونحن

نوفر اهتمامنا عليه رعاية لمكانه المبكى ، وملتصى الكفاة لتوليّه توصلا إلى النكاية^(١) في المشركين ؛ وهو معقلٌ للمسلمين المجاهدين وردّ ، ومجاوروه قومٌ لدّ ، وأمرهم أمرٌ إدّ ، فيجب أن يرتاد لضبطه النّذب الذى لا تُتَبَل غرته ، ويسام لحفظه العضب الذى لا تُسقى ضربته ، ويختار لصونه الشهم الذى تقف على المصالح همته ، وتنفذ فيها عزمته ؛

وحين كانت هذه الصفات فيك موجوده ، وظلت محسوبة من خالك معدوده ، رأينا - وبالله توفيقنا - ماخرج به أمرنا إلى ديوان الانشاء من كتب هذا السجل بتقليدك ولاية هذا الثغر وضواحيه ، وعمله ونواحيه ؛ ثقةً بمشهور مضاءك ، وعلمًا ببارارك على نظرائك .

فتقلّد هذه الخدمة عارفاً قدر ماخولت منها ، وعاملا بتقوى الله وخيفته في جميع ماتأمر به وتنهى ؛ فإن تقواه الجُنة الواقيه ، وإن خيفته الذخيرة الباقية ؛ وقد وعد الله المتقين بتيسير الأمور ، وتكفير السيئات وإعظام الأجور ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ . واستعمل العدل في جميع من يشتمل عليه عملك ، ويجرى عليه توليك ونظرك ؛ وساوى في الحق بين الضعيف والقوى ، ومائل في الحكم بين القريب والقصي ؛ وإذا ثبت على شريف حق فلا تُحايه لرُبنته ، وإذا ثبت لوضع نخذه من لزمه واستقر في جهته .

واعتمد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يستنطق بالثناء عليك ألسنة المادحين ، وينظمك فيمن عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) في القاموس وغيره « آتصيت » أى بالصاد المهملة « الرجل آخرته » فنبه .

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وأقيم الحدود على من لزمته بما أمر الله به إقامة [تجربى بها] تجرباها ، وتوق الزيادة فيها والنقص توقى من يتأمل المجازاة كأنه يراها . وهذا الثغر لحمله وسمو مقداره ، وقرب العدو منه ودنو داره ، لا يقنع له بمركريته ، ولا يكتفى في حقه بمرايئته وقراريته ، فنحن نسير إليه العساكر المظفرة دفعتين في كل سنة على حكم البذل : فيرده عسكر جديد مزاح العلة ، كثيف العدة ، وافر العدة ، يؤثر أن يظهر أثره ، ويحافظ على ما يطيب به ذكره وخبره ، فبت السرايا وشن الغارات ، وضيق على العدو فسيح النواحي والجهات ، وجهاز إليه من يخيفه في مآمنه ، وأبعث عليه من يطرقه في أحرز أمانه ، وأنذب من يطالعك بخفي أخباره ، ويظهر لك باطن أموره ومستور أسرارته : لتتمز فيه الفرصة إذا لاحت محالها ، وتبادر الغفلة منه إذا ظهرت دلائلها . وأجعل للتطوعين من الكينانيين نصيبا من ثواب الجهاد ، وأحملهم على است فراغ الوسع بغاية الحرص والاجتهاد ، وأفعل في هذا الباب ما تتضاعف به مواد الأجر ، وتتسخ به الأوزار كما ينتسخ الظلام بضياء الفجر ، وأعضد متولى الحكم العزيز عضدا يعلى أمره ، ويؤسد أزره ، ويحرس نظامه ، وينفذ قضاياه وأحكامه ، وكذلك متولى الدعوة الهادية - ثبته الله تعالى - فاعتمده بما يشرح صدره فيما يوصحه للؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتدينين ، ووفر موفر اهتمامك على مرافدة من يتولى أمر المال وما يجرى في الخاص لتبدر أخلاقه ، ويزكو ارتفاعه ، وتغزر مادته ، ويتوفر مستخرجه ، ويحتمى من خيانة وتحيف ، ويسلم استيداؤه من ترث وتوقف . واستنهض الرجال المستخدمين في الأمور السوائح ، وصرفهم فيما ترى تصرفهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ، واستمطر

الإحسان لمن أحدثت طريقته ، وقوم بالتأديب من دُمت فعله وكرهت سيرته ،
فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع بما يحتاج إلى المطالعة بمثله ، إن شاء الله عز وجل .



ومن المكتتب بالوظائف الديوانية من هذه المرتبة نسخة توقيع بنظر
الدواوين ، وهى :

أحق الأعمال بأن يُنعم فيها النظر الشافى ، ويُندب لحمل عبئها الأمين الكافى ،
ويُحال النظر فى تقليدها للقيم بأمرها ، ويعمل الرأى لأرتياد القوى على ضبطها
وحصرها ، ما كان منها جامعاً لمصالح الدولة ، حائزاً لمهام المملكة : وهى أعمال
الديوان ، والنظر فى حفظ وجوه الأموال وما يعين على استئنائها ، ويعود بالزيادة
فى أصول أبوابها ، إذ كان ذلك ملاك الأمور ، وزمام التدبير فى حفظ الجمهور ،
والمعونة العظمى على الاستكثار من الرجال الذين بهم يتم حفظ البلاد وحماية الثغور .
ولما سلطنا البحث على استصلاح من نؤله لهذه المنزلة ، واستخلاص من نُحله
بهذه المرتبة ، أذانا الاختبار والانتقاد ، وأتتهى بنا الاعتيام والأرتياد ، إلى اختيار
الشيخ فلان : حين سَفَرَتْ له النباهة فى الكفاية ، والوجهة فى الخبرة والدراية ،
وجب ... (١) ... على اختصاصه بالفضل الذى تحلى بأدبه ، والعفاف الذى أشتهر من
مذهبه ، من الحِصَال الحميدة ، والخلال الرشيدة ، والفضائل الموروثة والمكتسبة ،
والخلاق المتقاة المهدّبة ، ورأيناه أهلاً لإحلال هذه المكانة ، وعدلاً قيماً باحتمال
هذه الأمانة ، وعلمنا أن الصنعة عنده زاكية المغارس ، والنعمة المُفاضة عليه
ضافية الملبس ، فقلدناه أمر الديوان بحلب وما معها من البلاد المضافة إليها

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

والداخلة في حكمها : قاصي ذلك ودانيه ، وأواسطه وحواشيه ، مقدمين الاستخارة
 فيما نبذيه من قول ، ونعزم عليه من فعل .
 وأمرناه أن يستشعر تقوى الله سبحانه فإنها الجنة الواقية ، والذخيرة النافعة
 الباقية ، ويعتلق أسبابها فإنها المنجية من المهالك ، الهادية إلى السبل الواضحة إذا
 اشتبهت المسالك ، محققا ما توهمناه فيه من تحايل الأوصال ، ودلائل الجرائل ،
 مصدقا ما استلهمناه من كفايته وغناؤه ، وأستوصحناه من استقلاله وأستقصائه .
 وأن يبدأ فيرتب في كل معاملة أمينا من الثقات الكفاه ، مشهودا له بالنهضة والأمانة
 المستوفاه . وأن يزم الأعمال القاصية والدانية ، والبلاد القريبة والنائية ، بالضبط
 المستقصى ، والحفظ المستوفي ، وبمن يرتبه عليها من الكتاب الأمناء ، ويستصلحه
 لها من الحفظة النصحاء . ويتتبع حال من بها من الثواب : فمن شهدت له التجربة
 بالكفاية ، ودل الاختبار منه على العفة والأمانة ، أستدامه في خدمه المنوطة به ،
 وطالع من حاله بما يقضى له حسن النظر بحسبه ، ومن ألفاه متنبجا سبيل الأمانة ،
 مقارفا طريق العجز والخيانة ، بادر إلى الاستبدال به ، وعجل قطع ما بينه من الخدمة
 وبين سببه . وأن يسترفع البواق من الأموال ، في سائر الجهات والأعمال ، إلى آخر
 التاريخ الذي تليه مباشرته ، ويتصل بأخره مبدأ نظره وفاتحته ، موشحة أوراق ذلك
 بخطوط الأمناء ، مفصلة جهاته بأسماء المعاملين والضمان ، حتى إذا حلت إليه ،
 وصارت حجة على رافعها في يديه ، طالبه بمواقفة من هو في ذمته ، وتقدم بعد
 تصديقه على ذلك بمضايقته بعد المطالعة بجلى الحال وحقيقته . ثم يسترفع من
 مستوفي الديوان وعماله شروط الضمان ورؤسومهم ، وقواعدهم في الضمان وعوائدهم :
 ليكون علم ذلك عنده مينا ، ووقت مساس الحاجة إليه حاضرا . ويطلب بجرائد
 الضياع خاصها ومقطعيها المشتملة على ذكر رؤسومها وحقوقها ، وعدد فئنها

ومَقَاسِهَا . وجرائدِ الخَرَاجِ اللازمِ لأربابِ الأملاكِ على أُملاكِهِمْ ، وتحقيقِ
المصْفُوحِ عنه والمسامحِ به والباقي على الأداءِ فى جهته . وجرائدِ الجزيةِ مفصَّلَةٌ
فى نواحيها ، وأسماءُ أربابها إلى حينِ رُفْعِهَا - وأن يطالب نوابُ الجزيةِ فى كلِّ شهرٍ
بختمةٍ تتضمَّنُ ذكرَ مَصَارِفِ ما يُحوَّلُ إليهم ، وإقامةِ وجوهِ المالِ الذى جُمِعَ عليهم ؛
مفصَّلةٍ مميَّزةٍ الإبتاعاتِ عن الإطلاقاتِ ، والضَّيَافِ عن السُّفَرَاتِ والإصطبلاتِ ؛
وكذلكِ نوابُ الأُمراءِ يسترفعُ منهم مايدُلُّ على مثلِ ذلكِ ، وسائرُ المتولين فى سائرِ
الخِدمِ يطالبهم بهذه المطالبه ، ويضيقُّ عليهم فى مثلِ ذلكِ سبيلَ المغالطةِ والمواربه ؛
ويجعلُ مؤاخَذَتَهُمْ بذلكِ من الأمورِ الراتبه ، والوظائفِ اللازمةِ الواجبه ؛ حتَّى يتبينَ
له الكافى من العاجزِ ، والأمين من الخائن .

وليتأَمَّلَ وجوهَ الإخراجاتِ ، ومبلغَ الإطلاقاتِ والإذاراتِ ؛ ويستترِفِعُه من
مظانِّه مفصَّلاً بجهاته ، منسوباً إلى أربابه ؛ ويتقدَّمُ بكتبِ مؤامرةٍ جامعةٍ لذلكِ
التفصيلِ ، دالة على المقدارِ المطلقِ فى كلِّ سنةٍ محكِّمِ النظرِ الدقيقِ دونَ الجليلِ ؛
وليُعتمدَ فى إطلاقِ ما يُطَاقُ منها على سبيلِ ما يوقع به عند ذلكِ ، وليكن هذا من
الأمورِ الجارية على العادة والرسم ، ويلزمه كلُّ من نوابِ الديوانِ .



ومن المكتبِ منها بالوظائفِ الدينية نسخةٌ تقليدِ بولايةِ الحِسبةِ ، من إنشاءِ
الوزيرِ ضياءِ الدين بن الأثيرِ ، وهى :

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمرٌ يشتمل على معنى الخُصوص دون العموم ، ولا يختص به إلا ذوو الأوامر المطاعة أو ذوو العلوم ، وقد منحنا الله هذين الوصفين كليهما ، وجعلنا من المستخلفين عليهما .

فلنبداً أولاً بحمده الذى هو سبب للزيد ، ثم لناخذ فى القيام بأمره الذى هو على كل نفس منه رقيب عتيد ، ولا ريب أن إصلاح العباد يسرى إلى الأرض حتى تزكو بطونها ، وتتمو عيونها ، ويشارك فى بركات السماء ساكنها ومسكونها ، والأمر بذلك حمل إن لم تنوزعه الأكف ثقل على الرقاب ، وإذا انتشرت أطراف البلاد فإنها تفتقر إلى مساعدة من مستنيب ومستناب ، وقد اخترنا لمدينة كذا رجلاً لم نال فى اختياره جهداً ، وقدمناف فيه خيرة الله التى إذا صدقت نيتها صادفت رشداً ، وهو أنت أيها الشيخ فلان .

فابسط يدك [بقوة^(١)] إلى أخذ هذا الكتاب ، وكُن حسنة من حسناتنا التى ثم يربح بها ميزان الثواب ، وحقق نظرنا فيك فإنه من نور الله الذى ليس دونه من حجاب .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أمر الشريعة مبنى على التيسير لا على التعسير ، ولا يضع اللسان موضع السوط إلا من أوتي زيادة فى التفسير ، وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مندوحة لمن لزمها ، وهى هدى لمن عمل بها ونور لمن علمها ، ويكفى من ذلك قصة الأعرابي الذى أتى حاجته فى المسجد فسارع الناس إليه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ مَيْسِرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ ، ثُمَّ دَعَا بِذُنُوبٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : يَا أَخَا الْعَرَبِ إِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُوضَعْ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا وُضِعَتْ لِلصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » .

فانظر إلى هذا الرفق النبوى الذى شفى وكفى ، وعفى على أثر المعصية لمّا عفا ، ولو عاد ذلك الأعرابى لمثلها لُنُقِلَ عن لين التهذيب ، إلى شدة التأديب ، وكذلك فكن أنت فى الرفق الذى حَدَّثَتْ عنه ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ .

ونحن نأمرُك أن تحتسب أولاً بلين القول لا بالآنف [و] النكير ، وأن تترفق فى الموعظة التى هى طريق إلى الخشية والتدكير ، وأن لا تكون باحتسابك مُدلاً بأنك على الصراط المستقيم ، وأن الناس بين يديك على سَنَنِ التثقيف والتقويم ؛ فإن من أكبر الذنوب ذنب الإعجاب ، والأولى لك حينئذ أن تعود على نفسك بالاحتساب ^(١) ، ومن أدبك وأدب أمثالك أن يقف فى أمره بالمعروف مع التقوى لامع هواه ، وأن لا يفرق فى إزالة المعصية أن تكون بيده أو بيد أحد سواه ؛ وإذا كنت كذلك قرنك الله بمن أنزل السكينة على لسانه ويده ، وقوم له أود الناس لتقويم أوده ، والله ينظر إلى قلب ابن آدم لا إلى عمله ولا إلى جسده . وعليك بالمجاهدين الذين سلب عنهم ثوب العافية ، ومن آخفى منك بالاستتار فلا تكشف عن حاله الخافية . وأما ذوو الهيئات فإن عرايتهم تُقال ، وأعراضهم لا تُدال ، ولربما كان التجاوز عنهم داعياً إلى الانتقال ؛ وفى قصة أبى محجن وسعد ما ينبئك أن الحياء أغنى فى الإزدجار ، وفى الناس أذنان لا قدر لها تدب عنه ورؤس تدب عما لها من الأقدار . وهاهنا من ضروريات الوصايا ما يؤتى فى مثله بتوكيد الأقوال ، وأكثر ذلك يدور فى المعاملات التى ألفها قوم دون قوم ، واستمروا عليها يوماً دون يوم ؛ وقد أتى منها ما اتفق على العمل به كل فريق ، وأيسر ذلك إزالة النخامة من المسجد وإمطة الأذى عن الطريق .

(١) فى القاموس احتسب عليه أنكر ومنه المحتسب .

وهذه الوصايا كلها لا تفتقر فيها إلى التوقيف ، وأنت عالمٌ بوضع كلامها في موضعه
وغيرك الذي يتعدى إلى التحريف ؛ فامض على السنن ، وأت بالحسن ؛ وسو بين
حالتيك في السر والعلان ، وكن من خوف الله ورجائه بين رحلة سفر وقرارة وطن .
وهذا عهدنا إليك تتقمص اليوم منه رداء جميلا ، وستحمل غداً منه عبأ ثقيلا ؛
وقد فرضنا لك عن حق سعيك فريضة تجد بها كفافاً ، وتمنعك أن تمد عينك إلى
غيرها استشرافاً ، فإن العمل الذي توليته يستغرق أوقاتك أن تكون للدين كاسبه ،
وتشغل نفسك بالعمل والنصب لا أن تكون عاملة ناصبه . وإذا نظرت إلى ما نيظ
بك وجدته قد استحصى الزمن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة الباني وقواعده :
« وكل بناء على قدر بانيه وما شاد » . ونحن نأمر ولاتنا على اختلاف مراتبهم
أن يرفعوا من قدرك ، ويسددوا من أمرك ، وإذا استوعر عليك أمر من
الجوانب سهّلوا من وعرك ؛ والله قد أمر أهل طاعته بأن يكون بعضهم لبعض
من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

الحالة الرابعة

(مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ما عليه مصطلح كُتَّاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتفويض والتوقيع ، على ما سيأتى بيانه ، وفيه [ثلاثة^(١)] مقاصد)

المقصد الأول

(فى مقدمات هذه الولايات ، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(فى بيان رجوع هذه الولايات إلى الطريق الشرعى)

قد تقدم فى أول الكلام على العهود أن السلطنة فى زماننا دائرة بين إمارة الاستيلاء : وهى أن يقلده الخليفة الإمارة على بلاد ويقوض إليه تدبيرها فيستولى عليها بالقوة ، وبين وزارة التفويض : وهى أن يستوزر الخليفة من يقوض إليه تدبير الأمور برأيه وفصلها على أجهاده ، وأنها بإمارة الاستيلاء أشبه ، على ماتقدم بيانه هناك . وقد صرح الماوردى فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كمل فى المستولى على الأمر بالقوة بعد تولية الخليفة له مع اشتماله على الصفات المعبرة فى المولى فى الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة الإسلام ، والحرية ، والأمانة ، وصديق اللهجة ، وقلة الطمع ، والسلامة من الميل مع الهوى ، والبراءة من الشحناء ، والدكاء ، والفطنة - جازله ما يجوز للخليفة من تولية وزارة التفويض وغيرها من سائر النيابات ، وجرى على من استوزره أو استنابه أحكام من استوزره الخليفة

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الآتى .

أو استنابه ؛ وإن لم يستكمل الصفات المعتبرة في الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة ،
استناب له الخليفة لكل ولاية من تتكامل فيه شروطها .

قلت : وقد كانت ملوك بني بويه وبني ساجوق مع غلبتهم على أمر الخلفاء
ببغداد واستيلائهم يقتصرون في تصرفهم على متعلقات الملك في الجهاد والتصرف
في الأموال ، ويكون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه ، وتكتب عنه
العهود والتقاليد على ما تشهد به نسخها الموجودة من إنشاء الصابي وغيره . وكذلك
الخلفاء الفاطميون بمصر عند غلبة وزراءهم على الأمر من لدن خلافة المستنصر
وإلى انقراض خلافتهم من الديار المصرية ، كالصالح طلائع بن رزيق في وزارته^(١)
للفائز والعاقد ، ونحو ذلك : فإن الخليفة هو الذي كانت الولايات تصدر عنه
تارة بإشارة الوزير ، وتارة بغير إشارته ، على ما تشهد به نسخ السجلات المكتوبة
في دولتهم ، على ما تقدم بيانه في الفصل الأول من هذا الباب . على أن أصحابنا
الشافعية وغيرهم من أئمة الفقهاء - رحمهم الله - قد صححوا الإمامة بغلبة الشوكة
والاستيلاء على الأمر بالفهر دون استكمال شروط الإمامة ، تصحيحاً للأحكام
الشرعية الصادرة عن المستولي بالشوكة : من العقود والفسوخ وإقامة الحدود
وغيرها ، على ما هو مذکور في باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميع الولايات الصادرة
عن السلطان صحيحة شرعاً وإن لم يستنبه عنه الخليفة ؛ وكذلك ما يترتب عليها ،
على ما الأمر جارٍ عليه الآن .

(١) ضبطه المجد في قاموسه فقال « كقبيط » . ونقل عن الحافظ ابن حجر ضبطه بكسر الزاي ووضعه
شارح القاموس وبه ضبطه ابن خلكان في تاريخه .

المهيع الثانى

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ فِي ذَلِكَ مِرَاعَاةُ أُمُورٍ .

الأمر الأول — براعة الاستهلال بذكر اسم المولى أو نعتيه أو لقبه أو الوظيفة ، أحوال الولاية ، مع استصحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخطبة ونحوها من الاقتراحات ، كما أشار إليه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله فى كتابه "حسن التوسل" كما تقدم ذكره فى الكلام على البيعات والعهود .

الأمر الثانى — مراعاة قطع الورق فى الجملة لكل ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها . والذى يختص بهذا المكان ذكر مقادير قطع الورق فيما يتعلق بهذه الولايات خاصة ، وهى خمسة مقادير : — أحدها قطع الثلثين ، ويختص فى الولايات بكبار التقاليد دون غيرها — وثانيها قطع النصف ، وفيه تكتب صغار التقاليد ، والمراسيم المكبرة ، والتفويض ، وكبار التواقيع — وثالثها قطع الثلث ، وفيه تكتب صغار المراسيم المكبرة ، والتواقيع المتوسطة — ورابعها قطع العادة المنصوري ، وفيه تكتب صغار التواقيع والمراسيم التى لأصحابها بعض ميزة لا تنهى بهم إلى رتبة قطع الثلث — وخامسها قطع العادة الصغير ، وفيه تكتب صغار التواقيع والمراسيم التى هى فى الرتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفة ما يناسب كل قطع من هذه المقادير من الأقلام . وقد تقدم فى المقالة الثالثة نقلا عن "التعريف" ما لكل مقدار من الأقلام . والمتعلق بهذا الموضوع من ذلك أن لقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل ، ولقطع النصف قلم الثلث الخفيف ، ولقطع الثلث قلم التوقيعات ، ولقطع العادة مطلقا قلم الرقاع .

الأمر الرابع — معرفة اللَّقَب المطابق لرتبة كل ولايةٍ وصاحبها من الألقاب الأصول المتقدم ذكرها في الكلام على الألقاب من المقالة الثالثة . وهى المقرّ، والجناب، والمجلس، ومجلس كذا على الإضافة؛ وما يُناسب كل لقب من هذه الألقاب من الفروع المرتبة عليها، كوصف المقرّ بالكريم العالى، ووصف الجناب تارة بالكريم العالى، وتارة بالعالى مجرداً عن الكريم، ووصف المجلس تارة بالعالى، وتارة بالسامى، وإضافة مجلس فى حق أرباب السيوف إلى الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفى حق أرباب الأقلام من العلماء وأصحاب الدواوين إلى القاضى فيقال : مجلس القاضى ، وفى حق الصّالحاء إلى الشيخ فيقال مجلس الشيخ ؛ وإنّ لمن دُونَ هؤلاء الصّدر ويوصف بالأجل فيقال الصّدر الأجل ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتى ترتب عليه . وتقدّم أيضا فى المقالة الرابعة فى الكلام على المكاتبِ الصادرة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية فى زماننا إلى أهل المملكة مكتبة كل واحدٍ من جرت العادة بالمكتبة إليه ، وما يختص به من الألقاب الأصول والفروع .

وَأَعْلَم أَنَّ الولاياتِ أعمّ من المكاتبات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مكتبة ، إذ المكاتبات إنما تكون لقوم مخصوصين من أرباب الولايات . إذا عُلِم ذلك فكل من له مكتبة عن الأبواب السلطانية من أرباب السيوف والأقلام ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المكاتبات إذا كُتبت له ولايةٌ نُعت باللقاب ونُعوته التى بها يُكتب عن الأبواب السلطانية ، إلا أنّ الدعاء المصدّر به المكتبة يجعل فى الآخر دُونَ الأول : فإذا كانت المكتبة إلى أحدٍ « أعزّ الله تعالى انصار المقرّ الكريم » قيل فى ألقابه فى الولاية « المقرّ الكريم » إلى آخر ما يقتضيه الحال ، ثم يقال : فلان أعزّ الله تعالى أنصاره ؛ وكذلك فى البواقى . أمّا من لم تجر

العادة بمكاتبة إليه عن الأبواب السلطانية من يُولَّى عنها فإن لكل طبقة ألقاباً تخصهم . ونحن نذكر الألقاب الأصول وما يتفرع عليها لكل طبقة من كل طائفة على الوضع الذى تقتضيه الولايات دون المكاتبات ، ليُجرى كل من أرباب الولايات على ما يناسبه من الألقاب .

وقد علمت فيما تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسة أنواع ^(١) :

النوع الأول - ألقاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تسع مراتب :

المرتبة الأولى - المقر الكريم مع الدعاء بعز الأنصار، وهى : المقر الكريم، العالى، الأمير، الكبير، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغياثى، المتأخرى، المرباطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، العايدى، الناسكى، الأتابكى، الكفيل، الفلانى، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، ممد الدول، مشيد الممالك، عماد الملة، عون الأمة، ظهير الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعز الله تعالى أنصاره .

المرتبة الثانية - الجنب الكريم مع الدعاء بعز النصرة، وهى : الجنب الكريم، العالى، الأمير، الكبير، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغياثى، المتأخرى، المرباطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافلى، الفلانى، عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش

(١) المحدود ستة فتنه .

الموحدين ، مقدّم العساكر ، مهّد الدول ، مشيد الممالك ، عماد الملة ، عون الأمة ،
ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلاني (بلقب
الإضافة إلى لقب السلطان) أعزّ الله تعالى نصرته .

المرتبة الثالثة — الجنب العالى مع الدعاء بمضاعفة النعمة ، وهى : الجنب
العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، العونى ، الزعيمى ،
المهّدى ، المشيدى ، الظهيرى ، الكافى ، الفلاني ، عزّ الإسلام والمسلمين ،
سيدّ الأمراء فى العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مهّد
الدول ، مشيد الممالك ، عماد الملة ، عون الأمة ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيف
أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلاني (بلقب الإضافة إلى السلطان) ضاعف الله
تعالى نعمته .

المرتبة الرابعة — الجنب العالى مع الدعاء بدوام النعمة ، وهى : الجنب العالى
الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المؤيدى ، الأوحدي ، النصيرى ، العونى ،
الهمامى ، المقدّمى ، الظهيرى ، الفلاني ، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيدّ الأمراء
فى العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كهف الملة ، ذخّر الدولة ،
عماد المملكة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حسام أمير المؤمنين ، فلان الفلاني ،
أدام الله تعالى نعمته .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى والدعاء بدوام النعمة ، وهى : المجلس العالى
الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ، الأوحدي ، النصيرى ،
الهمامى ، المقدّمى ، الظهيرى ، الفلاني ، عزّ الإسلام والمسلمين ، شرفّ الأمراء
فى العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كهف الملة ، ذخّر الدولة ،
ظهير الملوك والسلاطين ، حسام أمير المؤمنين ، فلان الفلاني ، أدام الله تعالى نعمته .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء، والدعاء بدوام التأييد ونحوه، وهى :
المجلس السامى، الأمير، الكبير، الذخرى، النصيرى، الأوحدي،
المؤيدى، الفلانى، مجد الإسلام، بهاء الأنام، شرف الأمراء، ذخر المجاهدين،
عضد الملوك والسلاطين، فلان الفلانى، أدام الله تأييده .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء، والدعاء أدام الله رفعة ونحو ذلك، وهى :
المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المؤيد، الأوحده،
المرتضى، فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، نحر الأمراء، زين المجاهدين،
عمدة الملوك والسلاطين، أدام الله رفعة .

المرتبة الثامنة — مجلس الأمير، والدعاء أدام الله سعده ونحوه، وهى : مجلس
الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المؤيد، الأوحده، المرتضى، فلان
الدين، مجد الأمراء، زين المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين، فلان الفلانى،
أدام الله سعده .

المرتبة التاسعة — الأمير مجزدا عن المضاف إليه، وهى : الأمير، الأجل،
وربما زيد فيه فقيل الكبير، المحترم، ونحو ذلك .

النوع الثانى

(ألقاب أرباب الوظائف الديوانية، وهى على ست مراتب)

المرتبة الأولى — الجنب العالى مع الدعاء بمضاعفة النعمة . وفيها أسلوبان :

الأسلوب الأول — ألقاب الوزير وهى : الجنب العالى، الصاحب،

الكبرى، العالمى، العادلى، الأوحدي، الأكمل، القوامى، النظامى، الأثيرى،

البليغيّ، المنفذيّ، المسدديّ، المتصرفيّ، الممهّديّ، العونيّ، المدبريّ، المشيريّ،
الوزيريّ، الفلانيّ، صلاح الإسلام والمسلمين، سيّد الوزراء في العالمين، رئيس
الكبراء، كبير الرؤساء، أوجد الأصحاب، ملاذ الكتّاب، قوام الدول، نظام الملك،
مفيد المناجح، معتمد المصالح، مرتّب الجيوش، عماد الملة، عون الأمة، مشير
الملوك والسلّاطين، وليّ أمير المؤمنين، فلان الفلانيّ، ضاعف الله تعالى نعمته .

الأسلوب الثاني — ألقاب كاتب السرّ، عند ما استقرّ ما يكتب له تقليدا
في قطع الثنتين، وهي : الجناب العالي، القاضويّ، الكبيريّ، العالميّ، العادليّ،
العلّاميّ، الأفضليّ، الأكملّيّ، البليغيّ، المسدديّ، المنفذيّ، المشيّدّي، العونيّ،
المشيريّ، اليمينيّ، السفيريّ، الأصيليّ، العريقيّ، الفلانيّ، صلاح الإسلام
والمسلمين، سيّد الرؤساء في العالمين، قدوة العلماء العالمين، جمال البلاء، أوجد
الفضلاء، جلال الأصحاب، كهف الكتّاب، يمين المملكة، لسان السلطنة، سفير
الأمة، سليل الأكابر، مشير الملوك والسلّاطين، وليّ أمير المؤمنين، فلان الفلانيّ،
ضاعف الله تعالى نعمته .

قلت : وقد كان رتبته : المجلس العالي عند ما كان يكتب له توقيع في قطع
النصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالي مع الدعاء بدوام النعمة، وفيها أربعة أساليب .

الأسلوب الأوّل — ألقاب كاتب السرّ على ما كان الأمر عليه في كتابة توقيع
في قطع النصف، ويدعى له : أدام الله نعمته، وهي : المجلس، العالي، بالألقاب
المتقدّمة له مع الجناب العالي، على ما استقرّ عليه الحال .

الأسلوب الثانى — ألقاب ناظر الخاص ، وهى : المجلس العالى القاضى ،
الكبرى ، العالمى ، الفاضلى ، الأوحدى ، الأكلى ، الرئيسى ، البليغى ، البارعى ،
القوامى ، النظمى ، الماجدى ، الأثيرى ، المنفذى ، المسددى ، المتصرفى ،
الفلانى ، جمال الإسلام والمسلمين ، سيد الرؤساء فى العالمين ، قوام المصالح ، نظام
المنافع ، جلال الأكابر ، قدوة الكتّاب ، رئيس الأصحاب ، عماد الملة ، صفوة
الدولة ، خالصة الملوك والسلطين ، ولئى أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله
تعالى نعمته .

الأسلوب الثالث — ألقاب وزير دمشق إذا صرح له بالوزارة ، وهى :
المجلس العالى ، الصاحبى ، الوزيرى ، الأجلّى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ،
المؤيدى ، الأوحدى ، القوامى ، النظمى ، الماجدى ، الأثيرى ، المشيرى ،
الفلانى ، صلاح الإسلام والمسلمين ، سيد الوزراء فى العالمين ، رئيس الكبراء ، كبير
الرؤساء ، بقية الأصحاب ، ملاذ الكتّاب ، عماد الملة ، خالصة الدولة ، مشير الملوك
والسلطين ، خالصة أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالى نعمته .

الأسلوب الرابع — ألقاب ناظر النظار بالشام ، إذا لم يكن وزيرا ، وهى :
المجلس العالى ، القضاى ، الكبرى ، العالمى ، العالمى ، الأوحدى ، الرئيسى ،
الأثيرى ، القوامى ، النظمى ، المنفذى ، المتصرفى ، الفلانى : مجد الإسلام
والمسلمين ، شرف الرؤساء فى العالمين ، أوجد الفضلاء ، جلال الكبراء ، حجة
الكتّاب ، صفوة الملوك والسلطين ، خالصة أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله
تعالى نعمته .

المرتبة الثالثة — المجلس السامى بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ،
وهى : المجلس السامى ، القَضائى ، الأَجَلِّ ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ،
الكاملى ، الرئيسى ، الأَوحدى ، الأصِلى ، الأثيرى ، البليغى ، الفلانى ، مجد
الإسلام ، شرف الرؤساء فى الأَنام ، زين البلاء ، جمال الفضلاء ، أَوحدُ الكُتَّاب ،
نخرا الحُساب ، صفوة الملوك والسلطين ، أدام الله تعالى رفعتَه .

فإن كان من كتاب الإنشاء ، أسقط منه « نخرا الحُساب » .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء ، مع الدعاء بدوام الرفعة ونحوه أيضا ، وهى :
المجلس السامى ، القاضى ، الأَجَلُّ ، الكبير ، الصَّدر ، الرئيس ، الأَوحد ، البارِع ،
الكامل ، الأصِيل ، الفاضل ، فلان الدين ، جمال الإسلام ، بهاء الأَنام ، شرف
الأَكابر ، زين الرؤساء ، أَوحدُ الفضلاء ، زينُ الكُتَّاب ، صفوة الملوك والسلطين ،
أدام الله تعالى رفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلسُ القاضى ، وهى : مجلس القاضى ، الأَجَلُّ ، الكبير ،
الفاضل ، الأَوحد ، الأثير ، الرئيس ، البليغ ، العريق ، الأصِيل ، فلان الدين ، مجد
الإسلام ، بهاء الأَنام ، شرف الرؤساء ، زينُ الكُتَّاب ، مُرتضى الملوك والسلطين ،
أدام الله رفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى ، وهى : القاضى الأَجَلُّ . ورُبما زيد فى التعظيم
الصَّدر ، الرئيس ، الكبير ، ونحو ذلك .

النوع الثالث

(ألقاب أرباب الوظائف الدينية - وهى أيضا على ست مراتب)

المرتبة الأولى - الجنبُ العالى - وهى لمن استقر له كتابه تقليد في قطع
الثلثين من قضاة القضاة بالديار المصرية وهو الشافعى؛ وهى : الجنبُ العالى ،
القاضوى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ، العاملى ، الأفضلى ، الأكلى ، الأوحدى ،
البليغى ، الفريدى ، المفيدى ، النجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الورعى ،
الخاصى ، الناسكى ، الإمامى ، العلماى ، الأصيلى ، العريقى ، الحاكى ، الفلانى ؛
جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، أوجد الفضلاء المفيدين ؛ قدوة
البلغاء ، حجة الأمة ؛ عمدة المحققين ، نخر المدرسين ، مقبى المسلمين ؛ جلال الحكام
بركة الدولة ، صدر مصر والشام ؛ معز السنة ، مؤيد الملة ؛ شمس الشريعة ، رئيس
الأصحاب ، لسان المتكلمين ، حكم الملوك والسلاطين ، ولى أمير المؤمنين ؛ فلان
(بنسبه) أعز الله تعالى أحكامه .

وكذلك قاضى القضاة الحنفى بالديار المصرية عند ما استقر المكتوب له تقليداً .
المرتبة الثانية - المجلس العالى ؛ وبها كان يكتب لقاضى القضاة الشافعى
قبل أن يستقر ما يكتب له تقليداً ، بالألقاب والنعوت السابقة له مع الجنب ؛
وكذلك الثلاثة الباقون باختصار فى الألقاب والنعوت ؛ وهى : المجلس العالى ،
القاضوى ، الكبيرى ، العالمى ، العاملى ، الأفضلى ، الأكلى ، الأوحدى ، البليغى ،
الفريدى ، المفيدى ، النجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الإمامى ، الأصيلى ،
العريقى ، الحاكى ، الفلانى ؛ جمال الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء العاملين ،
أوجد الفضلاء المفيدين ؛ قدوة البلاء ، حجة الأمة ، عمدة المحدثين ، نخر المدرسين ،

مفتي المسلمين؛ جلال الحُكَّام، حَكَمَ الملوك والسلاطين، فلان الفلاني (بَنَسَبه) أعزَّ الله تعالى أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامي بالياء، وهي : المجلس السامي، القضاة، الكبير، العالم، الفاضل، الأَوَّحَدِي، الرئيس، المُفِيدِي، البليغ، القُدْوِي، الأَثِيرِي، مجد الإسلام والمسلمين، جمال العلماء العاملين، أوحد الفضلاء، صدر المدرسين، عمدة المفتين، خالصة الملوك والسلاطين، فلان الفلاني : أدام الله تعالى تابيده .

المرتبة الرابعة — السامي بغير ياء، وهي : المجلس السامي، القاضي، الأجل، الكبير، الصدر، الرئيس، العالم، الفاضل، الكامل، فلان الدين، مجد الصدور، زين الأعيان، مرتضى الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رفيعته .

المرتبة الخامسة — مرتبة مجلس القاضي، وهي : مجلس القاضي، الأجل، الكبير، العالم، الفاضل، الأَوَّحَدِي، الصدر، الرئيس، مجد الإسلام، بهاء الأنام، زين الأعيان، نحر الصدور، مرتضى الملوك والسلاطين، فلان : أعزَّه الله تعالى .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضي، وهي : القاضي، الأجل . وربما زيد في التعظيم نحو الكبير، الصدر، الرئيس، ونحو ذلك .

النوع الرابع

(ألقاب مشايخ الصوفية — وهي على خمس مراتب)

المرتبة الأولى — المجلس العالي . وبها يكتب لشيخ الشيوخ بالديار المصرية، وهي : المجلس العالي، الشيخ، الكبير، العالم، العالم، السالك، الأَوَّحَدِي،

الزاهدى، العابدى، الخاشعى، الناسكى، المفيدى، القدوى، الإمامى، النظامى،
الملاذى، جلال الإسلام والمسلمين، شرف الصالحاء فى العالمين، شيخ شيوخ
الإسلام، أوجد العلماء فى الأنام، قدوة السالكين، بركة الملوك والسلاطين، فلان،
أعاد الله تعالى من بركاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بالياء، وهى : المجلس السامى، الشيخى،
الكبرى، الأوحدي، الأكلي، العابدى، الخاشعى، الناسكى، جمال الإسلام،
زين الأنام، صفوة الصالحاء، نحر العباد، بركة الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالى
من بركاته .

المرتبة الثالثة — المجلس السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامى، الشيخ،
الصالح، الزاهد، العابد، الورع، الخاشع، الناسك، السالك، فلان الدين،
مجد الصالحاء، زين المشايخ، قدوة السالكين، بركة الملوك والسلاطين : نفع الله
تعالى ببركته .

المرتبة الرابعة — مجلس الشيخ، وهى : مجلس الشيخ، الصالح، الزاهد،
العابد، الناسك، السالك، فلان الدين، مجد الصالحاء، زين المشايخ، بركة الملوك
والسلاطين : أدام الله تعالى بركاته .

المرتبة الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخ، الصالح، الورع، الزاهد،
ونحو ذلك : نفع الله تعالى به .

النوع الخامس

(ألقاب مَنْ قد يُكتب له بولاية من رؤساء العامة من التجّار وغيرهم)

وفيه أربع مراتب :

المرتبة الأولى — المجلس السامى بالياء ، وهى : المجلس السامى ، الصدرى ، الأجلّ ، الكبيرى ، الرئيسى ، الفلافى .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بغيرياء ، وهى : المجلس السامى ، الصدر ، الأجلّ ، الكبيرى ، الرئيسى ، المحترم .

المرتبة الثالثة — مجلس الصدر ، وهى : مجلس الصدر ، الأجلّ ، الكبيرى ، المحترم ، المؤتمن ، فلان الدين . ويقال فى ألقاب المهتارية ونحوهم : الحاج فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصدر ، وهى : الصدر ، الأجلّ . فإن زيد فى تكريمه قيل بعد ذلك : الكبيرى ، المحترم .

النوع السادس

(ألقاب زعماء أهل الذمة ، وهم ثلاثة)

الأول — بطرك النصارى اليعاقبة ، وهى : الحضرة السامية ، الشيخ ، الرئيس ، المبجل ، المكرّم ، الكافى ، المعزّز ، المفخّر ، القديس ، شمس الرياسة ، عماد بنى المعمودية ، كنز الطائفة الصليبية .

الثانى — بطرك الملائكية ، وتختصر ألقابه عمّا يكتب به لبطرك اليعاقبة بعض الاختصار .

الثالث - رئيس اليهود، وهى : الرئيس الأوحُد ، الأجل ، الأعز ، الأخص ، الكبير ، شرف الداوديين ، فلان . أبو فلان : سنده الله فى أقواله ، وثبته فى أفعاله .

قلت : ومما يجب التنبه له أن ما تقدم من الألقاب والتعوت المفرعة على الألقاب الأصول ليست مما يوقف عند حد ، بل محتملة للزيادة والنقص بحسب ما تقتضيه الحال ، ويحتمله المقال . بل ربما ولى بعض المناصب من فيه صفات تستحق ألقابا ونعوتا خاصة ، فيكتب له بذلك مراعاة لما يقتضيه حاله ، ويستوجبه مقامه ، ثم يل ذلك المنصب بعده من لا يستحق الوصف بالألقاب والتعوت التى تخص المتقدم ، فيؤتى بها للثانى : كما اتفق فيما كتب به فى نيابة الشام حين وليها الأمير بيدمر الخوارزمي رحمه الله ، وكان من الديانة على ما لا يوجد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العايدى ، الناسكى ، الخاشعى . فلزمت فيمن بعده وصارت مما يكتب به إلى الآن ، سواء اتصف نائبا يدين أم لا - وكما اتفق فى صاحب علم الدين بن زنبور حين اجتمع له الوزارة ونظر الخاص والجيش ، فكتب له بألقاب ونعوت جامعة لألقاب تلك الوظائف ونعوتها ، فاستمر ذلك فيما يكتب به لكل من ولى الوزارة بعده إلى الآن ، حتى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن « مرتب الجيوش » وهو من الألقاب الخاصة بنظر الجيش استطرادا لما كتب به لأبن زنبور : لانضمام نظر الجيش إليه على ما تقدم - وكما اتفق فيما كتب به للشيخ تقي الدين الشبكي من الألقاب الجليلة المقدار ، الرفيعة المكانة ، فى قضاء الشام لرفعة مقامه ، واتساع باعه فى العلم ، وعلو مكانته فى الخاصة والعامة فلزم كتابة ذلك لقاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، من حيث إنه لا يليق بالحال

أن يكون قاضي الشام أعلى رتبة من قاضي الديار المصرية . ثم سرى ذلك في كل من ولي المنصب بعد ذلك ، وهلم جرا إلى زماننا .

ومما يلحق بذلك أنه قد جرت العادة في الزمن المتقدم وهلم جرا إلى زماننا أنه كان يكتب في الطرة لأرباب السيوف بعد الأميري « الكبيرى الفلانى » بلقب الإضافة إلى لقب السلطان كالناصرى ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تجر العادة بأن يكتب لهم ذلك في شيء من طرة تقاليدهم ولا توقيعاتهم ، إلى أن ليس القاضي سعد الدين بن غراب الكلوتى ، واستقر إستادارا في الدولة الناصرية فرج ابن برقوق ، ثم استقر مشيرا وكتب له تقليد بالإشارة كتب له في طرة تقليده بعد الكبيرى « الناصرى » لجمعه بين السيف والقلم . ثم جرى بعض الكتاب على مثل ذلك في غيره من أرباب الأقلام الأكابر : كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ومن في معناتهم من أرباب الوظائف الديوانية . والحجة فيه ظاهرة من حيث إن كلا من المذكورين إذا كتب عنه كتاب ، كتب في أعلاه تحت البسملة « الملكى الناصرى » وإذا كتب عنه قصّة ، كتب فيها تحت البسملة « الملكى الفلانى » . ومقتضى ذلك أن يكتب لقب الإضافة إلى لقب الساطنة في تقليده أو توقيعه على ما تقدمت الإشارة إليه من فعل بعض الكتاب .

الأمر الخامس — مما يجب على الكاتب مراعاته معرفة الوصف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاة ما يناسبه من الأوصاف التى يقع بها تقريره ومدحه :

فإن كان نائب سلطنة وصفه بالشجاعة، والنجدة، وقوة العزم، والشهامة،
 وشدة الشكيمة، ونصرة الدين، وكف [الأيدى] العادية، وإرهاب العدو، وقمع
 المفسدين، وإرغام أهل العدوان، وحماية الثغور - إن كان فى ثغر - ووفور الهيبة،
 وبعد الصيت، وطيران السمعة، مع بسط المعدلة والرفق بالرعية، والرافة بخلق الله
 تعالى، والشفقة عليهم، والإحسان إلى الكافة، والأخذ بقلوبهم، والوقوف مع
 أحكام الشريعة، وبذل الطاعة، والمناصرة، والمخالصة، وقدم هجرته فى الدولة - إن
 كان قديم هجرة - ومروور الدول عليه - إن كان قد مرت عليه دول - ، وأنه نشأ
 الدولة - إن كان ابتداء أمره فيها - ، ونحو ذلك .

وإن كان نائب قلعة وصفه بالحدق، واليقظة، وقوة الحزم، وشدة
 التحرز، والمعرفة بأحوال الحصار وضروب القتال وطرق التحصين والمدافعة،
 ونحو ذلك .

وإن كان وزيرا وصفه بحسن التدبير، وجرالة الرأى، والإحتياط فى الأمور،
 والقيام بمصالح الإسلام، وعمارة البلاد، والنهوض فى المهمات، وكف الأيدى
 العادية، والأخذ على يد المتعدى، وتتمية الأموال وتثريها، وتسهيل مايجرى من
 الأرزاق على يده، وبذل الجهود فى معاضدة الشريعة، وشبه ذلك مما يجرى
 هذا المجرى .

وإن كان كاتب سر وصفه بالفصاحة والبلاغة، وقيام أقلامه فى التأثير
 فى العدو مقام السيوف والرماح، وكتبه فى تفريق الكتائب مقام الحيوش
 والعساكر، وسداد الرأى، وكنم الأسرار، وحماية الممالك بنتائج أفكاره،
 وما شاكل ذلك .

وإن كان ناظر جيش وصفه بالمعرفة بأموال الجيوش وترتيبها ، وأصناف
الأمراء ، والجند ، والمستخدمين ، وترتيب مقاماتهم ، وما ينخرط في هذا السلك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأموال الحساب ، والنهضة في المهمات ،
والمعرفة بأحوال ديوان الخاص وجهاته ، والقدرة على تحصيل الأموال وزيادتها ،
ومعرفة ما يحتاج إليه من أصناف الأقمشة والطرز وغيرها ، مع الأمانة والعفة ،
وما يجري مجرى ذلك .

وإن كان مستوفى الصحبة وصفه بالمعرفة بفنون الكتابة ، ونظم الحسابات ،
والاحتياط في استرفاعها ، مع الضبط والاحتراز والأمانة والعفة وما هو من هذا
القييل .

وإن كان ناظر خزانة الخاص وصفه بالأمانة ، والعفة ، والمعرفة بأصناف
الخزانة : من الأقمشة ، والتشارييف ، والطرز ، ومعرفة مراتب أربابها ، وما يناسب
كل واحد منهم من أنواع التشارييف من عاليها وهابطها ، وما يطابق ذلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغزارة العلم ، وسعة الفضل ، ونصرة السنة ، وقمع
البدعة ، والعدل في الأحكام ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضعيف من
القوى ، والنزاهة عن المطاعم الوخيمة ، والمطامع الرديئة ، والبعد عن الأهواء
في الحكم ، وما ينخرط في هذا السلك .

وإن كان محتسبا وصفه بعد وصفه بالفضل بالعفة ، والأمانة ، وعلو الهمة ،
وقوة العزم ، والصرامة ، ووفور الهبة ، والنهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
والنظر في مصالح المسلمين ، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه ، وأنه لا يفرق
في الحق بين الجليل والحقير ، وما في معنى ذلك .

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق ،
والثبوت فيه ، ومراعاته المصلحة العامة في كل ما يتعلق به ، والمعرفة بشروط الاعذار
ومواقع ابداء الدافع ونفيه ، وأنه يقدم مصالح المسلمين على مصالح نفسه ،
وما يقارب ذلك .

وإن كان مدرّسا وصفه بسعة العلم ، والتضلّع بالفنون ، والأخذ من كل منها
بحظّ وافر ، وطول الباع في البحث والمناظرة ، والوقوف مع الحق فيها ، وعدم
الجدال في الباطل ، وترية الطلبة ، وتأديبهم ، والتقريب على من عسر على فهمه
شئ من المسائل ، وعدم الترفع عليهم ، وتنزيلهم منازلهم في الفضل ، وتقديم من
برع منهم .

وإن كان خطيبا وصفه بالفصاحة ، والبلاغة ، وقوة اللسان ، وشدة الشكيمة
في الكلام ، وتأثير وعظه في القلوب ، وأنسكاب الدموع من وقع عظائمه ، وما
أشبه ذلك .

وإن كان شيخ خانقاه وصفه بالورع ، والزهد ، والنسك ، وقطع العلائق من
الدنيا ، وترية المريدين وتسليكهم ، والوقوف مع طريق السلف الصالح .

وإن كان رئيس الأطباء وصفه بالحدق في الطب ، والمهارة فيه ، وتقديمه على
غيره في الفن ، والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضرر ، والمعرفة بالأمراض والعِلل
وطرق العلاج ، وما يجري مجرى ذلك .

وإن كان رئيس الكحّالين وصفه بالمعرفة في صنعة الكحل ، والتقدم على أبناء
صنعتهم فيه ، والمعرفة بحال العين وأمراضها ، وأصناف الأيكال ، وما يوافق كلّ
علة من ذلك ، وما ينخرط في هذا السلك .

وإن كان رئيس اليهود أو بطركا من بطاركة النصارى، وصفه بالمعرفة بأمور ملته، والوقوف مع قوانين شرعته، ومعاونة العدل في جماعته، والتزام شروط الذمة، والوقوف عند حدها، والدخول تحت الطاعة، والوقوف عند ما حُد له، ونحو ذلك .

الأمر السادس — مما يجب على الكاتب مراعاته وصية رب كل ولاية من الولايات المعتمدة بما يناسبها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا حَسُنَ وَصِيَّةُ الْمُؤَلَّى بِهِ ، حَسُنَ وَصْفُهُ بِهِ . وَالْوَصَايَا مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، إِلَّا أَنَّ الْجَمْعَ يَشْتَرِكُ فِي الْوَصِيَّةِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَهِيَ الْأُسُّ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ ، وَالرُّكْنُ الَّذِي يُسْتَنْدَ عَلَيْهِ . وَهَذَا الْبَابُ هُوَ الَّذِي يَطُولُ فِيهِ سَبْحُ الْكَاتِبِ ، وَيَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى سَعَةِ الْبَاعِ ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ حَازِقًا بِمَا يُلْزَمُ رَبَّ كُلِّ وِلَايَةٍ لِيُوفِّيَهَا فِي الْوَصِيَّةِ حَقَّهَا ، وَإِلَّا ضَلَّ عَنْ الطَّرِيقِ ، وَحَادَ عَنْ جَادَةِ الصَّنْعَةِ . وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْكَاتِبِ : « الْقَلَمُ الْأَكْبَرُ » : لِأَنَّهُ بِصَدَدِ أَنْ يَعْلَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ مَا يُلْزَمُهُ فِي وِلَايَتِهِ .

وحيث إن كان المتولى « نائب سلطنة » وصى بتفقد العساكر، وعرض الجيوش، وإنهاضها للخدمة ... (١) ... للوظائف من يليق بها، وتنفيذ الأحكام الشرعية، ومعاونة حكام الشرع الشريف، وإجراء الأوقاف على شروط واقفيها، وملاحظة البلاد وعمارتها، وإطابة قلوب أهلها، والشّد من مباشرى الأموال، وتقوية أيديهم، ومُلَازمة العدل، وعدم الانفكاك عنه، وتحصين ما لديه من القلاع، واستطلاع الأخبار والمطالعة بها، والعمل بما يرد عليه من المراسيم

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله « وأنتقاه » للوظائف الخ .

السلطانية، وأنَّ ما أَشْكَلَ عليه يَسْتَضِىءُ فيه بِالآراءِ الشريفة، والإحسان إلى الجند،
وتعيين إقطاع مَنْ مات منهم لولده إن كان صالحا، ونحو ذلك .

وإن كان « نائب قلعة » وَصَّى بحفظ تلك القلعة، وعمارة ما دَعَتْ الحاجةُ
إلى عمارته منها، والأخذِ بقلوب من فيها، وجمعهم على الطاعة، وأخذِ قلوبهم
بالإحسانِ إليهم، وتحصينها بآلات الحِصَار، وأدْخارِ آلاتِ الحرب : من المِجَانِيقِ
والقِيسَى وسائر الآلات : من السِّهام، واللبُّوس، والسِّتائر، وغير ذلك . وكذلك
آلاتُ أرباب الصنائع، كآلات الحدادين، وصنَّاع القِيسَى وَمَنْ فى معنَاهم مما
يُحْتَاج إلى عمله فى آلات القلعة، والاعتناء بَغْلَقِ أبواب القلعة وفتحها، وتفقد
متجددات أحوالها فى كل مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ، وإقامة الحرس، وإدامة العسس،
وتعرُّفِ أخبار المجاورين لها من الأعداء، وإقامة نُوبِ الحِمَامِ بها، والمطالعة بكل
ما يتجدد لديه من الأخبار .

وإن كان « وزيرا » وَصَّى بالعدل وزيادة الأموال وتثريها، والإقبال على تحصيلها
من جهات الحِلِّ، واختيار الكُفَّاة الأُمْناء، وتجنب الخَوَنة، وتطهير بايِّه، وتسهيل
حجابه، والنظر فى المصالح، وأنه لا يَسْتَبْدِلُ إلا بَمَنْ ظَهِرَ لديه عجزه أو خيائته،
والنظر فى أمر الرواتب وإجرائها على أربابها .

وإن كان « كاتب سِر » وَصَّى بالاهتمام بتلقى أخبار الممالك وعرضها على المواقف
الشريفة، والإجابة عنها بما تبرز به المراسيمُ الشريفة، وتعريف التواب فى الوصايا
التي تُكْتَبُ فى تقاليدهم عن المواقف الشريفة ما أبهم عليهم، ويبيِّن لهم ما يقفون

(١) جرى على اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنه .

عند حدّه ، والنظر في تجهيز البريد والنّجّابة ^(١) ، وما يُبعث فيه من المصالح وينقذ فيه من المهمّات والقُصّاد ، ومعرفة حقوق ذوى الخدمة والنّصيحة ، وإجرائهم في رُسوم الرواتب وعوائد البر والإحسان على أتمّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذ بخواطيرهم ؛ والنظر في أمر الكشّافة والديّادب والنظارة والمناور والمحرقات وأبراج الحماة ؛ وصرف نظره إلى رسل الملوك الواردة ، ومعاملتهم بالإكرام ، والأخذ في صون سرّ الملك وكتّانه حتى عن نفسه ، وضبط ألواح البريد ، والاحتراز فيما تؤخذ عليه العلامة الشريفة ؛ ومراعاة كُتّاب ديوان الإنشاء ، والإحسان إليهم ، وأن لا يستكتب في ديوانه إلا من علم صلاحه لذلك وكفايته ، ووثق منه بكتّان السرّ كما يثق به من نفسه .

وإن كان « ناظر جيش » وصّى بالاحتياط في أمر ديوانه ، والوقوف على معالم هذه المباشرة ، وجرائد الجند ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشوف والمحاسبات ، وأستيضاح أمر من يموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدمين والنقباء ، والاحتراز في أمر المربعات وجهات الإقطاعات وما يترتب عليها من المناشير ، والنظر في أمر المقطعين : من الجند ، والعرب ، والتركمان ، والأكراد ، ومن عليه تقدمة أو درك بلاد أو غير ذلك .

وإن كان « ناظر خاص » وصّى بالاحتياط لديوانه ، والأخذ في تحصيل أموال جهاته وتتميتها وتمهيرها ، وزيادتها وتوفيرها ؛ والتحرّز فيما يرفع من حسباناتها ، والاهتمام بأمر التّشاريف والخلع ، وما يختص بكل ولاية وغيرها من التّشاريف ،

(١) جارى العامة في هذا الاستعمال .

وما جرت به العادة من الهدايا المحضرة إلى ملوك الأقطار ، والأخذ فى ذلك كله بالخطّ الأوفى للديوان السلطانى ، وما يجرى مجرى ذلك .

وإن كان «مستوفى صحبة» وصّى بإلزام الكتاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها ، وعمل المكلفات وتقدير المساحات ، وتمييز ما بين تسجيل القدن فى كل بلد بحسب ما يصلح لها من الزراعة ، وتمييز قيم بعضها على بعض ، ومستجدّ الجرائد ، وما يقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباس وغير ذلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وصّى بتحصيل ما يحتاج إليه لتفصيل الخاص وتشاريف أرباب السيوف والأقلام : العرب ، والتركنان ، والأكراد ، وغيرهم ؛ وهدايا الملوك وما يجرى مجرى ذلك : من العتّابى والأطلس ، والمشرّش ، والمقنّس والمتمّر ، والطرازات على اختلافها : من الزركش ، والباهى ، وأنواع المستعملات ، وما يحمل من دار الطراز ، وما يُبتاع للخزانة العالية ، وما هو مُرصد لها من الجهات التى يحمل إليها متحصلها : لينفق فى أثمان المبيعات ومصرف المستعملات ، والاحتراز فيما يُنفق من الأثمان وقيمة المُبتاع ، وشهادات الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرجعات ، وأن يحصل كل شئ هو بصدد الحاجة إليه قبل الاحتياج .

وإن كان «قاضيا» وصّى بالتروى فى أحكامه قبل إمضاءها ، وأن يراجع الأمر مرّة بعد أخرى ، واستشارة أهل العلم ، والرّجوع إليهم فيما أشكل عليه ، واستشارة الله تعالى قبل الإقدام على الحكم ، والقضاء بحق الخصم بعد وضوحه ، والتسجيل له به ، والإشهاد على نفسه بذلك ، والتسوية بين الخصوم حتى فى تقسيم النظر إلى الخصمين ، والتحرى فى استيداء الشهادات ، وأن لا يقبل من الشهود الا من عُرف

بِالْعَدَالَةِ : مَنْ رَبَّ قَلَمٍ أَوْ سَيْفٍ ، وَالتَّنْقِيبَ عَمَّا يَصْدُرُ مِنَ الْعُقُودِ ، وَلَا يَعُولُ
مِنْ شُهُودِ الْقِيَمَةِ إِلَّا عَلَى كُلِّ عَارِفٍ بِالْقِيَمِ خَبِيرٍ بِهَا ، وَالنَّظَرَ فِي أَمْرِ الرُّسُلِ وَالْوُكَلَاءِ ،
وَالنَّظَرَ فِي أُمُورِ أَهْلِ مَذْهَبِهِ ، وَالْإِعْتِنَاءَ بِشَأْنِهِمْ .

ويزاد « الشافعي » التوصية بالنظر في دعاوى بيت المال ومحاكماته ، والاحتراز
في قضايها ولا يقبل فيها بينة لو كمل بيت المال فيها مدفع ، ولا يعمل فيها بمسألة
ضعيفة ، والنظر في أمر أموال الأيتام وأمر المتحدثين فيها بالإحسان إليهم ،
وكذلك أموال الصدقات الجارية تحت نظره ، والتيقظ لإجرائها على السداد في صرفها
في وجوه استحقاقها ، وأن لا يعمل في مسألة تفرد بها مذهب إلا بما نص عليه إمامه
أو كان عليه أكثر أصحابه ، ولا يعتمد في ذلك مرجوحا ولا ما تفرد به قائله ،
وأن لا يولى في البرئائبا إلا مَنْ عُرِفَ استحقاقه وأهليته لما يتولاه .

ويزاد « الحنفي » الوصية بالعمل بما اقتضاه مذهب من الأمور التي فيها صلاح
لكثير من الناس : كترويح المعصرات ، وشفعة الحوار ، ونفقة المعتدة البائن ، وعدم
سماع بينة الإعسار إلا بعد مضي المدة المعتبرة في مذهب ، والإحسان إلى مَنْ ضمه
نطاق ولايته من نزع إليه من أهل الشرق وأقاصي الشمال .

ويزاد « المالكي » الوصية بالتحري في بينات الدماء ، والإعذار إلى الخصم ليبدى
مالديه من دافع ، والعمل بما تفرد به مذهب مما فيه فسحة للناس : كالشُّبُوتُ
بالشهادة على الخط ، وولاية الأوصياء ، وإسقاط الرِّيع في الوقف المسترد بعد البيع ،
والإحسان إلى مَنْ لديه من غرباء أهل مذهب ، لاسيما مَنْ أتاه من بلاد المغرب .

ويزاد « الحنبلي » الوصية بالاحتياط في بيع مادّثر من الأوقاف والاستبدال بها ،
ورعاية المصلحة في ذلك لأهل الوقف بما أمكن ، والفسخ على مَنْ غاب عن زوجته

الغِيبة المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقف الإنسان على نفسه ، وأمر الجوائح التي يحصل بها التخفيف عن ضُعاء الناس ، والمُعامل على الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، والوصية بأهل مذهبه الذين هم أقل المذاهب عدَّةً وأنزَرُهم وظائف وأوقافاً ، ومعاملتهم بالإحسان .

وإن كان « قاضى عسكر » وصى بنحو ما يوصى به [القاضى] وأن يتخذ معه كاتباً يكتب للناس ، وأن يقبل من الجُنْد من كان ظاهره العدالة ، فإنَّ الشُّهود المُعَدِّين لتحمل الشهادة يعزَّ وجودهم فى العسكر ، وأن يكون له منزلٌ معروف يُقصد فيه إذا نُصبت إحيام ، وأحسن ما يكون ذلك عن يمين الأعلام السلطانية ؛ وأن يكون مستعداً للأحكام التي يكثر فضلها فى العسكر : كالغنائم ، والشركة ، والقسمة ، والمبيعات ، والرد بالغيب ، وأن يُسرَّع فى فصل القضاء بين الخصوم : لئلا يكون فى ذلك تشاغل عن مواقع الحرب ومقدماته ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وإن كان « محتسباً » وصى بالنظر فى أمر المكاييل والموازين وسائر المقادير ، والتحذير من الغش فى الطعام والشراب ؛ وأن يتعرَّف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سوق من غير علم أهله ؛ وأن يقيم على الأسواق وأرباب المعاييس من ينوب عنه فى النظر فى أمورهم من الأمناء المأموين ؛ وأن لا يمكن أحداً من العطارين من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يُستَراب به بخط متطبب لمريض ؛ وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل : من الطُّرُقِة وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى بنى ساسان من تعاطى ما يتعاطونه من ذلك ، ويقمعهم ويَحْسِم مادَّتهم ، والتصدَّى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمنع من الغش

(١) أى المنجمين الذين يدعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشتري بأزيد مما اشترى به ، والنظر في أمر فقهاء المكاتب والعالمات من النساء ، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذلك إلا من عرفت أمانته ، وأثرت صيانتته ، وأن لا يستنيب إلا أهل العفة والأمانة والنزاهة ممن بعد عن الطمع ، ونأى عن مطاعم السوء .

وإن كان «وكيل بيت المال» وصى بالعمل بالشرع الشريف في جميع أحكامه ، وأن مات وله ورثة تستوعب ميراثه لا يكفهم ثبوتا فيه تعنت ومدافعة عن حقهم ، والتشديد في أمر من كانت قصته منكرا ، والتحرز من شهود الزور في مثل ذلك ، وأن يرجع في كل ما يساع ويؤجر إلى العوائد ، وأن يتحرز في شهادة شهود القيمة ، ولا يرجع فيها إلا لمن يوثق به من يكون عنده معرفة بقيم الأشياء ، وينبه على أن له أن يدعى بحق المسلمين حيث شاء عند من يشاء من أصحاب المذاهب ، وأن الدعوى عليه لا تكون إلا في مجلس الحكم العزيز الشافعي ، على ما جرت به العادة القديمة ، والاحتياط في حق بيت المال ، وليختار للاستئابة في الأعمال من يصلح لذلك .

وإن كان «مدرسا» وصى بأن يقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه ، وأن يستميلهم إليه جهدا استطاعته ، ويربهم كما يربي الوالد ولده ، ويستحسن نتائج أفكارهم التي يأتون بها في درسه ، ويقدم منهم من يجب تقديمه ، ويترى كل واحد منهم منزلته ، ليهزم ذلك إلى الإيجاب على الاشتغال والازدياد في التحصيل . ثم يأتي [في] كل مدرس بما يناسبه من أمور العلم الذي يدرس فيه إن كان يدرس في علم خاص .

وإن كان «خطيبا» وصى برعاية حق رتبة الخطابة والقيام بحق ازدواجها ، وأن يأتي من المواعظ بما يقرع الأسماع بالوعد والوعيد ، ويلين القلوب القاسية ،

وَأَنْ يُعَدَّ لِكُلِّ مَقَامٍ يَقُومُهُ مَقَالًا يَقُولُهُ ، وَأَنْ يُخَفَّفَ الْخُطْبَةُ ، وَيَأْتِيَ بِهَا بَلِيغَةً
مَفْهُومَةً ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْخُطَابَةِ .

وَإِنْ كَانَ « شَيْخُ خَاتَمِهِ » وَصَّى بِالْإِجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالْمَشْيِ عَلَى طَرِيقِ السَّلَفِ :
مِنَ الزُّهْدِ ، وَالْوَرَعِ ، وَالْعَفَافِ ؛ وَأَنْ يَأْخُذَ جَمَاعَتَهُ بِمَا أَخَذَهُ فِي الْأُمُورِ ؛ وَأَنْ يَعْرِفَ
لِلْجَمَاعَةِ مَكَانَهُ حُقُوقَهُمُ الْوَاجِبَةَ لَهُمْ وَيُزِيلَهُمْ مِنْ أَوَّلَى السَّابِقَةِ مِنْهُمْ ،
وَيَأْخُذَ فِي الرِّفْقِ بِهِمْ وَمُدَارَاتِهِمْ ، مَعَ تَرْتِيبٍ مِنْ أَسْتَجَدَّ مِنْهُمْ ، وَإِجْرَائِهِمْ عَلَى طَرَائِقِ
الصُّوفِيَّةِ ، وَتَعْرِيفِهِمُ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَدْرِيجِ الْمُرِيدِينَ عَلَى قَدَرِ مَا تَحْتَمِلُهُ
أَفْهَامُهُمْ ، دُونَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الطَّرِيقِ بِمَا لَا تَحْتَمِلُهُ عُقُولُهُمْ . وَ [اتِّبَاعِ]
سَبِيلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذِينَ مِنْ حَادٍ عَنْهُمَا ضَلَّ ، وَمَنْ نَخَرَجَ عَنْ جَادَّتِهِمَا زَلَّ ،
وَكَفَّهِمْ عَنْ أَرْكَابِ الْبِدْعِ وَالْجُرَى عَلَى مِنْهَا جَهَا ؛ وَمَنْ أَتَى ذَنْبًا خَفِئَهُ بِالتَّوْبَةِ
وَالْأَسْتِغْفَارِ ؛ وَالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ أَخَذَ فِي الشَّطِّحَاتِ ، وَالْخُرُوجِ عَنْ قَانُونِ ظَاهِرِ
الشَّرِيعَةِ ، وَمَنْعَ مَنْ نَحَا هَذَا النُّحُوًّا أَوْ جَرَى عَلَى هَذِهِ الْجَادَّةِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ
يَقْدَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْآفَاقِ ، وَحُسْنِ التَّلَقِّيِّ لَهُ ، وَإِكْرَامِ نُزُلِهِ بَعْدَ أَنْ يَعَجَّلَ لَهُ بِالْإِذْنِ ،
وَالْأَمْرِ بِأَخْذِ عُكَّازَةٍ ، وَفَرَشِ سَجَّادَةٍ ، وَمَا يَنْخَرِطُ فِي سَبِيلِكَ ذَلِكَ .

وَإِنْ كَانَ « رَئِيسُ الْأَطْبَاءِ » وَصَّى بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِ طَائِفَتِهِ ، وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ ،
وَيَأْمُرُ الْمَعَالِجَ أَنْ يَعْرِفَ أَوَّلًا حَقِيقَةَ الْمَرَضِ وَأَسْبَابَهُ وَعَلَامَاتِهِ ، ثُمَّ يَنْظُرَ إِلَى السِّنِّ
وَالْفَصْلِ وَالْبَلَدِ ، وَحِينَئِذٍ يَشْرَعُ فِي تَخْفِيفِ الْحَاصِلِ ، وَقَطْعِ الْوَاصِلِ ، مَعَ حِفْظِ
الْقُوَّةِ ؛ وَأَنْ لَا يَهَاجِمَ الدَّاءَ ، وَلَا يَسْتَعْرِبِ الدَّوَاءَ ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَى الْأَبْدَانِ إِلَّا مَا يَلِئُهُمَا ،
وَلَا يَخْرُجَ عَنْ عَادَةِ الْأَطْبَاءِ وَلَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ الْإِصَابَةُ حَتَّى يَتَبَصَّرَ فِيهِ بِرَأْيِ أَمْثَالِهِ ؛
وَيَتَجَنَّبُ الدَّوَاءَ ، مَا أَمَكَّتْهُ الْمَعَالِجَةُ بِالْغِذَاءِ ، وَالْمَرْكَبُ مَا أَمَكَّتْهُ الْمَعَالِجَةُ بِالْمَفْرُودِ ؛

ويتجنب القياس إلا ما صحَّ بتجريب غيره في مثل من أخذ في علاجه ، وما عرض له ،
وسنّه ، وفصله ، وبلده ، ودرجة الدواء ؛ وأن يحذر التجربة فإنها خطر ، مع الاحتراز
في المقادير والكيفيات ، وفي الاستعمال والأوقات ، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر
عنه ؛ ولا يأمر باستعمال دواء ولا ما يستغرب من غذاء حتى يحقق حقيقته ، ويعرف
جديده من عتيقه ، ليعرف مقدار قوته في الفعل .

وإن كان «رئيس الكهان» وصى بالنظر في حال جماعته أيضا ، ومعرفة
أحوالهم ، وأن لا يُصرف منهم إلا من عُرف بحسن الإدارة والملازمة في العلاج ،
ويأمر كلاً منهم أن لا يُقدم على مداواة عين حتى يعرف حقيقة المرض ، وأن
يلاطفها بما يناسبها من الغذاء ، وأن يتخير من الكحل ما فيه شفاء العين وجلاء
البصر ، وأن يستشير الأطباء الطبائعية فيما أهم ، مما لا يستغنى عن رأى مثليهم فيه ،
من تخفيف المادة بالاستفراغ أو نقص دم أو غير ذلك .

وإن كان «رئيس اليهود» وصى بضم جماعته ، ولمّ شملهم ، والحكم فيهم بقواعد
مِلّته ، والنظر في أمور الأنكحة عندهم ، وما يعتبر عندهم فيها على الإطلاق ، وما يفتقر
إلى الرضا من الجانبين في العقد والطلاق ، والنظر فيمن أوجب حكم دينه عليه
التحريم ، والتوجه في صلاتهم تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبلتهم ، وإقامة حدود
التوراة على ما أنزل الله تعالى من غير تحريف ولا تبديل للكلمة بتأويل ولا غيره ،
وآتباع ما أعطوا عليه العهد مع إلزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة
الذين أقرّوا في دار الإسلام على الصغار والإذعان لأهل الإسلام ، وعدم مضايقتهم
للمسلمين في الطرق ، وتميزهم بشعارهم في الحمام ، كي لا يحصل اللبس بالمسلمين ، وحمل
شعار الذمة على رؤوسهم : وهى العائم الصفّر ؛ يأخذهم بتجديد صبغه في كل حين ،
وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة : من ذكر الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بُسوء، أو إظهار الخمر أو معتقدهم في العزير عليه السلام . وله أن يرتب طبقاتهم على ما تقتضيه مراتبهم عنده، وكذلك له التحدث في كنائس اليهود المستمرة إلى الآن بأيديهم، من حين عقد الذمة، من غير تجديد متخرب، ولا فعل ما لم تُعقد عليه الذمة ويقرهم عليه السلف الأول .

وإن كان «بطرك النصارى المليكانيّة» وصّى بما عليه بناء شرعته من المساحة والأحتمال والصبر على الأذى، وعدم الأكرات به، وأخذ نفسه بهذه الآداب، وأنه يُقدّم المصالحة بين المتحاكين إليه قبل فصلها على البت فإنه قاعدة دينه المسيحي، ولم تُخالف فيه الملة الإسلامية، وأنه ينقّي صدور إخوانه من الغل، ويتخلّق بكل خلق جميل، ولا يستكثر من الدنيا، ويتنزّه عن أموال جماعته والتوسّل إلى أخذها، وأنّ إليه أمر الكنائس والبيع، وعليه أن يتفقدها في كلّ وقت، ويرفع ما فيها من الشبهات، ويحذّر رهبان الديارات من جعلها مَصيدةً للال، وأن يتجنّبوا فيها الخلوة بالنساء، ولا يؤوى إليه أحدا من الغرباء القادمين عليه يكون فيه ريبة، ولا يكتم ما أطلع عليه من ذلك عن المسماع الشريفة السلطانية، ولا يخفى كتاباً يرد عليه من أحد من الملوك، أو يكتب له جواباً، ويتجنّب البحر وما يرد منه من مظانّ الرّيب .

وإن كان «بطرك البعاقبة» قيل في وصيته نحو ما تقدّم في وصيّة بطرك المليكانيين، إلا أنه لا يقال : وأعلم أنّك في المدخل إلى شريعتك طريق الباب، بل يقال : وأعلم أنّك في المدخل إلى شريعتك قسيم الباب، ومساو له في الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقال بدل قوله «وليتجنّب البحر» : «وليتوقّ ما يأتيه سرا من تلقاء الحبشة» .

قلت : وهذه الوصايا مدخل إلى ما يرضى به أصحاب الولايات ممن تقدم ذكره والأمر في الزيادة والنقص في ذلك بحسب المناسبة راجع إلى نظر الكاتب . على أن المقتز الشهابي ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في " التعريف " عدة وصايا ليست مما يكتب الآن ، فأضربنا عن ذكر مقاصدها هنا : لتورد برمتها في الكلام على ما يكتب في متن التقاليد والتواقيع ونحوها ، مع النسخ التي تورد هناك على صورة ما أوردها ، لينسخ على منوالها إن أمر بكتابة شيء منها .

المقصد الثاني

(في بيان مقاصد ما يكتب في الولايات ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في بيان الرسوم في ذلك ، ومقادير قطع الورق لكل صنف منها)

على سبيل الإجمال

وهي على أربعة أنواع :

النوع الأول

(التقاليد)

جمع تقليد . يقال : قلّده أمر كذا إذا وليته إياه . قال الجوهرى : وهو مأخوذ من القلادة في العنق ، يقال قلّدت المرأة المرأة فنقلدت ، قال : ومنه التقليد في الدين أيضا .

ثم التقاليد تشتمل على طرة ومتن ، فأما الطرة فقد أشار إليها في " التعريف " بقوله : وعنوانها « تقليد شريف لفلان بكذا » . وأوضح ذلك في " الشقيف " فقال :

وصورته : ان يكتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى المقر الكريم ، أو إلى الجنب الكريم ، أو إلى الجنب العالى الأميرى الكبيرى ، الكافلى ، الفلانى ، أعز الله تعالى أنصاره ، أو نصرته ، أو ضاعف الله تعالى نعمته ، نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، أو بحلب المحروسة ، أو بطرابلس المحروسة ، أو نحوها ، على أجل العوائد فى ذلك وأكمل القواعد على ما شرح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوب له التقليد هو النائب الكافل ، كتب فى طرة تقليده : تقليد شريف بأن يفوض إلى المقر الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الكفيل ، الفلانى ، فلان الفلانى ، بلقب الإضافة إلى لقب السلطان ، كالناصرى مثلا ، كغالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية ، أعلاها الله تعالى على أجل العوائد فى ذلك وأكمل القواعد ، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بكفالة السلطنة بالشام ، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى المقر الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الكفيل ، فلان الناصرى ، مثلا كغالة السلطنة بالشام المحروس على أتم العوائد فى ذلك وأكمل القواعد ، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بناية السلطنة بحلب ، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى الجنب الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الكافلى ، الفلانى ، فلان الناصرى ، أعز الله تعالى نصرته ، نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، على أجل العوائد فى ذلك وأكمل القواعد ، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بناية طرابلس ، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى الجنب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الكافلى ، الفلانى ، فلان الناصرى : ضاعف الله

تعالى نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة، على أجمل العوائد في ذلك
وأكل القواعد، على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بِنِابة السلطنة بِحَمَاة، أُبدل لفظ طرابلس بِحَمَاة .

وإن كان بِنِابة السلطنة بِصَفَد، أُبدل لفظ طرابلس وَحَمَاة بِصَفَد، والباقي على
ما ذُكر في طرابلس .

وإن كان التقليد بِنِابة السلطنة بِغَزَّة - حيثُ جُعِلَت نِابةً - كتب : تقليدٌ
شريفٌ بأن يفوض إلى الجناب العالي، الأميري، الكبيرى، الكافلى، الفلانى،
فلان الناصرى : أدام الله تعالى نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بِغَزَّة المحروسة، على
أجمل العوائد، وأكل القواعد، على ما شُرح فيه .

فإن كان مُقدم العسكر كما هو الآن، أُبدل لفظ نِابة السلطنة الشريفة بلفظ
« تَقْدِمة العسكر المنصور » والباقي على ما ذُكر .

وإن كان التقليد بِنِابة السلطنة بالكرك، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوض إلى
المجلس العالي، الأميري، الكبيرى، الفلانى، فلان الناصرى : أدام الله تعالى
نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس، على أجمل العوائد، وأكل القواعد،
على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بالوزارة، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوض إلى الجناب العالي
الصاحبي، الفلانى، فلان الناصرى : ضاعف الله تعالى نعمته، الوزارة الشريفة
بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالى، على أجمل العوائد، وأكل القواعد، بالمعلوم
الشاهد به الديوان المعمور، على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بكتابة السرّ، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى الجنب
العالى، القاضوى، الكبيرى، اليمينى، الفلانى، فلان الناصرى : ضاعف الله
تعالى نعمته، صحابةً دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية، أعلاها الله
تعالى، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور،
على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية، كُتب : تقليدٌ شريفٌ
بأن يفوّض إلى الجنب العالى، القاضوى، الكبيرى، الفلانى، فلان : أعزّ الله
تعالى أحكامه، قضاءً قضاة الشافعية بالديار المصرية، على أجمل العوائد، وأكمل
القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قضاة الحنفية، كتب كذلك، إلا أنه يُبدل لفظ الشافعية
بلفظ الحنفية .

وإن كان التقليد لأمر مكة، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس
العالى، الأميرى، الكبيرى، الشريفى، فلان الفلانى : أدام الله تعالى نعمته
إمرة مكة المشرفة، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شرح فيه .

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام،
كتب كذلك إلا أنه يُبدل لفظ مكة المشرفة بلفظ المدينة الشريفة .

وإن كان بإمرة آل فضل، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس
العالى، الأميرى، الكبيرى، الفلانى : أدام الله تعالى نعمته إمرة آل فضل،
على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شرح فيه .

هذه جملة ما عهدت كتابته من التقاليد المكتتبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفة، فإن حدث كتابه ما يستحق أن يكتب له تقليدًا، كالأتابكية ونحوها، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه .

ثم وراء ذلك أمران : أحدهما - أنه قد تقدم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب في العنوان الذى هو الطرة : «تقليد شريف لفلان بكذا» فإن كتب تقليدًا بكفالة السلطنة مثلا، كتب : «تقليد شريف للقر الكريم، العالى، الأميرى، الكبيرى»، الفلانى، بكفالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية، على أجمال العوائد، وأكمل القواعد، على ما شرح فيه .

الثانى - أنه اقتصر فى "التثقيف" على قوله فى آخر الطرة، على أجمال العوائد فى ذلك وأكمل القواعد، وليس الأمر منحصرا فى ذلك، بل لو عكس بأن قيل : تقليد شريف بأن يفوض إلى فلان كذا، أو تقليد شريف لفلان بكذا على أكمل القواعد واجمل العوائد على ما شرح فيه، لكان سائعا .

فإن كان صاحب التقليد على الرتبة : كالنائب الكافل، ونائب الشام، ونائب حلب، والوزير، وكاتب السر، ونحوهم، كتب على أجمال العوائد وأتمها، وأكمل القواعد وأعمها، أو بالعكس : بأن يكتب على أجمال العوائد وأعمها، وأكمل القواعد وأتمها، على ما شرح فيه .

وأما متن التقليد، فقد قال فى "التعريف" : إن التقاليد كلها لا تفتح إلا بالحمد لله وليس إلا، ثم يقال بعدها : أما بعد، ثم يذكر ما سنع من حال الولاية وحال الموئى، وحسن الفكر فيمن يصلح، وأنه لم يراحق من ذلك الموئى ويسمى، ثم يقال ما يفهم أنه

هو المقدم الوصف أو المتقدم إليه بالإشارة؛ ثم يقال: رُسِمَ بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الفلانى (ويدعى له) أن يقلد كذا، أو أن يفوض إليه كذا، والأول أجل؛ ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لا بد منه تارةً جُملياً وتارةً تفصيلياً، وينبّه فيه على تقوى الله تعالى؛ ثم يختم بالدعاء للمولى، ثم يقال: وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخطّ الشريف أعلاه.

قال: ولقضاء الكتاب فى هذا أساليب، وتفنن كثير الأعاجيب، وكل ما لوف غريب، ومن طالع كلامهم فى هذا وجد ما قلناه، وتجلّى له ما أهمناه.

وذكره فى "التقيف" بأوضح معنى وأبين، فقال: ويكتب بعد الصدر بخطبة مناسبة أولها الحمد لله إلى آخرها، ثم أما بعد، ويذكر ما يرى ذكره من حال الولاية والمولى، ويذكر اسمه، وهو أن يقال: ولما كان المقر، أو الجنب، وألقابه ونعوته إلى آخرها، ويدعى له: أعزّ الله أنصاره أو نصرته، أو نحوه، على ما جرت به عادته، ولا يزداد على دعوة واحدة؛ ثم يقال ما يفهم أنه المراد بهذه الأوصاف، أو المعنى بهذه الإشارة أو نحو ذلك؛ ثم يقال: آقتضى حسن رأينا الشريف، ويذكر ما يقتضى تكريمه وتعظيمه؛ ثم يقال: فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الفلانى (ويدعى له) بما يناسب الحال ثلاث دعوات أو أربعاً) أن يفوض إلى المشار إليه كذا؛ ثم يقال: فليقلد ذلك، أو فليتلّق هذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لا بد منه، ويحرص أن ينبّه فيه على العمل بالتقوى؛ ثم يختم بالدعاء للمولى بالإعانة والتأييد ونحو ذلك ثلاث دعوات، وأكثرها أربع، وأقلها اثنتان؛ ثم يقال: بعد الخط الشريف شرفه الله تعالى وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالى؛ ثم التاريخ

والمستند، والحمدلة، والحسبة على العادة . ولم يقل فيه : وسبيل كل واقف عليه ، كما قال في "التعريف" .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّقَالِيدَ عَلَى اخْتِلَافِهَا لَا تَخْرُجُ فِي مَقَادِيرِ قَطْعِ الْوَرَقِ عَنْ مِقْدَارَيْنِ :
الأول — قطع الثلثين بقلم الثلث الثقيل . وفيه يُكْتَبُ لِنُوبِ السُّلْطَانَةِ بِمِصْرَ
والشَّامِ مَطْلَقًا ، وَكَذَلِكَ الْوَزِيرُ ، وَالْمَشِيرُ ، وَكَاتِبُ السَّرِّ ، وَقَاضِي قُضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ
وَالْحَنَفِيَّةِ بِالْأَيَّامِ الْمِصْرِيَّةِ .

الثاني — قَطْعُ النِّصْفِ بِقَلَمِ الثُّلُثِ الْخَفِيفِ . وَفِيهِ يُكْتَبُ لِدَوَى التَّقَالِيدِ مِنْ
أُمَرَاءِ الْعَرَبِ : وَهُمْ أَمِيرُ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ ، وَأَمِيرُ الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمِيرُ آلِ فَضْلِ
مِنْ عَرَبِ الشَّامِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . وَلَا يُكْتَبُ مِنَ التَّقَالِيدِ شَيْءٌ فِيمَا دُونَ
هَذَا الْمِقْدَارِ مِنْ قَطْعِ الْوَرَقِ بِحَالٍ . وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى نُسْخِ التَّقَالِيدِ فِيمَا بَعْدُ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(مما يُكْتَبُ فِي الْوِلَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ الْمُرَاسِمِ)

جَمْعُ مَرَسُومٍ ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِمْ : رَسَمْتُ لَهُ كَذَا فَارْتَسَمَهُ إِذَا آمَتَلَهُ ، أَوْ مِنْ
قَوْلِهِمْ : رَسَمَ عَلَى كَذَا إِذَا كَتَبَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمَا جَمِيعًا .
وَهِيَ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

الضرب الأول

(المراسيم المكبَّرة)

وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التَّعْرِيفِ" لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُسْتَعْمَلَةً
فِي زَمَنِهِ وَإِنَّمَا حَدَّثَتْ بَعْدَهُ .

قال فى "التثقيف" : وهى على نمط التقاليد ليس بينهما اختلافٌ إلا فى أمرين : أحدهما - أنه لا يكتب شىءٌ من المراسيم فى قطع الثلثين بل فى قطع النصف أو الثالث . الثانى - أنه لا يقال فيها « تقليدٌ شريفٌ » بل « مرسومٌ شريفٌ » .

قلت : ويفترقان من أربعة وجوه . أحدها - أنه يقتصر فى طرّة المرسوم على « الأميرى » دون « الكبيرى » بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها « الأميرى الكبيرى » . الثانى - أنه يقال فى المرسوم : « أن يستقر » ولا يقال : « أن يفوض » ولا : « أن يُقلد » . الثالث - أنه لا يقال : « على أجل العوائد وأتم القواعد » بل يقال : « على عادة من تقدمه وقاعدته » . الرابع - أنه لا يقال فى الصّدر : « أما بعد » بل « وبعد » .

قال : وهى تختص بنوّاب القلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراء العربان^(١) أو من بالشام وحلب، وشاذى مراكز البريد وغيرهم .

ثم هى على طبقتين :

الطبقة الأولى - ما يكتب فى قطع النصف بقلم خفيف الثلث . وذلك للنوّاب بالقلاع : من مقدّمى الألوף والطبلخانات : كئائب حصّ، والرحبة، والبيرة، وقلعة المسلمين، وملطية، وطرشوس، وأذنة، وبهسنى، والفتوحات الجاهانية وغيرها من يكتب له المجلس العالى والسامى بالياء أو بغيرياء على ما تقدم بيانه فى المكاتبات إليهم . وكذلك بعض أمراء العربان وهم أمير آل على، وأمير آل مرا، وأمير بنى عقيبّة . قال فى "التثقيف" : وصورة ما يكتب فى الطرّة أن يكتب :

(١) لعله من بالشام الخ . تأمل .

« مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى أو السامى الأميرى ، الفلانى ، فلان (ويدعى له بما يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته على ما شرح فيه » .

فإن كانت النيابة تقدمة ألف : كنيابة الرجبة ونحوها ، كُتب فى طرّة مرسومٍ نائبها : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى الأميرى الفلانى فلان ، أدام الله تعالى نعمته ، فى المكان الفلانى على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كانت النيابة طبليخانه كتب : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان ، أدام الله تعالى تأييده فى النيابة بمكان كذا ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » ، أو كتب : « مرسومٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييده فى النيابة بمكان كذا ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كانت نيابة قلعة دمشق ، كتب : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس العالى ، الأميرى ، فلان ، أدام الله تعالى نعمته فى النيابة بالقاعة المنصورة بدمشق المحروسة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته ، على ما شرح فيه » . وكذلك كلُّ قلعة بحسب ألقاب نائبها التى يكتب بها .

ثم يكتب فى الصدر بعد البسملة خطبة مفتحة بالحمد لله ، ثم يقول : وبعد ، ويأتى بنحو ما تقدّم ذكره فى التقاليد ، ثم يقال : ولما كان المجلس العالى أو السامى إلى آخر ألقابه ، ثم يقال : فلان ، ويدعى له بما جرت به عادته ، ويقال ما يفهم منه أنه المقصود بما تقدّم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ؛ ثم يقال : فلذلك رُسم

بالأمر الشريف إلى آخره أن يستقر المشار إليه في كذا على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته، فليتلق ذلك ونحوه . ثم يوصى بما يناسب وظيفته التي تولّاها، ويختتم بنظير ما تقدم ذكره في ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المسكّبة ما يكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال في "التشيف" : وصورته في الطرة والصدر على ما تقدم في الطبقة الأولى، إلا أن خطبته تفتتح بأما بعد حمد الله، وتختتم بما تقدم ذكره . قال : وقد تكتب لنواب القلاع من أمراء العشرات : مثل نائب بغراس، ونائب الدر بساك، ونائب كركر، ونائب الكحّتا، ونحوها . قال : وكذلك أرباب الوظائف غير النيابات، مثل شادّ الدواوين بالشام وحلب، وشادّ مراكر البريد بهما، ونحو ذلك؛ وبعض أمراء العرب : كأمر بنى مهديّ، ومقدم عرب جرم، ومقدم عرب زبيد على ندرة فيه . فإن كان المرسوم بناية من النيابات المذكورة وغيرها، كتب : «مرسوم كريم بأن يستقر المجلس السامى، الأمير فلان الدين أعزه الله تعالى، في النيابة ببغراس، أو بالدر بساك، أو بكركر، وما أشبه ذلك على عادة من تقدمه وقاعدته» . وإن كان بشدّ بالشام أو بحلب، كتب : «مرسوم كريم أن يستقر المجلس السامى، الأمير، فلان الدين : أعزه الله تعالى في شدّ الدواوين بالمكان الفلانى، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ما شرح فيه» . وإن كان بشدّ مراكر البريد، أبدل لفظ «شدّ الدواوين» بلفظ «شدّ مراكر البريد بالمكان الفلانى» . وإن كان بإمرة بنى مهديّ، كتب : «في إمرة بنى مهديّ، على عادة من تقدمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب جرم، كتب : «في تقدمة عرب جرم، على عادة من تقدمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زبيد، أبدل لفظ جرم بزبيد، وعلى ذلك .

الضرب الثاني

(من المراسيم التي تكتب بالولايات المراسيم المصغرة)

وهي ما يكتب في قطع العادة، وبها يكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظير الأوقاف ونحوه . وهي صنفان :

الصنف الأول — ما يترك فيه أوصال بياض بين الطرة والبسمة، وهي أعلاها، ويكتب بالسامى بغرياء أو مجلس الأمير :

وصورتها أن يكتب في الطرة : « مرسوم شريف أن يستقر المجلس السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان في كذا وكذا بما لذلك من المعلوم الشاهد به ديوان الوقف ، أو نحو ذلك ، على ما شرح فيه » ثم يكتب في الصدر بعد البسمة ماصورته : « رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى » (باللقب الخاص ولقب السلطنة) ويدعى له بما فيه براعة الاستهلال بذكر الوظيفة أو اسم صاحبها أو لقبه ونحو ذلك ، وأقلها ثلاث فقرات فما زاد « أن يستقر المجلس السامى ، الأمير ، الأجل » (إلى آخر ألقابه) ، أو أن يستقر مجلس الأمير ، الأجل (إلى آخر الألقاب) لما له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المدح بما يناسب المقام) ثم يقال : فليباشر ذلك ، أو فليتناق ذلك ، أو فليقابل صدقاتنا الشريفة بكذا ونحو ذلك . ثم يوصى بما يليق به ، ويدعى له بدعوتين فقط ، ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعلاه الله تعالى .

قلت : وهذا الصنف إن روى صاحبه ، كتب في قطع العادة المنصورى ، وإلا ففي قطع العادة الصغير . قال في « التقيف » : ومما ينبه عليه أنه لا يكتب

مرسوم شريف في قطع العادة إلا بمثل نيابة الشَّيْف بصفد وصرخد و(١)عجلون والصَّيْبَة ، فإنه لا يُؤْتَى فيها إلا مقدَّم حَلْقَة او جندي ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا ، فإن كُفَّال الممالك يستبدون بالتولية في ذلك .

الصنف الثانى — ما يكتب في هيئة ورقة الطريق ، ويكون في ثلاثة أوصال ، وصورته أن يكتب في الطرة ماصورته : «مرسوم شريف أن يستقر فلان ، أو أن يرتب فلان في كذا وكذا ، على ما شرح فيه» ويكون ذلك في سطرين ، ولا يكتب في أعلاه الأسم الشريف كما يكتب في غيره : لأن من المعلوم أنه لا يكتب في هذا إلا الأسم الشريف فيستغنى عن ذكره ، ثم يكتب في آخر ذلك الوصل : «رسم بالأمر الشريف» على نحو ما تقدم ، إلا أنه لا يحتاج في الدعاء إلى ما يكون فيه براعة استهلال ، بل يكفي «أعلاه الله وشرفه ، وأنفذه في الآفاق وصرفه» ونحو ذلك «أن يستقر فلان في كذا أو يرتب في كذا ، فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ومقتضاه ، بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ، إن شاء الله تعالى» .

النوع الثالث

(ما يكتب في الولايات السلطانية التفاويض)

جمع تفويض ، وهو مصدر فوض الأمر إلى زيد إذا ردّه إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أردّه إليه . قال في "التعريف" : وبه يكتب لعامة القضاة ، يعنى ممن دون أرباب التقاليد ، وهى من نمط التقاليد ، غير أنها يقال في تعريفها «تفويض شريف لفلان بكذا» . ومقتضى ما ذكره أنه إذا

(١) لعله وصفد بوار العطف . تأمل .

كتب « تفويض شريف بقضاء قضاة الديار المصرية مثلاً » يكتب في الطرة :
« تفويض شريف للجلوس العالي ، القاضوي ، الكبيرى ، بقضاء قضاة المالكية
بالديار المصرية ، على أجمال العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوان
المعمور على ما شرح فيه » ثم يأتى بنحو ما تقدم ترتيبه في التقاليد ، إلا أنه
يكون أخصر .

قلت : ولم أقف على نسخة تفويض غير نسخة واحدة من إنشاء المقر الشهابي
أبن فضل الله لبعض قضاة دمشق . وقد أنشأت أنا تفويضاً بقضاء قضاة المالكية
بالديار المصرية لقاضى القضاة جمال الدين يوسف البساطي ، حين ولى على أثر
ولاية قاضى القضاة جلال الدين البلقيني^(١) قضاء قضاة الشافعية ، آفنتحته بلفظ :
« الحمد لله الذى شفع جلال الإسلام بجماله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرته :
« تفويض شريف للجلوس العالي ، القاضوي ، الجمالى ، يوسف البساطي المالكي ،
أعز الله تعالى أحكامه بقضاء قضاة المالكية بالديار المصرية ، على أجمال العوائد ،
وأكمل القواعد ، على ما شرح فيه » . وقرأته بالمجلس العام بالمدرسة المنصورية .
وسياتى ذكر نسخته فى الكلام على النسخ فى المقصد الثانى من هذا الطرف ،
إن شاء الله تعالى .

(١) بلقينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النوع الرابع (التواقيع ، جمع توقيع)

قد تقدّم في مقدّمة الكتاب عن ابن حجب الثّمان في ذخيرة الكُتاب : أنّ التوقيع معناه في اللغة التأثير الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقّعةُ الجنبَةِ إذا أثّر فيها الرّحل تأثيراً خفيفاً ، وأنه يحتمل غير ذلك . وفي اصطلاح الأقدمين من الكُتاب أنه اسم لما يُكتب في حواشى القصص نخطّ الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدّم ، وخط كاتب السّر الآن ؛ ثم غلب حتّى صار علماً على نوع خاصّ مما يُكتب في الولايات وغيرها . قال في " التعريف " : وهى على أنموذج التفاوض . قال : وقد يقال : أن يرثب ، وأن يقَدّم ، ثم قال : وعنوانها « توقيعُ شريف لفلان بكذا » ولا يقال فيها على اختلافها : « وسبيل كل واقف عليه » كما في التقاليد ، بل يقال : « فليعتمد ما رسم به فيه بعد الخطّ الشريف أعلاه » . وقد ذكر في " التعريف " أنها تكون لعامة أرباب الوظائف جليلها وحقييرها ، وكبيرها وصغيرها ، حتّى الطبائخانات اللاحقين بشأو الكبار فمن دونهم . وقال في " التنقيف " : إنها مخصّصة بالمتعممين من أرباب الوظائف الدينيّة والديوانية ، ولا يُكتب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر البيارستان ، ونظر الجامع الجديد ، ونظر الحرمين الشريفين ، يعنى حرم القدس وحرم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بين كلاميهما أنه في زمن صاحب " التعريف " كانت التواقيع تُكتب بالوظائف لأرباب السيوف من الثّيابات وغيرها قبل أن تُحدث المراسيم المكبرة المقدّمة الذكر ؛ ثم خُصّت التواقيع بعد ذلك بالمتعممين دون أرباب

(١) الجنب والجانب والجنبه محرّكة شق الانسان . قاموس .

السيوف . ومضى الأمر على ذلك في زمن صاحب "التثقيف" بخرى على حكمه ولم يبق ممن يكتب له توقيع من أرباب السيوف سوى نظار الجهات الثلاث المتقدمة الذكر : من البيارستان المنصوري ، والجامع الجديد الناصري بمصر ، ونظر الحرمين : حرم القدس الشريف ، وحرم الخليل عليه السلام . والحكم باق على ذلك إلى الآن .

ثم التوقيع على اختلافها لا تخرج عن أربع طبقات :

الطبقة الأولى

(ما يفتح بخطبة مفتحة بالحمد لله ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع النصف بقلم خفيف الثلث . قال في "التثقيف" : وصورته يعني ما يكتب به لأرباب الأقلام أن يكتب في الطرة : « توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي ، القاضوي ، الكبير ، الفلاني » (ويدعى له دعوة واحدة) بما جرت به عادته ، على أجل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخره على ما شرح فيه .

قال : فإن كان حاكماً ، كتب له بعد الكبير ، الحاكمي . وإن كان كاتب السر ، كتب له بعد الكبير ، اليميني ، لا غير . ثم يكتب في الصدر خطبة مفتحة بالحمد لله ثم يقال : أما بعد ، والتتمة على نظير ما ذكر في التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولى لها مما يناسب الحال . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان يكتب بذلك للقضاة الأربعة بالديار المصرية ، والقضاة الأربعة بالشام ، وكاتب السر بمصر

(١) لم يذكر المفوض به إليه العلم به من نظائره والأصل أن يفوض إلى المجلس نظر الجامع الجديد الناصري مثلاً بما جرت به الخفتنه .

والشام ، وناظر الجيش بهما ، وناظر الدواوين المعمورة والصُّحبة الشريفة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذلك لقاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية على ما كان الأمر عليه أولاً ، كتب فى الطرة « توقيع شريف بأن يستقر المجلس العالى ، القاضى ، الكبيرى ، الفلانى ، فلان : أعز الله تعالى أحكامه ، فى قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية ، على أجمل العوائد وأتمها ، وأكمل القواعد وأعمها ، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور ، على ما شرح فيه » .

وإن كتب به لقاضى القضاة الحنفية ، على ما كان الأمر عليه أولاً أيضاً ، كتب له نظير قاضى القضاة الشافعية إلا أنه يبدل لفظ الشافعية بـ «الحنفية» .

وإن كتب لقاضى القضاة المالكية ، على ما الأمر مستقر عليه الآن ، كتب له كذلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ «المالكية» .

وإن كتب لقاضى القضاة الحنابلة فكذلك ، ويقال فيه «الحنابلة» .

وإن كتب به لأحد من القضاة الأربعة بالشام ، فكذلك ، إلا أنه يقال قضاء قضاة الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة بالشام المحروس .

وإن كتب به لكاتب السر على ما كان الأمر عليه أولاً ، كتب : « توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالى ، القاضى ، الكبيرى ، اليمينى فلان ، ضاعف الله تعالى نعمته ، صحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالى ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور ، على ما شرح فيه » .

وإن كتب به لكاتب السر بالشام، أبدل لفظ الممالك الإسلامية: «الشام المحروس» .

وإن كتب به لناظر الجيش بالديار المصرية، كتب: «توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي، القاضى، الكبيرى، الفلانى»: ضاعف الله تعالى نعمته، نظر الجيوش المنصورة بالممالك الإسلامية، أعلاها الله تعالى على ما شرح فيه» .

وإن كتب به لناظر الجيش بالشام، أبدل لفظ الممالك الإسلامية: «الشام المحروس» .

وإن كتب به لناظر الدولة، كتب: «توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي، القاضى، الكبيرى، الفلانى، فلان، ضاعف الله تعالى نعمته، نظر الدواوين المعمورة والصحة الشريفة، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح فيه» .

وإن كتب به لناظر البيمارستان لصاحب سيف^(١)، كتب: «توقيع شريف أن يفوض إلى المقر الكريم، أو الجنب الكريم، أو العالي (على قدر رتبته) الأميرى، الكبيرى، الفلانى، فلان الناصرى مثلاً: أعز الله أنصاره، أو نصرته، أو ضاعف الله تعالى نعمته (بحسب ما يليق به) نظر البيمارستان المعمور المنصورى، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح فيه» . وكذلك نظر الجامع الحديد ونظر الحرمين الشريفين كل بما يناسب الألقاب . وعلى ذلك .

(١) لعله ودان صاحب سيف .

المرتبة الثانية من التواقيع — ما يكتب فى قَطْعِ الثلث بقلم التوقيعات ، وهو لمن مرتبته السامى بالياء . قال فى ” التثقيف ” : وصورته فى الطَّرة والصدر على ما تقدم شرحه لكن بأخصر مما تقدم . قال : وبذلك يكتب لتقيب الأشراف ولقضاة القضاة بحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرک ، وكذلك لقضاة العسكر بالممالك المذكورة والمفتين بدار العدل بها ، ووكلاء بيت المال بها ، والمحسنيين ، ونظار الجيش بها ، وكتاب الدست بمصر والشام ، وناظر البيوت بالديار المصرية . وكذلك ناظر خزانة السلاح ، ومستوفى الصَّحبة ، وناظر بيت المال ، وناظر الخزانة الكبرى وخزانة الخصاص ، وناظر الأعباس ، ومشايخ الخوانق الجكار : كسعيد السعداء ، وبيبرس بالقاهرة ، والشَّميمصاتيَّة بدمشق . وكذلك مقدمة التُّركمان بالشام ، وتقديم الأكراد به ، ومشیخة العائد .

فإن كُتب بذلك لتقيب الأشراف ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الأميرى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى علوه ، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شرح فيه » .

وإن كتب لقاضى قضاة الشافعية بحلب ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، فلان : أيد الله تعالى أحكامه ، فى قضاء قضاة الشافعية بحلب المحروسة ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته على ما شرح فيه » .

وإن كتب للحنفى بها كُتب كذلك ، وأبدل لفظ الشافعية بـ « الحنفية » وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحد قضاة القضاة بغيرها : كطرابلس ، وحماة ، وصفد ، والكرک ، أبدل لفظ حلب بلفظ تلك المدينة ، والباقي على حكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قضاة العسكر بالممالك المذكورة ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي ، القضاة ، فلان الشافعي ، مثلاً أو نحو ذلك : أيد الله تعالى أحكامه ، في قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلاني ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بإفتاء دار العدل بشيء من هذه الممالك ، أبدل لفظ « قضاء العسكر » بلفظ « إفتاء دار العدل » والباقي على حكمه .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي ، القضاة ، الفلاني ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، في وكالة بيت المال المعمور بالمكان الفلاني ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من المحتسبين بهذه الممالك ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي ، القضاة ، الفلاني ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، في نظر الحسبة الشريفة بالمكان الفلاني على عادة من تقدمه وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي ، القضاة ، الفلاني ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، في وكالة بيت المال المعمور بالمكان الفلاني ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من نظار الجيش بها ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامي ، القضاة ، الفلاني ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، في نظر الجيوش المنصورة بالملكة الفلانية ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من كُتَّاب الدَّسْت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريف بأن يستقرّ المجلس السامى، القضاءى، الفلانى، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه، فى كتابة الدَّسْت الشريف بالأبواب الشريفة». ثم إن كان عن وفاة عيَّنه أو بنزول عيَّنه .

وإن كان بالشام، أُبدل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذلك فى نظر البيوت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريف أن يستقرّ المجلس السامى، القضاءى، الفلانى : أدام الله رفعتَه، فى نظر البيوت المعمورة» .

وإن كُتِب لأحدٍ بنظر خزائن السَّلاح بالديار المصرية، كتب «توقيع شريف بأن يستقرّ المجلس السامى، القضاءى، الفلانى : أدام الله رفعتَه، فى خزائن السَّلاح المنصورة، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحبة، كتب «توقيع شريف أن يستقرّ المجلس السامى، القضاءى، الفلانى : أدام الله رفعتَه، فى آستيفاء الصُّحبة الشريفة، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر بيت المال، كتب «توقيع شريف بأن يستقرّ المجلس السامى، القضاءى، الفلانى : أدام الله رفعتَه، فى نظر بيت المال المعمور، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخزانة الكُبرى، كتب «توقيع شريف أن يستقرّ المجلس السامى، القضاءى، الفلانى : أدام الله رفعتَه، فى نظر الخزانة العالية الكُبرى، على عادة من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاص ، أبدل لفظ الخزانة العالية الكبرى بلفظ خزانة الخاص الشريف ، والباقي على ما تقدم .

وإن كتب بنظر الأحباس ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي » ، القضائي ، الفلاني ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، في نظر الأحباس المبرورة ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته .

وإن كتب بمشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي ، الشيخى ، الفلاني : أعاد الله تعالى من بركاته ، في مشيخة الخانقاه الصلاحية ، على عادة من تقدمه وقاعدته .

وإن كتب بمشيخة خانقاه بيرس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصلاحية » بلفظ « الخانقاه الركنية بيرس » والباقي على ما تقدم .

وإن كتب بمشيخة الشميمصاتية بدمشق ، أبدل ذلك بلفظ « الخانقاه الشميمصاتية بالشام المحروس » .

وإن كتب بتقدمة التركمان بالشام ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي ، الفلاني : أعزّه الله تعالى ، في مقدمة التركمان بالشام المحروس ، على عادة من تقدمه وقاعدته .

وإن كتب بتقدمة الأكراد ، أبدل لفظ « التركمان » بلفظ « الأكراد » .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامي الفلاني : أعزّه الله تعالى ، في مشيخة العائد ، على عادة من تقدمه وقاعدته . وعلى ذلك .

الطبقة الثانية

(من التواقيع ما يُفْتَح بلفظ «أما بعد حمد الله» وهو لمن رُتِبته

السامى بغيرياء، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يُكْتَب فى قِطْعِ الثُلث، وهو الأصل فيما يُكْتَب فى الثُلث ثم تُرَقَّى عنه إلى رُتْبَةِ الْإِفْتِحاح بالحمد. ألا ترى أن المُنَاشِيرَ الّتى تُكْتَب فى قِطْعِ الثُلث بقلم التوقيعات تَفْتَح كُلُّها بلفظ «أما بعد» على ما سيأتى بيانه فى المقالة السادسة، فى الكلام على المُنَاشِير، إن شاء الله تعالى.

وصورته أن يكتب فى الطَّزَّة «توقيع شريف بأن يستقرّ المجلس السامى، القضاى، فلان الدين أو الشيخ فلان الدين فى كذا، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته، على ما شرح فيه» ثم يكتب فى الصدر «أما بعد حمد الله» ويصلّى على النّبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم يقول: «فإن أولى الأمور بكذا من هو بصفة كذا» أو «إن أولى الناس بالتقديم من هو متّصف بكذا» ونحو ذلك، ثم يقال: «ولما كان المجلس» ويؤتى بنحو ما تقدّم فى المفتّح بالحمد لله.

قلت: وقد قلّ استعمال هذا الضرب بديوان الإنشاء الشريف وإن كان هو الأصل فيما يكتب فى هذا القطع، حتى لا يكاد يكتب به إلا فى النادر، تغالبا فى رفعة المكتوب لهم، مع المسامحة لهم فى مثل ذلك.

المرتبة الثانية — ما يُكْتَب فى قِطْعِ العادة المنصورى.

والأمر فيه على ما تقدّم فيما يكتب من هذه الطبقة فى قطع الثُلث، قال فى «التثقيف»: وهو قليل جدًا لا يكون إلا فى تدريس كبير، أو نظير وقف

كبير، أو مشيخة الحرم الشريف بالقدس الشريف، إن لم يكن في قطع الثلث؛
أو لرجل كبير قديم المهجرة في الخدمة الشريفة، إلا أن الوظيفة صغيرة لا تقتضى أن
تكون في قطع الثلث .

الطبقة الثالثة

(من التواقيع ما يفتتح بلفظ «رسم بالأمر الشريف» وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع العادة المنصوري بقلم الرقاع، وهو لمن
رتبته السامى بغيرياء ممن لم تبلغ رتبته قطع الثلث . قال في «التثقيف»: وصورته
أن يكتب في الطرة «توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى القاضى فلان الدين؛
أعزه الله تعالى في كذا، أو أن يُرتب، أو أن يُقدم» ويذكر ما تضمنه الشاهد
من قصة أو قائمة من ديوان الوزارة أو الخاص أو غير ذلك «على ما شرح فيه» . قال:
ثم يكتب في الصدر بعد البسملة «رسم بالأمر الشريف العالى، المولى،
السلطانى، الملكى، الفلانى، الفلانى، باللقب الخاص، ولقب السلطنة»:
مثل الناصرى، الزينى، ونحو ذلك (ويدعى للسلطان بأدعية تناسب الوظيفة
والمولى لها، وأقلها ثلاث فقرات فما زاد) «أن يستقر المجلس السامى، القاضى،
فلان الدين فلان، أو مجلس القاضى فلان الدين فلان: أعزه الله تعالى في كذا،
لما له من صفات هي كذا وكذا (ويأتى من صفات المدح بما يناسب المقام)
ثم يقال: فليباشر ذلك، أو فليتنق هذا الإحسان، أو فليقابل صدقاتنا الشريفة»
ونحو ذلك؛ ثم يوصى بما يليق بتلك الرتبة، ويدعى له بسجعتين فقط . ثم يقال:
«بعد الخط الشريف أعلاه» . ثم قال: وبذلك يكتب لكتاب الدرج، ومستوفى

الدولة ، وناظر الأهراء ، وناظر المطابخ ، ومشايخ الخوانق الصغار ، والتدريس الصغار ، وأنظار الأوقاف الصغار ، ونحو ذلك مما لا يأخذه حصر .

وحيث إن كُتب بذلك لكاتب درج ، كتب فى الطرة « توقيع شريف أن يستقر مجلس القاضى فلان الدين فلان : أعزّه الله تعالى فى كتابة الدرج الشريف » .

وإن كتب به لمستوف من مستوفى الدولة ، كتب « أن يستقر المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله نعمته ، فى آستيفاء الدولة الشريفة على عادة من تقدّمه » .

وإن كتب لناظر الأهراء ، كتب « أن يستقر المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله رفعتّه ، فى نظر الأهراء السعيدة » .

وإن كتب بنظر مطابخ السكر ، كتب « أن يستقر المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله تعالى رفعتّه ، فى نظر المطابخ السعيدة » .

وإن كتب بمشيخة خانقاه صغيرة ، كتب « أن يستقر المجلس السامى ، الشيخى ، فلان الدين فلان ، أو مجلس الشيخ فلان الدين فلان : نفع الله تعالى ببركته ، فى مشيخة الخانقاه الفلانية ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بتدريس صغير ، كتب « أن يستقر فى تدريس المدرسة الفلانية ، على عادة من تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بنظر وقف ، كتب « أن يستقر فى نظر الوقف الفلانى » ونحو ذلك .

ثم إن كان شيء من ذلك معلوم يشهد به الديوان السلطاني ككتابة الدرج وأستيفاء الدولة ، كُتِبَ بعد قوله وقاعدته : « بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور » .

وإن كان الشاهد بالمعلوم كتاب وقف ، كتب « بما لذلك من المعلوم الشاهد به كتاب الوقف المبرور » . ويقول في آخر طرّة كل ولاية من التقاليد ، والتفاويض ، والمراسيم ، والتواقيع على اختلافها : « على ما سُرح فيه » .

الطبقة الرابعة

(التواقيع الصغار ، وهي لأصغر ما يكون من الولايات :

من نظروقف صغير ونحو ذلك ، وتكون في ثلاثة أوصال ونحوها)

وهي على ضربين

الضرب الأول — ما يكتب على مثال أوراق الطريق .

وصورتها أن يكتب في أعلى الدرج : « توقيع شريف بأن يستقر فلان في كذا ، على ما سُرح فيه » . ويكون ذلك في سطرين ، ثم يكتب في آخر ذلك الوصل : « رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني » إلى آخر ما تقدم في الطبقة الثالثة . ويقال في الدعاء : « أعلاه الله وشرفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذلك . ثم يقال : « أن يستقر فلان في كذا » ويشرح ما تضمنه الجواب في هامش القصة . ثم يقال : « فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ، ويعمل بحسبه ومقتضاه ، من غير عدول عنه ولا خروج عن معناه ، بعد الخط الشريف أعلاه » .

الضرب الثانى — ما يُكتب على ظهور القِصَص .

وكيفيته أن تُلصَق القِصَّة التى شَمِلها جوابُ كاتب السرِّ أو غيره على وِصْلين من ورق العادة الصغير . قال فى "التثقيف" : وصورتها أن يُكتب فى ظاهر القِصَّة بغير بَسْمَلَةٍ قبل الوصل الذى وصله بنحو أربعة أصابع ماصورته : « رُسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى » على نحو ما تقدّم . ويُدعى له : « أعلاه الله وشرفه » ، وأنفذه وصرفه « على ما تقدّم فى الضرب الأول . ثم يقال : « أن يُتأمل ما أنهاء رافعها باطنا ، وليتقدّم بكذا وكذا » ويشرح ما تضمّنه الجواب فى هامش القِصَّة . ثم يقال : « فليعتد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ، ويعمل بحسبه ومقتضاه ، بعد الخطّ الشريف أعلاه » . قال : وإن كان رافع القِصَّة ممن هو متميّز بعض التمييز قيل : « مترجمها » بدل « رافعها » . فإن زيد فى قدره ، قيل : « ما ذكره مجلس القاضى أو المجلس السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبة ، وتذكر بعض ألقابه . ثم يقال : « أدام الله علوه » أو « أعزه الله ، فليتقدّم » ويكمل إلى آخره .

وأعلم أن المقرّ الشهابى ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" آفتتاحات أخرى للتواقيع بين رتبة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رسم بالأمر الشريف» فقال : بعد الافتتاح بأما بعد حمد الله : وقد تستفتح بقول : «أما بعد فإن أولى ما كان كذا» أو ما هذا معناه ، وقد تستفتح بقول : «من حسنت طرائقه ، وحمدت خلائقه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رتبة بعد رتبة .

قلت : وهذه الافتتاحات كانت مستعملة فى الدولة العباسية ببغداد ، وفى الدولة الفاطمية بالديار المصرية والبلاد الشامية ، ثم فى الدولة التركية إلى زمن المقرّ الشهابى

المشار إليه في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون؛ ثم رُفِضَتْ بعد ذلك، وتُركَ استعمالُها بالديار المصرية البتَّةَ، فلم يكن أحدٌ من كُتَّاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئاً منها .

المُقَصِّد الثالث

(في بيان كيفية وضع ما يكتب في هذه الولايات في الورق ،
ويتعلَّق به عشرة أمور)

الأمر الأول — الطُّرَّة، وهي في اصطلاحهم عبارة عن طَرَف الدَّرَج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يكتب في رأس الدَّرَج مجازاً، تسميةً للشيء باسم محله .

قلت : وليس صحيحاً من حيث اللغة، فإنه في الأصل مأخوذ من طُرَّة الثوب . وقد ذكر الجوهري وغيره أن طُرَّة الثوب هي طَرَفه الذي لا هُذْب فيه، والذي لا هُذْب فيه من الثوب هو حاشيته، بخلاف أعلاه وأسفله . نعم يجوز أن تكون مأخوذة من الطَّر بمعنى القطع ، لأن الطُّرَّة مقتطعة عن كتابة المتن ، يفصل بينهما بياض ، ومنه سُمِّي الشَّعْر المرسل على الصُّدغ طُرَّة . وقد جرت العادة في كل ما يكتب له طُرَّة أن يكتب في أعلى الدَّرَج في الوَسَط بقلم الرِّقاع بكل حال ماصورته « الأسم الشريف » ثم تكتب الطُّرَّة تلو ذلك من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ، دون هامش عن يمين ولا شمال : بحيث تكون أطراف المنتصابات من أول السطر الأول ملاصقة لأسفل ما كتب في أعلى الدَّرَج مما تقدَّم ذكره . ويأتي بالطُّرَّة المناسبة : من تقليد ، أو مرسوم ، أو تفويض ، أو توقيع ، بالقلم المناسب لمقدار قطع ذلك الورق على ما تقدَّم بيانه ، ويأتي على ما يكتب في الطُّرَّة على ما تقتضيه

الحال ، على ما سبق ذكره إلى أن ينتهى إلى آخره . فإن آتتهى فى أثناء سطر ، ترك باقية بياضا ، وكتب فى آخره «على ماشرح فيه» بحيث يوافى آخر ذلك آخر السطر . وإن آتتهى ما يكتب فى الطرة فى آخر السطر ، كتب تحت ذلك السطر على حيال آخره «على ماشرح فيه» كما تقدم ، لا يختلف الحال فى ذلك فى مكتوب ولاية ، إلا فيما يكتب على ظهور القصص : فإن العادة جرت فيه أن لا يكون له طرة ، ولا يكتب فى أعلاه الأسم الشريف : لأنه قد علم أنه لا يكتب فيه إلا الأسم الشريف ، فلم يحتج إلى تنبيه على ذلك .

الأمر الثانى — البسملة الشريفة . ومن شأنها أن تكتب فى أول كل ولاية لها شأن ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » يعنى ناقص البركة . ومحللها من كتب الولايات فى أول الوصل الرابع بعد أوصال البياض . أما مالا بال له من كتب الولايات : كالتواقيع التى على ظهور القصص وما هو منها على صورة أوراق الطريق ، فقد جرى الاصطلاح على أنه لا يكتب فى أولها بسملة أصلا ، بل تفتح : «رسم بالأمر الشريف » .

قلت : وقد كان القاضى علاء الدين على الكركى حين ولى كتابة السر الشريف بالديار المصرية فى أول سلطنة الظاهر برقوق الثانية أمر أن تكتب فى أول هذه التواقيع بسملة لطيفة المقدار ، طلباً للتبرك ، ثم ترك ذلك بعد موته وانتقال الوظيفة إلى غيره . ولا يخفى أن ما عليه الاصطلاح هو الوجه : فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد قيد ما يبدأ بالبسملة بما يكون له بال من الأمور ، ومقتضاه أن مالا بال له لا يبدأ فيه بسملة . على أنه قد كان أمر أن تجعل البسملة قبل قوله «رسم بالأمر

الشریف» ومقتضى ذلك أن تقع العلامة فوق البسملة، وفيه مالا يخفى. بخلاف غيره من الولايات الكبار فإن العلامة تكون فيها تحت السطر الثانى من البسملة، على ما سياتى بيانه.

الأمر الثالث — الافتتاح الذى يلى البسملة. وقد علمت مما تقدم أن الذى استقر عليه افتتاح كتب الولايات على اختلافها من أعلى وأدنى لا يخرج عن ثلاثة أصناف :

أحدها — الافتتاح بالحمد لله، وهو أعلاها. ثم تختلف رتبته بعد ذلك باختلاف ما يكتب فيه من مقادير قطع الورق : إذ هو تارة تفتتح به التقاليد، وتارة تفتتح به المراسيم المكبرة، وتارة تفتتح به التفاويض، وتارة تفتتح به بأر التواقيع.

الثانى — الافتتاح بأما بعد حمد الله. وهو المرتبة الثانية من المراسيم المكبرة، والتواقيع الكبار. وتكون فى قطع الثلث تارة، وفى قطع العادة المنصورية أخرى.

الثالث — الافتتاح برسم بالأمر الشريف. وهو المرتبة الثالثة من المراسيم والتواقيع، وهى أدنى رتبها. وتكون فى قطع العادة الصغير، وربما كتبت بها فى قطع العادة المنصورية.

الأمر الرابع — البعدية فيما يفتتح فيه بالحمد لله، وهو على ضربين.

الأول — أن يقال بعد التحميد والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : أما بعد، وهو الأعلى. وتكون فى التقاليد خاصة.

الثانى — وبعد، وهى دون أما بعد. وتكون فى التفاويض وكبار المراسيم والتواقيع. وقد مر القول على ذلك مستوفى فى الكلام على الفواتح فى المقالة الثالثة.

الأمر الخامس — وصفُ المتولّى بما يُناسب مقامه ومقام الولاية من المدح والتقريض . وقد مرّ القولُ على ذلك فى المقصد الأوّل من هذا الطّرف، فى الكلام على مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصّة بصاحب الولاية . قد تقدّم أنه يذكر فى الطّرة بعض الألقاب التابعة للقب الأصليّ : من المقرّ والجناب وغيرهما، مع التصريح باسم المتولّى والدعاء له بما يُناسبه، على ما تقدّم بيّنه هناك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُستوعب جميع ألقابه ويعاد ذكر الأسم والدعاء المذكور فى الطّرة . وقد تقدّم ذكر الألقاب مستوفى فى المقصد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام على مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصيّة صاحب الولاية بما يُناسب ولايته . وقد تقدّم التنبيه على ذلك فى الكلام على مقدّمات الولايات أيضا .

الأمر الثامن — الدعاء لصاحب الولاية بما يُناسبه إذا كان مستحقاً لذلك . وقد ذكر فى " التعريف " أن من استصغر من المولّين لا يدعى له فى أوّل ولاية ولا آخرها، وربما قيل بدل الدعاء أو بعده : « والخير يكون » .

الأمر التاسع — الخواتم : من كتابة « إن شاء الله تعالى » والتاريخ، والمستند، والحمدلة، والتصلية، على نحو ما تقدّم فى المكاتبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخر مكتوب كلّ ولاية : « إن شاء الله تعالى » فى سطرٍ منفرد .

وأما التاريخ، فإنه يكتب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتبات، فيكتب « كُتب فى يوم كذا من شهر كذا » فى سطر، ويكتب « سنة كذا وكذا » فى سطر تحته .

وأما المستند، فإنه يكتب تحت التاريخ، كما تقدم في المكاتبات . فإن كان بتلقى كاتب السر، كُتب في سطرٍ واحد « حسب المرسوم الشريف » . وإن كان برسالة الدّوادر، كتب « حسب المرسوم الشريف » في سطر، ثم كتب في سطر تحته « برسالة الجنب العالى الأميرى، الكبيرى، الفلانى الدّوادر، الناصرى » مثلاً . وإن كان بخط السلطان، كتب « حسب الخط الشريف » . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب « بالإشارة العالیه الأميریه الكبيریه الفلانية » في سطر، وكتب « كافل الممالك الشریفه الإسلامیه أعلاها الله تعالى » في سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب « بالإشارة العالیه الصحیبه الوزیریة الفلانية » في سطر، ثم كتب في السطر الثانى « مدبر الممالك الشریفه الإسلامیه أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب سيف، أسقط منها « الصحیبه » . اللهم إلا أن يكون مرسومًا صغيرًا أو توقيعًا صغيرًا مما كُتب في هيئة ورقة الطريق أو على ظهر القصصه، فإنه إن كان بتلقى كاتب السر، كُتب المستند على حاشية التوقيع على سمت ما بين السطر الأول والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتب هناك « بالإشارة العالیه » سطرين، على نحو ما تقدم فيما يُكتب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذلك . وإن كان برسالة الدّوادر، كتب على الحاشية هناك « حسب المرسوم الشريف »، ثم كُتب تحت التاريخ « برسالة الجنب العالى » إلى آخر المستند .

وأما الحمدلة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، ففي سطر تحت المستند، كما فى المكاتبات، يكتب فيها « الحمد لله وحده » ثم يخلى بياضاً، ثم يكتب « وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه » .

وأما الحسبة ، ففي سطر تحت ذلك يكتب فيه « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » على ما تقدم في المكاتبات .

الأمر العاشر — البياض الواقع في كُتُب الولايات ، وله ستة مواضع :
الأول — فيما بين الطَّرة والبسملة ، وهى ثلاثة أوصال بالوصل الذى فيه الطَّرة ، لا يتجاوز ذلك في مقدار قطع كبير ولا صغير . إلا أنه ربما أقتصر على وصلين فيما استصغر شأنه من الرتبة الثالثة من التواقع .

الثانى — الحاشية فيما على يمين البسملة وما بعدها . وأهل زماننا يعبرون عن ذلك بالهامش ، ولم أجد له أصلاً في اللغة . وقد تقدم القول عليها في المقالة الثالثة ، في الكلام على متعلقات قطع الورق وما ينخرط في سلكه . أما آخر الأسطر فإنه لا بياض فيه ؛ على أن ملوك الروم يجعلون لكتبهم حاشية من أول الأسطر وحاشية من آخرها ، على ما تقدم القول عليها في الكتب الواردة عن صاحب القسطنطينية .

الثالث — بيت العلامة ؛ وهو فيما بين السطر الأول : وهو الذى يلي البسملة ، وبين السطر الثانى : وهو الذى يكون في آخر وصل البسملة . وقد تقدم في الكلام على مقادير الورق في المقالة الثالثة أن مقداره في الزمن القديم كان قدر شبر ، وقد شاهدناه دون ذلك بقليل فيما كُتِب به في الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" على ما يشهد به الموجود من تواقعهم ؛ ثم تناقص قليلاً . فلمَّا غلَا الورق وقُصرت الأوصال نقص مقداره حتى صار نحو شبر^(١) ، وهو على ذلك إلى الآن . ويزيد ذلك وينقص باعتبار قطع الورق فإنه في القطع الكبير يكون الوصل أطول منه في القطع الصغير .

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لا يخفى .

الرابع — ما بين الأسطر في متن الولاية . وهو على مقدار النصف من بيت العلامة في القطع الكبير والقطع الصغير ، لا يكاد ذلك يختلف إلا في التواقيع والمراسيم التي هي على هيئة أوراق الطريق ، والتي على ظهور القصص فإن ما بين السطرين منها يكون متضايقا حتى يكون بقدر ثلاثة أصابع مطبوعة .

الخامس — ما بين أسطر اللواحق فيما بعد «إن شاء الله تعالى» فإنه يكون ما بين كل سطرين من ذلك قدر نصف ما بين السطرين في متن الولاية ، إلا في المستند إذا كان سطرين ، مثل أن يكون برسالة الدوادار ونحوها ، فإن السطرين يكونان متلاصقين .

السادس — ما بعد اللواحق في آخر الكتاب ، وهو قدر يسير يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثة أصابع مطبوقات وما قارب ذلك .

المهية الثاني

(في ذكر نسخ مما يكتب في متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة والتفاويض والتواقيع)

قلت : وقد كنت هممت أن أجعل أبتداآت التقاليد ، والتفاويض ، والمراسيم ، والتواقيع : من الافتتاح «الحمد لله» أو «أما بعد حمد الله» أو «رسم بالأمر الشريف» في فصل مستقل ، ومقاصدها المتعلقة بالوظيفة ... (١) ... الكاتب الذي لا يحسن الانشاء ما أحب من الأبتداآت المناسبة للاسم أو اللقب ونحوهما ثم بين القصص المتعلقة بالوصف . ثم أضربت عن ذلك وأتيت بالنسخ على صورتها لأمر : منها — أن في تضييع النسخة إفسادا لصورتها وضياح فضيلة المنشئين

(١) بياض بالأصل في غير نسخة ولعله «في فصل على حدة ليخار الكاتب الذي لا يحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكركم . ومنها - أن يعرف أن الصورة التى تُورَد مما كُتِب به فى الزمن السابق ، وأنها مصطلح قد أصطلح عليه أهل ذلك الزمان . ومنها - أن يعرف المنشئ ترتيب من تقدّم لينسج على منواله . وإذا أراد من لأدربة له بالإشياء أخذ تجميدة من تقليد أو توقيع وغيرهما ونقلها إلى مقصد من مقاصد الولاية لم يعجزه ذلك .

ثم قسمته على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(ولايات وظائف الديار المصرية ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(الولايات بالحضرة ، وهى على ستة أضرب)

الأضرب الأول

(ولايات ارباب السيوف ، وهى على طبقتين)

الطبقة الأولى

(ذوات التقاليد ، وهى ثلاث وظائف)

الوظيفة الأولى

(الكفالة ، وهى نيابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف المملكة فى المقالة الثانية أن الكفالة هى أعلى رتب نيابة السلطنة ، وأنّ النائب الكافل يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك ؛ بخلاف غيره من النواب فإن كل نائب لا يعلم إلا على ما يختص بخاصة نيابته . وقد تقدّم فى مقدمة الولايات أن لقبه «المقرّ الكريم» على ما استقر عليه الحال .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة، كُتِبَ بها من إنشاء الشهاب محمود الحلبي
رحمه الله، وهي :

الحمد لله الذى جعل رُكْن الدولة فى دولتنا القاهرة ثابت القواعد، على فَرَقَد
الفرَاقَد، راقياً فى رُتَب العُلُو الآخذة من أُنْفى التأييد بالمطالع ومن نُطق العزِّ بالمعاقَد؛
حالياً بعُقود المَهابة التى لا تزال لرُعيها على الأعداء طلائع خيل فى المراقب وورائع
خيال فى المراقَد، حاوياً من أنواع المفانحرما لو كثرته الدَّرارى غدت وهى
لمجموعه فَرَاقِد، أو فاحرته الدَّرر ثَقَبتها الأفكار النواقد، مقلداً من سُيوف الظَّفَر
مالا تلبو فى نصرته الإسلام مضاربهُ وكيف تلبو وأوامرنا لعقود حمائها على عَوَاق
مجدّه عَوَاقِد .

نحمده على نِعَمه التى عدّقت أمور دولتنا بمن يرفع بأُسّه منارها، وعقدت قواعد
ملككتنا بمن يؤالى فضله أنوارها، وعضدت همم أوليائنا بمن إذا تخيلت أعداء الدين
مواقع صوارمه كان أَمْنُ صونِها إيسارها وأنقَع سلاحها فرارها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُشرق الهمم، بلوامعها، وتُشرف
الكلم، بجوامعها، وتركو الأمم، بما تنقل الألسنة منها عن القلوب إلى مَسامعها ؛
ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أقامنا الله لنصر دينه ، وألهمنا تفويض مصالح
أمتيه إلى كلِّ ولى ما رُفِعَت رايه نصر إلا تلقاها عرابه مجده بيمينه ؛ وعضدنا
فى جهاد أعدائه بأعزّ صفيّ ينوب بأُسّه للجيش عن طليعته ويقوم رأيه فى الحرب
مقام كمينه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آخثارهم لصُحبته وأرتضاهم ،
وأرهمهم لإقامة ملته وانتضاهم ، فمنهم من فاز بمنزلة سبّقه وتصديقه ، ومنهم من
كان الشيطان يُنكب عن طريقه ، ومنهم من آخثار الشهادة على الانتصار بقرينه

ورَفِيقه، ومنهم مَنْ أقامه بِشَرَفِ الأُخُوَّةِ معه مُقامَ شَقِيقه، صلاةً يَبْلُغُه إِخلاصُ مُقِيمِها، وَيُعَرِّضُ عليه إِيمانُ مُدِيمِها، وسلم .

أما بعدُ، فإنّا من حينِ أَوْرَثَنا الله مُلْكَ الإسلامِ لَاعِنَ كَلالِه، وأَلَبَسَنا فى مَواقِفِ الذَّبِّ عن دينِه حُللَ العِزِّ المُعَلِّمةَ بِالخَلالَةِ، ومَكَّنَ لَنا فى أرضِه، وأنْهَضَنا بِمَسْنُونِ الجِهادِ وفَرَضَنا، ونَشَرَ دَعوَةَ مُلْكنا فى طُولِ الوجودِ وعَرَضَنا - لم نَزَلْ نَرْتادُ لِكِفالَةِ المِمالِكِ الإِسلامِيَّةِ من تَأوى مِنْهُ إلى رُكنٍ شَدِيدٍ، ورأى سَدِيدٍ، وَحَزَمَ يَقَرِّبُ من مَواهِبِ النَصْرِ كُلِّ بَعِيدٍ، وَعَزَمَ إذا أَرهَفَ صِوارِمَهِ من أَدْنى الصَّعِيدِ، وَجَفَّ لَهْولِ مَواقِعِها بابُ الحَديدِ؛ فَهو المَطْوى فى أَثناءِ ضَمائِنا وإِنْ تَقَلَدَنا قَبْلَه سِواه، والمَنْوَى فى أَحْشاءِ سَرائِنا وإِنَّمّا لَأَمْرِيّ ما نَواه؛ قَد حَلَبَ قَدَمُ هِجْرَتِهِ، الدَّهْرَ أَشْطَرَه، وَكُتِبَ حُسْنُ خِبرَتِهِ، من عُنْوانِ السَّيْرِ أَشْطَرَه، وَتَمَثَّلَتْ مِراةُ الزَّمانِ لِفِكرِهِ فَاجتَلَى صُورَ الوقائِعِ فى صَفائِها، وَتَرَدَّدَتْ تَجارِبُ الأُمَمِ على سَمْعِهِ فَعَلِمَ ما يَأْتى وما يَذَرُ فى تَرْكِها وأَقْتَفائِها، وأَسْتَقْبَلَ دَولَةَ أَسلافِنا الشَّرِيفَةَ من فِوائِحِها : فَكان لسانَ مَحاسِنِها، وَبَنانَ مِيا مِناها، وَخِزانَةَ سَرِّها، وَكِناةَ نَهْيها وأَمْرِها، وَطَليعَةَ تَأْيِيدِها، وَذَرِيعَةَ أُولِيائِها إلى عِوارِفِها وَجُودِها، وَعُنوانَ أَخبارِها، وَعِنانَ سَوابِقِها الِتى لا تُدْرِكُ ما تُرُ من سَلَفِ شَقِّ غُبارِها، وَيَمِينَ قَبْضَتِها المَصْرُفَةَ بَينَ البَاسِ والنَّدى، وَأَمينَ آرائِها المَؤَيَّدَةَ بِالتَّوْفِيقِ اللَّدُنِيِّ على العِدا، وَرُكْنَها المُشَيَّدَ بِالأسَلِّ وَهو ما تُبْنى عليه المِمالِكُ، وَحَصَّنَها المَصْفَحَ بِالصَّفاحِ فلا تَسْتَطِيعُ الأَهْواءُ أَنْ نَتَوَقَّلَ إِلَيهِ تِلْكَ المِمالِكُ، وَزَعِمَ جِيوشِها الِتى أَجْتَنَّتْ من قَصَبِ قَواضِيبِ ثَمَرِ النِّصْرِ غَيرَ مَرَّه، وَمَقَدَّمَ عِسا كَرها الِتى أَجْتَلَتْ بِه وَجُوهَ الظُّفَرِ الحُلُوةِ فى أَيَّامِ الكَريهِه المُرَّة .

ولما كان المقرّر الكريم (الفلاّنيّ) هو معنى هذه الصفات المبهمة ، ومبنى هذه القواعد المحكّمة ، وطراز حلّ هذه الأحوال المعلمة ؛ وسرّ المقاصد الظاهرة ، وسلك هذه [النجوم] الزاهية بل فلّك هذه الدراريّ الزاهرة ؛ تُخلّق صَوَادِحُ البراعة ، فتقع دُونَ أوصافه بمراحل ، وتغوص سوانح اليراعة ، فيلقيها العجز عن استخراج دُرر نَعُوتِهِ بالسّواحل ، فأوصافه تُدّكر على وجه الإجمال لضيق نطاق الفصاحة عن تفصيلها ، ومناقبه تُشكر بلسان الإجماع لعجز ألسنة الأقلام عن بلوغها إلى غايتها ووصولها ؛ فلذلك اقتضت آراؤنا الشريفة أن نَفْسَحَ مجال الهدى ، بتفويض إيالة الممالك إليه ، وأن نَقْطَعَ آمال العدا ، بالاعتماد في زعامة الجيوش الإسلامية عليه ، وأن نُقَرِّعِ عِوَنَ الرّعايا بإلقاء مَقَالِيدِ العَدَلِ والإحسان إلى يديه ؛ وأن نُصَوِّنَ عقائل الممالك من مَهَابَتِهِ بما يغدو سورا لعواصمها ، وسواراً لمعاصمها ؛ وشنباً تفتّر ثغورها عن بروقه ، أو لها يَقْطَعُ طريق أمل العدا عن تخيل خيالها في طروقه ؛ ليعتضدّ الدين منه برُكْنَهُ ، ويتغلّب [على] الشّرك في حاليّ حربه ووهنه ، ويتقلّب كلّ من رعايانا بين وَهَادٍ يُمْنِهِ ومِهَادٍ أَمْنِهِ - رُسم بالأمر الشريف - لا زال مُلْكُهُ على الأركان ، راقياً من أفق النصر إلى أعلى مكانة وأرفع مكان - أن تُفَوِّضَ إليه نيابة السلطنة الشريفة بالديار المصرية ، والممالك الإسلامية ؛ على أكمل العوائد ، وأجمل القواعد ؛ تفويضاً تَمْضِي أحكامه في الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ؛ فلا يخرج منها شيء عن أوامره وأحكامه ، ولا يُعَدِّلُ في سلبها وحربها عن حكمي سيوفه وأقلامه .

فليستقرّ في هذه الرتبة العالية استقرار الأركان الموائم ، والأطواد اللّوالب ؛ والأصول النّوالب ، والنجوم الثّوابت ؛ مؤثلاً قواعدها بأية السديد ورايته ، معوّداً كلّها بسيف النصر وآيته ، مبتدئاً في إعلاء منارها من العدل بأقصاه

ومن الإحسان بغايته ، مكثراً أعداد الجيوش الإسلامية برأيه السعيد ، مقرباً من مطامح النصر النائية كل بعيد ، مؤكلاً بحركات العدو وسكاته جفنًا لا يَأْلَفُ (١) الغرار ، وسيقاً لا يعرف القرار ، وعزماً لا يرضى من عدوه دون أضطلامه الفرار ، فلا تزال جيوش الإسلام بحميل تعاوده من أحة العوائق ، من آلة العلائق ، لا مانع لها عن الركوب ، ولا قاطع عن الوثوب ، قد أعدتها عزائمها ، فكل زمانها بالتأهب للقاء وقت إمكانه ، وأمدت بأسها صوارمه ، فهي لا تسأل عن عدد عدوها بل عن مكانه ، مقيماً منار العدل الذى هو أساس الملك ودعامته ، ورأس الحكم بأمر الله فى خلقه وهامته ، وتور الخصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامته ، ناشراً له [فى] أقطار الممالك ، ماحياً بنور إقامته آية ليل الظلم الحالك ، معاضداً أحكام الشريعة المطهرة بالانقياد إليها ، والاعتماد فى الحل والعقد عليها ، والاحتفال برفع منارها : فإن ذلك من أفضل ما قدمته الدول الصالحة بين يديها ، مقدماً عمارة البلاد على كل مهم . فإنها الأصل الذى تنفزع عنه المصالح على اقتراحها ، والمادة التى تستطيل الجيوش الإسلامية على العدا بتوسعها فى إنقادها وإنفاقها ، والأسباب التى تبين الغيوت على نماء ما بسط الله لعباده من أرزاقها ، وأكد مصالحها الرفق الذى ما كان فى شيء إلا زانه ، والعدل الذى ما اتصف به ملك إلا حفظه وصانه ، فقد جعلنا أمره فى ذلك جميعه من أمرنا المطاع ، وأقتصرنا عن ذكر الوصايا بما فى خصائصه الكريمة من حسن الإضطلاع وجميل الأطلاع ، وأكتفينا بما فى خلائقه الجميلة من محاسن لو تخير نفسه لم يزدّها على ما فيه من كرم الطباع ، والله تعالى يؤيده وقد فعل ، ويجعل ركنه من أثبت قواعد الدين وقد جعل ، إن شاء الله تعالى .

(١) الغرار النوم القليل أو القليل من كل شيء . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قبض الحصد إذا اجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة أيضا ، وهى :

الحمد لله الذى زان دولتنا القاهرة من حُسامِها بتقليده ، وصان حِىّ ممالكنا الشريفة من أوليائنا بمن تغدو مواقع سيوفه من كل عدوّ قلائد جيده ، وزاد جلاله الملك بمن إذا ركب فى مواكب نيابته أورد جِداد رُعبه من كل مُتوّج من ملوك العدا مناهل وريده ، وفوض تقدمة جيوشنا المنصورة إلى من تُضاعف مهابته فى عيون العدا عدد جنوده ، وتغزو سرايا خيله فى يقظته وتطلع عليه طلائع خياله فى هجوده ، وإذا صلت سيوفه فى موقف وعى أغرت رأس كل مستكبر لم يعرف الله قبل ركوعه بسجوده ، مشرف أقدار أوليائنا من المراتب بما تشرف به أقدار المراتب فى نفسها ، ومفضل أيام دولتنا على الدول بما ألفت من جلاله مُلكا فى أمسها ، ومجمل سير أصفينائنا من المعدلة بما إذا غرسته فى قلوب الرعايا كان الدعاء الصالح ثمرة غرسها ، ومقلد خواصنا من إيالة الملوك ما إذا خطبت به الأفلام على منابر الأنامل نقلت البلاغة فى تلك الأوصاف عن قسما ، ومفيض حلل الأنباء المرقومة بأسنى الرتب على من إذا زانت حبرها اللابس زانها بلبسها ، وإذا أشرقت به هالة المواكب لوغى سقطت فوارس ملوك العدا عن مراكبها وأضطربت الأسيرة بملوك فُرسها ، وإذا كتمته الأعداء أنباءها نطقت السنة رياحه بأسرار أهل الشرك ولا يرى أسمع من صمها ولا أفصح من خرسها ، وإذا تطاولت أبطال الوقائع للقاءه أقرت تغور سيوفه عن شنب النصر لإلفها بمعانقة الأعناق وأنسها .

نحمده على نعمه التى أعادت شرف أسمائنا إلى أسماع المنابر ، وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسنة الأفلام فى أفواه المحابر ، وأعادت بسيف النصر حقوق مُلكنا الذى تلقيناه مع الأولوية والأولوية من أسلافنا الكرام كبرا عن كابر .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال سيوفنا بإعلاء منارها
 ناهضة ، وجياد جهادنا لنشر دعوتها فى الآفاق راكضة ، ومواد نعمنا ونقيمنا لآمال
 حاملها باسطة ولأرواح جاحديها قابضة ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى
 ايدته الله تعالى بنصره ، وآتاه من معجزاته ما يحول البصر دون حصره ، وجعله أمام
 الأنبياء وإمامهم مع تأخر عصره ، ونصره بالرغب الذى زحزح كل ملك عن سريه
 وأنزل كل متوج من قصره ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا فى نصرته ،
 مأوف الأوطان والأوطار ، وركبوا فى إقامة ملته ، مخوف الأهوال والأخطار ،
 وفتحوا بيمين دعوته ، ما أشتلت عليه المشارق والمغارب من الأرجاء الممتدة والأقطار ؛
 صلاة لا يزال سيف جهادنا لدوامها مقيماً ، وحكم جلا دينا لإقامتها مديماً ؛ وسلم
 تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من سميت التقاليد بأوصافه ، وصرفت أمور الممالك بين رأسه
 وإنصافه ؛ وحلت مواقف الخدمة الشريفة من جواهر مهابة ، بما هو جدير بحلى
 السيف ، وزينت مجالس العدل من إيالته ، بما هو مبرأ من الميل والهوى منزّه عن
 الظلم والحيف ؛ ومليت القلوب من محافته ، بما يمنع ذا القوة فى الباطل من توهم
 البطش وذا الصبوة فى الهوى من استزاره (؟) ويحسن لها الفرار ، ويهون عليها
 فى جنب ما تنوقمه من مواقع سيوفه السبى والإسار ، وعُدق به من مصالح الأقاليم
 ما يصرفه بيمين دأبها أيمن ويسار شأنها اليسار ، وفوضت زعامة الجيوش منه إلى همام
 يقوم بأمرها على ما يجب ، وليت لو لم ينهض بألوفها المؤلفة فى الوقائع لكان من
 نفسه وحدها فى بحفل لحب ، ومقدام آلاف العدا فى شجاعة آحاد ، وضرب غم
 قسور أهل الكفر بين يدي وثباته وثباته وأسودهم نقاد ؛ من لم نزل نعدّه فى أركان
 البيت الشريف المنصورى بالخصاص ، ونعدّه للواقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

الله وحده السيف ناصر؛ ونَدَحْهُ من معادن أوليائنا الذين تَمَسَّكُوا من الانتماء إلينا
بأمكن الأسباب وأقوى الأواصر، ونقلد أعطاف الأواصر منه سيفاً يرمى منه بيت
العدا ومعقلهم بأفتك حاصدٍ وأفلل حاصر؛ فكم من مواقف شفع فيها الشجاعة
بالخضوع لربه، ومواطن ليس فيها قلبه على الدرع إذا ليس غيره الدرع على قلبه؛
ومسالك سلكها في طاعة الله وطاعتنا والسيوف تنفر من قُرْبها، ومشاهد شهدا
في طاعة الله وطاعتنا والقلوب تنفر من حجبها، وليالٍ قطعها في خدمتنا لم يصحب
غير السنة أسننه وأعين شُبهها، ومقاصد للدين بلغها والسهام لا تجمها من الفرق قوادم
النسور، وسرايا وقف بينها وبين العدا فضرب بينهم من شجاعته يسور، وبحار
حرب لم تنجاسير السوايح على قطعها حتى مد عليها من معوجات سيوفه قناطر
ومن مقومات ذوابله جسور؛ وكم أنام الرعايا في مهاد عدله فلم يطرقهم طيف ظالم
في الكرا، ولا روع سربهم خيال مُغير أوهمهم السرى؛ بل كانوا محفوظين
بمهابته محفوظين بمواهبه، وادعين في ظله الذي مادجا عليهم ليل خطب إلا أطلع
لهم بدور الأمن في غياهبه .

ولما كان (فلان) هو الذي سار بذكر مهابته المثل، وصار له في قلوب الأعداء
من الرعب ما تشابه فيه القاتلان الوجل والخبجل، وجمع محاسن الصفات فما أخذ
عنه أو نطق به أو نظر إليه إلا وجد (ملء المسامع والأفواه والمقل)؛ ولا جرد على
العدا سيفاً إلا وودعت أرواحهم الأجساد، ولا أرهف في مجالس العدل
والإحسان قلماً إلا وضمت له الآجام التي نساها (كرم السيول وسطوة الآساد)؛
ولا طلع في أفق مواكب إلا وهالت العدا هالة بدّره، ودلت على عظم سلطانتنا
رفعة قدره، وشهدت له بحسن طاعتنا طاعة أمرائنا لأمره؛ وأسلف من خدمة
والدنا السلطان الشهيد ما لم ترل له به عندنا حقوق مرعيه، وسوايق مرضيه،

ورتبةُ تقديمِ سيِّئه ، ومزيةُ تقريبِ جعلته مُشاهداً بالعيان مقدّما فى النية - أقتضتْ
 أراؤنا الشريفةُ أن نرّوع العدا بسيفه ، ونزيهم من تقدّمته على الجيوش يقظةً
 ما كانوا يروّنه حلماً من طيّفه ؛ وليعلم الأعداء معاجلة أخذهم بالعنف والخيف ،
 وأننا لا تأخذنا فى الله لومة لائم فليس بيننا وبين أعداء الله ورسوله (صلى الله عليه
 وسلم) إلا السيف .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زالت ممالك الإسلام به مُقترة المباسم ، عالية
 مدى المهابة إذا طرقتها عواصف رياح العدا وقفت دُون بلوغها دامية المناسم -
 أن تُقوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية على العادة فى ذلك
 والقاعدة تفويضاً يفيض على الممالك حلال المهابة ، ويسلب أعداء الدين رداء
 الأمن فلا ينفعهم الخضوع ولا الإنابة ، ويضاعف لنا أدعية الرعايا الصالحة بإجرائهم
 على ما ألقوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاء الصالح ومن كرم الله الإجابة .

فليقلّد هذه الرتبة الدالة على ارتفاع قدره لدينا ، الشاهدة له باحتفالنا بما أوجبه
 إخلاصه من حقوق الطاعة والولاء علينا ؛ المنبهة على أنه سيفنا الذى نصوصن الممالك
 بحدّه ، ونصول على العدا بمضائه الذى تهلّل وجوه النصر كلما أسفر من غمده ؛
 وليستقرّ فى ذلك نافذاً فى المصالح الإسلامية أمره ، مُغيّرا على جيوش الأعداء
 ذكره ، معمّلة فى حماية الدين بيضه المُرّهفة وسُمره ، مجلّة بإشراق طلعه مطالع
 المواكب ، مسيرة نجوم أسنّته إلى قلوب أعداء الدين مسير الكواكب ، مُحفّقة
 بحقوق رايته مساعى الكفر الصادرة عن آمالهم الكواذب ؛ ليعلم عدو الله أنه أشدُّ
 طلباً له من أجله ، وألزم لعنقه من عمله ؛ وأسبق إليه من رجوع صوته ، وأنزل عليه
 من مفاجأة موته . وليجمل النظر فى مصالح الجيوش الإسلامية بما يُضاعف عدتها ،

ويبقى على توالى الأحقاب حداثتها وجديتها ؛ ويأخذهم بإدامة التمرن فى الحروب ، وإطالة عنان التأهب للركوب ؛ ويعين كلاً منهم بملاحظة حاله على استدامه قوته وإمكانه ؛ ويجعلهم بالآقتباس من شجاعته من القوم الذين لا يسألون عن عدد عدوهم بل عن مكانه . وليكن لكلمة الشريعة الشريفة رافعا ، ولشبهه من يمنع عن الانقياد إلى الأحكام دافعا ؛ وعلى يد من يتطرق إلى الخروج عن أحكامه أخذا ، ولمن لم يسلك الأدب بين يدي حكمه بما يقتضيه تعظيم الحكيم العزيز مؤاخذا . وليأمر النواب بإقامة منار العدل الذى يوم منه خير للأرض من أن تمطر أربعين يوما ، ويصرف إلى مصالح الثغور الإسلامية وحمايتها فكرا لم يحتدعة ونظرا يأنف أن يألف نوما ؛ وملاك الوصايا تقوى الله وهى من خصائص نفسه الكريمة ، وراحة روجه التى هى للفكر فى مصالح الإسلام مديمة ؛ فليجتهد فى المحافظة عليها ما استطاع ، ويمض بها فى مصالح الإسلام أمره الذى جعلناه من أمرنا مطاع .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة أيضا ، كتبت به عن السلطان الملك أبى بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طقزدمش أمير مجلس ، فى سنة آثنتين وأربعين وسبعائة ، بعد أن بطلت النيابة فى دولة أبيه الملك الناصر عدة سنين ، وهى :

الحمد لله الذى أصطفى لسلطاننا المنصور من ينوب عنا فى رعاية الجمهور أحسن مناب ، وأضفى على ملكنا المعمور من رياسته أسر سربال ومن حراسته أجل جلباب ، وكفى دولتنا الشريفة بسياسته مهمات الأمور فلتأييدها بقيامه دوام ولتشييدها باهتمامه استصحاب ، وشفى الصدور بصدور إشارته المباركة التى لها بأوامرنا العالية اقتراان ومن ضمائرنا الصافية اقتراب ، وأوفى له من ربنا العميم بحقه

الذى [له] بعهدہ استحقاقٌ للتقديم وإيجاب ، وسبقہ القديم الذى له من سعيد المصاهرة أكرمُ آتساج ومن حيد المظاهرة ألزمُ آنتساب .

نحمدہ على أن بصر آراءنا بطرق الوفاق وسُبل الصواب ، ونشكرہ على أن نضر راياتنا فى الآفاق : فلقلوب العدا من خوفها إرهاب وإرهاب .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً منزّهة عن الشك والارتياب ، موجهة إلى قبلتها التى ترضاها الألباب ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى أظفر عزّمه بالثبات وقهر خصمه بالتباب ، ووفر قسمه من الإنجاد ويسر حربه للإنجاب ، وأظهر اسمه بعد اسمه فخلاً فى الأفواه ذكره وطاب . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا من بعده فى رعاية عهده أحسن الآداب ، صلاةً متصلة الأسباب ، موصلةً إلى خير مآل متكفلةً بنعم باب (؟) لا يزال لسحب جودها فى الوجود أنصباب ، ولما قرب وفودها ورود إلى مظان الرضوان من غير إغباب ، ما جرد انتقامنا على الأعداء سيفاً سطاً يقدر الرقاب ، وأورد إنعامنا الأولياء بحر ندى زاخر العباب ، وجدد قيامنا بعلم هدى مرت عليه الأعوام وما لمح له أثر ولا فُتح له باب ، وأعتمد مقامنا الشريف ، فى الجمع للقلوب والتأليف ، على أعلى ولى وأعلى جناب ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ، فإن أولى من أعتمدنا فى الإنجاب والإنجاح على ديانته ، وانتجدنا فيما أردنا من الاستصحاب للصالح بإعانتة ، واعتصمنا فى تقطين الممالك وتأمين المسالك بصيالته وصيانتة ، ورعينا عند الدنا الشهيد - سقى الله عهده صوب الرضوان - على علو مكانه ودنو مكانته ، فاكتفينا فى كفالة الأمة وإيالة النعمة بنخشيتة من ربه واستكانته - من حُدت سجاياه ، وتعددت مزاياه ، واستندت

إلى ما أمر الله تعالى به من العدل والإحسان في الأحكام قضاياه ، ووجدت منه الزهد والرفق رعاة الإسلام ورعاياه ؛ فهو الممدوح فعله ، من جميع الألسنة ، الممنوح فضله ، في سائر الأزمنة ، الممهور عليه آثار القبول الظاهر من عناية الله لما نواه من الخير لخلق الله وأبطنه ؛ فهو عاضد السلطنة الذي حلّ من العلياء موطنه ، وكافل المملوك ، الذي سبق إلى كل مجد فأدركه ؛ وسيف الدولة ، الحامي الحوزة البادية الصولة ؛ ومن له أشتمال على العلياء ، ومن يقارن التحقيق له رأيا ، ولا يباين التوفيق له سعيًا ، ويعاون الهدى والنهى على طول المدى له أمرا ونهيا ، ويعين الورى لسلطاننا المنصور منه مهديًا يجمل لدولتنا حفظا ويحسن لملكنا رعا .

وكان فلان هو الذى لم يزل متعين المحاسن ، متبين الميامن ، متمكن الرئاسة فى كل الأمكن ؛ فحلمه إذا اضطربت الجبال الرواسى ثابت ساكن ، وعلمه الزائد بأوضاع السياسة وأنواع النفاسة للوجود من بهجته زائن ، ورأيه الصائب للبلاد والعباد صائنا ، ورعيه الخلق بالحق : القوي منه خائف والضعيف إليه راكن ، وشهره هاد للرأي وباد للعائن ، وذكره الجميل سائر فى الآفاق والأقطار والمدائن ؛ حتى أظهر الله تعالى بإمداد نيرنا الأعظم من إشراق بذره الكامل ما هو فى سر الغيب كامن ، وشهر سيفه الذى يغدو الإيمان من مهابته فى كنف منيع وحرم آمن .

ولما مضت على منصب النيابة الشريفة فى أيام والدنا الشهيد بضع سنين ، وأنقضت الأيام والليالي والدهر بموهبتها ضنين ؛ ولا وطئت لها ربوة ، ولا أمتطيت لها صهوة ؛ وكانت فى سلك ملكه مندرجه ، وبصفو سلطنته مترجحه ؛ إلى أن قضى عليه الرضوان النخب ، وأفضى من الجنان إلى المحل الرحب ، رأينا بعده بمن كان يتحقق وده أن نستأيس ، وأمضينا وصيته المباركة فى اختيار ثمرة الإخلاص بمن

كان له الاختصاص يَغرس ، وأفضينا إليه بالمناب عنا لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقتبس ، ومن الاستئثار بجالسته يفوز فيحوز حكم الحكم لأنه كان أمير ذلك المجلس ، وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا ينهم عليه شئ من خفايا القضايا ولا يلتبس - أقتضى حسنُ الرأى الشريف إلقاء ما فى أيدينا من مقاليد الممالك إلى يده ، وإبقاء ودعة هذا الأمر العظيم إلى صونه وعونه وتشدده ، وإيفاء جنابه إلى حميد هذه الغاية التى هى للنسبة مناسبة لسؤدده .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازل يجمع شمل الإسلام بتعيينه وتفترده ، ويرجع أمر الأنام منه إلى مأمون الرأى رشيد سَفَّاح السَّيف مَهَنَّد ، منصور العزم مؤيده ، ويوسع الخليفة إذا وليهم بالرفقة والرحمة ومن أولى من أبى بكر بأن يخص أصحاب محمد عند الخلافة بإعذاب منهل الجود ومورده - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية - أعلاها الله تعالى - نيابة شاملةً محيطه ، كاملةً بسيطه ، تعنى كل أمير ومأمور ، وتدنى أمرها الذى يعامل بالإجلال ويقابل بالسرور ، برأ وبحراً ، وسهلاً ووعراً ، غوراً ونجداً ، بُعداً وقرباً ، شرقاً وغرباً ، وما منحه الله تعالى لوالدنا الناصر من الممالك ويدنر لسلطاننا المنصور ويُنحى : تستوعبُ أمر ما نأى من هذه الأقاليم ودنا ، وتجب طاعته فيها على كل من كان مؤمناً ، ويمتثل فى ذلك كله أمره ، وتعمل فيه الروية فيجمل فكره ، ويؤمل فيه فتحه ونصره ، وينقل به مدحه وشكره ، ولا ينفصل منحه ويره ، ناظراً فى هذه النيابة الشريفة بفكره التام ، سائراً فيها السير الجميل من الدربة والإلهام ، ناشراً ظلال المعدلة على من سار أو أقام ، مظاهراً بجنابه منا أجل مقام . ونحن وإن كنا نتحقق من خلاله الحسنى ، كل وصف يسنى ، وثيق منه بذى الصدر السليم الذى هو على

المقاصد يُعان وبالحامد يُعنى ، فلسنا نُخلّ بالوصية التي نعلم أنّ له عنها آستغنا ؛
ولكننا لا نترك بها التبرك ولا ندع ماسنّ الله تعالى منها وشرع ، ولا نُغفل ، مايجب به
أن يحتفل ؛ فقد وصّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمضى أمره
المسموع كلّ ذى رجوع إلى الله تعالى منهم وإنا به ؛ فقد أولاه الله تعالى كلّ جميل
قبل أن ولّاه ، وحلّاه بالسمات والمكرّمات قبل أن رفع علاه ؛ وأعطاه ما أَرهَب
العدا من سَطاءه ؛ وهداه إلى كلّ رُشد تأتمّ به الهداه .

فأهمّ ذلك تقوى الله تعالى وهو عليها مجبول ، وأمرها عنده متلقّ بالقبول .
والعدل فهو منه مأمول ، والاتصاف بالإنصاف فهو دأبه فيما يفعل ويقول ؛
والجهاد : فعزائمه في ميدانه تجول ، وصوارمه بها من قراع فرسانه فلول . والزعماء
والأكابر فلهم من محافظته اعتناءً وبملاحظته شُمول . والعساكر الإسلامية فتباييده
تبطّش أيديهم بالعدا وتضول . وزعماء البلاد فلهم إلى ظلّ رحمته إيواءً وبكفّ
نعمته ظُلول . وممالك الإسلام فما منها إلا معمور بما أوتته كفالتة مأهول ؛ وتغوره
فكها بسام بفتكاته التي ألقى رُعبها في البحر فهو بين كلّ فاجر وبين البحر يحول ،
وما هو بذلك من حميد المسالك موصول ، ومحلّه المقدم لأنه أهمّ الأصول : من إكرام
الحكّام ، وإبرام الأحكام ؛ وأستيفاء الحدود ، وأقتفاء السنن المعهود : من إنجاز
الوعود ، وإحراز السعود ؛ والإجهاز على كلّ كفور وجحود ، والاحتراز من فظاظة
الناس بإفاضة الجود ؛ فكلّ ذلك على خاطره مشرود ، ولما آثره مورود ؛ وفي ذخائره
موجود ، ومن خبرته معلوم معهود ، وعن فكرته مشهور ومن فطرته مشهود ، فليسع
أمرنا هذا جميع الأمراء والجنود ، وليرجع إليه كلّ من هو من جملة الملة معدود ؛
وليقابل مرسومنا بالسمع والطاعة ، أهل السنة والجماعة ؛ ساعة الوقوف عليه وحالة
الورود ؛ والله تعالى يُصلح ببقائه الوجود ، ويمنح باهتمامه المقصود ، ويفتح المعاقل

باعترامه الذى ليس بمردود عن مراده ولا مصدود ، بل يصبح الكفر من خوفه محصورا ويمسى وهو بسيفه محصود ، والعلامة الشريفة أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية لنائب سلطنة ، أوردها فى ” التعريف ” قال :

يُوصى بتقوى الله تعالى وتنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاودة حكمائها ، واستخدام السيوف لمساعدة أقلامها ، وتفقد العساكر المنصورة وعرضها ، وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها ، والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف ، والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها ، وإطابة قلوب سكانها ، ومعاودة مباشرى الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها ، وتحسين مآلديه ، وتحسين كل ما أمره إليه ، واستطلاع الأخبار والمطالعة بها ، والعمل بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها ، وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه ، بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ، ومن قُتل من الجند أو مات وخلف ولدا يصلح لإقطاعه يعين له ليقوم بخلفيه ، ويقال من هذا ما يقوم بتمام الغرض ويوفيه .

الوظيفة الثانية

(الوزارة لصاحب سيف)

وأعلم أن أول من أطلق عليه لقب الوزارة فى الإسلام ” أبو حفص الخلال ” وزير أبى العباس السفاح أول خلفائهم كما ذكره القضاعى فى ” عيون المعارف فى أخبار الخلفاء ” ثم صارت الوزارة بعد ذلك للخلفاء والملوك دائرة بين أرباب السيوف

(١) أى خلفاء العباسيين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها في أرباب
الأقلام أكثر. وعلى ذلك جرى عُرف الديار المصرية من ابتداء الأمر وإلى الآن.
ومما يَنبَهِ عليه أنَّ الوزير إذا كان صاحبَ سيف ، كان في مجلس السلطان قائماً
في جملة الأمراء القائمين . وإذا كان صاحبَ قلم ، كان جالساً كما يجلس أرباب
الأقلام : من كاتب السر وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتب به للأمير سيف الدين بُكْتُمُر . وهي :
الحمد لله الذي شدَّ أزرَ دولتنا القاهرة ، من أوليائنا بأَمْضَى سيف ، وعَضَدَ أَيْماننا
الزاهرة ، من أصفِيائنا بأَعْدَلِ وَلِيٍّ لا يوجَدُ في حكمه حَيْفٌ ، وَعَدَقَ تَدْيِيرَ أُمُورِ
ممالكنا الشريفة بمن تَحْجُبُ مهابتُه ذَوِي الأَطْمَاعِ الطامحة عَمَّا لا يُحِبُّ فلا يُلِمُّ بهم فيها
خاطر [ولا] يطرُقُهُم بها طَيْفٌ ، جاعِلِ التأييدَ لآرائنا مصاحِباً ، والتوفيقَ موافقاً
لأوامرنا التي لا تُهْمَلُ من مصالح الإسلام مندوباً ولا تدَعُ من مهمات الملك واجِباً ،
والإقبالَ تالياً لمراسمينَا في آرتياد من يَغْدُو قلبُ الحَقِّ من حَيْفِهِ سائِكاً وقلبُ المبطلِ
من خَوْفِهِ واجِباً ، واليَمينَ تابعا للاستخارَتينا في آنتخاب من لم يَزَلْ في خدمتنا الشريفة
للأدعية الصالحة جالِياً ، وللمنافع الإسلام والمُلْك طالِباً ، ولمضارِّهما حاجِباً .

نحمده على نِعَمِهِ التي عَضَدَتْ أَيْماننا بمن جمَعَتْ أَدَوَاتُهُ ، رَتَبَتْ السيف والقلم ،
وَعَدَقَتْ تَدْيِيرَ ممالكنا بمن أحرَزَتْ [صفاته] ، مَزَيَّتِ العِلْمَ والعَلَمَ ، وشَدَّ أزرَ دولتنا
بمن يَبِيضُ بِمَعْدَلَتِهِ من صحائف أَيْماننا ما هو أَحَبُّ إِلَيْها من حُمْرِ النِّعَمِ .

ونشهدُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له شهادة نُعَدُّها للقاءه ، ونتيَمَّنُ بها
في افتقاده من نَعْتِضِدُ به في مصالح أهلها وانتقائه ، ونَقْدُمُها أمامَ كُلِّ أمرٍ نَدَّخِرُه
لأَعْتِلَاءِ وَلِيَّنا بالتقي وآرْتِقائه ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أرسله إلى الأُمَمِ

طُرًا، وَخَصَّه بِالْأُمَّةِ الَّتِي جَعَلَ أَمَارَةً سَبَقَهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ أَنْ غَدَتْ مَحَجَّةً غُرًّا ،
وَأَيْدَهُ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنْ زُحْرَفِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ
حُلوًا وَقَالَ الْحَقُّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وَلَوْ أُمَّتَهُ
فَعَدُّوْا ، وَالَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِسُنَنِ سُنَّتِهِ فَمَا حَادُّوا عَنْهَا وَلَا عَدُّوْا ؛ صَلَاةً لَا تَزَالُ الْأَلْسُنُ
لِإِقَامَتِهَا مُدِيمَةً ، وَالْقُلُوبُ لِإِدَامَتِهَا مُقِيمَةً ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنْ أَوَّلَى مِنْ أَمْزِجِ الضَّمَائِرِ ، فِي الْأَعْتِضَادِ بِهِ مَكْنُونِ طَوِيَّتِهَا ، وَأَعْتَمَدَتْ
الْخَوَاطِرُ ، فِي تَصْرِيحِ عِلَالِيَّتِهَا بِأَوَلَوِيَّتِهِ لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ عَلَى نِيَّتِهَا ، وَتَشَوَّفِ الْبَلَاغَةِ
لِرَقْمِ مَقَاخِرِهِ ، وَتَنَافَسِ الْمَعَانِي فِي تَخْلِيدِ مَآثِرِهِ ؛ وَهَنَّتِ الْمَعْدَلَةُ نَفْسَهَا ، بِرَافِعِ لَوَائِهَا ،
وَأَبَدَتْ الدَّوْلَةَ أُنْسَهَا ، بِنَاشِرِ بَرِّهَا فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَلْيَا ؛ وَأَقْتَرَّتْ ثَغُورُ الْأَقَالِيمِ الْحُرُوسَةِ
بِمَنْ تَلْهَجُ بِمَصَالِحِهَا أَلْسِنَةُ أَقْلَامِهِ ، وَأَخْضَرَّتْ رُبَى أَمَالِ الْأَوْلِيَاءِ بِمَا يُسْفِرُ عَنْهُ مِنْ
تَهْلِيلِ بَهَاءِ غُرَرِ أَيَّامِهِ ؛ مَنْ هَزَزْنَا مِنْهُ لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ سَيْفًا يَصُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ ، وَيَفْصِلُ مِنْ مَهْمَاتِ الْمَمَالِكِ مَا يَقْتَضِي الْحَقُّ أَنْ يُفْصَلَ ؛ وَيُبْرُزُ مِنْ مَعَادِنِ
الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مَا هُوَ فِي سِرِّ خِلَاقِهِ كَامِنٌ ، وَيُنْزِلُ مِنْ أَسْتَقَامَتِ سِيرَتِهِ فِي الْحِمَى
الْخُصْبِ وَالْحَرَمِ الْأَمَنِ ؛ وَيَصُونُ الْأَمْوَالَ بِمَهَابَتِهِ فَلَا تَمْتَدُّ إِلَيْهَا هَوَاجِسُ الْأَطْعَامِ ،
وَلَا تَجَسَّرُ أَبْصَارُ غَيْرِ الْأَمْنَاءِ أَنْ تَقْصُ نَبَأَ رُؤْيَيْهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ ؛ وَيُضَاعَفُهَا بِخَبْرَتِهِ
الَّتِي تَهْدِيهَا الْأَمَانَةُ إِلَى مَعَادِنِهَا ، وَتُدْخِلُهَا النَّزَاهَةَ عَلَى مَوَاطِنِهَا ، وَتُبْدِي لَهَا ظَوَاهِرَ
الْأَعْمَالِ أَسْرَارَ بَوَاطِنِهَا ، وَيُعَمِّرُ بِيُوتَ الْأَمْوَالِ بِعِمَارَةِ الْبِلَادِ ، وَيَثْمُرُ فُرُوعَ الطَّوَارِفِ
مِنْ مَصَالِحِهَا بِحِفْظِ أَصُولِ التَّلَادِ ؛ وَيَكْفُفُ أَكْفَ الظُّلْمِ عَنِ الرِّعَايَا فَلَا يَخْشَى حَقِّ
عَلَى حَقِّهِ ، وَلَا يَخَافُ مُسْتَقِيمٌ عَلَى مَا قُسِمَ لَهُ مِنْ رِزْقِهِ ؛ وَلَا يَطْمَحُ قَوِيٌّ إِلَى مَنْ
يَسْتَضْعِفُ جَانِبَهُ ، وَلَا يَطْمَعُ بَاغٌ فِي الْحَيْفِ عَلَى أَحَدٍ نَخَالِطُهُ فِي نَسَبٍ كَانَ أَوْ جُنَابَتِهِ .

ولما كان الجَناب العالى (الفلانى) هو الذى أُشِيرَ إلى مَنَاقِبِهِ ، وأَعْتَصِدَ مِنْهُ
بمطِيعِ اللَّهِ فى السِّرِّ والْعَلَنِ ومِراقِبِهِ ، وفُؤُضَ تَدْيِيرُ الْمَمَالِكِ مِنْهُ إِلَى مَنْ لَا تَأْخُذُهُ
فِى الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَأَئِمٍّ ، وَأَعْتَمَدَتْ أَيْامُنَا الزَّاهِرَةُ مِنْهُ عَلَى مَنْ طَالَمَا سَرَى فِى مَصَالِحِهَا
عَلَى جِيَادِ الْعِزَائِمِ ، وَشَدَّ أَرْزَ الْمَلِكِ مِنْ مَوَازِرَتِهِ بِمَنْ يَكْسُو دَسْتَ الْوِزَارَةِ أَهْبَةً
وَجَلَالًا ، وَيُلِيسُ مِنْصِبَهَا سَنًا لَوْ مَلَكَتْهُ الشَّمْسُ مَارَمَتْ عَنْ بُرُوجِ شَرْفِهَا أَنْتَقَالَ ؛
وَيَمُدُّ عَلَى الرِّعَايَا لَوَاءَ عَدْلٍ لَا يُقْلَصُّ لَهُ هَجِيرُ الظُّلْمِ كَمَا تَتَقَلَّصُ الظُّلَالُ ظِلَالًا ؛ وَتَطْلُعُ
بِهِ شَمُوسُ الْأَرْزَاقِ عَلَى أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِنَا لَكِنْ لَا تَرْهَبُ كَالشَّمُوسِ غُرُوبًا وَلَا زَوَالًا ؛
مَعَ مَهَابَةِ تُخَيِّفُ الْأُسْدَ فِى أَجْحَتِهَا ، وَمَعْدِلَةِ تُعِينُ الْغِيُوثَ عَلَى رَفْعِ مُحُولِ الْبِلَادِ
وَدَفْعِ أَرْمَاتِهَا ؛ وَدِيَانَةِ زَانِهَا التُّقَى ، وَخَبْرَةِ صَانِهَا الْوَرَعُ وَهَمَّا أَفْضَلَ مَا بِهِ يُرْتَقَى .

وَكَانَتْ الْوِزَارَةُ الشَّرِيفَةُ نِظَامَ الْمَمْلَكَةِ وَقَوَامِهَا ، وَذِرْوَةَ الدَّوْلَةِ وَسَنَامِهَا ؛ وَتَاجُ
الْمَرَاتِبِ وَإِكْلِيلِهَا ، وَعَتَادَ الْخِزَائِنِ الْجَامِعَ دَقِيقَ الْمَصَالِحِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَجَلِيلِهَا - أَقْتَضَتْ
أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةُ أَنْ تُرَتَّبَ هَذِهِ الرِّتْبَةُ بِجَوْهَرِ فِرْنَدِهِ ، وَأَنْ يُصَدَّرَ مِنْصِبُهَا عَنْ مَنَاقِبِ
لَا تُصَدَّرُ إِلَّا عَنْ جِهَتِهِ وَمَفَاحِرَ لَا تُرَدُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ؛ وَأَنْ يُطْلَقَ فِى مَصَالِحِهَا قَلَمُهُ ،
وَيُعْضَى فِى قَوَاعِدِهَا إِشَارَاتِهِ وَكَلِمَتُهُ ؛ وَيُطْلَعَ فِى أَفْقِهَا شَمْسُ تَدْيِيرِهِ ، وَيُعَدَّقَ بِهِ
مَا يَرَاهُ فِى أُمُورِهَا مِنْ صَغِيرِ الْأَمْرِ وَكَبِيرِهِ ؛ وَأَنْ نَجْعَلَ مَسَامِعَ الْأَقَالِمِ عَلَى سَعَتِهَا إِلَى
أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ مُصْغِيَةً ، وَأَنْ نَصُدَّ بِسَمْعَتِهِ عَمَّنْ بَعْدَ عَوَارِضِ الْإِهْمَالِ الْمُلْهِمَةِ
وَمَوَاقِعِ الْإِهْمَالِ الْمُطْغِيَةِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالَتِ سَحَابِ رِيَّهِ مَسْتَهْلَةً ، وَرُكَايُتِ الْحَامِدِ إِلَى
حَرَمِ نِعْمَةِ مُهَلَّةٍ - أَنْ تَفُؤُضَ إِلَيْهِ الْوِزَارَةُ الشَّرِيفَةُ بِالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ
الْقَوَاعِدِ ، وَأَجْمَلِ الْعَوَائِدِ ؛ تَفْوِيضًا يُعْلَى مَرَاهِهِ ، وَيُعْضَى مِضَاءُ أَلْسِنَةِ أَقْلَامِهِ ،

وَيُسْطُ فِي مَصَالِحِ الْأَقَالِيمِ الْمَحْرُوسَةِ يَدَهُ وَلِسَانَهُ ، وَيَلْقَى إِلَيْهِ مِنْ مَهْمَّاتٍ كُلِّ قُطْرٍ
أَزَمَّتْهُ لِيَصْرِفَ عَلَى مَا يَرَاهُ مِنَ الْمَصَالِحِ عِنَانَهُ .

فَلْيَسْتَقِرَّ فِي هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي اسْتَقَرَّ الدُّرَرُ فِي أَسْلَافِهَا ، وَالِدَّرَارِيُّ فِي أَفْلاكِهَا ،
نَافِذَ الْأَمْرِ فِي مَصَالِحِ شَرْقِهَا وَغَرْبِهَا ، مُطَاعَ الْقَوْلِ فِي بَعْدِ أَمَاكِنِهَا مِنْهُ وَقُرْبِهَا ،
نَاشِرًا كَلِمَةَ الْعَدْلِ فِي أَرْجَائِهَا ، مُحَقِّقًا بِالْإِحْسَانِ آمَالَ أُمَمٍ قَصَرَتْ عَلَى كَرَمِنَا مَمْدُودَ
رَجَائِهَا ؛ مُعْلِيًا مَنَارَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمُعَاضِدَةِ حُكَّامِهِ ، وَالْوَقُوفِ عِنْدَ أَوَامِرِهِ الْمُطَاعَةِ
وَأَحْكَامِهِ ؛ حَافِظًا أَقْدَارَ الرُّتَبِ بِأَكْفَائِهَا ، مُعْتَمِدًا عَلَى ذَوِي الْبُيُوتِ الْمُحَافِظِينَ عَلَى
اتِّبَاعِ سَبِيلِ أَسْلَافِهِمْ وَأَقْنِيئِهَا ؛ مَعُولًا عَلَى ذَوِي الْخِسْبَةِ التَّامَةِ مَعَ الدِّيَانَةِ ، مُرَاعِيًا
مَعَ ظُهُورِ الْمَعْرِفَةِ جَانِبَ الْعِفَّةِ وَالزَّاهَةِ وَالصَّيَانَةِ ؛ مُوَكَّلًا بِمَصَالِحِ بُيُوتِ الْأُمُومِ
وَالْخَزَائِنِ الْمَعْمُورَةِ مَوَادِّ الْأُمُومِ وَمَعِينًا ، صَارِفًا إِلَى عِمَارَةِ الْبِلَادِ جَمِيلَ تَدْيِيرٍ تَعْتَصِدُ
الْبَحَارُ وَالسَّحْبُ مِنْهُ بِمُسَاعَدَةِهَا عَلَى رَى الْأَرْضِ وَمُعِينًا ؛ مَيَسِّرًا مَوَادَّ أَرْزَاقِ خَدَمِ
دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ وَأَوْلِيَائِهَا بِجَمِيلِ بَشْرِهِ وَحُسْنِ رُؤْيَاهِ ، مَسْهَلًا مُطَالِبَ أَرْبَابِ الرُّوَاتِبِ
وَالصَّدَقَاتِ بِطَلَاقَةِ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرٌ صَادِي الْجَوَانِحِ لَأَرْتَوَى مِنْ مَائِهِ ؛ لِيَتَوَقَّرَ
أَهْلُ الْوُظَائِفِ عَلَى خِدْمَتِهِمْ بِقُلُوبٍ مُنْبَسِطَةٍ الْآمَالِ ، وَيُنَاضِلَ عَنْهَا الْفُقَرَاءُ بِسِهَامِ^(١)
الْجِيلِ الَّتِي لَا تَطِيشُ إِذَا طَاشَتِ النَّبَالُ ؛ فَقَدْ جَعَلْنَا أَمْرَهُ فِي ذَلِكَ جَمِيعَهُ مِنْ أَمْرِنَا
فَلْيَكْتُبْ يَمْتَثِلُ ، وَلْيُقِلْ فِي مَصَالِحِنَا بِمَا يَرَاهُ يَسِّرُ كَلَامُهُ سُرَى الرِّيحِ وَيَسِّرُ قَوْلُهُ
سَيْرَ الْمَثَلِ ؛ وَلَا يُمْضَ عَقْدٌ وَلَا حَلٌّ ، وَلَا وَلَايَةٌ وَلَا عَزْلٌ ؛ وَلَا رَفْعٌ وَلَا خَفْضٌ ،
وَلَا إِبْرَامٌ وَلَا نَقْضٌ ؛ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ وَإِشَارَتِهِ ، وَبَنَصِّ خَطِّهِ وَعِبَارَتِهِ .

وَفِي سِيرَتِهِ السَّرِيَّةِ ، وَدِيَانَتِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَسْبَابِ الْهَوَى عَرِيَّةٌ ، مَا يُغْنِي عَنْ وَصَايَا
تُمْلَى عَلَى فِكْرِهِ ، وَقَوَاعِدُ تُجَلَّى عَلَى ذِكْرِهِ ؛ وَمِمَّا كُفِّهَا تَقْوَى اللَّهِ : وَهِيَ مِنْ أَخَصِّ

(١) المراد دعوات السحرة كما لا يخفى .

اوصافه ، ونشر العدل والإحسان وهما من نتائج إنصاته لأُمور الرعايا وإنصافه ؛
 لكن على سبيل الذكرى التى تنفع المؤمنين ، وترفع درجات المتقين ؛ فليجعلها نجيّة
 خاطره ، وقبلة ناظره ؛ والله تعالى يُعَلِّي قدره وقد فعل ، ويجعله من عباده المتقين
 وقد جعل ؛ بمنّة وكرمه . والأعتماد [على الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة

(الإشارة) ، وهى وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يُعهد بها كتابةً فى الزمن القديم
 وهذه نسخةٌ تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمال الدين يوسف البشاشى إستاندار
 فى الدولة الناصرية فرج ، حين فُوِّضت إليه الإشارة مضافةً إلى الإستدارية ،
 وكتب له به المقر الشمسى العُمريّ كاتب الدسّ الشريف ، فى شعبان سنة تسع
 وثمانمئة ، وهى :

الحمد لله الذى جدّد للديار المصرية بالمحاسن اليوسفيّة رَوْقَ جَملها ، وأعزّ جانبها
 بأجل عزيز ملأت هيئته الوافرة فسيح مجاطها ، وأسعد جدّها بأسعد مشير أدارت
 أراؤه الصابئة متقاعس الأمور ما بين يمينها وشمالها ، وأكرم ما بها بأمثل كاف عاد
 حسن تدبيره بضروب من المصالح أنام الخلق فى ظلالها ، وأجاب سُؤلها بأكمل
 لم تعدل عن خطبتها له وإن أطال فى مطالها .

نحمده على أن أغاث الدولة القاهرة بمن أخصب به بعد الإمحال ربُّها ، وطال
 بطوله بعد القصور فرعها ، وحسن فى المناظر بحسن تأتبه لذى التأمل ينفعها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى شرع المشورة وحثّ عليها ،
 وعدق أمور السيف والقلم بها فردّها عند اختلاف الرأى إليها ؛ شهادةً ترفع قائلها إلى
 أسنى المراتب وتعليه ، وتقرب المخلص فى آتئالها من مقام الاستخلاص وتذنيه .

ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى وردَّ وارِدُ الأُمة من مَنَهلِ شِرعته المطهَّرة
ماعدب مشرعه وردا وصَدرا ، وأَلتقطتِ السَّيَّارةُ أَحاديثَ فضله فَصيرَتْها للرفاق
سَمرا ، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِهِ الَّذِينَ تَقَبَّلُوا مَسَاحِبَ أَذْيَالِهِ فِي الْعَدَلِ فَعَدُّوا ،
وَلَزِمُوا مَنَهِجَ سُنَنِهِ الْوَاضِحِ فَا حَادُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ وَلَا عَدُّوا ؛ صَلَاةً تَفُوقُ الْعَدَّ
حَضْرًا ، وَتَرْفَعُ بَرَكَاتُهَا عَنْ الْأُمةِ حَضْرًا وَتَبْدِلُ الْعُسْرَ يُسْرًا ، فَيُعِيدُ عِجَافَ الزَّمَانِ
سِمَانًا وَسُنْبِلَاتِ الْوَقْتِ بَعْدَ الْيُبْسِ خُضْرًا ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ ، فَإِنَّ لِلْمَلِكَةِ قَوَاعِدَ تُبْنَى عَلَيْهَا ، وَأَرْكَانًا تَسْتَدِإِلِيهَا ، وَدَعَائِمَ يُشَدُّ
بِالْإِعْتِصَادِ بِهَا بُنْيَانُهَا ، وَعَمَدًا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي الْمَهْمَّاتِ سُلْطَانُهَا ، وَهَذِهِ الْمَبَانِي وَإِنْ
أَتَّسَعَ نِطاقُهَا ، وَأَمْتَدَّ بِامْتِدَادِ الْمَلِكَةِ رُواقُهَا ، فَإِنَّ بِالسَّيْفِ وَالْقَلَمِ قِوَامَهَا ، وَبِالتَّعَلُّقِ
بِحَبَالِهَا بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا ، إِذْ كَانَا قُطْبَيْنِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ فَلَكِهَا ، وَنَقْطَتَيْنِ عَنْهُمَا يَنْشَأُ
الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ فِي تَدْيِيرِ مُلْكِهَا ، وَزَعِيمَيْنِ يُتَرَفَّعُ إِلَيْهِمَا عِنْدَ التَّخَاصُمِ ، وَحَكَمَيْنِ يَرْجَعُ
إِلَى حُكْمِهِمَا عِنْدَ التَّحَاكُمِ ، إِلَّا أَنَّهُمَا لَا يَسْتَقِلَّانِ بِأَنْفُسِهِمَا عِنْدَ التَّحَالُفِ ، وَلَا يَقُومُ
أَحَدُهُمَا بِرَأْسِهِ لَدَى التَّخَالُفِ ، بَلْ لُهُمَا إِمَامٌ يَرْجِعَانِ إِلَيْهِ ، وَيَعُولَانِ عِنْدَ اضْطِرَابِ
الْأُمُورِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي لَا يَقْطَعُ أَمْرٌ دُونَ حُكْمِهِ ، وَلَا يَهْتَدِي سَارٍ فِي مَهَامِهِ
الْمِهْمَّاتِ إِلَّا بِنَجْمِهِ ، إِذْ كَانَ عَلَى الشَّجَاعَةِ مُقَدِّمًا ، وَدَلِيلُهُ مِنَ الْمَعْقُولِ وَالْمُنْقُولِ
مُسْلِمًا ، وَالْمُتَّسِمُ بِهِ لَا يَزَالُ عِنْدَ الْمُلُوكِ مَبْجَلًا مَعْظَمًا ، لَا يَقْدَمُونَ عَلَيْهِ وَلَدًا وَلَا وَالِدًا ،
وَلَا يُؤْثِرُونَ عَلَى مُعَاوَضَتِهِ عَضْدًا وَلَا سَاعِدًا ؛ إِنْ أَشَارَ بِرَأْيِ تَمَسُّكِ الْمَلِكِ مِنْهُ بِالْحَبْلِ
الْمَتِينِ ، أَوْ مَحْضِهِ كَلَامَ نَصِيحٍ قَالَ : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) .

ولما كان الجَنَابُ الْعَالِي ، الْإِمْرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ (إِلَى آخِرِ أَلْقَابِهِ) يُوسُفُ
الْناصري : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ ، هُوَ الَّذِي حَنَّكَتَهُ التَّجَارِبُ وَ« حَلَبَ الدَّهْرَ

أشطره»، وعرف بتقليب الأمور على ممر الزمان مجبره؛ مع ما أشتمل عليه من رأى الصائب، والفكر الذى اذا أبدت قريحته فى الارتباء عجباً أتت فطرته السليمة بالعجائب.

هذا وقد علا فى الدولة القاهرة مقامه، ورشقت أغراض مقاصدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سهاؤه؛ وساس العساكر فأحسن فى سياستها التدبير، وبذل فى نفقاتها الأموال فال فيها إلى الإسراف دون التقدير؛ وأستجلب الخواطر فأخذ منها يجامع القلوب، وأقتاد النفوس الأبيّة قهراً فأطاعه من بين الشمال والجنوب؛ وقام من المهمات الشريفة بما لم يسبقه إليه سابق، وأتى من خوارق العادات فى التنفيذ بما لم يلحقه فيه لاحق، وبادر إلى ترتيب المصالح فرتبها ولم يعقه فى انتهاز الفرصة عن دفع المفاسد عائق؛ وأخذ فى حط الأسعار فورد منها من المعروف صافياً، وأمر بإبطال المعاملين فكان له عملاً على توالى الأزمان باقياً؛ ولازم بعد رضا الله تعالى رضا مملكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم، وتأسى فى تعريفه بنفسه بيوسف عليه السلام فقال: «أجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظٌ عليم» - أقتضى حسن رأى الشريف تنويعها بذكره، وتقديمه على غيره ممن رام هذه الرتبة فحجب دونها «والله غالب على أمره».

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الناصرى، الزينى - لا زال يجمع لأوليائه شمل المعالى، ويرقى أصفياه فى درجات العز على ممر الأيام والليالى - أن تفوض إلى المشار إليه الإشارة الشريفة التى هى أسنى المقامات وأعلاها، وأقصى المرامات لدينا وأغياها؛ مع ما أنضم إلى ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جل قدرها، وعلا فى المناصب ذكرها؛ والخاص الذى آختص بمهماتها

الشريفة، والديوان المفرد الذى غمّر من ممالك السعيدة ذا الوظيفة وغير ذى الوظيفة، وتعلقات المملكة شرقاً وغرباً، ولوازمها المفترقة بُعداً وقرباً .

فليتأقّ ما فُوض إليه بيمينه التى طالبا رَحت فى الطاعة صَفَقَتْها، ويقابلُه بالقبول الذى محلّه من القلوب مُهَجَّتْها، مقدّماً تقوى الله تعالى فيما خفى من مقاصده وظهّر، مُؤثِّراً رضاه فى كل ما يأتى ويذرّ، معتمداً فى المصالح اعتماد ذى اليقظة الساهر، آتياً من غرائب الرغائب بما يحقّق قول القائل : «كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ» .

والوصايا كثيرة ومن بحره تُستخرج دُررها، ومن سوابق آرائه تُستوضح أوضاعها وغُررُها، والله تعالى يُديم عليه نعم إقبالنا الباطنة والظاهرة، ويتولّاه من العناية بما يحقّق له دائم قوله : ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ . والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانية

(من يكتب له من أرباب السيوف ذوات التواقيع، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(نظر البيارستان لصاحب سيف)

(١)

الحمد لله رافع قدر من كان فى خِدمتنا الشريفة كريم الخلال، ومُعَلّي درجة من أضفى عليه الإخلاص فى طاعتنا العلية مديد الظلال، ومجدّد نعم من لم يُخصّه اعتناؤنا بغاية إلا رَقَّتْه هممه فيها إلى أسنى رُتب الكمال، ومفوض النظر فى قُرب

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشته كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السالفة إلا مَنْ لم يلاحظ من خواصنا أمرا إلا سرنا ما نشاهد فيه من الأحوال الحوال .

نحمد على نعمه التي لا تزال تسرى إلى الأولياء عوارفها ، ومنهاه التي لا تبرح تشتمل على الأصفاء عواطفها ، وآلائه التي تسد آراءنا في تفويض القرب إلى مَنْ إذا باشرها سر بسيرته السرية مستحقها وواقفها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رفع الإخلاص لإوآها ، وأفاض الإيمان على وجوه حملتها إشراقها وضياءها ، ووالى الايقان إعادة أدائها بمواقف الحق وإبداءها .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بعموم الشفاعة العظمى ، المقصود في السنة ذكر حوضه الذي من شرب منه شربة فإنه بعدها لا يظما ، المنصوص على نبوته في الصحف المنزلة وبشرت به الهواتف نثرا ونظما ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من طاعته ، بالرتب الفاخرة ، وحازوا بالإخلاص في محبته ، سعادة الدنيا والآخرة ، وأقبلوا على حظوظهم من رضا الله ورضاه فلم يئووا على خدع الدنيا الساحرة ، صلاة دائمة الاتصال ، أمانة شمس دولتها من الشروب والزوال ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى الأمور بالنظر في مصالحها ، وأحقها بتوفير الفكر على اعتبار مناهجها واعتماد مناهجها ، أمر جهات البر التي تقرب بها السلطان الشهيد الملك المنصور (قدس الله روحه) إلى من أفاض نعمه عليه ، وتووع في إنشائها فأحسن فيها كما أحسن الله إليه ، ورغب بها فيما عند الله : لعلمه أن ذلك من أنفس الذخائر التي أعدها بين يديه ، وحل منها في أكرم بقعة نقله الله بها عن سريه إلى مقعد صدق عند ربه ،

وعمرها موطن العبادَةِ في يومِ سَلَمِهِ بعد أن عَفَى بها مَعاقِلَ الكُفْرِ في يومِ حَرْبِهِ ؛
وأقام بها منارَ العلومِ فعَلًا مَنالها ، وأعدَّ للضعفاءِ بها من موادِّ البرِّ والإلطافِ مالو
تعاطتْهُ الأغنياءُ قَصُرَتْ عن التَّطاولِ إليه أموالُها ؛ وأن نَرْتادَ لها مَنْ إذا فَوَّضنا إليه
أمرًا تَحَقَّقنا صِلَاحَهُ ، وتيقَّننا نَجَاحَهُ ، واعتقدنا تَنِمَةَ أمواله ، واعتدنا في مضاعفة
أرتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله ، وعلمنا من ذلك ما لا نَحْتَاجُ فيه إلى آخِبار
ولا اعتِبار ، ولا يُحْتَاجُ في بيانِ الخِيرةِ فيه إلى دليلٍ إلا إذا احتَاجَ إليه النَّهارُ ،
لنكونَ في ذلك بِمَثابَةٍ من ضاعَفَ لِهذه القُربِ أسبابَ ثوابها ، أو جَدَّدَ لها وَقْفًا :
لكونه أتى بيوتَ الإحسانِ في آرتِبادِ أكفاءِ النَّظَرِ لها من أبوابها .

ولما كان فلان هو الذى نَبَّهْتُ أوصافُهُ على أَنه ماوَلِيَ أمرًا إلا وكان فوقَ ذلك
قَدْرًا ، ولا أَعْتَمِدُ عليه فيما تَضَيِّقُ عنه هِمَمُ الأولياءِ إلا رَحُبَ به صَدْرًا ، ولا طلع
في أَفْقِ رُتْبَةٍ هلالًا إلا وتَأَمَّلْتُهُ العيونُ لأَجَلِ رَبِّ الكَمالِ بَدْرًا ؛ يدركُ ما نَأَى من مصالحِ
ما يليه بأدنى نَظَرٍ ، ويسيقُ في سَدادِ ما يباشره على ما يَجِبُ سَدادُ الآراءِ ومواقِعُ
الفِكرِ . ونحن نَزِدُّادُ غِبطَةٍ بتدبيره ، ونَتَحَقَّقُ أَنَّ كل ما عَدَقْنَا به إليه من أمرٍ جليلٍ فقد
أَسَدَناهُ إلى عارِفِهِ وفَوْضناه إلى خَيرِهِ - أَقْتَضَتْ آراؤُنا الشَّرِيفَةُ أَنْ نَعْدِقَ بِجَميلِ نظره
هذا المُهِّمَّ المَقْدَمَ لَدِينَا ، وأن نُفَوِّضَ إليه نَظَرَ هذه الأوقافِ التى النَّظَرُ فى مَصالِحِها
من أكَّدَ الأمورَ المَتَعِينَةَ عَلَيْنَا .

فَرِسِمَ بالأمرِ الشَّرِيفِ - لا زالَ فَضْلُهُ عَمِيماً ، وَرِهَ يَقْدَمُ فى الرُّتْبِ مَنْ كانَ من
خِواصِّ الأولياءِ كَرِيماً - أن يُفَوِّضَ إليه كَيْتَ وَكَيْتَ .

فَلَيْلِ هذه الرُّتْبَةِ التى أُرِيدَ بها وَجْهُ الله وما كانَ لله فَهُوَ أَهَمُّ ، وَقُصِدَ بها النِّفْعُ
الْمَتَعَدِّى إلى العُلَماءِ والفُقَرَاءِ والضعفاءِ ومِراعاةُ ذلك من أَخَصِّ المَصالِحِ وأَعَمِّ .

ولينظر في عموم مصالحها وخصوصها نظراً يسدّ خللها ، ويزيح عِلَلها ، ويعمّر أصولها ، ويثمر محصولها ، ويحفظ في أماكنها أموالها ، ويقم بها معالم العلوم في أرجائها ، ويستزل بها موادّ الرحمة لساكنها بالسنة قراءتها ، ويستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الدخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ، ويحافظ على شروط الواقف في إقامة وظائفها ، وأعتبر مصارفها ، وتقديم ما قدمه مع ملاءة تديره باستكمال ذلك على أكل ما يجب ، وتميز حواصلها بما يستدعي إليها من الأصناف التي يعزّ وجودها ويحتلّب ، وضبط تلك الحواصل التي لا خرائن لها أوثق ، من أيدي أمنائه وثقاته ، ولا مودّع لها أوفق ، من أمانة من يتقي الله حقّ ثقاته ، فذلك وكلّناه في الوصايا إلى حسن معرفته وأطلاعه ، ويؤمن نهوضه بمصالحنا وأضطلاعه ، إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظر الجامع الطولوني)

من إنشاء المقرّ البدريّ ابن المقرّ العلّائي بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، في الدولة الظاهرية برقوق ، كتب به المقرّ الشمسيّ العمريّ كاتب الدّست الشريف لأبي يزيد الدّوّادار ، وهي :

الحمد لله الذي أقام من أوليائنا خير ناظر ، يقتر به كل ناظر ، وأدام بنا بناء المعروف الزاهر وحسنه الباهر ، وأنام الأنام في مهاد الأمن بانتقاء وليّ لسان الكون حامد له ومادح وشاكر ، وفتح أبواب السعادة بأصطفاء صفّيّ طاب بسفارته كلّ خاطر من مقيم وخاطر ، ومنح أسباب السيادة بأوفى وفيّ عمر بوجوده

الوجودَ وعَمَرَ بِجُودِهِ كُلَّ بَادٍ وَحَاضِرٍ ، وَأَبْصَرَ بِالْدينِ الْمُتِينِ وَالْفَضْلِ الْمُبِينِ فَأَقْنَسَاهُ
لِلنَّظَرِ عَلَى بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَوْلَوِيَّتِهِ بِذَلِكَ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِالْمَزِيدِ فَسَرَّتِ السَّرَائِرَ ، وَظَهَرَتْ بِنُورِ الرُّشْدِ الْمَدِيدِ
فَأَشْرَقَ بِهَا الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْعَزِيزُ
الْقَادِرُ ، شَهَادَةً صَدَقَتْ فِي الْإِخْلَاصِ بِهَا الْأُلْسِنَةُ وَالضَّمَائِرُ . وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مَعْدِنُ الْأَسْرَارِ ، وَبَحْرُ الْجُودِ الزَّاهِرِ ، وَمَنْبَعُ الْأَنْوَارِ ، صَاحِبُ الْآيَاتِ
الظَّاهِرَةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْمَفَاحِرِ ، الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ الْأَوَائِلُ
وَالْأَوَاخِرُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ ، الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ فَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ أَعْظَمَ مَجْتَهِدٍ وَمُؤَيِّدٍ وَنَاصِرٍ ، وَسَلَّمْ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ أُلْقِيَتْ إِلَيْهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ ، وَصَرَّفَنَاهُ فِي جَمِيعِ مَصَالِحِ
الْجُمْهُورِ ، وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى لِيَعْمُرَهَا بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ وَتُضَاعَفَ لَهُ
الْأَجُورُ ، وَمَنَّكَ لَهُ فِي دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ حَتَّى صَارَ قُطْبَ فَلَكِهَا عَلَيْهِ تَدْوِيرُ ، وَبَسْطُنَا
يَدَهُ وَلِسَانَهُ فَهُوَ يَنْطِقُ عَنَّا وَيَأْمُرُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَسْدَرِ فِي الْوُرُودِ وَالصُّدُورِ ، وَقَيَّدْنَا
الْأَرْزَاقَ بِقَلَمِهِ ، وَالْمِهْمَّاتِ بِكَلَمِهِ ، فَلَا فَضْلَ إِلَّا مَنْ فَيَضُهُ الْمُنْشُورُ - مِنْ أَمْتَارِ
عَلَى غَيْرِهِ بِفَضِيلَتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَتَقَدَّمَ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ بِأَثْبَتِ قَدَمٍ ، كَانَ بِهَا
مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقَدَمِ ، وَأَتَّصَفَ بِالشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْمَعْرِفَةِ النَّاتِمَةِ وَالْحِلْمِ
وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمِ ، فَهُوَ التَّرْجُمَانُ عَنَّا النَّاطِقُ بِفَصْلِ الْخَطَابِ فِي السَّرِّ لِلتُّرْكِ وَالْعَرَبِ
وَالْعَجَمِ ، وَعُرِفَ بِالرَّأْيِ السَّعِيدِ ، وَالنَّظَرِ السَّعِيدِ ، وَالتَّيْدِيرِ الْحَمِيدِ ، وَالْقَوْلِ الْمُنْفِيدِ ،

(١) ظَهَرَتْ بِالْمَزِيدِ قُوَّةٌ بِهِ وَظَهَرَتْ بِنُورِ الرُّشْدِ وَضُحَتْ وَبَانَتْ .

والجود والكرم ، وطُبع على الخير الجزيل ، والدين الجميل ، عُمره في الحق قائم ،
لا تأخذه في الحق لومة لائم ، طالما أحيأ بحسن السفارة من العدم .

هو واحد في الفضل والنظر السعيد لأبي سعيد .

فن الذي يحكيه في الشرف العتيد بطل الوغى أبو يزيد .

قد تفرّد في العفة والديانة ، والثقة والأمانة ، وألتحف بالصفاء ، وتردّى بالوفا ،
وشفى بالخير والخير من كان بالفقر على شفا فحصل له الشفا ، ووفى بالعهود والمواثيق
وذلك أمر ماخفى ، ولحق في الجود والدين بسميه أبى يزيد البسطامى الولي^(١) :

قالوا : الولي أبو يزيد قد مضى * وهو الفريد بفضله والصادق !

قلت : الأمير أبو يزيد مثله * هناك سابقه وهذا اللاحق !

ولما كان فلان هو المشار إليه بهذه الصفات الحسنه ، والمناقب التي تتوعّت
في مدائحها الألسنه ، وعُرف بالجود فلما حُبّه الأئمة فارتفعت الأصوات بالدعاء
له مُعلنه ، طالما أنال النعم ، وأزال النقم ، وجبر القلوب ، وكشف الكروب ، وجلا
ظلام الخطوب ، ونشر المعروف ، وأغاث الملهوف ، وأتقّد من المهالك ، وعمر
بتدبيره الممالك ، ووصل الأرزاق ، وأجرى الأطلاق على الإطلاق - أقتضت
أراؤنا الشريفة أن نعتد في جميع الأشياء عليه ، ونلقى مقاليد الأمور إليه ، وننوط
به المهمات وغيرها : ليكون العلم بالكليات والجزئيات لديه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يتحف بالمزيد من كرمه ، ويسبغ جلايب
نعمه ، ويحجر بحر فضله الواسع ، ويعم بنظره المقربين من أوليائه كل جامع للخير
جامع ، أن يستقر^(٢)

(١) جرى على لغة طي ، نظر السجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "في نظر الجامع الطولوني" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك في مثل هذه المواضع .

فلتلقَ هذا التفويضَ الجليلَ بقبوله ، ويبلغَ الجامعَ المذكورَ ما يرتقبُه من عمارته
التي هي غايةُ مأمولة . ومنه تؤخذ الوصايا لآله لسانُنا الناطق ، وسفيرُ مملكتنا العالم
بالحقائق والدقائق ، فلا يحتاج أن يُوصى ولا أن نفتَح معه في الوصية باباً ، وما يصلح
أن يقال لغيره لا يجوز أن يكونَ له خطاباً :

ومثلك لا يدلُّ على صوابٍ * وأنت تعلم الناس الصواباً!

والله تعالى يؤيده في القول والعمل ، ويعمُّ بوجوده وجوده الوجود وقد فعل ؛
ويُبقِيه مدى الدهر ، ويستخدِم لسُعوده الساعة واليوم والجمعة والشهر ، ويجعل
بابه الطاهر مفتوحاً للقاصدين على الدوام ، ويُقيمه واسطة عقد الملك فإنه مبارك
أينما كان ورحمةً للأنام ، والاعتمادُ على الخطِّ الشريف أعلاه حجةً بمقتضاه ،
إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة

(تقابة الأشراف)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية في المقالة الثانية أن
موضوعها التحدُّث على الأشراف ، وهم أولادُ أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى
الله عنه ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وقد جرت العادة أن الذى يتولَّى هذه الوظيفة يكون من رؤوس
الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام ، وإنما أوردته مع أرباب السيوف
لأن المقرَّ الشهابي بن فضل الله قد ذكر في بعض دساتيره الشامية أنه يكتب
لنقيب الأشراف « الأميرى » ولا يكتب له « القضاى » ولو كان صاحب قلم .

وقد رأيت له عدةً تواقع على ذلك مكتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبي الشام وحلب وغيرهما، معبراً عنه فيها «الأميري» وتوقعه في قطع الثلث مفتوح بخطبة مفتحة بـ «الحمد لله» .

(١) وهذه نسخة [توقع] بتقابة الأشراف، وهي :

الحمد لله مشرف الأنساب، وموفاي الأحساب، حقوق ملاحظتهم بغير حساب، وجاعل أيماننا الشريفة تحمد الأكتساب .

نحمده بحمده حسنة الإيجاد والإيجاب . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شك في مقامها ولا أرتياب . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه الذي أنزل عليه الكتاب، وشرف به الذراري من شجرته المباركة الأعقاب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تتوارى شمسها بحجاب .

وبعد، فإن خير ما صُرفت إليهم إلى تشييد مبانيه، وتقييد مهمل رواعيه وملاحظة قاصيه ودانيه، المحافظة على كل ما يرفع قدر الآل ويعليه، ويرد إليهم عنان الاعتناء ويثنيه .

ولما كانت العترة الطاهرة النبوية وراث الوحي الذين آل إليهم ميراثه، وأهل البيت الذين حصل لهم من السؤدد آياته، وقد سأل الله وهو المسئول لهم القربى، وخصهم بمزايا حقيق بمثل متصرفهم أنه بها يُنجى وأنهما لهم نُجى : لما في ذلك من بركات تُرضى سيد المرسلين وتُعجبه، ويُسطر الله [الأجر] لفاعله ويكتبه، وكان لابد لهم من رئيس يُضد سلكهم وينظمه، ويعظم نخرهم ويفخمه، ويحفظ أنسابهم،

ويُصْقل بمكارمه أحسابهم ؛ ويُنمى بتدبيره رعيهم ، ويُتابع تحت ظل هذه الشجرة الزكية ما زكى ينعمهم ؛ ويحفظهم في ودائع النسل ، ويصد عن شرف أرومهم من الأُدعياء المدعين بكل بسل^(١) ؛ ويحرس نظامهم ، ويؤالى إكرامهم ؛ يأخذهم بمكارم الأخلاق ، ويمدحهم بأنواع الإرفاد والإرفاق ؛ ويتولى ردع جانبيهم إذا لم يسمع ، ويتدبر فيه قوله : « أنفك منك وإن كان أجَدع » .

ولمّا كان فلان هو المشار إليه من بنى هذه السّلالة ، وله من بينهم ميرة باطنة وظاهرة وإن كانوا كلّهم شيئاً واحداً في الإجلال والإعظام ، فقد تميّزت من بين الأنامل السّبابة على الخنصر والنّصر والوسطى والإبهام ، ولم تخرّجني فضل بعضه على بعض في الأكل وهو يُسقى بماء واحد ، وقد أمتاز على بنى هاشم سيّد المرسلين عليه أفضل الصّلاة والسلام - أقتضى حسن الرأى المنيّف ، أن يرسم بالأمر الشريف - لا بريح يختار وينتقى ، ويحتجّ من يخشى الله ويتقى - أن تفوّض إليه نقابة الأشراف الطالبيين على عادة من تقدّمه من الثّقباء السادة .

فليجمع لهم من الخير ما يهيج الزهراء البتول فعله ، ويفعل مع أهله وقرباته منهم ما هو أهله ؛ وليحفظ مواليدهم ، ويحرّر أسانيدهم ؛ ويضبط أوقافهم ، ويعتمد إنصافهم ؛ ويثمر متحصّلاتهم ، ويكثر بالتدبير غلاتهم ؛ يأخذ نفسه بمساواتهم ، في جميع حالاتهم ؛ وليأخذهم بالتجمع عن كل مائشين ، والعمل بما يزين ؛ حتى يضيفوا إلى السؤدد حسن الشيم ، وإلى المفارح فاجر القيم ؛ وكل ما يفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومنه وإليه ، والله يحفظه من خلفه ومن بين يديه ، بمنه وكرمه ! .

(١) البسل الشدة كما في اللسان . ووقع في الاصل « نسك » بالنون والكاف وهو تصحيف .



وهذه نسخة وصية لنتيب الأشراف أوردها في "التعريف" فقال :

ونحن نُحِبُّكَ عن الوَصَايا إِلَّا مَا تَتَبَرَّكَ بِذِكْرِهِ ، وَيُسْرَكَ إِذَا أَشْتَمَلْتَ عَلَى سِرِّهِ ؛
فَأَهْلَكَ [أَهْلَكَ ؛ رَاقِبٌ] ^(١) اللَّهُ وَرَسُولُهُ جَدَّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَنْتَ عَنْهُ مِنْ
أُمُورِهِمْ مَسْئُولٌ ، وَأَرْفُقْ بِهِمْ فَهَمُّ أَوْلَادِ أُمَّكَ وَأَبْنَيْكَ حَيْدَرَةُ وَالتَّبَوُّلُ ؛ وَكُفَّ يَدَ مَنْ
عَلِمْتَ أَنَّهُ [قَدْ] ^(١) اسْتَطَالَ بِشَرَفِهِ فَهَدَّ إِلَى الْعِنَادِ يَدًا ، وَأَعْلَمَ أَنَّ الشَّرِيفَ وَالْمَشْرُوفَ
سَوَاءٌ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا مَنْ أَعْتَدَى ؛ وَأَنَّ الْأَعْمَالَ مَحْفُوظَةٌ ثُمَّ مَعْرُوضَةٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
فَقَدِّمَ فِي الْيَوْمِ مَا تَفَرَّحَ بِهِ غَدًا ؛ وَأَزِلْ الْبِدْعَ الَّتِي يُنْسَبُ إِلَيْهَا أَهْلُ الثَّلَاثَةِ وَلَا تَهْمُ ،
وَالْعُلُوَّ فِيمَا يُوجِبُ الطَّعْنَ عَلَى آبَائِهِمْ ؛ : لِأَنَّهُ يُعْلَمُ أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
كَانُوا مَنَزَّهِينَ عَمَّا يَدَّعِيهِ خَلْفُ السَّوِّءِ مِنْ أَفْتِرَاقِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ، وَيَتَعَرَّضُ مِنْهُمْ أَقْوَامٌ
إِلَى مَا يُجَرِّهُمُ إِلَى مَصَارِعِ حَيْنِهِمْ ؛ فَلِلشَّيْخَةِ عَثْرَاتٌ لَا تُقَالُ ، مِنْ أَقْوَالٍ تُقَالُ ؛ فَسُدَّ
هَذَا الْبَابَ سَدًّا لَيِّبًا ، وَأَعْمَلْ فِي حَسْمِ مَوَادِّهِمْ عَمَلًا أَرِيبًا ؛ وَقُمْ فِي نَهْيِهِمْ وَالسَّيْفِ
فِي يَدِكَ قِيَامَ خَطِيبٍ ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ قَوَارِعِكَ [مَوَاقِعَ] ^(١) كُلِّ سَهْمٍ مُصِيبٍ ؛ فَمَا دُعِيَ
« بِحَيٍّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » إِلَى خَيْرٍ مِنَ الْكُتُبِ وَالسُّنَنِ وَالْإِجْمَاعِ [فَانْظِمْ فِي نَادَى
قَوْمِكَ عَلَيْهَا عَقُودَ الْأَجْتِمَاعِ] ^(١) . وَمَنْ أَعْتَرَى إِلَى اعْتِرَالٍ ، أَوْ مَالَ إِلَى الزَّيْدِيَّةِ فِي زِيَادَةِ
مَقَالٍ ؛ أَوْ أَدْعَى فِي الْأَئِمَّةِ الْمَاضِينَ مَا لَمْ يَدَّعُوهُ ، أَوْ أَقْنَى فِي طُرُقِ الْإِمَامِيَّةِ بَعْضَ
مَا أَبْتَدَعُوهُ ؛ أَوْ كَذَبَ فِي قَوْلٍ عَلَى صَادِقِهِمْ ، أَوْ تَكَلَّمَ بِمَا أَرَادَ عَلَى لِسَانِ نَاطِقِهِمْ ؛
أَوْ قَالَ : إِنَّهُ تَلَقَّى عَنْهُمْ سِرًّا ضَنْوًا عَلَى الْأَئِمَّةِ بِبَلَاغِهِ ، وَذَادُوهُمْ عَنْ لَذَّةِ [مَسَاغِهِ] ^(١) ،
أَوْ رَوَى عَنْ يَوْمِ السَّقِيفَةِ وَالْجَمَلِ غَيْرَ مَا وَرَدَ أَخْبَارًا ، [أَوْ تَمَثَّلَ بِقَوْلٍ مِنْ يَقُولُ :
عَبْدُ شَمْسٍ قَدْ أَوْقَدَتْ لِبْنِي هَاشِمٍ نَارًا] ^(١) أَوْ تَمَسَّكَ مِنْ عَمَائِدِ الْبَاطِنِ بِظَاهِرٍ ، أَوْ قَالَ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهي لازمة لاستقامة الكلام .

إِنَّ الذَّاتَ الْقَائِمَةَ بِالْمَعْنَى تَخْتَلِفُ فِي مَظَاهِرٍ ، أَوْ تَعَلَّقَ لَهُ بِأُتَمَّةِ السَّوَرِجَاءِ ، أَوْ أَنْتَظِرَ مُقِيمًا بَرَضُوى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ ، أَوْ رَبَطَ عَلَى السَّرْدَابِ فَرَسَهُ لِمَنْ يَقُودُ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ ، أَوْ تَلَفَّتْ بِوَجْهِهِ يُظَنُّ عَلَيْهِ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فِي الْغَمَامِ ، أَوْ تَقَلَّتْ مِنْ عِقَالِ الْعَقْلِ فِي أَشْرَاطِ الْعِصْمَةِ فِي الْإِمَامِ . فَعَرَفَهُمْ أَجْمَعِينَ أَنَّ هَذَا مِنْ فِسَادِ أَذْهَانِهِمْ ، وَسُوءِ عَقَائِدِ أَدْيَانِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ عَدَلُوا فِي التَّقَرُّبِ بِأَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ عَنْ مَطْلُوبِهِمْ ، وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُمْ طَلَبُوا فَقُلْ لَهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وَأَنْظُرْ فِي أُمُورِ أَنْسَابِهِمْ نَظْرًا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلرَّيْبِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِمْ بِغَيْرِ نَسَبٍ ، وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَسَاوِقِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي أُمُورِهِمْ فِي كُلِّ حِسَابٍ وَأَحْفَظْ لَهُمْ كُلَّ حَسَبٍ . وَأَنْتَ أَوَّلَى مَنْ أَحْسَنَ لِمَنْ طَعَنَ فِي أَسَانِيدِ هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ أَوْ تَأَوَّلَ فِيهِ عَلَى غَيْرِ مُرَادٍ قَائِلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَأْدِيًّا ، وَأَرَاهُمْ مِمَّا يَوْصَلُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِهِ طَرِيقًا قَرِيبًا . وَنَكَّلَ بَيْنَ عِلْمَتِ أَنَّهُ قَدْ مَالَ عَلَى الْحَقِّ أَوْ مَالَ إِلَى فَرِيقِ الْبَاطِلِ فَرَقًا ، وَطَوَى صَدْرَهُ عَلَى الْغِلِّ وَغَلَبَ مِنْ أَجَلِهِ عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَقْدِيمِ مَنْ تَقَدَّمَ حَقًّا ، [وَجَارَ وَقَدْ ^(١)] أَوْصَحَّتْ لَهُمُ الطَّرِيقَةُ الْمُثَلَّى طُرُقًا ، وَأَرَدَعَهُمْ إِنْ تَعَرَّضُوا فِي الْقَدْحِ إِلَى نِضَالِ نِضَالٍ ، وَأَمْنَعَهُمْ إِنْ فَرَّقَهُمْ كُلُّهَا وَإِنْ كَثُرَتْ خَابِطَةٌ فِي ظِلَامٍ ضَلَالٍ ، وَقَدَّمَ تَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ عَقْدٍ وَحَلٍّ ، وَأَعْمَلَ بِالشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ فَإِنَّهَا النَّسَبُ الْمَوْصُولُ الْحَبْلُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بْنَ فَضْلِ اللَّهِ قَدْ ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ" عِدَّةَ وَصَايَا لِمُجَاعَةِ مَنْ أَرَبَابِ السُّيُوفِ ، لَمْ يُكْتَبْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي زَمَانِنَا ، بَلْ رُفِضَ اسْتِعْمَالُهَا وَأُهْمِلَ . وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا حِفْظًا لِدِكْرُهَا ، وَاحْتِيَاظًا أَنْ يَقْتَضِيَ الْحَالُ فِي زَمَنِ كِتَابَةِ شَيْءٍ مِنْهَا .

إحداها - وصية أتابك المجاهدين

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن أصله أطابك بالطاء المهملة ومعناه الأب الأمير ، وأن أول من لقّب بذلك زنكي أطابك صاحب الموصل ، ثم غلبت فيه التاء المثناة بدل الطاء ، وهى :

وأنت ابن ذلك الأب حقيقه ، وولد ذلك الوالد الذى لم تعمل له إلا من دماء الأعداء عقيقه ؛ وقد عرفت مثله بثبات الجنان ، وصلت بيدك ووصلت إلى مالم يصل إليه ربح ولا قدر عليه سنان ؛ ولم يزاحك عدو إلا قال له : أيها البادى المقاتل كيف تزاحم الحديد ، ولا تسمى أسمك لجبار إلا قال له : «وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد» . وأنت أولى من قام بهذه الوظيفة ، وألف قلوب هذه الطائفة التى ما حلم بها حالم إلا وبات يرعد خيفه ؛ فلأخذ هذا الأمر بزمامه ، وليعمل لله ولا مامه ؛ وليرم في حبّ البقاء الدائم بنفسه على المنية ، ولينادى على معاقره الدماء زهور سكاينه الحنية ؛ وأطبع منهم زبرا تطاول السيوف بسكاينها ، وتأخذ بها الأسود فى عرينها ؛ وتمتد كأنها آمال ، لما تريد ، وترسل كأنها آجال ، ولهذا هى إلى كل عدو أقرب من حبل الوريد ؛ وأذك منهم شعلا إذا دعيت بأحسابها لا تجد إلا متحاميا ، وأرم منهم سهاما إذا دعيت (؟) بأنسابها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ؛ وفرج بهم عن الإسلام كل مضيق ، وأقلع عن المسلمين من العوانية كل حجر فى الطريق ؛ وصرف رجالك الميامين ، وتصيّد بهم فإنهم صقور ومناسرهم السكاكين ؛ وأخطف بهم الأبصار فبايمانهم كل سگينة كأنها البرق الخاطف ، وأقطف الرؤوس فإنها ثمرات أينعت لقاطف ؛ وأعرف لهم حقهم وضاعف لهم

تكريماً ، وأدبهم بنا برأ عيميا ، وقدم أهل النفع منهم فقد قدمهم الله ﴿ وفصل الله
المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ .

وأعلم أنهم مثل الوحوش فزد في تأنيبهم ، وأشكر إقدامهم فطالباً اقتحموا على
الملوك وما هابوا يقظة حرسهم ، وأرفع بعضهم على بعض درجات في نفقات تسافرهم
وقعود مجلسهم ، ولا تسو بينهم فاهم سواء و ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين
غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾ . وأصل هذه الدعوة
ما زالت تثقل بالمواريث حتى انتهت إلينا حرقها ، وأومضت بنا حيث خلعت
هياكلها بجرعاء الحمى بروقها ، والله تعالى يوفقه ويرشده ، ويطول بآعه لما قصرت
عنه سواعد الرماح ووصلت إليه يده .



الثانية — وصية أستاذ الدار .

وليتفق أحوال الحاشية على اختلاف طوائفها ، وأنواع وظائفها ، وليرتبها
في الخدمة على ما يجب ، وينظر في أمورهم نظراً لا يخفى معه شيء مما هم عليه
ولا يحتاج ، وليبدأ بهم السباط المقدم الذي يقدم ، وما يتنوع فيه من كل مطعم ،
وما يمتد منه في كل يوم بكرة والعصر ، وما يستدعي معه من الطوارئ التي لا يحدها
الحسد ولا يحصرها الحصر ، وأحوال المطبخ الكريم الذي منه ظهور تلك الخاف ،
ووفاء ذلك الكريم الوافي ، والتقدم إلى الأمانة والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق ، وصيانة
المال كل مما يعاب على الإطلاق . ثم أمر المشروب وما تغلق عليه أبواب الشراب خاناه
السعيدة من لطائف مأكول ومشروب ، وشيء عزيز لا يوجد إلا فيها إذا

عزَّ المطلوب ؛ ومراجعة الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها ، وتُسَبُّ لطبخه من حُرِّ
 اليواقيت كواينها ؛ وإفراز ما هو للخاص الشريف منها وما هو للفرقة ، وما لا يصرف
 إلا بخط الطبيب ولا يَسَلَّمُ إلا إلى ثقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التي هي خزانة
 اللباس ، وموضع ما يَبْرُزُ به من الزينة للناس ؛ وما يُحتاجُ إليه من آلات التطيب ،
 وما يُعين لها من الصابون وماء الورد والطيب ، وغير ذلك من بقية ما هي مستقره ،
 ويُؤخذ منها مُستدره ؛ ومن يُستخدَم بها من برئ من الرِّيب ، وعُرف بالعفاف
 والأدب ؛ وعلم أنه من أهل الصَّيانة ، وعلى ما سَلَّمُ إليه ومن خالطة الأمانه .
 ثم الفراش خاناه وما يُنصب فيها من الخيام ، وما يكون فيها من فرش سفر ومقام ،
 وشمع يفضض كأفور كأفوريته آبنوس الظلام . ثم غلمان الإصطبل السعيد والنجابة
 وإن كان إلى سواه استخدأهم ، ولدى غيره مستقرهم ومقامهم ، لكنهم ما خرجوا
 من عديده ، ولا يروفهم ويروعهم إلا حسن وعده وخشن وعيده . ثم المناجات
 السلطانية وما بها من جمال ، وما يَسرح فيها من مال وجمال ؛ ومن يُستخدَم فيها
 من سيروان ومهمرد ، وما فيها من قطار مزدوج وفرد ؛ فيوفر لهذه الجهة نصيباً
 من النظر يشاهد أمورها وقد غابت في الأقطار ، وتفرقت كالسحب يلزمها القطار
 القطار ؛ وليكونوا على بالله فإنهم يسرقون الذرة من العين ومعهم الذهب العين مجلاً
 بالقطار ؛ فليحسن منهم الارتداد ، وليتخير أرقهم أفئدة فإنهم بكثرة ملازماتهم للإبل
 مثلها حتى في غائط الأجداد . وطوائف المعاملين ، والأبقار ومن عليها من العاملين ،
 وزرائب الغنم وخولها ورعاها ، وأصناف البيوت الكريمة وما تطلبه في استدعائها ؛
 ونفقات الأمراء الممالك السلطانية في إهلال كل هلال ، وما يُصرف في كساهم

على 'جارى عاديهم' أو إذا دعت إليه ضرورة الحال ؛ وما يؤخذ عليه خطه من
 وصولات تُكتب ، وأستدعات تُحسب من لوازمه وهى للكثرة لا تُحسب ؛ فليكن
 لهذا كله مراعىا ، ولأموره وإعيا ، ولما يجب فيه دون ما لا يجب مستدعياً وإليه
 داعياً ؛ وهو كبير البيت وإليه يرجع أمر كل مملوك ومستخدم ، وبأمره يؤخر
 من يؤخر ويقدم من يقدم ، ومثله يتعلم منه ولا يعلم ؛ وعصاه على الكل محمولة
 على الرقاب ، مبسوطة فى العفو والعقاب ، ومكانه بين يدينا حيث نراه ويرانا ولدينا
 قاب قوسين أو أدنى من قاب .

وعليه بتقوى الله فيها تمام الوصايا وكال الشروط ، والأمر بها فعصاه محكمة
 وأمره مبسوط ، وكل ما يئاط بنا : من خاصة أمورنا فى بيتنا - عمره الله ببقائنا وزاد
 تعميره - بتديره منوط .

الثالثة - وصية أمير اخور .

وقد تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أنه مرَّ بمرَّ من لفظين :
 عربى وهو أمير ومعناه معروف ، وأخور فارسى ومعناه العلف ، والمعنى 'أمير العلف'.
 وكأنه فى الأصل كان هو المتولى لعلوفة الخيل ، ثم ارتفعت وظيفته حتى صار صاحبها
 من أكابر الأمراء المقدمين ، وهو يتحدث فى الإصطبلات السلطانية وما حوته
 من خيل وبغال ودواب وجمال وأثاث ، وغير ذلك .

وهذه نسخة وصيته :

وليكن على أكل ما يكون من إزاحة الأعذار ، والتأهب لحركاتنا الشريفة فى ليل
 كان أونهار ، مقدماً الأهم فالأهم من الأمور ، والأبدأ فالأبدأ من [تقديم] ^(١) مرَّا كبتنا

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لازمة كما لا يخفى .

السعيدة وتهيئة مؤكنا المنصور؛ وترتيب ذلك كله على ما جرت به العوائد، وتحصيل ما تدعو الحاجة إليه على قدر الكفاية والزوائد؛ والنظر في جميع إصطبلاتنا الشريفة، والجشرات السعيدة، وخيل البريد، والركائب المعدة لقطع كل مدى بعيد، وما يجمع في ذلك وينقسم، وما يركب منها ويجنب مما يسم الأرض بالبدور والأهلة من كل حافر ومنم، وما هو برسم الإطلاق، وما يعد للمالك الطباق، وخيل التلاد، وما يجلب من قود كل قبيلة من القبائل ويحيى من كل بلد من البلاد، والمشتري مما يباع من الموارث ويستعرض من الأسواق، وما يعد للواكب والسباق، وليجل رأيه في ترتيب ذلك كله في مراتبه على ما تقتضيه المهمات، والاحتراز في التلاد مما لعله يبدل ويقال هو هذا أو يؤخذ بحجة أنه مات، وليجهد في تحقيق ما نفق، [وليحرره على حكم ما يتحقق عنده لا على ما أتفق^(٢)]، وكذلك فليكن خضبه ممن يستخدم عنده من الغلمان، ولا يهمل أمورهم مع معاملتهم بالإحسان، ولا يستخدم إلا من شكر سيرته في أحواله، وتعرف خبرته فيما يراد من أمثاله، وكذلك الركابة الذين تملك أيديهم أعنة هذه الكرائم، والتحرز في أمرهم من لعله يأوى إليهم من أرباب الجرائم، والأوشاقية الذين هم مثل ممالكهم وهم في الحقيقة إخوانه، وجماعة المباشرين الذين هم في مباشرة الإصطبلات السعيدة ديوانه، وكل هؤلاء يلزمهم بما يلزم أمثالهم من السلوك، ويعلمهم بما يجب عليهم أن يتعلموه من خدمة الملوك، ولا يسمح لأحد منهم في أمر يفضي إلى إخلال، ولا يقتضى قرط إدلال، وليقيم أودهم بالأدب فإن الأدب مافيه إدلال، وكل هؤلاء الطوائف ممن يتجنب العامة مخالطتهم لما طار في أيام من تقدم عن أمثالهم من سوء السمع،

(١) في اللسان من معاني "القول الخليل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهي لازمة كما لا يخفى .

وَيُتَخَوَّفُ مِنْهُمْ السُّرْعَةُ ؛ فليَكُنْ لَهُمْ مِنْكَ أَعْظَمُ زَاجِرٍ ، وَمَنْ شُكِيَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ فَسَارِعْ إِلَى التَّنْكِيلِ بِهِ وَبَادِرْ ؛ وَأَشْهَرُ مِنْ فَعْلِكَ بِهِمْ مَا يُوجِبُ مِنْهُمْ الطُّمَأْنِينَةَ ، وَلَا يَعُودُ أَحَدٌ بَعْدَهُ يُكَذِّبُ يَقِينَهُ ؛ وَأَمْرَاءُ أَخَوْرِيَةِ الَّذِينَ هُمْ أَتْبَاعُكَ ، وَبِهِمْ يَمْتَدُّ بِأَعْكَ ، هُمْ بِحَسَبِ مَا تَجْعَلُهُمْ بِصَدَدِهِ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ [أَنْ] يَتَعَدَّى حَدَّهُ فِي مَقَامِ قَدَمِهِ وَبَسْطِ يَدِهِ ؛ فَاجْعَلْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَقَامًا مَعْلُومًا ، وَشَيْئًا تَجْعَلُ لَهُ فِيهِ تَحْكِيمًا .

وَتَثْبِينِ الْخِيُولِ الْمَشْتَرَاةِ وَالتَّقَادِمِ قَوْمِهَا بِأَهْلِ الْخَبْرَةِ تَقْوِيمَ عَدْلٍ ، وَقِيلِ الْحَقِّ وَلَا يَأْخُذْكَ فِيهِ لَوْمٌ وَلَا عَدْلٌ ؛ وَمَا يُصْرَفُ مِنَ الْعَلِيقِ بِرِسْمِ الْخِيُولِ السُّلْطَانِيَّةِ وَمَنْ لَهُ مِنْ صَدَقَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلِيقٌ ، مُرِّ بِصَرْفِهِ عِنْدَ الْأَسْتَحْقَاقِ وَأَضْيِطْهُ بِالتَّعْلِيقِ ؛ وَتَصْرَفْ فِي ذَلِكَ كُلَّهُ وَلَا تَتَصْرَفْ إِلَّا تَصْرَفَ شَفِيقٍ ، وَصْنُهُ بِأَقْلَامِ جَمَاعَةِ الدِّيَّانِ وَلَا تَقْنَعْ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ الضَّرُورَةِ بِرَفِيقٍ عَنْ رَفِيقٍ ؛ وَكَذَلِكَ الْبِرَاسِيمُ السُّلْطَانِيَّةُ أَصْلًا وَزِيَادَةً ، وَلَا تَصْرَفْ إِلَّا مَا نَأْمُرُ بِهِ وَإِلَّا فَلَا تَخْرُجْ فِيهِ عَنِ الْعَادَةِ ؛ وَزُلْزَلُكَ مِنْ أَمْرَاءِ الْعُرَبَانِ عَامِلُهُمْ بِالْجَمِيلِ ، وَزِدْ فِي أَخْذِ خَوَاطِرِهِمْ وَلَوْ بَسْطَ بِسَاطِ الْأُنْسِ لَهُمْ فَمَا هُوَ قَلِيلٌ ، : لَتَتَضَاعَفَ رَغْبَتُهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَلَيَسْتَدِلُّوا بِبَشَاشَةِ وَجْهِكَ لَهُمْ عَلَى مَا بَعْدَهُ مِنَ الْإِنْعَامِ ؛ وَبِغَالِ الْكَؤُوسَاتِ السَّعِيدَةِ وَالْأَعْلَامِ الْمَنْصُورَةِ ، وَأَثْقَالِ الْخِزَانَةِ الْعَالِيَةِ الْمَعْمُورَةِ ؛ أَجْعَلْهَا مِنْ الْمَهْمَاتِ الْمَقْدَمَةِ ، وَالْمَقَدَّمَاتِ لَتَأْتِجَ أَيَّامُ النُّصْرِ الْمُعْلَمَةِ ؛ وَرَتَّبْهَا فِي مَوَاقِفِهَا ، وَأَتَمِّمْهَا أَتَمَّ مَا يَكُونُ مِنْ وَظَائِفِهَا ؛ فِيهَا تَتَبَيَّنُ مَوَاقِفُ الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ ، وَإِلَيْهَا يَأْوِي كُلُّ مُسْتَظِلٍّ وَرَحَى الْحَرْبِ تَدُورُ ؛ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ فُشَاشِ الْإِصْطِبَاتِ السَّعِيدَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَرِيرِ ، وَكُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ ؛ بِأَشْرِهِ مَبَاشَرَةً مِنْ لَا يَتَخَلَّى ، وَأَحْصِيهِ نَخْرَجًا وَدَخْلًا ؛ وَإِيَّاكَ وَالْأَخْذَ بِالرُّخْصِ ، أَوْ إِهْمَالَ الْقُرْصِ ، أَوْ طَلَبَ فَائِزٍ جُزْمِ أَهْمَلَتِهِ حَتَّى نَكْصُ .

الرابعة — وصية مُقدّم المالك .

وقد تقدّم في الكلام على أرباب الوظائف أنه يتحدّث في أمر المالك السلطانية والحكم بينهم، ويركب خلفهم إذا ركب السلطان كأنه يحفظهم . والوصية هي :

وليُحسن إليهم، وليُعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدّم عليهم ، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يُخيّل إليهم بها أنه معهم وخلفهم وبين يديهم ، وليُزِم مقدّم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطباق، وإجراء ساقية جارية من إحساننا إليهم ولا ينس السّواق ؛ وليُكن لأحوالهم متعهّداً، ولأموالهم متفقّداً ؛ وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيره، وليُعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلاً فإنهم جيره ؛ وليأمر كلّاً منهم ومن مقدّميهم والسّواقين لهم بما يلزمهم من الخدمة ، وليرتبهم على حكم مكاتبتهم منّا فإن تساووا فليقدّم من له قُدّمه ؛ وليُعدل في كل تفرقه ، وليُحسن في كل عرض ونفقة ، وليفرّق فيهم ما لهم من الكساوى ويُسبّل عليهم رداء الشّفقه ؛ وليُعِدّ منهم لغنا المحميّ سبّاعاً تفرّس العاديّه ، وليُجمل النظر في أمر الصّغار منهم والجار أصحاب الطبقات العاليه ؛ وليأخذهم بالركوب في الأيام المعتاده ، والدّخول إلى مكان الخدمة الشريفة والخروج على العاده ، وليُدِرهم في أوقات البياكير والأسفار نطاقاً دائراً الدهليز المنصور ، وليأمرهم أمراً عاماً بأن لا يركب أحدٌ منهم إلا بدسّور ولا ينزل إلا بدسّور ؛ وليحتزّز عليهم من طوائف الغلمان ، ولا يستخدم منهم إلا معروفاً بالخير ويقيم عليهم الضّمان ؛ وليحرّر على من دخل عليهم وخرج ، ولا يفتح لأحدٍ منهم إلا من علم أنه ليس في مثله حرج ؛ ولا يدع للرّية بينهم مجالاً للأضطراب ، وليؤصّ مقدّميهم بتفقّد ما يدخل إليهم فإن الغشّ أكثره من الدّعام والشراب ؛ وليدّم مراجعتنا في أمرهم فإنّ بها يعرف الصواب ، ويعمل بما نأمره به ولا يجد جوى في جواب .

الضرب الثانى

(مَنْ يُكْتَبُ لَهُ بِالْوِلَايَاتِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَرْبَابُ الْوُظَائِفِ الدِّينِيَّةِ،
وهو على طبقتين)

الطبقة الأولى

(أَصْحَابُ التَّقَالِيدِ مَنْ يُكْتَبُ لَهُ بِالْجَنَابِ الْعَالِ)

وتشتمل على عدة وظائف

الوظيفة الأولى

(القضاء)

قد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على ترتيب الوظائف أن الديار المصرية كان يليها قاض واحد، إلى أن كانت الدولة الظاهرية «بيرس» فى أوائل الدولة التركية، وقاضى القضاة يومئذ القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعزّ الشافعى، فاضطرب الأمر لاختلاف المذاهب، فاقضى رأى السلطان تقرير أربعة قضاة من كل مذهب قاض، وقرّر القاضى تاج الدين ابن بنت الأعزّ فى قضاء قضاة الشافعية على حاله، وكُتِبَ لكلّ منهم تقليدٌ بذلك؛ ثم خُصّ قاضى القضاة الشافعية بالتولية فى بلاد الريف دون غيره من القضاة الثلاثة، واستمرّ الأمر على ذلك إلى الآن. إلا أنه لما حدث بديوان الإنشاء تنويع ما يكتب لأرباب الأقاليم إلى تقاليد، فى قطع الثلثين، وتفاوض، وتوقيع، فى قطع النصف، تقرّر الحال على أن يكتب للقضاة الأربعة توقيع فى قطع النصف بـ«المجلس العالى»، ولم يز، الأمر على ذلك إلى أن ولي القاضى عماد الدين أحمد الكرّكى الأزرقى قضاء قضاة

الشافعية في أول سلطنة الظاهر « برقوق » الثانية ، وأخوه القاضي علاء الدين عليّ
 كاتب السرّ ، فعني بأخيه عماد الدين المذكور ، فكتب له تقليدا في قطع الثلثين
 «الجناب العالي» . وبقي الثلاثة على ما كانوا عليه من كتابة التواقيع إلى أن وليّ
 القاضي جمال الدين محمود ألبليّ القيسريّ المعروف بالعجميّ رحمه الله قضاء قضاة
 الحنفية في الدولة الظاهرية أيضا ، مضافا إلى نظر الجيش ، فكتب له تقليد في قطع
 الثلثين بالجناب العالي أيضا ، وبقي المالكي والحنبليّ على ما كانا عليه من كتابة
 التواقيع في قطع النصف . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن وليّ قاضي القضاة جمال
 الدين يوسف البساطيّ قضاء قضاة المالكية في الدولة الناصرية «فرج بن الظاهر
 برقوق» فأنشأت له تفويضا وكتبت له به ، ولم يكن أحد ممن عاصرناه كتب له
 تفويض غيره . ثم لما وليّ الشيخ جمال الدين عبد الله الأقفهسيّ قضاء المالكية ،
 كتب له توقيع في قطع النصف ، إلا أنه كتب له «الجناب العالي» كما يكتب
 لأصحاب التقاليد ، وجرى الأمر فيمن بعده على ذلك . ولم يبق من هو على النمط
 الأول سوى قاضي القضاة الحنابلة ، ويوشك أن يكتب لكل من المالكي والحنبليّ
 أيضا تقليد : لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرت ما يكتب لهم من تقاليد
 وتواقيع هنا جمعا للفترق وتقريبا للمأخذ .

وهنا أذكر ما يكتب للأربعة على الترتيب .

الأول (قضاء القضاة الشافعية)

وهذه نسخة تقليد بقضاء القضاة الشافعية ، كتب به لقاضي القضاة تاج الدين
 ابن بنت الأعزّ رحمه الله ، حين استقرّ أحد القضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفة على
 ما تقدم ، وهي من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى ، وهي :

الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى، وموسع مجاله لمن راح إليه واعتدى،
وموضح طريقه لمن اقتاد وأقتدى، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس
الهدى، الذى أعذب لشرعة الشريعة المحمدية يتبوعا، وأقامها أصلا مدينا
الرشد فروعا .

نحمده على نعمه التى ألزمتنا لتشديد مبانيها شروعا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة نعلم بها من القلوب والأفواه ربوعا . ونصلى على سيدنا محمد الذى
أرسله الله إلى الخلائق جميعا، وقام بعبد الأمر يصنع حسنا ويحسن صنعا،
صلى الله عليه وعلى آله صلاة لا يرح برؤفها ملموعا، ولا ينك وترها بالتسليم مشقوعا .

وبعد، فإن أحق من جدد له شرف التقرىض، وخلد له إرضاء الأحكام وإمضاء
التفويض، وریش جناحه وإن لم يكن المهيض، وفسح مجاله وإن كان الطويل
العريض، ورفع قدره على الأقدار، وتسمت من سحابه الأنواء ومن أشعته
الأنوار، من غرر مده فجرت منه فى رياض الحق الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب
وتنصت لقوله الأسماع وترنو لحياه الأبصار، قد أوفد من إرشاده للأمة لطفًا فطفا،
وأوقد من علمه جذوة لالتجؤ وقبسا بالهوى لا يطفى، وفات النظراء والنظار فلا يرسل
أحد معه طرفا ولا يمد إليه من حياته طرفا، وأحتوى من علوم الشريعة على ماتفرق
فى غيره، وغدا خير دليل إلى الحق فلا يقتدى فى المشكلات إلا برأى أجهاده
ولا يهتدى فى المذاهب إلا بسيره، وكان لفلک الشريعة المحمدية قطبا، وجئانها
قلب ليسوارها قلبا، ولدليلها برهانا، ولإنسانها عينا ولعينها إنسانا، فكم أرضى بنى
الأنام عن الأيام، وكم أغضى حياء مع قدرته على الانتقام، وكم أمضى لله حكما
لا انفصال لعروته ولا انفصام، وكم قضى بالجور فى ماله وبالعدل فى الأيتام،

فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعديه ، ولم يداجه لما ستره عليه من تعديه في دياجيته ؛ فهو الصادع بما أمر الله به ولو على نفسه ، والمسترد الحقوق الزاهية من غير محاباة حتى اغداه من يومه وليومه من أمسه .

ولما كان قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ممن هو في أحسن هذه السمات قد تصور ، وكادت نجوم السماء بأنواره تتكثر ، وتجوهر بالعلوم فأصبح حقيقة هو التاج الجواهر ، وله مزايا السؤدد التي لا يشك فيها ولا يرتاب ، وسجايا الفضل التي إذا دخل [إليه] غيره من باب واحد دخل هو إليه من عدة أبواب ، وهو شجرة الأحكام ، ومصدر كل الحكم ، ومطلع أنجم شرائع الإسلام ، ومهيض وحى المقدسات والإرتسام ، ومجتمع رفاق القضايا في الحلال والحرام - خرج الأمر الشريف بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية : فليستصحب من الحق ما هو ملي باستصحابه ، وليستمر على إقامة منار الحق الذي هو موثق عراه ومؤكده أسبابه ، وليحتلب من أخلاف الإنصاف ما حفله آجتماعه ليد احتلابه ، علماً بأن كل إضاءة إنارتها من قبسه ، وإن استضاء بها في دياحي المنى ، وكل ثمرة من مغترسه ، وإن مد إليها يد الاجتناب ، وكل جذو هو من بجره وإن بسط إليه راحة الاعتراف ، وكل منهج هو من جادته وإن ثنى إلى سلوكه عنان الانصراف لا الإيخاف ، وهو بحمد الله المجتهد المصيب ، والمادة للعناصر وإن كان نصيبه منها أوفر نصيب ، وسجاياه يتعلم منها ، كيف يوصى ويعلم ، ومزاياه تقوم الأود ، كيف يقوم ، والله الموفق بمنه وكرمه ! .

الثاني - قاضي قضاة الحنفية على ما استقر عليه الحال من لدن القاضي جمال الدين محمود القيسري وإلى آخر وقت . وموضوعها النظر في الأحكام

الشرعية على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، ويختص نظره بمصر والقاهرة خاصة .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كتب به لمن لقبه شمس الدين ، وهى :

الحمد لله الذى أطلع فى أفق الدين الحنيف شمساً منيرة ، ورفع درجة من جعله من العلم على شريعة ومن الحكم على بصيرة ، وقد أمور الأمة لمن يعلم أن بين يديه كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ووفق لفصل القضاء من مشى على قدم أقدم الأئمة فسار فى مذهبه المذهب أحسن سيره ، الذى أدخر للحكم فى أيامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيره ، وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاء خيره ، وأيقظ عنايتنا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريره .

نحمده حمد من توافقت إليه النعم الغزيرة ، وتوالت عليه المنن الكثيرة فى المدد اليسيره ، وأخصبت فى أيامه رياض الفضائل فهى بكل عالم عدم النظير نصيره ، وافتتح دولته برفع منار العدل فأمال أهل الظلم عن تعاطيه قاصرة وأيدى أهل الباطل عن الامتداد إليه قصيره ، وخص المناصب فى ممالكه بالأكفاء فإذا تلبست بها همم غيرهم عادت خاسئة أو امتدت إليها أبصار من دونهم رجعت حسيه .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تصاح العلى والسريه ، وتصبح بها القلوب موقنة والألسن ناطقة والأصابع مشيره ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى بعث الله به الرسل محيرة وأنزل الكتب بمبعثه بشيره ، وأجتهاه فى خير أمة من أكرم أرومة وأشرف عشيره ، وأظهر أنوار ملته إلا لمن أعمى النى بصيرته وهل ينفع العمى شمس الظهير ، وخصه بالأئمة الذين وفقهم للاستعانة بالصبر

والصلاة وإنها لكثيره ، وجعل علماءهم ورثة الأنبياء فلو أدعيت لأحكامهم العصمة
لكانت بذلك جديره ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة نتقرب بدوامها إلى الله
فيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى الأمور بأن تُشاد قواعده ، وتُعهد معاهده ؛ ويُعلّى مناره ،
وتُفاض بطلوع شمسهِ أنواره ؛ ويُجلى به بعد العطل جيده ، ويُنظم في سلك عقود
الأمة فريده ؛ وتكَلَّ به قوى الدين تكلمة الأجساد بقوى الطباع الأربع ، وتُعمَّر به
ربوع الملة التي ليس بعدها من مصيف لمة ولا مربيع ، وتُثبت به قوائم الشرع
التي ما للباطل في إمالة بعضها من مطمع ؛ وتُجلى به عمن ضاق عليه المجال في بعض
المذاهب الغمّة ، ويستقر به عدد الحكم على عدد الأئمة المستقر على عدد الخلفاء
الراشدين من خلفاء الأئمة ؛ ويمدّ به على الخلق جناح الرحمة وافر القوائد وارف
الظلال ، ويجمع به عليهم ما جمع الله في أقوال أئمتهم من الحق وما ذابعد الحق
إلا الضلال ، - أمر القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله
عنه الذى أشق الله له من الملة الحنيفة نسبة سرت في الآفاق ، وأفاض عليه من
مواد القياس الجلى كنوزاً نمت على الإنفاق ، وعضد أيامه بولي عهد قولهما حجة
فيما تفردا به من الخلاف أو اجتمعا عليه من الوفاق ؛ وعد من التابعين لقدم عهده ،
وسمى « سراج الأئمة » لإضاءة نوره بهما من بعده .

ولما خلا بانتقال مباشره إلى الله تعالى ، توقّف مدّة على آرتياد الأكفاء ،
وآرتيائه من هو أهل الأصطفاء ؛ واختيار من تكلم به رفعة قدره ، ويعيد لدسته
بتصدّره على سباط سليمان بهجة صدره ؛ ويغدو لِسراً إمامه بعد إماتة هذه الفترة
باعثاً ، ويُصيح وإن كان واحد عصره لأبى يوسف ثانياً ولمحمد بن الحسن ثالثاً ؛

وَيُسَبِّحُ بِهِ الْبَاحِيُّ زُهْدًا وَعِلْمًا ، وَالطَّحَاوِيُّ تَمَسُّكَاً بِالسُّنَّةِ وَفَهْمًا ، وَبِغَيْرِ الْفُدُورِيِّ
 مِنْ بَحْرِهِ ، وَيُعْتَرِفُ الْحَصْرِيُّ بِالْحَصْرِ عَنْ إِحْصَاءِ فَضْلِهِ وَحَصْرِهِ ، وَيَقِفُ مِنْ
 مَذْهَبِ ابْنِ ثَابِتٍ ، عَلَى أَثْبَتِ قَدَمٍ وَيَنْتَمِي مِنْ فِقْهِ النَّعْمَانِ إِلَى فَرْعِ زَاكٍ وَأَصْلِ
 ثَابِتٍ ، وَيَنْشُرُ مِنْ أَحْكَامِهِ مَا إِنْ وَافَقَ الْأُئِمَّةَ فَهُوَ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَحُجَّةٌ سَاطِعَةٌ ،
 أَوْ خَالِفُهُمْ بِمَذْهَبِهِ فَهُوَ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ ، وَنِعْمَةٌ [و] إِنْ كَانَتْ بَيْنَ الطَّرِيقِ فَارِقَةً فَإِنَّهَا عَلَى
 الْحَقِّ جَامِعَةٌ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الْمُنْتَظَرُ لِهَذِهِ الرَّتَبَةِ أَنْتَظَرَ الشَّمْسُ بَعْدَ الْغَسَقِ ، وَالْمُرْتَقَبُ
 لِبُلُوغِ هَذِهِ الْمُنْزَلَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا بِوَادِرٍ اسْتَحْقَاقُهُ فِي السَّبْقِ ، وَالْمَعْطُوفَ عَلَى مَنْ
 وَصِفَ مِنَ الْأُئِمَّةِ وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْ زَمَانِهِ عَطَفَ النَّسَقُ ، وَهُوَ الَّذِي مَادَامَ يَعْدِلُ دَمَ
 الشَّهَادَةِ مَدَادُ أَقْلَامِهِ ، وَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ مِنْ نَقْلِ خَطَوَاتِهِ
 فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَسَعَى أَقْدَامِهِ ، وَدَخَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي زُمرَةٍ مِنْ حُصَرٍ بِأَيْمَانًا ،
 وَهَجَرَ الْمُضَاجِعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَلَوْ عُدَّتْ هَجَعَاتُهُ لَقَلَّمَا ، وَهَجَرَ فِي إِحْرَازِ
 الْفَضَائِلِ فَقَيَّدَ أَوْبَادَهَا ، وَأَحْرَزَ شَوَارِدَهَا ، وَلَحَجَّ فِي بَحَارِ الْمَعَانِي فَقَاصَ عَلَى
 جَوَاهِرِهَا ، وَنَظَرَ نَظْرَةً فِي نُجُومِ الْعُلُومِ فَاحْتَوَى عَلَى زُهرِهَا وَرَادَ نَحَائِلَ الْفَضَائِلِ
 فَاسْتَوَى عَلَى أَزَاهِرِهَا ، وَأَتَمَّى إِلَيْهِ عِلْمُ مَذْهَبِهِ فَبَرَزَ عَلَى مَنْ سَلَفَ ، وَجَارَى عِلْمَاءَ
 عَصْرِهِ فَوَقَفَتْ أَبْصَارُهُمْ عَنْ رُؤْيَا غُبَارِهِ وَمَا وَقَفَ ، وَنَحَا نَحْوَ إِمَامِهِ فَلَوْ قَابَلَهُ
 يَعْقُوبُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ فِي بَحْثٍ لَانْصَرَفَ ، وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَإِنْ كَانَ فَرَضَ كِفَايَةٍ
 لَا فَرَضَ عَيْنٍ ، وَقَدَّمَ التَّرْجِيحَ الَّذِي جَعَلَ رُتَبَتَهُ هِمزَةً اسْتِفْهَامٍ وَرُتَبَةَ غَيْرِهِ بَيْنَ
 بَيْنٍ - أَقْتَضَى رَأْيًا الشَّرِيفَ اخْتِصَاصَهُ بِهَذَا التَّمْيِيزِ ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ الْبَسِيطِ بِهَذَا
 الْفِظِ الْوَجِيزِ .

(١) يريد الإشارة إلى قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

فلذلك رُسم أن يفوض إليه كيت وكيت . فليتول هذه الرتبة التي أصبح فيها
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نائبا وبشرعه قائما، ويتقلدها تقلد من يعلم أنه
قد أصبح على حكم الله مقدما وعلى الله قادما، ويتثبت تثبت من يعتصم بالله
في حكمه فإن أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته وإن كان ظالما، ويلبس لهذا
المنصب حلة تمنع المبطل من الإقدام عليه، وتدفع الظالم عن التطاول إلى أمر تزع
الشرع من يديه، وتؤمن الحق من امتداد يدي الجور والخياف إليه، وليسوي بين
الخصمين في مجلسه ولحظه، ويعديل بينهما في إنصاته ولفظه، ليعلم ذو الجاه أنه
مساو في الحق لخصمه، مكفوف باستماع حجته عن الطمع في ظلمه، ولا ينقض
حكما لم يخالف نصا ولا سنة ولا إجماعا، وليشارك فيما لا يحمله من القضايا غيره من
العلماء ليريد بذلك مع اطلاعه اطلاعا، وليغتنم في ذلك الاستعانة بأرائهم فإن الله
تعالى لا يترع هذا العلم انتزاعا، وليسد مسالك الهوى عن فكره، ويصرف دواعي
الغضب لغير الله عن المرور بذكره، وليجعل العمل لوجه الله نتيجة علمه، وليحكم
بما أراه الله (والله يحكم لا معقب لحكمه) ، إن شاء الله تعالى .

الثالث - قاضي قضاة المالكية :

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة المالكية ، لقاضي القضاة جمال الدين
يوسف البساطي المقدم ذكره ، في العشر الأخير من رجب الفرد سنة أربع
وثمانمائة ، وهو :

الحمد لله الذي شفع جلال الإسلام بجماله ، وناط أحكامه الشرعية بمن أقرن
بجميد مقالته جميل فعالة ، وخص مذهب عالم المدينة بخير حاكم ما جرى حديثه

(١) الذكر والذكر أي بالضم والكسر النذكر .

الحسن يوماً إلا وكان معدوداً من رجاله ، وعدق النظر فى أحكامه بأجل عالم
لو طُلب له فى الفضل مثل لعجز الزمان أن يأتى بمثاله .

نحمده على أن أخلف من النبعة الزكية صنواً زاكياً ، وأدال من الأخ الصالح أخاً
للعلوم شافياً ، ولمنصبه العلىّ ولله الحمد وإيفاً . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له مجرّد سيف الحق على كلّ مبطل معاند ، ومرهف حدّ القاضى
لكل ملحد عن سوء السبيل حائد ، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي فاق
الأنام بفضله وعم البرية بعدله ، وسد باب التوبة على متنقصه فلم تكن لتقبل توبة
مثله ، وكان إلى مالك مصيره فلا جرم قضى بإهدار دمه وتحتم قتله ؛ صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه الذين ذبوا عن حى الدين وذادوا ، وسلكوا سبيل المعدلة إذ حكموا
فاضلاً عن سنن الطريق ولا حادوا ؛ صلاة تبقى بقاء الدهور ، ولا تزول
بهجة جامها بتوالى الأعوام والشهور ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن أولى ما قصر عليه النظر ، وأستغرقت فيه الفكر وعرا العيون فيه
السهر ، وصرفت إليه الهمم ، ورغبت فى البراءة من تخلفه الذم - النظر فى أمر
منصب الشرع الشريف الذى يأوى الملهوف إلى ظله ، ويأجأ المستجير إلى عدله ،
ويتعلق العفاة بوثيق عروته ومتين حبله ، وبرهنته يكف الظالم عن ظلمه ،
وينتصف الخضم من خصمه ، ويذعن العاصى إلى طاعته وينقاد الآئى إلى
حكمه ، ويأتم به الخائر فى دجى الجهل فيستضيء بنوره ويهتدى بنجمه ؛ لاسيما
مذهب مالك الذى لم يزل للدين من أهل الإلحاد مثيراً ، وللقصاص من أهل العناد
مبتدراً ، وبسل سيف الحق على الطغاة المتمردين مشتهراً ، ففاض من سطوات
الإرهاب بأرفع المراتب ، وعلا رقاب المُلحدين بأرهِف القواضب ، وخص من

سَفَكَ دِمَاءَ الْمُبْطِلِينَ عَلَى الْبَتِّ بِمَا لَمْ يَشَارِكْهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَذَاهِبِ ؛ فَوَجِبَ أَنْ يُخْتَارَ لَهُ مَنْ يُنْصُ الْأَخْتِبَارُ عَلَى أَنَّهُ أَهْلٌ لِلَاخْتِيَارِ ، وَيَقْطَعُ الْمُنَافِسُ أَنَّهُ الرَّاجِحُ وَزَنَا عِنْدَ الْأَعْتِبَارِ ، وَتَأْخُذُ مَنَاقِبُهُ الْبَسِيطَةُ فِي الْبَسْطِ فَلَا تَنْقُذُ إِذَا نَفَذَتْ مَنَاقِبُ غَيْرِهِ الْمَرْكَبَةُ عِنْدَ الْأَخْتِصَارِ ؛ وَيَشْهَدُ لَهُ ضِدُّهُ بِالتَّقَدُّمِ فِي الْفَضْلِ وَإِنْ لَمْ تَتَقَدَّمْ مِنْهُ دَعْوَى ، وَيَعْتَرِفُ لَهُ بِالْأَسْتِحْقَاقِ خَصْمُهُ فَيَتَمَسَّكَ مِنْ عَدَمِ الدَّافِعِ فِيهِ بِالسَّبَبِ الْأَقْوَى ، وَيُحْكَمُ لَهُ بَعْلُو الرُّتْبَةِ مُنَاوِئُهُ فَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَتَقْطَعُ الدَّعْوَى ، وَيَسْجَلُ لَهُ حَاسِدُهُ بَثُوتِ الْمَفَاحِرِ الْمَحْكُومِ بِصِحَّتِهَا فَلَا يَنْقُضُهَا حَاكِمٌ وَإِنْ بَلَغَ مِنْ تَدْقِيقِ النَّظَرِ الْغَايَةَ الْقُصْوَى ؛ وَتَنْفُذُ أَحْكَامِهِ فِي الْبَرِيَّةِ فَلَا يُوجَدُ لَهَا مُخَالِفٌ ، وَتَحْذَرُ شَيْعَةُ الْبَاطِلِ سَطْوَتَهُ فَلَا يَرَى لِبَاطِلٍ مُخَالَفٌ ، وَيَشْتَهَرُ عَنْهُ مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ مَا يَأْمَنُ مَعَهُ الْمُسْتَضْعَفُ الْخَائِفُ ، وَيَتَحَقَّقُ فِيهِ مِنْ قِيَامِ الْعَدْلِ مَا يَرْتَدِعُ بِهِ الظَّالِمُ الْخَائِفُ ؛ وَيَسْتَوِي عَنْدَهُ فِي لُزُومِ الْحَقِّ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ ؛ وَلَا يُفَرِّقُ فِي لَازِمِهِ بَيْنَ الْمَشْرُوفِ وَالشَّرِيفِ ؛ وَلَا يُمَيِّزُ فِي حَمْلِ الْأَعْبَاءِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الشَّاقِّ وَغَيْرِهِ وَلَا بَيْنَ الثَّقِيلِ وَالْخَفِيفِ ؛ وَلَا يُجَاهِي قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ ، وَلَا جَلِيلًا لْجَلَالَتِهِ ، وَلَا ظَالِمًا خَوْفَ ظُلْمِهِ وَلَاذَا أَسْتَطَالَةٍ لْأَسْتَطَالَتِهِ ، وَلَا يَسْتَرِلُهُ دَوْلَسَنَ لِّلْسِنَةِ وَلَا بَلَاغُهُ لِّلْبَلَاغَةِ ، وَلَا يُخَالِفُ بَيْنَ الصَّدِيقِ الْمَلَاطِيفِ وَغَيْرِهِ إِلَّا فِي مَنَعِ قَبُولِ شَهَادَتِهِ .

وَمَا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي الْقَاضِي ، الْكَبِيرِي ، الْإِمَامِي ، الْعَالِمِي ، الصَّدْرِي ، الرَّئِيسِي ، الْأَوْحَدِي ، الْعَلَامِي ، الْكَامِلِي ، الْفَاضِلِي ، الْمُفِيدِي ، الْفَرِيدِي ، الْحُجِّي ، الْقُدْوِي ، الْخَاشِعِي النَّاسِكِي ، الْحَاكِمِي ، الْجَمَالِي ؛ جَمَالَ الْإِسْلَامِ ، شَرَفُ الْأَنْامِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، أَوْحُدُ الْأَيِّمَةِ ، مُفِيدُ الْأُمَمَةِ ، مُؤَيِّدُ الْمَلِكَةِ ، مُعِزُّ السَّنَةِ ، شَمْسُ الشَّرِيعَةِ . سَيْفُ الْمُنَاطَرِينَ ، لِسَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، حَكَمُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينَ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،

أبو المحاسن «يوسف البساطي» المالكى - أدام الله تعالى نعمته - هو المراد من هذه الصفات ، التى وقعت من محله الكريم موقعها ، والمقصود من هذه السمات ، التى ألفت من سيرته الفاضلة موضعها ، وقارع صفة هذه الدررة التى ما كان ينبغي لغيره أن يقرعها ، وشمس الفضل الحقيق بمثلها أن لا يتوارى جلالها بحجاب الغروب ، وفاصل مشكلات القضايا إذا اشتد إشكالها وعظمت فى فصلها الخطوب ، ومتعبين الولاية التى إذا كانت فى حق غيره على الإباحة كانت فى حقه على الوجوب ، وقد درب الأحكام وخبرها ، وعرف على التحقيق حالها وخبرها ، وورد من مشاربها الرائقة أصفى المناهل فأحسن وردّها وصدرها ، ونفست جواهر فوائده ففاقت جواهر المعادن ، وغطت محاسن فضائل غيره ولا تُنكر المحاسن . «يوسف» وهو «أبو المحاسن» ، فعلموه المدونة بالبيان والتحصيل كإفله ، ومقدمات تنبيهاته بنتائج النوار الحسنة متواصله ، وتهذيب ألفاظه المنقحة تؤذن بالتحريير ، وعيون مسائله المتواردة لا تدخل تحت حصر ولا تقدير ، فلوراه «مالك» لقال : ما أعظم هذه الهمة ، أو أدركه «أبْنُ القاسم» لوفر من الشاء عليه قسمه ، أو عاصره «أبْنُ عبدالحكم» لحكم له بأن سهمه قد أصاب الغرض وغيره أطاش الريح سهمه ، أو عاينه «أشهب» لقال قد ركب هذا الشهاب أنى يلحق ، أو سمع «أبْنُ وهب» كلامه لقطع بأنه هبة ربانية وبمثله لم يسبق ، أو بلغ «أبْنُ حبيب» خبره لأحب لقاءه ، أو بصر به «سُخْنُون» لتحقيق أنه عالم المذهب ما وراءه ، أو استشعر بقدمه «أبْنُ سيرين» لبشر به ، أو جاوره «أبْنُ عوف» لعاف مجاورة غيره أو مجاوزة طنبه ، أو جالسه «أبْنُ يونس» لتأنس بجمالته ، أو حاضره «أبو الحسن بن القصّار» لأشجى قلبه بحسن محاضرتّه ، أو جاوره «القاضى عبد الوهاب» لقضى بعلو مكانته ، أو اتصل ذكره «بالمازرى» لزرى على «مازّر» لبمداها عن دار إقامته ، أو أطلع

«القاضي عياض» على تحقيقاته لاستحسن تلك المدارك، أوناظره «أبن عبد السلام»
لسلم أنه ليس له في المناظرة نظير ولا في تدقيق البحث مُشارك، أو مر به
«أبن الجلاب» جلب فوائده إلى بلاده، أو حضره «أبن الحاجب» لتحقيق أنه
جامع الأمّهات على أنفراد .

هذا وقد حُفَّ بجلال لا عهد لأحد بمثله ، ولا طاقة لفاضل بمقاومة فضله ،
ولا يَسْمَح الزمان بنظيره من بعده كما لم يَسْمَح به من قبله ، فاجتمع من جمال الجلال ،
وجلال الجمال ، ما لم يكن ليُدْخِل تحت الإمكان ، وعُزِّز عددُهما من أعلام الأئمة
بثالثٍ ورابع فقام بناء الدين من المذاهب الأربعة على أربعة أركان ، ولا عبرة
بما يذهب إليه الذاهبون من كراهة التربع تبعاً للنجمين في اعتقادهم الفاسد ، فقد
ورد أن زوايا الحوض على التربع وذلك فيه أعظم دليل وأقوم شاهد .

وكان مذهب مالك رحمه الله هو المراد من هذه الولاية بالتخصيص ،
والجلس الجمالي المشار إليه هو المقصود بهذا التفويض بالتخصيص - أقتضى حسن
الرأى الشريف أن نُوقى مرتبته السنية حقها ، ونُبَوِّى النعم مستحقها ، ونملك رقاب
المعالى مسترقها ، ونقدّم على طائفة المالكية من أضخى لهم جمالا ، ونُخَفِّهم بمن
أمسى لعزهم كمالا ، ونفوض قضاء مذهبهم إلى من إذا جرى في ميدان حكمه قالت
محاسن قضاياه : (هكذا هكذا وإلا فلا) . ونُسند الأحكام الشرعية إلى من هو
بها أعرف ، ونَقِفْها على من عُرف أنه على الحقائق ماض وعند السنة يتوقف ،
ونُعِدق أمرها بمن أَلِفَ النزاهة فنكرة المطامع عنده لا تُتَعَرَّف ، ونِكل النظر فيها
إلى من أَمْسَى لشرط الاستيجاب جامعاً ، ونقدّم في ولاية هذا المنصب من شفع
له استحقاقه وكفى بالاستحقاق شافعا .

فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زال يَنْسُطُ لأوليائه من بساط الأُنس ما كان مَطْوِيًّا ، ويُئِيلُهُم من رغائب الآمال ما كان عنهم فى سالف الأزمانِ مَرْوِيًّا - أن يُفَوِّضَ إليه قضاءَ قُضَاةِ مذهبِ عالمِ المدينة ، وإمامِ دارِ الهجرة ، مالكِ بنِ أنسٍ الأصمى : قدس الله تعالى رُوحَه . فليَتَلَقَّ ما فُؤِضَ إليه بأفضلِ تلقٍّ يليقُ بِمِثْلِهِ ، ويتَقَبَّلَهُ تقبُّلاً يناسبُ رِفْعَةَ مَحَلِّهِ ، ويتَنَجَّجُ بأجلِّ تفويضٍ لم يُسَمَحْ بِتَمْنِيَةِ لآخر من قبَلِه .

ومن أهمِّ ما نُوصِيهِ بِهِ ، ونُوجِّهُ القولَ إليه بِسَبِيهِ ؛ تَقْوَى الله تعالى التى هى مِلَاكُ الأمرِ كُلِّهِ ، وقِيَامُ الدينِ من أصلِهِ ؛ والاشْتِمَالُ عليها فى سِرِّهِ وجَهْرِهِ والعملُ بها فى قوله وفعلِهِ ، ثم بَرُّ الخلقِ والإحسانُ إليهم ، والتجاوُزُ عنهم إلا فيما أوجبهُ الشرعُ من الحقوقِ عليهم ؛ ففى التقوى رضا الله وفى البرِّ رضا الخلقِ ونَاهِيكَ بجمعِهِما من رُتْبَةٍ فائِزَةٍ ، إذ لا شكَّ أنَّ من حَصَلَ رضا الله ورضا الخلقِ فقد حَصَلَ على خيرِ الدنيا والآخرة ؛ ووراءَ ذلكِ قاعدةٌ فى الوصايا جامعَةٌ ، وتَذَكُّرةٌ لذوى الذِكْرِ نَافِعَةٌ ؛ وهى أن يتَأَمَّلَ أحوالَ غيره تأمُّلَ من جعلها لنفسِهِ مِثْلاً ، ولنَسَجِهِ مِثْلاً ؛ فإِستَحْسَنِهِ منها أتَى مِثْلَهُ ، وما أَسْتَفْجَحَهُ تَجَنَّبَ فَعْلَهُ ؛ وابقاً فى ذلكِ عند ما وردتْ بِهِ الشريعةُ المَطْهُرَةُ بنصِّ صريحٍ أو تأويلِ صحيحٍ ، مُعْرِضاً عن العقلياتِ المَحْضَةِ فلا مجالَ للعقلِ فى تحسينٍ ولا تَقْيِيحٍ .

وأما أدبُ القضاءِ الجارى ذِكْرُ مِثْلِهِ فى العُهُودِ ، والنظرُ فى أمرِ الثَّوَابِ وكُتَّابِ الحُكْمِ والشُّهُودِ ؛ فهو به أدْرَبُ وأدْرَى ، وبمعرفةِ ذلكِ لهم وعليهم أَجْقُ وأَحْرَى ؛ غيرَ أَنَّا نُوصِيهِ بالتَّثَبُّتِ فى أمرِ الدِّمَاءِ وعَلاقَتِهَا ، وتحقُّقِ حُكْمِهَا قَبْلَ الحُكْمِ بِإِراتِهَا ؛ فَإِنَّ ذلكَ لمادَّةِ القَلَقِ فيها أَحْسَمُ ، ومن تَبَعَاتِهَا فى الدارينِ أَسْلَمُ ؛ والوصايا كثيرةٌ

ولكنها منه تُستفاد، وعنه تؤخذ وإليه تُعاد؛ والله تعالى يتولاه، ويحوطه فيما
ولاه، ويُديم عليه هذه النعمة فما فوق منصبه منصبٌ يتمناه؛ والاعتماد... (١) ...
إن شاء الله تعالى.

وكتبَ لستَ إن بَقينَ من شهر رجب الفردِ عام أربع وثمانمائة، حسبَ
المرسوم الشريف، بمقتضى الخط الشريف.



وهذه نسخة توقيع بقضاء القضاة الحنفية بدمشق، من إنشاء القاضي ناصر الدين
أبن النشائي، وهي :

الحمد لله الذى جعل منارَ الشرع الشريف مستمرا على الدوام، وشملَ منصب
الحكم العزيز للعالم بعد العالم على ممر الأيام؛ وأجلَّ انتخاب من يقوم بأعباء القضايا،
ومن تدوم به مزايا السجيا، فيتخير لذلك الإمام بعد الإمام؛ وأقبل بوجه أجتباؤه
على ولى نتأكد بإنصاته وإنصافه إحكام الأحكام، وعدل بأعتنائه إلى تعيين من
ترتفع به فى العلوم أعلام الإعلام، ومن يتأيّد به الحق فى كل نقض وإبرام.

نحمده على نعمه الوافرة الأقسام، السافرة [الشم] عن وجوه الزيادة الوسام،
ونشكره على مننه الحسام، ومواهيه التى لا تَبْرُحُ تُغورُ إحسانها لذوى الاستحقاق
واضحة الأيتسام.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كفيلاً بالمرام، مُبيلة للإكرام،
جميلة للتلفظ والإلتزام، جريئة الكنف والإعتصام؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله
الذى أقام الله به شعائر الإسلام، وأظهر شرائع الدين الحنيف بحسام نصره الحسام،

(١) أى إلى آخر ما يكتب فى مثله، وحذفه من باب الاختصار.

وأورثَ مَنْ أَهْلَهُ مِنْ أُمَّتِهِ كُنُوزَ الْعُلُومِ الَّتِي لَا تَفْسَدُ فَوَيْدُهَا مَعَ كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مَدَى السِّنِينَ وَالْأَعْوَامِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هَدَوْا الْمُؤْمِنِينَ بِإِلْهَامِ الْكَلَامِ، وَعَدُّوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِسِمَامِ الْكِلَامِ، وَأَبَدُوا مِنْ إِرْشَادِهِمْ إِلَى خَفَايَا الْقَضَايَا مَا يَظْهَرُ بِتَهْذِيبِهِمْ ظُهُورَ بَذْرِ النَّمَامِ، صَلَاةً دَائِمَةً بَاقِيَةٌ تُجْزَلُ لِقَائِهَا الْأَجْرُ النَّامُ، وَتُرْسَلُ إِلَيْهِ سَحَابُ الْمَوَاهِبِ هَاطِلَةً النَّمَامِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ تَذَهَّبَ بِهِ مَذْهَبُهُ، وَتَحَلَّى بِهِ مَحَلَّ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَمَنْصِبُهُ، وَأَنَارَ بُنُورَ إِرْشَادِهِ لَيْلَ الشُّكِّ وَغَيْبِهِ، وَسَمَّهَلَ بِتَقْرِيبِهِ عَلَى فَهْمِ الطَّالِبِ مَطْلَبُهُ، وَهَمَّى بِهِ وَابِلَ الْعِلْمِ وَصِدْيَهُ، وَأَتَيْحَ بِهِ لِمُسْتَفِيدِ كُنُزِ الْفَوَائِدِ الَّتِي يَدْنُو بِهَا أَرْبَهُ، وَشِيمَ مِنْ بَرَقِ شِيمِهِ بِأَشَامِ مَا وَجَدَ فِي الْجُودِ صَادِقُهُ وَقَدْ خُذَّه - مَنْ عَلَا فِي الْعُلُومِ نَسَبُهُ، وَتَأَكَّدَ فِي الدِّينِ سَبَبُهُ، وَشَيْدَ مَبْنَى الْمَعَالَى مُعَرَّبُهُ، وَصَقَلَ مَرَايَا الْأَنْهَامِ مُهَدَّبُهُ، وَزَاوَحَ مِنْكَبَ الْجُوزَاءِ فِي أَرْتِفَاعِ الْقَدْرِ مِنْكَبُهُ، وَجَمَلَ مَوَازِيكَ الْمُبَاحِثِ فِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ مَوَازِيكَهُ، وَسَحَّتْ بِدَقَائِقِ الْحَقَائِقِ سُحْبُهُ، وَأَشْتَاقَ إِلَى قُرْبِهِ مَوْطِنُ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ فَمَا زَالَ يَرْتَقِبُهُ، وَارْتَاخَ الزَّمَانُ إِلَى عَفَافِهِ وَإِنْصَافِهِ فَأَرْشَدَ حَيْثُ نَخْتَارُهُ لَذَلِكَ وَنَتَجَبُهُ .

(١)

ولما كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي أَيْدِ اللَّهِ أَحْكَامَهُ هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ الطَّالِبِينَ
 (٢) فِي الْإِسْدَايَةِ، وَأَفَادَ الْمُنْتَرِينَ دَرَجَاتِ النَّهَايَةِ، وَأَفْهَمَ الْمُسْتَفِيدِينَ صَوَابَ الْهِدَايَةِ، وَغَدَا سَابِقًا [فِي] حَلْبَةِ الْعُلَمَاءِ إِلَى أُنْحَى غَايَةِ . كَمْ قَرَّبَ إِلَى الْأَذْهَانِ ذَامِضَ الْمُشْكِلِ وَأَوْضَحَ مَفْهُومَهُ، وَكَمْ أَشَاعَ فِرَائِدَ فَوَائِدِهِ الَّتِي طَبَّقَ الْأَرْضَ بِهَا عُلُومَهُ، وَكَمْ أَبَاحَ لَقَطَ الْأَفَاطَةِ الْمَشْجُونَةِ بِالْحِكْمِ فَتَحَلَّى النَّاسُ بِدُرَرِهَا الْمُنْتَرَةِ وَالْمَنْظُومَةِ، مَعَ مَالِهِ مِنْ دِينِ

(١) بياض بالأصل مترك لتلكه الألتاب المعلومة كالأميرى الكبيرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "والبداية بالياء مكان الهمز غامى نص عليه ابن برى وجاعة" .

متين ، واستحقاق للتقدم مئين ، وصلاحيه بلغ به درجات المتقين المرتقين ، وأتباع
لسن الحق في الحكم بين الخلق عن يقين - أقتضى حسن الرأي الشريف أن يقرن
منصب القضاء بحاله ، وأن يعوض عن إمامه المنقود بإمامه الموجود ليستمر
الأمر على حاله .

فلذلك رسم ... - لا زالت أئمة العلم الشريف في أيامه يخلف بعضهم بعضا ،
وأقدارهم تدوم رفعها مدى المد فلا تجد نقضا ولا نقضا - أن يفوض ...
فليأشر ذلك بعلمه المأثور، وحكمه المشهور، وإنصافه الذي يعدل فيه ، وأنصافه
بالحق الذي ما برح يوفيه ، قاضيا بين الخصوم بما أمر الله عز وجل ، مراقبا
لخشية الله على عادته ، مديعا لليلة الحنيفة أنواع إفادته ، قاطعا بنصل نصه مشكل
الإلباس ، جامعا في أحكامه المسددة بمقتضى مذهبه بين الكتاب والسنة والقياس .
والوصايا كثيرة وملا كلها التقوى وهي مادته ، وطريقه المستقيم وجادته ، وما زالت
عمدته التي يعتمد عليها ، وعدته التي يستند في إسناد أمره إليها ، والله تعالى يجعل
الأيام بأحكامه ، ويبلغه من خير الدنيا والآخرة غاية مراده ومرامه ، إن شاء الله
تعالى .



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية أيضا ، أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين
البساطي المذكور عند عودته إلى الوظيفة ، لأربع بقين من ذى القعدة سنة
سبع وثمانمائة . وقد وافق عودته عود شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقيني
إلى قضاء قضاة الشافعية أيضا ، وهي :

الحمد لله الذى أعاد لرتبة القضاء رونق « جمالها » وأسعد جدّها بأسعد قرآنٍ
 ظهرت آثارُ يمينه بما آثرته من ظهور « جلالها » ، وأجاب سؤالها بأجل حاكمٍ
 لم تعدل عنه يوما فى سؤالها ، وأسعد طلبتها بكل كفى لم تنفك عن خطبته وإن
 أطل فى مطالها ، وأكرم مآبها بأكرم كافٍ ما فاتها منال ماضٍ إلا أدركته به
 فى مآلها .

نحمده على أن أعطيت القوس باريها ، وأعيدت مياه الاستحقاق إلى مجاريها ،
 وردت الشاردة إلى مالكٍ ألفت منه بالآخرة ما ألفت من خيره فى مباديها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يحق بالإخلاص منأطها ،
 ويزداد مع طول الأمد نساطها ، ولا ينطوى على ممر الأيام - إن شاء الله تعالى -
 بساطها . ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضل نبي رفع قواعد الدين وشاد ،
 وقام فى الله حق القيام فسم بسيف الشرع مادة الفساد ، وأحكم بسد الذرائع
 سداد الأمور فجرت أحكام شريعته المطهرة على السداد ؛ صلى الله عليه وعلى آله
 وصحبه الذين استنشق من معدلتهم أطيب عرف ، وخصوا من صفات الكمال بأحسن
 حلية وأكمل وصف ؛ صلاة توهى عرا الإلحاد ، وتقصمها ، وتبك أعناق أهل
 العناد ، وتقصمها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلا خفاء فى أن الأبصار تشوف لرؤية الهلال مع قرب الغيبة للأخذ منه
 بنصيبها ، والشمس يترب طلوعها فى كل يوم وإن قرب زمان مغيبها ، والمسافر
 يسر يابا به وإن تكرر قدومه من بعيد المسافة وقريها ، والسهران يتطلع من ليلته
 الطويلة إلى طلوع فجرها ، والمناصب السنية تأرز إلى مستحقها كما تأرز الحياة
 إلى مجرّها .

ولما كان المجلس العالى، القاضى، (إلى آخر ألقابه) أعز الله تعالى أحكامه هو الذى أحدث فى القضاء آثاره، وسارت بحسن السيرة فى الآفاق أخباره، وحسن بحسن تأتية فى الورد والصدور إرادته وإصداره، وتنافس فى جميل وصفه الطرس والقلم، وظهرت فضائله (ظهور نار القرى ليلاً على علم)؛ ونشرت الأيام من علومه ما تطوى إليه المراحل، وجادت مواطر فكره بما يوجب به جناب المربع الماحل؛ وعمرت من منصب القضاء بولايته معاهدته، وجرت بقضايا الخير فى البدء والعود عوائده؛ ونفذت بنفاد أوامره فى الوجود أحكامه، ورقم فى صحائف الأيام على توالى الدهور نقضه وإبرامه؛ وسجل بثبوت أحقيته فانقطعت دون بلوغ شأوه الأطماع، وحكم بموجب فضله فانعقد على صحة تقدمه الإجماع؛ ففرائد فوائده المدونة تؤذن بالبيان والتحصيل، ومقدمات تنبيهاته المحققة، تكفى نتائج إفضاها عن الإجمال والتفصيل؛ وجواهر ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرة التى تقنى، ومدارك معانيه الفائقة، حسبك من ثمرة فكر تجتنى؛ وتهذيب إراداته الواضحة تغنى فى إدراكها عن الوسائل، وتحقيق مسائله الدقيقة تحقق فيها أنها عيون المسائل - وكانت وظيفة قضاء قضاة المالكية بالديار المصرية فى رفيع رتبته، ووافر حرمتها، قد ألفت إليه مقاليدها، ورفعت بالانتماء إلى مجلسه العالى أسانيدها، وعمرت محله الرفيع فتعلقت منه بأعز منال، وحظيت بجماله اليوسفى المرة بعد الأخرى فقالت: لا براح لى عن هذا الجمال؛ وعجمت بتكرار العود عوده فأعرضت عن السوى، وقرت بالإياب إليه عينا «فألفت عصاها وأستقر بها النوى» - أقتضى حسن رأى الشريف أن نعيد الوظيفة المذكورة إليه، ونعول فى استكشاف مشكلات الأحكام على ما لديه، إقراراً للأمر فى نصابه، ورداً له بعد الشراء إلى مثابه، وإسعافاً للنصب بطلبته وإن أعب غيره نفسه فى طلايه.

فلذلك رَسِمَ بالأمر الشريف - لا زال يُدعى المعروف ويُعبد ، ويوفّر نصيب الأولياء ويزيده - أن يفوض إلى المجلس العالى المشار إليه قضاء القضاة بمذهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مالك بن أنس الأصبحي» رضى الله عنه ، على جارى عادته المتقدمة فى ذلك . وأن يُضاف إليه تدريس قبة الصالح والأنظار الشاهد بها توقُّعه الشريف ، وأن لا يقرّر أحدٌ فى دروس المالكية من مدرّس ومُعبد إلا بتعيينه ، على أتم العوائد وأجلها ، وأعمّ القواعد وأكملها .

فليُمد إلى رُتبته السنية برفع قدره وعلى هِمته ، ويقابل إحساننا بالشكر نُحْفَه بمزيد الإقبال إذ لا زيادة فى العلو على رُتبته . ثم أول ما نُوصيه به ، ونؤكد القول عليه بسببه ، تقوى الله التى هى ملاك الأمور كلّها ، وأولى المفترضات فى عقد الأمور وحلّها ، فهى العِصمة التى من لجأ إليها نجّا ، والوقاية التى ليس لمن حاد عنها من لحاق قوارع الله مُلتجأ . ونُتبع ذلك بالتلويح إلى الإختياط فى المسائل التى تفرّد بها مذهب الشريف ضيقاً وسعة ، وأختصّ بها إمامه الأصبحي دون غيره من الأئمة الأربعة ، وهى مسائل قليلة ، آثارتها فى الورى كثيرة جليّة ، منها سفك دم المتّقص والساب ، وتحمُّ قتلته على البت وإن تاب ، فعليه أن يأخذ فى ذلك بالاهتمام ، ولا يُعطى رُخصة فى حقّ أحدٍ من الأنبياء والملائكة عليهم السلام ، ليكون ذلك وسيلة إلى الخلوص عن القذى ، وذريعة إلى سلامة الشرف الرفيع من الأذى ، إلا أنا نُوصيه بالتثبت فى الشبوت ، وأن لا يعجل بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يمكن تداركه بعد أن يثبوت . ومنها : الشهادة على الخط وإحياء مامات من كُتب الأوقاف والأملاك ، وتقريب ماشط فلا يقبل فيه إلا اليقظ الواقف مع تحقُّقه دون حدسه ، ولا يطلق عنان الشهود فإنّ الكاتب ربما اشتبه عليه خطُّ

نَفْسِهِ - ومنها : ثُبُوتُ الولاية للأوصياء ، فيُجْرِيها على اعتقاده ، ولكن إذا ظهرت المصلحة في ذلك على وَفْق مُراده - ومنها : إسقاط غَلَّةِ الوقف إذا اسْتُرِدَّ بعد بيعه مدَّة بقاءه في يد المشتري ، تحذيرا من الإقدام على بيع الوقف وعقوبة رادعة لبائعه المجترى . إلى غير ذلك من مسائل الأنفراد ، وما شاركه فيه غيره من المذاهب لموافقة الاعتقاد ، فيمضي الحكم فيه بأقوى العزائم ، ويُلْزِم فيها بما استبان له من الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم .

وأما غير ذلك من الوصايا الراجعة إلى أدب القضاء فلديه منها الخبر والخبر ، ومنه تستملى فوصيته بها كنقل التمر إلى حجر ، والله تعالى يعامله بلطفه الجميل ، ويحفه بالعباية الشاملة في المقام والرحيل ؛ إن شاء الله تعالى ؛ والاعتماد



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة ، وهي :

الحمد لله الذي أطلع في أفق الدين القيم ^(١) شمساً منيره ، ورفع درجة من جعله من العلم على شريعة ومن الحكم على بصيره ، وقلد أمور الأمة بمن يعلم أن بين يديه كتابا لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة ، ووفق لفصل القضاء من مشي على قدم إمامه الذي أدخر منه للحكم في أيامنا الشريفة من نقائس العلماء أفضل ذخيره ، وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاء خيره ، وأيقظ عايتنا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريره .

نحمده حمد من توافقت إليه النعم الغزيرة ، وتوالت عليه المنن الكثيرة في الممدد اليسيره ، وأخصبت في أيامه رياض الفضائل فهي بكل عالم عدم النظير نصيره ،

(١) تقدمت في تقليد حنفى بأطول من هذا ويبيض تغيير .

وَأَفْتَحَ دَوْلَتَهُ بِرَفْعِ مَنَارِ الْعَدْلِ فَأَمَالَ أَهْلَ الظُّلْمِ عَنْ تَعَاطِيهِ قَاصِرَةً وَأَيْدَى أَهْلِ الْبَاطِلِ
عَنِ الْإِمْتِدَادِ إِلَيْهِ قَصِيرَةً ، وَخَصَّ الْمَنَاصِبَ فِي مَمَالِكِهِ بِالْأَكْفَاءِ فَإِذَا تَلَبَّسَتْ بِهَا
هَيْمٌ غَيْرُهُمْ عَادَتْ خَاسِئَةً أَوْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهَا أَبْصَارُ مَنْ دُونَهُمْ رَجَعَتْ حَسِيرَةً .

وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُصْلِحُ الْعَلَنَ وَالسِّرِيَةَ ،
وَتُصْلِحُ بِهَا الْقُلُوبُ مُوقِنَةً وَالْأَلْسُنُ نَاطِقَةً وَالْأَصَابِعُ مُشِيرَةً . وَنُشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرِّسْلَ مَخِيرَةً وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ بِمَبْعَثِهِ بَشِيرَةً ، وَاجْتَبَاهُ فِي خَيْرِ
أُمَّةٍ مِنْ أَكْرَمِ أَرْوَمةٍ وَأَشْرَفِ عَشِيرَةٍ ، وَأَظْهَرَ أَنْوَارَ مِلَّتِهِ إِلَّا مَنْ أَعْمَى الْغَىُّ بَصِيرَتَهُ
وَهَلْ تَنْفَعُ الْعُمَى شَمْسُ الظَّهِيرَةِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَوةً نَتَقَرَّبُ
بِدَوَامِهَا إِلَى اللَّهِ فَيَضَاعِفُهَا لَنَا أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى الْأُمُورِ بَأَن تُشَادَ قَوَاعِدُهُ ، وَتُعْتَهَدَ مَعَاهِدُهُ ، وَيُعْلَى مَنَارُهُ ،
وَتُقَاضَ بِطُلُوعِ شَمْسِهِ أَنْوَارُهُ ، وَتُكَمَّلَ بِهِ قُوى الدِّينِ تَكَمُّلَةَ الْأَجْسَادِ بِقُوى الطَّبَائِعِ
الْأَرْبَعِ ، وَتُعَمَّرَ بِهِ رُبُوعُ الْمِلَّةِ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا مِنْ مَصِيفٍ لِمِلَّةٍ وَلَا مَرْبَعٍ ، وَتُثَبَّتَ
بِهِ قَوَائِمُ الشَّرْعِ الَّتِي مَا لِلْبَاطِلِ فِي إِمَالَةٍ بَعْضُهَا مِنْ مَطْمَعٍ ، أَمْرُ الْقَضَاءِ عَلَى مَذْهَبِ
الْإِمَامِ الرَّبَّانِيِّ « أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ قَدْ خَلَا بَانْتِقَالَ مُبَاشَرِهِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَوَقَّفَ مَدَّةً عَلَى آرْتِيَادِ الْأَكْفَاءِ ، وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُ
الْأَصْطِفَاءِ ، وَأَخْتِيَارِ مَنْ تَكَمَّلَ بِهِ رِفْعَةُ قَدْرِهِ ، وَيُعِيدُ لِدَسْتِهِ عَلَى سِلَاطِ سُلَيْمَانِهِ
بِهَجَّةٍ صَدْرَهُ .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الْمُنْتَظَرُ لِهَذِهِ الرَّثْبَةِ أَنْتَظَارَ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغَسَقِ ، وَالْمُرْتَقَبِ
لِبُلُوغِ هَذِهِ الْمُنْزِلَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا بَوَادِرُ اسْتِحْقَاقِهِ فِي السَّبْقِ ، وَالْمَعْطُوفَ عَلَى
الْأُئِمَّةِ مِنْ أَصْحَابِ إِمَامِهِ - وَإِنْ تَأَخَّرَ زَمَانُهُ - عَطَفَ النَّسَقِ ، وَهُوَ الَّذِي مَا زَالَ

يَعْدِلُ دَمَ الشَّهَدَاءِ مِدَادَ أَقْلَامِهِ ، وَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ أُجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ مِنْ تَقَلُّ
خُطَوَاتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَسَعَى أَقْدَامِهِ ، وَدَخَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي زُمْرَةِ مَنْ
حُصِرَ بِأَيِّمًا ، وَهَجَرَ الْمُضَاجِعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَلَوْ عُدَّتْ هَجَعَاتُهُ لَقَلَّمَا ؛
وَهَجَّرَ فِي إِحْرَازِ الْفَضَائِلِ فَقَيَّدَ أَوَايِدَهَا ، وَأَحْرَزَ شَوَارِدَهَا ؛ وَلَجَّ فِي بَحَارِ الْمَعَانِي
فَغَاصَ عَلَى جَوَاهِرِهَا ، وَنَظَرَ نَظْرَةً فِي نُجُومِ الْعُلُومِ فَاحْتَوَى عَلَى زُهْرِهَا وَزَارَ نَحَائِلَ
الْفَضَائِلِ [فَاسْتَوَى] عَلَى أَزَاهِرِهَا ؛ وَاتَّهَى إِلَيْهِ عِلْمُ مَذْهَبِهِ فَبَرَزَ عَلَى مَنْ سَلَفَ ،
وَجَارَى عِلْمَاءَ عَصْرِهِ فَوَقَفَتْ أَبْصَارُهُمْ عَنْ رُؤْيَا غُبَارِهِ وَمَا وَقَفَ ؛ وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ
الْقَضَاءُ وَإِنْ كَانَ فَرْضَ كِفَايَةٍ لَا فَرْضَ عَيْنَ ، وَقَدَّمَهُ التَّرْجِيحُ الَّذِي جَعَلَ رُتْبَتَهُ هِمَزَةً
أَسْتَفْهَامَ وَرُتْبَةَ غَيْرِهِ بَيْنَ بَيْنَ - أَقْتَضَى رَأْيُنَا الشَّرِيفَ اخْتِصَاصَهُ بِهَذَا التَّمْيِيزِ ،
وَالْتَنْبِيْهِ عَلَى فَضْلِهِ الْبَسِيطِ بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ . فَلْيَتَوَلَّ هَذِهِ الرُّتْبَةَ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَائِبًا وَبَشْرَةً قَائِمًا ، وَيَتَقَلَّدُهَا تَقَلُّدًا مَنْ يَعْلَمُ
أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مُقَدِّمًا وَعَلَى اللَّهِ قَادِمًا ، وَيَتَبَيَّنُ تَبَيُّنٌ مِنْ يَعْصِمُ
بِحُجْلِ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ فَإِنَّ أَحَدَ الْخَصْمَيْنِ قَدْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا ،
وَيَلْبَسُ لِهَذَا الْمَنْصِبِ حُلَّةً تَمْنَعُ الْمُبْطِلَ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، وَتُدْفَعُ الظَّالِمَ عَنْ التَّطَاوُلِ
إِلَى أَمْرِ نَزَعِهِ الشَّرِيفُ مِنْ يَدَيْهِ ، وَيُؤَمِّنُ الْحَقُّ مِنْ أَمْتِدَادِ يَدِ الْجَوْرِ وَالْحَيْفِ
إِلَيْهِ ؛ وَلْيُسَوِّبْ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ فِي مَجْلِسِهِ وَلَحِظِهِ ، وَيَعْدِلْ بَيْنَهُمَا فِي إِنْصَاتِهِ وَلَفْظِهِ :
لِيَعْلَمَ ذُو الْجَاهِ أَنَّهُ مُسَاوٍ فِي الْحَقِّ لَخَصْمِهِ ، مَكْفُوفٌ بِاسْتِمَاعِ حُجَّتِهِ عَنْ الطَّمَعِ
فِي ظُلْمِهِ ؛ وَلَا يَنْقُصُ حُكْمًا لَمْ يَخْلَفْ نَصًّا وَلَا سُنَّةً وَلَا إِجْمَاعًا ، وَلِيُشَارِكَ فِيمَا لَا يَجْهَلُهُ
مِنَ الْقَضَايَا غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ لِيَتَرَيَّدَ بِذَلِكَ مَعَ أَطْلَاعِهِ أَطْلَاعًا ، وَلِيُغْنِمَ فِي ذَلِكَ الْإِسْتِعَانَةَ

بآرائهم : فإن الله تعالى لا يترع هذا العلم انتزاعاً ، وليس مسالك الهوى عن فكره ،
ويصرف دواعى الغضب لغير الله عن المرور بذكره ؛ وليجعل العمل لوجه الله
نتيجة علمه ، وليحكم بما أراه الله (والله يحكم لا معقب لحكمه) .



وهذه نسخة وصية أوردها في " التعريف " تشمل القضاة الأربعة ، قال :
وصية جامعة [لقاض] ^(١) من أى مذهب كان ، وهى :

وهذه الرتبة التى جعل الله إليها منتهى القضايا ، وإنهاء الشكايا ، ولا يكون
صاحبها إلا من العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء ، ومتولى الأحكام الشرعية بها
كما ورث عن نبي الله صلى الله عليه وسلم علمه ، كذلك ورث حكمه ؛ وقد أصبح بيده
زمام الأحكام ، وفصل القضاء الذى يعرض [بعضه] ^(١) بعده على غيره من الحكماء ؛
وما منهم إلا من ينقد نقد الصيرفى ، وينفذ حكمه نفاذ المشرفى ؛ فليتروا فى أحكامه
[قبل إمضاءها ، وفى المحاكمات إليه] ^(١) قبل فصل قضائها ، وليراجع الأمر مرة بعد
مرة حتى يزول عنه الالتباس ، ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم والإجماع والقياس ؛ وما أشكل عليه بعد ذلك فليجئ ظلمه
بالاستخاره ، وليجئ مشكله بالاستشارة ، ولا يرتقضا عليه إذا استشار فقد أمر الله
رسوله صلى الله عليه وسلم بالشورى ، ومر من أول السلف من جعلها بينه وبين
خطأ الاجتهاد سورا ، فقد يسنح للراء ما أعيأ غيره وقد أكثر فيه الدأب ، ويتفطن
الصغير لما لم يفطن إليه الكبير كما فطن ابن عمر رضى الله عنهما للنخلة [و] ما منعه
أن يتكلم إلا صغر سنه ولزوما مع من هو أكبر منه للأدب ؛ ثم إذا وضع له الحق

قضى به لمستحقته ، وسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه ؛ وحكم له به حكما يسره يوم القيامة أن يراه ، وإذا كتب له به ، ذكر بخير إذا بلى وبقى الدهر ما كتبت يده . وليسو بين الخصوم حتى في تقسيم النظر ، وليجعل كل عمله على الحق فيما أباح وما حظر ؛ وليجد النظر في أمر الشهود حتى لا يدخل عليه زيف ، وليتحرر في استيداء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين وشاهد قتل بغير سيف ؛ ولا يقبل منهم إلا من عرف بالعدالة ، وألف منه أن يرى أوامر النفس أشدَّ العدالة - وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عاده ، ولا تصدئ للارتراق بسختها ومات وهو حي على الشهادة ، فليقبل منهم من لا يكون في قبول مثله ملامه ، فرب عدل بين منطقتي وسيف وفاسق في فرجية وعمامه - ولينقب على ما يصدر من العقود التي يؤسس أكثرها على شفا جرف هار ، ويوقع في مثل السفاح إلا أن الحدود تدرأ بالشبهات ويبقى العار - وشهود القيمة الذين يقطع بقولهم في حق كل مستحق ومال كل يتيم ، ويقلد شهادتهم على كل أمر عظيم ؛ فلا يعول منهم إلا على كل رب مال عارف لا تخفى عليه القيم ، ولا يخاف معه خطأ الحدس وقد صقل التجريب مرآة فهمه على طول القيد . ولينأن في ذلك كله أناة لا تقضى بإضاعة الحق ، ولا إلى المطاولة التي تقضى إلى ملل من استحق . ولينهذ لرمسه ، ولا يتعلل بأن القاضى أسير الشهود وهو كذلك وإنما يسعى للخلاص نفسه - والوكلاء هم البلاء المبرم ، والسياطين المسؤولين لمن توكؤوا له الباطل ليضى لهم به وإنما تقطع لهم قطعة من جهنم ، فليكف بمهابته وساوس أفكارهم ، ومساوى جفائرهم ؛ ولا يدع لجنى أحد منهم ثمرة إلا ممنوعه ، ولا يد اعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه أو مقطوعة . وليطهر بابه مرة من دنس الرسل الذين يشنون على غير الطريق ، وإذا رأى واحد منهم درهما ودّ لو حصل في يده ووقع في نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصى ،

ولا أن يُحصى عليه منه أفراد عمله وهو لا يُحصى ، ومنها النظر فى أمور أوقاف أهل مذهبه نظر العموم ، فليعمرها بحيل نظره فرب نظرة أنفع من مواقع الغيوم ؛ وليأخذ بقلوب طائفته الذين خُص من بينهم بالتقديم ، وتفاوت بُعد ما بينه وبينهم حتى صار يُزيل عارض الرجل منهم النظرة [منه] ويأسو حراحه منه التكليم . وهذه الوصايا إنما ذكرت على سبيل الذكرى ، وفيه - بحمد الله - أضعافها ولهذا وليناه والحمد لله شكراً ؛ وقد جعلنا له أن يستنيب من يكون بمثل أوصافه أو قريباً من هذه المثابة ، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكل ويتاسمه ثوابه ؛ وتقوى الله تعالى هى جماع الخير ولا سيما لصاحب هذه الوظيفة ، ولمن وليها أصلاً وفرعاً لا يستغنى عنها رب حكم مطلق التصرف ولا خليفه .

ويزاد الشافعى :

وليعلم أنه صدر المجلس ، وأنه أدنى القوم وإن كانوا أشباهه منا حيث يجلس ، وأنه ذو الطيلسان^(١) الذى يخضع له رب كل سيف ويؤبى ؛ وليتحقق أنه إنما رفعه علمه وتقاه ، وأن سبب دينه لادنياه هو الذى رقاها ؛ فليقدر حق هذه النعم ، وليقف عند حد منصبه الذى يؤد لو اشترى سواد مداده بحجر النعم .

ويقال فى وصيته : وأمر دعاوى بيت المال المعمور ، ومحاكماته التى فيها حق كل فرد فرد من الجمهور ؛ فليحترز فى قضايها غاية الاحتراز ، وليعمل بما يقتضيه لها الحق من الصيانة والإحراز ؛ ولا يقبل فيها كل بينة للوكيل عن المسلمين فيها مدفع ، ولا يعمل فيها بمسألة ضعيفة يظن أنها ما تضر عند الله فإنها ما تنفع ؛ وله حقوق فلا يجحد من يسعى فى تملك شئ منها بالباطل منه إلا الياس ، ولا يلتفت إلى من رخص لنفسه وقال : (هو مال السلطان) فإنه مالنا فيه إلا ما لواحد من الناس .

(١) ذكر فى "القاموس" أن لام الطيلسان مثناة .

وأموال الأيتام الذين حذر الله من أكل مالهم إلا بالمعروف لا بالشبهات ، وقد مات
 أبائهم ومنهم صغار لا يتدنون إلى غير الثدي للرضاع ومنهم حمل في بطون الأمهات ،
 فليأمر المتحدثين لهم بالإحسان إليهم ، وليعرفهم بأنهم سيجزون في بينهم بمثل
 ما يعملون معهم إذا ماتوا وتركوا ما في أيديهم ، وليحذر منهم من لا ولد له :
 ﴿ وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ . وليقتص عليهم
 في مثل ذلك أبناء من سلف تدكيرا ، ولينل عليهم القرآن ويذكّرهم بقوله تعالى :
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .
 والصدقات الموكولة إلى تصريف قلمه ، المأكولة بعدم أمانة المباشرين وهي
 في ذمه ، يتيقظ لإجرائها على السداد في صرفها في وجوه استحقاقها ، والعمل بما
 لا يجب سواه في أخذها وإنفاقها . والمسائل التي تفرد بها مذهبها وترجح عندها
 العمل ، وأعدّ عنها الجواب لله إذا سأل ، لا يعمل فيها بمرجوح إلا إذا كان نص
 مذهب إمامه أو عليه أكثر الأصحاب ، وراه قد حكم به أهل العلم ممن تقدمه لرُجحانه
 عنده وللاستصحاب . وتواب البر لا يقلد منهم إلا من تحقق استحقاقه ، فإنه إنما
 يوليه على مسلمين لا علم لأكثرهم فهم إلى ذى العلم أشد فاقه ، هذا إلى ما يتعرف
 من ديانته ومن عقافتهم الذى يتجزع المرء منهم به مرارة الصبر من الفاقة وهو به
 يتحلّى ، ثم لا يزال له عين عليهم فإن الرجال كالصناديق المقلّلة لا يعرف الرجل ما هو
 حتى يتولى .

وزاد الحنفى :

وليعلم أن إمامه أول من دون الفقه وجمعه ، وتقدم وأسبق العلماء من تبعه ،
 وفي مذهبه ومذاهب أصحابه أقوال في المذهب ، ومسائل مالّقه فيها مالك وهو أول

مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ وَمَنْ يُعَدُّ مِنْ سَوَابِقِهِ أَشْهَبُ ؛ وَمَنْ أَهْمُهَا تَزْوِيجُ الصَّغَائِرِ ، وَتَحْصِينُهُنَّ
بِالْأَكْفَاءِ مِنَ الْأَزْوَاجِ خَوْفًا عَلَيْهِنَ مِنَ الْكِبَائِرِ ؛ وَشُفْعَةُ الْحَوَارِ الثِّبَانِ لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ
رَأْيِهِمْ لَمَّا أُمِنَ جَارُ السُّوءِ عَلَى رَغَمِ الْأَنْوَفِ ، وَلَأَقَامَ الرَّجُلُ الدَّهْرَ سَاكِنًا فِي دَارِهِ
بَيْنَ أَهْلِهِ وَهُوَ يَتَوَقَّعُ الْخَوْفَ ؛ وَكَذَلِكَ نَفَقَةُ الْمُعْتَدَةِ الَّتِي هِيَ فِي أَسْرِ مَنْ طَلَّقَهَا وَإِنْ
بُنَتْ مِنْ حِبَالِهِ ، وَبَقِيَتْ لَا هُوَ بِالَّذِي يُنْفِقُ عَلَيْهَا وَلَا هِيَ بِالَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَزَوَّجَ
مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ ؛ وَمَنْ أَسْتَدَانَ مَالًا فَأَكَلَهُ وَأَدَّعَى الْإِعْسَارَ ، وَلَفَّقَ لَهُ
بَيْنَةً أَرَادَ أَنْ تُسْمَعَ لَهُ وَلَمْ يَدْخُلِ الْحَبْسَ وَلَا أَرْهَقَ مِنْ أَمْرِهِ الْأَعْسَارَ ، وَأَهْلُ
مَذْهَبِهِ عَلَى أَنَّهُ يُسَجَنُ وَيَمُكُّ مَدَّةً ، ثُمَّ إِذَا ادَّعَى أَنَّهُ بَيْنَةٌ أَحْضَرَتْ ثُمَّ هَلْ تُقْبَلُ
أَوَّلًا . فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا فِيهِ عَمُومُ صِلَاحٍ ، وَعَظِيمُ نَفْعٍ مَّا فِيهِ جُنَاحٌ ؛ فَلْيَقْضَ فِي هَذَا
كُلَّهُ إِذَا رَأَاهُ بِمَقْتَضَى مَذْهَبِهِ ، وَلِيَهْتَدِ فِي هَذِهِ الْأَرْاءِ وَسَوَاهَا بِقَمَرِ إِمَامِهِ الطَّالِعِ أَبِي حَنِيفَةَ
وَشُئْبَةَ ؛ وَلِيُحْسِنَ إِلَى فَتَاهِ أَهْلِ مَذْهَبِهِ الَّذِينَ أَدْنَى إِلَيْهِ أَكْثَرُهُمُ الْإِعْتِرَابَ ، وَحَلَّقَ
بِهِمْ إِلَيْهِ طَائِرُ النَّهَارِ حَيْثُ لَا يَحْتَقِقُ الْبَازِي وَجَنَاحُ اللَّيْلِ حَيْثُ لَا يَطِيرُ الْغُرَابُ ؛ وَقَدْ
تَرَكُوا وَرَاءَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ الشَّاسِعَةِ ، وَالْأُمْدَادِ الْوَاسِعَةِ ؛ مَا يُرَاعَى لَهُمْ حَقُّهُ إِذَا عُدَّتْ
الْحَقُوقُ ، وَيَجْمَعُهُ وَإِيَّاهُمْ بِهِ أَبُوهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَا مِثْلُهُ مِنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعُقُوقِ .

ويزاد المالكي :

ومذهبه له السيف المصلت على من كفر ، والمذهب بدم من طل دمه وحصل
به الظفر ؛ ومن عدا قدره الوضع ، وتعرض إلى أنبياء الله صلوات الله عليهم بالقول
الشنيع ؛ فإنه إنما يقتل بسيفه المجرد ، ويراق دمه تعزيرا بقوله الذي به تفرد ؛ ولم
يزل سيف مذهبهم بارز الصفحه ، مسلما لهم إلى مالك خازن النار من مذهب
مالك الذي مافيه فسحه ؛ وفي هذا ما يصرح غدر الدين من القذى ، وما لم تطل دماء

هؤلاء (لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى)؛ وإنما نوصيه بالتحري في الثبوت ،
 [والبينة التي لا يستدرك بها ما يفوت ،] ^(١) وإنما هو رجل يحيا أو يموت ، فليتمهل
 قبل بت القضاء ، وليعذر إليهم لاحتمال ثبوت تفسيق الشهود أو بغضاء ؛ حتى
 لا يعجل تلافاء ، ولا يعجل بما لا يتلافى ، فكما أننا نوصيه أن لا ينقض في شد الوثاق
 عليهم أبراما ، فهكذا نوصيه أن لا يصاب بغير حقه دما حراما ؛ وكذلك قبول الشهادة
 على الخط ، وإحياء مامات من الكتب وإدناء ما شط ؛ فهذا مما فيه فسحة للناس ،
 وراحة ما فيها باس ؛ إلا أنه يكون الثبوت بهذه البينة للاتصال ، لا للزع يد ولا إلزام
 بمجردا بمال ؛ وهكذا ما يراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرد به هو دون البقية ، وفيه
 مصالحة وإلا فما معنى الوصية ؛ وهو زيادة احتراز ما تضر مراعاة مثلها في الأمور
 الشرعية ؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرّيع في وقف آسرد وقد بيع ، وعطل المشتري
 من التكسب بذلك المال مدة لا يشتري ولا يبيع ؛ وهذا مما يبت قضاءه في مثله ،
 ويجعل عقاب من أقدم على بيع الوقف إحرامه مدة البيع من مغلة ؛ وسوى ذلك
 مما عليه العمل ، ومما إذا قال فيه قال بحق وإذا حكم عدل . وفقهاء مذهبه في هذه
 البلاد قليل ما هم ، وهم غرباء فليحسن مأواهم ، وليكرم بكرمه مثواهم ؛ وليستقر بهم
 النوى في كنفه فقد ملأوا طول الدرب ، ومعاناة السفر الذي هو أشد الحرب ،
 ولينسهم أوطانهم برة ولا يدع في مآقيهم دما يفيض على الغرب .
 ويزاد الحنبلى :

والمهمّ المقدم - وهو يعلم ما حدث على أهل مذهبه من الشناعة ، وما رموا به
 من الأقوال التي نتركها لما فيها من البشاعة ؛ ونكتفى به في تعفية آثارها ، وإماطة

أَذَاهَا عَنْ طَرِيقِ مَذْهَبِهِ لِتَأْمَنِ السَّالِكَةُ عَلَيْهِ مِنْ عِثَارِهَا ؛ فَتَعَالَى اللَّهُ أَنْ يُعْرِفَ
بَكَيْفٍ ، أَوْ يُجَاوِبَ السَّائِلُ عَنْهُ بِهَذَا إِلَّا بِالسَّيْفِ ؛ وَالْإِنْضَامُ إِلَى الْجَمَاعَةِ وَالْحَذَرُ مِنْ
الْأَنْفِرَادِ ، وَإِقْرَارُ آيَاتِ الصِّفَاتِ عَلَى مَا جَاءَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ ، وَأَنَّ الظَّاهِرَ غَيْرُ
الْمُرَادِ ، وَالْخُرُوجُ بِهِمْ إِلَى النُّورِ مِنَ الظُّلُمَاءِ ، وَتَأْوِيلُ مَا لَا بُدَّ مِنْ تَأْوِيلِهِ مِثْلُ حَدِيثِ
الْأُمَّةِ الَّتِي سُئِلَتْ عَنْ رَبِّهَا : أَيْنَ هُوَ فَقَالَتْ فِي السَّمَاءِ ؛ وَإِلَّا فَقَدْ فِي الْبَلْبَلَةِ بِإِثْبَاتِ الْجَهَةِ
مَا فِيهَا مِنَ الْكَوَارِثِ ، وَيُلْزَمُ مِنْهَا الْحَدُوثُ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدِيمٌ لَيْسَ بِحَادِثٍ
وَلَا مُحَلًّا لِلْحَوَادِثِ ؛ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْقِرَاءَانِ وَنَحْنُ نُحَذِّرُ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ بِصَوْتٍ
أَوْ حَرْفٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ قَالَ بِالصَّوْتِ إِلَّا سَوَاطِئَ وَبِالْحَرْفِ إِلَّا حَتْفٌ ؛ ثُمَّ بَعْدَ هَذَا
الَّذِي يَزْعُ بِهَ الْجُهَالُ ، وَيَرْتَدُّ دُونَ غَايَتِهِ الْفِكْرُ الْجَوَالُ ، يَنْظُرُ فِي أُمُورِ مَذْهَبِهِ وَيَعْمَلُ
بِكُلِّ مَا صَحَّ نَقْلُهُ عَنْ إِمَامِهِ وَأَصْحَابِهِ : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي زَمَانِهِ وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْ أَيَّامِهِ ؛
فَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِمَامَ حَقٍّ نَهَضَ وَقَدْ قَعَدَ النَّاسُ تِلْكَ الْمُدَّةَ ، وَقَامَ نَوْبَةُ الْحِجْنَةِ مَقَامَ
سَيِّدِ تَيْمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَوْبَةُ الرَّدِّهِ ؛ وَلَمْ تَهَبَّ بِهِ زُعَارِعُ الْمُرَيْسِيِّ وَقَدْ هَبَّتْ
مَرِيَسَا ، وَلَا ابْنُ أَبِي دُوَادٍ وَقَدْ جَمَعَ لَهُ كُلُّ ذَوْدٍ وَسَاقَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ عَيْسَا ؛
وَلَا نَكْتُ عُهُدَةً مَا قَدَّمَ لَهُ الْمَأْمُونُ فِي وَصِيَّةِ أَخِيهِ مِنَ الْمَوَاتِقِ . [وَلَا رَوْعَهُ سَوَاطِئُ
الْمُعْتَصِمِ وَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ وَلَا سَيْفُ الْوَائِقِ] .^(١)

فَلْيَقِفْ عَلَى أَثَرِهِ ، وَلْيَقِفْ بِمُسْنَدِهِ [عَلَى مَذْهَبِهِ] كُلَّهُ أَوْ أَكْثَرِهِ ، وَلْيَقِضْ بِمُفْرَدَاتِهِ
وَمَا آخَرَهُ أَصْحَابُهُ الْأَخْيَارَ ، وَلْيَقْلُدْهُمْ إِذَا لَمْ تَخْتَلِفْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ ؛ وَلْيَحْتَرِزْ لِدِينِهِ
فِي بَيْعِ مَا دَثَرَ مِنَ الْأَوْقَافِ وَصَرَفِ ثَمَنِهِ فِي مِثْلِهِ ، وَالْإِسْتِبْدَالِ بِمَا فِيهِ الْمَصَالِحَةُ
لِأَهْلِهِ ؛ وَالْفَسْخَ عَلَى مَنْ غَابَ مَدَّةً يُسُوغُ فِي مِثْلِهَا الْفَسْخُ ، وَتَرَكَ زَوْجَةً لَمْ يَتَرَكَ لَهَا

نفقة وخلأها وهى مع بقائها فى زوجيته كالمعلقة ؛ وإطلاق سراحها لتتزوج بعد
ثبوت الفسخ بشروطه التى يبقى حكمها به حكم المطلقه ؛ وفيما يمنع مضارة الجار ،
وما يتفرع على قوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » ، وأمر وقف الإنسان
على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه ، وطلعت به أهلة علماء لولاهم لما جلا
الزمان جُنَحَ غِيَبِهِ ؛ وكذلك الجوائح التى يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرى
بها الإلزام ، ولا تجرى لديه إلا تجرى المصلحة بدليل الالتزام ؛ وكذلك المعاملة التى
لولا الرخصة عندهم فيها لما أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض ، ولا أخذ قسم
الغلال والمعامل هو الذى يزرع البدور ويحرث الأرض ؛ وغير ذلك مما هو من
مفرداته التى هى للرفق جامعته ، وللراعى فى أكثر معاشهم وأسبابهم نافعته ؛ فإذا
استقرت الفروع كانت الأصول لها جامعته . وفقهاء مذهبه هم الفقهاء لقلة الحصول
وضعف الأوقاف ، وهم على الرقة كالرياح المعدة للثقاف ؛ نخذ بنحو أطيرهم ، ومد
آمالهم فى غائب وقتهم وحاضرهم ؛ وأشملهم بالإحسان الذى يرغبهم ، ويقل به طلبهم
لوجوه الغنى ويكثر طلبهم .

(١) عبارة "التعريف" « وإذا استقرت الأصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع ، وتشتمل على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما كان يكتب فى النصف بـ «المجلس العالى» كما كان يكتب
للقضاة الأربعة أولاً ، وقد تقدم)

المرتبة الثانية

(ما يكتب فى قطع الثالث بـ «السامى» بالياء)

وأعلم أن الأصل فيما يكتب من التواقيع أن يفتح بـ «أما بعد» إلا أن الكتاب تسامحوا فيه فافتتحوا لمن علت رتبته حيث أقتضى الحال الكتابة له فى الثالث بـ الحمد لله ، وأبقوا من انحطت رتبته عن ذلك على ما كان عليه من الافتتاح بـ «أما بعد» وهأنا أورد ماسنح من ذلك مما أنشأ الكتاب فى ذلك من الافتتاحين جميعاً . ويشتمل على وظائف .

الوظيفة الأولى

(قضاء العسكر)

وقد تقدم فى المقالة الثانية أن موضوعها التحدث فى الأحكام فى الأسفار السلطانية وأن له مجلساً يحضره بدار العدل فى الحضر . وقد جرت العادة أن يكون قضاء العسكر أربعة : من كل مذهب قاض .

وهذه نسخة توقيع شريف بقضاء العسكر المنصور بالحضرة السلطانية ، وهى :

الحمد الذي رفع للعالم الشريف في أيامنا الزاهرة منارا ، وزاد بإعلاء رتب أهله
دولتنا القاهرة رفعة ونخارا ، وزان أحكامه الشريفة بحكامه الذين صلحوا في غياهب
مُشكلاته بدورا وتدققوا في إفاضته في الأحكام الشرعية بحارا .

نحمده على نعمة التي حلت فحلت ، ومِنَهِ التي أهلت الجود فاستهلت .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لقائلها ذخرا ، وتعلی
لتمسك بها في الملأ الأعلى ذكرا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو أسبق
الأنبياء رتبة وإن كان آخرهم عصرا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أضحوا
للمقتدين بهم شموسا منيرة وللمهتدين بعلمهم نجوما زهرا ، صلاة لا تزال الألسن
تقيمها ، والأسماع تستدعيها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من نوهنا بذكره ، ونبها على رفعة قدره ، وأطلعنا ألسنة الأفلام
في وصف مفاخره وشكره ، وأثلنا قواعد مجده التي لو رام بنان البيان استقصاءها حال
الحصر دون حصره ، ونقدنا كلیم حكمه ورفعنا في أندية الفضائل ألوية فنونه وأعلام
نصره ؛ من لم يزل دم الشهداء يعدل مداد أعلامه ، وتقيم منار الهدى أدلة فضائله
وشواهد أحكامه ، وتوضح الحق حتى يكاد المتأمل يلحظ الحكم لوضوحه ويصصره ،
وينصر الشرع بأمداد علمه وينصرون الله من ينصره ؛ وشيّد مذهب إمامه الإمام
الفلاني فأصبح فسيح الأرجاء وإن لم يكن فيه فسحة ، وجدّد قواعد العدل في قضايا
عسا كرنا المنصورة فهو مُشاهد من كلمه ومن نظره في لمحه ملحه .

ولما كان فلان هو الذي نعتنا بما تقدّم من الخطاب خلائقه الحسنى ، وأثنينا
على ما هو عليه من الإقبال على جوهر العلم دون التعرض إلى العرض الأدنى ؛ مع
ما حواه من مواد فضائل تركو على كثرة الإنفاق ، وفرائد فوائد تجلب على أيدي

الطَّلَبَةُ إِلَى الْآفَاقِ ، وَقُوَّةٌ فِي الْحَقِّ ، الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌّ ، وَعَدْلٌ أَحْكَامٌ فِي الْخَلْقِ ، أَلَدَّ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى فِي جَفَنٍ نَائِمٍ - أَقْتَضَى حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُوَطَّدَ فِي عَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ قَوَاعِدَ أَحْكَامِهِ ، وَنُوَطَّنَ كَلًّا مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُ تَحْتَ مَا يُمِضِيهِ فِي أَقْضِيَّتِهِ النَّافِذَةِ مِنْ نَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ قَضَاءُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ الشَّرِيفَةِ : عَلَى أَجَلِ الْعَوَائِدِ ، وَأَكْمَلِ الْقَوَاعِدِ ، وَأَنْ تُبَسِّطَ كَلِمَتُهُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ . فَلِيَحْكُمَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمِهِ ، وَآتَاهُ مِنْ حِكْمِهِ وَحُكْمِهِ ، وَيَبَيِّنَ لَهُ مِنْ سُبُلِ الْهُدَى ، وَعَيْنَهُ لِبَصِيرَتِهِ مِنْ سُنَنِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي مِنْ حَادٍ عَنْهَا فَقَدْ جَارَ وَأَعْتَدَى ؛ وَلِيَقِفَ مِنَ الْأَحْكَامِ عِنْدَ مَاقَرَّرَتِهِ الشَّرِيعَةُ الْمَطْهُرَةُ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ، وَيَأْمُرُ كَلًّا مِنَ الْمُتَقَاضِينَ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا حُدِّدَ لَهُ : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . وَالْوَصَايَا وَإِنْ كَثُرَتْ فَمِنْ مِثْلِهِ تَفَادٍ ، وَإِنْ جَلَّتْ فَسَمْعُهُ فِي غَنَى عَمَّا يُبْدَأُ لَهُ مِنْهَا وَيُعَادَى ، وَمِمَّا كُفِّهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ شِعَارُ أَنْبِيَائِهِ ، وَحِلْيَةُ يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَسُدُّهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُوقِّعُهُ لِمَا يَرْضَاهُ وَيُصَوِّتُهُ مِنَ الْخَطَا وَالْخَطَلِ .



وهذه وصية لقاضى العسكر، أوردتها في "التعريف" وهي أن يقال :

وهو الحاكم حيث لا تُفُذُّ إِلَّا أَقْضِيَةُ السُّيُوفِ ، وَلَا تَزْدَحِمُ الْغُرَمَاءُ إِلَّا فِي مَوَاقِفِ الصُّفُوفِ ، وَالْمَاضَى قَلْبُهُ وَكُلُّ خَطِيٍّ يُمَدُّ بِالْذَّمِّ ، وَالْمَاضِي سَجِلُهُ وَقَدْ طَوَى الْعَجَاجُ كَالْكِتَابِ سَجِلَ السَّمَاءِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُنْجَاكُمُ إِلَيْهِ فِي الْغَنَائِمِ الَّتِي لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَفِي الشَّرَكَةِ وَمَا تُطْلَبُ فِيهِ الْقِسْمَةُ ، وَفِي الْمِيعَاتِ وَمَا يُرَدُّ مِنْهَا بَعِيبٌ ،

وفي الديون المؤجلة وما يُحكّم فيها بغيّب ، وكلُّ هذا مما لا يَحتمل طول الأناة في القضاء ،
وأشتغال الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردد إليه بالإمضاء ، فليكن مستحضرا
لهذه المسائل ليبت الحكم في وقته ، ويُسارع السيف المُصلّت في ذلك الموقف بته ،
وليعلم أن العسكر المنصور هم في ذلك الموطن أهل الشهادة ، وفيهم من يكون جرحه
تعديلاً له وزياده ، فليقبل منهم من لا تخفى عليه سيما القبول ، ولا يردّ منهم من
لا يضّرّه أن يردّه هو وهو عند الله مقبول ، وليجعل له مستقراً معروفاً في المعسكر يُقصد
فيه إذا نُصبت الخيام ، وموضعاً يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان
على يمين الأعلام ، وليلزم ذلك طول سفره وفي مدد المقام ، ولا يخالفه ليُبهم على
ذوى الحوائج فما هو بالصالحية بمصر ولا بالعادية بالشام ، وليتخذ معه كتاباً تكتب
للناس وإلا فن أين يوجد مركز الشهود ، وليسجل لذي الحق بحقه وإلا فما آنسد
باب الجحود ، وتقوى الله هي التي بها تُنصر الجنود ، وما لم تكن أعلى ما يكون على
أعلام الحرب وإلا فما الحاجة إلى نشر البنود .

الوظيفة الثانية

(إفتاء دار العدل)

وموضوعها الجلوس بدار العدل حيث يجلس السلطان لفصل الحكومات ،
والإفتاء فيما لعله يطرأ من الأحكام بدار العدل . وهي وظيفة جليلة ، لصاحبها
مجلس بدار العدل يجلسه مع القضاة الأربعة ومن في معناهم .

وهذه نسخة توقيع لمن لقبه « جمال الدين » يُنسج على منوالها ، وهي :

الحمد لله جاعل العلم للدين جلالاً ، وللدنيا عصمةً وثملاً ، ولأسباب النجاة
والنجاح شارةً إذا تحلى بها ذو التميز كان أحسن ذوى المراتب حلالاً ، وأجلهم

فى الدارين مَبْدَأُ وَمَا لَا ، وَأَحَقُّهُمْ بِرَبَّةِ التَّفْضِيلِ الَّتِى ضَرَبَتْ لَهَا السَّنَةُ الْمُطَهَّرَةُ
فَضْلَ الْبَدْرِ عَلَى الْكَوَاكِبِ مِثَالًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِى خَصَّتْ دَارَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِأَكْفَأِهَا ، وَأَصْطَفَتْ
لَنَا قُرْبَ مِنْ مَجْلِسِنَا الْمَعْظَمِ مَنْ دَلَّ عَلَى أَنَّ التَّأْيِيدَ قَرِينُ أَصْطَفَائِهَا .

وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَفْتَرُّ عَنْ شَنْبِ الصَّوَابِ ،
تَعْرِفُهَا ، وَتِفْتَحُ عَنْ فَصْلِ الْخُطَابِ ، زَهْرَهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ
الْمَخْصُوصُ بِحُكْمِ التَّنْزِيلِ ، الْمَنْصُوصُ فِي الصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى ذِكْرِ أُمَّتِهِ الَّذِينَ
عَلِمُواهُمْ كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هُمْ كَالْجُجُومِ
الْمُشْرِقَةِ ، مِنْ اقْتَدَى بِهِمْ أَهْتَدَى ، وَكَالْجُجُومِ الْمَحْرِقَةِ ، مِنْ أَعْتَدَى وَجَدَ مِنْهَا شَهَابًا
رَصَدًا ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا أَرْتَدُّنَا لَهُ مِنْ رِيَاضِ الْعِلْمِ مَنْ سَمَّا فِيهِ فَرْعُهُ ، وَرَحَّبَ بِتَلَقَّى أَنْوَاعِ
الْعُلُومِ ذَرْعُهُ ؛ وَبَسَقَتْ فِي فُنُونِ الْفَضَائِلِ أَفْنَانُهُ ، وَنَسَقَتْ فَرَائِدَ الْفَوَائِدِ فِي سَلَكِ
الطُّرُوسِ بَنَانُهُ - فُتِيَا دَارَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ الَّتِى أَحْكَمْنَا لَهَا تَابِعَهُ ، وَأَعْصَانُ الْعَدْلِ
بِمَارِ فَتَاوِيهَا مُورِقَةٌ يَابِعُهُ ، وَأَعْيُنُنَا إِلَى أَفْوَاهِ مُفْتِيهَا رَامِقَةٌ وَأَذَانُنَا لِمَقَالَاتِهِمْ سَامِعَةٌ .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ هُوَ ثَمَرَةُ هَذَا الْإِرْتِيَادِ ، وَخُبَّةُ هَذَا الْإِتْقَادِ ؛ الْمَعْقُودُ عَلَيْهِ فِي اخْتِيَارِ
الْعُلَمَاءِ بِالْخَنَاصِرِ ، وَالْعَرِيقُ فِي أَصَالَةِ الْعُلُومِ بِأَصَالَةٍ ثَابِتَةٍ الْأَوَاصِرِ ؛ وَالَّذِى إِذَا أَجَابَ
تَدَفَّقَتْ أَنْوَاءُ الْفَوَائِدِ ، وَتَأَلَّقَتْ أَضْوَاءُ الْفَرَائِدِ ، وَأَتُّخِذَتْ مَسَائِلُ فِقْهِهِ قَوَاعِدَ
تَرْتَّبَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَيْهَا وَمَصَادِرُ وَحْيِهِ مَوَارِدَ - اقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةُ
أَنْ نُزَيِّنَ بِهِجَةَ هَذِهِ الْوُضُفَةِ بِجَمَالِهِ ، وَنُنَزِّهَ إِشْرَاقَهَا بِنُورِ فَضَائِلِهِ الَّتِى لَوْ قَابَلَهَا بِدُرِّ الْأَفْقِ
نَازَعَتْهُ حُلَّةُ كَيْلِهِ .

فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زالت أحكامه مع أوامر الشرع الشريف واقفه ، ومعِدته الشريفة باقتفاء آثار الحق لمُشْتِكَاتِ الظلم كاشفه - أن يفوض إليه كذا : فليُباشِرْ هذه الوظيفة السنية مَفَجِّراً يَنابِيعَ العلوم في أرجائها ، مُحَقِّقاً للفتاوى بتسهيل مواردها وتقريب أوحائها ، موضحاً طُرُقها بإقامة براهينه وأدلتها ، مُبْدِياً دِقَائِقَها التي يُشْرِقُ بها أَفُقُ الفكر إشراق السماء بنجومها والأفُقُ بأهلتها ، مُظْهِراً من غوامضها ما يُقَرِّبُ على الأفهام مناله ، وَيُفَسِّحُ لِحِيادِ القرائح مجاله ، وَيَنْقَحُ لكل ذى ترويةٍ ولِكل مرّيجٍ بديته وأرتجاله ، فإنه الكامل الذى قطع إلى بلوغ الغاية مسالك اللبالي ، والإمام الذى غاص فكره من كل بحر لجج المعاني فاستخرج منها مكنون الآلى ، مع أن علمه المهذب غنى عن تنبيه الوصايا ، مَلِيٌّ بما يلزم هذه الوظيفة من الخصائص والمزايا ، فإن البحر يابى إلا تدفقاً ، والبدر إلا تألقاً ، والله تعالى يزيده من فضله ، ويزيّن به أفق العلم ويزيد منادئنا قُرب محله .

الوظيفة الثالثة

(الحسبة)

وقد تقدّم أن موضوعها التحدّث على أرباب المعاش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته . وحاضرة الديار المصرية تشتمل على حسبتين :

(١) الأولى - حِسبة القاهرة : وهى أعلاهما قدراً ، وأخفهما رتبةً ، ولصاحبها مجلس بدار العدل مع القضاة الأربعة وقضاة العسكر ومفتى دار العدل وغيرهم . وهو يتحدّث فى الوجه البحرى من الديار المصرية فى ولاية الثواب وعزّ لهم .

(١) أى والثانية حِسبة الفسطاط التى سيأتى لها توقيع بعد صفحات .

قلت : ولم تزل الحِسْبَةُ تُؤَلَّى للتعممين وأرباب الأقاليم إلى الدولة المؤيَّدية شيخ ،
فولَّاهَا للأمير سيف الدين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلى الجُوبِيَّة . على
أنَّ في سِجَلَات الفاطميين ما يشهد لها في الزمن المتقدم . وربما أُسْنِدَتْ حِسْبَةُ
القاهرة إلى والى القاهرة ، وحِسْبَةُ مصر إلى والى مصر .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهى :

الحمد لله مجدِّ عوائد الإحسان ، ومجرى أولياء دولتنا القاهرة ، فى أيامنا الزاهرة ،
على ما أَلْفُوهُ من الرُّبِّ الحِسان ، ومضاعِفِ نِعْمنا على من آجَتْنِي لَنَا بِحُسْنِ سِيرَتِهِ
الدَّعَاءُ الصَّالِحَ مِنْ كُلِّ لِسَان .

نحمده على نِعْمَةِ التِّى لَا تُحْصَى بِعَدِّهَا ، وَلَا تُحْصَرُ بِحَدِّهَا ؛ وَلَا تُسْتَرَادُّ بِغَيْرِ شُكْرِ آلَاءِ
الْمَنِّعِ وَحَمْدِهَا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نُقِيمُهَا فِي كُلِّ حُكْمٍ ، وَتَحَاوُلٍ
سَيُوفُنَا جَاهِدِيهَا فَتَنْهَضَ فَتَنْطِقَ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ بَكْمُ ؛ وَنُشْهَدُ أَنَّ عِمَادَ عَبْدِهِ وَرَسُولَهُ
أَشْرَفُ مَنْ أَمْتَرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَأَعْدَلُ أَمْرِ أُمَّتِهِ بِالْوِزْنِ بِالْقِسْطِ وَأَنْ لَا يُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَحْتَسَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جُلَّ عَنَادِهِمْ ،
وَأَحْتَسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَقَاتِلِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَجِهَادِهِمْ ؛ فَلَا تُتَهَبَّ جَنَائِبُهَا فِي الْوُجُودِ ،
وَتَسْرَى نَجَائِبُهَا فِي التَّهَائِمِ وَالنُّجُودِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ دَعَا إِحْسَانًا لِرَفْعِ قَدْرِهِ ، وَإِنَارَةِ بَدْرِهِ ؛ وَإِعْلَاءِ رُتْبَتِهِ ،
وإِدْنَاءِ مَنْزِلَتِهِ ؛ وَإِعْلَامِ مُحْلِصِ الْأَوْلِيَاءِ بِمُضَاعَفَةِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وَأَنَّ كَرَمَنَا لَا يُحِبُّ لِمَنْ أَسْلَفَ سَوَائِقَ طَاعَتِهِ فِي أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ
أَمَلًا ؛ مَنْ لَمْ تَزَلْ خِدْمَتُهُ السَّابِقَةُ إِلَى اللَّهِ مَقَرَّبَهُ ، وَعَنْ طُرُقِ الْهَوَى مُنْكَبَهُ ، وَبِاللَّهِ

مَدَّكَرْهُ ، وَعَلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَوْقَرُهُ ؛ مَعَ مَا أَضَافَهُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ
بِمَعْرُوفٍ ، وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ ؛ وَنَهْيٍ عَنْ مَنكَرٍ ، وَاحْتِسَابٍ فِي الْحَقِّ أَتَى فِيهِ بِكُلِّ مَا تُجَمِّدُ
خَلَاءُفُهُ وَتُشْكِرُ ، وَاجْتِنَابٍ لِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ ، وَاجْتِهَادٍ لِمَا يُرِضِي اللَّهَ وَيَرْضِينَا
مَنْ أَتَّبَعَ سِيرَتَنَا السَّرِيَّةِ ؛ وَشِدَّةٍ فِي الْحَقِّ حَتَّى يُقَالَ بِهِ وَيُقَامَ ، وَرِفْقٍ بِالْخَلْقِ
إِلَّا فِي بَدْعٍ تُتَنَكَّهُ بِهَا حَرَمَةُ الْإِسْلَامِ ، أَوْ غَشٍّ إِنْ لَمْ يُحْصَ ضَرَرُهُ الْخَاصُّ فَإِنَّ ذَلِكَ
يُعَمُّ الْعَامَ .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي أَخْتَصَّ مِنْ خِدْمَتِنَا ، بِمَا رَفَعَهُ لَدَيْنَا ، وَأَسْلَفَ مِنْ
طَاعَتِنَا ، مَا أَقْتَضَى تَقْرِيبُهُ مِنَّا وَاسْتِدْعَاؤُهُ إِلَيْنَا ، وَنَهَضَ فِيهَا عَدَقَاهُ بِهِ مِنْ مَصَالِحِ
الرَّعَايَا وَكَانَ مَشْكُورَ الْمَسَاعَى فِي كُلِّ مَاعْرِضٍ مِنْ أَعْمَالِهِ فِي ذَلِكَ عَلَيْنَا - أَقْتَضَى رَأْيُنَا
الشَّرِيفُ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَذَا ، فَلَيْسَتْ تَقَرُّ فِي ذَلِكَ مَجْتَهِدًا فِي كُلِّ مَا يُعْمُ الْبَرَايَا نَفْعُهُ ،
وَيُجَلِّدُ لَدَيْهِمْ وَقَعُهُ ؛ وَيَمْنَعُ مَنْ يَتَعَرَّضُ بِالْيَسَارِ ، إِلَى مَا لَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَوْ يَضِيقُ
بِالْإِحْتِكَارِ ، عَلَى ضَعْفَائِهِمْ مَا بَسَطَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ رِزْقٍ ؛ وَيَذُبُّ عَنْهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ شُبَّةَ
تَعْطِيلِهَا ، وَيَعْرِفُهُمْ بِالْحَفَظَةِ عَلَى الْحَقِّ فِي الْمَعَامِلَاتِ قَوَاعِدَ تَحْرِيمِهَا وَتَحْلِيلِهَا ؛ وَيُرِيهِمْ
بِالْإِنْصَافِ مَنَارَ الْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ، وَيُؤَدِّبُ مَنْ يَجِدُ فِيهِمْ مِنَ
الْمُطَفِّفِينَ : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾
وَيَأْمُرُ أَهْلَ الْأَسْوَاقِ بِإِقَامَةِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجَمْعِ ، وَيُقَابِلُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّأْدِيبِ
الَّذِي يَرَدُّعُ مَنْ أَصْرَفَ فِيهِ عَلَى الْخَالَفَةِ وَيَزْعَ ؛ وَيُلْزِمُ ذَوِي الْهَيْئَاتِ بِالصِّيَانَةِ الَّتِي تُنَاسِبُ
مَنَاصِبَهُمْ ، وَتُؤَافِقُ مَرَاتِبَهُمْ ، وَتَنْزِعُهُ عَنِ الْأَدْنَسِ مَكَاسِبَهُمْ ، وَتُصَوِّنُ عَنِ الشَّوَابِ
شَاهِدَهُمْ وَغَائِبَهُمْ ؛ وَلَا يَمَكِّنُ ذَوِي الْبُيُوعِ أَنْ يَغْنَبُوا ضَعْفَاءَ الرَّعَايَا وَأَغْيَاءَهُمْ ،
وَلَا يُفْسِحَ لَهُمْ أَنْ يَرْفَعُوا عَلَى الْحَقِّ أَسْعَارَهُمْ وَيَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .

وليحمل كلاً منهم على المعاملات الصحيحة ، والعقود التى غدت لها الشريعةُ
 الشريفةُ مبيحةً ، ويحجّبهم العقودُ الفاسدةُ ، والحيلُ التى تُغترّ بتدليس السِّلَعِ الكاسدهُ ،
 وهو أخبر بالبيع المنصوص على فسادها فى الشرع الشريف ، وأدرك بما فى عدم
 تحريرهم المكاييل والموازين من الإخسار والتطفيف ، فليفعّل ذلك فى كل
 ما يجب ، ويحتسب فيه ما يدّخره عند الله ويحتسب ، ولتكن كلمته فى ذلك مبسوطه ،
 ويدّ تصرفه فى جميع ذلك مُحِيطَةٌ وبما يستند إليه من أوامره مُحَوِّطَةٌ ، ولْيُوصِ نوابه
 بمثل ذلك ، ويوضّح لهم بإثارة طريقته كلّ حالٍ حالٍ ، ويقدم تقوى الله على كلّ
 أمر ، ويتّبع فيه رضا الله تعالى لارضا زيد وعمرو ، والخطُ الشريفُ أعلاه .



وهذه نسخة توقيع من ذلك بحسبة القسّطاط المعبر عنه الآن بمصر عوداً
 إليها ، وهى :

الحمد لله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الشاهد بالعدل الذى تقوى به كلمة
 الإيمان وتتنصر ، والغامر بالجوّد الذى لا يُحصى والفضل الذى لا يُحصّر ، العامر
 ربوع ذوى البيوت بتقديم من أنعمت الخناصر على فضله الذى لا يُحمد ولا ينكر .
 نحمده على نعمه التى لا تزال السنة الأقالام ترقم لها فى صُحف الإنعام ذكراً ،
 وتجدد لها بإصابة مواقع الإحسان العام شكراً .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تصدع بنورها ليل الشرك
 فيؤول فجراً ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى قمع الله به من أغتر بالمعاصى
 وغرّر ، وأقام بشريعته لواء الحق الأظهر ومَنار العدل الأظهر ، وعلى آله وصحبه

الذين سلكوا من الهداية بإرشاده مَنَهِجَ الحق الأَنُور ، وَاحْتَبَسُوا نفوسَهُمْ في نُصْرَتِهِ
فَفَازُوا من رضاه بِالْحِظِّ الأَوْفَى والنصيب الأَوْفَر .

وبعدُ ، فإن الله تعالى لما جعل كلمتنا المبسوطة على العدل والإحسان مقصورة ،
وأوامرنا الشريفة بإقامة منار المعروف مؤيدة منصورة ، وأحكامنا المشهورة
بالإنصاف في صحائف الدهر بالمحاسن مسطوره ، وأعلمنا من أتباع الشرع الشريف
ما غدت به قلوب الرعايا آمنة مسروره - قصدنا أن نختار لمراتب الديانة والعفاف
من لم يزل بيته بالصدارة عليا ، ووصفه بأنواع الحماد والممدوح مائيا .

ولما كان فلان هو الذي ورث السيادة ، عن سلف طاهر ، وتلقى السعادة ،
عن بيت فروعه التقوى فأزرت بالروض الزاهي الزاهر ، وسرت سرأره بحسن سيرته
وسيره ، وأبطن من الديانة ما أظهرته أدلة خيره ، ونقل في المراتب الدينية فأرْبَى
في حُسن السلوك على غيره ؛ وسلك من الأمانة الطريق المثلى ، وأَعْتَمَدَ ما عَدِمَ به
مُضَاهِيَا ومِثْلَا ؛ وجنى ما نطق بإنصافه فَضْلُ الكيل والميزان ، ورجاه من أهل
الخير كل ذي إحسان وخشية أهل الزَّيْغ والبُهْتان ؛ وكانت الحسبة المباركة بمصر
المحروسة قد أَلِفَتْ قضاياه وأحكامه ، وعرفت بالخبر معروفه وشكرت نقضه
وإبرامه ؛ وفارقها على رَغْمِهَا منه آختيارا ، وعادت له خاطبة عَقِيلَة نَزَاهَتِهِ التي
لا تُجَارَى .

فلذلك رَسِمَ بالأمر الشريف العالى أن يفوض إليه كذا . فليقدم خيرة الله
في مباشرة هذه الوظيفة ، وليقيم منارها بإقامة حدودها الشريفة ؛ وليُنْظَرْ في الكيل
والميزان اللذين هما لسان الحق الناطق ، وليُنْشَرْ لواء العدل الذي طالما خَفَقَتْ
بنوده في أيامنا حتى غدا قلب المجرم وهو خافق ؛ وليُحْسِنِ النظر في المطاعم

والمشارب ، وليردع أهل البدع من هو مستخف بالليل وسارب ، وفيه - بحمد الله تعالى - من حسن الأئمة ما يغنى عن الإسهاب فى الوصايا ، ويعين على السداد فى نفاذ الأحكام وفصل القضايا ، وكيف لا وهو الحسير بما أتى ويذر ، والصدر الذى لا يعدو الصواب إن ورد أو صدر ، والله تعالى يعمر به للعدل معلما ، ويكسوه بالإقبال فى أيامنا الشريفة ثوبا بالثواب معلما ، وانلحظ الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه .



وهذه وصية محتسب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد ولى أمر هذه الرتبة ، ووكل بعينه النظر فى مصالح المسلمين لله حسبه ، فليُنظر فى الدقيق والخليل ، والكثير والقليل ، وما يُحصَر بالمقادير وما لا يُحصَر ، وما يؤمر فيه بمعروف أو يُنهى عن منكر ، وما يُشترى ويُبَاع ، وما يُقرب بتحريره إلى الجنة ويُبعد من النار ولم يكن قد بقي بينه وبينها إلا قدر باع أو ذراع ، وكل ما يُعمل من المعاش فى نهار أو ليل ، وما لا يُعرف قدره إلا إذا نطق لسان الميزان أو تكلم فم الكيل . وليعمل لديه معدلا لكل عمل ، وعيارا إذا عُرِضت عليه المعايير يُعرف من جار ومن عدل ، ولينفق أكثر هذه الأسباب ، ويحذر من الغش فإن الداء أكثره من الطعام أو الشراب ، ولتعرف الأسعار وليستعلم الأخبار ، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليقيم عليهم من الأمانة من ينوب عنه فى النظر ، ويطمئن به وإن غاب إذا حضر ، ويأمره بإعلامه بما أعضل ، ومراجعته مهما أمكن فإن رأى مثله أفضل . ودار الضرب والنقود التى منها تنبت ، وقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر إلا بعد طول اللبث ، فليتصد لمهمات ما بصره الذى لا يخرج ،

وَلْيَعْرِضْ مِنْهَا عَلَى الْحَكِّ مِنْ رَأْيِهِ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ بَهْرَجٌ ، وَمَا يُعَلِّقُ مِنَ الذَّهَبِ
 الْمَكْسُورِ وَيُروِبُصُ مِنَ الْفِضَّةِ وَيُخْرِجُ ، وَمَا أَكَلَتِ النَّارُ كُلَّ لِحَامِهِ أَوْ بَعْضُهُ فَلْيَقِمِ
 عَلَيْهِ مِنْ جِهَتِهِ الرِّقْبَاءُ ، وَلْيَقِمِ عَلَى شَمْسِ ذَهَبِهِ مَنْ يَرْقُبُ مِنْهُ مَا تَرْقُبُ مِنَ الشَّمْسِ
 الْحَرْبَاءُ ، وَلْيَقِمِ الضُّمَانُ عَلَى الْعَطَّارِينَ وَالطُّرُقِيَّةِ مِنْ بَيْعِ غَرَائِبِ الْعَفَاقِيرِ إِلَّا مَنْ
 لَا يَسْتَرَابُ فِيهِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ ، وَبَحْطٌ مَتَطَبَّبٌ مَاهِرٌ لِمَرِيضٍ مَعِينٍ فِي دَوَاءٍ مَوْصُوفٍ .
 وَالطُّرُقِيَّةُ وَأَهْلُ النَّجَامَةِ وَسَائِرُ الطَّوَائِفِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى سَاسَانٍ ، وَمَنْ يَأْخُذُ أَمْوَالَ
 الرِّجَالِ بِالْحِيلَةِ وَيَأْكُلُهُمُ بِاللِّسَانِ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ سَوْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ
 شَيْطَانٌ لَا إِنْسَانٌ ، أَمْنَعُهُمْ كُلِّ الْمَنْعِ ، وَأَصْدَعُهُمْ مِثْلَ الزُّجَاجِ حَتَّى لَا يُجْبِرَ لَهُمْ
 صَدْعٌ ، وَصُبَّ عَلَيْهِمُ النَّكَالُ وَإِلَّا فَمَا يُجْدِي فِي تَأْدِيبِهِمْ ذَاتُ التَّأْدِيبِ وَالصَّفْعِ ،
 وَأَحْسِمُ كُلَّ هَذِهِ الْمَوَادِّ الْخَبِيثَةِ ، وَأَقْطَعُ مَا يُجَدِّدُ ضَعْفَاءُ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ
 الرَّثِيثَةِ ، وَمَنْ وَجَدَتْهُ قَدْ غَشَّ مَسَامًا ، أَوْ أكلَ بِيَاظَ دِرْهَمًا ، أَوْ أَخْبَرَ مَشْتَرِيًا
 بَزَائِدَ ، أَوْ خَرَجَ عَنْ مَعْهُودِ الْعَوَائِدِ ، أَشْهَرُهُ فِي الْبَلَدِ ، وَأَرْكَبُ تِلْكَ الْآلَةَ قَفَاهُ حَتَّى
 يَضْعُفَ مِنْهُ الْجِلْدُ ، وَغَيْرُهُؤُلَاءِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَكَاتِبِ وَعَالِمَاتِ النِّسَاءِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ
 الْأَنْوَاعِ مِمَّنْ يُخَافُ مِنْ ذَنْبِهِ الْعَائِثِ فِي سِرْبِ الظُّبَاءِ وَالْجَاذِرِ ، وَمَنْ يَقْدِمُ عَلَى ذَلِكَ
 وَمِثْلِهِ وَمَا يُحَاذِرُ ، أَرْشَقَهُمْ بِسَهَامِكَ ، وَزَلَزِلْ أَقْدَامَهُمْ بِإِقْدَامِكَ ، وَلَا تَدْعُ مِنْهُمْ
 إِلَّا مَنْ أَخْتَبَرْتَ أَمَانَتَهُ ، وَأَخْتَرْتَ صِيَانَتَهُ . وَالنُّوَابُ لَا تَرْضَى مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يُحْسِنُ
 نَفَازًا ، وَيُحْسِبُ لَكَ أَجْرَ اسْتِنَائِهِ إِذَا قِيلَ لَكَ مَنْ أَسْتَنْبَتَ فَقُلْتُ هَذَا ، وَتَقْوَى
 اللَّهُ هِيَ نِعَمُ الْمَسَالِكِ ، وَمَا لَكَ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ أَكْثَرُهُ إِلَّا إِذَا عَمِلْتَ فِيهِ
 بِمَذْهَبِ مَالِكٍ .

الوظيفة الرابعة

(وَكَالَةُ بَيْتِ الْمَالِ)

وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة المقدار ، وقد تقدّم أن موضوعها التحدّث فيما يتعلّق بمبيعات بيت المال ومشترواته ^(١) : من أرض وأدر وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وأنّ متولّيها لا يكون إلا من أهل العلم والديانة ، وأنّ له مجلساً بدار العدل : تارة يكون دون مجلس المحتسب ، وتارة فوق مجلسه ، بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه . وقد أضيف إليها فى المباشرة نظير كسوة الكعبة الشريفة وصاروا كالوظيفة الواحدة .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال :

الحمد لله جامع المناصب الدينية ، لمن خطبته لها رتبتان : العلم والعمل ، ومكمل الرتب السنية ، لمن وجدت فيه أهبتان : الورع والتقوى وعُدّت منه خلتان : الحرص والأمل ، جاعل اختصاص الرتب بكفائها حلية الدول ، والنظر فى مصالحها الخاصة والعامة زينة أيامنا التى نتلفت إلى محاسنها أجياد الأيام الأول .

نحمده على نعمه التى عصمت آراءنا من اعتراض الخلل ، وأمضت أوامرنا من مصالح الأمة بما تسرى به المحامد سرى النجوم ويسير به الشكر سير المثل .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم نزل نستنطق بها فى الجهاد ، السنة الأسفل ، ونوقظ لإقامتها عيون جلاد ، لها الغمود جفون والسهام أهداب والسيوف مقل ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أظهر الله دينه على الأديان وشرف ملته على الملل ، وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى سدره

(١) جرى على اللغة العامية والافصواب العربية مشترياته بالياء .

المنتهى وعاد ولم يكمل الليل بين السير والقفل ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا في المهاجر إليه الأحياء والحلل ، وشفوا بأسنة سنته العلال والغلال ، وتفردوا بكال المفاحر فإذا خلعت الأقلام على أوصافهم حلا غدت منها في أبهى من الحلل ، صلاة تتوالى بالعشى والإبكار وتتواتر في الإشراق والطفل ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى الرتب بإنعام النظر في آرتياد أكفائها ، وانتقاد فرائد الأعيان لها وانتقائها ، واستخارة الله تعالى في اختيار من يكون أمر دينه هو المهم المقدم لديه ، واستنارة التوفيق في اصطفاء من يكون مهم آخرته هو المرئى المصور بين عينيه ، مع ما أتصف به من محاسن سجايا جليت عليها طباعه ، وخُصَّ به من سوابق مزايا رُحِبَ بها في تلقى المصالح الدينية صدره وباعه ، رتبتان يُعم نفعهما ويخص ، ويحسن وقُعمهما بما يُبديه من أوصافه ويقص ، ويتعلق كل منهما بجماعة الأمة فردا فردا ، ويشتملان على منافعه على اختلافها بدءا وإعادة وعكسا وطردا ، ويكون المتصدى لها مناقشا على حقوقهم وهم ساهون ، ومفتشا عن مصالحهم وهم عنها لاهون ، ومناضلا عنهم وهم غافلون ، ومشمررا للسعى في مصالحهم وهم في حبر الدعة رافلون ، ومتكفلا لاستماع الدعوى عنهم جوب فلوات الجواب ، ومتكفلا بالتحري في المحاورة عنهم وإصابة شكلة الصواب ، ومؤديا في نصحتهم جهده تقربا إلى مرآضينا وله عندنا الرضا وابتغاء ثواب الله : (والله عنده حسن الثواب) وهما وكالة بيت المال المعمور والحسبة الشريفة بالقاهرة المحروسة : فإن منافع وكالة بيت مال المسلمين عائدة عليهم ، آئلة بأحكام الشريعة المطهرة إليهم ؛ راجعة إلى ما يعمهم مساره ، معدة لما تُدفع به عنهم من حيث لا يشعرون مضاره ؛ صائنة حقوقهم من تعدي الأيدي الغاصبه ، حافظة بيوت أموالهم من اعتراض الآمال

العاملة الناصبه ؛ وكذلك نظر الحسبة : فإنه من أخص مصالح الخلق وأعظمها ،
 وأكد الوظائف العامة وأكملها استقصائية لإصلاح الدينية والدنيوية وأتممها ، يحفظ
 على ذوى الهيئات أقدارهم ؛ ويمنّ بتجنب الهنات فى الصدر مقدارهم ، ويصون
 بتوقى الشبهات إيرادهم وإصدارهم ؛ وينزه معاملاتهم عن فساد يعارضها ، أو شبه
 تنافى كمال الصحة وتناقضها ؛ ويحفظ أوقاتهم من غش متلف ، أو غلو مجحف ؛
 إلى غير ذلك من أدوية لا بد من الوقوف على صحة ترتيبها وتركيبتها ، وتتبع الأقوال
 التى تجرى بها الثقة إلى غاية تجريبها ؛ ولذلك لا تجمعان إلا لمن أوقفه علمه على جادة
 العمل ، واقتصر به ورعه على مادة الحق فليس له فى التعرض إلى غيره أمل ؛
 وسمت به أوصافه إلى معالم الأمور فوجد التقى أفضل ما يرتقى ، وعرضت عليه
 أدواته جوهر الذخائر فوجد العمل الصالح أكمل ما ينتقد منها وما ينتقى ؛ وتحلى
 بالأمانة ، فصارت له خلقا وسجية ، وأنس بالنزاهة ، فكانت له فى سائر الأحوال للنجاة
 نجيته ؛ وأرته فضائله الحق حيث هو فتمسك بأسبابه ، وتشبث بأهدائه ، وأنصف
 به فى سائر أحواله فإن أخذ أخذ بحكمه وإن أعطى أعطى به ؛ وأحترز لدينه
 فهو به ضنين ، وأستوثق لأمانته وإن لم يكن فيها بحمد الله متهمًا ولا عليها بظنين ،
 واجتنى ثمار المحامد الحلوة من كيام الأمانة المره ، وعلم أن رضا الله تعالى فى الوقوف
 مع الحق فوقف معه فى كل ماساءه للخلق وسره .

ولما كان فلان هو الذى أمسكت الفضائل بما كملها من آداب نفسه ونفاسه
 آدابه ، وتجاذبته الرتب للتحلى بمكانته فلم تكن هذه الرتبة بأحق به من مجالس العلم
 ولا أولى به ؛ وشهدت له فضائله معنى بما شهدت له به الأئمة الأعلام لفظا ،
 ونوّهت بذكره العلوم الدينية التى أتقنها بحثا وأكملها دراية وأثبتها حفظا ؛ فأوصافه
 كالأعلام المشتقة من طباعه ، الدالة بدوامها على انحصار سبب الاستحقاق فيه

وَأَجْتَمَاعِهِ ؛ الْمُنَبِّهَةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذِهِ الْإِشَارَاتِ الَّتِي وَرَاءَهَا كُلُّ مَا يَجِدُ مِنْ
أَضْطِلَاعِهِ بِقَوَاعِدِ هَذِهِ الرُّتَبِ وَأَطْلَاعِهِ ؛ فَهُوَ سِرٌّ مَا ذَكَرَ مِنْ نَعَوَاتٍ وَأَوْصَافٍ ،
وَمَعْنَى مَا شَهِرَ مِنْ مَعْدَلَةٍ وَإِنْصَافٍ ، وَرُقُومٍ مَاحِبٍّ مِنْ حُلَلٍ أَفِيضَتْ مِنْهُ عَلَى أَجْمَلِ
أَعْطَافٍ - رُسَمٍ ^(١) أَنْ يَفُوزَ ^(١) تَفْوِيضًا يَقَعُ بِهِ الْأَمْرُ فِي أَحْسَنِ
مَوَاقِعِهِ ، وَنَضَعُ بِهِ الْحُكْمَ فِي أَحْمَدِ مَوَاضِعِهِ ؛ وَيُحِلُّ مِنْ أَجْيَادِ هَذِهِ الْمَنَاصِبِ مَحَلَّ
الْفَرَائِدِ مِنَ الْقَلَائِدِ ، وَيَقَعُ مِنْ رِيَاضِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَقُوعَ الْحَيَا الَّذِي سَعِدَ بِهِ
رَأَى الرَّائِدَ .

فَلْيَبْشُرْهُاتَيْنِ الْوُضُفَتَيْنِ مُرْهَفًا فِي مَصَالِحِهِمَا هَمَّةً غَيْرَ هَمَّةٍ ، مُجْتَهِدًا مِنْ قَوَاعِدِهِمَا ^(٢)
فِيمَا تَبَرَّأَ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنَّا وَمِنْهُ الذَّمُّ ، مُحَاقِقًا عَلَى حُقُوقِ بَيْتِ الْمَالِ حَيْثُ كَانَتْ
مُحَاقَقَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ بِذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ ؛ مُتَحَرِّيًا لِلْحَقِّ فَلَا يَغْدُو لِمَا يَجِبُ
لَهُ مُهْمَلًا ، وَلَا لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مُمَاطِلًا ، وَاقِفًا مَعَ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الْجَلِيلِيِّ فِي الْأَخْذِ
وَالْعَطَاءِ فَإِنَّهُ سَيَّانٍ مَنْ تَرَكَ حَقًّا أَوْ أَخَذَ بَاطِلًا ؛ مُجَرِّيًا عَوَائِدَ الْحِسْبَةِ عَلَى مَا أَلْفَ مِنْ
تَدْيِيرِهِ ، وَعُرِفَ مِنْ إِتْقَانِهِ وَتَحْرِيرِهِ ، وَشَهِرَ مِنْ أَعْتِمَادِهِ لِلوَاجِبِ فِي سَائِرِ أُمُورِهِ ؛
مُكْتَفِيًا بِمَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِ قَدِيمًا مِنْ مَصَالِحِهَا ، مُنْتَهِيًا إِلَى مَا سَبَقَتْ مَعْرِفَتُهُ بِهِ مِنْ
أَسْبَابِهَا وَمَنَاجِحِهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوَفِّقُهُ فِي أَجْتِهَادِهِ ، وَيُعِينُهُ عَلَى مَا يَدْرِيهِ لِمَعَادِهِ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه وصيةٌ وكليل بيت المال أوردها في "التعريف" :

وهو الوكيل في جميع حقوق المسلمين وماله معهم إلّا حق رجل واحد ، والمسكّن
بالخاصة عنهم حتّى يُقَرَّ الجاحد ؛ وهو القائم للدَّعْوَى لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض في الموضوعين والغرض منه الاختصار والمبيض له مفهوم مما تقدّم مراراً . (٢) أى غير ضعيقة .

ومتأ بما يؤخذ لهم أو يؤخذ من يديهم ؛ والمعد لتصحيح العقود ، وترجيح جهة بيت المال فى العقار المبيع والتمن المنقود ؛ والمتكلم بكتاب الوكالة الشرعية الثابتة ، والثابت القدم والأقدام غير ثابتة ؛ والمفسوح المجال فى مجالس الحكم ، والمجادل بلسان الحق فى الأحكام ؛ والموقوفة كل دعوى لم تسمع فى وجهه أو فى وجه من أذن له فى سماعها ، والمرجوع إليه فى إماتة كل خاصمة حصل الضجر من طول نزاعها ؛ وإبداء الدوافع ، ما لم يجد بدا من الإشهاد عليه بعدم الدافع ، والانتهاى إلى الحق كان له أو عليه ولا يقف عند تثقيل مثقل ولا شفاعة شافع ، وبوقوفه تُحدد الحدود [وتمتحن الشهود ^(١)] ويمشى على الطرق المستقيمة ، وتحفظ لأصحابها الحقوق القديمة ؛ وبه يتم عقد كل بيع وإيجار إذا كانت المصلحة فيها لعامة المساميين ظاهره ، ولهم فيما يوكل عنهم فيه الحظ والغبطة بحسب الأوقات الحاضره .

ونحن نوصيه فى ذلك كله بالعمل بما علم ، والانتهاى فى مقتضى قولنا إلى ما فهم ؛ وتقديم تقوى الله فإنه متى قدمها بين يديه سلم ، والوقوف مع رضا الله تعالى فإنه متى وقف معه غنم ؛ والعمل بالشرع الشريف كيفما توجهت به أحكامه ، والحد من الوقوف فى طريقه إذا نفذت سهامه ؛ ومن مات وله ورثة معروفة تستكمل بحققها ميراثه ، وتحوز بحظها ترثه ؛ لا يكلفهم ثبوتاً يكون من باب العنت ، والمدافعة بحق لا يحتاج [مستحقه ^(١)] إلى زيادة ثبت ؛ وإنما أنت ومن كانت قضيته منكزه ، والمعروف من مستحق ميراثه نكره ؛ فأولئك شدد فى أمرهم ، وأوط شهداءهم فى الاستفسار منهم على جهرهم ؛ ونتبع باطن الحال لعله عنك لا يتستر ، ولا يمشى عليك فيه الباطل ويمشى شاهد الزور بكفيه ويتبحر ؛ فإن تحققت صحة شهاداتهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

وإلا فأشهرهم في الدنيا ودعهم في الآخرة لا يخفف عنهم العذاب ولا يفتّر؛ وكل ما يباع أو يؤجر أرجع فيه إلى العوائد، وتقلّد أمر الصغير، وجدّد لك أمراً منّا في الكبير، وذلك بعد مراعاة ما تحبّ مراعاته، والتأني كلّ التأني حتى يثبت ما ينبغي إثباته؛ وشهود القيمة عليهم المداير، وبشهادتهم يقدر المقدار؛ وما لم يكونوا من ذوي الأقدار، ومن أهل الخبرة بالبر والجدار، ومن أشتري العقار وأستغله وبني الدار، وإلا فاعلم أنّ مثله لا يرجع إليه، ولا يعول ولا سيما في حق بيت المال عليه؛ فاتفق^(١) مع ولاية الأمور من أهل الأحكام، على تعيين من تعين لتقليد مثل هذه الشهادة، وتعرف منهم من له كلّ الخبرة حتى تعرف أنه من أهل الزهادة؛ ولك أن تدعي بحق المسلمين حيث شئت ممن ترى أن حقه عنده يترجّح، وأن بيتهم تكون عنده أوضح؛ فأما الدعوى عليك فمن عاداتها أن لا تسمع إلا في مجلس الحكم العزيز الشافعي - أجلّه الله تعالى - ونحن لا نغيّر العوائد، ولا ننقض ما بنت الدول السالفة عليه القواعد؛ فليكن في ذلك المجلس سماعها إذا تعيّن، وإقامة البيّنات عليها إذا تبيّن؛ والله الله في حق بيت المال، ثم الله الله في الوقت الحاضر والمآل؛ ومن تستنيبهم عنك بالأعمال لا تقرّ منهم إلا من تقرّ به عينك، ويوفّق به عند الله لا بما تحصّله من الدنيا دينك؛ ومن كان لعمله مصلحاً، ولأمله منجّحاً، لا تغبرّ عليه فيما هو فيه، ودعه حتى يتبين لك خافيه؛ ولتستقص في كلّ وقت عنهم الأخبار، ولتستعلم حقائق ما هم عليه بمن تستصحبه من الأخيار، ولا تزال منهم على يقين، وعمل بما فيه خلاص دنيا ودين.

(١) كذا في التعريف أيضاً والمراد أن المقومين يشترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات والا فلا يؤخذ

بتقويمهم ولا يعول على كلامهم.

الوظيفة الخامسة

(الخطابة)

وهى من أجل الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفس الأمر . وموضوعها معروف .
وتختص هذه الطبقة من التواقيع بخطابة الجوامع .

وهذه نسخة توقيع بخطابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة ، حيث مصلّى السلطان ،
من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ :

الحمد لله الذى أنار بالذكركر قلوب أوليائه ، وكشف بالذكركر بصائر أصفياه ،
وأنال أهل العلم بالإبلاغ عنه إلى خلقه وراثته أنبيائه ، وأختار لإذكارنا بآلاء الله
من فرسان المنابر من يُجاهد الأعداء بدعائه ، ويُجاهر الأوداء من مواعظه بما يعلم
كلّ منهم أنّ فى مؤلّم صَوادِعه دواء دائه ، فإذا أفتتح بحمد الله أثنى عليه بهواده علمه
حقّ ثنائه ، ونزهه بما ينبغى لسُبُحات وجهه وجلالِ قُدسه وتقدّس أسمائه ، وأثنى
كما يحبّ على نبيّه صلى الله عليه وسلم الذى آدم ومن بعده من الرسل تحت لوائه ،
وإذا تليت على خيل الله خطبته تشوّقت بقاء أعداء الله إلى لقاءه ، وخطبت الحنان
من بذل نفوسها ونفائسها بما أفتته فى سبيل الله لا تقاؤه .

نحمده على أن جعلنا لذكره مستمعين ، ولأمره ونهيه متبعين ، وعلى حمده فى كل
ملا من الأولياء مجتمعين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال تحتال بذكرها أعطاف
المنابر ، وتتعطر ألسنة الأقلام بما تنقله منها عن أفواه المحابر ، ونشهد أن محمداً
عبده ورسوله الذى هدى الله من تقدّم من الأمة بخبره ومن تأخر بخبره ، وجعل
روضة من رياض الجنة بين قبره ومبناه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هم

أَوَّلُ مَنْ عَقِدَتْ بِهِمُ مِنَ الْجُمُعِ صَلَوَاتُهَا، وَأَكْرَمُ مَنْ زُهِيتَ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ وَالْمَنَابِرِ صَوَاتُهَا؛ صَلَاةً لَا نَزَالَ تَقِيمُهَا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَنِدِيمَا فِي كُلِّ مَثْنٍ فِي الْآفَاقِ وَمُنْجِدٍ، وَسَلَّمٍ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وبعد، فإنَّ أَوَّلِي الْمَنَابِرِ أَنْ يُرْتَادَ لَهُ مِنْ أُمَّةِ الْعُلَمَاءِ عِلَامَةُ عَصْرِهِ، وَرُحْلَةُ مِصْرِهِ؛ وَإِمَامُ وَقْتِهِ الَّذِي يَصْدَعُ بِالْحَقِّ وَإِنْ صَدَعَ، وَعَالَمُ زَمَانِهِ الَّذِي يَقُومُ فِي كُلِّ مَقَامٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِمَّا يَأْخُذُ فِي الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَمَا يَدْعُ، مِنْبَرٌ نَذَرٌ بِآلَاءِ اللَّهِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَإِنْ لَمْ تَنْزَلْ لَهَا مِنَ الذَّاكِرِينَ، وَنُبْتُهُ فِيهِ عَلَى شُكْرِ اللَّهِ بِالرَّأْفَةِ عَلَى خَلْقِهِ وَإِنْ لَمْ تَبْرَحْ لَهَا بِذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَتَشَوَّقُ عَلَيْهِ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ النُّصْرَةِ وَالْأَجْرِ وَإِنْ كُنَّا عَلَى الْأَبَدِ إِلَيْهِ مُبَادِرِينَ، وَإِلَى إِقَامَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ بِهِ مُبَاكِرِينَ .

ولما كان فلان هو الذي تَعَيَّنَ لِرُقِيِّ هَذِهِ الرِّبَةِ نَحْطِبُ لِحَطَابَتِهَا، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ كُفُوُهَا الَّذِي تَتَشَوَّقُ النُّفُوسُ إِلَى مَوَاعِظِهِ فَتَرْغَبُ فِي إِطْلَاقِهَا لِإِطْلَاقِهَا - أَقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةُ أَنْ نَحْلِيَ بِفَضَائِلِهِ أَعْطَافَ هَذَا الْمَنْبَرِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ نَخْتَصَّ نَحْنُ وَأَوْلِيَائُنَا بِسَمَاعِ مَوَاعِظِهِ الَّتِي تُرْغَبُ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ بِجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

فلذلك رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يُطْلَعُ فِي أَفْقِ الْمَنَابِرِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ شَمْسًا مُنِيرَةً، وَيُقِيمُ شُعَائِرَ الدِّينِ مِنَ الْأُمَّةِ الْأَعْلَامِ بِكُلِّ مُشْرِقِ الْعِلَاقَةِ طَاهِرِ السَّرِيرَةِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَذَا: فَلْيَحْلَلْ هَذِهِ الرِّبَةَ الَّتِي لَمْ تَقْرَبْ لغيره جِيَادُهَا، وَيَحْلَلْ هَذِهِ الْعَقِيلَةَ الَّتِي لَا تُزَانُ بِسِوَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ أَجْيَادُهَا، وَيَرَقَّ هَذِهِ الْهَضْبَةَ الَّتِي يَطُولُ إِلَّا عَلَى مِثْلِهِ صُعُودُهَا، وَيَلْقَى تِلْكَ الْعَصْبَةَ الَّتِي تَجْتَمِعُ لِلأَوْلِيَاءِ بِهِ (؟) حُشُودُهَا. وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي مَوْقِفِ الْإِبْلَاحِ عَنِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وَالْإِعْلَامِ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ لِمَنْ

جاهد فى الله حقَّ جهاده ، والإنذار لمن قَصَّرَ فى إعدادِ الأُمةِ ليومِ معادِهِ ، وهو
 مُحَضَّرٌ من حُماةِ الإسلامِ ، ومَشْهَدٌ من قَلْدَنَاهِ أُمّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ
 وَالسَّلَامِ ، فَلْيَقْصُرْ خُطْبُهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ يُحْضِرْ عَلَيْهَا ، وَعَزْمَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُشَوِّقُ
 إِلَيْهَا ، وَمَعْدَلَةٍ يَصِفُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَوَلَاةِ أَمْرِ قَدَمَتِهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَتَوْبَةٍ يَبْعَثُ الِهِمَمَ ، عَلَى
 تَعْجِيلِهَا ، وَأَوْقَاتٍ مَكْرُومَةٍ يَنْبَغُ الْأُمَمُ ، عَلَى أَحْرَامِهَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَتَعْجِيلِهَا ، وَدُنْيَا يُنْذِرُ مَنْ
 خَدَّاعَهَا ، وَيَبِينُ لِلْمُغْتَرِّبِهَا مَا عَرِفَ مِنْ خِلَاقِهَا الْمَذْمُومَةِ وَأَلْفَ مِنْ طِبَاعِهَا ، وَأُخْرَى
 يَوْضَحُ لِلْعُرْضِ عَنْهَا وَشَكَّ قُدُومَهَا ، وَيَحْذَرُ الْمُقْصِرَ فِي طَلَابِهَا مِنْ عَذَابِهَا وَيُبَشِّرُ الْمُشْمِرَ
 لَهَا بِنَعِيمِهَا . وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْمَوْعِظَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْأَلْسِنَةِ لَمْ تَعُدْ الْأَسْمَاعَ ، وَلَمْ
 يُحْصَلْ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ تَعَقُّلِ الْقَرَائِنِ وَالْأَشْجَاعِ ، وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقُلُوبِ وَقَعَتْ
 فِي مِثْلِهَا ، وَأَثْمَرَتْ فِي الْحَالِ بِالْمَحَافِظَةِ عَلَى فَرَضِ الطَّاعَةِ وَنَفْلِهَا ، وَسَكَنَتْ فِي السَّرَائِرِ
 طِبَاعَ طَاعَةٍ تَأْتِي عَلَى مُحَاوَلِ نَقْلِهَا ، وَقَدَحَتْ فِي الْبَصَائِرِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ مَا لَمْ يُعْهَدِ
 مِنْ قَبْلِهَا . وَلْيَجْعَلْ خُطْبُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَنَاسِبَةً لِأَحْوَالِ مَسْتَمْعِيهَا ، مَنَاسِبَةً
 فِي وَضُوحِ الْمَقَاصِدِ بَيْنَ إِدْرَاكِ مَنْ يَبْعِي غَوَامِضَ الْكَلَامِ وَمَنْ لَا يَبْعِيهَا ، خَيْرُ الْكَلَامِ
 مَا قَلَّ وَدَلَّ ، وَإِذَا كَانَ قِصْرُ خُطْبَةِ الرَّجُلِ وَطُولُ صَلَاتِهِ مُنْبِئِينَ عَنْ فَقْهِهِ فَمَا قَصَرَ
 مَنْ حَافِظٌ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَخْلَ ، وَلْيُوشِّحْ خُطْبُهُ مِنَ الدَّعَاءِ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ بِمَا يُرْجَى
 أَنْ يُوَافِقَ سَاعَةَ الْإِجَابَةِ ، وَإِذَا تَوَخَّى الْغَرَضَ بِدَعَائِهِ لِعُمُومِ الْأُمَّةِ فَقَدْ تَعَيَّنَتْ
 - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - الْإِصَابَةُ ، وَهَذِهِ الْوَصَايَا عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ الَّتِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ،
 وَتَرْفَعُ الْمُحْسِنِينَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ - وَقَدْ فَعَلَ - مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! ،
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه وصية خطيب أوردتها في "التعريف" :

وَلْيُرَقَّ هَذِهِ الرُّتَبَةُ الَّتِي رُفِعَتْ لَهُ دُرَا أَعْوَادُهَا ، وَقُدِّمَتْ لَهُ مِنَ الْمَنَابِرِ مُقَرَّبَاتٌ جَيَادُهَا ، وَلِيَصْعَدَ مِنْهَا عَلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ ، وَلِيَسْعُدَ مِنْهَا بِصَهْوَةٍ كَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ مِنْ بُكْرَةِ يَوْمِهِ الْمُشْرِقِ مُسَرَّجَةً ، وَلِيَرَعَ حَقَّ هَذِهِ الرُّتَبَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالذَّرْوَةِ الَّتِي مَا أَعَدَّتْ إِلَّا لِلْإِمَامِ فَرْدٍ مِثْلِهِ أَوْ خَلِيفَةٍ ، وَلِيَقِفَ حَيْثُ تَحَقُّقُ عَلَى رَأْسِهِ الْأَعْلَامُ ، وَيتَكَلَّمَ فَتَخْرُسَ الْأَلْسِنَةُ وَتَحْفَ فِي فَمِ الذَّرَا الْأَقْلَامِ ، وَلِيَقْرَعَ الْمَسَامِعَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَيَذْكُرَ بِأَيَّامِ اللَّهِ مَنْ ﴿ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ . وَلِيُنَّ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا هُوَ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ ، وَلِيَكُنْ قَدْ قَدَّمَ لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَقَدَّمَ ، وَلِيُسَيِّلَ عَلَيْهِ دِرْعَ التَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَلِيَجْعَلَ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا يَقُومُ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَيَفُوقُ مِنْهُمَا لَا يَحْطِئُ مَوْقِعُهُ كُلَّ فَوَادٍ ، وَلِيَقُمْ فِي الْحَرَابِ مَقَامَ مَنْ يَخْشَى رَبَّهُ ، وَيَخَافُ أَنْ يَحْطَفَ الْوَجَلُ قَلْبَهُ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ صَدْفَةَ ذَلِكَ الْحَرَابِ مَا أَفْلَقَتْ عَنْ مِثْلِ دُرَّتِهِ الْمَكُونَةِ ، وَصَنَادِيقِ الصُّدُورِ مَا أَطْبَقَتْ عَلَى مِثْلِ جَوْهَرَتِهِ الْمَخْزُونَةِ ، وَلِيُؤَمَّ بِذَلِكَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ ، وَلِيَتَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّهُ السَّافِرُ ، وَلِيُؤَدِّ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْكَانِ ، وَأَوَّلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقْرَبِ الْقُرْبِ الَّتِي يَجْمَعُ إِلَيْهَا دَاعِي كُلِّ أَذَانٍ ، وَلِيَقُمْ بِالصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَلِيُرِخَ بِهَا النَّاسَ فِي أَوَّلِ مِيقَاتِهَا ، وَلِيَخَفَّفَ مَعَ الْإِتْمَامِ ، وَلِيَتَحَمَّلَ عَمَّنْ وَرَاءَهُ فَإِنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ ، وَعَلَيْهِ بِالتَّقْوَى فِي عَقْدِ كُلِّ نِيَّةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ قَضِيَّةٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ مَنْ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مُسْرُورٌ ، وَيُنْصَبُ لَهُ مَعَ الْأَئِمَّةِ الْمُقْسِطِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الوظيفة السادسة

(الإمامة بالجوامع، والمساجد، والمدارس الجبار التي تصدر التولية
عن السلطان في مثلها)

وهذه نسخة توقيع بالإمامة :

أما بعد حمد الله على نعمه التي جعلت أيماننا الشريفة تزيد أهل الفضائل إكراما،
وتخص بالسيادة والتقديم من أنشأه الله تعالى قوة أعين وجعله للتقين إماما، وقدمه
على أهل الطاعة الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .

والشهادة له بالوحدانية التي تكسو محاصها جلالا وساما ، والصلاة والسلام على
سيدنا محمد الذي أم الناس وعلمهم الصلاة وأظهر في إقامة الدين مقالا محمودا
ومقاما ، وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بسنته وثقوا واعتصاما - فإن خير الرتب
في هذا العصر وفيما تقدم، رتبة الإمامة حيث تقدم سيد البشر في محرابها على الأمة
وأم ، فاختارها من أتبع الطريق المحمدية وشرعها، وعلم سناها ورفعها، فزاد بذلك
سموا إلى سموه، وحصل على تضاعف الأجر ومؤد ، وهو فلان .

رسم - لا زالت أيامه الشريفة تشمل ذوى الأصلة والصدارة بجزيل فضليها ،
وعوائد إنعامه تجرى بإتمام المعروف فتبقى الرتب الدينية بيد مستحقها وتسارع
إلى تخليد النعم عند أهلها - أن يستمر فلان في كذا جاريا فيه على أجمل العادات ،
إعانة له على اكتساب الأجور بما يعتمد منه من تأهيل معهد العبادات ، ورعاية
لتكثير المآثر ، وترجيحا لما أشتمل عليه من حسن النظر في كل إيراد وإصدار ،
وتوفيرا للمناجح التي عرفت من بيته الذي كم ألف منه فعل جميل وعمل بار ، ووثوقا

بأنه يعتَمِد في عمارة مساجد الله سبحانه وتعالى أنه تشهد به الملائكة المتعاقبون بالليل والنهار، والله تعالى يجعل النعم عنده مؤبدة الاستقرار؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة السابعة

(التدريس ، وموضوعه إلقاء المسائل العلمية للطلبة)

وهذه نسخة توقيع بتدريس كُتِب به للقاضي عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، عوضاً عن والده ، في جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعائة ، وهي :

الحمد لله متم فضله على كل أحد ، ومُقرِّ النعمة على كل والد وولد ؛ الذي خص أوليائنا ببلوغ الغايات في أقرب المدد ، وأستصحب المعروف فما ينزع منهم خاتم من يدٍ إلا ليد .

نحمده بأفضل ما يحمده به من حمد ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة باقية على الأبد ؛ ونُصلي على سيدنا محمد نبيه الذي جعل شريعته واضحة الجدد ، قائمة بأعلام العلماء قيام الأمد ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين شبههم في الهدى بالنجوم وهم مثلها في كثرة العدد ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ نعمنا الشريفة لا تتحول ، ومواهبنا الجزيلة ... (١) ... تتحول ، وكرمنا يُمهد منازل السُّعود لكل بذر يتنقل ؛ وشيمنا الشريفة ترعى الذم لكل من أنفق عمره في ولائها ، وتحفظ مالها من المآثر القديمة بإبقائها في نجباء أبنائها ؛ مع ما نلاحظه في استحقاق التقديم ، وانتخاب من ترقى منهم بين العلم والتعليم ؛ وحصل

(١) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تتحول . وفي اللسان "التحول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العلم الكبير ، واستمد من نور والده وهو البدر المنير ، وعلم بأنه فى الفضائل سر أبيه الذى شاع ، وخليفته الذى لو لم ينص عليه لما انعقد [إلا] عليه الإجماع ، والواحد الذى ساد فى رتبة أبيه وما خلت من مثله - لا أخلى الله منه اليقاع ! .

وكان المجلس السامى ، القضاء ، الفلانى ، هو المراد بما قدمنا من صفاته الجميلة ، وتوسمنا أنه لمعة البدر وهى لا تخفى لأنها لا ترد العيون كليله ، ورأى والده المشار إليه من استحقاقه ما اقتضى أن ينوه بذكره ، وينبه على المعرفة بحق قدره ، فآثر التزول له عما باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصر المحروسة ليقوم مقامه ، ويقرر فوائده وينشر أعلامه ، ويعلم أنه قد حلق فى العلياء حتى لحق البدر وبلغ تمامه ، فعلمنا أن البركة فيما اشار ، وأن اليمين بحمد الله فيما رجحه من الاختيار .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - زاد الله فى شرفه ، وجعل أقطار الأرض فى تصرفه - أن يرتب فى هذا التدريس عوضاً عن والده ، أطال الله بقاءه على عادته وقاعدته إلى آخر وقت لأنه أحق من استحق قدره الرفيع التميز ، وأولى بمصر من سواه لما عرفت به مصر من العزيز ثم من عبد العزيز .

ونحن نوصيك أيها العالم - وفقك الله - بالمداومة على ما أنت بصدده ، والمذاكرة للعلم فإنك لا تكاثر العلماء إلا بمدده ، والعمل بتقوى الله تعالى فى كل قصد وتصدير ، وتقريب وتقريب ، وتأثيل وتأثير ، وتقليل وتكثير ، ونص وتأويل ، وترتيب وترتيب ، وفى كل ما تزداد به رفعتك ، وتطير به سمعتك ، ويحسن به الشناء على دينك المتين ، ويقوم به الدليل على ما وضع من فضلك المبين .

وأعلم بأنك قد أدركت بحمد الله تعالى وبكرمنا وبأيك وباستحقاقك ما أرتدَّ به كثيرٌ عن مقامك ، ووصلت في البداية إلى المشيخة في زاوية إمامك ؛ فاعمل في إفادة الطلبة بما يرفع الرافعيُّ لك به الراية ، ويأتمُّ بك إمام الحرمين في النهاية ؛ فقد أُمسيت جَارَ البحر فاستخرجُ جَمَانَهُ ، وأجتهدُ لُتْصِيبَ في فتاويك فَإِنَّ أَوَّلِيكَ سِهَامَ رُمِيهَا مِنْ كَنَانِهِ ؛ وسبيلُ كلِّ واقِفٍ عليه العملُ بمقتضاه والاعتدالُ ^(١) .



وهذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعيِّ بالجامع العتيق أيضا ، من إنشاء المولى زين الدين بن الخضر مَوْقِعَ الدَّسْتِ ، كُتِبَ به لتاج الدين محمد الإخنائي شاهد خزانة الخالص ، بالنيابة عن عمِّه قاضي القضاة تقي الدين المالكي في أيام حياته ، مستقلاً بعد وفاته ، وهي :

أما بعد حمد الله على أن زان مجالس المدارس في أيامنا الشريفة بتاجها ، وأقرَّبها من ذوى الإنابة من يستحقُّ النيابة عن تقي قوَى الأحكام بإحكامها وإنتاجها ، ورفع قدر بيت مبارك طالما اشتهر علمُ علمه وصدر عن صدره فكان مادة مسرة النفس وأتباعها ، وجعل عوارفنا ترعى الدُّرِّيَّة الصالحة في عقبها وتوَلَّى كُلَّ رُتْبَةٍ مَنْ أضحى لأهلها بوجاهته مواجها ، والشهادة له بالوحدانية التي تنفى شرك الطائفة الكافرة ومعلول احتجاجها ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي استقامت به أمور هذه الأمة بعد أعوجاجها ، وتشرفت به علمائها حتى صارت كأنبياء بنى إسرائيل بحسن استنباطها للجمل وجميل استخراجها ؛ وعلى آله وصحبه الذين علموا وعملوا وأوضحوا لهذه الملة قويم منهاجها - فَإِنَّ أَوَّلَى الْأَوْلِيَاءِ بُلُوغُ الْأَمَلِ ، وتعاهد

(١) أى الى آخر ما يقال في مثله .

مدارس العلم بصالح العمل ؛ وإظهار سرّ الفوائد للطالبيين ، وحلّ عقود مُشكِها
بجميل الأطلاع وحسن اليقين ، من حوى معرفة الفروع والأصول ، وحاز من
مذهبه المذهب خير محمول ؛ ونشأ في حجر الفضائل ، وأقتدى بحكام بيته الذين لهم
في العلوم بمصر والشام أوضح البراهين وأقوى الدلائل ؛ وله في الآباء والأبوة ،
الديانة التي بلغ بها من الإقبال مرحؤه ؛ طالما سارت أحكام عمه - أجله الله -
في الأقطار ، وحكم فأبدى الحكم بين أيدينا أوفى الأمصار ، وله العفاف والتقى والمناظر
الجميلة وجميل الآثار ؛ والفتاوى التي أوضح بها مشكلا ، وفتح مقفلا ، والفصل بين
الخصوم بالحق المجتلي ؛ والبركة التي لدولتنا الشريفة منها نصيب وافر ، والتصميم
الذي أقترن بغزارة العلم والوقار الظاهر ؛ فهو - أعز الله أحكامه - من العلماء
العالمين ، وله البشري بما قاله أصدق القائلين ؛ في النبأ الذي تيم به الزيادة والنماء :
(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

ولما كان المجلس السامى هو الذى أستوجب التصدير لإلقاء الدروس ، وأضحى
مالكا مالكا أزمة الفضائل حائرا من أثوابها أخفر ملبوس ؛ وله بخزانة خاصنا
الشريف وإصطبلاته السعيدة الشهادة البيّنة ، والكتابة التي هي العز الحاضر
فلا يحتاج معها إلى إقامة بيّنه ، والكفالة التي نطق بها الأفواه مسرة ومعلنة ،
والأمانة التي حدا فيها حدو أبيه وأتبع سننه .

فلذلك رُسم - لا زال يُديم النعم لأهلها ، ويُبقي المراتب الدينية لمن أضحى محلّه
مناسبا لمحلّها ، أن يستقر ... (١) ... فلينب عن عمه في هذا التدريس ،
وليَقِف ما يسر النفوس من أثره النفيس ؛ وليُقَد الطلبة على عادته ، وليُبد لهم من

(١) بياض بالأصل ومراده في تدريس زاوية الشافعى الخ .

القول ما يظهر غزير مادته ، وليستنبط المسائل ، وليجب بالأدلة المسائل ، وليرجح المباحث ، وليكن لوالده - رحمه الله - أحق وارث ، وليستقل بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالى ، ولتزيد من العلوم ليبلغ من صدقاتنا الشريفة آمالاً ، والله تعالى يسدّد له بالتقوى أقوالاً وأفعالاً ، بمنه وكرمه .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية المجاورة لثربة الإمام الشافعي رضي الله عنه ، كتب به لقاضي القضاة تقي الدين ، ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز . من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهي :

الحمد لله شافي عي البحت بخير إمام شافعي ، والآتي منه في الزمن الأخير بمن لو كان في الصدر الأول لأثنى على ورعه ودينه كل صحابي وتابعي ، ومفيد الأسماع من وجيز قوله المحرر ما لولا السبق ما عدل إلى شرح وجيز سواء الرافعي .

نحمده على نعم ألهمت وضع الأشياء في محلها ، وأستيداعها عند أهلها ، وتأتيها بما يزيل الإشكال بانجذاب من شكله مناسب لشكلها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتزين بها المقال ، ويتبين بها الحق من الضلال ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيّه موصح الطرق إلى الحق المبين ، وناهجها إلى حيث مجتمع الهدى ومرتبّع الدين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تهدي إلى صراط الذين ، ورضى الله عن أصحابه الذين منهم من جاء بالصدق وصدق به فقوى سبب الدين المتين ، ومنهم من فرق بين الحق والباطل وكان إمام المتقين وسمى أمير المؤمنين ، ومنهم من جهّز جيش العسرة فنبت جأش المسلمين ،

ومنه من أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية فأخذها منه باليمين ، ورضى الله عن بقية الصحابة أجمعين .

وبعد ، فلما كان مذهب الإمام الشافعى « محمد بن إدريس » رضى الله عنه هو شهادة المتلفظ ، وكفاية المتحفظ ، وبهجة المتأخّط ، وطراز ملبس الهدى ، وميدان الاجتهاد الذى لا تقف أعنة جواده عن إدراك المدى ، وقد تجلّت ديار مصر من بركة صاحبه بمن تشدّ إليه الرّحال ، وتفخر جبانة هو فيها حال ، وجيد هو بجواهر علومه حال ، ومن يحسن إلى ضريحه المنيّف الاستناد ، وإذا قرئت كتبه لديه قيل ما أبعد هذا المرعى الأسنى ! وما أقرب هذا الإسناد ! وما أسعد حلقة تجمع بين يدى جدته يتصدّر فيها أجل خبر ، ويتصدّى لنشر العلوم بها من عرف بحسن السيرة عند السبر ، ومن لولا خرق العوائد لأجاب بالشكر والثناء عليه صاحب ذلك القبر كما قال : « قال صاحب هذا القبر » - حسن بهذه المناسبة أن لا ينتصب فى هذا المنصب إلا من يحمّد هذا السيد الإمام جواره ، ومن يرضيه منه - رضى الله عنه - حسن العبارة ، ومن يستحق أن يتصدّر بين نجوم العلماء بدارة تلك الخطّة فيقال قد حمل الله به دارة هذا البدر وعمره من هذا المدرّس داره ، الذى يفتقر إلى تنويع نعمه ، وتنويع قلمه ، من الأئمة كل غنى ، ويعجب ببلاغة خطبه ، وصياغة كتبه ، من يحتلى ومن يحتنى ، ومن يهنا المستفيدون من عدوبة ألفاظه وصفاء معانيه بالموارد الهني ، ومن إذا سمع سخابه الهطال اعترف له بالهمم والهمول المزنى ، والذى لسعد جدّه من أبيه ليث أكرم به من ليث وأكرم ببيته من أشبال ! ، وأعزّز به من فاتح أبواب إشكالات عجز عن فتحها القفال ! ، ومن إذا قال سكت الناس ، ومن إذا قام قعد كل ذى شماس ، وإذا أخذ بالنص ذهب الأقياس ، وإذا قاس قيل هذا بحر المذهب المشار إليه بالأصابع فى مضره جلالة ولا ينكر لبحر المصر الإشارة

بالأصابع ولا القياس؛ ومن يزهو بتقى قلبه ورقى جوابه لسان التعويل ولسان التعويد، كما يُميس بإحاطته وحياطته قلم الفتوى وقلم التنفيذ، ومن يفخر [به] كل عالم مفيد إذا قال : أنا بين يديه طالب وأنا له تلميذ ؛ ومن حيثما ألقت وجدت له سُؤددًا جمًّا ، وكيفما نظرت رأيت له من هنا وزارة ، ومن هنا خطابة ، ومن هنا مشيخة ، ومن هنا تدريسا ، ومن هنا حُكْمًا !!! ؛ فهو الأصل ومن سواه فروع ، وهم الأئمة وهو الينبوع ؛ وهو مجموع السيادة ، المختار منه الإفاده ، فما أحسنه من اختيار وما أتمه من مجموع ، وكان قاضي القضاة ، سيد العلماء ، رئيس الأصحاب ، مقتدى الفرق ، قدوة الطوائف ، الصاحب تقي الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضي القضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شرفه ، ورحم سلفه ، هو منتهى رغبة الراغب ، ومُستهى منية الطالب ؛ ومن إذا أضاعت ليلى النقوس بأقمار فتاويه قيل (بياض العطايا في سواد المطالب) ، ومن نتفق الآراء على أنه ليس الكهولة شيخ المذاهب ؛ ومن عليه يحسن الاتفاق ، وبه يجمل الوفاق ، وإذا ولي هذا المنصب أتهج بولايته إياه مالك في المدينة وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم في العراق ؛ وأهترت به ومجاورة فوائده من ضريح إمامه جوانب ذلك القبر طربا ، وقالت « الأم » لقد أبهجت - رحم الله سلفك - بجذك وإبائك جدًّا وأبا ، ولقد استحققت أن يقول لك منصب سلفك رضي الله عنهم : أهلاً وسهلاً ومرحباً ، وهذه تسمات صبا ، كانت الإفادة هنالك تعرفها منك من الصبا .

فالحمد لله على أن أعطى قوس ذلك المحراب بارئها ، وخص بشق سهامها من لا يزال سعدة مبارئها ، وجل مطلع تلك السماء بيدركم باتت [عليه] الدرر تحسد دراريها ؛ وألهم حسن الاختيار أن يجري القلم بما يحسن بالتوقيع الشريف موقعه ، ويجل في أثناء الطروس وضعه وموضعه .

فَرَسِمَ بالأمر الشريف العالى المولوى ، السلطانى : - أجراء الله بالصواب ،
وكشف بارتبائه كلَّ أرتياب ، ولا زال يختار وينتقى للنصاب الدينية كلَّ عالم
بأحكام السنَّة والكتاب - أن يفوض إليه تدريس المدرسة الصلاحية الناصرية
المجاورة لضريح الإمام الشافعى بالقرافة رضى الله عنه . فليُخَوَّلَ وليُنَوَّلَ كلَّ
ذى استفاده ، وليَجْمَلْ منه بذلك العقْد الثمين من علماء الدين بأنْخَمَ واسطة تفخرُ بها
تلك القلادة ؛ وليدْكر من الدروس ما يُبْرِجُ الأسماع ، ويُرضى الانتجاع ، ويُجادُ به
الانتفاع ، ويَحْتَلِبُه من أخلاف الفوائد آرتضاء الارتضاع ، ويتناقل الرواة
فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع ؛ وليَقْلُ فإنَّ الأسماع لفوائده منصفته ،
والأصوات لمباحثه خاشعة والقلوب لمهابته مُحْتَمَّة ؛ وليُنْهَضْ قوى المسائل بما
يَحْصُلُ لها أعظم انتعاش ، وليُحْمِتْ ما أماته إمامه من البدع فيقال به له : هذا محمد
أبن إدريس مُدْقَمَتِ أنتَ عاش ؛ وليُسْمِعْ بعلومه مَنْ به من الجهل صَمَمَ ، وليُسْتَنْطِقْ
مَنْ به من الفهاهة بَكَمَ ، وليُحَقِّقْ عند الناس بتعصبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه
به الآن الحاكم أبن الحاكم أخو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عبد الحكم .

وأما غير ذلك من الوصايا فهو بحمد الله صاحب إلهامها ، وجالب أقسامها ؛
وجُهينة أخبارها ، ومطلع أنوارها ؛ فلا يُعاد ، عليه ما منه يُستفاد ، ولا يُنثر عليه دُرٌّ
هو منظَّمه في الأجياد ؛ والله تعالى يُعَمِّرُ بسيادته معالم الدين وأكافه ، ويزين بفضله
المتين أوساط كلِّ مصر وأطرافه ، ويُضيف إليه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه
وإشفاقه يكون عيشه خَفْضا بتلك الإضافة ، ويعمله لا يُحْصَصْ حُنْوه بمعهد دُونَ
معهد ولا بمسافة دُونَ مسافة ، ويُبْقِيه ومنفعته إلى سارية سارية الإطافة واللطافة ،
وألطافة بهذه الولاية تقول لكلِّ طالب في القرافة القى رافه .

قلت : ولما توفّي قاضى القضاة بدر الدين بن أبى البقاء - تغمده الله تعالى برحمته - وكان من جملة وظائفه تدريس هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلى الشام فى بعض الحركات ، فسافر أبْنُه أفضى القضاة جلال الدين حتى ادرك السلطان بالطريق ، على القرب من غزّة ، فولاه الوظيفة المذكورة مكان أبيه ، وكان القاضى نور الدين بن هلال الدولة الدمشقى حاضراً هناك ، فأشار إليه القاضى فتح الدين فتح الله كاتب السر الشريف - عامله الله باطفه الخفى - بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سجعيتين ، هما :

الحمد لله الذى أظهر جلال العلماء الشافعية بحضرة إمامهم ، وأقام سادات الأبناء مقام آبائهم فى بثّ علومهم وصلاتهم وصيامهم . ولم يجاوز ذلك إلى غيره ، فسُطر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نور الدين بن هلال الدولة للقاضى جلال الدين المذكور :
إنّ هذا التوقيع يبقّى أبيض : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكلمته على هذا الأسلوب . فسمع القاضى كاتب السر كلامه ، فكتب لي بتكلمته على ظهره ، وعاد به القاضى جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرني بكلام ابن هلال الدولة وما كان من قوله ، فتدكّأت عن ذلك ، ثم لم أجِدْ بداً من إكّاله وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان ، فأنشأت له على تينك السجعتين ما أكلمته به ، بخاء منه يلو السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ابن هلال الدولة :

وخصّ برياسة العلم أهل بيتٍ رأَتْ كُھولُهم فى اليمّظة ما يمتنّى شيوخ العلماء أن لورأوه فى مآمهم .

وجاء من وسطه :

أَقْتَضَى حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفُ أَنْ نُتَوَّهَ بِذِكْرِهِ، وَنَقْدَمَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ رَامَ هَذَا الْمَقَامَ فَحُجِبَ دُونَهُ (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) .

وجاء فى آخره :

وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْقِيهِ إِلَى أَرْفَعِ الدَّرَجَاتِ، وَهَذِهِ الرِّبَّةُ وَإِنْ كَانَتْ بِدَايَتِهِ فَهِيَ نِهَائِيَّةٌ غَيْرُهُ (وَأَنَا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا) .

وَقَدْ أَعَوَزَنِ وَجَدَانُ النُّسخَةِ عِنْدَ إِثْبَاتِهَا فِي هَذَا التَّأْلِيفِ لَضَيَاعَ مُسَوِّدَتِهَا وَلَمْ يَحْضُرْنِي مِنْهَا غَيْرُ مَا ذَكَرْتُهُ . وَفِيَا تَقَدَّمَ مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ مِنْ تَوْقِيعِ الْقَاضِي تَقَى الدِّينِ ابْنِ بَنْتِ الْأَعْمَرِ مَا لَا يَنْظُرُ مَعَ وُجُودِهِ إِلَى غَيْرِهِ .



وَهَذِهِ نُسْخَةُ تَوْقِيعِ بَتَدْرِيسِ الْمَدْرَسَةِ الصَّلَاحِيَّةِ بِمِصْرَ، الْمُخْتَصَّةُ بِالمَالِكِيَّةِ، الْمَعْرُوفَةُ بِالْقَمَحِيَّةِ، بِمِصْرِ الْمَحْرُوسَةِ، أَنْشَأَتْهُ لِقَاضِي الْقَضَاةِ جَمَالُ الدِّينِ الْأَقْمَهْسِيَّ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَيَّنَ مَعَالِمَ الْمَدَارِسِ مِنْ أَعْلَامِ الْعُلَمَاءِ بِجَمَالِهَا، وَمَيَّزَ مَرَاتِبَ الْحِكْمَةِ بِإِجْرَاءِ سَوَائِقِ الْأَفْكَارِ فِي مِيَادِينِ الدُّرُوسِ وَفَسَّيْحَ مَجَالِهَا، وَعَمَّرَ مَعَاهِدَ الْعِلْمِ بِأَجَلِّ عَالَمٍ إِذَا ذُكِرَتْ وَقَائِعُ الْمُنَاطَرَةِ كَانَ رَأْسُ فُرْسَانِهَا وَرِيسَ رِجَالِهَا، وَنَاطَ مَقَاصِدَ صَلَاحِ الدِّينِ بِأَكْلِ حَبْرٍ إِذَا أُوْرِدَتْ مُنَاقِبُهُ الْمَأْثُورَةُ تَمَسَّكَ أَهْلُ الدِّيَانَةِ مِنْهَا بِوَثِيقِ حَبَالِهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى اخْتِيَارِ الْجَوْهَرِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَرَضِ ، وَالتَّوْفِيقِ لِإِدْرَاكِ الْمَرَامِ وَإِصَابَةِ الْغَرَضِ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى خصَّ أهل العلم بكريمِ حَبَائِهِ ،
 وشرفَ مقامهم فى الخليفة جَعَلَهُمْ فى حَمْلِ الشريعة ورثةَ أنبيائه ؛ شهادةً تُعَذِّبُ
 لقائلها بحسن الإيرادِ وردا ، وتُجَدِّدُ لمتجليها بمواطنِ الذِّكْرِ عهدا فيتخذها عند
 الرحمن عهدا ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضلُ نبيِّ علمٍ وعلمٍ ، وأكرمُ
 رسولٍ فصلَ الأحكامِ إذ شرعَ ونَدَبَ وأوجبَ وحلَّلَ وحَرَّمَ ؛ صلى الله عليه وعلى
 آله وصحبه الذين عُنُوا بتفسيرِ كتابِ الله تعالى فأدرَكُوا دقيقَ معانيه ، وأهتمُّوا
 بالحديثِ روايةً ودرايةً ففازوا بتأسيسِ فقهِ الدين وإقامةِ مبانيه ؛ صلاةٌ تُحِيطُ من
 بحارِ العلمِ بزائريها ، وتأخذُ من الدُّروسِ بطرفيها فتقارنُ الحمدَ فى أولها وتصحَبُ
 الدعاءَ فى آخرها ؛ ما تُتَّبَعُ بالمتقولِ مواقعُ الأثرِ ، وعُوقِلَ فى المعقولِ على إجابةِ الفكرِ
 وإجادةِ النظرِ ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أولى ما صرفت النفوسُ إليه هَمَمَها ، وأخلصت فيه نيتَها وخلصت
 من تبعاتِهِ ذَمَمَها ؛ وتَبِعَتْ فيه آثارَ من سَلَفَ من الملوكِ الكرامِ ، وأعارتَهُ كُلِّ نظريها
 وقامتُ بواجبه حقَّ القيامِ - أمرُ المدارس التى هى مَسْقَطُ حَجَرِ الاشتغالِ بالعلمِ
 ومستقرُّ قاعدته ، وقُطْبُ فَلَكَ تَطْلُابه ومُحِيطُ دائرته ؛ ومِيدَانُ فُرْسانِ المشايخِ ومَدَارِ
 رجالِها ، ومَوْرِدُ ظَمَاءِ الطَلَبَةِ ومَحْطُّ رَحالِها ؛ لا سِماَ المدارسُ الأيوبية التى أُسِّسَ
 على الخيرِ بناؤها ، وكان عن صلاحِ الدين منشؤها فتألقَ بريقُها وأستطار ضياؤها .

ومن أثبتَها وثيقه ، وأمثلها فى الترتيبِ طريقه ؛ المدرسةُ القمحية بالقُسطاطِ
 الآخذة من وجوه الخيرِ بنطاقِها ، والمخصوصُ بالسادة المالكية أمتدادُ رُواقِها ؛
 إن أَعْتَبِرْتَ رعايةَ المذاهبِ قالت : مالِكٌ وما مالِكٌ ، وإن عُمِلَتْ حِسبةُ المدارسِ
 فى البرِّ ، كانتْ لها فَذَالِكُ ؛ قد رُتِّبَ بها أربعةُ دُروسٍ فكانتْ لها كالأركانِ الأربعة ،
 وجُعِلَتْ صدقَتُها الجاريةُ بُرا فكانتْ أعظمَ بُرا وأعمَ منفعه .

ولما كان المجلس العالى، القاضى، الشيخى، الكبيرى، العالمى، العالمى،
الأفضلى، الاكلى، الأوحدى، البلىغى، الفرىدى، المفيدى، النجيدى، القدوى،
الحجى، المحققى، الإمامى، الحمالى : جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء
العالمين، أوجد الفضلاء المفيدين، قدوة البلغاء زين الأمة، أوجد الأئمة،
رحلة الطالبين، نحر المدرسين، مفتى الفرق لسان المتكلمين، حجة المناظرين،
خالصة الملوك والسلطين، ولي أمير المؤمنين، أبو محمد « عبد الله الآقفهسى »
المالكى - ضاعف الله تعالى نعمته - هو عين أعيان الزمان، والمحدث بفضل
في الآفاق وليس الخبر كالعيان، ماولى منصباً من المناصب إلا كان له أهلاً، ولا أراد
الانصراف من مجلس علم إلا قال له مهلاً، ولا رمى إلى غاية إلا أدركها، ولا أحاط
به منطقة طلبة إلا هزها بدقيق نظره للبحث وحركها، إن أطل في مجلسه أطاب،
وإن أوجز قصر محاوره عن الإطالة وأناب، وإن أورد سؤالاً تجز مناهيه عن
جوابه، أو فتح باباً في المناظرة أحجم مناظره عن سدّ بابيه، وإن ألمّ يبحث أربى
فيه وأناب، وإن أفتى بحكم آندفع عنه المعارض وأرتفع فيه الخلاف، فتوادره
المدونة فيها البيان والتحصيل، ومقدماته المبسوطة إجمالاً يغنى عن التفصيل،
ومشاركه النيرة لا يافل طالعيها، ومداركة الحسنة لا يسأم سامعها، وتهذيبه المهذب
جامع الأمهات، وجواهره الثينة لا تقاوم في القيمة ولا تضاهى في الصفات -
أقتضى حسن رأى الشريف أن ننوه بذكره، ونقدمه على غيره، ممن حاول ذلك
فامتنع عليه « والله غالب على أمره » .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى، المولى، السلطانى، الملكى، الناصرى،
الزبى - لا زالت مقاصده الشريفة في مذاهب السداد ذاهبه، ولا غراض الحق
والاستحقاق صائبه - أن يستقر المجلس العالى المشار إليه في تدريس المدرسة

الصَّلاحِيَّة بِمِصْر المحروسة المعروفة بِالْقَمَحِيَّةِ عِوَضًا عَنْ فُلَانِ الْفُلَانِي ، عَلَى عَادَةِ مَنْ تَقَدَّمَهُ .

فَلْيَتَلَقَّ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ ، وَيَسْتَطِمْ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ لِسَانَهُ فَمَنْ كَانَ بِمَثَابَتِهِ فِي الْفَضْلِ حَقٌّ لَهُ أَنْ يَقُولَ وَيَطُولَ ؛ وَمِلَّاكُ الْأَمْرِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فَهِيَ خَيْرُ زَادٍ ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَعَنْهُ تُؤْخَذُ وَمِنْهُ تُسْتَفَادُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَبْلُغُهُ مِنْ مَقَاصِدِهِ الْجَمِيلَةِ غَايَةَ الْأَمَلِ ، وَيَرْقِيهِ مِنْ هِضَابِ الْمَعَالَى إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ وَقَدْ فَعَلَ ؛ وَالْاعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمُقْتَضَاهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المدرسة الصلاحية المذكورة، أنشأته للقاضي شمس الدين محمد آبن المرحوم شهاب الدين أحمد الدفري المالكي، في شعبان سنة خمس وثمانمائة، وهو :

الحمد لله مُطْلِعِ شَمْسِ الْفَضَائِلِ فِي سَمَاءِ مَعَالِيهَا ، وَمُبَلِّغِ دَرَارِي الدَّرَارِيِّ النُّبِيِّهِ الدِّكْرِ بِسَعَادَةِ الْجَدِّ غَايَةَ غَيْرِهَا فِي مَبَادِيهَا ؛ وَجَاعِلِ صَلَاحِ الدِّينِ أَفْضَلَ قَصْدٍ فَوْقَ الْعَنَاءِ سَهَامَهَا بِإِصَابَةٍ غَرَضُهُ فِي مَرَامِيهَا ، وَمُجَدِّدِ مَعَالِمِ الْمَدَارِسِ الدَّارِسَةِ بِخَيْرِ نَظَرٍ يَقْضَى بِتَشْيِيدِ قَوَاعِدِهَا وَإِحْكَامِ مَبَانِيهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَرَفَ إِلَى الْقِيَامِ بِنَشْرِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ أَهْتِمَامَنَا ، وَجَعَلَ بِخَيْرِيَّتِهِ الْعَائِدَةِ إِلَى التَّوْفِيقِ فِي حُسْنِ الْأَخْتِيَارِ اعْتَصَامَنَا .

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مُفِيضُ نَتَائِجِ الْأَفْكَارِ مِنْ وَافِرِ إِمْدَادِهِ ، وَمُخَصِّصُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ بِدَقِيقِ النَّظَرِ تَخْصِصَ الْعَامِّ بَقَضَرِهِ عَلَى بَعْضِ أُنْرَادِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَوْفَرُ الْبَرِيَّةِ فِي الْفَضْلِ سَهْمًا ، وَالْقَائِلُ

تتويهاً بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لى فى صَبِيحَةِ يَوْمٍ لا أزدَادُ فيه عِلْمًا » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حلُّوا من الفضل جواهره الثمينه ، والتابعين وتابعى التابعين الذين ضربت أباط الإبل منهم إلى عالم المدينه .

وبعد ، فإنَّ أولى ما صُرِفَ إليه الهمم ، وبرئت بتأدية حقّه الذمم ، وغدت النفوس بالنظر فى مصالحه مشغله ، والفكر لشرف محله منه إلى غيره منتقله ، النظر فى أمر المدارس التى جعلت للاشتغال بالعلم سبباً موصولاً ، ولطابته ربعا لا يزال يجالس الذكر مأهولاً ؛ لاسيّما المدارس التى قد قدّم فى الإسلام عهدُها ، وعذب باستمرار المعروف على توالى الأيام ورُدّها .

ولما كانت المدرسة الصّلاحية بفسطاط مصر المحروسة قد أسّس على التقوى بنيانها ، ومهدت على الخير قواعدها وأركانها ، واختصّت طائفة المالكية منها بالخصيصة التى أغنى عن باطن الأمر عنوانها ؛ وكان المجلس السامى هو الذى خطبته الرتب الجليلة لنفسها ، وعيّنته لهذه الوظيفة فضائله التى قد آن ولله الحمد بزوغ شمسها ، وعهدت منه المعاهد الجليلة حسن النظر فتأقت فى يومها إلى ما ألفت منه فى أمسها - أقتضى حسن الرأى الشريف أن نفرد به هذه الوظيفة التى يقوم إفرادها فيها مقام الجمع ، ونجمع له من طرفيها ما يتفق على حسنه البصر ويقضى بطيب خبره السمع .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى ، الزينى : - لا زال يُقيم للدين شعارا ، ويرفع لأهل العلم الشريف مقدارا - أن يستقر فى الوظيفة المذكورة لما أشتهر من علمه وديانته ، وبأن من عقته المشهورة وزاهيته ؛ واتّصف به من الإفاده ، وعُرف [عنه] من نشر العلوم فى الإبداء

والإعاده ؛ وشاع من طريقته المعروفة في إيضاحه وبيانه ، وذاع من فوائده التي قدّمته على أبناء زمانه ، ورفّعتّه إلى هذه المرتبة باستحقاقه على أقرانه .

فليُباشِرْ تدريسها مُظهرًا من فوائده الجليلة ما هو في طيّ ضميره ، مضمرا من حُسن بيانه ما يُستغنى بقليله عن كثيره ؛ مقربا إلى أذهان الطلبة بتهديب ألفاظه الرائقة ما يُفيسد ، مُوردا من علومه المدوّنة ما يجمع له بين نَوادر المقدمات ومدارك التمهيد ؛ مُوقفا نظرها بحسن التدبير حقّ النظر ، موفرا رزقها بما يُصدّق الخبر فيه الخبر ، قاصداً بذلك وجه الله الذي لا يُخيب لراج آملا ، معاملا فيه الله معاملة من يعلم أنه لا يُضيع أجر من أحسن عملا . وملاك الوصايا تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ، ويتخيّلها في كل الأحوال أمامه ؛ والله تعالى يستدّه في قوله وعمله ، ويبلغه من رضاه نهاية سؤله وغاية أمليه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بالتدريس بقبّة الصالح ، أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين «يوسف البساطي» بعد أن كُتب له بها مع قضاء القضاة المالكية ، في العشر الأخير من شعبان سنة أربع وثمانمائة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل للعلم جمالا تنهأت على دركه محاسن الفضائل ، وتوارد على ثبوت محامده المتواردة قواطع الدلائل ، وتُحقّق شواهد الحال من فضله ما يتلّح فيه من لوائح الخايل .

نحمده على نعمه التي ما استهلّت على وليّ فأقلع عنه غمّاتها ، ولا استقرّت بيد صفيّ فأنزعت من يده حيث تصرّف زمامها ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُرهِر بمعالم الدين غروبها ، وتنبّع بثمار الفوائد المتتابعة دروسها ؛

وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً ، وأولهم فى دلو المرتبة مكاناً وإن كان آخرهم فى الوجود عصراً ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الخائزين بقربه أنخر المناقب ، والفائزين من درجة الفضل بأرفع المراتب ؛ صلاة تكون لحلق الذكر نظاماً ، ولأولها أفتاحاً ولآخرها ختاماً ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن من شيمنا الشريفة ، وسجايانا الزاكية المنيفة ؛ أنا إذا منحنا منحة لا نستعيده ، وإذا أعطينا عطاءً لا ننقصه بل نزيده ؛ وإذا قربنا ولياً لا نقصيه ، وإذا أنعمنا على صفيٍّ إنعاماً لا نعدده عليه ولا نحصيه .

ولما كان تدریس المدرسة المالكية بقبة الصالح من أعلى دروسهم قدراً ، وأرفعها لدى التحقيق ذكراً ، وأعظمها إذا ذكرت الدروس فخراً ؛ إذ يحال جداله تنفطر المرائر ، ويميدان مباحثه تشتهر البلق من مضمرات الضمائر ؛ ويسوق مناظرته يتميز النضار عن الشبه ، ويحك مطارحته تبين الحقائق من الشبه ؛ وبمظان مجلسه يعرف العالى والسافل ، وبمركة فرسانه يعرف من المفضول والفاضل ؛ ومن ثم لا يليه من علمائهم إلا الفحول ، ولا يتصدى لتدريسه إلا من أمسى بحسام لسانه على الأقران يصول ؛ ولم يزل فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القضاة فى الأول والآخر ، تابعاً لمنصب الحكم فى الولاية كل زمن إلا فى القليل النادر ؛ وكان المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى (إلى آخر القابه) أدام الله تعالى نعمته قد آسملت ولايته عليه لابتداء الأمر استحقاقاً ، وحفظه كرمنا عليه فلم يجد الغير إليه استطرافاً - اقتضى حسن الراى الشريف أن تتبع ذلك بولاية ثانية تؤكد حكم الولاية الأولى ، وزد فيه بتوقيع يجمع له شرف القدمة والجمع ولو بوجه أولى .

فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى ، الزينى - لا زال يعتمد فى مشاهد الملوك أتم المصالح ، ويخص الصالح منهم بمزيد النظر حتى يقال ما أحسنَ نظرَ الناصر فى مصالح الصالح ! - أن يستمر المجلس العالى المشار إليه على ما بيده من الولاية الشريفة بالتدريس بقبة الصالح المذكورة ، ومنع المعارض وإبطال ما كُتِبَ به وما سُوِّكَتَبَ ما دام ذلك فى يده ، على أتم العوائد وأكملها ، وأحسن القواعد وأجلها .

فلتلق ما فُوض إليه بكتنا يديه ، ويشكر إحساننا الشريف على هذه المنحة فإنها نعمة جديدة توجب مزيد الشكر عليه ، ولتصدر بهذا الدرس الذى لم تزل القلوب نتقطع على إدراكه حشرات ، ويتصد لالقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هنا تسكب العبرات ، ويبرز لفرسان الطلبة من ... (١) ... صدره من كمينه ، ويفض على جداولهم الحافاة ماسح به فكره من ينابيع معينه ، مستخرجاً لهم من قاموس قريحته دُرر ذلك البحر الزاخر ، مظهرها من مكنون علمه ما لا يعلم لمدته أول ولا يدرك لمداه آخر ، ويفيق من ذخائر فضله ما هو بإنفاقه ملي ، متفقدا بفضل غنايه من هو عن فرائده المريحة غير غنى ، مقررراً للبحث تقريراً يزول معه الالتباس ، مسنداً فروعه النامية إلى أثبت الأصول من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، معتمدا لما عليه جادة مذهبه فى الترجيح ، جارياً على ما ذهب إليه جهابذة محققيه من التصحيح ، مقبلاً بطلاقة وجهه فى درسه على جماعته ، باذلاً فى آسمااتهم طاقة جهده محسناً إليهم جهد طاقته ، مربياً لهم كما يربى الوالد الولد ، موفياً من حقوقهم [فى] التعليم ما يبق له ذكروه على الأبد ، ممناً ناشئتهم بالتدريب الحسن تنمية الغروس ، جاهداً فى ترفيعهم بالتدريج حتى يؤهل من لم يكن تظن فيه أهلية الطلب لأن يتصدى

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفَتَاوَى وإلقاء الدُّروس ؛ سالكا من مناهج التقوى أحسن المسالك ، مُورِدا من تحقيقات مذهبه ما إذا لمحَ اللاحُ لم يَشْكْ أنه لِزِمَامِ المذهب مالِك ؛ والله تعالى يُجْزِيه على ما أَلْفَه من مَوارد إنعامه ، ويمتَع [هذه الرتبة] السَّنيَّة : تارةً يجالس دُرُوسه وتارةً يجالس أحكامه ؛ والاعتماد * * *

وهذه نسخة توقيع بتدريس الحديث بالجامع الحاكِمى ، من إنشاء الشَّهاب «محمود الحاكِمى» للشيخ قُطب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أطلع فى أفق السَّنة الشريفة من أعلام علمائها قُطباً ، وأظهر فى مطالعها من أعيان أئمتِّها نُجوما أضاء بهم الوجودُ شرقاً وغرباً ؛ وأقام لحفظها من أئمة أعلامها أعلاماً أحسنوا عن سندها دفاعاً وأجملوا عن مُتونها ذباً ، وشرف بها أهلها فكلماً بعدت راحلتهم فى طلبها أزدادوا من الله قُرباً ؛ وأختار لحملها أُمماء شغفت محاسنهم قلوب أهل الفرق على اختلافها حباً ، وسلَّكوا باتباعها سنن السنن فأمِنُوا أن تُروِّع لهم الشُّبه سُرِّباً ؛ وألهمنا من تعظيم هذه الطائفة ما مهَّد لهم فى ظل تقربنا إليه مقاماً كريماً ومُتزيلاً رَحِياً ، وعصم آراءنا فى الآرِثِيادِ له من الخلل فلا نَخْشَر له إلا من تُسرَّ باختياره طَلبة وتُغَبِّط بتعيينه أئمةٌ ونُرضى بآرِثِيادِهِ ربَّاً .

نحمده على نِعَمه التى صانت هذه الرتبة السَّنيَّة بكفائها ، وزانت هذه المرتبة الشريفة بمن لم تَمَلْ عينه فى تأثيل قواعدها إلى إغنائها ، وجعلت هذه الدرجة العلية فلَكا تُشرق فيه لأئمة الحديث أنوارُ علوم تَفْنى الدهور دُونَ إطفائها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مُجادل عن سُنَّته الشريفة بالسَّنة أَسَنَّتْه ، مجالِدٍ عن كلمتها العالية بقبض مَعاقِدِ سَيُوفِهِ وإطلاق أَعْيَنَتِهِ ، باعث

بالجهاد دَعَوَتَهَا إِلَى كُلِّ قَلْبٍ كَانَ عَنْ قَبُولِهَا فِي حُجْبٍ أِكْتَتَهُ . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ الَّذِي أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَلَوَامِعَ السُّنَّةِ الَّتِي مِنْ أَعْتَصَمَ بِهَا عُصَمَ وَمَنْ سَلَّمَ
بِهَا سَلِمَ ؛ فَهِيَ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ أَصْلُ شَرْعِهِ الْقَوِيمِ ، وَحُبْلُ حَكِيمِهِ الَّذِي لَا يَنْتَكِنُ يَدُ
الْبَاطِلِ مِنْ [حَلِّ] عِقْدِهِ النِّظِيمِ ، وَكَنْوَزُ دِينِهِ الَّتِي لَا يُدْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ؛ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ عَضُّوا عَلَى سُنَّتِهِ بِالنَّوَاجِدِ ، وَذَبُّوا عَنْ شَرِيعَتِهِ بِسَيُوفِ
الْجِلَادِ الْقَوَاطِعِ وَسِهَامِ الْجِدَالِ النَّوَافِدِ ؛ صَلَاةً لَا يَزَالُ يُقَامُ فَرَضُهَا ، وَيُمْلَأُ بِهَا طُولُ
الْبَسِيطَةِ وَعَرَضُهَا ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ إِلَى آرْتِيَادِ أُمَّتِهِ ، وَتَوَفَّرَتْ الدَّوَاعِي عَلَى
التَّقَرُّبِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَفْوِيضِ مَنَاصِبِهِ إِلَى الْبَرَّةِ الْكَرَامِ مِنْ
أُمَّتِهِ - عِلْمُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى قَائِلِهِ ، وَحِفْظُهُ بِدُرُوسِهِ الَّتِي
جَعَلَتْ أَوَاخِرَ زَمَنِهِ فِي صِحَّةِ تَقْلِهِ وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ كَأَوَائِلِهِ ؛ وَأَنْ نَخْتَارَ لَذَلِكَ مِنْ نَشَأٍ
فِي طَلَبِهِ حَتَّى آكْتَهَلَ ، وَسَرَى فِي تَحْصِيلِهِ سُرَى الْأَهْلَةِ حَتَّى آكْتَمَلَ ؛ وَغُدِّي بِلَبَانِ
التَّبَحُّرِ فِيهِ حَتَّى آمْتَرَجَ بِأَدِيمِهِ ، وَجَدَّ فِي تَحْصِيلِهِ وَاجْتَهَدَ حَتَّى سَاوَى [فِي] الطَّلَبِ بَيْنَ
حَدِيثِ عُمَرَةَ وَقَدِيمِهِ ؛ وَحَفِظَ مِنْ مُتُونِهِ ، مَا بِمِثْلِهِ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُدْعَى حَافِظًا ، وَغَلَبَ
عَلَى فُنُونِهِ ، حَتَّى قَلَّ أَنْ يُرَى [بِغَيْرِ] عِلْمِهِ وَالنَّظَرِ فِي أَحْكَامِهِ لَا فِظًا ؛ فَإِنَّهُ بَعْدَ كِتَابِ
اللَّهِ الْعَزِيزِ مَادَّةُ هَذَا الدِّينِ الَّذِي يُحْكَمُ بِنُصُوصِهِ ، وَتَتَفَاوَتْ رُتَبُ الْعُلَمَاءِ فِي حُسْنِ
الْعَمَلِ بِمُطْلَقِهِ وَمَقْيَدِهِ وَعُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ وَعَنْهُمَا تَفَرَّعَتْ أَحْكَامُ الْمَلَّةِ فَلَأَتْ
عُلُومُهَا جَمِيعَ الْآفَاقِ ، وَزَكَتْ أَحْكَامُهَا الشَّرْعِيَّةُ عَلَى كَثَرَةِ الْإِنْفَاقِ ؛ وَسَرَى النَّاسُ مِنْهَا
عَلَى الْحَاجَّةِ الَّتِي آسْتَوَى فِي الْإِشْرَاقِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا ، وَعَلَا عَلَى الْمَلَلِ بِالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ
نُورُهَا وَمَنَارُهَا ؛ وَكَفَى أَهْلَهَا شَرَفًا أَنَّهُمْ يُدَبُّونَ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ذَبَّ اللَّيْثِ ، وَيُجُودُونَ

(١) لَمْ يَتَقَدَّمَ مَا يَعْطِفُ عَلَيْهِ وَلَعَلَّ الْأَصْلَ «فَوَجِبَ أَنْ نَهْتَمَّ بِهِ أَجْلَ اهْتِمَامٍ ، وَأَنْ نَخْتَارَ الْخَ» .

على الأسماع بما ينفع الناس في أمر دينهم ودنياهم منها جود الغيوث ، ويحافظون على ألفاظها محافظة من سمعها منه صلى الله وسلم عليه ، ويعظمون مجالس إيرادها ونقلها حتى كأنهم لحسن الأدب جلوس بين يديه ، ويُغالون في العلو طلبا للقرب منه وذلك من أسنى المطالب ، ويرحلون لضم شوارده من الآفاق فيأقرب المشارق عندهم من المغارب ! .

ولما كان المجلس السامى الفلانى : هو الذى عني بكل ما ذكر من وصف كريم ، وحديث ورع قديم ، وقدم هجرة في علم الحديث اقتضت له حسن أولوية ووجوب تقديم ، وتلقى هذا العلم كما وصف عن أئمة حتى صار من أعيانهم ، ولقي منهم علماء أضحى باقتنائهم كما كانوا رحلة زمانهم ، ونظر في علومه فأتقنها فكانه ينطق فيها بلسان ابن الصلاح ، وأحرز غايات الكمال ، في أسماء الرجال ، فإلى اطلاعه يرجع في تجريح المجرح وتعديل الصحاح ، وكان منصب تدريس الحديث الشريف النبوى الذى أنشأناه بالجامع الحاكى تكثيراً لنشر أحاديث من لا ينطق عن الهوى ، ونويناه لأرتواء الرواة من بحر هذا العلم الشريف بالإعانة على ذلك وإتمام لكل أمرى ما نوى ، قد استغرقت أوقات مباشرة بتفويضنا الحكم العزيز على مذهبه (١) إليه ، وتوفير زمانه على

قلت : وتختلف أحوال التواقيع التى تكتب بالتدريس باختلاف موضوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، وغير ذلك ، فى براعة الاستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا أكد .

(١) ترك هنا بياضاً للبقية ولم له لم يكمله اتكالا على ما هو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخ وصايا أوردتها في التعريف :

وصية مدرّس — وَلْيَطْلُعْ فِي مِحْرَابِهِ كَالْبَدْرِ وَحَوْلُهُ هَالَةُ تِلْكَ الْحَلَقَةِ^(١) ،
وقد وَقَتْ أَهْدَابُ ذَلِكَ السَّوَادِ مِنْهُ أَعْظَمَ آسُودَادًا مِنْ الْحَدَقَةِ ؛ وَلْيَرَقَّ سِبْجَاتِهِ الَّتِي
هِيَ لِبَدَةُ جَوَادِهِ إِذَا آسَتَنَّ الْحِدَالُ فِي الْمِضْمَارِ ، وَلْيُخَفِ [أَضْوَاءَ] أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ
هُمْ كَالْتَّجُومِ كَمَا تَتَضَاعَلُ الْكَوَاكِبُ فِي مَطَالِعِ الْأَقْصَارِ ؛ وَلْيُرِزْ لَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْمِحْرَابِ
كَمِينُهُ ، وَلْيُقْضَ عَلَى جَدَاوِلِهِمُ الْحَافَّةُ مَعِينُهُ ؛ وَلْيَقْدَفْ لَهُمْ مِنْ جَنَابَاتِ مَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ
دُرَرُ ذَلِكَ الْبَحْرِ الْعَجَّاجِ ، وَلْيُرْهِمْ مِنْ غُرَرِ جِيَادِهِ مَا يُعَلِّمُ بِهِ أَنَّ سَوَائِقَهُ لَا يَهْوِلُهَا قَطْعُ
الْفِجَاجِ ؛ وَلْيُظْهِرْ لَهُمْ مِنْ مَكُونِ عِلْمِهِ مَا كَانَ يُخْفِيهِ الْوَقَارُ ، وَلْيَهَبْ مِنْ مَمْنُونِ فَضْلِهِ
مَا يَهَبُ مِنْهُ عَنْ ظَهْرِ غَنَى أَهْلِ الْإِفْتِقَارِ ؛ وَلْيَقَرَّرْ تِلْكَ الْبُحُوثَ وَيَبَيِّنْ مَا يَرُدُّ عَلَيْهَا ،
وَمَا يَرُدُّ بِهِ مِنْ مَنَعِهَا وَتَطَرَّقَ بِالنَّقْضِ إِلَيْهَا ؛ حَتَّى لَا تَنْفَصِلَ الْجَمَاعَةُ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِ
الترجيحِ ، وَالْإِجْمَاعِ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الصَّحِيحِ ؛ وَلْيُقْبَلْ فِي الدَّرُوسِ طَلَقُ
الْوَجْهِ عَلَى جَمَاعَتِهِ ، وَلْيَسْتَمِلْهُمْ إِلَيْهِ بِجُحْدِ اسْتِطَاعَتِهِ ؛ وَلْيُرَبِّهِمْ كَمَا يُرَبِّي الْوَالِدُ الْوَلَدَ ،
وَلْيَسْتَحْسِنْ مَا تَجِبُ بِهِ أَفْكَارُهُمْ وَإِلَّا فَكَمْ رَجُلٌ بِالْجَبْهِ لَبِنَتْ فِكْرُ وَادٍّ ؛ هَذَا
إِلَى أَخِذِهِمُ بِالْإِسْتِغَالِ ، وَقَدْحَ أَذْهَانِهِمْ لِلْإِسْتِعَالِ ؛ وَلْيُنَشِّئِ الطَّلَبَةَ حَتَّى يَتِمَّ مِنْهُمْ
الْغُرُوسُ ، وَيُؤْهَلَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يُظَنُّ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَعَلَّمُ لِأَنَّهُ يُعَلِّمُ وَيُلْقِي الدَّرُوسَ .

وصية مقرئ :

وَلْيَدُمَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ مُصْبِحُ قَلْبِهِ ، وَصَلَاحُ قُرْبِهِ ، وَصَبَاحُ
الْقَبُولِ الْمُؤَذِّنِ لَهُ بِرِضَا رَبِّهِ ؛ وَلْيَجْعَلْ سُورَةَ لَهُ أَسْوَارًا ، وَأَيَاتِهِ تُظْهِرُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ

(١) جرى في تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبي عمرو بن العلاء من كونه لغة في السكون

أنظر ”المصباح“ .

أنواراً ؛ وليتل القرآن بحروفه وإذا قرأ استعاذ ، وليجمع طرقه وهى التى عليها الجمهور ويترك الشواذ ؛ ولا يرتد دون غاية لإقصاره ، ولا يقف فبعد أن أتم لم يبق بحمد الله إحصار ، وليتوسع فى مذهبيه ولا يخرج عن قراءة القرآن السبعة أمة الأمصار ؛ وليبدل للطلبة الرغاب ، وليشبع فإن ذوى النهمة سغاب ، ولير الناس ما وهبه الله من الإقتدار فإنه احتضن السبع ودخل الغاب ؛ وليتم مباني ما أتم « ابن عامر » و « أبو عمرو » له التعمير ، ولقه « الكسائى » فى كسائه ولم يقل جدى « ابن كثير » ؛ وحّم به « الحمزة » أن يعود ذاهب الزمان ، وعلم أنه لا « عاصم » من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان ؛ وطفق يتفجر علما وقد وقفت السيول الدوافع ، وضراً كثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو « نافع » ؛ وليقبل على ذوى الإقبال على الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد انتسب ؛ وهو يعلم ما من الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النعماء ، ووصل سببه منه بحبل الله المتد من الأرض إلى السماء ؛ فليقدر حق هذه النعمة بحسن إقباله على التعليم ، والإنصاف إذا سئل فعلم الله ما يتناهى « وفوق كل ذى علم عليم » .

وصية محدث :

وقد أصبح بالسنة النبوية مضطرباً ، وعلى ما جمعت طرق أهل الحديث مطلقاً ؛ وصح [فى] الصحيح أن حديثه الحسن ، وأن المرسل منه فى الطلب مقطوع عنه كل ذى لسن ؛ وأن سنده هو المأخوذ عن العوالى ، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى ؛ وأن مثله لا يوجد فى نسبه المعرق ، ولا يعرف مثله للحافظين « ابن عبد البر » بالمغرب و « خطيب بغداد » بالمشرق ؛ وهو يعلم مقدار طاب الطالب فإنه طالما شد له النطاق ، وسعى له سعيه وتجشم المشاق ؛ وأرتحل له يشتد به حرصه والمطايا

مُرَّزِمَهُ ، وَيَنْبِئُهُ لَهُ طَلَبُهُ وَالْجُفُونَ مُقْفَلَةٌ وَالْعُيُونُ مُهَوَّمَةٌ ، وَوَقَفَ عَلَى الْأَبْوَابِ لَا يُضْجِرُهُ طَوْلُ الْوُقُوفِ حَتَّى يُؤَدِّنَ لَهُ فِي وُلُوجِهَا ، وَقَعَدَ الْقُرْفُصَاءَ فِي الْمَجَالِسِ لَا تَضْيِقُ بِهِ عَلَى قِصَرِ فُرُوجِهَا .

فَلْيُعَامِلِ الطَّلِبَةَ إِذَا أَتَوْهُ لِلْفَائِدَةِ مُعَامَلَةً مِنْ جَرَبٍ ، وَلْيُنَشِّطِ الْأَقْرَبَاءَ مِنْهُمْ وَيُؤْنِسِ الْغُرَبَاءَ فَمَا هُوَ إِلَّا مَنْ طَلَبَ آوَنَهُ مِنْ قَرِيبٍ وَآوَنَهُ تَغَرَّبَ ، وَلْيُسْفِرْ لَهُمْ صَبَاحُ قِصْدِهِ عَنِ النَّجَاحِ ، وَلْيُنْتَقِ لَهُمْ مِنْ عُقُودِهِ الصَّحَاحَ ، وَلْيُوضِّحْ لَهُمُ الْحَدِيثَ ، وَلْيُرِخْ خَوَاطِرَهُمْ بِتَقْرِيبِهِ مَا كَانَ يُسَارِ إِلَيْهِ السَّيْرَ الْحَثِيثَ ، وَلْيُؤْتِهِمْ مِمَّا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيهِ الْمَجَالَ ، وَيُعَلِّمَهُمْ مَا يَجِبُ تَعْلِيمُهُ مِنَ الْمُتُونِ وَالرِّجَالِ ، وَيَبْصِّرْهُمْ بِمَوَاقِعِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ ، وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّعْلِيلِ ، وَالصَّحِيحِ وَالْمَعْتَلِّ الَّذِي تَتَنَاشَرُ أَعْضَاؤُهُ سَقَمًا كَالْعَلِيلِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لِرِجَالِ هَذَا الشَّانِ بِهِ عِنَايَهُ ، وَمَا يُنْقَبُ فِيهِ عَنْ دَرَايَةِ أَوْ يُقَنَّعَ فِيهِ بِمَجْرَدِ رَوَايَةٍ ، وَمِثْلُهُ مَا يُزَادُ حُلُمًا ، وَلَا يَعْرِفُ بِنِ رَخَّصَ فِي حَدِيثٍ مُوَضَّوعٍ أَوْ كَتَمَ عِلْمًا .

وصية نحوي :

وهو زَيْدُ الزَّمَانِ ، الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ ، وَعَمَرُو الْأَوَانُ ، وَقَدْ كَثُرَ مِنْ سَيِّبِيهِ الْمَلَلُ ، وَمَا زِنَى الْوَقْتِ وَلَكِنَّهُ الَّذِي لَمْ تُسْتَبَحْ مِنْهُ الْإِبِلُ ، وَكَسَائِي الدَّهْرِ الَّذِي لَوْ تَقَدَّمَ لِمَا آخَتَارَ غَيْرَهُ الرَّشِيدُ لِلْأُمُونِ ، وَذُو السُّودَدِ ، لَا أَبُو الْأَسْوَدِ ، مَعَ أَنَّهُ ذُو السَّابِقَةِ وَالْأَجْرُ الْمُنُونُ ، وَهُوَ ذُو الْبَرِّ الْمَأْتُورُ ، وَالْقَدَرُ الْمَرْفُوعُ وَلَوْ أُوِّهِ الْمَنْصُوبُ وَذَيْلُ خِفَارِهِ الْمَجْرُورُ ، وَالْمَعْرُوفُ بِمَا لَا يُنْكَرُ لِمِثْلِهِ مِنَ الْحَزْمِ ، وَالذَّاهِبُ عَمَلُهُ الصَّالِحُ بِكُلِّ الْعَوَامِلِ الَّتِي لَمْ يُبَيَّنْ مِنْهَا لِحُسُودِهِ إِلَّا الْحَزْمُ ، وَهُوَ ذُو الْأَنْبِيَةِ الَّتِي لَا يُفْصَحُ عَنْ مِثْلِهَا الْإِعْرَابُ ، وَلَا يَعْرِفُ أَفْصَحُ مِنْهَا فِيمَا أَخَذَ عَنِ الْأَعْرَابِ ،

والذى أصبحت أهدأه فوق عمام الغائم ثلاث ، ولم يزل طول الدهر يشكر منه
 أمسه ويومه وعده وإنما الكلمات ثلاث . فليتصد للإفاده ، وليعلمهم مثل
 ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزيادة ؛ ولكن للطلبة نجما به يهتدى ، ويرفع
 بتعليمه قد ركل خبر يكون خبرا له وهو المبتدا ؛ وليقدم منهم كل من صلح
 للتبريز ، وأستحق أن ينصب إماما بالتميز ؛ وليرد من موارد أعذب النطاف ،
 وليجر إليه كل مضاف إليه ومضاف ؛ وليوقفهم على حقائق الأسماء ، ويعرفهم
 دقائق البحوث حتى اشتقاق الأسم هل هو من السمو أو من السياء ؛ وليبين لهم
 الأسماء الأعجمية المنقولة والعربية الخالصة ، وليدلم على أحسن الأفعال لا ما يشبه
 فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصة ؛ وليحفظهم المثل وكلمات
 الشعراء ، ولينصب نفسه لحد أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء ؛ وليعامل
 جماعة المستفيدين منه بالعطف ، ومع هذا كله فليرفق بهم فما بلغ أحدا علما بقوة
 ولا غاية بعسف .



وهذه وصية لغوى^(١) أوردتها فى التعريف .

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية فى نسخة "التعريف" التى بيدنا .

الوظيفة الثامنة

(التصدير)

وموضوعة الجلوس بصدر المجلس بجامع أونحوه . ويجلس متكلم أمامه على كُرسى كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرقائق والوعظيات ، فإذا انتهى كلامه وسكت ، أخذ المتصدر في الكلام على ما هو في معنى تفسير الآية التي يقع الكلام عليها ، ويستدرج من ذلك إلى ما سنع له من الكلام . وربما أفرد التصدير عن المتكلم على الكرسي .

وهذه نسخة توقيع بتصدير أنشأته للشيخ شهاب الدين « أحمد الأنصاري » الشهير بـ « الشاب التائب » بالجامع الأزهر ، وهي :

رسم ... لا زالت صدقاته الشريفة تخص المجالس بمن إذا جلس صدر مجلس (١)
كان لرتبته أجمل صدر يجتبي من علماء التفسير، ومن إذا دقق لم يفهم ... عنه (٢)
وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامه في الحقيقة تفسير تفسير، وتصطفي من سرارة
الأماثل من دار نعمته بين « الشاب التائب » و « الشيخ الصالح » فكان له أكرم
نعت على كل تقدير - أن يستمر المجلس السامي أدام - الله تعالى رفعة - في كذا
وكذا ، لأنه الإمام الذي لا تسامى علومه ولا تسام ، والعلامة الذي لا تدرك مداركه
ولا ترام ، والخبر الذي تعقد على فضله الخناصر ، وفارس الحلبة الذي يعترف
بالقصور عن مجارة جواده المناظر ، وآية التفسير التي لا تُنسخ ، وعقد حقيقته الذي
لا يُفسخ ، والماهر الذي استحق بمهارته التصدير ، والجامع لفنونه المتنوعة

(١) أى بالامر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله « لم يفهم شرحه إلا عنه » أونحو ذلك .

جمع سلامة لاجمع تكسير ؛ وترجمان معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعجب العجائب ، والعارف بهدى طريقه الذى إذا قال قال الذى عنده علم من الكتاب ؛ وزاهد الوقت الذى زين بالعلم العمل ، وناسك الدهر الذى قصر عن مبلغ مداه الأمل .

فليتلق ما ألقى إليه بالقبول ، وليستند إلى صدر مجلس يقول فيه ويطول ؛ وليبين من معانى كتاب الله ما أجمل ، ويوضح من خفى مقاصده ما أشكل ، ويسلك فى تفسيره أقوم سنان ، ويعان بأسراره الخفية فسر كتاب الله أجدر أن يكون عن علن ، وليجر فيه على ما ألف من تحقیقاته فإنه إذا لم يحقق المناظرة فمن ؟ ، وليأخذ مشايخ أهل مجلسه بالإحسان ، كما أحسن الله إليه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ويخص شبابهم على التوبة ليحبهم الله فيتصل فى المحبة سندهم فإن « الشاب التائب » حبيب الرحمن ؛ والله تعالى يرقبه إلى أرفع الذرا ، ويرفع مجلسه السامى على محل الثريا (وإنا لرجو فوق ذلك مظهرا) . إن شاء الله تعالى .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضوعه التحدث فى أمور خاصة بإباحة ضروراتها ، وعمل مصالحها ، واستخراج متحصّل جهاتها ، وصرفه على الوجه المعتبر ، وما يجرى مجرى ذلك .
وتشتمل على عدّة أنظار :

منها - نظر الأحباس : جمع حبس^(١) وهو الوقف : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصل وضعه أراضى اشتراها (الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه)

(١) فى المختار «والحبس كالقفل ما وقف» وهو المراد هنا .

وَوَقَفَهَا عَلَى جِهَاتٍ رُبَّ ثَمَّ تَبِعَهُ النَّاسُ فِي إِضَافَةِ الْأَوْقَافِ إِلَى ذَلِكَ ، إِلَى أَنْ كَانَتْ
وِزَارَةُ الصَّاحِبِ بَهَاءِ الدِّينِ ابْنِ حَنَّا فِي سُلْطَنَةِ الظَّاهِرِ بَيْرَسِ الْبُنْدُقَادَرِيِّ ، فَأَفْرَدَ
لِلْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَالرُّبُطِ وَالزَّوَايَا وَنَحْوِ ذَلِكَ رِزْقًا ، وَقَصَّرَ تَحَدُّثَ نَاضِرِ الْأَحْبَاسِ
وَمُبَاشَرِيهِ عَلَيْهَا ، وَأَفْرَدَتْ الْأَوْقَافُ بِنَاضِرٍ وَمُبَاشِرِينَ كَمَا سَيَأْتِي :

(١)
وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبيمارستان المنصوري ، كُتِبَ بِهَا «لِمَهْدَبِ
الدِّينِ» وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي دَبَّرَ بِحِكْمَتِهِ الْوُجُودَ ، وَعَمَّ بِرَحْمَتِهِ كُلَّ مَوْجُودٍ ، وَحَالَ بِنَفْعِ الدَّوَاءِ
بَيْنَ ضَرِّ الدَّاءِ كَمَا حَالَتْ عَطَايَاهُ دُونَ الْوُعُودِ ، نَحْمَدُهُ وَنُشْكِرُهُ وَهُوَ الْمَشْكُورُ الْمَحْمُودُ ،
وَنُثْنِي عَلَيْهِ خَيْرَ الثَّنَاءِ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى الْجَنُوبِ وَفِي السُّجُودِ ، وَنُسْتَرِيدُهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنَّهُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْجُودِ .

وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً اللَّهُ بِهَا وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ
شُهِدُوا ، وَنُشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُبَشِّرُ لِأُمَّتِهِ بِالْجَنَّاتِ وَالْخُلُودِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَوةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ الْوُعُودِ .

وبعد ، فَإِنَّا لَمَّا أَقَامَ اللَّهُ بِنَا شَعَائِرَ الْإِيمَانِ ، وَأَصْبَحَ دِينُهُ بِحَمْدِ اللَّهِ مَنْصُورًا بِنَا
عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، وَجَاهِدْنَا فِي اللَّهِ حَقَّ الْجِهَادِ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ ، وَشَيْدْنَا لِعُلُومِهِ
وَشَرَائِعِهِ كُلِّ بَدِيعِ الْإِتْقَانِ ، وَرَتَّبْنَا فِيهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَعْيَانِ كُلِّ رَفِيعِ الشَّانِ ، وَآخَرْنَا
لَهُ الْأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالطَّبِّ وَالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْقُرْآنِ ، وَرَأَيْنَا كُلَّ مَنْ تَقَدَّمَ
مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ سَلَكَ فِي سِيَاسَةِ الرِّعْيَةِ أَحْسَنَ سُلُوكٍ ، قَدْ أَهْتَمَّ بِعِلْمِ الْأَدْيَانِ وَأَهْمَلَ

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر في مواقع الوظيفة السابعة الخاصة بالتدريس .

علم الأبدان ؛ وأنشأ كل منهم مدرسة ولم يحفل ببيمارستان ، وغفل عن قوله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان » ؛ ولم يأخذ أحدا من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه ، ولا وقف وقفا على طلبة هذا العلم المنصوص عليه ، ولا أعد له مكانا يحضر من يشتغل بهذا الفن فيه ، ولا نصب له شخصا يمثل هذا المشتغل لديه - علمنا نحن بحمد الله تعالى من ذلك ما جهلوه ، وذكرنا من هذه القرية ما أهملوه ، ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدنيوية ما فصلوه ؛ وأنشأنا بيمارستانا يبهر العيون بهجه ، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة ، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجه ؛ لوحه من أشفى العوجل بالشفا ، أو جاءه من أكمده السقم لاشتفى ، أو أشرف عليه العمر بلا شفاء لعاد عنه بشفا ؛ ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين ، ويطريف سماع جملته الأذنين ، ويعيد عنه من أمه مملوء اليدين ؛ وأبجنا التداوى فيه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير ، وساويننا فى الانتفاع به بين كل صغير وكبير ، وعلمنا أن لانظير لنا فى ملكنا ولا نظير له فى إبقائه فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير ؛ وجعلنا فيه مكانا للاشتغال بعلم الطب الذى كاد أن يجهل ، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعدب منهل ، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل ؛ وأرتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس ، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرءوس ، ويؤمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس ؛ فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلا لهذه المرتبة ، ولم نرض لها من لم تكن له هذه المنقبه ، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجبا وأصحت به معجبه .

ولما كان المجلس السامى « مهذب الدين » هو الرئيس المشار إليه ، والوحيد الذى تُعقد الخناصر عليه ؛ وكان هو الحكيم « بقراط » ، بل الجليل « سقراط » ؛ بل الفاضل « جالينوس » ، بل الأفضل « ديسقوريدوس » - أقنضت الآراء

الشريفة أن تزداد جلالته بتولية هذا المنصب الجليل جلاله ، وأن تُزفَّ إليه تجرُّ أذياله ، وأن يقال : (لم يكُ يصلح إلا لها ولم تكِ تصلح إلا له) .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال للدين ناصرا ، ولأعلام العلوم ناشرا - أن يفوض إليه تدريس الطب بالبيارستان المبارك المنصوري ، المستجدة الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علما بأنه المتمهر في هذا الفن ، وأنه عند الفراسة فيه والظن ، وأنه سقراط الإقليم إذا كان غيره سقراط الدن ، وثقة بأنا للجوهر قد ألتقطنا ، وبالخير قد آغبتنا ، وعلى الخير قد سقطنا .

فلتلق هذه النعمة بالشكر الجليل ، والحمد الجزيل ، والثناء الذي هو بالثناء والزيادة كفيلا ، وليتصب لهذا العلم المبارك انتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة ، ويعرف له فيه الفضل ويتقلد له فيه المنه ، ويثني على آثاره الجميلة فيه ويثني إليه الأعنة ، وليسطل بتقويمه الصحة ما ألفه ابن « بطلان » ، وليرنا بتدبيره جملة البر فإنه « جالينوس » الزمان ، وليبدل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام فإنه « ابن سينا » الأوان ، وليجمع عنده شمل الطلبة ، وليعط كل طالب منهم ما طلبه ، وليبلغ كل ممتد من الاشتغال أربه ، وليشرح لهم صدره ، وليبدل لهم من عمره شطره ، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره ، وليرهم ما خفي عنهم منه جهره ، وليجعل منهم جماعة طبائعيه ، وطائفة حكّامين وجراحية ، وقوما مجبرين ، وبالحديد عاملين ، وأخرى بأسماء الحشائش وقوى الأدوية وأوصافها عاملين ، وليأمر كلّا منهم بحفظ ما يجب حفظه ، ومعرفة ما يزيد به خطه ، وليأخذ بما يصلح به لسانه ولفظه ، ولا يفتّر عنهم في الاشتغال لحظه ، وليفرد لكل علم من العلوم طائفة ، ولكل فن من فنونه جماعة بحاسنه عارفه ، وليصرف إليهم من وجوه فضائله كل عارفه ،

وَلْيَكْشِفْ لَهُمْ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ غَوَامِضِهِ فَلَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ إِیْضَاحِهِ كَاشِفَةٌ ؛
لِيُنْشَرَفَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمُبَارَكِ مِنْ أَرْبَابِ هَذِهِ الْعُلُومِ قَوْمٌ بَعْدَ قَوْمٍ ، وَيُظْهَرُ مِنْهُمْ
فِي الْغَدِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَضْعَافُ مَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْهُمْ الْيَوْمَ ؛ وَلَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ طَلَبَتْهُ
إِذَا شُرِعَ فِي إِجَارَتِهِ وَتَرْكِتِهِ : لَقَدْ أَحْسَنَ شَيْخُهُ الَّذِي عَلَيْهِ تَأْدَبٌ ، وَإِنَّ مَنْ خَرَجَ
هَذَا « الْمَهْدَبِ » ؛ عَامِلًا فِي ذَلِكَ بِشُرُوطِ الْوَاقِفِ أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ ، وَاقِفًا عِنْدَ أَمْرِهِ
أَمْضَى اللَّهُ أَمْرَهُ ؛ وَالْخَيْرُ يَكُونُ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع بنظر الأحياس مفتحة بـ «أما بعد» وهي :

أما بعد حمد الله الذي أذن أن تُرْفَعَ بِيُوتُهُ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ ، وَيُكَثَّرَ فِيهَا قِسْمُ
ثَوَابِهِ وَيُجْزَلَ قِسْمُهُ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي عَظُمَ بِهِ قَطْعُ دَابِرِ الْكُفْرِ وَكَثُرَ
حَسْمُهُ - فَإِنَّ خَيْرَ مَنْ عُوِّلَ عَلَيْهِ فِي تَأْسِيسِ بِيُوتِ اللَّهِ وَعِمَارَةِ رُبُوعِهَا ، وَلَمْ شَعْبُهَا
وَشَعْبَ صَدُوعِهَا ؛ وَالْقِيَامُ بِوُطَائِفِهَا ، وَتَسْهِيلُ لَطَائِفِهَا ؛ وَتَاهِيلُ نَوَاحِيهَا ، لِهَبُوطِ
الْمَلَائِكَةِ لِتَلْقَى الْمَصَالِينَ فِيهَا ، مَنْ كَانَ ذَا عَزْمٍ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَحَرَمٌ لَا يُلْمُ
بِأَفْعَالِهِ لَمَسَ الْمَآثِمَ ، وَنَظَرَ ثَاقِبٌ ، وَرَغْبَةٌ فِي اخْتِيَارِ جَمِيلِ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ، وَمُبَاشَرَةٌ
تُرْعَى قَوَانِينُ الْأُمُورِ وَتَكْتَنِفُهَا أَكْتَثَافُ مُرَاقِبٍ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ مِّنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ شِعَارُهُ ، وَإِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ يَدَارُهُ ؛ وَكَمْ كَتَبَ
اللَّهُ بِهِ لِلدَّوْلَةِ أَجْرًا رَاحِعًا وَسَاجِدًا ، وَكَمْ شَكَرْتُهُ وَذَكَرْتُهُ أَلْسِنَةُ أَعْلَامِ الْجَوَامِعِ وَأَفْوَاهُ
مَحَارِيبِ الْمَسَاجِدِ - أَقْتَضَى مُنِيفُ الْمَلَا حِظَةِ وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ مِنْ بِيُوتِ
اللَّهُ وَشَاهِدٌ ، أَنْ خَرَجَ الْأَمْرُ الشَّرِيفُ - لَا بَرَحَ يَكْشِفُ الْأَوْجَالَ ، وَيَدْعُو لَهُ
فِي الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ - أَنْ يَفُوضَ لِفُلَانٍ نَظْرَ دِيْوَانِ الْأَحْبَاسِ وَالْجَوَامِعِ
وَالْمَسَاجِدِ الْمَعْمُورَةِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

فليباشرها مباشرة من يُراقب الله [إن] وقع أو توقع ، وإن أطاع أو تطوع ؛
 وإن عزل أو ولى ، وإن أدب من نهى عبدا إذا صلى ؛ وليجتهد كل الاجتهاد
 في [صرف] ريع المساجد والجوامع في مصارفها الشرعية ، وجهاتها المرعية ؛ وليأخذ
 أهلها بالملازمة في أحيائها وأوقاتها ، وعمارتها بمصاييحها وآلاتها ؛ وحفظ ما يحفظون
 به لأجلها ، ومعاملتهم بالكرامة التي ينبغي أن يعامل مثلهم بمثلها ؛ وليحرر في إخراج
 الحالات إذا خرجت وأخرجت ، وفي مستحقات الأجائر إذا استحققت وإذا
 عجلت ؛ وفي التواقيع إذا أنزلت وإذا نُزلت ، وفي الاستثمارات التي أُهملت وكان
 ينبغي لو أُهلت ؛ وإذا باشر [و] ظهر له بالمباشرة خفايا هذا الديوان ، وفهم
 ما تحتويه جرائد الإحسان ، فليكن إلى مصالحه أول مُبادر ، ويكفيه تدبر قوله
 تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأحباس ، للقاضى « بدر الدين حسن »
 الشهير بابن الداية ، مفتتحا بالحمد لله ، جاء فردا فى بابه . إلا أن مسودته غيبت
 عني ، فلم أجدها لأتيها هاهنا كما أثبت غيرها مما أنشأته : من البيعات والعهود
 والتواقيع والرسائل وغير ذلك .

ومنها - نظر الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستين ، ويدخل فيه أوقاف الحرمين
 وغيرهما .

وهذه نسخة توقيع بنظرها ، وهى :

الحمد لله الذى حفظ معالم البر من الدثور ، وأحيا آثار المعروف والأجور ، وصان
 الأوقاف المحبسة من تبديل الشروط على توالى الأيام والشهور .

نَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ الْمَوْفُورِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لَهَا فِي الْقُلُوبِ نُورٌ عَلَى نُورٍ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُؤَيَّدَ الْمَنْصُورَ ، الطَّالِعَ الْبُدُورَ ، الْمُبْعُوثَ بِالْفُرْقَانِ وَالنُّورِ ، الْمَنْعُوتَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا كَرَّتِ الدُّهُورُ ، وَطَلَعَتْ كَوَاكِبُ شَمْسِ تَغُورُ .

وبعد ، فَإِنَّ أَهْلَ الْخَيْرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ طَيِّبَاتِ أَمْوَالِهِمْ بِأَوْقَافٍ وَقَفُّوْهَا عَلَى وَجْهِ الْبِرِّ وَعَرَّفُوهَا ، وَجَعَلُوا لَهَا شُرُوطًا وَوَصَفُوهَا ، فَتَقَبَّلَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَاتُوا فِيهَا أَنْقَطَعَ عَمَلُهُمْ بِهَا وَهُمْ فِي بَرْزَخِ الْمَهَالِكِ ، وَلِيَّهَا بَعْدَهُمُ الْأَمْنَاءُ مِنَ النَّظَارِ ، فَقَامُوا بِحَقُوقِهَا وَحَفِظَ الْأَثَارَ ، وَأَجْرُوا بِرَّهَا الدَّارَ فِي كُلِّ دَارٍ ، وَصَانُوا مَعَالِمَهَا مِنَ الْأَغْيَارِ ، وَشَارَكُوا وَاقِفِيهَا فِي الصَّدَقَةِ لِأَنَّهُمْ خَزَانُ أَمْنَاءٍ أَخْيَارُ .

ولما كان فلان هو الذى لا يَتَدَنَسُ عِرْضُهُ بِشَائِبَةٍ ، وَلَا تُنْسَى الْمَصَالِحُ وَهِيَ عَنْ فِكْرِهِ غَائِبَةٌ ، وَلَا تَبْرَحُ نَجُومُ السُّعُودِ طَالِعَةً عَلَيْهِ غَيْرَ ذَائِبَةٍ ، وَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يُنَاطَ بِهِ التَّحَدُّثُ فِي جِهَاتِ الْبِرِّ الْمَوْقُوفَةِ ، وَأَمْوَالِ الْخَيْرِ الْمَصْرُوفَةِ ، لِأَنَّهُ نَزَّ نَفْسَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ فَلَوْ كَانَتْ أَمْوَالٌ غَيْرُهُ غَنَمًا مَا اخْتَصَّ مِنْهَا بِصُوفَةٍ ، فَلِذَلِكَ رُسِمَ ... (١) ...

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنة التأثير ، جميلة التثمين ، مأمونة التغيير ، مخصوصة بالتعبير ، ولينظر في هذه الأوقاف على اختلافها من ربوع ومباني ، ومساكن ومغانى ، وخانات مسبله ، وحوانيت مكلمه ، ومُسَقَّفات معموره ، وساحات مأجورة غير مهجورة . وليبدأ بالعمارة فإنها تحفظ العين وتكفي البناء دُورَه ، وليتبع شروط الواقفين ولا يعدل عنها فإن في ذلك سروره ، ويندرج في هذه

(١) بيض له في الأصل لعله من أمثاله السابقة .

الأوقاف ما هو على المساجد ومواطن الذكر : فليقيم شعارها ، وليحفظ آثارها ، ويرفع منارها ، والوصايا كثيرة والتقوى ظلها المخطوب ، ومراقبة الله أصلها المطلوب ووصلها المحبوب ، والله تعالى يجمع على محبته القلوب ؛ بمنه وكرمه ! .

ومنها - نظر البيارستان المنصوري بين القصيرين لأرباب الأقلام ، وهو من أجل الأنظار وأرفعها قدرا ، ما زال يتولاه الوزراء وكتاب السر ومن في معناهم .
[وهذه نسخة توقيع] من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهى :
(١)

الحمد لله رافع قدر من كان في خدمتنا الشريفة كريم الخلال ، ومعلي درجة من أصفى عليه الإخلاص في طاعتنا العلية مديد الظلال ، ومجدد نعم من لم يخصه اعتناؤنا بغاية إلا ورقته همته فيها إلى أسنى رتب الكمال ، ومفوض النظر في قرب سلفنا الطاهر إلى من لم يلاحظ من خواصنا امرا إلا سرنا ما نُسأله فيه من الأحوال الحوال .

نحمده على نعمه التي لا تزال تسرى إلى الأولياء عوارفها ، ومننه التي لا تبحر تشمل الأصفياء غواطفها ، وآلائه التي تُسدد آراءنا في تفويض قربنا إلى من إذا باشرها [سر] بسيرته السرية مستحقها وواقفها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رفع الإخلاص لواءها ، وأفاض الإيمان على وجوه حملتها إشراقها وضيائها ، ووالى الإيقان إعادة أدائها بمواقف الحق وإبداءها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بعموم الشفاعة العظمى ، المقصود في السنة ذكر حوضه الذي من شرب منه شربة فإنه بعدها لا يظما ، المنصوص على نبوته في الصحف المنزلة وبشّرت به المواتف نثرا ونظما ؛ صلى الله

(١) تقدمت في وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع ببعض تغيير واختصار .

عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من طاعته ، بالرَّتب الفاعره ، وحازوا بالإخلاص
فى محبَّته ، سعادة الدنيا والآخرة ، وأقبلوا على حظهم من رضا الله ورضاه فلم يُلوا
على خدع الدنيا الساحره ؛ صلاةً دائمةً الاتِّصال ، أمانةً شمس دَولَتِها من الغروب
والزَّوال ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ، فإنَّ أولى الأمور بإِنعام النَّظر فى مصالحها ، وأحقَّها بتوفير الفكر على
اعتبار مناهجها وأعتاد مناجحها - أمرُ جهات البر التى تقرب والدُّنا السلطان الشهيد -
قدس الله روحه - بها إلى مَنْ أفاض نِعَمه عليه ، وتنوَّع فى إنشائها فأحسن فيها
كما أحسن الله إليه ، ورغب بها فيما عند الله لعلَّه أنَّ ذلك من أنفُس الذخائر التى
أعدَّها بين يديه ؛ وحلَّ منها فى أكرم بقعة نقله الله بها عن سريره إلى مقعد صدق
عند ربِّه ، وعمرَّ بها مواطن العبادة فى يوم سلَّمه بعد أن عفى على معاقل الكفر
فى يوم حرَّبه ؛ وأقام بها منار العلوم فعلا مناهُها ، وأعدَّ للضعفاء بها من مواد البر
والإلطاف مالو تعاطته الأغنياء قُصرت عن التطاول إليه أموالها ؛ وأن نرَاد لها
مَنْ إذا فوضنا إليه أمرًا تحقَّقنا صلاحه ، وتيقَّننا نجاحه ؛ واعتقدنا تيمية أمواله ،
واعتمدنا فى مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله ؛ وعلمنا مَنْ ذلك
مالا نحتاج فيه إلى إخبار ولا اختِبار ، ولا يحتاج فى بيان الخيرة فيه إلى دليل إلَّا إذا
احتاج إليه النَّهار ؛ لتكون فى هذا بمثابة مَنْ ضاعف لهذه القُرب أسباب ثوابها ،
أو جدَّد لها وقفًا لكونه أتى بيوت الإحسان فى آرتياد الأُكفاء لها من أبوابها .

ولذلك لما كان فلانٌ هو الذى صانَ أموالَ خواصِّنا ، وأبانَ عن يَمْن الآراء
فى استِئثارنا به لمصالحنا الخاصَّة واختصاصنا ؛ واعتدَدنا بحِجَل نظره فى أسباب التدبير
التي تملأ الخزائن ، وتُدلُّ على أنَّ من الأولياء من هو أوقع على المقاصد من سهام

الكَائِن ، وَتُحَقِّقُ أَنَّهُ كَمَا فِي الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ مَعَادِنُ فَكَذَلِكَ فِي الرِّجَالِ مَعَادِنُ ؛ وَنَبَّهَتْ أَوْصَافُهُ عَلَى أَنَّهُ مَا وَلِيَ أَمْرًا إِلَّا وَكَانَ فَوْقَ ذَلِكَ قَدْرًا ، وَلَا أَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِيمَا تَضَيِّقُ عَنْهُ هِمُّ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا رَحْبُ بِهِ صَدْرًا ، وَلَا طَلَعَ فِي أَفْقِ رُتْبَةٍ هَلَالًا إِلَّا وَتَأَمَّلَتْهُ الْعَيُونَ فِي أَجَلٍ دَرَجَ الْكَمَالِ بَدْرًا ؛ يُدْرِكُ مَا نَأَى مِنْ مَصَالِحِ مَا يَلِيهِ بِأَدْنَى نَظَرٍ ، وَيَسْبِقُ فِي سَدَادِ مَا يَبَاشِرُهُ عَلَى مَا يَجِبُ سَدَادُ الْآرَاءِ وَمَوَاقِعَ الْفِكَرِ ؛ فَتَحْنُ تَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ غَبْطَةً بِتَدْيِيرِهِ ، وَتُحَقِّقُ أَنَّ كُلَّ مَا عَدَقْنَا بِهِ إِلَيْهِ : مِنْ أَمْرِ جَلِيلٍ فَقَدْ أَسْنَدْنَاهُ إِلَى عَارِفِهِ وَفَوْضْنَاهُ إِلَى خَبِيرِهِ - أَقْنَضْتَ آرَأُونَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَعْدُقَ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ أَمْرَ هَذَا الْمُهِمِّ الْمَقْدَمِ لَدَيْنَا ، وَأَنْ نَفُوضَ إِلَيْهِ نَظَرَ هَذِهِ الْأَوْقَافِ الَّتِي النَّظَرُ فِي مَصَالِحِهَا مِنْ أَكْثَرِ الْأُمُورِ الْمُتَعَيِّنَةِ عَلَيْنَا .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال فضله عَمِيماً ، وَبَرَّهُ يَقْدَمُ فِي الرُّتْبِ مَنْ كَانَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ كَرِيماً - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ .

فَلَيْلِ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ أَهَمُّ ، وَقَصِدُ بِهَا النِّفْعُ الْمُتَعَدِّي إِلَى الْعُلَمَاءِ ، وَالْفُقَرَاءِ ، وَالضُّعَفَاءِ وَمِرَاعَاةُ ذَلِكَ مِنْ أَخَصِّ الْمَصَالِحِ وَأَعَمِّ ؛ وَلِيَنْظُرُ فِي عُمُومِ مَصَالِحِهَا وَخُصُوصِهَا نَظْرًا يُسَدِّدُ خَلَايَاهَا ، وَيَزِيحُ عِلَالَهَا ، وَيَعْمُرُ أَصُولَهَا ، وَيَتَمَرَّ مَحْصُولَهَا ، وَيَحْفَظُ فِي أَمَاكِنِهَا أَمْوَالَهَا ؛ وَيُقِيمُ مَعَالِمَ الْعُلُومِ فِي أَرْجَائِهَا ، وَيَسْتَنْزِلُ بِهَا مَوَادَّ الرَّحْمَةِ لِسَاكِنِهَا بِالسَّنَةِ قُرَائِهَا ؛ وَيُسْتَعِيدُ صِحَّةَ مَنْ بَهَا مِنَ الضُّعَفَاءِ بِإِعْدَادِ الدَّخَائِرِ لِلْمَلَاظِفَةِ أَسْقَامِهَا وَمُعَالَجَةِ أَدْوَائِهَا ؛ وَيَحَافِظُ عَلَى شُرُوطِ الْوَاقِفِ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - فِي إِقَامَةِ وُظَائِفِهَا ، وَأَعْتَابِ مَصَارِفِهَا ؛ وَتَقْدِيمِ مَا قَدَّمَهُ مَعَ مَلَأَةِ تَدْيِيرِهِ بِاسْتِكْمَالِ ذَلِكَ عَلَى أَكْمَلِ مَا يَجِبُ ، وَتَمْيِيزِ حَوَاصِلِهَا بِمَا يَسْتَدْعِي إِلَيْهَا مِنَ الْأَصْنَافِ الَّتِي يَعْزُّ وَجُودُهَا وَيَجْتَلِبُ ، وَضَبْطِ تِلْكَ الْحَوَاصِلِ الَّتِي لَا خَزَائِنَ لَهَا أَوْثَقُ مِنْ أَيْدِي

أمنائه وثقاته ، فلا مُودَع لها أوفق من أمانة من يتقى الله حقُّ ثقاته ؛ ليفعل في ذلك جميعه ما عرَفناه من تديره الجميل خُبراً وخبراً ، وحِمدناه في كل ما يليه ورُداً في المصالح وصَدَرَا ؛ فإنه - بحمد الله - الميمونُ نظراً وتصرفاً ، المأمونُ نزاهةً وتعفُّفاً ، الكريمُ سجيّةً وطِباعاً ، الرحيبُ في تلقى المهمات الجليّة صَدْرًا وباعاً ؛ فلذلك وكلّناه في الوصايا إلى حُسْنِ معرفته وأطّاعه ، ويؤمنُ نهوضه بمصالحنا وأضطرّاعه ؛ والله تعالى يُسَدِّده في قوله وعمله ، ويحقّق بالوقوف مع مرّاضى الله تعالى ومرّاضينا غايةً أمله ؛ إن شاء الله تعالى .



ومنها - نظر الجامع الناصرى بقلعة الجبل .

وهذه نسخةُ توقيع بنظره ، كُتِبَ به للقاضى جلال الدين القزوينى وهو يومئذ قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، وهى :

الحمد لله الذى زادنا الدين رفعةً وجلّالا ، وجعل لنا على إعلاء منار الإسلام إقبالا ، وأحسن لنظرنا الشريف فى كلّ اختيارٍ مالا ، ووفّق مرّامى مرّامنا لمن أخلصنا عليه اتّكالا .

نحمده حمدا يتواتر ويتوالى ، ويقرب من المنى مَنالا ، وتُتِير به معاهدُ نعمه عندنا وتَتَلالا ، ونُديمه إدامةً لا نَبْغى عنها حولا ولا اتّقالا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نصّدقها نيةً ومقالا ، ونرجو بالتغالى فيها القبول منه تعالى ، ويراسلُ عليها القلبُ واللسانُ فلا يعتري ذاك سهو ولا يخاف هذا كلالا ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى كَرَّم صحابةً وآلا ، ودَهَّم على الرُّشد فورثوه من علماء الأمة رجالا ، صلّى الله عليه وعليهم صلاةً تسترعى عليها

من الحَفَظَةِ أَكْفَاءً أَكْفَالًا ، ونَسْتَمِدُّ لِرُفْعِهَا الْمُدْهَبَاتِ بُكَرًا وَأَصَالًا ، وتَسْمُو إِلَيْهِ
الْأَنْفَاسُ سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا فَحَالًا ، مَا مَدَّتِ اللَّيَالِي عَلَى أَيَّامِهَا ظِلَالًا ، وَمَا بَلَغَ
سَوَادُ شَبَابِهَا مِنْ بَيَاضِ صُبْحِ اكْتِهَالَا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ بَنَى حَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يُشِيدَ ، وَمَنْ أَرَادَ [أَنْ] سَنَّتَهُ الْحُسْنَى تَبْقَى فليَتَّخِذْ
مُعِينًا عَلَى مَا يُرِيدُ ، وَمَنْ أَنْشَأَ رَأً فَلَا بُدَّ مِنْ مَبَاشِيرٍ عَنْهُ يَضْمَنُ لَهُ التَّجْدِيدَ ، وَيُظَنُّ
بِهِ مَعَ تَأْثِيرِهِ التَّخْلِيدَ ، وَمَنْ تَاجَرَ لِلَّهِ بِمَعْرُوفٍ فَمَا يَسْخُو بِالمُشَارَكَةِ فِيهِ إِلَّا مَنْ يَقُومُ
مَقَامَ نَفْسِهِ أَوْ يَزِيدُ ، وَمَنْ بَدَأَ جَمِيلًا فَشَرُطَ صِلَاحَهُ أَنْ يُسَيِّدَهُ إِلَى مَنْ لَهُ بِالمُرَاقَبَةِ
تَقْيِيدٌ ، فِيمَا يُبْدَى وَيُعِيدُ ، وَأَيُّ إِشَادَةٍ أَقْوَى ، مِنَ التَّاسِيسِ عَلَى التَّقْوَى ؛ أَوْ مَعِينِ
أَجَلٌ مِنْ حَاكِمٍ آسَتْخْلَصْنَاهُ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ مَبَاشِرٍ أَنْفَعُ ، مِنْ سَيِّدٍ آرْتَدَى
بِالْمَجْدِ وَتَلَفَّعَ ، وَتَرَوَّى بِالْعُلُومِ وَتَضَلَّعَ ؛ أَوْ مُشَارِكٍ فِي الْخَيْرِ أَوْلَى مِنْ وَلِيٍّ قَلَّدَنَاهُ دِينَنَا
قَبْلَ الدُّنْيَا ، وَأَعْلَيْنَاهُ بِالْمُنْصِبَيْنِ : الْحُكْمِ وَالْخَطَابَةِ فَتَصَرَّفَ مِنْهُمَا بَيْنَ الْكَلِمَةِ الْعَالِيَةِ
وَالدَّرَجَةِ الْعُلْيَا ؛ أَوْ أَحْسَنُ مِرَاقَبَةٍ مِنْ حَبَرٍ يَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَإِمَامٌ يَدْعُو إِلَيْهِ
دُعَاءَ أَوَابٍ أَوْاهَ ؛ قَدْ آنَفَرَدَ بِمَجْمُوعِ الْمَحَاسِنِ يَقِينًا ، وَأَصْبَحَ قَدْرُهُ الْجَلِيَّ الْجَلِيلَ يَعْنِينَا
وَعَنِ الْمَسَدِّحِ يُغْنِينَا ؛ فَحُسْبُنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْيِينًا ، وَلَكِنْ نَصَّرَحُ بِاسْمِهِ تَنْوِيهَا
وَتَعْيِينًا ، وَتَحْسِينًا لِسِيرَةِ أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ بِعَالَمِ زَمَانِهَا وَتَزْيِينًا ، لَا عُذْرَ لِفِكْرٍ لَمْ يُنْصَدِّ
مُنَاقِبَهُ وَقَدْ تَمَثَّلَتْ مَعَالِيهِ جَوَاهِرُ ، وَقَلَمٌ لَمْ يُوشَّ الطُّرُوسَ بِمَعَانِيهِ بَعْدَ مَا زَانَ مِنْ فُنُونِهَا
أَنْوَاعَ الْأَزَاهِرِ ، هُوَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي الْقَضَائِيَّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْعَلَامِيُّ ،
الْكَامِلِيُّ ، الْفَاضِلِيُّ ، الْقُدُّوِيُّ ، الْمُفِيدِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْوَرَعِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ،
الْجَلَالِيُّ : حُجَّةُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، قُدْوَةُ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ فِي الْعَالَمِينَ ؛ بَرَكَةُ الْأَمَةِ ،

(١) مأخوذ من أشاد بنيانه اذا طوله . أنظر اللسان في مادة ش و د — ج — .

عَلَامَةُ الْأَئِمَّةِ ، عِزُّ السَّنَةِ ، مُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ ، سَيْفُ الشَّرِيعَةِ ، شَمْسُ النُّظَرِ ، مُفْتَى
 الْغُرَرِ ، خَطِيبُ الْخُطَبَاءِ ، إِمَامُ الْبُلْغَاءِ ، لِسَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، حَكَمُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ،
 وَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبُو الْمَعَالَى مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ سَعِيدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِي قَاضِي الْقَضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ عِزَّةَ الشَّرْعِ
 الشَّرِيفِ بِأَحْكَامِهِ ، وَتَرْفِيَةِ سُيُوفِ الْجِلَادِ وَأَسْلِهِ بِلسَانِ جِدَالِهِ وَأَقْلَامِهِ ؛ قَاضٍ
 يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُهْتَرِجِينَ بِرَأْيٍ لَا يَطِيشُ حُلُمَهُ وَلَا يَزِلُّ حُكْمَهُ ، وَيَتَّقِي الشُّبُهَاتِ بِوَرَعٍ
 يَتَّبِعُهُ عَمَلُهُ وَيَهْدِيهِ عِلْمُهُ ؛ مَا لَحَظَ جِهَةً إِلَّا حَظَّتْ بِرُكَّةٍ دَارَةً مُزْنُهَا ، سَارِيَةٍ
 مَنَاحِيهَا سَارِيَتُهَا ؛ وَلَا أَقْبَلَ عَلَى بَيْتٍ مِنْ بَيْوتِ اللَّهِ إِلَّا حَقَّ مِنْهُ إِلَى سُبُحَاتِ
 الْجَلَالِ ، وَلَا تَكَلَّمَ فِي وَقْفٍ إِلَّا أَجْرَاهُ فِي صَالِحِ الْأَعْمَالِ عَلَى أَقْوَمِ مِثَالٍ ؛ وَنَحْنُ لِهَذِهِ
 الْمَزَايَا نَزَدُ إِلَى نَظَرِهِ الْكَرِيمِ مَا أَهَمَّنَا مِنْ عِمَارَةِ مَسْجِدٍ وَجَامِعٍ ، وَتَقْلَدَهُ مِنْ أَوْقَافِنَا
 مَا يَخْلُقْنَا فِيهِ خَيْرًا فَإِنَّ الْأَوْقَافَ وَدَائِعَ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ -
 لَا زَالَ يُصِيبُ الصَّوَابَ ، وَلَا يَعْدُو أُولَى الْأَلْبَابِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ نَظْرُ الْجَامِعِ
 النَّاصِرِيِّ الْمَعْمُورِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، بِقَلْعَةِ الْجِبِلِّ الْمَحْرُوسَةِ ، وَأَوْقَافِهِ ، وَالنَّظَرُ عَلَى التَّرْبَةِ
 وَالْمَدْرَسَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ وَأَوْقَافِهِمَا .



ومنها - نَظَرُ مَشْهَدِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى خِطِّ الْقَاهِرَةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الصَّالِحَ طَلَائِعَ
 ابْنَ رُزَيْكَ حِينَ قَصَدَ نَقْلَ رَأْسِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، بَنَى لَذَلِكَ جَامِعَهُ

(١) يريد المتخصصين ولكنا لم نذكر على هذا البناء فيما بأيدينا من كتب اللغة .

خارج بابي زويلة^(١)، فبلغ ذلك الخليفة فأفرد لها هذه القاعة من قاعات القصر وأمر بنقلها إليها .

وهذه نسخة توقيع بنظره ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :
الحمد لله الذي جعل مواطن الشرف في أيامنا الزاهرة ، محصورة في أكفائها ،
ومشاهد السيادة في دولتنا القاهرة ، مقصورة على من حَبَّته أوامِرنا باعتنائها ،
وخصَّته آلاؤنا باصطفائها ، الذي أجرى حُسن النظر في مظان الآباء الطاهرة على يد
من طلع في أفق العلياء من أبنائها ، وعمر معاهد القربات بتدبير من بدأ بقواعد دينه
وأجاد إحكام تشييدها وإتقان بنائها .

نحمده على ماخصَّت به أيامنا من رفع أقدار ذوى السيادة والشرف ، وأتصف به
إنعامنا من مزيد برِّ علم بحُسن ظهوره على الأولياء أن الخير في السرف .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يعرف بها من اعترف ،
ويُشرف قدر من له بالمحافظة عليها شغف ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي طهر
الله بضعته الزهراء وبينها ، وخصَّهم بمزية القربى التي نزهه أن يسأل على الهداية
أجرا إلا المودة فيها ، صلى الله عليه وعلى آله الذين هم أجدر بالكرم ، وأحق بمحاسن
الشيم ، ومامنهم إلا من (تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم) ،
وعلى آله وأصحابه الذين أنعم الله به عليهم ، وأتبعوه في ساعة العسرة فمنهم الذين
أخرجوا من ديارهم والذين يحبُّون من هاجر إليهم ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من زينت به مواطن الشرف ، وعُدَّت به العناية بخدمة من درج
من بيت النبوة وسلف ، وعُمرت به مشاهد آثارهم التي هي في الحقيقة لهم عُرف ،

(١) بكهينة وسفينة . انظر شرح القاموس في مادة زول .

[ونالت الدولة] من تديره الجميل بعض حظها ، وخصت ببقته المباركة من نظره بما ينوب فى خدمة محله الشريف عن مواقع لحظها ؛ وجعلت به لابن رسول الله من خدمة أبيه معها نصيبا ، وفعلت ذلك إذ خبرت خدمته أجنبيًا علمًا أنها تتضاعف له إذا كان نسيبًا ، وحكت بما قام عندها مقام الثبوت ، وأمرته أن يبدأ بخدمة أهل البيت [فإن] لازمها لسيها مقدّم على البيوت - من طالع شهاب فضله من الشرف السنّى فى أكرم أفق ، وأحاطت به أسباب السؤدد من سائر الوجوه إحاطة الطوق بالعنق ؛ وزان الشرف بالسؤدد والعلم بالعمل ، والرياسة باللطف فاخترته المناصب وأختالت به الدول ، وتقدّم بنفسه ونفاسه أصله فكان شوط من تقدمه وراء خطوه وهو يمشى على مهل ؛ وأصطفته الدولة القاهرة لنفسها فتمسك من الموالاة بأوثق أسبابها ؛ وأعمدت عليه فى بث نعمها ، وبعث كرمها ، فعرف فى ذلك الأمور من وجهها وأتى البيوت من أبوابها ؛ وحديث وفود أبوابنا العالية لحسن سيرته فى إكرامهم السرى ، وأكتفت [حتى] مع ترك الكرامة إليهم ببشاشة وجهه التى هى خير من القرى ؛ وصان البيوت عن الإقواء بتديره الذى هو من موادّ الأرزاق ، وزاد الحواصل بتنميته مع كثرة الكلف التى لو حاكمتها الغنائم لأمسكت خشية الإنفاق .

ولما كان فلان هو الذى تليت مناقب بيته الطاهر ، وجليت مفان أخراصله الزاهر ، وتجلت بشرف خلاله خلال الشرف التى تركها الأول للآخر ؛ وكان مشهد الإمام السيد الحسين ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بقعة هى متجعّ الرحمة ، ومظنة إجابة الأئمة ، وروضة من شرفت بانتقاله إليها ، وتربة شهيد الزهراء صلوات الله على أبيها وعليها ؛ وبه الآن [من] رواتب القربات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يحتاج إلى اختيار من يجمل النظر فيه ،

وليسلك نهج سلفه في الإعراض عن عَرْض الدنيا وَيَقْتَفِيهِ - رأينا أن نختار لذلك من اخترناه لأنفسنا فكان الكُفَّاء الكريم ، واختبرناه لمصالحنا فخيرنا منه الحفيظ العليم ، وأن نُقدِّم مُهِمَّ ذلك البيت على مُهِمَّ بيوتنا فإنَّ حقوق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحقُّ بالتعظيم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت مكارمه بتقريب ذوى القربى جديره ، ومراسميه على إقدار ذوى الرتب على مايجب قديره ، - أن يفوض إليه النظر على مشهد الإمام الحسين ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة ، على قاعدة من تقدّمه في ذلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف : لما قدّمناه من أسباب رجّحه لذلك ، وبيناه من أمور أوضحت في اختيارنا له المسالك ، ومن أولى منه بهذه الرتبة التي شهدت له باستحقاقها مناصبه ومناسبه ، أو أقدر منه على أمثال هذه الوظيفة وقد أقرت بكمالها وكرم خلالها مراتب الباب الشريف ورواتبه .

فليُمنع النظر في مباشرة أوقاف هذه البقعة المباركة مظهرًا ثمرة تفويضها إليه ، مبينًا نتيجة تعرضها له وعرضها عليه ، منبها على سرّ التوفيق فيما وضع أمرنا من مقاليد أمرها في يديه ، مجتهدًا في تمييز أموال الوقف من كل كاتب [حديث] ، موضحًا من شفقة الولد [على] مانسب إلى الوالد ما شهدت به في حقها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذلك الشهيد ما يشهد له به غدا عند جدّه ، ناشرا من ... (١) ... لواء فضل رفعة في الحقيقة رفع مجده ، وليلاحظ تلك المصالح بنظره الذي يزيد أموالها تميرا ، ورباعها تعميرا ، وحوصلها تميزا وتوفيرا ، وأرج أيها السيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عند الله تعالى بذلك عن كل حسنةٍ عشرًا إن ذلك [كان] على الله يسيرًا . وصن ما بيدك عن شوائب الأدناس : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . وقد خبرنا من سيرتك وسريتك ما لا نحتاج أن نزداد به خبرًا ، ولا أن نبلوه بعد ماسلف مرةً أخرى ؛ ولكن نذكرك بتقوى الله التى أنت بها متّصف ، وبوجودها فيك معروف وبوجودها عليك تعترف ؛ فقدّمها بين يديك ، وأجعلها العمدة فيما اعتمدنا فيه عليك ؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة

(من الوظائف الدينية ما يكتب فى قطع العادة الصغير ، مفتوحاً

بـ«رسم بالأمر الشريف»)

وهو لمن كانت رتبته مجلس القاضى ، ورُبما كُتب فيه بالسامى بغيرياء لمن قُصد تعظيمه وهو قليل ، وبه يكتب لأرباب الوظائف الصغار من الخطباء ، والمدرسين ، ونظار الأوقاف ، وغيرهم من لا ينحصر كثرة .

وهذه نسخة توقيع بنظر البيارستان العتيق الذى رتبته السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» فى بعض قاعات قصر الفاطميين ، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت أيامه تُفيد علاء ، وتستخدِم أكفاء ، وتُضفى ملايس النعماء على كلّ على فتكسوه بهجةً وبهاء - أن يستقرّ فلان فى نظر البيارستان الصّالحى بالقاهرة المحروسة ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت ، لكفاءته التى أشهر ذكرها ، وأمانته التى صدّق خبرها خبرها ؛ ونزاهته التى أضفى بها

على النفس فغدا بكل ثناء ملياً ، ورياسته التي أحلت قدره أسمى رتبة فلا غرو أن يكون «علياً» .

فليباشِرْ نظر البيارستان المذكور مباشرة يظهر بها انتفاعه ، وتميّزها أوضاعه ، ويصححى عامر الأرجاء والنواحي ، ويقول لسان حاله عند حسن نظره وجميل تصرفه : الآن كما بدأ صلاحى ، وليجعل همته مصروفة إلى ضبط مقبوضه ومصرفه ، ويظهر نهضته المعروفة بشمير ريعه حتى تتضاعف مواد معرفه ، ويلاحظ أحوال من فيه ملاحظة تذهب عنهم الباس ، ويراع مصالح حاله في تنميته وتركته حتى لا يزال منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، وليتناول المعلوم الشاهد به الديوان المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ تَوَاقِعِ أَرْبَابِ الْوُظَائِفِ الدِّينِيَةِ مَا يَكْتُبُ فِي هَيْئَةِ أَوْرَاقِ الطَّرِيقِ ، أَوْ عَلَى ظُهُورِ الْقِصَصِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وهذه نسخة توقيع بالتحدث في وقف :

رَسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي الْمَوْلَوِيِّ السَّلْطَانِيِّ الْمَلِكِيِّ الْفُلَانِيِّ - أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَشَرَفَهُ ، وَأَنْفَذَهُ وَصَرَفَهُ - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْقَاضِيُ فُلَانُ الدِّينِ فُلَانُ فِي التَّحَدُّثِ فِي الْوَقْفِ الْفُلَانِيِّ ، بِمَا لَدَكَ مِنَ الْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ كِتَابُ الْوَقْفِ . فَلْيَعْتَمِدْ هَذَا الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ كُلُّ وَقْفٍ عَلَيْهِ ، وَيَعْمَلْ بِحَسَبِهِ وَبِمَقْتَضَاهُ ، بَعْدَ الْخَطِ الشَّرِيفِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية - الوظائف الديوانية)

وهى على طبقتين :

الطبقة الأولى

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثاين من يكتب له «الجنابُ العالى»
وفىها وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(الوزارة ، إذا كان متولّيها من أرباب الأقاليم ، كما هو الغالب)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتب وظائف الديار المصرية نقلاً عن "مسالك
الأبصار" أن ربّها ثانى السلطان لو أنصف وعُرف حقّه ، إلا أنها لما حدثت عليها
النيابة ، تأخّرت وقعد بها مكانها حتى صار المتحدث فيها كخاطر المال ، لا يتعدّى
الحديث فيه ولا يتّسع له فى التصرف بحال ، ولا تمتدّ يده فى الولاية والعزل لتطلّع
السلطان إلى الإحاطة بجرّيان الأحوال فى الولاية والعزل . وقد تقدّم ذكر ألقابه
مستوفاةً فى الكلام على مقدّمة الولايات فى الطّرف الأوّل من هذا الفصل ، والكلام
على طّرة تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخة تقليدٍ بالوزارة ، كُتب بها للصاحب « بهاء الدين بن حنّا » . من
إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمد لله الذى وهبَ لهذه الدولة القاهرة من لدنه وليّاً ، وجعل مكانَ سرّها
وشدّ أزرها عليّاً ، ورضى لها من لم يزل عند ربّه مرّضياً .

نَحْمَدُهُ عَلَى لُطْفِهِ الَّذِي أَمْسَى بِنَا حَفِيًّا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَ دَوْلَتَنَا جَنَّةً أَوْرَثَ تَدْيِيرَهَا مِنْ عِبَادِهِ مَنْ كَانَ تَقِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نُسَبِّحُ بِهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، وَنُصَلِّي عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً نَنْتَبِعُ بِهَا صِرَاطًا سَوِيًّا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا تَنَعَّمْتُ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ بِتِلَاوَةِ سُورِهِ ، وَتَنَعَّمْتُ أَفْوَاهُ الْحَاوِرِ بِالِاسْتِمْدَادِ لِتَسْطِيرِ سِيرِهِ ، وَتَنَاجَتِ الْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ بِشُكْرِ مَجْمَلِهِ وَمَفْصَلِهِ ، وَتَنَاشَدَتْ الرِّوَاةُ بِحُسْنِ لَسَانِهِ وَتَرَنَّمَتْ الْحُدَاةُ بِطَيْبِ غَزَلِهِ ، وَتَهَادَتِ الْأَقَالِمُ تُخَفِّفُ مَعْجَلَهُ وَمُؤَجِّلَهُ ، وَعَنَتْ وَجُوهُ الْمَهَارِقِ لَصُغُودِ كَلِمَةِ الطَّيِّبِ وَرَفَعَ صَالِحُ عَمَلِهِ - مَا كَانَ فِيهِ شُكْرٌ لِنِعْمَةٍ تَمُنُّهَا عَلَى الدَّوْلَةِ سَعَادَةٌ جُدُودُهَا وَحُظُوظُهَا ، وَإِفَادَةٌ مَصُونِهَا وَمَحْفُوظُهَا ، وَإِرَادَةٌ مَرُوقِهَا بِحُسْنِ الْاِسْتِدَادِ وَمَلْحُوظِهَا ، وَحَمْدٌ لِمُنْحَةِ أَفَاءَتِهَا بِرَكَاتٍ أَحْسَنَتْ لِلْمَمْلُوكَةِ الشَّرِيفَةِ مَالًا ، وَقَرَّبَتْ لَهَا مَنَالًا ، وَأَصْلَحَتْ لَهَا أَحْوَالًا ، وَكَارَتْ مَدَدَ الْبَحْرِ فَكَلَّمَا أَجْرَى ذَاكَ مَاءٌ أَبْجَرَتْ هِيَ مَالًا ، وَإِنْ صَنَّتِ السُّحُبُ أَنْشَاءً هِيَ سُحُبًا ، وَإِنْ قِيلَ - بُشْحٌ سَيَحْنَا - : رَوْنَقُ الْأَرْضِ ذَهَبٌ ، عَوْضَتْ عَنْهُ ذَهَبًا ، كَمْ لَهَا فِي الْوُجُودِ مِنْ كَرَمٍ وَكَرَامَةٍ ، وَفِي الْوُجُوهِ مِنْ وُسُومٍ وَوَسَامَةٍ ، كَمْ أَحْيَتْ مُهَجًا ، وَكَمْ جَعَلَتْ لِلدَّوْلَةِ مِنْ أَمْرِهَا مَخْرَجًا ، وَكَمْ وَسَّعَتْ أَمْلًا ، وَكَمْ تَرَكَتْ صَدْرَ الْحَزَنِ سَهْلًا ، وَكَمْ تَرَكَتْ صَدْرَ الْخِزَانِ ضَمِيمًا حَرَجًا ، كَمْ اسْتَعْدَمَتْ جَيْشَ تَهْجُدٍ فِي بَطْنِ اللَّيْلِ ، وَجَيْشَ جِهَادٍ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ ، وَكَمْ أَنْفَقَتْ فِي وَاقِفٍ فِي قَلْبٍ بَيْنَ صُفُوفِ الْحُرُوبِ ، وَفِي وَاقِفٍ فِي صُفُوفِ الْمَسَاجِدِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ ، كَمْ سَيَّلَ يَسَّرَتْ ، وَسُعُودٍ كَثُرَتْ ، وَكَمْ خَافَوْفٍ أَدْبَرَتْ حِينَ دَرَّتْ ، وَكَمْ آثَارٍ فِي الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ آثَرَتْ وَأَثَرَتْ ، وَكَمْ وَافَتْ وَوَفَّتْ ، وَكَمْ كَفَّتْ وَكَفَّتْ ، وَكَمْ أَعْفَتْ وَعَفَّتْ وَعَفَّتْ ، وَكَمْ بِهَا مَوَازِينُ لِلْأَوْلِيَاءِ ثَقُلَتْ وَمَوَازِينُ لِلْأَعْدَاءِ خَفَّتْ ، كَمْ أَبْجَرَتْ مِنْ وَقُوفٍ ،

وكم عُرِفَتْ بمعروف ؛ كم بيوت عبادةٍ صاحبُ هذه البركات هو محرابها ، وسماءُ جُودِ
هو سحابها ومدينة علم هو بابها ؛ تُثْنى الليالى على تغليسه إلى المساجد فى الحَنَادِس ،
والأيام على تهجيرهِ لعيادة الفقراء وحضور الجنائز وزيارة القبور والدَّوَارِس ؛ يَكْتَنُّ^١
تحت جناح عدله الظاعن والمقيم ، وتَشْكُرُ مَبَارَهُ يثرب وزمزم ومكة والحطيم ؛ كم
عمَّتْ سُنَنَ تَفَقُّدَاتِهِ ونوافله ، وكم مرَّتْ صَدَقَاتُهُ بالوادي - فَسَّحَ اللهُ فى مُدَّتِهِ -
فَأَثْنَتْ عَلَيْهِ رِمَالُهُ وبالنَّادَى فَأَثْنَتْ عَلَيْهِ أَرَامِلُهُ ؛ ما زار الشَّامَ إلا أغناه عن مِنَّةِ
المطر ، ولا صَحِبَ سُلْطَانَهُ فى سفرٍ إلا قال : نِعْمَ الصَّاحِبُ فى السَّفَرِ والحَضَرِ .

ولما كان المنفردُ بهذه البركات هو واحدُ الوجود ، وَمَنْ لَا يُشَارِكُهُ فى المَزَايَا
شريكٌ وَإِنَّ اللَّيَالَى بِإِيحَادِ مُثْلِهِ غَيْرُ وَلُودٍ ؛ وهو الذى لو لم تُسَمِّهِ قال سامع هذه
المناقب : هذا الموصوف ، عند الله وعند خلقه معروف ؛ وهذا الممدوح ، بأكثر من
هذه الممدوح والمحامد من ربه ممدوح وممَّنوح ؛ وهذا المنعوتُ بذلك ، قد نعتَهُ بأكثر
من هذه النعوت الملائك ؛ وإِنَّمَا نَذَكُرُ نَعْوَتَهُ آلِئِذَاذَا ، فلا يعتقد خاطبٌ ولا كاتب
أنه وفى جلالته بعضُ حقِّها فإنه أشرف من هذا ؛ وإذا كان ولا بدَّ للمادح أن تجول ،
وللقلم أن يقول ؛ فملك بركاتُ المجلس العالى ، الصَّاحِبِ ، السَّيِّدِ ، الْوَرَعِ ،
الزَّاهِدِ ، الْعَابِدِ ، الْوَالِدِ ، الذَّخِرِ ، الْكَفِيلِ ، الْمُهَيِّدِ ، الْمُشِيدِ ،
الْعَوْنِ ، الْقَوَامِ ، النَّظَامِ ، الْأَفْضَلِ ، الْأَشْرَفِ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْبَهَائِ ، سَيِّدِ
الْوُزَرَاءِ فى العالمين ، كهف العابدين ، مابجأ الصالحين ؛ شَرَفِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ ؛ مَدَبَّرِ
الدُّوَلِ ، سَدَادِ الثُّغُورِ ، صِلَاحِ الْمَمَالِكِ ؛ قُدُوةَ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، يَمِينِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
على بن محمد : أدام الله جلاله . من تَشَرَّفَ الْأَقَالِيمُ بِحِاطَةِ قَلَمِهِ الْمُبَارَكِ ، وَالتَّقَالِيدُ
بتجديد تنفيذه الذى لا يُسَاهِمُ فيه ولا يُشَارِكُ ؛ فإِجْدَادُهَا مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ بِمَثَابَةِ آيَاتِ

فتردد، أو بمنزلة سجلات في كل حين بها يُحكم وفيها يُشهد، حتى نتناقل ثبوته الأيام والليالي، ولا يخلو جيد دولة من أنه يكون الحالى بما له من فخر الآلى.

فلذلك نخرج الأمر العالى - لا برح يُكسب بهاء الدين المحمدى أتم الأنوار، ولا برحت مراسمه تزهو من قلم منقذه بذى الفقر وذى الفقار - أن يضمّن هذا التقليد الشريف بالوزارة التامة، العامة، الشاملة، الكاملة : من المآثر الشريفة الصحابية، البهائية، أحسن التضمين، وأن يُنشر منها ما يتلقى رايته كل رب سيف وقلم باليمن، وأن يعلم كافة الناس ومن تضمه طاعة هذه الدولة ومملكها وسلكها من ملك وأمير، وكل مدينة ذات منبر وسرير، وكل من جمعه الأقاليم من نواب ساطنه، وذى طاعة مدعنه، وأصحاب عقد وحل، وظعن وحل، وذى جنود وحشود، ورافعى أعلام وبنود، وكل راج ورعيه، وكل من ينظر فى الأمور الشرعية، وكل صاحب علم وتدريس، وتهليل وتقديس، وكل من يدخل فى حكم هذه الدولة الغالبة من شموسها المضيئة، وبدورها المنيرة وشهبها الثاقبة، فى الممالك المصرية، والثوينة، والساحلية، والكركية، والشوبكية، والشامية، والحلبية، وما يتداخل بين ذلك، من ثغور وحضون وممالك - أن القلم المبارك الصحابى البهائى فى جميع هذه الممالك مبسوط، وأمر تدبيرها به منوط، ورعاية شفقته لها تحوط، وله النظر فى أحوالها، وأموالها، وإليه أمر قوانينها، ودواوينها، وكتابها، وحسابها، ومراتبها، ورواتبها، وتصريفها، ومصرفها، وإليه التولية والصرف، وإلى تقدمه البدل والنعت والتوكيد والعطف، فهو صاحب الرتبة التى لا يحلها سواه وسوى من هو مرتضيه، من السادة الوزراء بنيه، وما سمينا غيره وغيرهم

(١) بالصُّحُوبِيَّةُ فليحذر من يُحَاطِبُ غَيْرَهُ [و] غيرهم بها أو يُسَمِّيهِ ؛ فكما كان والدنا الشهيد رحمه الله يخاطبه بالوالد قد خاطبناه بذلك وخطبناه ، وما عدلنا عن ذلك بل عدلنا لأنه ما ظلم من أشبه أباه ؛ ففترلته لآسماى ولا لُسام ، ومكاتبته لا تُرامى ولا تُرام ؛ فن قدح في سيادته من حُسادِه زنادَ قَدِجٍ أُحْرِقَ بِشَرِّ شَرِّهِ ، ومن ركب إلى جلالته ، ثَبَجَ سُوءَ أُغْرِقَ فِي بَحْرِهِ ، ومن قتل لسعادته ، حبَلَ كَيْدٍ فَإِنَّمَا فَتَلَهُ مُبْرِمُهُ لِنَحْرِهِ ؛ فلتَنَزِمِ الألسنة والأفلام والأقدام في خدمته أحسن الآداب ، وإيقُلِ المترددون : حِطَّةً إِذَا دَخَلُوا الباب ؛ ولا يغترهم فرط تواضعه لدينه وتقواه ، فن تأدب معه تأدب معنا ومن تأدب معنا تأدب مع الله . وليتل هذا التقليد على رؤوس الأَشْهاد ، وتُنسخ نُسخته حتى تتناقلها الأمصار والبلاد ؛ فهو حجتنا على من سَمِيناه خصوصاً ومن يدخل في ذلك بطريق العموم ، فليعملوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم ؛ والله يزيد المجلس الصاحيَّ الوزيرى البهائيَّ سيد الوزراء من فضله ، ويُبْقِيهِ لِفاب هذه الدولة يَصُونُهُ لِشِبْلِهِ كما صانه لأُسَدِهِ من قبله ، ويمتّع بنيتِه الصالحة التي يحسُنُ بها - إن شاء الله - نَماءُ الفرع كما حَسُنَ نَماءُ أصله ، بمنه وكرمه ! .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتِبَ به للصاحب تاج الدين محمد بن نحر الدين ابن الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، في ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وسمائة ، من إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ، 'تغمده الله برحمته ، وهى :

الحمد لله مَكَّلَ شرف الوزارة بطلعة تاجها ، ومَشَرَّفَ قَدْرَها بِمَنْ تُشْرِقُ عليها
أشعة سعيه إشراق الكواكب على أبراجها ، ورافع لواء مجدها بمن تَلَقَّتْهُ بعد الحفاء
في حُلِّ سُروِها وحُلِّيَّ آبِهاجها ، وتخلَّتْ بعد العطل من جواهر مفاخره بما تَتَرَّيْنُ
عُقود السُّعُود بازديواجها ، وترُقِلْ من أنيسابها إلى أُمِّة بهائه بما يودُّ ذهب الأصيل
لو أمترج بسُلوِك أنيساجها ؛ الذي شيد قواعد هذه المرتبة السنية في أيامنا وجددها ،
وبعث لها على فترة من الأكفاء مَنْ حَسَمَ الأدواء فكان مَسِيحُها وشرع المَعْدَلَة
فكان مَحْمَدُها ؛ وردَّها بحكم الاستحقاق إلى من لا يُخْتَلَفُ في أنه صاحبُها ، ورجعها
إلى من خطبته لنفسها بعد أن أحجم لشرف قدرها خاطبها .

نحمده على أن شدَّ أزر مُلْكنا بأكرم وزير ، وأيمن مشير ؛ وأجلَّ مَنْ يَتِمُّ إلى
بيت كريم ، وحبيب صميم ، ومن إذا قال لسان مُلْكنا : « أَتُونِي به أَسْتَخْلِصُهُ
لِنَفْسِي » قالت كفايته : « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نُقِّرُها سراً وعلناً ، ونُقِرُّها
هذه العقيلة الجليلة عند من يكسوها مجده رفعةً وسناً ، ويلبس جفَنَ الدهر عنها
وسناً ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المخصوص بكل صاحبٍ شهد الكتاب والسنة
بفضله ، وقام بعضهم بحسن مؤازرته مقام من شدَّ الله [به] عضد من سألَه وزيراً من
أهله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تغرب شمسها ، ولا يعزب أنسها ،
ولا يتفاوت في المحافظة عليها غدها وأمُّها ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإنَّ أُولَى مَنْ خَطَبَتْ بحمده الأعلام ، وأنشأت به الدولة التي ابتسمت
بنسيمها تُغورُ الأيام ؛ وودَّتْ مسكة الليل لو ما زجت أنفاسه ، وأمل بياض النهار
لأخذ من غير سمة عوض ورق الورق قرطاسه ؛ وتحاشدت النجوم لتنتسق في سلك

معانيه وطارت بذكره فى الآفاق أنباء السُّعود، وحكمت الجُدود بأنه فى آقبال إقباله نهاية الآباء وغاية الجُدود؛ وأفترت به تُغور الممالك عن أحسن الدرّ النّضيد، وسرت بذكره رفاق الآفاق فى كلّ نادٍ مُنادٍ وفى كلّ برّ بريد، وأختالت به أعطاف الدولة القاهرة فأوت من رأى السّديد إلى كلّ ركنٍ شديد، ونطق به العدل والحقّ نخرس الظلم وما يُبدى الباطل وما يُعيد، وجرت به أقدار ذوى الرّتب على أجهل مناهجها فأما أهل العدل فيُقرّبون نجيّاً وأما أهل الظلم فأولئك ينادون من مكان بعيد، وبدت به وجوه المصالح سافرة بعد الحجاب، بارزة بعد طول الاتّقال إلى الاتّقال، داخلّة بوفود المحامد من كلّ باب، إلا الظلم فإنه بحمد الله قد سدّ ذلك الباب. وأقرّ منصب الوزارة الشريفة أنا أعدنا به الحقّ إلى نصابه، وردّدناه إلى من هو أولى به بعد اعتصامه، وألبسناه من بهجة أيامنا تاجاً ردّ عليه عزّاً لا تطمع يدُ الذّهب فى اتّزاعه عنه ولا استلابه؛ وتقليده لمن يودّ الفرقد لو عُقد به إكليله، ويتمّى الطّرف لو أدرك غاية مجده وإن رجع وهو حسيّر البصر كليله؛ وتفويض ذلك إلى من كان له وهو فى يد غيره، ومن به وببيته تمهّدت قواعده فما كان فيه من خير فهو من سيرتهم وما كان من شرّ فن قبل المقصّر من عثارهم فى سيره؛ وما أحدث فيه من ظلم فهو منه براء إذ إنهم ذلك على من أجتراً عليه، وما أجرى به من معروف فىلى طريقهم منسوب وإن تلبّس منه بما لم يُعط من نُسب إليه؛ وما خلا منهم هذا الدّست الكريم إلا وهم بالأولوية فى صدره الجلوس، ولا تصدّى غيرهم لتعاطيه إلا وأقبلت عليه فى أيامه الجُسوم وعلية النفوس.

ولذلك لما كانت هذه الدولة القاهرة مفتّحة بالبركات أيامها، ماضية بكفّ الظلم ونشر العدل سيوفها وأقلامها، مستهلة بالأرزاق سُحب فضلها التى لا يُقلع

غمأمها - أقتضت الآراء الشريفة اختيار خير صاحب يُعين على الحق بآرائه، ويحمل
الدست بهجته وروائه، ويجري الأرزاق بوجه لو تأمله أمرؤ ظامئ الجوانح
لأرتوى من مائه، وكان المجلس العالى، الصاحي، الوزيري، التاجي: أدام الله
تعالى نعمته، ورحم سلفه، هو المخطوب لفضله، والمطلوب لهذا الدست الذي
تعين له دون الأكفاء وإن لم يكن غير أهله من أهله، وما زال يتشوف إليه تشوف
البروج إلى نجوم السعود، ويتطلع إلى محياه الذي هو كنور الشمس في الدنو وكحلها
في الصعود، وما زالت الأدعية الصالحة ترتفع في أيامه لمالك عصره، والآراء تقام
منها جنود لتأبيده وحشود لنصره، والأموال تحمل منها إلى خزائنه بأشبه بهوج البحر
في الحضر دون حضره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - ضاعف الله مواهبه العَميمة، وكمل جلال دولته
بتفويض أمورها إلى ذوى الأصول العريقة والبيوت القديمة - أن تحمل منه هذه
الرتبة العلية بما حلى به الدين، وتُعقد له رايه فضيلها المتين، ليتلقاها شرقاً وغرباً،
وبعداً وقرباً، وبراً وبحراً، وشاماً ومِصرًا، ويحلى حلاه علم وعلم، وسيف وقلم،
ومِنبر وسرير، ومأمور وأمير.

فليتلق أمره بالطاعة كل مؤتمر بأمرنا الشريف، جارٍ في طاعتنا المفروضة بين
بيان التقليد وعنان التصريف، وليبادر إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركة،
ويمض القواعد على ما تراه آرائه المنزهة عن المنازعة في الأمر والمشاركة، وليشرك كلمة
العدل التي أمر الله بإضافة الإحسان إليها، ويُميت بدع الظلم فإن الله يشكره على تلك
الإماتة ويحمده عليها، ويسهل رزق الصدقات، ووظائف القربات، فإن ذلك من
أجل ما قدمته [الطائفة] الصالحة بين يديها، وليكثر بذلك جنود الليل فإنها لا تطيش
سهاؤها، ويتوق من محاربتها بظلم فإنه لا يُداوى بالرقى سهاؤها، وليعود بتائم التيسير

مواهبنا فإنَّ تمام النعمة تَمَامُهَا ، وليطلق قَلَمَهُ فى البَسْطِ والقَبْضِ وليُعِدَّ بتدبيره على هذا المنصب الشريف بهِجَتِهِ ، ويتدارك بآرائه ذَمَامَهُ وبدوائه مُهِجَتَهُ ؛ ويصُنُّ عن شوائب الظلم حرمَتَهُ ، ويخلِّص ذَمَّتَنَا من المآثم وذِمَّتَهُ ؛ وليعلم أنَّ أمور المملكة الشريفة منوطة بآرائه وأحكامه ، مضبوطة بأقواله وأقلامه ؛ فليجعل فكره مرآة تجلُّو عليه صُورَها ، ويقيم آراءه صُحُفاً تتلو لديه سُورَها ؛ ويأمرِ التَّوَابِ بما يراه من مصالحنا ليلبَّوه سامعين ، ويسهر بحِفْنِهِ فى مصالح البلاد والعباد لترقُد الرعايا فى مهاد الأمن وا عين ؛ ويعصِّد الشريعة المطهرة بتنفيذ أحكامها ، وإعلاء أعلامها ؛ وإظهار أنوارها ، وإقامة مآرفعه الله من منارها ؛ ولا يعدل فى أمور مباشرتها بالممالك الشريفة عن آرائه ، ولا يُمِضُ فيها عَزْلاً ولا ولايةً إلا بعد تتبُّعه الواجب فى ذلك واستقراره ، وهو أعلم بما يجب لهذه الرتبة من قواعدٍ إليه يرجع فى أوضاعها ، وعليه يُعَوَّل فى اصطلاحها لافترادها فيه واجتماعها ؛ فليفعل فى ذلك ما هو عليه بحسن الثناء جدير ، وليعتصم بالله فى أموره فإنه نعم المولى ونعم النصير ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتِبَ به للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

الحمد لله الذى شدَّ أزرَ مُلْكِنَا الشريف ، بمن أضاء فى أفق الدين علمه ، وشيّد قواعد عدلنا المُنِيف ، بمن أعلت منار الحق آياته فى أحكام الممالك وحائمه ، ووطد أركان دولتنا القاهرة بمن يفعل فى نكاية أعداء الله فعل الحرب العوان سائمه ،

وأجرى الأرزاق في أيامنا الزاهرة على يد من كفت أقلامه كفت الحوادث
فلا عدوان تغشى ظلمه ولا عاد يحشى ظلمه ، وصان ممالك المحروسة بآراء من إن
صرف إلى نكاية أعداء الله حد يراعه لم ينب موقعه ولم يعف كفه ، وإن صرفه
في حماية ثغر لم يشم برقه ولم يدق بالوهم ظلمه ، وإن حمى جانب إقليم عن على
الأيام ثل عروش ما حماه وشمه ، وإن أرهقه لذب عن دين الله راعت عدو الدين
منه يقطته وسله عليه حلمه .

نحمده على نعمه التي زانت أسنى مناصب الدنيا في أيامنا الزاهرة بضياء الدين ،
وأعلت أقدار الرتب العليا بتصرفها بآراء من أصبح علمه علما للتقنين وعمله سنا
للمقتدين ، وبخرت ينابيع الأرزاق في دولتنا القاهرة بيد من أغنى بيدنا المعتدين
وقمع بمهانتنا المعتدين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعاد يمينها على سمع المنابر من
نعوتنا ما فقد ، وأطفا إعلانها عن حمايتها لب العناد وقد وقد ، وفوض اعتنائنا
بمصالح أهلها أمورهم إلى أكمل من اتقى لنا التأييد من ذخائر العلماء وأفضل
من انتقد ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقامنا الله للدب عن أمته ، وجلا
بنور جهادنا لأعدائه عن قلب كل مؤمن ما أظله من غمه وران عليه من غمته ،
وعضدنا من أئمة ملته بمن أردنا مصالح العباد والبلاد في إلقاء كل أمر إليه
بأزمته ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فاز بسبقه ، وحاز بتصديقه
قدم صدقه ، واختصه الله بمؤازرة نبيه دون من اجتبه من خلقه ، ومنهم من
كان الشيطان ينكب عن طرقة ، ونطق من الصواب بما نزل الذكر الحكيم على
وفقه ، وسمى الفاروق لتمييزه بين الحق والباطل وفرقه ، ومنهم من قابل المعتدين

برفقته وقُتِلَ شهيداً على حَقِّه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستحي من خلقه الكريم
وكرم خَلْقِه ، ومنهم من طلع [لا] مع نور الإيمان من أفقه ، وكان سيفه من كل مُلحد
فى دين الله بمثابة قِلَادَةِ عُنُقِه ، وطلّق الدنيا تورعاً عنها وبيده مفاتيح ما بسط
الله للأمة من رزقه ، صلاةً يقيم الإيمان ، فرضها ، ويملاؤها الإيقان ، طول البسيطة
وعرضها ، وتزين كواكب ذكراها ومواكب نصرها سماء الدنيا وأرضها ، وسلم
تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإنَّ أولى من رُقيت لأعطاف فضله حلل الكلام ، ونُظمت لأجساد
ذِكْره فرائد المعاني المستخرجة من بحار الفكر على ألسنة الأقلام ، ووُثِّحت التقاليد
من مناقبه بما هو أحسن من أنساق الدُّرارى على هالات البدور ، وجُلّ على المسامع
مفاحره بما هو أبهى من النُّور فى العيون ! وأحلى من الأمن فى القلوب ! وأوقع من
الشفاء فى الصدور ، وأطلع فى أفق الطروس من أوصافه شمس أسفر بأنواع العلوم
ضياؤها ، وأنشئت فى أثناء السطور من نعت ما ثره شُعب إذا قابلتها وجوه الحيا
سترها بجمرة البرق حياؤها ، وأودعت المهارق من ذكر خلاله لُطفاً يودُّ ذهب الأصيل
لو ناب عن أنفاسها ، ومُنحت صدور المعاني من معاليه طُرفاً نمتى الرياض العواطر
لو تَلَقَّتْ عن أنفاسها - من سَمَت الوزارة باستقرارها منه فى معدن الفضائل ،
وأتسمت منه بالصاحب الذى أعادت أيامه ما فُقد من محاسن السير الأوائل ؛
وأتسمت من علومه بالعلامة الذى نتفرع من أحكامه أحكام الفروع ونتفجر من
تواقيعه عيون المسائل ، وأتصفت من معدلته بالمنصف الذى هجر فى أيامه هجر
الحيف والظلم فالأوقات فى أيامه المباركة كلها أسحار وأصائل ؛ وابتَهجت من إنصافه
بالعادل الذى سهّل على ذوى المطالب حجاب بابه فلا يحتاج أن يُطرق بالشفاعات
ولا أن يُستفتح بالوسائل ، وأشرق من مفاحره بالكامل الذى حسنت به حلل

الثناء فكأنها آبتسامُ تُغور النور في أثناء الجمائل ، فالعدل في أيامه كالإحسان شامل ،
 والمعروف بأقلامه كالشجوب المتكفلة برى الأرض الهاميل ، والظلم والإنصاف
 مفترقان منه بين العدم والوجود فلا يرى بهذا أمرا ولا يردُّ عن هذا أمل ؛ قد أعطى
 دسّت الوزارة الشريفة حقّه : فالأقدار بآياته مرفوعة ، والمضارُّ بمعادته مدفوعة ،
 وكلمة المظلوم بإنصاف إنصاته مسموعة ، وأسباب الخيرات بحسن نيته لينته الحسنة
 مجموعته ؛ والأقاليم بكلاءة أقلامه محوطة ، وأحوال المملكة بآرائه المشتملة على
 مصالحها منوطة ؛ والثغور بحسن تفقده مفترة المباسم ، مصونة بإزاحة الأعذار
 عن سرّ الرياح النواسم ، أهلة النواحي بموالاتة الحمول التي لا تزال عيسها بإدامة
 السرى دامية المناسم ؛ والبلاد بما نشرت أقلامه من العدل معمورة ، والرعايا
 بما بسطت [يد] إحسانه من الإحسان معمورة ، وأرباب التصرف بما تقتضيه
 أقلامه عن الحيف منهية وبالرفق مأموره ، والأيدى بالأدعية الصالحة لأيامنا
 الزاهرة مرتفعة ، والرعية لتقلبها في مهاد الأمن والدعة بالعيش متفحة ؛ وبيوت
 الأموال أهلة ، على كثرة الإنفاق ، والغلال متواصلة ، مع التوقر على عمارة البلاد ،
 والحمول متوالية مع أمن من صدرت عنهم على ما في أيديهم من الطواريف والتلاد ؛
 والأمور بالتيقظ لها على سعة الممالك مضبوطة ، والنفوس بالأمن على ما هي عليه
 من التملّى بالنعم مضبوطة ؛ والمناصب مصونة بأكفائها ، والمراتب أهلة بالأعيان
 الذين تنبّهت لهم في أيامه عيون الحظ بعد إغفائها ؛ ومجالس المعدلة حالية ، بأحكام
 سيرته المنصفه ، ومواطن العلم عالية ، بما يملئ فيها من فوائده التي أتعب السنة
 الأقلام ما فيها من صفة .

ولما كان الجنبُ العالى ، الصاحي ، الوزيرى ، الضيائى ، وزير الممالك
 الشريفة ، هو الذى كرمت به مناسبها ، وعظمت بالآتساء إليه مناصبها ، وتحلّت

بِعَلَمِهِ مَعَاظِفُهَا ، وَنَزَلَتْ عَلَى حُكْمِ حِلْمِهِ عَوَارِفُ رِثَا الْعَمِيمَةِ وَعَوَاطِفُهَا ، وَزَهَتْ
بِجَوَاهِرِ فَضَائِلِهِ أَجْيَادُهَا ، وَأَسْتَوَتْ فِي مَلَابِسِ حُلِّ الْمَسْرَةِ بِهِ أَيَّامُهَا الزَاهِيَةِ
وَأَعْيَادُهَا ، وَأَنَارَتْ بِمَعْدَلَتِهِ لِيَالِيهَا ، وَأَشْرَقَتْ بِالْإِنْتِظَامِ فِي سِيخَابِ^(١) إِيَالَتِهِ لِأَلِيهَا ،
فَكَمَّ مِنْ أَقَالِيمِ صَانِ قَلَمِهِ أُمُومًا ، وَمِمَّا لَكَ حَلَّى عَدْلِهِ أَحْوَالًا ، وَبِلَادٍ أَعَانَ تَدْيِيرُهُ
الشُّحْبَ عَلَى رِيَّيَا ، وَأَعْمَالَ أَبَانَ عَنْ أَسْتِغْنَائِهَا بِتَأْيِيرِهِ عَنْ مِنَّةِ الْحَيَا حَسَنُ مَسْمُوعِهَا
وَمَرْئِيَّيَا ، وَأَرْزَاقِ أَدْرَهَا ، وَرِزْقِ أَجْرَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ الْإِحْسَانِ وَأَقْرَبَهَا ، وَجِهَاتِ يَرْ
أَعَانَ وَافِقِيهَا عَلِيَّيَا ، وَأَسْبَابِ خَيْرٍ جَعَلَ أَيَّامَنَا بِإِدَامَةِ فَتَحِهَا السَّابِقَةِ إِلَيْهَا ، وَقَدَّمَ
سِعَايَةَ أَزَالَهَا وَأَرْطَمَا ، وَكَلِمَةَ حَادِثَةٍ أَذَالَهَا وَأَذْهَبَا ، وَوُجُوهَ مَضَرَّةٍ رَدَّهَا بِيَدِ الْمَعْدَلَةِ
وَصَدَّهَا ، وَأَبْوَابِ ظُلْمٍ لَا طَاقَةَ لِلرَّعِيَّةِ بِسُلُوكِهَا أَغْلَقَهَا بِمَنْحَى يَمْنِهِ وَسَدَّهَا ، فَدَابَّهَ أَنْ
يُسَدَّدَ إِلَى مَقَاتِلِ الْعِدَا بِاتِّخَاذِ الْيَدِ عِنْدَ الْفُقَرَاءِ سِهَامَ اللَّيْلِ الَّتِي لَا تَصُدُّهَا الدُّرُوعُ ،
وَأَنْ يَجِدَّدَ لِأَوَّلِيَانَا مِنْ عَوَارِفِ آلَانَا أَخْلَافَ يَرْ تَرَوَى الْآمَالَ وَهِيَ حَافِلَةُ الضَّرُوعِ -
أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ تُزَيَّنَ بِحُجْرَةِ غُرَرِ التَّقَالِيدِ ، وَنَجِدَّدَ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ وَزَارَتِنَا
الشَّرِيفَةِ إِقْدَاءَ الْمُقَالِيدِ ، وَأَنْ نُوشَى الطُّرُوسَ مِنْ أَوْصَافِهِ بِمَا يَجِدَّدُ عَلَى أَعْطَافِهَا
الْخَبَرَ ، وَنَزِدَّدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَقَالِيمِ مِنْ نُعُوتِهِ مَا لَا تَمَلُّ الْمَسَامِعُ إِيرَادَ الْخَبَرِ مِنْهُ بَعْدَ الْخَبَرِ .
فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلُويِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، الْفُلَانِيِّ -
لَا زَالَ الدِّينَ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ مُشْرِقًا ضِيَائُهُ ، أَهْلَةً بِاعْتِلَائِهِ هَرَابِيعُ الْوُجُودِ وَأَحْيَاؤُهُ ،
مَمْدُودَةٌ عَلَى الْأَمَةِ ظِلَالُهُ الْوَارِفَةُ وَأَفْيَاؤُهُ - أَنْ يُجِدَّدَ هَذَا التَّقْلِيدُ بِاسْتِقْرَارِهِ تَجْدِيدًا
لَا يُبْلِي الدَّهْرُ حِلْمَهُ ، وَلَا تَقْوُضُ الْأَيَّامُ حِلْمَهُ^(٢) ، بَلْ يُشْرِقُ فِي أَفْقِ الْمَمَالِكِ إِشْرَاقُ

(١) السخاب بكسر السين المهملة وبالحاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومخيط بلا جوهر

جميعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهي مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثواب ، ويتفرع في مصالح الملك تفرع الأفنان الناشئة في الأصول النواب ،
وتختال به مناصب الدولة القاهرة في أسنى ملايسها ، وتضيء به مواطن العلوم إضاءة
صباحة المصباح في يد قابسها ، وتسترنع لنا به الأدعية الصالحة من كل لسان ،
وتجتلي به لأيماننا الزاهرة من كل أفق وجوه الشكر الحسان .

فلتجر أعلامه في مصالح دولتنا الشريفة على أفضل عاداتها ، ويرسلها في نشر العدل
على سجيته وفي إجراء الجود على جادتها ، ويكف بها أكتف الحوادث فإنما تزال
أسباب الظلم بحسب مادتها ، ولينطقها في مصالح الأموال بما تظل له مسامح الحمول
مضغيه ، ويطلقها في عمارة البلاد بما تغدوله ألسنة الخصب حافظه ولما عداه
ملغيه ، وكذلك الخزائن التي هي معاقل الإسلام وحصونه ، وحماء الذي لا يتبدل
بغير أمرنا الشريف في مصالح الملك والملة مضمونه ، فليجعلها بتسييره كالبحار
التي لا تنقص بكثرة الورد جامها ، ولا تنزحها الشحب لكثرة ما تحمل الى الآفاق
غمامها ، وتكن كلمة العدل من أهم ما تفتح به مجالسه ، وآكد ما يؤمر به محاضره
من الأولياء ومجالسه ، وأزكى ما يستجيد [به] لاستثمار الدعاء الصالح مغارسه ،
وأوثق ما يحوط به حمى الملك الذي إذ اغفا جفن عينه كان حارسه . وأول ما ينبغي
أن ينافس عليه حاضر دسسته وغائبه ، وأولى ما يعد على إهماله نكاله ويعدد على
إقامته رغائبه .

وليلاحظ من مصالح كل إقليم ما كانه ينظر إليه بعين قلبه ، ويمثل صورته
في مرآة لبسه ، فيقر كل أمر على ما يراه من سداده ، ويقرر حال كل ثغر على
ما يحصل به المراد في سداده ، فيغدو لأعداره بموالاة الحمول إليه مزيحا ، ويمسى
بسدد خلله لخواطر أهل الكفر متعباً ولخواطرننا الشريفة مزيحا ، وينظر في أحوال

من به من الجُند والرجال بما يؤكّد الطاعة عليهم ، ويجدد الاستطاعة لديهم ؛
ويُزيل أعدّارهم واعتذارهم [بوصول حقوقهم اليهم ، ويوفّرهم على إعداد الأهبة
للأعداء] ^(١) إذا أتوهم من فورهم ، ويكفّهم بإدراك الأرزاق عليهم عن اعتدائهم
على الرعايا وجورهم ؛ ويتفقد من أحوال مباحريها وولاية الحكم والتحكّم فيها
ما يعلمون به أنه مناقشهم على الأمور اليسيرة ، والطفوات التي يرونها قليلة وهي
بالنسبة إلى كثرة الرعايا كشيء ؛ ويتعاهد أمور الرتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها
بالمُناسب ، ولا تغدو أوقافها المَعْدّة لآكتساب العلوم في المكاسب ؛ بل يتعين أن
يرتاد لها العلماء الأعيان حيث حلّوا ، ويُقرّر في رتبها الأئمة الأكفاء وإلا اتخذ
الناس رؤوساً جهّالاً فضّلوا وأضلّوا . ولكن أقلامه على كلّ ما جرت به العوائد
في ذلك محتوية ، وأيامه على أكمل القواعد في ذلك وغيره منطوية ، فما شئ من
قواعد الوزارة الشريفة خارج عن حكمه فليكتب يمثّل ، وليقل في مصالح دولتنا
القاهرة يكن قوله أمضى من الظبّا وأسرى من الصبّا وأسير من المثل ؛ فلا تُمضى
في ذلك ولاية ولا عزل ، ولا منع ولا بدل ، ولا عقد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدوق
بآرائه ، متوقف على تنفيذه وإمضائه ؛ متلقّ ما يقرّر فيه من تلقائه ، وفي الاكتفاء
بسيرته ما يغني عن إطرانه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذي شدّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أوزار ، وخصّ أيّامنا
الزاهرة باجتماع من حماها عدله أن تَضَع أوتجمل وزرا ، وأفاض إناعمنا على من طلع

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

فإنَّ خدمتنا هلالاً وأستقلَّ بحسن السَّير والسَّيرة بَدْرًا ، وضاعفَ إحساننا لمن [لا]
نرفعُه إلى رتبة شرف إلا وكان أجلَّ الأَكفاء على ذلك قُدرةً وقَدْرًا ، وجملَ مُلكنا
بمن إذا افتخرت الدُّول ببعض مناقبه كَفَّها ذلك جَلالًا ونَفَرًا ، وإذا أدَّخرت تدبيره
وبذلت ما عداه فحسبها ما أبقتَه وقايةً للملك وذُخْرًا ، وبسط عدلنا في الأقاليم بيد
من حين أمرنا القلمَ بتقليده ذلك سَجَدَ في الطُّرس شُكرًا ، وأفتتح بحمد الله يَذْكُر النعمة
به على آلائه إنَّ في ذلك لَذِكْرَى ، وأخذ في وصف دُرِّ مَفَاحِرِهِ التي تمثَّلت له
فَنَضَّدَها دُونَ أن يستدعى رَويَّةً أو يُعْمَلَ فِكْرًا .

نحمده حمْدَ من والى إلى أوليائه ، مَوادَّ النِّعم ، وأضفى على أصفِيائِه ، ملايسَ
الكَرم ، وحفِظَ لمن أخلَصَ في طاعته مَعَارِفَ معروفِه التي هي في أهل النُّهى ذِمَمَ ،
ونَبَّهَ لمصالح رعاياه مَنْ عَمَّ عدلُه وإن لم يَغْفُ عن ملاحظة أمورهم ولم يَنِم .

ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نُعَلِّمُها ونُعلِّمُها ، ونُرِخِّصُ أرواحَ
جاحديها ونُغَلِّمُها ، ونُوَالِي النِّعمَ على المَتمسِّك بها ونُؤَلِّمُها ، ونَقَرِّبُ بَيْنَها رُتَبَ الأولياء
من إحساننا ونُدْنِيها ، ونَجِدِّدُ لهم بتأييدها ملايسَ المِنَّنِ نُظْهِرُ عليهم آثارَ النِّعم السَّنية
فيها ، ونُزَفِّعُهم بحسن عنايةنا إلى أشرف غاية كانوا يُسِرُّون أهليَّتَهم لها والله يَبْدِيها ،
ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله الذي أقامنا لنصر دينه فقمنا به كما أمرَ ، وأبقَى على
أيَّامنا حُكْمَ أيَّامه فاستمرَّ الحالُّ على ما سَبَقَتْ به دعوته من تأييد الدين بعمْرٍ ، وخصَّنا
من ينتمى إلى أصحابه بأجلِّ صاحبِ نُوبٍ عن شمس عدلنا في محو ظُلْمة الظُّلم منابِ
القَمَر ، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبِهِ الزُّهَرى الغُرِّ ، وسلِّمَ تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ أولى من آخِرتِ جواهر الكلام لرَصفِ مفاخره ، وأنَّخِبتِ غُرَرِ
المعاني لوصف آثاره في مصالح الإسلام ومآثره ، وقامت خطباءُ الأقاليم على منابر

الأناذل بشيرةٌ بَيْنَ أَيَّامِهِ ، وتطلَّعت مُقَلُّ الكواكب مشيرةً إلى ما أقبل على الأناليم
من إقباله وسَحَّتْ سَحْبٌ أَقْلَامِهِ ؛ وتبرَّجت زُهرُ النجوم لِيَتَنَظَّمْ في عُقُودِ مناقِبِهِ
سعودُها ، وتارَّجت أَرْجَاءَ المَهَارِقِ إِذْ تَبَاجَّجَ من لَيْلٍ عن جُحْرِ عَمُودُها ؛ وسارت به
أَنْبَاءُ السُّعُودِ وَالزَّيْلِ النَاطِقِ بِذُرِّهِ وَهُوَ المَخْلَقُ المِیْمُونُ طَائِرُهُ ، وَالطَّرِيسُ المَوْشَعُ بُشْكُرُهُ
وهوَ المَخْلَقُ الذی تَمَلَّأَ الدنیا بَشَائِرِهِ - من استخلصته الدولة القاهرة لنفسها فحَمَلَهَا
عینَا وَسَرَّهَا قَلْبَا ، وَأَخْصَصَتْهُ بِخَوَاصِهَا الشَّرِیْفَةِ فَرَحَّبَ بِهَا صَدْرَا وَلَبَّاهَا لُبًّا ، وَكَافَ
بِمُؤَازَرَتِهَا رِیَاسَتَهَا حَقِّ قَبْلِ : هَذِهِ (تَرَاوَدُ فَنَائِهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَفَفَهَا حُبًّا) ؛ وَأَحَلَّتْهُ
من وزارتها الشَّرِیْفَةِ بِالْمَكَانِ الْأَسْنَى وَالْحَرَمِ الْحَرِيزِ ، وَأَثْنَتْ عَلَى فَضْلِهِ الْأَسْمَى بِلِسَانِ
الْكَرَمِ البَسیطِ الْوَجِيزِ ، وَأَعْتَمَدَتْ فِي أُمُورِ رَعَايَاهَا عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عَدْلٍ وَوَرَعٍ لَا يُنْكَرُ
وُجُودُهُمَا مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ وَأَدَّتْهُ عَنَانُهَا مَنَّا مَا فِيهِ
من فَضْلِ عِمِّمٍ ، وَحَسَبِ صَمِیمٍ ، وَنَسَبِ حَدِیْثٍ مَجْدِهِ قَدِیمٍ ، وَأَصَالَةٍ إِذَا أَنْتَخَرَتْ
یَوْمًا تَمِیمٌ بِقَوْمِهَا قَالَتْ أَيْنَ تَمِیمُكَ مِنْ جَدِّهِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تَمِیمٍ ؛ وَغَرَسَتْهُ لِنَفْسِهَا وَطَالَ ذَلِكَ الْغَرْسُ وَطَابَ الثَّمَرُ ، وَأَعْتَضَدَتْ بِتَدْوِينِهِ
فَكَانَ لَهُ عِنْدَ أَطْرَافِ الْعَوَالِیِ فِي مَكَانِهِ الْأَعَزِّ أَظْرَفُ سَمَرٍ ، وَوَقِفَتْ بِمَا فِيهِ مِنْ
عَدْلٍ وَمَعْرِفَةٍ لَا يُنْكَرُ مِنْ نَحْوِ الصَّوَابِ أَجْتَمَاعُهُمَا فِي عُمَرُ ؛ وَأَشْتَقَّتْ لَهُ بِإِحْسَانِنَا مِنْ
نِسْبَتِهِ وَصَفَا جَمِیلًا وَنَعْنَا جَلِیلًا ، وَخَصَّصَتْهُ لِمَرْيَةِ ذَلِكَ الْأَشْتِقَاقِ بِمَزِيدٍ قُرْنِنَا فَأَمْسَى
فِي خِدْمَتِنَا جَلِیلًا وَأَصْبَحَ خَلِیلًا ؛ وَرَعَتْ لَهُ مَا قَدَّمَ مِنْ تَدْوِينِ أَتَى عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ ،
وَسَدَادٍ ظَهَرَتْ مَرْيَةُ كُلِّ یَوْمٍ مِنْهُ عَلَى أَمْسِهِ ؛ وَسَعَى جَمِیلٌ مَا بَرَحَ فِي مَصَالِحِ
الْإِسْلَامِ رَأْمًا وَغَادِیًا ، وَاجْتَمَعَ فِي أُمُورِ أَدْلِ الْجِهَادِ مَا بَرَحَ يَدَّابُ فِيهِ عِلْمًا بِمَا أَعَدَّ
اللَّهُ لِمَنْ جَهَّزَ غَازِیًا ؛ وَدَانَ لَهُ مِنْ حُسْنِ مَلَاحِظَتِهِ الْأُمُورَ مَا لَيْسَ لِلْوَصْفِ بِهِ مِنْ

قَبْلَ ، وَتَأَمَّلْتُ مَا يُكْشَفُ لَهُ عَلَى الْبُعْدِ مِنَ الْمَصَالِحِ الَّتِي يَأْمُرُ بِالصَّوَابِ فِيهَا وَكَيْفَ لَا وَغُمْرُ الذِّي شَاهَدَ السَّرِيَّةَ عَلَى الْبُعْدِ مِنْ سَارِيَةِ الْجَبَلِ ؛ وَأَيَقَنْتُ بِبَسْطِ الْعَدْلِ فِي الرِّعَايَا إِذْ هُوَ مُؤْتِمِرٌ وَالْعَادِلُ أَمْرٌ ، وَتَحَقَّقْتُ عِمَارَةَ الْبِلَادِ عَلَى يَدَيْهِ لِأَنَّ غُمْرُكُمْ الْعَدْلُ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ عَامِرٌ .

وَلِذَلِكَ لَمَّا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي الْفَخْرِيُّ - ضَاعَفَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - هُوَ الَّذِي قَرَّبَتْهُ طَاعَتُنَا نَجِيًّا ، وَرَفَعَتْهُ وَلَا يَلْتَمِسُ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَحَقَّقَ لَهُ أَجْتِهَادُهُ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ الْأَمَلِ مِنْ رِضَانَا وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ، وَأَخْلَصَ فِي خِدْمَةِ دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ فَاتَّخَذَتْهُ لَخَاصَّ الْأُمُورِ وَعَامَّتَهَا صَفِيًّا ، وَأَظْهَرَ مَا بَطَّنَ مِنْ جَمِيلِ اجْتِهَادِهِ بِفَعْلَتِهِ لِمَصَالِحِ الْمُلْكِ وَزِيرًا وَصَاحِبًا وَوَلِيًّا ؛ وَأَنْجِزَتْ مِنْهُ لِتَدْيِيرِ أُمُورِ الْمَمَالِكِ بِمَا كَانَ الزَّمَنُ بِهِ مَا طَلَا ، وَأَجَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الَّتِي هِيَ مِلَّةٌ بِتَصْرِيفِ الْأَرْزَاقِ مَا لَا يَبْرَحُ غَمَامُهُ هَاطِلًا ، وَقَلَّدَتْهُ رِعَايَةَ الْأُمُورِ وَأُمُورَ الرِّعَايَا عِلْمًا أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ لِلَّهِ حَقًّا وَلَا يَأْخُذُ بِاطِلَا ، وَقَلَّدَتْ جِيدَهُ بِأَسْنَى حَلِيٍّ هَذِهِ الرِّتَبَةُ الْجَلِيلَةُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا بِكُمْ قُرْبُهُ مِنْهَا عَاطِلًا ، وَرَفَعَتْ لَهُ لُؤَاءَ عَدْلٍ مَا زَالَ لَهُ بِالْمُنَى فِي أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ حَامِلًا ، وَكَلَّمَتْهُ لَهْ بِلُؤُغِ الْغَايَةِ مِنْ أَفْقِ الْعُلُوفَةِ قَدْرَهُ وَمَا زَالَ الْمُؤَهَّلُ لِلْكَامِلِ بِاعْتِبَارِ مَا يَتَّوَلُّوهُ إِلَيْهِ كَامِلًا ، وَنَوَّهَتْ بِذِكْرِهِ وَمَا كَانَ لظُهُورِ تَحَايِلِ هَذَا الْمَنْصِبِ الْجَلِيلِ عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ خَامِلًا ، وَنَظَرَتْ الرِّعَايَا فَمَا عَدَلَتْ بِهِمْ عَنْ بَرِّ رَفِيقٍ ، وَصَاحِبِ شَفِيقٍ ، وَوَزِيرِ عُجْرَى السَّيْرِ مَاسَلِكِ طَرِيقَا إِلَّا وَعَدَلَتْ شَيْطَانُ الظُّلْمِ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ ؛ وَكَانَ هَذَا الْمَنْصِبُ الْجَلِيلُ غَايَةً مَدَارُ الْمَمَالِكِ عَلَيْهَا ، وَقِبْلَةً تَوَجَّهُ وَجْهُ أَهْلِ الطَّاعَةِ فِيمَا يُفَاضُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَتِنَا إِلَيْهَا ؛ وَهُوَ الَّذِي يَتَدَرَّعُ صَاحِبُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ لَبُوسًا ، وَيُعَالِجُ مِنْ أَدْوَاءِ الْمَهَامِّ مَا بَغِيرَ عِزَائِهِ لَا يُوسِي ، وَيَتَرَدَّدُ فِي الْمَخَالِصَةِ وَالْمُنَاصَحَةِ مِنْ مَالِكِ أَمْرِهِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى - اقْتَضَتْ آرَؤُنَا الشَّرِيفَةُ أَنْ نَقُوضَ ذَلِكَ إِلَى مَنْ نَهَضَ فِي طَاعَتِنَا

الشريفة بما يَجِب ، وعلمنا تحرزه لدينه ولنا فيما يأتى ويَحْتَنِب ، ومن تُزاد به مع نخره أيا مَنّا الشريفة نخرًا ، ويُصْبِح له مع ماله من الجلالة فى نفسه رُتَبُ جَلالةٍ أُخرى .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى : -
لا زال يُصَرِّف الأقدار بيمين أيا مَنّا ، ويُشَرِّف الأقدار بیده وإنعامه ، ويُدِّر على الأولياء وإبل جوده الذى تُحْجَل الدِّيم من دَوامه - أن تفوض إليه الوزارة الشريفة الكاملة على جميع الممالك الإسلامية : شرقًا وغربًا ، وبعُدًا وقربًا ، وبرًّا وبحرًا ، وشامًا ومِصرًا ، على أجمال القواعد فى ذلك وأكملها ، وأسنى الفوائد وأفضلها ، وأتم الأحوال التى يُستغنى بِجَمالِها عن مَفَصَّلِها .

فليُعْطِ هذه الرتبة من جلالته حَظًّا كانت من إبطائه على وجل ، ويُجَارِ الغَمامِ بوابِلِ إنعامنا الذى يُعَلِّم به أن حُمْرة البرق فى أشائه نَجَل ، ويُطِيق قلمه فى مصالح الدولة القاهرة بَسْطًا وقَبْضًا ، وإبرامًا ونَقْضًا ، وتديرًا يُعِين النِيلَ والغَمَامَ على تَتَبُّعِ المحلِّ ما وجدَ كُلُّ منهما أرضًا ، ويُعْمِلُ آراءه المباركةَ تديرًا للنجاح وتَدْرِيبًا ، وتَقْرِيرًا للقواعد وتَقْرِيبًا ، ونظرًا يجعل لكلِّ عملٍ من ملاحظته نَصيبًا ، وفكرًا يحاسبُ به على حقوق الله وحقوق خلقه فإنَّ الله هو المناقِشُ على ذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

ويبدأ بالعدل الذى رسم الله به وبالإحسان فى مُلكنا الشريف ، ويُخَفِّف - مع الجمع بين المصالح - عن خلق الله الوطأة فإنَّ الإنسانَ ضعيف ، ويُخْزِلُ لأولياء دولتنا موادَّ الارزاق فإنَّ سَيْفَ المنع الذى نُحاشِي أيا مَنّا عن تجريده أقلَّ نِكايةٍ من التسوية ، ويمنعُ الأولاة من ظلم الرعايا باعتبار أحوالهم دُونَ أقوالهم فإنَّ منهم من يدعى العدل ويُجور ويُظهر الرِّفق ويَحِيف ، وليَتَتَبَّع أدواء المحلِّ تَتَبُّعَ طيبٍ خبيرٍ .

وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ بِجَمِيلِ تَدْبِيرِهِ فَإِنَّ الْبَرَكَهَ مَعْدُوقَةٌ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ ؛ وَيَسْتَقْبِلُ رَى الْبِلَادِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - بِسَدَادِ حَزْمٍ يُعْتَفَرُ بِهِ هَذَا الْقَلِيلُ لَذَلِكَ الْكَثِيرُ ، وَيَسْتَخْلِفُ بِالرَّفْقِ وَالْعَدْلِ أَضْعَافَ مَا فَاتَ فِي أَمْسِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . وَلِيَهْتَمَّ بَيُوتِ الْأَمْوَالِ فَيُؤَالِي إِيْتَانِ الْحُمُولِ إِلَيْهَا مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَيَضَاعِفُ بِهَا الْحَوَاصِلَ الَّتِي لَا يُطْلَعُ بِغَيْرِ حُسْنِ التَّدْبِيرِ عَلَى أَسْبَابِهَا ، فَإِنَّهَا مَعَادِنُ الذَّخَائِرِ وَمَوَارِدُ الرِّجَالِ ، وَإِذَا أَعَدَّ مِنْهَا جِبَالًا شَوَاحِجَ تَلَا لِنَفَاقَتِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ .

وَكَذَلِكَ الْخِزَانُ الَّتِي هِيَ مَعَاوِلُ الْإِسْلَامِ وَحُصُونُهُ ، وَحِمَاهُ الَّذِي لَا يُتَذَلُّ بِغَيْرِ أَمْرِنَا الشَّرِيفِ فِي مَصَالِحِ الْمَلِكِ وَالْمِلَّةِ مَصُونُهُ ، فَيَجْعَلُهَا بِتَدْبِيرِهِ الْجَمِيلِ كَالْجِبَارِ الَّتِي لَا تَنْقُصُ بِكَثْرَةِ الْوَرَادِ جَمَامُهَا ، وَلَا تَنْزَحُهَا السُّحْبُ عَلَى كَثْرَةِ مَا تَحْمِلُ إِلَى الْآفَاقِ غَمَامُهَا ، وَلِيُصْلِحَ كُلَّ مَصَالِحِ كُلِّ إِقْلِيمٍ بِمَا تُثْمَلُهُ لَهُ عَلَى الْبُعْدِ أَفْكَارُهُ ، وَيَأْمُرَ فِي أَحْوَالِ مَنْ بِهِ مِنَ الْجَنْدِ بِمَا يُؤَكِّدُ الطَّاعَةَ عَلَيْهِمْ ، وَيَجِدُّدُ الْأَسْتَطَاعَةَ لَدَيْهِمْ ، وَيُزِيحُ أَعْذَارَهُمْ وَأَعْتِذَارَهُمْ بِوُضُوحِ حَقُوقِهِمْ إِلَيْهِمْ ؛ وَيُوفِّرُهُمْ عَلَى إِعْدَادِ الْأَهْبَةِ لِلْأَعْدَاءِ إِذَا أَتَوْهُمْ مِنْ قُورِهِمْ ، وَيُكْفِّهُمْ بِإِدْرَارِ الْأَرْزَاقِ عَلَيْهِمْ عَنْ أَعْتِدَائِهِمْ عَلَى الرِّعَايَا وَجُورِهِمْ ؛ وَيَجْعَلُ ثَغُورَ كُلِّ جَانِبٍ - بِتَيْسِيرِ مُحْصُولِهَا ، وَتَثْمِيرِ ذَخَائِرِهَا الَّتِي هِيَ مِنْ مَوَارِدِ رِجَالِهَا - مُصَفَّحَةً بِالْصَّفَاحِ ، مُشْرِقَةً بِأَسْنَةِ الرَّمَاكِ ، مُسَدُّودَةً مِنْ جِهَةِ الْعَدُوِّ عَنْهَا مَسَالِكُ الرِّيَاحِ ؛ وَيَتَنَفَّقَدُ مِنْ أَحْوَالِ مَبَاشِرِيهِ ، وَوُلَاةِ الْحُكْمِ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِ ؛ مَا يَعْلَمُونَ بِهِ أَنَّهُ مَنَاقِشُهُمْ عَلَى الْأُمُورِ الْيَسِيرَةِ ، وَالْهَفَوَاتِ الَّتِي يَرَوْنَهَا قَلِيلَةً وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ الرِّعَايَا كَثِيرَةٌ ، وَالْأَحْوَالِ الَّتِي إِذَا عَدَّهَا الْكِتَابُ عَلَيْهِمْ قَالُوا : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ، وَيَتَعَاهَدُ أُمُورَ الرُّتَبِ الدِّينِيَّةِ فَلَا تُوْخَذُ مِنْاصِبُهَا بِالْمُنَاسَبِ ، وَلَا تُعَدُّ رِزْقُهَا الْمَعْدَّةُ لَا كِتْسَابِ الْعِلْمِ فِي الْمَكْسَبِ ؛ بَلْ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَرْتَادَ

لذلك العلماء الأعلام حيث حلّوا ، ويقرّر في مراتبها الأكفاء ، وإلا آتخذ الناس رؤوساً جهّالاً فضّلوا وأضلّوا ؛ وقد جعلنا [أمره] في ذلك جميعه من أمرنا ، فليقلّ يمتثل ، وينشر كلمة عدلنا التي يسير بطريقها المثلى المثل ؛ ولا تمضى ولاية ولا عزّل ، ولا منع ولا بذل ، ولا عقد ولا حل ؛ الا وهو معدّدق بأرائه ، متلقّ من تلقائه ، متوقّف على تنفيذه وإمضائه ؛ وقد اختصرنا الوصايا ، آكتفاء بما فيه من حسن الشيم ، واقتصرنا على ذكر بعض المزاي ، إذ مثله لا يدُلّ على صواب ولا يُزاد ما فيه من كرم ؛ لكن تقوى الله أولى ما ذكّر به من لم يزل لربه ذاكراً ، وأحقّ ماشكراً على التوفيق من لم يبرح له به شاكراً ، والله يزيد قدره اعتلاء ، ويضاعف للدولة الشريفة احتفالاً بشكره واعتناء .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمد لله الذى شدّ أزر الملك من الوزراء بالمكين الأمين ، وأشرك في أمر ملكه من هو على صلاح الجمهور خير معين ؛ وألقى مقاليد حسن تدبيره لمن دلّت عليه بركة الاستخاره ، وصوّب أمر دقيقه وجليله لمن هو لجميل الشناء المعنى وإليه بينان الاجتباء الإشارة ، وناول كتابها لمن هو أحقّ بحمل أعبائه ، ورقى منصبها لمن لأشبهه بأنه الحقيق باستعلائه ؛ وناول قلم إعطائها ومنعها لوضع الإشارة في محلّها ، وعدّق تثير أموالها بمن لا يأخذها بمقتضى يديه إلا من حلّها .

نحمده على حسن إلهامه ، وشريف إفهامه ؛ ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة عبد مخلص في أدائها ، محقّ في إعادتها وإبدائها ؛ ونشهد أن محمداً

عبده ورسوله خير من هو بالحق مبعوث وبالصدق منعوت ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تزال مستمرة في كل وقت موقوت ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن يد الوزارة هي اليد الباسطة فيما قل وجل ، والمتحكمة فيما عُدق بالملك من كل عقد وحل ، والموقوف عند إشارة بنائها وإليها التحكم في كل إعطاء ومنع ، وتفريق وجمع ، وعزل وإليه ، ونهاية كل نهى وأمر وما لها من غاية ، وربها من الملك كالروح الباصرة من العين ، واللسان المعبر عن كل زين وشين ، وحسبه أنه في المحل من ذات اليمين ، ومن مكانة التمكن في الحرز الحصين ، ولهذا لا يؤهل لها إلا من أتعقد على سؤدده الإجماع ، وأنقطعت دون لحاق شرفه الأطماع ، وتأصل في نخارها وتفرع ، وقام بفروض كفاية كفالتها وتطوع ، وسار حديث مناقبه في الآفاق ، وجاء بالاختيار والاختبار بالوفاء ، وحسن صورة ومعنى ، وتعددت مناقبه فدلّت على أنه الفرد إذا أُلْسِقت عقوده مثنى مثنى . وكان المجلس العالى الفلانى رب حوزتها وسريها ، وروح بصر مرتقى هذه المحامد وإليه [أمر] مصيرها ، والذي حكمت له السيادة بمنالها وحكمته ، وأوضحت بأصالتها وجه الصواب في اختيارها لها وأحكمته ، وقد حاز من متفرق لوازمها ما تفرق فيمن سواه ، وحوى من أدواتها [مادل] على أن الله خلقه فسواه ، إن قال فالصواب موكل بمنطقه ، أو صمت فعظم مهابته قائم مقامه بجمل الخلق لا تخلقه ، قد جمع إلى التواضع فرط المهابة ، وإلى الابتداء بالمعروف حسن الإجابة ، إن ذكرت الصدارة فهو مالك زمامها ، أو الرئاسة فهو غرة لثامها ، أو الكفالة فهو مُصَرَّف عيناها ، أو الوزارة فهو عين أعيانها ، لم تزل رتبها متشوقة لحلوله ، مهمدة لشريف تأهيله .

ولما تحلى منها بهذه الحلى ، وسار حديث ملاءته بتحويلها فى الملاء ، وتلا لسان القلم سور هذه المحاسن وتلا الثانى بالأول منها إذا تلا ، رُسم بالأمر العالى - أمتعته الله بما وهبه من حُسن مؤازرته ، وشدَّ عضد مملكته بالإمتاع برُبح حُسن معاملته لله وله ولتساجرته - أن تُفوّض الوزارة المفخّمة ، المكرّمة المبجلة المعظّمة ؛ للشار إليه : تفويضاً عاماً للقريب من مصالحها والبعيد ، والطارف والتليد ؛ والمقيم والنازح ، والغادى والرائح ، والسانح والبارح ، والباغيم والصادح .

فليباشر ما فوّض إليه منها مباشرة مثله لمثلها ، وليُعْطِها من نيّله مُناسب نيّلتها ؛ وليأخذ أمرها بكتلتا يديه ، وليُعْرِها جانباً من احتفاله ليظهر عليها آثار سُودده كما ظهر شريف تحويلها عليه ؛ وليطْلُق فيها لسان نهيه وأمره ، وليُعْمِل فى مصالحها صالح فكره ؛ فقد عُدّت به مهامّها : جليلها وحقيرتها ، وقليلها وكثيرها ؛ وأميرها ومأمورها ، وخليئها وضريرها ؛ وناعقها وناعبها ، وكاسيها وكاسبها ؛ ودانيها وقاصيها ، وطائعها وعاصيها ، ومستقبلها وحاملها وماضيها ، وواليها وقاضيها ؛ ثقةً بتمام تديره ، وحميد تأثيره ، وأنه إن حكم فصل ، وإن قطع أو وصل كان الخزم فيما قطع ووصل ؛ إذ هو الوزير الذى قد صُرف عن عمل الأوزار وسار ، إلا أنه فى كل منبج سار ؛ تقطر السيادة من معاطفه ، وتجنّج ثمر المني من أغصان قلمه يد قاطفه ؛ لاشئ يخرج عن حكمه ، ولا مصلحة تعزّب عن علمه ؛ فولاية الحكم معدوقّة بإشارته ، موقوفّة على ما يثبت به ببلغ عبارته . ومع جلالة قدره لا يحتاج إلى التأكيد فى الأموال وأستندار أخلافها ، والرعايا والأستدامة بالإحسان ودّ أحلافها ؛ وبيوت الأموال وأستيداء حقوقها ، ومُراعاة جانبها إذ هى الأمّ الحنونة بتجنّب عقوقها . والخزائن فهو أدرى بما يجب من تضيق صدرها بالمناقيص عن الانشراح ، والاهتمام بحواصل تشريفها المستجيلة إفاضة ملابسها قلب من غدا وراح ؛ وثمّ دقائق ، هو أدرى بما لها من

طرائق ؛ وحقائق ، هو أعرف إذ كان فيها الفائق الرائق ؛ فهو - أجله الله - غنى عن تفصيلها ، وذهنه أشرف عن الوصايا المندوبة لتوصيلها ؛ والله تعالى يقدر له وبه الخير ، ويمتّع بحسن تديره المقرون بجميل السريّة والسير ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية وزير أوردها في " التعريف " وهي :

يُوصى ' بتقوى الله فإنه عليه رقيب ، وإليه أقرب من كلّ قريب ؛ فليجعلهُ أُمَامَهُ ، وليطلبْ منه لكل ما شرع فيه تَمَامَهُ ؛ وليجلبْ رأيَه في كلّ ما تشدّ به الدولة أَرْزَها ، وتُسندْ إليه ظُهرَها ؛ وليجعلِ العدلَ أصلاً يَبْنِي على أسّهِ ، والعملَ في أموره كلّها لسلطانهِ لا لنفسهِ ؛ وليدعْ منه الغرضَ جانباً ، وحظَّ النفس الذي لا يندو إلا من العدو ليُصدّق من دَعاه صاحِباً ؛ وليبصرْ كيف يُثَمِّرُ الأموالَ من جهاتِها ، وكيف يخلّصْ بيوت الأموال بالاقْتِصار على الدرهم الحلال من شُبُهاتها ؛ ولينزّهْ مطاعِمَ العساكر المنصورة عن أكل الحرام فإنه لا يُسَمِّن ولا يُغْنِي من جُوع ، ولا يُرى به من العين إلا ما يُحرّمُ المُجُوع ؛ وليحدّرْ من هذا فإن المُفاجئ به كالخاتِل ، وليتجنّبْ إطعام الجُنْد منه فإن [أكل] الدرهم الحرام ما يُقاتِل ؛ وليُحسِنْ كيف يُوتَى ويُعزَل ، ويُسَمِّن ويُهزَل ؛ وعليه بالكُفَاة الأَمْناء ، وتجنّبْ الخَوَنَةَ وإن كانوا ذَوِي غَناء ؛ وإيَّاهُ والعاجِزَ ، ومن لورأى المصلحةَ بين عينيه أُلْفَى بينه وبينها أُلْفَ حاجِز ؛ وليطهّرْ بابَهُ ، ويسهّلْ حجابَهُ ، ويفكرْ فيما بعد أكثر مما قُرب : مقدّماً للأهمّ فالأهمّ من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر المُناسي والمُصالح ؛ ولا يستبدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُهُ أو ثبتت عنده خيائتُهُ ، ولا يدعْ من جميل نظره مَنْ صحّت لديه كفايته ،

أو تحققت عنده أمانته ؛ وليسلك أقصد الطُّرُق في أمر الرواتب التى هى من صدقاتنا الشريفة وصدقات من تقدم من الملوك ، وهى إما لمن وجب له حق وإن كان غنياً أو عرف صلاحه وهو ضِعْلوك ؛ وكذلك ما هو لأيتام الجُند الذين ماتوا على الطاعة ، وأمثالهم ممن خدَم دولتنا القاهرة بما أستطاعه ؛ فإن غالب من مات منهم لم يخلف لهم إلا ما نسمح لهم به من معروف ، ونُجْريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلفه الآباء للأبناء من المال المتملك والوقف الموقوف ؛ وليصرف أهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمناءه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإناء آناؤه ؛ فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسمح فى تخليه شيء منه كما أننا نوصيه أنه لا يأخذ شيئاً إلا بحقه ؛ وليبق لأيماننا الزاهرة بتواقيعه ذكرنا لا يقنى ، ويرا لا يزال ثمره الطيب من قلمه يُحْنى ؛ ليكون من رياح دولتنا التى تغتنم ما يُشيره من سخاها المطير ، وحسنات أيماننا التى مذكرونا معنا إلا وقيل : نِعَمَ الملك ونِعَمَ الوزير .

الوظيفة الثانية

(كتابه السِّرّ ، ويقال لصاحبها "صاحب دواوين الإنشاء")

وقد تقدم فى الكلام على ترتيب الوظائف أن موضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابه أجوبتها ، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها ، وتصريف المراسيم وروداً وصدوراً ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل ، وأنه صار يُوقع فيما كان يُوقع فيه بقلم الوزارة .

قلت : وقد كان فيما تقدم يُكتب له توقيعٌ في قطع النصف بَلَقَب « المجلس العالى » ثم استقرَّ أن يُكتب له تقليدٌ في قطع الثلثين بَلَقَب « الجنب العالى » .
وقد تقدم الكلام على تقليده في الكلام على التقاليد .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرِّ ، كُتِبَ بها لِلْقَرِّ الْحَيَوِيِّ « محيى الدين بن فضل الله » عند عودِهِ إلى كتابة السَّرِّ بالديار المصرية ، في جمادى الأولى سنة ثلاث ...
من إنشاء السيد الشريف شهاب الدين ، أحد كُتَّاب الدَّرَج الشريف ، وهى :

الحمد لله المانِّ بفضله ، المستعان به فى الأمر كله ، الذى رفع أول الأولياء من العلىاء إلى محلِّه ، ووضع النعم عند من ينصُّ الاستحقاق على تقديمه بمنصبه ويحلُّ ما فُوض إليه من أجلِّه ، وأبدع نظام السُّودد بأجل حالٍ ما دام يحْيى جامعَ شمله ، وأودع سرِّ ملكنا الشريف عند الحفيظين منه ومن تجلِّه ، وأرجع الرياسة إلى من سَمَّائَاتَا ، ونما نباتًا ، وعلا عزُّما ، ووفى حَزْمًا ، فيُمن آثاره تُضرب الأمثال ولا تجد فى يَمْن سَجَاياه كِشْلَه .

نحمده على أن أعاد بنا الحقَّ إلى أهله ، ونشكره على أن جاد روض الآمال بوا كيف سحابِ كَرَمنا ووبله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من وفق للصواب فى قوله وفِعْله ، ونُحَقِّق منه جميل الإخلاص فى جميع مذاهبه وسُبُلَه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المُرَوِّى يومَ الجزاء إلى سابغِ ظلِّه ، والمُرَوِّى يومَ العطش الأكبر بسائغِ نَهْلَه ، والنبيُّ الذى بعثه خاتمَ رُسُلِه ، وآتاه من الكرامة ما لم يؤت أحدًا من الأنبياء من قبله ، والمجتبى من علماء صحابته من أهله لإيداع سرِّه وصَوْنَه وإبلاغ أمره وحَمْلَه ، صلى الله عليه وعلى آله الذين سَبَقُوا إلى غايات الفخار

وُخْصُوا بِخُصْلِهِ ، وَرَضَى اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ الْمَجَاهِدِينَ فِي حُبِّهِ الْمُعْتَصِمِينَ بِحُبِّهِ ،
 خُصُوصًا الصَّدِيقَ الَّذِي أَحْسَنَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ مِنْ أَرْتَدَّ بَقْتَلِهِ ، وَمَنْ فَرَّقَ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَمَحَضَ عَدْلِهِ ؛ وَمَنْ تَلَقَّى عَنْهُ آيَاتِ الْكِتَابِ فَافْهَمَ ...
 فِي تَرْتِيبِهِ وَجَمْعِهِ وَأَدَائِهِ وَتَقْلِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ فَارِسَ حَرْبِهِ ، وَحَارِسَ سِرِّهِ ، وَكَاتِبَ
 وَحْيِهِ وَخَاطِبَ كِفْلِهِ ؛ وَعَنْ بَقِيَّةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَنْفَرُوا بِأَكْمَلِ الْفَضْلِ
 وَأَجَلِّهِ ، صَلَوةً وَرِضْوَانًا وَضَمًّا بَيْنَهُمَا نُورُ الْهُدَى لِمُسْتَدِلِّهِ ، مَا شَفَى كُرْمَنَا الصُّدُورَ بِصُدُورِ
 إِقْبَالِهِ إِلَى مَنْ قَامَ بِفِرَاضِ وَلَّائِهِ وَنَمَلِهِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَنِعْمَنَا لَا تَزَالُ لِلْعُهُودِ حَافِظُهُ ، وَبِالْجُودِ مُتَحِفَةً وَبِالسُّعُودِ مَلَا حِظَّهُ ،
 وَعَلَى الْمَعُودِ مَنْ كَرَّمَ شَيْئَهَا مَحَافِظُهُ ، وَلِلْخِدْمِ مَكَافِيهِ ، وَلِلْقَسَمِ مُوَفِيَةً وَبِالنَّعْمِ مُؤَافِيَةً ،
 وَبِالْوَفِّ الْكَرَّمَ مُلَافِيَةً ؛ أَتَّبَعَا لِسَبِيلِ الصَّوَابِ ، وَإِيدَاعًا لِلنِّحَةِ عِنْدَ مَنْ لَحِقَهُ
 فِي أَسْتِحْقَاقِهَا إِيحَابٌ ، فَلَمَحَلَّهُ اقْتِرَانٌ بِالْاقْتِرَابِ ، وَلَفِعَلَهُ إِنْجَازٌ لَوْعُودِ الصُّعُودِ
 وَإِنْجَابِ ، وَلِفَيْضِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْقَبُولِ أَهْبَى جِلْبَابِ ، وَلِهَ سَبَقُ وَلَاءِ مُلْكِنَا
 بَعْدَ جَفَاءِ فِيهِ السَّنِينَ وَالْأَحْقَابِ ، وَصَدُقُ وُدِّ مَا ضَاعَ لَدَيْنَا وَلَا خَابَ ، وَقَدَّمَ هِجْرَةَ
 كَمْ لَهَا فِي تَأْيِيدِ الدِّينِ أَنْتِصَارٌ وَأَنْتِصَابٌ ، وَتَعَدُّدُ مَنَاقِبَ هِيَ فِي الْإِشْرَاقِ وَالرَّفْعَةِ
 كَالْتَّجُومِ وَفِي الْكَثْرَةِ عَدَدُ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ ؛ فَمَا دَعَا سُلْطَانُنَا إِلَّا أَسْتِجَابَ ،
 وَلَا أَسْتَوْعَا سِرَّهُ إِلَّا غَدَا بِهِ يُصَانُ وَلَا يُصَابُ ، وَلَا أَسْتَنْطَقْنَا قَلَمَهُ إِلَّا كَفَى الْخَطْبَ
 بِأَمْلَحِ خِطَابِ ، وَلَا أَسْتَشْرْنَا رَأْيَهُ إِلَّا حَضَرَ الرُّشْدُ وَمَا غَابَ ؛ فَكَمْ فَرَّقَ لِلْأَعْدَاءِ مِنْ
 كِتَابَةِ بَيْتَابِ ، وَقَرَّبَ مِنْ ظَفَرِ السَّيْفِ فِي الْقِرَابِ ؛ فَبَدَعَوَاتِهِ يُسْتَنْزَلُ مِنَ النِّعْمَاءِ
 أَهْمَرُ سَحَابِ ، وَبِهَرَكَاتِهِ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَكَانَ كَيْدُ الْكَافِرِينَ فِي تَبَابِ ، وَبِأَقْلَامِهِ
 إِنْعَامُنَا يَهَبُ وَأَنْتِقَامُنَا يَهَابُ ؛ فَهِيَ عَلَى الْمَمَالِكِ أَمْنَعُ سِيَاحِ ، وَلَهَا فِي مَسَالِكِ الْخَيْرِ

أبدع منهاج، وللدولة به وبولده استغناء وإليهما احتياج، فكم ضمتا دُرر كلاميهما
الأدراج، وأطلعا زهر أعلاميهما من المَهَارِق في أبراج، وكم واصلت في ليل النّفس
السرى والإدلاج، حتى أبدت صباح النجاح ذا ابتلاج، فلا عجب أن كان للنعم
إليهما معاد ومعاج، ولضيق الخطب عند باعهما الرّحْب فسحةً وأنفراج .

ولما كان المجلس العالى المَحْيَوِّ هو أسرى من تُلقى إليه الأسرار، وتبقى منه
عند أحرى الأحرار، فكم لها صان أين صار، وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سار
حيث سار، وكم له من كرمنا دار في كل دار، فمتا لقربه إيثار، ولأثنتنا عليه إيجار،
ولنا بفضائله إقرار، يُوجب للنعم عنده الإقرار - أقتضى حسنُ الرأى الشريف
أن نُعيد إليه منصبه، ونزيد لديه الموهبه، ونجعل وجودَ تفضيله لدولتنا أعظمَ مزيةً
ومنقبه، ونراه أجلَّ كُفء لآستجلاء عقائل الأسرار المحجبه، وإن كان لنزاهته
لايخطبها فهي لوجهته ترغّب أن تخطبه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى الفلانى -
لا بريح بفضل الله يحى الدين، وبتأييده يبين أنه الحق المبين، وبتسديده يُصيب
عين الصواب فى التعيين - أن نفوض للإشار إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف
بالأبواب الشريفة شرفها الله وعظمها : على أجمال عوائده، وأكمل قواعده، وأحسن
حالاته فى حُسن مقاصده، ونُفوذ ما يُبلّغه من رسائل عدلنا فى مصادر كل أمر
وموارده، وليستقرّ بأسمه من المعلوم كذا وكذا .

فلتلق منصبه المبارك بأمل فى كرمنا مبسوط، ورتبته التى يحى حماتها ويحوط،
مُمضياً للهمّات والمراسم، مبقياً من يمين آثاره ما تضحى به ثغور الثغور بوَاسِم،
مُيدا لمن عنده من كُنائبنا أوقات الأُنس فأيامهم [به] كلّها مواسم، وبها لهم من الخيرات

أَجْرُ الْمَقَاسِمِ ، وَقَدْ وَفَّرُوا دَوَاعِيَهُمْ إِلَى الْخِدْمَةِ إِذْ وَفَّرَ عَلَى نَفَقَتِهِمْ دَوَاعِيَهُ ، وَهُوَ لِسَانُ
الدَّوْلَةِ وَهُمْ أَذُنُ صَوْنٍ لِمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ وَاعِيَهُ ، فَحَقَّ لَهُمْ إِلَى وَدَادِهِ أَنْ يَجْنَحُوا ،
وَبِإِسْعَادِهِ أَنْ يَجْنَحُوا ، وَعَنْ وَلَائِهِ لَنْ يَرْحُوا : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، فَلَيْسَ بِرَأْسِ الْمَلِكِ بِهِ سُورُورٌ ، وَلِلدَّوْلَةِ مِنْ أَشْعَةِ إِيَابِهِ وَطَلْعَةِ شَهَائِهِ نُورٌ عَلَى
نُورٍ ، وَبِهِمَا عِمَادُ الشَّرَفِ الْأَعْلَى مَرْفُوعٌ وَبَيْتُ الْفَضْلِ الْأَوْفَى مَعْمُورٌ ، وَهُوَ وَبَلْ
هَذَا الْغَيْثِ الْغَمْرِ وَشَبْلِ هَذَا اللَّيْلِ الْهَضُورِ ، طَالَمَا هَزَمَ الصُّفُوفَ مِنْ كُتُبِنَا
بِالسُّطُورِ ، وَجَهَّزَ بَرْدًا سَرَّهَا بِالصُّونِ مَكْتُومٌ وَعَلَّمَهَا بِالنَّصْرِ مَنْشُورٌ ، وَهُوَ كَكُتْرِ
الْفَضَائِلِ وَكِتَابُهُ الذَّهَبُ شُدُورٌ ، وَمِنْ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْعُمَرِيَّةِ بِأَفْقِ الْعِلْيَاءِ نَجُومٌ وَأَهْلَةٌ
وَبُدُورٌ ، وَلِلنَّسِيرِ الْأَكْبَرِ إِشْرَاقٌ وَأَتْلَاقٌ وَسُفُورٌ ، وَغَيْرُهُ بِالْوَصَايَا الْمَأْمُورِ ، وَسِوَاهُ
نُبَيْنٌ لَهُ قَصْدُ السَّبِيلِ حَتَّى لَا يَضِلَّ وَلَا يَجُورُ ، وَلَا نَحْتَاجُ أَنْ نَذْكُرَهُ بِمَا هُوَ مِنْ عِلْمِهِ
مَذْكُورٌ ، وَفِي صَحَائِفِهِ مَسْطُورٌ ، وَلَا نَعْلَمُهُ سَدَادًا إِذْ هُوَ عَلَيْهِ مَجْبُولٌ وَمَقْطُورٌ ،
بَلِ الْهُدَى مِنْهُ مَلْتَمَسٌ ، وَمَقْتَنَى وَمَقْتَبَسٌ ، وَمَأْثُورٌ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ مَا فِي حَزْمِهِ قُصُورٌ ،
وَلَا فِي عَزْمِهِ قُتُورٌ ، وَهُوَ بِحَرِّ الْعِلْمِ الْحَيْطُ وَبَيِيرُ الْحِلْمِ الْمَوْفُورُ ، وَلَيْسَ التَّقْدِيمُ لَهُ
بِمُسْتَعْرَبٍ بَلْ فَضْلُهُ الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْعَى لَهُ فِي خِدْمَتِنَا عَهْدًا قَدِيمًا ،
وَيُقِيهِ لِلدَّعَاءِ مُوَاصِلًا وَمُدِيمًا ، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخةٌ تقليد بكتابة السِّرِّ ، كُتِبَ بِهَا لِلْقَاضِي شَهَابِ الدِّينِ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَنَافِيَةِ حَفِظَتْ مُلْكَنَا الشَّرِيفَ بِمَعْقِبَاتِهَا ، وَصَانَتْهُ بِصَاحِبِ تَصْرِيفِ
تَقُومُ كُتُبُهُ وَآرَؤُهُ مَقَامَ الْكُتَابِ وَرَايَاتِهَا ، وَسَنَتْ لَنَا الْخَيْرَةَ لَمْ نَجْتَنِ بِقَلَمِهِ النَّصَرَ

من ثمراتها ، وبينت الحسنى في طريقته المثل حتى انقسم الصبح من قسماتها ،
واقسم النجح من عاداتها ، واتسم فكره بالنصح وقد ضلت الأفكار عن إصاباتها
فظلت في غفلاتها .

نحمده حمداً يهب مع الأنفاس في هباتها ، ويهب من اللطائف الحسان أفضل
هباتها ، ويذنب القلوب لتقييد شوارد النعم بصديق نياتها ، وينافس الكرام الكاتبين
على نفائس الثناء في تسبيح لغاتها بصفيح سمواتها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تملأ الصحف بحساناتها ،
وتملى الوجوه بالأنوار في توجُّهاتها ، وتلوح من سماتها سيماء لا تشق على الأبصار
في توشماتها ، وتفخر برقمها الأقلام بأنه لا طعن في اعتدال حركاتها ، على الرماح
في اعتدال قاماتها ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أدى الرسالة بما
تحمله من أماناتها ، ورعى اليهود لمن أخلص في مراعاتها ، ودعا الأمة بإذن الله
إلى سبيل نجاتها ، وأستمع على الوحى كتاباً سبقوا في السعادة إلى غاياتها ، وبلغوا عنه
السنة بآياتها والسور وآياتها ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه فرسان البلاغة
وروايتها ، وحفظة الأسرار وثقاتها ، وصاغة المعاني في الألفاظ الغرَّبَقَاتِها ، وأو
الأحلام التي لا تطيشها وقائع الدهر بروعاتها ، ولا تذهلها عن الأوراد في أوقاتها ،
وتلقى الوفود بأقواتها ، والأخلاق التي اتسع نطاقها في تصرفاتها ، وأمتنع حجابها
أن تتخطاه الخدع بهفواتها ، صلاة تزيد الأعمار بركاتها ، وتزين الأعمال ببركاتها ؛ وسلم
تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ الملك عمود بناءه بسره ، وارتفاعه بالتأسيس لمستقره ، وأمتناعه
بعد العساكر المنصورة بكاتب يُخاتِل العدو في مكره قبل مكره ، ويقايل في الحرب

والسَّلم بنَفَّاذِ رَأْيِهِ وَنَقَّاثِ سِخْرِهِ ، وَيَقَابِلُ كُلَّ حَالٍ بِمَا يَحْسُنُ مَوْقِعُهُ مِنْ صَدْمِهِ
بَصْدَرِهِ أَوْ صَدَّهْ بَصَرُهُ ، وَيَنْظُرُ فِي الْعَوَاقِبِ نَظْرَ الْبَصِيرِ بِأَمْرِهِ ، الْوَاعِي لِأَحْتِيَالِ
عُدْرِهِ قَبْلَ آخْتِيَالِ الْبَاغِي فِي غَدْرِهِ ؛ إِذَا جَادَلَ فَبِالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ ، وَإِذَا جَاوَبَ أَبْطَلَ
الْأَهْوَالَ الزَّائِفَةَ ، وَإِذَا أَمَرْنَا بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ سَيَّرَهُمَا عَنَّا كَالشَّمْسِ الْبَازِغَةِ ،
وَمَلَأَ بِهِمَا حُبًّا لَنَا الْقُلُوبَ الْفَارِغَةَ ؛ وَقَدْ جَرَّبْنَا عَلَى طُولِ الْمَدَى كُتَّابًا ، وَانْتَجَبْنَا مِنْهُمْ
كَثِيرًا أَرْتَضِينَاهُمْ أَصْحَابًا ، وَمَارَسْنَا جَمَاعَةً أَزْدَدْنَا بِهِمْ إِعْجَابًا ، وَرَأَيْنَا طَوَائِفَ فِيهِمْ
مَنْ إِنْ أَجَادَ اجْتَنَاءَ لَزَهَرَاتِ الْقَوْلِ حَادَ عَنْ الْجَادَّةِ اجْتِنَابًا ، وَإِنْ كَلَّفَ نَفْسَهُ
مَذَاهِبَ الْكُتَّابِ أَخْلَى بِمَقَاصِدِ الْمُلُوكِ إِنْ كَتَبَ عَنْهُمْ كِتَابًا .

وَلَمْ نَظْفَرْ بِمَنْ تَمَّتْ فِيهِ الشُّرُوطُ الْمَشْرُوطَةُ ، وَمَتَّ بِالدَّائِرَةِ الْمَحِيطَةِ إِلَى الْفَضَائِلِ
الْمُبْسُوطَةِ ، وَامْتَّازَ بِفَهْمٍ لَا يَقْبَلُ عَلَى الْفَسَادِ وَلَا يَقْبَلُ الْأَغْلُوطَةَ ؛ إِنْ أَمَلَيْنَاهُ إِمْلَاءً
ذَكَرَهُ ، وَإِنْ حُمِّنَا حَوْلَ مَعْنَى لَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ الْعِبَارَةُ فَسَرَهُ ، وَإِنْ سَرَدْنَا عَلَيْهِ فَضْلًا
مُطَوَّلًا خَبَرَهُ ، وَرَبَّمَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي اخْتِنَارِهِ فَاخْتَصَرَهُ ، وَإِنْ أَوْدَعْنَاهُ سِرًّا سَرَّاهُ ،
وَصَانَهُ بِحُجُوبِ غَيْبِ أَثَرِهِ ، وَكَتَمَهُ إِمَّا بِخَطِّهِ عَنْ قَلْبِهِ فَلَمْ يُدْرِكْهُ أَوْ بِقَلْبِهِ عَنْ لَحْظِهِ فَلَمْ
يَرَهُ ، وَإِنْ خَلَيْنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِنَا الشَّرِيفَةِ اسْتَخْرَجَهُ كَمَا فِي خَوَاطِرِنَا
وَأَظْهَرَهُ - كَالْمَجْلِسِ الْعَالِي ، الْقَضَائِيِّ ، الْأَجَلِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ،
الْعَوْنِيِّ ، الْعَلَامِيِّ ، الْقَوَامِيِّ ، النَّظَامِيِّ ، الْمَدَبَّرِيِّ ، الْمُشِيرِيِّ ، الْفَاضِلِيِّ ، الْكَامِلِيِّ ،
الْأَوْحَدِيِّ ، الْمُفَوَّهِ ، الْخَاشِعِيِّ ، السَّفِيرِيِّ ، الشَّهَابِيِّ : صَلَاحِ الْإِسْلَامِ
وَالْمَسَامِينِ ، سَيِّدِ الرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، قُدُوةِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ ، إِمَامِ الْفَضْلَاءِ
وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، رَئِيسِ الْأَصْحَابِ ، مَلَاذِ الْكُتَّابِ ؛ سَفِيرِ الْأُمَّةِ ، عِمَادِ الْمَلَّةِ ، لِسَانِ
السلطنة ، مَدَبَّرِ الدُّوَلِ ، مُشِيدِ الْمَالِكِ ، مُشِيرِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، وَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

(١) فِي الْمَصْبَاحِ فَسَرَهُ مِنْ بَابِ ضَرْبٍ أَوْضَحَهُ وَبَيْنَهُ وَالتَّثْقِيلَ مِبَالِغَةً .

«أحمد بن فضيل الله» ضاعف الله نعمته . فإننا خطبناه لهذه الوظيفة ، واستخاضناه على كثرة المتعينين لأنفسنا الشريفه ، وأمتحنناه في الأمور الجلييلة واللطيفة ، وحملناه الأعباء الثقيلة والخفيفة ، وأوقفناه مرة وأخرى أطلقنا تصريفه ، وأنعمنا النظر في حاله حتى تحققنا تثقيفه ، وكتب واستكتب عنا سرا وجهرا فلما قلبا وسمعا ، وباشر مراسمتنا العالية مصرا وشامأ وضلا وقطعا فعز رفعة وعم نفعاً ، وأنشأ التقاليد وقلدها ، ونفذ المهمات وسددها ، ووقع التواقيع وأطلق بها وقد قيدها ، ومشي المصالح باحتراز ما بددها وأحتراس ما عقدها ، وجهز البرد بهمة ما قيدها طلب الراحة ولا أقعدها . وهو كاتب ملوك ، وصانع سلوك ، وشارع سلوك ، وصانع ذهب مسبوك ، وناسج وشى محوك ، وجامع صفات ماسواها هو المتروك ، لا يعدو بالكلمة محلها ، ولا يؤانح بالقرينة إلا شكها ، ولا يسمح بخطبة إلا لمن تعين لها ، ولا يعامل بالغلظة إلا من استوجبها ولا يخص بالحسن إلا أهلها ، نأمره بالتحويل فيزول قواعد العدو ، وتسير إليه بالتهوين فيفيد مع بقاء المهابة الهدوء ، وقد رضيناه حق الرضا ، وأضربنا به عم من بقي من أكابر الكُتاب ونسبنا من مضى ، وتعين علينا أن نحكم له بهذا الاعتبار ونحمله على هذا المقتضى ، وأن نطلع في سماء دسنتنا الشريف شهاباً أضاً ، وأن نقلده مهماً مازال هو القائم بتنفيذ أشغاله ، والساعي بين أيدينا الشريفة في تدبير مقاصده وجملة أحواله ، إلى ماله من بيت أثلوا مجده ، وأثروا سعده ، وأرثوا عندنا وده ، وبني كما بنوا ، واجتني من السؤدد ما آجتنوا ، ورحى في خدمة الدول إلى مارموا ، إلا أن مذهبه في البيان أحلى ، وأسلوبه أجلى ، وقيمة كلامه أغلى ، وقدره في الكمال هو المعلى ، وأدبه بحمد الله قد لحظته سعادة أيامنا الزاهرة فإفيه لولا لولا ، سوى أنه اتفق معارض أعترض بين السهم والهدف ، وسفه نفسه فوقف في مواقف التلف ، ودق عنه شأن كاتب السر فسقط من حيث

طَمَعَ فِي السُّقُوطِ وَمَا عَرَفَ ؛ وَرَامَ الدُّخُولَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ يَدِهِ ، وَبَيْنَ اللِّسَانِ وَمَا يُحَدِّثُهُ بِهِ الضَّمِيرُ مِنْ حَقِيقَةِ مَعْتَقِدِهِ ، وَالْإِطْلَاعَ عَلَى مَا لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ لِمَا أَدَارُهُ فِي خَلَدِهِ ؛ وَالتَّعَدَّى بِمَا لَيْسَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ مَتَوَقَّعٌ ، وَسَرَى فِي مَسَرَّى لَوْ طَمَحَ إِلَيْهِ طَرَفُ السَّمَاءِ لَتَقَطَّعَ ؛ وَمَا عَلِمَ أَنَّ كَاتِبَ السَّرِّ هُوَ مُسْتَوْدَعُ الْخَبَايَا ، وَمُسْتَطَلَعُ الْخَفَايَا ، وَقَلَمُهُ (أَبْنُ جَلَا وَطَّلَاعُ الشَّيَا) ، وَفِي اسْتِئْذَانِهِ يُعَرَّفُ بِالْمُسْنَى وَيُرَعَفُ بِالْمُنَايَا ؛ وَلَهُ الْكِتَابَةُ وَالتَّوْقِيعُ ، وَالتَّصَرُّفُ فِيمَا لِلتَّنْفِيزِ مِنَ التَّحْسِينِ وَالتَّنْوِيعِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ التَّفْرِيقِ وَالتَّجْمِيعِ ، وَالتَّأَصِيلِ وَالتَّفْرِيعِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّأْمِينِ وَالتَّرْوِيعِ .

وَمَا دَلَّ ذَلِكَ الْمُعْتَرِضُ بِإِتْجَارِهِ ، وَأَطَالَ الْمَطَارَ فِي غَيْرِ مَطَارِهِ ، وَقَالَ النَّاسُ إِنَّ أَبْوَابَنَا الْعَالِيَةَ جَنَّةَ حُفَّتْ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِ بِالْمَكَارِهِ ، رَمَيْنَا بِهِ مِنْ شَاهِقٍ ، وَأَبْعَدْنَاهُ لِآخِرَتِهِ أَزْهَدَ مَا هَدَرَ مِنْ تِلْكَ الشَّقَاشِقِ ؛ وَتَقَدَّمْنَا بِإِنْشَاءِ هَذَا التَّوْقِيعِ الشَّرِيفِ تَقْوِيَةً لِكَاتِبِ سِرِّنَا الشَّرِيفِ فِي تَصْرِيفِهِ ، وَبَيْنَا أَنَّهُ لَا يُقَاسُ بِهِ أَحَدٌ فَإِنَّهُ لِسَانَ السُّلْطَانِ وَيَدُهُ وَكَفِيُّ بِذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى تَشْرِيفِهِ .

فَرَسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَى ، السُّلْطَانِيَّ ، الْمَلِكِيَّ ، النَّاصِرِيَّ - لِإِزَالِ إِذَا عَزَمَ صَمِّمَ ، وَإِذَا بَدَأَ الْمَعْرُوفَ تَمَّ ، وَإِذَا اسْتَخَارَ اللَّهَ فِي شَيْءٍ رَضِيَ بِخَيْرَتِهِ وَسَلَّمْ - أَنْ يَسْتَقِيلَ الْمَجْلِسَ الْعَالِي ، الْقَضَائِيَّ ، الشَّهَابِيَّ « أَحْمَدُ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ » الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِصَحَابَةِ دَوَاوِينَ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْحُرُوسَةِ : رَفِيقًا لِأَبِيهِ الْمَجْلِسِ الْعَالِي ، الْقَضَائِيَّ ، الْحَيَوِيِّ : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَبَرَكَتَهُ فِي الْمُبَاشَرَةِ ، وَشَرِيكَهَا بَلْ مُنْفَرِدًا لِيَقُومَ مَعَهُ وَدُونَهُ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ كِتَابَةِ بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ ؛ أَسْتَقِيلَ كُلُّ مَنْهُمَا بِهَا فِيمَا بَعْدَ وَقَرَبٍ مِمَّا يَضُمُّهُ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ؛ مَعَ مَا هُوَ مُسْتَقَرُّ فِيهِ مِنْ كِتَابَةِ

السر الشريف ، والتصرف في المهمات الشريفة والتصرف ؛ وهو المنفرد بتقديم البريد وعرضه ، ومباشرة ختمه وفضه ، وقراءته بين أيدينا ، واستخراج مراسيمنا الشريفة في كل مناب ، ومشافهة وخطاب ، وأبداء وجواب ، ولطف ومكبر ، ومقدم ومؤخر ، ومكمل ومشطر ؛ وإليه أمر البريد والقصاص والتجابه ، ومن أشتمل من الدجى جلبابه ، أو ألقته إلى ملاء الصباح المنشورة يد ليلة منجابه ؛ وتعيين من يرى تعيينه منهم في المهمات الشريفة السلطانية ، والمصالح المقدسة الإسلامية ؛ وإليه الحمام الرسائل وترجيته ، وزجالاته ومدرجته ؛ ومن يصل من رسل الملوك إلى أبوابنا العالسة ، وجميع من يكتب الدولة الشريفة من كل منسب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءة القصص لدينا ، والكتابة على ما يسوغ كتابة مثله ، وأخذ العلامة الشريفة من يده .

وأما من تستكتبهم عنا في ممالكنا الشريفة فهو المقلد لأعبائهم ، والمحلل بينه وبين ما يراه في آجبتائهم ؛ يستكتب كل أحد فيما يراه ، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات منهم مستيقظ ومنهم نائم في غمرات كراه ؛ كل هذا من غير معارضة له فيه ، ولا اعتراض عليه في شيء منه ؛ يبلغنا مهماتنا الشريفة ويتلقى عنا ، ومنه إلينا وإليه منا .

وأما ما يرد عليه من الرسائل عنا بما يكتب به فيمشی منه مالا يمكن وقوفه ، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجعتنا تصريحه ؛ فليمش على هذه القاعده ، وليستقل بهذه الوظيفة استقلالاً هو كالمخبر محل الفائدة ، ولينشر من إقبالنا الشريف عليه بالصلوات العائده ؛ ونحن نختصر [له] الوصايا لأنه الذي يملها ، ونقتصر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يعاينها ، والباقية الصالحة خير لمن يقتفيها ؛

والله تعالى يقوى أسبابه ، وينير شهابه ، ويزيد من المعالى آكتسابه ، ويغنيننا بقلمه عن سنان يتقدم عامله ، ولسانه عن سيف يقارق قرابه ، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .



وهذه نسخة تقليد بعود القاضى شهاب الدين بن فضل الله إلى كتابة السر .
من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمد لله الذى أحمد العقبى بفضله ، وأكّد النعمى بوصله ، وأودع سرّ مدحنا الشريف عند أهله ، وأطلع شهاب الدين من أفق العلياء فى محلّ شرفه وشرف محله ، ورفع قدره فى سيره إلى بروج السعود وحلّوله بدرجات الصعود ونقله ، وأرجع الموهبة منه إلى من يشكرها بقوله وفعله ، وأينع الفرع الزاكي الذى يحيا أصله بوا كيف سحاب كريمنا ووبله ، وأتمّ النعمة عليه كما أتمها على أبويه من قبله ، وضمّ له أطراف الرياسة وجمع شملها بشمله ، وعمّ بفضله وفضلنا أهل هذا البيت الذين فطروا على السؤدد وبصروا من رضانا باتّباع سبله .

نحمده على إصفاء ظله ، ونشكره على إصفاء نهله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشرق نور هداها ، بمستدله ، وأغدق نوء نداها ، بمستهلّه ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أرسله خاتم رسله ، وجعل له الفضل على الخلق كلّ ، وألهم به سبل هديه وسنن عدله ، وأرشدّه إلى فرض دينه ونقله ، وأودعه السرّ الذى لم يودعه سواه وحمله من أعباء الرسالة ما لم ينهض غيره بحمله ، صلى الله عليه وعلى آله أغصان الشجرة الزهراء التى هى بضعة منه ونبتة من أصله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجلّهم من أجله ، خصوصاً مَنْ بادر إلى الإيمان نُحِصَّ من السَّبقِ
بخصِّله ، ومَنْ أيدَّ به الدينَ وقرَّ الشَّيطانَ من ظِلِّه ، ومَنْ جَهَّزَ جيشَ العُسرةِ حتَّى
غزَا العدا بجنِّله ورجَّله ، ومَنْ كانَ بابَ مدينةِ العلمِ وما نَحْ جَزَلِه وفاتحَ قُفْلِه ، وعن
بقيةِ المهاجرين والأنصارِ الذين ما منهم إلَّا مَنْ جاهدَ حتَّى قامَ الدينُ بنصره ونصَّله ،
صلاةً دائمةً يجعلها اللسانُ أهمَّ شُغْلِه ، ويُتَلَقَّ قَادِمُها في مواطنَ القَبولِ بأكرمِ نُزْلِه ،
ما رمَى قوسَ العزمِ بصائبِ نبْلِه ، وحَمَى حِمَى المَلِكِ بلبَّيْته وشبْلِه ، وفوَّضَ أَجَلَ
المناصبِ إلى فاضلِ العصرِ وأجلَّه .

أما بعدُ ، فإنَّ آراءنا لا تزالُ للإصلاحِ مُراعِيَّةً ، ولا تَبْرَحُ بالإسعادِ إلى الأولياءِ
ساعيَّةً ، فتدعو إلى مَقامِها من وقرَّ على الإخلاصِ دواعِيه ، وتُدْنِي من مُلكِها مَنْ له
بأنفِيا أعظمُ بصيرةٍ وفي جميلِ القضايا أجمَلُ طواعِيه ، وتُلْقِي أسرارها إلى مَنْ له
لسانُ حقٍّ ناطقٌ وأذنٌ خيرٍ وإعِيه ، وتُقَدِّمُ مَنْ له قَدَمُ صِدْقٍ ثابتةٌ ويدٌ بيضاءٌ طولى
في المهمَّاتِ عاليه ، لتغدو سِهامُ أقلامِه إلى الأغراضِ راميَّةً ، وصوابُ أفكارِه
عن حِمَى المَلِكِ محاميَّةً ، وتكونَ عبارتهُ للقاصِدِ مُوفِيَّةً وإشارتهُ لموعدِ الثَّمنِ مُوافِيه ،
وتُضِحي دِيمُ نِعَمنا الواكفةُ لسوابقِ خِدمه مُكافِيه ، لما يَتَّصِلُ بذلك من المَصالحِ ،
وتُناجِي خواطِرنا الشريفةَ به المَنَاجِحِ ، ويقبِلُ عليه وجهُ الإقبالِ ، في كلِّ حالٍ ، ويغدو
إليه طَرَفُ الإجلالِ ، وهو طامِحٌ ، فنَجْمُ به ممالكنا مَضرا وشاما ، ونُسَدُّ به مَرْمَى
ونُصِيبُ مَراما ، ونَحْفَظُ له ولأبيه في خدمتنا حقًّا وذيما ، ونكونُ له في الحالتين
بِرًا وإِكْراما ، ونُعَلِي محلَّه إعلانا بعلوِّ مكانه وإعلاما ، فيؤلِّفُ للرياسةِ نظاما ،
ويُضاعِفُ للرَّتبةِ إعظاما ، ويُعَمِلُ يراعًا بل حُساما ، ويَجْلُو وجهَ المُنَى طَلقا ويبدو
بعدَ البِشْرِ بَساما ، ويُحَسِّنُ بأعباءِ المهمَّاتِ قياما ، وحيثُ نقلته أوطانه هِضابَ
المجدِ وقَلْبَه ، وأينَ وجهته أعلتُ قدره وتوهَّته ، وكلما أوفدته أفاضتُ عليه ملبَّسَ

العزَّ وجادته ، واختصته بالتصرف وأفردته ، وانتصت ماضى اجتاده وجرده ، وأجرته من إجراء فضليها على ما عودته ، واستقلت له منائحها من كثير المواهب ماخولته ، ومن كبير المناصب ماقلدته .

ولما كان فلان هو الذى أودع الأسرار فحفظها ، وأطلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحظها ، وباشر مهماتها فأمضاها ، وسرَّ خواطرنَا وأرضاها ، وظهرت منه بين أيدينا كفاية لا تضاهى ، وقد أجياد أوليائنا من تقاليده عقودا ، وأدنى من المقاصد بلطف عبارته بعيدا ، وأغنى الدولة أن تجهز جيشا وجهاز يريدا ، وأبان بمقاله عما فى أنفسنا فلم يبق من يدا ، وصان الأسرار فجعل لها فى خلدِه خلودا ، وجمع أشتات المحاسن فأضحى فريدا ، كم لعمه فى خدمتنا من هجرة قديمة ، ولأبيه من موالاة هى للمخالصة مواصلة ومُدِية ، وكم لها أسباب فى الرياسة قوية وطرائق فى الهداية قويمه ، وكم كاتب يسر الله بهما تعليمه وتفهمه ، وقدَّر على يديهما وصوله إلى رتب العلياء وتقديمه ، فنفعتهما عيمه ، ونبعتهما صميمه ، ولهما فى الشام ومصر أجل شيمه ، وكم له هو أيضا من تقدمات أقتضت تكريمه ، وكفاية عند علومنا الشريفة معلومه ، وكتابة حلل المهارق بوشيا مرقومه ، فلو قابله الفاضل «عبد الرحيم» لبادر إلى فضله إقراره وتسليمه ، أو «عبد الحميد» لكانت مناجه الحميدة بالنسبة إلى مذاهبه ذميه ، أو سمع «عبد الرحمن» مقاله لضمن ألفاظه معانيه العقيمة ، أو أدركه «قدامة» لعرف تقديمه ، وأقتدى بسبله المستقيمة ، أو حوى «الجوهري» فرائد ألفاظه لعرف أن صحاحه إذا قرئت بها سقيمه ، أو رأى «ابن العديم» خطه لاستغنت منه بسلاسل الذهب نفسه العديمه ، أو «الولى» لاستجدى من صوب إجادته أغزر ديمه ، أو نظره «ابن مقالة» لوجدت مقتله نضرة خطه ونعيمه ،

أو «أَبْنُ الْبَوَابِ» لَكَانَ خَدَيْنَ بَابِهِ وَخَدِيمَهُ ؛ فَهَمَّ صُدُورُ صُدُورِهِمْ سَلِيمَهُ ، وَأَمَانُ
مَعْدُودَةٍ وَأَمَنَاتِهِمْ مَعْدُومَةٍ .

أَقْتَضَى حَسَنُ رَأْيِنَا الشَّرِيفُ أَنْ نُثْقِلَ إِلَيْهِ مَنْصِبًا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، وَنُقَرِّرَ عَيْنَهُ بِدُنُوهِ مِنَّا
وَأَقْتَرِبَ بِهِ ، وَنَمْتَعَ الْبَصَرَ وَالسَّمْعَ بِخَطِّهِ وَخَطَابِهِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، الْفُلَانِي -
لَا بَرَحَ يُعِيدُ نِعْمَتَهُ كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَيُسَرُّ الْقُلُوبَ بِكَافٍ أَوْدَعَهُ سِرَّهُ ؛ وَيُجَمِّدُ
لِأَحْمَدِ الْأَوْلِيَاءِ عُدَّةً وَمُسْتَقَرَّةً ^(١) .

فَلْيَتَلَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةُ بِشُكْرِهَا وَلِيَتَرَقَّ مَنْصِبًا رَفِيعًا يَنْاسِبُ رِفْعَةَ قَدْرِهِ ، وَلِيَبْسُطَ قَلَمَهُ
فِي تَنْفِيزِ مُهِمِّ الْمَالِكِ مِنْ نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ ، وَلِيَحْفَظَ مَا أَوْدَعَهُ مِنْ خَفِيِّ سِرِّهِ ، وَلِيُلاحِظَ
الْمُهَيِّمَاتِ بِفِكَرِهِ ، وَلِيَحَافِظَ عَلَى مَا يَعْرِفُهُ مِنْ رِضَانَا طَوَّلَ دَهْرِهِ ؛ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ
صَوَابِ أَعْمَالِهِ وَتَسْدِيدِهَا ، مَا لَا نَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى تَكْثِيرِ الْوَصَايَا وَتَعْدِيدِهَا ، وَلَا إِلَى
تَكَرِيرِهَا وَتَرْدِيدِهَا ؛ لِأَسِيَّا وَقَدْ سَلَفَتْ لَهَا بِهَا خِبْرَةٌ لَا تَقْتَرِفُ إِلَى اسْتِعَابِ ذِكْرِهَا
وَلَا إِلَى تَجْدِيدِهَا ، وَتَقَدَّمَتْ لَهَا مَبَاشَرَةٌ اسْتَبْشَرْنَا بِمُيَمُونِهَا وَأَثِينِهَا عَلَى حَمِيدِهَا ،
وَأَسْتَدْنَيْنَا سَنَاهَا وَأَسْتَغْنَيْنَا عَنْ سِوَاهَا بِوُجُودِهَا ؛ وَلَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَوْفَرُ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْحَقِيقُ بِمَا فَوَّضْنَا إِلَيْهِ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَفَضَّلَهُ مِنَ الشَّوَائِنِ عِزِّي وَفِي الْمَجَانِبِ
عَرِيقِ ، وَقَدْرُهُ بِتَجْدِيدِ النِّعَمِ جَدِيرٌ وَبِخِلَالِ الْكَرَمِ خَلِيقٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوضِّحُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ
أَبْيَنَ طَرِيقٍ ، وَيُسَرُّ بِمَقْدَمِهِ الْوَلِيَّ وَالصَّدِيقَ ، وَيَقْرُقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِخُذِّهِ
الْفَارُوقِ وَهُوَ مِنْ أَكْرَمِ فَرِيقٍ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ ! .

(١) حذف المرسوم به اختصاراً في النسخة واكمالا على فهمه من نظائره المتقدمة فهو ملحوظ

له ومراد .



وهذه نسخة تقليد بكتابة السرى :

الحمد لله الذى أظهر لتدبير دولتنا شهبا يعلو على فرقَد الفراقِد، وكَمَّلَ به عقودَ
الممالك فسَمَت جواهرُ فرائدِها على الدَّرارىّ إذ كان واسطةَ تلك الفرائدِ؛ ومُعِيدِ
إحساننا إلى خيرِولى أغنى تدبيره عَمَّن سواه فكان بالألفِ ذلك الواحد، ومُحوِّلِ
موادِّ كرمنا لمن هو صدرُ أسرارنا ويمينُ مملكتنا فى كلِّ صادرٍ عنها وواردٍ؛ ومنقِّلِ
الأَكفاء إلى مراتبِ سعودهم فتُصبحُ ألويةُ محامدِهم فى معاقلِ الغزِّ أخْرَ معاقدٍ،
ومُحَلِّ مَلِكنا الشريفِ بأكلِ كافٍ ما أمَّ مصرنا إلا تلقَّته بالهناء ولا فارقَ شاما إلا أَسِفَتْ
عليه تلك الربوعُ والمعاهدُ .

نحمده على نِعَمٍ أَقْرَت عِيونَ الأولياءَ لَمَّا أَقْرَبَتْهم من موادِّ جودنا على أَكَلِ القَواعدِ،
ونشكره على ما بَلَّغْنَا من جميلِ المآربِ وبلوغِ المقاصدِ؛ ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده
لا شريكَ له شهادة تُنجي قائلها من جميعِ الشدائدِ، ونشهد أنَّ سيدَ [نا محمدا] سيدَ [البشر]
عبده ورسوله الذى جاد بهدايته فكان أكرمَ جائدٍ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحَّابته
خصوصًا على أوَّلِ الخلفاءِ أبى بكرِ الصديقِ الذى لا خَرَّ كَفَخَّارُه، وعلى أميرِ المؤمنين
عمرَ بنِ الخطَّابِ حاملِ أسرارِهِ وفتاحِ أمصارِهِ، وعلى أميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عفَّانَ
مُبدِّلِ عُسْرِهِ بيسارِهِ، وعلى ابنِ عمِّه علىَّ بنِ أبى طالبٍ أعزَّ نُسبائِهِ وأخصَّ أصهارِهِ،
وعلى بقيَّةِ مهاجرِهِ وأنصارِهِ، صلاةً سَهْلَةً المِشارِعِ عَذْبَةً المِواردِ .

وبعد فإنَّ من سَجَّيتنا إذا تيمَّنا بولى لا نزال نلحُظُهُ، ونرعى حقوقَ خَدَمِهِ
فى القُربِ والبُعدِ ونحفظُهُ؛ ونُقابل ما أسلفه لدينا بنفائسِ النِّعمِ، ونُفيض عليه مَلايسِ
الجُودِ والكرمِ، لا سِيَّما من لم يزل يُظهر لنا كلَّ يومٍ تَعَبُّدا جديدا، ومن أَصْبَحَ

في الفصاحة والبلاغة وحيدا ، ومن جمع أطراف السؤدد والرياسة فلم يبرح بهما فريدا ؛ ومن تحسن النعم بإفاضتها عليه ، وتكمل المنن بإضافة محاسنها إليه ؛ وتزهو فرائد البلاغة بانتظامها في سلك مجده ، وتشرق كواكب البراعة في أنساقها في فلك سعده ؛ وكان للبايتيه في الاختصاص بنا اليد الطولى ، وتلا عليه لسان أعتنائنا في الحالين : « ولآخرة خير لك من الأولى » .

ولما كنت أيها الصدر « شهاب الدين » أحق الناس بهذا المنصب لما لوالدك - أبقاء الله تعالى - ولعمرك - رحمه الله تعالى - من الحقوق ، ولما أسلفنا من الخدم التي لا يحسن التناسي لها ولا العقوق ؛ ولأنك جمعت في المجد بين طارف وتالد ، وفقت بأزكى نفع وعم وإخوة ووالد ؛ وجلالته ، ما ورثها عن كلاله ؛ وخلال ، ما لها في السيادة من إخلال ؛ ومفانحه ، تكاثر البحر الزانح ؛ وماثره ، يعجز عن وصفها الناظم والناتر ؛ ولما نعلمه من فضائلك التي لا تُجحد ، وعينك في عودك لوظيفتك وعود « أحمد » أحمد .

(١) ولما كان فلان هو الذي تقطر الفصاحة من أعطاف قلمه ، وتخطر البلاغة في أثواب حكمه ؛ وتنزل المعاني الممتنعة من معاقل القرائح على حكمه ، وتقف جياد البداهة المتسرعة حيرى قبل التوسط في علمه ؛ إن وشى الطرس فرياض ، أو أجرى النفس فياض ؛ أو نظم فقلائد ، أو نثر ففرائد . لا يتجاسر المعنى المطروق أن يلم بفكره ، ولا يقدم المعنى المتخيل المسبوق للرور بذكره ؛ ولا يجوز زيف الكلام على ذهنه المتقيد ، ولا يثبت غشاء الكلام لدى خاطره المتقيد ؛ « عبء الحميد »

(١) هذه عبارة أخرى تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أى فالكاتب مخير في تصدير مقاله بأحدهما

كـ«عبد الرحيم» فى العجز عن لحاق علومه التى يجد «الراغب» على نورها هدى، والأصمعى لو أدركه لتالاه عليه : «هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا» والطغرائى «لو عاصره لزاد نظمته وازداد على نوره هدى، و«الحريرى» لو رافقه لأمن فى «مقاماته» من التجريح والردى؛ قد قصرت عن غاية كماله جياذ القرائح، وعجزت عن وصف صفاته جميع المدائح؛ وشرف منصبه بانتسابه إليه، ورفع قدره بمثوله لديه؛ مع ما تميز به من نزاهة صرف بها عن الدنيا طرفه، وزهادة زانت بالسعد صدره وملاءة ملأت بالعفة كفه؛ فهو واحد زمانه، وأوحد أوانه؛ والبحر الذى يحدث عن فضله ولا حرج، والروض الذى ينقل عن فضله إلى الأشماع أطيّب الأرج؛ وكان قد مال عن منصبه وهو يذكره؛ وفارقه وهو يسمّكه، ونادى غيره وبقوله يلبى، وشغل بغيره وهو يقول حسبي «شهاب الدين» حسبي : «فلما رآه مستقرًا عنده قال هذا من فضل ربّي». فلما حصل له الاستئناس، وزال عنه القلق والالتباس، قال : «ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس» - أقتضى حسن رأى الشريف أن نخصّه باستقرار رتبته لديه، وأن نستمرّ به على وظيفته السنية استقرار السعود المقبل عليه .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال شهاب سعيه لامعا، وسحاب كرمه هامعا، ومطاع أمره لمصالح الدين والدنيا جامعًا؛ - لمناقبه^(١) التى وفرت ميامنها، وأسفرت بوصف آثاره الحسنة كوامنها؛ وأن يعاد إليها كما يعاد السوار إلى الزند، أو كما يعود نسيم الصبا إلى الرند. فليؤنس منصبًا كان إليه مشتاقًا، ومجلسًا كان متظرًا أن يزور من ملابس جلاله على عنقه أطواقًا؛ وليجمل هالة كانت متشوقة إلى عقود دُرره. فأحمد الله على ما خصصناك به من مزيد الاعتناء، وأن السعادة فى أيامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا لمناقبه... وأن يعاد .

متصلة فتشمل الآباء والأبناء ، ويكفيك بهذا التوقيع الشريف إذ بلغت به جميع
الأماني ، وتوجناه بيميننا الشريفة لقرب عهدنا بمصافحة الركن اليماني ، وأصطفيناك
بقلم عظم شأنًا بتلك السُّتور ، وغدا معمورًا بالهداية ببركة البيت المعمور ، وأزداد
بمشافهة الحرم الشريف نوراً على نور . فليحسن نظره المبارك في ذلك كله ،
وليُبد ما يحسن في هذه الوظيفة من مثله ، وفي تقدّم مباشرته في هذه الوظيفة
وعليه ما يغني عن كثرة الوصايا ، وملاكها تقوى الله تعالى وهي أكل المزايا ،
وليُحمد أفعاله ويصل أسباب اعتمادِه بسببها ، والله تعالى يُجمل له مواهب
تحويله ، ويجعل له الخير في تنقله وتحويله ، والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ،
إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بكتابة السر :

الحمد لله الذي جعل خواطر أوليائنا بإقرار نعمنا مستقره ، ومواطر آلينا على
ذوى الإخلاص في ولائنا دائمة الدِّيم مستمره ، وبشائر رضانا تجدد لكل من ذوى
الاختصاص آتياه وبشره ، وسوا فرأوجه إقبالنا لأولى الأصطفاء والوفاء مشرقة
الأوضاع مهللة الأسره ، مودع أسرار ملكنا الشريف من آل «فضل الله» عند
أكرم أسره ، ومتمتع دولتنا بخير كاف دقق في مصالحنا فكره ، وأنفق في مناجنا عمره ،
ومجمع آرائنا على أعلى على حل من بهر بيته بمعرفه وبهر خيره ، ومطلع أنجهم
بأفق تقربنا مرة بعد مره ، فنحني نبرهم الأكبر وقد شيدنا بإرتقاءهم بيته وشدنا
بعلائهم أزره .

نحمده على أن جبل سجايانا ، على الإحسان والمبره ، ونشكره على أن أجزل عطايانا ،
لمن لم يزل يعرف حقه ويألف خيرَه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

شهادة تشرح لمؤمنها صدره ، وتُصالح لمؤقنها أمره ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده
ورسوله الذى أسمى على الخلائق قدره ، وتولى فى المضائق نصره ، وأعلى فى المشارق
والمغارب ذكره ؛ صلى الله عليه وعلى آله أعز عترة ، ورضى الله عن أصحابه الذين
أسدوا المنة وسدوا الثغرة ، صلاة ورضوانا متواصلين فى كل أصيل ومكررين فى كل
بكرة ، ما وهب فضل الله مستحقاً فسر بالعواطف والعوارف سره ، وعقب فى سماء
الإسعاد كوكباً فجلاً محله وقر مقرة ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد فشيئاً نرى لأوليائها حقوقاً ، ونعمنا الغامرة تُسنى صدقاتها لمن لم يزل
فى ولأئها صدوقاً ، وتزید هباتها توفيراً لمن عهدت منه لمراضيا توفيقاً ، وتجدد
بتعاهدا معهد الفضل فلا يمسى خليلاً بل يضحى بيا كرامها خليفاً ، وتشيد بإحسانها
بيتاً أسس على تقوى الله وطاعة سلطانها فعداً بالحفظ حقيقاً ، وتحمى بأعتنائها جوانبه
من الغير فلا يرهب حماء لها طروقاً ، ولا تجد بفضل الله لها عليه طريقاً ، وتطلع
فى بروج صعودها زهراً تروق شروقاً ، وتجمع على مهماتها من عظموا فضلاً وكرموا
فريقاً ، وتودع أسرارها عند سراتهم ركوناً إليهم وسكوناً برضا بهم وثوقاً ، وتشفع
مناحها بمنائح تزيد آمالهم نجاحاً وتفيد أمانتهم تحقيقاً ، وترفع مكاناً علياً إلى حيث
أوسع السرار من ملكها من كان بالميا من ملياً وفى المحاسن عريقاً ، ويخلف فى خدمها
شقيق منهم شقيقاً ، ويصرف أوامرها ونواهيها من أعيانهم من تأمن المصالح مع
اجتهاده ، تفويتاً وتخاف الأعداء لسداده ، تعويها ، طالما أتمتاهم على إيداع أسرارنا
فلت من سرائرهم مستودعاً وثيقاً ، وعينوا للعلى فصادفت طويئنا من يقظتهم
ونهمتهم تصديقاً ، فهم أولى أن نجعل لأجيادهم بعقود جودنا تطويقاً ، وأحق أن
نرفع بنعمنا محللهم ، ونجمع فى خدمتنا شملهم ، فلا يخشون نقضا ولا تفريقاً .

ولما كان المجلس العالى الفلافى هو الذى لحظته عنايتنا، فعلا فعلا، وأيقظته إشارتنا، فغدا فى الحكم كهلا، وحفظته رعايتنا، فعمرت بيته العمرى الذى مازال بالعوارف ملموحا وللقبول أهلا، وأحظته سعادتنا، فى إقامته مقام أبيه فى حفظ أسرارنا التى هو أحق بإيداعها وأولى - أقتضى حسن رأى الشريف أن نجري بمراحمنا أقلامه، ونوفر من إنعامنا أقسامه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا برحت سبحانه عاقه، ومواهبه لها مزيد وإدامه، ورعايته إذا ابتدأت فضلا رأته إتمامه، وكواكبه تسير فى منازل عزها ولنيرها الأكلب الإرشاد والإمامه - أن يقوض إليه كذا وكذا، على أجل العوائد، وأكل القواعد، نظير ما كان مستقرا لأخيه .

فليباشر هذه الوظيفة التى لها به وبأهله أعظم نخار، وليحل هذه الرتبة التى ما منهم إلا من لها يجتبي ويستخار، وليجمل هذا المنصب الذى إليهم مصيره فى جميع الأمصار، وليحل المهارق بانشا آتته التى شان مطاوعها عن شأوها الإقصار، وليتوكل هذه المضمة التى لها على عليائهم أقصصار، وفى آبائهم وأبنائهم لها تعيين وأنحصار، وليدبج الطروس من خطه بالوشى الرقيم، وليبج النفوس من خطابه بالدر النظيم، وليسرج الشموس من أوضاع كتابته التى تبرز من إبريز كنوزها «أبن العديم»، وليجهز البرد التى تقدمها مهايتنا فلم يكتبها من كتاب الأعداء هزيم، وليزين مقاصدها التى قرن بها الفتح القريب والنصر العزيز والفضل العظيم، وهو بحمد الله غنى عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم، على القدر لا يحتاج مع المعية إلى تنبيه ولا إلى تعليم، وهم أئمة هذه الصناعة ولهم الفضل القديم، وسيلهم السوى وصراتهم القويم، والله تعالى يوفر لهم فضلنا العميم، ويظفر أقدارهم من لدنا

بتكرير التكريم ، ويُسنَى أمرهم فى آفاق العلياء يُسعدُ ويُقعدُ ويُقيم ، ويدِيمُ لكلِّ منهم
فى ظلِّ نعمنا المزيْدِ والتأكيدِ والتقديمِ ؛ والعلامةُ الشريفةُ أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ،
إن شاء الله تعالى .



وهذه وصيةٌ لكاتب السرِّ ، أوردتها فى "التعريف" وهى :

وليأمرُ عَنَّا بما يُقابلُ بالأمثال ، ويقال به : السيوفُ لأفلامه مثال ؛ ويبلغُ
[من] ملوكِ العدا ما لا تبلغه الأُسنة ، ولا تصلُ إليه المراكبُ المُشرعةُ القلوعِ والخيولُ
المطلقةُ الأعنة ؛ وليوقعُ عَنَّا بما تذهبُ الأيامُ ويبقى ، ويُحَدِّدُ من الحسناتِ ما يُلْفَى
آخرةً ويُلبى ؛ ويُتمِلِ من لدُنْه من غررِ الإنشاءِ ما يُطرزُ كلَّ تقليدٍ ، وتُلْقَى إليه المَقاليدُ ؛
ولينفدُ من المهِمَّاتِ ما تُحجِبُ دُونَه الرِّماحُ ، وتُحجِمُ عن مجارةِ خيلِ البريدِ بهِ الرِّياحُ ؛
ولينتلقِ ما يردُ إلينا من أخبارِ الممالكِ على اتِّساعِ أطرافِها ، وما تَضُمُّه ملاءةُ النَّهارِ
مِلءَ أطرافِها ؛ وليُحسِنِ لَدَيْنَا عَرْضَها ، وليؤدِّ بأدائها واجبَ الخدمةِ وليُتمِّ فَرْضَها ؛
وليُجِبْ عَنَّا بما استخرجَ فيه مراسِمنا المُطاعة ، وبما وُكِّلَ إلى رأيه فسَمِعَ له
الصوابُ وأطاعه ؛ وليُخِصْ ما يصدرُ عَنَّا مما يُجوبُ الآفاقُ ، ويزكو على الإنفاقِ ،
ويجول ما بينَ مِصرَ والعِراقِ ، ويطيرُ به الحِمامُ الرِسائِلُ وتجرى الخيلُ العِتاَقُ ؛
وليُرِ الثَّوابُ ما أبهمَ عليهم بما يُريهم من ضوئِ آرائنا ، وليؤكِّدْ عندهم أسبابَ الولاءِ
بما يُوالى إليهم من عَميمِ آلائنا ؛ وليأمرِ الوُلاةَ بما يقِفُ به كلُّ منهم عندَ حدِّه
ولا يتجاوِزُه فى عمله ، ولا يقِفُ بعده على سِواه بأَمَلِه ؛ وليتولَّ تجهيزَ البريدِ ،
وَأَسْتَظْلَاعَ كلِّ خبرٍ قَريبٍ وبعيدٍ ؛ والتَّجَاوِةَ وما تَسِيرُ فيه من المِصالحِ ، وتأخذُ منه
بأطرافِ الأحاديثِ إذا سالتُ منه بأعناقِ المَطِيِّ الأباطِحِ ؛ وأمورَ النُّصحاءِ والقُصَّادِ ،

ومن يَظُلُّ سِرَّهُمْ عنده إلى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرجالَ أَنْصَداعُهَا وهم شَتَّى في البلادِ ؛ وليُعرفَ
 حقوقَ ذوى الخِدمة منهم ، وأهلِ النصيحة الذين رضى الله عنهم ، ولا يَنسَ
 عوائدَهم من رُسومِ إحساننا الموظَّف ، وكرمنا الذى يَسْتَمِيلُ به القلوبَ ويتألَّف ؛
 وليُصنِ السِّرَّ يُجْهده وهيات أن يَخْتَفَى ، وليُحجِّبه حتى عن مِسْمَعِيهِ فِسرُ الثلاثة غيرِ
 الخَفِي ؛ والكَشَافَةِ الذين هم ربيَّةُ النظر ، وجَلَّابة كلِّ خَبَرٍ ؛ ومن هم أَسْرَعُ طُرُوقا
 من الطيف ، وأدخُلُ في نُحُورِ الأعداءِ من دُبابِ السَّيْفِ ؛ وهم أهلُ الرِّباطِ للخيَلِ ،
 وما منهم إلا من هو مُقْبِلٌ ومُدْرِكٌ كاللَّيْلِ ؛ والدَّيَادِبُ والنَّظَّارة ، ومن يَعْلَمُ به العِلْمُ
 اليقينَ إذا رَفَعَ دُخَانَهُ أو نَارَهُ ؛ وهم فى جَنَابَاتٍ حيثُ لا يَخْفَى لأحدٍ منهم مَنَارٌ ،
 ولا يزال كلُّ نَبِيٍّ بتنويرهم كأنه جَبَلٌ فى رَأْسِهِ نَارٌ ؛ والحمامُ الرِسَالِيَّ وما يَحْمِلُ من
 بَطَائِقٍ ، ويَحْمَلُ من الأبناء ما ليس سِوَاهِ [له] بَطَائِقٍ ؛ ويَخُوضُ من قطعِ الأنهارِ ،
 ويقطع إلينا ما بَعْدَ مَسَافَةِ شهرٍ وأكثر منه فى سَاعَةٍ من نَهَارٍ ؛ ويعزِّمُ السَّرى لا يُلَوِّى
 على الرَّباعِ ، ويعلم أنها من مَلَأْسَكَةِ النَصْرِ لَأَنهَا رُسُلٌ ولها أَجْنَحَةٌ مِثْنَى وثَلَاثَ
 ورُبَاعٍ ؛ وغير هذا مما هو به مَعْدُوقٌ ، وإليه يُخَدِّى به التُّوقُ ؛ من رُسُلِ الملوكِ
 الوارِدِ ، وطوائِفِ المُستأَمِنِينَ الوافِدِ ؛ وكلُّ هؤلاء [هو لآ] ما هم المترجِّمُ ، والمُصرِّحُ
 عن حالهم المُحمِّمُ ، فليُعامِلْهم بالكرامَةِ ؛ وليُوسِّعْ لهم من راتبِ المُضَيِّفِ ما يَحِبُّ
 إليهم فى أبوابنا العالِيَةِ الإقامَةِ ؛ وليَعْلَمْ أَنَّهُ هو لَدِينَا المُستشارُ المؤْتَمَنُ ، والسفيرُ الذى
 كُلُّ أَحَدٍ بِسِفَارَتِهِ مَرْتَمِنٌ ؛ وهو إذا كَتَبَ بَنَانُنا ، وإذا نَطَقَ لِسَانُنا ؛ وإذا خَاطَبَ
 مَلِكًا بَعِيدَ المَدَى عُنُونُنا ، وإذا سَدَّدَ رَأْيَهُ فى نُحُورِ الأعداءِ سَهْمُنا المُرْسَلُ وَسِنَانُنا ؛
 فليُنْزِلْ نَفْسَهُ مَكَانَهَا ، وليَنْظُرْ لَدِينَا رَتَبَتَهُ العَلِيَّةَ إذا رَأَى مثلَ النجومِ عِيَانَهَا .

فليُرَاقِبِ اللهَ فى هذه الرتبة ، وليَتَوَقَّ لَدِينِهِ فَإِنَّ اللهَ لا يَضِيعُ عنده مِثْقَالُ حَبَّةٍ ،
 وليُخَفِّ سَوْءَ الحِسابِ وليَتَقَّ اللهَ رَبَّهُ ؛ وجماعةُ الكُتَّابِ بديوانِ الإنشاءِ بالممالكِ

الإسلامية هم على الحقيقة رعيته ، وهداهم بما شئتم به من الآلاء والمعيتة ؛
فلا تستكتب إلا من لا تجد عليه عاتبا ، ولا يجد إلا إذا قعد بين يديه كاتباً ، والوصايا
منه تستملى .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحاب
التواقيع ، وهم على ثلاث درجات)

الدرجة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ «المجلس العالى» وكلها مفتحة بـ «الحمد لله»)
وتشمل على ثلاث وظائف سوى ما تقدم أنه نقل إلى رتبة النقايد ، وهو كتابة السر

الوظيفة الأولى

(نظر الخاص)

وقد تقدم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنها وظيفة محدثة ،
أحدثها السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » حين أبطل الوزارة ؛ وأن أصل
موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان ؛ وأن صاحبها صار كالوزير لقربه
من السلطان وتصرفه فى تدبير جملة الأمور ، وتعيين المباشرين ، إلا أنه لا يقدر على
الاستقلال بأمر ، بل لابد له من مراجعة السلطان . وقد تقدم ذكر ألقابه فى الكلام
على مقدمة الولايات من هذا الفصل ، وعلى طوة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص ، كتب به للقاضى شمس الدين موسى بن
عبد الوهاب فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » وهى :

الحمد لله الذى جعل كل جرح بنا موسى ، وعجل كل نعمة تبدل بوسا ، وتغير
بالسرور من المساءة لبوسا .

نحمده حمدا يشرح صدورنا ويسر نفوسنا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة ترفع لقائليها رؤوسا ، وتطلع في آفاق ممالكنا الشريفة شمسوسا ،
وتنشئ في أيماننا الزاهرة غروبوسا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى بشر به موسى ،
صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تملأ طروبوسا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن العمل بالسنة أولى ما يتمسك به المتمسك ، وقد قال صلى الله عليه
وسلم : «أبدأ بنفسك» ، وكانت الخواص الشريفة هى المصلحة الخاصة بنا ، المتعلقة
دون كل شئ بأنفسنا ، لأن من خزانها العالية تتفرق مواهبنا الشريفة فى الوجود ،
وتتخلل معاطف الأمراء والجنود ، وكان فيها من لم يزل هو وبنوه قائمين بها أحسن
قيام ، [و] فيها من ممالكنا الشريفة ما يضاهاى بمدده الغمام ، من حضر منهم لا يتفقد
معه من غاب ، ومن كتب منهم فى شئ من مصالحها قال الذى عنده علم من الكتاب ،
كم أجزت صدقاتنا الشريفة بأقلامهم من إنعام ، وتقسموا فى مصالحنا الشريفة هذا
فى الخاص وهذا فى العام ، طالما أقطع والدُّهم رحمه الله تعالى بعذر فمشوا الأمور
على أكل سداد ، وأجل اعتماد ، وأتم مالو حضر أبوهم وكان هو المتولى لما زاد ،
فما خلت فى وقت منه ، أو من أحد منهم لما غاب من بقى يسد عنه ، فلم يزل
منهم ربُّها مأنوسا ، ولا سُئل فيها عن قصّة إلا وأنبات بها صحف إبراهيم وموسى .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرّد آخرًا بهذه الوظيفة ، وأستقل فيها بين
أيدينا الشريفة ، وسافر فيها إلى ثغر الإسكندرية - حرمها الله تعالى - فاقتر بيمن
تصرفه ، وحسن تعفّفه ، وعدم فيها المضاهى لأنه لا شئ يضاهاى الشمس إذا حل

سُرَّهَا فِي مَنَازِلِ شَرَفِهِ ، كَمْ كَفَتْ لَهُ كِفَايَهُ ، وَبَدَتْ بِدَايِهِ ، وَكَمْ بَلَغَ مِنْ غَايَةِ ، كَمْ لَهُ مِنْ هِمَمٍ ، وَكَمْ تَقَدَّمَتْ لَهُ قَدَمٌ ، وَكَمْ اعْتَرَفَ السِّيفُ بِزِ الْقَلَمِ ، كَمْ لَهُ فِي خِدْمَةِ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ أَوْلَادِنَا أَثَرُ جَمِيلٍ ، وَفَعَلُ جَلِيٍّ جَلِيلٍ ، وَسُلُوكُ فَلَاحٍ يُحْتَاجُ فِي الشَّمْسِ إِلَى دَلِيلٍ ، كَمْ أَحْسَنَ فِي مَرَّةٍ ، كَمْ رَدَدْنَاهُ إِلَى الْكَرْكِ كَرَّهُ ، كَمْ غَلَبَ عَلَى السَّحَابِ فَرَقِي إِلَيْهَا ، وَبَلَغَ النُّجُومَ وَلَهُ قُدُومٌ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا أُنْقَلِ وَالِدُهُ الْقَاضِي تَاجُ الدِّينِ عَبْدُ الْوَهَّابِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَحْتَاجُ إِلَى تَوْقِيعِ شَرِيفٍ بِالْاِسْتِقْلَالِ فِي وَظِيفَةِ نَظَرِ الْخَاصِّ الشَّرِيفِ الَّتِي خَلَتْ عَنْ أَبِيهِ ، لِيَعْلَمَ كُلُّ مُتَطَوِّلٍ إِلَيْهَا أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا مَعَ وُجُودِ بَنِيهِ ، فَمَا عَادَ إِلَّا وَعَادَ بِعَيْنِ الْعِنَايَةِ مُحْرُوسًا ، وَلَا أَقْبَلَ عَلَى كَرْمِنَا إِلَّا قَالِ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُلُوكَ يَا مُوسَى ﴾ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - زَادَ اللَّهُ شَرَفَهُ ، وَمَكَّنَ فِي الْأَرْضِ تَصَرُّفَهُ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ نَظْرُ الْخَاصِّ الشَّرِيفِ بِالْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، عَلَى عَادَةِ وَالِدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْوِظِيفَةِ ، وَقَاعِدَتِهِ فِي رُتْبَتِهَا الْمُنِيفَةِ ، لِيَقْضَى مَا كَانَ فِي خَاطِرِ أَبِيهِ مِنَ الْوَطَرِ ، وَلِأَنَّهُ فِي أَمْثَالِهِ عَيْنُ الْأَعْيَانِ وَالْعَيْنُ أَوْلَى بِالنَّظَرِ .

فَلْيَبَاشِرْ مَا أَنْعَمَتْ بِهِ صَدَقَاتُنَا الْعَمِيمَةُ عَلَيْهِ عَلَى مَا عَاهَدَ [مِنْهُ] بِالْأَمْسِ ، وَعُرِفَ بِهِ مِنْ حُسْنِ السُّلُوكِ كَمَا يَمِشِي فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ ، وَلِيَقْدِمَ تَقْوَى اللَّهِ وَالْأَمَانَةَ فَهَمَّا أَفْضَلُ مَا يُقَدَّمُ ، وَأَجْمَلُ مَا يَعْمَلُ بِهِ مِنْ تَقَدُّمٍ ، وَالنَّهْضَةَ فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَصَالِحُ ، وَالتَّصَدَّقِي لِمَا هُوَ بِصَدَدِهِ فَإِنْ بِهِ يَتِمُّ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ ، وَلِيَحْتَفِظَ عَلَى الْخَزَائِنِ الْعَالِيَةِ ، وَلِيَكُنْ فِيهَا كَوَاحِدٌ مِنْ رُقَّتِهِ عَمَلًا بِالْعَادَةِ [فِيهَا] ، وَإِلَّا فَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ كِفَايَتِهِ [أَنَّهُ] يَكْفِيهَا ، وَلِيَشْمَرَّ الْجِهَاتُ الَّتِي إِلَيْهِ مَرْجِعُهَا ، وَالْأَمْوَالُ الَّتِي يَدُومُ إِلَيْهَا مِنَ الْعَيْنِ تَطْلُعُهَا ، وَلِيَسْتَجْلِبَ خَوَاطِرَ التُّجَّارِ بِإِصْالِ حَقُوقِهِمْ إِلَيْهِمْ ، وَالْقَائِمِينَ فِي خِدْمَةِ

أبوأبنا الشريفة بتعجيل ما تُنعم به صدقاتنا الشريفة عليهم ؛ وليكن إلى ما تبرز به
مراسمتنا الشريفة مُسارعا ، ولها في كل ما أشكل عليه من الأمور مُراجعا ؛ وبقية
هذا من كل ما يحتاج أن نُوصيه بتعلمه فقد علم مما جرت به عادتنا الشريفة بأن
نقوله في مثله ، ولهذا نختصر في الوصايا التي تُشرح آكتفاء بما آناه الله بنا من
فضله ؛ والله تعالى يأخذ به إلى النجاح ، ويفتح له بنا أحسن الأفتاح ؛ والاعتماد
على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمد لله الذي جعل خواص النعم لملكنا الشريف لأجلها ، ونفائس الذخائر من
دولتنا القاهرة بجلها ، وأخاير المفاتيح مبسوطا في أيامنا ظلها .

نحمده بحامده التي لا تملها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
أشرق مستهلها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي خُتِمت به أنبيأؤها ورسلها ،
وبعثه الله للأرحام بيئها ، وللأولياء بجلها ، وللأعداء يذئها ، وللسيوف النصر من
العمود يسئها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماشداً على مطية رحلها ، وولى المراتب
أهلها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن خزائن ملكنا الشريف مستودع كل ثمين ، وممالكنا المعظمة لا تُعَدَّق
إلا بالثقة الأمين ؛ ومتاجر خواصنا الشريفة لا يُمرّها إلا من رأيهِ يعضد قلمه في اليمن ،
والمنجبر المحروس لا يقوم ببناء محضوله إلا من له حزم سيدي وعزم متين ، ونظر
الخواص هو الذروة العالية فمرقيها على كل ما يعترضه مُعين .

ولما كان فلان هو المختار على يقين ، والمخطوب لهذا المنصب ليزيده فى التحسين والتحصين ، والذى إن نظّر فى القليل عاد كثيرا بالألوف والمئين ، فإن دبر تدبيرا حفظ وحرس وصين ، وضبط فى حسن الاعتماد بأع إلى الصّين ؛ وإن توجه إلى الثغر المحروس تفجّر له عن أمواله الجمّة ، وأخرج له من فاجر الحلل ما حسن راقته رفته ؛ وصدر عنه إلى أبوابنا الشريفة بالتّحف المضمّنة ، والمحمول التى أوقرت السفن فى النيل ، والإبل فى السيل ، فأزال الغمّة ، وأثار الأمور المندلمة ، ونشر ما طواه لدينا فشكرنا له ما تقدّم به مما أتمّه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف فليباشر هذا المنصب الكريم بتدبير يصلح الفاسد ، وينفق الكاسد ، ويكبت الحاسد ؛ ويكثر الأموال ، ويسعد الأحوال ؛ ويمرّ الذخائر ، ويسرّ السرائر ؛ ويوفّر حاصل الجواهر ، ويكثر التّحف من كل صنف فاجر ؛ ويوفى المهمّات الشريفة حقّها فى الأوّل والآخِر ، وينشر التّشريف كالآزاهر . وليختَر الأُمّناء الثّقات ، وليحرّر كلّ منهم الميقات ، وليبغ لنا الصّنا الشريف ويشتر بالأرباح فى سائر الأوقات ؛ وليتلقّ تجار الكارم الواردين من عدن ، باستجلاب الخواطر وبسط المنّ ، ونشر المعدلة عليهم ليجدوا من اليمن ما لم يجدوه فى اليمن ؛ وكذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن لهم الوفاة ، وليعامهم بالمعدلة المستفادة ، فإن مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزياده . والوصايا كثيرة وهو غنى عن الإعادة ، و [ملاكمها] تقوى الله فليقتف رشاده ، وليصلح مآبه ومعاذه ، ولا يتدنّس بأقذار هذه الدنيا فإنها جمره وقّاده ، والله تعالى يحرس إرفاقه وإرفاده ، بمنّه وكرمه ! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظر الجيش)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها التحدّث في الإقطاعات بمصر والشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها، وأخذ خطّه . وقد تقدّم ذكر ألقابه في جملة الألقاب في الكلام على مقدّمات الولايات من هذا الفصل ، وتقدّم ذكر ما يكتب في طرّة تقليده في الكلام على التوقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمد لله الذي عَدَّقَ بِالْأَكْفَاءِ مَصَالِحَ الْجُنُودِ ، وَصَرَّفَ أَقْلَامَهُمْ فِيمَا تَقَطَّعَ مِنْ الْجُودِ ، وَأَجْتَبَى لِمَرَاتِبِ السِّيَادَةِ مِنْ تَحْمَدِ الْأَقْلَامِ فِي الْعَطَايَا الْبَيْضِ وَالسُّيُوفِ فِي الْخُطُوبِ السُّودِ .

نحمده وهو المحمود ، ونشكره شكراً مُشْرِقَ الْمَيَامِنِ وَالسُّعُودِ ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً عَدْبَةَ الْوُرُودِ ، يَجِدُ الْخِلَاصَ بِرَكَّتِهَا يَوْمَ الْعَرْضِ ﴿ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أَصْحَتْ بِهِ جِيُوشُ الْإِسْلَامِ مَنْشُورَةَ الْأَلْوِيَةِ وَالْبُنُودِ ، مَنْصُورَةَ السَّرَايَا فِي التَّهَامِ وَالنُّجُودِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا أَوْرَقَ عُودُ ، وَأَوَّلَجَ نَهَارَ السُّيُوفِ فِي لَيْلِ الْغُمُودِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيماً .

وبعد ، فإنَّ أَجَلَ رُتَبِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ مُرْتَقٍ ، وَأَجْمَلُهَا مُتَقٍ ، وَأَكْرَمُهَا هَادِيًا حَلَّى بِعَقْدِ السِّيَادَةِ مَفْرُقًا ، رَتَبَةً حَكَمْنَا مَرْتَبِهَا فِي أَرْزَاقِ الْجُيُوشِ الَّذِينَ هُمْ حُمَاةَ الدِّينِ وَأَنْصَارُهُ ، وَلَهُمْ رَوَاحُ الظُّفْرِ وَابْتِكَارُهُ ، وَلِهَذَا لَا يَحْطَى بِتَسْنُئِهَا إِلَّا مَنْ عَلَا مِقْدَارًا ، وَشَكَرَتْ الدَّوْلَةُ الشَّرِيفَةُ لَهُ آثَارًا ، وَجَبَّتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ أَثْوَابُهَا ،

(١) (عَدَّقَ) جَمَعَ .

وأوكفت عليه سحابها ، وأنزلته ساحاتها ورحابها ، وغدت لأحاديث عليائه تروى ،
وحمده الميسور والمنشور والمطوى .

ولما كان فلان هو الذى نمت مأثره ، وكُرمت مفاخره ، وأستوت على العلياء
مظاهره ، وشكر استبصاره وحياطته ، وكل سلوكه منهج الفخار وجادته ، وأحصى
الجنود عددا ، وإن كثروا النجوم مددا ، وأحاط بالأرض المقطعة ، فلم تكن نواحيها
عنه ممتعه ، ولم يُغادر منها شيئا إلا أحصاه ، وأتبع سبب مرأضينا حتى بلغ أقصاه ،
فالعلم يُثني عليه والعلم ، والحرب والسلم يشكرانه لمناسبة نظره القرطاس والقلم -
أقتضى حسن رأى الشريف أن نرقيه هضبة سامية العلى ، فاحرة الحلى ، ومنبع
أرزاق أئمة الفضل وأبطالها ، ورتبة شهد منالها بعدم مثالها .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه

فليباشر هذه الوظيفة المباركة ، وليحل ذراها الأسمى ، وليجمل أطلاعه على
الحيوش المنصورة حتى لا يُغادر منها أسما ، لتغدو مصالحها وريقة الغراس بأسقه ،
وعقودها نفيسة الفرائد متناسقه ، وليجر نظره المبارك فيما صرّفناه فيه ، أخذاً بيمين
السداد من فعله وحسن التنفيذ من فيه ، ملزماً من تحت نظره بإتقان ما هم بصدد
من العروض والأمثلة ، حتى تغدو لديه ممثله ، محرراً للإقطاعات وعلم خفاياها فيما
نهبه ونقطعه ، ونصله ونقطعه ، والمقايضات وإن اختلفت ، والإفراجات وإن
اكتنفت ، والمغلات الآتية والأخرى التى سلفت ، وما يخص المتصل ، من فعل
المنفصل ، والمتحصل والعبره ، والخاص والعدة لذوى الإمره ، ومنها مصرى لاغنى
عن تحريره ، وشامى يفتقر إلى الإتيان فى قليله وكثيره ، ولينظر فيمن له جامكية
أو إقطاع مجزل ، وكلاهما فى دولتنا سماءك : هذا رايح وهذا أعزل .

هذه وصايا جمه ، وأنت غني عن أن يستقصي القلم ذكرها أو يثمه ، والله تعالى
يجل به رتبته ، ويبلغه أربه ، ويرفع عليه لواء المجد وعذبه ، بعد العلامة الشريفة
أعلاها الله تعالى أعلاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمد لله الذي أعزّ الجيوش المنصورة ، وجرّ أعناق العدا بالسيوف المشهورة ،
وهزّ ألية التأييد المنشورة ، وجعل الجحافل مشرفة وأجنحتها خافقة وساقها محدة
وقلوبها مسرورة .

نحمده بحمده المذكورة ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
مأثورة ، موصولة غير مهجورة ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أبطل
من الشيطان غروره ، وصان للإسلام حوزته وثغوره ، وسن لأئمة الاستخارة
والمشورة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تورت من الليل ديجوره ، وكثرت
لقائلها أجوره ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أحوال جيوشنا يتعين حسن النظر في أمرها ، والقيام بمواد نصرها ،
وإسعافها بناظر يحزر جهات أرزاقها ، ويضبطها مخافة افتراقها ، ويأمر بنظم جرائد
أسمائهم واتفاقها ، ويتقن الحل ، ويبين يوم العرض محله في ارتقاء العلي ، ويصون
الحسابات لكل منفصل ومتصل من الحلل ، ويسرع في الدخول والخروج ما يصل به
لكل حقه عند استحقاق الأجل .

ولما كان فلان هو الممدوح بالسنة الأقلام ، والرئيس بين الأنام ، والمشكور بين
أرباب السيوف وذوى الأقلام ، والمأمون فيما يُعَدَّق به من مهام ، والعزيز المثل ،

والسائر تجذده الأمثال ، والمنشور فضله فى كل منشور ، والظاهر أثره تجريده فى الديوان المعمور ، والذى شكرته الملكة الشريفة فهو من صدورها فى الصدور .

(٢) ... فللباشر نظر هذا المنصب السعيد بأمانة تحفظ أرزاق العساكر ، وتجلو الظلام العاكر ، وليحترر جرائد التجريد ، وليصن العدة الكاملة من التبديد ، ولتكن أوراق البياكر نصب عينيه حتى إذا طلبت منه أحضرها محرره ، وإذا وقع فيهم حركة كانت أفلامه غير مقصره ، ويرغب فى اقتناء الشاء حتى يصبح عنده منه جملة من الألوف ، وليكن للأمانة والنصح نعم الألوف ، وليتق الله مع أصحاب السيوف ، وليستجلب خواطر أرباب الصفوف ، وليجعل له برأ فى كل أرض يطوف ، وتقوى الله فهى السبيل المعروف ، فلينعم بجنّتها الدانية القُطوف ، وليلبس برديها الضافية السجوف ، والله تعالى يُنجيه من الخوف ، بمنه وكرمه !



وهذه وصية ناظر جيش أوردتها فى "التعريف" قال :

ولياخذ أمر هذا الديوان بكليته ، ويستحضر كل مسمى فيه إذا دعى باسمه وقوبل عليه بكليته ، وليقم [فيه] قياما بغيره لم يرص ، وليقدم من يجب تقديمه فى العرض ، وليقف على معالم هذه المباشرة ، وجرائد جنودنا وما تضحى له من الأعلام ناشره ، وليقتصد فى كل محاسبه ، ويحتررها على ما يجب أو ما قاربه وناسبه ، وليستصح أمر كل ميت تأتى إليه من ديوان الموارث الحشرية ورقة وفاته ، أو يخبره به مقدمه أو نقيبها إذا مات معه فى اليكار عند موافاته ، وليحتر ما تضمنته الكشوف ،

(١) لعله والظاهر أثره وتحريره الخ .

(٢) بياض بالاصل ومراده بالأمر الشريف الخ .

ويحقق ما يقابل به من إخراج كل حال على ما هو معروف، حتى إذا سُئل عن أمر كان عنه لم يخف، وإذا كُشف على كُشف أظهر ما هو عليه ولا يُنكر هذا لأهل الكُشف؛ وليحترز في أمر كل مَرَبَعه، وما فيها من الجهات المُقطَّعة؛ وكل منشور يُكتب، ومثال عليه جميع الأمر يترتب؛ وما يثبت عنده وينزل في تعليقه، ويرجع فيه إلى تحقيقه؛ ولعلم أن وراءه من ديوان الاستيفاء من يساوقه في تحرير كل إقطاع، وفي كل زيادة وأقطاع، وفي كل ما يُنسب إليه وإن كان إنما فعله بأمرنا المطاع؛ فليتبصر بمن وراءه، وليتوقَّ اختلاف كل مبطل وأقراءه؛ ولتتحقق أنه هو المشار إليه دون رُفْقته والموكل به النظر، والحقق به جملة جندنا المنصور من البدو والحضر. وإليه مدارج الأمراء فيما تنزل، وأمر كل جندى له ممن فارق أو نُزل؛ وكذلك مساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور أو على السَّياقه، ومن هو في العساكر المنصورة في الطليعة أو في السَّاقة. وطوائف العرب والتركمان والأكراد، ومن عليهم تقدمة أو يلزمهم روك بلاد، أو غير ذلك مما لا يفوت إحصاؤه القلم، وأقصاه أو أدناه تحت كل لواء يُشر أو علم؛ فلا يزال لهذا كله مستحضرا، وعلى خاطره مُحضرا؛ لتكون لَفَنَات نظرنا إليه دون رُفْقته في السؤال راجعه، وحافظته الحاضرة غنية عن التذكار والمراجعة.

الوظيفة الثالثة

(نظر الدواوين المعبر عنها بنظر الدولة)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها التحدث في كل ما يتحدّث فيه الوزير، وأن كل ما كتب فيه الوزير «يُكشَف» مثلا، كتب فيه «يُكشَف عما رُسم به» ونحو ذلك. وتقدّم ذكر ألقابه في الكلام

على مقدّمات الولايات من هذا الفصل ، وتقدّم ذكر ما يكتب فى طرّة توقيعه
فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين ، كتّبت به لتاج الدّين بن سعيد الدولة ، وهى :

الحمد لله الذى خصّ من أخلص فى الطاعة من الأئمة بحسن النظر ، وأجنى
من غرس فى قلبه أصل الإيمان من عوارف أيامنا الزاهرة يانبع الثمر ، ورفع من
استضاء فى دولتنا القاهرة بأنوار الهدى من محجول الرتب إلى مكان الغرر ، وأظهر
لوامع السعادة من نعمنا على من أضاء له الرشد فراه بعين البصيرة قبل البصر .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة هى أرفع ما يقتضى وأنفع
ما يُدّخر ، وأفضل ما نجت به الفرقة الموحدة وهلكت به الفرق الأخرى ، ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله أشرف البشر ، وأرأف البدو والحضر ، والمبعوث إلى الأمم
كافة لما قضاه الله تعالى من سعادة من آمن وشقاوة من كفر ، صلى الله عليه وعلى
آله وصحبه الميامين الغرر ، صلاة دائمة الورد والصدر ، باقية العين والأثر ، وسلم
تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من خصّه برنا بالنظر الحسن ، وشمله كرمنا من الرتب بما يُهجر
فى بلوغ مثله الوسن ، وأشتمل عليه معروفنا بما يجعل يراعه فى مصالح الدولة القاهرة
جميل العبارة حسن اللسن ، من سمت به نفسه إلى سعادة الآخرة فأنته سعادة الدنيا
تابعه ، وسلك فى مراضى الدولة القاهرة طريق الإخلاص فغدّت لكل خير
حاوية ولكل يمن جامع ، مع كفاءة جاءت المناصب على قدر ، ومعرفة ما لحظت
المصالح بأقرب نظر ، إلا تمت الأموال وبدرت البدر ، وخبرة ما اعتبرت فيها
محاسن سيرته فى كل ما ياشمه إلا صغر خبرها الخبر ، ونزاهة سلكه به فى كل

ما يليه أحسن المسالك ، وعِفَّة رفعتَه من الرتب الديوانية إلى مَقَارِقها ولا رُتَبَ للنَّجَّاح إلا ذلك .

ولمَّا كان فلان هو الذى آجَتْنِي من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجَنَى ، وفاز من عوارِفها العميمة بجميل المُخَالَصَة مازاد على المُنَى ، وأنْتِنِي من أدوات نفسه إلى كمال المعرفة والعِفَّة وهما أنْخَر ما يَدْنُر للرتب الجلييلة وأنفس ما يُقْتَنِي ، وعُني من أسباب استحقاقه المناصب بما أَقْتَضَى إحسان الدولة القاهرة أن يُحتفل بتقديمه وأن يُعْتَنَى .

فلذلك رُسِم أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة : فليُباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل ، ومجلياً في هذه الحلبة بسبق معرفته الذى لا يَحْتَاجُ إلى دليل ، ومبيناً من نتائج قلمه ما يبرهن على أنه موضع الإختيار ، ومن كوامن أطلاعه ما لا يَحْتَاجُ إلى بُرْهانٍ إلا إذا احتاج إليه النهار ، فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مُثْمِراً ، وليل نفسه في ليل الأعمال مُقْمِراً ، وحسن نظره إلى ما قُرب ونأى من المصالح مُحْدِداً ، ولسان قلمه لما دَقَّ من أمور الأقاليم محققاً ، ورسم خطه لما يستقر في الدواوين المعمورة مُثْبِتاً ، ووسم تحريره لما يُجْتَنَى من غُروس المصالح مُنْبِتاً ، ولدَّر أخلاف الأعمال ، بِحُسْنِ الأَطلاَعِ محتلياً ، ولوجوه الأموال ، بِإِتِّفَاقِ التوجه إلى ثَمِيرها إن أقبلت محتلياً وإن أعرضت محتلياً ، فإنَّ الأمور معادنٌ يستثيرها التصرفُ الجميل ، ومنابتٌ يُنمِّيها النظرُ الجلي والإتقانُ الجليل ، وملاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ، ويتخيَّأها في كلِّ حالٍ أمامه ، والله تعالى يوفِّقه بمنه وكرمه ! .

قلت : ورُبَّمَا أضيف إلى نظر الدواوين المعمورة نظر الصُّحبة الشريفة الآتى ذِكْرُها ، وكتبَ بهما جميعاً لشخص واحد .

(١) وهذه نسخة توقيع بهما جميعاً، كُتِبَ بها لتاج الدين بن سعيد الدولة على أثر إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهى :

الحمد لله الذى خَصَّ مَنْ أخلصَ فى الطاعة من آلئنا بحُسنِ النظر، وأجنى من غرس فى قلبه أصلَ الإيمان من عوارف أياَمنا الزاهرة يانع الثمر، ورفع من استضاء فى دولتنا القاهرة بأنوار الهدى من حُجُول الرُتب إلى مكان الغرر، وأظهر لوامع السعادة من نعيمنا على من أضاء له الرشد فراه بعين البصيرة قبل البصر .

نحمده على إحسانه الذى عمّر، وأمتنانه الذى بهر، وفضله الذى عمّ كل من ظهر له الهدى فلم يعارض الحق إذا ظهر .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة هى أرفع ما يقتنى وأنفع ما يُدخِر، وأوضح ما نجت به الفرقة الموحدة وهلكت به الفرق الأخرى، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف البشر، وأراف البدو والحضر، والمبعوث إلى الأمم كافة لما قضاه الله من سعادة من آمن وشقاوة من كفر؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الميامين الغرر، صلاة دائمة الورد والصدرة، باقية العين والأثر؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن أولى من خصّه ربنا بالنظر الحسن، وشمله كرمنا من الرتب بما يُهجر فى بلوغ مثله الوسن، وأشتمل عليه معروفنا بما يجعل يراعه فى مصالح الدولة القاهرة جميل العبارة حسن اللسن؛ من سمّت به نفسه إلى سعادة الآخرة فأنته [سعادة] الدنيا تابعه، وسلك فى مراضى الدولة القاهرة طريق الإخلاص فغدث لكل خير حاوية ولكل يُمن جامعة؛ مع كفاءة جاءت المناصب على قدر، ومعرفة ما لحظت المصالح بأقرب نظر، إلا تمت الأموال وبدرت البدر، وخبرة ما اعتبرت فيها

(١) هى عين سابقها خلا أن فيها ضم الصجبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسن سيرته في مباشرة الإصغر خبرها الخبر؛ ونزاهة سلكت به في كل ما يليه أحسن المسالك، وعفة رفعت من الرتب الديوانية إلى غررها ولا رتبة للتاج إلا ذلك .

ولما كان فلان هو الذي أجتني من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجني، وفاز من عوارفها العميمة بجميل المخالصة ما زاد على المني، وأنتمى من أدوات نفسه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أنخر ما يذخر للرتب الجليلة وأنفس ما يقتنى، وعني من أسباب استحقاقه المناصب والرتب بما اقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يحتفل بتقديمه وأن يعتنى - فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة ونظر الصحبة الشريفة .

فليباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل، ومجلياً في هذه الحلبة بسبق معرفته التي لا تحتاج إلى دليل، ومبيناً من نتائج قلمه ما يبرهن على أنه موضع الاختيار، ومن كوامن اطلاعه ما لا يحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار؛ فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مُمراً، وليل نفسه في ليل الأعمال مُقمرًا؛ وحسن نظره إلى ما قرب ونأى من المصالح مُحققًا، ولسان قلمه لما دق وجل من أمور الأقاليم مُحققًا؛ ورسم خطه لما يستقر في الدواوين المعمورة مُثبتًا، ووسم تحريره لما يجتنى من غروس المصالح مُثبتًا؛ ولدّر أخلاف الأعمال، بحسن الاطلاع محتلبًا؛ ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجه إلى ثمرها إن أقبلت محتلبًا وإن أعرضت محتلبًا؛ فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل، ومنابت ينميها النظر الحلي والإتقان الجليل؛ وملاك كل أمر تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه، ويتخيلها في كل وقت أمامه؛ والله تعالى يوفقه بمنه وكرمه! . والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه .

الوظيفة الرابعة

(١)
(نظر الصحبة)

[وهذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِبَ به للشريف شهاب الدين ناظر
الصحبة ، من إنشاء الشهاب محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذى جعل الشرف حيث حلَّ ركابنا مُصاحبا ، وأطلع للفضل فى أفق
خدمتنا من أولياء دولتنا شهابا ثاقبا ، وعدق النظر فى صُحبتنا بمن لم يزل لمصالحنا
ملاحظا ولأوامرنا مُراقبا ، وفوض أمور مباشرة حال من آجتهد أو قصر فى خدمتنا
إلى من لم يزل بنفسه فى واجب الطاعة مُنافسا وعلى فرض الموالاة مُحاسبا .

نحمده حمد من أجل فى أوليائنا نظرا ، وخص بالنظر فى صُحبتنا من أختبرت
خدمته فتساوت فى الطاعة والمناجحة سفرا وحضرا ، واعتمد فى ملاحظة مباشرى
ما يتر عليه من ممالكه على من لا يهمل له حقًا ولا يُحدث له ضرا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال جيوشنا لإعلاء منارها
مُجهزة ، وسرايانا إلى مقاتل جاحديها البارزة مبرزه ، وعود النصر على من ألحد فيها
لنا معجلة وعلى أيدينا متجزه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنهضنا الله
من جهاد أعداء دينه بما قرص ، وأيقظنا لرفع أقدار أهل بيته فلم يقصر بأحد منهم
فى أيامنا أمل ولا بعد عليه غرض ، وخصنا منهم بمن تمسك بجوهره الأعلى فلم

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا سقطا ، هو « وموضوعها أن صاحبها يتحدث مع الوزير
فى كل ما يحدث ويشاركه فى الكتابة فى كل ما يكتب فيه ويوقع فى كل ما يكتب فيه الوزير تبعاله » . انظر
صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرض من هذا الأذى إلى عرض ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من (يكاد يمسه عرفان راحته) ، وإلا المؤثر طاعة الله ورسوله وأولى الأمر على راحته ؛ صلاة دائمة الاتصال ، آمنة شمس خلودها من الغروب والزوال ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من اخترناه لصحبتنا الشريفة على علم ، وأعدناه لمهماتنا الكريمة لما فيه من تسرع إدراك وتثبت في حكم ؛ وبسطنا له فيما عدقناه به من ذلك لسانا ويدا ، وحفظنا به الأحوال من [وصول] مسترق السمع إليها (فمن يسمع الآن يجد له شهابا رصدا) وأدخنا أقالمه لمصالح كل إقليم يمر ركابنا الشريف عليه ، وفوضنا مناقشة مباشره على ما أهملوه من حقوق الله تعالى وحقوق الرعايا إليه ؛ وأقنناه لتصفح ذلك بنفسه ، وتلمح زيادة كل يوم على أمسه ؛ وأنتزع الحق من مديده إلى ظلم بكف كفه عنه ورفع يده ، وأرتجاع الواجب ممن أقدم عليه بالباطل في يومه وأطرح المؤاخذه به في غده ؛ وغير ذلك مما أحصاه الله ونسوه ، واعتمدوا فيه على المصلحة فاجتنبوا ثمرة ما عرسوه - من كان له في المناصحة قدم صدق عند ربه ، وفي خدمة الدولة القاهرة قدم هجرة تقضى مزيد قربه ؛ فكان أبدا بمرأى من عنايتنا ومسمع ، ومن إحساننا بالمكان الذى ليس لأحد من الأكفاء فى بلوغ غايته أمل ولا مطمع ، وتفرد باجتماع الدين والمنصب والأصالة والعلم والكرم وهذه خلال الشرف أجمع .

ولما كان فلان هو الذى آجتى من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الحنى ، وفاز من عوارفها العميمة بجميل المخالصة ما زاد على المني ؛ وأنتمى من أدوات نفسه ونسبه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أغر ما يذخر للرتب الجليلة وأنفس

ما يُقْتَنَى ، وَعُنِيَ من أسباب استحقاقه المناصب والرتب بما تقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يُحتفل بتقديمه وأن يُعْتَنَى . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة ^(١) .

فليباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل ، ومجلياً فى هذه الحلبة بسبق معرفته التى لا تحتاج إلى دليل ، ومبيناً من نتائج قلمه ما يبرهن على أنه موضع الاختيار ، ومن كوامن اطلاعه ما لا يحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار ، فلا يزال فرع يراعه فى روض المصالح مُثَمِّراً ، وليس نفسه فى ليل الأعمال مُقَمِّراً ، وحسن نظره إلى ما قُرب ونأى من المصالح مُحَدِّقاً ، ولسان قلمه لما دق وجل من أمور الأقاليم مُحَقِّقاً ، ورسم خطه لما يستقر فى الدواوين المعمورة مُثَبِّتاً ، ووسم تحريره لما يحتاج من غروس المصالح مُنَبِّتاً ، ولدّر أخلاف الأعمال بحسن الاطلاع محتلياً ، ولوجوه الأموال بإنفاق التوجه إلى نثيرها إن أقبلت محتلياً وإن أعرضت محتلياً ، فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل ، ومنابت يثمرها النظر الحلى والاتقان الجميل ، وملاك كل أمر تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ، ويتخيرها فى كل حال أمامه ، والله تعالى يسدده ويوفقه بمنه وكرمه ! ، إن شاء الله تعالى .

قلت : وربما أضيف إلى نظر الصحبة نظر الدواوين الشريفة ، وحينئذ فيحتاج الكاتب أن يأتى فى براعة الاستلال بما يقتضى الجمع بينهما ، ويورد من الوصايا ما يختص بكل منهما . والكاتب البليغ يتصرف فى ذلك على وفق ما يحدث له من المعانى ويسمح له من الألفاظ .

الدرجة الثانية

(من تواقع أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة بالديار المصرية ما يكتب في قطع الثالث بـ «المجلس السامى» بالياء ، مفتتحاً بـ «الحمد لله» إن قصد تعظيم المكتوب له على ما هو الأكثر ، أو بـ «أما بعد حمد الله» جرياً على الأصل لما يكتب في قطع الثالث ، على ما وقف عليه في النسخ)
وتشتمل على وظائف :

الوظيفة الاولى

(كتابة الدست)

والمراد دست السلطنة . وقد تقدم الكلام عليها في مقدمة الكتاب في الكلام على ديوان الإنشاء ، وتقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام الموكب خلف كاتب السر ، ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر ، ويكتبون عليها بما تقتضيه الحال ، بعد إشارة السلطان بالكتابة ، ثم يحمل ما يكتبون عليه من القصص إلى كاتب السر فيعينها . وأن هذه الوظيفة كانت من أجل الوظائف وأرفعها قدراً ، منحصرة في عدد قليل نحو الثلاثة فما حولها ، ثم وقع التساهل في أمرها ، ودخل فيها العدد الكثير حتى جاوز عددهم العشرين ، وبقيت الرئاسة فيهم لعدد مخصوص منهم ، وقنع الباقون بالاسم . وقد تقدم ذكر طرقة توقيعه في الكلام على التوقيع .

وهذه نسخة توقيع بكتابة الدست ، وهى :

الحمد لله الذى فضل الكرام الكاتبين ، وأحيا بفضائل الآخرين الأولين الزاهيين ،
وأُنزل فى القصص : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

نَحْمَدُهُ وَهُوَ الْحَمْدُ الْمُعِينُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً قَوِيَّةً مُخْلِصِينَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالشَّافِعُ فِي الْمُدْنِيِّينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ الشَّرِيفَ دَائِرُ جُذْرَانِهَا الْأَمْرُ الْمُطَاعُ ، وَأَبْوَابُهَا الْخَيْرُ الَّذِي لَا يُضَاعُ ، وَسَقْفُهَا الرَّحْمَةُ وَالْإِتِّصَاعُ ، وَصَدْرُهَا الْإِحْسَانُ الْمَدِيدُ الْبَاعُ ، وَصَحْفُهَا الْأَمْنُ وَالسُّرُورُ فَلَا يُخَافُ أَحَدٌ فِيهِ وَلَا يُرَاعُ ، وَجِلْسَاؤُهَا الْكَاتِبُونَ عَارِضُو الرَّقَاعِ ؛ هُمْ مَعْدِنُ الصَّدَارَةِ ، وَمَوْطِنُ الْكِتَابَةِ وَالْكَيْفِيَّةِ وَالْإِشَارَةِ ، وَأَقْلَامُهُمْ تَأْتِي بِحُسْنِ التَّشْبِيهِ وَالْإِسْتِعَارَةِ ، وَتُطَرِّزُ حَوَاشِي الرَّقَاعِ بَوْشًى بِأَدْيِ الْإِنَارَةِ ، مَا اخْتِيرَ أَحَدُهُمْ لِلْجُلُوسِ فِي دَسْتِهِ إِلَّا وَقَدْ أَرْضَى مِنْ اخْتَارِهِ ، وَتَمَيَّزَ بِحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَفَاءِ وَالْوَقَارِ وَالشَّارَةِ .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي لَهُ فِي السُّودِّ أَصْلٌ عَرِيقٌ ، وَفِي الْفَضَائِلِ لَهُ قَلَمٌ مُطِيقٌ ، وَفِي الْبَلَاغَةِ لَهُ لِسَانٌ مُنْطِيقٌ ، وَإِذَا دَجَّ قَرطَاسُهُ فَهُوَ لِلرُّوضِ شَقِيقٌ ، وَنَبَاتُهُ الْجَوْهَرُ لَا الْآسُ وَالشَّقِيقُ ، وَأَصْبَحَ لِلْجُلُوسِ فِي الدَّسْتِ الشَّرِيفِ أَهْلًا عَلَى التَّحْقِيقِ .

فَلِذَلِكَ رُسمَ أَنْ يَسْتَقَرَّ فليُحَلَّ هَذَا الدَّسْتُ الشَّرِيفُ مُبْهِجًا بَيَانِهِ ، مُتَلَبِّجًا لِلصُّدُورِ بِعُرْفَانِهِ ، مُتَلَبِّجًا بِنُورِ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، قَارِئًا مِنْ قِصَصِ النَّاسِ وَظُلَامَاتِهِمْ فِي إِبْوَانِهِ كُلِّ شَيْءٍ فِي أَوَانِهِ ، لَا يَكْتُمُ ظُلَامَةً مَكْتُوبَةً فِي رُقْعَةٍ ، بَلْ يَعْرِفُ مَلِكَةً بِهَا وَيَبْلَغُهَا سَمْعَهُ ، فَإِنَّهُ فِي هَذَا الْحَلِّ أَمِينٌ وَالْأَمِينُ مَحَلُّ النَّصِيحِ وَالْخَيْرِ وَالرُّفْعَةِ ؛ وَإِذَا وَقَعَ فَهُوَ مَأْمُورٌ ، فَلَيَاتِ بِمَا يُبْهِجُ الصُّدُورَ ؛ وَيَشْفِي غَلِيلَ الشَّاكِي ، بَلْفِظِهِ الزَّاكِي ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ لَكِنْ السَّلِيمُ لِبَعْضِهَا الْحَاكِي ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ فَهِيَ تَأْجُهَا الْجَوْهَرُ ،

(١) لعله لكن سَلِمَ ببعضها الحَاكِي ، وَهُوَ تَقْوَى الْخ . تَأْمَل .

وبذرُها المنور ، وكوكبُها الأزهر ، والله تعالى يمتعه بالفضل الذي لا يحول ولا يتغير ،
بمنه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع من ذلك أيضا ، وهى :

الحمد لله الذى أفاض على الأولياء من فضله ، وأهمى عليهم من مواهبه ما يقصر
عنه الغمام فى وبله وطله ، ومنح دست الملك الشريف من الألفاظ المحيية ،
والفضائل المفيدة .

نحمده على نعمة التى أجزلت إحسانها ، وأجملت أمتنانها ، وزغت مظهره
فقدمت من الدولة أعيانها ، ونشكره على عوارفه التى ألقى لأهل الشاء عنايتها ،
ورحب لذوى البيوت صدرها وفص عنايتها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشهد القلوب إيمانها ويدخر
القائل لها ليوم الخاف أمانها ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أظهر الله
به الشريعة المطهرة وأبانها ، وشرف [به] هذه الأمة ورفع على جميع الأمم شأنها ، وبعثه
رحمة إلى كافة الخلق فأقام بمعجزاته دليل الهداية وبرهانها ، وأطفأ بنور إرشاده
شرر الضلالة ونيرانها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من نزه
نفسه النفيسة وصانها ، وسلك فى خدمته وصحبته الطريقة المثلى فأحسن إسرار
أموره وإعلانها ، صلاة دائمة باقية تجل بالأجور أقرانها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فانه لما كانت وظيفة توقيع الدست الشريف من أجل الوظائف
وأسنائها ، وأنفسها وأعلاها ، وأجاليها وأبهاها ، القائم بها سفير الرعية إلى الملك

فى حاجتهم ، وترجّحاً مُعْرِبٍ عن شكايتهم ، وكاشفٌ أحسنُ ناسِراً عن ظلامتهم ؛
جالسٌ على بساط الأُنس بقُرب الحضرة ، منقذٌ نَهَى ملكه وأمره ، مبلغٌ ذا الحاجة
من إنعامه جوده وبره - تعين أن يُندب رئيس وأبن رئيس ، وجوهراً بحجر نفيس ؛
ذو أصل فى السؤدد عريق ، ولسانٍ فى الفضائل طليق ، وقلمٌ حلّى الطروس بما يفوق
زهر الرياض وهو لها شقيق ، وفاضلٌ لا يُقاس بغيره لأنه الفاضل على التحقيق ؛
وكان المقرّ العالى الفلانى هو المشار إليه بهذه الأولوية ، والمراد من سطور هذه
الحامد اللؤلؤية . فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يستقرّ المشار إليه فى وظيفة توقيع
الدست الشريف عوضاً عن فلان بحكم وفاته .

فليباشر ذلك مباشرة تُشكر مدى الزمان ، وتُحمد فى كلّ وقتٍ وأوان ؛ وليدبّ
المهاريق بوشى يفوق قلائد العقيان ، ولتسلّ بالأجور لنا صُخفا بما يوحيه عنا من
خيراتِ حسان . ونحن فلا نُطيل له الوصايا ، ولا نُخلّيه بها فهى له سجايا ؛ مع ما أدبه
به علمه الحتم ، وعمله الذى ما آنصرف إلى شىء إلا تمّ ؛ ويجمعها تقوى الله تعالى
وهى عقد ضميره ، وملاك أموره ؛ وما برح هو وبيته الكريم مصابيح أُنقها ومفاتيح
مُغلّقا ، ولهم جُدد ملابسها وللناس فواضلٌ مُخلّقا ؛ والله تعالى يزيده من إحسانه
الجزيل ، ونِعَمِهِ التى يرتدى منها كلّ رداء جميل ، ويمتّع به إمارته التى ما شكرها إلا
قال أدباً : حسْبنا الله ونعم الوكيل ؛ والاعتماد فى مسعاه ، على الخط الكريم أعلاه .

الوظيفة الثانية

(نظر الخزانة الكبرى)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن هذه الوظيفة كانت
كبيرة الموضع من حيث إنها مستودع أموال المملكة ، إلى أن حدثت عليها خزانة

الخاصّ فأنحطت رتبها حينئذ، وسميت الخزانة الكبرى باسم هو أعلى منها ، وأنه لم يبق فيها سوى خلع تُخلع وتُصرف أولاً فأولاً . وقد تقدّم ما يكتب في طرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة :

الحمد لله الذى جعل الخزانين ل ذخائرنا كهُوفاً ، وملابس إقبالنا سُيوفاً ، ومواهبا نُجزل عطاءً ومعروفاً ، وإقبالنا على مُحسن التدبير ومجمل التأثير عُطوفاً ، وأيادينا فى إسكان جنتها قُطوفاً .

نحمده حمداً مألوفاً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أوضحت معروفاً ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى أزال مخوفاً ، وأقام الصلاة والجهاد صفوفاً ، وشهر على العدا عند تأييد الهدى سُيوفاً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما سدل الليل سُجوفاً ، وسلم تسليماً .

وبعد ، فإنّ الملك الشريف له تُخف مَصُونه ، وذخائر مَكُونه ، وأصناف حِسان فى خزائنا مخزونه ، وجواهر عالية القيمة ثمينه [لا يقوم عليها إلا من] لا يمدّ عين عفاقه إلى المال وإن كثرت آلافه ، ووجّح جُتة هذه الذخائر ولم تُلَمّ بالبلل أطرافه ، وهو فلان : العريق فى أنسابه ، الوثيقُ آتئأؤه إلى فضل الله وجنابه ، النقيّ ثوب عِرْضه ، التقيّ بتسككه بسنته وفرضه ، الوفىّ نظره بغضه ، المستمسك بجميع الخير دون بعضه ، من بيت السيادة ومن هو من بيت السيادة فالسودد نجم سمائه وطود أرضه . فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقر

فليباشر هذه الوظيفة بعملٍ ونِيّه ، متمسكاً ذخائر هذه الخزانة العليّه ، وأمورها وأحوالها ، وتفصيلاتها وإجمالها ، وحولها وأحاطها ، وحلّالها المرقومه ، وذخائرها

المعلومة ، وجواهرها المنظومة ، وأجاسها المختومة ، وصناديقها المُرَكَّومة ، ما عن علمه فيها شئٌ خاف ، وصونه لها كاف ، وأمر الله بين النُّون والكاف .

وليعلم أن خزانة تصبُّ فيها سحائب التحف والأموال والأصناف ، من سائر الممالك والمُدن والثغور والأطراف ، ومنها يُخرج بجهاز مواهبنا وإنعامنا للأولياء الأشراف ، وإنما هى لمصالح المسلمين فى الجمع والإئتلاف ، وتقوية أهل الطاعة على أهل الاختلاف ، فليضبط ما تطلقه وإن كانت الأقلام لا تستطيع ذلك لكثرة الإسعاف ، ولتكن التشاريف المشمعة الكاملة ، حاصلةً بمنَاطِقها المجوهرات الهائلة ، وطُرُزها الطائفة ، وتعايبها الفاضلة ، حتى إذا أنعمنا منها على أحدٍ بشئٍ يأتى بحموله وقد حِدَ فاعله . والوصايا كثيرةٌ وتقوى الله نظام عقدها ، وغمام رفيدها ، وزمام مجدها ، وتأمُّ سعدها ، فليكن متلفعاً ببريدها ، متضوعاً بنددها ، وهو غنى عن الوصايا ومددها ، والله تعالى يؤيد حركاته فى قصيدها ، والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية لناظر الخزانة ، أوردتها فى "التعريف" :

وَيْمَلَأُ بِنَظَرِهِ صُدُورَ الْخَزَائِنِ ، وَلِيَجْمَعَ فِيهَا أَشْيَاءَ الْحَاسِنِ ؛ وَلِيُعَدَّ فِيهَا كُلُّ مَا يَدَّخِرُ لِلْإِنْفَاقِ ، وَيَحْتَفِظُ بِهِ لِلْإِطْلَاقِ ؛ وَيَحْصُلُ مَا يُضَاهِي الْبَحْرَ بِالتَّفْرِيعِ وَالتَّأْصِيلِ ، وَالْجَمَلِ وَالتَّفَاصِيلِ ؛ وَمَا لَا يُوزَنُ إِلَّا بِالْقَنَاطِيرِ ، وَلَا يُحْصَى مِنْهُ مِلْءُ الْأَسَاطِيرِ ؛ وَمَا يُهَيِّئُ مِنَ التَّشَارِيفِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي تُبَاهَى أَشْعَةُ الشَّمْسِ بِأَمْعِهَا ، وَتُحَاسِنُ وَشَائِعَ الرُّوضِ بِخَلْعِهَا ؛ وَمَا فِيهَا مِنْ مَخَلَّفَاتِ الْأَوَانِ لَا تُمَاتِلُ بِتَصْوِيرِ ، وَلَا يُظَنُّهَا الْأَوْلِيَاءُ إِلَّا الْجَنَّةَ وَلِيَأْمَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ؛ وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنْ عَتَائِي وَأَطْلَسٍ ، وَمُشْرِئٍ وَمُقْنَدِسٍ ؛ وَكُلِّ طِرَازٍ مُدْهَبٍ وَبَاهٍ ، وَمَا هُوَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ لَهُ يُضَاهِي ؛ وَكُلِّ

ما يتشرف به صاحب سيف وقلم ، ويعطى إنعاما أو عند أول استخدام في خدمه ، وما هو مع هذا من أنواع المستعملات ، والنواقص والمكملات ، وما يحمل من دار الطراز ، ويحمد مما يأتي من المبتاع من بز وبرزاب وما هو مرصده للخزانة العالية من الجهات ، التي يحمل إليها متحصلها : لينفق في أثمان المبيعات ، وما يستعمل ، وما يعلم منه بالطرز ويعمل ، وببقية ما يدخر في حواصلها من مال بيت المال الذي يحمل ، وذلك كله فهو الناظر عليه ، والمناظر عنه مما خرج من عنده ووصل إليه ، والحاجج عنه بالمراسيم التي تنسك للحفظ وتنزل لديه ، فليراع ذلك جميعه حق المراعاة ، وليحترز قدر ما ينفق من الأثمان وقيمة المبيعات ، وليحترز فيما يزكى بعضه بعضا من شهادة الرسائل المكتتبه إليه بالحوال وما يكتب بها من الرجعات ، وليعر المعاملين من نظره مالا يجدون معه سيلا ، ولا يقدرؤن معه على أن يأخذوا فوق قدر استحقاقهم كثيرا ولا قليلا ، وليقدم تحصيل كل شيء قبل الاحتياج إليه ويدعه لوقته ، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذي متى تأخر أخر لوقته (؟) ، والأمانة الأمانة ، والعفاف العفاف ، فإكان منهما واحد رداء أمرى إلا زانه ، ولولاهما لما قال له الملك إنك اليوم لدينا مكيين أمين وسلم إليه الخزانه .

الوظيفة الثالثة

(نظر خزانه الخاص)

وهي الخزانه التي استحدثت في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» عند استحداث وظيفة «نظر الخاص» وقد انتقل ما كان يحمل إلى الخزانه الكبرى ويصرف منها إلى هذه الخزانه ، سوى الخلع ، كما تقدمت الإشارة إليه في الكلام على توقيع ناظر الخزانه الكبرى .

وهذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِبَ به للقاضى شرف الدين محمد
ابن علاء الدين الجَوْجَرِيّ^(١) ، فى مستَهَلَّ شهر رجب الفرد ، سنة تسع وثلاثين
وسبعمائة ، وهى :

الحمد لله الذى زاد بنظرنا الشريف شرف من لمحّه من أوليائنا [و] لحظّه ، وأفاد
المستأنف من ربنا من عهدنا له الفطرة السليمة وتيقنا منه الفكرة واليقظه . وأعاد
للخلف الكريم ، من المشايخ ما كان للسلف القديم الصالح من التقديم ، الذى شملهم
بالتكريم ، وجعلهم على خرائن جودنا العميم : لأنهم العلماء الحفظه . وجاد بالطرف
من خاص إنعامنا العام لمن لقلمه عند الإذناء من سيرير الملك إنجاز عدة وللسان
عند ارتقاء منبر النشك إبراز عظه .

نحمده على أن أجزل لمن عول على شامل كرمنا جزاءه وعوضه ، ونشكره على أن
تطول بنوافل نعمنا لمن قام بعد أبيه بلوازم خدمتنا المفترضة ، وعكف أعمالنا على بيت
مبارك مامنهم إلا من شمل من إحساننا بالمنح لما بذل لسلطاننا من النصيح ومحضه .
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يودع مصونها فى الأرائك
المتعلية ويقطع يقينها الشكوك المعترضة ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى
عظمت عطايا بذله ، فالبجار المرتفعة عنها منخضة ، وكرمت سجايا فضله ، فليست
بمتقلة وأبرمت قضايا عدله ، فليست بمتقضة ، وعمت البرايا يده البيضاء التى هى
بالأرزاق فى الآفاق منبسطة وليست عن الإنفاق خشية الإملاق منقضة ، صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من أقرض الله قرضا حسنا فضا عاف له
ما أقرضه ، صلاة تدنى لقائلها فى الأولى من النعمة والأمان أمله وتؤتيه فى الأخرى
من الرحمة والرضوان غرضه ، وسلم تسليما كثيرا .

(١) نسبة الى « جوجر » بفتح الجيمين وراء بليدة بالقرب من دمياط انظر ياقوت ج ٢

وبعد، فإن أولى مَنْ رُفِعَ بإكرامنا إلى رُتبة علائِه، وَاَنْتَفَعَ من مقامنا الشريف باختصاصِ خدمته وإخلاصِ وِلائِه - مَنْ شَفَعَ من أياه بجمع أشتات العلوم في أبكارِه وأَنائِه، وأَسْتَوْدَعَ ذَخائرَ مُلكنا المصنونة فكان حفيظًا عليا عند اقترابه مِنّا وإدنائِه، وصَدَعَ القلوب بإبداعِ وعظه وإبدائِه؛ وَاَتَبَعَ سبيلَ والدِه القويم، في الشَّدّة في الحق والتَّصميم؛ وسلكَ طريقته التي هداه الله إليها بتوفيقِه فأدركَ غايته في أبتدائِه، وقَنَعَ بما آتاه الله تعالى فَأَثَرَتْ مكارمنا رِفعةً محلّه وتوسعةً حِباثِه؛ وبرَعَ في إتقانِ الفضائل التي آذنتُ بأصطفائِه وأجتيبائِه، ووقعَ عليه اختيارنا الذي نستخير الله تعالى له في إبرامِ كلِّ أمرٍ وإمضاءِه؛ وأجمعَ عليه رأيُنَا الذي كم أصابَ الصوابَ في تعيينِ العُلماء الأُنحاج فنصَّ عليه الاستحقاقُ بإيجابِ الترجيحِ وأقتضائِه .

وكان المجلس السامي الشَّرَفُ هو الذي قدّمناه بعد أبيه لشهادة خزاننا الشريفة فشاهدنا من حُسن سيرِه ما أبهج، ونظّمناه في سلكِ أولياء المُلْك فسلك من الخير أقومَ منهج، ثم أردنا الآن أن هلالَه يَنقُل إلى رُتبة الكمال لما تدرَّب وتدرَّج؛ وأعدنا له تآم الإقبال حيث شَرُف دولتنا الأعلى - زاد الله تعالى تأييدَه - بذكره لدينا وبشُكره عندنا يلُهج - فأقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن هذا النظرَ الجميلَ عنه لا يُخْرَج، وهذا الوقَرُ الحليل لا يُعَدَل به عن فرعٍ مُنْجِب لأصلٍ طيبٍ أثمرَ الولاءَ والدُّعاءَ لآيَّامنا الشريفة وأنتج .

فلذلك رُسم ... لا زالتِ الصُّدُورُ بصدُور أحكامه تَلْج، والأُمُورُ بمُور إنعامه تَفْضُل على الحقِّ الأبلَج - أن يستقرَّ ... فليُنطقَ لسانُ كَلَمه بالإخلاص في حمدِ الخاصِّ والعامِّ من هذا الإكرام الذي بمطارفِه تَسرُّب وبُعُورِه نتوَّج، وليُطابقَ سنانَ قلبِه في تبليضِ المصاحف بذكرِ إنعامِ المقام الذي هو كالبحرِ ويُفصحُ

عن حمده فهو بحمد الله لا يتجلبج ، وليُحقّق بيان حكمه ضبط الأصل والخضم
والواصل والحاصل والمخضر والمخرج ، ولينفق في أوليائنا من عوائد صلوات نعمائنا
التي تقبضها أيدي ملوك المدائن ببسط ومن بعضها صدور الخزائن تخرج ، وليسلك
سنن أبيه التي بها يستظهر ويفتخر ويستدل ويحتج ، ويستمسك بسببه الأقوى
من الديانة التي بابها من النجاة في الدارين غير مُرتج ، وترك له تفصيل الوصايا لأنه
قرين كفيل مُلكا القوى الأمين ذى الإرشاد والسداد مع مرافقته في الإصدار
والإيراد والتكرار والتعداد لم يحتج ، والله تعالى يجعل الطروس بذكر تقديمه تحبر
وتدبج ، والدروس تنشر وعلومه تعطر وتنتأرجح ، بمنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الرابعة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدّم أنّ موضوعها التحدّث في كل ما يتحدّث فيه أستاذ الدار ، وتقدّم
الكلام على ما يكتب في طرّة تقليد ناظرها .

وهذه نسخة توقيع بنظر البيوت والحاشية :

الحمد لله الذي عمّر البيوت بنوّاله ، وكثّر فيها أصناف النعم بإفضاله ، وجعل فيها
الخير يتضاعف مع كلّ يوم بتجدّده ومع كلّ شهر بإقباله .

نحمده على مديد ظلاله ، ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
عبد صادق في مقالته ، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذي رَحِمَ الله العالمين بإرساله ،
وسقى الجيش من كَفِّه بنبع زلاله ، وأوى إلى المدينة دار هجرته وانتقاله ، صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه الناصرين لهذا الدين في كل حاله ، وسلم تسليما .

وبعد ، فإن طراز الملك الشريف السيوت الكريمة : فمنها يتفجر ينبوع الرزق الجارى ، ومنها يضيء سقط الزند الوارى ، ومنها تبسط الحيوانات ، وتمدد الأسمطة في المهيمات ، ومنها يقوم للسعد نصبات ^(١) وأى نصبات ، ومنها تقسم ألوان الطييات على مقتراح السموات ، وعماد أمرها على ناظر يقوم بتأصيلها وتفرعها ، وتجنيسها وتنويعها ، وتكثير حاصلها ، واستدعاء واصلها ، وجمع كل ما فيه مرغوب ، وأدخار كل ما هو محبوب ، وتأليف القلوب على شكره وجل ما فيها عمل القلوب .

ولما كان فلان هو الرشيد في فعله ، المأمون في فضله ، الأمين في عهده وحله ، المسدد في الحال كله ، المعطي المباشرة حقها على ما ينبغي في الشهر من مستمته .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر قليبا شر هذه الوظيفة الكريمة مستجلبا المنافع ، مشفعا بحسن سيرته المسامح ، طالعا من العفاف في أبهى المطالع ، مستدعيا ما جرت العادة باستدعائه من أصناف المتجر السعيد من أصناف متعددة ، وأنواع منضده . وليرح أعدار المصالح السعيدة من كل صنف على حده ، وليستجلب خواطر المعاملين بوفائهم وإنجازهم كل عده ، والرواتب اليومية ليصرفها لمستحقها ، والبيوتات فليستد خلاها حتى لا يظهر نقص فيها ، ومرتببات الأدر الشريفة فلتكن نصب عينيه على ما يرضيها ، وما آخترناه لهذه الوظيفة إلا أنه أنسب من يليها ، والوصايا كثيرة وتقوى الله فلتكن أطيب ثمرات يحتنيها ، وأحسن منحات يحتنيها ، وأزين زينة يحتنيها ، وهو غنى عما ثما فيها [به] الأفلام من فيها ، والله تعالى يصون هممه ويعلينا بمتنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

(١) في القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناصح . (٣) جمع دار على القلب .



وهذه نسخة توقيع بنظر البيوت :

الحمد لله الذى جدد لأوليائنا ملابس السُّعود، وشيّد لهم مَباني العِزِّ وضاعَف
لِقَدْرهم التَّرقيّ والصُّعود، ووالى إلى أوليائهم سَحَابَ الفضل المستمِلَّة بِالكَرم والجُود.
نحمده على نِعَمِهِ الضَّافية البرُّود، ومِنَنِهِ الصَّافية الورُود، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة تُرغمُ بها أنفُ الجُود، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله
صاحبُ الحوضِ المورود واللواء المعقود، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين
جَادَ كُلُّ منهم بماله ونَفْسِهِ فى رضاه والجُود بالنَّفْسَيْنِ أَقْصَى غَايَةِ الجُود، صلاة
دائمة الإقامة فى التَّهائم والتَّجود، مستمرة الإدامة ماتعاقب السَّحابُ رَوْضًا بجود،
وسلم تسليما كثيرا

وبعد، فإن أولى من غدت البيوت أهلةً بوفود نظره، عامرة بسداده وجميل
فكره، مشيئة بما يُبديه من أوصاح التقرير وغرره - من سما همةً وحسن سمتا،
وسلك فى الأمانة طريقًا لا عوج فيها ولا أمتًا - وحلَّ فى الرتب خلاها، وتقلَّ فيها
فما قالت له إياه إلا وقال الذى فارَقها آها، وكان فلان هو الذى استحقَّ بكفائته
حسنَ التَّقل، واستوجب الصَّلة والعائد لما فيه من جميل التَّائى والتَّوصل - آقتضى
حسنُ الرأى الشريف أن ننقله إلى رتب السعادة، وأن نخُصّه كلَّ حينٍ من نعيمنا
بالحُسنى وزيادته . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر...

فليُضبط أصولها وفروعها، ومُفرداتها ومجموعها، وليؤنس بحياطة أجهاده ربوعها،
وليُكفلها بأمانة تضم أطرافها، وزاهة تحلّ أعطافها، وكتابة تحضر جليلها ودقيقها،

وَبَاهَةٌ تُؤَفِّ شُرُوطَهَا وَحُقُوقَهَا ، وَلِيَحَرَّرَ وَارِدَهَا وَمَصْرُوفَهَا ، لِيُغْدُوَ مَشْكُورَ الْهَمَمِ
مَوْصُوفَهَا ، وَلِيَلْحِظَ جَرَائِدَ حِسَابِهَا ، وَيَحْفَظَ مِنَ الزَّيْعِ قَلَمَ كِتَابِهَا ، حَتَّى يَنْتَی تَصَرُّفَهُ
فِيهَا عَلَى الْأَوَائِلِ ، وَيُشْكِرَ تَعَرُّفَهُ وَتَعْطُّفَهُ عَلَى كُلِّ عَامِلٍ وَمُعَامِلٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَبْلُغُهُ
مِنَ الْخَيْرِ مَا هُوَ آمِلٌ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الخامسة

(نظرُ خزائنِ السَّلاحِ)

وقد تقدّم أن موضوعها التحدّث فيما يستعمل ويتّاع من أنواع السَّلاح الذي
يحمل للزَّردخاناه السلطانية . وقد جرت العادة أن يحمل ما يتحصّل من ذلك في كل
سنة إلى الزَّردخاناه مرةً واحدة . وقد تقدّم ما يكتب في طرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخة توقيع بنظر خزائن السَّلاح من إنشاء المولى « شمس الدين بن
القيسَراني » كتب به « لفخر الدين » أخى جمال الدين ناظر الخاصّ ، وهى :

أما بعد حمد الله تعالى الذى ضاعف نحر المناصب ، بمتوليها ، ورفع قدر المراتب ،
بمن يكبرها بقدره العلى ويعلّيها ، وأمدّ المناقب ^(١) ، بنظر ذى المناقب الذى يزيّن ببرهف
حرّمه أسلحتهم ويحلّيها ، ويمضى بماضى عزّمه كلّ فرند فريد ليسعر نار صليله
بنظره السعيد ويحلّيها ، جاعل أيا من الشريفة تُقدّم لخدمها كلّ سرى تسرى به هممه
إلى العلياء ، وتنتخب لحسن نظرها من علوب بكرم الذات وجمال الإخاء ، وتولى من
الأولياء من يعدّ للأعداء خزائن سلاح يُبيدهم بها جيوشنا المؤيَّدة فى فيافي البداء ،
إذا دارت رحى الحرب الزُّبون وثارت غى الغارة الشَّعواء . والشهادة له بالوحدانية

(١) جمع مقنب "كنبر" وهم جماعة الخيل والفرسان .

التي اتسق بذورها، في سماء الإخلاص، وأشرق فجرها، بضياء القرب والأختصاص،
وسما فجرها، بجلال الجلال فأصبح بحمد الله أخذاً في المزيد آمناً من الانتقاص،
وعلا ذكرها، بما درعنا به من دروع التوحيد وأسبغ علينا منه كل سابعة دلاص.
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي خصه الله بالتكريم والتعظيم، وختم به الرسل
الكرام بما منحه من الأصفاء والتقديم، وأوحى إليه في الكتاب الحكيم :
(أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) . وعلى آله وصحبه الذين هم أشداء على الكفار رحماء بينهم ،
وقرب قُربهم لديه صلى الله عليه وأذهب بينهم - فإن من شيم أيا من الشريفة أن
تبلغ أولياءها مرأما، وترعى لأصفيائها ذمأما، وتصطفى لولاية الرب من أضحى ثغر
ولائه بسأما، وتجرد لحسن النظر من يُجرد بهمة حساما حساما، لا سيما من أقتنى
سنن أخيه - أجله الله - فيما يأتي ويذر، وأهتدى بهديه في كل ورد وصدر، وحذا
حدوه السديد الأثر، السعيد النظر، وأتبع رُشدَه الساطع البَلج اللامع الغرر، وسار
سيره الذي نتارج به أرجاء الممالك حيث سار سر، إذ هو جمال الجود، جلال
الوجود، مُقبل عثار الملهوف والمجهود، موئل التَّهائم والتَّجود، مستجلب الدعاء لنا
من الطائفين والعاكفين والركع السُّجود، ذو المآثر التي ذكرها أعطر من الروض
المجود الموجد، والمناقب التي يساوى فيها الكواكب ويسامتها في السُّعود والصُّعود.

ولما كان المجلس العالى الفخرى قد أصبح نحره بأخوته ناميا، وقدره بأبوتة
ساميا، وأصبحت مفاخره به خالده، وجمع مزايا وسجايا جمعت له طارف السعد
وتالد - أقتضى رأينا الشريف أن تُشدّد له بأخيه أزا، ^(١) وتجدّد له في إصلاح السلاح
نظرا، ليكون لأخيه - أعزه الله تعالى - النظر على الخاص والعام، ويبيده مقاليد
خزائنها التي يشمل منها البرايا بصفوف الإنعام، وتدير خواصنا الشريفة وجيوشنا

(١) لعله «أن تشدد به لأخيه» .

المؤيَّده، وله النظرُ على أعمال لبوس، تقي من الجيوش البوس : البيض [ذات]
القوانيس، واليَلَب المدار والسَّمِر المداعيس، والبيض المهنده .

فلذلك رُسم ... لا زال يجمع لأوليائه على آلائه شَملاً، ويرفع أقدار أهل الكرم
باستقرار النعم إذ كانوا لها أهلاً وبها أولى - أن يستقرَّ فلان في نظر خزان السلاح
المنصورة على عادة من تقدّمه وقاعدته، وبمعلومه الشاهد به الديوان المعمور لهذه
المآثر التي بثها القلم، والمفاخر التي آسّهرت كالنار على العلم، فليكشف ما بهذه الخزائن
من عُدّة الحرب، والآلات المُعدّة في الهيجاء للطعن والضرب، ويشمر في تكثيرها
عن ساعد اجتهداه، ويعزّز مواد الإمداد بها بحسن نظره ويؤمن أعتاده، ويستعمل
برسم جهاد الأعداء كلّ نصيل صليل، وصمّام له في الهام صليل، وصفيحة بيضاء
تبيّض بها بين أيدينا الصّحيفة، ولبوس تُرهّب عدوّ الله وتضاعف تخويفه، وزاعية
يرعب، وسمّهرى يزهرق بلسان سينانه النفوس ويذهب، وخرصان تكلم الأبطال بأسل
ألسنتها في الحروب، وقواصل لها في سماء العجاج شروق وفي تحلي الكفار
غروب، وبدن يقد الأبدان، ولأمة لم تُبار في تحصينها وتخييرها ولم تُدان، وفَضْفاضة
على جنود الإسلام تفاض، وسابغة تُسبغ على كل راجل من أهل الإيمان ليَقْضَى
من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفظ ما يُنفق على هذا العدد من الضياع، ويأت بما تأتي به الضياع على
أحسن الوجوه وأجمل الأوضاع، وليضبط ما يُصرف عليها من الأموال، ويعتمد
في نظرها ما يُحمّد عاقبة أمره في سائر الأحوال، ويتيمّن في سائر أفعاله بما من كماله،
ويسترشد بمراشده في أموره باليمن والرشد من خلال جماله، ويسلك بحسن نظره
هذه الخزائن ما يُنتظر به أن يفوق أنظار الأنظار ويرتقب، ويعلم أن هذا أوّل

إقبالنا عليه (وأوّل الغيثِ قَطْرُثَمَ يَنْسَكِبُ) ؛ والله تعالى يجعل خزانَ الإسلام بحمال
نخره آهله ، ويُورِدُها مواردَ العزِّ الدائم ويُصَفِّي من أكَدار الأقدار لها مناهله ؛
والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةً بمقتضاه .

الوظيفة السادسة

(استيفاء الصَّحبة)

وصاحبها يتحدّث في كل ما يتحدّث فيه ناظرُ الصَّحبة المقدم ذكره .

وهذه نسخةٌ توقيع من ذلك ، من إنشاء القاضى «ناصر الدين بن النشائى» وهى :

الحمد لله الذى زادَ فخارَ أوليائنا رفعةَ المقدار ، وأفاد الصَّحبةَ الشريفةَ خيرَ كافٍ
استوجب منا بحميل خِدمته جزيل الإيثار ، وجاد بالجود وأبتدأ السعود لمن حَسُنَ
فيه الاختيار وحُمد الاختيار ، وأرتاد للنصيب العليةَ كلَّ "مستوفٍ" للحاسن له حقوقُ
وفاءٍ لا تُضاع وقدّم ولاء أجمَل فيه الإيراد والإصدار .

نحمده على نِعَمِ أَجْزَلِ الآثار ، ونشكره على مَن أَجْمَلِ المسار ، ونشهد أن لا إلهَ
إلا الله وحده لا شريك له شهادةً مُخْلِص يترشّف ساحتها الدار فى تلك الدار ؛
ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أيد الله به المؤمنين وأحمد نار الكُفَّار ،
وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناء الإسلام بعد ما كاد ينهار ، وأسرى به إلى السَّبْعِ
الطَّباق فطبّق نبأ معجزاته الأرض وملاً الأقطار ، صلاةً باقية لا تزال أغصانُ
أجورها دانية القطوف زاكية الثمار ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أَجَلَ النِّعم ما علّت ملائسها ، وأجَلِ المِن ما علّت نفائسها ، وأكل
المنح ما زكّت فى رياض الإقبال غرائسها ، وأجزل العطايا ما جليت فى حُلل الفخار

عرائسها ، وأولى الأولياء بتحويل ذلك لديه ، وتحويل هذه المواهب إليه ، وإسباغ أثواب الأمتان عليه ، وأجتنابه لرتب علّ محلاً ، واختياره لمنصب يُصيح به جيده من عقود العناية محلى - من شكرت أوصافه ، واشتهر عفاؤه ، وحسن منّا إسعاده وإسعافه ، وحمدت خلّاله وماثره ، وحاز نحر نعتيه ونحر ذاتيه فلا غرو أن تعددت مفاخره ، وأسلفنا من خدمته ما استوجب أن ينجي به ثمار الإحسان ، وقدم بين أيدينا الشريفة من يمين تصرفه ما أنتج له مضاعفة الآلاء الحسن .

ولما كان فلان هو الذى تحلى من هذه الأوصاف بعقودها ، وتحلى فى مطارف برودها ، وأثنت على خصاله ألسنة الأقلام ، وأثبتت جميل خلّاله فى صحف أوراقها وصحائف الأيام ، وحاز من الأمانة والزّاهة كلّ ما يشكر به على الدوام ، وأمتاز بحسن الكتابة التى تُقرّ النواظر وتسرّ الخواطر وتزرى بالروض البسام . ما باشر رتبة إلا وفى بها ، وحفظ أموالها وغلاها وضبط أمورها وكفى بها - أقتضى رأينا الشريف أن ننقله إلى درجات السعادة ، ونمنحه من إقبالنا الشريف زيادة الحسنى وحسن الزيادة ، ونخصه بوظيفة تُدنيه منّا قربا لتكون قد أجملنا له الابتداء والإعاده .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال نحر أوليائه بمزيد آلائه ساميا ، وقدر أصفياه بمديد عطائه ناميا - أن يستقرّ فى كذا .

فلينلق هذا الإحسان ، بيد الاستحقاق ، وليتقلّد عقود الأمتان ، الذى طالما قدّ جوده الأعناق ، وليباشر ذلك مباشرة يسرّ خبرها ، ويسير خبرها ، ويشنّف الأسماع تأثيرها وأثرها ، وليسلك فيها من السداد ، مايؤكّد حمده ، ومن حسن الاعتماد ، مايؤيد سعده ، وليعتمد فيها من الأمانة ما هو المشهور من اعتماد ، ومن العفاف ما صح عنه نقل إسناده ، وليدبج المراسيم الشريفة بقلّامه السعيد ، وليوشّها بكتابه التى بها الحسن

مبدئى ومُعِيد ، وليُضَبِّطَ جميعَ أموال الديوان المعمور وغِلاله ، وسائرَ أموره وأحواله ،
 وليُسْتَوْفَ بقامه على مَبَاشِرِيه وعُمَّاله ، وليُحِطَ عَالِمًا بِخَرَجِ بِلاده وأعماله ؛
 وليُسْتَرْفَعَ الحساب شامًا ومصرًا ، وليَتَصَفَّحَ الرَّقَاعَ بالممالك الشريفة المحروسة لِيَحْوِيَ
 بجميعها خُبْرًا ، وليَتَعَيَّنَ جُمْلَهَا وتَفْصِيلُهَا لِيَكُونَ مُخْرِجَهَا أَدْرَبَ وبِمُرْدُودِهَا أَذْرَى ؛
 وليُحْصَرَ مَتَحَصَّلُهَا ومَصْرُوفُهَا ، ومَعَجَلُهَا ومَوْقُوفُهَا ؛ حَتَّى لَا يَخْرُجَ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ ،
 وَلِتَكُنْ جُمْلَةُ هَذَا الْأَمْرِ مُحَرَّرَةً فِي ذَهْنِهِ لِيَجِيبَ عَنْهَا عِنْدَ السُّؤَالِ بِتَحْقُقِ فَهْمِهِ ؛
 والوصايا كثيرة وهو بها خبير عليم ، حَازَ مِنْهَا أَوْفَى وَأَوْفَرَ تَقْسِيمَ ، وَمِلاكَهَا تَقْوَى
 اللَّهُ تَعَالَى فَلِيَجْعَلْهَا عُمْدَتَهُ ، وَلِيَتَّخِذْهَا فِي كُلِّ الْأُمُورِ ذَخِيرَتَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُضَاعِفُ
 لَهُ مِنْ لَدُنَّا إِحْسَانًا ، وَيَرْفَعُ لَهُ قَدْرًا وَشَانًا ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ أَعْلَاهُ .



وهذه وصية لمستوفي الصحة أوردتها في "التعريف" وهي :

فهو المُهَيَّمَن على الأَقْلَامِ ، والمُؤَمَّن على مصر والشام ، والمُؤَمَّل لما يَكْتُبُ بِحِطَّةٍ
 مِنْ كُلِّ تَرْتِيبٍ وَإِنْعَامٍ ، والمُلازِمُ لَصُحْبَةِ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ سَفَرٍ وَمَقَامٍ ؛ وَهُوَ مُسْتَوْفِي
 الصُّحْبَةِ ، والمُسْتَوَلِي بِالْهَمِّ عَلَى كُلِّ رُتْبَةٍ ، والمَعُولُ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، والمَعْمُولُ بِتَقْرِيرِهِ ،
 والمَرْجُوعُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ إِلَى تَقْدِيرِهِ ؛ بِهِ يَتَحَرَّرُ كُلُّ كَشْفٍ ، وَيُكَفُّ كُلُّ كَفٍّ ،
 وَبِتَنْزِيلِهِ وَإِلَّا مَا يَجُلُّ اسْتِخْدَامُهُ وَلَا صَرْفُهُ ؛ وَهُوَ الْمُتَصَفِّحُ عَنَّا لِكُلِّ حِسَابٍ ،
 وَالْمُتَطَّلِعُ لِكُلِّ مَا حَضَرَ وَغَابَ ؛ وَالْمُنَاقِشُ لِأَقْلَامِ الْكُتَّابِ ، وَالْمُحَقِّقُ الَّذِي إِذَا قَالَ
 قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ؛ وَالْمُظْهِرُ لِلْخَبَايَا ، وَالْمُطْلِعُ لِلْخَفَايَا ؛ وَالْمُتَّفِقُ
 عَلَى صِحَّةِ مَا عِنْدَهُ إِذَا حَصَلَ الْخِلَافُ ، وَوَصَلَ الْأُمْرُ فِيهِ إِلَى التَّلَافِ ؛ وَلِيُزَيِّرَ
 الْكُتَّابَ بِمَا يَلَزِمُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَيُخْرِجَهَا بِمُسْتَقَرٍّ إِطْلَاقَهُ وَضَرَائِبَ رُءُوسِ

المال ؛ وعمل المكفات وأن يكلفوا عملها ، وتقدير المساحات وليستبع خلها ؛
وليؤزمهم بتمييز قيمها بعض عن بعض ، وتفاوت ما بين [تسجيل] ^(١) القدن في كل بلد
بحسب ما تصلح له زراعة كل أرض ؛ وبمستجد الجرائد وما يقابل عليه ديوان
الإقطاع والأحباس ، وغير ذلك مما لا يحصل فيه التباس .

ومثلك لا يزود بالتعليم ، ولا ينزع فكل شيء يؤخذ منه بالتسليم ؛ وما تم ما يؤصى
به رب وظيفة إلا وعنده ينزل علمه ، وفيه ينزه فهمه ؛ وملاك الكل تقوى الله
والأمانة فهما الجنتان الواقيتان ، والجنتان الباقيتان ؛ وقد عرف منهما بما يفاض
منه عليه أسبغ جلاب ، وأسبل ستر يصبان به هو ومن يتخذهم من معينين وثواب ؛
والله تعالى يبلغه من الرتب أقصاها ، ويجرى قلبه الذى لا يدع فى مال مما لكنا
الشريفة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

الدرجة الثالثة

(من مواقع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية)

ما يكتب فى قطع العادة : إما فى المنصوري ، مفتحا بـ «أما بعد حمد الله»
أو على قدر المكتوب له فى القطع الصغير ، مفتحا بـ «رسم بالأمر الشريف»
إن أنخط قدره عن ذلك)

وفى وظائف :

منها - كتابة الدرج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .
وهذه نسخة توقيع بكتابة الدرج الشريف ، كتب به للقاضى تاج الدين ،
عبد الرحيم بن الصحاح نحر الدين بن أبى شاكر ، وهى :

رِسْم لا زالت صدقاته الشريفة تشمل نجباء الأبناء، ومبراتة الحسيمة
تُجَزَل للولد البار حسن الزيادة وزيادة الحسنى، وهباته الكريمة تُقبل بوجه الإحسان
على فرع الأصل الأسمى وتُرضع تاجه بجوهر نفرة الأسنى، وسمائه الوسيمة، تجل
شد أزr الوزارة الفخيمة، بأكفا نجل ثنى الزمان عنان الرياسة إليه وعليه أثنى -
أن يستقر فلان فى كذا وكذا : لأنه رُبى فى حجر الرياسة، وأجتنى من الروض المجد
الذى أعلى السعد غراسه ؛ ونشأ من محلّ السؤدد والفخار، وبرغ من بيت حقت
له رفعة الأقدار ؛ وبسق غصن فرعه من أصل ثابت، وسمأ بدوح عز فى مواطن
المعالى نابت، وهى ندى قلعه بانتسابه إلى سرارة الكُتاب فناهيك من كاتب لأبى
الخلل كاتب ؛ تعترف الدولة لسلفه بسالف العهود، وتعترف من منهل تديرهم
المورود ؛ وتُحلى من تاجهم بأسنى العقود، وتسمو من خروزارتهم ووزارة خفرهم
بما يملأ الوجود بالجود؛ وتختال من تصريف أعلامهم وأقلام تصريفهم فى روض
التنفيذ المجود فإن ذكرت ما تُرجده قصرت عن إدراكها الجُود، وإن شُكرت
مناقب والده - أجله الله - ففجّرها الباذخ مشهود؛ وهو بلسان العام والخاص
ممدوح محمود، وإلى معانى خطه تنتهى درجات الصعود والسعود؛ فلا غر ولهذا
الفرع الناجب أن يتبع أصله، وأن يسلك فضائله وفصله ؛ وأن يقفوا منهجه،
ويُجدوا فى الكتابة طريقته المبهجة ؛ ويأتى من البراعة بسنتها القويم، ويبرز من
البراعة وشى خطه الرقيم ؛ وأن يُحلى أجياد المهارق بجوهر تاجه النصيد النظيم، وأن
تحلوا ألفاظه فى الإنشاء حين تتر على الأسماع مرور النسيم ؛ [لا] سيما وقد ظهرت
عليه من تخاليل الراسة دلائل، وشُرعت له مناهل الأدب والفضائل ؛ وحاز من
حسن النشأة ما سار بُشكره المثل، وحصل من الاشتغال على كثر المعرفة وأشتمل ؛
وغدا جديراً بكل مرتبة سيّيه، وكل رفعة هى بأعدادها مبنية .

فليأشِرْ ذلك مباشرةً يجعلها لباب المعالي مفتحة ، وللزيادة من كل خير سببا كلما
أبدى الدهر مساءً وصحى ، ولينقل في اتباع مهيع المجد عن والده وجده أبقاهما الله
تعالى ، وليدأب للتحلّ بأخلاقهما الحسنة أقوالاً وأفعالا ، وليُبرِّج الطُّروسَ بوشى
قلمه ، ولينمق المكتباتِ ببلاغة كلمه ، وليتخذ الصُّونَ شعاره ، والعفافَ دثاره ،
والأمانةَ معتمده ، والنزاهةَ مستنده ، وضبطَ القولِ مادته ، وحفظَ اليد واللسانِ
جادته ، والوصايا كثيرة وملاكمها التقوى وهى حليته الحقيقية ، وعقيدته العقلية
والمنطقية ، فليجعلها دأبه ، وليرض في إعلانه لها ربّه ، والله تعالى يعلى قدره وجده ،
ويحفظه وأباه وجده .



وهذه نسخة توقيع شريف بكتابة درج تجديداً ، وهى :

رِسْم ... - لا زال يمنح الأولياء ، بتجديد النعم إحساناً ، ويؤلى البلاء فضلاً
يعلى لهم رتبة وشانا ، ويبدى لهم فى ديوان إنشائه الشريف فضائل جمة وبيانا -
أن يجدد هذا التوقيع الشريف باسم فلان تجديداً لأنوار الإحسان إليه ، وتأكيذاً
لمزايَا الأمتنان لديه ، وتسديداً لمستنده الذى ألقاه وجه الإقبال إليه ، لما حازه من
فضيلة تامة ، وبلاغة ملأت بديع المعاني ومعانى البديع ألفاظه وكلامه ، وكتابة
أجرت فى حواشى الطروس بحقق التوقيعات أعلامه ، وأمانة بنت على الصّدق
والعفاف أقسامه ، ورياسة تأثل مجدها ، فبلغ مرآته ، وأتصل سعدُها ، فلا يحشى
أنفصامه ، وبعد شأوها فهى السامية إلى رفع المنازل من غير سامة . قد أنصف من
البراعة بجمل الأوصاف ، وظهر استحقاقه فهو بادٍ غير خاف ، وتروى من بحر البلاغة

حيثُ وردَ منهلها الصَّافُ ، وسلكَ طُرُقَ الخيرِ فتضاعفَ له الإسعادُ والإسعافُ ،
وأمتازَ بمزايا التجملُ في أموره والعفافُ ، وأستحقَّ بذلك أن تُجددَ له فضلَ الألفه ،
ونؤكدَ له بكرمنا نيلاً أعتاده وعرفه .

فليستَمِرَّ في ذلك استِمراراً به أسبابُ الخيرِ مؤتلفه ، ووجوهُ الفضائلِ عن صنوفِ
الكتابةِ غيرِ منصرفه ، وليُبدِ من البِلاغةِ بيانها البديعُ ، ويُجملَ منزلِ العلياءِ الرفيعُ ،
ويَسلكَ مسلكه في الأمانه ، ويتَّقِ الله تعالى بملازمةِ المراقبةِ والديانه ، والله تعالى
يُعَلِّمُ مكانه ، ويزيدُ في أقتناءِ الفضائلِ إمكانه ، والأعتادُ على العلامةِ الشريفةِ أعلاه ،
إن شاء الله تعالى .

قلت وربما كُتِبَ التوقيع لكاتب الدرَجِ بزيادةِ معلوم ، فيحتاجُ الكاتبُ إلى أن
يأتى بعبارةٍ تجمعُ إلى ما تقدّمَ من براعةِ الاستمالةِ ما يليها من موجبِ الاستحقاقِ ،
وسببِ الزيادةِ وترادفِ الإحسانِ .



وهذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة ، كُتِبَ به لابن عبادة ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى أفاضَ على الأولياء من خزائن فضله ، وأفاءَ لهم أوفرَ نصيبٍ
من إحسانه المشكورِ فيه عدلُ قسَمِهِ وقَسَمَ عدله ، وأهمى عليهم من سُحبِ مواهبه
ما يقصُرُ عنه الغمامُ فى وبله وطله ، وأسبغَ عليهم من جوده العميم ما يصفقو لديهم المرحُ
فى وارِفِ ظلّه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه ورسوله أشرفِ رُسُلِهِ ، وخاتمِ
مَن جاء من الأنبياء من قبله ، والهادى ببعثته الشريفة إلى طُرُقِ الحق وسُبُلِهِ ،
وعلى آله وصحبه الذين تابَعُوهُ فى قوله وفعله ، وبايعُوهُ على المظاهرة فى نُصرة الدين

الْحَنِيفِ وَأَهْلِهِ ، وَجَمَعُوا هِمَمَهُمْ عَلَى الْإِثْمِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ وَجَمَعَ شَمْلَهُ ، وَأَرْهَفَ كُلَّ
مِنْهُمْ فِي نَصْرِهِ مَاضِي عَزَمِهِ وَنَصَلَهُ - فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ رُعِيَتْ لَهُ حَقُوقُ ذِمَامِهِ ، وَمُنِحَ
أَجْرُ الْعَطَاءِ الَّذِي تَقْضَى الْأَقْدَارُ بِدَوَامِهِ ، وَلَوْحِظَ بَعِينَ الْإِقْبَالِ مَا أَسْلَفَهُ مِنْ حُسْنِ
الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِهِ - مَنْ جَدَّ فِي الْخِدْمَةِ فَأُضْحِيَ الْجَدُّ لَهُ خَادِمًا ، وَدَاوَمَ عَلَى
الْمُنَاصِحَةِ فَعَدَا سَعْدُهُ دَائِمًا ، وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ فَضِيلٍ بِزِمَامِهِ ، وَمَتَّ بِمَالِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ
الشَّرِيفَةِ مِنْ حُرْمَتِهِ وَذِمَامِهِ ، وَسَلَكَ فِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ السَّنَنَ الْقَوِيمَ ، وَجَعَلَ عَلَى خَزَائِنِ
الْأَرْضِ بِمَا تَلَا لِسَانُ فَضْلِهِ : ((إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ)) ، وَتَمَسَّكَ مِنَ الْإِخْلَاصِ بِأَقْوَى
الْأَسْبَابِ ، وَجَعَلَتْ لَهُ التَّقْوَى مَحَلًّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ مَلَائِكَةَ الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، وَزَيْنَ
سَمَاءِ الْمَعَالِي بِكَوَاكِبِ مَجْدِهِ فَمَا تَشَوَّفُ إِلَيْهَا طَرْفٌ مُتَطَاوِلٌ إِلَّا وَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ .

ولما كان فلان هو الذي غدا حسن مناقبه إلى شكره مُرَشِدًا ، وإلى ذكره
بِالْجَمِيلِ مُسْعِدًا ، وَأَلْهَجَ لِسَانُ الْقَلَمِ فِي وَصْفِهِ مُنْشِدًا ، وَأَخْتَصَّ مِنْ هَذِهِ الْحَمَامِدِ بِأَوْفَرِهَا
قِسْمًا ، وَطَلَعَ فِي أَفْقِ هَذَا الشَّاءِ الْجَمِيلِ نَجْمًا ، فَلِذَلِكَ رَسَمَ

ومنها - آستيفاء الدولة .

وموضوعها التحدُّثُ فِي كُلِّ مَا يَتَحَدَّثُ فِيهِ الْوَزِيرُ وَنَازِرُ الدَّوْلَةِ ، وَضَبْطُ الْأَمْوَالِ
الدِّيَوَانِيَّةِ ، وَكِتَابَةُ الْحُسْبَانَاتِ ، وَكُلُّ مَا يَجْرِي بِمَجْرَى ذَلِكَ . وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ
يَكُونَ فِيهَا مُسْتَوْفِيَانِ .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة :

أما بعد حمد الله الذي صانَ الْأَمْوَالَ بِالْأَقْلَامِ الْحَرَّةِ ، وَالدَّفَاتِرِ الْمُسْطَرَّةِ ،
وَالْحُسْبَانَاتِ الْمَصْدَرَةِ ، وَالْجَوَامِعِ الْمُسَيَّرَةِ ، وَالتَّيَقُّظِ الَّذِي أَسْتَخْرِجُ الْبَوَاقِيَ الْمُنْكَسَرَةَ ،

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أزال ظلام الظلم وتورّه، ومحا الجور وغيره،
وأيد الحق وأظهره، وعلى آله البرره، وصحبه خصوصا العشرة المبشرة - فإن للدولة
الشريفة من الأقاليم ضابطا، ولها من الحساب نظاما أصبح عليها سياجا وحائطا،
يصون الأموال أن تكون بأيدى الخائنين نهبا، ويحجز المطلقات بعدا وقربا،
وقلم الاستيفاء هو الذى إذا طاشت أقلام الحكّاب كان فى رأسها لحاما، وإذا
خضم المباشرون بالمصروف قبل السائغ الصحيح وردّ ما كان سقيا وخرّج ما لم
يكن تماما .

ولما كان فلان هو الذى فى الرأسة كبير معروف، وفى السعادة حميد موصوف،
وفى قلمه تصحيح كل مصروف، وله فى الدولة آثار مرضية تشكرها الأقاليم
والسيوف، ما نظر فى حساب، إلا أزال عنه ما به يعاب، ولا رأى فذلك،
إلا وأوضح فيها المسالك، ولا عرض باقى، إلا استخرج ما يتعين استخراجه بقلمه
الراقى، وفهمه الواقى، فلذلك رسم أن يستقر

فلباشر هذه الوظيفة بتحريره وتحبيره، وتميزه وتثمينه، وتوفيره وتكثيره، وإيراده
وتصديره، وتسهيله وتيسيره، وإزالة تعسيره، وإذا أمسك دفاتره، أظهر ما ثره،
وإذا نسيت الجمل أبدى تذاكره، والعمدة على شطبه فى الحسابات الحاضره،
فلا يخرج من عنده شىء بغير ثبوت فإن التواقيع الشريفة والمراسيم الشريفة هى
كالأمثال سائرة، ولا يتخذ المعين، إلا الأمين، ولا يستعين، إلا بمن هو مأمون
اليمين، والصايا كثيرة وهو غنى عن التبيين، فليثق الله رب العالمين، وليستجلب
لنا الأدعية من الفقراء الصالحين، فإن صدقاتنا الشريفة تنعم عليهم بمرتبات
وأرزاق، ونعم وأطلاق، فليسهّل عليهم الصعب فى كل باب وإطلاق، والله تعالى
يُمده بالإرفاق، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد يكتب لوظيفة استيفاء الدولة مفتتحاً بـ «رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة ، كُتِبَ به لعَلَم الدين بن ريشة ،

وهي :

رُسِمَ بالأمر الشريف - لا بَرِحْتُ أَيَّامَهُ الشَّرِيفَةَ تَرْفَعُ لَدَوِي الكِفَاءَةَ مِنْ إِحْسَانِهَا
عَلَمًا ، وَتُرْجَعُ مَصَالِحُ الدَّوْلَةِ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ فِيهَا خِطَابًا وَأَعْمَلَ فِي مُهِمَّاتِهَا قَلَمًا ،
وَتَخْتَارُ مَنْ دَابَّ فِي تَكْمِيلِ أَدَوَاتِهِ حَتَّى صَارَ عَلَى أَنْظَارِهِ مُتَقَدِّمًا - أَنْ يَرْتَّبَ فُلَانٌ عِلْمًا
بِكِفَايَتِهِ الَّتِي وَضَحَتْ ، وَدِرَايَتِهِ الَّتِي فَاقَتْ مُنَاطِرَهَا وَرَبَّحَتْ ، وَأَمَانَتِهِ الَّتِي حَصَلَتْ
النَّمَاءُ وَأَرْبَحَتْ ، وَهَمَّتِهِ الَّتِي مَيَّزَتْ الْأَمْوَالَ بِإِحْرَازِهَا فَعَلَى السَّدَادِ خُتِمَتْ وَبِالتَّحَرُّي
أَفْتَتِحَتْ .

فليُباشِرْ هذه الوظيفة التي تحتاج إليه باحتراز مثله ، والرُّتْبَةُ الَّتِي يَتَعَيَّنُ عَلَى مُبَاشَرَتِهَا
إِيصَالُ كُلِّ حَقٍّ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَدْ أَرْجَعْنَا ضَبْطَهَا وَتَحْرِيرَهَا إِلَيْهِ ، وَاعْتَمَدْنَا فِي تَيْسِيرِ
أَمْوَالِهَا وَسَدِّ أَحْوَالِهَا عَلَيْهِ ، فَهُوَ جَدِيرٌ بِبُلُوغِ الْقَصْدِ فِيمَا قَرَّرْنَاهُ لَدَيْهِ ، وَحَرَرْنَاهُ
بِقَلَمِهِ وَيَدَيْهِ .

فليُسْطَ فِي مَصَالِحِ الدِّيَّانِ الْمُعْمُورِ وَأَمْوَالِهِ قَلَمَهُ ، وَلْيَعْمَلْ بِمَا هُوَ عَالِمٌ مِنْ تَبْيِينِ
حَقَائِقِ أَحْوَالِ وَظِيفَتِهِ وَيُخْلِصَ فِيهِ قَوْلَهُ وَكَلِمَهُ ، وَلْيُصْنِ الْأَمْوَالَ ، وَيَتَفَقَّدَ مَا يَلْزَمُ
الْعُمَّالَ ، وَيَحْتَثَّ عَلَى حَمُولِ بَيْتِ الْمَالِ ، وَلْيَسْتَرْفِعِ الْحُسْبَانَاتِ مِنْ جِهَاتِهَا عَلَى الْعَادَةِ ،
وَلْيَسْتَوْدِعْ دِفَاتِرَهَا وَجَرَائِدَهَا مَنْ يَتَحَقَّقُ تَحَرُّزَهُ وَسَدَادَهُ ، وَلْيَتَّخِذْ مُعِينِيهِ مِنْ أَرْبَابِ
الْحِذْقِ وَالذَّرَايَةِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى كُلِّ نَقْصٍ وَزِيَادَةٍ ، وَإِبْدَاءٍ وَإِعَادَةٍ ، وَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ
مَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى زِيَادَةِ الْوَصَايَا وَتَكْثِيرِهَا ، وَمِنْ أَلْمَعِيَّتِهِ مَا يُدْرِكُ بِهِ الْفَصْلَ
فِي جَلِيلِ الْأُمُورِ وَحَقِيرِهَا ، فَإِنَّهُ قَدْ تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْأَدَبِ ، وَشَارَكَ فِي جَلِيلِ

الخطب وسد ما إليه عزمه أنتدب ، والله تعالى يبلغه من الجود غاية الأرب ،
ويعينه على صالح العمل وAntهاز القرب ، والأعتماد ...

ومنها - استيفاء الخاص . وصاحبها فى الخاص كمستوفى الدولة فى ديوان الوزارة .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الخاص لمن لقبه «أمين الدين» وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت أيامه الشريفة تقدم بمهمات أميننا ، وتقدم
فى خدمتها من أضحى على شمالا ويمينا ، وتولى الرتب السنية من جعل التحرز لقلمه
مصاحباً ولقبه معيناً - أن يستقر فلان فى كذا : لما عرف من رآسته التى
ميزته ، وأمانته التى جمعت الرفع فأحرزته ، وضبطه الذى ترقى به فى المراتب وتنقل ،
وإدراكه الذى يصون به غوامض المصالح ويعقل ، ولما سلف له من خدمة ملك
ففى السداد ، ومباشرة علم بها ما هو متصف به من حسن الاعتماد .

فليباشر هذه الوظيفة التى وليها ، وليشهر من همته فيها ما يرفع مكانته ويعليها ،
وليدم المراقبة لمصالح ديوان الخاص الشريف فى كل قول وعمل ، وليسارع إلى
مأفد المالح ويبلغ من الضبط والتحرز غاية الأمل ، وليصن الأموال من ضياعها ،
ويحافظ على سلوك طرائق الحق وأتباعها ، وليسترفح الحسابات من أربابها ،
ويتفقد محرراتها التى هو أعلم وأدرى بها ، ويتخذ من معينيه من أضحى معرفته
للدقائق جامعاً ، ويحتفل بمتحصلات أموال الخاص بعزمته التى أضحى لمكانته
رافعه ، لا سيما ثغر الإسكندرية التى قد أصبحت جهاتها لطلب أعلامه متابعة
طائعه ، وليلزم كل عامل بتحرير ما يجب عليه وما تنبى فيه المراجعة ، فإننا قد أقنناه
لذلك مستوفياً ، ولتصفح أموره الجليسة والحقيقة مستوفياً مستقياً ، ولتق الله

الذى يبلغه من زيادة منحة الأمل ، ويعينه على صالح العمل ، والله تعالى يمنحه من الخير ما يُجِّح مسعاه ويزهه عن الزبغ والزلل ، والاعتماد



وهذه نسخة توقيع فى المعنى لمن لقبه «بدر الدين» وهى :

رسم بالامر الشريف - لازال يُطْلَع لِدَوَى الكِفاية من إحسانه فى سماء الإقبال
بَدْرًا ، ويرفع لمن أمَّ الأبواب لأوليائه من ذَوَى الرأسة قَدْرًا ، ويشفع لمن شُكِرَتْ
معرفته بِنُجْح القصد فأنشرح له باليمن الجمَّة صَدْرًا - أن يستقرَّ فلان فى كذا :
لكِفايته التى خُطِب بسببها إلى مقره ، ودرايته التى أَسْتَوْجَب بها أن نطق لسان
القلم بذِكْره ، ونزاهته التى أجمعت بها أمثاله على شُكْره ، وأمانته التى تستدعى الحق
فى حُلِّو الأمر ومُره ، وديانته التى هى أصل فى كل أمره ، وصيانته التى يعتُمِدُها
فى سرِّه وجهره ، ومشارفته المصالح بعين يقظته التى يلوح لها وجه الصواب فيقف
عند حده وقدره .

فليباشِر هذه الوظيفة التى أسلفها حسن الاعتماد ، وليوفِّها من معهود يقظته مِن
الاجتهاد ، وليحقِّق حسن ظنَّ المباشرين فى رغبتهم فيه فى الإنصاف فى الإرفاق
والإرفاد ، وليعمر جهات الأموال بجميل الإقتصاد ، ويُنجز الأحوال على سبيل
السداد ، وليتبع منهاج الخير فى كل ما يأتى من إصدار وإيراد ، فقد رجَّع ضبط
هذه الجهة إليه ، وأَعْتَمِد فى تحريرها عليه ، فليصُن الأموال ، ويتفقد ما تحسن به
العقبى والمآل ، وليتحرَّر فى جميع ما هو لازم له أن يكون على الحق الواضح ، والسنن
القويم فإنه المتجرِّب الرابح والمأبُ الناجح ، وتقوى الله تعالى فهى عمدة كل عبد صالح ،

(١) لعله من أوليائه ذوى الخ .

(٢) لعله «ورغبتهم فيه من الانصاف» الخ تأمل .

والوصايا كثيرةٌ مَبِينَةٌ تُغْنِي عن إفصاح الشارح ؛ والله تعالى يُلْهِمُهُ الطريقَ السَّيِّدَةَ
وَيُرْشِدُهُ ، وَيُعِينُهُ بِالتَّوْفِيقِ وَيُنْجِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - استيفاء البيوت والحاشية .

وهذه نسخة توقيع بذلك ، كُتِبَ بِهَا لَعَلَّ الدِّينَ « شَاكِر » عَوْضًا عَنْ تَاجِ الدِّينِ
ابن الغزولى فى الأيام الأشرفية « شعبان بن حسين » وهى :

رِسْمٌ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تَمْنَحُ الْأَكْفَاءَ مِنْ إِحْسَانِهَا
نِعْمًا ، وَتُضَاعِفُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهَا كَرَمًا ، وَأَيَّامُهُ الشَّرِيفَةُ تَعْمُ الْبُيُوتَ الْكَرِيمَةَ بِكَافٍ
قَدْ كَثُرَتْ لَهُ الْأَمَانَةُ فِي دَوْلَتِهِ الْأَشْرَفِيَّةِ عِلْمًا ، وَمَوَاهِبُهُ تَقْدَمُ لِلْوُظَّائِفِ مَنْ أُضْحَى
شَاكِرًا لِلَّهِ تَعَالَى وَتَبَسُّطُ لَهُ فِي دَوَاوِينِ أَعَزِّ الْأَنْصَارِ قَلَمًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِى
الْقَاضِى ، فَلَأَنَّ الدِّينَ فِي كَذَا وَكَذَا : لِأَمَانَتِهِ الْمُؤَفُّورَةِ ، وَمَعْرِفَتِهِ الْمَشْهُورَةِ ، وَمَحَاسِنِهِ
الْمَذْكُورَةِ ، وَسِيرَتِهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي أَضَحَّتْ فِي صَفَحَاتِ الْحُسْبَانَاتِ
مُسْطُورِهِ ، وَدِيَانَتِهِ الَّتِي جَدَّدَتْ بِهِجَتَهُ وَسُرُورَهُ ، وَخَبْرَتِهِ بِمَنَازِلِ الْبُيُوتِ الْمَعْمُورَةِ ،
وَقِدَمِ هِجْرَتِهِ فِي الْوُظَّائِفِ الَّتِي أَوْجَبَتْ نُقْلَتَهُ إِلَى أَجْلَافِهَا ، وَصَدَارَتِهِ الَّتِي رَفَعَتْهُ إِلَى
أَرْفَعِ مَحَلِّهَا ، كَمْ لَهُ فِي دَوَاوِينِ أَعَزِّ الْأَنْصَارِ مِنْ أَقْلَامٍ مَنَقَّذَةٍ ، وَآرَاءٍ مُسَدَّدَةٍ ، وَنَظَرٍ
أَصْلَحَ بِهِ كُلَّ فَاسِدٍ ، وَكَبَتْ بِهِ كُلَّ حَاسِدٍ ، وَضَبَطَ لِأَصُولِ الْأَمْوَالِ ، وَنَتِجَ لِلصَّالِحِ
فِي الْبَكْرِ وَالْأَصَالِ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُظُفَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي هُوَ أَخْبَرُ بِمَبَاشَرَتِهَا ، وَأَعْلَمُ بِأَحْوَالِ الْبُيُوتِ
الْكَرِيمَةِ وَعِمَارَتِهَا ، وَلْيُظْهِرْ فِي الْحَاشِيَةِ السَّعِيدَةِ مَا ثَرَهُ الْحَسَنَةُ ، وَزَاهَتَهُ الَّتِي نَطَقَتْ
بَشْكْرِهَا الْأَلْسِنَةَ ، وَلْيُبَيِّنْ فِي مَبَاشَرَتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ ، وَلْيَسَلِّكْ طَرَائِقَ الْأَمَانَةِ ،
وَلْيَتَقَفْ آثَارَ ذَوَى الْعَفَافِ وَالصَّيَّانَةِ ، وَلْيَبْلِغْ مَبَاشَرَةَ أَعَزِّ وَلِيِّ فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ ،

ولا يشغله شاغلٌ عن مصالح مَهْدِ الدول مَنْ [هو] لسلطاننا الأشرِف أميرِ سلاح ،
واللهُ تعالى يفتحُ له من الخير أبوابَ النِّجاح . والاعتمادُ على الخطِ الشريفِ أعلاه ،
إن شاء الله تعالى .

قلت : ومما يخطرُ في سلكِ تواقيعِ أربابِ الوظائفِ السلطانيةِ وظائفُ
دواوينِ الأُمراءِ الخاصِكِيَّةِ ، فإنه ربما كُتِبَ عن السلطانِ التوقيعُ لبعضِ أربابِ
وظائفِ دواوينهم كما يكتَبُ في الوظائفِ السلطانيةِ .



وهذه نسخةُ توقيعِ كريمِ بنظرِ دواوينِ بعضِ الأُمراءِ ، وهى :

أَمَّا بعد حمدِ الله الذى هدى إلى المِلَّةِ المحمَّديةِ مَنْ أَسْرَّ الإيمانَ فى قلبه ونَوَّاه ، وَضَمَّ
إلى الأُمَّةِ [الاسلاميةِ] من أضمر الإخلاصَ فأظهره الله فى متقلبِهِ ومَثَوَاه ، وَجَمَعَ لولِيَّ
الدولةِ ومُخلصِها الفرجَ والفرحَ لأنه مَنْ تَوَكَّلَ عليه كَفَّاه ؛ والشهادةُ بالوَحْدانيةِ التى
تُبَلِّغُ قائلِها من رضاه مَنَاه ، وتجعلُ جَنَّتِهِ لمن أَسَرَّها جَنَّتَهُ مستقرَّةً ومَأْوَاه ؛ والصلاةُ
والسلامُ على سيدنا محمَّدٍ الذى قَصَمَ عِدَاه ، وقَصَمَ عُرا مَنْ عاداه من أهلِ الشركِ
وعَدَاه . وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ الذين آهَتَدُوا بهدَاه ، وأَسْتَجَدُّوا جدَاه ؛ وَلَبَّوْا نِدَاه ، وأَمَّوْا
نَدَاه ؛ صلاةً تُجْزِلُ لمصلِيتها ثوابَهُ ، وتُجَمِّلُ مآبَهُ ، وتُجَمِّدُ عُقباه - فإنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ رَفَعَ لَهُ
الكرَّمَ مَحَلًّا ، وقَلَدَتِهِ النِّعمَ عَقْدًا مُحَلًّا ؛ وأُعِيدَ إلى رتبةِ الإِصْطِفَاءِ ، وفُوضَ إليه ديوانُ
أَعزِّ الأَخْصَاءِ ؛ وَصُرِّفَ قَلَمُهُ فى مَهامِّهِ ، وحصلتْ هَمَمُهُ على جميعِ أَقسامِهِ ؛ وَعُدِقتْ
مصالحُهُ بتدبيرِهِ ، ومناجِحُهُ بتأيسلِهِ وتأثيرِهِ ؛ ومتحصَّلاتُهُ بتمييزِهِ وتخيُّرِهِ ، وأحوالُهُ
وأموالُهُ : هذه بِحُسْنِ تصرفِهِ وهذه بِحُسْنِ تَقْرِيرِهِ - مَنْ دَخَلَ فى دينِ الله القَوِيمِ ،
وَأَجْتَبَاهُ وهَدَاهُ إلى الصُّراطِ المستقيمِ ؛ وَكَسَاهُ الإسلامُ حِلَّةَ شَرَفِهِ ، وبَوَّاهُ الإيمانُ

مَبَانِي غُرْفِهِ ، وَنَوَى الْأَسْتِقَامَةَ فِي إِقَامَتِهِ وَمُنْصَرَفِهِ ، وَالتَّحَفَ بِبِحَابِ الْإِسْلَامِ
وَأَرْتَدَّى ، وَتَلَبَّسَ بِالْإِيمَانِ فَصَدَّ عَنْهُ الْأَذَى وَرَدَّ الرَّدَى ، وَغَدَا مِنْ أَصْحَابِ الصَّرَاطِ
السَّوِيِّ وَمِنْ أَهْتَدَى ، مَعَ كِفَايَةٍ أُوجِبَتْ لَهُ التَّقَرُّبُ وَالتَّقْدِيمُ ، وَجَدَّدَتْ لَهُ مَلَابِسَ
التَّكْبِيرِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَكِتَابِيَةً فَاقَ بِهَا أَمْثَالَهُ ، وَعَلَامَاتِهِ ، وَبَلَّغَتْهُ مِنَ الْعِلْيَاءِ مَرَامَهُ وَمَنَالَهُ ،
وَمَعْرِفَةِ بَفُنُونِ الْحِسَابِ ، وَخَبْرَةَ اعْتَرَفَ لَهُ بِهَا الْكُتَّابُ وَالْحُسَّابُ ، وَأُوجِبَتْ لَهُ مِنَ
الْإِقْبَالِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ .

ولما كان مجلس القاضي فلان : هو الذى أخذ القلم فى مدحه ، والكرم فى منحه ؛
أقضى رأينا الشريف أن نُقْبِلَ عَلَى إِقْبَالِهِ عَلَى الدِّينِ بوجه الإقبال ، وَأَنْ نَبْلِّغَهُ
فِي أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ مَا كَانَ يَرْجُوهُ مِنَ الْآمَالِ . فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ
يَرْفَعَ مَنْ كَانَ لِلدَّوْلَةِ وَلِيًّا ، وَيَضَعُ الشَّيْءَ مَحَلَّهُ بِتَقْدِيمِ مَنْ أُخِىَ عِرْفَانُهُ جَلِيًّا ^(١) .

فَلْيَبْشُرْ ذَلِكَ بِمَباشِرَةٍ تَبْلُغُهُ أَمَلًا مِنَ الْإِعْتِلَاءِ ، وَتُوَلِّهُ مَرَامًا مِنَ الْإِعْتِنَاءِ ، وَتُؤَمِّنَهُ
مِنْ طَوَارِقِ الزَّمَنِ وَحَوَادِثِ الْإِعْتِدَاءِ ، عَالِمًا أَنَّ دَوْلَتَنَا الْفَلَائِيَةَ الْمَنْصُورَةَ تُجَازِي
عَنِ الْحَسَنِ بِأَمْثَالِهَا ، وَأَنَّ أَيَّامَنَا الْفَلَائِيَةَ الْمَشْهُورَةَ الْمَشْكُورَةَ تَبْلُغُ أَوْلِيَاءَهَا غَايَةَ
أَمَالِهَا ، وَأَنَّ أَجْرَنَا بِرَّهَ ، وَأَجْلُنَا ذِكْرَهُ ، وَأَجْرُنَا عَلَى لِسَانِ الْقَلَمِ حَمْدَهُ وَشُكْرَهُ ،
فَلْيَعْتَمِدْ فِي مَبَاشِرَتِهِ الْأَمَانَةَ الْمُبَرَّهَ ، وَالنِّزَاهَةَ الَّتِي رَفَعَتْ مَاسَاءَهُ وَوَضَعَتْ مَاسِرَهُ ،
وَلْيَشْمُرْ فِي مَصَالِحِ هَذَا الدِّيَّانِ السَّعِيدِ عَنْ سَاعِدِ اجْتِهَادِهِ ، وَيَعْتَمِدْ فِي أُمُورِهِ مَا أُلْفَ
مِنْ سَدَادِهِ ، وَيَتَخَرَّجَ مِنَ السَّعَادَةِ مَا كَانَ قَبْلَ الْقَوْلِ مِنْ سَعَادَةٍ ، وَلِيَتَّقِ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ،
وَيَجْعَلَ التَّقْوَى حِلْيَةً لِأَوْفَاتِهِ ، وَحُلَّةً عَلَى سَائِرِ تَصَرُّفَاتِهِ ، وَيَسْرُبَ بِتَقْوَاهُ سِيرًا خَبْرًا
وَخُبْرًا ، وَيَذَرُ جُورًا وَجَبْرًا ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ .

(١) أن يستقر في ديوان كذا الخ وحذفه اختصارا للكتابة وكثيرا ما يفعل مثل ذلك .

قلت : وغالب ما يعتنى به في تواقع أرباب الأقسام المفتحة : «رسم» الدعاء
المصدّر به التواقع [و] أشتمله على براعة الاستهلال .
وهذه جملة أدعية من ذلك يُنسج على منوالها :

أثير الدين — لازال فلك فضله أثيرا ، وطالع سَعْدِه مُنيرا ، وهبوب
ريج مبرّاته للخيرات مُثيرا .

أمين الدين — لازال يتنحى للخدم الشريفة خير أمين ، ويصطفى للقيام
بالمصالح أنحض مُعين ، ويحتجى لأهمّ المُهمّات من هو غير مُتهم في المناصحة وغير ظنين .
بدر الدين — لازال يؤلّى المناصب الدينيّة من سلك في النزاهة مسلكا
جميلا ، ويؤلّى الفضل الجزيل من أضحى إشراف بذره على آثار حفظه دليلا .

برهان الدين — لازالت أوامره الشريفة ترفع للعلماء شانا ، وتقيم على
استحقاقهم دليلا واضحا وبرهانا .

تاج الدين — لازالت صدقاته الشريفة ترفع تاج الفضائل على الرؤوس ،
وبرّه الشامل يذكّي النفوس ويزكّي الفُروس ، وتوارد إفضاله يوشى المهارق ويدبج
الطُروس .

تقيّ الدين — لازالت صدقاته الشريفة تقدم كلّ تقى ، وترجح
ميزان من هو بالفضائل أملى مليّ ، وترفع قدر من إذا سئل عن محله في الرياسة
قيل عليّ .

جمال الدين — لازال جمال جميله للنفوس رائقا ، وإفضاله المتوافر لكل
إفضال سابقا .

جلال الدين — لازالت صدقاته الشريفة تزيد جلال ذوى الفضل
جلالا ، وإحسانه المتواتر يوسع في البر لأولى الاستحقاق مجالا ، وبره المتتابع تقصر
عنه خطأ كل بر فينادى : هكذا هكذا وإلا فلا لا .

رضى الدين — لازال رضى السجيا ، ظاهر المزايا ، مسترسل ديم
العطايا .

زين الدين — لازال نواله الشريف زينا لنائله ، وسؤاله المحقق إجابته
شرقا لسائله ، وقاصد بابيه الشريف يوم بالخير في عاجل الأمر وإجله .

سراج الدين — لازالت عنايته الشريفة تخص أولياءها بجزيل المواهب ،
وتبلغهم من صدقاتها العامة غاية الآمال وأقصى المطالب ، وتوقد لهم من أنوار
سعادتها سراجا يغلب على نور الكواكب .

سرى الدين — لازالت صدقاته الشريفة تصطفى من أرباب الكتابة
من يجيد المعاني فلا يضيع لفظا إلا جعل تحته معنى سريّا ، وترضى من فُرسان
البراعة في ميدان اليراعة من يرتقى ببلاغته مكانا عليّا ، وتجتبي من أهل الإفادة من
تميز بالإفادة فلا يزال كلامه لأجياد الطروس حليّا .

شرف الدين — لازالت صدقاته الشريفة تضع الشيء في محله ، وترجع
الفضل إلى مستحقه وأهله ، وتختار للنائب من ظهر شرفه بين قوله وفعله .

شمس الدين — لازالت صدقاته الشريفة تطلع في سماء المعالي من ذوى
الرياسة شمسًا ، ونعمه الجسيمة تثبت في روض الإحسان غرسًا ، ومراسمه العالية
تنقل إلى رتب الرياسة من شدت كفه على عدد الأمانى خمسًا .

شهاب الدين - لا زالت صدقاته الشريفة تُطْلَع في أفقها شهابا، وتُحْمَل من جزيل المواهب للأمانى سحابا، وتضع الشئ في محله وتزيد الأمور انتظاما والدعاء استجلابا .

صدر الدين - لا زالت آراؤه الشريفة تستفيد من ذوى الفضائل من جاوز الجوزاء نظما وفاق النثرة نثرا، وتستفيد^(١) به المناصب من الأماثل من تقصر عن مجده الكواكب رفعة وقدرًا، وتستزيد منه المراتب من فاق سحبان وائل وساد الأوائل فأضحى في مجالس العلياء صدرا .

صلاح الدين - لا زال أمره الشريف يقدم من يفيد ويحيد، فيكون لكل أمر صلاحا، وكرمه الطويل المسديد، يشمل من ذوى الفضائل من فاق "سحبان" وائل فصاحة وفاق "حاتم" الأوائل سماحا، ورأيه الرشيد السديد، يختار من إذا انتضى البراعة غلب رأيه سيوفا وطال قلمه رماحا .

ضياء الدين - لا زالت آراؤه الجميلة، تختار من ذوى الفضائل الجميلة من ترداد به المناصب ضياء، ونعمه الجزيلة، تعم كل بارع إذا أدلهمت الخطوب كان فوه لها جلاء، وعوارفه المستطيلة، تشمل كل فاضل بذل في الخدمة جهده وتكسوه هبة وبهاء .

علم الدين - لا زال جزيل إحسانه، أوضح من نار على علم، ومزيد أمتنانه، يشمل أرباب السيف والقلم، وسحب بنانه تسح فلا تسح بجزيل الكرم .

علاء الدين - لا زال علاء دولته يصطفى ذوى الفضائل، ويختار من الفصحاء من يقوت الأوانر كما أضحى يقوت الأوائل، ويقدم من هو في تدبير البراعة كعلي بن هلال وفي حسن البراعة كسحبان وائل .

(١) لعله « وتستعيد للنائب ... وتستزيد في المراتب الخ » . تأمل .

عِزَّ الدِّينِ — لا زالت صدقاته الشريفة تزيد ذوى الأقالام، من جزيل
الإنعام، فتنبئهم عزًّا، وتستجيد من كُتَّابها الأعلام، من خُصَّ بجواهر الكلام،
فكلُّ حُسن إلى كلامه يُعزى، وتستفيد من نُجباء الأيام، كلُّ بارع كأنَّ كلامه زهر
الكلام، فلو خاطب سحبان لأورثه قُصُورا وعجْزا .

عِمَاد الدِّينِ — لا زالت آراؤه الشريفة تُتخذ من نُجباء الكُتَّاب، عِمادا،
وتختار من ذوى الفضائل فى الخطاب، مَنْ تَجِدُ لكلامه حُسنا وسَدادا، وتُقدِّم
من أهل الفضل فى السؤال والجواب، مَنْ لا تَعْدَم فى كلِّ مقاصده رَشادا .

عُضد الدِّينِ — لا زالت صدقاته الشريفة تجعل من إنعامها، لخدِّامها،
عُصدا، وتلحظ بعين إكرامها، وحسن احترامها، مَنْ طال فى الفضل مدى، وتزِين
مطالع أيامها، بَشُموس أعلامها، فلا ترى مثلهم أحدا .

غَرَس الدِّينِ — لا زالت صدقاته الشريفة تُنبت فى روض الإحسان،
من أرباب البيان، غَرَسا، وتجتنى من كِجام اللسان، أزهَرَ النُّكت الحِسان،
وتزِين بها طرسا، ويُفيض من مَواهب البَنان، ما يشهد لها بجزيل الأَمْتِنان،
فَيَطِيب كلُّ أَمَلٍ نَفْسا .

غِيَاث الدِّينِ — لا زالت صدقاته الشريفة تُبْدى لكلِّ أَمَلٍ غِيَاثا،
وتُضفى ظلُّها على من استجار بها واستغاثها، وتُنطق ألسُنُ أقالِمها، بمواهب إنعامها،
فتبدل طريقها وتراثها .

فَتَح الدِّينِ — لا زالت صدقاته الشريفة تُتخير من ذوى الأقالام، مَنْ
يفتح أبواب الكلام، فتحا، وتَهَب جزيل الإنعام، لمن يستحقه من الكُتَّاب الأعلام،

فِيَنَالُ بِذَلِكَ شَاءَ وَرِجْحًا ، وَتُقَرَّبُ بِيَدِ الْعِنَايَةِ وَالْإِكْرَامِ ، مِنْ ذَوِي الرِّيَاسَةِ وَالْإِحْتِرَامِ ،
مَنْ هَمَّ عَلَى الْبُلْغَاءِ قَدْحًا .

نُحْرِ الدِّينِ - لَا زَالَتْ آرَأُوهُ الشَّرِيفَةُ تُنَصَّبُ فِي الْمَنَاصِبِ ، مِنْ يَزِيدِ
بُحْسَنِ مَبَاشَرَتِهِ نُحْرُهَا ، وَتُمَطَّى ظُهُورَ الْمَرَاتِبِ ، مِنْ إِذَا أَظْلَمَتِ الْأَيَّامُ لِعَدَمِ فَاضِلِ
ظُهُورِ بَفْضِيلَتِهِ بَخْرُهَا .

قُطْبُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تُدِيرُ عَلَى قُطْبِ الْبَلَاغَةِ مِنْ
أَرْبَابِ الْيَرَاعَةِ نُجُومًا ، وَتُشِيرُ بُعْنَائِهَا إِلَى مَنْ حَازَ مِنَ الْفَضْلِ فُنُونًا وَأَحْيَا مِنَ الْآدَابِ
رُسُومًا ، وَتُبِيرُ بِدُورِ سَعْدِهَا لِمَنْ لَمْ يَزَلْ قَلَمُهُ لِأَسْرَارِ الْمُلْكِ كَتُومًا .

كَرِيمُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تَشْمَلُ مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ
مَنْ عُدَّ فِي فَضْلِهِ وَأَصْلِهِ كَرِيمًا ، فَتُقَدِّمُ مَنْ لَا لَهُ فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّا تُلِّفُ فَلَا يَزَالُ بِكُلِّ
فَنٍّ عَلِيمًا ، وَتُنَصَّبُ فِي الْمَنَاصِبِ مَنْ فَاتَ قَيْسَ الْأَوَائِلِ رَأْيًا وَفَاقَ قُوسَا بِحْدِيثِ
بَلَاغَتِهِ قَدِيمًا .

كَمَالُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ سَعَادَتُهُ الْبَاهِرَةُ ، تُطْلِعُ فِي سَمَاءِ الْعُلِيَاءِ مَنْ فَاقَ
الْبُدُورَ كَمَالًا ، وَأَوَامِرُهُ الْقَاهِرَةُ ، تُقَدِّمُ أَسْنَى الْبُلْغَاءِ جَلَالًا ، وَأُسْنَى صَدَقَاتِهِ الْوَافِيَةِ ،
تَعْمُ مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ مَنْ زَادَ الْمَنَاصِبَ بِحُسْنِ مَبَاشَرَتِهِ مَهَابَةً وَجَمَالًا .

مَجْدُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تَمْلِكُ أَعْنََةَ الْأَقْلَامِ ، مِنْ تَرَاهَا
مَجْدًا ، وَتُودِعُ بِجِيدِ الْأَيَّامِ ، مِنْ جَوَاهِرِ الْفَضْلَاءِ عَقْدًا ، وَتَشْمَلُ بِأَيْدِيهَا الْإِكْرَامَ ،
مَنْ إِذَا جُمِعَ الْبُلْغَاءُ كَانَ بَيْنَهُمْ فَرْدًا .

محي الدين - لازالت أوامره الشريفة تشمل من البلاء من شهر بفضل الخطاب، وإذا ماتت الفضائل يحياها، وغيث جوده الهامى يفيض فيض السحاب،^(١) فيبادر العفاة ويحييها، وعنايته تعم ذوى الألباب، فتمهد رتب العز وتهيها .

موفق الدين - لازالت صدقاته الشريفة تطلع كل هلال من أهدي به كان موفقا، وتملك اليراع من يزرى بابل هلال أنى كتب: رقاعا ومحققا، وتفيض لراجيها أفضل نوال من شبهه بالغيث كان محققا .

ناصر الدين - لا زال يقرب من أضى لأهل الكلام، بمهرفات الأقلام، ناصرا، ويهب طويل الإنعام، لمن باعه مديد في النثر والنظام، فما برح فضله وإفرا، وينتخب من غدا شريعا لعادات الكرام، مضارعا لصفات الكتاب الأعلام، وأصبح في البيان نادرا .

نجم الدين - لازالت أوامره الشريفة تطلع في أفق السعادة، من ذوى السيادة، نجما، وتعم بجزيل الإفاده، من عرف بالفضل وبالإجاده، وفاق أقرانه نثرا ونظما، وتسبح من عنايتها بالإرادته، لمن هو أهل الحسنى وزياده، فتجزل له من كرمها قسما .

نور الدين - لازالت صدقاته الشريفة تعم بالنوال، من هو في البراعة متسع المجال، فيزيد الكلام نورا، وحسناته تشمل ذوى الآمال، بما يجمد في البدء والمآل، فتملا القلوب سورا، ومبراته تصل أولى الكمال، وتنتخب أخبار العمال، فلا يرح أنفذ الملوك أمورا .

(١) فى الاصل «الوهم» ويظهر أنه تحريف .

نظام الدين - لازال يتخير مَنْ كان في الناس مجيداً ، وفي البيان مجيداً ،
فحَسُنَ لفظُهُ نظاماً ، وَيَبُّ مِنْ رَءْيه مزيدياً ، لمن كان في الخدمة مزيدياً ، فلا ينقُص
لِلنصيحة ذمّاماً ، ويبدّل كرمًا مُفيداً ، لمن يراه في الفضل مُبدئاً ومُعِيداً ، فحاز فخاراً
وطابَ كلاماً .

هُمام الدين - لازال يرتضى مَنْ هو في فُرسان الِبراءة أنهُضُ هُمام ،
ويقتضى وعدَ كرمه لمن نهَضَ في الرياسة نهوضَ أهتِام ^(١) ، وينتضى عَضدَ ذهنه
فيصيب مَفِصِلَ كُلِّ كَلام .

وَلِيّ الدين - لازال يُحَلِّي أجِيادَ المناصب من ذَوِي البلاغة ، بمن يُحَسِّن
في الكلام الصِّياغة ، فينظّمه حُلِيّاً ، ويُحَلِّي كُربَ المراتب من فُرسان الِبراعة ، بمن
راحَ فضلُهُ ولفظُهُ جَلِيّاً ، ويُوَلِّي المناصبَ من غدا في البيان وافر البضاعة ، فاتخذته
الأقلامُ وَلِيّاً .

(١) لعل الصواب معضد كمنبر : تأمل .

الضرب الرابع

(من الوظائف التى يكتب فيها بالديار المصرية مَشِيخَةُ الخَوَانِقِ ،
وكلُّها يكتب بها تَوَاقِيعُ)

وهى على طبقات :

الطبقة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ «المجلس العالى» مفتتحاً بـ «الحمد لله»)

وهو مَشِيخَةُ الشُّيُوخِ خَاصَّةً)

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَشِيخَةَ الشُّيُوخِ كَانَتْ فِيمَا تَقَدَّمَ تُطْلَقُ عَلَى مَشِيخَةِ الْخَانِقَاهِ الصَّلَاحِيَّةِ ،
«سعيد السعداء» فَيَكْتَبُ فِيهَا بِذَلِكَ . وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ بَنَى السُّلْطَانُ
الْمَلِكُ النَّاصِرُ «مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ» الْخَانِقَاهِ النَّاصِرِيَّةَ بِسِرْيَاقُوسَ ، اسْتَقَرَّتْ مَشِيخَةُ
الشُّيُوخِ عَلَى مَنْ يَكُونُ شَيْخًا بِهَا ، وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْآنَ .

وهذه نسخة توقيع بِمَشِيخَةِ الشُّيُوخِ بِالْخَانِقَاهِ الصَّلَاحِيَّةِ «سعيد السعداء»
بِالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَةِ بِاسْمِ الشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ بْنِ النَّخْجَوَانِيَّ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ
أَبْنِ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيِّ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ هُرِّقَ أَوْلِيَائِهِ ، وَمُؤَيِّ أَصْفِيَائِهِ ، وَمُلَقِّ كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ لِمَنْ تَلَقَّى سِرَّهَا
الْمُصُونِ عَنْ أَنْبِيَائِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى مُصَافَاةِ أَهْلِ صَفَائِهِ ، وَمُوَافَاةِ نِعَمِهِ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِعُهُودِ وَفَائِهِ ، وَتَسَلَّكَ
فَأَصْبَحَتْ رِجَالٌ كَالْجَوَاهِرِ لَا تَنْتَظِمُ فِي سِلْكِهِ وَلَا تُعَدُّ مِنْ أَكْفَائِهِ ، وَطَلَعَ لِلدِّينِ شَمْسًا
يُبَاهِي الشَّمْسَ بِضِيَائِهِ ، وَيُبَاهِلُ الْبَدْرَ التَّمَامَ فَيَتَغَيَّرُ تَارَةً مِنْ نَجْمِهِ وَتَارَةً مِنْ حَيَاتِهِ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نَعُدُّهَا ذُخْرًا لِلْقَائِمَةِ ، ونفرا
بَاقِيًا بِبَقَائِهِ ، رَاقِيًا فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى بِارْتِقَائِهِ .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله مبلغ أنبيائه ، ومسوخ الزلفى لأحبابه ،
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان من أهل ولآئه ، ومن عَرَفَ به الله
لَمَّا تَفَكَّرَ فِي آلَائِهِ ، صَلَاةٌ يُؤْمَلُ دَوَامُهَا مِنْ نِعَائِهِ ، وَيُؤْمَنُ عَلَيْهَا سُكَّانُ أَرْضِهِ
وَسَمَائِهِ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإن أولى ما استقام به [الشخص على] الطريقة ، وأستدام به الرجوع
إلى الحقيقة ، وأستام به يطمئن إلى خالقه لا إلى الخليفة ، وحفظ أفعه بنير تستضيء به
النيرات ، ونوء تنقسم به الغائم المطرات - طائفة أهل الصلاح ، ومن معهم من
إخوان أهل الصفاء الصوفية داعي الفلاح ، ومن تضمهم من الواردين إليهم إلى
جَنَاح ، والصادرين عنهم بَنَاج ، ومن تُفْتَحُ له فيهم أبواب السماء ، ويُمنَحُ بنفسهم
عامة الخلق ملايس النعماء ، ومن يُكشَفُ بتجدد جُحُ كُلِّ ظَلام ، وَيُكشَفُ
بتوجههم عارضة كُلِّ بَدْر تمام ، وَيُستشفى ببركاتهم من داء كل سقام ، وَيُستسقى
بدعائهم إذا قصر النيل وقص جناحه الغمام . وهم أولياء الله وأحباؤه ، وبهم يتعلل
كل لبيب هم سقامه وهم أطباؤه ، أنحلهم الحب حتى عادوا كالأرواح ، وأشغلهم
الحب بصوت كل حمام شجاءهم لما غنى وبرح بهم لما ناح ، وأطربهم كل سَمْع
فوجدوا بكل شيء شجنا ، وعدبهم الهوى فاستعدبوا أن لا يلائموا وسنا ، ومثل فرط
الكلف لهم الأحباب فما رأوا لهم حالا إلا حسنا ، وأثقل تكرار الذكري قلوبهم
فما عدوا غربة غربة ولا وطنا وطنا ، قربت المحبة لهم في ذات الله كل متباعد ،
وَأَلْفَتْ أَشْتَاتَهُمْ فَاخْتَلَفَتِ الْأَسْمَاءُ وَالْمَعْنَى وَاحِدًا .

والخانقاه الصلاحية بالقاهرة المحروسة المعروفة بـ «سعيد السعداء» - قدس الله
روح واقفيها - هي قُطْبُ نُجُومِهِم السائر ، وصرا كُرْ أَفْلاكِهِم الدائر ، وإليها نَحْطُ
رُحَالَ سُفَّارِهِمْ ، وعليها تُحْطُ رِحَالُ أَسْفَارِهِمْ ، تَضْطَرِبُ فِرْقُهُمْ فِي الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا
مَرَجُهُمْ ، وعليها مُجْتَمِعُهُمْ ، وفيها مواضع خلواتهم ، ومطالع جلواتهم ، ومكان
صَلَاتِهِمْ ، وإمكان صَلَاتِهِمْ ، ومشرق شُؤْسِهِمْ ، ومؤنق غُرُوسِهِمْ ، ومنهاج طريقتهم ،
ومعراج حقيقتهم ، مأوى هذه الطائفة الطائفة في شرق البلاد وغربها ، وبعدها
وقربها ، وعجمها وعُربها ، ومن رفح سُجُوفِهَا أَوْهُو محبوبُ بُحْبُجِهَا ، والمؤهلة
والعراب ، وأهل الإغتراب ، هي قَسِيحُهُم الرّحيب ، وصَفِيحُهُم القريب ، ومِثَالُهُمْ
إِذَا أَجْتَمَعُوا فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى زُمَرًا ، وَآخَرُوا الْمَهَامَةَ وَمَا جَاوَزُوا بَيْدَاءَ وَلَا جَابُوا
مُقْفِرًا ، وبلغوا الغاية وما أزعج ركبهم حادٍ في ليل سُرَى ، ووصلوا وما فارقوا فُرَشَهُمْ
الممهدة إلى ما وراء الورى ، شرط كل خانقاه أن لا تُغلق في وجه من ينزل فيها بابًا ،
ولا تُطيل جهاتها الممنعة له حجابًا ، ولا تُعجل مقاماتها المرفعة له قبل (١)



وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ ، وهي مشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس ،
مما كتب بذلك للشيخ نظام الدين الأصفهاني ، من إنشاء السيد الشريف
شمس الدين :

الطَرَّة

توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالى ، الشيخين ، النظامي ، إسحق ابن
الشيخ المرحوم جلال الدين عاصم ، ابن الشيخ المرحوم سعد الدين محمد الأصفهاني

(١) بياض في الأصل وبه علامة التوقف .

القُرشي الشافعي - أدام الله النفع ببركته - مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية
بسير ياقوس - قدس الله روح واقفها - ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد
الشامية والحليّة ، والفتوحات الساحليّة ، وسائر الممالك الإسلاميّة المحروسة ، على
عادته في ذلك وقاعدته ومعلومه ؛ وأن يكون ما يخص بيت المال من ميراث كلّ
من يتوفى من الصوفيّة بالخانقاه بسير ياقوس للشيخ نظام الدين المشار إليه ، بحيث
لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان الموارث معه في ذلك حديث ، وتكون أمور
الخانقاه المذكورة فيما يتعلّق بالمشيخة وأحوال الصوفيّة راجعة للشيخ نظام الدين
المشار إليه ، ولا يكون لأحد من الحكم ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك
حديث معه ، ولا يشهد أحد من الصوفيّة ولا ينتسب إلا بإذنه ، على جاري عادته
في ذلك على ما شرح فيه ، وأوله :

الحمد لله على نعمة التي ألّفت للصالحين من عباده نظاما ، وأسأنت للصالحين
إلى مراده إحراما ، وصرفت أوامرنا بالعدل والإحسان لمن فوّض أموره إلى ربه
فأنجح له من مزيد التأييد مرادا ومراما ، وعطقت بأوجه إقبالها إحسانا على من
هو متمرّز عن دنياه ، متوجّه إلى آخره ، يمضي نهاره صياما وليله قياما .

نحمده على أن جعلنا نزعنا للأولياء ذمّاما ، ونسعى بالنعماء إليهم ابتداء وإثما ،
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترفع للخلاصين في عليين مقاما ،
وتدفع بأعمال الصّدق عن المتوكّلين عليه بأسا وأسقاما ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده
ورسوله الذي جعله للتّقين إماما ، وفضّله على النبيّين إجلالا وإعظاما ، وكله
بالسمات المُكرّمات ، والصفات المشرفات ، مما لا يُضاهى ولا يُسامى ؛ صلى الله عليه
وعلى آله الذين شرفوا إضافة إلى نسبه الشريف وأنضماما ، ورضى الله عن أصحابه

الذين عَرَفُوا الْحَقَّ فَبَذَلُوا فِي إِقَامَتِهِ أَجْتِهَادًا وَأَهْتِمَاءً، صَلَاةً تُجَمِّلُ افْتِتَاحَهَا وَآخِرَتَهَا، وَتُجْزِلُ إِرْبَاحَهَا وَإِنْعَامَهَا، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فَشَيْمْنَا الْعَدْلَ وَالْإِنصَافَ، لِمَنْ لَهُ يُجْسِنُ الْأَعْرَاقُ اتِّصَالٌ وَجُسْنُ الْأَخْلَاقِ اتِّصَافٌ، وَمَنْ كَرَمْنَا الْفَضْلَ وَالْإِسْعَافَ، لِمَنْ لَاخْفَاءَ فِي تَعْيْنِهِ لَتَصْدِيرِ التَّقْدِيمِ وَتَكَرُّرِ التَّكْرِيمِ وَلَا خِلَافٍ، وَمِنْ سَبَّحَانَا الْجَمِيلَةِ أَنْ لَا تُضَاعَ حَقُوقُ مَنْ هُوَ فِي الزَّهَادَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ إِمَامٌ، لِأَلْسِنَةِ الْأَيَّامِ، بِجَلَالِهِ الْحُسْنَةِ إِقْرَارٌ وَأَعْتِرَافٌ، وَلِمَزَايَانَا جَمِيلِ الْمَحَافِظَةِ، وَجَلِيلِ الْمُلَاحِظَةِ، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ فَلَهُ اتِّصَارٌ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَنْتِصَافٌ: لِأَنَّهُ الْعَرِيقُ الْأَسْلَافَ، الرَّفِيقُ بِالضَّعَافِ، الْحَقِيقُ بِتَوْفِيرِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَهُ بِمَحْرَكَتِهِ الْمُبَارَكَةِ أَكْتِنَافٌ، الْمُطَبِّقُ النَّهْوضَ بِأَعْبَاءِ الرِّيَاسَةِ: لِأَنَّ الْقُلُوبَ عَلَى مَحَبَّتِهِ أَتْسَلَفَ، السَّابِقُ إِلَى غَايَاتِ الْفَلَواتِ الَّذِي تَحَفُّ بِهِ فِي بُلُوغِ آمَادِ الْإِسْعَادِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَلْطَافٌ، وَالصَّدُوقُ النِّيَّةَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فَكَمْ وَالِى لِنِعْمَائِهِ الزِّيَادَةَ وَالِاسْتِثْنَاءَ .

وكان المجلس العالى الشيخى، الإمامى، الكبيرى، العالمى، العالمى، الأوحدي، القدوى، الورعى، الزاهدى، الناسكى، الخاشعى، السالكى، الأصيلى، العريقى، القوامى، العالمى، النظامى: جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء فى العالمين، أوجد الفضلاء، قدوة المشايخ، مربى السالكين، كثر الطالبين، موضح الطريقه، مبين الحقيقه، شيخ شيوخ العارفين، بركة الملوك والسلاطين، ولى أمير المؤمنين، إسحق ابن الشيخ المرحوم فلان - أدام الله النفع ببركاته - هو المفوض أموره إلى ربه، المعرض عن الدنيا بباطنه وقلبه، المتعوض بما عند الله من فضله فما زال الإيثار من شأنه ودأبه، إلى إخوانه وصحبه، فهو من الذين يُطعمون الطعام على

حُبِّه ، وَيُلْهِمُونَ مِنَ الْعَمَلِ الْمُبْرُورِ إِلَى أَقْرَبِهِ مِنَ اللَّهِ وَأَحَبِّهِ ، وَيُقِيمُونَ الظَّلَامَ مَعَ
أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ وَحِزْبِهِ ، وَيُسْتَدِيمُونَ الْإِنْعَامَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِهِ
فَفَرُّهُمْ لِأَصْلِهِمْ فِي صُنْعِهِمْ مُشْبِهٍ ، وَيُسْتَسْلِمُونَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَكُلُّهُمْ شَاكِرٌ لِرَبِّهِ ،
عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرَّةِ صَابِرٍ عَلَى سَهْلِ الْأَمْرِ وَصَعْبِهِ ، سَائِرٌ بِالصَّدَقِ فِي شَرْقِ الْوُجُودِ
وَعَرْبِهِ ، مَثَابِرٌ عَلَى الْحَقِّ فِي عَجْمِ الْخَلْقِ وَعُزْبِهِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يُوصَلُ الْحُقُوقَ إِلَى مُسْتَحِقِّهَا ، وَيُجْمَلُ
الْوُثُوقَ بِمَنْ نَتَجَمَّلُ الْمَرَاتِبُ الدِّينِيَّةُ مِنْهُ بِتَرْقِيهَا - أَنْ يَفُوضَ إِلَى الْمُشَارِ إِلَيْهِ مَشِخَّةُ
الْخَانِقَاهِ السَّعِيدَةِ النَّاصِرِيَّةِ بِسِرِّيَا قَوْسٍ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَ وَاقِفِهَا - وَمَشِخَّةُ الشُّيُوخِ
بِالدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ وَالْحَلَبِيَّةِ ، وَالْفُتُوحَاتِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ
الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُحْرُوسَةِ ، عَلَى عَادَتِهِ فِي ذَلِكَ وَقَاعَدَتِهِ وَمَعْلُومِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ مَا يُحْصَى
بَيْتَ الْمَالِ الْمَعْمُورِ مِنْ مِيرَاثِ كُلِّ مَنْ يَتَوَفَّى مِنَ الصُّوفِيَّةِ بِالْخَانِقَاهِ الْمَذْكُورَةِ لِلْمُشَارِ
إِلَيْهِ ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لِأَمِينِ الْحَكْمِ وَلَا لِدِيْوَانِ الْمَوَارِيثِ مَعَهُ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ ،
وَتَكُونُ أُمُورُ الْخَانِقَاهِ الْمَذْكُورَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَشِخَّةِ وَأَحْوَالِ الصُّوفِيَّةِ رَاجِعَةً إِلَيْهِ ،
وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ الْحُكَّامِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْحِسْبَةِ وَلَا الْقَضَاةِ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مَعَهُ ،
وَلَا يَشْهَدُ أَحَدٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَلَا يَنْتَسِبُ إِلَّا بِإِذْنِهِ عَلَى الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ
مَعْدُوقًا بِنَظَرِهِ .

فَلْيَعُدْ إِلَيْهَا عَوْدًا حَمِيدًا ، وَلْيَفِذْ مِنَ الْإِصْلَاحِ مَا لَمْ يَزَلْ مُفِيدًا ، وَلْيَعْتَصِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى
مَوْلَاهُ فِيمَا تَوَلَّاهُ وَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ تَنْبِيْئًا وَتَسْدِيدًا ، وَلْيُشْهِدْ بِهَا مِنَ الْقَوْمِ الْمُبَارَكِينَ مَنْ
[كَانَ] عَوْدُهُ قَبْلَ الصُّومِ عِيدًا ، وَهُوَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسَعَّودُ الْمُبَاشِرُ ، الْحَمُودُ

المُعَاشِرَة ، المشهُودُ مِنْهُ اعْتِمَادُ الاجْتِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ الْمَعْهُودُ مِنْهُ النَّفْعُ التَّامُّ ، فِي قُرَّاءِ مَصْرٍ وَالشَّامِ ، فَكَمْ أَثَرُ الْخَيْرِ وَآثَرُهُ ، وَكَثَرُ الْبِرِّ وَوَاتَرُهُ ، وَيَسَّرَ السَّيْرَ الْحَسَنَ الَّذِي لَمْ يَبْرَحْ لِسَانُ الْإِجْمَاعِ شَاكِرَهُ .

وَنَحْنُ نُوصِيهِ عَمَلًا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ ، بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُتَنَفَّعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنْ كُنَّا نَتَحَقَّقُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَالْحُكْمِ الرَّصِينِ ، وَالزُّهْدِ وَالْوَرَعِ الَّذِينَ نَحْنُ مِنْهُمَا عَلَى بَيِّنَةٍ وَيَقِينٍ ، بِاتِّبَاعِ شُرُوطِ الْوَاقِفِينَ ، وَالِإِمْتِنَاعِ بِالْعَوَارِفِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْعَارِفِينَ : فَإِنَّهُ مَا زَالَ حَيْثُ حُلٌّ فِي جَمِيعِ الْآفَاقِ ، وَاصِلًا لِلْأَرْزَاقِ ، مُوَاصِلًا بِالْأَشْوَاقِ ، شَامِلًا بِالْإِرْفَاقِ ، عَامِلًا بِالْحَقِّ فِي إِيْصَالِ الْحُقُوقِ لَذَوِي الْأَسْتِحْقَاقِ . وَنَأْمُرُهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَلَى تَكْرِيمِهِ اتِّفَاقٌ ، وَفِي مُتَابَعَتِهِ أَجْتِمَاعٌ وَأَتَّسَاقٌ ؛ فَإِنَّهُ شَيْخُ الطَّوَائِفِ ، وَإِمَامُ تَقْتَبَسَ مِنْهُ اللَّطَائِفُ ، وَتُلْتَمَسُ مِنْهُ الْهَدَايَةُ فِي الْمَوَاطِنِ وَالْمَوَاقِفِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْتَنِعُ بِبَرَكَاتِهِ الْأُمَّةَ ، وَيَسْمَعُ مِنْهُ فِي الْخَلَوَاتِ لَنَا الدَّعَوَاتِ الَّتِي تَكُونُ لِأَوْرَادِهِ الْمَقْبُولَةِ مَفْتِيحَةً وَمُتِمَّةً ، وَيَصِلُهُ بِعَيْنَاتِهِ الَّتِي تَقْيِدُ الْهَمَّ وَتُؤَيِّدُ الْهَمَّةَ ، وَيَجْعَلُهُ حَيْثُ كَانَ لِلْفُقَرَاءِ نِعْمَةً وَيُبَيِّنُ النَّاسَ رَحْمَةً ؛ وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ .

الضرب الخامس

(من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة - أرباب الوظائف
العادية، وكلها تواقع)

وهي على طبقات :

الطبقة الأولى

(مَنْ يُكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ النِّصْفِ بِالْمَجْلِسِ الْعَالِي ، وَهُوَ رِئِيسُ الْأَطْبَاءِ
الْمُتَحَدِّثُ عَلَيْهِمْ فِي الْإِذْنِ فِي التَّطَبُّبِ وَالْعِلَاجِ وَالْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ
وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى)

وهذه نسخة توقيع برياسة الطب ، وهي :

الحمد لله مؤتي الحكمة من يشاء من عباده ، ومُعْطِي أَمَانَةِ الْأَرْوَاحِ مَنْ تَرَقَّى
فِي حِفْظِهَا إِلَى رُتْبَةِ اجْتِهَادِهِ ؛ وَجَاعِلِ عِلْمِ الْأَبْدَانِ أَحَدَ قِسْمِي الْعِلْمِ الْمُنْطَلِقِ فِي حَالِي
اجْتِمَاعِهِ وَأَنْفِرَادِهِ ، وَمَوْفِّقٍ مَنْ جَعَلَ نُصْحَ خَلْقِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلًا لِسَعَادَةِ دُنْيَاهُ وَذَخِيرَةً
صَالِحَةً لِيَوْمِ مَعَادِهِ ، وَمُبْلَغٍ مَنْ كَانَ [دَائِبًا] فِي إِعَانَةِ الْبَرِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهَا بِدَوَامِ الصَّحَّةِ
غَايَةِ مَرَامِهِ وَأَقْصَى مُرَادِهِ ، وَرَافِعِ رُتْبَةِ مَنْ دَلَّ اخْتِيَارُهُ وَاخْتِبَارُهُ عَلَى وَفُورِ عِلْمِهِ
وُنُجْحِ عِلَاجِهِ وَإِصَابَةِ رَأْيِهِ وَسَدَادِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي خَصَّتْ بِنِعْمِنَا مِنْ كُلِّ فِي نَوْعِهِ وَفَضْلِهِ وَحَسَنَ فِي عِلْمِهِ
وَعَمَلِهِ قَوْلُهُ وَفِعْلُهُ ، وَجَمَعَ مِنْ أَمَانَةِ وَظِيفَتِهِ وَمَعْرِفَتِهَا مَا إِذَا جَلَسَ فِي أَسْنَى مَنَاصِبِهَا
قِيلَ : هَذَا أَهْلُهُ .

(١) في الأصل "ومقلب يداوم الصحة" الخ تأمل .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُشْرِقُ البصائر، بأضوائها،
 وتُفْرِقُ الضمائر،^(١) باخلاصها من أدوائها، وتُعْدِقُ بيمينها أنواء التوفيق فتتأرجح
 رياض الإيمان بين روائها وإروائها. ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنارت
 ملته، فلم تخف على ذى نظر، وعلت أدلته، فلم ينلها من فى باع رويته قصر،
 وبهرت معجزاته فلو حاولت الأنفاس حصرها أفناها العي والحصر؛ صلى الله عليه
 وعلى آله وصحبه الذين كانوا لأدواء القلوب علاجا، ولسبيل الإيمان مزاجا،
 وللبصائر السائرة فى دجى الشبهات سراجا؛ صلاة دائمة الإقامه، متصلة الدوام إلى
 يوم القيامة؛ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد : فإن صناعة الطب علم موضوعها حفظ الأبدان النفيسة، ومقصودها
 إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرئيسة؛ ومدارها الأعم، على معرفة العوارض
 وأسبابها، ومداركها الأتم، الوقوع على الصواب فى معرفة الجسوم وأوصافها؛ وحينئذ
 تتفاوت رتب أهلها عند تشعب مداركها، واختلاف مسالكها؛ وتشابه عللها،
 والتباس صوابها بجللها؛ إذ لا يميز ذلك حق تمييزه إلا من طال فى العلم بتجره،
 وحسن فى رتب هذا الفن تصدده؛ وطابق بين نقله وعلاجه، وعرف حقيقة كل
 مركب من الأدوية ومفرد بعينه وأسمه وصفته ومزاجه؛ وتكررت عليه الوقائع
 فعرفها دربة وأحكمها تقلا، ولقب بشرعة التقوى إذ كان الإقدام على النفوس
 قبل تحقق الداء والدواء مذموما شرعا وعقلا؛ ولذلك تحتاج إلى رئيس يُعِمْ
 فى مصالحها نظره، ويُجِلُّ فى منافعها ورده وصدره؛ ويعتبر أحوال أهلها بمعيار
 فضله، ويُزِمُ الداخل فيها ببلوغ الحد الذى لا بد منه بين أرباب هذا الشأن

(١) من أفرق المريض والمحموم برأ.

وأهله ؛ ويعرف لأكابر هذا الفن قدر ما منحهم الله من علم وعمل ، ويتسبط رجاء المبتدئ إذا كمل نفسه حتى لا يكون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمع ولا أمل .

ولما كان المجلس السامي ، القاضى ، الأجل ، الحكيم ، فلان الدين : هو الذى بلغ من العلم غاية مراده ، وأحتوى من هذا الشأن على ما جمع به رتب الفضائل فيه على أنفراد ؛ فلو عاصره « الرئيس » لأعتمد عليه فى كليات قانونه ، أو « الراى » لعلم أن « حاويه » من بعض فنونه ؛ قد حلب هذا العلم أشطره ، وأكمل قراءة هذا الفن رموزه وأسطره ؛ وحل أسرار الغامضه ، وأرتوى من شرب رموزه بأنواء لم يشم غير فكره بروقها الوامضه ؛ وأسلف من خدمة أبواب العلية سفرا وحضرا ما أقتضى له منية شكره ، وتقاضى له من يد التنبيه على قدره والتنويه بذكره ؛ وحمد فيه الفريدان : صحة نقله وإصابته فكره ، وعلم أنه جامع علوم هذه الصناعة فلا يشد منها شىء عن خاطره ولا يغيب منها نقل عن ذكره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال شهاب فضله لامعا ، وسحاب ربه هاما - أن يكون فلان متولى رئاسة الأطباء بالديار المصرية على عادة من تقدمه .

فليباشر هذه الرئاسة ناظرا فى مصالحها ، مطلقا من شهاب فضله ما يزين أفقها زينة السماء بمصابيحها ، متفقد أحوال مباشريها ، متلمح أحوال المستقل بأعبائها والداخل فيها ؛ سالكا فى ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها ، حاكما فى أمورها بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها ؛ مطارحا من قدمت هجرته فيها بما يقتضى له مراجعة أصوله ، ملزما من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقنع منه بدون حصوله ؛ مجيبا فى الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ما آدعاه ، قابلا فى الثبوت من مشايخ هذه الصناعة من لا يشهد إلا بما علمه ولا يحجر من التدرب

إلا بما رآه ووعاه ، متحرّياً في الشُّبُوت لدينه ، آذناً بعد ذلك في التصرّف إن ترقّى علمه باستحقاقه إلى رتبة تعيينه ؛ وليُعْطِ هذه الوظيفة حقّها من تقديم المبرّزين في علمها ، وتكريم مَنْ منحه الله درجتى نقاها وفهمها ، وتعليم مَنْ ليس عليه من أدواتها المعبّرة غير وسمها وأسمها ، ومنع من يتطرق من الطُّرقية إلى معالجه وهو عارٍ من ردائها ، وكفّ يد من يتجمّع على النفوس فيما غمّض من أدائها قبل تحقّق دوائها ، واعتبار التقوى فيمن يتصدّى لهذه الوظيفة فإنّها أحد أركانها ، واختيار الأمانة فيمن يصلح للإطلاع على الأعضاء التى لولا الضرورة المبيحة حرم الوقوف على مكانها ؛ وليكن فى ذلك جميعه مجانباً للهوى ، ناوياً نفع الناس فإنما لأمرئى مانوى ، والله تعالى يحقّق له الأمل ، ويسدّده فى القول والعمل ؛ بمنّه وكرمه ! .

قلت : وربّما أفتتح توقيعها بـ «أما بعد حمد الله» .

وهذه نسخة توقيع برياسة الطّب ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ ، كُتِبَ بها لـ «شهاب الدين الحكيم» فى المحرم سنة تسع وسبعائة ، وهى :

أما بعد حمد الله حاسم أدواء القلوب بلطائف حكّمته ، وقاسم أنواع العلوم بين مَنْ كُلّ استعدّادهم لقبول ما اقتضته حكمة قسمته ؛ وجاعل لباس العافية من نعمه التى هى بعد الإيمان أفضل ما أفاض على العبد من برّه وأسبغ عليه من نعمته ، والمنزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين قُلْ بفضل الله وبرحمته ؛ ومقرّب مانأى من الفضائل على مَنْ أسرى إليها على مطايا عزّمه وسرى لتحصيلها على جياذ همّته ، ومُنهم آرائنا بتفويض أمانة الأرواح إلى مَنْ أنفق فى خدمة الطبيعة أيام عمّره فكان بلوغ الغاية فى علمها نتيجة خدمته ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى شرح الله بالهدى صدور أمّته ، وخصّه منهم بأعلام كلّ علم وأئمّته ، وجلاً

ببقين ملته عن كل قلب ماران عليه من الشك وعظمته ، وعلى آله وصحبه الذين حمّاهم من الزيف والزلل ما بخر الهدى لهم من جوامع الكلم وأفاض التقي عليهم من أنوار عصمته - فإن أولى الأمور أن يعتمد فيها على طيبها الخبير ، ويصان جوهرها عن عرض العرض على غير ناقيدها البصير ؛ ونجى مواردها عن لم يعرف كيف يجتنب مواقع التكدير ، وترفع كواكبها عن لم تدرك أفكاره دقائق الحوادث وحقائق التأثير - أمر صناعة الطب التي موضوعها الأبدان القائمة بالعبادة ، والأجسام القائمة بما يتعاقب عليها من الحوادث والزياده ، والنفوس التي ما عنها إن حصل فيها التفريط بدل ولا عوض ، والأرواح التي إن عرض الفناء لجوهرها فلا بقاء بعده للعرض ؛ والطبيعة التي إن خدمت على ما يحب نهضت على ما يجب بالصحة حق النهوض ، والأمرجة التي إن نفرت لعدم التأني في سياستها أعجزت من يروض .

ولذلك تفتقر على كثرة أربابها ، وتحتاج مع غزارة المتمسكين بأسبابها ، وتضطّر وإن آندفعت الضرورات بكثرة متقنيها ، وتشتوّ وإن وجد الجمل الفقير من المتلبّسين بأدواتها والمتبحرين فيها - إلى رئيس يُنعم في اعتبار أكتافها النظر ، ويدفع عن رتبها بتطرق غير أهلها الغير ، ويعرف من أحوال مبشرين ما لا يكتفى في خبرها الخبر ؛ فلا يقبل إلا من علم مقدار علمه ، ووثق مع الحفظ بصحة فهمه ؛ ورضى عن خبره في الطب واجتهاده ، وأعتبر منه كل نوع تحت أجناسه المتعددة على حدته وأنفراده ؛ وجاراه في كليات الفن فرآه في كل حلبة راكضا ، وطارحه في فصول العلم فوجده بحمل أعباء ما تفرع منها ناهضا ؛ واختبر دُرْبته فوجدها موافقة لتحصيله ، مطابقة لما حواه من إجمال كل فن وتفصيله ؛ وتبع مواقع دينه فوجدها متينه ، ومواقع أمانته فألفاها مكيته ، وأسباب شفقتة ونصحه فعرف أنها على ما جمع من الأدوات الكاملة معينه ؛ ويتعين أن يكون هذا «الرئيس» في أوامه ،

و «الرازى» فى زمانه ، و «الفارابى» فى كونه أصلاً تَتَفَرَّعُ فنونُ الحِكم من أفنائه ؛
عِلاجُه شفاءً حَاضِرًا ، وكلامُه نِجاةٌ من كلِّ خَطَرٍ مُخَاصِرٍ ؛ وتُدِيرُهُ للصِّحَّةِ تَقْوِيمٌ ،
وتَصَفِّحُه تَتَقَيِّفُ لِعِلماءِ الصَّناعةِ وتَسْلِمُ ، ودُرُوسُه ذِخَائِرٌ يُنْفِقُ من جِواهرِ حِكْمِها
كلُّ حَكِيمٍ .

ولما كان المجلس العالى الصِّدىّ ، الشَّهابىّ : هو المراد بالتعيين لهذه الوظيفة ،
والمقصود بما أُشيرَ إليه فى استحقاق هذه الرتبة من عبارة صريحة أو كناية لطيفة ؛
وأَنَّهُ جمع من أدوات هذا الفن ما أَفْتَرَقَ ، وَاَحْتَوَى على أَصُولِه وفُرُوعِه فاجتمعت
على أولويَّته الطوائفُ وَاتَّفَقَتْ على تفضيله الفِرَقَ ؛ فلو عاصره «أبقراط» لقضى له
فى شَرْحِ فُصولِه بالتَّقديمه ، ولو أدرك «جالينوس» لأقتدى فى العِلاج بما علَّمه ؛ مع
مباشرة ألفت بين الصِّحَّةِ والنُّفُوسِ ، وملاطفة أشرقت مواقعُ البرءِ بها فى الأجساد
إِشراقُ الشُّمُوسِ ؛ وأُطْلِعَ يَعْرِفُ به مَبْلَغَ ما عِنْدَ كلِّ مَتَصَدِّ هذه الصَّناعة من
العِلمِ ، وتَجَرَّى فى الفنون لا يُسَلِّمُ به لأحدٍ دَعَاى الأَهْلِيَّةِ إلا بعد حربِ جدالٍ هو
فى الحَقِيقَةِ عَيْنُ السَّلَمِ - فُرِسِمَ بالأمرِ العالى أَن يَسْتَقَرَّ فلانٌ فى رِياسَةِ الأَطْبَاءِ
الطَّبائِعِيَّةِ بالديارِ المِصرِيَّةِ والشَّامِ المِحرُوسِ ، على عادَتِه وعادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِه فى ذلك ،
ويكونُ مُسْتَقِلًّا فيها بمُفْرَدِه .

فليَنظُرْ فى أمرِ هذه الطائفة نظراً تَبَرَّأَ به الذمَّةُ ، ويَحْصُلُ به على رضا الله تعالى
ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فى الشَّفَقَةِ على الأُمَّةِ ؛ وَيُعْطى به الصَّناعةُ حَقَّها ،
وَيُطْلَقَ من يَدِ مَنْ تَطاولَ إليها بغيرِ أَهْلِيَّةٍ رَقَّها ؛ وَيُصُونُ النُّفُوسَ من إِقدامِ من
تَقَدَّمَ بغيرِ خِبرَةٍ كامِلَةٍ عليها ، وَيُدْبُّ عن الأرواحِ تَطَرَّقَ مِنْ يَتَطَرَّقُ بغيرِ مَعْرِفَةٍ
وافِرَةٍ إليها ؛ فَإِنَّ فارطَ التفریطِ فى النُّفُوسِ قَلَّ أَنْ يُسْتَدْرَكَ ، ومن لم تجتمع فيه

أدوات المعرفة التامة والدين فما ينبغي له أن يدخل في المعالجة قبل الكمال وإن دخل فلا يُترك ؛ فإن من لازم صلاح الأرواح صلاح الأجساد ، وإن الداء الذي لا دواء له أن تكون العلة في وادٍ والمعالجة في وادٍ ؛ فلا يقبل في التريكة إلا من يثق بدينه كوثوقه بعلمه ، ولا يُصرف أحداً في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التريكة ؛ وليشفعها بالامتحانات التي تُسفر وجوه الوثوق بالأهلية عن ألم دقائقها المنكية ، فإن العيان شاهد لنفسه ، ومن لم تنفعه شهادة فعله في يومه لم ينفعه غيره في أمسه ؛ ولا يُض في حكا قبل استكمال نصاب الشهادة ، وقبل التثبت بعد كمالها : فإن المعالجة محاربة للداء والموت بجهالة المحارب له شهادته ؛ وليأمر من ألجئ إلى معالجة مرض لا يعرفه بمتابعة من هو أوفق منه بالتقديم ، ومراجعة من هو أعلم منه به : فإن الحوادث قد تختلف «فوق كل ذي علم عليم» . وملاك الأمور تقوى الله فليجعلها حجة فيما بين الله وبينه ، والافتقار إلى توفيقه فيصرف إلى ذلك قلبه وعينه ؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية متطبب طبائعي ، أوردتها في "التعريف" قال :

وليتعرف أولاً حقيقة المرض بأسبابه وعلاماته ، وليستقص أعراض المريض قبل مداواته ، ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد ؛ ثم إذا عرف حقيقة المرض ، وقدر ما يحتمله المزاج من الدواء لما عرض ؛ يشرع في تخفيف الحاصل ، وقطع الواصل ، مع حفظ القوى . ولا يهاجم الداء ، ولا يستغرب الدواء ؛ ولا يقدم على الأبدان إلا بما يلائمها ، ولا يبعد الشبه ، ولا يخرج عن جادة الأطباء ولو ظن

(١) لعله تسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لتمام دقائقها الخ . تأمل .

الإصابة حتى يقوى لديه الظن ويتبصر فيه برأى أمثاله . وليستجيب الدواء ، ما أمكنه المعالجة بالغذاء ، والمركب ، ما أمكنه المعالجة بالمفرد ، وإياه والقياس إلا ما صح بتجريب غيره في مثل مزاج من أخذ في علاجه ، وما عرض له ، وسنه ، وفصله ، وبلده ، ودرجة الدواء . وليحذر من التجربة ، فقد قال أبقراط وهو رأس القوم : إنها خطر . ثم إذا اضطر إلى وصف دواء صالح للعلة نظر إلى ما فيه من المنفعة وإن قلت ، وتحيل لإصلاحه بوصف يصلح معه ، مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات ، في الاستعمال والأوقات ، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه . ولا يأمر باستعمال دواء ، ولا ما يستغرب من غذاء ، حتى يحقق حقيقته ، ويعرف جديده من عتيقه : ليعرف مقدار قوته في الفعل . ولعلم أن الإنسان هو بنية الله وملعون من هدمها ، وأن الطبيعة مكافية وبؤسى لمن ظلمها ، وقد سلم الأرواح وهى وديعة الله فى هذه الأجسام ، [فليحفظها وليتق الله فى ذلك جميع الأقسام] وإياه ثم إياه أن يصف دواءً ثم [يكون هو الذى] يأتي به ، أو يكون هو الذى يدل عليه ، أو المتولى لمناولته للمريض ليستعمله بين يديه ، وفى هذا كله لله المنّة ولنا إذ هديناه له وأرشدناه إليه .



(٢)
وهذه نسخة توقيع برياسة الكحالين .

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٣٩ .

(٢) بياض بالأصل .

الضرب السادس (من أرباب الوظائف بالديار المصرية)

زعماء أهل الذمة

ويكتب لجميعهم تواقع في قطع الثلث بألقابهم السابقة مفتحة بـ «أما بعد حمد الله» .

ويشتمل هذا الضرب على ثلاث وظائف :

الوظيفة الأولى (رأسه اليهود)

وموضوعها التحدث على جماعة اليهود والحكم عليهم ، والقضاء بينهم على مقتضى دينهم وغير ذلك .

وقد تقدم في الكلام على التحل والميل أن الموجودين من اليهود ثلاث طوائف : وهم الربانيون ، والقراءون ، والسامرة . وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم ، وهو يحكم على الطوائف الثلاث .

وهذه نسخة توقيع برأسه اليهود ، من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ،

وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل أطاف هذه الدولة القاهرة تصطفني لديمها من اليهود رئيساً فرئيساً ، وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى ، وتبجح لهم نفوساً كلما قدمت عليهم نفيساً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأُمي ، والرسول الذي أجمل الوصية بالملي والدمي ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما هطل وبلى ،

وما نزل وسمى - فإنَّ معدلة هذه الدولة تكثيف المال والنَّحل بالاحتياط ، وتعمُّهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصاء وأوفى الأقساط ، وتلمُّهم من حادث الزمن إذا أشتط ومن صرَّفه إذا شاط ، وتضمُّهم كما صمَّت النبوة إلى جناح النبوة الأسباط ؛ لا تزال ترقب الإلَّ والذمة ، فى المسلمين وأهل الذمة ، وتقضى لهم بحسن الخيرة ورعاية الحرمه ، وتبيحهم من أمر دينهم ما عليه عوهدوا ، وتمنحهم من ذلك ما عليه عوقدوا ، وتحفظ نواويسهم بأخبار تُحمد موادهم إذا شوفوها وتحسن مرآهم إذا شوهدوا : من كل إسرائىلى أجمل للتوراة الدراسه ، وأحسن لأسفار أنبيائه آفتباسه وأجمل آتماسه ، ومن نبهته نباهته للتقدمة فاطم آجهاده يوماً حتى صار وجهه الوجاهة فى قومه ورأس الرأسه ، فأصبح معدوم النظير ، معدوداً منهم بكثير ، وموصوفاً بأنه فى شرح أسفار عبرانية حسن التفسير ، وأستحق من بين شيعته أن يكون رأس الكهنه ، وأن تُصبح القلوب فى مجامعهم بحسن منطقهِ مرتبه ، وبأن للجهالة بتثقيفه لشيعة تحجب عقائدهم عن أن تغدو ممتنه .

ولما كان فلان هو لحاسن هذا التقرير بهجه ، ولجسد هذا التفويض مهجه ، ولمَّادح هذا الثناء العريض لهجه ، ولعين هذا التعيين غمضها ، ولید هذه الأيادى بسطها وقبضها ، ولأبكار أفكار هذه الأوصاف متقاضيا ومقتضها ، ومن أدنيت قطاف النعماء أيد تقدمته «على غيظ من غص منها» وأجتى غضها - أقتضى حسن رأى الشريف أن يميز على أبناء جنسه حق التميز ، وأن يحارزه من التنويه والتنويل أجل ما جيز .

ورسم بالأمر الشريف - لازل يختار فيجمل الاختيار ، ويقدو كالغيث الذى يعم بنفعه الربا والوهاد والأثمار والأشجار - أن تفوض إليه راسة اليهود على

أختلافهم : من الربانيين ، والقرائين ، والسامرة بالديار المصرية حماها الله وكلاهما .
فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى ، وغرسهم بالتدبير لا تدوى ، ومقاصدهم لا يمازجها
شك ولا شكوى ، ولينزل عليهم منا منّا يسليهم صنعا حتى لا يفارقوا المن والسلوى ،
وليتق الله فيما يذره ويأتيه ، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلاطها تأتيه ، وإياه
والتيه حتى لا يقال : كأنه بعد لم يخرج من التيه .

وجاعة الربانيين فهم الشعب الأكبر ، والحزب الأكثر ، فعاملهم بالرفق
الأجدي والسر الأجدد ، ولكونك منهم لا تمل معهم على غيرهم فيما به من النفس
الأمارة تؤمر .

وجاعة القرائين فهم المعروفون في هذه الملة ، بملازمة الأدلة ، والاحتراز في أمر
الأهله ، فانصب لأمرهم من لم يتولّه حين يتولّه ، ومن كان منهم له معتقد فلا يخرج
عن ذلك ولا يخرج ، ولا يلجم منهم بإجام من نار إنكار من في ليلة سبته [يلته]
عليه لا يسرج .

والسامرة فهم الشعب الذين آذن التنظيف أهله بجرويه ، ولم يك أحدهم
لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شرويه ، فمن قدرت على رده بدليل من
مذهيك في شروق كل بحث وغرويه ، فاردده من منهج تحيده عن ذلك وهرويه ،
وإلا فقل له : ياسامري بصرت بما لم تبصروا به . ولكن تستكمل فيهم بالبت ،
وأرفق بهم فإن "المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" فإياك أن تكون ذلك
المنبت ، ومهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدوا أحد منهم في السبب ، وأجعل أمور
عقودهم مستبته ، وأحسن التحري والتحرير لهم في إتيان كل كتبه ، ولا تخترا إلا
الأعيان ، من كل خزان وديان ، ومن كان له من داود عليه السلام حمة نسب ،

وله به حُرْمَةُ نِسَبٍ ، فَأَرَعَ لَهُ حَقَّهُ ، وَأَحْجَبَهُ مِنَ الرَّفْقِ أ كَرَمَ رُفْقِهِ . والجزيةُ فهي
لدمائكم وأولادكم عَصْمَهُ ، وعلى دِفَاعِهَا لا دافِعَها وَصْمَهُ ، ولأجلها وَرَدَ : « مَنْ آذَى
ذِمِّيًّا كُنْتُ خَصْمَهُ » ، وهى أَلَمٌ مِنَ السَّيْفِ إِجَارَهُ ، وهى أَجْرَةُ سُكْنَى دار الإسلام
كما هى لاسْتِحْقَاقِ المنفعةِ بها إِجَارَهُ ، فَأَذُوها ، وبها نفوسكم فادُّوها ، ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، فَعُدُّوا الطَّافَ اللَّهُ بها وَلَا تَعُدُّوها ، ودَافِعٌ عَلَى مَهْ ، زَجْرًا
لِتَارِكِ عَلامِهِ ، وَمَنْ قَصَدَ مِنْهَا خَلاصَهُ ، فَقُلْ لَهُ فِي الْمَلَأِ : مَاذَا خَلاصُهُ ، وَمَنْ رَكَنَ
فِي أَمْرِهَا إِلَى الْإِخْلَادِ وَالْإِخْلَالِ ، وَسَكَنَ إِلَى الْإِهْمَالِ ، وَلَمْ يَرْضَ بِأَنَّ رَايَةَ الدَّلَّةِ
الصفراءَ عَلَى رَأْسِهِ تُشَالُ ، فَأَوْسَعَهُ إِنْكَارًا ، وَأَلْزَمَهُ مِنْهَا شِعَارًا ، وَإِنْ قَامَ بِنَصْرِهِ مِنْهُمْ
مَعَشَرٌ خَشِنَ فَأَرْهَمَ بَعْدَ الْعَلَامَةِ خُشْكَارًا ، وَخَذَهُمْ بِتَجَنُّبِ الْغِشِّ الَّذِى هُوَ لِلْعَهْدِ
مَغِيرٌ وَمَغِيبٌ ، وَأَكْفَفَ مِنْهُ هُوَ بِمَا يُنَافِيهِ مَعِيرٌ وَمَعِيبٌ ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ مُجِيبٌ لَذَلِكَ
فهو لِقَصْدِهِ مُحِبٌّ ، وَانْقَلَبَ طِبَاعُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَإِنْ أَبَتْ عَنِ التَّنَاقُلِ فَأَنْتَ مَا تَتَلَوُ :
﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ . وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الَّذِى تَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ نَفْعٍ فِي الْبُوقِ
إِنَّمَا هُوَ كَمَا قُلْتُمْ لِلتَّذْكَارِ ، فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا يَكُونَ لَتَذْكَارِ الْعِجْلِ الْحَنِيدِ الَّذِى لَهُ
خُورٌ ، هَذِهِ وَصَايَا نَاكَ وَلَهُمْ فَقُلْ لَهُمْ : هَذِهِ مَوْهِبَةُ الدَّوْلَةِ وَإِحْسَانُهَا إِلَيْكُمْ ، وَلُطْفُهَا
بَكُمْ وَعَاطِفَتُهَا عَلَيْكُمْ ، وَبَصَّرْهُمْ بِذَلِكَ كَلِمًا تَلَا إِحْسَانُهَا إِلَيْهِمْ : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا
نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .



وهذه نسخة توقيع برآسة اليهود أيضا :

أما بعد حمد الله على أن جعل ملاحظة هذه الدولة القاهرة لجميع الملل ناظره ،
وإحسانها لا يُغْفَلُ مصلحة لأولى الأديان غائبة ولا حاضرة ، والصلاة على سيدنا
محمد الذى جعل ذمته وعهده وفين لكل نسمة مؤمنة وكافره - فإن الله تعالى لما مدَّ

رُواقٍ عدلٍ هذه الأيام الشريفة على كل مُعاهدٍ من متقربٍ ومُتباعٍ، وسواى بينهم
 فى النظر الذى صدق رأى وصدق رائد - أقتضى ' جميلها أن يُسهم لكل من أهل
 الذمة أوفر نصيب ، وأن لا يُقال لأحدٍ منهم من الإجحاف ما يُريب ، وأن لا تكون
 أمورهم مضاعفة ، ولا تعبداً مُراعاة ، ولا شرائعهم غير مَصونة ، ولا أحكامهم
 عارية [عن] حُسن معونه ، وكانت جماعة اليهود وإن كانوا أولى عى ، وصدق
 النصارى فيهم وصدقوا فى النصارى من أنهم ليسوا على شىء ؛ لا بدّ لهم من مباشرٍ
 يأخذهم بالأمر الأخط ، والناموس الأضبط ، والمراسيم التى عليهم تُشرط ؛ وكان
 الذى يُختار لذلك ينبغى أن لا يكون إلا من أكبر الكهنة وأعلم الأخبار ، ومن عرف
 من دينهم ما لأجله يُصطفى وليثله يُختار ؛ ومَن فيه سياسةٌ تحجزه عن المضار ،
 وتحجبه عن الاستنفار ؛ وكان فلان الرئيس هو المتميز بهذه الأوصاف على أبناء
 جنسه ، وله وازعٌ من نفسه ، ورادعٌ من حُسن حدسه ، وخدمةٌ فى مهمات الدولة
 يستحقُّ بها الزيادة فى أنسه ؛ وهو من بين جماعته مشهورٌ بالوجاهة ، موصوفٌ
 بالنباهة ؛ ذو عبرانيةٍ حسنة التعبير ، ودراسةٍ لكُتب أهل ملته على ما فيها من التغير -
 أقتضى ' جميل الاختصاص المنيّف ، أن يُرسم بالأمر الشريف - لابرّح يرقب الإل
 والذمة ، ويرعى للمعاهدين الحرمة - أن تُفوض إليه رئاسة اليهود الرّبانين والقرائين
 والسامره ، على عادةٍ من تقدّمه .

فليباشر ذلك مستوعباً أمورهم كلّها ، مستودعاً دِقّها وجلّها ، مباشراً من أحوالهم
 ما جرت عادةٌ مثله من الرؤساء أن يباشروا مثلاً ؛ غير مفرطٍ فى ضبط ناموس من
 نوااميس الملكة ، ولا مُغفلٍ الإنكار على من يتجاوز ذلك إلى موارد الملكة ؛ ومن فعل
 ما يقضى بنقض عهده ، فعليه وعلى مستحسنه له من المقاتلة ما يتعظ به كل من يفعل

ذلك من بعده ، بحيث لا يخرج أحد منهم فى كنيسته ولا فى يهوديته ولا فى منع
جزيته عن واجب معهود ، ومن خالف فوراء ذلك من الادب ما تقشعر منه الجلود ،
وما جعلهم الله ذمةً للمسلمين إلا حقناً لدمائهم ، فلا يُجِّها أحد منهم فتجتمع له شماته
أهل الأديان من أعدائهم بأعدائهم - والوصايا كثيرة وإنما هذه نُخبها المخصصة ،
وفىها من حساب الإحسان إليهم ما تُسدُّ به أيام الإمهال لهم مَحَصه ، والله يوفقه
فى كل تصرف مرغوب ، وتأفف من مثله مطلوب ، بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية لرئيس اليهود أوردها فى "التعريف" وهى :

وعليه بضم جماعته ، ولم شملهم باستطاعته ، والحكم فيهم على قواعد ملته ، وعوائد
أمتيه ، فى الحكم إذا وصح له بأدلته ، وعقود الأنكحة وخواص ما يعتبر عندهم فيها
على الإطلاق ، وما يُفتقر فيها إلى الرضا من الحائنين فى العقد والطلاق ، وفيمن
أوجب عنده حكم دينه عليه التحريم ، وأوجب عليه الانقياد إلى التحكيم ، وما ادَّعوا
فيه التواتر من الأخبار ، والنظائر على العمل به مما لم يوجد فيه نص وأجمعت عليه
الأخبار ، والتوجه تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبيلتهم ، ومكان تعبد أهل ملتهم ،
والعمل فى هذا جميعه [بما شرعه موسى الكليم ، والوقوف معه ^(١)] إذا ثبت أنه
فعل ذلك النبى الكريم ، وإقامة حدود التوراة على ما أنزل الله من غير تحريف ،
ولا تبديل كلمة بتأويل ولا تصريح ، وأتباع ما أعطوا عليه العهد ، وشدوا عليه
العقد ، وأبقوا فيه ذمائمهم ، ووقوا به دماءهم ، وما كانت تحكم به الأنبياء والرَّبَّانِيُّونَ ،
ويسلم إليه الإسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون ، كل هذا مع إلزامه لهم بما يلزمهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٣ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

من حُكْم أمثالهم أهل الذمة الذين أُقِرُّوا في هذه الديار، ووقاية أنفسهم بالخضوع والصغار، ومد رؤوسهم بالإذعان لأهل ملة الإسلام، وعدم مضايقتهم في الطرق وحيث يحصل الالتباس بهم في الحمام، وحمل شعار الذمة الذي جعل لهم حلية العمام، وعقد على رؤوسهم لحفظهم عقد التمام، وليعلم أن شعارهم الأصفر، موجب لثلاث أراق دمههم الأحمر، وأنهم تحت علم علامته آمنون، وفي دعة أصائله ساكنون، وليأخذهم بتجديد صبغه في كل حين، وليأمرهم بملازمته ملازمة لا تزال علامتها على رؤوسهم تبين، وعدم التطاهر بما يقتضي المناقضة، أو يفهم منه المعارضة، أو يدع فيه غير السيف وهو إذا كلم شديد العارضة، وله ترتيب طبقات أهل ملته من الأحرار فمن دونهم على قدر استحقاقهم، وعلى ما لا تخرج عنه كلمة اتفاقهم، وكذلك له الحديث في جميع كنائس اليهود المستمرة إلى الآن، المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمة ثم ما تأكد بعده لطول الزمان، من غير تجديد متجدد، ولا إحداث قدر متريد، ولا فعل شيء مما لم تُعقد عليه الذمة، ويُقر عليهم سلفهم الأول سلف هذه الأمة، وفي هذا كفاية وتقوى الله وخوف بأسنا رأس هذه الأمور المهمة.



[وصية رئيس السامرة^(١)]:

ولا يعجز عن لم شعث طائفته مع قتلهم، وتأمين سربهم الذي لو لم يؤمنوا فيه لأكلهم الذئب لذلتهم، وليصن بحسن السلوك دماءهم التي كأنما صبغت عمامهم الحمر منها بما طل، وأوقد لهم منها النار الحمراء فلم يتقوها إلا بالذل، وليعلم أنهم شعبة من اليهود لا يخالفونهم في أصل المعتقد، ولا في شيء يخرج عن قواعد دينهم لمن

(١) لم يعنون في الأصل وزدناه من "التعريف" ص ١٤٤.

أَتَقَدُّبُ وَلَوْلَا هَذَا لَمَّا عُدُّوا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَلَا قُنِعَ مِنْهُمْ إِلَّا بِالْإِسْلَامِ أَوْ ضَرْبِ
الرَّقَابِ ؛ فَلْيَبْنِ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ ، [وَلْيُنَبِّئْ قَوْمَهُ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ وَأَنَّ النَّاسَ أَجْنَاسٌ] ^(١)
وَلْيَلْتَرَمِ مِنْ فُرُوعِ دِينِهِ مَا لَا يَخَالِفُ فِيهِ إِلَّا بِأَنْ يَقُولَ لَا مَسَاسَ ؛ وَإِذَا كَانَ كَمَا يَقُولُ :
إِنَّهُ كَهْرُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلْيَلْتَرَمِ الْجَدِّدَ ، وَلْيَقُمْ مِنْ شَرَطِ الذِّمَّةِ بِمَا يُقِيمُ بِهِ طُولَ الْمُدَّةِ ؛
وَلْيَتَمَسَّكْ بِالْمُوسُوِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ ، وَلَا تَحْرِيفٍ فِي كَلِمٍ وَلَا تَأْوِيلٍ ؛ وَلْيُحْصِ عَمَلَهُ
فَإِنَّهُ عَلَيْهِ مَسْطُورٌ ، وَلْيَقِفْ عِنْدَ حَدِّهِ وَلَا يَتَعَدَّ طَوْرَهُ فِي الطُّورِ ؛ وَلْيَحْكَمْ فِي طَائِفَتِهِ
وَفِي أَنْكَحَتِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ وَكَأَلِّهِمْ الْقَدِيمَةَ الْمَعْقُودَ عَلَيْهَا بِمَا هُوَ فِي عَقْدِ دِينِهِ ،
وَسَبَبٌ لَتَوْطِيدِ قَوَاعِدِهِ فِي هَذِهِ الرِّتَبَةِ الَّتِي بَلَغَهَا وَتَوَطَّيْنَهُ .

الوظيفةُ الثانيةُ

(بَطْرِكِيَّةُ النَّصَارَى الْمَلِكِيَّةِ ، وَهُمْ أَقْدَمُ مِنَ الْيَعَقِبِيَّةِ)

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى النَّحْلِ وَالْمِلَلِ أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ مَلِكٍ الَّذِي ظَهَرَ قَدِيمًا بِبِلَادِ
الرُّومِ ، وَأَنَّ الرُّومَ وَالْفَرَنْجَ كُلَّهُمْ أَتْبَاعُهُ ، وَبِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْهُمْ التَّزْرُ الْبَسِيرُ ، وَلَهُمْ
بَطْرِكٌ يَخْصُهُمْ .

وهذه نسخة توقيع لبطرك الملكية :

أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ مُنَوَّعِ الْإِحْسَانِ ، لِأَوَّلِي الْأَدْيَانِ ، وَمَوْصَلِهِ وَمُفَرِّعِهِ لِكُلِّ طَائِفَةٍ
وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَبَادَ اللَّهُ بِهِ مَنْ أَبَادَ وَأَبَانَ مِنْ عَهْدِهِ
وَذِمَّتِهِ مَنْ أَبَانَ - فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَلِكِيَّةَ مِنَ النَّصَارَى لَمَّا كَانَتْ لَهُمُ السَّابِقَةُ فِي دِينِهِمْ ،
وَلَهُمْ أَصْلُ الرَّأْسَةِ وَالنَّفَاسَةِ فِي تَعْيِينِهِمْ ؛ وَمَا بَرِحَتْ لَهُمْ فِي الْكِلَالَةِ وَالْحِفْظِ قَدَمٌ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٤ .

السابقه ، ورُتبه بملوكهم الرومانيه سامقه ، وما زالت لهم خدم الدول الى أغراضها
متساوئه ومتساقيه ؛ ولهم جوار مشكور ، وتبذل مشهور ، وعليهم وصايا من الملوك
في كل ورود وصدور ؛ ولهم من نفوسهم مزايا تستوجب احترامهم ، وتستدعي
إكرامهم ؛ وكان لا بد لهم من بطريك يلاحظ أحوالهم أتم الملاحظه ، ويستدعي
لهم من الدوله أعظم محافظه ؛ ويحفظ نواميس قبيلهم ، ويحسن دراسه أناجيلهم ؛
ويعرفهم قواعد معتقداتهم ، ويأخذهم بالدعاء لهذه الدوله القاهره في جميع صلواتهم ؛
ويجمعهم على سداد ، ويفرقهم على مراد . وكان البطريرك فلان هو المتفق بين
طائفته على تعيينه ، والمجمع على إظهار استحقاقه وتعيينه ؛ والذي له مزايا لو كان
فيه واحده منها لكفته في التأهيل ، ولرفعته إلى منصبه الجليل . فلذلك رسم ... -
لأبرح يعطى كل أحد قسطه ، ويدخل كل أبوابه ساجداً وقائلاً خطه - أن يباشر
بطريكة النصارى المملكيه على عادة من تقدمه من البطاريكه السالفه بهذه الدوله .

فليحط أمورها الجزئية والكليه ، والظاهره والخفيه ؛ وليأخذهم بما يلزمهم من
قوانين شرعهم ، وكل ما يريدون من حسن شئعتهم ؛ وأما الديرة والبيع والكائس
التي للملكيه فمرجعها إلى صونه ، وأمرها مردود إلى جميل إعانتة وعونه ؛ والأساقفه
والرهبان فهم سواد عين معتقده ؛ وخلاصه معتقده ؛ فلا يخلهم من تجييل ، وحسن
تأهيل ؛ وتتقدم إلى من بالغور من جماعتك بأن لا يدخل أحد منهم في أمر موبق ،
ولا في مشكل موثق ؛ ولا يميلون كل الميل إلى غريب من جنسهم ، وليكن الحذر
لغدهم من يومهم وليومهم من أمسهم ؛ ولا يشاكلون رسولاً يرده ، ولا قاصداً يفده ؛
وطريق السلامة أولى ماسلك ، ومن ترك الدخول فيما لا يعنيه ترك ؛ هذه جملة من
الوصية لامعة أفلح وأهتدى من بها أستنار ، ورشد من لها استشار ؛ والله يوفقك
في كل مقصد تروم ، ويجعلك بهذه الوصايا تقول وتقوم .



وهذه وصية لبَطْرَك المَلَكِيَّة أوردتها في "التعريف" وهى :

وهو كبير أهل ملته ، والحاكم عليهم ما أمتد في مدته ؛ وإليه مرجعهم في التحريم والتحليل ، وفي الحكم بينهم بما أنزل في التوراة ولم ينسخ في الإنجيل ؛ وشريعته مبنية على المسامحة والإحتمال ، والصبر على الأذى وعدم الإكثار به والاحتفال ؛ فخذ نفسك في الأول بهذه الآداب ، وأعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريق إلى الباب ؛ فخلق من الأخلاق بكل جميل ، ولا تستكثر من متاع الدنيا فإنه قليل ؛ وليقدم المصالحة بين المتحايين إليه قبل الفصل البت فإن الصلح كما يقال سيد الأحكام ، وهو قاعدة دينه المسيحى ولم تخالف فيه المحمدية الغراء دين الإسلام ، ولينظف صدور إخوانه من القل ولا يقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام ؛ وإليه أمر الكنائس والبيع ، وهو رأس جماعته والكل له تبع ؛ فإياه أن يتخذها له تجارة مربحة ، أو يقطع بها مال نصراني يقربه فإنه ما يكون قد قربه إلى المذبح وإنما ذبحه ؛ وكذلك الديارات وكل عمر^(١) ، والقلالى فيتعين عليه أن يتفقد فيها كل أمر ؛ وليجتهد في إجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات ، وليعلم أنهم إنما اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها تتخذ متزهات ؛ فهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية للتقلل في هذه الدنيا والتعفف عن الفروج ، وحبسوا فيها أنفسهم حتى إن أكثرهم إذا دخل فيها ما يعود يبق له خروج ؛ فليحذرهم من عملها مضيدة للال ، أو خلوة له ولكن بالنساء حراما ويكون إنما تنزه عن الحلال ؛ وإياه ثم إياه أن يؤوى إليها من الغرباء القادمين عليه من قريب ، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمر ورد عليه من

(١) هو بالضم المسجد والبيعة "قاموس" .

(١) بعيد أو قريب ، [ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد عليه من أحد من الملوك ،] ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشي على مثل هذا السلوك ، ولتجنب البحر وإياه من افتتاحه فإنه يغرق ، أو تلقى ما يلقيه إليه جناح غراب منه فإنه بالبين ينغى ، والتقوى مأمور بها أهل كل مله ، وكل موافق ومخالف في القبلة ، فليكن عمله بها وفي الكفاية ما يغني عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المسيح .

الوظيفة الثالثة

(بطريكة اليعاقبة)

وقد تقدم في الكلام على النحل والملل الخلف في نسبتهم : فقل إنهم أتباع ديسقرس ، وأنه كان اسمه في الغلمانية يعقوب ، وقيل أتباع يعقوب البرذعاني ، وقيل غير ذلك ، والأصح عند المؤرخين الأول . وبطركهم يحكم على طائفة اليعاقبة ، وجميع نصارى الحبشة أتباعه ، وفي طاعته ملك الحبشة الأكبر ، وعنه تصدر ولايته .

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصاري اليعاقبة :

أما بعد حمد الله الذي أظهر دين الإسلام على الدين كله ، وأصدر أمور الشرائع عن عقد شرعه وحله ، وصير حكم كل مله راجعاً إلى حكم عدله ، والشهادة له بالوحدانية التي تدل على أنه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد وليس شيء كمثلته ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أعظم أنبيائه وأكرم رسله ، وأشرف ولد آدم ونسله ، المصطفى في علم الله من قبله ، ووسياته في التوراة من غرور الشيطان وخذله ، والذي أطفأ الله بركته نار مروذ عن إبراهيم وجعلها برداً وسلاماً وأجله من أجله ،

وَبَشَّرَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَبْنُ أُمِّتِهِ وَأَقْرَبُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ كَلِيمُ اللَّهِ بِفَضْلِهِ ؛ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ مِنْ فُرُوعِ أَصْلِهِ ، وَأَصْحَابِهِ سَامِعِي قَوْلِهِ ، وَتَابِعِي سُبُلَهُ - فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ارْتَضَى الْإِسْلَامَ دِينًا ، وَأَفْضَى بِالْمُلْكِ إِلَيْنَا وَقَضَى لَنَا فِي الْبَسِيطَةِ بَسْطَةً وَتَمَكَّنَا ، وَأَمْضَى أَوْامِرَنَا الْمُطَاعَةَ بِشُمُولِ الْيَمْنِ شِمَالًا وَيَمِينًا - لَمْ نَزَلْ نُؤَلِّ رِعَايَانَا الْإِحْسَانَ رِعَايَةً وَتَوْطِينَا ، وَنُدِيمَ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ مَنَّا ذِمَّةً وَتَأْمِينًا ؛ وَكَانَتْ طَائِفَةٌ النَّصَارَى الْيَعَاقِبَةُ بِالْدِيَارِ الْمَصْرِيَّةِ لَهُمْ مِنْ حِينِ الْفَتْحِ عَهْدٌ وَذِمَامٌ ، وَوَصِيَّةٌ سَابِقَةٌ مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ بَطْرِيكِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَيَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ تَقْضٍ وَإِبْرَامِ .

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَضْرَةُ السَّامِيَّةُ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ ، الْمُبْجَلُ ، الْمَكْرَمُ ، الْكَافِي ، الْمَعَزَّزُ ، الْمَفْخَرُ ، الْقِدِّيسُ ، شَمْسُ الرَّأْسَةِ ، عِمَادُ بَنِي الْمُعْمُودِيَّةِ ، كَثُرَ الطَّائِفَةُ الصَّالِيَّةُ ، اخْتِيَارَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينَ ، فَلَانَ : وَفَّقَهُ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي تَجَرَّدَ وَتَرَهَّبَ ، وَأَجْهَدَ رُوحَهُ وَأَتَعَبَ ، وَصَامَ عَنِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ ؛ وَسَاحَ فَأَبْعَدَ ، وَمَنَعَ جَفْنَهُ لَذِيذَ الْمَرْقَدِ ، وَنَهَضَ فِي خِدْمَةِ طَائِفَتِهِ وَجَدَّ ، وَخَفَضَ لَهُمُ الْجَنَاحَ وَبَسَطَ الْخَدَّ ، وَكَفَّ عَنْهُمْ الْيَدَ ، وَأَسْتَحَقَّ فِيهِمُ التَّبَجُّيلَ لَمَّا تَمَيَّزَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْإِنْجِيلِ وَتَفَرَّدَ - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ أَمْرَ هَذِهِ الْفِرْقَةِ وَنُقُوضَ ، وَنُبَدِّلَهُمْ عَنْ بَطْرِيكِهِمُ الْمُتَوَفَّى وَنُعَوِّضَ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا بَرِحَتْ مَرَامُهُ مُطَاعَهُ ، وَمَرَامُهُ لِإِنْزَالِ أَهْلِ كَرَمِهَا بَيْعَتَهَا مَرْعِيَّةً غَيْرُ مَرَاعَةٍ ^(١) - أَنْ يَقْدَّمَ الشَّيْخُ شَمْسُ الرَّأْسَةِ الْمَذْكُورُ عَلَى الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ الْيَعْقُوبِيَّةِ ، وَيَكُونَ بَطْرِيكًا عَلَيْهَا ، عَلَى عَادَةٍ مِّنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ بِالْدِيَارِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَالتَّغُورِ الْمُحْرُوسَةِ ، وَالْجُهَاثِ الَّتِي عَادَتُهُ بِهَا إِلَى آخِرِ وَقْتِ .

(١) أى غير مفزعة ولم يذكر القاموس ولا اللسان أراعه وإنما الفعل راعه ورَّوعه أى أفرعه .

فليسلك سبيل السَّوَا ، ولا يملك نفسه الهوى ، وليتمسك بخوف الله تعالى
 إن فعل أو نوى ، أو أخبر عن الخواريين أو روى ، فالعليم مراقب ، والعظيم
 معاقب ، والحكيم أمر أولي العقول بالفكرة في العواقب ، والحاكم غداً بحقوق الخلق
 غداً يُطالب ، والظلم في كلِّ ملة حرامٌ والعدل واجب ، فليستوفِ الإنصاف بين القوى
 والضعيف والحاضر والغائب ، وليقصِد مصلحتهم وليعتمد نصيحتهم ، وليمنض على
 ما يدينون به بيوعهم وفسوخهم ومواريتهم وأنكحتهم ، وليقمع غاويهم ، وليسمع
 دعاويهم ، وليزِمهم من دينهم بما وجدوه ، فظنوه واعتقدوه ، وليتبع سبيل المعدلة
 فلا يعدو [ها] عائدةً إليه أمور القسيسين والرهبان ، في جميع الديرة والكائس بسائر
 البلدان ، ولا يُعترض عليه فيما هو راجعٌ إليه من هذا الشأن . ولا يقدم منهم
 إلى رتبة إلا من استصلحه ، ولا يرجح إلى منزلة إلا من رتبه إليها ورَّجحه ، متبعاً
 في ذلك ما بينه له العدل وأوصحه ، مرتجع الرتبة ممن لم تكن الصدور لتقدمته
 منشرحه ، مجمعا لغيره في الإيراد والإصدار على اعتماد المصلحة ، وقد أوصحناله ولهم
 سبيل النجاة فليقتفوه ، وعرفناهم بالصواب والخيرة لهم إن عرفوه ، وليسأل الله ربه
 السلامة فيما له يفعل وبه يفوه ، والعلامة الشريفة أعلاه .



وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقبة ، كُتب به للشيخ المؤمن ، في شهر
 سنة أربع وستين وسبعائة ، وهى :

أما بعد حمد الله على نعمه التى نَشَرَتْ لواء دولتنا فى الآفاق ، فأوى كلُّ أحد
 إلى ظلّه ، وبسطت معدلتنا فى البلاد على الإطلاق ، ففتح الخاص والعام من برنا
 بوابله وظلّه ، وأصطنعت بدمامها ملوك الملل وحكام الطوائف فنطقوا عن أمرنا

فى عَقْد كُلِّ امرٍ وَحَلَّهٖ ، والشهادةِ بوحْدَانِيَّتِهِ التى تُنَجِّحُ أَمَلَ المَخْلِصِ فى قوله وَفِعَلَهُ ،
وتَفَتَحَ لِمَن تَمَسَّكَ بِعُرْوَتِهَا أَبْوَابَ النِّجَاةِ فَيُصْبِحُ فى أَمَانٍ فى شَأْنِهِ كُلِّهٖ ، والصَّلَاةِ
والسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ قَدَرًا فى مُحْكَمِ الذِّكْرِ وَتَقْلِهِ ،
المَبْعُوثِ رَحْمَةً للعَالَمِينَ زِيَادَةً فى رِفْعَةِ مَقَامِهِ وَتَقْرِيرِهَا لِفَضْلِهِ ، المَنْعُوتِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ
فى مُحْكَمِ كِتَابِهِ الذى لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ
أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا طَرِيقَتَهُ الْمُثَلَّى وَسَلَكُوا مَنَاجِجَ
سُبُلِهِ ، وَعَقَدُوا الذَّمَّ لِأَهْلِ الْمِلَلِ وَأَسْتَوْصَوْا بِهِمْ خَيْرًا لِمَا عَرَفُوهُ مِنْ سَعَةِ حِلْمِهِ
وَبَذَلِهِ - فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الطَّائِفَةُ الْمَسِيحِيَّةُ ، وَالْفِرْقَةُ الْيَعْقُوبِيَّةُ ، مِنْ أَوْتٍ تَحْتَ ظِلِّهَا
الذى عَمَّ الْوُجُودَ ، وَسَكَنَتْ فى حَرَمِ ذِمَامِنَا الذى سَارَ نَبُوءُهُ فى التَّهَائُمِ وَالنُّجُودِ ،
وَتَمَسَّكَتْ مِنْ طَاعَتِنَا وَاتَّبَاعِ أَوَامِرِنَا بِمَا سَلَفَ لَهَا مِنَ الْهُدَى وَالْعُهُودِ ، وَكَانَتْ
أَحْكَامُهُمْ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَدُورُ عَلَيْهِ أَمْرُهَا فى كُلِّ حَالٍ ، وَتَنْتَظِمُ بِهِ مَصَالِحَ شَمَائِلِهَا
لِيَبْلُغُوا بِهَا الْآمَالَ ، وَيَأْمَنُوا فى مَعْتَقِدِهِمْ فِيهَا مِنَ الْإِخْلَالِ ، وَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَطْرِيْرُكَ
لَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ نَرْسُمَ لَهُمْ بَغِيرَهُ ، لِيَعْتَمِدُوا فى ذَلِكَ مَا يَتَقَدَّمُ بِهِ إِلَيْهِمْ فى نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ ،
وَيَسْلُكُ بِهِمْ فى أَحْكَامِهِمْ مَا يَحِبُّ ، وَيَعْرِفُ كَلَامَهُمْ مَا يَأْتِى وَيَذَرُ وَيَفْعَلُ وَيَحْتَنِبُ ،
وَيَفْصِلَ بَيْنَهُمْ بِمَقْتَضَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ فى إِنْجِيلِهِمْ ، وَيُمَشِّى أَحْوَالَهُمْ عَلَى مُوجِبِهِ فى تَحْرِيمِهِمْ
وَتَحْلِيلِهِمْ ، وَيُزَجِّرُ مَنْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِهِ ، لِيَرْجِعَ إِلَى مَا يَحِبُّ عَلَيْهِ أَسْوَةٌ رَفِيقِهِ ،
وَيَقْضَى بَيْنَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَيَبَيِّنُ لَهُمْ قَوَاعِدَ دِينِهِمْ فى كُلِّ نَقْضٍ
وَأِبْرَامٍ ، فَلَمَّا هَلَكَ الْآنَ بَطْرِيْرُكُمُ مَعَ مَنْ هَلَكَ ، رَسَمْنَا لَهُمْ أَنْ يَنْتَخبُوا لَهُمْ مَنْ
يَكُونُ لَطَرِيقَتِهِ قَدْ سَلَكَ ، وَأَنْ يَخْتَارُوا لَهُمْ مَنْ يَسُوسُ أُمُورَهُمْ عَلَى أَكْلِ الْوُجُودِ ،
لِنَرْسُمَ بِتَقْدِيمِهِ عَلَيْهِمْ [فَيَقُومُ] بِمَا يُؤْمَلُونَهُ مِنْهُ وَيَرْجُوهُ .

وكان الحضرة السامية ، القديس ، المبجل ، الحليل ، المكرّم ، الموقّر ، الكبير ،
الديّان ، الرئيس ، الروحاني ، الفاضل ، الكافي ، المؤتمن ، جرجس بن القسّ مفضّل
اليعقوبي ، عماد بني المعمودية ، كنز الأئمة المسيحية ، منتخب الملة الصليبية ، ركن
الطائفة النصرانية ، اختيار الملوك والسلاطين : أطال الله تعالى بهجته ، وأعلى على
أهل طائفته درجته ، قد حاز من فضائل ملته أسماها ، وصعد من درجات الترقى
على أبناء جنسه أعلاها ، فترّه نفسه عن مشاركة الناس ، وتكشف بين أهله
في المأكّل واللباس ، وترك الزواج والنكاح ، واشتغل بعبادته التي لازم عليها في المساء
والصباح ، وألقى نفسه إلى الغاية في الأطراح ، وساح بخاطره في الفكرة وإن لم يكن
بجسده قد ساح ، وأرتاض بترك الشهوات مدة زمانه ، وأطرح الملائد لتعلو درجته
بين أهله برفعة مكانه ، واشتمل من علوم طائفته على الجانب الوافر ، وعرف من
أوامرهم ونواهيهم ما تقرّ به منهم العين والناظر ، وطلب من الربّ الرؤوف الرحيم
القوة على أعماله ، وسأل الإله أن يزيّن لأهل ملته ما يأتي به من أقواله وأفعاله ،
فوقع اختيارهم عليه ، وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانه إلى سائر العالم وإصلا ، وجوده لكل
طائفة بارتداد أكفائها شاملا - أن يقدم حضرة القديس المؤتمن جرجس المشار
إليه على الطائفة يعقوبية ، من الملة النصرانية ، بالديار المحروسة والجهات الجارى
بها العادة ، ويكون بطريكا عليهم على عادة من تقدم في ذلك ومستقر قاعدته إلى
آخروقت ، قائما بما يجب عليه من أمور هذه الملة ، باذلا جهده في سلوك ما ينبغي
مما ينظم عليه أمره كله ، فاصلا بينهم بما يعتقدونه من الأحكام ، متصرفا على كل
أسقف وقس ومطران في كل نقص وإبرام ، مالكا من أمور القسيسين والرهبان
والشمامسة الزمام ، مانعا من يروم أمرا لا يسوغه وضع ولا تقرير ، جاعلا نظره عليه

مستقداً بالتحرّز فى التخيير ؛ زاجراً من يخرج منهم عن اتّباع طريق الشريعة المطهرة
التي يصح بها عقد الذمة ، ملزماً بسلوكها فى كل ملة فإن ذلك من الأمور المهمة ؛
أمراً من فى الديرة من الرهبان بمعاملة المأزّين بهم والنازلين عليهم بمزيد الإحسان
ومديد الإكرام ، والقيام بالضيافة المشروطة من الشّراب والطعام .

وليتحدّث فى قسمة موارثهم إذا ترفعوا إليه ، وليجعل فصل أمور أهل طائفته
من المهمّات لديه ؛ وليشفق على الكبير والصغير ، وليتنزه عن قليل متاع الدنيا
والكثير ، ولينهذ فى الجليل قبل الحقير . وفى أطلاعه على أحكام دينه ما يكفيه
فى الوصية ، وما يرفعه بين أبناء جنسه فى الحياة الدنيوية ؛ والاعتماد على الخط
الشريف أعلاه الله أعلاه .



وهذه نسخة توقيع لبطرك اليعاقبة ، وهى :

أما بعد حمد الله على أن جعل من إحسان هذه الدولة لكلّ مليّ وذمّي نصيباً ،
وفوق إلى أهداف الرعاية سهما فسهما مامنهما إلا ماشؤهد مصيباً ، والصلاة على
سيدنا محمد الذى أحمد الله له سرى فى صلاح الخلائق وتأويها - فإنه لما كان من سجايا
الدولة القاهرة النظر فى الجزئيات والكليات من أمور الأمة ، وتجاوز ذلك إلى رعاية
[أهل] الذمة ؛ لاسيما من سبقت وصية سيد المرسلين عليهم من القبط الذين شرفهم
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بوصلته منهم بأمّ إبراهيم ولده عليه السلام ،
وقبول هديتهم التى أبقت لهم مزية على قمر الأيام ؛ وكانوا لأبد لهم من بطريك يحفظ
سوامهم ، ويضبط خواصهم وعوامهم ؛ ويجمع شمل رهبانهم ، ويراعى مصالح
أديانهم ؛ ويحرّز أمور أعيادهم ومواسمهم فى كل كنيس ، ويدعو للدولة القاهرة
فى كل تقدّيس ؛ وتُجعل [له] الخيرة فى ضبط أمور البيع والديرة واختيار الأساقفة

والكُهان ، وحفظ النواميس المسيحية في كل قربان ، ولا يصلح لذلك إلا من هو بتول ، وكل خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحق بذلك أن هذا الأمر إليه يؤل .

ولما كان البطريك فلان هو المجمع على صلاحيته للبطاركية على شعبه ، والتقدمة على أبناء المعمودية من شيعته وصحبه ، لما له من علم في دينه ، ومعرفة بقوانينه ، وضبط لأفانيته ، وعقل يمنعه عن التظاهر بما يُنافي العهد ، ويُلافي الأمر المعهود - أقنضى جميل الاختيار أنه رُسِم بالأمر الشريف - لأبرح يضع كل شيء في موضعه من الاستحقاق ، ويبلغ في الإرفاد لأهل المال والإرفاق - أن يباشر بطركية جماعة اليعاقبة بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه في هذه الرتبة ، ومن ارتقى قبله إلى هذه الهضبة .

فليباشر أمر هذه الطائفة ، وليجعل معونته بهم طائفة ، وليضبط أمورهم أحسن ضبط وأجمله ، وأتمه وأكمله ، وليأخذهم بما يلزمهم من القيام بالوظائف المعروفة ، والعهود المألوفة ، وليلزمهم بما يلزمهم شرعا من كف عن تظاهر ممنوع ، أو تعطى محذور منكر الشرور والشروع ، أو تنكب عن طريق الاستقامة ، وكما أنهم عدلوا عن الإسلام لا يعدلون عن السلامه .

وأما أمور الديرة والخائس فأمرها إليك مردود ، فاجر فيها على المعهود ، وأقم فيها عنك من يحسن النياحه ، ومن يُجمل الإنابة ، ومن يستجلب الدعاء لهذه الدولة القاهرة في كل قدّاس ، ويُعَدّد التقديس والأنفاس ، وعلى رهبان الأديرة للساجد والجوامع وظائف لا تُمنع ولا تؤخر ، ولا تُهوج أحدا منهم أنه بها يُذكر ، وليشُرط على أهلها أنهم لا يَأوون طليعة الكفار ، ولا من يحصل منه إلا خير ولا يحصل الإضرار ، وليأمرهم بحسن الجوار ، والقيام بما هو موظف عليهم للسامين السفار

وغير السفار؛ هذه نبذة من الوصايا مُقنّعة، ولو وسّع القول لكان ذا سَعَة،
وفى البطريك من التباهة ما يلهيهم الصواب، والله يجعل حسن الظن به لا آرتياء فيه
ولا آرتياب، بمنّه وكرمه!، والاعتماد



وهذه نسخة توقيع لبطرك اليعاقبة، وهى :

أما بعد حمد الله الذى خصّ كلّ ملّة منّا بمنّه، وأقام بأوامرنا على كلّ طائفة من
نرضاه فنحقق بإحساننا ظنّه، وجعل من شيمنا الشريفة الوصية بأهل الكتاب عملاً
بالسنّة . والشهادة بوحدانيته التى نتخذ بينها وبين الشكّ والشرك من قوّة الإيمان
جنّه، ونذخر أجورها فنسمو بها يوم العرّض إلى أعلى عُرف الجنّه . والصلاة والسلام
على نبيّه محمد أكرم من أرسله إلى الأمم فأنال كلّاً من البرايا يُمنّه، وأعظم من بعثه فشرع
الدين الحنيف وسنّه، وعلى آله وأصحابه الذين لم تزل قلوب المؤمنين بهم مطمئنة -
فإنّ لدولتنا القاهرة العوارف الحسان، والشيم الكريمة والعطايا والإحسان،
والفواضل التى للآمال [منها] ما يُرَبّي عليها ويزيد، والمآثر التى تجرّرها الوافر
المديد، ولكل ملّة من نعمها نوال جليل، ولكل فرقة من مواهبها جانب يقتضى
التحويل ولا يقضى بالتحويل، ولكل طائفة من يُمنّها ومنّا منح طائفة بمزيد
التنويل، ولكل أناس من معدّلتها نصيب يشمل الملل، وعادة معروف تواترت مع
أنها خالصة من السّامة والملل، سحّة سخية بنا شرفت، ومزية مروية منّا ألفت،
وإنّ من أهل الكتاب لطائفة كثرت بأبوابنا الشريفة عدداً، وأستصفت من مناهل
جودنا مورداً، وانتظمت فى سلك رعايانا فأضحى سبب فضلنا لها مؤكداً، وكانت
الملّة المسيحية، والفرقة اليعقوبية، لا بدّ لها بعد موت بطريكها من إقامة غيره،

وتقديم من يرتضى بفعله وقوله وسيره؛ لتقتدى به في عقد أمورها وحلها، وتحريمها وتحليلها ووصلها وفصلها، وتهتدى به في معتقدها، وتركن إلى ما يذكركه من مجموع أحكام الإنجيل ومفرداتها؛ وينتصب للفصل بين خصومها بما يقتضيه عرفانه، ويظهر لأهل ملته بيانه؛ حتى لا تجدد في أمر دينها إلا ما تريده، وبما نديمه لها من استمرار الهدنة تبدى دعاءها وتعيده؛ فإن سيدنا محمدا - صلى الله عليه وسلم - أمرنا أن نستوصى بأهل الكتاب خيرا، ونحن نسلك من أتباع شريعته المطهرة مأخضين فيه - إن شاء الله - سيرة يسيرة وسيرا .

ولما كانت الحضرة السامية، الشيخ، الرئيس، المبجل، المكرم، الفاضل، الكافي، الثقة، عماد بني المعمودية، كنز الطائفة الصليبية؛ اختيار الملوك والسلاطين، فلان - أطال الله بقاءه، وأدام على أهل طائفته ارتقاءه - ممن اتفق على شكره أبناء جنسه، واستوجب أن يرقى إلى هذه الرتبة بنفسه؛ واشتهر بمعرفة أحوال فرقه، وهجر الأهل والوطن في تهذيب خلقه؛ وحرّم في مدّة عمره النكاح، وسار في المهامه والقفار وساح؛ وأضحى تخميص البطن خاوي الوفاض، قد ترك الطيبات وهجر التنعم وأرتاض؛ وأعتمد في قوله على الإله، وسأل الربّ أن يبلغه في أهل ملته ما تمنّاه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يجمع الفرق على الدعاء لأيامه الشريفه، ويدبّر للأقربين موادّ مواهبه المألوفه - أن يقدم الشيخ فلان على الملة النصرانية اليقينية، ويكون بطريقا عليها على عادة من تقدّمه، ومستقرّ قاعدته، بالديار المصرية والثغور المحروسة، والجهات التي عادته بها، إلى آخر وقت، [فلينول ذلك] سالكا من طرق النزاهة ما يجب، فاصلا بين النصارى بأحكام دينه التي لا تخفى عنه

ولا تَحْتَجِبْ ؛ مَالِكًا أَرْمَةً كُلَّ أُسْقَفٍ وَقَصٍّ وَمِطْرَانٍ ، مَرْجَحًا بَيْنَ الْقَدِيسِ
وَالْقِسِّيسِ وَالشَّاسِ وَالرُّهْبَانِ ؛ لِتُصْبِحَ أَحْكَامُ كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ بِهِ مَنْوُطَةٌ ، وَمَوَارِيهِمْ
مُقْسُومَةٌ بِشِرْعَتِهِ الَّتِي هِيَ لَدَيْهِمْ مَبْسُوطَةٌ ؛ وَيَقِفَ كُلُّ مِنْهُمْ عِنْدَ تَحْرِيمِهِ وَتَحْلِيلِهِ ،
وَلَا يُخْرِجَ فِي شِرْعَتِهِمْ عَنْ فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ وَلَا يَقْدَمَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَضِيَ بِتَأْهِيلِهِ ؛ وَلِيَأْمُرَ
كُلَّ قَاصٍ مِنْهُمْ وَدَانٍ ، وَمَنْ يَتَعَبَّدُ بِالذِّيرَةِ وَالصَّوَامِعِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسْوَانِ ، بِرَفْعِ
الْأَدْعِيَةِ بِدَوَامِ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ الَّتِي أَسَدَتْ لَهُمْ هَذَا الْإِحْسَانَ ؛ وَيُنْزِمُ كَلًّا مِنْهُمْ
بَأَن لَّا يُحْدِثُ حَادِثًا ، وَيُكْرَمَ نَزْلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ رَاحِلًا أَوْ لَا شَيْءًا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْوَلَايَةَ
قَدْ آلَتْ إِلَيْهِ ، وَهُوَ أَدْرَبُ بِمَا تَنْطَوِي شُرُوطُهَا عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ الْبَهْجَةَ [لَدَيْهِ]
مُقِيمَةً [وَالنِّعْمَةَ عَلَيْهِ مُسْتَدِيمَةً] ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمُوجِبَةٍ وَبِمُقْتَضَاهُ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه وصية لبطرك اليعاقبة أوردتها في "التعريف" قال :

وَيُقَالُ فِي وَصِيَّةِ بَطْرِكِ الْيَعَاقِبَةِ مِثْلُ مَا فِي وَصِيَّةِ بَطْرِكِ الْمَلَكِيَّةِ ، إِلَّا فِيمَا يُنَبِّهُ عَلَيْهِ .
وَيَسْقُطُ مِنْهُ قَوْلُنَا : « وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ فِي الْمَدْخَلِ إِلَى شَرِيعَتِكَ طَرِيقٌ إِلَى الْبَابِ » إِذْ
كَانَ لَا يَدِينُ بِطَاعَةِ الْبَابِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمَلِكَانِيِّينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ رَأْسُ الْيَعَاقِبَةِ نَظِيرُهُ
لِلْمَلِكَانِيِّينَ ، وَيُقَالُ مَكَانَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ « وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ فِي الْمَدْخَلِ إِلَى شَرِيعَتِكَ قَسِيمُ
الْبَابِ وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْأَتْبَاعِ ، وَتَسَاوِيَانِ فَإِنَّهُ لَا يَزْدَادُ مِضْرَاعٌ عَلَى مِضْرَاعٍ » .
وَيَسْقُطُ مِنْهُ قَوْلُنَا : « وَلِيَتَجَنَّبَ الْبَحْرَ وَإِيَّاهُ مِنْ اقْتِحَامِهِ فَإِنَّهُ يَغْرَقُ » وَثَانِيَةً هَذِهِ
الْكَلِمَةُ إِذَا كَانَ مُلْكُ الْيَعَاقِبَةِ مُغْلًا [فِي الْجَنُوبِ] ^(١) وَلَا يَجْرُ ، وَيُبَدَّلُ بِقَوْلِنَا :
« وَلِيَتَجَنَّبَ مَا لَعَلَّهُ يَنْوُبُ ، وَلِيَتَوَقَّ مَا يَأْتِيهِ سِرًّا مِنْ تَلْقَاءِ الْحَبْشَةِ حَتَّى إِذَا قَدَّرَ فَلَا

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٦ .

يَسْمُ أَنْفَاسَ الْجَنُوبِ ؛ وَلِيَعْلَمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَادَّةَ وَإِنْ كَثُرَتْ مَقْصَرُهُ ، وَلَا يَحْفَلُ بِسُودَدِ
السُّودَانِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ آيَةَ الدَّلِيلِ مُظْلِمَةً وَآيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، ثُمَّ يُخْتَمُ بِالْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى
كَمَا تَقَدَّمَ ، وَنَحْوَ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

النوع الثاني

(ما هو خارج عن حاضرتي مصر والقاهرة : من وظائف الديار المصرية
مما يُكْتَبُ لأربابها . وهي ثلاث جهات)

الجهة الأولى

(ثغر الإسكندرية ، والوظائف فيها على ثلاثة أصناف) .

الصنف الأول

(وظائف أرباب السُّيُوف وبها وظيفة واحدة وهي النيابة)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنها كانت أولاً ولايةً ،
إلى أن طرَقَهَا الْفَرَنْجُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فَاسْتَقَرَّتْ مِنْ حِينَئِذٍ نِيَابَةً ،
يُكْتَبُ لِنَائِبِهَا تَقْلِيدٌ فِي قِطْعِ الثَّلَاثِينَ ، « الْجَنَابِ الْعَالِي » مَعَ الدُّعَاءِ بِمُضَاعَفَةِ النِّعْمَةِ .

وهذه نسخة تقليد نيابة ثغر الإسكندرية :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمٍ بِاسْمَةِ الثَّغْرِ ، مُسْفِرَةِ الْفَجْرِ ، رَافِعَةِ الْقَدَرِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَشْرَحُ الصَّدْرَ ، وَيَطْلُعُ طُلُوعَ الْبَدْرِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُخَالِفُ مِنْ يُخَالِفُهَا ، وَتُخَالِفُ مِنْ يُخَالِفُهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

ورسوله أفضل نبي رابط في سبيل الله وجهده، وكابد في الجهاد أمداء الدين وكايد،
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين خاضوا في غمرات الدجى كل غمر، وندبوا
لحماية الدين ... (١) ... كريمة وسداد نغر .

أما بعد، فإن الأهتمام بالثغور هو أولى ما إليه حُمد، وعلى مصالحها أعتُمِد، وكان
نغر الإسكندرية المحروس هو المقر عن أحسن الثنايا، والمخصوص من الحياة
بأتم المزايا، والذي كم شفت شفاهه من سُقم عند ارتشاف، والذي المشاغر به
والمرابط كم له بالحسنات من أثلاف، وكانت المصلحة تقتضى أن لا يختار له
الإكل كامل الأوصاف، كافٍ بما تستدعيه مصلحة أهله من إنصاف، ذو عزم
يمضى والسهم مستودعة في الكائن، ويقضى بالعدل المزيل للشوائب والشوائن،
ومن له حزم يسد نغر المعايب دون كل ملاحظ ومعين، وله سياسة تحفظ بمثلها
الثغور، وتضمن الأمور، وله بشاشة تستجلب الثفور، وتوفق ما بين الألسنة
من أولى الود والصدور، وله حيطة بينا يقال: هذا جانبه دمت إذ يقال: هذا
جانبه صعب ممنوع، وبينما يقال ليقظته للصاحبة: هذا سحاب يتجهم (٣) إذ يقال هذا
سيل مندفع .

ولما كان فلان هو مستوعب هذه الصفات، ومستودع هذه الأسماء والسمات،
وإليه بهذه المناقب يُشار، وهو ساحب أذيال هذا الفخار - أقتضى حسن الرأي

(١) بياض بالأصل ولعله فكانوا اليوم انخ .

(٢) في الأصل « كتفت » وهو تصحيف من الناسخ .

(٣) لعله سحاب جهام . أى لا ماء فيه . تأمل .

الشریف أن تُفَوِّضَ إليه نيابة السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس ،
تفويضا يُمِضِي في مصالحه لسانه وقلمه ، وَيُصَرِّف بين الأوامر والنواهي إشاراته
وكلمه ، وَيَزِين مواكبَه بطلعته ، وَيَزِيد مهابتَه ببُعْد صيته واشتهار شُمتِه .

فليباشِر هذه الوظيفة مُجَلَّلا مواكبها ، مَكْمَلًا مراتبها ، ^(١) موثلاً بقواعد الأمن أرجاءها
وجوانبها ، ناشراً لواء العدل على عوالمها ، قابضاً بالإنصاف لمظلوم رعيّتها على يد
ظالمها ، مُعلِّيا منار الشرع الشريف بمعاضدة حُكَّامه والانتقياد إلى أحكامه ، والوقوف
في كل أمر مع نقضه وإبرامه ، وليُحَرِّس جوانب هذا الثغر ويحميها ، وليصن عوارضه
وما فيها ومن فيها ، وليكَلِّله براً وبحرا ، وليُرِخ عليه من ذبّه سِتراً فيسْتُرًا ، وليُنْجِج
لِسافِرته طلباً ، ^(٢) وليبلِّغهم من العدل والإحسان أرباباً ، ويُنْجِل معاملته من وجد منهم
في سفره نصيباً ، وأتخذ سبيله في البحر عجباً . والرعية فهم طراز الممالك ، وعنوان
العمارة الذي من شاهده في هذا الثغر عليم ما وراء ذلك ، وأحسِن إليهم وأرأف بهم ،
وبلِّغهم من عدل هذه الدولة غاية أربهم ، وأمور الخمس والديوان فلها قواعد
مستقره ، وقوانين مستمره ، فاسألِك منها جدداً واضحاً ، وأبتغ لها علماً لا يحا ،
وغير ذلك فلا يكاد على فهمك يخفى ، من تقوى الله التي بها تُكفَّ عين المضار
وتُكفَى ، والله تعالى يُلْهِمك صواباً ، ولا يجعل بين حجاجك وبين المصالح حجاً ،
بمنه وكرمه ! .

(١) موثلاً ممكناً . من وثل الشيء أصله ومكانه .

(٢) (لسافرتهم) هم المسافرون .

الصنف الثانى

(من الوظائف التى يكتب بها بشعر الإسكندرية - الوظائف الدينية ،
وكلها تواقع ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى^(١)

(ما يكتب منها فى قطع الثلث بـ « السامى » بالياء ، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(القضاء)

وهو الآن مختص بالمالكية ، وقاضيا يتحدث فى نفس المدينة وظاهرها ،
ليس له ولاية فيما هو خارج عنها .

وهذه نسخة توقيع بقضاء ثغر الإسكندرية للملكى ، كتب به للشيخ « وجيه الدين
محمد بن عبد المعطى الإسكندرى المالكى » وهى :

الحمد لله رافع قدر من توه العلم بذكره ، ونور التقي مواقع فكره ، ونبه الورع على
رفعة قدره ، وأشرق به منصب الحكم العزيز إشراق الأفق بطلوع بدره ، وأضاءت
بنور أحكامه غوامض القضايا الشرعية إضاءة الدجى بغرة فجره ، وقضى له دوام
الإصابة فى الاجتهاد بإحراز أجره إذا كان أحد قسمى الاجتهاد مقتضياً لأجره ،
وملئ صدره بأنواع العلوم الدينية فوسع له الشرع الشريف صدر مجلسه وأعد له
مجلس صدره ، وزخر من خاطره بحر العلم فارتوت رياض الخواطر بأنوار فرائد دهره ،

(١) لم يذكر الثانية فما يأتى .

وأسفر وجه الدين بنور علمه وعمله : فقام هذا مقام السرور في أساريه وناب هذا
مناب الشنب في ثغره .

نحمده حمداً يزيد قدر النعم تنويعها ، ويسوغ في المحامد تعظيماً لمسدى المنّة وتنزيهاً ،
وينهض بشكر التوفيق في اختصاص منصب الحكم بمن كان عند الله وجيهاً .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفتّر ثغور الإسلام بإدامتها ،
وتبني قواعد الإيمان على إقامتها ، وتسيم بوارق النصر على جاحدها من أئمة
غمائمها ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنارت الآفاق بملّته ، ودارت أداة
التشبيه بين أنبياء بني إسرائيل وعلماء أمته ، وضاعى شرعه شمس الظهيرة في وضوح
أحكامه وظهور أدلّته ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عملوا بما علموا ،
وجاهدوا أعداء الله فما ضعفوا لذلك ولا ألبوا ، وقضوا بالحق بين أمته فلا المقضى
لهم أئموا ولا المقضى عليهم ظلموا ؛ صلاة لا تزال لها الأرض مسجداً ، ولا يريح
ذِكْرُها مُتْرَماً في الآفاق ومنجداً ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من قلّد الحكم وإن نأى به الورع عن توقّعه ، وخُطب للقضاء
وإن أعرض به الزهد عن طلابه وتنبّه ، ودعى إليه إذ الإجابة عليه متعيّنه ،
ووضعت مقاليد الحكم الاستحقاق [في يديه] إذ أولويّته البيّنة لا تحتاج إلى بيّنة -
من عقدت على تعينه لهذا المنصب الجليل الخناصر ، ودعت إلى استدعائه
إليه فضائله الثابتة القواعد وزهاده الزاكية الأواصر ؛ ودلت عليه علومه دلالة
الأضواء ، على لوايح الشهب ، ونهت عليه فنونه تنبيه الأنواء ، على مواقع السحب ؛
وشهد بورعه المتين ، تفقّهه وأعتاله ، وأنبأ عن نهوضه بنصرة الدين ، قوة جداله
الذي هو جلاّد مثله وزالّه ؛ وتجرّ في أنواع العلوم حتى جاور البحر بمثله ولكنّه

العذب الزلال ، وشغل نفسه بالتنوع فى الفنون فكان التحلى بعبادة الله ثمرة ذلك الاشتغال ، ومشى على قدم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يشق فى ذلك المضمار غباره ، ونشأ على طريقة العلم والعمل : فماره بالانقطاع إليه ليله وليله بالاشتغال بهما نهاره .

ولما كان فلان هو الذى خطبته هذه الرتبة السنية لنفسها ، وتشوقت إلى الإضاءة بطلوغها فى أفقها تشوق المطالع إلى الإضاءة بطلوع شمسها ، وأثنى لسان القلم على فضائله وهو يعتذر من الاختصار ، واقتصرت البلاغة على اليسير من التعريض بوصفه وطالب ما لا يحصر معذور فى الاقتصاد والاقتصار ، وعين لما تعين عليه من مصالح الأمة وذلك يقضى لمثله من أهل الورع أن يحجب ، وطلب لعموم مصالح الإسلام التى ما يذغى لمثله من أنصار السنة أن يتأخر عن مثلها أو يغيب ، وكان ثغر الإسكندرية المحروس من المعقل التى يفتّر عن شنب النصر ثغرها ، ومن أركان الدين التى ينعّص بأبطالها بحرّها ، وهى مأوى صلحاء الجهاد الذين سبهم ليلهم أسبق إلى العدا من سهامهم ، وموطن العلماء من أهل الاجتهاد الذين يعدل دم الشهداء مداد أعلامهم ، وهى داره التى تزهى به نواحيها ، وموطن رباطه الذى يوم وليته منه فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها - آقتضت آراؤنا الشريفة أن نخص منصب حكيمها بعالم أفقها المنير ، وزاهد ثغرها الذى ماشام برقه بصر عدو إلا وأنقلب إليه خاسئاً وهو حسير ، أن نفوض إليه منصب القضاء والحكم العزيز بشعر الإسكندرية المحروس ، على قاعدة من تقدمه فيه ، نظراً فى عموم ذلك الثغر المحروس به (٩) إلى من انعقد إجماع أئمة عصره ومصره على سعة علمه ووؤور ورعه وكال فضله .

(١) مراده أنها مأوى صلحاء المتعبدين الذين الخ .

(٢) يظهر أن فى هذه العبارة سقطاً وحرر .

فليس شر هذا المنصب الذى ملاك أمره العلم والتقى ، ونظام حكمه العدل والورع وهما أكل ما به يرتقى ، وليحكم بما أراه الله من قواعد مذهبه المحكمه ، وأحكام إمامه التى هى بمصالح الدين والدنيا محكمه ، وليقض بأقوال إمام دار الهجرة التى منها صدرت السنّة إلى الآفاق ، وعنها أخذت ذخائر العلم التى تركوها على كثرة الإنفاق ، وبها حى الأحكام الدينية موطأ الأئمة ، وفيها استقام عمود الملة ممدود الطرف على سائر الأطراف ، فليس من ذلك وغيره جميع ما كان يليه من تقدمه ، وتقتضيه قواعد ولايته التى أمضينا فيه لسانه وقلمه .

فأما ما يدخل تحت هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعده ، وأدواته وعوائده : من تخصيص الحكم بأوقاته ، ومساواته بين الخصمين فى إنصافه وإنصاته ، واجتناب الحكم فى الأوقات المقتضية لتركه ، وتوقى نقض الأحكام التى نظمها عدم مخالفة النص والإجماع فى سلكه ، فإنه مكتفٍ بالإجمال عن تفصيلها ، مكتفٍ عن ذكر كثيرها بالإسماء إلى قليلها ، إذ هو أدري بأوضاعها شرعاً وعرفاً ، وأدرب بما قد يشد منها عن ألعينته أو يخفى ، وملاك الوصايا تقوى الله تعالى وهى من خصائص نفسه ، وفواتح ما ابتدأ الورع بإتقان درسه ، والله تعالى يؤيد حكمه ، ويعلى علمه ، بمنه وكرمه ! والاعتماد إن شاء الله تعالى .



وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ فِيما تَقَدَّمَ قَدْ وَلِيَهَا قَاضٍ شَافِعِيٌّ .

وهذه نسخة توقيع بقضائها ، كُتِبَ به للقاضى «عَلَمُ الدِّينِ الْإِخْنَائِي» الشافعى ، فى ثامن شعبان سنة ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ لنا فى كل نَفَرٍ عَلَمًا ، وأَجْرَى لنا فى جِوَارِ كُلِّ بَحْرٍ ما يَضَاهِيهِ
كَرَمًا ؛ وجَعَلَ من حُكَّامِ دولتنا الشريفة من يُعَرِّفُ بنسبه الإنسانى بل السَّائى أَنَّهُ
يُخَوِّ من الظُّلَمِ ظُلُمًا .

نُحَمِّدُهُ عَلَى أَن زَادَنَا نِعَمًا ، وَوَفَّرَ للأحكام الشرعية بِنَاقِسَمَا ، وَأَعْلَى قِيَمًا ، [فَأَضَحَّتْ]
تُسَافِسُ الدَّرَ الثَّانِينَ قِيَمًا ، وَنُشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُجَزِّدُ
لِإِقَامَتِهَا سَيْفًا وَقَلَمًا ، وَنُشْهَدُ أَن مَجْدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الذى جَعَلَ اللَّهُ لَهُ شَرِيعَةً مَاضِيَةً^(١)
وَدِينًا قِيَمًا ، وَنُصِّبَ من أُمَّةٍ أَتْبَاعَهُ كُلِّ عِلْمٍ يَهْدَى أُمَمًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
صَلَاةً بَاقِيَةً مَابَقِيَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى الثُّغُورِ بَأَن لا يَزَالُ بِهِ عِلْمٌ مَرْفُوعٌ ، وَعِلْمٌ مَصُونٌ حُجَابُهُ الْمُنْعُوعُ ،
وَعَمَلٌ يَمِشُّ بِهِ أُمَّةٌ الأُمَّةَ عَلَى طَرِيقِهِ الْمَشْرُوعِ ، تُغْرِى الإسْكَندَرِيَّةَ - حَمَاهَا اللَّهُ
تَعَالَى - فَإِنَّهَا من دار الملك فى أَعَزِّ مَقَامٍ ، ومن مُجَاوِرَةِ الْبَحْرِ فى مَوْطِنِ جِهَادٍ تَحْفِيقُ
بِهِ الأَعْلَامُ ؛ وَغَالِبٌ مِنْ فِيهَا إِمَامٌ فَقِيهٌ يَتَمَسَّكُ بِالشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ فى عُلُوِّ عُلُومِهِ ،
أَوْ رَبُّ مَالٍ لَهُ وَقُوفٌ بِمَجْلِسِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ يَنْتَصِفُ مِنْ خِصَامِ خُصُومِهِ ؛ وَلَمْ تَزَلْ
وِظِيفَةُ الْقَضَاءِ بِهَا أَهْلَةُ الصَّدُورِ ، كَامِلَةُ الْبُدُورِ ، مَتَهَلِّلَةٌ بِمَا لا يَفُوتُ الشَّنْبُ بِكَارِقِ
الْجَزَعِ إِذَا حَكَا إِيْمَاضُ الثُّغُورِ ؛ وَكَانَ لَهَا مَدَّةٌ قَدْ خَلَتْ وَنَحْنُ نَفَكَّرُ فِيمَنْ يَكُونُ
سَدَادًا لثَغْرِهَا ، وَكَافِيًا فِيمَا يُيَهَّمُ فى الأحكام الشرعية من أَمْرِهَا ؛ وَكَافِلًا من الْحَقِّ الذى
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ بِمَا بَقِيَ النَفُوسُ ، وَقَائِمًا فى مَدَارِسِهَا بِمَا يَزِيدُ مَعَالِمَهَا إِشَادَةً فى الدُّرُوسِ ؛
حَتَّى أَجْمَعَتْ آرَأُونَا الشَّرِيفَةَ عَلَى مَنْ يُحْسِنُ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ ، وَتُحْسِمُ بِهِ دَوَاعِيَ النَّزَاعِ ،
وَيُحْسِدُ عَلَيْهِ عِلْمَ الشَّمْسِ لِمَا عَلَا عَنْهَا مِنْ كُرَّةِ الارتفاعِ ؛ وَهَنْ يَتَضَوَّعُ بِشَرِّ الْعَدْلِ

في يميني كفه القلم ، وإذا وقفت به الركائب قالت : ياسارى القصده هذا البابُ
والعلم ، وكان المجلس السامى القضائى العالمى الإسنائى الشافعى ، أدام الله علوه هو
العلم المنشور ، والعلم المشهور ، والمراد بما تقدم من وصف مشكور ، فاقضت
مراستنا المطاعة أن تَنَاط به من الأحكام الشرعية القضايا ، وأن يَسِم هذا الشغل
بحكمه عن واضح النّايا .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى :
زاده الله شرفاً ، وضاعف له تصرفاً - أن يفوض إليه القضاء بمدينة إسكندرية -
حماها الله تعالى - على عادة من تقدمه وقاعدته المستقرة إلى آخر وقت ، على أنه
يَسْتَنِب عنه في تحمله وفيما شاء منه من هو موصوف بصفته ، موثوق بدينه وعلمه
ومعرفته ، وليُنْتَصَب في مجلس الحكم العزيز لمن ينصف ، ويعمل بما يرضينا من
مراضى الله تعالى فإنَّ للعيون أن تنظر ولالألسنة أن تصف ، ولينظر في أمر الشهود
فإنَّ الأحكام الشرعية على شهادتهم تُبنى ، وليحتَرِز من الوكلاء فإنَّ منهم من يجعل
الظنَّ يقيناً واليقينَ ظناً ، ولينظر في أمور الأيتام ويتصرف في أموالهم بالحسنى ،
وليقيم الحدود ، على مقتضى مذهبه ، وليعول في العقود ، على من لا يخاف معه أمرؤ
على إلحاق في نسبه ، وغير هذا مما إليه مرجعه ، وإليه ينتهى مفرقه ومجتمعه
وبحكمه يفصل أمره أجمعه ، وليتخذ الله تعالى عليه رقيباً ، ويعلم أنه سيرى كل
ما يعملهُ عند الله قريباً ، وتقوى الله هي التي تتخذ معه عليها عهداً مسئولا ، ورجاء
مأمولا ، وقولا عند الله وملائكته وأنبيائه مقبولا ، ونقلده منها على كل مخالف سيفاً
مسئولا ، ونحن نرغب إلى الله أن يوفقه في حكمه ، ويعينه على كل ما يُملى من الوصايا
بما هو ملى به من عمله وعلمه ، والخط الشريف أعلاه ، حجة فيه .

قلت : وكان قد أُسْتُحْدِثَ بالإسكندرية قاضٍ حنفىً فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » يُؤْتَى من الأبواب السلطانية رقيقاً للقاضى المالكى بها ، يتحدَّثُ فى الأحكام فى القضايا المتعلقة بمذهبهِ خاصَّةً ، وأمرُ مُودَع الأيتام ونظرُ الأوقاف ، وغير ذلك من متعلَّقات قضاء القضاة مختصَّ بالمالكى ، ثم صارت بعد ذلك تارةً يؤتَى بها حنفىً كذلك ، وتارةً تشغَرُ منه . فإن وليها حنفىً ، كتب له فى قطع الثُّلُث كما يكتب للقاضى المالكى ، وليس بها الآن شافعى إلا نائباً عن المالكى ، ولا حنبلىً بها أصلاً .

الوظيفة الثانية

(الحِسْبَةُ بشجر الإسكندرية)

ومحتسبها يُمضى تحدُّثه فيما يختص به قاضيا ، وليس له ثواب فيما هو خارج عن ذلك من البلاد .

وهذه نسخة توقيع بالحِسْبَةُ بشجر الإسكندرية .

الحمد لله الذى جعل المناصبَ فى أيماننا الزاهرة محفوظةً فى أكفائها ، مضمونةً لمن تقاضت [له] من الإقبال ر [د] جفائها ، معدوقةً فى مالها إلى من زانها بمعرفته الحسنة بحسن ... (١) ... بمن دلَّت كفاءته وكفايته على أنه أولى بتقرُّبها وأحقُّ باصطفاها .

أحمدُه على نِعَمِهِ التى لم تُحِبَّ فى إحساننا أملاً ، ولم تُضَيِّع سعى من أحسن [العمل] فى مصالح دولتنا إنَّ الله لا يُضَيِّع أجر من أحسن عملاً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً هى أشرفُ ما فاه به اللسان ، وأفضلُ ما تعبَّد به

(١) بياض بالأصل . ولعله " بمعرفته الحسنة وحسن بهاها ، مخصوصة بمن الخ " .

الإنسان ، وأرفع ما ملكت به في الدنيا والآخرة عظام الرتب الحسان ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أحل الطيبات وأباحها ، وأزال الشبهات وأزاحها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بأحكامه ، ووقفوا مع ما شرع لهم من حلال دينه وحرامه ، وحافظوا على العمل بسنته بعده محافظتهم عليها في أيامه ، صلاة يتوقد سراجها ، ويتأكد بها انتساق السنة وانتساجها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من رجع فيه حق منصبه إلى نصابه ، ورد به واجب رتبته إلى من جعلته سوابق سيرته أولى به ، وتقاضت له سيرته عواطف كرمنا ، ونهضت نزاهته باستطلاع ما غاب عنه من عوارفنا ونعيمنا ، وأغنته أوصافه عن تجديد ثناء يستعاد به رثنا القديم ، ويستدام له به فضلنا العقيم ، وتستدر به أخلاف كرمنا الذي تساوى في عمومهم الطاعن والمقيم - من زان التقى أوصافه ، وكلت العفة معرفته وإنصافه ، وتولت الديانة نظره فيما عدى [به] من مصالح الرعايا خصوصاً وعموماً ، وتكفلت الخبرة من اعتباره لأمر الأوقات بأن جعل لكل منها في الجودة حداً معلوماً ، وبأشرف ما فوض إليه بجمع بين رضا الله تعالى ورضا خلقه ، وعول عليه في حيلة أعز الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بسط لهم من رزقه .

ولما كان فلان هو الذي أضاعت أوصافه وهل تُنكر الإضاءة للسراج ، وتسوّف إليه رتبته فلم يكن لها إلا إليه ملاذ وإلا عليه معاج ، فسلك من السير أرضها لربه ، ومن الأحوال أجمعها لأمن عاقبته وسلامة غيبه ، ومن الاجتهاد في مصالح الرعايا ما يُضاعف شكره على احتسابه ، ومن الخيرة ما يُعرف كلا منهم كيف يكون اكتساء البرية في اكتسابه - رُسم أن يستقر (١)

(١) بياض بالأصل وهو معلوم مما تقدم وحذفه اختصاراً في الكتابة .

فليستمرّ في ذلك على عادته التي ناضلت عنه فأصابته ، وقاعدته التي دعت له عواطف نعمنا فأجابته ، وليرد في التحذير والتحقيق ما استطاع ، ويناقش حتى يستقرّ على الصحة فيما يُباع أو يُبتاع ، ويقابل على الغش بما يردع متعاطيه ، ويزجر صانع الأعمال الفاسدة عن استدامتها ومن يوافقه على ذلك ويؤايطه ، ويتمرّ أموال الأحماس بملاحظة أصولها ، والمحافضة على ريعها ومحصولها ، وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها إن علمت ومزنية (؟) ماقدّم من شكره والثناء عليه ، وملاك ذلك جميعه تقوى الله تعالى وهي أخصّ ماقدّم من أوصافه ، والرفق بالرعايا وإنه من أحسن حلي معرفته وإنصافه ، والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة

(نظر الصادر)

وموضوعها التحدث في قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية ، وعليه مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح ، يُنفق عليهم بمقادير معلومة من متحصل هذه الجهة .

وهذه نسخة توقيع بنظر الصادر والوارد ، أنشأته عن السلطان الملك الناصر «فرج بن الظاهر برقوق» للقاضي ناصر الدين «محمد الطناحي» إمام المقام الشريف السلطاني ، في منتصف شهر صفر سنة أربع وثمانمائة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل من سلطاننا الناصر لأخصّ ولي أعزّ ناصر ، وخصّه من فائض كرمنا المتتابع ومننا المترادف بأكرم وارد وأبرّ صادر ، وبؤاه من فضلنا المُنيف أفضل مَبَوٍّ : فتارة تأتمّ به الملوك وتارة يخطب الكفاة على رؤوس المنابر .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَنَا نَتَّبِعَ فِي الْوِلَايَاتِ نَهْجَ الصَّوَابِ وَنَقْتَفِيهِ ، وَأَثَرَنَا مِنْ أَثَرِ
الْأَبُوَةِ بِأَعْلَى مَوَاقِعِ الْأَجْتِبَاءِ وَالْوَلَدِ سِرَّابِيهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي أَذَلَّ طُغَاةَ الْكُفْرِ بِقَمْعِ أَنْافِ كِبَرَائِهِمْ ، وَأَلْزَمَهُمُ الصَّخَارَ بِمَالٍ
يُؤْخَذُ مِنْ أَقْوِيَاءِ أَغْنِيَاءِهِمْ فَيَفَرِّقُ فِي ضِعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفُقَرَاءِهِمْ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدَهُ
وَرَسُولَهُ الَّذِي نَدَّبَ إِلَى مَبَرَّةِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَذَوِيهِ ، وَرَغَّبَ فِي رِعَايَةِ الْمَوَدَّةِ لِلْآبَاءِ
بِقَوْلِهِ : «إِنَّ مِنْ أَبْرَارِ الْبِرِّ الرَّجُلَ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ عُدَّتْ بِهِمْ مَهَمَّاتٌ ، فقاموا بِحَقِّهَا ، وَوَكَلَتْ إِلَيْهِمْ جَلَائِلُ الْوِلَايَاتِ ، فَأَحْرَزُوا
بِحِمْلِ التَّائِمِ قَصَبَ سَبْقِهَا ، صَلَاةً يَبْقَى عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ حُكْمُهَا ، وَلَا يَتَغَيَّرُ عَلَى مَرِّ
الزَّمَانِ رَسْمُهَا ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنْ مِنْ كَرِيمِ سَجَايَانَا الَّتِي جُبِلْنَا عَلَيْهَا ، وَشَرِيفِ شِمِينَا الَّتِي يَجْذِبُنَا طِيبُ
الْعُنْصُرِ إِلَيْهَا ، أَنْ نُخَصَّ أَخَصَّ الْأَوْلِيَاءِ بِأَسْنَى الْوِلَايَاتِ ، وَنُخَفَّ أَصْنَى الْأَصْفِيَاءِ
بِنَهَايَةِ غَيْرِهِ فِي الْبِدَايَاتِ ، وَنَرْفَعَ قَدْرَ مَنْ لَمْ يَزَلْ ظَهَرُهُ لِلْمُلُوكِ مَحْرَابًا ، وَنُتَوِّدَ بِذِكْرِ مَنْ
رَغِبَتْ فِيهِ الْوُظَائِفُ فَعَدَلَتْ إِلَيْهِ عَنْ سِوَاهِ إِضْرَابًا .

وَكَانَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ ، الْقَاضِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ، الْقَاضِي ، الْكَامِلِي ،
الْبَارِعِي ، الْبَلِيغِي ، الْمَاجِدِي ، الْأَوْحِدِي ، الْأَثِيرِي ، الْأَثِيلِي ، الْعَرِيقِي ، الْأَصِيلِي ،
الْخَطِيبِي ، النَّاصِرِي ، مَجْدُ الْإِسْلَامِ ، بَهَاءُ الْأَنَامِ ، شَرْفُ الرُّؤَسَاءِ ، أَوْحَدُ الْكِبَرَاءِ ،
صَدْرُ الْأَعْيَانِ ، جَمَالُ الْخُطَبَاءِ ، جَلَالُ النُّظَارِ ، صَفْوَةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
مُحَمَّدُ ، ابْنُ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الْجَمَالِيِّ ، الْمَرْحُومِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّنَاحِيِّ ، إِمَامُ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ :
أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى رَفْعَتَهُ - قَدْ طَالَتْ فِي الْمَخَالِصَةِ قُدْمَتُهُ ، وَوُفِّرَتْ مِنْ صِدْقِ الْمَوَالَاةِ
قِسْمَتُهُ ، فَرُفِعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ خَبْرُهُ ، وَنُصِبَ عَلَى ... (١) ... تَقْدَمُهُ فَحُمِدَ فِي الْإِخْتِيَارِ

(١) بياض بالأصل ، ولعله "المدح أو التعظيم" .

أثره، وكانت وظيفتنا نظير الصادر وخطابة الجامع الغربى بشجر الإسكندرية المحروس - حرسه الله تعالى وحماه، وصان من طُروق العدو المخدول حماه - من أرفع الوظائف قدرا، وأميزها رتبة وأعلاها ذكرا - أقتضى حسنُ الرأى الشريف أن تُسند ولايتهما إليه، ونعتمد فى القيام بمصالحهما عليه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف - لا زالت آراؤه مسدده، ونعمه على الأولياء فى كل حين مجتده - أن يستقرّ المشار إليه فى الوظيفتين المذكورتين عوضا عن كانتا بيده، بما لهما من المعلوم، ويُفسح له فى الاستنباط على عادة من تقدمه فى ذلك : استنادا إلى أمانته التى بلغت به من العمق ممتهاها، وكفايته التى تجز المتكفون عن الوصول إلى مداها، وفصاحته التى أعجزت يراعتها الخطباء الأمثال، وبلاغته التى قضت بالعى على قس إياي وحكمت بالفهامة على سحبان وائل .

فليتلق ما أسند إليه بيده الطولى وباعه المديد، وليقابل هذه النعمة الخفيلة بالشكر فإن الشكر مستلزم للزيد، عالما أن نظير الصادر يقدمه أهل الثغر على عامة الوظائف مادي منها وما جل، ويتبرك المرتبون عليه بما يأخذونه من راتبه وإن قل، فليحسن النظر فيه وردا وصدرًا، ويميز ريعه بحسن النظر فيه حتى يقول المعاند : ما أحسن هذا نظرا ! .

والجامع الغربى فهو أجل جوامع الثغر الإسكندري قدرا، وأعظمها فى الأقطار صيتا وأسيرها فى الآفاق ذكرا، يحضر الجمعة فيه أهل الشرق والغرب، ويلى بخطبته سكان الوهاد والهضب، فليرق منبره رقى من خطبه المبر خطبته، وعلم علوم مقامه فقابله بعلوم رتبته، ويشنف الأسماع بوعظه، ويشج القلوب بلفظه، ويحي العقول بتدكيره، ويذك العيون بتحذيره، وليعد للجامع ما تعودده من الإسعاد،

ويجدد مدرّس من معالم خطّابته حتّى يقال : هذا ابنُ المنير قد عاد ؛ وعمادُ الوصايا تقوى الله فهى ملائكةُ الأمور كلّها ، وعليها مدارُ أحوال الدنيا والآخرة فى عقدها وحلّها ؛ وهاتان مُقدّمتا خيرٍ فليكن لنتيجتهما يرتقب ، ولا يقطع بالوقوف معهما رجاءه « فأولُ الغيث قطرٌ ثمّ ينسكب » ؛ والاعتمادُ على الخطّ الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ، حجةٌ فيه بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث

(من الوظائف التى يكتب بها بئغر الإسكندرية المحروس ،
الوظائف الديوانية ، وهى على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء
وهو ناظر المباشرة بها ، وعنه يعبر بناظر الإسكندرية ، دون ناظر الأصل^(١)
المقدم ذكره فى جملة الوظائف الديوانية بالحضرة)

وموضوع هذه الوظيفة التحدّث فى الأموال السلطانية بالإسكندرية مما يتحصّل من المأخوذ من تجار القرنج ، وسائر المتاجر الواصلة براً وبحراً بالقبض والصرف والحمل إلى الأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بنظر بئغر الإسكندرية ، كُتب به للقاضى «جمال الدين
ابن بصاصة» وهى :

(١) وهو ناظر الخااص المتحدّث فى الأموال السلطانية كما تقدّم .

(١) الحمد لله الذى أضحك الثُّغُورَ بعد عُبُوسِهَا ، وردَّ إليها جَمَالَهَا وأَنَارَ أَفْقَهَا بَطْلُوعِ شَمْسِهَا ، وأَحْيَا مَعَالِمَ الْخَيْرِ فيها وقد كادت أن تُشْرِفَ عَلَى دُرُوسِهَا ، وَأَقَامَ لِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ مَنْ يُشْرِقُ وَجْهَهُ الْحَقُّ بَبَيَاضِ آرَائِهِ ، وتَلَدُّ الْأَسْمَاعِ بِتِلَاوَةِ أَوْصَافِهِ الْجَمِيلَةِ وَأَنْبَاءِهِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ أُسْبِغَتْ عَلَيْهِ النَّعَاءُ ، وَتَهَادَتْ إِلَيْهِ الْآلَاءُ ، وَخَطَبَتْهُ لِنَفْسِهَا الْعَلَاءُ ؛ وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَرْفَعُ قَدْرَ قَائِلِهَا وَتُعْلِيهِ ، وَتُعِزُّ جَانِبَ مَتَحِلِّهَا وَتُدْنِيهِ ؛ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ رَابِطٍ وَجَاهِدٍ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ جَنَحَ لِلِّسْلَمِ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَهَادَتِ وَعَاهَدَ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَأَشْيَاعِهِ وَحِزْبِهِ .

وَبَعْدُ ، فَأَحَقُّ مَنْ مَاسَ فِي أَرْضِيَةِ الرِّيَاسَةِ عِظْفًا ، وَاسْتَجَلَى وَجُوهَ السَّعَادَةِ مِنْ حُجْبِ عِزِّهَا فَأَبْدَتْ لَهُ جَمَالًا وَلُطْفًا ؛ وَأَصْطَفَتْهُ الدَّوْلَةُ الْقَاهِرَةُ لِمَهْمَّاتِهَا لَمَّا رَأَتْهُ خَيْرَ كَافِلٍ ، وَتَقَلَّ فِي مَرَاتِبِهَا السَّنِيَّةُ تَنْقُلُ النَّيِّرِينَ فِي الْمَنَازِلِ . (٢)

ولما كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه هذه المناقب الجليلة ، وصارت له إلى كل سؤال نعم الوسيلة ، رسم بالأمر الشريف - لا زال ... أن يستقر في نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشِرَ هذا المنصب المبارك بعزماته الماضية ، وهممه العاليه ، برأى لا يساهم فيه ولا يُشَارَكُ : ليُصْبِحَ هذا الثغر بمباشرة باسمٍ حاليًا ، وتعود بهجته له بجميل نظره ثانياً ، وينتصب لتدبير أحواله على عادته ، ويقرر قواعده بعالي همته ، ويجتهد في تحصيل أمواله وتحصين ذخائره ، واستخراج زكاته

(١) تقدّمت في صفحة ٤٠ و ٤١ من هذا الجزء بعض زيادة وتغيير واختصار .

(٢) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل أحق من ماس ... من كان لخلل العفاف لابساً ، ومن نور الايقان قابساً ، الى غير ذلك من الأوصاف .

وتمية متاجره ؛ ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ؛ فإنهم هدأيا البحور ، ودوالة الثغور ؛ ومن ألسنتهم يُطلع على ما يُخفيه الصدور ، وإذا بذّر لهم حبّ الإحسان نشروا له أجنحة مراكيهم كالطيور ؛ وليعتمد معهم ما تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخروقت ، ولا يسلك معهم حالة تُوجب لهم القلق والتظلم والمقت ؛ وليواصل بالجمول إلى بيت المال المعمور ، وليملا الخزان السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ما تستغنى به عن الواصل في البرور والبحور ؛ وليصرف همته العالية إلى تدبير أحوال [المتاجر بهذا الثغر بحيث ترتفع رؤس أموالها وتتمى ، وتوجد سخائب فوائدها وتهمى ، وليراع أحوال] ^(١) المستخدمين في مباشراتهم ، ويكشف عن باطن سريهم في جهاتهم ؛ ليتحققوا أنه مهيمن عليهم ، وناظر بعين الرأفة إليهم ؛ فتتكف يد الخائن منهم عن الخيانة ؛ وتتحلى أنامل الأمين بحاسن الصيانة ؛ وليطالع بالمتجددات في الثغر المحروس ، ليرد الجواب عليه بما يشرح الصدور [ويطيّب النفوس] ^(١) وليتناول من المعلوم على ذلك في غرة كل شهر ما يشهد به الديوان المعمور ؛ والله تعالى يتولاه ويعضده ، ويؤيده ويسدده ؛ بجمته وكرمه ! .

قلت : وربما كتبت لناظرها توقيع مفتتح : «أما بعد حمد الله» في قطع الثلث .



وهذه نسخة توقيع بنظر ثغر الإسكندرية ، وهى :

أما بعد حمد الله مفوض حلل إنعامنا على من أخلص في طاعتنا الشريفة قلبه ولسانه ، ومولى فضل آلائنا العميمة على من أرهف في مصالحنا عزمه وبنانه ؛

(١) الزيادة مما تقدم في صفحة ٤١ من هذا الجزء .

وَحُلِّيَ رَتَبَ عَلَيَّ الشَّرِيفَةِ بَيْنَ أَشْرَقَ فِي سَمَاءِ الْمَعَالَى بِدْرُهُ وَإِنْسَانُهُ ، وَأُيُنَعَتْ
 فِي غُصُونِ الْأَمَانِيِّ قُطُوفُهُ وَأَفْنَانُهُ ، وَمُبْلَغُ أَقْصَى غَايَةِ الْمَجْدِ فِي أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ بَيْنَ
 تَبَسُّمِ بَهْجِيلِ نَظَرِهِ الثُّغُورِ ، وَتَعْتَصِمُ بِحَمِيدِ خَبْرِهِ وَخَبْرَتِهِ الْأُمُورِ ، وَتُشْرِقُ مِنْ جَمِيلِ
 تَدْيِيرِهِ الْبُدُورِ ، وَتَعْتَمِدُ عَلَى هِمَمِهِ الْأَيَّامُ وَالْدُّهُورُ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
 الْمَهَادَى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمِ ، وَالنَّاشِرُ لَوَاءِ الْعَدْلِ بِسَنَنِهِ الْوَاضِحِ وَشَرْعِهِ
 الْقَوِيمِ ، وَالْمُنْجِزُ لِمَنْ آقَتْنِي سُبُلُهُ أَوْفَى تَكْرِيمِ ، وَأَوْفَرُ حَظٍّ عَظِيمِ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ
 مَا أَهْتَدَيْتُ بِهِدْيِهِمْ ذَوُو الْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ ، وَآرْتَدَيْتُ بِأَرْيَافِهِمُ الْمُعْلَمَةَ مُقْتَنِي الْأَنْثَارِ -
 فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ أَسْنَدْنَا إِلَى نَظَرِهِ الْجَمِيلِ رُتْبَةً عَزَّ مَازَالَتْ طُيُورُ الْأَمَالِ عَلَيْهَا تُحُومُ ،
 وَعَدَقْنَا بِتَدْيِيرِهِ الْجَلِيلِ مَنَصِبَ سَيَادَةِ مَا بَرَحْتَ الْأَمَانِيُّ لَهُ تَرُومُ ، وَأَعْتَمَدْنَا عَلَى هِمَّتِهِ
 الْعَالِيَةِ فَصَدَّقَ الْخُبْرُ الْخُبْرَ ، وَرَكَّأَ إِلَى حَمِيدِ رَأْيِهِ فَشَهِدَ السَّمْعُ وَأَدَّى النُّظَرُ .^(١)

وَمَا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي أَتَسَّقَى فِي ذِرْوَةِ هَذِهِ الْمَعَالَى ، وَانْتَضَمَ بِهِ عَقْدُ هَذِهِ
 الْأَلَاكِي ، وَحَوَى بِفَضِيلَةِ اللِّسَانِ وَالْبَيَانِ مَا لَمْ تُدْرِكْهُ الْمُرْهَقَاتُ وَالْعَوَالِي ، فَمَا حَلَّ
 ذِرْوَةَ عَزَّ إِلَّا وَحَلَّاهَا بِنَظَرِهِ الْجَلِيلِ ، وَلَا رَقِيَ رُتْبَةَ سَيَادَةِ إِلَّا وَأَسْفَرَ فِي ذُرُوتِهَا وَجْهُ
 صُبْحِهِ الْجَمِيلِ ، وَلَا عُدِقَ بِنَظَرِهِ كِفَايَةُ رُتْبَةٍ إِلَّا وَكَانَ لَهَا خَيْرُ كِفِيلٍ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يَنْتَصِي لِلرَّتَبِ الْعَالِيَةِ خَيْرُ مُنْجِدٍ وَمُحِيرٍ ،
 وَيُمْتَطِي لِلنَّاصِبِ السَّنِيَّةِ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ ... فَإِنَّهُ الْقَوِيُّ
 الْأَمِينُ ، وَالْمَتَمَسِّكُ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَمِرَاقِبَتِهِ بِالسَّبَبِ الْمَتِينِ ، وَالْمُسْتَنْدُ الْجَمِيلِ
 كِفَايَتِهِ ، وَحَمِيدِ دِيَانَتِهِ ، إِلَى حِصْنِ حَصِينٍ ، وَالْمُسْتَدْرِي بِأَصَالَتِهِ وَإِصَابَتِهِ إِلَى
 الْجُنَّةِ الْوَاقِيَةِ وَالْحَرَمِ الْأَمِينِ ، فَلْيَقْدِّمْ خَيْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَبَاشَرَةِ الْوُضُفَةِ الْمَذْكُورَةِ بِعَزْمِ

(١) لم يذكر خبرا إلا وهو معلوم من نظائره السابقة أى من كانت صفته كذا وكذا الخ .

(٢) بالصاد المهملة أى يختار وينتقى .

لَا يَنْبُو، وَهَمَّةٌ لَا تَنْجُو، وَتَدِيرُ يَتَضَاعَفُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَيَرْبُو، وَنَظَرٌ لَا يَعُزُّبُ عَنْ
(١)
مَبَاشَرَتِهِ فِيهِ مَثْقَالُ ذَرَّةٍ إِلَّا وَهَى مِنْ خَاطِرِهِ فِي قَرَارِ مَكِينٍ، وَضَبْطٌ لَا تَمْتَدُّ مَعَهُ يَدُ لَامِسٍ
[إِلَيْهَا] إِلَّا وَيَجِدُ مِنْ مَرَهَفِهِ مَا يُكْفِّ كَفَّهَا عَنِ الْخِيَانَةِ بِالْحَقِّ الْمُبِينِ، وَلِيَضَاعَفَ
هَمَّتَهُ فِي مَصَالِحِ هَذِهِ الْجَهَةِ الَّتِي عَدَقْنَاهَا بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ، وَلِيَوْفِّرَ عَنْ مَتْنِهِ فَإِنْ الْحَازِمُ
مَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِثْلُهُ لَا يُدَلُّ عَلَيْهَا، وَالتَّنْبِيهَاتُ وَاضِحَةٌ
وَهُوَ - وَفَقَهُ اللَّهَ - أَهْدَى أَنْ يُرْشِدَ إِلَيْهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوَفِّقُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ،
وَيُصْلِحَ بِجَمِيلِ تَدْيِيرِهِ وَحَمِيدِ تَأْتِيهِ كُلِّ خَلَلٍ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .

الطبقة الثانية

(مَنْ يَكْتُبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ بـ «المجلس السامى» بغيرياء
أو «مجلس القاضى» وفيها وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(كتابة الدرج)

وصاحبها هو الذى يقوم بالإسكندرية مقام كاتب السرِّ بالأبواب السلطانية
في قراءة المكاتبة على النائب، وكتابة الأجوبة وما يجرى مجرى ذلك .
وهذه نسخة توقيع من ذلك :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ شَامِلًا فَضْلُهُ، كَامِلًا عَدْلُهُ، هَامِلًا بِالْإِحْسَانِ
وَبَلَّةً، مَتَّصِلًا بِالْجَمِيلِ حَبْلُهُ، مَلَا حِطًّا بِعَيْنِ الْعِنَايَةِ لِلْبَيْتِ الزَّائِرِ فَرَعُهُ الطَّيِّبِ أَصْلُهُ،
مَعْلِيًا نَجْمَهُ إِلَى أَسْنَى الْمَرَاتِبِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُحَلَّهَا إِلَّا مُحَلُّهُ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فُلَانُ

(١) فى الأصل ملتمس الا الخ .

فى كتابه الدرّج بشعر الإسكندرية المحروس على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته ،
 بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأصاليته المعرّقة ، وغُصون نسبه
 المورّقة ، وآدابه الجمّة ، وفضيلته التى أبدى بها علمه ، وكتابته التى حلّت المهارق ،
 وأبدت من الجواهر ما نمتى لسه المفايق ، وتدوى لنضارته أزاهر الروض النضير ،
 وتنفرد فى الحسن فلا تجد [لها] من نظير ، وتبرز كالعهود فى أجياد التراب ، وتُنشئ
 كتباً تغنى عن الكتاب ، مع ماله من راسة أثبت معاليه ، ونفاسة أضحت بجواهرها
 الأوصاف حاليه ، وصدارة توالى منه فاستوجب بها مزيد الحسن المتواليه ،
 قد حوّل فى كرم الأصل فلا غرو أن أمسى نجيباً ، ودعا بديع اللفظ ولطيف المعنى
 فغدا كل منهما لأمره طائعا وبالإذعان مجيباً ، وعلا كوكبه فأضحى فى الرفعة بعيدا
 وإن كان فى مرأى العين قريبا ، وزكا من أكابره إلى كل فريد فى سُودده ، واحد
 فى علاه يفوق الجمع فى عدده ، فهو إنسان عين زمانه ، ومالك زمام الإنشاء ومُصرف
 عنان بنائه ، ومبرز الحسنات بسفارته المقبولة وإطلاق بيانه ، فلا غرو أن استوجب
 منّا ما يقضى له بالمزيد ، واستحقّ باتباع أصله العالم التيق إدراك ما يريد ، وتحلّى
 بمناقبه ومآثره ، وتقل عن عفاقه ومفاخره .

فليستمرّ فى ذلك على أجمل عوائده ، وأجزل فوائده ، سالكا فى ذلك طرائقه
 الحميدة ، ومناجحه ومناجح أسلافه السديده ، مبرزاً من خطّه ما يُججّل به الطروس ،
 ويسرّ بمزايه النفوس ، وينظم كالعهود ، ويلوح للأبصار حسن رونقه [المشهود] ،
 والله تعالى يجعل إحساننا لدى بيته الكريم مستمرا ، وأمتناننا العميم عنده مستقرا ،
 ونشعر العناية به مفترا ، بمنه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظر دار الطراز بغير الإسكندرية)

وهذه نسخة توقيع بذلك ، كُتِبَ بها لصالح الدين بن علاء الدين علي بن البرهان ، سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء ، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زال إشاره ، يُكْرَمُ من غدا صلاحه لحلة العلي طرازا ، واختياره ، يقدم للناصب الجليلة من ورث من أبيه نهضة وأحترارا - أن يستقر فلان في كذا : لكفايته المعروفة المحققة ، ودرايته المألوفة بركاتها الموفرة وحركاتها الموقّعة ، وديانته التي منها الأكابر على ثقته ، وأمانته التي تعتمد الحق مستدعية ومنقّقة ، وصيانته التي هي للواصل حافظة وعلى الحاصل مشقّقة .

فليباشِر هذه الوظيفة التي كانت في سالف الزمان إلى الحُكَّام تُضاف ، وللعلماء الأعلام عليها نظر وإشراف ، ومنها يُسَدَّل على أولئنا لباس الإنعام وترسل أجناس الإتحاف ، وتُسَرَّبَل الكعبة البيت الحرام في كل عام بجلبابها المحكم النسيج المعلم الأطراف ، وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزِن خزها بتقريب مشوبه وتحرير محضه ، وليُؤنَّ عن حسن التدبير في إبرام حريرها ونقضه ، وليستجلب رجالها وصناعاتها ، وليُجنَّب أحوالها ضياعها ، وليستجد أصنافها وأنواعها ، وليتفقد أكافها وبقاعها ، حتَّى يُظْهِر في أعمالها آثار الصلاح ، وتُشَكِّر مباشرته التي هي محمودة الانتهاء مسعودة الافتتاح ، والله يقرن رجاءه بالإرباح ، ويؤذن له حيث سلك بإصابة الصواب والفلاح ، بمنه وكرمه ! .

قلت : ودارُ الطَّرَازِ هذه هى التى تُعْمَلُ فيها المستعمالاتُ السلطانية : مما يُجَلُّ إلى خزانة الخاصِّ الشريف من الأقمشة المختلفة الصِّفَات : من الحرير والمقترح المخصوص بالذهب ، والتفصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة ، وغير ذلك من رقيق الكَنِّ وغيره مما لا يوجد مثله فى قُطْر من أقطار الأرض ؛ ومنه ^(١) تُتخذ الأقمشة التى يلبسها السلطان وأهل دُورِهِ ؛ ومنه تَعْمَلُ الخِلاَع والتشاريِف التى يلبسها أكابر الأمراء وأعيانُ الدولة وسائرُ أهل المملكة ؛ ومنه تُبْعَثُ الهدايا والتَّحَفُ إلى ملوك الأقطار . وقد كان يُكتب لناظر هذه الدار توقيعٌ عن الأبواب السلطانية خارج عن توقيع ناظر الإسكندرية على ما تقدّم ذكره . أما الآن فقد صار ذلك تحت نظر ناظر الإسكندرية يتحدّث فيه كما يتحدّث فى سائر أمورِها ، ومرجع الكلِّ إلى ناظر الخاصِّ بالأبواب السلطانية .

الجهة الثانية

(مما هو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة بالديار المصرية - بلاد الرِّيف)
والمراد بالرِّيف فى أصل اللغة موضعُ المياه والزَّرْع .
وقد تقدّم أنّ ريفَ الديارِ المصريّة وجهان :

الوجه الأول

(الوجه القبلى ، وهو المعبر عنه بالصَّعيد)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنه ينقسم إلى صعيدٍ أعلى ، وصعيدٍ أسفل . وقد كانت ولايته العامّة فى الزمن المتقدم يعبر عن صاحبها

(١) الضمير عائد على ما تقدم من الحرير والكَنِّ .

بـ«والى الولاية بالوجه القبلى» ثم استقرت نيابة سلطنة على حدّ تقدمة العسكر بغزة فى رتبة المكتبة، فى الأيام الظاهرية «برقوق» وهى على ذلك إلى الآن . ونائبها يكتب له تقليد نيابة السلطنة بها فى قطع النصف .

وهذه نسخة تقليد شريف من ذلك ، من إنشاء الشريف «شهاب الدين» كاتب الإنشاء ، وهى :

الحمد لله الذى رَحِمَ بتعهده نظيرنا البلاد والعباد ، وحَسَمَ بموارد زواجرنا موادّ الفساد ، وأحمد فى هذا الوجه لنا الآثار ووطأ بنا المهاد ، وأفرد آراءنا بجميع المصالح على الجمع والإفراد ، وأولى بنا الرعية الخير فى استرعاء من يبذل فى صيانتهم الاجتهاد ، وأعلى بنا كلمة العدل فهى تُنشر وتُداع وأوهى بنا كلمة الظلم فهى تُقهر وتُذاد ، وأجلى بانتقامنا فئة الضلال فلها عن مُلكنا الشريف أندفاع وأنطراد ^(١) .

نحمده على أن قرن بآرائنا السداد ، ونشكره على أن ضمن أصطفانا حسن الارتداد ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقوم حجتها ، يوم يقوم الأشهاد ، وتُدوم بهجتها ، علماً للإرشاد ، ونشهد أن سيد البشر محمداً عبده ورسوله الذى فضل العالم وساد ، وأجزل المكارم وجاد ، وهدى بشرعه من حاد ، وأردى برده من حاد ، وأجرى ببحوده النفع حيث كان وأبدى بياسه القمع لمن كاد ، وأحمد بأسيافه الباطل فباد ، وجعل لأنف مخالفه الإرغام ولجيش مجانفه الإرعاد ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأنجاب الأنجاد ، صلاة لها تضاعف وتعداد ، وبفتكاتهم (؟) للنواب إجماد ، وسلم تسليماً كثيراً .

(١) دعت مراعاة السجع الى استعمال الانفعال من طرد ونص أهل اللغة على أنها لغة رديئة . فتنه .

وبعد فإن الله تعالى لما أعلیٰ هممنا وأصعدنا، ووفى عزائنا من النصر موعدها،
 وأسعف بملكنا الرعية وأسعدنا، وضاعف بنا لديهم النعمة وجددها، وأوضح
 بنا سبل المعدلة وجددها، وأنجح بسطاننا آمال الخليفة وأنجدنا - لم نخل من
 ملاحظتنا أدنى الأقطار ولا أبعدنا، ولم نُغفل من ممالكنا ناحية إلا نحاهما فضلنا
 وقصدنا فأقر بها الصالحات وخلدنا، وأثر بها المسامحات وأبدنا، ونصر الشريعة
 وأبدنا، وسد الذريعة بأفعال حزم سددها، ووطن أهلها ووطدها، وأورد من بها
 موارد الأمن لما وردنا .

ولما واجه إقبالنا فى هذه الأيام الوجه القبلى، وصعد إلى الصعيد الأعلى ركبنا
 العلى، لنحنا بلادنا وتعددها، وتعين ملاحظته وتأكدنا، وكثرة السلاك لسبله،
 والملك لخوله، والوراد لنهله، والوفاد من قبله، وهو منهج التجار فى التوجه
 من أبوابنا الشريفة والجواز، وباب اليمن والحجاز، وفى الحقيقة هذا المجاز يتعين له
 الحفظ وفيه الاحتراز، وبه كراسى منها السيرة تمتاز وعلى سواها من البلاد تمتاز،
 وبه مرا كرولة ينفرد كل منها عن الآخر ويحاز، وهى : إطفيح، والبهنسى،
 والأشمونين، ومنفلوط، وسيوط، وإنجيم، وقوص . وهذه الأقاليم مجتمعة متفرقة،
 وحدود بعضها ببعض متعلقة، وبها إقطاعات مقدى الألوف والطبلخاناه والممالك
 والخلق، وإليها تردد الركاضة والمرترقه، وربما أخاف المفسدون من بعضها سبله
 وقطع طرقه، فاتهم البرى، وسلم الحرى، ولبس على من هو عن الخيانة عرى،
 فرأينا أن ننصب بهذه الأقاليم وإلى ولاية يحوس بنفسه خلالها، ويدوس بخيله
 سهلها وجبالها، ويقبض مفسدها، ويبعث بعثه بها، ويحمّد نفاقها، ويحمّد وفاقها،
 وينصف ضعافها، ويذهب خلافها، ويزيل شكواها، ويكف عداها، ويصلح

(١) فيه تصحيف ولعله « ويقبض مفسديها، ويبعث معتديها » .

فسادها ، ويوضح سدادها ، ويوصل حقوقها ، ويستأصل عقوقها ، ويواصل طرقها ، ويقابل بالعقاب فسوقها ، ويمنع باهتمامه أهواءها ، ويشفي بحسامه أدواءها .

ولما كان المجلس السامى ، الأميرى ، الحسامى هو الذى عرف أحوالها وخبرها ، وولى من أقاليمها ما علم به مصالحها وأعتبرها ، وعهدت منه الأمانة والكفاية ، وتحققت نهضته فى كل عمل ويقظته فى كل ولاية - أقتضى حسن رأى الشريف أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بهذه الأعمال المذكورة والأقاليم كلها ، وأن ينتضى فيها حسامه الذى ينبغى أن يرتضى ويتنقى لمثلها ، وأن يحل محله إذ اخترناه لأعلى رتب الولاية واجلها ، وأن نصل أسباب النعمة لديه بهذه النعم التى كل ولاية فرع لأصلها .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت أيامه الشريفة تحصى الرتب العلية بأهلها ، وتشمل دوى الاهتمام بإحسانها وفضلها - أن يفوض إلى المشار إليه ولاية الولاية بالوجه القبل . فليأشر ذلك بهمة تمضى فى البلاد عزائمها ، ونهضة تسير إلى دانيها وقاصيها صوارمها ، وشهامة يدهش المتمردين قادمها ، ويفقد مواد الفساد من حسامها حاسمها .

ونحن نرسم له بأمور يلازمها ، ونوصيه بوصايا يداومها ، أن يكون بتقوى الله تعالى عاملا ، وللنصح باذلا ، وللشريعة معظما ، وللمراقبة الله تعالى مقدما ، ولحق متبعا ، وإلى الخير مسرعا ، وللمؤمنين مؤمنا ، وللمنافقين موهنا ، وللرعايا موطنا ، وللتزاهة مظهرها ومبطنها ، وعن الأبرياء كافا ، وعن الأتقياء عافا ، وعن الأموال مترها ، وإلى ما يصلح الأعمال من صالح الأعمال ^(١) موجهها . وليغد فى الأمور متنبها ، ولدوى

(١) فيه شبه استخدام فالأول بمعنى الجهات والثانى بمعنى الفعل . فتنبه .

الفجور مشتبهاً ، ولسماع حُجج الخُصوم منصتاً ، ولا يجعل لُلوله الأقاليم حِيناً مؤقتاً ،
 بل يدخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها ، وليبغت بُلُوله هذه النواحي ليعلم ما هم
 عليه من ترك الفواحش أو فعلها ، وليقيم بكل جهةٍ من يعلمه بما يحتاج إلى علمه ،
 ويكرهه بما يفتقر أهل البلاد إلى الستر عنه وكتمه ، وليأخذ الحارس والأدراك ،
 وليجعل لكل شاردٍ من بطشه أسرع إدراك - وقد رسمنا لولاة الأعمال المذكورة
 ومن فيها من نواب الأمراء والمشايخ بهذه الصورة وأن لا يُجبروا مفسداً ولا يُثووه ،
 ولا ينزلوا خائفاً ولا يَحْووه ، ولا يستروا محتفياً ولا يَجْبوه ، ولا يَحُلُّوا نازحاً ولا يُوطَّئوه ،
 بل يحضروه ولا يؤخروه ، ويمسكوه ولا يتركوه ، ويسلموه ولا يَحْووه ، ومن خالف
 هذا المرسوم ، أو اعتمد غير هذه الرسوم ، فهو لنفسه ظالم ، وقد برئت منه الذمة ،
 وزالت عنه الحرمه ، وزلت قدمه ، وذهب ماله ودمه ، وقُرئت مراسيمنا بذلك
 هنالك على منابر الجوامع ، وسمِعها كل سامع ، وهم لك على آمتثال أوامرنا مساعِدون ،
 وعلى اجتناب نواهيها معاضِدون ، وللإصلاح ما استطاعوا مريدون وقاصِدون ،
 فلا تمكَّن أحدنا من العُربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً ، فإنما يُعدها للخيانة
 مختبئاً ، ولا يكون لها مرتبط ولا محتبس ، وكُن لهم ملاقياً مُراقباً ، فمن فعل ذلك
 فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ، ولا تمكَّنهم من حمل السلاح ولا أبتباعه ، ولا استعارته
 ولا استيداعه ، وتفقد من الأقاليم من تُجاره وصنَّاعه ، نخد بالقيمة ما عند التجار ،
 وأقع بذلك نفس الفجار ، وأضرم نار العذاب على من أضرم لعمل ذلك النار ،
 وأمر كل فتين متعاديتين بالمصالحة ، وأكفف بذلك يد المساكين ، وحلف بعضهم
 لبعض بعد تحليف أكابرهم لنا على السيرة الحميدة والنية الصالحة ، وخُذهم في الحنايات
 بالعدل والمشاحه ، وفي المطالبات بالرفق إن لم تكن مُسامحه ، وأحلمهم على حجة
 الحق الأبلج والشرعية الواضحة . وإذا رُفعت إليك شكوى فازلها ، أو سُئلت إقالة

عثرة لدى هيئة فأقلها ، أو وجب حد فأنه لحينه ، أو أرتبت في أمر فترو حتى تهتدى
ليقينه ، ولا تعتقل إلا من أجرم جرماً يوجب الاعتقال والحبس ، ولا تسرع
إلى ما تخشى فيه اللبس ، وأعمل على براءة الذمة ، وأجهد أن لا يكون أمرك عليك
عُمة ، ولا ترجح للهوى على خصم خصمه ، ولا تظلمه فإن الظلم ظلماته ، وخف نقمة
الله فهي أعظم نقمة ، ولا تأخذك على البرى غلظة ولا قسوة كما لا ينبغي أن تأخذك
في الجرى رافة ولا رحمه ، والله تعالى يرفع لك بالطاعة رتباً ، ويُنحج لك بالخدمة
طلباً ، ويبلغ بك في الإصلاح أرباباً ، ويرد بك أمر كل مفسد محبباً ، ويوضح لك
من الهداية معيياً ، ويُنزل بك من الخيرات صيباً ، والخط الشريف أعلاه ، حجة
بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بناية السلطنة بالوجه القبلى أيضاً ، من إنشاء الشريف
شهاب الدين ، كُتب به « لعلاء الدين المرادى » وهى :

الحمد لله الذى جعل إقبالنا مُسفر الوجوه ، ونوالنا مبلّغا كلاً من الأولياء ما يؤمله
من القرب من أبوابنا الشريفة ويرجوه ، وإفضالنا يوفر أقسام النعم لمن وفر دواعيه
على طاعتنا فلا يزال استحقاقه يُعينه ويدعوه ، وإجمالنا يُنجز وعود التقديم لمن تعددت
خدمه فلا يتجاوز التكريم ولا يعدوه .

نحمده على أن جعل إنعامنا يهب الجزيل ويحبوه ، ونشكره على أن أقامنا نُحى
الحق فزفعه فيدمغ الباطل ويعلوه .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة هى خير ما ينطق به الإنسان
ويَقوه ، لا يبرح اللسان يكرر إخلاصها ويتلوه ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله

الذى رفع الله بَعْثَتِهِ عن هذه الأمة كُلِّ مكروه، وحيى بِشَرَعَتِهِ الدينَ الحنيفَ فلا يُلَمُّ به التبديلُ ولا يَعْرُوه ، وأفاضَ بَرَكَاتِهِ فى كلِّ وجهٍ ما يُوسِعُ الخيرَ وَيُدْرِهِ وَيَمْنَعُ الشرَّ وَيُدْرِهِ ؛ صلى الله عليه وعلى آله الذين هم عِترَتُهُ وأَقْرَبُوه ، وصَحْبِهِ الذينَ أَسْمَعُوا قَوْلَهُ وَأَتَّبَعُوهُ ، صلاةً لا يزالُ وافدُها يتَّبَعُ سبيلَ الإجابةِ وَيَقْفُوهُ ، ويصلُّ إلى محلِّ القَبُولِ ولا يَحْفُوهُ ؛ وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد، فَإِنَّ الله تعالى لما قَرَنَ آراءَنَا بالسَّدادِ ، وأَحْسَنَ بنا النظرَ فى صلاحِ البلادِ ومَصلَحِ العبادِ ؛ لم نَزَلْ نرفعُ أقدارَ المخلصينَ بِمِزْيَةِ الاختيارِ والإِرتيادِ ، ونَجْمُهم فى صعيدِ الإحسانِ ونُحْلُهم رَبِّ الإِصعادِ ، ونُذِنِ منهم من له تَأَمُّ أَهْتامٍ وشادُّ اجتهادِ ، ونَمِيزُ منهم من حَسُنَ حالًا بالجمع والإفراد .

والولايةُ على الولايةِ بالوجهِ القَبلىِّ من أهمِّ ما يُلَمَّحُ ، وأعمُّ ما يَخْتارُ له مَنْ للحقِّ يَنْصُرُ وللخلقِ يَنْصَحُ ؛ إذ بهذا الوجهِ عُيُونُ البُلدانِ ، ووجوهُ العُرَبانِ ، وكِراسِىُ الأقاليمِ الحِسانِ ، ومراكزُ الولاياتِ التى تُحِلُّ دائرةَ السَّوءِ بأهلِ العُدوانِ ؛ وإقطاعاتُ الجندِ والأُمراءِ ، وانحواضُ الشريفةِ التى على عِمَارَتِها إجماعُ الآراءِ ؛ وعليه تتردَّدُ التجارُ ، وإليه بالميزةِ يُسَمَّرُ ، ومنه تتعدَّدُ المنافعُ فيتعيَّنُ أن ندفعَ عنه المضارَّ ، ونُلْقِ أُمُورَهُ لمن يَنْتَقِى حُرْمَهُ وعِزُّهُ ويُخْتارُ .

ولمَّا كانَ فلانُ هو الذى له ولاياتٌ أَقْتَضَتْ تَقْدِيمَهُ ، وسَبَقَتْ مِنْهُ سوابِقُ خِدَمٍ أَجَزَلَتْ تَكَرُّمَهُ ، وما زالَ فى الشامِ على الهِمَّةِ حَسَنَ الشَّيمَةِ ؛ وطَهَرَ البرَّ من كلِّ فاجرٍ ، ورأى أن التَّقوى أَرْبَحُ المتاجرِ ؛ وأَعَذَبَ للرعيةِ من المَعْدَلَةِ المواردِ فَصَدَرَ من أبوابنا إلى أَحْمَدِ المَصادرِ - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأى الشَّريفِ أن نجعلَ له من إقبالنا النَّصيبَ الوافرَ . فلذلكَ رَسَمَ بالأمرِ الشَّريفِ - لا بِرَحْ يَزِيدُ الأقدارَ عَلاءً ويُظْهِرها

من تكريمه في أحسن المظاهر - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالوجه القبلي
وجميع نواحيه ، على عادة من تقدمه في ذلك ومستقر قاعدته إلى آخر وقت .

فليتق هذه الولاية المباركة بقبول حسن ، وليوقظ جفن سيفه الذي لم يعرف
الوسن ، وليتق الله ربّه في السر والعلن ، وليحكم بما شرع الله وسن ، وليجتهد
في إحماد العواقب وإخماد الفتن ، ليسكن من تردد إليها أو سكن . وليلاحظ هذه
الأقاليم بعزائم السياره ، وليحافظ على سلوك سيرته الساره ، وليستطلع من كل بلد
أخباره ، ويتبع من كل وال آثاره ، وإن رأى منكراً أزاله ، أو وجد مبطلاً أذاله
أو حقاً أدا له ، وليعظم أحكام الشرع وحكامه ، وليجعل إمامه ليسعى نوره أمامه ،
وليطلبنا بما نتعين فيه المطالعه ، ويراجع أوامرنا فيما تجب فيه المراجعة ،
وليستجلب لأيماننا الأدعية النافعه ، وليباشر بنفسه الأمور التي هي له راجعه ، وليراع
في القضايا المصلحة الجامعة ، ولتكن حمايته للأومنين واقية وفكته بالمجرمين واقعه ،
وليوسع الرعايا بالمعدلة الواسعه ، ويمنع المجترئين بالأخذة الرابيه والهيبه الرادعه ،
ولا يمكن أحداً من العُربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولا يقتنيه ، ويكف
بذلك الأيدي المعتديه فإن المصلحة لمنهم من ركوبها مقتضيه ، وليقيم الحرمة
والمهابه ، وليديم قيامه في الخدمة وانتصابه ، وليرهف حد عزمه ويمنضيه ، ويجرد
سيف الانتقام على المفسدين وينضيه ، ومن وجده من العُربان خالف المرسوم
الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه ، وأرهقه من
البطش بما أرهقه : ليرتدع به أمثاله ، ولا يتسع لأحد في الشرّ بحاله .

وقد كتبنا إلى سائر ولاة الأقاليم بمساعدته ، وأمرناهم بمعاونته ومعاوضته ،
وأكدنا عليهم في المبادرة إلى ما يراه من جميع الأمور ، من غير تهاون ولا تقصير .

ولا تُنور؛ حتى لا تفوت مصلحة عن وقتها، ولا تزال جموع المعتدين معالجة بكتبها، وقد حذرنا العربان من مخالفة مارسمنا بالتعرض لما يوجب هلاك نفوسهم، وقطع رؤوسهم.

وليقرأ هذا المرسوم الشريف على المنابر بجميع نواحي الوجه القبلى لتمتثل مراسمه، ويتلقى بالقبول قادمه، وليقفوا عنده، ويقفوا رُسده، ويرهبوا من الشر وعيده ويستنجزوا من الخير وعده، وهو - بحمد الله - ما برح مهذباً، وبأكل الآداب مؤدباً، وبما يفعله إلى رضا الله تعالى ورضانا مقرباً، والله تعالى يجعله مختاراً مجتنباً، ويوزعه شكر متحنا الذى أجزل له الحبا، وخص به هذا العمل الجليل فضاعف خضبه وأهتر رباً، ويطلع به مباركا ميوناً حيث حل قيل له : مرحباً، ويصعد به هذه الرتبة ويهبه توفيقاً مستصحباً، ويمهد به الطرق للسالكين حتى يتلوه عليه لسان التامين : ﴿فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ، والخط الشريف أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة تقليد شريف بنيابته أيضا ، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، وهى :

الحمد لله مطلق التصرف فيما كان ممنوعا، ومنطق المتصرف ليكون قوله الصواب مسموعا، وموسع نطاق المتصرف فى جميع ما تعين أن يكون له مجوعا .

نحمده حمدا يعذب ينبوعا، وينبت بمزيد الشكر زروعا، ويدلر ضروعا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتفرع فروعاً، وتسكن جموعاً وتسكت جموعاً، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أقوى لأهل الطغيان ربوعاً، وأجرى

لعيون الزرد عليهم دموعا ؛ وأغرى القسي بالحنين إليهم ورُوعا ، وأسقط على
لباتهم طيور السهام وقوعا ؛ ومهد البلاد بقتلهم قآمن من خاف وأطعم من تشكى
جوعا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تعم درع الفجر بشفقها الخلق صدوعا ؛
وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنه لا يستقيم نجاح الأمور ، ويستدام صلاح الجمهور ؛ إلا بتفقد أحوال
ولائهم ، وتعهد سلوك الرعايا مع رعاتهم ؛ ورد مجموع كل عمل إلى من لا يبيت طرفه
في مصالحهم مملوءا من الوسن ، ولا يقر له في التنقل في مهماتهم جواد في رسن ؛
ولا تهدأ سيوفه في الأغمد ما برقت بارقة فتن ، ولا يشرب الماء إلا ممزوجا بدم
ولا يبيت [إلا] على دمن ؛ وكانت الديار المصرية المحروسة أحوج شئ إلى هذا
الموصوف ، وأكثر اضطرابا إلى ما تُشامُ له في صلاح رعاياها لوامع سيوف ؛ والوجه
القبلي بها هو الجامع ما يزيد على السبعة الأقاليم ، الحائز من أهل الحضرة والبادية
لكل ظاعن ومقيم ؛ قد أمتد حتى كاد لا ينتهي إلى آخر ، ولا يلتهي بما يكنفه من بر
مُقفر وبحر زاخر ؛ قد جاور بالأودية العميقة الحوت في الماء وجاوره في السماء برفعة
الجبال ، وتناول حتى اتصل طرفاه الجنوبي بالجنوب والشمال بالشمال ؛ وحوت
بحارها من النيل المبارك [ما] مد الرزق المتد ، وأمد المد المبيض على عبدة ثراها
المسود ؛ وهو الوجه الذي تُعرف في كثر نيله نضرة النعيم ، ويهر حسنا من أول
قطرة تقع من مرآه الجميل على وسيم ؛ قد حال فيه الماء مجرأ كأنما يشرب ندى ورد
الحدود ، وحالا كأنما ضرب الضرب في لى ريقه المورود ؛ وكان لا ينهض بأعبائه ،
ويرد بالغيط متفرحة عيون رقبائه ، ويمنع كل منسر منسر يُحذر أن يتهب وذيل^(١)
خبائه ؛ إلا من تقدمت له درب يتعلم في جليل الخطوب من مضائها السيف

(١) في الأصل « أن يته ودبل » .

المُدْرَب ، وَيَقْتَدِي فِي دَقِيقِ التَّلَطُّفِ بِسِيَاسَتِهَا الْقَلَمُ الْمَجْرَّبُ ؛ وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي تَهَادَى كِفَايَتُهُ الْأَعْمَالُ ، وَيَتَعَادَى نَفْعُهُ وَالسُّحْبُ فَلَا يُدْرَى لِمَنِ مِنْهُمَا التَّرْوَى وَلِمَنِ الْإِرْتِجَالُ ؛ وَقَدْ وَلِيَ الْأَعْمَالُ الْبَهْسَاوِيَّةَ وَهِيَ فِي هَذَا الْوَجْهِ الْجَمِيلِ أَهْبَجُ صُورِهِ ، وَأَهْبَى فِيمَا تَكَثَّرَ مِنْافِعُهُ الْمَشْهُورَةِ ؛ فَأَضْحَى الْمَغْلُ فِي بَيَادِرِهِ يَتَبَادَرُ ، وَالْإِقْبَالُ يَتَكَثَّرُ إِقْبَالُهُ وَالْحَلُّ يَتَنَازَرُ ، وَمِنْ دَرَعَاتِهَا تُعَرَفُ سِيَمَاهَا فِي وَجُوهِهَا مِنْ أَثَرِ سُجُودِ اللَّيْلِ كَرَرِ عِ أَنْخَرَجَ شَطَاهُ فَاسْتَازَرَهُ فَاقْتَضَى حَسَنُ رَأْيِنَا الشَّرِيفُ أَنْ نُطْلِقَ تَصْرِفَهُ فِيمَا جَاوَرَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَنْ تَشْغَلَ لَهُ يَمِينًا بِالْيَمِينِ وَشِمَالًا بِالشَّمَالِ .

نُخْرِجُ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ الْعَالِيَّ - لَا زَالَ يُؤَيِّدُ عِزَّ الدِّينِ ظُهُورًا ، وَيُثِمُّ لَهُ فِي أَعْمَالِهِ نُورًا - أَنْ يَكُونَ فُلَانٌ كَاشِفًا وَوَالِيَ الْوَلَاةِ بِالْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ بِأَجْمَعِهِ : مَعْطَلُهُ وَمِنْ دَرَعِهِ ؛ وَبِرِّهِ وَبِحِرِّهِ ، وَعَامِرِهِ وَفَقْرِهِ ؛ وَأَهْلُ حَضْرِهِ وَبَادِيَتِهِ ، وَأَصْحَابُ زَرْعِهِ وَمَا شِئِنَتْهُ ؛ عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ فِي ذَلِكَ ، لِأَمْنِ الْمَقِيمِ وَالسَّالِكِ ؛ وَيَجْمَعُ عَلَى الطَّاعَةِ مَنْ قَبْلَهُ هُنَالِكَ ، وَيَنْتَظِمُ عَقْدُ عَقَائِدِهِمُ الْمُتَهَالِكِ ؛ وَيَقْوَى اللَّهُ أَجْرَهُ ، وَالشَّرْعُ الشَّرِيفُ يَكُونُ نَهْيَهُ وَأَمْرَهُ ؛ وَالْحُكَّامُ وَالْأَحْكَامُ هُمَا مَا هُمَا فَلْيَحْفَظْ زِمَامَهُمَا ، وَلْيَنْفِذْ إِلَى الْأَغْرَاضِ سِهَامَهُمَا ؛ وَلْيُوصِلِ الْحَقُوقَ إِلَى أَرْبَابِهَا ، وَلْيَسَهِّلِ الْمَطَالِبَ عَلَى طُلَّابِهَا ؛ وَلْيُنِصِفْ إِنْصَافًا لَا يُشْتَكَى مَعَهُ حَيْفٌ ، وَلْيُقِمِ الْمَهَابَةَ حَتَّى لَا يَقْدِرَ عَلَى التَّعْدَى طَارِقُ طَيْفٍ ؛ وَلْيَجَرِّدْ عِزَّائِهِ فَإِنَّ مِنَ الْعِزَائِمِ مَا هُوَ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ ، وَلْيُحْسِنِ قِرَى النَّيْلِ الْقَادِمِ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ فَإِنَّهُ ضَيْفٌ .

فَعَلَيْكَ بِمَا نَأْمُرُكَ بِهِ مِنْ تَعْيِثَةِ صُفُوفِ الْجُسُورِ لِأَمْدَادِهِ ، وَالْإِسْتِعْدَادِ لِحِجْرِ عَوَالِي صَوَارِيهِ وَجُرَى حِيَادِهِ ؛ وَتَفَقُّدِ قَلْبِهِ طَرِيقَهُ ، وَاتِّرُكِ عَنْ رَى الْبِلَادِ تَعْوِيْقَهُ ؛ وَأَقِمِ الْجُسُورَ ، فَهِيَ قِيَامُ الْجُسُورِ ؛ وَأَحْفِرِ التَّرَاعَ فَإِنَّهَا تُرَاعَى ، وَأَسْفِرْ لَهُ

(١) لم نعر على هذا الجمع في كتب اللغة وإنما الترة كغرفة إفرادا وجمعا .

عن عرائس قُراها المجنونة وُجوها كُفَّتْ له إصبعاً يقيس ذراعاً ؛ وأقطع بإيصال
حق كل ناحية إليها من الماء منازعة الخُصوم ، وتبئهم أن الماء قسمة بينهم لكل منهم
شرب يوم معلوم ؛ ولا تدع [به أحداً] من أهل المفاسد ، ومن جرت لهم بسوايق الفتن
عوائد ؛ ومن يتعزز برَبِّ جاد ، ومن لا يكون له إلى حماية أنجاه ؛ ومن خرج بوجهه
للشر مصراً ، أو لباب عقاب مستفتحاً ؛ أو وقف على درب أو قطع طريق ،
أو توعد أهل رفاق أو أهل فريق ؛ أو أقدم على ضرر أحد في نفس أو مال ،
أو خشيت له عاقبة في بداية أو مال ، أو نزل في بلد أمير ليتغطى بجناحه ، أو تراهي
إلى عصبة يحل منهم حد سلاحه ؛ فسئل عليهم سيفك الماضي ، وأحسن إلى الناس
إذا خشيت أن تُسىء إليهم التقاضى ؛ ومن أمسكتهم منهم فأمض حكم الله فيهم ،
وأقم الحدود على متعديهم ؛ وطهر الأرض بماء السيوف من أنجاسهم ، وعاقب منهم
أناساً بجبل الوريد إلى مدارج أنفاسهم ؛ وأصلب منهم على الجذوع من تناوح الرياح
بضعفهم ، وأوثق منهم بالسلاسل والأغلال من لا تقتضى جرائمهم إيصالهم في المبالغة
إلى حد تلفهم . وأكرم قدوم من يرد عليك من الكارم ، وقرر بحسن تلقيك أنك
أول ما قدمناه لهم من المكارم ؛ فهم سمار كل نادى ، ورفاق كل ملاح وحادى ؛
ولا بد أن يتحدث السمار ، وتتداول بينهم الأسمار ؛ فاجعل شركنا دأب السنتهم ،
ومتنا حلية أعناقهم ، ومنحنا سبباً لاستجلاب رفاقهم ؛ فهم من مواد الإرفاق ،
وجواد ما يحل من طرف الآفاق ؛ وقد بقي من بقايا أهل العقائد الفاسدة ، والمعاهد
البائنة ؛ من يتعين إبعاد قائمهم ، واليقظ لتيقظهم والنوم عن نائمهم . ونحن ننبهك
على هذه الدقائق ، ونوقفك على أطرافها ولك رأيك إذا حقت الحقائق ؛ وطالع
أبوأنا العالية بما أشكل عليك ، ننتزل أنوار هدايا أقرب من رجع نفسك إليك ؛

وأقدر حق هذه النعمة فإننا أوليناك منها ما لا يُضاهى ، وليناك من بلادنا قبلة
 ترضاها ، وتوليناك حيث وجهت وجهك شطر المسجد الحرام ، ونوعت لك أرواح
 الحجاز وأنت في مصر وريفيها العام ، والله تعالى يديم منك سيفاً يروع مهزده ، ويؤيد
 بك الدين فإنه بك يقوم جاهه ويدوم عزه ، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .
 إن شاء الله تعالى .

الوجه الثانى

(من وجهى الديار المصرية البحرى ، وهو الشمالى)

وكانوا في الزمن القديم يخصونه باسم الرّيف ، مثل اختصاص الوجه القبلى بالصعيد .
 (١)
 وأرباب الولايات فيه على ضربين :

الضرب الأول

(أرباب السيوف)

وتختص الكتابة منهم الآن عن الأبواب السلطانية بنائب السلطنة بالوجه
 البحرى ، ومقره مدينة دمهور من البحيرة . وكان في الزمن المتقدم يكتفى في البحيرة
 بوالىها ، وكذلك في كل من سائر الأعمال بالوجه البحرى ، وفوق الكل ولاية عامة ،
 يعبر عن صاحبها بوالى الولاية ، وربما [زيد] بالوجه البحرى ، وربما عبر عنه
 بالكاشف . ثم استقرت نيابة في رتبة تقديمه العسكرية بغزة في أيام الظاهر برقوق ،
 على ما تقدم ذكره في المسالك والممالك في المقالة الثانية .

وهذه نسخة تقليد تصلح لنائب الوجه البحرى ، مما كان كتب به المقر الشهابى
 ابن فضل الله لوالى الولاية بها ، وهى :

(١) لم يذكر الثانى . فتنه .

الحمد لله الذى أقام بنا كاشفاً لكل شكوى ، كاسفاً بال كل عدوى ، عارفاً بنهاية كل دعوى ، عاطفاً بعدلنا إلى إزاحة كل لأوى ، وإزالة كل بلوى .

نحمده وهو أهل الحمد والتقوى ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نأمن بها الدانية والقصوى ، ونؤمن بها على السر والتجوى ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من مهد له جنّة المأوى ، وأشرف به على شرف المثوى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين فطم بشريعته نفوسهم عما تهوى ، وفطر فطهم عليها حتى لا تضل ولا تغوى ، صلاة ترتوى بفائضها السحب ما تروى ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد فإن من سجايا أيامنا أن نكشف كل كرب ، ونحسن إلى رعايا بلادنا إحساناً يُنقِص في كل ضرب ، ونديم الأمن حتى لا ندع سوى النيل قاطع طريق أو خارجاً على درب ، ونجرد من المهابة شيئاً يخشى من قربه ، وطيفاً يبيت به طير الكرام متهللاً على جنبه ، وخوفاً لبأبه من الخصائص المحمدية أنه يتقدم إلى قلوب الأعداء مسيرة شهر [جيش] رعيه ، وكانت الديار المصرية المحروسة هي التي لا يجمد سواها ذو وجهين ، ولا يوجد لها في جانبيها مماثل في شيئين ، والوجه البحرى أوسعهما عرضاً ، وأقربهما من الرى أرضاً ، وأصدقهما للبارق المحمر ومضاً ، وأجمعهما للذهب مذهب وللفضة إفضاً ، وأثبتهما وطأة لجرى النيل إذا أقبل في تياره يتدافع وأشتدت خيله ركضاً ، وهو الوجه المتهلل بشراً ، المتضوع بطيب رياحه نشراً ، المترين بمدائنه أكثرهما زينة في مقاصيره قيصر وفي مدائنه كسرى ، المشتقى بعروس كل قرية زف بها النيل في مسرى ، وبه الثغور التي لا تُشام لها بروق ، والمحارس التي ما لعادية إليها طروق ، وله من البحرين حارزان ، ومن الجانيين برّ مقفر وريق مقمر متبارزان ، وفيه من الشعوب والقبائل فى الحضر والبادية من

(١) لا يُؤْمَنُ مِنْهُ بِأَثَرِهِ ، وَلَا يُجَسَّدُ بِغَيْرِ مَا يُرَاقُ مِنْ دَمٍ مُفْسِدِيهِمْ ثَأْنُهُ . وَكَانَ لَا يُقُومُ بِهَا كُلُّ الْقِيَامِ ، وَيَجْمَعُ فَرَائِدَهَا الْمَشْدَرَةَ فِي أَكْمَلِ نِظَامٍ ؛ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِ الْأُمُورِ بَقْلَهُ كُلَّ التَّقْلِيلِ ، وَجَرَدَتْ الثُّوبُ عَزَمَهُ فِي النَوَائِبِ فَجَرَدَتْ سَيْفًا يُجَدُّ فِي التَّجْرِبِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ مِنْدُ بَلْعِ الْحُلْمِ أَمِيرًا مُطَاعًا ، وَمِنْدُوبًا لَا يَفْرَقُ فِي الْمِهْمَاتِ إِذَا طَارَتْ نُفُوسُ الْأَنْظَارِ شِعَاعًا ، وَأَوْقَدَتْ الْأَسِنَّةَ سُوعًا ، وَهُمَا مَا لَوْ أَوْمَضَ الْبَرْقُ سَاعَةَ بُؤْسِهِ لَا تَرْتَعَدُ فَرَائِصُهُ زَمْعًا لَا إِزْمَاعًا ، أَوْ قَابِلَهُ الرِّيحُ الْمُعْتَدِلُ عِنْدَ أَحْكَامِهِ لَا طَبَقَتْ الْأَيْمُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمَائِلُهُ فِي الْعَدَلِ قَطْعًا وَأَجْمَعَتْ عَلَى تَقَرُّدِهِ إِجْمَاعًا .

وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الْعِلَى هِمًّا ، الْجَزَلُ مَدَاوِمَةُ الْجَزِيلِ دِيمًا ، الْمَلَى بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ دَفْعِهِ الْبَحْرُ مُتَدَفِّقًا وَهَمَّى الْغَامُ مَنْسَجًا ؛ وَقَدْ حَمَدْنَا لَهُ فِي كُلِّ مَا بَاشَرَهُ أَثَرًا ، وَأُحْمَدْنَا بِجَمِيلِ مَلَا حِفْظِهِ كُلِّ بَرِّ ضَرًا ؛ فَبَاشَرَ الْوَجْهَ الْقَبِيلَى فَلَأْ عَيْنَ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ ، وَعَمَّ سُرُورُهُ حَتَّى غَامَزَهُ جَارُهُ الْوَجْهَ الْبَحْرَى بِنَانِهِ الْمَخْضَبِ وَضَاحِكِهِ بَنَفْرِهِ الْمَتَبَسِّمِ ؛ فَلَمَّا تَنَقَّلَ فِيهِمَا آسْتَقَرَّ (؟) الْوَجْهَيْنِ وَمَا وَالَاهُمَا ، وَعُرفَ فِي وَجْهِهِ نَضْرَةُ النِّعَمِ بِمَا أَوْلَاهُمَا ، وَأَخْصَبَ جَانِبَاهُمَا ، وَجَدَّ بِهَذَا كُلَّهُ ثُمَّ جَدَّ بِهَذَا فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا ؛ فَاقْتَضَى حَسَنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ لَا يَخْلُوَ الْوَجْهَانِ مَعًا مِنْ نَظَرِهِ الْجَلَى الْجَمِيلِ ، وَأَنْ يَخْلُوَ عَلَيْهِ مُحَاسِنُهُمَا الْكَامِلَةَ لِيُفَارِقَ عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ وَيُوَاصِلَ عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ .

نَخْرُجُ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ - لِأَزَالِ يَخْتَارُ عَلِيًّا ، وَيَخْتَالُ كُلُّ غَمَامٍ يَرْتَضِي لَهُ وَلِيًّا - أَنْ يَكُونَ وَالِي الْوَلَاةِ بِالْوَجْهِ الْبَحْرَى جَمِيعِهِ ، مُتَفَرِّدًا بِأَفْرَادِهِ وَمُجْمُوعِهِ ، وَمَحْكَمًا فِي قِبَائِلِهِ وَجُمُوعِهِ ؛ وَبَعِيدَهُ وَقَرِيبَهُ ، وَبَدِيعَهُ وَغَرِيبَهُ ؛ وَكُلُّ مَا هُوَ دَاخِلٌ فِيهِ ، عَائِدٌ إِلَى أَعْمَالِهِ وَرَاجِعٌ إِلَى مَتَوَلِيهِ ، عَلَى عَادَةٍ مَنْ تَقَدَّمَ وَقَاعَدَتِهِ فِيمَا بَيْنَهُ ؛ وَهِيَ مَا يُدَكَّرُ مِنَ الْأَعْمَالِ :

(١) لَمْ يَتَقَدَّمَ مَا يَعُودُ إِلَيْهِ الضَّمِيرُ وَإِنْ كَانَ الْغَرَضُ وَاضِحًا .

(٢) خَوْفًا وَدَهْشًا .

الغريسة ، الشرقية ، البحيرة ، المنوفاة ، إبيار ، أشمون ، قليوب . ولا أمر
ولا نهى إلا إليه راجع ، وله في متجددات الأمور مراجع ؛ ولا أرباب تصريف
إلا وله عليهم تصرف ، ولا صاحب جد ولا حد إلا فيه يمضى ويتوقف ؛ وتقوى
الله تعالى أول ما نوصيه بسببها ، ونوصله إلى ربها ؛ وإقامة الشرع الشريف وإدامة
مبارزه وإعلاء مناره ، ومعاضدة حكمه وحكامه وأعوانه وأنصاره ؛ والوقوف معه
في إيراده وإصداره ، وإعلانه وإسراره ، والعمل به فإنه ما يضل من مشى في ضوء
نهاره ؛ وعمارة البلاد ، بادامة العدل وتكامل الرى وتوطين السكّان وقمع الفساد ؛
واعتقاد حكم التذاكر الشريفة لأمر الحراريق التي تعمل ، والترع التي ترعى والجسور
التي لا يقدم جسور على أنها تهمل ؛ فهما قانون الرى الكامل ، والضامن لحضب البر
السايل ؛ وإذا أجرى الله النيل على عاداته الجميلة لا يدع للحل عينا حتى يوارى
بالرى سوءته ، ويخفف بتيسر ووصوب حق كل مكان إليه وطأته ؛ ولا يدع عاليا
إلا مستفلا ، ولا معطلا إلا معتملا ؛ ولا طوق بحر إلا تمتد يد النيل إلى زرّ جيو به ،
ولا طائف رمل إلا يطوف طائف شرب على جرّعائه وكثيبه ، حتى يعم الجميع ،
ويعمر ربوعها بما ينسجه لها من ملابس حلّ الربيع . وعليه بالإنصاف بين
المساكين ، والإنصاف إلى الباكين منهم والمتباكين ؛ ووصل أمورهم على الحق
الذى نشر الله في أيامنا الزاهرة علمه ، ومقتضى الشرع الشريف فإنه ما خاب من
أدام عليه حكمه وأدار إليه عمله . وأما أهل الفساد والاشتباه ، ومن يحتج
بصاحب شوكة أو يتمسك برّب جاه ؛ أو يتزل بلد أمير كبير مستظلا بذراه ، أو ملتجئا
من خوف أو مستطعا من قرى قرّاه ؛ بجمع هؤلاء تتبع فرقهم ورفاقهم ، وطهر
الأرض منهم وأمسح بالسيوف أعناقهم ، وأسجّم في قتلاهم ، وأثقل بالقيود أسراهم ،

وشدّد وثاقهم وكذلك من حمّاهم ووالاهم ؛ أو استحسن أو من عليهم أو مانع عنهم ،
أو قال ما هو منهم وهو منهم ، وكلُّ أجرهم في الحكم مجراهم ، وأطل تحت أطباق
الثرى ثواهرهم ، ونبه منهم أناسا على رؤوس الجدوع وأنهم آخرون نومة لا ينتبهون بها من
كرامهم ؛ حتى يتأدّب بهم كلُّ من أعرض ، ويتداوى بمداواته كلُّ من في قلبه مَرَض .
وما أشكل عليك فاسترشد فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة : لتجد هدى واضحا ، وحقا
لائحا ؛ والله تعالى يجعلك من المهّدين لأرضه ، القائمين في أنواع الجهاد بفرّضه ؛
والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

الجهة الثالثة

(درب الحجاز الشريف)

وقد تقدّم أنه كان في الزمن المتقدم يُكتب عن السلطان تقليدٌ لأمر الرّكب
في الدولة الفاطمية وما تلاها . أما الآن فقد ترك ذلك ورُفِض كما رُفِض غيره من
الكتابة لأرباب السُّيوف بالحضرة السلطانية ، ولم يبق الآن من يُكتب له من
ديوان الإنشاء شيء سوى قاضي الرّكب . وقد جرت العادة أن يُكتب له توقيعٌ
في قطع العادة مفتتحا بـ «رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، كُتب به للشيخ «تقي الدين السبكي» رحمه الله
في مبدأ أمره ، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زال يُعين على البرّ والتقوى ، ويرتاد لوَفد الله من
يتمسك في نشر الأحكام الشرعية بينهم بالسبيل الأقوم والسبب الأقوى - أن يستقر
فلان في كذا : لما اختصّ به من غزارة علومه ، وإفاضة فضائله المتوقعة إلى قوّته

في الحق وتصميمه ؛ فإنَّ مثله من يُختار لهذه الوظيفة الجارية بين وفد الله الذين هم أحقُّ براءة الذِّمِّ ، وأوَّلُ بمعرفة حكم الله تعالى فيما يجبُ على المتلبِّس بالإحرام والداخل إلى الحرم ، وأحوجُّ إلى الأطلاع على جزاء الصيد فيما جزاء المتعرِّض إليه مثل ماقتل من النِّعم ؛ إلى غير ذلك من ثبوت الأهلَّة التي ترتبُ أحكام الحجِّ عليها ، والحكم في محظورات الإحرام وما يجبُ على المتعرِّض إليها ؛ فليباشر هذه الوظيفة في الوقت المشار إليه على عادة من تقدَّمه فيها ، مجتهداً في قواعدها التي هو أوَّلُ من نهض بها وأحقُّ من يُوفِّيها .

قلت : أمَّا شهود السبيل المعبرَّ عنهم بشهود الحِمَل ، فإنما تكتب لهم مربيَّات شريفةً من ديوان الوزارة .

تم الجزء الحادى عشر . يتلوهُ إن شاء الله تعالى الجزء الثانى عشر

وأوله القسم الثانى

(مما يُكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية - أربابُ

الوظائف بالممالك الشامية)

والحمد لله ربَّ العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية ٥٠٧٠/١٩١٧/٣٠٠٠)

فهرس

الجزء الحادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

- الفصل الثانى — من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من
الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أطراف ... ٥
- الطرف الأول — فى مصطلح كتاب الشرق ... ٥
- الطرف الثانى — فى مصطلح كتاب الغرب والأندلس فيما يكتب من
الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أضرب ... ٦
- الضرب الأول — ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف ... ٦
- الضرب الثانى — ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقالام ٢١
- الضرب الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية ... ٢٦
- الطرف الثالث — فى مصطلح كتاب الديار المصرية فيما قبل الخلفاء
الفاطميين وفيما بعدهم ... ، وفيه أربع حالات ... ٢٨
- الحالة الأولى — ما كان عليه أمر نواب الخلفاء بهذه المملكة إلى ابتداء
الدولة الطولونية ... ٢٨
- الحالة الثانية — ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم
إلى اتقراض الدولة الأخشيدية ... ٢٩
- الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيوب ... ٣٢
- الحالة الرابعة — مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات
ما عليه مصطلح كتاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار
المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف
والأقالام وغيرهم : من التقاليد والمراسيم، والتفاويض،
والتواقيع ، وفيه ثلاثة مقاصد ... ٧٢

صفحة

- المقصد الأول — فى مقدمات هذه الولايات ، وفيه مهيان ٧٣
- المهيان الأول — فى بيان رجوع هذه الولايات الى الطريق الشرعى ٧٣
- المهيان الثانى — فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات ٧٤
- المقصد الثانى — فى بيان مقاصد ما يكتب فى الولايات ، وفيه جملتان ١٠١
- الجملة الأولى — فى بيان الرسوم فى ذلك [ولم يذكر فى الأصل غيرها] ،
وهى على أربعة أنواع ١٠١
- النوع الأول — التقاليد ١٠١
- النوع الثانى — المراسيم ، وفيه ضربان ١٠٧
- الضرب الأول — المراسيم المكبرة ١٠٧
- الضرب الثانى — المراسيم المصغرة ١١١
- النوع الثالث — التفاويض ١١٢
- النوع الرابع — التواقيع ، وهى على أربع طبقات ١١٤
- المقصد الثالث — فى بيان كيفية وضع ما يكتب فى هذه الولايات فى الورق ١٢٧
- فى ذكر نسخ مما يكتب فى متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة
والتفاويض والتواقيع ، وهى على ثلاثة أقسام ١٣٣
- القسم الأول — ولايات وظائف الديار المصرية ، وهى على نوعين ١٣٤
- النوع الأول — الولايات بالحضرة ، وهى على ستة أضرب ١٣٤
- الضرب الأول — ولايات أرباب السيوف ، وهى على طبقتين ١٣٤
- الطبقة الأولى — ذوات التقاليد ، وهى ثلاث وظائف ١٣٤

صفحة

الوظيفة الأولى — المكفالة، وهي نيابة السلطنة بالحضرة ... ١٣٤

الوظيفة الثانية — الوزارة لصاحب سيف ... ١٤٨

الوظيفة الثالثة — الإشارة، وهي وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يسهلها

كتابة في الزمن القديم ... ١٥٣

الطبقة الثانية — ممن يكتب له من أرباب السيوف ذوات التوقيع،

وفيها وظائف ... ١٥٦

الوظيفة الأولى — نظر البمارستان لصاحب سيف ... ١٥٦

الوظيفة الثانية — نظر الجامع الطولوني ... ١٥٩

الوظيفة الثالثة — نقابة الأشراف ... ١٦٣

الضرب الثاني — ممن يكتب له بالولايات بالديار المصرية أرباب

الوظائف الدينية، وهو على طبقتين ... ١٧٤

الطبقة الأولى — أصحاب التقاليد ممن يكتب له بالجناب العالي ... ١٧٤

الطبقة الثانية — من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التوقيع،

وتشمل على مراتب ... ٢٠٤

المرتبة الأولى — ما كان يكتب في النصف ... ٢٠٤

المرتبة الثانية — ما يكتب في قطع الثلث، وتشمل على وظائف ... ٢٠٤

المرتبة الثالثة — من الوظائف الدينية ما يكتب في قطع العادة الصغير

مفتوحاً برسم بالأمر الشريف ... ٢٦٨

صفحة

- الضرب الثالث — من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية
- الوظائف الديوانية ، وهى على طبقتين ... ٢٧٠
- الطبقة الأولى — أرباب التقاليد ممن يكتب له الجتاب العالى ،
- وفىها وظيفتان ... ٢٧٠
- الطبقة الثانية — من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية
- أصحاب التواقيع ، وهم على ثلاث درجات ... ٣١٦
- الدرجة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف ، وتشمل على ثلاث وظائف ٣١٦
- الدرجة الثانية — ما يكتب فى قطع الثلث ، وتشمل على وظائف ... ٣٣٣
- الدرجة الثالثة — ما يكتب فى قطع العادة ، وفىها وظائف ... ٣٥١
- الضرب الرابع — من الوظائف التى يكتب فيها بالديار المصرية مشيخة
- الخوانق ، وكلها يكتب بها تواقيع ... ٣٧٠
- الضرب الخامس — من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة
- أرباب الوظائف العادية ، وكلها تواقيع ... ٣٧٧
- الضرب السادس — من أرباب الوظائف بالديار المصرية زعماء أهل
- الذمة ... ٣٨٥
- النوع الثانى — ماهو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة من وظائف
- الديار المصرية مما يكتب لأربابها ، وهى ثلاث
- جهات ... ٤٠٥

صفحة

- الجهة الأولى — ثغر الإسكندرية ، والوظائف فيها على ثلاثة أصناف ... ٤٠٥
- الصف الأول — وظائف أرباب السيوف ... ٤٠٥
- الصف الثاني — الوظائف الدينية ... ٤٠٨
- الصف الثالث — الوظائف الديوانية ، وهى على طبقتين ... ٤١٩
- الطبقة الأولى — من يكتب له فى قطع الثلث بالمجلس السامى بالياء ٤١٩
- الطبقة الثانية — من يكتب له فى قطع الثلث بالمجلس السامى بغيرياء
- أو مجلس القاضى ... ٤٢٣
- الجهة الثانية — مما هو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة بالديار المصرية بلاد الريف ، وهى وجهان ... ٤٢٦
- الوجه الأول — الوجه القبلى ، وهو المعبر عنه بالصعيد ... ٤٢٦
- الوجه الثانى — من وجهى الديار المصرية البحرى ، وهو الشمالى ... ٤٣٨
- الجهة الثالثة — درب المجاز الشريف ... ٤٤٢

(تم فهرس الجزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشى)

دَارُ الْكِتَابِ السُّلْطَانِيَّةِ

كِتَابٌ

صُبْحُ الْأَسْبَعِ

نَالِيفٌ

الْشَيْخُ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْقَلْقَشَنْدِيُّ

الجزء الثاني عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

س ١٣٣٦ هـ
م ١٩١٨

صَبْحُ الْأَسْبَحَةِ

الجزء الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثاني

(مما يُكْتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية - [ما يكتب لأ] رباب

الوظائف بالممالك الشامية)

وَأَعْلَم أَنَّ نَوَاب السلطنة في التولية على ضربين :

الضرب الأول

(مَنْ لَا تُصَدَّر عنه منهم توليةٌ في عمل نيابته)

وهم نَوَاب الديار المصرية : من النائب الكافل ، ونائب الإسكندرية ، ونائب الوجه البحري ، ونائب الوجه القبلي ، فليس لأحد منهم تصرّف في ولاية ولا عزّل لنائب ، ولا كاشف ، ولا إلى حرب . إنما النائب الكافل يكتب في بعض الأمور على القصص ، والسلطان هو الذي يباشر الكتابة على الولايات بنفسه ، والنائب الكافل يكتب بالاعتماد على ما يكتب عليه السلطان ، كما تقدّمت الإشارة إليه في موضعه .

الضرب الثاني

(من تصدر عنه التولية والعزل في عمل نيابته)

وهم تُؤَابُ السلطنة بالممالك الشامية السبعة المقدم ذكرها : من النيابات الصغار، والوظائف الديوانية، والوظائف الدينية، ووظائف مشايخ التصوف، والوظائف العادية : كرياسة الطب ونحوها، ووظائف زعماء أهل الذمة : من رياسة اليهود، وبطريكة النصارى، وغير ذلك .

فأما النيابات الصغار التي في أعمال النيابات العظام : فما كانت نيابته إمرة عشرة فأكثر يولّى فيه التؤاب، وربما ولى فيه السلطان . وما كانت نيابته إمرة طبلخاناه فأكثر : يولّى فيه السلطان، وربما ولى فيه التؤاب . وما كانت نيابته مقدمة ألف، فولايته مختصة بالسلطان دون التؤاب .

وأما الوظائف الديوانية، فما كان منها صغيرا ككتابة الدّرج وما في معناها، فأكثر ما يوليها التؤاب . وما كان منها جليلا : ككتابة السرّ وما في معناها، ونظر الجيش، ونظر المال، فتوليته مختصة بالسلطان . وما كان منها متوسطا بين الطرفين : ككتابة الدّست ونحوها : ففي دمشق تارة يولّى فيها السلطان، وتارة يولّى فيها النائب . وفيما دونها من النيابات غالب من يولّى فيها التؤاب، وقد يولّى فيها السلطان .

وأما الوظائف الدينية، فما كان منها صغيرا : كالندريس الصغار، والخطّابات بالجموع الصغار، وأنظار المدارس والجموع الصغار، ونحو ذلك، فإنه يولّى فيها

النواب ولا يؤلى فيها السلطان إلا نادراً . وما كان منها جليلاً : كقضاء القضاة ، فإن توليته مختصة بالسلطان . وما كان منها متوسطاً بين الرتبين : كقضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال ، ومشخة الشيوخ ، ونحو ذلك : فتارة يؤلى فيها السلطان ، وتارة يؤلى فيها النواب . إلا أن تولية السلطان فيها في النيابات الجار كالشام أكثر ، وتولية النواب فيها فيما دون ذلك أكثر .

وأما مشخة الخوانق فقد يؤلى فيها السلطان ، وقد يؤلى فيها النواب : إلا أن تولية السلطان في مشخة الشيوخ بالشام أكثر ، وتولية النواب في غير مشخة الشيوخ بدمشق وفي غيرها من وظائف الصوفية في غير دمشق أكثر .

وأما الوظائف العادية : كرياسة الطب ونحوها ، ففي جميع النيابات توليتها من النواب أكثر ، وربما ولى فيها السلطان .

وأما وظائف زعماء أهل الذمة : كرياسة اليهود ، وبطركية النصارى ، فيستبد بها النواب دون السلطان : لزيادة حقارتها في الوظيفة والبعد عن حضرة السلطان .

وقد تقدم في الكلام على ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظام استقرت سبع نيابات :

النيابة الأولى

(نيابة دمشق ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام)

ووظائفها على نوعين :

النوع الأول

(ما هو بحاضرة دمشق ، ويشتمل ما يكتب به من وظائفها
عن الأبواب السلطانية على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد في قطع الثلثين بـ «المقرّ العالی» مع الدعاء
بـ «عزّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام ، كتب به عن السلطان الملك العادل
«كُتِبَا» للأمير «سيف الدين غرلو العادلي» من إنشاء الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذي جعل لسيف دولتنا على عاتق الملك الأعزّ نجاحاً ، وأدّخر لكفالة
مملكيتنا من الأولياء من تناسب وصفاه آجتماعاً في مصالح الإسلام وجهاداً ، وعَدَقَ
أُمُورَ رعايانا بمن أيقظ لها سيفه وجفنه فامتلات عيونهم بما وهب وسلّب من نومه
ونوم العدا رُقّاداً ، ورفع أُلوية إحساننا على من زاد برفعها ظلّ عدله أنيساطا على
الرعية وامتداداً ، ووطّد قواعد ممالكنا بمن أجلنا الفكر في حُسن اختياره انتقاءً
لمصالح الإسلام وانتقاداً ، وأدّى لشكر نعم الله التي لا يؤدّي شكر بعضها ولو أن
ما في الأرض من شجرة أقلام أو كان البحر مداداً .

نُجِّدْهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ عِزًّا مَنَّا عَلَى الْأَبَدِ مِنْصُورَهُ، وَمَقَاصِدَنَا عَلَى مَصَالِحِ
الْمُسْلِمِينَ مَقْصُورَهُ، وَأَرَاءَنَا تَفَوُّزَ زَعَامَةِ الْحَيَوشِ ^(١) إِلَى مَنْ تُصْبِحُ فِرْقُ الْأَعْدَاءِ
بِقَرَفِهِ مَغْزُورَةً وَمَمَالِكِهِمْ بِمَهَابَتِهِ مَحْصُورَهُ .

وَنُشْهِدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لَا تَزَالُ تَنْشُرُ دَعْوَتَهَا فِي الْأَفَاقِ ،
وَنُزْهِفُ لِإِقَامَتِهَا فِي مَمَالِكِنَا سَيْفًا يَصِلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِقَطْعِهِ وَيَقْطَعُ إِلَّا الْأَرْزَاقَ ،
وَنُزْهِبُ مِنْ أَلْحَدٍ فِيهَا بِكُلِّ وَلِيٍّ لِرُغْبِهِ فِي الْقُلُوبِ رَكْضٌ وَلِرَايَتِهِ فِي الْجَوَانِحِ حَقَقٌ
وَلَأُسْتَنْتَهَ فِي الصُّدُورِ إِشْرَاقٌ ؛ وَنُشْهِدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفُ مَنْ فَوَّضَ حُكْمًا
فِي أَيَّامِهِ إِلَى مَنْ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، وَأَرَأَيْتُ مَنْ اسْتَخْلَفَ عَلَى مَنْ بَعْدَ عَنْهُ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ
يَعْلَمُ أَنَّ صَلَاحَهُمْ فِي يَدَيْهِ ، وَالطُّفُّ مِنْ عَدَقِ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ أَهْلِ مِلَّتِهِ بَيْنَ أَعَانَةِ اللَّهِ
وَسَدَدِهِ فِي دَفْعِ عَدُوِّهِمْ وَصَلَاحٍ مَا يَرْفَعُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ إِلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وُلُّوا عَلَى الْأُمَّةِ فَعَدَلُوا ، وَأَمَرُوا بِمَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالنِّعْمَةِ
وَالرَّحْمَةِ فَامْتَثَلُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا نَهَجَ لَهُمْ مِنْ طَرِيقٍ طَرِيقَتَهُ الْمُثَلَّى فَمَا مَالُوا عَنْ
ذَلِكَ وَلَا عَدَلُوا ؛ صَلَاةً لَا تَغْرُبُ شَمْسُهَا ، وَلَا يَعْزُبُ أُنْسُهَا ، وَلَا تُعْتَبَرُ أَوْقَاتُ إِقَامَتِهَا
إِلَّا وَيُقَصَّرُ عَنْ يَوْمِهَا فِي الْكَثْرَةِ أَمْسُهَا ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنْ أَوْلَى مَا أَعْمَلْنَا إِلَيْهِ رِكَائِبُ الْآرَاءِ الْمُؤَيَّدَةِ ، وَصَرَفْنَا إِلَيْهِ أَزِمَّةَ
نَجَائِبِ الْأَفْكَارِ الْمُسَدَّدَةِ ؛ وَأَجَلْنَا فِيهِ طَرَفَ النَّظَرِ الَّذِي لَا يُشْقُّ فِي بُلُوغِ الْغَايَةِ غُبَارَهُ
وَلَا يُدْرِكُ ، وَأَحْلَلْنَا الْأَمْرَ فِيهِ عَلَى التَّائِيْدِ الَّذِي هُوَ عِمْدَتُنَا فِيمَا يُؤْخَذُ مِنْ تَوَاقِبِ
الْآرَاءِ وَمَا يُتْرَكُ ؛ وَقَدَّمْنَا فِيهِ مُهِمَّ الْأَسْتِخَارَةِ الَّذِي يَتْلُوهُ التَّوْفِيقُ ، وَعَلِمْنَا أَنَّ أَلَدَّ
أَسْبَابِ الْإِهْتِدَاءِ إِلَيْهِ سُلُوكُ طَرِيقِ النَّصِيحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْإِسْلَامِ فَسَلَكْنَا إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ

(١) فِي الْأَصْلِ «بِفِرْضِ عَامَةٍ» وَهُوَ تَصْغِيفٌ .

الطريق ؛ وقصّرنا النية فيه على مصالح الأمة التي هي فرض العين بل عين الفرض ، وأطلبنا الارتياح فيه لتعين من نرجو له ممن عناهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . وتدبنا له سيفاً لم يزل في صدور الأعداء صدره وفي يد جبار السموات قائمه ، وأردنا لتقدمة الجيوش فيه زعيماً طالماً ملّ ضوء الصبح مما يغيّره وملّ سواد الليل مما يزاحه ، وقدمنا له من نسا في حجر ولائنا ، وغدّى بلبان برنا وآلائنا ؛ وشهد الوقائع بين يدينا ، وخبرنا من سيرته التهوّص في الرعايا بما كتب الله لهم من الرأفة والرحمة علينا - أمر نيابة سلطنتنا الشريفة بالمالك الشاميّة التي نابت فيها مهابتنا ، عن الإقامة فيها ، وجعلتها عنايتنا ، من أشرف ممالكنا التي نخصّها على البعد بدوام الملاحظة ونصفيها ؛ وهي واسطة عقد ممالكنا ، ومحط رحال طرُقنا إلى جهاد الأعداء ومسالكتنا ، وهالة أهلة سرى القصد إلى لحظها في أديم الأرض مواقع سنابكتنا ؛ ومواطن القربات التي نصّت الآثار الصحيحة عليها ، ومظان العبادات التي طالما نصّت ركائب العباد العباد إليها ؛ ومقام الأبدال الذين هم أهل دار المقامة ، ومستقر طائفة الدين الذين لا يزالون ظاهرين على أعدائهم لا يضرمهم من خذلهم إلى يوم القيامة ؛ وفلك الثغور الذي تُشرق منه كواكب سعودها ، وتتصرف من نوبته إلى من جاورها من العدا خاطفات بروقها وقاصفات رعودها ؛ فكم ذى جنود أمها فهلك وما ملك ، وسلك إليها بجيوشه فزلت وتزلزلت قدمه حيث سلك ؛ ولجيشها البأس الذي وجود الأعداء به عدم ، والحد الذي يعرفه أهل السياق و[ان] أنكرته أعناقهم « فما بالعهد من قدم » .

وأن نفوض [أمرها] إلى من ينشر بها على الأمة لواء عدلنا ، ويسطفيها بالرفقة والرحمة رداء فضلنا ، ويحيي بها سنان الإحسان التي مبدأ أيامها غايه من سلف من قبلنا ؛

وَيَقِيم مَنَارَ الْمُلْكِ مِنْ بَاسِهِ عَلَى أَرْفَعِ عِمَادٍ ، وَيُنِيمُ الرِّعَايَا مِنْ عَدْلِهِ فِي أَوْطَانِ مِهَادٍ ؛
وَيَكْفُفُ أَكْثَفَ الظُّلُمِ إِلَى مَا يَتَجَسَّرُ إِلَى إِعَادَةِ يَدِهِ إِلَيْهَا عَادٍ وَمَنْ عَادَ ، وَيَجُودُ إِلَى
الْعِدَا مِنْ خِيَالِهِ وَخَيْلِهِ سَرَايَا تَطْرُدُ عَنْ مَوَارِدِ جَفُونِهِمْ بِقَوَائِمِهَا الرِّقَادَ ؛ وَتُسْتَعِيدُ
عَوَارِي أَرْوَاحِهِمْ مِنْ مُسْتَوْدَعَاتِ أَجْسَادِهِمْ فَهِيَ بِحُكْمِ الْعَارِيَةِ غَيْرُ مُسْتَقَرَّةٍ
فِي الْأَجْسَادِ ، وَيَصُونُ الرُّتَبَ عَنْ تَطَرُّقِ مَنْ يُفْسِدُ أَحْوَالَهَا لِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِ : فَإِنَّهُ مَا سَلَكَ
أَحَدٌ فِي أَيَّامِنَا طُرُقَ الْفَسَادِ فَسَادَ ؛ وَيَعْلَمُ بِهِ أَنَّا جَرَدْنَا عَلَى الْعِدَا سَيْفًا يَسْبِقُ إِلَيْهِمْ
الْعَدْلَ ، وَيَزَاحِمُ عَلَى قَبْضِ نَفُوسِهِمِ الْأَجَلَ ، وَتَحِلُّ بِتَقْلِيدِهِ الدُّوَلُ ، وَيُتَحَقَّقُ بِنَتِكَ
أَنَّهُ لَا حَاكِمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِلَّا السَّيْفُ الَّذِي إِنْ جَارَ فِيهِمْ فَقَدْ عَدَلَ .

ولذلك لما كان المجلس العلى الفلانى : هو الذى آخَرْتَنَاهُ لَذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ ، وَقَلَّدْنَاهُ
أُمُورَ الْمَالِكِ : لِمَا فِيهِ مِنْ حِدَّةٍ بِأُسِّ وَآيَةٍ حِلْمٍ ؛ وَعَجَمْنَا عُدَّةَ فَكَانَ لَيْنَا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ
فَظًّا عَلَى الْعِدَا ، وَبَلَوْنَا أَوْصَافَهُ فَعَلَمْنَا مِنْهُ السَّدَادَ الَّذِي لَا يَضَعُ بِهِ النَّدَى فِي مَوْضِعِ
السَّيْفِ وَلَا السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى ، وَعَرَضْنَا سَدَادَهُ عَلَى حُسْنِ أَعْتَابِنَا لِلْأَكْفَاءِ
فَكَانَ سَمِيرَنَا (وَحِمْلَ ، فَزَيْنَ مَعْرُوضًا وَرَاعَ مُسَدِّدًا) ؛ وَهَزَنَاهُ فَكَانَ سَيْفًا يُنْصَلُ
حَدُّهُ الْخُطْبَ إِذْ أَعْضَلَ ، وَأَعْطَيْنَاهُ أَمْرَ الْجُيُوشِ فَلَمْ يَخْتَلَفْ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ أَفْضَلُ
مِنَ الْأَفْضَلِ .

فلذلك رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يَصْطَفِي مِنَ الْأَوْلِيَاءِ كُلَّ كُفٍّ كَرِيمٍ -
أَنْ تَفُوضَ إِلَيْهِ نِيَابَةُ السَّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ بِالْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ : تَقْوِيضًا يُعْلَى قَدْرَهُ ، وَيُسْطُ
فِي مَصَالِحِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ أَمْرَهُ ؛ وَيُطْلَقُ فِي مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ سَيْفُهُ وَكَلِمَتُهُ ،
وَيُدْرُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ إِحْسَانَنَا الَّذِي إِذَا جَارَى الْغَيْثَ أَجْجَلَ دَوَامُهُ دِيمَةً ، وَيَرْفَعُ بِالْعَدْلِ

مَنَارَ دَوَامٍ مُلْكًا الَّذِي قَرَنَهُ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ بِجُودِنَا ، وَيُضِيفُ بِاسْتِرْفَاعِ الْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ
لِدَوْلَتِنَا مِنْ كُلِّ لِسَانٍ جُنُودَ اللَّيْلِ إِلَى جُنُودِنَا ، وَيَنْظُرُ فِي أُمُورِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ نَظْرًا
عَاقِمًا ، وَيُعْمَلُ فِي سِدَادِ نَعُورِهَا وَسِدَادِ أُمُورِهَا رَأْيًا ثَاقِبًا وَفِكْرًا ثَابِتًا ، وَيَأْمُرُ التُّوَابِ
مِنْ سِدِّ خَلَلِهَا بِمَا كَفَايَتُهُ أَدْرَى بِهِ مِنْهُمْ ، وَيَنْبَهُهُمْ مِنْ مَصَالِحِهَا عَلَى مَا ظَهَرَ لِفِكَرِهِ
الْمُصِيبِ وَخَفِيَ عَنْهُمْ ، وَيَلَاحِظُ أُمُورًا مَا بَعْدَ مِنَ الْبِلَادِ كَمَا لَحَظَتْهُ أُمُورًا مَا دَنَا ،
وَيَنْظُرُ فِي تَفَاصِيلِ أُمُورِهَا : فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ عَلَى السَّدَادِ فَلَيْسَ بِهَا عَنْ حُسْنِ نَظَرِهِ
غَنَى ، وَيَسْلُكُ بِالرَّعَايَا سُنَنَ إِنْصَافِهِ الَّتِي وَكَلَّتْهُ مَعْرِفَتُنَا بِهِ إِلَيْهَا ، وَيُجَرِّبُهُمْ عَلَى عَوَائِدِ
الْإِحْسَانِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ خُلُقِهِ سَبِيحَةً وَزِدْنَاهُ تَحْرِيسًا عَلَيْهَا .

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَقَامَنَا مِنَ الْجِهَادِ فِي أَعْدَائِهِ بُسْنَةً وَفَرَضَهُ ، وَمَكَّنَ
لَنَا فِي الْأَرْضِ : لِإِقَامَةِ دَعْوَتِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَتَطْهِيرِ أَرْضِهِ ، وَعَضَّدَنَا بِتَأْيِيدِهِ لِنَصْرَةِ
الْإِسْلَامِ ، وَأَمَدَّنَا مِنْ عُدَدِ نَصْرِهِ بِكُلِّ سَيْفٍ تَرَوَّعَ الْأَعْدَاءُ بِهِ الْيَقِظَةُ وَتَسْلُهُ
عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ، وَبَثَّ سَرَايَا جِيُوشِنَا بَرًّا وَبَحْرًا : فَهِيَ إِمَّا سَوَارٍ فِي الْبَرِّ تَمْتَرُ
السَّحَابُ أَوْ جَوَارٍ مُنْشَأَتٌ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، وَيَتَعَاهَدُ أَحْوَالُ الْجِيُوشِ الشَّامِيَةِ
كُلَّ يَوْمٍ بِنَفْسِهِ ، وَيَعِدُّهُمْ فِي غَيْدِهِ بِاعَادَةِ مَا أَعْتَبَرَهُ مِنْ عَرَضِهِمْ فِي أَمْسِهِ ، وَيُرَتِّبُ
أَمْرَ كُلِّ إِقَامٍ وَحَالَهُ ، وَيَتَفَقَّدُ مَنْ يَبَاشِرُ بِالتَّقْدِمَةِ تَقَدُّمَهُ إِلَى الْأَطْرَافِ وَآرْتِحَالَهُ ،
وَيَأْمُرُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ بِالنَّاهِبِ لِلْعَرَضِ الَّذِي يَبَاشِرُهُ غَدًا بَيْنَ يَدَيْنَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام ، كتب به للأمر « جمال الدين أقوش
الأشرفي » في جمادى الأولى ، سنة إحدى عشرة وسبعائة ، من إنشاء الشيخ شهاب
الدين محمود الحلبي رحمه الله تعالى ، وهي :

الحمد لله الذى جعل الدين فى أيماننا الزاهرة زاهياً بجَماله ، سامياً بتقديم مَنْ
إذا أَرهَفَ فى الدَّبِّ عنه بسيفِ عزمه غَدَتِ الجنة تحت ظلاله ، حَالِياً بتفويض
زَعامة جُيوشه إلى مَنْ لو فَاخَرَبه البُدُورَ تَعَجَّبَتْ من نُقْصَانِهَا وكَماله ، عالِياً بإيالة
من تتولَّد معانى النصر والظفر بين الكَامِلَيْنِ : من رَوِيَّةِ رَأْيِهِ وآرْتَجَالِهِ ، رَاقِياً على هامِ
الكُفْرِ بعزائم من لا يزال تُصَبِّحُ مَهَابَتُهُ العِدَا بطلائع خِيَلِهِ وتَبَيُّهُهُمْ بطوارق خِيَالِهِ ،
نامياً بإسناد الحكم فيه إلى من يقطع إِنْصَافَهُ بين المُبْطِلِ وَرَجَائِهِ وَيَصِلُ العَدْلُ [منه]
بين الْحَقِّ وَبَيْنَ آمَالِهِ .

نحمده على نِعَمِهِ التى أَنَامَتِ الرِّعَايَا مِنْ مَعْدِنَاتِنَا فى أوطَاٍ مِهَادٍ ، وَأَدَامَتِ الدُّعَاءَ
الصَّالِحَ لِأَيَامِنَا بِإِعْلَاءِ كَلِمَتِي العَدْلِ وَالْجِهَادِ ، وَأَقَامَتِ الإِيَالَةَ فى أَسْنَى مَمَالِكِنَا بَنَ هُو
أَجْرَى مِنَ الْغِيُوثِ ، وَأَجْرَأُ مِنَ اللَّيُوثِ ، فى مصالِحِ البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال الألسُنُ لإِقَامَتِهَا مُدِيمَةً ،
والضُّمائرُ على إِدَامَتِهَا مُقِيمَةً ، والقلوبُ تَعْقُدُ من كَلِمَةِ إِخْلَاصِهَا وإِخْلَاصِ كَلِمَتِهَا فى جِدِ
الإيمان تَمِيمَةً ، والتوحيدُ يُظْهِرُ أنوارَهَا فى الوجوه الوَسِيمَةِ ، بِأَمْنٍ مُطَالَعِ
القلوب السليمة .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى جَبَلَهُ على خُلُقٍ عَظِيمٍ ، وجعله وإن تَأَخَّرَ عَصْرُهُ
من مَقَامِ النبوة فى أَعْلَى رُتَبِ التَّقْدِيمِ ، وَمَنْ على الأُمَّةِ بِإِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ من أَنْفُسِهِمْ
وَأَنَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين دُعُوا إلى طَاعَتِهِ
وَأَجَابُوا ، وَحَكَّمُوا بَسْمَتَهُ وَأَصَابُوا ، وَجَاهَدُوا الْمُعْرِضِينَ عَنْ مِلَّتِهِ حَتَّى رَجَعُوا إلى الْهُدَى
وَأَنَابُوا ، صَلَاةَ لَا تَغِيبُ أَنْوَاؤُهَا ، وَلَا يُفَارِقُ وَجْوهَ أَهْلِهَا وَقُلُوبُهُمْ رُؤُؤُهَا
وَأِرَاوُؤُهَا ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإنه - لما أجزانا الله عليه من عوائد نصره، وأغرانا به من حصد الشرك وحصره، ومنتحنا من بسطة ملك زينت بها أسارى البسيطة وأسرتها، ووهبتنا من فوائح فتوح علت على وجوه الكفر مساءتها وبدت على وجوه الإسلام مسرتها - لم نزل نؤدى شكر نعم الله بالإحسان إلى عباده، ونستريد منها بتفويض أمورهم إلى من يقوم في الذب عنهم مقام الجيش على أفراداه؛ فلا نقدم على الرأفة بخلق الله أمرا، ولا نحاي في بسط المعدلة عليهم زيذا ولا عمرا؛ ولا نعدل بهم عن إذا ركب في موكب نيابتنا زانه وجملة، وإذا جلس على بساط عدلنا زاده وجملة؛ وإذا رسم بأمرنا أصغت السيوف إلى مراسيمه، وإذا نظر بعين عنايتنا نغرا أهدى الشنب إلى مباسميه؛ وإذا رام في مصالح الإسلام أمرا قرب على رأيه بعيدة، وإذا رمى في حماية الممالك عدوا سبق إلى مقاتله قبل السيوف وعيده؛ وإذا جرد جيشا إلى أعداء الإسلام جرت قبل اللقاء ذيول هزائمها، ورأت الفرار أمع لها من صوارمها، وثلت ما في كتابها من سهام ضعفت عن الطيران قوى قوادمها .

ولما كان الجنب العالى الغلافى هو معنى هذه الفرائد، وسر هذه الأوصاف التي للشرك منها مصائب هي عند الإسلام فوائد، وفارس هذه الحلبة، التي أحرز [قصب] سبقها، وكف هذه الرتبة، التي أخذها دون الأكفاء بحققها؛ لا تأخذ في الحق لومة لائم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجده «وما ليل المحد بنائم» يسرى إلى قلوب الأعداء رعبه وهو في مكانه، وتؤدى مهابته في نكاية الكفر فرض الجهاد قبل إمكانه؛ ويشفع العدل في الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعتدين وشدة الوطأة عليهم؛ ويقف في أحكامه مع الشريعة التي أعلى الله تعالى منارها، ويستضىء بأحكامها التي هي لا بصر النظار تغير أنوارها .

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القوة في ايمان ،
والواسطة في العقد الثمين ؛ والإدراك في الصدور ، والإشراق في البدور ؛ وبها الأرض
المقدسة ، والحُصُون التي هي على نكاية الأعداء مؤسَّسَه ؛ ولها الجيوش التي ألفت
في الجهاد السرى ، وأُنفَت لسيوفها في الجفون الكرى ؛ ومرَّت على مقاتلِ العدا
أستنها ، وصُرفت في مسالك الحرب أعنتها ؛ وراعت ملوك أهل الكفر سمعة
أمرائها ، وحاطتها أمداد النصر في حروبها من بين يديها ومن وراءها ؛ وفيها من الأئمة
العلماء الأعيان من يعدل دم الشهداء مداد أقلامهم ، ومن الأتقياء الصلحاء من
لا تطيش دون مقاتل أهل الكفر مواقع سهامهم - آقتضت آراؤنا الشريفة أن تمتع
هذه الرتبة السنية بجاهها ، وأن نبلي هذه الدرجة السرية بمن حوى هذه الأوصاف
الفارقة غاية آمالها ؛ ليصبح بها لواء عدلنا ، مرفوع الذواب ، ومنهل فضيلنا ، مدفوع
الشوائب ؛ وكلمة جهادنا ، نافذة في المشارق والمغارب ، وقبضة بأسنا ، آخذة من أعداء
الدين بالذرا والعوارب ، وطليعة كتابنا مؤتممة بمن توفى الطير أن فريقه إذا ما ألتقى
الجمعان أول غالب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت صوارمه للشرك قاصمه ، ومراسمه لمصالح
الدين والدنيا جامع - أن تفوض إليه تفويضا يرفع علمه ، ويمضي في مصالح
الإسلام سيفه وقلمه ؛ وينشر في آفاق الممالك الشامية عدله ، ويسط على رعايا
تلك الأقاليم المحروسة فضله وظله ؛ فيطلع في أفق المواكب هالة أهلها ، وطراز
حلتها ؛ وطاعة لوائها ، وواسطة عقود مقدمها وآرائها ؛ وزينة تسييرها ووقوفها ،
وحلية طلائعها وصُفوفها ؛ ويجلس في مواطن الجلوس صادعا بالحق في حكمه ،
أمرًا بإدامة التأييد للعدو في أيام سلمه ؛ معطيا منصب النيابة الشريفة حقه من
الجلالة ، موفيا رتبته المنيفة بما يجب لها من أبهة المهابة وكفاءة الكفالة ؛ ولا يزال

لمصالح الجيوش المنصورة ملاحظًا، وعلى إزاحة أعذارهم مُحافِظًا، وإلى حركات عُدُو
الإسلام وسكَّاتِهِ مُتَطَلِّعًا، وإلى مايتعين من إبطال مكايده متسرِّعًا، ولِإِوَاطِنِ أحوالهم
بِحَسَنِ الْإِطْلَاعِ مُحَقِّقًا، ولِجَمْعِهِمْ بَيْنَ الْاجْتِمَاعِ لِلْقَائِمِ مُقَرِّقًا، فَلَا يُضْمِرُونَ مَكِيدَةً
إِلَّا وَعَلِمُهَا عِنْدَهُ قَبْلَ ظَهْوَرِهَا لَدَيْهِمْ، وَلَا يُسْرُونَ غَارَةً إِلَّا وَرَأَيْتَا خَيْلَهُ الْمُغِيرَةَ
أَسْبَقُ مِنْهَا إِلَيْهِمْ .

وَلِيَكُنْ لِمَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ مُعْلِيًا، وَلِأَقْدَارِ أَرْبَابِهِ مُغْلِيًا، وَلِرُتَبِ الْعُلَمَاءِ رَافِعًا،
وَلِأَقْوَالِهِمْ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ سَامِعًا، وَلِدَوَى الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ مُكْرِمًا، وَلِأَهْلِ الْوَرَعِ
وَالصَّلَاحِ مُعْظَمًا، وَعَلَى يَدِ الظَّالِمِ ضَارِبًا، وَفِي آفْتَاءِ الْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ لِدَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ
رَاجِيًا، وَبِجِلِّيلِ النَّظَرِ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ مُدِيمًا، وَبِحُسْنِ الْفِكْرِ فِي أُمُورِ الْأَمْوَالِ مُعْمِلًا
رَأْيًا بِمَصَالِحِهَا عَلِيًّا، وَلِجِهَاتِ الْبِرِّ بِجِلِّيلِ الْعَنَاءِ وَالْإِعَانَةِ عَامِرًا، وَعَنْ كُلِّ مَا لَا يَجِبُ
اعْتِمَادُهُ نَاهِيًا وَبِكُلِّ مَا يَتَعَيَّنُ فَعْلُهُ أَمْرًا . وَفِي كَمَالِ خِلَالِهِ، وَأَدَوَاتِ جَمَالِهِ، مَا يُغْنِي عَنْ
الْوَصَايَا إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ، الَّتِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْفَعُ الْمُتَّقِينَ، وَمِلَّاكُهَا تَقْوَى
اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ مِنْ خَصَائِصِ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَعَوَائِدِ سِيرَتِهِ الْحَدِيثَةِ وَالْقَدِيمَةِ، وَاللَّهُ
تَعَالَى يُسَدِّدُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُؤَيِّدُهُ وَقَدْ فَعَلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب بها للأمر «سيف الدين تنكر
الناصرى» في ربيع الأول سنة أثنى عشرة وسبعائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي، وهى :

الحمد لله مفوض أسنى الممالك فى أيامنا الزاهرة إلى من تزهو بتقليده، ومُشَيِّد
قواعد أسمى الأقاليم فى دولتنا القاهرة بمن يعلو بإيالاته ما يُلْقَى إليه معاقِدُ مَقَالِيدِهِ،

وَمُسَدِّدِ الآرَاءِ فِي تَصْرِيفِ أَعِنَّةِ جِيوشِنَا الْمَنْصُورَةِ بِتَقْدِيمِ مَنْ تَعُدُّو سَيُوفَهُ مِنْ
عُنُقِ كُلِّ مُتَوَجِّعٍ مِنَ الْعِدَا قِلَادَةَ جَبِيدِهِ ، وَنَاشِرِ لَوَاءِ الْعَدْلِ فِي رَعَايَانَا وَإِنْ بَعُدُوا
بِمَنْ تُنِيمُ كَلَّا مِنْهُمْ فِي مَهْدِ الْأَمْنِ وَالِدَّةِ يَدِ مَهَابَتِهِ وَتَمْهِيدِهِ ، وَمُعَلِّي مَنَارِ الْجِهَادِ
فِي سَبِيلِهِ بِمَنْ إِذَا جَرَّدَ سَيْفَهُ فِي وَغَى تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضَّوَاحِكِ بَيْنَ تَجْرِيبِهِ
وَتَجْرِيدِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي أَيَّدَتْ آرَاءَنَا بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مُسْتَحَقِّهِ ، وَقَلَّدَتْ سَيْفَ
النَّصْرِ مِنْ أَوْلِيَانَا مَنْ يَأْخُذُهُ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ بِحَقِّهِ ، وَجَدَّدَتْ آلَاءَنَا لِمَنْ إِذَا جَارَتْ
الْخُتُوفُ سَيُوفَهُ إِلَى مَقَاتِلِ الْعِدَا فَاتَهَا وَفَاقَهَا بِمَزِيَّتِي كَمَا يَتِيهِ وَسَبَقَهُ .

وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لَا تَرَالُ أَلَسْتُنَا تَرْفَعُ مَنَارَهَا ،
وَسَيُوفُنَا تَصِلُ مِنْ جَحْدِهَا قَبْلَ نَارِهَا ، وَآرَأُونَا تُفَوِّضُ مَصَالِحَ جُمْلَتِهَا إِلَى مَنْ إِذَا رَجَعَتْ
لِنُصْرَةٍ أَنَالَهَا وَإِذَا أَسْدَى مُعْدِلَةً أَنَارَهَا .

وَنُشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَيَّدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ ، وَجَعَلَهُ سَابِقَ مَنْ تَقَدَّمَ
مِنَ الرُّسُلِ عَلَى عَصْرِهِ ، وَآتَاهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا يَضِيقُ الْطُّقُ عَنْ إِحْصَائِهِ وَمِنْ
الْمُعْجَزَاتِ مَا يَحُولُ الْحَصْرُ دُونَ حَصْرِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا
بِهُدَاهُ ، وَهَجَرُوا فِي طَاعَتِهِ مَنْ عَادَاهُ ، وَنَهَضُوا فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَاهُ إِلَى مِظَانٍ
الْجِهَادِ وَإِنْ بَعْدَ مَدَاهُ ؛ صَلَاةٌ يَشْفَعُهَا التَّسْلِيمُ ، وَنَبْتَغِي إِقَامَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا أَعْمَلْنَا فِي مَصَالِحِ الْفِكْرِ ، وَتَدَبَّرْنَا أَحْوَالَهُ بِكُلِّ رَأْيٍ يُسَدِّدُهُ
الْحَزْمُ الْمُرَوِّى وَيُؤَيِّدُهُ الْإِلْهَامُ الْمُتَبَكِّرُ ؛ وَقَدَّمْنَا فِيهِ الْأَسْتِخَارَةَ عَلَى مَا حَزَمَ الْيَقِينُ بِأَنَّ
الْخَيْرَةَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي أَعْتِمَادِهِ ، وَتَمَسَّكْنَا فِيهِ بِجَبَلِ التَّوْفِيقِ الَّذِي مَازَالَ تَتَكَفَّلُ

لنا في كُلِّ أَمْرٍ بِسَدَادِهِ وفي كُلِّ ثَغْرِ بِسَدَادِهِ - أَمْرُ الْمَالِكِ الشَّامِيَةِ الَّتِي هِيَ وَاسِطَةُ
عَقْدِ الْمَالِكِ ، وَجُمُوعُ مَا يُقْضَى إِلَى مَوَاطِنِ النَّصْرِ مِنَ الْمَسَالِكِ ؛ وَمَرْكَزُ فَلَكَ الْأَقَالِمِ
الَّذِي تَنْتَظِمُ عَلَيْهِ بُرُوجُ ثَغُورِهَا ، وَنُقْطَةُ دَائِرَةِ الْحُصُونِ الَّتِي مِنْهَا مَادَتُهَا وَعَلَيْهَا مَدَارُ
أُمُورِهَا ؛ وَغَيْلُ لُيُوثِ الْحَرْبِ الَّتِي كَمْ أَكْثَبَتْ أَظْفَارُ أَسْنَنَتِهَا فِي طُورَةِ ظَفَرٍ ، وَمَوَاطِنُ
فُرْسَانِ الْوَعْيِ الَّتِي كَمْ أَسْفَرَ عَنْ إِبْطَالِ أَغْنَتِهَا إِلَى غَايَاتِ النَّصْرِ وَجْهَ سَفَرٍ ؛ وَأَنْ
نَرْتَادَ لَكِفَالَةِ أُمُورِهَا ، وَكِفَايَةِ جُهْوَورِهَا ، وَحِمَايَةِ مَعَاقِلِهَا الْمَصُونَةِ وَثَغُورِهَا ؛ وَزَعَامَةَ
جِيُوشِهَا ، وَإِرْغَامَ طَارِقِ أَطْرَافِهَا مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ وَثَلَّ عُرُوشِهَا ، مَنْ جَرَدَهُ الدِّينُ
فَكَانَ سَيْفًا عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَأَنْتَقَاهُ حُسْنُ نَظَرِنَا لِلْمُسْلِمِينَ فَكَانَ التَّوْفِيقُ الْإِلَهِيُّ مُتَوَلَّى
جَمِيلِ أَنْتَقَادِهِ وَأَنْتَقَائِهِ ؛ وَجَعَمْنَا عُودَ أَوْصَافِهِ فَوَجَدْنَاهُ قَوِيًّا فِي دِينِهِ ، مُتَمَكِّنًا فِي طَاعَتِهِ
بِإِخْلَاصِ تَقْوَاهُ وَصِحْحَةِ يَقِينِهِ ؛ مَتَّقِظًا لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي حَالَتِي حَرَكَتِهِ
وَسُكُونِهِ ، أَخَذًا عِنَانَ الْحَزْمِ يُسْرِيسِرَاهُ وَيَسْنَانُ الْعَزْمَ يَمِينُ يَمِينِهِ ؛ وَاقِفًا مَعَ الْحَقِّ
لِذَاتِهِ ، مَقْدَمًا مَشَاقَّ الْجِهَادِ عَلَى سَائِرِ مَارَبِهِ وَلِذَاتِهِ ؛ مَاضِيًّا كَسَيْفِهِ إِلَّا أَنَّهُ [لَا] يَأْلَفُ
كَالسَيْفِ الْجُفُونُ ، رَاضِيًّا فِي رَاحَةِ الْآخِرَةِ بِمَتَاعِ الدُّنْيَا وَمَصَاعِبِهَا فَلَا يَرْعَى فِي مَوَاطِنِ
الْجِهَادِ إِذَا حَلَّهَا أَكْثَافُ الْهُوَيْنَا وَلَا رَوْضَ الْهُدُونِ ؛ مَا نَعَا حَمَى الْإِسْلَامَ لَا "حَمَى الْوَقْبِي"
بِضَرْبٍ ، يُفَرِّقُ بَيْنَ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَ"يُؤَلِّفُ بَيْنَ أَشْتَاتِ الْمَنُونِ" .

ولما كان فلان هو الذي تشوّفت هذه الرتبة إلى أن تتجمل به مواكبها، وتتكمل به
مراتبها، وتنتظم على دسسته هالة أمرائها كما تنتظم على هالة بدر السماء كواكبها ؛ فإذا
طلع في أفق موكب أعشت الأعداء جلالته ، وأعدت الأولياء بسالته ؛ وسرى إلى
قلوب أهل الكفر رعبه ، وفعل فيهم سامه ما يفعل من غيره حرب به ؛ وإذا جلس
على بساط عدل خرس الباطل ، وأنجز ما في ذمته الماثل ؛ وتكلم الحق بملاء فيه ،
وتبرأ الباطل حتى ممن يسره ويخفيه ؛ وإن نظر في مصالح البلاد أعان الغيث على

رَبِّهَا بِرَفْعِهِ ، وَأَعَادَ رَوْنَقَ عِمَارَتِهَا بِكَفِّ أَكُفِّ الظُّلْمِ وَوَصُولِ كُلِّ ذِي حَقٍّ إِلَى حَقِّهِ - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَجْعَلَ فُنُونُ أَفْنَانِهِ بِمَنْ إِيَالَتِهِ دَانِيَةَ الْقُطُوفِ ، وَأَنْ نُصِيرَ جَنَّتَهَا تَحْتَ ظِلَالِ سَيْفِهِ : فَإِنْ «الْجُنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» .

فَلَذَلِكَ رَسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ زَمَنُ عَصْرِهِ ، مُؤَرِّخًا بِالْفَتْوحِ ، وَسَيْفُ نَصْرِهِ ، عَلَى مَنْ كَفَرَ دَعْوَةَ نُوحٍ - أَنْ تَقْوُضَ إِلَيْهِ نِيَابَةُ السُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْحُرُوسِ : تَقْوِيضًا يُحَسِّنُ بِهِ الْمَنَابَ فِي تِلْكَ الْمَمَالِكِ عَنَّا ، وَيُنْشِرُ فِيهَا مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مَا يَلْقَاهُ مِنَّا ؛ وَيُلْبِسُهَا مِنْ حُلِّ الْمَهَابَةِ مَا يُضَاعِفُ بِهِ أَمَنَ سِرِّيَّهَا ، وَتُصْبِحُ بِهِ السُّيُوفُ الْمَجْرَدَةُ أَحْفَظَ لَهَا مِنْ قُرْبِهَا ؛ وَيَطْلُعُ فِي أَفْقِ مَوَاقِبِهَا الْجَلِيلَةِ طُلُوعَ الشَّمْسِ الَّتِي يَعْمُ نَفْعُهَا ، وَيُعْشَى النُّوَاطِرَ لَمَعُهَا ؛ وَيَجْلِسُ فِي دَسْتِ نِيَابَتِنَا حَاكِمًا فِيهَا بِأَمْرِنَا ، جَازِمًا بِحُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ الَّذِي قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ حَلِيَّةُ سِرِّنَا وَجَهْرُنَا ؛ نَاشِرًا مِنَ مَهَابَةِ الْمُلْكِ مَا تَرْجِفُ لَهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْعِدَا ، وَتُصْبِحُهُمْ بِهِ سَرَايَا رُغْبِهِ عَلَى بَعْدِ الْمَدَى ؛ مُنْزِمًا مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْجِيُوشِ الْمَنْصُورَةِ بِمُضَاعَفَةِ إِعْدَادِ الْقُوَّةِ ، وَإِدَامَةِ التَّأْهِبِ الَّذِي لَا تَبْرَحُ بِسَمْعَتِهِ بِلَادُ أَهْلِ الْكُفْرِ مَغْرُورَةً ؛ مُطْلِعًا عَلَى أَحْوَالِ الْعِدَا بُلُطْفِ مَقَاصِدِهِ ، وَنِكَايَةِ مَكَايِدِهِ ، وَحُسْنِ مَصَادِرِهِ فِي التَّدْبِيرِ وَمَوَارِدِهِ ؛ فَلَا يُبْرِمُونَ أَمْرًا إِلَّا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى نَقْضِ مُبَرَمِهِ ، وَلَا يَقْدَمُونَ رَجُلًا إِلَّا وَقَدْ أَخَّرَهَا بَوَثْبَاتِ إِقْدَامِهِ وَثَبَاتِ قَدَمِهِ . وَلِيُعْظَمَ مَنَارَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِتَكْرِيمِ حُكَّامِهِ ، وَالْوُقُوفِ مَعَ أَحْكَامِهِ ؛ وَيَرْفَعَ أَقْدَارَ حَمَلَةِ الْعِلْمِ بِتَرْفِيهِ أَسْرَارِهِمْ ، وَتَسْهِيلِ مَآرِيهِمْ وَأَوْطَارِهِمْ ؛ وَلِيُعَمَّ الرِّعَايَا بَعْدْلِهِ وَإِنْصَافِهِ ، وَيُسْتَرْفَعَ لَنَا أَدْعِيَاةُ الْأَوْلِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ بِإِسْعَادِهِ وَإِسْعَافِهِ . وَفِي خَصَائِصِ أَوْصَافِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَتَبَجَّيَّاهُ الَّتِي هِيَ لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ مُسْتَدِيمَةٌ ؛ مَا يُغْنِي عَنْ تَشْدِيدِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ جَعَلَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأ مير «يلبغا الكاملى» بعد نيابته بحلب وحماة، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله، وهى :

الحمد لله مجرى الأقدار، برفعة الأقدار، ومثرى آمال من حسنت له فى خدمتنا الآثار، بمواهب العطايا والإيثار، وممري غروس نعم أوليائنا التى رعى عهدا عهدا شحج جودنا الغزار، جاعل أصفياء مملكتنا الشريفة كل حين فى آزياد، وما فى المخلصين فى خدمتنا مزيد الإسعاف والإسعاد، وفتح أبواب التأييد بسيف أنصارنا التى لا تهجع فى الأعتماد .

نحمده على مواهب نصره، ونشكره على إدراك المارب من جوده الذى يعجز لسان القلم عن حصره، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تؤيد قائلها فى موافقه، وتجمع له من خير الدنيا بين تالده وطارفه، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هدى الله به هذه الأمة من الضلال، وفضل به المجاهدين حيث جعل الجنة تحت ما ليس يوفهم من ظلال . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا انفصام لعروتها ولا انفصال، ولا انقضاء لأسبابها ولا زوال، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإن أولى من أنتدب لحفظ ممالك الإسلام، وأمين على صونها بعزمه الذى لا يسامى ولا يسام، وأسند إليه من أمور الرعايا بأجل المالك ما يقضى بمزيد التكريم، وأعتمد على صيانتة وديانته لما شهد الاختبار بأنه أهل للتقديم، وجرىبت الدول محالسته، وتحقق آهتاهم الذى بلغه من العز غايته، وأثنت على حسن سيرته وسيرته سوابق خدمه، وشكر آهتاهم فى المحالصة التى أعربت عن عزمه، ففاق أشباها وأنظارا، وكفل المالك الشريفة الحليية والحموية فأيدها أعوانا وأنصارا،

وبسط فيها من العدل والإنصاف ما أعلی له شأنًا ورفع له مقدارًا ، وسلك فيها
مسلكًا شَنَفَ أسماءُ وشَرَفَ أبصارًا .

ولما كان المقرّ الكريم (إلى آخره) هو صاحب هذه المناقب ، وفارس هذه
المقائب ، ونير هذه الكواكب ، كم أبهج النفوس بمآله من عزيم مشكور ، وحزم
مأنور ، ووصف بالجميل موفور .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال لسيف أوليائه مُرهفًا ، ولا برح لأخصائه
مُسعدًا ومُسعِفًا - أن تفوّض إلى المشار إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ،
على أجمل عوائد من تقدّمه في ذلك وأكمل قواعده . فليتناول هذا التقليد الشريف
بيد لم يزل لها في الولاء الباع المديد الطويل ، ويتلقّ هذا الإحسان بالشكر الذي هو
بدوام النعمة خير كَفيل ؛ ويضاعف ما هو عليه من آهتمام لم يزل منه مألوفًا ، واعتزام
إذا لاقى غيره مُهماً واحدًا لاقى هو أُلوفًا ؛ ويُعِين النظر في مصالح هذه المملكة
الشامية المحروسة ، ويعتمد من حُسن تديره ما تغدو ربوعها بحسن ملاحظته
عامرةً مأنوسة . وهو يعلم أن العدل من شيم دولتنا الشريفة ، وسجية أيامنا التي هي على
هَامِ الجوزاء مُنيقه ؛ فليسلِك سننه ، ويتبع فرضه وسننه ؛ ويعلم أن عدل سنة خير
من عبادة ستين سنه ، ولينشر على الرعايا ملائسه الحسنه ، ويعظم الشرع الشريف
وحُكَّامه ، ويعين الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجب الاستحقاق
إكرامه ؛ والله تعالى يجعل السعد خلفه وأمامه ، ويؤيده تأييدًا يبلغه مراده من
النصر ومُرامه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذي طَهَّرَ الشَّامَ وَقَدَّسَهُ ، وَصَانَهُ وَحَرَسَهُ ، وَجَعَلَ لِسُلْطَانِنَا فِيهِ قَوَاعِدَ
بِالنَّصْرِ مُؤَسَّسَهُ ، وَأَنْوَارًا لِلْهُدَى مُقْتَبَسَهُ ، وَكَفَلَهُ بَيْنَ إِذَا صَفَّ لَهُ الْعَدُوُّ آفَتَرَسَهُ ،
وَأَذَلَّهُ وَأَرْكَسَهُ ، وَأَرْغَمَ مَعْطِسَهُ ، وَقَطَفَ بَسِيفِهِ أَرْؤُسَهُ ، وَمَنْ يُعْطَى النَّصْرَ إِذَا أَمْتَطَى
فَرَسَهُ ، وَمَنْ كَرَّمَ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَكَثَّرَ أُنْسَهُ ، وَعَظَّرَ نَفْسَهُ ، وَمَنْ يُنْصَفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ
وَيَبْلُغُ السَّائِلَ مُلْتَمَسَهُ ، وَمَنْ لَيْسَ ثَوْبَ الْعَفَافِ وَالثَّقَى فَكَانَ خَيْرَ ثَوْبٍ لَيْسَهُ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَصْلٍ جُودٍ غَرَسَهُ ، وَعَارِضٍ سَوَاءٍ حَبَسَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَزَالَتِ الشَّرْكَ وَحَمَّتْ نَجَسَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
الَّذِي أَنْبَعَ اللَّهُ مِنْ أَصَابِعِهِ عَيْنًا مُنْبِجَسَهُ ، وَأَخْضَرَ الْعُودَ الْيَابِسَ لِمَا لَمَسَهُ ، وَأَضْعَفَ
الْوَسَاوِسَ الْمُخْتَلِسَةَ ، وَأَنْتَرَعَ الْحَقَّ مِنْ بَحْسِهِ ، وَحَمَاهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِمَا وُلِدَ
فِي نَحْسِهِ ، وَنَوَّرَ الْقَلْبَ الَّذِي خِيَمَ عَلَيْهِ الضَّلَالُ وَطَمَسَهُ ، وَكَانَ الشَّرْكَ قَدْ أَنْبَثَ
فِي الْأَرْضِ فُطُوَاهُ دِينَهُ وَكَبَسَهُ ، وَحَمَاهُ وَدَرَسَهُ ، وَجَاءَ بِالْقُرْآنِ فُطُوبَى لِمَنْ تَلَاهُ
وَدَرَسَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه ما أَوْجَحَ اللَّهُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَغَمَسَهُ ، وَمِيزَ بِنِصْفِ الْعَدَدِ مِنْ
الثَّلْثِ سُدُسَهُ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فَإِنَّ الشَّامَ هُوَ عَقْدُ النَّظَامِ ، وَأَجَلُ مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ ، وَمَعِينُ النَّصْرِ
الَّذِي بَرُّوقُهُ شَامٌ ، وَمُسْتَقَرُّ الْبَرَكَاتِ الْوَسَامِ ، وَعَسْكَرُهُ أَفْضَلُ عَسْكَرٍ فِي حَسَنِ
الْإِعْتَرَاءِ وَالْإِعْتَرَامِ ، لَا يَرْهَبُونَ الْحِمَامَ ، وَيَخْضَوْنَ لُحُجَ الْمُنُونِ بِالْحُسَامِ ، وَنِيَابَةُ
السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ بِهِ مِنْ أَجْلِ النِّيَابَاتِ مَقْدَارًا ، وَأَكْرَمِيهَا آثَارًا ، وَأَعَزَّهَا أَنْصَارًا ؛

إذ هو تلقاء أوامرنا الشريفة المنظوية عليها أسرار البريد، ومن عنده تفتقر المهمات
للقريب والبعيد، وعنه يصدر البريد، وإليه يرد بكل ثناء جديد، ومنه يأتي
إلى مسامعنا الشريفة بما نريد، فلا يحل دار سعادتها إلا من هو منصور سعيد،
وذو رأي سديد، وحزم حديد، وقد اخترنا لها بحمد الله كفأها المعيد.

ولما كان فلان هو الضاري على العدا، وألغيت المتوالي الندى، والهام الذي
جرد سيف عزمه أبدا فلا يرى مغمدا، وأتصف بحسن الصفات فما ساد سدى،
قد تجلت الممالك بأرائه ورآياته، وثباته ووثباته، وروض تديره وطيب نباته،
وحسن آتماده في خدمة ملكنا الشريف ومهماته، إن ذكرت الموالاة الصادقة
كان راوى مستندا، وحاوى جيدها، والآوى إلى ظلها المديد وطيب موردها،
وإن ذكرت الشجاعة كان زعيم كتابها، ومظهر عجائبها، وليث مضاربها، ومجرد
قواضيه، وفارس جنائبها، ومطلب أطلابها ومنجع مطالبها، ومجلى غياهمها -
أقضى حسن الرأي الشريف أن يعقد عليه لواء الاحتشام، في الشام؛ وأن يخص
بالبركات، المخصصة من الدركات.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام
المحروس، على عادة من تقدمه وقاعدته، وأن يكون داخلا في نيابته الشريفة ما هو
مضاف إلى الشام المحروس : من ممالك وقلاع، ومدن وضياع، وتغور ومواني،
وسواحل في أقاص وأداني، تفويضا أئسقت درره، وأشرقت غرره، وتليت
آياته وسوره.

فليمد بالعدل أنكاف البلاد، ولينظر بعين الرعاية والسداد، ولينشر لواء
الإنصاف، لتكون الأمة تحت ظله الضافي وإليه الحق مضاف. وليد الأرزاق

من الأخلاق ، وليأمر بإقامة الحدود على شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلاف ، وليستترهف عزائم العساكر المنصورة في القتال والجهاد ، وليأخذهم بحسن الاستعداد ، وليعرف للأمراء منازلهم : فإنهم أركان وأعضاء ، وأنصار وأجناد ، وأولياء دولتنا الشريفة المأحون للفساد ، ومن نتجمل بهم الموالكب وتتفطر بهم للعدا الأكباد ، والله الله في الشرع الشريف وإقامة مناره ، وتنفيذ كلمة أحكامه وإزالة أعذاره ، والتقوى فهي أفضل شعاره ، وقرة أبصاره ، والوصايا فمنه يُشرق هلالها إلى أن يتم في إبداره ، ويتكلم بأنواره ، وهو غني عن إكباره .
نخذ تقليدنا هذا باليمين ، وألبس من هذا التفويض الملبس الأسنى الثمين ، وأخبار البريد المنصور فلا تقطعها عنا ، فمنه إلينا ترد أخبار البريد وإليه ترد المهمات منا ، والله تعالى يخوله كل يوم من إحساننا في الزيادة والحسنى ، وانلخط الشريف أعلاه .

الطبقة الثانية

(من يكتب له تقليد شريف في قطع النصف بـ «المجلس العالى»

وهو الوزير من أرباب السيوف ، وهو بالملكة الشامية

على حد الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّدِ سهام الاختيار ، ومُسَيِّرِ الأولياء إلى منازل العلّاء مسير الأهلّة إلى منازل الإبدار ، الذى جدّد نعماً ، وعدّد كرمًا ، وعلم مواقع الاضطرار ، إلى مواقع الأوزار ، فأرسل إليها من تستهل آراؤه ديمًا .

نحمده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبًا ولا وزيرًا ، ونصلى على سيدنا محمد الذى عمّر الله به البلاد تعميرًا ، وأحسن بالعدل

تقريرا ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ظاهروه بالسيوف والأقلام كاتباً
وأميراً ، صلاة لا ينقطع تواليتها ، ولا تزال الآفاق تتناقلها وتستهديتها .

وبعد ، فإن أولى من عظم شأنه ، وكرم مكانه ، وثبت إيمانه ، وأُنيت في منابت
الرماح قلمه الذى هو ترجمانه ، وبُسطت في تشييد الممالك يده وأُطلق لسانه - من
كان علامة العلم ، وغداً بالنشاط في كبره قتي السن كهل الحلم ، الذى فاق جلاله
ونسبا ، وأستعلى همّة وأدبا ، وعُرف بالديانة التى طار صيتها فى الآفاق شرقاً
ومغرباً ، والهمّة التى سواء عليها أحملت قلماً أم أنتضت قُضيباً .

ولما كنت أيها المجلس الفلانى - أدام الله تأييدك ، وتسديدك وتمهيدك ،
وكبت حسودك ، وضاعف صُعودك - أنت المعنى بهذه المآثر ، المنضدة عليك
هذه الجواهر ، الدالة على مناقبك هذه المفانير ، الذى وجدناك على الانتقاد تزيد
أستخلاصاً ، وتعدو على السبك خلاصاً .

فلذلك خرج الأمر الشريف أن تُوزّر ، وتُحمى موارد أرائك لتستغزّر ، ويكون
لك الحكم فى المملكة الشامية عموماً ، وتُتصرّف فى معاملاتها مجهولاً ومعلومياً ، على
أكل قواعد الوزراء وأئمتها ، وأجملها وأعمّها ، متصرّفاً فى الكثير والقليل ، والحقير
والجليل ، تغزل وتوتل من شيت ، وتكنى وتستكنى من أرتضيت . ونحن نُوصيك
بالرفق الذى هو أخلق ، والعدل الذى تُستدرّ به سُحب الأموال وتُستغدق ، والحق
فإن كل القضايا به تتعلق ، ويُمن السياسة فإن الرئاسة بها تكمل وتُعدّق ، وإياك
والغرض الذى هو يهوى بصاحبه ، ويُرديه فى عواقبه ، وآتى الله الذى لا يتم
الصالحات إلا بتقواه ، وأحذر أن تكون مع من ضلّ سبيله وآتبع هواه ، والله تعالى
يُنجح رجاءك ويوضح منهجك ، ويعلى درجك ، ويلقنك إذا خاضت واختصمت
مُحججك ، إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثالثة

(من يُكْتَبُّ له مرسومٌ شريفٌ ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكْتَبُّ له فى قطع النصف وهو نائب قلعة دمشق)

إن كان مقدّم ألف كما كان أولاً ، كتب له بـ « المجلس العالى » . أو طبلخاناه كما هو الآن ، كتب له بـ « السامى » بغير ياء . وبالجملة فإنه يكتب له مفتاحاً بـ « الحمد لله » .

وهذه نسخة مرسوم شريف بناية قلعة دمشق المحروسة ، من إنشاء المقر الشهابي ابن فضل الله رحمه الله ، وهى :

الحمد لله مُشْرِفِ الْقَلَاعِ ، وَمُصَرِّفِ رَجَالِهَا فى الْأَمْتِنَاعِ ، وَمُعَرِّفِ من جَادَلَهَا أَنَّ الشَّمْسَ عَالِيَةَ الْاَرْتِفَاعِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يُسَنِّفُ الْأَسْمَاعَ ، وَيُشْرِفُ الْإِجْمَاعَ ، وَتُحَلِّقُ فى صُعودِهِ الْمَلَائِكَةُ أُولَى أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَرْجُو بِهَا لِمَا بَقِيَ من قِلَاعِ الْكُفْرِ الْاَقْتِلَاعَ ، وَأَسْتِعَادَةَ مَا قَرَّرَ مَعَهُمْ من قُرَى وَضَاعَ من ضِيَاعَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى حَمَى بِهِ دِرَّةَ الْإِسْلَامِ من الْاَرْتِضَاعِ ، وَصَانَ بِهِ حَوَازَةَ الْحَقِّ أَنَّ تُضَاعَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً دَائِمَةً مَا أَسِيلَ لِلَّيْلِ ذَيْلٌ وَأَمْتَدَّ لِلشَّمْسِ شُعَاعَ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنَّ لِلْخُصُوفِ حَوَاضِرَ كَمَا لِلْبِلَادِ ، وَحَوَاضِنَ تَضُمُّ بَقَايَاها ضَمَّ الْأُمَمَاتِ لِلْأَوْلَادِ ؛ وَمَعَاقِلَ يُرْجَعُ إِلَيْهَا إِذَا نَابَتِ النَّوْبُ الشَّدَادِ ، وَمَعَاقِدَ يَعْتَصِمُ من مَنَعَتِهَا بِجِبَالٍ وَيَتَمَسَّكُ بِأَطْوَادِ ؛ وَقَلْعَةُ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ هِىَ الَّتِى تَفْتَخِرُ بِقَايَا الْبِقَاعِ بِالْاِتِّصَالِ

بَسْبِهَا ، وَالتَّمَسُّكَ فِي الشَّدَائِدِ بِذَيْلِ حَسْبِهَا ، لَا يُهْتَدَى فِي السَّلْمِ وَالْحَرْبِ إِلَّا بِمَنَارِهَا ،
وَلَا يُقْتَدَى فِي التَّسْلِيمِ وَالْإِمْتِنَاعِ إِلَّا بِأَنَارِهَا ، وَلَا يُسْتَقَى إِلَّا بِمَا يَفِيضُ عَلَى السُّحْبِ
مِنْ فَيْضِ أَمْطَارِهَا ، قَدْ تَرَجَّلَتْ لُتْبَارِزٌ ، وَتَقَدَّمَتْ لُتْنَاهِزٌ ، وَدَلَّتْ بِقَوَاهَا فَمَا
أَحْتَجَبَتْ مِنْ سُجُوفِ الْجَبَلِ بِحِجَابٍ وَلَا أَحْتَجَزَتْ مِنَ الْغَامِ بِحَاجِزٍ ؛ بَلْ أَلْقَتْ إِلَى
قَرَارِ الْمَاءِ حِمْلَهَا ، وَأَثْبَتَتْ فِي مَسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رَجُلَهَا ؛ وَكَشَفَتْ لِلْحَرْبِ الْعَوَانَ
قِنَاعَهَا ، وَأَشَعْلَتْ أُبْنَيْتَهَا مِنَ الذَّهَبِ شُعَاعَهَا ، وَأَشْغَلَتْ أَفْنِيَّتَهَا الْبُرُوقَ أَنْ تُطَاوَلَ
بَاعَهَا ، أَوْ تُحَاوَلَ أَرْتِفَاعُهَا ؛ قَدْ جَاوَرَتْ قُبَّتَهَا الزَّرْقَاءُ أُخْتَهَا السَّمَاءَ ، وَجَاوَزَتْ بُرُوجَهَا
مِنْطَقَةَ الْبُرُوجِ اعْتِلَاءً ؛ وَهِيَ مَعْقِلُ الْإِسْلَامِ يَوْمَ فَرَعِهِمْ ، وَأَمْنٌ قُلُوبِهِمْ أَعَاذَهَا
اللَّهُ مِنْ جَزَعِهِمْ ؛ وَقَدْ نَزَلَ الْعُدُوُّ عَلَيْهَا وَنَازَلَهَا زَمَانًا يُجْمَعُوعُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ،
وَأَقْدَمُوا وَتَقَدَّمُوا وَهُمْ مُتَأَخَّرُونَ ؛ وَطَاوَلُوهَا فَكَانَتْ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ ، وَنَكَالًا لِمَا
خَلَقَهُمْ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ ؛ وَبَيَّتَ اللَّهُ بِهَا أَفْدَامَ بَقِيَّةِ الْقَلَاعِ ، وَقَوَّى بِعَزَائِمِهَا إِنْدَامَ مَنْ فِيهَا
عَلَى الْإِمْتِنَاعِ ؛ وَقَلْعَةُ الْجَبَلِ الْحُرُوسَةُ وَإِيَّاهَا كَالْأَخْتَيْنِ ، وَهِيَ لَهَا ثَانِيَةُ اثْنَيْنِ ؛
وَكِلْتَاهُمَا لِكُرْسَى مُلْكَا الشَّرِيفِ مَنَزَلٌ سَعِيدٌ ، وَمَتَنَزَّهُ يَوْدُ صَفِيحِ الْأَفْلَاكِ لَوْ تَرَامَى
إِلَيْهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

فَلَمَّا رَسَمْنَا بِنَقْلِ مَنْ كَانَ فِي النِّيَابَةِ الشَّرِيفَةِ بِهَا فِي مَنَازِلِهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ،
وَقَدَّمَاهُ أَمَامَهَا كَمَا يَهْتَرَى قَادِمَةُ الرِّيحِ السَّيَّانَ ؛ وَاتَّخَذْنَا مِنْ بُرُوقِ عَزَائِمِهِ لِبَعْضِ
تُعُورِهَا الضَّاحِكَةِ شَبَابًا ، وَمِنْ هَمِيمِهِ الْمُتَّصِلَةِ الْمَدَدِ بِهَا مَا تَمُدُّ مِنْهَا إِلَى سَمَائِهَا سَبَابًا -
أَقْتَضَى رَأْيُنَا الشَّرِيفُ أَنْ نُؤَوَّلَ فِي أَمْرِهَا الْمُهْمُ ، وَبَرَّهَا الَّذِي بِهِ مُصَالِحُ كَثِيرٍ مِنْ
مَمَالِكَا الشَّرِيفَةِ تَمَّ ؛ وَنَحْمَلْ مَشَارِفَهَا بِمَنْ تُضَاحِكُ الْبُرُوقَ سَيُوفُهُ فِي أَيْلٍ كُلِّ نَفْعٍ
مُدْلِهِمْ ، وَنَحْمِلْ حِمَاَهَا بِرَجُلٍ تَمْنَعُ مَهَابَتَهُ حَتَّى عَنْ قَلِّ الْأُسْنَةِ (٩) طَارِقِ الطَّيْفِ
أَنْ يُلِمَّ ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَرْتَعِزُ لَهُ دُرَا ، وَلَا يُنَاحُ لِإِدَارَةِ سَيْلِهِ فِي دَرَا ، وَلَا يَقْدَرُ مَعَهُ

الأسد أن يبيت حول غايه مضجراً، ولا الطير أن يخلق إليه إلا مائجاً بجناحه على الثرى، ولا أدلجت إليه زمر الكواكب إلا تقاعست فلا تستطيع السرى .

وكان فلان هو حامى هذا الحى، ومانع ما يخلو في الثغور من موارد اللى، وغور الحى فلا تبرز له إلا من عقائل المعازل قاصرات الطرف كالدمى، وحافظ ما استودع من مصون، واستجمع من حصون، واستجهر من موارد تردّها من زرد الدروع عيون، ويفرق منها المجانيق سخائب ممطرة بالمنون، فصمم رأينا الشريف على اختياره ليوقل صهوة هذا الجواد، ويوفى ما يجب لهذه العقيلة من مرتقى لحظ ومرتمى فؤاد، ويبحث من الشغف بها عن أمل أمل أو مراد مراد، ويعجب من عقيلتها المصونة أن أبراجها تتبرج وما لنعمائها إنعام ولا لسعادها إسعاد .

فرسم بالأمر الشريف العالى المولوى، السلطانى، الملكى، الفلانى - أعلاه الله وشرقه، وأدام فى الأرض ومن عليها تصرفه - أن تفوض إليه النيابة بقلعة دمشق المحروسة : على عادة من تقدمه وقاعدته، ومقاربتة ومباعدته، وتخليه ومساعدته، وكل ما جرت به العوائد فى رجائها ورجالها، وما لها وما لها، وهذه نيابة شريفه، وسخابة مطيفه، ونعمة تقابل برعايتها، وتكتم نواحيها بإذاعتها، وتقوى الله حلية عنقها، وحلة أفقها، ومجرى الحجر لإجلالها فى طرقها .

فعليك بحفظها ليلاً ونهاراً، وتفقد أحوال من فيها سرا وجهاراً، وفج بابها وغلقها مع الشمس، وتصفح ما بها من لبس، وتنبج أسبابها كما فى النفس، والتصدى لملازمة الخدمة الشريفة فى أبوابنا العالية ببابها، والأخذ فى أدوات حفظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها، والتجسس على من يلج فيها جفنه بكرى وما أثقله مناما،

وإلزام كل واحد بما يلزمه من الوظائف في ليله ونهاره ، وإدلاجه وابتكاره ،
ومن عليه في هذا المعقل إشراف من شرفاته أو تسور على أسواره ، وإظهار الرّج
والصيت والسمعة بالاهتمام في كل ليلة بزفاف عروسها ، وضرب الحرس لنواقيسها ،
والإعلان لصباح الخير لنا في صبحاتها والدعاء الصالح في تغليسه ، وصيانة ما فيها من
حواصل ، أو يصل إليها من وأصل ، وما فيها من ذخائر ، وما في خزائنها العالية من
مدد البحر الزاخر ، وما تشتمل عليه دار الضرب من أموال تُضرب للهبات برسمنا ،
وأموال الناس [التي] حُلت إليها نُشرف تقودها باسمنا ، وخزائن السلاح المنصورة
وما يُستكثر فيها من عدد ، وما يُستغزر من مدد ، والمجانيق التي تحطّر منها كل
خطارة كالفنيق ، وتصعد ومرماها إلى السماء كأنما تحطفه الطير أو تهوى به الريح
في مكان سحيق ، شائلة عقاربها ، آفلة بالأعمار كواكبها ، والحدوج والقسي
والرايات وغير ذلك من سلاح ، أو دروع تردّ السهام على أعقابها وتحني قامات
العوالي وتضيق صدور الصفاح . والبحرية وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة
من نجوم آفاقها ، وغيوم إرعادها وإبراقها ، وديمها إذا أسبلت المسألة ذيوها وأعوانها
إذا شمرت الحرب عن ساقها . وبقية المستخدمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة
أوطانها ، وأمانة العناية بها من سلطانها ، فكل ذلك مذخور لمنافع الإسلام ،
وما ريش السهم لأنه في كل ساعة يُرمى ولا طبع السيف لأنه في كل بارقة يُسام ،
فاحفظ لأوقاتها تلك المواد المذخورة ، واحفظ هؤلاء الرجال فإنهم ظهر العساكر
المنصورة ، وخذ بقلوبهم وأوصل إليهم حقوقهم ، واجمع على طاعتنا الشريفة
متفرقهم وأكرم فريقهم ، ومنهم الممالك السلطانية وهم إخوانك في ولائنا ، والذين
تشرّكهم في آلائنا ، وبالغ في حفظ المعتقلين في سجونها ، ولفظ المعتقدين خلافا
في مكنونها ، ونحن نعيدها بالله ان نقول : تفقدها بالترميم والإصلاح ، ولكنا نأمرُك

أَنْ نَتَعَهَّدَهَا بِمَا نَتَعَهَّدُهُ مِنَ الزَّيْنِ الْمَلَّاحِ ؛ وَلَكِ مِنْ مُعَاوَضَةٍ مَنْ فِي ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ ،
مَنْ لَكَ بَرَّأَيْهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ ؛ وَمَنْ تُرَاجِعُهُ فِيمَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، وَتَجِدُ بِهِ
فِي طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ نُورًا عَلَى نُورٍ ، وَاتَّبِعْ مَرَامِنَا الْمُطَاعَةَ فَهِيَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ؛
وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُجْعَلُكَ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَيَتَوَلَّاهُ بِمَا فِيهِ حُسْنُ السَّيْرِ ،
وَصَلَاحُ السَّرِيرَةِ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ



وهذه نسخة مرسوم شريف بناية قلعة دِمَشْقَ المحروسة ، كُتِبَ بِهَا الْحُسَامُ
الدين «لأچين الإبراهيمي» من إنشاء الشريف شهاب الدين ، رحمه الله ، وهى :
الحمد لله الذى صَانِ الحُصُونِ بِاتِّتِصَاءِ الحُسَامِ ، وَزَانَ المُلُوكَ بِارْتِضَاءِ ذَوِي
الْيَقَظَةِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَهْتَامِ ، وَأَبَانَ سَبِيلَ السَّعَادَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ بَفَرْوِضِ الطَّاعَةِ
وَأَجْمَلَ الْقِيَامِ .

نحمده على أن جعلَ نِعْمَتَنَا لأَصْفِيَانَا وَافِرَةَ الْأَقْسَامِ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ
بِأَوْجِهِ إِقْبَالَ الْوِسَامِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لِعُقُودِ
إِخْلَاصِهَا آتِنْتَظَامِ ، وَلِسَعُودِ اخْتِصَاصِهَا آلَتِنَامِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
الذى مَنَحَهُ الْإِجْلَالَ وَالْإِعْظَامَ ، وَمَدَحَهُ بِالْإِفْضَالِ وَالْإِكْرَامِ ، وَرَجَّحَهُ بِمَزَايَا الْفَضْلِ
عَلَى جَمِيعِ الْأَنْامِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ بِدُورِ التَّمَامِ ، وَرَضِيَ عَنْ أَصْحَابِهِ
الذينَ لَهُمْ صِدْقُ الْإِعْتِرَامِ ، صَلَاةً وَرِضْوَانًا لَهَا تَجْدِيدٌ وَمَزِيدٌ وَتَأْيِيدٌ وَدَوَامٌ ؛ وَسَلَّمَ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد : فَإِنْ آلَاءَنَا لَا تَرَالُ تَحْتَسَارُ الْأَكْفَاءِ ، وَآرَاءَنَا لَا تَبْرَحُ تَمْنَحُ ذَوِي الْمُنَاصَحَةِ
الْإِصْفَاءِ ، وَنِعْمَانَا تُدِيمُ لِمَلَايِسِ إِجْلَالِهَا عَلَى أُولَى الْخِدْمِ الْإِفَاضَةِ وَالْإِضْفَاءِ ، وَتَقْبَى
بُوعُودُ جُودِهَا لِمَنْ أَدَامَ لِمُنَاجِجِ الْمُخَالَصَةِ الْإِقْتِفَاءِ .

ولما كان فلان هو الذى عُرِفَتْ له فى مُهِمَّاتنا خِدْم سالفه ، وأُلِفَتْ منه هِمَّةٌ عَلَيْهِ خَصَّتْهُ بِكُلِّ عَارِفِهِ ، وَخَوَّلَتْهُ نِعَمًا الْوَائِكَةِ ، وَأَهْلَنَاهُ لَاسْتِحْضَافِ الْحَصُونِ فَسَاعَدَهُ تَوْفُرُ التَّوْفِيقِ وَسَاعَفَهُ ، وَنَقَّلَنَاهُ فِي الْمَمَالِكِ فَسَارَ سِيرَةً حَمِيدَةً أَقْتَضَتْ لِمَوَاهِبِنَا لَدَيْهِ الْمُضَاعَفَةَ - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفُ أَنْ زَفَعَ مَحَلَّهُ بِأَعَزِّ الْقِلَاعِ ، وَنُطِّلِعَهُ بِأَفْقَى سَعْدِهَا أَيْمَنَ إِطْلَاعِ ، وَنُنْدِبُهُ لَضَبْطِهَا فَيَحْسُنُ لَهُ فِيهَا الْأَسْتِقْرَارُ وَيُجَدُّ مِنْهَا لَهُ الْأَسْتِدَاعُ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت صدقاته تُحَقِّقُ الْأَطْلَاعَ ، وَهَبَاتُهُ تُفَيْضُ مَلَابِسَهَا الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَنْتَرَاعُ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي نِيَابَةِ قَلْعَةِ دِمَشْقَ

فليأمر النياحة بالقلعة المذكورة بآذِلًا الْأَجْتِهَادَ ، مُوَاصِلًا لِلْعَزْمِ وَالسَّدَادِ ، عَامِلًا بِالْحَزْمِ فِي كُلِّ إِصْدَارٍ وَإِيرَادٍ ، كَافِلًا مِنْهَا بِحَسَنِ الْأَعْتَادِ ، حَافِظًا حَوَاصِلَهَا مِنْ الضَّيَاعِ ، مُقَرَّرًا أَحْوَالَهَا عَلَى أَجْمَلِ الْأَوْضَاعِ ، وَلِيَأْخُذْ رِجَالَهَا بِالْإِتِّلَافِ عَلَى الْخِدْمَةِ وَالْأَجْتِمَاعِ ، وَلِيُحَرِّضَهُمْ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْمَرَاسِمِ وَالْإِسْرَاعِ ، وَلِيُطَالِعَ مِنْ أُمُورِهَا بِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ لِأُبُونَا الْعَالِيَةِ فِيهِ الْمَطَالَعَةُ وَيَجِبُ لِعُلُومِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ الْأَطْلَاعُ ، وَلِيَرَاوِجِعْ كَافِلَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ بِمَا جَعَلْنَا لآرَائِهِ فِيهِ الْإِرْجَاعَ ، وَلِيَكُنْ لَهُ إِلَى إِشَارَتِهِ إِصْغَاءٌ وَاسْتِمَاعٌ ، وَإِلَى سَبِيلِ هَدْيِهِ أَفْتِنَاءٌ وَاتِّبَاعٌ ، وَلِيَقِفَ عِنْدَ مَا يَتَقَدَّمُ بِهِ إِلَيْهِ فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الرُّشْدُ وَالْإِنْتِفَاعُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِدُّ عَلَيْهِ سَوَائِغَ نِعَمِنَا الَّتِي جَادَتْ بِأَجْنَائِسٍ وَأَنْوَاعٍ ، وَيَجُزُّدُ فِي نُصْرَتِنَا حُسَامَهُ الَّذِي مِنْ بَأْسِهِ الْأَعْدَاءُ تَرْهَبُ وَتَرْتَاعُ ، وَيَدِيمُ لَهُ وَلِجَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ صَدَقَاتِ دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ الْإِمْتِنَاعُ ، وَالْخَطُ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمُقْتَضَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه وصية نائب قلعة أوردها في "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التي زُفَّت إليه عقيلتها المُنَمَّعة ، وجايت عليه سافرة ودُونها
 السماء بالسُّحب مُقَنَّعة ، وسَلَّمت إليه مَفَاتِيحُهَا ، وخواتيم الثَّريَّا أَقْفال ، وأُوقِدَتْ له
 مَصَابِيحُهَا ، وفتائل البروق لا تُشَبُّ لِقْقال . فليبدأ بعمارة ما دَعَتِ الحاجة إليه من
 تجديدِ أبنيتها ، وتشديدِ أَقْيَمَتِهَا ، وشَدَّ عَقُودِهَا ، وعدَّ مالا يحصى [في الذخائر] من
 نُقُودِهَا ، [وتنبيه أعين رجالها والكواكب قد هَمَّتْ بِرُقُودِهَا] ، والأخذ بقلوب من
 فيها ، وتدارك بقية ذمائم وتَلَا فيها ، وجمعهم على الطاعة ، وبَذَرِ الإحسان فيهم
 إذا عَرَفَ أرضًا تركو فيها الزراعة ، والتَّمَادَى لهم : فَرُبَّ رجال تجزئ عن عِدَّةِ سنين
 في سَاعَةٍ ، وتُحْصِيْنَ هذا الحِصْنَ المنيع بما يُدَحَّرُ في حواصله ، ويُستَمَدُّ بعمارة البلاد
 المختصة به من واصلِه ، وما يكون به من المجانيق التي لا تُرْقَى عَقَارِهَا ، ولا تُوقَى
 منها أَقَارِهَا ، ولا تُرَدُّ لها مَضَارِبُ ، ولا يُكَفَّفُ من زُبَانِي زَبَانَتِهَا كُلُّ ضَارِبٍ ،
 ولا يُحِطُّ سَهْمُهَا ، ولا يُخْفَى بين النجوم نَجْمُهَا ، ولا يُعْرَفُ ما في صُنْدُوقِهَا [المقفل] ،
 من البلاء المُرْسَل ، ولا ما في نَحْذِهَا المُشَمِّرِ السَّاقِ من النشاط الذي لا يَكْسَلُ ،
 وغيرها من الرايات التي في غيرها لا تُشَدُّ ، ولسوى خَيْرِهَا لا تُعْقَدُ ، وما يَرْمَى فيها
 من السهام التي تَشُقُّ قَلْبَ الصَّخَرِ ، وتُبْكِي خَنَسَاءَ كُلِّ فاقدة على صخر ، وكذلك قِسيُّ
 اليد التي لا يَدَبُهَا ولا قَبْلَ ، وَكَثَائِرُ السَّهَامِ التي كم أصبح رَجُلٌ وبه منها مِثْلُ
 الجبل ، وما يُصَانُ مِنَ اللُّبُوسِ ، ويعدُّ للنعيم والبُوسِ ، وما يَمُدُّ من الستائر التي

(١) الذي في "التعريف" «وقناديل» .

(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .

(٣) في "التعريف" «من العدد والعدد واللبوس» .

هى أسوارُ الأسوار ، ولمعاصم عقائل المعاقِل منها حلى سِوى كلِّ سِوار ؛ وهى التى ثلاثٌ لُثمها على مباسم الشُرَفات ، وتضربُ حُجُبها على أعالى العُرَفات ؛ وسوى هذا مما تعتصم به شواخُ القلال ، ويتنبأ به مقاعد للقتال ؛ فكلُّ هذا حصَّله وحصَّنه ، وأحسبه وحسنه ؛ وأعدَّ منه فى الأمن لأوقات الشدائد ، وأجر فيه على شأو من تقدّم وزد فى العوائد ؛ وهكذا ما يدّخر من عدد أرباب الصنائع ، ومدد التحصين المعروف بكثرة التجارب فى الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يزال يفكر فى تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُن من هذا مُستَكثراً ، وله على ما سواه مؤثراً ؛ حتى لا تزال رجالك مُطمئنة الخِواطِر ، طيبة القلوب ماعليها إلا السُّحب المِواطِر ؛ وأعمل بعادة القلاع فى غلق أبواب هذه القلعة وفتحها ، وتفقد متجددات أحوالها فى مساء كل ليلة وصُبحها ؛ وإقامة الحرس ، وإدامة العسس ، والحذار من لعله يكون قد تسوّر أو اختلس ؛ وتعرّف أخبار من جاورك من الأعداء حتى لا تزال على بصيره ، ولا تبرح تعدُّ لكلِّ أمرٍ مصيره ؛ وأقم نوب الحمام التى قد لا تجد فى بعض الأوقات سواه رسولاً ، ولا تجد غيره مخبراً ولا سواه مسؤلوا ؛ وطالع أبوابنا العالية بالأخبار ، وسارع إلى ما يرد عليك منها من ابتداء وجواب ؛ وصب فكرك كله إليها وإلى ما تَضَمَّنهُ من الصواب .

المرتبة الثانية

(من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف -

ما يكتب فى قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولى - شدّ الدواوين بدمشق . وصاحبها يتحدّث فيما يتحدّث فيه شاد

الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشد الدواوين بِدَمَشَق :

الحمد لله الذى أَرْهَفَ لمصالح دولتنا القاهرة من الأولياء ، سَيْفًا مَاضِيًا ، وَجَرَدَ
لمِهْمَاتِ خِدْمَتِنَا الشريفة من الأصفياء ، عَضْبًا يَغْدُو المُلْكُ عَنْ تَصَرُّفِهِ الجميل رَاضِيًا ،
وَجَدَّدَ السُّعُودَ فى أيامنا الزاهرة لمن لا تَحْتَاجُ هِمْمُهُ فى عِمَارَةِ البلاد المحروسة
مُتَقَاضِيًا .

نُحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تَسْتَعْرِقُ المحامد ، وَتَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ المُسْتَأَنَفَ عَلَى الحامد ؛
وَنَشْهَدُ أَنَّ لَإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُجَاهِدَةً لِأَعْدَائِهَا ، مُجَاهِرَةً لِإِعْلَانِهَا ؛
وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ الْأَنْبِيَاءِ قَدْرًا ، وَأَوْفَى الرُّتَبَةِ مَكَانَةً ، وَإِنْ كَانَ
آخِرُهُمْ عَصْرًا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ نَهَضُوا بِأُمُورِهَا ، وَعَمَرُوا الدِّينَ
قَبْلَ الدُّنْيَا فَلَمْ تَتِمَّكُنِ الْأَيَّامُ مِنْ [نَقْضِ] مَا عَمَرُوا ؛ صَلَاةً يَتَأَزَّجُ نَشْرُهَا ، وَيَتَبَلَّجُ
بِشْرُهَا ؛ وَسَلْمَ تَسْلِيمِهَا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنْ أَوْلَى مِنْ عُدَقَ بِهِ مِنْ مِهْمَاتِنَا الشريفة أَعْمَهَا نَفْعًا ، وَأَحْسَنَهَا فى عِمَارَةِ
البلاد وَقَعًا ، وَأَكْثَرَهَا خِزَانِ الْأَمْوَالِ تَحْصِيلًا وَجَمْعًا ؛ وَأَجْمَعُهَا لمَصَالِحِ الْأَعْمَالِ ،
وَأَضْبَطُهَا لِحَوَاصِلِ الْمَالِكِ الَّتِي إِذَا أَعَدَّ مِنْهَا جِبَالًا تَلَا عَلَيْهَا لِسَانُ الْإِنْفَاقِ :
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) مَنْ زَانَتْ عَزَمَهُ نَزَاهَتُهُ ، وَكَلَّتْ قُوَّتُهُ فى الْحَقِّ خَبْرَتُهُ
وَنَبَاهَتُهُ ؛ وَكَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِنَا الْمُعَدِّينَ لَشَدِّ أَرْكَانِهَا ، وَإِشَادَةِ بُيَانِهَا ؛ وَالنُّهْوضِ
بِمَصَالِحِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ ، وَنَشْرِ كَلِمَةِ عَدْلِهَا الَّتِي تَغْدُو بِالْأُدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ مَبْسُوطَةً وَبِالْأَنْبِيَةِ
الْعَاطِرَةِ مَتَّضُوعَةً .

ولما كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَى مَحَاسِنِهِ ، وَبَنَى عَلَى إِبْرِيْزِ فَضْلِهِ الْمُظْهَرِ مِنْ
مَعَادِنِهِ ؛ مَعَ صَرَامَةٍ تُخَيِّفُ اللَّيْثُ ، وَنَزَاهَةٍ تُعَيِّنُ عَلَى عِمَارَةِ الْبِلَادِ الْغِيُوثُ ؛ وَخَبْرَةٍ
يُظَاهَرُ الْمَصَالِحَ الْخَفِيَّةَ وَفِيهِ ، وَيُبَارِزُ مَعَادِنَ الْأَمْوَالِ مِنْ وَجْهِهَا الْجَلِيَّةِ مَلِيَّةً ؛

وَمَعْرِفَةِ تَعَمُّ الْبِلَادِ بَيْنَ الرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَتَجْعَلُ مَثَلٌ مَا يُودَعُ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ وَالنِّسَاءِ مَثَلٌ
حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُدْبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نُنْبِئَهُ
عَلَى حَسَنِ اعْتِنَانِنَا بِأَمْرِهِ ، وَاعْتِمَادِنَا بِمَا قَدَّمَهُ مِنْ أَسْبَابِ إِسْنَاءِ رُتْبَتِهِ وَرَفْعَةِ قَدْرِهِ ؛
فَلَذَلِكَ رَسْمٌ - زَادَ اللَّهُ فِي غَلَائِهِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُظْهِرًا مِنْ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مَا كَانَ فِي ضَمِيرِ كِفَايَتِهِ مَكْنُونًا ،
مُبْرَزًا مِنْ تَثِيرِ الْأَمْوَالِ وَتَعْمِيرِ الْأَعْمَالِ مَا يَحْقُقُ بِهِ : مِنْ خِصْبِ الْبِلَادِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ
تَعَالَى مَا كَانَ مَظْنُونًا ؛ مُوَالِيًا إِلَى الْخَزَائِنِ الْمَعْمُورَةِ مِنْ حُمُولِ تَدْيِيرِهِ مَا يُنْسِي بِهِ طَائِرُ
تَصَرُّفِهِ مَيُونًا ، وَسَبَبُ تَوْقِفِهِ مَأْمُونًا . وَلِيَكُنِ النَّظَرُ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ هُوَ الْمِهْمُ الْمَقْدَمُ
لَدَيْهِ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي يَتَعَيَّنُ تَوْفُّرُ أَهْتَامِهِ عَلَيْهِ ، فَلْيَجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ أَجْمَادًا يَظْهَرُ أَثَرُهُ ،
وَيُجْتَنَى ثَمَرُهُ ، وَيُجَدِّدَ وَرْدَهُ وَصَدْرُهُ ؛ وَتَتَفَرَّعُ عَنْهُ أَنْوَاعُ الْمَصَالِحِ ، وَتَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ
أَسْبَابُ الْمَدَاحِ ؛ وَمِلَاكُ ذَلِكَ بَسْطُ الْمَعْدِلَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ لِلْبِلَادِ مِنْ أَنْ تُمَطَّرَ أَرْبَعِينَ
يَوْمًا ، وَاعْتِمَادُ الرِّقْقِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَهُ الْبَأْسُ قَوْمًا ، وَلَا يُجِيبُ عَلَى فَاعِلِهِ مَعَ الْحَزْمِ
لَوْمًا ، وَلَا يَطْرُدُ عَنْ أَنْامِهِ الْعَدْلُ فِي مِهَادِ الدَّعَةِ نَوْمًا ؛ وَلْيَصْرِفْ إِلَى اسْتِجْلَابِ
الْأَمْوَالِ وَمُوَالَاةِ حَمْلِهَا هِمَّةً نَاهِضَةً ، وَعِزْمَةً إِلَى مَاقَرُبٍ وَنَائِيٍّ مِنَ الْمَصَالِحِ رَاكِضَةً ،
وَقُوَّةً بِأَسْبَابِ الْحَزْمِ آخِذَةً وَعَلَى أَعْنَةِ التَّدْيِيرِ قَابِضَةً ؛ وَفِيمَا خَبَرْنَاهُ مِنْ عِزَائِمِهِ
الْمَشْكُورَةِ ، وَسِيرَتِهِ الَّتِي مَا بَرَحَتْ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ مَشْهُورَةٍ ؛ مَا يُكْتَفَى بِهِ
عَنِ الْوَصَايَا الْمُؤَكَّدَةِ ، وَيُوثَقُ بِهِ فِيمَا عُدِقَ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسَدَّدَةِ ؛ لِيَكُنْ تَقْوَى اللَّهِ
تَعَالَى أَوْلَى الْوَصَايَا وَأَوْلَهَا ، وَأَحَقُّ مَا تَأَلَّيْتُ عَلَيْهِ تَفَاصِيلُهَا وَجُمْلُهَا ؛ فَلْيَقْدِّمْ تَقْوَى اللَّهِ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَجْعَلْهَا الْعُمْدَةَ فِيمَا اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَيْهِ ؛ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَاهُ .

الوظيفة الثانية - شدّ المهمّات . وصاحبها يتحدّثُ فيما يُطلَبُ للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر في "التثقيف" أنّ عاداته أن يكون مقدّم ألف .

وهذه نسخة توقيع بشدّ المهمات بدمشق ، وهى :

الحمد لله الذى شدّ عُرَا المصالح من الأولياء بكل ذى أيدٍ ، وكلّ مَنْ هو فى المهمات أبطشُ بعَمُرٍ من زَيْدٍ ، ومن له تدبيرٌ كم أغنى باقتناصه لشوارد الأمور عن حباله صَيْد .

(١) [وبعد] فإن أحق من أَسْتُخْلِصَ لاستخلاص الأموال ، وأَخْتِيرَ لَصُونِهَا من الاختلال وحِفْظِهَا من الاختلال ، وأَهْلَ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ : هذا للتمثيل وهذا للامثال ؛ وقَوْضَ إِلَيْهِ التَّصَرُّفُ فى التَّغْيِبِ والترهيب ، والِاجْتِهَادُ فى التَّمْيِيزِ والتَّحْرِيرِ والتَّوْفِيرِ إذ كلُّ مجتهدٍ مُصِيبٌ - من أشتهر بأنه دُوْ حَرَمٌ لا يَبْنَى ، وعَزَمٌ عن المصالح لا يَنْتَفِي ، واحتفالٍ بالأحوال التى منها نُكْرُ من يَجْنَى وشُكْرٌ لمن يَجْتَنَى ؛ وله نَبَاهَةٌ يدركُ بها كلَّ إِبْهَامٍ وكلَّ إِبْهَامٍ ، وَيَطْلُعُ [بها] على فَلَائِتِ السِّنَةِ الأَقْلَامِ ، ويفهمُ بها مقاصدَ كُلِّ مَنْ هو من الحَنَةِ فى كلِّ وَاِدٍ يَهْمُ ، ولا يَخْفَى عليه جَرَاءُ الجَرَائِدِ ولا مَخَازِى المَخَازِمِ ؛ وفيه رَحْمَةٌ كم أَصْبَحَ بها وهو الأَنْبَى ، ولم يَأْتِ قَسَاوَةً يكون بها هو المُنْبَتُّ الذى لا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَتَقَى ؛ وكَم سَاسَ الأمورَ ودَبَّرَهَا فأحْسَنَ فيها السِّيَاسَةَ وأَجَمَلَ التَّدْبِيرَ ، وأَسْتَخْرِجُ [الشَّيْءَ الكَثِيرَ] بالتَّخْوِيفِ السَّيْرِ ؛ حَتَّى جَمَعَ حُسْنَ تَدْبِيرٍ وَأَسْتَرَعَا ، وصنَعَ حَسَنًا وَأَحْسَنَ صُنْعًا .

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

ولما كان فلان هو لهذا الأمر الحليل المسترعى، واسمه في أول مدارج التنويه والتنويل خير مستدعى؛ وفيه من جميل الأوصاف ما يرضى حسن الاقتراح وقد خبر أمور الكتبة، وقد علم من أحوالهم ما هو أحرى لهم بالتجربة؛ وعرف خفايا المعاملات معرفة تامه، وأحاط بجزئيات الجهات وكلياتها إحاطة خاصة وعامة - أقتضى حسن الرأي المنيب، أن رسم بالأمر الشريف - لا يرح يشد عضد كل مهم من الأولياء يأنى كل عزم، ويجعل له سلطانا لا يكل مصلحة إلى حزم ذى حزم - أن يفوض إليه شد المهمات بالشام المحروس .

فليضبط الأمور ضبطاً مستوعباً، وليتصب لذلك انتصاباً مترتباً؛ وليحترز منفذاً ومصرفاً، ومسيراً ومستوقفاً؛ ومتى ظهر حق يتمسك به تمسك الغريم، ولا يحاب فيه ذا بأس قوى ولا ذا منهج إلى المنع والدفع غير قويم؛ وما من جهة إلا ولها شروط صوب الصواب، ولا يعتمد على غير الحق منجاً عن ترويح الكتاب؛ وتكن الجول مسيره، والمتخزجات متوفره؛ وجهات الخصاص مقرره، إذ الضمان لا ينتظر لهم نظرة إلى ميسره؛ فإنهم سوس المعاملات، وكواسر الجهات؛ ومنهم يحفظ أو يضاع، وبهم يترقى أو ينحط الارتفاع؛ وجهات المقطعين الواجب له أن يجعل عليها واقية باقيه، ولتحم لهم حتى لا يتناول إلى ذروتها امتداد الأيدي المختلة ولا خطا العدوان الراقية؛ وليصرف وجهه بحفظه إلى مراقبة من في باب الشد من مقدمين ومن رسل ياكلون أموال الناس بالباطل، ويبيعون الآجل بالعاجل؛ ويخيفون العام والخاص، وكل منهم يروم الغناء وهو رقاص .

هذه زبدة من الوصايا مقنعه، وعزومات غنية عن تكثير في القول أو توسعه؛ والله تعالى يكون له ويعينه، بمتن وكرمه، إن شاء الله تعالى .

الصف الثاني

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية ، وجميع ما يكتب فيها توافيع ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع النصف بـ «المجلس العالي بالياء» مفتتحاً بـ «الحمد لله»)

وبذلك يكتب للقضاة الأربعة بحاضرة دمشق .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية بدمشق المحروسة ، كتب به لقاضي القضاة «بهاء الدين أبي البقاء السبكي» وهي :

الحمد لله الذي أقر أحكام الشرع الشريف ، في أيامنا الزاهرة على أكل القواعد ، وأمر مدار الحكم المنيّف ، في دولتنا القاهرة على أجمل العوائد ، وأمضى فضّل القضاء في ممالكنا الشامية بيد إمام غيت فضائله عن الشواهد ، وأمنه الأئمة لأقتباس الفوائد ، وعدت أحكام الملة منه يُجَاهِر في الحق مجاهد ، مُسَدِّد في الدين سهم أجتهاد رمى به شاكلة الصواب عن أثبت يد وأشد ساعد .

نحمده على نعيمه التي حلت مناصب الدين في ممالكنا الشريفة بأكفائها ، وعلت رتب العلم في دولتنا القاهرة باستقرار من جعته فضائله غاية اختيارها ونهاية أصطفائها ، ودلت على اعتنائنا بتنفيذ أحكام من اتعبت سيرته الجميلة من سهم في اتباعها وجهد في اقتنائها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال أعلامنا بها تتنصر ، وأيامنا على الجهاد لتكون كرامتها هي العليا تقتصر ، وأقلامنا لنشر دعوتها في الآفاق تُسهب ولا توجز وتُطنب ولا تختصر ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من قضت أمته بالحق فعدلت ، وتلقّت عنه أحكام ملته

فَفَاقَتْ بِذَلِكَ الْأُمَّمَ وَفَضَلَتْ ، وَحَكَمَتْ بِمَا أَرَاهَا اللَّهُ مِنْ شِرْعَتِهِ فَمَا مَلَتْ عَنْ سَنَنِهِ الْقَوِيمِ وَلَا عَدَلَتْ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ فَسَلِمُوا ، وَعَمِلُوا فِي دِينِ اللَّهِ بِمَا عَلِمُوا ، وَبَذَلُوا النُّفُوسَ فِي طَاعَتِهِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا أَلْمُوا ؛ صَلَاةٌ تُؤَدِّي بِهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْمُفْتَرَضِ ، وَنُزْغُمٌ بِإِقَامَتِهَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؛ وَسَلَّمٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ تَنَقَّلَ فِي رُتَبِهِ السَّنِيَّةِ ، وَوُطِدَتْ لَهُ بِمَضَرٍ وَالشَّامِ قَوَاعِدُ سِيرَتِهِ السَّرِيَّةِ ؛ وَأُطْلِقَتْ جِيَادُ الْبِرَاعَةِ فِي إِمْضَاءِ حَكْمِهِ فِي الْمَمْلَكَتَيْنِ مَشَانِي أَعْنِيَا ، وَأَنْطَقَتْ صَعَادُ الْبِرَاعَةِ فِي إِعْلَاءِ بَهَائِهِ فِيمَا [السنَّة] أَسْتَهْتَا ؛ وَأَرَدْنَا أَنْ نُرُدَّهُ إِلَى أَعَزِّ الْمَالِكِ عَلَيْنَا لِنُقَرَّرَ عَيْنًا ، وَقَصِدْنَا أَنْ نُعِيدَهُ إِلَى رُتَبَتِهِ بِهَا لِنُوفِّيَ بِاسْتِعَادَتِهِ دِينَهَا ؛ وَأَخْتَرْنَا أَنْ نَجْعِدَ لِهَذِهِ الْوُظُفَةِ سَالِفَ عَهْدِهِ ، وَأَنْ نُزِيَهُ أَعْتَانَا بِأَمْرِ مُنْصَبِهِ الَّذِي لَمْ يَلَهُ مِثْلُهُ مِنَ الْأُمَمَةِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَعَلِمْنَا أَنَّ الدِّيَارَ الْمَضَرِّيَّةَ قَدْ اخْتَصَتْ بِفَضَائِلِهِ زَمَنًا طَوِيلًا ، وَأَنَّ الْبِلَادَ الشَّامِيَّةَ قَدْ أَلْفَتْ مِنْ أَحْكَامِهِ مَا لَمْ تُرِدْ بِهِ بَدِيلًا - مِنْ ظَهَرَتْ فَضَائِلُهُ ظُهُورَ نَعْتِهِ ، وَتَهَادَتْ فَوَائِدُهُ رِنَاقُ الْآفَاقِ : مِنْ عِلْمَاءِ زَمَانِهِ وَأُمَّةٍ وَقْتِهِ ، وَعُلِمَتْ أَوْصَافُ الصُّدُورِ الْأَوَّيِّ مِنْ عِلْمِهِ وَوَرَعِهِ وَسَمْتِهِ ؛ وَنَشَرَتْ الْأَيَّامُ مِنْ عُلُومِهِ مَا لَمْ يُطَوَّلْ يُطَوَّلُ إِلَيْهِ الْمَرَا حِلْ ، وَنَقَلَتْ الْأَقْلَامُ مِنْ فُنُونِهِ مَا يُرَوَّى فَيُرَوَّى بِهِ السَّمْعُ الطَّامِي وَيَخْصِبُّ بِهِ الْفِكْرُ الْمَا حِلْ ؛ وَأَلْفَتِ الْأَقَالِيمُ مِنْ حُكْمِهِ مَا غَدَتْ بِهِ بَيْنَ مَسْرُورٍ بِإِشْرَاقِهِ ، وَمُرَوَّعٍ بِفِرَاقِهِ ، فَمِنْ أَفْضِيَّةٍ مُسَدَّدَةٍ ، وَأَحْكَامٍ مُؤَيَّدَةٍ ؛ وَأَقْوَالٍ مَنَزَّهَةٍ عَنِ الْمَوْئِ ، وَأَحْوَالٍ صَادِرَةٍ عَنْ زَهَادَةٍ مُحْكَمَةِ الْقَوَاعِدِ وَزَاهَةِ الْجَمْعَةِ الْقَوِيَّةِ ؛ وَإِصَابَةٍ دَالَّةٍ عَلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ عِلْمٍ وَوَرَعٍ ، وَإِجَابَةٍ فِي الْحَقِّ تَحْيَا بِهَا السَّنَنُ وَتَمُوتُ الْبِدَعُ ، وَشِدَّةٍ فِي الدِّينِ تَصْدَعُ فِي كُلِّ حُكْمٍ بِالْحَقِّ وَإِنْ صَدَعَ ؛ وَعَدْلٍ لَا يُسْتَلَانُ

جَانِبُهُ ، وَحَرِّمَ لَا يُسْتَرْثَلُ صَاحِبُهُ ، وَلَا يُسْتَنْزَلُ رَأْسُهُ ؛ وَقُوَّةٌ فِي الْحَقِّ تَمْنَعُ الْمُبْطَلَ مِنْ
الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، وَلِيْنٌ فِي اللَّهِ يُفَسِّحُ لِلْحَقِّ مَجَالَ الْقَوْلِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَالِسٌ غَدَّتْ بِالْعِلْمِ
طَيِّبَةُ الْأَرْجِ ، وَفَضَائِلُ يُحَدِّثُ فِيهَا عَنْ مَوَادِّ فِكْرِهِ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ ؛ وَبَدَائِعَ
تُضْرَبُ إِلَى أَسْتِمَاعِهَا أَجَادُ الْإِبِلِ ، وَبَدَائِعُ تَهْرُمُ الْأَيَّامُ وَعُمْرُ شَبَابِهَا مُقْتَبِلٌ .

ولما كان المجلس العاشر - أدام الله نعمته - هو الذي وردَ على أبوابنا العالية ونور
ولائه يسعى بين يديه ، وصدر الآن عنها وحلّل آلائنا تَضَفُّوْهُ عَلَيْهِ ؛ وَأَقَامَ فِي خِدْمَتِنَا
الشريفة معدوداً في أكرم من بها قطن ، وعادَ إلى الشام مجموعاً له بين مُضَاعَفَةِ النِّعَمِ
والعُودِ إِلَى الْوَطَنِ . وهو الذي تحتال به المناقب ، وتختار فضله العواقب ؛ وَيُشْرِقُ
قَلَمُهُ بِالْفَتَاوَى إِشْرَاقَ النَّهَارِ ، وَتُعْدِقُ مَنَافِعُهُ إِغْدَاقَ الشَّجَبِ بِالْأَمْطَارِ ، وَتُحَدِّقُ
الطَّلِبَةُ بِهِ إِحْدَاقَ الْكِمَامَةِ بِالثَمَرِ وَالْهَالَاتِ بِالْأَفْئَارِ ؛ وَهُوَ شَافِي عِيَّ كُلِّ شَافِيٍّ ،
وَدَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِيٍّ ؛ طَالَمَا جَانَبَ جَنْبَهُ الْمُضَاجِعُ سُهَادَا ، وَقَطَعَ اللَّيْلَ ثُمَّ أَسْتَمَدَهُ
لَمَدَدَ فِتَاوِيهِ مَدَادَا ؛ وَجَمَعَ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ نَظْراً وَتَقْلِيدَا ، وَالْمَذْهَبَيْنِ مِنَ الْقَوْلَيْنِ قَدِيمَا
وَجَدِيدَا ؛ وَسَلَكَ جَمِيعَ الطَّرِيقِ إِلَى مَذْهَبِ إِمَامِهِ ، وَمَلَكَ حِسَانَهَا فَاسْفَرَلَهُ كُلُّ وَجْهِ
تَغَطَّى مِنْ أَوْرَاقِ الْكُتُبِ بِلِثَامِهِ ؛ وَأَنْفَتَحَتْ بِفَهْمِهِ لِلتَّصَانِيفِ أَبْوَابٌ شَغَلَتْ
«الْقَفَالَ» أَقْفَالُهَا ، وَنَفَتَحَتْ [لَهُ] نَفَحَاتُ مَا «لِلْمَاوَرِدِيِّ» مِثَالُهَا ، وَمَنْحَتٌ حَلَالًا يَفْخَرُ
«الغزالي» إِذَا تُسِجَ عَلَى مَنَوَالِهِ سِرْبَالُهَا ؛ فَلَوْ أَدْرَكَهُ «الرَّافِعِيُّ» لَشَرَحَ «الْوَجِيرَ» مِنْ
لَفْظِهِ ، وَأَمْلَى أَحْكَامَ الْمَذَاهِبِ مِنْ حِفْظِهِ ؛ وَصَدَّرَ الْمَسَائِلَ بِأَقْوَالِهِ ، وَأَعَدَّ لِكُلِّ
سُؤَالٍ وَارِدٍ حُجَّةً مِنْ بَحْثِهِ وَبُرْهَانًا مِنْ جِدَالِهِ ؛ فَلَهُ فِي الْعِلْمِ الْمُرْتَقَى الَّذِي لَا يَدْرُكُ ،
وَالْمُنْتَهَى الَّذِي لَا يُنَازَعُ فِي تَقَرُّدِهِ وَلَا يُشْرَكُ ، وَالْغَايَةُ الَّتِي أَحْرَزَهَا دُونَ غَيْرِهِ فَلَوْلَا
الْمَشَقَّةُ لَمْ تُتْرَكْ ؛ وَهُوَ الَّذِي مَا زَالَ بِهَذِهِ الرِّبَّةِ مَلِكِيًّا ، وَبِمَا عُدِّقَ بِذِمَّتِهِ مِنْ أَحْكَامِهَا

وَفِيَّاءَ، وَبِكُلِّ مَا يُرِضِي الْخَلِيقَةَ عَنْهُ مِنْ أَحْوَالِهَا قَائِمًا وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، وَبِأَعْبَائِهَا مُسْتَقِلًّا مِنْ حِينَ مَنَحَهُ اللَّهُ الْعِلْمَ نَاشِئًا وَأَتَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَمَا بَرَحَ تَدْعُوهُ التَّقْوَى فَيُجِيبُهَا، وَيَتْرَكُ مَا لَا يُرِيبُ نَفْسَهُ تَنْزِيهًا عَمَّا يُرِيبُهَا، فَكَمْ جَحَرَ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ مِنْ عَلَيْهِ عِيُونًا، وَغَرَسَ بِهَا مِنْ أَفْئَانٍ فَضْلَهُ فَنُونًا، وَكَانَ لَهَا خَيْرٌ جَارٍ تَرَكَ لَهَا مَاسِوَاهَا، وَأَكْرَمَ تَزِيلِ نَوَى بِالْوَصُولِ إِلَيْهَا مَصْلَحَةَ دِينِهِ فَلَمْ يُضَيِّعِ اللَّهُ لَهُ نَيْتَهُ الَّتِي نَوَّاهَا، وَأَلْفَ قَوَاعِدَ أَهْلِهَا وَعَوَائِدِهِمْ، وَعَرَفَ بِحُسْنِ أَطْلَاعِهِ مَا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ غَائِبَهُمْ وَشَاهِدَهُمْ، وَعَدَّوْهُ مِنَ النِّعَمِ الْمَقْبُولَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَقْتَدَوْا فِي مَحَبَّتِهِ بِالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؛ ثُمَّ تَدِمَ إِلَى الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ وَمَا كَانَ قُدُومُهُ إِلَّا عَلَيْنَا، وَوَفَدَ إِلَيْهَا بِحُسْنِ مَوَدَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِ اللَّتَيْنِ مَا وَفَدَ بِهِمَا إِلَّا إِلَيْنَا؛ فَوَإِنَّا مِنْهُ إِمَامًا لَا يُحْكَمُ فِي تَوَلِيَّتِهِ الْحُكْمَ بِالْهَوَى، وَلَا يُتَوَى فِي تَقْلِيدِهِ الْقَضَاءُ غَيْرُ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ « وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى » ؛ وَهُوَ - بِمَجْدِ اللَّهِ - لَمْ يَزَلْ بِقَوَاعِدِ هَذَا الْمَنْصِبِ خَيْرًا، وَبِعَوَائِدِ هَذِهِ الرِّتَبَةِ بَصِيرًا، وَبِإِجْرَائِهَا عَلَى أَكْمَلِ السَّنَنِ وَأَوْضَحِ السَّنَنِ جَدِيرًا، وَبِإِمْضَاءِ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي يُحَقِّقُ إِجْمَادَ الْحَقِّ فِيهِ لِلْأُمَّةِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ؛ مَعَ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ فَضَائِلُهُ مِنَ الْوُقُوفِ مَعَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَالتَّحَلُّى بِالْوَرَعِ الْمَتِينِ، وَالتَّخَلُّى لِلْعِبَادَةِ الَّتِي أَصْبَحَ مِنْ أَتَصَفَّ بِهَا مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْأَشْرَفِ النَّاصِرِيِّ - لِأَزَالِ عِلْمِ الْعِلْمِ فِي أَيَّامِهِ مَرْفُوعًا، وَأَلَمَ الْجَهْلُ بِمَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ دَوْلَتَهُ مِنَ الْأُتَمَّةِ الْأَعْلَامِ مَدْفُوعًا - أَنْ يَفُوضَ إِلَى الْمَشَارِ إِلَيْهِ قَضَاءُ الْقَضَاءِ الشَّافِعِيَّةِ، وَنَظَرُ الْأَوْقَافِ بِدَمَشْقِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالُهَا بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، وَمَا هُوَ مُضَافٌ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالتَّدَارِيسِ وَالتَّصْدِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى عَادَةِ مَنْ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ وَقَاعِدَتِهِ وَمَعْلُومِهِ .

فَلْيَقَابِلْ هَذَا التَّقْلِيدَ السَّعِيدَ بِيَدِ زَيْدٍ فِي الْحَقِّ تَمَكُّنُهَا ، وَعَلَى الْخَيْرِ تَمَرُّنُهَا ، وَفِي الْعَدْلِ
 أَنْبَسَاطُهَا ، وَفِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى بِحَسَنِ الْمَعَاظِدَةِ عَلَى الْحَقِّ قُوَّتُهَا وَاحْتِيَاطُهَا ، وَلِيَمِضْ
 عَلَى مَا أَلَفَ مِنْ سِيرَتِهِ الَّتِي زَانَ الْعِلْمُ أَوْصَافَهَا ، وَزَانَ الْوَرَعُ أَتَّصَافَهَا ، وَحَلَّى الْعَدْلُ
 مَفَاحِرَهَا ، وَأَحْيَا الثَّقَى مَا ثَرَّهَا ، وَتَنَاقَلَتْ رِفَاقُ الْآفَاقِ أَحْكَامُهَا ، وَأَسْتَصَحَبَتْ مِنْ
 هُدَايَا هُدَايَا مَا تُشْفِي بِهِ حُكَّامُهَا ، وَفِيمَا نُعِتَ مِنْ مَحَاسِنِهِ مَا يُبْنِي عَنْ الْوَصَايَا الْمَجْدَدَةِ ،
 وَالْإِشَارَاتِ الْمُرَدَّدَةِ ؛ لَكِنِ الذِّكْرُ يُتَقَوَّى بِاللَّهِ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرْفَعُ الْمُتَّقِينَ ، وَتَجْمَعُ
 مَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ فَلْيَجْعَلْهَا خُلُقَهُ مَا اسْتَطَاعَ ، وَلْيَرْحُكْهَا هُوَ الْحُكْمُ الْمَتَّبِعَ
 وَأَمْرُهَا هُوَ الْأَمْرُ الْمَطَاعَ ، وَالْإِعْتَادَ رَابِعَ عَشَرَ الْمَحْرَمِ سَنَةِ
 خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

قُلْتُ : وَلَمْ أَفَفْ عَلَى تَفْوِيضِ لِقَاضٍ مِنْ كِتَابَةِ مَنْ تَقَدَّمَ سِوَى تَفْوِيضِ وَاحِدٍ ،
 مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، كَتَبَهُ لِقَاضِي الْقَضَا « شَهَابُ الدِّينِ بْنِ الْمَجْدِ
 عَبْدِ اللَّهِ » بِالشَّامِ الْحَرُوسِ ، عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ . وَهَذِهِ نَسِخَتُهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِشَرَائِعِهِ ، وَالتَّنَسُّكِ بِذَرَائِعِهِ ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِتَأْيِيدِ أَحْكَامِ
 شَارِعِهِ ، وَالتَّوَصُّلِ بِهِ إِلَى دِينٍ يُقَطِّعُ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ أَعْنَاقُ مَطَامِعِهِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَأْخُذُ مِنَ الْخَيْرِ بِجَمَامِعِهِ ، وَيُضَاهِي الْغَامَ فِي عُمُومِ مَنَافِعِهِ ، وَيُيَاهِي
 السِّيفَ بِقَلَمِ الشَّرْعِ فِي قَهْرِ دَاصِيِهِ وَحِمَايَةِ طَائِعِهِ . وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُوَدِّي لِلْإِيمَانِ أَمَانَةً وَدَائِعِهِ ، وَتَهْدِي إِلَى صِيَانَةِ مَشَارِعِهِ ، وَتَقِيمُ
 مِنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ تُقْسِمُ الْأَنْوَارُ بِلَوَامِعِهِ ، وَتُقْسِمُ الْأَبْصَارُ بِبِدَائِعِهِ ، وَتَجُولُ
 الْفَتَاوَى فِي صَدْرِهِ الْفَسِيحِ وَتَجُولُ فِي شَوَارِعِهِ ، وَتُرْهِفُ مِنْهُمْ لِلْحُكْمِ الْعَزِيزِ كُلِّ قَلَمٍ
 يَدُلُّ السَّهْمَ عَلَى مَوَاقِعِهِ ، وَيُنَبِّهُ الرُّوحَ مِنْ مَقَاتِلِ الْأَعْدَاءِ عَلَى مَوَاضِعِهِ ، وَيَسْرِي

غَمَّامُهُ إِلَى الْأَعْدَاءِ بِصَوَاعِقِهِ وَإِلَى الْأَوْلِيَاءِ بِهَوَامِعِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ
وَرَسُولَهُ الَّذِي أَسْعَدَ الْأُمَّةَ بِطَاعَتِهِ ، وَأَصْعَدَ الْأُمَّةَ فِي مَطَالِعِهِ ، وَأَسْعَفَ الْمَلَّةَ بِمَا
أَبْقَى اللَّهُ فِيهَا مِنْ حَسَنِ صَنَائِعِهِ وَيَمِّنَ طَلَائِعِهِ ، وَمِنْ شَرِيعَتِهِ الَّتِي أَمِنَ حَبْلُهَا الْمُدُودُ
مِنْ جَذْبِ قَاطِعِهِ ، وَكُفِّيَ شَرَّ قَاطِعِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً [تَتَوَالَى
إِلَيْهِ تَوَالِي] الْعَذْبِ إِلَى مَنَائِعِهِ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَقَامَنَا لِحِمَاةِ شَرِّهِ الشَّرِيفَ أَنَّ يُسْتَبَاحَ حِمَاهُ ، أَوْ يُبَاحَ لِأَحَدٍ
مِنْ حُكَّامِهِ أَنْ يَرْكَبَ هَوَاهُ ، أَوْ يَتَعَدَّى حُدُودَهُ فِي سُخْطِهِ أَوْ رِضَاهُ ، أَوْ يُحْدِثَ فِي أَمْرِهِ
مَا لَيْسَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَدًّا عَلَى سِوَاهُ - [جَعَلْنَا] نُجِدُّ عَلَى إِقَامَةِ مَنَارِهِ أَنْ يُطَمَسَ ،
وِإِدَامَةِ مَبَازِهِ أَنْ يُقْلَعَ مَنَارُهَا أَوْ يُخْنَسَ ، أَسْتَدَامَةً لِنَأْيِسَ حُكَّامِهِ ، وَتَأْيِيدَ أَحْكَامِهِ ،
لَأَنَّهُ سَحَابٌ أَنْوَاءٍ يَغْمُ الرِّبْعَ رُبُوعَهَا ، وَمِشْكَاةُ أَنْوَارٍ يُكَادُ الصَّبَاحُ لَمُوعَهَا ، وَأَفَاقِي
وَفَاقِي تُنِيمُ بِهِ الْأُمَّةَ ضُرُوعُهَا ، وَشَجَرَةُ مَبَارَكَةِ إِسْلَامِيَّةِ زَكَّتْ أَصُولُهَا وَتَمَّتْ فُرُوعُهَا ،
شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا خَصَّنَا بِهِ : مِنْ تَحْصِينِ مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ ، وَتَحْسِينِ مَسَالِكِ دَارِ السَّلَامِ ،
لِنَمْنَعَ الْحَنَّ أَنْ تُسَامَ ، وَبُرُوقَ الْفِتَنِ أَنْ تُسَامَ ، وَوُجُوهَ الْفِتَوَى أَنْ تَتَرَنَّ إِلَّا بِسَامَةِ
الشَّامِ ، غِبْطَةً بِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْإِسْلَامِ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، وَأَشْرَفُ وَأَنْبَى ، وَأَعْظَمُ
بَلَدٍ تَنْشَعِبُ بِالْمَذَاهِبِ طُرُقًا ، وَتَوُدُّ الْمَجْرَةَ لَوْ وَقَعَتْ بِهَا عَلَى الشَّرِيعَةِ نَسَقًا . تَتَرَاخَمُ
فِي مَرْكَبِهَا الْأَعْلَامُ ، وَتَنْصَافِرُ إِلَى الْجِهَادِ فِي اللَّهِ بِالْجِسَادِ وَالْجِدَالِ تَارَةً بِالسِّيُوفِ
وَتَارَةً بِالْأَقْلَامِ . وَدِمَشْقُ حَرْمِهَا اللَّهُ هِيَ أُمُّ ذَلِكَ الْإِقْلَامِ ، وَمَدَدُهُ الَّذِي يَخْنُو عَلَى
مِشَارِعِهَا حَنُوُ الْوَالِدَةِ عَلَى الْفَطِيمِ ، وَتَنْبَتُ بِهَا فَوَائِدُ لَا تَأْمَنُ مَعَهَا الْغَوَانِي حَتَّى
تَلْمِيسَ «جَانِبِ الْعِقْدِ الْعَظِيمِ» ، وَهِيَ دَارُ الْعِلْمِ ، وَمَدَارُ الْحُكْمِ ، وَمَوْطِنُ عُلَمَاءِ نَتَعَاقِبِ

فيها كواكبهم ، وَتَتَنَاقَبُ سَحَائِبُهُمْ ، وَتَتَنَاهَى إِلَى حَكَمِهَا الْعَزِيزُ الشَّكُورُ ، وَتَتَفَصَّلُ بِحَكْمِ حَاكِمِهَا الدَّعْوَى ، وَتَمْتَدُّ جَنَاحُ طَيْلَسَانِهِ عَلَى رَضْوَى ، وَيُخْلَقُ الْبَرْقُ وَرَاءَ فَهْمِهِ وَلَا يَبْلُغُ غَايَتَهُ الْقُصْوَى ؛ وَيَطُولُ قَلَمُهُ عَلَى السَّيْفِ الْمُشَهَّرِ ، وَيُرْفَرَفُ سِجْلُهُ عَلَى الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ ؛ كَمْ حَلَّتْ فِي صُدُورِهِ صُدُورٌ ، وَكَمْ طَلَعَتْ مِنْهُمْ شُمُوسٌ وَبُذُورٌ ، وَكَمْ حُدَّتْ مِنْهُمْ أُمُورٌ عَاقِبَةٌ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ؛ كَمْ آدَاءٌ دَرَسَ بِهِمْ ذِكْرٌ ، وَكَمْ آدَبٌ نَفَسَ شِكْرٌ ؛ كَمْ بِهِمْ مَجْدٌ رَسَخَ ، وَجَدُّ لَمْلَمَةٌ مَمْلَأَةٌ نَسَخَ ؛ كَمْ أَفْضِيَّةٌ لَهُمْ بِالْحَقِّ وَصَلَتْ ، وَقَضِيَّةٌ لِلْحَقِّ فَصَلَتْ ، وَمُهَنَةٌ مِنْ غَلِيمِ الْإِلَاحِ حَصَلَتْ ؛ كَمْ سِجْلٌ صَاحِبُ هَذَا الْمَنْصِبِ حَامِلٌ عَلَيْهِ الْمَنْشُورُ ، وَمَصْبَاحٌ دِيمِهِ الْحَافِلَةُ عَلَى مِزْرَ الدُّهُورِ ؛ بِشَرَفٍ مُدْرَسٍ عِلْمٌ يُطْلَعُ مِنْ مُحَرَّابِهِ ، وَلَسَّكَ حِلْمٌ يَبْدُو بَدْرُهُ التَّمَامُ خَلْفَ سَحَابِهِ ؛ وَمَجْلِسُ إِفَادَةٍ ، أَعْقَدَ عَلَيْهِ فِيهِ الْإِجْمَاعُ ، وَمَحْفَلُ سَادَةٍ ، كَانَ فِيهِمْ وَاسِطَةُ عَقْدِ الْاجْتِمَاعِ .

[ولما] تَزَلَزَتْ قَدَمُ مَنَابِرِهِ ، وَأَتَتْكَ حِجَابُ ضَمَائِرِهِ ؛ وَأَسْرَتَهُ الشَّيْطَانُ بِكَيْدِهِ الْمَتِينِ ، وَأَضَلَّهُ عَلَى عِلْمِهِ الْمُبِينِ ؛ وَسَبَقَ الْقَلَمُ الشَّرْعِيُّ ، بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، وَمَضَى الْحُكْمُ الْقَطْعِيُّ ، بِمَا هُوَ مِنْ تَصَرُّفِهِ بَائِنٌ - تَرَدَّدَ الْأَخْتِيَارُ الشَّرِيفُ فِيمَنْ يُحَلِّي جِيدَهُ بِتَقْلِيدِهَا ، وَتَوَهَّلَ يَرَاعُهُ لَتَسْلِيمِ مَقَالِيدِهَا ؛ وَصَوَّبْنَا صَوَابَ النَّظَرِ فِيهَا مِصْرًا وَشَامًا ، وَأَسْتَشْرَفْنَا أَعْلَامًا ، وَتَيَقَّنَّا لِأَقْوَى مَا يَكُونُ [لَهَا] قَوَامًا ؛ وَأَبْتَكْرْنَا أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا مَنْ كَانَ لِحُلَّةِ الْمَجْدِ طِرَازًا ، وَيَزِيدُ الْعَمَلَ إِلَيْهِ اعْتِرَاءً وَالْعِلْمَ بِهِ اعْتِرَازًا ؛ إِلَى أَنْ أَجْمَعَ رَأْيُنَا الْعَالِي عَلَى مَنْ لَا يُنْكِرُ دُوْقِدَمَ وَلَا قَدَمَ وَلَا قَلَمَ ، أَنَّهُ السَّابِقُ ؛ وَلَا يَجْحَدُ رَبُّ عِلْمٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا عِلْمٌ ، أَنَّهُ الْبَاسِقُ . وَلَا يُشَكُّ أَنَّ مَنْ فَوَائِدُهُ يُسْتَمَدُّ الْمَطَرُ مِنْ تَوْقُدِ ذَهْنِهِ يُقَدِّحُ زِنَادُ الْبَارِقِ ، وَلَا يَرْتَابُ الْبَحْرُ أَنْ فَوَائِدُهُ مَا يَطْوِقُ الْعُنُقَ وَيُسَنِّفُ الْأُذُنَ وَيَتَوَجُّ الْمَفَارِقُ ؛ وَلَا يُمَارَى فِي فَضْلِهِ الَّذِي لَوْ طَلِبَ لَهُ مِثْلٌ لَمْ يُصَبْ ، وَلَوْ أَدْعَى الْكَوْكَبُ السَّارَى أَنَّهُ لَهُ شَيْبَةٌ لَمَسَهُ النَّصَبُ ، أَوْ تَلَفَّتْ أَعْنَاقُ الْقَنَا إِلَى قَلَمِهِ لَا يَقْنَتُ أَنَّهَا كُلُّ عَلَى الْقُضْبِ ؛

وهو الذى أفتى عُمره فى تحصيل العلم اشتغالا ، وجدّ فى الطلّب لصالح العمل وإن
تعالى ؛ وبقي فقيه قوم ما جدّ منهم مثله ما جد ، ولا جادت يد كريم منهم تمتد بما
هو جائد ؛ ودرج أقرانه إلى الله وخلى دونهم شرعا لا يردّ واردا ، وحلّف بعدهم
سهما فى الكفالة وإحدا .

وكان المجلس العالى - أدام الله تأييده - هو الذى تحتلّ به المناقب ، وتختار
فضائله العواقب ؛ وشُرِّق بقلبه الفتاوى إشراف النهار ، وتُغْدق منافعُه إغداق
السُّحب بالأمطار ، وتُحْدِق به الطلبة إحداق الحكمة بالثمر والهالات بالأقمار ؛
وهو شافى عي كل شافى ، ودواء ألم كل المعى ؛ طالما جانب جنبه المضاجع
سهادا ، وقطع الليل ثم استمده لمدد فتاويه مدادا ؛ وجمع بين المذهبين نظرا وتقليدا ،
والمذهبين من القولين قديما وجديدا ؛ وسلك جميع الطرق إلى مذهب إمامه ،
وملك حسانها فأسفرله [كل] وجه تغطى من أوراق الكتب بلثامه ؛ وانفتحت
[بفهمه] للتصانيف أبواب شغلت « القفال » أفتالها ، ونفحت له نفحات
ما « للوردى » مثالها ، وسفحت ديم غزار يسق « المزنى » سجالها ، ومنحت حلا
يفخر « الغزالي » إذا نسج على منواله سربالها .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال يحدد ملايس فضله ، ويقلد كل عمل لصالح
أهله - أن يفوض إليه قضاء الشافعية بدمشق الحروسة وأعمالها وجندها
وضواحيها ، وسائر الممالك الشامية المضافة إليها والمنسوبة لها والمحسوبة فيها ؛ يوئى
ذلك ولاية صحيحة شرعية ؛ على عادة من تقدّمه وقاعدته المرعية ؛ مع ما هو مضاف
إلى من كان قبله من تدريس المدارس ، تقويضا لا يئافسه فيه منافس ، ولا يحالسه
فى درسه إلا من ارتضى من النجوم ان يجالس ؛ وأذنا له أن يستنيب عنه من

لا يَجْبُلُ عند الله ولا عِنْدَنَا بِاسْتِنَابَتِهِ ، ولا يُدَاخِلُهُ ظَنٌّ في خَلَاصِ ذِمَّتِهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى الله في نِيَابَتِهِ ؛ عَلَى أَنَّهُ يَتَفَقَّدُ أَعْمَالَهُمْ ، وَيَتَصَفَّحُ أَحْوَالَهُمْ : فَمَنْ نَقَلَ إِلَيْهِ نِقَاتَهُ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ أَقْرَهُ ، وَإِلَّا صَرَفَهُ ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ إِلَى عَمَلِهِ كَرَهُ ؛ وَهُوَ الْقَائِمُ بِحُجَّةِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَحُجَّةِ الله عَلَيْهِ قَائِمُهُ ، وَعَلَيْهِ إِنْ قَصَرَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي أُمُورِهِ تَعَوُّدُ الْأَلِئِمَّةِ ؛ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّا مَا كُنَّا نَعْرِفُكَ عَيَانًا ، وَإِنَّمَا وَصِفْتَ لَنَا حَتَّى كَأَنَّا نَرَاكَ وَسَمِعْتَ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّا نَرَاكَ ؛ فَشَيْدَ مَنْ شَيْدَ لَكَ شُكْرُهُمْ أَرْكَانًا ، وَأَعْلَى ذِكْرُهُمْ لِمَجْدِكَ بِنِيَانًا ، وَجَعَلَ لَكَ قَدْرَهُمُ الْجَمِيلُ مِنَّا سُلْطَانًا ؛ وَأَقِمَّ بِحُسْنِ سُلُوكِكَ عَلَى مَا قَالُوا فِيكَ بُرْهَانًا ؛ وَأَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ مَعْرُوفِهِمْ وَجَازِهِمْ عَنْ حُسْنِ ظَنِّهِمْ بِالْحَسَنَاتِ إِحْسَانًا .

وَنَحْنُ نُوصِيكَ بِوَصَايَا تَشْهَدُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْكَ بِبَلَاغِهَا ، وَيَعْتَرِضُ مِنْهَا فِي الْخُلُوقِ شَيْخًا : فَأَيُّ الرِّجَالِ يَقْدِرُ عَلَى مَسَاغِهَا ؛ فَإِنْ قُمْتَ بِهَا كَأَنَّ لَنَا وَلَكَ فِي الْأَجْرِ أَشْتَرَاكَ ، وَإِنْ أَضَعْتَ حَقُوقَهَا فَالْلهُ يَعْلَمُ أَنَّا أَخْرَجْنَا هَذِهِ الْأَمَانَةَ مِنْ عُنُقِنَا وَقَلَدْنَاكَ ، وَاللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ بَيْنَا وَبَيْنَكَ شُهُودٌ عَلَى مَا أُولَيْنَاكَ وَمَا وَلَّيْنَاكَ ؛ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا تَعْلَمُهُ سَوَاءً رَضِيَ فَلَانٌ أَوْ سَخِطَ فَلَانٌ ؛ وَالْإِنْتِهَاءُ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ عُمُومُ الْمَصَالِحِ ، وَإِمْضَاءُ كُلِّ أَمْرٍ عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ ؛ وَإِنَامَةُ حُدُودِ اللهِ وَلَا تَتَعَدَّ حُدُودَهُ ، وَقَعَّعَ الْبِدْعَ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ لَا لِإِثَارَةِ فِتْنَةٍ مَقْصُودَةٍ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْكَرْتَهُ أَنْتَ وَأُمِّثْلُكَ مِنْ الْأُئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ تَسْرُعِهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، وَتَطَلُّعِهِ إِلَى مَطَالِبِ سَقَطِ دُونِهَا فِي مَهَاوِي الْمَهَالِكِ ؛ فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَ فِي هَذَا النَّحْوِ سُبُلَهُ ، أَوْ «تَتَّبِعَ» عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ» .

والصدقات الحكيمة على مادة المأكين ، وجادة الشاكين ؛ ففرقها على أهلها ،
وأجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها ؛ ولا تبقى منها بقية تبقى معرصة لأكلها ،
فلو أراد واقفوها - رحمهم الله - أنها تبقى مخزونة ، لمأسمحوها ببدلها ؛ وبقية الأوقاف
شارف في أمورها ، وشارك الواقفين - رحمهم الله - في أجورها ؛ وخص الأسارى -
أحسن الله خلاصهم - بما يصل به إحسانك إليهم ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال
التي كانت عليهم .

والأيتام - جبرهم الله - : منهم الطفل والمميز والمراهق ومن لم يملك رشد ، أو من
يحتاج أن يبلغ في جواز التصرف أشده ؛ وكل هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضره من
ينفعه ، ولكن الله يعرفه وفي أعماله يرفعه ؛ فاجتهد أن تكون فيهم أباً براً ، وأن
تتخذ فيهم عند الله أجراً ، وأن تعامل في نيك بمثل ماعاملتهم إذا أنقلبت إلى الدار
الأخرى ، وأحفظ أموالهم أن تلحقها أجرة العمال ، وترجع في قراضها إلى ما يحجب
برئوس الأموال ؛ ومثل أعمالك [المعروضة] على الله في صحائفها المعروضة ، وأحذر
من المعاملة لهم إلا بفائدة ظاهرة وردن مقبوضة .

والجهات الدينية هي بضاعة حفظك ، ووداعة لحظك ، فلا تول كل جهة إلا من
هو جامع لشرطها ، قائم بموازين قسطها .

والشهود هم شهداء الحق ، وأمناء الخلق ؛ وعلى شهاداتهم تبنى الأحكام ، فإياك
والبناء على غير أساس ثابت فإنه سريع الانهدام ؛ ومنهم من يشهد في قيمة المثل
ويتعين أن يكون من أهل البلد الأمثل ، لأنه لا يعرف القيمة إلا من هو ذو وسعة
ممول ؛ ومنهم من أذن له في العقود فامنع منهم من تسهل بسبب من الأسباب ، وما
تمهل إشفاقاً لاختلاط الأنسال والأنساب ؛ يقبل بالتعريف ما يخلو من الموانع

الشرعية مَنْ كَانَ، وَلَا يُحْسِنُ فِي تَرْوِيحِهِ يُمْسِكُ إِمْسَاكًَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يُسْرَحُ تَسْرِيحًا
بِإِحْسَانٍ؛ وَهَؤُلَاءِ مَفَاسِدُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَالْبَلَاءُ بِهِمْ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَقْصَرَ
أَوْ يُسْتَقْصَى؛ فَاعْتَبِرْ أَحْوَالَهُمْ أَعْتَابًا جَلِيًّا، وَفَكِّرْ فِي آسْتِدْرَاكِ فَارِطِهِمْ فِكْرًا مَلِيًّا؛
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ مَا يُوَضِّحُ لَهُ الْمُشْتَبِهَاتِ، فَإِيَّاكَ وَتَرْكَهُ قُرْبٌ مُعْتَقِدٌ أَنَّهُ
يَطَاطَا وَطَاحَلَا وَقَدْ أَوْقَعَهُ هَذَا وَمِثْلُهُ فِي وَطْءِ الشُّبُهَاتِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْمُدُ إِلَى
التَّحْلِيلِ، وَيَرْتَكِبُ مِنْهُ مُحْدُورًا غَيْرَ قَلِيلٍ؛ وَهُوَ بَعِيْنُهُ نِكَاحُ الْمُتَعَةِ الَّذِي كَانَ آخِرَ
الْأُمَرِينَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّهْيُ عَنْهُ، وَقَامَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ
ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحْدَرًا مِنْهُ؛ فَاحْسِمِ هَذِهِ الْمَادَّةَ الرَّدِّيَّةَ الَّتِي تُؤْلَمُ عَضْوًا
فَيَسْرَى إِلَى سَائِرِ الْأَعْضَاءِ أَلْمَهَا، وَيَبْقَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الذَّرَارِيِّ الْمَوْلُودَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْكَحَةِ
الْفَاسِدَةِ ثَلَمُهَا.

وَالرُّسُلُ وَالْوَكَلَاءُ بِمَجْلِسِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ وَمَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، وَمَا نَزَلَ فِي أُمُورٍ
مَا يَرِيدُونَ بِهَا تَقْلِيدَ حُكْمِكَ بَلْ مَا يَقْضُونَ بِهِ الْأَوْقَاتِ؛ فَلَا تَدْعُ مَنْ تَرِيدُ مِنْهُمْ
إِلَّا كُلَّ مَشْهُورٍ الطَّرِيقِ، مَشْهُورِ الْقِصَّةِ بَيْنَ الْخُصُومِ بِطَلَبِ التَّوْفِيقِ.

وَالْمَكَاتِبُ هِيَ سَهَامُكَ النَّافِذَةُ، وَأَحْكَامُكَ الْمُوَاضِعَةُ؛ فَسَدِّدْ مَرَامِيهَا، وَلَا
تُرْدِفْهَا مَا عَرَضَ عَلَيْكَ مِنَ الْأَحْكَامِ حَتَّى لَا يَسْرَعَ الدَّخُولُ فِيهَا؛ وَالْمَحَاضِرُ هِيَ مَحَلُّ
التَّقْوَى، فَاجْتَهِدْ فِيهَا أَجْتِهَادًا لَا تَدْرُ مَعَهُ وَلَا تُتْبِعْ.

وَأَمَّا قَضَايَا الْمُتَحَاكِمِينَ إِلَيْكَ فِي شَكَاوِيهِمْ، وَالْمُحَاكِمِينَ فِي دَعَاوِيهِمْ، فَأَنْتَ بِهِمْ
خَيْرٌ، وَلَهُمْ نَاقِدٌ بَصِيرٌ؛ فَإِذَا آتَوَكَ لَتَكْشِفَ بِحُكْمِهِمْ لَأَوَاءَهُمْ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ؛ وَقَدْ فَتَّهَكَ اللَّهُ فِي دِينِهِ، وَأَوْرَدَكَ مِنْ مَوَارِدِ يَقِينِهِ، مَا جَعَلَهُ لَكَ

أُورًا، وَجَلَّاهُ لَكَ سُمْفُورًا ؛ وَأَقَامَهُ عَلَيْكَ سُورًا ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنْهُ أُمُورًا ،
فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَرُدَّهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعِ
أَصْحَابِهِ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَعِنْدَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ تَجْعَلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُمْ شُورَى ؛ وَلِأُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ إِلَى بَعْضِ الْقُضَاةِ ، فَأَعْمَلَ بِمَقْتَضَاهُ ،
وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ آرَتْضَاكَ لَخَلْقِهِ فَأَعْمَلْ عَلَى رِضَاهُ .

وَالْأئِمَّةُ الْعُلَمَاءُ هُمْ إِخْوَانُكَ فِي الدِّينِ ، وَأَعْوَانُكَ عَلَى رَدِّعِ الْمُبْتَدِعِينَ ، وَلِسَانُكَ
فِي الْحَفْلِ وَجَنَاحُكَ إِذَا جَلَسُوا ذَاتَ الشِّمَالِ وَذَاتَ الْيَمِينِ ؛ فَتَرْكُهُمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَحْلَاهُمْ
اللَّهُ فِي شُرَفَاتِهَا ، وَبَوَاهُمْ رَفِيعَ غُرَفَاتِهَا ، وَتَأَلَّفَ خَوَاطِرَهُمْ فَإِنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْأُمُورِ فِي صَفَاءٍ مُصَافَاتِهَا .

وَمَنْ نُسِبَ إِلَى خِرْقَةِ الْفَقْرِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُقَرَّبُونَ ، وَأَحْبَاؤُهُ
الْأَقْرَبُونَ ، فَعَظُمَ حَيَاتُهُمْ ، وَجَانِبَ مَحَابَّتِهِمْ ، فَمَا مِنْهُمْ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَّا مَنْ
هُوَ عَلَى هُدًى مُبِينٍ ، وَأَحْرِصْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حَبِيبًا يَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَى قَوْمٍ
مِنَ قُلُوبِ قَوْمٍ آخَرِينَ .

وَأَنْتَ صَبُّ لِلدَّرُوسِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ بِهَا عَلَى وَافِدِ الطَّلَبَةِ فَإِنَّ الْكِرْمَ لَا يَمَحِقُهُ الْإِتِمَاسُ ،
وَالْمَصْبَاحَ لَا يُفْنِي مُقْلَهُ كَثْرَةُ الْإِقْتِبَاسِ ، وَالْغَامَ لَا يَنْقُصُهُ تَوَالِي الْمَطَرِ وَلَا يَزِيدُهُ طَوْلُ
الْإِحْتِبَاسِ ، وَالْبَحْرَ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ لَا يَخْلُو عَنْ الْوُرَادِ فِي عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَإِنَّمَا هَذِهِ نُبْدَةٌ جَامِعَةٌ ، وَبَارِقَةٌ لَامِعَةٌ ؛ وَمَنْكَ يُسْتَفَادُ بِسَاطِ
الْقَوْلِ ، وَأَنْبَسَاطِ الطَّوْلِ ؛ وَلِهَذَا يُكْتَفَى بِمَا فِيكَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْفِيكَ ، وَيُحْصِي
حِسَابَ أَعْمَالِكَ الصَّالِحَةِ لِيُوفِكَ ؛ حَتَّى تَجِدَ فَلَا يَخْلُفُ بِكَ السَّيْرُ ، وَتُسْتَعَدَّ لِيُخْتَمَ لَكَ
بِخَاتَمَةِ الْخَيْرِ ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ .



قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء ، أنشأته بدمشق للقاضي «شرف الدين مسعود»
وهي :

الحمد لله الذي شيد أحكام الشرع الشريف وزاد حكامه في أيامنا شرفا ، ورفع
منار العلم على كل منار وبوأ أهله من جنات إحساننا غرфа ، وأباح دم من ألد فيه
عنادا أو وجه إليه طعنا ، وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، وألهم
الصواب في اختيار من لم يزل لهذه الرتبة معدا ومن رجالها معدودا ، وصرف وجه
إقبالنا إلى من آرتضيناه للمسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مسعودا .

نحمده حمد من أعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شعائره ، ونصح للرعية
فيمن ولّاه عليهم وأعطى منصب الشرع حقه بتقديم أكابرهم . ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يقضى لصاحبها بالنجاة من النار ، ويسجل لقاءها بالثبوت
في ديوان الأبرار ، وأن محمدا عبده ورسوله الذي شرط الإيمان بالرضا بحكمه
وأوجب طاعته أمرا ونهيا واستجابة وتحكما ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا ﴾ . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون ، وبآثارهم
مقتدون ، وعلى آله وصحبه الغر الكرام الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ؛ صلاة
لا يختلف في فضلها آثنان ، ولا يتنازع في قبولها خصمان ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هي أعلى المراتب ، ومنصب حكامه
في الوري أرفع المناصب ؛ إليه تنتهي المخاصمات في فصلها ثم لا تعدوه ، ويحكم فيه على

الخصم فيُدْعَنُ لِحُكْمِهِ ثم لَا يَسْتَوْه ؛ بل يَتَفَرَّقُ الْخَصْمَانِ وَكُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا قُضِيَ لَهُ وَعَلَيْهِ رَاضٍ ، وَيَقُولُ الْمُتَمَرِّدُ الْجَائِرُ لِحَاكِمِهِ : قَدْ رَضِيتُ بِحُكْمِكَ فَاقْضِ فِي مَا أَنْتَ قَاضٍ ؛ وَنَاهِيكَ بِرُبِّيَّةٍ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُتَصَدِّى الْقِيَامَ بِوَاجِبِهَا ، وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مُحَافِظِينَ عَلَى آدَاءِ رَوَاتِبِهَا ؛ ثُمَّ اخْتَصَّ بِهَا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْخَلِيقَةِ ، وَأَسْتَأْثَرُوا بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ فَهَمُ أَهْلُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ ؛ إِذْ لَا يُؤْهَلُ لِهَذِهِ الرَّبِّيَّةِ إِلَّا مَنْ أَرْتَقَى إِلَى دَرَجَاتِ الْكَمَالِ ، وَأَتَصَفَّ بِأَحْسَنِ الْأَوْصَافِ وَأَحْتَوَى عَلَى أَنْفَسِ الْخِصَالِ ؛ وَتَضَلَّعَ مِنَ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ بِمَا يُرْوَاهُ ، وَفَاقَ فِي الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ بِمَا يَبْحَثُهُ وَيُرْوَاهُ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَجْلِسُ الْفُلَانِيّ : هُوَ عَيْنَ هَذِهِ الْقِلَادَةِ وَوَاسِطَةِ عِقْدِهَا ؛ وَقُطِبَ دَائِرَتَهَا وَمَلَكَ حَلَّتْهَا وَعَقْدُهَا ؛ إِذْ هُوَ «شُرَيْحُ» الزَّمَانِ ذِكْرًا ، وَ«أَبُو حَامِدٍ» سِيرَةً وَ«أَبُو الطَّيِّبِ» نَشْرًا ؛ لِأَجَرَمَ أَلْبَسَتْهُ أَيْامُنَا الزَّاهِرَةُ مِنَ الْحُكْمِ ثَوْبًا جَدِيدًا ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ إِنْعَامُنَا نَحْلَةً نَعِيقُهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - مَزِيدًا .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالَتِ الشَّرِيعَةَ الْمُطَهَّرَةَ بِمَنَاصِرَتِهِ فِي أَعْزِ صَوَانٍ ، وَحُكْمُهَا بِمَعَاذَتِهِ فِي أَعْلَى دَرَجَةٍ وَأَرْفَعِ مَكَانٍ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ

فَلِيَبَاشِرَ هَذِهِ الْوُظُفَةَ مَبَاشَرَةً مِثْلَهُ لِمِثْلِهَا ، وَلِيَعْمَلَ بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْ أَحْكَامِهَا فَهُوَ أَبْنُ يَجِدَّتِهَا وَالْخَبِيرُ بِمَسَالِكِ وَعَرِهَا وَسَهْلِهَا ؛ فَهُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يُسَاوَى ، وَالْإِمَامُ الَّذِي يَقْتَدَى بِهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْفَتَاوَى ؛ فَعَلِمَهُ بِالتَّائِي فِي الْأَحْكَامِ ، وَالتَّثَبُّتِ فِيمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنَ النَّقِضِ وَالْإِبْرَامِ ؛ وَلِيَسْتَظَرَ فِي الْأَمْرِ قَبْلَ الْحُكْمِ الْمَرَّةَ ثُمَّ الْأُخْرَى ، وَيُكَرِّرَ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ وَلَوْ أَقَامَ شَهْرًا ؛ وَيُرَاجِعَ أَهْلَ الْعِلْمِ فِيمَا وَقَفَ عَلَيْهِ وَيُسَاوِرُهُمْ فَمَا نَدِمَ مِنْ أَسْتِشَارِهِ ، وَيَقْدِمُ أَسْتِخَارَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي سَائِرِ أُمُورِهِ فَمَا خَابَ مِنْ أَسْتِخَارِهِ ؛ وَلِيَسْذُرَ

مع الحق كيف دار ، ويتبع الصواب أتى توجهه ويقتفى أثره حيث سار ؛ وإذا ظهر له الحق قضى به ولو على ابنه وأبيه ، وأعز أصدقائه وأخص ذويه ؛ غير مُفترق في فصل القضاء بين القوى والضعيف ، والوضيع والشريف ؛ ولا مُميز في تنفيذ الحكم بين الغني والفقير ، والسوقة والأمير ؛ وليسوّين الخصوم حتى في تقسيم النظر إليهم ، كما في موقف الحكم وسماع الدعوى وردّ الأجوبة فيما لهم وعليهم ؛ وليس تخلف من النواب من حسنت لديه سيرته ، وحمدت عنده طريقته ؛ ويوص كلاً منهم بما نوصيه به ويبلغ في تأكيد وصيته ، ويستحضر السر في قوله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا كُلُّكُمْ رَايَ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . وليُعين النظر في أمر الشهود الذين تترتب على شهادتهم أمور الدنيا والفروج والأموال ، ويتفقد أمرهم في كل وقت ولا يغفل عنهم في حال من الأحوال ؛ ويحملهم من الطرائق على أحسن وجهها ، وأحقهم بإمعان النظر شهود القيمة والعائز ، الذين يقطع بقولهم في أملاك الأيتام والأوقاف مما تنفر عنه القلوب وتنبو عنه الضمائر .

والوكلاء والمتصرفون فهم قوم فضل عنهم الشرفاء عوه ، وأستحفظوا الود فلم يرعوا حقه وأضاعوه ؛ فهم آفة أبواب القضاة بلا نزاع ، كيف وهم الضباع الضارية والذئاب الجياع . وما تحت نظره من أوقاف المدارس والأسرى والصدقات ، وغيرها مما يقصد به واقفوه وجه البر وسبيل القربات ؛ يُحسن النظر في وجوه مصارفها ، مع حفظ أجوالها الذي هو أغياً مراد واقفها .

وأهل العلم أبناء جنسه الذين فيهم نساء ومنهم نجم ، وجنده الذين يقصدونه بالفتاوى فيما قضى وحكم ؛ فليوفر لهم الإحسان ، ويصنع معهم من المعروف ما يبقى ذكره على ممر الأزمان ؛ ومشله لا يحتاج إلى كثرة الوصايا ، وثوقاً بما عنده من العلم

بِالأحكام والمعرفة بالقضايا ؛ لَكِنْ عَلَيْهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمِرَاقَبَتِهِ يَكُنْ لَهُ مِمَّا يَتَّبِعُونَ
ظَهيرا ، وَيَسْتَرْشِدُهُ فِي سَائِرِ أُمُورِهِ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ لَدُنْهُ هَادِيا وَنَصِيرًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَبْلُغُ وَائِقَ أَمَلِهِ مِنْ كَرَمِنَا مَرَامًا ، وَيُوطِّئُ لَهُ الْمِهَادَ بِنَيْلِهِ حَسَنَتٍ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية بالشام ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي تَعَمَّده الله بِرَحْمَتِهِ ، وَهِيَ :

الحمد لله جاعل المذاهب الشرعية في أيماننا الشريفة زاهيةً بأركانها الأربع ،
مستقرةً على النظام الذي غدت به قواعد الحجّة محكمةً ومواقع الرحمة متباعدةً ، فإذا خلا
رُكْنٌ مِنْ مُبَاشَرَةٍ أَقْنَأْنَا مِنْ تَكُونِ الْقُلُوبِ عَلَى أَوْلَوِيَّتِهِ مُجْتَمِعَةً ، وَأَنْتَقِينَا لَهُ مِنَ الْإِتْقَاءِ
مَنْ تَعُدُّوهُ بِالأئمة حيث كانت مُتَفَعِّةً ، وَأَسْتَدْعِينَا إِلَيْهِ مَنْ تَعُدُّوهُ بِالأدعية الصالحة
لَنَا بِتَفْوِيضِ الْحُكْمِ إِلَيْهِ مُرْتَفَعَةً ؛ الَّذِي خَصَّ مَذْهَبَ « إِمَامِ دَارِ الْهَجْرَةِ »
بِكُلِّ إِمَامٍ هَجَرَ فِي التَّبَحُّرِ فِيهِ دَوَاعِيَ السُّكُونِ وَبَوَاعِثُ الدَّعَةِ ، وَجَمَلَ مَنْصَبَ حُكْمِهِ
بِمَنْ كَمَلَ بَعْلُومُ الدِّينِ نَفَرُهُ فَإِذَا حُكِمَ غَدَتِ الْأَقْضِيَةُ لِحُكْمِهِ مُنْقَذَةً وَإِذَا قَضِيَ أَصَحَّتِ
الْأَحْكَامُ لِأَقْضِيَّتِهِ مُتَّبَعَةً .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْهُمْ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ لَدَيْنَا كَالْأَسْتَفْهَامِ الَّذِي لَهُ
صَدْرُ الْكَلَامِ ، وَبِمَثَابَةِ النِّيَّةِ الْمَقْدَمَةِ حَتَّى [عَلَى] تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَثْبَتَ الْإِخْلَاصَ حُكْمًا ، وَأَحْكَمَ الْإِيمَانَ عِلْمًا ،
وَأَبْقَى الْيَقِينَ عَلَى صَفَحَاتِ الْوُجُوهِ وَالْوُجُودِ وَسَمَّاهَا الْمَشْرِقَ وَأَسَمَّاهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ فِي الْإِقْرَارِ بِفَضْلِهِ ، وَأَرْسَلَهُ بِالْهُدَى

وَيَنِ الْحَقَّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)؛ وَخَصَّهُ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْحَسَ الْأُمَمَ عَنْ مُجَارَاتِهِ
فَلَوْ (أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)؛ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِسُنَّتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَأَوْصَحُوا شَرْعَهُ الشَّرِيفَ لِمَنْ تَلَقَّاهُ
بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ أُمَّتِهِ؛ صَلَاةٌ لَا تَزَالُ يَقَاعُ الْإِيمَانُ لِأَحْكَامِهَا مِنْبَتُهُ، وَأَنْوَاءُ الْإِيْقَانِ
لِأَوَامِهَا مُقْلَتُهُ^(١)؛ وَسَلَمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنه لما كانت الأحكام الشرعية تُتَوَقَّفُ عَلَى مَلاحِظَةِ قَضَاءِ قُضَايَاتِهَا
فِي غَالِبِ الْأُمُورِ، وَتَسْتَنْدُ إِلَى مُرَاجَعَةِ أَصُولِ حُكْمِهَا فِي أَكْثَرِ مَصَالِحِ الْجُمْهُورِ،
لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ مُرَاعَاةِ أَصُولِهَا الَّتِي إِنَّمَا تُتَوَبُّ الْفُرُوعُ عَنْهَا، وَتَدْبِرُ أحوالُ أَحْكَامِ
حُكْمِهَا الَّتِي تَنْشَأُ أَقْضِيَةُ النُّوَابِ مِنْهَا؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا أَصْبَحَ مَنْصِبُ قَضَاءِ الْقَضَاةِ عَلَى
مَذْهَبِ الْإِمَامِ «مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ لَضَعْفِ مَبَاشَرِهِ
الْمُتَمَدِّ، فِي حُكْمِ الْحَالِي، وَتَعْطَلِ بَعْجِزِهِ الْمَشْتَدِّ، مِمَّا أُلِفَ بِهِ قَدِيمًا حَالِ حُكْمِهِ
الْحَالِي؛ وَتَمَادَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَرَقَّى النَّاسُ مِنْهُ إِلَى دَرَجَةِ الْبَقِيَّةِ؛ وَتَنَاهَى الْحُكْمُ فِيهِ
إِلَى أَنْ يَعِينُ أَنْ يَرْتَادَ مِنْ يَتَعَيَّنْ لِمِثْلِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُتَّقِينَ؛ لِئَلَّا يَخْلُوَ هَذَا الْمَذْهَبُ مِنْ
قَاضِي قَضَاةٍ يُقِيمُ مَنَارَهُ، وَيُدِيمُ أَنْوَارَهُ، وَيَرْفَعُ شِعَارَهُ، وَيُحْيِي مَآثِرَ إِمَامِهِ وَأَنَارَهُ،
وَيُؤْمِنُ كَمَا أَلْفَقَهُ أَنْ يُعَاوِدَ سِرَّارَهُ؛ وَكَانَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ، الْقَاضِي، الْفَخْرِيُّ،
هُوَ الَّذِي لَا يَعْدُوهُ الْإِرْتِيَادُ، وَلَا يَقِفُ دُونَهُ الْإِنْتِقَاءُ وَالْإِنْتِقَادُ، وَلَا تَنْجَاوُزُهُ الْإِصَابَةُ
فِي الْأَجْتِهَادِ: لَمَّا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ جَعَلَهُ مَخْطُوبًا لِلْمَنْاصِبِ، وَعَمَلٍ تَرَكَهُ مَطْلُوبًا لِلرَّائِبِ
الَّتِي لَا تُدْعَى لِكُلِّ طَالِبٍ؛ وَتَقَى أَعَادَهُ مُرْتَقِيًا لِكُلِّ أَفْقٍ لَا يَصْلُحُ لَهُ كُلُّ شَارِقٍ،
وَوَرَعَ فَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ التَّلَقِّيِّ بِالْأَسْتِدْعَاءِ وَإِنْ لَمْ تُفْتَحْ لِكُلِّ طَارِقٍ؛ وَقَدْ هَجَرَ الْكِرَا
فِي تَحْصِيلِ مَذْهَبِ «إِمَامِ دَارِ الْهَجْرَةِ» إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَا وَصَلَ، وَأَنْفَقَ مُدَّةً

(١) الأوام شدة العطش ومقلته مهلكة .

عُمره في أقتناء فوائده إلى أن حصل من الثروة بها على ما حصل ؛ فسارت فتاويه في الآفاق ، وممت بركات فوائده التي أنفقها على الطلبة فزكت على الإنفاق - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نُبقي نغز هذا المنصب الجليل بفخره ، وأن نُخص هذا المذهب النبيل بذخره ؛ وأن نُحلي جيده بمن نقلنا إلى وشام الوسام ما كان من حُسن شنب العلم مختصاً بنغره .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال لأحكام الشرع مقيماً ، وللنظر الشريف في عموم مصالح الإسلام وخصوصها مدياً ؛ أن يفوض إليه لما تقدم من تعينه لذلك ، وتبين من أنه لحكم الأولوية بهذه الرتبة في مذهب الإمام مالك مالك .

فليل هذه الوظيفة حاكماً بما أراه الله من مذهبه ، مُراعياً في مباشرتها حق الله في الحكم بين عباده وحق منصبه ؛ مجتهداً فيما تبرأ به الذمة من الوقوف مع حكم الله في حالتي رضاه وغضبه ، واقفاً في صفة القضاء على ما نص فيه من شروطه وأوضاع من قواعده وشرح من آدبه ؛ مُضياً حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رأي إمامه ، متوجاً الحكم بنصوصه المجمع دليماً من أئمة مذهبه في تقض كل أمر وإبرامه ؛ جارياً في ذلك على قواعد أحكام هذا المذهب الذي كان مُشرفاً في ذلك الأفق بجماله وزينه ، واقفاً في ذلك جميعه مع رضا الله تعالى فإنه في كل ما يأتي ويذر بعينه ؛ والله تعالى يسدده في قوله وعمله ، ويبلغه من رضا نهاية سوله وغاية أمليه ؛ بمنه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة ، كُتب بها للقاضي علاء الدين «منجى التنوخي» وهي :

الحمد لله الذي رفع بَعْلَاءَ الدِّينِ قَضَاءَ قُضَائِهِ ، وَأَوْضَحَ الْهُدَى فِي الْقِيَامِ فِي تَوَلِّيَتِهِمْ
بِمَقَرَضَاتِهِ ، وَأَعْلَى مَنَارِ الشَّرْعِ بِمَا أَوْفَقَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَوَفَّقَهُمْ لَهُ مِنْ
مَرْضَاتِهِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا نَسْتَعِيدُ مِنْ بَرَكَاتِهِ ، وَنَسْتَعِيدُ بِهِ أَنْ نَضِلَّ فِي ضَوْءِ مَشْكَاتِهِ ، وَنَسْتَعِينُ
عَلَيْهِ رَبِّ كُلِّ حُكْمٍ يُمِدُّنَا قَلْبُهُ بِسُكُونِهِ وَقَلَمُهُ بِحَرَكَاتِهِ ، وَيُثَبِّتُ مِنْ جَبَلِ مُحَضَّرِهِ لَدِينَا
مَا يَرْفَعُ مَسَّ شَكَااتِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَسْتَوْدِعُ
إِخْلَاصَهَا فِي قُلُوبِ ثِقَاتِهِ ، وَتُفَوِّضُ أَحْكَامُهَا إِلَى ثِقَاتِهِ ، وَيُخَيِّ سَرَحُهَا مِنْ أَبْطَالِ
الْجَلَادِ وَالْجِدَالِ بِكُلِّ مُسْتَنَاقٍ إِلَى مُلَاقَاتِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ
مِنْ حُكْمٍ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي بَرَايِهِ وَرَأْيَاتِهِ ، وَشَرَعَ مِنَ الدِّينِ
مَا يُجَبِّى التَّمَسُّكَ بِهِ مِنْ غَوَايَاتِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَقَامَ شَرْعَهُ
مِنْهُمْ بِحُكْمَاتِهِ ، وَجَعَلَ حُكْمَهُمْ دَائِمَ الْفُؤَادِ أَبَدًا بِأَقْلَامِ عُلَمَائِهِ وَسَيُوفِ حُمَاتِهِ ؛ وَسَلَّمْ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَتَنَصَّبُ الْحُكْمَ الَّذِي بِهِ تُفَصِّلُ الْأُمُورَ ، وَتَتَفَرِّجُ لَهُ الصُّدُورَ ، وَتَسَدِّدُ
أَقْلَامَ حُكَّامِهِ سِهَامًا ، وَتُفَيِّضُ غَمَامًا ؛ وَتَتَعَلَّمُ مِنْهُ الْأَسْوَدُ زَيْئِرًا ، وَيَطُولُ السَّيْفُ
صَلِيلًا وَالرِّمْحُ صَرِيرًا ؛ وَتَتَنَصَّبُ بَيْنَ يَدَيْ حُكَّامِهِ الْأَقْدَامَ ، وَتَتَنَصِّفُ عَلَى أَحْكَامِهِ
الْخِصَامَ ^(١) ؛ وَتَتَكَسَّرُ الرُّؤُوسُ لِهَيْبَتِهِ إِطْرَاقًا ، وَتَغْضُّ الْمَقَلُّ فَتَا تَدِيرُ جَفُونًا وَلَا تُقَلِّبُ
أَحْدَاقًا ؛ وَيَجْرَى بِتَضَرُّفِهِ قَلَمُ الْقَضَاءِ ، وَيَجَارِي مَرْهَفَةُ الْبُرُوقِ فَتُقْرَأُ بِالْمَضَاءِ ؛
وَقَدْ شَيَّدَ اللَّهُ مَبَانِيَهُ فِي مَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ مِصْرًا وَشَامًا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ ، وَجَعَلَ
فِي قَضَائِهِ الْأَئِمَّةَ الْأَرْبَعَةَ لَتَكْمُلَ بِهِمْ فُصُولُ الزَّمَانِ ، وَمَذْهَبُ الْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
«أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الطَّرَازُ الْمَذْهَبُ ، وَطَرِيقَةُ

(١) الخِصَامُ جَمْعُ خَصَمٍ كَبَجَرٍ وَبَجَارٍ . انْظُرِ الْمَصْبَاحَ .

السلف الصالح في كُلِّ مَذْهَبٍ ؛ وقد تَجَنَّبَ من سَلَفٍ من علمائه التَّأْوِيلَ في كثيرٍ ،
ووقفَ مع الكِتَابِ والسُّنَّةِ وكلِّ منهما هو المصباح المنير .

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ هي مَدَارَ قُطُوبِهِمْ ، ومَطْلَعُ شُجُورِهِمْ ونُجُومِهِمْ وشُهُبِهِمْ ؛
وأهلها كثيراً ما يحتاجون إلى حاكم هذا المذهب في غالب عقد كل بيع وإيجار ،
ومُزَارَعَةٍ في غِلَالٍ ومُسَاقَاةٍ في ثِمَارٍ ، ومُصَالَحَةٍ في جَوَائِحِ سَمَاوِيَّةٍ لا ضَرَرَ فيها
ولا ضَرَارٍ ، وتَزْوِيجِ كُلِّ مَمْلُوكٍ أَدِنَ له سَيِّدُهُ بَحْرَةَ كَرِيمَةٍ ، وأَشْرَاطٍ في عَقْدٍ بأن
تكون الأَمْرَأَةُ في بلدِها مُقِيمَةٍ ؛ وفَسْخِ إِنْ غاب زوجها ولم يترك لها نفقةً ولا
أَطْلَقَ سَرَاحَهَا ، وبيعِ أوقافٍ دائِرةٍ لا يحدُّ أربابُ الوقفِ نفعاً بها ولا يستطيعون
إِصْلَاحَهَا .

فلما استأثر الله بِمَنْ كان قد تَجَلَّى هذا المنصبُ الشريفُ بشرفِهِ ، وتَجَلَّى منه
بَبَقِيَّةِ سَلَفِهِ ؛ حصلَ الفِكرُ الشريفُ فيمن نقلده هذه الأمانةَ في عُنُقِهِ ، ونَهَى هذا
المنصبُ بطلوعِ هلالِهِ في أَفُقِهِ ؛ إلى أن ترجحَ في آرائنا العاليةِ المُرَجَّحِ المُرَجَّحِ ، وتعيينِ
واحداً لما أَتَبَلَّى الناسُ بالقضاءِ كان المُنَجَّى ابنُ المُنَجَّى ؛ طالما تَطَرَّزَتْ له الفتاوى
بالأقلامِ ، وأَلْتَفَتْ به حَلَقَةُ إِمَامٍ ، وخافَ في ظَلَبِ العِلْمِ من مُضَايَقَةِ اللَّيَالِي فما نام
- آقَتَضَى حُسْنَ الرأى الشريفُ أن يفوضَ إليه قضاءَ القضاةِ بالشامِ المحروسةِ على
مذهبِ الإمامِ الربانيِّ «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ» الشيبانيِّ ، رضى الله عنه .

فَلْيَحْكُمِ في ذلك بما أَرَادَ الله من عِلْمِهِ ، وآتاه من حُكْمِهِ ؛ وَبَيَّنَّه له من سُبُلِ
الهُدَى ، وَعَيَّنَّه لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي من حَادٍ عنها فقد جار
وَأَعْتَدَى ؛ وَلْيَنْظُرْ في أُمُورِ مَذْهَبِهِ وَيَعْمَلْ بكل ما صَحَّ نقلُهُ عن إِمَامِهِ ، وَأَصْحَابِهِ
من كان منهم في زَمَانِهِ ومن تَخَلَّفَ عن أَيَّامِهِ ؛ وقد كان - رحمه الله - إِمَامَ حَقِّ

نَهَضَ وَقَدْ قَعَدَ النَّاسُ تِلْكَ الْمُدَّةَ ، وَقَامَ نَوْبَةُ الْحِنَةِ وَقَامَ «سَيِّدُ تَيْمٍ» ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
نَوْبَةَ الرَّدِّ ، وَلَمْ تَهَبَّ بِهِ زُعَارِعُ «الْمَرِّيَّيْنِ» وَقَدْ هَبَّتْ مَرِيَسَا ، وَلَا «أَبْنُ أَبِي دُوَادٍ»
وَقَدْ جَمَعَ كُلُّ دَوْدٍ وَسَاقَ لَهُ مِنْ كُلِّ قُطْرِ عَيْسَا ؛ وَلَا نَكَثَ عَهْدَ مَا قَدَّمَ إِلَيْهِ «الْمَأْمُونُ»
فِي وَصِيَّةِ أَخِيهِ مِنَ الْمَوَاتِقِ ، وَلَا رَوَّعَهُ صَوْتُ «الْمُعْتَصِمِ» وَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ
وَلَا سَيْفُ «الْوَاتِقِ» ؛ فَلْيَقِفْ عَلَى أَثَرِهِ ، وَلْيَقِفْ بِمُسْنَدِهِ عَلَى مَذْهَبِهِ كُلِّهِ أَوْ أَكْثَرِهِ ؛
وَلْيَقْضِ بِمُقَرَّدَاتِهِ وَمَا آخَرَهُ أَصْحَابُهُ الْأَخْيَارُ ، وَلْيَقْلُدْهُمْ إِذَا لَمْ تَخْتَلَفْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ ؛
وَلْيَحْتَرِزْ لِدِينِهِ فِي بَيْعِ مَا دَثَرَ مِنَ الْأَوْقَافِ وَصَرَفِ ثَمَنِهِ فِي مِثْلِهِ ، وَالْأَسْتِبْدَالَ بِمَا فِيهِ
الْمَصْلَحَةُ لِأَهْلِيهِ ؛ وَالْفَسْخَ عَلَى مَنْ غَابَ مَدَّةً يَسُوغُ فِي مِثْلِهَا الْفَسْخُ وَتَرَكَ زَوْجَةً
لَمْ يَتْرَكْ لَهَا نَفَقَةً ، وَخَلَّاهَا وَهِيَ مَعَ بَقَائِهَا فِي زَوْجَتِهِ كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِطْلَاقِ سَرَاحِهَا
لَتَتَرَوَّجَ بَعْدَ ثُبُوتِ الْفَسْخِ بِشَرْطِهِ الَّتِي يَبْقَى حُكْمُهَا بِهِ حَكْمُ الْمُطْلَقَةِ ؛ وَفِيمَا يَمْنَعُ مُضَارَّةَ
الْجَارِ ، وَمَا تَفَرَّعَ عَلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» . وَأَمْرٍ وَقِفَ
الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَإِنْ رَأَى سِوَى أَهْلِ مَذْهَبِهِ ، وَطَلَعَتْ بِهِ أَهْلَةُ عِلْمَاءَ لَوْلَاهُمْ
لَمَّا جَلَا الزَّمَانُ جُنَحَ غَيْبِهِ . وَكَذَلِكَ الْجَوَامِحُ الَّتِي يَخْفَفُ بِهَا عَنِ الضَّعْفَاءِ وَإِنْ كَانَ
لَا يَرَى بِهَا الْإِلْزَامَ ، وَلَا تَجْرِي إِلَّا بِجَرَى الْمَصَالِحَةِ دَلِيلُ الْإِلْتِمَامِ . وَكَذَلِكَ الْمَعَامَلَةُ الَّتِي
لَوْلَا الرُّخْصَةُ عَنْهُمْ فِيهَا لَمَّا أَكَلَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا الْحَرَامَ الْمُحْضَ ، وَلَا أَخَذَ قِسْمَ
الْغُلَالِ وَالْمُعَامَلُ هُوَ الَّذِي يَزْرَعُ الْبَذْرَ وَيَحْرُثُ الْأَرْضَ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ [مَحِيطُ]
بِمُقَرَّدَاتِهِ الَّتِي هِيَ لِلرَّفَقِ جَامِعَةٌ ، وَلِلرَّعَايَا فِي أَكْثَرِ مَعَالِشِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ نَافِعَةٌ ، وَإِذَا
أَسْتَقَرَّتِ الْأُصُولُ كَانَتِ الْفُرُوعُ لَهَا تَابِعَةً ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى .

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

المرتبة الثانية^(١)

(من توابع الوظائف الدينية بدمشق ، ما يكتب في قطع الثلث مفتحا
بـ«الحمد لله» إن عُلِّت رُتَبَةُ الْمُتَوَلَّى أَوْ بـ«أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ»
إِنْ أُنْخِطَتْ رُتَبَتُهُ عَنْ ذَلِكَ بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى — قَضَاءُ الْعَسْكَرِ . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ،
كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثانية — إِقْتَاءُ دَارِ الْعَدْلِ بِدِمَشْقَ . وبها أربعة : من كل مذهبٍ
واحد ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثالثة — الحسبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مُجَدِّدِ النِّعَمِ فِي دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ لِمَنْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ مَلَائِسُهَا ، وَمُضَاعِفِ
الْمِنْنِ فِي أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ لِمَنْ سَمَّتْ بِهِ نَفَائِسُهَا ، وَمَوْلَى الْآلَاءِ لِمَنْ بَسَقَ غَرَسُهَا لَدَيْهِ
فَزَهَتْ بِجِوَالِهِ ثَمَرَاتُهَا وَزَكَتْ مَغَارِسُهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تُؤْنِسُ بِالشُّكْرِ أَوَانِسُهَا ، وَتُؤَسِّسُ عَلَى التَّقْوَى جَوَالِسُهَا ،
وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَسْتَضَاءُ بِنُورِ الْإِيمَانِ قَالِسُهَا ،
وَأَجْتَنَى ثَمَرِ الْهُدَى غَارِسُهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مَنْ أُنْشَرَفَ بِهِ
مَعَالِمُ التَّوْحِيدِ فَعَمَّرَ دَارِسُهَا ، وَأَشْرَقَ دَامِسُهَا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ
قُلُوبُهُمْ مَشَاهِدُ الذِّكْرِ وَالسِّتْمِ مَدَارِسُهَا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ أُمِضِيَ لَهُ مَا كَانَ بِهِ أَمْرٌ وَرُسِمٌ ، وَجُدِّدَ لَهُ مِنَ الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ مَا عُرِفَ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَوُسِمَ ، وَأُثْبِتَ لَتَرْقِيهِ مَا حُتِمَ لَهُ بِهِ مِنَ الْمَرَاتِبِ السَّنِيَّةِ بِمَقْتَضَى الْأَسْتِحْقَاقِ وَحُكْمِ - مِنْ رَقَّتْ أَوْ أَمْرُنَا لَهُ حُلَّةٌ مَنَصِبٍ يَجِدُّدُهَا الْإِحْسَانَ ، وَأَمَرْتُ لَهُ مَرَّاسُنَا بِوُظُفَةِ تُوَكَّدُ عَوَارِفُنَا الْحَسَانَ ، وَأَثَلْتُ [لَهُ] نِعْمُنَا مَنَصِبًا أَعَدَّ لَهُ مِنْ كَمَالِ الْأَهْلِيَّةِ أَكْمَلُ مَا يُعَدُّهُ لَذَلِكَ الْإِنْسَانُ .

ولما كان فلان هو الذي تحلَّى من إِحْسَانِنَا بما يَأْمَنُ [معه] سعيد رتبته [من] الْعَطَلِ ، وَأَتَّسَمَ مِنْ بَرِّنا وَآمِنَتَانَا بما هو في حُكْمِ الْمُسْتَقَرِّ لَهُ وَإِنْ أَلَوِيَّ بِهِ الدَّهْرُ وَمَطَّلَ - أَقْتَضَى إِحْسَانُنَا أَنْ يُجَدِّدَ لَهُ مَوَاقِعَ النِّعَمِ ، وَنُسَيْدَ مِنْ رَجَائِهِ مَوَاضِعَ مَا شَمِلَهُ مِنَ الْبِرِّ وَالْكَرَمِ ، وَنُرِيَّ مِنْ عَدَقِ بِنَا رَجَاءَ أَمَلِهِ أَنَّنا نَتَعَاهَدُ سُقْيَا أَمَالِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْخَدَمِ .

فلذلك رسم ... - لا زال بِهِ شَامِلًا ، وَبَدَّرَهُ فِي أَفْقِ الْإِحْسَانِ كَامِلًا - أَنْ يُفَوَّضَ إِلَيْهِ نَظَرُ الْحُسْبَةِ وَيُسْتَمَرَّ فِي ذَلِكَ عَلَى حُكْمِ التَّوْقِيعِ الشَّرِيفِ الَّذِي بِيَدِهِ : لِمَا سَبَقَ مِنْ اخْتِيَارِهِ لَذَلِكَ وَأَصْطَفَائِهِ ، وَأَدَّخَارِهِ لِهَذَا الْمَنَصِبِ مِنْ كُفَاةِ أَعْيَانِهِ وَأَعْيَانِ أَكْفَائِهِ ؛ وَلِمَا تَحَلَّى [بِهِ] مِنْ رِيَاسَةِ زَانَتِهِ عُقُودُهَا ، وَتَكَمَّلَ لَهُ مِنْ أَصَالَةِ ضَفَّتْ عَلَيْهِ حَبْرُهَا وَسَمَتْ بِهِ بِرُودُهَا ؛ وَتَجَمَّلَ بِهِ مِنْ نَزَاهَةِ أَشْرَقَتْ فِي أَفْقِ صُعُودِهَا إِلَى الرُّتْبَةِ الْجَلِيلَةِ سَعُودُهَا ، وَأَتَّصَفَ بِهِ مِنْ كَمَالِ مَعْرِفَةٍ تُجَزِّتُ لَهُ بِهِ مِنْ مَطَالِبِ الْمَنَاصِبِ وَعُودُهَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُعْطِيًا هَذِهِ الْوُظُفَةَ مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ حَقَّهَا ، مُحَقِّقًا بِجَمِيلِ تَصَرُّفِهِ تَقْدِيمَ أَوَّلَوِيَّتِهِ وَسَبْقُهَا ؛ وَلْيَكُنْ لِأَمْرِ الْأَقْوَاتِ مَلَا حِظًا ، وَعَلَى مَنَعِ ذَوِي الْغَدْرِ مِنَ الْإِحْتِكَارِ الْمُضَيِّقِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مُحَافِظًا ؛ وَعَلَى الْغَشِّ فِي الْأَقْوَاتِ مُؤَدِّبًا ؛ وَإِلْجَاءَ الْمَوَازِينَ عَلَى حُكْمِ الْقِسْطِ مُرْتَبًا ؛ وَلِن يَرْفَعِ الْأَسْعَارَ لَغَيْرِ سَبَبٍ رَادِعًا ، وَلِن لَا يَزِعَهُ الْكَلَامُ مِنَ الْمُطَفِّينَ بِالتَّأْدِيبِ وَازْعًا ؛ وَلْيَقِمِ الْأَشْيَاءَ مُحَرَّرًا ، وَلِقَانُونَ الْجَوْدَةِ

فِي الْمَزْرُوعِ وَالْمَوْزُونِ مُقَرَّرًا ؛ وَلِذَوِي الْهَيْئَاتِ بِلُزُومِ شَرَائِطِ الْمَرْوَةِ اخِذَا ، وَعَلَى تَرْكِ الْجَمْعِ وَالْجَمَاعَاتِ لِعَامَةِ النَّاسِ مُوَاخِذَا ؛ وَلِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ أَمْرٍ مُقَدِّمًا ، وَبِمَا يُخَلِّصُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ مَا تَقَعُ بِهِ الْمَعَامَلَاتُ بَيْنَ النَّاسِ مُقَوِّمًا ؛ وَفِي خَصَائِصِ نَفْسِهِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ تَأْكِيدِ الْوَصَايَا ، وَتَكَرُّارِ الْحَثِّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ الْمَزَايَا ؛ فَلِيَجْعَلَهَا شِعَارَ نَفْسِهِ ، وَنَجَى أَنْفِهِ ، وَمُسَدَّدَ أَحْوَالِهِ الَّتِي تَطْهَرُ بِهَا مَرْيَّةٌ يَوْمَهُ عَلَى أَمْسِهِ ؛ وَالْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ .



وهذه نسخة توقيع بنظر الحسبة الشريفة ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، مضافا إلى نظر أوقاف الملوك ، وهي :

الحمد لله ميثيب من أَحْتَسَبَ ، وَجُيِبَ الْمُنِيبِ فيما آكْتَسَبَ .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطرب ، (١) ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة طَاهِرَةَ الْحَسَبِ ، طَاهِرَةَ النَّسَبِ ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أَفْضَلُ مَنْ أَتَدْنَى وَأَتَدَبْ ، وَأَدَبَ أُمَّتِهِ فَأَحْسَنَ الْأَدَبِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً يُكْتَمُ أَجْرُهَا فَيَكْتَسَبُ ، وَيَسْتَمُ بِهَا كُلُّ صَالِحٍ [وَيَغْتَنِمُ بِهَا كُلُّ فَلَاحٍ] ؛ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ الْحِسْبَةَ الشَّرِيفَةَ هِيَ قَانُونُ جَوَادِّ الْأَوْضَاعِ ، وَمَضْمُونُ مَوَادِّ الْإِجْمَاعِ ، تَجْمَعُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ سِيَاسَةَ يَرْهَبُ جِدُّهَا ، وَيَرْهَفُ حَدُّهَا ؛ وَتَنْخَشِ الرِّعَايَا سَطَوَاتِ مَبَاشِرِهَا ، وَتَتَنَحَّى عَمَّا تُصَبُّ سَيُولُ بَوَادِرِهَا ؛ وَأَصْحَابُهَا الْآلَةُ الَّتِي هِيَ أُخْتُ السَّيْفِ فِي التَّأْمِيرِ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا سَطْوَةٌ تُخَافُ لِافْرَقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا مَا بَيْنَ

(١) كذا في غير نسخة بالاهمال ولم نهتد الى تثقيفه .

التَّائِبِ والتَّذَكُّيرِ؛ وله التَّصَرُّفُ المُلَاقَ، والتَّعَرُّفُ الَّذِي يَفْتَحُ مِنَ الحَوَائِثِ عَلَى
أَرْبَابِهَا كُلِّ بَابٍ مُعَلَّقٍ؛ وَلِرُكُوبِهِ فِي المَدِينَةِ زِينَةٌ يُحْشِرُهَا النَّاسُ صُحًى، وَرَهْبَةً
يَغْدُو بِهَا كُلُّ أَمِينٍ لَشَأْنِهِ مُصْلِحًا؛ وَإِلَيْهِ الرُّجُوعُ فِي كُلِّ تَقْوِيمٍ، وَهُوَ المَرْجُوعُ فِي كُلِّ
أَمْرٍ عَظِيمٍ؛ وَهِيَ بِدَمَشَقٍ - حَرَّسَهَا اللَّهُ تَعَالَى - مِنْ أَجْلِ المَنَاصِبِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ [عَوَالِيهَا
بِيَدِ مُتَوَلِّيِّهَا وَتُؤَمِّلُ مَنَازِلَ البُدُورِ، وَإِنَّ رَبَّهَا تَرْجِعُ إِلَى تَصْرِيفِهِ أَزِمَةَ الْأُمُورِ،
وَيَنْتَجِعُ سَحَابَهُ المَاطِلَ تَحْمَامَةُ الجُمْهُورِ؛ وَتَحْيَا بِهِ سُنَّةٌ عُمَرِيَّةٌ لَوْلَاهَا لَصَاقَتْ رِحَابُ
المَعَامِلَاتِ، وَضَاعَتْ بِالْعِشِّ المَعَايِشُ المَتَدَاخِلَاتِ؛ وَظَهَرَ الْغَبْنُ فِي غَالِبِ مَا يُشْرَى
وَيُبَاعُ، وَانْتَشَرَ التَّطْفِيفُ [الَّذِي] يُزِيلُ رَاجِحَةَ المِيزَانِ وَتَوَازُنَ الرِّزَاعِ؛ وَلَكَمْ نَابَ بِحُسْنِ
تَدْيِيرِهِ عَنِ النِّمَامِ، وَنَظَرَ فِي الدَّقِيقِ وَالجَلِيلِ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِ؛ طَالَمَا أُنْحَطَّ بِهِ سِعْرُ
غَلَا أَنْ يَقُومَ، وَوُجِدَ مِنَ الْأَقْوَاتِ صِنْفٌ لَا يُوجَدُ وَلَوْ بُدِّلَ مِنَ الشَّمْسِ دِينَارٌ
وَالْبَدْرِ دِرْهَمٌ.

وَكَانَ المَجْلِسُ السَّامِعِيُّ، الْقَضَائِيُّ، الْأَجَلِيُّ، الْكَبِيرِيُّ، الصَّغِيرِيُّ، الرَّئِيسِيُّ،
الْعَالِمِيُّ، الْكَافِلِيُّ، الْفَاضِلِيُّ، الْأَوْحَدِيُّ، الْأَمِيرِيُّ، الْمَاجِدِيُّ، الْأَصِيلِيُّ،
الْعِمَادِيُّ؛ مَجْدُ الْإِسْلَامِ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ، بَهَاءُ الْأَنَامِ، جَمَالُ الصُّدُورِ، نَخْرُ الْأَعْيَانِ،
خَالِصَةُ الدُّوَلَةِ، صَفْوَةُ المُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ : آدَامُ اللَّهِ عُلُوُّهُ، هُوَ الَّذِي رَبَّنَهُ السِّيَادَةُ
عَلَى وَسَادِهَا، وَلَبَّتَهُ السَّعَادَةُ إِلَى مُرَادِهَا؛ وَبَنَتِ الْعَلِيَاءُ قَوَاعِدَهَا عَلَى عِمَادِهِ،
وَنَتَتْ المَرَاتِبُ أَعْنَاقَهَا مُتَشَوِّفَةً إِلَى حُسْنِ اعْتِيَادِهِ؛ وَبَاشَرَ الجَمَاعُ المَعْمُورُ خُصُوصًا
وَالْأَوْقَافَ الشَّامِيَّةَ عَمُومًا فَعَمَرَهَا، وَكَثَّرَ أَعْدَادَهَا وَأَتَمَّى مِنْ بَرَكَاتِ نَظَرِهِ مَتَحَصَلَاتِهَا
وَتَمَرَّهَا؛ وَشِيدَ فِي كُلِّ مِنْهَا مَوَاطِنَ عِبَادَةٍ، وَمُلْتَقَى حَلَقَةٍ وَمَدَارُ سُبْحَةٍ وَمَقَرُّ سَجَادَةٍ،
وَأَبَى اللَّهُ أَنْ يُقَاسَ بِهِ أَحَدٌ وَالجَمَاعُ الْفَارُوقُ وَلِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَ وَزِيَادَهُ؛
فَأَوْجِبَ لَهُ جَمِيلٌ نَظَرْنَا أَنْ نُضَاعَفَ لَهُ الْأَجْرُ فِي كُلِّ عَمَلٍ إِلَيْهِ يَنْتَسِبُ، وَتَزِيدَهُ

فِي رِزْقِهِ سَعَةً : مَنْ حَيْثُ يَحْتَسِبُ وَمَنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ؛ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُقْلَدَ
 مِنْ أُمُورِ الْحِسْبَةِ الشَّرِيفَةِ حُكْمُهَا الْمُصَرَّفُ ، وَحَكْمُهَا الْمَعْرُوفُ ؛ وَيَقَامُ فِيهَا بِهَدْيٍ مِنْ
 تَقَدُّمِهِ فِي تَقْرِيرِ أُمُورِهَا عَلَى أَثْبَتِ الْقَوَاعِدِ ، وَتَقْدِيرِ مَصَالِحِهَا عَلَى أَجَلٍ مَا جَرَتْ بِهِ
 الْعَوَائِدُ ؛ وَيُطَهَّرُ أَقْوَاتُهَا مِنَ الدَّنَسِ فِيمَا يَحْضُرُ عَلَى الْمَوَائِدِ ، وَإِخَافَةِ الْأَعْنَاقِ مِنْ
 مُضَارِبِهِ الَّتِي تَقْطَعُ مَا غَفَا السَّيْفُ عَنْهُ مِنْ مَنَاطِ الْفَلَائِدِ .

فَرُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي - لَا زَالَتْ بِمَرَامِيهِ تُتَلَقَّى كُلُّ رُبَّةٍ ، وَتُتَوَقَّ الدُّنَايَا
 بِمَنْ يَقُومُ بِالْحِسْبَةِ - أَنَّ يَفُوضَ إِلَيْهِ النَّظْرُ عَلَى الْحِسْبَةِ الشَّرِيفَةِ بِدِمَشْقٍ وَمَا مَعَهَا
 مِنَ الْمَالِكِ الشَّامِيَةِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ ، الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى
 آخِرِ وَقْتٍ : مُضَافًا إِلَى مَا هُوَ بِيَدِهِ : مِنْ نَظَرِ الْأَوْقَافِ الْمَبْرُورَةِ بِالشَّامِ ، وَأَوْقَافِ
 الْمُلُوكِ . خَلَا نَظَرَ الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ بِحُكْمِ إِفْرَادِهِ لِمَنْ عَيْنُ لَهُ ، تَفْوِيضًا
 يَضُمُّهُ إِلَى رِبَائِبِ كَنْفِهِ ، وَيَعْمَهُ بِمَوَاهِبِ شَرَفِهِ ، وَيُجِلُّهُ فِي أَعْلَى غُرْفِهِ ، وَيُجِلِّهِ
 بِمَا يَحْسُدُ الدُّرَّ مَارِمِيٍّ مِنْ صَدَفِهِ .

فَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَحْوَالِكَ ، وَأَتَّقِ مَنْ يُجْمَعُ عَلَيْهِ مِنَ النَّوَابِ فِي أَعْمَالِكَ ، وَأَمْرُهُ
 بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَمِنْكَ الْمُنْكَرُ لَا يُعْرَفُ وَالْمَعْرُوفُ مِنْكَ لَا يُنْكَرُ ؛ وَاعْتَبِرْ
 أَحْوَالَ أَرْبَابِ الْمَعَاشِ أَعْتِبَارًا يُصْلِحُ لِلنَّاسِ أَقْوَاتَهُمْ ، وَيُرْغِدُ أَوْقَاتَهُمْ ؛ وَلَا تَدْعُ
 صَاحِبَ سَاعَةٍ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَكَاسِبِ ، وَلَا صَاحِبَ مَعِيشَةٍ [يَقْدَمُ]
 عَلَى تَحُلُّلِ خَلِيلٍ فِي الْمَالِ كُلِّ وَالْمَشَارِبِ ؛ وَأَقْصِدِ التَّسْوِيَةَ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ سَوَاءٌ فِيهِ الْبَائِعُ
 وَالْمَشْتَرِي ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الرَّخِيسِ وَالثَمِينِ ؛ وَأَقِمِ الْمَوَازِينَ بِالْقِسْطِ حَتَّى لَا تَنْتَكِنَ
 كِفَاتُهَا أَنْ تَتَحَامَلَ وَلَا تَتَحَمَلَ ، وَلَا يَسْتَطِيعَ قَلْبُهَا أَنْ يَمِيلَ مَعَ مَنْ يَتَمَوَّلُ ، وَلَا يَقْدِرُ
 لِسَانُهَا أَنْ يَكْتُمَ الشَّهَادَةَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ؛ وَاجْعَلْ لَكَ عَلَى

أَهْلُ الْمَبَايِعَاتِ حَفَظَةً لِّتَظَلَّ أَعْمَالُهُمْ لَكَ تُنْسَخَ . وَتَفْقَدَ الْأَسْوَاقُ مِمَّا يَتَوَلَّدُ فِيهَا
 مِنَ الْمَفَاسِدِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا بَاضَ فِي الْأَسْوَاقِ وَقَرَّخَ . وَأَرَبَابُ الصَّنَائِعِ فِيهِمْ مِنْ
 يَدْلَسُ ، وَقَهَّاءُ الْمَكَايِبِ مِنْهُمْ مَنْ لِعَرِضِهِ يُدَنِّسُ ؛ وَالْقُصَّاصُ غَالِبُهُمْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ
 فِي قِصَصِهِ ، وَأَهْلُ النَّجَامَةِ كَمْ مِنْهُمْ مَنْ لَعِبَ مَرَّةً بِعَقْلِ أَمْرَأَةٍ وَأَمَاتَ رَجُلًا
 بِغُصَصِهِ ؛ وَآخَرُونَ مِنْ تَضَلُّ بِهِمُ الْعُقُولُ ، وَتَظَلُّ حَايِرَةً فِيهِمْ النُّقُولُ ؛ وَكثِيرٌ مِنْ
 سَوَى هَؤُلَاءِ يَذُكُّ مَبْسُوطَةً عَلَيْهِمْ ، وَأَحْكَامُكَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ ؛
 فَقَوْمٌ مِنْهُمْ مَنْ مَالٍ ، وَقَلَدٌ مَالِكًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا رَأَاهُ مِنَ الْمَعَاقِبَةِ تَارَةً بَيْنَ هَاكِ الْجَسَدِ
 وَتَارَةً بَيْنَ فَسَادِ الْمَالِ ؛ فَرُبَّمَا أَطْغَى الْغِنَى وَالْمَصْبَاحُ فَرُبَّمَا قَطَّبَ ... (١) ...
 وَثُمَّ مِنْ لَا يَسْتَقِيمُ حَتَّى يُؤَدَّبَ ، وَمَنْ لَا يَلُمُّ عَلَى شَعَثٍ وَأَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْدَبِ ؛ وَفِيكَ
 مِنَ الْأَلْمَعِيَةِ نُورٌ بَاهِرٌ ، وَكَوْكَبٌ زَاهِرٌ ؛ فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ تُلْقِيَ الْوَصَايَا أَقْلَامَهَا أَيُّهَا
 يَكْفُلُكَ ، وَلَا تَتَبَهَّكَ عَلَى زِينَةِ الْعَفَافِ فِيهَا وَهُوَ حُلُّكَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّقُ أَعْمَادَكَ ،
 وَيُوفِّرُ مِنَ التَّقْوَى زَادَكَ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حِجَّةٌ
 بِمَقْتَضَاهُ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال ، من إنشاء القاضي تاج الدين البارنباري ،
 للقاضي نجم الدين أبي الطَّيِّب .

الحمد لله الذي جعل الطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ ، وَهَدَىٰ بِالنَّجْمِ الْمُنِيرِ السَّبِيلَ الْمُبِينِ ، وَعَدَّقَ
 بِأُتَمَّةِ الدِّينِ مَصَالِحَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَتَانَا بِتَقْوِيضِنَا إِلَيْهِ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ ، شَرَفًا فِي الشَّأْنِ وَقُوَّةً
 فِي الْيَقِينِ .

نحمده على أَنَّ أعَانَ بخيره وهو خير مُعِين ، وَشَكَرَهُ عَلَى أَنَّ بَصَّرَنَا فِي الْإِرَادَاتِ ،
بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّرِينَ ، وَنَصَّرَنَا فِي الْوَلَايَاتِ ، بِالْقَوَى الْأَمِينِ ؛ وَشَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَنْوَارُهَا فِي الْقَلْبِ مُشْرِقَةٌ عَلَى الصَّفَحَاتِ وَالْحَيَيْنِ ،
وَأَذْكَارُهَا عَلَى اللِّسَانِ جَعَلَتْ الْإِنْسَانَ مِنْ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَشَهِدَ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ هَادِيَ الْمُهْتَدِينَ ، وَمَوْصِيَّ شِرْعَةِ الْإِحْسَانِ لِلْحَسَنِينَ ، وَ«أَبُو الطَّيِّبِ»
و«أَبُو الْقَاسِمِ» كُنَى بِأَوْلَادِهِ الْمُطَهَّرِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ
مَنْ كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَهِيْبًا لِلْكَفَرِيَّيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَزَوَّجَ
بِابْنَتِي الرَّسُولِ وَلَمْ يَتَّفِقْ ذَلِكَ لغيره فِي سَالِفِ السِّنِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ الْخَيْرُ مِلءَ
يَدَيْهِ : فَشَمُولُ الْبَرَكَةِ بِشِمَالِهِ وَذُو الْفَقَارِ فِي الْيَمِينِ ؛ وَسَلَّمُ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَأَكْرَمُ التَّفْوِيضِ مَا صَادَفَ مَحَلًّا ، وَأَبْرَكُ الْوَلَايَاتِ مَا وَجَدَ قَدْرًا مُعَلًى ،
وَأَحْسَنُ الْإِحْسَانِ مَا أَصْبَحَ بِهِ الْحَالُ مُحَلًّا ، وَأَسْنَى الْأَنْجُمِ مَا أَشْرَقَ فِي مَطْلَعِهِ وَتَجَلَّى ،
وَأَحَقُّ [الْوَلَاةِ] بِإِعْلَاءِ مَنْصِبِهِ مَنْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ وَجْهُهُ الْإِقْبَالُ حِينَ تَوَلَّى ؛ وَأَوَّلَى
[الْوَلَايَاتِ] بِإِجْمَالِ النَّظَرِ وَإِمْعَانِهِ ، فِي تَشْيِيدِ شَانِهِ ، وَتَمْكِينِ مَكَانَتِهِ وَمَكَانِهِ ، وَحِفْظِ
حَوَازَتِهِ مِنْ سَائِرِ أَرْكَانِهِ - وَكَالَتْهُ بَيْتُ الْمَالِ الْمَعْمُورِ الَّتِي بِهَا تُصَانَ الْأَرْضُ الْمُقَيَّسَةُ ،
وَمِنْهَا تُسْتَبْصَرُ الْأَرَاءُ الرَّئِيسَةُ ؛ وَبِهَا يُؤْمَنُ الْأَسْتِیْلَاءُ عَلَى الْحَالِّ وَالْأَبْنِيَةِ مِنْ كُلِّ جَائِرٍ ،
وَبِهَا تُزَادُ قِيمُ الْمَبِيعَاتِ مِمَّا هُوَ لِبَيْتِ الْمَالِ مَا بَيْنَ عَامِرٍ وَدَائِرٍ ؛ وَإِلَى مُتَوَلِّيِّهَا تَأْتِي
الرَّغَبَاتُ مِمَّنْ يَتَنَاعُ أَرْضًا ، وَبِهِ تُنْمَضَى الْمَصَالِحُ وَتُقَضَّى ، وَبِهِ يَطْهَرُ التَّيْسِيزُ فِي الثَّمَنِ
الْأَرْضِيِّ ؛ وَهِيَ فِي الشَّامِ نَحِيمَةُ الْمِقْدَارِ ، كَرِيمَةُ الْآثَارِ ؛ مَرْضِيَّةٌ بِالرَّيْحِ فِي كُلِّ أَرْضٍ
بَيْنَتُهُ الْمَصَالِحُ فِي كُلِّ بِنَاءٍ دَائِرَةٌ بِالنَّجْعِ فِي كُلِّ دَارٍ ؛ فَلَا يَشِيمُ بَرَقُهَا ، وَتَتَوَجَّعُ فَرْقُهَا ،
وَيُوقِفُهَا حَقُّهَا ، إِلَّا مَنْ لَهُ عِلْمٌ وَتَبَصُّرَةٌ ، وَعِرْفَانٌ أَوْصَحُّ الطَّرِيقِ وَأَظْهَرُهُ ، وَحُسْنُ
رَأْيٍ فِيمَا آثَرَهُ وَأَثَرَهُ ، وَصَدَارَةٌ وَرَدَ بِهَا مَهْلُ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ .

وكان فلان هو ذو السؤدد العريق ، والباسق في الدّوج الوريق ، والمنّسب إلى
 أعزّ فريق ، والطّيب أصلاً وفرعاً على التحقيق ، والإمام في علومه التي أصلت
 التفرّيع ووصلت التفرّيق ، والموفق فيما يأتي ويذر والله وليّ التوفيق ؛ قد أشرق
 بدمشق نجمه نورا ، وأبتسم البرق الشامي به سرورا ، وتصدّر بحافلها فشرح صدورا ،
 وأبنتى له سؤودا وجعل مكارم الأخلاق عليه سورا ؛ تلقى بحضرة المسائل فتلقى منه
 ولياً مرشدا ، وتذكر لديه المباحث فتجد على ذهنه المتوقّد هدى ، وإذا اضطرب
 قول مشكل سكن ببابته وهذا ؛ إن تأول أصاب في تأويله ، وإن نظري مصلحة
 كان رأيه في السداد موافقا لقلبه ، وقد استخرنا الله تعالى - وهو نعم الوكيل -
 في توكيله .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه

فليات هذا المنصب المنصب وبلى بركتيه من بابه ، وليخيم في فسيح رحابه ، ولينعم
 بجناته في جنابه ؛ وليحرر ما يباع من أملاك بيت المال بشروطه ولوازمه المستورة
 في كتابه ، وليردع من استولى على أرض باغتصابه ، فليس لعرق ظالم حق ؛ وهو
 إما بناء بإنشائه وإما غراس بإنشائه ؛ وما يرتجع إلى بيت المال المعمور من أرض
 وعقار ، وروضات ذات غراس وأنهار ، وقرى وما يضاف إلى ذلك من آثار ؛ فليحرر
 مجموعه ، وليسلك في ذلك الطريقة المشروعة . وليشفق إشفاق المتقين الماهدين
 لما هم ، ولينصَح لنا وللمسلمين فهو وكيل بيت ما لهم . ومن مات ولا وارث له من
 عصبية أو كلاله ، فإن لبيت المال أرضه وداره وماله .

وقد وكلنا إليك هذا التقليد وقدّناك هذه الوكالة ، والدك - رحمه الله - كانت
 مقوضة إليه قديما فلذلك أحيينا بك تلك الأصالة .

وَأَعْلَمَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - أَنَّ الْوَصَايَا إِنِ طَالَتْ فَقَدْ طَابَ سَبْحُهَا ، وَإِنْ أُوجِزَتْ
فَقَدْ كَفَى لِمَعْنَاهَا وَلِمَحْضِهَا ؛ وَعَلَى الْأَمْرَيْنِ فَقَدْ أَنَارَهَا هُنَا بِالتَّوْفِيقِ صَبْحُهَا ، وَحَسَنَ
بِالتَّصْدِيقِ شَرْحُهَا ، وَأَطْرَبَ مِنْ حَمَامِ أَقْلَامِهَا صَدْحُهَا ، وَالتَّقْوَى فِيهِ أَوَّلُهَا
وَأَخِيرُهَا وَخَتْمُهَا وَفَتْحُهَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَسْقِي بِكَ كُلَّ قَضِيَّةٍ [ذَوَى] صَبْحُهَا ^(١) ؛ وَالْخَيْرُ
يَكُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع شريف بوكالة بيت المال بالشَّام أيضا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ كَافِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَمُحْسِنِ مَالٍ مَنْ قَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ ، وَمُجِلِّ مَاتٍ مَنْ
قَدَّمَ رَجَاءَنَا عِنْدَ الْمِجْرَةِ إِلَى أَبْوَابِنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَمُقَرِّعِينَ مِنْ أَسْهَرِ فِي أَسْتِطَارِ عَوَارِفِنَا
بِكَمَالِ الْأَدْوَاتِ نَاطِرِيهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ سَعَى مَنْ آمَنَّا كَرَمَنَا ، مَشْكُورًا ، وَسَعَدَ مَنْ قَصَدَ حَرَمَنَا ،
مَشْهُورًا ، وَإِقْبَالَ مَنْ أَقْبَلَ إِلَى أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ مُحَقَّقًا يَتَقَلَّبُ فِي نِعْمَانَا مَجْبُورًا ، وَيَتَقَلَّبُ
إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَعْتَصِدُ فِيهَا
بِالْإِخْلَاصِ وَنَعْتَصِمُ ، وَنَتَمَسَّكُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِعُرْوَتِهَا ، الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ ، وَنُتَوَكَّلُ فِي إِقَامَةِ
دَعْوَتِهَا ، سَيُوفِنَا الَّتِي لَا تَزَالُ هِيَ وَأَعْنَاقُ جَا حِدِيهَا تَحْتَصِمُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
الَّذِي أَضَاءَتْ شَرِيعَتُهُ ، فَلَمْ تَخَفْ عَلَى ذِي نَظَرٍ ، وَأَنَارَتْ مَلَّتُهُ ، فَأَبْصَرَهَا الْقَلْبُ قَبْلَ
الْبَصَرِ ، وَعَمَّتْ دَعْوَتُهُ ، فَاسْتَوَى فِي وَجُوبِ إِجَابَتِهَا الْبَشَرُ ، وَأَخْتَصَّتْ أُمَّتُهُ ، بِعُلَمَاءِ
يَبْصُرُونَ مِنْ فِي طَرَفِهِ عَمَى وَيُظْهِرُونَ حَقَّ مَنْ فِي بَاعِهِ قِصَرٌ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
آلِهِ الَّذِينَ عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا ، وَعَدَلُوا فِي مَا حَكَمُوا ، وَحَفِظُوا بِالْحَقِّ بَيْتَ أَمْوَالِ الْأُمَّةِ

(١) القضية الرطبة من النبات وذوى يس والصبح في الأصل خروج العقود من كمامه .

فَاشْتَرَكْ أَهْلَ الْمِلَّةِ فِيَا غَنَمُوا ؛ صَلَاةَ تَوَكَّلِ الْإِخْلَاصُ بِإِقَامَتِهَا ، وَتَكْفُلُ الْإِيمَانُ
بِإِدَامَتِهَا ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد : فإنَّ أَهْمَ مَاصِرْفٍ إِلَيْهِ الْهِمَمَ ، وَأَعَمَّ مَانُوجِبٍ فِي اخْتِيَارِ الْأَكْفَاءِ لَهُ بَرَاءةَ
الدِّمِّ ؛ وَأَخْصَ مَا اتَّخَذْنَا الْاسْتِخَارَةَ فِيهِ دَلِيلًا ، وَأَحَقَّ مَا أَقْنَأْنَا فِيهِ مِنْ أَعْيَانِ
الْأُمَّةِ وَكَيْلًا ، لَا يَدْعُ حَقًّا لِلْأُمَّةِ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا - أَمْرُ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي
هُوَ مَادَّةُ جِهَادِهِمْ ، وَجَادَةُ جِلَادِهِمْ ؛ وَسَبَبُ اسْتِطَاعَتِهِمْ ، وَطَرِيقُ إِخْلَاصِهِمْ
فِي طَاعَتِهِمْ ؛ وَسِدَادُ ثُغُورِهِمْ ، وَصَلَاحُ جُمْهُورِهِمْ ؛ وَجَمَاعُ مَا فِيهِ إِتْقَانُ أَحْوَالِهِمْ
وَأَسْتِقْرَارُ أُمُورِهِمْ ؛ وَمَنْ آكَدَ مَصَالِحَهُ وَأَهَمَّهَا ، وَأَخْصَصَ قَوَاعِيدَهُ وَأَعَمَّهَا ، وَأَكَلَ
أَسْبَابَ وَفُورِهِ وَأَتَمَّهَا ؛ الْوَكَالَةُ الَّتِي تَصُونُ حَقُوقَهُ أَنْ تُضَاعَ ، وَتَمْنَعُ خَوَاصَّهُ أَنْ
تُسَاعَ ؛ وَتُحَسِّنُ عَنِ الْأُمَّةِ فِي حِفْظِ أَمْوَالِهَا الْمَنَابِ ، وَتَتَوَلَّى لِكُلِّ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ
فِيَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُمُ الدَّعْوَى وَالْجَوَابَ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تَزَلْ تَخْتَرُّهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْعُلَمَاءِ
مِنْ زَانَ الْوَرَعِ سَجَايَاهُ ، وَكَلَّ الْعِلْمُ مَزَايَاهُ ؛ وَانْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى كَمَالِهِ ، وَقَصُرَتْ
الْأُطْلَاعُ عَنِ التَّحَلِّيِ بِجَمَالِ عِلْمِهِ : وَهَلْ يَبْأَرَى مَنْ كَانَ عِلْمُهُ مِنْ جَمَالِهِ .

ولما كان المجلس السامى ، الشَّيْخَى ، الْفَلَانَى ، هُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ فَضَائِلُهُ
وَعُلُومُهُ ، وَدَلَّ عَلَى بُلُوغِ الْعَايَةِ مَنْطُوقِ نَعْتِهِ وَمَفْهُومِهِ ؛ وَحَلَّى عِلْمُهُ بِالْوَرَعِ الَّذِي هُوَ
كَمَالُ الدِّينِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَسَلَكَ طَرِيقَةَ أَبِيهِ فِي التَّفَرُّدِ بِالْفَضَائِلِ فَكَانَ بِحَكْمِ الْإِرْثِ
مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ صَاحِبَ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ ؛ مَعَ نَسَبٍ لِنَسِيبِ مَامَرٍّ حَلَالِهِ ، وَتَقِيٍّ مَا
وَرِثَهُ مِنْ أَبِيهِ عَنْ كَلَالِهِ ؛ وَثَبَاتٍ فِي ثُبُوتِ الْحَقِّ لَاسْتِغْفَرَهُ الْأَغْرَاضُ ، وَأَنَاءَةً فِي قَبُولِ
الْحَكْمِ لَا تُحِيلُ جَوَاهِرَهُ الْأَغْرَاضُ ؛ وَوُقُوفٍ مَعَ الْحَقِّ لَا يُبْعِدُهُ إِلَى مَا [لَا] يَجِبُ ،
وَبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ بِهَا يَقْبَلُ مَا يَقْبَلُ وَيَحْتَنِبُ مَا يَحْتَنِبُ ؛ وَتَحْقِيقِ تَجْرِى الدَّعَاوَى الشَّرْعِيَّةِ
عَلَى مَحَجَّتِهِ ، وَإِنْصَافٍ لَا يَضُرُّ خَصْمَهُ مَعَهُ كَوْنُهُ الْخَنَ مِنْهُ بِحُجَّتِهِ ؛ مَعَ وَفَادَةٍ إِلَى

أبواب العالمة تَقَاصَتْ له كَرَمًا الْجَمِّ ، وَفَضَّلْنَا الذی حَصَّ وَعَمَّ - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى وَطَنِهِ مَشْهُوْلًا بِالنَّعَمِ ، مَحْصُوصًا مِنْ هَذِهِ الرِّبَةِ بِالْغَايَةِ الَّتِي يَكْبُو دُونَهَا جَوَادُ الْحِمَمِ ؛ مَنصُوصًا عَلَى رِفْعَةِ قَدْرِهِ الَّتِي جَاءَتْ هَذِهِ الْوُظُفَةُ عَلَى قَدَرٍ ، مُدَاوِمًا [لشكر أبوابنا] ^(١) عَلَى اخْتِيَارِهَا بَعْدَ إِمْعَانِ الْاِخْتِيَارِ وَإِنْعَامِ النَّظَرِ .

فَرِسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ تُفَوَّضَ إِلَيْهِ وَكَالَةُ بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ .

فَلْيَرْقَ هَذِهِ الرِّبَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَجَلِّ مَا يُرْتَقَى ، وَيَتَلَقَّ هَذِهِ الْوَكَالَةَ الَّتِي مَدَّارُ أَمْرِهَا عَلَى التَّقَى وَهُوَ خَيْرُ مَا يُتَّقَى ، وَيُبَاشِرْ هَذِهِ الْوُظُفَةَ الَّتِي مَنَاطُ حُكْمِهَا فِي الْوَرَى الذِّي لَا تَسْتَحِفُّ صَاحِبَهُ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَسْتَفِرُّ الرُّقَى ؛ وَلِيَنْهَضَ بِأَعْبَائِهَا مُسْتَقِلًّا بِمَصَالِحِهَا ؛ مُتَصَدِّيًا لِمَجَالِسِ حُكْمِهَا الْعَزِيزِ لِتَحْرِيرِ حُقُوقِ بَيْتِ الْمَالِ وَتَحْقِيقِهَا ، مُتَلَقِّيًا مَا يَرِدُ مِنْ أَمْرِ الدَّعَاوَى الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُبْتَثُّ مِثْلُهَا فِي وَجْهِهِ بِطَرِيقِهَا ؛ مُتَقَبِّيًا عَنْ دَوَافِعِ مَا يَثْبُتُ لَهُ وَعَلَيْهِ ، مُحْسِنًا عَنْ بَيْتِ الْمَالِ الْوَكَالَةَ فِيمَا جَرَّهَ الْإِرْثُ الشَّرْعِيُّ إِلَيْهِ ؛ مُسْتَظْهِرًا فِي الْمَعَاقِدَةِ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنْ وَجْهِهِ الْاِحْتِرَازَ ، مُجَانِبًا جَانِبَ الْحَيْفِ فِي الْاِخْذِ وَالْعَطَاءِ بِأَبْوَابِ الرُّحْصِ وَأَسْبَابِ الْجَوَازِ ؛ مُنْجِبًا فِي تَسَدُّدِهِ عَنْ طَرِيقِ الظُّلْمِ الذِّي مِنْ تَحَلَّى بِهِ كَانَ عَاطِلًا ، سَالِكًا فِي أُمُورِهِ جَادَّةَ الْعَدْلِ فَإِنَّهُ سَيَّانٍ مَنْ تَرَكَ حَقَّهُ وَآخَذَ بِاطِلَالٍ ؛ مُجْتَهِدًا فِي تَحْقِيقِ مَا وَصَّحَ مِنَ الْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ وَكَمَنْ ، مُتَتَبِعًا مَا غَالَتْ الْأَيَّامُ فِي إِخْفَائِهِ فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يَضِيعُ بِقَدَمِ الْعَهْدِ وَلَا يَبْطُلُ بِطُولِ الزَّمَنِ .

وَفِي أَوْصَافِهِ الْحَسَنَةِ ، وَسَجَايَاهُ الَّتِي غَدَّتْ بِهَا أَقْلَامُ آيَّامِنَا لِسَنَنِهِ ، وَعُلُومُهُ الَّتِي أَسْرَتْ إِلَيْهَا أَفْكَارُهُ وَالْعُيُونُ وَسَنَنِهِ ، مَا يُعْنَى عَنْ وَصَايَا يُطْلَقُ عَنْهُ الْبِرَاعَةُ فِي تَحْدِيدِهَا ، أَوْ قَضَايَا يَنْطَلِقُ لِسَانُ الْبِرَاعَةِ فِي تَوْكِيدِهَا ؛ مَلَا كُفَّهَا تَقْوَى اللَّهِ وَهِيَ سَجِيَّةُ نَفْسِهِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ « مُدَاوِمًا لَهَا عَلَى الْخ » .

وَنَجِيَّةٌ أَنَّهُ، وَحَلِيَّةٌ خِلَالِهِ الْمَعْرُوفَةُ فِي يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ؛ فَلْيَقْدِّمُهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَيَقِفْ عِنْدَ رِضَا اللَّهِ فِيهَا لِأَرْضَا زَيْدٍ وَلَا عَمْرُو؛ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ :

[الوظيفة الخامسة — الخطابة ^(١)].

وهذه نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأمويّ، كُتِبَ بها لَزِينُ الدِّينِ الْفَارُقِيُّ، من إنشاء الشيخ شهاب الدِّينِ مُحَمَّدٍ الْحَلَبِيِّ :

الحمد لله رافع الدِّينِ أَوْتَوْا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، وَجَاعِلِ الْمَنَازِبِ بِفَضَائِلِ أَيْمَةِ الْأُمَّةِ أَرَجَاتٍ، وَشَارِحِ الصُّدُورِ بِذِكْرِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ الْمَوَاعِظِ حَرَجَاتٍ؛ الَّذِي زَانَ الدِّينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِمَنْ سُلِّمَتْ لَهُ فِيهِ الْإِمَامَةُ، وَصَانَ الْعِلْمَ مِنَ الْأَيْمَةِ الْمُتَقِينَ بِمَنْ أَصْحَبَ لَهُ جَائِحُ الْفَضْلِ يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَهُ؛ وَوَطَّدَ ذِرْوَةَ الْمُنْتَبِرِ الْكَرِيمِ لِمَنْ يَحْفَظُ فِي هِدَايَةِ الْأُمَّةِ حَقَّهُ وَيَرْعَى فِي الْبِدَايَةِ بِنَفْسِهِ زِمَامَهُ، وَوَطَّأَ صَدْرَ الْحَرَابِ الْمُنِيرِ لِمَنْ إِذَا أَمَّ الْأُمَّةَ أَرَتْهُ خَشْيَةُ اللَّهِ أَنَّ وَجَهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ أَمَامَهُ .

تَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَحَنَا مِنْ صَوْنِ صَهَوَاتِ الْمَنَازِبِ إِلَّا عَنْ فُرْسَانِهَا، وَحِفْظِ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ إِلَّا عَمَّنْ يَنْظُرُ بِإِنْسَانِ السُّنَّةِ وَيَنْطِقُ بِإِسَانِهَا . وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لَا تَزَالُ أَفْوَاهُ الْحَايِرِ تُثَبِّتُ طُرُوسَهَا، وَأَنْوَاءُ الْمَنَازِبِ تُثَبِّتُ غُرُوسَهَا، وَاللِّسَنَةُ الْإِخْلَاصُ تُتْلَى عَلَى الْمَسَامِعِ مِنْ صُحُفِ الصَّمَائِرِ دُرُوسَهَا . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَرَّفَتِ الْمَنَازِبُ أَوَّلًا بِرُفْقِهِ إِلَيْهَا، وَآخِرًا بِذِكْرِ أَسْمِهِ الْكَرِيمِ عَلَيْهَا؛ فَهِيَ الرُّتْبَةُ الَّتِي يَزِيدُ تَبَصُّرَةً عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ بَقَاؤُهَا، وَالدَّرَجَةُ الَّتِي يَطُولُ إِلَّا عَلَى وَرَثَةِ عَلَيْهِمُ آرَتْقَاؤُهَا؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ بَيَّامُ اللَّهِ فَذَكَرُوهَا،

(١) أضفنا هذه الزيادة لأقتضاء الكلام لها .

(٢) أى ذلّ وانقاد بعد صعوبة .

وَبَصَرُهُمْ بِآلَاءِ اللَّهِ فَشَكَرُوهَا ؛ وَعَرَفَهُمْ بِمَوَاقِعِ وَحْدَانِيَّتِهِ فَجَادَلُوا بِسُنَّتِهِ وَأَسْنَتِهِ الَّذِينَ
أَنكَرُوهَا ، صَلَاةً لَا تَبْرُحُ لَهَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا ، وَلَا يَزَالُ ذِكْرُهَا مُغِيرًا فِي الْأَفَاقِ
وَمُنْجِدًا ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنه لما كانت الخطابة من أشهر شعائر الإسلام ، وأظهر شعار ملة سيدنا
محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، شرعها الله تعالى لإذكار خلقه بنعمه ، وتحذير عباده
من نقيمه ، وإعلام بريته بما أعاد لمن أطاعه في دار كرامته من أنواع كرمه ؛ وجعلها
من وظائف الأمة العامة ، ومن قواعد وراثته النبوة التامة ؛ يقف المتلبس بها موقف
الإبلاغ عن الله لعباده ، ويقوم التأهض بقرضها مقام المؤدى عن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - إلى أمته عن مراد الله ورسوله دون مراده ، ويقيمها
في فروض الكفايات على سنن سبيله ^(١) ، ويستنزل بها موائد الرحمة إذا ضن الغيث
على الأرض بوبله ؛ وكان المسجد الجامع بدمشق المحروسة هو الذى سارت بذكره
الأمثال ، وقيل هذا من أفراد الدهر التى وضعت على غير مثال ؛ قد تعين أن نرتاد
له بحكم خلوه من الأئمة من هو مثله فرد الأفاق ، وواحد العصر عند الإطلاق ؛
وإمام علماء زمانه غير مدافع عن ذلك ، وعلامة أئمة أوانه الذى يضيء بنور
فتاويه ليل الشك الحالك ؛ وناصر السنة الذى تدب علومه عنها ، وحاوى ذخائر
الفضائل التى تنمى على كثرة إنفاقه على الطلبة منها ؛ وشيخ الدنيا الذى يعقد على
فضله بالخصاص ، ورحلة الأقطار الذى غدت نسبته إلى أنواع العلوم زاكية
الأحساب طاهرة الأوصاف ؛ وزاهد الوقت الذى زان العلم بالعمل ، وناسك الدهر
الذى صان الورع بامتداد الفضائل وقصر الأمل ؛ والعايد الذى أصبح حجة

(١) فى الأصل "نبية" .

الْعَارِفِ وَقُدُورَةِ السَّالِكِ ، وَالصَّادِعِ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا يُبَالِي مَنْ أَغْضَبَ إِذَا رَضِيَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ بِذَلِكَ .

ولما كان فلانٌ هو الذي خَطَبَتْهُ لهذه الخطابة علومُهُ التي لَا تُسَامَى وَلَا تُسَامَ ،
وَعَيْنَتُهُ لهذه الإمامة فَضَائِلُهُ التي حَسُنَتْ بها وَجُوهُ الْعِلْمِ الْوَسَامُ ، حَتَّى كَانَتْهَا فِي فَمِ
الزَّمَنِ أَبْسَامُ ؛ وَأَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَهَا كَمَلَهُ الَّذِي صَدَّ عَنْهَا الْخُطَابُ ، وَسَدَّ دُونَهَا أَبْوَابَ
الْخُطَابِ ، وَقِيلَ : هَذَا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ أَوَّلَى بِهَذَا الْمِنْبَرِ وَأَحْرَى بِهَذَا الْمِحْرَابِ -
أَقْبَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنَّ نُحَلِّيَ أَعْطَافَ هَذَا الْمِنْبَرِ بِفَضْلِهِ الَّذِي يُعِيدُ عَوْدَهُ رَطِيبًا ،
وَيُضْمَخُ طِيبًا مِنْهُ مَاضٍ خَطِيبًا ؛ وَأَنَّ نَصْدِرَ بِهَذَا الْمِحْرَابِ مَنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَدَى الْأُمَّةِ
مُنَاجٍ لِرَبِّهِ ، وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ مَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .

فلذلك رُسِمَ - لَا زَالَ يُوَلَّى الرَّتَبُ الْحَسَنُ ، وَيَجْرَى بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ
الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ - أَنَّ تَفَوُّضَ إِلَيْهِ الْخُطَابَةِ وَالْإِمَامَةِ بِجَمَاعِ دِمَشْقِ الْحُرُوسِ عَلَى
عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ .

فَلْيَرَقْ هَذِهِ الرُّتْبَةُ الَّتِي أَمَّطَاهُ اللَّهُ ذِرْوَتَهَا ، وَأَعْطَاهُ الْفَضْلُ صَهْوَتَهَا ؛ وَعَيْنُهُ تَفَرَّدَهُ
بِالْفَضَائِلِ لِإِذْكَارِ الْأُمَّةِ عَلَيْهَا ، وَرَجَحَهُ لَهَا أَنْعَادُ الْإِجْمَاعِ عَلَى فَضْلِهِ حَتَّى كَادَتْ
لِلشُّوقِ أَنْ تَسْعَى إِلَيْهِ لَوْ لَمْ يَسْعَ إِلَيْهَا ؛ حَتَّى تَحْتَالَ مِنْهُ بِإِمَامٍ لَا تَعْدُو مَوَاعِظُهُ حَبَاتِ
الْقُلُوبِ ، لِأَنَّهُا تَخْرُجُ مِنْ مِثْلِهَا ، وَلَا تَدْعُ خُطْبُهُ أَثَرًا لِلذُّنُوبِ ، لِأَنَّهُا تَوَكَّلُ مَاءَ الْعُيُونِ
بَغْسِلِهَا ؛ وَلَا تُتْبَقِ نَصَائِحُهُ لِلدُّنْيَا عِنْدَ الْمُغْتَرِّبِهَا قَدَرًا ؛ لِأَنَّهُا تَبْصِرُهُ بِخِدَاعِهَا ، وَلَا تَتْرَكَ
بَلَاغَتَهُ لِلْقَصْرِ عَنِ التَّوْبَةِ عُدْرًا ؛ فَلِإِنِّهَا تُخَدِّرُهُ مِنْ سُرْعَةِ زَوَالِ الْحَيَاةِ وَأَنْقِطَاعِهَا ؛ وَلَا
تَجْعَلُ فَوَائِدُهُ لَدَوِي النَّجْدَةِ وَالْبَاسِ الْتِفَاتًا إِلَى أَهْلِ وَلَا وَلَدٍ لِأَنَّهُا تُبَشِّرُهُ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ

لَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، وَلَا تُمَكِّنْ زَوَاجِرَهُ مَنْ نَشَرَ الظُّلْمَ أَنْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدًا لِأَنَّهَا تُخْرِجُهُ بِمَا
فِي الْإِقْدَامِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إِغْضَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

فَلْيُطِيلْ - مع قِصْرِ الْخُطْبَةِ - لِلظَّالِمِ مَجَالَ زَجَرِهِ ، وَلْيُطِيبْ قَلْبَ الْعَالِمِ الْعَامِلِ
بِوصْفِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَجْرِهِ ؛ وَلْيَجْعَلْ خُطْبَهُ كُلَّ وَقْتٍ مَقْصُودَةً عَلَى حِكْمِهِ ،
مَقْصُودَةً فِي وُضُوحِ الْمَقَاصِدِ بَيْنَ مَنْ يَنْهَضُ بِسُرْعَةٍ إِدْرَاكُهُ أَوْ يَقْعُدُ بِهِ بُطْءُ فَهْمِهِ ؛
غَيْرِ الْكَلَامِ مَادَّلَ بِلَاغَتِهِ وَإِنْ قَلَّ ، وَإِذَا كَانَ قِصْرُ خُطْبَةِ الرَّجُلِ وَطُولُ صَلَاتِهِ
مُتَنَةً مِنْ فِقْهِهِ فَمَا قَصَرَ مَنْ حَافِظَ عَلَى حُكْمِ السُّنَّةِ فِيهِمَا وَلَا أَخْلَلَ .



[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأموي ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي «تَقِيّ الدِّينِ
السَّبْكِ» .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ دَرَجَاتِ الْعُلَمَاءِ أَخَذَةً فِي مَزِيدِ الرُّقِيِّ ، وَخَصَّ بِرَفِيعِ
الدَّرَجَاتِ مِنَ الْأُئِمَّةِ الْأَعْلَامِ كُلَّ تَقِيٍّ ، وَأَلْقَى مَقَالِيدَ الْإِمَامَةِ لِمَنْ يَصُونُ نَفْسَهُ النَّفِيسَةَ
بِالْوَرَعِ وَيَتَّقِي ، وَأَعَادَ إِلَى مَعَارِجِ الْجَلَالِ ، مَنْ لَمْ يَزَلْ يَخْتَارُ حَمِيدَ الْجَلَالِ ، وَيَتَّقِي ،
وَأَسَدَلَ جِلْبَابَ السُّؤْدَدِ عَلَى مَنْ أَعَدَّ لِلصَّلَاةِ وَالصَّلَاتِ مِنْ قَلْبِهِ وَتَوْبِهِ كُلَّ
طَاهِرٍ تَقِيٍّ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَعْلَى عِلْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَأَقَامَهُ ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ التَّقْوَى بَاقِيَةً فِي أَهْلِ
الْعِلْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً عَدْلٍ قَيِّدٌ^(١)
الْفَضْلَ بِالشُّكْرِ وَأَدَامَهُ ، وَأَيَّدَ النِّعْمَةَ بِمَزِيدِ الْحَمْدِ فَلَا غُرُوَّ أَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِمَامَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ «شَهَادَةُ عَدْلٍ فِيهَا قَيْدُ الْخ» وَضُبُّهُ عَلَى لَفْظَةِ «فِيهَا» .

وَالرَّعَامَهُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ بِهِ عَقِيْرَةَ مُرْتَلِّ الْأَذَانِ
وَمُذْرَجِ الْإِقَامَةِ ، وَأَعْلَى بِرَكَتِهِ قِيَمَةَ مَنْ تَمَسَّكَ بِسَبِيلِ الْهُدَى وَلَا زَمَ طَرِيقَ
الْإِسْتِقَامَةِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ عَقَدُوا عُھُودَ هَذَا الدِّينِ وَحَفِظُوا نِظَامَهُ ،
وَعَلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ مَامْنَهُمْ إِلَّا مَنْ أَقْتَدَى بِطَرِيقِهِ فَاهْتَدَى إِلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ ، صَلَاةً
لَا تَزَالُ بَرَكَاتُهَا تُؤَيِّدُ عَقْدَ الْيَقِيْنِ وَتُدِيْمُ ذِمَامَهُ ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيْمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ شِيْمِ دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ أَنْ تَرْفَعَ كُلَّ عَالِي الْمِقْدَارِ مَكَانًا عَلِيًّا ،
وَتَجْعَلَ لَهُ مِنْ أَسْمِهِ وَصِفَتِهِ قَوْلًا مَسْمُوعًا وَفِعْلًا مَرْضِيًّا ، وَتُوْطِدَ لَهُ رُتَبُ الْمَعَالِي
وَتَزِيدَ قُدْرَهُ فِيهَا رُقِيًّا ، وَتَكْسُوهُمْ مِنْ جِلْبَابِ السُّؤْدُدِ مِطْرَفًا مُبَارَكًا وَطِيًّا ، وَتُطْلَقَ
لِسَانُ إِمَامِهِ بِالْمَوَاعِظِ الَّتِي إِذَا تَعَقَّلَهَا أُولُو الْأَلْبَابِ نَحَرُوا لِمَا عَنِ رَهْبِهِمْ مُجِدًّا وَبُكِيًّا .

وَمَا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِيُّ هُوَ الَّذِي أَعَزَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ وَشَادَهَا ،
وَأَبْدَى مِنْ أَلْفَاظِهِ الْمُبَارَكَةِ الْمَوَاعِظَ الرَّبَّانِيَّةَ وَأَعَادَهَا ؛ وَأَذَاعَ فِيهَا أَسْرَارَ الْيَقِيْنِ
وَزَادَهَا ، وَأَصْلَحَ فُسَادَهَا ، وَقَوَّمَ مُنَادَهَا ؛ وَكَيْفَ لَا وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الْعُلُومِ أَشْتَاتًا ،
وَأَحْيَا مِنْ مَعَالِمِ الثَّقَا رَفَاتًا ، وَأَوْضَحَ مِنْ صِفَاتِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ بِهَدْيِهِ وَسَمَّيْتِهِ هَدْيًا
وَسَمَاتًا ، فَلِذَلِكَ خَرَجَ الْأَمْرُ الشَّرِيفُ الصَّالِحِيُّ الْعَامَدِيُّ



قُلْتُ : وَهَذِهِ نَسْخَةٌ تَوْقِيعَ بِحَظَابَتِهِ أَيْضًا ، أَنَشَأْتُهُ لِلشَّيْخِ « شِهَابِ الدِّينِ
أَبْنِ حَاجِّي » :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ شِهَابَ الْفَضَائِلِ فِي سَمَاءِ مَعَالِيهَا ، وَزَيَّنَ صَوَاتِ الْمَنَازِلِ بِمِنْ
قَرَّتْ عِيُونُهَا مِنْ وَلَايَتِهِ الْمُبَارَكَةِ بِتَوَالِيهَا ، وَجَمَّلَ أَعْوَادَهَا بِأَجَلٍ حَبْرٍ لَوْ تَسْتَطِيعُ فَوْقَ

قدرتها لَسَعَتْ إِلَيْهِ وَفَارَقَتْ - نَحْقًا لِلْعَادَةِ - مَبَانِيهَا، وَشَرَفَ دَرَجَهَا بِأَكْلِ عَالِمِ
مَآوِضَ بَاسَافِهَا قَدَمًا إِلَّا وَحَسَدَتْهَا عَلَى السَّبْقِ إِلَى مَسِّ قَدَمِهِ أَعَالِيهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ مَصَاقِعَ الْخُطَبَاءِ مِنْ فَضْلِ اللِّسَنِ بِالْبَاجِ الْمَدِيدِ، وَقَصَرَ الْجَامِعَ
الْأُمَوِيَّ عَلَى أَنْ يَبْلُغَ خَطِيبٌ يَسِيبُ فِي تَطَلُّبِ مِثْلِهِ الْوَلِيدَ، وَأَفْرَدَ فَرِيدَ الدَّهْرِ بِاعْتِبَارِ
الْإِسْتِحْقَاقِ بُرْقَى دَرَجٍ مِنْبَرِهِ السَّعِيدِ . وَلِنَشْهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَحْقِيقُ عَلَى مَوَازِيبِ الصُّفُوفِ أَعْلَامُهَا ، وَتَوَقَّرَ مِنْ تَذْكِيرِ آلاءِ اللَّهِ تَعَالَى
أَقْسَامُهَا ، وَلَا تُقْصَرُ عَنْ تَبْلِغِ الْمَوَاعِظِ حَبَاتِ الْقُلُوبِ أَفْهَامُهَا ، وَلِنَشْهَدَ أَنَّ سَيِّدَنَا
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ نَبَةِ الْقُلُوبِ الْغَافِلَةِ مِنْ سِنَاتِهَا، وَأَيْقُظُ الْخَوَاطِرَ النَّائِمَةَ
مِنْ سُبَاتِهَا ، وَأَحْيَا رَمِيمَ الْأَفْنَدَةِ بِقَوَارِعِ الْمَوَاعِظِ بَعْدَ مَمَاتِهَا؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ عَلَا مَقَامُهُمْ ، فَفَاتَتْ أَعْقَابُهُمُ الرُّءُوسُ ، وَرُفِعَتْ فِي الْمَجَامِعِ رُءُوسُهُمْ ،
فَكَانَتْ مَنْزِلَتُهُمْ مَنْزِلَةَ الرَّئِيسِ مِنَ الْمَرْءُوسِ؛ صَلَاةً لَا تَزَالُ الْأَرْضُ لَهَا مُسْجِدًا ،
وَلَا يَبْرَحُ مُفْتَرِقُ الْمَنَابِرِ بِاخْتِرَاقِ الْآفَاقِ لِاجْتِمَاعِهَا مَوْرِدًا .

وَبَعْدَ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا صُرِفَتِ الْعِنَايَةُ إِلَيْهِ، وَوَقَعَ الْاِقْتِصَارُ مِنْ أَهَمِّ الْمُهْمَّاتِ عَلَيْهِ -
أَمْرُ الْمَسَاجِدِ الَّتِي أُقِيمَ بِهَا لِلدِّينِ الْحَنِيفِ رَسْمُهُ، وَبُيُوتِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ ؛ لَا سِوَا الْجَوَامِعِ الَّتِي هِيَ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ مِنَ الرِّعَايَةِ،
وَأَمَائِلِ الْأَعْيَانِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبَرِيَّةِ ؛ وَمَنْ أَعْظَمَ خَطَرًا، وَأَبْيَنَ فِي الْحَاسَنِ أَثَرًا،
وَأَسِيرَ فِي الْآفَاقِ النَّائِيَةِ خَبَرًا ؛ بَعْدَ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُسَدُّ الرِّحَالَ إِلَيْهَا، وَيَعُولُ
فِي قَصْدِ الزِّيَارَةِ عَلَيْهَا - جَامِعُ دِمَشْقَ الَّذِي رَسَتْ فِي الْفَخْرِ قَوَاعِدُهُ، وَقَامَتْ عَلَى مَمَرِ
الْأَيَّامِ شَوَاهِدُهُ؛ وَقَاوِمِ الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ الْجَوَامِعِ وَاحِدُهُ؛ وَلَمْ تَزَلِ الْمُلُوكُ تَصْرِفُ الْعِنَايَةَ
إِلَى إِقَامَةِ شَعَائِرِ وَطَائِفِهِ ، وَتَقْتَصِرُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ عَلَى رِئِيسِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَعَارِفِهِ ؛

فما شغرت به وظيفته إلا اختاروا لها الأعلى والأرفع، ولا وقع التردد فيها بين اثنين إلا تقيّلوا منهما الأعلم والأورع؛ خصوصاً وظيفة الخطابة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بها متصدياً، وعلم الخلفاء مقام شرفها بعد فباشرها بأنفسهم تأسياً.

ولما كان المجلس العالي، القاضوي، الشيعي، الكبير، العالمي، الفاضلي، الأوحد، الأشكلي، الرئيسي، الموهبي، البليغي، الفريدي، المفيد، التجيدي، القدوي، الحجّي، المحقّق، الورعي، الخاشعي، الناسكي، الإمامي، العلّامي، الأنيلي، العريقي، الأصيلي، الحاكّي، الخطيبي، الشهابي: جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العاملين، أوحد الفضلاء المفيد، قدوة البلغاء المجتهدين، حجة الأمة، عمدة المحدثين، نخر المدرسين، مفتي المسلمين، معز السنة، قانع البدعة، مؤيد الملة، شمس الشريعة، حجة المتكلمين، لسان المناظرين، بركة الدولة، خطيب الخطباء، مذكر القلوب، منبه الخواطر، قدوة الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين «أبو العباس أحمد» أدام الله تعالى نعمته: هو الذي خطبته هذه الخطابة لنفسها، وعلمت أنه الكفء الكامل فنسبت به في يومها ما كان من مصابيح الخطباء في أمسيها؛ إذ هو الإمام، الذي لا تُسامى علومه ولا تُسام، والعلامة الذي لا تُدرك مداركه ولا تُرام؛ والخبر الذي تُعقد على فضله الخناصر، والعالم الذي يعترف بالقصور عن مجاراة جيازه المناظر؛ والحافظ الذي قاوم علماء زمانه بلا منازع، وعلامة أئمة أوانه من غير مدافع؛ وناصر السنة الذي يذب بعلمه عنها، وجامع أشتات الفنون التي يفتيس أمائل العلماء منها، وزاهد الوقت الذي زان العلم بالعمل، وناسك الدهر الذي قصر عن مبلغ مداه الأمل؛ ورحلة الأقطار الذي تُشد إليه الرحال، وعالم الآفاق الذي لم يسمح الدهر له بمثال - أقتضى

حسن الرأى الشريف أن ترفع من المنابر على درجها ، وتقطع براهينه من دلائل الإلباس الملبسة داحض حجبها ؛ وتقدمه على غيره ممن رام إبرام الباطل فتقض ، وحاول رفع نفسه بغير أداة الرفع خفض .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، المعزى - لا زال يرفع لأهل العلم راسا ، ويحقق لذوى الجهل من بلوغ المراتب السنية ياسا - أن يفوض إلى المجلس العالى المشار إليه خطابة الجامع المذكور بانفراده ، على أتم القواعد وأكملها ، وأحسن العوائد وأجملها .

فليرق منبره الذى عاقب فيه راحته الطالع أعزل غيره الغارب ، وليتبعوا ذروة سنامه الأرفع من غير شريك له ولا حاجب ؛ وليقصد بمواعظه حبات القلوب ، ويرشق شهاب قراطيسها المانعة فإنها الغرض المطلوب ؛ وليأت من زواجر وعظه بما يذهب مذهب الأمثال السائرة ، ويرسلها من صميم قلبه العامر فإن الوعظ لا يظهر أثره إلا من القلوب العامرة ؛ ويقابل كل قوم من التذكير بما يناسب أحوالهم على أكمل سنن ، ويخص كلا من أزمان السنة بما يوافق ذلك الزمن ؛ والوصايا كثيرة وإنما تهذيب العلم يغني عنها ، وتأديب الشريعة يكفى مع القدر اليسير منها ؛ وتقوى الله تعالى ملاك الأمور وعنده منها القدر الكافى ، والحاصل الوافى ؛ والله تعالى يرقيه إلى أرفع الدرى ، ويرفع على الجوزاء مجلسه العالى : « وإنا لَنرجو فوق ذلك مظهرا » .



الوظيفة السادسة — التداريس البكار بدمشق المحروسة .

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الريحانية ، كُتِبَ به لقاضى القضاة «عماد الدين الطرسوسى» الحنفى ، عوضا عن جلال الدين الرازى . كُتِبَ بسؤال بعض كُتَّاب الإنشاء ، وهى :

الحمد لله الذى جعل عماد الدين عليا ، وأحكم مبانى من حكم فلم يدع عصيا ، وقضى فى سابق قضائه لإمضاء قضائه أن لا يبقى عتيا .

نحمده على ما وهب به من أوقات الذكر بكرة وعشيا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُنبّه بالعلم بوحدانيته من كان غيبا ، وتكبت لمقاتل سيوف العلماء من كان غويا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى كان عند ربه رضىا ، وعلى ذبه عما شرع من الدين مرضيا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال فضل قديمها مثل حديثها مرويا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما كانت رتب العلم هى التى يتنافس عليها ، ويتطاول إلى التنقل إليها ، ويختار منها ما كسب مباشرة المتقدم ملابس الحلال ، وأن له أن ينتقل إليه البدر بعد الهلال ، وكانت المدرسة الريحانية بمحروسة دمشق هى ريحانة المجالس ، وروضة العلم الزاكية المغارس ، وبحر الفوائد الذى يخرج الفرائد ، ومسرح العلماء الذى قد آن أن يظفر به منهم من الألف زائد .

ولما توفى من آلت إليه ، وعالت مسألتها إلا عليه ، وكان ممن قد ولي الأحكام استقلالا ، وكان لبصر الدنيا جلاء وللدن جلالا ، لم تكن إلا لمن ينسى به ذاك

الذاهب ، وينسب إليه علم مذهبه كله وإن كان لا يقتصر به على بعض المذاهب ؛ ويعرف من هو وإن لم يصرح باسمه ، ويعرف من هو وإن لم يذكر بعلاء قدره العليّ وعلمه ؛ ولا يمتري أنه خلف «أبا حنيفة» فيمن خلف ، وحصل على مثل ما حصل عليه القاضي «أبو يوسف» وذهب ذلك في السلف الأول مع من سلف ؛ وأعلم بجذاله أن «محمد بن الحسن» ليس من أقران أبي الحسن ، وأن «زفر» لم يرزق طيب أنفاسه في براعة اللسن ؛ وأن «الطحاوي» ما طحا به «قلب إلى الحسان طروب» و «القاضي خان» لديه منه الأنبوب ؛ وتلقب «شمس الأئمة» لما طلع علم أنه قد حان من شمس النهار غروب ، و «الرازي» لما جاء تيقن أنه يرويه عن علم الجيوب ، و «المرغيناني» مس ولم يرغ له في مطلوب ؛ و «الثلجي» ما برد لطالب غله ، و «الخبازي» لم يوجد عنده لطعام فضله ، و «الهندواني» ما أجدى في جلال الجدال ولا هنر نضله ؛ ولم يزل يُشار إليه والتقليد الشريف له بالحكم المطلق بما تضمنته من محاسن أوصافه شاهد ، ودست الحكم على «علي كيوان شائد» ومدارس العلم تُسر من حبه ، ما حُنت عليه من محاريبها الأضالع ، ومجالس القضاء تظهر بقربه ، ما لم يكن تداني إليه المواضع .

وكان الجنب الكريم ، العلي ، القضاي ، الأجلي ، الإمامي ، الصدرى ، العالمى ، العالمى ، العلّامى ، الكاملى ، الفاضلى ، الأوحدي ، المفيدى ، الورعى ، الحاكى ، العمادى ؛ ضياء الإسلام ، شرف الأنام ، صدر الشام ، أمير الإمام ، سيد العلماء والحكام ؛ رئيس الأصحاب ، معز السنة ، مؤيد الملة ، جلال الأئمة ؛ حكم الملوك والسلطين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبو الحسن على بن الطرسوسى الحنفى ، قاضى

(١) كذا في الأصل ولعله من زيادة قلم النسخ . (٢) بروزه يسأله ويختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية . (٣) من أرغ له فى كذا . أطاعه فيه .

القُضَاة بالشَّام - نشر مُلَاةَ مَذْهِبِهِ ، وَحَلَّى بِجُلُوسِهِ لِلْحُكْم طَرَفِي النَّهَارِ إِضَاءَةً مُفَضِّضَةً
 وَتَوْشِيحَ مَذْهِبِهِ ؛ طَالَمَا سَاسَ الرِّعْيَةَ بِحُكْمِهِ ، وَسَادَ نَظْرَاهُ فِي مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ
 بَعْلَمُهُ وَحِكْمُهُ ؛ وَسَارَ مِثْلُ فَضْلِهِ فِي الْأَقْطَارِ وَضَوْءُ الشَّمْسِ مَرْدُّ شُعَاعِهِ ، فَطَالَ إِلَى
 السَّمَاءِ وَقَصُرَ الْأَفْقُ الْمَتَدُّ عَلَى طُولِ بَاعِهِ ، وَفَاضَ فِيضُ الْغَمَامِ وَمَا آكَلَ الْبَحْرُ بِكَيْلِهِ
 وَلَا صَارَ مِثْلَ صَاعِهِ ؛ وَعِزَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لغيرِهِ أَنْ يُجْبَى
 رِيحَانَتَهَا ، وَلَا أَنْ تُوَدَّى إِلَى يَدِ سِوَاهُ فَيُودَعَ أَمَاتَهَا ؛ فَأَثَرَهَا عَلَى أَنَّهُ تَرَكَ الْمَدْرَسَةَ
 الْمُقَدِّمِيَّةَ الْمُتَقَدِّمَ لَهُ دَرْسُهَا ، الْمُعْظَمَ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ غَرُسُهَا ؛ لِيُوسِّعَ بِهَا عَلَى الطَّالِبِ
 مَذْهَبَهُ ، وَيَقْرِغَ لَهَا سَاعَةً مِنْ أَوْقَاتِهِ الْمُنتَهَبَةِ ، وَيَهَبَ [لَهَا] مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ
 فِي يَدِهِ مَا لَوْ شَاءَ مَا وَهَبَهُ .

فَرَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يُقَرِّبُ الْآمَادَ ، وَيَرْضَى الْقَوْمَ وَأَقْضَاهُمْ عَلَى
 وَأَثْبَتَهُمْ طَوْدًا الْعِمَادَ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ تَدْرِيسُ الْمَدْرَسَةِ الرَّيْحَانِيَّةِ الْمُعِينَةِ أَعْلَاهُ ، عَلَى
 عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَهُ وَقَاعِدَتِهِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ؛ بِحُكْمِ تَرْكِهِ لِلْمُقَدِّمَةِ لِهَبِّ عَلَيْهِ رَوْحَهَا
 وَتَهَبَ لَهُ السَّعَادَةُ رِيحَهَا ؛ وَلَهَا مِنَ الْبُشْرَى بَعْلَمُهُ مَا تَمِيسُ بِهِ رِيحَانَتُهُ رِيحَهَا سُورًا ،
 وَتَمِيدُ وَقَدْ أَكْنَتُ جَبَلًا مِنَ الْعِلْمِ وَقُورًا ؛ وَتَمْتَدُّ وَقَدْ نَأَخَتْ فِي مِسْكَةِ اللَّيْلِ عَيْرًا ،
 وَفِي أَفْوَانَةِ الصَّبَاحِ كَافُورًا ؛ وَمَا نُوصِي مِثْلَهُ - أَجَلَ اللَّهِ قُدْرَهُ - بِوَصِيَّةٍ إِلَّا وَهُوَ
 يَعْلَمُهَا ، وَيَلْقَنُهَا مِنْ حِفْظِهِ وَيُعَلِّمُهَا ؛ وَمَنْ فَضَّلَ قَضَائِهِ تُوَخَّدُ الْآدَابَ ، وَتُنْفَذُ سِهَامُ
 الْآرَاءِ وَالْآرَابِ . وَتَقْوَى اللَّهُ بِهَا بَاطِنُهُ مَعْمُورٌ ، وَكُلُّ أَحَدٍ بِهَا مَأْمُورٌ ؛ وَمَا نَذَرَهُ
 بِهَا إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ بِذِكْرِهَا ، وَالتَّمَسُّكِ بِأَمْرِهَا . وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُتَفَقِّهَةُ هُمْ جُنْدُهُ ،
 وَبِهِمْ يَجِدُّ جِدُّهُ ، [فَيَجْعَلُهُمْ لَهُ فِي الْمَشْكَلاتِ عُدَّةً ، وَلِيَصْرِفَ فِي] الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ
 جُهْدَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُهُ عَلَى مَا وُلِيَ ، وَيُعِينُهُ لِكُلِّ عَلِيَاءٍ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُحْلَهَا إِلَّا عَلَى .
 وَسَبِيلُ كُلِّ وَقَفٍ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِهِ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ .



الوظيفة السابعة — التصدير بدمشق المحروسة .

وهذه نسخة توقيع أنشأته لقاضى القضاة «بدر الدين محمد» ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء، وولده جلال الدين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموى بدمشق : أحدهما انتقل إليهما عن سلفيهما، والثانى بزول، وخرج عنهما عند استيلاء «تم» نائب الشام على الشام فى سنة اثنتين وثمانمائة، ثم أعيد إليهما فى شوال من السنة المذكورة، فى قطع الثلث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين فى أيامنا الزاهرة متواصل رتب الكمال، مترددا فى فلك المعالى بأكرم مساعين بهاء وجلال، منزها عن شوائب النقص فى جميع حالاته : فإما مرتقب الظهور فى سريره، أو متمسك بالثمام فى إبداره، أو آخذ فى الازدياد وهو هلال .

نحمده على أن أفر الحقوق فى أهلها، وأنترع من الأيدي الغاصبة ما اقتطعته الأيام الجائرة بجهلها، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحمى قائليها من شوائب التكدير، ونصون متحملها من عوارض الإصدار إذا ورد أصفئ مناهل التصدير، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبي اقتفت أمته أناره وآتبعته سننه، وأكرم رسول دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الحق وأعلام الهدى، وحماة الدين وكفالة الردى، صلاة يبق على مدى الأيام حكمها، ولا يتدرس على ممر الليالى رسمها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من رعى له الحقوق القديمة، وحفظت له مساعيه الكريمة، وخلدت عليه النعم التى حق لها أن تكون بأهلها مقيمة، من كرم أصلا وطاب

قَرَأَ ، وَزَكَا مَنبَعًا وَعَدُبَ تَبَعًا ، وَوَقَعَ الإِجْمَاعُ عَلَى فَضْلِهِ الْمُتَوَاتِرِ فَأُعِدَّ الْحُكْمُ
بِتَفْضِيلِهِ قَطْعًا ، وَمِنْ إِذَا تَكَلَّمَ فَاقَ بِفَضْلِهِ نَثْرَ اللَّالِي ، وَإِذَا قُدِرَ قُدْرَهُ انْحَطَّتْ عَنْ
بُلُوغِ غَايَتِهِ الْمَعَالِي ، وَإِذَا طَلَعَ بَدْرُهُ الْمُضِيءُ مِنْ أَفْقِ مَجْلِسِهِ الْمَوْرُوثِ عَنْ أَبِيهِ وَأَعْمَامِهِ
قَالَ : لَيْتَ أَشْيَانِي شَهِدُوا هَذَا الْمَجْلِسَ الْعَالِي ؛ وَمَنْ إِذَا جَلَسَ بِحُلْفَتِهِ الْبَيْتَ غَشِيَتْهُ
مِنْ الْهَيْبَةِ جَلَالُهُ ، وَإِذَا أَطَافَتْ بِهِ هَالَةُ الطَّلَبَةِ وَالْمُسْتَفِيدِينَ قِيلَ : مَا أَحْسَنَ هَذَا الْبَدْرَ
فِي هَذِهِ الْمَهَالَةِ ! ، وَمَنْ تَتَبِعَهُ طَلَبَتُهُ عَلَى أَكْبَرِ الْعُلَمَاءِ بِالْإِتِّمَاءِ إِلَيْهِ ، وَتَشَمَّخُ نَفُوسُ
تَلَامِذِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُتَصَدِّرِينَ بِالْجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَمَنْ إِذَا أَقَامَ بِمِصْرَ طَلَعَ بِالشَّامِ
بَدْرُهُ ، وَلَوْ أَقَامَ بِالشَّامِ بَقِيَ بِمِصْرَ عَلَى الدَّوَامِ ذِكْرُهُ .

وكان المجلس العالي ، القاضوي ، الكبير ، العالم ، العالي ، الأفضلي ،
الأكملي ، الأوحد ، البليغ ، الفريد ، المفيد ، النجيد ، القدوي ،
الحجج ، المحقق ، الإمامي ، الأصلي ، البدر ، جمال الإسلام والمسلمين ، شرف
العلماء العالمين ، أوجد الفضلاء المفيد ، قدوة البلغاء ، حجة الأدب ، عمدة
المحدثين ، فخر المدرسين ، مفتي الفرق ، أوجد الأمة ، زين الأمة ، خالصة الملوك
والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، محمد بن المجلس العالي ، القاضوي ،
الكبير ، المرحوم ، البهائي ، أبي البقاء الشافعي ، السبكي ، ضاعف الله تعالى
نعمته : هو عين أعيان الزمان ، والمحدث بفضل له أهلا ، ولا أراد الانصراف من
مجلس علم إلا قال له مهلا ؛ ولا استبدل به في وظيفة إلا نسب مستبدل له إلى
الحيف ، ولا صرف عن ولاية إلا قال استحقاقه : كيف ساع ذلك لمتعاطيه
فكيف وكيف .

وكان ولده المجلس السامى، القضاى، الكيرى، العالمى، الفاضلى، الكاملى،
البارعى، الأصيلى، العريقى، الجلالى، ضياء الإسلام، نحر الأنام، زين الصدور،
جمال الأعيان، نجلى الأفاضل، سليل العلماء، صفوة الملوك والسلاطين، خالصة
أمير المؤمنين، أبو محمد بلغ الله تعالى فيه [عارفيه] غاية الأمل، وأقر به
عين الزمان كما أقر به عين أبيه وقد فعل؛ قد أرضع لبان العلم وربى فى حجره، ونشأ
فى بطنه ودرج من وكره؛ وكل له سؤدد الطرفين : أباً وأماً، وحصل على شرف
الحمتين : خالاً وعمماً؛ لم يقع عليه بصر متبصر إلا قال : نعم الولد، ولا تأمله صحيح
النظر إلا قال : هذا الشبل من ذاك الأسد؛ ولا رمى والده إلى غاية إلا أدركها،
ولا أحاط به منطقة طلبة إلا هزها للبحث وحررها؛ ولا أقتفى أثر أبيه وجده
فى مهيع فضلى إلا قال قائله : أكرم بها من ذرية ما أبركها ! .

وأنفق أن خرج عنهما ما كان باسمهما من وظيقتى التصدير بالجامع الأموى
المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة : المتقلة إحداهما إليهما عن سلفهما
الصالح قداما، والصائرة الأخرى إليهما بطريق شرعى معتبر وضعاً ونابيت حكام -
أقتضى حسن الرأى الشريف أن يحفظ لهما سالف الخدمة، ويرعى لهما قديم الولاء
فالعبرة فى التقديم عند الملوك بالقدمه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال لذوى البيوت حافظاً، وعلى الإحسان
لأهل العلم الشريف على ممر الزمان محافظاً - أن يعاد ذلك إليهما، ويوالى مزيد
الإحسان عليهما؛ فليتلقيا ذلك بالقبول، ويسطاً بالقول ألسنتهما فمن شمله إنعامنا
الشريف حق له أن يقول ويطول؛ وملاك أمرهما التقوى فهى خير زاد، والوصايا

وإن كَثُرَتْ فعنهما تؤخذ ومنهما تُستَفَادُ؛ والله تعالى يُقرُّ لهما بهذا الاستقرار عينا، ويُنْجِ خَوَاطِرَهُما بهذه الولاية إيهاج من وَجَدَ ضَلَّتَهُ فقال : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ . والاعتماد في ذلك على الخطِّ الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، مُجَّةً بِمُقْتَضَاهُ؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثامنة — النَّظَرُ .

وهذه نسخة تَوْقِيعِ بنظر البَيَارِستان النُّوريِّ، كُتِبَ بها لمن لَقَبَهُ «شِهَابُ الدِّين» وهي :

رِسْمَ - لا زَالَ يُطْلَعُ في سماءِ المناصبِ السَّيِّئَةِ من ذَوِي الْأَصَالَةِ وَالْكَفَايَةِ شِهَابًا، وَيُوزَعُ الْمُسْتَحَقِّينَ بِجِهَاتِ الرَّشْكَه إِذْ اخْتَارَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّهَضُّعِ مَنْ ارْتَدَى الْعَفَافِ جِلْبَابًا، وَيُودَعُ صَحَائِفَ الْأَيَّامِ ذِكْرَهُ الْحَمِيلَ حِينَ أَحْيَا قُرْبَاتِ الْمُلُوكِ السَّالِفِينَ بِاتِّخَابِ مَنْ يُجَدِّدُ لَهُمْ بِحُسْنِ الْمُبَاشَرَةِ ثَوَابًا - أَنْ يُجْمَلَ «مَجْلِسُ الْأَمِيرِ» فَلَان : أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى فِيمَا هُوَ بِيَدِهِ مِنْ نَظَرِ الْبَيَارِستانِ النُّوريِّ بِدَمْشَقِ الْحُرُوسَةِ، عَلَى حُكْمِ التَّوْقِيعِ الْكَرِيمِ وَالْوَلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ اللَّذِينَ بِيَدِهِ، وَأَسْتَقْرَارِهِ فِي ذَلِكَ بِمُقْتَضَاهُمَا أَسْتَقْرَارًا يَسْطُو فِي هَذَا الْمَنْصِبِ يَدَهُ وَلِسَانَهُ، وَيُظْهِرُ شِهَابَ عَدْلِهِ الَّذِي يُحْرِقُ مِنَ الْجَوْرِ شَيْطَانَهُ؛ وَيُرِزُّ مِنْ مُبَاشَرَتِهِ مَا عُرِفَ جَوْهَرُهُ بِحُسْنِ الْإِتْقَاءِ وَإِبْرِيزُهُ بِحُسْنِ الْإِنْتِقَادِ، وَمِنْ تَأْثِيرِهِ مَا تَبْلُغُ بِهِ الْإِنْفُسُ الْمُرَادَ بِأَوْسَعِ مَرَادٍ؛ وَيُسَدِّى مِنْ تَدْيِيرِهِ، مَا يَنْتَجِجُ تَمِيزَ الْوَقْفِ وَتَتْمِيرِهِ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ عَلَى عَادَةِ مُبَاشَرَتِهِ الْحَسَنَةِ، وَاسْلُكْ فِيهَا مَاعْهَدَ مِنْ طَرِيقَتِهِ الْمُسْتَحْسَنَةِ؛ مُحْصَلًا مِنَ الْمَفْرَدَاتِ مَا يَصْرِفُهَا مُسْتَحَقَّهَا وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، مُتَابِرًا

على حُسن مُعالجة المَضْرُور الذى لا تَقْدِرُ يَدُهُ من العِجْزِ عليها ؛ مُوَاصِلًا فِعْلَ الْخَيْرِ
بِاسْتِمْرَارِ صدقات الواقف لِئِشَارِكِهِ فى الْأَجْرِ وَالنَّوَابِ ، مُسْتَجِيبًا لَهُ من الدُّعَاءِ وَلَنَا
بِمُشَارَكَتِهِ فى الْأَمْرِ بِالْعَمَلِ بُسْتَةً إِلَى يَوْمِ الْمَاتِ ، ضَائِعًا أَمْوَالُ هَذِهِ الْجِهَةِ بِتَحْرِيرِ
الْأَصُولِ وَالْمَطْلُوقِ وَالْحِسَابِ وَالْحُسْبَانِ ؛ مُتَقَدِّمًا إِلَى الْخُدَامِ وَالْقَوَمَةِ بِحَسَنِ الْخِدْمَةِ
لِلْعَاجِزِ وَالضَّعِيفِ ، مُؤَكِّدًا عَلَيْهِمْ فى أَخْذِهِم بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ دُونَ الْكَلَامِ الْعَنِيفِ ؛
مُزَيِّدًا لَهُمْ بِجُودَةِ الْخِدْمَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، مُوَاخِذًا لَهُمْ بِمَا يُحِلُّونَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ إِهْمَالًا
وإِفْصَارًا ؛ مُتَقَدِّمًا إِلَى أَرْبَابِ وَظَائِفِ الْمَعَالِجَةِ بِبَدْلِ النَّصِيحَةِ ، وَاسْتِدْرَاكِ الْأَدْوَاءِ
الْمُسْقِمَةِ بِإِتْقَانِ الْأَدْوِيَةِ الصَّحِيحَةِ ؛ وَلِيَتَفَقَّدَ الْأَحْوَالُ بِنَفْسِهِ : لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْمَكَانِ
أَنَّ وَرَاءَهُمْ مَنْ يَقَابِلُهُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَلِيَبْدُلَ فى ذَلِكَ جُهْدَهُ فَإِنَّ الْأَجْتِهَادَ الْقَلِيلَ
يُؤَثِّرُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَعِنْدَهُ مِنَ النَّادِبِ بِالْعِلْمِ وَحُسْنِ الْمُبَاشَرَةِ مَا فِيهِ
كَفَايَةٌ ، وَفِي أَخْلَاقِهِ مِنْ جَمِيلِ الْمَآثِرِ وَمَا حَازَهُ فى الْبِدَايَةِ مَا يَنْفَعُهُ فى النِّهَايَةِ ؛ وَلَكِنْ
تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ السَّبَبُ الْأَقْوَى ، وَالْمَنْهَلُ الَّذِي مِنْ وَرْدِهِ يَرَوَى ؛ فَلْيَجْعَلْهَا
لَهُ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ الْمَعَادِ ، وَمَعْقِلًا عِنْدَ الْخُطُوبِ الشَّدَادِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبَلِّغُهُ مِنَ التَّوْفِيقِ
الْأَمَلِ وَالْمُرَادِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! ، وَالْاعْتِمَادُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصف الثالث

(من تواقع أرباب الوظائف بحاضرة دمشق - تواقع أرباب
الوظائف الديوانية ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع النصف بـ «المجلس العالي» وهي على ضريين)

الضرب الأول^(١)

(تواقع الوزارة بالملكة الشامية على ما استقر عليه الحال)

فقد ذكر في " التعريف " أنه يكتب بالشام للصاحب^(٢) [عز] الدين أبي يعلى
« حمزة بن القلانسي » رحمه الله بـ «الجناح العالي» « لجلالة قدره ، وسابقة خدمه ،
وعناية من كتب له بذلك . لكنه لم يبين مقدار قطع الورق لذلك . ولا يخفى أنه
كتب به في قطع الثلاثين ، على القاعدة في أنه يكتب للجناح في قطع الثلاثين . وقد ذكر
بعد ذلك أن الذي استقر عليه الحال أنه يكتب للوزير بالشام « المجلس العالي »
بالدعاء ، كما كتب للصاحب أمين الدين أمين الملك .

[وفيه وظائف :

الوظيفة الأولى — ولاية تدبير الممالك الشامية^(٣)] .

وهذه نسخة توقيع للصاحب « أمين الملك » المذكور بتدبير الممالك الشامية
والخواص الشريفة والأوقاف المبرورة ، من إنشاء الصلاح الصفدي ، وهي :

(١) لم يذكر الثاني .

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من " التعريف " (ص ٧٥) .

(٣) زدنا ما بين القوسين لأقتضاء المقام وتتم الكلام .

الحمد لله الذى جعل وَلِيَّ أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةَ، أَمِينًا، وَأَحْلَهَ من صَمَائِرِنَا الطَّاهِرَةِ، مَكَانًا
أَيُّمًا تَوَجَّهَ وَجَدَهُ مَكِينًا، وَخَصَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لِدَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ، فَهُوَ يَقِينًا يَقِينًا، وَعَصْدُ
بِتَدْيِيرِهِ مَمَالِكَنَا الشَّرِيفَةَ فَكَانَ عَلَى نَيْلِ الْأَمَلِ الذِّى لَا يَمِينُ يَمِينًا، وَزَيْنَ بِهِ آفَاقُ
الْمَعَالِي فِي دَجَا أَمْرٍ إِلَّا كَانَ فِكْرُهُ فِيهِ صَحِيحًا مُبِينًا، وَجَمَلَ بِهِ الرُّتَبَ الْفَاحِرَةَ فَكَمْ قَلْدُ
جِيدِهَا عِقْدًا نَفِيسًا وَرَصَّعَ تَاجُهَا دُرًّا ثَمِينًا، وَأَعَانَهُ عَلَى مَا يَتَوَلَّاهُ فَهُوَ الْأَسَدُ الْأَسَدُ
الذِّى آتَخَذَ الْأَقْلَامَ عَرِينًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي خَصَّصْنَا بِوَلِيِّ نَجْمِ الدُّوَلِ، وَتَعْنَى الْمَمَالِكِ بِتَدْيِيرِهِ عَنِ
الْأَنْصَارِ وَالْخَوَلِ، وَنَحْسُدُ أَيَّامَنَا الشَّرِيفَةَ [عَلَيْهِ] أَيَّامٌ مِنْ مَضَى مِنْ الدُّوَلِ الْأَوَّلِ .
وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَسْتَمِطُ بِهَا صَوْبَ الصَّوَابِ،
وَنَزْفُلُ مِنْهَا فِي ثَوْبِ الثَّوَابِ، وَنَعْتَدُّ بِرَّهَا وَاصِلًا لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَالْمَأْبِ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، وَرَسُولُهُ الذِّى لَمْ يَكُنْ عَلَى الْغَيْبِ بَصِينًا، وَحَبِيبُهُ الذِّى فَضَّلَ
الْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبِينَ، وَنَجَّيَهُ الذِّى أَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
حُجَّةً عَلَى الْمُلْحِدِينَ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ صَحَّبُوا وَوَزَرُوا، وَأَيَّدُوا
حَزْبَهُ وَنَصَرُوا، وَعَدَلُوا فِيمَا نَهَوْا وَأَمَرُوا، صَلَاةً تَكُونُ لَهُمْ هُدًى إِذَا حُشِرُوا،
وَتُضَوِّعُ لَهُمْ عَرَفَهُمْ فِي الْعُرْفِ وَتُطَيِّبُ نَشْرَهُمْ إِذَا نُشِرُوا؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد، فَإِنَّ أَشْرَفَ الْكَوَاكِبِ أَبْعَدُهَا دَارًا، وَأَجْلَهَا سُرًى وَأَقْلَهَا سِرَارًا،
وَأَعْلَاهَا مَنَارًا، وَأَطْيَبَ الْجَنَّاتِ جَنَابًا مَا طَابَ أَرْجَا وَثَمَارًا، وَبُخِّرَ خِلَالَهُ كُلُّ نَهْرٍ
«يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى»، وَرَنَحَتْ مَعَاطِفَ غُصُونِهِ سُلَافُ النَّسِيمِ قَرَاهَا
سُكَارَى، وَمَدَّتْ ظِلَالُ الْغُصُونِ فَيَخَالُ أَنَّهَا عَلَى وَجَنَاتِ الْأَنْهَارِ تَدِبُ عِذَارًا .

وكانت دِمَشْقُ المحروسة لها هذه الصفات ، وعلى صفاها تهب سمات هذه السمات ، لم يتصف غيرها بهذه الصفة ، ولا اتفق أولوا الأبواب إلا على محاسنها الختلفة ، فهي البقعة التي يطرب لأوصاف جمالها الجماد ، والبلد الذي ذهب بعض المفسرين إلى أنها إرم ذات العماد ، وهي في الدنيا أتمودج الجنة التي وعد المتقون ، ومثال النعم للذين عند ربهم يرزقون ، وهي زهرة ملكها ، ودرة سدكها ، وقد خلت هذه المدة ممن يرأى تديرها ويحى حوزتها ويحاشيها من التدمير ويملا خرائنها خيرا ينجى ، إذا ملأنا ساحتها خيلا ورجلا - تدين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهز زناه مثقفا وسلطانا عضبا ، وخبائنا في خرائن فكرنا فكان أشرف ما يدخر وأعز ما ينجى ، كم نبى في الأيام وأمر ، وكم شد أزرنا لما وزر ، وكم غيت به أيامنا عن الشمس وآياتنا عن القمر ، وكم رفعتنا راية مجد تلقاها عرابه فضله يبين الظفر ، وكم علا ذرا رتب تعز على الكواكب الثابتة فضلا عما يتنقل في المباشرات من البشر ، وكم كانت الأموال جمدى وأعادها ربعا غرد به طائر الإقبال وصفر .

و [لما] كان [الصاحب أمين الملك] ^(١) هو معنى هذه الإشارة ، وشمس هذه الهالة وبذر هذه الدارة ، نزل من العلياء في الصميم ، ونحونا بأفلامه إلى هي سمر الرياح كما نخرت بقوسها تميم ، وحفظت الأموال في دقاته التي يوشىها فأوت إلى الكهف والرقم ، وقال لسان قلبه : « اجعلني على خرائن الأرض إلى حفيظ عليم » وعقم الزمان أن ينجى بمثله « إن الزمان بمثله لعقيم » وتشبه به أروام فبانوا وبادوا ، وقام منهم عباد العباد فلما قام عبد الله كأدوا - أردنا أن تنال الشام فضله كما نالته مضر فما تساهم فيه سواهما ، ولا يقول لسان الملك لغيره :

حلت بهذا حلة ثم حلة * بهذا فطاب الواديان كلاهما

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه في ذلك .

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذي نعهد، والحزم الذي شاهدناه ونشهد، والتدبير الذي يعترف الصواب له ولا يحدده، حتى يثمر الأموال في أوراق الحساب، وتريد نموًا وسموًا فتفوق الأمواج في البحار وتفوت القطر من السحاب، مع رفق يكون في شدته، ولين يزيد مضاء حدته، وعدل يصون مهلة مدته، والسند يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر؛ بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها، والمعاليم تطلع بدور بدورها كاملة كل هلال على أصحابها، والرؤوم لا ترداد على الطائفة في بابها، والرعايا يجنون ثمر العدل في أيامه متساها، وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحل فلا يكدر وردها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأوباننا بهم فليكن الإسراع إليه يجلب البرق المائل في السحاب المسخر، فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من مكانه، وشهم لا ينهي إلى الباطل عيانه وعيانه، فاشكر هذه النعمة على مائحتها، وشف الاستماع بمدايحها، متحققا أن في الثقل، بلوغ العز والامل، وأنه لو كان في شرف الماوى بلوغ منى «لم تبرج الشمس يوماً دارة الحمل»؛ فاستصحب الفرح والجدل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام، كتبت بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضي ناصر الدين بن الشاشي، في مستهل ذي القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهي :

الحمد لله يُجْزِلُ الْمَنَ وَالْمَنَحَ ، وَمُرْسِلِ سَحَابِ الْعَطَاءِ السَّمَحِ ، وَمُعْمِلِ فِكْرِنَا الشَّرِيفِ
فِي اتِّخَابِ مَنْ أَوْرَى زَنْدَ الْخَيْرِ بِالْقَدَحِ ، وَمُنْقِلِ السَّرَّيْنِ الْأَفَاضِلِ مِنْ صَدْرِ إِلَى
صَدْرِ يَحْمِيْ يَصُونُ لَهُ السَّرْحَ ، وَيُعْنِيْ مَشْهُورَ الْفَاطِهَةِ عَنِ الشَّرْحِ ؛ وَمُجَلِّ بِنَاءِ الدِّينِ ،
بِمَا سَكَنَ بِهِ مِنْ صَمِيمِ الْفَضْلِ الْمُئِينِ ، وَمَا اقْتَرَنَ بِأَبْوَابِهِ مِنْ حَرَكَةِ الْفَتْحِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِ عَاطِرَةِ النَّفْحِ ، وَنُشْكِرُهُ عَلَى مَنَنِ عَالِيَةِ السَّفْحِ . وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهِادَةً تُجَبِّى قَائِلُهَا مِنْ حَرِّ الْجَحِيمِ وَتَقِيهِ شَرَّ شَرِّ ذَلِكَ
اللَّفْحِ ، وَتَحْطُبُ بِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَارِ الْأَمَلِ قُنُشَى عِنْدَهَا مِنْ مُطَرَبَاتِ
الْوَرَقِ عَلَى غُصُونِ الْأَوْرَاقِ هَدِيلِ الصَّدْحِ . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَلَغَ
الرِّسَالَةَ وَادَّى الْأَمَانَةَ وَعَامَلَ الْأُمَّةَ بِالنُّصْحِ ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ التَّرَحُّ وَأَمِنَهُ اللَّهُ عَلَى أَسْرَارِ
وَحْيِهِ فَكَانَ أَشْرَفَ أَمِينٍ خَصَّه اللَّهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ بِالْمَدْحِ ، وَجَعَلَهُ أَعْظَمَ مِنْ أَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَمْ تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَّا يَمُّ مَنْ لَحَا وَمَنْ لَمْ يَلْحَ ؛ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالصَّفَاءِ وَالصَّفَاحِ وَالصَّفْحِ ، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْكَدِّ وَالْكَدْحِ ؛ وَرَفَعُوا أَعْلَامَهُمُ الْمُظَلَّلَةَ ، وَنَصَبُوا
أَقْلَامَهُمُ الْمُعَدَّلَةَ ، فَكَمْ لَهُمْ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ جِرَاحٍ لَا تَعْرِفُ الْجَرْحُ ؛ وَذَادُوا عَنْ حَوَازَةِ
الدِّينِ ، بِإِرَاقَةِ دَمِ الْكُفَّارِ الْمُتَمَرِّدِينَ ، فَحَسُنَ مِنْهُمْ الذَّبُّ وَالذَّبْحُ ؛ وَكَانُوا فُرْسَانَ
الْكَلَامِ ، وَأُسُودَ الْإِقْدَامِ ، الَّذِينَ طَالَمَا خَسَّاتْ بِهِمْ كِلَابُ الشَّرِّكَ فَلَمْ تُطِيقِ النَّبْعُ ؛
صَلَاةٌ دَائِمَةٌ بِأَقْيَةِ الصَّرْحِ ، مَا اقْتَرَنَ النَّظَرُ بِاللَّحْ ، وَمَا هَطَلَ السَّحَابُ بِالسَّحْ ؛ وَسَلَامٌ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ خَطَبَتْ الْمَنَاصِبُ الْعَلِيَّةَ ، مُحَاسِنَتَهُ الْجَلِيلَةَ الْجَلِيلَةَ ، وَرَغِبَتْ
الْمَرَاتِبُ الَّتِي هِيَ بِالْخَيْرِ حَرِيَّةً ، فِي جَمِيلِ حَالَتِهِ الَّتِي هِيَ بِعُقُودِ الْمَفَاخِرِ حَالِيَّةً ، وَتَجَبَّتْ

سَحَابُ الإِقْبَالِ الْوَابِيَّةِ ، ذُبُولُ فَضَائِلِهِ الْفَاضِيَّةِ ، وَاكْتَسَابُ الْعُلُومِ الْفَرْعِيَّةِ وَالْأَصْلِيَّةِ ،
 مِنْ مَجَامِيعِ فُنُونِهِ الَّتِي تُعْرَبُ عَنْ أَنْوَاعِ الْفَوَائِدِ الْجُمْلِيَّةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ - مِنْ شَهَدَتِ الْمَقَاحِرُ
 بَأَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الشَّهِيدَ لَهَا وَابْنُ الشَّهِيدِ ، وَحَسَدَتِ الْمَآثِرَ الَّتِي هُوَ الشَّهِيرُ بِهَا فَمَا عَلَيْهَا
 فِي جَمِيلِ الْأَدْوَاتِ مِنْ مَزِيدٍ ، وَتَشَيَّدَتِ مَبَانِي مَعَالِيهِ الَّتِي اقْتَرَنَ بِأَبْ خَيْرِهَا مِنْهُ
 بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ ، وَتَمَهَّدَتِ مَعَانِي أَمَالِيهِ بِالتَّخِيلِ اللَّطِيفِ وَاللَّفْظِ الْمَتِينِ ؛ وَتَعَدَّدَتِ
 أَوْصَافُ شَيْمِهِ فَهِيَ لِمَحَاسِنِ الدَّهْرِ تَزِيدُ وَتَزِينُ ، وَغَدَا مِنْ الْكَاتِبِينَ الْكَرَامِ وَالْكَرَامِ
 الْكَاتِبِينَ ؛ الَّذِينَ تَضَحُّ بِأَطْلَاعِهِمْ مَرَاصِدُ الْمَقَاصِدِ وَتَبِينُ . طَالَمَا اتَّسَقَ عَقْدُ نَظْمِهِ
 الْمَتِينِ ، وَبَسَقَ غُصْنُ قَلَمِهِ الْمُشْمِرُ بِالدِّينِ ، وَأَضَافَ إِلَى آدَبِ الْكُتَّابِ حِلْيَةَ الْعُلَمَاءِ
 الْمُتَقِينَ ، وَأَرْتَقَبَ أَفْعَالُ الْجَمِيلِ الَّتِي اسْتَوْجَبَ بِهَا حُسْنَ التَّرَقُّيِّ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ
 الْمُتَقِينَ ، وَقَلَدَ أَجَادَ الطُّرُوسِ جَوَاهِرَ الْفَاطَةِ الَّتِي تَفُوقُ الْجَوْهَرَ عَنْ يَقِينٍ ؛ فَهِيَ
 بُضَارُ خَطِّهِ مَصُوعَةٌ أَبْهَجَ صِيَاجِهِ ، وَفِي طَرِيقِ الْإِنْشَاءِ سَالِكَةٌ نَهْجَ الْبَلَاغَةِ ، وَكَذَا
 يَحَارُ الْفَضَائِلُ وَارِدَةٌ مَنَاهِلِهَا الْمُسَاغَةِ ؛ كَمْ أَعْرَبَ كَلِمَةُ الطَّيِّبِ ، عَنْ سَخِّ سَحَابِ الصَّوَابِ
 الصَّيِّبِ ؛ وَكَمْ أَغْنَى فِي الْمُهِمَّاتِ بُكْتُهُ ، عَنْ جَبِشِ الْكُتَّابِ وَقُضْبِهِ ؛ وَكَمْ هَزَأَتْ
 صَحَائِفُهُ بِالصَّفَاحِ ، وَكَمْ أَغْنَتْ رَاشِقَاتُ فِكْرِهِ الثَّابِتَةِ الْعِلْمُ عَنْ سَهْوِ السَّهْمِ الرَّائِحِ ؛ وَكَمْ
 تَشَاجَرَتْ أَقْلَامُهُ الْبَيْضُ الْفِعَالِ هِيَ وَسُمُرُ الرِّمَاحِ فَكَانَ نَصْرُهَا الْإِلَاحِ ، وَكَمْ تَعَارَضَ نَشْرُ
 وَصْفِهِ وَشَدَا الطَّيِّبِ فَالْفَى الزَّمَانُ تَنَاءَهُ هُوَ الْفَاحِ ، وَكَمْ اشْتَمَلَ عَلَى أَنْوَاعِ مِنَ النَّفَاسَةِ
 فَاسْتَوْجَبَ مِمَّا مَنَّا يَقْضَى لَهُ بِأَجْزَلِ الْمُنَى وَالْمَنَاحِ .

وَمَا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي ، الْقَاضِي ، الْأَجَلِّي ، الْكَيِّرِي ، الْعَالِمِي ، الْفَاضِلِي ،
 الْكَامِلِي ، الْأَوْحَدِي ، الْأَثِيرِي ، الرَّئِيسِي ، الْبَلِغِي ، الْمُفِيدِي ، الْمُجِيدِي ، الْأَصِيلِي ،
 الْعَرِيقِي ، الْعَاذِي ، الرَّاهِدِي ، الْمُؤْتَمِنِي ، الْفَتَحِي ؛ بِجَمَالِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، وَلَى

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مُحَمَّدُ بْنُ الشَّهِيدِ ، آدَامُ اللَّهِ نِعْمَتُهُ : هُوَ الَّذِي أَعْرَبَ الْقَلَمُ عَنْ صِفَاتِهِ ،
وَأَطْرَبَ الْمَسَامِعَ مَا آدَاهُ الْيَرَاعُ عَنْ آدَوَاتِهِ ، وَرَامَ الْبَنَانُ أَنْ يَسْتَوْعِبَ بَيَانَ شُكْرِهِ فَلَمْ
يُذْرِكْ شَأْوَ غَايَاتِهِ ، وَتَسَارَعَتْ بَدَائِعُ الْبَدَائِهِ مِنْ أَفْكَارِهِ فَسَابَقَتْ جَرَيَانُ يَرَاعِهِ
فِي أَيْبَاتِهِ ، وَرَاقَتْ أَمَالِيهِ ، لِنَاقِلِي أَفْظَاظِهِ وَمَعَانِيهِ ، فَشَكَرَ السَّمْعُ وَالْفَهْمُ بِهَا هَبَاتِ
هِبَاتِهِ ، فَأَدَابُهُ مَشْهُورُهُ ، وَعُلُومُهُ مَذْكُورُهُ ، وَتَحْلِيلُهُ بِمَذَاهِبِ الصُّوفِيَةِ آرْتَاضَتْ بِهِ
نَفْسُهُ الْخَيْرَةَ الْخَيْرَةَ ، وَإِخْلَاصُهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَسُنَتْ بِهِ مِنْهُ السَّيْرَةُ وَالسَّرِيرَةُ ،
وَصِيَانَتُهُ لِلْأَسْرَارِ الشَّرِيفَةِ آسَتْحَقَّ بِهَا إِسْنَادُ أَمْرِهَا إِلَيْهِ ، وَإِيدَاعُ غَوَامِضِهَا لَدَيْهِ ،
وَالْتَعَوِيلُ فِي حِفْظِهَا وَفِي لَفْظِهَا لِلْفِظْهَا عَلَيْهِ - أَقْتَضَى حُسْنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ
نَجْتَبِيَهُ لِمَا تَحَقَّقْنَا مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَنُخَصَّهُ بِصَحَابَةِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ فِي أَجَلٍ
الْمَالِكِ ، وَنَجْعَلَ قَدَمَهُ ثَابِتَةً الرُّسُوحِ ، وَالصُّعُودِ فِي مَشِيخَةِ الشُّيُوخِ ، لِيَسْلُكَ فِيهَا أَحْسَنَ
الْمَسَالِكِ .

(١) فذلِكَ رَسْمُ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ
الْأَشْرَفِي ، النَّاصِرِي - لَا زَالَ لِأَبْوَابِهِ
الشَّرِيفَةِ فَحَقٌّ فِي الْخَيْرِ يَقْدُمُهُ النَّصْرُ ، وَلِسَعَادَةِ مَنْحٍ مَا يَعْرِفُ مَدَدُ أَمْدَادِهِ الْقَصْرُ -
أَنْ تَفُوضَ إِلَيْهِ صَحَابَةَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ ، وَمَشِيخَةَ الشُّيُوخِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ ،
عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ وَمَعْلُومِهِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيْوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتِ .

فَلْيُشِيرْ ذَلِكَ بِوَافِرِ عَفَافِهِ ، وَوَافِيِ إِنْصَافِهِ ، وَمَشْهُورِ أَمَانَتِهِ ، وَمَشْكُورِ صِيَانَتِهِ ،
كَاتِبًا لِلْأَسْرَارِ ، كَاتِبًا لِلْبَرَارِ ، لِيَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ ، عَالِمًا مَصَالِحِ الْأَنْامِ بِإِرْشَادِ رَأْيِهِ
وَصَوَابِهِ ضَائِعًا أَحْوَالِ دِيْوَانِهِ ، مُتَحَرِّيًا فِي كَثِيرِ الْأُمُورِ وَقَلِيلِهَا : فَإِنَّ الْكِتَابَ يَظْهَرُ
مِنْ عُنْوَانِهِ ، مُحَرَّرًا لِمَا يُعْنِي مُعْتَبِرًا لِمَا يَكْتُبُ ، مُجَمَّلًا لِلطَّلَاعَاتِ الْكَرِيمَةِ بِفِكْرِهِ الْمُتَسَرِّعِ

وتصوره الأرتب ، حافِظًا أَرَمَةً ما يصدر من مِثَال وما يَرِدُ في المِهْمَات الشَّرِيفَةِ
فهو أَدْرَى وأَدْرَبُ بما على ذلك يَتَرْتَّبُ ، مُحَافِظًا كَعَادَتِهِ على دِينِهِ ، لَازِمًا لَصَدَقِ
بِقِيَمِهِ ، حَافِضًا لِأَهْلِ الْخَيْرِ جَنَاحَهُ ، مَانِحًا لَهُمْ نَجَاحَهُ ، مُعَامِلًا لِلْفُقَرَاءِ بِكَرَمِ نَفْسٍ بِاللَّهِ
غَنِيَّةً ، مُلَاحِظًا لِأَحْوَالِهِمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ ، مُحْتَرِمًا لِكَبِيرِهِمْ ، حَانِيًا عَلَى
صَغِيرِهِمْ ، مُفَكِّرًا فِيمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِمْ ، رَاجِيًا فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ إِلَيْهِمْ ، مُعْنِيًا لَهُمْ
بِالْأَشْغَالِ بِالْعِبَادَةِ ، مُسَلِّكًا لَهُمُ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهَا الطَّرِيقُ الْحَادَّةُ ، مُسْتَجِلًّا
لِدَعْوَاتِهِمُ الصَّالِحَةِ ، مُسْتَفِيدًا مِنْ مَتَاحِرِ بَرَكَاتِهِمُ الرَّابِحَةِ . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِنْ نُورِ
إِفَادَتِهِ تُقْتَبَسُ ، وَمِنْ مَشْهُورِ مَادَّتِهِ تُلْتَمَسُ ، وَمِلَاكُهَا التَّقْوَى وَهِيَ أَوَّلُ كُلِّ أَمْرٍ
وآخِرُهُ ، وَبِمَلَازِمَتِهَا تَتِمُّ لَهُ مَفَاحِرُهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْرُسُهُ فِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى ، وَيُظْهِرُ
بَارِسَادَهُ لِلْعَامَانِ وَالْبَيَانِ كُلِّ نَجْوَى ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع بِكِتَابَةِ السَّرِّ بِالشَّامِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي « شَرَفِ الدِّينِ
عَبْدِ الْوَهَّابِ » بن فَضْلِ اللَّهِ ، عِنْدَ مَارِسِمِ بِنْقَلِهِ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى دِمَشْقَ ،
فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ « مُحَمَّدِ
الْحَلْبِيِّ » وَهِيَ :

الحمد لله الذي خَصَّ دَوْلَتَنَا الشَّرِيفَةَ بِرِعَايَةِ الدِّمَمِ ، وَحَفِظَ مَا أَسْلَفَ الْأَوَّلِيَاءُ
مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْخِدَمِ ، وَإِدَامَةِ مَا أَسَدَّتْهُ إِلَى خَدَمِ آيَاتِنَا الزَّاهِرَةِ مِنَ الْإِلَاءِ وَالنِّعَمِ ،
وإِفَاضَةِ حُلُلِ أَعْيُنَائِهَا ، الَّتِي هِيَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ شَرَفِ بُلُوَائِهَا ، مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ ، وَأَبْقَى
عَوَارِفَهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَزَلْ مَعْرُوفًا فِي صَوْنِ أَسْرَارِهَا بِسَعَةِ الصَّدْرِ وَفِي تَذْيِيرِ مَصَالِحِهَا
بِصَحَّةِ الرَّأْيِ وَفِي تَنْفِيزِ مَرَامِهَا بِطَاعَةِ اللِّسَانِ وَالْقَلَمِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي مَا اسْتَهَلَّتْ عَلَى وَلِيِّي فَأَقْلَعَ عَنْهُ غَمَامُهَا ، وَلَا اسْتَقَرَّتْ بِيَدِ صَفِيِّي
فَانْتَرَعَ مِنْ يَدِهِ حَيْثُ تَصَرَّفَ زِمَامُهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً لَا تَزَالُ نَعْتَصِمُ بِحَبْلِهَا الْمَتِينِ ، وَيَتَلَقَّى عَرَابَهُ إِخْلَاصُنَا رَايَةَ فَضْلِهَا بِالْيَمِينِ ؛
وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَكْرَمُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْأُمَمِ ، بِالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ ؛ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ كَرَّمْتَ أَنْسَابَهُمْ ، وَأَضَاعْتَ لَهُمْ وُجُوهَهُمْ وَأَحْسَابَهُمْ ؛
فَرَفَلُوا فِي حُلُلٍ مَا أَكْتَسَوْهُ مِنْ سُنَّتِهِ ، وَأَكْتَسَبُوهُ مِنْ سُنَّتِهِ ، فَحُسْنٌ مِنْهَا أَكْتَسَبُواهُمْ
وَأَكْتَسَبَهُمْ ؛ صَلَاةٌ لَا تَزَالُ لَهَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا ، وَلَا يَبْرَحُ ذِكْرُهَا مُغِيرًا فِي الْأَفَاقِ
وَمُنْجِدًا ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ خَوَّلْتَهُ مَكَارِمُنَا الْإِقَامَةَ حَيْثُ يَهْوَى مِنْ وَطَنِهِ ، وَبَوَّاتَهُ نِعْمَنَا
الْجَمْعَ بَيْنَ ذِمَامِ رَبَّنَا وَبَيْنَ مَا فَارَقَهُ مِنْ سَكْنِهِ ؛ وَمَلَكَتُهُ عَوَاطِفُنَا ، زِمَامَ التَّصَرُّفِ
حَيْثُمَا أَمَكُنْ مِنْ خِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ ، وَعَرَفْتَهُ عَوَارِفُنَا ، أَنَّ مَكَانَتَهُ عِنْدَنَا عَلَى حَالِهَا حَيْثُ
أَدَّى مَا عُذِقَ بِهِ مِنْ وَظِيفِهِ - مَنْ لَمْ يَزَلْ قَلَمُهُ لِسَانَ مَرَّاسِمِنَا ، وَعِنَانُ مَا تُجْرِيهِ
فِي الْأَفَاقِ مِنْ سَوَابِقِ مَكَارِمِنَا ، وَتَرْجُمَانِ أَوَامِرِنَا ، وَخَطِيبِ آلَيْنَا الَّتِي غَدَتْ بِهَا
أَعْطَافُ التَّقَالِيدِ مِنْ جُمْلَةِ مَنَابِرِنَا .

وَلَمَّا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي : هُوَ الَّذِي لَمْ يَبْرَحْ صَدْرُهُ خِزَانَةَ أَسْرَارِنَا ، وَفِكَرُهُ كَنَانَةً
إِعْلَانِنَا فِي الْمَصَالِحِ وَإِسْرَارِنَا ، وَخَاطِرُهُ مِرَاةَ آرَائِنَا ، وَيَرَاةُ مِشْكَاةَ مَا يُشْرِقُ : مِنْ أَنْوَارِ
تَدْيِيرِنَا ، أَوْ يَبْرُقُ : مِنْ أَنْوَاءِ آلَيْنَا ؛ يَنْطِقُ قَلَمُهُ فِي الْأَقَالِيمِ عَنِ أَلْسِنَةِ أَوَامِرِنَا الْمُطَاعَةِ ،
وَيَنْفُذُ كَلِمَهُ عَنْ مَرَّاسِمِنَا فِي دِيَوَانِ الْإِنِّشَاءِ بِمَا تُقَالِلُهُ أَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ؛
وَكَانَتْ سُنَّتُهُ قَدْ عَلَتْ فِي خِدْمَتِنَا إِلَى أَنْ رَأَيْنَا تَوْفِيرَ خَاطِرِهِ عَلَى الْبَرَكَاتِ ، عَنْ كَثِيرٍ
مِمَّا يَتَّبِعُ رِكَابَنَا الشَّرِيفَ مِنْ لَوَازِمِ الْحَرَكَاتِ ؛ وَأَنَّ نِعْفِيهِ مِمَّا يُزِمُ الْإِقَامَةَ بِأَبْوَابِنَا

الشريفة من كثرة المثل بين يدينا، وأن تقتصر به على أخف الوظيفتين إذ لا فرق في رتبة السريين ما يصدر عنا أو ما يرد إلينا .

فُرس بالأمر الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى ، الفلانى ، أن يكون فلان صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس ، بمعلومه الشاهد له به الديوان المعمور بالأبواب العالية ، عوضاً عن أخيه المجلس السامى ، القضائى ، المحيوى « يحيى بن فضل الله » ويستمر أخوه القاضى « محيى الدين » المذكور مع جملة الكُتاب بديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور .

فليأشِر هذه الرتبة التى تأثرت به قواعدها وعن تقريره وتحريره أخذ كل من كان بأنواعها وأوضاعها علماً ، فإنه لم يخرج عن أخيه شئ وصل إليه ، ولا فوّض له إلا ما هو بحكم عموم الأولوية والأولية فى يديه ، وأما ما يتعلق بذلك من وصايا تبسط ، وقواعد تُشرط ، فإنها منه استفادها من رفقها ، وعنه ارتوى بها ورواها من تعلمها ، ونحن نعلم من ذلك ما لا يحتاج إلى أن يزداد فيه يقيناً ، ولا أن يزيد به ذكره معرفة وتمكيناً ، والاعتماد

قلت : ومن غريب ما وقع : أنه كتب للقرّ الشهابى بن فضل الله بكتابة السر بالشام ، حين وليها بعد انفصاله من الديار المصرية توقيع مفتتح بـ «أما بعد حمد الله» من إنشاء المولى «تاج الدين بن الباربارى» وكأنه إنما كتب بذلك عند تغير السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» عليه ، على ما هو مذكور فى الكلام على كتاب السر فى مقدمة الكتاب .

وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَكَّابَةِ السَّرِّ بِالشَّامِ الْمُحْرُوسِ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ مُنْقِلِ الشُّبِّ فِي أَحَبِّ مَطَالِعِهَا ، وَمُعْلِي الْأَقْدَارِ بِتَصْرِيفِ
الْأَقْدَارِ وَرَافِعِهَا ، وَمُبْهِجِ النُّفُوسِ بِمَعَادِهَا إِلَى أَوْطَانِهَا وَمَوَاضِعِهَا ، وَمُضِي مِشِيَّتِهِ
فِي خَلِيقَتِهِ بِالْخَيْرَةِ فِيمَا يَشَاءُ لَطَائِعِهَا ، وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ الْآخِذَةِ مِنَ الْقُلُوبِ
بِحَاجَمِهَا ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي بَصَّرَ الْأُمَّةَ بِهَدْيِهَا وَمَنَافِعِهَا ، وَصَانَ شَرِيعَتَهُ
الشَّرِيفَةَ تَلَوَّ الْمَلِكُ بِنَسْجِ شَرَائِعِهَا ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ اسْتُودِعُوا أَسْرَارَ الْمِلَّةِ
حَفِظُوا نَفِيسَ وَدَائِعِهَا - فَإِنَّ مَمَالِكَنَا الشَّرِيفَةَ هِيَ سَوَاءٌ لَدَيْنَا فِي التَّعْظِيمِ ، وَأَوْلِيَاءَ
دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ يَتَقَلَّبُونَ فِيهَا فِي مَنَازِلِ التَّكْرِيمِ ؛ وَعِنْدَنَا مِنْ « فَضْلِ اللَّهِ » رِيَاضَةٌ لِلْعَهْدِ
الْقَدِيمِ ، وَتَأْكِيدٌ لَأَسْبَابِ التَّقْدِيمِ ؛ فَلَا غَضَاضَةَ لِمَنْ نَقَلْنَاهُ مِنْ أَبْوَابِنَا إِلَيْهَا ، وَلَا وَهْنَ
يَطْرَأُ عَلَى عُكُلِ الْمَرَاتِبِ وَيَعْتَرِيهَا ؛ حَيْثُ صَدَقْنَا دَائِمَهُ ، وَنُفُورُ إِقْبَالِنَا بِأَسْمِهِ ،
وَمَرَامُنَا لِمُسَاعَدَةِ الْأَقْدَارِ فِي الْأَيَّامِ حَاكِمِهِ ؛ وَ« الشَّهَابُ » لَوْ لَمْ يَسْرِ فِي سَمَائِهِ ، لَمَّا
أَهْتَدَى الْبَازِلُونَ بِضِيَائِهِ ؛ وَالْدَّرَّةُ لَوْ مَكَثَتْ فِي صَدْفِهَا ، لَمَّا حَظِيَتْ فِي الْعُقُودِ
بَشَرَفِهَا .

وَكَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي ، الْقَضَائِي ، الشَّمَائِي ، قَدْ أَقَامَ فِي خِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ بِالْأَبْوَابِ
الْعَالِيَةِ حَافِظًا لِلْأَسْرَارِ ، قَائِمًا بِمَا يُحِبُّ وَتُحِبُّ وَتُخَارَ ؛ ثُمَّ لَمَّا أَخَذَ حَظَّهُ مِنَ الْقُرْبِ مِنْ
أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ : رَأَيْنَا أَنَّ عَوْدَهُ إِلَى أَوْطَانِهِ ، وَأَدْلِيهِ مِنْ تَمَامِ إِيْمَانِهِ ؛ وَأَنَّ مَرْجِعَهُ
إِلَى مَحَلِّهِ ، مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَفَضْلِهِ ؛ وَمَا سَارَ إِلَّا وَالْإِقْبَالُ يُزَوِّدُهُ ، وَالْإِسْتِقْبَالُ بِهِ
وَأَهْلُ بَيْتِهِ يُسَعِّدُهُ وَيُضَعِّدُهُ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يُنْقَلَ إِلَى كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِدَمَشْقِ
الْمُحْرُوسَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَحَدِّثًا عَنْ وَالِدِهِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ ، وَلِيَقَرَّرَ لَهُ
مِنْ الْمَعْلُومِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَسِرْ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ ، وَلْيَسْتَقِرَّ فِي مَوْطِنِ إِقَامَتِهِ ، قَرِيرَ الْعَيْنِ ، مَمْلُوءَ الْيَدَيْنِ ،
مَسْرُورًا بِرَفْعِ الْحَلِّ فِي الْمَمْلَكَتَيْنِ ؛ وَلْيَكُنْ لَوَالِدِهِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَضُدًا ،
وَلْيُصْبِحْ لَهُ فِي مِهْمَاتِنَا الشَّرِيفَةِ سَاعِدًا وَيدًا ، وَلْيُضِجْ بِهِ الْيَوْمَ بَرًّا لِيَجِدَ رِضَا اللَّهِ
غَدًا ؛ فَإِنَّ وَالِدَهُ بَرَكَةُ الْمَالِكِ ، وَلَهُ قَدِيمُ هِجْرَةٍ ، وَسَالِفُ خِدْمَةٍ ، وَحُسْنُ طَوِيَّةٍ ،
فَنَحْنُ نَرْعَاهُ لَذَلِكَ ، وَالْمِهْمَاتُ الشَّرِيفَةُ يَتَلَقَّاهَا بِنَفْسِهِ ، وَلْيُصْدِرْ فُصُولَ الْمَطَالَعَةِ
مُدْبِجَةً عَلَى عَادَتِهِ فِي تَدْيِيجِ طَرِيسِهِ ؛ وَلْيَسْتَعِزَّ بِاللَّهِ فَهُوَ وَلِيُّ الْإِعَانَةِ ، وَلْيَعْتَمِدْ
عَلَى الرَّفْقِ فِي أَمْرِهِ فَمَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ؛ وَمَا بَعْدَ عَنَّا ، مَنْ كَانَ بَعِيدًا
بِالصُّورَةِ قَرِيبًا بِالْمَعْنَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُهُ مِنَّا مَنًّا ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ حُجَّةٌ فِيهِ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الثالثة — نَظَرُ الْجِيُوشِ بِالشَّامِ .

وَشَأْنُ صَاحِبِهَا كِتَابَةُ الْمُرَبَّعَاتِ الَّتِي تُنْشَأُ مِنَ الشَّامِ ، وَتَنْزِيلُ الْمُنَاشِيرِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي
تَصْدُرُ إِلَيْهِ .

وهذه نسخة تَوْقِيعِ شَرِيفٍ مِنْ ذَلِكَ ، كُتِبَ بِهِ «لِمُوسَى بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ» مِنْ
إِنْشَاءِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ شِهَابِ الدِّينِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ إِحْسَانَنَا عَائِدًا بِصَلَاتِهِ ، وَفَضْلَنَا يَجْمَعُ شَمْلَ الْإِسْعَادِ بَعْدَ
شَتَاتِهِ ، وَعَوَاطِفُنَا تُنَبِّهُ جَفْنَ الْإِقْبَالِ مِنْ إِغْفَائِهِ وَسِنَاتِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ نَصَرَنَا جَيْشَ الْإِسْلَامِ فِي أَرْجَاءِ مُلْكِنَا الشَّرِيفِ وَجِهَاتِهِ ، وَجَعَلَ
الْبَرَكَةَ وَالْإِيمَنَ بِأَمْرِنَا فِي حَالَتِي مَحْوٍ وَإِثْبَاتِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً زَادَتْ فِي جَزَاءِ الْمُخْلِصِ وَحْسَنَاتِهِ ، وَأَضْحَتْ نُورًا يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ
وَالِى جَنَّتِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ بِهِ وَاضِحَ آيَاتِهِ ،

وَأَصْبَحَ النَّشْرَ عَاقِبًا مِنْ نَشْرِ رَايَاتِهِ ؛ وَمَحَا الْفِتْرَةَ بِهَيْدِهِ وَسَرَّ سَرَائِرَ أَوْلِيَائِهِ وَأَتَمَّ قُلُوبَ عِدَائِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا تَأْرَجُ النَّسِيمُ فِي هَبَاتِهِ ، وَأُبْهِجَ الْعَطَاءَ بِجَزِيلِ هَبَاتِهِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ مَا إِذَا عَادَتْ أَقْرَبُ الْعُيُونِ ، وَحَقَّقَتِ الْآمَالَ وَالظُّنُونِ ؛ وَرَفَعَتِ الْأَقْدَارَ وَإِنْ لَمْ يَزَلْ رَفِيعًا مَحَلَّهَا ، وَجَمَعَتِ الْمَسَارَّ الْمُمْتَدَّ عَلَى الْأَفْتَدَةِ ظِلَّهَا ؛ وَعَمَرَتْ رُبُوعَ الْإِحْسَانِ ، وَعَمَّرَتْ بِمَنَائِحِهَا الْحِسَانَ ؛ كَهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي تَلَقَّتِ الْإِقْبَالَ مِنْ حَافِلِ عَمَامِهِ ، وَجَمَعَتْ شَمْلَ التَّقْدِيمِ مَشْفُوعًا بِإِكْرَامِهِ ؛ وَأَعَادَتْ سَمَاءَ التَّكْرِيمِ هَادِيَةً بِقُطْبِهَا ، مُشْرِقَةً الْأَرْجَاءَ بِنُورِ رَبِّهَا ؛ وَسَفَرَتْ بُدُورَهَا بَيْنَ هُوَ أَوْلَى بِاجْتِلَائِهَا ، وَتَهَيَّأتْ رُبُّهَا لِمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِاعْتِلَائِهَا ؛ وَحَقِيقٌ أَنَّ تَعُودَ الْمَوَاهِبِ بَعْدَ فَرَقَتِهَا ، وَأَنْ تُقْبَلَ عَلَيْهِ وَجُوهُ الْمَنَاجِحِ بَعْدَ لَفَقَتِهَا ؛ لِتُصْبِحَ كَوَاكِبُ الْإِسْعَادِ كَأَنَّهَا مَا أَفَلَتْ ، وَعَطَايَا التَّخْوِيلِ كَأَنَّهَا مَا أَتَقَلَّتْ ؛ وَيُعُودُ عَلَيْهِ الْيَوْمُ كَأَمْسِهِ ، وَيَرْجِعُ أَفْقُ الْعَوَارِفِ الْحِسَامِ مُشْرِقًا بِدُرِّ الْاجْتِبَاءِ وَشَمْسِهِ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي حَسُنَتْ فِي الْخِدْمِ الشَّرِيفَةِ آثَارُهُ ، وَحُمِدَ إِيْرَادُهُ فِي الْمُهِمَّاتِ الشَّرِيفَةِ وَإِصْدَارُهُ ؛ وَشَكَرَهُ شَامُهُ وَمِصْرُهُ ، وَسَمَا فِي كُلِّ جِهَةٍ حَلَّهَا مَحَلُّهُ وَقَدْرُهُ ؛ وَتَحَقَّقَتْ مِنْهُ رَأْسَةُ قَضَتْ لَهُ بِإِبْدَاءِ النِّعَمِ وَإِعَادَتِهَا ، وَأَنْ تَجْرِيَ لَهُ الدَّوْلَةُ مِنْ الْإِكْرَامِ عَلَى أَجْمَلِ عَادَتِهَا ؛ وَأَنْ تُرْعَى لَهُ حُقُوقُ أَلْفِهَا حَدِيثًا وَقَدِيمًا ، وَتُنَشَّرَ عَلَيْهِ ظِلَالُ الْفَضْلِ حَتَّى لَا يَفْقِدَ مِنْهَا عَلَى طُولِ الْمَدَى تَكْرِيمًا .

فَلَذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ ... لا زال ... أن يستقر ... تجديداً لملايس سَعْدُهُ ، وَتَأَكِيدُ الْقَوَاعِدَ مَجْدِهِ ، وَتُرِيدُ الْفَضْلَ الَّذِي حَلَا مِنْهُلُ وَرْدِهِ ؛ وَرِعَايَةً لِحَدَمِهِ الَّتِي أَكَبَتْ عَلَيْهَا السُّيُوفُ وَالْأَقْلَامُ ، وَشَكَرَتْ تَأْمِيرَهَا جُنُودُنَا - نَصَرَهَا اللَّهُ

تعالى - بِمِصْرَ وَالشَّامِ ، وَلَمَّا لَهُ مِنْ حُسْنِ سَمِيٍّ زَادَهُ وَقَارُهُ ، وَأَصْلُ صَالِحٍ طَابَتْ مِنْهُ ثِمَارُهُ .

فَلَيْسَتْ قَرَّ فِي هَذِهِ الْوُضُفَةِ الْمُبَارَكَةِ : عَالِمًا أَنْ لِسَانَ الْقَلَمِ أَمْسَكَ عَنْ الْوَصَايَا لِأَنَّهُ خَبَرَهُ الْوُضُفَةَ فَرَعًا وَأَصْلًا ، وَأَلْفَتْ مِنْهُ نَاطِرًا عَلَا قَدْرًا وَكُرْمًا مُحَدَّدًا وَفَصْلًا ، وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ أَدْرَى بِسُلُوكِ مَنْهَاجِهَا الْقَوِيمِ ، وَأَدْرَبُ بِاقْتِفَاءِ سَنَنِهَا الْمُسْتَقِيمِ ، وَالْخَيْرُ يَكُونُ ، وَالْاعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمُقْتَضَاهُ .

المرتبة الثانية

(من مراتب أرباب التواقيع الديوانية بِدِمَشْقَ - مَنْ يُكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ بِـ «الْمَجْلِسِ السَامِيِّ» بِالْيَاءِ مَفْتَحًا بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» إِنْ عُلَّتْ رُتَبَتُهُ وَإِلَّا بِـ «أَمَّا بَعْدُ» ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى وَظَائِفَ)

مِنْهَا - نَظَرُ الْخِزَانَةِ الْعَالِيَةِ ، وَشَأْنُهَا هُنَاكَ نَظِيرُ الْخِزَانَةِ الْكُبْرَى بِالْأَزَارِ الْمَصْرِيَّةِ فِي الْقَدِيمِ ، وَنَظِيرُ خِزَانَةِ الْخَاصِّ الْآنَ .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة العالية :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي خَصَّتْ الْمَنَاصِبَ السَّنِيَّةَ فِي أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ بِكُلِّ كَفٍّ كَرِيمٍ ، وَجَعَلَتْ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ مِنْ أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ كُلِّ حَفِيفٍ عَالِمٍ ، وَأَفَاضَتْ ظِلَّ إِنْْعَامِنَا عَلَى مَنْ إِذَا أَنْعِمَ النَّظَرُ فِي حَقِّ ذَوِي الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ كَانَ أَحَقَّ بِالْقَدِيمِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ حَبَاهُ بِفَضْلِهِ الْعَمِيمِ ، وَاجْتَبَاهُ لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ إِلَى السَّنَنِ الْقَوِيمِ ، وَجَعَلَ سَلَامَةَ الصَّلَاةِ الْمَقْبُولَةِ مِنَ النِّقْصِ مَقْرُونَةً بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ - فَإِنَّ أَوَّلَى مِنْ رَجَحِهِ لِحُدُومَتِنَا الْإِخْتِيَارَ ، وَقَدَّمَهُ فِي دَوْلَتِنَا الْإِخْتِبَارَ ،

وَأَخْلَصَهُ حَسَنُ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ رُبَّةَ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ ، وَأَعْدَقَ لَهُ سَحَابُ رِنَّا صَوَّبَ إِحْسَانٍ فَلَمْ يُصِبْهُ طُلُّ بَلٍّ وَبَلٍّ - مِنْ حَمْدِ سَيَرِهِ وَسَيَرِهِ ، وَشُكْرِ فِي طَاعَتِنَا وَرَدُّهُ وَصَدْرُهُ ؛ وَزَانَ الْأَصَالَةَ بِالنَّبَاهَةِ ، وَالرَّاسَةَ بِالْوَجَاهَةِ ، وَالْمَعْرِفَةَ بِالنَّزَاهَةِ ؛ وَجَمَعَ بَيْنَ الصِّلَفِ وَالْإِطْلَاعِ ، وَالتَّضَلُّعِ مِنَ الْعِفَّةِ وَالْأَضْطِلَاعِ ، وَالصِّفَاتِ الَّتِي لَوْ تَخَيَّرَهَا لِنَفْسِهِ لَمْ يَزِدْهَا عَلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ .

وَمَا كَانَ نَظَرُ الْخِزَانَةِ الْعَالِيَةِ بِدِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ رُبَّةَ لَا يَرِقُّ إِلَيْهَا مِنَ الْأَكْفَاءِ إِلَّا مَنْ وَمَنْ ، وَلَا يُقَدِّمُ لَهَا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا مَنْ تَعَيَّنَ مِنْ رُؤُسَاءِ الْعَصْرِ وَفَضْلَاءِ الزَّمَنِ ؛ وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي عَيْنُهُ لَهَا أَرْتِيَادُ الْأَكْفَاءِ ، وَأَصْطُفِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الصِّفَاءِ ، وَتَقَدَّمَ مِنْ وَصَفِ مَحَاسِنِهِ مَا لَا يَرَوُّعَ تَمَامُ بَدْرِهِ وَظُهُورُهُ بِالنَّقْصِ وَالْإِخْفَاءِ .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَقُوضَ إِلَيْهِ نَظَرُ الْخِزَانَةِ الْمَذْكُورَةِ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مَبَاشَرَةً مِنْ يَحْقُقُ فِي كِفَايَتِهِ وَفَضِيلَتِهِ التَّأْمِيلَ ، وَيُظْهِرُ حَسَنَ نَظَرِهِ الَّذِي هُوَ كَالنَّهَارِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ؛ وَلْيَجْرِ عَلَى جَمِيلِ عَادَتِهِ فِي النَّهْوِ فِي خِدْمَتِنَا بِالسُّنَّةِ وَالْفَرَضِ ، وَيُضَاعِفِ أَجْتِهَادَهُ الَّذِي بَمِثْلِهِ جُعِلَ مِنْ اخْتِيَارِ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الرُّبَّةَ مَالُ الْأَمْوَالِ ، وَذَخَائِرُ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْحَيَوشِ وَمَوَارِدُ الْإِفْضَالِ ؛ فَلْيُعْمَلْ فِي مَصَالِحِهَا فِكْرَهُ وَدَأْبَهُ ، وَإِذَا كَانَ حَسَنُ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ قَدْ جَعَلَهُ الْمُؤْتَمِنَ عَلَيْهَا : ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ . وَفِي سِيرَتِهِ الَّتِي عُرِّفَتْ ، وَصِفَاتِهِ الَّتِي إِنْ وَصِفَتْ فَمَا انْصَفَتْ ؛ مَا يُعْنَى عَنْ تَفْصِيلِ الْوَصَايَا وَجَمَلِهَا ، وَإِعَادَةِ مَزَايَا التَّأْكِيدِ : قَوْلُهَا وَعَمَلُهَا ؛ لَكِنْ مَلَكَهَا الصَّبَابَةُ الَّتِي هُوَ بِهَا مُوصُوفٌ ، وَالتَّقْوَى الَّتِي هُوَ بِهَا مَعْرُوفٌ ؛ وَالْاعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ .

ومنها - صحابة ديوان النظر، وصحابة ديوان الجیش ونحو ذلك من الوظائف الديوانية بدمشق .

قلت : هذا إن كتب من الابواب الشريفة السلطانية ، وإلا فالغالب كتابة ذلك عن نائب السلطنة بدمشق .

الصنف الرابع

(من الوظائف بدمشق وظائف المتصوفة ومشايخ الخوانق ،
وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء ، مفتتحا بـ «الحمد لله» .
وبذلك يكتب لشيخ الشيوخ بالشام ، وهو شيخ الخانقاه
الصلاحية ، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة توقيع بذلك ، وهى :

الحمد لله الذى اختار لعامة بيوته أولياء يحبونه ويحبهم ، وأصفياء حَفَّهم برحمته
فاجتهدوا فى طاعته فازداد قُرْبهم ، وأتقياء زهدوا فى الدنيا وأبدلوا الفانى بالبقى
وطاب فى مورد الصفاء شربهم .

نحمده حمد من جعل حب الله دثاره ، وملأ ليس التقوى شعاره ، ونشكره والشكر
لمزيد النعم أماره ، وللقلوب الدائرة عماره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة مخلص فى التوحيد ، يتبوأ بها جنان الخلد ويخلص من سماع قول جهنم :

هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَسْرَى بِهِ إِلَى حَضْرَةِ
 أَنْبَسِهِ ، وَحَظِيرَةِ قُدْسِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ سَبَقَ الْأُمَّةَ
 بِشَيْءٍ وَقَرَفَى صَدْرَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَلَّتْ وَاقِعُهُ سَارِيَةَ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِ وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ ؛
 صَلَاةً لَا تَرَالُ الْأَرْضُ لَهَا مَسْجِدًا ، وَلَا يَبْرَحُ ذِكْرُهَا مُغَيَّرًا فِي الْآفَاقِ وَمُنْجِدًا ؛ وَسَلَّمَ
 تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ عُوِّلَ بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَجْدَرُ مَنْ يُخَصُّ بِالتَّكْرِيمِ ؛ مَنْ كَانَ
 قَدْرُهُ فِي الْأَوْلِيَاءِ عَظِيمًا ، وَذِكْرُهُ فِي الْآفَاقِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ قَدِيمًا ؛ وَتَجْرِيدُهُ عَنِ
 الدُّنْيَا مَشْهُورًا ، وَسَعْيُهُ عَلَى قَدَمِ الطَّاعَةِ مَشْكُورًا ؛ وَشُهُودُهُ لِمَقَامِ الْكَمَالِ مُسْتَجَابًا ،
 وَاسْتِجْلَاؤُهُ لِمَوَادِّ الْأَنْسِ مُسْتَمْلِيًا ؛ فَهُوَ فِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْجَلِيلَةِ سَرِيُّ الْمِقْدَارِ ، مَعْرُوفُ
 الصِّفَةِ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَنَاقِبِ الْأَبْرَارِ ، وَالْمُتَقَدِّمُ مِنَ الْإِمَامَةِ فِي جَمْعِ الْأَخْيَارِ .

ولما كَانَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْأَوْحَدِيُّ ،
 الرَّاهِدِيُّ ، الْوَرَعِيُّ ، الْأَصْبَحِيُّ ، الْفَلَانِيُّ ؛ جَلَالَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَشَرَفَ الصُّلَحَاءِ
 فِي الْعَالَمِينَ ، شَيْخُ الشُّيُوخِ ، قُدُوةُ السَّالِكِينَ ، مُعْتَقِدُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينَ ، أَعَادَ اللَّهُ
 تَعَالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ : هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ ، وَالْمُحَظُوظُ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ - أَفْتَضَى
 حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ يُخَصَّ فِي الدُّنْيَا بِالتَّعْظِيمِ ، وَيُمَيَّزَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالتَّكْرِيمِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ لَهُ مِنْ جُنُودِ اللَّيْلِ جَيْشٌ لَا تَطِيشُ
 سِهَامَهُ ، وَمِنْ فُرْسَانِ الْحَارِيبِ مَدَدٌ لَا تَزُولُ فِي مُلَاقَاةِ الرِّجَالِ أَقْدَامُهُ - أَنْ يَسْتَقَرَّ
 فِي كَذَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِالشُّرُورِ ، وَلْيَتَأْتَلْ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ بِحَمْدِ اللَّهِ الشَّكُورِ ؛ وَلْيُؤَاطَبْ
 عَلَى وَظِيفَةِ الدُّعَاءِ بِدَوَامِ أَيْمَانِ الزَّاهِرَةِ ، وَلْيَسْتَمِطِرْ جَزِيلَ الْفَضْلِ مِنْ سَحَابِ جُودِنَا

الْمَاطَرَهُ؛ وَلْيَبْسُطْ يَدَهُ فِي عَمَلِ الْمَصَالِحِ، وَلْيَسْتَمِرَّ عَلَى السَّعْيِ الْحَسَنِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ مَأْوَى الْقَادِمِ وَالْقَاطِنِ، وَتَسْمُو عَلَى أَمْثَالِهَا مِنَ الْمَوَاطِنِ؛ وَلْيَكُنْ لِأَسْرَارِهِمْ مُوقَرًا، وَلِأَفْوَاتِهِمْ الْمُعِينَةَ عَلَى الطَّاعَةِ مُيسِّرًا؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ خَلْوَاتِهِ مَعْمُورَةً، وَأَفْعَالَهُ مَبْرُورَةً؛ وَالْإِعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ .

قُلْتُ : هَذَا إِنْ وَلِيَهَا شَيْخٌ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ، عَلَى عَادَةِ الْخَوَاقِ . وَقَدْ يَلِيهَا كَاتِبُ السَّرِّ بِالشَّامِ، فَيُكْتَبُ تَقْلِيدُهُ بِكِتَابَةِ السَّرِّ فِي قِطْعِ النَّصْفِ «بِالْمَجْلِسِ الْعَالِي» عَلَى عَادَةِ كُتَّابِ السَّرِّ، وَيُشَارُ فِي تَقْلِيدِهِ إِلَى بَعْضِ الْأَفْظَاظِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ، وَيُضَافُ إِلَى أَلْقَابِ كِتَابَةِ السَّرِّ بَعْضُ أَلْقَابِ الصُّوفِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لِهَذَا الْمَقَامِ . عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا كُتِبَ بِوَلَايَتِهَا عَنْ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالشَّامِ لِكَاتِبِ السَّرِّ أَوْ غَيْرِهِ .

المرتبة الثانية

(من يكتب له في قِطْعِ الْعَادَةِ مَفْتَحًا بـ «رسم»)

وهذه نسخة تَوَقِّع من ذلك، وهى :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ أَوَامِرُهُ تُحِلُّ الْقُرْبَاتِ مَحَلَّهَا، وَمَرَّاسِمُهُ تُسَنِّدُ الرُّتَبَ الدِّينِيَّةَ لِمَنْ إِذَا خُصُّوا بِمَوَاقِعِهَا كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا - أَنْ يُرَتَّبَ فُلَانٌ فِي كَذَا : إِذْ هُوَ أَوَّلَى مِنْ خُصَّ بِمَوَاطِنِ الْعِبَادَةِ، وَنَصَّ بِتَرْفِيهِ الْأَسْرَارَ عَلَى التَّحَلِّيِ بِإِفَاضَةِ الْإِفَادَةِ، وَوَقَرَّ كَدَّهُ عَلَى اجْتِلَاءِ وَجْهِهِ الْمَعَارِفِ مِنْ أَفْقِ الْمَرَاقِبَةِ، وَجَمَعَ خَاطِرَهُ لِاجْتِنَاءِ ثَمَرَةِ الْأُنْسِ مِنْ أَفْنَانِ الطَّاعَاتِ النَّائِبَةِ فِي رِيَاضِ الْمُحَاسَبَةِ، مَعَ تَمَسُّكِهِ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي [خَلَصَ] مَعْرِفَتَهُ مِنَ الشَّوَائِبِ، وَأَحْيَا الدُّجَى مِنْ اقْتِبَالِ شَيْبَةِ

ظَلَامِهِ إِلَى أَنْ تَشِيْبَ مِنْهُ الدَّوَائِبُ ؛ وَنَفْعٍ مَتَعَدٍّ إِلَى كُلِّ طَالِبٍ فَضْلٍ وَمِلْتَمَسٍ ،
وَدِينٍ بَاهِرٍ مِنْ مَصْبَاحِ مَشْكَاتِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لِكُلِّ بَاغِي نُورٍ وَمُقْتَنِسٍ .

فَلْيَسْتَقِرَّ شَيْخًا بِالْمَكَانِ الْفُلَانِي : لِتَعْمَرَ أَرْجَاؤُهُ بِتَهْجِدِهِ ، وَلْيُشْرِقْ خُلُوعَاتُهُ بِتَعْبِيدِهِ ؛
وَتَعُدُّبَ مَوَارِدِهِ بِأَوْرَادِهِ ، وَتُطْلِعَ مَجَالِسُهُ بِحُجُومِ مَعْرِفَتِهِ الْبَازِغَةِ مِنْ أَفْقٍ يُرَادُهُ ؛ [وَالْتَعْدُو
هَذِهِ الْبُقْعَةَ رَوْضَةَ أَفْكَارٍ ، وَقِبْلَةَ أَذْكَارٍ ؛ وَمَرَاقِي دَعَوَاتٍ ، وَمَرَافِي بَرَكَاتٍ ،
تُسْتَنْزَلُ بَيْنَ صَلَوَاتٍ مَقْبُولَةٍ وَخُلُوعَاتٍ ؛ وَلِيَتَنَاوَلَ الْمَعْلُومَ الْمُسْتَقَرَّ لَهُ تَرْفِيهَا لِسِرِّهِ ،
وَتَنْزِيهَا لِفِكْرِهِ ؛ وَإِعَانَةً عَلَى الْإِنْقِطَاعِ بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِهِ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ
فِي أَرْجَائِهَا ، وَتُخَصِّصُهَا لَهَا مِنْهُ بِإِمَامٍ تُقَى لَوْ كَانَ لِبُقْعَةٍ أَنْ تَجْتَنِي بَرَكَتَهُ لَكَانَ مُنْتَهَى
رَجَائِهَا ؛ وَلِيَرْفَعَ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ لِأَيَّامِنَا الْمُبَارَكَةِ مَا لَا تَزَالُ مَوَاطِنُ الْقَبُولِ لِنَفْحَاتِهِ
الْمُتَرَقِّبَةِ مُتَلَقِّيهِ ، وَمَا لَا تَبْرَحُ النُّفُوسُ لِحَشِيَّتِهِ الْمَانِعَةِ مُتَوَقِّيهِ ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ
الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ .

قُلْتُ : هَذَا إِنْ كُتِبَ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ . وَإِلَّا فَالْغَالِبُ كِتَابَةُ ذَلِكَ عَنِ
نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالشَّامِ .

النوع الثاني

(مِنْ وَظَائِفِ دِمَشْقَ مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَاضِرَتِهَا)

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ : أَنَّ لِدِمَشْقَ أَرْبَعَ صَفَقَاتٍ ، وَهِيَ : الْغَرْبِيَّةُ ،
وَالشَّرْقِيَّةُ ، وَالْقِبْلِيَّةُ ، وَالشَّمَالِيَّةُ .

فَأَمَّا الصَّفَقَةُ الْغَرْبِيَّةُ : وَهِيَ الْمَعْبَرُ عَنْهَا بِالسَّاحِلِيَّةِ وَالْجَبَلِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِيهَا ، فَفِيهَا
مِنْ وَظَائِفِ أَرْبَابِ السُّيُوفِ عِدَّةٌ وَظَائِفٌ ، وَتَوَلَّى فِيهَا الْأَبْوَابُ السُّلْطَانِيَّةُ .

منها - نيابة القدس . وقد تقدّم أنّها كانت في الزمن المتقدم ولايةً صغيرةً يليها جنديّ، ثم استقرّت نيابةً طَبَخَانَاهُ، في سنة سبع وسبعين وسبعائة، وأنّ العادة جرت أن يُضَافَ إليها نَظَرُ الحَرَمَيْنِ : حَرَمِ الخَلِيلِ عليه السلام، وحَرَمِ القُدُس . والذي يكتب له مرسومٌ في قَطْعِ الثُلث بـ«السَّامِي» بالياء .

ومنها - نيابة قلعة الصُّبَيْيَّة . وقد تقدّم أنّها من أَجَلِ القِلَاعِ وأَمْنِهَا، وأنّه كان يليها نَائِبٌ مُفَرَّدٌ من أَجْنَادِ الحَلَقَةِ أو مُقَدِّمِيهَا عن نَائِبِ دِمَشْقَ ، ثم أُضِيفَتْ إلى وَالى بَانِيَّاسَ . ثم استقرّت في سنة أربع عشرة وثمانمائة في الدولة الناصرية « فرج » نيابةً .

ومنها - نيابة قَلْعَةِ عَجْلُون . وقد تقدّم أنّها على صِغَرِهَا حِصْنٌ حَصِينٌ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى جَبَلٍ عَوفٍ، بناها أَسَامَةُ بْنُ مُنْقِذٍ، أَحَدُ أُمَرَاءِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ «يوسف ابن أيُّوب» في سَلْطَنَةِ العَادِلِ أَبِي بَكْرٍ، وأنّه كان مَكَانَهَا رَاهِبٌ أَسَمَهُ عَجْلُونٌ، فُسِّمَتْ بِهِ . ثم استقرّت في الدولة الناصرية « فرج » في سنة أربع عشرة وثمانمائة إمْرَةً طَبَخَانَاهُ .

وقد تقدّم أَوَّلُ هَذَا الْقِسْمِ مَا يُكْتَبُ لِلتَّقَدِّمِينَ ، وما يكتب للطَبَخَانَاهُ، وما يكتب للعَشَرَاتِ .

أَمَّا أَرْبَابُ الوُظَائِفِ الدِّينِيَّةِ .

فمنها - مَشِيخَةُ الخَانِقَاهِ الصَّلَاحِيَّةِ بِالْقُدُسِ . وتَوَقِّعُهَا يُكْتَبُ في قَطْعِ الثُلث مَفْتَتِحًا بـ«الحمد لله» .

(١) في تقويم البلدان ص ٢٢٨. أن جبل عوف كان أهله عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على النور .

ومنها - خطابة القدس ، وتوقيعها كذلك .

ومنها - مَشيخة حرم الخليل ، وتوقيعها في العادة يكتب مفتتحا بـ «رسم» .
وأما الصَّفقة القليلة ، فالتى يوثق بها من الأبواب السلطانية نيابة صرَّحْد .
وقد تقدَّم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية أنه قد يجعل فيها من يقرب من
رُتب السلطنة ، وحينئذ : فإن وليها مُقدَّم ألف ، كان مرسومه في قطع النصف
بـ «المجلس العالى» . وإن وليها أمير طبخاناه ، كان مرسومه في قطع النصف أيضا ،
بـ «السامى» بالياء .

وأما الصَّفقة الشرقية فالنيابات بها على طبقتين :

الطبقة الأولى

(ما يُكتب به مرسوم شريف في قطع النصف ، وهو ما يليه مُقدَّم ألف
أو طبخاناه ، وفيها نيابات)

النيابة الأولى - نيابة حمص .

وقد تقدَّم أنها كانت نيابة جليَّة ، كان يليها في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
مُقدَّم ألف ، وأنه ذكر في «التتيف» أنها صارت الآن طبخاناه . وحينئذ :
فإن كان بها مُقدَّم ألف ، كان مرسومه في قطع النصف بـ «المجلس العالى» . وإن
كان طبخاناه ، كان مرسومه في قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء .

وهذه نسخة مرسوم شريف بنبابة السلطنة بِمَحْص :

الحمد لله مُقدِّر كلِّ أجل إلى حين ، ومُقرِّر أمور الممالك في عباده الصالحين ؛ الذى
جعل بنا أوليائنا من الرايحين ، وحَفِظَ ما أَسْتَرَعَانَا من أمور عباده بولاية الناصحين .

نعمده على اختيار لا يصل إليه قدح القادحين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نكون بها في غمرات الحروب على السوابج ساجدين ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أكرم المائحين ، وأعظم الفاتحين ، وأشرف من ولي الأعمال الكفافة الوفاة المكافين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة لا تزال فيها الحفظة على أعمالنا مماسين ومصابحين ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن مراسمنا الشريفة وإن تأخر وقتها إلى أجل معدود ، وأمد ممدود ؛ ومضت أيام وليال ولها باب مسدود ، وعمل سببه غير مشدود - فإننا كالسيف يتلاهى ثم إذا صمم لا يرجع ، وكالغمام تمادى مدد مدته ثم يحود فلا يقلع ؛ ولم نزل منذ فوّض الله أمور بلادنا إلينا ، وصرف أمور جمهور عبادنا بيدنا ؛ نرى أن نحي غاباتها بأشدّ الأسود ، ونزعي غاياتها بن هو لأمر ما يسود ؛ ونحوط جنباتها بمن لا يستريح حرمه إلا الوفود ، ونحط ركائب رعاياها منه على من هو المقصود ؛ وننصب إلى ما يترجح من مصالحهم لدينا ، ونستنبط لمن يترجى الحسنى إذا عرضت متجددات أمورهم علينا ؛ وإذا انفرد بحكم لا يظن إلا أنه بسمع من أذنيننا ، ومرأى من عينيننا ؛ لأن نواب الممالك الشريفة فروع عدلنا الشريف ونحن أصلها ، وأسباب إحسان بأوامرنا المطاعة قطعها ووصلها .

وكانت خمس المحروسة من أكبر الممالك القديمة ، والمسدن العظيمة ؛ تغرق الأقاليم في مدّها ، وتمتد عساكرها فتعد حمة حمة من جندها ؛ وهى من الشام المحروس في مائتى موابكة ، وبجر عواليه وبجرى سواقه وجميع كتابه ؛ طالما كان بها الحرب سجالاً ، وطالما سابت بها الرجال أجالا ؛ وكان لنا بها في الحرب يومان عوضنا الله أدناهما بما حفظت المعارك ، وضاعت الأرض بدماء القتلى ففاض إلوا

(١) السَّمَاءَ مَا أَلْتَقَىٰ بِالشَّفَقِ مِنْ [تلك المسالك] ، وَأَتَّصَلَتْ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ جَانِبَيْهَا ؛
وَأَتَّصَفَتْ بِأَنَّهُمَا مَهَبُّ الرِّيحِ ، وَمَرْكَزُ الرَّمَاكِ ؛ لِمَا يَهْبُ لَنَا مِنْ بُشْرَى النَّصْرِ وَيُخَفِّقُ
مِنْ عَصَائِبِنَا الْمَنْصُورَةِ عَلَيْهَا .

فَلَمَّا تَطَاوَلَ الْأَمَدُ عَلَى خُلُوقِهَا مِمَّنْ يَنْوِبُ عَنِ السَّلَاطِنَةِ الشَّرِيفَةِ فِي أَحْكَامِهَا ،
وَيُثَوِّبُ إِلَى تَسْيِيدِ مَرَامِي سِهَامِهَا ؛ لَمْ تَزَلْ أَرَاؤُنَا الْعَالِيَةَ تُجُولُ فِيمَنْ يَصْلُحُ أَنْ
يُقَدِّمَ قَدَمَهُ إِلَى رُتَبَتِهَا الْعَالِيَةِ ، وَيُجَرِّدَ مِنْهَا عِزَّائِمَةَ الْمَشْرِفِيَّةِ ؛ وَيَجْمَعُ بِهَا عَلَى طَاعَتِنَا
الشَّرِيفَةِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ ، وَالْقَبَائِلِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالطَّوَائِفِ الْمَذْكُورَةِ ،
وَيَسْطِطُ لِسَاطِ الْعَدْلِ فِي كَافَّةِ جُنُودِهَا وَرِعَايَاهَا فَإِنَّهَا بِهِؤُلَاءِ مَحْرُوسَةٌ وَبِهِؤُلَاءِ
مَعْمُورَةٌ - فَرَأَيْنَا أَنَّ أَوَّلَى مَنْ حَكَمَ فِي عَاصِمِهَا وَالْمُطِيعِ ، وَأَخَذَ لِسُورِيَا السُّورِ الْمُنِيعِ ؛
مَنْ هُوَ الْمُؤْتَوَّقُ بِمَا أَمْضَتْ السِّيُوفُ مِنْ هِمَمِهِ ، وَأَرْضَتْ التَّجَارِبُ مِنْ سَوَائِقِ
خِدْمِهِ ؛ وَطَارَتْ سُمْعَةُ شُكْرِهِ فِي الْآفَاقِ ، وَطَابَتْ أَثْنَتُهُ بِخَفَاتِهَا بِمَا يُعْرِفُ مِنَ
الطَّرِبِ لِإِسْحَاقِ (٢) ؛ وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ لَهُ فِي عَيْنَتَابِ ، نِيَابَةً كَمْ أَصَابَهُ فِيهَا رَجُلٌ بِالْعَيْنِ
ثُمَّ إِنَّهُ مِنَ الْعَيْنِ تَابَ ؛ وَقَامَ بَيْنَ أَيْدِي كِفَلَاءِ مَمْلِكَةِ الشَّرِيفَةِ حَاجِبًا ، وَفَهَمَ مِنْ
أَحْكَامِهِمُ الَّتِي تَلَقَّوْهَا مِنَّا مَا أَصْبَحَ لَهَا صَاحِبًا ؛ فَمَا لِلنِّيَابَةِ إِحْكَامُ أَحْكَامٍ إِلَّا وَهُوَ
بِهِ عَالِمٌ ، وَلَا تَوَلِيَّةُ حُكْمٍ إِلَّا وَقَدْ اسْتَحَقَّهَا الْقُرْبُ مَا يَنْبَغِي الْحَاجِبُ وَالْحَاكِمُ .

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الْمُرْتَضَى لِلْبَيْتِ هَذِهِ الْمَقَاحِرِ ، وَالْمُنْتَظَرُ الَّذِي كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ فِيهِ
لَا خَيْرَ - فَاقْتَضَتْ مَرَّاسِمِنَا الْمُطَاعَةَ أَنْ يُزَانَ جِيدُهُ بِهَذَا التَّقْلِيدِ ، وَتُلْقَى إِلَيْهِ الْمُقَالِيدُ ؛
وَيُمَدِّدُ هَذِهِ الرِّتَبَةَ لَتَلْقِيهِ ، وَتَخْضَعُ عَنْقُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ لِتَرْقِيهِ ؛ وَتَحْوِلَ إِلَيْهِ هَذِهِ النِّعْمَةُ

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلِي مَعْنَى الْخُلَفَاءِ الْمَشْهُورِ .

التي ألحقت قدره بالأكفاء، وأهلت هممه للاكتفاء، وشرفت مكانه بما أجمعت عليه آراؤنا الشريفة له من الأصطفاء، وأحسنّت به الظن لما رأت نيته الجميلة ممثلة من خاطره في مرآة الصفاء.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال مرفوعاً به كل علم، ممنوعاً به حي كل حرم - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة لمحض المحروسة وأعمالها، وجنودها وعمالها، وعساكرها وعشائرها، وعامريها وغامريها، وأولها وآخرها، ودانيتها وقاصيها، وكل ما في حدودها الأربعه، ودخل في جهاتها الممنعة، على أكل ما جرت به عوائد من تقدمه، واستقرت عليه القواعد المتقدمة.

فاتق الله في أمورك، وأجعل الشرع الشريف مشكاة نورك، وعظم حكمته، ونفذ أحكامه، فهم أمنع سورك. وأعدل فهو قرار خواطير جمهورك، وتيقظ لسداد سداد ثغورك، وأرفق لتطلق به نطق نطاق شكورك. وأقيم الحدود فإنها زيادة في أجورك. وأما العساكر المنصورة، فشمّل بهم في خدمتنا الشريفة مواجبك، وكل بعزائمهم مضاربك، ولا تستخدم منهم إلا من يسرك أن تراه في يوم العرض، وتعقد هوادي جياحه السماء بالأرض، وأحجم أطراف بلادك من عادية الرجال، وأحفظ جانبيها من تحطيف الغارات فسر قيامها [لا يدفعه] غير احتيال، وأهتم بالجهد تحت صنّاجتنا المنصورة لأعداء الله متى أجمعوا، وضررهم بأنياب أسنتك فأنت صاحب العصا وهي تتلقف ما صنعوا، وعمر بلادها بملاحظتك الجميلة، ونم أمورها فهي قوام الجنود وهم إلى الثقة في النصير الوسيله، وسارع إلى ما ترد به مراسمتك الشريفة عليك لتهديك إلى صراط مستقيم، وعجل البريد فإنك تعلم به ما لست بعليم،

وَبَقِيَّةُ الوصايا لاحتاجة إليها لما تعرفه من قديم، والله تعالى يمتنع بكُلِّ خُلُقٍ كريم؛
والخطُّ الشريفُ أعلاه

النيابة الثانية — نيابة الرحبة .

وهذه نسخة بنياتها :

الحمد لله الذى أمدنا بنصره، وشمل مجود سلطاننا أهل عصره؛ وأيدّه بجنود أولها
متّصل بأول عِراقه وآخرها بأحرِمِصره، وفرّق بسهامه الأعداء فى حواصل الطير بين
حُضنه وخَصْره .

نحمده حمداً يقومُ بشكره، ويحافظُ على حُسن ذكره، ويُستعاذ به إلّا ممّا يدمرُ
على العدا من عواقب مكره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُرغمُ
من جادلَه بكُفره، وتُزكّيه بين كلِّ نَابِ سيف وظُفره؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده
ورسوله أرسله مُقيماً لأمره، ومُديماً فى الجهاد لإعمال بيضه وسُمره، صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه حملة سِرّه، ونقّلة هدّيه بأسره؛ صلاةً باقيةً فى الوجود بقاء
دهره، راقيةً ارتقاء زهره .

وبعد، فإن الثغور بسدادها، والبحور بإمدادها، والنحور لا تحلّى بأحسن من
حامية نجادها؛ والممالك المحروسة لا تُحرس إلّا بشهب نُخْصانها، ولا تُسقى بأنقع
مما تُطلّه من الدماء سُحبُ فُرسانها؛ والفُرات لا تُنحى موارِدُها إلّا بأمشال سيوفها
القواضب^(١)، ولا تمتنع مخاوضها إلّا يديم خاضب، والحصون لا يرضى بها كلُّ متجنّيق
غُضبان إلّا بوصول مُغاضب، والقلاع لا تتطّلع عيونُ دِيادبها إلّا لمن ماء الكرى

(١) فى الأصل مخالصها .

في جُفُونِهِ نَاصِبٌ ، وَالْمَعْقِلَ لَا تَسْمَحُ بِعَقَائِلِهَا إِلَّا مَنْ هُوَ عَلَى خِطْبَتِهَا مُوَاطِبٌ ،
وَكَانَتْ الرَّحْبَةُ - حَرَمُهَا اللَّهُ تَعَالَى - هِيَ أَوْسَعُ مَكَانٍ رِحَابًا ، وَأَذْنَى إِلَى مَطَرٍ سَحَابًا ،
وَأَوْثَقُ مَا عُلِقَ عَلَى الْبِلَادِ بَابًا ، وَأَقْرَبُ مَا سَمِعَ حُرَاسُهَا فِي السَّمَاءِ دُعَاءَ مُجَابَا ،
قَدْ مَلِئَتْ سَمَائُهَا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ، وَمَدَّتْ كَوَاكِبَ الدُّلُو وَاسْتَقَتَتْ مِنَ الْغَامِ
قُلُوبًا ، وَعَدَّتْ مَا وَرَاءَ الْحَجَرَةِ فُعِمَّتْ دُونَهَا الْمَسَالِكُ ، وَحُسِبَتْ لِلْمَلِكِ وَنُسِبَتْ إِلَى
مَالِكٍ ، وَمَالِكٌ - لَا أَعْنِي إِلَّا أَبْنَ طَوْقٍ - خَازِنُهَا ، وَمَنْزِلُ أَمْنٍ وَفِي غَابِ الْأُسْدِ
مَسَاكِنُهَا ، قَدْ وَقَفَتْ لِبَغْدَادَ فِي قِيمِ الْمَضِيقِ ، وَهَمَّتْ بِلَادُ الْعِدَا أَنْ تَحْوِضَ الْفُرَاتَ
إِلَيْهَا فَقَالَتْ : مَالِكٌ إِلَى طَرِيقٍ ، قَدْ أَفْتَرَى فِي وَجْهِ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ نَعْرَهَا الضَّاحِكِ ،
وَرَدَّ قَرْنَ الشَّمْسِ فَرَعُهَا الْمُتَمَسِّكِ .

فَلَمَّا أُعْهِدَ حُسَامُهَا الْمُسْلُولُ ، وَأُقْلِعَ غَمَامُهَا وَكُلُّ هُدْبٍ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ مَبْلُولُ -
أَقْتَضَى رَأْيُنَا الشَّرِيفُ أَنْ نَجِدَّدَ لِعُرُوسِهَا زِفَافًا ، وَلِيُوتِهَا أَفْوَافًا ، وَلِيُسَوِّفَهَا جِلَاءً ،
وَلِيُسْقُوفَهَا إِعْلَاءً ، وَنُؤَلِّيَهَا لِمَنْ تَكُونُ هِمَّتُهُ فِيهَا جَدِيدَةَ الشَّبَابِ ، أَكِيدَةَ الْأَسْبَابِ ،
لِيَكُونَ أَدْعَى لِمَصَالِحِهَا ، وَأَرْغَى لِمَنَاجِحِهَا ، وَأَوْعَى لِمَا يَجْمَعُهُ سَمْعُهُ مِنْ مَصَالِحِهَا ،
وَأَسْعَى فِي حِمَايَةِ مَمَاسِيهَا وَمَصَالِحِهَا ، وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ أَصْلَبَ مَنْ فِي كَنَائِنَا الشَّرِيفَةِ
عُودًا ، وَأَنْجَزَ وَعُودًا ، وَأَصْدَقَ رُعُودًا ، وَأَيْمَنَ إِذَا طَلَعَ نَجْمُهُ فِي أَفْقِ سَعُودَا .

فَرَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ تَفَوَّضَ إِلَيْهِ نِيَابَةُ الرَّحْبَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمِهِ
وَقَاعِدَتِهِ ، [فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ] مَقْدَمًا تَقْوَى اللَّهُ وَالْعَمَلَ بِمَا شَرَعَ ، وَاتَّبَاعَ مَرَامِنَا الشَّرِيفَةِ
فِيئَلَهُ مَنْ اتَّبَعَ ، وَحِمَايَةَ أَطْرَافِهَا ، مِنْ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِحَيْرٍ ، وَصِيَانَةَ أَكْثَافِهَا ،
مِنْ كُلِّ عَصَابَةٍ مُخَلِّقَةٍ إِلَى جَوْهَا كَالطَّيْرِ ، وَحِفْظَهَا مِنْ عَادِيَةٍ كُلِّ أَفَّاكٍ وَسَفَّاكٍ ، وَبَادِيَةٍ
أَعْرَابٍ وَأَثْرَاكٍ ، وَكُلِّ فَارِسٍ فَرَسٍ وَرَاكِبٍ بَعِيرٍ ، وَكُلِّ وَقْفَةٍ مُحَاصِرٍ وَحَقْقَةٍ مُغِيرٍ ،

وَجَانِبِيَّ بَرُّو بَحْرِيَّ : فِي أَحَدِهِمَا الْمَسَالِكُ تَعْمَى وَالْآخَرُ لَا يُعَامُ ، وَصَاحِبِيَّ سَرَّ وَجَهَرُ :
هَذَا تَخْشَى لَهُ عَاقِبَةُ كَلَامٍ وَهَذَا مُعَاقِبَةُ كَلَامٍ .

وَلِيَتَخَطَّفَ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا تَلَمَعَ لَدَيْنَا بَوَارِقُهُ ، وَيَتَقَطَّفَ مِنَ الْأَقْوَالِ ثَمَرَاتُهَا
وَلَا يَدْعُ كُلُّ مَا تَجَمَّعَ حَدَائِقُهُ ، وَلِيَجْعَلَ لَهُ مِنَ الْمُنَاصِحِينَ طَلَائِعَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ
فِي أَتَمِّهَا الْأَخْبَارِ أَبُو الْغَارَاتِ ، وَمَنْ إِذَا أُلْجِمَهُ الْخَوْفُ كَانَ لَهُ فِي لَمْعِ الْبُرُوقِ
إِشَارَاتٌ ؛ وَلِيَتَّخِذْ مِنَ الْكَشَافَةِ مَنْ يَسْبِقُ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ ، وَمَنِ الْخَيَالَةِ مَنْ
لَا يَرْتَدُّ عَنْ وَقْدِ الرَّمَاحِ طَرْفُهُ ؛ وَمَنِ الْقَصَادِ مَنْ لَا يَطْوِي عَنْهُ خَبْرًا ، وَمَنِ الدِّيَادِبِ
مَنْ يُعِيرُهُ وَقَلَّ أَنْ تُعَارَ الْعَيُونُ نَظْرًا ؛ وَلِيَحْفَظَ التُّجَّارُ فِي مَذَاهِبِهِمْ غُدُوًّا وَرَوَاحًا ،
وَمَسَاءً وَصَبَاحًا ؛ وَلِيَسْتَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ طَالَمَا أَرْدَانَتْ بِهِمْ صُدُورُ الْخَزَائِنِ عَلَى
أَمْتِلَائِهَا أَنْشِرَاحًا ، وَلِيَأْخُذْ مِنْهُمْ مَا لِبَيْتِ الْمَالِ فَكَمْ وَجَدُوا بَعْطَانَهُ أَرْبَاحًا ؛ وَلِيُوصِّلَ
إِلَى أَرْبَابِ الْقَرَارَاتِ مَا لَهُمْ مِنْ مُقَرَّرٍ مَعْلُومٍ ، وَلِيُعْطِيَهُمْ مَا تَصَدَّقْنَا بِهِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ
مَشْكُورٌ وَإِلَّا أَعْطَاهُمْ وَهُوَ مَذْمُومٌ ؛ وَلِيُعْمَرَ الْبِلَادَ بِتَوَطُّينِ أَهْلِ الْقُرَى ، وَإِنَامَتِهَا
بِالْعَدْلِ مَلَانَةً الْجُفُونِ مِنَ الْكُرَى ؛ وَلِيَكُنْ لِلْفُرَاتِ مَتِيقَةً لثَلَا يَطْفِئُ بِهَا النَّيَّارُ ،
وَيَغْلِبَ بِمَدِّهَا الْمُخَمَّرُ عَلَى سَكْرِهَا مِنَ السُّكْرِ الْخَمَّارُ ؛ وَيَقْوَى عَلَى سَدِّهَا قَبْلَ أَنْ لَا يَقْدَرَ
عَلَى مُقَاوَاةِ الْبَحَارِ ؛ وَيَتَفَقَّدَ مَبَانِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ أَسْنَى مَا تَتَفَقَّدُهُ الْأَبْصَارُ ، وَلِيغْلِقَ
زُرُوعَهَا لِتَكُونَ : ﴿ كَمَثَلِ زَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يَعِجِبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ وَلِيَعِفَّ فَإِنَّ الْعَفَافَ هُوَ الْغِنَى ، وَلِيُؤْمِنَ مَنْ يَلِيهِ
فَإِنَّ الْأَمَانَ هُوَ الْمُتَى ؛ وَلِيُقَرَّرَ مَا اسْتَقَرَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ مِنْ صُلْحٍ أُكِّدَتْ أَوَاحِيَهُ ،
وَأَصْبَحَ كُلُّ مَنْ أَهْلُ الْجَانَيْنِ لَا يَفِرُّ مِنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَرْخُصُ لِأَحَدٍ فِيمَا يَنْقُضُهُ
لَا فِي عَاجِلِ أَمْرٍ وَلَا فِي تَرَاخِيهِ ؛ حَتَّى إِذَا كَشَفَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا ، وَشَدَّتْ عَقْدَ
نِطَاقِهَا ؛ فَلْيَكُنْ بِحَسَبِ مَرَّاسِمِنَا الشَّرِيفَةِ اعْتِمَادُهُ فِي شَنْ كُلِّ غَارِهِ ، وَسَنْ كُلِّ مَاضٍ

مَرْهَفًا غَرَّارَهُ ، وَجَوْسٍ خِلَالَ دِيَارِ الْعِدَا وَآخِطَافٍ كُلِّ قَمَرٍ مِنْ دَارِهِ ، وَالْمُحْرِقَاتِ
الَّتِي لَا تُحْرِقُ نَبَاتًا حَتَّى تَشْبَّ فِي ضُلُوعِهِمْ ، وَالْعِيَّارَةِ فَهِيَ الزَّلَازِلُ الَّتِي تَتَسَاقَطُ مِنْهَا
مَبَانِي رُبُوعِهِمْ ، وَمُؤَالَاةُ الْبُعُوثِ : فَإِنَّ كُلَّ بَعِثٍ يَتَكَفَّلُ بِشَتَاتِ جُمُوعِهِمْ ، وَالْعَمَلِ
بِكُلِّ مَا تَرِدُ بِهِ مَرَامُهَا الْعَالِيَةِ ، وَالْمُوَاصَلَةَ بِكُتْبِهِ الَّتِي زَفُضَ مَاسُوءَى أَخْبَارِهَا
الْمُتَوَالِيَةِ ، وَإِرْسَالِ كُلِّ بَرِيدٍ وَحَامٍ مُخَلَّقٍ بِهِمَا : إِمَّا رِيحٌ ظَاهِرَةٌ وَإِمَّا رِيحٌ عَادِيَةٌ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْرُبُ لَهُ الْغَايَاتِ الْمُنَادِيَةِ ، بِمَنْهٍ وَكَرَمِهِ ! .

النيابة الثالثة — نيابة مِصْيَاف .

وهذه نسخة مرسوم نيابتها :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَّفَ مَمَالِكَنَا الشَّرِيفَةَ فِي الْمَمَالِكِ ، وَشَرَّفَ بِنَا كُلِّ حَضَنٍ
لَا تَعْرِضُ لَهُ الْحَجَرَةُ فِي الْمَسَالِكِ ، وَعَرَّفَ بِالْتَرِيَةِ فِي خِدْمَةِ أُنُوبَانَا الْعَالِيَةِ إِلَى أَيْنَ
يُنْتَهَى السَّالِكِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي نَعْتَدُّ بِهَا الْحَمْدَ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَرْغِبُ أَنْ نَلْقَى اللَّهَ عَلَى آدَاءِ الْأَمَانَةِ
فِيهَا كَذَلِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيمَا هُوَ مَالِكٌ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَضَاءَ بِهِ كُلَّ حَالٍ حَالِكٍ ، وَأُنْجَى بِهِ مِنْ مَهَاوِي الْمَهَالِكِ ،
وَجَمَعَ بِهِ مِنَ الْأُمَّةِ مَا وَهَى وَهَى كَالْعَقْدِ الْمُتَمَالِكِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
صَلَاةً يَجِدُ بِهَا قَائِلُهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كُلَّ هَنَاءٍ هُنَالِكَ ، وَسَلَامٍ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ النِّظَرَ فِي أُمُورِ الْمَمَالِكِ هُوَ أَوَّلُ مَا يَقْدَمُهُ الْمَلِكُ ، وَأَوَّلَى مَا يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ
مَنْ سَلَكَ ، وَمَمْلَكَةُ بَيْتِ الدَّعْوَةِ هِيَ مِنْ أَجَلِّ مَا تَفَرَّدَتْ بِهِ مَمَالِكُنَا الشَّرِيفَةِ ،
وَامْتَدَّتْ بِهِ فِي الْأَمَّاكِنِ الْمُخِيفَةِ ، وَأُرْسِلَتْ مِنْ قِلَاعِهَا مَنْ يَقْتَلِعُ الْعِدَا بُرُثُوِيَهُ ،
وَيُسَابِقُ السَّهْمَ إِلَى مَطْلُوبِهِ ، وَيَتَعَبَّدُ بِمُؤَالَاتِنَا الَّتِي وَرَثَهَا عَنْ سَلَفِهِ فِي طَاعَةِ أُمَمَتِهِمْ ،

وَعَلِمُوا بِهَا أَنَّ الدَّوْلَةَ الْعُلُوِيَّةَ مَا انْقَضَتْ حَتَّى أَتَتْقَلَتْ إِلَيْنَا الْوِلَايَةُ عَلَى شِيعَتِهِمْ ؛
وَأَنَّ الْمُلْكَ الْإِسْمَاعِيلِيَّ فِينَا قَدْ أَنْحَصَرَ مِيرَاثُهُ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ
- رَحِمَهُمُ اللَّهُ - نَحْنُ وَرَثَتُهُ ؛ فَهُمْ بِهَذَا يَبْدُلُونَ نَفُوسَهُمْ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَرَوْنَهَا
فَرَضًا عَلَيْهِمْ ، وَيَبْلُغُونَ بِنَا أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ : لِأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا أَزَالُوهُ
بِيَدَيْهِمْ ؛ كَمَا هَجَمُوا عَلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ هَجْمَةً طَيْفًا ؛ ، وَكَمَا اسْتَطَالُوا بِسِكِّينٍ
لَا يَتَطَاوَلُ إِلَى مُبَارَاتِهَا سَيْفٌ ؛ ، وَكَمَا أَوْقَدُوا لَهُمْ بَارِقَةَ عَزِيمٍ فَقِيلَ : هَذِهِ سَحَابَةُ
صَيْفٍ ؛ ، وَلَمْ وَرَدُوا بِالْدَّمَاءِ خَدًّا غَدًّا يَبَادِي : يَا كِرَامَ الْوَرْدِ ضَيْفٌ ! . وَكَانَتْ
مُضَيَّافٌ - حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى - هِيَ كُرْسِيٌّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ ، وَقَلْعَتُهَا هِيَ الَّتِي بِذَوَائِبِ
الْجُوزَاءِ مُتَمَسِّكَةٌ ؛ وَأَقْتَضَتْ مَرَّاسِمُنَا الْمُطَاعَةَ نَقْلَ النَّائِبِ بِهَا إِلَى مَا رَسَمْنَا بِهِ الْآنَ ،
نَخْلُتُ مَنْ يَتَرَقَّى فِيهَا إِلَى أَعَزِّ مَكَانٍ ، وَاحْتَاجَتْ إِلَى مَنْ تَعْنَى بِهِ عَمَّا يُقَالُ : مَنْ
أَعْتَقَلَ رُحْمًا وَتَجَرَّدَ سِنَانٌ .

فَحَصَلَ الْفِكْرُ الشَّرِيفُ فِيمَنْ نُقَلِّدُهُ هَذِهِ النِّيَابَةَ ، وَيَتَقَلَّدُ أَمْرَ هَذِهِ الْعِصَابَةِ ؛
وَيَتَصَرَّفُ فِي أُمُورِهَا بِمُقْتَضَى مَا تَرِدُ بِهِ مَرَّاسِمُنَا الْمُطَاعَةَ ، وَيُعَلِّمُ أَنَّهُ مِنْ شِيعَتِنَا :
لَأَنَّهُ دَاعِينَا فِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ ؛ فَرَأَيْنَا أَنَّ أَحَقَّ [النَّاسِ بِهَا] مَنْ قَدَّمَهُ وَلَاؤُهُ ، وَعَظَّمَهُ
أَتَمَّاءُ ؛ وَنَبَّهَ عَلَيْهِ أَهْتَامُ هِمَمِهِ الَّتِي لَا تُشَاهِبُهَا الْكَوَاكِبُ فِي سِيرِهَا ، وَعَزَائِمُهُ الَّتِي
طَالَمَا كَانَ بِهَا فِي خِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ «يَطْلُ بِمَوَاقِدِ وَيُمِيسِي بِغَيْرِهَا» ؛ وَلَمْ تَزَلْ بِهِ مَسَاعِيهِ
حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَزِيدِ ، وَأَسْرَعَ لَهُ الشَّيْبُ فِي طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ : لِأَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ
[كَانَ] يَسْمَعُ قَعْقَعَةَ لِحَامِ الْبَرِيدِ ؛ وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَوْلُ بِوَصْفِهِ ،
وَدَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُهُ بِعَرَفِهِ .

فَرَسَمَ أَنْ تَقْوُصَ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ بِمُضَيَّافٍ وَأَعْمَالِهَا ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ .
فَلْيَقْدِّمَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا وَلِيَّهُ ، وَلْيَنْشُرْ جَنَاحَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ عَلَى مَنْ يَلِيهِ ، وَلْيَعْمَلْ

بِالأحكام الشرعية في كل ما يقضيه ؛ ولئسك في أهلها أوضح المرشد ، ولبيّن لهم أنّه يدعوهم إلى سبيل الرشاد إلا ما آدعاه راشد ؛ وليوصل إلى المجاهدين أرزاقهم التي هي أثمان نفوسهم ، وثمار مادني القطاف من رؤوسهم . وأهل من مات أو يموت منهم على طاعتنا الشريفة فكُنْ عليهم متعطفًا ، ومن طلب منك الإنصاف فكُنْ له منصفًا ؛ وأفعل معهم أحسن الأسوة ، وقلْ لهم عَنَّا : إِنَّ الصّدقات الشريفة قد استجابت لكم يا أهل الدّعوة ؛ وخُذْ بقُلُوبهم ، لتزادَ من حبهم ، وقلْ للمجاهدين : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . والأموال فُضِّمَتْ من الضّياع ؛ وعمارة البلاد عليك بها فإنَّ القلعة لا تكون إلا بالمدينة والمدينة لا تكون إلا بالضّياع ؛ وأمثال مراسمنا الشريفة وكل ما يرسم به سارع إلى اعتماده ، وطائفة المجاهدين لا تدع منهم إلا من هو معتد لجهاده ؛ والكتان الكتان ! فيه تُسأل المطالب ، وتُدرك المآرب ؛ وعليك بقمع المفسدين ، وردع المعتدين ، وإقامة الحدود : فإنَّ بها أقام الله هذا الدين ؛ ونحن نغتنى بما فيك من المعرفة ، وبما انت عليه - بحمد الله تعالى - من كمال كل صفه ، عن استيعاب الوصايا التي لم تترخ سجاياك بها متصفه ، والله تعالى يزيدك من كل نوع أشرفه ؛ والخط الشريف أعلاه



وأما الصّفقة الشماليّة ، فالذي يولّي بهذه الصّفقة عن الأبواب السلطانية ، نيابة بعلبك فقط . وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة الشّامية أنّها كانت أولاً إمرة عشرة ، ثم صارت طبخاناة ، وأن نائب الشام يولّي بها ، وربما وليت من الأبواب الشريفة السلطانية . وحينئذ فيكون مرسوم نائبيها في قطع الثلث بـ «المجلس السامي» بالياء .

وهذه نسخة مرسوم بناية بعلبك :

أما بعد حمد الله على أَمَلٍ حَقَّقَ مَنَاهُ ، وَصَدَّقَ غَنَاهُ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ سُحْبَ آخِتْنَاهُ
أَوْرَقَ بِهِ عُودَهُ وَطَابَ جَنَاهُ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَمَّلَ بِنَاهُ ،
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا شِيدَ مَعْقِلُ نَخَارِ مَبْنَاهُ - فَإِنَّ مِنْ أَكْظَمِ مَدُنِ الشَّامِ الْقَدِيمَةِ ، وَدُورِ
الْمُلْكِ الَّتِي ذَهَبَ مِنْ يَحْلُثِهَا مِنَ الْمُلُوكِ وَبَقِيَتْ آثَارُهُ مُقِيمَةً ، مَدِينَةُ بَعْلَبَكْ وَهِيَ الَّتِي
تَحْصُنُ الْإِسْلَامَ بِقَلْعَتَيْهَا ، وَتَحْصِلُ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ [بِمَنْعَتِهَا] ^(١) بَنِيَتْ عَلَى عَهْدِ
سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَأَتَقَنَ بِنَاؤُهَا ، وَهَالَتْ أَسْوَارُهَا حَتَّى نُسِبَ إِلَى صَنْعَةِ
الْحَيِّ بِنَاؤُهَا ؛ وَدَعَمَتِ السَّمَاءُ عَمْدُهَا ، فَطَالَتْ شَرْفُهَا حَتَّى كَادَتْ تُخَضِّخُضُ فِي سَجَلِ
السَّحَابِ يَدُهَا ؛ وَجَمَعَتْ مَحَاسِنَ فِي سِوَاهَا لَا تُوجَدُ ، وَتَقَرَّرُ بِمُلْكِهَا مِنَ الْمُلُوكِ :
تَارَةً سَعِيدًا وَتَارَةً أَمْجَدَ ؛ وَمَا خَلَتْ مِنْ عُلَمَاءَ عَظِيمِي الشَّانِ ، وَصُلَحَاءَ يُلْمُهُمُ
الْجَبَلَانُ : سَيْسُ وَلُبْنَانُ ؛ وَهِيَ بَابُ دِمَشْقِ الْمَفْتُوحِ ، وَبَحَابُ الْأَنْوَاءِ الْمَسْفُوحِ
بِالسَّفُوحِ ؛ وَبَابُ الْبُرُوقِ الَّتِي آلَتْ أَنَّهَا بِأَسْرَارِهَا لَا تَبُوحُ ، وَمَأْبُ السَّفَارَةِ الَّتِي تَعْدُو
مُحْمَلَةً أَوْقَارَ رُكَّابِهَا وَتُرُوحُ ؛ وَلَهَا الْعَيْنُ الْمُسَبَّلَةُ الرَّوَاتِبُ ، وَالْجِبَالُ الرَّاسِيَةُ الْوَقَارِ
لِمَفْرِقِهَا الشَّائِبِ ، الْعَالِيَةِ الدَّرَى مِنْ قِطْعِ السَّحَابِ ؛ وَ[لَمَّا] كَانَ مِنْ فِيهَا الْآنَ ^(٢)
مَنْ لَا تَسْتَفْنِي الدَّوْلَةُ الْقَاهِرَةُ عَنْ قُرْبِهِ ، وَلَا تَسْتَنْتِي أَحَدًا مَعَهُ فِي تَجْرِيدِهِ سَيْفِهِ
الْمَشْهُورَ مِنْ قُرْبِهِ ، أَجَلْنَا الرَّأْيَ فِي كُفٍّ لَعْرُوسَهَا ، وَمَمَائِلَ لِمَرْكَزِ تَأَوُّدِ غُرُوسَهَا ،
فَلَمْ نَجِدْ أَذْرَى بِأَحْوَالِهَا ، وَأَدْرَبَ بِمَا يُؤَلَّفُ عَلَى الطَّاعَةِ قُلُوبَ رَجَالِهَا ، كَمَنْ أَسْتَقْرَبَهُ
فِيهَا مَعَ أَبِيهِ الْمَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْوَطَنَ [وَنَالَا مِنْهُ الْوَطَرَ] ، وَمَرَّتْ [عَلَيْهِمْ فِيهِ]

(١) بياض بالأصل والنصح من المقام .

(٢) » » ولعله : التي كانتا منقلعة من الخ .

سنون وأيام هُتف بها دأى قصر ؛ ولا غنى [عنه] مع ماله من ولاياتٍ صَحِبَ فيها
الناسَ وفارقهم على وجهٍ جميل ، ورأفهم ثم أنصرف وأنصرفوا عنه وما ذمه في النازلين
نزِيل ؛ وكان فلان هو المتوقِّد الشَّهاب ، المتوقِّل في تلك الهِضاب ؛ المشكور قولاً
ودينًا ، المشهور بوضع كلِّ شيءٍ في موضعه شدَّةً ولينا .

فلذلك رسم ... - لا زال إحسانه أحمد واختياره مُقدِّماً - أن يُرتَّبَ في نيابة
بعلبك على عادة من تقدِّمه وقاعدته ، مُبتدئاً حُسن النظر في الأمور العامة ، لا يدعُ
ظلامه ، ولا يدعُ سالك طريق إلى سلامه ، ولا يعدُّ سمعاً إلا لسماع شكرٍ لا ملامه ؛
ولينظر في المظالم نظراً ينجي به سدفها ، وليشكر العشير توطياً يوطأ به هدفها ؛ وليلاحظ
الأمور الديوانية بما يئسى به أموالها ، ويندى بسحابه المتدفق أحوالها . والأوقاف
فليشارك واقفيها في إحسانهم ، وليجر حسناتها على ما كانت عليه في زمانهم ؛ وليكن
لها نعم الكفيل في دوام المحافظة ولتفقّد ما فيها من الحواصل والزرّدخانة مما
يذخر لوقتها ، ويؤخر لفرط الشَّغف به لا لمقتته . ومن أهم ما يحتفظ به قلوب الرجال ،
وعِمارة الأسوار فإنها للفرسان المُقاتلة مجال ، وعليها تُنصب المجانيق وتُخطف
الآجال . وأما الشريعة المطهرة : فإن من تعدّى غرق أو أوشك أن يغرق ،
وأتباع أوامرها : وإلا فقيم يعذب من يعذب ويحرق من يحرق ؛ وتقوى الله
تعالى هي الوصية الجامعة ، والتذكرة التي ترتدُّ بها الأبصار خاشعه ؛ وليفهم هذه
الوصايا ولا يُخرج شيئاً منها من قلبه ، ولتين معانيها ليكون بها على بينة من ربه ؛
والله تعالى يكشف عنه غطاء حجبته ، ويرعه عما يأخذه ويؤاخذه من بينه ؛
إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني^(١)

(ممن [هم] خارج دِمَشْق : ممن يُوَلَّى عن الأبواب السلطانية -
أمرأء العربان ، وهم على طبقتين :)

الطبقة الأولى

(من يُكْتَبُّ له منهم تقليدٌ في قَطْع النِّصْف بـ «المجلس العالى» وهو أمير آل
فَضْل خَاصَّة : سواءً كان مستقلاً بالإمارة أو شريكاً لغيره فيها)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية تقلا عن "مسالك الأبصار"
أن ديارهم من حِمَص ، إلى قلعة جَعْبَر ، إلى الرَّحْبَة ، آخذين على شِقِّ الفُرات وأطراف
العِراق .



وهذه نسخةٌ تقليدٍ بإمرة آل فَضْل : كُتِبَ به لـ لا مير شجاع الدين « فضل بن
عيسى » عوضاً عن أخيه مُهَنَّا ، عند ما خرج أخوه المذكور مع قرا سنقر الأفرم
ومن معهما من المتسجبين ، وأقام [هو] بأطراف البلاد ولم يُفارق الخِدمة ، في شهور
سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبِيِّ ، وهو :

الحمد لله الذى مَنَحَ آل فَضْل في أَيَّامنا الزاهرة بحسْنِ الطاعة فَضْلاً ، وقَدَّمَ عليهم
بقديم الإخلاص في الولاء من أنفُسِهِم شُجَاعاً يَجْعُ لهم على الخِدمة أُلْفَةً وينظّم لهم
على المخالصة شَمَلاً ، وحَفِظَ عليهم من إعزازِ مكانِ بيتهم لَدَيْنَا مكانَةً لا تَنقُصُ
لها الأيامُ حُكْماً ولا تَنقُصُ لها الحوادثُ ظِلًّا .

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصناف ولعل مراده أن ما تقدّم من التولية في الصفقات صنف أول وهذا
صنف ثان . فليتبّه .

نحمده على نعمه التي شملت برّنا، الحضر والبدو، وألهمت بشكرنا، ألسنة العجم
في الشّدو والعرب في الحدو، وأعمّت في الجهاد بين يدينا من اليعملات ما يبارى
بالنصّ والعنق الصّافيات في الحبّ والعدو، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة ندرأها الأمور العظام، ونقلدُ بينها ما همّ من مصالح الإسلام لمن
يجرى بتدبيره على أحسن نظام، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث من أعلى
ذوائب العرب وأشرفها، المرجو الشّفاعاة العظمى يوم طولِ عَرْضِ الأئمّ وهولِ
موقفها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كُرمَ بالوفاء أنسابهم، وأضاءت
بتقوى الله وجوههم وأحسابهم؛ صلاة لا تزال الألسن تُقيم نداءها، والأقلام تُرقم
رداءها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أولى من أجبته الطاعة ثمرة إخلاصه، ورَفَعته المخالصة إلى أسنى
رُتبِ تقريبه وأخصّصاه؛ وألّف بمبادرته إلى الخدمة الشريفة قلوب القبائل وجمع
شملها، وقلّده حسن الوفاء من أمر قومه وإمرتهم ما يُستشهد فيه بقول الله تعالى :
﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا ﴾ - من آرتقى إلى أسنى رُتبِ دنياه يحفظ دينه، ودلّ
تمسّكه بأيمانه على صحّة إيمانه وقوّة يقينه؛ ولا حظّته عيون السّعادة فكان في حزب
الله الغالب وهو حزبنا، وقابلته وجوه الإقبال فأرتته أن المغبون من فاتته تقرّيبنا
وقربنا؛ ورأى إحساننا إليه بعين لم يطرفها الجحود، ولم يطرفها إعراض السّعود؛
فسلّك جادة الوفاء وهي من أيمن الطرق طريقا، وأقتدى في الطاعة والولاء بن قال
فيهم بمثل قوله : ﴿ وَحَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا ﴾ .

ولما كان المجلس العالي ... هو الذي حاز من سعادة الدنيا والآخرة بحسن الطّاعة
ما حاز، وفاز من برّنا وشكرنا بحمّل المبادرة إلى الخدمة بما فاز؛ وعلم مواقع إحساننا

إليه فَعَمِلَ على آستدامة وِثْلِها ، وَاسْتِرَادَةَ فَضْلِها ؛ وَالْأَرْتَوَاءَ من مَعْرِفِها الَّذِي بَاءَ بِالْحِرْمَانِ [منه] من نَحْرَجَ عَنْ ظِلِّها ؛ مع ما أَضَافَ إلى ذَلِكَ : من شَجَاعَةٍ تَبَيَّتْ مِنْهَا أَعْدَاءُ الدِّينِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَهَابَةٍ تَسِيرُ إِلَى قُلُوبٍ من بَعْدٍ من أَهْلِ الْكُفْرِ سُرَى مَا قُرْبَ من الْأَجَلِ - أَقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَمَدَّ عَلَى أَطْرَافِ الْمَالِكِ الْحَرُوسَةَ مِنْهُ سُوْرًا مَصْفَحًا بِصَفَاحِهِ ، مَشْرَفًا بِأَسِنَّةٍ رِمَاحِهِ .

فَرُسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي - لَا زَالَ يَقْلُدُ وَثْلَهُ فَضْلًا ، وَيَمْلَأُ مَمَالِكَهُ إِحْسَانًا وَعَدْلًا - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ : لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَسْبَابِ تَقْدِيمِهِ ، وَأَوْجَى إِلَيْهِ مِنْ عِنَايَتِنَا بِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ سِرُّ حَدِيثِهِ وَقَدِيمِهِ ؛ وَلِعِلْمِنَا بِأَوْلَوِيَّتِهِ الَّتِي قُطِبُهَا الشَّجَاعَةُ ، وَقَلْبُهَا الطَّاعَةُ ؛ وَمَادَتُهَا الدِّيَانَةُ وَالثَّقَى ، وَجَادَتُهَا الْأَمَانَةُ الَّتِي لَا تَسْتَرِهَا الْأَهْوَاءُ وَلَا تَسْتَفْرِزُهَا الرُّقَى .

وَلِيَكُنْ لَأَخْبَارِ الْعَدُوِّ مَطَالِعًا ، وَلِنَجَوَى حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ عَلَى الْبُعْدِ سَامِعًا ، وَلِدِيَارِهِمْ كُلِّ وَقْتٍ مُصَبِّحًا حَتَّى يَظُنُّوهُ مِنْ كُلِّ ثَنِيَّةٍ عَلَيْهِمْ طَالِعًا ؛ وَلِيُدِمَّ النَّاهِبُ حَتَّى لَا تَقُوْتُهُ مِنَ الْعَدُوِّ غَارَةٌ وَلَا غِرَّةٌ ، وَيُلْزِمَ أَصْحَابَهُ بِالْتِقِظِ لِإِدَامَةِ الْجِهَادِ الَّذِي جَرَّبَ الْأَعْدَاءُ [منه] مَوَاقِعَ سِيُوفِهِمْ غَيْرَ مَرَّةٍ ؛ وَقَدْ خَبَرْنَا مِنْ شَجَاعَتِهِ وَإِقْدَامِهِ ، وَسِيَاسَتِهِ فِي تَقْضِ كُلِّ أَمْرٍ وَإِبْرَامِهِ ؛ مَا يُغْنِي عَنْ الْوَصَايَا الَّتِي مَلَأَ كُفَاهُ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ مِنْ سَبَاحِيَاهِ الَّتِي وُصِفَتْ ، وَخَصَائِصِهِ الَّتِي أُلْفِتْ وَعُرِفَتْ ؛ فَلْيَجْعَلْهَا مِرْآةَ ذِكْرِهِ ، وَفَاتِحَةَ فِكْرِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! : إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة مرسوم شريف بإمرة آل فضل ، كُتِبَ بها للأَمِيرِ حُسَامِ الدِّينِ «مُهَنَّأَ بْنَ عَيْسَى» مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْحَلْبِيِّ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذى أرهف حُسام الدين فى طاعتنا بيد من يُمضى مَضَارِبَهُ بِيَدَيْهِ ،
وأعاد أمر القبائل وإمرتهم إلى من لا يصالح أمر العرب إلا عليه ؛ وحفظ رُتَبَهُ
آل عيسى باستقرارها لمن لا يزال الوفاء والشجاعة والطاعة فى سائر الأحوال منسوبات
إليه ، وجعل حُسن العقبى بعنايتنا لمن لم يتطرق العدو إلى أطراف البلاد المحروسة
إلا ورده الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عَقِيْبِهِ .

نحمده على نِعَمِهِ التى ما زالت مُسْتَحَقَّةً لمن لم يزل المَقْدَم فى ضَمِيرِنَا ، المعول عليه
فى أمور الإسلام وأُمُورِنَا ، المُعَيَّن فيما تنطوى عليه أثناء سَرَائِرِنَا وَمَطَاوِي صُدُورِنَا ؛
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُوجب على قائلها حُسن التمسك
بأسبابها ، وتَقْتَضِي لِلْخِلَاصِ فيها بَذْلُ النفوس والنفائس فى المحافظة على مَصَالِحِ أَرْبابِهَا ،
وتكون للمحافظة عليها ذَخِيرَةً يوم نَتَقَدَّمُ النفوس بطاعتها وإيمانها وأنسابها ؛ ونشهد
أنَّ محمداً عبده ورسوله المبعوث من أشرف ذَوَائِبِ العرب أصلاً وفرعاً ، المفروضة
طاعته على سائر الأمم ديناً وشرعاً ، المخصوص بالأئمة الذين بشوا دَعْوَتَهُ فى الآفاق
على سَعَتِهَا ولم يَضِيْقُوا للجهاد أعداء الله وأعدائه ذُرْعاً ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
الذين حازوا بَصُحْبَتِهِ الرُّتَبَ الفَاخِرَةَ ، وَحَصَلُوا بطاعة الله وطاعته على سعادة الدنيا
والآخرة ، وعلموا أَنَّ الجنة تحت ظلال السيوف فلم يُزَحِّحْهُمْ عن ظِلِّهَا الرُّكُونُ إلى
الدُّنْيَا السَّاحِرَةِ ؛ صلاةً تقطعُ الفلوات ركائبها ، وتَسْرِى بسالكى طُرُقِ النَّجَاةِ نَجَائِبُهَا ،
وتَنَصِّرُ بِإِقَامَتِهَا كِتَابُ الإسلام ومَوَاقِبُهَا ، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فإن أولى من تَلَقَّتْهُ رُتَبَتُهُ ، التى تَوَهَّمْ إِعْرَاضَهَا بِأَيْمَنِ وَجْهِ الرِّضَا ،
وَأَسْتَقْبَلَتْهُ مَكَائِثُهُ ، التى تَحْمِلُ صُدُودَهَا بِأَحْسَنِ مَوَاقِعِ الْقَبُولِ التى تَضَمَّنَتْ الْإِعْتِدَادَ
من الحسنات بكل ما سلف والإغضاء من الهفوات عما مضى ، وآلت إليه إمرته

التي خَافَتِ الْعَطْلَ مِنْهُ وَهِيَ بِهِ حَالِيهِ ، وَعَادَتْ مُنْزِلَتَهُ إِلَى مَا أَلْفَتْهُ لَدَيْنَا : مِنْ
مَكَانَةٍ مَكِينَةٍ وَعَرَفْتَهُ عِنْدَنَا : مِنْ رُتْبَةٍ عَالِيَةٍ - مِنْ أَمْنَتِ شَمْسِ سَعَادَتِهِ فِي أَيَّامِنَا مِنْ
الْغُرُوبِ وَالزُّوَالِ ، وَوَقَّتِ أَسْبَابُ نِعَمِهِ بَأَنْ لَا يُرَوِّعَ مَرِيرُهَا فِي دَوْلَتِنَا بِالْإِنْتِقَاضِ
وَلَا ظِلَالُهَا بِالْإِنْتِقَالِ ؛ وَأَغْنَتْهُ سَوَاقُ طَاعَتِهِ الْمَحْفُوظَةُ لَدَيْنَا عَنْ تَوْسُطِ الْوَسَائِلِ ،
وَأَحْتَجَّتْ لَهُ مَوَاقِعَ خِدْمَتِهِ الَّتِي لَا تُجْعَدُ مَوَاقِفُهَا فِي نِكَايَةِ الْأَعْدَاءِ وَلَا تُشْكِرُ شُهُرُهَا
فِي الْقَبَائِلِ ؛ وَكَفَلَ لَهُ حُسْنُ رَأْيِنَا فِيهِ بِمَا حَقَّقَ مَطَالِبَهُ ، وَأَخَذَ عَوَاقِبَهُ ، وَحَفِظَ
لَهُ وَعَلَيْهِ مَكَانَتَهُ وَمَرَاتِبَهُ ؛ فَمَا تَوَهَّمُوا الْأَعْدَاءُ أَنَّ بَرْقَهُ ، خَبَا حَتَّى لَمَعَ ، وَلَا ظَنُّوا أَنَّ
وَدْقَهُ ، أَقْلَعَ حَتَّى هَمَى وَهَمَعَ ، وَلَا تَحَيَّلُوا أَنَّ حُسَامَهُ نَبَأَ ، حَتَّى أَرْهَفْتَهُ عَنَّا يَتْنَا فُخِيمًا
حَلًّا مِنْ أَوْصَالِهِمْ قَطَعَ ؛ وَكَيْفَ يُضَاعُ مِثْلُهُ ؟ وَهُوَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا تَنْزِلُ
الْأَهْوَاءُ وَلَا تَرْقِي الْأَطْمَاعُ مُتُونَهَا ، وَلَا تَسْتَقِرُّ^(١) (؟) الْأَعْدَاءُ عِنْدَ جِهَادِهَا وَاجْتِهَادِهَا
فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ حَسْبَهَا وَدِينِهَا .

ولما كان المجلس العالی ... هو الذي لَا يَحُولُ أَعْتِقَادُنَا فِي وَلَايَتِهِ ، وَلَا يَزُولُ اعْتِمَادُنَا
عَلَى نَفَادِهِ فِي مَصَالِحِنَا وَمَضَائِهِ ؛ وَلَا يَتَغَيَّرُ وَثُوقُنَا بِهِ عَمَّا فِي خَوَاطِرِنَا مِنْ كَمَالِ دِينِهِ
وَصِحَّةِ يَقِينِهِ ، وَأَنَّهُ مَارُفَعَتٌ بَيْنَ يَدَيْنَا رَايَةُ جِهَادٍ إِلَّا تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ عَزَمَ بِهِ بَيْعَتِهِ ؛ فَهُوَ
الْوَلِيُّ الَّذِي حُسِنَتْ عَلَيْهِ آثَارُ نِعْمَتِنَا ، وَالصَّفِيُّ الَّذِي نَسَّأَ فِي خِدْمَةِ أَسْلَافِنَا وَنَسَّأَ
بَنُوهُ فِي خِدْمَتِنَا ، وَالتَّقِيُّ الَّذِي يَأْبَى دِينَهُ إِلَّا حَفِظَ جَانِبَ اللَّهِ فِي الْجِهَادِ بَيْنَ يَدَيْ
عِزِّمَتِنَا وَأَمَامِ هَمَمِنَا - أَقْتَضَتْ آرَاقُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نُصَرِّحَ لَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ بِمَا هُوَ
فِي مَكُونِ سَرَائِرِنَا ، وَمُضْمُونِ ضَمَائِرِنَا ؛ وَنُعْلِنَ بَأَنَّ رُتْبَتَهُ عِنْدَنَا بِمَكَانٍ لَا تَتَطَاوَلُ
إِلَيْهِ يَدُ الْحَوَادِثِ ، وَنُبَيِّنَ أَنَّ أَكْثَرَ أَسْبَابِ التَّقَدُّمِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَنَانِنَا وَأَمْتَانِنَا
أَكْرَمُ بَوَاعِثِ .

(١) لعله "ولا تستقل".

فلذلك رُسم أن يعاد إلى الإمرة على أمراء آل فضل ، ومشايخهم ومقدمهم ،
وسائر عربانهم ، ومن هو مضاف لهم ومنسوب إليهم ، على عادته وقاعدته .

فليجبر في ذلك على عادته التي لا مزيد على كمالها ، ولا محيد عن مبدئها في مصالح
الإسلام ومآلها ، أخذًا للجهاد أهبتَه من جمع الكلمة واتحادها ، واتخاذ القوة
وإعدادها ، وتضافر الهمم التي ما زال الظفر من مآذها والنصر من أمدادها ،
وإلزام أمراء العربان بتكميل أصحابهم ، وحفظ مراكرهم التي لا تُسد أبوابها إلا بهم ،
والتيقظ لمكاييد عدوهم ، والتنبه لكشف أحوالهم في رواحهم وعُدوهم ، وحفظ
الأطراف التي هم سورها من أن تسورها مكاييد العدا ، وتخطف من يتطرق إلى
الثغور من قبل أن يرفع إلى أفقها طرفًا أو يمدد على البعد إلى جهتها المصونة يدا ،
وليثبت في الأعداء من مكاييد مهايتهم ما يمنعهم الفرار ، ويحسن لهم الفرار ، ويحول
بينهم وبين الكرى لأشترك اسم النوم وحد سيفه في مسمى الفرار .

وأما ما يتعلق بهذه الرتبة من وصايا قد ألفت من خلاله ، وعرفت من كماله ،
فهو ابن بجدتها ، وفارس تجديتها ، وجهينة أخبارها ، وحلبة غايتها ومضمارها ، فيفعل
في ذلك كله ما شكر من سيرته ، وحمد من إعلانه وسريته ، وقد جعلنا في ذلك وغيره
من مصالح إمريته أمره من أمرنا : فيعتمد فيه ما يرضى الله تعالى ورسوله ، ويسلغ
به من جهاد الأعداء أمله وسؤله ، والله الموفق بمنه وكرمه ! والاعتماد

الطبقة الثانية

(من عرب الشام - من يكتب له مرسوم شريف)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى - من يكتب له في قطع النصف ، وهم ثلاثة :

الأول - أمير آل علي ، ورتبته « السامي » بالياء . وقد تقدم أن منازلهم مرج دمشق و غوطتها ، بين إخوانهم آل فضل و بني عمهم آل مراء ، ومنتهاهم إلى الحوف والجبانة ، إلى السكة ، إلى تيماء ، إلى البرادع . وأنه ذكر في « التعريف » : أنهم إنما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى مهنا بن عيسى .

وهذه نسخة مرسوم شريف بإمرة آل علي ، كتبت به للأمر عز الدين « حماز » بعد وفاة والده محمد بن أبي بكر ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله الذي أنجح بنا كل وسيله ، وأحسن بنا الخلف عمن قضى في طاعتنا الشريفة سبيله ، ومضى وخلي ولده رسيلاه ، وأمسك به دمة السيوف في حدودها الأسيلاه ، وأمضى به كل سيف لا يرد مضاء مضار به بحيله ، وأرضى بتقليده كل عتي وجمل كل جميله .

نحمده على كل نعمة جزيله ، وموهبة جميله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترشد من اتخذ فيها نجوم الأئمة دليله ، وتجعل أعداء الله بعز الدين ذليله ، وأن مجدا عبده ورسوله الذي أكرم قبيله ، وشرف به كل قبيله ، وأظهر به العرب على العجم وأخذ من نارهم كل فتيله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة بكل خير كفيلاه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ دولتنا الشريفة لما خَفَقَ على المَشْرِقِ والمَغْرِبِ جَنَاحُهَا، وشَمِلَ
الْبَدْوَ والحَضَرَ سَمَاحُهَا؛ ودَخَلَ في طَاعَتِهَا الشَّريفة كُلُّ رَاحِلٍ ومُقيمٍ في الأَفْطَارِ،
وَكُلُّ سَاكِنٍ خِيَمَةٍ وَجِدَارٍ - تَرعى النِّعمَ بِإِبْقَائِهَا في أَهْلِهَا، وإِلْقَائِهَا في مَحَلِّهَا؛ مع
ما تَقَدِّمُ من رِعايةٍ تُوجِبُ التَّقْدِيمَ، وتُودِعُ بِهَا الصَّنَائِعُ في بَيْتِ قَدِيمٍ؛ وتُزَيِّنُ بِهَا
المَوَازِبُ إِذَا تَعَارَضَتْ بِجَاحِلِهَا، وتَعَارَفَتْ شُعُوبُهَا وَقَبَائِلُهَا؛ وَأَسْتَوَلَتْ حِيَادُهَا على
الْأَمَدِ وقد سَبَقَتْ أَصَابِلُهَا، وتَدَاعَتْ فُرْسَانُهَا وقد أَشْتَبَهَتْ مَنَاصِبُهَا وَمَنَاصِبُهَا
وَمَنَاصِلُهَا؛ وَكَانَتْ قِبَائِلُ العُرَبِ أَلِ مَنْ تَعَمُّهُمْ دَعْوَتُنَا الشَّريفة، وَتَضُمُّهُمْ طَاعَتُنَا
التي هِيَ لَهُمُ أَكْمَلُ وَظِيفَةٍ؛ وَلَهُمُ النُّجْدَةُ في كُلِّ بَادِيَةٍ وَحَضَرَ، وإِقَامَةٍ وَسَفَرٍ؛ وَشَامِ
وَحِجَازٍ، وَإِنْجَادٍ وَإِنْجَازٍ؛ وَلَمْ يَزَلْ (لَا عَلَى) فِيهِمْ أَعْلَى مَكَانَةٍ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَوَسَّدَ
سَيْفَهُ وَأَقْرَشَ حِصَانَهُ؛ وَهُمْ مِنْ دِمَشْقِ المَحْرُوسَةِ رَدِيفُ أُسُورِهَا، وَفَرِيدُ سُورِهَا؛
وَالنَّازِلُونَ مِنْ أَرْضِهَا فِي أَقْرَبِ مَكَانٍ، وَالنَّازِحُونَ وَلَهُمْ إِلَى الدَّارِ بِهَا أَفْطَارٌ وَأَوْطَانٌ؛
قَدْ أَحْسَنُوا حَوْلَ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ مَقَامَهُمْ، وَأَسْتَغْنَوْا عَنِ الْمُقَارَعَةِ عَلَى الضَّيْفَانِ لِمَا
نَصَبُوا بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ خِيَامَهُمْ؛ وَبَاهَوْا كُلَّ قَبِيلَةٍ بِقَوْمِ كَاثَرِ النُّجُومِ عَيْدُهُمْ،
وَأَوْقَدُوا لَهُمْ فِي الْيَفَاعِ نَارًا إِذَا هَمَّى الْقَطَرُ شَبَّتْهَا عَيْدُهُمْ؛ وَهُمْ مِنْ آلِ فَضْلِ حَيْثُ
كَانَ عَلَيْهَا، وَحَدِيثُهُ فِي الْمَسَامِعِ حُلِيِّهَا؛ فَلَمَّا آتَتْهُمُ الْإِمْرَةُ إِلَى الْأَمِيرِ المَرْحُومِ
شَمْسِ الدِّينِ، مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ - جَمَعَهُمْ عَلَى دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ، وَأَقَامَ فِيهِمْ
يَتَنَعَّى بِطَاعَتِنَا الشَّريفة رِضَا اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخَرَ؛ ثُمَّ أَمَدَّهُ اللَّهُ مِنْ وَلَدِهِ بِنِ الْوَلِيِّ إِلَيْهِ
هَمَّةً، وَأَمْضَى بِهِ عَزَمَهُ، وَنَفَّذَ بِهِ حُكْمَهُ، وَنَقَلَ قَسَمَهُ.

وكان الذي يتحمل دُونَهُ مَشَقَّاتِ أُمُورِهِمْ، وَيَتَلَقَّى شَكَاوَى أَمْرِهِمْ وَمَأْمُورِهِمْ؛
وَيُرَدُّ إِلَى أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ مَسْتَمْطِرًا لَهُمْ سَحَابَ رِيعِنَا الَّتِي أَخْضَبَ بِهَا مَرَادُهُمْ،

وساروا في الآفاق ومن جدواها راحلتهم وزأدهم ؛ وتفرّد بما جمعه من أبوته وإبائه ،
وركز في كلّ أرض مُناخ مطيّة ومرسى خبائه ؛ وضاهى في المهاجرة إلى أبوابنا
الشريفة النجوم في السرى ، وحافظ على مراضينا الشريفة فما أنفك من نار الحرب
إلا إلى نار القرى ؛ وورد عليه مرّسومنا الشريف فكان أسرع من السهم
في مضائه . كم له من مناقب لا يُغنى عنها ذهب الأصيل تمويهاً ؛ وكم تنقل من
كور إلى سرج ومن سرج إلى كور فتمنى الهلال أن يكون لهما شبيها ؛ كم أجمل
في قومه سيره ؛ وكم جمل سيره ؛ كم أنمر لها أملاً ؛ كم أحسن عملاً ؛ كم سدّد
خللاً ؛ كم جمع في مهماتنا الشريفة كلّ من امتطى فرسا وركب جملاً ؛ كم صفوف
به تقدّمت ، وسيوف أقدمت ، وخُوف حائم الحام بها على الأعداء ترّمت !! .

وكان المجلس السامي الأميري ، الأجلّي ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ،
العُصدي ، النصيري ، الأوحدي ، المقدمي ، الذخري ، الظهيري ، الأصيلي :
مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ؛ همّام الدولة ، حُسام الملّة ؛
رُكن القبائل ، دُخر العشائر ؛ نصرة الأمراء والمجاهدين ، عضد الملوك والسلطين
« جاز بن محمد » أدام الله نعمته - : هو المراد بما تقدّم ، والأحقّ بأن يتقدّم ،
والذي لو أنّ الصباح صوارم والظلام بحافل لتقدّم ؛ فلما مات والده رحمه الله نحّا
إلى أبوابنا العالية ، ونور ولائه يسعى بين يديه ، ووقف بها : وصدقاتنا الشريفة
تُرفق عليه ؛ فرأينا أنّه بقيّة قومه الذين سلفوا ، وخلف آبائه الذين عن زجر
الخليل ماغزفوا ؛ وكبرهم الذي يعترف له والدّهم ووليدهم ، وأميرهم الذي به تُرعى
عُهودهم ؛ وشجرتهم التي تلتف عليه من أسابهم فروعها ، وفريدهم الذي تجتمع عليه
من بحافلهم جموعها .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة آل علي : تامة عامة ، كاملة شاملة ؛ يتصرف في أمورهم ، وأمرهم ومأمورهم ؛ قُرباً وبعداً ، وغوراً ونجداً ، وظعنًا وإقامه ، وعِراقًا وتِهَامَه ؛ وفي كلِّ حَقِيرٍ وجَلِيلٍ ، وفي كلِّ صاحب رُغَاءٍ وُفَاءٍ وصَرِيرٍ وصَلِيلٍ ؛ على أكل عوائد أمراء كلِّ قبيله ، وفي كلِّ أموره الكثيرة والقليلة .

ونحنُ نأمرُك بتقوى الله فيها صلاح كلِّ فريق ، وإصلاح كلِّ رَفِيقٍ ، ونجاح كلِّ سالكٍ في طريق . والحكم : فليكن بما يوافق الشرع الشريف . والحقوق : نخلصها على وجه الحق من القوي والضعيف . والرفق بمن وليته من هذا الجَمِّ الغفير ، والجمع الكبير ؛ وإلزام قومك بما يلزمهم من طاعتنا الشريفة التي هي من الفروض اللازمة عليهم ، والقيام في مهماتنا الشريفة التي تبرز بها مراسمتنا المطاعة إليك وإليهم ؛ وحفظ أطراف البلاد والذب عن الرعايا من كلِّ طارق يطرقهم إلا بخير ، والمصارعة إلى ما يرسم لهم به ما دامت الأسفار في عصاها سير ، والإفراج لعريك لا تسمح به إلا لمن له حقيقة وجود ، وله في الخدمة الشريفة أثر موجود ؛ ومنعهم : فلا يكون إلا إذا توجه منهم ، أو توانت عزائمهم وقَلَّ نفعهم ؛ والمهابة : فأنشرها كسمعتك في الآفاق ، ودع بوارق سيوفها تُسام بالشام وديمها تُراق بالعراق ؛ وخيول التّقادُم : فارتد منها كلُّ سابق وسابقة تقف دونهما الرياح ، ويحسدهما الطير إذا طارا بغير جناح ؛ ولا تتخذ دونك بطانة ولا وليجه ، ولا تقطع عنا أخبارك البهيجه ، وليعرف قومه له حقه ، ويؤفوه من التعظيم مستحقه ؛ فإنه أميرهم وأمره من أمرنا المطاع ، فمن نازع فقد خالف النص والإجماع ، والله تعالى يؤفقه ما استطاع ، بمنه وكرمه ! والخط الشريف

(١)
[الثاني - أمير آل فضل] .

وهذه نسخة مرسوم شريف بالتقدمة على عربى آل فضل وآل على ، كتب به
للأمير نحر الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمد لله الذى خص من وآلى هذه الدولة بالتقدمة والفخر ، ورمى من عاداها
بالمذلة والقهر ، ومد فى عمر أيامها حتى يستنفد الدهر ، وحتى توصف أيامها -
وإن قصرت - بالمسار : كل شهر يتر منها كالعام واليوم كالشهر .

نحمده على ما منحنا : من تأييد وظفر ، وطوى دعوة من عاندنا بعد النشر ، ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إن دخلت شواهدا تحت الإحصاء
فلا تدخل فوائدها تحت الحصر ، وأن مجدا عبده ورسوله الذى جعل الله به الهداية
فى المبدأ والشفاعة فى المعاد يوم الحشر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تسعد
بعد الشقاء وتجبر بعد الكسر .

وبعد ، فإن الله سبحانه وتعالى لما مكن لنا فى الأرض ، وجعل بيدنا البسط
والقبض ، وأرانا كيف نصنع الجميل ونجمل الصنع ، وكيف نجبر قلب من جعل
فى أيامنا جبره بعد الصدع ، وكيف تصبح أنجم ذوى الأقدار فى سماء مملكتنا
نيرة المطالع ، وكيف نلقى الخير فى عراضها من رآه إذا كان على الخير فى غير أيامنا
مانع ، وكيف نحلّ التقدمة فىمن إذا عقل فى حلها قيل : هذا هو أحق بها ممن
كان ، وهذا الذى ما برحت التقدمة فى بئته فى صدر الزمان ، وهذا الذى إذا ذكر
آل فضل وآل على كانت له مرتبة الشرف ولا غرو أن تكون مرتبة الشرف

لُعْثَان، وَأَتْنَا لَا تُنْطَى صَهْوَةَ الْعِزِّ إِلَّا لِأَهْلِهَا، وَلَا تَنْسَخُ الْآيَةَ لِمَنْ تَقَدَّمَ فِي التَّقْدِيمَةِ إِلَّا بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، وَلَا تُسَلَّمُ رَأَيْتُهَا، إِلَّا لِمَنْ تُعْقَدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ، وَلَا يَتَسَمَّنُ ذِرْوَتُهَا، إِلَّا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ.

ولما كان المجلس السامى، الأميرى، فخر الدين، عثمان بن مانع بن هبة :
هو المراد بهذا القول الحسن، والممدوح بحشد هذا المدح الذى يشر السر والعن،
والحقيق من الإحسان بكلمها والخير بأن، والخصيص من سوائف الخدم بما
والمفضل على سائر النظراء ولو قيس بمن - آقتضى حسن الرأي الشريف، أن رسم
بالأمر الشريف - لا زال ذو القدر فى أيامه يرتفع، وذو الفضل فى دولته لا يعز عليه
مطلب ولا يمتنع، وذو الأصلة التى يجتمع له فيها من النعماء ما لا يلتئم له فى غيرها
ولا يجتمع - أن تفوض إليه التقدمة على العُربان بالشام المحروس، وهم من يأتى
ذكره، على ما استقر عليه الحال فى ترتيبهم، وأن منازل الداروم: بعداً وقرباً، حضراً
وبدواً، عامراً وغامراً، راحاً وغادياً، من الرستن إلى الملوحة. والعرب: آل فضل
وآل علي حيث ساروا نزلوا منزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن
أبى بكر، والخدمة واحده، والكلمة على اتفاق المصالح متعاضده.

فليكن للقوى جسد روحها لابل روح جسدها، ومجموع القبائل أوحده عددها
إذا صح الأول من عددها، وقطب فلكها الذى على تديره مدارها، وعلى تقريره
أقصارها، وعلى تقدمته تعويلها، وإلى نسبة إمارته جملتها وتفصيلها، وليجمعهم
على الطاعة فإن الطاعة ملاك الأمر للأمر، وأُس الخير للبادى والحاضر، وليعلم أن
لكل منهم نقابة تعرف، وعلمية أصالة بها يعرف، ومنزلة يرثها الولد عن الوالد،
ومشخة ترجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد، فليحفظ لهم الأنساب، وليرع لهم

الأسباب، وإذا أُمِرُوا بأمرٍ من مَهَامِ الدَّوْلَةِ يَتَلَوْا عَلَيْهِمْ : ﴿ اَدْخُلُوا الْبَابَ ﴾ .
والإلزام له ولهم مَحَاوِضُ تَحْفَظُ ، وَمَفَاوِزُ تُلَحَّظُ ، وَمَطَارِحُ لَا تُتَلَفَّظُ ؛ وَمَشَاتٍ
وَمَصَائِفُ ، وَنَفَائِضُ وَمَصَارِفُ ؛ وَمَرَابِيعُ ، وَمَرَاتِعُ ؛ وَدُنُوقٌ وَأَقْتِرَابُ ، وَتَوَاطُنُ
وَأَقْتِرَابُ ؛ وَإِغَارَةٌ وَنَهِيضُ ، وَبَرْقٌ وَوَمِيضُ .

فَلْيُرَتَّبْ ذَلِكَ أَجْمَلَ تَرْتِيبٍ ، وَلْيَسْلُكْ فِيهِ خَيْرَ مَذْهَبٍ وَتَهْذِيبٍ ، وَلْيَدْعُ الْعَادِي ،
وَيُلَاحِظِ الرَّائِخَ وَالْعَادِي ، وَلْيُؤَمِّنْ ذَلِكَ الْجَانِبَ فَأَمْنُنَا تُطْرِبُ أَيْبَانُهُ الْمَحْدُودُ
وَالْحَادِي ؛ وَعَلَيْهِمْ عِدَادٌ مَقْرَرٌ ، وَقَانُونٌ مُحْتَرَبٌ ، وَلْيَكُنْ عَلَى يَدِ شَادِهِ شَادَاً ، وَلَسَبِيبِ
تَأْيِيدِهِمْ مَادَاً ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَغْمَضَ مِنْ جُفُونِهِ فِيمَا مَضَى ، وَأَعْرَضَ
عَنْهُ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الَّذِي أَتَقَضَى ؛ وَقَدَّمَ عَلَيْهِ مِنْ كَانَ دُونَهُ ، فَقَدْ رَدَّ اللَّهُ لَهُ أَبْكَارَ
الْأَمْرِ وَعُودَهُ ؛ فَلَا يَجْعَلُ لِقَائِلٍ عَلَيْهِ طَرِيقًا ، وَلَا يَدْخُلُ فِي أَمْرٍ يُقَالُ عَنْهُ فِيهِ :
كَانَ غَيْرُهُ بِهِ حَقِيقًا ؛ بَلْ يَفُوقُ مَنْ تَقَدَّمَ فِي الْخِدْمَةِ وَالْهِمَّةِ ، وَالصَّرَامَةِ وَالْعَزْمَةِ ،
وَاللَّهُ يُوزِعُهُ شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ ؛ وَالْخَطَّ الشَّرِيفَ :

الثالث — أمير آل مرءاء ، ورتبته «السامى» بالياء .

وقد تقدّم أن منازلهم حَوْرَانُ . وعن «مسالك الأبصار» أن ديارهم بين بلاد
الجيدور والجولان ، إلى الزرقاء ، إلى آخر بَصْرَى . ومشرقًا إلى حَرَّةِ كَشْتِ ، على
القرب من مَكَّةَ المَشْرِقَةِ ، زادها الله شرفًا .

وهذه نسخة مَرْسُومٍ شَرِيفٍ بِإِمْرَةِ آلِ مِرَاءِ ، كتب بها للأمير بدر الدين
«شطى بن عمر» وهى :

الحمد لله الذى زَيْنَ آفَاقَ الْمَعَالِي بِالْبَدْرِ ، وَرَفَعَ بَايَامِنَا الشَّرِيفَةِ حَيْرَوَلِيٍّ أَضْحَى
بَيْنَ الْقِبَائِلِ جَلِيلَ الْقَسْدَرِ ، وَمَنْحَ مِنْ أَخْلَصَ فِي خِدْمِ دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ مَزِيدَ الْكَرَمِ

فأصبح بإخلاصه شديد الأثر؛ وأجزل بره لأصائل العرب العرباء فوفر لهم الأقسام،
وأسبغ ظلال كرمه على من يرعى الجار ويحفظ الذمام .

نحمده على نعيم هطل سحابها ، ومنن تفتحت بالمسار أبوابها ؛ ونشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُقرب صاحبها يوم الفزع الأكبر، من المحل
الآمن ، وتورده نهر الكوثر، الذى مأؤه غير آسن ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله
الذى بعثه الله من أشرف القبائل ، وأوضح بنور رسالته الدلائل ؛ فأنقذ الله به
هذه الأمة من ضلالها ، وبوأها من قُصور الجنان أعلى عُرفها وأشرف ظلالها ؛
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أوصحوا مناهج الإيمان ، وشيدوا قواعد الدين
إلى أن علت كلمته فى كل مكان، [فكان] عصرهم أجمل عصر وقرنهم خير أوان ؛
وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من أدبنا من إساط الأصفاء محله ، وأرتشف من سحاب
معروفنا طله فوبله ؛ ونال من عواطفنا منزلة القرب على بُعد الدار، وحكم له حسن
نظرننا الشريف بتوالى غزير كرمنا المندار .^(١)

ولما كان المجلس الفلانى : هو المشار إليه بهذا النعت الحسن ، والموصوف
بالشجاعة فى السر والعلن - رسم بالأمر الشريف - لا زال بذره ، ساطع الأنوار ،
وبره ، هامع القطار ، وخيره يشمل الأولياء بحزبيل الإيثار وجميل الآثار - أن يستقر
المشار إليه فى كَيْت وكَيْت : لأنه البطل الشديد ، والفارس الصنديد ؛ وليث
الحرب المذكور ، ومن هو عندنا بعين العناية منطور .

(١) لم يذكر خبرا لأن ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل « من كرم أصلا ومختدا ، وسل سيف عزيمته
حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

وَلَيْتَقُ مِنْ صَدَقَاتِنَا الشَّرِيفَةِ بِمَا يُؤَمَّلُ وَيَعْهَدُ ، وَلِيَتَحَقَّقَ قُرْبَهُ مِنْ مَقَامِنَا
الشَّرِيفِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ ؛ وَلِيَتَلَقَّ هَذَا الْإِحْسَانَ بَقَابٍ مُنْشَرَحٍ ، وَأَمَلٌ مُنْفَسِحٌ ؛
وَلِيَجْتَهِدُ فِي أَمْرِ عُرْبَانِهِ الَّذِينَ فِي الْبِلَادِ ، فَإِنَّا جَعَلْنَا عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِمُ الْإِعْتِيَادَ ،
وَقَدْ أَقْنَاهُ أَمِيرًا عَلَى عَرَبِ آلِ مِرَاءٍ ؛ فَلْيُشْمَرْ عَنْ سَاعِدِ الْأَجْتِهَادِ فِي مَصَالِحِ دَوْلَتِنَا
الشَّرِيفَةِ بِغَيْرِ زُورٍ وَلَا مِرَاءٍ ؛ وَلْيَقْمَعْ الْمُفْسِدَ مِنْ عُرْبَانِهِ وَيَقَابِلْهُ بِالنَّكَالِ ، وَالصَّالِحُ
الْخَيْرُ مِنْهُمْ يُجْزَلُ لَهُ النَّوَالُ ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَلِمَثَلِهِ لَا تُقَالُ ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ
حُجَّةٌ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة مرسوم شريف بنصف إمرة آل مراء ، كُتِبَ بِهِ لِقَنَاءَةِ بَنِ نَجَادٍ ،
فِي الْعَشْرِ الْأَخْرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ
الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آسْتَعِذُّ لِنَصْرِنَا كُلِّ سَيْفٍ وَقَنَاءٍ ، وَكُلِّ سُرْعَةٍ وَأَنَاءٍ ، وَكُلِّ مُتَّقِفٍ
تُسَلِّيُ جَنَائِيَّاتِهِ وَيَعْدُبُ جَنَاهُ ، وَكُلِّ مَاضٍ لَا يَعُوقُهُ عَنْ مَقَاصِدِهِ الصَّالِحَةِ يَعُوقُ^(١)
وَهُوَ عَبْدُ مَنْأَه .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ أَغْنَاهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَسْتَعِذُّ
مِنْ قَبْلِهَا فَالِقُ الصَّبَاحِ سَنَاهُ ، وَيُقَكُّ مِنْهَا مِنْ قَبْضَةِ السُّيُوفِ عُنَاهُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي [بَوَّاهُ مَنَازِلَ الشَّرَفِ] وَبَنَاهُ ، وَأَحَلَّهُ مِنَ الْعَرَبِ فِي مَكَانٍ يَخْضَعُ
لَهُ رَأْسُ كُلِّ جَبَّارٍ وَيَخْشَعُ بَصَرُهُ وَتَسْتَمِعُ لِمَا يُوحَى أَذْنَاهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَخْصُمُ مِنْ كُلِّ شَرَفٍ بِأَسْمَاءِ وَأَسْنَاهُ ، وَسَلَامُ تَسْلِيمَا .

(١) سَلَّى جَنَائِيَّاتِهِ - تَرَكَ فَلَا يَقْتَصِرُ مِنْهُ .

وبعد، فإنَّ لكلَّ ثاكلةٍ قَرَارًا، ولكلِّ هاجرةٍ مَزَارًا، ولكلِّ معصِمٍ سوارًا لا يَلِيْقُ
إلا بزَنَدِهِ، ولكلِّ عُنُقٍ دُرًّا لا يَصْلُحُ إلا لِعِقْدِهِ، ولكلِّ سَيْفٍ طال هُجُوعُهُ في غِمْدِهِ
أنْسِلَا، ولكلِّ قَنَاقَةٍ لم تُعْتَقَلْ مُدَّةً أَعْتِقَالًا، وكانت إمْرَةُ آلِ مِرَاءٍ قد ثُبَّتْ من
البَيْتِ الأَحْمَدِيِّ بأوثقِ أوتَادِهَا، ووصلت منه في الرَّفْعَةِ إلى نِجَادِهَا، ولم تزلْ تنْتَقِلُ
في آفَاقِهَا بُدُورَهُم الطَّالِعَةِ، وتُضِيءُ عليها من صِفَاحِهِمْ بُرُوقُهُم اللَّامِعَةِ، وتَجُولُ فيها
من سوابِقِهِم السَّحْبُ المَهِامَةِ، وتُغْنِي في حروبِهَا عزائمُهُمْ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ،
وتَقَدَّمَتِ لِلْجُلُوسِ السَّامِيِّ، الأَمِيرِيِّ، الفُلَانِيِّ، بركابنا الشَّرِيفِ صُحْبَةً حَمْدَ فِيهَا
السُّرَى، وخدمَةً أوقَدَتْ له نَارَ القِرَى، وهَاجِرَ إلينا في وَقْتٍ دَلَّ على وفَائِهِ، وسَهَرَ
إلى قِصْدِنَا اللَّيْلِ وله النجمُ محيطُ المَقَلِّ بِإِغْفَائِهِ، وآتَقَطَعَ إلينا بِأَمْلِهِ، ولازمَ من
عهدنا الشَّرِيفِ صَاحِجَ عَمَلِهِ، وآسْتَحَقَّ تَعْجِيلَ نِعْمِنَا الشَّرِيفَةِ وإنْ تَأَخَّرَتْ لِأَجْلِ
مَوْقُوتٍ، وأَمَلِ نَجَاحِهِ لَا يَفُوتُ .

فلما آن أن تُفَاضَ عليه ثِيَابُهَا، ويُضَافَ إليه ثَوَابُهَا، وَيُصَرَّفَ في قَوْمِهِ أَمْرُهُ،
ويُشَرَّفَ بَيْنَهُمْ قَدْرُهُ، وَيَعْرِفَ من لم يَعْرِفِ الْمِسْكَ أَنَّهُ عِنْدَنَا ذِكْرُهُ، وَمَنْ جَهِلَ
الْبِرَّ: أَنَّهُ على مَا يُحْمَدُ عليه شُكْرُهُ، وَمَنْ أَنْكَرَ أَنَّ شَيْئًا أَضْعَبُ مِنَ الْمَوْتِ: أَنَّهُ في مَجَالِ
المَوْتِ صَبْرُهُ، وَمَنْ خَالَفَ فِيهَا هوَ أَمْضَى من الْقَضَاءِ: أَنَّهُ في الْبَيْعَةِ صَدْرُهُ، وَمَنْ
أَدْعَى أَنَّهُ لَا تَصِيْبُهُ الْبُيُضُ وَالسُّمُرُ: أَنَّهَا مُثَقَّفَتُهُ وَبُتْرُهُ، وَزَالَ من هَذَا الْبَيْتِ الْعَرِيقُ
الطَّوْدُ وَهُوَ ثَابِتٌ، وَنَزَعَ مِنْهُ السَّنَانُ لَوْلَا أَنَّهُ في قَنَاتِهِ نَابِتٌ، و[لَوْلَاهُ] لَهَا جَتِ
هَذِهِ الْقَبِيلَةُ إِلَى مَنْ يُقْبَلُ على نَبَاتِهَا، وَيَقْبَلُ بِهَا: تَارَةً يُنْجِدُ في نَجْدِهَا وَأُخْرَى يُجُولُ
في جَوَلَاتِهَا - رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يُقَلَّدَ من إمْرَةِ آلِ مِرَاءٍ مَا كَانَ الْأَمِيرُ «ثَابِتُ
ابن عَسَافٍ» رَحِمَهُ اللَّهُ يَتَقَلَّدُهُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ، وَيُرْفَعُ فِيهَا إِلَى كُلِّ مُسَامَنَةٍ وَسَمْتٍ،
لِيُكَلَّلَ مَا نَقَصَ من أَتْمَامِ وَصْفِهِ، وَيَعْلَمَ أَنَّهُ حَلَّقَ إِلَيْهِ حَتَّى آتَى دُونَ نِصْفِ الْبَدْرِ

فاختطف النصفَ وذلك النصفُ هو نصفُه ؛ ليكون لهم إحدى اليدين ، وأخرى تقع لسيف بحدّين .

وتقوى الله أبرك ما أشملت عليه عودها ، وأنحيت له زبيدها ؛ فليتحذها له ذروة يهتدي بها أتى سلك من الفجاج ، وأقتحم من حلك العجاج . وعليه بحسن الصُحبة لرفيقه ، ويمن القبول على رفيقه ، وإقامة الحدود على ما شرع الله من دينه القويم ، وإدامة التيقظ [للثأر] المنيح ؛ وإنزال عربه ومن ينزل عليه أو ينزل عليهم في منازلهم .

وليجمع قومه على طاعتنا الشريفة كل الجمع ، ويُقابل ما تردُّ به مراسمتنا المطاعة عليه بما أوجب الله لها من الطاعة والسمع ؛ وليأخذ للجهاد أهبتَه ، ويعجل إليه هبتَه ؛ وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دريئة لأسوارها المنيعه ، ونظاقا على معاقليها الرفيعه ؛ وسدا من بين أيديها وخلفها لباب كل دريعة ، وخندقا يحوطُ بلادها الوسيعة ، وحجابا يمنع فيها من تعدى الحق وخاض الشريعة ؛ ولا يفارق البلاد حتى يعبس في وجوهها السحاب ، ولا يعود حتى تؤذن زروعها المخيمة بذهاب ؛ والكرم هو فيه سجايا ، والعزم ما برح لوشان (٩) أسنته بكل قناة^(١) لحايا ، والحزم بيده المروية من آل مرءٍ يظهر له الخفايا ، والشجاعة هو في رباها المنيرة «ابن جلا وطلاع الثنايا» ؛ وما رضع المرمِل كأفويق الوفاق ، ولا وضع شيئا في موضعه كمدارة الرفاق ؛ فليكن لرفيقه أكثر مساعدة من الأخ لأخيه ، وأكبر معاوضة من المصراع لقسميه والحقن لحفته والشئ لما يؤاخيه . هذا يجب ويتعين وليس يجمعهما فرد طاعة ، ولا يلزمهما شيء واحد أستطاعه ؛ فكيف وهو [و] رفيقه إلينا أعتراؤهما ومنا عزازهما ، وهما قرعان معتنقان : لدينا إجنأؤهما وبيدنا إهزأؤهما .

(١) يريد لحاء بالهمز فاضطر للقلب مراعاة للسجع .

وَلِيَحْصُلَ مِنَ الْخَلِيلِ كُلِّ سَابِقَةٍ تَلِيْقُ أَنْ تَقْدَمَ إِلَيْنَا، وَنَسَاجِدَ فِي كُلِّ مَهْمَةٍ حِينَ
يَقْدَمُ عَلَيْنَا . وَالشَّرْعُ الشَّرِيفُ يَكُونُ إِلَيْهِ مَأْبُكُ، وَعَلَيْهِ عَفْوُكَ وَعِقَابُكَ؛ وَبِمَقْتَضَاهُ
عَقْدَ كُلِّ نِكَاحٍ لَا يَصِحُّ إِلَّا عَلَى وَجْهِهِ الْمَرْضَى وَإِلَّا فَهُوَ سِفَاحٌ، وَالْمِيرَاثُ عَلَى حُكْمِهِ
لِمَنْ جَرَّهَ إِلَيْهِ وَإِلَّا فَهُوَ ظُلْمٌ صُرَاحٌ، وَبَقِيَّةُ مَا نَوْصِيهِ بِهِ إِذَا أَتَيْتُ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ النُّبْدَةِ
فَمَا عَلَيْهِ فِي سِوَاهَا جُنَاحٌ . وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَى تَقْلِيدِنَا هَذَا أَنْ يُنِيبَ إِلَى نَصُوصِهِ،
وَيُؤَوِّبَ إِلَى عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ؛ وَالْحَدَّرَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْهُ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فَالْسَّيْفُ
أَسْبَقُ مِنَ الْعَدَلِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُهُ بِمَا وَهَبَهُ مِنَ الْعِزِّ فِي النُّقْلِ، وَالْحَاسِنُ الَّتِي هِيَ
يَدُ الْمَسَامَعِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْمُقَلِّ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ

المرتبة الثانية

(من أرباب المراسيم من العرب - من يُكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ بـ «السَّامِي»
بغير ياء، مفتتحاً بـ «أَمَّا بَعْدُ» وهم ثلاثة أيضاً)

الأول - أمراء بني مهدي، وهي مقسومة بين أربعة . ورتبة كل منهم
«مجلس الأمير» .

وقد تقدم أن منازلهم البلقاء، إلى مائر، إلى الصوان، إلى علم أعفر .

وهذه نسخة مرسوم شريف برقع إمرة بني مهدي، وهي :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي حَقَّقَتْ فِي كَرَمِنَا الْمَارِبَ، وَأَجْرَلَتْ مِنْ آلَانَا
الْمَوَاهِبَ، وَقَرَّبَتْ لِمَنْ رَجَانَا بِإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَطَالِبِ؛ وَالصَّلَاةِ
وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ مِنْ أَشْرَفِ ذَوَائِبِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ، الْمَخْصُوصِ
بِاللَّوَاءِ الَّذِي لَا يَضْحَى مِنْ أَوْى إِلَى ظِلِّهِ وَالْحَوْضِ الَّذِي لَا ظَمَأَ بَعْدَ وَرُودِهِ

لشَارِب ، وعلى آلِه وصَحْبِه الذين فَازُوا من صُحْبَتِه وطَاعَتِه بأسمى المَرَاتِبِ وأُسْنَى الْمَنَاقِبِ - فَإِنَّ أَوْلَى من رَفَعَتْ رِعَايَتُنَا قَدْرَه ، وَأَطْلَعَتْ عِنَايَتُنَا فِي أَفْقِ السَّعَادَةِ بَدْرَه ، وَحَقَّقَتْ آلَاؤُنَا سُؤْلَه ، وَبَلَّغَتْهُ صَدَقَاتُنَا مَرَامَه وَمَأْمُولَه - من أَحْكَم في طَاعَتِنَا أَسْبَابَ وَلَايَتِه ، وَأَتَقَن في خِدْمَتِنَا أَنْتَسَابَ بَعِيدِه وَأَنْتَمَاءَه ؛ وَتَقَرَّبَ إِلَيْنَا بِإِخْلَاصِه فِي أَجْتِهَادِه ، وَمَتَّ بِمَا يُرْضِينَا مِنْ أَحْتِفَالِه بِأُمُورِ جِهَادِه ؛ مَعَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ تَقَاَضَى كَرَمِنَا فِي تَقْدِيمِه ، وَتَقْتَضَى إِجْرَاءَه عَلَى مَا أَلْفَ أَوْلِيَاءُ الطَّاعَةِ مِنْ حَدِيثِ إِحْسَانِنَا وَقَدِيمِه .

ولما كان فلان هو الذي آخِصَّ بهذه المقاصد ، وعُنيَ بما ذكر من المصادر والموارد - رُسمَ أن يُرتَّبَ في رُبْعِ إِمْرَةٍ بِنَى مَهْدَى .

فَلْيُرْتَّبَ فيما رُسمَ له به من ذلك قائماً من وظائفها بما يَجِبُ ، عالِماً من مصالحها بما يَأْتِي وما يَحْتَئِبُ ، وَاقْفاً لِاعْتِمَادِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرَامِمْ وَقُوفِ الْمُنْتَظَرِ الْمُتَرَقِّبِ ، مُلْزِماً عَرَبَه مِنْ الْخِدْمِ بِمَا يُؤَكِّدُ طَاعَتَهُمْ ، وَمِنْ إِعْدَادِ الْأَهْبَةِ بِمَا يُضَاعَفُ اسْتِطَاعَتُهُمْ ، وَمِنْ الْحَافِظَةِ عَلَى أَسْبَابِ الْجِهَادِ بِمَا يَجْعَلُ فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَانَا قُوَّتَهُمْ وَشِجَاعَتَهُمْ ؛ وَلِيُقَدِّمَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَجْعَلَ تَوْفِيقَه الْعُمْدَةَ فِيمَا اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَيْهِ ؛ وَالْخَيْرُ يَكُونُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة مرسوم شريف برُبعِ إِمْرَةٍ بِنَى مَهْدَى أيضا :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَدَّدَتْ لِمَنْ أَخْلَصَ فِي الطَّاعَةِ رُتَبَ السُّعُودِ ، وَرَفَعَتْ مَنْ نَهَضَ فِي الْخِدْمِ الشَّرِيفَةِ حَقَّ النَّهْوضِ إِلَى مَنَاصِبِ الْجُدُودِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَخْصُوصِ بِإِلَوِّ الْحَمْدِ الْمَعْقُودِ ، وَظِلِّ الشَّفَاعَةِ الْمَمْدُودِ ،

والخَوْضُ الذى لا يَنْضُبُّ على كَثْرَةِ الْوُرُودِ ، وعلى آله وصَحْبِهِ الذين وَقَّوْا بالعهود ،
وَبَدَتْ سِيَمَاهُمْ فى وجوههم من أثرِ السُّجُودِ - فَإِنْ أُولَى من آجَلَى وجوه النِّعَمِ ،
وَأَجْتَنَى ثَمَرَةَ ما غَرَسَ من الخِدْمِ ، وَارْتَقَى إلى ما أَنْعَمَ به عليه من التَّقَدُّمِ الذى أَقَامَهُ
السَّعْدُ لاسْتِحْقَاقِهِ على أثْبَتِ قَدَمٍ - من نَشَأَ فى طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ يَدَيْنِ بَوْلَاهِمَا ،
وَيَتَقَلَّبُ فى خَيْرِ نِعْمِهَا وآلِهَا ، وَيَتَعَبَّدُ بما يُؤَهِّلُ له من خِدْمِهَا ، وَيَبَادِرُ إلى
ما يُنْدَبُ له من المِهَامِّ الشَّرِيفَةِ بين يَدَيِ مَراسِمِنَا أَوْ تَحْتَ عَالِمِهَا .

ولمَّا كَانَ فلَانٌ هو الذى ذُكِرَتْ طَاعَتُهُ ، وَشُكِرَتْ خِدْمَتُهُ وَشَجَاعَتُهُ - رُسم ...
أَنْ يَرْتَبَ فى رُبْعِ إمْرَةِ بَنِي مَهْدَى ، على عادة من تقدّمه وقاعدته .

فليرتّب فى ذلك ، قائماً بما يجب عليه من وظائفها المعروفة المألوفة ، وخِدْمِهَا
التي هى على ما تبرزُ به أوامِرُنَا الجارية موقوفة ؛ وليكن هو وعربّه بصدّد ما يؤمرون
به : من خِدْمَةِ يبادرون إليها ، وطاعة يثأرون عليها ، وتأهبّ للجهاد ، حيث سرت
الجيوش المنصورة لم يبق لهم عائق عن التّوجّه بين يديها ؛ وسياسة تأخذهم من
الطرائق الحميدة بسلوك ما يجب ، ويعرف بها سلوك ما يسلك وأجتناب ما يجنب ؛
والخير يكون ، إن شاء الله تعالى .

الثانى - مقدّم زُبَيْد . ومنازل بعضهم بالمرج وغوطة دمشق ، وبعضهم
بصرخدا ، وخوران .



وهذه نسخة مرسوم شريف بتقدمة عرب زُبَيْد ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى أنبأ بنا للنعم تأييدا ، وأحسن العاقبة لأحسن عاقبة أدام
لهم فيها تقيدا ، وأخيا به منهم حيا نكتب لأمرهم وإمريهم فى كلّ حين تقيدا ؛

وَنَقَلَ مِنْهُمْ نَوْفَلًا فَلَا نَزَالَ نَجِدُ فِيهِمْ مَلَأْسَ الْفَخَّارِ بِذِكْرِ اسْمِهِ تَجْدِيدًا ، وَرَعَى بَنَاءُ أَبْنَاءِ
بَيْتٍ تَنَاسَقُوا أَبْنَاءَ وَجُدُوا ، وَتَبَاشَرُوا بَوْلَدٍ لَمَّا خَلَفَ وَالِدَهُ بِأَنَّ ابْنَ سَعِيدٍ
لَا يَكُونُ إِلَّا سَعِيدًا ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ الَّذِي أَهْلَكَ بِسَيْفِهِ كُلَّ غَاشِمٍ ،
وَأَنْجَلَ بِسَيْفِهِ كُلَّ غَمَامٍ لَوْجَةِ الرِّيَاضِ وَاشْتَمَ ، وَأَسْعَدَ بِسَيْفِهِ نَوْفَلًا وَعَبْدَ شَمْسٍ
بَأُخُوْتِهِمَا لَهَا شَمٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ خُلَاصَةِ الْعَرَبِ ، صَلَاةً لَا يُعَدُّ ضَرْبًا
لَهَا الضَّرْبُ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَسَاكِرَ الْمَنْصُورَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ : مِنْهُمْ حَاضِرَةٌ أَهْلُ جِدَارٍ ، وَبَادِيَةٌ
فِي قَفَّارٍ ، وَقَوْمٌ هُمُ الْمُدُنُ الْمُسَدَّنَةُ وَقَوْمٌ عَلَيْهَا أُسُورٌ ، وَهَمُ صَنْفَانٍ : صِنْفٌ لَا تَمَلُّ
السُّيُوفَ عَوَاتِقُهُمْ ، وَصِنْفٌ سَيُوفُهُمْ تُحْبَسُ بِهَا مَنَاطِقُهُمْ ، وَالْعَرَبُ أَكْرَمُ [أَهْلُ]
الْبَوَادِي ، وَأَعْظَمُ قِبَائِلَهُمْ تَضَرُّعًا كَالْبَرْقِ مُبَارَاةً لِلشَّجْبِ الْغَوَادِي ، قَدْ نَصَبُوا بِقَارَعَةِ
الطَّرِيقِ خِيَامَهُمْ ، وَسَرَّحُوا مَعَ أُسْرَابِ الظُّبَاءِ سَوَامَهُمْ ، وَوَقَفُوا دُونَ الْمَالِكِ الْمَحْرُوسَةِ
كَكَاثِبٍ مَصْفُوفَةٍ ، وَمَوَاكِبَ بِمَا تُعْرِفُ بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الشَّجَاعَةِ مَوْصُوفَةٍ ، وَزُبَيْدٍ
مِنْ أَنْفَرِهَا قَبِيلَةٍ ، وَأَكْثَرِهَا فَوَارِسَ : [فَأَمَّا أَحْسَابُهَا] فَكَرِيمَةٌ وَأَمَّا وَجُوهُهَا فَخَمِيلَةٌ ،
شَامِيَّةٌ أَعْرِفَتْ أَنْسَابًا فِي يَمِينِهَا ، وَأَتَهَمَتْ بِشَطْءِ أَسْنَتِهَا مَا تَفْتَحُ فِي الْمَجَرَّةِ مِنْ سَوَسِنِهَا ،
فَمَا يَبْتَ بَطْلٌ مِنْهُمْ عَلَى دِمْنٍ ، وَلَا يُعْرِفُ فَارِسٌ إِلَّا إِذَا تَمَلَّى فِي الْخَلِيطَيْنِ مِنْ شَامٍ
وَمِنْ يَمْنٍ ، كَمْ فِيهِمْ بِمَوَاقِعِ الطَّعَانِ فَطْنٌ ذَوُ كَيْسٍ ، وَكَمْ صَبَغَ مِنْهُمْ بِالدِّمَاءِ رَايَةً حَرَاءَ
يَمِينِيٍّ لَا يُنْسَبُ إِلَى قَيْسٍ ، كَمْ كَرَّبَ عَلَى مَعْدِيكَرَبٍ مِنْهُمْ فَارِسٌ ، وَنُسِبَ إِلَى زُبَيْدٍ
وَهُوَ خَشِنُ الْمَلَابِسِ ، مِنْهُمْ صَاحِبُ الصَّمْصَمَةِ يَقِي مِثْلَهَا السَّيْفَ فَرْدًا ، وَكَمْ قَتَلَ مِنْ
أَقْرَانِهِ الشَّجْعَانَ مِنْ أَخِي صَالِحٍ وَبَوَّاهُ فِي الْعَجَاجِ بِيَدَيْهِ لَحْدًا ، وَمِنْ نَجْمِهِمُ الزَّوَاهِرُ
السَّرَاهُ ، وَغِيومِهِمُ الْأَكَابِرُ السَّرَاهُ ، مَنْ لَمْ يَزَلْ حَوْلَ دِمَشْقَ وَمَا يَلِيهَا مِنْ حَوْرَانَ ،
مَنَارَةَ مَنَازِلَ وَأَوْطَانَ ، حَامُوا عَنْ جَنَابِهَا الْمُصُونِ ، وَحَامُوا حَوْلَ غُوطَتِهَا تَشْبَهًُا بِجَاهِئِهَا

على الغُصُون ، وما ثَلَوْا بسُيُوفِهِمْ أَنهارَهَا ، ورمَاحِهِمْ حَوْلَ دَوَاحِ الأَيْكِ أَشْجارَهَا ،
وَأَسْتَلَمُوا بِمِثْلِ غُدْرَانِهَا دُرُوعًا ، وَحَكَّوْا بِمَا أَطْلُؤْا مِنْ دِمَاءِ الأَعْدَاءِ شَقَائِقَ رَوْضِهَا ،
وبما جَرَّوْا مِنْ حُلَلِهِم المُسَمَّحَةَ سَيْلًا ، ولم يَزَلْ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ النَّوْفَلِيّ مَنْ يَجْعُجُ جَمَاعَتَهُمْ ،
وَيُضْمُ تَحْتَ رَايَةِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ طَاعَتَهُمْ ، يُخْلَفُ ابْنُ مِنْهُمْ لِأَبِيهِ أَوْ أَخٌ لِأَخِيهِ ،
وَيَنْظِمُ كُلُّ فَرَقَدٍ مَعَ مَنْ يَنَاسِبُهُ وَيَنْصَافُ كُلُّ كَوَكِبٍ إِلَى مَنْ يُؤَاحِيهِ .

وكان مجلس الأمير الأجل ، فلان بن فلان الزُّيَيْدِي - أدام الله عزه - هُوَ بَقِيَّةُ
من سلف من آبائه ، وعرف مثل الأسد القَسُورَةَ بِإِبَائِهِ ، وَأَخْصَرَ فِيهِ مِنْ أَسْتَحْتَقِ
هَذِهِ الرِّتَبَةِ مِيرَاثُ أَبِيهِ ، وَأَسْتَغْرَقَ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ قَوْمِهِ وَإِمْرَتِهِمْ بِيَدِهِ .

فرسم بالأمر الشريف - زاده الله تعالى شرفًا ، وَذَخَرَهُ لِكُلِّ سَالِفٍ خَلْفًا -
أَنْ يَرْتَبَ فِي إِمْرَةِ قَوْمِهِ مِنْ زُبَيْدِ النَّازِلِينَ بِظَاهِرِ دِمَشْقَ وَبِلَادِ حَوْرَانَ المَحْرُوسِ ،
على عادة أَبِيهِ المَسْتَقَرِّهِ ، وَقَاعِدَتِهِ المَسْتَمَرِّهِ ؛ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، مِنْ غَيْرِ تَنْقِصٍ لَهُ عَنْ
نَجْمِ سَعْدِهِ فِي سِمَةِ وَلَا سَمْتٍ ؛ تَقْدِيمَةً تَشْمَلُ جَمِيعَهُمْ مِمَّنْ أَعْرَقَ وَأَشَامَ ، وَأُنْجِدَ
وَأَتَمَّ ؛ لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ حُكْمِهِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ عَنْ قِسْمِهِ ؛ لَا مَنُّ هُوَ فِي جِدَارٍ ،
وَلَا مَنُّ هُوَ مُضْحَرٌّ فِي قِفَارٍ ؛ يَمْشِي عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُ ، وَيَقُومُ فِيهِمْ مَقَامَهُ الَّذِي
كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَوَّلُوهُ .

وَنَحْنُ نُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِاتِّبَاعِ حُكْمِ الشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ مَا أَقَمْتَ عَلَى
بَلَدٍ أَوْ أَزْمَعْتَ أَرْتَحَلَا ، وَجَمْعِ قَوْمِكَ عَلَى الطَّاعَةِ قُرْآنًا وَرُكْبَانًا وَرِجَالًا ، وَاتِّبَاعِ
أَوَامِرِهَا الشَّرِيفَةِ وَأَمْرِ تَوَابِنَا الَّذِينَ هُمْ بِإِزَائِهِمْ ، وَمَا أَعْتَرَاكَ مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا مَا مَالُوا
إِلَيْهِ فِي أَعْتَرَائِهِمْ ؛ وَالتَّأَهُبِ أَنْتَ وَقَوْمُكَ لِمَا رَسَمَ بِهِ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَحِمَايَةِ حِمِّيَّ
أَتَمَّ حَوْلَهُ فِي صَحْرَاءِ مُضْحَرَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ ؛ وَالمُطَالَعَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَصْحَابِكَ

بِالْوَفَاءِ ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِثْلُكَ أَيْسَرُ مَا قَالَهُ لَهُ أَمْرٌ وَكَفَاهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّقُكَ لِمَا يَرْضَاهُ ، وَيُؤْثِرُكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ لِلْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهُ ، وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِهِ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَعْلَاهُ أَعْلَاهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية - نيابة حلب . ووظائفها التي يكتبها
من الأبواب السلطانية على نوعين)

النوع الأول

(من بحاضرة حلب ، وهم على أصناف)

الصنف الأول

(منهم أرباب الشُّيُوف ، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد ، وهو نائب السلطنة بها ،
وتقليده في قطع الثلثين بـ «الجناح الكريم»)

وهذه نسخة تقليد شريف بِنِيَابَةِ السلطنة بحلب ، كُتِبَ بِهِ لِلْأَمِيرِ اسْتَدَمِر ،
مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْحَلْبِيِّ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَافِظِ ثُغُورِ الْإِسْلَامِ فِي أَيْمَانِنَا الزَّاهِرَةِ ، بِمَنْ يَفْتَرُّ عَنْ شَنْبِ النَّصْرِ سَيْفُهُ ،
وَنَاطِظِ نِطَاقِ الْحُصُونِ فِي دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ ، عَلَى هِمَمٍ مِنْ لَمْ يَزَلْ يَغْزُو عَدُوَّ الدِّينِ قَبْلَ
طُلُوعِ طَلَائِعِهِ طَيْفُهُ ، وَنَاشِرِ لَوَاءِ الْعَدْلِ فِي أَسْنَى مَمَالِكِنَا بِيَدٍ مِنْ لَا يُؤْمَنُ فِي الْحَقِّ قُوَّتُهُ

وَلَا يُرْهَبُ فِي الْحُكْمِ حَيْفُهُ ، وَمَدْنَحِرٍ [أَجْر] الرِّبَاطِ فِي سَيْدِلِهِ لِمَنْ لَمْ يَبْتَ لَيْلَةً إِلَّا وَالتَّائِيدِ
نَزِيلُهُ وَالنَّصْرُ سَمِيرُهُ وَالظَّفَرُ صَيْفُهُ ؛ الَّذِي جَعَلَ الْجِهَادَ فِي أَطْرَافِ الْمَالِكِ الْمَحْرُوسَةِ
سُورًا لِعَوَاصِمِهَا ، وَالصُّعَادَ فِي مَقَاتِلِ أَعْدَاءِ الدِّينِ شَجْنًا فِي صُدُورِهَا وَشَجَى فِي غَلَاصِمِهَا ؛
وَالسُّيُوفَ الْحِدَادَ تُرْهَى بِمِشَارِكْتِهَا لِأَسْمٍ مِنْ بُلَيْتٍ مِنْهُ أَجْسَادُ أَهْلِ الْكُفْرِ بِقَاسِمِهَا ،
وَرُمِيَتْ مِنْهُ أَعْمَارُهُمْ بِقَاصِمِهَا ؛ وَأَرْهَفَ لِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَوْلِيَانَا سَيْفًا نَتَحَلَّى السَّهْبَاءَ
بِحَوَاهِرِ فِرْنِيدِهِ ، وَتَتَوَقَّعُ الْأَعْدَاءُ مَوَاقِعَ فَتَكَاتِهِ قَبْلَ تَأَلُّقِ بَرْقِهِ مِنْ سُحْبِ غَمَمِهِ ؛
وَيَعْرِفُ أَهْلُ الْكُفْرِ مَضَارِبَهُ الَّتِي لَا تُطِيقُ مَقَاتِلُهُمْ جَحْدَهَا ، وَتَتَفَرَّقُ عُصَبُ الضَّلَالِ
فَرَقًا مِنْ مَهَابَتِهِ الَّتِي طَالَمَا أَغَارَتْ عَلَى جِيوشِهِمُ الْمُتَعَدَّةَ وَحْدَهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ النَّصْرَ لِأَجْيَادِ مَمَالِكِنَا عُقُودًا ، وَالْكَفْرَ لِلْهَبِّ صَوَارِمًا
وَقُودًا ، وَالتَّائِيدَ مِنْ نَتَائِجِ سُيُوفِنَا الَّتِي تَأْنِفُ أَنْ تُرَى فِي مَضَاجِعِ الْغُحُودِ رُقُودًا ؛
وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُعَلِّي مَنَارَ الْهُدَى ، وَتُطْفِئُ أَنْوَارَ
الْعِدَا ، وَتُخْلِي أَجْسَادَ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ قُوَى أَرْوَاحِهِمْ فَتَعْدُو كِدْيَارِهِمُ الَّتِي لَا يُحِبُّ
فِيهَا إِلَّا الصَّدَى ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَعْلَى اللَّهِ بِنَاءُ الْإِيمَانِ بِتَأْيِيدِهِ ،
وَأَيَّدَنَا فِي الذَّبِّ عَنْ مِلَّتِهِ ، بِكُلِّ وَلِيٍّ يَتَأَلَّقِي رَايَةَ النَّصْرِ بَيْمِينِهِ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَصَالِحِ
أَمَّتِهِ ، بِكُلِّ سَيْفٍ نَتَأَلَّقِي نَارَ الْأَجَلِ مِنْ زَنْدِهِ وَيَتَرَقُّقُ مَاءَ الْحَيَاةِ مِنْ مَعِينِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وَصَّيَتْهُمْ مِنْ وَجْهِ الْكُفْرِ أَغْفَالًا ، وَكَانَتْ سِيُوفُهُمْ
لِمَعَاقِلِ أَهْلِ الشَّرْكِ مَفَاتِيحَ فَلَمَّا فُتِحَتْ غَدَتُ لَهَا أَقْفَالًا ؛ فَهُمْ مَنْ فَازَ بِمِزْيَةِ السَّبْقِ
إِلَى تَصْدِيقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُنْكِبُ عَنْ طَرِيقِهِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِإِعْمَادِ
سَيْفِ الْإِتِّصَارِ لَدَمِهِ عَنْ مُرِّيْقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَازَ رُتْبَةَ أَخْتَانِهِ وَصِرْهَ دُونِ أُسْرَتِهِ
الْكَرَامِ وَفَرِيقِهِ ؛ صَلَاةً دَائِمَةً الْخُلُودِ ، مُسْتَمِرَّةً الْإِقَامَةَ فِي التَّهَانِمِ وَالنُّجُودِ ؛ وَسَلَامًا
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فإن أولى من حُلِيَّتِ التقاليدُ بِلَالٍ أوصافه، ومَلِئَتِ الأقاليمُ بمواقِعِ
 مَهَاتِهِ وإنصافه؛ ورِيَعَتْ قلوبُ العِدا بِطُرُوقِ خِيَالِهِ قَبْلَ خِيَلِهِ، وخَافَ الكُفْرُ
 كُلَّ شَيْءٍ أَشْبَهَ ظُبَاهُ من تَوَقُّدِ شَمُوسِ نَهَارِهِ أَوْ حَكَايَ أَسْنَتِهِ من تَأَلَّقِ نَجُومِ لَيْلِهِ؛
 ومَدَّ عَلَى المَمَالِكِ من عَزَمَاتِهِ سُورَ مُصَفِّحٍ بِصَفَاحِهِ، مُشْرِفٍ بِأَسْنَتِهِ رِمَاحِهِ، سَامِيَةٍ
 عَلَى مِنتَقَةِ الْجَوَازِاءِ مِنتَقَةِ بَرْوَجِهِ، نَائِيَةٍ عَلَى أَمَانِيِ العِدا مَسَافَةٍ رِفْعَتِهِ فَلَا يَقْدِرُ أَمْلُ
 بَاغٍ عَلَى ارْتِقَائِهِ وَلَا رَجَاءُ طَاغٍ عَلَى وُلُوجِهِ - من تَمَهَّدَتْ بِسَدَادٍ تَدِيرُهُ الدُّوَلُ، وَشَهِدَتْ
 بِسِيرِ حَاسِنِهِ السَّيْرِ الأوَّلِ؛ وَتَوَطَّدَتْ المَمَالِكُ عَلَى أَسْنَتِهِ فَحَقَّقَتْ أَنَّ أَعْلَى المَمَالِكِ
 مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ، وَسَارَتْ فِي الآفَاقِ سُمُعَتُهُ فَكَانَتْ أُسْرَى من الأَحْلَامِ وَأُسْبَقَ
 من الأَوْهَامِ وَأُسِيرَ من المَشَلِّ؛ وَصَانَتْ النُّغُورَ صَوَارِمُهُ فَلَمْ يَشِمَّ بَرْقَهَا إِلَّا أُسِيرَ
 أَوْ كَسِيرَ، أَوْ مَنْ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا بَصَرَهُ أَتَقَلَّبَ إِلَيْهِ البَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ؛ وَزَانَتْ
 الأَقَالِيمُ مَعْدِلَتَهُ فَلَا ظُلْمَ يَغْشَى ظَلَامُهُ، وَلَا جَوْرَ يُحْشَى إِمْسَامُهُ، وَلَا حَقَّ تُدْحَضُ
 حُجَّتُهُ وَلَا بَاطِلٌ يَعْلُو كَلَامُهُ؛ فَالْبِلَادُ حَيْثُ حَلَّ بَعْدِلُهُ مَعْمُورُهُ، وَبِلَايَاتُهُ مَعْمُورُهُ،
 وَسُيُوفُ دَوَى الأَقْلَامِ وَأَقْلَامُهُمْ بِأَوَامِرِهِ فِي مَصَالِحِ البِلَادِ وَالْعِبَادِ مَنِيَّةٌ وَمَأْمُورُهُ.

ولما كَانَ الجَنَابُ العَالِي هو الذي عَانَقَ المَلِكُ الأَعَزَّ نِجَادُهُ، وَاللَّيْتُ الذي لَمْ يَزَلْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِغَارَتُهُ وَإِنْجَادُهُ؛ وَالْكَيِّ الذي كَمَّ لَهُ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ مَوْقِفِ
 صِدْقٍ يَضِلُّ فِيهِ الْوَهْمُ وَتَزِلُّ فِيهِ الْقَدَمُ، وَالْهَامَ الذي إِنْ أَنْكَرْتَ أَعْنَاقُ العِدا مَوَاقِعَ
 سَيُوفِهِ «فَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ»؛ وَالْمُقَدَّمَ الذي لَا تُتَكَرَّرُ مَشَاهِدُهُ فِي إِرْغَامِ الكُفْرِ وَلَا
 تُكْفَرُ، وَالزَّعِيمَ الذي حَمَتْ مَهَابَتُهُ السَّوَاحِلَ خِفَافِ الْبَحْرِ؛ وَهُوَ الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ، مِنْ
 بَاسِهِ الْأَحْمَرِ، عَلَى بَنَى الْأَصْفَرِ؛ وَالْمُقَدَّمَ الذي كَمَّ ضَاقَتْ بِسَرَايَا شِيعَتِهِ الْفِجَاجُ؛ وَكَمْ
 أَشْرَقَتْ نَجُومُ أَسْنَتِهِ مِنْ أَفُقِ النَّصْرِ فِي ظُلْمِ الْعَجَاجِ؛ وَكَمْ حَمَى الْعَذَبُ الْفُرَاتَ عَلَى
 الْبُعْدِ بِسُيُوفِهِ وَهِيَ بِجَاوِرَةُ لِلْمَلْحِ الْأَجَاجِ!!؛ مَعَ سَطْوَةِ أَنْامَتِ الرِّعَايَا فِي مِهَادِ أَمْنِهَا،

ورَافَةٌ عَمَرَتِ الْبَرَايا بِعَاطِفَةٍ إِقْبَالُهَا وَمِنْهَا ، وَرِفْقٍ تَكْفُلُ لِسَهْلِ الْبِلَادِ وَحَرَّتِهَا بِإِعَانَةِ
مُزْنِهَا ، وَشَجَاعَةٍ أَعَدَّتْ الْجِيُوشَ الَّتِي قَبْلَهُ فَعَدَّتْ آحَادُهَا الْوُفَا ، وَفَتَكَاتٍ عَوَدَتِ
الطَّيْرُ الشَّيْبَ مِنْ وَقَائِعِهِ فَبَاتَتْ عَلَى رَايَاتِهِ عُكُوفًا ، وَمَعْدَلَةٍ عَمَّتْ مَنْ فِي إِيَالَتِهِ فَأَصْحَى
الضَّعِيفُ فِي الْحَقِّ قَوِيًّا عِنْدَهُ وَالْقَوِيُّ فِي الْبَاطِلِ ضَعِيفًا .

وكانت البلاد الحليّة المحروسة هي المملكة التي لا تُجَارَى شَهَابُهَا فِي حَلْبَةِ نَخَارِ ،
وَالرُّتَبَةِ الَّتِي لَا يُؤْهَلُ لَهَا مِنْ خَوَاصِّ الْأَوْلِيَاءِ الْأَعِزَّةِ إِلَّا مَنْ أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى
فِي تَقْلِيدِ جَيْدِ مَفَاخِرِهِ بَلَا لِي كِفَالَتِهَا نَخَارُ ، فَهِيَ سُورُ الْمَالِكِ الَّذِي لَا تَنْسَوْرُهُ
الْخُطُوبُ ، وَأُمُّ الثُّغُورِ الَّتِي مَا بَرِحَ يُسْفِرُ بِإِتْسَامِهَا عَنْ شَنْبِ النَّصْرِ وَجْهَ الزَّمَنِ
الْقُطُوبُ ، وَمَوْطِنُ الرِّبَاطِ الَّذِي كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ [فِيهِ] خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ،
وَعَقِيلَةُ الْأَقَالِمِ الَّتِي لَمْ تُشْجِئْ قُلُوبَ الْمُلُوكِ الْأَكْبَرِ صُدُودُهَا وَأَسْهَرُ عِيُونَ الْعِظَمَاءِ
الْأَكْأَسِرَةِ تَجَافِيهَا ، بَلْ هِيَ عَقْدُ دُرَّةٍ حُصُونُهُ ، وَرَوْضُ سَيْوَفِ الْكُفَا جَدَاوِلُهُ
وَرِمَاحُ الْحِمَاةِ غُصُونُهُ ، وَحِمَى لَمْ تَزَلْ عِيُونَُ عَنَانَيْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ تَحْفُهُ وَأَيْدِي تَأْيِيدِنَا
بِقُوَّةِ اللَّهِ تَصُونُهُ - أَقَضْتُ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَرْهَفَ بِجَايَتِهَا هَذَا السَّيْفَ الَّذِي
تُسَابِقُ الْأَجَلَ مَضَارِبُهُ ، وَتَبْطُلُ الْحَيْلَ تَجَارِبُهُ ، وَتَتَقَدَّمُ خَيْرَ عَزَائِمِهِ خَيْرَهَا فَلَا
يُدْرَى : هَلْ رِيحُ الْجَنُوبِ أَسْرَى وَأَسْرَعَ أَمْ جَنَابُهُ ، وَتَبْتُ مَهَابَتَهُ أَمَامَ سَرَايَاهُ إِلَى
الْعِدَا سَرَايَا رُغْبٍ تَقُلُّ جَمْعَهُمْ ، وَتَسْبِقُ إِلَى التَّحَرُّزِ مِنْ بَأْسِهِ بَصَرَهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ ؛
وَتَسْفِرُ بِكُلِّ أَفَقٍ عَنْ تَعَمُّتِهَا مَغِيرَهُ ، أَوْ كَتِيبَةٍ تَجْعَلُهَا لِمَعَالَى النِّصْرِ الْكَامِنَةِ مُثِيرَهُ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي - لا زالت أوامره مبسوطة في البسيطة ،
وَمَمَالِكُهُ مُحَوَّطَةٌ بِمَهَابَتِهِ الشَّامِلَةِ وَمَعْدِلَتِهِ الْمُحِيطَةِ - أَنْ تَفُوضَ إِلَيْهِ نِيَابَةَ السُّلْطَانَةِ
الشَّرِيفَةِ بِالْمَمْلَكَةِ الْحَلِيَّةِ : تَفْوِيضًا يَعُودُهَا مِنْ عِيُونَ الْعِدَا بَايَاتِ عَزَائِمِهِ ، وَيَعُودُهَا

أَجْتَنَاءَ ثَمَرِ الْمُنَى وَالْأَمْنِ مِنْ وَدْقِ صَوَارِمِهِ ؛ وَيَنْظِمُ دَرَارِيَّ الْأَيْسِنَةِ مِنْ أَجْيَادِ حُصُونِهَا فِي مَكَانِ الْقَلَائِدِ ، وَيَجْعَلُ كُجَاةَ أَعْدَائِهَا لَخَوْفِهِ أَوْعَفَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَجْبَنَ مِنَ الْوَلَائِدِ ؛ وَيُجَرِّدُ إِلَى مُجَاوِرِيهَا مِنْ هِمَّتِهِ طَلَائِعَ تَحْصُرُهُمْ فِي الْفَضَاءِ الْمَتَّسِعِ ، وَتُسَدُّ عَلَيْهِمْ بِحَالِ الْأَرْضِ الْفَسِيحَةِ فَيَغْدُو لَهُمْ حَزْنُهَا الْحَزَنُ الشَّامِلُ وَسَهْلُهَا السَّهْلُ الْمُتَمَتِّعُ .

فَلْيَتَقَلَّدْ هَذِهِ الرِّتَبَةَ الَّتِي بِمِثْلِهَا تُرْهَى الْأَجْيَادُ ، وَبِتَقَلُّدِهَا يَظْهَرُ حَسَنُ الْإِتِّقَاءِ لِحَوَاهِرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِتِّقَادِ ، وَبِتَقْوِيَتِهَا إِلَى مِثْلِهِ يَعْلَمُ حَسَنُ الْإِرْتِيَادِ لِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ؛ وَلِيَزِدَّ جِيوشَهَا الْمَنْصُورَةَ إِرْهَابًا لِعَدُوِّهِمْ ، وَإِرْهَافًا لَصَوَارِمِ الْجِهَادِ فِي رَوَاحِهِمْ وَغُدُوِّهِمْ ، وَإِدَامَةً لِلتَّغْيِيرِ الَّذِي حَبَبَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مُجَاوِرِيهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّفَاقِ الَّذِينَ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ فُرْسَانُ الْحِلَالِ الَّذِينَ أَلْفَوْا الْوَقَائِعَ ، وَأَسْوَارُ الْقُرَاتِ الَّذِينَ عُرِفُوا فِي الذَّبِّ عَنْ مِلَّتِهِمْ بِحِفْظِ الشَّرَائِعِ ، وَكَشَافَةِ الْكُرْبِ الَّذِينَ لَا يَزَالُ لَهُمْ فِي سَائِرِ بِلَادِ الْعِدَا سِرَايَا وَعَلَى جَمِيعِ مَطَالِعِ دِيَارِ الْكُفْرِ طَلَائِعُ ؛ وَهُمْ بِتَقَدُّمَتِهِ تَضَاعَفَ شَجَاعَتُهُمْ ، وَتَزِيدَ أَسْتِطَاعَتُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ ؛ وَلِيَأْخُذْهُمْ بِمَضَاعِفَةِ الْأَهَبِ وَإِدَامَةِ السَّعْيِ فِي حِفْظِ الْبِلَادِ وَالذَّبِّ ، وَالتَّشَبُّهِ بِأَسُودِ الْغَابَاتِ الَّتِي هُمُّهَا فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبَ ؛ وَلِيَهْتَمَّ بِكَشْفِ أَحْوَالِ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ لِيُبْرِجَ أَمْنًا عَلَى الْأَطْرَافِ مِنْ حَيْفِهِمْ ، مَتَّبِعًا لِمَكَائِدِهِمْ فِي رِحْلَتَيْ شَتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ ؛ مُفَاجِئًا لَهُمْ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ بِسَيْرٍ يَرَوُّعُ سِرِّيهِمْ ، وَيَكْدُرُ شَرِبَهُمْ ؛ وَيَجْعَلُ رُوحَ كُلِّ مِنْهُمْ مِنْ خَوْفِ قُدُومِهِ نَافِرَةً عَنِ الْجَسَدِ ، وَيَسْلُبُهُمْ بِتَوَقُّعِ مُفَاجَأَتِهِ الْقَرَارَ « وَلَا قَرَارَ عَلَى زَائِرٍ مِنَ الْأَسَدِ » ، وَلَا تَزَالُ قُصَادُهُ بِأَسْرَارِ قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ مُنَاجِيهِه [وَلَا تَبْرَحْ لَهُ مِنْ أَعْيَانِ عَيْوَنِهِ بَيْنَ الْعِدَا فِرْقَةً نَاجِيَهُه] ^(٢) وَلِيَحْتَفِلَ بِتَذْرِيجِ الْحِمَامِ الَّتِي هِيَ رُسُلُ أَعْيَتِهِ ،

(١) مراده ليبقى على الدوام أمانا إلخ إلا أن هذه المادة لا تؤدي هذا المعنى إلا بسبق النفي . تأمل .

(٢) الزيادة مما يأتي قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الديارب الذين إذا دعوا همهمة بالسنة النيران لبثهم السنة أسنته ؛ وليمت قلوب أعدائه بوجل لقائه قبل الأجل ، وليزد في الحزم على ابن مزيد الذي لم ير في الأمن إلا في درع مضاعفة « لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل » ؛ وليجعل أحوال القلاع المحروسة دائما برأى منه ومسمع ، وليسيدها من ملاحظته باحتفال لا يدع لشائم برقها وحول أموالها [مطمعا] فقد استكمل حسن النظر في مصالحها أجمع ؛ وليقيم منار الشرع الشريف بمعاوضة حكمه ، والانتقاد إلى أحكامه ، والوقوف مع تقضيه وإبرامه :

فليجعل حكم الشريعة المطهرة إمامه وإمامه ، وليقيم أمر الله فيمن اقتاده الشرع إلى حكمه بخاذب زمامه ؛ وليعظم حملة العلم الذي أعلى الله مناره ، وأفاض على الأمة أنواره ، وحفظ بهم على الملة سنة نبهم صلى الله عليه وسلم وآثاره ؛ وليكن لأقدارهم رافعا ، ولمضارهم دافعا ؛ ولأوقافهم بجمل الاحتفال عامرا ، وفي مصالحهم بتخيلة الأحوال آمرا ؛ ولينشر لواء العدل الذي أمر الله بنشره ، ويشفعه بالإحسان الذي هو مألوف من سجاياه ومعروف من طلاقة بشره ؛ ويمد على الرعايا ظل رافته الذي يضفي في النعم لباسهم ، ويديم إلفهم بالرأفة واستئناسهم ؛ ويقم حكم سياسته على من لم يستقيم ، ويقف مع رضا الله تعالى في كل أمر : فإذا رحم الله فليرحم وإذا انتقم فليغير الله لا ينتقم ؛ وليعتن بعارة البلاد ببسط العدل الذي ما احتفى به ملك إلا صانه ، والرفق الذي لم يكن في شيء إلا زانه ، وتوحي الحق الذي من جعله نصب عينيه وفقه الله له وأعانه . وكذلك أمر الأموال : فإنها ذخيرة الملك وعتاده ، ومادة الجيش الذي إذا صرفت إلى مصالحهم هممه لم يحش عليه اقتطاعه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيباني وهو :

تراه في الامن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

نَقَّادُهُ ؛ وَجَمِيعُ الْوَصَايَا قَدْ أَلْفَنَّا مِنْ سِيرَتِهِ فِيهَا فَوْقَ مَا نَقْتَرِحُ ، وَخَبَرْنَا مِنْ مَقَاصِدِهِ فِيهَا مَا يَقُولُ لِلْسَّانِ قَلَمُهَا : قَدْ عَرَفْتُ مَا أَوْمَأَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَقَاصِدِكَ فَاسْتَرَحَ ؛ وَمِلَاكُهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَانَا ، وَهُوَ الْمَأْلُوفُ مِنْ عَذْلِهِ وَإِنْصَافِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُدَيِّمُهَا بِتَأْيِيدِهِ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَأَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ جَعَلَ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ، وَالْأَعْتَادُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد شريف بناية حلب أيضا ، كُتِبَ بِهَا عَنْ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ» لِلْأَمِيرِ شَمْسِ الدِّينِ «قِرَاسْتَقَر» بِإِعَادَتِهِ إِلَيْهَا . مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْحَلَبِيِّ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْعَوَاصِمَ بِإِقَامَةِ فَرَضِ الْجِهَادِ فِي أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ مُعْتَصِمَةً ، وَالتُّغُورَ بِمَا تَفْتَرَعُنَّ عَنْهُ مِنْ شَنْبِ النَّصْرِ فِي دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ مُبْتَسِمَةً ، وَالصَّوَارِمَ الْمُرْهَفَةَ فِي أَطْرَافِ الْمَمَالِكِ بِأَيْدِي أَوْلِيَانَا لِأَرْوَاحٍ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بَعْدٍ عَنْهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ مُقْتَسِمَةً ، وَالْحُصُونِ الْمُصَفَّحَةَ بِصَفَاحِنَا بِأَعْلَامِ النَّصْرِ مُعَلِّمَةً وَبَسِيَا الظَّفَرِ مَتَّسِمَةً ؛ مُعْلِي قَدْرِ مَنْ أَحْسَنَ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ عَمَلًا ، وَرَافِعٍ ذِكْرٍ مَنْ يَبْسُطُ إِلَى عِزِّ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَتِنَا أَمَلًا ، وَجُدِّدِ سَعْدٍ مَنْ تَلْبَسُ الْأَقْلَامُ مِنْ أَوْصَافِهِ أَنْخَرِ الْحُلَّ إِذَا خَلَعْتَ مِنَ الْحَمَامِدِ عَلَى أَوْصَافِهِ حُلًّا ، وَمُقَوِّضِ زَعَامَةِ الْجِيُوشِ بِمَوَاطِنِ الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِهِ إِلَى مَنْ إِذَا فَلَلْتَ مَقَاتِلَ الْعَدَا سِوْفَ الْحِلَادِ كَانَتْ عِزُّهُ مِنَ السِّوْفِ الْمُرْهَفَةِ بَدَلًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ طَاعَتَنَا مِنْ أَسْبَابِ الْعُلُوِّ ، وَخِدْمَتَنَا مِنْ أَنْجَحِ أَبْوَابِ الرَّفْعَةِ بِحَسَبِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْخِدْمَةِ وَالْعُلُوِّ ، وَنِعْمَنَا شَامِلَةً لِلْأَوْلِيَاءِ بِمَا يُرَبِّي عَلَى

طَوَامِجِ الآمَالِ فِي الْبُعْدِ وَالذُّنُوبِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
تُسْتَنْزَلُ بِهَا مَوَادُّ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَتُسْتَجْزَلُ بِهَا ذَخَائِرُ التَّايِيدِ الَّتِي كَمْ أَسْفَرُ عَنْهَا وَجْهٌ
سَفَرٌ، وَتُرْهَفُ بِهَا سِيُوفُ الْجِهَادِ الَّتِي كَمْ آلَفَتْ مِنْ آمَنٍ وَكَفَّتْ مِنْ كَفَرٍ؛ وَنَشْهَدُ
أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي أَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَزَوَّيْتُ لَهُ الْأَرْضَ فَرَأَى مِنْهَا
مَا يَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِهِ إِلَيْهِ، وَعُصِرَتْ عَلَيْهِ كُنُوزُ الدُّنْيَا فَأَعْرَضَ عَمَّا وُضِعَ مِنْ مَقَالِيدِهَا
بِيَدَيْهِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَنَهَضُوا بِمَا أَمَرُوا بِهِ
مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَطَاعَةِ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ؛ صَلَاةً دَائِمَةً الظَّلَالِ، أَمَنَةً
شَمْسُ دَوَامِهَا مِنَ الزَّوَالِ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنْ أَوْلَى مِنْ طُوقَتْ أَجْيَادُ الْمَالِكِ بِفِرَائِدِ أَوْصَافِهِ، وَفُوقَتْ إِلَى مَقَاتِلِ
الْعِدَا سِهَامُ مَهَابَتِهِ الَّتِي تَحُولُ مِنْهُمْ بَيْنَ كُلِّ قَلْبٍ وَشِغَاغِهِ؛ وَخُصِّصَتْ بِهِ أُمُّ الثُّغُورِ الَّتِي
دَرَّ لَهَا حَلَبُهَا، وَمَدَّتْ عَلَيْهَا أَفْيَاءُ النَّصْرِ الْمَمْدُودَةِ ذَوَابِلُهَا وَقُضِبُهَا، وَأَهْدَى أَرْجَ التَّبَلُّجِ
افْتِرَاقَهَا وَشَنَبَهَا - مَنْ تَقُومُ مَهَابَتُهُ مَقَامَ الْأُلُوفِ، وَتَجْتَنِي سُمُعَتُهُ مِنْ ذَوَابِلِ الْعَزَائِمِ ثُمَّ
النَّصْرِ الْمَأْلُوفِ؛ وَيُسَبِّقُ خَيَالُهُ سَرَایَا خَيْلِهِ الَّتِي هِيَ أَسْرَى مِنْ هُوجِ الرِّيَّاحِ إِلَى هَزَمِ
الْجُمُوعِ وَتَفْرِيقِ الصُّفُوفِ، وَتَنْظِمُ أَسِنَّةَ رِمَاحِهِ فِي الْوَعْيِ قُلُوبَ الْعِدَا نَظْمَ السُّطُورِ
وَتَشْرِيفَ فَاحِهِ رُءُوسِهِمْ تَرَا حُرُوفَ؛ وَتُحِيطُ بِنِطاقِ الْمَالِكِ الْمُتَطَرِّفَةِ صَوَارِمِهِ إِحَاطَةً
الْأَسْوَارِ بِالْحُصُونِ، وَالتَّخَامِلِ بِالْغُصُونِ، وَالْمَالَاتِ بِالْأَنْفَارِ، وَالْجَوَانِحِ بِالْأَسْرَارِ؛
وَلَا تَبَيَّتْ مُلُوكُ الْعِدَا مِنْهُ إِلَّا عَلَى وَجَلٍ، وَلَا يُرَى فِي الْأَمْنِ إِلَّا فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
«لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ»؛ وَلَا يَخْفَى عَنْ الْمُعَيَّتَةِ مَا يُضْمَرُ الْأَعْدَاءُ مِنْ
الْحَرَكَاتِ قَبْلَ إِظْهَارِهَا، وَلَا يَبْعُدُ عَلَى عَزَمَاتِهِ مَا هِيَ مَلِيَّةٌ بِهِ مِنْ بِدَارِهَا أَعْدَاءُ الدِّينِ

بَدَارِهَا ؛ وَإِذَا جَلَسَ لِنَشْرِ الْمَعْدَلَةِ تَبَرَّأَ الظُّلَمَ مِنْ فِكْرِ ^(١) [البغى والجور على إنسان ،
وَشَفَعَ مَا تَصَدَّى لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .

ولما كان الجَنَابُ العَالِي الْفُلَانِيّ هُوَ الَّذِي مُلِئَتْ قُلُوبُ الْعِدَا بُرْعِيهِ ، وَأَنْطَوَتْ
قُلُوبُ الرِّعَايَا عَلَى حُبِّهِ ، وَتَهَلَّلَتْ وَجُوهُ الْمُتَى فِي سِلْمِهِ وَأَسْتَهَلَّتْ سُحُبُ الْمَنَايَا فِي حَرِّهِ ،
وَجَمَعَ بَيْنَ حِدَّةِ الْبَاسِ وَلُطْفِ التَّقَى إِنْكَانَ هُوَ الْكَيِّ الَّذِي شَفَعَ الشَّجَاعَةَ بِالْخُضُوعِ
لِرَبِّهِ ؛ وَحَاطَ مَاوِلِيَهُ مِنَ الْأَقَالِمِ بِسُورَى بَاسِهِ وَعَدَلِهِ فَبَاتَ كُلُّ أَحَدٍ وَادِعًا فِي مِهَادِهِ
أَمْنًا فِي سِرِّهِ ؛ وَأَغَارَتْ سَرَايَا مَهَابَتِهِ قَبْلَ طُلُوعِ طَلَائِعِهِ فَأُضْهِجَ كُلُّ مَنْ الْعِدَا أُسِيرَ
الذُّعْرَ قَبْلَ إِمْسَاكِهِ - قَتِيلَ الْخَوْفِ قَبْلَ ضَرْبِهِ ؛ مَعَ احْتِفَالِ بَعَارَةِ الْبِلَادِ ، أَعَانَ
السُّحُبَ عَلَى رِيَّهَا ، وَأَشْتَمَلَ عَلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ ، قَامَ فِي تَيْسِيرِ أَرْزَاقِهِمْ مَقَامَ وَسْمَى الْغَنَائِمِ
وَوَلَّيَهَا ، وَتَقَيَّظَ لِمَصَالِحِ الثُّغُورِ أَنَامَ عَنْهَا عَيُونَ الْخُطُوبِ ، وَإِشْرَاقَ فِي أَفْقِ الْمَوَازِبِ
كَسَا وَجْهَ الدِّينِ نُورَ الْبَشَرِ وَوَجْهَ الْكُفْرِ ظِلَامَ الْقُطُوبِ .

وكانت المملكة الحليّة عقيلة المعاقيل ، وعِصْمَةَ الْعَوَاصِمِ ، وَوَاسِطَةَ عُقُودِ
الْمَمَالِكِ ، وَسِلْكَ فَرَائِدِ النَّصْرِ الَّتِي كَمِ أَضَاءَتْ بِهَا إِلَى الْكُفْرِ وَجُوهُ الْمَسَالِكِ ، لَا تُدْرِكُ
فِي مِضْمَارِ الْفَخَّارِ شَهَابُوهَا ، وَلَا تُرَى إِلَّا كَمَا تُرَى النُّجُومُ فِي عَيُونِ الْعِدَا حَضَبَاؤُوهَا ؛
وَلَهَا مِنَ الْحُصُونِ الْمُصُونَةِ كُلِّ قَلْعَةٍ يَتَهَيَّبُ الطَّيْفُ سُلُوكِ عِقَابِهَا ، وَيَتَقَاصِرُ لَوْحُ
الْجُوعِ عَنْ مَنَالِ عِقَابِهَا ؛ فَهِيَ عَزِيزَةُ الْمَنَالِ ، إِلَّا عَلَى كَرِيمِ كَفَاعَتِهِ ، بَعِيدَةُ مَجَالِ الْآمَالِ ،
إِلَّا عَلَى مَا أَلْفَتْ مِنْ إِيَالَةِ كِفَايَتِهِ ؛ سَامِيَةُ الْأَفْقِ إِلَّا عَلَى شَمْسِهِ ، نَائِيَةُ الطَّرْفِ
إِلَّا عَلَى مَا عَرَفَتْ مِنْ سُلُوكِهِ فِي أَمْسِهِ ، ظَامِيَةُ الْغُرُوسِ الَّتِي أَثَشَّاهَا فِي مَصَالِحِهَا
إِلَى مَا أَعْتَادَتْهُ مِنْ سُقْيَا غَرَسِهِ - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَزِيدَهَا إِشْرَاقًا بِشَمْسِ

جَلَالِهِ ، وَأَعْتَلَاءَ بَسِيفِهِ الذى رِيَاضُ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِهِ ؛ وَأَنْ نَعِيدَ أَمْرَهَا إِلَى مَنْ
طَالَمَا حَسَنَ عَدْلُهُ بُقْعَتَهَا ، وَحَصَّنَ بَأْسُهُ قَلْعَتَهَا ؛ وَأَطَارَتْ مَهَا بَتُّهُ سُمْعَتَهَا ، وَأَطَالَتْ
سِيرَتُهُ سُكُونَ رَعَايَاهَا فِي مِهَادِ الْأَمْنِ وَهَجْعَتَهَا ؛ وَأَعَادَ وُجُودَهُ أَحْوَالَ مُجَاوِرِيهَا مِنَ الْعِدَا
إِلَى الْعَدَمِ ، وَأَبَادَ سَيْفُهُ أَرْوَاحَ مُعَانِدِيهَا : فَلَوْ أَنْكَرْتَهُ أَعْنَاقُهُمْ لَمْ يَكُنْ بِالْعَهْدِ
مِنْ قَدَمٍ .

فَلَذَلِكَ رُسْمٌ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ شَمْسُ عَدْلِهِ ، مُشْرِقَةً فِي الْوُجُودِ ، وَغِيثُ
فَضْلِهِ ، مُسْتَهْلٌ الْجُودِ فِي التَّهَائِمِ وَالنُّجُودِ - أَنْ تَفُوضَ إِلَيْهِ تَقْوِيضًا
يُجَدِّدُ آرْتِفَاعَهَا ، وَيُعَمِّرُ وَهَادَهَا وَيَقَاعَهَا ، وَيُوَيِّدُ أَدْفَاعَ مَضَارِّهَا وَأَنْتِفَاعَهَا ؛ وَيُعِيدُ
الْإِشْرَاقَ إِلَى مَطَالِعِهَا ، وَالْأُمُورَ إِلَى مَوَاقِعِهَا مِنْ سَدَادِ التَّدْيِيرِ وَمَوَاضِعِهَا ؛ وَالْإِقْدَامَ
إِلَى جُيُوشِهَا وَأَبْطَالِهَا [وَالشَّجَاعَةَ إِلَى حِمَاتِهَا وَرَجَالِهَا] .

فَلْيَطْلُعْ فِي أَفْقِ مَوَاقِبِهَا طُلُوعَ نَعْتِهِ الْكَرِيمِ ، وَيُخْرِجْ فِي جَوَانِبِهَا مَا أَلْفَنَتْهُ مِنْ مَوَارِدِ
عَدْلِهِ الذى فَارَقَهَا عَمَامُهُ وَأَثْرُسَيْلُهُ مُقِيمٍ ؛ وَيُعَاوِدُ مَصَالِحَ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ
أُمُورُهَا إِلَّا عَلَيْهِ ، وَيُرَاجِعُ عِصْمَةَ تِلْكَ الْعَقِيلَةِ الَّتِي لَا تَطْمَحُ أَبْصَارُ عَوَاصِمِهَا إِلَّا إِلَيْهِ ،
وَيُلْقِي فِي قُلُوبِ مُجَاوِرِيهَا ذَلِكَ الرَّعْبَ الذى نَعَى 'إِلَى كُلِّ مِنْهُمْ نَفْسَهُ وَأَسْلَاهُ عَمَّا
فِي يَدَيْهِ ؛ وَيُثَبِّتُ تِلْكَ الْمُهَابَةَ الَّتِي جَعَلَتْ مَنَايَا الْعِدَا بِرَاحَتِهِ يَأْمُرُهَا فِيهِمْ وَيَنْهَايَا ،
وَيُنْشُرُ فِي الرَعَايَا تِلْكَ الْمَعْدِلَةَ الَّتِي هِيَ كَالشَّمْسِ : لَا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ مَثَلَةً عِنْدَهُمْ
وَلَا جَاهًا ؛ وَلَتَكُنْ أَحْوَالُ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ بِمَرَأَى مِنْهُ عَلَى عَادَتِهِ وَمَسْمَعٍ ، وَيَكْفُفُ
أَطْمَاعَ الْكُفَّارِ عَلَى قَاعَدَتِهِ فَلَا يَحْدُثُ لَهُمْ إِلَى شَيْءٍ بَرَقَ الثُّغُورُ مَطْمَحٌ وَلَا فِي الْعِلْمِ
بَشْنِهَا مَطْمَعٌ ؛ وَلِيَكُنْ مِنْ أَرْصَادِهِ ، نَهَارُ عَدُوِّ الدِّينِ وَلَيْلُهُ ، وَمِنْ أَمْدَادِهِ ، مَجَازُ الْجِهَادِ
وَحَقِيقَتُهُ فَلَا يَبْرَحُ يَسْتَبِيحُ خَيَالَهُ إِذَا لَمْ تُصَبِّحْهُمْ خَيْلُهُ ؛ وَلَا يَبْرَحُ لَهُ مِنْ أَعْيَانِ عِيُونِهِ

بين العدا فرقة ناجية ، وطائفة بأسرار قلوب القوم مناجية ، لتكون له مقاتلهم على طول الأبد بادية ، وتغدو منازلهم خاوية بين سراياه الرائحة والغادية . وليتعاهد أحوال الجيوش بإدامة عرضها ، وإقامة واجبات القوة وفرضها ، وإطالة صيت السمعة المشهورة لكلماتها في طول بلاد العدا وعرضها ، وإزاحة أعدائها للركوب ، وإزالة عوائق آرتيادها للوثوب ، وإعداد العدد التي لها من أيديهم طلوع [في] مقاتل أعدائهم غروب . ولتفتقد أحوال الحصون المصونة بسداد ثغورها ، وسداد أمورها ، وإزاحة أعدار رجالها ، وإرهاق همم حمتها التي تضيق على آمال العدا سعة مجالها ، وتوفير ذخائرها ، وتعمير بواطنها وظواهرها ، وتحصين مسالكها التي يرهب الخيال المتولى إلى العيون سلوك محارها .

وليعل منار الشرع الشريف بتشديد مناره وإحكامه ، وتنفيذه لقضايا قضاته وأحكام حكمه ؛ والوقوف في كل أمر مع نقضه في ذلك وإبرامه ، ورفع أقدار حملة العلم على ما ألقوه من الرفعة والسمو في أيامه . ولتكن وطأة بأسه على أهل الفساد مشتته ، وأوامره متقدمة بوضع الأشياء في مواضعها : فلا توضع الحدة موضع الأناة ولا الأناة موضع الحدة . وليراع عهود الموادعين مهما استقاموا ، ويجمع عليهم إن يكفوا أنامل بأسه التي هم في قبضتها رحلوا أو أقاموا ؛ ولتخبر السنة النيران بسبها على اليفاع [والآكام] من قدم لمكيدة أو طعن بمطار الحام - وجميع ما يتعلق بهذه المرتبة السنية من قواعد فإلى سالف تديره ينسب ، ومن سوابق تقريره وتحريره يحسب ؛ فهو ابن بجدتها ، وفارس بجدتها ، ومؤئل قواعدها ، ومؤثر ما حشد من امتداد عضدها إلى مصالح الإسلام وساعدها ؛ فليفعل في ذلك ما يشكره الله والإسلام عليه ، ويثبت الحجة عند الله تعالى في إلقاء المقاليد إليه ؛ وملاك

الوضايا تقوى الله وهى سَجِيَّة نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةُ مَا أَجْتَنَى فِي أَيَّامِ الْحَيَاةِ مِنْ غَرَسِهِ ، وَثَرُّ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ فِيهِمَا تَظْهَرُ مَرْيَّةٌ يَوْمَهُ الْجَمِيلِ عَلَى أَمْسِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُجْعَلُ نِعَمَهُ دَائِمَةً الْاِسْتِقْبَالَ ، وَتُسَمَّاهُ أَمَنَةً مِنَ الْغُرُوبِ وَالزَّوَالِ ؛ وَالْاِعْتِمَادُ :

الطبقة الثانية

(من يكتب له فى قَطْعِ الثَّلَثِ بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(نيابة القلعة بها)

وهذه نسخة مرسوم شريف بِنِيَابَةِ قَلْعَةِ حَلَبَ :

الحمد لله مُعَلِّى قَدْرِى مِنْ تَحْلِيٍّ بِالْأَمَانَةِ وَالصَّوْنِ ، وَرَافِعِ مَكَانَةٍ مِنْ كَانَ فِيمَا عَرَضَ مِنَ الْعَوَارِضِ نِعْمَ الْعَوْنُ ؛ وَمُوَهِّلِ مِنْ أَرْشَدَنَا إِلَيْهِ لِلْاِجْتِبَاءِ حَسَنُ الْاِخْتِبَارِ ، وَمُبَلِّغِ الْاِثَارِ مِنْ شِكْرَتِ عَنْهُ مُحَمَّدُ الْاَثَارِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ ، وَنُشْكِرُهُ شُكْرَ الْحَامِدِينَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُخْلِصٍ فِي اِعْتِقَادِهِ ، مُبَرِّأً مِنْ اِفْتِرَاءِ كُلِّ جَاوِدٍ وَالْحَادِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَأَيَّدَهُ بِسُلْطَانٍ مِنْهُ وَطَهَّرَ [بِهِ] الْأَرْضَ مِنْ دَنَسِ الضَّلَالِ اِطْهَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً لَا يَزَالُ عِلْمُ الْعِلْمِ بِهَا مَنشُورًا ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَنَايَةَ بِالْحُصُونِ تُوجِبُ أَنْ لَا يُخْتَارَ لَهَا إِلَّا مَنْ هُوَ مَلِيٌّ بِحِفْظِهَا ؛ مُؤَفَّرٌ [لَهَا] مِنْ حُسْنِ الذَّبِّ غَايَةً حَظَّهَا ؛ حَسَنُ الْمُرَابَّطَةِ ، مُبَرِّأً مِنْ دَنَسِ الْأَفْعَالِ

السَّاقِطَةُ ؛ ذَوْ قَلْبٍ [قَوِيٌّ] وَقَالِبٌ ، وَعَزِمَ مَا زَالَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ أَشْجَعَ مُغَالِبٍ ؛ إِذْ هُوَ
لِلرُّايِطِينَ بِهَا أَوْثَقُ حَرْزٍ حَرِيْزٍ ، وَأَصُونُ حِجَابٍ لِمُبَارَزَةِ ذَوِي التَّبْرِيزِ ؛ [فَنَصَبِحَ بِهِ] مُسْتَوْرًا
عَوَارُهَا ، كَاتِمَةً لِأَسْرَارِهَا أَسْوَارُهَا ؛ تَخَاطَبَ مُنَازِلِهَا مِنْ بَحَائِنِهَا بِأَبْلَغِ لِسَانٍ ، وَتَشَافَهُ
مُلَاجِبِهَا مِنْ أَتَقَةِ أَنْفِهَا إِلَّا أَنَّهُ بِأَعْلَى مَكَانٍ .

ولما كانت القلعة الفلانية بهذه المتزلة الرفيعة ، والمكانة التي كل مكانة بالنسبة
والإضافة إلى علو مكانها المكانة الوضيعة - أَخْتَرْنَا لَهَا وَابْتَغَيْنَا ، وَاسْتَوْعَبْنَا بِالتَّاهِيلِ
لِنِيَابَتِهَا وَلَمْ نَتْرِكْ فِي أَسْتِعَانِهَا وَلَا أَبْقَيْنَا ؛ فَلَمْ نَجِدْ لَوْلَايَتِهَا كُفَاءً إِلَّا مِنْ نُظُمَتْ عُقُودُ
هَذَا التَّقْلِيدِ لَتَقْلِيدِهِ ، وَرَتَلَتْ سُورَ هَذِهِ الْحَامِدِ بِمَبْدِئِ لِسَانٍ تَقْرِيطُهُ وَمُعِيدِهِ ؛ إِذْ هُوَ
أَوْثَقُ مَنْ يُلْقَى إِلَيْهِ إِقْلِيدُهَا ، وَأَكْفَأُ مَنْ يُجْزِبُهُ مَوْعُودُهَا ؛ إِذْ كَانَ الْمَكِينُ ،
وَالثِّقَّةَ الْمُتَحَلِّيَ إِذْ كَانَ التَّحَلِّيَ مِمَّا يَزِينُ الْعَاطِلَ الْمَشِينُ ؛ إِنْ ذُكِرَ الرَّأْيُ فَهُوَ الْمَتَّصِفُ
بَسَدِيدِهِ ، أَوِ الْعَزَمُ فَهُوَ الْمَوْسُومُ بِسَدِيدِهِ ؛ أَوِ التَّنَبُّهُ فَهُوَ مِنْ صِفَةِ شَجَاعَتِهِ ، أَوْ حُسْنُ
الْمُظَافَرَةِ فَهُوَ الْبَاذِلُ فِيهَا جُهْدَ اسْتَطَاعَتِهِ .

ولما كانت هذه المناقب مناقبه ، وهذه المذاهب مذاهبه ؛ رُسم بالأمر الشريف
العالى - زاده الله مضاءً ونفاذاً ، وَاسْتَحْوَاءً وَاسْتِحْوَاذَا - أَنْ تَفُوضَ نِيَابَةَ السُّلْطَانَةِ
بِالْقَلْعَةِ الْفَلَانِيَّةِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهَا مِنْ رُبُضٍ وَنَوَاحٍ ، وَقُرَى وَضَوَاحٍ ، لِلجَلِيسِ
السَّامِيِّ فَلَانٍ .

فَلْيَرَقَ إِلَى رُبُتِهَا الْمُتَنِيفِ قَدْرُهَا ، الْمُهِمِّ سِرُّهَا وَجَهْرُهَا ؛ وَلْيَكُنْ مِنْ أَمْرِ مَصَالِحِهَا
عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَمِنْ تَقَفُّدِ أَحْوَالِهَا عَلَى فِطْنَةٍ مَا زَالَتْ مِنْهُ مَحْبُورَةٌ ؛ وَلْيَأْخُذْ مُحَرِّزَهَا
مِنْ الْجُنْدِ وَغَيْرِهِمْ بِالْمُلَازِمَةِ لِمَا عُدِقَ بِهِ مِنَ الْوُضَائِفِ ، وَيَتَقَدَّمْ إِلَى الْوَالِيَا مَعَ
طَوَائِفِهَا أَوَّلَ طَائِفٍ ؛ وَلْيَتَفَقَّدْ حَوَاصِلَهَا مِنَ الذَّخَائِرِ ، وَوَصَالَهَا مِنَ التَّبْذِيرِ بَيْنَ

يَرْتَّبُهُ عَلَى حِفْظِهَا مِنَ الْأَخْيَارِ، وَمَهْمَا عَرَضَ يُسْرِعُ بِالْمُطَالَعَةِ بِأَمْرِهِ، وَالْإِعْلَامِ
بِنَفْعِهِ وَضَرِّهِ .

هَذِهِ نُبْدَةٌ كَافِيَةٌ لِلْوُثُوقِ بِكَفَايَتِهِ، وَالْعِلْمِ بِسَدِيدِ كِفَايَتِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُحْسِنُ لَهُ
الْإِعَانَةَ، وَيَجْزِلُ لَهُ الصِّيَانَةَ ؛ وَالْخَطَّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ... :

الوظيفة الثانية

(شُدُّ الدَّوَاوِينِ بِحَلَبِ)

وهذه نسخة تَوْقِيعِ شُدِّ الدَّوَاوِينِ بِحَلَبِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْهَفَ فِي خِدْمَةِ دَوْلَتِنَا كُلِّ سَيْفٍ يُزْهِى النَّصْرُ بِتَقْلِيدِهِ ، وَيُرَوِّى
نَبَأُ الْفَتْحِ عَنْ تَجَرُّبَتِهِ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَتَجَرُّيدِهِ ، وَيُرَوِّى حَدُّهُ إِذَا قَابَلَهُ عَدُوُّ الدِّينِ
مِنْ قُلُوبِ قَلْبِهِ وَمَوَارِدِ وَرِيدِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ السَّابِغَةِ حَمْدَ مُتَعَرِّضٍ لِمَزِيدِهِ، وَنُشْكِرُهُ عَلَى مَنِّهِ السَّائِغَةِ شُكْرَ مُسْتَنْزِلٍ
مَوَادَّ تَأْيِيدِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُقَرَّرَةً بِتَوْحِيدِهِ، مُسَرَّةً
مِثْلَ مَا يُظْهَرُ مِنَ الْخُضُوعِ لِكِبْرِيَاءِ تَقْدِيسِهِ وَتَمْجِيدِهِ، مُصَرَّةً عَلَى جِهَادٍ مِنْ أَلْحَدٍ
فِي آيَاتِهِ بِنَفْسِهِ وَجُنُودِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مَنْ دَعَتْ دَعْوَتُهُ
الْأُمَمَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِخَالِقِهَا بَعْدَ جُحُودِهِ، وَأُنْجَزَ لَأُمَّتِهِ مِنَ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْكُفْرِ سَابِقِ
وَعُودِهِ، وَأَمَالَ بِهِ عُمُودَ الشَّرِكِ فَأَهْوَى إِلَى الصَّعِيدِ بَعْدَ صُعُودِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى
آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ بَدَّلَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ نِهَايَةَ مَجْهُودِهِ، وَأَطْفَأَ نَارَ
الْكُفْرِ بَعْدَ وَقُودِهَا بِإِقْيَادِ لَهَبِ الْجِهَادِ بَعْدَ نُحُودِهِ ؛ صَلَاةً تَقَرَّنَ بِرُكُوعِ الْقَرَضِ
وَسُجُودِهِ، وَتُقَامُ أَرْكَانُهَا فِي أَغْوَارِ الْوُجُودِ وَجُودِهِ ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيماً كَثِيراً .

وبعد ، فإن أولى ما أجمَلنا في مصالحه النَّظر ، وأعمَلنا في آرتياد الأَكفاء له بوادِر الفكر ، وأخترنا له من الأولياء من كان معدودا من خواصنا ، محبوبا بمزيد تَقريبنا ومَدِيَّة اختِصاصنا ، أمرُ الأموال الديوانية بالملكة الحليَّة وتقويض شدِّ دواوينها المعمورة إلى من تُضاعِفها رتبته المكيَّة ، وزاَهتُه المتينَة ؛ ويده التي هي بكمال العِفَّة مبسوطه ، وخبرته التي يمثلها يحسن أن تكون مصالح الدولة القاهرة منوطه ؛ ومترئسَه التي تكف عن الأموال الأطماع العاديَّة ، ومهابتُه التي تكفي الأولياء من ضبط الأعمال بما يروى الآمال الصاديَّة ؛ لأنها موادُّ الثغور التي ما برحت عن شنب النَّصر مُفترَّة ، وأمدادُ الجيوش التي جعل الله لها أبداً على أعدائه الكره ؛ ورياضُ الجهاد التي تُجتنى منها ثمراتُ الظفر الغضِّه ، وكُنوزُ الملك التي يُنفق منها في سبيل الله القناطير المُقنطرة من الذهب والفضة .

ولما كان فلان هو الذي اخترناه لذلك على علم ، وربَّحناه لما أجمع فيه من سرعة يقظة وأناة حلم ؛ ونَدَبناه في مُهمَّاتنا الشريفة فكان في كل موطن منها سَيفا مُرهفا ، وأخترناه فكان في كل ما عدَّقناه به بين القوى والضعيف مُنصفا ؛ وعلمنا من معرفته ما يستثير الأموال من مكائنها ، ومن نزاهته ما يظهِرُ أَشْتات (؟) المصالح من معادِنها ، ومن معدلتِه ما يمتنع الرعايا بأجتناء ثمر المنى من إحسان دولتنا القاهرة وأجتلاء محاسنها - آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُحَلِّي جيد تلك الرتبة بعقود صفاته الحسنة ، وأن نُذَبِّه على حُسن هِمَمه التي ما برحت تَسرى إلى مصالح الدولة القاهرة والعيون وسِنه .

فلذلك رُسم أن يُفوض إليه ذلك تقويضا يبسُط في مصالح الأموال لِسَانَه ويده ، ويقصر على مضاعفة آرتِفاع الأعمال يومه الحاضر وغده ، ويحسن بسد الخلل

وَتَبَّعَ الإِهْمَالِ مُصَدَّرَهُ الْجَمِيلَ وَمَوْرَدَهُ ؛ وَيَجْعَلُ [لَهُ] فِي مَصَالِحِهَا الْعَقْدَ وَالْحَلَّ ،
وَالْتَصَرَّفَ النَّافِذَ فِي كُلِّ مَادَقٍّ مِنَ الْأُمُوالِ الدِّيوانِيَةِ وَجَلَّ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ بِهِمَّةٍ عَلِمْنَا فِي الْحَقِّ مَوَاقِعَ سَيِّفِهَا ، وَأَمِنَّا عَلَى الرِّعَايَا بِمَا أَتَّصَفَتْ بِهِ
مِنَ الْعَدْلِ وَالْمَعْرِفَةِ مِنْ مَوَاقِعَ حَتْفِهَا ، وَأَيَقُظَتِ الْعَيُونَ الطَّامِحَةَ لِسُلُوكِ مَا [لَا] يَجِبُ بِمَا لَمْ
تَزَلْ تُنَحِّلُهُ مِنْ رَوَائِعِ طَيْفِهَا ؛ وَلْيُثَمِّرِ الْأُمُوالَ بِالْجَمْعِ فِي تَحْصِيلِهَا بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ،
وَيَجْعَلْ مَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا بِبِرْكَةِ الْعِقَّةِ وَالرَّفْقِ : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ . وَلْيُعَفِّ أَثَرِ الْحَمايَاتِ وَرَسْمِهَا ، وَيُزِيلَ بِالْكَلِيَّةِ عَنْ تِلْكَ الْمَمَالِكِ الْحَسَنَةَ
وَسَمَهَا الْقَبِيحَ وَأَسْمَهَا ؛ وَلْيَكُنْ مُهِمُّ الشُّغُورِ هُوَ الْمُهِمُّ الْمَقْدَمَ لَدَيْهِ ، وَالنَّظَرُ فِي كُلِّ
الْقِلَاجِ الْمَحْرُوسَةِ هُوَ الْفَرَضُ الْمَتَعَيْنُ أَدَاؤُهُ عَلَيْهِ ، فَيَحْمِلُ إِلَيْهَا مِنَ الْأُمُوالِ وَالْغِلَالِ
مَا يَعْمُ حَوَاصِلُهَا الْمَصُونَةِ ، وَيَكْفِي رِجَالَهَا الْفِكْرَ فِي الْمُتُونَةِ ؛ وَيَضَاعِفُ ذَخَائِرَهَا
الَّتِي تُعَدُّ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِينِهَا ، وَيُصْبِحُ بِهِ حَمْلُ عَامِهَا الْوَاحِدِ كِفَايَةً مَا يَسْتَقْبَلُهُ مَعَ
مَوَالَاةِ الْجُمُودِ مِنْ سِنِينِهَا ؛ وَمَعَادَا ذَلِكَ مِنَ الْوَصَايَا فَقَدْ أَلْقَيْنَا إِلَى سَمْعِهِ مَا [عَلَيْهِ]
يَعْتَمِدُ ، وَعَرَفْنَاهُ أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ أَوْفَى مَا بِهِ يَسْتَبْدُّ وَإِلَيْهِ يَسْتَنْدُ ؛ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ :

الصنف الثاني

(من أرباب الوظائف بحلب - أرباب الوظائف الدينية)

وهم على طبقتين أيضا :

الطبقة الأولى

(من يُكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَثِ بـ «السَّامِي» بِالْيَاءِ ، وَشَتَمِلُ عَلَى وَظَائِفِ)

منها - قَضَاءُ الْقُضَاةِ . وَبِهَا أَرْبَعَةُ قُضَاةٍ : مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ قَاضٍ ، كَمَا فِي الدِّيارِ
الْمِصْرِيَةِ وَالشَّامِ . وَالشَّافِعِيُّ مِنْهُمْ هُوَ الَّذِي يُولَّى بِالْبِلَادِ كَمَا فِي مِصْرٍ وَالشَّامِ .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية :

الحمد لله الذي رفع منار الشريعة الشريفة وأقامه ، ونور به كل ظلام وأزال به كل ظلامه ، وجعله صراطاً سويّاً للإسلام والسلامه ، الذي جعل القضاة أعلاماً ، بهم يهتدى ، ونصّبهم حكاماً ، بمراسدhem يقتاد ويقتدى ، وأخذ بهم الحق من الباطل حتى لا يعتل في قضية ولا يعتدى ، والصلاة على سيدنا محمد الذي أوضح الله به الطريق ، وأبدى به بين الحلال والحرام التفريق ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تكفل لرغبات قائلها بالتحقيق .

(١)

وبعد ، فإن أحق ما وجهت إليه تصريفه وجهاً مسفراً ، وقربت إلى يد الاقتطاف من شجرته المباركة غصناً مثمراً ، وسهّدت في الاختيار له والأصطفاء لخطا ما زال للفكر في مصالح الأمة مسفراً - الشرع الشريف الذي حرس الله به حومة الدين وحى جانبه ، وحفظ به أقوال الهدى عن المجادلة من المبتدعين وأطرافه من المجاذبة ، وكانت حراسته معدومة باختيار الأئمة الأعلام ، وموقوفة على كل من يطاعن البدع عند الاستفتاء برماح الخط وليست رماح الخط غير الأعلام ، ومصرقة إلى كل منصف في قضاياها حتى لو ترافعت إليه الليالي لأنصفها من الأيام .

ولما كان فلان هو مداول هذه العبارة ، ومُرتمى هذه المشاره ، ومُرتمق هذه الإشاره ، وقد حلّ من المباح في محل صعب المرتقى على متوقله ، وطلع من منازل سعودها في بروج بعيدة الأوج إلا على سير بدّره وتنقله ، وطالب حكم فأحكم ، وفصل ففصل ، وروّج فراجع وعدل فعدل ، وشهدت مراتبه الشريفة بأنه خير من تتولها ميراثاً وأستحقاقاً ، وأجل من كادت ترهبه مطالع النجوم إشرافاً وإشرافاً ، وكانت حلب المحروسة مركز دائرة لأيامه ، وسلك جوهر تصريفه الذي

(١) في الأصل « وصلت » ولم نفهم له معنى يناسب .

طلبا تقلدت أحسن العقود بنظامه ؛ وقد آفخرت به أفتخار السماء بسميها ،
والروضة بغرسها ؛ والأفهام بإدراك حسها ، والأيام بما عملته من خير في يومها
وأسلفته في أمسيها ؛ وقد اشتاقت إلى قربها شوق النفس إلى تردد النفس ، والليل
إلى طلوع النجم أولا فإلى إضاءة القبس .

فلذلك خرج الأمر الشريف بأن يُحدد له هذا التوقيع بالحكم والقضاء ، بالملكة
الحليّة وأعمالها وبلادها ، على عادته .

فليستخر الله تعالى وليستصحب من الأحكام ما همته مليّة باستصحابه ،
ويستوعب من أمورها ما نتوخ المصالح باستيعابه ؛ ويُقيم بها منار العدل والإحسان ،
وينضّ بتدبير ما أقعده منها زمانة الزمان . وعنده من الوصايا المباركة ، ما يستغني به
عن المساهمة فيها والمشاركة ؛ لكن الذكوى النافعة عند مثله نافقه ، فإن لم يكن
شعاع هلال فبارقه ؛ وليتق الله ما استطاع ، ويُحسن عن أموال اليتامى الدفاع ،
ويحرس موجود من غاب غيبة يجب حفظ ماله فيها شرعا ، ويقطع سبب من رام
لأسباب الحق قطعا ، ولا يراع لحايف حُرمة فإن حُرّمات الحائفين لا تُرعى ؛ وينظر
في الأوقاف نظرا يحرسها ويصونها ، ويبحث عنها بحثا يظهر به كمينها ؛ والله تعالى
يسدده في أحكامه بمنه وكرمه ! .

قلت : وعلى ذلك تُكتب توقيعات بقية القضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية .

ومنها - وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، كُتب بها لمن لقبه « كمال الدين » وهي :

الحمد لله الذي جعل كمال الدين موجودا ، في آفتران العلم بالعمل ، وصلاح بيت
المال معهودا ، في استناده إلى من ليس له غير رضا الله تعالى وبرائة الذمة أمل ،

وَأَرْتَقَاءَ رُتَبِ الْمُتَّقِينَ مَقْصُورًا عَلَى مَنْ بَارْتَقَاءُ مِنْهُ مِنْ أُمَّةٍ الْأُمَّةُ تُزْهِىُ مَنَاصِبُ الدُّوَلِ ، وَالْأَكْتِفَاءُ بِالْعُلَمَاءِ مَحْضُورًا فِي الْآرَاءِ الْمَعْصُومَةِ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ مِنَ الْخَلَلِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْهُمْ مَصَالِحَ الْإِسْلَامِ ، مُقَدِّمًا لَدِينَنَا ، وَاخْتِصَاصَ الْمَرَاتِبِ الدِّينِيَّةِ بِالْأُئِمَّةِ الْأَعْلَامِ ، مُحِبًّا لِمَنَا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً رَفَعَ الْجِهَادُ عَالَمَهَا ، وَأَمْضَى الْأَجْتِهَادَ كَلِمَهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَشْرَقَتْ سَمَاءُ مِلَّتِهِ ، مِنْ عُلَمَاءِ أُمَّتِهِ ، بِأَضْوَاءِ الْأَهْلَةِ ، وَنَطَقَتْ أَحْكَامُ شَرْعِيَّتِهِ ، عَلَى أَلْسِنَةِ حَمَلَةِ سُنَّتِهِ ، بِأَوْضَحِ الْأَدِلَّةِ ، وَبَزَغَتْ شَمْسُ هِدَايَتِهِ فِي تَهَائِمِ الْوُجُودِ وَنُجُودِهِ فَانْطَوَتْ بِهَا ظُلُمُ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ نَصَحُوا اللَّهَ وَلِرَسُولِهِ ، وَآثَرُوا رِضَاهَ عَلَى نَفُوسِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُرَادٌ سِوَى مُرَادِهِ وَلَا سُؤْلٌ غَيْرُ سُؤْلِهِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ تَلَقَّاهُ كَرْمُنَا بِوَجْهِ إِقْبَالِهِ ، وَاخْتَارَتْ لَهُ آلَاؤُنَا مِنَ الرُّتَبِ مَا صَدَّه الْإِبْجَالُ فِي الطَّلَبِ عَنْ تَعَلُّقِهِ بِبَالِهِ ؛ وَرَأَى إِحْسَانُنَا مَكَانَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فَعَدَّقَ بِهِ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَمْ يَتْرُكْهُ أَوْلَا إِلَّا مُوَافَقَةً لَهُ لَا رَغْبَةً عَنْ خِيَالِهِ ، وَرَعَى رِثْنَا وَقَادَتَهُ فَاقْتَضَى إِعَادَتَهُ مِنْ مَنَاصِبِهِ إِلَى مَا لَمْ يَزَلْ مُشْرِقَ الْأَفُقِ بِكَالِ طَلْعَتِهِ وَطَلْعَةِ كَمَالِهِ - مَنْ ظَهَرَتْ لَوَامِعُ فَوَائِدِهِ ، وَبَهَرَتْ بِدَائِعِ فَرَائِدِهِ ؛ وَتَدَفَّقَتْ بِحَارِ فُضَائِلِهِ ، وَتَأَلَّفَتْ أَشْعَةُ دَلَائِلِهِ ؛ وَتَوَعَّتْ فُنُونُهُ : فَهُوَ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَبْنُ بِيَجْدَتِهِ ، وَفَارِسُ تَجْدَتِهِ ، وَحَامِلُ رَأْيَتِهِ ، وَجَوَادُ مَضْمَارِهِ الَّذِي تَقِفُ جِيَادُ الْأَفْكَارِ دُونَ غَايَتِهِ .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ هَذَا الْبَحْرَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَى تَدَفُّقِهِ ، وَالْبَدْرَ الَّذِي أُوْحِيَ إِلَى كَمَالِ مَا تَأَلَّقَى بِهِ مِنْ أَفْقِهِ ؛ وَكَانَتْ وَكَالَةً يَبْتَهِ الْمَالُ الْمَعْمُورَ بِحَلَبِ الْحَرُوسَةِ مِنَ الْمَنَاصِبِ الَّتِي لَا يَتَعَيَّنُ لَهَا إِلَّا مَنْ تُعَقَّدُ الْخَنَاصِرُ عَلَيْهِ ، وَيُسَارُ بِنَانُ الْإِخْتِصَاصِ إِلَيْهِ ، وَيُقَطَّعُ

بجميل هُوَ فيه فيما يُوضَع من المصالح الإسلامية بيديه ؛ وله في مباشرتها سوابق ،
وَأَثَارُ [إن] لم تَصِفْهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ أَوْحَتْ بِهَا تِلْكَ الْأَحْوَالُ الْحَالِيَةُ وَهِيَ نَوَاطِقُ -
اَقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ إِنْعَامَ النَّظَرِ فِي الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِمَكَانِ أَلْفِهِ ، وَمَنْصِبِ رَفَعِ
مَا أَسْلَفَهُ فِيهِ مِنْ جَمِيلِ السَّيَرَةِ قَدَرَهُ عِنْدَنَا وَأَزْلَفَهُ .

فرسم بالأمر الشريف - لازال بآبِهِ ثِمَالُ الْأَمَالِ ، وَأَفُقُ السَّعْدِ الَّذِي لَوَّاهُ الْبَدْرُ
لَمَّا فَارَقَ رُتَبَ الْكَمَالِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَذَا : لَمَّا ذَكَرَ مِنْ أَسْبَابِ عَيْتِهِ ، وَفَضَائِلِ
تَزَيَّنَتْ بِهِ كَمَا زَيَّنَتْهُ ، وَوَفَادَةِ تَقَاضَتْ لَهُ نُزُلُ الْكَرَامَةِ ، وَاقْتَضَتْ لَهُ مَوَادِّ الْإِحْسَانِ
وَمَوَارِدَهُ فِي السَّرَى وَالْإِقَامَةِ .

فَلَيْلِ هَذِهِ الرِّبَّةِ الَّتِي عَلَى مِثْلِهِ مِنَ الْأُئِمَّةِ مَدَارُ أَمْرِهَا ، وَبِمِثْلِ قُوَّتِهِ فِي مَصَالِحِهَا
يَتَضَاعَفُ دَرُ احْتِلَالِهَا وَيَتَرَادَفُ احْتِلَابُ دَرِّهَا ، مُرَاعِيًا حَقُوقَ الْأُمَّةِ فِيمَا جَرَّه
الْإِرْثُ الشَّرْعِيَّ إِلَيْهِمْ ، مُنَاقِشًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا قَصَرَهُ مَذْهَبُهُ الْمَذْهَبُ مِنَ الْحَقُوقِ
الْمَالِيَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَاقِفًا بِالْحَقِّ فِيمَا يَنْبُتُ بِطَرِيقِهِ الْمُعْتَبَرِ ، تَابِعًا لِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا يَخْتَلِفُ
سَبِيلُهُ [و] فِيمَا يَخْتَرُ بِالْعَيَانِ أَوْ يُحَقِّقُ بِالْخَبَرِ ، مُحَافِظًا عَلَى مَا يُعُولُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِلُطْفِ
تَدْقِيقِهِ ، وَحُسْنِ تَحْقِيقِهِ ، وَقَبُولِ الدَّافِعِ بَوَجْهِهِ وَدَفْعِهِ بِطَرِيقِهِ ، وَلَا يَمْنَعُ الْحَقُّ
إِذَا ثَبَتَ بِشَرْطِهِ الَّتِي أَعْذَرَ فِيهَا ، وَلَا يَدْفَعُ الْوَاجِبَ إِذَا تَعَيَّنَ بِأَسْبَابِهِ الَّتِي يَتَقَضَاهَا
الشَّرْعُ الشَّرِيفُ وَيَقْتَضِيهَا ؛ وَهُوَ الْوَكِيلُ عَنِ الْأُمَّةِ فِيمَا لَمْ عَلَيْهِمْ ، وَمَتَوَلَّى
الْمُدَافَعَةَ عَنْهُمْ فِيمَا يُقَرُّ الشَّرْعُ فِي يَدَيْهِمْ ، فَلْيُدَوِّدْ عَنْهُمْ أَمَانَةَ دِينِهِ ، وَيُجْتَنِدْ لَمْ فِيمَا
وَضَعَاهُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْوَكَاةِ الشَّرِيفَةِ بِمِيزَانِهِ ؛ وَمِلَاكُ هَذَا الْأَمْرِ الْوَقُوفُ مَعَ الْحَقِّ
الْحَلِيِّ ، وَالْتِمَسُّكُ بِالتَّقْوَى الَّتِي تَظْهَرُ بِهَا قُوَّةُ الْأَمِينِ وَأَمَانَةُ الْقَوِيِّ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّقُهُ
وَيَسُدُّدُهُ .

قلتُ : وفي معنى ما تقدّم من قطع الورق والألقاب الحسبة ، ونظر الأوقاف
الجبّار، وخطابة الجوامع الجليلة ، وِجَارُ التّدَاريس ، وما يجري مجرى ذلك : إذا
كُتِبَ به من الأبواب السلطانية . وإلا فالغالبُ كتابةُ ذلك جميعه عن نائب
السلطنة بها .

الطبقة الثانية

(من يكتب له في قطع العادة «بالسامي» بغيرياء ، أو «بمجلس القاضي»)

قال في «التثقيف» : وهم من عدا القضاة الأربعة من [أرباب] الوظائف الدينية ؛
فيدخل في ذلك قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، وما يجري مجرى ذلك ، حيث
كُتِبَ من الأبواب السلطانية .

الصنف الثالث

(من أرباب الوظائف بحلب - أرباب الوظائف الديوانية ،

وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له في قطع الثالث بـ «السامي» بالياء . وتشتمل على وظائف)

منها - كتابة السرّ . ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية - بصاحب
ديوان المكاتبات ، ورُبَّمَا قيل : صاحب ديوان الرسائل . قال في «التثقيف» :
ورُبَّمَا كُتِبَ له في قطع النصف .

وهذه نسخة توفيع شريف من ذلك، وهى :

الحمد لله الذى زان الدولة القاهرة، بمن تغدو أسرارها من أمانته فى قرار
مكين، وحلّى أيامنا الزاهرة، بمن تبدو مراسمها من بلاغته فى عقد ثمين، ومجمل
الكتب السائرة، بمن إذا وشتها براعته ويراعته قيل : هذا هو السحر البيانى إن لم
يكن سحر مبین .

نحمده على نعمه التى خصت الأسرار الشريفة بمن لم ير بها عن كلاله، ونصت
فى ترقى مناصب التنفيد على من يستحقها بأصالة الراى وقدم الأصاله، ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رقم الإخلاص طروسها، وسقى الإيمان
غروسها، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى آتاه جوامع الكلم، ولوامع الهدى
والحكم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كتب فى قلوبهم الإيمان، وكتب
بهم أهل الطغيان، صلاة يشفعها التسليم، ويتبعها التعظيم، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى الرتب بارتداد من تعقد على أولوياته الخناصر، ويعتمد على
أصالته التى ما برحت فى الاتصال والاتصاف بها ثابتة الأواصر، ويعتقد فى أمانته
التي تأوى بها الأسرار إلى «صخرة أعيان الرجال أنصداؤها» ويعتضد بفضائله التى يقل
فى كثير من الأكفاء آجتماعها، ويعول فيها على بلاغته، التى أعطت كل مقام حقه
من الإطناب والإيجاز، ويرجع فيها إلى بديته، التى جرت بها سوابق المعالى إلى غاية
الحقيقة فى مضمار المجاز - رتبة هى خزانة سرنا، وكثانة نهينا وأمرنا، فلا يتعين
لبلوغها إلا من ومن، ولا يعين لتلقيها وترقيها إلا أفراد قل أن يكثر مثلهم فى زمن،
ولا يحسن أن تكون إلا فى بيت عريق فى أنسابها، وثيق فى تمكن عرا أسبابها،
علم بقواعدها التى إذا أشتبها طرق آدابها كان أدرى بها .

ولما كان فلان هو الذى ذُكرت أسباب تعيينه لهذه الرتبة وتعيينه ، وفتحت أبواب أولوياته بتلقى راية هذا المنصب بيمينه ، مع أدوات كَلَّتْ مفاحره ، وصفات جَلَّتْ مآثره ، وكَلَّاهُ ، إذا جادت أنوارها أرض طرس أخذت زخرفها ، وإذا حاذت أنوارها وجه سماء ودَّتِ الدَّزَارِي لو حكَّتْ أحرفها ، وبلاغة ، إن أطرت بوصف أغارت الفرائد ، وأعارت دُررها القلائد ، وأتت من رِقَّة المعاني بما هو أحسن من دُمُوع التصابي في حُدُودِ الخرائد ، وإن أغرَّتْ بعدو أعانت على مَقَاتِلِه السُّيوف ، ودَلَّتْ على مَكَامِينِه الخُتُوف ، وِدِيَانِيَّة ، رفَعته عند الله وعندنا إلى المكان الأسمى ، وصِيَانِيَّة ، جمعت له من آلائنا وأعنائنا بين الزيادة والحسنى ، وأمانه ، أغتته بمجوهر وصفها الأعلى عن التَّعَرُّض إلى العَرِض الأذنى ، وبراعة ، أَعْتَصَدَ بها يراعُه في بُلُوغ المقاصد أَعْتَصَادَ الرِّقَص بالمعنى .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا فليُبَشِّرْ بتلقى هذا الإحسان ، بسيد الاستحقاق ، وليَتَلَقَّ عقود هذا الأمتنان ، الذى طالما قلَّد نَحْرَه الأعناق ، وليُبَاشِرْ ذلك مباشرة يسرُّ خبرها ويسرى خبرها ، ويشفِّ الأسماع تأثيرها وأثرها ، وليسلك فيها من السداد ، ما يؤكِّد حمده ، ومن حسن الاعتماد ، ما يؤيِّد سعده ، والوصايا كثيرة وهو بها خير عليم ، حائزٌ منها أوفر الأجزاء وأوفى التقسيم ^(١) ، وملاكها تقوى الله فليجعلها عُمدته ، وليتخذها فى كلِّ الأمور ذخيرته ، والله تعالى يضاعف له من لدننا إحسانا ، ويرفع له قدراً وشاناً ، والاعتماد فى ذلك على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه .

ومنها - نظر الملكة الحليَّة القائم مقام الوزير .

(١) فى الاصل : وأوفى التقصير ، ولا معنى له .



وهذه نسخة توقيع من ذلك : كُتِبَ به لعبد الدين « سعيد بن ريان » بالعود إليها ، وهي :

الحمد لله رافع قدر من جعل عليه اعتيادا ، ومجدد سعد من غدا في كل ما يُعَدَّقُ به من قواعد النظر الحسن عمادا ، ومُسنِّي حمد من تكفل له جميل التصرف أن لا تُبْعَدَ الأيام عليه مرادا ، ومُجْزِل مواد النعم لمن إذا استمطر قلبه في المصالح همى فافتن أفنانا وأبغى تنميّا وأثمر سدادا ، وإذا أيقظ نظره في ملاحظة الأعمال استجلى وجوه المصالح انتقاء لما خفى منها وانتقادا .

نحمده على نعمه التي لا تزال النعم بها مُجَدَّدة ، والقواعد موطدة ، والكرم مُعَادا ، والآله التي جعل لها الشكر أزديانا على الأبد وأزديادا ، ومنينه التي لا يقوم بها ولا باداء فرضها الحمد ولو أن ما في الأرض من شجرة أفلام أو كان البحر مدادا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تألو هممنا أجهادا في إعلاء منارها وجهادا ، ولا تكبو جياذ عزائمنا ، دون أن تُسكنها من الجاحدين قلوبا وتُجرى بها من المنكرين ألسنة وتقلدها من المشركين أجيادا ، ولا تدبو صوارمنا ، حتى نتخذ لها من ورديد كل معانيد موريدا ومن قيم كل ناكث أعَمادا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أسرى الله به إليه فبلغ في الارتقاء سبعا شدادا ، وأنزل عليه أشرف كُتِبَه بيانا وأعجزها آية وأوضحها إرشادا ، وبعثه إلى الأحمر والأسود فسعد من سعادته إيمانا وشقي من شقي به عنادا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين لم يُلْقُوا في طاعة الله وطاعته مهادا ، صلاة لا تستطيع لها الدهور نقادا ، ولا تملأها الأسماع تعدادا وتردادا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من سَمَّا به مَنْصِبُهُ الذي عُرف به قديماً، وَزُهِيتَ به رُتْبَتُهُ، التي لم يزل فيها لَأَقْتِنَاءَ الشُّكْرِ مُسْتَدِيمًا، وَتَحَلَّتْ به وَظِيفَتُهُ، التي لم يبرح يلبس بها ثَوْبُ الشَّاءِ قَشِيْبًا وَيَجْرُبُهَا رِءَاءُ السَّعْدِ رَقِيًّا، وَتَقَاضَتْ له عَوَارِفُنَا مَعَارِفُهُ التي لم يزل عَقْدُهَا في جِدِّ المَرَاتِبِ السَّيِّئَةِ نَظْمًا، وَتَطَلَّعَ إِلَيْهِ مَكَانُهُ فَكَأَنَّهُ بِقَدَمِ هِجْرَتِهِ لم يبرح فيه وإن بَعْدَ عَنْهُ مُقِيًّا - من لم يزل قَلَمُهُ بِصَرْفِهِ في أَسْنَى مَمَالِكِنَا الشَّرِيفَةِ كَاسِمِهِ سَعِيدًا، وَطَرَفَ نَظَرِهِ فِيمَا يَلِيهِ من المَنَاصِبِ السَّيِّئَةِ يُرِيهِ من المَصَالِحِ مَا كَانَ غَائِبًا وَيُذِنِي إِلَيْهِ من أَسْبَابِ التَّدْيِيرِ مَا كَانَ بَعِيدًا، فَا أَعْمَلْ في مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ قَلَمًا إِلَّا وَأَقْبَلْتُ نَحْوَهُ وَجْهَهُ الْأُمُوالِ سَافِرَهُ، وَلَا لَحَظْتُ في مُهِمَّاتِ وَظَائِفِهَا أَمْرًا إِلَّا وَعَاوَدْتُهُ أَسْبَابُ التَّشْمِيرِ النَّافِرَهُ، وَلَا أَعْتَرَضَ قَلَمُهُ بِنُطْقِهِ وَفِكَرِهِ إِلَّا وَغَدَتْ الثَّلَاثَةُ عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ عِمَارَةٌ مَا يُفَوِّضُ إِلَيْهِ من الْأَعْمَالِ مُتَضَافِرَةً، وَذَلِكَ لِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ من عَقَّةِ نَفْسِهِ وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ وَطَهَارَةِ يَرَاعِهِ، وَأَتَّصَفَ بِهِ من حَسَنِ اضْطِلَاعِهِ وَجَمِيلِ أَطْلَاعِهِ، وَجُبِلَتْ عَلَيْهِ طِبَاعُهُ من نَزَاهَةِ زَانَتِ خَبْرَتِهِ وَمَنْ يُنْقَلُ مَشْكُورًا عَنْ طِبَاعِهِ .

ولما كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي حَنَّتْ إِلَيْهِ رُتْبَتُهُ وَتَلَفَّتْ إِلَيْهِ مَنْصِبُهُ وَدَعَتْهُ وَظِيفَتُهُ النَّفِيسَةُ إِلَى نَفْسِهَا، وَأَعْتَدَتْ بِإِقْبَالِهَا إِلَيْهِ فِي يَوْمِهَا عَنْ نُشُوزِهَا عَنْهُ فِي أُمْسِهَا، وَأَشْتَاقَتْ إِلَى التَّحَلِّيِّ بِفَضَائِلِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تُزْهِى بِمَا أَلْفَتْهُ مِنْهَا عَلَى نُظَرَائِهَا مِنْ جَنْسِهَا - أَقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةُ أَنْ نُجَمِّلَ لَهَا عَادَتَهَا وَنُجَدِّدَ لَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ بِمَبَاشَرَتِهَا السَّعِيدَةِ إِعَادَتَهُ، وَنُعِيدَ إِلَيْهِ بِمَبَاشَرَةِ نَظَرِهِ الْجَمِيلِ مَسَرَّتَهُ الَّتِي أَلْفَهَا وَسَعَادَتَهُ .

فلذلك رسم ... - لا زال بره لعماد الدين رافعا، وأمره بالإحسان شافعا - أن يفوض إليه نظر المملكة الحليّة على عادة من تقدّمه .

فليأشِرْ هذه المملِكة التي هي من أشهر ممالكِكنا سُمِّعَته ، وأَيَّمِنَها بِقَعِّه ؛ وأَحْسَنَها
 بِلادَها ، وأَخَصَّصَها رَبًّا وَوَهَادًا ، وَأَكْثَرِها حُصُونًا شَوَاهِقَ ، وَقِلَاعًا [سَوَامِي] ^(١) سَوَامِقَ ،
 وَتَغَوَّرًا لَا تَتَّسِمُ مَا أَفْتَرَ مِنْهَا الْبُرُوقُ الْخَوَافِقَ ؛ مَبَاشِرَةً تَزِيدُ مَصَالِحَها عَلَى مَا عَرَفَتْه ،
 وَتُزِيلُها مِنْ خَبَرَتِهِ فَوْقَ مَا أَلْفَتْه ؛ وَتَدُلُّ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ كِفَاةٍ هَدَّيْتُهَا التَّجَارِبَ ، وَهَدَّتْها
 الْأَنْوَارُ الثَّوَابِقَ ، وَصَرَفَتْها الْأَفْكَارُ الْمُطَّاعَةَ عَلَى الطَّوَالِغِ مِنَ الْمَغَارِبِ ، وَسَدَّدَتْها
 إِلَى الْأَعْرَاضِ الْجَمِيلَةِ الْخُلُوعِ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَوَقَّفَتْها عَلَى جَوَاهِرِ الصَّوَابِ عَدَمَ
 اعْتِرَاضِ النَّظَرِ إِلَى الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَرَاهَا التَّوْفِيقُ مَا تَأْتِي مِنْ وَجْهِهِ التَّيْدِيرُ وَمَا تَذَرُ ،
 وَعَرَفَتْها الْمَعْرِفَةُ الْإِحْتِرَاسَ مِنْ مَخَالَفَةِ الصَّوَابِ فَمَا تَزَالُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَذَرٍ ، وَفَتَحَتْ
 لَهَا الدَّرَبَةَ أَبْوَابَ التَّشْمِيرِ فَمَا لَحِظْتَ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الدِّيَوَانِيَةِ إِلَّا وَبَدَتْ الْبِدَرُ ؛
 وَلَتَكُنِ النِّعَمُ الْمُصُونَةُ الْمُقَدَّمُ لَدَيْهِ ، وَالنَّظَرُ فِي مَصَالِحِ الْقِلَاعِ الْمَحْرُوسَةِ هُوَ الْغَرَضُ
 الْمُنْصُوصُ عَلَيْهِ ؛ فَلْيُضَاعَفْ ذَخَائِرُها ، وَيَتَفَقَّدْ مَوَارِدُ أُمُورِها وَمَصَادِرُها ؛ وَفِي مَعْرِفَتِهِ
 بِقَوَاعِدِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ مَا يُغْنِي عَنْ الْوَصَايَا ، لَكِنْ مَلَكَهَا تَقْوَى اللَّهِ ، فَلْيَجْعَلْها نَجَى
 نَفْسِهِ ، وَسَمِيرَ أُنْسِهِ ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ

*
* *

ومنها - نظر الجيش بها .

وهذه نسخة تَوَقِيعِ بِنظَرِ الْجَيْشِ بِالْمَمْلَكَةِ الْحَلِيبِيَّةِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَفْقَ السَّعَادَةِ بِطُلُوعِ شَمْسِهِ مُنِيرًا ، وَأَقَرَّنِي رُبَّ الْعِلَاءِ مَنْ
 يَغْدُو نَاطِرُها بِحُسْنِ نَظَرِهِ قَرِيرًا ، وَحَلَّى مَفَارِقَ الْمَنَاصِبِ السَّنِيَّةِ بِصَدْرِ إِذَا تَغَالَى

(١) الزيادة مما يأتي بعد نحو عشر صفحات .

اللسان في وصفه كان بَنَانُ البَيَانِ إِلَيْهِ مُشِيرًا ، وَأَخْتَارَ لَأَمْصَارِ مَمَالِكَا الشَّرِيفَةِ مِنْ إِذَا قُوَّضَ إِلَيْهِ نَظَرُهَا كَانَ بِنِسْبَتِهِ إِلَى الْإِبْصَارِ حَقِيقًا بِهِ وَجَدِيرًا .

نَحْمَدُهُ وَهُوَ الْمُحْمَدُ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مُشْرِقَ السُّعُودِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً عَذْبَةً الْوُرُودِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَصْحَبَتْ بِهِ شَيْوُخٌ مِنَ الْإِسْلَامِ مَنْشُورَةَ الْبُنُودِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا أَوْرَقَ عُودٌ ، وَأَوَّلَجَ نَهَارَ السِّيُوفِ فِي لَيْلِ الْغُمُودِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَصَّ كُلَّ مَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكَا الشَّرِيفَةِ بِكَثْرَةِ الْجُيُوشِ وَالْأَنْصَارِ ، وَجَعَلَ جُيُوشَنَا وَعَسَاكِرَنَا تُكَادُ عِدَدَ النُّجُومِ فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ ؛ وَكَانَتِ الْمَمْلَكَةُ الشَّرِيفَةُ الْحَلِيبِيَّةُ هِيَ رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ شَدِيدٍ ، وَذُنُورُ مَادَعَاهُمْ دَاجٍ إِلَّا وَلِبَّاهُ مِنْهُمْ عَدَدٌ عَدِيدٌ - وَجِبَ أَنْ يُخْتَارَ لِلنَّظَرِ عَلَيْهَا مِنَ الْأَكْفَاءِ مِنْ سَمَاءِ فِي الرَّأْسَةِ أَصْلُهُ وَزَكَافَرُوعُهُ ، فَاسْتَحَقَّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ تَمْيِيزَ قَدْرِهِ وَرَفْعَهُ ؛ وَفَاقَ فِي فَضْلِ السِّيَادَةِ أَبْنَاءَ جَنْسِهِ ، وَأَشْرَقَتْ أَفْلَاكُ الْمَعَالِي بِطُلُوعِ شَمْسِهِ ؛ وَأَقْرَبَ [بِنَظَرِهِ] نَظَرَ الْجُيُوشِ الْمَنْصُورَةِ ، وَسَارَتْ الْأَمْثَلَةُ بِمَا أَتَّفَقَ عَلَيْهِ [فِيهِ] مِنْ حُسْنِ خَبْرَةٍ وَخَيْرَةٍ ؛ وَكَانَ فَلَانُ هُوَ الَّذِي طَلَعَ فِي أَفْقِ هَذَا الشَّاءِ شَمْسًا مُنِيرَةً ، وَأَخْتَبَرَ بِالْكَفَايَةِ وَالِدَرَايَةِ وَأَخْتَبَرَ لِهَذَا الْمَنْصِبِ عَلَى بَصِيرَةٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَهُ مِنْ جَمِيلِ الْمُبَاشَرَةِ فِي الْمَنَاصِبِ السَّنِيَةِ مَا هُوَ كَالشَّمْسِ لَا يُخْفَى ، وَالَّذِي أَحْسَنَ النَّظَرَ فِي الْأَوْقَافِ الْمُبْرُورَةِ حَتَّى تَمْنَى كُلُّ مَنْصِبٍ جَلِيلٍ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ وَفَقَا ؛ وَهُوَ الَّذِي حَوَى مِنْ الْفَضَائِلِ مَا لَا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا شَبِيهٌ ، وَالَّذِي سَمَّا إِلَى رَتْبَةٍ مِنَ الْمَعَالِي رَيعَةً وَكَانَ ذَا الْجَدِّ النَّبِيِّ وَالْأَبِ النَّبِيِّ .

فلذلك رُسم ... - لا زال يُقرُّ الناظر بِجُوده ، ويَحْسِنُ النظر في أمر جُوشه
وجُوده - أن يفوض إليه كذا : علماً بأنه أحقُّ بذلك وأولى ، وأن كفايته لا يُستثنى
فيها بئالاً ولا بلولاً ، وأنَّ السَّدادَ مقترنٌ بحسن تصرُّفه ، وعلمه قد أغنى عن تعليمه
بمواقع التَّسديد وتوقيفه .

فليباشِر ذلك بصدرٍ مُنشرح ، وأملٍ مُتفَسِّح ، عاملاً بالسَّنة من تقوى الله تعالى
والقرض ، علماً بأنَّا عند وُصولنا إلى البلاد نأمرُ بعرض الجيوش : فليعمل على
ما يبيِّض وجهه يوم العرض ، وليُزِمَ عدَّة من المباشرين بعمل ما يلزمهم من التفرُّع
والتأصيل ، والتَّجريد والتَّزِيل ، وتحرير الأمثلة والمقابلة عليها ، وسؤالك الطريق
المُسْتقيم التي لا يتطرق الذمُّ إليها ، والملاحظة لأُمور الجيوش المنصورة في قليل
الإقطاعات وكثيرها ، وجليلها وحفيرها ، بحيث يكون علمه محيطاً بذلك إحاطة
الليل ، ويشترط على من يتعيَّن تنزيله ما أَسْتَطاع من قُوَّة ومن رِباط الخيل ؛
ويقابل الأمور المضطربة بالإضراب ، ويسلك أحسن المسالك في سيره وسيرته :
فإنَّا فوضنا إليه الجيوش المنصورة من جُنْد المملكة الحليَّة ومن أهل المدينة ومن
حوْلهم من الأعراب . والوصايا كثيرة وإن كُثرت فعلمها عنده ، وقد ضُرب له منها
مثلٌ فليكن على سياقته فيما لم يُذكر في العِدَّة ؛ وأهمُّ الأمور أن يتمسك من خَشية الله
بالسَّبب الأقوى ، ويعمل تقوى الله عماده في كلِّ الأمور : فإنَّ خير الزَّاد التَّقوى ؛
والخطُّ الشريف أعلاه حجة فيه .

الطبقة الثانية

من يكتب له من أهل المملكة الحليَّة في قطع العادة مفتتحاً بـ «رسم» إمَّا مع
«مجلس القاضي» أو مع «القاضي الأجل» ككتاب الدَّرج ومن في رُتبهم ، إن كُتب

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . وإلا فالغالب استبدادُ نائب السَّطنة بها بالكتابة في ذلك . فإن كُتِبَ شَيْءٌ منها من الأبواب السلطانية ، فليُمشَ فيه على نحو ما تقدّم في الديار المصرية والمملكة الشامية التي قاعدتها دمشق .

النوع الثاني

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية - من هو خارج
عن حاضرتها ، وهم على أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وهم غالبٌ من يكتب لهم عن الأبواب السلطانية)
وقد تقدّم أنّ العادة جاريةٌ بِتسمية ما يُكتب لمن دون أرباب النيابات العظام : من دمشق ، وحلب ، وطرابلس ، وحماة ، وصفد ، وغزة ، والكرک - مراسيم . وأنّ التقاليد مخصصةٌ بالنواب العظام المقدم ذكرهم . ولا يخفى أنّ النيابات الدّاخلية في المملكة الحلبية : مما هو تحت أمر نائب السَّطنة بحلب أكثر من كل سائر الممالك الشامية .

وبالجُملة فأمرهم لا يخرج عن ثلاثة أضرب : إما مُقدّم ألف ، كتاب البيرة ، ونائب قلعة الروم المعبر عنها في ديوان الإنشاء بقلعة المسلمين ، ونائب ملطية ، ونائب طرسوس ، ونائب البُلسْتين ، ونائب البهسنى ، ونائب آياس المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية . وإمّا طبلخاناه ، كتاب جعبر ، ونائب درندة ونحوهما . وإمّا أمير عشرة ، كتاب عين تاب ، ونائب الراوندان ، ونائب كركر ، ونائب بغراس ، ونائب الشُّغروبكاس ، ونائب الدربساک ، ونائب سرفندكار ، ومن في معناهم .

وقد تقدّم في الكلام على المكاتبات نقلاً عن "التثقيف" : أن هؤلاء النواب تختلف أحوالهم في الارتفاع والانحطاط : فتارة تكون عادة تلك النيابة أمير طبلخاناه ، ثم يوتى فيها عشرة وبالعكس . وقد تكون عادتها طبلخاناه فيستقر بها مقدّم ألف وبالعكس . والضابط في ذلك أن من يكتب له المرسوم : إن كان مقدّم ألف ، كتب مرسومه في قطع النصف بـ «المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه ، كتب له مرسومه في قطع النصف أيضاً بـ «السامى» بالياء . وإن كان أمير عشرة كتب مرسومه في قطع الثلث . فأما ما يكتب في قطع النصف ، فإنه يفتح بـ «الحمد لله» سواء كان صاحبه مقدّم ألف أو أمير طبلخاناه .



وهذه نسخة مرسوم شريف بياضة آياس ، وهى المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية ، يستضاء بها في ذلك ، وهى :

الحمد لله الذى جعل من أولياء دولتنا الشريفة كل سيف لا تنبو مضاربته ، وأصطفى لبوادر الفتوحات من أنصارنا من تجمد آراؤه وتجاربته ، وألمنا حسن الاختيار لمن تؤمن في المحافظة مآربه ، وتعذب في المخالطة مشاربته ، وحقق آمالنا في مضاعفة الفتح التى أغنى الرعب فيها عما تدافعه سيوف الإسلام وتجاربه .

نحمده حمداً يضاعف لنا في التأييد تمكيناً ، ونشكره شكراً يستدعى أن يزيدنا من فضله نصراً عزيزاً وفتحاً مبيناً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تخلص فيها يقيناً من المخاوف يقيناً ، ونريد من نهالها معيناً ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أيدته الله بالملائكة والروح ، وزوى له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ونرجو أن يكون ما زواؤه له مدخراً لنا من الفتوح ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه

الذين هم خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلإِسْلَامِ ، والذين ما زال الإيمانُ بهم مرفوعَ الأُلوِيَّةِ والأعلامِ ، والذين لم يبرحْ دَا عِي الضَّلالةِ تَحْتَ قَهْرِ سِيوفِهِمْ : فإذا أَغْنَى «جَرَّتْ عَلَيْهِ سِيوفُهَا الْأَحْلَامُ» ؛ صلاةً يَطِيبُ اللِّسَانُ مِنْهَا فِطْرِبَ ، وَيُعْرِبُ عَنْ صِدْقِ الْإِخْلَاصِ فِي تَكَرُّارِهَا فِغْرِبَ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ تَسْتَنْدُ أُمُورُ الْمَمَالِكِ لِعَزَمَتِهِ ، وَيُلْقَى أَمْرُ بَوَادِرِ الْفَتْوحَاتِ السَّعِيدَةِ لِهِمَّتِهِ ، وَيُعْتَمَدُ فِي تَدْيِيرِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ عَلَى يَمَنِ تَصَرُّفِهِ وَمُتَمَتِّدِ نَهْضَتِهِ - مَنْ لَمْ يَزَلْ مَعْرُوفًا سَدَادُ رَأْيِهِ ، مُشْكُورًا فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ حُسْنُ سَعْيِهِ ؛ مُؤَيَّدًا [فِي] عَزَمِهِ ، مَظْفَرًا فِي حَزْمِهِ ؛ مَأْمُونًا النَّائِبِ ، مَيُّونَ التَّدْيِيرِ ، كَافِيًا فِي الْمَهْمَاتِ ، كَافِلًا بَعْلُو الْمَهْمَاتِ ، إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ [صَادِقَ] عَزْمِهِ ، وَإِذَا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي مُهِمٍّ تَقَاهُ بِهِمَّتُهُ وَحَزْمُهُ ؛ وَإِذَا جُرَّدَ كَانَ هُوَ السَّيْفَ اسْتَمَّا وَفِعْلًا ، وَإِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزُّبُونُ فَهُوَ الشَّهْمُ الَّذِي لَا يَخَافُ سَهْمًا وَلَا يَرْهَبُ نَصْلًا .

ولما كان ^(١) هو بَدَرُ هَذَا الْأَفْقِ ، وَمُقَلَّدَ هَذَا الْعَقْدِ وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الطُّوقُ إِلَّا لِهَذَا الْعُنُقِ ؛ وَهُوَ الَّذِي فَاقَ الْأَوْلِيَاءَ أَهْتَامًا ، وَرَاقَ الْعُيُونَ تَقْدَمًا وَإِقْدَامًا ؛ وَأَرْضَى الْقُلُوبَ نَصْحًا وَوَفَاءً ، وَأَنْضَى الْهِمَمَ احْتِفَالًا لِلصَّالِحِ وَاحْتِفَاءً ؛ طَلَبًا جُرْبَ فُحْمٍ عِنْدَ التَّجَارِبِ ، وَجُرَّدَ فَأَغْنَى عَنِ الْقَوَاضِبِ ؛ وَآخْتَرِ فَاخْتِيرَ ، وَنَظَرَ فِي خَصَائِصِهِ فَلَمْ يُوجِدْ لَهُ نَظِيرَ - أَقْتَضَى حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نَقَلَّدَهُ فَتُوحَاتٍ أَنْقَذَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَرِّ الشَّرِّكَ ، وَأَخْرَجَهَا إِلَى النُّورِ بَعْدَ ظُلَامِ الْإِفْكَ ؛ وَبَشَّرَهَا أَنَّ هَذِهِ سَحَابَةُ نَصْرِ يَأْتِي وَابِلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ رَدَّازِهِ ، وَأَنَّهَا مُقَدِّمَةُ سَعْدٍ تَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

(١) بياض بالأصل والمراد المولى باسمه ولقبه .

فلذلك رُسم ... - لا زال الفتح في دولته يزهُو بانتظام سلكه، وأيامه الشريفة تسترد مغتصب البلاد من يد الكفر إلى بسطة ملكه وقبضة ملكه، وإحسانه يحيى الحصون بسيف يروع العدا بآسسه وفتكه - أن يفوض ... اعتماداً على مضائه الذى لا ينكر مثله للسيف، وركونا إلى همته التى تسرى برعها إلى قلوب الأعداء سرى الطيف .

فليباشر النيابة المذكورة : مُعملاً رأيه في تمهيد أحوالها، وتقدير أمورها التى راق الأولياء وراع الأعداء ما كان من مآلها ؛ مجتهداً في حفظ ما بها من القلاع والحصون، مُبادراً [إلى] كل ما ينجي حماها ويصون قائماً حق القيام في مصالح تقريرها، وأحوال تحريرها ؛ وأمور تمهدها، ومنافع تسيدتها ؛ وحواصل تكفيها، وأسباب مصلحتها توافيها بمزيد الأهتمام وتوفيها ؛ وليكن بأحكام الشرع الشريف مقتدياً، وبثور العدل والإحسان مهتدياً ؛ وبتقوى الله عز وجل متمسكاً، وبخشية الله متمسكاً، وهو يعلم أن هذه الفتوحات [قدى] في حدقة العدو المخدول ونجبا في خلوقهم، وعلة في صدورهم وحسرة في قلوبهم .

فليكن دأبه الاجتهاد الذى ليس معه قرار، والتحرز الذى يحلها أو ينجيها فيكون دليها بمنزلة سور أو سوار ؛ ويصفحها من عزمه بالصفاح، ويجعل عليها من شرفات حزمه ما يكون أحد من أسنة الرماح ؛ ثم لا يزال احتياطه محيطاً بها من كل جانب، وتيقظه لأحوالها بمنزلة عين مراقب، واحتفاله الاحتفال الذى بمثله يصاب رداؤها من كل جاذب ؛ ثم لا تزال قصاده وكشافه وطلائعه لا يقرّبهم السرى، ولا يعرفون طعم الكرى ؛ يطلعون من أخبار العدا على حقائقها، وتحيّل كل فرقة منهم على معرفة الأحوال بينهم بمكر من تعدد طرقها واتساع طرائقها، لتكون المتجددات عنده بمنزلة ما يراه

في مِرَاة نَظَرِهِ، وَسِرُّ أُمُورِ الْعِدَا لَدَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَشِيعَ بَيْنَهُمْ ذِكْرُ خَبَرِهِ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ إِلَى تَبَصُّرِهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَعَ حَسَنِ بَصِيرَتِهِ إِلَى تَذَكُّرِهِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ، وَيُعِينُهُ عَلَى مَا وَلَّاهُ؛ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ .

وَأَمَّا مَنْ يَكْتُبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ بِـ«مَجْلِسِ الْأَمِيرِ» وَهُمْ الْعَشْرَاتُ [فَقَدْ ذَكَرَ فِي «التَّعْرِيفِ» : أَنَّهُ يَكْتُبُ لَهُمْ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الطَّبَقَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْكَحْنَأَ، وَكَرُكِرَ، وَالذَّرْبَسَاكَ، قَدْ تَكُونُ عَشْرَةً أَيْضًا . وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ نِيَابَةُ عَيْنِ تَابَ، وَالرَّوَانْدَانَ، وَالْقَصِيرَ، وَالشُّغْرُوبَكَاسَ، إِذَا كَانَتْ عَشْرَةٌ . وَنِيَابَةُ دَبْرَكِي إِذَا كَانَتْ عَشْرَةٌ ^(١) [فَيَفْتَحُ فِيهَا] «أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ» عَلَى عَادَةِ مَا يُكْتُبُ لِلْعَشْرَاتِ .



وَهَذِهِ نَسْخَةُ مَرْسُومٍ شَرِيفٍ مِنْ هَذِهِ الرِّتَبَةِ، كُتِبَ بِهِ لِنَائِبِ حَجَرِ شَعْلَانَ مِنْ مَعَامِلَةِ حَلَبَ، وَهِيَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي شَدَّ الْمَعَاقِلَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِأَكْفَائِهَا، وَصَانَ الْحُصُونِ الْمَحْرُوسَةَ بِمِنْ شُكْرَتِ هِمَّتِهِ فِي إِعَادَتِهَا وَإِبْدَائِهَا، وَحَمَى سَرَحَهَا بِمِنْ أَيْقَظَ [فِي] الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ عِيُونَ عَزَمِهِ فَمَا أَلَمْتُ بَعْدَ إِيقَازِهِ بِإِغْفَائِهَا، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أُنْتَضَى سَيْفَ التَّائِيدِ فَأَعَزَّتِ الْهَدْيُ وَأَذَلَّتِ الْعِدَا حِينَ انْتِضَائِهَا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا بَدَّتِ النُّجُومُ فِي ظُلُمَائِهَا، وَسَرَّتِ الْغُيُومُ فِي فُضَائِهَا - فَإِنَّ مِنْ شُكْرَتِ هِمَمِهِ، وَثَبَّتَتْ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ قَدَمَهُ، وَأَشْبَهَ عَزَمُهُ فِي مَضَائِهِ صَارَمَهُ، وَأُصْحَحَتْ

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ الْمَرْبَعَيْنِ [] وَجَدَ مُلَاحِقًا بِهَا مَشْ نَسْخَةً وَمَوْشَرًا عَلَيَّهَا بِالنَّصْحِيقِ فَأَمْتَبَتَاهُ فِي الصَّلْبِ

تُعَوِّدُ تَقْدِيمَهُ بِاسْمِهِ ؛ أَوَّلَى أَنْ تَرْفَعَ هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ مِنْ حَمَلِهِ ، وَتَنْشُرَ عَلَيْهِ [مِنْ] تَكْرِيمِهَا وَارْفَ ظِلِّهِ ؛ وَتَرْتَضِيَهُ لِقَلاَعِ الْإِسْلَامِ وَتَسَيِّدِهَا ، وَتَجْتَنِيَهُ لَصُونِهَا وَتَأْيِيدِهَا ، وَتَجْعَلَهُ قُرَّةَ عَيْنِهَا وَحِلْيَةَ جِيدِهَا ؛ وَتَمْنِيَ كَلِمَتَهُ فِي مَصَالِحِهَا ، وَتَعْدُقَ بِهِ أَسْبَابَ مَنَاجِحِهَا ؛ فَيُصْبِحُ وَلَقْدَرِهِ مَنَّا إِعْلَاءً وَإِعْلَانًا ، وَيُمَسَى وَلَهُ شُغْلٌ بِطَاعَتِنَا الْعَالِيَةِ الشَّانِ ؛ وَشُغْلٌ بِالْمَعْقِلِ الَّذِي يُحْرَزُ بِعَزْمِهِ وَيُصَانُ ، فَلَأَجَلَ ذَلِكَ غَدَا وَلَهُ مِنْ هَذِهِ النِّيَابَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ شُغْلَانٌ .

وَكَانَ [فُلَانٌ] هُوَ الَّذِي جَادَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُنَا الزَّاهِرَةُ بِسَحَائِبِهَا ، وَأَشْرَقَتْ عَلَى حُظُوظِهَا سُعُودُ كَوَاكِبِهَا ؛ وَأُسْمِتْ لَهُ قَدْرًا ، وَجَعَلَتْ لَهُ إِمْرَةً وَأَمْرًا ؛ وَصَرَفَتْهُ إِلَى نِيَابَةِ مَعْقِلٍ مَعْدُودٍ مِنْ قَلاَعِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحُصُونِهَا ، وَمَعَاqِلِهَا الَّتِي عَلَتْ مَحَلًّا فَالْجِبَالُ الشَّمُّ مِنْ دُونِهَا ؛ قَدْ أَصْبَحَ شَاهِقًا فِي مَبْنَاهُ ، مَمْنَعًا فِي مَغْنَاهُ ؛ مُحَصَّنًا بِرِجَالِهِ ، مَصُونًا مِنْ مَاضِيَيْنِ : السَّيْفِ فِي مَضَائِهِ وَالْعَزْمِ فِي أَحْتِفَالِهِ - أَقْتَضَى حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُوقِّلَهُ رَتَبَةَ هَذِهِ النِّيَابَةِ ، وَنُنَشِّرَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِنَا سَحَابَهُ .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ أَنْ يَسْتَقَرَّ

فَلِيَحْلَلْ هَذِهِ النِّيَابَةَ الْمُبَارَكَةَ مُظْهِرًا مِنْ عَزَمِهِ مَا تُتَّخَذُ عَوَاقِبُهُ ، وَتَعْلُو مَرَاقِبُهُ ؛ وَتَسْمُو مَرَاتِبُهُ ، وَتَتَوَسَّعُ سُبُلُهُ وَمَذَاهِبُهُ ؛ مُحَصَّنًا لِسَرَحِهِ ، مُعَزَّزًا مَوَادِّ نَجْحِهِ ؛ مُرَاعِيًا أَحْوَالَ رِجَالِهِ ، الْمُعَدِّينَ مِنْ حِمَاتِهِ وَأَبْطَالِهِ ؛ حَتَّى يَغْدُوا يَقِظِينَ فِيمَا يَنْدُبُهُمْ إِلَيْهِ وَيَسْتَنْهَضُهُمْ فِيهِ ، مُبَادِرِينَ إِلَى كُلِّ مَا يَحْفَظُ هَذَا الْحِصْنَ وَيَحْتَجِيهِ ؛ وَمَنْ يَهَذَا الْمَعْقِلِ مِنَ الرَّعِيَةِ فَلْيَرَفُقْ بِضِعْمَائِهِمْ ، وَلْيُعَامِلْهُمْ بِمَا يَسْتَجِبُ لَنَا بِهِ صَالِحَ دُعَائِهِمْ ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِلَاكُهَا التَّقْوَى ، فَلْيَتَمَسَّكْ بِهَا فِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى ؛ وَلْيَغْرِسْهَا فِي كُلِّ

قول يُدِيهِ ، وَفِعْلٌ يَرْتَضِيهِ ، فَإِنَّ غُرُوسَهَا لَا تَذَوِي . وَاللَّهُ يُوَفِّقُهُ لِصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيَصُوِّتُهُ مِنَ الْخَطِّ وَالْخَطَلِ ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

قُلْتُ : وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَا يُكْتَبُ عَنِ السُّلْطَانِ مَرْسُومٌ بِنْيَابَةٍ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِحُنْدِيٍّ وَهُوَ دُونَ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ إِنَّمَا يُكْتَبُ عَنْ نَوَابِ الْمَالِكِ .

الصنف الثاني

(مما هو خارجٌ عن حاضرة حلب - الوظائف الدينية بمعاملتها :

من القلاع وغيرها)

وهي في الغالب إنما تصدر الكتابة فيها عن نائب حلب أيضا أو قاضيا، إن كان مرجع ذلك إليه . فإن صدر شيء منها عن الأبواب السلطانية ، كان في قطع العادة مفتتحاً بـ «رُسم» .

وهذه نسخة توقيع من هذا النمط يُنسخ على منواله ، كُتِبَ بِهِ لِقَاضِي قَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهِيَ :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال عدله مؤيدا للحكام ، ورأيه مسدداً في النقض والإبرام ، وسُلْطَانُهُ يَخْتَارُ لِلنَّاصِبِ الدِّينِيَّةِ مَنْ نَطَقَتْ بِشُكْرِهِ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي كَذَا : لِمَا أَشْتَهَرَ عَنْهُ مِنْ عِلْمٍ وَدِينٍ ، وَظَهَرَ مِنْ حُسْنِ سِيرَةٍ آفَقَتْ لَهُ التَّعْيِينَ .

فليبشر هذه الوظيفة المباركة بالحق حاكما ، وللرفق ملازما ، وللتقوى مداوما ؛
وهو غنى عن الإسهاب فى الوصايا ، ملى بسلوك تقوى الله فى القضايا ؛ والله تعالى
يزيده تأييدا ، ويضاعف له بمواد السعادة تجديدا ؛ والعلامة الشريفة أعلاه ،
حجة بمقتضاه .

الصنف الثالث

(مما هو خارج عن حاضرة حلب - الوظائف الديوانية)

وهى إما تصدر فى الغالب أيضا عن نائب حلب . فإن كُتب شئ منها عن
الأبواب السلطانية ، كان فى قطع العادة مفتتحا بـ «رسم بالأمر» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، يستضاء به فيما يكتب من هذا النوع ، كتب بها
بنظر جعبر ، من معاملة حلب ، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زال منهل الندى ، مستهل الجدى ، معيدا للإحسان
كما بدا - أن يعاد فلان إلى وظيفته : لما ألفت من سيرة له لم تزل تُحمد ، وسيما
خير منه على مثل الشمس تشهد ، ولأمانته التى لم تزل تفتد بها الثغور ، وتخصر بها
المعاهد : تارة فى طوق النحر وتارة فى نحور البحور ؛ وأصالة أمتد ظلها الظليل ،
وعُرف منها فى العصر حسن الأصيل ، وأينعت أكرم فرج زكا منيته فى الأرض^(١)
المقدسة وجوار الخليل ؛ ولما أسلف فى هذه المباشرة من عمل صالح ، وسداد
اعتماد لم يخرج عن تحرير تقرير وتقرير مصالح ؛ وكتابة رآها الرأى ونقلها الناقل ،
وكفاية حقت عليه مثل العروس المجلوة من عقائل المعامل .

(١) فى الأصل « منبها » بالتأنيث .

فليباشِر هذه العروس فقد أنقذها سالف الخدم وأمهرها ، وليشَار سقياَ العروس
 التي أنشأها في هذه الجهة وتمررها ، وليسُلك مسلكه الذي لم يزل مُحِيماً على رؤوس
 القُسن ، ومهووماً به طُرف الأمن لليقظة الذي لا يُعلم به الوسن ؛ مُحولاً في وظيفته
 المبرآت ، مُستقبلاً للسرآت ، مفتخراً بمباشراته التي تجرى مجارى البحار : تارة الملح
 الأجاج وتارة العذب الفرات ؛ وهو أعرف بما يقدمه من أمانةٍ بها يتقدم ، وديانةٍ
 يرجب بها استكفاؤه ويحكم ؛ وتقوى الله جماعها فليكن بها متمسكاً ، وبمشاغلها
 متمسكاً ؛ والله تعالى يجعل عطاءه موفراً ، وعمله متدفقاً ليرد جعراً جعفرًا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابلس ، ووظائفها التي جرت العادة بالكتابة فيها
 من الأبواب السلطانية على نوعين)

النوع الأول

(ما هو بحاضرة طرابلس ، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد)

وهو نائب السلطنة بها . ومرسومه في قطع الثلثين ، ولقبه « الجتاب العالى »
 مع الدعاء بمضاعفة النعمة .

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة
 للناسخ فتنه .

وهذه نسخة تقليد شريف بيايتها :

الحمد لله الذى جعل لنا التأييد مددا ، والنصر عتادا لا نفقد مع وجوده من الأولياء أحدا ، والعز وزرا تصم شبه مسامع العدا : ﴿ فَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِلُهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ . والفتح ذخرا فحث ما نشاء مددنا إليه بقوة الله يدا ، وشددنا عليه بمعوته عضدا .

نحمده على نعمة التى جعلت مراتب دولتنا فلگا شريق فيه رب الأولياء إشراق البدور ، وتغور مالكا أفقا حيثما شامته العدا ضرب بينهم وبينه من سيوف مهايتنا بسور ، وفواتح الفتوح النائية دانية من همم أصفينا إذا يمموا غرضا طارت إليه سهامهم بأجنحة النور ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يرفع الجهاد علمها ، وينصر الإيمان كلمها ؛ ويرجى الإيقان إلى رياض التأيد ديمها ، ويستنطق التوحيد بإعلانها وإعلانها سيف أيامنا الزاهرة وقلمها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ونبية المخصوص بالآيات والذكر الحكيم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصرنا الله فنصرهم ، وأظهروا دينه فأعزهم وأظهرهم ، ويسروا لأمتهم سبل الهدى فهداهم وللسبيل يسرهم ؛ صلاة لا يزال اليقين يقيم دعوتها ، والتوحيد يعصم من الانفصام عروتها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من تفتت الثغور بإيالاته ، عن شنب النصر ، وترمى الحصون بكفالاته ، من شام من العدا برقها بشر كالقصر ، وتقسم السواحل بمهابته ، من جاور من أهل الكفر بجرها بين الحصد والحصر ؛ وتمنع عزماته شوانى العدا أن تدب عقاربها ، أو تركب البلج بغير أيامه مراكبها ، أو يتنقل عن ظهر البحر إلى غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قيوده مُحارِبها - من لم يزل في نُصرةِ الدينَ لا مِعًا كالبرقِ شهابه ، زاحراً
 كالبحرِ عبابه ، وأصبأ على الشُّركِ عذابه ، ظامياً إلى مَواردِ الوردِ سَيْفُه ، سارياً
 إلى قلوبِ أهلِ الكُفرِ قبلِ جُفونهم طَيْفُه ، قائمةً مقامَ شُرفِ الحُصونِ أَسِنَّةُ رِماحه ،
 غَنِيَّةُ بروجِ الثُّغورِ عن تَصْفِيحِها بِالْحَلَمَدِ بَصِفا صَفاحه ، معَ خِبرةٍ بِتَقْدِمةِ الجيوشِ
 تُضَاعِفُ إِقدامَها ، وتُثَبِّتُ في مَواطِنِ اللِّقاءِ أَقدامَها ، وتُسَدِّدُ إلى مِقاتِلِ أَهلِ الكُفرِ
 سِهامَها ، وتُقَرِّبُ عليها في البرِّ والبحرِ مَنالَها وتُبْعِدُ مَرامِياها على مَن رَامَها ، ومَعْدِلَةٌ
 للرِّعايا السُّكونَ في مهادِ أَمنِها ، والرُّكونَ إلى رَبِّا إِقبالَها وَوهادِ يُمنِها ، فِسرْبُ الرِّعايا
 مَصُونٌ بَعْدِلَه ، والعدْلُ مَكْنُونٌ بينَ قَوْلِه وفِعلِه .

ولما كان فلانٌ هو اللَّيْثُ الَّذِي يُحْيِي به غايَه ، والنَّيِّرُ الَّذِي يُزْهِي أَفقَ تَأَلَّقَ فيه
 شهابُه ، والهُمامُ الَّذِي تُعْدِي هِمَمُه فُرسانَ الوغى فُتْعُدُ أَحادُها بالألُوفِ ، والشُّجاعُ
 الَّذِي إِذا اسْتَعانَتْ سَواعدُ الشُّجْعانِ بِسُيوفِها اسْتَعانَتْ بِقوَّةِ سَواعدِه السُّيوفُ -
 اقْتَضَتْ آراؤُنا الشَّرِيفَةُ أَنَّ نُحِلَّ بِهِ جِيدَ مَمْلَكَةٍ اَنْتَظَمَتْ على وِشامِ البَحْرِ ، وأَحاطَتْ
 بِما في ضَميرِه من بلادِ العِدا إِحاطَةُ القلائِدِ بالنَّجَرِ .

فرسم بالأمر الشريف لا زال أن يفوض إليه كَيْت وكَيْت : لِمَا أَشِير
 إليه من أسباب تَعَيُّنه لِهذه الرُّتبةِ المَكِينَةِ ، وتَحْلِيهِ بِما وُصِفَ من المحاسن التي تُزْهِي
 بِها عِقالُ الحُصونِ المَصُونَةِ .

فَلَيْلِ هذه النِّياةِ الجَلِيلَةِ بِعِزَّةِ مُجَلِّ مَواكِبِها ، وَهِمَّةِ تَكْمُلِ مَراتِبِها ، وَمَهابةِ تَحُوطِ
 مَمالِكِها ، وَصَرامةِ ثَومٍ مَسالِكِها ، وَمَعْدِلَةِ تُعَمِّرُ رِباعِها ، وَيَقْظَةُ تَصُونِ
 حُصُونِها وَقِلاعِها ، وَشِجَاعَةِ تَسْمِيهِ إلى العِدا سَرايا رُعيِها ، وَسَطوَةِ تُعْدِي السُّيوفِ
 فلا تَسْتَطِيعُ الكُفاهُ الدُّنُوَّ من قُربِها ، وَسُمْعَةُ تُرْهبُ مُجاوريه حَتَّى يُنْخِلَ البَحْرُ [أنه] من
 أَعوانِه على حَرِبِها .

وَلِيُؤْتِ تَقْدِيمَةَ الْجِيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَقَّهَا مِنْ تَدْيِيرِ يَجْمَعُ عَلَى الطَّاعَةِ أَمْرَهَا
وَأَمْرَاءَهَا، وَيَرْفَعُ فِي مَرَاتِبِ الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَى مَا يَحِبُّ أَعْيَانَهَا وَكُبَرَاءَهَا، وَيُرْهِبُ
بِإِدَامَةِ الْأَسْتِعْدَادِ قُلُوبَ أَعْدَائِهَا، وَيَرْبِطُ بِأَيْزَاكِهَا شَوَانِي الْبَحْرِ حَتَّى تَعْتَدَّ الرِّبَاطُ
فِي ذَلِكَ مِنَ الْفُرُوضِ الَّتِي يُتَعَبَّدُ بِأَدَائِهَا، فَلَا يَلُوحُ قَلْعٌ فِي الْبَحْرِ لِلْعِدَا إِلَّا وَهُوَ يَرْهَبُ
الْوُقُوعَ فِي حَبَالِهَا، وَلَا تَلْحَظُ عَيْنُ عَدُوِّ سَنَا الْبَرِّ إِلَّا وَهِيَ تُتَوَقَّعُ أَنْ تُكْحَلَ بِنَصَابِهَا؛
وَلِيُقِيمَ مَنَارَ الْعَدْلِ بِنَشْرِ لُؤَائِهِ، وَيَعْضُدَّ حَكْمَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِرَجُوعِهِ إِلَى أَوَامِرِهِ
وَأَتَمِّتَائِهِ؛ وَلِيَكُفَّ يَدَ الظُّلْمِ [عَنْهَا] فَلَا تَمْتَدَّ إِلَيْهَا بَنَانٌ، وَلِيَشْفَعَ الْعَدْلُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى
الرَّعِيَّةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ؛ وَفِي سِيرَتِهِ الَّتِي جَعَلَتْهُ صَفْوَةَ الْأَخْتِيَارِ، وَنُحْبَةً
مَا أَوْصَحَّتْهُ الْحَقِيقَةُ مِنَ الْأَخْتِبَارِ؛ مَا يُغْنِي عَنِ الْوَصِيَّةِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ الَّتِي
تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْفَعُ قَدْرَ الْمُؤَقِنِينَ؛ وَمَلَاكُهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى: فَلْيَجْعَلْهَا أَمَامَ
أَعْيَانِهِ، وَإِمَامَ إِصْدَارِهِ وَإِيرَادِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ مَوَادَّ تَأْيِيدِهِ وَإِسْعَادِهِ؛ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى.

الطبقة الثانية

(من يكتب له مرسوم شريف في قطع الثلث بـ «المجلس

السامي» بغيرياء، وتشتمل على وظائف)

منها — شدُّ الدواوين بطرابلس.

وهذه نسخة توقيعها:

الحمد لله مُجَدِّدِ الرَّتَبِ لِمَنْ نَهَضَ فِيهَا إِخْلَاصَهُ بِمَا يَحِبُّ، وَمُؤَيِّدِ الْمَنِّ لِمَنْ إِذَا
اعْتَمَدَ عَلَيْهِ مِنْ مُهَمَّاتِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ فِي أَمْرِ عَرَفَ مَا يَأْتِي فِيهِ وَمَا يَحْتَجِّبُ؛

وَمَوْكِدِ النَّعَمِ لَمَنْ إِذَا أَرْتَيْدَتِ الْكَفَاءُ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ كَانَ خَيْرَ مَنْ يُخْتَارُ وَنُحْبَةُ
مَنْ يُنْتَخَبُ .

نَحْمَدُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي سَرَتْ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ عَوَارِفُهَا ، وَأَشْتَقِلُ عَلَى الْأَضْفِيَاءِ وَافِرُ
ظِلَالِهَا وَوَارِفُهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُزَلَّفُ لَهُ ،
وَتَكُونُ لِقَائِهَا ذَخِيرَةً يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ
مَبْعُوثٍ إِلَى الْأُمَمِ ، وَأَكْرَمُ مَنْعُوتٍ بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ وَلَّوْا أَمْرَ الْأُمَّةِ فَعَدَلُوا ، وَسَلَكُوا سُنَنَ سُنَّتِهِ فَمَا لَوْا عَنْهَا وَلَا عَدَلُوا ؛ وَسَلَّمْ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا اخْتِيرَ لَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ كُلِّ ذِي هِمَّةٍ عَلَيْهِ ، وَعَزَمَةٍ بِمَصَالِحِ
مَا يُعْدَقُ بِهِ مِنْ مُهِمَّاتِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَيْهِ ؛ وَخَبْرَةٍ بِكُلِّ مَا يُرَادُ مِنْهَا وَفِيهِ ، وَبِقِطْعَةٍ
تَلَحَّظُ فِي كُلِّ مَا قَرُبَ وَنَأَى مِنَ الْمَصَالِحِ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ وَالْأَحْوَالِ الْخَفِيَّةِ ؛ وَصِرَامَةٍ
تُؤَيِّسُ مِنْ آسْتِلَانَةِ جَانِبِهِ ، وَنَزَاهَةٍ تُؤَمِّنُ مِنْ إِمَالَةِ رَأْيِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَنْ سُلُوكِ
وَاجِبِهِ ؛ وَمَعْرِفَةٍ مُطَّلِعَةٍ ، وَنَهْضَةٍ بِكُلِّ مَا إِنْ حُمِّلَ مِنْ أَعْبَاءِ الْمُهَمَّاتِ الشَّرِيفَةِ
مُضْطَلَعَةٍ - أَمْرُ الْأُمُورِ الدِّيَوَانِيَةِ : فَإِنَّهَا مُعَادُنُ الْأَرْزَاقِ ، وَمَوَادُّ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ
عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَخَرَائِصُ الدَّوْلَةِ الَّتِي لَوْ مَلَكَتْهَا الْغَائِمُ لَأَمْسَكَتْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ،
وَذَخَائِرُ الثُّغُورِ الَّتِي مَوَاقِعُهَا مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ مَوَاقِعُ الشَّجَا فِي الْقُلُوبِ وَالْقَدَى
فِي الْأَحْدَاقِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ هُوَ الَّذِي سَمَّتْ بِهِ هِمْمُهُ ، وَرَسَخَتْ فِي خِدَمِ الدَّوْلَةِ
الْقَاهِرَةِ قَدَمُهُ ، وَتَبَارَى فِي مَصَالِحِ مَا يُعْدَقُ بِهِ مِنَ الْمُهَمَّاتِ الشَّرِيفَةِ سَيْفُهُ وَقَلَمُهُ ؛
وَكَانَتِ الْمَمْلَكَةُ الطَّرَابُلُسِيَّةُ مِنْ أَشْهُرِ مَمَالِكِهَا سَمْعَهُ ، وَأَيْمُنُهَا بَقْعَهُ ؛ وَأَعْمَرَهَا بِلَادًا ،

وأخصبها رباً ووهاداً؛ وأكثرها حصونا شواهِق، وقلائماً سوامي سوامق، وثغورا لا تشيم ما أفتّر من ثغورها البروق الخوافق؛ ولها الخواص الكثیره، والجهات الغزيره؛ والأموال الوافره، والغلات المتكاثفة المتكاثرة - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نرتاد لها من يسد خلل عطلها، ويسد عضد ميدها وميلها؛ وينهض من مصالحها بما يراد من مثله، ويعيد لها بحسن المباشرة بهجة من ^(١) فقدته من الأكفاء من قبله .

فلذلك رسم أن يفوض إليه شدّ الدواوين المعمورة بالملكة الطرابلسية والحصون المحروسة، على عادة من تقدمه في ذلك .

فليباشر ذلك بمعرفة تستخرج الأموال من معادنها، وتستثير كوامن المصالح من مكائنها؛ وتثمر أموال كل معاملة بحسن الإطلاع عليها، وصرف وجه الاعتناء إليها؛ وتفقد أحوال مباشريها، ومباشرة ما يتجدد من وجوه الأموال فيها؛ وضبط ارتفاعها بعمل تقديره، وحفظ متحصل ضياعها من ضياعه وصون بذارها عن تبذيره؛ وليجتهد في عمارة السداد بالرفق الذي ما كان في شيء إلا زانه، والعديل الذي ما اتصف به ملك إلا صانه، والعفة التي ما كانت في امرئ إلا وفقه الله تعالى في مقاصده وأعانه؛ وليقدم تقوى الله بين يديه، ويعتمد على توفيقه فيما اعتمد فيه عليه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى ذلك يكتب شدّ مراكر البريد ونحوها .

(١) لعله "ما فقدته من عمل الأكفاء".

الصنف الثاني

(من الوظائف بطرأئس التي يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية -

الوظائف الدينية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكتب له في قطع الثالث بـ «المجلس السامي» بالياء ، وتشتمل على وظائف)

منها - القضاء . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة : من كل مذهب قاض .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية بها ، يُنسج على منواله ، وهي :

الحمد لله الذي أعزّ الدين بعلمائه ، وعصّد الحكم بالمتقين من أوليائه ؛ وأوضح
الرشد للمتقين بمن جعلهم في الهداية كنجوم سمانه ، وجعل لكل من الأئمة من
مطالع الظهور أفقا يهتدى فيه بأنواره ويقتدى بأنوائه .

نحمده على أن جعل سَمَهم آجتهدانا في الارتياذ للأحكام مُصيبا ، وقسم لكل من
أفقى ممالكنا من بركة علماء قسيمه الآخر نصيبا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة تعصم من الهوى في الحكم لعباده ، وتفصم العرا من جاهر فيها
بعنده ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أضاءت أنوار ملته ، فاستشف العلماء
لوامعها ، ووضعت آثار سنته ، فأحرز أئمة الأمة جوامعها ؛ صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه الذين دُعوا إلى الله فأجابوا ، ودعوا إلى الحكم بسنته فاصابوا ؛ صلاة لا تزال
الأنسن تقيمها ، والإخلاص يُديمها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما أَدَى فيه الاجتهاد جهده ، وبلغ فيه الارتياذ حده ؛ واستضيء
فيه بنور التوفيق ، وأستصحب فيه من استخارة الله خير رفيق - أمر الحكم العزيز

وَتَقْوِيْضُهُ إِلَى مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى مَجَالَ عِلْمِهِ ، وَسَدَّدَ مَنَاطَ حُكْمِهِ ؛ وَطَهَّرَ مَرَامَ قَلْبِهِ ، وَنَوَّرَ بَصَرَهُ فِي الْحُكْمِ وَبَصِيرَتَهُ فَأَصْبَحَ فِيهِمَا عَلَى يَبْنَةِ مَنْ رَبَّهُ ؛ فَأَجْرَى الْحَقَّ فِي الْبَحْثِ وَالْفَتْيَا عَلَى لِسَانِهِ وَيَمِينِهِ ، وَزَهَّاهُ عَنْ إِرَادَةِ الْعِلْمِ لَغَيْرِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَنَبَّهَهُ عَلَى ابْتِغَاءِ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِذَلِكَ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

وَمَا خَلَا مَنْصِبُ قَضَاءِ الْقُضَاةِ بِطَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَهُوَ الْمَنْصِبُ الَّذِي يُضَيُّ بِالْأَيْمَةِ الْأَعْلَامِ أَفْقُهُ ، وَتَلْتَقَى بِالْفُضَّلَاءِ الْكِرَامِ طُرُقُهُ ؛ وَتَحْتَوِي عَلَى أَرْبَابِ الْفُنُونِ الْمُتَعَدِّدَةِ بِمَجَالِسِهِ ، وَتَزُكُو بِالْفَوَائِدِ الْمُخْتَلِفَةِ مَغَارِسِهِ ؛ وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَى خَصَائِصِ فَضْلِهِ ، وَنُبِّهَ عَلَى أَنَّ الْأَجْتِهَادَ لِلْأُمَّةِ أَفْضَى إِلَى إِسْنَادِ الْحُكْمِ مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ ؛ وَأَنَّهُ وَاحِدُ زَمَانِهِ ، وَعَلَّامَةُ أَوَانِهِ ؛ وَجَامِعُ الْفَضَائِلِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، وَقَامِعُ الْبِدَعِ عَلَى اقْتِرَاقِ شُبُهَاهَا مِنْهُ وَأُتْلَافُهَا ؛ وَحَاوِيُ الْفُرُوعِ الَّتِي لَا تَنْتَاهِي ، وَالْمُرَبِّي عَلَى رَبِّ كُلِّ فَضِيلَةٍ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهَا وَلَا يَأْلَفُ سِوَاهَا - أَتَقَضَّتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَجْزِمَ مِنْ أَرْتِيَادِهِ لِهَذِهِ الرِّتَبَةِ بِهَذَا الرَّأْيِ [السَّيِّدِ] ، وَأَنْ تَقَرَّبَ سُرَاهُ إِلَى هَذَا الْمَنْصِبِ الَّذِي نَادَاهُ بِلِسَانِ الرَّغْبَةِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ إِحْسَانُهُ كَالْبَدْرِ ، يَمْلَأُ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ ، وَبِرُّهُ كَالْبَحْرِ ، يَقْدِيفُ لِلْقَرِيبِ الْجَوَاهِرَ وَيُبْعَثُ لِلْبَعِيدِ السَّحَابَ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَذَا .

فَلْيَطْلُعْ بِذَلِكَ الْأَفَقِ الَّذِي يَتَرَقَّبُ طُلُوعَهُ رَقَبَةُ أَهْلِ الْمَوَاسِمِ ، وَيُسْرِعُ إِلَى تِلْكَ الرِّتَبَةِ الَّتِي تَكَادُ تَسْتَطْلِعُ أَنْبَاءَهُ مِنَ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ ؛ وَيُنْشُرُهَا فِرَائِدُهُ الَّتِي هِيَ أَحَقُّ

أن تطوى إليها المراحل ، وَيَقْدُمُ بها على الأسماع الظَّامِيَة لَعَذْبِ فَوَائِدِهِ قُدُومَ الْغَامِ
على الرُّوضِ الْمَسَاحِلِ ؛ وَيَلِ هذا الْمَنْصِبَ الَّذِي هُوَ فِيهِ بَيْنَ عَدْلٍ يَنْشُرُهُ ، وَحَقٍّ
يُظْهِرُهُ ، وَبَاطِلٍ يُوْهِقُهُ ، وَغَالِبٍ يَرْهَقُهُ ، وَمَظْلُومٍ يُنْصِرُهُ .

وَلِيَكُنْ أَمْرُ أَمْوَالِ الْإِيْتَامِ الْمُهِمِّ الْمَقْدَمِ لَدَيْهِ ، وَحَدِيثُ أَوْقَافِ الْبِرِّ مِنْ أَوَّلٍ وَأَوَّلَى
مَا يَصْرِفُ فِكْرَهُ الْجَمِيلَ إِلَيْهِ ؛ وَيتَعَاهَدُ كَشَفَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَكْتَفِي فِي عَلَيْهِ
فِعْلِ الْيَوْمِ بِاطْلَاعِهِ عَلَيْهِ بِأَمْرِهِ فِي أَمْسِهِ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُهُ بِذَلِكَ مُشَارِكًا
لِلْوَاقِفِينَ فِي الْأَجْرِ الْمُخْتَصِّ بِهِمْ وَالشُّكْرِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِمْ ، خَارِجًا مِنَ الْعُهُدَةِ فِي أَمْرِ
الْيَتَامَى بِاسْتِعْمَالِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ؛ وَلَيُقِمُّ
مَنَارَ الْحَقِّ عَلَى مَا يَجِبُ وَإِنْ سَرَّ قَوْمًا وَسَاءَ قَوْمًا ، وَيُقِمُّ بِالْعَدْلِ عَلَى مَا شَرَعَ : فَإِنَّ
« عَدْلَ يَوْمٍ خَيْرٌ لِلْأَرْضِ مِنْ أَنْ تُمَطَّرَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » .

وَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْحُكْمِ وَعَوَائِدِهِ ، وَآدَابِ الْقَضَاءِ وَقَوَاعِيدِهِ ، فَكُلُّ
ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ يُسْتَفَادُ ، وَمِنْ مَعَارِفِهِ يُسْتَرَادُ ؛ وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ تَقْوَى اللَّهِ
وَهِيَ مِنْ أَطْهَرِ حِلَالِهِ الْحَسَنَةِ ، وَأَشْرَفِ صِفَاتِهِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهَا الْأَلْسِنَةُ ؛ فَلْيَجْعَلْهَا
وَسِيلَةً تَسْدِيدِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَذَخِيرَةً آخِرَتِهِ الَّتِي لَيْسَ لَهُ فِي غَيْرِهَا أَمَلٌ ، وَيَقْلُدْ
الْعُلَى فِيهَا حَدَّثَتْهُ مِنْ أَسْبَابِ ثِقَلَتِهِ فَإِنَّ كَيْلَ الْعِزِّ فِي الثَّقَلِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْدَهُ بِمَوَادِّ
تَأْيِيدِهِ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ جَعَلَ ؛ بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ ! ، إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَعَلَى ذَلِكَ تَكْتُبُ تَوَاقِيعَ الْقُضَاةِ الثَّلَاثَةِ الْبَاقِينَ .

ومنها - وكالة بَيْتِ الْمَالِ .



وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهى :

الحمد لله الذى عَمَّرَ بَيْتَ مال المسلمين بِسَدَادٍ وَكِيلِهِ ، وَنَوَّحَ تَحْصِيلِهِ وَمَزِيدَ تَمْوِيلِهِ ، وَتَمَسَّكَ بِالصَّدَقِ مِنْ قِيَلِهِ ، وَسَلَّوَكِهِ مَاتِبِينَ [مِنْ] سَبِيلِهِ ، وَأَعْتَمَدَهُ الْحَقَّ فِي دَلِيلِهِ ، وَدَفَعَهُ الْمَضَارَّ وَجَلَّيْهِ الْمَسَارَّ بِتَخْوِيلِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى بَرِّهِ وَتَفَضُّلِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهٌ تَنَزَّهَ عَنْ نِدَّةٍ وَمِثْلِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى بَعَثَهُ اللَّهُ لَتَمَامِ هَذَا الدِّينِ وَتَكْمِيلِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْمُعْجِزَاتِ فِي تَزْيِيلِهِ ، وَحَفِظَ بِهِ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ مِنْ تَبْدِيلِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَقَبِيلِهِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فَإِنَّ بَيْتَ الْمَالِ الْمَعْمُورَ هُوَ نِظَامُ الْإِسْلَامِ ، وَذُنُورُ الْأَنْامِ ، وَفِيهِ مَحْصُولُ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ نَظَرِ الْإِمَامِ ، وَفِيهِ مَادَّةُ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى تَطَاوُلِ الْأَيَّامِ ، وَإِلَيْهِ تُجْبَى الْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَعَنْهُ تَصْدُرُ الْمِيعَاتُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يَمِينُ أَرْضٍ وَأَبْنِيَّةٍ وَمَحَالٍ . وَالْوَكِيلُ عَلَى ذَلِكَ عِنَّا بِالْمَمْلَكَةِ الطَّرَائِصِيَّةِ الْحُرُوسَةِ هُوَ الذَّابُّ عَنْ حَوَازِيهِ ، الْقَائِمُ بِتَأْمِينِ رَوْعَتِهِ ، الْمُجْتَهِدُ فِي تَمْيِيزِ رَجْعَتِهِ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ الْأَيْمَنَةِ ، الْمَعُولِ عَلَيْهِمْ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ ، الْبَصِيرِ بِمَا يَتَرَجَّحُ بِهِ جَانِبُ بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ وَيُكْشِفُ كُلَّ غُمَّةٍ ، الْعَرِيقُ فِي السِّيَادَةِ الَّتِي آتَقَدَّتْ إِلَيْهَا السَّجَايَا الْجَمِيلَةُ بِالْأَزْمَةِ .

ولما كان فلانٌ هو الرَّاقِي هَضْبَةً [هذه] الْمَائِرِ ، الطَّالِعَ كَوَكَبُ مَجْدِهِ السَّافِرِ ، الْمُسْتَحِقَّ لِكُلِّ ارْتِقَاءٍ عَلَى الْمُنَابَرِ ، وَيَعُدُّ سَلَفًا كَرِيمًا نَصِيرًا فِي الْمَفَاخِرِ ، وَيَمُتُّ بَيْتٍ

بحره زاحراً؛ وله في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بحث فاق به الأنشابه والنظائر، وعنده علم بالمسائل المضروب مثلها السائر - فلذلك رسم

فليباشر هذه الوظيفة مختزراً في كل ما يأتيه ويذرُهُ، ويقصده ويحرره، ويورده ويصدِّره، ويبينه ويقدره، ويخفيه ويظهره، ويديه ويسيره، ويذنيه ويحضره، ويقترز جانب بيت المال المعمور، بما فيه الخط الموفور؛ والغلبة في كل الأمور، وهو عالم بما فيه صلاح الجمهور؛ ومن رغب في ابتياع أراض وقراح، وأبنية وأمسلاك ورحاب فساح؛ مما هو جار في ملك بيت المال فليوفر جانب القيمة على ما فيه الصلاح، وهو بمجد الله من بيت الدين والصلاح والإصلاح، وهو يقوى بإسناده الأحاديث الصّحاح؛ ومن له حق في بيت المال فليسمع دعوى مدّعيه، ولا يصرف درهماً ولا شيئاً إلا بحق واضح فيما يثبت فيه، وهو وكيل مأمون في تأتية، ومعنى الوكيل الذي يوكل إليه الأمر الذي يليه .

والوصايا كثيرة وأجلها تقوى الله بالسَّمْع والبَصَر واللسان، فمن تمسك بها من إنسان فإنه يفوز بالإحسان؛ وهو غني عن الوصايا بما فيه من البيان، والله يجعله في كلاءة الرحمن؛ بمنه وكرمه ! . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد يكتب لوكالة بيت المال ونحوها بالافتتاح بـ «أما بعد» على قاعدة أصل الكتابة في قطع الثلث . والكاتب في ذلك على ما يراه بحسب ما يقتضيه الحال .

المرتبة الثانية

(من تواقع أرباب الوظائف الدينية بطرابلس - من يكتب له
في قطع العادة، مفتتحاً بـ «رسم»)

وهذه نسخة توقيع من هذه الرتبة بوظيفة قراءة الحديث النبوي ، على قائله
أفضل الصلاة والسلام، لمن أسمه «يحيى» يستضاء به في ذلك، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زال رميم الفضل بأرواح عنايته يحيا، وأحاديث منته
الحسان تعيها أذن وأعية من طيب السماع لا تعيا، ولا برحت أولياء خدمه تُدنى
على صدقاته بألسنة الأقلام ، وتُدبر على الأسماع من رحيقها كُثوساً مسكية
الختام - أن يستقر في كذا استقراً ترشّف الأسماع ، كُثوس روايتها فلا تروى،
ورتب كماله يقصر عن طلوعها كل باع، فساواته لا تنوى، ورُبوع معروفه لا تبعد،
وآيات صلاته ينطق بتلاوتها كل بلغ فيبدي ويُعيد ؛ لأنه العالم الذي أحيا من
مدارس العلوم مدارس، والفاضل الذي أضاء ببصر علومه ليل الجهل ولا غرو :
«قطرة الصبح تمحي آية الغلس» ؛ والكامل الذي لا يشوب كماله نقيصه ، والأمثل
الذي أنته الممالى رخيصه ؛ والإمام الذي تأنم وراءه الأفاضل ، وتأخر عصره ففاق
الاولئ ؛ مدارس إلا وجمع من فوائد «أبي حنيفة» و«أبن إدريس» ، ولا عرس
بأيل الطلب إلا حمد عند إدراك طلبه ذلك التعريس ؛ ولا أعاد الدروس للطلبة
إلا وترشحت منه بالفوائد ، ولا جمع ما فصله العلماء إلا وأتى بالجمع الذي لا نظير له
في الفرائد .

فليأشِر هذه الوظيفة مباشرةً أنوار هداها لا تحمد^(١) ، وليأزمها ملازمةً تشكره عليها الألسنة وتحمد ؛ وأنت - أدام الله تعالى فوائده - لا تحتاج إلى الوصايا إذ أنت بها عالم ، وبأسبابها متمسكٌ وبالقيام بها يقظٌ غير نائم ؛ لكن التقوى [أولى] بمن عرف الأمور ، وليأس سوايغها يُعِدُّ كلَّ محذور ؛ والاعتماد على الخطَّ الشريف أعلاه .

الصنف الثالث

(من الوظائف بطرابطس التي يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية -
الوظائف الديوانية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع الثلث بـ «المجلس السامي» بالياء ،
وتشتمل على وظائف)

منها - كتابة السر ، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ «صاحب ديوان المكاتبات» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الأسرار عند الأحرار ، وطوى الصحف على حسنات الأبرار ، وأجرى الأقلام ترجماناً للأفكار ، وجعل الحفظة يكتبون الأعمال مع تطاول الأعمار ، آناء الليل وأطراف النهار ، وبسط المعاني أرواحاً ، والألفاظ لها أشباحاً ، مع التكرار ، وأبهر الصدور بصدور الكتب والإيراد والإصدار .

(١) في القاموس تحدث النار كنصرو ومع .

نحمده على فضله المذرار ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إقرار ، وعمل بالحوارج بلا إنكار ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المصطفى من مضر بن نزار ، المخصوص بالمهاجرين والأنصار ، الثاوي بأشرف بقعة تزار ، المشرف ككتاب الوحي : فهم يكتبون بما يُمليه عليهم المختار ، وجبريل يلقي على قلبه الآيات والأذكار ، عن رب العزة المسبب الأستار ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما نفع روض معطار ، وسخ صوب أمطار ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن ملاك الملك الشريف حفظ سره ، والاحتفال بكتبه الشريفة ولفظها ودره ، وخطابها ونثره ، وخطها ونشره ، وختمها وعطره ، وتجهيزها مع الأمان الثقات الذين تؤمن غائلة أحدهم في كل أمره ، وما ألقى السر الشريف إلا لأكل الأعيان ، وصدر الزمان ، وبلغ كسحبان ، وفصح كفس في هذا الزمان ، وأصيل في الأنساب ، وعريق في كرم الأحساب ، وفاضل يعنوله فاضل بلسان ، وينشئ لفظه الدر والمرجان ، وكتب السر فلا يفوه بلسان .

ولما كان فلان هو واسطة عقد الأفاضل ، ورأس الرؤساء الأماثل ، وحافظ السر في السويداء من قلبه ، وناظم الدر في سطور كتبه ، والمورد على مسامعنا الشريفة من عبارته ألقاظا عذبا ، القائل صوبا ، والمجيد خطابا ، وإذا جهز مهما شريفا راعاه بعينه عودا وذهابا ، وإذا استعطف القلوب النافرة عادت الأعداء أحبابا ، وإذا أرق وأبرق على مازق أغنى عن الجيوش وأبدى عجباً عجبا ، وإذا كتب أنبت في القرطاس رياضاً خصابا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا . فليحل هذا المنصب الشريف حول القمر هالته ، وليعد إليه أيام سره وسروره الفاتية ، وليعرب عن أصول ثابته ،

وفُروِج في منابت الخير نَاتِيَه ، وَلِيَنْفِذِ الْمَهْمَاتِ الشَّرِيفَةَ أَوَّلًا فَأَقُولَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْدُقَ مُهِمًّا بغيره أَوْ يُبَيِّتَهُ إِلَى غَدِهِ ، وَلِيَحَرِّرَ الْبَرِيدَ الْمَنْصُورَ بِيَدِهِ غَيْرَ مُعْتَمِدٍ فِيهِ عَلَى غَيْرِ رَشْدِهِ ، وَلَا يَغْبُ عَنْ وَظِيفَتِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلْ يَكُونُ كَالنَّجْمِ فِي رَصَدِهِ لِمُرَاصِدِهِ ؛ وَلِيُوصِ كِتَابَ الْإِنْشَاءِ لَدَيْهِ ، وَالْمَتَصَرِّفِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، بِكَيْفِ السَّرْفَانِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ؛ فَإِذَا أَفْشَى أَحَدٌ مِنَ السَّرِّ كَلِمَةً ، فَلْيُزَجِرْهُ وَلْيَأْمُرْهُ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ وَقَلَمَهُ ، وَلْيُعْطِ كُلَّ قَضِيَّةٍ مَا تَسْتَحِقُّهَا مِنْ تَفْهِيدِ كَلِمَةٍ ؛ وَالْإِبْتِدَاءَاتُ وَالْأَجْوِبَةُ فَلْتَكُنْ ثُغُورُهَا بِالْفَاطَةِ مَتَشَبِّهَةً وَعُقُودُهَا بِإِمْلَائِهِ مُنْتَظِمَةً ؛ فَأَمَّا الْإِبْتِدَاءُ فَهُوَ عَلَى اقْتِرَاحِهِ ، وَأَمَّا الْجَوَابُ فَهُوَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْكِتَابُ الْوَاردُ بِاصْطِلَاحِهِ ، وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا إِلَى ثِقَاتِهِ وَصَاحِبِهِ ؛ وَالْكِتَابُ الْمُلْكِيَّةُ فَلْيَوْفِّها مَقَاصِدَهَا ، وَلْيَرَاجِعْ عَوَائِدَهَا ؛ وَالتَّقْوَى فَهِيَ الْهَامُّ [مِنْ] أَمْرِهِ ، وَخِتَامُ عِطْرِهِ ، وَتِمَامُ بَذَرِهِ ؛ وَالْوَصَايَا فَهِيَ كَثِيرَةٌ لَدَيْهِ وَفِي صَدْرِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْتَلِبُ بِهِ أَوْقَاتَ عَصْرِهِ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ

ومنها - نظر الملكة ، القائمة بها مقام الوزارة .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُفِيضِ حَلِّ إِنْعَامِنَا عَلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ ، وَمَوْلَى فَضْلِ آلائِنَا الْعَمِيمَةِ عَلَى مَنْ أَرْهَفَ فِي مَصَالِحِهَا آلَةَ عَزْمِهِ وَبَنَانَهُ ؛ وَحُلَّى رُتَبِ عَلَيَانَا الشَّرِيفَةِ بِمَنْ أَشْرَقَ فِي سَمَاءِ الْمَعَالَى بَذَرُهُ وَإِنْشَانَهُ ، وَأَيْنَعَتْ فِي غُصُونِ الْأَمَانِ قُطُوفُهُ وَأَفْنَانُهُ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَبْلُغُ [بِهِ] أَقْصَى غَايَةِ الْمَجْدِ مَنْ تَبَسَّمَ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ الثُّغُورَ ، وَتَعَصَّمَ بِجَمِيدِ خَبَرِهِ وَخَبْرَتِهِ الْأُمُورَ ؛ وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُشْرِقُ بِهَا

البدور، ويعتمد عليها في الأيام والدهور؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله
المهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، والناشر لواء العدل بسننه الواضح وشرعه
التويم؛ وعلى آله وصحبه الذين آهتدى بهديهم ذوو البصائر والأبصار، وأرتدى
بأرديتهم المعلمة مقتفى الآثار من النظائر؛ وسلم تسليماً.

وبعد، فإن أولى من أسندنا إلى نظره الجميل رتبة عز ما زالت بنو الآمال عليها
تحوم، وعدقنا بتدبيره الجميل منصب سيادة ما برحت الأماني له تروم؛ واعتمدنا
على هممه العلية فصداق الخبر والخبر، وركنا إلى حميد رأيه فشهد السمع له وأدى
النظر.

ولما كان فلان هو الذى رقى في ذروة هذه المعالي، وانتظم به عقد هذه الآلى،
وحوى بفضيلة البيان واللسان ما لم تدركه المهرفات والعالى؛ فما حل ذروة عز
إلا حلاها بنظره الجميل، ولا رقى رتبة سيادة إلا وأسفر في ذروتها وجهه صبحه
الجميل، ولا عدى بنظره كفالة رتبة إلا وكان لها خير كفيل.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال ينتصى للرتب العلية خير منجد ومغير،
ويختار للناصب السنية نعم المولى ونعم النصير - أن يفوض إليه كذا فإنه القوى
الأمين، والمتمسك من تقوى الله تعالى وكفايته بالسبب المتين، والمستند بجميل
كفالاته وحميد ديانتته إلى حصن حصين، والمستدرى بأصالته الطاهرة وإصابته إلى
الجنة الواقعة والحرم الأمين.

فليقدم خيرة الله تعالى ويأشر الجهة المذكورة بعزم لا ينبو، وهمة لا تنجو، وتديبر
يتضاعف على ممر الأيام ويروبو، ونظر لا يعزب عن مباشرته مثقال ذرة إلا وهى
من خاطره في قرار مكن، وضبط لا تمتد إليه يد ملتمس إلا ويجد من مرفهه

مَا يَكْفُ كَفَّهَا بِالْحَدِّ الْمَتِينِ . وَلِيُضَاعِفَ هِمَّتَهُ ، فِي مَصَالِحِ هَذِهِ الْجِهَةِ الَّتِي عَدَقْنَاهَا
بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ ، وَلِيُوقِّرَ عِزَّمَتَهُ ، فَإِنَّ الْحَازِمَ مِنَ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ وَالْوَصَايَا
كَثِيرَةٌ وَمِثْلُهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَالتَّنْبِيهَاتُ وَاضِحَةٌ وَهُوَ - وَفَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَهْدَى مِنْ أَنْ
يُرْسَدَ إِلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ يُوَفِّقُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُصْلِحُ بِجَمِيلِ تَدْيِيرِهِ وَحَمِيدِ تَأْمِيلِهِ كُلَّ
خَلَلٍ ؛ وَالْأَعْتَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - نظر الجيش بها :



وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه « شمس الدين » وهى :

الحمد لله الذى أطلع فى سماء المعالى شمساً مُنِيرَةً ، وَأَتَمَّ غُرُوسَ أُولَى الصَّدَارَةِ
بِعَهَادِ سُحُبِ عَوَارِفِهِ الْغَزِيرَةِ ، وَأَبْدَعَ الْإِحْسَانَ إِلَى مَنْ قَدَّمَهُ الْإِخْتِبَارُ وَالْإِخْتِيَارُ
عَلَى بَصِيرَةٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي عَمَّ فَضْلُهَا ، وَمَدَّ عَلَى أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ظِلُّهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُزَلِّفُ لَدَيْهِ ، وَتُسَلِّفُ مَا يَجِدُهُ الْمُتَمَسِّكُ
بِهَا يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مَنْ بُعِثَ إِلَى الْأُمَمِ
كَافَّهُ ، وَأَكْرَمُ مَنْ غَدَتْ أَمْلَاكُ النَّصْرِ بَايَتَهُ حَافَّةً ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ حَازُوا بِصُحْبَتِهِ الشَّرَفَ ، وَفَازُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ مِنَ الْجَنَانِ بِغُرْفٍ مِنْ
فَوْقِهَا عُزْرَفٌ .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا عُدِّقَ بِالْأَكْفَاءِ ، وَأَحَقُّ مَا صُرِفَ إِلَيْهِ وَجْهُ الْأَعْتِنَاءِ ،
وَأَجْدَرُ مَا أَوْقِظَ لَهُ طَرْفُ كَافٍ لَا يُلِمُّ بِالْإِغْفَاءِ - أَمْرُ الْجَيُوشِ الْمَنْصُورَةِ بِطَرَابُلسَ

المحروسة التي لا ينهض بأعباء مصالحها إلا من عرف بالسداد في قلبه وكمه ، وألف منه حسن التصرف فيما يبيده من نزاهته ويظهره من هممه ؛ بخبرة مؤكده ، وآراء مسدده ؛ ومعرفة أوضاع ترتيبها وأحوالها ، وقواعد مقدماتها وأبطالها ، وكفاية تفتح رحاب حالها .

ولما كان فلان هو الصدر الملى بوافى الضبط ووافر الأهتمام ، والكافي الذي نطقت بكفائته ألسنة الخرصان وأفواه الأقلام ، والضابط الذي لا يعجز فهمه عن إحاطة العلم بدوى الآلام .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال يقدم للراتب ، كافياً مشكوراً ، ويرشح للمناصب ، صدرأً أضحى بالأمانة مشهوراً - أن يفوض إليه كذا : لأنه الصدر الذي تزاخت ألسنة الثناء عليه ، وترادفت بين أيدينا محامدُه فقرنا العوارف لديه ؛ وشكرت عندنا هممه في سداد كل ما يباشره ، ودكرت لدينا بالخير سيرته وسرائره .

فليباشر هذه الوظيفة الحليّة متحلياً بين الأنام بعقودها ، مطلعاً شمس نزاهته في فلك سعادتها ؛ ناهضاً بأعباء منصبه السعيد ، ضابطاً قواعده بكل تحرير تليد ؛ متقناً ديوان الجيوش المنصورة ، مُعملاً في ملاحظتها نافذ البصر وحسن البصيرة ؛ مُحَرِّراً أوراق العدة والعدة ، باذلاً في ضبط الحلي أهتمامه وجهده ؛ والله تعالى يسعد جدّه ، ويجدد سعده ؛ والخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى .

قلت : وربما كتبت مفتتحاً في هذه الرتبة بـ «أما بعد» فإنها أصل ما يكتب في قطع الثلث .

المرتبة الثانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابلس - مَنْ يُكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ
العادة بـ «مَجْلِسِ الْقَاضِي»)

وهو قليل الوقوع . والغالب في ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .
وهذه نسخة تَوْقِيع من هذه الرتبة بكتابة الدَّسْت بطرابلس ، يقاس عليه ما عده
من ذلك ، وهي :

رُسم بالأمر الشَّرِيف - لا زال أمره الشريف ، يزيد من يَصْطَفِيهِ شَرَفًا ، وِرَّة
الْمُنِيفُ ، يُفِيد من يَحْتَيِيهِ نُحْفًا ، وَخَيْرُهُ الْمُطِيفُ ، يُجِيد لمن يَخْتَارُهُ جُودًا ، وَيُسْرِ قَلْبَ
مَنْ رَفَعَهُ إِلَى صَدْرِ الدَّسْتِ صُعُودًا ، فَيُسَوِّئُهُ من جَنَاتِ الْعِلَاءِ غُرْفًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ
في كَذَا : أَسْتَقَرَّارًا يُجْتَنَى مِنْهُ ثَمَارُ الْخِيَرَاتِ ، وَتُجَلَّى عَلَيْهِ عَرُوسُ الْمَسَرَّاتِ ؛ لِأَنَّهُ
الرَّئِيسُ الَّذِي تَفْتَحِرُ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ بِأَنْتَسَابِهَا إِلَيْهِ ، وَتُجَمِّلُ حُلَاهَا وَأَلْوَبَتُهَا إِذَا نُشِرَتْ
عَلَيْهِ ؛ وَالْقَاضِئُ الَّذِي أَلْقَتْ إِلَيْهِ الْبَلَاغَةُ زِمَامَهَا ، وَالْكَامِلُ الَّذِي مَلَكَ بَيَانَهَا وَنِظَامَهَا ؛
وَالْأَدِيبُ الَّذِي لَا يَدْرُكُ فِي الْآدَابِ ، وَاللَّيِّبُ الَّذِي يَقْصُرُ عَنْهُ طَوْلُ عَامَةِ الطُّلَّابِ ؛
كَمْ لَهُ مِنْ كِتَابَةٍ حَسَنَةِ الْأَنْسَاقِ ، وَبَلَاغَةِ حَصَلِ عَلَى فَضْلِهَا الْإِتِّفَاقِ ، وَدِيَانَةِ أَطْلُقَ
فِيهَا لِسَانُهُ وَيَدُهُ فَشَكَرَهَا النَّاسُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ فَهُوَ مُسْتَنْدَ الرَّأْسِ ، وَابْنُ مَنْ حَازَ
كُلَّ نَخَارِ وَرَاسِهِ ؛ وَالْعَلَمُ الْمَشْهُورُ عِلْمُهُ ، وَصَاحِبُ الْقَلَمِ الْمَشْكُورُ رَقْمُهُ ؛ فَالْمُنَاصِبُ
بَارْتِفَاعِهِ إِلَيْهَا مُفْتَخِرُهُ ، وَالْمَرَاتِبُ بِعَلَانَتِهِ مُسْتَبْشِرُهُ ؛ وَالْأَسْمَاعُ بِفَضَائِلِهِ مُسْتَفْتَهُ ،
وَالْأَشْجَاعُ بِكَلِمِهِ مُشْرِفُهُ .

فليباشِر هذه الْوُظَيْفَةَ ، وَلَيْسَ لَكَ فِيهَا طَرِيقَ نَفْسِهِ الْعَفِيفَةِ ؛ وَلْيَدَيِّجِ الْقِصَصَ
بِأَقْلَامِهِ ، وَلْيُبَيِّجِ التَّوَاقِعَ بِمَا يُوقِعُ مُبَرِّمُ فَصِيحِ كَلَامِهِ ؛ وَلْيَزِينِ الطُّرُوسَ ، بِكِتَابَتِهِ ،

وَلْيُنْعِشِ النَّفْسَ ، بِبَلَاغَتِهِ ، وَلْيَجْمَلِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ مَا تُصْبِحُ مِنْهُ مَطَالَعُ شَرْفِهِ
مُنِيرِهِ ، وَيُحْسِي بِهِ عَيْنُ حُبِّهِ قَرِيرَهُ ، وَالْوَصَايَا فَهُوَ خَطِيبُ مَنَبَرِهَا ، وَلَيِّبُ مَوْرِدِهَا
وَمَصْدَرِهَا ، وَالتَّقْوَى فُلْيَازِمُ فِيهَا شِعَارَهُ ، وَلْيَدَاوِمْ بِهَا عَلَى مَا يَبْلُغُ بِهِ أَوْطَارَهُ ، وَاللَّهُ
تَعَالَى يَجْعَلُ سُعُودَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي آزْدِيَادٍ ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يَرْفَعُ ذِكْرَهُ بَيْنَ الْعِبَادِ ، بِمَنَّةٍ
وَكَرَمِهِ ! . وَالْإِعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(من الوظائف بطرأ بلس - ما هو خارج عن حاضرتها ،
وهم على ثلاثة أصناف أيضا)

الصنف الأول

(أرباب السيوف)

وقد تقدّم أنّه ليس بها مقدّم ألف سوى نائب السلطنة بها ، وحينئذ فالنيابات
بمعاملتها على طبقتين :

الطبقة الأولى

(الطَّبَنَخَانَاة)

وَمَرَّاسِيهِمْ تُكْتَبُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ بِـ«السَّامِي» بِالْيَاءِ ، مَفْتُوحَةً بِـ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» .
وهذه نسخة مرسوم شريف من ذلك بِنْيَابَةِ قَلْعَةٍ ، تَصْلُحُ لِنَائِبِ الْأَلَاذِقِيَّةِ ،
يُنْسَجُ عَلَى مَنَوَالِهَا ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي جعل الحصون الإسلامية في أيامنا الزاهرة ، مصفحةً بالصفاح ،
والثغور المصونة في دولتنا القاهرة ، مشرفةً بأسنة الرماح ، والمعقل المحروسة مخصوصة
من أوليائنا بمن يعدُّ بأسه لها أوقى الجئن وذبه عنها أقوى السلاح .

نحمده على نعمه التي عوارفها غميمة ، وطوارفها كالتالدة للزيد مُستديمة ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنطق الضمائر قبل الألسنة بإخلاصها ،
وتُشرق القلوب بعموم إحاطتها بها واختصاصها ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي
أشرق بنور ملته الظلم ، وآرتوت بفور شريعته الأمم ، صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه الذين أمتطوا إلى جهاد أعداء الله وأعدائه غارب الهمم ، صلاة سارية
كالرياح هامية كالديم ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى ما عقد عليه في صيانة الحصون الخناصر ، وأعتمد على مثله
في كفاية المعقل إذا لم يكن غير تأييد الله وحد السيف ناصر - من هو في حفظ
ما يليه كالصدور التي تصون الأسرار ، والكجائم التي تحوط الثمار ، مع اليقظة التي تدود
الطيف أن يلم بجحاة حماه ، والفطنة التي تصد الفكر أن يتخيل فيه ما أشتمل عليه
وحواه ، والأمانة التي ينوي فيها طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا
الشريفة ولكل أمرئ ما نواه .

ولما كان فلان هو السيف الذي تروق تجرِبته ويروع تجريدُه ، وإذا ورد
في الوغى منهل حرب فشرعه من كل كمي ورِيده - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نرهف
حدّه بحفظ أسنى الحصون عندنا مكاناً ومكانه ، وأسمى المعقل رفعةً وعِزةً وصيانة .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه النيابة بقلعة كذا .

فليباشر هذه النيابة السامي قدرها ، الكامل في أفق الرتب بذرها ، مباشرة تصد
الأفكار ، عن توهمها ، والأبصار ، عن توشمها ، والخواطر ، عن تحيل مغناها ،
والسرائر ، عن تمثيل صورتها ومعناها .

وليكن لمصالحها متممها ، ولنجوى رجالها متصفحا ، ولأعداء حماها مريحا ،
ولخواطر من أسباب كفايتها مريحا ، ولمواطنها عامرا ، وبما قل وجل من
مصالحها آمرا ، ولوطائفها مقيما ، ولتنظر في الكبير والصغير من أمورها مديا ،
ونخدمتها مضاعفا ، ولكل ما يتعين الاحتفال به من مهماتها واقفا ، وملاك الوصايا
تقوى الله : وهى أول ما يقدمه بين يديه ، وأولى ما ينبغي أن يصرّف نظره إليه ،
فليجعل ذلك خلق نفسه ، ومزية يومه على أمسه ، والخير يكون . والخط الشريف
أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كتبت من الأبواب السلطانية فنى قطع الثلث بـ «السامى» بغير
ياء ، مفتوحة بـ «أما بعد» إلا أن الغالب كتابتها عن نائب السلطنة .

وهذه نسخة مرسوم شريف بناية قلعة بلاطس ، من معاملتها وهى :

أما بعد حمد الله على نعم توالى رفدها ، ووجب شكرها وحمدها ، وعذب لذوى
الآمال وزدها ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى رفع به لقريش مجدها ،
فعلا جدها ، وعلى آله وصحبه صلاة لا يخصى عددها ولا يحصر حدّها - فإنه لما كان
فلان من قدمت تقادم خدمه ، وتعالى به إلى العلاء سامى هممه ، وترفع به حسن

ولايته حتى أعلت الدولة من شأنه ورفعت من علمه ؛ وأسكتفته لمصون الحصون ، وجادت عليه بصوب إحسان روى الأمانى فأضحت نضرة الغصون ؛ وكانت قلعة فلانة هى القلعة التى شمخت بأنفها على القلاع علواً ، وسامت الجوزاء سمواً ؛ فوجب أن لا يستحفظ عليها وفيها ، إلا من عرف بحسن المحافظة وتوفياها ؛ وكان المشار إليه هوعين هذه الأوصاف ، والوارد من حسن الطاعة المورد الصاف - أقتضى حسن الرأي الشريف أن نثوه بذكره ، ونرفع من قدره .

ولذلك رسم ... - لا زال ... أن تفوض إليه النيابة بهذه القلعة المحروسة ، وأن تكون بأوانس صفاته مأثوسه .

فليكن فيما استحفظ كفوا ، وليورد الرعية من حسن السيرة صفوا ، وإذا تعارض حكم الانتقام وكان الذنب دون الحد فليقدم عفوا . وعليه بالعدل ، فإنه زمام الفصل ؛ والقلعة ورجالها ، وذخايرها وأموالها ، فليمنع النظر فى ذلك بكرة وأصيلا ، وإجمالا وتفصيلا ، وتحصينا وتحصيلا . وعليه بالتسك بالشريعة المطهرة ، وأحكامها المحررة ؛ وليردع أهل الفساد ، ويقابل من ظهر منه العناد ، بما يؤمن المناهج ، ويجدد المباحج ؛ والوصايا كثيرة ، فليكن مما ذكر على بصيره ؛ أعانه الله على ما أولاه ، ورعاه فيما استرعاه ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصنف الثانى

(مما هو خارج عن حاضرة طرابلس - الوظائف الدينية ،)

والغالب كتابتها عن نائب السلطنة بطرابلس . فإن كتب شئ منها عن الأبواب السلطانية ، كان فى قطع العادة «مجلس القاضى» مفتحا بـ «رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك بنظر وقف على جامع بمعاملة طرابلس، كتب به
من لقبه «زَيْنُ الدِّين» وهى :

رِسْمُ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لا زال كَرِيمُ نَظَرِهِ يَسْتَتِيبُ عَنْهُ بِمُصَالِحِ بَيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى
مَنْ تَزْدَادُ بِنَظَرِهِ شَرَفًا وَزَيْنًا ، وَيَعِينُ لَهَا مِنَ الْأَعْيَانِ مَنْ تُسَرُّ بِهِ خَاطِرًا وَتَقَرُّ بِهِ
عَيْنًا ، وَيَمْتَحُّهَا مَنْ إِذَا بَارَاهُ مُبَارٍ وَجِدَ بَيْنَهُمَا بَوْنًا وَبَيْنًا ، وَيَقْتَرُّ لَهَا كُلَّ كَافٍ
إِذَا فَاهَ رَأْيٌ بِوَضْفِ آرَائِهِ الْمُمُوحَةِ عَيْنَ صَوَابِهَا وَلَا يَجِدُ عَلَيْهَا عَيْنًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ بِالنَّظَرِ
عَلَى كَذَا : أَسْتَقْرَارًا يَرَى الْوَقْفَ بِنَظَرِهِ عَلَى رَبْعِهِ طَلَاوَهُ ، وَيَجِدُ بِمَبَاشَرَتِهِ فِي صَحْنِهِ
حَلَاوَهُ ، وَيُعْرِبُ عَنْ أَسْتِمْرَارِهِ عَلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ ، وَيَجِدُ مِنْ نَيْلِ رَيْعِهِ أَكْمَلَ وَفَاءً ؛ لِأَنَّهُ
الْناظِرُ الَّذِى لَا يَمْلَأُ إِنْسَانُهُ ، مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ ، وَلَا يَكِلُ لِسَانُهُ ، عَنْ الْأَمْرِ بِالْمُصَالِحِ
وَلِنَفْظِهِ عَنْ إِلْقَاءِ الدَّرَبِ ، وَالشَّرِيفُ الَّذِى وَجَدَتْ نَخَائِلُ شَرَفِهِ مِنْ فَضْلِ خِلَالِهِ ،
وَالْجَوَادُ الْحَائِزُ بِجُودِهِ قَصَبَ السَّبْقِ عَلَى أَمْثَالِهِ ، وَالْكَامِلُ الَّذِى لَا تُوجَدُ فِي صِفَاتِهِ
نَقِيصَةٌ ، وَالْفَاضِلُ الَّذِى أَنْتَهُ الْفَضَائِلُ عَلَى رَغْمِهَا رَخِيسَةٌ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذَا النَّظَرَ مَبَاشَرَةً مَا تَكْهَلُ نَازِرُهُ فِيهَا بِالْوَسْنِ ، وَلْيُقَابِلْهَا مِنْ جَمِيلِ سُلُوكِهِ
بِكُلِّ وَجْهِ حَسَنٍ ، وَلْيَبْدَأْ أَوْقَافَ الْجَامِعِ الْمَذْكُورِ بِالْعِمَارَةِ ، وَلْيَقْطَعْ بِمُدِيَةِ أَمَانَتِهِ
يَدَ مَنْ يَشْنُ عَلَى مَالِهِ الْغَارَةَ ، وَلْيَأْمُرْ أَرْبَابَ وَظَائِفِهِ بِاللُّزُومِ ، وَلْيَخْصُ كُلًّا مِنْهُمْ
مِنْ فَضْلِهِ بِالْعُمُومِ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى أَنْ لَا يَتَخَلَّلَ
مَبَاشَرَتُهُ الْخَلَلَ ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ

الصنف الثالث

(مما هو خارج عن حاضرة طرابُلُس - أرباب الوظائف الديوانية)

وقل أن يُكتب فيها شيء عن الأبواب الشريفة السلطانية، وأن الغالب كتابة ما يكتب فيها من نائب السلطنة بطرابُلُس . فإن اتفق كتابة شيء من ذلك عن الأبواب السلطانية، مَشَى الكاتب فيه على نهج ما تقدم في الوظائف الدينية : من كتابته في قطع العادة بـ «مجلس القاضي» مفتوحاً بـ «رسم» لا يختلف الحال منه في ذلك إلا في الفرق بين التعلقات الدينية والديوانية . والكاتب الماهر يصرف قلمه في ذلك وفي كل ما يحدث من غيره على وفق ما تقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيابة الرابعة

(نيابة حماة . ووظائفها التي تُكتب بها من الأبواب السلطانية،

ما بحاضرتها خاصة ، وهي على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف)

وليس بها منهم إلا نائب السلطنة خاصة . ويكتب له تقليد في قطع الثلثين بـ «الجناب العالي» مع الدعاء بمضاعفة النعمة .

وهذه نسخة تقليد نيابة حماة :

الحمد لله ذي التدبير اللطيف ، والعون المطيف ، والحياطة التي تستوعب كل تصرف وكل تكليف .

نَحْمَدُه بِحَمْدٍ جَمِيلَةٍ تَفْوِيفٍ ، حَسَنَةِ التَّأْلِيفِ ، مُكَمَّلَةِ التَّكْوِيفِ ، بَرِيَّةٍ مِنْ
التَّطْوِيفِ ، حَرِيَّةٍ بِكُلِّ شُكْرِ مُنِيفٍ ، وَذِكْرِ شَرِيفٍ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً خَلَصَ تَحْرِيرُهَا عَنْ كُلِّ تَحْرِيفٍ ، وَتَزَهَّ مُقَالَهَا عَنْ تَسْوِيدِ
تَفْنِيدٍ أَوْ تَسْوِيفٍ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَاحِبُ الدِّينِ الْخَلِيفِ ،
وَالْمَبْعُوثُ بِالرَّحْمَةِ وَالتَّخْفِيفِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً مُتَنَاوِبَةً تَتَأَوَّبُ
الصَّرِيرُ وَالصَّرِيفُ ، وَالشَّتَاءُ وَالْمَصِيفُ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيًّا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ شِيمِ الدَّوَلَةِ وَسَجَايَاها ، وَأَحْكَامِهَا وَقَضَايَاها ، تَقْدِيمَ الْأَهَمِّ فَلِأَهَمِّ ،
وَتَحْتِمِ الْأَهَمِّ مِنَ الرَّأْيِ وَتَحْكِيمَ التَّدْبِيرِ الْأَعْمِ ، وَفِعْلَ كُلِّ مَا يُحِيطُ الْمَالِكُ وَيَحْفَظُهَا ،
وَيُذَكِّي الْعِيُونَ لِمَلاحِظَتِهَا وَيُوقِظُهَا : لِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنْ حُقُوقِهَا ، وَحَظَرَهُ مِنْ
عُقُوقِهَا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِاخْتِيَارِ الْأَوْلِيَاءِ لَضَبْطِهَا ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَى الْأُمْلَاءِ بِالْقِيَامِ
بَشَرِطِهَا ، وَالْإِسْتِنَادِ مِنَ الرُّعَمَاءِ إِلَى مَنْ يُوفِّي مِنَ الْحَرَاجَةِ وَالْعُيُونِ (١) وَافِيَ قِسْطِهَا .

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَمْلَكَةُ الْحَمَوِيَّةُ جَدِيرَةً بِالْإِنْفَاتِ ، حَقِيقَةً بِالْحَيَاظَةِ مِنْ جَمِيعِ الْحِيَاثِ ،
مُسْتَدْعِيَةً مِنْ جَمِيلِ النَّظَرِ كُلِّ مَا يَجْرُسُ رَبْعُهَا ، وَيُدِيمُ نَفْعُهَا ، وَيُحْفَلُ ضَرْعُهَا ،
وَيُلْمُ شَعْنُهَا وَيَشْعَبُ صَدْعُهَا ، وَيَسْرُ سَمْعُهَا ، وَيُفْعَمُ شَرْعُهَا ، وَيُعْظَمُ شَرْعُهَا ،
وَيَكْتَنِفُهَا اِكْتِنَافُ السُّورِ وَالسَّوَارِ ، وَالْمَالَةِ لِلْبَدْرِ وَالْأَنْكَمِ لِلثَّارِ ، وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ
الْمُتَقَشِّعُ سَحَابُ هَذَا الْوَصْفِ عَنْ بَدْرِهِ الْمُنِيرِ ، وَالْمُتَقَلِّعُ ضَبَابُ هَذَا التَّفْوِيزِ عَنْ نُورِ
شَمْسِهِ الْمُنْعِشَةِ قُوَى كُلِّ نَبْتٍ نَضِيرٍ ، وَالَّذِي بِأَهْلِيَّتِهِ لُرْتَبَةِ هَذَا التَّفْوِيزِ مَا خَابَ
الْمُسْتَخِيرُ ، وَلَا نَدِمَ الْمُسْتَشِيرُ ، وَالَّذِي يُفَرِّدُهُ آسْتِحْقَاقُهُ بِهِذِهِ الرُّتْبَةَ فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ
كَبِيرٍ وَلَا صَغِيرٍ أَمْتَنًا لِلرَّاسِمِ الشَّرِيفَةِ فِي حَقِّهِ : « مَنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » - أَقْتَضَى

(١) فِي الْقَامُوسِ "رَجُلٌ خَرَجَ وَلَاجَ كَثِيرِ الظَّرْفِ وَالْإِحْتِيَالِ" وَلَعَلَّهُ الْمُرَادُ هُنَا .

جميل الرأي المُنيف ، أن خرج الأمر الشريف - لا برح يُحسِن التَّعْوِيل ، ويَهْدِي إلى سواء السبيل ، ويمْتَضِي مَضَاءَ الْقَضَاءِ الْمُتَزَلِّ والسيف الصَّقِيل - أن تقوِّض إليه نيابة السلطنة المعظمة في مملكة كذا وكذا .

فليَقْدَمْ خيرة الله قَائِلًا وفاعلا ، ومُقيما وراحلا ، ومُوجِّها ومُواجهًا ومُسَجِّلا وساجلا ، وعالمًا وعاملا ؛ ومُعْتَمِدًا على الله في أمره كُلِّهِ . وليَكُنْ من هذه المعرفة قريبا ، وعلى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى 'على' نفسه رَقِيبًا ؛ وإذا اتَّقَى الله كَفَاهُ الله النَّاسَ ، وإن اتَّقَى النَّاسَ لَمْ يَغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا فليَقَسْ على هذا القياس ، ويَقْتَسِ هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مَخْلَبُ الظَّفَرِ وظُفْرُهُ ، وبهم يُكْشَفُ من كلِّ عَدُوٍّ سرُّهُ ، ويُنْجَلَى وطنُهُ ووَكْرُهُ ، ويضْرَبُ زَيْدُهُ وعَمْرُهُ ، ويَبْدُدُ جَمْعُهُ ، ويُسَاءُ صُنْعُهُ ، ويعْمَى بَصَرُهُ ويَصْمُ سَمْعُهُ ؛ وهم أسوارُ نِجَاهِ الْأَسْوَارِ ، وأمواجُ تَنْدَفِيعٍ وتَنْدَفِيقٍ أعظم من أُنْدَاقِ الْبَحَارِ ، وما منهم إِلَّا مَنْ هُوَ عِنْدُنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ؛ فَأَحْسِنِ اسْتِجْلَابَ خَوَاطِرِهِمْ ، وَاسْتِخْلَابَ بَوَاطِنِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ ، وَاسْتِخْلَابَ الشَّائِعِ مِنْ طَاعَتِهِمْ فِي مَوَارِدِهِمْ وَمَصَادِرِهِمْ ؛ وَكُنْ عَلَيْهِمْ شَفُوقًا ، وبهم في غير الطاعة وَالْإِسْتِعْبَادِ رَفُوقًا ، وَأَوْجِبْ لَهُمْ بِالْجِهَادِ وَالْإِجْتِهَادِ حُقُوقًا ، وَأَصْرِفْ لَهُمْ حِمْلًا لِأَعْيَاضِ الْمِهْمَاتِ وَالْمَلَمَّاتِ مُطِيقًا ؛ وَاسْتَشِرْ مِنْهُمْ ذَوِي الرَّأْيِ الْمُصِيبِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ التَّجَرُّيبِ ، وَمَنْ تَحَقَّقَ مِنْهُ النَّصِيحُ مِنَ الْكُفُولِ وَالشَّيْبِ ، مِنْ كُلِّ بَغِيْرَةٍ مِنْهُ مَا شَبَّ فَإِنَّ الْمَرْءَ كَثِيرُ بَأْخِيهِ ، وَإِذَا اجْتَمَعَتْ غُصُونٌ فِي يَدٍ أَيْدٍ عَسَتْ عَلَى قَصْفِهِ وَقَصَفُ كُلِّ وَاحِدَةٍ فَوَاحِدَةٌ لَا يُعْيِيهِ .

(١) في الأصل "السامع مع من" اخل وهو تحريف كما لا يخفى .

(٢) في اللسان "عسى القضيبي يس" . وهو مناسب للمقام .

(١) والجهاد فهو ملاك كل استحواء واستحواذ ، وبه يتميز أفعال الكفار بالنفاد وأفعال الدين الحنيف بالنفاذ ؛ وما جعل الله للدافعين عن دين الله سواه ، ولا مخرجي صوب صواب إلا إياه ؛ وعلى ذلك جعل الله أرزاقهم ، وهياً لهم به إرفاقهم ؛ فليكرمهم بأخذ الأهبة ، في الاعتلاء والأنصبا في كل هضبه ، والاستعداد برباط الخيل وكل قوه .

ومن الوصايا التي ينبغي أنها ترسم في جبهات الفكر [دون توائن] أو تكون أن لا يستحقروا عدوا ، ولا يستهزئ بقلته لا رواحاً ولا غدواً ، وليكن للاستظهار مستوعبا ، ولا عمال المكائد مستوثبا ، وللكشف بعد الكشف مستصحباً ؛ وغير ذلك من الأمور ، التي بها صلاح الجمهور .

والشرع الشريف وتنفيذ أحكامه ، وتقوية أيدي حكامه ؛ فهو ميزان الإسلام والسلامه ، وقوام الصلاح والاستقامة ، وأخوه الرضا من ثدي الحق ، العدل الذي كم شاق وكثيرا ما على أهل الباطل شق ؛ وعم القريب والبعيد ، والسائق والشهيد ، والمريب والمريد ، وكل ذي ضعف مبيد ، وكل ذي بأس شديد ، وكل مستشير ومستريد ؛ فإن ذلك إذا شمل حاط ، وتم به الارتياح والارتباط ، وهدى إلى أقوم صراط .

والحدود فهي حياة النفوس ، وبها تزال البؤوس ؛ فأقنها ما لم تدرك بالشبهات الشرعيه ، والأمور المرعية .

والأموال فهي تجلابة الرجال ، ومخلبة الآمال ؛ وبها يسد الأزر ، ويقوى الاستظهار [و] الظهر ، فيشد من الذين أمرها بهم معدوق ، ويقوى أيديهم بكل طريق في كل طروق ، بحيث لا يؤخذ إلا الحق ولا يترك شيء من الحقوق .

(١) في الأصل " والاجتهاد " وهو غلط .

والرعية فهم عند وإلى الأمر ودائع : ينبغي أنها تكون محفوظة ، وبعين الاعتناء ملحوظة ، فأحسن جوارهم ، وأزل نقارهم ، وأكف عنهم مضارهم ، ولا تعاملهم إلا بما لا تسأل عنه غداً بين يدي ربك فإنه يراك حين تقوم ، وأعد جواً لذلك فكل راج مسؤل .

وأما غير ذلك فلا بد أن تطلعك المباشرة على خفايا تغنيك عن المؤامره ، وستتوالى إليك الأجوبة عند المسافرة في المكاتبات الواردة والصادرة ، والله يوفقك في كل منهج تسلكه وتقفيه ، ويسدّدك فيما من ذلك تنتجيه .

قلت : أما سائر أرباب الوظائف بها : كشدّ الدواوين ، وشدّ مراكر البريد وغيرهما ، فقد جرت العادة أن النائب يستقل بتوليتهما . فإن قدر كتابة شيء من ذلك لأحد بها ، كتب لمن يكون طبلخاناه في قطع النصف : « السامى » بغيراء ، ولن يكون عشرة في قطع الثلث بـ « مجلس الأمير » كما في غيرها .

الصنف الثاني

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم على مرتبتين)

المرتبة الاولى — من يكتب له في قطع الثلث بـ « السامى بالياء » . وهم قضاة القضاة الأربعة .

المرتبة الثانية — من يكتب له في قطع العادة : إما في المنصورية ، مفتحاً بـ « أما بعد » وإما في الصغير مفتحاً بـ « رسم » . وعلى ذلك تكتب توابع قضاة العسكر بها ، ومفتي دار العدل ، والمحاسب ، ووكيل بيت المال ، ووظائف

التدريس والتصدير، ونظر^(١) إن كتب شيء من ذلك عن الأبواب السلطانية،
وإلا فالغالب كتابة ذلك عن النائب بها^(٢).

النيابة الخامسة

(نيابة صفد)

قد تقدم في الكلام على المكاتبات أنها في رتبة نيابة طرابلس وحماة في المكاتب،
وأنها تذكر بعد حماة في المطلقات .

وظائفها التي تولي من الأبواب السلطانية على ثلاثة اصناف .

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(نيابة السلطنة بها ، ويكتب تقليده في قطع الثلثين)

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بصفد ، كتب به لسيف الدين «قطلقتمش»
السلحدار الناصري ، في سابع رمضان سنة عشر وسبعائة ، من إنشاء الشيخ
شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :

الحمد لله الذي صان الثغور المحروسة من أوليائنا بسيف لا تنبو مضاربته ، وخص
أسنى الممالك المصونة من أصفينائنا بعضب لا يقل غربه محاربته ، وقدم على زعامة

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصنا لَيْثًا يَسْكُنُ إِلَيْهِ كُلُّ أَسَدٍ مِنْ أَسَدٍ ذَائِلَةٍ تُغَالِيهِ ، حَافِظَ نَطاقِ
 الْبَحْرِ مِنْ أَبْطَالِ دَوْلَتِنَا بِكُلِّ كَيْمٍ تُصَدِّ الْبَحْرَ مِهَابَتُهُ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِرَاكِبِهِ أَوْ تَسْتَقَرَّ
 عَلَى ظَهْرِهِ مَرَاكِبُهُ ، وَنَاشِرِ لَوَاءٍ عَدْلِنَا فِي أَقَالِيمِنَا بِمَا يُغْنِي كُلَّ قُطْرٍ [عَنْ] أَنْ
 تَتَدَفَّقَ جَدَاوِلُهُ أَوْ تَسْتَهْلَّ بِهِ سَحَابَتُهُ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ سَيْفَ الْجِهَادِ رَائِدَ أَوَامِرِنَا ، وَقَائِدَ جِيُوشِنَا إِلَى
 مَوَاقِفِ النَّصْرِ وَعَسَا كِرْنَا ، وَذَائِدَ أَعْدَاءِ الْمِلَّةِ عَنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِنَا الَّتِي أُسْبِقُ إِلَيْهَا مِنْ
 رَجَعِ النَّفْسِ فِي الدُّجَى تَأَلَّقُ نَجُومُ ذَوَائِلِنَا ، وَفِي الضُّحَى تَبْلُجُ غُرُورِ صَوَارِمِنَا ؛ وَنَشْهَدُ
 أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ يَسْتَظِلُّ الْإِيمَانُ ، تَحْتَ لَوَائِهَا ، وَتَعْبَقُ
 الْأَكْوَانُ ، بِمَا تَنْطِقُ بِهِ الْأَلْسَنَةُ مِنْ أَرْوَائِهَا ، وَيُشْرِقُ الْوُجُودُ بِمَا يَدْعُو عَلَى
 الْوُجُوهِ مِنْ رُؤَائِهَا ، وَتُجَادِلُ أَعْدَاءَهَا فِي الْآفَاقِ لِرَفْعِ كَلِمَةِ مِلَّتِهَا عَلَى الْمَلَلِ وَإِعْلَائِهَا ؛
 وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَشْرَفُ حَمَلَةِ الْأَنْبَاءِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْمَخْصُوصِينَ بِأَسْنَى مَرَاتِبِ الْأَجْنِبَاءِ ، صَلَاةً دَائِمَةً بِدَوَامِ الْأَرْضِ
 وَالسَّمَاءِ ؛ وَسَلَامًا تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ فُوضَتْ إِلَيْهِ زَعَامَةُ الْجِيُوشِ بِأَسْنَى الْمَمَالِكِ ، وَعُدِقَ بِهِ
 مِنْ تَقَدُّمِ الْعَسَاكِرِ مَا يُرْجَفُ بِمِهَابَتِهِ هُنَاكَ أَرْضُ الْعَدُوِّ هُنَاكَ ؛ وَعُقِدَ بِهِ لِلرَّعَايَا لَوَاءُ
 عَدْلٍ تَجَلَّى بِإِشْرَاقِ لَيْلِ الظُّلُمِ الْخَالِكِ ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ مِنْ جَمِيلِ السَّيْرِ فِيمَا تَعَمَّرَ بِهِ الْبِلَادُ
 وَتَأَمَّنَ بِهِ الرَّعَايَا وَتَطْمَئِنُّ بِهِ الْمَسَالِكُ - مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ سَيِّفًا
 تَرَهَّبُ الْعِدَا حُدَّه ، وَيَخَافُ أَهْلُ الْكُفْرِ فَتَكَاتِهِ تَحَقُّقًا أَنَّ أَجَالَهُمْ عِنْدَهُ ، وَتَتَوَقَّعُ
 كُلُّ كَيْمٍ مِنْ عِظَاءِ الشَّرِّ أَنْ رَأْسَهُ سَيَكُونُ غِمْدَهُ ؛ مَعَ سِيَاسَةِ تَشْتِمُلٍ عَلَى الرِّعَايَا

(١) ذائلة طويلة الذيلة .

(٢) حق التركيب « وحفظ عطفًا على صان » ... ونشر لواء .

ظلالها الممتدة، وسيرة تضع الأشياء مواضعها فلا تضع الحدة موضع اللين ولا اللين موضع الحدة؛ وتوفّر على عمارة البلاد يعين على ريتها طل الأنواء والوابل، وبراءة تجعل ما يودع فيها بالبركة والنماء: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾.

ولما كان الجنب العالى هو السيف الذى على عاتق الدولة نجاهه، والليث الذى لم يزل فى سبيل الله إغارته وإنجاده؛ والغيث الذى يُخصب بمعدّته البلد الماحل، والأسد الذى تصد ساكنى البحر مهايته فيتحققون أن العطب لا السلامة فى الساحل - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيد حدّ عزمه إرهافا، وأن نهرب العدا بآسه الذى يردّ أحاد ما تقدّم عليه من الجيوش آلافا، وأن نفوض إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند إليه يؤسّسهم عدلا وإنصافا.

فلذلك رسم بالأمر الشريف: أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد الجروسة: تفويضا يعلى قدره، ويُمضى فى عموم مصالحها وخصوصها نهيه وأمره، ويُرهِف فى حفظ سواحلها وموانئها بيضه وسمره، ويضلي مجاورها من ساكنى الماء من بأسه المتوقّد جمرة.

فلتلق هذه النعمة بباع شكره المديد، ويترقّ هذه المرتبة بمزية أعتارمه التى ليس عليها فيما يعدق به من مصالح الإسلام مزيد؛ وينشرها من عموم معدّته ما لا يحصى دون قوم قوما، ويعمر بلادها بالعدل: فإن «عدل يوم واحد خير للارض من أن تمطر أربعين يوما»؛ ويسيطر فيها من مهائنه ما يكفّ أكفّ البغاة أن تمتد، ويمنع رخاء أهوية أهلها أن تشتد؛ ويؤمن المسالك أن تخاف، والرايا أن يجار عليهم أو يخاف؛ وليكن من فى تقدّمته من الجيوش المنصورة مكلى العدد والعدد،

(١) فى الأصل "رعايا أسند اليه ما" الخ وهو خلط من النسخ.

ظَاهِرِي اللَّامَةِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْمَجَالِدَةِ وَعَوْنُ الْجَلَدِ ؛ مُزَاحِي الْأَعْدَارِ فِيمَا يُرْسَمُ لَهُمْ بِهِ مِنْ
الرُّكُوبِ ، مُزَالِي الْعَوَاقِقِ فِي التَّأَهُبِ لِمَا هُمْ بِصَدَدِهِ مِنَ الْوُثُوبِ ؛ حَافِظِي مَرَاكِزِهِمْ
حِفْظَ الْعَيُونِ بِأَهْدَائِيهَا ، آخِذِي أَخْبَارَ مَا يَشْغُلُ الْبَحْرَ مِنْ قِطْعِ الْعِدَا فِي حَالِ بُعْدِهَا
كَحَالِ اقْتِرَائِيهَا ؛ بِحَيْثُ لَا يَشْرِفُ عَلَى الْبَرِّ مَنْ قِطَعَ الْخَذُولِينَ إِلَّا أُسِيرَ أَوْ كَسِيرَ ،
أَوْ مَنْ إِذَا رَجَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّوَاخِلِ يَنْقَلِبُ إِلَيْهِ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ؛ وَلِيَكُنْ
أَهْلُ الْجِبَالِ بِمَهَابَتِهِ كَأَنَّ [هَلْ أَلَسَّهْلُ فِي حُسْنِ اتِّقَادِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ ، وَيَصَدَّ عَنْهُمْ
بَسْطُوتهِ مَجَالِ الْأَوْهَامِ الْمُتَّصِلَةِ فَلَا تَنْصَرِفُ إِلَى غَيْرِ مُجَاوِرِيهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مَوَاقِعُ بِأَسْمِهِمْ
وَشَجَاعَتِهِمْ ؛ وَمِلَاكُ الْوَصَايَا تَقْوَى اللَّهِ : وَهِيَ مِنْ أَخْصِّ أَوْصَافِهِ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ وَهُمَا مِنْ نَتَائِجِ إِنْصَافِهِ ؛ فَيُجْعَلُهُمَا عِمْدَتِي حُكْمِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَاللَّهُ
تَعَالَى يَجْعَلُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ فَعَلَ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الثانية

(نِيَابَةُ قَلْعَةِ صَفَد)

وهذه نسخة مرسومة شريفة بنيابة قلعة صفد المحروسة ، من إنشاء المقر الشهابي
أَبْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ «أَزَاقِ النَّاصِرِي» خَامِسَ الْحَرَمِ سَنَةِ
أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ الْحَصُونَ بِرِفْعَةِ دُرَاهَا ، وَشُمْعَةٍ مِنْ فِيهَا مِنْ رِجَالٍ تَحْمِي
أَهْلَهَا ، وَتَحْطِفُ أَبْصَارَ السُّيُوفِ بِسَنَاهَا ، وَتُصِيبُ بِرُمِيهَا حَتَّى قَوْسَ قُرَحَ إِذَا رَامَاهَا .
نَحْمَدُهُ حَمْدًا تَبَرُّزُ بِهِ الْمَعَاقِلُ فِي حِلَالِهَا ، وَتَفْخَرُ بِهِ عَقَائِلُ الْقِلَاعِ عَلَى سِوَاهَا ؛
وَتَشْرَفُ بِهِ شُرَفَاتُهَا حَتَّى تَجْرِيَ الْحَجَرَةُ فِي رُبَاهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَطِيبُ جَنَاهَا ، وَيَطْنُبُ فِي السَّمَاءِ مَرْتَقَاهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا

مجداً عبده ورسوله الذى كتب به للأمة هداها ، وكتب عداها ، وبوأها مقاعد
للقاتل تقصّر دونهما النجوم فى سراها ؛ صلى الله عليه على آله وصحبه صلاة لا ينقطع
عنهم قرأها ، وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين .

وبعد ، فإنَّ صفدَ صفت ، ووقت ووقت ، وكفت وكفت ؛ وجاورت البحر
فما غمضت عنه لدايديها عيون ، ولا خيطت لسيوفها بالكرى جفون ؛ ولا ونت
لرماحها عزائم شابت لمئها ، ولا آنتشت من السهام نبأل تفيض ديمها ؛ ولا أطالت
مجانيقها السكوت إلا لتهدر شقاشقها ، وتهدبها من الجبال شواهدقها ، وتهول العدا
بما تريهم من التهويل ، وترى به من كفاتها الحجارة من سجيل .

وهى القلعة التى يضرب المثل بحصانتها ، ويطمئن [أهل] الإسلام فى إيداع
أموالهم وأهلهم إلى أمانتها ؛ قد أطلت على الكواكب نزولا ، وجردت على منطقة
بروجها من البروق نصولا ؛ وأتعبت الرياح لما حلقّت إليها ، وأخافت الهلال حتى
وقف رقيباً عليها ؛ وفيها من جنودنا المؤيدة من يزيدهم بها مددا ، وتطيب قلوبهم
إذا خرجوا لجهاد أعداء الله وخلّوا لهم فيها مآلاً وولدا . وكانت النيابة بهذه القلعة
المحروسة قد كادت تنطق بشكواها ، وتتظلم من أساء ضحبتها لما تولّاها ؛ وأقتضت
آراؤنا العالية أن نزعج ظلامه ، عن صباحها ، ونقوض خيامه ، عما فرش على الفلك
الشاهقة من يطاحها ؛ وفكرنا فيمن له بالقلاع المحروسة دربة لا ينجى عليه بها سلوك ،
ولا يخاف معه على هذه الدرّة الثينة فى سلوك ؛ من محمد فى دولتنا الشريفة مساء
صباح ، ومن كان فى أبوابنا العالية هو الفتاح ؛ ومن له همه تناط بالثريا مطالبها ،
وعزّمة ما القضاء إلا قواضبها ، ومعرفة ما الرّيح المثقف إلا تجاربها ، وكفاية ما الغر
الزواهر إذا عددت إلا مناقبها .

وكان المجلس السامى - أدام الله عزّه - هو المحقق إلى هذه المرتبة، والمحقق بالأصيل أريدتها المذهب، والمحقق في صفاته الورع، والمنزّه عن تدنيس طباعه بالطمع، وله في الأمانة اليد المشكورة، وفي الصيانة ما يتبع به ذبول السحاب الجرورة، ومن التقوى ما قرب عليه المطالب البطي، ومن الفروسيّة ما اتخذ كلّ ذروة صهوة وكلّ جبل مطيّة، ومن الاستحقاق ما يسهل له من صدقاتنا الشريفة صفد: وفي اللغة أنّ الصفد هو العطية.

فرسم بالأمر الشريف - شرفه الله وعظمه، وأحكمه وحكمه - أن يرتب في النيابة بقلعة صفد المحروسة: على عادة من تقدّم وقاعدته في التقرير، وأما كيف يكون أعتاده، فسندرسده منه بصبح منير.

فقدّم تقوى الله في سرك ونجواك، وأقصر على القناعة رجواك، وأحفظ هذه القلعة من طوارق الليل والنهار، وأعدّ من قبلك للقتال في قرى محصنة أو من وراء جدار، وأملأ سماءك حرصاً شديداً، وشهباً وكثر رجالها لتبارى بهم النجوم في أمثالها من بروج السماء عديداً، وخُذ إلى طاعتنا الشريفة بقلوبهم وهم على ذلك ولكنا نريد أن نزيدهم توكيداً، ونألّفهم على مولاتنا حتى لا تجد أنت ولاهم إلى المزيد مزبداً، وتفقد الذخائر والآلات، وتيقظ لما تلجئ إليه الضائقة في أوسع الأوقات، وحصن مبانيها، وحصل فيها من الذخائر فوق ما يكفيها، ومن السلاح ما هو أمتع من أسوارها، وأنفع في أوقات الحاجة مما تكثره الخزائن من درهمها ودينارها، من مجانيق كالعقارب شائلة أذنانها، دافعة في صدر الخطب إذا نابها، تربي بشرر كالقصر، وتنزل من السماء بآيات النصر، ومن قيسى: منها ما تدفع بالأرجل مرامي

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعة ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدراً للرجاء ليس فيما بأيدينا من

سها مه ، ومنها ما تدور بالأيدي كأس حمامه ؛ ومنها ما يسكت إذا أطلق حتى لا يسمع كلام كلامه ، ومنها ما يترتم إذا غنى بالحمام صوت حمامه ؛ و [من] ستاير يستر بها وجهها المصون ، ومناير يساهد منها أقرب من يكون أبعد ما يكون ؛ ورجية تجلى بها في كل ليلة عروسها المنعة ، ودراجة تحاط بهم من جهاتها الست وحدودها الأربعة ؛ وأقرنوب الحمام الرسائل فيها تسقط علينا وعلى الأخبار ، ويطوى المدى البعيد في أول ساعة من نهار ؛ وأفتح الباب وأغلقه بشمس ، وأحترز على ما آشملت عليه من مال ونفس ؛ وبقية الوصايا أنت بها أمس ، والله تعالى يزيل عنك اللبس ؛ والاعتماد

الصف الثاني

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذين يكتب لهم من الأبواب السلطانية صاحب ديوان الرسائل ، وناظر المال ، وناظر الجيش ، ووكيل بيت المال . وما عدا ذلك فإنه يكتب عن نائبها ، وربما كتب عن الأبواب السلطانية .

الصف الثالث

([أرباب] الوظائف الدينية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى : ما يكتب في قطع الثالث بـ «السامي» بالياء ، وهم القضاة الأربعة .

المرتبة الثانية : من يكتب له في قطع العادة ، وتشتمل على قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال .

الصف الرابع^(١)

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بها - ثلاث وظائف، يُكتب لكلّ منهم فى قطع الثلث بـ «السامى» بالياء؛ وهم : صحابة ديوان المكاتبات ، ونظر المال ، ونظر الجيش . فإن كُتب لأحد غير هؤلاء ، كتب له فى قطع العادة .

النيابة السادسة

(نيابة غزّة)

وقد تقدّم أنّها تارة تكون نيابةً، وتارة تكون تقدمة عسكر، ومُقدّم العسكر بها يراجع نائب الشام فى أموره . وبكلّ حال فالوظائف التى تُولى بها من الأبواب السلطانية على صنفين :

الصنف الأول

(أرباب السيوف)

وليس بها منهم إلّا نائب السلطنة إن كانت نيابةً، أو مُقدّم العسكر إن كانت تقدمة عسكر . فكيفما كان فإنه يكتب له تقليد فى قطع الثلثين بـ «الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النعمة .

وهذه نسخة تقليد بنيايتها : كُتب به للأمير « علم الدين الجاولى » من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ، وهو :

(١) هذا الصنف زائد على ما فى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصنف الثانى وغاية ما فى هذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق فتنبه .

الحمد لله رافع علم الدين في أيامنا الزاهرة، بإقامة فرض الجهاد وإدامته، وجامع
رُتب التقديم في دولتنا القاهرة، لمن تفرقت الثغور بين تفرق عدله وتآلق صرامته،
وقاطع أطاع المعتدين بمن يتوقد بأسه في ظلال رفقته توقد البرق في ظلال غمامته،
وقام أعدائه الكافرين بتفويض تقدمه الجيوش بأوامرنا إلى كل ولي يحتنى النصر
ويحتلى من أفتان عزماته ووجاهة زعامته .

نحمده على نعمة التي سددت ما يصدر من الأوامر عنا ، وقلدت الرتب السنية
بتقليدها أعز الأولياء منا منا ، وربحت مهمات الثغور لدينا على ما سواها فلا نعدق
أموارها إلا بمن نعتقد عليه الخناصر نفاسة به وضنا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة لا تزال القلوب بإخلاصها متدينه ، والألسنة بإعلانها مترينه ،
والأسنة والأعنة متبارين في إقامة دعوتها التي لا تحتاج أنوارها البينة إلى البينة ،
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الأمم ، وأكرم منعوته بالفضل
والكرم ، وأعز منصور بالرعب الذي أغمدت سيوفه قبل تجريدتها في القمم ،
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بجهاد أعداء الله وأعدائه على أثبت قدم ،
وسروا لفتح ما زوى له من الأرض على جياذم العزائم ونجائب الهمم ، وبدلوا نفائسهم
ونفوسهم للذب عن دينه فلم تسترل أقدامهم حمر النعم ، ولم يشن إقدامهم بيض
النعم ، صلاة لا يمل السامع نداءها ، ولا تسأم الألسن إعادتها وإبداءها ، وسلم
تسلما كثيرا .

وبعد، فإننا من حين مكن الله لنا في أرضه ، وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ،
وقلدنا سيف نصره الذي آتضاه ، وأقامنا لنصرة دينه الذي آرتضاه ، لم يزل مهم
كل نعر مقدما لدينا ، وحفظ كل جانب جاور العدو برا وبحرا متعينا على اعتنائنا

وَمُحِبِّاً إِلَيْنَا ؛ فَلَا تُرْهِفْ لِإِيَالَةِ الْمَالِكِ إِلَّا مِنْ إِذَا جَرَدَ سَيْفَهُ أَعْمَدَهُ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِ
 الْعِدَا ، وَمَنْ إِنْ لَمْ تَسْلُكِ الْبَحْرَ خَيْلَهُ بَثَّ فِي قُلُوبِ سَائِرِ كِنِيهِ سَرِياً مَهَابَةً لَا تَرْهَبُ
 مَوْجاً وَلَا تَسْتَبْعِدُ مَدَى ؛ وَمَنْ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْجِيُوشِ أَعَادَ آحَادَهَا إِلَى رَتَبِ الْأُلُوفِ ،
 وَجَعَلَ طَلَاتِعَهُمْ رُسُلَ الْخُتُوفِ ؛ وَأَعْدَاهُمْ بَأْسَهُ فَاسْتَقَلُّوا أَعْدَاءَهُمْ وَإِنْ كَثُرُوا ،
 وَأَغْرَاهُمْ بِمَعْنَى النَّكَايَةِ فِي كَتَائِبِ الْعِدَا : فَكَمْ مِنْ قَلْبٍ بِالرَّمَا حِ قَدْ نَظَمُوا وَتَمَّ مِنْ
 هَامٍ بِالصَّفَاحِ قَدْ نَثَرُوا .

وَلِذَلِكَ لَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي مَا زَالَ الدِّينَ يَرْفَعُ عِلْمَهُ ، وَالْإِقْدَامُ وَالرَّأْيُ يَنْبُتَانِ
 فِي مَقَاتِلِ الْعِدَا كُلُّوْمَهُ وَكَلِمَهُ ، وَالْعَدْلُ وَالْبَأْسُ يَتَوَلَّيَانِ أَحْكَامَهُ فَلَا يُضْمِيَانِ إِلَّا بِالْحَقِّ
 سَيْفَهُ وَقَلَمَهُ ؛ فَكَمْ نَكَسَ رَايَةً عَدُوِّكَ كَانَتْ مُرْتَفَعَةً ، وَأَبَاحَ عَزْمَهُ وَخَزْمَهُ مَعَاقِلَ
 شَرِكٍ كَانَتْ مُتَمَتِّعَةً ؛ وَكَمْ زَلَزَلَ ثَبَاتَهُ قَدَمُ كُفْرٍ فَازَالَهَا ، وَهَزَمَ إِقْدَامَهُ جِيُوشَ بَاطِلٍ
 تَرْهَبُ الْآسَادُ زِيَالَهَا ؛ فَهُوَ الْعِلْمُ الْفَرْدُ ، وَالْبَطْلُ الَّذِي لَا وِلَايَتَهُ إِلَّا الْقِبَالُ وَالْثَبَاتُ
 وَلَا أَعْدَائِهِ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ؛ وَالْوَلِيُّ الَّذِي لَوْلَا أَحْتِفَالُنَا بِنَكَايَةِ الْعِدَا لَمْ نَسْمَحْ بِمِثْلِهِ ،
 وَالْهَامُ الَّذِي مَا عَدَقْنَا بِهِ أَمْرًا إِلَّا وَقَعَ فِي أَحْسَنِ مَوَاقِعِهِ وَأُسْنَدٍ إِلَى أَكْمَلِ أَهْلِهِ .

وَكَانَتْ الْبِلَادُ الْغَزَاوِيَّةُ وَالسَّاحِلِيَّةُ وَالْجَبَلِيَّةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بِمَنْزِلَةِ السُّورِ الْمَشْرِفِ
 بِالرَّمَا حِ ، الْمَصْفَحُ بِالصَّفَاحِ ؛ مُرُوجُهُ الْحُمَاهُ ، وَقُلْلُهُ الْكُمَاهُ ؛ لَا يَشِيمُ بِرَقِهِ مِنْ سَاكِنِي
 الْبَحْرِ إِلَّا أَسِيرٌ أَوْ كَسِيرٌ ، أَوْ مَنْ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ طَرَفَهُ يَنْقَابُ إِلَيْهِ الْبَصَرُ خَاسِئًا
 وَهُوَ حَسِيرٌ ؛ وَبِهَا الْجِيُوشُ الَّذِي كَمَّ لِسَيْوِفِهِ فِي رِقَابِ الْعِدَا مِنْ مَوَاقِعِ ، وَلُسْمَعَتِهِ
 فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ إِغَارَةٍ تَرَكَّتْهَا مِنَ الْأَمْنِ بَلَاقِعُ ؛ وَبِهَا الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ ،
 وَالْمَوَاطِنُ الَّتِي هِيَ عَلَى التَّقْوَى مُؤَسَّسَةٌ ؛ وَالْمَعَايِدُ الَّتِي لَا تُعَدُّقُ أُمُورَهَا إِلَّا بِمِثْلِهِ مِنْ
 أَهْلِ الدِّينِ وَالْوَرَعِ ، وَالْأَعْمَالُ الَّتِي هِيَ أَدْرَى بِمَا يَأْتِي مِنْ مَصَالِحِهَا وَأَدْرَبُ بِمَا

يَدْعُ - اقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةُ أَنْ نَعْدِقَ بِهِ نِيَابَةَ مُلْكِهَا ، وَنَزِينَ بِلَايَ مَفَاخِرِهِ
عُقُودَ سِلْكِهَا ؛ وَأَنْ نَقْوِضَ إِلَيْهِ زَعَامَةَ أَبْطَالِهَا ، وَتَقْدِمَةَ عَسَاكِرِهَا الَّتِي تَلْقَى الْبَحْرَ
بِأَزْحَرِ مِنْ عُبَايِهِ وَالْأَرْضَ بِأَثْبَتِ مِنْ جِبَالِهَا ؛ وَأَنْ نَرْمِيَ بَحْرَهَا مِنْ مَهَابَتِهِ بِأَهْوَلِ
مِنْ أُمُوجِهِ ، وَأَمْرٍ فِي لَهَوَاتِ سَاكِنِيهِ مِنْ أَجَاجِهِ ؛ لَتَغْدُو عَقَائِلُ أَهْلِهِ ، أَرْقَاءَ سَيْفِهِ
الْأَبْيَضِ وَذَائِلِهِ ، وَيَتَبَرَّ الْعُدُوُّ الْأَزْرَقُ مِنْ بَنِي الْأَصْفَرِ ، خَوْفُ بَأْسِهِ الْأَحْمَرِ .

فَلَذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَقْوِضَ إِلَيْهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ : تَفْوِضًا يَحَقِّقُ
فِي مِثْلِهِ رَجَاءَهَا ، وَيَزِينُ بَعْدِلَهُ أَرْجَاءَهَا ؛ وَيَصُونُ بِبَأْسِهِ قَاطِنَهَا وَطَاعِنَهَا ، وَيَعْمُرُ
وَيَعْمُرُ بِرِفْقِهِ وَإِنْصَافِهِ مَسَاكِنَهَا وَسَاكِنَهَا .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الرُّبَّةَ الَّتِي يُكَلِّلُ بِهَا سُعُودُهَا ، وَتُجَمِّلُ بِهَا عُقُودُهَا ؛ بِمُبَاشَرَةٍ يُحْيِفُ
بَأْسُهَا اللَّيُوثَ فِي أَجْمَاطِهَا ، وَيُعِينُ عَدْلُهَا الْغُيُوثَ عَلَى دَفْعِ أَرْمَاتِهَا ؛ وَيَغْدُو بِهَا الْحَقُّ
مَرْفُوعَ الْعِلْمِ ، مَسْمُوعَ الْكَلِمِ ، مَاضِيَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، مَمْدُودَ الظِّلِّ عَلَى مَنْ يَبْهَى
مِنْ أَنْوَاعِ الْأُمَمِ . وَلْيَأْخُذِ الْجِيُوشَ الَّتِي يَبْهَى مِنْ إِعْدَادِ الْأُهْبَةِ بِمَا يُزِيلُ أَعْدَادَهُمْ
عَنِ الرُّكُوبِ ، وَيُزِيلُ عَوَائِقَهُمْ عَنِ الْوُثُوبِ ؛ وَيَجْعَلُهُمْ أَوَّلَ مُبِّ لِدَاعِي الْجِهَادِ ،
وَأَسْرَعَ مُجِيبِ لِنْدَاءِ أَلْسِنَةِ السُّيُوفِ الْحِدَادِ ؛ وَيَنْظُمُ أَيْزَاكَهُمْ عَلَى الْبَحْرِ أَنْتِظَامِ
النُّجُومِ فِي أَفْلَاكِهَا ، وَالشُّدُورِ فِي أَسْلَاحِهَا ، فَلَا تَلُوحُ لِلْأَعْدَاءِ طَرِيدَةٌ إِلَّا طُرِدَتْ ،
وَلَا قِطْعَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ ؛ وَلَا غُرَابٌ إِلَّا حُصِّتْ قَوَادِمُهُ ، وَلَا شَاخُ عِمَارَةٍ إِلَّا وَأُتِيحَ
لَهُ مِنَ اللَّهِ هَادِمٌ هَادِمُهُ . وَلْيَعْمَلِ مَنَارَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِإِمْرَئَةٍ أَحْكَمِهِ ، وَمُعَاضِدَةٍ
حُكَّامِهِ ، وَالْإِقْيَادِ إِلَى أَوَامِرِهِ ، وَالْوُقُوفِ مَعَ مَوَارِدِ نَهْيِهِ وَمَصَادِرِهِ ؛ وَلْتَكُنْ وَطْأَتُهُ
عَلَى أَهْلِ الْعِنَادِ مُشْتَدَّةً ، وَمَعْرِفَتُهُ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا : فَلَا تَضَعُ الْحِدَّةَ مَوْضِعَ
اللِّينِ وَلَا اللَّيْنَ مَوْضِعَ الْحِدَّةِ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ وَإِنْ بَعُدَ عَنْ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ مَخْصُوصٌ مِنَّا

بمزية قُربِه ، مختص بمنزلة إخلاصه التي أصبح فيها على يئنه من ربّه ؛ وجميع ما يذكر من الوصايا فهو مما يُحكى من صفاته الحسنه ، وأدواته التي ما برحت الأفلام في وصف كمالها فصيححة الألسنه ؛ وملاكها تقوى الله وهي في خصائصه كلمة إجماع ، وحلية أبصار وأسماع ؛ والله تعالى يعلي قدره وقد فعل ، ويؤيده في القول والعمل ؛ والاعتماد



وهذه نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة :

الحمد لله مبدئ النعم ومُعِيدِها ، ومؤكّد أسبابها بتجديدها ، ومُعَلّي أقدارها بمزايا مزيدها ؛ الذي زين أعناق الممالك من السيوف بتقليدها ، وبين من ميامنه ما ردت إليه بمقاليدها .

نحمده بمحامده التي تفوت الدراري في تنضيدها ، وتفوق الدرّ فيتمني منه عقد فريدها ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نافعة لشهيدها ، جامعة لتوحيدها ، نافعة لأهل الجحود مما يورد الأرض بالدماء من وريدها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي كثر الأمم بأئمه في عديدها ، وظاهر على أعداء الله بمن يقل بأس حديدها ، فيرسل من أسنته نجومًا رجومًا لمريدها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة نتظافر بتأييدها ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ، فإن من عوائد دولتنا القاهرة أن تعود بإحسانها ، وتجود بثبوت كلّ قدم في مكانها ؛ وإذا ولّت عرف سحابها عن جهة عادت إليها ، أو سلبت لها رونقًا أعادت بهجته عليها ؛ وكانت البلاد الغزاوية وما معها قد تمتعت من قدماء ملوك

(١) في الأصل «ممالك» وهو لا يناسب المقام .

بَيْتِنَا الشَّرِيفَ بِسَيْفٍ مَشْهُورٍ، وَبَطْلٍ تُشَامُ بِوَارِقٍ عَزَمِهِ فِي الثُّغُورِ؛ وَهُوَ الَّذِي عَمَّ
بَصِيَّتِهِ بِلَادَهَا سَهْلًا وَجَبَلًا، وَعَمَّرَ رَوْضَهَا بِعَدْلٍ أَغْنَاهَا أَنْ يَسْقَى طَلٌّ طَلًّا؛
وَجَمَعَ أَعْمَالَهَا بَرًّا وَبَحْرًا، وَمَنَعَ جَانِبَيْهَا شَامًا وَمِصْرًا؛ وَأَلَفَ أَهْلُهَا مِنْهُ سِيرَةً لَوْلَا
مَا أَسْتَأْثَرْنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ سَرِّهِ لَمَا أَفْقَدْنَا هُمْ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ حُلَاوَةَ مَذَاقِهَا، وَسِرِّيَّةَ
لَا نَرُضَىٰ مَعَهَا بِكَفِّ الثَّرِيَّا إِذَا بُسِطَتْ لِأَخْذِ مِيثَاقِهَا؛ وَلَمْ نَرْفَعْ يَدَهُ إِلَّا لِأَمْرِ قَضَىٰ
اللَّهُ بِهِ لِأَجَلٍ مُّوَقُوتٍ، وَمَضَىٰ مِنْهُ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ بِمَرْجُوعِهِ الْقَرِيبِ لَا يَقُوتُ؛ لِأَنَّ
الشَّمْسَ تَغِيبُ لِتَطْلُعَ بَضْوَىٰ جَدِيدٍ، وَالسَّيْفُ يَغْمُذُ ثُمَّ يَنْتَضِي فَيَقْدُّ الْقَدَّ وَالْحِلْدَ؛
وَالْعَيُونَ تُسَهِّدُ ثُمَّ يُعَاوِدُهَا الرُّقَادُ، وَالْمَاءُ لَوْ لَمْ يَفْقُدْ فِي وَقْتٍ لَمَا وَجِدَ لِمَوْقِعِهِ بَرْدٌ
عَلَى الْأَنْجَادِ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَأَخَذَ حَقَّهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ؛ وَانْتَقَلَ مَنْ كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ فِيهَا
إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ، وَفَارَقَ الدُّنْيَا وَهُوَ عَلَى طَاعَتِنَا مُقِيمٌ - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةُ
أَنْ يُرَاجَعَ هَذِهِ الْعَقِيلَةُ كَفَوُّهَا الْقَدِيمِ، وَتَرْجَعَ هَذِهِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ إِلَى مَنْ فَارَقَهَا
وَمَا عَهْدُهُ بِذَمِيمٍ؛ مَنْ لَمْ تَزَلْ بِهِ عَقَائِلُ الْمَعَاقِلِ أَصْنَانٌ، وَخُصُورُ الْحُصُونِ بِمَحَائِلِ
سُيُوفِهِ تُزَانُ، وَمِبَاسِمُ الثُّغُورِ تُنْحَىٰ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ أَسِنَّتِهِ بِلِسَانٍ؛ وَحَمَى الثُّغُرَيْنِ
وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْفِجَاجِ، وَجَاوَرَ الْبَحْرَيْنِ فَمَنَعَ جَانِبَيْهِمَا : فَهَذَا عَذَبُ فِرَاتٍ وَهَذَا
مِلْحُ أُجَاجٍ؛ وَلَهُ فِي الْعِدَا وَقَائِعُ زُلْزَلَاتٍ لِمَوَاقِعِهَا الْأُلُوفُ، وَمَوَاقِفُ لَوْلَا مَا نَعَقَتْ
فِيهَا مِنْ غَرَبَانِ الْبَسِينِ لَطَالَ عَلَى الدِّيَارِ الْوُقُوفُ؛ وَهُوَ الَّذِي مُدِحَتْ لَهُ فِي بَيْتِنَا
الْمَنْصُورِ الْمَنْصُورِيُّ مِنْ الْحِدْمَةِ سَوَائِقُ، وَحُمِدَتْ طَرَائِقُ؛ وَكَثُرَتْ مَحَاسِنُ،
وَكَبُرَتْ مَيَازِينُ؛ وَلَمَعَتْ كَوَاكِبُ، وَهَمَعَتْ سَحَابٌ؛ وَصَدَحَتْ حَمَائِمُ، وَفُتِحَتْ
كَائِمُ، وَعَزَّتْ جِيُوشُنَا الْمُؤَيَّدَةُ لَهُ بِمُضَارِبٍ، وَهَزَّتْ سَيُوفُنَا حَادِدًا وَهُوَ بِالسَّيْفِ
ضَارِبٌ .

وكان المجلس العالى - أدام الله تعالى نعمته - هو الذى حُذِثْ له آثار، وحُسِنَتْ أخبار، وعُمِّتْ مِدَح، وَتَمَّتْ مَنَح، فرسَمنا بإقراره من هذا المنصب الشريف^(١) فى محله، وإعادته إلى صيِّب وبِله، وإنامة أهلها مُطمئنين فى عدله، وإقرار عُيون من أدرك زمانه بعوده ومن لم يدرك زمانه بما سَيروته من فضله.

فرسَم بالأمر الشريف - لازالت ملائس نعمه، تُخَاج وتُلبس برودها، وعَرَائس كرمه، تُفَارِق ثم تُراجِع غِيدها - أن تفوِّض إليه أمور غَزاة المحروسة وأعمالها وبلادها، والتَّقديمَةُ على عساكرها وأجنادها، والحكمُ فى جميع ما هو مُضاف إليها من سَهْلٍ ووعر، وبرٍّ وجرٍّ، وسواحل وموانى، ومجرى خيول وشوانى، ومن فيها من أهل عمَد، ورعايا وتجار وأعيان فى بلد، ومن يتعلق فيها بأسباب، ويعُدُّ فى صف كِتِيبة وكتاب، على عادة من تقدَّم فى ذلك، وعلى ما كان عليه من المسالك.

وسنَخَصِر له الوصايا لأنَّه بها بصير، وقد تقدَّم لها على مسامعه تَكْرِير، ورَأْسُ الأمورِ التقوى وهو بها جدير، وتأييدُ الشرع الشريف فإنه على هُدًى وكتاب مُنير، والأطلاع على الاحوال ولا يَنْبَثُك مثلُ خَيْر.

والعدلُ فهو العُرْوَةُ الوثقى، والإنصافُ حتى لا يجد مستحقًّا، والعفافُ فإنَّ التَّطلع لما فى أيدي الناس لا يَزِيدُ رِزْقًا، والاتِّصافُ بالذِّكر الجميل هو الذى يَبْقَى، وعَرَضُ العسْكر المنصور ومن يَنْضُم إليه من عَرَبه وتُرْكَانه وأكراده، وكلُّ مكَبِّر فى بحافله ومكَبِّر لسواده، وأخذهم بالتأهب فى كلِّ حركة وسكون، والتَّيقُّظ بهم لكلِّ سيف مشحود وفُلْكِ مشحون، والاحتراز من قِبَل البرِّ والبحر، وإقامة كلِّ يزك فى موضعه كالقِلادة فى النحر، ولا يَعَيَّنُ إقطاعًا إلا لمن يَقْطَع باستحقاقه،

(١) فى الأصل «من أقراره» وهو تصحيف إلا أن يكون الأصل فرسَمنا مارسَمنا من الخ.

وَيَقْمَعُ الْعِدَا بِمَا يَعْرِفُ فِي صَفَحَاتِ الصَّفَاحِ مِنْ أَخْلَاقِهِ ، وَلَا يُحِلُّ الْمُبَاشِرِينَ
 مِنْ عَنَاءٍ تَمُدُّ إِلَيْهِمْ سَاعِدَ الْمُسَاعَدَةِ ، فَلَا يُحِلُّوْا فِي الْبِلَادِ بِعِمَارَةٍ تَعُدُّوْا فِي حُلَاهَا مَائِدَةً ،
 وَلِيَحْفَظَ الطُّرُقَاتِ حَفَظًا تَكُونُ بِهِ مَمْنُوعَةً ، وَيُمْسِكَ الْمَسَالِكَ فَإِنَّهُ فِي مَقَرِّ طَرَفَاتِهَا
 الْمَجْمُوعَةُ ، وَلِيَقْدِّمَ مُهِمَّاتِ الْبَرِيدِ وَمَا يَنْطِقُ عَلَى جَنَاحِ الْحِمَامِ ، وَلِيَتَّخِذَهُمَا نُصَبَ
 عَيْنِيهِ فِي الْيَقْظَةِ وَالْمَنَامِ ، فَرُبَّ غَفْلَةٍ لَا يَسْتَدْرِكُ فَائِتَهَا رَكْضُ ، وَرِسَالَةٍ لَا يَبْلُغُهَا
 إِلَّا رَسُولٌ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَأَنْخُرُ يُسَيِّحُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَرْصُدُ مَا تَرَدُّ بِهِ مَرَاثِمُنَا الْعَالِيَةِ
 لِيَسَارِعَ إِلَيْهِ مُنْتَمِلًا ، وَيَطَالَعُنَا بِمَا يَتَجَدَّدُ عِنْدَهُ حَتَّى يَكُونَ لَدَيْنَا مُمَثِّلًا ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ
 وَقَفٌّ مِنْ بَابِنَا الشَّرِيفِ بِالْمَجَازِ ، وَقَدْ أَمَّ عَيْنَيْنَا حَقِيقَةً وَإِنْ قِيلَ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ ،
 فَلْيُؤَاخِذْ نَفْسَهُ مُؤَاخَذَةً مِنْ هَوَيْنِ يَدِينَا ، وَيَعْمَلْ بِمَا يُسْرُهُ أَنْ يَقْدَّمَ فِيمَا يُعْرَضُ
 مِنْ أَعْمَالِهِ عَلَيْنَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُهُ حُظُورَةً لَدَيْنَا ، وَيُوَيِّدُ بِهِ الْإِسْلَامَ حَتَّى لَا يَدَعَ
 عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ لِلَّذِينَ دَيْنَا ، وَالْأَعْتَادَ

• الصنف الثاني

(الوظائف الديوانية بغزة)

وبها ثلاث وظائف : يُكْتَبُ لِكُلِّ مِنْهَا فِي قِطْعِ الْعَادَةِ بِ«السامى» بغير ياء .
 وهى : كِتَابَةُ الدَّرَجِ الْقَائِمَةِ مَقَامِ كِتَابَةِ السَّرِّ ، وَنَظَرُ الْمَالِ ، وَنَظَرُ الْجَيْشِ . قَالَ
 فِي «التَّقْيِيفِ» : أَمَّا قَاضِيهَا وَمَحْتَسِبُهَا وَوَكِيلُ بَيْتِ الْمَالِ بِهَا ، فَإِنَّهُمْ نَوَابٌ عَنْ
 أَرْبَابِ هَذِهِ الْوُظَائِفِ بِالسَّامِ ، فَلَا يَكْتَبُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ عَنِ الْمَوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ .
 قُلْتُ : وَمَا ذَكَرَهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا تَقْدِمةُ عَسْكَرٍ . أَمَّا إِذَا كَانَتْ نِيَابَةً فَإِنَّ هَذِهِ
 الْوُظَائِفَ يَكْتَبُ بِهَا عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ . وَقَدْ يَكْتَبُ حِينَئِذٍ بِوَكَاةِ بَيْتِ

المال والحسبة عن النائب ، ويكون ذلك جميعه في قطع العادة ، مفتتحاً بـ «أما بعد» في المنصوري ، أو بـ «رسم» في الصغير، على حسب ما يقتضيه الحال . على أنه قد حدث بها في الدولة الظاهرية قاض حنفى يكتب له من الأبواب السلطانية .

النيابة السابعة

(نيابة الكرك . وأرباب الولايات بها من الأبواب السلطانية على أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف)

وليس بها منهم غير نائب السلطنة ، ويكتب له تقليد في قطع الثلاثين بـ «المجلس العالي» .

وهذه نسخة تقليد بناية السلطنة بالكرك ، كتب به للأмир «سيف الدين ايتش» من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذى خصّ بعزائنا معاقِلَ الإسلام وحُصُونَهُ ، وبَصْرنا باختيار من رُتِبَهُ في كُلِّ مَعْقِلٍ منها من أجداد الأُمراء ليحفظه ويصُونَهُ ، وجعلها بعنايتنا رَوْضًا تجتلي أبصارُ الأولياء من بيض صفائحنا نُورُهُ وتجتني من سُمرِ رماحنا غُصُونُهُ ، وعَوْدَها من آيات الحرس بما لا تزال حُماتها وكُتُبها يروون خبره عن سيفنا المتّضئ لحفظها ويقصُونَهُ .

نحمدُه على نِعَمِهِ التى أعلت بنا بِناء الممالك ، وحاطتْنا من نبل مهايتنا ، بما لو تَسَلَّلَتْ بينه الأوهام ضاقت بها المسالك ، وصَفَحَتْنا من صفاح عنايتنا ، بما يحول برقه

بينها وبين ما يستر طَيْفَ الْعِدَا من الظَّلامِ الحالكِ ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده
لا شريكَ له شهادةً تَعْصُمُ من أَوَى إلى حَرَمِ إِخْلَاصِهَا ، وتُجِى غَدًا من غَدَا من أَهْلِ
تَقْرِيبِهَا واختِصاصِهَا ؛ ونشهدُ أنَّ عَمْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَضَاءَتْ مَلَّتُهُ ، فلم تَخَفْ
على ذِي بَصَرٍ ، وعلَّتْ شَرَعَتُهُ ، فَعَدَا بِاعٍ كُلِّ ذِي بَاجٍ عن معارضتها ذَا قَصَرٍ ، وسمَّتْ
أُمَّتُهُ ، فلو جالدها مُعَاد أَوْبَقَهُ الحَصْرُ أو جادلها مُنَاوَأَوْقَعَهُ الحَصْرُ ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى
آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ كَانَتْ مَعَاقِلُهُمْ صَهَوَاتِ جِيَادِهِمْ ، وَحُصُونُهُمْ عَرَصَاتِ جِلَادِهِمْ ،
وخيأُهم ظلالٌ سُيُوفُهُمْ وظلالُهُمْ أَفْيَاءُ صَعَادِهِمْ ؛ صلاةٌ لا يزال الإخلاصُ لها
مُقِيًا ، والإيمانُ لها مُدِيمًا ؛ وسَلَّمَ تسليًا كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلَى الحُصُونِ الإسلاميةِ بأنَّ تَحُوطَ عَيَانَتُنَا أَرْكَانَهُ ، وتُعَاهِدَ رَعَايَتُنَا
مَكَانَهُ ؛ وتُتَلَحَّظَ مَهَابَتُنَا أَحْوَالَهُ فَتُحْلِلَهَا ، وتُشَاهِدَ أَوَامِرُنَا قَوَاعِدَهُ فَتَشِيدُهَا بِجَمِيلِ
النَّظَرِ وتُعَلِّمَهَا ؛ وتُحَوِّلَ سَطَوَاتُنَا بَيْنَ آمَالِ الأَعْدَاءِ وَتَوَهُمِهِ ، وتُحْجِبَ مَخَافَتُنَا بِأَسْنَانِ أَفْكَارِ
أَهْلِ الْعِنَادِ عن تَأْمِيلِ مَا فِي الضَّمِيرِ وَتَوَسُّمِهِ - حِصْنٌ أَنْعَقِدَ الإِجْمَاعُ على انْقِطَاعِ
قَرِينِهِ ، وَأَمْتَنَاجِ نَظِيرِهِ فِيمَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ من تَخْصِيصِهِ ؛ فهو فَرْدُ الدَّهْرِ العَزِيزِ مِثَالُهُ ،
الْبَعِيدِ مِثَالُهُ ؛ الْمُسْتَكِنَةُ فِي ضَمَائِرِ الأَوْدِيَةِ الغَوَامِضِ بَقْعَتُهُ ، الْمُسْتَجِنَّةُ بِقُلَلِ الْجِبَالِ
الشَّوَاهِقِ نَقْعَتُهُ ، السَّائِرُ فِي أَقْطَارِ الأَرْضِ صِدَّتُهُ وَسَمِعَتُهُ .

ولما كانت قَلْعَةُ الكَرَكِ المحروسةُ هِيَ هَذِهِ الْعَقِيلَةُ الَّتِي كَمْ رَدَّتْ آمَالَ الْمُسْلُوكِ
رَاغِمَهُ ، وَمَنْعَتْ أَهْوَاءَ النُّفُوسِ أَنْ تُثَمِّلَهَا فِي الكَرَى الأَجْفَانِ الحَالِمَةِ ؛ وَكَانَ فَلَانٌ
مَنْ يَنْهَضُ مِثْلَهُ بِحِفْظِ مِثْلِهَا ، وَيَعْلَمُ أَنَّ أَمَانَتَهَا الَّتِي لَا تُثَمِّلُهَا الْجِبَالُ قَدْ أُوْدِعَتْ مِنْهُ
إِلَى كُفِّهَا وَوَضَعَتْ كِفَايَتَهَا فِي أَهْلِهَا ؛ فَهُوَ سَيِّفُنَا الَّذِي يَحُوطُهَا ذُبَابُهُ ، وَوَلِينَا الَّذِي
مَنْ طَمَحَ بَصَرُهُ إِلَى أَفْقِ حَلَّةِ أَحْرَقِهِ شِمَاهُ ؛ وَتَشَوُّوْا يَا مَنَا الَّتِي تُشَيِّ كُلِّ لَيْثٍ يَقْنِصُ

الظفر ظُفْرُهُ وَيَنْبُو بِالسَّيُوفِ نَابُهُ ، وَغَذَى دَوْلَتِنَا الَّذِي مَا اعْتَمَدْنَا فِيهِ عَلَى أَمْرٍ إِلَّا
كُرِّمَ بِهِ نَهْوضُهُ وَحَسُنَ فِيهِ مَنَابُهُ - آقَتَضْتَ آرَأُونَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَحْصَهَا بِمَهَابَةِ سَيْفِهِ ،
وَنُحْصَهَا بِمَا فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ فِي الْحَقِّ تَكْفُّ كُلِّ بَاغٍ عَنْ حَيْفِهِ .

فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف - لازالت الحصون المصونة تختال من ملكه في أبهى
الحلل ، وتعلو معاقل الكفر بسُلْطَانِهِ عُلُومُ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْمِلَلِ - أَنْ تَفَوْضَ إِلَيْهِ
نِيَابَةَ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ بِالْكَرْكِ الْحُرُوسِ تَفْوِيضًا يُعْلِي قَدْرَهُ ، وَيُطْلِعُ فِي أَفْئِهَا
بَدْرَهُ ، وَيُطْلِقُ فِي مَصَالِحِهَا سَيْفَهُ بِالْحَقِّ وَقَلَمَهُ ، وَيُمِضِي فِي حِمَايَتِهَا أَفْعَالَهُ وَكَلِمَتَهُ ،
وَيَسُدُّ فِي أُمُورِهَا آرَاءَهُ الْمُقَرَّنَةَ بِالصَّوَابِ وَهَمَمَهُ .

فليُشْرِ هَذِهِ الرُّتَبَةَ الْعَلِيَّةَ صُورَةً وَمَعْنَى ، الْمِلَّةَ إِذَا طَاوَلَتِ الْكَوَاكِبَ بِأَنْ
لَا يَعْلَمَ لَهَا أَسْمَى وَأَسْنَى^(١) ؛ وَلِيَجْتَهِدَ فِي مَصَالِحِهَا أَجْتِهَادًا يُؤَالِي لَهُ مِنْ شُكْرِنَا الْمِنَحَ ،
وَيَأْتِي فِيهِ مِنْ مَوَاضِينَا بِالْغَرَضِ الْمُقْتَرَحِ ؛ وَيَزِيدُهَا إِلَى حَصَانَتِهَا حَصَانَةً وَقُوَّةً ،
وَيَزِينُهَا بِسِيَاسَتِهِ الَّتِي تَعْدُو قُلُوبُ أَهْلِ الْعِنَادِ بِخَافَتِهَا مَغْزُوءَةً . وَلِيَنْظُرَ فِي مَصَالِحِ رَجَالِهَا
فِي كَوْنِ حِمَايَتِهِمْ مُقَدِّمًا ، وَلِمُقَدِّمِيهِمْ مُكْرِمًا ؛ وَلِأَعْذَارِهِمْ مُزِيحًا ، وَلِخَوَاطِرِهِمْ بِتَيْسِيرٍ
مُقَرَّرَاتِهِمْ مُرِيحًا . وَلِيَكُنْ لِمَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ مُعْظَمًا ، وَلِأَحْكَامِهِ فِي كُلِّ عَقْدٍ مُحْكَمًا ؛
وَلِمَا قُرْبَ وَبَعْدَ مِنْ بِلَادِ نِيَابَتِهِ عَامِرًا ، وَلِأَكْثَفِ الْجَوْرِ عَنِ الرِّعْيَةِ كَافًّا : فَلَا يَبْرَحُ
عَنِ الظُّلْمِ نَاهِيًا وَبِالْعَدْلِ آمِرًا ؛ وَمِلَاكُ الْوَصَايَا تَقْوَى اللَّهِ فَلْيَجْعَلْهَا حَلِيَّةَ نَفْسِهِ ،
وَنَجَى أَنْفْسِهِ ، وَوُضُفِيَّةَ أَجْتِهَادِهِ الَّتِي تَظْهَرُ بِهَا مَزِيَّةُ يَوْمِهِ عَلَى أُمْسِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يَسُدُّهُ فِي أَحْوَالِهِ ، وَيَعْصِدُّهُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ بِبِمَنَّةٍ وَكَرَمَةٍ ! .

(١) لعله «بأن لا يعلم أسمى منها وأسنى» .



وهذه نسخة تقليد بناية السلطنة بالكرك ، كُتب به للأ مير «تلكتمر الناصري»
عند ما كان المقر الشهابي أحمد ولد السلطان الملك الناصر بالكرك ، وهو :

الحمد لله الذي جعل بنا الممالك مُحَصَّنَةً الحُصُون ، حَمِيَّةً بِكُلِّ سَيْفٍ يَقْطُرُ مِنْ
حَدِّهِ الْمَنُون ، مُنْعَةً لَا تَنْخَطِي إِلَيْهَا الظُّنُون ، مُحَجَّبَةً لَا تَرَاهَا مِنَ النُّجُومِ عُيُون ؛ رَافِلَةً
مِنَ الْكَوَاكِبِ فِي عَقْدِ تَمِيمٍ ، مَنِيعَةً أَشْبَهَتِ السَّمَاءَ وَأَشْتَبَهَتْ بِهَا فَأَصْبَحَتْ هَذِهِ
الْبُرُوجُ مِنْ هَذِهِ لَا تَبِين .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي رَفَعَتْ الْأَقْدَارَ ، وَشَرَّفَتْ الْمَقْدَارَ ، وَحَلَّتْ فِي مَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ
كُلَّ عَقِيلَةٍ مَا كَانَ مَعْصَمُهَا الْمُتَمَدُّ إِلَى الْهَلَالِ لِيُتْرَكَ بَغَيْرِ سِوَارٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً رَفَعَتْ لِلْحُصُونِ الْعَالِيَةِ رُتْبًا ، وَمُلِئَتْ بِهَا سَمَاوُهَا
حَرَسًا وَشُهَا ، وَأَعْلَتْ مَكَانَهَا فَاقْتَبَسَتْ مِنَ الْبَرْقِ نَارًا وَوَرَدَتْ مِنَ السَّحَابِ قُلُوبًا ؛
وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفَ مَنْ بَعَثَ وَلَاةً عَلَى الْأُمُصَارِ ، وَكُفَاةً عَلَى
الْأَقْطَارِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا صَدَحَتْ الْحَمَائِمُ ، وَسَفَحَتْ الْغَنَائِمُ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ مَنْ حُمِيَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ ، وَحُدِثَتْ - وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ - مِنْهُ الْمَسَالِكُ ،
وَأَرْتَقَتْ هِمَمُهُ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، مَنْ حَصَلَ الْوُثُوقُ بِهِ
فِي أَشْرَفِ مَمْلَكَةِ لَدَيْنَا ، وَأَفْضَلِ مَا يُعْرَضُ فِي دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ مِنْ أَعْمَالِهَا الصَّالِحَةِ
عَلَيْنَا : وَهِيَ الَّتِي قَعَدَتْ مِنَ الْجِبَالِ عَلَى مَقَارِقِهَا ، وَأَتَّصَلَتْ مِنَ النُّجُومِ بِعَلَائِقِهَا ؛
وَتَحَدَّرَتْ الْغَنَائِمُ مِنْ دُيُولِهَا ، وَطَفَّتْ عَلَى السَّمَاءِ وَطَافَتْ عَلَى الْكَوَاكِبِ فَجَرَتْ الْمَجَرَّةُ

من سيولها . وكان الكرك المحروس هو المراد ، ومدينته التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، وقاعدته تشكّي الرياح لها طلوع واد ونزول واد ؛ وهي أرض تمت بأنها لنا سكن ، وتمت مناقبها بما في قلوبنا من حب الوطن ؛ واستقرت للقمامات العالية أولادنا - أعزهم الله بنصره - فانتقلت من يمين إلى يسار ، وتقابلت بين شموش وأفار ، وجاد بها البحر على الأنهار .

فلما خلت نيابة السلطنة المعظمة بها عرضنا على آرائنا الشريفة من تطمين به القلوب ، ويحصل المطلوب ، وتجري الأمور به على الحسنى فيما ينوب ؛ وتبارى عزائم الرياح بمرمى كل مقلة وهزة جيد ، ولا يشك في أنه كفؤ هذه العقيلة ، وكافى هذه الكفالة التي ما هي عند الله ولا عندنا قليلة ، وكافل هذه المملكة التي كم بها بنية أحسن من بنية وخيلة أحسن من خيلة ؛ من كان من أبوانا العالية مطلعها ، وبين أيدينا الشريفة لا يجهل موضعه ؛ طالما تكلمت به الصفوف ، وتجملت به الوقوف ، وحسن كل موصوف ، ولم تخف محاسنه التي هو بها معروف ؛ كم له شيمه عليه ، وهمة جليه ، وتقدمات إقدام بكل نهاية غاية مليه ، وعزائم لها بنعته مضاء السيف وباسمه قوة الحديد وهي بالنسبة إليه ملكيه ؛ وكان المجلس العالى - أدام الله نعمته - هو لابس هذه البرود التي رقت ، والعقود التي نظمت ، وجامع هذه الدرر التي قُسمت ، والدرارى التي سمت إلى السماء لما وُسمت ؛ وهو من الملائك في الوقار ، وله حكم كالماس وبأس يقطع الأحجار ، وهو ملك نصفه الآخر من حديد كما أن لله ملائكة نصفهم من النّاج ونصفهم من نار ؛ وهو الذى اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجعله في خدمة ولدنا - أمتعته الله ببقائنا - نائباً بها ، وقائماً بحسن منابها ؛ والمتصرف فيها بين أيديه الكريمه ، والمتلقى دونه لأموورها التي قلدنا بها عنقه أمانة عظيمه .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا زال به سيف الدين ماضيا ، ولا برح كل واحد بحكم سيفه في كل تجريد وقلمه في كل تقليد راضيا - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس وما معه على عادة من تقدمه فيها ، وقاعدته التي يتكفل لها بالإحسان وبكف العدوان ويكفيها ، وكل ما فيها من أمر فهو به منوط ، وكل عمل لها به محوط ، وحكمه في مصالحنا الشريفة في جميع بلادها مبسوط ، وله تطالع الأمور ومنه تصدر المطالعة ، وبه تُزال كل ظلامه ، وتُراح كل ملامه ، ويؤيد الشرع الشريف ويؤبد حكمه ، وينشر علمه وينشر علمه ، وتقام الحدود بحده ، والمهابة بحده . ورجال هذه القلعة به تتألف على طاعتنا الشريفة قلوبهم ، والرايا يعمهم بالعدل والإحسان وأسر ما عندنا مطلوبهم ، وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعيتنا الذين هم لنا ولك ، فرفرف عليهم بجناحك ، وخذهم بساحك ، والمسارة إلى آمتال مراسمتنا الشريفة هي أول ما نوصيك باعتماده ، وأولى ما يقبس من نوره ويستمد من أمداه ، فلا تقدم شيئا على الانتهاء إلى أمره المطاع ، والعمل في السمع والطاعة باكره ما يمكن أن يستطاع ، وخدمة أولادنا فلا تدع فيها مُمكنا ، وأعلم بأن خدمتهم وخدمتنا الشريفة سواء لأنه لا فرق بينهم وبيننا ، وهذه القلعة هي التي أودعناها في يمين أمانتك ، وحميناها بسيفك وصنّاها بصيانتك ، فالله الله ! في هذه الوديعه ، وأد الأمانة فإنها نعمت الذريعة ، وأحفظها بقوة الله وتحفظ بأسوارها المنيعه ، وعليك بالتقوى والتقوى والوقوف عند الشريعة ، والله تعالى يزيدك علوا ، ويبلغك مرجوا ، والاعتماد

قلت : وربما ولي نيابة الكرك من هو جليل الرتبة رفيع القدر ، من أولاد السلطان أو غيره ، فتعظم النيابة بعظمه ، ويرفع قدرها بارتفاع قدره ، وتكون مكاتبته وتقليده فوق ما تقدم ، بحسب ما يقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بناية السلطنة بالكرّك، كُتِبَ بها عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» لولده الملك الناصر «أحمد» قبل سَلْطَنَتِهِ، وكتب له فيه بـ«الجناب العالی»، من إنشاء الشريف شهاب الدّین، وهی :

الحمد لله الذي أسعدنا بِوَرَاثَةِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ، وأرشدنا للرأى الْمُصِيبِ فِي أَنْ نَسْتَتِيبَ مِنْ نَشَاءِ مَنْ ذَلِكَ ؛ وَأَيَّدَنَا بِالْعَوْنِ وَالصَّوْنِ فِي حَفِظِ مَا هُنَا وَلِحَظِ مَا هُنَاكَ، وَعَوَّدَنَا الْإِمْدَادَ بَيْنَهُ الْمَتَدَاوِلَ وَالْإِنْجَادَ بَيْنَهُ الْمَتَدَارِكِ ؛ وَسَدَّدَنَا بِالْفَضْلِ وَالْإِسْعَافِ إِلَى أَنْ نَتَّبِعَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ أَنْجَحَ السَّبِيلِ وَأَوْضَحَ الْمَسَالِكِ، وَعَضَّدَنَا مِنْ دُرَيْتِنَا بِكُلِّ نَجَلٍ مُعْرِقٍ، وَنَجْمٍ مُشْرِقٍ، يَرْشُقُ شِهَابُهُ، فِي الْكَرْبِ الْحَالِّ وَيَأْتَلِقُ صَوَابُهُ، فِي الْخَطْبِ الْحَالِكِ ؛ وَأَفْرَدَنَا بِالنَّظَرِ الْجَمِيلِ، وَالْفِكْرِ الْجَلِيلِ، إِلَى أَسْعَدِ تَحْوِيلِ تَتِيرِ بَمِرَاتِهِ فِي الْآفَاقِ الشُّهُبِ الطَّوَالِعِ وَتَسِيرِ بَبْشَرَاهُ فِي الْأَقْفَارِ النَّجُوبِ الرَّوَائِكِ .^(١)

نحمده ! وكيف لا يحمّد العبدُ المالك ! ، ونشكره على أن أهّلنا لإقامة الشّعاء وإدامة المناسك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جل في جبروته، عن مُشَاهِدِهِ وَتَعَالَى فِي مَلَكُوتِهِ، عن مُشَارِكِهِ ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أُنْجِدَ جُنُودَهُ مِنَ الْمَلَا الْأَعْلَى بِالْمَلَائِكِ ، وَأَمَدَّ بُعُوثَهُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ فِي جَمِيعِ الْمَوَاقِفِ وَالْمَعَارِكِ ؛ وَأَيَّدَ أُمَّتَهُ بِوَلَايَةِ مُلُوكٍ يَحْلِسُونَ فِي النَّعِيمِ عَلَى الْأَرَائِكِ، وَيَحْرُسُونَ حِمَى الدِّينِ بِجِهَادِهِمْ وَأَجْتِهَادِهِمْ مِنْ كُلِّ فَاتِنٍ وَفَاتِكٍ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ سَفْنِ النِّجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَوَافِ وَالْمُنْقِذِينَ مِنَ الْمَهَالِكِ ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ نَظَّمُوا شَمْلَ الْإِيمَانِ، وَهَزَمُوا جَمْعَ الْبُهْتَانِ، بِكُلِّ بَاتِرٍ وَفَاتِكٍ ؛ صَلَاةً وَرِضْوَانًا يُضْحِي لِقَائِهِمَا

في اليوم العَبُوسِ الْوَجْهَ الطَّلُقَ وَالشَّغَرَ الضَّاحِكَ ، وَيُنْشَرُ فَيُحْشَرُ مَعَ النَّيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ
وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ ، مَا أَتَهَلَّ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ ، وَنَاجِحِ الْإِسْتِدْعَاءِ ،
لَأَيَّامَنَا كُلِّ عَايِدٍ وَنَاسِكَ ، وَعَوَّلَ حُسْنُ آرَائِنَا عَلَى تَقْدِيمِ مَنْ هُوَ لِحَمِيلِ آثَارِنَا سَالِكٌ ،
وَأَقْبَلَ بِالْإِقْبَالِ سَنًا شِهَابِيهِ الْمُنِيرِ يَجْلُو مَا يُثِيرُ مِنْ لَيْلِ نَقْعِهَا السَّنَايَكِ ، فَخَصَلَ لِلكَرَّكَ
وَالشُّوَبَكِ بِهَذَا الْقُدُومِ نَحَارَ مَسِيرِكَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى آثَرْنَا بِتَوْفِيرِ التَّوْفِيقِ ، وَيَسَّرْنَا مِنَ الْهُدَى إِلَى أَقْوَمِ طَرِيقٍ ؛
وَوَهَبَنَا فِي الْمُلْكِ النَّسَبَ الْعَلِيَّ الْعَرِيقَ ، وَالْحَسَبَ الَّذِي هُوَ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّحْكِيمِ حَقِيقٌ ؛
وَقَلَّدَنَا مِنْ عَهْدِ بَيْعَةِ السُّلْطَنَةِ مَالِحْمِهِ فِي الْآفَاقِ تَطْرِيقٌ ، وَلِعَقْدِهِ فِي الْأَعْنَاقِ تَطْوِيقٌ ؛
فَفَيَّأَنَا مِنْ شَجَرَةِ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ النَّاصِرِيِّ الْمُنْصُورِيِّ كُلِّ غُصْنٍ وَرَيْقٍ ، وَهَيَّا
لِلْبَرِيَّةِ تَكْرِيمًا عَمِيمًا بِتَقْدِيمِ مَنْ لَهُ الْمَجْدُ يَتَعَيَّنُ وَبِهِ السُّؤْدُودُ يَلِيقُ ؛ وَأُطْلِعَ فِي أَفْقٍ أَعَزَّ
الْمَمَالِكِ عَلَيْنَا مِنْ بَيْتِنَا شِهَابٌ عَلَا هُوَ لِلْبَدْرِ فِي الْكَمَالِ وَالْجَمَالِ شَيْبَةٌ وَشَقِيقٌ ، وَأَطْعَمَنَا
أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَعَامِلَةِ الْوَلَدِ الْبَارِ مَعَامِلَةَ الْوَالِدِ الشَّفِيقِ ؛ وَأَوْدَعَنَا لَدَيْهِ مَا أَوْدَعَهُ
اللَّهُ تَعَالَى لَدَيْنَا : مَمْلَكَةً مَرْتَفَعَةً مَتَسَعَةً لِيَرْتَفَعَ مَحَلُّهُ وَيَتَسَّعَ أَمْلُهُ وَلَا يَضِيقَ ، وَجَمَعَنَا
لَهُ أَطْرَافَهَا لِتَكُونَ لِكَلِمَتِهِ الْعُلْيَا بِهَا الْاجْتِمَاعُ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ .

وَمَا كَانَ الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْوَلَدِيُّ ، الشَّهَابِيُّ ، سَائِلُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، خَلِيلُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : هُوَ الَّذِي تُشِيرُ رُتَبُ الْكَفَالَةِ بِتَرْقِيهِ ، وَتَقَرُّ عِيُونُ الْأَوْلِيَاءِ بِتَعَيِّنِهِ لِإِقْلَاءِ
أَمْرِنَا الْمُطَاعِ وَتَلَقِّيهِ ؛ وَتَهْلُجُ الْأَلْسِنَةُ ضَارِعَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُخَلِّدَ مُلْكَ بَيْتِهِ
الشَّرِيفِ وَيُثَبِّتَهُ ، وَتَعْرُجُ إِلَى السَّمَوَاتِ دَعَوَاتُ الْأَقْيَاءِ أَنْ يُوقِيَهُ اللَّهُ مَا يَتَّقِيهِ ؛
وَعَمْسُكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِسَانِ الْمَقَامِ عَنْ مَدْحِهِ أَدْبًا ، وَتَرْكُ الْإِفْتِخَارِ بِالْمَالِ
وَالْعَدِيدِ إِثَارًا لِثَوَابِ اللَّهِ وَطَلَبًا ؛ وَتُدْرِكُ مَوْعِظَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ قَصْدًا وَأَرَبَا :

(١) ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا﴾ . وِبِرَكَةِ هَذَا الْقَصْدِ يَتِمُّ لَنَا فِيهِ الْمُرَادُ ، وَيَعْنِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةُ النَّفْعُ بِهَذَا الْإِفْرَادُ ؛ فَإِنَّهَا مَعَهُدُ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَمَشْهُدُ الْوَفْرِ وَالْمَنْحِ ؛ وَمُضْعَدُ الْعِزِّ الَّذِي لِمَا وَطَنُنَا صَرْحَهُ تَدَكُّدُكَ لِلْعِدَا كُلِّ صَرْحِ ، وَتَمَلُّكَ لِلْهُدَى كُلِّ سَرْحِ ؛ وَتَشَقُّقُنَا بِهَا لِقُرْبِ الْمَزَارِ مِنْ طِيبِ طَيِّبَةِ أَعْظَمِ نَفْعِ ، وَقَدْ بَقِينَا بِجَاهِ الْحَالِ بِهَا فِي تَيْسِيرِ التَّائِيدِ فَكَانَ كَاللَّحِ ؛ وَجَرَى خَلْقُنَا السَّمْحُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى عَادَتِهِ فِي الْحَكْمِ وَالصَّفْحِ ، وَسَرَى ذِكْرُنَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَلِلْهُدَا بِهْ أَطْرُبُ صَدَحِ ، وَآتَى اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مُلْكًا نِعْمًا تَجَلُّ عَنْ الْعَدِّ وَالشَّرْحِ ؛ فِيهَا مَنَشَأُ دَوْلَةِ الدُّوَلِ وَمِنْهَا فَتَحَ الْفَتْوحِ ، وَبِإِضَافَتِهِ إِلَيْنَا تَفَاوُلُ خَيْرٍ مَشْهُورٍ مَلْمُوحِ ؛ كَمَا قِيلَ قَبْلَهَا كَرَّكَ نُوحِ ، فَبِتَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ ، عَزَائِمُنَا تَغْدُو وَتَرْوَحُ ، وَبِالْأَسْتِنَادِ بِأَطْوَلِ الْأَعْمَارِ ، أَمَارَةٌ بِأَدِيَةِ الْوُضُوحِ ؛ وَأَثَارُ بَرَكَةِ الْأَسْمِ الشَّرِيفِ الْمُحَمَّدِيِّ تَظْهَرُ عَلَيْنَا فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَّاتِ وَتَلُوحُ ، وَنَحَارُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ الْمُبَارَكَةَ : لِأَخْتِصَاصِهَا بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ عَلَيْهَا طَلَاوَةً وَسَعَادَةً وَفِيهَا رُوحٌ ؛ وَكَثَا قَدْ سَلَكْنَا بِهَذَا الْوَلَدِ النَّبِيلِ ، سَنَةً أَيْ الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، فِي وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ التَّامُّ فِي كُلِّ بُكْرَةٍ وَأَصِيلِ ؛ حَيْثُ فَارَقَهُ وَأَفْرَدَهُ ، وَتَفَقَّدَهُ فِي كُلِّ حِينٍ وَتَعَهَّدَهُ ؛ حَتَّى شَدَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَضْدَهُ وَرَفَعَ هُوَ وَأَبُوهُ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ وَأَعَانَهُ لِمَا شَيْدَهُ ، فَأَجْمَلَ اللَّهُ لَنَا هَذَا الْقَصْدَ وَأَحْمَدَهُ ، وَكَمَّلَ هَذَا الشُّرُوعَ وَأَسْعَدَهُ ؛ وَأَجْزَلَ [لَهُ] مِنْ فَوَائِدِهِ أَوْفَرِ هِبَةٍ وَأُنْجَزَ لَهُ مِنْ عَوَائِدِهِ أَصْدَقَ عَدَهُ ؛ فَأَحْلَلْنَاهُ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ بِمَمْلَكَةِ الْكَرَّكَ فَسَلَّكَ مِنْ حُسْنِ السَّجَايَا أَحْسَنَ مَسَلَّكَ ، وَمَلَّكَ قُلُوبَ الرِّعَايَا وَبِمَا وَهَبَ مِنَ الْمَنْحِ تَمَلَّكَ ؛ وَبَسَّنَّتِنَا فِي التَّوَاضُّعِ لِلْحَقِّ مَعَ الْخَلْقِ تَمَسَّكَ ، وَبَشَّيْمَنَا وَخَلَقْنَا فِي الْجُودِ تَخَلَّقَ فَبَدَّلَ وَمَا أَمْسَكَ .

(١) التلاوة «وخير أملا» أما وخير عقبا فهو في آية قبلها .

ولما بلغ أشده وأستوى، وبرز شهاب علاه الذى هو وبدر الساء سوا، وحاز
مكارم الأخلاق وحوى، وفاز سلطاننا فى نجاته بحسن النية: "وإنما لكل امرئ
ما نوى" - حكمناه فى هذه النيابة التى ألفها ودربها، وعرف أمورها وجرها،
وآستمال خواطر أهلها وآستجلبها، وأدنى لهم لما دنا منهم الميامن ولما قربها
منهم قربها، وآستحق كفالتها وآستوجبها، وأظهر الله تعالى فيه من الشئيل أنجبها،
ومن الخلائق أرحبها، ومن الأعراق أطيبها، ومن العوارف أنسبها، ومن العواطف
أقربها، ومن البسالة أرهفها وأرهبها، ومن الجلالة أحبها إلى القلوب وأعجبها، ومن
السيادة ما أخذت نفسه لها أهبها، ومن الزيادة ما يتعين [له] شكر الله الواهب الذى
وهبها، ومن السعادة ما رفعت الأقدار على مناكب الكواكب رتبها، وأطلعت
لجئاته سماء العلواء شهبها، ورقت على هامة الجوزاء منصبها، وآستصحبت من العناية
لهذا البيت مزينة فرض الله بها له الطاعة وكتبها، فاستخرنا الله تعالى الذى يختار لنا
ويخير، وسألناه التأييد والتيسير، وفوضنا إليه وهو الكفيل لنا بالتدبير، فى كل مبدئ
ومصير، واستعنا به وهو نعم النصير، واقتضى حسن الرأي الشريف أن نُسرج
شهابه المنير، وننتج لآولياء يمن التأثيل بحسن هذا التأثير، ونهيج فى بره سبلا
تقدمنا إليها كل ذى منبر وسرير، ونثلج الصدور ونقر العيون بسعيد هذا الإصدار
وحميد هذا التقرير.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا برح أمره يصيب السداد فيما إليه يصير،
وخبره يحمل الموافاة فلا لئسنة عن مكافأة بره تقصير - أن تفوض نيابة السلطنة
الشريفة بالكرك المحروس والشوبك للجناب العالى، الولدى، الشهابى، وما ينضم
إلى ذلك وينضاف، من جميع الأقطار والأكناف، وجمعنا له من هذه المملكة
الأطراف، وجعلنا له على سهلها وجبائها إشراف، وصرفناه منها فيما هو عن علمه

الكريم غير خاف ؛ نيابةً كامله ، كافله شامله ؛ عامه ، تامه ؛ وافره ، سافره ؛ يستلزم طاعته فيها الاقتراض ، ونحسم عنه فيها مواد الاعتراض ، وتتفد مراسمه من غير توقف ولا انتفاض ، وتبسط يده البيضاء من غير انقباض ، ويرتفع رأيه من غير انخفاض .

فلتقدر رعية هذه البلاد نعمة هذا التفويض قدرها ، وليسألوا الله أن يوزعهم لحسن هذا التفويض شكرها ؛ فقد أنشأ لهم يسرها ، وأفاء لهم برها ؛ وألقى إليهم جودها وخيرها ، وأبقى عندهم عزها ونصرها . وليتبعوا السبيل القويم ، وليجمعوا على الطاعة التي تبتغي عليهم نعمة العافية وتديم ؛ وليسمعوا ويطيعوا لما يرد إليهم من المراسيم ، فمن لم يستقم كما أمر لا يستمر بهذه البلاد ولا يقيم ؛ والعاقل لنفسه خصيم ، والجاهل من عدم النعمة وحرم النعم ؛ وفراستنا تلمح نتائج الخير من هذا التقديم ، وسياستنا تصلح ما قرب منا وما بعد بتعريف أحكام التحكيم ؛ وكيف لا ؟ وهو الكريم بن الكريم بن الكريم ، المؤمل لتمام السؤدد قبل أن يعقد عليه التميم ؛ المشتغل على الخلال الموجبة له الفضل العيم ، المتوصل بمن حركاته إلى أن يكون مثل هذا الملك العظيم ؛ وإلى أمانته استبداع وإلى صيافته تسليم ، المقبل وجهدنا الإقبال فتتلو الرجال : ﴿ ماهذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ونحن نأمرك من التقوى بما به من الله أمرنا ، ونبصرك من الهدى بما له هدينا وبصرنا ، ونبني لديك من بدائعها ما به خصاصنا وأوثرنا ؛ ونوصيك أتباعًا للكتاب والسنة ، ونؤتيك من الهداية ما لله في الإرشاد إليه المنه : فقد وعظ ووصى لقمان - عليه السلام - أبنه ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن فحقق الله تعالى في نجاحه رجاءه وفي فلاحه ظنه ؛ ونذكر جنابك ، ونرجو أن

تكون ممن تنفعه الذكرى، وتسير شهابك، إلى أفق السعد ونأمل أن تيسر لليسرى،
وتؤمرك فتزيد علم عزك رفعا ولواء مجديك نشرا، ونأمرك ثقة بحسن أخلاقك،
فيتلو لسان وفائك: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ . فمثلك
من أيدته العصم، وأصعدته الهمم، وحمده الأئمة، وأرشدته إلى الحكم ما عهدته
فكرته من الحكم، وسدته أعراقه وأخلاقه فلا يزداد على ما فيه من كرم، فلا تذكر
منك ناسيا، ولا تفكر لاهيا، ولا نأمر وننهي إلا من لم يزل بالمعروف أمرا وعن
المنكر ناهيا .

فأتق الله تعالى: فعلى التقوى مراك، ورأب الله تعالى: فالمرقبة للولوك من
بيتك ملاك، وجد في نصرة الحق ولا تأب: فقد أنجد الله تعالى بذلك جدك وأباك،
وأعدل فبالعدل تعمم الدول وأقم منار الشرع، فهو الأصل الذي يرد إليه من القضايا
كل قرع، ومجاله الرحب إذا ضاق الدرع، فأيد حاكمه، وشيّد معالمه، وأكد
الإلزام بأحكامه الآلزمه .

والأمراء والجنود فهم جناح النجاح، وصفاح الصفاح، فاعتمد أحوالهم بالصلاح،
وأرد فيهم ما استطعت الإصلاح . والخيالة والرجالة الذين يحيى بهم مصون الحصون
أن يستباح، فالخط أمورهم بعين فكرك في كل مساء وصباح، فمن نهض في الخدمة
تعين من النعمة أن يزداد ومن قصر في العزم قضى الحزم أن يزاح . والرعايا فهم
للإحسان ودائع، وللاعتنان صنائع، فأعذب لهم من المعدلة المشاريع، وأنصب
لهم من إقامة الحرمة الزواجر والروادع، وأخصب لهم من النعمة مربعا يرغب الحاج
ويقرب الطائع . وأهل الذمة فأوهم إلى كنف العدل الواسع، وأحهم أن تمتد
إلى أنفسهم يد جان وإلى أموالهم يد طامع، وأقم عليهم بأسا يحل بهم إذا اعتدوا

القَوَاصِمَ والقَوَارِعَ ، وأدُم لهم مهابة تُسَدُّ من فساد الذَّرَائِعِ ، وعاوِدَ آراءَنَا الشَّرِيفَةَ
 وَرَاجِعَ ، وواصلَ بِأَنْبَائِكَ السَّارَةَ وَأَفْعَالِكَ الْبَارَّةَ وَتَابِعَ ، وبما نَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ خَوَاطِرُنَا
 الْعَاطِفَةَ مِنْ مُتَجَدِّدَاتِكَ الْمُبَارَكَةِ أَتَحِيفُ وَطَالِعَ ؛ وَاللَّهِ تَعَالَى يَشْفَى بِحُسْنِ سِيرَتِكَ
 الْمَسَامِعَ ، وَيَشْرَفُ بِمَجْلُولِ عَدْلِكَ الْحَافِلَ وَالْمَجَامِعَ ، وَيُوزِعُكَ شُكْرَ نِعْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكَ
 مِنْ عِصْمَتِهِ أَعْظَمَ وَازِعَ ، وَيَتَعَبَّكَ بِأَيَّامِنَا الَّتِي فِيهَا الْخَيْرُ الشَّامِلُ وَالْبِرُّ الْجَامِعُ ،
 وَيَصُونُ بِخَالِكَ الْحُسْنَى مَا أَسْتَطَعْتُ مِنْ ^(١) أَسْنَى الْوَدَائِعِ ، وَيُزِينُ سَمَاءَ الْعُلَيَاءِ
 بِجَلَالِكَ فَمِنْهَا لَكَ قَمَرَاهَا وَالنَّجُومُ الطَّوَالِعُ ، وَيُوفِّقُ بِجَمِيلِ قَصْدِكَ إِلَى أَنْ تَأْخُذَ
 مِنَ الْقُسُوبِ بِالْمَجَامِعِ ، وَيَحْتَقِقُ فِي إِسْعَادِ جَنَابِكَ الْمَطَالِبَ وَيُشْرِقُ بِإِصْعَادِ شَهَابِكَ
 الْمَطَالِعَ ؛ وَالْعَلَامَةُ

الصف الثاني — أرباب الوظائف الدينية . وبها قَاضٍ واحدٌ شافعي ،
 وتوقيعه في قَطْعِ الثَلَاثِ بـ «السامي» بالياء .

الصف الثالث — الوظائف الديوانية . وهي ثلاث وظائف ، يَكْتُبُ لِكُلِّ
 مِنْهَا تَوْقِيعٌ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ . الْأُولَى كِتَابَةُ الدَّرَجِ . الثَّانِيَةِ نَظَرُ الْمَالِ . الثَّالِثَةِ
 نَظَرُ الْحَيْشِ .

القسم الثالث

(مما يَكْتُبُ مِنَ الْوَلَايَاتِ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَةِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَةِ -

ما يَكْتُبُ لِأَرْبَابِ الْوُظُفَانِ بِالْمَمْلَكَةِ الْحَاجَزِيَّةِ)

وقد تقدم أنها تستمل على ثلاث قواعد :

(١) لعله « ما استعظمت » .

القاعدة الأولى

(مكة المشرفة ، وبها وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(الإمارة)

وقد تقدّم أنّ إمارتها في بني الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ،
وأَنَّها كانت تُؤلّى من أبواب الخلافة ببغداد إلى حين انقراضها ، إلّا ما تغلب عليه
الفاطميّون أصحاب مصر في خلال ذلك . ثمّ استقرّت آنحاً من جهة ملوك مصر
إلى الآن . ويكتب له تقليد في قطع النصف بـ «المجلس العالى» بزيادة ألقاب
تخصّه ، وقد تقدّمت ألقابه في أوّل هذا الطّرف .

وهذه نسخة تقليد بإمرة مكّة المشرفة : كتب بها عن الملك الناصر « محمد بن
قلاوون » لأسد الدين « رميثة » بن أبي نمى ، بإمرة مكّة المشرفة ، عوضاً عن أخيه
« عطيفة » عند قتل الأمير الدمرجان دار وولده خليل ، من إنشاء المولى تاج الدين
أبن البارنبارى رحمه الله ، في المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعائة ، وهى :

الحمد لله الحكيم : فالشّريف من أتبع أوامره ، العظيم : فالسعيد من اتّقى غَضَبه
بأعماله الزاكية ونيّاته الطّاهره ، الكريم : فالفائز من سلك مراضيه فى الدنيا ليأمن
فى الآخرة ؛ ومن أخاف عاكف حرم الله وباديه فقد بآء بالأفعال الخاسره ، ومن عظم
شعائر الله فقد رَقَل فى حُلل الإقبال الفآخره .

نحمده على أظافه الباطنة والظّاهره ، ونشكره ونرجوه وما زال يُنحج راجيه ويزيد
شآكره ؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادة من آتخذ الحق ناصره ،

وأودع إخلاصها ضَمَائِرَهُ ، ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله الذى بعثه الله من الحرم
فألف القلوب النَّافِرَهُ ، وفتح مَكَّةَ فطهرها من الزُّمَرَةِ الكافِرَةِ ، وقال فى ذلك اليوم :
« من أغلق عليه بابَهُ فقد آمن » فأمسى أهلها ونفوسهم بالأمن ظافره ؛ صلى الله عليه
وعلى آله بنى الزهراء العترة الزاهرة ، وعلى صحبه النجوم السافره ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإنَّ الحكم [بالعدل] شعارنا ، وبالله آقِدُأُونَا وآقِدَارُنَا ؛ وفى الإحسان
رَغْبَتُنَا ، وفى كلِّ عنق مِثْنًا ، نصَّح ونمَّح ، وزعى من أمسى قديم الهجرة فى ولايتنا
وأصبح ؛ وقيم من أهل البيت لحفظ ذلك البيت الأصلح فالأصلح ، وتقدم من لم
يزل مقديماً وإلى صوب الصواب ينجح فينجح ، ونجى من الهلكة من لاح له
منهج الخير فسلكه فأفلح .

وكانت مَكَّةُ المعظمة هى أم القرى ، والبلد الامين المجزل فيه القرى ؛ نشأ الإسلام
فى بطحاءها ، وحرَّمها الله فلا ينفر صيدها ، ولا يعصد شجرها ، ولا تحل لقطتها
إلا لمنشد تأكيداً لتشریفها وإعلائها ؛ وطلعت شمس النبوة من شعابها ، وغسلت
الذنوب بوبل سحابها ؛ فيها زمزم وكرة جبريل ، وفيها بدأ الوحي والتزيل ، وإليها
أعنت الركاب فى كلِّ أبطح للطى مسير ومسيل ؛ فكم أتى إليها من سائر الناس
سائر ، وكم أتى إليها الناس رجالاً وعلى كلِّ ضامر ؛ فالرحمة مستقرة بين نواحيها
والعيون تملئ بأنوار تلك الأستار حتى تجتليها ، والشفاه تشرَّف بتقيل ذلك الحجر
الذى يشهد لما فى غد ويقيها ؛ فطوبى للمتقيها ، ومحقاً لمن أخاف وفد الله فيها ؛ ونحن
قد بصرنا الله بخدمة بيتها المحرم ، وحرَّمها المعظم ، وكرَّر إليها حجنا وكرَّمه : فله الحمد
أن كرَّر حجنا وكرَّمه ؛ وما برحنا نقيم فى إمارتها من العترة النبوية كلَّ شريف النسب ،

وَكُلٌّ مِنْ يَكْتَسِبُ فِيهَا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى : وَكُلُّ أَمْرِيٍّ وَمَا أَكْتَسَبَ ؛ فَمَنْ أَصْلَحَ مِنْهُمْ أَقْنَاهُ ، وَمَنْ حَادَّ عَنْ الطَّاعَةِ وَجَحَدَ النِّعْمَةَ أَزْلَاهُ ؛ وَمَنْ أَخَافَ فِيهِ السَّبِيلَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ إِلَى الْخَيْرِ سَبِيلًا ، وَمَنْ أَسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ وَوَلَّيْنَاهُ : وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي مَازَالَتْ خَوَاطِرُنَا الشَّرِيفَةُ تَقْدِّمُهُ عَلَى بَنِي أُنَيْهِ ، وَتَحْتَارُهُ أُمِيرًا وَتَجَنَّبِيهِ ؛ وَرُبَّمَا سَلَفَتْ مِنْ بَيْتِهِ هَنَاتٌ صَفَحْنَا عَنْهَا الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ، وَمَا قَابَلْنَاهُمْ إِلَّا بِمَا يَلِيقُ لِمَجْدِهِمُ الْحَسَنِيَّ الْحَسَنَ الْأَصِيلَ ؛ وَالْإِمْرَةُ وَإِنْ كَانَتْ بِيَدٍ غَيْرِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ فَمَا كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ أَمِيرٌ عِنْدَنَا سِوَاهُ ، لِأَنَّهُ كَبِيرُ بَيْتِهِ الْمَشْكُورُ مِنْ سَائِرِ الْأَقْوَاءِ .

وَالْآنَ قَدْ أَقْتَضَتْ أَرَؤُنَا الشَّرِيفَةُ أَنْ نَقِيمَهُ فِي بَلَدِهِ أَمِيرًا مُفْرَدًا إِلَيْهِ يَشَارُ ، وَأَنْ نَصْطَفِيهِ : وَإِنَّهُ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمِصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارَ ، وَأَنْ نَجْعَلَ الْكَلِمَةَ وَاحِدَةً لِيَأْمَنَ التَّزِيلُ وَالْجَارُ ؛ وَمَتَى تَجَادَبَ الْأَمْرَ كَلِمَتَانِ فَسَدَ نِظَامُهُ ، وَمَتَى أُفْرِدَ الْحَكْمَ حُسْنَتُ أَحْكَامُهُ ؛ وَمَتَى تَوَحَّدَ الْأَمْرُ زَالَ الْأَخْتِلَافُ ، وَزَادَ الْأَثْلَافُ ، وَأَقْبَلَتْ أَيَّامُهُ .

فَلَذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ تَفْوِضَ إِلَيْهِ إِمْرَةً مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ ، عَلَى عَادَةِ وَالِدِهِ . فَلْيَتَقَلَّدْ مَا فَوَّضْنَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِمْرَةِ وَالنِّيَابَةِ بِمَكَّةَ الْمُعَظَّمَةِ : شَا كَرًا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ مَرَاضِينَا الَّتِي لَا نَجَاةَ لِمَنْ لَمْ يَنْبَلْ مِنْهَا نَصِيبًا مَوْفُورًا ، وَلَا فَوْزَ لِمَنْ لَمْ يُدْرِكْ مِنْهَا حِظًّا كَبِيرًا ؛ وَلْيُشْرَعْ فِي تَهْيِيدِ الْبِلَادِ مِنْ إِزَالَةِ الْمُظْلَمَةِ ، وَلْيُطَهَّرْهَا مِنْ كُلِّ مُجْتَرِيٍّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبُقْعَةِ الْحَرَمَةِ ؛ وَلَا يُقَرَّبْ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ فَيُعْدِيهِ ، وَلَا يَرْجِعْ لِمَنْ فِيهِ شِقَاقٌ ظَاهِرٌ فِي صَفَحَاتٍ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتٍ فِيهِ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَامٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَصَيَّرَ جَنَّ بَيْتِهِ عَلَى مَسْطِيعِهِ مِنَ الْفَرَضِ ؛ وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ مَعَادًا وَمَعَاذًا ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ

عَرَفَةَ : « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ حُرْمَةً يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا » .

فَلْيَمْنَعْ الدِّمَاءَ مَنْ أَنْ تُرَاقَ ، وَالْأَمْوَالَ مَنْ أَنْ تُؤْخَذَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ؛ وَالظُّلْمَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ حَرَامٌ ، وَبَنُو حَسَنٍ أَحَقُّ بِاتِّبَاعِ سُنَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَأَتَقَى اللَّهَ لَتَلْقَاهُ بِالْوَجْهِ الْأَبْيَضِ وَالْعَمَلِ الْأَعْرَبِ ، وَأَتَّبَعَ سُنَّةَ جَدِّكَ : فَعَلَى أَتْبَاعِهَا حَتٌّ وَأَمْرٌ ؛ وَأَلْقَ وَفَدَ اللَّهَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالْحُسْنَى فَهُمْ أَضْيَافُهُ ، وَأَمَّنَ الْحَجَّ لَيْتَمَ تُسْكُهُ وَطَوَافُهُ .

هَذَا تَقْلِيدُنَا لَكَ أَيُّهَا الشَّرِيفُ : فِطْبُ نَفْسًا بِمَرْضَانَا ، وَصَفِيحًا عَمَّا مَضَى وَمَنْحِنًا الرِّضَا حَقًّا يَقِينًا ، لِأَنَّا نَحْقُقُ أَنَّ الْإِحْسَانَ يَحْرُسُنَا وَيَقِينَا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تَقْلِيدِ شَرِيفِ لَأَمِيرِ مَكَّةَ الْمَشْرِفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَنَصَبَ فِيهِ لِلْقَانِتِينَ رُكْنًا ، وَجَعَلَ أَرْضَ الْحَرَمِ لَا تَيْدُ بَرَكَاتِهَا وَلَا تَفْنَى ، وَجَعَلَ لَشَجَرَةِ النَّسَبِ الْمَاشِيَّ فِيهَا أَصْلًا شَرِيفًا كَمْ أَنْجَرَجُ غُصْنًا ، وَآتَى نَبِيَّ الْحَسَنِ فِيهَا إِحْسَانًا مِنْ لَدُنْهُ وَحُسْنًا ، وَأَقَامَ مِنْهُمْ أَمِيرًا فِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ الْأَسْنَى .

نَحْمَدُهُ فِرَادَى وَمَثْنَى ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً كَامِلَةً اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَيَّدَ اللَّهُ بِهِ لِلدِّينِ خَيْرَ مَبْنَى ، وَأُصْحَتِ الضُّلُوعُ عَلَى حَبَّتِهِ تُنْحَى ، وَثَمَارُ الْخَيْرِ مَمَّا يَنْ رَوْضَتِهِ وَمِنْبَرُهُ يُنْجَى ، وَخَصَّه اللَّهُ بِالشَّرْعِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْدِّينِ الْأَهْنَى ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً فِي الصَّدُورِ لَهَا سُكْنَى ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فإنَّ أمَّ القرى ، خير البلاد بلا مِراً ، قد جعل الله للناس إليها رحلةً وسرى ، وهجروا في قصديهم إليها لذيذ الكرى ، ونصب فيها بيتاً ميتين العرى ، وأنبع فيها بئراً ماؤها يشفي السقيم ويبرئ الورى ، ^(١) وجعل فيها للشرف بيتاً على الذرى ؛ فأمرها المطاع ، من أهل بيت النبوة لا يُحب ولا يُضاع ، ذوهمة تخافها السباع ، ويرهبها البطل الشجاع ؛ يعد من الآباء أسلافاً كراما ، كمصابيح السماء تجلو ظلاما ، وقد طيب الله مقامهم وأعلى مقامهم حين جاوروا مقاما .

ولما كان هو شريف العرب ، المعرق في النسب ، الطيب الحسب ، المحي من آثار آبائه ما ذهب ، الشريف النفس : فلا يلتفت إلى العرض الأدنى من الرقة وأكد شكره الحرم وأهله ، وأثنى على صفاء سيرته الصفا وعلى مروءته المروءة إذ طاب أصله ؛ قد أقتفى في الكرم أباه وجدّه ، وأمن سبيل الحاج من جهة البر ومن جهة البحر من جدّه .

فذلك رسم أن يفوض إليه فليحل البلد الحرام حاكماً وأمراً ، وليستجلب له من العاكف والباد شاكراً ؛ وليحسن للطائفين والعاكفين والرَّع السُّجود ، وليتبع آثار آبائه أهل الكرم والجود ؛ وليؤمن الخائف في تلك التهائم والتجود ، وليردع الخائف عن حيفه فلا يعود ، وليعلم أنه بوادٍ غير ذي زرع ولكن فيه للبركات ظل ممدود ، وخير مشهود ؛ وبمكة مولدٍ أشرف مولود ، وجدّه الحسن رضى الله عنه فليكن حسن الفعل فكاً ساد يسود ، وليعرب عن الثناء الأبيض عند ما يتمسك بتلك الستور السود ؛ وليتلق المحمل الشريف في كل عام ، بالاحتفال والإكرام ، والطاعة التي يبلغ بها المرام ، وليقف مع أمراء الحاج مقبلاً حرمتهم بحيل الاحترام ؛ وليكف الأشرار من العبيد والموالي ، عن النهب والتخطف لو قد

(١) الورى اسم للقيح يكون في الجوف .

الله الذي قَطَعَ السُّرَى بِالْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي ؛ وَلِيُلَازِمَ خَدَمَةَ الْحَمَلِ الشَّرِيفِ عَلَى مَا يَنْسَبُ شَرَفُهُ ، حَتَّى يَقِفَ بَعْرَفَهُ ، ثُمَّ يَدْفَعُ إِلَى الْمَزْدَلِفَةِ ، إِلَى أَنْ يَقْضَى الْحَجَّ وَيَرْحَلَ مِنْ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ ؛ وَلِيَكُنْ سِيَاجًا عَلَى الْجُحَّاجِ ، فِي تِلْكَ الْفِجَاجِ ، حَتَّى لَا يَفْقَدَ أَحَدُهُمْ عَقَالًا ، وَلَا يَجِدَ آخِزًا ، وَيَرْحَلُونَ عَنْ مَكَّةَ الْمُعْظَمَةِ مِنَ الذُّنُوبِ خِفَافًا وَبِمَنْنَةِ ثِقَالًا . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَهِيَ غَنَى عَنْ أَنْ نُطِيلَ لَهُ فِيهَا مَقَالًا ، وَتَقَوَّى اللَّهُ فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهَا حَسَنَ حَالًا ، وَأَتَمَّ أَهْلُهَا كَرَّمَكَ اللَّهُ أَهْلًا وَآلًا ، وَاللَّهُ اللَّهُ فِي حِفْظِ جَانِبِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَلْيَرْدَعْ عَنِ الْخَوْضِ فِيهِمْ جُهْلًا ، وَاللَّهُ يُجْعَلُهُ مَغْمُورًا مَسْرُورًا يَنْتَعِمُ اللَّهُ تَعَالَى ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .



وهذه وصية لأُمير مَكَّةَ ، أوردتها في "التعريف" :

وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ وُلِّيَ حَيْثُ وُلِدَ بِمَكَّةَ فِي سُرَّةِ بَطْحَائِهَا ، وَأُمِّرَ عَلَيْهَا مَا بَيْنَ بَطْنِ نَعْمَانِهَا إِلَى بَحْوَةِ رَوْحَانِهَا ؛ وَأَنَّهُ قَدْ جُعِلَتْ لَهُ وَلَايَةُ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي بِهِ تَمَّ شَرَفُهُ ، وَعَلَتْ غُرْفُهُ ، وَعَرَفَ حَقَّهُ لَهُ أَبْطَحُهُ وَمَعْرِفُهُ ، إِذْ كَانَ أَوَّلَى وَلَاةِ هَذَا الْحَرَمِ بِتَعْظِيمِ حُرْمَاتِهِ ، وَسُرُورِ جَوَانِبِهِ بِمَا يُلُوحُ مِنَ الْبُشْرِ عَلَى قِيَمَاتِهِ ؛ وَلِأَنَّهُ أَحَقُّ بِنِي الزَّهْرَاءِ بِمَا أَبَقَتْهُ لَهُ أَبَاؤُهُ ، وَأَلْقَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ قُصَى جَدِّهِ الْأَقْصَى أَنْبَاؤُهُ ؛ وَهُوَ أَجْدَرُ مِنْ طَهَرِ هَذَا الْمَسْجِدِ مِنْ أَشْيَاءَ يَتَرَهَ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ فُحْشُ عَائِشَا ، وَشَنْعَاءُ هُوَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَّبَعُهَا « وَأَهْلُ مَكَّةَ أَعْرَفُ بِشَعَائِهَا » .

فَلْيَتَلَقَّ رَايَةَ هَذِهِ الْوَلَايَةِ بِالْيَمِينِ ، وَلْيَتَوَقَّ مَا يَتَخَوَّفُ بِهِ ذَلِكَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَهُوَ بَيْنَ رُكْنٍ وَمَقَامٍ ، وَأَنَّهُ قَدْ بَايَعَ اللَّهُ : وَاللَّهُ عَزِيزٌ دُونَ أَنْتِقَامٍ ؛ وَلْيَعْمُرْ تِلْكَ الْمَوَاطِنَ ، وَيَغْمُرْ بِرَّهَ الْمَارِّ وَالْقَاطِنِ ؛ وَلْيَعْمَلْ فِي ذَلِكَ

بِمَا يُنَجِّثُ عَنْهُ نِجَارَهُ ، وَيَأْمُنُ بِهِ سُكَّانُ ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي لَا يُرَوَّعُ حَمَاهُ فَكَيْفَ
جَارُهُ ؛ وَلْيُنِصِّصْتُ إِلَى أَسْمِهِ [عَزَّوَجَلَّ] حَيْثُ يُعَانُ بِهِ الدَّاعِي عَلَى قُبَّةِ زَمْرَمٍ فِي كُلِّ مَسَاءٍ
وَلْيُعْرِفْ حَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَلْيُعَامِلْ مِنْ وُلَّى عَلَيْهِمْ بِمَا يَلِيْقُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ مِنْ وَقْفٍ تَحْتَ
مِيزَابِ الرَّحْمَةِ ؛ وَقَدْ أَكَّدَ مَوْتَهُ وَاللَّهُ اللَّهُ فِي تَقْضِيهِ ، وَمَدَّ يَدَهُ عَلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ
يَمِينِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ؛ وَلْيَتَبَصَّرْ أَيْنَ هُوَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْتَأْمَنَهُ عَلَى بَيْتِهِ الَّذِي بَنَاهُ ، وَسَلَّمَهُ
إِلَيْهِ بِمَشْعَرِهِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ خَيْفِهِ وَمِنَاهُ ؛ وَإِنَّهُ الْبَيْتُ الْمَقْصُودُ : وَكُلُّ مَنْ تَشَوَّقَ حِمَى
لَيْلٍ فَإِنَّمَا قَصَدَهُ أَوْ لَعَلَّعَ بَلَعَلَعٍ فَإِنَّمَا عَنَاهُ ؛ وَفِي جَمْعِهِ يَجْتَمِعُ كُلُّ شَيْئٍ ، وَفِي لَيْلٍ
مِنَاهُ يَطِيبُ الْمَيْتَ ؛ وَبِجُصْبِهِ تُقَامُ الْمَوَاسِمُ ، وَتَقْتَرُّ الشُّغُورُ الْبَوَاسِمُ ، وَتَهْبُّ مِنْ قَبْلِ
نَعْمَانَ الرِّيَّاحُ النَّوَاسِمُ ؛ وَفِي عَقْوَةِ دَارِهِ مَحْطُ الرِّحَالِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَمَقَرُّ كُلِّ ذَاتِ عُودٍ
تُجَذَّبُ بِقَلْعٍ وَعُودٍ تُقَادُّ بِزِمَامٍ ؛ وَإِلَيْهِ تَضْرِبُ التِّجَارُ الْبَرَارِيَّ وَالْبِحَارُ ، وَتَأْتِيهِ الْوُفُودُ
عَلَى كُلِّ قِطَارٍ يُحْدِثُ مِنَ الْأَقْطَارِ ؛ وَكُلُّ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَأْتُونَ فِي ذِمَامِ اللَّهِ بَيْتِهِ الَّذِي
مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَإِلَى مَحَلِّ ابْنِ بَنْتِ نَبِيَّهِ الَّذِي يَلْزِمُهُ مِنْ طَرِيقِ بَرِّ الضَّيْفِ
مَا أَخَذَ لَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ضَامِنًا .

فَلْيَأْخُذْ بِنِيطَاعِ مَنْ عَصَى ، وَلْيَرْدَعْ كُلَّ مُفْسِدٍ وَلَا سِيَّامَا الْعَبِيدُ فَإِنَّ الْعَبْدَ
الْمُفْسِدَ لَا يَزُجُّهُ إِلَّا الْعَصَا ؛ وَلْيَتَلَقَّ الْحُجَّاجَ بِالرُّحْبِ وَالسَّعَةِ ، فَهَمُّ زُورَارِهِ وَقَدْ دَعَاهُمْ
إِلَى بَيْتِهِ وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى دَعَا ؛ وَلْيَتَلَقَّ الْحَمِلَ الشَّرِيفَ وَالْعَصَائِبَ الْمَنْصُورَةَ ،
وَلْيَخْدُمْ عَلَى الْعَادَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى مَعْنَى وَمَعْنَى صُورِهِ ؛ وَلْيَأْخُذْ
بِخَوَاطِرِ التِّجَارِ فَإِنَّهُمْ سَبَبُ الرِّفْقِ لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَتَوْسِيعَةِ مَا لَدَيْهِمْ ، وَالْمُسْتَجَابُ فِيهِمْ
دَعْوَةُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - إِذْ قَالَ : ﴿ وَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾ . وَلَا تَخْشَفْ أَمْوَالَهُمْ بِغَرَامَةٍ يَقِلُّ بِهَا الْغَنَمُ ، وَلَا بِظُلَامَةٍ فَإِنَّهُ بِإِزَاءِ هَذَا

الْبَيْتِ الَّذِي يُرَدُّ دُونَهُ مَنْ أَرَادَ فِيهِ الْخَادَا بَظُلْمٍ ؛ وَلْيَنْظُرْ كَيْفَ حُسِبَ دُونَهُ الْفِيلُ ،
وَلْيَكْفِ عَادِيَّةً مَنْ جَاوَرَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ حَتَّى لَا يَخَافَ ابْنُ سَبِيلٍ ؛ وَلْيُقِمِ شَعَائِرَ
الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ ، وَأَوَامِرَ أَحْكَامِهِ الَّتِي قَامَتْ بِأَبُويِهِ : بِحُكْمِ جَدِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَيْفِ أَبِيهِ حَيْدَرٍ . وَلْيَأْمُرْ طَوَائِفَ الْأَشْرَافِ وَأَشْيَاعَهُمْ وَسَائِرَ أَهْلِ
مَوَالِيهِمْ وَأَتْبَاعَهُمْ بِلَزُومِ مَا كَانَ عَلَيْهِ صَالِحُ السَّلَفِ وَمَا عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ ، وَتَجَنَّبِ مَا كَانَتْ
الزَّيْدِيَّةُ زَادَتْ فِيهِ وَكَفَّ الْأَطْلَاعُ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ لَدَيْهِ عَمَّا أَسْتَرَعَاهُ
وَقَدْ أَصْبَحَ وَهُوَ لَرَّاعٍ ؛ وَلِيَأْهَ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَلَى شَرَفِ بَلَدِهِ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَقْدَسُ
أَحَدًا ، أَوْ شَرَفَ مُحْتَدِهِ ، فَإِنَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ وَلَدٌ وَالِدًا وَلَا وَالِدٌ وَلَدًا .

الوظيفة الثانية

(قضاء مكة، ويكتب به توقيع في قطع الثلث بـ«السامي» بالياء)

وهذه نسخة توقيع بقضاء مكة المشرفة :

الحمد لله الذي أنفذ الأحكام ، بالبلد الحرام ؛ وأيد كلمة الشرع في بلده
ومُنَشَّئِهِ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ، وَجَعَلَ الْإِنْصَافَ الْجَزِيلَ ، حَوْلَ حِجْرِ إِسْمَاعِيلَ ؛
مُتَّسِقِ النَّظَامِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا حَسَنَ الدَّوَامِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
عَبْدٍ فَائِمْ بِحَقِّهَا أَحْسَنَ الْقِيَامِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ السَّامِيُّ مِنْ وَلَدِ
سَامٍ ، وَالَّذِي قَامَ لِلَّهِ حَتَّى وَرِمَتْ مِنْهُ الْأَقْدَامُ ؛ وَأُسْرِيَ بِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى السَّمَاءِ
مَرَّتَيْنِ : فِي الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَئِمَّةَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فإن وظيفة القضاء بمكة المعظمة هي أجل منصب بتلك الأباطح ، ونورها في الجبين لأيج ؛ فإن الشرع نسا منها والوحي أنزل فيها فزهيته البطائح ، وظهرت النصائح ، وأطربت الصوادح ، وأسكنت النوايح ، وغمرت المنائح ، وانتشرت المصالح ، فمن ولي الحكم بها وعدل فذلك هو العدل الصالح ؛ وكيف لا ؟ وماء زمزم شرابه ، وأستار البيت تسمها أثوابه ، وعلى الله أجره وتوابه ؛ وفي ذلك الجنب الشريف كرم جنابه ، وإذا دعا الله عند الملتزم جاءه من القبول جوابه .

ولما كان فلان هو فرع الدوحة المثمرة ، ومحصل من العلوم الشرعية المادة الموقرة ، وله البحوث التي [هي] عن أحسن الفوائد وغرر الفرائد مسفرة ؛ ورضي أهل الحرم ، لما جيل عليه من خير وكرم ، [تمسك] بالعروة الوثقى والقوى الأتقى فلا جرم .

فلذلك رسم ... - لا زال ...

فليكن في أم القرى ، كالوالد المشفق على الوري ؛ وليتمسك من التقوى بأوثق العرا ، وليخش رب هذا البيت إنه سميعٌ عليمٌ ويرى ، وفد الله قطعوا إليه المراحل في السرى ، ليصالحوا كفه المضمخ عنبرا ؛ وليقض بين الخصوم بالحق فمثله من درأ الباطل : قد جعله الله جار بيت عالي الذرا ، وفي أرض شرف الله جبالها وقدس غيرانها فمنها غار ثور وغار حرا ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حرا ، وأوى إلى غار ثور لما هاجر مؤيدا مظفرا ؛ والوصايا كثيرة وملاؤها تقوى الله فليتمسك بها من أمام وورا ، والله تعالى يجعل نهاره منورا ، وليله مقمرا ، بتمه وكرمه !

القاعدة الثانية

(المدينة النبوية، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفة الأولى

(الإمارة)

والأمر فيها على مامر في إمارة مكة المشرفة .

وقد تقدم أن إمارتها في بني الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ،
ويكتب لها تقليد في قطع النصف بـ «المجلس العالى» أيضا بالقب مخصصة ،
وقد تقدم ذكر ألقابه .

وهذه نسخة تقليد شريف بإمارة المدينة النبوية ، كتب به للأمير بدر الدين
«ودى بن حماز» من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله ، سقى الله عهده :
(١)

الحمد لله الذى صرّف أمرنا فى أشرف البقاع ، وشرف قدرنا بملك ما نعتقد على
فضله الإجماع ، وعرف أهل طيبة الطيبة كيف طلع البدر عليهم من نيات الوداع ؛
وأمدّها بؤدى صغر للتجيب وإلا فهو واد متدفق الأجراع .

نحمده على نعمه التى أغنت مهابط الوحى عن ارتقاب البرد اللعاع ، وارتقاء النظر
مع بدره المنير إلى كل شمس سافرة القناع ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة محمد من الضلال ما شاع ، ومن البدع ما استطار له فى كل أفق شعاع ؛
ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف من أنفت به حمية الامتناع ، وألفت

(١) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكمين تبعا لضبط النسخة والظاهر ما هنا .

بنا سنَّته أن ترعى لأهلها ولا تُراع، وعصفت ريحها بمن يمالى دينه فمال إلى
الابتداع، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ليس في فضل أحدٍ منهم نزاع،
وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن الاهتمام بكل جهة على قدر شرفها، وعلى حسب الدرّة الثمينة كرامة
صَدَفها، والكمّامة بخرها، والغمامة بمطرها، والهالة بما يجلو الدجى من قمرها،
والمدينة الشريفة النبويّة لولا ساكنها ما عاجت إليها الركائب، ولا ناجت حدائقها
غُر السحاب، ولا وقفت بتأرجح شذا الروضة الغناء بها الجنائب، ولا بكى مقيم
دمن العقيق بمنله من دم ذائب، ولا هاج إليها البرق متألّقا، ولا هام صبّ فيها
بظلمات سابع والنقا، ولكنها مئوى النبوة تُرابها، ومهوى الرسل جنابها، ومأوى
كتاب الله الفسيح رحابها، دار الحجرة التي تعالت شمس الشريعة بأفقيها، وتوالت
سحب الهدى من بين أبيرقها، وهى ثانية مكة المعظمة في فضلها إلا ما ذهب إليه
في تفضيلها على مكة مالك بن أنس، ومنها أنبعثت للهدى نؤارة كل نور وشُعاع
كل قبس، وكانت لنبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم أبقي داريه، وأعلى سماء
حوث ثلاثة أقمار منه ومن جاريه .

ولما كان بها لبعض الولاة من الشيعة مقام، ولهم فيها تحاملاً لا يجوز معه
من الانتقاد إلا الانتقال أو الانتقام، حتى إنّه فيما مضى لما كثُر منهم على بعض
الصاحبين - رضى الله عنهم - الإصرار، وأُشْرأوا في التظاهر بسبهما إلى هنك
الاستار، دب من النار في هذا الحرم الشريف ما تعلّق بكل جدار، وأبّت لها حمية
الغضب إلا أن يطهر ما سنَّته أيدي الروافض بالنار، فلما اتّصل بنا الآن أنّ منهم
بقايا وجدوا آباءهم على أمّه، واقتدوا بهم في مذهب الإماميّة بما لا أَراده الله تعالى

ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أولئك الأئمة ؛ وحضر المجلس العالى الأميرى ،
الأصيل ، الكبيرى العادلى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الرعى ، المقدى ، الذخرى ،
الكافى ، الشرفى ، الحسى ، النسى ، الأوحى ، البدرى : عز الإسلام
والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ؛ جمال العزة
الطاهرة ، جلال الأسرة الزاهرة ؛ طراز العصابة العلوية ، كوكب الذرية الدرية ،
خلاصة البقية النبوية ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، نسيب أمير المؤمنين ؛ ودى بن
جهاز الحسينى - أدام الله تعالى نعمته - بين أيدينا الشريفة بمحضر قضاة القضاة
الأربعة الحكام ، وتذم بأن مع طلوع بذر المنير لا تبقى ظلامه ولا ظلام ، وتكفل
لأهل السنة بما أشهدنا الله به عليه ومن حضر ، وتلقى بإظهار فضل الترتيب كما هم
عليه : النبى صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ؛ فما اختصهما الله بجواره إلا ليثبت
لها على غيرهما إفضالا ، وليجعل قبورهما فى معرفة أقربهم منه درجة مثالا ؛ لما
تواترت به الأحاديث الشريفة فى فضائلهما مما هو شفاء الصدور ، ووفاء بعهده
إذ يقول : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها
بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور » ؛ فلم يسعنا إلا أن نجعل له منا تقليدا
يحو بحده ما حدث من أحداث البدع ، ويحدد من عهد جده نبينا صلى الله
عليه وسلم فى معرفة حق أصحابه رضى الله عنهم ما شرع ؛ وتوقا بأنه من بيت كان
أول هذا الدين الحنيف من دله ، ومبدأ هذا الحق الظاهر ما أثلته ومثلته فى سلفه
الشريف بأقارب متصله ؛ وأنه هو المورث من الفخار ما ورثه عن آبائه الكرام ،
الحديث عن كرم الحدود بما لا يحقر له جوار أو يحقر ذمام ؛ المشرق من الأسرة
العلوية بذرا تما ، المحدث به من الكواكب العلوية ما يظن به (٩) أبا تسمى وأبنا

تَسَامَى ؛ الْمُتَخَبُّ مِنْ آبَاءِ صَدَقَ أَحْسَنُ فِي دِيَارِهِمُ الصَّنِيعُ ، وَحَفَظَ مِنْ حَسَبِهِمُ الْكَرِيمُ مَا أَوْشَكَ أَنْ يَضِيعَ ؛ وَاسْتِضَاءَ بِلَامِعَةٍ مِنْ هُدًى سَلَفِهِ السَّابِقُ ، وَهَامِئَةٍ مِنْ نَدًى مَا يَرُويهِ السَّحَابُ عَنِ الْجُودِ وَالْبَرَقُ عَنِ الْمَهَارِقِ ؛ تَهْتَرُ بِمَقْدَمِهِ الْمَدِينَةُ سُرُورًا ، وَتَقْتَرُّ بِهَا مِنْهُ بِسَبَبِ كَأَنَّ عَلَى نَسَبِهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا ؛ وَيَتَبَشَّرُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا بَيْنَ يَحْيَى حِمَاهَا ، وَيُحْيِي حَيَّاهَا ؛ وَتَتَشَوَّفُ مِنْهُ رُبَا كُلِّ نَبِيَّةٍ إِلَى ابْنِ جَلَّالَهَا ، وَطَلَّاعِ شَيَآيَاهَا ؛ مَعَ مَا لَا يُجَحِّدُ مِنْ أَنَّ لَهُ فِيهَا مِنْ أَبِيهِ حَقَّ الْوِرَاثَةِ ، وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا ثَانِي الْمَسْجِدَيْنِ آخِثًا إِلَى ثَانِي أَثْنَيْنِ تَعْظِيًّا لِلوَاحِدِ وَفِرَارًا مِنَ الثَّلَاثَةِ ؛ لِيَكُونَ هُوَ وَمَنْ فِيهَا الْآنَ بِمَنْزِلَةِ يَدَيْنِ كِلَاتَهُمَا تَقْبِلُ الْأُخْرَى ، وَأُذُنَيْنِ كِلَاتَهُمَا تُوعِي دُرًّا ؛ وَعَيْنَيْنِ مَامِنْهُمَا إِلَّا مَا يُدْرِكُ أَمْرًا بَعِيدًا ، وَفَرْقَدَيْنِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا فَرِيدًا ؛ وَقَرْنَيْنِ لَا يَغْلَبُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فِي التَّسْمِيَةِ بِالْقَمَرَيْنِ ، وَعُمْرَيْنِ وَكَفَى شَرَفًا أَنْ لَا يُوجَدَ فِي الْفَضْلِ ثَالِثٌ لِلْعُمَرَيْنِ .

فُرِسَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَى ، السُّلْطَانِي ، الْمَلَكِي ، الْفُلَانِي - زَادَ اللَّهُ بِهِ الْمَوَاطِنَ شَرَفًا ، وَزَادَ بِهِ الْبَوَاطِنَ الشَّرِيفَةَ حُبًّا وَشَغْفًا - أَنْ يَقُوضَ إِلَيْهِ نِصْفُ الْإِمْرَةِ بِالْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، شَرِيكًا لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ ابْنِ أَخِيهِ ، وَرَسِيلاً مَعَهُ فِيمَا يَلِيهِ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا حَقٌّ لَا يَكَادُ الْآخَرُ يُخْفِيهِ ، هَذَا لَهُ بَرُّ الْوَلَدِ وَهَذَا لَهُ حَرَمَةُ الْوَالِدِ لِأَنَّ ابْنَ الْأَخِ وَلَدٌ وَعَمَّ الرَّجُلُ صَنُوَ أَبِيهِ ؛ فَتُقَسَّمُ الْإِمْرَةُ بَيْنَهُمَا نِصْفَيْنِ ، وَتُوسَمُ جِبَاهُ الْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنْهُمَا لَهَا بِأَسْمَيْنِ .

وَالْوَصَايَا تَمُدُّ مِنْ عَنَانِهَا ، وَتَعُدُّ مِنْ أَعْيَانِهَا ؛ فَأَقُولُهَا تَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ شِعَارِ الْقُلُوبِ ، وَبَشَائِرِ الْغُيُوبِ ، وَأَمَّا نَرْجَاجُ كُلِّ مَطْلُوبٍ ؛ وَالْإِعْتَصَامُ بِالشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ : فَإِنَّهَا الْحَبْلُ الْمُدُودُ ، وَالْحَبْلُ الَّذِي تَمَّ دُونَهُ مِنْ عَقَبَةِ كَثُودٍ ؛ وَالْإِتِّهَاءُ إِلَى مَا نَصَّ عَلَيْهِ

الكتاب والسنة والإجماع ، وقص جناح من مآل به الهوى إلى مجاذبة الأَطْعَام ؛ وَلَتَلْقَ وفد الله الزائر بما أَلْفَه نزيل هذا الحِمَى من كرامة الملتقى ، وتوفى المذمة فإنها دَنَسٌ لا يَحْدُ مثله نَقَاءُ هذا النقا ؛ ونعني بالمذمة ما تُسَبِّ إلى الرَوَافِضِ من البِدْعِ التي لا تُظَهِّرُهَا غُرُّ السحاب ، ولا يستبج معها لدخول المسجد الطاهر من قَنِع بمقامه حَوْلَه التيمم بالتراب ؛ ولا يدع أحدا من هذه الفرقة الضالة بعلى ولا يعيره بما يكون به مثله ، ولا يشبه قلبه في محبة أهل البيت - سلام الله عليهم - بإناء أمثلاً ماءً ولم تبق فيه فضله .

ولا يظن جاهل منهم أن عليه - كرم الله وجهه - كان على أحد من الصالحين معاتبا أو عائب ، أو أنه تأوّل في خلافتها معتقدا أن أحدا منهم غاصب ؛ فما تأخر عن البيعة الأولى قليلا إلا لأشتغاله بما دهمه بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم من المصائب ، وإلا فقد آخذ أم ولد من سبي أبي بكر رضي الله عنه لا كما يدعيه كل كاذب ، وقد تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه آبنته أم كلثوم وأقام بأمره الحدود وناب عنه وهو غائب ؛ فيكف من عادية هؤلاء الروافض الأشرار ما سيصلون في الموافقة بناره ، وسيصلون إلى الموافقة على ما طار من شراره ؛ ولا يدع للإمامية إماما يقتدى به منهم قوم شرار ، ولا قاضيا يقضى بينهم : فإنه إنما يقطع لمن قضى له أو عليه قطعة من نار ؛ ولا عالما يرفع له علم ، ولا يفتح لهم بفتوى على مذاهبهم فم ، حتى ولا ما يتحرك به في قيم الدواة القلم .

وليظهر هذا المسجد الشريف من دنسهم ، ولئيط ما يحمله أديم مجلدات التصانيف من نجسهم ؛ وسكان هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خالطهم من زمر المقيمين والسائرين ؛ يُحَسِّنُ لأموالهم الكفالة ، ولا يتعرض لأحد منهم بما يؤذى نفسه ولا يناله ؛ فهم في جوار نبينا صلى الله عليه وسلم وفي شفاعته ،

وكلّ منهم نزيل حرمه ومكثّر سواد جماعته ؛ وحققهم واجب على كل مسلم فكيف على حامى ذلك الحمى ، بل من له إلى نسبه الشريف مسمى .

وأصحّب رفيقك بالمعروف فإنكما مفترقان والسميد من لا يذم بعد فراقه ، ومُسْتَقَانَ إلى كل مورد لا يدرى أيكما المحد في سباقه ؛ ومتفقان على فرد أمر وأفضلكما من داوم صاحبه على إرفاقه ، وصحبه على وفاقه .

وأما ما للمدينة الشريفة من تهايم وتُجود مضافة إليها ، ومُسْتِظَلَّةٌ بجُدِّرها أو متقدمة في الصحراء عليها ، فهي ومن فيها : إما أن تُوجد بقلوبهم فهم أعوان ، وإما أن تنفر فهم أشبه شيء بالابل إذا نقرت تعلق بذنب كل بعير شيطان ؛ فأقربهما إلى المصلحة قريبيهم ، وتأليفهم بما يقرب به بعيدهم ويزداد قربى قريبيهم ؛ والرُكبان التي تتقد بهم جمرات الأصباح والعشايا ، ويعتقد كل منهم في معاجه إلى المدينة الشريفة أن تمام الحج أن تقف عليها المطايا ؛ فهم هُجود سري ، ووفود قري ، وركود في أفق الرّحال خلعت مقلهم على النجوم الكرى ؛ ومعهم الحامل الشريفة التي هي مُتَفُّ شعابهم ، ومحتف ركابهم ؛ وهي من أسرتنا المرفوعة ، ومبرتنا المشروعة ؛ فعظم شعائر حرمتها ، وقبّل أمام منابرها المثلة مراكر راياتها ؛ وأكرم من جاء في خفارتها ، ومن جال في دُجى الليل لا يستضيء إلا بما يبدو من إشارتها ، وقد أشهدنا عليك من هو لك يوم القيامة خصيم ، وأنت وشأنك فيما أنت به عليم .

وباقى الوصايا أنت لها مُتَقَطِّن ، وعليها مُتَوَطِّن ، وما ينتفع الشريف بحسبه ، إن لم يكن عمله بحسبه ؛ ولا يرتفع بنسبه ، إن لم يتجنب مكان تشبهه ، والله تعالى يمتع بدوام شرفه ، ولا يضيع له أجر حال عمله الصالح وسلفه ؛ والاعتماد



وهذه نسخة تقليد شريف بإمرة المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

الحمد لله الفرد بلا شريك ، الواحد لا من أعداد تقتضى التشريك ، المليك الذى يتناهى إليه تقليد كل مليك .

نحمده حمداً يكل مواهب التملك ، ويحمد عواقب التسليك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تصدع التشكيك ، وتصد كل أفك ، وتسد خلل التدريك ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من حى به عريك ، وحى عليه تريك ، وحمل حتى تأتى له التحرير فى التحريك ، وتأتى وما فاته على أعدائه النصر الوشيك ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تخلص كالذهب السيك ، وترفع ما شيد وتمنع ماشيك ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فلما كانت المدينة الشريفة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - حرماً لا يستباح ، وحى ليس إلا لمن انتهكه دم مباح ، وجناباً ما على من حله جناح ، ومهبط وحى لا يمسح بأركانه لغير الملائكة جناح ؛ ولا يمسك بعصمة من أغضى فيه على قدى ، وسكت لساكنيه على أذى .

ولما اتصل بنا عن الروافض مالا صبر لمسلم يرجو الله واليوم الآخر عليه ، ولا وجه لمن قنع فيها بإخراج يديه ؛ ولا عذر لمن لقي الله مغضباً لما ينهى إليه ، لا مغضباً لما ينال رسول الله صلى الله عليه وسلم من التعرض إلى صاحبيه ، مما تقاضى منا ما يحو ظلامه الممتد ، وظلمه المشتد ، ويدعهم فسوءاً من آبتدعها ومن أردت - فكمناً بتقليدنا الشريف من أعطى الله وأعطانا على قوله موثقاً ، وجرّد عزائم لا تردّها من

خَدَعَهُمُ الرُّقْبَا ، وَأَشْهَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَنْ حَضَرَ أَنَّهُ لَا يَدْعُ هَذِهِ الْفِرْقَةَ الضَّالَّةَ حَتَّى يَدْعَ
يَتِيمَهَا ، وَيُعَدِّ لِمَقَاتِلِ السُّيُوفِ حَطِيمَهَا : مِمَّا تَضُمُّهُ نَصٌّ ماضٍ ذَلِكَ التَّقْلِيدُ ،
وَمَا ضَمَّ ذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ، وَبَنَاهَا عَلَى أَنَّهُ بَدْرٌ لَمْ يَبْقَ
مَعَ طُلُوعِهِ ظُلُمَةٌ وَلَا ظُلَامَةٌ ، وَلَا إِضَاعَةٌ وَلَا إِضَامَةٌ ^(١) ، وَلَا مَا تَجَنَّبُ بِهِ الرَّاكِبُ
تَمَامَ الْحَجِّ فِي مَوَاقِفِهَا ، وَلَا تُشْكِرُ مَا جَهِلْتُ فِي قِيَابِ قُبَاءٍ مِنْ مَعَارِفِهَا ؛ وَتَرَدُّ أَعْطَانَهَا
وَلَا يَسُوقُهَا إِلَى الْأَبْرِقِ بَارِقٌ عَلَى أَطْلَالِهِ ، وَلَا يُعِجِبُهَا إِنْ خِيلَ لَهَا فِي النَّخِيلِ مَقِيلٌ
فِي ظِلَالِهِ .

وكان المجلس العالى - أدام الله تعالى نعمته هو المتكفل بتطهير ذلك الحرم
الشريف من ألم كل قول يُفْتَرَى ، وَلَمْ كُلِّ بِاطِلٍ يُلْمُ يَقْطَعُهُ أَوْ طَيْفٌ كَرَى ، وَإِزَالَةُ
كُلِّ شَيْءٍ فِيهَا عَلَى مَنْ أَمَلُ قَرَى أُمُّ الْقُرَى ؛ وَإِمَاتَةُ كُلِّ بِدْعَةٍ تُسَكَّبُ عَلَى مِثْلِهَا الْعِبَرَاتُ ،
وَإِمَاطَةُ كُلِّ أَدَى مِنْ طَرِيقِ مَنْى وَالْجُحَرَاتِ ، وَمَنْعُ شَقَاشِقِ شَيْعَةٍ تَغْلِي مَرَاجِلَهَا مِنْ
الزُّفَرَاتِ ، وَقَطْعُ كُلِّ نَجْوَى يُسَادُونُ بِهَا مِنْ وَرَاءِ الْحُجَرَاتِ ، وَقَلْعُ طَائِفَةٍ لَوْلَا إِقَامَةُ
حُدُودِ اللَّهِ لِكَفَاهُمْ مَا يَقْطَعُ أَكْبَادَهُمْ مِنَ الْحَسَرَاتِ ؛ وَكَانَ بِهَا مِنْ أَوْلَادِ أَخِيهِ ، بَلْ
بَعْضُهُ مِنْهُ وَبَعْضُهُ مِنْ بَنِي أَبِيهِ ، مِنْ آلِ نَبِيِّ عَمَّا نَحْنُ بِهٍ شَيْمُ الشَّرِيفِ الشَّرِيفِ ،
وَأَتَتْهُ إِلَى مَا لَا يَعْنِيهِ وَلَا يُغْنِيهِ فِي تَأْخِيرِ خَلِيفَةٍ وَتَقْدِيمِ خَلِيفَةٍ ، وَأَهْمَلُ حَقُوقًا
عَوَاقِبُهَا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُحْيِيهِ ، وَأَوْهَمُ عَقُوقًا لِأَصْحَابِهِ بَلْ
لَهُ لِقَوْلُهُ : «دَعُوا إِلَى أَصْحَابِي فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَى أَحَدِهِمْ
وَلَا نَصِيفَهُ» . وَبَقِيَ يَتَّصِلُ بِنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا لَا يُقَالُ مِمَّا يُقَالُ عَنْهُمْ ، وَيَصِلُ
أَزَاهِمُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَاحِبِيَّةٍ وَقَدْ قَالَ : «إِنْ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ

(١) مراده اِضَاعَةُ الْحَقِّ كُلِّهِ أَوْ نَقْصُ شَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا أَنَا لَمْ نَجِدْ فِيهَا بِأَيِّدِنَا مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ

فَعَلَا رُبَاعِيًا لِيَكُونَ هَذَا مَصْدَرًا لَهُ وَلَعَلَّهُ اسْتَعْمَلَ اللُّغَةَ الْعَامِيَةَ تَرْوِيجًا لِلِسَّجْعِ .

الْعَلَى لِيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا يَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ»^(١) يطلبون في التقديم على من قَدَّمَهُ اللهُ رَدَّ فَاثَتْ مَا جَرَى بِهِ الْقَدَرُ، وَيَضْرِبُونَ صَفْحًا عَمَّا لَا أَرَادَهُ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : « لَا أُدْرِى مَا قَدْ بَقِيَ لِي فِيكُمْ فَاقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ » . مع ما أضيف إلى هذا من قَوَادِحِ نَوَابٍ، وَفَوَاتِحِ أَبْوَابٍ، وَحَوَادِثِ تُرْجِعُ مَقَرَّ النَّبُوءَةِ أَنْبَاءُهَا، وَتَمْتَدُّ عَلَى مَشَارِقِ الْأَنْوَاءِ ظُلُمَاتُهَا ؛ وَتُغَيِّرُ عَوَائِدَ الْوُفُودِ فِي كِرَامَةِ زَائِرِهِمْ ، وَإِدَامَةِ بَشَاشَةِ الْمُنْتَقَى لِسَائِرِهِمْ ؛ وَأَمِنْ سِرِّهِمْ أَنْ يُرَاعَ ، وَشَرِّهِمْ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِهِ لَغَيْرِ بَرَقِ شُعَاعٍ ، وَضَمَّتْهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْحِمَى الَّذِي لَا يُضَامُ نَزِيلُهُ ، وَلَا يُرَامُ فِي طَرِيقِ الْحَجَّةِ سَبِيلُهُ ؛ وَلَا يُضَلُّ سَارٍ إِلَيْهِ وَوُجُوهُ سَكَّانِ الْحِمَى دَلِيلُهُ ، وَلَا يُضَيِّعُ وَقَدْ تَلَقَّاهُ مِنَ النَّسِيمِ بَلِيلُهُ ، وَلَا يَقِفُ وَفَقَّةُ الْمُرِيبِ وَضَوْءُ الصَّبَاحِ مِنْ أَيْمَنِ التَّقَا قِنْدِيلُهُ ، وَلَا يَخْشَى وَشَعْبُ ذَلِكَ الْحِمَى شَعْبُهُ وَقَبِيلُهُ قَبِيلُهُ ؛ وَإِرَاحَةُ رِكَابِهِمْ الَّتِي أَرْجَعَهَا حَادَى السَّرَى، وَإِمْتِنَاعُهُمْ بِقَرَبِ الْحَوَارِ عَوْضًا مِنْ دُمُوعِهِمْ عَمَّا جَرَى .

فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ لِمَنْ أَشْرْنَا إِلَيْهِ - مِمَّنْ أَعْطَانَا عَهْدَ مَوْثِقِهِ ، وَسَارَ لَا يُرِيدُ إِلَّا نَقَاءَ نَقَاهُ وَبِرَاءَةَ أَرْفِهِ - إِلَّا أَنْ يُحِطَّ بِالْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ رِكَابَهُ ، وَيُبْعَدَ الشُّكُوى مِمَّا لَاعَهْدَ مِنْ مَعَاهِدِهَا أَقْرَابَهُ - أَصْرَ مَنْ فِيهَا مِنْ ذَوَى قَرَابَتِهِ عَلَى مَنْعِهِ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا بِقَتَالٍ يُحِلُّ مَقَاعِدَ الْحَرَمِ ، وَيَحُلُّ مَقَاعِدَ الْحَرَمِ^(٢) ؛ وَيُسْعِلُ نَارًا يَصُلِّي بِهَا مَنْ لَمْ تَمْتَدَّ لَهُ يَدٌ إِلَيْهَا إِلَى وَقُودٍ ، وَيَرُوعُ مِنَ الْآلِفِ فِيهَا مَنْ يَمْتَدُّ لَهُ فِي غَيْرِ مَرَاتِعِ غَزَلَانِ النِّقَاسِ سِحَافٌ قِيَامٌ مَعْقُودٌ ، وَقَدِمَ إِلَى أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ مَنْ كَانَ فِيهَا مَقِيمًا ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِإِبْقَاءِ النَّصْفِ

(١) مراده أنهم يطلبون في تقديم على رد فاثت ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْ تَأْخِيرِهِ عَنْهَا وَيَتْرَكُونَ أَيْضًا مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِقْتِدَاءِ بَعْدَهُ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ . إِلَّا أَنَّ الْعِبَارَةَ سَطَطَ عَلَيْهَا يَدَ النَّسَاجِ فَرَادَتْ فِيهَا مَا غَيْرُ مَبْنَاهَا وَشَوْشَ مَعْنَاهَا . تَأَمَّلْ .

(٢) فِي الْأَصْلِ مَقَاعِدُ وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

ففاتة الكل لما لم يقنع أن يكون قسيما، فأبت حبيتنا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم
(١) ولتلك المواطن المعظمة إلا أن نظهرها مما أسبلت على سريرها أذيالها، وما أطاق
على مضضه الأليم احتمالها .

فرسم بالأمر الشريف - لزال قدره عاليا، وبره لا يخل بؤدى ولا يخل مواليا -
أن تفوض إليه إمرة المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :
مستقلا بأعبائها، مستهلا بحبائه على أرجائها، إمرة تستوعب جميعها، وتستوعى
لمراسمه رباها وربوعها وعاصيها ومطيعيها، وتهايمها ونجودها، وقريتها وبعيدها، وكل
ما يدخل لها في حد، وينتظم لها في عذب وأهل حاضرتها وباديتها، وما تقف عليه
من السحب (؟) ركائب رواعيها وغاديتها، ومن تتبسم بهم ثياها، وتتسم لهم أرواح
بكرها وعشاها، ومن يضمهم جناحها المفضل، ويلهم وشاحها المفضل،
ويجمعهم جيشها السائر، ويلفهم في شملة الدجى قمرها الزاهر - تفويضا يدخل فيه كل
شريف ومشروف، ومجهول ومعروف، ومستوطن من أهلها، وغريب آتت [به]
إليها مطارح سبلها، مافيه تأويل، ولا تعليل، ولا استثناء، ولا أنثناء، ولا تخرج منه
الأرض المغبرة ولا الروضة الغناء، لأشبهه فيه لداحض، ولا حجة لمعارض، يستقل
بها جميعها بدره التمام، وبره الغمام، وبحره الذى يأبى فريده أن يؤاخى في نظام،
وأمره الذى يتلقى به عن الثقة من سادات بيته مقاليد الأحكام، وتقاليد مايجرى
به القلم ويمضى السيف الحسام، أفرادا له في التحكيم، وأنفة لمنله من ضر
التقسيم، وفارا من الشركة المشتقة من الشرك : ((إن الشرك لظلم عظيم)). ولاية
تامه، عامه، كامله، شامله، لا يبق من أهل نجد من لا يدخل في حكمها، وينضاف

إلى قِسْمِهَا ؛ تَقَابُلُ السَّوَابِقِ فِي غَايَاتِهَا ، وَتُقَاتِلُ الْحَافِلُ تَحْتَ رَايَاتِهَا ؛ وَيَعُدُّ مَعَ أَهْلِ
بَدْرِ فِيهَا ، وَيُعِدُّ مِنْ حَقُوقِهَا مَا يُوقِيهَا .

وقد سبق من الوصايا ما فيه غنى ، إلا ما لا تخل العوائد به مما يذكركم ؛ وقد
حَوَيْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ طَبَاعِكَ ، وَجَمِيلِ أَنْطِبَاعِكَ ؛ مِنْ حَقِّ اعْتِرَاكَ ، وَصَدَقَ
الْإِتْرَاكَ ؛ مَا هُوَ كَالسَّنَا لِلشَّمْسِ ، وَالْمُنَى لِلنَّفْسِ ؛ مِمَّا تَحْسُدُ عَلَى شَرْفِهِ النُّجُومُ ،
وَتَنَافَسُ الْعُلَيَّا مَا تَعْلَقُ بِهِ الْغُيُومُ .

فَكَمَّلَ بِتَقْوَى اللَّهِ شَرَفَكَ ، وَاتَّبَعَ فِي الشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ سَلَفَكَ ؛ وَكَتَابَ اللَّهُ الْمَتَزَّلَ ،
أَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ فِيكُمْ تَنْزَلُ ، وَسُنَّةُ جَدِّكُمْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُهْمَلُ ،
وَهِيَ مَجْدُكُمْ الْمُؤْتَلِ ، وَمَعْرِفَةُ حَقِّ مَنْ مَضَى عَنْكُمْ ، وَإِلَّا فَعَمَّنْ تُثْقَلُ ، وَمِنْكُمْ ، وَإِلَّا فَمَنْ
تُؤْمَلُ ؛ وَإِزَالَةُ الْبِدْعِ وَإِلَّا فَلَا شَيْءَ سِوَاكُمْ تُثْقَلُ ، وَ[لِمَاذَا] ^(١) رَمَاحُكُمْ تُعَدَّلُ ؛
وَالرَّافِضَةُ وَغَلَاةُ الشَّيْعَةِ هُمْ دَنَسٌ مِنْ أَنْتَى إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ بَوْلَانَهُ ، وَسَبَبُ
وُقُوفٍ مِنْ يَقْصِدُ الدُّخُولَ تَحْتَ لَوَائِهِ ؛ فَهَمٌّ وَإِنْ حُسِبُوا مِنْ أَمْدَادِهِ ، لَيْسُوا -
وَحَاشَى نَوْرِهِ السَّاطِعِ - إِلَّا مِنَ الْمَكْثَرِينَ لِسَوَادِهِ ؛ أَرَادُوا حِفْظَ الْمُوَدَّةِ فِي الْقُرْبَى
فَأَخْلَوْا ، وَقَصَدُوا تَكْثِيرَ عَدَدِهِمْ فَقَلُّوا ؛ وَأَنْفَ مِنْ هُوَ بَرٌّ مِنْ سُوءِ مَذْهَبِهِمْ ، أَنْ
يَتَظَاهَرُوا بِالْوَلَاءِ فَيُعَدَّ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ بِسَبَبِهِمْ ؛ مَعَ أَنَّهُمْ طَمَعُوا فِي رِضَا اللَّهِ فَأَخْطَأَتْهُمْ
الْمَطَامِعُ ، وَصَحِيحٌ أَنَّهُمْ زَادُوهُمْ عَدَدًا إِلَّا أَنَّهَا كَرِيذَةُ الشَّيْءِ أَوْ كَرِيذَةُ الْأَصَابِعِ .

فَصَمَّمْ عَزَمَكَ عَلَى مَا عَاهَدْتَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ رَفْعِ أَيْدِي قُضَاتِهِمْ ، وَمَنْعِهِمْ هُمْ وَمَنْ
أَتَعَ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِمْ ؛ وَحَذَّرْهُمْ مِمَّا لَا يَعُودُ مَعَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ
سِتْرٌ يُسَبِّلُ ، وَلَا يَبْقَى بَعْدَهُ لَغَيْرِ السَّيْفِ حُكْمٌ يُقْبَلُ ؛ فَمَنْ خَاضَ لِلْسَّلَفِ الصَّالِحِ يَمَّ ذَمًّا

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٠٧ .

(٢) في القاموس : الشَّيْءُ السَّنُ الْمَخَالِفَةُ الْخَارِجَةُ عَنْ نَبْطَةِ الْأَسْنَانِ .

أغرق في تياره ، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره ؛ وألزم أهل المدينة الشريفة -
على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن
المعظمة أعلامها ، وسمعت في تلك الحجرة المكرمة أحكامها ؛ مع تعفية آثار ما ينشأ
على هذه البدعة من الفتن حتى لا ينقعد لها نفع مثار ، وتوطئة أكثاف الحمي لئلا
يبقى به لمبطل في مدارج نطقه عثار ؛ والوصية بسكان هذا الحرم الشريف ومن ينزل
به من نزيل ، ويحاور به مستقرًا في مهاد إقامة أو مستوفزًا على جناح رحيل ؛
ومن يهوى إليهم من ركائب ، ويأوى إليهم من رقة مالت من نشوات الكرى بهم
راقصات التجائب ؛ ومن يصل من ركن الأفاق ، وإخوان نوى يتشاكون إليهم
مر الفراق ؛ ومن يتلاقى بهم من طوائف كلهم في بيوت هذا الحى عشاق ، وأمم
شتى مجموعهم : من مصر وشام ويمن وعراق ؛ وما يصل معهم في سبيل وفودنا ،
وسبيل جودنا ؛ ومحاميلنا الشريفة التي ينصب لنا بها في كل أرض سرير ، وأعلامنا
التي ما سميت بالعقبان إلا وهى إليها من الأشواق تطير ؛ فتى شعرت بمقدم ركابهم ،
أو برقت لك عوارض الأثمار من سماء قباهم ؛ فبادر إلى تلقّيمهم ، وقبل لنا الأرض
في آثار مواطيمهم ، وقم بما يجب في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم
وطاعتنا [وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم عن جماعتنا] .^(١)

وأهل البادية هم حزبك الجيش اللهم ، وحربك إذا كان وقودها جثث وهام ؛
وهم قوم لم يؤدبهم الحضرة ، ولا يبيت أحد منهم لأفنته على حذر ؛ فاستجلب
بمداراتك قلوبهم الأشتات ، وبادر بحبال إلههم النافرة قبل البتات ؛ وترقب مراسمتنا
المطاعة إذا ذرت لك مشارقها ، وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك من
الحروب بوارقها ؛ وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولولا أن السيف لا يحتاج إلى حلية

(١) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨) .

لأُظِلُّنا حائل ما تُمْلِيه عليك ؛ فإِشْهَدِ لِلشَّرِيفِ بِصَحَّةِ نَسَبِهِ ، أَزْكَى مِنْ عَمَلِهِ
بِحَسَنِهِ ؛ وَاللهُ تَعَالَى يَقْوَى أَسْبَابُكَ الْمَتِينَةِ ، وَيُمْتَعُ الْعِيُونَ بِلَوَامِعِكَ الْمُبِينَةِ ، وَيُحْسِنُ
بِكَ مَا طَالَ بِهِ إِرْجَافُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ



وهذه نسخةٌ تقليدُ بِإِمْرَةِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ بِالنُّصْرَةِ ، دَارَ الْهِجْرَةِ ، وَأَطْلَعَ لِلْإِيمَانِ بِفَحْرِهِ ، بِتِلْكَ الْجُمْرَةِ ،
وَطَيْبَ طَبِيبَةٍ وَأَوْدَعَ فِيهَا سَلِيلَ الْأُسْرَةِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا نَأْمَنُ بِهِ مَكْرَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
عَبْدٌ تَمَسَّكَ بِالْحَجِّ وَتَنَسَّكَ بِالْعُمْرَةِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَرَّفَ اللهُ
قَدْرَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، وَأَيَّدَهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ، وَكَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ فِي الْعِشْرَةِ ، وَأَسْخَى
الْعَالَمِينَ إِذْ يَبْسُطُ بِالْجُودِ رَاحَتِيهِ فَمَا أَسْمَحُ عَشْرَهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
صَلَاةً ثَبَّتَتْ شَجَرَتُهَا مِنَ الْأَرْضِ فَاتَّصَلَتْ فُرُوعُهَا بِالسَّدَرَةِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ مَعْدِنُ الْهُدَى وَالْوَقَارِ ، وَمَسْكَنُ الرِّضْوَانِ وَالْأَنْوَارِ ،
وَمَهْطُ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ ، وَمَنْزِلُ الْوَحْيِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَدَارُ الْهِجْرَةِ لِلنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ،
وَتَرْبَةُ مَدْفِنِهِ الزَّائِكِيِّ الْمِطْطَارِ ؛ تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَيْهَا مِنْ أَقَاصِي الْأَقْطَارِ ، وَيَأْتِي إِلَيْهَا
الظَّالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ بِالْأَسْتِغْفَارِ ، فِيرْجِعُونَ وَقَدْ نُحِيتْ عَنْهُمْ الْأَوْزَارُ ، فَقُلُوبُ أَهْلِ
الْإِسْتِثْقَاءِ مُقِيمَةٌ فِي فِنَاءِ تِلْكَ الدَّارِ ، وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَامُهُمْ بَعِيدَةً مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ ،
وَبِهَا مِنْ آلِ الْبَيْتِ سَادَةٌ أَطْهَارُ ، وَأُمَرَاءُ كِبَارُ ، يُتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ يُحِبُّهُمْ فِي الْإِعْلَانِ
وَالْإِضْمَارِ ، وَيُتَوَسَّلُ بِوَلَايِهِمْ فِي دَعْوَةِ الْأَسْحَارِ ، قَدْ صَمُّوا إِلَى كَرَمِ الرَّاحَةِ ، وَسَمَّحَةِ

الأنفُس المُرْتاحَة ؛ شِجَاعَةً وَبَسَالَةً ، وَعَلَوِيَّةً فَعَالَةً ، وَتَمَسُّكَ بِالْمُرُوءَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِشَرَفِ الْأَصَالَةِ ؛ وَهُمْ يَتَوَارَثُونَ إِمْرَتَهَا عَنْ آبَاءِ سَادَاتِ ، وَكِرَامِ لَهُمْ فِي الْفَضْلِ عَادَاتِ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ بَقِيَّةُ الْأُسْرَةِ الْمُتَضَوِّعَةِ ، وَثَمَرَةُ الشَّجَرَةِ الْمُتَفَرِّعَةِ ، وَالْمَخْصُوصَ بِالْوَصْفِ الَّذِي رَفَعَهُ ، وَالْقَوْلِ الَّذِي آتَبَهُ حِينَ سَمِعَهُ - مَا زَالَ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مَشْكُورَ الطَّرِيقَةِ ، مَحْفُوظَ الْوَيْثِقَةِ ، مَعْرُوفَ الْحَقِيقَةِ ، مَوْصُوفَ الْآثَارِ الْحَسَنَةِ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ ، يَجْتَنِي لِكُلِّ صَالِحَةٍ مِنْ تِلْكَ الرُّوضَةِ الشَّرِيفَةِ الْمُثْمَرَةِ الْوَرِيقَةِ ؛ وَيَجْنِي السَّرْحَ أَنْ يَنْتَهَبَ ، وَيُطْفِئُ نَارَ الْفِتَنِ فَمَا تَلْتَهَبُ ، وَيُعْظِمُ الْمَجَاوِرِينَ وَالْوَارِدِينَ وَالْقَادِمِينَ عَلَى حِمَى سَيِّدِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ .

فلذلك رسم أن يستقر

فَلِيَحُلَّ هَذَا الرَّبْعُ الْمَعْمُورَ بِالتَّقَى ، وَلِيُبَايِسْ هَذِهِ الْإِمْرَةَ الشَّرِيفَةَ زَادَهَا اللَّهُ عُلوًّا وَارْتِفَاعًا ، وَلِيُسْتَعْمَلَ السَّكِينَةُ فَإِنَّهَا جَمِيلَةُ اللَّقَاءِ ، وَلِيُسَلِّكَ الْأَدَبَ مَعَ سَاكِنِ النَّقَا ، وَلِيَعْتَمِدَ عَلَى حُسْنِ الْيَقِينِ فَإِنَّهُ لَهُ وَقَا ، وَقَدْ جَاوَرَ الْعَقِيقَ فَأَصْبَحَ بِقَلَائِدِهِ الْفَاحِرَةَ مُطَوَّقًا ، وَلِيَحْكُمَ بِالْعَدْلِ فِي بَلَدِهِ نَشَأَ مِنْهُ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ فُنُذُ اجْتِمَاعِهِ فِيهِ مَا أَفْتَرَقَا ، وَلِيُصْنُ شَرْفَهُ مِنَ الْوُلُوجِ فِي فِتْنَتِهِ ، وَلِيَعْمِدَ سَيْفَهُ وَلَا يَشْهَرَهُ فِي وَقْتِ حِمْنِهِ ؛ وَيَحْقِنِ الدَّمَاءَ أَنْ تُرَاقَ ، وَيَتَلَقَّ الزُّوَارَ بِالْإِرْفَاقِ ، فَإِنَّهُمْ جَاءُوا مِنْ أَقَاصِي الْآفَاقِ ، رَجَالًا وَعَلَى النَّيَاقِ ، تَحْتُمُّهُمُ الصَّبَابَةُ وَالْأَشْوَاقُ .

وَكَلِمَةُ الشَّرْعِ وَشِعَارُ السُّنَّةِ فَلْيُكُنْ مَعْظَمًا لَهَا بِاتِّفَاقٍ بَغِيرِ شِقَاقٍ ، وَشَيْخِ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ وَخَدَامِهِ وَمُجَاوِرِيهِ فُلَيْكُمُ مُحْسِنُهُمْ وَيَعَامِلُهُ بِحُسْنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ بِطَيْبِ أَخْلَاقٍ ، وَحَوَاصِلِ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ الْخُزُونَةِ فِيهِ فَلْيُكُنْ حِمِيَّةً مِنَ التَّبْذِيرِ فِي وَقْتِ الْإِنْفَاقِ ، وَتِلْكَ دَارُهُمْ سُكَّانُهَا الطُّيُوبُ الْإِعْرَاقِ ؛ وَالنَّقْوَى مِنْ بَيْنِهِمْ

الشريف آثارها الإشراف ، وعليهم نزل الفرقان والتَّحريم والطلاق ، فإذا عسى
أن نوصيه وهو أهل الفضل على الإطلاق ، والله تعالى يجعل نجاته في الفخر مجليه
في السباق ، بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية لأمر المدينة أوردتها في "التعريف" ، وهي :

فكَلِّ بتقوى الله شرفك ، وأتبع في الشريعة الشريفة سلفك ؛ وكتاب الله المنزل ،
أنتم أهل بيت فيكم تنزل ، وسنة جدك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تهمل ،
وهي مجدكم المؤتَل ، ومعرفة حق من مضى ، عنكم ، وإلا فعمَّن تُثقل ، ومنكم ، وإلا فعمَّن
تؤمَل ، وإزالة البدع وإلا فلائى شئ سيوفكم تُصقل ، ولماذا رماحكم تعدل ؛
والرافضة وغلاة الشيعة هم دنس من أنتمى إلى هذا البيت الشريف بولائه ، وسبب
وقوف من يقصد الدخول تحت لوائه ؛ فهم وإن حُسبوا من أمداده ، ليسوا -
وحاشى نوره الساطع - إلا من المكثرين لسواده ؛ أرادوا حفظ المودة في القربى
فأخلوا ، وقصدوا تكثير عددهم فقلوا ؛ وأنف من هو برىء من سوء مذهبهم ، أن
يتظاهروا بالولاء في أهل البدع بسببهم ؛ مع أنهم طمعوا في رضا الله فأخطأهم
المطامع ، وصحیح أنهم زادوهم عددًا إلا أنها كزيادة [الشغياء أو كزيادة] الأصابع .^(١)

فصمَّ عزمك على ما عاهدت الله عليه من رفع أيدي قضايتهم ، ومنعهم من اتباع
خطوات الشيطان في سبيل مرضياتهم ؛ وحذرهم مما لا يعود معه على أحد منهم ستر
يُسبل ، ولا يبقى معه لغير السيف حكم يقبل ؛ فن خاض للسلف الصالح يم ذم أغرق
في تياره ، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره ؛ وألزم أهل المدينة الشريفة النبوية

(١) الزيادة من "التعريف" . (ص ١٠٧) ومن التقليد الذي سبق ، انظر (ص ٢٥٢) .

بكلمة السنة فإنها أول ما رُفعت بتلك المواطن المعظمة أعلامها ، وسمعت في تلك
الحجرة المكرمة أحكامها ، مع تغية [آثار] ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتى
لا ينعقد لها تقع مثار ، وتوطئة أذناف [ذلك] الحى للآل يبقا به لمبطل في مدارج نطقه
عثار ؛ والوصية بسكان هذا الحرم الشريف على الحال به أفضل الصلاة والسلام
ومن ينزل به من نزيل ، ويجاوره مستقرا في مهاد إقامة أو مستوفزا على جناح
رحيل ؛ ومن يهوى إليهم من ركائب ، ويأوى إليهم من رفقة مالت من نشوات الكرى
بهم راقصات النجائب ؛ ومن يصل من رُبان الآفاق ، وإخوان نوى يتشاكون
إليهم مر الفراق ؛ ومن يتلاقى بها من طوائف كلهم في بيوت هذا الحى عشاق ،
وأثم شتى جوعهم من مضير وشام [ويمن] وعراق ؛ وما يصل معهم في مسيل
وفودنا ، وسبيل جودنا ؛ ومحامِلنا الشريفة التي ينصب لنا بها في كل أرض سرير ،
وأعلامنا التي ما سميت بالعقبان إلا وهى إليها من الأشواق تطير .

ففى شمرت بمقدم ركابهم ، أوبرقت [لك] عوارض الأنصار من سماء قبايهم ؛
فبادر إلى تلقّيهم ، وقبل لنا الأرض في آثار مواطيتهم ، وقم بما يجب في طاعة الله
وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا ، وأخرج عنهم كل يد ولا تخوِجهم
عن جماعتنا .

وأهل البادية هم حزبك الجيش اللهم ، وحربك إذا كان وقودها جثث وهام ؛
وهم قوم لم يؤدّبهم الحضر ، ولا يبيت أحد منهم لأنفته على حذر ؛ فاستجلب
بمداراتك قلوبهم الأشتات ، وبادر حبال إليهم النافرة قبل الأنيات ؛ ورتّب
مراسمتنا المطاعة إذا ذرت لك مشارفها ، وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحروب بوارقها ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولولا أن السيف لا يحتاج إلى حلية لأطلنا حمائل ما نملية عليك ؛ فما شهد للشریف بصحة نسبته ، أذكرنا من عمله بحسبه ؛ والله تعالى يقوى أسبابك المتينة ، ويمتدح العيون بلوامعك المنيعة ، ويمسك بك ما طال به إرجاف أهل المدينة .

الوظيفة الثانية (القضاء)

وكان في الزمن القديم بها قاض واحد شافعي ، ثم استقر بها قاضيان آخران : حنفي ومالكي ، يكتب لكل منهم توقيع في قطع الثلث بـ « السامي » بالياء .
وهذه نسخة تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمد لله الذي جعل الشرع الشريف دافق السيول ، وفي طيبة له الأصول ؛ ومنها نشأ وتفرع فله في البسيطة عموم وشمول ، وكل قطر به مشمول ، وكل ربع به مأهول ، وتأكد به المعلوم وتبدد به المجهول ، وزالت الشرائع كلها وهو إلى آخر الدهور لا يزول .

نحمده وحده يطول ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عمرت [بها] أطول ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف رسول ، وأكرم مأمول ، وأفضل مسئؤل ، ومهتد من سيوف الله مسئؤل ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبى الفروع والأصول ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الشرع الشريف معدنه في أرض ثوى خير الرسل فيها ، ومنشأه في بلد ملائكة الله تحميها ؛ فلا يلي أفضية الناس إلا من طالت ذوائب علمه ،

وأشرقَتْ نَوَاقِبُ قَهْمِهِ ؛ وَبُنِيَتْ عَلَى الْأُصُولِ قَوَاعِدُ حُكْمِهِ ، وَتَحَلَّى بِالْوَرَعِ فَجَلَّى
فِي سَمَاءِ النِّجَاحِ كَنَجْمِهِ .

ولما كان فلانُ هو الذي جَذَبَتْهُ السَّعَادَةُ إِلَى مَقَرِّهَا ، وَخَطَبَتْهُ الْمَغْفِرَةُ إِلَى مَوْطِنِ
بَرْهَا ، وَأَهْلَتْهُ الْأَفْدَارُ إِلَى جِوَارِ نَبِيِّ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَفَاتَحُ أَمْرِهَا ؛ وَأَصْبَحَ لِلْحُكْمِ
فِي الْمَدِينَةِ ، مُسْتَحَقًّا لِمَا فِيهِ مِنْ سَكِينَةٍ ، وَتَحْصِيلَ لِلْعِلْمِ وَمَنْ حَصَلَ الْعِلْمُ
كَانَ اللَّهُ مُعِينَهُ .

فلذلك رسم أن يستقر

فَلْيَبَاشِرْ مَنْصِبًا جَلِيلًا فِي مَحَلٍّ جَلِيلٍ ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ سَائِرَ الْأُمُصَارِ تَغْرِيطُهُ وَتَحْسُدُهُ
وَمَا لَمَنْصِبِهِ مِنْ مِثْلٍ ؛ أَيْنَ يُوجَدُ سِوَاهُ فِي كُلِّ سَبِيلٍ ؟ مَنْ قَاضٍ هُوَ بَسِيْدُ الْمُرْسَلِينَ
تَزِيلٍ ، وَمَنْ يُصْبِحُ وَيُمْسِنُ جَارًا لِلْمُسْتَجِيرِ فِي الْمَحْشَرِ الطَّوِيلِ .

فاحْكُمْ بَيْنَ نَاسٍ طَيِّبَةٍ بَوْرَعٍ وَتَأْصِيلٍ ، وَتَحْرِيرٍ فِي تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ ، وَاتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ
فِعْلٍ وَقِيلٍ ، وَاسْتَقِمْ عَلَى الْحَقِّ حَذَارًا أَنْ تَمِيلَ ، فَصَاحِبُ الشَّرْعِ أَنْتَ مِنْهُ قَرِيبٌ
وَالنَّبِيُّ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ وَحَبِيبٌ وَخَلِيلٌ ، وَمَاذَا عَسَى أَنْ نُوصِيَهُ وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى
كَالْتَّهَارِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ .

وَأَمَّا الْخُطَابَةُ : فَارْقَ دَرَجَ مَنَبَرِهَا ، وَشَفِّ الْأَسْمَاعَ مِنْ أَلْفَاظِكَ بِدُرِّهَا ؛ وَحَرِّ
مَا تَقُولُهُ مِنَ الْمَوَاعِظِ فَإِنَّ صَاحِبَ الْعِظَاتِ يَسْمَعُكَ ، وَتَوَاضَعْ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُكَ ؛
وَهَذَا الْمَرْقِيُّ فَقَدْ قَامَ فِيهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ سَيِّدُ الثَّقَلَيْنِ ، وَمِنْ بَعْدِهِ الْخَلِيفَتَانِ قُرْتَا الْعَيْنِ ،
وَمِنْ بَعْدِهِمَا عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ ؛ فَاخْشَعْ ، عِنْدَ
الْمَطْلَعِ ، وَأَصْدَعْ ، بِمَا يَنْفَعُ ؛ وَأَنْظُرْ لِمَا تَقُولُهُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هناك يسمع ، وقاضى المدينة وَخَطِيبُهَا يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع ، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع ، بمنه وكرمه ! .

الوظيفة الثالثة

(مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادة أن يكون له خادمٌ من الحَصِيانِ المعبر عنهم بالطَوَاشِيَّةِ ، يُعَيِّن لذلك من الأبواب السلطانية ، ويُكْتَب له تَوَقُّعٌ فى قَطْعِ الثَلث بـ «المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ «الحمد لله» .

وهذه نسخة تَوَقُّعِ شريف من ذلك :

الحمد لله الذى شرف بِخِدْمَةِ سَيِّدِ الرُّسُلِ الأقدار ، وفَضَّلَ بالتَّأَهُلِ للدُّخُولِ فى عداد كرمه بِخِدْمَتِهِ مَنْ آخَظَرَهُ لذلك من المُهاجِرِينَ والأَنْصَارِ ، وجعل الاختصاصَ بِمُجَاوَرَةِ حَرَمِهِ أَفْضَلَ غَايَةٍ تُهَجِّرُ بِلُغَاهَا الأوطانُ والأوطار ، وعَجَّلَ لِمَنْ حَلَّ بِمَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ تَبَوُّؤَ أَشْرَفِ رَوْضَةٍ تَرُدُّهَا البَصَائِرُ وتُرَوِّدُهَا الأبصار .

نحمده على نِعَمِهِ التى أَكْمَلَهَا خِدْمَةُ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ ، وأَفْضَلُهَا التَّوَفُّعُ على مَصَالِحِ مُجَاوِرِي قَبْرِ رَسُولِهِ الهَادِي إلى الحَقِّ وإلى طريقِ مُسْتَقِيمٍ ، وأَجْمَلُهَا الأَنْتِظَامُ فى سِلْكِ خِدْمَةِ حَرَمِهِ [لأنها] بِمَنْزِلَةِ واسطةِ العَقْدِ الكَرِيمِ النَّظِيمِ ؛ ونَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهِادَةً مُزَلْفَةً لَدَيْهِ ، مُقَرَّبَةً إِلَيْهِ ، مَدَّخَرَةً لِيَوْمِ العَرَضِ عَلَيْهِ ، ونَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفَ نَبِيِّ بُعِثَ إلى الأَسْوَدِ والأَحْمَرِ ، وأَكْرَمَ مَنْ أَنَارَ لَيْلَ الشَّرْكِ بِالشَّرْعِ الأَقْرَبِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ فَخَرَتِ الحَبَشَةُ بِهَجْرَتِهِمُ الأَوَّلَى ، وَبَجَا النِّجَاشِيُّ بِمَا آتَّخَذَ عِنْدَهُمْ مِنَ السَّابِقَةِ الحَسَنَةِ وَالْيَدِ الطَّوْلَى ، وَأُولَى

يَا لَأَلْهُمَّ مِنَ السَّبْقِ إِلَى خِدْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
أَفْضَلُ مَا يُؤْتَى؛ صَلَاةٌ لَا يَزَالُ شَهَابُهَا مُرْسِداً، وَذِكْرُهَا فِي الْأَفَاقِ مُغَيِّراً وَمُجِداً؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً .

وبعد، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ مَنْ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ
مَلَائِسِ كَرَمِهِ، وَشَرَّفَ قَدْرَهُ بِأَنْ أَهْلَهُ لَخِدْمَةِ سَيِّدِ الرُّسُلِ بِلِ مَشِيخَةِ حَرَمِهِ؛ وَخَصَّه
بِرُتْبَةٍ هِيَ أَسْنَى الرُّتَبِ الْفَاخِرَةِ، وَأَجْمَعَ الْوُظَائِفَ لِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - مِنْ رَجَحِهِ
لِذَلِكَ دِينِهِ الْمُتَيْنِ، وَوَرَعِهِ الْمَكِينِ، وَزُهْدِهِ الَّذِي بَلَغَ بِهِ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي سَيَكُونُ
بِهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَجِيعاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي ادْرَكَ مِنْ خِدْمَةِ سَيِّدِ الرُّسُلِ غَايَةَ سُؤْلِهِ، وَزَكَتْ عِنْدَ
اللَّهِ هِجْرَتُهُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَسَلَكَ فِي طَرِيقِ خِدْمَتِهِ الشَّرِيفَةِ
أَحْسَنَ السُّلُوكِ، وَأَتَمَّتْ بِهِ السَّعَادَةُ إِلَى خِدْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِيُعْرِضَ بِجَوْهَرِهَا الْأَعْلَى عَنْ عَرَضِ خِدْمَةِ الْمُلُوكِ؛ وَقَازَمَ مِنْ مُجَاوَرَةِ الْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ
بِمَا عَظُمَتْ عَلَيْهِ [بِهِ] الْمَنَّةُ، وَحَلَّ بِهِ مِمَّا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمَنْبَرِ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ
الْجَنَّةِ؛ وَأَقَامَ فِي مَقَامِ جَبْرِئِيلَ، وَمَهْطِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ؛ يَتَقَيَّأُ ظِلَالِ الرَّحْمَةِ
الْوَارِفَةِ، وَيَتَهَيَّأُ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ بِالْعَارِفَةِ بَعْدَ الْعَارِفِ - تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُحَلَّى
بِعُقُودِ مَشِيخَةِ ذَلِكَ الْحَرَمِ، وَالْمَتَوَلَّى لِمَصَالِحِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهُ فِي التَّقَدُّمِ عَلَيْهِمْ
أَثْبَتُ قَدَمٍ .

فرسم بالأمر الشريف لا زال أن تفوض إليه المشيخة على خدام
الحرم الشريف النبوي: للعلم بأنه العادل الورع، والكافل الذي يعرف أدب تلك

(١) لعله "من أعتمد عليه من" الخ .

(٢) في الأصل "إليه" .

الوظيفة : من خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم - على ما شرع ؛ والزاهد الذي آثر جوار نيته على ما سواه ، والخاشع الذي نوى بخدمته الدخول في زمرة من خدمه في حياته : « ولكل أمرئ ما نواه » .

فليستقر في هذه الوظيفة الكريمة قائماً بأدائها ، مشرفاً بها نفسه التي تشبثت من خدمته الشريفة بأهدائها ؛ سالماً في ذلك ما يجب ، محافظاً على قواعد الورع في كل ما يأتي وما يجتنب ؛ قاصداً بذلك وجه الله الذي لا يحب لراح أملاً ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ؛ مكرماً كلاً من طائفة الخدام بما يقربه عند الله زلفى ، ويضاعف الحسنة الواحدة سبعين ضعفاً ؛ هادياً من ضل في قوانين الخدمة إلى سواء السبيل ، مبدئياً لهم من آداب سلوكه ما يغدو لهم منه أوضح هاد وأنور دليل ؛ وفيه من آداب دينه ما يغني عن تكرار الوصايا ، وتجديد القضايا ؛ والله تعالى يسدده في القول والعمل ، ويوفقه لخدمة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد فعل ؛ بمتة وكرمه .

القاعدة الثالثة الينبع

(وبها وظيفة واحدة، وهي النيابة)

وقد تقدم أن نيابتها في بني الحسن ، من بني قتادة أيضاً . وعدل بها عن لفظ الإمارة إلى لفظ النيابة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة . ويكتب لنائبها مرسوم شريف في قطع الثلث « بالمجلس السامي » بغيراء .

وهذه نسخة مرسوم شريف بنبابة الينبع ، كتب به « لمخدم بن عقيل » في عاشر رجب الفرد سنة أربع وثلاثين وسبعائة ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهو :

الحمد لله الذى أتم لدولتنا الشريفة أنعمًا ، وأحسن فى تقديم شريف كل قوم
تقدما ، وأمضى فى كف كف الأعداء رُحماً سَمَهِراً وسيفاً حَمدًا .

نحمده حمداً يكثر عدد القطر إذا همى ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .
شهادة تؤمن بالإدمان عليها مُنجداً ومُترِماً ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى
شرف من إليه آتمى ، وعلى نَسبه الشريف أرتى ، وبجواره المنيح أحتمى ؛ صلى
الله عليه وعلى آله وصحبه الذين طلعوا فى صباح كل نهار شمساً وفى عَشية كل ليل
أنجماً ؛ وسلم تسليماً .

وبعد ، فإن أولى من أعدنا له سعادة جدّه ، وعدنا إلى عوائده الحُسنى لأبيه
وجده ؛ ورعت صدقاتنا الشريفة له قصده الجليل ، وشرفه الذى سما به من أصله
إلى النجم فرع لا ينال طویل ؛ وأقرت عينه بسكنه ، وأستقرت به مراسمنا العالية
فى مسكنه ؛ وأغنته عنايتنا الشريفة عن انتظار كل نجم سعادة يطلع ، وبعثت إليه كل
خير إلى وطنه وهو « ينبع » ؛ منزلة نُسبه الصميم ، والحسب الذى يتمسك به فى قومه
كل كريم ؛ والشرف الذى أنارت كواكبه ، والوصف الذى ينظم الدرر ثاقبه ^(١) .

ولما كان المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، الشريف ، الحسيب ،
النسيب ، الأوحد ، العضد ، النصير ، الأصيل ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، زين
الأنام ، شرف الأمراء الأشراف ، نحر العترة الطاهرة ، جمال الأسرة الزاهرة ،
نسيب الخلافة ، عضد الملوك والسلاطين « محمد بن عقيل » أيدى الله تعالى - هو
الذى تقدمت إليه كل إشارة ، وحسنت به كل شاره ، وتعجلت له بمراضينا
الشريفة من مُحلق الشفق كل إشاره ؛ وحصل فى ينبع ما حصل من الاعتداء ،
وأمّدت الأيدي به إلى ما كان مُجّاج بيت الله من وديعه ، وظن أنه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبراً لأن وهو معلوم من نظائره وكثيراً ما ورد كذلك ونهنا عليه .

في البيداء ، نخالف الواجب وتعدى الشريعة ؛ فاقضت آراؤنا الشريفة تفويضها إلى العارف منها بما يجب ، العالم من طريق سلفه الصالح بما يأتي فيها ويحتب ؛ العايل في طاعتنا الشريفة بما هو به ويمثله من أهل الشرف يليق ، الماشي في خدمتنا الشريفة وفي خدمة الوفود إلى بيت الله الحرام على الطريق .

فرسم بالأمر الشريف - أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه - أن تُقَوَّصَ إليه النيابة بالينبج على عادة من تقدمه وقاعدته إلى آخر وقت :

فليقدم تقوى الله في كل ما تقدم ، ويقف مع حكم الشرع الشريف فإنه المهم المقدم ؛ وليستوص بالحجاج خيراً فإنهم وفد الله وهو عليه سيقدم ، وليؤمن الطريق فإنه بين حرمين : بيت الله ومسجد رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وليحفظ أمانة الله فيما يحل ويخلف عنده الحجاج كتب الله سلامتهم من وداعه ، وليأخذ بقلوب الجلابة فإنهم في توسيعهم على أهل الحرمين كالمُتَصَدِّقِينَ وإن كانوا تجاراً يضاعه ؛ وليوصل من تأخر من أبناء السبيل إلى مأمنهم ، وليخص بالعدل أهل بلده ليستقروا آمنين في موطنهم ، والرفق فهو الذي بحلته يُزَيِّن ، وبحلته يُسْتَحْسِن ، والثأني في معرفة الحق من الباطل فإن به الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الباطل يُبَيِّن ؛ ولزوم الطاعة ، التي أوجبها الله لنا على عباده ونذب إليها ، وملازمة الجماعة ، التي يكفيه من بركاتها أن يد الله عليها ؛ وإقامة الخدمة فيما قبله من البلاد ، وكل حاضر وباد ، وكل من كاد أو كاد ، أو تعرض لعناد العباد ؛ فمن أقدم على محذور ، أو تقدم إلى محذور ، أو ارتكب في الخلاف أمراً من الأمور ؛ بحرّه بالبغي إلى مصرعه ، وحرك السيف لمضجعه ، ودع الرُحَّ الذي أعتقله للشقاق يبيكي للإشفاق عليه بأدمعه ؛ وقد رأيت كيف

(١) مراده «ودعية» ولكن اضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنبه .

طَرِيقَتُنَا الْمُشْتَرَاةُ، وَسِيرَتُنَا الَّتِي لَا تَجِدُ لَهَا مِثْلًا؛ فَاسْلُكْ هَذِهِ الْمَحَجَّةَ، وَحَسْبُكَ أَنْ تُتَّخَذَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ حُجَّةٌ؛ وَفِي هَذَا عَنْ بَقِيَّةِ الْوَصَايَا غَنَى، وَاللَّهُ يُزِيلُ عَنْكَ الْخَوْفَ
فِي الْخَيْفِ وَيُيَلِّغُكَ الْمُنَى فِي مَنَى؛ وَالْاعْتِمَادَ

القسم الرابع^(١)

(مما يُكْتَبُ مِنَ الْوَلَايَاتِ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ
بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ - مَا يَقَعُ عَلَى سَبِيلِ النُّدُورِ، وَهُوَ الَّذِي يَقَعُ فِي حِينِ
مِنَ الْأَحْيَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْبِقَ لَهُ نَظِيرُ)

قَالَ الشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ": وَيَحْتَاجُ الْكَاتِبُ فِيهِ
إِلَى حُسْنِ التَّصَرُّفِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

[فَمِنْ ذَلِكَ] مَا يُكْتَبُ بِهِ لِلنِّيَابَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْمَمْلُوكَةِ إِذَا رَغِبَ فِيهَا مُتَوَلِّيُهَا .

وَهَذِهِ نَسْخَةٌ تَقْلِيدُ شَرِيفٍ مِنْ ذَلِكَ، كَتَبَ بِهِ الْمَوْلَى الْفَاضِلُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ
الْحَلَبِيُّ لِمَتَمَلِّكَ سَيْسَ، بِإِقْرَارِهِ عَلَى مَا هُوَ قَاطِعُ النَّهْرِ مِنْ بِلَادِهِ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ أَيَّامَنَا الزَّاهِرَةَ، بِاصْطِنَاعِ مُلُوكِ الْمِلَلِ، وَفَضَّلَ دَوْلَتَنَا
الْقَاهِرَةَ، بِإِجَابَةِ مَنْ سَأَلَ بَعْضَ مَا أَرْزَتْهُ لَهَا الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ؛ وَجَعَلَ مِنْ خَصَائِصِ
مُلْكِكَ إِطْلَاقَ الْمَمَالِكِ وَإِعْطَاءَ الدُّوَلِ، وَالْمَنَّ بِالنَّفُوسِ الَّتِي جَعَلَهَا النَّصْرُ لَنَا مِنْ جُمْلَةِ
الْخَوْلِ؛ وَأَغْرَى عَوَاطِفَنَا بِتَحْقِيقِ رَجَاءٍ مَنْ مَدَّ إِلَى عَوَارِفِنَا كَفَّ الْأَمَلِ، وَأَفَاضَ
بِمَوَاهِبِ نِعْمَاتِنَا، عَلَى مَنْ أَنْابَ إِلَى الطَّاعَةِ حُلَّ الْأَمْنِ بَعْدَ الْوَجَلِ؛ وَانْتَرَعَ بِالْآثِنَا،

(١) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد في الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون

هذا زائدا على الأقسام .

لَمَنْ تَمَسَّكَ بَوْلَانِنَا ، أَرْوَاحَ رَعَايَاهُ مِنْ قَبْضَةِ الْأَجَلِ ، وَجَعَلَ بَرْدَ الْعَفْوِ عَنْهُمْ وَالطَّاعَةَ تَبِيجَةً مَا أَذَاقَهُمُ الْعِصْيَانُ مِنْ حَرَارَةِ الْعُصَبِ : إِذْ «رُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ» .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ عَفْوَنَا مِمَّنْ رَجَاهُ قَرِيبًا ، وَكَرَمَنَا لِمَنْ دَعَاهُ بِإِخْلَاصِ الطَّاعَةِ مُجِيبًا ، وَبَرَّنَا لِمَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ مِثْيَا بِوَجْهِ الْأَمَلِ مُنِيبًا ، وَبَأَسَّنَا مُصِيبًا لِمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ فِي التَّمَسُّكِ بِمِرَاحِمِنَا نَصِيبًا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَعَصِمُ دَمَ مَنْ تَمَسَّكَ بِذِمَامِهَا ، وَتَحْسِمُ مَوَادَّ مَنْ عَانَدَهَا بِانْتِقَامِ حُسَامِهَا ، وَتَقْصِمُ عَمَّا الْأَعْنَاقُ مِمَّنْ أَطْعَمَهُ الْغُرُورُ فِي أَنْفِصَالِ أَحْكَامِهَا وَأَنْفِصَامِهَا ، وَتَقْصِمُ مَنْ قَصَدَ إِطْفَاءَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ مِنْ نُورِهَا وَأَقْطَعَ مَا قَضَاهُ مِنْ دَوَامِهَا ، وَتَجْعَلُ كَلِمَةً حَمَلَتْهَا هِيَ الْعُلْيَا وَلَا تَزَالُ أَعْنَاقُ جَا حِدِيهَا فِي قَبْضَةِ أَوْلِيَائِهَا وَتَحْتَ أَقْدَمِهَا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ ، الْمَنْعُوتُ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، الْمَخْصُوصُ مَعَ عَمُومِ الْمَعْجَزَاتِ بِتَحْسِنٍ : مِنْهَا الرُّعْبُ الَّذِي كَانَ يَتَقَدَّمُهُ إِلَى مَنْ قَصَدَهُ وَيَسْبِقُهُ مَسِيرَةُ شَهْرِ إِلَى مَنْ أَمَّهُ ، الْمَنْصُوصُ فِي الْكُتُبِ الْحَكْمَةِ عَلَى جِهَادِ أُمَّتِهِ الَّذِينَ لَا حَيَاةَ لِمَنْ لَمْ يَتَمَسَّكَ مِنْ طَاعَتِهِمْ بِذِمَّتِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَتَحُوا بِدَعْوَتِهِ الْمَمَالِكَ ، وَأَوْضَحُوا بِشَرْعَتِهِ إِلَى اللَّهِ الْمَسَالِكَ ، وَجَلَّوْا بِنُورِ سُنَّتِهِ عَنْ وَجْهِ الزَّمَنِ كُلِّ حَالٍ حَالِكٍ ، وَأَوْرَدُوا مِنْ كَفَرِ بَرَبِّهِ وَرُسُلِهِ مَوَارِدَ الْمَمَالِكِ ، وَوَنَقُّوا بِمَا وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهَ حِينَ زَوَى لَهُ ذَلِكَ ، صَلَاةً لَا تَزَالُ الْأَرْضُ لَهَا مَسْجِدًا ، وَلَا يَبْرُحُ ذِكْرُهَا مُغَيَّرًا فِي الْأَفَاقِ وَمُنْجِدًا ، مَا اسْتَفْتَحَتْ أَلْسِنَةُ الْأُسْنَةِ النَّصْرَ بِإِقَامَتِهَا ، وَأَبَادَتْ أَعْدَاءَهَا بِاسْتِدَامَتِهَا ، وَسَلَّمَتْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّهُ لَمَّا آتَانَا اللَّهُ مُلْكَ الْبَسِيطَةِ ، وَجَعَلَ دَعْوَتَنَا بِأَعْنَةِ مَمَالِكِ الْأَقْطَارِ مُحِيطَةً ، وَمَكَّنَ لَنَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَنْهَضَنَا مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرَضِ ،

وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض ؛ وأظلتنا بؤادر الفتوح ،
وأطلت على الأعداء سيوفنا التي هي على من كفر بالله وكفر النعمة دعوة نوح ؛
وأيدنا بالملائكة والروح ، على من جعل الواحد سبحانه ثلاثة : فانتصر بالأب والأبن
والروح ؛ وألقت إلينا ملوك الأقطار السلام ، وبذلت كرائم بلادها وتلادها رغبة
في الالتجاء إلى ظل أعلى من الأعلام ؛ وتوسل من كان منهم يظهر الغلظة بالدلة
والخضوع ، وتوصل من كان منهم يبيد القوة بالإخلاص الذي رآوه لهم أقوى
الجن وأوقى الدروع - عاهدنا الله تعالى أن لا نرد منهم آملا ، ولا نصد عن مشاريع
كرمنا ناهلا ؛ ولا نحيب من إحساننا راجيا ، ولا نحكي عن ظل ربنا لاجيا ؛ علمنا
أن ذلك شكر للقُدرة التي جعلها الله لنا على ذلك الآمل ، ووثوقا بأنه حيث كان
في قبضتنا متى نشاء نجع عليه الأنامل ؛ اللهم إلا أن يكون ذلك اللأجى للغل مسرا ،
وعلى عداوة الإسلام مصرا ؛ فيكون هو الجاني على نفسه ، والجاني على موضع
رأسه ، والمفرط في مصلحة يومه وغده بتذكير عداوة أمسه .

ولما كان من تقدم بالملكة الفلانية قد زين له الشيطان أعماله ، وعقد بجبال
الغرور آماله ؛ وحسن له التمسك بالتتار الذين هم بمهابتنا محصورون في ديارهم ،
مأسورون في حبال إذارهم ؛ عاجزون عن حفظ ما لديهم ، قاصرون عن ضبط
ما استلبته السرايا المنصورة من يديهم ؛ ليس منهم إلا من له عند سيوفنا نار ، ولها
في عقيقه آثار ، ومن يعلم أنه لا بد له عندنا من خطي خسف : إما القتل أو الإيسار .

وحين تهادى المذكور في غيه ، وحمله الغرور على ركوب جواد يغيه ، أمرنا
جيوشنا المنصورة بفحاست خلال تلك الممالك ، ودأست حوافر خيلها ما هنالك ،
وساوت في عموم القتل والأسريين العبد والحر والملوك والمالك ؛ وألحقت رواسى

جِبالِهِم بِالصَّعِيدِ ، وَجَعَلَتْ حُمَاتِهِمْ كَزُرُوعِ فَلَاتِهِمْ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ؛ فَأَسْلَمَهُم
الشَّيْطَانُ وَمَرَّةً ، وَتَرَكَهُمْ وَقَرْبًا ، وَمَا كَرَّهُمْ وَمَا كَرَّ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَوْعِدَهُم السَّاعَةُ وَالسَّاعَةُ
أَذْهَى وَأَمَرَّ ؛ وَأَخْلَفَهُمْ مَا ضَمَّنَ لَهُمْ مِنَ الْعَوْنِ ، وَقَالَ لَهُمْ : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي
أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ .

وَكَانَ الْمَلِكُ فَلَانٌ مِّنْ تَدْبِيرِ طُرُقِ النَّجَاةِ فَلَمْ يَرِ إِلَيْهَا سِوَى الطَّاعَةِ سَيِّلًا ، وَتَأَمَّلَ
أَسْبَابَ النَّجَاحِ فَلَمْ يَجِدْ عَلَيْهَا غَيْرَ صِدْقِ الْإِنْتِمَاءِ دَلِيلًا ؛ فَأَبْصَرَ بِالْخِدْمَةِ مَوْضِعَ رُشْدِهِ ،
وَأَدْرَكَ بِسَعْيِهِ نَافِرَ سَعْدِهِ ؛ وَأَرَاهُ الْإِقْبَالَ كَيْفَ ثَبَّتَ قَدَمَهُ فِي الْمَلِكِ الَّذِي زَلَّتْ عَنْهُ
قَدَمٌ مِنْ سَلَفٍ ، وَأَظْهَرَ لَهُ الْإِشْفَاقَ عَلَى رَعَايَاهُ مَصَارِعَ مِنْ أَوْرَدِهِ سُوءَ تَدْبِيرِ أَخِيهِ
مَوَارِدَ التَّلَفِّ ؛ وَعَرَفَهُ التَّمَسُّكُ بِإِحْسَانِنَا كَيْفَ أَحْتَوَتْ يَدُهُ عَلَى مَا لَمْ يُبْقِ غَضَبُنَا فِي يَدِ
أَخِيهِ مِنْهُ إِلَّا الْأَسَى وَالْأَسْفَ ؛ وَحَسَّنَتْ لَهُ الثَّقَّةُ بِكُنَّا كَيْفَ يُجْهِلُ الطَّلَبَ ،
وَعَلَّمَتْهُ الطَّاعَةُ كَيْفَ يَسْتَنْزِلُ عَوَارِفَنَا عَنْ بَعْضِ مَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ سُيُوفُنَا : وَإِنَّمَا الدُّنْيَا
لِمَنْ غَلَبَ ؛ وَأَنْتَمِي إِلَيْنَا فَصَارَ مِنْ خَدَمِ آيَاتِنَا ، وَصَنَائِعِ إِنْعَامِنَا ، وَقَطَعَ عِلَاقَتَهُ مِنْ
غَيْرِنَا ؛ فَلَجَأَ مِنَّا إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَظِلٍّ مَدِيدٍ ، وَنَصْرٍ عَتِيدٍ ؛ وَحَرَمٍ تَأْوِي الْمَلَّةَ إِلَيْهِ ،
وَكَرَمٍ يُقَرُّ نَضَارَتُهُ نَاطِرِيهِ ، وَإِحْسَانٍ يُمْتَعُّ بِهِمَا أَقْرَهُ عَطَاؤُنَا فِي يَدَيْهِ ، وَامْتِنَانٍ يَضَعُ
عَنْهُ إِصْرَهُ وَالْأَذْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ - أَقْتَضَى إِحْسَانُنَا أَنْ تُفَضِّيَ لَهُ عَنْ بَعْضِ
مَا حَلَّتْ جُيُوشُنَا دُرَاهُ ، وَحَلَّتْ سَطَوَاتُ عَسَاكِرِنَا عُورَاهُ ، وَأَضْعَفَتْ عَزَمَاتُ
سَرَايَانَا قُورَاهُ ، وَنَشَرَتْ طَلَائِعُ جُنُودِنَا مَا كَانَ سِتْرَهُ صَفْحُنَا عَنْهُمْ مِنْ عَوَرَاتِ
بِلَادِهِمْ وَطَوَادِهِمْ ؛ وَأَنْ تُخَوِّلَهُ بَعْضُ مَا وَرَدَتْ خُيُولُنَا مِنْهَا لَهُ ، وَوَطَّئَتْ جِيَادُنَا غَارِبَهُ
وَكَاغِلَهُ ، وَسَلَكْتَ كُنْجَاتًا فَلَمَكْتَ دَارِسَهُ وَآهْلَهُ ؛ وَأَنْ يَبْقَى مُلْكُ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي
مَضَى سَلْفُهُ فِي الطَّاعَةِ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَمِرَّ مَلِكُ الْأَرَمَنِ الَّذِي أَجْمَلَ السَّعْيَ فِي مَصَالِحِهِ

بيديه ؛ لَنَتَيَمَّنَ رعاياه به ، ويعلموا أَنَّهُم أَمِنُوا على أرواحهم وأولادهم بِسَبِيهِ ، عن طوية مخلصه ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يدُ جائره ، ولا سرية في طلب الغرة سائره ؛ ولا تطرق كئسه أسدُ جيوش مفترسه ، ولا سباع نهاب مُحْتَلِسه ؛ بل تستمر بلادُه المذكورة في ذمام رعايتنا ، وحضانه عنايتنا ؛ وكنف إحساننا ، ووديعه برنا وأمتناننا ؛ لا تطمح إليها عين مُعاند ، ولا يمتد إليها إلَّا ساعد مُساعد وعَضُد مُعاضد .

فليقابل هذه النعمة بِشُكْرِ الله الذى هداه إلى الطاعة ، وصان بإخلاص ولائه نفسه ونفائس بلاده من الإضاعة ؛ وليقرن ذلك بإضفاء موارد المودة ، وإضفاء ملابس الطاعة التى لا تزادُ بحسنِ الوفاء إلَّا جده ؛ واستمرارِ المناصحة فى السر والعلن ، واجتنابِ المخادعة ما ظهر منها وما بطن ؛ وأداء الأمانة فيما استقر معه الحلف عليه ، ومباينة ما يُخشى أن يتوجه بسببه وجه عتب إليه ؛ واستدامة هذه النعمة بحفظ أسبابها ، واستقامة أحوال هذه المنة برؤف مَوجبات الكدر واجتنابها ، وإخلاص النية التى لا تعتبر ظواهر الأحوال الصالحة إلَّا بها .



ومن ذلك ما يكتب به لحكم رُماة البندق

قد جرت العادة أَنَّهُ إذا كان للسلطان عناية برمى البندق ، أقام لرُماته حاكماً من الأمراء الذين لهم عناية برمى البندق .

وهذه نسخة توقيع من ذلك :

الحمد لله الذى خصَّ أياماً الزاهرة ، باستكمال المحاسن فى كلِّ مَرَام ، وجعل [من] أولياء دولتنا القاهرة ، من أصاب من كلِّ مَرَمَى بعيد شاكَّة الصواب حتى أصبح

حاشا فيه بين كل رَام ، وجمع لخواصنا من أشنات المفاسح ما إذا برزوا فيه للرياضة ليلاً [أَغْنَتْ] قسيتهم عن الأهلة ورجومها عن رجوم الظلام ، وسدّد مقاصد أصفينائنا في كل أمرٍ فما شغلوا بمسرة سرّاً إلا وكانت من أقوى أسباب التمرّن على خوض الغمرات العظام ، واقتحام الحرب اللّهام ، واشتغال جلايب الدجى في مصالح الإسلام .

نحمده على نعمة الوسام ، وأياديه الحسام ، وآلائه التي ما برحت بها تُغور المسار دائمة الاتّسام ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تعصم من الزلّ ، وتؤمن من الزّيف والخلل ، وتُلبس المتمسك بها من أنوار الجلالة أبهى الحلّ ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المنزّه عن الهوى ، المخصوص بالوحي الذي علمه شديد القوى ، الدّال على اعتبار الأعمال بصحّة القصد بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما ليكلّ أمرئ ما نوى » . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفق الإخلاص مساعيهم ، ووفّر الإيمان دواعيهم ؛ صلاة دائمة الاتّصال ، مستمرة الإقامة بالغدو والآصال ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنّه لما كان رمي البندق من أحسن ما هت به الحكمة ، في حال سلامها ، ومن أبهج ما حفظت به الرّمة ، حياة نفوسها وعزّة عزيمتها ؛ على ما فيه من أطراح الراحة وأجتنابها ، واستدعاء الرياضة وأجتنابها ؛ وخوض الظلمات في الظلام ، وتونحي الإصابة في غمرات الدجى التي تخفى فيها المقاتل على حدق السهام ، وأرتقاب ظفر ، يُسفر عنه وجه سفر ، ومهاجمة خطر ، تُفضى إلى بلوغ وطر - وله شرائط تقتضى التقدّم بين أربابه ، وقواعد لا يخالفها من كان مبرّراً في أصحابه ؛ وأدوات

(١) في الأصل « في مخالفتها » ولا معنى له . تأمل .

كمال، لأبد للتحلي بهذه الرتبة منها، وحسن خلال، تهدر أعمال من بعد عليه مرأها وقصرت مساعيه عنها، وعوائد معلومة، بين أرباب هذا الشأن وكبرائه، ومقاصد مفهومة، فيما يتميز به المصيب الحاذق على نظرائه .

ولما كان الجنب العالى الفلانى ممن يشار إليه في هذه الرتبة ببنان الترجيح، ويرجع إلى أقواله فيما اقتضى التعديل فيما بين أربابها والتجريح؛ ويعمل فيها بإشارته الخالصة من الهوى والأغراض، ويعول فيها على قدم معرفته المميزة بين أقدار الرماة مع تساوى إصابة الأغراض؛ لأحتوائه على غايات الكمال فيها، وسبقه منها إلى مقامات حسان لا يعطيها حقها [الا] مثله ولا يؤقها - اقتضى رأينا الشريف أن نعلق به أحكامها، ونرد إلى أمره ونهيه كبراءها وحكامها .

فرسم بالأمر الشريف أن يكون حاكما في البندق لما يتعين من اختصاصها بجنايه، ويتبين من أولويته بالحكم في هذا الفن على سائر أربابه .

فليل ذلك حاكما بشروطه اللازمة بين أهله، المعتبرة بها خلال الكمال في قول كل أحد منهم وفعله؛ المميزة بين تفاوت الرماة بحسب كيفية الرمي وإتقانه، المرجحة في كثرة الطير بإمكانه له في وقت البروز ومكانه؛ المهذرة ما يجب بين أهل هذا الفن إهداره، المثبتة ما يتعين في كمال الأدوات إثباته في قدم الكبراء وإقراره، ويعمل في ذلك جميعه بما تقتضيه معرفته المجمع في فنه عليها، ويتقدم فيه بما تدله عليه خبرته التي ما برح وجه الاختيار مصروفا إليها؛ والله تعالى يسدده في القول والعمل، ويبلغه مراتب الرفعة في خلاله الجميلة وقد فعل؛ والخير يكون، إن شاء الله تعالى .

قلت : ورُبما كان المرسوم المكتتب لمن هو دون من تقدم من أمير عشرة أو من في معناه . فيفتح بـ «أما بعد» ويكمل على نحو ما تقدم .

وهذه نسخة ثانية لحاكم البندق ، مفتحة بـ «أما بعد» وهي :

أما بعد حمد الله الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعزب شيء عن علمه ، ولا قنوط
من رحمته وسعة حلمه ، ملهم أهل محاربة أعداء دينه بالرياضة لها في أيام سلمه ،
ومُنِجز وعود السعود لمن كان النجم مبدأ همتيه ، والصدق حلة سجيته ، والعز حلية
أسمه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي هدى الله بنور مده العادلة من تردى
في ظلمات ظلمه ، ورفع منار النبوة بما خصه به من افتتاح التقدم في رتبها
وختمه ، وعلى آله وصحبه الذين سرى كل منهم إلى غاية الكمال على نجائب همتيه
وجياد عزمه - فإن أولى من رعى له أسباب قدمه وتقدمه ، وفُتحت له أبواب
حكمه في رتبته وتحكمه ، وأعيد إلى مكانته التي رقاها باستحقاقه قديما ، ورفع إلى
منزله التي لم يزل بقواعدها خيرا وبأوضاعها عليا - من ارتقى في رتبته إلى نجم أفضها ،
واقترى في مناهجه بدليل مسالكها وطرقها ، فأتى في مصالحها بيوت الإصابة من
أبوابها ، ونقل فيها أوضاع الإجابة عن كان أدري بها ، وتقدم فيها تقدم هجرته
وسبق قدمه ، وبلغ في مقاماتها الغاية بين وثبات ساعده وثبات قدمه ، وجمع من
أشتات الطير ما افترق في غيره ، وحوى من السبق إلى أنواعها ما حكم بسعد نجمه
ويمن طيره ، فكم ليلة أسفر فيما أبرزوه عن صباح نجاحه ، وكم طائر زاحم النسر
بقواده أصبح لديه محولا بجناحه ، وكم أنزل أهلة قسيه الطير على حكمها ، وكم
حكمت بنادقه في رجوم الطير المخلقة إلى السماء أنقضاض نجمها ، وكم أبصر مقاتل
الطير وهي من الليل في ظلمات بعضها فوق بعض ، وكم أشتغل من الطير الواجب
بندب رمي لم يسغله من إعداد الأهبة للجهاد عن القرض ، حتى كاد النسر الطائر
إذا توهم أن الهلال قوسه يقدو كآخيه واقعا ، والمرزم المخلق في الأفق يمسي لإشارة

بنادقه الصمّ متبعا ؛ حتى أصبح وهو الكبير في فنّه بآداب التعريف ، وأضحى وهو الخبير بنوعه بطريق النقل والتوقيف .

ولمّا كان فلانٌ هو كبير هذا الفنّ وخبره ، ومقدّم هذا النوع الذى لم يزل بجلائه عظيم كلّ عصر وأمير ؛ وقديم هذا المرمى الذى جُلّ المراد به الحدُّ لا اللّعب ، وأليف هذا المرام الذى ينشطُ إليه اللّاعِبُ ويستروحُ إليه التّعب - اقتضى الرأى الشريف أن نجعله حاكما في هذه الرتبة الجليلة بما علم أو علم منها ، فاصلا بين أهلها بمعرفته التى ما برحت يؤخذ بها في قواعدها وينقل عنها - فرسم بالأمر الشريف أن يكون حاكما في البندق .

فليستقرّ في هذه الرتبة التى تلقّاها ، بيمين كفايته ويمنه ، وأرتقاها ، بتفرّده في نوعه وتقدّمه في فنّه ؛ وليعتمد الإنصاف في أحكام قواعدها ، وإجراء أمر أربابها على أحوالها المعروفة وعوائدها . وينافس المعروفين بها على التّحلّي بآدابها ، والتّمسك من المروءة والأخوة بأفضل أهدائها ؛ وينصف بينهم فيما يُعتدُّ به من واجبها ، ويُلزم الداخل فيها بالمشي على المألوف من طُرُقها والمعروف من مراتبها ؛ ولا يحكم في التقديم والتأخير بهوى نفسه ، ولا يقبل من لم يتحرّ الصدق في يومه أنّه قبل منه في أمسه ؛ فإنّ استدامة شروطها أمانٌ من السقوط عن درجتها ، وإذا حكمت نفوس أهلها الصدق في أقوالها وأفعالها فقد خرجت من خطّ حرجها ؛ وليرع لذوى التقدّم فيها قدم هجرتهم ، وأشتهار سيرتهم الحسنة بين أسرهم ؛ وقد خبر من أوصافه الحسنه ، وسابق رتبته التى لم تكن عين العناية عنها وسنه ؛ ما اقتضى استقرار رتبته على مكانتها ومكانها ، واكتفى له من مبسوط الوصايا بعنوانها ؛ فليتق الله في قوله وعمله ، ويجعل الاعتماد على توفيقه غاية أمله ؛ والخير يكون : إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما يكتب به في لباس الفتوة .

إعلم أنَّ طائفةً كبيرةً من الناس يذهبون إلى لباس لباس الفتوة ، و يقيمون لذلك شروطاً وآداباً جاريةً بينهم . ينسبون ذلك في الأصل إلى أنَّه مأخوذٌ عن الإمام عليٍّ كرم الله وجهه .

والطريق الجارى عليه أمرهم الآن أنَّه إذا أراد أحدهم أخذ الطريق عن كبير من كبراء هذه الطائفة ، آجتماع من أهلها من تيسر جمعه ، وتقدم ذلك الكبير فيلبس ذلك ^(١) ثياباً ، ثم يجعل في كوز أو نحوه ماءً ويخلط به بعض ملح ، ويقوم كلُّ منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره . وربما اعتنى بذلك بعض الملوك . وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ألبس السلطان واحداً من الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعاً .

وهذه نسخة توقيع بفتوة ، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو : الحمد لله الذي جعل أنساب الفتوة ، متصلةً بأشرف أسباب النبوة ، وأفضل من أمده منه بكلِّ حيل وقوة ، وأسعد من سما فكان علياً على كلِّ من سام علوه .

نحمده حمداً تغدو الأفواه به مملؤه ، ونشكره على مواهبه بآيات الشكر المتلوه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رَوَاحه وغُدوة ، ونشهد أن محمداً عبده وسوله الذي شدَّ الله أزره بنجر من أفتى وفتى فنال كلُّ فتوى من الفتيان به شرف الأبوة والنبوة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا وليه وخذلوا عدوه ، صلاةً موصلةً إلى نيل الأمان المرجوه .

(١) بياض بالأصول ، ولعله : المرید أو نحوه .

وبعد، فإن خير من اتصل به رجاء الرجال الأجواد، وطوى البعيد إلى تحصيل مرّامه كل طود من الأطواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لئلا يفسد كل جود وأمتطى ظهر خير جواد، وأستمسك من ملابس الشرف بما يؤمن ويؤمل وما يشد به من كل خير لباس التقوى، وما تؤيد به عزيمته فتقوى؛ وما يتقيد به على رؤوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحسن آية من هذا الكتاب - من أشتهر بالشجاعة التي تقدّم بها على قومه، وحسد أمسها في يومه؛ وبالشهامة التي لها مال السهام من تفويق، ولزرق الأسنّة من تحذيق؛ ولبيض الصفاح من حدة متون، ولسمهرية من أزدحام إذا أزدحمت المنون؛ ومن صدق العزيمة، ما يشهد به كرم الشيمه؛ ومن شدة الباس، ما يجتمع [به] على طاعته كثير من الناس؛ ومن صدق اللهجة واللسان، ما أتصف عفافه منهما بأشرف ما يتصف به الإنسان؛ ومن طهارة النفس ما يتنافس على مثله المتنافسون، ويستضيء بأنواره القابسون، ويرفل في حلل نعمائه اللابسون؛ و[كان] من الذين أبانوا عن حسن الطاعة وأنبأوا، وإذا دُعوا إلى استنفار جهاد وأجتهد لبوا وأجابوا؛ والذين لا يلوون ألسنتهم عن الصدق، ولا يولون وجوههم عن الحق؛ والذين لا يقعدهم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حب الأوطان، وإذا نفدوا في حرب حزب الأعداء لا ينفذون إلا بسطان.

ولما كان فلان ذو المفاجر، والمآثر؛ أمير الفتيان، مميّز الإخوان والأعيان؛ هو صاحب هذا المخيل المعقود، والممدوح بهذا المقال المحمود، والمنوخ بهذا المقام المشهود؛ والثناء الذي سربله بما سربله أثواب العزة والفخار، والاعتناء الذي استخير الله في أصطفائه واختياره في ذلك فخار - أقتضى حسن الرأي الشريف - كرم الله أنصاره، وأعلى مناره - أن نجيب وسائل من وقف في هذا القصد وقفة سائل، لينال بذلك كل إحسان وإحسان كل نائل؛ ودعا إلى الكرم العام بالإنعام،

والدعاء لسلطان يدعى له ويدعو كل الأنام ، فقال : أسأل الله وأسأل سلطان الأرض ، ملك البسيطة إمام العصر ، رافع لواء النصر ، ناصر الملة المحمدية ، محي الدولة العباسية ، فاتح البلاد والقلاع والأمصار ، قاهر الكفار مبيد الفرنج والأرمن والتتار ، سلطان الزمان ، خسروان إيران ، شاهنشاه القاف ، سلطان العالم وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، الذي انتهى إليه عن أمير المؤمنين الإمام الأواب ، المغوار ، علي بن أبي طالب ذي الفخار ، شرف الفتوة وأتصال الأنساب .

قلت : هذا ما وقفت عليه من نسخة هذا التوقيع . وقد ذكر الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه "حسن التوسل" نسخة تقليد أنشأه في الفتوة ، أسقط منه أول الخطبة وهو : - وأبدأ منه بقوله :

نحمده على ما منحننا من نعم شتى ، وهبنا من علم وحلم غدونا بهما أشرف من أفتى ، وأنانا ملك خلال الشرف الذي لا ينبغي لغير ما آتخصنا به من الكمال ولا يتأتى ، وخصنا به من رفع أهل الطاعة إلى سماء النعم يتبوءون من جنان الكرم حيث شاءوا : وغيرهم لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من آتتى في فخار أبوة التقي إلى حسب علي ، وأتتى في بأوة النبوة إلى سبب قوى ونسب زكى ، وأرتدى حلال الوقار بواسطة الفتوة عن خير وصى عن أشرف نبي ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي نور شريعته جلي ، وجاه شفاعته ملي ، وبسيفه وبه حاز النصر من آتتى وفاء إليه : فلا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي .

وبعد ، فإن أولى من لبي إحساننا نداء وده ، وربى أمتنا نتاج ولائه الموروث عن أبيه وجده ، ورقاه كرمنا إلى رتبة علاء يقف جواد الأمل عن بلوغها عند حده ؛

وَتَلَقَّتْ كَرَامَتَنَا وَفَدَ قَصْدِهِ بِالترَّحُّيبِ ، وَأَنْزَلَتْ جَارَ رَجَائِهِ مِنْ مَصْرِ نَصْرِهَا بِالْحَرَمِ
الْأَمِينِ وَالرَّبْعِ الْخَصِيبِ ، وَأَذْنَتْ لَأَمَلِهِ مَا نَأَى مِنَ الْأَغْرَاضِ حَتَّى بَلَغَهُ بِفَضْلِهَا سَهْمُ
أَجْتِهَادِهِ الْمُصِيبِ ، وَأَعَدَّتْ لَهُ مِنْ حُلِيِّ الْجَلَالَةِ مَا هُوَ أَجْمَعُ مِنْ رِذَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي
تَزْدَادُ عَلَى الْأَيْدِ جَدَّةُ بُرْدِهِ الْقَشِيبِ ، وَخَصَّصَتْهُ لِابْتِنَاءِ الْمَجْدِ بِأَجَلِ بِنُوءٍ جَعَلَتْ لَهُ
فِي إِرْثِ خِلَالِ الشَّرَفِ أَوْفَرَ حَظٍّ وَأَوْفَى نَصِيبٍ - مِنْ سَمَتْ مَنْابِرِ الْمَجْدِ بِذِكْرِهِ ،
وَابْتَسَمَتْ أَسِرَّةُ الْمَجْدِ بِشُكْرِ أَوْصَافِهِ وَوَصَفِ شُكْرِهِ ، وَأَخْتَالَتْ مَوَادُّ الثَّنَاءِ بِحَسَنِ
خِلَالِهِ ، وَأَخْتَارَتْ كَوَاكِبُ السَّنَاءِ إِقْبَالَ طَوَالِعِهِ بِطَوَالِعِ إِقْبَالِهِ ، وَتَمَسَّكَ مِنْ طَاعَتِنَا
بَأَمْثَلِ أَسْبَابِ الْهُدَى ، وَأَعْتَصَمَ بِعُرْوَةِ بِنُوءِ الْأَبْنَاءِ فَأَوْطَاهُ التَّوْتُّقُ بِهَا رِقَابَ الْعِدَاءِ ،
وَأَتَّصَفَ بِمَحَاسِنِ الشِّيمِ فِي مَوَدَّتِنَا فَاضْحَى قَبَى السَّنِّ كَهْلَ الْحِلْمِ يَهْتَرُّ لِلنَّسْدِ ، وَأَنْتَمَى
إِلَيْنَا فَأَصْبَحَ لَدَيْنَا مَلِكًا مَقْرَبًا ، وَأَوْجِبَ مِنْ حُقُوقِ الطَّاعَةِ عَلَيْنَا مَا أَمْسَى بِهِ لَدَيْنَا
- مَعَ جَلَالَةِ الْأَبْنَاءِ - أَبْنَاءًا وَغَدَوْنَا لَهُ - مَعَ شَرَفِ الْأَبَاءِ - فِي نَسَبِ الْفَخْرِ الْعَرِيقِ أَبَاءُ ،
وَنَشَأُ فِي مَهَادِ الْمُلْكِ فَسَمَا بِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعِلْمُ ، بِالسَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَبِالْبَأْسِ وَالْكَرَمِ ، وَأَعْتَزَى
إِلَى أُبُوءِ حُنُونٍ بِبِنُوءِ رَجَائِهِ فَتَشَبَّهَ بَعْدَ أَيْمَانِنَا : «وَمَنْ يُسَيِّئْ أَبَاهُ فَا ظَلَمَ» ، وَتَحَلَّى
بِصَدْقِ الْوَلَاءِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَطْلُبُ فِي سِرِّ هَذَا النَّسَبِ وَيُعْتَبَرُ ، وَتَحَلَّى لِنَكَايَةِ عَدُوِّ
الْإِسْلَامِ بِلُطْفِ مُكَايَدَةِ : السِّيُوفِ تُجْزُ الرِّقَابَ «وَتَعْجِزُ عَمَّا تَنَالُ الْإِبْرَ» .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي زَانَ بِمُؤَالَاتِنَا عُقُودَ مَجْدِهِ ، وَزَادَ فِي طَاعَتِنَا عَلَى مَا وَرِثَ
مِنْ مَكَارِمِ أَبِيهِ وَجَدَّهِ ، وَزَانَ الْمُلُوكَ فِي إِقْبَالِ شَبَابِهِ ، وَصَانَ مُلْكَ أَبِيهِ عَنْ عَوَارِضِ
أَوْصِيَاءِهِ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْصَى بِهِ ، وَأَنْفَتَ صَوَارِمُهُ أَنْ تَكُونَ لَغَيْرِ جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مُعَدَّةً ،
وَعَزَائِمُهُ أَنْ تَتَّخِذَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ أَوْلِيَاءَ تُلْقَى إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ، وَسِيَّاهُ أَنْ تُسَدَّدَ
[الـ] إِلَى مَقَاتِلِ الْعِدَاءِ ، وَأَسْتَتُّهُ أَنْ يُبَلَّ لَهَا مِنْ غَيْرِ مَنْاهِلِ صُدُورِ الْكُفْرِ صَدَى ؛
مَعَ أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الشَّرَفِ لَشَرَفِ خِلَالِهِ ، وَأَفْتَرَاقِ أَسْبَابِ السَّرَارِ عَنْ هَالَةِ كَمَالِهِ ؛

وَسُؤَالِهِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ أَنْ يَمْدَّ إِلَيْهِ يَدًا ، وَأَلْتِمَاسِهِ مِنْ كَرَمِنَا الْعَمِيمِ أَجَلٌ مَا نَحَلَّ وَالِدٌ وَلَدًا ؛ وَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَى قَدَمِ الرَّجَاءِ الثَّابِتِ ، وَمَتَّ بِقَدَمِ غُرُوسِ الْوَلَاءِ الَّتِي أَصْلَهَا فِي رَوْضِ الْمَوَدَّةِ نَابِتٌ ؛ وَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ وَأَسْأَلُ سُلْطَانَ الْأَرْضِ ، الْقَائِمَ لِجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِالسُّنَّةِ وَالْفُرْضِ ، فَاتَّخِذَ الْأَمْصَارَ ، الَّذِي لَمْ تَزَلْ سَيُوفُهُ تَهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنْ عُمُودِهَا إِلَى أَنْ صَارَ لَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ أَنْصَارٌ ؛ الَّذِي كَرَّمَ اللَّهُ شَرَفَ الْقُوَّةِ بِأَنْتَاهِا إِلَيْهِ ، وَأَعْلَى قَدَرُ بِنَوَةِ الْمُرُوءَةِ بِاتِّصَالِهَا بِهِ عَنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَنْ أَبِي أَوَّابٍ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ وَأَوْرَثَهُ مِنْ خُلُقِهِ الْكَرَمِ وَالْبَأْسَ فَتَحَلَّى مِنْهُ بِأَجَلٍ مُوَافٍ مُوَافِقٍ ، وَمَنْعَهُ بِحِفْظِ الْعَهْدِ مِنْ خَصَائِصِهِ مَاعِهَدَ بِهِ إِلَيْهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ مِنْ أَنَّهُ مَا يَجِبُهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ ؛ أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ، وَأَوْطَأَ جِيَادَهُ مَعَاقِلَ الْكُفْرِ وَأَوْطَانَهُ ؛ أَنْ يَتَقَبَّلَ قَصْدِي بِقَبُولِ حَسَنٍ ، وَيُقْبَلَ بِوَجْهِ كَرَمِهِ عَلَى أَمَلِي الَّذِي لَمْ يَقْعُدْ بِهِ عَنْ فُرُوضِ الطَّاعَاتِ وَسُنَنِهَا وَسَنِّ ؛ وَيَنْظِمَنِي فِي سَبِيلِكَ عَقُودَ الْقُوَّةِ مُلْتَزِمًا بِأَسْبَابِهَا ، مُقْتَدِيًا بِطَاعَتِهَا الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ أَنْسَابِهَا ؛ مَتَّصِفًا بِمَوَالَاتِهَا الَّتِي لَا يَثْبُتُ لَهَا حُكْمٌ إِلَّا بِهَا ، آتِيًا بِشُرُوطِ خِدْمَتِهَا الَّتِي مِنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا عَلَى مَا يَجِبُ فَمَا أُنَى الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا .

فَاسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى فِي عَقْدِ لَوَاءِ هَذَا الْفَخَّارِ لِحُجَّةِ نَفَارٍ ، وَنَظْمِنَاهُ لِعَقْدِ هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ وَاسْطَةً لِمَثَلِهِ كَانَ يَزِينُهَا الْأَدِّخَارُ .

فَرُفِسَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ جُودَهُ يُعَلِّي الْجُدُودَ ، وَيُوطِدُ لِأَبْنَاءِ مَلُوكِ الزَّمَنِ مِنْ رُتَبِ الشَّرَفِ فَوْقَ مَا وَطِدَتِ الْآبَاءُ وَالْجُدُودُ - أَنْ نَصِلَ سَبَبَهُ بِهَذَا السَّبَبِ الْكَرِيمِ ، وَنَعْقِدَ حَسَبَهُ فِي الْقُوَّةِ بِأَوَانِخِ هَذَا الْحَسَبِ الصَّمِيمِ ، وَنَعْدُقَ نَسَبَهُ بِأَصَالَةِ هَذِهِ الْأَبُوءِ الَّتِي هِيَ إِلَّا عَنْ مِثْلِهِ عَقِيمٌ ، وَيُفَاضَ عَلَيْهِ شِعَارُ هَذَا الْخُلُقِ الْمُتَّصِلِ عَنْ أَكْرَمِ وَصَى بْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِ : (إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

فليحلّ هذه الهضبة التي أخذت من مرافق العزّ بالمعاقيل ، ويحلّ هذه الرتبة التي دون بلوغها من نوع الفراقيد ألف راقيد ؛ ويجرّ رداء الفخر على أهداب الكواكب ، ويؤازح بمواكب مجده النجوم على ورود نهر المجرة بالمناكب ؛ وليصل شرف هذه النسبة من جهته بمن رآه أهلاً لذلك ، وليقت في الفتوة بما علم من مذهبها الذي انتهى فيه منّا إلى مالك ؛ وليطلّ على ملوك الأقطار ، بهذه الرتبة التي تفانى الرجال على حبها ، ويصل على صروف الأقدار ، بهذه العناية التي جعلته - وهي حلية خرب الله - من خربها ؛ وليصل سرّ هذا الفضل العميم بإيداعه إلى أهله ، وأتباعه ممن لم يره أهلاً لحمله .

قلت : وما تقدّم مما يكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية ، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم : من التقاليد ، والتفاويض ، والتواقيع ، والمراسيم : المكبّرة والمصغّرة ، ليس هو على سبيل الاستيعاب ، بل على سبيل التمثيل والتذكير ، لينسخ على منواله ، وينسخ على نهجه . فإنّ استيفاء ما يكتب في ذلك مما يشقّ ، ويقف القصّد دونه . بل لا بدّ من حوادث تحدّث لم يسبق لها مثال يقتفى أثره . فيحتاج الكاتب إلى حسن التصرف في إيراد ما يلائم ذلك ويناسبه . وكلّ كاتب ينفق من كسبه ، على قدر سعته ، والله تعالى هو الموفق إلى نهج الصواب ، والهادي إلى طريق الحقّ في الأمور كلّها ، بمنّه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فما يكتب من الولايات عن نواب السلطنة ؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في مقدمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصد)

المقصد الأول

(في بيان من تصدر عنه الولايات : من نواب السلطنة)

إعلم أنَّ نواب السلطنة بالديار المصرية لا تصدر عنهم ولاية في جليل ولا حقير ، بل التولية والعزل منوطان بالسلطان ، والكتابة في ذلك معدومة به ، سواء في ذلك النائب الكافل ، ونائب الإسكندرية ، ونائب الوجهين : القبلي والبحري ، إلا ما يكتب عليه النائب الكافل من القصص في صغائر الولايات : من نظر الأوقاف وغيرها ، ثم تعين ويكتب بها توقيع سلطانية .

أما نواب السلطنة بالممالك الشامية : وهم نائب السلطنة بالشام ، ونائب السلطنة بحلب ، ونائب السلطنة بطرابلس ، ونائب السلطنة بجماعة ، ونائب السلطنة بصفد ، ونائب السلطنة بغزة ، إذا كانت نيابة لا تقدمة عسكر .^(١)

(١) يظهر أن هنا سقطا ولعله « فتصدر عنهم الولاية » أخذنا مما تقدم .

المقصود الثاني

(في بيان الولايات التي تصدر عن نواب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم في الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية بالممالك الشامية ، أنّ نواب هذه الممالك يَسْتَبْدُون بتولية ولاية الأعمال ، وقد يَسْتَبْدُون أيضا بتولية صغار النّواب ، كالقلاع والبلدان التي تكون نيابتها إمرة عشرة . ورُبّما استبدّوا بتولية بعض النيابات التي تكون نيابتها إمرة طبّخاناه ، إلّا أنّ تولية العشرات عن النّواب أكثر ، وتولية الطبّخاناه عن السّultan أكثر . أمّا النيابات التي تكون نيابتها تقدمة ألف ، فإنّها مخصصة بالسّultan . والنيابات التي يكون متوليها جندياً أو مقدّم حلقة فإنّها مخصصة بالنّواب . وأنّ تولية أكبر أرباب الأقاليم : كتاب السّرّ ، والوزير بالشّام ، حيث جعلت وزارة ، وناظر النّظار ، حيث جعلت نظراً ، وأصحاب دواوين المكاتب ، ونظّار المال بسائر الممالك ، ونظّار الجيوش ، وقضاة القضاة بها - فإنّ التولية في ذلك تختص بالسّultan دون النّواب . وما عدا ذلك يوّلّ فيه السّultan تارة ، والنّواب أخرى . ورُبّما حصلت الولاية في بعض ذلك من بعض النّواب ثم يُكتب من الأبواب السلطانية بالحمّل عليها ، على ما تقدم بسط القول فيه هناك ، فليراجع منه .

المقصود الثالث

[في افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدم في الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية أنه يراعى فيها براءة الاستهلال في الافتتاح وأن الافتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلى من الافتتاح بـ«أما بعد» والافتتاح بـ«أما بعد» أعلى من الافتتاح بـ«رسم بالأمر الشريف» وأن لفظ «أما بعد» أعلى من لفظ «وبعد» وأنه يراعى في الولايات وصف المتولى والولاية، ويؤتى لكل أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح، ثم يقال: «ولما كان فلان هو المشار إليه بالصفات المتقدمة، أقتضى حسن الرأي أن يستقر في كذا ونحو ذلك». ثم يؤتى من الوصايا بما يناسب مقام الولاية والمتولى لها، ثم يؤتى بالاجتهام: من المشيئة والتاريخ، والحمدلة، والتصلة، والحسبة.

والأمر فيما يكتب عن التواب جار على هذا المنهج إلا في أمور قليلة:

منها - أن جميع ما يكتب عن التواب بالشام يقال فيه «توقيع» ولا يقال فيه «تقليد» ولا «تفويض» وربما قيل «مرسوم» في أمور خاصة.

ومنها - أن التوقيع يوصف بـ«الكريم» لا بـ«الشريف» فيقال: «توقيع كريم» أن يستقر فلان في كذا» أو «مرسوم كريم لفلان بكذا» بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية، فإنه يوصف بكونه «شريفًا» فيقال: «تقليد شريف» و«تفويض شريف» و«مرسوم شريف» و«توقيع شريف» على ما تقدم ذكره.

ومنها - أن الكاتب يأتي بنون الجمع [جارية] في ذلك على من تصدر عنه الولاية، كما أن الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها على] العادة في الكتابة

(١) ذكر هذا في المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لا يخفى. (٢) بياض بالأصل.

عن الملوك . وكأنهم راعوا في ذلك أن المكتوب عنه هو السلطان في الحقيقة ،
وفعل النائب كأنه فعله نفسه ، كما يقال : هزم الأمير الجيش ، وفتح السلطان
المدينة ، والذي هزم وفتح إنما هم جنده لا هو في نفس الأمر .

ومنها - أنه إذا أفتح التوقيع بـ «رسم بالأمر» - لا يوصف بـ «الشریف» بل
بـ «العالی» على ما تقدم . فيقال : «رسم بالأمر العالی ، المولوی ، السلطانی ،
الملکی ، الفلانی الفلانی» . وكذلك إذا أتى بذكر «رسم» بعد الافتتاح بـ «الحمد لله
وأما بعد» فإنه يقال فيه : «العالی» دون «الشریف» .

قلت : هذا ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم كما أشار إليه المقر الشهابي
أبن فضل الله في «التعريف» . ثم استقر الحال على وصف الأمر بـ «الشریف»
فيقال : «رسم بالأمر الشریف العالی» إلى آخره ، كما يكتب عن السلطان .

ومنها - أنه يقال في آخر التوقيع : «والاعتماد على الخط الكريم أعلاه» ولا يقال :
«على الخط الشریف» ، كما في السلطان .

ومنها - أنه لا يذكر في تواقيع التواب مستند كتابتها ، كما يكتب فيما يكتب
عن السلطان .

المقصد الرابع

(في بيان الالقاب)

قد تقدم في المقالة الثالثة ، في الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب
السلطانية أن أعلى ما يكتب لأرباب السيوف «المقر الكريم» ثم «الجناب
الكريم» ثم «الجناب العالی» ثم «المجلس العالی» ثم «المجلس السامي» بالياء ، ثم
«المجلس السامي» بغير ياء ، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعلى ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية : « الجنب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامى » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس القاضى » ثم « القاضى » .

وأن أعلى ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : « المجلس العالى » . ثم أستقر أعلى ما يكتب لهم : « الجنب العالى » و « المجلس العالى » بعده ، ثم « السامى » بالياء ، ثم « السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس القاضى » ثم « القاضى » على ما تقدم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلا فيما يقع الاختلاف فيه من الألقاب والتعوت الخاصة بكل منهما .

وأن أعلى ما يكتب لأرباب الوظائف السوفية : « المجلس العالى » ثم « المجلس السامى » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنه يكتب لأرباب الوظائف العادية : « المجلس السامى ، المصدر الأجل » أو « مجلس الصدر » أو « المصدر » .

وأنه يكتب لزعماء أهل الذمة ألقابهم المتعارفة . فيكتب لرئيس اليهود : « الرئيس » ولبطاركة النصارى : « البطرک » ونحو ذلك .

فأما ما يكتب عن نواب الشام ، فعلى أصناف ، كما تقدم فى الألقاب التى تكتب عن الأبواب السلطانية ، مع اختلاف فى بعض الألقاب بزيادة ونقص ، وعلو وهبوط .

الصنف الأول

(أرباب السيوف، ولألقابهم مراتب)

المرتبة الأولى — المقر الشريف . وبذلك يُكتب للطبقة الأولى من مقدّمي الألوَف بالشّام، وحلب، وطرابلس، إذا وُيِّ أحدُهم نظَر ووقف، أو نحو ذلك . أمّا غير هذه الممالك الثلاث ، فقد تقدّم أنّه ليس في شيءٍ منها تقدمةُ ألف، ويقال فيه عندهم : « المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ، الغياثى ، الزعيمى ، الظهيرى ، الخدومى ، الفلانى ، عز الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء فى العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحّدين ، عون الأمة ، كهف الملّة ، ظهير الملوك والسلّاطين ، فلان الفلانى : أعزّ الله تعالى أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقر الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمي الألوَف ، ويقال فيه : « المقر الكريم ، العالى ، المولوى » . بنحو الألقاب المتقدمة .

المرتبة الثالثة — المقر العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمي الألوَف ، ويقال فيه : « المقر العالى ، المولوى » بنحو الألقاب المتقدمة أيضا ^(١) [كما] يكتب لنقيب الأشراف بحلب ، وهى : « المقر العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، النقيبى ، الحسبى ، النسيبى ، العريقى ، الأصيلى ، الفاضلى ، العلّامى ، العارفى ، الحجّجى ، القدوى ، الناسكى ، الزاهدى ، العايدى ، الفلانى ، جلال الإسلام والمسلمين ، جمال الفضلاء البارعين ، نحر الأمراء الحاكمين ، زين العترة الطاهرة ، شرف الأسرة

الفائِزَه، حُجَّةُ العِصَابَةِ الهاشمية، قُدْوَةُ الطائفةِ العَلَوِيَّةِ، نُحْبَةُ الفرقةِ الناجيةِ الحَسَنِيَّةِ، شَرَفُ أُولَى المراتبِ، نَقِيبُ ذَوِي المناقبِ، مَلَاذُ الطُّلَّابِ الدَّاعِينَ، بركةُ الملوكِ والسلاطينِ، فلان : أَسْبَغَ اللهُ عليه ظلاله .

المرتبة الرابعة — الجَنابُ الكريم . وبه يُكْتَبُ للأُمراءِ الطَّبائِخَانَاهُ، ويُقال فيه : « الجَنابُ الكريم، العَالِي، المَوْلَوِي، الأَمِيرِي، الكَبِيرِي، العَضْدِي، النَّصِيرِي، المَجَاهِدِي، المُوَيَّدِي، الذُّخْرِي، الظَّهيري، الفُلَانِي، مَجْدُ الإسلامِ والمُسلمين، شَرَفُ الأُمراءِ في العالمين، نُصْرَةُ الغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ، ظَهيرُ الملوكِ والسلاطينِ، فلان : أَعَزَّ اللهُ تعالى نُصْرَتَهُ .

المرتبة الخامسة — الجَنابُ العَالِي . وبه يُكْتَبُ لأُمراءِ العِشْرِيَّاتِ، ويُقال فيه : « الجَنابُ العَالِي، الأَمِيرِي، الكَبِيرِي، الذُّخْرِي، النَّصِيرِي، المَجَاهِدِي، المُوَيَّدِي، الأَوْحَدِي، الأَكْبَلِي، الظَّهيري، الفُلَانِي، مَجْدُ الإسلامِ والمُسلمين، شَرَفُ الأُمراءِ في العالمين، نُصْرَةُ الغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ، ظَهيرُ الملوكِ والسلاطينِ، فلان أَدَامَ اللهُ تعالى نِعْمَتَهُ .

المرتبة السادسة — المجلسُ العَالِي . وبه يُكْتَبُ لأُمراءِ العِشْرَاتِ، ويُقال فيه : « المجلسُ العَالِي، الأَمِيرِي، الكَبِيرِي، الأَجَلِّي، المَجَاهِدِي، العَضْدِي، النَّصِيرِي، الهَامِي، الأَوْحَدِي، الذُّخْرِي، الفُلَانِي، مَجْدُ الإسلامِ والمُسلمين، شَرَفُ الأُمراءِ في العالمين، نُصْرَةُ الغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ، عَضْدُ الملوكِ والسلاطينِ، فلان : أَدَامَ اللهُ تعالى رِفْعَتَهُ .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِيُّ بالياء . وبه يُكْتَبُ لِمَقَدِّمِي الحَلَقَةِ، وأَعْيَانِ جُنْدِ الحَلَقَةِ، ويُقال فيه : « المجلسُ السامِيُّ، الأَمِيرِي، الأَجَلِّي، الكَبِيرِي،

المجاهدى، الأعزى، الأخصى، الأكلى، الأوحى، الفلانى، مجد الأمراء، زين الأكابر، دُحر المجاهدين، فلان : أدام الله توفيقه .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغيرياء . وبه يُكتب للطبقة الثانية من جُند الحلقة ، ويقال فيه : « المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المرتضى، المختار، فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، زين الأمراء، نحر المجاهدين، عمدة الملوك والسلطين، فلان : أعزه الله تعالى » .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير . وبه يُكتب للطبقة الثالثة من جُند الحلقة ، ويقال فيه : « مجلس الأمير، الكبير » . بنحو ألقاب السامى بغيرياء .

المرتبة العاشرة — الأمير . وبه يُكتب لجُند الأمراء ونحوهم ، ويقال فيه : « الأمير الأجل » .

الصف الثاني

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية — أرباب الوظائف

الديوانية ، وفيهم مراتب)

المرتبة الأولى — المقر الشريف . وبه يُكتب لكاتب السر بالشام، وصاحب ديوان الرسائل بحلب، ومن في معناهما .

وهذه ألقاب كُتب بها لكاتب السر بدمشق بولاية مشيخة الشيوخ، وبُولغ فيها جد المبالغة، إلا أنها ليست حسنة التأليف، ولا رائقة الترتيب؛ وهى : « المقر الشريف، العالى، المولى، القاضى، الكبير، العالمى، العالمى، العلّامى، الإمامى، الفريدى، المفيدى، القدوى، الحجى، الأجل، الحبرى، المحققى،

المُدَقِّقِ، الزَاهِدِ، العَارِفِ، الخَاشِعِ، النَّاسِكِ، المُسَلِّكِ، العَابِدِ، المُرْشِدِ،
 الرَّبَّانِي، الْوَرَعِي، الْمُهْدِي، الْمُشِيدِي، الْمُشِيرِي، السَّفِيرِي، الْيَمِينِي، الْمَلَّادِي،
 الشَّيْخِي، الْفَلَانِي، جَلَّالُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ الْأَكْبَرِ وَالرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ،
 عَوْنُ الْأُمَمِ، صَاحِبُ الْمِلَّةِ، جَمَّالُ الْمَمْلَكَةِ، نِظَامُ الدَّوْلَةِ، عِزُّ الْمُلْكِ، لِسَانُ الْمَمَالِكِ،
 زَيْنُ الْأَوْلِيَاءِ، مُظْهِرُ أَنْبَاءِ الشَّرِيعَةِ وَنَاصِرُهَا، مُؤَيِّدُ الْحَقِّ وَالْمُعِينُ عَلَى إِظْهَارِهِ،
 قَامِعُ الْبِدْعِ وَمُخَفِّى أَهْلِهَا، رُحْلَةُ الْحِفَاطِ، عِلْمُ الْمُفَسِّرِينَ، حُجَّةُ الطَّالِبِينَ، سَيْفُ
 الْمُنَظَرِينَ، قُدْوَةُ الْعِبَادِ وَالزُّهَّادِ، مَلْجَأُ الصَّالِحَاءِ وَالْعَارِفِينَ، حَسَنَةُ الْأَيَّامِ، قَرْدُ
 الزَّمَانِ، غُرَّةُ وَجْهِ الْأَوَانِ، شَيْخُ الْمَشَايِخِ، مُفِيدُ كُلِّ غَادٍ وَرَائِحِ، مُوَصِّلُ السَّالِكِينَ،
 مُرَبِّي الْأَتْقِيَاءِ وَالْمُرِيدِينَ، كَنْزُ السَّالِكِينَ وَالْمُرْشِدِينَ، مُمَهِّدُ الدُّوَلِ، مُشِيدُ الْمَمَالِكِ،
 مُجَمِّلُ الْأَمْصَارِ، مَدَبِّرُ أُمُورِ سُلْطَانِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، مُجْهِدُ نَفْسِهِ فِي رِضَا مَوْلَاهُ،
 مُعِينُ الْخَلَائِقِ عَلَى حُقُوقِهِمْ، مُدْلِلُ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، مَلِكُ الْبُلْغَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ،
 خُلَاصَةُ سَلَفِ الْقَوْمِ الْمُبَارَكِينَ، بَرَكَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ، وَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَانُ
 الْفَلَانِي : أَسْبَغَ اللَّهُ تَعَالَى ظِلَالَهُ .

المرتبة الثانية — المقرِّ الكريم . وبه يُكْتَبُ للطبقة الثانية من أَرْبَابِ الْوُظَافِ
 الدِّيَوَانِيَةِ . وَيَقَالُ فِيهِ : «المقرِّ الكريمُ، الْعَالِي، الْمُؤَلَوِيُّ، الْقَاضِيُ» . بِتَحْوِ الْأَلْقَابِ
 السَّابِقَةِ مَعَ «المقرِّ الشريف» .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وبه يُكْتَبُ للطبقة الثالثة من أَرْبَابِ الْوُظَافِ
 الدِّيَوَانِيَةِ . وَهَذِهِ الْأَقَابُ كُتِبَ بِهَا لِبَعْضِ الْكُتَّابِ بَكَاةُ الْإِنْشَاءِ وَالْحَيْشِ بِحَلَبَ ،
 وَهِيَ : «الجناب الكريمُ، الْعَالِي، الْمُؤَلَوِيُّ، الْقَضَائِيُّ، الْكَبِيرِيُّ، الْعَالِمِيُّ، الْفَاضِلِيُّ،
 الْبَارِعِيُّ، الْكَامِلِيُّ، الْمَاجِدِيُّ، الْأَوْحِدِيُّ، الْأَيْبَرِيُّ، الْأَيْلِيُّ، الْأَصْلِيُّ، الْقَوَامِيُّ،

النَّظَامِيّ، الْفُلَانِيّ، ضِيَاءُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، أَوْحَدُ الْفُضَّلَاءِ فِي الْعَالَمِينَ، خَالِصَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ، فَلَان : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ .

المرتبة الرابعة — الجَنَابُ الْعَالِي . وَبِهِ يُكْتَبُ لِكُتَّابِ الدَّسْتِ وَنَحْوِهِمْ . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِبَعْضِ كُتَّابِ الدَّسْتِ بِالشَّامِ، وَهِيَ : «الجَنَابُ الْعَالِي، الْقَضَائِيّ، الْكَبِيرِيّ، الْعَالِمِيّ، الْفَاضِلِيّ، الْأَنْجَلِيّ، الْبَارِعِيّ، الْأَوْحَدِيّ، الْقَوَامِيّ، النَّظَامِيّ، الْمُفَوِّهِيّ، الرَّئِيسِيّ، الْمَاجِدِيّ، الْفُلَانِيّ، مَجْدُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ، أَوْحَدُ الْفُضَّلَاءِ الْمَاجِدِينَ، قُدْوَةُ الْبُلَغَاءِ، جَمَالُ الْكُتَّابِ، زَيْنُ الْمُنْتَشِئِينَ، خَالِصَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ، فَلَان : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ .

المرتبة الخامسة — الْمَجْلِسُ الْعَالِي . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِكَاتِبِ دَرَجٍ بِالشَّامِ جَلِيلِ الْقَدْرِ، وَهِيَ : «الْمَجْلِسُ الْعَالِي، الْقَضَائِيّ، الْأَجَلِّيّ، الْكَبِيرِيّ، الْعَالِمِيّ، الْفَاضِلِيّ، الْبَارِعِيّ، الْكَامِلِيّ، الرَّئِيسِيّ، الْأَوْحَدِيّ، الْأَنْبَرِيّ، الْأَصِيلِيّ، الْعَرِيقِيّ، الْفُلَانِيّ، مَجْدُ الْإِسْلَامِ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ فِي الْأَنْامِ، حُجَّةُ الْبُلَغَاءِ، قُدْوَةُ الْفُضَّلَاءِ، أَوْحَدُ الْأَمْنَاءِ، زَيْنُ الْكُتَّابِ، رِضَى الدَّوْلَةِ، صَفْوَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ، فَلَان : أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ .

المرتبة السادسة — الْمَجْلِسُ السَّامِيّ بِأَلْيَاءِ . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِبَعْضِ كُتَّابِ دِمَشْقَ بِنَظَرِ الرَّبَاعِ وَهِيَ : «الْمَجْلِسُ السَّامِيّ، الْقَضَائِيّ، الْأَجَلِّيّ، الْكَبِيرِيّ، الرَّئِيسِيّ، الْأَوْحَدِيّ، الْأَنْجَلِيّ، الْمَاجِدِيّ، الْأَنْبَرِيّ، الْأَيْثَلِيّ، الْأَصِيلِيّ، الْفُلَانِيّ، مَجْدُ الْإِسْلَامِ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ، أَوْحَدُ الْفُضَّلَاءِ، صَفْوَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ، أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عُلُوَّهُ .

المرتبة السابعة — الْمَجْلِسُ السَّامِيّ بِغَيْرِ يَاءِ . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِكُتَّابِ دَرَجٍ بِالشَّامِ، وَهِيَ : «الْمَجْلِسُ السَّامِيّ، الْقَاضِيّ، الْأَجَلّ، الْكَبِيرُ، الْفَاضِلُ، الْأَوْحَدُ،

الأئمة، الرئيس، البليغ، الأصيل، فلان الدين، مجدد الإسلام، بهاء الأنعام، شرف الرؤساء، أوجد الفضلاء، زين الأعيان، نحر الصدور، نجل الأكابر، سليل العلماء، صفوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رفعة .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير »
وبالباقي من نسبة ألقاب السامى بغيرياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : « القاضى ، الأجل » . وربما زيد على ذلك قليلا ، كما تقدم فى السلطانيات .

الصنف الثالث

(من أرباب الولايات بالملك الشامية — أرباب الوظائف

الدينية ، وفيه مراتب)

المرتبة الأولى — المقر الشريف . وبذلك يكتب لقضاة القضاة ومن فى معناهم .
وهذه ألقاب كتب بها لقاضى القضاة المالكي بدمشق بتصدير ، وهى : « المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، القضاى ، الكبيرى ، الإمامى ، العالمى ، العلامى ، الفريدى ، المفيدى ، الخاشعى ، الناسكى ، الرحلى ، القدوى ، الملاذى ، العابدى ، المحققى ، المدققى ، المحسنى ، الحاكمى ، الفلانى ، جلال الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء فى العالمين ، قدوة البارعين ، سيد المناظرين ، لسان المتكلمين ، ملاذ الطالبين ، كنز المتفقهين ، إمام الأئمة ، حجة الأمة ، ناصر الشريعة ، فرد الزمان ، أوجد الوقت والأوان ، رحلة القاصدين ، حكم الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله ظلاله » .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبه يُكتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألقابُ كُتِبَ بها لقاضى القضاة بحلب بوظيفة دِيْنِيَّة ، وهى : « المقرّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القاضِىُّ ، الكَبِيرِىُّ ، العالمِىُّ ، العادِلىُّ ، الأَصِيلِىُّ ، العَرِيقِىُّ ، القَوَامِىُّ ، النَّظَامِىُّ ، الإمامِىُّ ، العَلَامِىُّ ، القُدَوِىُّ ، المُفِيدِىُّ ، الشَّيْخِىُّ ، الرُّكْنِىُّ ، الصَّاحِبِىُّ ، الحَاكِمِىُّ ، المحسَنِىُّ ، الفُلَانِىُّ ، فلانُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفَ الفضلاء فى العالمين ، قُدوة العلماء العاملين ، لسانُ المتكلمين ، برهانُ المناظرين ، صدرُ المدرِّسين ، رُحلة الطالبين ، بَقِيَّةُ السلف الكرام الدارجين ، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين ، خالِصَةُ أمير المؤمنين ، فلان : أعزَّ الله تعالى أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجنب الكريم . وهذه ألقابُ كُتِبَ بها لبعض المشايخ بتدريس بالشَّام ، وهى : « الجنبُ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القضاة ، الكَبِيرِىُّ ، العالمِىُّ ، الفاضِلِىُّ ، المُفِيدِىُّ ، الفَرِيدِىُّ ، الحَقِّقِىُّ ، المدقِّقِىُّ ، الأَوْحَدِىُّ ، الأَكْمَلِىُّ ، الفُلَانِىُّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفَ العلماء فى العالمين ، جمالُ الفضلاء المدرِّسين ، خالِصَةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله تعالى ظِلَّهُ » .

المرتبة الرابعة — الجنب العالى . وهذه ألقابُ من ذلك كُتِبَ بها لقاض من قضاة العسكر بالشَّام ، وهى : « الجنبُ العالى ، القضاة ، الكَبِيرِىُّ ، العالمِىُّ ، الفاضِلِىُّ ، الرَّئِيسِىُّ ، الأَكْمَلِىُّ ، الإمامِىُّ ، العَلَامِىُّ ، المُفِيدِىُّ ، الحَقِّقِىُّ ، الفَرِيدِىُّ ، البارِعِىُّ ، المدقِّقِىُّ ، الأَوْحَدِىُّ ، القُدَوِىُّ ، الحَبْرِىُّ ، الحافظِىُّ ، الأَصِيلِىُّ ، الأَثِيرِىُّ ، النَّاسِكِىُّ ، الوَرِيعِىُّ ، العَلَامِىُّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفَ العلماء العاملين ، زَيْنُ الحُكَّام فى العالمين ، حُجَّةُ المذهب ، إمامُ البلغاء ، مُفَتِّى المسلمين ، مُفِيدُ الطالبين ، قُطْبُ الرُّهَّاد ، مَلَأْدُ الأَبَّاد ، خالِصَةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالى نعمته » .

المرتبة الخامسة — المجلس العالي . وهى : « المجلس العالى ، القضائى ، الأجل ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الرئيسى ، الأوحدى ، الأثيرى ، الأئبل ، الأصلى ، العريقى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، شرف الرؤساء فى الأنام ، حجة الفضلاء ، صدر المدرسين ، مرتضى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالى علوه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء . وهى : « المجلس السامى ، القضائى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، الأصلى ، العريقى ، المحققى ، الفلانى ، مجد الإسلام والمسلمين ، أوجد الفضلاء فى العالمين ، صدر المدرسين ، أوجد المفيدين ، مرتضى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله سعادته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامى بغيرياء . وهى : « المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبيرى ، الأحد ، المرتضى ، الأكل ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، زين الفضلاء ، أوجد العلماء ، رضى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله عزه » .
المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلس القاضى ، الأجل » بخو الألقاب المذكورة فى « السامى » بغيرياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : « القاضى الأجل » على ما تقدم .

الصنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية - مشايخ الصوفية)

ولم أقف على شئ من ألقاب ما كتب من هذا الباب . سوى [ما كتب] فى مشيخة الشيوخ بالشام لكاتب السر ، وقد تقدم ذكره فى أول الألقاب الديوانية

هناك . وألقاب الجنب العالى فيما كُتِبَ به فى مشيخة الزاوية الأُمينية بدمشق ، وهى :
 « الجنب العالى ، الشيخى ، العالى ، العالمى العلامى ، الأوحدى ، القدوى ،
 العابدى ، الزاهدى ، الورع ، الناسكى ، الخاشعى ، المسكى ، المرقى ، الربانى ،
 الأصيلى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، حسنة الأيام ، قُدوة الزهاد ، ملاذ العباد ، جمال
 الورعين ، مربى المريدين ، أُوحد السالكين ، خلف الأولياء ، بركة السلاطين ،
 فلان : أعاد الله تعالى من بركته » .

ومن هذا يؤخذ ما حدث كتابته مما هو فوق ذلك أودونه .

الصنف الخامس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية - أمراء العُربان)

ولم أقف على شئ مما كُتِبَ به من ألقابهم ، سوى ألقاب « السامى » بغيرياء
 لبعض أمراء بنى مهدي ، وهى : « المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ،
 المجاهد ، الأصيل ، العريق ، الأوحد ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ،
 شرف العُربان ، زين القبائل ، عمدة الملوك والسلاطين ، فلان : أعزّه الله
 تعالى » . وعليه يقاس ما عساه يُكتب من هذا النمط .

الصنف السادس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية - أرباب الوظائف

العادية ، كرآسة الطب ونحوها)

وألقاب رئيس الطب : « المجلس العالى ، القضائى » على نحو ما تقدّم
 فى الديوانيات .

الصنف السابع

(من أرباب الولايات بالنيابات الشامية - زعماء أهل الذمة)

وهي رئاسة اليهود، وبطركية النصارى .

أما رئيس اليهود، فالذى رأيتُه لهم من ألقابه في عهد قديم، كتبه ابن الزكي في الدولة الأيوبية . قال في ألقابه: «الرئيس، الأوحُد، الأجل، الأعز، الأخص، الكبير، شرف الداووديين، فلان» .

وأما بطرك النصارى، فرأيتُ لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأولى : «البطرك المحتشم، المبجل، فلان، العالم بأمو دينه، المعلم أهل ملته، ذُخر الملة المسيحية، كبير الطائفة العيسوية، المشكور بعقله عند الملوك والسلطين، وفقه الله تعالى» .

الطريقة الثانية : «مجلس القسيس، الجليل، الروحاني، الخطير، المتبتل، ابن المطران، الناصب، الخاشع، المبجل، قدوة دين النصارية، فخر الملة العيسوية، عماد بنى المعمودية، جمال الطائفة القلانية، صفة الملوك والسلطين، فلان : أدام الله تعالى بهجته» .

المقصود الخامس

(في بيان مقادير قطع الورق المستعمل فيما يكتب)

عن نواب الممالك الشامية)

قد تقدم في المقالة الثالثة، في الكلام على مقادير قطع الورق، أن الورق المستعمل في دواوين الممالك الشامية على ثلاثة مقادير: قطع الطلحية الشامية الكاملة، وهو

فِي عَرْضِ الطَّلْحِيَّةِ الْمَعْبَرِ عَنْهَا بِالْفَرْخَةِ وَطُولِهَا . وَقَطَعَ نِصْفَ الْحَمْوِيِّ ، وَهُوَ فِي نِصْفِ عَرْضِ الطَّلْحِيَّةِ الَّتِي فِي قَطْعِ الْحَمْوِيِّ وَطُولِهَا ، وَرُبَّمَا نَقَصَتْ فِي الطُّوْلِ . وَقَطَعَ الْعَادَةُ ، وَهُوَ عَلَى نَحْوٍ مِنْ قَطْعِ الْعَادَةِ الْبَلَدِيِّ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

فَمَا كَانَ مِنْهَا فِي طُولِ الشَّامِيِّ الْكَامِلِ كُتِبَ بِقَلَمِ الثَّلَاثِ . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ نِصْفِ الْحَمْوِيِّ كُتِبَ بِقَلَمِ التَّوْقِيعَاتِ . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ كُتِبَ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ . ثُمَّ مَا كَانَ فِي قَطْعِ الطَّلْحِيَّةِ ، أَفْتَحَ مَا يَكْتُبُ فِيهِ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ نِصْفِ الْحَمْوِيِّ ، أَفْتَحَ مَا يَكْتُبُ فِيهِ بِ«أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ» . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ ، أَفْتَحَ مَا يَكْتُبُ فِيهِ بِ«رُسْمٌ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ» سِوَاءٍ فِي ذَلِكَ عِلَاتِ الْأَلْقَابِ أَوْ انْحَطَّتْ ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا كُتِبَ بِ«الْمَقَرَّةِ» فِي قَطْعِ الْعَادَةِ ، أَعْتَابَرًا بِحَالِ الْوِظِيفَةِ .

المقصود السادس

(فِي بَيَانِ مَا يَكْتُبُ فِي طُرَةِ التَّوْقِيعِ)

اعْلَمْ أَنَّ التَّوَابَ بِالْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ عَادَتُهُمْ فِي الْعَلَامَةِ كِتَابَةُ اسْمِ النَّائِبِ ، كَمَا أَنَّ السُّلْطَانَ فِيمَا يُكْتُبُ عَنْهُ مِنَ الْوَلَايَةِ يَكْتُبُ فِي الْعَلَامَةِ اسْمَهُ . وَحِينَئِذٍ فَيَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ فِي أَعْلَى الدَّرَجِ فِي الْوَسْطِ مَا صَوَّرَتْهُ : «الْأَسْمُ الْكَرِيمُ» ثُمَّ يَكْتُبُ مِنْ أَوَّلِ عَرْضِ الدَّرَجِ مَا صَوَّرَتْهُ : «تَوْقِيعُ كَرِيمٍ بِاسْتِقْرَارِ الْمَقَرَّةِ الشَّرِيفِ أَوْ الْكَرِيمِ ، أَوْ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ أَوْ الْعَالِي ، أَوْ الْمَجْلِسِ الْعَالِي أَوْ السَّامِيِّ ، أَوْ مَجْلِسِ الْأَمِيرِ أَوْ الْقَاضِي ، أَوْ الشَّيْخِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فِي كَذَا وَكَذَا إِلَى آخِرِهِ» . فَإِنْ كَانَ فِيهِ مَعْلُومٌ كُتِبَ آخِرًا : «بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيْوَانُ الْمَعْمُورُ ، أَوْ الشَّاهِدُ بِهِ كِتَابُ الْوَقْفِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ ثُمَّ يَكْتُبُ : «حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ» . وَلَفْظُ :

«حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ» مما جَرَتْ بِهِ عَادَةُ مُكْتَائِهِمْ، بِخِلَافِ مَا يَكْتُبُ بِهِ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وهذه طُرَّةُ تَوْقِيعِ بِنْقَابَةِ الْأَشْرَافِ بِحَلَبِ الْحُرُوسَةِ ، كُتِبَ بِهِ لِلشَّرِيفِ « غِيَاثِ الدِّينِ أَحْمَدَ » بنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْمَدُوحِ ، وَهِيَ :

تَوْقِيعُ كَرِيمٍ بِأَسْتَقْرَارِ الْمُقَرَّرِ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الشَّرِيفِيِّ ، النَّقِيبِيِّ ، الْحُسَيْنِيِّ ، الْأَصِيلِيِّ ، الْعِزِّيِّ ، بَرَكَةِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، أَحْمَدَ ابْنَ الْمُقَرَّرِ الْعَالِي ، الشَّرِيفِيِّ ، النَّقِيبِيِّ ، الشَّهَابِيِّ ، أَحْمَدَ الْحُسَيْنِيِّ ، أَسْبَغَ اللَّهُ ظِلَالَهَا ، فِي وَظِيفَةِ نَقَابَةِ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ ، وَنَظَرَ أَوْقَافَهَا ، وَالْحُكْمَ فِي طَوَائِفِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ أَجْمَعِينَ ، عِوَضًا عَنْ وَالِدِهِ الْمَشَارِإِلِيهِ بِرِضَاهُ ، عَلَى عَادَتِهِ فِي ذَلِكَ وَمُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ ، وَتَعَالِيهِ الْمُسْتَمْرَةِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ بِمَقْتَضَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ ، عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .



وهذه نسخة طُرَّةِ تَوْقِيعِ بِكَشْفِ الصَّفْقَةِ الْقَبْلِيَّةِ بِالشَّامِ ، مِمَّا كُتِبَ بِهِ لـ«غُرْسِ الدِّينِ خَلِيلِ النَّاصِرِيِّ» وَهِيَ :

تَوْقِيعُ كَرِيمٍ بِأَنِ يَسْتَقَرَّ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْأَمِيرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الْغُرْسِيُّ ، ظَهِيرُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، خَلِيلُ النَّاصِرِيِّ ، آدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ ، فِي كَشْفِ الْبِلَادِ الْقَبْلِيَّةِ الْحُرُوسَةِ بِالشَّامِ الْحُرُوسِ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ وَمُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ ، حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ ، عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .



وهذه نسخة طُرَّةِ تَوْقِيعِ بِالْمِهْمَنْدَارِيَّةِ بِالشَّامِ الْحُرُوسِ ، كُتِبَ بِهِ لـ«غُرْسِ الدِّينِ خَلِيلِ الطَّنَاحِيِّ» وَهِيَ :

تَوْقِيعٌ كَرِيمٌ بِاسْتِقْرَارِ الْجَنَابِ الْعَالِي، الْأَمِيرِيِّ، الْكَبِيرِيِّ، الْغَرَسِيِّ، عَضُدِ
الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، خَلِيلِ الطَّنَاحِي، أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ، فِي وَظِيفَةِ الْمُهَنْدَرِيَّةِ
الثَّانِيَةِ بِالشَّامِ الْحُرُوسِ، عِوَضًا عَنْ حُسَامِ الدِّينِ حَسَنِ بْنِ صَارُوجَا، بِحُكْمِ شُغُورِهَا
عَنْهُ، لَمَّا اتَّفَقَ مِنَ الْغَضَبِ الشَّرِيفِ عَلَيْهِ، وَأَعْتَقَالِهِ بِالْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ بِجَلَبِ
الْمَحْرُوسَةِ، عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ، وَأَكْمَلِ قَاعِدَةٍ، حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ، عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .



وهذه نسخة طرة توقيع بتصدير الجامع الأموي بالشام، كتبت به للقاضي
«ناصر الدين» بن أبي الطيب كاتب السر بالشام، وهي :

تَوْقِيعٌ كَرِيمٌ بَأَن يَسْتَقَرَّ الْمُقَرَّرُ الشَّرِيفُ، النَّاصِرِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الطَّيِّبِ الْعَمَرِيُّ،
الْعُثْمَانِيُّ، الشَّافِعِيُّ، صَاحِبُ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ الشَّامِيَّةِ
الْمَحْرُوسَةِ، عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ، فِي وَظِيفَةِ التَّصْدِيرِ بِالْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ الْمَعْمُورِ بِذِكْرِ اللَّهِ
تَعَالَى، عِوَضًا عَنْ الْقَاضِي صَدْرِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْكَفَرِيِّ الشَّافِعِيِّ، بِحُكْمِ وَقَاتِهِ
إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، بِمَالِهِ مِنَ الْمَعْلُومِ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ دِيَوَانُ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ، حَسَبَ مَا
رُسِمَ بِهِ، عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .



وهذه نسخة طرة توقيع بإعادة مشيخة الشيوخ بالشام إلى القاضي «ناصر الدين
ابن أبي الطيب» المذكور أعلاه، وهي :

تَوْقِيعٌ كَرِيمٌ بَأَن تُفَوِّضَ إِلَى الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي، الْمَوْلَوِيِّ، الْقَاضِي،
النَّاصِرِيِّ، مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الطَّيِّبِ الْعَمَرِيِّ، الْعُثْمَانِيُّ الشَّافِعِيُّ، صَاحِبُ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ
الشَّرِيفِ بِالْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ الشَّامِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ، أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ، وَأَسْبَغَ

ظلاله ، مشيخة الشيوخ بالشام المحروس ، وظيفته التي خرجت عنه ، المرسوم الآن
إعادتها إليه ، عوضاً عما هي بيده ، بمعلومه في النظر والمشيخة ، الشاهد بهما ديوان
الوقف المبرور ، إلى آخر وقت ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، حسب ما رسم
به ، على ما شرح فيه .



وهذه طرة توقيع بالتمهل على النزول والتقرير الشرعي ، بالزاوية الأمينية ، بالقدس ،
كتب به للشيخ « برهان الدين الموصلي » وهي :

توقيع كريم بأن يُحمل الجناح العالي ، الشيخي ، البرهاني ، إبراهيم ابن سيدنا
المرحوم الشيخ القطب ، تقي الدين أبي بكر الموصلي ، رضي الله عنه وأعاد من
بركاتهما ، في وظيفتي النظر والمشيخة ، بالزاوية الأمينية بالقدس الشريف ، على حكم
النزول الشرعي ، واستمرار ذلك بمقتضاها ، ومنع المنازع بغير حكم الشرع الشريف ،
حسب ما رسم به ، على ما شرح فيه .



وهذه طرة مرسوم برُبع مقدمة إمرة بني مهدي ، كتب به لـ « عيسى بن
حناس » وهي :

مرسوم كريم بأن يستقر المجلس السامي ، الأمير ، شرف الدين ، عيسى بن
حناس (؟) ، أعزّه الله تعالى ، في رُبع مقدمة بني مهدي ، على عادة من تقدمه ، حملاً
على ما بيده من التوقيع الكريم ، على ما شرح فيه .



وهذه طرة توقيع ببطركية النصارى الملكية بالشام ، كتب به لـ « دأود
الخورى » وهي :

تَوْعِيعٌ كَرِيمٌ أَنَّ يَسْتَقَرَّ الْبَطْرِيكُ ، الْمُحْتَشِمُ ، الْمَبْجَلُ ، دَاوُدُ الْخُورِيُّ ، الْمَشْكُورُ
بِعَقْلِهِ لَدَى الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، وَفَقَهُ اللَّهِ تَعَالَى ، بِطَرِيكِ الْمَلَكِيَّةِ بِالْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ
الشَّامِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، حَسَبَ مَا اخْتَارَهُ أَهْلُ مَلْتَنَةِ الْمُقِيمُونَ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ ، وَرَغِبُوا
فِيهِ ، وَكَتَبُوا خُطُوطَهُمْ بِهِ ، وَسَلَّوْنَا تَقْرِيرَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ ، عَلَى
مَا شَرَحَ فِيهِ .

المقصود السابع

(في بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ كُتَّابِ هَذِهِ النِّيَابَاتِ أَنْ تُكْتُبَ الطَّرَةُ بِأَعْلَى الدَّرَجِ كَمَا تَقْدَمُ .
ثُمَّ يَتْرَكُ وَصْلَانُ بَيَاضًا بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ وَصْلِ الطَّرَةِ ؛ ثُمَّ تُكْتُبُ الْبَسْمَلَةُ فِي أَوَّلِ
الْوَصْلِ الثَّلَاثِ ، ثُمَّ يُكْتُبُ تَحْتَ الْبَسْمَلَةِ عَلَى سِمَتِ الْجَلَالَةِ : « الْمَلِكِيُّ الْفُلَانِيُّ »
ثُمَّ يَخْلَى بَيْتُ الْعَلَامَةِ نَحْوَ سِتَّةِ أَصَابِعٍ مُعْتَرِضَةً ، ثُمَّ يُكْتُبُ السَّطْرَ الثَّانِي وَيُوفَى كِتَابَةَ
السَّطْرِ ، وَيَكُونُ مَا بَيْنَهُمَا بِقَدْرِ أَصْبَعَيْنِ ، وَالْبَاقِي عَلَى نَحْوِ مَا تَقْدَمُ فِي السُّلْطَانِيَّاتِ .

الطرف الثاني

(في نُسْخِ التَّوَاقيعِ الْمَكْتُبَةِ عَنْ نُوَابِ السُّلْطَانَةِ بِالْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَةِ سَبْعَ نِيَابَاتٍ : دِمَشْقُ ، وَحَلَبُ ،
وَطَرَابُلُسُ ، وَحِمَاةُ ، وَصَفَدُ ، وَغَزَّةُ إِنْ كَانَتْ نِيَابَةً ، وَالكَرْكُ . وَأَنَّ أَعْلَاهَا دِمَشْقُ ،
ثُمَّ حَلَبُ ، ثُمَّ طَرَابُلُسُ . وَفِي مَعْنَى طَرَابُلُسُ حِمَاةُ وَصَفَدُ .

(١) .
وَقَدْ أَقْتَصَرْتُ فِي نُسْخِ التَّوَاقيعِ عَلَى مَا يُكْتُبُ فِي ثَلَاثِ نِيَابَاتٍ [تَقْدِيمًا لَهَا]
عَلَى مَا عَدَّاهَا .

النيابة الأولى الشام

(والتواقيع التي تُكتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما يُكتب بوظائف أرباب السيوف ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ماهو بحاضرة دِمَشْق ، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتح بـ «الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بولاية دِمَشْق :

الحمد لله الذي جعل هذه الأيام الزاهرة تنقل أولياء آلائه الشريفة إلى أعلى
المراتب ، ويُجزل لهم من منته الجمّة المواهب ، وتضاعف لهم النعمة بكرمها الذي إذا
انهمل كان كالغيث السّاكب .

نحمده على أن جعل نظرنا يلمح أهل الهمم ويراقب ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يبلّغ قائلها ببركتها المنى والمآرب ، وتهون عليه كل
المصاعب ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أظهر الله بيئته الحق
في المشارق والمغارب ، وأثار به ظلم الغياهب ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين
شيدوا منار الإسلام وأقاموه بالسيوف القواضب ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ المناصب بُتَوِّلَهَا ، والمعالي بُعِلِّمَهَا ، والعُقودَ لَيْسَتْ بِمِنْ نُحْلِيهِ بِل
بِمِنْ يُحْلِيهَا ، وأُطِيبَ البِقَاعَ جَنَابًا مَاطَابَ أَرْجَا وَثَمَارَا ، وَبُحِّرَ خِلَالَهُ كُلَّ نَهْرٍ « يَرُوعُ
حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى » وَرَبَّحَتْ مَعَاطِفَ غُصُونِهِ سُلَافُ النَّسِيمِ قَتَرَاهَا سُكَارَى ،
وَتَمْتَدُّ ظِلَالُ الْغُصُونِ فَيَخَالُ أَنَّهَا عَلَى وَجَنَاتِ الْأَنْهَارِ عَذَارَا .

ولمَّا كَانَتْ دِمَشْقُ الْمَحْرُوسَةِ لَهَا هَذِهِ الصِّفَاتُ ، وَعَلَى صَفَاتِهَا تَهَبُّ نَسَائِبُ
[هَذِهِ] السَّيِّئَاتِ ، لَمْ يَتَّصِفْ غَيْرُهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، [وَلَا اتَّفَقَ أُولُو الْأَلْبَابِ إِلَّا عَلَى
مُحَاسِنِهَا الْمُخْتَلَفَةِ] ^(١) وَكَانَ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ هُوَ مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ وَأُمَائِلِهِمْ ، وَوُجُوهُ
رُؤَسَائِهِمْ وَأَفَاضِلِهِمْ ، وَلَهُ فِي طَاعَتِهَا آسَ تَرْسَالُ الْأَمْنِ مِنْ سُوءِ مَوَاطِنِ الْخَوَافِ ،
وَوَصَلَ فِي وَلَائِهَا الْقَدِيمَ بِالْحَدِيثِ وَالتَّالِدَ بِالطَّارِفِ ، وَتَوَلَّى مُهِمَّاتِ الْخِدْمِ فَأَبَانَ
فِي جَمِيعِهَا عَنْ مَضَاءِ عَزْمِهِ ، وَكَانَ مِنْ حُسْنِ آثَارِهِ فِيهَا مَا شَهَرَ غُفْلَهَا بِوَسْمِهِ ، فَمِنْ
نَاوَاهُ مِنْ أَقْرَانِهِ أَرْبَى عَلَيْهِ وَزَادَ ، وَمِنْ بَارَاهُ مِنْ أَنْظَارِهِ أُنْسَى ذِكْرَهُ أَوْ كَادَ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي وِلَايَةِ مَدِينَةِ دِمَشْقِ الْمَحْرُوسَةِ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوِلَايَةَ : عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَمَرَ بِهَا فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ ،
حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ . وَلْيَشْمَلْ
كَافَّةَ الرِّعَايَا بِالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ ، وَيُجَزِّلْ حَظَّهُمْ مِنَ الْمُلَاحَظَةِ وَالْعِنَايَةِ ، وَلْيَسَاوِ فِي الْحَقِّ
بَيْنَ ضَعِيفِهِمْ وَقَوِيَّهِمْ ، وَفَقِيرِهِمْ وَغَنِيِّهِمْ ، وَلْيُلْزِمِ أَتْبَاعَهُ بِحِفْظِ الشُّوَارِعِ وَالْحَارَاتِ ،
وِحِرَاسَتِهَا فِي جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَوْقَاتِ ، مَعَ مُوَاصَلَةِ التَّطَوُّافِ كُلِّ لَيْلَةٍ بِنَفْسِهِ فِي أَوْفَى
عِدَّةٍ ، وَأُظْهِرْ عُدَّةً ، مُنْتَهِيًا فِي ذَلِكَ وَفِيمَا يُجَارِيهِ إِلَى مَا يَشْهَدُ بِاجْتِهَادِهِ ، وَيُعْرِبُ عَنْ
سَدَادِهِ ، وَيَعْلَمُ مِنْهُ صَوَابُ قَصْدِهِ وَاعْتِمَادِهِ ، وَبَدِّلْ مُنَاصِحَتِهِ فِي إِصْدَارِهِ وَإِيرَادِهِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُهُ عَلَى مَا وُلَّاهُ ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِ مَا نَوَّلَهُ وَأَوْلَاهُ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

(١) الزيادة بما تقدّم في الصنف الثالث في توابع أرباب الوظائف في حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .



وهذه نسخة تَوْفِيع بنَظَر الجامع الأمويّ، لصاحب سَيْفٍ : كُتِبَ به في الدولة الظَّاهِرِيَّة « برقوق » لناصر الدين « محمد » ابن الأمير جمال الدين، عبد الله ابن الحاجب، عند مُصَاهَرَتِهِ الأمير بَطَا الدوادار، وهي :

الحمد لله الذي قَدَّمَ أعْظَمَ الأمراءِ لِيَعْمَ مَوَاطِنَ الذِّكْرِ بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ، وَأَقَامَ لَتَعْظِيمِ بَيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ، [أميرا] في الْأَكْتِسَابِ لِلْأَجُورِ أُسْرِعَ من البريد، وأُطْرِبَ الْمَسَامِيحَ لِسِيرَتِهِ في أَحْسَنِ مَعْبَدٍ جُلِّيَتْ فِيهِ عُرُوسُ مَهْرُهَا تَكَاَبُ اللَّهُ تَعَالَى والنُّورُ من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ وَمَرَّتْ عَلَيْهِ من مكانٍ بَعِيدٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَحَلَّ ناصر الدين بِجَمَالِهِ الْأَسْنَى أَشْرَفَ المراتبِ، وَبَوَّاهُ المحلَّ الرَّفِيعَ الَّذِي بَلَغَ به الْأُمَّةُ المَحْمُودِيَّةُ المَارِبَ، وَسَارَ خَبْرُ سِيرَتِهِ في المَشَارِقِ والمَغَارِبِ، وَبَلَغَ بِمُشَارَفَةِ نَظَرِهِ السَّعِيدِ الشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ ؛ حَمْدًا نَرْفَعُهُ عَلَى النَّسْرِ الطَّائِرِ، وَنُمَثِّلُ بِقَوْلِ الْقَائِلِ : كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ لِعِبَادَتِهِ، وَفَضَّلَ بَعْضَ الْمَسَاجِدِ عَلَى بَعْضٍ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مِنْ إِرَادَتِهِ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا خَيْرَ الْخَلَائِقِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي سَنَّ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَعَمَرَ الْمَسَاجِدَ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا زُمُوا الْمَسَاجِدَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَحَضُّوا عَلَى الْجَمَاعَةِ إِلَى يَوْمٍ تَكُونُ الْجِبَالُ فِيهِ كَثِيبًا مَهِيلًا؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ، فَلَمَّا كَانَ جَامِعُ دِمَشْقَ المحروسةِ رَابِعَ الْمَسَاجِدِ، وَمَوْطِنَ كُلِّ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ؛ وَتَقَصَّدَهُ الْأُمَمُ من الْأَقْطَارِ، وَلَمْ يَحُلْ من الْعِبَادَةِ في اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وَرَوَاتِبُ حُكَّامِ الشَّرِيعَةِ عَلَيْهِ، وَالْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ تَبَّتْ فِيهِ الْعُلُومُ وَتَأَوَّى إِلَيْهِ؛ وَغَالِبُ الْمَسَاجِدِ

(١) في الاصل «ومزنية» ولم نفهم معناه .

إلى سِمَاطٍ وَقَفِهِ مُضَافَهُ ، وَخَطَابَتُهُ تُضَاهِي مَرْتَبَةَ الْخِلَافَةِ ؛ وَهُوَ أَجَلُ عَجَائِبِ الدُّنْيَا الَّتِي وُضِعَتْ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ، وَبِهِ يَفْتَحِرُ أَهْلُ الْهُدَى عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ - تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ النَّاطِرُ فِي أَمْرِهِ مَنْ عَظُمَ قَدْرًا ، وَطَابَ ذِكْرًا ؛ وَفَتَحَ لَوْفِهِ بَابَ الزِّيَادَةِ عَلَى مُضَيِّ السَّاعَاتِ ، وَجَمَعَ أَمْوَالَهُ بَعْدَ الشَّتَاتِ ؛ وَوَصَلَ الْحُقُوقَ لِأَرْبَابِهَا الَّذِينَ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ، وَلَمْ يُضَعْ مِنْ مَالِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ وَمَنْ قَالَ : إِنَّهُ صَدَقَهُ فَيَوْمُهُ يَوْمٌ عَسِرٌ ، وَعَمَّ جَمِيعَ الْمَسَاجِدِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهِ بِالْفَرَشِ وَالتَّنْوِيرِ ، وَبَدَأَ الْأُمَمَةَ وَالْمُؤَذِّنِينَ وَالْخَدَمَةَ بَعْدَ الْعِمَارَةِ عَلَى الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ .

وَكَانَ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ - ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعَمَتَهُ - هُوَ الَّذِي يَقُومُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَحْسَنَ مَقَامٍ ، وَيَصْلُحُ لَهُ فِي مَصْلَحَتِهِ الْكَلَامُ .

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السُّلْطَانِيُّ ، الْمَلِكِيُّ ، الظَّاهِرِيُّ ، السَّيْفِيُّ - لِأَزَالِ هَذَا الدِّينَ الْقِيَمُ قَائِمًا بِمُحَمَّدِهِ ، وَالْمَسَاجِدُ الْمَعْمُورَةُ [مَعْمُورَةٌ] بِإِكْرَامِ مَسْجِدِهِ - أَنْ يَسْتَفِرَّ الْجَنَابُ النَّاصِرِيُّ الْمَشَارِئُ إِلَيْهِ فِي النَّظَرِ السَّعِيدِ عَلَى الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ الْمَعْمُورِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَوْقَافِهِ الْمَبْرُورَةِ ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ ، وَأَكْمَلِ الْقَوَاعِدِ ؛ بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ دِيوَانُ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ ، إِلَى آخِرِ وَقْتِ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ : لِمَا يَعْرِفُ مِنْ فِعَالِهِ الْحَسَنَةِ ، وَخِبْرَتِهِ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا مِنْ الْحَاوِرِ الْأَقْوَاهُ وَمِنَ الْأَقْلَامِ الْأَلْسَنَةِ ؛ وَلِمَا حَازَهُ مِنْ فَضِيلَتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَأَعْمَالِ الَّتِي بَدَتْ لِلْمُهَنْدِي بِهَا كُنُوزٌ لَا تَأْرِ عَلَى عِلْمٍ ؛ وَلِيَعْمَرَ مَا دَثَرَ مِنَ الْأَوْقَافِ وَلِيُوصِلَ الْحُقُوقَ إِلَى أَرْبَابِهَا ، وَلِيُدْفَعَ الْأَمْوَالُ إِلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى بِهَا ؛ وَيُكْفَى كَفُّ الظُّلْمِ وَلِيُبَلِّغَ الْمُسْتَحِقَّ الْمَآرِبِ ، وَلِيُحْجِبَ الْخَوَنَةَ عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ بِجَدِّهِ فَهُوَ بِجَدِّهِ حَاجِبٌ ؛ وَلِيَبْدَأَ بِالْعِمَارَةِ وَالْفَرَشِ وَالتَّنْوِيرِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، وَأَرْبَابِ الصَّلَاةِ

وَالصَّلَاتِ . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَهِيَ بِهَا أُدْرِي ، وَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِلَاكُهَا وَلَا زَالَ يُفِيدُهَا كَمَا يَعْلَمُ الشَّجَاعَةُ زَيْدًا وَعَمْرًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ أَبَدًا لِلدِّينِ نَاصِرًا ، وَيُصْلِحُ عَمَلَهُ أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَالْاعْتِمَادُ فِي مَعْنَاهُ ، عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ .

المرتبة الثانية

(مَا يُفْتَحُ بِهِ «أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ» وَفِيهَا وَظَائِفُ)

وهذه نسخة توقيع ^(١) ... الزكاة ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي :
أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ مُسْعِدٍ مِنْ زَكَّاهُ عَمَلُهُ ، وَوَفَّاهُ وَعَدَ الْخَيْرِ أَمَلُهُ ، وَمُصْعِدٍ مِنْ وَفَّتْ
فِي تَدِيرِ الْوِظَائِفِ تَفَاصِيلُ أَمْرِهِ وَوَفَّرَتْ فِي تَمِيرِ الْأَمْوَالِ جُمْلُهُ ؛ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَشَفَى جَانِبَ الدِّينِ الْقِيمَ
مِنَ الشَّكَاةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ الْقَوِيمِ سَائِرُهُمْ ، وَتَرَكَى - وَإِنَّمَا
يَتَرَكَى لِنَفْسِهِ - مِنْجُدُهُمْ وَغَاثَرُهُمْ - فَإِنَّ أَحَقَّ الْوِظَائِفِ أَنْ يُنْدَبَ لِحِمَايَتِهَا الْحُسَامُ ،
وَيَتَرَبَّ لِكِفَايَتِهَا مَنْ تَحَلَّتْ بِالْحَمَامِدِ شِمَهُ الْحِسَامُ - وَظِيفَةُ الزَّكَاةِ الَّتِي وَصَلَتْ سَبَبُ
مَكَانِهَا بِإِمكَانِهَا ، وَبُنِيَتْ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَحَدِ أَرْكَانِهَا ، وَمُدِحتُ الْمَمْلُوكَةِ بِمَعَالِي
الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ الْمُنَظَّمَةِ مِنْ دِيَوَانِهَا .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ مِّنْ زَكَّتْ صِفَاتُهُ ، وَسَمَتْ بِالْجَمِيلِ سِمَاتُهُ ؛ وَوَضَحَتْ كِفَايَتُهُ
وَدِرَايَتُهُ ، وَصَلَحَتْ حِمَايَتُهُ الْحُسَامِيَّةُ وَوَقَايَتُهُ ؛ وَكَانَ الْيَمْنُ فِي قَبْضَةِ مَضَائِهِ ، وَتَجَرِيدُهُ
وَأَنْتِضَائِهِ ، وَكَانَ نَفُوذُ أَمْرِهِ وَاقِعًا عِنْدَ حُدُودِهِ وَاقِعًا عَلَى وَفْقِ أَرْضِيَّاتِهِ - تَعَيَّنَ أَنْ يُوصَلَ
سَبَبُ الشَّدِّ بِأَسْبَابِهِ ، وَيُرْجَعَ إِلَيْهِ فِي الزَّكَاةِ الْمُسْتَحَقِّ نِصَابُهَا حَتَّى يَقَالَ : رَجَعَ الْحَقُّ
بِالْحُسَامِ إِلَى نِصَابِهِ .

(١) بياض بالأصل ولعله : بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب علماً بأنه الكافي الذي إذا شَدَّ سَدَّ، وإذا قَصَرَ رَأَيْهِ على الصُّنْعِ الجميل مَدَّ؛ والخبيرُ الذي إذا جَمَعَ مَالاً وَعَدَّه كان مَشْكُوراً ، وإذا فَرَّقَهُ في مُسْتَحِقِّهِ كان خِلافَ الْغَيْرِ بِالْخَيْرِ مَذْكُوراً ؛ وَالنَّاهِضُ الذي ما تَبَرَّمَ بِمَضَائِقِ الْمُهِمَّاتِ وَلَا شَكَاها، وَالْمَهِيْبُ الذي قد أَمَّنَ مَنْ سارَ بالبِضَاعَةِ إِلَيْهِ وقد أَفْلَحَ مِنْ زَكَّاهَا .

فليستَقِرَّ في هذه الْجِهَةِ اسْتِقْرَارًا يَزِيدُ مَكَانَهُ وَإِمْكَانَهُ ، وَيُثْمِرُ عَمَلَهُ وَدِيَوَانَهُ ، وَلِيُوصِلَ كُلَّ ذِي حَقٍّ إِلَى حَقِّهِ فَإِنَّمَا بُسِطَتْ أَيْدِي وِلَاةِ الْأُمُورِ لِيَسْطُرَ عَدْلُهُ مُتَوَلِّيًا وَإِحْسَانَهُ . وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعُمْدَةُ : فليُحَقِّقْ بِاعْتِمَادِهَا فِيهِ ظُنُونَ الرَّاجِينَ ، وَلْيَسْتَعِنْ بِهَا عَلَى رِضَا الْمُسْتَنْهَظِينَ لَهُ وَعَلَى رِضَا الْمُحْتَاجِينَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُلْهِمُهُ الْخَيْرَ فِي دَوَى الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ حَتَّى يَكُونُوا إِلَى خَيْرٍ «لَا جِينَ» خَيْرَ لَا جِينَ .



وهذه نسخةُ تَوْقِيعِ بَشَدِّ الْخَوَاطِاتِ بِدَمْشَقٍ . كُتِبَ بِهِ لِشَرَفِ الدِّينِ يَحْيَى بْنِ الْعَفِيفِ ، [باجرائه] عَلَى عَادَتِهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ التَّوْقِيعِ الشَّرِيفِ ، وَهِيَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي سَهَّلَ الْخَيْرَاتِ بِأَسْبَابِهَا ، وَأَقَرَّ فِي الْوُضَائِفِ السَّنِيَةِ كُفَاةَ أَرْبَابِهَا ، وَكَمَّلَ أَدَوَاتِ مِنْ حَكْمَتِهِ التَّجَارِبُ فِي الْمُبَاشَرَاتِ حَتَّى دَخَلَ الْمَنَاصِبَ الْعَلِيَّةَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ الْأَتَمِّينَ الْأَكْمَلِينَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي جَاءَ بِرُشْدِ الشَّرِيعَةِ وَصَوَابِهَا ، وَعَرَفَ بِحُسْنِ الصَّنِيعَةِ وَثَوَابِهَا ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعِزَّتِهِ الطَّاهِرِينَ - فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ لَفَتْنَا إِلَيْهِ جَيْدَ الْإِحْسَانِ ، وَأَلْقَيْنَا إِلَيْهِ طُرْفَ التَّكْرِيمِ فَبَلَغَ الْأَمَانِيَّ وَالْأَمَانَ ، وَلَحَظْنَا بِعَيْنِ عِنَايَتِنَا فَنَالَ مِنْ فَضْلِنَا مَا أَنْجَلَ الْغَيْثَ الْهَتَّانَ ، وَمُنَحَّنَاهُ مِنْ رِثْنَا مَا شَرَحَ لَهُ صَدْرًا ، وَأَسْتَصَحَبْنَاهُ مَا أَلْفَهُ مِنْ كَرَمِنَا وَجَعَلْنَاهُ بَعْدَ

عَسْرِيَسْرًا، وَأَيْقَظْنَا حَظَّهُ وَقَدْ كَادَ أَنْ يَغْفَى، وَأُطْلَعْنَا كَوَكَبَ سَعْدِهِ بَعْدَ أَنْ كَادَ يَخْفَى - مِنْ أَلَفَتْ مُهِمَاتُنَا مِنْهُ الْهِمَمَ الْعَلِيَّةَ، وَسَلَكَ بَيْنَ أَيْدِينَا الْمَسَالِكَ الْمَرْضِيَّةَ، وَأُثِّمَنَّ عَلَى أَمْوَالِ الْحَوَاطَاتِ الدِّيَوَانِيَةِ فَنَمَتَ بِحُسْنِ أَمَانَتِهِ، وَشَكَرَتِ الدَّوْلَةُ جَمِيلَ تَدْبِيرِهِ وَدِرَايَتِهِ .

وكان المجلس العالى فلان - أدام الله عزه - هو الذى أخبر عنه الوصف بما أثبتته العيان ، وأظهر الاختبار منه حسن السيرة والسريرة والسجاياء الحسان .

فلذلك رسم بالأمر العالى - أعلاه الله تعالى ، وضاعف لإحسانه على أهل الهمم ووالى - أن يستمر المشار إليه فى شد الحوطات الديوانية بدمشق المحروسة ، على عادته ، ومستقر قاعدته ، وحمله على ما بيده من التوقيع الشريف المستمر حكمه .

فليباشر هذه الوظيفة على أجمل عوائده ، وليعد إليها على أكل قواعده ؛ إلا أن التدكرة بتقوى الله تعالى لأبد من اقتباس ضيائها ، والتنبيه على سلوك سبيل هداها ، فلتكن قاعدة أمه ، وخاتمة عمله . والاعتماد فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة

(من تواقع وظائف أرباب السيوف بدمشق - ما يفتتح بـ «رسم بالأمر العالى» وفيه وظائف)

وهذه نسخ تواقع من ذلك :

نسخة توقيع بشد مراكر البريد ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كتب بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهى :

رُسم بالأمر العالي - لا زالت البرد سائرة بأوامرِ عدله المديد ، وهوامرِ جوده
المجيد، وسوائر الأخبار عن بأسه ونذاه المروى سندهما عن ثابت ويزيد، ولا برحت
جوامع عطاياه وقضاياه : هذه فاتحة لمصالح الآمال باب الزيادة وهذه فاتحة لمصالح
الإسلام باب البريد - أن يستقر المجلس على عادته الأولى، وقاعدته التي ما برحت
قدم مساعيه فيها المقدمة ويد أمانته الطولى؛ علماً بكفائته التي شهدت بها حتى
الخليل المائلات خرساً فأفصححت ، المواصلات سعيّاً فأنجحت ، الموريات قدحاً
إلا أن ألسنة الأحوال في شهادتها ما قدحت ، المغيرات على السرى صبحاً ما دار عليها
شفق العشي فأغبتت ، حتى دار عليها شفق الفجر فأصطبحت . ومراكر الطرق
التي حتمها مهابتة فكأنها مراكر الأسل ، ومراقص السبل ، كل واحد منها وما حل
وكل حدب وما نسل ، واعتماداً على سداد عزمه الذي وافق خبره الخبر، ورشاد سعيه
الذي كل أوقاته من وجوه الإجادة ووجوه الحيات غرر ، ورؤنا إلى أنه الكافي
فيما يعتمده ويراها ، السارى في المهمات لا يمل وهيئات أن يمل البدر من سراه ، كم
أعان الإسلام على ما اتخذ من قوة ومن رباط الخيل ، وكم جاد على الحيات على الغيث^(١)
حتى سارت بين يديه كالسيل ، وكم حفظ عليها قوتها وقوتها فبعد ما كانت تموت
بالعدد صارت تعيش بالخيال .

فليأشر ما عول فيه عليه ، وأعيد من حقه وإن كان خرج عنه إليه ، وليطلق يد
أمره ونهيه بما يسره أن يقدمه بين يديه ؛ حريصاً على أن تنطق هذه الدواب
الخرس غداً بثنائه ، مجرياً اقوامها وللإقامة بها على عادة إجرائه ؛ متخيراً لها كل
حسن الإمرة والسياسة عند رحيلها وقدمها ، ومن إذا عرضت عليه بالعشي
الصفافنات الحيات طفق مسحاً ولكن بإمارة الأذى عن جسومها ؛ موسعاً عليها من

المباني والأحوال كُلِّ مَضِيْقٍ ، آمِرًا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ نَوْعُهَا الْبَدِيعُ مِنْ صِنَاعَتِي تَرْشِيحٍ وَتَطْيِيقٍ ، مُسْتَأْمِنًا مِنَ الْإِيْدَى مِنْ يَدُ عَنْهَا الْإِبَادِي الصَّائِمَةِ ، وَمَنْ يُسَاوِي بَيْنَهَا فِي الْأَقْوَاتِ حَتَّى لَا تَكُونَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ : « خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ » ، مُتَحَرِّيًا فِي تَكْفِيْهِهَا أَجْمَلَ الطَّرِيقِ وَالطَّرَائِقِ ، مُسْتَجْلِبًا صُنُوفَ الْعَلِيقِ فَلَا تَنْقَطِعُ مِنْ بَرِّ الْعَلَائِقِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُدُّهُ بِعَوْنِهِ وَرَشْدِهِ ، وَيَجْعَلُ عَزْمَهُ سَابِقًا إِلَى التَّوْفِيقِ « سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى أَمْدِهِ » ، بِمَنْهَ وَكْرَمِهِ .



وهذه نسخةٌ تَوَقِّعُ بِنِقَابَةِ الثَّقَبَاءِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ أَيْضًا ، كَتَبَ بِهَا لِشَهَابِ الدِّينِ « بُولاقِي » عَوْضًا عَنْ أَبِيهِ ، فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِمِائَةٍ ، وَهِيَ :
رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لِأَزَالِ بِإِنْعَامِهِ يُسْفِرُ عَنْ وَجْهِ الْأَمَلِ نِقَابَهُ ، وَيَحْفَظُ لِكَافِي الْخِدْمَةِ أَعْقَابَهُ ، وَيَلْوِي بِاسْتِمْرَارِ النِّعَمِ أَدْوَارَ الزَّمَانِ وَأَحْقَابَهُ ، وَيُطْلِعُ فِي آفَاقِ دَوْلَتِهِ شَهَابَ كُلِّ عَزْمٍ تَحْمَدُ عَسَاكِرُهُ الْمَنْصُورَةَ ارْتِقَاءَهُ وَارْتِقَابَهُ - أَنْ يَرْتَّبَ الْمَجْلِسُ السَّامِي ، الْأَمِيرُ : عُلَمَاءَ بِأَوْصَافِهِ الْحَسَنَةِ ، وَأَوْصِيَاعِهِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ الْحُكْمُ بِفَضْلِهَا إِلَى إِقَامَةِ بَيْنِهِ ، وَكَفَافَتِهِ الَّتِي تَنْطِقُ بِهَا أَلْسِنَةُ الْأَحْوَالِ الْمُؤْمِنَةِ وَقُلُوبُ الْعَسَاكِرِ الْمُؤْمِنَةِ ، وَهِمَّتِهِ الَّتِي إِذَا وَقَفَتِ الْمَوَاقِفُ عَلَى الْأَعْدَاءِ عَرَفَتْهُ أَصْحَابُ الْمِيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِيْمَنَةِ ، وَتَصَدِّقًا لِدَلَالَةِ عَزْمِهِ الْوَاعِدِ ، وَتَحْقِيقًا لِحِمَايَةِ شِهَابِيهِ الْوَاقِدِ ، وَرُكُونًا إِلَى قِيَامِهِ مَقَامَ أَبِيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْخِدْمَةِ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَفْقِدْهُ مِنَ الْجَيْشِ فَاقِدٌ ، وَأَنَّهُ لِدَرَجَاتِ الْأَسْتَحْقَاقِ رَاقٍ ، وَأَنَّهُ الْعَوْضُ عَنْ أَبِي لَاقِي مَنِيَّتِهِ وَكُلِّ أَمْرِي لَاقِي الْمَنِيَّةِ وَأَبْنُ لَاقِي ؛ وَأَنَّهُ كُفِّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ كَمَا حَكَمَ الرَّأْيُ وَأَقْتَضَى ، وَكَمَا شَهِدَ (؟) لَغَزَتِهِ بَغَرِ الْفَوَائِدِ وَكَيْفَ لَا وَهُوَ ابْنُ النَّقِيبِ الْمُرْتَضَى ! .

فَلْيَتَلَقَّ بِشَهِائِهِ الْمَضْيءَ هَذَا الْمَطْلَعُ الْأَسْنَى، وَلْيَقُمْ فِي هَذِهِ الْوُضَيْفَةِ عَلَى قَدَمِ الْخِدْمَةِ
 صُورَةً وَمَعْنَى؛ مُقَدِّمًا عَلَى النَّبَاءِ تَقْدِيمَ إِمَامِهِمْ، مُعَلِّمًا لِحُنْدِ الْإِسْلَامِ مَعْلُومَ مَقَامِهِمْ؛
 مَالًا بِإِتْقَانٍ مَعْرِفَةَ الْحِلِّ سَمْعَ مَنْ أَسْتَمَلَاهُ، مُحْظِيًا لِلْجُنْدَى مُعِينًا لَهُ عَلَى حُصُولِ الْخَيْرِ
 حَتَّى يَشْكُرَهُ شُكْرًا مِنْ أَطْعَمَهُ وَحَلَّاهُ؛ نَاطِمًا لِلْوَاكِبِ عَقْدَ مُجْتَمَعِهَا الثَّمِينِ، مُصَاحِبًا لَهَا
 صُحْبَةً يُتَى بِهَا عَلَيْهِ وَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ؛ مُرَتَّبًا لَهَا أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ،
 مُنْقَبًا عَنْ مَحَاسِنِ تَجَمُّلِهَا : فَإِنَّ أَسْمَ النَّقِيبِ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّنْقِيبِ . وَلْيُكَاثِرْ حَمَلَةَ
 السُّيُوفِ فَإِنَّهُ حَامِلٌ سَيْفٍ وَعَصَا، وَإِنَّهُ بِهِذِهِ مُحَلَّصٌ حَقُوقَ مَنْ أَطَاعَ وَبِهَذَا مُوَقِّ
 نَفْسٍ مِنْ عَصَى؛ وَلْيَجْرِضْ عَلَى أَنْ يَقُومَ بِوَعْدِ الْاجْتِهَادِ الْمُتَجَزَّ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ
 سَيْفَ تَحْرِيطِضٍ عَلَى جَرَحَى الْأَعْدَاءِ مُجْهِزٌ، وَعَلَى أَنْ يَحْصُلَ فِي مَوَاطِنِ الْجِهَادِ عَلَى
 الْأَجْرَيْنِ : أَجْرِ الْمُقَاتِلِ وَأَجْرِ الْمُجْهِزِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُجِئُ فِي الْخَيْرِ طَرَائِقَهُ، وَيُؤَيِّدُ عَزْمَهُ
 الْجَيْشِيَّ حَتَّى تُلَهِجَ بِشُكْرِهِ أَلْسِنَةُ الْأَعْلَامِ الْخَافِقَةِ؛ وَالْإِعْتَادَ



وهذه نسخة توقيع بَشْدَ خَزَائِنِ السِّلَاحِ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ أَيْضًا، وَهِيَ :

رُسم بالأمر الشريف - لا زالت أَسِنَّةُ نَجُومِ السَّعْدِ مِنْ سِلَاحِهِ، وَصَوَّاعِقُهَا مِنْ
 أَعْوَانِ صِفَاحِهِ، وَسِمَاكُهَا الرَّاحُ مِنْ أَنْصَارِ رِمَاحِهِ؛ وَلَا بَرَحَ يُعْمَلُ مَعَادِنَ الْأَرْضِ
 حَتَّى 'يَفْنَى' ذَهَبُهَا وَحَدِيدُهَا عَلَى يَدَيِّ بَاسِهِ وَسِمَاحِهِ - أَنْ يَرْتَبَّ لِأَنَّهُ النَّاهِضُ
 الَّذِي تَتَرَيَنَّ الْوُضَائِفَ بِسَمْتِهِ وَبِأَسْمِهِ، وَتَتَعَيَّنُ الْمَصَالِحُ وَالْمَنَاسِجُ بِعَزْمِهِ وَحَزْمِهِ؛
 وَالْمُسَدَّدُ مِنْ آرَائِهِ سِمَامًا، وَالْمُجْرَدُ مِنْ أَهْتَامِهِ كُلِّ مَاضِي الْحَدِّ إِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَهْتَامِ
 كَهَامًا؛ وَالْوَقْفُ فِي شَدِّ الْجِهَاتِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَالْمَلِيُّ بِجَمَلِ السِّلَاحِ وَاسْتِعْمَالِهِ عَلَى رَغَمِ
 الْقَائِلِ : «أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا»؛ وَالْخَيْرُ بِمَحَاسِنِ الْإِقْتِرَاحِ، وَالْكَافِي وَلَا

عَجَبَ إِذَا سَلَّمَتْ لَهُ ذَوُو الْوِظَانِ وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ السِّلَاحَ ! ؛ ذُو الْعِزِّ الْأَشَدُّ ، وَالرَّأْيِ الْأَسَدُّ ، وَالذِّكْرِ الَّذِي إِذَا تَنَاوَلَ بَعْضَ الْأَسْلِحَةِ وَانْتَسَبَتْ شَجَاعَتُهُ رَأَيْتَ الْقَوْسَ فِي يَدِ عُطَارِدٍ فِي بَيْتِ الْأَسَدِ .

فَلْيَبْشِرْ هَذِهِ الْوُضِيفَةَ الْمُبَارَكَةَ بِعِزِّهِمُ اقْطَعِ مِنْ حُسَامٍ ، وَأَمَانَةٍ أَقْوَمَ مِنْ أَلِفٍ وَصِيَانَةٍ أَحْصَنَ مِنْ لَامٍ ، مُعْتَبَرًا لِأَحْوَالِهَا ، مُقَرَّرًا لِمَطَالِبِ مَالِهَا مِنْ مَالِهَا ؛ مُؤَفَّرًا مِنْ أَسْلِحَتِهَا الَّتِي تَتَوَفَّرُ بِهَا مِنَ الْخَيْرِ سِهَامُهُ ، مُنْصَفًّا لِمُصَنِّعِهَا الَّذِينَ يُحَمَّدُ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهِمْ صَنِيعُهُ وَأَهْمِيَّتُهُ ؛ مُكَثَّرًا لِحَزَائِنِهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْعُدَدِ ، مُجَهَّزًا لِحِيُوشِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَادَّةِ عَمَلِهَا بِأَنْفَعِ مَدَدٍ : مِنْ قِيسِيٍّ تَقْضِي أَهْلَهَا بِقَطْعِ أَعْمَارِ الْعَدَا ، وَسُيُوفٍ صَقِيلَةٍ إِذَا نَادَتْ دِيَارَ النَّاكِثِينَ أَجَابَتْ النَّدَا ؛ وَدُرُوجٍ تَمُوجُتُ غُدْرَانُهَا إِلَّا أَنَّهَا فِي مَهَالِكِ الْحَرْبِ لَا تُغَوَّرُ ، وَرِيْمَاجٍ أَطْرَدَتْ كُغُوبَهَا فَكَلَّهَا عَلَى عَدُوِّ الْإِسْلَامِ كَعَبٌّ مَدَوَّرٌ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُدُلُّ عَلَى عِزِّهِ الْحَمِيدِ ، وَيَقْضِي لِلنَّعْمَةِ عَلَيْهِ بِالزَّيْدِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَّقِفُ عِزَّهُ ، وَيُوفِّرُ مِنَ السِّلَاحِ وَالنَّجَاحِ سَهْمَهُ .



وهذه نسخة توقيع بشد الجوالى ، من إنشاء ابن نباتة أيضا ، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت سَعُودُ أَوَامِرِهِ وَاضِحَةً الْأَدِلَّةُ ، نَافِذَةً الْحُكْمُ عَلَى كُلِّ مِلَّةٍ ، قَائِمَةً لِحُصْبِ الْبِلَادِ بِالْعَدْلِ مَقَامِ السُّحُبِ الْمُسْتَهْلَةِ - أَنْ يَرْتَبَّ فُلَانٌ فِي شَدِّ الْجَوَالَى بِدِمَشْقِ الْحُرُوسَةِ : لَمَّا ظَهَرَ مِنْ نَجَابَتِهِ ، وَأَشْتَهَرَ مِنْ حَزْمِهِ وَمَهَابَتِهِ ؛ وَبَدَأَ مِنْ هِمَمِهِ الْعَوَالِي ، وَعِزَائِمِهِ الَّتِي تَجَلَّوْا صَدَأَ الْهَمُّ بِالْجَوَالَى ، وَإِذَا قِيلَ لِحَاسِدِهِ : لَهُ وَلَإِيَّهِ إِمْرَةُ الْخَيْلِ قَالَ : وَالْجَوَالَى لِي ، وَأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي إِذَا اسْتَنْهَضَ كَانَتْ عِزَائِمُهُ شَابَهُ ، وَنَفَحَاتُ ذِكْرِهِ الْجَمِيلِ هَابَهُ ؛ وَتَجَلَّى الْهَمَامُ الَّذِي أَشْهَدُ عَلَى كِفَايَتِهِ النَّهَارَ وَعَلَى

تَعْبِدُهُ اللَّيْلُ ، وَأَعَدَّ لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ؛ وَأَنَّ
مَرْبَاهُ بِجَمِيلٍ ، وَمُنْشَاهُ فِي مَنَازِلِ الْخَيْرِ دَلِيلٌ .

فَلْيُبَايِسْ هَذِهِ الْوُضُفَةَ الْمُبَارَكَةَ بِعَزْمٍ يُثْمِرُ مَا لَهَا ، وَيَقَرَّرُ عَلَى السَّدَادِ أَحْوَالَهَا ؛
وَيَسْتَخْلِصُ الْحَقَّ مِنْ أَهْلِ الْاِعْتِقَادِ الْبَاطِلِ ، وَيَسْتَخْرِجُ الْوَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْجَلَدِ
الْمَاطِلِ ؛ فَلَا نَصْرَانِيَّ إِلَّا وَهُوَ يَتَضَرَّعُ تَحْتَ الزَّرْقَاءِ مِنْ بَاسِهِ ، وَلَا يَهُودِيَّ إِلَّا وَهُوَ
يَشْكُو الصَّفْرَاءِ فِي رَأْسِهِ ، وَلَا سَامِرِيَّ إِلَّا وَالنَّارُ الْجَمْرَاءُ مُطْلَعَةً عَلَى أَنْفَاسِهِ ، حَتَّى
تَكُونَ أَوْصَافُ شِدَّةِ مَتْلُوهِ ، وَعَزَائِمُهُ فِي الْحَوَالِي مَجْلُوهُ ؛ وَهَمُّهُ جَارِيَةٌ عَلَى إِيْلَافِهَا
وَمَا لَوْ فِيهَا ، مُجَزَّةً لِأَقْلَامِ الْحِسَابِ وَالْدَّرَاهِمِ عَلَى حُرُوفِهَا ؛ صَحِيحَةً الْوِزْنَ غَيْرَ مَنُوكٍ ،
أَخِذَةً الدِّينَارِ مِنْ وَازِنِهِ وَهُوَ كَالْمَأْخُوذِ مِنْهُ مَصْكُوكٍ ؛ شَدًّا تَتَعَقَّدُ عَلَى اخْتِيَارِهِ
الْخُنَاصِرُ ، وَكَمَا أَنَّ لِلْإِسْلَامِ مِنْهُ قُوَّةٌ فَلْيَكُنْ لِلْوَظَائِفِ الدِّينِيَّةِ مِنْهُ نَاصِرٌ .

الضرب الثاني

(من يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب

السيوف - من هو بأعمال دمشق ، ومواضعهم على ثلاث مراتب أيضا)

المرتبة الأولى

(ما يُفْتَتَحُ بـ «الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بناية بعلبك كتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهي :

الحمد لله الذي جعل بحاسن زينه من استحق الصعود إلى أعلى المنازل ، وجعل نجم
سعدته بارتقائه إلى سماء المناصب طالعا غير آفل ، وصان بعقله الراجح أحصن المعاقل .

نحمده على إحسانه الواصل ، وغيث جوده الذى هو على الدوام هاطل ؛ حدّا ينطق بمدح معدّته كلّ لسان قائل ، ويزيد خيره على كلّ عام قابل ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى ألحق جياد الأواخر بالأوائل ، وجعل أجمل الأمراء يفوق البدور الكوامل ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جعله لديه أعظم الوسائل ، وتلازم هو وجبريل فى علو المنازل ، والتّقدّم فى المحافل ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سادات العشائر والقبائل ، والمجاهدين فى سبيل الله بالبيض البواتر والسّمير الدّوايل ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فلما كانت بعلبك المحروسة من أعزّ بلاد الإسلام ، وأبهج مدن الشّام - تعين أن نعين لها حاكماً ديناً خبيراً ، أميناً أميراً ؛ شجاعاً مهتاباً ، بطلاً برّحه وسيفه فى صدور الأعداء ورقابهم طعناً ضارباً ؛ وكان الجناّب الكريم فلان : - ضاعف الله تعالى نعمته ، وحرس من الغير مهجته - من يئس كان على التقوى أساسه ، وعدت لدفع المضلات أناسه ، وأشهرت همّتهم فلا يردّ لهم سهم ولا يُطاق بأسه ؛ طالما نفوا عن الدين الحنيفيّ خبث الكفر بعد ما تمكنت أدناسه ، وشمروا عن ساعد الاجتهاد فمحي بسيفهم ضلال الشرك وأرجاسه ؛ وهو أعزه الله تعالى ممّن شجى بشجاعته ، خلوق الكتائب ، ووقى بعدله وحسن سياسته ، حقوق المناصب ؛ وقام فى خدمة الدّولة الشريفة أحسن قيام ، وهذبته بمرورها اللّيالى والأيام ؛ وتأهل لحلول الرتب العلية ، وتعين لأرتقاء المراتب السّنية ؛ فأردنا أن نخّثره فيما نؤليه ، ونخبر عزّمه فيما نؤليه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - لا زال أمره مستمرّ الإحسان ، مجزلاً لدوى الاستحقاق عوارف النّعم الحسان - أن يستقرّ الجناّب الكريم المشار إليه - ضاعف

(١) فى الأصل «مهايا» ولم يحنّ من هذه المسادة فعل رباعى بهذا المعنى بل الوارد هابه وآهتابه .

الله تعالى نِعْمَتَه - في نيابة السُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ بِبَعْلِكَ المحرُوسَةِ والبِقَاعِينَ المعمُورِينَ ،
على عادة من تقدّمه في ذلك ، ومُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ ، بالمعلوم الذي يشهد به الديوان
المعمور ، إلى آخر وقْتٍ .

فليباشِرْ هذه النيابة الشريفة بِخَاطِرِ مُنْفَسِحِ حَاضِرٍ ، وَقَلْبِ مُنْشِرِحٍ على الخِيراتِ
مُشارِبٍ ، وليتَّخِذِ الشرعَ الشريفَ إماماً ، وليتَّوَخَّ أوامره ونواهيَه نَقْضاً وإِبراماً ،
وليَقِفْ عند حُدُوده المشروعة ، ولا يتعدّها ومن يتعدّها حُدُودَ الله فيده من الإيمانِ
مَترُوعه ، وليلنْ جانبَه للرَّعيّة ، وليَحْمِلْهُمْ من العَدْلِ والإنصافِ على المحجّة الواضحةِ
الجليلةِ ، فإنّهم الرعية الضعفاء الصالحون الذين أنعم الله عليهم بتفويضِ أمورهم إليه ،
وليُعرفْهُمْ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ [أُمُورِ] أُمَّتِي شَيْئاً
فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ » ؛ وليَعْمَرْ البلادَ ، وليَقْمَعَ أهلَ
الفسادِ ؛ وليمَهِّدِ البِقاعَ ، وليُحْيِ مَوَاتِ الضِّياعِ ؛ وليُقِمِ على القلعة المنصورة الحرسَ ،
ولا يغفل عن حِفْظِهَا بمعرفته التي أكَّدَتْ له من السَّعادة سَبَباً ، والله تعالى يبلِّغه من
إحساننا أرباباً ، ويُنْحِجُ له من فضلنا طلباً ، ويحرُسُه بسورتي فاطر وسبا ؛ والاعتمادُ
في معناه ، على الخط الكريم أعلاه .



وهذه نسخةُ تَوْقِيعِ بكَشَفِ البلادِ القبليّةِ ، كُتِبَ به لِعُرْسِ الدين خليل الناصريّ
في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي :

الحمد لله الذي جَرَّدَ من أوليائِهِ هذه الدَّولةَ البَشْرَيفَةَ سُيُوفاً تَحْسِمُ مَوَادَّ الفَسَادِ ،
وتُثَبِّدُ أَهْلَ الزَّيْفِ والعِنَادِ ، وتَعْمُ بِبَاسِهَا وَبَعْدَهَا البلادَ . حمداً مستمراً على الآبادِ ،

(١) في الأصل : العلماء ، والتصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مَزَوْدًا غَرَسَهَا النّائِعَ وَنِعْمَ الزَّادُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعِبَادِ ، الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَالْمُجَازِي لَهَا بِمَا عَمِلَتْ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا خَيْرَ الْخَلَائِقِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَلَّغَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَقْصَى الْمُرَادِ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى الْخَلَائِقِ : الْآلَافِ وَالْمِائِينَ وَالْعَشْرَاتِ وَالْآحَادِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَتَحُوا الْبِلَادَ ، بِسُيُوفِهِمُ الْحِدَادَ ، وَطَرَقَتْ رِمَاحُهُمْ مِنْ مُحَالِفِي دِينِهِمُ الْقَوِيمِ الْقُلُوبَ وَالْأَجَادَ ، وَسَلَّمَتْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمَمْلَكَةُ الْقَبِيلَةُ جُلَّ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ ، وَبِهَا أَرْزَاقُ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَةِ ؛ وَطَرِيقُ الْحَاجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَزِيَارَةُ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ؛ وَإِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، الَّتِي هِيَ عَلَى الْخَيْرَاتِ مُؤَسَّسَةٌ ؛ وَإِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَةِ ، وَمَمَرِّ التَّجَارِ قَاصِدِينَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ وَمَنَازِلِ الْعُرْبَانِ ، وَمَوَاطِنِ الْعِشْرَانِ ^(١) - وَجِبَ أَنْ يُفَوَّضَ حُكْمُهَا إِلَى مَنْ عُرِفَ بِالشَّهَامَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالْيَقَظَةِ الَّتِي لَا يَغْفُلُ بِهَا عَنْ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ سَاعَةً ؛ مِنْ أُمَرَاءِ غَرَسَهُ وَمَا يَفْقَهُ ، وَأَيْنَعَ بِالْمُرُوءَةِ وَالْفُتُوَّةِ ؛ وَتَقَدَّمَ فِي الْكَمَالِ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو ، وَأَضْرَمَ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ نَارًا أَحْرَمَ الْجَمْرَ .

وَكَانَ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - هُوَ الْمَشْهُورُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَالْمَنْعُوتِ بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِفْدَامِ وَحُسْنِ الْأَدْوَاتِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لَا زَالَ إِحْسَانُهُ يُثْمَرُ غَرَسًا ، وَجُودُهُ يُسْرُ نَفْسًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْجَنَابُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي كَشْفِ الْبِلَادِ الْقَبِيلَةِ الْمَحْرُوسَةِ عَلَى مَنَوَالٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَعَادَتِهِ ، وَحُدُودِهِ فِي ذَلِكَ وَمُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ .

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس في اللغة فجعله كزغيف وزغفان وقطعان .

فليأشِرْ ذلك بهِمَّتِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَشَجَاعَتِهِ الْأَحْزَمِيَّةِ ، وَنَفْسِهِ الْأَيَّيَّةِ ، وَلِيُيَبِّضَ وَجْهَهُ
 فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ حَتَّى يَطْرَبَ النَّاسَ بِالنُّوْبَةِ الْخَلِيلِيَّةِ ؛ وَلِيُعْدِلَ فِي الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ ،
 وَلِيَقْمَعَ رُءُوسَ عَشِيرٍ آتَخَذُوا رَأْسَهُمْ مَوْتًى : فَلَيْسَ الْمَوْتَى وَلَيْسَ الْعَشِيرِ ؛ وَلِيُدْفَعَ
 أَذَى الْعَرَبِ ، وَلِيُحَذِّرَهُمْ شَرًّا اقْتَرَبَ ؛ وَلِيُكْثِرَ الرُّكُوبَ إِلَى الْمَعَامَلَاتِ ، وَلَا يُخْشَ
 مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ؛ وَلِيَتَّخِذَ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ إِمَامًا ،
 وَلِيَتَوَخَّ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ تَقْضًا وَإِبْرَامًا ؛ وَلِيَقِفَ عِنْدَ حُدُودِهِ الْمَشْرُوعَةِ ، وَلَا يَتَعَدَّهَا :
 وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَيُدْهِمَ الْإِيمَانَ مَزُوعَةً ؛ وَأَلِيْنُ جَانِبِهِ لِلرَّعِيَّةِ ، وَلِيَحْمِلَهُمْ مِنْ
 الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ عَلَى الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ الْجَلِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُمْ الرِّعِيَّةُ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ بِتَقْوِيضِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ ، وَلِيَعْتَمِدَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ مِنْ
 وَلِيٍّ مِنْ أُمُورِ أُمَّتِي شَيْئًا فَارْفُقْ بِهِ وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ » ؛ وَالْوَصَايَا
 كَثِيرَةٌ وَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نِظَامُهَا وَقَوَامُهَا ، وَاتَّبَاعُ سُنَّةِ نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيَادُهَا وَزِمَامُهَا ، وَالْإِعْتِمَادُ فِي مَعْنَاهُ ، عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَكْشَفِ الرَّمْلَةِ ، كُتِبَ بِهِ لِأَبِي بَكْرٍ « أَمِيرِ عِلْمِ » ، فِي الدَّوْلَةِ
 الظَّاهِرِيَّةِ « بِرُقُوقِ » وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَلَّدَ أَجْيَادَ الْمُجَاهِدِينَ ، سَيْفَ نَصْرِهِ ، وَأَكَّدَ بِعِزَائِمِ أَهْلِ الْيَقِينِ ،
 حِمَايَةَ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ وَصِيَانَةَ ثَغْرِهِ ؛ وَجَعَلَ أَلْسِنَةَ أَسِنَّةِ الْمُرَائِطِينَ فِي فَمِ الثَّغْرِ زِينًا إِذَا
 أَزْدَانُ بَغْتَرَةٍ بَدَّرَهُ ، وَأَنْزَلَ بِأَعْدَاءِ الدِّينِ قَوَادِحَ نِقْمِهِ وَقَوَارِعَ قَهْرِهِ .

أَحْمَدُهُ أَنْ جُمِيَ بِأَوَّلِي النَّجْدَةِ وَالْبَاسِ لِلْمُسْلِمِينَ حِمًى ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا هَمَّعَ مِنْ صَيِّبِ
 نِعْمَائِهِ وَهَمَى ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَخَذَهَا عِنْدَ اللَّهِ

ذُنُرا ، وأَرْجوبها في العُقْبى أَجْرا ، وأشهدُ أنَّ مَجدًا عبْدُهُ ورسولُهُ الذي آيَدَ يَدَهُ
بِالسَّيفِ وأَمَدَهُ أَيْدا ، وعلى آلِهِ الذين حَلَّ بهم للإسلام جِيدا ، وصَحَّبه الذين جَلَا
بِبَوَارِقِ صِفاحِهِم ، وخَوَارِقِ رِمَاحِهِم ؛ غَمَمَ المَجال ، وغَمَمَ القِتال ؛ فلم يُهْمَلِ الأعداءُ
ولم يُمَهِّلْهُم رُويْدًا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوَّلَى مَنْ جُعِلَ في نَحْرِ البَحْرِ هُمامًا صَارِمًا ، وأشدَّ من قاطعِ أعداءِ
الدين وصارِمًا ؛ مَنْ تُضْرَبُ بِشِجَاعَتِهِ الأُمثال ، ويُورَدُ في صَدُورِ الأبطالِ صُمَّ
الأسلِ النَّهال ؛ وَيَهْجَى حِمَى الثَّغَرِ فلا يَدْعُ عَدُوًّا ولا يَرْهَبُ نَهْبًا ، وَيَرْقُبُ رِقَابَ الكُفْرِ
فَيُؤْمِنُونَ وإن كان وراءَهُم مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا .

ولما كان الجَنابُ الكَرِيمُ فلا نُّ - أدام اللهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - هو الذي أخلصَ
في الطَّاعَةِ ، ونصحَ سُلْطانَهُ حسبَ الطَّاقَةِ والاستِطَاعَةِ - رُسمَ بالأمرِ الشَّريفِ
العَالِي - لازالَ سَيْفُ عدلِهِ ماضِيًا ، وكُلُّ بِحْكِهِ راضِيًا - أن يَسْتَقِرَّ الجَنابُ المَشارُ
إليه كاشِفًا بِالرَّمْلَةِ المَعْمُورَةِ ، على عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَ في ذلك .

فَلْيُبَاشِرْ ذلكَ مُعَمَّرًا تلكَ البِلادَ بَعْدَهُ ، مُجْتَمِدًا على إِيصالِ الحَقِّ إلى أَهْلِهِ ؛
وَلْيَتَّخِذِ الشَّرْعَ الشَّريفَ إِمَامًا ، وَلْيَتَوَخَّ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ نَقْضًا وَإِبْرَامًا ؛ وَلْيَقِفْ عِنْدَ
حُدُودِهِ المَشْرُوعَةِ ، ولا يَتَعَدَّها ؛ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَيُدْهِمُ مِنَ رِ الإِيْمَانِ مَزْزُوعَهُ ؛
وَلْيَكُنْ جَانِبَهُ لِلرَّعِيَّةِ ، وَلْيَحْمِلْهُم مِنَ العَدْلِ وَالإِنصافِ على المَحَبَّةِ الواضِحَةِ الحَلِيَّةِ ؛
[فإنَّهُم الرِّعْيَةُ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم بِتَقْوِيضِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ] وَلْيَعْتَمِدْ فِيهِمْ قَوْلَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللَّهُمَّ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ أُمُورِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَّقَ بِهِم فَارْفُقْ بِهِ
وَمِنْ شَقٍّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ» . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَأَهْمُهَا التَّقْوَى فَيَلِازِمُ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا

تَحْفَظُهُ ، وبالسَّيَادَةِ والسَّعَادَةِ تَلَحُّظُهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ تَوْفِيقَهُ ، وَيَسَهِّلُ إِلَى مُجِيعِ
الْمَقَاصِدِ طَرِيقَهُ ؛ وَالْأَعْتَادُ فِي مَعْنَاهُ ، عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ .

قُلْتُ : وَمَنْ تَأَمَّلْ وَصَايَا هَذِهِ التَّوَاقِيعِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، عِلْمٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ
كُتَّابُ الزَّمَانِ ، مِنْ آتِرَاعِ الْفَقَرَاتِ مِنْ تَوْقِيعٍ ، وَتَرْصِيعِهَا فِي تَوْقِيعٍ آخَرَ ، مِنْ غَيْرِ
تَغْيِيرٍ لِفَظٍ فِي أَكْثَرِهَا .

المرتبة الثانية

(مِنْ تَوَاقِيعِ أَرْبَابِ السُّيُوفِ مِمَّنْ بِأَعْمَالِ دِمَشْقٍ - مَا يُفْتَتَحُ بِهِ «أَمَّا
بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ» وَفِيهَا وَظَائِفُ)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نَسَخَةُ تَوْقِيعِ بَنِيَابَةِ بَعْلَبَكْ لِمَنْ دُونَ مَنْ تَقَدَّمَ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ
جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ لِمَنْ لَقِبَهُ «نَاصِرَ الدِّينِ» : وَهِيَ

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يُخْلِ مَمْلَكَةً إِسْلَامِيَّةً مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ، وَلَمْ يُخْلِ أَمْرَهَا
عَلَى ذِي عَزَمٍ قَاصِرٍ ، وَلَمْ يُخْلِ وَجْهَهَا إِلَّا بِنِئْسٍ بِهِ الْقَدِيمُ وَشَهِدَ لَهُ الْمُعَاصِرُ ، وَلَمْ
يُلْقِ مَقَالِيدَهَا إِلَّا لِمَنْ وَصَحَ بِرَأْيِهِ الْإِبْهَامُ وَتَبَيَّنَتْ بِفَضْلِهِ الشَّهَادَةُ وَعُقِدَتْ عَلَى ذِكْرِهِ
الْخَنَاصِرُ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي شَيَّدَ مَعَالِمَ الدِّينِ وَأَرْكَانَهُ ، وَجَدَّدَ
مَكَانَ الْحَقِّ وَإِمَّاكَاهُ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَابَعُوا فِي الْخَلْقِ عَدْلَهُ وَإِحْسَانَهُ ،
وَشَايَعُوا فِي النَّصْرِ نَصْلَهُ وَسِنَانَهُ ، مَا أَسْتَنَابَ الْوَدُقُ فِي سُقْيَا الرِّيَاضِ غُذْرَانَهُ ، وَخَلَعَ
عَلَى الْغُصُونِ خِلْعًا خَطَرَ فِيهَا الزَّهْرُ بِأَكْمَامِهِ وَعَقَدَ مِنَ الثَّمَرِ تَيْجَانَهُ - فَإِنَّ شَرَفَ
الْأَمَّاكِينَ بِسَاكِنِيهَا ، وَجُسُومَ الدِّيَارِ بِنُفُوسِ قَاطِنِيهَا ؛ وَالْمَنَازِلَ بِكَوَاكِبِهَا ، وَالْمَنَاصِبَ

بَنَصِيْبِهَا مِنَ الْكَفَاءَةِ وَنَائِيْهَا ؛ وَإِنَّ مَدِيْنَةَ بَعْلَبَكَّ عِلْمٌ فِي الْمَدَائِنِ مَرْفُوعُ الْحِطَّةِ ، وَجِسْمٌ
 مِنْ جُسُومِ الدِّيَارِ قَدْ آتَاهُ اللهُ بَسْطَهُ ؛ بُيُوتُهُ سُلَيْمَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِيَ بِالْمَلِكِ قَدِيْمَةٌ
 الْاِخْتِصَاصِ ، وَمُبْتَنَى الْجَنِّ الْمُنْسُوبَةُ عُقُودُهَا الْعِلْيَةُ وَالذَّرِّيَّةُ إِلَى كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٌ ؛
 وَشَامُ الشَّامِ الْمُعْجَبِ ، وَرَوْضَةُ نَدَاهُ الْمُعْشَبِ ؛ وَثَنِيَّةُ نَفَرِهِ الْبَاسِمِ ، وَعَرَفُ أَعْرَاقِ
 حَيَاهِ النَّاسِمِ ؛ وَمَأْوَى صُلْحَاهِ أَحْيَاءَ بَيْنِ أَوْطَانِهَا ، وَأَمْوَاتًا بَيْنَ صَفِيْحِ بُنْيَانِهَا ؛
 لَوْ عَرَضَتِ الْبِلَادُ سَحَابًا لِقِيلِ لَسَحَابِهَا : يَا كَثِيْرَ الْمِنَنِ ، وَلَوْ صُوِّرَتْ أَنْاسِيٌّ لِقِيلِ
 لِإِنْسَانِهَا : يَا طَيِّبَ النَّجْرِ وَاللَّبَنِ ؛ لَا يُمْنَعُ مَا عَوْنُهَا ، وَلَا يَنْقَطِعُ عَوْنُهَا عَنِ الْبِلَادِ وَمَا
 أَدْرَاكُ مَا عَوْنُهَا ؛ وَلَا تَلِيْقُ مِنَ النَّوَابِ إِلَّا بِكُلِّ سِرِّ الْعَزَمِ وَالْهِمَمِ ، عَلَى الْآرَاءِ
 فِي الْمِلْمَةِ الْمُدْهِمَةِ ؛ نَاجِحَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، صَالِحٍ لِأَنْ يُثْنَى عَلَى نِيَابَتِهِ الْبَعْلَبَكِّيَّةِ صَالِحُ
 الْمَدِيْنَةِ وَالْحَبْلِ ؛ مُكْمَلٌ لِسُلُوكِ الْحَقِّ الْأَنْجِيِّ وَالْعَزَمِ الْأَنْجِدِ ، مُؤَهِّلٌ لَارْتِقَاءِ الرُّتَبِ
 الَّتِي تَمَاحَدْنَا وَلَهَا الْأَجْمَدُ ^(١) .

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ جُمْلَةُ هَذَا التَّفْصِيلِ ، وَجَمَالَ هَذَا التَّفْصِيلِ ؛ وَكُفَّ هَذِهِ
 الْعَقِيْلَةَ ، وَسَعَدَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي مَدَّتْ بِالسَّيْفِ وَالْقَلَمِ ذِرَاعَهُ وَنَظَّمَتْ مِنَ الْبِنَاءِ
 إِكْلِيْلَهُ .

فَلَذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتِ الْمَالِكُ بِمَحَاسِنِ أَيَّامِهِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِيَادِ ،
 وَالْبِلَادُ ذَاتِ الْخِصْبِ السَّنَى لَا ذَاتَ السَّنَةِ الْجَمَادِ - أَنْ يَرْتَبَ فِي نِيَابَةِ بَعْلَبَكَّ
 الْحَرُوسَةُ : مُجَدِّدًا بِهِمَّتِهِ الْعَالِيَةَ عُلُوَّ صَرْحِهَا ، وَحِمَايَةَ سَرْحِهَا ؛ وَرِعَايَةَ جَبَلِهَا وَسَفْحِهَا ،
 مُوْرِيًّا فِي مَصَالِحِهَا زِنَادَ فِكْرِهِ الَّتِي لَا تَتَمَكَّنُ أَقْوَالُ الْعُدَاةِ مِنْ قَدْحِهَا ؛ مُصَرِّقًا أَوَامِرَهُ
 كَيْفَ شَاءَتْ ، مُنْصِفًا لِلْأَحْوَالِ الْمُنَوَّطَةِ بِرِعَايَتِهِ إِنْ دَنَتْ أَوْ تَنَاءَتْ ؛ بِاسِطًا لَعْدِلِ
 قَلَمِهِ عَلَى الْمُجِيدِينَ ، وَسَطَوَاتِ سَيْفِهِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ ، وَازِعًا بِمَهَابَتِهِ مَنْ جَاوَرَ جِبَالَ

(١) لعله "التي إذا خلت من ماجد تناولها" الخ .

الْعَمَلُ مِنَ الضَّالِّينَ ، (فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) وَلِيَتَّبِعُوا مِنْهَا مَعْقِلًا
يُحْمَدُ الْمُنَاصِرَ وَالْمُهَاجِرَ ، وَلِيَحُطَّ مِنْهَا نَفَرًا مَسَاوِيكُهُ الْأَسْلُ وَالْمُسْعَىٰ إِلَيْهِ عَلَى الْحَاجِرِ ،
وَلِيُجَرِّ أُمُورَ الدِّيَّانِ عَلَى سَنَنِ التَّمْيِيرِ وَالتَّثْمِيرِ ، وَلِيَدَبِّرَ الْأَوْقَافَ الْمَبْرُورَةَ بِحَاسِنِ
التَّنْذِيرِ ، وَلِيَشَارِكْ أَهْلَهَا فِي الْأَجْرِ الْأَوَّلِ بِالْأَجْرِ الْآخِرِ ، وَالْأَسْوَارَ هِيَ وَقُلُوبُ الرِّجَالِ
مِنْ أَهَمِّ مَا يُعْمَرُهُ ، وَوُفُورُ الْحَوَاصِلِ وَالسَّلَاحِ مِمَّا لِلْوَلِيِّ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ يَدَّخِرُهُ ، وَتَقْوَى
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِمَّا لَا يَزَالُ لِسَانُهُ يَسْتَحْلِي الْقَوْلَ فِيهِ فَيُكْرَرُهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُدُّه بِإِعَانَتِهِ
وَلُطْفِهِ ، وَيَكْفِيهِ مَا أَهَمُّ مِنَ الْأُمُورِ فَمَا كُنْفِي مَنْ لَمْ يَكْفِهِ .



وهذه نسخة توقيع بولاية الولاية بالشام المحروس لمن لقبه «عز الدين» من إنشاء
الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضا ، وهي :

أَمَّا بِمَدْحِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ لِلْوَلَاةِ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ عِزًّا يَتَجَدَّدُ ، وَعِزًّا مَا يَتَشَدَّدُ ،
وَعِلَالًا يَتَعَدَّى إِذَا حُكِمَ وَزِيدًا لَا يَتَعَدَّدُ ، وَكَافِي وُلَاةٍ يَتَلَدَّدُ الْوَاصِفُ بِذِكْرِ
أَهْتَامِهِ الَّذِي إِذَا أَهْتَمَّ لَا يَتَلَدَّدُ ، وَإِذَا أَعْتَبَرَ عِزُّهُ وَحَرَمُهُ فَهَذَا فَضْلُ يَتَجَدَّدُ ، وَهَذَا
وَصَفُ لَا يَتَحَدَّدُ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْعِزِّ
الْمُؤَبَّدِ ، وَالْعِزُّ الْمُوَيْدُ ، مَا كَتَبَ قَلَمُ الْغَيْثِ الْجَائِدِ عَلَى طَرَسِ الرُّوضِ بِحُودٍ - فَإِنَّهُ
لَمَّا كَانَتِ الْوَلَاةُ فِي خِدْمَةِ الْبِلَادِ جَيْشًا يَتَحَمُّونَ سَرَحَهَا ، وَيُعْمَرُونَ صَرَحَهَا ، وَيُحْصِبُونَ
بِالْمَدَلِّ قَبْلَ الْعَارَةِ سَفْحَهَا ، وَيُحْكَمُونَ فِي رِعَايَاهَا ، وَيَتَمَكَّنُونَ فِي قَضَائِيهَا ، وَيَقْرَعُونَ
ثَغُورَهَا وَيَقْرَعُونَ ثَنَائِيهَا - تَعَيَّنَ أَنْ تَقْدِّمَ عَلَى هَذَا الْجَيْشِ الْمَذْكُورِ أَمِيرًا يَقَرَّرُ
أَمْرَهَا ، وَيُنَسِّقُ مِنْ مِيمَتِهِ وَمَيْسَرَتِهِ يَمْنَاهَا وَيُسَرِّهَا ، وَيُجَرِّدُ مِنَ الرَّأْيِ سِلَاحَهَا ،
وَيُسَرِّ قَلْبَهُ بِالتَّنْذِيرِ وَيَرِيشُ جَنَاحَهُ .

(١) كذا في الأصل بالاهمال ولعل صوابه «وفعلا اذا حكم لايتعدى ورأيا لايتعدد» .

وكان المجلس السامي هو الأمير الدال عليه هذه الإمارة ، المعنى بهذه الشارة والاشارة المستحق بشريف نفسه مدارج الارتقاء ، ومباهج الانتقاد والانتقاء ؛ المسيل أذبال مفاخره أى إسبال ، المرقوم باسمه ورسمه على أرجاء الولايات : «عز يدوم وإقبال» ؛ المقيم من أمانته ومهابته بين حريز ، الشهم الذى لا يذل وهو من نعتة ومنسبه بين عزين ؛ الصمصام الذى تسر [به] يد من ارتضاه وانتضاه ، والماشى على الحق الظاهر حتى يقال : أهذا وإلى الولاة أم قاضى القضاء ؟ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - شرفه الله وعظمه - أن يستقر اعتماداً على شهامته التى يمثلها تمهد البلاد ، وكفائه التى تفصح بالخيرات السنية السنة الجداد ؛ وصرامته التى تشد على أيدى الولاة فيردون الحقوق من أيدى الأغصاب ، ودرايته التى يتسبون إليها فيسندون :

وكذا كالسهم إذا أصابت * مراميا فراميا أصاب .^(١)

فليأشر هذه الرتبة بكفها : من العزم العالى ، والقدر العالى ؛ والمعدلة التى تمسك منها الأحوال بأوثق الأعرا ، وتتلو سيارتها المرفقة : « وما كنا مهلكي القرى » .
مراعياً لجميع الأحوال ، متمراً لمربع الأموال ؛ وإلياً على ولاة إن شكوا فى صنع الله فإلهم من الله من وآل ، ماشياً من تقوى الله تعالى فى كل أمر على أقوى وأقوم منوال ؛ والله تعالى يخلص البلاد بغم رأيه الصيب ، ويطيّب الأماكن المنبئة بمثله : « وكل مكان ينبت العز طيب » .



وهذه نسخة توقيع بولاية البلقاء والصلت ، من إنشاء ابن نبأته ، وهى :

(١) الرواية : أصابا بألف الإطلاق ، وحذفت هنا مراعاة الفاصلة .

أما بعد حمد الله مُضَاعِفِ النِّعَمَةِ ، ومُرَادِفِ رُتَبِ الإِحْسَانِ لِمَنْ أَخْلَصَ
فِي الخِدْمَةِ ، ومُجَدِّدِ مَنَازِلِ العِزِّ لِمَنْ طَلَعَتْ كَوَاكِبُ أَهْتَامِهِ فِي آفَاقِ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ ،
وَمُؤَكِّدِ سِهَامِ الْخَيْرِ الْمُقْتَسَمَةِ ، لِمَنْ سَدَّدَ فِي شَرَفِ الْأَغْرَاضِ رَأْيَهُ بِلِ سَهْمِهِ .
وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ هَادِي الْأُمَمِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ حُجَّةِ
الدِّينِ مِنَ الْعَوَارِضِ الْمُلِمَّةِ ، صَلَاةٌ تَكُونُ بَيْنَ أَرْوَاحِهِمُ الرِّكِيَّةِ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً - فَإِنَّ
أَحَقَّ الْأَوْلِيَاءِ بِمَزِيدِ الْإِلَاءِ الْمُتَّصِلَةِ ، وَتَجْدِيدِ النِّعَمِ الْمُقْبِلَةِ وَتَقْدِيمِ الْمَسَاعِي الَّتِي
لَا تَلْبَسُ حُلَّ الْفَخَارِ إِلَّا مُكْتَمِلَةً - مَنْ وَصَحَتْ فِي صِفَاتِ الْفَضْلِ آيَاتُهُ ، وَتَقَابَلَتْ
فِي حَاتِي التَّدْبِيرِ سَطَاهُ وَأَنَانُهُ ، وَرَوَى عُلَّةَ الْبَلَدِ الْخَائِفِ نِفَاضَ عَلَى الْمُعْتَدِينَ
جَدُولَ سَيْفِهِ وَجَرَتْ بِالْدَّمِ قَنَاتُهُ ؛ وَقَامَ عَلَى قَدَمِ الْأَجْتِهَادِ ، وَقَسَمَ بَيْنَ جَفْنِهِ وَجَفْنِ
سَيْفِهِ السُّمَادِ .

ولما كان المجلس هو المقصود بهذه الحكاية ، والمشهود له في طائفة هذه
الغاية ؛ وَالْعَالِي بِهِمَّةٍ عَلَى ذَوِي الْأَرْتِقَاءِ ، وَالْوَالِي الَّذِي إِذَا رَكِبَ الْوَلَاةَ لِأَشْهَارِ
ذِكْرِ كَانٍ مِنْ بَيْنِهِمْ فَارِسَ الْبَلْقَاءِ ؛ وَالنَّاهِضَ بِتَثْمِيرِ الْأُمُورِ عِمَامُ رَأْيِهِ الصَّيِّبُ ،
وَالطَّيِّبَ بِسِيَاسَتِهِ مَحَلَّ الْوَلَايَةِ : « وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَبَّ » - تَعَيَّنَ أَنْ تَتَرَدَّدَ
مَنْصِبُهُ إِذَا تَزَيَّدَتِ الْمَنَاصِبُ ، وَأَنْ تَسْتَمِرَّ مَرَّتَبَتُهُ إِذَا مَرَّتْ لَذَاهِبُهَا الْمَرَاتِبُ ؛
وَأَنْ يَشْتَمَلَ فِي أَسْتِمْرَارِهَا عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي إِعْرَابِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مُضَافًا
وَمُضَافًا إِلَيْهِ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبَدًا عِمَادَهُ ، وَجَعَلَ لَوْلَاةِ أَيَّامِهِ
الْحُسْنَى وَزِيَادَهُ - أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى وَلَايَةِ الْبَلْقَاءِ عَلَى عَادَتِهِ ، وَأَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ وَلَايَةُ
الصَّلَاتِ : جَمْعًا لَهُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ حَلَالًا ، وَالذَّرْوَتَيْنِ مَنَالًا ، وَالرَّائِسَيْنِ نُهُوضًا بَهُمَا

(١) لم يذكروا القاموس ولا ياقوت وفي تقويم البلدان هي بلدة وقلعة من جند الأردن .

وَأَسْتَقْلَالًا ؛ وَعَلَمًا بِوَفَاءِ عَزْمِهِ الَّذِي أَمَرَ أَمْرَهُ ، وَرَفْعًا لِقَدْرِهِ الَّذِي حَسُنَ أَنْ يَقُولَ
لِمَنْصِبِ الْبَلَقَاءِ : « لَنَا الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي سَارِدِ كُرْهُ » ، وَتَيْمَنًا بِغَرَّةِ الصَّلَاتِ فَإِنَّ
الصَّلَاتَ هُوَ الْجَبِينُ الْوَاضِحُ بَشَرِهِ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الْكَافِي الَّذِي جَمَعَ مَالَ
الْجِهَاتِ فَأَوْعَى ، وَقَسَمَ فُنُونِ الْمَصَالِحِ جِنْسًا وَنَوْعًا ، وَحَسَمَ أَدْوَاءَهَا بِجُسَامِ رَفْقِهِ
كَرْهًا وَطَوْعًا .

فَلْيَبَاشِرْ بِالْعِزِّ وَالْيَمْنِ جِهَتَيْهِ ، وَلْيَأْخُذْهُمَا بِكُلْتَا يَدَيْهِ ، وَلْيَفِضْ وَجْهَ عَزْمِهِ فِي أَرْضِ
الدَّوْلَةِ حَتَّى يَكُونَ شَبَهَ الْبَلَقَاءِ الْإِلَازِمِ لِأَحَدَى وَلَا يَتِيهِ ، مُحَصَّنًا بِسِمَاكِ سَيْفِهِ وَقَلَمِهِ فَنِعْمَ
الْبَلَدَتَانِ ، مُتَمَرِّزًا بِسَدَادِ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَمِنْ دُونِهِمَا جَتَّانِ ؛ مُؤَفِّيًا لِلْحَقُوقِ ، مُعْفِيًا لَاعْتِرَافِ
النَّعْمَةِ مِنَ الْعُقُوقِ ، رَاقِيًا بِهَمَّتِهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى رُتَبٍ لَوْ رَامَهَا نَجْمُ الْأَفَاقِ
لِعَاقَةِ الْعَيْقِ ، عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِتَقْوَى اللَّهِ
مَعْدُوقٌ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوضِّحُ لِرَأْيِهِ أَجْمَلَ الطَّرَائِقِ ، وَيُنَجِّحُ عَلَى الْبَلَقَاءِ وَغَيْرِهَا سَعْيَهُ
السَّائِقِ ، وَفِكَرَهُ السَّابِقِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! .



وهذه نسخة توقيع بولاية نابلس ، من إنشاء ابن نباتة أيضا ، وهى :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا هُنَا مِنَ الْمَوَاهِبِ ، وَهَيَّا مِنْ عَلَى الْمَرَاتِبِ ، وَأُنْجِزَ مِنْ
وُعُودِ السُّعُودِ بَعْدَ مَطَالِ الْمَطَالِبِ ، وَزَيْنَ مِنْ سَمَاءِ الْوُظَائِفِ عِنْدَ إِزْهَائِهَا بِزِينَةِ
الْكُوَاكِبِ ، وَعَمَّرَ مِنْ صُدُورِ الْوَلَاةِ وَالْوَلَايَةِ بَعْلِي تَنْتِي عَلَيْهِ الرِّعْيَةُ « وَلَوْ سَكَتُوا
أَثْنَتَ عَلَيْهِ الْحَقَائِبِ » . وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي جَرَّدَ لِنَصْرِ
الْإِيمَانِ حَذَّةَ الْقَاضِبِ ، وَحِزْبَهُ الْغَالِبِ ، وَنَدَبَ لِإِحْيَاءِ الْحَقِّ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا هَمَّتْ
بِهِ النُّوَادِبِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَمَاتِ جَمَالُ الْكُتُبِ كَمَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ

بجمال الحكائب ؛ صلاةً لتعطر بنفحاتها الصبا وتقطر من خلف سُراها الجَنَائِب - فإنَّ عقائِلَ الولاياتِ أُولى بِخُطْبَةِ أَكْفَائِهَا ، وَرَغْبَةِ السَّرَاةِ مِنْ ذَوِي أَصْطِفَائِهَا ، وَنِسْبَةِ مَنْ يَقُومُ لِلْأُمُورِ الْمُعَلَّلَةِ بِقَانُونِهَا وَشِفَائِهَا .

ولما كانت بَلَدٌ نَابِلَسَ المحروسةِ من أَعْلَى عَقَائِلِ البِلَادِ قَدْرًا ، وَأَمْرًا لِجِهَاتِ أُمْرَاءِهَا ، وَأَسْرَى الْوِلَايَاتِ مَحَلًّا وَذِكْرًا ، وَأَوْفَى النَّوَاحِي مِنْ زَمَانِ بَنِي أَيُّوبَ عَلَى تَكْلِيفِ الْمُلِكِ صَبْرًا ، وَأَنْزَهَ الْبِقَاعِ الَّتِي لَوْ رَأَاهَا الْمَلِكُ الْمُضِرِّي لَمَّا اسْتَعْلَى غُوطَةَ الشَّامِ بِشَبْرَيْنِ مِنْ شَبْرَاءِ بَلَدٍ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَحَمَلَتِ الشَّاءَ فَوْقَ طَوْقِهِ ، وَنَجَمَ نَبَاتِ وَادِيهَا الزَّهَرِ حَتَّى تَسَاوَى النَّجْمَانِ مِنْ تَحْتِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ - تَعَيَّنَ أَنْ يُنْتَخَرُ لَوَلَايَتِهَا مِنْ تَعَيَّنَ وَلَاؤُهُ ، وَتَمَكَّنَ فِي الرُّتَبِ عَلَاؤُهُ ، وَتَبَيَّنَ فِي مَصَالِحِ الْوِلَايَاتِ احْتِفَالُهُ وَاحْتِفَاؤُهُ ، وَشَهْرَ وَفَاؤُهُ بِالْخِدْمَةِ فَلَا شَرَفَ بَسْعَى إِلَّا لَهُ مِنْهُ شَيْنُهُ وَرَأْوُهُ وَفَاؤُهُ ؛ مِنْ شَهِدَتْ السَّوَاحِلُ الشَّامِيَّةُ فِي مُبَاشَرَتِهِ أَنَّهُ أَجْرَى مِنْهَا الْمَالَ بَحْرًا ، وَأَفَاضَ الْوَصْفَ دُرًّا ، وَشَهِدَتْ الزَّرَكَاةُ - وَدِيَوَانُهَا الْمَادِحُ - أَنَّهُ أَفْلَحَ مِنْ زَكَاةِهَا خَيْرًا وَخُبْرًا .

فلذلك رُسمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يُرْتَبَ فَلَانٌ ... عِلْمًا بِأَنَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي جَمَعَ الْأَوْصَافَ الْمُتَقَدِّمَةَ ، وَاسْتَمَعَ مِنَ الْحَمَامِدِ نَدِيحَةً لَهَا مِنْ كَلَا قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ مُقَدِّمَةً ، وَأَطْلَعَ فِي آفَاقِ الْوُطَائِفِ كَنُجُومَ الْجُوزَاءِ الثَّلَاثَةِ رَأْيَهُ وَسَيْفَهُ وَقَلَمَهُ ، وَأَطْلَعَ عَلَى مَحَاسِنِ التَّنْذِيرِ فَكَانَ فِي رَعَايَا بَلَدِهِ مِمَّنْ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ؛ وَأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي إِذَا وَلِيَ ثَمَرًا ، وَإِذَا صَالَ عَلَى الْمُفْسِدِينَ دَمْرًا ، وَإِذَا شَامَتِ الْمُهِمَّاتُ بَارِقَ عَزِيمٍ ، أَسْبَلَ وَإِذَا سَامَتِ قُوَاهُ شَمَرًا ؛ وَأَنَّهُ الْأَمِينُ إِذَا تَصَرَّفَ ، وَالْمَأْمُونُ إِذَا تَعَرَّفَ ، وَالشُّجَاعُ إِذَا تَحَصَّنَ الْبِلَادُ بِنَسْبِهِ الْحِصْنِي : فَسَوَاءٌ فِي شُمُولِ الْأَمْنِ مَا تَوَسَّطَ مِنْهَا وَمَا تَطَرَّفَ .

فليباشِرْ هذه الْوِلَايَةَ الْمُبَارَكَةَ بِعَزِيمٍ يُوضِّحُ بَشَرَهَا ، وَيُنْجِحُ أَمْرَهَا ، وَيُقِيمُ فِي خِطْبَةِ عُلَاهِ عُدْرَهَا ؛ وَحَزِيمٍ يُمَرِّمُ مَالَهَا وَغِلَالَهَا ، وَيَنْقَعُ غُلَّتَهَا وَيَضَعُ أَغْلَالَهَا ؛ وَبِاسٍ يَدْعُ

المُفْسِدَ مِنْ سَيْفِهِ أَوْ قَيْدِهِ فِي طَوْقٍ أَوْ حُجْلٍ ، وَيَذُرُ السَّارِقَ وَالْمَارِقَ يُشِيرُ بِلَا كَفٍّ
وَيَسْعَى بِلَا رِجْلٍ ؛ مُشِيدًا لِنَوَاحِيهَا بِالْتَرغِيبِ وَالتَّرْهيبِ عَلَى أَوْثَقِ الْمَبَانِي ، مُصْلِحًا
بَيْنَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ حَتَّى لَا يَضُرَّ قَوْلُ الْقَائِلِ : «رَفِيقُكَ قَيْنِي وَأَنْتَ يَمَانِي» ، مُتَّفَقًا
مِنَ الْأَحْوَالِ كُلِّ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ ، نَاهِيًا فِي تَلَقِّي الْمِهْمَاتِ عَلَى قَدَمِ التَّقَدُّمِ بِالْعَزْمِ
الْأَثِيرِ ، جَاعِلًا مَنْ لَدَى مَحَبَّةٍ عَمَلِهِ لَصْلَاحِ الْعَشِيرَةِ نِعْمَ الْعَاشِيرِ ، عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ
تَعَالَى فِي كُلِّ أَمْرٍ وَإِلَيْهَا بِالْحَدِيثِ يُشِيرُ .



وهذه نسخة توقيع بشد الدواوين بغزة ، من إنشاء ابن نباتة ، كُتِبَ بِهِ
لـ«علاء الدين بن الحصني» المقدم ذكره في التوقيع قبله ، وهي :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ جَلَّتْ ، وَنِعْمَةٍ فِي أَهْلِهَا حَاتٍ وَحَلَّتْ ، وَرَبَّةٍ
بِإِنْتِسَابِ كَافِيهَا وَبِاسْمِهِ تَحَصَّنَتْ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَتَعَلَّتْ ؛ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ خَيْرٍ مِنْ سَائِمَتٍ عَلَيْهِ الْأُئْسَنَةُ وَصَلَّتْ ، وَسَلَّتْ بِهِ سُيُوفُ النَّصْرِ وَصَلَّتْ ؛ صَلَاةٌ
دَائِمَةٌ مَا أُمْلِيَتْ عَلَى الْأَسْمَاعِ فَمَلَّتْ ، وَلَا قَابَلَتْهَا وَجْهُهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا تَهَلَّلَتْ وَلَا تُحِبُّ
الرِّضْوَانُ إِلَّا أَنْهَلَتْ - فَإِنَّ مَنَزَلَهُ يُسْتَقَى [مِنْ] مُهْمَاتِ الدَّوْلَةِ خَبَرُهَا ، وَيُسْتَدْعَى مِنْ جَانِبِي
مِصْرَ وَالشَّامِ سَبْرُهَا ، وَيُحْمَدُ إِلَيْهَا مِنْ نَاحِيَتِي السَّاحِلِ وَالْجَبَلِ سُرَاهَا وَسَيْرُهَا ؛ وَتِلْكَ
وُظِيفَةُ شَدِّ الدَّوَاوِينِ الْمَعْمُورَةِ بِغَزَّةِ الْحُرُوسَةِ الَّتِي تُتَلَقَّطُ مِنْ سَاحِلِ بَحْرِهَا دُرَرُ الْخَيْرِ
الْمُقْتَبَلِ ، وَتَقُولُ الْمِهْمَاتُ الشَّرِيفَةُ لَسْرَاةٍ أَسْتِنَاضِهَا : يَاسَارِيَةُ الْجَبَلِ - حَقِيقَةُ
أَنْ يُتَخَيَّرَ لَهَا مِنَ الشَّاكِرِينَ مَنْ يُحْمَدُ أَجْتِهَادُهُ وَجِدُّهُ ، وَمِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْمَقَاصِدِ مَنْ
يَحْسُنُ - كَمَا يُقَالُ - تَقْرِيبُهُ وَشَدُّهُ ؛ وَمَنْ شُكِرَتْ فِي الْوَلَايَاتِ آلَاؤُهُ ، وَمَنْ إِذَا عَلَا
نَظَرُ رَأْيِهِ فِي الْمَصَالِحِ قِيلَ : دَامَ عَلَاؤُهُ ؛ وَمَنْ إِذَا دَبَّرَ جَهَّةً قَالَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ :
لَقَدْ زَادَ فِي الْمَصَالِحِ حُسْنًا ، وَلَقَدْ تَحَصَّنَتْ بِإِنْتِسَابِ ذِكْرِهِ فَلَا عِدَمْتُ مِنْهُ حُصْنًا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقرّ لما عُرف من حزمه وعزمه ، ولما جُدد في مقدمات القدر من رفّعه وفي إعلاء المهّمات من جزمه ؛ ولما عُهد من هممه في جهات دبرها ، وفي ولايات ثمرها ؛ وفي وظائف شدّها : أمّا على العتاة فشادّها وأمّا على المستحقّين فيسّرّها ؛ ولما أشتهر من ذكره الذي لا يرحّ عليّا ، ولما ظهر من درايته التي جعلت كوكب سعده وسعيه دريّا ، ولما بهر من تميّزه الذي إذا هزّ عصاه بيد تساقط على المقاصد رطباً جنيّا .

فليأشُر هذه الوظيفة المباركة مباشرة تبيّض لها وجهاً وعرضاً ، وإذا أثنى عليه المُنثني تبرّعاً كافاه حتى يكون قرضاً ؛ مجتهداً في تمخير الأموال والغلال ، ضابطاً لأموال الديوان حتى لا يشكو الخلّة ولا الاختلال ؛ قائماً بحقوق الخدمه ، مُستريداً - بشكر الأقوال والأفعال - لما يرسخ له من أقسام النعمه ، عليّاً على كلّ حال إذا وفّت الفكر قدره وإذا ذكر اللسان اسمه .

المرتبة الثالثة

(من تواقع أرباب السيوف بأعمال دمشق ما يفتح بـ«رسم» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقع من ذلك :

نسخة توقيع بناية قلعة القدس ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كتب بها لشرف الدين «موسى الرّدادى» وهى :

رُسم ... - لا زالت ولاة أيامه عاليّة الشرف ، سامية المستشرف آوياً من جنات خير الدنيا والآخرة إلى عُرف من فوقها عُرف - أن يستقرّ المجلس السامى علماً باهتمامه الوفى ، واعتزامه المتيقّظ إذا نام حدّ المشرفى ؛ وأستناداً إلى رأيهِ الذى

يقول نَجْمَةُ الطَّلَعِ: «مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي» !! ؛ وإرشادِ سَعِيهِ إِلَى أَنْ
أَتَّخِذَ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ دَارًا ، وَمِنْ حَرَمِهِ الشَّرِيفِ جَارًا ، وَأَتَقَادَ ذَهَبَهُ وَشَجَاعَتِهِ
اللَّذِينَ آتَسَ بِهِمَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ قَالَتْ هَمَّتُهُ : يَا مُوسَى
أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، وَأَخْرِجْ يَدَكَ الْبَيْضَاءَ فِي النَّيَابَةِ تَكُنْ أَحَقُّ مَنْ اعْتَرَفَ بِهَا الْإِحْسَانَ
وَأَعْتَرَفَ .

فَلْيُبَاشِرْ مَا فُؤِضَ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً يَعْلُو بِهَا شَرَفُ اسْمِهِ وَمُسَمَّاهُ ، وَيَبْدُو لَلْاخْتِيَارِ
وَالْإِخْتِبَارِ فَضْلُ التَّقَدُّمِ الَّذِي إِذَا بَدَأَ لَهُ كِفَاهُ ؛ وَلِيُجَرِّبْ هَذِهِ الرُّتَبَةَ رَأْيًا حَسَنَ الْإِحْكَامِ ،
وَلْيُؤَاطِبْ عَلَى حِفْظِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ الَّتِي فَتِحَ بِهَا عَلَيْهِ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ فُتُوحِ الْإِسْلَامِ ؛
وَلْيُمَدِّدْ عَلَيْهَا مِنْ كِفَايَتِهِ سُورًا حَوْلَ سُورِهَا ، وَلِيَتَفَقَّدَ رِجَالَهَا وَعُدَدَهَا تَفَقَّدَ الشُّهْبَ
فِي دَيْجُورِهَا ، وَلِيَرُدَّ عَنْهَا بَعْزِمَهُ الرَّدَادَى عِيُونَ الْأَعَادِي الزُّرْقَ حَتَّى لَا يَرَاعَ فِي أَرْضِ
الْحَرَمِ وَلَا حِمَامَاتِ طُيُورِهَا . وَلْيَشْكُرْ نِعْمَةً أَوْتَاهُ إِلَى هَذِهِ الْمَنَازِلِ الطَّاهِرَةِ ، وَلِيَقْرُبَ لِيَدِ
أَمَلِهِ طَلَبَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَلْيَقْدِّمْ مِنَ الْوَصَايَا تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي عَنْ أَصْلِهَا تَتَفَرَّغُ
نِعْمَةُ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، حَتَّى يَجْعَلَ لَهُ فِي الْوَادِي الْمُقَدَّسِ رُبْعًا مَانُوسًا ، وَجَمْعًا
مَحْرُوسًا ، وَأَحَادِيثَ حَسَنَةً تَقُولُ لِمُسْتَمِيعٍ مِثْلَهَا فِي الْآفَاقِ : «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى» .
وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُدُّهُ بِإِعَانَتِهِ ، وَيُلْهِمُهُ شُكْرَ مَا رَزَقَ مِنْ فَضْلِ مَكَانِهِ وَمَكَانَتِهِ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ !



وهذه نسخة توقيع نبياية قلعة صرخد لمن لقبه «جمال الدين» وهي :

رُسم بالأمر - لا زال يَتَحَيَّرُ لِقْلَاعِهِ النَّائِبَ وَيَتَحَيَّرُ مِنَ النَّائِبَةِ ، وَيُمِدُّهَا بِسَحَابِ رِيٍّ^(١)
وَفِكْرِهِ الصَّائِبِ ، وَيَنْدُبُ لِحُدُومَتِهَا كُلِّ سَيْفٍ يُرِضِي النَّادِبَ وَيُقِيمُ عَلَى غَيْرِهَا النَّادِبَةَ -

أَنْ يُرْتَّبَ مَجْلِسُ الْأَمِيرِ ... لِأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي تُسَرُّ الْحُصُونُ بِأَمْثَالِهِ، وَتَبْتَئِمُ شُرَفَاتُ
الْقِلَاعِ لِإِقْبَالِهِ، وَتَشْرِحُ مَنَازِلَهَا بِتَنْقِيلِ نَجُومِ الْهَدَايَةِ مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَالْمَلِيُّ بِأَدَاءِ
الْخِدْمَةِ، وَالْمَرْشُحُ لِمَا هُوَ أَوْفَى وَأَوْفَرُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ .

فَلْيَبْشُرْ نِيَابَةَ هَذِهِ الْقَلْعَةِ الْقَدِيمِ أَثَرُهَا، وَالشَّهِيرِ خَيْرِهَا وَخَبَرُهَا بِعَزْمَةِ سَيْفِ
قَاطِعِهِ، وَحِدَّةِ بَأْسِ ذَائِعِهِ، وَمَهَابَةِ ذِكْرِ لَشِيَّاطِينِ التَّفَاقُ عَنْهَا رَادِعِهِ، فَإِنَّهَا مِنْ بِنَاءِ
الْمُرَدَّةِ : فَلْيَرُدَّ عَنْهَا آفَةٌ جَنْسِهَا، وَلْيَحْطُ بِرُقَى عَزَائِمِهِ حَوْلَ نَفَاسَتِهَا وَنَفْسِهَا، وَلْيَجْرِ
أَمْرُهَا عَلَى السَّدِّدِ، وَلْيَبْنِهَا بِلُزُومِهِ الْمَهْدَى أَوْثَقَ مِمَّا بَنَاهَا أَوْلُوكُهَا بِالصَّفْقَاحِ وَالْعَمَدِ،
وَلْيَرِضِ الْآثَارَ السُّلَيْمَانِيَّةَ بِسَلَامَانَ بَيْتِ الْمَلَاظِمَةِ عَلَى طُولِ الْأَبَدِ، وَلْيَجْتَهِدْ فِيهَا هُوَ
بَصَدِيدِهِ حَتَّى تُدْمَرَ بِتُدْمَرِ جَوَانِحِ الْحَسَدَةِ بِالْكَدِّ، مَكْتَرًّا بِذِكْرِي مَهَابَتِهِ لَعَدَدِهَا،
مُؤَفَّرًا لَعَدَدِهَا، مُسْتَوْجِبًا لِاسْتِجْلَابِ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِاسْتِجْلَابِ مَدَدِهَا .



وهذه نسخة توقيع بنياية قلعة الصببية، وهى :

رُسم بالأمر العالى - لا زال إحسانه يُعِيدُ إِلَى الْحُصُونِ نَاصِرَهَا وَزِينَهَا، وَيُفِيدُ
أَحْبَابَ الْحِمَمِ صَوْنَهَا، وَيَجْرُسُهَا بِنِ إِذَا نَظَرَ فِيهَا وَحَمَاهَا كَانَ عَوْنَهَا وَعَيْنَهَا - أَنْ يَسْتَقِرَّ
الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ الْأَمِيرِيُّ لِمَا أَلْفَتْهُ هَذِهِ الْقَلْعَةُ الْمَنْصُورَةُ مِنْ تَحْصِينِهِ
وَتَحْسِينِهِ، وَعَرَفَتْهُ مِنْ تَرْبِيئِهِ فِي عِمَارَتِهَا وَتَزْيِينِهِ، وَلِأَنَّهُ الْأَدْرَى بِالْمَصَالِحِ الْعَائِدِ نَفْعُهَا،
وَالْأَدْرَبُ بِمَنَاجِحِهَا الْحَمِيدِ وَقَعُهَا، الَّذِي بَاشَرَهَا مِنْ قَبْلُ فَأَحْسَنَ السُّلُوكَ، وَنَصَحَ
هَذِهِ الدَّوْلَةَ الْقَاهِرَةَ فَأَثْنَى عَلَى سِيرَتِهِ مُلُوكُ الْحُصُونِ وَحُصُونُ الْمُلُوكِ .

فَلْيَعُدَّ إِلَى هَذَا الْمَعْقِلِ الْمُنِيعِ عَوْدَ الْمَاءِ إِلَى مَشَارِبِهِ، وَلْيَسِرْ فِي أَرْجَاءِ أُبْرَاجِهَا
مَسِيرَ الْقَمَرَيْنِ كَوَاكِبِهِ، وَلْيَتَفَقَّدْ أُمُورَ رَجَالِهَا الْمُسْتَخْدَمِينَ، وَلْيَسْتَجَابِ قُلُوبَ

حَفَظَتْهَا الْأَقْدَمِينَ ؛ مُتَحَاشِيًا مِنْ رَأْيِ الْقَاصِرِ الدِّيِّ ، قَائِمًا بِالْمُهَيَّمَاتِ الَّتِي تُرَاحِمُ مِنْهُ
بَسِيخٌ لَا تُرَاحِمُ بِصِيٍّ ؛ مُقِيًّا عَلَى رَفْعِ الْأَدْعِيَةِ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ، مُسْتَرِيدًا بِالشُّكْرِ
لِنِعَمِ اللَّهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، مُجْتَهِدًا مُعْتَمِدًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَتْ لَهُ مَكَانًا
مَكِينًا فِي الدُّنْيَا وَطَرِيقًا سَهْلًا إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُنَجِّحُ قَصْدَهُ ، وَيَتَقَبَّلُ جِهَادَهُ
وَجُودَهُ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .

قُلْتُ : هَذَا كَانَ شَأْنَهَا حِينَ كَانَ يُوَلَّى بِهَا مَقْدَمُ حَلَقَةٍ أَوْ جُنْدَى مِنَ الشَّامِ .
لَكِنْ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ أَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ
فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ «فَرَج» فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ [وَلَايَةٍ] ^(١) .

وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ وَلَايَتُهَا مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ . فَإِنْ عَادَتْ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ
أَوَّلًا ، عَادَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ .



وهذه نسخة توقيع بناية قلعة حمص ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ،
وهي :

رسم بالأمر - لا زال يَنْدُبُ لِحُدُومَةِ قِلَاعِهِ كُلِّ سَيْفٍ مُحَنَّبٍ ، وَمُجَرَّبٍ عَبْرَتْ عَلَيْهِ
الْعَبْرَ ، وَمُؤَدِّ لِفَرَاغِ الْحُدُومَةِ : إِمَّا بِقِيَامٍ عِنْدَ الصَّبَا وَإِمَّا بِقُعُودٍ عِنْدَ الْكِبَرِ - أَنْ
يُرْتَبَ فُلَانٌ فِي نِيَابَةِ قَلْعَةِ حَمَصَ الْمَنْصُورَةِ إِبَاجَةً لِسُؤَالِهِ فِيمَا سَأَلَهُ : مِنَ التَّوَفُّرِ عَلَى
مَوَاصِلَةِ الصَّلَوَاتِ ، وَرَفْعِ الدَّعَوَاتِ ، وَجَمْعِ ثَوَابِ الْجِهَادِ وَالْخَلَوَاتِ ، وَتَقْضَى بَاقِي
الْعُمْرِ وَادِّعَا ، مَتَسَكِّيًا طَائِعًا ؛ إِذَا بَكَى بِجَوَارِهِ حَتَّى النَّهْرُ الْعَاصِي رَقَّ عَلَيْهِ فَمَا يَعْدَمُ
مِنْهُ بُكَاءٌ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام وما تقدم .

فليباشر نيابة هذه القلعة العليّ خبرها ومخبرها ، الملىّ سمعها ومنظرها ؛ المطلة
على مراكر الرياح المشهورة ، وهبّ الرياح : إماما بغيث السهام ممطرة وإماما بسهام
الغيث مطوره ، المجاورة لسيف الله «خالد» فهي بإعراب المجاورة منصورة غير
مكسورة ، معتبرا لأحوالها ، مستدعيا لما تحتاج إليه من عددها وعدد رجالها ،
محصنا باستدعاء السلاج وسلاح الأذعية الجديرين بأمثالها .



وهذه نسخة توقيع بناية قلعة جعبر ، قبل أن تُثقل إلى حلب ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف - أعلّى الله تعالى فى سماء الملك كواكبّه ، ونصر فى أقطار
الأرض كُتبه وكتائبه ، وصرف بأوامره العالیه كلّ نائب وفرّق بها كلّ نائبه -
أن يُرتّب علما بأنه الكافى الذى تُعقد على همته الخناصر ، ويُثنى
على تقديم عزائمهم القديم والمُعاصر ، وتقوى الجهات وتُنصر باسمه بعد أن كانت
بغير قوّة ولا ناصر ، وأعتادا على كفاءته النافعه ، وشهامته الرائقة الرائعه ، ودرايته
التي تُضىء بها القلعة وتُسّمو حتى يقول الاستيقان : ما هذه شمس هذه شمس^(١)
طالعها .

فليباشر هذه القاعة القديم أثرها ، الحميد خبرها وخبرها ، المصغر تصغير التحبيب^(٢)
والتحسين اسمها ومنظرها ، المفرد مهملها بذيل الآفاق فتتمسك بسحبها ، المنشدة^(٣)
لأرتقاب نهضة حال من علم أين منصورها ، راقيا صرحها ، راعيا بالمصالح

(١) كذا فى الأصل وصوابه شمسة .

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصبيبه فانها هى المصغرة .

(٣) فى الأصل «تمسكا» .

سَرَحَهَا ؛ مُجْتَهِدًا فِيمَا يَقْضِي لَقَدْرَهُ بِالرَّفْعَةِ ، وَلِرَأْدِ أَمَلِهِ بِخِصْبِ النَّجْعَةِ ، جَاعِلًا هَذِهِ
الْمَنْزِلَةَ أَوَّلَ دَرَجَاتِهِ : وَحَسْبُهُ بِمَنْزِلَةٍ يَكُونُ أَوَّلَ دَرَجَاتِهَا قُبَّةَ قَلْعِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَدِّدُ
عَزْمَهُ وَحَزْمَهُ ، وَيُجِدُّ فِي الْكُفَاةِ خَبْرَهُ كَمَا أَحْمَدُ فِيهِمْ أَسْمَهُ ؛ بِمَنْةٍ وَكْرَمِهِ ! .



وهذه نسخة توقيع بنبابة مغارة زلايا، من إنشاء ابن نبانة، وهي :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يَزِيدُ قِلَاعَ الْإِسْلَامِ عِلَاءً فِي السَّيِّئَةِ وَالْأَسَمِ ، وَفِي الْقُوَّةِ
وَالْحُسْنِ ، وَفِي أَعْتِنَاءِ يَجْمَعُ لِعَقِيلَتِهَا بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْقِسْمِ - أَنْ يُرْتَبَ مَجْلِسُ الْأَمِيرِ ...
لِقِيَامِهِ بِوَأَجِبِ الْخِدْمَةِ ، وَمُلَازِمَةِ فَرَايِضِهَا الْمُهِمَّةِ ؛ وَعَزْمَتِهِ الْوَفِيَّةِ فِي النَّفْسِ ، الزَّائِدِ
وَصَفْهِهَا عَلَى الْأَمْسِ ، الْعَلَى نَسَبِهَا وَحَسَبِهَا : قِتَارَةً إِلَى الْعُلَى وَتَارَةً إِلَى الشَّمْسِ .

فليباشر هذه القلعة التي عُلَّتْ بِنَفْسِهَا مَحَلًّا وَسَكَنًا ، وَقَالَ سَاكِنُ مَغَارِهَا لِشَانِي
أَتَيْنِ مِنْ حَزْمِهِ وَعَزْمِهِ : « لَا لِحَزْنٍ إِنْ اللَّهَ مَعَنَا » ؛ وَأَسْتَعْلَى نَيْتِهَا فَأَنْشَدَ :
”أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَّلَاعِ الثَّنَايَا“ ، وَنَادَى بِقَعَّتِهَا : هَذَا عَزْمِي وَحَزْمِي لَا يَقَالُ وَلَا يَزَلَّيَا ؛
مُجْتَهِدًا فِي سَدَادِ أُمُورِهَا ، وَتَحْصِينِهَا بِالْمُهَابَةِ الْقَائِمَةِ مَقَامِ سُورِهَا ؛ مُسْتَجَابًا مَا يَحْتَاجُ
إِلَيْهِ وَمَا يُرْتَّبُ مِنْ عُدَّةٍ ، مُلَازِمًا لِرُؤُومِ الْخَمْسِ لَأَوْقَاتِ مُبَاشَرَتِهَا لَا يُوصَفُ بِالزَّوَالِ
بَلْ يَطُولُ الْمُدَّةُ .



وهذه نسخة توقيع بولاية القدس، من إنشاء ابن نبانة، وهي :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ ... لَا زَالَ يَشْمَلُ بِظِلِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَيُجَمِّلُ بِإِحْسَانِهِ وَعَدْلِهِ ،
وَيُنْقِلُ شَمْسَ الْوِلَاةِ مِنَ الْبُرْجِ الظَّاهِرِ إِلَى مِثْلِهِ - أَنْ يُثْقَلَ فَلَانٌ مِنْ كَذَا إِلَى وَلَايَةِ

القدس الشريف : علماً بكفايته التي تقدّمت ، وشهامته التي تحكّمت ، وإمامته التي سلّمت فيما سلّمت ؛ وهيمته التي وصّحت شمساً فلا تُنفّس ، وقالت لقيامه في المصالح : **(أَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ)** .

فليباشر هذه الولاية مباشرةً تتحوّ بضياء شمسهِ ظُلماً وظلاماً ، وتقول لنارِ الحوادث في المشاهيد الجليّة : **(يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا)** ؛ مجتهداً فيما هو بصّدده ، عارفاً بوجوه المصالح حتّى يكون السكّن أعرف بسمس بلده ؛ ناهضاً بأُمور الديوان جليها وخفيها ، وعبء المهمات حافِلها وحفيها ؛ مستريداً بالشكر لمبادئ النعم ، قائلاً في محلّ البلدين المباركين : **ماسرتُ من حريم إلّا إلى حرم** .



وهذه نسخة توقع بولاية غزّة ، وهي :

رُسم بالأمر - لا زال يُنشىءُ في رياض الإحسان غرساً ، ويُحقّق في استحقاق الكفاة حدّساً ، ويُقدّم من لا تزال الولاياتُ تتحدّ له يوماً وتذكر لقومه أمساً - أن يُرتّب لما عرّف من عزّمه الذي جردّ منه الاختيار والاختبار جميلاً ، وكال شخصه الذي آخذ التوفيق فلم يقل : **(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا)** ؛ وأعتاده الذي يُصبح في الحامد ويُمنسى ، وينافسُ مرباهُ فهذا يقول : **ثمّرى وهذا يقول :** غرسى .

فليباشر هذه الولاية بعزّيم مثبيل الشبيبه ، وحزيم لا يُتعدّ الرأى المحيّل تجريده في المصالح وتجريبه ؛ ونفع في المهمّات وردّع للفسدين تتحدّ موارده ومصادره ، وذكر له حسن ثلث قط من ساحل الشام جواهره ؛ مستريداً لما رنّح له من درجات

الأُمُور المُهمَّة ، مُنَّة العَرِض عن كُلِّ لائِمَةٍ مُرَجَّحًا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ مُلَمَّة ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يُجِدُّ فِي الخِدْمَةِ آثَارَهُ ، وَيُعِزُّ فِي وَلَايَةِ حَرْبِهِ السَّاقَةِ إِذَا هَانَتِ الحَرْبُ
عَلَى النَّظَّارَةِ .



وهذه نسخة توقيع بولاية لُد ، لمن أسمه «نجم الدين أيوب» وهي :

رُسم بالأمر - لا زالت نُجُومُ أوَامِرِهِ سَعِيدَةٍ ، وَظِلَالُ غَوَارِفِهِ مَدِيدَةٍ ، وَمَنَازِلُ
الوَلَايَاتِ حَامِدَةٌ لِمَنْ يُقَدِّمُهُ وَطَوَالِعُ أَفْقِهَا حَمِيدَةٌ - أَنْ يُرْتَّبَ أَعْتِمَادًا عَلَى
كَفَائَتِهِ الَّتِي تُسَيِّدُ لَهُ مَجْدًا ، وَتُعَقِّبُ مَسْعَاهُ جَمْدًا ، وَتَكْفِي مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَأَهْلِهَا بَلَدًا
وَقَوْمًا لُدًّا : لِمَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْأَصْطِنَاعِ وَدَوَاعِيهِ ، وَفَاتَ بِاسْتِقْلَالِهِ
أَمَدَ مُسَاجِلِهِ وَمَنَاوِيهِ ؛ وَأَشْتَمَلَ عَلَى الْخِلَالِ الَّتِي قَضَتْ بِتَقْدِيمِهِ ، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي
أَسْتَدْعَتْ الْمِبَالِغَةَ فِي تَفْخِيمِهِ وَتَكْرِيمِهِ ؛ وَسَلَّمَكَ مِنَ الْخَالِصَةِ مَا يُوجِبُ الْأَسْتِحْقَاقَ
وَالْأَسْتِجَابَ ، وَيُوصِّلُ حَمِيدَ مَسْعَاهُ إِلَى بُلُوغِ الْأَمَالِ وَإِدْرَاكِ الْحَبَابِ .

فليباشِرْ هذه الولاية : عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يُسِرُّهُ وَيُعْلِنُهُ ، مُعْتَمِدًا فِيهَا
غَايَةً مَا يَسْتَطِيعُهُ الْمُكَلَّفُ وَنِهَايَةً مَا يُمْكِنُهُ ؛ وَلْيُسَوِّبْ بَيْنَ الْقَوَى مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْوَلَايَةِ
وَالضَّعِيفِ ، وَلَا يَجْعَلْ فِي الْحَقِّ فَرْقًا بَيْنَ الْمَشْرُوفِ وَالشَّرِيفِ ؛ وَيُمَدِّدْ عَلَى كَافَتِهِمْ
رِوَاقَ السُّكُونِ وَالْأَمْنَةِ ، وَلْيَجْرِهُمْ فِي الْمَعْلَةِ عَلَى الْعَادَةِ الْجَمِيلَةِ الْحَسَنَةِ ؛ وَلْيَأْخُذْ
فِي الْأُمُورِ الدِّيَوَانِيَّةِ بِالْأَجْتِهَادِ مُرَاعِيًا فِي ذَلِكَ حَالَ الْعِمَارَةِ ، آتِيًا مِنَ الْإِحْسَانِ
إِلَى الرَّعِيَةِ مَا يَكُونُ لِلْعَدْلِ شَارَهُ ؛ وَافِيًا فِي ذَلِكَ كُلَّهُ بِالْمَطْلُوبِ ، صَابِرًا عَلَى تَكْلِيفِ
الْمُهِمَّاتِ وَلَا يُنْكِرُ الصَّبْرَ لِأَيُّوبِ .



وهذه نسخة توقيع بولاية بيسان ، لمن لقبه « شهاب الدين » من إنشاء آبن
نبأته ، وهى :

رُسِم بالأمر - لا زالت شهب أوقاتهِ سَعِيدِهِ ، وَنَحَبُ هِبَاتِهِ سَاحِبَةَ الْجُودِ
مَدِيدِهِ ، وَبِحُورِ نَعْمَائِهِ الْحَقِيقِيَّةِ كَبُحُورِ الْأَعَارِ بِضِ الْمَجَازِيَّةِ : كَامِلَةً مُنْسَرِحَةً مَدِيدَهُ -
أَنْ يَسْتَقَرَّ أَعْتَادًا عَلَى عَزْمِهِ الْمُنِيرِ شَهَابُهُ ، الْكَثِيرِ تَوَقُّدِهِ فِي أَوْقَاتِ الْمَهْمَاتِ
وَالْتِهَابُهُ ، وَاسْتِنَادًا إِلَى كِفَائَتِهِ الَّتِي يَشْهَدُ بِهَا وَلَاؤُهُ فِي الْخِدْمَةِ وَوَلَايَتُهُ ، وَشَهَامَتِهِ
الَّتِي يُجَزِّمُ بِهَا فِي الْأَمْرِ رَأْيَهُ وَتَرْفَعُ فِي الْخِدْمَةِ وَلَايَتُهُ وَمَهَابَتُهُ ، وَعِلْمًا بِسِيَاسَتِهِ
الَّتِي يَقْمَعُ بِهَا أَهْلَ الْفُسَادِ ، وَتَكَادُ تَفْخَرُ بِبِسَانٍ بِفَضْلِهَا كَمَا خَفَرَتْ بِ«فَضْلِهَا»
على البلاد .

فَلْيَقُمْ فِي وَظِيفَتِهِ عَلَى قَدَمِ اجْتِهَادِهِ ، وَكَرَمِ ارْتِيَادِهِ وَاعْتِيَادِهِ ، شَافِيًا لِأَحْوَالِ أَهْلِ
نَاحِيَتِهِ مِنَ الْوَصَبِ ، مُتَمَرِّغًا فِي الْغَلَالِ وَالْأَمْوَالِ بِعَزْمٍ قَدْ ارْتَفَعَ وَانْتَصَبَ ؛ ظَاهِرًا
فِي الْخِدْمَةِ بِجَهْدِهِ ، مُلِمًّا لِحَدِيدٍ مِنْ عَصَى عَلَيْهِ فِي عَمَلِهِ كَمَا أَوْرَثَهُ دَاوُدُ ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يُوقِّعُهُ .



وهذه نسخة توقيع بولاية صيدا ، لمن لقبه « شجاع الدين » - «المجلس العالى»
وهى :

رسم بالأمر العالى - أنفذه الله فى الأقطار ، وَنَجَّمَ بُولَاتِهِ أَيَّامَ الْأَوْطَانِ وَالْأَوْطَارِ ،
وَأَجْرَى بِشُكْرِهِ سُفْنَ الرِّكَايِبِ وَرِكَايِبِ السُّفُنِ إِذَا سَفَّ وَإِذَا طَارَ - إِنْ يَسْتَقَرَّ
فَلَانٌ : رُكُونًا إِلَى عَزْمِهِ وَحَزْمِهِ ، وَسُكُونًا إِلَى أَهْتَامِهِ الَّذِى حَكَمَ فِيهِ الْإِخْتِبَارِ

بِعَالِمِهِ؛ وَعَلِمًا أَنَّ للولايات به الانتفاع، ولحُصُونِهَا الامتناع والارتفاع؛ وأنه إذا وَلِيَ رَعَى وإذا أَقْوَى ^(١) كَانَ أعصم راع، وإذا فَكَّرَ فِي الرَّأْيِ وَوَقَّبَ فِي الْمِهْمِ كَانَ نَعْمَ الشُّجَاعُ.

فَلْيَبَاشِرْ وَلَايَةَ عَمَلِهِ زَاهِضًا بِأَعْبَائِهِ، رَافِعًا بِالْعَدْلِ لَأَرْجَائِهِ وَرَجَائِهِ، حَرِيصًا عَلَى طِيبِ الْأَخْبَارِ الْمُنْتَشِرَةِ مِنْ كَافُورِ صُبْحِهِ وَمِسْكِ مَسَائِهِ. وَلْيَتَفَقَّدْ أَحْوَالَ بَرِّهِ وَبَحْرِهِ، وَيَتَقَبَّضْ لَذَّةَ الْبَرِّ وَجَهْرَهُ، وَذَلِكَ الْبَحْرُ وَسْرَهُ؛ حَتَّى يَتَحَدَّثَ الْبَحْرُ عَنْ عَزْمِهِ وَلَا حَرَجَ، وَيَسِيرَ ذِكْرُهُ كَنَسِيمِ الرُّوضِ لِضَائِعِ الصَّنْعِ وَابْكِنِ ضَائِعِ الْأَرْجِ؛ وَيَعْتَمِدْ مَصَالِحَ النُّوَاحِي وَسُكُونِهَا، وَالْأَمْوَالِ وَدِيُونِهَا، وَالْجِهَاتِ وَضُمَانِهَا، وَنُجُومِ التَّقْسِيطَاتِ فِي الْبَلَدَةِ وَتَحْرِيرِ مِيزَانِهَا، وَيَجْمَعْ بَيْنَ اللَّيْنِ وَالشَّدَةِ بِسِيَاسَةٍ لَا يَخْرُجُ بِهَا الرَّأْيُ عَنْ إِبَانِهَا، وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعِمْدَةُ فَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُ، وَعَلَى رُكْنِهَا يَسْتَنْدُ؛ حَتَّى تَجْعَلَ لَهُ عَلَى الْمَصَالِحِ أَيْدًا، وَحَتَّى تَنْتَهِيَ نَحْوُ الشَّاءِ عَلَيْهِ عُمْرًا وَزَيْدًا، وَحَتَّى تَجْعَلَ لَهُ بَأْسًا فِي الْأَعْدَاءِ يَكِيدُ كَيْدًا، وَحُسْنَ ذِكْرٍ فِي الْبَلَدِ يَصِيدُ «صَيْدًا».



وهذه نسخة توقيع بولاية قاقون، من إنشاء آبن نبأته، وهي :

رُسم بالأمر - لا زال يندب لمصالح الولايات سُيُوفًا، وَيَقْدِّمُ طَنًا فِي الْكُفَاةِ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُوفِي، وَيُدْنِي مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِنْعَامِ وَالْإِرْغَامِ لِأَيْدِي الْمُجْتَهِتِينَ قُطُوفًا - أَنْ يَسْتَقِرَّ أَعْتَادًا عَلَى هِمَّتِهِ السَّائِدَةِ، وَدِرَآيَتِهِ السَّائِدَةِ، وَأَمَانَتِهِ الشَّاهِدَةِ، وَصِفَاتِ عَزْمِهِ الَّتِي هِيَ فِي الْوِلَايَاتِ «مَعْنٌ» وَهِيَ «زَائِدَةٌ»؛ مُجْتَهِدًا عَلَى أَنْ يُثْمَرَ عَمَلُ وَلَايَتِهِ فَتَرْكُو أَعْمَالُهُ، وَتَرِدُ عَلَيْهِ الْمُهَمَّاتُ فَتَلْقَاهَا بِالْكَفَاءَةِ أَفْعَالُهُ الْمَعْرُوفَةُ وَأَقْوَالُهُ، وَتَشْهَدُ مِنْهُ الْأَحْوَالُ مَعْنًى بَلْ مَعَانِي يَثْبِتُ بِهَا فِي الْأَذْهَانِ قَبُولُهُ وَإِقْبَالُهُ.

(١) أقوى . نزل بالقر - أعصم - أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال .



وهذه نسخة توقيع بولاية صرّخد، من إنشائه، لمن لقبه «جمال الدين» وهى :

رسم بالأمر أعلاه الله تعالى، وبلغ بأيامه الرتب وأهلها آمالا، وزان الولايات بما ينتج من مقدمة فعله وقوله جمالا - أن يرتب مجلس الأمير لأنه الكافى الذى عرفت فى المهمات همته، وألفت عزمته، وأدبرت أوصافه عقارا صرّخديّة ولا عجب أن سرت بالنواحي خدمته، والناهض الذى وفى الولاية حقها، وأدى الأمانة وسلك طرقها، وأطلع فى سماء الولايات شهب رأيه فخمى وزان أققها.

فليباشر هذه الولاية بعزم سنى، وحرّم سرى، ومهابة تأخذ للضعيف من القوى، وديانة تمشى من الكفاءة والأمانة على صراط سوى، مُمراً للمال والغلال، راقباً لحلّل الذكّر بحسن الخلال، مُحسّناً لذكّر ولايته حتى يجمع لها بالوصف والنعت بين الحسن والجمال، وإياه والجنّ عن المهمات فما كل جنّ صرّخدى محمود العاقبة والمآل .



وهذه نسخة توقيع بولاية سلمية، من إنشائه، كتب به لـ «شهاب الدين الحجازى» وهى :

رسم ... - لا زال يطّلع شهب الولاة مشرقه، ويثبى سُحب الإحسان مُغدقه، ولا برحت أقلام علائمه كالغصون بأحسن ثمرات الدّوح مُثمرة مُورقه - أن يرتب علماً أنه الناهض الذى إذا ولي كفى، وإذا طبّ الولاية المعتلة بتقديم المعرفة شفى، ورُكّونا إلى عزمه الذى أبى لشهابه أن يحمّد، وكفائه التى

قَضَتْ لَأَنَّمَهُ بِالْعُودِ : فَإِنَّ الْعُودَ أَحْمَدُ ، وَاعْتِمَادًا عَلَى سِيرَتِهِ الْحَسَنَةِ السَّمْعَةِ ، الْحَقِيقَةِ بِالرَّفْعَةِ ، وَعَلَى سَطَوَاتِهِ بِالْمُقْسِدِينَ الَّتِي حَسَنْتُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ : «لَقَدْ أَوْفَعَ الْجَحَافُ بِالْيَشْرِ وَقَعَهُ» ^(١) .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ بَعَزِمَهُ الْمُتَوَالِي ، وَاجْتِهَادِ رَأْيِهِ الَّذِي يُطْرِبُ بَارِقَهُ الْمُتَعَالِي ، جَارِيًا عَلَى عَادَةِ سَدِّدِهِ ، مُجْتَمِعًا فِيهَا هُوَ بَصَدِّدِهِ ، مُسَدَّدًا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، مَانِعًا لِنَاحِيَّتِهِ الْأَعْرَابِيَّةِ مِنْ تَطَرُّقِ الْخَلَلِ وَتَطَرُّفِ الْجَلَالِ ، مُصَاحِبًا بِالتَّدْبِيرِ عَمَلٍ مَا يَشْهَدُ بِعَزَائِمِهِ الْوَفِيِّ ، وَهَمِّهِ الْجَلِيلَةِ الْجَلِيَّةِ ، وَإِذَا سَأَلَ عَنْ شَدِّ الْوَلَاةِ وَاحِدٌ قِيلَ : سَلْ مِئَةً عَنْ سَلَمِيَّةِ .



وهذه نسخة توقيع بشدٍّ متحصِّل قُمامة ، من إنشاء ابن نباتة ، وهى :

رُسم بالأمر - بسط الله تعالى على الأُمِّ مَهَابَتَهُ وَظِلَّهُ ، وَبَاسَهُ وَفَضْلَهُ ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِ آمَالَ الْخَلَائِقِ مِنْ كُلِّ قِبَلِهِ ، وَأَعْلَى آرَاءَهُ الَّتِي يَقَالُ لَعْدِهَا : «لَقَدْ جُدَّتْ حَتَّى جُرَتْ فِي كُلِّ مِلَّةٍ» - أَنْ يُرْتَبَ مضافاً لما بيده ، وَاسْتِنَادًا إِلَى صَوِّحِ خَبَرِهِ فِي الْكِفَاءَةِ وَعُلُوسِنَدِهِ ، وَأَرْتِيَادًا لِهَمِّهِ الَّتِي إِنْ رَوَاهَا مُسْلِمٌ عَنْ طَوِّعِهِ رَوَاهَا نَصْرَانِيٌّ عَنْ تَجَلُّدِهِ ، وَسُكُونًا إِلَى حَرَكَتِهِ الَّتِي تُحْصَلُ مَالًا ، وَتَصِلُ إِلَى مَالٍ ، وَتُسْتَخْرِجُ الْوَفَرَ مِنْ مَكْنَنِهِ ، وَتَأْخُذُ الْحَقَّ [مِنْ] قُدَّامِ يَدَيِ الْمَائِلِ وَمِنْ خَلْفِ أُذُنِهِ ، وَطَلَمًا أَنْ مَالَهُ مَتَحْصَل قُمامةً مِثْلَ عَزَمِهِ الْمُخْتَارِ ، وَرَفِقِهِ الَّذِي يَسْتَنْزِلُ دَرَّ الْقَصْدِ الْمِدْرَارِ ، وَاجْتِهَادِهِ الَّذِي زَرَعَهُ الْمُسْتَمْتِرُ ضُيُونٌ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُضُفَةَ بِشِدَّةٍ وَلِينٍ يَجْعَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي مَوْضِعِهِ وَمَقَامِهِ ، وَحَقِّ مُنِيرٍ يَجْعَلُ سَبْتَ نُورٍ كُلَّ لَيْلَالِهِ وَأَيَّامِهِ ، وَأَمَانَةٍ مُدِلَّةٍ ، وَكِفَاءَةٍ مُظِلَّةٍ ، وَصِيَانَةٍ

(١) صدر بيت للأخطل وقامه «إلى الله منها المشتكى والمعول» والجحاف أسم رجل والبشر أسم جبل .

تُوجِبُ مَزِيدَ الْخَيْرِ إِذَا لَهُ ، وَمَهَابَةٌ إِذَا أُدْخِلَتْ مُسْتَخْرَجٌ قُبَامَةٌ أَصْلَحَتْهُ وَجَعَلَتْ
 أَعَزَّةً أَهْلَهَا أَذْلَهُ ، لَا يَثْنِي هِمَمَهُ النَّفْسِيَّةَ ، وَلَا يَلْتَفِتُ - كَمَا يُقَالُ - لِتَخْيِيرِ الْكَنِيسَةِ ؛
 بَلْ يَسْتَعْمَلُ فِرَاسَةً تَرُوعُ مِنْ حَمَلٍ عَنْ أَدَاءِ الْحَقِّ بُهْتَانًا ، وَمِنَاقِشَةً تَكْشِفُ عَنْ
 جِبَالِ التَّجَلُّدِ أَكْثَانًا ، وَرَافَةً مَعَ ذَلِكَ بِالظَّاهِرِيِّ الْعَجْزِ : ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ
 وَرُهْبَانًا ، وَمَتَابَعَةً لِلضَّرَائِبِ الْقَدِيمَةِ لَا يُصْرَفُ عَنْهَا ، وَأَسْتَخْلَاصَ مَا عَلَى الرَّأْسِ حَتَّى
 يُقَالَ : «لَيْسَ تَحْتَ الزَّرْقَاءِ أَخْضَعُ مِنْهَا» ؛ عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ أَهْلَ مَعَامِلَتِهِ
 أَهْلُ ذِمَّةٍ ، مُجْتَهِدًا فِي اسْتِحْقَاقِ مَا يَتَرْتَبِعُ لَهُ مِنْ وَلايَاتِ الْأُمُورِ الْمُهَمَّةِ .

الصنف الثاني

(مما يكتب لأرباب الوظائف بدمشق - تواقع أرباب
 الوظائف الدينية، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب لمن هو بحاضرة دمشق، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ «الحمد لله»)

وهذه نسخ تواقع من ذلك :

تَوْقِيعٌ بِنَظَرِ الْحُسْبَةِ بِالشَّامِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي «نُورِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْفَرَجِ»
 بـ «الجناب الكريم» وهو :

الحمد لله الذي جعل مقام الأولياء علياً ، ورفق بهم إلى طور العناية فأشرق نورهم سنيّاً ، ووقفهم للأمر بالمعروف فلم يزل غيث الندى بهم وليّاً ، وزند سبل الرّشاد والحكمة وريّاً .

نحمده حمداً كثيراً طيباً زكياً ، ونشكره شكراً لا يزال غُصْنُهُ بالزيادة جنيّاً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نكرها بكرة وعشيّاً ، ونسلك بها صراطاً سويّاً ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده الذي اختاره صفيّاً ، وقرّبه نجيّاً ، ورسوله الذي قام به الحق وأصبح به الباطل خفيّاً ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة ينال بها المؤمن يوم العطش ريّاً ، ويجوز بها في جنة المأوى حلاًلاً وحليّاً ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن أولى ما يلزم الفكر [فيه] ويتعين ، ويتمّ النّجح بحسن النظر فيه ويتبين - أمر الحسبة الشريفة : فإنها المنصب الذي به صلاح أحوال الرعية ، وقوام إقامة الحدود الشرعيّة ؛ تسلك العامة لمستوليه سبل صنائعه ذللاً ، وتكسو بإتقانها أنواع بضائعها حلاًلاً ؛ ويتفّع بمعرفته الأمر والمأمور ، وتُحاط المعاش عن غشيان الغش من حرمة بسور ؛ وتطمئن القلوب بإصلاح المطامع وتتهنى ، وتقول الأئمة : شكراً لمن سنّ هذه السنة الشريفة وسنّها ، وردع ذوى الغش عن غوايتهم : فمن غشنا ليس منا ؛ لا سيما بدمشق فإنها شامة البلاد المحروسة ، وموطن البركة الماثورة والبهجة المانوسة ؛ بلد شاع ذكرها في المغارب والمشارك ، وإن محاسنها لن تقاس بغيرها : والجامع الفارق .

وكان فلان من تحلى من عقود المحامد بجواهرها ، وأرتدى من حلل المآثر بمفاخرها ؛ وعرف بالهضة والعفاف ، وأتصف بحمائل المعرفة والإنصاف ؛ وحسنت سيرته في أحكامه ، وجمدت قواعد تعدده ونضارة نظامه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - لا زال يُولى جَمِيلاً ، ويُولى فى الوظائف السَّنية جَلِيلاً - أن يستقرَّ المشارُ إليه فى نَظَرِ الحِسْبة الشريفة بالشَّام المحروس ، على عادة من تقدَّمه فى ذلك ، والقاعدة المستعمرة ، بالمعلوم المستمرِّ للوظيفة المذكورة ، إلى آخر وقت : وضعاً للشَّيء فى محلِّه ، وتفويضاً لجميل النَظرِ إلى أهله .

فليأشُرْ ذلك أمرًا بالمعروف وناهياً عن المنكر ، سالكاً من حُسْنِ الطريقة ما يُحمد به ويُشكر ، ويسره حين تُشلى سُرور محاسنه وتذكر ، متفقدًا أحوال العامة ومعايشها فى كلِّ آن ، ملتفتاً فى أمر ما يكال أو يؤزَّن إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الزَّوْزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ . مُشمرّاً عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُستحبة ، مُحترزاً فيما يأمر به : فإنَّ الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة ، ولينظر فى الدقيق والخليل ، والكثير والقليل ، وليستكثر الأخبار ، وليستعلم الأسعار ، ولا يغفل عن تعاهد السوقِ آناء الليل وأطراف النهار ، وليلاحظ أمر السَّكة السلطانية بإصلاح العيار ، وضبط أحوال النقود بمقدار ، وليقيم من خدَمته رقيباً على من اتهم فى صنْعته أو استراب . وليبلغ فى النَظر فى أمر المال كل والمشارب فإنَّ أكثر الداء من الطعام والشراب ، وليزجر بتأديبه من أقرئ ، أو تلقى الرُجبان أو غدا فى الأقوات مُحترِكا ، وليعلم أنَّه قلَّد أمر هذه الوظيفة المباركة : فليحتر من يستنيب ، وليبصر كيف يسلك برعايته من حكم عليه فما يلفظ من قوبٍ إلَّا لديه رقيب ، والوصايا كثيرة وأصلها التقوى التى هى أجل ما يقتنى المؤمن . ويكتسب ، وأجدر بالزيادة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . والله تعالى يديم علاه ، ويتولاه فيما تولاه .



وهذه نسخة توقيع بنظر الجامع الأموي، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة،
كتب به للقاضي «عماد الدين بن الشيرازي» في الدولة الصالحية «صالح بن الناصر
محمد» بـ «باب الكريم» وهي :

الحمد لله الذي أذن لبيوته أن تُرفعَ فرفعَ عمادها، وأعاد أحسنها إلى نظر من صرّف
أُمُورَها بما حَسُنَ وصرفها عما دَهَى، وأحيا الآثارَ الأمويةَ حتى غدت كالهشمية
تدعو أجوادها وتُجَادها، وأنجز وعد أهلها بمن أشارت إلى مباشرته أعلامُ أعلام
المنابر بالأصابع ونصّت المآذن أجيادها .

نحمده على ما هيأ من الفوائد، وهنّا من العوائد؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة يقوم بها الخطابُ شاهداً ويقوم بها الخطباءُ في المشاهد، ونشهد
أن محمداً عبده ورسوله الذي أوتى الجوامع من الكلم وجعلت له الأرض من
المساجد؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عمروا بيوت العبادات بهدايته،
وظهروا في مجال الجمع وسجال الجموع تحت رايته؛ صلاة متصلة السير كالسَّيل،
مُسَبَّلة الغمام كالذَّيل، واضحة كدج الخلق لدلوك الشمس فائحة كفتيت المسك
إلى غسق الليل .

وبعد، فإن أولى الأمور الدينية بتقديم الأهتمام، وتقرير الاعتزاء إلى الاعتزام؛
وتشجيع ساعد الرأي وزهراته على الأكام - أمرٌ تكون إقامة الصلوات أحد
أركانها، وتذير المصالح مشيراً إلى علوّ شأنه، وأرزاق العلماء والصلحاء تُستدر من
هطّاله وهتّانه .

وكان الجامع الأمويّ بدمشق المحروسة لهذه الأركان بمنزلة الأسّ الراسخ تمكينه،
والفرع الشامخ في وجه السحاب عرينه ؛ وبئية زمان بنى أمية الذين عفا شرف
مفاجرهم وما عفا شرفه ونفخه ، ووكر الإسلام الذي مضى لبُد أمثاله وما بقي إلا نسر
السماء ونسره ؛ ذو المرأى الشارح والفضل المشروح ، والحسن الذي إن تعالى
في وصف الجوامع قوم قيل : باب الزيادة مفتوح ؛ تفخر به دمشق وحق
لها على كل مضر أن تفخر ، وتبعث نظرات حسنه الفخر من حملة فصوص
الترخيم إلى الأسود والأحمر ؛ يحمّد المجاور به مغناه وغناه ، ويسع أرباب العلم
والمقاصد نأديه ونأده ، ويطالع المسك سطور مياهه المتجعدة فأول ما يقرأ من
تنبيهه عزمه باب المياه ؛ وقد عهد أن يتولّى نظره كل سنيّ المفخر ، سرى
المآثر ؛ كريم الفرع والأصل ، ماضى العزم كالنصل ، حائز من أقلامه أمد العلاء
وقصب الخصل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال وجه الفضل بدولته الشريفة وإخفا ،
وميزان العدل والإحسان راجحا ، ولا زال في كنف من من به على الدين والدنيا
وآتاهما صالحا - أن يفوض إلى فلان نظر الجامع الأمويّ المذكور : لما عُرِف
من أنه الرئيس الذي ماسد سديّ ، والكامل الذي إذا آنس [سار] نأف فكرته وجد على
النار هدى ؛ وأنه باشر نظر هذا الجامع قديما بحمله ، ورصد سنائه فكلمه ، وأستشهد
في محضر ديوانه على الزاهة أقلامه المعدلة ، وتديره المعدلة ؛ وكثر أوقافه وكانت
قد أضحت ، وشيّد عماره وكانت قد استقلت ، وملا حواصله وكانت أقلام
المكتسبة تُشَدُّ : «أسألتها أيّ المواطن حات» ؛ ولما ألفت هذا الجامع المعمور من
عواطفه ، وعرف من عوارفه ، وشهد من جلوسه لمصالح وفقه أحسن الله مكافأة
جالسه وواقفه ؛ فاثبت في صدر المحافل أن الله تعالى قد رزقه من الفضل جسيما ،

وكتب له من شرف الأكتساب والانتساب حديثاً وقديماً ، وألقى إلى يده قلم كفاءة وأمانة كان كرمها لآملين حصيئاً وكان قلمها لخائنين خصياً ؛ كم وفّر به المصالح فوقى ، وكم جمع بهمته المحاولة مالا يفجز به من جند الدعاء صفاء ؛ كم سر بمناقبه سرّة سلف مامنهم إلا جواد لا يرضى في سبق المكارم بحاتمته ، وكتب يكبر عن قول الواصف : إن يا قوتنا في فصّ خاتمته ؛ ورئيس هو أجل ما أهدت شيراز إلى دمشق من على طراز الفضل وعالمه .

فليباشر ما فوض إليه بعزم لا تغفل مضاربته ، ورأي لا تأفل كواكبه ، ومعدين وفاء بالمنصب لا تبرح لحنّة الخيانة مهالكه ولحنّة الحنان مطالبه ؛ ناظرًا في حسن وظيفتها بأجتهاد لا يميل من النظر ، مُتمراً لأوقافها بغضن قلمه الذى لا ينكر لأصله الصائب أطيب الثمر ، ملاحظاً لمباني هذا الجامع بسعادته : وإن السعادة لتلحظ الحجر ، صارنا لدوى الاستحقاق مستحقهم كما عهدوا من إمام براعتيه المنتظر ؛ مجتهداً على أن يرضى الوظيفة والقوم ، معيناً عدوى أنامله الخمس على عددها من فريضة الليلة واليوم ؛ عالم أن الله تعالى قد أحيا هذا الديوان فإنه كما علم أصل في بابه ، أمراً بما يقترح لنظام هذا الديوان وكتابه ، منتقداً حال من إذا عمر دواة في وقف كانت سبباً لعمرانه أو سبباً - والعياذ بالله تعالى - لخراجه ، مطالباً من ظن أن حسابه يهمل في دهر هذه المباشرة « فكان حساب الدهر غير حسابه » ؛ متخيراً من الكفافة كل ما ثور الفضيلة ، ومن الأمناء كل مأمون الرذيلة ، ومن القوام كل من لا يقعد عن الواجب ، ومن الوقادين كل من لا يعاب بطول الفتيلة ، جاعلاً تقوى الله تعالى في كل ما يأتي ويذر سائقه إلى الفوز ودليله ؛ والله تعالى يمدّه بالسداد ، ويصل مفاخره بالسند ويحرس شرف بيته من السناد ، ويجعل كل منصب كريم باسمه وقلمه كما قال الأول : « رفيع العباد طويل النجاد » .



وهذه نسخة توقيع بنظر مدرسة الشيخ أبي عمر، من إنشاء ابن نباتة، كتب به للقاضي «تقّ الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمد لله الذى عمّر عهد التّقّى بتقيّه ، وأقرّ نظره بمشاهدة أبيض العريض نقيّه ، وأخصب منازل الأولياء بمن ينوب تسميره وتدييره عن الغيث مناب وليّه ، ومن إذا شهد مقام الزهاد بمعروفه شهد سداد العزم بسريّه .

نحمده على جلى اللطيف وخفيّه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وإنى الحق وفيّه ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده أكرم بعبدّه ونبيّه ، ورسوله وصفيّه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة يمزج أرجها كأفور صباح النهار بمسك عشيّه .

وبعد ، نخير النظر ما كان به الثواب مأمولا ، والعمل مقبولا ، والآخرة للنهوض فيه خيرا من الأولى ، وتخير الأئكفاء لمناصبه الدينية سببا لخير الدارين موصولا .

ولما كانت المدرسة الصالحية بجبل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبي عمر: رضى الله عنه وأرضاه، وسقى سبل الغيث آثاره الطاهرة وثرأه، مما يتعين فى مصالحها حسن النظر، ويتبين فى القيام بأمرها فضل الآراء والفكر؛ إذ هى زاوية الخير النافعه ، ومدرسة الذكر الجامعه ، وعش القرآن المترنمة أطياره بحفّة القلوب الخاشعة؛ وصفة الفقراء الذين لا يسألون الناس إلخافا، والأصفياء من الطمع الذين لا يتقاضون الدهر إنصافا وإن صافى؛ ومرتكض سوابق الأعمال والأقوال، ومقرّ

الْقُرَاءَ وَالْقِرَاءَةَ عَلَى مَرِّ اللَّيْلِ الطَّوَالَ ، وَمَعْدُنُ التَّلَاوَةِ الْمَأْمُورُ غَنَاؤُهَا فِي ذَلِكَ الْحَبَلِ
وَمَا كُلُّ الْمَعَادِينِ وَلَا كُلُّ الْحَبَالِ ؛ وَالْبَيْتَةُ لِلَّهِ وَتَحْتَاجُ مَنْ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ فِي وَقْفِهَا ،
وَيَحْفَظُ مَسَالِكَ جَمْعِهَا وَصَرَفِهَا ، وَيَمْتَنِي حَالَ دِرْهِمِهَا بِتَدْيِيرِهِ الْوَاقِي : فَرُبَّمَا أَبْقَتْهَا
الْأَحْوَالُ مِنْهُ عَلَى نِصْفِهَا .

وَكَانَ فَلَانٌ مِمَّنْ لَحَظَ أُمُورَهَا عَلَى بُعْدٍ فَشَغِفَ الْمُلْحُوظَ بِاللَّا حِظَ ، وَحَفِظَهَا عَلَى
نَائِي فَكَأَنَّمَا رَوَتْ بِالْإِجَازَةِ عَنِ الْحَافِظِ ؛ وَأَدَارَ عَلَيْهَا مِنْ رَشَفَاتِ قَلَمِهِ نَفْثَةُ السَّاقِي ،
وَأَنْهَلَهَا شَرْبَةً مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ تَعَدُّدِ الْمَالِ : وَفِي الْجَرَائِدِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي ؛
وَسَأَلَ أَهْلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَلَازِمَتَهُ لِلنَّظَرِ فَلَزِمُوا ، وَرَفَعُوا قِصَصَهُمْ فِي طَلَبِهِ لِهَذِهِ الْوُضُفَةِ
بِحَزْمٍ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ نِعَمُ النَّاطِرِ وَالْإِنْسَانِ ، وَفِي مَصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ذُو الْيَدَيْنِ
وَاللِّسَانِ ، وَذُو الْعِزَائِمِ الَّتِي تَقَيَّدَتْ فِي حُبِّهِ الرَّتَبُ : « وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ » ؛ وَالْمَتَقَدِّمُ
فِعْلُهُ وَرَأْيُهُ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ ، وَالْمَأْمُونُ الَّذِي يُعْزَى إِلَى عَقِيلَةٍ نَسَبَةِ الرَّشِيدِ
وَلَا عَجَبَ أَنْ يُعْزَى الْمَأْمُونُ إِلَى مَرَاجِلِ^(١) ، كَمَا جَرَتْ أَلْسِنَةُ الْأَوْقَافِ بِأَوْصَافِهِ ، وَكَمْ
رَوَى الْجَامِعُ الصَّحِيحُ خَبْرًا عَنْ مُسَلِّمٍ عَفَافِهِ ، وَكَمْ جَدَّدَ لِبَنَائِهِ زُخْرَفًا بَعْدَ مَا كَادَ نَادِبُ
الرُّسُومِ يَقِفُ عَلَى أَحْقَافِهِ ؛ كَمْ وَفَّرَ عَلَى الْإِيْتَامِ مِيرَاثَ وَفَرَّهَا ، وَكَمْ قَالَ اخْتِبَارُ الْمُلُوكِ
الْبَاقِيَةَ : « لَا تُشْكِرُنَا مَا حَيَّتْ » فَقَالَ مَا ضَى الْمُلُوكِ ذَوِي الْأَوْقَافِ : « وَلَتَشْكُرَنَّكَ
أَعْظَمِي فِي قَبْرِهَا » - فَاقْتَضَى الرَّأْيُ أَنْ يُجَابَ فِي طَلَبِهِ الْمُهِمِّ سَوَالُ الْقَوْمِ ، وَأَنْ يَتَّصَلَ
أَمْسُ الْإِقْبَالِ بِالْيَوْمِ ؛ وَأَنْ تَبْلُغَ هَذِهِ الْوُضُفَةُ أَمَلَهَا فِيهِ بَعْدَ مَا مَضَتْ عَلَيْهَا مِنَ الدَّهْرِ
مَلَاوَهُ ، وَهَذِهِ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي لَوْلَا تَدَارُكُهُ لَكَانَتْ كَمَا قَالَ الْخُرَاعِيُّ : « مَدَارِسُ آيَاتِ
خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةِ » .

(١) يشير إلى المأمون بن هرون الرشيد العباسي وأمه مراحيل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يُراعى مصالح المؤمنين - أن يفوض إليه النظر على هذه المدرسة المعمورة، وأوقافها المبرورة؛ إجابة لسؤال من فيها من جماعة الفقراء ورغبتهم فيه، وأرتقايتهم لعزيمه الذى إذا نظر حالها الأول تلا فيه تلافيه؛ على أن يتبع فى أمرها شرط الواقف برأى غير قاعد، وإن كان لا يزيد فيها على أربعمائة نفرٍ إلا أن يزيد ريع الوقف وهو - إن شاء الله - ببركته وهيمته زائد.

فليباشر ما فوض إليه مباشرة من إذا بدأ أعاد، وإذا دُعِيَ لمثل هذا الحال الضعيف طبَّ وعاد؛ مثمرًا لما لها - على عادة غصن قلبه الأخضر - أثمارا، مُستخلصًا للبواقي من أربابها التى تنهب العين وتدعى لفتراتها أن يكساروا؛ قائمًا فى حال هذه المدرسة بالعطف، مُساويًا فى المواساة بين فقرائها عند الميزان والصرف، نازلًا بنور بشره وودّه بينهم منازل القلب والطرف؛ مجهزًا لجيش عسرتهم فإنهم جمع للتلاوة والصلوات، مُتطلعا لخبرهم فإنهم أجنادُ صفوف الأستحار وسلاحهم الدعوات؛ وتقوى الله تعالى مُشتق منها أسمه فلتكن شقيقة نفسه فى الخلوات؛ والله تعالى يحفظ عليه حظًا نفيسا، وقدرا للنجوم جليسا، ويُنحى به ميت الوظائف حتى يقال: أسليان أنت أم عيسى؟



وهذه نسخة توقيع بخطابة الجامع الأموى، من إنشاء ابن نباتة، كُتب به باستمرار القاضى تاج الدين «الجناب العالى» وهى:

الحمد لله الذى رفع للناس رُأسًا باستقرار تاجها، وجمع لصدور المحاريب شملًا بعوائد أبتهاجها، وزين مواقع النعم بالتكرار كما تزان لآلى النظام بازدواجها، وبين مطالع الفرج بعد النعم: وما الدهر إلا ليل غمة ثم صبح أنفراجها.

نحمدُه على معادِ الآمالِ ومعاجِها ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له
 شهادةً تَمْشِي البصائرُ إلى الحقِّ بِسراجِها ، ونشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسوله القائمُ على
 المنابرِ لمدَاواةِ الفُهومِ وعِلاجِها ، ومُدَاراةِ الخُصومِ ومِجَاجِها ، القائلُ له تَأْدِيبُ رَبِّهِ :
 ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ آيَةُ تَسْرِي الفَطنُ على مِنْجِجِها ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله
 وصَحْبِهِ بِمُحَوَّرِ النِّعمِ والنِّعمِ عَذِيبِها وأُجَاجِها ، وبُدُورِ مَسَاجِدِ الثَّقَى وَمَشَاهِدِ الوَعَى عند
 عِجَاجِ لَيْلِها وَلَيْلِ عِجَاجِها ، صلاةٌ كَصَلَاتِهِمْ آمَنَةٌ مِنْ خِدَاجِها ، ما مَدَّتْ نَفَحَاتُ
 الروضِ إلى مَخَالِطَةِ سَيْرِهِمْ يَدَ اِحتِجَاجِها ، وما زَجَّتْ مَعَالِيهِمُ النُّجُومَ فَحَسَنَ بَكَاسُ
 الثُّرَيَّا شَرَفُ امْتِزَاجِها .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلَى الناسِ باستقرارِ مَنَاصِبِ الدِّينِ العَرِيقَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ عُلُوِّ
 الدَّرَجَاتِ : إمَّا من المراتبِ مجازًا وإمَّا من المنابرِ حَقِيقَةً ، وَاسْتِمْرَارِ الوُظَافِ بِعِيَادَةِ
 فَضْلِهِ وَلَا سِيَّما أَعْوَادِ الخُطَابَةِ ، وَاسْتِبْصَارِهَا بِلَفْظِهِ وَلَا سِيَّما إِذَا سُلِّمَتْ الرَايَةُ
 العَبَاسِيَّةُ مِنْ نَظْفِهِ لِعَرَابِهِ - مِنْ دَرَجٍ مِنْ عُشِّ فُرُوعِهَا خَافِقًا عَلَيْهِ جَنَاحًا عَلمِيَّةً ،
 وَصَعِيدًا إِلَى عَرَشِهَا مُقْبِلَةً بِنَظَرَاتِ الجُفُونِ المِتْسَامِيَةِ آثَارَ قَدَمِيَّةٍ ، وَأَعْرَقَ نَسْبُهُ
 فِي مَوْطِنِ مَكَانِهَا المِكِينِ ، وَبَلَغَ مَقَامَهُ مَقَامَ سَلَفِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الطُّلُوعِ بِأَفْقِهَا المُبِينِ ،
 وَقَالَ اسْتِحْقَاقُ مِيرَاثِهِ : ”وَمَاذَا تَدْرِي الخُطْبَاءُ مِنِّي“ * ”وَقَدْ جَاوَزْتُ“ بِمَقَامِ السَّلَفِ
 ”حَدَّ الأَرْبَعِينَ“ ؛ وَمَنْ إِذَا سُمِعَتْ خُطَابَتُهُ قَالَ الحَفَلُ : لَا فُضَّ فُوهُ ، وَلَا عُدِمَ البَيْتُ
 وَلَا بَنُوهُ ، وَمَنْ إِذَا طَلَعَ دَرَجُ المِنْبَرِ قَالَ المِسْتَجِلُّونَ لِسَنَاهُ : أَهْلَ البَدْرِ؟ قِيلَ لَهُمْ :
 أَخُوهُ ؛ وَمَنْ إِذَا قَامَ فَرِيدًا عُدَّ بِأَلْفٍ مِنْ فَرَائِدِ الرِّجَالِ تُنَظَّمُ ، وَإِذَا أَقْبَلَ فِي سَوَادِ
 طَيْلَسَانِهِ وَاحِدًا قِيلَ : جَاءَ السَّوَادُ الأَعْظَمُ .

(١) الرواية الشعراء وهو ثريت لسبحم الرياحي .

ولما كان فلانٌ هو معنى هذه الإشارة ، وقَوِيَّ هذه العبارة ، وصَدَرَ هذا التَّصْدِيرُ : وَمَنْ سِوَاهُ أَحَقُّ بِصِفَاتِ الصِّدَارَةِ ؟ ، ومن إِذَا ضُربَ المَثَلُ بِالخَطَابَةِ النَّبَاتِيَّةِ فِي حَلَبَ قال نَخْطَابَتِهِ بِدَمْشَقَ : «إِيَّاكَ أَغْنَى فاسمعي يَا جَارَهُ» ، ومن نَشَأَ فِي مَحَلِّ نَخَارِ طِيبِ المَعَاقِدِ ، وَمَنْ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى المَنَابِرِ وَمَدَّ عِزْمَهُ إِلَى الفَرَاقِدِ ، ومن شَمَّرَ فِي أَوَائِلِ عُمْرِهِ إِلَى العَلْيَاءِ وَحِيدًا وَخَلَّفَ دُونَهَا مِنْ أُنْدَادِهِ أَلْفَ رَاقِدٍ ، وَمَنْ إِذَا صَعِدَ لِلخَطَابَةِ أَشَدَّ الحَفْدَةَ :

ولمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ * تَيَقَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدٌ

(١) وكانت خطابة الجامع الأموي المعمور بذكر الله تعالى بِدَمْشَقِ المَحْرُوسَةِ هو الذي كُلُّ بَنَانٍ إِلَى حُسْنِهِ يُشِيرُ ، وكلُّ ذِي مَذْهَبٍ إِذَا عَايَنَ تَصْنِيفَ وَضْعِهِ قال هذا لِقِئِهِ الحَاسِنِ هو الجامعُ الكَبِيرُ ، مِيزَابُهُ (٩) المسلم لِرشدِهِ ، المُعَلِّمُ بِطَرَايِ نَسَبِهِ ورشدِهِ ، المُقَدِّمُ لِيَدِ نصرته سَيْفُ خطابه لا يُخْرِجُ بِيَدِ الأَسْتِحْقَاقِ عَنْ حَدِّهِ ، تَكَادُ المَنَابِرُ تَعُودُ لِلنَّشْأَةِ الأُولَى طَرَبًا لِسَجْعِ بَيَانِهِ ، يُسَهِّبُ وَيَقُولُ النَّاسُ لَيْتَهُ لَا أَخْتَصِرُ ، وَيَوْدُونَ لَوْ لَيْسَ كُلُّ يَوْمٍ سَرَادٌ أَهْبَتِهِ وَزِيدَ فِيهِ مِنْهُمْ سَوَادُ القَلْبِ والبَصَرِ ، وعَارَضَهُ مِنْ العِظَاءِ الكُفَاةِ مَنْ نَوَى بَدَلًا فَا بِي حُنُوءُ الدَّوْلَةِ إِلَّا عَطْفًا ، وَنَازَلَهُ وَارِدٌ مِنَ القَضَاءِ وَلَكِنْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مَعَ القَضَاءِ لُطْفًا .

ولذلك رُسمَ بالأمر الشريف أن يستقرَّ على عادته في خطابة الجامع المذكور ، وما يتعلق بذلك : من تَدْرِيسٍ وَتَصْدِيرٍ ، وَتَقْرِيرٍ وَتَقْدِيرٍ ، وَتَأْثِيلٍ وَتَأْثِيرٍ ، وَمَحْكُومٍ بِالتَّفْوِضِ إِلَيْهِ وَمُحَكَّمٍ ، وَمُرْسُومٍ لَا يُغَيَّرُ عَلَيْهِ مَا رُسِمَ بِهِ وَمَا يُرْسَمُ ، وَأَنْ يُمْنَعَ دَلِيلُ

(١) الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولما كان فلان هو معنى الخ وكان الجامع الأموي هو الذي الخ تعين أنه المسلم ليده .

الاعتراض ويُدفع، وَيُكَفَّ حَتَّى تَتَّصِلَ الْعَنَاءَةُ بِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ مِنْ بَيُوتِ أَذِنِ
اللهُ أَنْ تُرْفَعَ، وَحَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ قَوْمًا أَحْسَنُوا صُحْبَةَ الدُّوَلِ فَسَعِدُوا، وَنَهَوْا عَهْدَ الْخِدْمَةِ
لَأَعْقَابِهِمْ وَهَجَّدُوا، وَحَتَّى يَقُولَ هَذَا النَّجْلُ الظَّافِرُ بَعْدَ آبَائِهِ وَأَخِيهِ : لَيْتَ أَشْيَاخِي
بَيَدْرِ شَهِدُوا .

فَلْيَعِدْ حَدِيثَ مَنْصِبِهِ الْقَدِيمِ ، وَلْيَقُمْ إِلَى تَشْيِيفِ الْأَسْمَاعِ مِنْ تَنْبِيهِ لَفْظِهِ بِأَهْيَ مِنْ
العقدِ النظيمِ ، وَلْيَفُكْ أَسْرَى الْقُلُوبِ بِرَوَاتِبِ إِشَارَتِهِ : فَإِنَّهُ « الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ » ؛
وَلْيُبْسِكِ الْعْيُونَ بَوَعْظِهِ وَإِنْ أَقْرَاهَا بِمُشَاهَدَتِهِ ، وَلْيَحْرُصْ عَلَى نَخْرِ الدُّوَلَةِ الشَّرِيفَةِ بِهِ
كَمَا نَخَّرَ سَيْفُ الدُّوَلَةِ بَابْنَ نُبَاتَتِهِ .

ووصايا هذه الرتبة متشعبة وهو على كل حال أدرب وأدري بها، وما استقرت
على قبض سيوفها يده إلا ورجعت الحقوق إلى نصابها ، وكذلك ما هو معذوق
بوظائفه : من مدارس علوم، ومجالس نظر طالما نظر في كتبها وهو الصحيح نظرة
في النجوم - لا يحتاج فيها إلى مطالعة الوصايا فإنه من كل أبوابها دخل ، ولا يمر بها
على أذنه فم المبلغ فإنها من فمه أحلى ومن تسويغ فمه أحل ؛ ولكن التذكار بقوة الله
تعالى فيما يأتي ويذكر أس جليل ، ووجه تفاضل وجوه الألفاظ من ذكره على لفظ
جميل ، وألفاظ الخطيب المتقن إذا وصلت من القلب إلى القلب وقت برى الغليل ؛
والله تعالى يمدّه بالطافه ، ويخبره على عوائد إسعاده وإسعافه ، ويروى بصواب
كلمه الأسماع وبصوب الغمام عهود أسلافه .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة المسرورية بدمشق ، من إنشاء الشيخ صلاح
الدين الصفدي ، كتب به للشيخ « تقي الدين السبكي » ب « المقرر الكريم » وهى :

الحمد لله الذى جعل تقي الدين علياً، وأوجده فرداً فى هذا الملا فكان بكل علم ملياً، وأظهر فضله الجليل فكان كالصباح جلياً .

نحمده على نعمه التى تكاثرت فأجملت الغائم، وتوفرت الألسنة على حمده فتعلمت أشجاعها الحائم، وتأثرت بموافيقها الأحوال فأخملت زهر الخمايل فى الكائم . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شبهة تُعكر ما صفاً من جُحيتها، ولا ريبة تُوعر ما تسهل من محجبتها، ولا ظلمة باطل تُكدر ما أنار من حجبها . ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى جُمعت فيه مكارم الأخلاق، وتفرّد بمزايا منها أنه حبيب الخلاق، وشارك الأنبياء فى معجزاتهم وزاد عليهم بما أُتيح له من تحس لم يعطهن غيره منهم على الإطلاق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تفقهوا فى الدين، وحازوا الأجور لما جروا إلى جرّ الغلاصم من المُلحدين، وأنزلوا لما نازلوا أبطال الباطل والمعتلين من المعتدين ؛ صلاة يفوح تسيم رايها المتأرج، ويلوح ويسيم محياها المتضرج ؛ ما فرّج العلماء مضايق الجدال فى الدروس، وقبّلت ثغور الأفلام وجنات الطروس ؛ وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن المدارس - عمرها الله تعالى بالعلماء - لواقفها شروط، ولأهلها هم أنزلها بالنجوم منوط ؛ يغوصون بحور البحوث فى طلب الآلى ، ويقطعون ظلل الظلام بالسهر فى حب المعالى ؛ سيما المدرسة المسرورية : فإن واقفها - أتابه الله تعالى - شرط فى المدرّس بها شروطاً قل من يقبلها ، أو يتحلّى بعقودها أو يحلّها ؛ وكان مفرقها قد تحلّى بتاج تجوهر ، ومغلقها قد ضم منه فاضلاً تمهدت به قواعد المذهب لما تمهر ؛ فأعرض عنها ، ونقض يده منها ؛ رغبة فى الإقبال على شأنه ، وأقطاعاً إلى مالك الأمر وديانه ؛ فخلاً ربّعها من أنسه ، وكادت تكون طللاً بعد درسه .

وكان فلانٌ - أسبغ الله ظله - قد وافق بعض ما فيه شرط الواقف ، وشهد
 بنشر علومه البادية والعاكِف ، وطاف بكعبة فوائده كل طائف ، ينصرف عنه
 باللطائف ؛ أمّا ”التفسير“ فإنه فيه آية ، وأمّا ”الحديث“ فإنه الرحلة في الرواية
 والدراية ، وأمّا ”الأصول“ فإنه زار بـ »الرازي« حتى آخفني ، وأمّا ”الفقه“ فلو شاء
 أملي في كل مسألة منه مصنفًا ؛ وأمّا ”الخلاص“ فقد وقع الاتفاق على أنه شيخ
 المذاهب ، وأمّا ”العربية“ فـ »الفارسي« يعترف له فيها بالغرائب ؛ إلى غير ذلك من
 العلوم التي هو لها حامل الرأي ، وله بالتدقيق فيها أتم عناية ، وإذا كان أهل كل علم
 في المبادئ كان هو في الغاية .

فذلك رسم بالأمر العالي - أعلاه الله تعالى - أن يفوض إليه كذا وكذا : وضعا
 للشيء في محله ، ومنعاً لتاريخ ولاية غيره أن يفجأ في غير مستهله ؛ فالآن أمسى
 الواقف مسروراً على الحقيقة ، والآن جرى الخلاف فيها على أحسن طريقه ؛ وهو -
 أسبغ الله تعالى ظله - أجل خطراً من أن يذكر بشيء من الوصايا ، وأعظم قدراً
 من أن تدل ألمعيته على نكته الخفايا ؛ لأنه بركة الإسلام ، وعلامة الأعلام ،
 وأوحد المجتهدين والسلام ؛ والله تعالى يمتع المسلمين ببقائه ، ويعل درجات أرقائه ؛
 والخط الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه ، حجة في ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء
 الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الناصرية الجوانية ، من إنشاء الصلاح
 الصفدي أيضاً ، كتب به للقاضي ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السريومند
 بالشام ، حين عاد إلى تدريسه بعد انفصاله عنه ، بـ »المقر الكريم« وهي :

الحمد لله الذى بدأ النعم وأعادها ، وأفاء المنن وأفادها ، وزان المناصب السنية
 بمن يليها وزادها ، وشاد عماد المعالى بأربابها وصانها عما دهي .

نحمده على نعمه التى بدأت بالمعروف وتمت ، وخصصت بالإحسان وعظمت ،
 وبرأت من النقائص وسلمت ، وفلت بالألطف الحفية صوارم الحوادث وثممت .
 ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تضىء بها الحنادس ، وتركو
 بأنوائها منابت الإيمان والمغارس ، وتسمو بأقنائها إلى عليين النفوس النفائس ،
 ويرغم المؤمنون بإعلامها من الكفار المعاطس ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله
 الذى تتم للناس مكارم الأخلاق ، وأجمل بحود كفه الفيض صوب الغيث الدقاق ،
 وفضح البدر اللياح فى الدجى بنور جبينه البراق ، وتقدم التبين والمرسلين فى حلبة
 الشرف على جواد فضله السباق ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعلى من نصبوا
 للهدى أعلاما ، وأرقى من أصبح العلم لفضلهم الباهر رقاما ، وأحلى من كان الزمان
 بوجودهم وجودهم للعفاة أحلاما ، وأقوى من كان الإيمان بهم إذا استنجد على
 الكفر أقراما ؛ صلاة لا ينقذ لها أمد ، ولا يقضى لها مدد ، ما شب بارق ونحمد ،
 وشفى الغام طرف زهير من الرمد ؛ وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد ، والشرف الطارف والتألد ؛
 بها تبتين قوارس الحلال فى مضائق الحلال ، وتتجلى بدور الكلام فى مطالع الكمال ،
 وتبدو شمس الجمال فيما لها من فسيح المجال ؛ والمدرسة الناصرية - أثاب الله تعالى
 وأقفها - هى الواسطة فى عقودها ، والدرة الثمينة بلا كفاء لها بين قيم تقودها ؛
 قد تدبج فيها البناء ، وتأرج عليها الثناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد
 اعتناء .

وكان المقرّ الفلاني قد نفّض يده من عَنَانِهَا ، وَرَفَضَ عَنْ آخْتِيَارِ بَهَاءِ جِنَانِهَا ؛ وَتَوَخَّى طَلِبَتَهُ عَنْ مُحَاوَرَتِهَا ، وَرَمَى أُمْنِيَّتَهُ مِنْ مُحَاوَرَتِهَا ؛ فَسَاءَ مَنْ بَهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِرَاقُهُ ، وَأَوْحَشَهُمْ وَجْهَهُ الَّذِي أَنْجَلَ الْبُدُورَ رَوْنَقَهُ وَالْبَحْرَ أَنْدَاقَهُ ، وَفَقَدُوا مَكَارِمَهُ الَّتِي مَسْمُوعُ «السَّمْعَانِي» بِمِثْلِهَا وَلَا وَصَلَتْ إِلَى «الصُّوْلِي» وَلَا ضَمَّتْهَا أَوْ رَاقَهُ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي أَنْ يُعَادَ إِلَى تَدْرِيسِهَا : لِأَنَّ الْعَوْدَ أَمْدَحُ وَأَحْمَدُ ، وَالرُّجُوعَ إِلَى الْحَقِّ أَسْعَفُ وَأَسْعَدُ .

فَلْيَبْشُرْ مَا فُوضَ إِلَيْهِ مَبَاشَرَةُ الْفَتْ مِنْ كَمَالِ أَدَوَاتِهِ ، وَعُورَتْ مِنْ جَمَالِ ذَاتِهِ ؛ نَاشِرًا أَعْلَامَ عُلُومِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، وَفَضَائِلِهِ الَّتِي تَقْصُرُ عَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهَا أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ الْمُتَضَوِّعَةِ ؛ فَلَوْ عَاصَرَهُ «أَبْنُ عَطِيَّة» أَمْسَكَ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِهِ ، أَوْ «صَاحِبُ الْكَشَافِ» لَغَطَّى رَأْسَهُ مِنْ تَقْصِيرِهِ ؛ أَوْ «الرَّافِعِي» لِأَصْبَحَتْ رَايَةُ رَأْيِهِ فِي الْفِقْهِ حَافِضَةً رَافِعَهُ ، أَوْ «النَّوَوِي» رَحِمَهُ اللَّهُ لَأَسْتَعَارَ مِنْهُ زَهْرَاتِ رَوْضَتِهِ الْيَانِعَةِ ؛ أَوْ «الْأَمِيدِي» لَمَا أَمْتَدَّتْ لَهُ مَعَهُ فِي أَصُولِهِ خَطْوَهُ ، أَوْ «أَبْنُ الْحَاجِبِ» لَمَا كَانَ لَهُ مَعَ أَبْنِ الْحَاجِبِ حُظْوَهُ ؛ أَوْ «أَبْنُ يَعِيشَ» لَمَاتَ ذِكْرُهُ فِي النَّحْوِ فَكَانَ فَقِيدًا ، أَوْ «أَبْنُ مَالِكٍ» لِأَمْسَى «تَسْمِيْلُهُ» تَعْقِيدًا ؛ أَوْ «الشَّيْبَانِي» لَعَلِمَ أَنَّهُ مَا شَبَّ لَهُ فِي التَّصْرِيفِ مِثْلُ شَيْبَلِهِ ، أَوْ «أَبْنُ عَرَبِي» لِأَعْرَبَ عَنْ عُجْمَةٍ وَمَا تَمَسَّكَ صُوفِيًّا بِحَبْلِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءٍ إِنْشَاءٍ سَادَ فِيهِ الْعَبْدَانِ : «عَبْدُ الْحَمِيدِ» وَ«عَبْدُ الرَّحِيمِ» ، وَنَظِمَ كُلًّا نَظْمًا إِلَى رَشْفِهِ طَافَتْ عَلَيْنَا قَوَافِيهِ بِكَأْسٍ مِنْ أَجْهَاهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَتَفْصِيلُ مَعَارِفِهِ يَضِيقُ عَنْ فَضْلِهَا فَضَاءُ هَذَا التَّوْقِيعِ الْكَرِيمِ ، وَسَرْدُ مُحَاسِنِهِ لَا تَتَسَعُّ لَهُ حَوَاشٍ ، هَذَا الْبُرْدُ الرَّقِيمُ ؛ وَلَكِنْ أَشَارْتُ أُمْلَةً الْقَلَمِ مِنْهَا إِلَى نُبْدِهِ ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الْقُلُوبَ تَشْتَاقُ إِلَى أَوْصَافِهِ فَقَلَدْنَا لَهَا مِنْ ذَلِكَ فَلَدَهُ .

وأما الوصايا فمِثْلُهُ لَا يَذْكُرُ بَشِيءٍ مِنْهَا ، وَلَا يَقَالُ لَهُ : دَعْ هَذِهِ الْوَدْعَةَ وَهَذِهِ الدَّرَّةَ صُنْهَا ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَإِذَا أُطْلِعَ بِدُورٍ وَصِيَّةٍ ضَوْأَ أَحْوَالِ الدِّيَاجِي الْحَوَالِكِ ؛ وَلَكِنْ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذِكْرُهَا فِي كُلِّ تَوْقِيعٍ طِرَازُهُ الْمُعْلَمُ ، وَنُكْتَتُهُ الَّتِي طَوَّدَهَا لَا يُمِثِّلُ وَحْدَهَا لَا يُثْلَمُ ، فَلَئِنْ مُسْتَضِحِّبَ حَالَهَا الْحَالِي ، مُسْتَضَعِبَ فِرَاقِهَا الَّذِي يُهَوِّنُهُ الْبَالُ الْبَالِي ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُخْلِي رُبُوعَ الْعِلْمِ مِنْ أُنْسِهِ ، وَيَجْعَلُ سَعْدَهُ فِي غَدٍّ زَائِدًا كَمَا زَادَ فِي يَوْمِهِ عَلَى أُنْسِهِ ، وَانْخَطَّ الْكَرِيمُ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ فِي ثُبُوتِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَتَدْرِيسِ الْمَدْرَسَةِ النُّورِيَّةِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ أَبِي نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ لِقَاضِي الْقَضَاةِ «نَجْمِ الدِّينِ الْحَنْفِيِّ» بِزَوْلِ وَالِدِهِ عَنْهَا بـ «بِالْجَنَابِ الْكَرِيمِ» وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أُنْمِيَ أَهْلُهُ الْعِلْمَ فَأَبْدَرَتْ ، وَفُرُوعَهُ فَأَثْمَرَتْ ، وَنُجُومَهُ فَاسْتَقَلَّتْ مَطَالِعُهَا النُّورِيَّةُ وَتَنَوَّرَتْ ، وَلَا إِلَهَ فِي بَحَارِ الْأَلْفِظِ وَالْفَضْلِ فَتَجَوَّهَرَتْ ، وَأَنْهَارُهُ الَّتِي أَخَذَتْ فِي الْمَدِّ مَأْخِذَ تِلْكَ الْبَحَارِ فَاسْتَرْجَبَتْ وَأَسْتَبَحَرَتْ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي قَرَّتْ وَقَرَّتْ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً إِذَا خَصَلَهَا الْيَقِينُ وَفَرَّتْ ، وَإِذَا نَصَلَهَا الْإِخْلَاصُ مَضَتْ فِي أَوْدَاجِ الْبَاطِلِ وَفَرَّتْ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْحَاكِمُ فِي فَضْلِ الْأَفْضِيَةِ لَمَّا شَجَرَتْ ، وَالنَّاظِمُ دُرَرِ الْإِيمَانِ حَتَّى زَهَتْ فِي أَعْنَاقِ الْعَقَائِدِ وَزَهَرَتْ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ فَتَّةِ الْحَقِّ الَّتِي ظَهَرَتْ وَطُهِرَتْ ، وَعِصَابَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي سَرَتْ خَلْفَهَا

(١) مستعار من نصل السيف والرمح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سَرَايَا الدِّينِ فَهَاجَرَتْ فِي اللَّهِ وَنَصَرَتْ، صَلَاةً طَيِّبَةً تَحُلُّوْا إِذَا تَكَرَّرَتْ، وَتَحِيَّةً بَاقِيَةً تُشْرِقُ شَمْسُهَا إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَتَعْبِقُ نَفَحَاتُ نَشْرِهَا إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ .

أما بعدُ، فَإِنَّ مَنَازِلَ الْعِلْمِ مِنْ خَيْرِ مَا أَبْقَى الْآبَاءُ لِلْأَعْقَابِ، وَأَكْبَلِ مَا ذُخِرَ لِلْحَيَاءِ الْأَنْبَاءِ عَلَى مَدَى الْأَحْقَابِ، وَأَعْدِلْ مَا شَهِدَ بِلِسَانِ حَالِهِ الْمَتَمَثِّلِ أَنَّ وَكْرَ الْعُقَابِ لَاكِبُنَ الْعُقَابِ ؛ وَكَانَتِ الْمَدْرَسَةُ النُّورِيَّةُ الْكُبْرَى بِدَمَشَقِ الْحُرُوسَةِ هِيَ الْوَاسِطَةُ وَالْمَدَارِسُ دُرَرٌ، وَالصُّبْحُ وَأَوْطَانُ الْعِلْمِ غُرَرٌ، وَمَنْزِلَةُ الْحُكْمِ الْأَمْنَعِ، وَبَيْتُ الْقَضَاءِ الَّذِي أَدِنَ اللَّهُ لِقَدْرِهِ أَنْ يُرْفَعَ، وَمَكَانُ ذِي الْيَدِ الْمَاضِي سَيِّفُ حُكْمِهِ إِذَا قُرِعَتْ الْعَصَا لِذِي الْإِصْبَعِ ؛ وَذَاتُ الْعِمَادِ الَّتِي أَدْنَحَهَا لِنَجْلِهِ، وَأَعَدَّ فَضْلُهَا فِي الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ لِفَضْلِهِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ قَدْ نَزَلَ لَوْلَاهُ فَلَايُنَ عَنْ الْحُكْمِ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ، وَنَطَقَ بِمِزْيَةِ الْأَسْتِحْقَاقِ وَقُلُوبُ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ صُمُّ بَكْمِ ؛ وَرَغَبَ - أَجَلَهُ اللَّهُ - فِيمَا يَرِغَبُ فِيهِ مِنَ الْإِنْقِطَاعِ ذُو السَّنِ الْعَالِي، وَالْقَدْرُ الْعَالِي، وَأَتَتْظُمُ تَقْلِيدُهُ الشَّرِيفُ فَكَانَ أَجْوَدَ حَالِيَةً عَلَى أَحْسَنِ جَيِّدِ حَالِي ؛ ثُمَّ التَّوَقُّعَ بِتَدْرِيسِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي زُكِّيَتْ فِي أَهْلِ الْفَضْلِ شَهِيدُهَا، وَنَظَرُهَا الَّذِي خَلَفَ فِي حُكْمِهِ وَلِيٌّ عَهْدِهِ عَنْ أَبِيهِ : فَلِلَّهِ أَمِينُ هَذِهِ الْخِلَافَةِ وَرَشِيدُهَا .

وَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَفُوضَ إِلَى فَلَانٍ تَدْرِيسَ الْمَدْرَسَةِ النُّورِيَّةِ وَنَظَرُهَا : لِأَسْتِحْقَاقِهِ لَهَا بِسُقْفَةٍ مَنَصَّبِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ، وَمَنْشَأِ الْفَضْلِ الْحَرِيزِ، وَوَجِيزِ التَّزْوِلِ الْمَكْتَتَبِ، وَقَبُولِ هِبَةِ وَالِدِهِ الَّذِي يَعْتَادُ أَنْ يَهَبَ الْجَلِيلَ لِمَنْ يَهَبُ ؛ وَتَشْرِيفِهِ بِإِنْعَامِهَا النَّفِيسِ، وَإِجْلَاسِهِ بِهَا عَلَى مَرْتَبَةِ حُكْمٍ وَبَسَاطَةِ نَظَرٍ وَسَجَّادَةٍ تَدْرِيسِ ؛ وَعِلْمًا أَنَّ نَجْمَ ذَلِكَ النَّيِّرِ أَوْلَى بِهَذِهِ الْمَنَازِلِ، وَشِبْلَ ذَلِكَ الْأَسَدِ أَحَقُّ

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أي والد نجم الدين .

(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغاب المائل ، وأنه كوكب هذا المذهب المنير ، وإمام جامعيه المعروفين : كبير وصغير ، وصاحب شبيبة العزم المقتبل ، والرأي الموفى على قياس الأمل ؛ وتجنيس الجود والإجاده ، وتكثير بحورى العلم والبر واجتهاد الزيادة ؛ وأنه ممن آتاه الله رفعة فى القدر والأسم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ؛ وأحكم بديهة علمه فى الاستوقف الأسماع رويته ، وأعلاه وعظمه فى النجم الذى تستصغر الأبصار رؤيته .

فليأشتر تدريس هذه المدرسة ونظرها بعزمه الباهر وصفا ، التالى بلسان الحمد :
 ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ ؛ جارياً على أعراق نسبه المشهور ، فإعص ألفظ والفضل فإنه بحر من البحور ؛ مظهرًا من مباحثه التى تقلد القول بأبهى مما تقلد التحور ، مهتديًا من رأيه ومن بركة الواقف - رضى الله عنه - بُور على نور ، والله تعالى يزين بنجمه أفق السيادة ، ويزيد فيما وهبه من الفضل إن كان التمام يقبل زياده .



توقيع بتدريس المدرسة الريحانية الحنفية ، من إنشاء ابن نبأته ، كتب به للقاضى « عماد الدين الحنفى » بـ « الجتاب الكريم » وهو :

الحمد لله الذى جعل مدارس العلم بذات عمادها ، وصاحب نفلها واجتهادها ؛ ومُنشِر عهدها ومُنشئ عهادها ، وواصل مناسمها التى لو آدأها دونه زيد لكانت دعوى زيادها ، ومُفصح فتاويها على منبر قلم أهرت عوده ونفع وأطرب : فناهيك بثلاثة أعوادها ! .

نحمده على نعمه التى قضى الحمد بأزديادها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُعدها النفس لمعادها ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله هادى الأمة

إلى سبيل رشادها ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ بِحَارِ الْعِلْمِ وَأَطْوَادِهَا ، مَا قَامَتْ
الطُّرُوسُ وَالسُّطُورُ لِعُيُونِ الْأَلْفَاظِ مَقَامَ بَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا .

أما بعدُ ، فَإِنَّ لِمَذَاهِبِ الْعِلْمِ رِجَالًا يَوْضَحُونَ طُرُقَهَا ، وَيَمْدُدُونَ فِي الْمُبَاحِثِ طَلْقَهَا ،
وَيَعْمُرُونَ مَدَارِسَهَا : فَيَالَهَا مِنْ ذَاتِ دُرُوسٍ يَكُونُ الْعُمَرَانُ مُعْتَلِقَهَا وَمُعْتَنِقَهَا ! .

ولما كانت المدرسة الريحانية بدمشق في أيدي العلماء نُحْبَةً رِيحَانِيَّةً ، وَشَقِيقَةً
نَفْسٍ نَعْمَانِيَّةً ؛ مَأْهُولَةً الْمَنَازِرِ وَالْمَنَازِلِ بِكُلِّ ذِي فَضْلٍ جَلِيٍّ ، وَعِلْمٍ مَلِيٍّ ؛ وَوَصِفٍ
كَرِيمٍ ، وَنَفْسٍ نَفِيسٍ يَتَلَقَّاهُ مِنْهَا رَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ؛ وَخَلَّتِ الْآنَ مِنْ إِمَامٍ
كَرَّمَتْ خِلَالَهُ ، وَعَظُمَتْ خِصَالُهُ ، وَمَضَى وَتَمَضَّى وَمَا بَقِيَ إِلَّا اللهُ جَلَّ عَنْ الْحَوَادِثِ
جَلَالُهُ - فَتَعَيَّنَ أَنَّ نَحْنَارَ لَتَدْرِيسِ مَكَانِهَا مِنْ يَفْتَخِرُ بِهِ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ ، وَيَتَشَبَّهُ
بِزِيَادَةِ عِلْمِهِ لِصَاحِبِ مَذْهَبِهَا أَضْعَافُ مَا شَاهدَهُ زِيَادَ النُّعْمَانِ ؛ مِنْ شَيْدِ الشَّرِيعَةِ
الشَّرِيفَةِ مَقَالَهُ وَمَقَامَهُ ، وَعِلَاقِ عِمَادِهِ إِلَى عُقُودِ الشُّهْبِ فَتَنَّهُ مُرَادُهُ وَمَرَامُهُ ، مِنْ
لَوْعَاصِرِهِ «أَبْنِ الْحُسَيْنِ» لِحَسَنِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِقُدْرَةِ الْجَلِيلِ ، وَقَالَ عِنْدَ مُحَاضَرَةِ بَحْثِهِ
كَمَا قَالَ «أَبُو يُونُسَ» : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ؛ وَأَسْتَرَادَ «شَمْسُ الشَّرِيعَةِ» فَكَيْفَ «السَّرَاجُ»
مِنْ لَمْعِهِ الْبَرِيقِ ، وَقَالَ «أَبْنُ السَّاعَاتِي» : مَا رَأَيْتُ أَرْفَعَ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ دَرَجَةً
وَلَا أَبْدَعُ مِنْ هَذَا الذَّهْنِ دَقِيقَةً .

ولذلك رُسمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِإِزَالِ عَالِيًا بِأَمْرِهِ كُلِّ عِمَادٍ ، زَاهِيًا بِمُحَامِدٍ مُلْكِهِ
كُلِّ نَاطِقٍ وَجَمَادٍ ، أَنْ يَفُوضَ لِفُلَانٍ لِأَنَّهُ الْمَعْنَى بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَوْصَافِ
الْحُلُوءَةِ إِذَا تَكَرَّرَتْ ، وَالْمَقْصُودُ بِالْفَاطِطِهَا إِذَا تَعَنُّوْنَ الْإِفْهَامَ وَتَيَسَّرَتْ ؛ وَالْمَعْوَدَةُ فُرَائِدُ
مُبَاحِثِهِ الْمَفْرَقَةُ بِـ «إِذَا الْكَوَاكِبُ أَنْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبَحَارُ جُحِرَتْ» ؛ وَإِمَامُ الْمَذْهَبِ
الْحَنْفِيِّ وَالْحُكْمِ الْأَحْنَفِيِّ ، وَحَصَاةُ الْقَلْبِ الَّتِي تَنْسِفُ بِإِشَارَتِهَا جِبَالَ «النَّسْفِي» ،
وَلِسَانُ النَّظَرِ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى بُعْدِهِ فَأَخْتَفَى فِي قُرْبِهِ الْمَشْرِفِيُّ ؛ وَصَاحِبُ الْفُنُونِ وَمَا

وَسَقَتْ ، وَأَفْنَانِ الْحُكْمِ وَالْحِكْمِ ، وَمَا بَسَقَتْ ، وَنُعُوتِ الْفَضْلِ وَالْفَضَائِلِ ، وَمَا عَطَفَتْ
من البيان وَنَسَقَتْ .

فَلْيَتَوَلَّ تَدْرِيسَ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْمَعْمُورَةِ مُؤَيَّدَ الْوَلَايَةِ ، مُجَدِّدَ الْبَدَايَةِ لِحَنِيفِيَّتِهَا
وَالنَّهَايَةِ ، سَاجِدًا قَلَمُ الْفَتَاوَى وَالْفُتُوَّةِ كُلَّمَا تَلَا كَرَّمَهُ وَكَلِمُهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ ، مُنْفِقًا مِنْ
أَلْفَاظِهِ حَتَّى يَسْتَغْنَى عَنْ "الْكُتْرِ" وَصَاحِبِهِ ، وَيُرَدِّدَ فَرْعَ الْمَقَالِ عَلَى الْأَصْلِ وَطَالِيهِ ،
وَيُعْرِضُ عَنْ أَعَارِيزِ "الْبَسِيطِ" ، وَيُغْرِقُ فِي أَفْكَارِ وَارِدِهِ "الْمَحِيطِ" . وَيَمْدَّ سَمَاطَ
الْعِلْمِ الَّذِي وَفَى بَعْدَ «الْقُدُورِيِّ» ، وَمَا حَانَ ، وَتَفَخَّرَ بِقَاضِيهَا أَعْظَمُ مَدِينَةٍ فَمَا يَضُرُّهَا
فَقْدُ «قَاضِي خَانَ» ، وَتَتَذَكَّرُ الْمَقْدَمِيَّةُ مِنْ طَلَبَتِهِ فَوَائِدَ الْحَلَقَةِ ، وَيَنْتَقِلُ الْجَنَابُ
الكَرِيمُ مِنْ تَقْدِيمَتِهَا إِلَى مَا هُوَ أَوْفَى فِي الْغَرَضِ وَأَوْفَرُ فِي النَّفَقَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُ رَتَبَ
الْعِلْمِ بِهِ سُرُورًا ، وَيَجْعَلُ لَهُ بِاسْتِطْلَاعِهَا كِتَابَ حُكْمٍ وَحُكْمٍ يَلْقَاهُ مَشُورًا .



وهذه نسخة توقيع بتصدير بالجامع الأموي ، كُتِبَ بِهِ لِقَاضِي الْقَضَا «عِلْمُ الدِّينِ
أَبْنُ الْقَفْصِي» قَاضِي قَضَاةِ دِمَشْقَ بـ «الْمَقَرَّ الشَّرِيفِ» وَهِيَ مِنْ تَأْفِيقِ كُتَّابِ
الزَّمَانِ . عَلَى أَنَّهَا بِالْمَدْرَسِ أَلِيقُ مِنْهَا بِالْمَصْدَرِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْلَى عِلْمِ أُمَمَةِ الدِّينِ إِلَى أَعْلَى الْعُرْفِ ، وَمَيَّزَهُم بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ الَّذِي
يَسْمُو شَرْفُهُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ ، وَأَوْصَحَ بِهِمْ مَنَهِجَ الْحَقِّ الْقَوِيمِ نِعْلًا بِإِرشَادِهِمْ سَبِيلُ
الْهُدَى وَأَنكَشَفَ .

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَفَاضَ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَوَاتِرَةِ كُلِّ حِينٍ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى إِحْيَاءِ مَعَاهِدِ
الْمَعَايِدِ بَيْنَ حَدَا حَدَوِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ ، حَمْدًا يُظْهِرُ الْآيَاتِ الْحَمْدِيَّةَ وَالْبَرَاهِينَ ،
وَيَبْسُطُ ظِلَّ مَنْ هُوَ عَنِ الْحَقِّ لَا يَمِينُ . وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَيَعْلَمُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أُوتِيَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ لَشَيْبَةَ : « اللَّهُمَّ فَتِّهِهِ فِي الدِّينِ » . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ عَمِلُوا بِمَا عَلَّمُوا فَكَانُوا أُمَّةً مُسْلِمِينَ ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى أَقْوَالِهِمُ الَّتِي نَقَلُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ وَالْجُمُعِ وَالْأَشْهُرِ وَالسِّنِّينَ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَلَمَّا كَانَتْ أَعْلَامُ الْعُلَمَاءِ فِي الْآفَاقِ مَنْشُورَةً ، وَرُبُوعُ الْفَوَائِدِ بِطَرِيقَتِهِمُ الْمُثْنَى مَعْمُورَةً ، وَصُدُورُ الْمَعَايِدِ الشَّرِيفَةِ مُحْتَاجَةً إِلَى صَلَاتِهَا بِكُفِّهَا الْفَرْدَ مَسْرُورَةً ؛ وَكَانَ فَلَانٌ - أَسْبَغَ اللَّهُ تَعَالَى ظِلَالَهُ ، وَضَاعَفَ جَلَالَهُ - هُوَ الَّذِي مَلَأَتْ مُبَاشَرَتُهُ الْعُيُونَ وَالْأَسْمَاعَ ، وَانْعَقَدَتْ عَلَى تَفَرُّدِهِ فِي عَصْرِهِ كَلِمَةُ الْإِجْمَاعِ ، وَاشْتَهَرَ ذِكْرُهُ الْجَمِيلُ بِأَنْوَاعِ الْمَكْرُمَاتِ وَأَطَاعَهُ مِنْ مُشْكِ الْمَذْهَبِ مَا هُوَ عَلَى غَيْرِهِ شَدِيدُ الْإِمْتِنَاعِ ؛ وَأُصْحَحَتْ فُضَائِلُهُ « الْمَدُونَةُ » وَلَقِظَتْهُ الْجَلَّابُ ، وَكَفَّفَهُ « الْمُوْطَأُ » لِلطَّلَبَةِ يُغْنِيهِمْ عَنْ مَعَاهِدِ « عَبْدِ الْوَهَّابِ » ؛ وَعَزِيْمَتُهُ لَا يُلْحَقُ غُبَارُهَا فِي الْمَعَارِكِ ، وَلَا يَظُنُّ خُدَامُ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ إِلَّا أَمَّ مَالِكٌ وَأَبْنُ مَالِكٍ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ يَجْمَعُ مَنْ بَرَعَ فِي الْعُلُومِ مِنْ أُلُوانِ الْمَنَاصِبِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَيَرْفَعُ قَدْرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ عَلَى التَّقْوَى مُؤْتَلِفَةٌ - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي وَظِيفَةِ التَّصْدِيرِ بِالْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقِ الْحَرُوسَةِ - عَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ - عَوَضًا عَنْ فَلَانٍ مُجْكَمٍ نَزُولُهُ عَنْهُ بِرِضَاهُ ، حَمَلًا عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ التَّرْوِيلِ الشَّرْعِيِّ ، بِالْمَعْلُومِ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ دِيْوَانُ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ ، عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ ، وَصَرَفَهُ إِلَيْهِ مُهَنَّا مَيَسَّرًا أَسْوَةَ أَمَثَالِهِ .

فَلْيَبِاشِرْ هَذِهِ الْوِظِيفَةَ عَلَى عَادَةِ مُبَاشَرَاتِهِ الَّتِي حَقَّتْ بِالْعُلُومِ ، وَافْتَخَرَتْ بِمُحْسِنِ الْمَنْطُوقِ الدَّلَالِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَفْهُومِ ؛ وَيُمَدِّدْ مَوَائِدَ عِلْمِهِ الْمُحْتَوِيَةَ عَلَى أَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ ،

وَلْيُتَيْنَ مَا يَخْفَى عَلَى الطَّلَبَةِ بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ ؛ وَلْيُؤَدَّ الْفَوَائِدَ الْوَاصِلَةَ إِلَى الْأَذْهَانِ عَلَى أَحْسَنِ أَسْلُوبٍ ، وَلْيَقَرَّرِ الْأَصُولَ الَّتِي أَمْتَدَّتْ فُرُوعُهَا بِقَوَاعِدِ السُّنَنِ الْمَحْمَدِيَّةِ وَفِي ثَمَرِهَا الْجَنَى تَقْوِيَةُ الْقُلُوبِ ؛ وَلْيَكْرَمْ مِنْهُمْ مَنْ يَضَحُّ فَضْلَهُ لَدَيْهِ وَيَبِينُ ، وَلْيَبْسُطْ هِمَمَهُمْ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ" . وَلْيُوضِّحْ طَرِيقَ إِرْشَادِهِ لِيَسْهُلَ سُؤْلُهَا عَلَيْهِمْ ، وَلْيَجْعَلْ وَفُودَ فَوَائِدِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَاصِلَةً إِلَيْهِمْ ، وَلْيَتَّبِعْ «إِمَامَ دَارِ الْحِجْرَةِ» فِي مَذْهَبِهِ الْمَذْهَبِ ، وَلْيَخْلَدْ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَمِيلَةِ مَا يَذْهَبُ الزَّمَانُ وَلَا يَذْهَبُ ؛ وَلْيُسَمِّحْ لِلْفُقَهَاءِ بِمَوَاصِلَةِ فَضْلِهِ الْأَعْمِ ، فَإِنَّهُ أَنْ يَهْدَى بِهِ وَاحِدٌ خَيْرٌ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ .

وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِنْهُ يُطَلَبُ بَيَانُهَا ، وَبِهِ تَقْوَى أَسْبَابُهَا وَيَعْلَوُ بُنْيَانُهَا ؛ وَلَكِنْ الذِّكْرُ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُظْهِرُ [بِهَا] سِرَّ خَبَرِهِمْ وَيَسْتَتِينُ ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى ، وَالْخَصْلَةُ الَّتِي بِهَا يَعْظُمُ كُلُّ وَاحِدٍ وَيَرْقَى ؛ فَلْيُؤَاطَبْ عَلَيْهَا ، وَلْيَصْرِفْ وَجْهَ الْعَنَايَةِ إِلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُسْتُولُ أَنْ يَجْعَلَ عِلْمَ عَلَيْهِ دَائِمًا فِي الْآفَاقِ مَنْشُورًا ، وَذِكْرَهُ الطَّيِّبَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْخَلَائِقِ كُلِّ أَوَانٍ مَذْكُورًا .

المرتبة الثانية

(من توقع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دمشق -

ما يفتتح بـ «أما بعد حمد الله» وفيها عدّة وظائف)

وهذه نسخ توقع من ذلك .

توقيع بقضاء العسكر بدمشق ، كتب به للقاضي شمس الدين «محمد الإخنائي»

الشافعي ، بـ «بالجناب العالي» وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مضاعف النعمة، ومُرَادِف رُبِّ الإحسان لمن أخلص في الخدمه، ومُجَدِّد مَنَازِل السَّعْدِ لمن أطلعت كواكب أهتامه في آفاق الأمور المِهْمَة؛ والصلاة والسلام الأتمين الأكملين على سيدنا محمد وآله الذي بشر بنصر هذه الأمة، ووعد بأن سيكشف به غمام كل غمه، وأنه يتجاوز عن أهلها بشفاعته وكيف لا؟ وقد أُرْسِلَ للعالمين رحمَه، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تُجْرُلُ لقائلها نصيبه من الأجر وتوفر قسمه - فإنَّ أحقَّ الأولياء من تأكَّدت له أسباب السعادة، وكافأناه بالحسنى وزيادته، وبلغناه من إقبالنا غاية مآربه ومطالبه؛ وعُرفت منه العلوم التي لا يُشْكُ فيها، والنبأه التي لا يُقَدَّرُ أحدٌ من أقرانه يُوفِّيها؛ والخبرة الوافية الوافره، والديانة الباطنة والظاهره؛ وسار بعُلمه المثل، وسلك مسلك الأولياء في العلم والعمل؛ وأعتبرت أحواله التي تُوجِبُ التقديم، وأختبرت فعاله التي ضاعفت له مزيد التكريم.

وكان فلان - أدام الله تعالى نعمته - هو الذي أثقن العلوم بحثاً وتهذيباً، وبرهن عن المسائل الشرعية بأنهم تريدُها إلى الطالين تقرُّباً؛ وأوضح عويص مشكلاتها، وصحح من ألسن العرب لغاتها.

فلذلك رُسم بالأمر العالی - لا زالت تسمُّه بالعباية مُشرِّقه، وأنواء فضائل أوليائه مُعَدِّقه - أن يستقرَّ فلان في وظيفة قضاء العساكر المنصورة الشامية: حملاً على ما بيده من النزول الشرعي، على عادة من تقدَّمه في ذلك وقاعدته، ومعلومه الذي يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت. فهو الحاكم الذي لم يزل للعساكر المنصورة نعم الصاحب، والمُورِدُ على سمعهم من الأحكام الشرعية ما يقتدي به الحاضر والغائب؛ والقائم بأعباء العساكر المنصورة، والحافظ لنظام الملك الشريف على أحسن صوره.

فليباشِر هذه الوظيفة المباركة وليُحلَّ في قضاء العساكر المنصورة بطلعه السنية ،
وليفصل بينهم في الأسفار كل قضيته ، وليرفعهم طرق القواعد الشرعية ؛ وليحترز
في كل ما يأتية ويذرّه ، ويقصده ويحذره ، ويورده ويصدّره .

والوصايا كثيرة ومنه تستفاد ، وإليه يرجع أمرها ويعاد ، ولكن لا بد للقلم
من المرح في ميدان التذكار ، والتثنية على منهاج التقوى التي هي أجمل شعار ؛
والله تعالى يمنحه من إحساننا جزيل العطاء والإيثار ، ويسمعه من أنباء كرمنا كل
أونة أطيب الأخبار ؛ بمنه وكرمه ! .



توقيع بنظر جامع يلغا الجياوى ، كتب به للامير جمال الدين «يوسف شاه»
العمرى الظاهرى بـ «الجناب الكريم» وهو :

أما بعد حمد الله الذى أظهر جمال الأتقياء في كل مشهد وجامع ، وقدمه بما أولاه
على كل ساجد ورايع ، وخصه من فضله بما قصرت عنه الآمال والمطامع ؛
والصلاة والسلام الأتمين الأكلين على سيدنا محمد عبده ورسوله مولى الخير الواسع ،
والإحسان المتتابع ، ومن أحيأ جود جوده النفوس وسر القلوب وأطرب ذكر
عظاته المسامع ؛ وعلى آله وصحبه النجوم الطوالع ، والذين أودعهم العلم الذى آتاه
لإقامة دينه من لا تحيب لديه الودائع ؛ والتشريف و [الإكرام] ، والتبجيل
والإعظام - فإن أولى من رعيناه له حق الخدم ، ووقوفه في الطاعة الشريفة على
أثبت قدم ؛ من قام بما لم يقم به غيره ، وحسنت سيرته وسيره .

وكان فلان أدام الله تعالى نعمته ، وحرس من الغير مهجته ؛ ممن جمل الممالك
ودبرها ، وضبط أموال الأوقاف وحررها ؛ وأرتفع على الرؤوس ، وحصل أموال

الأوقاف التي فطر تحصيلها أجداد الخوثة وسر من مستحقها النفوس - تعين أن نعرف له مقدار الذي لا يخفى ، ونوفيه بعض حقه فإنه الذي بالإحسان قد أوفى .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يُقبل على فضل وليه ، ويضاعف له البر المستمطر من غيث جوده ووليه - أن يستقر فلان في كذا ، على عادة من تقدمه في ذلك ومستقر قاعدته ، بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف المبرور إلى آخر وقت .

فليأشر هذه الأوقاف ، وليسلك فيها طرق العدل والإنصاف ، وليتبع شرط وأقنها - رحمه الله تعالى - المجمع على صحته من غير خلاف ؛ وليحي ما تسعت وتخرّب في الجامع المشار إليه وأوقافه بعين بصيرته ، وليقم بالمعروف من معرفته ؛ وهو أعزه الله تعالى أولى من باشره ، وعمر دائره ، وأخرى من تحرى مباره ومآره ؛ وميز أوقافه ، وتدارك بتلافيه تلافه . وهو غني عن شرح الوصايا فإنها من آدابه تُعرف ، ومن بحر أدواته تُعرف ؛ وملاكها تقوى الله تعالى الرؤوف ، فليكن على مستحق هذا الوقف عطف ؛ والله تعالى يُجزل له أجرا ، ويعمل له ما يفعله من الخير دُخرا .



توقيع بنظر ثربة أرغون شاه ، كتب به « لقجا السيوفي بوطا ، بـ » بالجناب العالي »
هو :

أما بعد حمد الله الذي بلغ الأولياء من مبراته الأمل والإرادة ، وألقى مقاليد الأمور إلى من استحق بحسن مباشرته الزيادة ، والصلاة والسلام الأتمين الأتكلين على سيدنا محمد عبده ورسوله صاحب إواء الحمد والنصر ، ومن جاءت آيات تفضيله كفلق الصبح وجملت محاسنه كل عصر ؛ وعلى آله وصحبه الذين نصره فنصرهم

الله ، وحجبه بأنفسهم عن البأس ولم يحجبه عن الناس لخفيض جناحه لمولاه ؛
والتشريف والتكريم ، والتبجيل والتعظيم .

ولما كان فلانٌ - أدام الله تعالى نعمته - هو المعروف بالأوصاف الجميلة ،
والمنعوت بالنعوت التي أتت في وصفه بكل فضيلة .

فلذلك رسم الأمر العالى - لازال إحسانه عيما ، وفضله لذوى الاستحقاق أبداً
مقيماً - أن يستقر فلانٌ في كذا ، على عادة من تقدمه في ذلك ومُسْتَقِرَّ قَاعِدَتِهِ ،
بالمعلوم الذى يشهد به ديوان الوقف المبرور إلى آخر وقت .

فليأشُر ذلك بجمته العلية ، ونسبه الأبيّه ، والوصايا كثيرة وأهمها التقوى :
فليلازم عليها فإنها تحفظه ، وبالسّيادة تحفظه ، والله تعالى يكمل وظيفته ، ويسهل
إلى نجاح المقاصد طريقه ، بحمد وآله ! .



توقيع بتدريس الجامع الأموى عوداً إليه ، من إنشاء جمال الدين بن ثبّاتة ،
كتب به للقاضى «نظر الدين المصرى» وهو :

أما بعد حمد الله معيد الحق إلى نصايه ، والغيث إلى مصابه ، والليت - وإن
غاب - إلى مُستقر غايه ، وشرف المكان إلى من هو أحق وأولى به ، وبحر العلوم
إلى دوائر محافيه فى الدروس وإلى قوى أسبايه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
الذى هاجر فرجع بغنيمته وإياه ، وطلع من ثنيات الوداع طلوع البدر المشرق
فى أنشاء سخايه ، وعلى آله وصحبه السائمين سبل صويه السالكين سبل صوايه ،
ما قطف من عُصون أقلام العلماء مُمر «البيان والتبيين» مُتشافهاً وغير مُتشافه -

فَإِنْ شَرَفَ الْكَوَاكِبِ فِي سِيرِهَا وَرُجُوعِهَا ، وَنَمُوَ تَسْعُلُهَا مَا بَيْنَ قَتَرَةٍ مَغِيْبِهَا
وَطُلُوعِهَا ؛ لَا سِيَّامَا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِمْ ، وَيُقْتَدَى بِأَنْوَارِهِمْ ، وَمَصَابِيحُ الْحَقِّ
الَّتِي تَقْدَحُ وَلَا يَقْدَحُ فِي أَرْزِدَةِ أَفْكَارِهِمْ .

وَكَانَ مِنْ قُصْدِ هَذَا التَّلْوِيحِ ذِكْرُهُ ، وَعُرِفَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى الْمَفْهُومُ نَفَرُهُ ؛ قَدْ
حُمِدَ بِمَجَالِسِ التَّصْدِيرِ بِالْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ سَلَفِ أَعْيَانِهِ ، وَقَامَ بِوُجُودِ الدَّلِيلِ
عَلَى وُجُودِ مَاضِي بُرْهَانِهِ ، وَجَادَلَ لِسَانُهُ وَقَلَمُ يَدِهِ عَنِ الشَّرِيعَةِ : وَغَيْرُهُ مِنَ الْعِيِّ
لَا مِنْ يَدِهِ وَلَا مِنْ لِسَانِهِ ؛ ثُمَّ هَجَرَ مَكَانَهُ هِجْرَةً عَلَى الْعُذْرِ مَحْمُولَةً ، وَهَاجَرَ إِلَى حَرَمِ اللَّهِ
تَعَالَى وَحَرَمِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِجْرَةً مَقْبُولَةً ؛ وَرَامَ بَعْضُ الصَّبْيَانِ التَّقَدُّمَ إِلَى
رَبَّةِ الشَّيْخِ فَقَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ، فَأَنَا مِنْ مَحْطُوبَاتِ الْكَافِرِ فَأَنَا مِنْكَ وَلَا أَنْتَ
مَنْنِي ؛ ثُمَّ حَضَرَ إِلَى مَجْلَى الْكَرِيمِ مِنْ غَابٍ ، وَرَجَعَ إِلَى مُسْتَقَرِّهِ الْأَمْثَلِ بِهِ : وَمَا كُلُّ
حِمْرَةٍ أَسَدُ اللَّهِ فَلَيْسَ كُنْ فِي ذَلِكَ الْغَابِ .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ صَلَاتُ مَرَامِهِمْ جَمِيلَةَ الْعَوَائِدِ ، جَلِيلَةَ
الْفَوَائِدِ ؛ وَأَقْلَامُهَا أَغْصَانُهَا مَمْدُودَةٌ بِهَا الرِّزْقُ فَهِيَ عَلَى الْوَصْفَيْنِ مَوَائِدُ - أَنْ يَسْتَمَرَّ
عَلَى عَادَتِهِ فِي كَذَا وَكَذَا ، وَإِبْطَالُ مَا كُتِبَ بِهِ لغيره : عَمَلًا بِاخْتِبَارِ الْحَاضِرِ ، وَاخْتِيَارِ
نَظَرِ النَّاضِرِ ؛ وَعِلْمًا بِأَنَّ هَذِهِ الْمُرْتَبَةَ لَمْ يَلْهُ إِتْقَانُ عَقْلِهَا وَنَقْلُهَا ، وَتَلَاوُفٌ فِي مَوْضِعِ
الْوَقْفِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ .

فَقُولَا لِلْمَنْوَعِ : مَا كُلُّ عِزٍّ بِدَائِمٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي طَلَبٍ بِكَمَالِ الْوُجُوبِ قَائِمٌ ؛ وَمَنْ
أَيْنَ لِهَذِهِ الرَّبَّةِ مِثْلُ هَذَا الْكُفِّ الَّذِي أَشْتَهَرَ نَفَرُهُ ، وَزَهَتْ بِهِ عَلَى الْأَمْصَارِ شَامُهُ
وَمَصْرُهُ ؟ ؛ وَهَذَا الْإِمَامُ ، وَكُلُّ مُضَاهٍ مَأْمُومٍ ، وَهَذَا الْمِقْدَامُ ، تَحْتَ عِلْمِ الْعِلْمِ وَكُلُّ
مُبَاهٍ مَهْزُومٍ ؛ وَهَذَا النَّائِبُ وَكُلُّ نِدٍّ مُشَرَّدٍ ، وَهَذَا الْكَامِلُ وَكُلُّ ضِدٍّ مُبَرَّدٍ .

فليستمر على عادته الجميلة مُجَلًّا لزمانه ومكانه ، مَكْمَلًا في وشائع العلم ما يشي
« ابن الصَّبَّاح » من ألوانه ؛ ما لِكَلِّما حرره « الشَّافِعِي » ، جازما بفعل مانصبه
« الرَّافِعِي » ، ساميًا عن وفاء الواصف : فسواء في ذكره إشراف بيان أو إشراف عي ؛
شاملاً للطلبة المعتادين بعطفه ، مُقَابِلًا للمستفتين بطائفته وأطفه ؛ باحثًا عن دُرر
الجدال بفكره إذا بحث قلم بعض المجادلين عن حَفِّه بظلفه ، داعيًا لهذا الملك
الصالحِي فَإِنَّ دُعَاءَ العالم الصالح سُورٌ من بين يديه ومن خلفه ؛ والله تعالى يُجْرِيه
على خير العوائد ، ويمدّه باقبال النعم الزوائد ؛ بمنّه وكرمه ! .



توقيع بتدريس المدرسة الدماغية بدمشق ، من إنشاء ابن نبأته ، كُتِبَ به للقاضي
جمال الدين « أبي الطَّيِّب ، الحسن بن علي » الشافعي ، وهو :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ رَافِعِ مُنَادَى الْعِلْمِ بِمُقَرَّدِهِ ، وَبَيْتِ الثَّقَى بِقَافِيَةِ سُودَدِهِ ، وَنَظْمِ
الْمُفَاخِرِ بْنِ إِذَا قِيلَ : « أَبُو الطَّيِّب » أَصْنَى الْحَفْلِ لِمُنْشِدِهِ ، وَمَشْهَدِ الْفَضْلِ بِإِمَامِهِ :
وَحَسْبُكَ مِنْ يَكُونُ « الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ » إِمَامَ مَشْهَدِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ سَيِّدِ الْخَلْقِ وَسَيِّدِهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ السَّائِرِينَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ عَلَى
جَدِّهِ ، مَا سَحَّبَ نَسِيمُ الرِّوْضِ بُرْدَهُ وَأَقْتَرَّ لَعَسُ السَّحَابِ عَنْ ثَغْرِ بَرْدِهِ - فَإِنَّ لِلْعِلْمِ
أَبْنَاءَ يَنْشُئُونَ فِي ظِلَالِهِ ، وَيَسْكُنُونَ فِي حِلَالِهِ ، وَيَفْتَرِقُونَ لِلْخَلْقِ بَيْنَ حَرَامِ الْمُشْتَبِهِ
وَحِلَالِهِ ، وَيُجَمِّلُونَ وَجْهَ الزَّمَانِ : فَلَا عَدِمَ الزَّمَانُ مِنْهُمْ جَمَالَ وَجْهِهِ وَلا وَجْهَ جَمَالِهِ ؛
تَرْتَسِفُ شِفَاهُ الْمَدَارِسِ مِنْ كَلِمِهِمْ كُلِّ عَذْبِ الْمَسَاغِ ، وَتُسَافِهُ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي فَضْلٍ
مَا هُوَ عِنْدَ الْبَلَاغِ بِلَاغٌ ، وَتُشَاهَدُ مَا خُصُّوا بِهِ مِنَ الشَّرَفِ وَالرَّاسَةِ فَلَا عَجَبَ أَنَّ
مَحَلَّهُمْ مِنْهَا مَحَلُّ الدِّمَاغِ ! .

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأساً في مدارس العلم، وهامة في أعضاء منازل ذوي الحكم والحلم؛ لا تسمو هممتها إلا بكل سامي العالمة، هامي الفضل كالغمامة، ساجع اللفظ إلا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامة، كائد للملحد مكرم للطالب ولا كيد لابن الخطيب ولا كرامة - واسطة بين العادلة والأشرية تليق بمن يكون عقد كلامه المثنى، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتين" يعني بيت النسب وبيت المسكن .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يجدد لوجوه العلم جمالا، ووجوب الحمد نوالا، ولوجود الفضل كرما ما قال قط ولا نوى : لا - أن يفوض إلى فلان - أيد الله مجده، وحرس للمسلمين أباه وأعلى بالسعادة جده - تدريس المدرسة الدماغية المذكورة : لأنه جمال العلم المعقودة على خطبته الآمال، المعدوقة بمقدمات فضله وفضله نتائج الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبة إلى الله والخلق سيما وشيمه ولا نكر : فإن الله جميل يحب الجمال؛ ولأنه العالم الذي إذا قال لم يترك مقالاً لقائل، وإذا شرح على قياسه أتى بما لم تستطعه الأوائل؛ وإذا جرى العلماء كاد «إمام الحرمين» يقول : أنا المصلي وأنت السابق، «والغزالي» : من لي أن أنسج على منوال هذا اللفظ الرائق؟ «وآبن دقيق العيد» : ليت لي من هذه الدقائق بلغه؟، و«آبن الصباغ» : هذا الذي صبغه الله من المهدي عالماً! ومن أحسن من الله صبغه؟؛ ولأنه العالم الذي أحيأ ذكر «آبن نقطة» بعد مادارت عليه الدوائر، وأغنى وحده دمشق عن أتى في النسب «بعساكر»، ولأنه في البيان ذو الانتقاد والانتقاء، والعربي الذي إن كان لرقاب الفضلاء «آبن مالك» فإن قرينه «أبو البقاء»؛ والكامل حسباً، ومثل جيده المنقود لا يبهرج، والواصل نسباً، ومثل قرعه بعد أصله : «ولله أوُس آخرون ونخرَج» .

فليباشر هذا التدريس بعزائم سريه، ومباحث تستنار منها معارف القول التبريه،
وطرائف لا تحبس بدمشق على نقداها المصريه؛ ولينصر مذهب الإمام الشافعي
رضي الله عنه فإن قومه الأنصار، وليخفّض جناحه للطلبة فطالما خفّضت الملائكة
أجنحتهم ليعصير فلا تحجب أن صار!؛ وليفدوا فيه وهو قاعد أضعاف ما أفادهم صاحب
المكان وهو واقف، وتقوى الله عز وجل أولى ما طالعه في سيرة وجهه من "عوارف
المعارف" والله تعالى يمدّه بإسعاده ولطفه، ويحوطه بمعقبات من بين يديه ومن
خلفه؛ ويضيء بارق كلمه الصيب، ويطرب أسماع الطلبة بالطيب من معاني
«أبي الطيب».



توقيع بتدريس المدرسة الركنية الحنفية بظاهر دمشق، كتب به للقاضي
بدر الدين «محمد بن أبي المنصور» الحنفى بـ «المقرّ العالى» وهو:

أما بعد حمد الله الذى أطلع بدر الدين مشرقاً فى منازل السعود، وحرس سماء
مجدّه فلا يطيق من رام جنبها الاستطراق إليها ولا الصعود؛ وجعل ركنه الشديد
فى أيامنا الزاهرة المشيد وظله الممدود؛ والصلاة والسلام الأتمين الأكلين على
سيدنا محمد ذى الخوض المورود، والكرم والجود؛ وعلى آله وصحبه نجوم الهدى
وأعيان الوجود، ما أورد عود، ومحمدت عقي الصدر والورود؛ صلاة دائمة
إلى اليوم الموعود - فإن أعلام الهدى لم تزل منشورة بمعالم العلماء، وأقطار الأرض
ما برحت مشرقة بمن تستغفر لهم الحيتان فى البحر والملائكة فى السماء، وطول
الأرض إلى فضائلهم أشد اضطراباً وأحوج إلى القرب إليهم والانتفاء؛ وكان فلان -
أدام الله تعالى تأييده - من بيت شهد الأيام مفارجه، وحمد الأنام أوائله وأواخره،

وأُصْحَتْ عِوَنُ الزَّمَانِ إِلَى مَا ثَرَهُ نَظَرُهُ ، وَغُصُونُ الْفُنُونِ بِفَرَائِدِهِ نَاضِرَهُ ، وَأَوْصَافُهُ الْجَلِيلَةُ لِلْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ بَاهِرَهُ ، وَأَصْنَافُ الْفَضَائِلِ مِنْ إِمْلَائِهِ وَارِدَةٌ صَادِرَهُ .

فلذلك رُسم بالأمر العالی - زاده الله تعالى على العلماء إقبالا ، وضاعف إحسانه إليهم ووالى - أن يستمرّ المشارُ إليه فيما هو مستمرّ فيه : من تدريس المدرسة الرُكنية الحنفيّة ، بظاهر دِمَشْقِ المحروسة ، حملاً على ما بيده من الولاية الشرعية والتوقيع الشريف : رعايةً لحانيه وتوقيراً ، وإجابة لقصده الجميل وتوقيراً ، واستمراراً بالأحقّ وتقريراً .

فليأشِرْ ذلك مباشرةً ألفت منه ، وأشتهر وصفها الزكي عنه ؛ وليوضّح للطّلبة سُبُل الهداية ، وليوصّلهم من مقاصدهم الجميلة إلى الغاية ؛ وليسلك طريقتهم والده ، فإنها الطريقة المثلى ، وليتحلّ من جواهر فرائده ، فإنها أعلى قيمة وأغلى ، ويُمثّل على الأسماع فضائله التي لا تُمَثَّل حين تُمثّل .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الخاتونية البرّانية الحنفيّة بدمشق ، كُتِبَ بها للشيخ صدر الدين «علي بن الآدمي» الحنفيّ بـ «الجناب الكريم» . وكأنّه في الأصل لمن لقبه . «بدر الدين» لأنّ البدر هو المناسب لهذا الافتتاح ؛ فنقله بعض جهلة الكتاب إلى «صدر الدين» كما تراه . وهذه نسخته :

أما بعد حمد الله الذي زان أهل العلم الشريف بصدر أخفى نُورَهُ الشُّمُوسُ ، وأعلاه - لما حازه من الشرف الأعلی - على الرؤوس ، وجعل كلّ قلب يَأْوِي إلى تبيان بيانه يوم الدُّروس ؛ والصلاة والسلام الأتمين الأكملين على سيدنا محمد الذي أذهب الله ببركته عن هذه الأمة كلّ مَكْرٍ وُبُوسٍ ، وخصّهم في الدنيا بطيب

الحياة وفي الآخرة بسرور النفوس ، وعلى آله وصحبه صلاة مُمِشَّة الغُروس - فإنَّ أوَّلَ من تَصَرَّفَ إليه الهِمَمُ ، من تَبَدُّو دلائل علمه كنورٍ لا نارٍ على علم ، وتَسِيرُ فضائله في الآفاق سِيرَ الشُّمُوسِ والأقمار ، وتَبَرُّزُ إذا يُبْدِيها صدره من حُجُبِ وأستار .

وكان فلانٌ - ضاعف الله تعالى نعمته ، وحرس من الغير مُهِجَّتَه - هو الذي أُشِيرَ إلى ما حواه صدره الكريم من الفضائل ، وأشتهر في دروسه بإقامة الحجج وإيضاح الدلائل ؛ وبرع في العلوم الدِّينية ، وفاق أبناء عصره في الصَّناعة الأدبيَّة ؛ وأنفق كثره على الطُّلاب ، فأصبح "عمدة المحدثين" وأُمسَى "مُختار الأصحاب" ، «أبو يعلى» ينزلُ ببابه ، و «أبن عقيل» يرتدُّ على أعقابه ؛ و «أبن الحاجب» يرفعه على عينه ، و «الرازى» يذخر كسبه لوفاء دينه ؛ و «أبن بطَّة» يطيرُ من مواقع سِهَامِهِ ، و «مُقَاتِل» مجروحٌ بحدِّ كلامه ؛ و «أبن قدامة» متأخِّر عن مجاراته ، و «الأثرم» يَحْرُسُ عند سماع عباراته .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - لازال يجمع لمن برع في العلوم من ألوانِ المناصب المُختلفة ، ويرفع قدر القوم الذين قلوبهم على التَّقوى مُؤْتَلَفَه - أن يستمرَّ الجَنابُ الكريم المشار إليه بالمدرسة الخاتونية البرانية الحنفيَّة ، حملاً على ما بيده من التَّزول الشرعيِّ والولاية الشرعيَّة : لأنَّه الخِلاصةُ التي صَفَتْ من الأقدار ، والعُدَّةُ ليومِ الجِدالِ إذا وَلَّى غيره الأدبار ، والمُختارُ الذي جَنَحَتِ المناصبُ السَّنيَّةُ إلى آخِياره دون من سِواه ، رَغْبَةً فيما آتاه من الفضائل وحوَاه ؛ "بِدَايَتُهُ" "نَهايةُ الطُّلاب" ، وعلومه "مُخَفَّةُ الأصحاب" ؛ إن حَدَّثَ «فابن معين» بصحَّةِ نقله يَحْيَا ، أو فَسَّرَ «فُجَاهِد» عن مجاراته يَعْيا ؛ و «الزَّمْخَشَرِيُّ» يبعُدُ عن الحِوَارِ ، و «البَغَوِيُّ» يبتغى الوقوف على الآثار ؛ و «سيبويه» عند ما يَحْوِي يقصد "التَّسْهِيلَ" من لفظه المُعْرب المُعْرب ، و «أبن عُصْفُور» يكاد يطيرُ طَرَباً لما يُبْدِيه من "المُرْقُصِ المُطْرَب" ؛

و « أبو يوسف » أصبح بَصُحْبَتِهِ مَنصُورًا ، و « محمد بن الحسن » أضحى برفعته مَسْرُورًا ؛ هو في القَدَر « على » وفي الطريقة « محمود » وفي العلوم « محمد » ، وفي النطق والحركة « سعيد » وفي النظر « أسعد » ؛ وفي النضارة « النعمان » و « طاوس » يَحُلِّيْ جزءًا من كمال خِصَالِهِ ، و « الحسن » يَقْتَدِي بحسن فعاله ؛ نَشَأَ في العِفَّةِ والصِّيَانَةِ ، وكَفَلَهُ التوفيقُ وزَانَتْهُ الأمانة ؛ فهو بَحْرُ العلوم ، ومُسْتَخْلَصُ دُرِّهَا المَكُونِ ومُظْهِرُ سِرِّهَا المَكْتُومِ ؛ لو رآه « الإمام » لَقَاسَ عُلَاهُ بِالشَّمْسِ المُنِيرَةِ ، ولو عاصر الأَصْحَابَ لَغَدَّتْ أعينهم به قَرِيرَةٌ .

فليباشِرْهُ هَاتَيْنِ الوَظِيفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ آكُتَسَتَا بِهِ بعد نُورِ الشَّمْسِ جَلَالًا ، وَلْيَلْقِ عُلُومَهُ الَّتِي يَقُولُ القَائِلُ عند سَمَاعِهَا : هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا ؛ وَلْيَعَلِّمِ الطَّلَبَةَ إِذَا أَذْهَشْتَهُمْ كَثْرَةُ عُلُومِهِ أَنْ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ، وَلْيَتَكَرَّمْ عَلَيْهِمُ بِكَثْرَةِ الإِفَادَةِ فَإِنَّ عَلِيًّا هُوَ الكَرِيمُ ، وَلْيَفُتِّحْ فِي مَبَاشِرَةِ النَّظَرِ كُلِّ مَثِيلٍ وَنَظِيرٍ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ، وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى عِمَارَةِ مَعَاهِدِهَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَدَاءِ الوُظَائِفِ بِحُسْنِ مُلَاحَظَتِهِ : لِيَزْدَادَ عند الخَلِيقَةِ جَلَالًا ؛ وَفِيهِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مَا يُغْنِي عَنْ تَأْكِيدِ الوَصَايَا ، وَيُعِينُ عَلَى السَّدَادِ وَفَصْلِ الْقَضَايَا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الْخَبِيرُ بِمَا يَأْتِي وَيَذَرُ ، وَالصَّدْرُ الَّذِي لَا يَعْدُو الصَّوَابَ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدَرٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَسِّرُ الْقُلُوبَ بَعْلُو مَرَاتِبِهِ ، وَيُقِرُّ الْعُيُونَ بِبُلُوغِ مَقَاصِدِهِ وَمَآرِبِهِ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .



تَوَقِّعُ بِخَطَابَةِ جَامِعِ جَرَّاحٍ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، كُتِبَ بِهِ لـ « شَرَفُ الدِّينِ بْنِ عَمْرٍو » بـ « المجلس العالی » وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي قَسَمَ لِلنَّارِ شَرْفًا يَتَجَدَّدُ ، وَعَطَفًا مِنَ الْفَصَحَاءِ يَتَأَنَّدُ ؛ وَعِلْمًا مَرْفُوعًا لَا يَتَعَدَّى وَعِلْمًا مَنصُوبًا لَا يَتَعَدَّدُ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِ النَّفْلَيْنِ

وصاحب القِبْلَتَيْنِ مُحَمَّد ، وعلى آله وصحبه القَانَتَيْنِ القَائِمِينَ الرُّكَّعَ السُّجَّدَ ؛ مَا عَظَّمَ
خَطِيبٌ وَمَجَّد ، وبدا في حِلْيَةِ سِيَادَةٍ وَأَهْبَةِ خُطَابَةٍ وهو على الحالين مُسَوِّد - فَإِنْ
لَصَّهَوَاتِ المنابر فُرسَانَا ، ولُصِّدُورِ المحارِبِ أَعْيَانَا ، وَلِعْيُونِ المشاهدِ أَنَاسِيَّ يَرَاعِي
منها الاستحقاق لكلِّ عَيْنٍ إِنْسَانَا .

ولمَّا كَانَ جامعُ المعمورِ يَذْكُرُ اللهَ تعالى مِمَّا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، وَوُسِّمَ
بَاهِلِ الزُّهْدِ سِمَةً إِذَا ضَعَفَتِ السَّمَاتُ تَقْوَى ؛ يَجْمَعُ الصُّلَحَاءَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَتُتَجَعِّعُ
الْفُقَرَاءَ : فَنِعْمَ الْجَامِعُ لَهُمْ وَنِعْمَتِ الزَّائِيهِ ! ؛ وَمَفْزَعُ الْعُظَمَاءِ عِنْدَ اسْتِدْفَاعِ حَرْبٍ
وَكَرْبٍ ، وَمَطْلَعُ نُورِ الْهُدَاةِ الَّذِي أَغْرَبَ فَأُطْلِعَ نُجُومَهُمْ مِنَ الْغَرْبِ - تَعَيَّنَ أَنَّ
نُخْتَارَ لَهُ الْخُطَبَاءَ وَالْأَئِمَّةَ ، وَنُتَخِبَ لِمَنْصِبِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْأُمَمَةِ ؛ وَتَنَاسَبَ حُضَارَ مِنْبَرِهِ
بِصَاحِبِ عُلُومِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ وَإِمَامِهِمْ ، الْمُسْرُورِينَ بِهِ يَوْمَ يَأْتِي كُلُّ أَنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .

فُورْسَمَ بِالْأَمْرِ - لَازَالَتْ أَعْوَادُ الْمَنَابِرِ يَذْكُرُهُ أَرْجَاهُ ، وَأَعْلَامُهَا كَالْأَلْسِنَةِ بِحَمْدِهِ
لَهْجَةً - أَنْ يَفُوزَ لِفُلَانٍ عِلْمًا بِاسْتِحْقَاقِ شَرْفِهِ لِهَذِهِ الرَّتَبَةِ ، وَصُعودِ
هَذِهِ الذَّرْوَةِ وَالْمُهْضَبَةِ ؛ وَلِأَنَّهُ الْأَوَّلَى بِدَرَجَاتِ الرَّتَبِ النَّفَاسِ ، وَالْأَجْدَرُ بِجَنَى فُرُوعِهَا
الْمَوَائِسِ ؛ وَالْإِمَامُ عَلَى الْحَالَيْنِ إِذَا قَامَتْ صُفُوفُ الْمَسَاجِدِ وَإِذَا قَعَدَتْ صُفُوفُ
الْمَدَارِسِ ، وَالْعَرَبِيُّ الَّذِي إِذَا رَفَى ذِرْوَةَ مِنْبَرٍ أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ لَفْظَةُ فَارِسٍ ؛ وَالْوَرَعُ
الَّذِي آثَرَفِي مَنَاصِبِهِ الْبَاقِيَّةَ عَلَى الْفَانِيَةِ ، وَمَنَابِرِ الْحُكْمِ الْمُضِيئَةِ عَلَى مَرَاتِبِ الْحُكْمِ
الْمَاضِيَةِ ؛ وَعَلَى مَجَالِسِ الدَّعَاوَى بِمَجَالِسِ الدَّعَوَاتِ ، وَعَلَى مَقَامِ الصَّلَاتِ مَقَامِ
الصلوات ؛ وَعَلَى الْقَضَاءِ الْقَرَضِ ، وَعَلَى الرَّحْبَةِ ^(١) وَلَوْ كَفَّحِصَ الْقَطَاةُ مِنَ الْأَرْضِ ؛
وَعَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا الْقَلِيلِ جَوْهَرِ الْفَضْلِ الْكَثِيرِ ، وَعَلَى "كِتَابِ أَدَبِ الْقَاضِي"
"كِتَابِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ" .

(١) لعله وعلى الرحبة المحل الأرق ولو الخ

فليأشِرْ هذه الوظيفة المباركة : خطيباً تَدْرَأُ مواعِظُهُ الخُطُوبَ ، وَاِعْظَا من قَلْبٍ
تَقَى تَصِلُ هدايا تُقَاهِ إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنايرُ تَهْتَرُ طَرَبًا بَيَانَهُ ، نَجِيحًا تكاد
أَجْنَحُهُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بِمَكَانِهِ ؛ شَامِلًا بِنَفَحَاتِ فَضْلِهِ النُّوَاسِمَ ، كَامِلًا ! لو تَقَدَّمَ
زَمَانُهُ لَمْ يَقُلْ : « فلا الكَرَجُ الدُّنْيَا ولا النَّاسُ قَاسِمٌ » ؛ والله تعالى يَسُدُّ أَقْوَالَهُ
وأَفْعَالَهُ ، ويرْفَعُ على المنابرِ والرُّتَبِ والمراتب مقامه ومَقَالَهُ ، وَيُمَتِّعُهُ بهذه الرُّتَبَةِ التي
أَشْبَهَتْ مَعْنَى في الخلافة : « فلم يكن يصلحُ إلَّا لها ولم تكن تصلحُ إلَّا له » .

المرتبة الثالثة

(من توابع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دِمَشْقَ -

ما يفتتح بـ «رسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بالتدريس بالجامع الأموي والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين
أَبْنِ نُبَاتَةَ ، كتب بها للشيخ «نُحْرُ الدين المصري» أَسْتَمَرَّارًا ، بـ «المجلس العالي» وهي :
رِيسَمُ بالأمر الشريف - لا زال لدَوْلَتِهِ الفَخْرُ على الإطلاق ، والمَنْ على الأعناق ،
والكَرَمُ لطالبي الإرفاد والإرفاق ، والتَّكْرِيمُ والتَّقْدِيمُ لذوي التَّاهِيلِ والأَسْتِحْقَاقِ ؛
ولا بَرَحَتِ النِّعَمُ الثَّابِتَةُ للسَّاجِدِينَ بِمَدْحِهِ الْمُطْرَبِ قَائِمَةٌ مقام الأَطْوَاقِ - أن يَسْتَقَرَّ
فَلَانٌ نفع الله ببقائه ، ورفعُ عِيُونِ الأَنْجَمِ لدرجات أَرْتِقَائِهِ ؛ : لفوائده
التي شَمِلَتِ الْوَرَى ، وَعَلَتِ الذُّرَا ، وَحَدَّتِ الْأَفْهَامُ عند صَبَاحِهَا السُّرَى ، وَقَعَدَ بِهَا
مُسِيلُ ذَيْلِ الْحَيَاءِ وسار بِذِكْرِهِ من لا يَسِيرُ مُشْمَرًا ؛ وَمَنْزَلَتِهِ التي نَصَبَتْ لِلْهُدَى
عَلَمًا ، وَأَلْفَاظُهُ التي أَعْرَبَتْ عن بدائع بَهْرَتِهَا فَمَاتَحَ بِمَثَلِهَا الْعُلَمَاءُ قَسًا ؛ وَأَسْنَدَ بَطْنَهُ

الذى يقول للأول : قال وقلتم ، وأقام وزُلتُم ؛ واحتياطه الذى يقول للسائلين :
 أهبطوا من أنتساب حلقته مضراً فإن لكم ما سألتم ؛ وأنه الفاضل الذى ما استنار
 بعلمه فتى فتاه ، والنافع الذى ما استطب بكلماته سقيم ذهن فلما تحركت شفتاه
 شفتاه ؛ كم جلس للأشغال فتى أنفُس المارة عن أشغالها ! ، ونصر العلم فى حلقته
 المجنّدة فكان من أمرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ؛ كم سلم لبيان بحثه
 الحقيقى والمجازى ! ، وكم سطرّت لمناظرته الحمديّة مع أهل الزيّج سير ومغازى ! ،
 وكم خلاص دينار فهمه المصرى على النقد فهيات أن يروى مثله «الرازى» ! ؛ كم نفرت
 مضرباً بنسابه ! ، ودمشق بسقيا سخابه ! ، وكم قال الرازى : لیت لی هذا الفخر
 فأروى فى الأول بقى خطيبه وفى الآخر بقى خطابه .

فليستمر - نفع الله به - على وظيفته المأثورة ، وحلقته التى نصبت على مصاديد
 كلماته المشهورة ، ومائدة علمه المنصوبة وذبول منافعها فى الآفاق مجرورة ؛
 وليؤاظب على جلوسه بالجامع المشرح المشروح ، ودرسه المتضمن فتح أبواب العلوم
 وغيره كما يقال : على المفتوح ؛ سالكا من نهج الإفادة مسالكه ، مكثراً بأجنحة فتاويه
 الطيارة ما يبسط لديه من أجنحة الملائكة ؛ متصرفاً على عادة عبادته فى مواطن العلم
 والعمل ، مستنداً فى جلسته إلى سارية يقول لها وقاره وحلمه : يا سارية الجبل
 الجبل ، داعياً لهذه الدولة الشريفة : فإن دعاء العالم مثله طائر لآفاق القبول من
 أوكار القبل ؛ والله تعالى يمدّه بعونه ولطفه ، ويحوط مجالس علمه بالملائكة المقرّين
 من بين يديه ومن خلفه ؛ بمنّه وكرمه ! .



وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسة القضاة ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به
 لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحنفى المقرئ بـ«المجلس السامى» وهى :

رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زال يقدّم من العلماء أنفرهم ذكراً، وأحدهم أمراً،
وأفصحهم نسب فضائل وفضائل نسب يقول الاستحقاق : كَلَاهُمَا وَتَمَرَا - أَنْ
يَرْتَبَ فَلَانٌ ... : لما شهِر من علومه السَّيِّئَةِ ، وفوائده السَّيِّئَةِ ؛ ووجوه فضائله
الحَسَنَةِ ، وعيون كَلِمَاتِهِ المُنِيقَةِ إِذَا كَانَتْ بَعْضُ الْعُيُونِ مُسْتَوْسِنَةً ؛ وَلِأَنَّهُ غَرِيبٌ
فِي الْوَصْفِ وَالْمَكَانِ ، وَصَاحِبُ عِلْمٍ لَا يَكَادُ يُوجَدُ لَهُ شَقِيقٌ وَإِنْ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى
« النَّعْمَانِ » ؛ وَإِمَامُ قِرَاءَاتٍ ثَبَتَتْ لَهُ فِيهَا عَلَى « أَبِي عَلِيٍّ » الْحُجَّةُ ، وَتَوَضَّعَتْ بَيَانُهُ
الْحُجَّةُ ؛ وَتَعَيَّنَ مَحَلُّهُ الْأَثِيرُ ، وَرَوَى الطَّالِبُ مِنْ عِلْمِهِ عَنْ « نَافِعٍ » وَمِنْ ذَهْنِهِ
فِي الْفَوَائِدِ عَنْ « أَبِي كَثِيرٍ » ؛ وَأَنَّهُ نَحَرُ الْحَنْفِيَّةِ الْقَائِمُ فِي السَّمْعَةِ مَقَامُ « رَازِيهَا » ،
الْمُطَلَّ بِمَنْسَرِ قَلَمِهِ عَلَى الْمَعَانِي إِطْلَالَ بَازِيهَا ؛ « الْأَكْمَلُ » الَّذِي لَهُ مِنْ عُلُومِ صَدْرِهِ
خِرَازِنُهُ ، « الصَّدْرُ » الَّذِي كُلُّ صَدْرٍ يَشْهَدُ لَهُ بَعْلُو الْمَكَانَةِ .

فَلْيَاسِرْ تَدْرِيسَ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْمُبَارَكَةِ : حَقِيقًا بِجُلُوسِ صَدْرِهَا ، خَلِيقًا بِتَجْدِيدِ
شَرَفِهَا وَذِكْرِهَا ؛ مُظْهِرًا لِلْحَبَايَا النُّكْتَ فِي زَوَايَاهَا ، جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ فِي خَفَايَا
الْمَسَائِلِ أَبْنُ جَلَالِهَا وَطَلَّاعُ شَايَاهَا ؛ يَمَلَأُ بَيَانَ بِحُوثِهِ فِكْرَ الْوَاعِي وَسَمْعَهُ ، وَيُسِيرُ
بِنَانَ قَلَمٍ فُتْيَاهُ مَا يَتَجَدَّدُ لَهُ مِنْ رِفْعَةٍ ، وَيَسُطُّ إِدْلَالَ الطَّلِبَةِ حَتَّى يَأْكُلُوا فِي الْقَصَاعَةِ
مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَسِّرْهُ مِنْ مَدَارِسِ الْحَنْفِيَّةِ بِهَذِهِ الْبُدَايَةِ ، وَيُقِرَّهُ بِمَا
يَتَجَدَّدُ مِنْ وَظَائِفِهَا التَّالِيَةِ : (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ) بِمَنَّةٍ وَكَرَمٍ ! .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الطرخانية، من إنشاء ابن نباتة، كتب به
للقاضى جمال الدين «يوسف الحنفى» بزيوٍ من والده، وهى :

رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زالت مَوَاطِنُ الْعِلْمِ مُكَمَّلَةً بِذِكْرِهِ ، مُبَجَّلَةً بِأَمْرِهِ ،
 مُؤَهَّلَةً لِكُلِّ يَوْسُفَ الْجَمَالِ يَذْكُرُ عَزِيزُ شَامِهِ عَزِيزُ مِصْرِهِ - أن يستقرَّ فُلَانٌ فِي كَذَا ،
 بِحُكْمِ مَا قَوَّرَهُ مَجْلِسُ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ الشَّافِعِيِّ ، وَنِعْمَ الْمَالِكُ لِمَذْهَبِ شَافِعٍ ، وَاتِّبَاعًا لِمَا
 حَرَّرَهُ الْجَنَابُ الشَّرِيفُ التَّقْوِيُّ ذُو النَّسَبِ الصَّحَابِيُّ الَّذِي كُلُّ أَمْرٍ لِأَمْرِهِ تَابِعٌ ،
 وَعَمَلًا بِمَا رَأَاهُ الرَّأْيُ الْكَرِيمُ الَّذِي إِذَا كَانَ الْجَمَالُ شَافِعًا كَانَ هُوَ لِلْجَمَالِ شَافِعًا ، وَإِذَا
 أُنْشِئَ مِنْ أَبْنَاءِ الْعُلَمَاءِ فُرُوعًا [لا] تَمِيلُ عَلَيْهِمُ الْأَيَّامُ مِيلَهُ ، وَإِذَا وَقَفَتْ فِي طَرِيقِهِمْ
 الْأُنْدَادُ قَالَ اقْتِصَارُ نَسَبِهِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا بِيَّ اللَّهُ ذَاكَ وَبَنُو قَيْلَةٍ ؛ وَقَبُولًا لِنَزُولِ^(٢)
 هَذَا الْوَالِدِ الَّذِي أَعْرَقَتْ فِي آفَاقِ الْعِلْمِ مَطَالِعُهُ ، وَإِقْبَالًا عَلَى هَذَا الْوَلَدِ الَّذِي تَجَحَّتْ
 فِي أَسْتِحْقَاقِ التَّقْدِيمِ مَطَامِعُهُ ؛ وَعِمَامًا بِخِجَابَةِ هَذَا الْفَاضِلِ الَّذِي طَابَ أَصْلًا وَفِرْعًا ،
 وَقَدَّمَ نَفْسَهُ وَالِدَهُ وَتَرًّا وَشَفْعًا ؛ وَهَذَا الْبَادِي الشَّيْبَةِ الَّذِي يَأْمُرُ بِفَضَائِلِهِ عَلَى
 الشَّيْبِ وَيَنْهَى ، وَهَذَا الْوَاضِحُ الدَّلَالَةِ عَلَى مَفَاخِرِ قَوْمِهِ : حَبْدَا الدَّعْوَى وَبَيْتَهَا
 مِنْهَا ؛ وَهَذَا النَّجِيبُ الَّذِي قَدَّمَهُ أَبُوهُ مُنْجِبًا ، وَذَكَأُوهُ مُعْجِبًا ؛ وَقَلَمُهُ فِي الْأَوْرَاقِ
 مُعْشِبًا ، وَأَشْتَغَالُهُ : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيُّسَ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ مِنْ مَحْفُوظَاتِ كُتُبِي
 مَا يَقَارِبُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ؛ وَإِذَا دَرَسَ كَانَ لَطَلَبَتُهُ مَلَاذًا ، وَإِذَا عَانَدَهُ مُعَانِدٌ قَالَ
 بَرَفِيعَ هِمَّتِهِ : يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنِّي هَذَا ؛ وَإِذَا قَرَأَ كُتُبَ فَصَاحَتِهِ أَذْهَلَ ذَوِي
 الْأَلْبَابِ ، وَإِذَا فَتَحَ لِتَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ فَاتِحَةً ، عُوذَ بِفَضْلِ : ((أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابِ))
 وَإِذَا رَوَى الْأَحَادِيثَ أَطْرَبَتْ حَقِيقَتُهُ السَّمَاعَ ، وَإِذَا أَخَذَ فِي دَقَائِقِ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ
 عُلِمَ وَعُقِلَ أَنَّ الْفِكْرَةَ صَنَاعٌ .

(١) فِي الْقَامُوسِ «أَهْلُهُ لَذَلِكَ رَأَاهُ لَهُ أَهْلًا» .

(٢) هِيَ قَيْلَةُ بِنْتُ كَاهِلِ أُمِّ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ .

فليباشر هذه المدرسة المباركة ببيان عربي وإن كان نسبها طرخانياً ، وعلم روضي لا يعرف العلماء شقيقه وإن كان مذهبه نعمانياً ؛ ومباحث تذكى نار قريحته : فكم طبع لأنداده من أصحاب «القدوري» قدراً ، ولزوم دريس يسر أباه بمذهبه : فإنه القاضي «أبو يوسف» خبراً في الحقيقة وخبراً ؛ والله تعالى يصون شيبته المقبلة من طوارق الحدثنان ، وينفع علوم بيته التي من شك منها في الحق فكأنه من الحدثنان .



وهذه نسخة توقيع بتصدير بالجامع الأموي ، من إنشاء ابن نبأته ، كتب به لـ «شمس الدين بن الخطيب» وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت نعمه ظاهرة الفضل كالشمس ، طاهرة الوضوح من دنس اللبس ، وافرة النمو فيومها قاصر عن الغد زائد على الأمس - أن يرتب فلان في كذا ويرتب له كذا على المصالح ، فكم للسلمين في جامع علمه مصالح ، وفي منافع قصده مناجح ؛ وفي فوائده نصيب ، وفي طرق هدايه معالم : ولا تشكر "المعالم" لأبن الخطيب ؛ ليتناول هذا الراتب المستقر من أحل الجهات وأجلها ، وتكون شمسه المباركة خير شمس تجري لمستقر لها ؛ عوضاً عما نزل عنه من تدريس الحلقة المعدوقة بصاحب حمص وتصديراً بالجامع الأموي ييسر به أنواره الشمسية ، وينقل اسمه إلى إمرة العلم بدمشق عوضاً عن الحلقة الحصرية ؛ فليعتمد ما رسم به ، ولا يتحول عما قضى العدل والإحسان بموجبه .

الضرب الثاني

(من تواقع أرباب الوظائف الدينية بالشام -

ما يكتب به لمن هو بأعمال دمشق ، وهو على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح به «أما بعد حمد الله» وفيها وظائف)

توقيع بتدريس المدرسة النورية بدمشق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ،

كتب به للقاضي زين الدين «عمر البلقاني» بـ «المجلس العالي» وهو :

أما بعد حمد الله الذي جعل لأوجوه العلم زيناً وأى زين ، وأقرلاً ما كنها عيناً
بمن يكون التنبيه على فضل مكانته فرض عين ، ونشر أحاديثها بمن إذا حدث عن يد
تمكنه في العقل والنقل قيل : صادق «ذو الدين» ، وأحيا مذهبها بمن إذا عقدت
الخصاصر على أمثاله العلماء كان أول العمد وثاني الغيث وثالث «العمرين» ؛
والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أوضح تبين الهدى وسنه ،
وأرهف شبا الحق وسنه ، وعلى آله وصحبه الذين منهم «علي» مفتاح مدينة العلم
و«عمر» سراج أهل الجنة ، ما جرت أقلام العلم والجود في هذه الأيام الصالحة
طلقة العنان مطلقة الأعنة - فإن أولى العلماء بمدارس علم لا خلت ، وبجائس
فهم عزت بأهلها فلا تعزلت ، ومشاهد عقل وتبلي لأعقلت ألسنتها بعد مستحقها
ولا انتقلت - من أضاءت مشكاتها النورية بمصابيح كلمه ، وفتحت كمامها النورية
عن زهرات الهدى بقطرات قلبه ، وتذكرت بأوقاته الأخيرة عهد أهلها من هداة
الاسلام وأوقات ذى سلمه .

ولمّا كان فلانٌ هو المقصودُ بخلاصة هذا المعنى، والممدودُ إليه نظرُ هذا الوصفِ
 الأسنى؛ والعالمُ الذي تشبّهت بأسباب محاسنه بلدُ «الهرمين»، والسابق وإن خلا
 وقته الطاهرُ خلف وقت «إمام الحرمين»؛ كم أجتنى ثمر الفوائد من أصلٍ وفرع؛
 وكم بات قلمه من ورقٍ فتاويه وإسكاتٍ مناويه بين وصلٍ وقطع؛ كم صدق برقُ
 بديته الأفكار حين شامت؛، وكم نبهت عند ليالي المُشكلات «عمر»^(١) ثم نامت؛
 وكم تهادت نظره كُتب العلم حتى قال «كتاب الأم» : نعم الولدُ العجيب، وقال
 «كتاب الروضة» : نعم أخو الغاث الصائب على رياض القول المصيب؛ وقال
 «الشامل» من فضله : هذا طلبته «نهاية المطلب»، وقال «التنبيه» على محاسنه :
 لَيْتَ «النايعة» رآه فدرى أى الرجال «المهذب» وكانت المدرسة الشهيديّة النوريّة
 بمحض المحروسة قد شهدت مع من شهيد بفضله، وسعدت ببُنبله، ووُسمت بعلم
 علمه، وسمت سموّ الشهباء : هذه بمقرّ تدرّيسه وهذه بمجلس حكمه؛ ثم زار دمشق
 زورة تشوّقت [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتشوّقت إلى العودِ هاتيك المعاهد؛ وقضى
 الوفاء أن يعاد إليها أحسنَ إعادته، وأن يرجعَ إلى الأماكن الشهيديّة الشاهدة بیره
 فتكون منه عادةً ومنها شهادته، وأقتضى الاستحقاق أن يردها بالمعلوم المستقرّ وزيادة
 وأحسن ما وُردَ البحرُ في الزيادة .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - أعلاه الله وشرفه، وحلّى بسيره الصالحة سمع
 الدهر وشمّقه - أن يستقرّ فلانٌ في تدرّيس المدرسة النورية بمحض المحروسة على

(١) يشير الى بيت بشار في مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدي .

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبهه لها عمراً ثم نم

وبعد

فنى لا ينام على غرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلى نهج إفاءته وإفادته ؛ بالمعلوم المقرر له مجلس الحكم العزيز الشافعي
بدمشق المحروسة : رعاية لتلك المعاهد النورية التي تتأرجح بها الآصال والبكر ، وأنوار
القبول القائلة لوفدها الطارق : «عليك سلام الله يا عمر» .

فليعد إلى هذه الوظيفة عود الحلي إلى العاطل ، وليقبل على رتبته المرتبة إقبال
الغيث على الماحل ، وليقل بلسان تقدّمه لمعانيه : إن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى
خص في قابل ؛ ولينصربقاعها الحصىة بجلاذ جداله فإنها من أول جند الإسلام ،
وليقيم الآن في هذه الأوقات الشامية فإنه بركة الوقت والبركة في الشام ؛ ثمراً من
أقلام علومه أزكى الغروس ، مظهرًا من مباحثه النفائس مبهجًا من طلبته النفوس ،
عامراً لمعاهدها بدروسه : وياعجباً لمعاهد تعمّر بالدروس ؛ ذاكرًا للوصايا الحسنة
التي لا تقص عليه فهو أخبر بها ، والتي من أولها وأولها تقوى الله تعالى وهي
بأفعاله أمسك من تفاعيل العروض بسببها ؛ والله تعالى يعضده في رحلته ومقامه ،
ويمتع الرتب تارة يجالس دروسه وتارة يجالس أحكامه ، ويروى صدق مضر
والشام من موارد علمه : هذه بأوفى من نيلها وهذا بأوفر من غمامه .

المرتبة الثانية

(من توابع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دمشق -

ما يفتتح بـ «رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بحسبة بعلبك : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كتب بها

لـ «شهاب الدين بن أبي النور» ، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لازالت شُهْب أوامره عالية السَّنا والسَّناء، وَفِيَّةً لَدَوِي
الاستحقاق بمزيد الاعتناء والأغْتناء، جَلِيَّة البرِّ بمن شهد بحُسْنِ حِسْبته حتى لسانُ
الميزان وفم الكَيْل وَشَفَةُ الإِناء - أن يستمرَّ فلانُ ... لِمَا ذكر من أوصافه التي
ضاعفت فيه الرَّغْبَة، وحالفت به سُمُو الرُّتْبَة، وشهدت بها حِسْبته تَلو الشُّهُود :
وحسبك من أجمعت على فضله شهادة الفَرَض وشهادة الحِسْبَة، ولِمَا صحَّ من
كفائه وتجربيه، وَوَصَح في هذه الوظيفة من تدرِّيسه التي تدرِّى به، ولِمَا تعيَّن
من استمرار شهابه في المنزلة التي تكتسب من أضوائه وتكتسب، وهذه الرتبة التي
تعلو بمعرفته : وكفاه أنه يرزق من حيث يُحْتَسِب ومن حيث لا يُحْتَسِب ! ؛ وأنه
فيها ذو الرَّأْي الرَّائِد، والنَّفْع الوارد، والشَّهابُ الذي نُورُهُ دَء في وجه المريد وأثرُ
كَيِّ حِسْبته في وَجْه المارد ؛ وأنه وَلِيَّهَا وَلَايَةٌ لا تزال تُذكر وتُشكر، وعُرفَ بوفائها
وكان أوفى من أمرٍ معروف أو نهي عن مُنكر ؛ وأنه قام حقَّ القيام حتى قال
البلد : رعى الله زمانك، وأجتهد حتى قال الاعتبار للميزان : لا تُذكر الزَّيغ
ولا تُحرَّك به لسانك .

فليستمرَّ في حِسْبته المباركة استمراراً يُستحلُّ ذِكْرُه، ويُستجلى في الأسمِ شهابه
وفي السَّمة بدُّه، وليُحْتَسِب في نفع المسلمين حِسْبَةً يُحْتَسَبُ بها عند المملكة ثَناءه
وعند الملائكة أجره ؛ سالكا على نهج العزم الجليل، جاعلاً أولَ نظره من أقوات
الرَّعِيَّة في الدَّقِيق والجليل ؛ مُستَبِيناً لما ألبس من غِشِّ المطاعم والمشارب فلم يَسْتَنِ،
حاكماً - ولا سِيماً في قاعات بعلبك - بِرَأْيٍ يَفَرِّق بين الماء واللَّبَن ؛ حاثاً على بيع
المالِ كُلِّ بَخْرَةٍ من مَلَأ بصره، حريصاً على أن لا يُنشد لِسَانُ الدَّاخل فيه « ومن لم
يَمِتْ بالسَّيف مات بغيره » ؛ دافعاً ضرر المُجْتَرى البائع عن المُشْتَرِي المسكين، ذِكْياً
فيما يُدَكِّي فيسْدَج بَسْكِين ويذبح مُتناوله بغير سَكِين ؛ قاضياً بالحق في كلِّ ما يُشْتَرَى

وبياح، متكئاً في أنواع الملابس وغيرها بالبائع والذراع؛ وأزناً بالعدل في كل مؤزون ومكيول، رادعاً لكل عمال مدهين في كل مدهون ومعمول، حاملاً على الحال المستقيم كل حى لديه وكل من هو على آلة حذاء محمول؛ ومن زاد في الإضرار فليمنع زائده، ومن زاد في الاشتطاط وتجبير الشراء فليقطع بالنكال زائده؛ ومن دس في الأثرة فلا يلبث أن يغلط التأديب وأن يريقه، ومن سقى الضعفاء منها كما يقال: سقية فليسقه من السوط ما يكاد ينثر جسمه على الحقيقة؛ ومن عانى صناعة ليس له فيها يد فليزيمه بما بسط في إفساده اليدين، ومن حكم في صناعة الطب بما لم يسغ في المسائل فليصرفه منها بحفى حنين؛ ومن تمرّد في معاملته فليرده بالقهر إلى صالح مرده، ومن عدا وعنا فليعامله بما يخرج من الترح لا من الفرح من جلده؛ مقدماً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا جرع، مستعيناً بالديوان فيما أهم؛ فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع؛ مجتهداً فيما يزيد تقدّم سعيه المشكور، وصنعه المبرور، منيراً لآفاق منصبه وكيف لا وهو الشهاب بن أبي النور؟؛ وتقوى الله تعالى هي السيل الأقوم فليكن لها منهاجا، وليواظب على طريقة الحق؛ فكم شرعنا حاد وكم خير منها جا ! .



توقيع بنظر السبيل بدرج الحجاز، بالركب الشامى، من إنشاء ابن نباته، كتب به للقاضى «قطب الدين السبكى» وهو :

رسم بالأمر - لا زال يُقر بالوظائف الدينية من يحبها ويحبّه، ومن يتوارد على ذكره بادی الشكر وركبه، ومن إذا بدت مطالع الخير فهو نيره وإذا دار فلک الثناء فهو قطبه - أن يستمر ... : لما ذكر من وصفه الجميل، واستحقاقه الذى دلّ عليه

البرهانُ في مُحْفَلِهِ وبرهَنَ في مَوْكِهِ الدليل ؛ وِدِيَانَتِهِ التى هى لمباني الأوصاف الرِّفِعة
 أُسَاسٌ ، وكَفَاءَتِهِ التى لها من نَفْسِهِ نَصٌّ ومن نَفْسٍ قومه قِياس ؛ ومَرَبَاهُ فى بَيْتِ
 تَقَى صَحَّتْ تَجَارِبُ مَعْدِنِهِ على السَّبْكِ ، و [دلت] مَنَاقِبِهِ على اَسْتَحْقَاقِ الرَّتَبِ التى يقول
 بَشِيرُهَا : قِفَا نَبْتَسِمُ ! ويقولُ حَاسِدُهَا : قِفَا نَبْكُ ؛ وَلِمَا تَقَدَّمَ من تَشَوُّفِهِ لهذه
 العِزَّةِ النَاجِحِ ، وتَشَوُّفِهِ من هَذِهِ المَبَرَّةِ الشَّرِيفَةِ الصَّالِحِيَّةِ بِسُلُوكِ تِلْكَ الفِجَاجِ
 الصَّالِحِ ؛ ولأنَّ الضَّعْفَ عَاقِبَهُ عن المَاضِى فَأُطْلِقَتْهُ الآنَ هَذِهِ القُوَّةُ ، وجعلتْ له
 بَأَوْفَى القَادِرِينَ على الحَسَنَاتِ والإِحْسَانِ أُسْوَهُ ، ومِغْنَتَهُ فى هَذِهِ الشُّقَّةِ الطَوِيلَةِ
 على سَبَبِ أَذْيَالِ المَعْرُوفِ من مَنزِلِ الكُسُوفِ إلى مَنَازِلِ ذَاتِ الكُسُوفِ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الوُضُوفَةَ المَبْرُورَةَ بِعِزِّ مَن يُمِيرُ من الوَجْدِ مَا كُنْهَ ، وَحَزْمٍ يُثِيرُ من المَدَحِ
 المَشْكُورِ كَامِنَهُ ، وَسُمْعَةٍ على أَلْسِنَةِ التَذَكَارِ يَمُضَى وَتَبْقَى حَتَّى تَكَادَ تَكُونُ لِلْكَوَاكِبِ
 السَّبْعَةِ نَامِنَهُ ؛ مُتَّصِرَفًا فى الإِرْفَادِ والإِرْفَاقِ ، بَأَرَاءِ يُؤَيِّدُ اللهَ [بها] الذين هم رِفَاقُ
 وَأَيُّ رِفَاقٍ ؛ مُنْفِقًا فى سَبِيلِ الله على يَدِهِ أَعْدَلَ إِنْفَاقٍ ، حَامِيًا عَدْلَهُ من لَفْظَةِ نِفَاقٍ ؛
 مُحْصِبًا بِإِنْعَامِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ فى القَفْرِ المَاحِلِ ، حَامِلًا لِلنَّقْطِ على أَنهَضِ وَأَبْرَكِ
 الرَوَاحِلِ ؛ مُوَاصِلًا لِنَقْلِ الأَزْوَادِ إِقَامَتَهُ وَمَسِيرَهُ ، وبالماءِ والشَّرَابِ الطَّيِّينِ الطَّهُورِينَ
 ضَعِيفَهُ وَفَقِيرَهُ ، وبأنواعِ الأَدْوِيَةِ والعَقَاقِيرِ التى تَعُمُّ مَتَابِعَ الرِّكْبِ [و] عَقِيرَهُ ، وَتَجَبَّرُ
 على الحَالِينِ كَسِيرَهُ ، وبوَفَاءِ جَمِيعِ المَسْتَحِقِّينَ تَالِيًا عن لِسَانِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ :
 ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ دَاعِيَا بِجُلُودِ مُدْكَهَا فى تِلْكَ المَشَاهِدِ
 التى هى بَقْبُولِ مَصَاعِدِ الدَّعَوَاتِ وَزُؤُولِ مَوَاعِدِ البَرَكَاتِ جَدِيرَةٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَقَبَّلُ
 دَعَاءَهُ وَسَعِيَهُ ، وَيُحَسِّنُ كَلَاءَتَهُ وَرَعِيَّةَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! .

الصنف الثالث

(من التواقيع التي تُكتب لأرباب الوظائف بِدمشق - ما يكتب لأرباب
الوظائف الديوانية، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب لمن بحاضرة دمشق منهم ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتح بـ «الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بكتابة الدست بِدمشق ، كُتب به لتاج الدين « عبد الوهاب »
ابن المنجا التنوخي ، عوضاً عن شمس الدين « محمد بن حميد » بالوفاة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل تاج الأولياء أيما حلّ حلّ المراتب وزانها ، وغدا على التحقيق
كُفأها ووزانها ، وألبسها من براعته ويراعته عقوداً تزرّ دُررها وجمانها ، ومنح
دستها العليّ من ألفاظها المجدية بيانها ، وزادها بأصالته نفاًراً يستصحب وقتها
وزمانها ، وأرتقى ذروتها التي طالما زاد بالمعالي أركانها ، فنبواً بمزيد المجد مكانها .

نحمده على نِعَمِهِ التي أجزلت إحسانها ، وأجملت أمّتنا ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة تشهد القلوب إيمانها ، ويدّخر القائل إلى يوم المخاف
أمانها ، ويتنبأ بها في الدار الآخرة من يُخلص فيها جَنّاته جنّاتها ، ونشهد أن سيدنا
محمداً عبده ورسوله الذي أظهر الله تعالى به الشريعة المطهرة وأبانها ، وشرف هذه
الأمة ورفع على جميع الأمم شأنها ، وبعثه رحمةً إلى كافة الخلق فأقام بمعجزاته دليل

الهِدَايَةِ وَبُرْهَانَهَا ، وَأُطْفَأَ بُنُورُ إِرْشَادِهِ شَرَّ الضَّلَالَةِ وَنِيرَانَهَا ، وَأُنْجِدَ بَدِينَهُ الْقَوِيمَ
وَصِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ مُعْتَقِدَاتٍ [طَوَائِفَ] الشَّرِكِ وَأُذْيَانَهَا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَزَهَّى نَفْسُهُ النَّفِيسَةَ وَصَانَهَا ، وَسَلَكَ فِي خِدْمَتِهِ وَصُحْبَتِهِ
الطَّرِيقَةَ الْمُثْنَى فَأَحْسَنَ إِسْرَارَ أُمُورِهِ وَإِعْلَانَهَا ، صَلَاةً دَائِمَةً بَاقِيَةً تَحْمَدُ بِالْأَجُورِ
أَقْرَانَهَا ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ جَدَّدَنَا رِفْعَةً تَاجِهِ ، وَسَدَّدَنَا قَوْلَهُ فِي مَجْلِسِ عَدْلٍ يَنْشُرُ فِيهِ
بِكَلِمَةِ الْحَقِّ مَا أَنْطَوَى مِنْ أَذْرَاجِهِ ، وَحَدَّدَنَا لَهُ مَحَلَّ سَفَارَةٍ يَلْحَظُ فِيهِ حَوَائِجَ السَّائِلِ
فِيُغْنِيهِ عَنِ الْحَاجَةِ وَجَلَّاجِهِ - مَنْ هُوَ فِي السُّؤْدُدِ عَرِيقٌ ، وَلِسَانُهُ فِي الْفَضَائِلِ
طَلِيقٌ ، وَقَلَمُهُ حَلَّى الطُّرُوسِ بِمَا يَقُوقُ زَهْرَ الرِّيَاضِ وَهُوَ لَهَا شَقِيقٌ ، وَكَانَ فُلَانٌ
هُوَ الَّذِي عَلَا تَاجَهُ مَفْرِقَ الرَّاسِ ، وَجَلَّا وَصَفَهُ صُورَ الْحَاسِنِ وَالنَّفَاسِ .

فَرُسَمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لَا زَالَ يُؤَلَّى جَمِيلًا ، وَيُؤَلَّى الْمَنَاصِبَ الْجَلِيلَةَ جَلِيلًا - أَنْ
يَسْتَقَرَّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي وَظِيفَةِ تَوْقِيعِ الدَّسْتِ الشَّرِيفِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ ، عِوَضًا عَنْ فُلَانٍ
بِحُكْمِ وَفَاتِهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ .

فَلْيُبَايِرْ ذَلِكَ مَبَاشَرَةً تُشْكِرُ مَدَى الزَّمَانِ ، وَتُحْمَدُ كُلَّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ ، وَلْيَمْلَأْ بِالْأَجُورِ
لَنَا صُحُفًا بِمَا يُؤَدِّيهِ عَنَّا مِنْ خَيْرٍ وَإِحْسَانٍ ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَأَهْمُهَا التَّقْوَى ، فَلْيَلْزِمِ
عَلَيْهَا فِي السِّرِّ وَالنَّجْوَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْرُسُهُ وَيَرْعَاهُ ، وَيَتَوَلَّاهُ فِيمَنْ تَوَلَّاهُ ،
وَالْإِعْتَادَ



[وَهَذِهِ نَسْخَةٌ] تَوْقِيعَ بَنْظَرِ الْخَاصِّ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي

«بِهَاءِ الدِّينِ بْنِ رِيَّانٍ» ، وَهِيَ :

الحمد لله معلى رتب الأعيان ، ومبقى أجباء السيادة على ممر الأحيان ، ومبدي
”بهاء“ المناصب ، بمن فضله الواضح والصبح سيان ، ومنشى ثمرات المناقب ،
في منابت أهلها حيث الفرع باسق والأصل ”ريان“ .

نحمده على أن يسر البتة المعلى بحسنه ، وأيقظ جفن الآمال من وسنه ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع لنا من خيري الدنيا والآخرة كرم
المطلين ، وشرف المنصين ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المشرق فضله
على أهل المشرقين والمغربين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أصبح الثناء عليهم
وقفا ، وأشتال الذكر عليهم عطفاً ، صلاة تضيء آفاق القبول بشمعة صبح لا تقط
ولا تطفى ؛ وسلم .

أما بعد ، فإن للمناصب الدينية نسبة بيوت أهل الديانة ، ولخاص الرتب تعلقاً
بالخاص من ذوى الكفاءة والأمانة ؛ والمنازل بكواكبها المتألقة ، والحدائق بمغارسها
المتألقة ، ونفوس الديار بسكان معاهدها المتشوقة المتشوقة .

ولما كان الخاص الشريف والوقف المنصوري لوجه المناصب الشامية بمنزلة
حسن الشامتين ، ولرائد الخصب من جهتي الدنيا والآخرة بمحل نفع الغامتين ؛ هذا
على صنع البر الممدود مقصور ، وهذا السحاب الخير سفاح لأنهر جهة لـ «المنصور» ؛
يعلمو هذا بالناظر في دقائقه إلى أعلى الدرج ، ويتلو هذا بلسان ميزانه المنفق على
المارستان : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون
حرج » - لا يليق الجمع بين رتبتهما إلا لمن يجمع بسعفه فضل الدارين ، ومن يجيد
بنان قلمه الحلبي حلب ضرعيهما الدارين ؛ ومن نشأ في بيت سعادة أذن الله لقدره
أن يرفع ، وأقلام بيته أن تنفع ، ولحاسن ذويه أن تسفع بحملها إلى قلوب الأولياء
فتسفع ؛ ومن يسر برواية فضله وبرؤيته السمع والعين ، ومن يفتري ض شرفه وشرف

إِخَائِهِ حُبَّ «الْحَسَنِ» و«الْحُسَيْنِ» ؛ وَمَنْ تَبْتَهِجُ جَوَانِحُ الْحَارِيبِ بَتَعْبِيدِهِ ، وَتَلْهَجُ
 أَلْسِنَةُ مَصَابِيحِ الْمَسَاجِدِ بِالنَّشَاءِ عَلَى تَرَدُّدِهِ وَتَوَدُّدِهِ ، وَتَسْتَقِيقُ جِيَادُ عَزَمِهِ : فَبَيْنَمَا
 الْكُمَيْتُ فِي الشَّهْبَاءِ تَابِعُ أَدَبِهِ إِذَا بَابُنْ أَدْهَمَ رَسِيلُ تَرْهَدِهِ ؛ وَمَنْ تَقُولُ مَنَاصِبُ
 حَلَبَ : لِلَّهِ دَرْبَاهُ الْمَقْتَبِلُ ! ؛ وَمَنْ يَنْشُدُ ثَبَاتُ وَقَارِهِ مَعَ لَطَافَةِ خُلُقِهِ : «يَا حَبْدًا جَبَلُ
 الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ» ! ؛ وَمَنْ تَتَفَحُّ أَخْبَارُهُ مَنَافِعُ الْأَزْهَارِ ، وَمَنْ يَشْهَدُ بِفَضْلِهِ جَيْشُ
 الْحَرَابِ فِي اللَّيْلِ وَبِمَبَاشَرَتِهِ جَيْشُ الْحَرْبِ فِي النَّهَارِ ؛ وَمَنْ تَأْسَى بِلَدَّةٍ فَارَقَهَا فِرَاقَ الْعَيْنِ
 لِلْوَسَنِ ، وَمَنْ يَرَوِي صَامِتُ دِمَشْقٍ وَغَيْرَهَا مِنْ تَدْيِيرِهِ عَنْ «عَامِرٍ» وَعَنْ «حَسَنِ» .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ مِنْ أَلْقَابِهِ الشَّرِيفَةِ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعِمَادُ
 الدَّاعِينَ لِدَوْلَتِهِ الْقَاهِرَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ - أَنْ يَفُوضَ لِلْجَنَابِ الْعَالِي ... فَإِنَّهُ الْمَعْنَى بِهِذِهِ
 الْأَوْصَافِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَالْمَقْصُودُ بِإِفَاضَةِ حُلَالِهَا الْمُعْلَمَةِ ؛ وَالْمَوْصُوفُ الَّذِي يَحُلُو وَصْفُهُ
 إِذَا كُرِّرَ ، وَيَسْتَعِيدُ الْأَوْصَافَ وَالْأَسْمَاعَ إِذَا حُرِّرَ ، وَالْأَحَقُّ بِرُتْبَةِ عِزٍّ فِي النَّظَارِ
 مَضَى وَأَبْقَى ثَنَاءَهُ ، وَمَكَانَ نَظَرٍ إِنْ لَمْ يَقْلِ الدَّعَاءُ الْيَوْمَ : أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ ! قَالَ :
 أَدَامَ اللَّهُ بَهَاءَهُ ؛ وَاللَّائِقُ بِتَقْرِيرِ مَنْصِبٍ تَقْصُرُ دُونَهُ الْمَطَامِعُ ، وَتَصْدِيرِ دِيْوَانٍ إِنْ
 انْقَطَعَتْ رِوَايَتُهُ عَنْ «حَمْزَةٍ» فَقَدْ انْصَلَتْ رِوَايَتُهُ عَنْ «نَافِعٍ» .

فَلْيَبَاشِرْ هَذَيْنِ الْمَنْصِبَيْنِ الْمُتَجَبِّينَ ، مُجْتَهِدًا فِي مَصَالِحِ الْخَاصِّ الشَّرِيفِ ، وَالْوَقْفِ
 الَّذِي لَا تَحْتَاجُ هِمَّتُهُ فِيهِ إِلَى تَوْقِيفٍ ؛ حَتَّى يَكُونَ خَيْرُ الْخَاصِّ عَامًّا ، وَأَمْرُ الْوَقْفِ
 تَامًّا ؛ وَرِيعُهُمَا بِالْبَرَكَاتِ خَيْرٌ مَحْفُوفٍ ، وَالْمَنْصُورِيُّ مِنْ جِهَةِ الْمَعَاضِدَةِ قَدْ أُضْحَى وَهُوَ
 بِالْعُضْدَيْنِ مَوْصُوفٌ .

وَالْوَصَايَا مُتَعَدِّدَةٌ وَهُوَ أَدْرَى وَأَدْرَبُ بِهَا ، وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى وَصِيَّةٍ تَمْسَكَ
 الْمَرْءَ بِسَبَبِهَا ، وَشُكْرُ النِّعْمَةِ أَدْلُ عَلَى نَبِيِّهِ هِمَمِ الرِّجَالِ وَعَلَى فَضْلِ مُهْدِيهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
 يَسُدُّ قَلَمَهُ ، وَيُثَبِّتُ فِي مِطَالَعِ الْعِزِّ قَدَمَهُ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .



توقيع بنظر الخزانة العالسة، من إنشاء ابن نباتة، كتب به للقاضي «تقي الدين ابن أبي الطيب» بـ «الجناب العالی» وهو :

الحمد لله الذي له خزائن السموات والأرض، وبحكمته يهب منها ما يشاء لمن يشاء رضى المعاند أم لم يرض، ويمتته فضلت مراتب أهل التقى على الرتب كما فضل على النافلة القرض، وبعنايته بنيت بيوت أهل السيادة على الطول وبقي صالح عملهم إلى العرض، وبهدياته سما إلى أعلى الخزائن من تفرضا أوصاف قلمه وقلم أبيه أحسن القرض .

نحمده على ما منح من خزائن فضله، ونشكره والشكر ضامن المزيدي لأهله ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يدخرها الإنسان لبيته وقوله وفعله، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي جمع بقبه وقرق ببذله، وأعطى ما لم تنطو ضمائر الأكياس في صدور الخزائن على مثله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه السالكين سنن فضيلته وفضله، التابعين في الكرم والبأس قياس بيانه ونص نصله، ما أطلعت خزانة الوسمي آثار تقط الغيث كالدراهم، وخلعت على الدنيا خلع الروض متقلنسة بمستدير الظلال من رورة بمعقود الحكام ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الرتب ذخائر قوم في خزائن الاختيار، وأخير أهل تركو نقود شيمهم على محك الاعتناء والاعتبار، وفروع خلف تظهر مظاهر نصولها الزكية سابعة الظل رائقة الزهر فائقة الثمار؛ إذا احتيج منهم إلى ذخيرة ففعت، وإلى أخير وقت أربي على عزائم الأول وما صنعت، وإلى فروع شجرة سرت محامدها الضائعة : لا ممّا ضاعت بل ممّا تَصَوَّعت .

ولما كانت رتبة نظَر الخزانة العالية بِدمشق المحروسة أَحَقَّ بِمن هَذَا وَصْفُهُ ،
وهذا نَعْتُهُ فِي مُقَدِّمَةِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَهَذَا إِلَيْهِ عَطْفُهُ ؛ إِذْ هِيَ مَرْتَبَةُ الْعَلِيَاءِ وَمَكَائِهَا ،
وَزُهْرَةُ سَمَاءِ الْمَلِكَةِ وَمِيزَانُهَا ؛ وَمَنْشَأُ غِيُوْثِ صَلَاتِهَا الْهَامِرَةِ ، وَمَنْبِتُ رِيَاضِ
خَلْعِهَا الرَّاهِرَةِ ؛ وَأَفْقُ السَّعَادَةِ وَمَطْلَعُ نَجْمِهَا الْمُنِيرِ ، وَجَنَّةُ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
حَرِيرٌ ، وَمَعْنَى شَرَفِ الْأَكْتِسَاءِ وَالْأَكْتِسَابِ ، وَمَأْوَى الْفَاضِلِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - الَّذِي
يَحْفَظُهَا التَّحْصِيلُ بِحِسَابٍ وَيُعْطِيهَا الْجُودُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(١) ... (١) ... مِنْ تَضَمُّنِ أَعْطَافِهِ أَنْوَارِ السَّعَادَةِ ، وَتَحَفُّ أَطْرَافِهِ وَ ...
السِّيَادَةِ ، وَتَتَقَلُّ جَلْسَتُهُ : إِمَّا مِنْ تَنْفِيزِ الدِّيَوَانِ لِمَرَّتِهِ وَإِمَّا مِنْ تَدْرِيسِ الْعِلْمِ
لِسَجَادَةِ ؛ ذُو الْفَضْلِ وَالْفَضَائِلِ حَسَنُ التَّجَنُّيسِ وَالتَّطْيِيقِ ، وَالْكِتَابَةُ : مِنْ حِسَابِ
وَأَنْشَاءِ زَاكِيَةِ النَّسْرِ عَلَى التَّعْلِيقِ ؛ وَنَفَحَاتِ الْبَرِّ مِنْ نَفَحَاتِ الْعَيْشِ أَجُودُ ، وَالشَّيْبَةِ
فِيهَا النِّهْيُ فَمَكَانُهُ كَمَا قَالَ الْبَحْرِيُّ : نَسَبٌ أَسْوَدٌ ؛ وَالْهَمَمُ الَّتِي حَاوَلَتْ مَنَالَ الشُّهْبِ
الْمُنْتَبِعَةِ وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ ، وَالْكَلِمَةُ الَّتِي لَوْ عَايَنَ « الْبَصْرِيُّ » فَرَأَتْ نَحْوَهَا لَقَالَ :
كُلُّ هَذِهِ دُرَّةُ الْغَوَاصِّ ، وَالْعَزَائِمُ الَّتِي رَامَتْ الْمَنَاصِبَ فَمَا قَبِلَتْ مِنْ خِزَانَتِهَا سِوَى
الرَّفِيعِ وَمَا رَضِيَتْ مِنْ دِيَوَانِهَا سِوَى الْخَاصِّ ؛ كَمْ نَبَهَتْ مِنْهُ الْمَقَاصِدُ (٢) « عَمَرُ »
ثُمَّ نَامَتْ ! ، وَكَمْ أَجْلَسَتْهُ كَوَاكِبُ الْيَمِينِ فِي صَدْرِ مَحْفِلٍ ثُمَّ قَامَتْ ! ؛ كَمْ حَوَى مِنْ
الْحَمْدِ سَنِيًّا ! ، وَمَلَأَ الرَّبَاعَ خَيْرًا وَفِيًّا ! ، وَقَيَّضَ اللَّهُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْأَيْتَامِ حَنَانًا مِنْ لَدُنْهُ
وَزَكَةً وَكَانَ تَقِيًّا .

(١) بياض بالأصل في الموضعين .

(٢) أخذه من بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عمرا ثم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدي وكان على طبرستان .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا بَرَحَ صَالِحِ الدهر كالزَّهر ، مَالِكِ نفوس
الأولياء والأعداء : هَاتِيكَ بِالْإِنْعَامِ وهَاتِيكَ بِالْقَهْرِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ نَظْرُ الْخِزَانَةِ
العالية مُضَافًا إِلَى مَا بِيَدِهِ مِنْ نَظَرِ الْخَاصِّ الشَّرِيفِ : لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يُصْرَفُ عَنْ وَطِيقَةِ
بَسَانِهِ تَعْتَرِفُ ، وَمَنْ نَدَاهُ تَعْتَرِفُ ، وَأَنَّ اجْتِمَاعَ الْعَدْلِ وَالْمَعْرِفَةِ قَاضٍ بِأَنَّ «عُمَرَ»
لَا يَنْصَرَفُ ؛ وَأَنَّ الْخَاصَّ لِلْخَاصِّ الْأَوْلِيَاءِ أَمْسُ مَكَانِهِ ، وَأَنَّ الْخِزَانَةَ أَنْسَبُ بِمَنْ
عُرِفَ بِالصِّيَانَةِ ؛ وَأَنَّ خَزَائِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ مَضْرُوءُ نَظَرِهَا لِقَالَ : لَيْسَ لِي مِثْلُ
هَذِهِ الْخِزَانَةِ ؛ وَأَنَّ عَيْنَ الْأَعْيَانِ أَوْلَى بِالنَّظَرِ ، وَأَنَّ الْأَنْظَارَ لَا بَلَّ الصَّحَابَةِ أَحَقُّ
بِ«عُمَرَ» ؛ لِمَا عَلِمَ مِنْ سِرِّهِ النَّقِيَّةِ ، وَسِرِّهِ التَّقِيَّةِ ، وَصِفَاتِهِ الَّتِي يَتَدَفَّقُ فِيهَا نَفْسُ
الْقَوْلِ حَتَّى يَنْقَطِعَ فِي الْأَوْصَافِ بَعْدُ بَقِيَّةً وَبَقِيَّةً .

فَلْيَا شَرُّ مَا فُوضَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ الْمُتَجَبَّاتِ ، وَالْوِظَائِفِ الْمُعْجَبَاتِ الْمُعْشَبَاتِ ،
وَالْجَهَاتِ الَّتِي مَالَهَا كِبِيَّتُهُ الطَّيِّبِ : وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ؛ مُسْتَجِدًّا مِنْ نَظَرِ هَذِهِ
الْخِزَانَةِ ثَوْبَ سَعْدِهِ الْجَدِيدِ ، مُعْمَلًا فِي مَصَارِفِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بَصَرَ آرَائِهِ الْجَدِيدِ ؛
مُنْبَهًا لَهَا عَزَمَةَ الْعُمَرَى وَنِعَمَ مِنْ يُنْبِئُهُ ، مُشَبِّهًا فِي الْكَفَافَةِ أَبَاهُ الْمَرْحُومَ وَمَا ظَلَمَ مِنْ
أَشْبَهَ ؛ مُقَرَّرًا مِنْ أَحْوَالِهَا أَحْسَنَ مُقَرَّرٍ ، مُحَرَّرًا مِنْ أُمُورِهَا أَوْلَى مَا أَعْتَمَدَ وَالْخِزَانَةُ
أَوْلَى بِالْمُحَرَّرِ ؛ حَافِظًا لِمَا لَهَا بِقَلَمِ التَّحْصِيلِ حَتَّى يَنْفَذَ قَلَمُ الْإِطْلَاقِ ، صَائِنًا لَوْفِهَا حَتَّى
يُنْفِقَهُ الْكَرْمُ خَشْيَةَ الْإِمْسَاكِ بَعْدَ مَا أَمْسَكَهُ الصَّوْنُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ؛ مُسْتَدْعِيًا مِنْ
أَصْنَافِهَا كُلِّ مَا تَتَوَعَّ وَتَصْنَفُ ، وَتَوْشَعُ وَتَقَوِّفُ ، مُثْبِتًا كُلَّ مَا خَلَعَ مِنْ دِيَوَانِهَا الْعَزِيزِ
وَتَخَلَّفَ ؛ مُؤَلِّفًا لِلْكَسَاوَى^(١) فِي زِحْلَةٍ كُلِّ صَيْفٍ وَشَتْوَةٍ ، مُوَاصِلًا لِلْأَحْمَالِ مِنْ دِمَشْقَ
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ جِهَةِ الْكُسُوفِ ؛ مُنْهِيًا لِإِنْعَامِهَا بِقَلَمِ الْإِطْلَاقِ النَّامِ ، مُتَلَقِّفًا بَعْضًا قَلَمَهُ
فِي يَدِهِ الْبَيْضَاءِ مَا تَأْتِيكَ عَصَا الْأَقْلَامِ ، حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ بَأْهًا فِي الْكَرَمِ كَمَا يَقَالُ :

(١) لم يرد هذا الجمع في أيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جرى العامة في استعماله .

«سَهْلُ الْحِجَابِ مُؤَدَّبُ الْخُدَّامِ» ؛ عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بِهَا يُبْدَأُ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ وَيُخْتَمُ ، وَيُلْبَسُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رِدَاءُ الْخَيْرِ الْمُعْلَمِ ، غَنِيًّا عَنْ تَبَيِّنِ بَقَايَا الْوَصَايَا الَّتِي هُوَ فِيهَا بِحَرٍّ ، وَأَبْنُ بَحْرٍ بِكِتَابِ «الْبَيَانِ وَالتَّبَيِّنِ» أَعْلَمُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُدُّهُ بِفَضْلِهِ ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِ الْفَضْلَ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِهِ ؛ وَيَمْلَأُ أَمَالَهُ بِغَايَةِ الْخَيْرِ الصَّيِّبِ . وَيُدِيمُ سَعَادَةَ بَيْتِهِ الَّذِي لَا يَرْفَعُ الشُّكْرَ لَطِيئِهِ إِلَّا الْكَلِمَ الطَّيِّبَ .

المرتبة الثانية

(من تَوَاقِيعِ أَرْبَابِ الْوُظَائِفِ الدِّيَوَانِيَةِ بِحَاضِرَةِ دِمَشْقَ - مَا يُفْتَتَحُ «أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ»)

وهذه نسخ تَوَاقِيعِ مِنْ ذَلِكَ :

[نسخة] تَوَقِيعِ بَنَظَرِ الْأَسْرَى وَنَظَرِ الْأَسْوَارِ ، كُتِبَ بِهَا لِدَوَادَارِ الْأَمِيرِ «سُودُونِ الطَّرَنْطَايَ» كَافِلِ الشَّامِ ، وَإِنْ كَانَتْ هِيَ فِي الْأَصْلِ دِيَوَانِيَةً أَوْ دِينِيَّةً ، وَهِيَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَصَّ أَوْلِيَائَهُ بِفَضْلِهِ الْوَافِرِ ، وَعَمَّهُمْ بِحُسْنِ نَظَرِهِ فَأَشْرَقَ صُبْحُ صَبَاحِهِمُ السَّافِرِ ، وَأَتَتْصَى مِنْ عَزَائِمِهِمْ لِنُصْرَةِ الدِّينِ سَيْفًا يَسُرُّ الْمُؤْمِنَ وَيَغِيظُ الْكَافِرَ ، وَأَجْتَبَى مِنَ الْكُفَّاءِ مَنْ يَشِيدُ مَعَاقِلَ الْإِسْلَامِ بِفَضْلِهِ الْمُنْتَظَرِ ؛ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْآمِنَيْنِ الْأَتَمِّينَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَضَاءَ بِرِسَالَتِهِ الْوُجُودَ ، وَخَصَّصَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْصِّفَاتِ الْفَائِقَةِ وَالْمَآثِرِ الْحَسَنَةِ وَالْجُودِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ حَرَسُوا الْمِلَّةَ الْحَنِيفِيَّةَ مِنْ جِهَادِهِمْ بِأَمْنِ سُورٍ ، وَأَوْهَنُوا جَانِبَ الْكُفْرِ وَأَنْقَذُوا الْأَسِيرَ وَجَبَرُوا الْمَكْسُورَ ؛ صَلَاةً دَائِمَةً مَدَى الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ ، مُعْلِيَةً لِلْأَوْلِيَاءِ عِلْمَ النَّصْرِ الْمُنْشُورِ - فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ عَدَقْنَا بِهِ الْمَنَاصِبَ السَّيْنِيَّةَ ، وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ جَلِيلَ الْوُظَائِفِ الدِّينِيَّةِ ؛

وَنُطْنَا بِهِ فَكَ رَقَبَةِ الْمُسْلِمِ مِنْ أَسِيرِهِ ، وَخَلَّاصَهُ مِنْ عَدُوِّهِ الَّذِي لَا يَرِيئُ لِمُسْكِنَتِهِ
وَلَا يَرِيئُ لَكُسْرِهِ ؛ وَأَجْرَيْنَا قَلَمَهُ بِبَدَلِ الْفِدَاءِ ، وَجَعَلْنَا مِدَادَهُ دِرْيَاقًا لِمَرَضِ الْأَسِيرِ
الَّذِي يَعْدِلُ أَلْفَ دَاءٍ ، وَأَقْنَاهُ لِلْعَانِي مِنْ شَرِّكَ الشَّرِّكَ مُنْقِذًا ، وَلِلدَّافِعِ فِي بَيْدَاءِ الْعِدَا
بُحْسَنَ إِعَانَتِهِ مُنْجِدًا ، وَلِلْأَسْوَارِ الْمُتَنَعَةِ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ مُنْقِذًا - مِنْ أَصْحَى فَضْلُهُ
ظَاهِرًا ، وَجَلَالُهُ بَاهِرًا ، وَخِلَالُهُ مَوْصُوفَةٌ بِالْمَحَاسِنِ أَوَّلًا وَآخِرًا .

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي بَهَرَتْ مَا ثَرُهُ الْأَبْصَارَ وَمَلَأَتْ الْأَسْمَاعَ ، وَأَتَعَفَّدَتْ عَلَى
تَفَرُّدِهِ فِي عَصْرِهِ بِالْمَفَاحِرِ كَلِمَةُ الْإِجْمَاعِ ، وَسَارَتْ الرُّجَانُ بِذِكْرِهِ الَّذِي طَابَ وَجُودِهِ
الَّذِي شَاعَ ؛ وَصَفَتْ سِرِّيَّتُهُ ، فَأَصْحَى جَمِيلُ الْإِعْلَانِ ، وَمُحَدِّثُ سِفَارَتِهِ ، فَكَانَتْ
عَاقِبَةُ كُلِّ صَعْبٍ بِبِرْكَتِهَا أَنْ لَا نَ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لِأَزَالِ يُؤَلِّي جَمِيلًا ، وَيُؤَلِّي فِي الْوُظَائِفِ جَلِيلًا -
أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي وَظِيفَتِي نَظَرِ الْأَسْرَى وَالْأَسْوَارِ بِدِمَشْقَ الْحُرُوسَةِ ، عَلَى
أَجْمَلِ عَادَةٍ ، وَأَكْلِ قَاعِدَةٍ ، بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ دِيْوَانِ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ إِلَى آخِرِ
وَقْتٍ : وَضَعًا لِلشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ ، وَتَفْوِيضًا لِلْجَمِيلِ النَّظَرِ إِلَى أَهْلِهِ .

فَلْيَبَاشِرْ ذَلِكَ مَبَاشِرَةً تُسَرُّ النُّفُوسَ ، وَتَزِيدُ بِهَا الْغِلَالَ وَتَزُكُّ بِهَا الْغُرُوسَ ؛ وَلْيُجِرْ
أَحْوَالَ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ عَلَى مُقْتَضَى شَرْطِ الْوَاقِفِ وَالشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، وَلْيَتَصَرَّفْ
فِي تَحْصِيلِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ أَحْسَنَ تَصَرُّفٍ ؛ وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى تَخْلِيصِ الْمَأْسُورِ ، وَإِعَاثَةِ
مَنْ ضُرِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ بَسُورٌ ، وَيُسَارِعْ إِلَى تَشْيِيدِ الْأَسْوَارِ الْمُتَنَعَةِ ، وَإِتْقَانِ تَحْصِينِهَا :
لِيَتَضَاعَفَ لِمَنْ حَوْتُهُ مَنَّا الْأَمْنُ وَالِدَّعَةُ ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِلَاكُهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى
وَسُلُوكُ صِرَاطِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ : فَلْيَوَاطِبْ عَلَيْهَا ، وَلْيَصْرِفْ وَجَهَ عَنَايَتِهِ إِلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يُدِيمُ عُلَاهُ ، وَيَتَوَلَّاهُ فِيمَا تَوَلَّاهُ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

تَوْقِيعَ بَصَحَابَةِ دِيَوَانِ الْأُسْرَى ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي شَرَفِ
الدِّينِ «سَالِمِ بْنِ الْقَلَاقِسِيِّ» ، وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي جَدَّدَ بَطَالِيعَ الشَّرَفِ قَوَاعِدَ بَيْتِ السِّيَادَةِ ، وَمَشَاهِدَ حَوَكِ
السَّعَادَةِ ، وَمَصَاعِدَ ذُرَا الْأَقْلَامِ الَّتِي قَسَّمَتْ مَجَانِي قَصَبِهَا لِلْإِفَاءَةِ وَالْإِفَادَةِ ، وَمَعَاهِدَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ سَلَكَوا مَسَالِكَ سَلَفِهِمُ الْحُسْنَى : وَلَوْ كَانَ التَّمَامُ يَقْبَلُ هُنَا مَزِيدًا قِيلَ :
وَزِيَادَةً . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي شَدَّ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ أَزْرَ الْحَقِّ وَشَادَهُ ،
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْأَقْدَارِ الْمُسْتَرَادَةِ الْمُسْتَجَادَةِ ، مَا أَتَّصَلَ بِحَدِيثِ الْفَضْلِ سَنَدُهُ
وَأَمِنْ بَيْتِ التَّقْوَى سِنَادُهُ - فَإِنَّ الْبُيُوتَ الْمُتَنَزِّعَةَ نَحَارُهَا ، الْمَأْمُونَةَ مِنْ عَرَوِضِ الْأَيَّامِ
زَحَافُهَا وَأَنْكِسَارُهَا ؛ أَوْلَى أَنْ تُنْتَخَبَ لَهُمُ الْمُنَاصِبُ كَمَا تُنْتَخَبُ لِلْبُيُوتِ الْمَعَانِي ،
وَتُسْتَقَرَّى الْوُظَائِفُ الْعَلِيَّةُ كَمَا تُسْتَقَرَّى الْمَوَاضِعُ كُلُّهَا الْمَبَانِي ؛ وَتُنْتَخَرُ لِنَجْلِ الْأَصْحَابِ (؟)
بَيْنَهُمْ كُلِّ جِهَةٍ مَأْمُونَةُ الصَّحَابَةِ ، مَوْفُورَةُ السَّحَابَةِ ، مَجْرُورَةُ ذَيْلِ الْخَيْرَاتِ السَّحَابَةِ ؛
مَصُونَةُ عَنْ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ كَمَا يُصَانُ لِلْجِهَاتِ حُجُبُهَا ، لِاتِّقَةِ بِالْأَفْضَلِ لِأَنَّ الْأَوْقَافَ
الْأُسْرَى بِالْفَاضِلِ نَسَبًا .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَرْتَبَّ فِي كَذَا : عَلَمًا بِأَنَّهُ الرَّئِيسُ الَّذِي إِذَا وَلِيَ
وُظِيفَةً كَفَّاهَا ، وَإِذَا وَعَدَهَا بِصِلَاحِ التَّدْيِيرِ وَقَاهَا وَقَاهَا ، وَإِذَا وَصَلَ نَسَبَهَا بِنَسَبِهِ
كَانَ مِنْ إِخْوَانِ صَفَائِهَا لَا مِنْ إِخْوَانِ صَفَاهَا ؛ وَالْخَيْرُ الَّذِي أَسْتَوْضَحَ بَيْنَ الرَّأْيِ
مَذَاهِبَهُ وَمَسَالِكَهُ ، وَالْعَالِمُ الَّذِي إِذَا مَشَى الْأُمُورَ بَسَطَ جَنَاحَ الرِّفْقِ وَإِذَا مَشَى بَسَطَتْ
لَهُ أَجْنَحَتَهَا الْمَلَائِكَةُ ؛ وَالْجَلِيلُ الَّذِي إِذَا نَظَرَ ذَهْنُهُ فِي الْمَشْكَلاتِ دَقَّقَ ، وَالْكَاتِبُ
الَّذِي تَعَيَّنَتْ أَقْلَامُ عَلَيْهِ وَكَفَّاءَتُهُ إِلَّا أَنْ كُلَّهَا فِي الْفَضْلِ مُحَقَّقٌ ؛ هَذَا وَخَطُّ عِزَّارِهِ
مَا كَتَبَ فِي الْخَلْدِ حَوَاشِيهِ ، وَلَيْلُ صَبَاهُ مَا اكْتَمَلَ ! فَكَيْفَ إِذَا أَطْلَمْتُ كَوَاكِبَ

المَشِيبِ دِيَاجِيهِ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَأَبُوهُ - أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى جَدَّهُ - صَاحِبُ الْمَجْدِ الْأَمِيلِ ،
وَالْفَضْلِ الْأَصِيلِ ، وَوَكِيلُ السُّلْطَنَةِ الَّذِي إِذَا تَأَمَّلْتَ مَحَاسِنَهُ قَالَتْ : حَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الْوُضِيفَةَ بِرَأْيِ يُسَهِّلُ - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - عَسِيرَهَا ، وَيُقِمْكَ - بِعَوْنِ اللَّهِ -
أَسِيرَهَا ؛ وَاجْتِهَادِ سَنِيٍّ يُحَسِّنُ قَلَمَهُ فِي الْأُمُورِ مَسْرُوعًا ، وَاعْتِمَادِ سَرِيِّ لَا يَرَى دِيَوَانُ
أَسْرَى مِنْهُ أَسْرَى ؛ مُشَبِّهًا أَبَاهُ فِي عَدْلِهِ وَمِنْ أَشْبَهِ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ ، وَتَوْقُدُ رَأْيَهُ لَدَى
طَوْدِ حِلْمٍ وَعِلْمٍ « فَيَاكَ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ ! » ؛ حَتَّى يَأْمَنَ دِيَوَانُ مَبَاشَرَتِهِ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ ،
وَيُسْخَلِ ذِكَاؤَهُ حَتَّى يَقَالَ : عَجَبًا لِلشُّعْلِ نَارًا وَهُوَ سَالِمٌ ! ؛ وَيُثْمَرُ مَالُ الْجَهَةِ بِتَدْيِيرِهِ ،
وَيُشْتَرِكُ لَفْظُ إِطْلَاقِ الدِّيَوَانِ فِي مَالِهِ وَأَسِيرِهِ ، وَتَنْتَقِلُ الْأَسْرَى مِنْ رُكُوبِ الْأَدَاهِمِ
إِلَى رُكُوبِ الشُّهْبِ وَالْخُمْرِ مِنْ دَرَاهِمِهِ وَدَنَانِيرِهِ ؛ وَيُجْعَدُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَيَنْفَقُ خَشْيَةً
الْإِمْسَاكِ إِذَا أُمْسِكَ [غَيْرِهِ] خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ ؛ وَيَمِشِي بِتَقْوَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الطَّرِيقِ
الْأَلْحَبِ ، وَيُنْسَبُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَقَوْمِهِ فَيَقَالَ : صَاحِبُ طَالِمَا آتَنَسَبَ مِنْ سَلَفِهِ
لِصَاحِبٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُنْجِحُ لِكُوَاكِبِ رَأْيِهِ مَسِيرًا ، وَيُجَبِّرُ بِهِ مِنْ ضَعْفِ الْحَالِ كَسِيرًا ،
وَيُكَافِي سَادَاتِ بَيْتِهِ الَّذِينَ « يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » .

المرتبة الثالثة

(من تَوَاقِعِ أَرْبَابِ الْوُضَائِفِ الدِّيَوَانِيَةِ بِمَحَاضِرَةِ دِمَشْقِ -

مَا يُفْتَحُ بِ«رُسْمٍ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ»)

وهذه نسخ تَوَاقِعِ مِنْ ذَلِكَ :

(١)

نسخة تَوَقِيعِ من إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي

«علاء الدين بن شرف الدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير، وهي :

(١) بياض في الأصل ولعله « تَوَقِيعُ بِكُتَابَةِ السَّرِّ » .

رُسم بالأمر الشريف - لا زال يجبر بيرة مُصاب الأبناء آبائهم ، ويسرهم بما
يتجدد في كواكب الشرف من علائهم ، ويعتق قلوبهم من إسار الحزن حتى ينشؤوا
من الصغر على أنساب عفتهم وولائهم - أن يستقر ... اعتماداً على نجاته الشاهدة ،
ومحاييل همته السائدة ، وأستناداً إلى أصالته التي لا يبدى فرعها إلا زكى الثمر ،
ولا يبدى بحرهما إلا أنفس الدرر ، ولا يخلف أفقها إلا كبيراً تستصغر الأبصار
رؤيته : والدُّبُّ للطَّرف لا للكوكب في الصغر ، وعلماً أنه من أسرة شهابية لا يهتدى
في الإنشاء إلا بنورهم ، ولا يهدى سبيلهم إلا عن بحورهم ، ولا يُنبِت أفلام
البلاغة إلا عُشْبهم ، ولا تُعشِب روضات الصحائف إلا نُحْبهم ، ولا تُثبِت أفلاك
الكتابة إلا كُتُبهم ، صغيرهم في صدور الإنشاء كبير ، ومُلقن آيات فضائلهم يروى
أعداد الفوائد عن « ابن كثير » ، وعليهم بعد « أبي بكر » تقول المحامد لسلفه
وخلفه : منّا أمير ومنكم أمير ؛ وأنه اليوم لا سيف إلا « ذو الفقار » من أذهانهم ،
ولا قتي إلا « علي » من ولدانهم ؛ وأنَّ فرخ البطّ ساج ، وسعد القوم للأنداد ذابح ؛
وخواتم صُحف الجمع الظاهر أشبه بالفوائح ، والبلاغة في الدنيا كنوز والأفلام
في أيديهم مفاتيح ؛ وأنَّ الكلام حليته وسمته ، وأنه إذا خدَم دولةً بعد مُخلّقه قيل
للذاهب : لقد أوحشنا وجهه وللقادم : لقد آنسنا خدمته .

فلْيأخذ في هذه الوظيفة بقوة كتابه ، وليتناول باليمين واليسار قلم جدّه كما تناول
رأية مجده عرابه ؛ وليتقدّ بقلائد هذه النعم عقيب ما نزع التمام ، وليجهد في إمرار
كلمه الخلو الذي أول سنامه قطر ثم صوب الغمام ؛ مجوداً خطّه ولفظه حتى تناسب
عقده ، ناشئاً على كتم السر حتى كأنَّ الفؤاد قبره والجنب لحده ؛ مُهندياً بالعلم الشهابي
في برّ أخيه الأكبر فإنه من بوارق المزن ، مُبتدياً مع أخيه الآخر السرور إذ يزرع

(١) في الأصل هكذا "وأن الكلام محالهم" .

عنهما لباسهما من الحزن ؛ والله تعالى يزيد في فضله ، ويتم عليه النعمة كما أتمها على أبيه من قبله ، ويفقهه في السيادة حتى يحسن في الفخار رد الفرع إلى أصله .



توقيع بنظر مطابخ السكر ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به للقاضي « شرف الدين ابن عمرون » وهو :

رسم ... - لا زالت سمة المناصب في دولته الشريفة مشرفة ، وأقلام الكفاة مصرفة ، وألفاظ الشكر ثابتة عند ذوي الاستحقاق ومصنفة ، والنعماء المنصفة لأمثالهم حلوة المذاقين من نوع ومن صفة - أن يستقر ... لما عرف من شيمه المستجادة ، وهممه المستزادة ، وكفاءته اللائق بها حسن النظر الثابت بفضائلها رقم الشهادة ، وأصاليه التي نهض أوّلها بمهمات الدول فلوراه معاوية - رضى الله عنه - لقال : يا عمرون أنت عمرو وزياده ؛ وليا ألف من مباشرته المنيفة خبرا وخبرا ، وأنظاره السامية إلى معالي الأمور نظرا ؛ ووظائفه التي لا يكاد يبلغ العشر منها ذوو الهمم العلية ، وجهاته التي عرف بها سلفه وحلفه فلا غرو أن ليس عمامة مفاحره بيضاء وسكرية .

فليباشر هذه الوظيفة الحلوة معنى ومدافا ، الحليّة عقدا ونطاقا ، المحسوبة على مطالع الشرف وفقا وآفاقا ؛ جاعلا شكر النعمة من أوفى وأوفر مزاياه ، وصالف الهمّة من أولى وأول وصاياه ؛ حافظا للمطابخ وإن كان عادة آباءه بذلها ، مذكرا للجفان وإن كانت سمة قراهم إزالتها ونقلها ؛ حريصا على أن لا يجعل لأيدي الأقلام الخائنة مطمحا ، وعلى أن ينشد كل يوم للتذير لا للتبذير .

* [لنا] الجفان الغريلمعن في الضحى *

مُحرَّرًا لحسابِ دِرْهَمِهَا وَمَحْصُولِهَا ، وَمَصْرُوفِهَا وَمَحْصُولِهَا ؛ مُحْتَزًّا عَلَى مُبَاشَرَتِهِ
 مِنَ الْخَلَلِ فِي هَذَيْنِ الْمَكَانَيْنِ ، حَذَرًا مِنْ كِفَّتِهَا وَقَبَانِهَا فَإِنَّهَا تَتَكَلَّمُ فِي الْحَمْدِ أَوْ فِي الذَّمِّ
 بِلِسَانَيْنِ ؛ بَلْ تُعَلِّنُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِحَمْدِهِ الْمُقَرَّرِ ، وَتُكْرِّرُ الْأَحَادِيثَ الْحَلُوءَ عَنْهُ فَمِنْ
 عِنْدِهَا نَحْرَجُ حَدِيثَ الْحُلُوفِ الْمَكْرَرِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُبَدِّلُ مَسَاعِيَهُ بِالنَّجْجِ الْوَفِيِّ ، وَيُلْهِمُ هِمَّتَهُ
 أَنْ تُشَدَّ : « مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي ! » .



تَوْقِيعُ بَنْظَرِ دَارِ الطَّرَازِ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لِأَزَالَتِ سِيرِهِ بِمَرْقُومِ الْحَامِدِ مُطَرَّزَهُ ، وَدَوَّلَتُهُ بِمَحَاسِنِ التَّائِيدِ وَالتَّائِيدِ
 مُعَزَّزَهُ ، وَنِعْمَهُ وَنِقْمَهُ : هَذِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ مُجَهَّزَةٌ وَهَذِهِ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ مُجَهَّزَةٌ - أَنْ يَرْتَبَ
 فَلَانٌ : لِكِتَابَتِهِ الَّتِي رَقَّتِ الطُّرُوسُ ، وَطَرَزَتْ بِالظُّلُمِ أُرْدِيَةَ الشُّمُوسِ ، وَأَثْمَرَتْ
 أَقْلَامُهُ بِمَحَاسِنِ التَّدْيِيرِ فَكَانَتْ فِي جِهَاتِ الدُّوَلِ نِعَمَ الْغُرُوسِ ؛ وَحِسَابِهِ الَّذِي نَاقَشَ
 وَنَقَشَ ، وَرَقَمَ الْأَوْرَاقَ وَرَقَشَ ؛ وَأَعْتَزِمَهُ الَّذِي عَلَّمَ رَشْدًا ، وَسَلَّمَ طَرِيقًا فِي الْخِدْمَةِ
 جَدًّا ، وَقَوَّى أَسْمُهُ وَتَكَاثَرَتْ أَوْصَافُهُ فَمَا كَانَ مِنْ أُنْدَادِهِ أَضْعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَّ عَدَدًا ؛
 وَأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي إِذَا قُدِّمَ نَهَضَ ، وَإِذَا سَدَّدَ سَهْمَ قَلَمِهِ أَصَابَ الْغَرَضَ ؛ وَالسَّامِي
 إِلَى سَمَاءِ رُتْبِهِ بِالْقَلْبِ وَالطَّرْفِ ، وَالْمَنْزَعُ لِقَلَمِهِ الْحُرُّ مِنْ أَنْ يَسْتَعْبِدَ عَلَى حَرْفٍ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُضُفَةَ بِكَفَاءَةٍ عَلَيْهَا الْمَعُولُ ، وَأَقْلَامٍ إِذَا تَمَشَّتْ فِي دَارِ الطَّرَازِ عَلَى
 الْوَرَقِ قِيلَ : « شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ » ؛ مُسْتَدْعِيًّا لِأَصْنَافِهَا وَمَالِهَا ، عَادِلًا
 فِي قِسْمَةِ رَجَائِهَا وَرِجَالِهَا ؛ مُعِمِّلًا رَاحَتَهُ بِالْقَلَمِ فَإِنَّ كِتَابَتَهَا مُتَّبِعَةٌ ، مُهْتَدِيًّا فِي طُرُقِ
 حِسَابِهَا فَإِنَّهَا طَرُقٌ مُتَشَعِّبَةٌ ؛ مَاشِيًّا عَلَى نَهْجِ الْأَحْتَازِ ، سَاعِيًّا إِلَى الرُّتَبِ بِإِرْهَافِ
 عَزَمِهِ كَالسَّيْفِ الْجُرَازِ ، سَعِيدَ السَّعْيِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - حَتَّى يَقُولَ سَنَاءُ الْمَلِكِ

المُسْتَمْتَصُّ له : هذا القاضي السعيد وهذه دار الطراز ، والله تعالى يوفقه في جميع أحواله ، ويؤيد مساعى قلبه الذى تنسج أعلام الكفاة على منواله .



توقيع بنظر الرابع ، من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدى ، باسم القاضي نجم الدين «أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطيب» ، وهو :

رُسم بالأمر العالى - لا زال نجم أوليائه يتقد نورا ، وخاطر أوليائه يتحد بالآمال سرورا - أن يرتب المجلس السامى القضائى - أدام الله تعالى علوه - في نظر الرابع الديوانية ، ومباشرة الأيتام - حرسهم الله تعالى - على عادة من تقدمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأنه النجم الذى بزغ في أفق الرئاسة ، وجعل ما أثره قبيله وأناسه ، والأصيل الذى شاد الفضل مجده ، وأحكم الفخر عقده ، والرئيس الذى يصدق التفرس في شمائله ، ويحكم الظن الصائب في أثناء مخايله .

فليباشر ذلك مباشرة هي معروفة من هذا البيت ، مأوفة من كبيرهم وصغيرهم : فإنهم لا توفيهم ولا ليت ، معتمدا على سلوك طريقة أخيه وأبيه ، مجتهدا على اتباع اعتمادهما في توخيه الصواب أو تأبيه ، حتى يقال : هذا صنو ذلك الغضن الناضر ، وهذا شبل ذلك اللبث الخادر ، وتصبح الرابع مجسن نظره أهلة بالأهله ، كاملة بالحاسن التى تسمى الأفسار منها مستهله ، وتعود الأيتام بمشارفته كأنهم لم يفقدوا بر والدهم ، ولم يحتاجوا مع تديره إلى مساعدتهم . والوصايا كثيرة وأهمها تقوى الله عز وجل فإنها الحصن الأوقى ، والمعقل المنيع المرقى ، فليتخذها عينيه نصبا ، وليشغل

بها صَمِيرَه حَتَّى يَكُونَ بِهَا صَبَاً ؛ وَاللّٰهُ تَعَالَى يُمَيِّ غُصْنَه النّٰصِرَ ، وَيُقَرِّ بِكَالِه الْقَلْبَ
وَالنَّاطِرَ ! وَالخَطُّ الْكَرِيمُ أَعْلَاهُ اللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ فِي ثُبُوتِ الْعَمَلِ بِمَا آقْتَضَاهُ ؛
وَاللّٰهُ الْمَوْفِقُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! .



تَوْقِيعٌ بِاسْتِيفَاءِ الْمَقَابِلَةِ وَاسْتِيفَاءِ الْحَيْشِ ، وَهُوَ :

رُسْمٌ بِالْأَمْرِ - لِأَزَالَةِ الْمُنَاقِبُ فِي دَوَائِنِهِ الشَّرِيفَةِ شَمْسِيَّةِ الْأَنْوَارِ ، قُرْشِيَّةِ الْفَخَّارِ ،
مُشْتَقَّةِ الْحَامِدِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالْآثَارِ ، مُحْصَلَةً بِأَقْلَامِ الْيَمِينِ مَا يَسْذُلُهُ الْكَرَمُ مِنْ أَقْسَامِ
الْيَسَارِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ ... حَسَبَ الْأَسْتَحْقَاقِ الْمُقْتَضَى ، وَالْأَخْتِيَارِ الْمُرتَضَى ؛ وَعَيْنُ
الرَّأْيِ الَّذِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّأْيِ حَاجِبٌ ، وَتَقَدُّمُ السُّنَّةِ الْقَدِيمَةِ فَإِنَّ التَّقْدِيمَ لِقَرَيْشٍ
وَأَجِبْ ؛ وَلَأَنَّ الصِّفَاتِ الشَّمْسِيَّةِ أَوْلَى بِشَرَفِ آفَاقِهَا ، وَمَنَازِلِ إِشْرَافِهَا وَإِشْرَاقِهَا ،
وَمَطَالَعِ سَعْدِهَا الْمُتَزَهِّةِ عَنِ اللَّبْسِ ، وَجَلَائِلِ قَلَمِهَا الْعُطَارِدِيِّ فِي يَدِ الشَّمْسِ ؛
وَلَأَنَّ الْمَشَارَإِلَهُ أَحَقُّ بِمَصَاعِدِ الْمُرتَقِينَ ، وَلَأَنَّهُ تَرَبَّى فِي بَيْتِ التَّقَى فَكَانَ اللّٰهُ مَعَهُ
إِنَّ اللّٰهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فَلْيُبَاشِرْهَا تَيْنِ الْوُظُفِيَّتَيْنِ عَلَى الْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِعَزَمِهِ السَّيِّدِ ، وَمَدَّاتِ قَلَمِهِ الَّتِي
بَحَرَهَا فِي السَّبْعِ بَسِيطٌ وَظَلُّهَا فِي النَّفْعِ مَدِيدٌ ؛ وَلِيَتِمَّتَلَ بِدِيَوَانِ مُقَابَلَةٍ فَرِيدًا لَا يَرْهَبُ
مُثَالَّهُ ، وَلِيَجْزُرَ أَحْوَالَهَا بِضَبْطِهِ حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ ؛ وَلِيُمَدِّدَ الْجِيُوشَ الْمَنْصُورَةَ
مِنْ أَوْرَاقِهِ بِأَعْلَامِهِ ، وَمِنْ قَصَبَاتِ السَّبْقِ بِرِمَاجٍ تُعَرِّفُ بِأَقْلَامِهِ ؛ وَلِيَسْتَرْفِعَ مِنْ
الْحُسْبَانَاتِ مَا يَحْمُو بِإِيضَاحِهِ وَتَكْمِيلِهِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ ظُلْمٍ وَإِظْلَامٍ ، وَلِيَجْمَعَ بَيْنَ ضَرْقِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَاللّٰهُ تَعَالَى يُمَدِّدُ قُرْشِيَّتَهُ بِأَنْصَارٍ مِنَ الْعَزَمِ ، وَتَابِعِينَ
بِإِحْسَانٍ مِنْ نَوَافِذِ نَوَافِلِ الْحَزَمِ .



تَوْفِيعٌ بِصَحَابَةِ دِيَوَانِ الْأَسْوَاقِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ أَسْوَاقُ نِعَمِهِ قَائِمَتِهِ ، وَأَجْلَابُ كَرَمِهِ دَائِمَتِهِ ، وَلَا بَرَحَتِ
 الْمَنَاصِبُ مُكَلَّمَةً بِكُفَاةِ أَيَّامِهِ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ ظُنُونَهَا السَّامِيَةَ وَيَرَعُونَ أَحْوَالَهَا
 السَّائِمَةَ - أَنْ يَرْتَبَ فَلَانٌ ... : عَلِمًا بِكُتَابَتِهِ الَّتِي وَصَّيَتْ الدَّفَاتِرَ أَحْسَنَ سِمَةٍ ،
 وَاسْتَبَقَتْ إِلَى صُنْعِ الْخَيْرِ الْمُسَوِّمَةِ ، وَكَفَاءَتِهِ الَّتِي لَا تَرَالُ تَمُولِدُهُ وَتَنْتَمِي ، وَيرَاعَتِهِ
 الَّتِي إِذَا سُئِلَ عَنْهَا السُّوقُ قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَوَوَّكَأُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي ، وَدِرَايَتِهِ
 الَّتِي تُعِينُ الْمَلِكَةَ عَلَى الْمِيرَ ، وَيَشْهَدُ تَيْمُنُهَا أَنَّ الْخَيْلَ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرَ ، وَتُحَقِّقُ فِيهِ
 الظَّنَّ وَالْأَمْلَ ، وَتَحُوطُ السُّوقَ عَنِ الْخَائِنِ حَتَّى يَقُولَ : لَا نَاقَةَ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلَ ،
 وَأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي إِنْ قَالَ أَوْ فَعَلَ كَانَ مُسَدَّدًا ، وَإِنْ ضَبَطَ دِيَوَانَ الشَّدِّ السَّعِيدِ كَانَ
 عَلَى الرَّائِعِينَ مِنَ الْكُتَبَةِ حَرْفًا مُسَدَّدًا .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُضُفَةَ الْمُبَارَكَةَ مُتِمِّكِنَ الْأَسْبَابِ ، مَالِكِ الْحَزْمِ وَالرِّفْقِ حَتَّى تَكْثُرَ
 لَدَيْهِ الْجُلَّابُ ، مُعِينًا لِمَيِّتِ الْمَالِ عَلَى الْإِنْفَاقِ ، قَائِمًا بِمَحَقُوقِ ذَوِي الْأَسْتِحْقَاقِ ،
 عَلِيمًا أَنَّهُ [مَتَوَلَّى] أَكْثَرَ جِهَاتِ الْخَيْرِ الْمُطْلَقِ فَلْيَكُنْ بِهَا مَشْكُورًا عَلَى الْإِطْلَاقِ ، مُجْتَمِدًا
 فِي رِضَا الْمَطْلُوبِينَ حَتَّى يَدْعُوهُ سَنَنُ الْمُرْسَلِينَ فِي هَذِهِ [الصفة] يَا كُفُونِ الطَّعَامِ وَيَمْشُونَ
 فِي الْأَسْوَاقِ ، مُوَاطِبًا عَلَى الدِّيَوَانِ الَّذِي هُوَ بِصَحَابَتِهِ مَعْدُودٌ ، سَالِكًا سُبُلَ الصِّيَانَةِ
 وَالْكَفَاءَةِ فَكُلَاهُمَا نَعَمَ السَّبِيلُ الْمَطْرُوقُ ، مُحْتَرِزًا مِنْ ذِي خِيَانَةٍ إِنْ غَفَلَ عَنْهُ طَفِيقُ
 مَسْعَا بِالسُّوقِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّقُ عَزَائِمَهُ الَّتِي هِيَ أَشْهَرُ مِنْ عِلْمِهِ ، وَهَمَّتُهُ الَّتِي قَاسَمَتْ
 « أبا الطَّيِّبِ » : « وَانْخِلُ تَشْهَدُ الْقُرْطَاسُ وَالْقَلَمُ » .



نسخة توقيع بشهادة الخزانة العالية ، من إنشاء ابن نبأته ، كُتِبَ به لجمال الدين «عبد الله بن العاد الشيرازي» وهي :

رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زالت سِمَةُ المناصب في دولته بأسماء الكُفَاةِ مُجَمَّلَةً ،
وَحُلِّعَ المَفَاحِرُ عَلَى بُيُوتِ السِّيَادَةِ مُكَمَّلَةً ، وَخَزَائِنُ الْمُلْكِ بَيْنَ تَقْيِضَيْنٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ :
فَبَيْنَمَا هِيَ بِأَقْلَامِ الْكُفَاةِ مُحْتَفِظَةٌ إِذَا هِيَ بِأَقْلَامِ الْكُفَاةِ مُبَدَّلَةٌ - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ
السَّامِيُّ ... : علما بمحاسنه التي وَضَحَ بِهَا ، وَتَفَسَّحَ فِي الْعِلْيَاءِ بِهَا ، وَنَجَّحَ
فِي مَنَائِبِ الْفَضْلِ أَصْلُهَا ، وَشَرُفَ بِكَوَاكِبِ الْيُنُسِ اتِّصَالُهَا ، وَمَعَالِيهِ الَّتِي تَهْلَلُ بِهَا
وَجْهُ الْأَصَالَةِ ، وَكُلُّ بَيْتِ الرَّأْسَةِ وَالْجَلَالَةِ ، وَمَسَاعِيهِ الَّتِي آسَتَوْفِي بِهَا أَجْنَاسُ
الْفَضْلِ وَتَوَرِيثُهُ فَمَا أَخَذَهَا عَنْ كَلَالٍ وَلَا وَرَثَهَا عَنْ كَلَالَةٍ ، وَسِيرَتُهُ الَّتِي تَطْوِي
نَحَارَ الْأَقْرَانِ حِينَ تُنْشَرُ ، وَهَيْئَتُهُ الَّتِي أَشَدَّتِ السَّعَادَةَ فَرَعَهَا الْكَرِيمُ : «مَبَادِيكَ
فِي الْعِلْيَاءِ غَايَةُ مَعَشَرٍ» ؛ وَمَكَاتِهِ مِنْ بَيْتِ السِّيَادَةِ الرَّفِيعِ عِمَادُهُ ، الْبَدِيعِ سَنَدُهُ الْمُنِيعُ
سِنَادُهُ ، الْمَدِيدِ مِنْ تَلْقَاءِ الْحَجَرَةِ طُنْبُهُ الثَّابِتَةِ مِنْ حَيْرِ النُّجُومِ أَوْتَادُهُ ، وَأَنَّهُ نَجَلُ السَّرَاةِ
الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ الْفَضْلِ فِي كُلِّ وَادٍ ، وَأَسْتَشْهَدُوا عَلَى مَنَاقِبِهِمْ كُلِّ عَدُوٍّ وَكُلِّ وَادٍ ؛
وَحَمَلُوا مِنْ صَنَاعَتِهِمْ رَايَاتٍ عَبَّاسِيَّةً سَارَتْ بِهَا رِمَاحُ أَقْلَامِهِمْ تَحْتَ أَبْدَعِ سَوَادٍ ،
وَمَلَكُوا قَدِيمَ الْأَوْطَانِ بِشَرَفِ الْآخِرِ : فَسَوَاءٌ عَلَى شِيرَازَ مُحَاسِنُ «أَبْنِ الْعَمِيدِ»
وَمُحَاسِنُ «أَبْنِ الْعِمَادِ» ؛ وَتَبَيَّنَتْ مَنَاقِبُهُمْ بِهَذَا النُّجْلِ السَّعِيدِ طُرُقَ الْمَرَاتِبِ كَيْفَ
تُسَلِّكُ ، وَإِحْزَارِ الْمَنَاصِبِ كَيْفَ يَكُونُ لَهَا يَدُ أَرْبَابِ الْبُيُوتِ أُمْلَكُ ، وَدَرَجَاتِ
الْوُظَائِفِ كَيْفَ تَسْمُو الْوَالِدَ بِالْوَلَدِ حَتَّى يَقُولَ : لَا أَبَالِي هِيَ الْيَوْمَ لِي أُمُّ لَكَ ؟ ؛
كَمْ أَسْتَنْهَضَ وَالِدُهُ لِحَلِيلِ فَكَفَّنِي ، وَجَمِيلَ قَصْدٍ فَوَفِّي ؛ وَأَوْقَاتٍ عَلَّتْ حَتَّى أَصْغَتْ

إلى علاه تَنْتَسِب ، ومناصبَ رُزِقَ - بتَقَوَاهِ فيها - من حيثُ يَحْتَسِب ومن حيثُ لا يَحْتَسِب ؛ وجاء هذا الولدُ ذَخِيرَةً والدِه فحُسِنَتْ لِخِزَانَةِ الذَّخِيرَةِ ، وَعُضِدَتِ الْأَوَّلَةُ من السِّيَادَةِ بِالْآخِرَةِ .

فليأشُرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً هي أعلى منها وأشرفُ سِيرِهِ ؛ مُجْتَهِداً فيما يَبْيِضُ وَجْهَهُ عَلَيْهِ وَنَسَبِهِ ، عارفاً قَدْرَ هذه الرُّتْبَةِ من أوَائِلِ رُتْبَتِهِ ، مَتَّقِظَ الْأَفْكَارِ وَالطَّرْفِ ، متَأَرِّجَ الْمَعْرِفَةِ إِذَا ذَكَرُوا الْعَرَفَ ، زَانِجاً تَبَرُّعَ شَهَادَتِهِ عَلَى التَّعْلِيقِ فَلَا يُتَّقَدُّ عَلَيْهِ فِي مُتَحَصِّلٍ وَلَا صَرْفٍ ؛ حَتَّى يَقُولَ الْخِزَانَةُ : نَعَمْ الْعِزْمُ الشَّاهِدُ ! وَحَتَّى يَشْهَدَ بِوَفَاءِ فَضْلِهِ الْمَضْمُونُ ، وَحَتَّى يَعْلَمَ بِأَمَانَتِهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ هُوَ «الْمَأْمُونُ» ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْوَصَايَا أَوَّلَ وَأَوَّلَى مَا تَمَسَّكَ بِهِ ، وَاسْتِقَامَ عَلَى شَرَفِ مَذْهَبِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبَشِّرُ الْإِسْلَامَ بِتَنْبِيهِ قَدْرِهِ وَيُقِرُّ الْأَوْصَافَ بِمَهْدِيهِ !



تَوْقِيعٌ بِشَهَادَةِ الْأَسْوَارِ ، وَهُوَ :

رُسمُ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يَمُدُّ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ عِنَايَتِهِ سُورًا ، وَيَجِدُّ لِلْأَوْلِيَاءِ رِأْسًا مَيْسُورًا ، وَيُسْعِدُهُمْ بِكُلِّ تَوْقِيعٍ يَكُونُ بِالْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا - أَنْ يَرْتَبَ الْمَجْلِسُ : عِلْمًا بِعِزِّهِ السَّاهِدِ ، وَحِزْمِ الشَّاهِدِ ، وَكِفَايَةِ وَأَمَانَتِهِ الَّتِي مَا كَانَ وَصْفُهَا حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَنَظَرًا لِحَالِهِ وَحَالِ الْأَسْوَارِ : فَيَا لَهَا شَهَادَةٌ كَانَ أَصْلُهَا نَظَرًا .

فليأشُرْ هذه الرُّتْبَةَ الْمُبَارَكَةَ كَمَا عَاهَدَ مِنْهُ مَبَاشَرَةً حَسَنَةً الْآثَارِ ، مُشْرِقَةً الْأَنْوَارِ ، جَاعِلَةً تِلْكَ الْعَمَارِ حِلِيَّةً لِدِمَشْقَ : فَبَيْنَمَا هِيَ مُسَوَّرَةٌ إِذَا هِيَ سِوَارٌ ، ضَاطِطًا لِمُتَحَصِّلِهَا وَمَصْرُوفُهَا ، مُحَرَّرًا لَوْفِهَا مُحْتَرِّزًا مِنْ وَقُوفِهَا ، جَارِيًا عَلَى جَمِيلِ عَادَتِهِ ، زَانِجًا بِكَرَمِ اللَّهِ

تعالى على التوفيق تبرُّشهادته ؛ حتى تشهد هذه الوظيفة بهِمته المتمكِّنة الأسباب ،
ويُضرب بين المدينة وبين من كادها بسورٍ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؛
والله تعالى يسدُّه في كلِّ أمر ، ويحفظ هِمته وبركته «ليوم كريمةٍ وسدادٍ ثغر» .



تَوْقِيعٌ بِمُشارَفةِ خَزائنِ السِّلَاحِ ، لِمَن لَقِبَهُ «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسم بالأمر العالى - أَعلى اللهُ تعالى أعلامَ حَمْدِهِ ، وجعل أَحكامَ المَقاديرِ مِنْ
جُنْدِهِ ، ولا زالت أَفلاكُ الشُّهبِ مِنْ خَزائنِ سلاحِ سَعْدِهِ - أَنْ يُرْتَبَ ... : حَمَلًا
على حَكَمِ التَّزُولِ الشَّرْعِيِّ ، والطُّلُوعِ إلى رُتَبِ الاستحقاقِ المَرْعِيِّ ؛ وَعِلْمًا بِكُفَايَتِهِ
الَّتِي بَلَغَتْهُ أَمَلًا ، وَجَعَلَتْ لِلوظائفِ بِذِكْرِهِ جَمَالًا ، وَثَمَرَتْ بِقَلَمِهِ لِلجَهِاتِ مَالًا ،
وَأَوْصَلَتْهُ على رَغَمِ الأندادِ لِمَا لا ؛ وَأَعْتَادًا على أَمَانَتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا مَلَاذًا ، وَأَكْتَفَى
بِهَا سِلَاحُ عَزَمِهِ نَفَاذًا ؛ وَصِيائَتِهِ الَّتِي طَالَمَا أَعْتَرَضَ [لَهَا] عَرَضُ الدُّنْيَا فَقَالَتْ :
يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ؛ وَاسْتِنَادًا إلى نَشَأَتِهِ فِي بَيْتٍ عَلَتْ فِي المَناصِبِ أَعْلَامُهُ ،
وَصَدَقَتْ فِي المَرَاتِبِ حُلُومُهُ وَأَحْلَامُهُ ، وَتَنَاسَبَتْ الآنَ تَصَرُّفَاتُهُ السَّعِيدَةُ : فإِذَا فِي تَدْبِيرِ
الجِوشِ وَإِذَا فِي تَنْمِيزِ السِّلَاحِ أَقْلَامُهُ .

فليأشُرْ هذه الوظيفة المباركة بعَزمِ بَادِي النِّجَا والنِّجَاحِ ، وَقَلَمِ على حَالَتِي وَظِيفَتِي
وهِمَّتِي مَا ضَى عَزَمِ السِّلَاحِ ؛ مَقَرَّرًا لِعَمَلِهَا وَمَعْمُولًا ، ضَابِطًا لِوَصَالِهَا وَمَجْمُوعًا ؛ حَتَّى
يَذْهَبَ لِسَانُ سَيْفِهَا بِشُكْرِهِ ، وَتَطْلُعَ أَهْلَةُ قِسِيهَا بِبَيَانِ ذِكْرِهِ ، وَتَكُونُ كُؤُوبُ رِمَاحِهَا
كُلُّهَا كَعَبٌ مُبَارَكٌ بِمُباشَرَتِهِ وَبِشْرِهِ ؛ وَاللهُ تعالى يسدُّ قَلَمَهُ فِي وَظِيفَتِهِ تَسْدِيدًا
سَهَامِهَا ، وَيُوقِّرُ لَهُ مِنْ أَنْصِبَاءِ المَرَاشِدِ وَسَهَامِهَا .

(١) هو مصدر نجا نجاهًا بالماء وقد يقصر ،



قلتُ : وهذا توقيعٌ بوظيفةٍ بكتابة ديوانيةٍ لسامريٍّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نبأته ، وهو :

رُسِمَ بالأمر - لا زالَ قَلَمُ أَوَامِرِهِ الْفِضَى يُظْهِرُ ثَمَرَهُ ، مُسَمِّعًا حَدِيثَ الْإِنْعَامِ الشَّامِلِ حَتَّى سَمَرَهُ - أَنْ يَرْتَّبَ فُلَانٌ فِي كَذَا : عِلْمًا بِكَفَايَتِهِ الَّتِي يُعَذِّرُ بِهَا فِي قَوْمِهِ عَلَى سُلُوكِ اللَّهِ ، وَحَذَقِ حِسَابِهِ الَّذِي هُوَ أَلَدُّ مِنَ السَّلَوَى الْمُجْتَهِدِ وَمُجْتَهِدِهِ ، وَقَرِيحَتِهِ الَّتِي إِذَا اخْتَارَهَا اخْتِيَارَ قَوْمِ مُوسَى فَازَ مِنَ الْعَمَلِ بِمَطْلُوبِهِ ، وَإِذَا قِيلَ : يَا سَامِرِيُّ مَا قَدَّمَكَ عَلَى الْقُرْنَاءِ فِي الْحِسَابِ ؟ قَالَ : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، وَأَمَانَتِهِ الَّتِي حَاطَتْ حَيَاطَةَ الصَّعْدَةِ السَّمَرَاءِ ، وَرَفَعَتْ رَأْيَتَهُ عَلَى الْأَنْدَادِ قَائِلَةً : مَا حَاطَ الْبَيْضَاءُ وَالصَّفْرَاءُ كَصَاحِبِ الْحُمْرَاءِ ! ، وَاعْتَمَدَا عَلَى كِتَابَتِهِ الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا مِنْ حُسْبَانَاتِهِ الْأَسْفَارِ الْمُبَيَّنَةِ ، وَإِقْرَاءِ لِمَصْنَعَاتِهِ الَّتِي تَحَرَّتِ الْفِكْرُ حَتَّى قِيلَ : هَذَا مِنْ شَعْبِ الْقَرَّائِينَ وَالْكُهَنَةِ .

فليباشر هذا الاستيفاء لأوفى منه مَترقيًا ، وَلِكَلِمَاتِ الْإِخْتِيَارِ مُتَلَقِّيًا ، نَاهِضًا بِإِخْدَمِهِ ، مُجَدِّدًا بِاعْتِمَادِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّ ذِكْرَ النِّعَمَةِ ، عَارِفًا قَدْرَ الْإِنْعَامِ الَّذِي رَعَى وَشَمِلَ كُلَّ ذِمَّةٍ ، سَالِكًا مِنَ الْأَجْتِهَادِ فِي خِدْمَةِ حِسَابِهِ كُلِّ طَرِيقَةٍ ، غَاضًا لِلْحُسَادِ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِ : فَيَعْبُدُونَ الْعِجْلَ مَجَازًا وَحَقِيقَةً ، مُجْتَمِدًا فِي آسِنِزَالِ الْمَنِّ لَا الْمَنَعِ ، مُعَوِّدًا آلَافَ الْحَوَاصِلِ بِعَشِيرِ كَلِمَاتٍ رَاقِيَةٍ مِنْهُ فِي السَّمْعِ ، مُعَلِّقًا عَلَى جَمِيعِهَا هَيْكَلًا مِنْ أَمَانَتِهِ فَهُوَ أَدْرَى فِي الْهَيْكَلِ بِشَرَطِ الْجَمْعِ ، صَائِبًا لِنَفْسِهِ مِنْ عُذْوَانِ الْخِيَانَةِ حَتَّى لَا يَعْدُوَ فِي سَبْتٍ وَلَا فِي أَحَدٍ ، مُتَنَزِّهًا عَنْ أَكْلِ الْمَالِ مَعَ الْخَوْنَةِ حَتَّى يَقَالَ : نَعَمْ السَّامِرِيُّ الَّذِي لَا يَأْكُلُ مَعَ أَحَدٍ .

الضرب الثاني

(من الوظائف الديوانية بالشام - ما هو خارج عن حاضرة دمشق .

وغالب ما يكتب فيها من التواقيع مفتوح بـ «رسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بنظر غزّة ، وهى :

رُسم بالأمر - لازال النَّصْرُ المَكْرَرُ ، يَحْلُو بِذِكْرِهِ ، وَالسَّعْدُ المَقْتَرُ ، يَحْلُو وَجْهَ الآمالِ
بَذْهَرِهِ ، وَلَا بَرَحَ سِرَاجِ الخِدْمِ مُضِيّاً عِنْدَ لَيَالِي نَهْيِهِ الحَالِكِ وَأَمْرِهِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ
فَلَانٌ ... : لَمَّا عُرِفَ فِي الْمَنَاصِبِ مِنْ نُهوضِهِ الذى رَاقَ وَرَاجَ ، وَفِي المِهْمَاتِ
مِنْ رَأْيِهِ الذى يَمْتَشَى أحوالَ الجهاتِ المستقيمة بِسِرَاجٍ ؛ وَلَمَّا شَهِرَ لهُ فِي الأنظارِ
المتعددة مِنْ علُوِّ الهِمَمِ ، وَفِي الوظائفِ المترددة مِنْ العِزَمَاتِ التى يَقُولُ السَّدَادُ :
نَبَّهَ [لَهَا] عُمَرَا^(١) ثُمَّ نَمَّ ؛ وَلَمَّا وُصِفَ مِنْ أَمَانَتِهِ وَدِرَائَتِهِ وَهُمَا المراد [تَان] مِنْ مِثْلِهِ ،
وَرَأْسَةِ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ المَشِيدِينَ عَنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ وَسَهْلِهِ ، وَأَنَارِهِ الحميدةِ المُنْقِلَاتِ
وكيف لا ؟ وَهُوَ المُنْتَسِبُ إِلَى سَلَفِ مُحَمَّدٍ لِسَانِ الإِسْلَامِ أَثَرُ عَقْلِهِ وَنَقْلِهِ .

فليأشُرْ هذه الوظيفة المباركة على العادة مباشرة يُحمد أثرها ، وَيُسندُ عَنْ صحيح
عِزْمِهِ خُبْرَهَا وَخَبَرَهَا ، وَيُورِقُ بِقُصُونِ الأَقْلَامِ وَرَقُ حِسَابِهَا وَيُرُوقُ ثَمَرُهَا ؛ مُجْتَهِداً
فَهُوَ مِنْ تَسْلِ المَجْتَهِدِينَ فِي عَوَائِدِ التَّحْصِينِ وَالتَّحْصِيلِ ، وَالتَّائِيدِ وَالتَّائِيلِ ، مَلِيّاً بِمَا
يُجْبِرُ كَسْرَ هذه البلادِ بالصَّحَّةِ وَيَأْسُو جُرْحَهَا بَعْدَ التَّعْدِيلِ ، حَرِيصاً عَلَى أَنْ يُجَيَّ -
بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدْيِيرِهِ - عَمَلَهَا الذى لَمْ يُبْقِ المَوْتُ مِنْ ذِمَّائِهِ غَيْرَ القَلِيلِ ؛ سَالِكاً

(١) أنظر حاشية ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء .

من الزَّاهَةِ والصَّيَانَةِ طَرِيقَتَهُ الْمُثْلَى، ومن الكَفَاءَةِ والأَمَانَةِ عَادَتَهُ الَّتِي تَرْفَعُ دَرَجَتَهُ -
إِنْ شَاءَ اللَّهُ - إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى وَأَعْلَى؛ مُسْتَرَفِعًا لِلْحَسَابِ وَلِقْدَرِهِ فِي الْخِدْمَةِ، شَاكِرًا :
فَإِنَّ الشُّكْرَ ضَمِينٌ لِأَزْدِيَادِ النِّعْمَةِ بَعْدَ النِّعْمَةِ، سِرَاجًا وَهَّاجَ الذِّكَا عَلَى الْمَنَارِ وَلَا ظُلْمَ
مَعَ وُجُودِهِ وَلَا ظُلْمَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعَلِّي قَدْرَهُ ، وَلَا يُطْفِئُ ذِكْرَهُ .



تَوَقَّعْ بِصَحَابَةِ دِيَوَانِ الْحَرَمَيْنِ ، مِنْ إِنْشَاءِ أبنِ نُبَاتَةِ ، لِمَنْ لَقَبَهُ « شَمْسُ
الدِّينِ » وَهُوَ :

رُسم بالأمر - لَا زَالَتْ أَوَامِرُهُ نَافِذَةٌ فِي الْآفَاقِ ، عَاطِفَةٌ عَطْفَ النَّسَقِ عَلَى دَوَى
الِاسْتِحْقَاقِ ، مُطْلِعَةٌ شَمْسَ التَّقَى وَالْعِلْمِ فِي مَنَازِلِ الْإِشْرَاقِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ ... :
عَلَمًا بِاسْتِحْقَاقِهِ لِمَا هُوَ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ ، وَأَوْفَى وَأَوْفَرُ ، وَإِطْلَاعًا لَشَمْسِهِ وَإِنْ آعَتْزَهَا
غَمٌّ غَمٍّ فِي مَطَالَعِ شَرْفِهَا الْأَنْوَرِ ؛ وَإِعْلَامًا بِأَنَّهُ غَيْمٌ يَزُورُ وَيُزُولُ ، وَتَقْصُّ لَا يُقِيمُ
إِلَّا كَمَا يَذْهَبُ عَارِضٌ مِنْ أَقْوَالٍ ؛ وَاعْتِمَادًا عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ وَفَاءِ صَحَابَتِهِ ، وَأَلْفَ مِنْ
سَنَاءِ دِرَآئَتِهِ وَدَرَأَتِهِ ، وَوُصِفَ مِنْ أَيَّامِ دِيُونَتِهِ ^(١) بَعْدَ أَيَّامِ حُكْمِهِ بَعْدَ أَيَّامِ خَطَابَتِهِ ؛
وَاسْتِنَادًا إِلَى تَشَابُهِهِ فِي بَيْتِ الْعِلْمِ الْمُسْتَفَادِ ، وَالْحُكْمِ الْمُسْتَجَادِ ، وَالْفَضْلِ الْمُسْتَرَادِ ،
وَتَرْبِيَةِ الْوَالِدِ الَّذِي كَانَ الْإِخْتِيَارَ يَحْلِفُ بِالْفَخْرِ أَنَّهُ مَا يَرَى أَظْهَرَ مِنْ ذَاتِ الْعِمَادِ .

فَلْيَبَاشِرْ صَحَابَةَ دِيَوَانِ هَذَيْنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ بِأَمَلٍ مَبْسُوطٍ ، وَحَالٍ بَيْنَمَا هُوَ
مَنْحَوْسٌ حَظٌّ إِذَا هُوَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَغْبُوطٌ ؛ وَاجْتِهَادٍ مَضْمُونٍ لِحَدَوَاهُ فَضْلُ
الزِّيَادَةِ ، وَسِرٍّ لَا يَزَالُ بِسَمْسِهِ حَتَّى تَجْرِيَ لِمُسْتَقَرِّهَا مِنْ مَنَازِلِ السَّعَادَةِ ، وَمُبَاشَرَةٍ
لِأَوْقَافِهَا تُعَانِ وَتُعَادُ أَجْمَلُ إِعَانَةٍ وَأَكْلَ إِعَادَةٍ ، وَصَحَابَةٍ يَنْتَوِعُ فِي نَفْعِهَا وَيَتَعَيْنُ حَتَّى
تَكُونَ [مِنْهُ] عَادَةً وَمِنْهَا شَهَادَةٌ .



تَوْقِيعٌ بِنَظَرِ الشَّعْرَا وَبَانِيَّاسٍ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، لِمَنْ لَقِبَهُ «صَدْرُ الدِّينِ» وَاسْمُهُ «أَحْمَدُ» بِالْعَوْدِ ، وَهُوَ :

رُسم بالأمر - لا زالت صُدُورُ الكُفَاةِ مُنْشِرِحَةً فِي أَيَّامِهِ ، مُنْشِرِحَةَ الآمَالِ فِي إِنْعَامِهِ ، وَلَا بَرَحَ عَوْدِهِ أَحْمَدًا إِلَى الْمَنَاصِبِ فِي ظِلَالِ سَيُوفِهِ وَأَقْلَامِهِ .

ومنه : فليباشر هذه الوظيفة الشاكرة له أولاً وآخرها ، وليجتهد فيما يزيد من الاعتناء والاعتناء باطنًا وظاهرًا ، وليستزِدْ بِشُكْرِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَمَا أَخْلَفَ وَعَدُ الْمَزِيدِ شَاكِرًا ، وَلِيَحْرِصْ عَلَى أَنْ يُرَى أَبَدًا فِي الْمَرَاتِبِ صَدْرًا وَلَا يُرَى عَنْ وَرُودِ الْإِحْسَانِ صَادِرًا .



تَوْقِيعٌ بِنَظَرِ حِمَصٍ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، كُتِبَ بِهِ لِابْنِ الْبَدْرِ نَاطِلِرٍ حِمَصٍ بِالْزَوْلِ مِنْ أَبِيهِ عِنْدَ مَا أَسَنَّ ، وَهُوَ :

رُسم بالأمر - لا زال حَسَنُ النَّظَرِ مِنْ مَوَاهِبِهِ ، وَيَمُنُّ الظَّفَرُ مِنْ مَرَاكِبِهِ ، وَسَقَى الْبِلَادَ صَوْبَ الْعَدْلِ مِنْ سَحَائِبِهِ ، وَلَا بَرَحَ سَنَا الْبَدْرِ مِنْ خَدَمِهِ فَإِذَا أَحْسَسَ بِالسَّرَارِ أَلْقَى الْخِدْمَةَ إِلَى أَزْهَرِ كَوَاكِبِهِ - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمَجْلِسُ ... : لِمَا عَلِمَ مِنْ رَأْيِهِ الْأَسَدَ ، وَعَزَمَهُ الْأَشَدَّ ، وَمَرْبِيَّ وَالِدِهِ حَتَّى يَبِينَ عِظَمُ الْهِنَاءِ بِالشُّبُلِ عِنْدَ مَا وَهَنَ عِظَمُ الْأَسَدِ ، وَرُكُونًا إِلَى نَجَابَتِهِ الَّتِي سَمَتْ أَصْلًا وَفِرْعَا ، وَقَدُمْتَ غَنَاءً وَنَفْعًا ، وَتَبَسَّمْتَ كَمَا تُمُّ أَصْلُهَا الْمُسْتَأْنَفَةُ حَيْثُ كَادَ الزَّمَانُ يَنْعَى مِنْهُ يَتَعَا ، وَاسْتِنَادًا إِلَى أَنَّ الصَّنَاعَةَ شَابَهُ ، وَتَسْمَاتِ التَّمْكِينِ هَابَهُ ، وَإِلَى أَنَّ أَغْصَانَ الْعِزَائِمِ نَضَرَهُ ، وَإِلَى أَنَّ مَعَ الْقُدْرَةِ قُدْرَهُ ، وَإِلَى أَنَّ كَوَكَبَ الْعِزِّ فِي الْمُنْزَلَةِ قَدْ خَلَفَ بَدْرَهُ ، وَاعْتِمَادًا عَلَى سِيَهَامِ تَنْفِيذِهِ الصَّابِيهِ ،

وأحكام هَمِّهِ الواجبه ، وأقلام يَدِهِ التي تُحَسِّنُ إخراج الأمل فيه وكيف لا ؟ وهى الحاسبةُ الكاتبة .

فليأشُرْ هذا النَّظَرُ المَفَوَّضَ إليه سامياً نَظَرُهُ ، زائِجاً في الخِدمة خُبْرُهُ وخَبْرُهُ ، شاكراً هذا الإِنعام الذى برَّأباه وأُسعد جَدَّه ومَزِيدُ الإِنعام مضمونُ المَزِيدِ لمن شَكَرَهُ ، عالِماً أنَّ هذه المملَكة الحِصْصِيَّةَ من أقدم ذخائر الأيام ، وأكرم ما أفاء الله من غَنيمَتِها وظِلِّها على جُنْدِ الإسلام ، وأنها من مراكز الرِّماح كما تُشِيرُ فليُجِدَّها من تَدبيره برِماح الأَقلام ؛ وليُؤاظِبْ بِحُسْنِ نَظَرِهِ على تَقَريرِ أحوالها ، وتَقَريرِ آمالها ، وتأثيرِ المِصالح فى أَعْمالها ، ولا يَحْصُصْ أمرها فى التَّضيقِ فكفى ما حَصَّصَها الأيامُ على تَعاقُبِ أحوالها ؛ بل يَحْتَدُّ فى إِزاحةِ أَعذارها بِسَدادِ الرَّأْيِ الرَّابِحِ ، وإِشاعةِ الذِّكْرِ الحَسَنِ مع كُلِّ غَادٍ وَرائِحِ ، وَرَفْعِ الأَيْدِي بِالأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ فى تلكِ المِشاهدِ لِلْمَلِكِ «الظاهر» فى هذا الوقتِ وَالْمَلِكِ «الصالح» ؛ حَتَّى يَشْهَدَ سَيْفُ اللهِ «خالد» بِمِضَاءِ سَيْفِ حَزْمِهِ وَعِزِّهِ ، وَحَتَّى يَتَوَقَّرَ من غَرَضِ الخَيْرِ وَالْخَيْرِ نَصِيبُ سَهْمِهِ ، وَتَقْوَى اللهُ تعالى أَوَّلُ الوِصايا وَآخِرُها فَتُكُنْ أَبَداً فى هِمَّةٍ فَهْمِهِ .



تَوْقِيعُ بِنَظَرِ الرَّجَّةِ ، من إِنْشاءِ ابنِ نُباتةَ لمن لَقِبَهُ «تاج الدين» وهو :

رُسمُ بالأمر - لا زالَ مَلِيَّ السَّحابِ ، بِسُقْيَا الأَمالِ الوارِدِ ، مَمْلُوءَ الرِّحابِ ، بِكُفَاةِ الأَعْمالِ السَّائِدِ ، مُحْدُومِ المِمالِكِ والأَيَّامِ بأَقلامِ الدَّواوينِ الحاسِبةِ وأَقلامِ الدَّواوينِ الحامِدةِ - أنْ يَسْتَقَرَّ : لِكُفَاةِتهِ التى وافقَ خُبْرُها الخَبَرَ ، ونُشِرَ ذِكْرُها نُشْرَ الخَبَرِ ؛ وَصِناعةِ حِسابِهِ التى لو عاش «أَبُو القاسِمِ المَعَرِّى» لم يَكُنْ لَه فىها قِسيما ،

ولو عاصرها «أَبْنُ الْجَرَّاحِ» بَقَدَمِهِ وإِقْدَامَهُ لَا تَقْلِبُ عَنْهَا جَرِيحَ الْفِكْرِ هَزِيماً ؛
بَلْ لَوْ نَاوَاهُ الشَّدِيدُ الْمَاعِزُ لَدُئِجَ بِغَيْرِ سَكِينٍ ، وَالتَّاجُ الطَّوِيلُ لَرَجَعَ عَنْ هَذَا التَّاجِ
الطَّائِلُ رُجُوعَ الْمُسْكِينِ .

فَلْيَبْشُرْ مَا قُوِّضَ مِنْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ إِلَيْهِ ، وَنَبِّهِ الْأَخْبَارَ فِيهَا نَظَرَهُ الْجَمِيلَ وَنَاطِرِيَهُ ؛
جَارِياً عَلَى عَوَائِدِ هِمَمِهِ الْوَثِيقَةِ ، مَا شِئاً عَلَى أَنْجَحِ طَرِيقٍ مِنْ آرَائِهِ وَأَوْضَحِ طَرِيقِهِ ،
نَازِلاً مَنزِلَةَ الْبَعِثِ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ الَّتِي لَوْ صُوِّرَتْ بَشْراً لَكَانَ نَاطِرُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ ؛
مُفَرَّجاً لِمَصَاقِفِهَا حَتَّى تَكُونَ كَمَا يَقَالُ رَحْبَهُ ، مُقْتَحِجاً مِنْ حُزُونِ أَحْوَالِهَا الْعَقَبَةِ
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ ؛ فَكَّ مِنْ رِقَابِ السَّفَارِ الْمَعْوِقِينَ رَقَبَهُ ؛ وَأَطْعَمَ أَرْبَابَ
الْأَسْتَحْقَاقَاتِ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، وَسَاعَفَ بِتَيْسِيرِ الْمَعْلُومِ كُلَّ كَاتِبٍ ذِي مَتْرَبَةٍ ؛
حَرِيصاً عَلَى أَنْ يُغْنِيَ الدِّيْوَانَ بَوْفَرِهِ ، وَتُغْنِيَ حُدَاةَ الثُّجَّارِ بِشُكْرِهِ ، وَعَلَى أَنْ يَقُومَ
رَجُلٌ الْأَسْتِخْدَامَ فِي الْمِهْمَاتِ بِنَصْرِهِ ؛ وَعَلَى أَنْ تُسَاقَ بِفَضْلِ قَلَمِهِ الْأَمْوَالُ أَحْسَنَ
سَوَاقٍ ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ لِأَهْلِ الرَّحْبَةِ مِنْ إِحْسَانِهِ «مَالُكَ» وَمِنْ جَدْوَى تَدْيِيرِهِ
«طَوَقٌ» ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوضِّحُ فِي الْمَصَالِحِ مِنْهَاجَهُ ، وَيُعْلِي عَلَى رُءُوسِ الْأَوْصَافِ تَاجَهُ .



تَوَقَّعْ بِنَظَرِ جَعْبَرٍ قَبْلَ أَنْ تُثْقَلَ إِلَى عَمَلِ حَلَبَ ، مِنْ إِنْشَاءِ آبِنِ نُبَاتَةٍ ، كُتِبَ بِهِ
«لِهُبَةِ اللَّهِ بْنِ النَّفِيسِ» ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتِ الْمَنَاصِبُ فِي دَوْلَتِهِ الشَّرِيفَةِ تَسْتَقْبِلُ هِبَةَ اللَّهِ بِشُكْرِهَا ،
وَنَتَائِجَ الذِّكْرِ النَّفِيسِ بِمَقْدَمَاتِ نَشْرِهَا وَإِشْرَاهَا - أَنْ يَرْتَبَ ... : لِكِفَايَتِهِ
الَّتِي أَشْهَرَتْ ، وَأَمَانَتِهِ الَّتِي طَهَّرَتْ فَظْهَرَتْ ، وَمُبَاشَرَتِهِ الَّتِي ضَاهَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ
إِذَا زَهَرَتْ ، وَنُجُومُ الْأَرْضِ إِذَا أَزْهَرَتْ ؛ وَأَنَّهُ الَّذِي جُرَّبَ عَزْمُهُ فَزَكَ عَلَى

التَّجْرِبَ ، وَرَقِيَ فِي مَطَالَعِ التَّدْرِيجِ وَالتَّدْرِيبِ ، وَنَصَّ حَدِيثُ أَجْتِهَادِهِ الْمُقَرَّبَ فَكَانَ سَابِقًا عَلَى النَّصِّ وَالتَّقْرِيبِ ؛ وَأَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ مِّنْ أَطَابِ التَّأْرِخِ خَبَرُهَا ، وَقَصَّ سِيرَهَا ، وَحَمَدَ صَاحِبَهَا الْعَقِيلَ مِنْ قَدِيمِ أَثَرِهَا ، وَعَرَفَ بَرَكَتَهَا لَمَّا أَسْتَسْقَى بِهَا مِنَ السَّمَاءِ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْحَيَوَانِ مَطَرَهَا .

فَلْيَبَاشِرْ هَذَا الثَّغَرَ الْمُحْرُوسَ بِكَفَاءَةِ بِاسْمِهِ ، وَعِزْمَةِ كَالْحُسَامِ لِأَذْوَاءِ الْأُمُورِ حَاسِمِهِ ؛ وَرَأْيِ لِلنَّجَاحِ حَسَنِ الْأَسْتِصْحَابِ ، وَتَثْمِيرِ كَمَا مَلَأَ الرَّحْبَةَ فُلَيْمَلًا بِمِضَاعَفَتِهِ الرَّجَابِ ؛ مُؤَفِّرًا الْعَدَدَ لِلْحَوَاصِلِ وَحَوَاصِلِ الْعِدَادِ ، فَاتِحًا لِأَفْوَاهِ الْقُفُولِ بِذِكْرِ الْجَمِيلِ فِي التَّهَانِمِ وَالنَّجَادِ ، مَاشِيًا فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ عَلَى سَدَادِ الطُّرُقِ وَطُرُقِ السَّدَادِ .



تَوْقِيعُ بِنَظَرِ الْبِقَاعِ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةِ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يُهَيِّئُ لِلْكُفَاةِ رِزْقًا ، وَيُهَيِّئُ لِتَجْدِيدِ الْمَنَاصِبِ مُسْتَحِقًّا ،
وَلَا بَرَحَتِ الْبِقَاعُ بِأَيَّامِهِ الْكَرِيمَةِ تَسْعَدُ كَمَا تَسْعَدُ الرِّجَالُ وَلَا تَشْقَى - أَنْ يَرْتَبَ ...
حَسَبَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مَكْتَابَةُ الْجَنَابِ الْفُلَانِي : مُنَبِّهَا عَلَى قَدْرِ هَذَا النَّاطِرِ الْمُهْدَّبِ وَضَفُّهُ ،
الْمُرْتَبَ عَلَى نَحْوِ الثَّنَاءِ نَعْتُهُ وَعَظْفُهُ ؛ الْمَشْهُورِ بِمُبَاشَرَتِهِ أَنْتِفَاعِ الْوُظَائِفِ وَأَرْتِفَاعِهَا ،
الشَّاهِدِ بِكَفَائَتِهِ وَأَمَانَتِهِ مَسَالِكِ الْأَعْمَالِ وَبِقَاعِهَا ؛ وَأَعْتِمَادًا عَلَى مُبَاشَرَتِهِ الزَّكِيهِ ،
وَكِتَابَتِهِ الَّتِي لَا يُدَاهِنُهَا الْمَدَاهِنُونَ وَهِيَ نِعَمُ الْبَلْعَبَكِيَّةِ ^(١) .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ الْمُتِمِّمَةَ بِمَطَالَعِ رَشْدِهِ ، وَمَطَالَبِ سَدِّدِهِ ، عَالِمًا أَنَّ الْبِقَاعَ
كَالرِّجَالِ تَسْعَدُ وَتَشْقَى : فَلْيَكُنْ سَعْدُهَا عَلَى قَلْبِهِ وَيَدِهِ ؛ مُجْتَهِدًا فِيمَا يُبَيِّضُ وَجْهَهُ

(١) نسبة الى بعلبك عند من يجعله اسما واحدا ويمتنع من الصرف فأما من يضيف الأول الى الثاني ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعلبي .

شَاكِره، حَرِيصًا على آزدِياد الصفات التي كانت في عقد حساب العمل محلَّ بِنَانِه
بِفعلته الآن محلَّ نَظِيرِه ؛ مُتَمَرِّمًا لَأُمُوالِ النواحي وَغِلَالِهَا ، وَاضِعًا عن أرباب
الاستحقاقات ما عليها من سُوءِ التديير : من إِضْرَها وَأَغْلَالِها ؛ مُحْتَاطًا لِنَفْسِه
في الحَوَاطِ حَتَّى لَا يُذْكَرَ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يُعْرَفَ قَلَمُه إِلَّا بِمَيْرٍ؛ نَاثِرًا حَبَّ جُبَّةٍ حَتَّى
تَهْوِي إِلَيْه أَلْفَاظُ الثَّنَاءِ هُوِيَّ الطَّيْرِ، جَاعِلًا تَقْوَى اللَّهِ مَقْصِدَه : فَإِنَّهَا السَّبِيلُ إِلَى فَوْزِ
الدارين لَا غَيْرَ .

الصنف الرابع

(مما يُكْتَبُ لأرباب الوظائف بالشام - تَوَاقِعُ مشايخ الخَوَاقِ ،
وهي على ضريين)

الضرب الأول

(ما هو بِحَاضِرَةِ دِمَشْقَ ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يَفْتَحُ بِهِ «الْحَمْدُ لِلَّهِ»)

وهو تَوَقِيعُ شَيْخِ الشُّيُوخِ بِدِمَشْقَ : وهي مَشِيخَةُ الخُلَفَاءِ الصَّلاحيَةِ المَعْرُوفَةِ
بِالشُّمُيصَاتِيَةِ . وقد تَقَدَّمَ أَنَّهَا يَكْتُبُ بِهَا أَيْضًا مِنَ الأبوابِ السُّلْطَانِيَةِ . ثم هي تُفَرَّدُ
نَارَةً عن كِتَابَةِ السَّرِّ بِالشَّامِ ، وَنَارَةٌ تُضَافُ إِلَيْهَا .

تَوَقِيعُ بِمَشِيخَةِ الشُّيُوخِ بِالشَّامِ ، من إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ
لِلشَّيْخِ «علاء الدين علي» مُفْرَدَةً عن كِتَابَةِ السَّرِّ ، وهو :

الحمد لله الذى جعل شَرَفَ أوليائه عليا ، وفضلَه الجليلَ جلياً ، وأتصالَ علائهم
كَاتصالِ كوكبِ الشَّرَفِ بإيلاءِ الخيراتِ ملياً ، وحاضِرَ أفضيهم كغائِبِهِ إذا سَطُرَتْ
دَعَوَاتُهُ وَاسْتَمَطَرَتْ هِبَاتُهُ كان على كَلا الحَالَيْنِ ولياً .

نُحْمَدُهُ على توالى النعمِ الأنيقَةِ ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له
شهادةً تستمرُّ بأصنافها فروعُ الحقيقة ، ونشهدُ أن محمداً عبده ورسوله أجدرُ الخلقِ
بكرمِ الخَلِيقَةِ ، صلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا بهداه أحسنَ طريقِ
وسُلكوا فى أحسنِ طريقِهِ ، صلاةً دائمةً لا تزالُ بها عقائدُ الإخلاصِ مُوثقةً وألسنةُ
الذكرِ طليقةً ، ونَحْيَةً إذا بدتْ فى حَضْرَةِ الأَدِّكارِ كانت للأعينِ من الثورِ نهارة
وكانت للأُنجمِ من القَدَرِ شقيقةً .

أما بعدُ ، فإنَّ أولىَ المراتبِ الدينيةِ بتقديمِ العِنايةِ ، وتَفخيمِ الرعايه ، وتكريمِ التولية
ولا سيما إذا كانت منتسبة إلى أهلِ الولاية - مُرتبةُ مَشِيخَةِ الشيوخِ التى يجمعُ عبادُ الله
الصالحينَ نِطاقَها ، ويضمُّهم رِواقُها ، وتطلعهم مطالعَ كواكبِ الهدى آفاقُها المُنيرةُ
وأوقافُها .

ولما خَلَّتِ الآنَ هذه الرتبةُ بالشامِ المحروسِ من شَيْخِ تَدْوِرِ هذه الطائفةِ على
قُطْبِهِ ، وتَجَمُّعُ على مائدةِ قُرْبَاتِهِ وقُرْبِهِ ، وتَمَشُّى على قَدَمِهِ وتُسَاجِى صلاحَ أحوالِها
عن قَلْبِهِ - تَعَيَّنَ أن نختارَ لها مَنْ كَلَّمَ باللهِ أَدَاتِهِ ، وَصَفَتْ فى مشاهدِ الحَقِّ
ذَاتَهُ ، وَزَكَّتْ فى عِلْمِى الإِبَانَةِ والأمانةِ شهادَتَهُ الْمُفْصِحَةَ ومُشاهداتِهِ ، وأَجْمَعَ الناسُ
على فوائِدِ تَسْلِيكِهِ وأَسْلَافِ قَلَمِهِ حيثُ بدتْ فى وجوهِ الحُسْنِ حَسَنَاتُهُ ، وَوُجُوهِ
الشامِ شَامَاتُهُ ، لما شُهرَ من مَعْرِفَتِهِ وعِرْفَانِهِ ، ولما دُعِيَ له بِبَقَاءِ نُوحٍ لِمَا فَاضَ

فِي الْعِلْمِ مِنْ طُوفَانِهِ ؛ وَلَمَّا قَامَ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ طَبَقَةِ قَدْرِهِ الْمَوْصُوفِ ، وَلَمَّا سَارَ مِنْ رِسَالَةِ أَخْبَارِهِ فَإِذَا قَالَتِ الْآثَارُ : « هَذَا السِّرُّ » قَالَ الْإِيثَارُ : « وَفَضْلُهُ مَعْرُوفٌ » .

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الْمَشِيخَةَ الْمُبَارَكَةَ بِصَدْرِ السَّالِكِينَ رَحِيبَ ، وَبِالْسَّائِلِينَ مُجِيبَ ، وَفَضْلُ يَقُولُ الرَّائِدُ وَالْمُرِيدُ بَدَارَ إِقَامَتِهِ : قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرِي مَتَزِيلَ وَحَيْبِ ؛ وَبُشْرَى وَبُشْرَى يَمْلَأَنَّ عَيْنَ الْمُجْتَلِيِ وَيَدَ الْمُجْتَنِدِي ، وَعَظْفٍ وَلُطْفٍ إِذَا قَالَ الذَّاكِرُ لِمَنْ مَضَى : رَاحَ مَالِكِي ! قَالَ الْمُعَايُنُ : وَجَاءَ سَيِّدِي ؛ وَلِئِرَاجِ أُمُورِ الْخَوَانِقِ الشَّامِيَّةِ مَا غَابَ مِنْهَا وَمَا حَضَرَ ، وَمَا سَمِعَ مِنْهَا وَمَا نَظَرَ ، وَلِيَهْدِبَ قُلُوبَ سَاكِنِيهَا حَتَّى يَعُودَ كَاخْوَانِ الصَّفَاءِ مِنَ الْمَوَدَّةِ قَوْمٌ كَانُوا إِخْوَانَ الصَّفَا مِنَ الْحَجَرِ ؛ قَائِمًا بِحَقُوقِ الرُّتْبَةِ قِيَامَ مِثْلِهِ مِنْ أُمَّةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، دَاعِيًا هَذِهِ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ فَإِنَّهُ أَقْصَى دَوَاعِي الْأَمَلِ ، مُعْرِبًا - لِأَنَّ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ عُلُومِهِ - عَنِ الْإِيضَاحِ غَنِيًّا عَنْ تَفْصِيلِ الْجُمْلِ ؛ وَهُوَ الْمَسْلَكُ فَمَا يَحْتَاجُ لَتَسْلِيكِ دُرَرِ الْوَصَايَا ، الْمُخْبُوءِ لِمِثْلِ هَذِهِ الزُّوَايَا الْمَبْرُورَةِ : فَنِعْمَ الزُّوَايَا الْمُحْبُودَةُ بِنِعْمِ الْخَلْبَايَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِيدُ عَلَى الْأُمَّةِ بَرَكَاتِهِ ، وَيُمَتِّعُهُمْ بِاسْتِسْقَاءِ النُّيُوتِ : إِمَّا بِبَسْطِهَا عِنْدَ بَرِّهِ ! وَإِمَّا بِبَسْطِهَا عِنْدَ دَعَوَاتِهِ .



وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا ، مضافة إلى كتابة السِّرِّ به ، كُتِبَ بِهَا لِلْقَاضِي نَاصِرِ الدِّينِ « مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الطَّيِّبِ » كَاتِبِ السَّرِّ بِالشَّامِ بِ« الْمَقَرَّرِ الشَّرِيفِ » وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَحَ صُدُورَ أَوْلِيَائِهِ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَأَتْبَاعِهِ ، وَجَعَلَهُمْ خَوَاصَّهُ الَّذِينَ غَدَوْا مِنْ أَتْبَاعِ الْحَبِيبِ وَأَشْيَاعِهِ ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ وَأَوَاهُمُ إِلَى مَقَامِ الْأَنْسِ فِي مَحَلِّ الْقُرْبِ بِالتَّسْلِيكِ الْمُحَمَّدِيِّ الَّذِي أَوْصَلَ إِلَيْهِ مَزِيدَهُ بِانْقِطَاعِهِ ، وَخَصَّصَهُمْ

ببركات من حصّهم على الأعمال الصالحة بقصده الجميل وعلمه الغزير واتّضاعه ،
ومنّهم بمن أوضح لهم الطريق المستقيم بإبدائه الحقّ وإبذار إبداعه ، وغذّاهم بالحكمة
فنشّوا بالمعرفة وصار لهم العقل السليم بالتحفّظ من الأهوية الرديّة فسلمت لهم الطيبة
على قانون الصّحة بحسن تركّيبه وأوضاعه ، وأفاض عليهم من بحر علمه ما نالوا به الرشد
فصاروا أولياء بملازمة أوراده ومتابعة أوزاعه .

نحمده على ما ألهمنا من وضع الشئ في محله ، وإيصال الحقّ إلى أهله ، وإجابة
سؤال الفقراء وإعانتهم بمن أغناهم عن السؤال بفضائله وفضله ، حمداً يعيد كشف
الكرّب على مُريدَيْه وطلّبتّه ، ويرفع مقام من قام بشعار الدين بتعظيم قدره وعلوّ
درجته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي من تقرب منه ذراعاً ،
تقرب منه باعاً ، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة وإذا تقرب إليه عبده بالنوافل
أحبّه ، ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من
ورقة إلا يعلمها ولا حبّه ﴾ . ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أضاءت
الأكنان من نور هديّه فأهتدت به أصحاب المعارف المسلمون لموجدهم الأمر
والإرادة ، ومن هو روح الوجود الذي أحيا كلّ موجود وسلك طريق سنّته
الموصّلة إلى عالم الغيب والشهادة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صفت
قلوبهم من الأكدار وإلى التقوى سبقوا ، وصدقوا في المحبة فاستحقوا ثناء مولاهم :
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ ؛ فمنهم من شئت من فيه راحة كيد مشوية من
خشية الله ، ومنهم من حدّث بما شاهده ببصره وبصيرته على البعد ورآه ، ومنهم
من أحيا ليله وأسّحت منه ملائكة السماء ، ومنهم من اتّخذ أخا لاذ هو باب
مدينة العلم وركن العلماء ، صلاة دائماً تطيّب أوقات المحيّين ، وتطربُ بسماعها
قلوب المتّقين أهل اليقين ، وسلّم تسليماً .

أما بعد، فإنَّ أولى مَنْ قدمناه، إلى أهل الصلاح، ورَفَعناه، إلى محلِّ القُرب وروح الأرواح، وحَكَمناه، على أهل الخير، ومَكَّاه في حُزبِ الله الذي غَلَبَ لما أَجْتهدُوا على إخراج حُزبِ الشَّيْطان من قلوبهم وزَحَفُوا على قِرارِهِ بِجَيْشِ التَّقْوَى وَسَمَتِهِمُ الرُّهْدُ وحُسْنِ السَّيْرِ؛ وَلَيْنَاهُ أَجَلُ المناصب الذي تَجْتَمِعُ فِيهِ قُلُوبُ الأولياءِ على الطَّاعَةِ، وأَحْلَلْنَاهُ أَرْفَعَ المراتبِ الذي خطبهُ مِنْهُمْ خِيارُ الجَمْعِ لِحُلُوةِ عُرُوسِ الجَمالِ في الخَلُوةِ بِعَقْدِ ميثاقِ سُنَّةِ الحُبِّ وشهادة قُلُوبِ الجماعة - مِنْ جَمَلِهِ صُورَةٌ ومعْنَى، وأَنخَرَهُ أَحَادٍ وَمَتْنِي؛ وبَاشَرَهُ على أَحْسَنِ الوجوه، وَبَلَغَ كَلًّا مِنْ مُرِيدِيهِ وَطَلَبَتِهِ مِنْ فُضائلِهِ وَفَضْلِهِ ما يُؤَمِّلُهُ وَيَرْجُوهُ؛ وَمَدَّ مَوائِدَ عُلُومِهِ الْمُحتَوِيَةِ على أنواعِ الفُضائلِ المُغَدِّيَةِ للقلوب، وجلسَ في حُلِيِّ الرِّضا فَكَّسَا القُومَ الذين لا يَشْقَى بِهَمِّ الحَلِيسِ مَلابِسَ التَّقْوَى المُطَهَّرَةِ مِنَ العُيوب؛ وظَهَرَ في مُحَفِّلِهِمُ لِلهُدَايَةِ كَالْبَذْرِ وَهَمَّ حَوْلَهُ هَالَهُ، وَكانَ دَلِيلَهُمُ إلى الحَقِّ فَدَعَوْا بِتَسْلِيكِهِ مِنْ مِشاوِخِ الرِّسالَةِ؛ وَجاهَدَ في بَيانِ مَعاني القرآنِ العَظيمِ حَتَّى قِيلَ لَمَّا فَسَّرَهُ: هذا «مُجاهِدٌ»، وَاسْتَدَلَّ على تَزْيِيهِ مِنْ تَكَلُّمِهِ بِه - سَبْحانَهُ - عَنِ التَّشْبِيهِ والتَّعْلِيلِ «وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَه آيَةٌ تَدُلُّ على أَنَّهُ وَاحِدٌ»؛ وَنَقَلَ الحَدِيثَ المُحَمَّدِيَّ الذي هُوَ «مُوطًا» لَتَفْهِيمِ «الغَرِيبِ» مِنْهُ وَمِيزِ «صَحِيحِهِ» لِكُلِّ «مُسْلِمٍ» فَاطْرَبَ بِسَماعِهِ الوُفُودَ، وَأَفادَ العِبادَ «تَنْبِيهِ الغافِلِينَ» فَقامُوا في الخِدمَةِ فَأُصْبِحُوا تَعْرِفُهُمْ بِسِيائِهِمْ: (سِيائِهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)؛ وَخَفَضَ جَناحَهُ الذي عَبَّرَ بِهِ الشَّعْرى العُبورَ والنَّسْرَ الطَّائِرَ، وَسارَ إِحْسانَهُ إلى طوائِفِ الفُقراءِ فَصارَ مَثَلًا خَبِيدًا «الْمَثَلُ السَّائِرُ».

وَكانَ فُلانٌ - أَعادَ اللهُ تَعالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ وَأَسْبَغَ ظِلالَهُ - هُوَ الذي أَقامَهُ اللهُ تَعالَى لِهَذِهِ الطائِفَةِ المَبارَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَدُكِرَتْ صِفاتُهُ الجَمِيلَةُ فَكانَ مِثْلَهُ لِلعيونِ قُرَّةً؛

وَأَتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي مَلَأَتْ الْأَفْوَاهَ وَالْمَسَامِعَ كَمَا مَلَأَتْ مِرْعَاتَهُ الْمُقَلَّ، وَحَصَلَ
 الْبَشَرُ بِمَعْرُوفِهِ الَّذِي تَتَّبَعَهُ السَّرِيُّ أَبُو يَزِيدَ بَغْرِيَّ عَلَى عَادَةِ الْقَوْمِ الْكِرَامِ، وَوَصَلَ؛
 وَتَبَعَتْ عَنَاصِرُ فُضَائِلِهِ فَكَانَتْ شَرَابَ الَّذِينَ صَفَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ كَدَرِهَا، وَأَمْطَرَتْ
 سَحَابُ عِلْمِهِ الْإِلَهِيَّةِ الدَّارَةَ مِنْ سَمَاءِ الْحَقِيقَةِ فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا، وَظَهَرَتْ لَمْعَةُ
 أَنْوَارِ شَمْسٍ مَعَارِفِهِ عِنْدَ التَّجَلِّيِّ عَلَى الْمُرِيدِ، وَسَاقَ نَفُوسَ الْقَائِمِينَ لِمَا عَزَّ مَطْلَبُهُمْ
 بِأَصْلِهِ الَّذِي شَرَحَ طَلَاسِمَ قَلْبِ الْغَائِي بِذِكْرِ الْبَاقِي فَعَرَفُوا فِي بَحَارِ الْحُبَّةِ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ
 نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لَا زَالَ يَرْفَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ إِلَى أَعْلَى مَقَامٍ ،
 وَيَبْنِي لَهُمْ فِي جَنَّاتِ الْقُرْبِ قُصُورَ الرِّضَا: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ وَمَنْ يَزِيدُهُمُ الْإِكْرَامَ -
 أَنْ تُفَوِّضَ إِلَيْهِ مَشِيخَةُ الشُّيُوخِ بِالشَّامِ الْخُرُوسِ : وَظِيفَتُهُ الَّتِي خَرَجَتْ عَنْهُ ،
 الْمَرْسُومُ الْآنَ إِعَادَتُهَا عَلَيْهِ ، عَوْضًا عَنْ كَانَتْ بِيَدِهِ ، بِمَعْلُومِي النَّظَرِ وَالْمَشِيخَةِ الشَّاهِدِ
 بِهِمَا دِيْوَانَ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ ، وَأَكْلِ الْقَوَاعِدِ ؛
 تَقْوِيضًا نَظَّمَتْ بِالْقَبُولِ عُقُودَهُ ، وَدَامَتْ فِي دَارِ السَّعَادَةِ سَعُودَهُ ، وَفِي دَرَجِ الْمَعَالِي
 صُعُودَهُ .

فَلْيَتَلَقَّ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ ، وَلْيَبَاغِ الْفُقَرَاءَ مِنْ إِقْبَالِهِ الْجَمِّ الَّذِي أَلْجَمَ عُدُوَّهُ الْمُنَى وَالسُّوْلَ ؛
 وَلْيَعَامِلِ الْمُرِيدِينَ بِالشَّفَقَةِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ رَحْمَةِ دِينِهِ وَإِفْضَالِهِ ، وَلْيَشْمَلْ كَلًّا مِنْهُمْ
 بِعَيْنِيَّةٍ وَلُطْفِهِ فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَشْفَقُهُمْ عَلَى عِيَالِهِ ؛ وَلْيَأْمُرْهُمْ بِمُلَازِمَةِ
 إِقَامَةِ الصَّلَاةِ طَرَقَ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ، وَإِذَا مَالُوا - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ تَعَالَى - يَوْمًا
 إِلَى مُنَافَسَةِ بَيْنِهِمْ فَلْيَقُلْ : اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا تَمِيلُوا كُلَّ
 الْمِيلِ ؛ وَلْيَفْسَحْ لَهُمْ حَرَمَ الْخَيْرِ الَّذِي وَقَفُوا فِيهِ نُجَاهَ قَصْرِ تَعَبُدِهِ الَّذِي عَلَا بِالْجَوْهَرِ

الْقَرْدِ وَقُوَّةَ الْإِخْلَاصِ ، وَلِيُدْخِلَهُمْ مِنْهُ جَنَّةَ إِقْبَالِ فَوَائِدِهِ الَّتِي فِيهَا مِنْ أَبْكَارِ مَعَانِيهِ حُورٍ مَقْصُورَاتٍ فِي خِيَامِ أَدَائِهِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قُلُوبِهِمْ وَلَا جَانٌّ وَأَعْجَزَ قَصْرُهُ الْعَالِي وَجَوْهَرُهُ الْعَالِي كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ؛ وَلِيَجْعَلَهُمْ لَهُ عَلَى جَبَلِ اعْتِمَادِهِ وَمَرْوَةٍ مُرْوَةٍ إِيْخْوَانَ الصِّفَاءِ ، وَلِيُقِيمَهُمْ فِي رُكْنِ مَقَامِ الْمُنَاجَاةِ إِذَا زَمَزَمَ مُطْرِبُ حَيْثِهِمْ تَلْقَاءَ أَهْلِ الْوَفَا ؛ وَلِيَقْدِّمَ السَّابِقِينَ بِمَعْرِفَةِ حَقِّهِمْ وَنَجْدَتِهِم بِالْوَرَعِ الَّذِي يَقْلُبُونَ بِهِ الشَّيْطَانَ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ، وَلِيُدَاوُوا قُلُوبَهُمُ الْمَرْضَى بِشَرَابِ الْمَحَبَّةِ وَتَرْكِيبِ أَدْوِيَةِ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الدُّنْيَا لِيَعْتَذِرُوا وَقْتَ السَّحَرِ [بِحَدِيثِ] (هَلْ مِنْ تَائِبٍ) وَلَا يَسْقِهُمْ كَاسَاتِ تَضَعُفُ عَنْهَا قُوَّتُهُمْ حَتَّى يُنْقَوُوا مِنْ بَرْدَةِ الْهَوَى الْمُضِرَّةِ وَيَغْتَسِلُوا بِحَارِّ مَجَارِي دُمُوعِ الْخُشُوعِ وَيَلْبَسُوا جَدِيدَ مَلَائِسِ التَّقَى وَيَعْدُوا مِنَ الْحَبَائِبِ . وَمِنْهُ تُعْرِفُ الْوَصَايَا ، وَعَنْهُ تُثْقَلُ الْمَزَايَا ، وَكَرَّمُ الْأَخْلَاقِ وَالسَّجَايَا ؛ وَلِيَأْمُرَ السَّالِكِينَ بِمَدَاوِمَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي قَامَتْ بِحُسْنِ الْعَقَائِدِ وَأَسْتَقْلَتْ ، وَلِيَحُضَّ الْمُرِيدِينَ أَوَائِلَ التَّسْلِيكِ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّتْ ؛ وَلِيَعْرِفَهُمُ الْمَحَبَّةَ بِذِكْرِ اللَّهِ لَثَلَا يَقُومُوا عَلَى قَدَمِ الْهَيَامِ ، وَلِيَبَيِّنَ لَهُمُ الْمَعْنَى إِذَا لَمْ يَعْرِفُوا الْمَعْنَى لِيَقْطَعُوا الْهَوَا حِرْفَى طَلَبِ الصِّيَامِ ؛ وَلِيَفَرِّقَ بَيْنَ الْوَارِدَاتِ بِمُلَازِمَةِ الْأَوْرَادِ لَثَلَا يَقَعُوا مِنَ الْإِسْتِبَاهِ فِي حَيْرَةٍ ، وَلِيَأْمُرَهُمْ بِإِدْخَالِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ لَتَكُونَ التَّقْوَى لِقُلُوبِهِمْ قُوَّتًا وَالزُّهْدُ مِيرَةً ؛ وَلِيَقْمَعَ أَهْلَ الْبِدْعِ ، وَلِيَرْفَعَ مَنْ أَتَّضَعَ ؛ وَلِيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَ أَوْقَافِهِمْ بِجَمِيعِ الْخَوَاقِ وَالرُّبُطِ وَالزُّوَايَا بِالْجَمِيلِ مِنَ النَّظَرِ ، وَلِيَزِدَّ فِي الْأَجُورِ بِمَا يُؤَثِّرُ فِيهَا نَظَرُهُ الَّذِي مَازَالَ لَهُمْ مِنْهُ أَوْفَرُ نَصِيبٍ فَبِذَا الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ ؛ وَالْوَصَايَا وَإِنْ كَثُرَتْ فَهِيَ مُفِيدُهَا وَعِنْدَهُ مَنَبْعُهَا ، وَتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ شَيْخُهَا وَمُرِيدُهَا فِي بَيْتِهِ الْمُبَارَكِ حَلَاوَةٌ ذَوْقُهَا وَجَمْعُهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَكُونُهُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِآيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ ، وَيَرْفَعُهُ بِهَا وَيُرْقِيهِ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ .

المرتبة الثانية

(من تواقع مشايخ الأمكنة بحاضرة دِمَشْق - ما يفتح بـ) «أما بعد

حمد الله» وفيها وظائف

نسخة توقيع بمشيخة إقراء القرآن ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ،

كتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ «المجلس العالى» وهى :

أما بعد حمد الله رافع شهب الهدى أعلاما، وجاعل رتب أفضلها أعلى ما ، ومُحِلّ
أحدها من مدارس الآيات منازل بدر إذا مح الحاق من هذا أسما أثبت من سمو هذا قمرًا
تمما ، ومُسْكِنه من مواطن الذك جَنّات قوم بارتقائهم وبقاء ذكهم خالدين فيها
حسنت مستقرًا ومقاما ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أرفع من اتخذ القرآن إماما ،
وأُنْفَع من عقد استحقاق النبوة على حمده خنصرًا وجلّ الحق بهداه إنبها ما ، وعلى آله
وصحبه أمتع من ليس بسرّ الآيات درعا وأقسم من بركتها سهام - فإن وظيفة
يكون القرآن الكريم ، ربيع فصلها وفصلها ، ورتبة يكون الذكر الحكيم ، مُداوى قلوب
جفائها ، ومشيخة يكون مُريد الآيات البينات واردة زوايا أهلها - لأحق أن تُختير لها
الأكفاء من ذوى الفضل الأثير ، والأدلاء على أشرف نتائج الهداية من ذوى الحليم
الساكن والعزم المثير .

ولما كانت مشيخة إقراء القرآن بالثربة المعروفة بأمر الصالح بدمشق المحروسة :
هى كما يقال : أمّ العلم وأبوه ، وأخوه وحموه ، وصاحبته وأهل الكتاب والسنة بنوه ،
وخلّت الآن من شيخ [كان] يحى حماها ، وتقسّم الخلوات والآيات من بركتته وتلاوته
بـ «الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها» وكان فلان هو الذخيرة الخبوة لهذا الأمر ،
وذو السيرة المحبوبة بهذا الشرف الغمر ، وصاحب القراءة والبيان الذى لا يعوز زمان

طَلَبَتْهُ [أبو] عُمرٌ ولا أبو عُمرُ، والجامعُ لعلومِ كتابِ الله تعالى جَمْعُ سَلَامَةٍ فِيهِ، وَصِحَّةٌ فِي شَرَفِ ذَهْنِهِ، وَجَوَازُ أَمْرِ يَشْهَدُ أَنَّ الْبَحْرَ يَخْرُجُ [لدى] الْمَشْكَلَاتِ مِنْ صَدْرِهِ وَيَدْخُلُ عِنْدَ عَقْدِ الْحُبِّ فِي رُذْنِهِ، وَالْقَارِئُ الَّذِي إِذَا قَالَ مُبِينًا قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، وَالتَّالِي الَّذِي إِذَا قَصَرَ أَوْ مَدَّ، مَدَّ إِلَى سَمَوَاتِ الْعُلَى بِأَسْبَابِ، وَالْمُشِيرُ إِلَى عِلْمِهِ الْمَرْسُومِ بِمُصْحَفِهِ فَلَا عَدَمَ إِشَارَتِهِ وَمَرْسُومَهُ أُولُو الْأَلْبَابِ، وَالْمُجَلِّ وَإِنْ سَمَّاهُ الْعُرْفُ تَالِيًا، وَالْمُنْقَبَ عَنْ غَوَامِضِ التَّفْسِيرِ: وَ«أَبْنُ النَّقِيبِ» أَوْلَى بِسِنْدِ التَّفْسِيرِ عَالِيًا، وَالْإِمَامَ السُّنِّيَّ وَإِنْ سَمَّاهُ الشَّرْعُ الْإِمَامَ الْحَاكِمَ دَهْرًا وَأَقَامَ لَهُ فِي أَفْقِ كُلِّ فَضْلٍ دَاعِيًا، وَالسَّامِي الَّذِي يَسْلُكُ بِفَخْرِهِ عَلَى «الْعِرَاقِيِّ» أَوْضَحَ مَحَجَّهُ، وَالْعَرَبِيُّ الَّذِي مَا «لِلْفَارِسِيِّ» دُخُولٌ فِي بَابِ تَيْقِينِهِ وَإِنْ جَاءَ بِحُجَّتِهِ، وَذُو الرِّوَايَاتِ الْمُرَوِّيةِ سَحَابُهُ، وَخَلْفُ الْعُلَمَاءِ الْأَيْضُ فَمَا «خَلْفُ الْأَحْمَرِ» مِمَّا يُقَارِبُهُ، وَلَا «تَعَلَّبَ» مِمَّا تَضِجُ لَدَيْهِ تَعَالِيهِ، وَلَا «أَبْنُ خَرْوِفٍ» مِمَّا يُدَانِيهِ وَهُوَ «الَلِّثُ» وَمِنَ الْأَقْلَامِ مَحَالِيهِ، وَبَقِيَّةُ السَّادَةِ الْقُرَاءِ الْمُنَشَّدُ قَوْلَ الْحَمَاسِيِّ .

وَأَيُّ مَنْ الْقَوْمَ الَّذِينَ هُمْ هُمْ * إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ !
بَدُورُ سَمَاءٍ ، كَلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ ، * بَدَا كَوْكَبٌ ، تَأَوَّى إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ !

تَعَيَّنَ أَنْ يُخْطَبَ لِهَذِهِ الْمَشِيخَةِ خُطْبَةُ الْفَقِيِّ لِاقْتِبَالِ مَجْدِهِ وَالشَّيْخِ لِتَوْفِيرِهِ، وَيُطْلَبَ لِهَذِهِ الرِّبَّةِ طَالِبًا يَقْضِي الْأَمْلَ فِيهِ بِعَنْوَانِ تَيْسِيرِهِ .

فُرْسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَسْتَقَرَّ... : وَضَعًا لِلْأَشْيَاءِ فِي مَحَلِّهَا ، وَرَفْعًا لِأَقْدَارِ الْأَفْضَلِ إِلَى أَعْلَى رُتَبِ الْفَضْلِ وَأَجَلِّهَا ، وَعِلْمًا بِمَقْدَارِ هَذَا الْعَالَمِ السَّابِقِ فِي أَفْقِ الْهُدَى شَهَابًا ، الْمُدْفِقُ عَلَى رِيَاضِ الْعِلْمِ سَحَابًا ، النَّاقِلُ إِلَى مَجَالِسِ الْأَسْتِغْثَالِ خُطًّا يَقُولُ لَهَا الْمُؤْمِنُ بِالْإِكْرَامِ وَالْكَافِرُ بِالْإِرْغَامِ : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .

فليأشُرْه - هذه الوظيفة مباشرة مثله من ذوى الأناة والإفادَة ، وكُفافة المناصب
الذين على سَعْمِهِمُ الحُسْنَى وعلى الدَّولة تَصُلُّ الزَّيَادَة ؛ وَلَيْسَلُكَ فى الأشغال عادة نُطْقِهِ
الأَحْسَنُ ، وَلِيَعَامِلَ طَلَبَتَهُ فى المباحث بغير ما أَلْفُوا من الخُلُقِ الأَخْشَنُ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ
قد جُمِعَ بين رَهْ وَتُرْبَةِ الأُمِّ كى تَقَرَّعِنِهَا ولا تَحْزَنُ ؛ فَلْيُسَرِّهَا بِنُبْلِهِ ، وَلِيَبْرَهَا بِفَضْلِهِ ؛
وَلْيُوَفِّرِ السَّعَى إِلَيْهَا كُلَّ وَفْتٍ فى المَسِيرِ ، وَلْيُقَسِّرْ أَحْلَامَ أُمَلِهَا فِيهِ فَنِّ مُفْرَدَاتِ عُلُومِهِ
التَّفْسِيرِ ؛ وَلْيُحَسِّنْ لِنَلَامِدَتِهِ الْجَمْعَ ، وَلْيَحْمِ حِمَى رِوَايَتِهِمْ من الخَطَا ولا عَجَبَ أَنْ يُحْمَى
حِمَى السَّبْعِ ! ؛ تَالِيًا كَلَامَ رَبِّهِ كَمَا أُنْزِلَ وَحَسْبُهُ ، دَاعِيًا بِذَنْبِ قِرَاءَتِهِ إِلَى ابْنِ كَعْبٍ
خَبِذَا نَسَبُهُ الْمُبَارَكُ وَكَعْبُهُ ؛ نَاصِبًا بِمَنْظَرِ تَخْصِيصِهِ أَشْخَاصَ أُمَثَالِهِ الأَوَّلِ بعد ما ضَمُّهُمْ
صَفِيحَ اللِّحْدِ وَتُرْبُهُ ، حَتَّى يَمِيسَ « الْكِسَائِيُّ » فى بُرْدِ مَسَرَّتِهِ الْفَاحِرِ ، وَيَفْتَحَ عِيُونَ
« حَمْرَةَ » عَلَى زَهْرَاتِ رَوْضِ عَيْقِ الْمُبَاخِرِ ، وَيَتَرَنَّمُ وَرَشَانُ « وَرَشِ » فى الأَوْرَاقِ
عَلَى بَحْرِ الزَّاحِرِ ؛ وَيُظْهِرَ بِفَضْلِهِ ذِكْرَ « الشَّاطِطِيِّ » فَيَكُونُ « الْقَاضِي الْفَاضِلُ » رَحِمَهُ اللَّهُ
قد أَظْهَرَهُ فى الزَّمَنِ الأَوَّلِ و« الْقَاضِي الْفَاضِلُ » أَجَلَهُ اللَّهُ قد أَظْهَرَهُ فى الزَّمَنِ الْآخِرِ ،
وَتَقَوَّى اللَّهُ تَعَالَى كَمَا عُلِمَ خَتَامُ الوَصَايَا الْبَيضِ فَلْيَتَنَاوَلْ مِسْكَهَا الَّذِى هُوَ بِشَدَا الْمِسْكِ
سَانِحٌ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْفَعُ بِعُلُومِ صَدْرِهِ الَّذِى مَا ضَاقَ عَنِ السُّؤَالِ قَلَمُهُ ، وَيَمْتَعُ بِعُلُومِ
قَدَرِهِ الَّذِى إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ لَفَضْلُ الشَّيْءِ فَمَنْ لَهُ .

المرتبة الثالثة

(من تَوَاقِعَ مَشَائِخِ الأُمَاكِنِ بِحَاضِرَةِ دِمَشْقَ - مَا يُفْتَتَحُ بِـ «رُسْمٍ بِالْأَمْرِ»)

تَوَقِّعٌ بِمَشِيخَةِ الْجَوَالِيْقِيَّةِ ، من إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ؛ وَهُوَ :

رُسْمٌ بِالْأَمْرِ - لا زَالِ حُسْنِ اعْتِقَادِهِ يَسْتَنْزِلُ النَّصْرُ فَيَنْصَرُ ، وَيَسْتَبْصِرُ مَطَالِعَ
الْفَوْزِ فَيَبْصُرُ ، وَيَسْتَجْلِبُ الأَدْعِيَةَ الصَّالِحَةَ مِنْ كُلِّ زَاهِدٍ إِذَا حَامَ فى أَفُقِ الْعِبَادَةِ

حَلَّقَ وما قَصَّرَ - أَنْ يَسْتَقَرَّ ... : حَمَلًا عَلَى الوَصِيَّةِ التَّامَّةِ الْحَكْمِ وَالْأَسَاسِ ، وَعِلْمًا
بَأَنَّهُ مِمَّنْ حَلَّ فِي مَشِيخَتِهِ لِبَاسُ بَلَّاسٍ ، وَنَزَعَ فِي الزُّهْدِ عَمَّا عُدَّ زِينَةً فِي النَّاسِ ؛
وَسَرَّحَ شَعْرَهُ حَقِيقَةَ التَّسْرِيحِ فَأَطْلَقَهُ ، وَحَمَارَقَ سَوَادَهُ وَبَيَاضَهُ فَأَعْتَقَهُ ؛ وَلَا زَمَ
طَرِيقَ مَشَايِخِهِ فَمَا ، وَشَكَرَ الْحَالَ بِفَعْلٍ فِي مَنَبَتِ كُلِّ شَعْرَةٍ لِسَانًا لِلشُّكْرِ وَفَا ؛ وَسَرَّ
طَائِفَةً وَرَدُّوا عَلَى آثَارِهِ مَنَاهِلَ الْوَفَا ، وَصَفَتْ قُلُوبُهُمْ وَوَجُوهُهُمْ فَدَارَتْ عَلَيْهِمْ
كُتُوسُ إِخْوَانِ الصَّفَا ؛ حَتَّى مَشَوْا إِلَى مَطَالِبِ الْخَيْرِ مَشَى الرَّخَاخِ ، وَفَانَحَرُوا أَقْوَامًا
دَلَّسُوا عِزَّةَ رُتَبَتِهِمْ فَلَوْلَا أَدْبُهُمْ لَأَنْشَدُوهُمْ : «عُقُولُ مُرْدٍ وَلِحَى أَشْيَاخٍ» .

فَلَقِمَ فِي مَشِيخَتِهِ قِيَامًا يُحْيِي الْقَوْمَ بِأَنْفَاسِهِ ، وَيُبَهِّجُهُمْ بِكَرَامَةِ الْكَشْفِ مِنْ قَلْبِهِ
وَتَكْرِيمِ الْكَشْفِ مِنْ رَأْسِهِ ؛ سَالِكًا بِهِمْ فِي طَرَائِقِ الْخَيْرِ مُسْتَبْشِرِينَ ، آمِرًا بِتَقْصِيرِ
الْمَلَابِسِ وَرَعًا حَتَّى يَدْخُلَ بِهِمْ إِلَى النَّسْكِ مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْفَعُ بِهِ ،
وَيُقْنِي حَالَهُ بِمَذْهَبٍ مَذْهَبِهِ .

الضـرب الثاني

(من تَوَاقِعِ مَشِيخَةِ الْأُمَاكِنِ - مَا هُوَ بِأَعْمَالِ دِمَشْقَ ، وَفِيهِ مَرْتَبَةٌ

وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ الْإِفْتِتَاحُ بِ«رِسْمِ»)

وَهَذِهِ نَسْخُ تَوَاقِعٍ مِنْ ذَلِكَ :

نَسْخَةُ تَوَاقِعِ بِمَشِيخَةِ الْحَرَمِ الْخَلِيلِيِّ ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ،
كُتِبَ بِهِ لِلشَّيْخِ «شَمْسُ الدِّينِ بْنِ الْبِرْهَانِ» الْجَعْبَرِيُّ بِ«الْمَجْلِسِ» وَهِيَ :

رِسْمٌ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبَسَطَ عَدْلَهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ الْوَاصِفُ
وَلَوْ تَعَالَى ، وَسَرَى لِأَوْلِيَاءِ بَنِي الْأَوْلِيَاءِ بِرِّهِ الَّذِي تَسَنَّنَ بِسُنَّةِ الْغَيْثِ ثُمَّ تَوَالَى - أَنْ

يستقر ... - أدام الله تعالى ببركته الانتفاع، وباقتداء سلفه الارتفاع، وأعاد من
بركات بيته الذي قام البرهان بفضلله وقال بوضوح شمس الإجماع - في مشيخة حرم
سيدنا الخليل صلوات الله عليه وسلامه، على عادته القديمة المقدّمة، ومستقر قاعدته
المعلومة المعلمة؛ بعد إبطال ما كُتِبَ به لغيره فإنّ هذا الوليّ أولى، ولأنّ الحقّ معه
وباع الحقّ أطول على المعنيتين إطالة و طولاً؛ وضعا للشيء في محله الفانحر، وحملًا
على ما بيده من توافيق شريفة توارث بركتها ملوك البسيطة في الأول والآخِر، وعلمًا
أنّه بقية العلم المشيد، والزهد العتيد؛ وخليفة السلف الصالح وما منهم إلّا من هو
«أمين» العزم «رشيد»، وأنّه الشيخ وكلّ من عرفه في بقائه ولقائه مُريد؛ والقائم
بالمقام الخليلي - صلوات الله تعالى على ساكنه - مقامًا مجتبي، والمتّسبب إلى خدمة
الحرم الإبراهيميّ مخدوما صلى الله عليه ونسبا؛ والقديمُ الهجرة فلا تتركه الأوطان
ولا تهجره، والمقيمُ بالبلد الخليليّ على إقامة الخير: فما ضرّه أن العدو يشكوه إذا كان
«الخليل» يشكره؛ وقد سبقَتْ له مباشرات في هذا الحرم الشريف فكان عزّها
تمامًا، وشكرها لازما، وكانت على الصّادرين والواردين كنك النّار النبويّة بردًا وسلامًا.
فليعدّ إلى مباشرة وظائفه المذكورة في التّوافيق الشريفة التي بيده، وليكن يومه
في الفضل زائدًا على أمسه مقصّرًا عن غده؛ بثناء يتلقّى أضياف أبي الأضياف،
بأليف أحوال الداخلين إليه شتاءً وصيفًا وإن لم تكن رحلة إيلاف، جاريًا في بركة
التّدير والتّشجير على عادته وعادة سلفه فنعم الخلف ونعم الأسلاف؛ مؤظفًا على عادة
تقواه ورفع الأدعية لهذه الدّولة الشريفة، جاعلاً ذلك منه أول وآخر كلّ
وظيفة؛ والله تعالى ينفع ببركات سلفه وبه، ويكافئ عن الأضياف بسط راحته
بالخيرات وفضل تعبّه.



تَوْقِيعٌ بِمَشِيخَةِ الزَاوِيَةِ الْأَمِينِيَّةِ بِالْقُدُسِ وَنَظَرِهَا، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي «بِرْهَانِ الدِّينِ»
أَبْنِ الْمَوْصِلِيِّ بِ«بِالْحَنَابِ الْعَالِي» وَهُوَ :

رُسم ... - لا زال يُجْرَى الْأَوْلِيَاءُ فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى أَجَلٍ عَادَةٍ ، وَيَخْتَارُ مِنْهُمْ لِمَوَاطِنِ
الْخَيْرِ مَنْ يَرَاهَا بِنَظَرٍ يُثَمِّرُهَا السَّعَادَةَ - أَنْ يُحْمَلَ فَلَانٌ فِي وَظِيفَتِي النَّظَرِ وَالْمَشِيخَةِ
بِالزَاوِيَةِ الْأَمِينِيَّةِ بِالْقُدُسِ الشَّرِيفِ ، عَلَى حَكْمِ النُّزُولِ وَالتَّقْرِيرِ الشَّرْعِيِّينِ الْمُسْتَمَرِّ
حُكْمُهُمَا إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، وَأَسْتَمَرَّاهُ فِي الْوِظِيفَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ بِمُقْتَضَاهُمَا ، وَمَنْعِ
الْمُنَازَعِ بِغَيْرِ حَكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

فَلْيَبَاشِرْ ذَلِكَ بِمَا يُقْتَدَى بِهِ مِنْ تَسْلِيكِهِ وَتَأْدِيهِ ، وَتَسْرِعْ رَغْبَتِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ
وَمِنْ عَنَايَةِ تَهْنِئَتِهِ ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ لَا تُقَالُ لِمِثْلِهِ إِذْ هُوَ مُعَلِّمٌ ، وَتَقْوَى اللَّهِ
سَبْحَانَهُ أَهْمُّهَا وَأَعْظَمُهَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يَرْشِدَنَا إِلَيْهَا ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي كُلِّ
الْأُمُورِ اعْتِمَادَنَا عَلَيْهَا ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(مِمَّا يُكْتَبُ لِأَرْبَابِ الْوُظَائِفِ بِالشَّامِ - تَوَاقِيعُ الْعُرَبَانِ)

وَالَّذِي وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مَرَسُومٌ مَكْتَتَبٌ بِرُيْعِ تَقْدِمَةِ بَنِي مَهْدَى بِ«الْمَجْلِسِ
السَّامِيِّ» بِغَيْرِ يَأٍ ، كُتِبَ بِهِ لـ«مُوسَى بْنِ حَنَاسٍ» مَفْتَتِحًا بِ«أَمَّا بَعْدُ» وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي جَمَعَ عَلَى الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، وَبَسَطَ عَلَى ذَوِي
الْإِخْلَاصِ (١) الظَّلِيلَةِ ، وَالشَّهَادَةِ بِأَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

(١) بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَهُ «ظِلَالٌ نَعْمَةُ الظَّلِيلَةِ» .

شهادة أتخذها للتوحيد دَلِيلَه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذى
أتخذه الله تعالى حبيبه وخليفه ، وآتاه الدرجة الرفيعة والوسيلة ، وعلى آله وصحبه
صلاة مباركة أصيله - فإن الأولى لتزكية القوم تُرعى ، وذو الإخلاص ينحج له
كل مسعى ، والجدير بالنعيم من يُحِبُّ بالطاعة حين يُدعى ؛ من سلك فى الخدمة
الشريفة مسلك الأسلاف ، وتجنب ما يُفِضِ إلى الشقاق والخلاف ؛ فعند ذلك
رفعنا مراتبه ، وضاعفنا مواهبه ، وأنزنا بالإقبال الشريف كواكبه ، وأجملنا مكاسبه ؛
وبسطنا فى رُبع تقدمه بنى مهديّ كلامه ، ونقدنا أمره على طائفته : قوله وإبرامه ؛ من
أضحى مشكوراً من كل جانب ، مجتهداً فى المصالح وبلوغ المآرب ؛ من عُرف بالأمانة
فسلكتها ، وأشتهر بالصيانة فملكها ؛ وحاز أوصافاً حسنة ، وسيرةً نطقت بها
الأئسنة ؛ وكان فلان هو الذى أضحى على عُربانه مقدماً ، ومن أكابرهم معظماً .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زالت مراسمه الشريفة عاليةً نافذة ، وأوامره
بصلة الأرزاق عائدة - أن يستقر ... على عادته وقاعدته : حملاً على ما بيده من
التوقيع الكريم .

فليباشر هذه الإمرة مع شركائه مباشرة حسنة ، وليسير فيها سيراً تشكره عليه
الأئسنة ؛ وليظهر السداد ، وليبذل الطاعة والاجتهاد ؛ وليسلك المسالك الحسنة ،
والله تعالى يجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ والوصايا كثيرة
وملاكمها تقوى الله تعالى ، والله تعالى يجعل إحساننا إليه يتوالى .

قلت : وقد تقدم أنه يكتب بإمرة بنى مهديّ من الأبواب السلطانية أيضاً .
على أن هذا التوقيع من التواقيع الملفقة ، ليس فيه مطابقة للتواقيع ، وليس بائق
اللفظ ، ولا مؤثق المعنى .

(١) هذا الكلام كما به عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم .

الصنف السادس

(مما يكتب لأرباب الوظائف بالشام - توقيع زعماء

أهل الذمة : من اليهود والنصارى)

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى مفتتحاً بـ «أما بعد» كتب به للبطرك

« ميخائيل » وهى :

أما بعد حمد الله الذى جعلنا نَسْمَلُ كُلَّ طائفةٍ بزيد الإحسان، ونُقْبِضُ من دولتنا الشريفة على كُلِّ بَلَدٍ أَطْمَئِنَّا لِكُلِّ مِلَّةٍ وَأَمَانٍ، وَنُقَرُّ عَلَيْهِم من آخِارِهِمْ وَنُرَاعِيهِمْ بِمَزَايا الْفَضْلِ وَالْأَمْنَانِ؛ وَالشَّهَادَةِ بِأَنَّهُ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الَّذِى لَيْسَ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ قَوْلَانِ، وَالْفَرْدَ الْمُنَزَّهَ عَنِ الْجَوْهَرِ وَالْأَقْنُومِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَالْحُلُولِ وَالْحَدَثَانِ، [شهادة] أَظْهَرَ إِقْرَارَهَا اللِّسَانُ، وَعَمَلَتْ بِهَا الْجَوَارِحُ وَالْأَرْكَانُ؛ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْمَبْعُوثِ إِلَى كَافَّةِ الْمَلَلِ وَالْإِنْسِ وَالْجَانِّ، الَّذِى بَشَّرَ بِهِ عِيسَى وَآمَنَ بِهِ مُوسَى وَأَنْزَلَ عُمُومَ رِسَالَتِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ، فَصَحَّ النُّقْلُ بِنَبُوْتِهِ وَأَدَمَ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ وَأَوْضَحَ ذَلِكَ الْبُرْهَانُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَادُوا بِإِخْلَاصِ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَشَادُوا أَرْكَانَ الْمِلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ، وَأَعَزُّوا الْإِيمَانَ وَأَذَلُّوا الطُّغْيَانَ، صَلَاةٌ يَنْفَعُ طَيْبُهَا، وَيُفْصِحُ خَطِيئُهَا، وَيَفْرَحُ بِهَا الرَّحْمَنُ - فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ أَقْنَاهُ بِطَرِيكَا عَلَى طَائِفَةِ النَّصَارَى الْمَلِكِيَّةِ، عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ دِينُ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْعِيسَوِيَّةِ؛ حَاجِبًا لَهُمْ فِي أُمُورِهِمْ، مُفْصِحًا عَمَّا كُنَ فِي صُدُورِهِمْ - مِنْ هُوَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَطَرِيكِيَّةِ، وَعَارَفَ بِالْمِلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ؛ أَخَذَهُ لَهَا أَهْلُ طَائِفَتِهِ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ خَبَرَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَكِفَايَتِهِ وَدُرْبَتِهِ؛ وَنَدَبَ إِلَى وِلَايَةٍ يَسْتَحِقُّهَا عَلَى أَبْنَاءِ جَنْسِهِ، وَرَغِبَ فِي سُلُوكِهِ لَهَا مَعَ إِطَابَةِ نَفْسِهِ، مَعَ مَالِهِ مِنْ مَعْرِفَةٍ سَرَتْ

أخبارها ، وظهرت بين النصارى آثارها ؛ وكان فلان - أدام الله تعالى بهجته - هو من النصارى المملّكة بالمعرفة مدكور ، وسيره بينهم مشكور ، القائم فيهم بالسيرة الحسنه ، والسالك في مذاهبهم سيرا تشكره عليها الألسنه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانه العميم لكل طائفة شاملا ، ويره الجسيم لسائر الملك بالفضل متواصلا - أن يستقر بطركا على النصارى المملّكة بالشام وأعماله ، على عادة من تقدمه في ذلك ، وتقوية يده على أهل ملته ، من تقدم السنين بحكم رضاهم ، ومنع من يعارضه في ذلك : حملا على ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكمه إلى آخر وقت .

فليأشر هذه البطركية مباشرة محمودة العواقب ، مشكورة لما تحلّت به من جميل المناقب ؛ وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه ، وليسرفهم سيرا جيلا ليحصل لهم غاية قصده ومأربه ؛ ولينظر في أحوالهم بالرحمة ، ويعمل في تعلقاتهم بصدق القصد والهمم ؛ وليسلك الطرق الواضحة الجلية ، وليتخلق بالأخلاق المرضية ، ليفصل بينهم بحكم مذهبه في موارثهم وأنكحتهم ، وليعتمد الزهد في أموالهم وأمتعتهم ؛ حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتثلا لأمره ، واقفا عندما يقدم به إليه في سره وجهره ؛ متصيين لإقامة حرمة ، وتنفيذ أمره وكلمته ؛ وليحسن النظر فيمن عنده من الرهبان ، وليرفق بذوى الحاجات والضعفاء : من النساء والصبيان ، والأساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة للإحسان ؛ إحسانا جاريا في المساء والصباح ، والغدو والرواح .

فليمتثلوا أمره بالطاعة والإذعان ، وليجيبوا نهييه من غير خلاف ولا توان ؛ ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق الناقوس ، ورفع أصواتهم بالضجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة الناموس ؛ وليتقدم إلى جميع النصارى بأن كلا منهم يلزم

زِيَّة، وما جاءت به الشروط العُمَرِيَّة - عمر بن الخطاب رضى الله عنه - لتكون أحوالهم في جميع البلاد مَرَعِيَّة؛ وليَخْشَ عالم الخَفِيَّات، وليستَعْمِل الأناة والصبر في جميع الحالات؛ والوصايا كثيرة وهو بها عارف، والله تعالى يُلْهِمُهُ الرُّشْدَ والمعارف.

قلت: وهذا التوقيع فيه ألفاظ ومعاني غير مستَحْسَنَةٍ، وألفاظ ومعاني مُنكَرَةٌ، أَخْشَاهَا قَوْلُهُ: مُفْصَحًا عما كُنَّ في صُدُورِهِمْ. فإنه لا يعلم ما تُخْفِي الصدور وتُكْنِيه إلا الله تعالى.

واعلم أنه ربما أَفْتَحَ تَوَقُّعُ البَطْرِيك عندهم بـ«رُسم بالأمر».



توقيع لبَطْرِك النصارى بالشام أيضا، كُتِبَ به للبَطْرِيك «داود الحُورى» بـ«البَطْرِك المحتشم» وهو:

رُسم بالأمر - لازال يَعْزُزُّ بِالْإِتْجَاءِ إِلَى حَرَمِهِ مِنْ يَأْوِي إِلَيْهِ، وَيَقْصِدُ عَدْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَلِكِ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ - أَنْ يَسْتَقِرَّ فُلَانٌ - وَفَقَّهَ اللَّهُ تَعَالَى - بِطَرِيكِ الْمَلِكِيَّةِ، بِالْمَمْلُوكَةِ الشَّرِيفَةِ الشَّامِيَّةِ الْمُحْرُوسَةِ، حَسَبَ مَا آخَرْتَهُ أَهْلُ مِلَّتِهِ الْمُقِيمُونَ بِالشَّامِ الْمُحْرُوسِ وَرَغِبُوا فِيهِ، وَكَتَبُوا خُطُوطَهُمْ بِهِ، وَسَأَلُوا تَقْرِيرَهُ فِي ذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ؛ إِذْ هُوَ كَبِيرُ أَهْلِ مِلَّتِهِ، وَالْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ مَا أَمَدَّ فِي مَدَّتِهِ؛ وَإِلَيْهِ مَرَجِعُهُمْ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ، وَفِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْرَةِ وَلَمْ يُنْشَخْ فِي الْإِنْجِيلِ؛ وَشِرْعَتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمَسَاحَةِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى وَعَدَمِ الْكَثْرَةِ [بِهِ] وَالْإِحْتِفَالِ.

نَفَذَ نَفْسَكَ فِي الْأَوَّلِ بِهَذِهِ الْأَدَابِ، وَأَعْلَمَ أَنَّ لَكَ فِي الْمَدْخَلِ إِلَى شَرِيعَتِكَ طَرِيقًا إِلَى الْبَابِ؛ فَتَخَلَّقْ مِنَ الْأَخْلَاقِ بِكُلِّ جَمِيلٍ، وَلَا تَسْتَكْثِرْ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا

فإنه قليل ؛ وقدم المصالحة بين المتحاكين إليك قبل الفصل البتّ فإنّ الصلح كما قيل : سيّد الأحكام ، وهو قاعدة دينك المسيحى ولم تخالف فيه المحمديّة الغراء دين الإسلام ، ونظف صدور إخوانك من الغلّ ولا تقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام ؛ وإليك الأمر فى البيع ، وأنت رأس جماعتك والكل لك تبع ؛ وإياك أن تتخذها لك تجارة مربحة ، أو تقطع بها مال نصرانى تقربه فإنه ما يكون قد قربته إلى المدبج وإنما ذبحه ؛ وكذلك الديار - والقلاى ، [يتعين عليه أن يتفقد فيها كل أمر فى] الأيام والليالى ؛ وليجتهد فى إجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات ، ولعلم أنهم إنما اعتزلوا فيها للتعبّد فلا يدعها لتخذ متزّهات ؛ فهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية للتقلّ فى هذه الدنيا والتعفّف عن الفروج ، وحبسوا فيها أنفسهم حتى إن أكثرهم إذا دخل إليها ما يعود يبقّى له خروج ؛ فليحذرهم من عملها مصيدة للال ، أو خلوة له ولكن بالنساء حراماً ويكون إنما تنزه عن الحلال ؛ وإياه ثم إياه أن يؤوى إليه من الغرباء القادمين عليه من يريب ، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكل أمرٍ ورد عليه من بعيد أو قريب ؛ ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد [إليه] من أحد من الملوك ، ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشى على مثل هذا السلوك ؛ وليتجنب البحر وإياه من اقترحامه فإنه يغرق ، أو تلقى ما يلقيه إليه جناح غراب منه فإنه بالبين ينقع ؛ والتقوى مأمور بها أهل كل ملّة ، وكل موافق ومخالف فى القبلة ؛ فليكن عمله بها وفى الكفاية ما يغنى عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المسيح .



توقيع برآسة اليهود بالشام ،
مفتتحاً بـ «رسم» من إنشاء الشيخ جمال الدين
ابن نبأنة ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال جُوده في كلِّ مله ، ونعمام كرمه على الخلق كأنه ظنَّه ،
 وذمام نعمة يبلغ المسلم والذمي من الاستحقاق محله ، أن يستقرَّ الحكيم^(١)

ومنه : - وأن يعاملهم على ما ألقوه من الأحكام ، ويُصِفَ صاحبَ حقِّهم
 من مُتطلِّبهم : حتَّى لا يَعدُّوا أحدٌ في سبِّ ولا في سائر الأيام ؛ ويُهذَّبَ وحشيُّ
 جاهلهم بآيناسه ، ويعالجَ سقمَ كاهلهم حتَّى تطلعَ الصفراءُ من رأسه .

فليُقمَ مقاماً في هذه الطائفة القديمة ، وليُعبَّرَ من أسفارٍ عبرانيَّة عن عوائد قضاياهم
 النظمية ؛ مُفرِّحاً بمعرفته كلَّ حرَّان ، جامعاً كلَّ شعْبٍ على عدلٍ عنده وإحسان ؛
 شاكِراً لظِّلِّ النعمة ، عارفاً بالعوارف التي ترعى يمينها كلَّ ذمه .

النيابة الثانية

(من النيابات التي يكتب عن نوابها بالولايات - نيابة حلب)

وهي على نحو من نمط دِمَشْق فيا يكتب عن نائبها . فيكتب عن نائبها أيضاً
 بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حلب وأعمالها : من أرباب السيوف ، وأرباب
 الأقلام الدينية ، وأرباب الأقلام الدنيوية ، ومشايخ الأمّاكن وغيرهم ، مُرتبةً على
 المراتب الثلاث : من الافتتاح بـ «الحمد لله» ، والافتتاح بـ «أما بعد حمد الله» ،
 والافتتاح بـ «رُسم بالأمر» .

وهذه نسخُ تواقيع مما كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حلب وأعمالها ،
 يُستضاءُ بها في ذلك :

تَوْقِيعُ نِقَابَةِ الْأَشْرَافِ، كُتِبَ بِهِ لِلشَّرِيفِ عِزِّ الدِّينِ «أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ الْحُسَيْنِيِّ»
بِ«الْمَقَرِّ الْعَالِي» وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَدَ السِّيَادَةَ فِي بَيْوتِ الشَّرِيفِ أَحْمَدَ تَحْلِيدَ، وَقَلَّدَ تَقَالِيدَ
السَّعَادَةِ، لِأَهْلِ الْإِفَادَةِ، أَسْعَدَ تَقْلِيدَ، وَجَدَّدَ الْوِفَادَةَ، لَحَرَمِ الْعِبَادَةِ، بِعِزِّ الْعِصَابَةِ
الْمُحَمَّدِيَةِ أَكَّدَ تَجْدِيدَ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ الَّذِي عَقَدَ الْعَهْدَيْنِ لِأُمَّتِهِ،
بِالثَّقَلَيْنِ: مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَعِثْرَتِهِ، وَسَرِّ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ هُدَاهُ بِكُلِّ أَبِيٍّ مِنْ أُسْرَتِهِ، وَأَقَرَّ
الْعِيُونَ الْمِرَاقِبَةَ بِكُلِّ سَرِيٍّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ تَبَرَّقَ أَنْوَارُ النُّبُوَّةِ مِنْ أُسْرَتِهِ، وَعَلَى آلِهِ حَبْلُ
النَّجَاةِ لَتَمَسَّكَ، وَسُبُلُ الْهُدَاةِ لَتَنْسَكَ، وَصَحْبِهِ نَجُومِ الْهُدَى، وَرُجُومِ الْعِدَا، وَأُيُومِ
الْخَيْرِ لِمَنْ بِهِمْ أَقْتَدَى؛ صَلَاةً وَسَلَامًا، يَتَعَاقَبَانِ دَوَامًا، وَيَتَلَاوَمَانِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ مَدَى
الْمَدَى لِرَامَا، مَا حَلَا بَعِينَ وَطَفَ، وَمَا عَلَا عَلَوِيٌّ دُرًا شَرَفَ - فَإِنَّ أَهْمَ مَا أَعْنَى
بِهِ وُلَاةُ أُمُورِ الْإِسْلَامِ، وَأَعْمَ مَا أَقْنَى مِنْهُ رُعَاةُ أَجُورِ الْحُكَامِ - رِعَايَةُ مُصَالِحِ أَهْلِ
الْبَيْتِ، وَأَنْتَهَاؤُ الْفُرْصَةِ فِي مَوَالِيهِمْ حَتَّى لَا يَقَالَ لِفَوَاتِيهَا: لَيْتَ؛ وَتَعْظِيمُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ
تَعَالَى مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَتَكْرِيمُ مَا كَرَّمَ رَسُولُهُ مِنْ بَرِّهِمْ وَاجْتِنَابُ عُقُوبِهِمْ، وَتَقْدِيمُ
أَحْقِهِمْ بِالتَّقْدِيمِ لِأَحَقِّ سَبَاقِهِمْ إِلَى غَايَاتِ الْغُلُوتِ وَسَبُوقِهِمْ؛ وَالتَّعَبُّدُ بِالتَّعَبِّ
وَالْاجْتِهَادُ فِي نَفْعِهِمْ، وَنَصَبُ النُّفُوسِ لِلنَّصَبِ لِتَجَرُّدِ بُولِ الْفَخْرِ بِوَالِيَاتِهِمْ،
وِإِعْلَانُهُمْ عَلَى الرُّءُوسِ وَرَفْعُهُمْ؛ اخْتِيَارًا لِرَأْيٍ مَنْ زَادَ فِي الْعَنَايَةِ بِالْعِثْرَةِ الطَّاهِرَةِ
وَأَرْبَى، وَأَتَمَّارًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾
خُصُوصًا نِقَابَةَ الْأَشْرَافِ، وَالنَّظَرَ فِيمَا لَهُمْ مِنَ الْأَوْقَافِ؛ فَهِيَ شَامِلَةٌ لْجَمْعِهِمْ، وَجَامِعَةٌ
شَمْلُهُمْ، وَوَاصِلَةٌ نَفْعُهُمْ، وَنَافِعَةٌ كُلُّهُمْ؛ وَبِفَضْلِ مَبَاشَرِهَا تُسَبِّغُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ،
وَتُسْتَدِرُّ بِرِكَاتِهِمْ إِجْمَاعُهُمْ عَلَيْهِ سُحْبُ الرَّحْمَةِ؛ وَبِكِفَالَتِهِ تُجْمَعُ الْمِنَّةُ لِمَرَاتِبِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ،
وَبِإِيَالَتِهِ تُدْفَعُ الظَّنَّةُ عَنْ مَنَاقِبِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ؛ وَهُوَ الْقَائِمُ عَنْ وِلَاةِ الْأُمُورِ مِنْ خِدْمَتِهِمْ

بفروض الكفاية ، والدائم الدأب لمرآة أدبهم لتحسن لهم الرعايه ، فوجب الاحتفال
 باختيار من يحلّي هذا المنصب الشريف ، وتعين الابتهال في امتياز من يسبغ عليه
 هذا الظلّ الوريث ؛ ممن قدم في هذه السيادة بيته ، وأرتفع بحفض العيش لقربته
 بعفافه وديانته صيته ، وتنزه عن كل ما يشين وتبرا ، واكتسب حلال الفخار العلية
 ومن أعراض الدنيا الدنية تعزى .

وكان فلان بن فلان - أسبغ الله تعالى ظلالهم ، وضاعف بمعالى الشرف
 جلالهم - ممن حاز في هذه الخلال المنازع ، وجاز نهاية هذه الحصال بلا منازع ،
 وورد من حياض المناقب الجميلة أعذب المشارع ؛ ودرى المراقى إلى المجد ودرب ،
 وبلغت نفوس محبيه من مخايل سعوته الأرب ، وقرت عيون أقاربه بما حصل له
 من القرب ؛ ونشأ في حجر السعادة ، وأرتضع لبان الإفاده ، ولحق بالسابقين الأولين
 من أهل بيته في الزهاده ، وتبدل بالإخلاص فظهرت على وجهه أنوار العباده ؛
 وأتقطع على العمل ، وبلغ من العلوم الأمل : قووم تشبث بالمجرة وهو شامة
 في شامه المنسوب :

ورث السيادة كابرًا عن كابر ! * كالريح أنبوب على أنبوب .

أصل نفاير سما ، وفرع نجار سما ، وغيث فضل همى ؛ أثبت في أعلى المعالي قدما ،
 وناسب قدره سعيه كرمًا ؛ وجلت صفات محاسنه اللائقة ، وحلت الأفواه مدائح
 سجاياه الرائقة ، وتملت الألسن وما ملئت ما تملئ عنه بالخير كل ناطقه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازلّت أوامره ببرآل مولاته ماضية ، ونواهيه
 بقهر أهل معاداته قاضية - أن يستقر ... استقرًا يقر عين العلا ، ويسر نفوس
 أهل الولا ؛ ويضع الأشياء في محلها ، ويسند الأمور إلى أهلها ؛ ويستجلب الأدعية ،

ويجمل بالولاء الجميل أُلويّه ، ويشرح خواطر الأشراف ويطيّب نفوسهم ، ويرفع
بعد سُجود الشكر بالدعاء رؤوسهم .

فليأشِر هذه الوظيفة مباشرة يَفْقُوها آثار بيته الطاهر ، بعزم كريم : لكل مُصلح
بالخير غامر ، ولكل مُفسد بالضمير قاهر ؛ وحزم حليم : لكل حق ناصر ، ولكل
كسر جابر ؛ وليصل بالبرّ رحمة ، وألين للضعيف كلمة ؛ وليقم بأعباء هذه الوظيفة
قيام عمه الشريف وأبيه ، وليصم عن أموال الأوقاف صياماً يقربه الله تعالى به
ويحتنيه ؛ ليحمد ، هذا المنصب الجليل ، في بيته الأصيل ، عوده على أحمد ؛
ولينفع قرابته بتميز أموالهم ، وليشفع النهضة بالمعرفة في تثير غلالهم ؛ : لتدبر برّكته
أخلاف أرزاقهم ، وتقرّ خواطرهم بمضاعفة أرزاقهم وإطلاقهم ؛ ويحصب
في جنبه مرعاهم ، ويقرب في باب مساعدهم ؛ وتنطق بشكره ألسنتهم الشريفة ، وتنطق
على صُحبته ظلال بيوتهم الوريّة ؛ وليعتبر ويختبر أشغالهم وينمّع شبانهم من الاحتراف
بحرف الأدباء ، وليأمر الآباء بتعهد تربية الأبناء ؛ وليأمرهم من العمل بما يناسب
معاليتهم ، وليحبرهم بتدبيره السديد جبراً يميزهم بحسن السمّت من أوليائهم : وكلنا
من مواليتهم .

والوصايا كثيرة ، وعين علومه بتعدادها بصيره ؛ وتقوى الله تعالى لا يهمل النص
عليها ، والإشارة بحسن البيان وحسن البنان إليها ؛ فلتكن ركن استناده ، ورأس
مال اعتماد ؛ والله تعالى يديمه في صعود درج السُعود مُدّة حياته ، ويجمع له خيري
الدنيا والآخرة برّفع درجاته .



وهذه نسخة توقيع بنقابة الجيوش بحآب ، كُتب به لـ «ناصر الدين بن ايتبك»
بـ «السامي» بغير ياء ، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال أمره الشريف يُعَصِّد الجيوش بأعْضِدِ ناصر،
وَيُرِشِدُ أولياءِ الخِدمة إلى آرْتقاء رُتبِ المعالي فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصِر -
أن يستقرَّ فلانٌ - أدام الله تَوْفيقه، وجعل اليُمن والسَّعدَ قَرينَه ورَفيقَه - ... آسْتَقْرَارًا
يُظْهِرُ ما لم يَخْفَ من نَهْضَتِه وكِفَايَتِه، ويُشْهِرُ مُعلَن سِرِّ يَقْظَتِه ودِرَايَتِه؛ لأنَّه الفَارِسُ
الذي أعزَّ كلَّ راجِلٍ بِشْجَاعَتِه، وأُمَّارِسُ الذي خَبَرَ الوَقائعَ بِحُسْنِ دُرْبَتِه ودِرَايَةِ
صِنَاعَتِه؛ والعَارِفُ الذي اتَّصَفَ بِالخِبْرَةِ وحُسْنِ الصِّفِه، وعِرِفَ في أُمُورِه بِالْعَدْلِ
والمَعْرِفِه؛ والهَامُ الذي عَلَتْ هِمَّتُه فَوْقَ كُلِّ هِمَّةٍ، وكَشَفَ بِجَزِيلِ مُرُوءَتِه من
الكُرْبَاتِ كُلِّ غُمَّةٍ؛ وسارَ في الجيوش سِيرَةَ والدِه، فَشَهِدَ كُلُّ بَما حَواه من طَارِفِ
الْفَضْلِ وتَالِدِه .

فليباشِرْ ذلك : سائرًا في الجنود أحسنَ سِيرِه، مُراقِبًا الله تعالى فيما يُبْدِيه من القَوْلِ
والفِعْلِ والعَلَانِيَةِ والسَّرِيرَةِ؛ مُلَازِمًا ما يلْزِمُه من حُقوقِ هذه الوظيفة، قائِمًا بما يجب
من أداءِ الخِدمة الشَّرِيفَةِ؛ وَلْيُنْفِذْ ما يُؤَمَرُ به من الأوامر، عالِمًا بما يتعيَّن من
حقوقِ المأمُور والأمرِ، [ولْيَجْتَهِدْ] في جَمْعِ العساكرِ وإِعلامِهم بِالْمِهْمَاتِ، وَلْيَتَفَقَّدْ
أحوالَ الجُنُودِ في سائرِ الأوقاتِ؛ وَلْيُسْفِرِ النِّقابَ عن الوُجُوهِ بِالْحِلْيَةِ يومَ العَرَضِ،
وَلْيُسَبِّلِ حِجَابَ السِّتْرِ على من أدركه العَجْزُ عن أداءِ الفَرَضِ؛ والوَصايا كثيرةٌ لا تَحْتَاجُ
إلى التَّعْدَادِ، وَتَقْوَى الله تعالى هي العُمْدَةُ في كُلِّ الأُمُورِ وعليها الأَعْتَادُ .



تَوَقَّعْ بِالْمِهْمَنْدَارِيَّةِ بِجَلَبَ، كُتِبَ بِهِ لـ «فَرَسُ الدِّينِ الطُّنَاحِي» بـ «الجناب
العالِي» وهو :

رُسم بالأمر الشريف - لا زالت عِزائِمُه تَتَدَبُّ لِلْمِهْمَاتِ من غُرِسَتْ بِرِياضِ
وَلِيَّه أَدْوَا حِمْمَ فزكا غَمْرُها، وتَقَرَّرَ لَهَا من شَاب فَوْدُه في إِفَادَةِ الوُفُودِ فَأَجَابَ

قَصْدًا وَأَطَابَ نَفْسًا، وَلَا بَرَحَتْ عَنَانِيهِ تَشْمَلُ مِنْ أَوْلِيَاءِ خِدْمِهَا كُلِّ شَيْءٍ إِذَا سَلَ
عَضْبًا أزال نفسًا وأسَالَ نَفْسًا، وَتَعَيَّنَ مِنْ أَعْيَانِهِمْ كُلِّ جَبِيلٍ يَوَدُّ الْمُنَافِسُ
لَوْ شَاهَدَهُ وَلَا يَجْشُدُ يَدَ الرُّقِيِّ مِنْهُ نَفْسًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ لَأَنَّهُ ذُو الْهِمَمِ الَّتِي
لَا تُلْحَقُ جَيَادُهَا، وَلَا تُسْبِقُ جُودَةَ جَيَادُهَا^(١)، لَا مُنْتَهَى لِصِغَارِ هِمَمِهِ فَأَنَّى تُدْرِكُ
بِكَارُهَا، وَلَا تُدْرِكُ سَوَاقِيهَ فَأَنَّى تُقْتَفَى آثَارُهَا، لَهُ قَدَمٌ إِقْدَامٌ فِي الثَّرَى لَا يَزَالُ رَاسِخًا^(٢)،
وَهَامَةٌ هِمَّةٌ لَمْ يَزَلْ شَرْفُهَا عَلَى الثَّرَى بِأَذْخَا، وَلَأَنَّهُ الْفَارِسُ الَّذِي تُفَرِّسَتْ فِي مَخَالِيهِ
الشَّجَاعَةُ، وَتَبْضَعُ الشَّهَامَةُ فِي الْحُرُوبِ فَكَانَتْ أَرْبَحَ بِضَاعَهُ، كَمْ أَزْرَتْ سُمْرَ مَرَايحِهِ
بِهَيْفِ الْقُدُودِ، وَأُنْجَلَتْ بَيْضُ صِفَاحِهِ كُلِّ خَوْدٍ أَمْلُودٍ، وَكَمْ جُرْدَتْ مِنْ مُطَرِّبَاتِ
قَسِيَةِ الْأَوْتَارِ فَنَارَقَصَتِ الرُّؤُوسَ، وَشَرِبَتِ الرَّمَاحُ نَحْرَ الدِّمَاءِ فَعَرَبِدَتْ عَلَى النَّفُوسِ:

لَهُ هِمَمٌ تَعْلُو السَّحَابَ رِفْعَةً، * وَكَمْ جَادَ مِنْهَا بِالنَّفَاسِ وَالنَّفْسِ!

وَيُحْنِي ثِمَارَ الْفَضْلِ مِنْ دَوْحِ غَرْسِهِ! * وَلَا غَرَوَ أَنْ تُجْنِيَ الثَّمَارُ مِنَ الْغَرْسِ!

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الْوُظِيفَةَ مَبَاشَرَةً تَحْمَدُهُ فِيهَا الْوَرَادُ، وَتَشْكُرُهُ بِالْقَصْدِ أَلْسِنَةُ الْقُصَادِ،
وَتَذْكُرُهُ الْبَرِيدِيَّةُ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ وَادٍ، وَلِيُهَيِّئْ لَهُمْ [مِنَ الْقُرَى] مَا يَهَيِّئُهُ^(٣) الْمَضِيفُ،
وَلِيَحْصِلْ لَهُمُ التَّالِدُ مِنْهُ وَالطَّرِيفُ، وَلِيَتَلَقَّهُمْ بِوَجْهِ الْإِقْبَالِ، وَلِيَبْدَأَهُمُ بِالْخَيْرِ لِيُحْسِنَ
لَهُ الْمَالُ، وَلِيَجْعَلَ التَّقْوَى إِمَامَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، وَلِيَتَّصِفَ بِالْإِنْصَافِ فَهُوَ
أَحْمَدُ الْأَوْصَافِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.



تَوْقِيعٌ بِتَقْدِيمَةِ الْبَرِيدِيَّةِ بِحَلَبَ، كُتِبَ بِهِ لِعِمَادِ الدِّينِ «إِسْمَاعِيلُ» بِ«الْمَجْلِسِ
الْعَالِي» وَهُوَ:

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ مُشِيرًا إِلَيْهِ بِعَلَامَةِ التَّوْقِفِ وَلَا تَوْقِفَ لِأَنَّ الْأَوَّلَ جَمْعٌ جَيِّدٌ تَقْيِيزُ الرَّدَى. وَالثَّانِيَةُ
جَمْعُ جَوَادٍ لِلْفَرَسِ الرَّانِعِ السَّابِقِ.

(٢) ذِكْرُ الْقَدَمِ وَهِيَ أَنْتَى مَجَارَاةَ الْعَامَةِ.

(٣) زِيَادَةُ تَطْلُبِهَا صَحَّةُ الْمَعْنَى.

رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زالت عِنايَتُهُ الكريمةُ تقدِّمُ إلى الرُّتَبِ العِليَّةِ مَنْ بَنَى
أُسَّ إقدامِهِ من المروءَةِ على أشرفِ عمادٍ ، وتُعَيِّنُ لِلْمِهْمَاتِ الشَّرِيفَةِ مَنْ آمَتَطَى مِنْ
جِيَادِ الْعَزَمِ أَسْبَقَ جَوَادٍ ، وتَدْبُ لها من أولياءِ خَدَمِهِ كُلَّ نَدْبٍ لم يزلْ سَاعِدُ سَعْدِهِ
مَبْنِيًّا عَلَى السَّدَادِ ، وتُضَعِدُ إِلَى أَفْقِهَا مَنْ ذَوَى الشَّهَامَةِ مَنْ فَاقَتْ بِمِيسِنِهِ الصَّعَادَ -
أَنْ يَسْتَقَرَّ ... : لِأَنَّهُ ذُو الْهِمَمِ الَّتِي سَامَى بِهَا الْفَرَاقِدُ ، وَالْكَفُّ الَّذِي نَشِطَ
إِلَى الْقِيَامِ بِالْعَزَائِمِ إِذَا قَعَدَ عَنْهَا مِنْ ذَوَى الْهِمَمِ أُلْفُ رَاقِدٍ ، وَالْمَقْدَمُ الَّذِي قَدَّمَهُ
إِلِلْإِقْدَامُ عَلَى قَضَاءِ الْأُمُورِ الْمُعْضِلَاتِ ، وَحَلَّى أَجْيَادَ ذَوَى الْمَارَبِ إِذْ حَلَّ لَهُمْ مِنْهَا
بَيْنَ عَزَمِهِ الْمُشْكَلَاتِ ؛ مَا عَلَا جَوَادَ بَرِيدٍ إِلَّا وَسَابَقَ الطَّرْفُ بِلِ الطَّرْفِ إِلَى الْمَرَادِ ،
وَلَا نَدْبٌ إِلَى مُهِمٍّ لِلْحَكَمِ فِيهِ نِيْلًا لِأَمَلٍ إِلَّا قَدَحَ مِنْ رَأْيِهِ فِي فَضَائِهِ أَوْرَى زِنَادٍ ؛
وَالْفَارَسُ الَّذِي تَمَايَلَتْ بِكَفِّهِ الْعَوَامِلُ مُجَبًّا فَأَنْجَلَتْ الْأَغْصَانُ ، وَحَلَّتْ إِذْ حَلَّتْ
بِقُلُوبِ الْأَعْدَاءِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْمُرَانِ ؛ وَالشَّهْمُ الَّذِي سَبَقَ السَّهْمَ إِلَى الْغَرَضِ ،
وَالشُّجَاعُ الَّذِي مَا أَعْرَضَ عَنْ مُحَارَبَةِ الْأَقْرَانِ : فَصَفَى جَوْهَرَ شَجَاعَتِهِ مِنَ الْعَرَضِ ؛
وَالْيَقِظُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَنَظُرُهُ لِنَاسٍ ، وَلَا أَنْطَبَقَ عَلَى أَسْيَافِهِ الْمُسَهَّدَةِ بِمِيسِنِهِ أَجْفَانُ .
فَلْيَبْشِرْ هَذِهِ التَّقْدِيمَةَ مَبَاشَرَةً يَشْهَدُ الْحَاسِدُ لَهُ فِيهَا بِالتَّقْدِيمِ ، وَيُقِرُّ الْجَاوِدُ أَنَّهُ أَهْدَى
لِمَا أُسْدَى إِلَيْهِ إِلَى صَرَاطِ عَزَمٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَلْيَطِرْ إِلَى قَضَاءِ الْمِهْمَاتِ الشَّرِيفَةِ بِأَجْنَحَةِ
السَّدَادِ ، وَلْيَتَمَتَّعْ مِنْ جَوَادِ الْجَوَادِ أَسْبَقَ جَوَادٍ ؛ وَلْيُسَوِّبِ الْبَرِيدِيَّةَ فِي الْأَشْغَالِ ، وَلْيُقْبَلْ
عَلَيْهِمْ فِيمَا يَرُومُونَهُ مِنْ حُسْنِ السَّفَارَةِ بِوَجْهِ الْإِقْبَالِ ؛ وَلْيَسْلُكْ سَنَنَ الْبَصْدَقِ وَالتَّقْوَى
وَلْيَجْعَلْهُمَا لَهُ أَحْسَنَ سُنَّةٍ ، وَلْيَلْبَسْ سَوَائِغَ الْإِنْصَافِ فَإِنَّهَا مِنْ سَهَامِ الْخَلَلِ جُنَّةٌ .



نسخةُ توقيعِ بِنَايَةِ عَيْتَابٍ ، كُتِبَ بِهِ لِنَاصِرِ الدِّينِ « مُحَمَّدُ بْنُ شُعْبَانَ » بِ« الْمَجْلِسِ
الْعَالِي » عَوْضًا عَنْ كَانِهَا ، وَهِيَ :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانه العميمُ، يرفعُ لناصر الدين قَدراً، وامتنانهُ
الجسيمُ، ينفذُ له في حفظ الممالك المنصورة أمراً، ويؤلى أمر الرعية من حسنت
سيرته سراً وجَهراً - أن يستقر ... : لأنه شهم سَهم عِرْ فإنه مُصيب، وفارس
رَبْع خبره وخبره خَصيب، له مناقبُ جليله، وسيرةٌ محمودةٌ جليله، تنقل في المراتب
تنقل البدر في صعوده، وارتقى ذروة السيادة آرتقاء الكوكب في منازل صعوده؛
مباشرة مباشرة إلا ونشرت له بها أعلام شكره، ولا علا منزلة إلا تليت بها سور حمده
وذكره؛ لم يزل متبعاً للحق في أحكامه، سالكاً سُبُل الصواب في تقضيه وإبرامه؛
فتح له إقبالنا الكريم بابَه، فلذلك قُدم على غيره في هذه النياحة .

فليباشرها مُقتضياً آثار العفاف، مُرتدياً أروية العدل والإنصاف؛ مُقيماً منار
الشرع الشريف، مُنصفاً من القوى الضعيف؛ والله تعالى يوفقه للصواب فيما
تولاه، والخطُ الكريم شاهد أعلاه .

قلت : وعلى نياحة عيتاب هذه يُقاس ما في منهاها من نياحات العشرات، فيجري
الحكم في تواقعها كذلك . أمّا الطلبخانات فقد تقدم أن الأصل أنه لا يؤلى فيها
إلا من الأبواب السلطانية .



وهذه نسخة مرسوم بإمارة الركب الحلبي المتوجه إلى الحجاز الشريف، كُتب به
لشهاب الدين « أحمد بن الطنبغا » بـ « الجنباب الكريم » . واليباض فيه وصل
واحد، وهى :

رُسم بالأمر العالى - لا زال يمنح وقد الله تعالى بن لم يزل شهاب هيمه في أفق
الصيانة منيرا، ويسند أمرهم إلى كل نذب لا يزال على الحق ظاهراً وعلى دوى الباطل

ظَهيرا - أن يستقر فلان من أعيان الموالى الأمراء الطبلخانات بحلب المحروسة -
 أعز الله تعالى نصرته - أميرا على ركب الحاج الحلبى في هذا العام المقبل ، على أجل
 العوائد ، وأجل القواعد ، حسب ما رسم به . استقرارا يحمده الوفد عند صباح هممه
 السرى ، ويبلغ بهم قرى الغفران بأمر القرى ، وينال به طيب العيش بطيبة وطابه ،
 ويدرك بجياد فضله آراه ، ويمتح به زيارة سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام ،
 ويقوق به سهم إصابته من البشر إلى مراعى المرام ، ويشهد به بين قبره ومنبره روضة
 من رياض الجنة ، ويلبس به سوايغ القبول لتكون له من سهام الذنوب أوقى جنة ،
 ويتردى [به] برود الثنى حين ينزع محرمات الإحرام ، ويقبل به على ذكر الله تعالى
 فى الوهاد والبقاع والآكام ، ويستقبل به حرم بيت الله الحرام ، ويشب له
 الهنا حين دخوله المسجد من باب بنى شيبه ، ويتعاطى به أسباب التوبة ، لينال
 من العفو من الله الكريم سيبه ، ولا يقتصر به عن التطاول إلى الدعاء إلى الله تعالى
 لتعمه الرحمة بفضله وطوله ، ويدخل به حرما آمنا يخطف الناس من حوله ،
 ويفتح به إلى المقام بابا من الأمن إلى يوم القيامة مقيم ، ويدكر بوقوفه بعرفات
 وقوفه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

فليأشر هذه الإمرة المباركة مباشرة يتقسط منها لهجر المنام ، وليصرف وجهه
 سهامه إليها فى المسير والمقام ، ولينفق على الحاج من كنوز معدته ، وليجعل القيام
 بمصالحهم من أكبر همته ، وليسع بالصفافى حراستهم من أهل الفساد ، وليعتمد
 صونهم من ذوى العناد ، وليعلمهم بالإرفاق والإرفاق ، وليقطع من بينهم شقة
 الشقاق ، وليجعل تقوى الله إمامه فى القول والعمل .



وهذه نسخ توابع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيع بقضاء القضاة، كتب به لقاضى القضاة جمال الدين «إبراهيم بن أبي جرادة»
قاضى قضاة حلب المحروسة الشهير: «أبى العديم» من إنشاء ... الخنفي بـ «المقرّر
الكریم» وهو .

الحمد لله الذى رفع مراتب المناصب العلية وكساها من ملايس أهلها حلل الجلال،
وجمع شملها فأقترنت بإلفها أقران الثيرين: شمس الضحى وبيت الكمال، ورفع عنها
يد المتناول والمتناول فأصبح رقم طرازها الموثى منسجاً على أحسن منوال، وقطع
الأطاع عن إدراك شأوها فلا يصل إليها إلا كل فحل من الرجال .

نحمده على نعمه التى أعترف من أعترف من بحرها الوافر بالخير الكامل والفضل
المديد، وأقترف من أقتطف ثمار جودها جميل النوال المفيد، وجزيل الإحسان
العديد، حمداً يوافي نعمه ويكافى مزيده، ويعم بالإنعام الشامل نائله ومزيده،
ونشكره على مننه التى يقصر لسان الإطنا عن حصرها وتعدادها، وتعجز بنات
الفكر عن إدراك وصفها وتردادها، شكراً ينال به العبد رضا المعبود، ويبلغ به من
مقاصد الكرم والجود غاية المقصود، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
ولا ضد، ولا والد له ولا ولد ولا ند، شهادة تبيض وجه قائلها عند العرض،
وينطق بها لسان التوحيد يوم تبدل الأرض غير الأرض، ونشهد أن سيدنا محمداً
عبده ورسوله الذى أظهر الله به الحق وأعلنه، وبهر بحقائق معجزاته العقول فاعترف

كُلُّ بَصِيحَةٍ مَا عَرَفَهُ وَبَيَّنَّهُ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ نَصَرَ اللَّهُ بِهِمُ
الإِسْلَامَ وَأَبَدَ أَحْكَامَهُ ، وَأَحْكَمَ بِهِمْ مَبَانِيَ الإِيمَانِ الْمُثِيرَةَ وَأَيَّدَ إِحْكَامَهُ ؛ صَلَاةً تَعَطَّرُ
بِنَفَحَاتِ عَرَفِهَا أَرْجَاءُ الْمَدَارِسِ ، وَيُنَادِي لِسَانُ فَضْلُهَا لِرَأْسِ فَرَائِدِ الْمَعَالِي عَلَى طُولِ
الْمَدَا . رِسْ ، وَسَلَّمْ وَمَجْدٌ وَكَرَّمَ ، وَشَرَفٌ وَبِجَلٍّ وَعَظَمٌ .^(١)

وبعدُ : فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ لَحَظْتُهُ عَيْنُ الْعِنَايَةِ وَالْقَبُولِ ، وَأَجْدَرَ مَنْ بَلَغَ مِنْ مَقَاصِدِ
الْمَنَاصِبِ الْعَلِيَّةِ غَايَةَ الْقَصْدِ وَالسُّوْلِ ؛ وَأَعَزَّ مَنْ رَقَى ذُرَا الْمَعَالَى وَارْتَقَى ، وَأَجَلَ مَنْ
وُصِفَ بِالْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ وَنُعِتَ بِالذِّيانَةِ وَالثَّقَى - مَنْ سَارَتْ سِيرَةُ فَضْلِهِ فِي الْآفَاقِ ،
وَدَلَّ عَلَى صَفَاءِ السَّرِيرَةِ مِنْهُ حُسْنُ الْأَخْلَاقِ ؛ وَاشْتَهَرَ بِالْعُلُومِ الْجَزِيلَةِ ، وَالْمَنَاقِبِ
الْجَلِيلَةِ ، وَعُرِفَ فِي الْإِنصَافِ بِالْأَوْصَافِ الْمَحْمُودَةِ وَالْحِصَالِ الْجَمِيلَةِ ؛ وَأُظْهِرَ مِنْ
الْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ ، مَا حَيَّرَ الْعُقُولَ ، وَحَقَّقَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْأَطْيَفَةِ ، مَا جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْمَقْذُولِ
وَالْمَعْقُولِ ؛ وَدَقَّقَ الْمُبَاحِثَ حَتَّى اعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ الْخَاصَّ وَالْعَامَ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ
وَالْمَجَازِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعَارَةٍ إِذَا تَنَسَّبَ الْأَخْصَامُ ؛ وَحَكَّمَ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ فَأَحْكَمَهُ
مَرْضِيَّهِ ، وَقَضَايَاهُ فِي الْجُمْلَةِ قَدْ أَثْبَتَتْ فَهِيَ مُقَدِّمَةٌ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ ؛ وَثَابَرَ عَلَى إِلْقَاءِ
الدُّرُوسِ فِي وَقْتِهَا وَأَوَانِهَا ، وَقَرَّرَ كُلَّ مَسْأَلَةٍ فِي مَحَلِّهَا وَمَكَانِهَا ؛ وَأَفَادَ طُلَّابَ الْعِلْمِ
الشَّرِيفِ مِنْ فَوَائِدِهِ الْجَمَّةِ ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْ غَوَامِضِ الْمُبَاحِثِ بَحْلاً عَنْ الْقُلُوبِ
كُلِّ غُمَّةٍ ؛ وَجَالَ فِي مِيَادِينِ الدُّرُوسِ خَيْرَ الْأَبْطَالِ ، وَحَازَ قَصَبَ السَّبْقِ فِي حَلِّبَةِ
الْلِّقَاءِ فَردَ مُتَأَسِّفًا كُلَّ بَطَالٍ ؛ وَنَظَرَ فِي أُمُورِ الْأَوْقَافِ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ فَأَتَقَنَ بِحُسْنِ
النَّظَرِ وَجَهَ ضَبْطُهَا ، وَأَجْرَى أُمُورَ الْوَاقِفِينَ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْمَرْضِيَّةِ فَوَافِقَ الْمَشْرُوطِ
فِي شَرْطِهَا ؛ وَجَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ شَمْلِهَا فَأَجَمَلَ وَفَصَّلَ ، وَحَفِظَ أُمُومَهَا فَخَصَّلَ

وأصل ، فهو الحاكم المشهور بالعدل والمعرفة ، والناظر الذي حمت الأمور تصرفه ، والإمام الذي أتم الأنام بأقواله وأفعاله ، والعالم الذي يحد الطالب إليه شد رحاله ، والمدرس الذي أفاد بفيقه المفيد النافع ، وترفع في البداية والنهاية فهو المختار في المنافع ، وسلك منهاج الهداية ، فنال من العلوم الغاية ، فبدائع ألفاظه لعقائد الدين منظومه ، وكثر عز فانه عزيز المطالب ومحاسنه المشتملة على الكمال معلومه .

ولما كان فلان - أعز الله تعالى أحكامه ، وقرن بالتوفيق والسداد نقضه وإبرامه ، هو المشار إليه بالأوصاف والنعوت ، والمعول عليه إذا نطق بالفضائل والحاضرون سكوت ، والمشكور أثر بيته المشهور ، والمنشور علم علمه من السنة والشهور ، ياله من بيت لم يزل معموراً بالتقوى والصلاح ، تحمياً بأسلحة أهله : فمن أحكامهم السيوف ومن أعلامهم الرماح ، فهو العديم المثل وبيته العديم ، وحرم فضيل يمحج إليه الراحل والمقيم ، فاستحق أن تقابل مقاصده بالإقبال ، ويقابل بما يؤمله مقابلة مثله ولا كسائر الأمثال .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت مراسمه المطاعة تقر الحق في يد مستحقه ، وترد الأمر إلى وليه ومالك رقه ، وتسوق هدى الإحسان إلى محله ، وتضع الاستحقاق في يد مستحقه والحق وضع الشيء في محله - أن يستقر بحكم ظهور الحق بيده المباركه ، وخفاء الباطل الذي ليس له في الحق مشاركة ، استقراراً مباركاً ميموناً ، بالخير والسعد مقرون ، لأنه الأحق بأمر وظائفه ، والطائف حول حرمة المنوع طائفه ، وأولى من عقلت عليه عقيلته ، وردت إليه فريدته ، وبأشر بنفسه الكريمة ما عهد إليه سلفه ، وأنفرد به فلا يناله - إن شاء الله - إلا خلفه ،

طالما أَلَقَتْ مِنْهُ الْأَوْقَافُ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالْخَيْرِ ، وَحَفِظَ جِهَاتِهَا الْحَمِيَّةَ عَنْ تَطَاوُلِ
يَدِ الْغَيْرِ ؛ وَنَعِمَ بِحُسْنِ نَظَرِهِ مِنَ الْمَدَارِسِ كُلِّ دَارِسٍ ، وَفَازَتْ مِنْهُ الدُّرُوسُ بِالْعَالَمِ
الْعَارِفِ وَالْبَاطِلِ الْمُحَارِسِ .

فَلْيَبَاشِرْ ذَلِكَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنْ حُسْنِ الْمُبَاشَرَةِ ، وَلْيَجْتَهِدْ - عَلَى عَوَائِدِهِ -
فِي تَحْصِيلِ رَيَّةٍ مُثَابِرًا عَلَى الْأَجُورِ أَشَدَّ مُثَابَرَةً ؛ وَلْيَصْرِفْ أَمْوَالِ الْأَوْقَافِ فِي مَصَارِفِهَا ،
بَعْدَ الْعَارَةِ وَالتَّشْمِيرِ الْمُبْدَأَيْنِ فِي شَرْطِ وَقْفِهَا ؛ وَلْيَسُوِّ - عَلَى مُقْتَضَى مَعْدِلَتِهِ - بَيْنَ
الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، وَالشَّابِّ الصَّغِيرِ وَالشَّيْخِ النَّحِيفِ ، عَلَى قَدَرِ تَفَاوُثِهِمْ فِي الْعِلْمِ
الشَّرِيفِ ؛ وَلْيُطْلِقْ لِسَانَهُ فِي إِلقاءِ الدُّرُوسِ عَلَى عَادَتِهِ ، وَلْيُجَاهِدْ لِلشُّغْلَيْنِ طَرِيقَ
الْفَهْمِ لِيَنَالُوا الْقَصْدَ مِنْ إِفَادَتِهِ ؛ وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى مِنْ أَدَى الْأُمُورِ عَلَى الْوَجْهِ
الْمُسْتَقِيمِ ، وَوَفَى الْمَنَاصِبَ حَقَّهَا فَإِنَّ الْوَفَاءَ جَدِيرٌ^(١) بِ«إِبْرَاهِيمِ» .

وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَإِلَيْهِ مَرْجُوعُهَا ، وَمَنْ يَحَارِ عِلْمَهُ وَدِينَهُ الْمُتَيْنِ يَنْبُوعُهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يُؤَيِّدُ بِهِ الْمَنَاصِبَ ، وَيَرْفَعُ بَعْلُو رُتَبَتِهِ الْمَرَاتِبَ .



نَسْخَةُ تَوْقِيعِ بَحْطَابَةِ جَامِعِ ، كُتِبَ بِهِ لِقَاضِي الْقَضَاةِ «كَالِ الدِّينِ عَمْرٍ» ابْنُ
قَاضِي الْقَضَاةِ جَمَالِ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ الْحَنْفِيِّ ، الشَّهِيرِ بِابْنِ الْعَدِيمِ «الْمَقَرَّرِ
الشَّرِيفِ» وَهِيَ :

رُسم بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ عِنَايَتُهُ تُرَقِّى فِي مَنَازِلِ الْحَجْدِ مِنْ تَتَابُلِ بَفْضِهِ
بِهَجَّةٍ وَكَلَالَا ، وَتَذَلُّلِ جِيَادِهَا لِقُرسَانِ الْفَضَائِلِ فَتُجِيدُهُمْ فِي مَيْدَانِ الْبَلَاغَةِ بِجَالَا ،

(١) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى) .

وَتَسَلَّمَ رَأْيَهَا [إلى من صدق بارق سعه ، ووهب من العلم] ملكا لا ينبغي لأحد من بعده - أن يستقر ... لأنه الإمام الذى [لو] تقدّم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد ، والعارف الذى بلغ بولايته مريد الفضل غاية المراد ، والعالم الذى وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها فى الخارج صالح العمل ، وأتبع سنن الكتاب والسنة فلم يتخلل طريقته المثلّ خلل ؛ والمحقق الذى وجد إلى كنه الحقيقة أكل مجاز ، والمفوّه الذى بلغ من البلاغة فى كلام البشر حدّ الإعجاز ؛ إن خطب شنف بدرّ مواظبه الأسماع ، وشرف بغرر فرائده الأئجاع ؛ وأهترت أعواد المنابر طرباً لكلمه الطيب ، وروى أوام القلوب سحّ فضله الصيب ؛ وإن قرأ فى محرابه أقرّ بفضله الجمع الجامع ، وأستقلّ « ابن كثير » حين وجد « الكسائي » عارياً مما لديه وفضله الجمل أكل « نافع » :

خَطِيبٌ إِذَا الصَّادِي تَصَدَّى لِفَضْلِهِ : * لَيَرَوَى ، فَأَنَوَاءُ الْعُلُومِ تُعْيِيهِ !

وَإِنْ يَرَوْهُ الْجَلَّاسُ أَخْبَارَ أَحْمَدٍ ، * نَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يَمْلُ حَدِيثُهُ !

وهو الكامل الذى أدرك درجات الكمال فى البدايه فأمّن فى النهايه وهو قاض من النقص ، وسارت عيس الطلاب إلى حضرته الكريمه وأخذة ولكن بالنص ؛ والصاحب الذى استصحب يسار العفاة باليمين ، وأزال ظن قاصده فى ربه الشامل باليقين ؛ كم أطلق بأفلامه المفيده مكرمة بصله الأرزاق ، ونسخ بحقيق فضله رقاغ الأول بالعطاء على الإطلاق ؛ ولو نظر المملكان : هاروت وماروت مملكه من

(١) الزيادة يقتضيا المقام .

(٢) الأوام بالضم العطش ..

كاتبه السَّاحِرَ لَأَقْزَا أَنَّهُ السَّحَرُ الْحَلَالُ ، وَلَوْ قَابَلَهُ «أَبْنُ هَلَالٍ» لَأُخْشِفَ بِدَرِّ فَضْلِهِ
عند الكمال :

فَفِي كَفِّهِ الْأَفْلَامُ تَهْزَأُ بِالْقَنَّا ، * وَتَخْشَى سَطَاهَا الْأُسْدُ فِي غَابِ غَائِبِهَا !
يُرْوَعُ سُيُوفُ الْهِنْدِ وَرَى يُرَاعِهِ ، * وَقَدْ طَارَ مِنْ خَوْفِ حَدِيدِ دُبَائِبِهَا !

فليأشُرْ هذه الخطابة مباشرة ترشّف منها كُثُوسَ كَلِمَةِ الْأَشْمَاعِ ، وَلِيُكْشِفْ لَهَا
عن وُجُوهِ فُضَائِلِهِ الْقِنَاعِ ؛ وَلِيُنْشُرْ عَلَيْهِمْ مِنْ دُرَرِ بِلَاغَتِهِ مَا تَلْتَقِطُهُ أَفْوَاهُ الْمَسَامِعِ ،
وَلِيُنْشُرْ مِنْ طَيِّ لِسَانِهِ عِلْمَ عِلْمِهِ الَّذِى لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ أَبَى اللَّهِ وَالْفَارِيقُ الْجَامِعُ ؛
وَلِيُطَرِّبَ بِمَوَاصِلِ أُسْبَاجِهِ الْقَاطِعَةِ بِفُضَائِلِهِ الْمَكْمَلَةِ ، وَلِيُظْهِرَ مَا جَمَعَهُ مِنْ مَحَاسِنِهِ الَّتِى
هِيَ الْجَمْعُ الَّذِى لَا نَظِيرَ لَهُ ؛ وَلِيُنْفِقَ عَلَى الْجَمْعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كُنُوزِ
الْفُضَائِلِ ، وَلِيُبَلِّغَهُمْ مِنْ بِلَاغَتِهِ الَّتِى أَنْحَلَتْ ذِكْرَ «قُسٍّ» وَ«سَجْبَانٍ وَأَيْلٍ» ؛ وَأَنْتَ
- أَسْبَغَ اللَّهُ تَعَالَى ظِلَالَكَ - مَعْدِنُ الْفُضَائِلِ فَأَتَى تُهْدَى إِلَيْكَ الْوَصَايَا ؛ وَالْمُتَصِفُ
بِصِفَاتِ الْكَمَالِ فَكَيْفَ تُعَرِّضُ عَلَيْكَ الْمَزَايَا ؛ وَلَكِنَّ الْوَصِيَّةَ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
شُعَائِرِ الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُكَ غُرَّةً فِي جَبْهَةِ الْأَيَّامِ .



وهذه نسخةُ تَوْقِيعِ بَتَدْرِيسِ بِالْجَامِعِ الْمَذْكُورِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِى عِلَاءِ الدِّينِ
«عَلَى الصَّرْحَدِىِّ» الشَّافِعِىِّ ، نَائِبِ الْحَكَمِ الْعَزِيزِ بِجَلْبِ بـ «الْمَقَرَّ الْعَالِىِّ» وَهِيَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ تَمْنَحُ دُرُوسَ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ بَعْلَى الْعُلُومِ ، وَتَتَدُبُّ
لَهَا مِنْ ذَوَى الْأَجْتِهَادِ مِنْ سَائِرِ بَهْمِمَةِ الْبَرْقِ وَسَائِرِ النُّجُومِ ، وَتُقَرَّرُ لِلطَّلَبَةِ مِنْ

أولى العناية من حَقِّق الفضائل وأطلع على سرِّها المكتوم، وتُدِيرُ عليهم من مشرب فوائده ما يُخَالُ أنه الرِّحِيقُ المَخْتُوم - أن يستقرَّ فلانٌ استقرَّأً تقرُّبه أعينُ الطلاب، وتلمحُ من صوب فضله عينُ الصَّواب؛ ويشيِّدُ به دَارِسُ الدروس، ويطلعُ به في سماء الفضائل أنورُ شُمُوس؛ وتُنشِرُ به أعلامُ العلوم من طَيِّ الألسنة، ويذهبُ من كلِّ الطَّلَبَةِ في تحصيلِ العِلْمِ الشريفِ وسنَّه؛ لأنَّه الحَبْرُ الذي شَهِدَتْ بِفَضْلِهِ الأسفار، وَرَحَلَتْ إلى فوائده الجَمَّةُ السُّفَّار؛ والبَحْرُ الذي جَرَتْ سَفْنُ الأذهان به فلم تُدْرِكْ غايةَ قِوَارِهِ، وعَجَزَتْ الأمثالُ عن خَوْضِ تِيَّارِهِ؛ والعالمُ الذي أَقْرَبَ بِلَعْنِهِ الأعلام، وشَهِدَتْ بِإِحْكَامِ أَحْكَامِهِ الأبرارُ في مَوْطِنِ بَحْثِ إلَّا وبرزَ على الأقران، ولا جَارَاهُ مُجْتَهِدٌ إلَّا وَكَانَا كَفَرَسَى رِهَان، ولا نَطَقَ بِمَنْطِقِي إلَّا وَأَنْتَجَتْ مُقَدِّمَاتُ هِمَمِهِ العِلْيَةِ وَاجْتِهَادُهُ عَلَى فَضْلِهِ أَكْمَلَ بُرْهَان، ولا أَجْرَى جِيَادِ عُلُومِهِ إلى غَايَةٍ إلَّا مُطْلَقَةُ العِزِّ، ولا رَأَاهُ من أَخْبَرَ عَنْ فَضْلِهِ إلَّا تَمَثَّلَ لَهُ: ليس الحَبْرُ كالْعِيَان؛ إِنْ تَصَدَّرَ لِلْفَوَائِدِ أَلْتَقَطْتَ الأَسْمَاعُ دُرَّ عِلْمِهِ النَفِيس، وَإِنْ دَرَسَ تَخَالُ الطَّلَبَةُ أَنَّهُ «أَبْنُ إِدْرِيس»؛ فَهُوَ طَوْدٌ فَضِيلٌ لَا يُسَامَى عُلُوهَا وَرَفْعُهُ، وَلَا يَتَوَى مُنَاوَاتُهُ مُنَاوَى وَلَوْ كَانَ «أَبْنُ رَفْعِهِ»:

إِمَامٌ غَدَا لِلسَّالِكِينَ مُسَلِّكًا، * عَلِيمٌ، وَكَمْ أَوْلَى الْفَضَائِلَ مَنْ وَلَى!

عَلَا فَاسَالِ الْبَحْرَ مِنْ فَيْضِ عِلْمِهِ! * وَذَلِكَ سَيْلٌ جَاءَ بِالْفَضْلِ مِنْ عَلَى!

فَلْيَبْشِرْ هَذَا التَّدْرِيسَ الْمُبَارَكَ مَبَاشَرَةً يَثْبُتُ بِهَا فَوَائِدُهُ، وَيَنْتَرْبُهَا قَرَائِدُهُ؛ وَيُطْرِبُ الطَّلَابَ بِطَرِيفِ الْعِلْمِ وَتَالِدِهِ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ مِنْ صِلَةِ الْفَضْلِ وَعَائِدِهِ؛ وَلِيَلْزِمَ الْمَبَاشَرَةَ مَلَازِمَةً لَا يَنْفِكُ عَنْهَا أَيَّامَ الدُّرُوسِ، وَلِيُزِيلَ الْقُلُوبَ بِمَصَابِيحِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيُسِّرَ النَفُوسَ.

وأنت - أمتع الله بفوائدهك - من نورِكَ الوصايا تُقتبس ، ولم آتس الطالبُ نارَ
فضلاً فاتى منها بأنورِ قَبَسٍ ؛ والله تعالى يُبقيك للعلوم كثرًا لا تنفنى مواهبه ، ويُديمك
للطلاب بحرًا لا تنقضى عجائبه .



وهذه نسخة توقيع بتدريس بالجامع المذكور الحنفى ، كُتِبَ به للشيخ شمس الدين
«محمد القرمى» الحنفى ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

رُسم بالأمر - لازالت عنايته الكريمة تُطالع شمس الدين للهداية فى أفق المدارس ،
وتُسَيِّد بالعلماء الأعلام من ربوعها كلِّ دارِسٍ ؛ وتمنحُ الفقهاء بمن إذا تصدَّى
لِلإفادة جادت نفسه بالدرر النفائس ، وتتدب لها من أولى البلاغة من إذا أَلَّفَ
فَصلاً وُجِدَتْ غُصُونُ أَقْلَامِهِ فى رَوْضَاتِ الطُّرُوسِ أَحْسَنَ مَوَاسٍ - أن يستقرَّ
فَلاَنٌ : استقرَّارًا تُجَلُّ به الدُّرُوسُ بالفوائد ، وتمنحُ الطَّلَبَةَ منها بالصَّلَـةِ والعائِدِ ؛ ويمدُّ
لهم من مَوَادِّ العلوم أشرفَ مَوَائِدَ ، ويورِدُهم من مَنَاهِلِهَا أعذبَ مَوَارِدَ ؛ لأنَّه شمسُ
العلوم ومِصْبَاحُهَا ، وقَرَّيْلُ المُشْكَلَاتِ وصِبَاحُهَا ؛ وساعِدُ الفتاوى الطَّائِرَةِ بفضائله
فى الآفاق وجَنَاحُهَا ، وَرُوحُ كُثُوسِ العلوم وَرَاحُهَا ؛ وَطَلِيعَةُ الحقائق وعُنوانُهَا ،
وعَيْنُ الدَّقَائِقِ وإنْسَانُهَا ؛ والإمامُ الذى أُنِّمَ به الطَّلَـابُ فاستحقَّ الإمامَ ، والعالمُ
الذى أَجْتَهَدَ على فَضْلِ العلوم فاستوجب أن يُنْعَتَ بالعلامة ؛ والفاضلُ الذى
صَبِطَتْ أَقْوَالُهُ : لِلأَطْلَاعِ على سِرِّهَا المَكْتُومِ ، فَأَخْتَصَّ فِعْلُ عِلْمِهِ المتعدى بالزُّومِ
لِاتِّصَافِهِ بالعموم ؛ كَمِ التَّقِطُ من دُرُوسِهِ الجَواهِرِ ، وتمثَلُ لأَبْكَارِ فَوَائِدِهِ : كَمِ تَرَكَ
الأَوَّلَ لِلآخِرِ ؛ قَابِلَتَهُ الأَسْفَارُ عن وجوه فوائدها بالإسفار ، وأظهرتْ لِدُكَاةِ ذِكَاةِ
مَا صَنَعَتْهُ أَحْشَاؤُهَا من الإضمار ؛ فهو المُخْتَارُ لهذا التَّدْرِيسِ : إذ دُرِّرُ فَوَائِدُهُ مَنْظُومَةً ،
والمُحْتَبَى لِلإفادة بسُلوْكَه طُرُقَ الهداية إلى دَقَائِقِهَا المَكْتُومَةِ ؛ وَكَمِ اسْتِنَارَتِ الطَّلَبَةَ

من سَمَرِ فَضْلِهِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ ثَالِثَ الْقَمَرَيْنِ، وَجَمَعَ فِي صَدْرِهِ بِحَرَى الْمَقُولِ
وَالْمَقُولِ حَتَّى قِيلَ : هَذَا "تَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ" :

هُوَ الْبَحْرُ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ تَجَافُفًا، * وَوَاكِفَ فَضْلٍ لَيْسَ يُوجَدُ فِي الْبَحْرِ!
بَلَاغَتُهُ السَّحَرُ الْحَلَالُ، وَإِنَّمَا * بَدِيعُ مَعَانِيهَا يَجِلُّ عَنِ السَّحْرِ!

فَلْيَبْشُرْ هَذَا التَّدْرِيسَ نَازِلًا دُرَرِ قَرَائِدِهِ، نَاشِرًا غُرَرِ فَوَائِدِهِ؛ جَائِدًا بِجِيَادِ فَضَائِلِهِ
السَّابِقَةِ إِلَى الْغَايَاتِ، عَائِدًا بِصَلَاتِ حَقَائِقِهِ لِتَكْمِلِ لِلطَّلِبَةِ بِهِ الْمَسَرَّاتِ؛ وَلِيَلْزِمَ أَيَّامَ
الدُّرُوسِ مَا أَسْدَى إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْوُظُفَةِ، وَلِيَرْتَقِ مِنْ دَرَجِ التَّقْوَى لُغْرِفَ الْمَعَارِفِ
الشَّرِيفَةِ .



وهذه نسخةُ تَوْقِيعِ بِإِمَامَةٍ وَتَصْدِيرِ بِجَامِعٍ مِنْ كُلِّ بَغَا الشَّمْسِيِّ بِجَلَبٍ، كُتِبَ بِهِ
لِلشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ «مُحَمَّدِ الْإِمَامِ»، بِ«الْجَنَابِ الْعَالِي»، وَهِيَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الْعَمِيمَةُ تُطْلِعُ شَمْسَ الدِّينِ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي، وَتَرْفَعُ
مِنْ أَوْلِيَائِهِ خِدْمَةً مِنْ جِيدِهِ بِالْفَضْلِ حَالِي؛ وَتَمْنَحُ بِرَّهَا مَنْ أَعْرَبَتْ عَنْ لَحْنِهِ الطَّيِّبِ
وَتَسْتَنْفِتُ مِنْ فِيهِ بِاللَّيْلِ، وَتَسْفَحُ غَيْثَ جُودِهَا عَلَى مَنْ أَجْمَعَ عَلَى طَيْبِ مُسَامَرَتِهِ
وَرَفَعَ أَدْعِيَتِهِ الْأَشْمَاعُ وَاللَّيَالِي - أَنْ يَسْتَقَرَّ فُلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى ضِيَاءَ شَمْسِهِ، وَبَنَى لَهُ
رَبْعَ السَّعْدِ مِنْ جُودِهِ عَلَى أَسَّهِ - ... لَأَنَّهُ الْإِمَامُ الَّذِي شَهِدْتُ بِحُسْنِ قِرَاءَتِهِ
الْمَحَارِيبَ، وَالْآتِي مِنْ فَضْلِ فَضَائِلِهِ بِالْأَغَارِيبِ؛ وَالْفَاضِلُ الَّذِي سَلَكَ طُرُقَ الْفَضَائِلِ
أَحْسَنَ سُلُوكٍ، وَشَهِدَ بِسَبْقِ جِيَادِ جُودِهِ فِي حَلْبَةِ الْأَخْتِبَارِ كُلِّ حَتَّى الْمُلُوكِ؛ وَالْكَامِلُ
الَّذِي كَلَّمَ أَوْصَاءَهُ الْمَحْمُودَةَ فَأَمِنَ النِّقَاصَ، وَاخْتَصَّ بِجَمِيلِ الشِّيمِ وَحُسْنِ الْخِصَائِصِ؛
مَا أُمَّ إِلَّا وَشَهِدَ بِفَضْلِهِ كُلِّ مَأْمُومٍ، وَأَقْرَبُوا أَنَّ أَسْمَاعَهُمْ أَرْتَشَفَتْ رَحِيقَ فَضَائِلِهِ مِنْ

كأسها المختوم ؛ وما سَامَرَ الخواصَّ إِلَّا وشَهِدَ العوامُ بِحُسْنِ صفاته ، ولا حَدَثَ إِلَّا
وكانتِ الملوكُ من رُواته .

فلباشِر هذه الوظائفِ المباركة مباشرةً تَقَرُّ بها النواظر ، وتَجْتَمِعُ الألسنةُ على أَنَّهُ
أَكْرَمُ إنسانٍ وخَيْرُ ناظرٍ ؛ ولْيَتَصَدَّرْ لِإلقاءِ الفوائدِ ، ولْيَكْسِبِ الأسماعَ من علمه
بالطَّرِيفِ والتَّالِدِ ؛ ولْيَتَنَاوَلَ مَعْلومَه أوانِ الوجودِ والاستحقاقِ ، هِنًا مُيسِّرًا من غير
تَقْيِيدٍ على الإطلاقِ ؛ ولْيَتَقَيَّ اللهُ فيما أُسْدِيَ إليه من ذلك ، ولْيَسُكِّمْ من سَنَنِ التَّقْوَى
- بَقَدَمِ الصَّدَقِ - أَحْسَنَ المسالكِ .



وهذه نسخ تواقع لأرباب الأقلام الديوانية بحلب وما معها :

تَوَقَّعُ بِكُتَابَةِ الدَّسْتِ بِحَلَبَ ، كُتِبَ بِهِ لـ «بهاء الدين بن الفرفور» ونظيرَيْتِ
المال بِحَلَبَ ، بـ «الحجاب العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال يَنْظِمُ عُقودَ الإحسانِ فى أجيادِ أوليائه ، ويُجِزِلُ لهم بوافر
نَظَرِهِ وَافٍ عَطَائِهِ ، ويُجِزِى بهاءَ الدينِ على أحسنِ نظامٍ فيُنْجِزُلهِ عِدَّةَ وَفَائِهِ - أنْ
يَسْتَقَرَّ آسْتَقَرَّارًا يَبْأُغِ به وَجْوهُ الآمالِ ، وَيَكْسُو الدَّواوِينَ مَلَأِسَ البَهاِ
والكمالِ ، وَيَزِيدُها رِفْعَةً بما يَفْضُلُهُ من ذلك الجمالِ ؛ لأنَّهُ الفاضِلُ الذى إذا
قَصِدَ المَعانِي أَصابَ ، وإذا سُئِلَ عن كُلِّ مَعْنَى لطيفِ أجاد وأجاب ؛ والفَصيحُ
الذى إذا تَكَلَّمَ أَجْزَلَ وأَوْجَزَ ، وأَسْكَتْ كُلَّ ذى لَسَنِ بِفِصاحتِهِ وأَعْجَزَ ؛ والبليغُ الذى
أَبْدَعَ فى مَكاتِبائِهِ بِمَشْهُورِهِ وَمَنْظُومِهِ ، وَاللَّيْبُ الذى أَطْلَعَ من أَزْهارِ كَلِمِهِ المسموعةِ
فى رِياضِ الطُّروسِ ما يُنْجِلُ الرُّوضِ إذا أَفْتَحَرَتْ بِمَشْهُومِهِ ؛ والكَاتِبُ الذى قَطَعَتْ
بِمَعْرِفَتِهِ الأَقلامُ ، والحاسِبُ الذى عُقِدَتْ على خِبرَتِهِ خِناصِرُ الأَنامِ ؛ والأديبُ الذى

جمع بين قلم الإنشاء الشريف (؟)، وحاز ما في ذلك من تآلٍد وطريف ؛ فله دره من
كاتب زين الطروس بحسن كتابته ، وجمل الألفاظ والمعاني بجميل درايته وفصاحته .
فليباشر ما عُدق به من ذلك مباشرةً مقرونةً بالسداد ، مشكورةً المساعي
والاعتماد ؛ مظهرًا براعةً يراعه ، باسطًا يد إبداعه الجميل وإبداعه ؛ مُفوّقًا حواشي
القصص بتوقعاته ، مُوشيًا برود الطروس بترصيعاته وتوشيعاته ؛ ناظرًا على اعتماد
مصالح بيت المال المعمور ، وتحصيل حواصله على الوجه المشهور والطريق
المشكور ؛ عاملاً بتقوى الله عزّ وجلّ في ضبط مصالح ديوان الجيوش المنصّوره ،
سالكًا من حسن الاعتماد طُرُقًا على السداد والتوفيق مقصّوره ؛ والوصايا كثيرةً
وتقوى الله تعالى عمادها ، فليجعلها عمّده فيما يتمّ به للنفس المطمئنة مُرادها ؛
وليناول معلومه المستقرّ لذلك أوان وجوبه ، والله تعالى يُبلّغه غاية قصّده ومطلّوبه .



توقيع بصحابة ديوان الأموال بحلب ، من إنشاء ابن الشهاب محمود ، كتب به
للقاضى شمس الدين « محمد بن محمد » ، أحد كتّاب الدّست بحلب ، بد المجلس
العالى ، وهو :

رُسم بالأمر - لازالت صدقاته العميمة تُسرّ نفوسا ، وتُطلىح في هالات الوظائف
السّنية عوّض الشمس شُوسا ؛ وتسقى غرس نعمائها الهبات الهنيّة فترهى أغصانًا
يانعةً وغُروسا - أن يستقرّ ... : لأنه الأوحّد الكامِل ، والرئيس الفاضل ؛ ولأنّه
حاز قصب السبق في المباشرات ، والمناصب الجليلة والمراتب السّنيات ؛ طالما
بذل جهده في خدمة الدّول ، وسلك بجميل مُباشرته طريق السّلف وسبيل الأول ؛
فأدرك بحسن سيرته ويمن طريقته نهاية السّؤل وغاية الأمل ، وأتى الأمور على

قَدَرٌ ولا يقال : على عَجَل ؛ ولأنَّه الأَمِينُ في صَنَعَةِ الإنشاء ، والتَّايِعُ في فَتْنَةِ فُتُونِ
الأدباء ؛ إن رَقَمَ الطُّرُوسَ طَرَزَ ، وإن بَارَزَ الأَقْرانَ في مَوَاطِنِ الأَفْتِخارِ بَرَزَ ؛ وإن
بَسَطَ الجرائدَ ، تَغَارَّ من حُسْنِهَا الخرائدَ ؛ طالما نَطَقَ بالحِكمِ ، وأشْتَهَرَ بين أَصْحَابِهِ
مِثْلَ أَشْتِهَارِ النَّارِ على عِلْمٍ ؛ نَظَّمَ المحاسِنَ في ثَرَّةِ البَدِيعِ ، وَجَمَعَ بين الأَضْدَادِ فيما يُبْدِيهِ
من الإنشاءِ ويَحْيِيهِ من التَّصْرِيعِ ؛ قَدِّمَتْ هِجْرَتُهُ في الخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ ، واَقْتَنَطَفَ من
زَهْرِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ أَحْسَنَ مَنْصِبٍ وَأَجْمَلَ وِظِيفَةٍ ؛ وَتَحَلَّى جِدَّهُ بالقلائدِ ،
وَحَصَلَ بِسَعْيِهِ مجموعَ الفرائدِ ، فَعَادَتْ عَلَيْهِ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بأَجْمَلِ العوائدِ ؛ قد
اَسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ ، وَاسْتَوْجَبَ من الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةِ نِهَايَةَ التَّكْرِيمِ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الوَظِيفَةَ مَبَاشَرَةً حَسَنَةً الْآثَارِ ، جَمِيلَةً الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ ؛ نَاطِقًا بِقَلَمِهِ
الْحِسَابَ عَلَى أَنْوَاعِهِ ، مُحْكِمًا لَهُ عَلَى سِدَادِ أَوْضَاعِهِ ؛ وَلْيُطْلِعْ شَمْسَهُ فِي سَمَاءِ هَذِهِ الوَظِيفَةِ ،
وَلْيَجْنِ مِنْ رَوْضِهَا الْأَرِيضِ كُلَّ يَانِعَةٍ لَطِيفَةٍ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ بَوَادِرُ خَيْرٍ سَرَتْ إِلَيْهِ ،
وَسَوَائِغُ نَعِيمٍ خُلِعَتْ عَلَيْهِ ؛ وَأَنَّ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ لَا بُدَّ أَنْ تُؤَلِّيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بَرًّا ،
وَتَرَادَفَ عَلَيْهِ تَتَرَّى ؛ وَتُعَلِّ لَهُ بَيْنَ رِفَاقِهِ الْمَرْفُوقِينَ قَدْرًا ؛ وَمِثْلَهُ لَا يُنْبَهُ عَلَى وَصِيٍّ ،
لَا دَانِيَةٍ وَلَا قَصِيَّةٍ ؛ لَكِنِ التَّقْوَى لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُغْفَلَ عَنْهَا ؛ فَلْيَجْعَلْهَا
أَعْتَادَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ، وَلْيَتَنَاوَلْ مَعْلُومَهُ الْمَقْرَّرَ لَهُ عَلَى الوَظِيفَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي غُرَرِ
الشُّهُورِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَضَاعِفُ لَهُ بِمُضَاعَفَةِ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِ أَوْقَاتَ السُّرُورِ ، وَيَقِيهِ
بِلُطْفِهِ كُلَّ مَحْذُورٍ .



تَوْقِيعَ بِنظَرِ بَهْسَنَى ، مِنْ عَمَلِ حَلَبَ ، كُتِبَ بِهِ لِفَتْحِ الدِّينِ «صَدَقَةُ بْنُ زَيْنِ الدِّينِ»
عَبْدَ الرَّحِيمِ الْمَصْرِيَّ» ، بِ«الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ» ، وَهُوَ :

رُسم بالأمر - لازالت صدقاته العميمة تفتح لأولياء خدمته أبواب الخيرات ، ولا برحت تهدي إليهم أنواع المَسرات - أن يستقر... .. في وظيفة النظر بمدينة بهسنى المحروسة عوضاً عن بها ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت ، على العادة في ذلك والقاعدة ، استقراراً يسر خاطره ، ويُقر ناظره ، لأنه الماهر في صناعته ، والرائج في متاجر بضاعته .

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنه ، لتُصبح الألسنة بذكرها معلنه ، ويُصرف قلمه فيما يعود نفعه عليه ، وليجتهد فيما يستجلب الأثنية إليه ، وليقبض معلومه أوان وجوبه هنيئاً ، وليتناوله بيد استحقاقه مريباً ، والوصايا كثيرة وهو - بحمد الله تعالى - غير محتاج إليها ، لأنه الفاعل لها والدال عليها ، وتقوى الله تعالى عمادها ، وبه قوامها ويسنادها ، فليتمسك بسببها في الحركات والسكات ، والله تعالى يهيئ له أسباب المَسرات .



توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدبرى ، كتب به للقاضى شهاب الدين «أحمد ابن أبى الطيب العمري العثماني» ، بـ«بالجناب الكريم» ، وهو :

رُسم بالأمر - لازال يجل الثغور بن تزهو برحيق كلمه الطيب [المناصب] ، ويكمل محاسنها بن لم تزل الصحف تقود من جياذ فضله أجمل جنائب ، وحبابها بشهاب يهتدى إلى المقاصد بنجم رايه التأقب ، وسرها بكل ندب لم تزل كُتبه تُرد من الدُعار الكتائب - أن يستقر... .. في وظيفتي كتابة الإنشاء الشريف والجيش المنصور بدوركي المحروسة ، عوضاً عن فلان ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر

(١) لغة في دبركي كما سلف قريبا وتقدم في ج ٤ ص ١٣٢ من هذا المطبوع .

وَقِيَتْ . لِأَنَّهُ مِنْ بَيْتٍ رُفِيعٍ عِلْمُ قَدْرِهِ عَلَى السَّحَابِ ، وَأُتَتْصَبَتْ رَايَةُ أَرَائِهِمْ بِالْتِمِيزِ فِي مَوَاقِبِ الْعِزَّةِ عَنْ الْمَوَاقِبِ ، وَأُضِيفَ إِلَى مُجْدِهِمْ شَرَفُ الْكَمَالِ فَانْجَرَّ بِالْإِضَافَةِ ذَيْلُ مُجْدِهِمْ عَلَى الْكَوَاكِبِ ، وَجَزَمَ أُولُو الْفَضْلِ بِنِسْبَتِهِمْ إِلَى الْمَعَالَى فَخَازُوا قَصَبَهَا أَسْتَحْقَاقًا وَمَا زَاخَمُوا عَلَيْهَا بِالْمَنَّاكِبِ ، وَأُسِّسَ أَصْلُهُ عَلَى عِمَادِ شَرَفِ «الْفَارُوقِ» وَ«ذِي النُّورَيْنِ» فَتَفَرَّعَ عَلَى أَكْلِ تَنَاسُلٍ بِتَنَاسُبٍ .

النيابة الثالثة

(مما يكتب من التواقيع بالولايات عن نواب السلطنة بها - نيابة طرابلس)
وهي على ما تقدم في دمشق : من تقسيمها إلى تواقيع أرباب السيوف ، وتواقيع وظائف أرباب الأقاليم الدينية ، وتواقيع أرباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ، وتقسم ذلك إلى ما يفتتح بـ «الحمد لله» ، وما يفتتح بـ «أما بعد حمد الله» ، وما يفتتح بـ «رسم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بشد الدواوين بطرابلس ، كتب به لصالح الدين «صالح الحافظي» ، بـ «الجناب الكريم» ، وهي :

الحمد لله الذي أيد هذه الدولة وسددها بأنواع الصلاح ، وعمر العالم بعديل سلطانها وجعل أيامه مقرونة بالنجاح ، وأقام لتدبير المملكة [كل] كفاء كاف مشهور باليمن والصلاح .

نحمده على نعيمه الغامرة في المساء والصباح ، ونشكره على آلائه في كل غدو ورواح ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة ضوئية كالصباح ،

وَأَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مِنْ آصَافِهَا وَأَرْسَلَهُ بِالْدينِ الْخَينِفِيِّ فَبَشَّرَ
وَأَنْذَرَ وَحَلَّلَ وَحَرَّمَ ... (١) ... وَأَبَاحَ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَوةً دَائِمَةً
مُسْتَمِرَّةً مَا حَيَّعِلَ الدَّاعِي إِلَى الْفَلَاحِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى الْأَوْلِيَاءِ بِمُضَاعَفَةِ الْإِحْسَانِ ، وَأَنْ يَعْلَى لَهُ فِي الْمَكَانِ وَالْإِمْكَانِ -
مَنْ عُرِفَ بِأَجَلِ الْمُبَاشَرَاتِ فِي الْفُتُوحَاتِ ، وَأَشْتَهَرَ فِيهَا بِالْكَفَايَةِ وَالصَّيَانَةِ وَبِحَمِيلِ
التَّنْذِيرِ وَحُسْنِ الصِّفَاتِ .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الْمُتَفَرِّدَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ ، وَاتَّفَقَتْ عَلَى نَعْوَتِهِ الْجَمِيلَةِ
الْأَنْسَنَةِ ، وَالْوَحِيدَ بِهِذِهِ السَّجَايَا ، الْفَرِيدَ بِشَرَفِ الْمَزَايَا ، عُقِدَتْ الْخَنَاصِرُ عَلَيْهِ ،
وَأَقْتَضَتْ الْآرَاءُ أَنْ يَسْنَدَ تَنْذِيرُ الْمَلِكَةِ إِلَيْهِ : فَإِنَّهَا لَمْ تَجِدْ لَهَا كُفَاءً غَيْرَهُ ، وَلَا مَنْ
يَجْمَعُ شَمْلَ شَتَاتِ أَقْوَالِهَا وَلَمْ يَفْرِطْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لِأَزَالِ يَنْدُبَ لَتَنْذِيرِ الْمَالِكِ كُلِّ كُفٍّ كَافٍ ، وَيُورِدُ أَوْلِيَاءَهُ
مِنْ مَوَارِدِ إِحْسَانِهِ مَوْرِدًا عَذْبًا صَافٍ - أَنْ يَفُوضَ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ - آدَامَ اللَّهِ
عُلُوِّ قَدْرِهِ ، وَأَيْدِهِ بِالْمَعُونَةِ فِي أَمْرِهِ - شَدُّ الدَّوَاوِينِ الْمَعْمُورَةِ بِالْمَلِكَةِ الطَّرَابُلسِيَّةِ ،
بِالْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ ، الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ .



وَهَذِهِ نَسْخَةٌ تَوْقِيعٍ بِالْإِسْتِمْرَارِ فِي شَدِّ الدَّوَاوِينِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَرَنَ الشَّدَّةَ بِالْفَرَجِ وَجَبَرَ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ ، وَأَمْتَحَنَ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعٍ
مِنْ الْحَنِّ لِيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ فِي الْأَصْطِطَارِ ، وَأَطْلَعَ فِي أَفْقِ الْعُلَا سَعْدَ السُّعُودِ سَاطِعًا

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ وَلَعْلَهُ : وَحْظَرُ وَأَبَاحُ ، انْخَ .

بالتور بعد ما غار ، وجمع لمن أنقطع به حبل الرجاء من الخلق فتوكل عليه بين نيل
المطلوب وتمحيص الأوزار .

نحمده وفي محامده تطيب الآثار ، ونشكره على ما أسبل من النعم الغزار ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله كشف الغم بعد ما غم القلوب وغطى على
الأبصار ، وفرج الهمم ، وقد كان أدلهم ، وأظلمت منه النواحي والأفطار ؛ ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله المصطفى المختار ، سيد ولد آدم في الدنيا وسيدهم في دار
القرار ، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار ، وصحابة الأخيار ، ما أظلم ليل وأضاء نهار .

وبعد ، فإن الله تعالى لطف بهذه الدولة المعظمة في المقام والسير ، فما مضى
لأحد معها يوم سرور إلا والذي من بعده خير ؛ ونصب خيام عدلها على الخلق
وشرع أطناها ، ورغب العباد في فضلها العميم وفتح لهم بابها ؛ وجعلها كاشفة
للكرób الموجبة للحرز والضيق ، راشفة من خزائن ملكه ومعادن نصره كأس
رحيق ؛ تصل بقوة وتقطع ، وتفرق بارادته وتجمع ؛ ثم جعل المال نظام ملكها
القويم ، وقوام سلكها النظيم ؛ به تضى أوامره ونواهيها ، وتجرى على السداد بما
يحبّه ويرضيه ؛ فتعين إعداد من يقيم بعزمه عمده ، ويقعد من أخذ منه بغير استحقاق
من أقعد الدين زنده ؛ وقدّر الله تعالى في هذا الوقت ما قضاه ، ونفذ حكمه فيمن
خرج عن طاعته وأمضاه ؛ فلم تبقى مملكة إلا ومسها وأهلها الإضرار ، ولا بقعة
إلا ولحق أهلها بأس أولئك الفجار ؛ فأدرك اللطف الإلهي ممالك الإسلام ، وحل
الركاب الشريف بأرض الشام ، فكان برّدا وسلام ، ونجا المخلص وهلك الناكث
النّاكل بقدوم سلطان الإسلام ؛ خلد الله ملكه [ليقذف] بالحق على الباطل ، وأيد
الله دولته الشريفة بعونه المتواصل .

وكان فلان له مباشراتٌ عديده ، وتأثيراتٌ حميده ، وآخر ما كان في وظيفة شد الدواوين بطرابلس : فباشرها مباشرةً جميلةً الأثر، مشكورة السير عند من ورد وصدر ، ودبر مهماتٍ يعجز عن حصرها أولو العقول والفكر ؛ وحصل للديوان المعمور أموالاً كالطوفان ولكن بلا غرق ، وأستعجب منها كيف حصرتها الأقلام أو وسعها الورق ! ؟ ؛ والذي كان بوظيفة الشد الآن زاهدٌ عنها ، ليس له رغبةٌ فيها ولا في شيء منها .

فتعين إعادة الجنب الفلاني إليها . ورسم بالأمر - لا زالت أيام دولته الشريفة تُصلح الشأن ، وتعيد الخير إلى ما كان - أن يستقر

فليعد إليها عود الحسام إلى غمده ، والماء إلى منهل وروده ؛ وليباشرها بمباشرة المعروفة ، وعزائمه المألوفة ، وهممه الموصوفة ، مُسترفعاً المتحصل ومصرفه ؛ وليتحقق أن الله تعالى سيصل رزقه فلا يوجس في نفسه خيفه ، وليجعل تقوى الله تعالى دأبه في كل قضية ثقيلة كانت أو خفيفة ، والله تعالى يمه بالطافه المطيفه ؛ بمته وكرمه .



وهذه نسخة توقيع بنقابة العساكر بطرابلس :

الحمد لله الأول بلا آخر ، الغني في ملكه عن الناصر ، المتزّه في سلطانهِ عن المؤازر ، المتوحد بعدم الأشباه والنظائر ، المبيد لكل مظاهر العناد مجاهر ، العليم بما تكنه الأفكار وتجنّه الضمائر ، الرقيب على كل ما تردد من الأحوال بين سوادى القلب والناظر .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة يرغم بها كل جاحد وكافر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث والشرك مدلهم الديار ، والرشد

قد خيم عليه الضلال فما له من قوة ولا ناصر، فأقام به الدين الحنيفي النير الزاهر، ورفع ذكره في سائر الأقطار والأمصار على رؤوس المنابر، صلى الله عليه وعلى آله أهل المكارم والمآثر، ما حمد السرى عند الصباح سائر، ونحمد شر الشر بكل مناضل ومناظر، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى من سيقت إليه وفود النعم، ومنح من الخيرات أجزل القسم؛ وعُدَّت الأمور بعزائمه، وأعتد على همتيه التي هي في المضاء كأسنته وصورمه؛ ورعيت عهود ولأيه التي لا تُشكر، ووصفت مساعيه التي استحق أن يُحمد بها ويُشكر - من إذا عول عليه في المهمات كفأها، وإذا استُطبت المعضلات به شفاها؛ وسارت أنباء مهابته غوراً ونجداً، وأتصف بحسن التدبير الذي عليه من الإقبال أكل إجداداً.

ولما كان فلان هو الذي تناقلت تباشير أخباره الرُجبان، وأثنى على شهامته السيف والسنان؛ وشرفت بحاسنه الأفلام، وأرتفع ذكره بالشجاعة على رؤوس الأعلام.

فلذلك رسم - لا زال للدين الحنيفي ناصر، وللأعداء قاصداً قاهراً، وللحق مؤيداً باطناً وظاهراً - أن يستقر الجناح العالى المشار إليه أمير نقباء العساكر المنصورة الطرابلسية، عوضاً ممن كان بها، على عادته وقاعدته : لأنه الخبر الذي عُقدت على خبرته الخناصر، وورث الشهامة كبراً عن كبر؛ وأضحى بتدبيره واضح الغرر، شاهداً له به العين والبصر؛ إن جال بين صفوف العساكر كان أسداً، وإن رتب جيوشها أحصاها حلية وعدداً.

فليباشر هذه الوظيفة محرراً أحوال العساكر المنصورة، مقررًا لهم في منازلهم على أكل عادة وأجل صوره؛ بمناخحة صمخ بمسكها، ومخالصة قام مقام واسطة جوهر

سَلِكُهَا ، وَمُلاَزِمَةِ خِدْمَةِ نَازَرَتْ بِهَا أَعْطَاهُ ، وَصَفَاءِ طَوِيَّةٍ شَرَفَتْ بِهَا أَوْصَافُهُ ،
وَمُحَبَّةٍ عَدَلٍ جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَإِخْلَاصٍ يَحْسُنُ بِالْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُتَحِفًا
بِظَلِّهِ : لِكَيْ يُتِمَّ اللَّهُ النِّعَمَ عَلَيْهِ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَلِيَقْصِدَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى
فِي هَذَا الْأَمْرِ ، لَا رِضًا زَيْدٍ وَلَا عَمْرُو ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ فِيمَا تَوَلَّاهُ ، وَالْاعْتِمَادُ
فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمُقْتَضَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع بنقابة الأشراف بطرابلس بـ «المجلس السامى» بالياء ، وكتب
فيه «القضائى» على خلاف الأصل ، وهى :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يَرْفَعُ لَذَوَى الْأَصَالَةِ الشَّرِيفَةِ قَدَرًا ، وَيُنْقَلِبُهُمْ إِلَى الرُّتَبِ
السَّنِيَّةِ وَيُعَلِّمُهُمْ ذِكْرًا ، وَيَشْمَلُهُمْ مِنْ إِحْسَانِهِ بِمَا يَسِرُّ لَهُمْ قَلْبًا وَيُشْرَحُ صَدْرًا ،
وَيُبَلِّغُهُمْ مِنَ الْمَارَبِ أَوْفَاهَا ، وَمِنْ مَلَابِسِ الْقَبُولِ أَجْمَلَهَا وَأَسْنَاهَا - أَنْ يَسْتَقَرَّ فُلَانٌ
- أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - فِي نِقَابَةِ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ بِالْمَمْلَكَةِ الطَّرَابُلُسِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ
عَادَتِهِ فِي ذَلِكَ : اسْتِقْرَارًا جَارِيًا فِيهِ عَلَى أَجْمَلِ الْعَادَاتِ ، وَاعْتِمَادًا عَلَى مَا عَاهَدَ مِنْ
سَلَفِهِ الشَّرِيفِ الذَّاتِ ؛ وَرِعَايَةً لَهُ فِي تَجْدِيدِ الْمَسَارِ ، وَتَرْجِيحًا لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ
حُسْنِ الْكِفَايَةِ فِي كُلِّ إِيرَادٍ وَإِصْدَارٍ ؛ وَرِفْعَةً لِيَدِهِ الْبَاسِطَةِ عَلَى أَبْنَاءِ جَنْسِهِ ، وَتَقْوِيَةً
يَجِدُ أَثَرَهَا فِي مَعْنَاهُ وَحِسِّهِ ؛ رَسْمًا يَسْتَوْجِبُ بِهِ النِّعَمَ الْجَزِيلَةَ ، وَوَلَايَةً تُؤَلِّيهُ
مِنْ الْكَرَمِ سُؤْلَهُ ، وَعِنَايَةً تُضَيِّحُ بِهَا رُبُوعُ أُنْسِهِ مَاهُولَهُ ؛ لِأَنَّهُ أَوْلَى أَنْ يَقَرَّ فِي هَذِهِ
الْوِظِيفَةِ وَيُزَادَ ، وَأَحَقُّ أَنْ يُرْعَى لِمَا سَبَقَ لَهُ مِنَ السَّدَادِ ، وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يُضَاعَ
حَقُّهُ حَيْثُ لَهُ إِلَى رُكْنِ الشَّرَفِ الْمُنِيفِ اسْتِنَادٌ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الْوِظِيفَةَ الْمُبَارَكَةَ مَبْسُوطًا أَمَلُهُ فِي الْمَزِيدِ ، مُنَوِّطًا رَجَائُهُ فِي نِعْمَانَا
بِاسْتِنَافٍ وَتَجْدِيدٍ ، مُحَوِّطًا مَا بِيَدِهِ مِنْ كَرَمِنَا الْعَدِيدِ ؛ وَهُوَ غَنَى أَنْ تُنْتَنَى لَهُ الْوَصَايَا

ونعید، ملئ بحسن السجايا التي جِئْتَ على التحقيق والتوفيق والتسديد؛ والله تعالى
يُطَوِّقُ بِمَنِّ جُودِنَا مِنْهُ الْحَيْدَ ، وَيُعِدُّ لَهُ سَحَابَ رِفْدِنَا التي تُجْرِيهِ عَلَى مَا أَلْفَ مِنْ
فَضْلِهَا الْعَدِيدِ ؛ وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ - أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى - أَعْلَاهُ ، مُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَشَدِّ الشَّوَانِي بِطَرَابِلَسَ ، كُتِبَ بِهِ لِعَلَاءِ الدِّينِ «أَيْدِ غَمَش» وَهِيَ :
رُسْمٌ ... - لَازَلْتُ أَيَّامُهُ ، قَائِمَةً بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَعْلَامُهُ ، حَائِمَةً
عَلَى أَلْتِقَاطِ مُهْجِ الْعِدَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا يُقَرِّبُ لَهُمُ الْأَجَلَ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فَلَانُ فِي شَدِّ
الشَّوَانِي الْمَعْمُورَةِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ ، بِهَيْمَتِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَعَزَمَتِهِ الَّتِي هِيَ بِلُغِ
الْمَقَاصِدِ مِلَّةً ؛ وَشَهَامَتِهِ الَّتِي تُرْهِبُ الْعِدَا ، وَشَجَاعَتِهِ الَّتِي تُلِيسُهُمْ أُرْدِيَةَ الرَّدَى ؛
وَبَسَائِلِهِ الَّتِي تُبْسِلُهُمْ فِي الْبَحْرِ فَتَصِيرُهُمْ كَالْأَسْمَاكِ لَا يُسَامُ لَهُمْ صَدَى .

فَلْيَجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ جِدَّ الْأَجْتِهَادِ ، وَلْيَعِمِدْ فِيهِ السَّدَادُ وَالسَّدَادُ ؛ وَلْيُوقِظْ أَجْفَانَ
سَيُوفِهِ مِنَ الْغَمَضِ ، وَلْيُرْهِبْ الْعِدَا بِشِدَّةِ وَطْأَتِهِ الَّتِي لَهَا الثَّبَاتُ فِي الْأَرْضِ ؛
وَلْيَلْزِمِ مُوَاطَبَةَ الشَّوَانِي لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَلْيَكُنْ هُوَ وَمَنْ حَوْلَهُ لِنَ بَهَا أَنْصَاراً ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يُجْزِلُ لَهُ مَبَارَا ، وَيَرْفَعُ لَهُ مَقْدَارَا ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَشَدِّ دَارِ الضَّرْبِ ، كُتِبَ بِهِ لـ «لِعَلَاءِ الدِّينِ الدَّوَامَر» ، وَهِيَ :
رُسْمٌ ... - لَازَلْ إِحْسَانُهُ يَجُودُ عَمَامَا ، وَفَضْلُهُ الشَّامِلُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ إِمَامَا ،
وَسَحَابُ بَرِّكَرَمِهِ هَامِيَةٌ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، هَامِلَةٌ عَلَى أَصْفِيَائِهِ ، فَتَرَاهُمْ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجْدًا
وَيَنْتَصِبُونَ قِيَامَا - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي شَدِّ دَارِ الضَّرْبِ : إِعَانَةً لَهُ عَلَى الْخِدْمَةِ
الشَّرِيفَةِ ، وَإِرْفَادًا لَهُ بِمَعْلُومِهَا إِذْ هِيَ لَيْسَتْ لَهُ بِوُظُيفَةٍ ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ قَدْرًا ،

وَأَحَقُّ بِكُلِّ مَنْزِلَةٍ عَلَيْهِ وَأُخْرَى ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْجَهَةُ هِيَ قَانُونُ الْمُعَامَلَةِ ، وَسَكَّتْهَا
بَشِيرُ الْمُلِكِ مُتَّصِلَةً وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَاصِلَةً ، وَمِنْهَا النُّقُوشُ الَّتِي هِيَ رُسْتَاقُ
الْأَرْزَاقِ ، وَصَدْرُ كُلِّ إِطْلَاقٍ وَقَدَاقُ ، حَكِيمٌ مَا أُرْسِلَ فِي حَاجَةٍ إِلَّا وَأُذِنَ لَهَا
بِالنَّجَاحِ ، وَلَا آسْتَوْنُ عَلَيْهِ أَمْرٌ بِإِذْنِ الْإِمَامِ إِلَّا وَحَقٌّ لَهُ [الْإِتِّصَافُ] بِالصَّلَاحِ
وَالْفَلَاحِ ، هَذَا وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَذْمُومٌ ، وَطَالِبُهُ مُحْرَمٌ : لِأَنَّهُ مَقْسُومٌ ، وَالْأَجَلُ
مَحْتَمٌ ، وَلَكِنْ تَطْهِيرُهُ مِنَ الدَّنَسِ وَاجِبٌ ، وَالْحَسْبَةُ فِي عِيَارِهِ حَتَّى يَغْدُو وَبُودُقُ
صِفَاتِهِ مِنَ الْغَيْشِ نَاضِبٌ .

فَلْيَعْتَمِدِ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي شَدِّ هَذِهِ الْجَهَةِ حُسْنَ التَّقْوَى وَيُلَاحِظْ بَعْزُهُ أُمُورَهَا لِتَكُونَ
عَلَى السَّدَادِ ، وَيَعْتَمِدْ عَلَى السَّيِّدِ النَّاطِرِ فَإِنَّهُ نِعْمَ الْعِمَادُ ، وَيُفَوِّضْ إِلَيْهِ كَشْفَ الرُّبَايِصِ
وَحَكَّ الْعِيَارِ فَهُوَ بِهِ أَدْرَى وَأُخْرَى وَأَدْرَبُ بِأَدْحَاضِ غَيْشِ الْفَسَادِ ، وَلِيَتَنَاوَلَ مَعْلُومَهُ
الْمُقَرَّرَ لَهُ عِنْدَ الْوُجُوبِ وَالْإِسْتِحْقَاقِ ، هَنِيئًا مَيْسَرًا خَالِصًا مِنَ التَّنَازُعِ وَالشَّقَاقِ ،
وَمِثْلُهُ فَلَا يُدَلُّ عَلَى [صَوَابِ] : إِذْ تَقَوَّى اللَّهُ تَعَالَى كَلِمَةُ الْقَضَلِ وَفَضْلُ الْخُطَابِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهَا لَنَا وَلَهُ زَادًا وَحِرْزًا ، وَذُنْخَرًا يَوْمَ الْمَعَادِ وَرِكْرًا .^(١)



وهذه نسخة توقيع بشد البحر بمينا طرأ بلس ، وهى :
رُسم بالأمر - لا زال سيفه قاطعاً من الأعداء نخراً ، وأمره نافذاً براً وبحراً ، وفعله
صالحاً دنياً وأخرى - أن يستقرّ الجنب المشار إليه فى شد ميناء البحر بطرأ بلس .
فليباشر هذه الوظيفة شارحاً لها صدرها ، فاتحاً لها بحسن مباشرته الجميلة بصراً
وفكراً ، باعثاً لها فى الآفاق بمباشرته ذكراً جميلاً ، باحثاً عما يتعلق بمتحصل المينا

(١) يريد ركزة واحدة الركاز المال المدفون . وذكر مراعاة للسجع .

المعمورة بكرة وأصيلا؛ مُسَوِّيًا بين الناس فيما رَزَقَ اللهُ وفتح، وبعث من فضله ومنح، بحيث لا يقدم عزيزًا ولا يُؤثر ذليلًا، ولا يُراعى في ذلك صديقًا ولا خليلًا.

ولقدّم خوف الله تعالى على خوف خلقه، وليسويين الضعيف والقوى فيما بسط الله من رزقه؛ وأكد ما نوصيه به تقوى الله تعالى فيما هو بصدده، فليجعلها في أموره الباطنية والظاهرة من عده؛ والله تعالى يقدمه في مباشرته لاقتناء محاسن المعروف وزبده، ويرزقه من الأجر على ما يعمله من الخير مع تجار هذا البحر بما هو أكثر من زبده.



توقيع كريم بناية اللادقية، من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارباري، كتب به لـ «شمس الدين» ابن القاضي، بـ «بالجناب العالي»، وهو:

الحمد لله الذي زاد «شمس» الأولياء إشراقًا، ومنحه في هذه الدولة الشريفة إرفادًا وإرفاقًا، وصان الثغور المحروسة بعزائته التي سرت قلوبًا وأقرت أحداقًا، وجددت لأولائها من مواهبها عطاءً وفاقًا.

نحمده على حكمه وفعله، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تمنح قائلها مزيد فضله؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذي أيده الله بملائكته المقربين، وشهد أزره من أصحابه بالآباء والبين؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الدين، صلاة تمنح قائلها غفر الحنان (والعاقبة للمتقين) وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن من شيم هذه الدولة إذا بدأت تعود، وإذا نظرت تجود، وإذا قدمت ولياً لحظته بأعين السعود.

وكان الجنبُ العالى - أدام الله نعمته - عَيْنَ القِلَادَةِ ، وَبَيْتَ السِّيَادَةِ ، وَمَعْدِنَ السَّعَادَةِ ؛ وَأَهْلًا أَنْ يُدَبَّرَ الْأُمُورُ ، وَيَسَدَّ النُّجُورُ ؛ وَنِيَابَةُ اللَّاذِقِيَّةِ مَجَاوِرَةُ الْبُحُورِ ، وَجَزِيرَةُ الْعَدُوِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا نَهَارٌ فَهِيَ فِي أَمْرِهَا لَهُ قَاعِدَةٌ فِي النُّجُورِ ؛ وَقَدْ رَأَيْنَاهُ أَهْلًا أَنْ يَصُونَ نَحْرَهَا ، وَيَتَقَلَّدَ أَمْرَهَا ؛ وَيَحْفَظَ بَرَّهَا ، وَيُدْفَعَ شَرَّهَا .

فلذلك رُسِمَ بالأمر - أعلى الله تعالى شرفه - أَنْ تُفَوَّضَ إِلَيْهِ نِيَابَةُ اللَّاذِقِيَّةِ المحروسة ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمِهِ .

فَلْيَسِرْ إِلَيْهَا سَيْرَ الشَّمْسِ فِي أَبْرَاجِ شَرَفِهَا ، وَلْيُقْبَلْ عَلَيْهَا إِقْبَالَ الدَّرَّةِ عَلَى التَّرَائِبِ بعد مُفَارَقَةِ صَدَفِهَا ؛ وَأَوَّلُ مَا نَأْمُرُهُ [بِهِ] : إِرْهَابُ الْعَدُوِّ بِالْعُدَّةِ وَالْعَدِيدِ ، وَإِظْهَارُ الْمَهَابَةِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَتَفَقُّدُ الْأَيْرَاقِ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اتِّكَالٍ عَلَى سِوَاهُ كَمَا يَفْعَلُ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ ، وَلْيَخْلَعْ عَنْهُ مَلَابِيسُ الْوَشْيِ وَلْيَلْبَسِ الْحَدِيدَ ، وَلْيَمْجُرِ الْمَضَاجِعَ وَيَتَّخِذْ ظَهْرَ جَوَادِهِ مَسْتَقَرَّهُ الْعَتِيدَ ، حَتَّى يَنْتَشِرَ لَهُ صِمْتُ بَيْنِ أَهْلِ التَّثْلِيثِ كَمَا أَنْتَشَرَ صِمْتُهُ بَيْنِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ .

وَأَبْسُطْ بِسَاطَ الْعَدْلِ لِيَطَّاهُ الْمَوَالِي وَالْعَبِيدُ ، وَأَحْكُمْ بِالْحَقِّ فَالْحَقُّ مُفِيدٌ وَالْبَاطِلُ مُبِيدٌ ، وَمَتَى تَسَامَعَ التَّجَارُ بِعَدْلِكَ جَاءُوا بِالْأَصْنَافِ وَالْمَتَجَرِّجِ الْحَدِيدِ ، وَأَرْكَنْ إِلَى حُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ فَإِنَّهُ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَأَتَقَى اللَّهَ تَجِدَهُ أَمَامَكَ فِيمَا تَرُومُ وَتُرِيدُ ، وَتَمَسَّكَ بِالسَّيْرِ الْحَسَنَةِ يَزِدُّكَ اللَّهُ رِفْعَةً وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالْمَزِيدِ ، وَعَقِبَهَا نَسْتَنْجِزُ لَكَ تَشْرِيقًا شَرِيفًا مَقْرُونًا بِتَقْلِيدٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا التَّقْلِيدِ ؛ وَالْخَطُّ الْكَرِيمُ أَعْلَاهُ حُجَّةٌ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



تَوَقَّعْ بِنِيَابَةَ قَلْعَةِ حَضْنِ الْأَكْرَادِ ، كُتِبَ بِهِ لَشَهَابِ الدِّينِ «أَحْمَدُ النَّاصِرِيُّ» ،

وهو :

الحمد لله الذي أطلع في سماء الدين شهاباً، وفتح لمن خافه وأتقاه إلى الخيرات أبواباً، وحباه من إفضاله وألبسه من حلل إنعامه ونعمائه أنواباً .

نحمده على نعمه التي أبجل لنا بمزيد حمدها أنعماً وثواباً، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذه من النار حجاباً، ونعتد بها في الآخرة مقاماً حداثاً وأعقاباً، وكواعب أتراباً؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي شرفه على الأنبياء منصباً ونصبا، وسبى بطاعته وطليعته قلوباً وأحزاباً، وقربه إلى أن كان قاب قوسين وأسمعه من لذيذ كلامه خطاباً، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه : أكرم به وبهم ألا وأصحاباً!؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن أولى من أتدب، لحفظ المعامل الإسلامية وأنخب، وأحرى من لخطته عين عنايتنا فكان إليها من العين أقرب، وأحق من اعتمد على بسالته وإيالته بما سبر من الأنام والأيام وجرب - من عرف بشجاعة أين منها عمرو بن معدى، وأمانة كفت حين كفت كف التعدي؛ وعفة جعلها في أحواله كلها نصب العين، وسياسة ما زال يصلح بها بين ذوي المشاققة ذات البين؛ وكان فلاں هو الموصول المقدم، الموصوف بهذه الصفات التي سر الساحل بها فبسم .

فلذلك رسم بالأمر - لا زال يطالع في آفاق الحصون المصونة شهاباً، ويرفع الأولياء بإحسانه الذي يؤكد لهم في جوده أسسها - أن يستقر نائبا بقلعة حصن الأكراد المحروس وأعمالها، على عادة من تقدمه ومستقر قاعدته .

فليأشروا ما أولناه وأوليناه : مباشرة تسفير عن حسن فطنته وذكائه، ونضى الآفاق بنور شهابها وسنانه، وتظهر معروفها المعروف بعدم غيبته وخفائه؛ معتمداً

على الله تعالى في إبدائه وإنهائه ، شارحاً لكل قلب أَلَانَهُ إِحْسَانُهُ بعد غِلْظَتِهِ
وَجَفَائِهِ ، مانحاً من بحر جوده وعدله بالدر لا يحفائه ، مكرماً لمن بهذا المعقل : من
أمرائه وأجناده وأغنيائه وفقرائه ، مُقيماً لمنار الشرع الشريف الذي لا تستقيم
الأُمُور إلَّا بمتابعته وإبدائه ؛ وليُظهر من شجاعته وبسالته ما لا فائدة في خفائه ،
وليُشهر سيفه ، في وجه من أظهر حيفه ، وعدم خوفه ، من سطوة ربه وكرمائه .

وأعظم ما نُوصيه به التقوى ، فإنه بملازمتها يقوى ، على دفع الشر وفعل الخير
وإسوائه ، والوصايا كثيرة وهو المحترَّب بالعمل بها لمن يرغب في آسئلائه ، والله
تعالى يحرق بشهاب عدله كل مُتمرّد



وأعلم أنه ربما كتب توقيع نائب حصن الأكراد مفتتحاً بـ «أما بعد حمد الله» .
وهذه نسخة توقيع بناية حصن الأكراد ، كتب به باسم «شهاب الدين الجاكي»
بـ «الجناب العالی» ، وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل شهاب الدين يتنقل في مطالع سعده ، وجدّد
أثواب النعماء لمن قدّمت هجرته وظهر خيره فأنجزله الإقبال صادق وعده ؛ وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُبلغ قائلها إنالة قصده ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله الذي أيده الله بنصر من عنده ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا
من أنصاره وجنّده ، صلاة دائماً يبلغ المؤمن بها غاية رشد ؛ وسلم تسليماً كثيراً - فإن
أولى من شمله إحسان هذه الدولة الشريفة وتولاه مراده ، وأجزل عليه النعم فكان
أحق بها لحسن طويته فأجراه الله على أحسن عاده ، وبلغه غاية القصد ومعين
السعادة - من سلك مسالك الأمانة الثقات ، واشتهرت عنه العفة وحسن الصفات ،
فتعين تقديمه وتقريبه إلى أجل ولايات الفتوحات .

ولما كان فلان - أدام الله عزه ، وأنجح قصده - هو المنعوت بصفات السداد ، المشهور بالهضة والشجاعة في هذه البلاد ، الذي حوى المكارم والإفضال ، ووافق خبره خبره في سائر الأحوال .

فلذلك رُسم بالأمر - لا زال شهاب فضله ساطعاً ، ونور إحسانه لامعاً - أن يستقر المجلس العالی الشهابي المشار إليه في ولاية الأعمال الحِصْنِيَّة والمناصف عوضاً عن بها ، على عادته وقاعدته : لأننا وجدناه شمس أعيان الأمائل ، وألفيائه قليل الظير والمضاهي والمُماثل ؛ وعليه عُقدت الحناصر ، وأتفقت الآراء الناقبة في الباطن والظاهر ؛ ولما جمع من كرم الشيم وجميل الخلال ، وحاز من النباهة الرفعة الذرا المديدة الظلال .

فليتوجه إلى محل ولايته ، وليظهر ما أكتنه من العدل والإنصاف في ضمائره بحسن سياسته ؛ وليُنصف المظلوم ممن جار عليه واعتدى ، ويتبع في ذلك ما يوضح له من طريق منار الهدى ؛ وليبسط المعدلة ويمدّ باعه ، وليبدد الظلم ويقصم ذراعه ؛ وليصرف همته في عمارة البلاد ، وتأمين العباد ، وسُبل الرشاد ؛ وليجتهد في سدّ الخلال ، وإصلاح ما فسد بغيره من الأحوال ؛ وليجعل تقوى الله محجته ، وأتباع العدل محجته ، وسُلوك الحق عُدته ؛ فقد جاءت التقوى في التنزيل مؤكّده ، ووردت في كثير من السور مُردّده ؛ والله تعالى يُعينه على ما ولّاه ، ويحرسه ويتولّاه ، بعد الخط الكريم أعلاه .



وهذه نسخة توقيع بناية قلعة المرقب والولاية بها ، كتب به لصالح الدين « خليل » ، بـ « بالجناب العالی » ، وهي :

الحمد لله الذى جعل هذه الدولة الشريفة مقرونة بالتأييد والنجاح ، ووفق أوليائها
إلى سلوك سبيل السعادة وشيدها بالصلاح ، وخولهم فى أيامها المراتب العلية ليتهلوا
بأدعيتهم وبدوامها فى المساء والصباح .

نحمده على نعمه التى لا يرح محضها فى ازدياد وأرتياح ، ونشكره على آلائه شكراً
نستحق به المزيد كما أوضح فى القرآن أكل إيصاح ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة معلنة بالفلاح ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى أنزل عليه فى محكم
كتابه العزيز : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾
صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الغر الكرام الأشباح ، ماترهم طائر على غصن وحيل
الداعي الى الفلاح ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من عُدت به نيابة أجل المعاقيل والثغور وفوضت إليه ، وعول
فى حفظها ومباشرتها الحسنة الجميلة عليه - من عُدت على حزمه الخناصر ، وورث
الشجاعة والشهامة كبراً عن كابر ، وهو الذى نما قرعاً وزكاً [أصلاً] ، وفاق فى المكارم
على نظرائه قولاً وفعلًا ؛ فأضحى وإفر الثناء واضح الغرر ، شاهدًا له به العين والبصر .
ولما كان فلان هو المنعوت بهذه الصفات ، والموصوف فى مواقف الحروب
بما لديه من الثبات والوثبات ؛ المشكورة خدمته ، شامًا ومضراً ، المشهورة بين الهمم
همته ، برًا وبحرًا .

فلذلك رسم ... - لازالت مراسيمه الشريفة مبثوثة بالعدل والإحسان ، ومعدته
تستدعى بدوام دولته الشريفة لسان كل إنسان - أن تفوض إليه نيابة قلعة
المرقب المحروس ، والولاية بالأعمال الشرقية ، وما هو منسوب إليها ، على العادة
فى ذلك ومستقر القاعدة : إذ هو أحق بها وأهلها ، وأكمل [من] يجمع شتات شملها .

فليُباشِر ما نُدِب إليه من هذه الجهات مُباشرةً تَقْصُر الأفكارُ عن تَوْهَمِها ،
والأبصارُ عن تَوْسِمِها ؛ والخَوَاطِرُ عن تَحْيَلِ مَبْنِها ، و [الأذهانُ] عن تَمَثُّلِ صُورِها
ومعناها ؛ وليكن لمصالحها مُتَمَسِّحاً ، ولأحوالِ رجالها مُتَصَفِّحاً ، ولأقدارِ جهاتها مُرَبِّحاً ،
وللخَوَاطِرِ بِإِداءِ أحوالها على السَّدادِ مُرَبِّحاً ؛ ولوظائفِها مُقِيماً ، وللنظرِ في الكبير والصغير
من مصالحها مُدِيماً ؛ ولحُرْمَتِها مُضَاعِفاً ، وعلى كُلِّ ما يَتَبَيَّنُ الاحتفالُ به من مُهِمَّاتِها
واقفاً ؛ ويُعَدُّ للعدوِّ المَخْذُولِ عند تَحَرُّكِ العِزِّ الشَّدِيدِ ، ويَهْجُرُ لَيْسَ الوَشْيِ وَيَتَأَلَّفُ
لَيْسَ الحَدِيدِ ، وَيَتَّخِذُ ظَهْرَ جَوَادِهِ مُسْتَقَرَّهُ العَتِيدِ ؛ وَيَسْمُرُ لِلجِهَادِ ذَيْلاً ، وَمَعَاذَ اللَّهِ
أَنْ يَمِيلَ عَنْهُ مَيْلاً ؛ وَيَسْطِرُّ العَدْلَ للرَّعِيَّةِ ، وَيُعَامِلُهُمُ المَعَامِلَةَ المَرْضِيَّةَ ، وَيُحْسِنُ
إِلَى الأُمَرَاءِ البَحْرِيَّةِ ، وَيُلَاحِظُ مصالحَهُمْ في كُلِّ قَضِيَّةٍ ؛ وَيَتَفَقَّدُ الرِّجَالَ ، وَأَرْبابَ
الأدراكِ والشَّوَانِي وَيُحَذِّرُهُمُ مِنَ الإِهْمَالِ ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْيَقَظَةِ والاحترازِ في اللَّيْلِ
والنَّهارِ وسائرِ الأحوالِ ؛ وَلِيَعْمَلَ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ من آلاتِ الجِهَادِ وَلِيَكُنْ عَلَى حَذَرٍ
مما يَتَجَدَّدُ كُلُّ يَوْمٍ ، وَلِيُوقِعَ الرَّهْبَةَ في قُلُوبِ الأَعْدَاءِ بِخَيْلِهِ في اليَقَظَةِ وَخَيَالِهِ في النَّوْمِ ؛
وَيَتَفَقَّدُ المَوَانِي في سائرِ الأوقاتِ في اللَّيْلِ والنَّهارِ ، وَلِيُحَذِّرَ أُمَرَاءَ الأَيْرَاقِ مِنَ الغَفْلَةِ
فَإِنَّ الغَافِلَ لَا يَزَالُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ .

وَلْيَتَّقِ اللَّهَ في أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أَدْرَبُ بِهَا وَأَدْرَى ، وَأَبْوَابُ
الخيراتِ واسِعَةٌ وهو إِلَيْها أَسْرَعُ وَأَجْرَى ؛ وَلِيَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى ما وَّلَّاهُ ، والاعتمادَ
على الخطِ الكَرِيمِ أَعْلَاهُ .



وهذه نسخةٌ تَوْفِيعُ بِنِيا بةِ حِصْنِ عَكَارَ ، كُتِبَ بِهِ لـ «ناصر الدين الكردي» ،
بـ «بالجناب العالي» ، وهي :

الحمد لله الذى نصر هذا الدين الحنيفي بسيد البشر، وخص هذه الدولة الشريفة بالتأييد والظفر، ووفى الأولياء بجودها الذى لم يزل من ذمة الوفاء ينتظر .

نحمده على منتهى طامنا بدا فى جبهات الأولياء بشره وظهره، ونشكره على جوده الذى أغنى عن التحجيل والغرر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُحْيى قائلها يوم الفزع الأكبر، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أقام الله بسيفه الإيمان فاشتهر، وكف به يد الطغيان وزجر، صلى الله عليه وعلى آله ما اتصلت عين بنظر وأذن بخبر، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى^(١) من رُعيته له خدام عديده، وعُرفت له فى أجل الثغور مباشرات سعيده، واشتهرت شهامته وكفايته فى الآفاق، وظهرت أمانته ظهور الشمس فى الإشراق، وتقدم بذلك على نظرائه وفاق .

ولما كان الجناز العالى هو المنعوت بهذه الصفات الجميلة، والمحتوى على هذه المزايا الجلية، الذى شاعت شجاعته مع طهارة يده، ولا عجب فإن هذا الشبل من ذاك الأسد؛ وسارت الرُكبان فى الممالك بنهضتهما فى المباشرات، وسد الخلل فى المهمات المضلات .

فلذلك رسم ... - لازالت أيامه ماثوثة بالعوارف والإحسان، ومعدته تستدعى بدوام دولته الشريفة لسان كل إنسان - أن تفوض إليه نيابة قلعة حصن عكار المحروس، على عادة من تقدمه وقاعدته، بالمرتب الشاهد به الديوان المعمور .

فليقدم خيرة الله تعالى ويتوجه إليها، ويصرف وجه الإقبال عليها، وينظر فى عمارتها ومصالحها، ويستدرك ما استهدم من بيوت حواصليها، ليصبح وجه هذا الثغر

(١) لعل الصواب «فإن أولى الأولياء بالمناصب من رعيته» الخ ليستقيم الكلام .

بِحُلُولِهِ بِهِ بِاسْمَا، وَيُنْشَرُّ لَهُ مِنْ حُسْنِ تَدْيِيرِهِ وَجَمِيلِ تَأْثِيرِهِ عَالَمًا؛ وَلِيُحَسِّنَ إِلَى الْأَمْرَاءِ
الْبَحْرِيَّةِ، وَيُزِيلَ لَهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى الْعَادَاتِ الْمَرْضِيَّةِ؛ وَلِيَعْدِلَ فِي الرَّعِيَّةِ، وَيُنْصِفَ
الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ؛ وَلِيُزِمَ أَرْبَابَ الْوُظَائِفِ مِنَ الْمُقَدِّمِينَ وَالرَّجَالَةَ
بِالْخِدْمَةِ بِالنُّوبَةِ عَلَى الْعَادَةِ، وَيُوصِلَ إِلَيْهِمْ مَعْلُومَهُمْ مِنْ جِهَاتِهِمُ الْمُعْتَادَةِ؛ وَيَتَّبِعَ
الْحَقَّ الْمُخْتَصَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ، لَا يَقْتَدِي بِرَأْيِ زَيْدٍ وَلَا عَمْرٍو؛ وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ مُطَالِبٌ بِالْعَدْلِ
فِي وَظِيفَتِهِ، فَإِنَّ كُلَّ رَايٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمُعْظَمُهَا تَقْوَى اللَّهِ
فِي سَائِرِ الْأُمُورِ: فَلْيَتَمَسَّكَ بِهَا يَقْوَى، فَإِنَّهَا السَّبَبُ الْأَقْوَى، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَاهُ فِي السِّرِّ
وَالنَّجْوَى؛ بَعْدَ الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ.



وهذه نسخة توقيع بناية بلاطئس بـ«الجناب العالي»، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَأَجَزَلَ كَرَمَهُ عَلَى أَصْفِيَائِهِ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُخَيِّ قَائِلُهَا مِنْ وَبِيلِ الْعَذَابِ، وَتُجَدِّدُ لَهُ
أَسْبَابَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْحِسَابِ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُبْعُوثُ
بِالنُّورِ الْمُبِينِ، الْمَخْصُوصُ بِالْدِّينِ الْمُتَيْنِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَهْلِهِ
وَأَصْفِيَائِهِ وَأَتْرَابِهِ.

وبعد، فَإِنَّ الْقِلَاعَ الْمَنْصُورَةَ مِمَّا يَتَعَيَّنُ الْإِحْتِفَالُ بِأَمْرِهَا، وَالْإِهْتِمَامُ بِحِفْظِ
رِجَالِهَا فِي سِرِّهَا وَجَهْرِهَا؛ وَمَنْ أَجَلَّ قِلَاعِ السَّاحِلِ الْمَحْرُوسِ، وَأَجْمَلَ مَسَاكِنِ الْبَحْرِ
الْمَأْنُوسِ، قَلْعَةُ بِلَاطْنُسَ.

فَلَذَلِكَ رُسْمٌ... - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ تَشْمَلُ كُلَّ أَوْحَدٍ، وَتَجْبُرُ كُلَّ وَلِيٍّ أَعْجَدَ - أَنْ
يَسْتَقَرَّ... .. إِذْ هُوَ الْخَيْرُ، الَّذِي لَيْسَ لِمَعْرِفَتِهِ نَظِيرٌ، وَالضَّابِطُ الَّذِي يُحَاقِقُ عَلَى

الجليل والحقير، والتَّقيير والقَطْمِير، والشُّجَاعُ الذى هو فى يوم النِّضالِ على أخذ العدوِّ
لَقْدِير، والضَّرغامُ الذى أعطاه الله القُوَّةَ والمَعْرِفَةَ التَّامَّةَ فهو بهما جَدِير .
فَلَيْسَ إلى النَّعْرِ المحروس، وَيَعْتَمِدُ فى أُمُورِهِ ما هو فيه من الخِبرَةِ مَغْرُوس .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَتَقْدِمَةِ العَسْكَرِ بِجَبَلَةِ ، كُتِبَ بِهِ لـ «صَلاحِ الدِّينِ الحافِظِ» ،
بـ «الجَنابِ العالى» ، وهى :

الحمد لله الذى جعل هذه الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ تَتَّقِلُ كُلَّ وَلِيٍّ إلى درجَاتِ سَعْدِهِ ،
وَتُؤَكِّدُ أسبابَ الارتفاعِ لمن حُدَّتْ مَآثِرُهُ وَحَسُنَتْ سِيرَتُهُ فى اليومِ والذى من بَعْدِهِ ،
وَتُجَدِّدُ أَثْوابَ النِّعَمِ لمن ظَهَرَ خَيْرُهُ وَخَبِرَتْهُ فَانْجَزَ لَهُ الإِقْبَالَ صَادِقَ وَعْدِهِ .

نَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ التى أَجْزأتْ لِمُسْتَحِقِّهَا مَواهِبَ رِفْدِهِ ، ونَشْكُرُهُ على مَنَنِه التى
خَصَّتْ كُلَّ كافٍ بِتَأْثِيلِ مَجْدِهِ ، ونَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهادَةً
يُلْغِ بِها قائلُها غَايَةَ قَصْدِهِ ، ونَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذى أَيْدَهُ اللهُ تعالى
بِنَصْرِ مَنْ عِنْدَهُ ، وآمَنَهُ على وَحْيِ الرِّسالةِ فنُصِّحُ الأُمَّةَ غَايَةَ جُهِدِهِ ، صَلَّى اللهُ عليه
وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ الذين كانوا من أَنْصارِهِ وَجُنْدِهِ ، صَلاةً دائِمَةً باقِيَةً يُلْغِ بِها الْمُؤْمِنُ
غَايَةَ رُشْدِهِ ، وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ الجَنابَ العالىَ لَمَّا تَقَدَّمتْ لَهُ مِباشراتُ ، فى أَجَلِ الوِلاياتِ وأَحْسَنِ
النِّياياتِ ، وهو يَسِيرُ فى كُلِّ مَنها أَجْمَلَ سَيْرٍ ، وَيُحَسِّنُ إلى رَعِيَّتِها فلا غَرَوَ أَنَّ يَذْكُرُهُ
بِكُلِّ خَيْرٍ ، كَمَ قَامَ بِمُهَمَّاتٍ من غَيْرِ عَسْفٍ أَهْلِ البِلاَدِ ، وَكَمَ أَعانَ الدِّيوانَ المَعْمُورَ
من غَيْرِ ضَرَرٍ لِلْعِبادِ ، وَكَمَ مِيزَ أَمْوالًا فَكانَتْ أَيَّامُ مِباشراتِهِ أعيادَ ، وَكَمَ لَهُ من خِدمِ
سارِها الرِّكَّابُ وَبَلَغَ بِها المُرادُ ، وَكَمَ أُنْعَى عليه لِسانُ القَلَمِ حَتَّى نَفِدَ المِدادُ ،

وَكَمْ وَصِفَتْ هِمَمُهُ وَحُسْنُ تَأْتِيهِ فِي كُلِّ تَوْقِيعٍ وَتَقْلِيدٍ عَلَى أَنَّ الْكَاتِبَ مَا زَاغَ عَنِ الْحَقِّ وَلَا مَالَ عَنِ الصَّدَقِ فِيهَا وَلَا حَادَ .

فاقتضى محمود رأيًا الذي ما برح بعون الله يُصِيبُ ، وَجَمِيلُ فِكْرِنَا الَّذِي مَادَعُونَاهُ لَأَمْرِ إِلَّا وَبِالْإِصَابَةِ بِحَمْدِ اللَّهِ يُجِيبُ ، أَنْ نُعَيِّنَ لَهُ وَظِيفَةً تُرِيحُهُ فِيهَا مِنَ التَّعَبِ ، وَنُوفِرَهُ مِنْ تَبَعَاتِ الطَّلَبِ ؛ وَكَانَ مَنْ فِي تَقْدِمَةِ الْعَسْكَرِ بِجَبَلَةٍ يَعْتَرِيهِ أَلَمْ يَعُوفُهُ عَنِ الرُّكُوبِ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ وَالنُّزُولِ ، سِيَّيَا فِي هَذَا الْوَقْتُ الَّذِي فِيهِ يَتَحَرَّكُ الْعَدُوُّ الْمَخْذُولُ .

فلذلك رسم ... - لا زالت أيامه الشريفة تُيسِّرُ أسبابَ النِّجَاحِ ، وَعَوَارِفُهُ تُطَوِّى لها أَرْضُ الْبُعْدِ غِنَى أَوْلِيَائِهَا كَمَا تُطَوِّى لِذِي الصَّلَاحِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْجَنَابُ في تَقْدِمَةِ الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ بِجَبَلَةٍ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقْدَمُهُ وَقَاعِدَتِهِ .

فَلْيَبْشِرْهَا بِمَبَاشَرَةٍ تَلِيقُ بِشَجَاعَتِهِ ، وَتُعْهَدُ مِنْ حُسْنِ سِيَاسَتِهِ ؛ وَلْيُكْرِمِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ ، وَلْيُرَدِّعْ مَنْ يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ أَوْ يَحْجِيفُ ؛ وَلْيُجَمِّعِ الْأُمَرَاءَ الْمَقْدَمِينَ وَالْحَلَقَةَ الْمَنْصُورَةَ عَلَى الرُّكُوبِ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَلْيَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُطِيفَةِ ؛ وَلْيَتَّقِظْ لِرَدِّعِ الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهَا أَسْتَرْعَيْنَاهُ أَمْرَ ذَلِكَ وَكُلُّ رَايِعٍ مَسْئُولٌ ؛ وَلْيَتَحَقَّقْ أَنَّ الْعَدُوَّ الْمَخْذُولَ طَالِبٌ لِلْهَالِكِينَ مِنْهُمْ بِالنَّارِ ، وَهُمْ قَاصِدُونَ جَبَلَةٍ فَلْتَكُنْ عِنْدَهُ يَقَظَةً وَأَسْتَبْصَارًا ؛ وَلْيَرْتَبِ الْأَيْزَاكُ وَلْيُعَمِّرِ الْمَوَانِي بِالرِّجَالِ ، وَيَتَفَقَّدَهُمْ فِي اللَّيْلِ أَكْثَرَ مِنَ النَّهَارِ ؛ وَلْيَهْجُرِ النَّوْمَ فِي طَلَبِ الظَّفَرِ وَالْمُنَى فَمَنْ سَهَرَ لَذَلِكَ مَا خَابَ ، وَلَا يَأْمَنُ مَكِيدَتَهُمْ وَيَعْتَرِّبُهُمْ فَيَقُولُ : قَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا بَسُورٌ لَهُ بَابٌ ؛ وَبَاقِي الْوَصَايَا فَهِيَ بِهَا أَعْلَمُ ، وَلَمْ يَبْرَحْ مُتَلَقِّعًا بِثَوْبِهَا الْمُعْلَمِ ؛ وَمِمَّا كُنْهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا يَأْتُمْ ، وَمَنْ تَرَكَهَا يَنْدَمُ ، وَمَنْ لَزِمَهَا فَهُوَ فِي الدَّارَيْنِ مُقَدَّمٌ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ رَبِّمَا أَفْتَحَ تَوْقِيعُ مَقْدَمِ الْعَسْكَرِ بِجَبَلَةٍ بِ«أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ» .
تَوْقِيعٌ بِتَقْدِمَةِ الْعَسْكَرِ بِجَبَلَةٍ ، مِمَّا كُتِبَ بِهِ لِحَسَامِ الدِّينِ الْعَلَائِيِّ بِ«بِالْجَنَابِ
الْعَالِي» وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تُجْزَلُ لِكُلِّ وَلِيٍّ مِنْ مَوَادِّ فَضْلِهَا إِنْْعَامًا ، وَتَمْنَحُ
مِنْ عَوَارِفِهَا أَقْسَامًا ؛ وَتُبَلِّغُ مِنَ النُّجْعِ لَذَوِي الْأَسْتَحْقَاقِ أَمَالًا وَتَجْعَلُ فِي نُحُورِ
الْبَاغِينَ حُسَامًا ؛ وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ لِلْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ لِزَامًا ، وَتَرْفَعُ لَهُمْ
فِي الْجَنَاتِ مَقَامًا ؛ وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي مَحَا اللَّهُ بَنِيَّتَهُ عَنْ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ
آثَامًا ، وَشَرَّفَهُ عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُ لِلْأَنْبِيَاءِ خِتَامًا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ ظَافَرُوهُ وَبَايَعُوهُ دُحُورًا وَأَعْوَامًا ، صَلَاةً دَائِمَةً تَزِيدُ مُرَدِّدَهَا عِزًّا وَإِكْرَامًا -
فَإِنَّ الْإِهْتِمَامَ بِكُلِّ جِهَةٍ هُوَ عَلَى قَدْرِهَا ، وَالْعَنَايَةَ بِقُطْرِيهَا .

وَلَمَّا كَانَتْ مَدِينَةُ جَبَلَةِ الْحُرُوسَةِ مَخْصُوصَةً بِمَقَامِ بَرِّ^(١) السَّنَدِ ، الرَّاهِدِ الَّذِي
تَرَكَ الدُّنْيَا وَالْأَهْلَ وَالْوَلَدَ ، وَالْوَلِيَّ الْمُبَرِّزَ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ ، وَالْمُتَوَكِّلَ الَّذِي لَمْ يَدْنَحْ
قُوَّةَ سَاعَةٍ لِسَاعَةٍ أَعْتَادًا عَلَى الرَّازِقِ - تَعَيَّنَ النَّظَرُ فِي أَمْرِهَا وَحِفْظِهَا مِنَ الْعَدُوِّ
الْمَخْذُولِ ، وَإِنْ كَانَ بِهَذَا السَّيِّدِ السَّنَدِ قَدِ تَبَيَّنَ حِفْظُهَا ؛ وَكَانَ فَلَانٌ مِّنْ بَاشِرِهَا
فَأَحْسَنَ فِيهَا الْمُبَاشَرَةَ ، وَكَلَّأَ حِفْظَهَا بِقِطْعَتِهِ وَعَيْنِهِ السَّاهِرَةِ - أَقْتَضَى رَأْيَانُ أَنْ نُعِيدَهُ
إِلَيْهَا ، وَنُسَبِّغَ ظِلَّهُ عَلَيْهَا .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ حُسَامُهُ قَاطِعًا مِنَ الْأَعْدَاءِ نَحْرًا ، وَفِعْلُهُ صَالِحًا دُنْيَا
وَأُخْرَى - أَنْ يُعَادَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ إِلَى تَقْدِمَةِ الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ بِجَبَلَةِ الْحُرُوسَةِ ، عَوْضًا
عَمَّنْ بِهَا ، وَعَلَى عَادَتِهِ وَقَاعِدَتِهِ .

فَلْيَعُدَّ إِلَيْهَا عَوْدَ الْحُسَامِ إِلَى غَمْدِهِ، وَالْمَاءِ إِلَى مَنْهَلٍ وَرَدِهِ ؛ وَلْيُقَدِّمَ خَيْرَ اللَّهِ
فِي الْمَسِيرِ إِلَيْهَا، وَلْيَبْسُطِ الْعَدْلَ لِيَأْمَنَ أَهْلُهَا بِقُدُومِهِ عَلَيْهَا ؛ وَلْيَكْرِمَنَّ مِنْ بَهَا مِنَ الْعَسْكَرِ
الْمَنْصُورِ، وَيُحْسِنَنَّ إِلَى الرِّعِيَّةِ بِهَا لِيُصْبِحَ خَيْرَ مَشْكُورٍ ؛ وَلْيُنْصِفِ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَلَمِهِ ،
وَيَنْشُرَ لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ عِلْمَهُ ؛ وَلْيُخَلِّصِ الْحَقَّ مِنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، وَالْدِّينَ
وَالشَّرِيفَ ؛ وَلْيُزَيِّمَنَّ مِنْ بَهَذَا الثَّغْرِ بِعَمَلِ الْيَزْكِ الْمَعْتَادِ ، وَالتَّيَقُّظِ لِأَمْرِ الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ
وَمُضَاعَفَةِ الْأَجْتِهَادِ ، وَالْإِلَازِمِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَمُنُّهُ مِنْ فَضْلِهِ مَا يَرْجُو مِنَ الْآمَالِ .



وهذه نسخُ توابعٍ لأربابِ الوظائفِ الدينيةِ بطرَابُلسَ .
تَوَقَّعْ بِنَظَرِ الْحِسْبَةِ بِطَرَابُلسَ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي « نَاصِرِ الدِّينِ بْنِ شَيْصَةَ » وَهُوَ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ مُبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، وَمَوْصِلِ الْأَرْزَاقِ عَلَى يَدِ أَصْفِيَائِهِ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَمُعِيدِ
كُلِّ وَلِيٍّ إِلَى مَنْصِبِهِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ الْمُبِينِ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَنَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَدَّخَرَهَا لِيَوْمِ الدِّينِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّادِقُ الْوَعْدِ الْأَمِينُ ، الَّذِي أَرْسَلَهُ بِوَاضِحِ الْمُحْجَجِ وَمُحْكَمِ الْبَرَاهِينِ ،
وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا عَرَبِيًّا مُبِينًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ ، صَلَاةً
مُسْتَمِرَّةً عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالسِّنِّينَ ؛ وَسَلَامًا تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ غَزَرْنَا مَوَادَّ رِفْدِهِ ، وَأَجْرَلْنَا لَهُ حُظُوظَ سَعْدِهِ ، وَبَلَّغْنَاهُ
مِنْ إِقْبَالِنَا غَايَةَ قَصْدِهِ ، وَحَمَدُنَا تَصَرُّفِهِ مِنْ قَبْلِ عِنْدِ مَارَسَمِ لِمَا جَدَّدَ [مِنْ] بَعْدِهِ ؛
وَأَعَدَّنَاهُ إِلَى رُتْبَةِ أَلْفَتْ مِنْهُ حُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالتَّنْذِيرِ ، وَعُرفَ فِيهَا بِالْكَفَايَةِ وَالصِّيَانَةِ

وَيُؤْمِنُ التَّائِيرَ - مَنْ لَهُ وَاسْلَفُهُ فِي الْمُبَاشَرَاتِ الْجَلِيلَةِ يَدُّ طُولَى ، فَكَانَ بوظيفته
أَحَقُّ وَأَوَّلَى .

ولما كان المجلس العالى هو الْمُتَصِفَ بصفات الكمال ، الْمَشْكُورَ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ ؛
فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ - أَنْفَذَهُ اللَّهُ فِي الْآفَاقِ ، وَأَجْرَاهُ بِصَلَةِ الْأَرْزَاقِ - أَنْ يُعَادَ فَلَانٌ
- أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - إِلَى نَظَرِ الْحِسْبَةِ الشَّرِيفَةِ بِالْمَمْلَكَةِ الطَّرَابُلسِيَّةِ عَلَى عَادَتِهِ وَقَاعَدَتِهِ ،
مُضَافًا إِلَى مَا بِيَدِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ : لِأَنَّهُ الْفَاضِلُ الَّذِي لَا يُجَارَى ، وَالْعَالِمُ
بِأَحْوَالِ الرِّعْيَةِ فَلَا يُنَاطَرُ فِي ذَلِكَ وَلَا يُمَارَى ؛ وَالْفَيْلَسُوفُ الَّذِي يُظْهِرُ زَيْفَ كُلِّ
مُرِيْبٍ ، وَالتَّحْرِيرُ الَّذِي يُخَبِّرُهُ يَسِيرُ كُلِّ حَبِيبٍ وَلَيْبٍ .

فَلْيَنْظُرْ فِي الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ ، وَالكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ ؛ وَمَا يُحْصَرُ بِالْمُقَادِيرِ وَمَا لَا يُحْصَرُ ،
وَمَا يُؤْمَرُ فِيهِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ يُنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ ؛ وَمَا يُشْتَرَى وَيُبَاعَ ، وَمَا يَقْرُبُ بِتَحْرِيرِهِ إِلَى
الْجَنَّةِ وَيُبْعَدُ عَنِ النَّارِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا قَدْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ ؛ وَكُلُّ
مَا يَعْمَلُ مِنَ الْعَايِشِ فِي نَهَارٍ أَوْ لَيْلٍ ، وَمَا لَا يُعْرَفُ قَدْرُهُ إِلَّا إِذَا نَطَقَ لِسَانُ الْمِيزَانِ
أَوْ تَكَلَّمَ فَمُ الْكِتْلِ ؛ وَلِيَعْمَلَ لَدَيْهِ مُعَدَّلًا لِكُلِّ عَمَلٍ ، وَعِيَارًا إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْمَعَايِيرُ
يَعْرِفُ مِنْ جَارٍ وَمِنْ عَدَلٍ ، وَلِيَتَفَقَّدَ أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَيُحَذِّرُ مِنَ الْغَشِّ : فَإِنَّ الدَّاءَ
أَكْثَرُهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ؛ وَلِيَتَعَرَّفَ الْأَسْعَارَ ، وَيَسْتَلِمَ الْأَخْبَارَ مِنْ كُلِّ سُوقٍ
مِنْ غَيْرِ إِعْلَامٍ لِأَهْلِهِ وَلَا إِشْعَارٍ ؛ وَلِيُقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْنَاءِ مَنْ يَنْوِبُ عَنْهُ فِي النَّظَرِ ،
وَيَطْمَئِنُّ بِهِ إِنْ غَابَ أَوْ حَضَرَ ؛ وَدَارَ التَّقْوَدِ وَالضَّرْبِ الَّتِي مِنْهَا تَنْبَثُ ، وَقَدْ يَكُونُ
فِيهَا مِنَ الزَّيْفِ مَا لَا يَظْهَرُ إِلَّا بَعْدَ طَوِيلِ اللَّبَثِ ؛ فَلْيَتَصَدَّقْ لَهُمْ بِصَدْرِهِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ ،
وَلْيُعْرِضْ مِنْهَا عَلَى الْحَكِّ [مِنْ رَأْيِهِ] مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ بَهْرَجٌ ، وَمَا يَبْلُقُ مِنَ الذَّهَبِ
الْمَكْسُورِ وَيَرْوِصُ مِنَ الْفُضَّةِ وَيَخْرُجُ ؛ وَلِيُقِيمَ الضَّمَانَ عَلَى الْعَطَارِينَ وَالطَّرِيقَةِ

في بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يُستتراب فيه وهو معروف ، وبخطّ طيّب ماهين
لمريض معين في دواء موصوف ؛ والطريقة وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة
إلى ساسان ، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان ، وكلّ إنسان سوء
من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا إنسان ؛ فامنعهم كلّ المنع ، وأصدعهم مثل
الزجاج حتى لا يجبر لهم صدع ، وضبّ عليهم النكال وإلا فالتجدي في تأديبهم
ذات التأديب والصفع ؛ ومن وجدته قد غشّ مسلماً ، أو أكل باطل درهما ؛
أو أخبر مُشترياً بزائد ، أو خرج عن معهود العوائد ؛ أشهره بالبلد ، وأركب تلك
الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد ؛ وغير هؤلاء [من فقهاء المكاتب ، وعالمات
النساء وغيرهما من الأنواع ^(١)] ممن يُخاف من ذنبه العاث في سرب الظباء والحمّاذر ،
ومن يُقدم على ذلك أو مثله وما يُحاذر ؛ أرشقهم بسهامك ، وزلزل أقدامهم
بإقدامك ؛ ولا تدع منهم إلا من اخترت أمانته ، واختبرت صيانتته ؛ والنواب
لا ترضّ منهم إلا من يُحسن نفاذاً ، ويُحسب لك أجر استينائته إذا قيل لك : من
استنبت ؟ قلت : هذا ؛ وتقوى الله هي نعم المسالك ، وما لك في كلّ ما ذكرناه
بل أكثره إلا إذا عملت فيه بمذهب مالك ، والله تعالى يُسدّدك ويُرشدك ويوفّقك
إلى أحسن المسالك .



توقيع بخطابة والإمامة بالجامع المنصوري بطرابلس ، كُتِبَ به للخطيب
« جمال الدين إبراهيم » ، بـ « المجلس السامي » بغيراء ، وهو :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال عود منابر الإسلام بماء إحسانه رطيباً ، وورد
شعائر الدين الحنيفي في أيامه الزاهرة قشياً ، ومواهبه ومناقبه تُقيم لمادحه في كلّ

(١) الزيادة من « التعريف صفحة ١٢٦ » وهي لازمة لاستقامة الكلام .

وَإِدِّ شَاعِرًا وَلِحَامِدِهِ فِي كُلِّ نَادٍ خَطِيبًا - أَنْ يُرْتَّبَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ، الْإِمَامُ، الْعَامِلُ :
 - رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى السَّلَفَ، وَزَادَ مَجْدَ الْخَلَفِ - خَطِيبًا وَإِمَامًا بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ
 الْمَنْصُورِيِّ بِطَرَابِلِسِ الْحُرُوسَةِ، عِوَضًا عَنْ فُلَانٍ، وَعَلَى عَادَتِهِ وَقَاعِدَتِهِ، وَبِمَعْلُومِهِ
 الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ الْمُسْتَقَرُّ بِاسْمِهِ، إِلَى آخِرِ وَقْتٍ : رِعَايَةً لِأَهْلِيَّتِهِ الْوَاصِحَةِ
 الدَّلَائِلِ، وَفَضِيلَتِهِ النَّاطِقَةِ الشَّوَاهِدِ الصَّادِقَةِ الْحَايِلِ، وَأَوْصَافِهِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي بِهَا تُعْرَفُ
 مِنْ أَبِيهِ الثَّمَانِلِ ؛ وَلَأَنَّهُ الصَّدْرُ ابْنُ الصَّدْرِ النَّجِيبِ، وَالْخَطِيبُ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ
 الْخَطِيبِ ؛ وَالْوَلَدُ النَّجِيبُ الَّذِي حَدَا حَدُو وَالِدِهِ فِي الصَّلَاحِ مَا خَابَ وَلَا يَنْجِبُ ،
 وَالتَّجَلُّ النَّبِيُّ الْمُهَذَّبُ الَّذِي أَشْبَهَ أَبَاهُ فِي الدِّينِ وَالْوَرَعِ : وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ
 فِي النَّبَاهَةِ وَالتَّهْذِيبِ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الْخُطَابَةَ وَالْإِمَامَةَ الَّتِي هُوَ ابْنُ جَلَالِهَا، وَطَلَّاعُ ثَنَائِهَا ؛ زَائِنًا حِلَالِهَا،
 زَائِدًا عَلَاهَا ؛ وَلِيَرَقْ ذُرُوءَ هَذَا الْمَنْصِبِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ، وَلِيَتَلَقَّ
 نِعَمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالشُّكْرِ الَّذِي يُوجِبُ الْمَزِيدَ وَيُكْسِبُ الْمَزِيَّةَ ؛ وَلِيَقُمْ مَقَامَ وَالِدِهِ
 فِي هَذِهِ الرُّتْبَةِ السَّنِيَّةِ، بِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ ؛ مُجَلِّيًا فِي مِضْمَارِ الْبَيَانِ الَّذِي
 سَلَّمَتْ إِلَيْهِ أَعْتَنَهُ، وَأَقْبَيْتْ إِلَيْهِ أَرْمَتْهُ ؛ مُحَلِّيًا بِقَلَائِدِ الْمَوَاعِظِ وَفَرَائِدِ الْأَمْثَالِ أَعْوَادَ
 الْمُنْبَرِ الَّذِي لَوْ أُمَكَّنَهُ لَسَعَى إِلَيْهِ ، مُسْتَنَفَا الْأَسْمَاعِ بِجَوَاهِرِ الْأَوَامِرِ وَزَوَاهِرِ الزُّوَاهِرِ
 الَّتِي يَصْدَعُ بِهَا عَلَيْهِ .

وَلْيَسِرْ كَسِيرَةَ وَالِدِهِ فِي الطَّرِيقَةِ الْمُتْلَى وَسَلُوكِ الْمَنْهَجِ الْأَسَدَ ، وَلِيَجْتَهِدَ فِي إِحْيَاءِ
 رُسُومِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَأَقْفَاءِ آثَارِهِ فِي الْعِلْمِ وَالزَّهَادَةِ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ : هَذَا الشَّبْلُ
 مِنْ ذَلِكَ الْأَسَدِ ؛ جَازِيًا عَلَى أَفْضَلِ الْعَوَائِدِ فِي دِيَانَتِهِ ، سَارِيًا بِأَجْمَلِ الْقَوَاعِدِ مِنْ
 صِيَانَتِهِ ؛ وَلْيُوَصِّلْ إِلَيْهِ مَعْلُومُهُ الشَّاهِدُ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ الْمُسْتَقَرُّ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ، عَلَى
 عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ : لِاسْتِقْبَالِ مُبَاشَرَتِهِ أَحْيَانُ الْوُجُوبِ وَأَزْمَانُ الْاسْتِحْقَاقِ،

رُزْقًا دَارًا ، سَارًا ، هَنِيئًا ، مَرْضِيًّا ، من غير تَغْيِص ، ولا تَقْيِص ، والاعتماد على
العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوتها إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تَوْقِيعٍ بَخْطَابَةٍ ، كُتِبَ بِهِ لِلشَّيْخِ «صدر الدين الخابوري» ، بـ«المجلس
السامى» بالباء ، وهى :

رُسم ... - لا زَالَتْ أَيَّامُهُ الشَّرِيفَةُ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَلِّهَا ، وَتُفَوِّضُ الْمَنَاصِبَ
الْمُنِيفَةَ إِلَى أَهْلِهَا ، وَتُشَرِّفُ صُدُورَ الْحَافِلِ بِصُدُورِ الْعُلَمَاءِ فِي حَزْنِهَا وَسَهْلِهَا - أَنْ تُفَوِّضَ
إِلَى فُلَانٍ الْخُطَابَةَ بِالْجَامِعِ النَّاصِرِيِّ الْمَعْرُوفِ "بِجَامِعِ التَّوْبَةِ" بِطَرَابُلُسِ الْحُرُوسَةِ
وَجُوبًا وَتَعِينًا ، أَقْتَضَى فِي تَقَدُّمِ الْفَاضِلِ عَلَى الْمَفْضُولِ تَيْقِنًا وَتَبَيُّنًا ؛ لِأَنَّهُ الْخَبَرُ الَّذِى
لَا يُجَارَى فِي فِضَائِلِهِ ، وَالْبَحْرُ الَّذِى يَجُودُ فِيْجِيدُ بِفَوَاضِلِهِ ، وَالصَّدْرُ الَّذِى مِلَتْ
بِفَوَائِدِهِ وَفَرَائِدِهِ بَزْمَانِهِ مَحَافِلُ صُدُورِهِ وَصُدُورُ مَحَافِلِهِ ؛ كَمَا نَطَقَتْ أَلْسُنُ الْأَقْلَامِ
بِأَفْوَاهِ الْحَاوِرِ بِفَضْلِهِ فِي الْأَقَالِمِ وَالْأَفَاقِ ، وَكَمْ مِنْ عِبَارَةٍ بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ حَقَّقَتْ أَنَّهُ
بِهَا فَاتِ الْقُصَصَاءِ وَالْبُلْغَاءِ وَفَاقَ ؛ لَقَدْ أَصْبَحَ شَمْلُ هَذَا الْجَامِعِ بِهَذَا الْفَاضِلِ الَّذِى
طَالَ ارْتِقَابُهُ لَهُ جَامِعًا ، وَأَمْسَى ؛ وَقَدْ ظَفِرَتْ يَمِينُهُ مِنَ الْيَمِينِ بِهِ وَالْبَرَكَةُ بِمَا لَمْ يَكُنْ
بَشَيْءٍ مِنْهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ طَامِعًا ، فَلِذَلِكَ بَادَرِ مِنْبَرَهُ الْمُنِيفِ وَحَلَّ لَهُ حَقُّهُ
مُسَارِعًا ؛ وَوَطْأً - لَامِتْطَائِهِ إِيَّاهُ - صَهْوَتَهُ ، وَغَفَرَ لِلدَّهْرِ بِهَذِهِ الْحَسَنَةِ الْجَمِيلَةِ فِيمَا
سَلَفَ مِنْهُ هَفْوَتَهُ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْخُطِيبُ الَّذِى اسْتَقَرَّ بِطَالِعِ الْمَنَارِ مِنْ خُطْبَتِهِ بِمَا يُفَجِّرُ
مِنَ الْعُيُونِ مَنَابِعَ الْمَدَامِيعِ ، وَيُسَوِّقُ إِلَى الْآخِرَةِ : مِنْ أَلْفَاظٍ يُشْنَفُ بِهَا الْمَسَامِيعُ ؛
وَأَنَّ قَسًّا لَا يُقَاسُ بِهِ فِي خُطْبَتِهِ وَعِظَاتِهِ ، وَأَنَّ سَحَابَانَ يَوَدُّ مِنْ نَجْمِهِ أَنْ يَسْحَبَ ذَيْلَهُ
عَلَى مَا ثَرَهُ الْمَنَاطُورَةُ عَنْهُ لِيُعْفَى آثَارُ فَلَتَاتِ كَلِمَاتِهِ وَلَفَتَاتِ لَفْظَاتِهِ .

فليباشر هذه الوظيفة المباركة بالله تعالى مذكرا ، وليأمر عباده ونهأهم عنه على أسماعهم مكررا ، ويعلم أنه في المحراب مناج لربه ، وأقف بين يدي من يحول بين المرء وقلبه ، فليعتصم بالله عز وجل في قوله وفعله ، ويتيقن أن الكلمة إذا خرجت من قلب لا تقع إلا في مثله .

وفي إحاطة عليه المشهور ، وفضله المشهود المشكور ، ما يغني عن وصية بها يتذكر ، وتذكرة في صحيفة فكره ترقم وتسطر ، ولئوصل إليه معلومه على هذه الوظيفة الشاهد به الديوان المعمور . وليوفر خاطره من التبذل في تحصيل معلومه الجارى له وطلبه ، وليعامل بما يليق من الإجلال والإعظام بوظيفته الشريفة والمحل العالي الرفيع من منصبه ، والعلامة الكريمة أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخ تواقع لأرباب الوظائف الديوانية بطرابلس :

نسخة توقيع بشهادة الجيوش بطرابلس ، كُتب به للقاضي بدر الدين « محمد ابن الفرفور » ، ووالده يومئذ ناظر الجيوش بها ، بـ « المجلس العالي » ، وهي :

أما بعد حمد الله الذي زين سماء المعالي ببدرها ، وأثبت في رياض السعادة يانع زهرها ، ورفع المناصب السنية إلى شرف محلها ومحل شرفها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة في قولها وفعلها ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالملة الخنيفة قائما بفرضها ونفلها ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مبلغا لرسالات ربه كلها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا ينحصر عددها ، ولا ينقضي أمدها ، وسلم تسليما كثيرا - فإن أولى من خطبته المناصب من هو أحق بها وأهلها ^(١) فيها

(١) بياض بالأصل ولعله : وله فيها ، الخ .

نِسْبَةً لَا يُنْكِرُ فَضْلُهَا ، وَمُبَاشَرَاتٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَشْهُورَاتٌ بِالْكَفَايَةِ وَالْعَفَّةِ فِي بَرِّهَا وَبَحْرِهَا .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ - حَرَسَ اللَّهَ جَنَابَهُ وَأَسْبَغَ ظِلَّ وَالِدِهِ - هُوَ الْمَعْنَى بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ ، وَتَشَمَّسَ هَذِهِ الْهَالَةَ وَبَدَّرَ هَذِهِ الدَّارَةَ .

فَلَذَلِكَ رَسْمٌ ... - زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَظَمَةً وَشَرَفًا ، وَمَنْحَهُ فِي الْحِنَانِ قُصُورًا وَغُرَفًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ ... : أَقْرَارًا لِعَيْنِ وَالِدِهِ ، وَجَمْعًا لَهُ بَيْنَ طَرِيفِ السَّعْدِ وَتَالِدِهِ ؛ لِأَنَّهُ النَّبْعُ الَّتِي نَشَأَتْ فِي رِيَاشِ السِّيَادَةِ ، وَالزَّهْرَةُ الَّتِي بَرَزَتْ فِي كَيْلَامِ السَّعَادَةِ ؛ فَلَا يَزَالُ قَرَعُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِسَعَادَةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ يَتِمُّ إِلَى أَنْ يَتَأَصَّلَ ، وَزَهْرَتُهُ تُزْهِى إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْإِنْمَارَ وَتَتَوَصَّلَ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الْوُضُفِيَّةَ الْمُبَارَكَةَ مُبَاشَرَةً تَظْهَرُ فِيهَا كِفَايَتُهُ عِنْدَ الْإِسْتِقَادِ ، وَتَحْمَدُ فِيهَا عُقْبَى الْإِخْتِيَارِ وَالْإِخْتِبَارِ وَالرَّشَادِ ؛ وَلْيَسْلُكْ فِي أَمَانَتِهِ سُنَنَ أَبِيهِ - أَسْبَغَ اللَّهُ ظِلَّهُ - الَّتِي أَحْكَمَهَا فِي كُلِّ مَا أَبْدَى وَأَعَادَ ، وَيَتَّبِعْ طُرُقَهُ الْهَادِيَةَ إِلَى سَبِيلِ السَّعَادَةِ وَالْإِرْشَادِ ؛ وَيُبْدِ مَا آكْتَسَبَهُ مِنَ وَالِدِهِ عَنْ سَلَفِهِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَذَا السَّنَدِ ، وَلَا يَخْرُجْ عَنْ رَأْيِ أَبِيهِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ : هَذَا الشَّيْءُ مِنْ ذَاكَ الْأَسَدِ ؛ وَلْيَشْمَرْ فِي تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ الَّتِي تُبْلَغُ بِهَا الْأَمَالُ ، وَتَصْلُحُ الْأَحْوَالُ ؛ وَلْيَتَلَقَّ هَذِهِ الْمُبَاشَرَةَ بِعَزْمِهِ الشَّدِيدِ ، بِنَفْسِهِ لَا بِالتَّقْلِيدِ ؛ فَإِنَّهُ شَاهِدٌ وَمَسْئُولٌ ، بِقَوْلِهِ يَوْفَقُ فِي الْإِسْتِحْقَاقِ وَفِي التَّقْوِدِ وَالْكَيْوَلِ ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ السَّبَبُ الْأَقْوَى ، فَلْيَتَمَسَّكْ بِجَبَلِهَا يَقْوَى ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ وَوَالِدُهُ بِهَا أَعْلَمُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَلِّكُهُ سَبِيلَ الْهُدَى ؛ فَإِنَّهُ أَنْجَحَ الطَّرِيقَ وَأَسْلَمَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى عَوْنَهُ ، وَيُدِيمُ صَوْنَهُ ؛ وَالْأَعْتَادُ



تَوْقِيعُ بَكَاةِ الدَّرَجِ بِطَرَابُلُسَ ، كُتِبَ بِهِ بِـ «المجلس السامى» بـالياء ، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف - لا زالت مَراسِمُهُ العَالِيَةُ تُطْلَعُ في أَفلاكِ المعالى بَدْرًا مُنِيرًا
هَادِيًا إلى الفضائل مَأْمُونًا من السَّرارِ ، ومَكَارِمُهُ الوَافِيَةُ تُرْفَعُ من أعلام المعانى صَدْرًا
كَبِيرًا رَشِيدًا في البَيانِ أَمِينًا على الأسرار ، وَمَرَاكِجُهُ الكَافِيَةُ تُقَرِّعُونَ الأعيانَ
والأخيار - أن يُرتَّبَ فلانٌ - ضاعف الله تعالى أنوار فضائله التى يَأْتِمُّ بِهَا المُسْتَغْنَى
والمُهَنْدَى ، وَيَعِشُوا إلى قَرَاهَا المُسْتَعِينُ والمُقْتَدَى - في كِتابَةِ الدَّرَجِ السعيد بطرابُلُسَ
المَحْرُوسَةِ بما قُرَّرَ له من المعلوم الوارد في الأستثمار الشَّريف على ما يَتَعَيَّنُ بِقَلَمِ الأستيفاءِ
جِهَتُهُ ، وَيَبِينُ تَفْصِيلُهُ وَجُمْلَتُهُ ، نَظَرًا إلى آسْتَحْقَاقِهِ الظَّاهِرِ ، وَفَضْلِهِ البَاهِرِ ؛
وَبَلَاغَتِهِ التى أَفْصَحَتْ عن بيان البليغ القادر ، وَفَصَاحَتِهِ التى بَلَغَتْ الكَمالَ بَعَوْنَ
المَلِكِ القادر ؛ وإِطْرَافِهِ ، فى إِطْنائِهِ ؛ وإِعْجَازِهِ ، فى إِيجَازِهِ ؛ فَلهِ فى الدلائل قُدْرَةُ
«الْمَنْصُورِ» وَفى الفضائل قُوَّةُ «النَّاصِرِ» ؛ طالما أَزْهَرَ بِقَلَمِهِ «المُهَنْدَى» لِلصَّوابِ ،
«السَّافِخِ» كَالسَّحابِ ، رَوَّضَ العُلُومَ والآدابَ ؛ وَأَظْهَرَ بَيانَهُ «الْمُتَّصِرِ»
فى الخُطابِ ، «المُقْتَدِرِ» على الإِقْتِضابِ ؛ طُرُقَ الفُنُونِ ، وَاصْحَحةَ العِيونِ ، مُحْكَمَةَ
الأسبابِ ، وَسَبيلَ الحَكَمِ مُفْتَحَةَ الأبوابِ ؛ فَهو بالسَّنا والسَّناء بَدْرُ «المُسْتَرَشِدِ» ،
وَبالْجَداءِ والجَدَّاءِ «مُعِزُّ» «المُسْتَنجِدِ» ؛ وَبِقَرِطِ الحِيا والحِيا سَحَابُ المُسْتَمْطَرِ
و«المُسْتَظْهِرِ» ، وَبِقَرَبِ الذِّكَا والذِّكَا بَرَقَ «المُسْتَبْصِرِ» و«المُسْتَنْصِرِ» .

فليأشِرْ هذه الوظيفة المباركة «مُعْتَصِمًا» بِحَبْلِ التَّقْوَى ، «مُسْتَعِصِمًا» من المراقبة
بِالسَّبَبِ الأقومِ الأقوى ، مُجَدِّدًا رُسُومَ هذه الصَّنَاعَةِ التى رَبَّعُها قَدْ دَرَسَ وَمَحَلَّها
قَدْ أَقْوَى ؛ فَإِنْ «الْمُتَّقَى لله» «الرَّاضَى» بِهِ هو «الرَّاشِدُ» «الفَائِزُ» بِالسَّعَادَةِ ،

و«المُتَوَكِّل» عليه «المُطِيع» له هو «الوَائِقُ» ببلوغ القصد الحائز للإرادة ؛ ولِيَطْرُزَ
حُلَّ البَيانِ بوشى بنانه الذى أصبح دِيَاجُ الطُّرسِ به «مُعْتَرًا» ، وليَقُومَ مَعَانِي البَدِيعِ
بعامل قلبه الخَطَى الذى أَمَسَى الفضلُ به كَالسَّمْهَرَى قَائِمًا مُهْتَزًّا ؛ «مُسْتَكْفِيًا»
بما يَصَرِّعُهُ وَيُرْصِّعُهُ نَظْمًا وَنَثْرًا من البدائع ، «مُسْتَعْلِيًا» لما يَرْفَعُهُ وَيَقَرِّعُهُ من غُرَرِ
الفِقْرِ ، وَدَرَرِ الفِكْرِ ، بخاطره الوَقَّادِ النَّقَّادِ المنقاد الطائع ؛ «مُقْتَفِيًا» فيما يُنْشِئُهُ آثارَ
ما يَصْدُرُ عن «الحاكم» و«الأمير» ، «مَكْتَفِيًا» فيما يُبْدِيهِ بمقدار ما تَبَرَّزَ به المراسيمُ
والأوامر ، «حَافِظًا» للسرِّ «العزیز» كَاتِبًا كَاتِمًا فلا يَعْضُدُهُ فيه «عاضد» ولا
يُظْفَرُ به «ظافر» ؛ «مَعْتَمِدًا» على الكِتْمَانِ فى جميع ما يُورِدُهُ وَيُصْدِرُهُ ، مقتصدًا
بالتوفيق فى سائر ما يُخْفِيهِ ويظهره .

والوصايا فن آدابه تُستفاد ، والنصائح فلها منه المبدأ وإليه المعاد ؛ فليَتَسَمَّ ذِرْوَةُ
أَعْلَاهَا ، وَلِيَتَسَمَّ نَفْحَةُ رِيَّاهَا



توقيع بشهادة دَارِ الضَّرْبِ بطرابلس ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال رأيُه الشريف يَقَرِّبُ من الأمور صَوَابًا ، ولا بَرَحَ أَفْقُ سماءِ
مَمْلَكَتِهِ الشَّرِيفَةِ يُطْلِعُ بِفَلَاحِهِ بَدْرًا مُبِيرًا وَشِهَابًا - أَنْ يُرَبِّبَ فُلَانٌ ... : لأنه العَدْلُ
الذى أَشْتَهَرَتْ عَدَالَتُهُ ، وَالْأَمِينُ الذى بَهَرَتْ فَظْهَرَتْ أَمَانَتُهُ ؛ وَالرَّئِيسُ الذى ما بَرَحَ
صَدَرَ الْحَافِلُ ، وَالْفَاضِلُ الذى فاق بفضله على الأقران والأماثل ، وَشَهِدَتْ بَرَازَتِهِ
المشهورَةُ الأَوَاخِرُ والأَوَائِلُ .

فليباشِرْ هذه الوظيفة مباشرةً مطابقةً لعدالته المشهورة ، مُعْرِبَةً عن أصالته المخبورة ،
مُوصِّحَةً عن ديانته التى غَدَتْ فى العالمين معروفةً خيرَ مَنكُورَةٍ ؛ لِيُصْبِحَ هذا المنصبُ

مُشْرِقًا بُنُورَهُ ، سَنَى الْأَرْجَاءِ بِسَاطِعِ ضِيَاءِ شَهِائِهِ وَنُورِ بُدُورِهِ ؛ وَهُوَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ -
غَنَى عَنْ وَصِيَّةٍ مِنْهُ تُسْتَفَادُ ، أَوْ تَنْتَبِهَ عَلَى أَمْرٍ مِنْهُ يُبْدَأُ وَإِلَيْهِ يُعَادُ ؛ وَلِيَتَنَاوَلَ مَعْلُومَهُ
الشَّاهِدَ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ هِنِيئًا مُبَسَّرًا ، وَلَا يَقِفُ أَمَلُهُ عِنْدَهُ : فَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ
ذَلِكَ مَظْهَرًا .



تَوْقِيعُ بِنَظَرِ اللَّادِيقِيَّةِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي «بُرْهَانِ الدِّينِ» الْأُدْرَعِيُّ ، وَهُوَ :
رُسم بِالْأَمْرِ - أَنْفَذَهُ اللَّهُ فِي الْآفَاقِ ، وَطَوَّقَ بِمَنِّهِ وَقَوَاضِلِ بَرِّهِ الْأَعْنَاقِ - أَنْ
يَسْتَقِرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ - حَرَسَ اللَّهُ مُهْجَتَهُ ، وَأَهْلَكَ حَسَدَتَهُ - فِي نَظَرِ اللَّادِيقِيَّةِ
الْمَحْرُوسَةِ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ ، بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى
آخِرَوَقْتٍ : عِلْمًا بِأَمَانَتِهِ الْمَشْهُورَةِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ بَيْنَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ مَشْكُورَةٍ ،
وَخَبْرَتِهِ الَّتِي هِيَ فِي الْمُبَاشَرَاتِ مَعْرُوفَةٌ غَيْرَ مَنْكُورَةٍ ، وَكِفَايَتِهِ الْمَالُوفَةُ الْمُؤَوَّرَةُ ؛ فَإِنَّهُ
بَاشَرَ الْحِسْبَةَ الشَّرِيفَةَ وَنَهَى وَأَمَرَ ، وَاتَّبَعَ فِي أَحْكَامِهِ مَا أَمَرَ بِهِ «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ» ؛
وَضَبَطَ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ بِحُسْنِ نَظَرِهِ وَمَيَّزَ وَثَرَهُ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ الْمُبَارَكَةَ مُبَاشَرَةً عَلَى أَجْمَلِ الْعَادَاتِ ، وَيَسْتَرْفِعْ مَا لَهَا مِنْ
الْحُسْبَانَاتِ ، وَيُوصِّلْ إِلَى أَرْبَابِ الْأَسْتِحْقَاقِ مَا لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقَاتِ ، عَلَى مَا يَشْهَدُ بِهِ
الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ مِنْ أَجَلِّ الْمُبَاشَرَاتِ ، وَلِيَتَنَاوَلَ
مَعْلُومَهُ الشَّاهِدَ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ هِنِيئًا مُبَسَّرًا عَلَى جَارِيِ الْعَادَةِ لِمَنْ تَقَدَّمَ فِي الْقُرُوعِ
وَسَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَلِيَعْتَمِدَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي سَائِرِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَّاتِ ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ .



توقيع أيضا في المعنى .

لا زالت صدقاته الشريفة تُقِيمُ لاتباع الحق برهانا، وتُسَدِّى إلى كلِّ أحد خيرا وإحسانا - أن يرتب فلانٌ ناظرا بالأذقية المحروسة وما هو مضاف إليها، على عادة من تقدّمه وقاعدته ومعلومه الشاهد به الديوان المعمور : لأنه طالما بأشر نظر بيت المال فوفر الأموال ، وأصلح ما فسد من الأحوال ، وسدّد بحسن تديره الأقوال والأفعال ؛ وأظهر من الأمانة ما تميّز به في مباشراته ، وفاق به على قرّائه وأهل زمانه وأوقاته ؛ ثم بأشر الحسبة فسلك فيها مسلك السرّ والجهر وصدق الخبر ، وسلك مسلك أمير المؤمنين عمر .

فليأشر هذا النظر بقلب مُشرّح ، وأملٍ مُنقّح ؛ وليظهر فيه ما جرب به من الأمانة ، وتجنب الخيانة ؛ وليجتهّد في تحصيل أموال الديوان المعمور ، ويسطّ قلمه في إصلاح الأمور؛ وليوصّل إلى أرباب المرتبات ما هو لهم مُستحقّ، فإنهم به أولى وأحق ؛ وليوصّل إليه معلومه أو أن وجوبه وأستحقاقه



توقيع بمشارفة حصن الأكراد ، كتب به للقاضى « بدر الدين » بـ « المجلس

العالى » ، وهو :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت مراسمه العالية تُولى الأنام برا، وتجدد بإسباغ الإنعام بشرا، وتضوّع في كلّ نادٍ من أندية الثناء والدعاء نشرا، وتطّلع في كلّ أفق من آفاق السيادة من صدور الأعيان وأعيان الصدور بدرا - أن يرتب فلانٌ في مُشارفة حصن الأكراد المحروس : لما هو عليه من العفة والصلف ، والنزاهة

التي عُرف بها وأَنصف ؛ والرَّاسَةَ التي أَنتقلت إلى الخلف عن السَّلف ، والعدالة التي لا يتكلَّف لسلوك نهجها : ومن العَجَبِ خُلُو البَدْرِ عن الكَلَف ! ؛ كَمْ حِفْظَتْ بمباشرة الأموال ، وصَلَحَتْ بِمُلاحَظَةِ الأحوال ؛ وعُقِدَتْ انْخِصَارُ عَلَى سِيرَتِهِ وَحُسْنِ سَيْرِهِ ، وأَشْتَهَرَ بِجَمِيلِ تَدْيِيرٍ أَوْجَبَ تَقْدِيمَهُ عَلَى غَيْرِهِ .

فليأشُرْ هذه الوظيفة التي هي من أَجَلِّ الوظائف ، وليشْكُرْ ما أَوَّلِي من المعروف وأُسَيِّدِي إليه من العوارف ؛ وليبذلْ جُهْدَهُ في صلاح الأحوال ، ويثْمِرْ الأموال ، وتَقْرِيرِ القواعد على السَّداد ، وإِجْراءِ العوائد على وَفْقِ المُرَاد ؛ فَانه مَن دَلَّتْ خِبْرَتُهُ عَلَى جَمِيلِ آثَارِهِ ، وَلاَحَتِ الْغِبْطَةُ فِي اخْتِيَارِهِ الَّذِي أَغْنَى عَنْ تَقْدِيمِ اخْتِيَارِهِ ؛ كَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ مَن نَشَأَ فِي خُدُورِ فَنُونِ الْكِتَابَةِ ، وَأَشْتَهَرَ فِي مَوَاطِنِ النُّضَالِ مع وَفُورِ الْإِتِّقَالِ بِحُسْنِ الْإِصَابَةِ ؛ فَهُوَ إِنْ شَاءَ الْإِنْشَاءَ بَلَغَ مِنْهُ الْمَرَامَ ، وَإِنْ بَسَطَ الْجَرَائِدَ لِلتَّصَرُّفِ قِيلَ : هَذَا الْكَاتِبُ النَّظَامُ ؛ كَمْ لَهُ مِنْ يَدٍ بَيَضاءَ فِي التَّبْيِضِ وَالتَّسْوِيدِ ، وَهِيَّةٍ عَلَيَّاهِ بَلَغَ بِهَا مِنَ السِّيَادَةِ مَا كَانَ يُرِيدُ .

فليَقْدِمْ خَيْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْأَمْرِ وَيَجْعَلْهَا إِمَامَةً ، وَلِيَتَمَسَّكَ بِهَا مُقْتَدِيًا بِمَنْ قَدِمَهَا أَمَامَهُ ، وَلِيَكُنْ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ لِيَبْلُغَ مِنْ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ مَرَامَهُ .

وَالْوَصَايَا الَّتِي يَعْمُ نَفْعُهَا ، وَيَتَعَيَّنُ عَلَى تَنَاسُبِ الْأَعْمَالِ جَمْعُهَا ؛ بِهِ تُسَلِّكُ سَبِيلَهَا ، وَعَنْهُ تُؤْخَذُ تَفَاصِيلُهَا وَجَمَلُهَا ؛ فَلْيَسَلِّكْ مِنْهَا الْأَقْوَمَ الْأَرْشَدَ ، وَلِيَتَمَسَّكَ بِالْأَفْوَدِ الْأَحْمَدِ ؛ بِحَزْمٍ وَافِرٍ ، وَعَزْمٍ غَيْرِ قَاصِرٍ ؛ وَلِيَتَنَاوَلَ مَعْلُومَةَ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانَ الْمَعْمُورَ أَجْيَانِ الْوُجُوبِ وَالْأَسْتَحْقَاقِ رِزْقًا دَارًا ، هَنِيئًا مُيسِّرًا سَارًا ؛ مِنْ غَيْرِ تَقْتِيرٍ وَلَا تَكْدِيرٍ ، وَلَا نَغِيصٍ وَلَا تَأْخِيرٍ .



تَوْقِيعٌ بِمَشِيخَةِ الْمَقَامِ الْأَذْهَمِيِّ ، كُتِبَ بِهِ بِاسْمِ الشَّيْخِ «عَبْدَ اللَّهِ السُّطُوحي»
بـ«المجلس العالي» ، وهو :

أما بعد حمد الله الذي سقى مَحَلَّنَا بِلِيَّايِهِ ، وَأَنْبَتَ عُشْبَنَا بِسَحَابِهِ ؛ وَأَقْرَأَنَا كِتَابَ
وَجْهِهِ وَأَغْنَانَا عَنْ وَجْهِ كِتَابِهِ ؛ وَجَعَلَ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا مِنْ صِدْقِ أَوْلِيَائِهِ ، وَمَنْحَهُمْ
بِمَا آخْتَارَ لَهُمْ مِنْ سِرَائِرِ مَوَاهِيهِ وَعَطَائِهِ ، وَجَمَعَ قُلُوبَ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ
بِوَاسِطَةِ مَنْ أَحْبَابِهِ وَأَخْصِيَاءِ مُجَبَّابِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَجْمِ السُّرَى ،
وَلَيْثِ الشَّرَى ، وَسَيِّدٍ مِنْ وَطَنِ الثَّرَى ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ لِأَبَرِّ
قَسَمِهِ رَبِّ السَّمَاءِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا - فَلَمَّا كَانَ الْأَعْتِنَاءُ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ مِنْ
الْوَاجِبَاتِ ، وَالْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا [مِمَّا] تُبَادِرُ إِلَيْهِ مِنَ النُّفُوسِ الرَّغْبَاتِ ؛ وَبُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى
فَهِيَ قِوَامُ الدِّينِ الْمَتِينِ ، وَلَا يَنْهَضُ بِعَارَتِهَا إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ،
فَطُوبَى لَهُمْ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

وَمِنْ الْبُيُوتِ الْعَامِرَةِ ، وَالسَّرَاتِ الطَّاهِرَةِ ، وَالْمَقَامَاتِ الَّتِي إِذَا حَلَّ بِسَاحَتِهَا
أَكْمَهُ الْعَيْنُ بِصَرْتِهِ مُجُومًا زَاهِرَهُ - مَقَامٌ مِنْ ذِكْرِ كَرَامَتِهِ أَشَامٌ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ
وَأَيْمَنُ وَأُنْجَدُ وَأَتَمُّهُمْ ، السَّيِّدِ الْجَلِيلِ وَلِيِّ اللَّهِ «إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَذْهَمٍ» ؛ سَيِّدِ الْأَوْلِيَاءِ ،
وَسُلْطَانِ الْأَتْقِيَاءِ ؛ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا سَارَ عَلَى الطَّرِيقِ سَائِرًا ، وَمَا أَمْتَطَى ظَهَرَ قُلُوبِ
مُسَافِرٍ ؛ مَقَامٌ بِالزَّهْدِ مَوْصُوفٍ ، وَبِالْبَرَكَاتِ مَعْرُوفٍ ؛ وَلَهُ الْإِطْلَاقَاتُ الْمَشْهُورَةُ ،
وَالْمَنَاهِلُ الْمَائُورَةُ ، فِي وَرْدِهَا الْمَبْرُورَةُ ؛ قَدْ آسَتْ وَلَتْ عَلَيْهِ يَدُ التَّيْدِيرِ ، وَعَادَ بَعْدُ طَوْلُ
سِمَاطِهِ فِي تَقْصِيرِ ، وَأَخْتَلَفَ فِيهِ النَّيَاتُ فَكَانَ فِي كَيْسِ الْفَقِيرِ ؛ فَكَشَفَ اللَّهُ
هَذِهِ النِّعْمَةَ ، وَأَدَامَ سَوَائِغَ النِّعَمِ ؛ وَأُسْبَلَ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ظِلَالُ الْحُرْمَةِ ؛

(١) لعل الصواب «فكان في كيس الفتي بعد أن كان في كيس» الخ .

وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ بَاعْتِثْنَا مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَيُّظْهَرُ لِعَالِمِهِ بِأَن كَلَّا وَقِفْ عِنْدَ أَمْرِهِ وَحَدِّهِ ؛ وَأَنْتَقِلُ لِسَانٍ مَنْ لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ ، فَكَشَفَ عُثْمَةَ هَذَا الْمَقَامِ وَعَزَلَ مِنْ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِهِ وَشَرِّهِ .

فلذلك رُسم - أن تفوّض مشيخةُ المقام الجليل الأذهميّ بشرفِ جبلة المحروس - على ساكنه الرحمة والرضوان - إلى فلان - نفع الله ببركاته ، وأعاد على المسلمين من صالح دعواته - عوضاً عما كان بها يحكم انفصاله حسب ما وردت المراسيم الشريفة - شرفه الله تعالى وعظمها - عند اتصال العلوم الشريفة - زادها الله تعظيماً - بأمر المقام المشار إليه واعتماد المتصرفين فيه : إذ وضعت الآن الأشياء في محلّها ، وأسندت الأمور إلى أهلها ، وفُقدت هذه المثوبة إلى من يُظهر سرائر فضيلها ، ولحظت الآراء بحجج هذا المقام والأثر ، ولا شك أن السعادة تلحظ الحجر ؛ كم له من آيات مشهوره ، وكرامات بلسان الحمد مذكوره ، ومساج في الخيرات مبروره ، وقد عمّ الزوايا بأجناس المكارم ، وبسط سائر من إكرامه سيماطاً يقول الزائر : هذا ولا خاتم :

نُورُ دِيَارَا زَارَهَا جُودُ كَفِّهِ ، * وَمِنْ دُونِهَا لِلزَّائِرِينَ مَرَا حِلُّ ،

وَنَزَجُ عَنْهَا وَالْحُقُوفُ قَرِيرَةٌ : * كَمَا رَاجَعْتُ مَاوِي الْحُقُوفِ الْمَسَاحِلُ !

فليتلق - أعاد الله من بركته - هذه التورية ، وليجعل للمقام المشار إليه من خاطره الكريم أوفر عنايه ، ويستخلف عنه إذا توجه إلى
(١) بحض الأكراد
فإنها مُستمرّة بيده وولايتها باقية عليه ، وأمرها في إبدائه وإعادته عليه ؛ والله تعالى يتولاه ، فيما ولّاه ؛ والاعتماد

قلتُ : وقد أتيتُ على جملةٍ من توابع أرباب الوظائف : بدمشق وحلب
وطرابلس وأعمال كل منها ، يستغني بها الماهر عما سواها ، ويقيس عليها ما عداها ،
إذ لا سبيل إلى استيفاء جميعها ، والإتيان على جملةا .

وفيما ذكر من هذه الممالك الثلاث تنبيه على ما يكتب بحجة وصدد اللتين هما
في رتبة طرابلس ، وتلويح إلى ما عداها ، مما هو دونها كغزة إذا كانت نيابة ،
والكرك التي هي دون ذلك .

والله تعالى هو الهادي إلى التوفيق ، والمرشد للسداد ، بمنه وكرمه .

تم الجزء الثاني عشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر

واژه المقالة السادسة

(فيما يكتب في المساحات ، والاطلاقات السلطانية ، والطرخانيات
وتحويل السنين والتذاكر ، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين : وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه وآلهمين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء الثاني عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- القسم الثانى — مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية
ما يكتب لأرباب الوظائف بالملك الشامية ،
وهى على ضربين ٥
- الضرب الأول — من لا تصدر عنه منهم تولية فى عمل نيابته ... ٥
» الثانى — من تصدر عنه التولية والعزل فى عمل نيابته ،
وهى سبع نيابات ٦
- النيابة الأولى — نيابة دمشق ، ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام ،
ووظائفها على نوعين ٧
- النوع الأول — ما هو بحاضرة دمشق ، ويشتمل ما يكتب به عن
الأبواب السلطانية على أربعة أصناف ٨
- الصنف الأول — أرباب السيوف ، وهم على طبقات ٨
- الطبقة الأولى — من يكتب له تقليد فى قطع الثلاثين ٨
- » الثانية — من يكتب له تقليد فى قطع النصف ... ٢٤
- » الثالثة — من يكتب له مرسوم ، وهى على مرتبتين ... ٢٦
- المرتبة الأولى — من يكتب له فى قطع النصف ٢٦
- » الثانية — من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب
السيوف ما يكتب فى قطع الثلاث ٣٣
- الصنف الثانى — من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية ، وجميع
ما يكتب فيها تواقع ، وهى على مرتبتين ٣٨
- المرتبة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف الخ ٣٨
- » الثانية — ما يكتب فى قطع الثلاث الخ ٥٩
- الصنف الثالث — تواقع أرباب الوظائف الديوانية ، وفيها مرتبتان ... ١٦
- المرتبة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف الخ ١٦
- » الثانية — من يكتب له فى قطع الثلاث الخ ١٩

- صنف الرابع — وظائف المتصوفة ومشايخ الخواص، وفيها مرتبتان ١٠١
- المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع الثلث الخ... ١٠١ ...
- » الثانية — من يكتب له في قطع العادة الخ... ١٠٣ ...
- النوع الثاني — من وظائف دمشق ما هو خارج عن حاضرتها ١٠٤
- الطبقة الأولى — ما يكتب به مرسوم في قطع النصف ... ١٠٦ ...
- الصنف الثاني — ممن هم خارج دمشق أمراء العرب، وهم على طبقتين ١١٨
- الطبقة الأولى — من يكتب له منهم تقليد في قطع النصف ... ١١٨ ...
- » الثانية — من يكتب له مرسوم شريف، وهم على مرتبتين... ١٢٤ ...
- المرتبة الأولى — من يكتب له في قطع النصف ... ١٢٤ ...
- » الثانية — من يكتب في قطع الثلث ... ١٣٥ ...
- النيابة الثانية — من نيابات البلاد الشامية نيابة حلب، ووظائفها
- التي يكتب بها من الأبواب السلطانية على نوعين... ١٤٠ ...
- النوع الأول — من بحاضرة حلب، وهم على أصناف... ١٤٠ ...
- الصنف الأول — منهم أرباب السيوف، وهم على طبقتين ... ١٤٠ ...
- الطبقة الأولى — من يكتب له تقايد في قطع الثلثين ... ١٤٠ ...
- » الثانية — من يكتب له في قطع الثلث ... ١٥١ ...
- الصنف الثاني — أرباب الوظائف الدينية بحلب، وهم على طبقتين ١٥٥
- الطبقة الأولى — من يكتب له في قطع الثلث الخ... ١٥٥ ...
- » الثانية — من يكتب له في قطع العادة ... ١٦٠ ...
- الصنف الثالث — من أرباب الوظائف بحلب أرباب الوظائف
- الديوانية، وهم على طبقتين ... ١٦٠ ...
- الطبقة الأولى — من يكتب له في قطع الثلث ... ١٦٠ ...
- » الثانية — من يكتب له في قطع العادة... ١٦٧ ...

النوع الثانى - من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية من

- خارج عن حاضرتها ، وهم على أصناف ... ١٦٨ ...
 الصنف الأول - أرباب السيوف ... ١٦٨ ...
 » الثانى - الوظائف الدينية ... ١٧٤ ...
 » الثالث - الوظائف الديوانية ... ١٧٥ ...

النيابة الثالثة - نيابة طرابلس ، ووظائفها التى جرت العادة بالكتابة فيها

- من الأبواب السلطانية على نوعين ... ١٧٦ ...
 النوع الأول - ما هو بحاضرة طرابلس ، وهو على ثلاثة أصناف ... ١٧٦ ...
 الصنف الأول - أرباب السيوف ، وهم على طبقتين ... ١٧٦ ...
 الطبقة الأولى - من يكتب له تقليد ... ١٧٦ ...
 » الثانية - من يكتب له مرسوم فى قطع الثلث ... ١٧٩ ...
 الصنف الثانى - الوظائف الدينية ، وهم على مرتبتين ... ١٨٢ ...
 المرتبة الأولى - من يكتب له فى قطع الثلث ... ١٨٢ ...
 » الثانية - من يكتب له فى قطع العادة ... ١٨٧ ...
 الصنف الثالث - الوظائف الديوانية ، وهم على مرتبتين ... ١٨٨ ...
 المرتبة الأولى - ما يكتب فى قطع الثلث ... ١٨٨ ...
 » الثانية - من يكتب له فى قطع العادة ... ١٩٤ ...

النوع الثانى - ما هو خارج عن حاضرة طرابلس ، وهم على ثلاثة أصناف ... ١٩٥ ...

- الصنف الأول - أرباب السيوف ، وهم على طبقتين ... ١٩٥ ...
 الطبقة الأولى - الطبلخاناه ... ١٩٥ ...
 » الثانية - العشرات ... ١٩٧ ...
 الصنف الثانى - الوظائف الدينية ... ١٩٨ ...
 » الثالث - أرباب الوظائف الديوانية ... ٢٠٠ ...

النِّبَاةُ الرَّابِعَةُ - نِيَابَةُ خِمَاةٍ، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ

الصف الأول - أرباب السيوف

» الثاني - أرباب الوظائف الدينية

النيابة الخامسة — نيابة صفد، ووظائفها على ثلاثة أصناف

الصف الأول — أرباب السيوف، وفيه وظيفتان ٥

الوظيفة الأولى — نيابة السلطنة

» الثانية — نياية قلعة صفد ٨

الصف الثاني - أرباب الوظائف الديوانية ١١

» الثالث — أرباب الوظائف الدينية ١١

النيابة السادسة — نيابة غزة، ووظائفها على صفحين ١٢

الصف الأول — أرباب السيوف ٢١٢

» الثاني — الوظائف الديوانية بعزة ٢١٩

النيابة السابعة - نيابة الكرك، وأرباب الولايات فيما على أصناف ... ٢٢٠

الصف الأول — أرباب السيوف ٢٢٠

» الثاني - أرباب الوظائف الدينية ٢٣٢

الثالث - أرباب الوظائف الديوانية ٢٣٢

القسم الثالث - مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية

بالديار المصرية ما يكتب لأرباب الوظائف

بالمملكة الحجازية، وتشتمل على ثلاث قواعد ٢٣٢

القاعدة الأولى - مكة المشرفة، وبها وظيفتان ٢٣٣

الوظيفة الأولى - الإمارة ٢٣٣

» الثانية - قضاء مكة ٢٤٠

القاعدة الثانية - المدينة النبوية، وبها ثلاث وظائف ٢٤٢

- ٢٤٢ الإمارة — الأولى
- ٢٥٨ القضاء — الثانية »
- ٢٦٠ مشيخة الحرم الشريف — الثالثة »
- ٢٦٢ النيابة واحدة وهى النيابة — اليئع ، وبها وظيفة
- ٢٦٥ سبيل الدور — مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية
- ٢٨٠ من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من
- ٢٨٠ في مقدمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصد
- ٢٨٠ في بيان من تصدر عنه الولايات من تواب السلطنة
- ٢٨١ بالممالك الشامية — الثانى »
- ٢٨٢ فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات — الثالث »
- ٢٨٣ فى بيان الألقاب ، وفيه أصناف ... — الرابع »
- ٢٨٥ أرباب السيوف ، ولألقابهم مراتب ... — الصنف الأول
- ٢٨٧ وفيهم مراتب ... — الثانى »
- ٢٩٠ فى مراتب ... — الثالث »
- ٢٩٢ من أرباب الولايات بالممالك الشامية مشايخ الصوفية — الرابع »
- ٢٩٣ من أرباب الولايات بالممالك الشامية أمراء العربان — الخامس »
- ٢٩٣ من أرباب الولايات بالممالك الشامية أرباب — السادس »
- ٢٩٣ الوظائف العادية — السابع »
- ٢٩٤ أهل الذمة — من أرباب الولايات بالممالك الشامية زعماء

- المقصد الخامس - في بيان مقادير قطع الورق المستعمل فيما يكتب عن نواب الممالك الشامية ... ٢٩٤
- » السادس - في بيان ما يكتب في طرة التواقيع ... ٢٩٥
- » السابع - في بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع ... ٢٩٩
- الطرف الثاني - في نسخ التواقيع المكتتة عن نواب السلطنة بالممالك الشامية، وفيه ثلاث نيابات ... ٢٩٩
- النيابة الأولى - الشام، والتواقيع التي تكتب بها على خمسة أصناف ... ٣٠٠
- الصف الأول - ما يكتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين ... ٣٠٠
- الضرب الأول - ما هو بحاضرة دمشق، وهو على مراتب ... ٣٠٠
- المرتبة الأولى - ما يفتح بالحمد لله ... ٣٠٠
- » الثانية - ما يفتح بأما بعد حمد الله ... ٣٠٤
- » الثالثة - ما يفتح برسم بالأمر العالي ... ٣٠٦
- الضرب الثاني - ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف من هو بأعمال دمشق، ومواضعهم على ثلاث مراتب ... ٣١١
- المرتبة الأولى - ما يفتح بالحمد لله ... ٣١١
- » الثانية - ما يفتح بأما بعد حمد الله ... ٣١٧
- » الثالثة - ما يفتح برسم ... ٣٢٥
- الصف الثاني - تواقيع أرباب الوظائف الدينية، وهي على ضربين ... ٣٣٧
- الضرب الأول - ما يكتب لمن هو بحاضرة دمشق، وهو على ثلاث مراتب ... ٣٣٧
- المرتبة الأولى - ما يفتح بالحمد لله ... ٣٣٧
- » الثانية - ما يفتح بأما بعد حمد الله ... ٣٥٩
- » الثالثة - ما يفتح برسم بالأمر ... ٣٧٢

- صفحة
- الضرب الثانى — ما يكتب به لمن هو بأعمال دمشق ، وهو على مرتبتين ٣٧٧
- المرتبة الأولى — ما يفتح بأما بعد حمد الله ... ٣٧٧
- » الثانية — ما يفتح برسم بالأمر ... ٣٧٩
- الصنف الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية ،
- وهى على ضربين ... ٣٨٣
- الضرب الأول — ما يكتب لمن بحاضرة دمشق منهم ،
- وهو على ثلاث مراتب ... ٣٨٣
- المرتبة الأولى — ما يفتح بالحمد لله ... ٣٨٣
- » الثانية — ما يفتح بأما بعد حمد الله ... ٣٩٠
- » الثالثة — ما يفتح برسم بالأمر الشريف ... ٣٩٣
- الضرب الثانى — ما هو خارج عن حاضرة دمشق ، وغالب ما يكتب
- فيها من التواقيع مفتح برسم ... ٤٠٤
- الصنف الرابع — تواقيع مشايخ الخواثق ، وهى على ضربين ... ٤١٠
- الضرب الأول — ما هو بحاضرة دمشق ، وهى على ثلاث مراتب ... ٤١٠
- المرتبة الأولى — ما يفتح بالحمد لله ... ٤١٠
- » الثانية — ما يفتح بأما بعد حمد الله ... ٤١٧
- » الثالثة — ما يفتح برسم بالأمر ... ٤١٩
- الضرب الثانى — ما هو بأعمال دمشق ، وفيه مرتبة واحدة
- وهى الافتتاح برسم ... ٤٢٠
- الصنف الخامس — تواقيع العزبان ... ٤٢٢
- » السادس — تواقيع زعماء أهل الذمة من اليهود والنصارى ٤٢٤
- النيابة الثانية — نيابة حلب ... ٤٢٨
- » الثالثة — نيابة طرابلس ... ٤٥٠

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالت

الشيخ أبي العباس أحمد بن القلقشندي

الجزء الثالث عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

س ١٣٣٧ هـ
م ١٩١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمّد وآله وصحبه

المقالة السادسة

فيما يُكتب في [الوصايا الدينية^(١)، والمسامحات، والإطلاقات السلطانية والطرحانيات، وتحويل السنين والتذاكر؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما تقدّماء الكتاب من ذلك

اعلم أنه كان تقدّماء الكتاب بذلك عنايةً عظيمةً بحسب ما كان للولوك من الإقبال على معالم الدين، ومن أكثرهم عنايةً بذلك أهل الغرب : لم يزالوا يكتبون بمثل ذلك إلى نواحي ممالكهم، ويقرأ على منابرهم؛ وطُعم في ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة. وهذه نسخة من ذلك كتب بها أبو زيد الداراري : أحد كتّاب الأندلس عن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين المنصور^(٢) : أحد خلفاء بني أمية بالأندلس، وهي :

(١) الزيادة من ج ١ ص ٢٦ من هذا المطبوع .

(٢) ليس في خلفاء بني أمية بالأندلس من اسمه المنصور، وإنما المنصور هو ابن أبي عامر كان تغلب على هشام بن الحكم الأموي واستبدّ بالأمر وتغلب من بعده أبوه المنصور ثم أخوه المنصور عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله، ثم انقرضت دولتهم وصادت الدولة إلى بني أمية فغلب هشام هذا ويورثه ابنه محمد الملقب بالمهدي . انظر "فتح الطيب" ج ١ و"الدر" ج ٤ و"صبح الأعشى" ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ من هذا المطبوع .

الحمد لله الذى جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصليين تنفّرع عنهما مصالحُ الدنيا والدين ، وأمر بالمعروف والإحسان إرشاداً إلى الحق المبين ، والصلاة على سيدنا محمد الكريم المبتعث بالشرعية التى طهرت القلوب من الأدران وأستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان طوراً بالشدة وتارة باللين ، القائل (ولا عدولَ عن قوله عليه السلام) «مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ» تنبيها على ترك الشكّ لليقين ، وعلى آله الكرام أعلام الإسلام الملتقيين راية الأهداء فى إظهار السنن وإيضاح السنن باليمن ؛ الذين مكّتهم الله تعالى فى الأرض فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر : وفاءً بالواجب لذلك التمكن .

والرضا عن الأئمة المظهرين للدين المتين ، البالغين بالبلاد والعباد نشرًا للعدل وإتمامًا للفضل إلى أقصى غاية التمهيد والتأمين ، رضى الله عنهم أجمعين ! وعن تابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ! .

وإنا كتبناه لكم - كتب الله لكم أتباعاً إلى ما ينهى من المصالح إليكم ، وأستماعاً إلى ما يئتى من المواعظ عليكم - من حضرة إشبيلية - كلاًها الله - .

والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه ، وأن تعلموا أنا لم نقيم هذا المقام الذى حفظ الله به نظام الحق من انتشاره ، وأمدنا بعونه الجميل على إحياء الدين وإفاضة أنواره ، إلا لنتوفى كلّ نظر يعود على الأمة باستقامة أنهارها وأولآها ، ونهيب بها إلى أسمى رتب السعادة وأعلاها ، ونوقظ بصائرنا بنافع الذكري من كراها . فعليها لها بحكم ماتقلدناه من إمامتها ، وتخلّنا من أمانتها ، أن نتخولها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونرشدّها إلى المناهج الواضحة والسبل البينة ، ونفضي على خاصتها وعامتها ظلّ الدعة والأمنة ، وإذا كنا نوفيها تمهيد دنيائها ،

ونعني بحماية أفضاها وأذناها ، فالدين أهم وأولى ، والتهمم باحياء شرائعه وإقامة شعائره أحق أن يقدم وأخرى . علينا أن نأخذ بحسب ماأمر به ونَدَع ، ونتبع السنن المشروعة ونَذَر البدع . ولها أن لا ندخر عنها نصيحة ، ولا نُغَيِّبَ إرادته من الأدواء مُريجه . ولنا [عليها] أن تُطِيع وتُسمع ، وقد علم الله أنا لم نتحمل أمانة الإسلام ، لنستكثر من الدنيا وزُخُفِها ، ولم نتصد لهذا المقام ، لنستأثر بنعيمها وترَفِها ، وإنما كان قصدنا قبل وبعد إقامة الكفاية في أوثر قرأها وأوطأ كنفِها ، وبحسب هذه النية التي طابقتها العمل ، ولم يتعدّها الأمل ، نيلت من الخيرات نهايات ، كانت الخراطير تستبعد منالها ، وتيسرت إرادات ، كانت الأمة منذُ زمان لم ترميها ، وساعدت العناية الربانية فلم تُؤن مقصوداً جميلاً ، ولا مناً جزيلاً .

وإلى هذا - أدام الله كرامتكم - فإننا لم نزل مع طول المباشرة للأحوال كلها ، وتردد المشاهدة لعقد الأمور وحالها ، نقف وقوف المتأمل على جزئيات الأمور ووكلياتها ، ولا يغيبُ عن تصفُّحنا وتعرُّفنا شيء من مصالح الجهات وكيفياتها ، ولم نمُتْ بمائل إلا تولينا إقامته ، وأعدنا إليه اعتداله واستقامته ، ولا آتينا إلى صواب قول أو عمل إلا شددنا مَبْنَاه ، وأظهرنا لفظه ومعناه .

والآن حين آستوفى إشرافنا على البلاد قاطبه ، ولزمنا بحكم القيام لله في خلقه بحقه أن نتعهد الكفاية دانية ونائية وشاهدة وغائبة ، ورجونا أن نتخلص من القسم الأول في قوله عليه السلام : «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَّقْ بِهِمْ فَارْقُ بِهِ» بأعمال على الرفق دائية ، وعلى الحق مواظبه - صرفنا أَعْنَةَ الاعتناء بجوامع المصالح فرأينا الدين ينظم تبددّها ، ويستوعب تعددّها ، لا تشدُّ مصلحة عن قوانينه ، ولا تُنَالُ بركة إلا مع تحصينه وتحسينه ، والله تعالى يُعيننا وإياكم على إقامة حدوده ، وإدامة

عهوده . وأول ما يتناول به الأمر كافة المسلمين الصلاة لأوقاتها ، والأداء لها على
أكل صفاتها ، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان في جماعاتها ، فقد قال عليه السلام :
« أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ الصَّلَاةُ ، فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا
فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعٌ » . وقال عمر رضى الله عنه : « وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ
الصَّلَاةَ » فهي الركن الأعظم من أركان الإيمان ، والأُسُّ الأوثق لأعمال الإنسان ،
والمواظبة على حضورها في المساجد ، وإيثار الصلاة الجماعة من المزية على صلاة
الواحد ، أمر لا يضيِّعه المُفْلِحُونَ ، ولا يحافظُ عليه إلا المؤمنون . قال ابن مسعود
رضى الله عنه : « لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ
الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهْدَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ » وشهود الصبح والعشاء
الآخرة شاهدٌ بتمحيص الإيمان ، وقد جاء : « إِنَّ شُحُودَ الصُّبْحِ فِي جَمَاعَةٍ يَعْدِلُ
قِيَامَ لَيْلَةٍ » وحسبكم بهذا الرُّجْحَان . والواجب أن يُعْتَنَى بهذه القاعدة الكُبْرَى من
قواعد الدين ، ويُؤخَذَ بها في كافة الأمصار الصغير والكبير من المسلمين ، ويُحَظَّ
في التزامها قوله عليه السلام : « مُرُّوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لَعَشَرِ
سَنِينَ » . وبحسب ذلكم رأينا أن نُلزِمَ جَارَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وأميرَ كُلِّ سُوقٍ وشيخَ
كُلِّ رُقَاقٍ ومُعَلِّمَ كُلِّ جِهَةِ الْإِتْدَابِ لهذا السعى الكريم ، واليدار لما فيه من الأجر
العظيم ، وأن يُحْضَرَ كُلٌّ مِنْ فِي جِهَتِهِ أَوْ سُوقِهِ أَوْ حَوْمَةِ مَسْجِدِهِ أَوْ مَوْضِعِ صَنْعَتِهِ
أَوْ تِجَارَتِهِ أَوْ تَعْلِيمِهِ عَلَى الصَّلَاةِ وحضورها ، والاعتناء بأحكام طُهورها ، وأن لا يتخلف
عن الجماعة إلا لِعُدْرَيْنِ ، أو أمرٍ يكون معه الشُّهُودُ غيرَ مُمْكِن . وعليهم أن يلتزموا
هذه الوظيفة أتمَّ التَّامِّ ، ويقوموا بها مُؤَجَّجِينَ أَحْسَنَ قِيَامٍ ، ويُسَمِّرُوا عَنْ سَاعِدِ
كُلِّ جِدِّ وَأَعْتَرَامٍ ، ويتعرفوا كُلٌّ مِنْ تَحْتَوَى عَلَيْهِ الْمَنَازِلُ مِنْ بَلَّغِ حَدِّ التَّكْلِيفِ مِنْ
الرَّجَالِ ، ويتعهدوهم الْحَيْنَ بَعْدَ الْحَيْنِ وَالْحَالَ إِثْرَ الْحَالِ ، وَيَطْلُبُوهُمْ بِالذِّكْرِ بِمُلَازِمَةِ

هذا العمل الذي قدّمه الله على سائر الأعمال . ويحذر المسلم أن يواقع بإضاعة المكتوبة أمرا إمرأ ، ويترك من فرائض الإسلام ما يقتل متعمدا تركه حدا أو كفرا . وعلى معلمي كتاب الله أن يأخذوا الصبيان بتعلم الصلاة والطهارة والإدابة لإقامتها والموالاتة وحفظ ما أقام به وأقل ذلك سورة فاتحة الكتاب . وعلى كل إنسان في خاصته أن يأخذ صغار بنيته وبناته وسائر أهله ومن إلى نظره بذلك ويأمرهم به ، قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « كلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته » .

ثم أعلموا أن الصلاة بما آثرها الله به من وظائفها الشريفة ، وخصائصها المنيعة ، تنظم من أعمال البر ضرورا لا تختصر ، وتغصم من موقعة ما يشاء وينكر ، وتخطي من الخيرات العظيمة الجسيمة بالقسم الأوفى الأوفر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ ﴾ . ونحن لا نوسع تاركها بحال عذرا ، ولا نُؤخّرله عقبا وزجرا ، ولا نزال نجبره على إقامتها قسرا ، وإذا استمرّ التعهّد لها مع الأحيان ، وعمل الناس بما جددناه من إجزاء التذكير بها بين القرابة والصّحابة والخيران ، وتواصوا بالمحافظة عليها حسب الإمكان ، لم تزل بيوت أذن الله تعالى أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه معمورة بتلاوة القرآن ، ولم تنفك إلا للإقامة عن الأذان .

ومما يزيد هذه الوظيفة تأكيدا ، ويوقّ قواعدها تشبيدا ، درس كتاب الصلاة والطهارة حتى يستكوه وعيا وحفظا ، ويؤدّوا مضمّنه لفظا فلفظا ، ففي ذلك من الإشراف على أحكام العبادتين ما تبيّن مزيته وفضله ، ولا يسع المؤمن بحال جهله ، ثم إذا أحكموه انتقلوا إلى درس كتاب الجهاد ، وعمرّوا الآناء بتعرّف ما أعدّ الله للجهاديين من الخير المستفاد ، فالجهاد في سبيل الله فرض على الأعيان ، وقد تأكّد

تعيّنه لهذه البلاد المجاورة لعبادة الأصنام والصُّلْبَان، ونرجو أن يُخَيِّرَ الله ما وعد به من الفتح القريب لأهل الإيمان، وليطلبوا الناس بعرض ما يتدارسون تثبيتاً لمحفوظاتهم، واستزادةً لقسمهم من الأجر وحُظوظهم .

ومن مقدّمات الجهاد، وأقوى أسباب الاعتداد، تعلّم الرماية التي ورد الحَضُّ عليها، وندب الشرع إليها، قال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «ألا إن القُوَّةَ الرَّمِيَّ» قالها ثلاثاً: فَاطْفِرُوا النَّاسَ بتعلمهم، ولتربّوهم طبقاتٍ على قدر إجادتهم وتقدّمهم، قال عليه السلام: «مَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا أَوْ قَالَ كَفَرَهَا» . وقال عليه السلام: «مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَبَّغَ الْعَدُوَّ أَوْ لَمْ يَلْبُغْ كَانَ لَهُ كَعَتَقِ رَقَبَةٍ» .

وليعلّموا أنهم يُطْلَبُونَ في وقت الحاجة بما يُثْمَرُه هذا التأكيد من يدّارهم، ويترتب عليه من آثمارهم، وليحِرِّصُوا على أن يُلْفَى عددهم وافرّاً في حالتهم إيرادهم وإصدارهم .

ومما فيه مصلحةٌ كريمةُ الأثر، واضحةُ الجُول والغرر، يكون ذِكْرُها جَمِيلاً، وأجرُها جَزِيلاً، تعهّد الضّعفاء والفقراء، وإسماؤهم من الكثير كثيراً ومن القليل قليلاً بحسب الإصابة والرخاء، ووضعُ الصدقات في أهل التعفّف الذين لا يسألون الناس الخافاً أوّل ما يجيئ حين العطاء، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ التَّمَرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَإِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُقْطَنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ» فتفقّدوا هذا الصنف فهو أوّلُ بالإيثار، وأحقُّ أهل الإقتار، والمؤمّنون إخوة ويُعْنَى الجارُ بالجار، وليُعْنِ الغنيُّ الفقير فذلك من مكارم الآثار .

والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفةٌ تعيَّنَت إقامتها على المسلمين جميعاً فمن رأى منكراً فليُنهِه إليكم وعليكم تغييره وتَعْفِيَةُ أثره على ما يوجبُه الدين ويقتضيه ، وليأخذوا الحق من كل من تعيَّن عليه سواء في ذلك القوي والضعيف ، والمشرُوف والشرِيف . وكل من ارتكب منكراً كائناً من كان ، عزَّ قدره أو هان ، فليبالغ في عقابه ، وينكَل على قدر ما ارتكب من المنكر وأتى به ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » وقال لأسامة في الحديث نفسه « أَلْتَسْقِعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ » وقد حدَّ عمر رضي الله عنه ولده ، وحدَّ عثمان رضي الله عنه أخاه .

فلتكن هذه الوظيفة منكم بمرأى ومسمع ، ولتسلُّكوا في إقامتها على الخامل والنبية أَوْضَحَ مَهَيِّع ، ووفُّوا المعروف حقَّه من الإظهار ، وتلقَّوا المنكر بأنم وجوه الإنكار ، ثم عليكم أجمعين بالتواصي بالخير والتعاون على البر والتقوى ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ . وقال عليه السلام : « لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

وبالجملة فعلى المؤمن أن يستنفذ وسعته في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف من بعده ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ؛ ولم ينشأ ما نسا من الأحوال ، ولا طراً في هذه الأمة ما طراً من الاختلال ، إلا بمفارقة الاقتداء الذي هو للدين رأس المال ، ورضي الله عن عمر حيث قال : « فُرِضَتِ الْفِرَائِضُ وَسُنَّتِ السُّنَنُ وَتُرِكَتُمْ عَلَى الْوَاحِجَةِ إِلَّا أَنْ تَضِلُّوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَشِمَالًا » .

ومن أشد المنكرات بغير نكير وجوب تغيير الخمر التي هي أس الإثم والفجور ، وأثم الخبائث والشُرور ، وأُس كل خطيئة ورأس كل محذور ، فليشتدَّ أثم الاشتداد

في أمرها ، ويبحث غاية البحث عن مكان عصرها ، ويتفقد الأماكن المتهمة
ببيعها ، ويتسبب بكل وجه وكل طريق إلى قطعها . وليبادر حيث كانت إلى إراقة
دنانها ، وليبالغ إلى أقصى غايات الاجتهاد في شأنها ، وإن الله لعن الخمر وعاصرها
ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ، فليتيق الله ممن شربها فإنها رجس من عمل
الشیطان ، وليحذر ما في قوله عليه السلام : « لَا يَشْرَبُ الْمُؤْمِنُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا
وهو مؤمن » : من إخراجها عن أهل الإيمان ؛ وشرب الخمر لحاج في الطبع ، فلا خير
فيها مع الاعتناء المبني على الشرع ، ولو نهى الناس عن فت البعر لفتوه حرصا غالبا على
ما تقدم فيه من الزجر والمنع ؛ فمن عثر عليه بهد من شارب لها أو عاصر ، مستسرها
أو مجاهر ، فليضرب الضرب المبرح ، ويسجن السجن الطويل ، وليبق إلى أن تصح
توبته صحة لا تحتل التأويل ؛ ثم إن عاد فالحسام المصمم يحسم داءه إذا أعضل ،
ويصد به سواه عما استحل من هذا الحرام واستسهل .

ومن أشد ما حذر منه ، وأكّد النهي عنه ، كتب الفلاسفة لعن الله واضعها !
فإنهم بنوها على الكفر والتعطيل ، وأخلوها من البرهان والدليل ، وعدلوا بها ضللا
وإضللا عن سواء السبيل ، وجعلوها نكاة لعقائدهم ومقاصدهم الخيلة ركونا إلى
الباطل وتمسكا بالمستحيل . وقد كان سيدنا الإمام المنصور رضى الله عنه قد جد فيها
بالتحريق والتمزيق ، وسد بامضاء عزمه المسدد ورأيه المؤيد وجوه طلابها بكل
طريق ، فحسبنا أن نقندين في ذلك بأثره الجميل ، ونأخذ في إحراقها حيث وجدت
وإهانة كاتبيها وطالبيها وقاريها ومقرريها ، ولا يعدل عن السيف في عقاب من أنتحلها
وأستوهبها وإن السيف في حقه قليل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تَرَكْتُ
فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه » وبحسب العاقل كتاب
الله وسنة الرسول .

ويتعلق بهذا المنهى عنه ما أسترسل فيه مرّة أهل الأهواء ، والمتنكبون فيما تلبسوا به من الأدّران عن سنن الاهتداء ، أولئك قومٌ اعتقدوا إباحة المحظورات كلّها ، وعدّوا بياها ماتهم السخيفة ، ونحيلاتهم الضعيفة ، كلّ واهي العقْد منحلّها ، وأدّعوا أنهم من الملة وأعمالهم تقضى بأنهم ليسوا من أهلها ، فليُبَيِّحْ عن ذلك الصّنف الأوّل وهذا الثّان ، فذهبن أن نظهر دين الله ممّا لصق به من الأدّران ؛ وأن نُعيدهُ إلى ما كان عليه قَبْلُ والله المستعان .

ومن الوظائف التي يجب أن تعتنوا بها غاية الاعتناء ، وأن تقدّموا النظر فيها على سائر الأشياء ، أمرُ أسواق المسلمين فقد اتّصل بنا ما تطرّق للتّجارات من مُساحاتٍ تعفى عليها الخدع ، ولا يثّرُها إلا الحرّص والطّمع ، ولا تُوافِقُ الشرع ولا يُطابقها الورع ، حتى شاب أكثر المعاملات الفساد ، ولا يجري على القانون الشرعيّ في كثير من المبيعات الانعقاد ، وتصدّي المتحيّلون فيها لحيل يقصّدونها ، وأنواع لاجتلاب الشّحت يرضّدونها ، وربّما وردَ التاجر من القطر الشاسع ، وحسن الظن بالمشتري منه أو البائع ، فيبلّغ في خدعته ، والإضرار به في سلعته ، أسوأ المبالغ ، ويرتكب من محرم الخلافة ما ليس بالسائغ ، وسمِع من ذلك أن من لا يتقّى الله تعالى يلايس الرّبا في تجارته ، ويبنى عليه جميع إدارته ، وحفظ المكاسب من الخباياث أوجب الواجبات ، والحلال بين والحرام بين وبينهما أمورٌ متشابهات ، ويحقّق الله الرّبا ويربي الصدقات ، فلتنزّلوا الأئمّة المعروفين بالديانة ، المشهورين بالأمانة ، تفقّد هذه الأسواق ، وليخصّ كلّ أمين من تشمّل عليه سوقه من التّجار ، وليعرف المختار منهم من غير المختار ، ومن لا يصلح للتجارة في سوق المسلمين يُقام منها على أسوأ حال ، ومن عثر منهم على ربا في معاملته عاجلتموه بأشدّ العقاب وأسوأ النّكال ، خلّصوا المتاجر من الشوائب ، ومروهم بأن يسيروا في بيعهم وشرائهم وأقتضائهم على

أجل المذاهب ، وأن يُحذروا الغش فقد قال عليه السلام : «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»
والإكتفاء من الإيمان من أعظم المصائب ، وإذا اعتبرت في المبيعات الوجوه
الشرعية وحُظت الأحكام زكى الله عمل التاجر ، وبورك له فيما يُدير من المتاجر .
ثم لتوصوا كل من تقدمونه لشغل من الأشغال أن يبدأ بصلاح نفسه قبل سواها ،
وأن يلتزم الأعمال التي يؤثرها الله تعالى ويرضاها ، وحذروهم كل الحذر أن تقفوا لهم
على ما يشين ، أو تسمعوا لهم قبيحا يخفى أو يبين ، فمن سمعتم عنه أدنى سبب من هذا
فعاجلوه بالعقاب الشديد ، والنكال المييد ، إن شاء الله تعالى والسلام .

قلت : وعلى هذه المعاني والأمور المأمور بها في هذا الكتاب قد كانت الخلفاء
تكتب بها في المكتبات على أنحاء متفرقة على ما تقدم في مقاصد المكتبات من
المقالة الرابعة ، وكانوا يؤلون على الصلاة والمساجد من يقوم بأمرها على ما تقدم ،
وإن أكثر هذه الأمور الآن مضمّنة في مواقع أصحاب الحسبة على ما تقدم ذكره
في الكلام على الولايات في المقالة الخامسة وبالله التوفيق .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة السادسة

(فيما يكتب من ذلك في زماننا)

وهو قليل : لقلة الاعتناء بأمر الدين والأكتفاء في ذلك بالتفويض إلى متولى
الحسبة ، إلا أنه ربما كتب في ذلك في الأمور المهمة عند تعدى الطور في أمر
من الأمور الدينية ، والخروج فيه عن الحد .

ثم هو على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكْتَبُ عن الأبواب السلطانية)

وهذه نسخة توقيع شريف من هذا النوع كُتِبَ به في الأيام
 على أهل الذمة رقيق^(١) حين كثر شراء أهل الذمة من اليهود والنصارى العبيد والجواري
 وتهويدهم وتصيرهم .

(١) لم يذكر نسخة التوقيع بل كتب بهامش غير نسخة مانصه "بياض مقدار ورقة" .

الضرب الثاني

(مما يُكتب في الأوامر والنواهي الدينية - ما يُكتب

عن نواب السلطنة بالمالك)

وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صيدا ويروت وأعمالها من اعتقاد الرافضة
والشيعة وردعهم ، والرجوع إلى السنة والجماعة ، واعتقاد مذهب أهل الحق ، ومنع
أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة ، والتعرض إلى أحد من الصحابة
رضوان الله عليهم أجمعين ؛ وأن لا يدعوا سلوك [طريق] أهل السنة الواضحة ،
ويمشوا في شرك أهل الشك والضلال ، وأن كل من تظاهر بشيء من يدعهم قول
بأشد عذاب وأتم نكال ، وليحمد نيران يدعهم المذهب ، وليبادر إلى حسم فسادهم
بكل همه ، وتصريفهم عن ^(١) اعتبره ، وتطهير بواطنهم من ردالة اعتقادهم
الباطل إلى أن يعانوا جميعهم بالترضى عن العشرة . وليحفظ أنسابهم بالعقود
الصحيحة ، وليدأوموا على اعتقاد الحق والعمل بالسنة الصريحة . في خامس عشرين ^(٢)
جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعائة ، وهى :

الحمد لله الذى شرع الحدود والأحكام ، وجدع بالحق لأئوف العوام الأغنام
الطعام ، وجمع الصلاح والنجاح والفلاح فى الأخذ بسنة خير الخلق وسيد الأنام ،
وقفع الزائعين عما عليه أهل السنة من الحق فى كل نقض وإبرام .

نحمده على نعمه الحسام ، ومنته التى تؤمض بروقها ونشام ، وآلائه التى لا تُسَام
ولا تُسَام ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ليس لمن تمسك

(١) بياض فى الأصل ولعله « عن التهوك فى مهالك أهوائهم إلى مانص عليه الشرع واعتبره » .

(٢) كذا فى الأصل باثبات النون ونقل الصبان عن ابن هشام تلحين الكتاب فيه .

بِعُرْوَتِهَا الْوُثْقَى أَنْفِصَالٌ وَلَا أَنْفِصَامٌ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدَّاعِي إِلَى الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، وَالْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِوَاضِحِ الْإِرْشَادِ وَالْإِعْلَامِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَحْبَابِهِ الَّذِينَ هُمْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ، وَهُدَاةُ الْخَلْقِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ؛ خُصُوصًا أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ بِمَا وَقَرَ فِي صَدْرِهِ لَا بِبَزِيَّةٍ ضَلَالَةٍ وَلَا بِبَزِيدٍ صِيَامٍ، وَعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ أَعْظَمُ مَقَامٍ، وَمَنْ أَهْلُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ اتَّقَاءً وَانْتِقَامٍ، وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ الَّذِي جَمَعَ الْقُرَّانَ فَخَصَلَ لَشَمْلِ سُورِهِ وَآيَاتِهِ بِمَا فَعَلَ أَحْسَنُ النِّثَامِ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ مُحْتَسِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فَخَازَ مِنَ الثَّوَابِ رَتْبَةً لَا تُرَامُ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ صِهْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبْنَ عَمِّهِ وَوَارَثَ عِلْمَهُ اللَّهُامِ، وَالْمُجَادِلَ عَنْ دِينِهِ بِالْعِلْمِ وَالْمُجَاهِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحُسَامِ، وَالْبَاقِينَ مِنَ الْعَشَرَةِ الْكَرَامِ، صَلَاةٌ تُسْتَمَدُّ بِرُكَّتِهَا وَتُسْتَدَامُ، وَيَنْمُو فَضْلُهَا بِغَيْرِ اتَّقْضَاءٍ وَلَا أَنْصِرَامٍ .

وَبَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرْعِهِ الَّذِي آرْتَضَاهُ، وَدِينِهِ الَّذِي قَضَاهُ، وَحُكْمَهُ الَّذِي أَمْرَهُ وَأَمَضَاهُ؛ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَوْضَحَ الدَّلَالََةَ، وَأَفْصَحَ الْمَقَالََةَ؛ وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ طَوَائِفَ الْأَعْدَاءِ، وَأَمَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قَبُولِ قَوْلِهِ وَتَصْدِيقِهِ مِنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعَنَاءُ مِنَ الْأَوْدَاءِ؛ وَنَصَرَهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْحَاسِدِينَ حَتَّى مَاتَ كُلُّ مَنْهُمْ بِمَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الدَّاءِ؛ وَبَيَّنَّ الطَّرِيقَ، وَبَرَّهَنَ عَلَى التَّحْقِيقِ، فَأَعْلَنَ النَّذَارَةَ وَالْإِشَارَةَ، وَمَهَّدَ قَوَاعِدَ الدِّينِ تَارَةً بِالنَّصِّ وَتَارَةً بِالْإِشَارَةِ؛ وَتَمَّ الدِّينُ بِأَحْكَامِ أَحْكَامِهِ، وَشُدِّدَتْ قَوَاعِدُهُ بِإِعْلَاءِ أَعْلَامِهِ؛ وَعَمَّتِ الدَّعْوَةُ وَتَمَّتْ، وَفَشَّتِ الْهُدَايَةُ وَنَمَتْ؛ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي الدِّينِ أَرْسَالًا، وَبَلَغَتْ نَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ آمَالًا، وَأَصْبَحَتِ الْخَيْرَاتُ وَالْبَرَكَاتُ نَتَوَاتَرُ وَتَوَالَى، وَنَحَدَّتْ نَارُ الشَّرِّكَ وَطَفَفَتْ مَصَابِيحُ الضَّلَالَةِ وَوَحَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

فلما تكامل ما أراد الله تعالى إظهاره في زمانه، وتم ما شاء إبرازه في إبانته، وأعلنت الهداية، وُحيت الغواية، وقام عمود الدين، ودحضت حجة الملحدين، وأستوسق أمر الإسلام، وأستتب، وتبت يدا مناويهِ وتب - أختار الله تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم جواره وقربه، فقضى بحبه ولقي ربه، فقام خلفاؤه بعده بأثارة يقتدون، وبهديه وإرشاده يهتدون، ولأحكامه يتبعون، ولأوامره يستمعون، ولعماني ما جاء به يعون، وإلى قضايه يرجعون، لا يغيرون ولا يبدلون، ولا يتعزّضون ولا يتأولون، فقضى على ذلك الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون، لم يتيسع أحد منهم في زمانهم عقيدة فاسده، ولم يظهر أحد مقالة عن سواء السبيل حائده، ثم تفرقت الآراء، وتعددت الأهواء، وأختلفت العقائد، وتباينت المقاصد، ووهت القواعد، وتصادمت الشواهد، وتفرقت الناس إلى مفرق بالحق وجاحد، وظهرت البدع في المقالات، وضل كثير في كثير من الحالات، وتهاقت غالبيتهم في الضلالات، وقال كل قوم مقالة تضمنت أنواعا من الجهالات، وكان من أضعفهم عقلا، وأضعفهم نقلا، وأوهنهم حجة، وأبعدهم من الرشد حجة، طائفة الرافضة والشيعة، لأرتكابهم أمورا شنيعة، وإظهارهم كل مقالة فظيعة، وخرقهم الإجماع، وجمعهم قبيح الابتداع، فتبددوا فرقا، وسلكوا من فواحش الاعتقادات طرقا، وتنوع ناسهم، وتعددت أجناسهم، وتجروا على تبديل قواعد الدين، وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المرشدين، وقالوا ما لم يسبقوا إليه، وأعظموا الفرية فيما حملوا كلام الله ورسوله عليه السلام عليه، وبأوا بإثم كبير وزور عظيم، وعرجوا عن سواء السبيل نخرجوا عن الصراط المستقيم، وفأهرا بما لم يفقه به قبلهم عاقل، وانتحلوا مذاهب لا يساعدهم عليها نقل ناقل، وتحيّلوا أشياء فاسدة حالهم فيما تحيلها أسوأ من حال باقل، وتمسكوا بأثار

موضوعه ، وحكايات إلى غير التقات مرفوعة ؛ يُنقل عن أحدهم ما يُنقله عن مجهول غير معروف ، أو عن هو بالكذب والتدليس مشهور وموصوف ؛ فأذاهم ذلك إلى القول بأشياء - منها ما يُوجب الكفر الصراح ، ويُبيح القتل الذي لاحتج على فاعله ولا جناح - ومنها ما يقتضي الفسق إجماعاً ، ويقطع من المتصنف به عن العدالة أطعاما - ومنها ما يُوجب عظيم الزجر والنكال - ومنها ما يُقتضي بقاءه إلى الويل والويل . لعب الشيطان بعقولهم فأغواهم ، وصمهم إلى حربه وآواهم ، ووعدهم غرورا ومنّاهم ، وتمنّوا مغالبة أهل الحق فلم يبلغوا منهاهم ، مرقوا من الدين ، وخرقوا إجماع المسلمين ، وأستحلوا المحارم ، وآرتكبوا العظائم ، وأكتسبوا الجرائم ، وعدلوا عن سواء السبيل ، وتبوعوا من غضب الله شرّ مقييل . مذهبيهم أضعف المذاهب ، وعقيدتهم مخالفة للحق الغالب ، وآراؤهم فاسدة ، وقرائحهم جامدة ، والنقول والعقول بتكذيب دعاويهم شاهده ، لا يرجعون في مقالاتهم إلى أدلة سليمة ، ولا يرجعون في استدلالهم على طريق مستقيمة ؛ يعارضون النصوص القاطعة ، ويضطلون القواعد لجورد المنازعة والمدافعة ، ويقسرون كلام الله تعالى بخلاف مراده منه ، ويتجرّعون على تأويله بما لم يرده الله ولم يرده عنه ؛ فهم أعظم الأمة جهالة ، وأشدّهم غواية وضلالة ؛ ليس لهم فيما يدعونه مستند صحيح ، ولا فيما ينقلونه نقل صريح .

فلذا كانوا أقل رتبة في المناظره ، وأسوأ الأمة حالاً في الدنيا والآخرة ؛ وأحقّر قدرنا من الاحتجاج عليهم ، وأقلّ وضعنا من توجيه البحث إليهم ؛ أكابرهم مخطئون ، وأصاغرهم مثلهم ومعظمهم محبّطون ؛ بل كلهم ليس لأحد [منهم] حظ في الجدال ، ولا قدم في صحة الاستدلال ؛ ولو طُوب أحد منهم بصحة دعواه لم يجد عليها دليلاً ؛ ولو حُقق عليه بحث لم يلق إلى الخلاص سبيلاً ؛ غاية متكلّمهم أن يروى عن منكر من الرجال مجهول ، ونهاية متعلّمهم أن يُورد حديثاً هو عند العلماء موضوع أو معلول ؛ يطعنون

في أئمة الإسلام، ويسبون أصحاب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويدعون
أنهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بريء منهم، منزه
عما يصدر عنهم، فقد رُفِعَ عند الله والناس، ومَحَلُّهُ أَعْلَى بالنص والقياس، ويحرم
أن يُنسَبَ إليه الرضا بهذه العقائد، أو التقرير لهذه المفاسد، فإن طريقته هي المثل،
وسيرته هي العليا، فالأخذ بالحق إليه يُقُول، والصواب معه حيث يفعل أو يقول،
ولا يصح نقل شيء من هذا عنه، ولا يحل نسبة شيء إليه منه، ومنصبه أجل من
ذلك، ومكانه أعز مما هالك، غير أن هؤلاء يعرض لأحدهم في دينه شبهة، يقلد
فيها مثله في الضلالة وشبهه، ويتردد في نفسه من الغم برهنة لا يجد خلاصه منها
وجّهه، ولا يوجه قلبه إلى طلب النجاة منها وجّهه، ولا يقع نظره بصيرته على طريق
الصواب ولا يحقق كنهه، فيرتكب خطرا يوجب توبيخه في القيامة وجبهه، وتسود
في الموقف ناصية منه وجبهه، ويعتدم لتحصيره في الضلال عقله وفهمه وفقهه،
قد صرفوا إلى الطعن في العباد، ومخالفة رب الأرض والسماء، همهم وهمهم،
واقترأوا على الله كذبا فدّمهم وأباح دمهم، وقال لسان حال أمرهم أرا قدمهم أراق
دمهم، وهان دمهم فما ندّمهم.

وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها، وصيدا ونواحيها، وأعمالها
المضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها، ومن أرا ع كل من الجهتين ضياعها، وأصقاعها
وبقاعها، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقتروه، وبنوه
في العامة ونشروه، واتخذوه ديناً يعتقدونه، وشرعاً يعتمدونه، وسلكوا منهاجته،
وخاضوا لحاجته، وأصلوه وفرعوه، وتدينوا به وشرعوه، وحصلوه وفصلوه، وبلغوه
إلى نفوس أتباعهم ووصلوه، وعظموا أحكامه، وقدموا حكمه، وتسموا بتجيلة
وأعظامه، فهم بإطاله عاملون، وبمقتضاه يتعاملون، ولأعلام علمه حاملون، وللفساد

قائلون، وبغير السداد قائلون، وبحرم حرامه عائذون، وبحجى حمايته لائذون، وبكعبة ضلاله طائفون، وبسدة شدته عاكفون. وإلهم يسبون خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلون دم أهل السنة من المسلمين، ويستبيحون نكاح المتعة ويرتكبونه، ويأكلون مال مخالفيهم ويتهبونه، ويجمعون بين الأختين في النكاح، ويتدينون بالكفر الصراح، إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الجليث، والمذهب الذى ساوى فى البطلان مذهب التلث - فأنكرنا ذلك غاية الإنكار، وأكبرنا وقوعه أشد إكبار، وغضبنا لله تعالى أن يكون فى هذه الدولة للكفر إذاعه، وللعصية إشادة وإشاعة، وللطاعة إخافة وإضاعة، ولالإيمان أزجى بضاعة، وأردنا أن نبهز طائفة من عسكر الإسلام، وفرقة من جند الإمام، تستأصل شائفة هذه العصبة الملعونة، وتظهر الأرض من رجس هذه المفسدة، ثم رأينا أن نقدم الإنذار، ونسبق إليهم بالإعذار، فكتبنا هذا الكتاب، ووجهنا هذا الخطاب، ليقرأ على كافهم، ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم، يعلمهم أن هذه الأمور التى فعلوها، والمذاهب التى اتبعوها، تبيح دماءهم وأموالهم، وتمتضى تعميمهم بالعذاب واستئصالهم، فإن من استحل ما حرم الله تعالى وعيرف كونه من الدين ضرورة فقد كفر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَأَفَ﴾ عطفًا على ما حكم بتحريمه، وأطلق النص فتعين حمله على تعميمه، وقد آنقد على ذلك الإجماع، وأنقطعت عن مخالفته الأطلاع، ومخالفة الإجماع حرام بقول من لم يزل سميعا بصيرا ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. ونكاح المتعة منسوخ، وعقده فى نفس الأمر منسوخ، ومن ارتكبه بعد علمه بتحريمه واشتباره، فقد خرج عن الدين برده الحق وإنكاره، وفاعله ان لم يتب فهو مقتول، وعذره فيما يأتيه من ذلك غير مقبول. وسب الصحابة رضوان الله عليهم

مُخَالَفَ لِمَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ ، وَمُنَادٍ لِتَصْرِيحِهِ
 بِاحْتِرَامِهِمْ وَتَجْلِيلِهِمْ ، وَمُخَالَفَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا شَرَعَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ ، مُوجِبَةً لِلْكَفْرِ
 عِنْدَ كُلِّ قَائِلٍ وَإِمَامٍ ، وَمُرْتَكِبُ ذَلِكَ عَلَى الْعُقُوبَةِ سَائِرٌ ، وَإِلَى الْجَحِيمِ صَائِرٌ . وَمَنْ
 قَذَفَ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَعْدَ مَا بَرَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى فَقَدْ خَالَفَ كِتَابَ الْعَظِيمِ ،
 وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ النَّكَالَ الْبَلِيغَ وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، وَعَلَى ذَلِكَ قَامَتْ وَاضِحَاتُ الدَّلَائِلِ ،
 وَبِهِ أَخَذَ الْأَوَائِلُ وَالْآخِرُ وَالْأَوَائِلُ ، وَهُوَ الْمَنْهَجُ الْقَوِيمُ ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَمَاعِدَا ذَلِكَ
 فَهُوَ مُرْدُودٌ ، وَمِنَ الْمِلَّةِ غَيْرُ مُعْدُودٍ ، وَحَادِثٌ فِي الدِّينِ ، وَبَاعَثَ مِنَ الْمُلْحِدِينَ ،
 وَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ فِي كُلِّ مَقَالَةٍ ، وَالْمَوْضِعِ فِي كُلِّ دِلَالَةٍ ، « كُلُّ مُحَدِّثَةٍ بِدْعَةٍ وَكُلُّ بِدْعَةٍ
 ضَلَالَةٌ » . فَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ، وَعُودُوا إِلَى الْجَمَاعَةِ سَرِيعًا ، وَفَارِقُوا مَذْهَبَ أَهْلِ
 الضَّلَالَةِ ، وَجَانِبُوا عُصْبَةَ الْجَهَالَةِ ، وَاسْمَعُوا مَقَالََةَ النَّاصِحِ لَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَعُوَا ، وَعَنِ
 النَّبِيِّ ارْجِعُوا ، وَإِلَى الرَّشَادِ رَاجِعُوا ، وَإِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
 وَالْأَرْضُ بِاتِّبَاعِ السَّنَةِ بَادِرُوا وَسَارِعُوا . وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ بِنِكَاحٍ مُتَعَةٍ فَلَا يَقْرُبُهَا ،
 وَيُحَذِّرُ مِنْ غَشْيَانِهَا وَلَيْتَحَنَّنَهَا . وَمَنْ نَكَحَ أُخْتَيْنِ فِي عَقْدَيْنِ فَلْيُفَارِقِ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا فَإِنَّ
 عَقْدَهَا هُوَ الْبَاطِلُ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي عَقْدٍ وَاحِدٍ فَلْيُخْرِجْهُمَا مَعًا عَنْ حِبَالَتِهِ وَلَا يُتِمَّ طُلَّ ،
 فَإِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ، وَنَكَالَ الْمَجْرَمِ فِي الْحَمِيمِ كُلِّ يَوْمٍ يَزِيدُ ، وَدَارَ غَضَبِ اللَّهِ تُنَادِي
 بِأَعْدَائِهِ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ، فَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِعَذَابِهِ ، وَلَا قُدْرَةَ عَلَى أَلِيمِ عِقَابِهِ ، وَلَا مَقَرَّ
 لِلظَّالِمِ مِنْهُ وَلَا خَلَاصَ ، وَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاصَ . فَرَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا نَظَرَ لِنَفْسِهِ ،
 وَاسْتَعَدَّ لِرَأْسِهِ ، وَمَهَّدَ لِمَصْرَعِهِ ، وَوَسَّطًا لِمُضْجَعِهِ ، قَبْلَ فَوَاتِ الْقَوْتِ ، وَهُجُومِ
 الْمَوْتِ ، وَانْقِطَاعِ الصَّوْتِ ، وَاعْتِقَالِ اللِّسَانِ ، وَانْتِقَالِ الْإِنْسَانِ ، قَبْلَ أَنْ تُبَدَّلَ
 التَّوْبَةُ وَلَا تُقْبَلَ ، وَتُذَرَى الدُّمُوعُ وَتُسَبَّلَ ، وَتُنْقِضَ الْأَجَالُ وَيَنْقُطَعَ الْأَمَلُ ،
 وَيَمْتَنِعَ الْعَمَلُ ، وَتَرْهَقَ مِنَ الْعَبْدِ نَفْسُهُ ، وَيُضْمَنَ رَأْسُهُ ، وَيَرِدَ عَلَى رَبِّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ

غَضَبَان، وَإِنَّ سُخْطَهُ عَلَيْهِ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ قَدْ بَانَ، وَلَا يَنْفَعُهُ حِينَئِذٍ النَّدَمُ، وَلَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ إِذَا زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ، وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أُنْذِرَ، وَأَنْصَفَ مَنْ حُدِّرَ، فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلِبُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، أَلْهَمْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ رُشْدَنَا، وَوَفَّقَ إِلَى مَرَاضِيهِ قَصْدَنَا، وَجَمَعَنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى الطَّاعَةِ، وَأَعَانَنَا جَمِيعًا عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ !



وهذه نسخة مرسوم كتبت به عن نائب المملكة الطرابلسية إلى نائب حصن الأكراد، بإبطال ما أُحْدِثَ بالحصن : من الخمار ، والفواحش ، وإلزام أهل الذمة بما أُجْرِيَ عليهم أحكامه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه - في أواخر جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعائة ، وهو :

المرسوم بالأمر العالى - لازال قصده الشريف المتابعة على تغيير المنكر، وشدّ أزر المنكر، مشمراً فى إراحة القلوب بإزاحة مواطن الفواحش : من سِقَاح ومُخَدَّر ومَيْسِر ومُسْكِر - أن يتقدّم الجنب الكريم باستمرار ماوقفنا الله تعالى له ورسمنا به ، وأعطيناه دستوراً يحجده من عمل به يوم حسابه : من إبطال الخمار، وهدم مبانيها بحيث لا يبقى للنفس الأمانة عليها أماره ، وإخفاء معالمها التى توطنها الشيطان فقطن ، وإزالة ما بها من الفواحش التى ما ظهر منها أقل مما بطن ، وإخلاء تلك البلاد من هذا الفساد الموجب لكثرة الحزن والاختلاف وإراقة ما بها من الخمر، التى هى رأس الإثم والشُّرور، وإحراق كل مُخَدَّر مذموم فى الشرع مخدور، وإذهاب اسم الحانة بالكلية بحيث لا يتلفظ به مسلم ولا كافر ، ولا يُطمع نفسه فى الترتيب عليها من هو على نخريه وبغيه مظافر . وقد عَبرنا هذا المنكر بيد أطلال الله بفضله فى الخير بأعماها، وغنمنا إزالة هذه المفسدة فأحرزنا برها وأصطناعها، خوفاً من وعيد

قوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ورجاء أن نكون من المراد بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وعملاً بقوله عليه السلام : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ » . وعلمنا بأن أمير الرعية إذا لم يزل المنكر من بينهم فكيف يفلح في يومه وحال السؤال عنهم في غده .

وقد صار حصن الأكراد بهذه الحسنة في الحصن المتبوع ، وأهله المتمسكون بالعروة الوثقى في مريع خصب مريع ، وضواحيه مطهرة من خبث السفاح ونجاسة الخمر ، ونواحيه كثيرة الشور قليلة الشرور ، قد أعلى الله تعالى به كلمته ، وأجاب لصغيره وكبيره في هذا الأمر دعوته ، وما ذلك إلا بتوفيق من أهلكنا لذلك ، وألهمنا رشدنا وطهرنا من هذه المفاسد تلك المسالك ، وله الحمد على ما وفق إليه ، وأعان عبده في ولايته عليه ، فإن المنكر إذا فشا ولم ينكر أن نحراب الديار ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ لَيَغَارُ » ، فعند ذلك تمنع السماء درها ، وتمسك الأرض بذرها ، ويحف الضرع ، ويبس الزرع ، وتعطش الأجداد ، وتهلك البلاد .

فليبسط الجنب الكريم يده في إزالة ما بقي من منكر ، متفقدا لجليله وحقيقه بالفحص الشديد وما على ذلك يحد بكل لسان ويشكر ، مترقبا من يدخل البلد ذلك ليقاتله بالضرب بالسياط ، أخذا في تتبع حلاله بالحزم والتجري والاحتياط ، إلى أن يصل بنا أخباره ، ويعلمو لدينا في سياسته ونهضته مناره ، ونحمد عندنا إياته وآثاره ، وهو بحمد الله كما نعهد شديد على كل مفسد ومعاند ، سيد الأتار والآثار والمقاصد .

وأما أهل الذمة فما رُفع عنهم السيف إلا باعطاء الجزية والتزام الأحكام ، وأخذ عهود أكيدة عليهم من أهل النقص والإبرام .

فليتقدم الجنبُ الكريمُ بِإِذَا زَمِهِمْ بِمَا أَلْزَمَهُمْ بِهِ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلِيُجْزِيَهُمْ
فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ إِلَى مَا أُلْهَاهُمْ إِلَيْهِ : مِنْ إِظْهَارِ الدَّلَّةِ وَالصَّغَارِ ، وَتَغْيِيرِ النَّعْلِ وَشَدِّ
الرُّنَّارِ ، وَتَعْرِيفِ الْمَرْأَةِ بِصَبْغِ الْإِزَارِ ، وَلِيُثْمِنُوا مِنْ إِظْهَارِ الْمُنْكَرِ وَالْخَمْرِ وَالنَّاقُوسِ
وَلِيُجْعَلَ الْخَاتَمُ أَوْ الْحَدِيدُ فِي رِقَابِهِمْ عِنْدَ التَّجَرُّدِ فِي الْحَمَامِ ، وَلِيُزَمُوا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْأَحْكَامِ الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ مِنْ مُدَّةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ مِنْهُمْ بِذَلِكَ وَأَمْتَنَعَ ،
وَأَعْلَنَ بِكُفْرِهِ وَأَعْلَى كَلِمَتِهِ وَرَفَعَ ، فَمَا لَهُ حَكَمٌ إِلَّا السَّيْفُ ، وَغَنَمَ أَمْوَالَهُ وَسَبَى ذُرَارِيَّهَ
وَمَا فِي ذَلِكَ عَلَى مِثْلِهِ حَيْفٌ ، فَهَاتَانِ مَقْسَدَتَانِ أَمَرْنَا بِالزَّامِهِمَا فِرَارًا مِنْ سُخْطِ اللَّهِ
تَعَالَى وَحِدَارًا ، إِحْدَاهُمَا إِبْطَالُ الْحَانَةِ وَالثَّانِيَةُ إِخْفَاءُ كَلِمَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

فليتقدم الجنبُ المشارُ إِلَيْهِ بِاسْتِمْرَارٍ مَا رَسَمْنَا بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ،
وَالنُّورُ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْمُؤْمِنُ وَيُحْكِيهِ ، وَنَرْجُو مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى اسْتِمْرَارَ هَذِهِ الْحُسْنَةِ
مَدَى الْأَزْمَانِ ، وَاسْتِمْرَارَ شَجَرِهَا الْمَائِدِ الْأَغْصَانِ ، وَإِبْطَالِ هَذَا الْحُزْنِ الْمُسَمَّى ظُلُمًا
بِالْفَرَحِ ، وَإِعْمَالِ السَّيْفِ فِي عُنُقٍ مِنْ آرْتِضَاهُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُسْلِمِينَ فَانْهَكَ سِرَّهُ وَافْتَضَحَ .

وَلِيَقْمَعَ أَهْلَ الشَّرْكِ وَالضَّلَالِ ، بِمَا يُلْزِمُ الصَّغَارَ عَلَيْهِمُ وَالْإِذْلَالَ ، إِلَى أَنْ لَا يُرْفَعَ
لَهُمْ رَأْسٌ ، وَلَا يُسَيِّدُوا كَيْدًا إِلَّا عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ، وَلِيَسْتَجْلِبَ الْجَنْبُ الْكَرِيمُ لِهَذِهِ
الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَلِنَا الدَّعَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْفُقَرَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَلِيُطَبَّ
قُلُوبُهُمْ بِاسْتِمْرَارٍ مَا أَرْزَنَاهُ ، وَمَحَوْنَا آثَارَهُ وَأَبْطَلْنَاهُ ، وَقَصَدْنَا بِإِبْطَالِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ ،
مَسَاحَةً مِنَ الْحَكَمِ الْعَدْلِ يَوْمَ الْعَرْضِ ؛ وَمَنْ أَعَادَ مَا أَبْطَلْنَاهُ أَوْ أَعَانَ عَلَى إِعَادَتِهِ ،
أَوْ أَمَرَ بِتَشْيِيدِهِ وَبِنَاءِ حِجَارَتِهِ ، أَوْ رَتَّبَ مَرْتَبًا عَلَى خِذْرِ بَغْيٍ وَمَوَّهَ وَدَلَّسَ بِالْأَفْرَاحِ ،
أَوْ أَطْلَقَ أَنْ يُيَاعَ مُشْكِرًا أَوْ سَوَّلَ لَهُ شَيْطَانُهُ أَنَّهُ مِنَ الْأَرْبَاحِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَاكِمُهُ
وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ؛ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

الباب الثانى

فيما يكتب فى المسامحات والإطلاقات، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما يكتب فى المسامحات

والمسامحات جمع مُسامحة، وهى [الجُود والمُوافقة^(١) على ما أُريد منه] . والمُراد المسامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانية : من المقررات واللوازم السلطانية، وهى على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكتب من الأبواب السلطانية)

وقد جرت العادة أنَّ السلطان إذا سمح بترك شيء من ذلك كُتب به مرسومٌ شريف وشملتُه العلامة الشريفة، وهو على مرتبتين :

المرتبة الأولى — المسامحات العظام .

وقد جرت العادة أن تُكتب فى قطع الثلث مفتوحة بـ «الحمد لله» .

وصورتها أن يُكتب فى أعلى الدَّرَج بوسَطِته الأسمُ الشريف كما فى مراسيم الولايات، ثم يكتب من أول عَرْض الورق إلى آخره «مرسومٌ شريفٌ أن يُسمح بالجهة الفلانية وإبطال المُكوس بها، أو أن يسمح بالباقي بالجهة الفلانية، أو أن يُسمح أهل الناحية الفلانية بكذا وكذا، ابتغاءً لوجه الله تعالى، ورجاءً لنواله الجسيم

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المصباح .

على ما شِرح فيه» ثم يترك وصلان بياضاً غير وصل الطُرة، ويكتب في أول الوصل الثالث البسملة، ثم الخطبة بالحمد لله إلى آخرها، ثم يقال : وبعد، ويؤتى بمقدمة المساحة : من شكر النعمة، والتوفية بحقوقها ومقابلتها بالإحسان إلى الخلق، وعمل مصالح الرعية وعمارة البلاد، وما يخطر في هذا السلك، ثم يقال : ولذلك لما كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يسأخ بكذا، ثم يقال : فرسم بالأمر الشريف أن يكون الأمر على كذا وكذا، ثم يقال : فلتستقر هذه المساحة ويؤتى فيها بما يناسب، ثم يقال : وسبيل كل واقف على هذا المرسوم الشريف العمل بمضمونه أو بمقتضاه، ويختتم بالدعاء بما يناسب .



وهذه نسخة مرسوم بمساحة بواقى دمشق وأعمالها، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تعالى، وهى :

الحمد لله الرؤوف بخلقهِ، المتجاوز لعباده عما قصروا فيه من حقه، المسأخ لبريته بما أهملوه من شكر ما بسط لهم من رزقه، جاعل دولتنا القاهرة مطمع كرم، تُجتنل أنوار البر في البرايا من أفقه، ومنشأ ديم، تُجتلب أنواء الرقى بالرايا من برقه، ومضمار جود يحتوى على المعروف من جميع جهاته ويستعمل على الإحسان من سائر طرقه، فلا يرتهى إليه الآمال إلا ولكرنا إليه منية سبقه، ولا أجر يتوجه إليه وجه الأمانى إلا تلقته نعمنا بمتهلل وجه الإحسان طلقه، ولا معروف تجذب منه أرجاء الرجاء إلا واستهلّت عليه الآؤنا من صوب يرنا المألوف لآلى ودقه .

نحمده على نعمه التى عمت الرعايا بتوالي الإحسان إليهم، وأمانتهم فى مهاد الأمن بما وضعت عنهم مساحتنا من إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، وأنالتم مالم

تَطْمَحْ آمَالُهُمْ إِلَيْهِ : من رَفَعَ الطَّلَبَ عن بواقِ أَمْوَالِ أَخْرَوْهَا وراءَ ظُهُورِهِمْ وَكَانَتْ كَالْأَعْمَالِ الْمُقَدِّمَةِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ .

وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَبَعْتُ عَلَى نَشْرِ رَحْمَتِهِ ، الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي عِبَادِهِ ، وَتَحُثُّ عَلَى بَثِّ نِعْمَتِهِ ، الَّتِي تَعْمَرَتْ كُلَّ حَيٍّ عَلَى اجْتِمَاعِهِ وَوَسَّعَتْ إِلَى كُلِّ حَيٍّ عَلَى انْفِرَادِهِ ، وَتَحْضُضُ عَلَى مَا أَلْهَمْنَا مِنْ رَأْفَةٍ بَيْنَ قَابِلِهِ بِتَوْحِيدِهِ وَشِدَّةٍ عَلَى مَنْ جَاهَرَهُ بِعِبَادِهِ .

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي أَسَكَّتْ أَلْسِنَةَ الشَّرْكِ وَأَخْرَسَهَا ، وَعَفَّى مَعَالِمَ الْعُدُونِ وَطَمَسَهَا ، وَأَثَلْ قَوَاعِدَ الدِّينِ عَلَى أَرْكَانِ الْهُدَى وَأَسَّسَهَا ، وَأَوْضَحَ سُبُلَ الْخَيْرَاتِ لِسَالِكِيهَا فَإِذَا سَعِدَتْ بِالْمُلُوكِ رَعَايَاهَا فَإِنَّمَا أَسْعَدَتِ الْمُلُوكَ بِذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَنْفُسَهَا . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَفَعُوا الْعَدْلَ بِالْإِحْسَانِ ، وَجَمَعُوا بَيْنَ مُلْكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِإِحْيَاءِ السُّنَنِ الْحَسَنَةِ ، وَزَرَعُوا الْجِهَادَ بِالْإِيمَانِ فِي كُلِّ قَلْبٍ فَأَثْمَرَ بِالتَّوْحِيدِ مِنْ كُلِّ لِسَانٍ ، صَلَاةً جَامِعَةً أَشْتَاتَ الْمُرَادِ ، سَامِعَةً نَدَاءَ أَرْبَابِهَا يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، قَامِعَةً أَرْبَابَ الشُّكِّ فِيهَا وَالْإِلْحَادِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّا لِمَا آتَانَا اللَّهُ مِنْ مُلْكِ الْإِسْلَامِ ، وَخَصَّنَا بِهِ مِنَ الْحُكْمِ الْعَالَمِ ، فِي أُمَّةٍ سَيَدْنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، وَأَيَّدَنَا بِهِ مِنَ النَّصْرِ عَلَى أَعْدَاءِ دِينِهِ ، وَأَمَدَّنَا بِهِ مِنْ تَأْيِيدِ تَأْيِيدِهِ وَدَوَامِ تَمْكِينِهِ ، وَجَعَلَ دَوْلَتَنَا مَرْكَزًا مَدَارُ مُلْكِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَيْهِ ، وَفَلَكًا مَالُ أُمُورِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ عَلَى اخْتِلَافِهَا إِلَيْهِ ، وَرَزَقْنَا مِنَ النَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِ مَا أَعَزَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَدَاهُمُ ، وَأَذَلَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَذَاهُمْ ، وَكَفَّ بِالرُّعْبِ أَطْمَاعَهُمْ ، وَأَعْمَى بِمَا شَاهَدُوهُ أَبْصَارَهُمْ وَأَصَمَّ بِمَا سَمِعُوهُ أَسْمَاعَهُمْ ،

وَحَصَرَهُم بِالْمَهَابَةِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَأَيَّاسَهُم بِالْخَافَةِ مِنْ نَفْسِهِمْ قَبْلَ طَارِفِهِمْ وَتِلَادِهِمْ - لَمْ
 نَزَلْ نَرْغَبُ فِي حَسَنَاتِ تُحَلَّى بِهَا أَيَّامُنَا ، وَقُرْبَاتِ تَجْرِي بِهَا أَقْلَامُنَا ، وَمَكْرُمَاتِ تَكْمُلُ
 بِهَا عَوَارِفُنَا وَإِنْعَامُنَا ، وَمَا تَرِيحُلُ بِهَا فِي الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ ذِكْرُنَا ، وَمَوَاهِبِ تُجْمَلُ
 بِهَا بَيْنَ سِيرِ الْعَصُورِ الدَّاهِيَةِ سِيرَتُنَا الشَّرِيفَةِ وَعَصْرُنَا ، وَمَصَالِحِ يُصَرِّفُ بِهَا إِلَى مَصَالِحِ
 الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ نَظَرُنَا الْجَمِيلِ وَفِكْرُنَا ، نُهُوضًا بِطَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَلْقَى مَقَالِيدَهُ إِلَيْنَا ، وَأَدَاءً
 لَشُكْرِهِ فِيمَا أَتَمَّ بِهِ نِعْمَةَ الْعَمِيمَةِ عَلَيْنَا ، وَاكْتِسَابًا لثَوَابِهِ فِيمَا تُقَدِّمُهُ مِنْ ذَخَائِرِ الطَّاعَاتِ
 بَيْنَ يَدَيْنَا ، وَنَظَرًا فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ بِخِفَّةِ ظُهُورِ سَاكِنِيهَا ، وَإِطَابَةً لِقُلُوبِ الْعِبَادِ مِنْ
 تَبَعَاتِ الْبَوَاقِي الَّتِي كَانَتْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ عِمَارَةِ أَرْضِيهِمْ وَتُنْفِرُهُمْ مِنَ التَّوَطُّنِ فِيهَا ، وَرَغْبَةً
 فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ، وَتَحَرُّيًا لِلْإِصَابَةِ وَجِهَ الْمَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
 فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

وَلِذَلِكَ لَمَّا اتَّصَلَ بِنَا [أَنْ] بَاقِيَ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ مِنَ الْبَوَاقِي الَّتِي يُتَعَبُ أَلْسِنَةُ
 الْأَقْلَامِ ، إِحْصَاؤُهَا ، وَيُثْقِلُ كَوَاهِلُ الْأَفْهَامِ ، تَعْدَادُ وَجُوهِهَا وَاسْتِقْصَاؤُهَا ، مِمَّا
 لَا يُسَمَحُ بِمِثْلِهِ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ ، وَلَا يَسْتَحُو بِهِ إِلَّا مَنْ يَرِغِبُ مِثْلُنَا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
 أَجُورٍ لَا تُخْرِجُهُ عَنْ مَصَالِحِ الْجُمُهورِ - اقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَعْفِيَ مِنْهَا ذِمًّا
 كَانَتْ فِي أَغْلَالِ إِسَارِهَا ، وَأَثْقَالِ انْكِسَارِهَا ، وَرَوْعَةِ اقْتِضَائِهَا ، وَلَوْعَةِ التَّرَدُّدِ بَيْنَ
 إِنْظَارِ الْمَطَالِبَةِ وَإِمْضَائِهَا ؛ وَأَنْ نَعْتِقَ مِنْهَا نَفُوسًا كَانَتْ فِي سِيَاقِ مَسَاقِهَا ، وَحِبَالِ
 إِزْهَاقِهَا وَإِرْهَاقِهَا ، لِتَتَوَفَّرَ الْهَمَمُ عَلَى عِمَارَةِ الْبِلَادِ ، بِالْأَمْنِ عَلَى الطَّارِفِ وَالتَّلَادِ ،
 وَتُجْمَعَ الْخَوَاطِرُ عَلَى حُسْنِ الْخَلْفِ ، بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمُسَاعَدَةِ عَمَّا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ
 سَالِفٍ ، بِذِمِّ بَرِيَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْأَنْفُسِ ، عَرِيَّةٍ عَنْ عَثَرَاتِ تِلْكَ الْبَوَاقِي الَّتِي مَا كَانَ
 يُقَالُ إِنَّهَا تُقَالُ .

فُرِسِمَ بالأمر الشريف - زاده الله تعالى علّوا وتشريفوا، وأمضاه بما يعم الآمال
رفقا بالرعايا وتخفيفا، وأجراه من العدل والإحسان بما يعم البلاد، ويجبر العباد،
فإن الأرض يُحييها العدل ويعمرها الاقتصار على الاقتصاد - أن يسامح

فليستقر حكم هذه المسامحة استقرارا يبق رسمها، ويحو من تلك البواقي المساقاة
رسمها وأسمها، ويضع عن كواهل الرعايا أعباءها، ويُسير بين البرايا أخبارها الحسنة
وأنباءها، ويُسقط من جرائد الحساب تفاصيلها وجملها، ويحقق بتعفيته آثارها رجاء
رعية بلادنا المحروسة وأملها.

فقد أبتغينا بالمسامحة بهذه الجملة الوافرة ثواب الله وما عند الله خير وأبقى،
وأعتقنا بها ذمم من كانت عليه من ملكة المال الذي كان له باستيلاء الطلب
واستمراره مستترقا، تقربا إلى الله تعالى لما فيه من إثارة التخفيف، ووضع إصر
التكليف، وتقوية حال العاجز فإن غالب الأموال إنما تُساق على الضعيف،
وتوفير هم الرعايا على عمارة البلاد وذلك من أكد المصالح وأهمها، وتفريغ خواطرهم
لأداء ما عليهم من الحقوق المستقبلية وذلك من أخص المنافع وأعمها، فليقبلوا هذه
النعم بشكر الله على ما خصّ دولتنا به من هذه المحاسن، ويوالوا حمده على ما منّهم
به من موادّ عدلها التي ماء إحسانها غير آسن، ويتهللوا لأيماننا الزاهرة بالأدعية
التي تُخلّد سلطانها، وتشيّد أركانها، وتعلي منار الدين باعتلائها، وتؤيّد بها باللائكة
المقرّبين على أعداء الله وأعدائها. وسيل كل وافٍ على مرؤوسنا هذا : من ولاية
الأمر أجمعين العمل بضمومه، والانتهاؤ إلى مكنونه، والمبادرة إلى إثبات هذه
الحسنة، والمسارة إلى العمل بهذه المسامحة التي تستدعي مساز القلوب وثناء
الألسنة، وتعفية آثار تلك البواقي التي عفونا عن ذكرها، ونحو ذكر تلك الأموال
التي تعوضنا عن استيفائها بأجرها.



وهذه نسخة مرسوم شريف بالمساحمة بالبواقي في ذِمِّم الجُنْد والرَّعايا بالشَّام ،
كُتِبَ به في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون في شهور سنة اثنتين وسبعائة بخط
العَلامة كمال الدين محمد الزَّملَكَاني من إنشائه ، وقُرئ على المنبر بالجامع الأموي
بدمشق المحروسة ، وهي :

الحمد لله الذي وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، وَسَمِعَ نِدَاءَ كُلِّ حَيٍّ رَأْفَةً وَحِلْماً ،
وخصَّ أَيْمَانَنَا الزَّاهِرَةَ بِالْإِحْسَانِ فَأَنْجَحَ فِيهَا مَنْ عَدَلَ وَخَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ،
وَزَانَ دَوْلَتَنَا بِالْعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ فَهِيَ نَعْتَسِدُ الْمَسَاحِمَةَ بِالْأَمْوَالِ الْحَسِيمَةِ غِنًى إِذَا أَعْتَدْتَهَا
الدُّوْلُ غُرْمًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي عَمَرَتْ رَعَايَانَا بِإِدَامَةِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَعَمَرَتْ مَمَالِكَنَا بِمَا
تَتَعَاهَدُ بِهِ أَهْلُهَا مِنْ تَشْرِيعِ رَأْفَةِ عَلَيْهِمْ ، وَخَفَّفَتْ عَنْ أَهْلِ بِلَادِنَا أَنْقَالَ بَوَاقِي
الْأَمْوَالِ الَّتِي كَانُوا مَطْلُوبِينَ بِهَا مِنْ خَلْفِهِمْ وَمَنْ يَبِينُ يَدِيهِمْ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لَمْ تَزَلْ تَشْفَعُ لِأَهْلِهَا الْعَدْلَ بِالْإِحْسَانِ ، وَتَجْمَعُ لِأَرْبَابِهَا
بِالرَّأْفَةِ وَالرَّفْقِ أَشْتَاتِ النِّعَمِ الْإِحْسَانِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي جَلَّ
الْعُتْمَةُ ، وَهَدَى الْأُمَّةَ ، وَسَنَّ الرَّأْفَةَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَالرَّحْمَةَ ، وَحَثَّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى
ذَوِي الْعُسْرَةِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ بَرَاءَةٍ كُلِّ مَشْغُولِ الذِّمَّةِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ أَمَرُوا بِالْيُسْرِ ، وَأَقْتَنَعُوا مِنَ الدُّنْيَا بِالْيُسْرِ ، وَأَوْضَحُوا طُرُقَ الْإِحْسَانِ لِسَالِكِيهَا
فَسَهَّلَ عَلَى الْمُقْتَدِي بِهِمْ فِي الْحَقِّ عَلَى الْأُمَّةِ الصَّغْبُ وَيُسِّرَ الْعَسِيرَ ، صَلَاةً تُدْخِلُ يَوْمَ
الْحِسَابِ ، وَتَعْدُ لِلْوَقْتِ الَّذِي إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ ، وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

(١) نسبة إلى زملكان وقد ضبطها صاحب القاموس بالسر وضبطها بإقوت في معجمه بالفتح فاعل
فيها روايتين .

وبعد ، فإن الله تعالى لما خص أيامنا الزاهرة بالفتوح التي أنامت الرعايا ،
 في مهاد أمنها ، وأنالت البرايا ، مواقع يمينها ومنها ، وكفت أكف الحوادث عن
 البلاد وأهلها ، ونشرت عليهم أجنحة البشائر في حزن الأرض وسملها ، وأعدبت
 من الطمانينة مواردهم ، وعمت بالدعة والسكون قاطنهم وراحلهم ، وبدلتهم من بعد
 خوفهم أمنا ، ونولتهم باجابة داعي الذب عنهم منّا منّا ، رأينا أن نقسح لهم بحال
 الدعة والسكون ، وأن لا نقنع لهم بما كان من أسباب المسار حتى نبتعها بما يكون ،
 وأن نصفي بالإعفاء من شوائب الأكدار شربهم ، ونؤمن بالإعفاء عن طلب البواقي
 التي هي على ظهورهم كالأوزار شربهم ، وأن نشفع العدل فيهم كما أمر الله تعالى
 بالإحسان إليهم ، ونضع عنهم بوضع هذه الأثقال إضرهم والأغلال التي كانت عليهم ،
 وأن نوفر على عمارة البلاد همهم ، ونبرئ من تبعات هذه الأموال اللازمة لهم
 ذممهم ، ونريح من ذلك أسرهم ، ونطلق من ربة الطلب المستمر إسرهم ،
 ونسأحهم بالأموال التي أهملوها وهي كالأعمال محسوبة عليهم ، ونعفيهم من الطلب
 بالبواقي التي نسوها كالأجال وهي مقدمة بين يديهم ، لتكون بشرهم بالنصر كامله ،
 ومسرتهم بالأمن من كل سبيل شامله .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازل بره عميا ، وفضله لحسن النظر في مصالح
 رعاياه مديما - أن تساح مدينة دمشق المحروسة وسائر الأعمال الشامية بما عليها
 من البواقي المساقاة في الدواوين المعمورة إلى المدة المعينة في التذكرة الكريمة المتوجهة
 بالخط الشريف ، وجملة ذلك من الدراهم ألف ألف وسبعائة ألف وستة وأربعون
 ألفا ومائة ألف وخمسة وأربعون درهما ، ومن الغلال المنوعة تسعة آلاف وأربعمائة
 وأثنان وأربعون غرارة ، ومن الحبوب مائتان وثمان وعشرون غرارة ، ومن الغم

(١) لعله « من الدنانير » وحينئذ يستقيم الكلام .

نخسائة رأس ، ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال ، ومن الزيت ألفان وثلثمائة رطل ، ومن حب الرمان ألف وستمائة رطل .

فليتلقوا هذه النعمة بباع الشكر المديد ، ويستقبلوا هذه المنّة بحمد الله تعالى فإنّ الحمد يستدعي المزيد ، ويرفّلوا في أيامنا الزاهرة ، في حلّ الأمن الضافيه ، ويردّوا من نعمنا الباهرة ، مناهل السعد الصافيه ، ويقلّوا على مصالحهم بقلوب أزال الأمن قلقها ، وأذهبت هذه المسامحة المبرورة فرقها ، ونفوس أمنت المؤاخدة من تلك التبعات بحسابها ، ووثقت بالنجاة في تلك الأموال من شدة طالب يأبى أن يفارق إلا بها ، وليتوقّروا على رفع الأدعية الصالحة لآيامنا الزاهرة ، ويتيمّنوا بما شملهم من الأمن والمنّ في دولتنا القاهرة ، فقد تصدّقنا بهذه البواق التي أبقت لنا أجرها وهي أكمل ما يقتنى ، وخففت أثقال رعايانا وذلك أجل ما به يعتنى . وسيل كل واقف على هذا المرسوم الشريف اعتماد حكمه ، والوقوف عند حدّه ورسمه ، ويعفى آثار هذا الباقي المذكور بحجور رسمه واسمه ، بحيث لا يترك لهذه البواق المذكورة في أموالنا انتساب ، ولا يبق لها إلى يوم العرض عرض نُورده ولا حساب ، والخط الشريف شرفه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه .



وهذه نسخة مسامحة بمكوس على جهات مستقبحة بالملكة الطرابلسية ، وإبطال المنكرات ، كُتِب بها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أيضا في شهر سنة سبع عشرة وسبعمائة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الدين الحمدي في أيامنا الشريفة على أثبت عماد ، وأصطفانا لإشادة أركانه وتنفيذ أحكامه بين العباد ، وسهل علينا من إظهار شعائره ما رام

مَنْ كَانَ قَبْلَنَا تَسْبِيلَهُ فَكَانَ عَلَيْهِ صَعْبُ الْإِقْيَادِ ، وَادَّخَرْنَا مِنْ أَجُورِ نَصْرِهِ أَجَلَ
مَا يُدْخِرُ لِيَوْمٍ يَفْتَقَرُ فِيهِ لِصَالِحِ الْإِسْتِعْدَادِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِ بَلَّغَتْ مِنْ إِقَامَةِ مَنَارِ الْحَقِّ الْمُرَادِ ، وَأُنْحَدَتْ نَارَ الْبَاطِلِ بِمُطَافِرَتِنَا
وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتْ شَدِيدَةُ الْإِتْقَادِ ، وَنَكَّسَتْ رُءُوسَ الْفَحْشَاءِ فَعَادَتْ عَلَى أَسْتَحْيَاءِ
إِلَى مُسْتَسْنِيهَا أَقْبَحَ مَعَادِ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ سَطَّرَ فِي صَحَائِفِنَا مِنْ غُرَرِ السَّيْرِ مَا تَبَقَى
بِهِجَّتُهُ لِيَوْمِ الْمَعَادِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَجِدُّهَا الْعَبْدُ
يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَتُسْرَى أَنْوَارُ هَدْيِهَا فِي الْبَرَايَا فَلَا تَزَالُ آخِذَةً فِي الْإِزْدِيَادِ ،
وَنَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِالْإِنْدَارِ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَالْإِعْدَارِ إِلَى
مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِشَهَادَةِ الْمَلَائِكِينَ فَأَوْضَحَ لَهُ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ رَدَّ أَهْلَ الرَّدَّةِ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ أَحْسَنَ تَرَدُّدٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَمَّمَ
بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَائِرَ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ مَالَهُ
لِلْجَاهِدِينَ وَنَفْسَهُ لِلْجِهَادِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَافَعَ عَنِ الْحَقِّ فَلَا بَرِحَ فِي جِدَالٍ عَنْهُ وَفِي جِلَادِ ،
صَلَاةٌ تَهْدِي إِلَى السَّدَادِ ، وَتَقُومُ الْمُعْجُزَ وَتُثَقِّفُ الْمَيَادِ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيماً كَثِيراً .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنْدُ مَلَكًا أُمُورَ خَلْقِهِ ، وَبَسَطَ قُدْرَتَنَا فِي التَّصَرُّفِ فِي عِبَادِهِ
وَالْمُطَالَبَةِ بِحَقِّهِ ، وَفَوَّضَ إِلَيْنَا الْقِيَامَ بِنُصْرَةِ دِينِهِ ، وَفَهَّمَنَا أَنَّهُ تَعَالَى قَبْضُ قَبْلِ خَلْقِ
الْخَلَائِقِ قَبْضَتَيْنِ فَرَعَيْنَا أَنْ نَكُونَ مِنْ قَبْضَةِ يَمِينِهِ ، وَالْقِيَامَ إِلَيْنَا مِنْ مَقَالِيدِ الْمَسَالِكِ ،
وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَيْنَا بِتَمْكِينِ الْبَسْطَةِ وَعَدَمِ الْمَشَاقِقِ فِي ذَلِكَ ، وَمَهَّدَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مَا عَلَى
غَيْرِنَا تَوَعَّرَ ، وَأَعَدَّ لَنَا مِنَ النَّصْرِ مَا أَجْرَانَا فِيهِ عَلَى عَوَائِدِ لُطْفِهِ لَا عَنْ مَرَحٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا عَنْ خَدٍّ مُصْعَرٍّ - أَلْهَمْنَا إِعْلَاءَ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِعْزَازَ الْحَلَالِ وَإِذْلَالَ الْحَرَامِ ،
وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَأَنْ لَا تَخْتَارَ عَلَى دَارِ الْآخِرَةِ دَارُ الدُّنْيَا ، فَلَمْ تَزَلْ تُقِيمُ

لِلدِّينِ شِعَارًا ، وَنَعَفَى لِلشَّرِّكَ آثَارًا ، وَنُعَلِنُ فِي النِّصِيحَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَهْرًا وَإِسْرَارًا ، وَنَتَّبِعُ أَثَرَ كَرَمِ نَقْتَفِيهِ ، وَمُطَوِّلِ بَحْقِهِ نُوفِيهِ ، وَنَعْلَمُ حَقَّ قُرْبَةٍ تُسَيِّدُهُ ، وَنُحْدُو لَا أَسْتَظْهَرُ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ نُؤَيِّدُهُ ، وَذَا كُرْبَةٍ نَفْرِجُهَا ، وَغَرِيْبَةٍ نَخْشَاءُ أَسْتَظَرِّدُ مِنْ أَدْوَارِ الْحَقِّ نُخْرِجُهَا ، وَسَنَّةَ سَيِّئَةٍ تَسْتَغِيْظُ النُّفُوسَ زَوَالَهَا فَنَجْعَلُهَا هَبَاءً مَنْشُورًا ، وَجَمَلَةً عَظِيْمَةً أَسَّسْتُ عَلَى غَيْرِ التَّقْوَى مَبَانِيهَا فَيَحْطِمُهَا كَرْمُنَا فَنُؤَدِي الْإِجْزَاءَ عَنْهَا مَوْفُورًا ، فَاسْتَقْصَيْنَا ذَلِكَ فِي مَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ مَمْلَكَةِ مَمْلَكَةٍ ، وَأَسْتَظَرِّدُنَا فِي إِبْطَالِ كُلِّ فَاحِشَةٍ مُوْبِقَةٍ مُهْلِكَةٍ ، فَفَعَلْنَا مِنْ ذَلِكَ بِالْأَمَارِ الْمَصْرِيَةِ مَا شَاءَ خَبْرُهُ ، وَظَهَرَ بَيْنَ الْأَنَامِ أَثَرُهُ ، وَطُبِقَتْ بِمَحَاسِنِهِ الْآفَاقُ ، وَلَهَجَتْ بِهِ أَلْسِنَةُ الدُّعَاةِ وَالرَّفَاقِ : مِنْ مُكُوسِ أَبْطُلَانِهَا ، وَجِهَاتِ سُوءِ عَظْلَانِهَا ، وَمِظَالِمِ رَدْدَانِهَا إِلَى أَهْلِهَا ، وَزَجْرَانِهَا عَنْ غِيْبِهَا وَجَهْلَانِهَا ، وَبَوَاقِ سَاحْنِهَا بِهَا وَتَمَحْنِهَا ، وَطَلِبَاتِ خَفَفْنَا عَنْ الْعِبَادِ بِتَرْكِهَا وَأَرْحَانِهَا ، وَمَعْرُوفِ أَقْنَا دَعَائِمِهِ ، وَبُيُوتِ اللَّهِ عِزِّهِ وَجَلَّ أَثَرُنَا مِنْهَا كُلِّ نَائِمَةٍ ، ثُمَّ بَثَّنَا ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ الْمُحْرُوسَةِ ، وَجَنَيْنَا ثَمَرَاتِ النُّصْرَةِ مِنْ شَجَرَاتِ الْعَدْلِ الَّتِي هِيَ بَيْدٌ يَقْطِنُهَا مَغْرُوسُهُ .

وَلَمَّا اتَّصَلَ بِعِلْمِنَا الشَّرِيفَةِ أَنَّ بِالْمَمْلَكَةِ الطَّرَابُلسِيَّةِ آثَارَ سُوءِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا ، وَمَوَاطِنَ فِسْقٍ لَا يَقْدِرُ غَيْرُنَا عَلَى دَفْعِ ضَرَرِهَا وَضَيْرِهَا ، وَمِظَانِ أَنْامٍ يَجِدُ الشَّيْطَانُ فِيهَا مَجَالًا فَسِيحًا ، وَقُرَى لَا يُوجَدُ بِهَا مِنْ [كَان] إِسْلَامُهُ مَقْبُولًا وَلَا مِنْ [كَان] دِينُهُ صَحِيحًا ، وَنَحْوَرًا يُظَاهَرُ بِهَا ، وَيَتَّصِلُ سَبَبُ الْبُكَائِ بِسَبَبِهَا ، وَتُشَاعُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ مُجْهَرًا ، وَتُبَاعُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فَلَا يُوجَدُ لِهَذَا الْمُنْكَرِ مُنْكَرًا ، وَيُحْتَجُّ فِي ذَلِكَ بِمَقَرَّرَاتِ نُحْتِ لَا نُجِدِي نَفْعًا ، وَتَبْقَى فِي يَدِ آخِذِهَا كَانَهَا حَيَّةً تُسْمَى .

ومما أنهى إلينا أن بها حانةً عبر عنها بالأفراح قد تطاير شررها ، وتفاقم ضررها ، وجوهر فيها بالمعاصي ، وآذنت لولا حلم الله وإمهاله بزللة الصياصي ، وغدت لأهل الأهوية مجمعا ، ولذوى الفساد مربعا ومرتعا ، يتظاهر فيها بما أمر بستره من القاذورات ، ويؤقى بما يجب تجنبه من المحذورات ، ويُسَرِّس في الأفراح بها بما يؤدى إلى غضب الجبار ، وتهافت النفوس فيها كالفراس على الاقتحام في النار .

ومنها - أن المسجون إذا سُجِن بها أخذ بجميع ما عليه بين السجن وبين الطلب ، وإذا أفرج عنه ولو في يومه آنقلب إلى أهله في الخسارة بشر منقلب ، فهو لا يجد سرورا بفرجه ، ولا يحمد عقي مخرجه .

ومنها - أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سُكَّانها يُعرفون بالنصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبا ، ولا خالط لهم لبًا ، ولا أظهروا له بينهم شعارا ، ولا أقاموا له منارا ، بل يُخالِفون أحكامه ، ويجهلون حلاله وحرامه ، ويخلطون ذبايحهم بذبائح المسلمين ، ومقابرهم بمقابر أهل الدين ، وكل ذلك مما يجب ردعهم عنه شرعا ، ورجوعهم فيه إلى سواء السبيل أصلا وفرعا ، فعند ذلك رغبتنا أن نفعل في هذه الأمور مايقى ذكره مَفخرة على ممر الأيام ، وتدوم بهجته بدوام دولة الإسلام ، ونمحو منه في أيامنا الشريفة ما كان على غيرها به عارا ، ونسترجع للحق من الباطل ثوبا طالما كان لديه معارا ، وثبتت في سيرة دولتنا الشريفة عوارف لا تزال مع الزمن تُذكر ، وتتلو على الأسماع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال بالمعروف آمرا ، وعن المنكر ناهيا وزاجرا ، ولامثال أوامر الله تعالى مسارعا ومبادرا - أن يُبطل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتى ذكره :

<p>سجن الأقباص المحدث بأمر أقباص الديوان المعمور التي كان فلاحو الكورة بطرابلس يعملون بها ثم أعفوا عن العمل وقدر عليه في السنة لل</p>	<p>السجون بالمملكة الطرابلسية خارجا عن سجن طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدم التاريخ وتقديرها عالم</p>	<p>جهات الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجا عما لعله يستقر من ضمان الفرع الخ . وتقديرها للم</p>
<p>حق الديوان بصهيون بطرابلس وقصريون بطرابلس عمن كان معا في حصنها وتقدير منحصل ذلك للم</p>	<p>عفاية الشام بمكور طرابلس واقفة والسرون وما معه بحكم أن المذكورين كانوا ثبتوا على المراكز بالبحر فلما شكت المراكز بالعساكر المنصورة قزر على ذلك في السنة عالم</p>	<p>أقباص للأمراء بحكم أن بعض الأمراء كان لهم جهات زرع أقباص وقزروا على بقية فلاحهم العمل بها والقيام بنظيره آخر العمل . وتقدير ذلك للم</p>
<p>المستحدث إقطاعا من بعض الأمراء على الفلاحين مما لم تجربه عادة : من حشيش وملح وضيافة . وتقديره للم</p>	<p>ضمان المشعل بطرابلس مما كان أولا بديوان الشام بالفتوحات ثم استقر بالديوان المعمور في شهور سنة ست عشرة وسبعائة وتقديره للعالم</p>	<p>هبة الشاذ بنواحي الكهف تشد فيما كان يستأدى من كل مدير وتقدير متحصله للم</p>

فليُطْلَ هذا على مَرَّ الأزمنة والذهور، إبطالاً باقياً إلى يوم النُشور، لا يُطْلَب
ولا يُستَادي، ولا يبلغ الشيطانُ في بقائه مُراداً .

ويُقرأ مرسومنا هذا على المنابر ويُشاع ، ونُستجلب لنا منهم الأدعية الصالحة
فإنها نعم المناع .

وأما النصيرية فليُعمروا في بلادهم بكل قرية مسجداً، ويُطلق له من أرض
القرية رُقعة أرض تقومُ به . ومن يكون فيه من القوام بمصالحه على حَسَب
الكفاية، بحيث يستفِز الجناح الفلاني نائب السلطنة بالملكة الطرابلسية والحصون
المحروسة ضاعف الله تعالى نعمته من جهته من يثق إليه لإفراد الأراضى وتحديدِها
وتسليمها لأئمة المساجد المذكورة، وفصلها عن أراضى المُقطعين وأهل البلاد
المذكورة ويعملُ بذلك أوراقاً وتُخلَّد بالديوان المعمور حتى لا يبقى لأحد من
المُقطعين فيها كلام، ويُنادى في المُقطعين وأهل البلاد المذكورة بصورة ما رسمنا
به من ذلك .

وكذلك رسمنا أيضاً بمنع النصيرية المذكورين من الخطاب وأن لا يُمكنوا بعد
وُرود هذا من الخطاب جملة كافية ، وتؤخذ الشهادة على أكابرهم ومشايخ قراهم
لئلا يعود أحد منهم إلى التظاهر بالخطاب ومن تظاهر به قُوبل أشدَّ مقابلة .

فلتُعتمد مراسمتنا الشريفة ولا يُعدَّل عن شيء منها ، ولتُجَرِ المملكة الطرابلسية
مجرى بقية الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات، وتعفية آثار الفواحش
 وإقامة شعائر الدين القويم : ﴿ مَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَمَّا إِمُّهُ عَلَى الَّذِينَ يُدْلُوهُ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .



وهذه نسخة توقيع بالمساحية في جميع المراكز بما يُستأدى على الأغنام الدغالي الداخلة إلى حلب ، وأن يكون ما يُستخرج من تجار الغنم على الكبار منها خاصة ، من إنشاء المقرّر الشهابي بن فضل الله ، مما كُتب به في شهور سنة سبع وثلاثين وسبعائة ، وهي :

الحمد لله ذي المواهب العظيمة ، والعطايا التي لا تُجود بها يد كريمة ، والمِنن التي عوّضنا منها عن كل شيء بخير منه قيمة ، والمساحية التي ادخلنا بها عن كل مال حسن مال وبكل غنم غنيمة .

نحمده على نعمه التي غدت على كثرة الإنفاق مُقيمه ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أكرم من سمح وسامح في أمور عظيمة . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة مستديمة ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فبند ملكنا الله لم نزل نرغب إليه ، ونعالمه بما نهبه له ونرجع عليه ، ولم نبق ملكة من ممالكنا الشريفة حتى ساحتنا فيها بأموال ، وسامينا فيها بنفع أرضها السحب الثقال ، وكانت جهة العداد بالملكة الحليّة المحروسة مثقلة الأوزار بما عليها ، مشدودة النطاق بما يغل من الطلب يديها ، مما هو على التركان بها محسوب ، وإلى عديدهم عدده منسوب ، ونحن نظنه في جملة ما أسقطته مساحتنا الشريفة وهو منهم مطلوب ، وهو المعروف بالدغالي زائدا على الرؤوس الكبار ، ومعدودا عند الله من الكبار وهو في حساب الدواوين من الصغار ، فلما اتصل بنا أن هذه المظامة ما أنجلي عنهم ظلمها ، ولا رُفع من الحساب عنهم قلمها - أكبرنا موقع بقائها ، وعلمنا أنها مدة مكتوبة لم يكن بد من المصير إلى أنقضائها ، واستجلبنا قلوب

طوائف التُّركان بها ، وأوثقنا أسبابهم في البلاد بسببها ، لأمرين كلاهما عظيم :
لرغبتنا فيما عند الله ولما لهم من حقٍّ ولأدبٍ قديم ، كم صاروا مع الجيوش المنصورة
جُيوشاً ، وكم ساروا إلى بلاد مُلوك الأعداء فثَلُّوا لهم عُرُوشاً ، وكم كانوا على أعقاب
العساكر المؤيدة الإسلامية ردفاً ومقدمتهم في محاصرة جاليسا ، وكم قتلوا بسببهم
كافراً وقدموا لهم رماحهم نعوشاً ، ومنهم أمراء وجنود ، ونزولٌ ووُفود ، وهم وإن
لم يَكُونُوا أهلَ خِباء فهم أهلُ عَمُود ، وذوو أنسابٍ عريقة ، وأحسابٍ حقيقه ،
إلى القَبْجاق الخَلَص مرجعهم ، والفُرس بفرسان دولتنا الشريفة تجمّعهم - فاقضى
رأيُنا الشريف أن نرعى لهم هذه الحقوق بباطال تلك الزيادة المرادة ، وأن نتناسى
منها ما هو في العدد كالنسيء في الكُفْر زيادته .

فرسم بالأمر الشريف - لازالت مواهبه تشمل الآفاق ، وتزيد على الإنفاق ،
وتقدّم ما ينفد إلى ما هو عند الله باق - أن يُساحَ جميع التراكين الدّاخل عدّادهم
في ضِمانِ عدّاد التُّركان بالملكة الحلبية المحروسة بما يُستأدى منهم على الأغنام الدغالي ،
وأن يكون ما يُستخرج منهم من العدد على الكبار خاصّة : وهو عن كل مائة رأس
كبار ثلاثة أُرُوس كبار خاصّة لا غير من غير زيادةٍ على ذلك ، مساحةً مستتمّة ، دائمة
مستقرّة ، باقية بقاء الليالي والأيام ، لا تُبدّل لها أحكام ، ولا تتغيّر بتغيّر حاكم من
الحكام ، نرجو أن تُسرّبها في صحائف أعمالنا يوم العَرْض ، لا يتأوّل فيها حساب ،
ولا تمتد إليها [يد] حُساب ، ولا يبقى عليها سبيلٌ للدواوين والكتب ، ولا تُسبّب
أغنامهم ليرعاها منهم أولئك الدّئاب ، كلّمّا مرّ على هذه المساحة زمانٌ أكّد أسبابها ،
وبيّض في صحائف الدفاتر حسابها ، لا تُعارض ولا تُناقض ولا يتأوّل فيها متأوّل
في هذا الزمان ولا فيما بعده من الزمان ، ولا يدخل حُكْمها في النسيان ، ولا يُنقص
أجرها المضمون ، ولا تُطلب أصحاب هذه الدغالي عليها بعدّاد في قرن من القرون ،

ولا يُستحقَّر بما يُستأدَّى منها جليلاً ولا حقيراً ، ولا يُسمح لنفسه من قال إنها صغيرة
وهي عند الله كبيرة : لتطيب لأهلها ومن تسمع بما شملهم من إحساننا الشريف
النفوس ، ولا تُصدع لهم بسبب هذا الطلب رؤوس ، فمن تعرَّض في زماننا أمدنا
الله بالبقاء أو كشف في هذه الصدقة الجارية وجه تأويل ، أو سكن فيها إلى مداومة
بقليل ، أو طلب من ظالم بعينه مداواة قوله العليل ، فسيجد ما يصبح به مثله ،
ويتوب به مثله ويكون لمن بعده عبرة بمن قدم قبله ، ونحن نبرأ إلى الله ممن يتعرَّض
بعدنا إلى نقضها ، وهذه المسامحة عليه حجتنا التي لا يقدر عند الله على دحضها .

ولتقرأ على المنابر وتعلَّ كلمتها ، وتمدَّ في أقطار الأرض كما أمتدَّ السحابُ ترحتها ،
وسيل كل واقف عليها من أرباب الأحكام : أصحاب السيوف والأقلام ، ومن
يتناوب منهم على الدوام ، العمل بما رسمنا به واعتماداً ما حكم بموجبه ، بعد الخط
الشريف شرفه الله تعالى أعلاه . إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثانية — من المسامحات أن تُكتب في قطع العادة مفتوحة برسم
بالأمر الشريف .

وغالب ما يُكتب ذلك للتجار الخواجية بالمسامحة بما يلزمهم من المكوس
والمقررات السلطانية عن نظير ثمن ما يُبتاع منهم من الممالك .
والعادة أن يكتب في طرتها « توقيع شريف بمسامحة فلان بما يجب عليه من
الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية » بحسب ما يرسم له .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهي :

رسم بالأمر الشريف — لا زال يُتبع السماح بمثله ، ويشمل الرعايا كل وقت
في ممالكه الشريفة بعنله ، ويواصل إليهم رفقته ورفده فلا يرحون في مهاده من

نعمه وإسعاد من فضله - أن يُسأَحَ المجلس السامى (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى رفعتَه بما يَجِبُ عليه من الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية، وسائر الممالك الإسلامية، فيما يبيعه ويتباعه ويتعوضه من سائر الأصناف خلا المنوعات: صادراً لا غيراً أو صادراً ووارداً، بنظير الممالك الذين ابتاعهم برسم الأبواب الشريفة بكذا وكذا ألف درهم .

فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ويعمل بحسبه ومقتضاه ، من غير عدول عنه ولا خروج عن حكمه ومعناه ، والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .

*
* *

وهذه نسخة دعاء آخر يفتتح به توقيع مساحمة ، وهو : لا زالت نعمه عميمه ، وسجايه كريمه ، ومواهبه فى الآفاق سائرة وفى الأقطار مقيمة ، أن يُسأَحَ فلان بكذا وكذا . آخر : لا زالت صدقاته الشريفة تحقق وسائل طالبها ، وأوامره المطاعة نافذة فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن يسأَحَ فلان بكذا وكذا .

قلت : والعادة فى مستند ذلك أنه تُحَضَّرُ به قائمة من ديوان الخصاص الشريف فيكتب عليها كاتب السربالتعيين ، ويخلدها كاتب الإنشاء عنده شاهداً له بذلك كما فى غيره من سائر المستندات .

الضرب الثانى

(ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية)

وغالب ما يكون فى مساحات التجار بمقرر ما يتاعونه أو يشترونه ، أو بقدر معين يحصل الوقوف عنده ، ويعبر عما يكتب فيه بالتواقيع كما فى الولايات عندهم ، وأكثر ما يفتتح برسم بالأمر .

وهذه نسخة مرسوم شريف بمساحة كُتِبَ بها عن نائب الشام في الدولة الناصرية «فرج» لخواجه محمد بن المزلق، وهى :

رسم بالأمر العالى - لا زال قصدُ ذوى الحقوق عنده ناهجا، وإحسانه للقرب إليه مساحا - أن يُسَاحَ الجَناب العالى، الصِّدْرِىّ، الكَبِيرىّ، المُحَرَّمىّ، المُؤَمَّنَىّ، الأَوحدىّ، الأَكلىّ، الرِّيسىّ، العارِفىّ، المُقَرَّبىّ، الخَوَاجِكىّ، الشَّمسىّ، مُحَمَّدُ الإسلام والمسلمين، شرف الأَكابر فى العالمين، أُوحدُ الأئمّة المُقَرَّبِينَ، صَدْرُ الرُّؤساء، رأسُ الصُّدور، عَيْنُ الأَعْيَان، كَبِيرُ الخَوَاجِكِيَّة، سفيرُ الدولة، مؤمِّنُ المُلُوك والسُّلاطين: مُحَمَّدُ بن المَزَلَق، عَيْنُ الخَوَاجِكِيَّة بِالمملكة الشريفة الشامية المحروسة - أدام الله تعالى نعمته - بما يَجِبُ عليه من الحقوق الديوانية بالطُّرقات المِصْرِيَّة، وَجَمِيع البِلاد الشامية المحروسة والركاه بِدمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، وغزّة، وحمص، وبعلبك المحروسات، والبروك، والمقطعين، وقطيا، مما يَبِيعه وَيَتَباعه وَيَتَعَوَّضُه من جميع الأصناف خلا المنوعات صادِرًا ووارِدًا، وَيُؤمِّنُ عليه بِقيمة ما يَشْتَرِيه بما مَبْلَغُه من الدراهم النُقرة الجَيِّدة مائتا ألفِ درهم، ولا يُطالَبُ عن ذلك بِحقٍّ من الحقوق ولا بِمَقَرَّرٍ من المُقَرَّرات، مساحةً باقيةً مُستَمَرَّة، دائمة أبداً مُستَقَرَّة، لا يَنْتَقِضُ حُكْمُها، ولا يَغَيَّرُ سُمُّها، لخدمته الدُّول على آخِلافِها، ولِبلالته فى التَقَرُّب بما يُرِضى الخواطرَ الكريمةَ وينفع الناس بما يُحْضِرُه من أنواع المتاجر وأصنافها، ولا سَتَحْقَاقَه لِهَذَا الإِنعام، ولا خِصْاصَه به دُونَ الخِصْاصِ والعام .

فليتَّقَ ذلك بِالْحَمْدِ وَالْإِتِهَالِ، والله تعالى يُبَلِّغُه من مَزِيدِ إِنْعامنا الآمال، والآعْداً فى مَعْنَاه، على الخِطِّ الكَرِيمِ أَعْلَاه . إن شاء الله تعالى .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة السادسة

(فيما يكتب من الإطلاقات : إما تقريراً لما قرره غيره من الملوك السابقة ، وإما ابتداءً لتقرير ما لم يكن مقرراً قبلاً ، وإما زيادةً على ما هو مقترء ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يكتب عن الأبواب السلطانية ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يكتب فى قطع الثلث مفتوحاً بالحمد لله ، وهو أعلاها)

وهذه نسخة توقيع شريف باستقرار ما أطلقه السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالديار المصرية للعمريين أعصاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كتب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله الذى أبدأ الجميل وأعاده ، وأجرى تكرمنا على أجل عاده ، وقفى بنا آثار الذين أحسنوا الحسنى وزياده .

نحمده على أن جعل جودنا المقدم وإن تأخر أياما ، والمطيب لذكر من تقدم حتى كأنما حاله مثل المسك ختاماً ، والصيب الذى تقدمه من بواد الغيث قطر ثم استهل هو نعماً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرفع أعلامها ونمنع أن تطمس الليالى لمن جاهد عليها من ملوك الزمان أعلاماً ، ونشهد أن سيدنا محمداً

عبدُه ورسوله الذي هَدَى به إلى أوضح المسالك ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا من الأرض ما وعد أنه سيبلغ مُلْك أُمته إلى ما زوى من ذلك ، وسلم . وبعد ، فإن أفضل النعم ما قُرِن بالإدامه ، وأعظم الأجور [أجر] من سنِّ سنة [حسنة] فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وأحسن الحسنات ما رَغِبَت السلف الصالح في خَلْفهم ، وأمرت بأيديهم ما حازوه من ميراث سلفهم ، وكان المولى الشهيد الملك الناصر صلاح الدين ، منقذ بيت المقدس من المشركين ، أبو المظفر يوسف بن أيوب - قدس الله روحه - هو الذي كان على قواعد العمرين بانيا ، والفتاح لكثير من فتوحات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتوحا ثانيا ، ولما اعلَى الله بمصر دولته المنيه ، ومحا به من البدع الإسماعيلية عظام كثيره ، حبس ناحية « شِياس الملح » وما معها جميع ذلك بحده وحدوده وقريبه وبعيده ، وعامره وغامره ، وأوله وآخره ، على المقيمين بالحرمين الشريفين من الذرية العمرية ، كما قاله في توقيعه الشريف المكتتب بالخط الفاضل عمر الأنام ، وأتفى بهداه بعده من إخواننا الصالحين ملوك الاسلام ، بخدنا لهم هذا التوقيع الشريف تبركا بالمشاركة واستدراك ما فاتنا مع سلفهم الكريم بالإحسان إلى أعقابهم . ومرسومنا أن يُحمَلوا على حكم التوقيع الشريف الصلاحى وما بعده من توقيعات الملوك الكرام ، ولا يغير عليهم فيه مغير من عوائد الإكرام ، ولا يُقبل فيهم قول معترض ولا تتعرض إليهم يد متعترض ، ولا يُفسح فيهم لمستعص إن لم يكن رافضا فإنه برفض حقهم مترفض ، ويُعامل الله فيهم بما يزيد جدتهم رضى الله عنه رضا ، ويُحبس تحبسا ثانيا لولانا لقيال لمن يُطالب بها كيف يُطالب بشيء مضى مع من مضى ، ونحن نبرأ إلى الله من سعى في نقضها بسبب من الأسباب ، أو مد فيها إلى فتح باب ، أو تأول في حكم هذا الكتاب عليهم وقد وافق حكم جدتهم حكم الكتاب ، وأن لا يُقسم شيء من ريع

هذه الناحية على غير المقيمين منهم بالحرمين الشريفين . ومن خاف على نفسه في المقام فيهما من كان في أحدهما ثم فارقه على عزم العود إلى مكانه ، وأقام وله حيناً إلى أوطانه ، ولم يُلْهِهِ استبدال أرض بأرض وجيران بجيران عن أرضه وجيرانه ، إتباعا لشرطها الأول بمثله ، وآتباعا فيها (؟) فاز مع السابقين الأولين بمزيد فضله .

وليكن النظر فيه لأمثل هذا البيت من المستحقين لهذا الحبس كابرًا عن كابر ، ناظرًا بعد ناظر ، آتباعا لمراد الكريم الصالح في مرسومه المقدم ، وتفسيرًا لمن لا يفهم ، من غير مشاركة معهم لأحد من الحكام ، لا أرباب السيوف ولا أرباب الأقلام : لنكون نحن ومحسبها - أثابه الله على هذه الحسنة - متناصرين ، ولتجد البقية التي قد ناصرهاناصرين الأول منهما بتناصرين ، وليحذر من يتبع عليهم تأويلا ، ومن وجد في قلبه مرضا فأعداهم به تعليلا ، فاستبدنا لتأويل حصل عليهم ، ولا لتعليل المراسيم الملوكية التي هي في أيديهم ، وإنما هو بمثابة إسجال أتصل من حاكم إلى حاكم ، وسيف جددنا تقليده ليضرب به على يد الظالم ، وجود أعلمنا من يحى أنه على مدى الليالي والأيام ضرب لازم ، وفضل إن تقدمنا إليه من الملوك الكرام حاتم ، فإن كرمنا عليه حاتم ، فقد نبهوا رحمهم الله مكافأة على إحسانهم إلى الذرية العمرية عمرا ، ثم ماتوا وأحالوا على جودنا الحمدي فإنهم ببركات من سميننا باسمه صلى الله عليه وسلم لأنواع الحسنات أسرا . فكان توقيعا هذا لهم بمنزلة الخاتمة الصالحة ، والرحمة التي أربت أوائلها على الغيوث السالفة ، فلقد تداركنا رفق برهم المعلل ، ولحقنا سابق معروفهم فلم نتمهل ، وأعدنا ما بدأوا به من الجميل فتكمل ، وقرنا مراسيمنا المطاعة بعضها ببعض وربما زاد الآخر على الأول ، فأمددناها منه بما لو لم يكن مداده أعز من سواد القلب والبصر لما كان قرة عين لمن يتأمل : يرتفع عن هذه الناحية وعمر فيها كل كارث كارث ، ويُرَال عنهم إلا ما يكون من مجدّدات

الخير خير حادث ، ويعلم الملك المتقدمان أماننا أن نعزيز بثالث . وجميع الثواب والولاية والمتصرفين ، والمسارعين إلى الخيرات ونعوذ بالله من المتوَقِّفين ، ومن يدخل في دائرة الأعمال ، وينضمُّ إلى راية العَمَل ، فانا نُحذِّره أن يتعرَّض فيها إلى سوء مآل ، أو يردَّ منها يده إلى جيبه بمال ، أو يُسَوِّش على أهلها ما استقاموا على أحسن حال ؛ وإن يحمِّد الله من تقدَّمتنا من الملوك وأنَّبَعُوا فيه التوفيق في علاماتهم فإنا نحمده وهو أملكنا ولنا في الغيب آمال ، والله تعالى يجعل هذه الحسنة خالصةً لوجهه الكريم ، معوضةً منه بالثواب العظيم ، واصلهً بالرحمة لريم هذا البيت القديم ، إن شاء الله تعالى ، والاعتماد

المرتبة الثانية

(ما يُفتتح بـ «أما بعد حمد الله»)

وهو على نحو ما تقدَّم في الولايات : إما في قُطْعِ الثَلث أو في العادة المنصوريَّة .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك ، وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل أيماننا مطلقاً للسَّعاده ، وجعل لأوليائها ، من إحساننا الحُسنى وزيادته ، وأضفى حلَّ بهائها ، على من لم يجتمع لغيره ما آجتماع له من أوصاف السَّياده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي شيد الله به مباني الدين الحنيفي ورفع عمَّاده ، ونصر جيوش الإسلام ومهد مهاده ، وعلى آله وصحبه الذين مامنهم إلا من جعل طاعته ونصرتَه عمدته وأعتاده ، وأتخذ مظافرتَه ومؤازرتَه في كل أمر عتَّاده ، صلاةً مستمرةً على كَرِّ الحديد إلى يوم الشَّهاده - فإنَّ أولى من تلحَّظه دولتنا الشريفة في أقبالها بزيد إقبالها ، وتعلي قدره إلى غاية

تَقْصُرُ الْأَفْلاكُ عَنْ إدْرَاكِ مَنَارِهَا وَبَعْدَ مَنَازِلِهَا ، وَتُضَاعِفُ لَهُ أَسْبَابَ الْإِحْسَانِ مِنْ حُسْنِ نَظَرِهَا وَاشْتِمَالِهَا ، وَتُشِيدُ مَبَانِيَ عِزِّهِ فَلَا تَصِلُ يَدُ الزَّمَنِ إِلَى بَعْضِ تَصَرُّمِهَا ، وَتُسَبِّغُ مَلَابِسَ النِّعَمِ عَلَيْهِ فَيَخْتَالُ فِي أَضْفَايَاهَا وَمُعَلِّمِهَا ، وَتُجَدِّدُ مِنْ مَزَايَا جُودِهَا مَا يُحَسِّنُ بِهِ الْجَزَاءَ عَمَّا أَسْلَفَهُ مِنْ خِدْمِهَا - مَنْ نَظَرَ فِي مَصَالِحِ أَحْوَالِهَا الْمَنْصُورَةِ فَأَحْسَنَ النَّظَرَ ، وَعَضَّدَ أَنْصَارَهَا بِآرَائِهِ الَّتِي تُشْرِقُ بِهَا وَجُوهُ الْأَيَّامِ إِشْرَاقَ الدَّرَارِيِّ وَالذَّرَرِ ، وَأَضْحَى وَلَهُ فِي الْعَالِيَاءِ الْمَحَلُّ الْأَيْلِ ، وَالْمَنَاقِبُ الَّتِي هِيَ كَالنَّهَارِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، وَالسِّيَادَةُ الَّتِي تَكْسُو الزَّمَانَ حُلَّ الْبَهَاءِ فَيَجْزُرُ مِنْهَا عَلَى الْحَجَرَةِ ذِيلاً ضَافِياً ، وَالْمَأْثُرُ الَّتِي لَوْلَا مَا أَحْيَيْتَهُ مِنْ مَعَالِمِ الرِّئَاسَةِ كَانَ طَلَّلاً عَافِياً ، مَعَ مَالِهِ مِنَ الْحَقُوقِ الَّتِي تَشْكُرُهَا الْأَيَّامُ وَالذُّلُ ، وَالْخِدْمُ الَّتِي كَمْ بَلَغَ بِخَالِصَتِهِ فِيهَا مِنْ قَصْدٍ وَأَمَلٍ ، وَالسَّجَايَا الَّتِي إِذَا خَلَعَتْ عَلَيْهَا حُلَّالاً مِنَ الثَّنَاءِ وَجَدْتَهَا مِنْهُ فِي أَهْبَى الْحُلَلِ .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانُ هُوَ الَّذِي تَحَلَّى مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ بُدْرَهُ النَّيِّينِ ، وَتَلَقَّى رَايَةَ هَذَا الْمَجْدِ كَمَا تَلَقَّاهَا عَرَابُهُ بِالْيَمِينِ ، وَتَنَضَّدَتْ كَوَاكِبُ هَذَا الْمَدْحِ لِتَنْتَظِمَ سِلْكَ الْمَآثِرَةِ ، وَاتَّسَقَتْ فَرَائِدُ هَذَا الشُّكْرِ لِتُرْصَعَ عَقُوداً لِمَفَاحِرِهِ - وَجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نُجَدِّدَ لَهُ فِي أَيَّامِنَا مَا تَنَضَاعَفَ بِهِ أَسْبَابُ النِّعَمِ لَدَيْهِ ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْهُ إِقْبَالُنَا بِوَجْهِهِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي عِلَالَتِهِ ، وَأَضْفَى عَلَى أَوْلِيَائِهِ حُلَّ آلَائِهِ ، وَأَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ بِوُجُودِهِ رَوْنَقَ بَهَائِهِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ لِلشَّارِ إِلَيْهِ فِي الشَّهْرِ كَذَا وَكَذَا مُضَافاً إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ لَحْمٍ وَتَوَائِلٍ وَعَلِيقٍ عَلَى مَا يَشْهَدُ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، فَلْيَتَّقِ إِحْسَانَنَا بِيَدِ اسْتِحْقَاقِهَا فِي الْفَضْلِ بَاعَ شَدِيدٍ ، وَيَتَّقِ مِنَّا بِالْإِقْبَالِ الَّذِي لَا يَزَالُ عِنْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ ، وَيَتَنَاوَلُ مَا قُرِّرَ بِاسْمِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ أَسْتِقْبَالِ تَارِيخِهِ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

المرتبة الثالثة

(مما يكتب به في الاطلاقات)

أن يُكتب في قطع العادة مفتتحاً برسم بالأمر الشريف ، والرسم فيه على نحو
ما تقدم في الولايات ، وهو أن يقال : « رسم بالأمر لا زال أن يستقر
باسم فلان كذا وكذا : لأنه كذا وكذا » ونحو ذلك .

وهذه نسخة توقيع شريف بمرتبة على الفرنج الجرجان الواردين لزيارة القدس
أنشأته لشرف الدين قاسم ، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زال عدله الشريف لمال الفىء بين ذوى الاستحقاق
قاسم ، وفضله العميم لأولى الفضل فى سلك الصلات ناظماً ، ومعروفه المعروف
لمواقع البر يؤم علماً ويبيت غانماً - أن يستقر لمجلس القاضى فلان الدين على الفرنج
الجرجان الواردين لزيارة قسامة بالقدس الشريف كذا وكذا : لما أشتمل عليه :
من مبين العلم ومبين العمل وجميل السيرة ، واجتمع لديه : من طيب الذكر وجميل
الأثر وصفو السيرة ، وإقامته بالمسجد الأقصى الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى
تسدد الرحال إليها ، وإحدى القبلتين المعول فى أول الإسلام عليهما ، ومجاورة الصخرة
المعظمة ، والآثار الشريفة والأماكن المكرمة ، وقيامه بما يجب من الدعاء لدولتنا
القاهرة ، والابتغال إلى الله تعالى بدوام أيامنا الزاهرة .

فليتناول هذا المعلوم مهناً ميسراً ، وليرج من كرمنا الوافر فوق ذلك مظهرها ،
وليشهر سلاح دعائه بتلك الأماكن الشريفة على أعداء الله وأعداء الدين ، ويرمهم
بسيهام الليل التى لا تحصى إن شاء الله تعالى الطغاة المتمردين ، فبذلك يستحق هذا
السهم من الفىء حقاً ، ويعتد من المقاتلة الذابيين عن الإسلام صدقاً ، وليقم على جادة

الاستقامة في الدين وليكن مما سوى ذلك برياً ، ويقابل هو ومثله إنعامنا بالشكر
يتلو عليهم لسان كرمنا فكلوه هنياً مرياً ، والخط الشريف أعلاه



وهذه نسخة توقيع شريف أيضاً أنشأه باسم بهاء الدين أبي بكر بن غانم كاتب
الدست الشريف بالشام المحروس باستمرار مرتبه على الفرنج الجرجان الواردين إلى
نغر الرملة المحروس ، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زال إحسان كرمه يزين بهاء حسنه المكارم ، وكرم
إحسانه تراكم سخائه الهاميه فترى بالسيول وتهزأ بالغائم ، وفي نواله يقسم
في أوليائنا خلقاً بعد سلف فهم من فضله بين غانم وابن غانم - أن يستقر مرتب
(١)
المجلس السامى

(١) لم يذكر الطرف الثاني وهو ما يكتب عن الثواب فتنه .

الباب الثالث

من المقالة السادسة في الطرخانيات

والمرادُ بها أن يصيرَ الشخصُ مسموحاً له بالخدمِ السلطانية : يُقيم حيثُ شاء ، ويرتَحِل متى شاء : تارةً بمعلوم يتناولُه مجَّاناً ، وتارةً بغير معلوم ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

في طرخانيات أربابِ السُّيوف

وأعلمُ أنَّ الطرخانية تُكتبُ للأمراء تارةً وللأجنادِ أخرى ، وأكثرُ ما تُكتب لمن كَثُرَتْ سِنُّهُ وضعُفَتْ قُدْرَتُهُ وعُجِزَ عن الخدمةِ السلطانية . وقد جرتِ العادةُ أن يسمَّى ما يكتبُ فيها مراسيمٌ ، وهى على ثلاثِ مراتبَ :

المرتبة الأولى

(أن يفتَحَ المرسومُ المكتتبُ في ذلك بالحمد لله)

والرسمُ فيه على نحوٍ من الولايات : وهو أن تُستوفى الخطبةُ إلى آخرها ، ثم يقال : وبعدُ ، ثم يقال : ولما كان فلانٌ ونحو ذلك ، ثم يقال : آقتضى رأينا الشريف ، ثم يقال : فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف أن يستقرَّ فلانٌ طرخاناً يتصرَّف على اختياره يسيرُ ويُقيم في أىِّ مكان اختاره من بلاد المملكة ، وما يحرى مجرى ذلك .

وهذه نسخة مرسوم شريف بطرخانيةٍ لأَميرٍ ، وهى :

الحمد لله اللطيف بعباده الرؤوف بخلقه ، المانِّ بفضله الغامرِ بجوده الجائد برزقه ، المتفضل على العبد : فى الصِّبا بصفحه وفى الكهولة بعفوه وفى الشيخوخة بعنقه .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ جَبَلَنَا عَلَى أَصْطِنَاعِ الصَّنَائِعِ ، وَخَصَّنَا بِرَفْعِ الْعَوَائِقِ وَقَطْعِ الْقَوَاطِعِ ،
وَأَلْهَمَنَا عَطْفَ النَّسَقِ وَإِنْ كَثُرَتْ مِمَّا سِوَاهِ التَّوَابِعِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُسْكِنُ الرَّحْمَةَ فِي قَلْبِ قَائِلِهَا ، وَتَرْفَعُ سَطْوَةَ الْغَضَبِ عَنْ مُتَحِلِّهَا
فِي أَوَانِحِ السَّطْوَةِ وَأَوَائِلِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ أَوْعَدَ
فَعَقًا ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ وَعَدَ فَوْقِي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكَوا
فِي الْمَعْرُوفِ سَبِيلَهُ ، وَنَهَجُوا فِي الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ نَهْجَهُ فَكَانَ لَهُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ ، صَلَاةٌ تُقِيلُ الْعَثَرَاتِ ، وَتُلَوِّدُ بِلَادَانَ قَبُولَهَا ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنْ أَوَّلَى مَنْ رَمَقَتْهُ الْمَرَاحِمُ الشَّرِيفَةُ ، بَعَيْنِ عِنَايَتِهَا ، وَلِحَظَّتْهُ الْعَوَاطِفُ
الْمُنِيفَةُ ، بَلَحَظَتْ رِعَايَتَهَا ، ^(١) مَا لَا يُفَارِقُهُ وَلَا يُبَايِنُ ، وَأَنْ لَا يُحِطَّ مِنْ قُدْرِهِ الْعَالِي
بَسَبَبِ مَا أَتَّفَقَ إِذْ كُلُّ مُقَدَّرٍ كَائِنٌ ، وَأَنْ يُصَرَّفَ اخْتِيَارُهُ فِي الْإِقَامَةِ حَيْثُ شَاءَ مِنْ
الْمَمَالِكِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْمَدَائِنِ .

فلذلك رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ مِنْ شِمِيهِ السَّمَاحِ ، وَمِنْ كَرَمِهِ بُلُوغُ النِّجَا
وَالنَّجَاحِ ، وَمِنْ نِعْمِهِ الصَّفْحُ عَنْ الذَّنْبِ الْمُتَّحِ ، حَتَّى يَحْفَظَ عَلَى الْأَنْفُسِ النَّفِيسَةِ
الْأَمْوَالَ وَيُرِيحَ لَهَا الْأَرْوَاحَ ، [وَلَا يَرْجُؤُ^(٢) يُولَى] مِنْ قِسْمَةِ الْمَكْرُمَاتِ مَا يُنْسَى بِهِ الذَّنْبُ
فَكَأَنَّهُ كَانَ بَرْقًا أَوْ مِزْجًا وَلَمْ يَحْ وَرَاحَ - أَنْ يَكُونَ الْمُسَارُ إِلَيْهِ طَرَاخًا يُقِيمُ حَيْثُ شَاءَ
وَأَيْنَ أَرَادَ مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ مُعَامَلًا بِمَزِيدِ الْإِكْرَامِ وَالْإِحْتِرَامِ ، وَأَوْفَرَ
الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ حَسَبَ مَا أَقْتَضَتْهُ الْمَرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ مَا شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ
الْعَمِيمَةُ وَالْمَرَاحِمُ الشَّامِلَةُ بِالْعَفْوِ الشَّرِيفِ ، وَالْحُكْمِ الْمُنِيفِ ، وَالْإِقْبَالِ وَالرِّضَا ،

(١) بياض في الأصل ولعله « من أهله اخلاصه في الخدم لأن يقوم مقام الخ » .

(٢) زدنا هذه الجملة لينتسق الكلام .

والصَّفْحَ عَمَّا مَضَى، لما رأيناه من تَرْفِيهِ خَاطِرَهُ، وقرَّارِ قَلْبِهِ برفعِ التَّكْلِيفِ عنه وَفَرَّةِ نَاضِرِهِ . ولما تَخَلَّقَتْ بِهِ أَخْلَاقُنَا، من التَّيَمُّنِ الَّذِي أَلْبَسَهُ أَثْوَابَ الْأَمَانِ، وَجُبِلَتْ عَلَيْهِ طِبَاعُنَا، من الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرَّاحُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ؛ ولما مَهَّدَهُ لَهُ عَسَدَنَا اعْتِرَافُهُ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَقْوَى شَفَاعِهِ، وَلِمَا تَحَقَّقْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا لَوْفُورِ الطَّاعَةِ الَّتِي أُوجِبَتْ لَهُ الْإِرْهَابُ إِذَ الْهَرَبُ مِنَ الْمُلُوكِ طَاعَهُ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ تَيَقَّنَ سَخَطُنَا الشَّرِيفَ وَعَلِمَ، وَخَشِيَ مَهَابَتَنَا الشَّرِيفَةَ وَمَنْ خَافَ سَلِمَ .

فَلْيَتَقَلَّدْ عَقُودَ هَذِهِ الْمِنَّةِ الَّتِي طَوَّقَتْ حَيْدَهُ الْجُودَ، وَلْيَشْكُرْ مَوَاقِعَ هَذَا الْحِلْمِ الَّذِي سَرَّ وَسَارَ كَالْمَثَلِ السَّائِرِ فِي الْوُجُودِ، وَلْيُقَابِلْ هَذَا الْإِقْبَالَ بِالْإِعْدَاءِ لِأَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ، وَلْيَحْظَ بِمَوَاهِبِنَا الْعَمِيمَةِ وَصَدَقَاتِنَا الْبَاهِرَةِ، وَلْيَحِطْ عِلْمًا بِأَنَّ إِحْسَانَنَا الْعَمِيمَ قَدْ أَعَادَ إِلَيْهِ مَا أَلْفَهُ مِنَ الْإِسْعَادِ وَالْإِصْعَادِ، وَأَنَّ صَفْحَنَا الشَّرِيفَ قَدْ أَضْرَبَ عَمَّا مَضَى وَالْمَاضِيَ لِأَيَّامِنَا، فَلْيَقُمْ حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْبِلَادِ الْمَحْرُوسَةِ، مَتَقِيًّا ظِلَالَ مَوَاهِبِنَا الَّتِي يَغْدُو وَسَرَّائِرُهَا بِهَا مَا نُوسِسُهُ، وَارْدًا بِحَارِ عَطَايَانَا الزَّائِرَةِ، مُمْتَعًا بِمَلَابِسِ رِضَانَا الْفَاخِرَةِ، طَيِّبَ الْقَلْبِ مِنْبَسِطِ الْأَمَلِ، مُنْشِرِحَ الصَّدْرِ بِمَا عَمَّهُ مِنَ الْإِنْعَامِ وَشَمَلِ، مَرْعَى الْجَنَابِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، مَعْظَمَ الْقَدْرِ عَلَى تَوَالِي الْأَزْمَانِ، مَبْتَهَجًا بِغَمْدِ مَا عَرَضَ مِنْ ذَلِكَ التَّقْطِيبِ، مُسْتَبْشِرًا بِإِقْبَالِنَا الَّذِي يَلْدُّ بِهِ عَيْشُهُ وَيَطْبِيبُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ لَهُ عَوَارِفَنَا الْمُطْلَقَةَ، وَغَمَائِمَ كَرَمِنَا الْمُغْدِقَةِ، وَمَوَاهِبِنَا الَّتِي انْتَشَرَتْ لَهُ فِي كُلِّ قُطْرٍ فَهِيَ لِأَنْوَاعِ الْعَطَايَا مُسْتَغْرِقَةٌ، وَمِنْنَتُنَا الَّتِي تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُمَا سَارَ وَتُقِيمُ لَدَيْهِ أَتَى أَقَامَ فَلَا تَزَالُ عِنْدَهُ مَخِيْمَةً فِي الْأَمَاكِنِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَالْإِعْتَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ .

المرتبة الثانية

(أن يفتح مرسوم الطرخانية بـ «أما بعد»)

والرسم فيه كما في الولايات أيضا يقال فيه [أما بعد] فإن كذا وكذا ، ثم يقال :
ولما كان كذا وكذا ، اقتضى رأينا الشريف ، ثم يقال : ولذلك رُسم بالأمر
الشريف ، ويكمل عليه .

وهذه نسخة مرسوم من ذلك ، وهى :

أما بعد حمد الله على نعمه التى أوزعتنا بالإحسان إلى عباده أداء شكرها ، وآلائه
التي ألهمتنا بالتخفيف عن برئته اقتران محامده بذكرها ، ومنته التى وفق بها دولتنا
الشريفة لأن يكون العدل والإحسان أولى ما أجزته بفكرها ، وأحق ما أمرته
بذكرها . والصلاة والسلام على رسوله الذى أوضح سبيل المعروف ، وشرع سنن
العدل المألوف ، ووصفه الله تعالى بالرفقة والرحمة فيه يقتدى كل رحيم وبه ياتم كل
رؤوف ، وعلى آله وصحبه الذين رفعوا منار العدل لسالكيه ، وقربوا منال الفضل
لآخذه وبيتوا الحيف والإشتطاط لتاركه . فإن الله تعالى خص أيامنا الزاهرة
بتعاهد أهل خدمتنا بالعدل والإحسان ، وتفقد رعايانا بإزالة ما يكدر عليهم موارد
النعم الحسان ، فلا نزال ننعم النظر فى أمورهم ، ونفيض عام إحساننا على خاصهم
وجمهورهم ، ليناموا من عدلنا في مهاد الدعة ، ويبيت ضعيفهم من مراحنا الشريفة
فى أتم رافة وفقيرهم فى أوفر سعة .

ولما كان فلان ممن توفّر فى الخدمة الشريفة قسمه ، وكبر فى الطاعة سنه ووهن
عظمه ، وعجزت عن الركوب والنزول حركته ، وذهبت مواقف حربه ولم يبق إلا أن
تلمس بركته . اقتضى حسن رأى الشريف أن يضاعف إليه الإحسان ، ويعامل
بوافر البر وجزيل الامتنان .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف - لا زال يُوالى المِنَن ، ويُولى الأولياء من المعروف
كلَّ جميلٍ حسن - أن يستقرَّ المذكورُ طَرْخانًا لا يُطَلَّب لخدمة في نهار ولا ليل ،
ولا يُلْزَم بالقيام بترك^(١) ولا خيل ، فليَمُضْ حكمُ هذه الطَّرْخانية لا تتأوَّل ألسنةُ الأعلام
في نصِّه ، ولا تتطرق أوهامُ الأفهام إلى اعتراض ماثبت من إعفائه بنقصه ولا نقصه ،
وسبيل كل واقف عليه اعتماد مضمونه والوقوف عند حكمه ، والانتهاء إلى حدِّه
وتبَّاع رُسمه ، إن شاء الله تعالى .^(٢)

الفصل الثاني

من الباب الثالث من المقالة السادسة

(فيما يكتب في طَرْخانيات أرباب الأعلام)

وهو قليل نادر قلَّ أن يُكْتَب ، وإذا كتب فغالبا ما يفتتح برسم ، ويسمى
ما يُكْتَب فيه تواقع .

وهذه نسخة طَرْخانية كُتِب بها عن الملك الناصر محمد بن قلاوون للقاضي
قُطب الدين بن المكرم أحد كُتَّاب الدَّرج الشريف بالأبواب الشريفة ، عند إقامته
بالحجاز الشريف ، بأن يستقرَّ طَرْخانًا بنصف معلومه الذي كان له على كتابة الدَّرج
الشريف وأن يقيم حيث شاء ، وهي :

رُسِم بالأمر الشريف - لا زال يأمرُ فِطَاع ، ويصلُ فيعين على الانقطاع ،
ويُرى على اقتراح الآمل جوده المكرم المكرم فالآمل يقترح ما أستطاع - أن يستقرَّ
للمجلس السامي القضائي فلان بن المكرم نفع الله به من معلومه عن كتابة الدَّرج

(١) الترك الطعن بالترك وهو رخ صغير .

(٢) لم يذكر المرتبة الثالثة ولعلها ما يفتتح برسم بالأمر الشريف .

الشریف الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت النصف من كل شهر ، على
الأدعية الصالحة لهذه الدولة القاهرة ، ويُقيم حيث شاء ، ثم يستقر ذلك لأولاده
من بعده ، ثم الأولاد أولاده بالسوية إعانة له على بلوغ قصده ورغائبه ، وأستعانة
بمحاضر الجود دون غائبه ، وإكراماً لجانبه ، وطالب وجه الله تعالى [يعان] على الفوز
بكنوز مطالبه .

وما كنا لنسمح ببعده عن أبوانا الشريفه ، ولا نُحییَه لمفارقة ما بيده من وظيفه ،
لأنه ما يدرك أحد من أبناء عصره مدته ولا نصيفه ، ولديوان إنشائنا جمال بعقود
كتابته النظمه ومعاني ألفاظه اللطيفه ، وإتمنا لإقباله على الآجله ، وإعراضه عن
العاجله ، وأستيعاب أوقاته بأداء الفريضة والنافله ، أسعفتنا سؤاله بالإجابة ، وأعنا
على الإنابة ، وأجرنا سهمه من الإحسان فبلغ سهمه الإصابه ، ومن أحسن سبيلا من
أخذ لنفسه قبل الحين ، ونفض يديه من الدنيا فرآح بالخير مملوء اليدين ، فنظر إلى
معاذه فأقبل على الله قري العين ، وها نحن قد كرمناه في وقت واحد بإنشاء ولدين .

فليشكر لصدقاتنا هذه النعم المتزايدة ، والصلوات العائده ، والإحسان إليه وإلى
بنیه جملة واحده ، وليدع لدولتنا القاهرة حين يقوم لله قانتا ، وحين يقول ناطقا
وحيث يُفكر صامتا ، وعند فطره من صومه ، وفي أعقاب الصلوات في ليله ويومه ،
وليواصل إليه هذا المرتب ميسرا لا يُكدر مورده بتأخير ، ويُصرف إليه مهنأ لا يُشأن
طوله بتقصير ، ولا يُحوج إلى عناء وطلب ، ولا يلجأ في تناوله إلى كد وتعب ، بل
يرقه خاطره عما فاز به من حسن المنقلب ، والله تعالى يمدّه بعونه وفضله ، ويُحب
فرعه ببركة أصله ، والخط الشريف أعلاه حجة فيه ، إن شاء الله تعالى .

الباب الرابع

من المقالة السادسة

(فيما يُكتب في التوفيق بين السنين الشمسية [والقمرية] المعبر عنه في زماننا
بتحويل السنين ، وما يُكتب في التذاكر ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

[فيما يكتب في التوفيق بين السنين ، وفيه طرفان

(^(١))
الطرف الأول]

(في بيان أصل ذلك)

اعلم أن استحقاق الخراج [و] جبايته منوطان بالزروع والثمار من حيث إن الخراج
من متحصل ذلك يؤخذ ، والزروع والثمار منوطة بالشهور والسنين الشمسية من
حيث إن كل نوع منها يظهر في وقت من أوقاتها ملازم له لا يتحول عنه ولا ينتقل
للزوم كل شهر منها وقتاً بعينه من صيف أو شتاء أو خريف أو ربيع ، واستخراج
الخراج في الملة الإسلامية منوط بتاريخ الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام ، وشهوره وسنوه عربية . والشهور العربية تنتقل من وقت إلى وقت ،
فربما كان استحقاق الخراج في أول سنة من السنين العربية ، ثم تراخى الحال فيه
إلى أن صار استحقاقه في أواخرها ، ثم تراخى حتى صار في السنة الثانية فيصير الخراج
منسوباً للسنة السابقة ، واستحقاقه في السنة اللاحقة ، فيحتاج حينئذ إلى تحويل
السنة الخراجية السابقة إلى التي بعدها على ماسياتي ذكره .

(١) الزيادة مأخوذ مما سأتى له من التقسيم .

قال في "موادّ البيان" : والسبب في انفراج ما بين السنين الشمسية والهلالية أن أيام السنة الشمسية هي المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها دفعة واحدة ، وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً ورُبُع يوم بالتقريب حسب ما توجبه حركتها ، وأيام السنة الهلالية هي المدة التي يقطع القمر الفلك فيها اثنتى عشرة دفعة ، وهي ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً وسُدُس يوم ، فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوماً وسُدُس يوم ، فتكون زيادة السنين الشمسية على السنين الهلالية في كل ثلاث سنين شهراً واحداً وثلاثة أيام ونصف يوم تقريباً . وفي كل ثلاث وثلاثين سنة سنةً بالتقريب ، فإذا تَمَادَى الزمان تفاوت ما بين السنين تفاوتاً قبيحاً ، فيرى السلطان عند ذلك أن تُنْقَل السنة الشمسية إلى السنة الهلالية بالأسم دون الحقيقة توفيقاً بينهما ، وإزالة للشبهة في أمرهما ، ومتى أوعز بذلك لم يقف على الفرض فيه إلا الخاصة دون العامة ، وأسرع إلى ظنّ المعاملين وأرباب الخراج والأُملاك أن ذلك عائدٌ عليهم بظلم وحيف ، وإلى ظنّ مستحقّ الإقطاع أنه مشقّص لهم ، ونسبوا الجور إلى السلطان بسبب ذلك وشنعوا عليه ، فرسم بُلغَاءُ الكُتّاب في هذا المعنى رُسوماً تعود بتفهيم الغي ، وتبصير العمى ، وتوصل المعنى المراد إلى الكافة إيصالاً يتساوون في تصديقه وتيقّنه ، ولا تتوجه عليهم شبهة ولا شك فيه .

قلت : وقد ذكر أبو هلال العسكري في الأوائل : أن أول من أضرّ النيرور المتوكل على الله أحد خلفاء بني العباس ، وذلك أنه بينما هو يطوف في متصيد له إذ رأى زرعاً أخضر ، فقال : قد استأذني عبيد الله بن يحيى في فتح الخراج وأرى الزرع أخضر ، ف قيل له : إن جباية الخراج الآن قد تضرّ بالناس إذ تلجئهم إلى أنهم يقرضون ما يؤدّون في الخراج ، فقال : أهذا شيء حدث أو لم يزل كذا ، ف قيل له : بل حدث ، وعرف أن الشمس تقطع الفلك في ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ورُبُع يوم ،

وَأَنَّ الرُّومَ تَكْلِسُ فِي كُلِّ أَرْبَعِ سِنِينَ يَوْمًا فَيَطْرَحُونَهُ مِنَ الْعَدَدِ ، فَيَجْعَلُونَ شَبَاطَ ثَلَاثِ سِنِينَ مَتَوَالِيَاتٍ ثَمَانِيَّةً وَعَشْرِينَ يَوْمًا . وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ يَنْجِرُ مِنْ ذَلِكَ الرَّبْعِ الْيَوْمَ يَوْمُ تَامَ ، فَيَصِيرُ شَبَاطُ تِسْعَةٍ وَعَشْرِينَ يَوْمًا ، وَيُسَمُّونَ تِلْكَ السَّنَةَ الْكَيْسَةَ . وَكَانَتْ الْفَرَسُ تَكْلِسُ لِلْفَضْلِ الَّذِي بَيْنَ سِنِيهَا وَبَيْنَ سَنَةِ الشَّمْسِ فِي كُلِّ مِائَةِ وَسِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ شَهْرًا ؛ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ عَطَّلَ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَأَضْرَبَ النَّاسُ ذَلِكَ ؛ وَجَاءَ زَمَنُ هِشَامَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَاجْتَمَعَ الدَّهَاقَةُ إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَشَرَحُوا لَهُ ذَلِكَ (وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَأَضْرَبَ النَّاسُ ذَلِكَ) ^(١) ، وَقَدْ سَأَلُوهُ أَنْ يُؤَنِّحَ إِلَيْهِ [فَأَرْسَلَ] ^(٢) الْكُتُبَ إِلَى هِشَامَ سَرًّا فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ هِشَامُ : أَخَافُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ .

فَلَمَّا كَانَ أَيَّامُ الرَّشِيدِ اجْتَمَعُوا إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ ، وَسَأَلُوهُ فِي تَأْخِيرِ النَّيْرُوزِ نَحْوَ شَهْرٍ فَعَزَمَ عَلَى ذَلِكَ ، فَتَكَلَّمَ أَعْدَاؤُهُ فِيهِ وَقَالُوا : تَعْصَبُ لِلْمَجُوسِيَّةِ ، فَأَضْرَبَ عَنْهُ فَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ ؛ فَأَحْضَرَ الْمُتَوَكِّلُ حِينَئِذٍ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَنْهُ كِتَابًا فِي تَأْخِيرِ النَّيْرُوزِ بَعْدَ أَنْ تُحْسَبَ الْأَيَّامُ ، فَوْقَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى أَنْ يُؤَنِّحَ إِلَى سَبْعَةِ وَعَشْرِينَ يَوْمًا مِنْ حَزِيرَانَ ، فَكَتَبَ الْكِتَابَ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ الْعَسْكَرِيُّ : وَهُوَ كِتَابٌ مَشْهُورٌ فِي رِسَائِلِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ ، ثُمَّ قُتِلَ الْمُتَوَكِّلُ قَبْلَ دُخُولِ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَوَلِيَ الْمُتَصِرُّ وَاحْتِجَّ إِلَى الْمَالِ فَطُوبِلَ بِهِ النَّاسُ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ ، وَانْتَقَضَ مَارِسَتُهُ الْمُتَوَكِّلَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ حَتَّى وَلِيَ الْمُعْتَصِدُ ، فَقَالَ لِعَلِيِّ بْنِ يَحْيَى الْمُنْجَمِ : تَذَكَّرْ ضَجِيجَ النَّاسِ مِنْ أَمْرِ الْخَرَاجِ فَكَيْفَ جَعَلْتَ الْفُرْسَ مَعَ حِكْمَتِهَا وَحُسْنِ سِيرَتِهَا أَفْتَتَاحَ الْخَرَاجِ فِي وَقْتٍ مَا لَا يَتِمَّكَنُ النَّاسُ مِنْ أَدَائِهِ فِيهِ ؟ فَشَرَحَ لَهُ أَمْرَهُ ، وَقَالَ :

(١) لعل ما بين القوسين مكرر من قلم الناصح .

(٢) بياض في الأصل بقدر كلمة .

ينبغي أن يُردَّ إلى وقته ، ويلزم يوما من أيام الروم فلا يقع فيه تغيُّر ، فقال له المعتضد سرُّ إلى عبيد الله بن سليمان فوافقه على ذلك ، فصرت إليه ووافقته ، وحسبنا حسابه فوقع في اليوم الحادى عشر من حزيران ، فأحكم أمره على ذلك ، وأثبت في الدواوين ، وكان النيروز الفارسيّ إذ ذاك يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين وثمانين ومائتين . ومن شهور الروم الحادى عشر من نيسان .

وقد قال أبو الحسين على بن الحسين الكاتب رحمه الله : عهدت جباية الخراج في سنين قبل سنة إحدى وأربعين ومائتين في خلافة أمير المؤمنين المتوكل رحمه الله عليه تجزى لكل سنة في السنة التي بعدها بسبب تأخر الشهور الشمسية عن الشهور القمرية في كل سنة أحد عشر يوما ورُبَّ يوم وزيادة الكسر عليه ، فلما دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد آتقضى من السنين التي قبلها ثلاث وثلاثون سنة ، وأوطن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمه الله عليه ، واجتمع من هذا المتأخر فيها أيام سنة شمسية كاملة : وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يوما ورُبَّ يوم وزيادة الكسر ، وتبيّ إدراك غلات وثمار سنة إحدى وأربعين ومائتين في صدر سنة اثنتين وأربعين [ومائتين] ، فأمر أمير المؤمنين المتوكل رحمه الله عليه بالغاء ذكر سنة إحدى وأربعين ومائتين ، إذ كانت قد آتقضت ونُسب الخراج إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

قال صاحب "المنهاج في صنعة الخراج" : ولما نُقلت سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سنة اثنتين وأربعين ، جَبَى أصحاب الدواوين الجوالى والصدقات لستى إحدى واثنين وأربعين ومائتين في وقت واحد ، لأن الجوالى بسر من رأى ومدينة السلام ومضافاتهما كانت تُجْبَى على شهور الأهلة ، وما كان عن جماجم أهل القرى

(١) والضِّياع والمستغلات كانت تُجْبَى على شهور الشمس ، وأُلْزِم أهل الجوالى خاصّة في مدة الثلاثِ وثلاثين سنة ، ورفعها العُمال في حُسباناتهم فاجتمع من ذلك أُلوفُ أُلوفِ دراهم ، فجرت الأعمال بعد نقل المتوكّل على ذلك سنةً بعد سنة ، إلى أن انقضت ثلاثٌ وثلاثون سنةً آخرتُنْ انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ؛ فلم يُدبّه كُتّابُ أمير المؤمنين : المعتمد على الله رحمة الله عليه على ذلك ، إذ كان رؤسائهم في ذلك الوقتِ إسماعيل بن بُلبل وبنو القُرأت ، ولم يكونوا عَمِلُوا في ديوان الخراج والضِّياع في خلافة أمير المؤمنين المتوكّل رحمه الله ، ولا كانت أسنانهم أسناناً بلغت معرفتهم معها هذا النّقل ، بل كان مولدُ أحمد بن محمد بن القُرأت قبل هذه السنة بخمس سنين ، ومولِدُ عليّ أخيه فيها ؛ وكان إسماعيل يتعلّم في مجلسٍ لم يبلغْ أن يَنْسَخَ ، فلما تقلّدتُ لناصر الدين رحمة الله عليه أعمالَ الضِّياع بقزوين ونواحها لسنة ستّ وسبعين ومائتين ، وكان مقيماً بأذربيجان ، وخليفته بالجليل والقرى جرّادة بن محمد ، وأحمد بن محمد كاتبه ، واحتجّتْ إلى رفع جماعتي إليه - ترجمتها بجماعة [سنة] ستّ وسبعين ومائتين [التي أدركت غلاتها وثمارها في سنة سبع وسبعين ومائتين] ، ووجب إلغاء ذكر سنة ستّ وسبعين ومائتين ؛ فلما وقفّا على هذه الترجمة أنكرّاها وسألاني عن السبب فيها فشرحتُ لهما ، ووَكَّدتُ ذلك بأن عرّفتهما أنّي قد استخرجتُ حسابَ السنين الشمسية والسنين القمرية من القرآن [بعد] ما عرضته على أصحاب التفسير ، فذكروا أنه لم يأت فيه شيءٌ من الأثر ، فكان ذلك أوكد

(١) عبارة المقرئ ج ١ ص ٢٧٦ « وفي ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالى ورفعها الخ » وهي أوضح .

(٢) الزيادة من "المواظ والاعتبار" للمقرئ ج ١ ص ٢٧٦ وقد اعتمدها في كثير من التصحيف في هذا الموضع .

في لطف استخراجي : وهو أن الله تعالى قال في سورة الكهف : ﴿ وَلْيَثُورِ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴾ . فلم أجد أحداً من المفسرين عرف ما معنى 'وازدادوا تسعاً' ، وإنما خاطب الله جل وعز نبيه بكلام العرب وما تعرفه من الحساب ؛ فمعنى هذه التسع أن الثلاثمائة كانت شمسية بحساب العجم ومن كان لا يعرف السنين القمرية ، فإذا أُضيف إلى الثلاثمائة القمرية زيادة التسع كانت سنين شمسية [صحيحة] فاستحسنه ؛ فلما انصرف جرادة مع الناصر رحمة الله عليه إلى مدينة السلام وتوفي الناصر رضوان الله عليه وتقلد أبو القاسم عميد الله بن سليمان رحمه الله كتابة أمير المؤمنين : المعتضد بالله صلوات الله عليه ، أجرى له جرادة ذكر هذا النقل ، وشرح له سببه : تقرباً إليه ، وطعناً على أبي القاسم عميد الله رحمه الله في تأخيره إياه .

فلما وقف المعتضد بالله رحمه الله على ذلك تقدم إلى أبي القاسم بإنشاء الكتب بنقل سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين ، فكتب ، وكان هذا النقل بعد أربع سنين من وجوبه ، ثم مضت السنون سنة بعد سنة إلى أن انقضت الآن ثلاث وثلاثون سنة أولاًهن السنة التي كان النقل وجب فيها : وهي سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرهن انقضاء سنة سبع وثلاثمائة ، فوافق ذلك خلافة المطيع لله في وزارة أبي محمد المهلب ، فأمر بنقل سنة ست وثلاثمائة إلى سنة سبع وثلاثمائة ، ونسبة الخراج إليها فنقلت ، وأمر بالكتابة بذلك من ديوان الانشاء فكتب به .

وقد حكى أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبي إسحق إبراهيم الصابي عن أبيه أنه قال : لما أراد الوزير أبو محمد المهلب نقل السنة أمر أبا إسحق والدي وغيره من كتابه في الخراج والرسائل بإنشاء كتاب عن المطيع لله رحمه الله عليه في هذا المعنى ، وكل منهم كتب ، وعرضت النسخ على الوزير أبي محمد فاختر منها كتاب والدي

(١) وتقدم بأن يُكتب إلى أصحاب الأطراف . وقال لأبي الفرج بن أبي هاشم خليفته :
اكتب إلى العمال بذلك كتباً مخففة ، وأنسخ في أواخر [ها] هذا الكتاب السلطاني
فغالب أبا الفرج وقوع التفضيل والاختيار لكتاب الدي ، وقد كان عمل نسخة
أطرح في جملة ما أطرح ، وكتب : « قد رأينا نقل سنة خمسين [إلى إحدى
(٢) وخمسين] فاعمل على ذلك » ولم ينسخ الكتاب السلطاني ، وعرف الوزير أبو محمد
ما كتب به أبو الفرج ، فقال له : لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطاني في آخر الكتاب
إلى العمال وإثباته في الديوان ؟ فأجاب جواباً علل فيه ، فقال له يا أبا الفرج : ما تركت
ذلك إلا حسداً لأبي إسحق على كتابه ، وهو والله في هذا الفن أكتب أهل زمانه .

قال صاحب "المنهاج في صنعة الخراج" : وقد كان نقل السنين في الديار المصرية
[أغفل] (٣) حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة الهلالية فنقلت سنة تسع وتسعين
الخارجية إلى سنة إحدى وخمسمائة فيما رأيته في تعليقات أبي . قال : وآخر ما نقلت
السنة في وقتنا هذا أن نقلت سنة خمس وستين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين
وخمسمائة الهلالية ، فتطابقت السنتان . وذلك أني لما قلت للقاضي الفاضل عبد الرحيم
البيساني : إنه قد آن نقل السنة ، أنشأ سجلاً بنقلها نسخ في الدواوين ، وحمل
الأمر على حكمه ، ثم قال : وما برح الملوک والوزراء يعنون بنقل السنين في أحيانها ،
ومطابقة العاميين في أول زمان اختلافهما بالبعد وتقارب اتفاقهما بالنقل .

قلت : والحاصل أنه إذا مضى ثلاث وثلاثون سنة من آخر السنة ، حوت
السنة الثالثة والثلاثون إلى تلو السنة التي بعدها ، وهي الخامسة والثلاثون ، وتلغى

(١) في المقرئى « هشام » .

(٢) الزيادة من المقرئى ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) من المقرئى ص ٢٧٦ ج ١ .

الرابعة والثلاثون ، ومقتضى البناء على التحويل الذى كان فى خلافة المطيع فى سنة سبع وثلثمائة المقدم ذكره أن تحوّل سنة سبع وثلثمائة إلى سنة تسع وثلثمائة ، ثم تحوّل سنة أربعين وثلثمائة إلى اثنتين وأربعين وثلثمائة ، وتلغى سنة إحدى وأربعين ، ثم تحوّل سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة إلى سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وتلغى سنة أربع وسبعين ، ثم تحوّل سنة ست وأربعمائة إلى سنة ثمان وأربعمائة ، وتلغى سنة سبع ، ثم تحوّل سنة تسع وثلاثين وأربعمائة إلى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وتلغى سنة أربعين ، ثم تحوّل سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة إلى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وتلغى سنة ثلاث وسبعين ، ثم تحوّل سنة خمس وخمسمائة إلى سنة سبع وخمسمائة ، وتلغى سنة ست ، لكن قد تقدّم من كلام صاحب "المنهاج فى صناعة الخراج" أن التحويل كان تأخر بالديار المصرية إلى آخر سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فحوّلت سنة تسع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة ، فيكون التحويل بالديار المصرية قد وقع قبل استحقاقه بمقتضى الترتيب المقدم ذكره بست سنين من حيث إنه كان المستحقّ مغلّ سنة خمس وخمسمائة إلى سنة سبع وخمسمائة كما تقدّم ، فنقلت سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة . والأمر فى ذلك قريب إذ التحويل على التقريب دون التحديد .

ثم مقتضى ترتيب التحويل الرابع فى الديار المصرية بعد تحويل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة أن تحوّل بعد ذلك سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وتلغى سنة ثلاث وثلاثين ، ثم تحوّل سنة خمس وستين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين وخمسمائة ، وتلغى سنة ست وستين ، ثم تحوّل سنة ثمان وتسعين وخمسمائة إلى سنة ستمائة ، وتلغى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ثم تحوّل سنة إحدى وثلاثين وستمائة إلى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وتلغى سنة

أثنتين وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة أربع وستين وستمائة إلى سنة ست وستين وستمائة ،
وتلغى سنة خمس وستين ؛ ثم تحوّل سنة سبع وتسعين وستمائة إلى سنة تسع وتسعين
وستمائة ، وتلغى سنة ثمان وتسعين ؛ ثم تحوّل سنة سبعائة وثلاثين إلى سنة سبعائة
وأثنتين وثلاثين ، وتلغى سنة إحدى وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة ثلاث وستين وسبعائة
إلى سنة خمس وستين وسبعائة ، وتلغى سنة أربع وستين وسبعائة ؛ وتحوّل سنة
ست وتسعين وسبعائة إلى سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، وتلغى سنة سبع وتسعين ؛
ثم لا يكون تحويل إلى سنة تسع وعشرين وثمانمائة ، فتحوّل إلى سنة إحدى وثلاثين
وثمانمائة ، لكن قد حوّل كُتّاب الدواوين بالديار المصرية وأرباب الدولة بها سنة
تسع وأربعين وسبعائة : (وهي سنة الطاعون الجارف العام) إلى سنة إحدى وخمسين
وسبعائة ، وألغوا سنة خمسين . وكان يقال : مات في تلك السنة كل شيء حتى
السنة ، وسيأتي ذكر المرسوم المكتتب بها في تحويل السنين في هذه المقالة ،
إن شاء الله تعالى .

ونُقِل ذلك لتأخير وقع من إغفال تحويل سنة سبعائة وثلاثين المتقدمة الذكر ،
(١)
وآخر سنة حوّلت في زماننا سنة

(١) بياض في الأصل .

الطرف الثانى

(فى صورة ما يكتب فى تحويل السنين ، وهو على نوعين)

النوع الأول

(ما كان يكتب فى ذلك عن الخلفاء ، وفيه مذهبان)

المذهب الأول

(أن يفتح ما يكتب به «أما بعد»)

وعلى ذلك كان يكتب من ديوان الخلافة ببغداد .

وهذه نسخة ما ذكر أبو الحسين بن على الكاتب المتقدم ذكره أنه كتب به فى ذلك فى نقل سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين فى خلافة المعتضد بالله أمير المؤمنين ، وهى :

أما بعد ، فإن أولى ما صرف إليه أمير المؤمنين عنايته ، وأعمل فيه فكره ورويته ، وشغل به تفكره ورعايته ، أمر الفىء الذى خصه الله به وألزمه جمعه وتوفيره ، وحياطته وتكثيره ، وجعله عماد الدين ، وقوام أمر المسلمين ، وفيما يصرف منه إلى أعطيات الأولياء والجنود ، ومن يستعان به لتحصيل البيضة والذب عن الحرم ، وحج البيت ، وجهاد العدو ، وسد الثغور ، وأمن السبل ، وحقن الدماء ، وإصلاح ذات البين . وأمير المؤمنين يسأل الله راغباً إليه ، ومتوكلاً عليه ، أن يحسن عونته على ما حمله منه ، ويديم توفيقه لما أرضاه ، وإرشاده إلى ما يقضى عنه وله .

وقد نظر أمير المؤمنين فيما كان يجرى عليه أمر جباية هذا الفىء فى خلافة آبائه الراشدين فوجده على حسب ما كان يدرك من الغلات والثمار فى كل سنة أولاً

أَوَّلًا عَلَى تَجَارِي شُهُورِ سِنِي الشَّمْسِ فِي النُّجُومِ الَّتِي يَحِلُّ مَالُ كُلِّ صَنْفٍ مِنْهَا فِيهَا ،
وَوَجَدَ شُهُورَ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ تَتَأَخَّرُ عَنْ شُهُورِ السَّنَةِ الْهَلَالِيَّةِ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا وَرُبْعًا
وَزِيَادَةً عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ إِدْرَاكُ الْغَلَاتِ وَالنُّجُومِ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَسَبِ تَأَخُّرِهَا .

فَلَا تَرَالُ السَّنُونَ تَمُضِي عَلَى ذَلِكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ حَتَّى تَقْضِيَ مِنْهَا ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ
سَنَةً وَتَكُونُ عَبْدَةُ الْأَيَّامِ الْمَتَأَخِّرَةِ مِنْهَا أَيَّامَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ كَامِلَةً ، وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةٌ
وَسِتُونَ يَوْمًا وَرُبْعُ يَوْمٍ وَزِيَادَةٌ عَلَيْهِ ، فَيَنْبَغِي تَبَيُّنُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ إِدْرَاكُ الْغَلَاتِ
الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا الضَّرَائِبُ وَالطُّسُوقُ فِي اسْتِقْبَالِ الْحَرَمِ مِنْ سِنِي الْأَهْلَةِ . وَيَجِبُ مَعَ
ذَلِكَ الْغَاءُ ذِكْرِ السَّنَةِ الْخَارِجَةِ إِذْ كَانَتْ قَدْ انْقَضَتْ وَنُسِبَتِهَا إِلَى السَّنَةِ الَّتِي أَدْرَكَتِ
الْغَلَاتِ وَالنُّجُومَ فِيهَا . وَإِنَّهُ وَجَدَ ذَلِكَ قَدْ كَانَ وَقَعَ فِي أَيَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ
رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عِنْدَ انْقِضَاءِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، آخِرْتُهُنَّ سَنَةٌ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ،
فَاسْتَعْنَى عَنْ ذِكْرِهَا بِالْغَائِبِ وَنُسِبَتِهَا إِلَى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَخَرَتْ
الْمَكْتُبَاتُ وَالْحُسْبَانَاتُ وَسَائِرُ الْأَعْمَالِ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ إِلَى أَنْ مَضَتْ ثَلَاثٌ
وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، آخِرْتُهُنَّ انْقِضَاءُ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، [وَوَجِبَ إِنْشَاءُ الْكُتُبِ
بِالْغَاءِ ذِكْرَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ] وَنُسِبَتِهَا إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ .
فَذَهَبَ ذَلِكَ عَلَى كُتَّابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللَّهِ وَتَأَخَّرَ الْأَمْرُ أَرْبَعِ سِنِينَ إِلَى
أَنْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ] الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ بِنَقْلِ
خَرَجِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ إِلَى سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى
ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَضَتْ فِي هَذَا الْوَقْتِ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً : أَوَّلَاهُنَّ السَّنَةُ الَّتِي كَانَ
يَجِبُ تَقْلُهَا فِيهَا ، وَهِيَ سَنَةُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَآخِرْتُهُنَّ انْقِضَاءُ شُهُورِ خَرَجِ
سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثُمِائَةٍ ، وَوَجِبَ افْتِتَاحُ خَرَجِ مَا تَجْرَى عَلَيْهِ الضَّرَائِبُ وَالطُّسُوقُ فِي أَوَّلِهَا

(١) الزيادة من المقرري ص ٢٧٧ ج ١ وهي لازمة لاستقامة الكلام .

[وإن] من صواب التدبير واستقامة الأعمال، واستعمال ما يخف على الرعية معاملتها به تقل سنة الخراج لسنة سبع وثلاثمائة إلى سنة ثمان وثلاثمائة، فرأى أمير المؤمنين (لما) يلزمه نفسه ويؤاخذها به، من العناية بهذا الفىء وحياطة أسبايه، وإجرائها مجاريها، وسلك سبيل آباءه الراشدين رحمة الله عليهم فيها، أن يكتب إليك وإلى سائر العمال في النواحي بالعمل على ذلك، وأن يكون ما يصدر [إليك] من الكتب وتصدرونه عنكم وتجري عليه أعمالكم ورؤوسكم وحساباتكم وسائر مناظراتكم على هذا النقل.

فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعمل به مستشعرا فيه وفي كل ما تمضيته تقوى الله وطاعته، ومستعملا [عليه] ثقات الأعوان وكفائهم، مشرفا عليهم ومقومًا لهم، واكتب بما يكون منك في ذلك، إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة ما كتب به أبو إسحق الصابي عن المطيع لله بنقل سنة ست وثلاثمائة (١) إلى سنة سبع وثلاثمائة، وهى :

أما بعد، فإن أمير المؤمنين لا يزال مجتهدا في مصالح المسلمين، وباعثا لهم على مرشد الدنيا والدين، ومهيئا لهم إلى أحسن الاختيار فيما يوردون ويصدرون، وأصوب الرأي فيما يبرمون وينقضون، فلا تلوح له خلة داخلية على أمورهم إلا سدها وتلافها [ولا حال عائدة بحظ عليهم إلا اعتمدها وأتاها] (٢) ولا سنة عادلة إلا أخذهم بإقامة رسمها، وإمضاء حكمها، والاقتداء بالسلف الصالح في العمل بها والاتباع لها، وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أفهامها، وكانت أوامرهم فيه خارجة إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله، وأمائل

(١) صوابه « بنقل سنة تسعين وثلاثمائة إلى إحدى وخمسين وثلاثمائة » كما يفيد نص الكتاب بعد اهـ .

(٢) الزيادة من « رسائل الصابي » ص ٢٠٩ ومن المقرئى ص ٢٧٨ ج ١ .

عَمَّالَهُ ، الذين يَكْتَفُونَ بالإشارة ، وَيَجْتَزُّونَ بِسِيرِ الإِبَانَةِ والعبارة ، لم يَدْعُ أَنْ يُلْغَ من تَلْخِصِ اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحَدِّ الذي يُلْحِقُ المتأخِّرَ بالمتقدِّم ، ويَجْمَعُ بين العالم والمتعلِّم ، ولا سِيَّما إذا كان ذلك فيما يَتَعَلَّقُ بمعاملات الرعيَّة ، ومن لا يَعْرِفُ إلا الظَّوَاهِرَ الجليَّةَ دُونَ البواطن الخفيَّةِ ، ولا يَسْتَهْلُ عليه الانتقال عن العادات المتكررة ، إلى الرسوم المتغيِّرة ، ليكون القولُ بالمشروح لمن بَرَزَ في المعرفة مَدْرَكًا ، ولمن تأخَّرَ فيها مبصِّرًا ، ولأنه ليس من الحق أن تُنَمَّعَ هذه الطبقةُ من بَرْدِ اليقين في صُدُورها ، ولا أن يُقْتَصَرَ على اللَّامِحةِ الدالَّةِ في مخاطبة جُهورها ، حتَّى إذا اسْتَوَتْ الأقدامُ بطوائف الناس في فَهْمِ ما أُمِرُوا به وَفَقِهِ ما دُعُوا إليه وصاروا فيه على كلمةٍ سواء لا يعترضهم شكُّ الشاكِّين ولا استِرابة المسترِيبين ، أَطْمَأْنَت قُلُوبُهُمْ ، وَأَنْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ ، وسَقَطَ الخِلافُ بينهم ، وَاسْتَمَرَ الاتِّفاقُ فيهم ، وَاسْتَيْقَنُوا أَنَّهُمْ مَسْؤُوسُونَ على استقامةٍ من المنهاج ، ومَحْرُوسُونَ من جرائر الزَّيغ والأعوجاج ؛ فكان الاتِّقيادُ منهم وهم دَارُونَ عالمون ، لا مقلِّدون مُسَامُونَ ؛ وطائِعُونَ مختارُونَ ، لا مُكْرَهُونَ ولا مُجْبَرُونَ .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَمِدُّ اللهَ تعالى في جميع أغراضه ومَرامِيه ، ومطالِبِيه ومَغَايِزِه ، مادَّةً من صُنْعِهِ يَقِفُ به على سَنَنِ الصَّلاح ، وتَفْتَحُ لَهُ أَبْوابَ النَّجَاح ، وتُنْهَضُهُ بما أَهْلَهُ حَمْلُهُ من الأعباء التي لا يَدْعَى الاستِقلالُ بها إلا بتَوْفِيقِهِ [ومُعُونَتِهِ] ، ولا يتوجَّه فيها إلا بِدِلَالَتِهِ وَهْدَايَتِهِ ، وَحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ وَنِعْمَ الوكيل .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يرى أَنَّ أَوَّلَى الأَقْوالِ أن يكون سَدَادًا ، وأَحْرَى الأَفْعَالِ أن يكون رَشَادًا ، ما وَجِدَ له في السابق من حُكْمِ الله أَصُولٌ وَقَوَاعِدُ ، وفي النَّصِّ من كُتَابِهِ آيَاتٌ وشواهد ، وكان مُفْضِيًّا بِالْأُمَّةِ إلى قَوَامِ من دِينٍ وَدُنْيَا ، وَوَفَاقٍ في آخِرَةٍ وَأَوَّلَى ،

فذلك هو البناء الذى يثبت ويعلو، والغرس الذى ينبت ويزكو، والسعى الذى تنجح مباديه وهواديه، وتنبج عواقبه وتواليه، وتستنير سبله لسالكيه، وتورد لهم موارد السعود فى مقاصدهم فيها، غير ضالين ولا عادلين، ولا منحرفين ولا زائلين .

وقد جعل الله عز وجل لعباده من هذه الأفلاك الدائره، والنجوم السائره، فيما تتقلب عليه من اتصالٍ وافتراق، ويتعاقب عليها من اختلافٍ واتفاق، منافع تظهر فى كُرور الشهور والأعوام، ومُرور الليالي والأيام، وتتأوب الضياء والظلام، واعتدال المساكن والأوطان، وتغاير الفصول والأزمان، ونشء النبات والحيوان، فما فى نظام ذلك خلل، ولا فى صنعة صانعه زلل، بل هو منوط بعضه ببعض، ومحوط من كل ثلثة ونقض، قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وقال جل من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ . وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . وقال عزت قدرته : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ . ففضل الله تعالى فى هذه الآيات بين الشمس والقمر، وأنبأنا فى الباهر من حكمه، والمعجز من كلمه، أن لكل منهما طريقاً سخر فيها وطبيعة جليل عليها، وأن كل تلك المباني والمخالفه فى المسير، تؤدى إلى موافقة وملازمة فى التدبير، فمن هنالك زادت السنة الشمسية فصارت ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ورُبُعاً بالتقريب المعمول عليه، وهى المدة التى تقطع الشمس فيها الملك مرة واحدة، وتقصت السنة الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعة وخمسين يوماً وكسراً، وهى المدة التى يجامع القمر فيها الشمس اثنتى عشرة

مرة، واحتيج إذا آنساق هذا الفضل إلى استعمال النقل الذى يطابق إحدى السنتين بالأخرى إذا افرقتا، ويدانى بينهما إذا تفاوتتا .

وما زالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على افتنانٍ من طُرُقها ومذاهبها، وفى كتاب الله عز وجل شهادة بذلك إذ يتول فى قصة أهل الكهف : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ . فكانت هذه الزيادة بأن الفضل فى السنين المذكورة على تقريب التقريب .

فأما الفُرس فإنهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التى شهرها اثنا عشر شهرا، وأيامها ثلثمائة وستون يوما، ولقبوا الشهور اثني عشر لقباً، وسمّوا أيام الشهر منها ثلاثين اسماً، وأفردوا الأيام الخمسة الزائدة، وسمّوها المسترقّة وكبسوا الربع فى كل مائة وعشرين سنة شهرا .

فلما انقرض ملكهم ، بطل فى كبس هذا الربع تديريهم ، وزال نور وزهم عن سنّته ، وأنفرج ما بينه وبين حقيقة وقته ، انفراجاً هو زائد لا يقف ، ودائر لا ينقطع ، حتى إنّ موضوعهم فيه أن يقع فى مدخل الصيف وسيتمى إلى أن يقع فى مدخل الشتاء ، ويتجاوز ذلك ، وكذلك موضوعهم فى المهرجان أن يقع فى مدخل الشتاء^(١) وسيتمى إلى أن يقع فى مدخل الصيف ويتجاوزه .

وأما الروم فكانوا اتقن منهم حكمة وأبعد نظراً فى عاقبة : لأنهم رتبوا شهور السنة على أرسادٍ رصدوها ، وأنواءٍ عرفوها ، وقضوا الخمسة الأيام الزائدة على الشهور ، وساقوها معها على الدهور، وكبسوا الربع فى كل أربع سنين يوماً، وسمّوا أن يكون إلى شباط مضافاً فقرّبوا ما بعده غيرهم ، وسهلوا على الناس أن يقتنوا أثرهم ، لا جرم

(١) الزيادة من "المقرزى" ص ٢٧٩ ج ١ ومن الرسائل وهى من سقطات النسخ .

(١) أن [المعتضد بالله صلوات الله عليه على أصولهم بنى ، ولما لهم أحتذى] في تصديره نوروزة اليوم الحادى عشر من حزيران ، حتى سلم مما لحق النواريزى سالف الأزمان ، وتلافوا الأمر فى عجز سنى الهلال عن سنى الشمس ، بأن جبروها بالكبس ، فكلما اجتمع من فضول سنى الشمس ما يفي بتمام شهر جعلوا السنة الهلالية التى يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالا ، فربما تم الشهر الثالث عشر فى ثلاث سنين وربما تم فى سنتين بحسب ما يوجب الحساب ، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم متقاربتين أبدا لا يتباعد ما بينهما .

وأما العرب فإن الله جل وعز فضلها على الأمم الماضية ، وورثها ثمرات مساعيها المتعبة ، وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها وزكاة أهل ملتها ، وجزية أهل ذمتها ، على السنة الهلالية ، وتعبدها فيها برؤية الأهلة ، إرادة منه أن تكون مباحها واضحه ، وأعلامها لأئمة ، فيتكافأ فى معرفة الغرض ودخول الوقت الخاص منهم والعام ، والناقص الفقه والتام ، والأثني والذكر ، وذو الصغر والكبر ، فصاروا حينئذ يحبون فى سنة الشمس حاصل الغلات المقسومة وخراج الأرض المسوحة ، ويحبون فى سنة الهلال الجوائى والصدقات والأرجاء والمقاطعات والمستغلات ، وسائر ما يجرى على المشاهرات ، وحدث من التعاظم والتداخل بين السنين ما لو استمر لقبح جدا ، وازداد بعدا ، إذ كانت الجباية الخراجية فى السنة التى تنتهى إليها تنسب فى التسمية إلى ما قبلها فوجب مع هذا أن تطرح تلك السنة وتلغى ، ويتجاوز إلى ما بعدها ويخطئ ، ولم يجز لهم أن يقتدوا بخالفهم فى كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر ، لأنهم لو فعلوا ذلك لترحلت الأشهر الحرم عن مواقعها ، وانخرقت المناسك

(١) الزائد من "رسائل الصابى" و"المقرئى" .

(٢) كذا فى المقرئى أيضا والذى فى الرسائل الخطية «والأرحام» .

عن حقائقها ، ونقصت الجباية عن سني الأهلة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها ، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تتم السنة ، وأوجب الحساب المقرّب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثا وثلاثين سنة هلالية ، فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية ، وكانت هذه الكلفة في دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة في دينهم .

وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاثمائة الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة الهلالية جمعا بينهما ، ولزوما لتلك السنة فيهما .

فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك ، وما تضمنه كتابه هذا إليك ، ومُرِ الكُتاب قبلك أن يحتدوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمّال نواحيك ، ويخلّدونه في الدواوين من دُكُورهم ورُفُوعهم ، ويقرّرونه في دُروج الأموال ، وينظّمونه في الدفاتر والأعمال ، ويدنّون عليه الجماعات والحسابات ، ويوعزون بكتبه من الروزنامات والبرآت ، وليكن المنسوبُ كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلاثمائة التي وقع النقل [عنها معدّولا به إلى سنة إحدى وخمسين التي وقع النقل ^(١)] إليها ، وأقيم في نفوس من بحضرتك من أصناف الجند والرعية وأهل الملة والذمة أن هذا النقل لا يغيّر لهم رسما ، ولا يلحق بهم ثلما ، ولا يعود على قايضى العطاء بنقصان ما استحقّوا قبضه ، ولا على مؤدى حق بيت المال بإغضاء عما وجب أدائه ، فإن قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذي يؤثّر أن تراح فيه العله ، وتسدّ به منهم الخلة ، إذ كان هذا الشأن لا يتجدّد إلا في المدد الطوال التي في مثلها يحتاج إلى تعريف الناس ، وإذ كار الناس ، وأجب بما يكون منك جواباً يحسن موقعه لك ، إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة من رسائل الصابي الخطية .

المذهب الثاني

(مما كان يُكْتَب عن الخلفاء في تحويل السنين أن يُفْتَح ما يكتب بلفظ :
« من فلان أمير المؤمنين إلى أهل الدولة » ونحو ذلك)
ثم يؤتى بالتحميد وهو المعبر عنه بالتصدير ، وعليه كان يكتب خلفاء الفاطميين
بالديار المصرية .

قال في "موادّ البيان" : والطريق في ذلك أن يفتح بعد التصدير والتحميد ...
.....

الضرب الأول

(ما كان يُكْتَب في الدولة الأيوبية)

وكانت العادة فيه أن يفتح بخرجت الأوامر ونحو ذلك ، ثم يذكر فيه نحو
مما تقدم .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القبطية [إلى السنة العربية] ، من إنشاء
القاضي الفاضل عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب » تغمده الله
برحمته ، وهي :

خرجت الأوامر الصلاحية بكتب هذا المنشور وتلاوة مودعه بحيث يستمر ،
ونسخه في الدواوين بحيث يستقر ، ومضمونه .

إن نظرنا لم يزل نتجلى له الجلائل والدقائق ، ويتوحد من الحسنات ما تسيربه
الحقائب والحقائق ، ويخلص من الأخبار المشروعة ، كل عذب الطرائق رائق ، ويجدد

(١) هنا بياض في الاصل بقدر كلمات ولعل بعدها وهو على ضربين « الضرب الخ .

من الآثار المتبوعة ، ما هو ببناء الخلائق لائق ، ولا يُغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير إلا جَهْدَنَا أن نكتسبها ، ولا يُثَوَّب بنا الداعي إلى مَثُوبَةٍ إلا رأينا أن نحتسبها ، لا سيما ما يكون للسنين الماضية مُمَضِيَا ، وإلى القضايا العادلة مُفَضِيَا ، ولِحَاسِنِ الشريعة مُجَلِّيَا ، ولِعَوَارِضِ الشُّبُهَةِ رَافِعَا ، ولتَنَاقُضِ الْخَبَرِ دَافِعَا ، ولَأَبْوَابِ الْمَعَامِلَاتِ حَافِظَا ، ولْأَسْبَابِ الْمَغَالِطَاتِ لَافِظَا ، ولِلخَوَاطِرِ مِنْ أَمْرَاضِ الشُّكُوكِ مَصَحِّحَا ، وَعَنْ حَقَائِقِ الْيَقِينِ مُفَصِّحَا ، وَلِلْأَسْمَاعِ مِنْ طَيِّفِ الْأَخْتِلَافِ مُعَفِّيًا ، وَلِنِغَايَةِ الْإِشْكَالِ مِنْ طُرُقِ الْأَفْهَامِ مُعَفِّيًا .

ولما آسَتهَلَّتْ سَنَةٌ كَذَا الْهَلَالِيَّةُ ، وَقَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّنَةِ الْخَرَاجِيَّةِ إِلَى أَنْ صَارَتْ غَلَّتْهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَا قَبْلَهَا ، وَفِي ذَلِكَ مَا فِيهِ : مِنْ أَخْذِ الدَّرْهِمِ الْمَفْقُودِ ، عَنْ غَيْرِ الْوَقْتِ الْمَفْقُودِ ، وَتَسْمِيَةِ بَيْتِ الْمَالِ مُمَطَّلًا وَقَدْ أُنْجَزَ ، وَوَصْفِ الْحَقِّ الْمُتَلَفِّ بِأَنَّهُ دَيْنٌ وَقَدْ أُعْجِزَ ، وَأَكْلِ رِزْقِ الْيَوْمِ وَتَسْمِيَتِهِ مَنْسُوبًا إِلَى أَمْسِهِ ، وَإِنْجِرَاجِ الْمُعْتَدِّ لِسَنَةِ هَلَالِهِ إِلَى حِسَابِ الْمُعْتَدِّ إِلَى سَنَةِ شَمْسِهِ .

وكان الله تعالى قد أجرى أمرَ هذه الأُمَّةِ عَلَى تَارِيخِ مَنَزَّهِ عَنِ اللَّبَسِ ، مُوقِّرَ عَنِ الْكَبَسِ ، وَصَرَّحَ كِتَابُهُ الْعَزِيزُ بِتَحْرِيمِهِ ، وَذَكَرَ مَا فِيهِ مِنْ تَأْخِيرِ وَقْتِ النَّسِيِّ وَتَقْدِيمِهِ ، وَالْأُمَّةُ الْمَحْمَدِيَّةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُدْرِكَهَا الْكُسْرُ ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَسُنَّتُهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَارِقَةٌ ، وَسُنَّتُهَا أَبَدًا سَاقِيَةٌ ، وَالسُّنُونُ بَعْدَهَا لَا حَقَّ ، يَتَعَاوَرُهَا الْكُسْرُ الَّذِي يُزْخَرُحُ أَوقَاتِ الْعِبَادَاتِ عَنْ مَوَاضِعِهَا ، وَلَا يُدْرِكُ عَمَلُهَا إِلَّا مَنْ دَقَّ نَظْرُهُ ، وَاسْتَفْرَغَتْ فِي الْحِسَابِ فِكْرُهُ ، وَالسَّنَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَقْطَعُ بِخَنَاحِ أَهْلَتِهَا الْأَشْتِبَاهِ ، وَتَرُدُّ شَهْرَهَا حَالِيَةً بِعُقُودِهَا مَوْسُومَةَ الْحَبَاهِ ، وَإِذَا تَقَاعَسَتِ السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ عَنْ أَنْ نَطَأَ أَعْقَابَهَا ، وَتَوَاطَى حِسَابُهَا ، اجْتَذَبَتْ قِرَاهَا قَسْرًا ، وَأَوْجَبَتْ

لَحَقَّهَا ذِكْرًا، وَتَزَوَّجَتْ سَنَةَ الشَّمْسِ سَنَةَ الْهِلَالِ وَكَانَ الْهِلَالُ بَيْنَهُمَا مَهْرًا؛ فَسَتَّهِمُ
الْمُؤَنَّثَةُ وَسَتَّنَا الْمَذْكُورَةُ، وَآيَةُ الْهِلَالِ هُنَا دُونَ آيَةِ اللَّيْلِ هِيَ الْمُبْصَرَةُ، وَفِي السَّنَةِ
الْعَرَبِيَّةِ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ عَرَبِيَّةِ الْإِفْصَاحِ، وَرَاحَةِ الْإِیْضَاحِ، الزِّيَادَةُ الَّتِي تَظْهَرُ
فِي كُلِّ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً تُوفِّي عَلَى عِدَدِ الْأُمِّ قَطْعًا، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ:
﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾. وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ الزَّائِدَةُ زِيَادَةً،
مِنْ لَطَائِفِ السَّعَادَةِ، وَوُضَائِفِ الْعِبَادَةِ، لِأَنَّ أَهْلَ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ يَتَنَازَلُونَ عَلَى كُلِّ
مِلَّةٍ بِسَنَةِ فِي نَظِيرِ تِلْكَ الْمَدَّةِ قَصَدُوا صَلَاتَهَا، وَأَدَّوْا زَكَاتَهَا، وَحَجَّوْا فِيهَا الْبَيْتَ الْعَتِيقَ
الْكَرِيمَ، وَصَامُوا فِيهَا الشَّهْرَ الْعَظِيمَ، وَاسْتَوْجَبُوا فِيهَا الْأَجُورَ الْجَلِيلَةَ، وَأَنْتَسَتْ فِيهَا
أَسْمَاءُهُمْ بِالْأَعْمَارِ الطَّوِيلَةِ، وَمَخَالَفُوهُمْ فِيهَا قَدْ عَطَّطَتْ صَحَائِفُهُمْ فِي عُذْوَانِهِمْ، وَإِنْ
كَانَتْ عَاطِلَةً، وَخَلَّتْ مُوَاقِفُهُمْ فِي أَدْيَانِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تُكُنْ قَطُّ أَهْلَةً.

وَقَدْ رَأَيْنَا بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ بِاتِّبَاعِ الْعَوَائِدِ الَّتِي سَلَكَهَا السَّلَفُ،
وَلَمْ تَسْلُكْ فِيهَا السَّرَفَ، أَنْ يَنْسَحُخُوا أَسْمَاءَهَا مِنَ الْخَرَاجِ، وَيَذْهَبَ مَا بَيْنَ السِّنِينَ
مِنَ الْاضْطِرَابِ وَالْإِعْوَاجِ، لَا سِيَّمَا وَالشُّهُورُ الْخَرَاجِيَّةُ قَدْ وَاقَفَتْ فِي هَذِهِ الشُّهُورِ
الشُّهُورَ الْهَلَالِيَّةِ، وَأَلْقَى اللَّهُ فِي أَيَّامِنَا الْوِفَاقَ بَيْنَ الْأَيَّامِ، كَمَا أَلْقَى بِاعْتِلَائِنَا الْوِفَاقَ بَيْنَ
الْأَنَامِ، وَأَسَكَّنَ بَنَظَرَنَا مَا فِي الْأَوْقَاتِ مِنْ اضْطِرَابٍ وَفِي الْقُلُوبِ مِنْ اضْطِرَامٍ.

فَلْيُسْتَأْنَفِ التَّارِيخُ فِي الدَّوَابِّ الْمَعْمُورَةِ، لِاسْتِقْبَالِ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، بِأَنْ تُوسَمَ
بِالْهَلَالِيَّةِ الْخَرَاجِيَّةِ لِإِزَالَةِ الْإِلْتِبَاسِ، وَلِإِقَامَةِ الْقِسْطِ، وَإِيضًا [حَا] لِمَنْ أَمْرُهُ عَلَيْهِ
عُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ، تُكْتَبُ سَجَلَاتُ التَّحْضِيرِ، وَتُنَظَّمُ الْحُسْبَانَاتُ
الْمَرْفُوعَةُ، وَالْمَشَارِعُ الْمَوْضُوعَةُ، وَتُطْرَدُ الْقَوَانِينُ الْمَشْرُوعَةُ، وَتُثَبَّتُ الْمَكَلَّفَاتُ
الْمَقْطُوعَةُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ دَوَاعِي نَقْلِهَا، وَعَوَارِضِ زَلِيلِهَا وَزَوَالِهَا، إِلَّا أَنَّ الْأَجْنَادَ

إذا قبضوا واجباتهم عن منشور إلى سنة نحس في أواخر سنة سبع وسقط ساقطهم بالوفاة، وجرى بحكم السمع لا بالشرع إلى أن يرث وارثه دون بيت المال مستغل السنة الخراجية التي يلتقي فيها تاريخ وفاته من السنة الهلالية وفي ذلك ما فيه، مما يبين الإنصاف وينافيه [لكفى] .

وإذا كان العدل وضع الأشياء في مواضعها فلنسنا نحرم أيامنا المحرمة بزماننا، مارزقته أبناءها من عدل أحكامنا، بل نخلع عن جديدها المس كل المس، و[تمنع] تبعه الضلال أن تسند مهادثته إلى نور الشمس، ولا نجعل أيامنا معمورة بالأقساط التي تجمعها، بل معمورة بالأقساط التي تنفعها، فليبن التاريخ على بنيانه وليحسم الخلف الواقع في السنين، بهذا الحق الصادع المبين، ولينسخ المشهود به في جميع الدواوين، وليكتب بحكمه من الخراج إلى من يمكنه من المستخدمين - ومنها أن المستجد من الأجناد لو حمل على السنة الخراجية في استغلاله، وعلى الهلالية في استقباله، لكان محالاً على ما يكون محالاً، وكان يتعجل استقبالا، ويأطن استعلالاً، وفي ذلك ما ينافر أوصاف الإنصاف ويصون الفلاح إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(ما يكتب به في زماننا)

وقد جرت العادة أن يكتب في قطع الثلث وأنه يفتح بخطبة مفتحة : « الحمد لله » ثم يقال : وبعد فإننا لما اختصنا الله تعالى به من النظر في أمر الناس ومصالحهم، ويذكر ما منح له من ذلك ثم يقال : ولما كان، ويذكر قصة السنين : الشمسية والقمرية، وما يطرأ بينهما من التباعد الموجب لنقل الشمسية إلى القمرية،

ثم يقال : أقتضى الرأي الشريف أن يحول مغل سنة كذا إلى سنة كذا وتذكر نسخة ذلك ، ثم يقال : فوسم بالأمر الشريف الفلاني لا زال أن تحول سنة كذا إلى سنة كذا .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القبطية إلى العربية ، وهي :

الحمد لله الذى جعل الليل والنهار آيتين ، وصير الشهور والأعوام لأبتداء المبدء وانتهاء غايتين ، ليعلم خلقه عدد السنين والحساب ، وتعمل برئته على توفية الأوقات حقها من الأفعال التى يحصل بها الاعتداد ويحسن بها الاحتساب .

نحمده على ما خص أيماننا الزاهرة من إنعام النظر فى مصالح خلقه ، وإيمان الفكر فى تشييد ما بسط لهم من رزقه ، وإزالة الضرر فى تيسير القيام بما أوجب عليهم من حقه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عاصمة من الزينغ ذا هوى ، معتصمة من التوفيق بأقوى أسباب التوثيق وأوثق أسباب القوى ، شافعة حسن العمل فى مصالح العباد بحسن النية ، فإن الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وحجة على العالمين ، ونشر دعوته فى الآفاق فأيده لإقامتها بنصره وبالمؤمنين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أمروا فاطاعوا ، ونهوا فاجتنبوا ما نهوا عنه ما استطاعوا ، صلاة تبنى نماء البذور ، وتبقى بقاء الدهور ، وتطوى بنشرها مراحل الأيام إلى يوم النشور .

وبعد ، فإننا لما أختصنا الله تعالى به من التوفيق على مصالح الإسلام ، والتناول لما تنشرح به فى مواقف الجهاد ، صدور السيوف وتنطق به فى مصالح العباد ، السنة الأفلام ، تتبع كل أمر فنستد خالله ، ونثقف مياله ، ونقيم أوده ، وننظر ليومه

بما يصلح به يومه ولغده بما يصلح غده ، إصلاحاً لكل حال بحسبه ، وتقريباً لكل شيء على ما هو أليق بشأنه وإقراراً لكل أمر على ما هو الأحسن به .

ولما كان الزمن مقسوماً بين سنين شمسية يتفق فيها ما أنخرج الله تعالى من الرزق لعباده ، ويحصل بها ميقات القوت الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وقدرية لا يعول فى أحكام الدين إلا عليها ، ولا يرجع فى تواريخ الإسلام إلا إليها ، ولا تعتبر العبادة الزمانية إلا بأهلتها ، ولا يهتدى إلى يوم الحج الأكبر إلا بأدلتها ، ولا يعتد فى العدد التى تحفظ بها الأنساب إلا بأحكامها ، ولا تعلم الأشهر الحرم إلا بوجودها فى الأوقات المخصوصة من عامها . وكان قد حصل بينهما من تفاوت الأيام فى المدد ، واختلاف الشهور الهلالية فى العدد ، ما يلزم منه تداخل مغل فى مغل ، ونسبة شيء راح وأنقضى إلى ما أدرك الآن وحصل ، ويؤدى ذلك إلى إبقاء سنة بغير خراج ، وهذر ما يجب تركه فليس الوقت إليه محتاج ، وإلغاء ما يتعين إلغاؤه ، وإسقاط ما تلتفت إليه الأذهان وهو لا يمكن رجأؤه ، وإن كان ذلك الإسقاط لا ضرر فيه على العباد والبلاد ، ولا نقص ينتج منه للأمرء والأجناد ، ولا حقيقة له ولا معنى ، ولا إهمال شيء أفقر تركه ولا إبقاؤه أغنى ، ولكن صار ذلك من عوائد الزمن القديمه ، ومصطاحاً لا تزال العقول بالاحتياج إلى فعله عليه ، وأمرها لا بد لئلا يهلك منه ، وحالاً لا مندوحة للدول عنه ، لتغدو التصرفات على الاستقامة ما شيه ، والمعاملات من الحق ناشيه ، ويعنى رسم ما لم يكن فى الحقيقة رابط ، ويزال اسم ما لو توهمه الفضل لأضحى كأنه يغالط .

أقتضى حسن رأى الشريف أن تحوّل هذه السنة التى يحصل بها الكبس ، وأن يدحضها يقين النفس ، وأن يرفع ما بها من أشكال الإشكال ، ويزال هذا السبب الذى نشأ عنه دخول الأكثر باستدراج الأقل فلا يكون للأذهان عليه أتكال .

نظراً بذلك في مصالح الأمة ، ودفعاً لما يجدونه من أوهام مُدْهِمَةٍ ، وعملاً يطابق به الدليل حكمه ، ويوافق فيه اللفظ معناه والفعل أسمه ، وتخفيفاً عن الرعية من لزوم مالا يلزم في الحقيقة عملاً بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زال عدله سائراً في الأيام والأَنَامَ ، وفضله [سائداً] بالرفق الذي تغدو به العقول والعيون كأنها من الأمن في منام - أن يُحوَّلَ مُغَلُّ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بالديار المصرية المحروسة ، لمُغَلِّ سنة خمسين وسبعمائة ، ويُغْنَى أَسْمُ مُغَلِّ السنة المذكورة ، من الدواوين المعمورة ، ولا يُنسَبَ إليها مُغَلُّ بل يكون مُغَلُّ سنة خمسين وسبعمائة تالياً لمُغَلِّ سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وتستقر السنة حينئذٍ هلاليةً خراجيةً بحكم دوران السنين ، وأستحقاق هذا التحويل من مدة خمس عشرة سنة ، حيث اتَّفَقَ مبدأ السنين الشمسية والقمرية ، ووقوع الإغفال عن هذا المَبْهَمِ في الدول الماضية ، لتكون هذه الدولة الشريفة قائمة بما قعد عنه من مَضَى من الدول ، مُقَوِّمةً بعون الله لكل متأوِّدٍ من الزَّيْغِ والخَلَلِ ، لما في ذلك من المصلحة العامة ، والمِنْحَةِ التامة ، والحق الواضح ، والقصد الناجح ، والمنهج القويم ، والصراط المستقيم ، والأَعْتَادِ على الشهور القمرية قال الله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

فليُعْتَمَدْ حُكْمُ ما قَرَّرْنَاهُ ، وليُمَثَّلَ أَمْرُ ما أَمَرْنَاهُ ، وليُثَبَّتَ ذلك في الدواوين ، وليُشَرَّحَ نَبْؤُهُ المبين ، وليُسَقَطَ ما تَخَلَّلَ بين هاتين السنتين من المُغَلِّ الذي لاحقيقة له ، وليُتْرَكَ ما بينهما من التَفَاوُتِ الذي لا تَعْرِفُ الحُسبانُ مُعَدَّلَهُ ، وليُجَحَّ أَسْمُ هذه الأيام من الدفاتر ، وليُنَسَّ حكمها فإنها أولى بذلك في الزمن الآتي والغابر ؛ فليس المُغَلُّ سوى للعام الذي وُجِدَ فيه سببه ، وظهر فيه حصوله وتعيَّنَ طلبه ، وأدركَ في إبانِهِ ، وجاء

في زمانه، وأنبغ به ثمر غرسه، واستحق في وقته لا كما يلزم أن يكون اليوم في أمسه، وفي ذلك من الأسباب الباعثة على ممارستها به، والدواعي اللازمة لدهابه، والبراهين القاطعة بقطعه، والدلائل الواضحة على دفعه، ما قدمناه : من المصالح المعينة، والطرق المبيّنة، وإزالة الأوهام، وتأكيد الأفهام، وإراحة الخواطر، وإزاحة ما تشوق إليه الظنون في الظاهر، ولبيّطل ذلك من الارتفاعات بالكليّة، ويُسقط من الجرائد لتغدو الحسابات منه خلية، ولا يذكر مغل السنة المدحوضة في سجل ولا مشروح، ولا مشهود يغدو حكمه ويروح، ولا مكلفات تُودعها الأقلام شيئاً على الحجاز وهو في الحقيقة مطروح، لتثبت الحسنات لأيماننا الزاهرة في هذا المحو، ويكشف ما ينتج بساء العقل من غيم الجهالة بما وضح من هذا الصحو، ويتمسك في صحة العبادات والمعاملات بالسنين العربية من غير خروج عن ذلك النحو، والله تعالى يبين بنا طرق الصواب، ويحسن ببقاء ملكنا الشريف المال والمآب، ويجعل دولتنا توضح الأحكام على اختلاف الجديدين : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

والاعتماد فيه على الخط الشريف - أعلاه الله تعالى - أعلاه، إن شاء الله تعالى .

حادى عشر^(١) جمادى الأولى سنة خمسين وسبعائة .

حسب المرسوم الشريف، بالإشارة الكافية السيفية، كافل الممالك الشريفة الإسلامية، أعز الله تعالى نصرته، ثم الحمدلة والتصلية والحبلة .

قلت : وهذه النسخة صدرها إلى قوله : والشهور الهلالية أجنبي عما بعد ذلك من ثمة الكلام . وذلك أنى ظفرت بعجز النسخة، وهو المكتتب في تحويل

(١) كذا في الأصل بآيات النون وهو كثير في كتابات الكتاب وهو لحن .

سنة تسع وأربعين في نفس المرسوم الشريف الذي شملته العلامة الشريفة ،
وقد قُطِعَ أوَّلُه فَرَكَّتْهَا عَلَى هَذَا الصَّدْر .

ومن عجيب ما يُذَكَّرُ فِي ذَلِكَ أَنَّ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ الَّتِي حَوَّلَتْ إِلَى سَنَةِ خَمْسِينَ
هِيَ السَّنَةُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الطَّاعُونَ الْجَارِفُ الَّذِي عَمَّ الْأَقْطَارَ خِلالَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ،
عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا
الطَّاعُونَ ، وَكَثُرَ فِيهَا الْمَوْتُ حَتَّى آتَتْهُ إِلَى عَشْرِينَ أَلْفًا فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ ، وَكَانَ يُقَالُ
فِي هَذِهِ السَّنَةِ لَمَّا حَوَّلَتْ : [مَاتَ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى السَّنَةُ] لِإِلْغَائِهَا . وَجَعَلَ مُغَلِّ
سَنَةِ خَمْسِينَ تَالِيًا لِمُغَلِّ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ كَمَا تَقَدَّمَ .

الفصل الثاني

من الباب الرابع من المقالة السادسة
(فيما يُكْتَبُ فِي التَّذَاكُرِ)

والتَّذَاكُرُ جَمْعُ تَذَكُّرَةٍ .

قَالَ "فِي مَوَادِّ الْبَيَانِ" : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ تُضَمَّنَ جَمَلَ الْأَمْوَالِ الَّتِي يُسَافِرُ
بِهَا الرَّسُولُ لِيَعُودَ إِلَيْهَا إِنْ أَغْفَلَ شَيْئًا مِنْهَا أَوْ نَسِيَ ، أَوْ تَكُونَ حِجَّةً لَهُ فِيمَا يُورِدُهُ
وَيُصْدِرُهُ ، قَالَ : وَلَا غَنَى بِالْكَاتِبِ عَنِ الْعِلْمِ بِعُنُونَاتِهَا وَتَرْتِيبِهَا .

فَأَمَّا عُنُونُ التَّذَكُّرَةِ فَيَكُونُ فِي صَدْرِهَا تِلْوُ الْبِسْمَلَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلرَّسُولِ يَعْمَلُ
عَلَيْهَا ، قِيلَ : تَذَكُّرَةُ مُنِجَّةٌ صَدَرَتْ عَلَى يَدِ فُلَانٍ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَى فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ ،
وَيَنْتَهَى بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَا نُصِّصَ فِيهَا . وَإِنْ كَانَتْ حِجَّةً لَهُ يَعْزِضُهَا لِتَشْهَدَ بِصَدَقِ

ما يورده، قيل : تذكرة مُنِجحة صدرت على يد فلان بن فلان بما يحتاج إلى عَرْضه على فلان .

وأما الترتيبُ فيختلف أيضا بحسب اختلاف العُنوان : فإن كانت على الرسم الأول ، كان بصدرها « قد آستخَرْنَا الله عزَّ وجل ونَدْبَنَّاك ، أو عَوَّلْنَا عليك ، أو نَفَذْنَاك ، أو وَجَّهْنَاك إلى فلان : لإيصال ما أودَعْنَاك وشَافَهْنَاك به من كذا وكذا » وَيُقْصُّ جميع الأغراض التي أُلْقِيَتْ إليه بجملة . وإن كانت محمولةً على يده كالْحُجَّة له فيما يَعْرِضه ، قيل : « قد آستخَرْنَا الله عزَّ وجل وعَوَّلْنَا عليك في تَحْمِلِ تَذَكُّرَاتِنا هذه والشُّخُوصَ بها إلى فلان ، أو النُّفُوزَ ، أو التَّوَجُّهَ ، أو المَصِيرَ ، أو القصدَ بها وإيصالها إليه ، وعَرَضَ ما تَضَمَّنَتْه عليه ، من كذا وكذا » وَيُقْصُّ جميع أغراضها .

ثم قال : وهذه التذَكرُ أَحكامُهَا أَحكامُ الكُتُبِ في النُّفُوزِ عن الأعلى إلى الأدنى ، وعن الأدنى إلى الأعلى ، فينبغي أن تُبَيَّنَ على ما يَحْفَظُ رَبُّ الكَاتِبِ والمَكْتُوبِ إليه : فإن كانت صادرةً عن الوزير إلى الخليفة مثلاً فَتُصَدَّرُ بِما مثاله « قد آستخَرْتُ الله تعالى ، وعَوَّلْتُ عليك في الشُّخُوصِ إلى حضرة أمير المؤمنين - صلواتُ الله عليه - متَحَمِّلاً هذه التَذَكُّرة ، فإذا مَثَلَتْ بالمواقفِ المَطْهَرَةِ ، فوقَّها حقُّها من الإِعْظام والإِجْبار ، والإِجْلال والوَاقَارَ ، وقَدِّمَ تَقْصِيلَ الأرض والمطالعة بِما أَشَاءَ مواصِلَتَه من شُكْرِ نِعَمِ أمير المؤمنين الضَّافِيَةِ على ، المتتَابِعَةِ لَدَيْ ، وإِخْلَاصِ لُطَاعَتِهِ ، وَأَنْتِصَابِي في خدمته ، وتَوْفِيرِي على الدعاء بِنَيِّاتِ دولته ، وخُلُودِ مَمْلَكَتِهِ ، وطَالِعَ بِكَذَا وَكَذَا » وعلى هذا النظام إلى آخر المراتب يعني مراتب المكاتبات .

قلت : والذي جرى عليه أَصْطِلَاحُ كُتَّابِ الزَّمانِ في التذَكر أن التَذَكُّرة تَكْتُبُ في قِطْعِ الشَّامِي ، تُكْسَرُ فِيهَا الفَرَخَةُ الكَامِلَةُ نصفين ، وتجعل دَفْتَرًا وورقةً إلى جنب

أخرى لا كُرَّاسةً بعضها داخل بعض ، وتكون كتابتها بقلم الرِّقاع ، وتكون البسملة في أعلى باطن الورقة الأولى بياض قليل من أعلاها وهامش عن يمينها ؛ ثم يكتب السطر التالي من التذكرة على سمت البسملة ملاصقاً لها ، ثم يُحلى قدرُ عرض إصبعين بياضاً ويكتب السطر التالي ، ثم يحلى قدرُ إصبع بياضاً ويكتب السطر التالي ؛ ويجرى في باقى الأسطر على ذلك حتى يأتى على آخر الورقة ، ثم يكتب باطن الورقة التى تليها كذلك ، ثم ظاهرها كذلك ، ثم الورقة الثانية فابعداها على هذا الترتيب إلى آخر التذكرة ، ثم يكتب « إن شاء الله تعالى » ثم التاريخ ، ثم الحدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبة ، على نحو ما تقدم فى المكاتبات والولايات وغيرها على ما تقدم بيانه فى المقالة الثالثة فى الكلام على الخواتم .



وهذه نسخةُ تذكرة أنشأها القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، سيرها ضُجبة الأمير شمس الدين الخطيب : أحد أمراء الدولة الصلاحية إلى أبواب الخلافة ببغداد فى خلافة الناصر لدين الله ، وهى :

تذكرة مباركة ولم تزل الذكرى للمؤمنين نافعه ، ولعوارىض الشك دافعه ، ضمنت أغراضاً يُقيد بها الكتاب ، إلى أن يُطْلَفَها الخطاب . على أن السائر سيار البيان ، والرسول يمضى على رسل التبيان ؛ والله سبحانه يُسَدِّده قائلاً وفاعلاً ، ويحفظه بادئاً وعائداً ومُقِماً وراحلاً .

الأمير الفقيه شمس الدين خطيب الخطباء - أدام الله نعمته ، وكتب سلامته ، وأحسن صحابته - يتوجه بعد الاستخارة ويقصد دار السلام ، والخطبة التى هى عُش بيضة الإسلام ، ومجتمع رجاء الرجال ، ومتسع رحاب الرجال ؛ فإذا نظر تلك الدار

الدائر سحَابُهَا ، وشَافَهُ بالنظر مَعَالَمَ ذَلِكَ الْحَرَمِ الْمُحَرَّمِ عَلَى الْخُطُوبِ خِطَابُهَا ، وَوَقَفَ
أَمَامَ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَحْسُدُ الْأَرْجَلَ عَلَيْهَا الرُّءُوسُ ، وَقَامَ بِتِلْكَ الْمَنَازِلِ الَّتِي تُنَافِسُ
الْأَجْسَامَ فِيهَا النُّفُوسُ ، فَلَوْ أَسْتَطَاعَتْ لَزَارَتْ الْأَرْوَاحُ مُحَرِمَةً مِنْ أَجْسَادِهَا ،
وَطَافَتْ بِكَعْبَتِهَا مَتَجَرِّدَةً مِنْ أَعْمَادِهَا ، فَلَيُمِطِرُ الْأَرْضَ هُنَاكَ عَنَّا قُبَلًا تُحْضِيهَا ،
بِأَعْدَادِ لَا تُحْصِيهَا ؛ وَلَيْسَلَمْ عَلَيْهَا سَلَامًا نَعْتُهُ مِنْ شِعَائِرِ الدِّينِ اللَّازِمَةِ ، وَسُنَنِ الْإِسْلَامِ
الْقَائِمَةِ ، وَلِيُورِدَ عَنَّا تَحِيَّةً يَسْتَنْزِلُهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَحِيَّةً مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، وَصَلَاةً تَخْتَرِقُ
أَنْوَارَهَا الْأَسْتَارَ الْمُحْجَبَةَ ، وَلِيُصَافِحَ عَنَّا بَوَجهَهُ صَفْحَةً الثَّرَى ، وَلِيَسْتَشْرِفَ عَنَّا بِنَظَرِهِ
فَقَدْ ظَفِرَ بِصَبَاحِ السُّرَى ، وَلَيْسَلَمْ الْأَرْكَانَ الشَّرِيفَةَ ، فَإِنَّ الدِّينَ إِلَيْهَا مُسْتَبَدِّمٌ ، وَلَيْسَلَمْ
الْمُلَاحَظَاتِ اللَّطِيفَةَ ، فَإِنَّ النُّورَ مِنْهَا مُسْتَمَدٌّ ، وَإِذَا قَضَى التَّسْلِيمَ وَحَقَّ اللَّقَاءُ ،
وَأَسْتَدْعَى الْإِخْلَاصَ جَهْدَ الدَّعَاءِ ، فَلْيَعُدْ وَلْيَعُدْ حَوَادِثَ مَا كَانَتْ حَدِيثًا يُقْتَرَى ،
وَجَوَارِي أُمُورٍ إِنْ قَالَ مِنْهَا كَثِيرًا فَأَكْثَرُ مِنْهُ مَا جَرَى ، وَلِيُشْرَحْ صَدْرًا مِنْهَا لَعَلَّهُ
يُشْرَحُ مِنْهَا صَدْرًا ، وَلِيُوضَّحَ الْأَحْوَالُ الْمُسْتَسْرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعْبَدُ سِرًّا :

وَمِنَ الْغَرَائِبِ أَنْ تَسِيرَ غَرَائِبُ * فِي الْأَرْضِ لَمْ يَعْلَمْ بِهَا الْمَأْمُولُ

كَالْعَيْسِ أَقْتَلُ مَا يَكُونُ لَهَا الظَّأ * وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَجُولُ

فَإِنَّا كُنَّا نَقْتَبِسُ النَّارَ بِأَيْدِينَا ، وَغَيْرِنَا يَسْتَنِيرُ ، وَنَسْتَبْطِ الْمَاءَ بِأَيْدِينَا ، وَغَيْرِنَا يَسْتَمِيرُ ،
وَنَلْقَى السَّهَامَ بِخُورِنَا ، وَغَيْرِنَا يَغَيِّرُ التَّصْوِيرَ ، وَنُصَافِحُ الصَّفَاحَ بِصُدُورِنَا ، وَغَيْرِنَا يَدْعَى
التَّصْدِيرَ ، وَلَا بَدَّ أَنْ نَسْتَرِدَّ بِضَاعَتِنَا ، بِمَوْقِفِ الْعَدْلِ الَّذِي تُرَدُّ بِهِ الْغُصُوبُ ، وَنُظْهِرُ
طَاعَتِنَا ، فَتَنَاحُذُ بِحِظِّ الْأَلْسِنَةِ كَمَا أَخَذْنَا بِحِظِّ الْقُلُوبِ ، وَمَا كَانَ الْعَائِقُ إِلَّا أَنَا كُنَّا نَنْظُرُ
ابْتِدَاءً مِنَ الْجَانِبِ الشَّرِيفِ بِالنَّعْمَةِ ، يُضَاهِي ابْتِدَاءَنَا بِالْخِدْمَةِ ، وَإِيجَابًا لِلْحَقِّ ، يَشَاكِلُ
إِيجَابَنَا لِلسَّبْقِ ، إِلَى أَنْ يَكُونَ سَحَابُهَا بِغَيْرِ يَدٍ مُسْتَنْزِلًا ، وَرَوْضُهَا بِغَيْرِ غَرْسٍ مُطْفِلًا .

كان أول أمرنا أنا نكنا في الشام نفتح الفتوحات مبشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن والدنا وعمنا، فأى مدينة فتحت، أو معقل ملك، أو عسكر للعدوكسر، أو مصاف للإسلام معه ضرب، فإيجهل أحد، ولا يحدد عدو، أنا نصطلي البحر، ونملك الكسره، ونتقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندير النعبه، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضربنا أن يكون لغيرنا ذكرها.

وكانت أخبار مصر نتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء التدبير، وما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل قائم بها وقعد، والفرنج قد احتاج من يدرها إلى أن يقطعهم بأموال كثيره، لها مقادير خطيره، وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعه، فإنها مقمومه، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماه، فإنها متحماه، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى منها بفراف الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تتخذ من دون الله تعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غره قلب الذين كفروا في البلاد.

فسمت هممنا دون همم ملوك الأرض إلى أن نستفتح مقفلها ونسترجع للإسلام شاردها ونعيد على الدين ضالته منها فسرنا إليها بعساكر ضخمة، وجويع جمه، وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، وأنفقناها من خالص ذمنا وكسب أيدنا، ومن أسارى الفرنج الواقفين في قبضتنا، فعرضت عوارض منعت، وتوجهت للمصريين حيل باستنجد الفرنج تمت: ((ولكل أجل كتاب)). ولكل أمل باب.

وكان في تقدير الله سبحانه أنا نمليها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها،

وَعَلِمَ أَنَّ اسْتِئْصَالَ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ مَحْطُّهَا ، وَكَاتَبْنَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ مِصْرَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ،
 كَمَا كَاتَبْنَا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الشَّامِ فِي هَذَا الْأَوَّانِ ، بَأَنَّا إِن لَمْ نُدْرِكِ الْأَمْرَ وَإِلَّا نَخْرُجُ
 مِنَ الْيَسَدِ ، وَإِن لَمْ نُدْفَعْ غَرِيمَ الْيَوْمِ لَمْ يُمَهِّلْ إِلَى الْغَدِ ، فِيسِرْنَا بِالْعَسَاكِرِ الْمَوْجُودَةِ
 وَالْأَمْرَاءِ الْأَهْلِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَى بِلَادٍ قَدْ تَمَهَّدَ لَنَا بِهَا أَمْرَانِ ، وَتَقَرَّرَ لَنَا فِيهَا فِي الْقُلُوبِ
 وَدَانِ : الْأَوَّلُ لِمَا عَلِمُوهُ مِنْ إِثَارِنَا الْمَذْمُوبِ الْأَقْوَمِ ، وَإِحْيَاءِ الْحَقِّ الْأَقْدَمِ ، وَالْآخَرُ
 لِمَا يَرْجُونَهُ مِنْ فَكِّ إِسَارِهِمْ ، وَإِقَالَةِ عِثَارِهِمْ ، فَفَعَلَ اللَّهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَجَاءَ الْخَبَرُ إِلَى
 الْعَدُوِّ فَانْقَطَعَ حَبْلُهُ ، وَضَاقَتْ بِهِ سُبُلُهُ ، وَأَفْرَجَ عَنِ الدِّيارِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ضِيَاعُهَا
 وَرَسَائِيقُهَا وَبِلَادُهَا وَإِقْلِيمُهَا قَدْ نَفَذَتْ فِيهَا أَوَامِرُهُ ، وَخَفَقَتْ عَلَيْهَا صُلْبَانُهُ ، وَأَمِنَ
 مِنْ أَنْ يُسْتَرْجَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ حَاصِلًا ، وَأَنْ يُسْتَنْقَذَ مَاصِرٌ فِي مِلْكِهِمْ دَاخِلًا ، وَوَصَلْنَا
 الْبِلَادَ وَبِهَا أَجْنَادٌ عَدَدُهُمْ كَثِيرٌ ، وَسَوَادُهُمْ كَبِيرٌ ، وَأَمْوَالُهُمْ وَاسِعَةٌ ، وَكَلِمَتُهُمْ جَامِعَةٌ ،
 وَهُمْ عَلَى حَرْبِ الْإِسْلَامِ أَقْدَرُ مِنْهُمْ عَلَى حَرْبِ الْكُفْرِ ، وَالْحِيلَةُ فِي السَّرِّ مِنْهُمْ أَنْفَذُ مِنْ
 الْعَزِيمَةِ فِي الْجَهْرِ . وَبِهَا رَاجِلٌ مِنَ السُّودَانِ يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ رَجُلٍ كُلُّهُمْ أَغْنَاءُ
 أَعْجَامَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، لَا يَعْرِفُونَ رَبًّا إِلَّا سَاكِنَ قَصْرِهِ ، وَلَا قِبْلَةً إِلَّا مَا تَوَجَّهُونَ
 إِلَيْهِ مِنْ رُكْنِهِ . وَبِهَا عَسَاكِرُ مِنَ الْأَرْمَنِ بَاقُونَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ عَنْهُمْ الْحِزْبَةُ
 كَانَتْ لَمْ شَوْكَةً وَشِكَّةً ، وَحِمِيَّةً وَحِمَّةً ، وَلَهُمْ حَوَاشٍ لِقَصْرِهِمْ مِنْ بَيْنِ دَاخٍ تَلَطَّفَ
 فِي الضَّلَالِ مَدَاخِلُهُ ، وَتُصِيبُ الْعُقُولَ مَخَاتِلُهُ ، وَمِنْ بَيْنِ كُتَابِ أَفْلَامِهِمْ تَفْعَلُ أَفْعَالُ
 الْأَسَلِ ، وَخُذَّائِمٌ يَجْمَعُونَ إِلَى سَوَادِ الْوُجُوهِ سَوَادَ النَّحْلِ ، وَدَوْلَةٌ قَدْ كَبُرَ عَلَيْهَا الصَّغِيرُ ،
 وَلَمْ يَعْرِفْ غَيْرَهَا الْكَبِيرُ ، وَمَهَابَةٌ تَمْنَعُ خَطَرَاتِ الضَّمِيرِ ، فَكَيْفَ لِحَظَاتِ التَّدْيِيرِ .

هَذَا إِلَى اسْتِبَاحَةِ الْحَارِمِ ظَاهِرَةً ، وَتَعْطِيلِ الْفَرَائِضِ عَلَى عَادَةٍ جَارِيَةٍ ، وَتَحْرِيفِ
 لِلشَّرِيعَةِ بِالتَّأْوِيلِ ، وَعُدُولِ إِلَى غَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ فِي التَّنْزِيلِ ، وَكُفْرٍ سَمِيٍّ بِغَيْرِ اسْمِهِ ،
 وَشَرْعٍ يُسْتَرْبَهُ وَيُحْكَمُ بِغَيْرِ حُكْمِهِ .

فما زلنا نَسَحَتُهُمْ سَحَتَ الْمَبَارِدِ لِلشَّفَارِ ، وَتَحَيَّفَهُمْ تَحَيَّفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِلْأَعْمَارِ ،
بِعَجَائِبِ تَدْيِيرِ ، لَا تَحْتَمِلُهَا الْمَسَاطِيرُ ، وَغَرَائِبِ تَقْرِيرِ ، لَا تَحْمِلُهَا الْأَسَاطِيرُ ، وَلَطِيفِ
تَوْصُلِ مَا كَانَ فِي حِيلَةِ الْبَشَرِ وَلَا قُدْرَتِهِمْ إِلَّا إِيَّانَهُ الْمَقَادِيرُ ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ اسْتَنْجَدُوا
عَلَيْنَا الْفَرَجَ دَفْعَةً إِلَى بُلَيْسٍ ، وَدَفْعَةً إِلَى دِمْيَاطٍ ، فِي كُلِّ مِنْهُمَا وَصَلُوا بِالْعَدُوِّ الْمُجْهَرِ ،
وَالْحَشْدِ الْأَوْفَرِ ، وَخُصُوصًا فِي نَوْبَةِ دِمْيَاطٍ فَإِنَّهُمْ نَازَلُوهَا بِحَرًّا فِي أَلْفِ مَرَكَبٍ مُقَاتِلِ
وَحَامِلِ ، وَبَرًّا فِي مِائَتِي أَلْفِ فَارِسٍ وَرَاجِلِ ، وَحَصَرُوهَا شَهْرَيْنِ بِيَاكِرُونَهَا وَيُرَاوِحُونَهَا ،
وَيُمَاسُونَهَا وَيُصَاحِجُونَهَا ، الْقِتَالُ الَّذِي يُصَلِّيهِ الصَّلِيبُ ، وَالْقِرَاعُ الَّذِي يُنَادِي بِهِ مَنْ
مَكَانٍ قَرِيبٍ ، وَنَحْنُ نُقَاتِلُ الْعَدُوِّينَ : الْبَاطِنَ وَالظَّاهِرَ ، وَنُصَابِرُ الصِّدِّيقَ : الْمُنَافِقَ
وَالْكَافِرَ ، حَتَّى أَتَى اللَّهَ بِأَمْرِهِ ، وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَخَابَتِ الْمَطَامِعُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ وَمَنْ
الْفَرَجِ وَمَنْ مَلَكَ الرُّومَ وَمَنْ الْجَنُودِ وَأَجْنِاسِ الرُّومِ لِأَنَّ أَنْفَارَهُمْ تَنَافَرَتْ ، وَنُصَارَاهُمْ
تَنَاصَرَتْ ، وَأَنَاجِيلُ طَوَاعِيهِمْ رُفِعَتْ ، وَصُلُبُ صَلْبَتِهِمْ أُخْرِجَتْ ، وَشَرَعْنَا فِي تِلْكَ
الطَّوَائِفِ مِنَ الْأَجْنَادِ وَالسُّودَانِ وَالْأَرْمَنِ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنَ الْقَاهِرَةِ تَارَةً بِالْأَوَامِرِ
الْمُرْهَقَةِ لَهُمْ ، وَبِالدُّنُوبِ الْفَاضِحَةِ مِنْهُمْ ، وَبِالسُّيُوفِ الْمَجْرَدَةِ وَبِالنَّارِ الْمُحْرِقَةِ ، حَتَّى بَقِيَ
الْقَصْرُ وَمَنْ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ قَدْ تَفَرَّقَتْ شَيْعَتُهُ ، وَتَفَرَّقَتْ يَدَعُهُ ، وَخَفَّتْ دَعْوَتُهُ ،
وَحَفِيتْ ضَلَالَتُهُ . فَهِنَاكَ تَمَّتْ لَنَا إِقَامَةُ الْكَلِمَةِ وَالْجَهْرُ بِالْخُطْبَةِ وَالرَّفْعُ لِلِوَاءِ السَّوَادِ
الْأَعْظَمِ ، وَالْجَمْعُ لِكَلِمَةِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَعَاجَلَ اللَّهُ الطَّاعِيَةَ الْأَكْبَرَ بِفَنَائِهِ ، وَبَرَّأَنَا
مِنْ عَهْدَةِ يَمِينٍ كَانَ حِثُّهَا أَيْسَرَ مِنْ إِثْمِ إِبْقَائِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ عُوِجِلَ لِقَرُطِ رَوْعَتِهِ ، وَوَافَقَ
هَلَاكُ شَخْصِهِ هَلَاكُ دَوْلَتِهِ .

وَمَا خَلَا دَرْعُنَا ، وَرَحَّبَ وَسْعُنَا ، نَظَرْنَا فِي الْغَزَوَاتِ إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ ، فَلَمْ
تَخْرُجْ سَنَةً إِلَّا عَنْ سُنَّةٍ أُقِيمَتْ فِيهَا بَرًّا وَبِحَرًّا ، وَمَرْكَبًا وَظَهْرًا ، إِلَى أَنْ أَوْسَعْنَاهُمْ
قِتْلًا وَأَسْرًا ، وَمَلَكْنَا رِقَابَهُمْ قَهْرًا وَقَسْرًا ، وَفَتَحْنَا لَهُمْ مَعَاقِلَ مَا خَطَرَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فِيهَا

منذ أخذت من أيديهم ، وما أوجفت فيها خيلهم ولا ركابهم منذ ملكها أعاديهم ،
فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة
بشعر أيلة كان العدو قد بنّاها في بحر الهند ، وهو السلوك منه إلى الحرمين واليمن ،
وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا ، فكادت
القبلة أن يستولى على أصلها ، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل
صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول شرفه الله أن
يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلا
للجهاد ، وموقلا لسفّار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شرح ماتم بها للمسلمين
من الأثر الخليل ، وما استند من خلاصهم ، وأحرق من زروع المشركين ورعى من
غلاتهم ، إلى أن ضعفت ثغورهم ، واختلت أمورهم ، لاحتيج فيه إلى زمن يشغل
عن المهمات الشريفة لسمع موره ، وإيضاح مقصده .

وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضالّ وله آثار في الإسلام ، وثار طالبيه النبي
عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البهس ،
وآستباح منهن كلّ ما لا تقرّ عليه نفس ، وكان يبذعه دعا إلى قبر أبيه وسمّاه كعبه ،
وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها ، وأحلّ الفروج المحرّمة وأباحها ، فأهضنا
إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة ، وأسلحة رائعه ، وسار فأخذناه
ولله الحمد ، وأنجح الله فيه القصد ، ووردتنا كتب عساكرنا وأمرائنا بما نفذ في ابن
مهدي وبلاده المفتحة ومعاقله المستضافة ، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند
ساريه ، وإلى ما لم يقتض الإسلام عذرتّه مدّ أقام الله كلمته متماديّه .

ولنا في المغرب ، أثر أعرب ، وفي أعماله أعمال دون مطلبها كما يكون المهلك
دون المطلب ، وذلك أن بني عبيد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر ، ومملكتهم

قد عمّر، وجيوشهم لا تُطاق، وأوامرهم لا تُشاق، ونحن والحمد لله قد ملكنا مما
يُجاورنا منه بلاداً تزيد مساقمتها على شهر، وسيرنا عسكرياً بعد عسكر رجع بنصر بعد
نصر، ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير — لك — برقة — قفصة — قسطنطينية —
توزر؛ كل هذه تُقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه،
ولا عهد للإسلام باقمتها، وتنفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها. وفي هذه
السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار، مقداره سبعون راجعاً كلهم يطلب
لساطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً.

وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدُها، وألقيت إلينا مقاليدُها، وسيرنا الخلع
والألوية، والمناشير بما فيها من الأوامر والأفضيه.

وأما الأعداء الذين يُحذقون بهذه البلاد، والكُفّار الذين يُقاتلوننا بالمالك العظام
والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر، والجبار الأَكْثَر،
وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت، وقائم النصرانية التي حكمت دولته
على ممالكها وغلبت، وجرّت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسريّة،
وكانت له في البلاد مطامع منها أن يجبي خراجاً، ومنها أن يملك منها فيجاء، وكانت
غصّة لا يسفغها الماء، وداهية لا تُرجى لها الأرض بل السماء، فأخذنا والله الحمد
بكتامه، وأقمناه على قدمه، ولم نُخرج من مصر، إلى أن وصلت تارسله في جمعة واحدة
في نوبتين بكتابين كل واحد منهما يُظهر فيه خفص الجناح، وإلقاء السلاح،
والانتقال من مُهاداه، إلى مُهاداه، ومن مناصحه، إلى مناصحه، حتى إنه أُنذر
بصاحب صقلية وأساطيله التي يرد ذكرها، وعساكره التي لم يخف أمرها.

ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية هذا كان حين علم أن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعاً في نوبة دمياط فغلبا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها، وعزمته القائمة بجردتها، فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه: فإنه إلى الآن منذ خمس سنين يكثر عدته، ويذهب عُدته، ويحتلب مقاتلته إلى أن وصل منها في السنة الحالية إلى إسكندرية أمر رافع، وخطب هائل، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملاء صدره مثل خيله ورجله، ماهو إقليم بل أقاليم تقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله؛ ولو ذهبنا نصف ما ذهب فيه من ذهب؛ وما أخذ منه من سلاح وخيل وعدد ومجانيق، ومن أسر منه من خيالة كبار، ومقدمين ذوي أقدار، وملوك يقاطعون بالجل التي لها مقدار؛ وكيف أخذوه وهو في العدد الأكثر بالعدد الأقل من رجالنا، وكيف نصر الله عليه مع الأصعب من قتاله بالأسهل من قتالنا، لعلم أن عناية الله بالإسلام تُغنيه عن السلاح، وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مئونة الكفاح؛ ومن هؤلاء الجنويين الذين يسربون الجيوش - البنادق - البياشنة - الجنوية كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم؛ وتارة يجهزون سفارا يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقتصر عنهم يد الأحكام المرهوبة؛ وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده؛ وكلهم قد قررت معه المواقفة، وانتظمت معه المسالمة؛ على ما نريد وبكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون.

ولما قضى الله بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزو، والعساكر قد ظهرت، والمضارب قد برزت، ونزل الفرنج بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدوا إليها يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها للممانعة، واستنهضنا لتفريج الكرب الواقع؛ فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية

التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ولا قُبل كثيرها ولا قُلبها ، ثم عدنا إلى البلاد فتوافت إلينا الأخبار بما الدولة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشدت الأمور وتقطعت بها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمّح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا بلادا يتحيفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمرأء الدولة قد سجن أكابرهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الذين للمتوفى أغرأر حلقوا للأطراف لا للصُدور ، وجعلوا للقيام لا للجلوس في المحفل المحصور ، وقد مدّوا الأعين والأيدى والسيف ، وساءت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ، ويجعلهم نظهره سندا ، ويرفع عنهم ذخيرة كانت للإسلام ، ويفرّج لهم عن أسير من أكابر الكفار كان مقامه مما يدفع شرا ، ولا يزيد نار الكفر جمرًا ، وإطلاقه يحلب قطيعة تقوى إسلاما وتضعف كفرا ، فكثرت إلينا مكاتبات أهل الآراء الصائبة ، ونظرنا للإسلام ولنا وبلاد الإسلام في العاقبة ، وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تيسر الأسباب لفتح ، وأمر الكفر إن لم يجرّد العزم في قلبه ، وإلا ثبتت عروقه ، وآتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمه ، وهم القادرين بالقعود آثمه ، وإذا لا يتمكن بمصر منه مع بُعد المسافة ، وانقطاع العارة وكلال الدواب ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة ، والجموع متيسرة ، والأوقات مساعدة ، وأصاحبنا مافي الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسده ، وأمرأء متحاسده ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، وكملناه كفالة من يقضى الحق ويؤفيه ، فإننا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء بخدمه وهم عاملون بظلمه ، والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ،

ويؤكد الدعوه، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفه، ويضمن الزلفه، ويفتح بقمه البلاد،
ويطبق بالاسم العباسي كل ما تحطه العهد - ونحن نقترح على الأحكام المعهده،
وننظر أن يأتي الإنعام على الغايات المزيده، وهو تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن
والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتح الله للدولة بسيفنا
وسيف عساكرنا، ولن نقيه من أخ وولد من بعدنا، تقليدًا يضمن للنعمه
تخليدا، وللدعوة تجديدا، مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك، فإن الإمارة
اليوم بحسن نيتنا في الخدمة تصرف بأقلامنا، ونستفاد من تحت أعلامنا، ويتبين
أن أمراء الدولة النورية يحتاج اليهم في فتح البلاد القدسية ضرورة: لأنها منازل
العساكر، ومجمع الأنفار والعشائر، فحق لم يكن عليهم يد حاكمه، وفيهم كلمة نافذه،
منعهم ولاية البلاد، وبغاة العناد.

وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به
ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال يحرم
السيف حتى يكلوا، حتى إننا لما جاورناهم في هذا الأمد اقريب، وعلموا أن
المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب، استشعروا بفراق بلادهم، وتهادوا التعازي
لأرواحهم بأجسادهم، وإذا سدد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده،
وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مسلم تحت برده، وأستقذنا أسيرا من المسجد
الذي أسرى الله اليه بعبده.

هذا ما لاح طلبة على قدر الزمان، والأنفس تطلب على مقدار الإحسان، فإن
في استنهاض نيات الخدام بالإنعام ما يعود على الدولة منافع، وتنكأ الأعداء مواقفه،
وتبعث العزائم من موت منامها، وتنفض عن البصائر غبار ظلامها، والله تعالى ينجد
إرادتنا في الخدمة بمصافقة الاقتدار، ومساعدة الأقدار، إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني

(ما كان يُكْتَبُ لنواب السلطنة بالديار المصرية عند سفر السلطان
عن الديار المصرية)

والعادة أن يُكْتَبَ فيما يتعلق بمهمات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها ،
وما يترتب فيها ، وما يُشَىْ على حكمه بمصر والقاهرة المحروستين ، وسائر أعمال الديار
المصرية ، وما تبرز به المراسيم الشريفة في أمورها وقضاياها ، وأستخراج أموالها
وحمولها ، وعمل جسورها وحفائرها ، وما يتجدد في ذلك ، وما يجري هذا المجرى
من سائر التعلقات ، وتصدر بذلك التذكرة .

وهذه نسخة تذكرة سلطانية كُتِبَ بها عن السلطان الملك الصالح على ، ابن الملك
المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ،
عند سفر السلطان الملك الصالح الى الشام ، وأستقرار كتبغا المذكور نائباً عنه في سنة
تسع وتسعين وستمائة ، من إنشاء أحمد بن المكرم بن أبى الحسن الأنصارى ، أحد
كُتَّاب الدرج يومئذ ومن خطّه نقلت ، وهى :

تذكرة نافعة ، للخيرات جامعها ، يعتمد عليها المجلس العالى ، الأميرى ، الزينى ،
كتبغا المنصورى ، نائب السلطنة الشريفة - أدام الله عزه - فى مهمات الديار
المصرية وأحوالها ومصالحها ، وما يترتب بها ، وما يثبت ويُفصل فى القاهرة ومصر
المحروستين وسائر أعمال الديار المصرية ، صانها الله تعالى ، وما تُستخرج به المراسيمُ
الشريفة ، المولوية ، السلطانية ، الملكية ، الصالحية ، الفلانية - أنفذها الله تعالى -
فى أمورها وقضاياها ، ولاياتها وولاياتها ، وحمولها وحفيرها وحفظها ومتجدداتها على
ما شرح فيه :

فصل الشرع الشريف :

يُشَدُّ مِنْ حُكْمِهِ وَقُضَائِهِ فِي تَنْفِيزِ قَضَائِهِ وَتَصْرِيفِ أَحْكَامِهِ ، وَالشَّدُّ مِنْهُ فِي تَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ .

فصل العدل والانصاف والحق :

يَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ : مُدْنِيهَا وَقُرَاهَا وَأَعْمَالِهَا وَوِلَايَاتِهَا : بِحَيْثُ يُشْمَلُ جَمِيعُ الرِّعَايَا مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ ، وَبَعِيدٍ وَقَرِيبٍ ، وَغَائِبٍ وَحَاضِرٍ ، وَوَارِدٍ وَصَادِرٍ ، وَيَسْتَجْلِبُ الْأَدْعِيَةَ الصَّالِحَةَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ لِهَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ ، وَيَسْتَنْطِقُ الْأُسْتَنَةَ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ حُجَّةُ اللَّهِ وَمَحَبَّةُ الْخَيْرِ ، فَيُدْفَعُ كُلُّ ضَرَرٍ وَيَرْفَعُ كُلُّ ضَيْرٍ .

فصل الدماء :

يَعْتَمِدُ فِيهَا حُكْمُ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ . وَمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ قِصَاصٌ يَسْلَمُ لَغْرِيمِهِ لِيَقْتَصَّ مِنْهُ بِالشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، وَمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَطْعُ يُقَطَّعُ بِالشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

فصل الأمور المختصة بالقاهرة ومصر المحروستين حرسهما الله تعالى :

لَا يَتَجَوَّهُ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَا يَقْوَى قَوْيٌّ عَلَى ضَعِيفٍ ، وَلَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ جَمَلَةً كَافِيَةً .

فصل

يَتَقَدَّمُ أَنْ لَا يَمْشِيَ أَحَدٌ فِي الْمَدِينَةِ وَلَا ضَوَاحِيهَا فِي الْحُسَيْنِيَّةِ وَالْأَحْكَارِ فِي اللَّيْلِ إِلَّا لِمُضْرُورَةٍ ، وَلَا يُخْرَجُ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِهِ لَغَيْرِ ضَرُورَةٍ مَأْسِيَةٍ ، وَالنِّسَاءُ لَا يَنْصُرِفْنَ فِي اللَّيْلِ وَلَا يُخْرَجْنَ وَلَا يَمْشِينَ جَمَلَةً كَافِيَةً .

فصل الحبوس :

تُحْرَسُ وتُحْفَظُ بالليل والنهار، وتُحْلَقُ لِحَى الأسارى كلهم : من فرنج وأنطاكيين وغيرهم ، ويُتَعَهَّدُ ذلك فيهم كلما تَبَتَّتْ ، ويُحْتَزُّ في أمر الداخل إلى الحبوس ، ويُحْتَزُّ على الأسارى الذين يُسْتَعْمَلُونَ ، والرجال الذي يخرجون معهم ، وتُقَامُ الضَّمَانُ النِّقَاتُ على الجاندارية الذين معهم ، ولا يُسْتَخْدَمُ في ذلك غريب ، ولا مَنْ فِيهِ رِيَّةٌ ، ولا تَبِتُ الأسارى الذين يُسْتَعْمَلُونَ إلا في الحبوس ، ولا يخرج أحدٌ منهم لحاجة تختص به ولا لحَمَامٍ ولا كَنِيسَةٍ ولا فُرْجَةٍ ، وتُتَفَقَّدُ قيودُهم وتُوثَّقُ في كل وقت .

ويضاعف الحرس في الليل على خزانة البُنود باظهار ظاهريها وعلوها وحولها وكذلك خزانة الشمائل وغيرها من الحيوش .

فصل

يُرْتَبُّ جماعة من الجند مع الطُوفِ في المدينة لكشف الأزقة وغلق الدروب وتفقد أصحاب الأرباع ، وتأديب من يُخْلُ بِمَرْكَه من أصحاب الأرباع ، وتكون الدروب مغلقة . وكذلك تجرد جماعة الحسينية والأحكار وجميع المراكز ، ويعتمد فيها هذا الاعتماد ؛ ومن وجد في الليل قد خالف المرسوم ويمشي لغير عذر يمسك ويؤدب .

فصل

يَحْتَزُّ على الأبواب غاية الاحتراز ، ويتفقّد في الليل خارجها وباطنها وعند فتحها وغلقها .

فصل

الأماكن التي يجتمع فيها الشباب وأولو الدعاة ومن يتعاني العيث والزنطرة ، لا يُفَسَّحُ لأحد في الاجتماع بها في ليل ولا نهار ، ويكفون الأكل اللثام بحيث تقوم المهابة وتعظم الحرمة ، وينزجر أهل النعي والعيث والعبث .

فصل

يرتَّب المجرَّدون حولَ المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة، وكذلك جهة القرافة وخلف القلعة وجهة البحر، وخارج الحسينية، ولا يهمل ذلك ليلة واحدة، ولا يفارق المجرَّدون مراكرهم إلا عند السفور وتكامل الضوء .

فصل

يتقدَّم بأن لا تجتمع الرجال والنساء في ليالى الجمع بالقرافتين، ويمنع النساء من ذلك .

فصل

مهمَّات الغائبين في البيكار المنصور تُلاحظ ويُسَدَّ من نوابهم في أمورهم ومصالحهم، ويستخلص حقوقهم لنوابهم وغلمانهم وكلائهم، ومن كانت له جهة يستخلص حقه منها ولا يتعرض إلى جهاتهم المستقرة فيما يستحقونه، ويقوى أيديهم، وتؤخذ الحجج على وكلائهم بما يقبضونه حتى لا يقول موكلوهم في البيكار : إنَّ كُتب وكلائنا وردت بأنهم لم يقبضوا لنا شيئا، فيكون ذلك سببا لرد شكواهم .

فصل

خليج القاهرة ومصر المحروستين يُرسم بعمله وحفره وإتقانه في وقته : بحيث يكون عملا جيِّدا مُتقنا من غير حيف على أحد، بل كلُّ أحد يعمل ما يلزمه عملا جيِّدا .

فصل

جسور ضواحي القاهرة يُسرَّع في إتقانها وتعريضها، ويحتد في حُسن رصفها وفتح مشاربها، وحفظها من الطارق عليها، وتبقى متقنة مكلمة إلى وقت النيل المبارك، ولا يخرج في أمرها عن العادة، ولا يحتَمي أحد عن العمل فيها بما

يلزمه ، ويحمل الأمر في جرائفها ومقلقاتها على ما تقدمت به المراسيم الشريفة في أمر الجسور القريبة والبعيدة .

فصل في الأعمال والولايات .

تُنجز الأمثلة الشريفة السلطانية ، المولوية ، الملكية ، الصالحية ، الفلانية ، شرفها الله تعالى ، بإتقان عمل الجسور وتجويدها وتعريضها وتفقد القناطر والنراع ، وعمل ما تقدم منها وتريم ما هو ، وإصلاح ما تشعث من أبوابها ، وتحصيل أصنافها التي تدعو الحاجة إليها في وقت النيل ، وتعتمد المراسيم الشريفة من أن أحدا لا يعمل بالجاه ، ومن وجب عليه فيها العمل يعمل على العادة في الأيام الصالحة ، ويؤكد على الولاية في مباشرتها بنفوسهم ، وأن لا يتكلموا على المشدين ، وأى جهة حصل منها نقص أو خلل كان قبالة ذلك روح وإلى ذلك العمل وماله ، ويشدد على الولاية في ذلك غاية التشديد ، ويحذر أتم التحذير ، وتأخذ خطوط الولاية بأن الجسور قد اتقن عملها على الوضع المرسوم به ، وأنها أتيقنت ولم يبق فيها خلل ، ولا ما يخشون دافية ، ولا ما يخافون دركة ، وأنها عمات على ما رسم .

فصل

يتقدم إلى الولاية ويستخرج الأمثلة الشريفة السلطانية بترتيب الخفراء على ما كان الحال رتب عليه في الأيام الظاهرية : أن يرتب من البلد إلى البلد خفراء يتزلون ببيوت شعر على الطرقات على البلدين ، يحفرون الرائح والغادي ، وأى من عدم له شىء يلزمه دركه ، ويأدى في البلاد أن لا يسافر أحد في الليل ولا يغرب ، ولا يسافر الناس إلا من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويؤكد في ذلك التأكيد التام .

فصل الثغور المحروسة :

يُلاحظ أمورَها ومهمَّاتها، ويستخرج الأمثلة الشريفة السلطانية في مهمَّاتها وأحوالها وحفظها، والاحتراز على المعتقلين بها، والاستظهار في حفظهم، والتيقُّظ لمهمَّات الثغر، واستجلاب قلوب التجار، واستمالة خواطِرهم، ومعاملتهم بالرفق والعسل حتى تتواصل التجار وتعمُر الثغور؛ ويؤكد عليها في المستخرج وتحصيل الأموال، وأصناف الدخائر، وأصناف الخزائن المعمورة والحوائج خاناه، ويوعز إليهم بأنَّ هذا وقتُ آنفِتاح البحر وحضور التجار وترجية الأموال، وصلاح الأحوال، والنهضة في تكثير الحمول، ويؤكد عليهم في المواصلة بها، وأن تكون حمولا متوفِّرة، وأنه لا يُفِرط في مستخرج حقوق المراكب الواصلة، ولا يُقلِّل متحصِّلها، ولا ينقص حملها، ويسير بحملها حملا إلى بيت المال المعمور على العادة، ويؤكد عليهم في الاستعمالات، وتحصيل الأقسمة والأمتعة على اختلاف أصنافها وإزالة الأعذار فيها : بحيث لا يتوقَّف أمر الاستعمالات ولا يؤخَّر مهمُّها عن وقته، ومهما وصل من الممالك والحوارى والحرير والوبر والأطلس والفضة الحجر، وأقصاب الذهب المغزول يعتمد في تحصيله العادة .

فصل

يؤكد على ولاة الأعمال في استخلاص الحقوق الديوانية من جهاتها، والمواصلة بالحمول في أوقاتها، ومباشرة أحوال الأقصاب ومعاصرها في أوقاتها، وأعتاد مصلحة كل عمل على ما يناسبه وتقتضيه مصلحته : من مستخرج ومستغل، ومحمول ومزدرع، ومستعمل ومُنقَّح، ويحذِّرهم عن حصول خلل، أو ظهور عجز، أو فتور عزم، أو تقصير رأى، أو ما يقتضى الإنكار ويوجب المؤاخذه، ويشدّد في ذلك ما تقتضيه فرص الأوقات التي ينبغي اتِّهازها على ما يبالعون به .

فصل [أموال] الخراج الديوانية :

يُحْتَرَزُ عَلَيْهَا وَتُرَبَّى وَتَمْتَّى ، وَلَا يُطْلَقُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِرِسُومٍ شَرِيفٍ مَنَّا ، وَيُطَالَعُ
بِأَنَّ الْمَرْسُومَ وَرَدَ بِكَذَا وَكَذَا وَيَعُودُ الْجَوَابُ بِمَا يَعْتَمَدُ فِي ذَلِكَ .

فصل حقوق الأمراء والبحرية والحلقة المنصورة والجند وجهاتهم :

يَسْتَخْلَصُ أَمْوَالُهُمْ وَوُكَلَاءُهُمْ ، وَيُوجَدُ الشَّهَادَاتُ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ غَلَّةٍ وَدِرَاهِمٍ ، وَغَيْرِ
ذَلِكَ ، وَلَا يُجَوِّجُ الْوُكَلَاءُ إِلَى شَكْوَى مِنْهُمْ نَتَصَلُ بِبَنِ هَوِ فِي الْبَيْكَارِ ، وَيُخَسِّمُ هَذِهِ
الْمَادَّةَ ، وَيُسَدُّ أَبْوَابَ الْمَاظِلَةِ عَنْهُمْ .

فصل

يَتَقَدَّمُ إِلَى الْوَلَاةِ وَالنُّظَارِ وَالْمُسْتَحْدِمِينَ بِعَمَلِ أَوْ رَاقٍ بِمَا يَتَحَصَّلُ لِلْمَقْطَعِينَ الْأَصْلِيَّةِ (٩)
فِي كُلِّ بِلَدٍ ، وَلِمْقَطَعِ الْجِهَةِ ، وَلَنْ أُفْرِدَ لَهُ طِينَ بِجِهَةٍ ، وَإِنْ جِهَتُهُ عَلَى الرِّسُومِ : لِيَعْلَمَ
حَالُ الْمَقْطَعِينَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْجَيْشِيَّةِ وَالْجِهَاتِيَّةِ وَمَا تَحَصَّلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ ، وَلَا يَحْصُلُ
مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْوَلَاةِ مَكَاشِرَةٌ وَلَا إِهْمَالٌ ، وَلَا يُطْمَعُ فِي الْوُكَلَاءِ لِأَجْلِ غَيْبَةِ الْأَمْرَاءِ
وَالْمَقْطَعِينَ فِي الْبَيْكَارِ ، وَلَا يُجَوِّجُ أَحَدٌ مِنَ الْمَقْطَعِينَ إِلَى شَكْوَى بِسَبَبِ مُتَأَخَّرٍ
وَلَا ظُلْمَةٍ وَلَا إِجْحَافٍ .

فصل

إِذَا خَرَجَ جَانْدَارٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْأَعْمَالِ لَا يُعْطَى فِي الْعَمَلِ أَكْثَرَ مِنْ دَرَاهِمِينَ ثُبْرَةً ،
وَيُوصَلُ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَ فِيهِ لِمُسْتَحِقَّةٍ ، فَإِنْ حَصَلَ مِنْهُ قَالٌ وَقِيلٌ أَوْ حَيْفٌ أَوْ تَعَنُّتٌ
يُرْسَمُ عَلَيْهِ ، وَيُسَيَّرُ الْحَقُّ مَعَ صَاحِبِهِ مَعَهُ ، وَيُطَالَعُ بِأَنَّ فُلَانًا الْجَانْدَارُ حَضَرَ وَجَرَى
مِنْهُ كَذَا وَكَذَا ، وَيُشْرَحُ الصُّورَةُ لِيَخَسِّمَ الْمَوَادَّ بِذَلِكَ .

فصل

إذا سَيرَ أحدٌ من الولاة رسولا بسببِ خلاصِ حقٍّ من بعضِ قرى أعماله فيكون ما يُعطى الجاندار عن مسافة سفر يومٍ نصفُ نُقْرة ، وعن يومينِ درهمٌ واحدٌ لا غيرُ ، وأىُّ جاندار تعذّى وأخذ غير ذلك يؤدَّب ويُصرف من تلك الولاية .

فصل :

تُكتبُ الحجج على كل وكيل يقبضُ لمخدومه شيئاً من مُغَلَّة أو جِهته : من الديوان أو القلاحين ؛ ولا يسلم له شىء إلا بشهادةٍ بحجج مكتوبة عليه ، تُخلَّد منها حجة الديوان المعمور بما قبضه من جهته أو إقطاعه ، وتبقى الحججُ حاصلة حتى إذا شكَا أحد إلينا وسيرنا عرفناهم بمن يشكو من تأخر حقه ، يُطالعوننا بأمر وكيله وما قبض من حقه ، ويُسير الشهادة عليه طيَّ مطالعته ، (ويُحترز من الشهادات) بما وصل لكل مُنقطع ، حتى إنا نعلم من مضمون الحجج والشهادات متحصِّل المُقطَّعين من البلاد والجهات مُفصَّلاً وجملة ما حصل لكل منهم : من عين وغلة وما تأخر لكل منهم ، ويعمل بذلك صورة أمور البلاد والمقطَّعين وأحوالهم ، ويُزِيلُ شكوى من يجب إزالة شكواه ، وتُعلم أحوالهم على الجليَّة .

فصل

تقرأ هذه التذاكر على المنابر فصلاً فصلاً ، ليسمعها القريبُ والبعيدُ ، ويُبلغها الحاضر والغائب ، ويعمل بمضمونها كل أحد . ومن خرج عنها أو عمل بخلافها فهو أخبر بما يلقاه من سطواتنا وشدة بأسنا ، والسلام .

الضرب الثالث

(ما كان يُكتب لِنَوَابِ القِلاعِ ووَلَاتِها : إما عند استقرارِ النائبِ بها ، وإما في خلال نيابته)

والعادةُ فيها أن يُكتب فيها باعتماد الكَشْفِ عن أحوال القلعةِ وأسوارِها وعَرْضِ خواصِها ، ومَقَدَّمِ رجالِها ، وترتيبِ الرجالِ في مراكزِهِمْ ، وكَشْفِ مَظَالِمِ الرعايا ، والنظرِ في الاحترازِ على القلعةِ وعلى أبوابِها ، والاحتفاظِ بمفاتيحِها على العادة ، وتحصيل ما يُحتاج إليه فيها من الزاد والحطب والمِلح والفَحْمِ وغير ذلك . والمطالعةِ بمتجددات الأخبار .



وهذه نسخةُ تذكرةٍ كُتِبَ بها عن السلطان الملك المنصور قلاوون بسبب قلعة صرَّخَدَ من الشام ، عند استقرار الأمير سيف الدين باسطى نائباً بها ، والأمير عز الدين والياً بها في سنة تسع وسبعين وستمائة ، من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية ، وهى :

تذكرةُ مباركةٍ نافعةٍ ، لكثيرٍ من المصالحِ جامعةٍ ، يعتمد عليها الأميران : سيف الدين وعز الدين عند توجُّهِهما إلى قلعة صرَّخَدَ المحروسة :

يعتمدان العدلَ في الرعيه ، وسلوكَ مَنَهِجِ الحق في كل قضيه ، وأَعْتادَ ما يُرضى الله تعالى ويُرضينا ، وليكن الإنصافُ لهما عقيدةً والتقوى ديناً ، ولا يتطاع أحدُهما إلى ما في يد أحد من مال ولا نَسَب ، ولا يُعارض أحدٌ أحداً بلا سَبَب ، ولتقُوا اللهَ ويخشَوْهُ ، ويتجنبُوا الباطل ولا يَغشَوْهُ ، ولا يُظَنَّ أحدٌ منهم أن قد بُعدَ عنا فيطمَحَ إلى الظلم أو يطمَحَ ، فإننا منهم بمرأى ومسمع ، وليكونوا على المصالحِ متفقين ، وبأذial الحق متعلقين ، وعلى الرعيَّةِ مشفقين .

فصل

يَتَقَدَّمَانِ بِكُشْفِ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وَأَبْرَاجِهَا وَبَدَنَاتِهَا وَأَبْوَابِهَا ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحٍ وَتَرْمِيمٍ وَعِمَارَةٍ ، وَيُحَرِّرانَ أَمْرَ ذَلِكَ تَحْرِيراً ، وَيَجْتَمِدَانِ فِي إِصْلَاحِ مَا يَجِبُ إِصْلَاحُهُ وَتَرْمِيمِ مَا يَجِبُ تَرْمِيمُهُ ، وَالْمُطَالَعَةِ بِمَا كُشِفَاهُ وَمَا اعْتَمَدَاهُ .

فصل

يَتَقَدَّمَانِ بَعَرَضِ حَوَاصِلِ الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَالْخِزَانَةِ الْمَعْمُورَةِ ، وَيَحْقُقُونَ مَا بَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْغِلَالِ وَالذِّخَائِرِ وَالْحَوَاصِلِ ، وَيَعْمَلُونَ بِذَلِكَ أَوْراًقاً مُحْتَزَةً ، وَيُسَيِّرُونَ نَسِخَتَهَا إِلَى الْبَابِ الشَّرِيفِ .

فصل

يَتَقَدَّمَانِ بَعَرَضِ مَقْدَمِ رِجَالِ الْقَلْعَةِ ، وَأَرْبابِ الْحَامِيَّاتِ وَالرَّوَاتِبِ بِهَا ، وَيُحَرِّرانَ أَمْرَ مَقَرَّرَاتِهِمْ : مِنْ جَامِكِيَّةٍ وَجَرَايَةٍ ، وَيُحَرِّيانَ فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَلَى الْعُدَّةِ الْحَارِيَّةِ الْمُسْتَقَرَّةِ .

فصل

يَسْتَوْضَحَانِ مِنَ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ وَالْأَمِيرِ عِلْمَ الدِّينِ الْمُنْصَرِفَيْنِ عَنِ الْمَصَالِحِ الْمُخْتَصَّةِ بِهَذِهِ الْقَلْعَةِ وَعَنْ أُمُورِهَا ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، فَإِنَّهُمَا قَدْ أَحْسَنَا فِي ذَلِكَ التَّدْبِيرَ ، وَأَجْمَلَا التَّأْيِيرَ ، وَسَلَكَا أَجْمَلَ مَسَلِّكٍ ، وَيَهْتَدِيَانِ بِمَا يَوْضَحَانِهِ لَهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمُهَمَّاتِ لِيَكُونَ دُخُولُهَا فِي هَذَا الْأَمْرِ عَلَى بَصِيرَةٍ .

فصل

يَكُونُ أَمْرُ النِّيَابَةِ وَالْحُكْمِ الْعَامِّ فِي الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَتَنْزِيلِ الرِّجَالِ وَاسْتِخْدَامِهِمْ وَصَرْفِهِ مِنْ يَجِبُ صَرْفُهُ - لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ بِاسْطَى بِمُشَارَكَةِ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ وَالْإِسْتِخْدَامِ وَالْمَصْرَفِ ، وَيَكُونُ أَمْرُ النِّيَابَةِ رَاجِعاً لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ

باسطى والحكم فيها له ، ويكون أمر ولاية القلعة للأمير عن الدين ، ويجريان في ذلك على عادة من تقدمهما في هذه النيابة والولاية ، ويكون الأمير سيف الدين في الدار التي كان يسكنها الأمير عن الدين ، وحكمه في النيابة حكمه ، ويسكن الأمير عن الدين في الدار التي كان يسكن فيها الأمير علم الدين ، وحكمه في الولاية حكمه . ولا يتعدى أحد طوره ، ولا يخرج عما قرّر فيه ، ويرعى كل منهما لصاحبه حقه فيما رتب فيه ، ويتفقان على المصالح كلها ، ويكونان كروحين في جسد واحد .

فصل

يتقدمان بأن يترتب الرجال في مراتبهم ومنازلهم على العادة في الليل والنهار ، والحرسية على العادة في الليل والنهار . وإن كان ثم خلل في ذلك أو تفریط أو إهمال ، فليستدرك الفارط ويرتب الأمر فيه على أحسن ترتيب .

فصل

ينتصبان في أوقات العادة في باب القلعة لكشف مظالم الرعية في القلعة والبر ، ويعتمدان إنصافهم ، وتلبية داعيهم ، وسماع كلمهم ، وكف ظالمهم وإعانة مظلومهم ، وأعتاد ما يجب من العدل وبسطه في الرعية ، وكف الأيدي العادية .

فصل

أبواب القلعة إذا أغلقت في كل ليلة تُبَيِّت المفاتيح عند النائب في المكان المعتاد بعد ختم الوالى عليها على العادة ، وإذا تسلمها يتسلمها بختمها على العادة .

فصل

الذخائر والغلال يُجْتَهَد في تحصيلها بالقلعة ، ولا تُخْزَن غلة جديدة على غلة عتيقة . وكل هري يُخْزَن فيه غلة يحترق أمرها وتُشال عينتها في كيس وتجعل في الخزانة ويختم عليها ، ولا يُصرف من الحديد قبل نفاد العتيق ، ولا يُترك العتيق ويُصرف من الحديد . وكذلك بقية الحواصل يُسَلَك فيها هذا المسلك .

فصل

مَهْمَا جرت العادةُ بِتَثْمِينِهِ عَلَى أَرْبابِ الحَامِيَّاتِ والمَقَرَّاتِ ، فليَجْرُ الأمرُ فِيهِ عَلَى العادةِ مِنْ غيرِ حَيْفٍ ، وَلِيَدْخُلِ الديوانُ والمُبَاشِرُونَ فِي التَّثْمِينِ لثَلَا يُسَلِّكَ أَمْرُ التَّثْمِينِ عَلَى الرَّجَالَةِ وَالضُّعَفَاءِ مَعَ قَلَّةِ معلومِهِمْ وَيُوفَّرَ مِنْ ذَلِكَ أَرْبابُ الدَّوَالِينِ مَعَ كَثَرَةِ معلومِهِمْ ، بَلْ يَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يُتَمَنَّنَ عَلَيْهِ ؛ وَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ : مِثْلُ رَاجِلٍ ضَعِيفٍ أَوْ رَبٍّ مَعْلُومٍ قَلِيلٍ ، فَلْيُفَرِّقْ بِهِ فِي ذَلِكَ ، نَظَرًا فِي حَقِّ الضُّعَفَاءِ .

فصل

يُكَثِّرُونَ مِنَ الْأَحْطَابِ وَمِنَ الْفَحْمِ وَالْمِلْحِ بِالذَّخَائِرِ ، وَكَذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ وَتَوْفِيرِهَا بِالْخِزَانَةِ المَعْمُورَةِ : بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهَا شُغْلٌ تَشْغُلُهُمَا عَنْ ذَلِكَ ، بَلْ يَصْرِفَانِ الهِمَّةَ فِي غَالِبِ أَوْقَاتِهِمَا إِلَى الْفِكْرَةِ فِي مَالٍ يَحْصُلُونَهُ ، أَوْ صِنْفٍ يَذْخُرُونَهُ ، وَلَا يَهْمَلَانِ ذَلِكَ .

فصل

يُطَالَعَانِ الْأَبْوَابُ الْعَالِيَةُ فِي غَالِبِ أَوْقَاتِهِمَا بِمَا يَتَجَدَّدُ عِنْدَهُمَا مِنَ الْمَصَالِحِ ، وَبِمَا يَتَمَيَّزُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَ[بِمَا] حُجِّلَ إِلَى الْخِزَائِنِ وَإِلَى الْأَهْرَاءِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْغِلَالِ . وَكَذَلِكَ يُطَالَعَانِ نَائِبُ السَّلَاطِنَةِ بِدِمَشْقِ المَحْرُوسَةِ عَلَى الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ ، وَلَتَكُنْ مَطَالَعَتُهُمَا جَامِعَةً وَعَالِيَا خُطُّهُمَا . وَمَنْ لَاحَتْ لَهُ مَصْلَحَةٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَاخْتَارَ أَنْ يُطَالَعَ بِانْفِرَادِهِ فَلْيُطَالَعْ .

فصل

لَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنَ الرِّجَالِ المَرْتَبِينَ بِالْقَلْعَةِ المَحْرُوسَةِ وَأَرْبابِ التَّنُوبِ أَنْ يُنْجَلَ بِنُوبَتِهِ وَلَا يَفَارِقَهَا ، وَلَا يُنْجَرُجَ مِنَ الْقَلْعَةِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا بِدُسْتُورٍ وَيَعُودُ فِي يَوْمِهِ وَاللَّهُ المَوْفِقُ .

قلت : وبالجملـة فالتذاكر مَنوطة بحال المكتوب له التذكرة ، والمكتوب بسببه ؛
فيختلف الحال باختلاف الأسباب ، ويُؤتى لكل تذكرة بفصول تُناسبها بحسب
ما تدعو الحاجة إليه .

وأعلم أنَّ اللائق بالتذاكر الخارجة من ديوان الإنشاء أن تكون في الفصاحة
والبلاغة على حدِّ الرسائل ، فيعلو شأن التذكرة باعتبار اشتغالها على الفصاحة والبلاغة ،
وينحط بفواتهما ؛ وأنظر إلى تذكرة القاضي الفاضل المبتدأ بها ، وما آشملت عليه
من الفصاحة والبلاغة ، وأين هي من التذكرتين اللتين بعدها ؛ فإنه قد أهمل فيهما
مراعاة الفصاحة والبلاغة جملةً ، بل لم تُراع في الأخيرة منهما قوانين النحو ، إذ يكون
يتكلم بصيغة التثنية على سياق ما عُقدت له التذكرة لا شتمالها على اثنين فإذا هو
قد عدل إلى لفظ الجمع ، ثم يعود إلى لفظ التثنية ، هذا ، وهي منسوبة إلى القاضي
محيي الدين بن عبد الظاهر ، صاحب ديوان الإنشاء يومئذ ، وهو من بيت الكتابة
والبلاغة ، إلا أنه قد يُريد بُعدوله من التثنية إلى الجمع أن ينتقل إلى خطاب جمع
المتحدثين في القلعة فيما يتعلق بذلك الفصل الذي يكون فيه ، وإلا فلا يجوز صدور
مثل ذلك عنه وتكراره المرة بعد الأخرى .

المقالة السابعة

في الإقطاعات والقَطَائِع ، وفيها بابان

الباب الأول

في ذكر مقدمات الإقطاعات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في ذكر مقدماتٍ نتعلّق بالإقطاعات ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان معنى الإقطاعات وأصلها في الشرع)

أما الإقطاعاتُ فجمعُ إقطاع ، وهو مصدرُ أقطع ، يقال : أقطعه أرضاً كذا يقطعه إقطاعاً ، وأستقطعه إذا طلبَ منه أن يُقطعه ، والقِطِيعَةُ الطائفةُ من أرضٍ الخراج .
وأما أصلُها في الشرع فإِرواهُ الحافظُ ابنُ عساکر في تاريخِ دِمَشقَ بسنّده إلى ابنِ سيرينَ عن تميمِ الدارِيِّ أَنه قال : « أَسْتَقَطْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرضاً بالشَّامِ قبل أن تُفْتَحَ فأعطانيها ، ففتَحها عمرُ بنُ الخطاب في زمانه فأثْبَتَهُ ، فقلتُ : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا ، فجعل عمرُ ثُلثها لابنِ السبيل ، وثلثها لعمارتها ، وثلثاً لنا » .

وفي رواية : أَسْتَقَطْتُ أرضاً بالشَّامِ فأقطعتُها ، ففتَحها عمرُ في زمانه فأثْبَتَهُ ، فقلتُ : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا ، فجعل عمرُ ثُلثها لابنِ السبيل ، وثلثها لعمارتها ، وترك لنا ثُلثاً .

وذكر الماوردي في "الأحكام السلطانية" : أن أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع أرضاً كانت بيد الروم فأعجبه ذلك ، وقال ألا تسمعون ما يقول ؟ فقال : والذي بعثك بالحق ليقتحن عليك ، فكتب له بذلك كتاباً .

وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقطع الزبير بن العوام ركض فرسه من موات البقيع فأجراه ورمى بسوطه رغبة في الزيادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطوه منتهى سوطه » .

وذكر أن الأبيض بن حمّال استقطع ملاح مارب فأقطعته ، فأخبره الأفرع ابن حابس أنه كان في الجاهلية [وهو بأرض ليس فيها غيره من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العد بالأرض ، فاستقال الأبيض في قطيعة الملاح فقال قد أقلتلك على أن تجعله مني صدقة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العد من ورده أخذه ^(١)] .

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن أول من أقطع القطائع بالآرضين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه - ولا وجه له بعد ما تقدم ذكره ؛ اللهم إلا أن يريد أن عثمان أول من أقطع القطائع بعد الفتح ، فإن ما أقطعته النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل الفتح كما تقدم .

قال بعد ذلك : ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم : أقطع قطائع فافتدى عثمان به في ذلك وأقطع حباب بن الارت وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد

(١) ترك في الأصل بياضاً في هذا الموضع وقد تداركناه من كتاب الأحكام السلطانية ص ١٧٤

(١) والزبير، وأقطع طلحة أجرة الحُرْف : وهو موضع النَّشَاج ، فكتب إلى سعيد ابن العاص وهو بالكوفة أن يَنْقِذَهَا لَهُ .

الطرف الثاني

(في بيان أول من وَضَعَ ديوان الجيش ، وكيفية ترتيب منازل الجُنْد فيه ، والمساواة والمفاضلة في الإعطاء)

ذكر أبو هلال العسكري في "الأوائل" والمأوردى في "الأحكام السلطانية" أن أول من وَضَعَ الديوان في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قال المأوردى : وأختلف [الناس] في سبب وضعه [له] : فقال قوم : سببه أن أبا هريرة قَدِمَ عليه بمال من البحرين ، فقال له عمر : ما جئت به ؟ قال خمسمائة ألف درهم ، فأستكثره عمر ، وقال : أتدري ما تقول ؟ قال نعم ! مائة ألف نخمس مرات ، فقال عمر : أطيب هو ؟ قال لا أدري . فصعد عمر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كَيْلاً ، وإن شئتم عددنا لكم عَدّاً ، فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين : رأيت الأعاجم يدوّنون ديواناً ، فدوّن أنت لنا ديواناً .

وذهب آخرون إلى أن سبب وَضْع الديوان أن عمر بعث بعثاً وعنده الهرمزان ، فقال لعمر : هذا بعثٌ قد أعطيت أهله الأموال ، فإن تخلف منهم رجل وأخلّ بمكانه ، فإن أين يعلم صاحبك به ؟ فأثبت لهم ديواناً ، فسأله عن الديوان ففسره له .

(١) في الأوائل "الجوف" .

وَيُرَوَّى أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَدْوِينِ الدَّوَاوِينِ ، فَقَالَ عَلَى
 ابْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : تَقْسِمُ كُلَّ سَنَةٍ مَا أَجْتَمَعَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَالِ ، وَلَا تُنْسِكَ
 مِنْهُ شَيْئًا . وَقَالَ عُمَانُ : أَرَى مَا لَا كَثِيرًا يَسْعَى النَّاسُ ، فَإِنْ لَمْ يُحْصَوْا حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ
 أَخَذَ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ ، خَشِيتُ أَنْ يَنْتَشِرَ الْأَمْرُ . فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
 قَدْ كُنْتُ بِالشَّامِ فَرَأَيْتُ مُلُوكَهَا دَوَّنُوا دِيْوَانًا وَجَنَّدُوا جُنُودًا ، فَدَوَّنُوا دِيْوَانًا وَجَنَّدُوا
 جُنُودًا ، فَأَخَذَ بِقَوْلِهِ وَدَعَا عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَخُزَيْمَةَ بْنَ نُوفَلٍ ، وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ ،
 (وَكَانُوا مِنْ شَبَابِ قُرَيْشٍ) فَقَالَ : آكْتُبُوا [النَّاسَ] عَلَى مَنَازِلِهِمْ ، فَبَدَعُوا بَنِي هَاشِمٍ
 فَكَتَبُوهُمْ ، ثُمَّ اتَّبَعُوهُمْ أَبَا بَكْرٍ وَقَوْمَهُ ، [ثُمَّ عَمَرَ وَقَوْمَهُ] وَكَتَبُوا الْقَبَائِلَ وَوَضَعُوها
 عَلَى الْخِلَافَةِ ، ثُمَّ رَفَعُوهُ إِلَى عَمَرَ ، فَلَمَّا نَظَرَ فِيهِ ، قَالَ : لَا ! وَمَا وَدِدْتُ أَنَّهُ هَكَذَا ،
 وَلَكِنْ أَبْدَعُوا بِقَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْأَقْرَبَ بِالْأَقْرَبِ حَتَّى تَضَعُوا
 عَمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ . فَشَكَرَ الْعَبَّاسُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ : وَصَلَّاتُكَ رَحِمٌ .

وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ : أَنَّ بَنِي عَدِيٍّ جَاءُوا إِلَى عَمَرَ ، فَقَالُوا : إِنَّكَ
 خَلِيفَةُ أَبِي بَكْرٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، فَلَوْ جَعَلْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ جَعَلْتَ هَؤُلَاءِ
 الْقَوْمُ الَّذِينَ كَتَبُوا ؟ فَقَالَ : بَخٍ بَخٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ ! ! إِنْ أَرَدْتُمْ إِلَّا الْأَكْلَ عَلَى ظَهْرِي ،
 وَأَنْ أَذْهَبَ حَسَنَاتِي لَكُمْ ، لَا وَاللَّهِ ! حَتَّى تَأْتِيَكُمْ الدَّعْوَةُ وَلَوْ أَنْطَبَقَ عَلَيْكُمْ الدَّفْتَرُ .
 يَعْنِي وَلَوْ أَنْ تُكْتَبُوا آخِرَ النَّاسِ . إِنَّ صَاحِبِي سَلَكَ طَرِيقًا ، فَإِنْ خَالَفَتْهُمَا خُولَفَ بِي ،
 وَاللَّهُ مَا أَدْرَكَا الْفَضْلَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَا نَرْجُو الثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى عَمَلِنَا إِلَّا بِمُحَمَّدٍ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُوَ أَشْرَفُنَا ، وَقَوْمُهُ أَشْرَفُ الْعَرَبِ ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ بِالْأَقْرَبِ ، وَوَاللَّهِ
 لَئِنْ جَاءَتِ الْأَعَاجِمُ بِعَمَلٍ وَجِئْنَا بِعَمَلٍ دُونَهُمْ ، لَهُمْ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَّا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فَإِنْ مِنْ قَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعَ بِهِ نَسْبُهُ .

وَرَوَى أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ أَرَادَ وَضَعَ الدِّيَّانَ، قَالَ: بَيْنَ أَبَدًا؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَبَدًا بِنَفْسِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَذْكَرَ أَنِّي حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْدَأُ بِنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَبَدَأَ بِهِمْ عُمَرُ، ثُمَّ بَيْنَ إِلَيْهِمْ مِنْ قِبَائِلِ قُرَيْشٍ بَطْنًا بَعْدَ بَطْنٍ، حَتَّى آسَتُوهُ بِجَمِيعِ قُرَيْشٍ، ثُمَّ أَتَتْهُ إِلَى الْأَنْصَارِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَبَدًا أَوْ بَرِّهْ سَعْدَ بْنِ مُعَاذٍ مِنَ الْأَوْسِ، ثُمَّ بِالْأَقْرَبِ فَلَا أَقْرَبَ لِسَعْدٍ.



وَأَمَّا الْمُسَاوَاةُ وَالْمُفَاضَلَةُ فِي الْعَطَاءِ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ: فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرَى التَّسْوِيَةَ [بَيْنَهُمْ] فِي الْعَطَاءِ [وَلَا يَرَى التَّفْضِيلَ بِالسَّابِقَةِ] كَمَا حَكَاهُ عَنْهُ الْمَأْوَرْدِيُّ فِي "الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ".

قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي "الْأَوَائِلِ": وَقَدْ رَوَى عَنْ عَوَانَةَ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ مَالٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَاوَى فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَغَضِبَتْ الْأَنْصَارُ، وَقَالُوا لَهُ: فَضَّلْنَا، فَقَالَ: إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَفْضَلَكُمْ فَقَدْ صَارَ مَا عَمِلْتُمُوهُ لِلدُّنْيَا، وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا عَمِلْنَاهُ إِلَّا لِلَّهِ! وَأَنْصَرَفُوا. فَفَرَّقَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُنْبَرَّ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَوْ شِئْتُمْ [أَنْ] تَقُولُوا: إِنَّا أَوْيَيْنَاكُمْ وَشَارَكْنَاكُمْ أَمْوَالَنَا وَنَعَصَرْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا لَقَاتَمَ، وَإِنَّ لَكُمْ مِنَ الْفَضْلِ مَا لَا يُحْصَى لَهُ عَدَدٌ، وَإِنْ طَالَ الْأَمَدُ، فَنَحْنُ وَأَنْتُمْ كَمَا قَالَ الْغَنَوِيُّ:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْزَلَتْ * بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِينَ فَرَزَتْ

أَبَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمْنًا * تُتَلَقَّى الَّذِي لَا قُوَّةَ مِنَّا لَمَلَّتْ

هُمْ أَسْكَنُونَا فِي ظِلَالِ بَيْوتِهِمْ * ظِلَالِ بَيْوتِ أَدْفَاتٍ وَأَكْسَتْ

قال المساوردي : وإلى ما رأى أبو بكر رضى الله عنه ذهب على رضى الله عنه في خلافته ، وبه أخذ الشافعي ومالك .

وكان عمر رضى الله عنه يرى التفضيل بالسابقة في الدين ، حتى إنه ناظر أبا بكر رضى الله عنه في ذلك ، حين سوى بين الناس ، فقال : أئساوى بين من هاجر لهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ ! - فقال أبو بكر : إنما عملوا لله ، وإنما أجورهم على الله ، وإنما الدنيا [دار] [بلاغ] [للكب] ^(١) ، فقال له عمر : لا أجعل [من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ فلما وضع الديوان ^(١) جرى] على التفضيل بالسابقة ؛ ففرض لكل رجلٍ شهيد بذرًا من المهاجرين [الأولين] خمسة آلاف درهم كل سنة ، ولكل من شهيد بذرًا من الأنصار أربعة آلاف درهم ، ولكل رجلٍ هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجلٍ هاجر بعد الفتح ألفين ؛ وفرض لفلانٍ أحداثٍ من أبناء المهاجرين والأنصار أسوة من أسلم بعد الفتح ؛ وفرض للناس على مآزلهم ، وقراءتهم القرآن ، وجهادهم بالشام والعراق ؛ وفرض لأهل اليمن وقبس : لكل رجلٍ من ألفي درهم إلى ألف درهم ، إلى خمسمائة درهم ، إلى ثيمائة درهم ، ولم ينقص أحدا منها ، وقال : لئن كثُر المال لأفرضن لكل رجلٍ أربعة آلاف درهم : ألفا لقرسه ، وألفا لسلاحه ، وألفا لسفره ، وألفا يُخففها في أهله ؛ وفرض للنفوس مائة درهم ، فإذا ترعرع فرض له مائتين ، فإذا بلغ زاده . وكان لا يفرض للموادر شيئاً حتى يُفطم ، إلى أن سمع ليلة أمرأة تكّره ولدها على الفطام ، وهو يبكي ، فسألها عنه - فقالت : إن عمر لا يفرض للموادر حتى يُفطم فانا أكرهه على الفطام حتى يفرض له - فقال يا ويح عمر ! كم أحتمب من

وَزُرْ وَهُوَ لَا يَدْرِى ؛ ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا فَيُنَادِى : أَلَا لَا تُعْجِلُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْفِطَامِ ، فَإِنَا نَفْرَضُ لِكُلِّ مُوَلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : ثُمَّ رُوِيَ فِي التَّفْضِيلِ عِنْدَ أَنْقَرَضِ أَهْلِ السَّوَابِقِ التَّقْدِيمُ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَلَاءِ فِي الْجِهَادِ .



وَأَمَّا تَقْدِيرُ الْعَطَاءِ فَمُعْتَبَرٌ بِالْكَفَايَةِ حَتَّى يَسْتَعْنِيَ بِهَا عَنِ الْتَمَاسِ مَادَّةً تَقْطَعُهُ عَنِ حِمَايَةِ الْبَيْضَةِ . ثُمَّ الْكَفَايَةُ مُعْتَبَرَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ : أَحَدُهَا عَدَدُ مَنْ يُعُولُهُ مِنَ الدَّرَارِيِّ وَالْمَالِيكِ - وَالثَّانِي عَدَدُ مَا يَرْتَبِطُ مِنَ الْخَيْلِ وَالظَّهْرِ - وَالثَّالِثُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَحْكُمُهُ فِي الْغَلَاءِ وَالرُّخْصِ فَتَقْدَرُ [كِفَايَتُهُ فِي] نَفَقَتِهِ وَكُسُوتِهِ لِعَامِهِ كُلِّهِ . ثُمَّ تُعْتَبَرُ حَالُهُ فِي كُلِّ عَامٍ ، فَإِنْ زَادَتْ نَفَقَاتُهُ زَيْدٌ ، وَإِنْ نَقَصَتْ نُقِصَ ، فَلَوْ تَقَدَّرَ رِزْقُهُ بِالْكَفَايَةِ ، فَنَعِيَ الشَّافِعِيُّ مِنْ زِيَادَتِهِ عَلَى الْكَفَايَةِ وَإِنْ اتَّسَعَ الْمَالُ ، لِأَنَّهُ أَمْوَالُ بَيْتِ الْمَالِ لَا تَوْضَعُ إِلَّا فِي الْحَقُوقِ الْإِلَازِمَةِ ؛ وَأَجَازَ أَبُو حَنِيفَةَ زِيَادَتَهُ حِينَئِذٍ .

الطرف الثالث

(فِي بَيَانٍ مِنْ يَسْتَحِقُّ إِثْبَاتَهُ فِي الدِّيَوَانِ ، وَكَيْفِيَّةَ تَرْتِيبِهِمْ فِيهِ)

فَأَمَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ إِثْبَاتَهُ فِي الدِّيَوَانِ ، فَمِنْهُ نَحْسَةُ أُمُورٍ :

أَحَدُهَا - الْبُلُوغُ . فَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُ الصَّبِيِّ فِي الدِّيَوَانِ ، وَهُوَ رَأْيُ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَبِهِ أَخَذَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، بَلْ يَكُونُ جَارِيًا فِي جُمْلَةِ عَطَاءِ الدَّرَارِيِّ .
الثَّانِي - الْحُرِّيَّةُ . فَلَا يُثَبَّتُ فِي الدِّيَوَانِ مَمْلُوكٌ ، بَلْ يَكُونُ تَابِعًا لِسَيِّدِهِ دَاخِلًا فِي عَطَائِهِ ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فَإِنَّهُ جَوَّزَ إِفْرَادَ الْمَمْلُوكِ بِالْعَطَاءِ ، وَهُوَ رَأْيُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الثالث — الإسلام ، لِيُدْفَع عن المِلَّة باعتقاده ، حتَّى لو أُثبتَ فيهم ذمِّي لم يجوز ، ولو آرتد منهم مُسلم سَقَط .

الرابع — السَّلامة من الآفاتِ المانعة من القتال . فلا يجوز أن يكون زِمناً ولا أعمى ولا أقطع ، ويجوز أن يكون أخرس أو أصم . أما الأعرج ، فإن كان فارساً جاز إثباته أو راجلاً فلا .

الخامس — أن يكون فيه إقدام على الحرب ومعرفةً بالقتال ، فإن ضَعُفت هِمَّتُه عن الإقدام ، أو قَلَّت معرفته بالقتال لم يجوز إثباته .

فإذا وُجدت فيه هذه الشروط ، أعتبر فيه خلوُه عن عمل وطلبه الإثبات في الديوان ؛ فإذا طَلَب فعلى ولي الأمر الإجابة إذا دعت الحاجةُ إليه . ثم إن كان مشهور الاسم فذاك ، وإلا حلَّ ونعت ، بذكر سنَّه وقَدَّه ولَوْنِه وصفة وجهه ، ووُصِف بما يُميِّز به عن غيره ، كي لا تتفق الأسماء ، أو يدعى في وقت العطاء ، ثم يُضمُّ إلى نقيب عليه أو عريف يكون مأخوذاً بدركه .



وأما ترتيبهم في الديوان فقد جعلهم الماوردي في "الأحكام السلطانية" على ضربين :

الضرب الأول — الترتيب العام . وهو ترتيب القبائل والأجناس حتَّى تُميَّز كلُّ قبيلة عن غيرها وكلُّ جنس عن مخالقه ، فلا يُجمَع بين المختلفين ، ولا يُفرَّق بين المؤتلفين : لتكرن دعوة الديوان على نسق معروف النسب يزول فيه التنازع والتجاذب . فإن كانوا عرباً روعي فيهم القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل عمر

رضى الله عنه : فُقَدِمُ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ : وَهُمْ عَدَنَانُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
 عَلَى الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ : وَهُمْ بَنُو حَظَّانَ عَرَبِ الْيَمَنِ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ
 عَدَنَانَ . ثُمَّ عَدَنَانُ تَجْمَعُ رِبْعَةً وَمُضَرٌّ ، فَتَقْدَمُ مُضَرٌّ عَلَى رِبْعَةٍ : لِأَنَّ النَّبُوَّةَ فِي مُضَرٍّ ،
 وَمُضَرٌّ تَجْمَعُ قُرَيْشًا وَغَيْرَ قُرَيْشٍ ، فَتَقْدَمُ قُرَيْشٌ عَلَى غَيْرِهِمْ : لِأَنَّ النَّبُوَّةَ فِيهَا ، فَيَكُونُ
 بَنُو هَاشِمٍ هُمْ قُطْبُ التَّرْتِيبِ ، ثُمَّ مِنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَقْرَبِ الْأَنْسَابِ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ
 قُرَيْشًا ، ثُمَّ مَنْ يَلِيهِمْ فِي الذَّنْبِ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ جَمِيعَ مُضَرٍّ ، ثُمَّ مِنْ يَلِيهِمْ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ
 جَمِيعَ عَدَنَانَ .

وإن كانوا عَجَا لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى سَبَبٍ ، فَاَلْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ : إِمَّا أَجْنَسٌ
 وَإِمَّا بِلَادٌ ، فَالْمُمَيِّزُونَ بِالْأَجْنَسِ كَالْتُّرْكِ وَالْهِنْدِ ، ثُمَّ تُمَيِّزُ التُّرْكُ أَجْنَسًا ،
 وَالْهِنْدُ أَجْنَسًا . وَالمُمَيِّزُونَ بِالْبِلَادِ : كَالدَّيْلَمِ وَالْجَبَلِ ، ثُمَّ تُمَيِّزُ الدَّيْلَمُ بِلْدَانًا ،
 وَالْجَبَلُ بِلْدَانًا . فَإِذَا تُمَيِّزُوا بِالْأَجْنَسِ أَوِ الْبِلَادِ : فَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ سَابِقَةٌ تَرْتَّبُوا عَلَيْهَا
 فِي الدِّيَوَانِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ سَابِقَةٌ تَرْتَّبُوا بِالْقُرْبِ مِنْ وَلِيِّ الْأَمْرِ ، فَإِنْ تَسَاوَوْا
 فَبِالسَّبْقِ إِلَى طَاعَتِهِ .

الضرب الثاني : الترتيبُ الخاصُ : وهو ترتيبُ الواحدِ بعدَ الواحدِ ، فيقدمُ
 فيه بالسابقة بالإسلام كما فعلَ عمرُ رضيَ الله عنه ، فَإِنْ تَسَاوَوْا تَرْتَّبُوا بِالدِّينِ ، فَإِنْ
 تَقَارَبُوا فِيهِ رُتَّبُوا بِالسِّنِّ ، فَإِنْ تَقَارَبُوا بِالسِّنِّ رُتَّبُوا بِالشَّجَاعَةِ ، فَإِنْ تَقَارَبُوا فِيهَا ،
 كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ بِالْخِيَارِ بَيْنَ أَنْ يَرْتَّبَهُمُ بِالْقُرْعَةِ أَوْ عَلَى رَأْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة السابعة

(في بيان حكم الإقطاع)

قال في "الأحكام السلطانية": وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه، ونفذت فيه أوامره، دون مآتين ماله وتميز مستحقه .
ثم الإقطاع على ضربين :

الضرب الأول

(إقطاع التملك)

والأرض المقطعة بالتملك إما موات، وإما عامر، وإما ممدن .

فأما الموات فإن كان لم يزل مواتاً على قديم الزمان، لم تجر فيه عمارة، ولم تثبت عليه ملك، فيجوز للسلطان أن يقطعه من يحميه ويعمره. ثم مذهب أبي حنيفة أن إذن الإمام شرط في إحياء الموات، وحينئذ فيقوم الإقطاع فيه مقام الإذن. ومذهب الشافعي أن الإقطاع يجعله أحق بإحيائه من غيره. وعلى كلا المذهبين يكون المقطع أحق بإحيائه من غيره .

وأما إن كان الموات عامراً فخرّب وصار مواتاً عاطلاً، فإن كان جاهلياً: كأرض عاد وثمود، نهى كالموات الذي لم تثبت فيه عمارة في جواز إقطاعه . قال صلى الله عليه وسلم: « عادت الأرض لله ولرسوله، ثم هي لكم مني، يعني أرض عاد ». وإن كان الموات إسلامياً جرى عليه ملك المسلمين، ثم خرب حتى صار مواتاً عاطلاً،

فمذهب الشافعي أنه لا يملك بالإحياء، عُرِفَ أربابه أم لم يُعرفوا؛ ومذهب مالك أنه يملك بالإحياء، عُرِفَ أربابه أم لم يُعرفوا؛ ومذهب أبي حنيفة أنه إن عُرِفَ أربابه لم يملك بالإحياء، وإلا لم يملك. ثم إذا لم يحز أن يملك بالإحياء على مذهب الشافعي، فإن عُرِفَ أربابه لم يحز إقطاعه، وإن لم يُعرفوا جاز إقطاعه وكان الإقطاع شرطاً في جواز إحيائه. فإذا صار الموات إقطاعاً لمن خصه الإمام به لم يستقر ملكه عليه حتى يُحييه ويكمل إحياءه، فإن أمسك عن إحيائه كان أحق به يداً وإن لم يصر له ملكاً.

وأما العامر: فإن تعيّن مالكوه، فلا نظر للسلطان فيه إلا ما تعلق بملك الأرض من حقوق بيت المال إذا كانت في دار الإسلام، سواء كانت لمسلم أو ذمّي، وإن كانت في دار الحرب التي لم يثبت عليها للمسلمين يد جاز للإمام أن يقطعها لملكها المقطوع عند الظفر بها، كما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم تميمًا وأصحابه أرضاً بالشام قبل فتحه، على ما تقدم ذكره في أول الباب.

وإن لم يتعيّن مالكوه: فإن كان الإمام قد أصطفاه لبيت المال من فتوح البلاد: إما بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغائبين، لم يحز إقطاع رقبته: لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال ملكاً لكافة المسلمين، فصار على رقبته حكم الوقف المؤبد؛ والسلطان فيه بالخيار بين أن يستغله لبيت المال وبين أن يتخير له من ذوى المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته، يأخذ نرجه، ويكون الخراج أجرة عنه تُصرف في وجوه المصالح.

(١) عبارة الأحكام السلطانية «وان لم يحز على مذهبه أن يملك» الخ والضمير عائد على أبي حنيفة، وحرر.

(٢) عبارة «الأحكام» السلطانية «بخرى على رقبته حكم الخ» وهي أوضح.

وإن كان العاصر أرض خراج لم يُجزَ إقطاع رقبائها تملكاً .

وأما إقطاع خراجها فسيأتى فى إقطاع الاستغلال فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

وإن كان الموات قد مات عنه أربابه من غير وارث، صار لبيت المال ملكاً لعامة المسلمين . ثم قيل : تصيرُ وقفاً على المسلمين بمجرد الانتقال الى بيت المال، لا يجوزُ إقطاعها ولا بيعها . وقيل : لا تصيرُ وقفاً حتى ينفى الإمام، ويجوز للإمام بيعها إذا رأى فيه المصلحة ويصرف ثمنها فى ذوى الحاجات . ثم قيل : يجوزُ إقطاعها كما يجوز بيعها، ويكون تملك رقبته بالإقطاع كتمليك ثمنها . وقيل : لا يجوزُ إقطاعها وإن جاز بيعها : لأن البيع معاوضة والإقطاع صلة .

الضرب الثانى

(من الإقطاع إقطاع الاستغلال)

وهو : إما خراج أو عشر .

فأما الخراج : فإن كان من يُقطعه الإمام من أهل الصدقات لم يجوز أن يُقطع مال الخراج : لأن الخراج فى الاستحقاق أهل الصدقة كما لا يستحق الصدقة أهل الفىء وأجاز إقطاعه أبو حنيفة .

وإن كان من أهل المصالح فمن ليس له رزق مفروض فلا يصح أن يُقطعه على الإطلاق وإن جاز أن يُعطى من مال الخراج : لأنهم من نفل أهل الفىء لا من فرضه، وما يُعطونه إنما هو من غلات المصالح، فإن جعل لهم من مال الخراج شىء أجرى عليه حكم الحوالة لأحكام الإقطاع .

وإن كان من مُرتَقَّة أَهْلِ الْفَيْءِ وَهُمْ أَهْلُ الْجَيْشِ ، فَهُمْ أَخَصُّ النَّاسِ بِجَوَازِ الْإِقْطَاعِ : لِأَنَّ لَهُمْ أَرْزَاقًا مَقْدَرَةً تُصْرَفُ إِلَيْهِمْ مَصْرُفَ الْأَسْتَحْقَاقِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا أَعْرَاضٌ عَمَّا أَرْضَدُوا نَفُوسَهُمْ لَهُ مِنْ حِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحَرِيمِ .

ثُمَّ الْخَرَاجُ : إِمَّا جَزِيَّةٌ وَهُوَ الْوَاجِبُ عَلَى الْجَمَاعِمِ ، وَإِمَّا أُجْرَةٌ وَهُوَ الْوَاجِبُ عَلَى رِقَابِ الْأَرْضِ . فَإِنْ كَانَ جَزِيَّةً لَمْ يَحْزِ إِقْطَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَوْثُوقٍ بِاسْتِحْقَاقِهِ بَعْدَهَا لِاحْتِمَالِ أَنْ يُسَلِّمَ الذَّمَّى فَتُرَوَّلَ الْجَزِيَّةُ عَنْهُ . وَإِنْ كَانَ أُجْرَةً جَازَ إِقْطَاعُهُ سَنِينَ لِأَنَّهُ مُسْتَقَرُّ الْوَجُوبِ عَلَى التَّائِيدِ .

ثُمَّ لَهُ ثَلَاثُ أَحْوَالٍ :

أَحَدَاهَا — أَنْ يُقَدَّرَ بِسَنِينَ مَعْلُومَةٍ ، كَمَا إِذَا أَقْطَعَهُ عَشْرَ سَنِينَ مِثْلًا ، فَيَصِحُّ ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ رِزْقُ الْمُقْطَعِ مَعْلُومًا الْقَدْرَ عِنْدَ الْإِمَامِ ، وَأَنْ يَكُونَ قَدْرُ الْخَرَاجِ مَعْلُومًا عِنْدَ الْإِمَامِ وَعِنْدَ الْمُقْطَعِ ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ مَجْهُولًا عَنْهُمَا أَوْ عِنْدَ أَحَدِهِمَا لَمْ يَصِحَّ . ثُمَّ بَعْدَ صِحَّةِ الْإِقْطَاعِ يُرَاعَىٰ حَالُ الْمُقْطَعِ فِي مُدَّةِ الْإِقْطَاعِ : فَإِنْ بَقِيَ إِلَىٰ انْقِضَاءِ مُدَّةِ الْإِقْطَاعِ عَلَىٰ حَالِ السَّلَامَةِ فَهُوَ عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِ الْإِقْطَاعِ إِلَىٰ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ ، وَإِنْ مَاتَ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ بَطَلَ الْإِقْطَاعُ فِي الْمُدَّةِ الْبَاقِيَةِ ، وَيَعُودُ الْإِقْطَاعُ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَالِ . وَإِنْ كَانَ لَهُ ذَرِيَّةٌ دَخَلُوا فِي عَطَاءِ الذَّرَارِيِّ دُونَ أَرْزَاقِ الْأَجْنَادِ ، وَيَكُونُ مَا يُعْطَوْنَهُ تَسْبِيًا لَا إِقْطَاعًا . وَإِنْ حَدَثَ بِالْمُقْطَعِ زَمَانَةٌ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ فَفِي بَقَاءِ الْإِقْطَاعِ قَوْلَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ إِقْطَاعَهُ بَاقٍ عَلَيْهِ إِلَىٰ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ (وَالثَّانِي) أَنَّهُ يُرْتَجِعُ مِنْهُ .

الثَّانِيَةُ — أَنْ يُقْطَعَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ثُمَّ لَعَقِبَهُ وَوَرِثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَلَا يَصِحُّ : لِأَنَّهُ يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ حَقِّقِ بَيْتِ الْمَالِ إِلَى الْأَمْلاكِ الْمَوْرُوثَةِ ، فَلَوْ قَبِضَ مِنْهُ شَيْئًا بَرِيَ أَهْلُ الْخَرَاجِ بِقَبْضِهِ : لِأَنَّهُ عَقْدٌ فَاسِدٌ مَا ذُوِّنَ فِيهِ وَيُحَاسِبُ بِهِ مِنْ جَمَلَةِ رِزْقِهِ : فَإِنْ

كان أكثر ردّ الزيادة، وإن كان أقل رجّع بالباقي، وعلى السلطان أن يظهر فساد الإقطاع حتى يمتنع هو من قبض ويمتنع أهل الخراج من الدفع ولم يبرءوا بما دفعوه إليه حينئذ .

الثالثة — أن يقطع مدّة حياته . ففى صحّة الإقطاع قولان للشافعى بالصحة والبطلان، ثم إذا صحّ الإقطاع فالسلطان أسترجاعه منه فيما بعد السنة التى هو فيها، ويعود رزقه إلى ديوان العطاء . أما السنة التى هو فيها : فإن حلّ رزقه فيها قبل حلول خراجها لم يسترجع منه فى سنته لأستحقاق خراجها فى رزقه، وإن حل خراجها قبل حلول رزقه جاز أسترجاعه منه : لأنّ تعجيل المؤجل وإن كان جائزا فليس بلازم .

وأما العشر فلا يصحّ إقطاعه، لأنه زكاة الأصناف، فيعتبر وصف استحقاتهم عند دفعها إليهم، وقد يجوز أن لا يوجد فلا يجب .

قلت : هذا حكم الإقطاع فى الشريعة، وعليه كان عمل الخلفاء والملوك فى الزمن السالف، أما فى زماننا فقد فسّد الحال وتغيّرت القوانين، وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعات تردّ من جهة الملوك على سائر الأموال : من خراج الأرضين، والجزية، وزكاة المواشى، والمعادن، والعشر، وغير ذلك . ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها، وعمت بذلك البلوى، والله المستعان فى الأمور كلّها ! .

الباب الثاني من المقالة السابعة

(فيما يُكتب في الإقطاعات في القديم والحديث ، وفيه فصلان)

الفصل الأول في أصل ذلك

والأصل فيه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع تميمًا الدَّارِيَّ أرضًا بالشَّامَ
وكتبَ له بها كتابًا .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فيه طرقًا مختلفة . فروى بسنده إلى
زياد بن فائد ، عن أبيه فائد ، عن جدّه زياد بن أبي هند ، عن أبي هند الدارِيَّ أنه
قال : قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ وَنَحْنُ سِتَّةٌ نَقَرُ : ^(١) تَمِيمُ بْنُ أَوْسٍ ،
وَنُعَيْمُ بْنُ أَوْسٍ أَخُوهُ ، وَيزِيدُ بْنُ قَيْسٍ ، وَأَبُو هِنْدٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْحَدِيثِ ،
وَأَخُوهُ الطَّيِّبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ [كَانَ اسْمُهُ بَرًا] فَسَمَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢)
عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، وَفَاكُهُ بْنُ النُّعْمَانِ ، فَأَسْلَمْنَا وَسَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْطِعَنَا
أَرْضًا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَأَلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ » .
فَقَالَ تَمِيمٌ : أَرَى أَنْ نَسْأَلَهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَكُورَهَا ، فَقَالَ أَبُو هِنْدٍ : [هَذَا مَحَلُّ مُلْكِ ^(٣)
الْعَجَمِ] وَكَذَلِكَ يَكُونُ فِيهَا مُلْكُ الْعَرَبِ وَأَخَافُ أَنْ لَا يَتِمَّ لَنَا هَذَا ، فَقَالَ تَمِيمٌ : فَنَسْأَلُهُ ^(٤)

(١) في "سيرة ابن هشام" عدم ثمانية .

(٢) الزيادة من "سيرة ابن هشام" ج ٢ ص ١٩٥ وهي لازمة لصحة المقام .

(٣) في "سيرة ابن هشام" - عبد الله - وأن الذي سماه عبد الرحمن إنما هو عرفة بن مالك ولم يذكر هنا .

(٤) الزيادة من "السيرة الحلبية وتاريخ ابن عساكر المحفوظ بدار الكتب الأزهرية" .

بيت جبرين وكورتها ، فقال أبو هند : هذا أكبر وأكبر . فقال : فأين ترى أن نسأله ؟ فقال : أرى أن نسأله القرى التي يقع فيها تل مع آثار إبراهيم . فقال تميم : أصبت ووقفت - قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم : « أَتُحِبُّ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ أَوْ أَخْبِرَكَ ؟ » - فقال تميم : بل تُخْبِرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَزِدَادُ إِيْمَانًا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرَدْتُمْ أَمْرًا فَأَرَادَ هَذَا غَيْرُهُ » وَنِعْمَ الرَّأْيُ رَأَى - قال : فداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعة جلد من آدم ، فكتب لنا فيها كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا [كتاب ^(١)] ذكر [فيه] ما وهب محمد رسول الله للداريين إذا »
« أعطاه الله الأرض . وهب لهم بيت عينون وحبزون ، وبيت إبراهيم »
« بمن فيهن لهم أبدا » .

« شهد عباس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس ^(٢) ، وشرحبيل بن »
« حسنة ، وكتب » .

قال : ثم دخل بالكتاب إلى منزله فعالج في زاوية الرقعة وغشاه بشيء لا يعرف ، وعقده من خارج الرقعة بسير عقدين ، وخرج إليها به مطويا وهو يقول :
« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »

(١) الزيادة من "السيرة الحلبية" ج ٣ ص ٢٩٦ وتاريخ ابن عساكر .

(٢) في "السيرة الحلبية" ص ٢٩٦ ج ٣ « ونخيمة بن قيس » .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، والصحيح من تاريخ ابن عساكر .

ثم قال : أَنْصِرْفُوا حَتَّى تَسْمَعُوا بِي قَدْ هَاجَرْتُ . قال أبو هند : فأنصرفنا . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قَدِمْنَا عَلَيْهِ فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يُجَدِّدَ لَنَا كِتَابًا ، فكَتَبَ لَنَا كِتَابًا نُسَخْتُهُ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« هَذَا مَا أَنْطَقَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَمِيمِ الدَّارِيِّ »
« وَأَصْحَابِهِ ، إِنِّي أَنْطَيْتُكُمْ عَيْنُونَ وَحَبْرُونَ وَالرُّطُومَ وَبَيْتَ إِبْرَاهِيمَ بِرُمَّتِهِمْ »
« وَجَمِيعَ مَا فِيهِمْ نَظِيَّةً بَتَّ ، وَنَفَذْتُ وَسَلَّمْتُ ذَلِكَ لَهُمْ وَلَأَعْقَابِهِمْ مِنْ »
« بَعْدِهِمْ أَبَدَ الْأَبَدِ ، فَمَنْ آذَاهُمْ فِيهَا آذَاهُ اللَّهُ » .

« شَهِدَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي حُفَافَةَ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، »
« وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَتَبَ » .

فلما قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَلِيَ أَبُو بَكْرٍ ، وَجَّهَ الْجَنُودَ إِلَى الشَّامِ ،
فَكَتَبَ لَنَا كِتَابًا نُسَخْتُهُ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي »
« أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » .

« أَمَا بَعْدَ ، أَمْنَعُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنَ الْفَسَادِ »
« فِي قُرَى الدَّارِيِّينَ ؛ وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا قَدْ جَلَوْا عَنْهَا وَأَرَادَ الدَّارِيُّونَ »

« أَنْ يَزْرَعُوهَا فَلْيَزْرَعُوهَا ، فَإِذَا رَجَعَ أَهْلُهَا إِلَيْهَا فَهِيَ لَهُمْ وَأَحَقُّ بِهِمْ »
« وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ » .

وروى بسنده أيضا إلى الزُّهريّ وثوريّ بن يزيد عن راشد بن سعد ، قال : قام تميم الداريّ وهو تميم بن أوس ، رجل من نَحْم ، فقال يارسول الله ، إنّ لي جيرة من الرُّوم بفلسطين لهم قرية يقال لها حبري ، وأخرى يقال لها بيت عينون : فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي ، قال : هما لك ، قال : فاكتب لي بذلك ، فكتب له :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ »
« الداريّ ، إنّ له قرية حبري وبيت عينون قريتها كلها سهلها وجبلها »
« وماءها وحرّتها وأنباطها وبقرها ولعقبه من بعده لا يحاقه فيها أحد »
« ولا يلجئه عليهم أحد بظلم . فمن ظلمهم أو أخذ من أحد منهم شيئا »
« فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وكتب على .

فلما ولي أبو بكر كتب لهم كتابا نسخته :

« هَذَا كِتَابٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي »
« أَسْتَخْلِفُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَهُ ، كَتَبَهُ لِلدَّارِيِّينَ أَنْ لَا تُفْسَدَ عَلَيْهِمْ مَأْثُرَتُهُمْ »
« قَرْيَةُ حَبْرَى وَبَيْتُ عَيْنُون ، فَمَنْ كَانَ يَسْمَعُ وَيُطِيعُ فَلَا يُفْسِدُ مِنْهَا شَيْئًا »
« وَلِيَقُمْ عَمْرُؤُ بْنُ الْعَاصِ عَلَيْهِمَا فَلْيَمْنَعَهُمَا مِنَ الْمُفْسِدِينَ » .

وروى ابن منده بسنده إلى عمرو بن حزم رضى الله عنه أنه قال : أقطع النبي صلى الله عليه وسلم تيمناً الدارى ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا كتاب من محمد رسول الله لتيمم بن أوس الدارى ، إن له صهيون »
« قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وكرومها وأنباطها وورقها ، ولعقبه من »
« بعده لا يحاقه فيها أحد ، ولا يدخل عليه بظلم ، فمن أراد ظلمهم »
« أو أخذهم منهم فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

قلت : وهذه الرقعة التي كتب بها النبي صلى الله عليه وسلم موجودة بأيدي التميميين خدام حرم الخليل عليه السلام إلى الآن ، وكلما نازعهم أحد أتوا بها إلى السلطان بالديار المصرية ليوقف عليها ويكف عنهم من يظلمهم . وقد أخبرني برؤيتها غير واحد ، والأديم التي هي فيه قد خلت لطول الأمد .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة السابعة

(في صورة ما يُكْتَب في الإقطاعات ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما كان يُكْتَب من ذلك في الزَّمن القديم)

وكانت الإقطاعات في الزَّمن الأول قليلةً ، إنما كانت تُجْبى الأموال إلى بيت المال ثم يُنْفَق منه على الجُند على ما تقدّم ذكره ، وربما أقطَعُوا القرية ونحوها وقَرَرُوا على مُقْطَعِهَا شيئاً يقوم به لبيت المال في كل سنة ، ويسمّون ذلك المقاطعة .

ثم ما كان يُكْتَب في ذلك على ضريين ، كلاهما مفتتح بلفظ « هذا » :

الضرب الأول

(ما كان يُكْتَب عن الخلفاء ، ولهم فيه طريقتان)

الطريقة الأولى

(طريقة كُتِب الخلفاء العباسيين ببغداد)

وكان طريقهم فيها أن يُكْتَب « هذا كتاب من فلان (بلقب الخليفة) إنك ذكرت من أمر ضيعتك الفلانية كذا وكذا ، وسألت أمير المؤمنين في كذا وكذا ، وقد أجابك أمير المؤمنين إلى سؤالك في ذلك ونحوه » .

وهذه نسخة مقاطعة ، كُتِب بها عن المُطِيع لله الخليفة العباسي ، من إنشاء أبي إسحاق الصابئي ، وهي :

هذا كتاب من عبد الله الفضل، الإمام المطيع لله أمير المؤمنين، لفلان بن فلان .
 إنك رفعت قصتك تذكر حال ضيقتك المعروفة بكذا وكذا، من رستاق كذا وكذا،
 من طسوج كذا وكذا، وأنها أرض رقيقة قد توالى عليها الخراب، وأنفلق أكثرها
 بالسد والدغل، وأن مثلها لا يتسع يد الليالي للإنفاق عليه، وولب بالاسله (؟) واستخراج
 سدوده وقفل أرضه، ولا يرغب الأكرّة في أزدياعه والمعاملة فيه . وإن أمير المؤمنين
 مقاطعك عن هذه الضيعة على كذا وكذا من الورق المرسّل في كلّ سنة، على استقبال
 سنة كذا وكذا الخراجية، مقاطعة مؤبّدة، ماضية مقرّرة نافذة، يُستخرج مالها
 في أول المحرم من كلّ سنة، ولا تُتبع بنقض ولا يتأوّل فيها متأوّل، ولا تُعترض
 في مستأنف الأيام، [إن] أجهدت في عمارتها، وتكلفت الإنفاق عليها واستخراج
 سدودها، وقفل أراضيها واحتفار سواقيها، واجتلاب الأكرّة إليها، وإطلاق البذور
 والتقاوى فيها، وإرغاب المزارعين بتخفيف طسوقها بحق الرقة ومقاسماتها، وكان
 في ذلك توفير لحق بئت المال وصالح ظاهر لا يختل .

وسألت أمير المؤمنين الأمر بذلك والتقدّم به والإسجال لك به، وإثباته في ديوان
 السواد ودواوين الحضرة وديوان الناحية، وتصويره ماضياً لك ولعقبك وأعقابهم،
 ومن لعل هذه الضيعة أو شيئاً منها ينتقل إليه ببيع أو ميراث أو صدقة أو غير ذلك
 من ضروب الانتقال .

وإن أمير المؤمنين بإيثاره الصّلاح، وأعماده أسبابه، ورغبته فيما عاد بالتوفير على
 بئت المال، والعمارة والترفيه للرعية، أمرنا بالنظر فيما ذكرته، واستقصاء البحث عنه،
 ومعرفة وجه التدبير، وسبيل الحظ فيه، والعمل بما يوافق الرشد في جميعه . فرجع
 إلى الديوان في تعرف ما حكيته من أحوال هذه الضيعة، فأنفذ منه رجل مختار ثقة

مأمونٌ، من أهل الخبرة بأمور السَّواد وأعمال الخراج: قد عَرَفَ أمير المؤمنين أمانته وعِلْمه ومعرفته، وأمر بالمصير إلى هذه الناحية، وجمع أهلها: من الأدلاء والأكرَّة والمزارعين، وثقات الأمناء والمجاورين، والوقوف على هذه الأفرحة، وإيقاع المساحة عليها، وكشف أحوال عامريها وغامريها، والمسير على حدودها، وأخذ أقوالهم وآرائهم في وجه صلاح وعمارة قراج قراج منها، وما يوجبُه صواب التدبير فيما التمسته من المقاطعة بالمبلغ الذي بذلته. وذكرت أنه زائدٌ على الارتفاع، والكتاب بجميع ذلك إلى الديوان، ليوقف عليه وينهى إلى أمير المؤمنين فينظر فيه: فما صحَّ عنده منه أمضاه، وما رأى الاستظهار على نظر الناظر فيه استظهر فيما يرى منه، حتى يقف على حقيقته، ويرسم ما يعمل عليه.

فذكر ذلك الناظر أنه وقف على هذه الضيعة، وعلى سائر أفرحتها وحدودها ونطاقها، بمشهد من أهل الخبرة بأحوالها: من ثقات الأدلاء والمجاورين، والأكرَّة والمزارعين، والأمناء الذين يرجع إلى أقوالهم، ويعمل عليها، فوجد حاجة بطون الأفرحة المزدرة من جميعها، دون سواقيها وبرورها وتلالها وجنائها ومستنقعاتها، وما لا يعتمد من أرضها، بالحريب الهاشمي الذي تمسح به الأرض في هذه الناحية كذا وكذا جريباً: منها جميع القراج المعروف بكذا وكذا، ومنها قراج كذا وكذا، ومنها الحصن والبيوت، والساحات، والبقراحت، والخزانات، ووجد حالها في الخراب والآنسداد، وتعدُّر العماره، والحاجة إلى عظيم المؤونة وفرط النفقة على ما حكته وشكوته، ونظر في مقدار أصل هذه الخزانات من هذه الضيعة، وما يجب عليها، وكشف الحال في ذلك..

ونظر أمير المؤمنين فيما رفعه هذا المؤمن المنفد من الديوان، وأستظهر فيه بما
 رآه من الأستظهار، ووجب عنده من الاحتياط، فوجد ما رفعه صحيحاً صحةً عرفها
 أمير المؤمنين وعلمها، وقامت في نفسه، وثبتت عنده، ورأى إيقاع المقاطعة التي
 آتستها على حق بيت المال في هذه الضيعة، فقاطعت عنه في كل سنة هلالية، على
 أستقبال سنة كذا وكذا الخراجية، على كذا وكذا : درهمًا صحاحاً مُرسلةً بغير كسر
 ولا كانه (؟) ولا حق حرب ولا جهنزة، ولا مُحاسبة ولا زيادة، ولا ثنى من جميع
 المؤن وسابق التواقيع والرُسوم. تؤدى في أول الحرم من كل سنة، حسب ما تؤدى
 المقاطعة، مقاطعةً ماضيةً مؤبدةً، نافذةً ثابتةً، على مضي الأيام، ولزوم الأعوام،
 لا تنقص ولا تفسخ، ولا تتبع، ولا يتأول فيها، ولا تُغير. على أن يكون هذا
 المال : وهو من الورق المرسل كذا وكذا في كل سنة مؤدى في بيت المال،
 ومصححاً عند من تُورد عليه في هذه الناحية أموال خراجهم ومقاطعاتهم وجباياتهم،
 لا يعتل فيها بأفة تلتحق الغلات، سماوية ولا أرضية، ولا تعطّل أرض، ولا بقصور
 عمارة، ولا تُقصان ربيع، ولا بانحطاط سعر، ولا بتأخر قطر، ولا بشرب غلة،
 ولا حرق ولا شرق، ولا بغير ذلك من الآفات بوجه من الوجوه، ولا بسبب من
 الأسباب، ولا يمتنع في ذلك بحجة يمتنع بها التنا (؟)، والمزارعون، وأرباب الخراج
 في الالتواء بما عليهم، وعلى أن لا يدخل عليك في هذه المقاطعة يد ماسح ولا منجن،
 ولا حازر، ولا مقدم، ولا أمين، ولا حاطر، ولا ناظر، ولا متبّع، ولا متعرّف لحال
 زراعة وعمارة، ولا كاشف لأمر زرع وغلة، ماضياً ذلك لك ولعقبك من بعدك،
 وأعقابهم، وورثتك وورثتهم، أبداً ما تناسلوا، ولمن عسى أن تنقل هذه الأقرحة
 أو شيء منها إليه بإرث، أو بيع، أو هبة، أو نخل، أو صدقة، أو وقف، أو مُنقلة،
 أو إجارة، أو مُهاجرة، أو تملك، أو إقرار، أو بغير ذلك من الأسباب التي تنتقل بها

الأملاك من يد إلى يد، ولا يُقَضُّ ذلك ولا شيء منه، ولا يغيَّر ولا يفسَح، ولا يُزال ولا يبدَّل، ولا يعقَّب، ولا يعترَض فيه بسبب زيادة عمارة، ولا ارتفاع سعر ولا وفور غلة، ولا زكاء ريع، ولا إحياء موات، ولا أعتال معطل، ولا عمارة خراب، ولا استخراج غامر، ولا صلاح شرب، ولا استحداث غلات لم يجر الرسم باستحداثها وزراعتها، ولا يعد ولا يمسخ ما عسى أن يفرس بهذه الأفرحة: من النخل وأصناف الشجر المعدود والكرم؛ ولا يتأوَّل عليك فيما لعل أصل المساحة أن تزيد به فيما تُعمِّره وتستخرجه من الحبَّابين والمستنقعات، ومواضع المشارب المستغنى عنها، إذ كان أمير المؤمنين قد عرف جميع ذلك، وجعل ما يجب على شيء منه عند وجوبه داخلًا في هذه المقاطعة، وجاريًا معها.

على أنك إن فصأت شيئًا من مال هذه المقاطعة على بعض هذه الأفرحة من جميع الضيعة، وأفردت باقي مال المقاطعة بياقيها عند ملك ينتقل منها عن بدل، أو فعل ذلك غيرك ممن جعل له في هذه المقاطعة ما جعل لك من ورثتك وورثتهم، وعقبك وأعقابهم، ومن لعل هذه الضيعة أو شيئًا من هذه الأفرحة ينتقل إليه بضرب من ضروب الانتقال، قيل ذلك التفصيل منكم عند الرضا والاعتراف ممن تفصلون باسمه، ويحملون عليه، وعوملتم على ذلك، ولم يتأوَّل عليكم في شيء منه.

وعلى أنك إن أتمست أو أتمست من يقوم مقامك ضرب منار على هذه الضيعة، تعرف به حدودها ورسومها وطرقها، ضرب ذلك المنار أي وقت أتمسوه، ولم يمنعوا منه، وإن تأخر ضرب المنار لم يتأوَّل عليكم به، ولم يجعل علة في هذه المقاطعة، إذ كانت شهرة هذه الضيعة وأقرب حيتها في أماكنها، ومعرفة مجاورها بما ذكر من تسميتها ومساحتها، تُغنى عن تحديدها أو تحديد شيء منها، وتقوم مقام المنار

فى إيضاح معالمها ، والدلالة على حدودها وحقوقها ورسومها . وقد سَوَّغَ يافلانُ
أبن فلان أمير المؤمنين وعقبك من بعدك وأعقابهم ، ورثتك ورثتهم أبداً
ماتوا ، ومن تتقل هذه الأفرحة أو شئ منها إليه - جميع الفصل بين ما كان يلزم
هذه الضيعة وأفرحتها من حق بيت المال وتوابعه ، على الوضيعة التامة ، وعلى
الشروط القديمة ، وبين ما يلزمها على هذه المقاطعة ، وجعل ذلك خارجاً عن حاصل
طسوج كذا وكذا ، وعما يرفعهُ المؤمنون ، ويوافق عليه المتضمنون ، على غير الدهر
ومر السنين ، وتعاقب الأيام والشهور .

فلا تقبل فى ذلك سعاية ساع ، ولا قدح قادح ، ولا قرف قاريف ، ولا إغراء مغر ،
ولا قول معنف ، ولا يرجع عليك فيما سَوَّغَته ونظر لك به فى حال من الأحوال ،
ولا يرجع فى التقارير ، ولا تنقض بالمعاملات وردّها إلى قوام أصولها ، ولا ضرب
من ضروب الحجج والتاويلات ، التى يتكلم عليها أهل العدل على سبيل الحكم والنظر ،
وأهل الجور على سبيل العدوان والظلم . ولا تكلف يافلان بن فلان ، ولا عقبك من
بعدك ، ولا ورثتك ، ولا أعقابهم ، ولا أحد من تخرج هذه الضيعة أو هذه الأفرحة
أو شئ منها إليه ، على الوجوه والأسباب كلها - إخراج توقيع ، ولا كتاب مجدد ،
ولا منشور بانفاذ شئ من ذلك ، ولا إحضار سجل به ، ولا إقامة حجة فيه فى وقت
من الأوقات .

وعلى أن لا يلزمك ولا أحدًا من يقوم مقامك فى هذه المقاطعة ، مؤنة ، ولا كلفة ،
ولا ضريبة ، ولا زيادة ، ولا تقسيط كراء منه ، ولا مصلحة ، ولا عامل بريد ،
ولا نفقة ، ولا مؤنة جماعة ، ولا خفارة ، ولا غير ذلك . ولا يلزم بوجه من الوجوه
فى هذه المقاطعة زيادة على المبلغ المذكور المؤدّى فى بيت المال فى كل سنة نجاجية ،

وهو من الورق المرسل كذا وكذا، ولا تمنع من رَوْز جهيد أو حجة كاتب أو عامل
بما لهذه المقاطعة إذا أدتسه أو أدت شيئا منه أولا أولا، حتى يتكمل الأداء،
وتحصل في يدك البراءة في كل سنة بالوفاء بجميع المال بهذه المقاطعة .

وعلى أن تعاونوا على أحوال العارة ، وصلاح الشرب ، وتوقر عليكم الضيافة
والحمية ، والذب والرياه .

ولا يتعقب ما أمر به أمير المؤمنين أحد من ولاية العهود والأمراء والوزراء
وأصحاب الدواوين ، والكتاب والعمال والمشرفين ، والضمائم والمؤمنين ، وأصحاب
الخراج والمعاونين ، وجميع طبقات المعاملين ، وسائر صنوف المتصرفين - يبطله
أو يزيله عن جهته ، أو ينقضه ، أو يفسخه ، أو يغيره ، أو يبدله ، أو يوجب عليك
أو على عقبك من بعدك وأعقابهم وورثتهم أبدا ما تناسلوا ومن تخرج هذه الضيعة
أو شيء منها [إليه] حجة على سائر طرق التأويلات ، ولا يلزمك شيئا فيه ، ولا يكلفكم
عوضا عن إرضائه ، ولا ينظر في ذلك أحد منهم نظر تتبع ولا كشف ، ولا بحث ،
ولا فحص . فإن خالف أحد منهم ما أمر به أمير المؤمنين ، أو تعرض لكشف
هذه المقاطعة أو مساحتها أو تخمينها أو اعتبارها والزيادة في مبلغ مالها ، أو ثبت
في الدواوين في وقت من الأوقات شيء يخالف ما رسمه أمير المؤمنين فيها : إما على
طريق السهو والغلط ، أو العدوان والظلم والعدا والقصد ، فذلك كله مردود ،
وباطل ، ومفسوخ ، وغير جائز ، ولا سائغ ، ولا قاذح في صحة هذه المقاطعة وثبوتها
ووجوبها ، ولا معطل لها ، ولا مانع من تلافى السهو واستدراك الغلط في ذلك ،
ولا مغير لشيء من شرائط هذه المقاطعة . ولا حجة تقوم عليك يا فلان بن فلان ،
ولا على من يقوم في هذه المقاطعة بشيء من ذلك : إذ كان ما أمر به أمير المؤمنين

من ذلك على وجه من وجوه الصلاح، وسبيل من سبله رأئها وأمضاها، وقطع
بهما كل اعتراض ودعوى، واحتجاج وقذف، وأزال معهما كل بحث وخص، وتبعية
وعلاقة، وإن كان من الشرائط فيما سلف من السنين وخلا من الأزمان ما هو أوكد
وأتم وأحكم وأحوط لك، ولعقبك وورثتك، وأعقابهم وورثتهم؛ ومن تنقل هذه
الأفرحة أو شيء منها إليه مما شُرط في هذا الكتاب بحال، أوجبها لك الاحتياط على
اختلاف مذاهب الفقهاء والكتاب وغيرهم مما للخلفاء أن يفعلوه وتنفذ فيه أمورهم،
وحيات وحلوا عليه، وهو مضاف إلى شروط هذا الكتاب التي قد أتى عليها الذكر،
ودخلت تحت الحصر، ولم يكلف أحد منكم إخراج أمر به .

وإن أتممت [أنت] أو أحد من ورثتك وأعقابك، ومن عسى أن تنقل هذه
الضيعة والأفرحة أو شيء منها إليه في وقت من الأوقات تجديد كتاب بذلك،
ومكتبة عامل أو مشرف، أو إخراج توقيع ومذوور إلى الديوان بمثل ما تضمنه هذا
الكتاب، أجبتم إليه ولم تمنعوا منه .

وأمر أمير المؤمنين بإثبات هذا الكتاب في الدواوين، وإقراره في يدك، حجة لك
ولعقبك من بعدك وأعقابهم، وورثتك وورثتهم، ووثيقة في أيديكم، وفي يد من
عسى أن تنقل هذه الضيعة أو الأفرحة أو شيء منها إليه، بضرب من ضروب
الانتقال التي ذكرت في هذا الكتاب والتي لم تذكر فيه، وأن لا تكلفوا إيراد [حجة]
من بعده، ولا يتأول عليكم متأول فيه .

فمن وقف على هذا الكتاب وقرأه أو قرئ عليه : من جميع الأمراء، وولاة العهود
والوزراء، والعامل، والمشرفين، والمتصرفين، والناظرين في أمور الخراج، وأصحاب
السيوف على اختلاف طبقاتهم، وتباين منازلهم وأعمالهم . فليمتثل ما أمر به أمير

المؤمنين ولينفذ فلان بن فلان وورثته وورثتهم، وعقبه وأعقابهم، ولمن تنتقل هذه الأفرحة أو شئ منها إليه - هذه المقاطعة، من غير مراجعة فيها، ولا استئثار عليها، ولا تكليف [له] ولا لأحد ممن يقوم بأمرها إيراد حجة بعد هذا الكتاب بها. وليعمل بمثل ذلك من وقف على نسخة من نسخ هذا الكتاب في ديوان من دواوين الحضرة، وأعمالها أو الناحية، وليقر في يد فلان بن فلان أو يد من يورده ويحتج به ممن يقوم مقامه، إن شاء الله تعالى.

الطريقة الثانية

(ما كان يكتب في الإقطاعات عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

وهو على نحو مما كان يكتب عن خلفاء بني العباس .

قال في "مواد البيان" : والرسم فيها أن يكتب :

أمير المؤمنين بما وهبه الله تعالى : من شرف الأعراق، وكرم الأخلاق، ومنحه من علو الشأن، وارتفاع السلطان؛ يقتدى بإذن الله سبحانه في إفاضة إنعامه وبره، على الناهضين بحقوق شكره؛ ويوقع أياديّه عند من يقوم بحققها، ويتألفها بحمدها، وشكرها، ولا ينفّرهما ويوحشها بكفرها، ويحدها؛ ويتحرى بعوارفه المغارس التي تُحب شجرتها، وتحلولى ثمرتها؛ والله تعالى نسأله أن يوفقه في مقاصده، ويريه محال الخير في مصادره وموارده؛ ويعينه على إحسان يفيضه ويسبغه، وأمتنان يضيفه ويفرغه.

ولما كان فلان بن فلان من غرس أمير المؤمنين [إحسانه] لديه فائز، وأولاه طوله فشكر، وراه مستقيلاً بالصنيعه، حافظاً للوديعه، مقابلاً العارفة بالإخلاص في الطاعة، مستندراً بالانقياد والتباعه، أخلاف الفضل والنعمه (ويوصف الرجل

المقطع بما تقتضيه منزلته) ثم يقال : رأى أمير المؤمنين مضاعفة أيديه لديه ، ومواصلته إنعامه إليه ، وإجابة سؤاله ، وإنالته أفاضى آماله ، وتنويله ما نحت إليه أمانته ، وطمحت نحوه راحته ، وإسعافه بما رغب فيه من إقطاعه الناحية الفلانية ، أو الدار أو الأرض ، أو تسويغه ما يجب عليه من نراج ملكه ، وما يجرى هذا المجرى . ثم يقال : ثقة بأن الإحسان مغروس منه في أكرم مغرس وأزكاه ، وأحق منزّل بالتنويل وأولاه . وخرج أمره بإنشاء هذا المنشور بأنه قد أقطعه الناحية الفلانية ، لاستقبال سنة كذا بحقوقها وحدودها ، وأرضها العامرة ووجوه جباياتها ، (وينص على كل حق من حقوقها وحد من حدودها) فإذا استوفى القول عليه ، قال : إنعاماً عليه ، وبسطة لأمله ، وإبانة عن خطره .

فيعلم ذلك كافة الولاة والنظار والمستخدمين من أمير المؤمنين ورسمه ، ليعملوا عليه وبحسبه ، وليحذروا من تجاوزه وتعديه ، وليقترب به بعد العمل بما نص فيه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : والتحقيق أن لهم في ذلك أساليب : منها ما يفتح بلفظ « هذا » والمعروف أنه كان يسمى ما يكتب في الاقطاعات عندهم بـ **سجلات** كالذى يكتب في الولايات .



وهذه نسخة منشور من مناشيرهم ، من إنشاء القاضي الفاضل لولده من أولاد الخليفة اسمه حسن ولقبه حسام الدين مفتتح بلفظ « هذا » وهى :

هذا كتاب من أمير المؤمنين لولده الذى جلّ قدره أن يسامى ، وقتر فى ناظر الإيمان نوراً وسلته يد الله حساماً ، وحسن به الزمان فكان وجوده فى عطفه

حليّةً والقرّةً آبتساماً، وأضاءت وجوه السعادة لمنحها بكريم اسمه آتساماً، وتبيّات
الأقدار لأن تجرى على نقش خاتم إرادته أمثالاً وآرتساماً - الأمير فلان، جرياً على عادة
أمير المؤمنين التي أوضح الله فيها إشراق العوائد، وتباعاً لسنة آباته التي هي سنن المكارم
والمرشد، وآرتقاداً مع آرتياح [إلى موارد] كرمه التي هي موارد لا يخلّا عنها وارد،
وأختصاصاً بفضله لمن كفاه من الشرف أنه له والد، وعموماً بما يسوقه الله على يده
من أرزاق العباد، وإنعاماً جعل نجله طريقه إلى أن يفيض على كل حاضر وباد .
وأمر المؤمنين بحريّته من آله السحاب المنزل، ويمدّهم جواد العطاء الأجل .
أمر بكتبه لما عرّضت لمقامه رقةً بكذا وكذا، وخرج أمر أمير المؤمنين إلى وليّه
وناصره، وأمينه على ما آستأمنه الله عليه وموازيره؛ السيد الأجل الذي لم تزل آراؤه
ضوامن للصالح كوافل، وشهب تدبيره من سماء التوفيق غير غاربة ولا أوافل، وخدمته
لأمير المؤمنين لا تقف عند الفرائض حتى تختطى إلى النوافل، وجاد فأخلف النعم
به حوافل، وأقبل فأحزاب أخلاف به جوافل، وأيقظ عيوننا من التدبير على الأيام
لا تدعى الأيام أنها غوافل؛ بأن يؤعز إلى ديوان الإنشاء بإقطاع ناحية كذا بخدمها،
والمعتاد من وصفها المعاد، وما يدل عليه الديوان من عبرتها، ويتحصّل له من عينها
وعلتها؛ إلى الديوان الفلاني: إقطاعاً لا يتقطع حكمه، وإحساناً لا يعفو رسمه، وتسويةً
لا يطيش سهمه، وتكديلاً لا يُخفى وشمه، وتخويلاً لا يُثنى عزمه؛ يتصرف فيه
هذا الديوان ويستبدّ به مالكا، ويُفاوض فيه مُشاركاً، ويزرعه متعملاً ومضمناً،
ويستثمره عادلاً في أهله مُحسناً؛ لا تتعقبه الدواوين بتأويل ما، ولا الأحوال بتحوّل ما؛
ولا الأيام بتقلّبها، ولا الأغراض بتعقبها؛ ولا اختلاف الأيدي بتقلّبها، ولا تعترضه
الأحكام بتأويلها .

(١) في الأصول هكذا «سبحا» باهمال نقط الكلمة بتمامها .

وقد أوجب أمير المؤمنين على كلِّ والٍ أن يتحامى هذه الناحية بضرره، ويقصدها
بجميل أثره، ويحيطها بحسن نظره، ويتقَيَّ فيها رُكوبَ عواقب غرره، ويحتنب فيها
مطالب ورده وصدره، ونزول مستقره، ولا يمكن منها مُستخدماً، ولا يكلف أهلها
مغرماً، ويُجرىها مجرى ما هو من الباطل حمى؛ ما لم يقل فيها بميل، أو يخف من سبلها
سبيل، وله أن يتطلب الجاني بعينه، ويقتضيه بأداء ما استوجب من دينه، وأخذه
مسوقاً بجرائم ذنبه إلى موقف حينه، فمن قرأه فليعمل به .



وهذه نسخة سبيلٍ بإقطاع، عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين أيضاً لبعض أمراء
الدولة، من إنشاء القاضي الفاضل أيضاً، وهى :

أمير المؤمنين - وإن عمَّ جوده كما عمَّ فضل وجوده، وسار كثير إحسانه ويره
في سهول المعمور ونجوده، ورحم الله الخلق بما أسأته دون الخلائق من قربه
في تبحره - فإنه يخص بنى القرى من جدّه، والضاربين معه في أنصاء مجده؛ من
سلالته الزكية، وطينته المسكية؛ وأعرافه الشريفة، وأنسابه المنيفة؛ فكل غراء
لا تخفى أوضاعها، إلا إذا فاضت أنوارهم، وكل عدراء لا يُعهد إسماعها، إلا إذا
راضت أخطارهم .

ولما عُرِضت بحضرته ورقة من ولده الأمير فلان الذى أقر الله به عين الإسلام،
وأنجز به دين الأيام؛ وأطلعه بدرًا فى سماء الحسب، وجلا بأنواره ظلام النوب؛
وأمنح من منبع النبوة وآرتوى، وأسئلى على خصائص الفضل الجلى وأحتوى،

وأعد الله لسعد الأئمة ذا مِرَّةٍ شديدة القوي ، وأدنى الاستحقاق من الغايات حتى
تأهب لأن يكون بالوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوبَى ؛ وأضحت كافة المؤمنين مؤمنين على مكارمه ،
وأمنت كافة الحائفين خائفين من سَيْلِ أَنْفُسِهِمْ على صَوَارِمِهِ ؛ وآراؤه أعلى أن
يُضَاهِيَهَا [رَأَى] وإن جَلَّ خَطَرُهُ ، وأعطيته أَرْقَى أن يُدَانِيَهَا عَطَاءً وإن حَسُنَ
في الأحوال أثره ؛ وإنما يُنْبِغُ بِمُلْكِهِ مِنْهَا مَا رَاقَ بَعَيْنَ اخْتِيَارِهِ وإِيثَارِهِ ، وسعد
بالانتظام في سلك جوده الذي يعرضه أبداً لانتثاره ، وتضمنت هذه الرقعة الرغبة
في كذا وكذا ، وذكر الديوان كذا .

خرج أمرُ أمير المؤمنين إلى فتاه وناصيره ، ووزيره ومُظَاهِرِهِ ؛ السيد الأجل
الذي انتصر الله به لأمر المؤمنين من أعدائه ، وحسم بحسامه ما أعضل من عارض
الخطب ودائه ، ونطق بفضله ألسن حُسَّاده فضلاً عن ألسنة أودائه ، وسخت
الملوك بأنفسها أن تكون فداءً له إذا حوزها المجد في فدائه ؛ الذي ذخره الله
لأمير المؤمنين من آدم ذخيرته ، وجمع له في طاعته بين إيقاظ البصيرة وإخلاص
السيره ، وفُضِّلَتْ أيامه على أيام أوليائه بما حلاها من جميل الأحداث وحسن
السيره ؛ وسهل عليه التَّوَيُّ في المنافع والعُكُوف على المصالح ، وأجنى من أقلامه
ورمائه ثمرات النصائح ، وفاز بما حاز من ذخائر العمل الصالح بالمتجر الرائج ؛
وألهمه من حراسة قانون الملك ما قضى بحفظ نظامه ، ولم ينصرف له عزم إلا إلى
ما صُرف إليه رضا ربه ورضا إمامه .

ونفذت أوامره بأن يُوعَزَ إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل إلى الديوان
الفلاني بإقطاعه الناحية وما معها منسوباً إليها وداخلاً فيها لاستقبال [سنة] كذا ،
منحةً سائغة ، لا يعترضها التكدير ، ونعمةً سائغة ، لا ينقضها التغير ؛ وحباءً موصول

الأسباب، وعطاءً بغير منٍّ ولا حساب، يتحكَّم فيه على قضايا الاختيار، وتتفدُّ فيه أوامرُه الميمونة الإيراد والإصدار.

ومنها - أن يفتح السَّجِّلَ بلفظ: «إنَّ أمير المؤمنين» ويذكر من وصفه ما سَنَحَ له، ثم يذكر حكم الإقطاع، وكيفية خروجه.

وهذه نسخة سَجِّلٍ من ذلك كُتِبَ به لبعض وزرائهم، من إنشاء القاضي الفاضل، وهي:

إنَّ أمير المؤمنين لما أطلق الله يدَ ربه من أميالٍ تبدُّو على الأحوال شواهد آثارها، وتروض الآمال سحائبها بسائب مدرارها، وتنتزه مواعدها عن إنظارها، ومواردها عن أن يؤثى بأنظارها، ويقوم بناصرها فيكون أقوى أعوانها على الشكر وأنصارها، وألهمه من مواصله المنن التي لا تنقطع روايتها ولا تنتهى مراتبها، وموالاته المنح التي تهب على جناب الخير شمائلها وجنائها، وتلتقي في مسارح المدايح غرائبها ورغائبها، وحببه إليه من آتهاز فرص المكارم في الأكارم، وأبتداء المعروف وأبتدار مغائمه التي لا تعقبها مغارم - يولي آلاؤه من يجزى عن حسنتها عشرًا، ويعقل عقائلها عند من يسوق إليها من استحقاقها مهرا، ويقابل بالإحسان إحسان أجل أوليائه قدرا، ويضعف الأمتنان عند من لم يضعف في موازرتيه أزرا، ويودع ودائع جوده في المغارس الجيدة بالزكاء والثناء، ويؤنك أصوله معروفة لمن يفتخر بالانضواء إلى موالاته والائتماء، ويستكرم مستقر منه وآلائه، ويحسن إلى الإحسان ثم يتبجح بموالاته لديه وإيالاته.

ولما كان السيد الأجل أمير الجيوش آية نصر أمير المؤمنين التي أنبرت فما تبارى، ونعمة الله التي أشرقت أنوارها وأورت فما تتوارى، وسيف حقه الذي

لا تَكِلْ مَقَاتِعَهُ ، وَبِحَرْ جُودِهِ الذى لا تُكَدَّر مِشَارِعُهُ ، والمستقل من الدفاع عن حوزته بما تجزت عنه الأمم ، والعلی على مقدار الأقدار إذا تفاوتت قيمُ الهِمَم ، والكاشف الجلى عن دولته وقد عظم مظالم الظلم ، والجامع على المكاراة والمواراة قلب المؤلف والمخالف ولسان العرب والعجم ، والمتبوی من الملك ملکا لا ينبغي لأحد من بعده ، والمتوكل من الفخر محلاً لا يطمع النجم فيه من بعده ، والمغير على الحرب العوان بقبيلة البكر ، والمنفذ بمتدع العزمات ما لولا وقوعه لما وقع [في] الفكر ، والقاضى للدين بجدد سيوفه مطلول حقه ومطول دينه ، والقائم لأمير المؤمنين مقاماً قام به أبوه في نصره جده صلى الله عليهما يوم بدره ويوم حنينه .

ولقد أظهر الله آيات نصارة نظره على الأرض فأخذت زخرفها وأزيت ، وأبتدت أيديه الجنى فتظاهرت أدلتها على دولته وتبينت ، وأستلمت المملكة من تدبيره بجنة تتحاماها الأقدار وهى سهام ، ووثقت من عنايته إلى هجر الخطوب بما يعيد ناراها وهى برد وسلام ، وما ضرها مع تيقظ جفنه أن يهجع في جفنه طرف الحسام ، ولا أحتاجت وقلبه يساور جسيم أمورها أن تتعب في وإدائها الأجسام ، فأى خير يؤلى - وإن عظم - يناهض استحقاقه ؟ وأى غاية وإن جلت تروم نيل مدى مسعاه ولحاقه ؟ ، وأنى لأعراض الدنيا أن تهدى لجوهره عرضا ، ولا تبلغ مبالغ النعم الجلائل أن تعدد اليوم من مساعيه عوضا ؟ ، وهل لأمير المؤمنين أعمال في مجازاته عن قيامه بعمد رأيه ومجرد عضبه ، ودفاعه عن حوزة عدته وذبه ، وكره في مواقف كربه ، وكفايته للأمة في سلمه وحربه ، وإياليته التى خص الأرض منها فضل خصبه ، إلا أن يدكره بقلبه عند ربه ، وأن يرفع الحجب عند كل سؤال كما يرفع الله عند دعائه مسدلاً حجباً ؟ .

وَعُرِضَتْ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَطَالَعَةً مِنْهُ عَنْ خَيْرِ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ مَقْصُورٍ عَلَى
الرَّغْبَةِ فِي نُجُوحِ الْأَمْرِ بِتَمْلِيكِ جِهَتِهِ الَّتِي تَقُومُ عِنْدَهَا عِدَّةُ أَلْفٍ ، مُسْتَخْرِجًا بِهَا الْخَطَّ
الشَّرِيفَ بِإِمضاءِ التَّمْلِيكِ وَإِجَازَتِهِ ، وَتَسْلِيمِ الْمَلِكِ وَحِيازَتِهِ .

فَتَلَقَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ الرِّغْبَةَ بِإِفْرَازِ بَرٍّ فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ عَلَى أَفْضَلِ سَنَنِ ،
وَتَقْبَلَهَا مِنْهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَتَهَلَّتْ عَلَيْهِ لِسْوَالُهُ مَصَابِيحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ ، وَنَفَذَتْ^(١)
مَوَاقِعَ تَوْقِيعِهِ مَا لَا تَبْلُغُهُ مَوَاقِعُ مَاءِ الْمَزْنِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ . وَشَمِلَهُ خَطُّهُ الشَّرِيفُ بِمَا
نُسَخَتْهُ : خَرَجَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ أَنْ يُوعَظَ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِكُتُبِ هَذَا السَّجَلِ بِتَمْلِيكِ
الْجِهَةِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهَا بِجَمِيعِ حُدُودِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، وَأَعَالِيهَا وَأَسَافِلِهَا ،
وَكُلِّ حَقٍّ لَهَا ، دَاخِلٍ فِيهَا وَخَارِجٍ عَنْهَا ، وَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِهَا وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهَا ، بِتَمْلِيكِهَا
عَلَمًا ، وَإِنْعَامًا مَوْبَدًا ، وَحَقًّا مَوْكَّدًا ، يَجْرِي عَلَى الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ ، وَيُحْكَمُ أَحْكَامُ
الْكَرَمِ وَالشَّرْعِ ، مَاضِيًّا لَا تُتَعَقَّبُ حُدُودُهُ بِفَسْخٍ ، جَائِزًا لَا تُتَجَاوَزُ عُقُودُهُ بِنَسْخٍ ،
مَوْصُولَةً أَسْبَابُهُ فَلَا تَنْتَطِرُقُ أَسْبَابُ التَّغْيِيرِ إِلَيْهَا ، مَوْرُوثًا حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا .

فَلْيَعْتَمِدْ كَافَّةُ وُلاَةِ الدَّوَاوِينِ ، وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْمُتَصَرِّفِينَ ، حَمَلَ الْأَمْرِ عَلَى مُوَجِبِهِ ،
وَالْحَذَرَ مِنْ تَعَدِّيهِ وَتَعَقُّبِهِ ، وَآمَنَ ثَالَ مَارِسِمِهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدَّهُ ، وَالْوَقُوفَ عِنْدَ أَمْرِهِ
الَّذِي عَدَمَ مَنْ مَالَ فَرَدَّهُ ، وَلِيَقْتَرَفِ يَدَ الدِّيْوَانِ مُجَبَّةً لِمُودَعِهِ بَعْدَ نَسْخِهِ فِي الدَّوَاوِينِ
بِالْحَضْرَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) لعله « وبلغت مواقع » الخ .

الضرب الثاني

(مما كان يُكتب في الإقطاعات في الزمن المتقدم ما كان يُكتب
عن ملوك الشرق القائمين على خلفاء بني العباس)

وطريقتهم فيه أن يُكتب في الابتداء : « هذا كتاب » ونحو ذلك ، كما كان
يُكتب عن خلفاء بني العباس في ذلك ، ثم يُذكر عرض أمره على الخليفة ،
وأستكشاف خبر ما تقع عليه المقاطعة من الدواوين ، وموافقة قولهم بما ذكره
في رُقعته ، ويذكر أن أمير المؤمنين وذلك السلطان أمضياً أمر تلك المقاطعة وقرّاه .
ثم ربّما وقع تسويغ ما وجب لبيت المال لصاحب المقاطعة زيادة عليها ليكون
في المعنى أنه بأمرها .

وهذه نسخة مقاطعة بضیعة كُتِب بها عن صمصام الدولة بن ركن الدولة بن
بويه ، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة ، وشمس الملة ، أبي كالجار ، بن عضد الدولة وتاج
المسلة أبي شجاع ، بن ركن الدولة أبي علي مؤلى أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الله
ابن شهرام .

إنك ذكرت حال ضياعك المعروفة برسدولا والبدرية من طسوج نهر الملك ،
والحظائر والحصّة بنهر قلا من طسوج قُطربل ، وما لحقها : من اختلال الحال
ونقصان الإرتفاع ، وأندواب المشارب ، وأستئجام المزارع ، وطمع المجاورين ،
وضعف الأكرة والمزارعين ، وظلم العمال والمتصرفين ، لتناول غيبتك عنها ،
وانقطاعك بالأسفار المتصلة عن استيفاء حقوقها ، وإقامة عماراتها ، والإنفاق على

(١) كذا بالأصل ، ولا معنى لها ولعلها : « واندثار المشارب » .

مصالحها، والأَتِصَافِ من المجاورين لها والمُعَامِلِينَ فيها، ووصفت ما تحتاج إلى تكلفه من الجملة الوافرة: لِاحْتِفَارِ أَنْهَارِهَا، وَإِحْيَاءِ مَوَاتِهَا، وَأَعْمَالِ مُتَعَطِّلِهَا، وَإِعَادَةِ رُسُومِهَا، وَإِطْلَاقِ الْبُدُورِ فِيهَا، وَابْتِيعِ الْعَوَامِلِ لَهَا، وَآخْتِلَافِ الْأَكْرَةِ إِلَيْهَا .

وسألت أن تُقَاطَعَ عن حقِّ بَيْتِ الْمَالِ فيها وجميعِ تَوَابِعِهِ ، وسائرِ لُزُومِهِ ، على ثلاثةِ آلافِ دِرْهَمٍ في كُلِّ سَنَةٍ ، مَعُونَةً لَكَ على عِمَارَتِهَا ، وَتَمَكِينًا من إِعَادَتِهَا إِلَى أَفْضَلِ أَحْوَالِهَا ، وَتَوْسِيعَةً عَلَيْكَ فِي الْمَعِيشَةِ مِنْهَا .

فأنهينا ذلك إلى أمير المؤمنين الطائع لله ، وأفضنا بحضرته فيما أنت عليه من الخلاق الحميدة ، والطرائق الرشيدة ، وما لك من الحلدات القديمة والحديثة ، الموجبة لأن تلحق بنظرائك من الخدم المختصين ، والحواشى المستخلصين ، بإجابتك إلى ما سألت ، وإسعافك بما أتمست . فخرج الأمر - لازال عالياً - بالرجوع في ذلك إلى كُتَّابِ الدَوَاوِينِ ، وَعُمَلِ هَذِهِ النَّوَاحِي ، وَتَعَرَّفَ مَا عِنْدَهُمْ فِيهِ مِمَّا يَعُودُ بِالصَّلَاحِ ، وَيَدْعُو إِلَى الْإِحْتِيَاظِ . فَرُجِعَ إِلَيْهِمْ فِيمَا ذَكَرْتَهُ وَحَكَيْتَهُ ، فَصَدَّقُواكَ فِي جَمِيعِهِ ، وَشَهِدُوا لَكَ بِصِحَّتِهِ ، وَتَرَدَّدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ خِطَابٌ فِي الْإِرْتِفَاعِ الْوَافِرِ الْقَدِيمِ ، وَمَا تُوجِبُهُ الْعِبَرُ لَعَدَّةِ سِنِينَ ، إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى أَنْ تَوْقَعْتَ عَلَى هَذِهِ الضِّيَاعِ الْمَسْمُورَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَرِقًّا مَرَسَلًا بِغَيْرِ كَسَرٍ ، وَلَا كِفَايَةٍ ، وَلَا حَقٍّ خَزَنَ ، وَلَا جَهْدَةً وَلَا مُحَاسَبَةً ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤَنِّ كَلِّهَا .

ثم أنهينا ذلك إلى أمير المؤمنين الطائع لله ، فأمر - زاد الله أمره علواً - بِإِمْضَاءِ ذَلِكَ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَالُ ، وَهُوَ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ مُؤَدَّى فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُفْتَحُ فِيهِ الْمُقَاطَعَاتُ : وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنَ الْحَرَمِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، عَلَى اسْتِقْبَالِ السَّنَةِ الْحَارِيَّةِ ، سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ الْخَرَاجِيَّةِ ، عَنِ الْخَرَاجِ فِي الْعَلَّاتِ الشَّتْوِيَّةِ

والصيفية، والمحدثة والمبكرة الحارية على المساحة، والحاصل من الغلات الحارية على المقاسمة والجوالى، والمرأى، والأرحاء، وسائر أبواب المال، ووجوه الجبايات، وتقسيط المصالح، والحماية، مع ما يلزم ذلك من التوابع كلها: قليلها وكثيرها، والرسوم الثابتة فى الدواوين بأسرها، وعن كل ما أحدث ويحدث بعدها على زيادة الارتفاع ونقصانه، وتصرف جميع حالاته: مقاطعة مقررة مؤبده، مفضة مخلده، على مرور الليالى والأيام، وتعاقب السنين والأعوام. لك ولولدك، وعقبك من بعدك، ومن عسى أن تنتقل هذه الضياع إليه بميراث، أو بيع، أو هبة، أو تملك، أو منقولة، أو وقف، أو إجارة، أو مبادرة، أو مزارعة أو غير ذلك من جميع الوجوه التى تنتقل الأملاك عليها، وتجرى بين الناس المعاملات فيها، لا يفسخ ذلك ولا يغير، ولا ينقض ولا يبدل، ولا يزال عن سيده، ولا يحال عن جهته، ولا يعترض عليك ولا على أحد من الناس فيه ولا فى شيء منه، ولا يتأول عليك ولا على غيرك فيه، بزيادة عمارة، ولا زكاء ريع، ولا غلوسعر، ولا إصلاح شرب، ولا أعمال نراب، ولا إحياء موات، ولا بغير ذلك من سائر أسباب وفور الارتفاع ودور الاستغلال.

وحظر مولانا أمير المؤمنين الطائع لله، وحظرنا بحظه على كتاب الدواوين: أصولها وأزممتها، ومعمال النواحي، والمشرفين عليها، وجميع المتصرفين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، الاعتراض عليك فى هذه المقاطعة، أو إيقاع ثمن أو مساحة على ما كان منها جارياً على الخراج، أو تقرير أو خزي، أو قسمة على ما كان منها جارياً على المقاسمة، أو أن تدخلها يد مع يدك لناظر أو حاطر أو مستظهر أو معتبر أو متصفح، إذ كان ما يظهر منها من الفضل على مرور السنين مسوغاً لك، لا تطالب به، ولا برفق عنه، ولا على ما ظهر عليه وعلى شيء منه، ولا يلمس منك تجديد كتاب،

ولا إحضار حجّة، ولا توقيع به ولا منشور بعد هذا الكتاب : إذ قد صار ذلك لك وفي يدك بهذه المقاطعة، وصار ما يجب من الفضل بين ما توجب المسائح والمقاسمات وسائر وجوه الجبايات، وبين مال هذه المقاطعة المحدودة المذكورة في هذا الكتاب خارجاً عما عليه العمال، ويرفعه منهم المؤمنون، ويوافق عليه المتضمنون ؛ على مرور الأيام والشهور، وتعاقب السنين والدهور؛ فلا تقبل في ذلك نصيحة ناصح، ولا توفير موفر، ولا سعاية ساع، ولا قذف قاذف، ولا طعن طاعين .

ولا يلزم عن إمضاء هذه المقاطعة مئونة، ولا كلفة، ولا مصنعة، ولا مصالحة، ولا ضريبة، ولا تقسيط، ولا عمل بريد، ولا مصالحة من المصالح السلطانية، ولا حق حماية، ولا خفارة، ولا غير ذلك من جميع الأسباب التي يتطرق بها عليك، ولا [على من] بعدك، لزيادة على مالها المحصور المذكور في هذا الكتاب، ولا حق خزن ولا جهّدة، ولا محاسبة ولا مئونة ولا زيادة . ومتى استخرج منك شيء أو من أحد من أنسابك، أو ممن عسى أن تنتقل إليه هذه المقاطعة بشيء زائد عليها على سبيل الظلم والتأول والتعنت لم يكن ذلك فاسخاً لعقدها، ولا مزيلاً لأمرها، ولا قادحاً في صحتها، وكان لك أن تطالب برد المأخوذ زائداً على مالها، وكان على من ينظر في الأمور إنصافك في ذلك وردّه عليك، وكانت المقاطعة المذكورة ممضاة على تصرف الأحوال كلها .

ثم إنّا رأينا بعد ما أمضاه مولانا أمير المؤمنين، وأمضيته لك من ذلك وتمايه وإحكامه ووجوبه وثبوته، أن سوغناك هذه الخمسة آلاف درهم المؤداة عن هذه المقاطعة على استقبال سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة الخراجية، تسويفاً مؤبداً، ماضياً على مرة السنين : ليكون في ذلك بعض العوض عن باقي أملاكك وضياعك التي

فُيَضَّتْ عَنْكَ ، وَبَعْضُ الْمَعُونَةِ فِيمَا أَنْتَ مَتَصَرِّفٌ عَلَيْهِ مِنْ خِدْمَتِنَا ، وَمُتَرَدِّدٌ فِيهِ مِنْ مَهْمَّاتِ أُمُورِنَا ؛ وَأَوْجَبْنَا لَكَ فِي هَذَا التَّسْوِيعِ جَمِيعَ الشَّرُوطِ الَّتِي تُشْتَرَطُ فِي مِثْلِهِ ؛ مِمَّا ثَبَتَ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَمِمَّا لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ : لِيُنَحِّسِمَ عَنْكَ تَتَبُّعُ الْمُتَتَبِّعِينَ ، وَتَعَقُّبُ الْمُتَعَقَّبِينَ ، وَتَأَوُّلُ الْمُتَأَوَّلِينَ عَلَى الْوُجُوهِ وَالْأَسْبَابِ .

وَأَمَرْنَا - مَتَى وَقَعَ عَلَى مَالِ هَذَا التَّسْوِيعِ (وَهُوَ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ) أَنْتَجَاعُ ، بِحَدِيثٍ يَحْدُثُ عَلَيْكَ ، أَوْ بَتَعَوُّيْضِ تَعَوُّضٍ عَنْهُ ، أَوْ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تُوجِبُ أَنْتَجَاعَهُ - أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الْمُقَاطَعَةِ مَحْضًى لَكَ ، وَرُسْمُهَا بَاقِيًا عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ تَنْتَقِلُ هَذِهِ الضَّمَايَا إِلَيْهِ بَعْدَكَ ، عَلَى مَا خَرَجَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ تَقْضٍ وَلَا تَأَوُّلٍ فِيهِ ، وَلَا تَغْيِيرٍ لِرِسْمٍ مِنْ رِسْمِهِ ، وَلَا تَجَاوُزٍ لِحَدِّ مِنْ حَدُودِهِ ، عَلَى كُلِّ وَجْهِ وَسَبَبٍ .

فَلْيَعْلَمْ ذَلِكَ مَنْ رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعَ لِلَّهِ وَأَمْرِيهِ ، وَمَنْ أَمْتَثَلَنَا وَإِمَضَانَا ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مَنْ وَقَفَ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ : مِنْ طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ ، وَالْعَمَّالِ ، وَالْمُشْرِفِينَ ، وَالْمُتَصَرِّفِينَ فِي أَعْمَالِ الْخَرَاجِ وَالْحِمَايَةِ وَالْمَصَالِحِ ، وَغَيْرِهِمْ . وَلْيَحْذَرُوا مِنْ مَخَالَفَتِهِ ، وَيُحْضُوا بِأَسْرِهِمْ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَهْرَامٍ وَمَنْ بَعْدَهُ جَمِيعَهُ ، وَلْيَحْمِلُوهُ عَلَى مَا يُوجِبُهُ . وَلْيُقَرَّرْ هَذَا الْكِتَابُ فِي يَدِهِ وَأَيْدِيهِمْ بَعْدَهُ حِجَّةً لَهُ وَلَهُمْ ، وَلْيُنَسَخَ فِي جَمِيعِ الدَّوَاوِينِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطريقة الثانية

(مما كان يُكتب في الإقطاعات في الزمن المتقدم - ما كان يُكتب
عن الملوك الأيوبيّة بالديار المصرية)

وكانوا يُسمّون ما يكتب فيها تواقع ، ولهم فيه أساليب :

الأسلوب الأول

(أن يُفتح التوقيع المكتب بالإقطاع بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله»)

وكان من عادة خطّهم أن يُؤتى فيها بعد التحميد بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يُؤتى ببغديّة ، ثم يُذكر ماسنح من حال السلطان ، ثم يُوصف صاحب الإقطاع بما تقتضيه حاله من صفات المدح ، ويُرتب على ذلك استحقاقه للإقطاع . وقد كان من عادتهم أنهم يأتون بوصية على ذلك في آخره .

وهذه نسخة توقيع على هذا الأسلوب ، كتب به عن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» رحمه الله ، لأخيه العادل «أبي بكر» بإقطاع بالديار المصرية ، وبلاد الشام ، وبلاد الجزيرة ، وديار بكر ، في سنة ثمانين وخمسمائة ، بعد الانفصال من حرب الكفار بَعْكَاء وعقد الهدنة معهم ، وهى :

الحمد لله الذى جعل أيامنا حسانا ، وأعلى لنا يداً ولسانا ، وأطابّ محدنا أوراقا وأغصانا ، ورفع مجدنا لواءً ووجدنا برهاناً ، وحقّق فينا قوله : ﴿ سَنُشَدُّ ضَرْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا ﴾ .

نحمده على سُبُوغ نِعْمَتِهِ ، ونسأله أن يجعلنا من الداخلين فى رَحْمَتِهِ .

ثم نُصَلّى على رسوله محمد الذى أيدّه بِحُكْمَتِهِ ، وعَصَمَهُ من الناس بعِصْمَتِهِ ، وأخرج به كُلّ قَلْب من ظُلُمَتِهِ ، وعلى آله وأصحابه الذين خَلَفُوهُ فَأَحْسَنُوا الْخِلاَفَةَ فى أُمَّتِهِ .

أما بعد ، فإن فُرُوعَ الشَّجَرَةِ يَأْوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِمَكَانِ قُرْبِهِ ، وَيُؤَثِّرُ بَعْضُهَا
بَعْضًا مِنْ فَضْلِ شَرْبِهِ ؛ وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ عُرِفَ مِنَّا وَفَاقَ الْقُلُوبَ وَدَا ، وَإِثَارُ
الْأَيْدِي رِفْدًا ؛ وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا إِثْبَاتُ الْأَقْلَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ
مَصَالِحِ الْمُلْكِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا تَجَارِبُ الْأَيَّامِ ؛ وَكَلَّا هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مَشْكُورَةٌ مَذَاهِبُهُ ،
مَحْمُودَةٌ عَوَاقِبُهُ ، مَرْفُوعَةٌ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مَنَاقِبُهُ ؛ وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَدَانِيْنَا
إِلَّا وَقَدْ وَسَّيْنَا بِعَوَارِفِ يَحْتَسِلُ فِي مَلَابِسِهَا ، وَيُسَرُّ فِي كُلِّ حِينٍ بِزِفَافِ عِرَائِسِهَا ،
وَلَمْ نَرُضْ فِي بَلِّ أَرْحَامِهِمْ بِمَوَاصِلَةِ سَلَامِهَا دُونَ مَوَاصِلَةِ رِيَّهَا وَإِدْنَاءِ مَجَالِسِهَا ؛
وَلِإِخْوَتِنَا مِنْ ذَلِكَ أَوْفَرُ الْأَقْسَامِ ، كَمَا أَنَّ لَهُمْ مِنَّا رَحِمًا هُوَ أَقْرَبُ الْأَرْحَامِ ؛ وَقَدْ أَمَرْنَا
بِتَجْدِيدِ الْعَارِفَةِ لِأَخِينَا الْمَلِكِ الْعَادِلِ ، الْأَجَلِّ ، السَّيِّدِ ، الْكَبِيرِ ، سَيِّفِ الدِّينِ ،
نَاصِرِ الْإِسْلَامِ « أَبِي بَكْرٍ » أَبْقَاهُ اللَّهُ . وَلَوْ لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ قَضَاءً لِحَقِّ إِخَائِهِ الَّذِي تَرَفُّ
عَلَيْهِ حَوَانِي الْأَضَالِعِ ، لَفَعَلْنَاهُ جَزَاءً لِدَائِعِ خِدْمَتِهِ الَّتِي هِيَ نِعَمُ الدَّرَائِعِ ؛ فَهُوَ فِي لُزُومِ
آدَابِ الْخِدْمَةِ بَعِيدٌ وَقَفَّ مِنْهَا عَلَى قَدَمِ الْاجْتِهَادِ ، وَفِي لُحْمَةِ شَوَايِكِ النَّسَبِ قَرِيبٌ
وَصَلَ حُرْمَةُ نَسَبِهِ بِحُرْمَةِ الْوِدَادِ ؛ وَعِنْدَهُ مِنَ الْغَنَاءِ مَا يَحْكُمُ لَامَالِهِ بِسَّطَةِ الْخِيَارِ ،
وَيَرْفَعُ مَكَانَتَهُ عَنْ مَكَانَةِ الْأَنْشِبَاءِ وَالْأَنْظَارِ ، وَيَجْعَلُهُ شَرِيكًا فِي الْمُلْكِ وَالشَّرِيكَ
مَسَاوٍ فِي النُّقْضِ وَالْإِمْرَارِ ؛ فَكَمْ مِنْ مَوْقِفٍ وَقَفَّهِ فِي خِدْمَتِنَا بِفَعْلٍ وَعَرَهُ سَهْلًا ،
وَفَازَ فِيهِ بَارِضَانَا وَبَفَضِيلَةِ التَّقَدُّمِ نَانَقَلَبَ بِالْمُحَبِّدِينَ إِرْضَاءً وَفَضْلًا ؛ وَيَكْفِي مِنْ
ذَلِكَ مَا أَبْلَاهُ فِي لِقَاءِ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ الَّذِي اسْتَشْرَى فِي هِيَاجِهِ ، وَتَمَادَى فِي بِلْجَاهِهِ ،
وَنَزَلَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَأُطْلِيَ عَلَيْهِ بِمِثْلِ أَمْوَاجِهِ ، وَقَالَ : لَا بَرَّاحَ ، دُونَ اسْتِفْتَاخِ ،
الْأَمْرِ الَّذِي عَسَرَتْ مَعَالِجُهُ رِتَاجَهُ ؛ وَتِلْكَ وَقَائِعُ اسْتِضْئَانِهَا بِرَأْيِهِ الَّذِي يَنْوِبُ
مَنَابِ الْكَمِينَ فِي مُضْمَرِهِ ، وَسَيْفِهِ الَّذِي يُنْسَبُ مِنَ الْأَسْمِ إِلَى أَبِيضِهِ وَمِنَ اللَّوْنِ إِلَى
أَخْضَرِهِ ؛ وَلَقَدْ اسْتَغْنَيْنَا عَنْهُمَا بِنَضْرَةِ لَقْبِهِ الَّذِي تَوَلَّتْ يَدُ اللَّهِ طَبْعَ فَضْلِهِ ، وَعُنَيْتْ يَدُ

السَّيَادَةُ بَرَوْنَقُ صَقْلُهُ ؛ فَهُوَ يَقْرِى قُلُوبَ الْأَعْدَاءِ قَبْلَ الْأَجْسَادِ ، وَيَسْرِى إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ حَامِلٍ لِمَنَاطِ النَّجَادِ ، وَيَسْتَقْصِي فِي أَسْتِلَابِهِمْ حَتَّى يَنْتَرِعَ مِنْ عُيُونِهِمْ لَذَّةَ الرِّقَادِ ؛ وَلَيْسَ لِلْحَدِيدِ جَوْهَرٌ مَعْدِنُهُ الْمُسْتَخْرَجُ مِنْ زَكَاءِ الْحَسَبِ ، وَإِذَا أَسْتُنْجِدَ قِيلَ لَهُ : يَاذَا الْمَعَالِي ! كَمَا يُقَالُ لِسَمِيَّةَ : يَاذَا الشُّطْبُ ؛ وَلَوْ أَخَذْنَا فِي شَرْحِ مَنَاقِبِهِ لَظَلَّ الْقَلَمُ وَاقِفًا عَلَى أَعْوَادِ مِثْرِهِ ، وَآمَتَدَ شَأْوُ الْقَوْلِ فِيهِ فَلَمْ يَنْتَهَ مَوْرِدُهُ إِلَى مَصْدَرِهِ ؛ فَهُمَا خَوْلَانَاهُ مِنَ الْعَطَايَا فَإِنَّهُ يَسِيرُ فِي جَنْبِ غَنَائِهِ ، وَمَهُمَا أَثْنَيْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ سَطُرٌ فِي كِتَابِ ثَنَائِهِ .

وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ مِنَ الْبِلَادِ مَا هُوَ مُقْتَسَمٌ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ ؛ وَبِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَدِيَارِ بَكْرٍ : لِيَكُونَ لَهُ مِنْ كُلِّ مِنْهَا حِطٌّ تُفِيضُ يَدُهُ فِي أَمْوَالِهِ ، وَيَرْكَبُ فِي حَشِيدٍ مِنْ رَجَالِهِ ؛ وَيُصْبِحُ وَهُوَ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ مُلْكِنَا كَالطَّلِيعَةِ فِي تَقَدُّمِ مَكَانِهَا ، وَكَالْرَبِيبَةِ فِي إِسْهَارِ أَجْفَانِهَا .

فَلَيْتَسَلَّمَ ذَلِكَ بِيَدِ مَعْظَمِ قَدَرَاءِ ، وَلَا يَسْتَكْثِرُ كَثْرَاءِ ، وَيَجْمَلُ مِنْهَا رِفْدَهَا غِيثًا أَوْ بَحْرًا ؛ وَكَذَلِكَ فَلْيَعْدِلْ فِي الرِّعَايَةِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَهُ وَدَائِعُ ، وَلْيَجَاوِزْ بِهِمْ دَرَجَةَ الْعَدْلِ إِلَى إِحْسَانِ الصَّنَائِعِ ؛ فَإِذَا أَسْنَدَ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى وَلَاتِهِ فَلْيُكُونُوا ثِقَاةً لَا يَجِدُ الْهَوَى عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ، وَلَا يَجِدُ الشَّيْطَانُ عِنْدَهُمْ مَقِيلًا ، وَإِذَا حُمِّلُوا ثِقَلًا لَا يَجِدُونَ حِمْلَهُ ثَقِيلًا .

وَقَدْ فَشَا فِي هَذَا الزَّمَنِ أَخْذُ الرِّشْوَةِ وَهِيَ تُنَحَّتُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَبْذِهِ ، وَنَهَى عَنْ أَخْذِهِ ؛ وَعَنِ الرِّغْبَةِ فِي تَدَاوُلِهِ ، وَهُوَ كَأَخْذِ الرَّبَا الَّذِي قُرِنَتِ اللَّعْنَةُ بِمُؤْكَلِهِ وَأَكْلِهِ .

وَأَمَّا الْقَضَاةُ الَّذِينَ هُمْ لِلشَّرِيعَةِ أَوْتَادُ ، وَلِلْإِمْرَاءِ أَحْكَامُهَا أَجْنَادُ ، وَلِحِفْظِ عُلُومِهَا كَنْوَزٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا النِّفَادُ ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَوَّلَ فِيهِمْ عَلَى الْوَاحِدِ دُونَ الْآخَرِينَ ، وَأَنْ يُسْتَعَانَ مِنْهُمْ فِي الْفَصْلِ بِيَدِ الْإِيدَى وَفِي الْيَقْظَةِ بِيَدِ الْيَدَيْنِ ، وَمَنْ رَامَ هَذَا

الْمِنْصَبَ سَائِلًا فَلْيَأْمَنَهُ وَلِيَعْلِظَ الْقَوْلَ فِي تَجْرِيعِ مَلَامِهِ ، وَلِيَعْرِفَ أَنَّهُ مِمَّنْ رَامَ
أَمْرًا فَأَخْطَأَ الطَّرِيقَ فِي اسْتِجْلَابِ مَرَامِهِ ؛ وَأَمْرُ الْحَكَّامِ لَا يَتَوَلَّاهُ مِنْ سَأَلِهِ ، وَإِنَّمَا
يَتَوَلَّاهُ مَنْ غَفَلَ عَنْهُ وَأَغْفَلَهُ .

وَإِذَا قَضَيْنَا حَقَّ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْوَصَايَا فَلْنَعْطِفْهَا عَلَى مَا يَكُونُ لَهَا تَابِعًا ، وَلِقَوَاعِدِ
الْمُلْكِ رَافِعًا ، وَذَلِكَ أَنَّ الْبِلَادَ الَّتِي أَضْفَنَّاهَا إِلَيْكَ : فِيهَا مَدَنٌ ذَاتُ أَعْمَالٍ وَاسِعَةٍ ،
وَمَعَاقِلُ [ذَاتُ] حَصَانَةٍ مَانِعَةٍ ؛ وَكُلُّهَا يَفْتَقِرُ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْفِكْرِ فِي تَدْيِيرِهِ ، وَتَصْرِيفِ
الزَّمَانِ فِي تَعْمِيرِهِ ؛ فَوَلِّ وَجْهَكَ إِلَيْهَا غَيْرَ وَاٍ فِي تَكْثِيرِ قَلِيلِهَا ، وَتَرْوِضِ خُجُلِهَا ؛
وَبَثِّ الْأَمْنَةِ عَلَى أَوْسَاطِهَا ، وَإِهْدَاءِ الْغَبْطَةِ إِلَى أَفْنَدَةِ أَهْلِهَا حَتَّى تَسْمَعَ بِإِعْتِبَاطِهَا ؛
وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَحَدَّثُ كُلُّ مِنْهُمْ بِلِسَانِ الشُّكُورِ ، وَيُمَثِّلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ
وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ يُجَاوِرُكَ فِي بَعْضِهَا جِيرَانُ دَوْلَادٍ وَعَسَاكِرُ ، وَأَسِرَّةٌ وَمَنَارٍ ، وَأَوَائِلُ
لِلْجَدِّ وَأَوَاخِرُ ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يَتَمَسَّكَ مَنَّا بُوْدٌ سَلِيمٌ ، وَعَهْدٌ قَدِيمٌ ، وَلَهُ مَسَاعِدَةٌ
نَعْرِفُ لَهُ حَقَّهَا (وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ الْكَرِيمُ) .

فَكُنْ لَهُؤُلَاءِ جَارًا يُوَدُّونَ جَوَارَهُ ، وَيَمْحَدُونَ آثَارَهُ ؛ وَإِنْ سَأَلُوكَ عَهْدًا نَابِذُهُ لَهُمْ
بَذْلٌ وَفِيٍّ وَاقِفٌ عَلَى السُّنَنِ ، مَسَاوِينَ السَّرِّ وَالْعَلَنِ ؛ وَلَا يَكُنْ وَفَاؤُكَ لَخُوفِ تَتَقَى
مَرَاصِدَهُ ، وَلَا لِرَجَاءِ تَرْقُبِ فَوَائِدِهِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَغْنَاكَ أَنْ تَكُونَ إِلَى الْمُعَاهَدَةِ لَاجِيًا ،
وَجَعَلَكَ بِنَا خَوْفًا وَمَرْجُوًّا لَآخِئًا وَلَا رَاجِيًا ؛ وَقَدْ زِدْنَاكَ فَضْلَةً فِي مَمْلَكَتِكَ تَكُونُ بِهَا
عَلَى غَيْرِكَ مُفَضَّلًا ، وَقَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهَا أَغْرَّ فَأَوْفَتْ بِكَ أَغْرَّ مُحَجَّلًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّا
جَعَلْنَاكَ عَلَى آيَةِ الْخَيْلِ تَقُودُهَا إِلَى خَوْضِ الْغَارِ ، وَتُصَرِّفُهَا فِي مَنَازِلِ الْأَسْفَارِ ، وَتُرْتَّبُ
قُلُوبُهَا وَأَجْنِحَتُهَا عَلَى آخْتِلَافِ مَرَاتِبِ الْأَطْوَارِ ، فَنَحْنُ لَا نَلْقَى عَدُوًّا وَلَا نَهْدَى إِلَى

بلدٍ إلا وأنت كوكبنا الذى نهدي بمطلعهِ، ومفتاحنا الذى نستفتح المُغلقَ بِمِنْ موقِعهِ، ونوقن بالنصر فى ذهابهِ وبالغنيمة فى مَرَجِعِهِ ؛ والله يشرحُ لك صدراً، ويُسِّرُ لك ممناً أمراً، ويُسَدُّ أزرنا بك كما سَدَّ لموسى بأخيه أزرًا، والسلام .

الأسلوب الثانى

(أن يُفتَحَ التوقيع بالإقطاع بلفظ : « أما بعد فإن كذا »)

ويذكر ما سَنَحَ له من أمر السلطان أو الإقطاع أو صاحبه ، ثم يتعرّض إلى أمر الإقطاع ، وهو دُونُ الأسلوب الذى قبله فى الرتبة .

وهذه نسخة توقيع بإقطاع من هذا الأسلوب ، كتب بها لأمير قدم على الدولة فاستخدمته ، وهى :

أما بعدُ ، فإنَّ لكلَّ وسيلةٍ جزاءً على نِسْبَةِ مكانها ، وهى تتفاوتُ فى أوقات وجوبها ومناقبيل ميزانها ؛ ومن أوجبها حقًا وسيلةُ الحجرة التى طوى لها الأملُ من شَقَّتْهُ ما طوى ، وبعث بها على صِدْقِ النية « ولكلِّ أمرئٍ ما نوى » ؛ فالأوطانُ إليها مُودَعُهُ ، والخطواتُ مُوسَعُهُ ، والوجوه من برد الليل وحرّ النهار مُلَفِّعُهُ ؛ وقد توخّاها قومٌ فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحفظوا فى الدنيا باعتلاء المَنَازِ ، وفى الآخرة بعقبي الدار ، وقَدَّموا على مَنْ آوى ونَصَرَ فقال تعالى : « والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » . ثم صارت هذه سنةً فيمن هاجر من أقوام إلى أقوام ، واستبدل بأنام عن أنام ؛ وكذلك فعلت أيُّها الأميرُ فلان - وفقك الله - وقد تَلَقَّيْتَ هجرتك هذه بالكرامة ، وزُحِرِفَتْ لها دارُ الإقامة ؛ فإِبتَغَيْتَ بها بُغْيَةً إلا سَهَّلَتْ لك فِجَاجُهَا ، أو عاجَ عليك معاجُها ، وحَمِدَ لَدَيْكَ تَأْوِيلُهَا وإِدْلَاجُهَا ؛ وأصبحت

وقد وجدتَ خَفْضًا غَبَّ السُّرَى، وَخِيطٌ مِنْكَ الْجُفُونُ عَلَى أَمْنِ الْكَرَى، وَتَبَوَّاتِ
كَتَفِ الدَّوْلَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الدُّوَلِ إِذْ صُرْتَ إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْقُرَى . وَنَحْنُ قَدْ
أَدْنَيْنَاكَ مِنَّا إِدْنَاءَ الْخَلِيطِ وَالْعَشِيرِ ، وَرَفَعْنَاكَ إِلَى مَحَلِّ الْأَخْتِصَاصِ الَّذِي هُوَ الْمَحَلُّ
الْأَثِيرُ ، وَآخَيْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَطَايَانَا كَمَا وَوَحَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ النَّبَوِيَّةِ يَوْمَ الْعَدِيرِ .

هَذَا وَلَكَ وَسِيلَةٌ أُخْرَى تُعَدُّ مِنْ حِسَانِ الْمَنَاقِبِ ، وَتُوصَفُ بِالصِّفَاتِ الْأَطْيَابِ ؛
وَمَا يُقَالُ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنَ الْأَطْوَادِ الرَّوَاسِ ، وَأَنَّهَا تَبْرُزُ فِي اللَّبَاسِ الْأَحْمَرِ وَغَيْرِهَا لَا يَبْرُزُ
فِي ذَلِكَ اللَّبَاسِ ؛ وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُكَ بِوَحْدَتِهَا فِي كَثَرِهِ ، وَتَتَأَمَّرُ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِمْرِهِ ؛
وَطَالَمَا أَطَالَتْ يَدُكَ بِمَنَاطِ الْبَيْضِ الْحِدَادِ ، وَفَرَجَتْ لَكَ ضِيقَ الْكَرِّ وَقَدْ غَصَّ
بِهَوَادِي الْحِيَادِ ، وَحَسَنَتْكَ الْعُيُونُ وَقَدْ رُمِيَتْ مِنْكَ بِشَرِّ الْقَذَا وَنَبْوَةِ الشَّهَادِ ؛
وَمَنْ شَرَفَ الْإِقْدَامَ أَنْ الْعُدُو يُحِبُّ الْعُدُو مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَضْطَرُّهُ إِلَى أَنْ يُقَرَّ بِقَضَلِهِ ؛
وَمَذْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا وَصَلْنَاكَ بِأَمْرَانَا الَّذِينَ سَلَفَتْ أَيَّامُهُمْ ، وَثَبَتَتْ فِي مَقَامَاتِ الْغَنَاءِ
أَقْدَامُهُمْ ؛ وَتَوَسَّمْنَا أَنَّكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَزُكُّ لَدَيْكَ الصَّنِيعُ ، وَأَنَّكَ سَتَشْفَعُهُ بِحَقِّهِ
خِدْمَتِكَ الَّتِي هِيَ نِعَمُ الشَّفِيعِ .

وَقَدْ عَجَّلْنَا لَكَ مِنَ الْإِقْطَاعِ مَا لَا نَرْضَى أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ شَاكِرًا ، وَجَعَلْنَاهُ لَكَ أَوَّلًا
وَأِنْ كَانَ لَغَيْرِكَ آخِرًا ، وَهُوَ مُثَبَّتٌ فِي هَذَا التَّوْقِيعِ بِقَلَمِ الدِّيَوَانِ الَّذِي أُقِيمَ لِفَرَضِ
الْجُنْدِ كِتَابًا ، وَلِمَعْرِفَةِ أَرْزَاقِهِمْ حِسَابًا ، وَهُوَ كَذَا وَكَذَا .

فَتَنَاوَلْ هَذَا التَّخْوِيلَ الَّذِي حُوِّلَتْهُ بِالْيَمِينِ ، وَأَسْتَمْسِكْ بِهِ أَسْتَمْسَاكَ الضَّمِينِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ الْخَوَاسِدُ لِمَا مَدَدْنَاهُ مِنْ صُنْعِكَ ، وَبَسَطْنَاهُ مِنْ ذَرْعِكَ ؛
فَأَشْجَحْ حُلُوقَهُمْ بِالسَّغَى لِأَسْتَحْقَاقِ الْمَزِيدِ ، وَارْقَ فِي دَرَجَاتِ الصُّعُودِ وَأَلْزِمُهُمْ صَفْحَةَ
الصَّعِيدِ .

والذي تأمر بك به أن [تُعَدَّ] نَفْسَكَ لِلْخِدْمَةِ الَّتِي جُعِلَتْ لَهَا قِرْنًا وَأَنْتَ بِهَا أَغْنَى ،
وَأَنْ تَنْتَهِيَ فِيهَا إِلَى الْأَمْسَدِ الْأَقْصَى 'دُونَ الْأَدْنَى' ؛ فَلَا تَضْمُمُ جَنَاحَكَ إِلَّا عَلَى قَوَادِمَ
مَنْ الرِّجَالِ لَا عَلَى خَوَافٍ ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتَ فَأَنْفِرْ بِثِقَالٍ مِنَ الْخَيْلِ وَخِفَافٍ ؛ وَكُنْ
مَدْخُورًا لِوَاحِدَةٍ يُقَالُ فِيهَا : يَاعِزَائِمُ أَغْضَبِي ، وَيَاخَيْلَ النَّصْرِ أَرْكَبِي ؛ وَتِلْكَ هِيَ الَّتِي
نَنْظُمُ بِهَا الْجَمَاجِمُ مِنَ الضَّرَابِ ، وَتَلَاقِي فِيهَا عَصَبُ الْغُرَبَانِ وَالذُّبَابِ ؛ وَلَا تَحْتَاجُ مَعَ
هَذِهِ إِلَى مَنْقَبَةٍ تَجْمَلُ بِتَفْوِيفِهَا ، وَتُكْثَرُ بِتَعْرِيفِهَا ، وَتَنْتَمِي إِلَى تَلِيدِهَا بِاسْتِحْدَاثِ
طَرِيفِهَا .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَشُدُّ بِكَ أَزْرًا ، وَيَمَلَأُ بِكَ عَيْنًا وَصَدْرًا ، وَيَجْعَلُ الْفَلَجَ مَقْرُونًا
بِرَأْيِكَ وَرَأْيِكَ حَتَّى يُقَالَ : « وَمَكَّرُوا مَكْرًا » وَجَرَدْنَا بِيضًا وَسُمْرًا ، وَالسَّلَامُ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الأسلوب الثالث

(أَنْ يَفْتَحَ التَّوْقِيعُ الْمَكْتَتَبَ بِالْإِقْطَاعِ بِمَا فِيهِ مَعْنَى 'الشَّجَاعَةِ وَالْقِتَالِ'
وَمَا فِي مَعْنَى 'ذَلِكَ' ، وَهُوَ أَدْنَى مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ رُتْبَةً)

وَهَذِهِ نَسْخَةُ تَوْقِيعٍ بِإِقْطَاعٍ مِنْ هَذَا النَّمَطِ ، كُتِبَ بِهِ لِبَعْضِ الْأُمَرَاءِ الصَّغَارِ ،

وَهِيَ :

الْقَلَمُ وَالرُّخَّ قَلَمَانِ كَلَاهُمَا أَسْمَرُ ، وَكَمَا تَشَابَهَا فِي الْمَنْظَرِ فَكَذَلِكَ تَشَابَهَا فِي الْمَخْبَرِ ،
غَيْرَ أَنَّ هَذَا يَرْكَبُ فِي عَسْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَهَذَا يَجْمَلُ فِي عَسْكَرٍ ؛ وَقَدْ نَطَقَ أَحَدُهُمَا
بِالْتَّاءِ عَلَى أَخِيهِ فَأَحْسَنَ فِي نَطْقِهِ ، وَأَقْرَبَ لَهُ بِالْفَضِيلَةِ وَمَنِ الْإِنْصَافُ أَنْ يُقَرَّرَ
لِذِي الْحَقِّ بِحَقِّهِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ تُعْزَى إِلَى مَنْ يُقِيمُ أَوْدَ السَّاعِي بِتَقْوِيمِ

أودِه، ولا يرى لها سبيلاً قَصِداً إلا بالوطء على قَصْده، وهو أنت أيها الأمير فلان
أيَّدك الله ! .

وقد اخترناك لخدمتنا على بصيره، وأجريناك من اعتنائنا على أكرم وتيره، ورفعنا
درجتك فوق درجة المعلى لمن سبقك وإنما لكبيره .

ولم يكن هذا الاختيار إلا بعد اختبار لا يحتاج معه إلى شهادة ، ولو كشف
الغطاء لم يجد اليقين من زياده ؛ فطالما عجمت نبعتك ، ويمنت طاعتك ، ولم تعرض
سيلة الغناء إلا نفقت سلعك ؛ ومثلك من تباهى الرجال بمكانه ، وتخلّى له فضلة
عنايه ، ويتسع ميدان القول في وصفه إذا ضاق بغيره سعة ميدانه ؛ وما يقال إلا
أنك الرجل الذي تقذف الجانب المهم بعزمك ، وترمي برأيك قبل رماء سهمك ؛
وبك يحسر دجى الحرب الذى أعوزه الصباح ، ويحس عاقبها أن يحص له جناح ؛
فأسباب الاعتضاد بك إذن كثيرة الأعداد ، وأنت الواحد المشار إليه ولا تكثر
إلا مناقب الآحاد .

وقد بدأناك من العطاء بما يكون بيسم الله فى صدر الكتاب ، وجعلناه كالغمامة
التي تأتي أولاً بالقطار ثم تأخذ فى الأنسكاب ؛ وخير العطاء ما رب بعد ميلاده ،
وأينع ثمره بعد جداده ؛ وإن صادف ذلك وسائل خدم مستأنفة كان لها قرانا ،
وصادف الإحسان منه إحسانا ؛ وقد ضمن الله تعالى للشاكر من عباده مزيدا ،
ولم يرص له بأن يكون مبدئا حتى يكون مبيدا ؛ وكذلك دأبه فىمن عرف مواقع
نعمه ، وعلم أن صحتها لا تفارقه ما لم يعدها بسقمه .

ونحن أولى من أخذ بهذا الأدب الكريم ، وألزم نفسه أن نتخلّى بخلقته وإنه
لخلق العظيم ؛ وعطاؤنا المنعم به عليك لم يذكر فى هذا التوقيع على حكم الامتنان ،

بل إثباتاً لحساب الجُند الذين هم أعوانُ الدولة ولا بد من إحصاءِ الأعوان ؛
وهوكذا وكذا .

فأمْدُدْ له يدًا تجمع من الشُّكْرُ مواظبه ، ومن الطَّاعة مُراقبه ؛ وَكُنْ في النَّاهِبِ
لِلخِدْمَةِ كَالسَّهْمِ الْمَوْضُوعِ فِي وَتَرِهِ ، وَأَصْحِ بِسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ إِلَى مَا تُؤَمِّرُ بِهِ فَلَا آئِمَّتَارَ
لِمَنْ لَمْ يَصْخُ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ .

وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ تَتَكَثَّرَ مِنْ فُرْسَانِ الْغَوَارِ ، وَحُمَاةِ الدِّمَارِ ، وَالَّذِينَ هُمْ زِينَةُ سِلْمٍ
وَمَقَرُّ حِدَارٍ ؛ وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُضْمُّهُمْ جَيْشٌ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ ، وَدَارَتْ
مِنْهُ الْحَرْبُ عَلَى قُطْبِهَا وَلَا تُدَوِّرُ رَحَى إِلَّا عَلَى قُطْبٍ ؛ وَإِذَا سَارُوا خَلْفَ رَأْيِكَ
تُبَسَّرَتْ ذَوَائِبُهَا عَلَى غَايَةِ مِنَ الْأَسَادِ ، وَخَفَقَتْ عَلَى بَحْرٍ مِنَ الْحَدِيدِ لِيَسِيرُ بِهِ طَوْدٌ
مِنَ الْحِيَادِ .

وَمِنْ أَهَمِّ الْوَصَايَا إِلَيْكَ أَنْ تُضَيِّفَ إِلَى غَنَائِهِمْ غِنَى يُرْزُهُمْ فِي زَهْرَةِ مِنَ اللَّبَاسِ ،
وَيُعِينُهُمْ عَلَى إِمْعَادِ الْقُوَّةِ لِيَوْمِ الْبَاسِ ، وَيَقْصُرَ لَدَيْهِمْ شُقَّةُ الْأَسْفَارِ الَّتِي تَذْهَبُ بِتَرَقَاتِ
الشَّمْسِ ، وَيَنْقَطِعُ دُونَ قَطْعِهَا طَوْلُ الْأَنْفَاسِ ؛ وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي عَسْكَرٍ يَأْخُذُ بَعْدَ الْمَسْرِى
فِي حَوْرِهِ ، وَلَا يَزِيدُ صَبْرَهُ بِزِيَادَةِ سَفَرِهِ ، وَيَكُونُ حَافِرُهُ وَخُفَّهُ سَوَاءً فِي آتِسَابِ كُلِّ
مِنْهُمَا إِلَى شِدَّةِ حَجَرِهِ .

فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ نَظْرًا مِنْ طَالَ عَلَى صَحْبِهِ بِالْكَفِّ الْأَوْسَعِ ، وَعَلِمَ مَا يَضُرُّ
فِيهِمْ وَمَا يَنْفَعُ ؛ وَاللَّهُ يَمْنَحُكَ مِنْ لَدُنْهِ تَوْفِيقًا ، وَيَسْلُكُ بِكَ إِلَى الْحُسْنَى طَرِيقًا ،
وَيَجْعَلُكَ خَلِيقًا بِمَا يُصْلِحُكَ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ بِصَالِحٍ خَلِيقًا ، وَالسَّلَامُ .

الطرف الثانى

(ما يُكْتَبُ فى الإقطاعات فى زماننا)

وهو على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكْتَبُ قبل أن يُنْقَلَ إلى ديوان الإنشاء)

وفيه جملتان :

الجملة الأولى — فى ابتداء ما يُكْتَبُ فى ذلك من ديوان الجيش .

اعلم أنَّ مَظَنَّةَ الإقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الإنشاء ، وما يُكْتَبُ فيه من ديوان الإنشاء هو قرع ما يُكْتَبُ من ديوان الجيش .
ثم أول ما يُكْتَبُ من ديوان الجيش فى أمر الإقطاع إما مثال ، وإما قصّة ،
(١) وإما نزول .

فأما المثال ، فإنه يُكْتَبُ ناظرُ الجيش فى نصف قائمة شامى ، بعد ترك الثلثين من أعلاها بياضا ، فى الجدول الأيمن من القائمة ما صورته :

«خُز فلان المتوفى إلى رحمة الله تعالى» أو «المرسوم أرجاعه» أو «المتنقل لغيره» ونحو ذلك . ويكون «خُز» سطرا ، وباقي الكلام تحته سطرا . وتحت ذلك ما صورته :
«عبرة كذا وكذا دينارا» بالقلم القبطى . وفى الجدول الأيسر ما صورته :

« باسم فلان الفلانى » وإن كان زيادة عين ، ثم يشمله الخط الشريف السلطانى بما مثاله : « يُكْتَبُ » ثم يُكْتَبُ تحته ناظرُ الجيش ما مثاله : «يمتثل المرسوم»

(١) أى إلهاد بنزول كما يؤخذ من التفصيل الآتى .

الشریف» ویَعینهُ علی مَنْ یَخْتَارُهُ مِنْ کُتَّابِ الْجیشِ، ثُمَّ یُتْرَکُ بَعْدَ ذَلِكَ بِدِیَوَانِ النِّظَرِ؛ وَیُکَتِّبُ تَارِیْخُهُ بِحِطِّ کَاتِبِ نَاضِرِ الْجیشِ بِذَیْلِ الْمِثَالِ، وَیُخَلِّدُهُ الْکَاتِبُ الْمَعِینُ عَلَیْهِ، وَیُکَتِّبُ بِذَلِكَ مَرَبَّعَةً، عَلَیْ مَا سِیَاقُی ذِکْرَهُ .

وَأَمَّا الْقِصَصُ فَتُخْتَلَفُ بِحَسَبِ الْحَالِ : فَتَارَةٌ یُنْهَى فِیْهَا وَفَاءً مِنْ كَانَ بَیْدهِ الْإِقْطَاعِ، وَتَارَةٌ أُنْتَقَلَهُ عَنْهُ، وَتَارَةٌ آرْتَجَاعُهُ، وَتَارَةٌ طُلِبَ إِعَادَةُ مَا نَحَرَ عَنْهُ، وَتَارَةٌ طُلِبَ تَجْدِیدُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

وَيُکَتِّبُ نَاضِرُ الْجیشِ عَلَیْ حَاشِیَّتِهَا بِالْکَشْفِ . وَیُکَتِّبُ الْکَشْفُ بِذَیْلِ ظَاهِرِهَا مِنْ دِیَوَانِ الْجیشِ بِمَا مِثَالُهُ :

« رَافِعُهَا فَلَانُ أَنْهَى مَا هُوَ كَذَا وَكَذَا ، وَسَأَلَ كَذَا وَكَذَا » وَیَذْکُرُ حَالَ الْإِقْطَاعِ . ثُمَّ یَسْمَلُهَا الْخَطُّ الشَّرِیفُ السَّاطِنِی بِمَا مِثَالُهُ : « یُکَتِّبُ » وَبَاقِ الْأَمْرِ عَلَیْ مَا تَقَدَّمَ فِی ذِکْرِ الْمِثَالِ .

وَأَمَّا الْإِشْهَادَاتُ فَتُکُونُ تَارَةً بِالزُّوْلِ، وَتَارَةً بِالْمُقَايَصَةِ؛ وَرَبَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ بِالشَّرْکَةِ، ثُمَّ یُکَتِّبُ نَاضِرُ الْجیشِ عَلَیْ ظَاهِرِ الْإِشْهَادِ بِالْکَشْفِ، وَیُعْمَلُ فِیْهِ عَلَیْ مَا تَقَدَّمَ فِی الْقِصَّةِ .

الجملة الثانية — فی صورة ما یُکَتِّبُ فی المَرَبَّعَةِ الْجِیشِیَّةِ .

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ دِیَوَانِ الْجیشِ أَنَّهُ إِذَا عَیَّنَ نَاضِرُ الْجیشِ الْمِثَالَ أَوِ الْقِصَّةَ أَوِ الْإِشْهَادَ عَلَیْ أَحَدٍ مِنْ کُتَّابِ دِیَوَانِ الْجیشِ، یُخَلِّدُ الْکَاتِبُ ذَلِكَ عَنْدهُ، ثُمَّ تُکَتِّبُ بِهِ مَرَبَّعَةً مِنْ دِیَوَانِ الْجیشِ وَتُکَمَّلُ بِالْخُطُوطِ عَلَیْ مَا تَقَدَّمَ، وَتُجَهَّزُ إِلَى دِیَوَانِ الْإِنْشَاءِ، فِیَعِیْنُهَا کَاتِبُ السَّرِّ عَلَیْ مَنْ یُکَتِّبُ بِهَا مَنْشُورًا عَلَیْ مَا سِیَاقُی .

وصورة المربعة أن يَكْتُبَ في ورقة مربعة، يجعلُ أعلى ظاهر الورقة الأولى منها بياضا، ويَكْتُبُ في ذيلها معترضا: آخذا من جهة أسفل المربعة إلى أعلاها أسطرا قصيرة على قدر عرض ثلاثة أصابع ما صورته :

«مثال شريف — شرفه الله تعالى وعظمه — بما رُسم به الآن : من الإقطاع»
باسم من عين فيه من الأمراء أو من الممالك السلطانية بالديار المصرية ،
أو بالملكة الفلانية ، أو من الحلقة المصرية أو الشامية ، أو نحو ذلك «على ما شرح فيه حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه» .

وتحت ذلك كله ما صورته :

(١)
«يحتاج الشريف أعلاه الله تعالى» .

ثم يَكْتُبُ داخل تلك الورقة بعد إخلاء هامش عرض إصبعين البسملة ،
وتحتها في سطر ملاصق لها : «المرسوم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى»
ثم ينزل إلى قدر ثلثي الصفحة ، ويكتب في السطر الثانى بعد البياض الذى تركه على
مسامحة السطر الأول : «الملكى الفلانى الفلانى» بلقب السلطنة : كالناصرى ، ولقب
السلطان الخاص كالزنى «أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه ، أن يُقطع من
يذكر : من رجال الحلقة بالديار المصرية أو بالملكة الشامية أو نحو ذلك ، ما رُسم له به
الآن في الإقطاع ، حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه» .

ثم يكتب في الصفحة الثانية مقابل البسملة : «فلان الدين فلان الفلانى ، المرسوم
إثباته في جملة رجال الحلقة المنصورة بالديار المصرية أو الشامية ، بمقتضى المثال

(١) بياض في الأصل ولعله «إلى الخط الشريف» .

الشَّريف أو المَرْبَعة الشَّريفة المشمولة بالخط الشريف» . ثم يكتب تحت السَّطر الأخير في الوسط ما صورته : « في السنه كربستا » إن كان جميع البلد أو البلاد المقطعة لا يُستثنى منها شيء ، أو يكتب : « خارجاً عن الملك والوقف » أو نحو ذلك « على ما يقتضيه الحق » .

ثم يكتب تحت ذلك على حِمال السُّطور ممتداً من أول السَّطر إلى آخره :
« خبر » .

ثم يكتب تحته : « فلان بن فلان الفلاني » بحكم وفاته ، أو بحكم نزوله برضاه» ونحو ذلك على عادته - ناحية كذا . ناحية كذا . ناحية كذا .

وإن كان فيه نقد ونحوه ذكره ، ويستوفي ذلك إلى آخر : « بعد الخط الشريف - شرفه الله تعالى - إن شاء الله تعالى » .

ثم يُؤرَّخ في سَطْرَيْن قصيرين ويُحضر إلى صاحب ديوان الإنشاء ، فيعيَّنه على مَنْ يكتبه من كُتَّاب الإنشاء ، على ما سيأتي بيانه .

الضرب الثاني

(فيما يُكْتَبُ في الإقطاعات من ديوان الإنشاء ، وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في ذكر اسم ما يُكْتَبُ في الإقطاعات من ديوان الإنشاء)

قد اصطلح كُتَّابُ الزمان على تسمية جميع ما يُكْتَبُ في الإقطاعات : من عَليها ودَانيها ، للأمرء والجُند والعُربان والتركمان وغيرهم - مناشير ، جمع منشور . والمنشور في أصل اللغة خلاف المطوي . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَحْصِيصَ مَا يُكْتَبُ فِي الْإِقْطَاعَاتِ بِاسْمِ الْمَنَاشِيرِ مِمَّا حَدَثَ الْأَصْطِلَاحُ عَلَيْهِ فِي الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ .

أما في الزَّمنِ الْمُتَقَدِّمِ فَقَدْ كَانُوا يُطْلِقُونَ اسْمَ الْمَنَاشِيرِ عَلَى مَا هُوَ أَعْمُ مِنْ ذَلِكَ : مِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى خَتَمٍ : كَالْمَكْتُوبِ بِالْإِقْطَاعِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَالْمَكْتُوبِ بِالْوِلَايَةِ ، وَالْمَكْتُوبِ بِالْحِمَايَةِ ، وَمَا يَجْرَى بِجَرَى ذَلِكَ . وَرُبَّمَا سُمِّيَ مَا يُكْتَبُ فِي الْإِقْطَاعِ مُقَاطَعَةً ، وَرُبَّمَا سُمِّيَ سِجَالًا وَغَيْرَ ذَلِكَ .

أما الآنَ فَإِذَا أُطْلِقَتِ الْمَنَاشِيرُ لَا يُفْهَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا يُكْتَبُ فِي الْإِقْطَاعَاتِ خَاصَّةً ، وَخَصُّوا كُلَّ وَاحِدٍ مِمَّا عَدَاهَا بِاسْمِهِ ، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوَاضِعِهِ دُونَ مَاعِدَاهَا ، وَلَا مِشَاحَةً فِي الْأَصْطِلَاحِ بَعْدَ فَهْمِ الْمَعْنَى .

قَاتُ : وَمِنْ خَاصَّةِ الْمَنَاشِيرِ أَنَّهَا لَا تُكْتَبُ إِلَّا عَنِ السُّلْطَانِ مَشْمُولَةً بِخَطِّهِ ، وَلَيْسَ لِغَيْرِهِ الْآنَ فِيهَا تَصَرُّفٌ ، إِلَّا مَا يُكْتَبُ فِيهِ النَّائِبُ الْكَافِلُ أَبْتَدَاءً .

الجملة الثانية

(في بيان أصناف المناشير، وما يُخَصُّ كُلَّ صِنْفٍ منها: من مقادير قَطْع الورق، وما يُخْتَصُّ بِكُلِّ صِنْفٍ منها من طَبَقَاتِ الأُمَرَاءِ والجُنُودِ)

اعلم أنَّ المناشيرَ المصطَّاحَ عليها في زماننا على أربعةِ أصنافٍ: يُخْتَصُّ بِكُلِّ صِنْفٍ منها مقدارٌ من مقادير قَطْع الورق .

الصَّنْفُ الأوَّلُ — ما يُكْتَبُ في قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ وهو لأَعْلَى المراتبِ من الأُمَرَاءِ .

قال في ”التعريف“ : ومن كان مُؤَهَّلًا لَأَن يُكْتَبَ له تَقْلِيدٌ كان منشورُهُ من نوعه ومن دُونِ ذلك إلى أدنى الرُّتَبِ .

قال في ”التثقيف“ : وفي قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ يُكْتَبُ لمَقَدَّمِي الأُلُوفِ بالديارِ المِصرِيَّةِ ، سواءَ كان من أولادِ السلطانِ أو الخاصِكيَّةِ أو غيرهم ، وكذلك جميعُ النُوابِ الأكابرِ بالممالكِ الإسلاميَّةِ ، والمقدَّمون بِدِمَشقَ . وكلُّ من له تَقْلِيدٌ في قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ يكون منشورُهُ في قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ .

الصَّنْفُ الثاني — ما يُكْتَبُ في قَطْعِ النِّصْفِ .

قال في ”التثقيف“ : وفيه يُكْتَبُ لأُمَرَاءِ الطَّبَاطِخَاتِ بِمِصرَ والشَّامِ ، سواءَ في ذلك الخاصِكيَّةِ وغيرهم . وكذلك الأُمَرَاءُ المَقَدَّمُونَ من نُوابِ القِلاَعِ الشَّامِيَّةِ . وفي معنائهم المَقَدَّمُونَ بِحَلَبَ وغيرها : من نُوابِ القِلاَعِ وغيرهم .

الصَّنْفُ الثالث — ما يُكْتَبُ في قَطْعِ الثُلُثِ .

قال في ”التثقيف“ : وفيه يُكْتَبُ لأُمَرَاءِ العِشْرَاتِ مطلقًا بسائرِ الممالكِ ، يعني مِصرَ والمالِكِ الشَّامِيَّةِ بِجَمَلَتِها . قال : وكذلك الطَّبَاطِخَاتُ من التُّرْكِيانِ والأَكْرَادِ بالممالكِ الإسلاميَّةِ .

الصنف الرابع — ما يكتب في قطع العادة المنصوري .

قال في "التتقيف" : وفيه يُكتب للممالك السلطانية، ومقدّم الحلقّة، ورجال الحلقّة . إلا أنه يختلف الحال بين الممالك السلطانية، ومقدّم الحلقّة، وبين رجال الحلقّة بزيادة أوصال الطرّة، والإتيان بالدعاء المناسب : يعنى أنه يُترك في طرّة مناشير الممالك السلطانية ثلاثة أوصال بياضاً، وفي مناشير رجال الحلقّة وصلان . قلت : ولا فرق في ذلك بين حلقّة مصر وغيرها من الممالك الشاميّة .

الجملة الثالثة

(في بيان صورة ما يكتب في المناشير في الطرّة والمثن)

قال في "التتقيف" : إن كان المنشور في قطع الثلثين، كُتب في طرّته من يمين الورق بغير هامش ما صورته :

«منشور شريف بأن يحجرى في إقطاعات المقرّ الكريم» أو «الجناب الكريم العالى الأميرى الكبيرى» وإن كان نائباً زيد بعدها : «الكافى الفلانى» يعنى بلقبه الخاص «فلان الفلانى» بلقب الإضافة إلى لقب السلطان : كالناصرى ونحوه . ثم الدعاء بما جرت به عادته دعوة واحدة «ما ريسم له به الآن من الإقطاع» ويشرح ما تضمنته المربعة إلى آخره، فمن ذلك جميعه سطران بقلم الثلث .

قال : والأحسن أن يكون آخر السطر الثانى الدعاء والتتمة بالقلم الرفاع أسطراً قصاراً بهامش من الجانبين، ثم يكتب في الوسط سطرًا واحدًا بالقلم الغليظ : «والعدة» وتحت بالقلم الدقيق «خاصته، ومائة طواشى أو تسعون طواشياً أو ثمانون طواشياً أو سبعون طواشياً» حسب ما يكون في المربعة . ويترك ثلاثة أوصال بياضاً بما فيه من وصل الطرّة؛ ثم تُكتب البسملة في أول الوصل الرابع، وبعدها

خُطْبَةٌ مَفْتَحَةٌ بِالْحَمْدِ، وَيَكْتَلُ بِهَا يَنَاسِبُهُ، ثُمَّ يَقَالُ: «أَمَّا بَعْدُ» وَيَذْكُرُ مَا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقَالِيدِ.

قال في "التعريف": إلا أن المناشير أخصر، ولا وصايا فيها.

قال في "التثقيف": ثم يذكر بعد ذلك اسمه بأن يقول: «ولمّا كان الجنب» وبقية الألقاب والنعوت والدعاء - ولا يُزَادُ عَلَى دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ «هو المراد بهذه المِلاح، والمخصوص بهذه المنح» أو نحو ذلك - «أقتضى حسنُ الرَّأْيِ الشريف أن تُحوَّلَ بمزيد النعم».

وإن كان المنشورُ في قَطْعِ النَّصْفِ كُتِبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، إلا أنه لا يقال: «أن يُجْرَى في إقطاعات». بل إن كان مقدّماً بحلب أو غيرها أو طبلخاناة خاصّة، أو كان من أولاد السُلطان، كُتِبَ: «أن يُجْرَى في إقطاع المجلس العالي أو السامي». وإن كان طبلخاناة ممن عدا هؤلاء، كُتِبَ «منشورٌ شريفٌ بما رُسم به من الإقطاع للمجلس السامي» والتَّيْمَةُ عَلَى حَكْمِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ.

وأما ما يُكْتَبُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ فَيُكْتَبُ: «منشورٌ شريفٌ بما رُسم به من الإقطاع للمجلس الأمير».

وأما التجديدات فيكُتَبُ فِي طَرَفِهَا: «منشورٌ شريفٌ رُسمٌ بتجديده بأسمِ فلان بن فلان القلاني، بما هو مُستَقَرٌّ بِيَدِهِ مِنْ الإقْطَاعِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيْوَانُ المَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ» وَيُشْرَحُ حَسَبَ مَا تَضَمَّنَتْهُ المَرْبَعَةُ، ثُمَّ يَقَالُ: «على ما شُرح فيه».

وأما الزيادات والتعويضات، فقال في "التعريف": إذا رُسمَ لِلْأَمِيرِ بزيادة أو تعويض: فإن كان من ذَوِي الْأَوْفِ: كَالثُّنُوبِ الْأَكْبَرِ، وَمَقْدَمِي الْأَوْفِ بِمصر والشام، كُتِبَ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ الطَّرْزُ عَلَى الْعَادَةِ، وَبَعْدَ الْبَسْمَلَةِ: «خَرَجَ الْأَمْرُ

الشریف العالی، المولوی، السلطانی، المائکی، الفلانی، الفلانی، ویُدعی له بما یناسب الحال «أن یُجرى فی إقطاعات المقرّ الفلانیّ أو الجناح الفلانی». وفی التّیمّة نظیر ما تقدّم فی المناشیر المفتّحة بالخطبة، علی ما تقدّم بیانہ .

والذی ذکره فی "التعریف" : أنه یُکتب فی ذلك لمقدمی الاُئوف أو من قاربهم : «أما بعد حمد الله» .

وإن کان من أمراء الطبائخاناه الصغار فمن دُونهم حتّى جند الحلقة، کتب له فی قطع العادة : «نرج الأمر الشریف» .

قال فی "التثقیف" : وكذلك الزيادات والتعويض، سواء فی ذلك کبیرهم وصغیرهم . قال : ويمكن أن یمیز أميرآل فضل فیُکتب له ذلك فی قطع الثالث . قال فی "التعریف" : أما إذا أنتقل الأمير من إقطاع إلى غیره، فإنه یُکتب له كأنه مبتدأ علی ما تقدّم أولاً .

وأعلم أنه لم تجرِ العادة بأن تُکتب فی أعلى الطّرة إشارة إلى العلامّة السلطانية، كما یُکتب فی الولايات الأسم الشریف فی أعلى الطّرة . قال فی "التثقیف" : والسبب فیہ أن العلامّة لاتخرج عن أحد ثلاثة أمور : إما الأسم الشریف مفرداً، كما فی الأمثلة السلطانية إلى من جرت العادة أن تكون العلامّة له الأسم الشریف، وما یتعلّق بالتقالید والتوافع والمراسیم الشریفية، وأوراق الطريق . أو یضاف إلى الأسم الشریف والدّه، أو أخوه، وذلك ممّا یتعلّق بالأمثلة الشریفية خاصة إلى من جرت عادته بأن تكون العلامّة إلیه كذلك . وذلك بخلاف المناشیر فإنّ العلامّة فیها علی ما جرت به العوائد، أن یُکتب السلطان : «الله أملي» أو «الله وليّ» أو «الله حسبي» أو «الملک لله» أو «المنة لله وحده» لا یختلف فی ذلك أعلى

(١) لعله « وذلك بما یتعلّق » الخ .

ولا أدنى، فلا يحتاج إلى إشارة بسببها يئبه عليها، لأن ترك الإشارة إليها دليلٌ عليها، وإشارةٌ إليها، كما ذكر النحاة علامات الأسم والفعل ولم يذكروا للحرف علامة، فصار ترك العلامة إليها علامة، بخلاف الأمثلة : فإنها تختلف : فتكون العلامة فيها تارة الأسم، وتارة أخوه، وتارة والده .

الجملة الرابعة

(في الطغرى^(١) التي تكون بين الطرة المكتبة في أعلى المنشور وبين البسملة)

قال في "التعريف" : قد جرت العادة أن تكتب للناشير الجكار كمقدمي الألوفا والطبلخانات طغرى بالألقاب السلطانية، ولها رجل مفرد بعملها وتخصيلها بالديوان . فإذا كتب الكاتب منشوراً أخذ من تلك الطغراوات واحدة، وألصقها فيما كتب به . قال في "التعريف" : وتكون فوق وصل بياض فوق البسملة . قال في "التشقيف" : فبعد وصلين أو ثلاثة من الطرة .

قلت : ولم ترل هذه الطغرى مستعملة في المناشير إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم تركت بعد ذلك ورُفِضَ استعمالها وأُهْمِلَتْ . ولا يخفى أنه يرد عليها السؤال الوارد على الطغرى المكتبة في أول المكاتبات إلى سائر ملوك الكفر من تقديم أسم السلطان على البسملة، على ما تقدم بيانه في موضعه .

وقد تقدم الاحتجاج لذلك بقوله تعالى في قصة يلقيس : ﴿إِنِّي أَنزِلُ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ . وأنه يحتمل أن يكون قوله :

(١) نص في النجاء على أن الطغرى بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء مقصورة كلمة أجمية استعملتها العرب .

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ ﴾ حكاية عن قول بلقيس ، ويكون ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هو أول الكتاب ، فلا يكون في ذلك حجة على تقدم الأسم على البسملة . وأنه إنما يتجه الاحتجاج بذلك على القول بأن قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ ﴾ من كلام سليمان عليه السلام . وأنه إنما قدم اسمه على البسملة وقاية لأسم الله تعالى ، من حيث إنه كان عادة ملوك الكفر أنهم إذا لم يرضوا كتاباً مزقوه أو تفلوا فيه ، بفعل اسمه حالاً محل الوقاية . ولا شك أن مثل ذلك لا يجيء هنا ، لأن المحذور فيه مفقود ، من حيث إن هذه المناشير إنما تلي إلى المسلمين القائمين بتعظيم البسملة والمؤفين لها حقها . وحينئذ فيكون لترك استعمالها وجه ظاهر من جهة الشرع ، بخلاف ما في المكاتبات إلى ملوك الكفر .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الطُّغْرَاوَاتِ تَخْتَلِفُ تَرْكِيبَاتُهَا بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ مُتَصِيبَاتِهَا مِنَ الْحُرُوفِ وَقِلَّتِهَا ، بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ آبَاءِ ذَلِكَ السَّلْطَانِ وَقِلَّتِهِمْ ، وَيَحْتَاجُ وَاضِعُهَا إِلَى مُرَاعَاةِ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ قَلَّةِ مُتَصِيبَاتِ الْكَلَامِ وَكَثْرَتِهَا . فَإِنْ كَانَتْ قَلِيلَةً أَتَى بِالْمُتَصِيبَاتِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ بِقَلَمٍ جَلِيلٍ مَبْسُوطٍ ، كَمُخْتَصَرِ الطُّومَارِ وَنَحْوِهِ ، لِنَمْلَأَ عَلَى قِلَّتِهَا فُضَاءَ الْوَرَقِ مِنْ قَطْعِ الثَّلَاثِينَ أَوْ النِّصْفِ . وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرَةً أَتَى بِالْمُتَصِيبَاتِ بِقَلَمٍ أَدَقٍّ مِنْ ذَلِكَ ، بِحَلِيلِ الثَّلَاثِ وَنَحْوِهِ أَكْتِفَاءً بِكَثْرَةِ الْمُتَصِيبَاتِ عَنْ بَسْطِهَا .

ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي طُولِ الْمُتَصِيبَاتِ وَقِصَرِهَا بِاعْتِبَارِ قَطْعِ الْوَرَقِ : فَتَكُونُ مُتَصِيبَاتُهَا فِي قَطْعِ النِّصْفِ دُونَ مُتَصِيبَاتِهَا فِي قَطْعِ الثَّلَاثِينَ .

ثُمَّ قَدْ أَصْطَلَحَ وَاضِعُهَا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا لَهَا هَامِشًا أبيض من كل من الجانبين بتدر إصبعين مطبوقين ، وطرة من أعلى الوصل قدر ثلاثة أصابع مطبوقة .

ثم إن كانت في قَطْع النصف جُعِلَتْ مُتَصِيبَاتُهَا مع تصوير الحروف بأسفلها
 في الطول بقدر ^(١) ذراع، وفي العَرْض بقَدْر ^(١) ذراع .

وإن كانت في قطع الثلاثين جُعِلَ طُولُهَا مَقْدَار ^(١) ذراع، وعرضها
 مقدار ^(١) ذراع . ثم تارة تكون مُتَصِيبَاتٌ مُحْضَةٌ يَتَصَرَّفُ فِيهَا مِنْ أَسْمِ السُّلْطَانِ
 عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ مِنْ أَسْمِهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ ، وَتَارَةً يَجْعَلُ أَسْمُ السُّلْطَانِ وَأَسْمُ أَبِيهِ بِأَعْلَى
 الْمُنْتَصِيبَاتِ فِي الْوَسْطِ بِقَلَمِ الطُّومَارِ قَاطِعًا وَمَقْطُوعًا ، بِحَيْثُ يَكُونُ مَا بَيْنَ أَعْلَى الْأَسْمِ
 وَآخِرِ أَعْلَى الْمُنْتَصِيبَاتِ قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ أَوْ خَمْسَةِ أَصَابِعَ مَطْبُوقَةٍ . ثُمَّ إِذَا أُلْصِقَ
 الْكَاتِبُ الطُّغْرَى ، كَتَبَ بِأَسْفَلِهَا فِي بَقِيَّةِ وَصْلِهَا فِي الْوَسْطِ ، بَعْدَ إِخْلَاءِ قَدْرِ إِبْهَامٍ
 بِيَاضًا مَأْصُورُتُهُ : « خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ » .

وهذه صورة طُغْرَى مَنْشُورٍ بِالْقَابِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْنَاصِرِ « مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ »
 مَضْمُونِهَا .

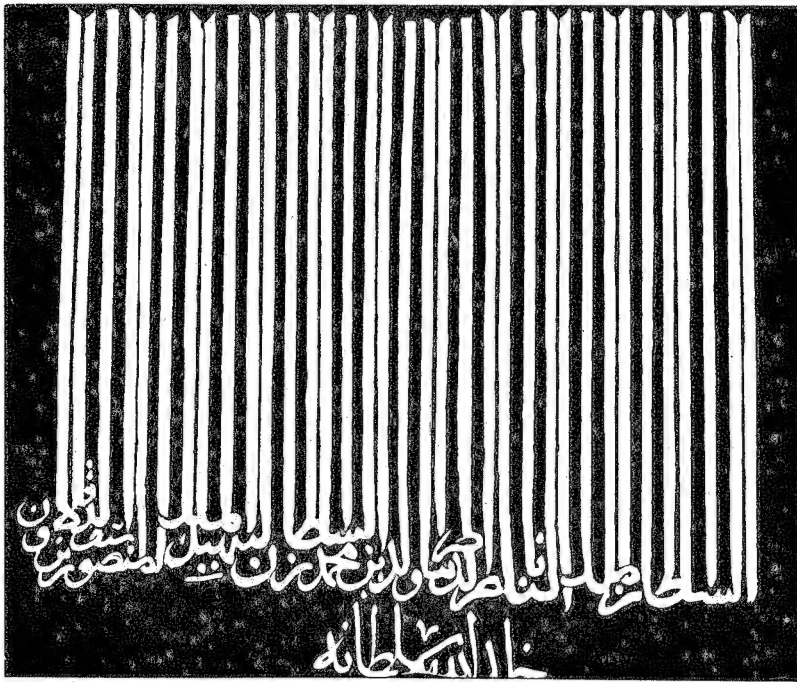
« السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْنَاصِرُ ، نَاصِرُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ
 الْمَنْصُورِ ، سَيْفُ الدِّينِ قِلَافُونَ » .

وعدد مُتَصِيبَاتِهَا مِنَ الْأَلِفِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ مُتَصِيبًا بِقَلَمِ النَّصْفِ ،
 وَهُوَ يَقْدَرُ قَلَمُ الثَّلَاثِ الثَّقِيلِ وَقَدْرُ نَصْفِهِ .

وَتَرْتِيبُ مُتَصِيبَاتِهَا [مُنْتَصِيبَانِ] مُتَقَارِبَانِ بَيْنَهُمَا بِيَاضٌ لَطِيفٌ بِدَرَجَةٍ دَقِيقٍ ،
 ثُمَّ مُتَصِيبٌ يَحْفُهُ بِيَاضَانِ ، كُلُّ مِنْهُمَا أَعْرَضُ مِنَ الْمُنْتَصِيبِ الْأَسْوَدِ بَيْسِيرٍ . وَبَعْدَ
 ذَلِكَ مُنْتَصِيبَانِ مُتَقَارِبَانِ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْمُنْتَصِيبَاتِ ، فَتُخْتَمُ

(١) بياض في الأصل في هذه المواضع .

بمئة صبيين مُزدوجين ، كما أُفتتحت بمئة صبيين مُزدوجين ، على ما أقتضاه تحريرُ التقسيم ،
وهي في طُول نصف ذراع بذراع القماش القاهريّ مع زيادة نحو نصف قيراط ،
وعرض مثل ذلك . وتحتها في الوسط بقلم الثلث الجليل بعد خَوْعَرُض إصبع
بباضاً ما صورته : « خلد الله سلطانه » وهي هذه :

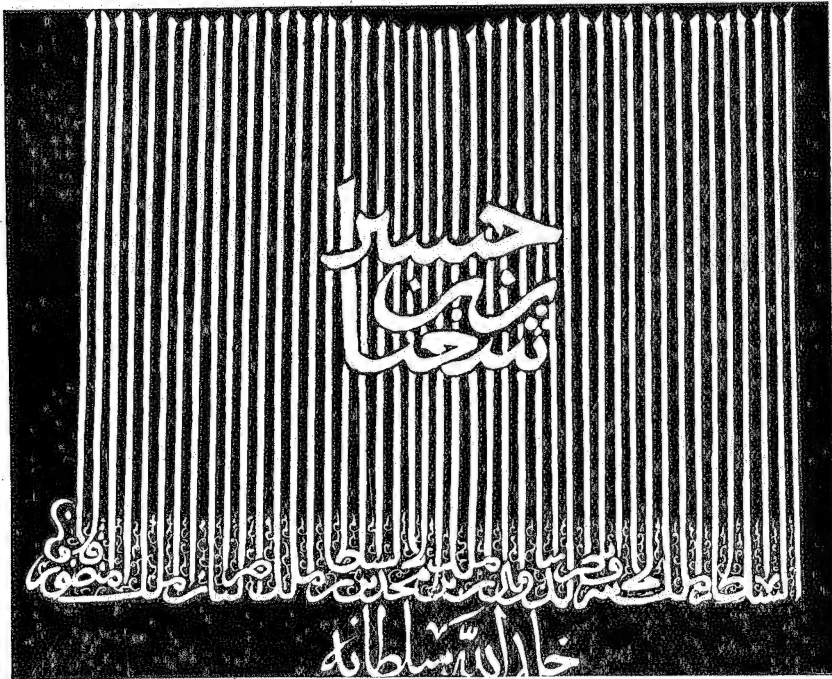


وهذه نسخة طُغرُي منشور أيضاً بألقاب السلطان الملك الأشرف
شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ، مضمونها .

« السلطان الملك الأشرف ناصر الدنيا والدين آبن الملك الأجد آبن السلطان
الملك الناصر آبن الملك المنصور قلاوون » .

وعدد منتصباتها من الألفات وما في معناها خمسة وأربعون منتصبًا، بقلم جليل
الثُلث، بين كلِّ مُنتصبين قدرُ منتصبٍ مرتين بياضًا، وطولها ثلث ذراع وربُّ
ذراع بالذراع المقدم ذكره، وعرضها كذلك، وأسمُّ المَلطان بأعلىها بقلم الطُّومار
بالخبر قاطع ومقطوع كما أشار إليه في التعريف .

مثاله : شعبان بن حسين - الشين والعين والباء والألف سطر، والنون
من شعبان وآبن سطر مركب فوق الشين والعين، وحسين سطر مركب فوق ذلك؛
وطول ألف شعبان تقدير سدس ذراع، وقد قطعت النون الألف وخرجت عنها
بقدر يسير، وأقول الأسم بعد المنتصب السادس عشر من المنتصبات، وآخر النون
من حسين البارزة عن ألف شعبان إلى جهة اليسار بعدها أحد عشر منتصبًا من
جهة اليسار، وهي هكذا :



الجملة الخامسة

(في ذكر طَرْفٍ من نُسخِ المناشير التي تُكْتَبُ في الإقطاعات في زماننا)

قد تقدّم الكلام في الجملة الثالثة على صورة ما يُكْتَبُ في المناشير وما تَفْتَحُ [به] وذكر ترتيبها ، واختلاف حالها باختلاف حال مراتب أصحابها صُودًا وهُبُوطًا ، فأغنى عن ذكر إعادته هنا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَحْسَنَ الْمُنَاشِيرِ أَنْ تَكُونَ مَبْتَكَّرَةً لِلْإِنْشَاءِ ، لِيُرَاعَى فِيهَا حَالُ الْمَكْتُوبِ لَهُ فِي بَرَاءَةِ الْأَسْتِهْلَالِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمُنَاسِبَاتِ وَالْمُطَابَقَاتِ . فَإِنْ تَعَدَّرَ ذَلِكَ فَلَا أَحْسَنَ أَنْ تَكُونَ بَرَاءَةً الْأَسْتِهْلَالِ مَنْقُولَةً فِي الْأَسْمِ وَالْكُنْيَةِ وَاللَّقَبِ وَنَحْوِهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ . فَإِنْ تَعَدَّرَ ذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بَرَاءَةً الْأَسْتِهْلَالِ قَاصِرَةً عَلَى مَعْنَى الْإِقْطَاعِ وَمَا يَنْجُزُ إِلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ كَرَمِ السُّلْطَانِ وَمَنْنِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى أَخْصَانِهِ ، وَمَا يَنْخَرِطُ فِي ذَلِكَ السَّلَكِ .

ثُمَّ نُسَخِ الْمُنَاشِيرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ :

النوع الأول

(ما يَفْتَحُ بِـ « الْحَمْدُ لِلَّهِ » ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرَبِ)

الضرب الأول

(مناشيرُ أولادِ المُلُوكِ)

وهذه نسخ مناشير من ذلك :

نُسخة منشورية ، كُتِبَ بِهِ عَنْ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ لِأَبْنِهِ النَّاصِرِ مُحَمَّدٍ فِي سُلْطَنَةِ أَبِيهِ الْمَذْكُورِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذى زين سماء الملك بأنور كوكب بزغ، وأعز ملك نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلى ما بلغ ذوو الأكتفال من اختيار شرف الحلال وما بلغ .

نحمده حمداً تزيد به النعماء وتنبى ، وتهمل به الآلاء وتهمى ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة من كل ريب، واقصة كل عيب، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى بعثه الله تعالى بمكارم الأخلاق، ومعادة ذوى النفاق، وسأوى بين الصغير والكبير من أولى الاستحقاق، فى الإرفاد والإرفاق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه مارق نسيم وراق، وما خُصِفَتْ أوراق .

وبعد ، فإن الهوائف أبين ما تشدو، إذا حفت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو، إذا تزينت بالكواكب السيارة والشهب النواقب، والسعادة أحمد ما تحدو، إذا خصصت بمن إليه، وإلا ما تشد الركائب، وعليه، وإلا ما تُثني الحقائق والحقائب، ومن هو للملك فليدة كبدته، ونور مقلته وساعده يده، ومن نعيم السلطنة بملاحظة جبينه الوضى، وتستدير بالأ نور المضى، ومن تغصب الدنيا لغصبه وتزهى إذا رضى، ومن نشأ فى روض الملك من خير أصل زكى، وفاحت أزهاره بأعطر أريج وأطيب نثر ذكى، وطلع فى سماء السلطنة نجماً ما للنيرين ماله من الإضاءة، ويزيد عليهما بحسن الوضاء، ومن تشوف النصر له من مهده، وتشوق الظفر إلى أنه يكون من جنده، واستبشرت السلطنة بأن صار لها منه فرع باسق، وعقد متناسق، وزند وار وجناح وارف، ونفار تليد وعز طارف، وطرفان معلمان تنشر فيهما المطارف .

ولهذه المحاسن التى تشرب إلى قصدها آمال الخلاق المستجعة - آفتضى حسن البر الوصول، وشرف الإقبال والقبول، أن خرج الأمر العالى - لا برحت مر اسمه

مترينة زينة السماء بكوا كتبها، ومزاجحة سمك السماء بمنّا كتبها - أن يحرقى في ديوان
الجناب العالى المرلوى، الملكى، الناصرى
قلت : كما أن هذا المنشور منشور سلطان فهو فى البلاغة لحسن إنشاءه سلطان
المناشير .

الضرب الثانى

(من نسخ المناشير المفتحة بالحمد مناشير الأمراء مقدمى الألوف)

وهذه نسخ مناشير منها .

نسخة منشور، كتب به للأمير بدر الدين بيدرا استادار الملك المنصور قلاوون،
من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين تيماماً على الذى أحسن، وإماماً تقتدى النجوم
منه بالضياء الأبين والثور الأزين، ونظاماً يجمع من شمل الدرى ما يغدو به حماه
الأخى وجنابه الأصون .

نحمده حمد من أعلى صوته وصيته أعلن، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة تغدو وتبدو عند الذب وفى القلب مكانها الأمكن، ونشهد أن محمداً عبده
ورسوله ونبيه الذى أوهى الله به بناء الشرك وأوهن . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
ورضى عمن آمن به وعمن آمن .

وبعد، فإن خير التعماء ما أتى به على التدريج، وأتى كما يأتى الغيث بالقطر والقطر
لإنبات كل زوج بهيج، وأقبل كما تقبل الزيادة بعد الزيادة فيينا يقال : هذا خليج

يَمُدُّه الْبَحْرُ إِذْ يُقَالُ : هَذَا بَحْرٌ يَسْتَمِدُّ مِنْهُ كُلُّ خَالِيجٍ ، وَبَيْنَا يُقَالُ : هَذَا الْأَمِيرُ ، إِذْ يُقَالُ : هَذَا الْمُحِيرُ ، وَبَيْنَا يُقَالُ : هَذَا الْهَلَالُ ، إِذْ يُقَالُ : هَذَا هُوَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ بِوَضْعِ الْغُرَّةِ مِنَ الْحَبَشِينَ ، وَمَكَانِ الرَّاحَةِ مِنَ الْيَمِينِ ، وَلَهُ سَوَابِقُ خِدْمَةٍ لَا يَزَاحِمُهُ أَحَدٌ فِي طُرُقِ طُرُوقِهَا ، وَلَا تُسْتَكْتَرَلُهُ زِيَادَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُوجِبَاتِ حَقُوقِهَا ، وَهُوَ مِنَ التَّقْوَى بِالْمَحَلِّ الْأَشْمَى ، عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الطَّرَاقِ ، وَالْمَكَانِ الْأَحْمَى ، الَّذِي مَكَانُهُ مِنْهُ - وَإِنْ كَانَ أَمِيرَ مَجْلِسٍ - صَدْرُ الرُّوَقِ ، وَلَهُ الْكَرَامَاتُ الَّتِي تُرَى الْخُدُودُ لَهَا صُغُرٌ ، وَكَمْ سَقَتْ مِنْ سُمِّ الْعُدَاةِ دَافَقَةَ الدُّعْرِ ، وَكَمْ قَابِلُ نُورِهِ نَارًا فَصَارَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَكَمْ تَكَلَّمَ عَلَى خَاطِرِ فَشَاهَدَ النَّاسُ مِنْهُ شَيْخًا مِنْ حَيْثُ الشَّبِيهَةِ أَجَلَ اللَّهُ قُدْرَةَ غُلَامًا ، فَهُوَ الْمَجَاهِدُ لِلْكَفَّارِ ، وَهُوَ الْمُتَمَجِّدُ فِي الْأَشْخَارِ ، وَهُوَ حَاكِمُ الْفُقَرَاءِ وَإِنْ كَانَ سُلْطَانُهُ جَعَلَهُ أَسْتَاذَ الدَّارِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعَصَا الَّتِي أَصْبَحَ بِمَجَالِهَا مِضَافَةً إِلَى السَّيْفِ يَتَشَرَّفُ ، وَمُعْجِزًا لَا يُسْتَكْتَرَلُهُ أَنَّهَا لِكُلِّ حَيَّةٍ تَلْقَفُ ، وَهُوَ الَّذِي تَجَدُّ الْكُشُوفُ وَالسِّيُوفُ فَتُوحَهُ وَفَتَحَهُ ، وَالَّذِي يُسْكِرُ يَدَهُ عِثَانُ كُلِّ سَاحِجٍ وَزِمَامُ كُلِّ سُبُحَةٍ ، وَكَمْ أَسَالُ بِيَدِهِ مِنْ دِمَاءِ الْأَعْدَاءِ مَاءً جَرَى ، وَغُمِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْفُقَرَاءِ مَا جَرَى ، وَكَمْ وَلَّى لِلَّهِ خَفِيَ شَخْصُهُ فَأَظْهَرَ مُحْضَهُ فَقَالَ الْوَلِيُّ : وَمَا أَدْرَى دَرًا لَوْلَا بَيِّنَاتُ - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفُ أَنْ يَحْمِلَ إِحْسَانُ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ لَهُ عَمَلًا ، وَأَنْ يُحْسِنَ لَهُ عِلًّا وَنَهْلًا ، وَأَنْ يَخْتَارَ لَهُ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْعَصَا كَمَا آخَتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا .

وَنَرَجُ الْأَمْرَ الْعَالِي - لَا زَالَ ظِلُّهُ ظَلِيلًا ، بِامْتِدَادِ النَّيِّءِ بَعْدَ النَّيِّءِ ، وَعِطَاؤُهُ جَزِيلًا ، بِتَنَوِيلِ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ - وَهُوَ ذُو الْكَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَصَاحِبُ الْعَصَا بِالْأَسْتَاذَارِيَّةِ وَلَا يُسْتَكْتَرَلُ لِمُصَاحِبِهَا سَحَرُ الْحَيَّاتِ .



وهذه نسخة منشور من ذلك لمن لقبه سيف الدين، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله الذي جرد في دولتنا القاهرة سيفاً ماضياً ، ووفق من جعل فعله لمزيد النعم متقاضياً ، وأسعد بإقبالنا الشريف من أصبح به سلطاناً مرضياً وعيشه راضياً .

نحمد على نعمه التي تشر موالياً وتسوء معادياً ، وتقدم من أوليائنا من يقوم مقامنا إذا سمع منادياً ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كم أروت في موارد الوريد من الرماح صادياً ، وأورت هادياً ، ورفع من أعيان الأعلام هادياً ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنزل القرآن بصفاته حالياً ، وأحلنا ببركة المشاركة في اسمه المحمدي مكاناً عالياً . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يبرح كل لسان لها تالياً ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن صدقاتنا الشريفة لم تزل تجدد إنعاماً ، وتزيد إكراماً ، ونضاعف لكل من أضحى ناصرنا بحقيقة ولائه إجلالاً وإعظاماً ؛ ليترقى إلى أعلى الدرج ، ويعلم أنه قد ورد البحر فيحدث عن كرمه ولا حرج ؛ ومن رأى التقرب إلى الله تعالى بمراضينا الشريفة فتقرب إليها ؛ وأقبل بقلب محض عليها ؛ وأشبه البدور في مواقفه توشماً ، وحنى السيف بارق ثغره لما أومض في حومة الحرب متقسماً ، وأقدم حين لم يجد بداً أن يكون مقدماً ، ووصفت الطعنات التي أطلعت أسننتها الكواكب بها درية ، والحمالات التي تفر العدا لفعلاتها أنها بهادرية ؛ كم له من محاسن ، وكم عرفت له من مكامن ؛ وكم له من صفات كالعقود يصدق بها من قال : الرجال معادن ؛

كم له من همة تترقى به إلى المعالي ، كم له من عزيمة يروى حديثها المسند عن العوالى ؛
 كم به أمور شتات ، وكم جمهور يحاط به ، كم له من احتفاء واحتفال ، وكم له من
 قبول وإقبال ، وكم له من وثبات وثبات ، وكم له من صفات وصفات ، وكم له
 إماتة كجاة ؛ كم له من مناقب تُصبح وتُمسى ، وكم له من معارف لما علم بها مملكه
 - خلد الله مملكه - قال الملك : آتوني به أستخلصه لنفسي .

فلذلك لا تزال آراؤنا العالية تعقد له في كل وقت رايه ، وتسعى به إلى أبعد غايه ،
 وتُتبع له عنايه بعد عنايه ، حتى لا تخلو دولتنا الشريفة من سيف مشهور ، وعلم
 منشور ، وبطل لا يرد عن الصميم تصميم ، ولا تعدأ أكابر الأمراء إلا ويكون على
 العساكر مقدما وعلى الجيوش زعيما : ليعلم كل مأمور وأمير ، وكل مُبائل ونظير ،
 أن حسن نظرنا الشريف يضاعف لمن تقرب إلينا بالطاعة إحسانا ، ويوجب على
 من وجد المنشور بهذا المنشور امتنانا : ﴿ لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ
 آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ .

ولما كان فلان هو المعنى بهذه المقاصد ، والمخصوص بهذه المبادئ والمحامد ،
 والواحد الذي ما قدم على الألف إلا وكلا ألف ذلك الواحد .

فلذلك نخرج الأمر الشريف - لا زالت أيامه موصولة الخلود ، موسومة بمزايا
 الجود - أن يحرق في إقطاعه



وهذه نسخة منشور من ذلك لمن لقبه « شمس الدين » كتب به في الدولة الناصرية
 « محمد بن قلاوون » وهي :

الحمد لله الذى جعل دولتنا القاهرة مَطْلَعَ كُلِّ قَرِيرٍ مُنِيرٍ ، ومَجْمَعَ كُلِّ مَأْمُورٍ
وأَمِيرٍ ، ومَوْقِعَ كُلِّ سَحَابٍ يَظْهَرُ بِهِ الْبَرْقُ فى وَجْهِ السَّحَابِ الْمَطِيرِ ؛ الذى شَرَّفَ بِنَا
الْأَقْدَارَ ، وزَادَ الْاِقْتِدَارَ ، وَجَمَلَ مَمَالِكَنَا الشَّرِيفَةَ سَمَاءً تُشْرِقُ فِيهَا الشُّمُوسُ
وَالْأَقْفَارُ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تَخْتَالُ أَوْلِيَاؤُنَا بِهَا فى مَلَابِسِهَا ، وَتَخْتَصُّ بِنَفَائِسِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَجَرَدُ سَيْفَ الدِّينِ لِإِقَامَتِهَا ، وَنُحَافِظُ بِوَقَائِعِهِ
فِي الْحَرْبِ عَلَى إِدَامَتِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي خَصَّهُ بِمِزْيَةِ التَّقَرُّيبِ ،
وَشَرَفَهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَكَانِ الْقَرِيبِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ عَظَّمَهُمْ بِقُرْبِهِ ،
وَكَرَّمَهُمْ بِحُبِّهِ ، وَقَدَّمَهُمْ فِي السَّلَفِ الصَّالِحِ إِذَا جَاءَ كُلُّ مَلِكٍ بِاتِّبَاعِهِ وَكُلُّ مَلِكٍ
بِصَحْبِهِ ، وَسَلَمَ .

وَبَعْدُ ، فَإِنْ أَوَّلَى الْأَوْلِيَاءُ أَنْ تَشْمَلَهُ صِدْقَاتُنَا الشَّرِيفَةُ بِحَسَنِ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ ،
وَبَرَفْعَةِ قَدْرِهِ الْمُئَنِّفِ ؛ لِيَتِمَّ لَهُ إِحْسَانُهَا ، وَيَزِيدَ إِمْكَانُهَا ؛ حَتَّى يَنْتَقِلَ هَلَالُهُ إِلَى أَكْلِ
مَرَاتِبِ الْبُدُورِ ، وَيَتَدَدَّ بِحُصْنِهِ الْمُسْتَظْلَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْجُمْهُورِ ؛ وَيَتَقَدَّمَ فِي أَيَّامِنَا
الشَّرِيفَةِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي يَرْجُوهَا ، وَيَقْدَمُ قَدَمُهُ إِلَى مَكَانَةِ أَمْثَالِهِ الَّتِي حَلَّوْهَا ، وَنَسْجَلُ
بِنَا نِعْمَةَ اللَّهِ : ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ - النَّاصِرِيُّ بِحَقِيقَةِ وَلَائِهِ ، الْبَهَادِرِيُّ
شِجَاعَةً فِي لِقَائِهِ ؛ مَنْ تَكَفَّلَتْ صِدْقَاتُنَا الْعَمِيمَةُ لَهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي أَمَلِهِ ، وَجَحَّتْ
حَايَتُنَا الشَّرِيفَةُ بِعَاطِفِهِ بِأَبْهَى مِمَّا يَنْسِجُهُ الرِّبْعُ مِنْ حُلَلِهِ ، وَتَوَسَّمتْنَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ
تُقَرَّبُ إِلَى مَرَاضِينَا الشَّرِيفَةِ بِهَا دَرِيًّا ، وَهَمَّةٌ جَرَدْنَا بِهَا مِنْهُ سَبِيقًا بِهَا دَرِيًّا ، وَطَلَعَةُ
أُطْلَعَتْ مِنْهُ بِالْبَهَاءِ كَوَكَبًا دَرِيًّا ؛ مَعَ مَا تَحْوِلُ فِيهِ مِنْ نِعْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ ، وَقَامَ بِهِ فِي أَبْوَابِنَا
الْعَالِيَةِ مِنْ أَحْسَنِ الْقِيَامِ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ .

ولما كان فلان هو الذى أشرنا إليه ، ونهنا مقل النجوم عليه . فاقضت آراؤنا الشريفة أن نبغّه أقصى رتب السعادة ، ونعجل له بحظّ الذين أحسنوا الحسنى وزيادته ؛ ليعدّ فى أكابر أمراء دولتنا الشريفة إذا ذكرُوا ، والمقدّمين على جيوشنا المنصورة إذا بادروا إلى مهمّ شريف أو ابتدروا ؛ ليعلم كلّ أحد كيف يجازى كلّ شكور ، وكيف يتحلّى بنعمنا الشريفة كلّ سيف مشهور ، وكيف نذكر واحدا منهم فيغدو فى زعماء العساكر المؤيَّدة وهو مذكور ؛ ليسدلّوا فى خدمة أبوابنا الشريفة جهدهم ، ويتوكلّوا على الله تعالى ثم على صدقاتنا العجيبة التى تحقّق قصدهم .

فلذلك خرج الأمر الشريف



وهذه نسخة منشور من ذلك ، كُتب به فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » لمن لقبه « بدر الدين » وهى :

الحمد لله الذى زين أفق هذه الدولة القاهرة بسدورها ، وسيره فى درج أوجها ونصرها ، ونقله فى بروج إشراقها ومنازل نقرها .

نحمده على نعمه المُنهلّة ببرّها ، المتهدّلة ببشرها ، المتريّدة كلّما زدنا فى حمدها وشكرها ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنطق بها القلوب فى سرّها وجهرها ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الأُمم بأنّها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تملأ الوجود بأجرها ، وتضمن لأمتها النجاة يوم حشرها .

وبعد ، فإنّ أولى من تعمّت النعمى بتواليها عليه ومرّها ، وخير من استقرت الخيرات عنده فى مستقرّها ، وأعلى من عمّته الألسنة الأقلام ببدايع نظمها ونثرها ،

وخصَّصته بمحامد تتأرجح المناشير بنشرها - من كان للدولة القاهرة يشرح صدرها ،
بتيسير أمرها ، ويشد أزرها ، بحمل وزرها ، ويتكفل بأداء فرائض إتمامها
ونصرها ، ويوصل حمل ما يفتح من الحصون الضيقة إلى مصرها .

ولما كان فلان هو بدر هذه السماء ومُنير زهرها ، ونير نجوم هذه المقاصد ومُبْتَدَأ
نحرها ، وفريدة عقد هذه الفلائد ویتمة درها ، وصاحب هذه الألغاز ومفتاح
سرّها - آقتضت الآراء الشريفة أن تُزَفَّ إليه عرائس العوارف ، ما بين عوانها
وبكرها ، وترَفَّ عليه نفائس اللطائف ، ما بين شفعتها ووترها ، وتهادى إليه الهدايا
ما بين صفرها وحرها ، وتوالى عليه الآلاء ما بين ثمرها وزهرها ، وأن تزداد عدته
المباركة في كميتها وقدرها ، وأن تُجَمَّلَ عشراتهُ التسع بعشرها ، ليعلم أنه لا يبرح
في خلدّها وسرّها ، وأنها لا تُخلّيه ساعة من سعيده فركها .

فلذلك خرج الأمر العالى - لا زالت الأقدار تُخصّ دولته القاهرة بإطابة ذكرها ،
وإطالة عمرها ، ولا برحت الأملاك كفيلاً بنصرها ، بمضاء بيضها وإعمال سمرها -
أن يحرى



وهذه نسخة منشور من ذلك كُتِبَ به في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
لمن لقبه «صلاح الدين» وهى :

الحمد لله الذى أتحف الممالك الشريفة من سعيدي تديرنا ، بصلاحها ، وصرف
حميد تأميرنا ، بإنجاب الأولياء وإنجاحها ، وأسعف طرائح أمانهم : من أقترابهم من
خواطرننا الشريفة فى بُعدهم وتدانيهم باجابة سُؤالنا وإصابة أقتراحها .

نحمده على أن جعل نصر دوائنا الشريفة قريبا من نصّاها ، ونشكره على أن
وصل أراجيحهم بإزباحها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحسن

المآل والعاقبة لذوى الإخلاص كما أحسنت في آبدائها وأفتتحها، ويؤذن لحسن
اعتنائها لأحوال أولى الاختصاص بإصلاحها، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله
الذى عمت مواهبه، بإبراق سمائها وإغداق سماحها، وسمت مناقبه، بأثلاق غررها
وإشراق أوضاعها، وأمت مواكبها، ديار العدا فشدت عليهم مشهور قراعتها ومنصور
كفاحها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أصابت أكنفهم في السلم بمسغفات
أفلامها وصالت أيديهم في الحرب بمزهرات رماحها، ما جرت الأقدار بمناحها،
وسرت المباذ بمناحها، وظهرت آثار الإقبال التام على من له بخدمة أمتنا أهتام واحتفال
فلاح على مقاصده معهود فلاحها . وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن أولى من لمح نظرنا الشريف حيث كان، ورجحه فكرنا الحسن
الجميل فمنحه الإجمال والإحسان، من لم يزل شكره أرجا بكل مكان، وذكره بهجاً
تسرى به الركائب وتسير به الركبان، وصدره الرحيب مستودع الأسرار فلا تُصاب
إذ كانت فيه نصان، وقدره عندنا المحفوظ المكانة، فإن بعد فهو قريب دان، وأمره
منا المحفوظ بالإعانة، فلا يزال تولى البر وتعالى له الشأن .

ولما كان فلان



وهذه نسخة منشور، كتب به للأير سعد الدين مسعود بن الخطيرى، من إنشاء
الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء، وهو :

الحمد لله على نعمه التى زادت سعودا، وضاعفت صعودا، وكرمت فى أيامنا من
لا حاجب له عن أن تمنحه من إنامننا مزيدا، وقدمت بين أيدينا الشريفة من
أولائنا من غدا قدره عندنا خطيرا وحظه لدينا مسعودا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَنْجَزَ لِأَصْفِيَانَا مِنْ وَفَائِنَا وَعُودَا، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَحْمَدُ لِمُخْلِصِهَا صُدُورًا وَوُرُودًا، وَتَلْقَى مُؤْمِنَهَا بِالْبَشَرِ إِذَا جَمَعَ الْمَوْقِفُ وَوُودَا، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَرَّفَ بِإِنْجَاذِهِ مَطْرُودًا، وَأَرْدَفَ بِالْمَلَائِكَةِ جُنُودًا، وَأَوْصَلَ بِهِ حُقُوقًا وَأَقَامَ حُدُودًا، وَحَجَّبَ بِبَرَكَاتِهِ وَفَتْكَاتِهِ الْأَسْوَءَ فَعَدَا الْعَدْلُ مَوْجُودًا، وَأُصْحَى الْحُكْمُ مَقْصُودًا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا وَعَلَى الْمَشْرِكِينَ شَدِيدًا.

أَمَّا بَعْدُ، فَنِعْمَنَا إِذَا أَوَّلَتْ وَلِيًّا، مَنَحَهَا وَالْتَ، وَإِذَا قَدَمْتَ صَفِيًّا، وَهَبْتَهُ مَنَزِيدَهَا وَأَنَالَتْ، وَإِذَا أَقْبَلْتَ بَوَاجِهَ إِقْبَالِهَا عَلَى مُخْلِصٍ تَتَابَعَتْ إِلَيْهِ الْمَسَرَّاتِ وَأَنَثَلَتْ، لَا سِيَّيَا مِنْ أَطَابَتِ الْأَلْسِنَةُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ وَأَطَالَتْ، وَجِلَّتِ سَبَّيَاهُ عَلَى الْعَدْلِ وَالْمَعْرِفَةِ فَمَا حَافَتْ وَلَا مَالَتْ، وَأَوْصَلَتْ رَأْفَتَهُ مِنَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ وَعَلَى الْمَجْرُمِينَ سَطَوْتُهُ صَالَتْ، فَيُسَمِّنُ مَقَاصِدَهُ هَائِتِ الْخَطُوبُ وَإِنْ كَانَتْ فَتَكَاتُهُ فِي الْخُرُوبِ كَمْ هَائِتْ، وَهَمَمُهُ فِي السَّلَامِ قَدْ جَلَّتْ وَيَوْمَ الرَّوْعِ كَمْ جَالَتْ، وَعِزَائِمُهُ كَمْ غَارَتْ فَأَغَارَتْ وَلِلْعَتِيدِينَ كَمْ غَالَتْ، وَكَمْ سَبَقَ إِلَى خِدْمَتِنَا صَاحِبُ الشَّمْسِ وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الْبَدْرُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَإِنْ هِيَ زَالَتْ.

وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي نَقَلْنَاهُ فِي دَرَجَاتِ التَّقْدِيمِ حَتَّى كَمَلَ بَدْرُهُ، وَوَقَّلْنَاهُ فِي مَرَاتِبِ التَّكْرِيمِ حَتَّى أَصْبَحَ وَهُوَ الْمُسْعُودُ حِظَّهُ الْمَحْمُودُ ذِكْرُهُ، وَخَوَّلْنَاهُ مَوَاهِبَ جُودِنَا الْعَمِيمَةِ فَاسْتَدَّ بَاعُهُ وَاشْتَدَّ أَرْزُهُ.

فَلِذَلِكَ نَخْرِجُ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ - لَا بَرَحَ إِنْْعَامُهُ يَجِلُّ عَنِ الْحَضَرِ، وَدَوْلَتُهُ يُخْدِمُهَا الْعِزُّ وَالنَّصْرُ، وَإِكْرَامُهُ يَقْضِي بِمَسَرَّاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِالْجَمْعِ وَيُقْضَى إِلَى أَعْمَارِ الْأَعْدَاءِ بِالْقَضَرِ -



وهذه نسخة منشور، كُتِبَ به لعلاء الدين إيدغمش أمير اخور الناصري [كُتِبَ به في الدولة الناصرية] محمد بن قلاوون، من إنشاء الشريف، وهو :

الحمد لله الذي زاد علاء دولتنا الشريفه ، وأفاد النعماء التامة من قام بين أيدينا أتم قيام في أتم وظيفه ، وأجاد الآلاء المتواليه بمن أعنة الجياد بإشارته مصرفة ومنة الجود بسفارته مصروفة ، وأراد الأصطفاء لأعز همام : في قلوب الأولياء له محبة وفي قلوب الأعداء منه خيفة ، وأباد أولى العناد بفتكاته التي بها الغوائل مكفية والطوائل مكفوفة ، وشاد الملك الأعز بإرفاد ولي له الشجاعة المشكورة والطاعة المعروفة .

نحمده على أن جعل اختياراتنا بالتسديد محفوظة وبالتأييد محفوفة ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة السرائر لإخلاصها ألوفه ، والضمائر على اختصاصها معطوفة ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي نسله من النبعة المنيفة ، وأرسله بالشرعة الحنيفة ، وفصله بالرفعة على ظهر البراق إلى السبع الطباق وجنود الأملاك به مطيفة ، صلى الله عليه وعلى آله ذوى الهمم العالية والشيم العفيفة ، ورضى الله عن أصحابه الذين لو أنفق أحد مثل أحد ذهب ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، صلاة تبيض بالأجور الصحيفة ، وتعوض بالوفور من مبراتنا الجليلة بفكرتنا الجميلة اللطيفة ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فكمنا يسبغ المواهب والمنائح ، ونعمنا تبلغ المآرب والمنائج ؛ فلا نبرح ننقل في درجات الصعود من هو في خدمتنا لا يبارح ، ويتكفل صالح نظرنا الشريف صلاح حال من أجهل النصائح وأثل المصالح ؛ فكم راض لنا من جامع ، وخاض بحر الوغى على ظهر سايح ، وحمى رواق الإسلام من رعبه بذب ورمى

أعناق الكفار من غصيه بذابح ، وأصمى المقاتل بكل نابل يستجن في الجوانح ،
وأنتمى إلى سعادة سلطاننا الناصر الفاتح ، وسمّا عزّم إعلائه بتقريبه وإدناؤه إلى
السماء الرامح . طامس الكفار الضمّ إذ مسّاهم بالعاديات الضوايح ، وأحسّ كل
منهم بالدمار لما ظنّ أنه لحربه يكابد ولحزبه يكافح ، وصبّحهم بإغاراته على الموريات
قدحاً فأغرى بهم الخطوب الفوايح ، وطرحهم بالفتكات إلى الهلكات فصاحت
[رقابهم] رقب الصنّاع ، وأخلى من أهل الشرك المسارب والمسارح ، وأجلى أهل
الإفك عن المطارد والمطارح .

ولما كان فلان هو الذى استشار إليه شأن هذه المدائح ، وسار بذكره وشكره كل
غادٍ ورائح .

خرج الأمر الشريف - لا براح سبيل هداة الواضع ، وجزيل نداه يغدو كالغواذى
بالعائد والبادى من فضله وهو الناصح ،



وهذه نسخة منشورة ، كتبت به للأمر شمس الدين سنقر البكتوقى الشهير
بالمسّاح ، وهى :

الحمد لله الذى أجزل المواهب ، وجدد من النعم ما لا تزال الألسنة تتحدث
عن بحرها بالعجائب ، وأطلع فى أفق الدولة الشريفة شمساً تستمد من أنوارها
الكواكب .

(١)
نحمده على نعم يتوالى درها توالى السحاب ، ويغالى درها عن أن تطوق به الأذنان
والترائب ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تختص قائلها من

(١) المراد بالتطويق هنا مطلق التحلية وكان الأولى «أن تفرط به الأذنان وتطوق به الأعناق وتحلى به الترائب» .

درجات القبول والإقبال بأسمى الدرجات وأسنى المراتب ؛ ونشهد أن محمداً عبده
ورسوله الذي أصطفاه من لؤى بن غالب ، وصان بيعته الشريفة رداء النشك
عن كل جاذب ، وخصه بأشرف المواهب ، وصير الإيمان بنور هدايته واضح
السبل والمداهب . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يمضي جزء من الدهر
إلا ووجودها فيه وجود الفرض الراتب ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أحق من حلى من النعماء بأفضل العقود ، وخص بأضنى ملايس
الإقبال وأضنى مناهل الإفضال : فاستعذب من هذه الورود ، واختال من هذه
في أجمل البرود ، ومنح من الإقبال بكل غادية تحجل السحاب إذ يجود ، وإن
رقت بها الأفلام سطورا في طروس أزرت بالزهر اليناع والروض المجود ، ونقل
قدره من منزل عز إلى منزل أعز فكان كالشمس تنقل في منازل الشرف والسعود -
من ظهرت مكارم سماته ، واشتهرت محاسن صفاته ، وطلعت في سماء العجاج نجوم
خرصانه ولمعت في دجى النقع بروق ظباته ، وقدم على الجيوش والجحافل فظهرت
نتائج التأييد والتسديد من تقدمه وتقدماته ، وهزم جيوش الأعداء ، في مواقف
الهيحاء ، ببات أقدامه في إقدامه ووثباته ، وتجرد في المهمات والمهمات تجرد
الماضيين : من سيوفه وعزماته .

ولما كان فلان هو الموصوف بهذه الأوصاف الجميلة ، والمنعوت بهذه المحاسن
الجميلة ، والمشار إليه بهذه الحمائد والمآدح التي ترهق على زهر الكواكب ، وتسمو
بماله من جميل المآثر والمناقب - أوجب له الاختيار المزيد ، وقضى له الامتنان
بتحويله نعماً وتنويله منناً : تُضحى هذه عقداً في كل جيد ، وتسمى هذه مقربة له من

الآمال كل بعيد — واقتضى حسن الرأي الشريف أن يمنح بهذا المنشور : ليخص
من الأولياء بالسعد الجديد والحد السعيد .
فلذلك نخرج الأمر الشريف



وهذه نسخة منشور، كُتب به للأمر خاص ترك في الروك الناصري، وهي :
الحمد لله على نعمته التي سرت إلى الأولياء ركايتها ، وهمت على رياض الأصفياء
سحائبها ، وتوالت إلى من أخلص في الطاعة بغرائب الاحسان رغائبها ، وتكفلت لمن
خص بأشنى رتب البر الحسان مكارمها العميمة ومواهبها ، وغمرت بحار كرمها الزاهرة
من يحدث عن شجاعته ولا حرج كما يحدث عن البحور التي لا تقى عجائبها .

نحمده على نعمته التي إذا أغبتنا سحاب الندى أعقبت سحاب ، وخصت الخواص
من درج الامتنان بمراتب تراجم الكواكب على نهر المجرة بالنسب ، ونشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا يزال الجهاد يرفع ألويتها ، والجلاد يعمر
بوفود الإخلاص أنديتها ، والإيمان يسيد في الآفاق أركانها الموطدة وأنديتها ، ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله الذي أيده الله بنصره ، وخصه بمزية التقدم على الأنبياء مع
تأخر عصره ، وآتاه من المعجزات ما تكفل السنة الأعلام عن إحصائه وحصره .
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حاطوا دينه بالمحافظه على جهاد أعدائه ، وأيدوا
ملكه بإعادة حكم الجلاد في سبيل الله وإبدائه ، صلاة لا يزال الإيمان يقيم فرضها ،
والإيقان يملأ بها طول البسيطة وعرضها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من ضوعفت له النعم ، ووطدت له الرتب التي لا تدرك غاياتها
إلا بسوابق الخدم ، وأشرق به مطالع السعود ، وحقت له مطالب الاعتلاء

والصُّعُودُ؛ ورفَعتهُ مواقعُ الإحسانِ إلى أسنى المراتب التي هو مَلِيٌّ بارتقائها، وتَوَلَّتْ له هَوَامِيعُ البرِّ والْأَمْتَانِ آتِقَاءَ فرائدِ النِّعمِ التي هو حَقِيقٌ باختيارها وَاِنتِقَائِهَا؛ وبلغتهُ العِنايةُ بأجلِّ مما مَضَى قَدْرًا، وَاِستَقْبَلَتْهُ الرِّعايةُ من أَفْقِ الإقبالِ بما إذا حَقَّقَ التَّأَمُّلُ وَجِدَ هِلاَلَهُ بَدْرًا - مَنْ رُبِّيَ في ظِلِّ خِدْمَتِنَا التي هي مَنَشَأُ الْآسَادِ، وَمَرْبَى فُرْسَانِ الْجِهَادِ، وَغَرِينُ لِيُوثِ الْوَعْيِ التي آجَامُهَا عَوَالِي الصَّعَادِ؛ وَبَرَانِهَا مَوَاضِي السُّيُوفِ الْحِدَادِ، وَفِرَائِسُهَا نُجُومُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَحُمَاةُ أَرْبَابِ الْعِنَادِ؛ فَكَمَ لَهُ في الْجِهَادِ مِنْ مَوَاقِفَ أُعْزِزَ الدِّينَ، وَأُذِلَّتِ الْمُعْتَدِينَ؛ وَزَلْزَلَتْ أَقْدَامُ الْأَبْطَالِ، وَزَحْزَحَتْ ذَوِي الإِقْدَامِ عَنِ مَوَاقِفِ الْمَجَالِ؛ وَحَكَمَتْ صَفَاتُهُ فِي الْقِمَمِ، وَأَنْبَتَتْ صِفَاتُهُ فِي مَنَابِتِ الْحِمَمِ؛ وَفَرَّقَتْ مَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ صُفُوفٍ، وَأَرْتَمَتْ كَيْفَ تُعَدُّ أُلُوفُ الرِّجَالِ بِالْأَحَادِ وَآحَادُهَا بِالْأُلُوفِ .

ولما كان فلان هو الذي أُشِيرَ إلى مناقبه، وَنَبَّهَ على شهرة إقدامه في كل موقف يَمُنُّ عَوَاقِبُهُ، وَأَوْمِئَ إلى خصائص أوصافه التي ما زال النصرُ يَلْحُظُهَا في مَشَاهِدِ الْجِهَادِ بَعَيْنٍ مُلَاحِظَةٍ وَمُرَاقِبَةٍ - أَقْتَضَتْ أَرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ تُجَدِّدَ اعْتِلَاءَ مَجْدِهِ، وَتَزِيدَ في أَفْقِ الِارْتِقَاءِ إِضَاءَةَ إِقْبَالِهِ وَإِنَارَةَ سَعْدِهِ .

فلذلك نخرج الأمر الشريف لا زال :



وهذه نسخة منشور كُتِبَ به في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون لجمال الدين أقوش الأشرفي، المعروف بنائب الكرّك عند خروجه من الحبّ، وهي :

الحمد لله مفرج القلوب، ومفرج الكرب، ومبجج النفوس بذهاب غيابه
الخطوب، ومبلغ من تقدم عهده في حفظ ولائنا نهاية المرغوب، وغاية المطلوب؛
الذى أعاد إلى المخلصين في طاعتنا النعمة بعد شرودها، وعوضهم عن تقطيب الأيام
بابتسامها وعن تحولها بسعودها، وألقى على الأول منهم جمالا لا يسع الأذهان أن
نتصيف بإنكار حقوقه ونحودها.

نحمده على ما وهبنا من الأناة والحلم، وخص به دولتنا من المهابة التي تُخشى يوم
الحرب والمواهب التي تُرجى يوم السلم؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
شهادة تكفلت بالنجاة لقليلها، وأغنت من حافظ عليها عن ضراعات النفوس
ووسائلها؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث برعاية الدّم، والمنعوت بحسن
الرأفة التي هي شعار أهل الوفاء والكرم، [صلى الله عليه] وعلى آله وصحبه ما تلافت
الأقدار نفوسا من العدم، وتوافيت الأمانى والمناجح فأظفرت من أخلص نيته الجميلة
برد ضالة النعم، صلاة تُضفي على الأولياء حلل القبول والرضا، وتُضفي من الأكرار
مناهل سُورهم فكان الخطب أبرق وأومض فضى، وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فإن أولى من انتظمت بعد الشتات عقود مساره، وأبتسمت بعد
القطوب ثغور مبارزه، وأشتمت عواطفنا عليه بخلبت أسباب منافعه وسلبت جلاب
مضاره، وأحتفلت عوارفنا بالملاحظة لعهد الوثيق العرا، والمحافظة على سالف
خدمته التي ما كان صدق ولائها حديثا يُفترى؛ وسبق له من الاختصاص
في الإخلاص ما يرفع من خاطرنّا مكانة عالية الذرا - من أضحى من السابقين
الأولين في الطاعة، والباذلين في أداء الخدمة والنصيحة لدولتنا جهد الاستطاعة،
والساكنين للمالك بحسن الخلة وجميل الاعتزام، والمحافظين على تشييد قواعد الملك

بآرائه وراياته التي لا تُسامى ولا تُسام ، وأمسى هو الولي الذي لا يُشاركه أحد
 في إخلاص الضمير في موالاتنا وصفاء النيّة ، ولا يُساهمه وليّ فيما أشتل عليه من
 صدق التعبد وجميل الطويّة ، والمخلص الذي انفرد بخصائص الحقوق السابقة
 والآتية ، وأمتاز بموجبات خديم لا يُجحدُ محافظتها التالدة والطارفة ، وطلعت شمس
 سعادته في سماء مملكتنا فلم يُسبها الغروب ، وأضاء بدره في أفق عزّه فكان سراره
 مُذهبا لأعين الخطوب .

ولما كان فلان

الضرب الثالث — مما يفتح بالحمد مناشيرُ أمراء الطبليخانة .

وقد تقدّم أنّها كناشير مقدّمة الألوّف في الترتيب إلا أنّها أخصّر منها .

وهذه نسخ مناشير من ذلك :

نسخة منشور كُتب به لبعض الأمراء ، وهي :

الحمد لله رافع الأقدار ، ومُجزل المبار ، وجاعل يمين كرمنا مبسوطة باليسار .

نحمده على غيث فضله الدار ، ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
 سرت الأشرار ، وأذهب نورها ما كان للشرك من سرار ، ونشهد أنّ محمدا عبده
 ورسوله الذي أنجد له في نصر الحق وأغار ، وأرهف من سيف النصر الفرار .
 صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان ثاني اثنين في الغار ، ومنهم من
 سبق له دعوة سيد المرسلين من سالف الأقدار ، ومنهم من كرم الله وجهه فكان له
 من أعظم الانتصار .

وبعد، فإنَّ العطايا أيسرُ ما يكونُ تنوِيلُها، وأسرُّ ما يُلقَى تحوِيلُها، إذا وَجَدْتَ مَنْ هو لرايتها متلقياً، وفي ذُرَا الطاعة مترقياً، وَمَنْ إذا صَدَحَتْ حمامُ التأييد كانت رِماحُه الأغصان، وألويته الأفنان، وَمَنْ تَرَدَّى ثياب الموت حُمرا فما يَأْتِي لها الليل إلا وهى بالشهادة مُحَضَّرَةٌ من سُندس الجنان، وإذا شَهِرَ عَضْبُه، أَرْضَى رَبَّه، وإذا هَزَّ رُجْمَه، حَمَى سَرَحَه، وإذا أَطْلَقَ سَهْمَه، قَتَلَ شَهْمَه، وإذا جَرَّدَ حُسَامَه، كَانَ حَسَامَه، وإذا سافَرَتْ عِزُّهُمُ لَتَطْلُبَ نَصْرَه، حَلَّتْ سُيُوفُه بِنِجَافٍ بِالْأَوْجَالِ جَمْعاً وَبِالْآجَالِ قَصْرًا .

ولما كان فلانٌ هو الذى جَمَعَ هذه المناقبَ الجمَّة، وأَمْتَنَ بالَصَّرامةِ وَعُلوِّ الهِمَّة، أَسْتَحَقُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْه بِعَيْنِ العِناية، وَأَنْ يُجْعَلَ أَبْتَدَأُوه فى الإِمْرَةِ دَأْلًا عَلَى أَسْعَدِ نَهَايَه .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا زال يرفع الأقدار، ويُجْزِلُ المَبَارَّ، أَنْ يُجْرَى فى إِقْطَاعِ



وهذه نسخة منشور لمن لَقِبَه زَيْنُ الدين، وهى :

الحمد لله الذى وهَبَ هذه الدولةَ من أوليائها أَحْسَنَ زَيْنَ، وَمَنَحَهَا مِنْهُمْ مَنْ يَشْكُرُ السِّيفَ وَالْعِزَّانُ مِنْهُ الْيَدَيْنِ، وَمَنْ يَمْلَأُ وَلَاؤُهُ الْقَلْبَ وَشَأْؤُهُ السَّمْعَ وَبَهَاؤُهُ الْعَيْنَ .

نَحْمَدُه عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي نَفَتْ عَنْ نُورِ الْمُلْكِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَيْنٍ، وَأَبْقَتْ لَهُ مِنْ كِبَارِهِ وَحُمَاتِهِ مَنْ لَا فِى إِخْلَاصِهِ رَيْبٌ وَلَا فِى مَحَافِظَتِهِ مَيِّنٌ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مَتَبَرِّئُ مِنَ اتِّخَاذِ الْهَيْئِ اثْنَيْنِ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ شَهَادَةً مَتَمَسِّكٌ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ بَعْرَتَيْنِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاحَةً دَائِمَةً

ما جَمَعَ المسافرين من الصلوات بين الأختين ، وما جلس خطيب بين خطبتين ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن خير من رَقِيَ خَطيْبُهُ إلى أرفع رُتبه ، وأنجح في تخويل النعم على كل طَلِبة ورغبة ، لا بل أُهديت إليه عرائس النعماء وقد ابتدأت هي بالخطبة ، وكثر له في معروف أصبح ببذله معروفًا ، وأعين على جود أمسى به موصوفًا ، وذُلت له فُطوف إحسان كم ذلَّ الأولياء [من أجله] في مَراضى الدولة ومحابها فُطوفًا فُطُوفًا - مَنْ خَلَفَ الْمَلِكَ أَحْسَنَ الْخَلَفَ ، وَمَنْ لَهُ بِفَعْلِ الْخَيْرِ أَعْظَمُ كَلَفَ ، وَمَنْ يَشْهَدُ لَهُ بِالشَّجَاعَةِ الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِدَاءُ ، وَالسَّيْفُ وَالرَّيْحُ وَالْأَعْدَاءُ ، فَلَا غَزْوَةَ إِلَّا لَهُ فِيهَا تَأْثِيرٌ وَأَثَرٌ ، وَلَا نَدْوَةَ إِلَّا وَبِهَا مِنْ وَصْفِهِ بِالذِّكْرِ الْجَمِيلِ سَمَرٌ ، تَشْتَوِفُ إِلَى مِلَاحِظَةِ غُرَّتِهِ كُلِّ عَيْنٍ وَيَتَبَيَّنُ لِحَاظَتِهِ فِي الْوُجُودِ كُلِّ أَثَرٍ ، مَا أَنْارَ وَجْهَهُ فِي نَهَارٍ سَلَّمَ إِلَّا وَقِيلَ الشَّمْسُ وَلَا بَدَأَ فِي لَيْلٍ خَطْبٍ إِلَّا وَقِيلَ الْقَمَرُ .

ولما كان فلان هو بدر هذه الهاله ، وجل هذه الحلاله ، ونور هذه المقله ، ولايس هذه الحله - اقتضى حسن الرأي الشريف أن تكثر لديه النعم وأن يجرى بتنمية الإحسان هذا القلم .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا برح يجود ، وبالحيرات يعود - أن يُجرى في إقطاعه



وهذه نسخة منشور من ذلك ، وهي :

الحمد لله الذي أيد دولتنا القاهرة بكل راية تُعقَد ، وأمين يؤمّر وجنود يُجنّد ، وكلّ بطل إذا جرد عزمه سلم إليه المهند ، وأشتبه الرُحُّ بمعاطفه فلم يدر أيهما تأود .

نُحْمَدُ كما يَجِبُ أن يُحْمَدَ ، ونَمْدَحُهُ بما لا يُمَانِلُهُ الدُّرُّ المنصَّدُ ؛ ونَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ أَفْضَلَ ما بِهِ تَشْهَدُ ؛ ونُصَلِّيُ على نَبِيِّهِ وعَبْدِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ في كُلِّ مَقَالٍ يَتَجَدَّدُ ، صَلَاةً فِيهَا الْأَقْلَامُ لا تَتَرَدَّدُ فيما تَتَرَدَّدُ ، وَرَضَى اللهُ عَنْ أَصْحَابِهِ وَسَلَّمْ وَكَرَّمَ وَجْهَهُ ، ما غَرَبَ فَرَقْدٌ وَطَلَعَتْ شَمْسٌ ثُمَّ ما غَرَبَتْ شَمْسٌ وَطَلَعَ فَرَقْدٌ .

وبعدُ ، فإنَّ لآرائنا العالِيَةِ المَزِيدِ في كُلِّ ما تَقْتَضِيهِ ، وفي كُلِّ مَنْ تَرْتَضِيهِ ، من جَمِيعِ أَوْلِيائِها ، لِجَمِيعِ آلائِها ، مَنْ فاقَ أُنْباءَ جَنْسِهِ ، وَكانَ في أُمثالِهِ وَحيداً لَّأنَّهُ لا يُوجَدُ لَهُ نَظيرٌ وَهُوَ كَثيرٌ بِنَفْسِهِ ، وتَسابقتِ الخِيَلُ إلى أَرْفاقِهِ على صَهواتِها ، والتَطَمَّتْ بِحارِّ الوَغى لما أُلْقِيَ لَهُ كُلُّ سابِجٍ في غَمراتِها ، وأَفْتَحَتِ القِسيَّ بِمدِّهِ الَّذي لا تَخْرُجُ بِهِ الْأَقْمارُ عَنْ هالِاتِها ، وَالسِّيُوفُ لَأنَّهُ إِذا أَشْتَرَكْتَ مَعَهُ في لَقَبٍ كانَ أَسْمى مَسْمِياتِها ، وَالرِّماحُ لَأنَّهُ كَمَّ لَهُ عَلَيْها مِنْ مِئَةٍ ما أَطْلَقَها في الحُرُوبِ مِنْ أَعْتِقالِ راياتِها ؛ وَتَجَدَّدَتِ الْأُسْنَةُ فيما يَتَلَوُّهُ مِنْ سُورَاتِ الفُرْسانِ لَأنَّهُ أَكْبَرُ آياتِها ، وَهُوَ الَّذي أُنْتَظِمَتْ بِهِ المَعالي وَالْعِوَالِي قَصْداً الَّذي بِهِ يَرى غَمراتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُها على ما هِيَ عَلَيْهِ مِنْ إِهالِاتِها ، مَعَ مالِهِ في خِدمَتِنا الشَّرِيفَةِ مِنْ سِوائِ لا تُجاري في سَبيلِ ، ولا يَلْحَقُ لها شَأْواً أَشْهَبُ الصَّبْحِ ولا أَدْهَمُ اللَّيْلِ ولا أَشَقَرُ البَرَقِ ولا أَصْفَرُ الْأَصِيلِ . فَاقْتَضَتْ صِدْقَاتُنا الشَّرِيفَةُ لَهُ الإِحْسانَ ، وَتَقاضَتْ عِوارِفُنا الحِسانَ ، فَرَفَعَتْ لَهُ رِبتَهُ لا يَبْلُغُها كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِاللِّسانِ ، وَكانَ فُلانٌ هُوَ الَّذي حَسُنَ وَصْفاً ، وَشَكَرَتْ مِساغِيهِ سَجاياهُ وَهُوَ أَوْفَرُ وَأَوْفَى .

فلذلك نخرج الأمر الشريف

(١) يريد من ههنا ولكن السجع أضطره إلى أن يجارى العوام في لغتهم .



وهذه نسخة منشور، وهي :

الحمد لله على نعمه التي أسنت المواهب ، وأغنت الأولياء بالائها عن دؤم الدِّيم
وسخّ السحاب .

نحمده على غرائب الرغائب ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
تتكفل لقائلها ببلوغ المآرب ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أفتخرت
باسمه المناقب ، وانتصرت بعزمه المقائب ، وقهر ببأسه كل جان وعمر بناسه كل
جانب ، وكشف الله ببركته اللأواء ، وغلب بفتكاته الأعداء ، وكيف لا وهو سيد
لؤي بن غالب . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أذلّ بجهادهم المحارب ، وسلم
تسلما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من أعدبنا نملّه ، وأنجحنا أملّه ، وأجرنا [له] من هبات
جودنا [وأغدقنا عليه من منن عطائنا ورغدنا - من نازل الأعداء يوم الوغى فراح]
إلى أعلامهم فنكسها وإلى أعناقهم فوقصها ، وحكم سيفه في أشلائهم وأرواحهم :
فهذه آفتناها وهذه آقتنصها ، ما فوق يوم الرّوع سهمه إلا أصاب المقاتل ، ولا شهر
سيفه إلا قهر ببأسه كل باسل ، ولا سارت عقبان راياته إلى معترك الحرب صحنى إلا
ظلل بعقبان طير في الدماء نواهل .

ولما كان فلان هو الذى يُشير إليه بناتُ هذا المدح ، ويسير إليه إحسانُ
هذا المنح .

(١) زدنا هذه الكلمات لاحتياج المقام إليها .

(٢) فى الأصل "فنكصها" وهو لا يفيد ما يريد .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا برحت ظلال كرمه وارفه، وسحاب نعمه
واكفه - أن يُجرى في إقطاعه



وهذه نسخة منشور تصلح لمن مات أبوه، وهي :

الحمد لله الذي جعل سماء كرمنا، على الأولياء هامية السحاب، وعوارف نعمنا،
جميلة العقبي للأعقاب، وعواطف أيماننا الشريفة تجزل العطاء وتجبر المصاب .

نحمده على نعمه التي ما سئنت العيون إلا أفرتها، ولا آكتابت النفوس بملمة إلا
سرتها؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا يزال ربح الأنس بها
معمورا، وصدع النفس بها مجبورا؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أصبح
شعث الإيمان به مأموما، وحرب الطغيان به مهزوما، وداء البهتان بجسامه محسوما .
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كان [هو] بذر السيادة وكانوا نجوما ، صلاة
لا يبرح ذكرها في صحائف القبول مرقوما، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من درت أخلاف جودنا خلفه، ورعى كرمنا خدام سلفه ،
ونقلنا هلاله من تقرينا إلى منازل شرفه، وأجراه إحساننا على جميل عوائده، وسوغه
نوالنا أعذب موارد، وجمع له إناعنا بين طارفيه وتالده، من استمسك من سبب
إخلاصنا بأكده، وحدّا في ولائنا أحسن حدو ولا عمرو أن يحدو الفتى حدو والده،
وأشتهر بالشهامة التي أغنت بمفردها عن الألوف ، وعُرف بالإقدام الذي طلما
فرّق الجموع وأخترق الصفوف، مادّا من الأعداء إلا دنت منهم الختوف، ولا أظلم
ليل النقع إلا جلت أنجم الصعاد وأهله السيوف .

ولما كان فلان هو الممدوح بحجل هذه الشِّيم ، والمنوح جزيل هذه النعم ، والشَّيبة
في مولاتنا بأبيه ومن أشبه أباه فما ظلم .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا برحت سحِب كرمه هاطلة الأنواء ، شاملة
الآباء والأبناء - أن يُجرى في إقطاعه

النوع الثاني

(من المناشير ما يفتتح بـ «أما بعد» ويختص بأمراء العشرات ومن في معانهم :

كأمراء العشرينات ونحوهم ممن لم يبلغ شأوَ الطبائعات)

وهي على ضربين :

الضرب الأول

(في مناشير العشرات كائنًا ذلك الأمير من كان)

وهذه نسخُ مناشير من ذلك :

نسخة منشور من ذلك ، وهي :

أما بعد حمد الله على نعمه التي يُبديها ويُعيدُها ، ويُفيئها ويُفيدُها ، ويُديمها
على من شكر ويزيدها ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي نزلت لنصره ملائكةُ
السماء وجنودُها ، وأخذت على الإقرار بنبوته مواثيقُ الأملاك وعهودُها ، وعلى آله
وصحبه الذين هم أُمْناء هذه الأمة وشموودُها - فإنَّ أحقَّ من تقلَّب في إنعامنا ، وتقدَّم
في أيَّامنا ، وتوالَّت اليه آلاؤنا تترى ، وتكرَّرت عليه نعمائنا مرَّة بعد أخرى ، من
ظهرت آثار خدمته ، وصحَّت أخبار مجده ، وشكرت مساعيه الجليله ، وحُمدت

دَوَائِهِ الْجَمِيلَةِ ، وَكَانَ لَهُ مِنْ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى ، مَا يُنِيلُهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْأَعْلَى وَمِنْ الْمَطَالِبِ الْأَسْنَى .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ مِّنْ زَانَتِهِ طَاعَتُهُ ، وَقَدَّمَهُ إِقْدَامُهُ وَشَجَاعَتُهُ ، وَشَهِدَتْ لَهُ مَوَاقِفُ الْحُرُوبِ ، أَنَّهُ مُجَلِّي الْكُرُوبِ ، وَأَقْرَبُ الْوَعْيِ ، بِإِبَادَةِ مَنْ بَغَى ، وَكَانَ لَهُ مَعَ الشَّهَامَةِ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ ، وَالسَّهْمِ الصَّائِبِ ، يُصِيبُ وَلَا يُصَابُ ، جَذَعُ الْقَرِيحَةِ ، رَابِطُ الْجَأَشِ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْأَذْهَانِ الصَّحِيحَةِ - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ تُرْفَعَ دَرَجَتُهُ ، وَتُعْلَى رُتَبَتُهُ ، وَيُنْتَظَمَ فِي عَقُودِ الْأُمَرَاءِ ، وَيُسَلِّكَ بِهِ جَادَّةُ الْكِبَرَاءِ ، لَتَرْقِيَهُ فِي دَرَجِ السَّعَادَةِ ، وَتَبْلُغَ بِهِ رُتَبَةَ السِّيَادَةِ .

فَلِذَلِكَ نَحَرَجَ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ - لَا بَرَحَتْ هَامِيَّةٌ غَوَادِي آلَائِهِ ، سَابِغَةٌ مَلَائِسُ نَعْمَائِهِ - أَنْ يُجْرَى فِي إِقْطَاعِهِ



وهذه نسخة منشور من ذلك ، وهى :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ الَّتِي فَسَّحَتْ فِي كَرَمِهَا مَجَالَ الْمَطَالِبِ ، وَفَتَحَتْ لَخْدَمِهَا أَبْوَابَ مُنْجَحِ الْمَأْرِبِ ، وَحَقَّقَتْ فِي عَوَارِفِهَا آمَالَ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهَا مِنَ الْخِدْمَةِ وَالطَّاعَةِ بِأَنْجَحِ مَا تَقَرَّبَ الرَّاجِبُ إِلَى الرَّغَائِبِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي زَوَى اللَّهُ لَهُ [الْأَرْضَ] لِيَرَى مَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ الْكَوَاكِبُ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ آسَتْهُمْ فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ الْمَصَاعِبِ ، وَرَمَى اللَّهُ مِنْ الْخُدَى فِي دِينِهِ مِنْ سَطَوَاتِهِمْ بَعْدَابٍ وَاصِبٍ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَنْ تَلَقَّيْتَهُ وَجْوهَ النَّعْمِ السَّوَابِرِ ، وَاسْتَقْبَلْتَهُ نِعَمَ الْعَوَارِفِ الَّتِي هِيَ مِنْ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ نَوَافِرِ ، وَأَنْتَهُ السُّعُودُ الْمُقْبِلَةِ ، وَوَانْتَهُ الْآلَاءُ الْمُتَقِيْمَةُ وَالْمُسْتَقْبَلَةُ ، مَنْ صَحَّتْ شَجَاعَتُهُ فِي مَوَاقِفِ الْجِهَادِ الْمُدْهَمَةِ ، وَتَمَحَّتْ شَهَامَتُهُ فِي الْوَعْيِ بِمَجَالِ السُّيُوفِ الْمُرْهَفَةِ

عن أحمد . وذهب أبو حنيفة إلى أنه الحلف على الماضي من غير قصد الكذب في يمينه ، مثل أن يظن شيئا فيحلف عليه ، وهو الرواية الثانية عن أحمد ، وحكى عن مالك أن هذه هي اليمين الغموس .

الطرف الثاني

(في التحذير من الوقوع في اليمين الغموس)

أما اليمين الغموس فإنها من أعظم الكبائر ، وناهيك أنها تغمس صاحبها في الإثم . وقد قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ . وقال جل وعز : ﴿ وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان » . وقد قيل إن التوحيد (وهو : الذي لا إله إلا هو) إنما أوصّل في اليمين رفقا بالخالف كي لا يهلك لوقته ، فقد روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « إذا حلف الخالف بالله الذي لا إله إلا هو ، لم يعاجل لأنه قد وحد الله تعالى » .

ويروى أن جعفر بن محمد عليه السلام : أدعى عليه مدّج عند قاض ، فأحلفه جعفر بالله ، لم يزد على ذلك ، فهلك ذلك الخالف لوقته ، فقال القاضى ومن حضر : ما هذا ؟ فقال : إن يمينه بما فيه ثناء على الله ومدح يؤخر العقوبة كراما منه عز وجل وتفضلا . وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أحلفوا الظالم إذا أردتم يمينه بأنه بريء من حول الله وقوته ، فإنه إذا حلف بها كاذبا عوجل » .

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن عبد الله بن مضعب الزبيرى سعى يحيى بن عبد الله بن الحسن إلى الرشيد، بعد قيام يحيى بطلب الخلافة، فجمع بينهما وتوافقا، ونسب يحيى إلى الزبيرى شعراً يقول منه :

قَوْمُوا بْبَيْعَتِكُمْ نَهَضْ بِطَاعَتِهَا * إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ يَا بَنِي حَسَنَ

فأنكر الزبيرى الشعر، فأحلفه يحيى، فقال : قل قد برئت من حول الله وقوته، واعتصمت بحولى وقوتى، وتقلدت الحول والقوة من دون الله استجاراً على الله، واستغناءً عنه، واستعلاءً عليه، فامتنع . فغضب الرشيد وقال : إن كان صادقاً فليحلف، وكان للفضل بن الربيع فيه هوى، فرفسه برجله، وقال : ويحك احلف ! خالف وجهه متغير وهو يرعد، فلما برح من موضعه حتى أصابه الجذام فتقطع ومات بعد ثلاثة أيام، ولما حُل إلى قبره ليوضع فيه انحسف به حتى غاب عن أعين الناس، وخرجت منه غبرة عظيمة، وجعلوا كلما هالوا عليه التراب انحسف، فسحقوه وأنصرفوا .

الباب الثاني

من المقالة الثامنة

(في نسخ الأيمان الملوكة ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء ، وهي على نوعين

النوع الأول

(في الأيمان التي يُخلف بها على بيعة الخليفة عند مبايعته ،

وهي الأصل في الأيمان الملوكة بأسرها)

وأول من رتبها الحجاج بن يوسف حين أخذه البيعة لعبد الملك بن مروان على أهل العراق ، ثم زيد فيها بعد ذلك ، وتنقحت في الدولة العباسية وتنضدت . وكان عادتهم فيها أن يجرى القول فيها بكاف الخطاب ، كما في مكاتبتهم يومئذ ، وربما أتى فيها بلفظ المتكلم .

وهذه نسخة يمين أوردتها أبو الحسين الصابي في كتابه "غُرر البلاغة" وهي :

تُبَايِعُ عَبْدَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَانًا : بَيْعَةَ طَوْعٍ وَأَخْتِيَارٍ ، وَتَبَرُّعٍ وَإِثَارٍ ، وَإِعْلَانٍ وَإِسْرَارٍ ، وَإِظْهَارٍ وَإِضْمَارٍ ، وَصِحَّةٍ مِنْ غَيْرِ نَغْلٍ ، وَسَلَامَةٍ مِنْ غَيْرِ دَغْلٍ ، وَثَبَاتٍ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ ، وَوَفَاءٍ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ ؛ وَأَعْتَرَفَ بِمَا فِيهَا مِنْ أَجْتِمَاعِ الشَّمْلِ ، وَاتِّصَالَ الْحَبْلِ ، وَانْتِظَامِ الْأُمُورِ ، وَصَلَاحِ الْجُمْهُورِ ، وَحَقِّقِ الدِّمَاءَ ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ ، وَسَعَادَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، وَحُسْنِ الْعَائِدَةِ عَلَى أَهْلِ الْمِلَّةِ وَالِدِّمَّةِ - عَلَى أَنْ عَبْدَ اللَّهِ فَلَانًا

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ اللَّهِ الَّذِي أَصْطَفَاهُ ، وَأَمِينَهُ الَّذِي أَرْتَضَاهُ ، وَخَلِيفَتَهُ الَّذِي جَعَلَ طَاعَتَهُ جَارِيَةً بِالْحَقِّ ، وَمُوجِبَةً عَلَى الْخَلْقِ ، وَمُورِدَةً لَهُمْ مَوْرِدَ الْأَمْنِ ، وَعَاقِدَةً لَهُمْ مَعَاقِدَ الْيَمْنِ ، وَوَلَايَتَهُ مُؤَذِّنَةً بِجَمِيلِ الصَّنْعِ ، وَمُؤَدِّيَةً لَهُمْ إِلَى جَزِيلِ النَّفْعِ ، وَإِمَامَتَهُ الَّتِي اقْتَرَنَ بِهَا الْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ ، وَالْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ ، وَأَمَلٌ فِيهَا قَعُّ الْمُلْحِدِ الْجَاهِدِ ، وَرَدُّ الْجَائِرِ الْحَائِدِ ، وَوَقْمٌ الْعَاصِي الْخَالِعِ ، وَعَطْفٌ الْغَاوِي الْمُنَازِعِ . وَعَلَى أَنْكَ وَلِيِّ أَوْلِيَائِهِ ، وَعِدْوٌ أَعْدَائِهِ : مِنْ كُلِّ دَاخِلٍ فِي الْجُمْلَةِ ، وَخَارِجٍ عَنِ الْمِلَّةِ ، وَعَائِدٍ بِالْحَوْزَةِ ، وَحَائِدٍ عَنِ الدَّعْوَةِ ، وَمَتَسِّكٌ بِمَا بَذَلْتَهُ عَنْ إِخْلَاصٍ مِنْ رَأْيِكَ ، وَحَقِيقَةٌ مِنْ وَقَائِكَ ، لَا تَنْقُضُ وَلَا تَنْكُثُ ، وَلَا تُخْلِفُ وَلَا تُوَارِي وَلَا تُخَادِعُ ، وَلَا تُدَاخِي وَلَا تُخَاتِلُ ، عَلَانِيَتُكَ مِثْلُ نِيَّتِكَ ، وَقَوْلُكَ مِثْلُ طَوِيلِكَ . وَعَلَى أَنْ لَا تَرْجِعَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَقُوقِ هَذِهِ الْبَيْعَةِ وَشُرَاطِهَا عَلَى مَمَرِ الْأَيَّامِ وَتَطَاوُلِهَا ، وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَتَنَقُّلِهَا ، وَآخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ وَتَقَلُّبِهَا . وَعَلَى أَنْكَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَدُعَاتِهَا ، وَأَعْوَانِ الْمَمْلَكَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَرِعَاتِهَا ، لَا يَتَدَاخَلُ قَوْلُكَ مَوَارِبَةً وَلَا مُدَاهِنَةً ، وَلَا يَعْتَرِضُهُ مَغَالِطَةٌ وَلَا يَتَعَقَّبُهُ مَخَالِفَةٌ ، وَلَا تُجْبَسُ بِهِ أَمَانُهُ ، وَلَا تَقْلُهُ خِيَانَتُهُ ، حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى مُقِيمًا عَلَى أَمْرِكَ ، وَوَفِيًّا بِعَهْدِكَ ، إِذْ كَانَ مُبَايَعُو وِلَاةِ الْأَمْرِ وَخُلَفَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُ سَعِيطٌ أَبَراً عَظِيماً ۝ ﴾ .

عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ الَّتِي أُعْطِيتَ بِهَا صَفْقَةً يَدِكَ ، وَأُصْفِيَتْ فِيهَا سِرِيرَةُ قَلْبِكَ ، وَالتَّزَمْتَ الْقِيَامَ بِهَا مَا طَالَ عُمرُكَ ، وَامْتَدَّ أَجَلُكَ - عَهْدُ اللَّهِ إِنْ عَهْدَ اللَّهُ كَانَ مَسْئُولًا ، وَمَا اخَذَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ وَحَمَلَةِ عَرْشِهِ : مِنْ أَيْمَانٍ مَغْلَظَةٍ وَعَهْدٍ مُؤَكَّدَةٍ ، وَمَوَاقِفٍ مُشَدَّدَةٍ ، عَلَى أَنْكَ تَسْمَعُ وَتُصَفِّى ، وَتُطِيعُ وَلَا تَعْصِي ، وَتَعْتَدِلُ

وَلَا تَمِيدُ ، وَتَسْتَقِيمُ وَلَا تَمِيلُ ، وَتَنِي وَلَا تَغْدُرُ ، وَتَثْبُتُ وَلَا تَتَغَيَّرُ ، فَتَى زُلْتُ عَنْ
هَذِهِ الْحُجَّةِ خَافِرًا لِأَمَانَتِكَ ، وَرَافِعًا لِدِيَانَتِكَ ، فَجَحَدْتَ اللَّهُ تَعَالَى رُبُوبِيَّتَهُ ، وَأَنْكَرْتَ
وَحْدَانِيَّتَهُ ، وَقَطَعْتَ عِصْمَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْكَ وَجَدَدْتَهَا ، وَرَمَيْتَ طَاعَتَهُ
وَرَاءَ ظَهْرِكَ وَنَبَذْتَهَا ، وَلَقِيتَ اللَّهَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِلَيْهِ ، وَالْعَرِضَ عَلَيْهِ ، مُخَالَفًا لِأَمْرِهِ ،
وَنَاقِضًا لِعَهْدِهِ ، وَمَقِيمًا عَلَى الْإِنْكَارِ لَهُ ، وَمُصِرًّا عَلَى الْإِشْرَاقِ بِهِ ، وَكُلُّ مَا حَلَّلَهُ اللَّهُ لَكَ
مَحْرَمٌ عَلَيْكَ ، وَكُلُّ مَا تَمْلِكُهُ يَوْمَ رَجُوعِكَ عَنْ ذَلِكَ ، وَارْتِجَاعِكَ مَا أُعْطِيَتْهُ فِي قَوْلِكَ :
مِنْ مَالٍ مَوْجُودٍ وَمَذْخُورٍ ، وَمَصْنُوعٍ وَمَضْرُوبٍ ، وَسَارِجٍ وَمَرْبُوطٍ ، وَسَائِمٍ
وَمَعْقُولٍ ، وَأَرْضٍ وَضَيْعَةٍ ، وَعَقَارٍ وَعُقْدَةٍ ، وَمَمْلُوكٍ وَأَمَةٍ ، صَدَقَةً عَلَى الْمَسَاكِينِ ،
مَحْرَمَةً عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ، وَكُلُّ أَمْرٍ أَتَىكَ تَمْلِكُ شَعْرَهَا وَبَشَرَهَا ، وَأُخْرَى تَتَرَوَّجُهَا مِنْ
بَعْدِهَا طَالَتْ ثَلَاثًا بَتَانًا ، طَلَّاقِ الْحَرْجِ وَالسَّنَةِ ، لَا رَجْعَةَ فِيهَا وَلَا مَشْوِيَّةَ ، وَعَلَيْكَ
الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ دَفْعَةً حَاسِرًا حَافِيًا ، وَرَاجِلًا مَاشِيًا ،
نَذْرًا لِأَزْمَا ، وَوَعْدًا صَادِقًا ، لَا يُبْرَأُكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَضَاءُ لَهَا ، وَالْوَفَاءُ بِهَا ، وَلَا قَيْلَ
مِنْكَ تَوْبَةً وَلَا رَجْعَةً ، وَلَا أَقَالَكَ عَثْرَةٌ وَلَا صَرَعَةٌ ، وَخَذَلَكُ يَوْمَ الْأَسْتِنْصَارِ بِجَوْلِهِ ،
وَأَسْلَمَكَ عِنْدَ الْإِعْتِصَامِ بِجَبَلِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ قَوْلُكَ قَلْتَهَا قَوْلًا فَصِيحًا ، وَسَرَدْتَهَا سَرْدًا
صَرِيحًا ، وَأَخْلَصْتَ فِيهَا سِرَّكَ إِخْلَاصًا مُبِينًا ، وَصَدَقْتَ بِهَا عَزْمَكَ صِدْقًا يَقِينًا ، وَالنِّيَّةُ
فِيهَا نِيَّةُ فُلَانٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ نِيَّتِكَ ، وَالطَّوِيَّةُ دُونَ طَوِيَّتِكَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى
نَفْسِكَ بِذَلِكَ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظًا وَرَقِيبًا .



وهذه نسخة يمين بيعة أوردتها ابن حمدون في "تذكرته" وأبو الحسن بن سعد
في "ترسله" تواردت مع البيعة السابقة وأيمانها في بعض الألفاظ ، وخالفت
في أكثرها ، وهي :

تُبايع الإمام أمير المؤمنين بِيَعَةِ طَوْعٍ وَإِثَارٍ، وَرِضًا وَاخْتِيَارًا، وَأَعْتِقَادٍ وَإِضْمَارًا،
وإِعْلَانٍ وَإِسْرَارًا، وَإِخْلَاصٍ مِنْ طَوَيْتِكَ، وَصِدْقٍ مِنْ نَيْتِكَ، وَأَنْشِرَاحِ صَدْرِكَ
وَصِحَّةِ عَزَمَتِكَ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، وَمُنْقَادًا غَيْرَ مُجْبَرٍ، مُقَرًّا بِفَضْلِهَا، مُدْعِنًا بِحَقِّهَا،
مُعْتَرِفًا بِرُكَّتِهَا، وَمُعْتَدًّا بِحُسْنِ عَائِدَتِهَا، وَعَالِمًا بِمَا فِيهَا وَفِي تَوْكِيدِهَا مِنْ صَالِحِ
الْكَلَفَةِ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَلَمْ الشَّعْثَ، وَأَمِنْ الْعَوَاقِبِ، وَسَكُونِ
الدَّهْمَاءِ، وَعِزِّ الْأَوْلِيَاءِ، وَقَفَّحِ الْأَعْدَاءِ - عَلَى أَنْ فَلَانًا عَبْدُ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ، وَالْمَفْتَرَضُ
عَلَيْكَ طَاعَتُهُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ إِقَامَتُهُ وَوِلَايَتُهُ، اللَّازِمُ لَهُمُ الْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالْوَفَاءُ
بِعَهْدِهِ، لَا تُشْكُ فِيهِ، وَلَا تَرْتَابُ بِهِ، وَلَا تُدَاهِنُ فِي أَمْرِهِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ، وَأَنْكُ وَلِيٌّ وَلِيَّهُ،
وَعَدُوٌّ عَدُوُّهُ : مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، وَحَاضِرٍ وَغَائِبٍ، مُتَمَسِّكٌ فِي بَيْعَتِهِ
بِوَفَاءِ الْعَهْدِ، وَذِمَّةِ الْعَقْدِ، سَرِيرَتُكَ مِثْلُ عَلَانِيَتِكَ، وَظَاهِرُكَ فِيهِ مِثْلُ بَاطِنِكَ،
وَبَاطِنُكَ فِيهِ وَفَقَ ظَاهِرُكَ . عَلَى أَنَّ إِعْطَاءَكَ اللَّهُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ مِنْ نَفْسِكَ، وَتَوْكِيدَكَ
إِيَّاهَا فِي عُنُقِكَ، لِفُلَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَلَامَةٍ مِنْ قَلْبِكَ، وَأَسْتِقَامَةٍ مِنْ عَزْمِكَ،
وَأَسْتِمْرَارٍ مِنْ هَوَاكَ وَرَأْيِكَ . عَلَى أَنْ لَا تَتَأَوَّلَ عَلَيْهِ فِيهَا، وَلَا تَسْعَى فِي تَقْضِ شَيْءٍ
مِنْهَا، وَلَا تَقْعَدَ عَنْ نُصْرَتِهِ فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَلَا تَدْعَ النَّصْرَ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ رَاهِنَةٍ
وَحَادِثَةٍ، حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى مُوْفِيًا بِهَا، مُؤَدِّيًّا لِلْأَمَانَةِ فِيهَا إِذْ كَانَ الَّذِينَ يَبَايَعُونَ
وَلَاةَ الْأَمْرِ وَخُلَفَاءَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴿إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ
فَأِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ .

عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ الَّتِي طَوَّقَهَا عُنُقُكَ، وَبَسَطْتَ لَهَا يَدَكَ، وَأَعْطَيْتَ بِهَا صَفَقَتَكَ،
وَمَا شَرِطَ فِيهَا مِنْ وَفَاءٍ وَمُؤَالَاةٍ، وَنُصْحٍ وَمُشَايَعَةٍ، وَطَاعَةٍ وَمُؤَافَقَةٍ، وَاجْتِهَادٍ
وَمُبَالَغَةٍ - عَهْدُ اللَّهِ إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ

السلام؛ وأخذَ على عباده من وكيدات مَوَائِقِهِ ، ومُحَكَّاتِ عُهُودِهِ ؛ وعلى أنْ
نَتَمَسَّكَ بِهَا وَلَا تُبَدَّلَ ، وَتُسْتَقِيمَ وَلَا تَمِيلَ .

وإنْ نَكَثْتَ هَذِهِ الْبَيْعَةَ ، أَوْ بَدَّلْتَ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِهَا ، أَوْ عَقَيْتَ رَسْمًا مِنْ
رَسُومِهَا ، أَوْ غَيَّرْتَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهَا ، مُعْلِنًا أَوْ مُسِرًّا ، أَوْ مُحْتَالًا أَوْ مُتَوَلًّا ، أَوْ زَعَمْتَ
عَنِ السَّبِيلِ الَّتِي يَسْلُكُهَا مِنْ لَا يَخْفَرُ الْأَمَانَةَ ، وَلَا يَسْتَحِلُّ الْغَدْرَ وَالْحِيَانَةَ ؛ وَلَا يَسْتَجِيزُ
حَلَّ الْعُقُودِ - فَكُلُّ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ عَيْنٍ أَوْ وَرَقٍ أَوْ آتِنَةٍ أَوْ عَقَارٍ أَوْ زَرْعٍ أَوْ ضَرْعٍ
أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْأَمْلاكِ الْمُعْتَقَدَةِ ، وَالْأُمُورِ الْمَذْخَرَةِ ، صَدَقَةٌ عَلَى الْمَسَاكِينِ ،
مَحْرَمَةٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْجِعَ مِنْ ذَلِكَ ، إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِكَ ، بِحِيلَةٍ مِنَ الْحِيلِ ، عَلَى وَجْهِ
مِنْ الْوُجُوهِ وَسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَوْ مَخْرَجٍ مِنْ مَخَارِجِ الْإِيمَانِ ؛ وَكُلُّ مَا تُفِيدُهُ
فِي بَقِيَّةِ عَمْرِكَ : مِنْ مَالٍ يَقِلُّ خَطَرُهُ أَوْ يَحُلُّ ، فَتِلْكَ سَبِيلُهُ إِلَى أَنْ تَتَوَقَّأَكَ مَنِّيَّتُكَ ،
وَيَأْتِيَنَّكَ أَجَلُكَ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لَكَ الْيَوْمَ أَوْ تَمْلِكُهُ إِلَى آخِرِ أَيَّامِكَ أَوْ حُرًّا سَائِبُونَ
لَوْجَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَنَسْأُوكَ يَوْمَ يَلْزِمُكَ الْحِنْثُ ، وَمَنْ تَتَرَوَّجُ بَعْدَهُنَّ مَدَّةَ بَقَائِكَ
طَوَائِقَ ثَلَاثًا بَتَانًا ، طَلَّاقَ الْحَرْجِ وَالسَّنَةِ ، لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهَا وَلَا رَجْعَةَ ، وَعَلَيْكَ الْمَشْيُ
إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ثَلَاثِينَ حَجَّةً حَافِيًا حَاسِرًا رَاجِلًا ، لَا يَرْضَى اللَّهُ مِنْكَ إِلَّا
بِالْوَفَاءِ بِهَا ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْكَ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ، وَخَذَلَكَ يَوْمَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَبَرَّأكَ
اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَلْجَأَكَ إِلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ شَهِيدٌ
﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

(١) أى الذى اعتقدها صاحبها ملكا ، انظر القاموس .

الضرب الثاني

(الأيمن التي يُحلفُ بها بالخلفاء)

وقلَّ من تعرَّضَ لها لِقَلَّةِ وقوعِها ، إذ الخليفة قَلَمًا يُحلفُ : لعلو رتبته ، وأرتفاع محله . ومدار تحليف الخلفاء بعد القسم بالله على التعليق بوقوع المحذور عليهم ، ولزومه لهم ، مثل البراءة من الخلافة والانحلاع منها ، وما يجري مجرى ذلك . ولم أقف على ذلك إلا في ترسل الصَّابي ، وذلك حين كان الأمر معدودًا بالخلفاء .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة الثامنة

(في نسخ الأيمان المتعلقة بالملوك ، وفيه خمسة مهاييع)

المهييع الأول

(في بيان الأيمان التي يُحلفُ بها المسلمون ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(من الأيمان التي يُحلفُ بها المسلمون أيمان أهل السنة)

وهي اليمين العامة التي يُحلفُ بها أهل الدولة : من الأمراء والوزراء والنواب ، ومن يجري مجراهم .

وهذه نسخة يمينٍ أوردتها في "التعريف" وهي :

أقول وأنا فلان : والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم الذي لا إله إلا هو ، الباري الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر

والعلانية، وما تُخْفِي الصدور؛ القائم على كل نفس بما كَسَبَتْ، والمجازي لها بما عَمِلَتْ . وحق جلال الله، وقُدْرَة الله، وعَظْمَة الله، وكِبْرِيَاء الله، وسائر أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا إني من وقْتِي هذا، وما مَدَّ الله في عمري، قد أخلصْتُ نَبِيَّ، ولا أزال مُجْتَهِداً في إخلاصها، وأصْفَيْتُ طَوْبِي، ولا أزال مُجْتَهِداً في إصْفائها، في طاعة مولانا السلطان فلان الفلاني - خَلَدَ الله مُلْكَه - وَخِدْمَتِه وَحُبَّتِه، وَأَمْتِثَالِ مَراسِيهِ، وَالْعَمَلِ بِأوامره . وإني والله العظيم [حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَه، سِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَه، عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاه، وَلِيٌّ لِمَنْ وَالَاه من سائر الناس أجمعين . وإني والله العظيم] لا أُضِيرُ لمولانا السلطان فلانٍ سُوءاً ولا غَدْرًا، ولا خَدِيعَةً ولا مَكْرًا، ولا خِيَانَةً في نَفْسٍ ولا مالٍ، ولا سُلْطَنَةٍ، ولا قِلَاعٍ ولا حُصُونٍ، [ولا بِلَادٍ ولا غير ذلك] ولا أَسْعَى في تَفْرِيقِ كَلِمَةٍ أَحَدٍ من أمرائه، ولا مَمَالِيكِهِ، ولا عَسَاكِرِهِ، ولا أَجْنَادِهِ، ولا عُرْبَانِهِ ولا تُرْكُمَانِهِ ولا أكراده، ولا أَسْتِمَالَةَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ لغيره، ولا أُوَافِقُ على ذلك بقولٍ ولا فِعْلٍ ولا نِيَّةٍ ولا بِمَكَاتِبَةٍ [ولا مَراسِلَةٍ]، ولا إِشَارَةً ولا رَمْزٍ، ولا كِنَايَةٍ ولا تَصْرِيحٍ . وإن جَاءَنِي كِتَابٌ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى مولانا السلطان أو أَهْلِ دَوْلَتِهِ لَا أَعْمَلُ بِهِ، ولا أَصْغِي إِلَيْهِ، وَأَحْمِلُ الْكِتَابَ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ هُوَ وَمَنْ أَحْضَرَهُ إِنْ قَدَرْتُ عَلَى إِمْسَاكِهِ .

وإني والله العظيم أفِي لمولانا السلطان بهذه اليمين من أولها إلى آخرها، لا أَتَقْضُهَا ولا شَيْئًا مِنْهَا، ولا أَسْتَتْنِي فِيهَا ولا في شَيْءٍ مِنْهَا، ولا أَخَالِفُ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِهَا، ومتى خالفتها أو شَيْئًا مِنْهَا، أو تَقَضَّيْتُهَا أو شَيْئًا مِنْهَا، أو أَسْتَتْنَيْتُ فِيهَا أو في شَيْءٍ مِنْهَا طَلَبًا لَتَقْضُيَهَا، فَكُلُّ مَا أَمْلِكُهُ : مِنْ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ صَدَقَةً عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ،

وَكُلُّ زَوْجَةٍ فِي عَقْدِ نِكَاحِهِ أَوْ يَتَرَوُّجُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَهِيَ طَالِقٌ [ثَلَاثًا بَتَاتًا عَلَى سَائِرِ الْمَذَاهِبِ] ^(١) ، وَكُلُّ عَبِيدِي وَإِمَائِي أَحْرَارٌ لَوَجْهَ اللَّهِ ، وَعَلَيْهِ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ الْمُعَظَّمَةِ ، وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ ثَلَاثِينَ حَجَّةً مُتَوَالِيَاتٍ مُتَابِعَاتٍ كَوَامِلٍ ، حَافِيًا مَاشِيًا ، وَعَلَيْهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ إِلَّا الْمُنْهَى عَنْهُ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَفُكَّ أَلْفَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ مِنْ أَسْرِ الْكُفَّارِ ، وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِنْ خَالَفتُ هَذِهِ الْيَمِينَ أَوْ شَرَطًا مِنْ شُرُوطِهَا .

وهذه اليمينُ يميني وأنا فلان ، والنِّيةُ فيها بِأَسْرِهَا نِيَّةُ مُوَلَانَا السُّلْطَانِ فُلَانٍ ، وَنِيَّةُ مُسْتَحْلِيٍّ لَهُ بِهَا ، لَا نِيَّةَ لِي فِي بَاطِنِي وَظَاهِرِي [سَوَاهَا] ، أَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ بِذَلِكَ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ، وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا أَقُولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : عجيبٌ من المقرِّ السَّهَابِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا أَتَىٰ بِهِ فِي نُسخَةِ هذه اليمينِ ، فَإِنَّهُ أَتَىٰ بِهَا بِلَفْظِ التَّكْلِيمِ إِلَى قَوْلِهِ : « وَكُلُّ زَوْجَةٍ » فَعَدَلَ عَنِ التَّكْلِيمِ إِلَى الْغَيْبَةِ ، وَقَالَ فِي نِكَاحِهِ ، وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ إِلَى قَوْلِهِ « مِنْ أَسْرِ الْكُفَّارِ وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ خَالَفتُ هذه اليمينَ » وَأَتَىٰ بِصِيغَةِ التَّكْلِيمِ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ . فَإِنْ كَانَ قَرَأَ فِي قَوْلِهِ : وَكُلُّ زَوْجَةٍ فِي نِكَاحِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ فِي نِكَاحِي فَتَطْلُقَ زَوْجَتُهُ هُوَ ، فَلَا وَجْهَ لَهُ : لِأَنَّ الْحَاكِيَّ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الطَّلَاقُ ، وَكَذَا مَا بَعْدَهُ مِنْ الْعِتْقِ وَغَيْرِهِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ : وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِنْ خَالَفتُ ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْغَيْبَةِ وَالتَّكْلِيمِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ! ! . عَلَىٰ أَنْ مَا ذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْغَيْبَةِ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا سَطَّرَهُ فِي النُّسخَةِ . أَمَا إِذَا كُتِبَتْ الْيَمِينُ

التي يُخَلِّفُ بها ، فإنها لا تكونُ في الجميع إلا بلفظ التكلم ، فما المعنى في أنه خاف من الوقوع في المحذور عند حكاية القول ، ولم يخف مثل ذلك فيما يكتبه في نفس أيمن ؟ .

وقد ذكر صاحب "التنقيف" جميع ذلك بلفظ التكلم ، مع المخالفة في بعض الألفاظ وزيادة ونقص فيها .

وهذه نسختها ، وهي :

أقول وأنا فلانُ بن فلان : والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله الذي لا إله إلا هو ، الباريُّ الرحمن الرحيمُ ، عالمُ الغيب والشهادة ، والسر والعلانية ، وما تُخفي الصدور ، القائمُ على كلِّ نفس بما كسبت ، والمجازي لها بما احتسبت . وحقَّ جلال الله ، وعظمة الله ، وقُدرة الله ، وكِبَرِاءِ الله ، وسائر أسماء الله الحُسنى ، وصفاته العُليا ، وحقَّ هذا القرآن الكريم ومن أنزله ، ومن أنزل عليه - إنني من وقَّي هذا ، ومن ساعَى هذه ، وما مدَّ الله في عمري قد أخلصْتُ نيتي ، ولا أزال مجتهداً في إخلاصها ، وأصفيتُ طويَّتي ، ولا أزال مجتهداً في إصفاها - في طاعة السُّلطانِ الملكِ الفلانيِّ ، فلانِ الدنيا والدين فلان - خَلَّدَ اللهُ مُلكه - وفي خِدْمَتِهِ وَحُبَّتِهِ وَنُصْحِهِ ، وأكونُ ولياً لمن والاه ، عدوّاً لمن عاداه ، سائماً لمن سالمه ، حرباً لمن حاربه : من سائر الناس أجمعين ، لا أضمرُّ له سوءاً ولا مكرّاً ، ولا خديعةً ولا خيانةً في نفس ، ولا مالٍ ، ولا مُلكٍ ، ولا سُلْطَنَةٍ ، ولا عَسَاكِرٍ ، ولا أجنادٍ ، ولا عُربانٍ ، ولا تُرُكْمانٍ ، ولا أكرادٍ ، ولا غير ذلك ، ولا أسعى في تفريق كلمة أحدٍ منهم عن طاعته الشريفة . وإِنِّي والله العظيم أَبْذُلُ جُهِدِي وطاقتي في طاعة مولانا السلطان الملك الفلانيِّ ، فلانِ الدنيا والدين المشار إليه . وإن كاتِبني أحدٌ من سائر الناس أجمعين بما فيه مَضَرَّةٌ على مُلكه لا أوافقُ على ذلك بقولٍ

ولا فِعْلٍ ولا نِيَّةٍ ؛ وإن قدرتُ على إمساكِ الذي جاءني بِالْكِتَابِ أَمْسَكْتُهُ ،
وأَحْضَرْتُهُ لمولانا السلطان الملك الفلاني المشار إليه ، أو النائب القريب مِنِّي .
وإنني والله العظيم أفِي لمولانا السلطان المشار إليه بهذه اليمين من أولها إلى آخرها ،
لا أَسْتُثْنِي فيها ولا في شَيْءٍ منها ، ولا أَسْتَفْتِي فيها ولا في شَيْءٍ منها . وإن خالفْتُها
أو شَيْئاً منها ، أو أَسْتُثْنِيْتُ منها ، أو أَسْتَفْتَيْتُ طلباً لِنَقْضِها أو نَقْضِ شَيْءٍ منها ،
فيكون كُلُّ ما أَمْلِكُهُ من صَامِتٍ ونَاطِقٍ صَدَقَةً على الفقراء والمساكين من المسلمين ؛
وتكون كُلُّ زَوْجَةٍ في عَقْدِ نِكَاحِي أو أَتْرُوجُهَا في المُسْتَقْبَلِ طالقاً ثلاثاً بَتَاءً على سائر
المذاهب ، وتكون كُلُّ أُمَةٍ أو مُمْلُوكٍ في مِلْكِي الآنَ أو أَمْلِكُهُ في المُسْتَقْبَلِ أحراراً
لوجه الله تعالى ؛ ويلزمني ثلاثون حَجَّةً متوالياتٍ متتابعاتٍ ، حافياً حاسراً ؛ وعلى
صَوْمِ الدَّهْرِ بِحُجَلَتِهِ إلا الأيامَ المنهيَّ عن صَوْمِها .

وهذه اليمينُ يميني ، وأنا فلانُ بنُ فلانٍ ، والنِّيةُ في هذه اليمينِ بأسرها نِيَّةُ مولانا
السلطان الملك الفلاني المشار إليه ، ونِيَّةُ مُسْتَحْلِفِي له بها ، لا نِيَّةُ لي في غيرها ،
ولا قَصْدُ لي في بَاطِنِي وظَاهِرِي سِوَاهَا . أَشْهَدُ اللهَ علىّ بذلك ، وكَفَى بالله شَهِيداً ،
واللهُ على ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : وربِّما كان للسلطان وليٌّ عَهْدٍ بالسلطنة فيَقَعُ التَّحْلِيفُ للسلطان ولولده
جميعاً ، وهي على نحو ما تقدّم ، لا يتغير فيها إلا نَقْلُ الضمير من الإفراد إلى التثنية .



وهذه نُسخةُ يمينٍ حُلِّفَ عليها العساكرُ للسلطان الملك المنصور "قلاوون" في سنة
ثمان وسبعين وستمائة له ولولده وليٌّ عهده الملك الصالح علاء الدين "علي" ، أوردها
أبن المكرم في تذكرته ، وهي :

وَاللّٰهُ وَاللّٰهُ وَاللّٰهُ ، وَبِاللّٰهِ وَبِاللّٰهِ وَبِاللّٰهِ ، وَتَاللّٰهِ وَتَاللّٰهِ وَتَاللّٰهِ ، وَاللّٰهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهِلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَالسِّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَالْمُجَازِي لَهَا بِمَا آخَتَبَتْ . وَحَقَّ جَلَالُ اللَّهِ ، وَعِزَّةُ اللَّهِ ، وَعَظَمَةُ اللَّهِ ، وَسَائِرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا - إِنِّي مِنْ وَقْتِي هَذَا ، وَمِنْ سَاعَتِي هَذِهِ ، وَمَا مَدَّ اللَّهُ فِي عُمْرِي قَدْ أَخْلَصْتُ النَّيَّةَ ، وَلَا أَزَالُ مُجْتَهِدًا فِي إِخْلَاصِهَا ، وَأَصْفَيْتُ طَوِيَّتِي وَلَا أَزَالُ مُجْتَهِدًا فِي إِصْفَائِهَا ، فِي طَاعَةِ السُّلْطَانِ فَلَانٍ ، وَطَاعَةِ وَلَدِهِ وَلِيِّ عَهْدِهِ فَلَانٍ ، وَخِدْمَتِهِمَا وَمُؤَالَاتِهِمَا ، وَأَمْتِثَالِ مَرَاسِمِهِمَا ، وَالْعَمَلِ بِأَمْرِهِمَا . وَإِنِّي وَاللّٰهُ الْعَظِيمُ حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمَا ، سَلَمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمَا ، عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمَا ، وَلِيٌّ لِمَنْ وَالَاهُمَا . وَإِنِّي وَاللّٰهُ الْعَظِيمُ لَا أَسْعَى فِي أَمْرٍ فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ ، وَلَا فِي مَضَرَّةٍ وَلَدِهِ ، فِي نَفْسٍ وَلَا سُلْطَنَةٍ ، وَلَا أَسْتِمَالَةٍ لِّغَيْرِهِمَا ، وَلَا أُوَافِقُ أَحَدًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ، وَلَا مَكَاتَبَةٍ وَلَا مُشَافَهَةٍ ، وَلَا مُرَاسَلَةٍ ، وَلَا تَصْرِيحٍ . وَإِنِّي وَاللّٰهُ الْعَظِيمُ لَا أَذْخِرُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلَا عَنْ وَلَدِهِ نَصِيحَةً فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ مُدْكِهِمَا الشَّرِيفِ ، وَلَا أَخْفِيهَا عَنْ أَحَدِهِمَا ، وَأَنْ أَعْلِمَهُمَا بِهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ يُمْكِنُنِي الْإِعْلَامُ لَهُمَا ، أَوْ أَعْلِمَ مِنْ يُعْلِمُهُمَا ، وَأَنْ أَخْلُ^(١)

(١) كذا في الأصل ولعله ترك الباقي اتكالا على ما سبق في الإيمان قبله .

النوع الثاني

(من الأيمان التي يُخَلَّف بها المسلمون أيمانُ أهل البدع .
والذين منهم بهذه المملكة ثلاث طوائف)

الطائفة الأولى

(الخوارجُ)

وَهُمْ قَوْمٌ مِّنْ كَانُوا مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، حَمَلُوهُ عَلَى أَنْ رَضِيَ بِالْتَّحْكِيمِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، وَأَشَارُوا بِإِقَامَةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ حَكَمًا عَنْ عَلِيٍّ ، وَإِقَامَةِ عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ حَكَمًا عَنْ مُعَاوِيَةَ ، نَخَدَعَ عُمَرُو أَبَا مُوسَى : بِأَنْ أَتَفَقَ مَعَهُ عَلَى أَنْ يَخْلَعَا عَلَيْهِ مُعَاوِيَةَ جَمِيعًا ، وَيُقِيمَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ خَلِيفَةً يَخْتَارُونَهُ ، فَتَقَدَّمَ أَبُو مُوسَى وَأَشْهَدَ مَنْ حَضَرَ أَنَّهُ خَلَعَهُمَا ، فَوَافَقَ عُمَرُو عَلَى خَلْعِ عَلِيٍّ ، وَلَمْ يَخْلَعْ مُعَاوِيَةَ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ لِمُعَاوِيَةَ . فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ حِينَئِذٍ ، وَرَفَضُوا التَّحْكِيمَ ، وَمَنْعُوا حُكْمَهُ ، وَكَفَرُوا عَلَيْهِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا بِصَفَيْنَ ، وَقَالُوا : لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَخَرَجُوا عَلَى عَلِيٍّ ، فَسُمُّوا الْخَوَارِجَ ، ثُمَّ فَارَقُوهُ وَذَهَبُوا إِلَى النَّهْرَوَانِ فَأَقَامُوا هُنَاكَ ، وَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ غَوَّاءَ لَا رَأْسَ لَهُمْ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَاتَلَهُمْ ، فَلَمْ يُقْلَبْ سِوَى تِسْعَةِ أَنْفُسٍ : ذَهَبَ مِنْهُمْ اثْنَانِ إِلَى عُثْمَانَ ، وَاثْنَانِ إِلَى كَرْمَانَ ، وَاثْنَانِ إِلَى بَيْحَسْتَانَ ، وَاثْنَانِ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْيَمَنِ ، فَظَهَرَتْ بِدْعَتُهُمْ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَبَقِيَتْ بِهَا .

ثُمَّ مَنَ مَذْهَبُهُمْ مَنَعَ التَّحْكِيمَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَتَخَطَّطُ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ ، وَمُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابُهُ بِصَفَيْنَ فِي اعْتِمَادِهِمْ إِيَّاهُ ، بَلْ تَكْفِيرُهُمْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَمِنْهَا امْتِنَاعُ ذَلِكَ عَنْ رِضَا أَصْلًا (٩) وَأَنَّهُمْ يَمْنَعُونَ التَّأْوِيلَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ سُورَةَ

يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا هِيَ قِصَّةٌ مِنَ الْقِصَصِ، وَمَنْ أَدْخَلَهَا فِي الْقُرْآنِ فَقَدْ زَادَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ. وَيَقُولُونَ: إِنْ إِمَارَةَ بَنِي أُمَيَّةٍ كَانَتْ ظُلُمًا، وَإِنْ قَضَاءَهُمُ الَّذِي رَتَّبُوهُ عَلَى التَّحْكِيمِ بَاطِلٌ. وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَحْطِئَةِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِيمَا أَتَّفَقَا عَلَيْهِ عِنْدَ تَحْكِيمِهِمَا، وَيُسَنِّعُونَ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَيَقُولُونَ: اسْتَبَاحُوا الْفُرُوجَ وَالْأَمْوَالَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِالْكَبَائِرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ بخلاف الكبراء من غير إصرار على ما يأتي ذكره. وَيَصُوبُونَ فَعْلَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ فِي قَتْلِهِ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، لَا سِيَّمَا مَنْ ذَهَبَ مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى أَنْ ذَلِكَ كُفْرٌ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

يَا ضَرْبَةً مِنْ وَلِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا * إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا

إِنِّي لَا أَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُهُ * أَوْفَى الْخَلِيقَةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا

وَكَذَلِكَ يَصُوبُونَ فِعْلَ عَمْرِو بْنِ بَكْرِ الْخَارِجِيِّ فِي قَتْلِ خَارِجَةِ بْنِ أَبِي حَبِيبَةَ صَاحِبِ شُرْطَةِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِمَضْرٍ، حِينَ قَتَلَهُ عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، لَمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْإِحْنِ وَالضَّغَائِنِ. وَأَنْهُمْ يَصُوبُونَ فِعْلَ قَطَامِ زَوْجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ فِي ... (٣) ... وَأَنْهُمْ يَسْتَعْظِمُونَ خَلْعَ طَاعَةِ رُءُوسِهِمْ، وَأَنْهُمْ يُجَوِّزُونَ كَوْنَ الْإِمَامِ غَيْرِ

(١) فِي الْمَلَلِ ص ٦٩ "مَنْ مَنِيْب" وَفِي كَامِلِ ابْنِ الْأَثِيرِ ج ٣ ص ١٧١ «مَنْ شَقَى».

(٢) فِي الْأَصْلِ حَنِيفَةٌ وَهُوَ تَصْغِيفٌ وَالتَّصْحِيحُ مِنْ كَامِلِ ابْنِ الْأَثِيرِ ج ٣ ص ١٧٠.

(٣) بَيَاضُ الْأَصُولِ وَلَعَلَهُ «فِي اشْتِرَاطِهَا عَلَى ابْنِ مُلْجَمٍ حِينَ خَطَبَهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقِيَّةً وَقَتْلَ عَلِيٍّ»

أَنْظَرَ كَامِلُ ابْنِ الْأَثِيرِ ج ٣ ص ١٦٨ وَ ١٦٩.

قَرِشِيٍّ ، بَلْ هُمْ يَجُوزُونَ إِمَامَةَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ جَمِيعًا ، وَيَنْسُبُونَ مِنْ خَالِفِهِمْ إِلَى الْخَطِإِ ،
وَيَسْتَبِيحُونَ دِمَاءَهُمْ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ .

واعلم أن ما تقدّم ذكره من معتقدات الخوارج هو مُقتضى ما رتبته من يمينهم
في "التعريف" على ماسياتي ذكره . على أن بعض هذه المعتقدات يختص بها بعض
فرق الخوارج دون بعض على ماسياتي بيانه ، ولكل منهم معتقدات أخرى تزيد
على ما تقدّم ذكره .

وهنا أذكر بعض فرقهم ، وبعض ما اختلفت [به] كل فرقة منهم ، لينبني على
ذلك من أراد ترتيب يمين لفرقة منهم :

فمنهم المحكّة - وهم الذين ينعون التحكيم .

ومنهم الأزارقة - وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان
أيام ابن الزبير ، وقتلهم المهلب بن أبي صفرة ، وهم الذين يكفرون علياً مع جمع من
الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القعدة عن القتال مع الإمام وإن
قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن
الزاني المحصن ، وحدّ القذف عن قاذف الرجل المحصن دون قاذف المرأة المحصنة ،
ويخرجون أصحاب الكبائر عن الإسلام ، ويقولون : التقيّة غير جائزة .

ومنهم النجدات - وهم أصحاب نجدة بن عامر ، يكفرون بالإصرار على الصغائر
دون فعل الكبائر من غير إصرار ، ويستحلّون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم
في دار التقيّة ، ويتبرّؤون ممن حرّمها .

ومنهام البيهسية - وهم أصحاب أبي بهس بن خالد، يرون أنه لأحرام إلا ما وقع عليه النص بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية . ويكفرون الرعية بكفر الإمام .

ومنهام العجاردة - وهم الذين ينكرون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون : إنما هي قصة من القصص ، ويوجبون التبرئ من الطفل فإذا بلغ دعى إلى الإسلام .

ومنهام الميمونية - وهم فرقة يقولون : إن الله تعالى يريد الخير دون الشر ، ويحوزون نكاح بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات .

ومنهام الإباضية - يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة لأمشرك ، ويرون أن دار مخالفهم من المساميين دار توحيد ، ودار السلطان منهم دار بغي .

ومنهام الثعالبة - يرون ولاية الطفل حتى يظهر عليه إنكار الحق فيتبرءون منه .

ومنهام الصفرية - يرون أن ما كان من الجائر فيه حد كالزنا لا يكفر به ، وما كان منها ليس فيه حد : كترك الصلاة يكفر به .

وكان الذى أورده فى " التعريف " متفق عليه عندهم ، أو هو قول أكثرهم فاكفى به .

وقد رتب فى " التعريف " تخليفهم على مقتضى ما ذكره من اعتقادهم فقال :

وَأَيَّمَانُهُمْ أَيْمَانُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، ويزاد فيها : وإلا أجزت التحكيم ، وصوبت قول الفريقين فى صفتين ، وأطعت بالرضا منى حكم أهل الجور ، وقلت فى كتاب الله

(١) كذا بالأصول ، والذى فى " القاموس " و " الملل والنحل " للشهرستانى أن أبا بهس اسمه " الهيصم ابن جابر " ، ولعل ما فى الأصول تصحيف .

بالتأويل : وأدخلت في القرآن ما ليس منه . وقلت : إن إمارة بنى أمية عدل ، وإن قضاءهم حق ، وإن عمرو بن العاص أصاب ، وإن أبا موسى ما أخطأ ، وأسبغت الأموال والفروج بغير حق ، وأجترحت الكبار والصغار ، ولقيت الله مثقلاً بالأوزار ، وقلت : إن فعلة عبد الرحمن بن ملجم كافر ، [وإن قاتل خارجة آثم ، وبرئت من فعلة قطام ^(١) ، وخلعت طاعة الرؤوس ، وأنكرت أن تكون إخلافة إلا في قریش ، وإلا فلا رويت سفي ورعي من دماء المخطفين .

الطائفة الثانية

(الشَّيعة)

وهم الذين شايعوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقالوا بإمامته وخلافته : نصاً ووصاية : [إماماً] جليلاً أو خفياً ، وإن الامامة لا تخرج عنه وعن بنيهِ ^(٢) إلا بظلم من غير ذلك الإمام ، أو بتقية منه لغيره .

قال الشهرستاني في " النحل والملل " : ويجمعهم القول بوجوب التعيين للأمام والتنصيب عليه من قبله ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبار والصغار ، والقول بالتولي للأئمة والتبري من غيرهم .

وقال في " التعريف " يجمعهم حب علي رضي الله عنه ، وتختلف فرقهم فيمن سواه .

فأما مع إجماعهم على حبه فهم مختلفون في اعتقادهم فيه ، فمنهم أهل غلو مفرط وعتو زائد : فقيهم من أدّى به الغلو إلى أن اتخذ علياً إلهاً وهم النصيرية . قال : ومنهم

(١) الزيادة من " التعريف " ص ١٦٢ .

(٢) عبارة الشهرستاني « بظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده » وهي أوضح .

من قال : إنه النبي المرسل وإن جبريل غلط . ومنهم من قال : إنه شريك في النبوة والرسالة . ومنهم من قال : إنه وصي النبوة بالنص الحلي ، ثم تحالفوا في الإمامة بعده وأجمعوا بعده على الحسن ثم الحسين . وقالت فرقة منهم : وبعدهما محمد بن الحنفية .

ثم قد ذكر في "التعريف" أن الموجود من الشيعة في هذه المملكة خمس فرق :

الفرقة الأولى

(الزيدية)

وهم القائلون بإمامة زيد بن علي بن الحسين السبط ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو الذي رأسه مدفون بالمشهد الذي بين كيان مصر ، جنوبي الجامع الطولوني ، المعروف بـمشهد الرأس ، فيما ذكره القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر في خطط القاهرة . قال في "التعريف" : وهم أقرب القوم إلى القصد الأتم . قال : ولهم إمام باق باليمن إلى الآن ، وصنعاء داره ، وأمرأ مكة المعظمة منهم . ثم قال : وحدثني مبارك بن عطيفة بن أبي نمي : أنهم لا يدينون إلا بطاعة ذلك الإمام ، ولا يرون إلا أنهم ثوابه ، وإنما يتقون صاحب مصر لخوفهم منه وللاقطاع ، وصاحب اليمن لمداراته لوصل الكارم ورُسوم الأنعام . ومن ثم عدّهم في جملة من بهذه المملكة من طوائف البدع .

وكان من مذهب زيد هذا جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، ويقول : إن علياً رضي الله عنه كان أفضل الصحابة رضوان الله عليهم ، إلا أن الإمامة فوّضت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها : من تسكين نائرة الفتنة ، وتطبيب قلوب العامة ، مع تفضيل علي على الشّيخين عندهم في أوانهم .

وأتباعه يعتقدون أنَّ هذا هو المعتقد الحق، ومن خالفه خرج عن طريق الحق،
وضل عن سواء السبيل .

وهم يقولون : إن نص الأذان بَدَل الحِيعَتَيْن : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» يقولونها
في أذانهم مَرَّتَيْنِ بَدَل الحِيعَتَيْنِ ، وَرَبَّمَا قَالُوا قَبْلَ ذَلِكَ : «مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ»
وَعِثْرَتُهُمَا خَيْرُ الْعِثَرِ » ومن رأى أن هذا بِدْعَةٌ فَقَدْ حَادَ عَنْ الْحَادَّةِ .

وهم يسوقون الإمامة في أولاد عليّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ من فاطمة رضى الله عنها ،
ولا يُجَوِّزُونَ ثُبُوتَ الإمامة في غير بنيهما ، إلا أَنَّهُمْ جَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ كُلُّ فَاطِمِيٍّ
عَالِمٍ زَاهِدٍ شُجَاعٍ خَرَجَ لَطَلَبَ الإمامة إِمَامًا مَعْصُومًا وَاجِبَ الطَّاعَةِ ، سواء كان من
وَلَدِ الْحَسَنِ أَوِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَام ، ومن خلع طاعته فَقَدْ ضَلَّ . وهم يَرَوْنَ أَنَّ
الإمام المَهْدِيَّ الْمُتَنَظَّرَ من وَلَدِ الْحُسَيْنِ رضى الله عنه دون وَلَدِ الْحَسَنِ ، ومن خالف
في ذلك فَقَدْ أَخْطَأَ . ومن قال : إِنَّ الشَّيْخَيْنِ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضى الله عنهما أَفْضَلُ
من عَلِيٍّ وَبَنِيهِ فَقَدْ أَخْطَأَ عِنْدَهُمْ وَخَالَفَ زَيْدًا فِي مُعْتَقَدِهِ . ويقولون : إن تَسْلِيمَ
الْحَسَنِ الْأَمْرِ لِمَعَاوِيَةَ كَانَ لِمَصْلَحَةِ اقْتِضَائِهَا الْحَالَ ، وإن كان الحق له .

قال في "التعريف" : وَأَيَّمَانُهُمْ أَيْمَانُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، يعنى فيحلفون كما تقدم ،
ويزاد فيها : وَإِلَّا بَرِئْتُ من مُعْتَقَدِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ، ورأيتُ أَنَّ قَوْلِي فِي الْأَذَانِ : «حَيَّ
عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» بِدْعَةٌ ، وَخَلَعْتُ طَاعَةَ الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ الْوَاجِبِ الطَّاعَةِ ، وَأَدَّعَيْتُ
أَنَّ الْمَهْدِيَّ الْمُتَنَظَّرَ لَيْسَ من وَلَدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وقلتُ : بِتَفْضِيلِ الشَّيْخَيْنِ عَلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ ، وَطَعَنْتُ فِي رَأْيِ ابْنِهِ الْحَسَنِ لِمَا اقْتَضَيْتَهُ الْمَصْلَحَةُ ،
وَطَعَنْتُ عَلَيْهِ فِيهِ .

الفرقة الثانية (من الشيعة الإمامية)

وهم القائلون بإمامة اثني عشر إماما : أولهم أمير المؤمنين علي المرتضى ، ثم ابنه الحسن المجتبي ، ثم أخوه الحسين شهيد كربلاء ، ثم ابنه علي السجاد زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه موسى الكاظم ، ثم ابنه علي الرضا وهو الذي عهد إليه المأمون بالخلافة ومات قبل أن يموت المأمون ، ثم ابنه محمد التقي ، ثم ابنه علي النقي ، ثم ابنه الحسن الزكي المعروف بالعسكري ، ثم ابنه محمد الحجة ، وهو المهدي المنتظر عندهم ، يقولون إنه دخل مع أمه صغيرا سردابا بالحلة على القرب من بغداد فقيد ولم يعد ، فهم ينتظرونه إلى الآن ، ويقال : إنهم في كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب إلى مغيب الشفق ينادون : أيها الإمام ! قد كثر الظلم ! وظهر الجور فأخرج إلينا ! ثم يرجعون إلى الليلة الأخرى ، وتلقب هذه الفرقة بالاثني عشرية أيضا ، لقولهم بإمامة اثني عشر إماما ، وبالموسوية لقولهم بانتقال الخلافة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم المقدم ذكره دون أخيه إسماعيل إمام الإسماعيلية الآتي ذكره ، وبالقطعية لقولهم بموت إسماعيل المذكور في حياة أبيه الصادق والقطع بانتقال الإمامة إلى موسى .

قال في "التعريف" : وهم مسلمون ، إلا أنهم أهل بدعة كبيرة سبابة .

وهم يقولون : بإمامة علي رضي الله عنه نصا ظاهرا ، وتعيينا صادقا ، احتجاجا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من يبايعني على ماله ، فبايعه جماعة» ، ثم قال :

من يُبَايعني على رُوحه وهو وصيُّي ووليُّ هذا الأمر من بعدي ، فلم يُبَايعه أحدٌ ،
حتى مدَّ أمير المؤمنين على عليه السلام يده إليه فبَايعه على رُوحه ووفى بذلك » .

قال في "العبر" : وهذه الوصية لا تُعرف عن أحدٍ من أهل الأثر ، بل هي من
موضوعاتهم ؛ ويُحْصونه بوراثه علم النبي صلى الله عليه وسلم .

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم غدير خم : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ ،
اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَاوَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَأَدِرِ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ كَيْفَمَا ذَكَرَ » ويروون أنَّ
بَيْعَةَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ السَّقِينَةِ غَيْرُ صَحِيحَةٍ : حينَ أَجْتَمَعَ الْأَنْصَارُ بَعْدَ
مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِينَةِ بَنِي سَاعِدَةَ لِيُبَايَعُوهُ ،
وَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ ، وَرَوَى لَهُمْ
أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا يَصْلُحُ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ »
فَرَجَعُوا إِلَى قَوْلِهِ وَبَايَعَهُ عُمَرُ ، ثُمَّ بَايَعَهُ النَّاسُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى
مُبَايَعَاتِ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَقَالَةِ الْخَامِسَةِ ، وَأَنَّ الْقَائِمَ فِيهَا مَجْتَرَمٌ لَا سِيَّيَا أَوَّلُ بَادٍ بِذَلِكَ .
ويقولون : إنَّ الْحَقَّ كَانَ فِي ذَلِكَ لِعَلِيِّ بِالْوَصِيَّةِ . ويقولون : إنَّ الْقِيَامَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَضْرَهُ فِي الدَّارِ كَانَ وَاجِبًا لِأَعْتَادِهِمْ عَدَمَ صِحَّةِ خِلَافَتِهِ
مَعَ وَجُودِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَإِنْ الْمَتَأَنِّعُ عَنْ حَضْرِهِ كَانَ مُحْطَأً . وَيَرَوْنَ جَوَازَ
التَّقِيَّةِ خَوْفًا عَلَى النَّفْسِ ، وَأَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا تَأَنَّرَ عَنْ طَلَبِ الْإِمَامَةِ عِنْدَ
قِيَامِ مَنْ [كَانَ] قَبْلَهُ بِهَا تَقِيَّةً عَلَى نَفْسِهِ . وَيَرَوْنَ أَنَّ مَنْ أَعَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْخِلَافَةِ كَانَ مُحْطَأً : لِطُلَانِ خِلَافَتِهِ بِتَرْكِهَا عَلَى خِلَافَةِ
أَبِي بَكْرٍ وَوُجُودِ عَلِيٍّ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِهَا . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ
فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَقَّقَهَا مِنْ إرْثِهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَدِّيًّا ، وَأَنَّ

مَنْ سَاعَدَ فِي تَقْدِيمِ تَيْمٍ بِخِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، أَوْ تَقْدِيمِ عَدِيٍّ بِخِلَافَةِ عُمَرَ ، أَوْ تَقْدِيمِ أُمَيَّةَ بِخِلَافَةِ عُثْمَانَ كَانَ مُحْطًا . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُصَبِّ فِي جَعْلِ الْأَمْرِ سُورَى بَيْنَ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَأَسْتَحْقَاقِ تَقْدِيمِ عَلِيٍّ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَيَصَوِّبُونَ قَوْلَ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا كَانَ مِنْ مُوَافَقَتِهِ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ فِي حَقِّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَلَا يَرَوْنَ تَكْذِيبَهُ فِي ذَلِكَ . وَيَرَوْنَ أَنَّ عَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ مُحْطَةً فِي قِيَامِهَا عَلَى يَوْمِ الْجَمَلِ ، وَأَنَّ مَنْ قَامَ مَعَهَا كَانَ مُحْطًا لِلْوَاقِفَةِ عَلَى الْخَطِإِ .

وَيَقُولُونَ إِنَّ مَنْ قَامَ مَعَ مُعَاوِيَةَ عَلَى عَلِيٍّ بِصِفِّينَ وَشَهْرِ السَّيْفِ مَعَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَرْتَكَبَ مُحْظُورًا . وَيَنْكَرُونَ مَا وَقَعَ مِنْ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ مِنَ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ قَتْلِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَهَّزَ حَيْشًا إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ مَعَ مُسْلِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَتَلُوا وَسَبُّوا وَبَايَعُوا مِنْ تَبِعِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ خَوْلٌ لِيَزِيدَ .

وَيَقُولُونَ : يُبْطِلَانِ حُكْمَ ابْنِ مَرْجَانَةَ . وَيُعَدُّونَ مِنَ الْعِظَائِمِ قِيَامَ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ فِي قِتَالِ الْحُسَيْنِ ، وَحَقِيقُ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ وَيُسْتَعْظُمُوهُ ! فَقَدْ قِيلَ : لِأَنَّهُ بَعْدَ قَتْلِهِ أَمَرَ جَمَاعَةً فَوَطَّئُوا صَدْرَ الْحُسَيْنِ وَظَهَرَهُ بِالْخَيْلِ ، وَكَانَ يَزِيدُ قَاتِلَهُ اللَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِذَلِكَ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ الْأَمْرَ صَارَ بَعْدَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْإِمَامَةَ عِنْدَ الْحَسَنِ مُسْتَوْدَعَةٌ لَامُسْتَقَرَّةٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَثْبُتْ فِي بَيْتِهِ . وَيُعَدُّونَ مِنَ الْعِظَائِمِ فِعْلَ شَمِيرِ بْنِ [ذِي] الْجَوْشَنِ : وَهُوَ الَّذِي أَحْتَرَّ رَأْسَ الْحُسَيْنِ ، وَأَنَّ مَنْ سَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ مُرْتَكِبٌ أَعْظَمَ مُحْظُورَاتٍ بِأَشَدِّ بَلَاءَةٍ ، وَحَقِيقُ ذَلِكَ أَنْ يُسْتَعْظُمُوهُ ! فَأَيُّ جَرِيْمَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِ سَيِّدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ .

وقد ذكر صاحب "نظم السمط في خبر السبط" : أنه وُجد في حجر مكتوب قبل البعثة بألف سنة ما صورته :

أَتَرْجُوا أُمَّةً قَتَلَتْ حُسَيْنًا * شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ ؟

ويقال : إنَّ الذي أحرَّ رأس الحسين إنما هو سنان بن أنس النخعي . ويعُدُّون من العظام أيضا سبي معاوية أهل البيت عند غلبة علي رضي الله عنه بصفيين وسوقهم معه إلى دمشق سوقاً بالعصي . ويرون أنَّ خلافة يزيد بن معاوية كانت من أعظم البلايا ، وأن المغيرة بن شعبه أخطأ حيث أشار على معاوية بها . ويقولون بالتبري من عمرو بن العاص رضي الله عنه لائتمائه إلى معاوية ، وخديعته أبا موسى الأشعري يوم الحكمين حتى خلع علياً ، وإنَّ من ظاهره أو عاضده كان مُحِطُنا .

وكذلك يتبرءون من بسر بن [أبي] أرطاة : لأنَّ معاوية بعثه إلى الحجاز في عسكرٍ فدخل المدينة وسفك بها الدماء ، وأستكره الناس على البيعة لمعاوية ، وتوجه إلى اليمن بعد ذلك فوجد صبيين لعبيد الله بن عباس عاملين على اليمن فقتلتهما .^(١)

ويرون تحطئة عقبة بن عبد الله المزني ، ويقدحون في رأي الخوارج : وهم الذين نخرجوا على علي رضي الله عنه بعد حرب صفين ، على ما تقدم ذكره [في الكلام] على أيَّمان الخوارج : وهو مفارقهم علياً رضي الله عنه ، وتحطتهم له في الغنائم .

ويقولون : إنَّ الامامة انتقلت بعد الحسين السبط عليه السلام في أبنائه إلى تمام الأئمة عشر . فانتقلت بعد الحسين إلى ابنه زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد

(١) صوابه "عامل على علي اليمن" والصبيان هما قثم وعبد الرحمن أبنا عبيد الله انظر ج ٣ ص ١٦٦ من الكامل لابن الأثير .

الباقرة، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى ابنه محمد النقي، ثم إلى ابنه علي النقي، ثم إلى ابنه الحسن الزكي، ثم إلى ابنه محمد المجتهد، وهو المهدي المنتظر عندهم، على ما تقدم ذكره في أول الكلام على هذه الفرقة، وإن من خالف ذلك فقد خالف الصواب.

ويستعظمون دلالة من دلّ بني أمية وبني العباس على مقاتل أهل البيت. أما دلالة بني أمية، فبعد غلبة معاوية بصفيين. وأما دلالة بني العباس، فبعد تنازع بني العباس وأهل البيت في طلب الخلافة، زمن أبي جعفر المنصور وما بعده. ويقولون: ببقاء حكم المنعة: وهي النكاح المؤقت الذي كان في صدر الإسلام. ويشنعون على نجدة بن عامر الحنفي الخارجي حيث زاد في حدّ النجر، وغلظ فيه تغليظاً شديداً، كما حكاه الشهرستاني عنهم.

ويستعظمون البراءة من شيعة أمير المؤمنين على رضي الله عنه، وأتباع أهوية أهل الشام من متابعي بني أمية والفرعاء القائمين بالنهر وان: وهم الخوارج الذين خالفوا علياً بعد قضية التحكيم بصفيين، وأقاموا بالنهر وان من العراق لقتال علي، ورئيسهم يومئذ عبد الله بن وهب، فسار اليهم علي وكانوا أربعة آلاف فقتلوا عن (١) آحدهم، ولم يقتل من أصحاب علي سوى سبعة أنفس.

ويرون أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه أخطأ في موافقته عمرو بن العاص رضي الله عنه: حيث حكم بخلع علي ولم يخلع عمرو معاوية.

ويعتمدون في القرآن الكريم على مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، دون المصحف الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، فلا يثبتون ما لم يثبت فيه قرأنا.

(١) أي ولم يبق منهم سوى تسعة تفرقوا في الجهات كما تقدم.

ويتبرعون من فعل ابن مُلْجَم في قتله أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وحقَّ لهم التَّبرُّ من ذلك .

ويرون أن مَوْلَاةَ ابْنِ مُلْجَم وإسماعِلةَ في صداقِ زَوْجَتِهِ قَطَامَ جَرِيرَةٍ .

ويرون محبة قبيلة هَمْدَانَ من المحبِّوبِ المطلوبِ : لمشايعتهم علياً رضى الله عنه ومحبَّتِهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ كما هو المشهور عنهم ؛ حتَّى يُحكى أَنَّ أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه صَعِدَ يوماً الْمِنْبَرَ وقال : أَلَا لَا يُنْكِحَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ مِطْلَاقٌ ، فَنهَضَ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ وقال : وَاللَّهِ لَنُنْكِحَنَّه ثُمَّ لَنُنْكِحَنَّه ! إِنْ أَهْرَأَ مَهْرَ كَثِيفًا ، وَإِنْ أَوْلَدَ أَوْلَدَ شَرِيفًا ! . فقال على رضى الله عنه حينئذ :

لَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ أَدْخُلِي بِسَلَامٍ !

ويقولون باسْـتِـرَاطِ الْعِصْمَةِ فِي الْأَئِمَّةِ ، فلا يكونُ من ليس بمَعْصُومٍ عندهم إماماً .

وقد رَتَّبَ في "التعريف" يَمَيِّنُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِدِ ، فقال : وهؤلاء يَمَيِّنُهُمْ هِيَ :
إِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ الْعَظِيمُ ، الرَّبُّ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، وَمَا أَعْتَقِدُهُ
مِنْ صِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصَّهِ عَلَى إِمَامَةِ ابْنِ عَمِّهِ وَوَارِثِ عِلْمِهِ عَلَى بْنِ
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ ، وَقَوْلِهِ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ
اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! وَأَدِرِ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ كَيْفَا دَار ! » . وَإِلَّا كُنْتُ
مَعَ أَوَّلِ قَائِمٍ يَوْمَ السَّقِيفَةِ ، وَآخِرِ مُتَأَخِّرِ يَوْمِ الدَّارِ ، وَلَمْ أَقُلْ بِجَوَازِ النَّقِيَّةِ خَوْفًا عَلَى
النَّفْسِ ، وَأَعْنَتُ ابْنَ الْخَطَّابِ ، وَأَضْطَهَدْتُ فَاطِمَةَ ، وَمَنَعْتُهَا حَقَّهَا مِنَ الْإِثْرِ ،
وَسَاعَدْتُ فِي تَقْدِيمِ تَيْمٍ وَعَدِيَّ وَأُمِيَّةَ ، وَرَضَيْتُ بِحُكْمِ الشُّورَى ، وَكَذَّبْتُ حَسَّانَ بْنَ

ثابت يوم عائشة، وقت معها يوم الجمل، وشهرت السيف مع معاوية يوم صفين،
 وصدقت دعوى زياد، ونزلت على حكم ابن مرجانة، وكنت مع عمر بن سعد
 في قتال الحسين، وقلت: إن الأمر لم يصبر بعد الحسن إلى الحسين، وساعدت شمر
 ابن [ذى] الجوشن على فعل تلك البلية، وسبيت أهل البيت وسقتهم بالعصى إلى
 دمشق، ورضيت بإمرة يزيد، وأطعت المغيرة بن شعبة، وكنت ظهيرا لعمر بن
 العاص، ثم لبس بن [أبي] أرطاة، وفعلت فعل عقبة بن عبد الله [المرى] (١) وصدقت رأي
 الخوارج، وقلت: إن الأمر لم ينتقل بعد الحسين بن علي في أبنائه إلى تمام الأئمة،
 إلى الإمام المهدي المنتظر، ودلت على مقاتل أهل البيت بني أمية وبني العباس،
 وأبطلت حكم التمتع، وزدت في حد النحر ما لم يكن، وحرمت بيع أمهات الأولاد،
 وقلت: برأي في الدين، وبرئت من شيعة أمير المؤمنين، وكنت مع هوى أهل الشام
 والقوغاء القائمة بالنهر وان، وأتبع خطأ أبي موسى، وأدخلت في القرآن ما لم يثبت
 ابن مسعود، وشركت ابن ملجم وأسعدته في صداق قطام، وبرئت من محبة
 همدان، ولم أقل باشرط العصمة في الإمام، ودخلت مع أهل النصب الظلام.
 قلت: قد ذكر في "التعريف" فرقة الإمامية هذه من الشيعة الذين بهذه المملكة،
 ولم أعلم أين مكانهم منها.

الفرقة الثالثة

(من الشيعة الإسماعيلية)

وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وأن الأمامة انتقلت إليه بعد
 أخيه دون أخيه موسى الكاظم المقدم ذكره في الكلام على فرقة الإمامية. وهم

(١) الزيادة من "التعريف" (ص ١٥٩).

يوافقون الإمامية المتقدم ذكرهم في سوق الإمامة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه إلى جعفر الصادق، ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذى هو الامام عند الإمامية إلى إسماعيل هذا، ثم يسوقونها في بنيسه، فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد أمير المؤمنين على رضى الله عنه إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم إلى ابنه على زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه إسماعيل - الذى تُنسب إليه هذه الفرقة - بالنص من أبيه. فمن قائل: إن أباه مات قبله، وانتقلت الإمامة إليه بموته. ومن قائل: إنه مات قبل أبيه. وفائدة النص ثبوتها في بنيسه بعده. ثم يقولون: إنها انتقلت من إسماعيل المذكور إلى ابنه محمد المكتوم، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه محمد الحبيب، ثم إلى ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وهو جد الخلفاء الفاطميين بمصر؛ ثم إلى ابنه القائم بأمر الله أبي القاسم محمد: ثاني خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب؛ ثم إلى ابنه المنصور بالله أبي الطاهر إسماعيل: ثالث خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب؛ ثم إلى ابنه المعز لدين الله أبي تميم معتمد: أول خلفاء الفاطميين بمصر بعد قيامه ببلاد المغرب (وهو باني القاهرة)؛ ثم إلى ابنه العزيز بالله أبي المنصور نزار: ثاني خلفائهم بمصر؛ ثم إلى ابنه الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور: ثالث خلفائهم بمصر؛ ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم معتمد: رابع خلفائهم بمصر؛ ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم معتمد: خامس خلفائهم بمصر.

ثم من هاهنا أفرقت الإسماعيلية إلى فرقتين: مستعلوية وزارية.

فأما المستعلوية فيقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر بالله المتقدم ذكره إلى ابنه المستعلي بالله، أبي القاسم أحمد: سادس خلفائهم بمصر، ثم إلى ابنه الأمير

(١) كذا في الأصول ووقع في الغر «الصادق».

بأحكام الله أبي علي المنصور : سابع خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى ابنه الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد الحميد بن أبي القاسم : ثامن خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى ابنه الظافر بأمر الله أبي المنصور إسماعيل ، تاسع خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى ابنه الفائز بنصر الله أبي القاسم عيسى بن الظافر : عاشر خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ : حادي عشر خلفائهم بمصر ، وهو آخرهم حتى مات .

وأما النزاريّة فانهم يقولون : إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنصب من أبيه دون ابنه المستعلي ؛ ويستندون في ذلك إلى أن الحسن بن الصباح كان من تلامذة أحمد بن غطاش صاحب قلعة أصبهان والموت ، وكان شهماً عالمياً بالتعاليم والتجوم والسحر ، فاتهمه ابن غطاش بالدعوة للفاطميّين خلفاء مصر ، خوفاً وهرب منه إلى مصر في خلافة المستنصر المقدم ذكروه ، فأكرمه وأمره بدعاية الناس إلى إمامته ، فقال له ابن الصباح : من الإمام بعدك ؟ فقال له : أبنّي نزار ، فعاد ابن الصباح من مصر إلى الشام والحزيرة وديار بكر وبلاد الروم ، ودخل نجرسان ، وعبر إلى ما وراء النهر ، وهو يدعو إلى إمامة المستنصر وأبنه نزار بعده . قال الشهرستاني في "النحل والملل" : وصعد قلعة الموت في شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وأستظهر وتحصن .

ثم النزاريّة يزعمون أن نزاراً المذكور خرج من الإسكندرية حَمَلاً في بطن جارية ، تقيّة على نفسه ، وخاض بلاد الأعداء حتى صار إلى الموت . ورأيت في المغرب

(١) الصواب «ثم إلى الحافظ» وفي المقرئ ج ١ ص ٣٥٧ «ومن بعده الحافظ ... ابن الأمير أبي القاسم محمد» ووقع في ج ٣ ص ٣١ «من هذا المطبوع» ثم ولي بعده ابن عمه الحافظ ... عبد الحميد بن الأمر أبي القاسم محمد الخ» وفيه بعض التصحيف فتنبه .

لَأَبْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ إِنَّمَا صَارَ مِنْ عَقِيهِ مَنْ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَصَارَتْ الْإِمَامَةُ فِي بَنِيهِ هُنَاكَ .

والمستعلوية يُنكرون ذلك إنكاراً ، ويقولون : ^(١) إِنَّهُ قُتِلَ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ : سَارَ إِلَيْهِ الْأَفْضَلُ بْنُ أَمِيرِ الْجِيُوشِ وَزَيْرُ الْمُسْتَعْلِيِّ وَحَاصَرَهُ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ، ثُمَّ ظَفَرُ بِهِ وَأَتَى بِهِ إِلَى الْمُسْتَعْلِيِّ ، فَبَنَى عَلَيْهِ حَائِطَيْنِ فَاتَ ، ثُمَّ فَرَّبَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَشَارِقِ ^(٢) وَأَقَامَ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْقَائِمُونَ بِهَا الْآنَ مِنْ وَلَدِهِ ، وَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ التَّوَارِيخِ : كَمَغْرِبِ ابْنِ سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ .

ثُمَّ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فِي الْجُمْلَةِ : مِنَ الْمُسْتَعْلَوِيَّةِ وَالنَّزَارِيَّةِ يَسْمُونُ أَنْفُسَهُمْ أَصْحَابَ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَّةِ ، تَبَعًا لِإِمَامِهِمْ إِسْمَاعِيلَ الْمَذْكُورِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُسَمَّى صَاحِبَ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَّةِ .

قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَقَالُوا بِقَوْلِ الْإِمَامِيَّةِ ، ثُمَّ خَالَفُوهُمْ فِي مُوسَى الْكَاطِمِ وَقَالُوا : إِنَّ الْإِمَامَةَ لَمْ تَصُرْ إِلَّا إِلَى أَخِيهِ إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّهُمْ طَائِفَةٌ كَافِرَةٌ يَعْتَقِدُونَ التَّنَاسُخَ وَالْحُلُولَ .

وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : أَنَّ مَلَخَصَ مُعْتَقَدِهِمُ التَّنَاسُخَ . ثُمَّ قَالَ : وَلَقَدْ سَأَلْتُ الْمَقْدَمَ عَلَيْهِمُ وَالْمُشَارَإِلِيهِ فِيهِمْ : (وَهُوَ مُبَارَكُ بْنُ عَلْوَانَ) عَنْ مُعْتَقَدِهِمْ وَجَادِبَتِهِ الْحَدِيثَ فِي ذَلِكَ مِرَآرًا ، فَظَهَرَ لِي مِنْهُ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ مَسْجُونَةٌ فِي هَذِهِ الْأَجْسَامِ الْمَكْفُفَةِ بِطَاعَةِ الْإِمَامِ الْمُطَهَّرِ عَلَى زَعْمِهِمْ . فَإِذَا أُنْتَقَلَتْ عَلَى الطَّاعَةِ

(١) لعل الصواب « فرأى الإسكندرية » ليستقيم الكلام بعد وقد ذكر المقرئ خبره ج ١ ص ٢٣٤ على وجه الصحة فتنبه .

(٢) كذا بالأصل ولعل مراده بلاد مشارق أفريقيا كما سيأتي .

كَانَتْ قَدْ تَخَلَّصَتْ وَانْتَقَلَتِ لِلْأَنْوَارِ الْعُلُويَّةِ ، وَإِنْ أَنْتَقَلَتْ عَلَى الْعِصْيَانِ هَوَتْ فِي الظُّلُمَاتِ السُّفْلِيَّةِ .

وذكر في "العبر" : أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي أُلُوهِيَّةَ الْإِمَامِ بَنُوْعِ الْحُلُولِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي رَجْعَةَ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَئِمَّةِ بَنُوْعِ التَّنَاسُخِ وَالرَّجْعَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ نَجَىءَ مَنْ يَقْطَعُ بِمَوْتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ عَوْدَ الْأَمْرِ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ .

ثُمَّ الْمُسْتَعْلَوِيَّةُ وَالنَّزَارِيَّةُ يَتَّفِقُونَ فِي بَعْضِ الْمَعْتَقَدَاتِ وَيَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِهَا .

فَأَمَّا مَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْتِقَادِ ، فَهُمْ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ إِمَامٍ مَعْصُومٍ : ظَاهِرٍ أَوْ مُسْتَوْرٍ . فَالْأَئِمَّةُ الظَّاهِرُونَ هُمُ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى إِمَامَتِهِمْ ، وَالْمُسْتَوْرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَتِرُونَ وَيُظَاهِرُونَ دُعَاتِهِمْ . وَآخِرُ الظَّاهِرِينَ عِنْدَهُمْ إِسْمَاعِيلُ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ ، وَأَوَّلُ الْمُسْتَوْرِينَ ابْنُهُ الْمَكْتُومُ . وَمَنْ مُعْتَقِدُهُمْ أَنَّ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةُ إِمَامٍ ، مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً . وَيُرَوْنَ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّعْلِيمِ مِنَ الْأَئِمَّةِ خَاصَّةً ، وَأَنَّ الْأَئِمَّةَ هُمُ هُدَاةُ النَّاسِ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ لِلْأَئِمَّةِ أَدْوَارًا فِي كُلِّ دَوْرٍ مِنْهَا سَبْعَةُ أَئِمَّةٍ : ظَاهِرِينَ أَوْ مُسْتَوْرِينَ . فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الدَّوْرِ ظَاهِرِينَ يَسْمَى ذَلِكَ الدَّوْرُ دَوْرَ الْكَشْفِ ، وَإِنْ كَانُوا مُسْتَوْرِينَ يَسْمَى دَوْرَ السَّتْرِ . وَيَقُولُونَ بِوُجُوبِ مَوَالَاةِ أَهْلِ الْبَيْتِ ، وَتَبَرُّءِ مَنْ خَالَفَهُمْ ، وَيُنْسُبُونَهُمْ إِلَى الْأَخْذِ بِالْبَاطِلِ ، وَالْوُقُوعِ فِي الضَّلَالِ ، لَا سِيَّمَا النَّوَاصِبِ ، وَهُمْ الطَّائِفَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِالنَّاصِبِيَّةِ أَتْبَاعُ^(١) ، وَيُرْمَوْنَهُم بِالْعِظَائِمِ ، وَيُنْسُبُونَهُمْ إِلَى اعْتِمَادِ الْحَالِ وَالْأَخْذِ بِهِ . وَمَنْ نَحْرَجَ عَنْهُمْ عَنِ الْقَوْلِ بِاتِّقَالِ الْإِمَامَةِ بَعْدَ الْحَسَنِ

(١) بياض في الأصول .

السُّبُط عليه السلام ، ثم أخيه الحُسَيْن ، ثم في أئمتِّهم المتقدم ذكرهم ، إلى إمامهم
إسماعيل الذي يُنسَبون إليه بالنَّصِّ الجَلِّيِّ ، فقد حادَّ عن الحقِّ . وهم يعظمون
ويستعظمون القَدَح فيه ، وأن من وقع في ذلك فقد ارتكب خطأ كبيراً .

ولدعاة الأئمَّة المستورين عندهم من المَكَانَةِ وعلوِّ الرُّتَبَةِ الرُّتَبَةُ العُظْمَى ، لا سيما
الداعي القائمُ بذلك أوَّلاً : وهو الداعي إلى محمد المكتوم أو إئمتِّهم المستورين على
ما تقدَّم ذكره ، فإن له من الرُّتَبَةِ عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده .

ومَّا اشتهر من أمرِ الدعاة لأئمتِّهم المستورين أنه كان مَن يُنسَب إلى التَّشيعِ
رجُلٌ اسمه رمضان ، ويقال : انه صاحب كتاب "الميزان" في نصرة الزندقة ، فولد
له ولدٌ يقال له : ميمونٌ ، نشأ على أهبةٍ في التَّشيعِ والعلم بأسرار الدعاة لأهل البيت ،
ثم نشأ لميمونٌ ولدٌ يقال له : عبدالله ، وكان يعالج العيون ويقدحها ، فسمي القَدَّاح ،
وأُطْلِع على أسرار الدَّعوة من أبيه ، وسار من نواحي كَرْخِ وَأَصْهَبَانَ إلى الأهواز
والبصرة وسامية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت ، ثم مات ونشأ له ولدٌ
يسمى أحمد فقام مقام أبيه عبد الله القَدَّاح في الدَّعوة ، وصحبه رجلٌ يقال له رستم
أبن الحسين بن حوشب النِّجَّار من أهل الكوفة ، فأرسله أحمد إلى اليمن ، فدعا
الشَّيعَةَ باليمن إلى عبد الله المَهْدِيِّ فأجابوه ، وكان أبو عبد الله الشَّيْعِيُّ من أهل صنعاء
من اليمن ، وقيل من أهل الكوفة ، يصحبُ ابنَ حوشب ، فحُطِّيَ عنده وبعثه إلى
المغرب . ومن نسب أحدًا من هذه الدعاة إلى ارتكابِ مُحْظُورٍ أو احتِجابٍ إثمٌ فقد
ضلَّ وخرج عن جادة الصواب عندهم . ويرون تحطُّطَةً من مالاً على الإمام عبيد الله
المَهْدِيِّ : أوَّل أئمتِّهم القائمين ببلاد الغرب على ما تقدَّم ، وارتكابه المحظور وضلاله عن

(١) بياض في الأصول ولعله « إمامهم إسماعيل » .

طريق الحق؛ وكذلك من خذل الناس عن اتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله المهديّ
ثاني خلفائهم ببلاد المغرب، أو نقض الدولة على المعزّ لدين الله : أول خلفائهم
بمصر؛ ويرون ذلك من أعظم العظام، وأكبر الجائر.

ومن أعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدِير خُم (بفتح الغين المعجمة وكسر
الดาล المهملة وسكون المثناة تحت وراء مُهملة في الآخر، ثم خاء معجمة مضمومة
بعدها ميم) : وهو غيضة بين مكة والمدينة على ثلاثة أيام من الحُفّة . وسبب جعلهم
له عيداً أنهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لعليّ
رضي الله عنه : « اللَّهُمَّ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالٍ مِنْ وَآلَاهُ ، وَعَادَ
مَنْ عَادَاهُ ، وَأَنْصُرَ مَنْ نَصَرَهُ ، وَأَخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ، وَأَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ » على
ما تقدم نحوه في الكلام على يمين الإمامية .

وقد كان للخلفاء الفاطميين بمصر بهذا العيد اهتمامٌ عظيمٌ ، ويكتبون بالبيشارة به
إلى أعمّاهم ، كما يكتبون بالبيشارة بعيد الفطر وعيد النحر ونحوهما . ويعتقدون
في آئمتهم أنهم يعلمون ما يكون من الأمور الحادثة .

وقد ذكر المؤرخون عن عبيد الله المهديّ جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر أنه
حين بنى المهديّة بمشارق أفريقية من بلاد المغرب طلع على سورها ورعى بسهم
وقال إلى حدّ هذه الرمية ينتهي صاحب الحمار ، نخرج بالمغرب خارجي يعرف بأبي
يزيد صاحب الحمار ، وقصد المهديّة حتى انتهى إلى حدّ تلك الرمية ؛ فرجع ولم
يصل المهديّة .

وكان الحاكم بأمر الله أحد خلفاء مصر من عقب المهديّ المذكور يدعى علم
الغيب على المنبر بالجامع المعروف به على القرب من باب الفتوح بالقاهرة ، فكتبوا
له بطاقة فيها :

بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ قَدْ رَضِينَا * وليس بالكُفْرِ وَالْحَمَاقَةِ

إِنْ كُنْتَ أُوتِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ * بَيْنَ لَنَا كَاتِبِ الْبِطَاقَةِ

فترك ما كان يقوله ولم يعد إليه ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ .

وهم يقدحون في عيَّاش بن أبي الفتوح الصنهاجي وزير الظافر: أحد الخلفاء الفاطميين بمصر . وذلك أنه كان له ولد حسن الصورة اسمه نصر ، فأحبه الظافر المذكور حتى كان يأتي إليه ليلاً إلى بيته ، فرمى عيَّاش الظافر بأبنه ، وأمره أن يستدعيه فاستدعاه ، فأتى إليه ليلة على العادة ، فأجتمع عيَّاش بن السلار هو وأبنه نصر على الظافر وقتلاه ، وهربا إلى الشام ، فأسرهما الفرنج ، ثم فدي أبنه وصُلب على باب زويلة .

وهم يقدحون في عيَّاش المذكور ويرمونه بالنفاق بسبب ما وقع منه في حق الظافر من رميه بأبنه وقتله إياه .

قلت : وعيَّاش هذا هو الذي أشار إليه في "التعريف" في صورة يمين الإسماعيلية بأبن السلار . وهو وهم منه ، إذ ليس عيَّاش بأبن السلار ، وإنما أبن السلار هو زوج أم عيَّاش المذكور ، وكان قد وزر للظافر المذكور قبل ربيبه عيَّاش وتلقب بالعدل ، وأستولى على الأمر حتى لم يكن للظافر معه كلام ، ثم دس عليه ربيبه

(١) كذا في الأصول بالمتناة التحتية والشين المعجمة ووقع في ابن الأثير والمقرئ بالموحدة والسين المهملة .

(٢) سيأتي بعد أسطر التنبيه على هذه النسبة .

(٣) عبارة ابن الأثير (ج ١١ ص ٧٩) باختصار : فقتل عياشا الفرنج وأسروا أبنه ثم فداه الملك الصالح طلائع بن رزيك منهم وطلبه على باب زويلة .

عِيَّاشُ مَنْ قَتَلَهُ ، وَوُزِّرَ لِلظَّافِرِ بَعْدَهُ . فابْنُ السَّلَارِ هُوَ الْعَادِلُ وَزِيرُ الظَّافِرِ أَوَّلًا
لَا عِيَّاشُ رَبِّبُهُ .

ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يُرمَى أَحَدٌ مِنْ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عليه وسلم لاسِيَّما الْأَئِمَّةُ بِكَبِيرَةٍ ، أَوْ يُنْسَبَ لَهَا [أَحَدٌ] إِلَيْهِمْ ، أَوْ يُوَالَى لَهُمْ عَدُوًّا
أَوْ يُعَادَى وَلِيًّا .



وأما ما يختص به المُسْتَعْلَوِيَّةُ ، فانهم يُنْكِرُونَ إِمَامَةَ نِزَارِ بْنِ الْمُسْتَنْصِرِ الْمُقَدِّمِ ذِكْرَهُ ،
ويكذِّبُونَ النَّزَارِيَّةَ فِي قَوْلِهِمْ : إِنْ نِزَارًا خَرَجَ حَمَلًا فِي بَطْنٍ جَارِيَةٍ حَتَّى صَارَ إِلَى بِلَادِ
الشَّرْقِ . ويقولون : إِنَّهُ مَاتَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مَيِّتَةً ظَاهِرَةً . ويقولون : إِنَّهُ نَازِعُ
الْحَقِّ أَهْلَهُ وَجَاذِبُ (١) مِنْ حَيْثُ إِنْ الْحَقُّ فِي الْإِمَامَةِ وَالْخِلَافَةِ كَانَ لِإِمَامِهِمُ
الْمُسْتَعْلِيُّ بِاللَّهِ فَادَّعَاهُ لِنَفْسِهِ . ويقولون : إِنْ شِيعَتُهُ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَمُوَافَقَتُهُمْ
فِي أَعْتِقَادِهِمْ إِمَامَتَهُ خَطَأً . وَيُرَوْنَ مِنَ الضَّلَالِ أَتْبَاعَ الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ ذَاعِيَةِ نِزَارٍ
وَالنَّاقِلِ عَنِ الْمُسْتَنْصِرِ النَّصَّ عَلَى إِمَامَتِهِ ، وَيُرَوْنَ الْكُوفَ فِي جُمْلَةِ النَّزَارِيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ
الْأَضَالِيلِ ، لَا سِيَّما مَنْ كَانَ فِيهِمْ آخِرُ أَدْوَارِ الْأَئِمَّةِ الَّتِي هِيَ فِي كُلِّ دَوْرٍ سَبْعَةُ أَئِمَّةٍ ،
عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ عَلَى أَصْلٍ مُعْتَقَدٍ هَذِهِ الْفِرْقَةُ .

ثم هم يعظمون راشد الدين سنان : وهو رجلٌ كان بَقْلَاعَ الدَّعْوَةِ بِأَعْمَالِ طَرَابُلسَ
مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ فِي زَمَنِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ ، أَتَتْهُمْ
رِيَاسَتُهُمْ إِلَيْهِ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَكَانَ رَجُلًا صَاحِبَ سِيْمَا ، فَأَرَاهُمْ بِهَا
مَا أَضَلَّ بِهِ عُقُولَهُمْ : مِنْ تَحْيِيلِ أَشْخَاصٍ مَاتَ مِنْهُمْ عَلَى طَاعَةِ أَيْمَتِهِمْ فِي جَنَاتِ
النَّعِيمِ ، وَأَشْخَاصٍ مَاتَ مِنْهُمْ عَلَى عِصْيَانِ أَيْمَتِهِمْ فِي النَّارِ وَالْحَجِيمِ ، فَثَبَّتَ ذَلِكَ

(١) بياض بالأصول ولعله : الخلافة ربها ، كما سيأتي نقلا عن التعريف .

عندهم وأعتقدوه حقًا . ومن قدح في ذلك فقد دَخَلَ في أَهْلِ الضلال . وَيَقْدَحُونَ في ابن السُّلار المُقَدِّم ذِكْرَهُ وَيُسَفِّهُونَ رَأْيَهُ فِيمَا كَانَ مِنْهُ : من إزَالَةِ الخُطْبَةِ لِلْفَاطِمِيِّينَ وَحَطِّ رَأْيَتِهِم الصِّفْرَاءَ وَالخُطْبَةَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَرَفْعِ رَأْيَتِهِم السُّودَاءَ ، وما كَانَ مِنْهُ من الفَعْلَةِ الَّتِي اسْتَوْلَى بِهَا عَلَى قَصْرِ الْفَاطِمِيِّينَ وَمَنْ فِيهِ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ بَعْدَ مَوْتِ الْعَاضِدِ .



وأما ما يختص به التَّزَارِيَّةُ ، فانهم يقولون : إِنَّ الْأَمْرَ صَارَ إِلَى تَزَارٍ بَعْدَ أَبِيهِ الْمُسْتَنْصِرِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَإِنْ مَنْ بَحَّدَ إِمَامَتَهُ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ حَمَلًا فِي بَطْنِ أُمَةٍ وَخَاضَ بِلَادَ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ هُمُ الْمُسْتَعْلَوِيَّةُ بِمِصْرَ حَتَّى صَارَ إِلَى بِلَادِ الشَّرْقِ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْأَسْمَ يَغْيِرُ الصُّورَةَ بِمَعْنَى ؛ وَيَرَوْنَ أَنَّ الطَّعْنَ عَلَى الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ الْمُقَدِّمِ ذِكْرَهُ فِيمَا نَقَلَهُ عَنِ الْمُسْتَنْصِرِ مِنْ قَوْلِهِ : الْإِمَامَةُ بَعْدِي فِي وَلَدِي تَزَارٍ مِنْ أَكْثَرِ الْأَثَامِ ، وَيَعْظُمُونَ دَلَاءَ الدِّينِ صَاحِبَ قَلْعَةِ الْمَوْتِ ، وَهِيَ قَلْعَةُ الْبَاطَلِ الْفَقَّانِ بَنَاهَا السُّلْطَانُ مَلِكُ شَاهِ السَّجُوقِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرْسَلَ عُقَابًا فَبَرَزَ فِي مَكَانِهَا ، فَلَمَّا وَافَى مَكَانَهَا بَنَى فِيهِ هَذِهِ الْقَلْعَةَ وَسَمَّاها الْمَوْتِ ، وَمَعْنَاهُ تَعْلِيمُ الْعُقَابِ .

وَعَلَاءُ الدِّينِ هَذَا هُوَ ابْنُ جَلال الدِّينِ الْحَسَنِ الْمَلَقَّبِ بِالْكَيَّا ، وَهُوَ مِنْ عَقَبِ الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ الْمُقَدِّمِ ذِكْرَهُ ، وَكَانَ أَبُوهُ جَلال الدِّينِ قَدْ أَظْهَرَ شُعَائِرَ الْإِسْلَامِ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى سَائِرِ بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِالْعَجَمِ وَالشَّامِ فَأُقِيمَتْ فِيهَا ، ثُمَّ تَوَفَّى بِقَلْعَةِ الْمَوْتِ الْمَذْكُورَةِ فِي سَنَةِ ثَمَانِ عَشْرَةٍ وَسِتْمِائَةٍ ، فَاسْتَوْلَى أَبْنُهُ عَلَاءُ الدِّينِ هَذَا عَلَى قَلْعَةِ

(١) لعل الصواب « ويسفّهون رأى صلاح الدين يوسف بن أيوب » فانه هو الذي عمل ذلك العمل كما يشير إلى ذلك في العيين الآتي والا فابن السُّلار قتل في زمن الظاهر .

أَمُوتِ المذكورة، وخالف رأى أبيه المذكور إلى مذهب التَّزَارِيَّةِ، وصار رأساً من رؤوسهم، والتَّبرَّى منه عندهم من أشدَّ الخَطِّ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَصْلَ هَذِهِ الْفِرْقَةِ كَانَتْ بِالْبَحْرَيْنِ فِي الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ وَمَا بَعْدَهَا، وَمِنْهُمْ كَانَتْ الْقَرَامِطَةُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْبَحْرَيْنِ حِينَئِذٍ، نِسْبَةً إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَسَمَهُ قَرْمَطٌ، خَرَجَ فِيهِمْ وَادَّعَى النُّبُوَّةَ وَأَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ، ثُمَّ ظَهَرُوا بِالشَّرْقِ "بَأَصْبَهَانَ" : فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ مَلِكِ شَاهِ السَّلْجُوقِيِّ، وَاشْتَهَرُوا هُنَاكَ بِالْبَاطِنِيَّةِ : لِأَنَّهُمْ يُبْطِنُونَ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَ، وَبِالْمَلَا حِدَةٍ : لِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ كُلَّهُ إِلْحَادٌ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى الشَّامِ، وَنَزَلُوا فِيهَا حَوْلَ طَرَابُلُسَ، وَأَظْهَرُوا دَعْوَتَهُمْ هُنَاكَ، وَإِلَيْهِمْ تُنْسَبُ قِلَاعُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمَعْرُوفَةُ بِقِلَاعِ الدَّعْوَةِ، فِيهَا حَوْلَ طَرَابُلُسَ، كَمَصْيَافٍ، وَالْخَوَاصِي، وَالْقَدَمُوسَ، وَغَيْرَهَا .

وَلَمَّا أَفْتَرَقُوا إِلَى مُسْتَعْلَوِيَّةٍ وَتَزَارِيَّةٍ كَمَا تَقَدَّمَ، أَخَذَ مِنْهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ بِمَذْهَبِ التَّزَارِيَّةِ، عَمَلًا بِدَعْوَةِ ابْنِ الصَّبَاحِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ بِالشَّامِ بِقِلَاعِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِمَذْهَبِ الْمُسْتَعْلَوِيَّةِ، وَصَارُوا شِيعَةً لِمَنْ بَعْدَ الْمُسْتَعْلِيِّ مِنْ خُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ، وَاشْتَهَرُوا بِاسْمِ الْفِدَاوِيَّةِ، وَوَثَبُوا عَلَى السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بِالشَّامِ مَرَّاتٍ وَهُوَ رَاكِبٌ لِيَقْتُلُوهُ فَلَمْ يَتِمَّ كُنُوهُ مِنْهُ . ثُمَّ صَالَحَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قِلَاعِهِمْ بِأَعْمَالِ طَرَابُلُسَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، ثُمَّ انْتَمَوْا إِلَى مُلُوكِ مِصْرَ فِي أَيَّامِ الظَّاهِرِ بَيْبَاسَ، وَاشْتَهَرُوا بِاسْمِ الْفِدَاوِيَّةِ لِمَفَادَاتِهِمْ بِالْمَالِ عَلَى مَنْ يَقْتُلُونَهُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" تَقَالِيًا عَنْ مَقَدَّمِهِمْ : مُبَارَكُ بْنُ عَلْوَانَ : أَنَّ كُلَّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَانَ مَظْهَرًا لَهُمْ . وَلِذَلِكَ يَرُونَ إِتْلَافَ نُفُوسِهِمْ فِي طَاعَتِهِ : لِمَا يَنْتَقِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الْكَبِيرِ فِي رِزْقِهِمْ . وَرَأَيْتُ نَحْوَ ذَلِكَ فِي "أَسَاسِ السِّيَاسَةِ" لِابْنِ ظَافَرَ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يَرُونَ أَنَّ مُلُوكَ مِصْرَ كَالنَّوَابِ لِأَتَمَّتِهِمْ : لِقِيَامِهِمْ مَقَامَهُمْ .

أما آيائهم التي يُحلفون بها فقد قال في "التعريف" جرياً على معتقدهم المتقدم :
 إنَّ اليمينَ الجامعةَ لهم أن يقولَ : إِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ ،
 الْقَادِرُ الْقَاهِرُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَحَقَّ أَيْمَةُ الْحَقِّ ، وَهُدَاةِ الْخَلْقِ ، عَلَيَّ وَبَيْنِهِ أَيْمَةُ
 الظُّهُورِ وَالْخَفَاءِ ، وَإِلَّا بَرِئْتُ مِنْ صَحِيحِ الْوَلَاءِ ، وَصَدَقْتُ أَهْلَ الْأَبَاطِيلِ ، وَفُتُّ
 مَعَ فِرْقَةِ الضَّلَالِ ، وَأَنْتَصَبْتُ مَعَ النَّوَاصِبِ فِي تَقْرِيرِ الْحَالِ ، وَلَمْ أَقُلْ بِأَنْتِقَالِ الْإِمَامَةِ
 إِلَى السَّيِّدِ الْحُسَيْنِ ، ثُمَّ إِلَى بَيْتِهِ بِالنَّصِّ الْجَلِيِّ ، مَوْصُولَةً إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ ، ثُمَّ إِلَى
 ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْمَهَادِيَةِ ، وَالْأَثَرَةِ الْبَاقِيَةِ ، وَإِلَّا قَدَحْتُ فِي الْقَدَاحِ ،
 وَأَتَمَّمْتُ الدَّاعِيَ الْأَوَّلَ ، وَسَعَيْتُ فِي اخْتِلَافِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَمَالَأْتُ عَلَى السَّيِّدِ
 الْمَهْدِيِّ ، وَخَذَلْتُ النَّاسَ عَنِ الْقَائِمِ ، وَنَقَضْتُ الدَّوْلَةَ عَلَى الْمُعِزِّ ، وَأَنْكَرْتُ أَنْ يَوْمَ
 غَدِيرِخُمْ لَا يُعَدُّ فِي الْأَعْيَادِ ، وَقُلْتُ : أَنْ لَا يَعْلَمَ لِلْأَيْمَةِ بِمَا يَكُونُ ، وَخَالَفْتُ مَنْ أَدْعَى
 لَهُمُ الْعِلْمَ بِالْحَدِثَانِ ، وَرَمَيْتُ آلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ بِالْعِظَامِ ، وَقُلْتُ فِيهِمْ بِالْكَبَائِرِ ، وَوَالَيْتُ
 أَعْدَاءَهُمْ ، وَعَادَيْتُ أَوْلِيَائَهُمْ .

قال : ثم من هنا تُرَادُ النَّزَارِيَّةُ : وَإِلَّا بَخَحْتُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ صَارَ إِلَى نِزَارٍ ،
 وَأَنَّهُ أَتَى حَمَلًا فِي بَطْنِ جَارِيَةٍ خَوْفَهُ خَوْضَ بِلَادِ الْأَعْدَاءِ ، وَأَنْ الْأَسْمَ لَمْ يُغَيَّرِ
 الصُّورَةَ . وَإِلَّا طَعَنْتُ عَلَى الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ ، وَبَرِئْتُ مِنَ الْمَوْلَى عَلَاءِ الدِّينِ
 صَاحِبِ الْأُمُوتِ ، وَمِنْ نَاصِرِ الدِّينِ سَنَانِ الْمَلَقِّ بِرَاشِدِ الدِّينِ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ
 الْمُعْتَدِينَ ، وَقُلْتُ : إِنَّ مَارَوْهَ كَانَ مِنَ الْأَبَاطِيلِ ، وَدَخَلْتُ فِي أَهْلِ الْفِرْيَةِ
 وَالْأَضَالِيلِ .

قال : وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمُنْكَرِينَ لِإِمَامَةِ نِزَارٍ ، فَيُقَالُ لَهُمْ عِوَضُ
 هَذَا : وَإِلَّا قُلْتُ : إِنَّ الْأَمْرَ صَارَ إِلَى نِزَارٍ ، وَصَدَقْتُ الْقَائِلِينَ أَنَّهُ خَرَجَ حَمَلًا فِي بَطْنِ

جارية، وأنكرت ميته الظاهرة بالإسكندرية، وأدعت أنه لم ينزع الحق أهله،
ويجاذب الخلافة ربها، ووافقت شيعة، وتبع الحسن بن صباح، وكنت
في النزارية آخر الأدوار.

قال : ثم يجمعهم آخر اليمين أن يقال : وإلا قلت مقالة ابن السلار في النفاق
وسددت رأى ابن أيوب، وألقيت بيدي الراية الصفراء، ورفعت السوداء، وفعلت
في أهل القصر تلك الفعال، وتمحلت مثل ذلك المحال .

قلت : ما ذكره في " التعريف " فيما تزاذه النزارية : « ومن ناصر الدين سنان
الملقب براشد الدين » وهم : فإن سنانا المذكور إنما هو من إسماعيلية الشام الذين
هم شيعة المستعلوية لامن الإسماعيلية النزارية الذين هم ببلاد المشرق ، على ما تقدم
ببانه . فكان من حقه أن يلحق ذلك بيمين من سواهم من الإسماعيلية الذين هم
المستعلوية . وكذلك قوله : ثم يجمعهم آخر اليمين أن يقال : « وإلا قلت مقالة
ابن السلار في النفاق ، وسددت رأى ابن أيوب » إلى آخره ، فإن ذلك مما يختص
بالمستعلوية ، لأن ابن السلار كان وزير الظافر كما تقدم ، والظافر من جملة الخلفاء
القائمين بمصر بعد المستعلي ، الذين خالفت النزارية في إمامتهم . وكذلك قضية ابن
أيوب إنما كانت مع العاضد آخر خلفائهم بمصر ، وكل ذلك مختص بإسماعيلية الشام
الذين هم شيعة المستعلوية دون النزارية ، وحينئذ فكان من حقه أن يقتصر في زيادة
يمين النزارية على آخر « وبرئت من المولى هلاء الدين صاحب الموت » ويزيد في يمين
من سواهم من الإسماعيلية بعد قوله آخر الأدوار : « وإلا برئت من ناصر الدين
سنان الملقب براشد الدين ، وكنت أول المعتدين ، وقلت : إن ماراه كان من
الأباطيل ، ودخلت في أهل الفرية والأضليل » ثم يقول بعد ذلك : « وإلا قلت

مقالة آبن السّار في النّفاق ، وسدّدت رأى آبن أيّوب ، وألّقت بيدي الرّاية الصّفراء ، ورفعت السّوداء ، وفعلت في أهل القصر تلك الفعّال ، وتمحّلت مثل ذلك المحال .

الفرقة الرابعة (من الشيعة الدرزية)

قال في ” التعريف “ : وهم أتباع أبي محمد الدرزي . قال في ” التعريف “ : وكان من أهل موالاة الحاكم أبي علي المنصور بن العزيز خليفة مصر . قال : وكانوا أولاً من الإسماعيلية ، ثم خرجوا عن كلّ ما تمحلّوه ، وهدموا كلّ ما أثّلوه ، وهم يقولون برجعة الحاكم ، وأن الألوهية انتهت إليه وتديرت ناسوته ، وهو يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لا معاد بعده ، بل ينكرون المعاد من حيث هو ، ويقولون نحو قول الطبائعية : إن الطبائع هي المولّدة ، والموت بقاء الحرارة الغريزية ، كأنطفاء السراج بقاء الزيت إلا من أعطي ، ويقولون : دهر دائم ، وعالم قائم ؛ أرحام تدفع ، وأرض تبلى ؛ بعد أن ذكر أنهم يستيحيون فروج المحارم وسائر الفروج المحرّمة ، وأنهم أشدّ كفراً ونفاقاً من النصيرية الآتي ذكرهم ، وأبعد من كلّ خير وأقرب إلى كلّ شر .

ثم قال : وأصل هذه الطائفة هم الذين زادوا في البسملة أيام الحاكم ، فكتبوا : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، فلما أنكر عليهم كتبوا : باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم ، فجعلوا في الأول الله صفةً للحاكم ، وفي الثاني العكس . وذكر أن منهم أهل كسروان ومن جاورهم . ثم قال : وكان شيخنا آبن تيمية رحمه الله تعالى يرى

أَنَّ قِتَالَهُمْ وَقِتَالَ النَّصِيرِيَّةِ أَوَّلَى مِنْ قِتَالِ الْأَرَمَنِ : لِأَنَّهُمْ عَدُوٌّ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَشَرُّ بَقَائِهِمْ أَضَرُّ .

وقد رتب على هذا المعتقد أيمانهم في "التعريف" فقال : وهؤلاء أيمانهم .
إنني والله وحق الحاكم ، وما أعتقد في مولاي الحاكم ، وما أعتقد أبو محمد
الدرزي المجته الواضحه ، وراه الدرزي مثل الشمس اللائحه ، وإلا قلت : إن مولاي
الحاكم مات وبلي ، وتفرقت أوصاله وفني ، واعتقدت تبديل الأرض والسماء ،
وعود الرّم بعد الفناء ، وتبعث كل جاهل ، وحظرت على نفسي ما أبيع لي ، وعملت
بيدي على ما فيه فساد بدني ، وكفرت بالبيعة المأخوذه ، وألقيتها ورأيت منبوذه .

الفرقة الخامسة

(من الشيعة النصيرية بضم النون وفتح الصاد المهملة)

قال في "إرشاد القاصد" : وهم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب
رضي الله عنه ، وهم يدعون ألوهية على رضي الله عنه مغلاة فيه . قال الشهرستاني :
[ولهم جماعة ينصرون مذهبهم ويؤوبون عن أصحاب مقالاتهم] ^(١) قال : وبينهم خلاف ^(٢)
في كيفية إطلاق الألوهية على الأئمة [من أهل البيت] ^(١) واختلافهم راجع

(١) الزيادة من «الملل والنحل» للشهرستاني ص ١٠٩ .

(٢) بياض في الأصول مقدار ثلاثة أسطر .

ويزعمون أن مسكن على السحاب ، وإذا مر بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ، ويقولون : إن الرعد صوته ، والبرق ضحكك ، وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب ، ويقولون : إن سلمان الفارسي رسله ، وإن كشف الحجاب عما يقوله من أي كتاب بغير إذن ضلال ، ويحبون ابن ملجم قاتل على رضى الله عنه ، ويقولون : إنه خلص اللاهوت من الناسوت ، ويخطئون من يلعنه .

قال في "التعريف" : ولهم خطاب بينهم ، من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه ولو ضرب عنقه . قال : وقد جرب هذا كثيرا ، وهم ينكرون إنكاره .

قال في "إرشاد القاصد" : وهم يخفون مقاتلتهم ، ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم ، ويرون أنهم على الحق ، وأن مقاتلتهم مقالة أهل التحقيق ، ومن أنكر ذلك فقد أخطأ .

قال في "التعريف" : ولهم [اعتقاد] في تعظيم النمر ، ويرون أنها من النور . ولزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التي هي أصل النمر حتى استعظموا قلعها . ويزعمون أن الصديق وأمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين عثمان رضى الله عنهم تعدوا عليه ومنعوه حقه من الخلافة^(١) ، كما تعدى قابيل بن آدم عليه السلام على أخيه هابيل ، وكما اعتدى الثمود على الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كل فرعون من الفراعنة على نبي من الأنبياء عليهم السلام .

قال في "التعريف" : وهي طائفة ملعونة مردولة مجوسية المعتقدي لا تحرم البنات ولا الأخوات ولا الأمهات . قال : ويحكى عنهم في هذا حكايات .

وقد رتب في "التعريف" حلقهم على مقتضى هذا المعتقد ، فقال : وإيمانهم : إني وحق العلي الأعلى ، وما اعتقده في المظهر الأسنى ؛ وحق النور وما نشأ منه ،

(١) الضمير راجع الى "علي بن أبي طالب" وان لم يذكر .

والسحاب وساكنه . وإلا برئت من مولاي على العلي العظيم ، ولأني له ، ومظاهر الحق ، وكشفت حجاب سلمان بغير إذن ، وبرئت من دعوة الحجّة نصير ، وخضت مع الخائضين في لعنة ابن ملجم ، وكفرت بالخطاب ، وأذعت السر المصون ، وأنكرت دعوى أهل التحقيق ، وإلا قلعت أصل شجرة العنب من الأرض بيدي حتى أجتت أصولها وأمنع سبلها ، وكنت مع قابيل على هابيل ، ومع الثرود على إبراهيم ، وهكذا مع كل فرعون قام على صاحبه ، إلى أن ألقى العلي العظيم وهو على ساخط ، وأبرأ من قول قنبر ، وأقول : إنه بالنار ما تطهر .

الطائفة الثالثة

(من أهل البدع القدرية)

وهم القائلون بأن لا قدر سابق ، وأن الأمر أنف : يعنى مستأنفاً ، ولكنهم لما سمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم « القدرية مجوس هذه الأمة » . قلبوا الدليل وقالوا بموجب الحديث ، وقالوا : القدرية اسم لمن يقول بسبق القدر . ثم غلب عليهم اسم المعتزلة بواسطة أن واصل بن عطاء أحد أئمتهم كان يقرأ على الحسن البصري فاعتزله بمسألة خالفه فيها . وهم يسمون أنفسهم أهل التوحيد [وأهل العدل] ويعنون بالتوحيد نفى الصفات القديمة عن الله تعالى : كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ؛ وأنه تعالى حي بذاته ، [عالم بذاته] مرید بذاته ، قادر بذاته ، لا حياة وعلم وإرادة وقدرة ؛ ويعنون بالعدل أنهم يقولون : إن العبد إنما يستحق الثواب والعقاب بفعله الطاعة والعصيان ، باعتبار أنه الخالق لأفعال نفسه دون الله تعالى ، تزيهاً له تعالى عن أن يضاف إليه خلق الشر : من كفر ومعصية . وإذا كان العبد هو الخالق لأفعال نفسه الموجد لها فليس قدر سابق .

ولهم أئمة كثيرة ، لهم مصنّفات في الأصول والفروع : منهم وأصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم النّظام ، وإشهر بن المعتز ، ومعمّر بن عبّاد ، وأبو عثمان الجاحظ ، [وأبو عليّ الجبائي^(١) وابنه أبو هاشم ، وغيرهم . وعندهم أنّه لا قدر سابق بل الأمر أنف ، وأن الله تعالى إنما يخلق الأفعال والمشيّئة ، وأن العبد هو المكتسب لأفعاله كما تقدّم .

وممن علّت رتبته فيهم الجعد بن درهم ، اجتمع على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأخذ عنه مروان مذهبّه في القول بالقدّر وخلق القرآن ، وعلّت رتبته عنده ، وبه سُمّي مروان المذكور الجعدي . وكانت له واقعة مع هشام بن عبد الملك ابن مروان . ويستعظمون الإيمان بالقدّر : خيره وشرّه ، ويتبرعون منه ، وينكرون القول بأنّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه . ويقولون : إذا كان أمر مفروغ منه ففيم يسدّد الإنسان ويقارب ؟ . ويطعنون في رواة حديث : « أعملوا فكل ميسر لما خلق له » . ويتأولون قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴾ . ويستعظمون البراءة من اعتقادهم ، ولقاء الله تعالى على القول بأن الأمر غير أنف .

وقد رتب في "التعريف" أيماهم على هذا المعتقد ، فقال :

ويمنيهم : والله والله العظيم ذي الأمر الأنف ، خالق الأفعال والمشيّئة . وإلا قلت : بأن العبد غير مكتسب ، وأن الجعد بن درهم محقّب ، وقلت : إن هشام بن عبد الملك أصاب دماً حلالاً منه ، وإن مروان بن محمد كان ضالاً في أتباعه ، وآمنت بالقدّر خيره وشرّه ، وقلت : إن ما أصابني لم يكن ليخطئني

(١) الزيادة عن «خطط المقرئ» ج ٢ ص ٣٤٨ .

وما أخطأني لم يكن ليصيبني ، ولم أفل : إنه إذا كان أمرٌ قد فرغ منه فقيم أسدّد وأقارب ، ولم أظعن في رُواةٍ حديث « أعملوا فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له » ولم أتاوّل معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ . وبرئت مما أعتقد ، ولقيت الله وأنا أقول : إِنَّ الْأَمْرَ غَيْرُ أَنْفٍ . وبالله التوفيق والعصمة .

المهيّع الثاني

(في الأيمان التي يُخلف بها أهل الكُفر ممن قد يُحتاج إلى تحليفه ،
وهم على ضربين)

الضرب الأول

(من زعم منهم التمسك بشريعة نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام ،
وهم أصحاب ثلاث ملل)

الملّة الأولى

(اليهود)

وأشتقاقها من قولهم : هَادَ إِذَا رَجَعَ . ولزمها هذا الاسم من قول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هَدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى رجعنا ونضرّعنا . ومُتَحِلُّهَا الْيَهُودُ الْمُتَمَسِّكُونَ بشريعة موسى عليه السلام . قال السلطان عمادُ الدّين صاحبُ حماة في تاريخه : وهم أعمُّ من بني إسرائيل : لأن كثيراً من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلوا في اليهودية وليسوا من بني إسرائيل . وكتابهم الذي يتسكون به "التّوراة" وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام .

قال أبو جعفر النَّحَّاسُ ، في "صناعة الكُتَّاب" : وهى مُشْتَقَّةٌ من قولهم : وَرَتْ نَارِي وَوَرَيْتَ ، وَأَوْرَيْتَهَا إِذَا اسْتَخْرَجْتَ ضَوْءَهَا : لأنه قد اسْتَخْرَجَ بها أَحْكَامَ شَرْعَةِ موسى عليه السلام ، وكان النَّحَّاسُ يَمْنَحُ إِلَى أَنْ لَفِظَ التَّوْرَةُ عَرَبِيٌّ ، والذي يظهر أنه عِبْرَانِيٌّ مُعَرَّبٌ : لأن لغة مُوسَى عليه السلام كانت العِبْرَانِيَّةُ ، فَنَاسَبَ أَنْ تَكُونَ مِنْ لُغَتِهِ الَّتِي يَفْهَمُهَا قَوْمُهُ ، قَالَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ فِي "النَّحْلِ وَالْمِلَلِ" : وهى أَوَّلُ مُنَزَّلٍ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ سُمِّيَ كِتَابًا ، إِذْ مَاقَبَلَهَا مِنَ الْمُنَزَّلِ إِنَّمَا كَانَ مَوَاعِظُ وَنَحْوُهَا . قَالَ صَاحِبُ حَمَاةٍ : وليس فيها ذِكْرُ الْقِيَامَةِ وَلَا الدَّارِ الْآخِرَةِ وَلَا بَعْثٍ وَلَا جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ ، وَكُلُّ وَعِيدٍ يَقَعُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ بِمَجَازَةِ دُنْيَوِيَّةٍ ، فَيُوعَدُونَ عَلَى 'مَجَازَةِ الطَّاعَةِ بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَطُولِ الْعُمُرِ ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ وَيُوعَدُونَ عَلَى 'الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ بِالمَوْتِ وَمَنْعِ الْقَطْرِ وَالْحُمِيَّاتِ وَالْحَرْبِ ، وَأَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ بَدَلُ الْمَطَرِ الْغُبَارُ وَالظُّلْمَةُ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، يَشْهَدُ لِمَا قَالَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيُظْلِمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ . الْآيَةِ ، بِفَعْلِ الظُّلْمِ سَبَبًا لِلتَّحْرِيمِ . قَالَ : وليس فيها أَيْضًا ذِمُّ الدُّنْيَا ، وَلَا طَلَبُ الرِّهْدِ فِيهَا ، وَلَا وَظِيفَةُ صَلَوَاتٍ مَعْلُومَةٍ ، بَلْ فِي التَّوْرَةِ الْمَوْجُودَةُ بِأَيْدِيهِمُ الْآنَ نَسَبَةُ أُمُورٍ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الْأَسْبَاطِ وَغَيْرِهِمْ لَا تَحِلُّ حِكَايَتُهَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّوْرَةَ عَلَى خَمْسَةِ أَصْفَارٍ :

أَوَّلُهَا — يَشْتَمِلُ عَلَى بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَالتَّارِيخِ مِنْ آدَمَ إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وِثَانِيهَا — فِيهِ اسْتِخْدَامُ الْمِصْرِيِّينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَظُهُورُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ ، وَهَلَاكُ فِرْعَوْنَ ، وَنَصْبُ قُبَّةِ الزَّمَانِ وَهِيَ قُبَّةُ [كَانَ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى فِيهَا] الْوَحْيِ [وَأَحْوَالُ النَّبِيِّ ، وَإِمَامَةُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَنَزُولُ الْعَشْرِ كَلِمَاتٍ فِي الْأُولَاحِ]

(١) بياض في الأصل والتصحيح مما سيأتى قريبا . انظر ص ٢٥٨ من هذا الجزء .

على موسى عليه السلام ، وهى شبه مختصر مما فى التوراة يشتمل على أوامر ونواهٍ وسماعُ القوم كلام الله تعالى . وقد أخبر الله تعالى عنها بقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . قال مجاهد : وكانت الألواح من زمردة خضراء ، وقال ابن جبير : من ياقوتة حمراء ، وقال أبو العالبة : من زبرجد ، وقال الحسن : من خشب نزلت من السماء ، ويقال : إنها كانت لوحين . وإنما جاءت بلفظ الجمع : لأن الجمع قد يقع على الاثنين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ والمراد آثان .

وثالثها — فيه كيفية تقريب القرابين على سبيل الإجمال .

ورابعها — فيه عددُ القوم ، وتقسيمُ الأرض بينهم ، وأحوالُ الرسل الذين بعثهم موسى عليه السلام من الشام ، وأخبارُ المِنِّ والسَّلوَى والغمام .

وخامسها — فيه أحكامُ التَّوراةِ بتفصيل المُجمل ، وذكرُ وفاة هرون ثم موسى عليهما السلام ، وخلافةُ يوشع بن نون عليه السلام بعدهما .

ثم قد ذكر الشَّهرستاني وغيره أن فى التَّوراةِ البشارةَ بالمسيح عليه السلام ، ثم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ قد ورد ذكرُ المَسيحِ فى غير موضع ، وأنه يخرج واحدٌ فى آخر الزمان ، هو الكوكبُ المضيء الذى تُشرق الأرض بنوره . وغير خاف على ذى لُبٍّ أنَّ المرادَ بالمَسيحِ المَسيحُ عليه السلام ، وأنَّ المرادَ بالذى يخرج فى آخر الزمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ربما وقعت البشارة بهما جميعاً فى موضع واحد ، كما فى قوله : إن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر من ساعير وعان بفاران .

(١) كذا فى الشهرستاني أيضا وفى معجم البلدان لياقوت : وأشرق من ساعير وأستعلن الخ .

وساعير هي جبال بَيْت المقدس حيث مَظْهَرُ الْمَسِيح عليه السلام، وفَارَانُ جِبَالُ مَكَّةَ حيثُ ظهر النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشَّهْرَسْتَانِي : ولما كانت الأسرارُ الإلهيَّة ، والأنوارُ الربانيَّة ، في الوحي والتَّزِيل ، [والمناجاة والتَّأْوِيل] ^(١) على ثلاث مراتب : مَبْدَأٌ وَوَسْطٌ وَكَمَالٌ ، وكان المحيىءُ أشبهَ شَيْءٍ بالمَبْدِئِ ، والظهورُ أشبهَ بالوَسْطِ ، والعلَنُ أشبهَ بالكَمَالِ ، عبر في التَّوْرَةِ عن ظهورِ صُبحِ الشريعة [والتَّزِيل] ^(١) بِالْمَحْيِءِ [على طور سيناء] ^(١) ، وعن طلوعِ شمسها بالظهور [على ساعير] ^(١) ، وعن بلوغِ درجَةِ الكمال [والاستواء] ^(١) بِالْعَلَنِ [على فاران] ^(١) ، وقد عَرَفُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم بوصفِهِ في التَّوْرَةِ حَقَّ المَعْرِفَةِ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . وقد ذكر المفسِّرون عن ابن عباس رضي الله عنه أن موسى عليه السلام لما أُلْقِيَ الْأَوَّلَاحَ عند رجوعه إلى قومه ، تَكَسَّرَتْ فلم يَبْقَ منها إِلَّا سُدُسُهَا . ويروى أن التَّوْرَةَ كَانَتْ سَبْعِينَ وَسَقَ بَعِيرٍ ^(٢) وأنها رُفِعَ منها سِتَّةُ أَسْبَاعِهَا وَبَقِيَ السَّبْعُ ، ففي الذي بَقِيَ الْهَدْيُ والرحمة ، وفي الذي رُفِعَ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ .

ويلعلم أن اليهود قد آفَترُوا على طَوَائِفٍ كَثِيرَةٍ ، المشهورُ منها طَائِفَتَانِ :

الطائفة الأولى

(المُتَّفِقُ عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ ، وهم الْقَرَّاءُونَ)

وهم وإن كانوا فرقتين ، فإنَّهم كالْفِرْقَةِ الْوَاحِدَةِ ، إذ تَوَرَّأَتْهُمْ وَاحِدَةً ، ولا خِلافَ في أَصْلِ الْيَهُودِيَّةِ بَيْنَهُمْ . وقد اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ سِتْمِائَةٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ

(١) الزيادة عن «الملل والنحل» للشهرستاني (ص ١٢٥) .

(٢) بياض بأصله .

(٣) أى قرأتين وربانيين بدليل ما يأتى .

فَرِيضَةً مِنَ التَّوْرَةِ يَتَّبِعُونَ بِهَا . ثُمَّ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى نُبُوَّةِ مُوسَى وَهَارُونَ وَيُوشَعَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَعَلَى نُبُوَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ : وَهُوَ إِسْرَائِيلُ ، وَالْأَسْبَاطُ : وَهُمْ بَنُوهُ الْاِثْنَا عَشَرَ الْآتَى ذَكَرَهُمْ آخَرًا . وَهُمْ يَنْفَرِدُونَ عَنِ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ الْآتَى ذَكَرَهَا : وَهِيَ السَّامِرَةُ بِنُبُوَّةِ أَنْبِيَاءَ غَيْرِ مُوسَى وَهَارُونَ وَيُوشَعَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَيَنْقَلِبُونَ عَنْ يُوشَعَ تِسْعَةَ عَشَرَ كِتَابًا زِيَادَةً عَلَى التَّوْرَةِ يَعْبَرُونَ عَنْهَا بِالنُّبَوَاتِ تَعْرِفُ بِالْأَوَّلِ .

ثُمَّ الرَّبَّانِيُّونَ يَنْفَرِدُونَ عَنِ الْقَرَّائِينَ بِشُرُوحِ مَوْضُوعَةٍ لِفَرَايِضِ التَّوْرَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، وَضَعَهَا أَحْبَابُهُمْ ، وَتَفْرِيعَاتٍ عَلَى التَّوْرَةِ يَنْقَلِبُونَهَا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَيَتَّفِقُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْقَرَّاءُونَ عَلَى أَنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي صَلَاتِهِمْ ، وَيُوجِّهُونَ لَهَا مَوَاتِمَهُمْ ، وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى طُورِ سَيْنَاءَ : وَهُوَ جَبَلٌ فِي رَأْسِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ عَلَى رَأْسِ جَزِيرَةٍ فِي آخِرِهِ ، دَاخِلٌ بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ يَكْتَنِفَانِهِ .

وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي أَمْرَيْنِ :

أَحَدُهُمَا — الْقَوْلُ بِالظَّاهِرِ وَالْجُنُوحِ إِلَى التَّأْوِيلِ . فَالْقَرَّاءُونَ يَقِفُونَ مَعَ ظَوَاهِرِ نُصُوصِ التَّوْرَةِ ، فَيَحْمِلُونَ مَا وَقَعَ فِيهَا مَنْسُوبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى : مِنْ ذِكْرِ الصُّورَةِ ، وَالتَّكَلُّمِ ، وَالْأَسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَالتَّنْزِيلِ عَلَى طُورِ سَيْنَاءَ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ عَلَى ظَوَاهِرِهِ ، كَمَا تَقُولُهُ الظَّاهِرِيَّةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُنْجِرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ ، وَالْقَوْلِ بِالْجِهَةِ . وَالرَّبَّانِيُّونَ يَذْهَبُونَ إِلَى تَأْوِيلِ مَا وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، كَمَا تَفْعَلُ الْأَشْعَرِيَّةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

الثاني — القول بالقدر . فالرَّابُّون يقولون بأن لا قدرَ سابق وأن الأمرُ أنفُ كما تقوله القَدْرِيَّة من المسلمين . والقراءون يقولون بسابق القدر كما تقوله الأشعرية . أما ما عدا ذلك فكلَّا الفريقين يقولون : إن الله تعالى قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ وَاحِدٌ قَادِرٌ ، وإنه تعالى بعث موسى بالحق ، وشَدَّ أزره بأخيه هرون . ويعظمون التوراة التي هي كتابهم أتمَّ التعظيم ، حتَّى إنهم يُقسِّمون بها كما يُقسِّم المسلمون بالقرآن ، وكذلك العشر كلمات التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح الجوهرية ، وقد تقدَّم أنها مختَصَرٌ ما في التوراة ، مشتملةٌ على أوامرٍ ونواهٍ وسماعٍ كلام الله تعالى ، وهم يحلفون بها كما يحلفون بالتوراة ، ويعظمون قُبَّةَ الزَّمان وما حوته : وهي القُبَّة التي كان ينزل على موسى فيها الوحي .

ومن أعظم أنواع الكُفر عندهم تعبدُ فرعون وهامان لعنهما الله . (وكان اسمُ فرعون موسى فيما ذكره المفسرون الوليد بن مُصعب ، وقيل : مُصعب بن الريان . واختلف فيه : فقيل كان من العالقة . وقيل من النبط . وقال مجاهد : كان فارسياً وهامان وزيره) والتبري من إسرائيل (وهو يعقوب عليه السلام) ومعنى إسرائيل فيما ذكره المفسرون « عبد الله » كأنَّ « إسرا » عبد ، و« إيل » اسم الله تعالى بالعبرانية . وقيل : إسرا من السر^(١) ، وكان إسرائيل هو الذي شدَّده الله وأثَقَّن خلقه .

ومن أعظم العظائم عندهم الأخذُ بدين النصرانية ، وتصديق مريم عليها السلام في دعواها أنها حملت من غير أن يمسها بشرٌ ، ويؤمنونها بأنها حملت من يوسف النجار ، وهو رجل من أقاربها كان يُخدم البيت المقدس معها ، ويرون تبرئتها من ذلك جريرةً تقترب .

ويستعظمون الوقوع في أمور :

(١) لعله من الأسر كما يفيد ما بعده .

منها - القول بإنكار خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام وسماعه له .

ومنها - تعمّد طور سيناء الذى كلم الله تعالى موسى عليه بالقادورات، ورعى صخرة بيت المقدس التى هى قبلتهم بالنجاسة، ومشاركة بختنصر فى هدم بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل، وإلقاء العذرة على مظان أسفار التوراة .

ومنها - الشرب من النهر الذى آتت به قوم طالوت ملك بنى إسرائيل، والميل إلى جالوت ملك الكنعانيين: وهو الذى قتله داود عليه السلام، ومفارقة شيعة طالوت الذين قاموا معه على جالوت. وذلك أنه لما رفعت التوراة وتسلط على بنى إسرائيل عدوهم من الكنعانيين الذين ملكهم جالوت، كانت النبوة حينئذ فيهم في شمعون، وقيل في شمويل، وقيل في يوشع بن نون، فقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، فقال لهم ما أخبر الله تعالى به: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ولم يكن من سبط الملك، إذ كان الملك من سبط معروف عندهم، فقيل: كان سقاءً، وقيل: كان دباغاً، فأنكروا ملكه عليهم، وقالوا كما أخبر الله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ الآية؛ فلما فصل طالوت بالجنود أراد الله تعالى أن يريه من يطيعه في القتال ممن يعصيه، فسلط عليهم العطش وأبتلاهم بنهر من حولهم، قيل: هو نهر فلسطين، وقيل: نهر بين الأردن وفلسطين، فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ إلى قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ .

ومنها - إنكار الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إليهم: وهم موسى وهرون ويوشع ومن بعدهم: من أنبيائهم عليهم السلام، ومن قبلهم: من إبراهيم وإسحق ويعقوب صلوات الله عليهم، والأسباط الاثني عشر الآتى ذكرهم، والدلالة على دانيال

النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قُتِلَ ، وَإِخْبَارُ فِرْعَوْنَ بِمَصْرَ بِمَكَانِ إِرْمِيَاءَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عِنْدَ اخْتِفَائِهِ بِهَا ، وَالْقِيَامُ مَعَ الْبَنِيِّ وَالْفَوَاحِشِ يَوْمَ يَحْيَىٰ بَنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
فِي الْمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ .

وَمِنْهَا - الْقَوْلُ أَنَّ النَّارَ الَّتِي أَضَاءَتْ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ شَجَرَةِ الْعَوْسَجِ بِالطَّرِيقِ
عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنْ مَدْيَنَ حَتَّى قَصَدَهَا وَكَانَتْ وَسِيلَةً إِلَىٰ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُ نَارُ إِفْكٍ
لَا وُجُودَ لَهَا ؛ وَكَذَلِكَ أَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَىٰ مَدْيَنَ فَارًا
مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَالْقَوْلُ فِي بَنَاتِ شُعَيْبٍ اللَّاتِي سَقَىٰ لَهْنُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعِظَائِمِ
وَرَمَيْهِنَّ بِالْقَيْحِ .

وَمِنْهَا - الْإِجْلَابُ مَعَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْقِيَامُ مَعَهُمْ فِي غَلَبَتِهِ ،
وَالْتَبَرُّ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَمِنْهَا - قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : الْحَاقَّ الْحَاقَّ : لَنُذْرِكَ مِنْ فَرٍّ : مِنْ مُوسَىٰ
وَقَوْمِهِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ
فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ .

وَمِنْهَا - الْإِشَارَةُ بِتَخْلِيفِ تَابُوتٍ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمِصْرَ حِينَ أَرَادَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ
السَّلَامُ نَقْلَهُ إِلَى الشَّامِ لِيُدْفِنَهُ عِنْدَ آبَائِهِ : إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ : وَذَلِكَ أَنَّهُمْ
جَعَلُوا تَابُوتَهُ فِي أَحَدِ شِقَى النَّيْلِ فَأَخْصَبَ وَأَجْدَبَ الْجَانِبُ الْآخَرُ ، فَحَوَّلُوهُ إِلَى الْجَانِبِ
الْآخَرِ فَأَخْصَبَ ذَلِكَ الْجَانِبُ وَأَجْدَبَ الْجَانِبُ الْأَوَّلُ ، فَبَعَلُوهُ وَسَطَ النَّيْلِ فَأَخْصَبَ
جَانِبَاهُ جَمِيعًا ، إِلَى أَنْ كَانَ زَمَنُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَضَرَبَ النَّيْلَ بَعْصَاهُ فَأَنْفَلَقَ عَنْ
التَّابُوتِ . فَأَخَذَ فِي نَقْلِهِ إِلَى الشَّامِ لِيُدْفِنَهُ عِنْدَ آبَائِهِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِبَقَائِهِ بِمِصْرَ
فَوَقَعَ فِي مَحْطُورٍ لِمُخَالَفَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا يُرِيدُهُ .

ومنها - التَّسْلِيمُ لِلسَّامِرِيِّ وَتَصْدِيقُهُ عَلَى الْحَوَادِثِ الَّتِي أَحْدَثَهَا فِي الْيَهُودِيَّةِ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى السَّامِرَةِ فِي الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْيَهُودِ .

ومنها - نُزُولُ أَرِيحَا : مَدِينَةِ الْجَبَّارِينَ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِينَ .

ومنها - الرِّضَا بِفِعْلِ سَكَنَةِ سَدُومَ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِينَ أَيْضًا وَهُمْ قَوْمُ لُوطٍ .

ومنها - مَخَالَفَةُ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ الَّتِي وَرَدَ [الْحَثُّ] فِيهَا عَلَيْهَا .

ومنها - اسْتِبَاحَةُ السَّبْتِ بِالْعَمَلِ فِيهِ وَالْعَدْوِ فِيهِ : إِذَا اسْتَبَاحَتْهُ عَنْدهُمْ تَوْحُبُ هَدَرَدَمٍ مُسْتَبِيحِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُسِيخٌ مِنْ مُسِيخٍ بِاسْتِبَاحَتِهِ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

ومنها - إِنْكَارُ عِيدِ الْمِظْلَةِ وَهُوَ [سَبْعَةُ أَيَّامٍ أَوْطَا الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ تَشْرِى] وَعِيدُ الْحَنْكَةِ وَهُوَ [ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ يُوقِدُونَ فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى مِنْ لَيْلِيهِ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِمْ]^(١) سَرَاجًا وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ سَرَاجِينَ وَهَكَذَا حَتَّى يَكُونَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّامِنَةِ ثَمَانِيَةُ سَرَاجٍ وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَعْيَادِهِمْ .

ومنها - الْقَوْلُ بِالْبَدَاءِ عَلَى اللَّهِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَهُوَ أَنْ يَخْطُرَ لَهُ غَيْرُ الْخَاطِرِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَرَتَّبُوا عَلَيْهِ مَنَعَ نَسْخِ الشَّرَائِعِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ النَّسْخَ يَسْتَلْزِمُ الْبَدَاءَ ، وَهُوَ مَا أَتَّفَقَ كَافَّةُ الْيَهُودِ عَلَى مَنَعِهِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَوَّلًا .

ومنها - أَعْتِقَادُ أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْمَوْعُودُ بِهِ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، الْمَذْكُورَ بِلَفْظِ الْمَسِيحَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ .

ومنها - الْإِتِّقَالُ مِنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ الْأَدْيَانِ ، إِذْ عَنْدهُمْ أَنَّ شَرِيعَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْإِبْتِدَاءُ ، وَبِهَا وَقَعَ الْإِخْتِمَامُ .^(٢)

(١) بياض بالأصول والتصحيح من ج ٢ ص ٤٢٦ و ٤٢٨ من هذا المطبوع

(٢) هوعين ما بعده في المعنى .

ومنها - الانتقال من اليهودية إلى ما عداها من الأديان : كالإسلام والنصرانية وغيرهما ، فإنه يكون بمثابة المرتد عند المسلمين .

ومنها - استباحة لحم الجمل : فإنه محرم عندهم ، ومن استباحه فقد ارتكب محظوراً عظيماً عندهم ، وقد دخل ذلك في عموم قوله تعالى إخباراً بما حرم عليهم : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ . يعني ما ليس بمفترج الأصابع كالإبل وما في معناها .

ومنها - استباحة أكل الشحم خلا شحم الظهر ، وهو ما علا فإنه مباح لهم ، وعن ذلك أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ .

ومنها - استباحة أكل الحوايا . قال ابن عباس وغيره : هي المباعس . وقال أبو عبيدة : هي ما تحوى من البطن أى استدار ، والمراد شحم الثرب . وكذلك استباحة ما اختلط من الشحم بعظم وهو شحم الآلية ، وعنه أخبر تعالى بقوله : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ عطفاً على الشحوم الحرمية . على أن بعض المفسرين قد عطف قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ على المستثنى في قوله : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ . فحمله على الاستباحة ، والموافق لما يدعونه الأول ، ويرون أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا لم يحرم علينا شيء إنما حرم إسرائيل على نفسه الثرب وشحم الآلية فبحن حرمه ، فنزلت . على أن اليهود القرائن والربانيين يحملونها فيديعونها ويأكلون ثمنها ، ويتأولون أن أكل ثمنها غير آكل منها ، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « قَاتِلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ! حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا ثَمَنَهَا » والسامرة مخالفون في ذلك ، ويقولون بتحريم الثمن أيضاً ، على ما سيأتى ذكره .

وَلْيَعْلَمَ أَنَّ الْقَرَّائِينَ وَالرَّيَّانِينَ يُحْرَمُونَ مِنَ الذَّبِيحَةِ كُلِّ مَا كَانَتْ رِثَتُهُ مُلْتَصِقَةً بِقَلْبِهِ أَوْ يَضْلَعُهُ ، وَالسَّامِرَةَ لَا يُحْرَمُونَ ذَلِكَ .

(١)

ومنها - مقالة أهل بابل في إبراهيم عليه السلام ، وهى قولهم

ومنها - أن يُحَرَّمَ الْأَخْبَارُ الَّذِينَ هُمْ عُلَمَاؤُهُمْ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَمْنَعُونَهُ مِنْ مُبَاحَاتِهِمْ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالنِّكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حُرْمَةً يُجْعَلُونَ عَلَيْهَا ، وَنَتَأَكَّدُ بِقَلْبِ حُصْرِ الْكَائِسِ عَلَيْهَا ؛ إِذْ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا حَرَّمُوا عَلَى شَخْصٍ وَأَرَادُوا التَّشْدِيدَ عَلَيْهِ قَالُوا حُصِرَ الْكَائِسُ عِنْدَ ذَلِكَ التَّحْرِيمِ تَغْلِيظًا عَلَى الْحَرَمِ عَلَيْهِ .

ومنها - الرُّجُوعُ إِلَى التَّيِّهِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا خَرَجُوا إِلَيْهِ عِنْدَ سُبُطِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِخَالِفَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ آمْتِنَاعِهِمْ عَمَّا أَمَرُوا بِهِ مِنْ قِتَالِ الْجَبَّارِينَ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال المفسرون : وَكَانَ تِيَهُهُمْ سِتَّةَ فَرَاسِخٍ فِي أَرْبَعَةِ فَرَاسِخٍ ، يَمْشُونَ كُلَّ يَوْمٍ وَيَبْتَئُونَ حَيْثُ يُصْبِحُونَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَ الْحَجَرَ بِعَصَاهُ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ آثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ سَبْطًا لِكُلِّ سَبْطٍ عَيْنٌ ، فَإِذَا أَخَذُوا حَاجَتَهُمْ مِنَ الْمَاءِ أَحْتَسِسَ وَحَمَلُوا الْحَجَرَ مَعَهُمْ ، وَكَانَتْ ثِيَابُهُمْ فِيمَا يُرَوَّى لَا تُحَرِّقُ وَلَا تُتَدَسُّ ، وَتَطُولُ كَلَمًا طَالَ الصَّيَّانُ .

ومنها - تَحْرِيمُ الْمَنِّ وَالسَّلَوىِ الَّذِى آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىِ ﴾ وَيُقَالُ إِنَّهُ التَّرَجُّبِيُّ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالْمَرَادُ بِالْمَنِّ الَّذِى يَسْقُطُ عَلَى الشَّجَرِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ . قَالَ قَتَادَةُ : كَانَ الْمَنُّ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ كَسُقُوطِ الثَّلْجِ ، فَيَأْخُذُ

(١) بياض بالأصول ولعله « انه لمن الظالمين في تكسير أصنامهم » .

الرجل منهم ما يكفيه ليومه ، فان أخذاً كثر من ذلك فسَد . وأما السَّلوَى ، فقليل :
هى طائرٌ كالسَّمَانَى ، وقال الضَّحَّاك : هى السَّمَانَى نَفْسُهَا ، وقال قتادة : هو طائرٌ إلى
الحمرة كانت تحشره عليهم الجنوب .

ومنها - التَّبَرُّؤُ من الأسباط : وهم أولادُ يَعْقُوبَ عليهم السلام ، وعددهم اثنا عشر
سَبْطًا : وهم يُوسُفُ ، وَبَنِيَامِينُ ، وَنَفْتَالِي ، وَرُؤَيْسِلُ ، وَيَهُوذَا ، وَشَمْعُونُ ، وَلَاوِي ،
وَدَانُ ، وَزَبُلُونُ ، وَيَشَجَرُ ، وَجَادُ ، وَأَشْرُ ، ومنهم تفرَّع جميعُ بني إسرائيلَ ولَدَ كُلِّ
منهم أُمَّةٌ من الناس . وسُمُّوا أسباطاً أخذاً من السَّبْطِ وهو التابع ، إذ هم جماعةٌ
متتابعون . وقيل : من السَّبْطِ وهو الشَّجَرُ ، فالسَّبْطُ الجماعةُ الراجعةُ إلى
أصلٍ واحدٍ .

ومنها - القعودُ عن حربِ الجبَّارين مع القُدْرةِ على حَرِّهِمْ : وذلك أنهم أُصِرُّوا
بدخول الأرض المقدَّسة : وهى بَيْتُ المَقْدِسِ فيما قاله ابن عباس والسُّدِّيُّ وغيرهما ،
والشَّامُ فيما قاله قتادة ، ودمشقُ وفلسطينُ وبعضُ الأُرْدُنِّ فيما قاله الزَّجَّاجُ ، وأَرْضُ
الطُّورِ فيما قاله مجاهدٌ ، وكان فيها قومٌ جبَّارون من العالقة كما أخبر الله تعالى ، والجبَّار
هو المتعظَّمُ المنتعِصُ من الدَّلِّ والقَهْرُ أخذاً من الإِجْبار : وهو الإِكرَاهُ كأنه يجبر غيره
على ما يريدُه .

قال ابن عباس : لما بعث موسى عليه السلام من قومه اثني عشر نقيباً ليخبروه
خبرهم ، رآهم رجلٌ من الجبَّارين فأخذهم في كُفِّهِ مع فَاكِهَةٍ كان قد حملها من بُسْتَانِهِ
وجاء بهم إلى المَلِكِ فنثرهم بين يديه ، وقال : إن هؤلاء يريدون قتالنا ، وكان من
أمرهم ما قصَّه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا

(١) كذا في الكشاف للزمخشري (ج ١ ص ٣٨٠) وفي الأصل «نفتاى» .

(٢) في الأصل : ربولى ، والتصحيح من الخطيب الشربيني (ج ٢ ص ٩١) .

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَنِّي فَاذْفَرُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . فكان في قعودهم عن حرب الجبارين مع القدرة والنشاط مخالفة لما أمروا به .

وقد رتب في "التعريف" آيمان اليهود على هذا المقتضى ، فقال : ويمينهم .

إِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهُ وَالْعَظِيمُ ، الْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ الْقَرْدِ الصَّمَدِ الْوَاحِدِ الْإِلَهِيِّ الْمُدْرِكِ الْمُهِلِكِ ، بَاعِثُ مُوسَى بِالْحَقِّ ، وَشَادَّ أَزْرَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ ، وَحَقَّ التَّوْرَةَ الْمَكْرَمَةَ وَمَا فِيهَا وَمَا تَضَمَّنَتْهُ ، وَحَقَّ الْعَشْرَ كَلِمَاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى فِي الصُّحُفِ الْجَوْهَرِ ، وَمَا حَوَتْهُ قُبَّةُ الزَّمَانِ ، وَإِلَّا تَعَبَّدْتُ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَبَرَّيْتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَدِنْتُ بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَصَدَّقْتُ مَرْيَمَ فِي دَعْوَاهَا ، وَبَرَّيْتُ يُوسُفَ النَّجَّارَ ، وَأَنْكَرْتُ الْخَطَابَ ، وَتَعَمَّدْتُ الطُّورَ بِالْقَادُورَاتِ ، وَرَمَيْتُ الصَّخْرَةَ بِالنَّجَاسَةِ ، وَشَرَكْتُ بِجُحَنَنْصَرَ فِي هَدْمِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَلْقَيْتُ الْعَذِرَةَ عَلَى مَظَانِّ الْأَسْفَارِ ، وَكُنْتُ مِمَّنْ شَرِبَ مِنَ النَّهْرِ وَمَالَ إِلَى جَالُوتَ ، وَفَارَقْتُ شِيعَةَ طَالُوتَ ، وَأَنْكَرْتُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَدَلَلْتُ عَلَى دَانِيَالَ ، وَأَعْلَمْتُ جَبَّارَ مِصْرَ بِمَكَانِ إِرْمِيَاءَ ، وَكُنْتُ مَعَ الْبَغِيِّ وَالْفَوَاحِشِ يَوْمَ يَحْيَى ، وَقُلْتُ : إِنَّ النَّارَ الْمُضِيئَةَ مِنْ شَجَرَةِ الْعَوْسِجِ نَارُ إِفْكٍ ، وَأَخَذْتُ الطَّرِيقَ عَلَى مَدْيَنَ ، وَقُلْتُ بِالْعِظَائِمِ فِي بَنَاتِ شُعَيْبَ ، وَأَجْلَبْتُ مَعَ السَّحَرَةِ عَلَى مُوسَى ، ثُمَّ بَرَّيْتُ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، وَكُنْتُ مَعَ مَنْ قَالَ : الْحَقُّ الْحَقُّ

لندرك من فرّ، وأشرت بتخليف تابوت يوسف في مصر، وسلمت إلى السامريّ، ونزلت أريحا مدينة الجبّارين، ورضيت بفعل سكرة سدوم، وخالفت أحكام التّوراة، وأستبخت السبت وعدوت فيه، وقلت إن المظلة ضال، وإن الحنكة محال، وقلت بالبداء على الله تعالى في الأحكام، وأجرت نسخ الشرائع، واعتقدت أن عيسى بن مريم المسيح الموعود به على لسان موسى بن عمران، وانتقلت عن اليهودية إلى سواها من الأديان، وأستبخت لحم الجمل والشحم والحوايا أو ما أختلط بعظم، وتأولت أن أكل ثمنه غير آكله، وقلت مقالة أهل بابل في إبراهيم، وإلا أكون محرماً حرمة تجمع عليها الأخبار، وتقلب عليها حصر الكائنات، ورُددت إلى التّيه، وحرمت المن والسلوى، وبرئت من كل الأسباط، وقعدت عن حرب الجبّارين مع القدرة والنشاط.

قلت: قوله في هذه اليمين في حرمة الشحم وما في معناه: وتأولت أن أكل ثمنه غير آكله، بمعنى أنه يستعظم الوقوع في تأويل ذلك، وهو خلاف معتقدهم: لأنهم يتأولون أن أكل ثمنه غير آكله كما تقدم عنهم، وإنما تمنع ذلك السامرة، فكان من حقه أن يورد ذلك في يمين السامرة وأن يقول هنا: ولم أتأول أن أكل ثمنه غير آكله فتنبه لذلك.

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَا اسْتُحْدِثَتْ هَذِهِ الْإِيمَانُ لِأَهْلِ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ فِيمَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْمَدَائِنِيُّ فِي كِتَابِ "الْقَلَمِ وَالذَّوَاةِ" فِي زَمَنِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَزَيْرِ الرَّشِيدِ، أَحَدَهُمَا كَاتِبٌ لَهُ قَالَ لَهُ: كَيْفَ تُحَلِّفُ الْيَهُودِيَّ قَالَ: أَقُولُ لَهُ: وَإِلَّا بَرِثْتَ مِنْ إِلَهِكَ الَّذِي لَا تَعْبُدُ غَيْرَهُ وَلَا تَدِينُ إِلَّا لَهُ، وَرَغِبْتَ عَنْ دِينِكَ الَّذِي آرْتَضِيْتَهُ، وَجَحَدْتَ التَّوْرَةَ وَقُلْتَ: إِنَّ حِمَارَ الْعَزِيرِ رَاكِبٌ بِجَمَلِ مُوسَى، وَلَعَنَكَ ثَمَامَةُ

جَبْرِ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَمَسَخَكَ اللَّهُ كَمَا مَسَخَ أَصْحَابَ السَّبْتِ ،
فَعَمِلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَّةَ وَالْخَنَازِيرَ ، وَخَالَفْتَ مَا دَقَّنَهُ دَانِيَالُ وَأَسْلَمُوا وَيُوحَنَّا ،
وَلَقِيتَ اللَّهَ بِدَمِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ، وَهَدَمْتَ الطُّورَ صَخْرَةً صَخْرَةً ، وَضَرَبْتَ بِالنَّاقُوسِ
فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، وَتَبَرَأَ مِنْكَ الْأَسْبَاطُ وَأَبَاؤُهُمْ : إِسْرَائِيلُ ، وَإِسْحَاقُ ، وَإِبْرَاهِيمُ ،
وَعَمَسْتَ لِحْيَةَ الْخَالِيقِ فِي مَعْمُودِيَّةِ النَّصَارَى ، وَأَنْقَلَبْتَ عَنِ السَّبْتِ إِلَى الْأَحَدِ ،
وَالَا قَدَّرَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَلْقَى الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْمَاءِ لَيْلَةَ السَّبْتِ ، وَصَيَّرَ اللَّهُ طَعَامَكَ لَحْمَ
الْخَنَازِيرِ وَكُرُوشَ الْجَمَالِ وَمِعْدَ الْخَنَازِيرِ ، وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ بُخْتَنَصْرَ ثَانِيَةً
يَقْتُلُ الْمُقَاتِلَةَ وَيَسْبِي الذَّرِّيَّةَ وَيُخَرِّبُ الْمَدَائِنَ ، وَأَرَاكَ اللَّهُ الْإِيدَى الَّتِي تَبُلُ الرُّكْبَ
مِنْ قَبِيلِ الْأَسْبَاطِ ، وَآخَذَكَ اللَّهُ بِكُلِّ لِسَانٍ جَحَدْتَهُ وَبِكُلِّ آيَةٍ حَرَقَهَا ، وَقَلْتَ
فِي مُوسَى الزُّورَ ، وَإِنَّهُ فِي مَحَلِّ ثُبُورٍ ، وَفِي دَارِ غُرُورٍ ، وَجَحَدْتَ إِهْيَا أَشْرَاهِيَا^(١)
أَصْبُئُوتَ آلَ شَدَّاءَ . وَهَذِهِ الْيَمِينُ لَازِمَةٌ لَكَ وَلِبَنِيكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قُلْتُ : هَذِهِ الْيَمِينُ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالتَّشْدِيدِ ، إِلَّا أَنَّ قَوْلَهُ : وَآخَذَكَ اللَّهُ بِكُلِّ
لِسَانٍ جَحَدْتَهُ وَبِكُلِّ آيَةٍ حَرَقَهَا غَيْرُ مَنَاسِبٍ لِتَحْلِيلِهِمْ : لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ
فِي الْجَحْدِ وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِالتَّحْرِيفِ بَلْ يُنْكِرُونَهُ . عَلَى أَنَّ أَكْثَرَهَا غَيْرُ مُتَوَارِدٍ عَلَى الْيَمِينِ
الَّتِي أَوْرَدَهَا فِي "التَّعْرِيفِ" : فَلَوْ أَلْحَقَهَا بِهَا مُلْحَقٌ فِي آخِرِهَا عَلَى صِغَةِ الْيَمِينِ الْأُولَى
مِنْ إِيْرَادِهَا بِصِغَةِ التَّكْلِيمِ ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ : وَإِلَّا بَرَّئْتُ مِنْ إِلَهِي الَّذِي لَا أَعْبُدُ
غَيْرَهُ وَلَا أَدِينُ إِلَّا لَهُ ، وَإِلَّا رَغِبْتُ عَنْ دِينِي الَّذِي آرْتَضَيْتُهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ فِي الْبَاقِي ،
لَكَانَ حَسَنًا .

(١) هَكَذَا ضَبَطَهَا فِي الْقَامُوسِ ، ثُمَّ قَالَ : وَيَقُولُونَ إِهْيَا شَرَاهِيَا وَهُوَ خَطَأٌ ، عَلَى مَا يَزَعُمُهُ أَهْبَارُ الْيَهُودِ .

الطائفة الثانية

(من اليهود السامرة)

وهم أتباع السامري الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله في سورة الأعراف :
 ﴿وَأَضَاهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ . قال بعض المفسرين : واسمه موسى بن ظفر، وكان أصله
 من قوم يعبدون البقر فرأى جبريل عليه السلام مرة وقد جاء إلى موسى راكباً على
 فرس الحية ، فأخذ قبضة من تراب من تحت حافر فرسه . وكان بنو إسرائيل
 قد خرجوا معهم حلي [استعاروه] من القبط ، فأمرهم هرون أن يحفروا حفرة
 ويلقوا فيها ذلك الحلي حتى يأتي موسى فيرى فيه رأيه ، فجمعوا ذلك الحلي كله
 وألقوه في تلك الحفرة ، فجاء السامري فألقى ذلك التراب عليه ، وقال له : كن عجلاً
 جسداً له خوار ، فصارك ذلك . قال الحسن : صار حيواناً لحماً ودماً . وقيل :
 بل صار يحور ولم تتقلب عينه . فقال لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى ،
 فعكفوا على عبادته ، ونهاهم هرون فلم ينتهوا ^(١) . وحرق العجل وذراه في اليم
 كما أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً
 لَنُحْرِقَهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ . فأمروا بقتل أنفسهم كما أخبر تعالى بقوله :
 ﴿فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية . فقتل منهم سبعون ألفاً ثم رفع عنهم
 القتل بعد ذلك .

وقد اختلف في السامرة : هل هم من اليهود أم لا؟ والقرءون والربانيون
 ينكرون كون السامرة من اليهود . وقد قال أصحابنا الشافعية رحمهم الله : إنهم إن
 وافقت أصولهم أصول اليهود فهم منهم حتى يقرؤوا بالحزبية وإلا فلا .

(١) بياض بالأصل ولعله "بغاء موسى وحرق الخ" .

ثم السامرة لهم توراۃ تخصهم غير التوراة التي بيد القرائين والربانيين ، والتوراة التي بيد النصارى ؛ وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار نبوة من بعد موسى ما عدا هرون ويوشع عليهما السلام ، ويخالفونهم أيضا في استقبال صخرة بيت المقدس ، ويستقبلون طور نابلس ويوجهون إليه موتاهم ، زاعمين أنه الذي كلم الله تعالى موسى عليه ، ويزعمون أن الله تعالى أمر داود عليه السلام ببناء بيت المقدس عليه ، يخالف وبناه بالقدس : قاتلهم الله أئى يؤفكون . وهم قائلون أيضا : إن الله تعالى هو خالق الخلق البارئ لهم ، وإنه قادر قاهر قديم أزلي . ويوافقون على نبوة موسى وهرون عليهما السلام ، وأن الله تعالى أنزل عليه التوراة ، إلا أن لهم توراۃ تخصهم تخالف توراۃ القرائين والربانيين المتقدمة الذكر ، وأنه أنزل عليه أيضا الألواح الجوهر المتضمنة للعشر كلمات المتقدمة الذكر ، ويقولون أن الله تعالى هو الذى أنقذ بنى إسرائيل من فرعون ونجّاهم من الغرق ، ويقولون : إنه نصب طور نابلس المقدم ذكره قبلة للتعبد .

ويستعظمون الكفر بالتوراة التي هم يعترفون بها ، والتبرئ من موسى عليه السلام دون غيره من بنى إسرائيل ، ويعظمون طورهم طور نابلس المقدم ذكره ؛ ويستعظمون دكه وقلع آثار البيت الذى عمر به ؛ ويستعظمون استباحة السبت كغيرهم من اليهود ؛ ويوافقون القرائين فى الوقوف مع ظواهر نصوص التوراة ؛ ويمنعون القول بالتأويل الداهب إليه الربانيون من اليهود ؛ وينكرون صحة توراۃ القرائين والربانيين ، ويجعلون الاعتماد على توراتهم ؛ ويقولون : لا مساس : بمعنى أنه لا يمس أحدا ولا يمس . قال فى "الكشاف" : كان إذا مس أحدا أو مسه أحد حصلت الحمى للناس والمسوس . وقد أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام للسامري ﴿ أَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

(١) وَيُحَرِّمُونَ مِنَ الذَّبَائِحِ ، وَيُحَرِّمُونَ أَكْلَ اللَّحْمِ مَخْطِطًا بِلَهْنٍ ، زَاعِمِينَ أَنَّ
فِي تَوَارِثِهِمُ النَّهْيَ عَنْ أَكْلِ لَحْمِ الْجَدْيِ بِلَهْنِ أُمِّهِ ، وَيَسْتَعْظِمُونَ السَّعْيَ إِلَى الْخُرُوجِ
إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ سُكُوتُهَا وَهِيَ مَدِينَةُ أَرِيحَا .

وَمِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَهُمْ وَطْءُ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ ، وَالنَّوْمُ مَعَهَا فِي مَضْجَعٍ وَاحِدٍ ،
لَا سِيَّامَا إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مُسْتَبِيحًا لَهُ . وَمِنْ أَعْظَمِ الْعِظَائِمِ عِنْدَهُمْ إِنْكَارُ خِلَافَةِ هَرُونَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْأَنْفَةُ مِنْ كَوْنِهَا .

وَقَدْ رَتَّبَ فِي "التعريف" : يَمَيِّنُهُمْ عَلَى مَقْتَضَى ذَلِكَ ، فَذَكَرَ أَنَّ يَمَيِّنُهُمْ :

إِنْنِي وَاللَّهُ وَاللَّهُ الْعَظِيمُ ، الْبَارِيُّ ، الْقَادِرُ ، الْقَاهِرُ ، الْقَدِيمُ ، الْأَزَلِيُّ ، رَبُّ
مُوسَى وَهَارُونَ ، مُنْزِلُ التَّوْرَةِ وَالْأَلْوَابِ الْخَوْصَرِ ، مُنْقِذُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَنَاصِبِ الطُّورِ
قَبِيلَةَ الْمُتَعَبِّدِينَ . وَإِلَّا كَفَرْتُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ ، وَبَرِئْتُ مِنْ نُبُوَّةِ مُوسَى ، وَقُلْتُ : إِنَّ
الْإِمَامَةَ فِي غَيْرِ بَنِي هَارُونَ ، وَدَكَّيْتُ الطُّورَ ، وَقُلَعْتُ بِيَدِي أَثَرُ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ،
وَأَسْتَبَحْتُ حُرْمَةَ السَّبْتِ ، وَقُلْتُ بِالتَّأْوِيلِ فِي الدِّينِ ، وَأَقْرَرْتُ بِصِحَّةِ تَوْرَةِ الْيَهُودِ ،
وَأَنْكَرْتُ الْقَوْلَ بِأَنَّ لَا مِسَاسَ ، وَلَمْ أَتَجَنَّبْ شَيْئًا مِنَ الذَّبَائِحِ ، وَأَكَلْتُ الْجَدْيَ بِلَهْنِ
أُمِّهِ ، وَسَعَيْتُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْأَرْضِ الْمَحْظُورِ عَلَى سَكْنِهَا ، وَأَتَيْتُ النِّسَاءَ الْحَيْضَ
زَمَانَ الطَّمْثِ مُسْتَبِيحًا لَهُنَّ ، وَبِتُّ مَعَهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ كَافِرٍ بِخِلَافَةِ
هَارُونَ ، وَأَنْفَتُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ .

الفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ

(مَنْ تَدْعُو الضَّرُورَةَ إِلَى تَحْلِيفِهِ - النَّصْرَانِيَّةُ)

وقد اختلف في اشتقاقها، ف قيل : أخذًا من قول المسيح للحواريين : ((من أنصاري إلى الله)) وقول الحواريين : ((نحن أنصار الله)) . وقيل : من نزوله هو وأمه - بعد عودها به من مصر - بالناصرة : وهي قرية من بلاد فلسطين من الشام : وقيل غير ذلك .

والنصارى - هم أمة عيسى عليه السلام ، وكأبهم الإنجيل . وقد اختلف في اشتقاقه على ثلاثة مذاهب حكاه أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" :
أحدها - أنه مأخوذ من قولهم : نجت الشيء إذا أخرجته ، بمعنى أنه خرج به دأرس من الحق .

والثاني - أنه مأخوذ من قولهم : تناجل القوم إذا تنازعوا ، لأنه لم يقع في كتاب من الكتب المتزلة [مثل] التنازع الواقع فيه . قاله أبو عمرو الشيباني .

والثالث - أنه مأخوذ من النجل بمعنى الأصل : لأنه أصل العلم الذي أطلع الله تعالى فيه خليقته عليه ، ومنه قيل للوالد نجل : لأنه أصل لولده .

ثم ذكر هذه الاشتقاقات جنوح من قائلها إلى أن لفظ الإنجيل عبري ، والذي يظهر أنه عبراني : لأن لغة عيسى عليه السلام كانت العبرانية ، وقد قال صاحب "إرشاد القاصد" : إن معنى الإنجيل عندهم البشارة .

وأعلم أن النصارى بجماعتهم مجمعون على أن مريم حملت بالمسيح عليه السلام ، وولده ببيت لحم من بلاد القدس من الشام ، وتكلم في المهد ، وأن اليهود حين

أنكروا على مريم عليها السلام ذلك فَرَّتْ بالمسيح عليه السلام إلى مصر، ثم عادت به إلى الشام، وعمره اثنتا عشرة سنة، فنزلت به القرية المسماة ناصرة المقدم ذكرها، وأنه في آخر أمره قبض عليه اليهود وسعوا به إلى عامل قيصر ملك الروم على الشام، فقتله وصلبه يوم الجمعة، وأقام على الحشبة ثلاث ساعات، ثم استوهبه رجل من أقارب مريم اسمه يوسف النجار من عامل قيصر، ودفنه في قبر كان أعدّه لنفسه في مكان الكنيسة المعروفة الآن بالقمامة بالقدس، وأنه مكث في قبره ليلة السبت ونهار السبت وليلة الأحد، ثم قام من صديحة يوم الأحد، ثم رآه بطرس الحواري وأوصى إليه؛ وأن أمه جمعت له الحواريين فبعثهم رسلاً إلى الأقطار للدعاية إلى دينه، وهم في الأصل اثنا عشر حواريًا: بطرس ويقال له: سمعان، وشمعون الصفا أيضا. وأندراوس وهو أخو بطرس المقدم ذكره، ويعقوب بن زبدي، ويوحنا الإنجيلي، وهو أخو أندراوس، وفيلبس، وبرثلوماوس، وتوما: ويعرف بتوما الرسول، ومتى ويعرف بمتى العشار، ويعقوب بن حلفا، وسمعان القناني ويقال له سمعان أيضا، وبولس ويقال له تداوس، وكان اسمه في اليهودية شاول، ويهوذا الاسخريوطي (وهو الذي دلَّ يهود على المسيح حتى قبضوا عليه بزعمهم) وقام مقامه بنيامين، ويقولون: إنه بعد أن بعث من بعث من الحواريين صعد إلى السماء. وهم متفقون على أن أربعة من الحواريين تصدوا لكتابة الإنجيل: وهم بطرس، ومتى، ولوقا، ويوحنا^(٢). فكتبوا فيه سيرة المسيح من حين ولادته إلى حين رفيعه، وكتب كل منهم نسخة على ترتيب خاص بلغه من اللغات.

(١) سيأتي قريباً كما في "العبر" (ج ٢ ص ١٤٧) أن يوحنا الإنجيلي أخو يعقوب بن زبدي وكذلك في "المقرزي" ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) كذا في "الملل والنحل" أيضا ولكن لم يرد في الحواريين المذكورين قبل هذا الاسم.

فكتب بطرس إنجيله باللغة الرومية في مدينة رومية قاعدة بلاد الروم، ونسبه إلى تلميذه مرقس أول بطاركة الإسكندرية، ولذلك يعرف بمرقس الإنجيلي، وقيل: إن الذي كتبه مرقس نفسه. وكتب متى إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس، ونقله بعد ذلك يوحنا بن زبدي إلى اللغة الرومية. وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض أكابر الروم، وقيل: بل كتبه باليونانية بمدينة الإسكندرية. وكتب يوحنا إنجيله باليونانية بمدينة أفسس، وقيل مدينة رومية.

قال الشهرستاني: وخاتمة إنجيل متى: «إني أرسلكم إلى الأمم كما أرسلني أبي إليكم فاذهبوا وأدعوا الأمم باسم الأب والابن وروح القدس» ثم اجتمع برومية من توجه إليها من الحواريين ودعوا قوانين دين النصرانية على يد أقليمس تلميذ بطرس الحواري، وكتبوا عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بمقتضاها، وهي عدة كتب: منها الأناجيل الأربعة المتقدمة الذكر، والتوراة التي بأيديهم، وجملة كتب من كتب الأنبياء الذين قبل المسيح عليه السلام، كيشوع بن نون، وأيوب، وداود، وسليمان عليهم السلام، وغيرهم.

ثم لما مات الحواريون أقام النصارى لهم خلايف، عبر عنهم بالبطاركة جمع بطرك، وهي كلمة يونانية مركبة من لفظين، أحدهما بطر ومعناه، والثانية يرك ومعناه، ورأيت في ترسل العلاء بن موصلايا: كاتب القائم بأمر الله العباسي "فطرك" ببدال الباء فاء، والعامة يقولون: "بترك" ببدال الطاء تاء، وهو عندهم خليفة المسيح، والقائم بالدين فيهم.

(١) في المقرئ ص ٤٨٣ ج ٢ "قليموس" وفي العبرج ٢ ص ١٤٨ "أقليمس".

(٢) بياض بالأصول، وكذلك بيض له فيما تقدم عند الكلام على ألقاب وظائف النصارى انظر (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع.

وقد كان لبطاركتهم في القديم ^(١)خمسة كراسي، لكل كرسي منها بطرك. الأول منها بمدينة رومية، والقائم به خليفة بطرس الحواري المتوجه إليها بالإشارة. والثاني بمدينة الإسكندرية. والقائم به خليفة مرقس تلميذ بطرس الحواري المتقدم ذكره وخليفته بها. والثالث بمدينة زنطية: وهي القسطنطينية. والرابع بمدينة أنطاكية من العواصم التي هي في مقابلة حلب الآن. والخامس بالقدس. وكان أكبر هذه الكراسي الخمسة كرسي رومية لكونه محل خلافة بطرس الحواري، ثم كرسي الإسكندرية، لكونه كرسي مرقس خليفة.

ثم اصطالحوا بعد ذلك على أسماء وضعوها على أرباب وظائف دياناتهم، فعبروا عن صاحب المذهب بالطريق، وعن نائب البطريرك بالأسقف، وقيل الأسقف عندهم بمنزلة المفتي، وعن القاضي بالمطران، وعن القارئ بالقسيس، وعن صاحب الصلاة وهو الإمام بالخاليق، وعن قيم الكنيسة بالشماس، وعن المنقطع إلى المولى للعبادة بالراهب.

وكانت الأساقفة يسمون البطريرك أبا، والقسوس يسمون الأسقف أبا، فوقع الاشتراك عندهم في اسم الأب، فوقع اللبس عليهم، فاخترعوا لبطرك الإسكندرية اسم الباب، ويقال فيه البابا بزيادة ألف، والبابه بإبدال الألف هاء، ومعناه عندهم أبو الآباء: لتمييز البطريرك عن الأسقف، فاشتهر بهذا الاسم، ثم نقل اسم الباب إلى بطرك رومية لكونه خليفة بطرس الحواري، وبقي اسم البطريرك على بطرك الإسكندرية وغيره من أصحاب الكراسي.

(١) تقدم في (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع أنها أربعة ولم يذكر كرسي زنطية.

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصَارَى مُجْعُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ بِالْجَوْهَرِ ثَلَاثَةً بِالْأَقْنُومِيَّةِ ؛
وَيُفَسِّرُونَ الْجَوْهَرَ بِالدَّاتِ وَالْأَقْنُومِيَّةَ بِالصِّصَاتِ : كَالْوُجُودِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ ؛
وَيَعْبُرُونَ عَنِ الدَّاتِ مَعَ الْوُجُودِ بِالْأَبِ ، وَعَنِ الدَّاتِ مَعَ الْعِلْمِ بِالْأَبْنِ ؛ وَيَعْبُرُونَ
عَنِ الدَّاتِ مَعَ الْحَيَاةِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ؛ وَيَعْبُرُونَ عَنِ الْإِلَهِ بِاللَّاهُوتِ ، وَعَنِ الْإِنْسَانِ
بِالنَّاسُوتِ ؛ وَيُطْلِقُونَ الْعِلْمَ عَلَى الْكَلِمَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ إِلَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَحَمَلَتْ
مِنْهَا بِالْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَيُخَصُّوْنَهُ بِالْإِتِّحَادِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَقَانِيمِ .

وَأَجْتَمَعَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانِيَّةٌ عَشَرَ ، وَقِيلَ وَسَبْعَةٌ عَشَرَ أُسْقِفًا مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ بِمَدِينَةِ
نِيقِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ بِحَضْرَةِ قُسْطَنْطِينَ مَلِكِ الرُّومِ عِنْدَ ظَهْوَرِ أَرِيُوشِ الْأُسْقُفِ
وَقَوْلِهِ : إِنَّ الْمَسِيحَ مَخْلُوقٌ ، وَإِنَّ الْقَدِيمَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَلْفُوا عَقِيدَةً اسْتَخْرَجُوهَا
مِنْ أَنْجِيلِهِمْ لِقَبُولِهَا بِالْأَمَانَةِ ، مِنْ خَرَجَ عَنْهَا خَرَجَ عَنِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ؛ وَنَصَّهَا عَلَى
مَا ذَكَرَهُ الشَّهْرَسْتَانِي فِي "النَّحْلِ وَالْمِلَلِ" وَابْنُ الْعِمِيدِ مُؤَرِّخُ النَّصَارَى فِي تَارِيخِهِ
مَا صَوَّرْتُهُ .

تُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَبِ ، مَالِكِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَصَانِعِ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى ، وَبِالْأَبْنِ
الْوَاحِدِ أَيْشُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ اللَّهِ ؛ يَكْفُرُ الْخِلَاقَ كُلَّهَا ، وَلَيْسَ بِمَصْنُوعٍ ؛ إِلَهُ حَقٌّ مِنْ
[إِلَهٍ حَقٍّ مِنْ] جَوْهَرِ أَبِيهِ الَّذِي بِيَدِهِ أُتْقِنَتِ الْعَوَالِمُ وَكُلُّ شَيْءٍ ، الَّذِي مِنْ أَجْلِنا
و [مِنْ] أَجْلِ خَلَاصِنَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَتَجَسَّدَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَوُلِدَ مِنْ مَرْيَمَ
الْبَتُولِ ، وَصَلَبَ أَيَّامَ فِيلَاطُوسَ ، وَدُفِنَ ثُمَّ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَصَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ،
وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ أَبِيهِ ، وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِلْجِيءِ تَارَةً أُخْرَى لِلْقَضَاءِ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ

(١) الَّذِي فِي "الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ" لِلشَّهْرَسْتَانِي (ص ١٣٢) وَثَلَاثَةٌ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ رَجُلًا . وَفِي "الْعَبَرِ"

ج ٢ ص ١٥٠ أَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعِينَ أُسْقِفًا وَاتَّفَقُوا مِنْهُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ وَثَمَانِيَّةٍ عَشَرَ .

(٢) الزِّيَادَةُ مِنَ الْعَبَرِ (ج ٢ ص ١٥٠) .

والأحياء . وَنُؤْمِنُ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْوَاحِدِ الْحَيِّ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْ أَبِيهِ ، وَبِمَعْمُودِيَّةٍ
وَاحِدَةٍ لَغُفْرَانِ الْخَطَايَا ، وَبِجَمَاعَةٍ [وَاحِدَةٍ] قُدْسِيَّةٍ مَسِيحِيَّةٍ جَانَلِيْقِيَّةٍ ، وَبِقِيَامِ
أَبْدَانِنَا ، وَبِالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ أَبَدَ الْآبِدِينَ .

وَوَضَعُوا مَعَهَا قَوَانِينَ لِشَرَائِعِهِمْ سَمَّوْهَا الْهَيَانُوتُ ^(١) . ثُمَّ اجْتَمَعَ مِنْهُمْ جَمْعٌ
بُقُسْطَنْطِينِيَّةٍ عِنْدَ دَعْوَى مَقْدُونِيُوسِ الْمَعْرُوفِ بَعْدُ رُوحِ الْقُدُسِ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ رُوحُ
الْقُدُسِ مَخْلُوقٌ ، وَزَادُوا فِي الْأَمَانَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرَ مَا نَصَهُ : ”وَنُؤْمِنُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
الْحَيِّ الْمُنْبَتِقِ مِنَ الْآبِ“ وَلَعَنُوا مَنْ يَزِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى كَلَامِ الْأَمَانَةِ أَوْ يَنْقُصُ مِنْهَا .
وَأَفْتَرَقَ النَّصَارَى بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى فِرَقٍ كَثِيرَةٍ ، الْمَشْهُورُ مِنْهَا ثَلَاثُ فِرَقٍ :

الفِرَقَةُ الْأُولَى (الْمَلَكَانِيَّةُ)

قَالَ الشَّهْرَسْتَايُ : وَهُمْ أَتْبَاعَ مَلَكَانَ الَّذِي ظَهَرَ بِبِلَادِ الرُّومِ ، وَمَقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ
مَنْسُوبُونَ إِلَى مَلَكَانَ صَاحِبِ مَذْهَبِهِمْ . وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَصَنُفَاتِ أَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ
إِلَى مَرَكَانَ قَيْصَرَ أَحَدِ قِيَاصِرَةِ الرُّومِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يَقُومُ بِعُسْرَةٍ مَذْهَبِهِمْ ، فَقِيلَ
لَهُمْ مَرَكَانِيَّةٌ ، ثُمَّ عُرِبَ مَلَكَانِيَّةٌ ، وَمُعْتَقِدُهُمْ أَنَّ جُزْءًا مِنَ اللَّاهُوتِ حَلَّ فِي النَّاسُوتِ ،
ذَاهِبِينَ إِلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ وَهِيَ أَقْنُومُ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ آتَحَدَتْ بِجَسَدِ الْمَسِيحِ وَتَدَرَّعَتْ بِنَاسُوتِهِ
وَمَازَجَتْهُ مُمَازَجَةً الْخَمَرِ [اللَّبَنِ] أَوْ الْمَاءِ اللَّبَنِ ، وَلَا يَسْمُونُ الْعِلْمَ قَبْلَ تَدَرُّعِهِ أَبْنَاءً ،
بَلِ الْمَسِيحُ وَمَا تَدَرَّعَ بِهِ هُوَ الْآبْنُ ، وَيَقُولُونَ : إِنْ الْجَوْهَرُ غَيْرُ الْأَقَانِيمِ كَمَا فِي الْمُوصُوفِ
وَالصِّفَةِ ، مَصْرَحِينَ بِالتَّثْلِيثِ ، قَائِلِينَ بِأَنَّ كَلَامًا مِنَ الْآبِ وَالْآبْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهُ ،
وَالِيَهُمْ وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ) .

(١) فِي ”الْعَبْر“ : الْهَيَايُونَ .

وهم يقولون : إن المسيح قديم أزلي من قديم أزلي ، وإن مريم ولدت إلهًا أزليًا ، فيطلقون الأبوة والبُنة على الله تعالى وعلى المسيح حقيقة ، متمسكين بظاهر ما يزعمون أنه وقع في الإنجيل من ذكر الأب والابن : « تكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرَنَّ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

ثم هم يقولون : إن المسيح ناسوت كُلِّ لاجزئي ، وإن القتل والصلب وقعا على الناسوت والآهوت معا كما نقله الشهرستاني في « النحل والمِلل » وإن كان الشيخ شمس الدين بن الأکفاني في كتابه « إرشاد القاصد » قد وهم فنقل عنهم القول بأن الصلب وقع على الناسوت دون الآهوت .

ومن معتقديهم أيضا أن المعاد والحشر يكون بالأبدان والأرواح جميعا ، كما تضمنته الأمانة المتقدمة ، وأن في الآخرة التلذذات الجسمانية بالأكل والشرب والنكاح وغير ذلك كما يقوله المسلمون .

ومن فروعهم أنهم لا يَحْتَنُونَ ، وربما أكل بعضهم الميتة . وممن تذهب بمذهب الملكانية الروم والفرنجية ومن والاهم .

والملكانية يدينون بطاعة الباب : وهو بطرك رومية المقسم ذكره ، قال في «الروض المعطار» : من قاعدة الباب أنه إذا اجتمع به ملك من ملوك النصارى ينطح على بطنه بين يديه ، ولا يزال يقبل رجله حتى يكون هو الذي يأمره بالقيام .

الفِرْقَةُ الثَّانِيَّةُ (الْيَعْقُوبِيَّةُ)

وهم أَتْبَاعُ دِيَسْقُرُسَ بَطْرِكِ الإسْكَندَرِيَّةِ فِي الْقَدِيمِ : وَهُوَ الثَّامِنُ مِنْ بَطَارِكَيْهَا مِنْ حِينَ بَطْرِكِيَّةِ مُرْقُسِ الْإِنْجِيلِيِّ نَائِبِ بَطْرُسِ الْحَوَارِيِّ بِهَا . قَالَ آبَنُ الْعَمِيدِ فِي تَارِيخِهِ : وَسَمَّى أَهْلُ مَذْهَبِهِ يَعْقُوبِيَّةَ : لِأَنَّ اسْمَهُ كَانَ فِي الْغَلْمَانِيَّةِ يَعْقُوبَ . وَقِيلَ : بَلْ كَانَ لَهُ تَلْمِيزٌ لاسْمِهِ يَعْقُوبُ فَنُسِبُوا إِلَيْهِ . وَقِيلَ : بَلْ كَانَ شَاوِيرُشُ بَطْرِكُ أَنْطَاكِيَّةِ عَلَى رَأْيِ دِيَسْقُرُسَ ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ اسْمُهُ يَعْقُوبُ فَكَانَ يَبْعَثُهُ إِلَى أَصْحَابِهِ : أَنْ أَثْبَتُوا عَلَى أَمَانَةٍ دِيَسْقُرُسَ فَنُسِبُوا إِلَيْهِ . وَقِيلَ : بَلْ نُسِبُوا إِلَى يَعْقُوبَ الْبَرْدَغَانِي تَلْمِيزَ سُورِسَ بَطْرِكِ أَنْطَاكِيَّةِ ، وَكَانَ رَاهِبًا بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فَكَانَ يَطُوفُ فِي الْبِلَادِ وَيَدْعُو إِلَى مَذْهَبِ دِيَسْقُرُسَ . قَالَ آبَنُ الْعَمِيدِ : وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْيَعْقُوبِيَّةَ يُنْسَبُونَ إِلَى دِيَسْقُرُسَ قَبْلَ ذَلِكَ بكَثِيرٍ ، وَمُعْتَقِدُهُمْ أَنَّ الْكَلِمَةَ انْقَلَبَتْ لَحْمًا وَدَمًا فَصَارَ إِلَهُهُ هُوَ الْمَسِيحَ .

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . قَالَ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاةَ : وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ إِنَّهُ قُتِلَ وَصُلِبَ وَمَاتَ وَبَقِيَ الْعَالَمُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَا مُدَبِّرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : ظَهَرَ اللَّاهُوتُ بِالنَّاسُوتِ ، فَصَارَ نَاسُوتُ الْمَسِيحِ مَظْهَرُ الْحَقِّ لَاعِلَى طَرِيقِ حُلُولِ جُزْءٍ فِيهِ ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ اتِّحَادِ الْكَلِمَةِ الَّتِي هِيَ فِي حُكْمِ الصِّفَةِ ، بَلْ صَارَ هُوَ هُوَ ، كَمَا يَقَالُ : ظَهَرَ الْمَلَكُ بِصُورَةِ إِنْسَانٍ ، وَظَهَرَ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ حَيَوَانٍ ، وَكَمَا أَخْبَرَ التَّنْزِيلُ عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَتَمَثَلَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ : إِنَّ الْمَسِيحَ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ جَوْهَرَيْنِ ، وَرَبَّمَا قَالُوا : طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ طَبِيعَتَيْنِ . فَيَجُوهَرُ الْإِلَهِ الْقَدِيمُ وَجَوْهَرُ الْإِنْسَانِ الْمُحْدَثُ تَرْجَمًا تَرْكَبَ

النَّفْسَ وَالْبَدَنَ فَصَارَا جَوْهَرًا وَاحِدًا أَقْنُومًا وَاحِدًا وَهُوَ إِنْسَانٌ كُلُّهُ وَإِلَهُ كُلُّهُ، فيقال :
الإنسانُ صارَ إلهًا ولا ينعكسُ ، فلا يقال : الإلهُ صارَ إنسانًا ، كالفَحْمَةُ تُطْرَحُ
في النار فيقال : صارت الفَحْمَةُ نارا، ولا يقال : صارت النارُ فَحْمَةً ، وهى فى الحقيقة
لا نارٌ مطلقة ولا فَحْمَةٌ مطلقة ، بل هى جمرة .

ويقولون : إِنَّ الكلمةَ اتَّحدَتْ بالإنسان الجزئى لا الكلىَّ ، وربَّما عبَّروا عن
الاتحاد بالامتزاج والأدراع والحلول ، كحلول صورة الإنسان فى المرأة .

ومنهم من يقول : إن الكلمةَ لم تأخذ من مَرِّيمَ شيئًا لكنها مَرَّت بها كمرورِ
الماءِ بالميزاب ، وإنَّ ما ظهر من شَخْصِ المسيح عليه السلام فى الأعينِ هو كالحِلالِ
والصورةِ فى المرأة ، وإن القتلَ والصَّلبَ إنما وقعا على الحِلالِ .

وزعم آخرون منهم أَنَّ الكلمةَ كانت تُدْخِلُ جَسَدَ المسيح أحيانا فتصدرُ عنه
الآياتُ : من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وتُفَارِقُهُ فى بعض الأوقات
فتردُّ عليه الآلامُ والأوجاعُ . ثم هم يقولون : إن المعادَ إنما هو رُوحانىٌّ فيه لَذَّةٌ
وراحةٌ وسُرورٌ ، ولا أكلٌ ولا شُرْبٌ ولا نِكَاحٌ .

ومن فروعهم أنهم يَخْتَنُّونَ ، ولا يأكلون الحيوانَ إلا بعد التَّذَكِّيَةِ . وقد حكى
أبنُ العميد مؤرِّخُ النَّصارَى أن ديسقُرسَ صاحبَ مذهبِ اليعقوبية حين ذهبَ
إلى ما ذهب : من مذهبِهِ المُقَدِّمِ ذِكْرَهُ ، رُفِعَ أمرُهُ إلى مَرَّكانَ قَيَّصَرَ مَلِكِ الرُّومِ
يومئذ ، فطلبه إلى مَدِينَةِ خَلْقَدُونِيَّةٍ من بلاد الرُّومِ ، وجمعَ له سَمائَةً وأربعةً وثلاثين
أُسْقُفًا ، وناظره بَحْضَةُ المَلِكِ فَسَقَطَ فى المُنَاطَرَةِ ، فكلمته زوجةُ المَلِكِ فَأَسَاءَ الرَّدَّ
فأطعمته بيدها ، وتناولوه الحاضرون بالضرب ، وأُمِرَ بانخراجه ؛ فسار إلى القُدْسِ ،

(١) كذا فى "العبر" أيضا باثبات مثناة تحية بعد النون والذى فى معجم يافوت بجذفها .

فأقام به واتبعه أهل القدس وفلسطين ومصر والإسكندرية ، وقد آتبعه على ذلك أيضا النوبة والحبشة ، وهم على ذلك إلى الآن .

الفِرقة الثالثة

(النُسْطُورِيَّة)

ومقتضى كلام ابن العميد أنهم أتباع نُسْطُور يوس بطرك القُسْطَنْطِينِيَّة . ويحكى عنه أن من مذهبه أن مريم عليها السلام لم تلد إلهًا ، وإنما ولدت إنسانًا ، وإنما اتَّحد في المَشيئة لا في الذات ، وأنه ليس إلهًا حقيقة بل بالموهبة والكرامة . ويقولون بجَوْهَرَيْنِ وأَقْنُومَيْنِ ، وإن كرلس بطرك الإسكندرية و بطرك رومية خالفاه في ذلك ، فجمع لهم مائتي أسقف بمدينة أفسس وأبطلوا مقالة نُسْطُور يوس وصرحوا بكفره ، فنفى إلى إناحيم من صعيد مصر ومات بها ، فظهر مذهبه في نصارى المشرق : من الجزيرة الفراتية والموصل والعراق وفارس .

والذي ذكره الشهرستاني في "النحل والملل" أنهم منسوبون إلى نُسْطُور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه ، وقال : إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ؛ وإن هذه الأقانيم ليست بزائدة على الذات ولا هي هي ، وإن الكلمة اتَّحدت بحسد المسيح عليه السلام لا على طريق الأمتزاج ، كما ذهب إليه الملكانية ، ولا على طريق الظهور كما قالته اليعقوبية ،

(١) عبارة ابن خلدون في العبر (ج ٢ ص ١٥٢) وبلغت مقالة نُسْطُور يوس إلى كرلس بطرك الإسكندرية ، فكتب إلى بطرك رومية وهو كليمس ، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكية ، وإلى يوناوس أسقف بيت المقدس ، فكتبوا إلى نُسْطُور يوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرتجع ولم يلتفت إلى قولهم ، فاجتمعوا في مدينة أفسس في مائتين أسقفًا ألح .

ولكن كاشراق الشمس في كوة ، أو كظهور النقش في الخاتم : قال الشَّهْرَسْتَانِي :
 ويعنى بقوله إنه واحد بالجوهر أنه ليس مركباً من جنس بل هو بسيط واحد .
 ويعنى بالحياة والعلم أقنومين جوهرين أى أصليين مبدئين للعالم . قال : ومنهم من
 يثبت لله تعالى صفات زائدة على الوجود والحياة والعلم : كالقدرة والإرادة ونحوهما .
 ومنهم من يطلق القول بأن كل واحد من الأقاليم الثلاثة حتى ناطق إله . ومنهم من
 يقول : إن الاله واحد ، وإن المسيح ابتداء من مريم عليها السلام ، وإنه عبد صالح
 مخلوق ، خلقه الله تعالى وسماه ابناً على التَّبَنَّى لا على الولادة والاتحاد . ثم هم يخالفون
 في القتل والصلب مذهب الملكانية واليعقوبية جميعاً ، فيقولون : القتل والصلب
 وقعا على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته : لأن الإله لا تحله الآلام .
 قال صاحب حماة : وهم عند النصارى كالمعتزلة عندنا .

وَيُعْلَمُ أَنَّ لِلنَّصَارَى أَشْيَاءَ يُعَظَّمُونَهَا وَ[أشياء] يَسْتَعِظُمُونَ الْوُقُوعَ فِيهَا .

فَأَمَّا الَّتِي يُعَظَّمُونَهَا فَإِنَّهُمْ يُعَظَّمُونَ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَتَتْهُوا فِيهِ إِلَى مَا أَتَتْهُوا :
 مِنْ دَعْوَى الْأُلُوهِيَّةِ وَالْبَنُوَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَأَسْمُهُ عِنْدَهُمْ
 إِيشُوعُ فَعَرَّبَ عَيْسَى . وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمَسِيحَ لِكَوْنِهِ مَمْسُوحَ الْقَدَمَيْنِ لَا أَنْحَصَ لَهُ .
 وَيُعَظَّمُونَ مَرِيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ لَوْلادَتِهَا الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَعْبُرُونَ عَنْهَا
 بِالسَّيِّدَةِ ، وَبِالْبَتُولِ ، وَبِالْعَدْرَاءِ .

وَيُعَظَّمُونَ مَرِيَمًا الْمَعْمَدَانِ ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَعْنَى
 مَرِ السَّيِّدِ ، وَيَحْيَا يَعْنِي يَحْيَى ، وَيُسَمُّونَهُ الْمَعْمَدَانِ لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَرِيَمَ عَلَيْهَا
 السَّلَامُ حِينَ عَوْدِهَا مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ وَمَعَهَا السَّيِّدُ الْمَسِيحُ تَلَقَّاهُ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 فَعَمَّدهُ فِي نَهْرِ الْأُرْدُنِّ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِينَ ، يَعْنِي غَمَسَهُ فِيهِ ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ أَصْلًا

لِلْمَعْمُودِيَّةِ : وهو الماء الذي يَغْمَسُونَ فيه عند تَتَضَرُّعِهِمْ ، ويقولون : إنه لا يصح تَتَضَرُّعُ نَصْرَانِيٍّ دُونَ تَعَمُّدٍ . وَلَمَّا المَعْمُودِيَّةُ بِذَلِكَ عندهم من التَّعْظِيمِ مَا لَا فَوْقَهُ . وبعضهم يقول : إن المراد بِمَرِيحُنَا المَعْمَدَانِ غَيْرُ يَحْيَى بن زَكَرِيَّا عليهما السلام .

ويعظمون الحَوَارِيَّينَ : وهم أصحاب المَسِيحِ عليه السلام . وقد تقدَّم أن عِدَّتَهُم أَثْنَا عَشَرَ حَوَارِيًّا ، ومعنى الحَوَارِيَّ الخَاصُّ ، ومنه قيل للدَّقِيقِ النَّاصِعِ الْبَيَاضِ دَقِيقُ حَوَارِيٍّ ، سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّ المَسِيحَ عليه السلام آسَتْخَلَصَهُمْ لِنَفْسِهِ .

ويعظمون البَطَارِكَةَ لأنهم خُلَفَاءُ الدِّينِ عندهم ، وَيَرَوْنَ لَهُم من الحُرْمَةِ مَا لِلدِّينِ النَّصْرَانِيَّةِ عندهم من الحُرْمَةِ ، بل يجعلون أَمْرَ التَّحْلِيلِ والتَّخْرِيمِ مُنَوِّطًا بِهِمْ ، حَتَّى لو حَرَّمَ البَطْرِكُ عَلَى أَحَدِهِمْ زَوْجَتَهُ لم يَقْرَبَهَا حَتَّى يُحْلِلَهَا لَهُ . وسَيَأْتِي مَالِ بَطْرِكِ^(١) اليَعْقُوبِيَّةِ عند صاحب الحَبَشَةِ من الحُرْمَةِ عند ذكر المَكَاتِبَةِ إِلَيْهِ فيما بَعْدُ ، إن شاء الله تعالى .

وكذلك يعظمون أَرْبَابَ الوِظَانِ الدِّينِيَّةِ عندهم : من البَطْرِيْقِ ، والأُسْقُفِّ ، والمِطْرَانِ ، والقِسَّيسِ ، والشَّيَاسِ ، والراهبِ ، وقد تقدَّم تَفْسِيرُهُمْ فيما مرَّ .

ويعظمون يُوسُفَ النَّجَّارَ : وهو قَرِيبٌ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ، يَقَالُ : إنه ابْنُ عَمَّتِهَا ، كَانَ مَعَهَا فِي خِدْمَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وهو الذي آسَتْوَهَبَ المَسِيحَ بَعْدَ الصَّلْبِ بِرَحْمَتِهِمْ حَتَّى دَفَنَهُ . واليَهُودُ يَرْمُونَ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَعَهُ بِالْفُجُورِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

ويعظمون مَرْيَمَ المَجْدَلَانِيَّةَ المَقْدَمَ ذِكْرُهَا ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا^(٢) أُنْخِرَ مِنْهَا سَبْعَةُ شَيَاطِينٍ ، وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَنْ رَأَى المَسِيحَ حِينَ قَامَ مِنْ قَبْرِهِ .

(١) سبق الكلام على المَكَاتِبَةِ إِلَيْهِ فِي ج ٨ ص ٣٩ فهذا الوعد سهو عما سبق .

(٢) بياض بالأصول .

ومن عادتهم أنه إذا مات منهم أحدٌ من يعتقدون صلاحه صوروا صورته في حيطان كنائسهم ودياراتهم يتبركون بها .

ويعظمون قُسطنطين بن قُسطنطين ملك الروم ، وذلك أنه أول من أخذ بدين النصرانية من الملوك وحمل على الأخذ به . وقد اختلف في سبب ذلك فقيس : إنه كان يحارب أمة البرجان بجواره وقد أعجزه أمرهم ، فرأى في المنام كأن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صليبان ، فعمل أعلاماً على مثاله وحاربهم بها فظهر عليهم . وقيل : بل رأى صورة صليب في السماء . وقيل : بل حملته أمه هيلاني على ذلك .

ويعظمون هيلاني أم قُسطنطين المقدم ذكره ، ويقولون : إنها رحلت من قُسطنطينية إلى القدس ، وأتت إلى محل الصليب بزعمهم ، فوَقَفَتْ وَبَكَتْ ، ثم سألت عن خشبة الصليب ، فأخبرت أن اليهود دفنوها وجعلوا فوقها القمامات والنجاسات ، فاستعظمت ذلك ، وأستخرجتها وغسلتها وطيبتها وغششها بالذهب ، وألبسها الحرير ، وحملتها معها إلى القُسطنطينية للتبرك ، وبنت مكانها كنيسة ، وهي المسماة الآن بالقمامة ، أخذوا من اسم القمامة التي كانت موضوعة هناك .

ويعظمون من الأمكنة بيت لحم حيث مولد المسيح عليه السلام ، وكنيسة قمامة حيث قبره ، وموضع خشبة الصليب التي أستخرجتها هيلاني أم قُسطنطين بزعمهم . وكذلك يعظمون سائر الكنائس : وهي أمكنة عباداتهم كالمساجد للمسلمين . وأصلها في اللغة مأخوذ من قولهم : كنَّاس الظبي : وهو المكان الذي يستتر فيه ، سُمِّيَتْ بذلك لاستتارهم فيها حال عبادتهم عن أعين الناس . وكذلك يعظمون الديارات : وهي أمكنة التخلّي والاعتزال كالزوايا للمسلمين .

ويعظمون المذبح : وهو مكان يكون في الكنيسة يقرؤون عنده القرايين
ويذبحون الذبائح ، ويعتقدون أن كل ما ذبح عليه من قربان صار لحمه ودمه هو لحم
المسيح ودمه حقيقة .

ويعظمون من الأزمنة أعيادهم الآتي ذكرها عند ذكر أعياد الأمم : كعيد
الغطاس من أعيادهم الجبار ، وموقعه في الحادي عشر من طوبه من شهر القبط .
وعيد السيدة من أعيادهم الصغار . وموقعه في الحادي والعشرين من بشونة منها .
وعيد الصليب . وموقعه عندهم في السابع عشر من ثوت ، إلى غير ذلك من الأعياد
الآتي ذكرها مع أعياد الأمم ، في الكلام على الأزمنة من هذه المقالة ، إن شاء
الله تعالى .

وأما الأشياء التي [يتعبدون] بها ، فإنهم يصلون سبع صلوات في اليوم والليلة ،
وهي : الفجر ، والضحى ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، ونصف الليل ؛
ويقراءون في صلاتهم بمزامير داود عليه السلام كما تفعل اليهود . والسجود في صلاتهم
غير محدود العدد ، بل قد يسجدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة . وهم
لا يتوضئون للصلاة ، ولا يغتسلون من الجنابة ، وينكرون الطهر للصلاة على المسلمين
وعلى اليهود ، ويقولون : الأصل طهارة القلب . وإذا أرادوا الصلاة ضربوا
بالنَّاقوس ، وهو خشبة مستطيلة نحو الذراع يضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون .
وهم يستقبلون في صلاتهم المشرق ، وكذلك يوجهون إليه موتاهم . قال الزنجشري :
ولعلَّ ذهابهم إلى ذلك لأخذ مريم عليها السلام عنهم مكاناً شرقياً كما أخبر تعالى
بقوله : ﴿ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ .

(١) لم يذكر شيئاً من الأعياد في هذه المقالة وقد سبق ذكر ذلك في الفصل الثالث من المقالة الأولى
فها هنا سهو .

ولهم صِيَامَاتٌ فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ .

منها - صَوْمُهُمُ الْكَبِيرُ : وَهُوَ سِتُّونَ يَوْمًا أَوْطَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ . وموقع أوله في شباط أو آذار من شهور السريان ، بحسب ما يقتضيه حسابهم ، يُفْطِرُونَ فِي خِلَالِهَا يَوْمَ الْاِحَدِ ، تَبْقَى مَدَّةُ صِيَامِهِمْ مِنْهَا تِسْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ يَوْمًا .

ومنها - [صَوْمُهُمُ الصَّغِيرُ] : وَهُوَ سِتَّةٌ وَأَرْبَعُونَ يَوْمًا يَصُومُونَهَا بَعْدَ الْفَصْحِ الْكَبِيرِ بِخَمْسِينَ يَوْمًا ، أَوْطَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ أَيْضًا ، وَعِنْدَهُمْ فِيهِ خِلَافٌ .

ومنها - صَوْمُ الْعَذَارَى : وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، أَوْطَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ الْكَائِنِ بَعْدَ كَانُونِ الثَّانِي ، فِي صِيَامَاتٍ أُخْرَى يَطُولُ ذِكْرُهَا ، وَلَكثَرَةُ صِيَامِهِمْ قِيلَ : إِذَا حَدَّثْتَ أَنَّ نَصْرَانِيًّا مَاتَ مِنَ الْجُوعِ فَصَدَّقَ .

وَأَمَّا مَا يَحْرَمُونَهُ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بِتَحْرِيمِ لَحْمِ الْجَمَلِ وَلَبَنِهِ كَمَا يَقُولُهُ الْيَهُودُ ، وَيَقُولُونَ : بِحَلِّ لَحْمِ الْخَنَازِيرِ خِلَافًا لِلْيَهُودِ ، وَهُوَ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَخَالَفَةِ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ .

وَيَحْرَمُونَ صَوْمَ يَوْمِ الْفِصْحِ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ يَوْمُ فِطْرِهِمْ مِنْ صَوْمِهِمُ الْأَكْبَرِ .

وَيَحْرَمُونَ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَمْرًا ثَيْنِ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ .

وَيَحْرَمُونَ طَلَاقَ الزَّوْجَةِ بَلْ إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُهُمْ أَمْرًا لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا فِرَاقٌ إِلَّا بِالْمَوْتِ .

وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَسْتَغْظَمُونَ الْوُقُوعَ فِيهَا :

فمنها - جُحُودُ كَوْنِ الْمَسِيحِ هُوَ الْمُبَشَّرُ بِهِ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ومنها - إِنْكَارُ قَتْلِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَلْبِهِ ، فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَبَبًا لِخِلَاصِ الْبَلَاءِ مِنَ النَّاسُوتِ ، فَمَنْ أَنْكَرَ عِنْدَهُمْ وَقُوعَ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ عَلَى الْمَسِيحِ

خرج عن دين النصرانية ، بل إنكار رؤيته مصلوباً عندهم ارتكابٌ محظور . على أنهم يُنكرون على اليهود ارتكابهم ذلك ، ويستعظمون مشاركتهم في ذلك ، فيألفا من عقول أضلها بارئها ! .

ومنها - كسر صليب الصليبات ، وهو الخشبة التي يزعمون أن المسيح عليه السلام صاب عليها . وقد تقدم أن هيلاني أم قسطنطين استخرجتها من القمامة وغسلتها وطيبتها وغششها بالذهب والبستها الحرير وحملتها معها للتبرك .

ومنها - الرجوع عن متابعة الحواريين الذين هم أصحاب المسيح عليه السلام .
ومنها - الخروج عن دين النصرانية أو التبري منه ، والقول بدين التوحيد أو دين اليهودية .

ومنها - الوقوع في حق قسطنطين وأمه هيلاني : لقيامهما في إقامة دين النصرانية أولاً على ما تقدم ذكره . وكذلك الاستهانة بالبطارقة أو أحد من أرباب الديانات عندهم : كالأساقفة ونحوهم من تقدم ذكره .

ومنها - القعود عن أهل الشعانين : وهم أهل التسبيح الذين كانوا حول المسيح عليه السلام حين ركب الحمار بالقدس ودخل صهيون يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهم حوله يسبحون الله تعالى ويقددونه .

ومنها - صوم يوم الفصح الأكبر ، وصرف الوجه في الصلاة عن الشرق ، واستقبال صحرة بيت المقدس موافقة لليهود .

ومنها - هدم كنيسة قسامة : لكونها عندهم في محل القبر بزعمهم . وكذلك غيرها من الكناس والديرة .

ومنها - تكذيب أحد من نقلة الإنجيل الأربعة الذين كتبوه كمتى وغيره ،
أو تكذيب أحد من القسوس : وهم الذين يقرءون الإنجيل والمزامير ، وتكذيب مريم
المجدلانية فيما أخبرت به عن المسيح من قيامه من قبره الذى كان دُفِنَ فيه برغمهم ،
فإنهم يزعمون أنها أول من رآه عند قيامه .

ومنها - القول بنجاسة ماء المعمودية : وهو الماء الذى يتعمسون فيه عند
تنصيرهم .

ومنها - عدم اعتقاد أن القربان الذى يُذبح فى المذبح لا يصير لحمه ودمه هو لحم
المسيح ودمه ، ولعمري إن هذه لعقول ذاهبة .

ومنها - استباحة دماء أهل الديارات ، والمشاركة فى قتل الشمامسة الذين هم
خدام الكنائس .

ومنها - خيانه المسيح فى وديعته . وذلك أنهم يزعمون أن كل ماخالفت فيه فرقة
من الفرق الثلاث الفرقة الأخرى كقول الملكانية بأن المعاد جسماني ، وقول
اليعقوبية : إن المعاد روحاني ، فإن الفرقة الأخرى يستعظمون الوقوع فيما ذهب
إليه مخالفتها ، وكذلك كل ماجرى هذا المجرى .

وقد رتب الكتاب أيمان النصارى على هذه المعتقدات . قال محمد بن عمر المدائني
فى كتاب "القلم والدواة" : وقد يذهب على كثير من الكتاب ما يستحلف به اليهود
والنصارى عند الحاجة إلى ذلك منهم ، فيستحلفون بأيمان الإسلام وهم مستحلون
للحرام ، ومجترون على الآثام ، ويتأمنون من أيمانهم ، والاستقسام بأديانهم .
ثم أشار إلى أن أول ما رتب الأيمان التى يحلف بها النصارى على هذه الطريقة
فى زمن الفضل بن الربيع ، فحكى عن بعض كتاب العراق أنه قال : أراد الفضل

أَبْنُ الرَّبِّيع : يعنى وَزِيرَ الرَّشِيدِ أَنْ يَسْتَحْلِفَ كَاتِبَهُ ”عَوْنَا النَّصْرَانِي“ فلم يَدِرْ
 كَيْفَ يَسْتَحْلِفُهُ ، فَقُلْتُ : وَلَّى اسْتِحْلَافَهُ ، قَالَ : دُونِكَ ، فَقُلْتُ لَهُ : احْلِفْ
 بِالْهَلِكِ الَّذِي لَا تَعْبُدُ غَيْرَهُ ، وَلَا تَدِينُ إِلَّا لَهُ ، وَإِلَّا خُلِعْتَ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَبَرِئْتَ مِنَ
 الْمَعْمُودِيَّةِ ، وَطَرَحْتَ عَلَى الْمَذْبَحِ خُرْقَةَ حِيْضَةٍ يَهُودِيَّةٍ ، وَقُلْتَ فِي الْمَسِيحِ مَا يَقُولُهُ
 الْمَسَامُونُ ﴿ إِنْ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . وَإِلَّا فَلَعَنَكَ
 الْبَطْرِيكَ الْأَكْبَرُ ، وَالْمَطَارَنَةُ ، وَالشَّامِيسَةُ ، وَالْقَمَامِيسَةُ ، وَالْدِيرَانِيُّونَ ، وَأَصْحَابُ
 الصَّوَامِعِ عِنْدَ مَجْتَمَعِ الْخَنَازِيرِ وَتَقْرِيبِ الْقُرْبَانِ ؛ وَبِمَا اسْتَغَاثْتُ بِهِ النَّصْرَانِيُّ لِيَسُوعَ ،
 وَإِلَّا فَعَلَيْكَ جُرْمٌ ثَلَاثَاةٌ وَثَمَانِيَّةٌ عَشْرُ أَسْفَافًا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ نِيْقِيَّةَ حَتَّى أَقَامُوا عُمُودَ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، وَإِلَّا فَشَقَّقْتَ النَّاقُوسَ وَطَبَخْتَ بِهِ لَحْمَ جَمَلٍ وَأَكَلْتَهُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مَدْخَلَ
 الصَّوْمِ وَأَحْمَمْتَ مِنْ كُلِّ بَرَكَةٍ يَوْمًا (؟) وَرَمَيْتَ الشَّاهِدَ بَعَشْرِينَ حَجْرًا جَاحِدًا بِهَا ،
 وَهَدَمْتَ كَنِيسَةً لَدَى ، وَبَنَيْتَ بِهَا كَنِيسَةَ الْيَهُودِ ، وَخَرَقْتَ غِفَارَةَ مَرْيَمَ وَكَهْنُونَةَ دَاوُدَ ،
 وَأَنْتَ حَنِيفٌ مُسْلِمٌ ؛ وَهَذِهِ الْيَمِينُ لَازِمَةٌ لَكَ وَلَعَقِيكَ مِنْ بَعْدِكَ . قَالَ فَقَالَ عَوْنٌ :
 أَنَا لَا أَسْتَحِلُّ أَنْ أَسْمَعَ هَذِهِ فَكَيْفَ أَقُولُهَا ! وَخَرَجَ مِنْ جَمِيعِ مَا طَالَبَهُ بِهِ الْفَضْلُ ،
 فَأَمَرَ بِهَا الْفَضْلُ فَكُتِبَتْ نُسْخًا وَفُرِّقَتْ عَلَى الْكُتَّابِ وَأَمَرَهُمْ بِحِفْظِهَا وَتَحْلِيفِ
 النَّصْرَانِيِّ [بِهَا] .

قُلْتُ : وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ تَرْتِيبِ نُسْخِ الْإِيمَانِ لِتَحْلِيفِ النَّصْرَانِيِّ ، فَمِنْ
 مُطَنِّبٍ وَمِنْ مُوَحِّزٍ ، عَلَى اخْتِلَافِ مَقَاصِدِهِمْ فِيمَا يَقَعُ بِهِ التَّحْلِيفُ وَيُوَافِقُ آرَاءَهُمْ
 فِيهِ . وَقَدْ رَتَّبَ الْمُقَرُّ الشَّهَابِيُّ أَبْنَ فَضْلٍ اللَّهِ فِي ”التَّعْرِيفِ“ لَهُمْ أَيْمَانًا عَلَى مُقْتَضَى
 آرَاءِ فِرْقَتِهِمُ الثَّلَاثِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ : مِنَ الْمَلَكَانِيَّةِ ، وَالْعَقُوبِيَّةِ ، وَالنَّسَاطِرَةِ .

فأما الملكانيّة، فقال : إنَّ يَمِينَهُم : واللهِ واللهِ العظيم ، وحقَّ المسيح عيسى
 ابن مريم ، وأمه السيِّدة مريم ، وما اعتقده من دين النصرانيّة ، والمِلَّة المسيحيّة .
 وإلّا أبرأ من المعمودية ، وأقول : إن ماءها نجس ، وإن القرايين رجس ، وبرئت
 من مريختي المعمدان والأنجيل الأربعة ، وقلت : إن متى كذوب ، وإن مريم
 المجدلانيّة باطلة الدّعوى في إخبارها عن السيِّد اليسوع المسيح ، وقلت في السيِّدة
 مريم قول اليهود ، ودنتُ بدينهم في الجحود ، وأنكرت اتحاد اللاهوت بالنسوت ،
 وبرئت من الأب والابن وروح القدس ، وكذبت القسوس ، وشاركت في ذبح
 الشمامس ، وهدمت الديارات والكنائس ، وكنتُ ممن مال على قُسطنطين بن
 هيلاني ، وتعمد أمه بالعظام ، وخالفتُ المجامع التي أجمعت الأساقفة بروميّة
 والقُسطنطينيّة ، ووافقتُ البردعانيّ بأنطاكيّة ، وجمدتُ مذهب الملكانيّة ،
 وسفّهُتُ رأي الرهبان ، وأنكرتُ وقوع الصلب على السيِّد اليسوع ، وكنتُ مع اليهود
 حين صلبوه ، وحدتُ عن الحواريين ، وأستباحتُ دماء الديّريّين ، وجذبتُ رداء
 الكهزياء عن البطريك ، وخرجتُ عن طاعة الباب ، وضممتُ يوم الفصح الأكبر ،
 وقعدتُ عن أهل الشعانين ، وأبيتُ عيد الصليب والفطاس ، ولم أحفل بعيد
 السيِّدة ، وأكلتُ لحم الجمل ، ودنتُ بدين اليهود ، وأبحتُ حرمة الطلاق ، وخنّتُ
 المسيح في وديعته ، وتزوجتُ في قرنٍ بامرأتين ، وهدمتُ بيدي كنيسة قسامة ،
 وكسرتُ صليب الصلبوت ، وقلتُ في البُتّة مقال سُطُورس ، ووجهتُ إلى الصخرة
 وجهي ، وصديتُ عن الشرق المنير حيثُ كان المظهر الكريم ، وإلّا برئتُ من
 النورانيين والشعشعانيين ، ودنتُ غير دين النصارى ، وأنكرتُ أن السيِّد اليسوع أحيا
 الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ، وقلتُ بأنّه مرَبوب ، وأنّه ما رُوى وهو مصلوب ،
 وأنكرتُ أن القربان المقدّس على المذبح ما صار لحم المسيح ودمه حقيقة ، وخرجتُ

في النصرانية عن لاجِبِ الطريقة ، وإلَّا قُلْتُ بِدِينِ التَّوْحِيدِ ، وتعبَدْتُ غَيْرَ
الأرباب ، وقَصَدْتُ بالمطانيات غيرَ طريقِ الإخلاص ، وقلْتُ : إِنَّ المَعَادَ غَيْرُ
رُوحَانِيٍّ ، وإن بَنِي المعمودية لَا تَنَسِيحُ فِي فَيْسِيحِ السماء ، وَأُثْبِتُ وجودَ الحُورِ العِينِ
في المَعَادِ ، وأن في الدار الآخرة التَّلَذُّذَاتِ الجُسَمَانِيَّةِ ، ونَحَرَجْتُ خروجَ الشَّعْرَةِ من
العَجِينِ من دِينِ النِّصْرَانِيَّةِ ، وَأَكُونُ من دِينِي مُحَرِّمًا ، وقلْتُ إن جَرَجَسَ لم يُقْتَلْ
مَظْلُومًا .

وأما اليعاقبة ، فقال : إنه يُبَدِّلُ قوله : اتِّحَادَ اللَّاهُوتِ بالنَّاسُوتِ بقوله : مُمَاسَّةَ
اللَّاهُوتِ للنَّاسُوتِ . وَيُبْطِلُ قوله : ووَاقَفْتُ البرَدْعَانِيَّ بِأَنطَاكِيَّةِ ، وَجَحَدْتُ مذهب
المَلَكَايِيَّةِ وَيَسُدُّ بقوله : وَكَذَّبْتُ يَعْقُوبَ البرَدْعَانِيَّ ، وقلْتُ : إنه غيرُ نصراني ،
وَجَحَدْتُ اليعقوبِيَّةَ ، وقلْتُ إن الحقَّ مع المَلَكَايِيَّةِ . وَيُبْطِلُ قوله : ونَحَرَجْتُ
عن طاعة الباب ، وَيُبَدِّلُ بقوله : وَقَاتَلْتُ بِيَدِي عَمْدَشْيُونَ ، وَخَرَبْتُ كَنِيسَةَ قُصَامَةَ
وَكُنْتُ أَوَّلَ مَفْتُونٍ .

وإن كَانَ من النساطرة أَبْدَلَ القَوْلَيْنِ وَأَبْقَى مَا سِوَاهُمَا ، وقال عوضُ مُمَاسَّةِ
اللَّاهُوتِ للنَّاسُوتِ : إِشْرَاقَ اللَّاهُوتِ عَلَى النَّاسُوتِ ، وَزَادَ بَعْدَ مَا يُحَذَفُ : وَقَاتَلْتُ
بِالْبَرَاءَةِ مِنْ نُسْطُورِسَ وَمَا تَضَمَّنَهُ الإِنْجِيلُ المَقْدَسُ .



وهذه نُسخة يَمِينٍ حُلِّفَ عَلَيْهَا مَلِكُ النُّوبَةِ لِلسُّلْطَانِ المَلِكِ المَنْصُورِ « قُلاوون »
عند أَستقرارِهِ نَائِبًا عَنْهُ فِي بِلَادِ النُّوبَةِ ، وَهِيَ :

وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ ، وَحَقَّ النَّالُوثِ المَقْدَسِ ، وَالْإِنْجِيلِ الطَّاهِرِ ، وَالسَّيِّدَةِ الطَّاهِرَةِ
العَذْرَاءِ أُمِّ النُّورِ ، وَالْمَعْمُودِيَّةِ ، وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَالرُّسُلِ ، وَالْحَوَارِيِّينَ ، وَالْقَدِيسِينَ ،

والشهداء الأبرار، وإلا أبحد المسيح كما بحده بودس؛ وأقول فيه ما يقول اليهود، وأعتقد ما يعتقدونه؛ وإلا أكون بودس الذي طعن المسيح بالحربة - إني أخلصت نيتي وطوبيتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك فلان، وإني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإني ما دمت نائبه لا أقطع المقرر عليّ في كل سنة تمضي: وهو ما يفضّل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدّم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصاً من كل حق، والنصف الآخر مرسداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها، وأن يكون عليّ في كل سنة كذا وكذا. وإني أقتر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العفلاء البالغين ديناراً عينا. وإني لا أترك شيئاً من السلاح ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررتّه أو عن شيء من هذا المذكور أعلاه كله، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلي إلى غير الشرق، وأكسر الصليب، وأعتقد ما يعتقد اليهود. وإني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته، ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم يكن مصلحة. وإني ولي من وإلى السلطان وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل.

قلت: وسيتأتى ذكر أيمان الفرنج على الهدنة عند ذكر ما أهمله في "التعريف":

من نسخ الأيمان في آخر الباب، إن شاء الله تعالى.

الملة الثالثة

(المجوسية : وهي الملة التي كان عليها الفرس ومن دأن بدينهم)

وهم ثلاث فرق :

الفرقة الأولى - الكيومرّية - نسبة إلى كيومرّت ، ويقال : جيومرّت بالجيم بدل الكاف . وهو مبدأ النسل عندهم كآدم عليه السلام عند غيرهم ، وربما قيل : إن كيومرّت هو آدم عليه السلام . وهؤلاء أثبتوا إلهًا قديمًا وسموه يزدان ، ومعناه النور ، يعنون به الله تعالى ، وإلهًا مخلوقًا سموه أهرمن ، ومعناه الظلمة ، يعنون به إبليس . ويزعمون أن سبب وجود أهرمن أن يزدان فكر في نفسه أنه لو كان له منازع كيف يكون ، فحدث من هذه الفكرة الرديّة أهرمن ، مطبوعًا على الشرّ والفتنة والفساد والضّرر والإضرار ، فخرج على يزدان وخالف طبيعته ، فحرت بينهما محاربة كان آخر الأمر فيها على أن اصطالحا أن يكون العالم السفلي لأهرمن سبعة آلاف سنة ، ثم يخلّي العالم ويسمّيه ليزدان . ثم إنه أباد الذين كانوا في الدنيا قبل الصلح وأهلكهم ، وبدأ برجلٍ يقال له كيومرّت ، وحيوانٍ يقال له الثور ، فكان من كيومرّت البشر ومن الثور البقر وسائر الحيوان .

وقاعدة مذهبهم تعظيم النور ، والتحرّز من الظلمة ، ومن هنا أُنجزوا إلى النار فعبدوها : لما أشتملت عليه من النور . ولما كان الثور هو أصل الحيوان عندهم المصادف لوجود كيومرّت ، عظّموا البقر حتى تعبّدوا بأبوالها .

الفرقة الثانية - الشنوية - وهم على رأي الكيومرّية في تفضيل النور والتحرّز من الظلمة ، إلا أنهم يقولون : إن الاثنين اللذين هما النور والظلمة قديمان .

الفِرْقَةُ الثالثة — الزَرَادَشْتِيَّة الدَّائِنُونَ بِدِينِ الْمَجُوسِيَّة — وهم أَتْبَاعُ زَرَادَشْتِ
الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ كَيْسْتَاكِسَ السَّابِعِ مِنْ مُلُوكِ الْيَكَانِيَّةِ ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مُلُوكِ
الْفُرسِ ، وَأَدَّعَى النُّبُوَّةَ وَقَالَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا ضِدٌّ
وَلَا نِدٌّ ، وَأَنَّهُ خَالِقُ النُّورِ وَالظُّلُمَةِ وَمُبْدِعُهُمَا ، وَأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالصَّلَاحَ وَالْفَسَادَ إِنَّمَا
حَصَلَ مِنْ أَمْتَرَاكِجَهُمَا ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي مَزَجَهُمَا لِحِكْمَةٍ [رَأَاهَا] فِي التَّرْكِيبِ ،
وَأَنَّهُمَا لَوْ لَمْ يَمْتَرَجَا لَمَا كَانَ وُجُودٌ لِلْعَالَمِ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ الْأَمْتَرَاكِجُ حَتَّى يَغْلِبَ النُّورُ
الظُّلُمَةَ ، ثُمَّ يَخْلُصُ الْخَيْرُ فِي عَالِمِهِ وَيَخْطُ الشَّرُّ إِلَى عَالِمِهِ ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ الْقِيَامَةُ .
وَقَالَ بِاسْتِقْبَالِ الْمَشْرِقِ حَيْثُ مَطْلَعُ الْأَنْوَارِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَأَجْتِنَابِ الْخُبَاثَاتِ . وَأَتَى بِكِتَابٍ قِيلَ صَنَفَهُ ، وَقِيلَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ . قَالَ الشَّهْرَسْتَانِي :
أَسَمَاهُ ”زَنْدُوسْتَا“ . وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي ”التَّنْبِيهِ وَالْإِشْرَافِ“ : وَأَسَمَ هَذَا الْكِتَابَ
”الْإِيِسْتَا“ ، وَإِذَا عُرِّبَ أَشْبَهَتْ فِيهِ قَافٌ فَقِيلَ : ”الْإِيِسْتَاقُ“ وَعَدَدَ سُورَتِهِ إِحْدَى
وَعِشْرُونَ سُورَةً ، تَقَعُ كُلُّ سُورَةٍ فِي مَائَتِي وَرَقَةٍ ، وَعَدَدُ حُرُوفِهِ سِتُّونَ حَرْفًا ، لِكُلِّ
حَرْفٍ سُورَةٌ مُفْرَدَةٌ ، فِيهَا حُرُوفٌ تَتَكَرَّرُ فِيهَا حُرُوفٌ تَسْقُطُ . قَالَ : وَزَرَادَشْتِ
هُوَ الَّذِي أَحْدَثَ هَذَا الْخَطَّ وَالْمَجُوسُ تَسْمِيهِ : دِينَ تَبَرَه ، أَيْ كِتَابَ الدِّينِ .

وَذَكَرَ أَنَّهُ كُتِبَ بِاللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْأُولَى فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ جِلْدٍ ثَوْرٍ بِقُضْبَانِ
الذَّهَبِ حَفْرًا ، وَأَنَّ أَحَدًا الْيَوْمَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى تِلْكَ اللُّغَةِ ، وَإِنَّمَا نَقَلَ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ
الْفَارِسِيَّةِ شَيْءٌ مِنَ السُّورِ فِي أَيْدِيهِمْ يَقْرَءُونَهَا فِي صَلَوَاتِهِمْ : فِي بَعْضِهَا الْخَبَرُ عَنْ مُبْتَدَأِ
الْعَالَمِ وَمُنْتَهَاهُ ، وَفِي بَعْضِهَا مَوَاعِظُ . قَالَ : وَعَمِلَ زَرَادَشْتِ لِكِتَابٍ ”الْإِيِسْتَا“
شَرْحًا سَمَاهُ ”الزَنْدُ“ وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ : تَرْجُمَةُ كَلَامِ الرَّبِّ ، ثُمَّ عَمِلَ لِكِتَابٍ ”الزَنْدُ“
شَرْحًا سَمَاهُ : ”بَادَزَنْدُ“ وَعَمِلَتْ عَلَيْهِمُ أُولَئِكَ الشَّرْحَ شَرْحًا سَمَوْهُ : ”يَاَزْدَه“ .

ومن حيث اختلاف الناس في كتاب زرادشت المقدم ذكره هذا : نُزِلَ عليه
أو صَنَّفَهُ قال الفقهاء : إنَّ لِلْجُوسِ شُبُهَةَ كِتَابٍ : لِأَنَّهُ غَيْرُ مُقْطُوعٍ بِكَوْنِهِ
كِتَابًا مُنْزَلًا .

وَأَتَى زَرَادُشْتَ كَيْسَتَاسَفَ الْمَلِكِ بِمُعْجَزَاتٍ .

منها - أنه أتى بدائرةٍ صحيحةٍ بغير آلة ، وهو ممتنع عند أهل الهندسة .

ومنها - أنه مرَّ على أعمى ، فأمرهم أن يأخذوا حَشِيشَةً سَمَّاها وَيَعْصُرُوهَا
فِي عَيْنَيْهِ ، فَأَبْصَرَ . قال الشَّهْرَسْتَانِيُّ : وليس ذلك من المعجزة في شيء ، إذ يحتملُ
أنه كان يعرف خاصَّة الحَشِيشَةِ .

وهم يقولون : إن الله تعالى خلق في الأوَّلِ خَلْقًا رُوحَانِيًّا ، فلبا مضت ثلاثة
آلاف سنة أنفذ الله تعالى مشيئته في صورة من نور متلائي على [تركيب] صورة
الإنسان ، وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض (وبنو آدم حينئذٍ غير
متحرِّكين) في ثلاثة آلاف سنة .

ثم الجُوسُ يفضُّلون الفرس على العرب وسائر الأمم ، ويفضُّلون ما لهم : من مدُن
وأبنية على غيرها من الأبنية ، فيفضُّلون إقليم بابل على غيره من الأقاليم ، ومدينته على
سائر المدُن ، من حيث إنَّ أوشهنج أوَّل طبقة الكيانية من ملوك الفرس هو الذي
بناها ، ويقولون : إنه أوَّل من جلس على السرير ، وليس النَّاج ، ورفع الأعمال ،
ورتب الخراج ، وكان ملكه بعد الطوفان بمائتي سنة ، وقيل : بل كان قبل
الطوفان .

ويفضُّلون الكتابة الفهلوية وهي الفارسية الأولى على غيرها من الخطوط ، ويزعمون
أن أوَّل من وضعها طهمورث : وهو الذي ملك بعد أوشهنج المقدم ذكره .

وَيُحَدِّثُونَ سِيَاسَةَ بَنِي سَاسَانَ ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ ^(١) مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ مَنْسُوبُونَ
إِلَى سَاسَانَ . وَيَسْخَطُونَ [عَلَى] الرُّومِ ، لَغَزَوْهُمْ الْفُرْسَ وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ بِبِلَادِ
بَابِلَ . وَيَعْبُدُونَ النَّارَ ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْأَفْلَاقَ فَاعِلَةٌ بِنَفْسِهَا ، وَيَسْتَبِيحُونَ فُرُوجَ
الْمَحَارِمِ مِنَ الْبَنَاتِ وَالْأَمْهَاتِ ، وَيَرَوْنَ جَوَازَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِنْ عَقَائِدِهِمْ .

وَيُعَظِّمُونَ النَّيِّرُوزَ : وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ سَنَتِهِمْ وَعِيدُهُمُ الْأَكْبَرُ . وَأَوَّلُ مَنْ
رَتَبَهُ جَمَشِيدُ أَخُو ظَهْمُورِثَ . وَيُعَظِّمُونَ أَيْضًا الْمَهْرَجَانَ : وَهُوَ عِيدٌ مَشْهُورٌ
مِنْ أَعْيَادِهِمْ .

وَيَسْخَطُونَ [عَلَى] بِيُورَاسَبَ : وَهُوَ رَابِعُ مُلُوكِهِمْ : وَهُوَ الضَّحَّاكُ يُقَالُ لَهُ
بِالْفَارَسِيَّةِ : الدَّهَاشُ ، وَمَعْنَاهُ عَشْرَ آفَاتٍ . وَكَانَ ظُلُومًا غَشُومًا ، سَارِ فِيهِمْ بِالْجَوْرِ
وَالْعُسْفِ ، وَبَسَطَ يَدَهُ بِالْقَتْلِ ، وَسَنَّ الْعُشُورَ وَالْمُكُوسَ وَاتَّخَذَ الْمَغْنِينَ وَالْمَلَاهِيَّ ،
وَكَانَ عَلَى كَيْفِهِ سِلْعَتَانِ مَسْتُورَتَانِ بَشِيَاهُ يُحَرِّكُهُمَا إِذَا شَاءَ ، فَكَانَ يَدْعِي أَنَّهُمَا
حَيَّانِ ، تَهْوِيَانِ عَلَى ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ ، وَيَزْعَمُ أَنَّ مَا يَأْخُذُهُ مِنَ الرَّعِيَةِ يُطْعِمُهُ لَهَا
لِيُكْفِيَهُمَا عَنِ النَّاسِ ، وَأَنَّهُمَا لَا يَشْبَعَانِ إِلَّا بِأَدْمِغَةِ بَنِي آدَمَ ، فَكَانَ يَقْتُلُ فِي كُلِّ
يَوْمٍ عَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ بِهَذِهِ الْحِجَّةِ . وَيُقَالُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
كَانَ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ .

وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَ جَوْرُهُ وَظُلْمُهُ عَلَى النَّاسِ ، ظَهَرَ بِأَصْبَحَانَ رَجُلٌ اسْمُهُ
كَابِي ، وَيُقَالُ : كَابِيَانُ مِنْ سِفْلَةِ النَّاسِ ، قِيلَ حَدَادٌ ، كَانَ الضَّحَّاكُ قَدْ قَتَلَ لَهُ ابْنَيْنِ
فَأَخَذَ كَابِي الْمَذْكُورَ دِرْفَسًا وَهُوَ الْحَرْبَةُ وَعَلَّقَ بِأَعْلَاهَا قِطْعَةً نَطَعَ كَانَ يَتَّقِي بِهَا النَّارَ ،

(١) فِي "الْعَبْر" ج ٢ ص ١٦٩ أَنَّهَا الرَّابِعَةُ .

ونادى فى الناس بمحاربة الضحَّاك ، فأجابه خلقٌ كثيرٌ ، واستفحل أمرُهُ ، وقصدَ الضحَّاكُ بمن معه ، فهرب الضحَّاكُ منه ، فسأله الناسُ أن يَمْلِكَ عليهم ، فامتنع لكونه من غير بيتِ المُلِكِ ، وأشار بتولية إفريدون من عقب جمشيد المقدَّم ذكره ، فولَّوه ، فتبع الضحَّاكُ فقبضَ عليه وقتله ، وسار فيهم بسيرة العدل وردَّ ما آغتصبه الضحَّاكُ إلى أهلِهِ ، فصار لكاتبُ المذكور عندهم المقامُ الأعلى ، وعظَّموا دِرْفَسَهُ الذى علق به تلك القطعة من النطع ، وكللوه بالجواهر ، ورصَّعوه بالياقوت ، ولم يزل عند ملوكهم يستفتون به فى الحروب العظيمة حتَّى كان معهم أيام يزدجرد آخر ملوكهم عند محاربة المسلمين لهم فى زمن عثمان ، فغلَّبهم المسلمون وأقتلوه منهم .

وهم يعظمون إفريدون ملكهم المقدَّم ذكره ، لقيامه فى هلاك الضحَّاك وقتله . وفى أول مُلك إفريدون هذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام . ويقال : إنه ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم .

وهم يعظمون أيضا من ملوكهم سابور الملَّقب بذي الأكتاف ، لأخذه بثار العجم من العرب ، وذلك أنه كان يتبع العرب بالجزيرة الفُراتية وما جاورها ، وسار فى طلبهم حتَّى بلغ البحرين ، لِيُهْلِكَهم قتلا ، لا يقبلُ من أحدٍ منهم فداءً ، ثم أخذ فى خلج أكتافهم ، فلذلك سُمِّي ذا الأكتاف .

(١) ويعظمون ماني بن فائق : وهو رجلٌ ظهر فى زمن سابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام ، وأدعى النبوة وأحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية . وكان يقول : نبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام ، وقال : إنَّ العالم

(١) فى "الملل" ابن فائق بالكاف .

مَصْنُوعٌ مِنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَزَلَا قَدِيمَيْنِ حَسَّاسَيْنِ سَمِيعَيْنِ بَصِيرَيْنِ . وَلَهُ أَتْبَاعٌ يَعْرِفُونَ بِالْمَانَوِيَّةِ .

وَيَتَبَرُّونَ مِنْ مَزْدَك : وَهُوَ رَجُلٌ مَشْهُورٌ مَنْسُوبٌ عَنْدهُمْ إِلَى الزَنْدَقَةِ أَيْضًا ، ظَهَرَ فِي زَمَنِ قُبَادَ أَحَدِ مُلُوكِ الْفُرسِ مِنَ الْأَكَّاسَةِ ، وَأَدَّعَى النَّبُوَّةَ وَنَهَى عَنِ الْخَالَفَةِ وَالْمُبَاغِضَةِ ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ النِّسَاءِ وَالْمَالِ ، فَأَمَرَ بِالْأَشْتِرَاكِ وَالْمَسَاوَةِ فِيهِمَا ، وَتَبِعَهُ قُبَادُ عَلَى ذَلِكَ ، فَتَوَصَّلَتْ سِفْلَةُ الرِّجَالِ إِلَى أَشْرَافِ النِّسَاءِ ، وَحَصَلَ بِذَلِكَ مَفْسَدَةٌ عَظِيمَةٌ . وَكَانَ يَقُولُ : إِنَّ النُّورَ عَالِمٌ حَسَّاسٌ ، وَالظُّلَامَ جَاهِلٌ أَعْمَى ، وَالنُّورُ يَفْعَلُ بِالْقَصْدِ وَالْإِخْتِيَارِ ، وَالظُّلْمَةُ تَفْعَلُ عَلَى الْخَبْطِ وَالْإِنْتِفَاقِ ، وَإِنَّ أَمْتَرَجَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ كَانَ بِالْإِنْتِفَاقِ وَالْخَبْطِ دُونَ الْقَصْدِ وَالْإِخْتِيَارِ ، وَكَذَلِكَ الْخِلَاصُ . وَلَهُ أَتْبَاعٌ يَقَالُ لَهُمُ الْمَزْدَكِيَّةُ ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ شَرْوَانُ بْنُ قُبَادَ هُوَ وَأَتْبَاعُهُ ، وَقَتَلَ مَعَهُمُ الْمَانَوِيَّةَ أَتْبَاعَ مَانِي الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ ، وَعَادَتْ الْفُرسُ إِلَى الْمَجُوسِيَّةِ الْقَدِيمَةِ .

وَقَدْ رَتَّبَ فِي "التَّعْرِيفِ" لِلْمَجُوسِ يَمِينًا عَلَى مَقْتَضَى مَا عَلَيْهِ عَقِيدَةُ الْمَجُوسِ أَتْبَاعَ زَرَادُشْتِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ ، وَهِيَ :

إِنِّى وَاللَّهِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ ، الْقَدِيمِ ، النُّورِ ، الْأَقْلِ ، رَبِّ الْأَرْبَابِ ، وَإِلَهُ الْإِلَهِةِ ، مَا حَى آيَةُ الظُّلَمِ ، وَالْمَوْجِدِ مِنَ الْعَدَمِ ، مُقَدِّرِ الْأَفْلَاقِ وَمُسَيِّرِهَا ، وَمُنُورِ الشُّهُبِ وَمُصَوِّرِهَا ، خَالِقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُنْبِتِ النُّجُومِ وَالشَّجَرِ ، وَالنَّارِ وَالنُّورِ ، وَالظِّلِّ وَالْحَرُورِ ، وَحَقِّ جِوْمَرَتِ وَمَا أَوْلَدَ مِنْ كَرَائِمِ النَّسْلِ ، وَزَرَادُشْتِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ الْفَصْلِ ، وَالزَّنْدِ وَمَا تَضَمَّنَهُ ، وَالْخَطِّ الْمُسْتَدِيرِ وَمَا بَيْنَ . وَإِلَّا أَنْكَرْتُ أَنَّ زَرَادُشْتِ لَمْ يَأْتِ بِالْدَائِرَةِ الصَّحِيحَةِ بغيرِ آلِهِ ، وَأَنَّ مَلَكَةَ إِفَرِيدُونَ كَانَتْ ضَلَالَهُ ، وَأَكُونُ

قد شاركت بيوراسب فيما سفك طعاماً لحيتيه ، وقلت إن كايان لم يُسلط عليه ؛
 وحرقت بيدي الدرفس ، وأنكرت ما عليه من الوضع الذي أشرقت عليه أجرام
 الكواكب ، وتمازجت فيه القوى الأرضية بالقوى السماوية ، وكذبت ماني وصدقت
 مزدك ، واستبحت فضول الفروج والأموال ، وقلت بانكار الترتيب في طبقات
 العالم ، وأنه لا مرجع في الأبوة إلا إلى آدم ، وفضلت العرب على العجم ، وجعلت
 الفرس كسائر الأمم ، ومسحت بيدي خطوط الفهلوية ، وجمدت السياسة
 الساسانية ، وكنت ممن غزا الفرس مع الروم ، ومن خطأ سابور في خلع أكتاف
 العرب ، وجلبت البلاء إلى بابل ، ودينْتُ بغير دين الأوائل ؛ وإلا أطفأت النار ،
 وأنكرت فعل الفلك الدوار ، ومالأت فاعل الليل على فاعل النهار ، وأبطلت حكم
 النيروز والمهرجان ، وأطفأت ليلة الصديق مصابيح النيران ؛ وإلا أكون ممن حرم
 فروج الأمهات ، وقال بأنه لا يجوز الجمع بين الأخوات ؛ وأكون ممن أنكر صواب
 فعل أردشير ، وكنت لقومي بنس المولى وبنس العشير .

المهييع الثالث

(في الإيمان التي يُخلف بها الحكماء)

وهم المعبر عنهم بالفلاسفة ، جمع فيلسوف : ومعناه باليونانية محب الحكمة .
 وأصله فيلاسوف ، فقيلاً معناه محب ، وسوف معناه الحكمة ، وهم أصحاب الحكم
 الغريزية والأحكام السماوية ، فمنهم من وقف عند هذا الحد ، ومنهم من عرف الله
 تعالى وعنده بأدب النفس .

قال الشهرستاني : وهم على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول — البراهمة ، وهم لا يُقرون بالنبوءات أصلاً ، ولا يقولون بها .

[الصنف الثاني - حكماء العرب^(١) ، وهم شُرذمةٌ قليلةٌ ، وأكثر حِكمتِهِمْ
فَلَتَاتُ الطَّعْنِ ، وَخَطَرَاتُ الْفِكْرِ ، وهؤلاء ربّما قالوا بالنبوّات .

[الصنف الثالث - حكماء الروم^(١) ، وهم على ضربين :

الضرب الأول

(القُدّماء منهم الذين هم أساطين الحِكْمة)

وهم سبعةٌ حكماء : ثاليس المَلَطِيّ ، وانكساغورس ، وانكسبانس ، وانباديقلس^(٢) ،
وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون . ومذاهبهم مختلفة ، وبعضهم عاصر بعض الأنبياء
عليهم السلام ، وتلقّف منه ، كانباديقلس : كان في زمن دَاوُد عليه السلام ، ومضى
إليه وتلقّى عنه ، واختلف إلى لُثْمَانَ وأقتبس منه الحِكْمة . وكذلك فيثاغورس : كان
في زمن سُلَيْمَانَ عليه السلام ، وأخذ الحِكْمة من معدن النبوة .

الضرب الثاني

(المتأخرون منهم ، وهم أصحاب أرسطاطاليس ، وهم ثلاث طوائف)

طائفةٌ منهم تُعرف بالمشائين : وهم الذين كانوا يمشون في رِكابه يقرءون عليه
الحِكْمة في الطريق وهو راكب . وطائفةٌ تُعرف بالرّواقين : وهم الذين كان يجلس
لتعليمهم بالرّواق . والطائفة الثالثة فلاسفةُ الإسلام : وهم حكماء العجم . أما قبل
الإسلام فإنه لم يُنقل عن العجم مقالةٌ في الفلسفة ، بل حكيمهم كلّها كانت مُستفادّةٌ

(١) الزيادة عن الشهرستاني بالمعنى ليستقيم الكلام .

(٢) في الملل والنحل : انباديقلس .

من النبوت : إما من الملة القديمة ، وإما من غيرها من الملل . ومعتقدهم أن الله تعالى واجب الوجود لذاته ، وأنه ليس بجوهر ولا عرض ، وأن ما سواه صادر عنه على ترتيب ، وأنه تعالى واحد فرد ، ليس له شريك ولا نظير ، باق أبدي سرمدي ، وأنه الذي أوجد الأشياء وكونها ، ويعبرون عنه بعلّة العلل ، وأنه قادر ، يفعل إن شاء ولا يفعل إن لم يشأ ، فاعل بالذات ليس له صفة زائدة على ذاته ، سرمد له إرادة وعناية لا تزيد على ذاته ، وأنه أول لا بداية له ، آخر لا نهاية له ، وأنه يستحيل أن يتغير، منزّه عن أن يكون حادثاً أو عرضاً للحوادث ، حتى متصف بصفات البقاء السرمديّة ، وأنه حكيم بمعنى أنه جامع لكل كمال وجلال ، وأنه خالق الأفلاك بقدرته ، ومدبرها بحكمته ، ويقولون : إن الأرض ثابتة لا تتحرك ، والماء محيط بها من سائر جهاتها على ما اقتضته الحكمة الإلهية ، وكشف بعض أعلاها لسكنى الخلق فيه ، فهي كبطيخة ملقاة في بركة ماء ، ويحيط بالماء الهواء ، ويحيط بالهواء النار ، ويحيط بالنار فلک القمر وهو الأول ، ويحيط بفلک القمر فلک عطارد وهو الثاني ، ويحيط بفلک عطارد فلک الزهرة وهو الثالث ، ويحيط بفلک الزهرة فلک الشمس وهو الرابع ، ويحيط بفلک الشمس فلک المريخ وهو الخامس ، ويحيط بفلک المريخ فلک المشتري وهو السادس ، ويحيط بفلک المشتري فلک زحل وهو السابع ، ويحيط بفلک زحل فلک الكواكب وهو الثامن ، وهو الذي فيه الكواكب الثابتة بأسرها ، وهي ما عدا الكواكب السبعة التي في الأفلاك السبعة المقدم ذكرها : من البروج الاثني عشر ومنازل القمر الثمانية والعشرين وغيرها . ويحيط بالكواكب الفلك الأطلس وهو الفلك التاسع ، والأفلاك التسعة دائرة بما فيها من المشرق إلى المغرب ، بحيث تقطع في اليوم والليلة دورة كاملة ، والكواكب السبعة

التي في الأفلاك السبعة الأولى ، وهي : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ،
والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، متحركة بالسير إلى جهات مخصوصة : الشمس والقمر
يسيران بين المشرق والمغرب وبقية الكواكب يختلف سيرها استقامة ورجوعاً ،
والكواكب التي في الفلك الثامن ثابتة لا تتحرك ، والله تعالى هو الذي يسير هذه
الأفلاك والكواكب ويفيض القوى عليها .

ويقولون : إن الشمس إذا سخنت الأرض بواسطة الضوء صعد من الرطب
منها بخار ، ومن البارد الياس دخان . ثم بعضه يخرج من مسام الأرض فيرتفع
إلى الجو ، وبعضه يحتبس في الأرض بوجود ما يمنعه من الخروج منها : من جبل
ونحوه .

فأما ما يخرج من مسام الأرض ، فإن كان من البخار ، فما تصاعد منه في الهواء
يكون منه المطر والتنج والبرد وقوس قزح والهالة ؛ ثم ما ارتفع من الطبقة الحارة من
الهواء إلى الباردة تكاثف بالبرد وأنعقد غيماً ، وإن كان ضعيفاً أثرت فيه حرارة
الشمس فاستحال هواءً ، ومهما انتهى إلى الطبقة الباردة تكاثف وعاد وتقاطر وهو
المطر . فإن أدركها برد شديد قبل أن تجتمع ، جمدت ونزلت كالقطن المنذوف وهو
التنج ، وإن لم تدركها برودة حتى اجتمعت قطرات من الجوانب أذهبت برودتها ،
أنعقدت برداً ، وإذا صار الهواء رطباً بالمطر مع أدنى صقالة ، صار كالمرآة فيتولد من
ضوء الشمس الواقع في قفاه قوس قزح ، فإن كان قبل الزوال رؤى في المغرب ،
وإن كان بعد الزوال رؤى في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء لم يمكن
أن يرى إلا قوساً صغيراً إن اتفق . وفي معنى ذلك الهالة المحيطة بالقمر ، إلا أن
الهالة إنما تحصل من مجرد برودة الهواء وإن لم يكن مطر .

وإن كان ما يخرج من مَسَامِ الأرض دُخَانًا : فإن تصاعدَ وارتفع في وَسَطِ البُخَارِ وضربه الرِّيحُ في ارتفاعه ، ثَقُلَ وانْتَكَسَ فحَرَكَه الهواءُ فحصل الرِّيحُ . وإن لم يَضْرِبْهُ الرِّيحُ ، تصاعد إلى عُنْصُرِ النارِ واشتعلت النارُ فيه فصار منه نارٌ تشاهد ، وربما استطال بحسب طُولِ الدُّخَانِ فيسمى كوكبا منقُضًا . وإن كان الدُّخَانُ كَثِيفًا واشتعل بالنار ولكنه لم يستحل على القُربِ ، بل بقي زمانًا ، رُؤِيَ كأنه كوكبٌ ذو ذَنَبٍ . وإن بقي شيءٌ من الدخان في تضاعيف الغيمِ وبردَ ، صار رِيحًا في وَسَطِ الغيمِ فيتحرَّكُ فيه بشدَّةٍ فيحصل منه صَوْتٌ وهو الرَّعدُ ، فإن قَوِيَتْ حركتهُ اشتعل من حرارة الحركة الهواءُ والدُّخَانُ فصار نارًا مُضِيئَةً وهو البرقُ . وإن كان المُشْتَعِلُ كَثِيفًا نَقِيلًا مُحْرِقًا ، أُنْدَفِعَ بمصادفة الغيمِ إلى جِهَةِ الأرضِ وهى الصاعقة : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

ويقرون أن الله تعالى مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ ، ومُنْمِي المعادنِ والنباتِ والحيوانِ . فأما المعادنُ — فهى التى تتكوَّنُ فيها جواهرُ الأرضِ : من الذهبِ والفضةِ وغيرهما . وذلك أن البخارَ والدُّخَانِ فى الأرضِ فإنها [إن] تجتمعُ وتمتدِّجُ ، فإن غلب الدخانُ كان الحاصلُ منه مثلُ النُّشادرِ والكِبْرِيتِ ، وربما تغلبَ البخارُ فى بعضه فيصير كالماءِ الصَّافِى المتعقِدِ المتحجِّجِ ، فيكون منه الياقوتُ والبِلُّورُ ونحوه ممَّا لا يتطرَّقُ تحتَ المطَّارقِ . وإن استحكمتْ أمْتزاجُ الدخانِ منه بالبُخَارِ وَقَلَّتْ الحرارةُ المحققة فى جواهرها ، أُنْعَقِدَ منه الذهبُ والفضةُ والنُّحاسُ والرَّصاصُ ونحوها ممَّا يتطرَّقُ بالمطرقةِ .

وأما النبات — فانهم يقولون : إن العنَاصِرَ قد يقعُ بها أمْتزاجٌ واختِلَاطٌ أتمُّ من أمْتزاجِ البُخَارِ والدُّخَانِ المقدم ذكره ، وأحسنُ وأقربُ إلى الاعتدالِ ، فيحصل من ذلك الثَّمَرُ الذى لا يكون فى الجمادات .

وينشأ عن ذلك ثلاثة أمور :

أحدها — التغذية بقوة مغذية : وهى قوة محيطة للغذاء تتخلع عنها صورتها وتكسوها صورة المتغذى ، فتنتشر فى أجزائه وتلتصق به وتسد مسد ما تتحلل من أجزائه .

وثانيها — التنمية بقوة مُمِية ، بأن يزيد الجسم بالغذاء فى أقطاره على التناسب اللائق بالنامى حتى ينتهى إلى مُنتهى ذلك الشئ .

وثالثها — التوليد بقوة مولدة : وهى التى تفصل جسماً من جسم شبيه به .

وأما الحيوان — فإنهم يقولون إن تكوّنه من مزاج أقرب إلى الاعتدال وأحسن من الذى قبله ، من حيث إن فيه قوة النباتية وزيادة قوتين ، وهما المديركة والمتحركة ، ومهما حصل من الإدراك أنبعثت الشهوة والزروع ، وهو إما لطلب ما يحتاج إليه فى طلب الملائم الذى به بقاء الشخص : كالغذاء ، أو بقاء النوع : كالجماع ، ويسمى قوة شهوانية . وإما للهرب ودفع المُناني ، وهى قوة غضبية ، فإن ضعفت القوة الشهوانية فهو الكراهة ، وإن ضعفت القوة الغضبية فهو الخوف .

والقوة المديركة تنقسم إلى باطنة : كالحالية والمتوهمّة والذاكرة والمفكرّة ، وإلى ظاهرة : كالسمع والبصر والذوق والشمّ واللمس . فالألس قوة منبهة فى جميع البشرة ، تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والصلابة واللين والخشونة والملاسة والحلقة والثقل . والشمّ فى زائدتى الدماغ الشبهيّتين بحلقتى الندى . والسمع فى عصبية فى أقصى الصّماخ . والذوق فى عصبية مفروشة على ظاهر اللسان بواسطة الرطوبة العذبة التى لا تطعم لها ، المنبسطة على ظاهر اللسان . والإبصار يحصل عن انطباع مثل صورة المدرك فى الرطوبة الجليدية التى تشبه البرد والجّد فإنها كالمرآة ، فاذا قابلها يكون انطبع فيها مثل صورته فتحصل الرؤية .

وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّفْسَ مَحَلُّهَا الْعُلُو . وَيَقُولُونَ : إِنْ النَّفْسَ فِي أَوَّلِ الصَّبَا تَكُونُ عَالِمَةً
بِالْمَعْقُولَاتِ الْمَجْرَدَةِ وَالْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ بِالْقُوَّةِ ، ثُمَّ تَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ عَالِمَةً بِالْفِعْلِ .

ثُمَّ إِنْ سَعِدَتْ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِلْقَبُولِ ، انْقَطَعَتْ حَاجَتُهَا عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْبَدَنِ
وَمُقْتَضَى الْخَوَاسِّ ، إِلَّا أَنَّ الْبَدَنَ لَا يَزَالُ يَحَازِبُهَا وَيَشْغَلُهَا وَيَمْنَعُهَا مِنْ تَمَامِ الْإِتِّصَالِ
بِالْعُلُويَّاتِ ، فَذَا انْخَطَطَ عَنْهَا شُغْلُ الْبَدَنِ بِالْمَوْتِ أَرْتَفَعَ عَنْهَا الْحِجَابُ ، وَزَالَ الْمَانِعُ ،
وَدَامَ الْإِتِّصَالُ ، وَكُلُّ حَالِهَا بَعْدَ فِرَاقِ الْبَدَنِ ، وَالتَّذَنُّتِ بِهِ لَذَّةٌ لَا يُدْرِكُ الْوَصْفُ
كُنْهَهَا . وَإِنْ كَانَتِ النَّفْسُ مَحْجُوبَةً عَنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ فَقَدْ شَقِيَتْ .

وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِذَا تَحَجَّبُ بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، وَقَصُرِ الْهَمَّةِ عَلَى مُقْتَضَى الطَّبْعِ ،
وَبَاقِيَّتِهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْخَاسِيسِ الْفَانِي ، فَتَرَسَّخَ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ الْعَادَةُ وَيَتَأَكَّدُ شَوْقُهُ
إِلَيْهَا ، فَتَقْوَتْ بِالْمَوْتِ آلَةُ دَرْكِ ذَلِكَ الشَّوْقِ وَيَبْقَى التَّشَوُّقُ وَهُوَ الْأَلَمُ الْعَظِيمُ الَّذِي
لَا حَدَّ لَهُ ، وَذَلِكَ مَانِعٌ مِنَ الْوَصَالِ وَالْإِتِّصَالِ . وَهَذِهِ النَّفْسُ نَاقِصَةٌ بِفَقْدِ الْعِلْمِ ،
مَلْطَظَةً بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، بِخِلَافِ النَّفْسِ السَّابِقَةِ .

وَيَقُولُونَ : إِنْ الْهَيُولَى قَابِلَةٌ لِتَرْكِيبِ الْأَجْسَامِ ، وَيُخَالِفُونَ أَهْلَ الطَّبِيعَةِ فِي قَوْلِهِمْ :
بِانْكَارِ الْمَعَادِ وَفَنَاءِ الْأَرْوَاحِ ، فَيَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ الْأَرْوَاحَ بَاقِيَةٌ وَأَنَّ الْمَعَادَ حَقٌّ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّحْسِينَ وَالتَّعْطِيجَ رَاجِعَانِ إِلَى الْعَقْلِ دُونَ الشَّرْعِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ
الْمُعْتَزِّلَةِ وَغَيْرِهِمْ .

وَيَقُولُونَ : إِنْ إِلَهِهُ تَعَالَى فَاعِلٌ بِالذَّاتِ لَيْسَ لَهُ صِفَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ذَاتِهِ ، عَالِمٌ
بِذَاتِهِ وَبَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَجْنَاسِهَا ، لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ
الْمَحْكَاتِ الْخَادِثَةَ .

ويقولون بأثبات النبوات لأن العالم لا ينتظم إلا بقانون متبوع بين كافة [الناس] يحكمون به بالعدل ، وإلا تقاتلوا وهلك العالم ، إذ النبي هو خليفة الله في أرضه ، بواسطته تنتهى إلى الخلق الهداية إلى مصالح الدنيا والآخرة ، من حيث إنه يتلقى عن الملك والملك يتلقى عن الله تعالى ، إلا أنهم يقولون : إن النبوات غير متناهية وإنما مكتسبة ينالها العبد بالرياضات . وهاتان المقاتلتان من جملة ما كفروا به : تجوز النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم الذى أخبر تعالى أنه خاتم النبيين ، وقولهم إنها تنال بالكسب .

وقد حكى الصلاح الصفدى في "شرح لامية العجم" أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إنما قتل عمارة اليمنى الشاعر ، حين قام فيمن قام بإحياء الدولة الفاطمية بعد انقراضها ، على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية ، مستنداً في ذلك إلى بَيِّت نُسِب إليه من قصيدة ، وهو قوله :

وكان مبدأ هذا الدين من رجل * سعى فأصبح يدعى سيّد الأمم

(١)

بفعل النبوة مكتسبة على أن الله تعالى ليس بجسم ولا جسماني ، وأنه ليس في جهة ولا يدخل تحت الحد والماهية .

وهذه نسخة يمين رتبها لهم في "التعريف" وهي :

(٢)

إني والله والله العظيم [العظيم] ، الذى لا إله إلا هو ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الأبدى ، السرمدي ، الأزلي ، الذى لم يزل علة العلل ، ربُّ الأرباب ،

(١) بياض في الأصل ، ولعله « وهم يجمعون على أن » الخ .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٦٢ .

وَمُدَبِّرُ الْكُلِّ [الْقَدِيرُ] الْقَدِيمُ ؛ الْأَوَّلُ بِلاَ بَدَايَةٍ ، وَالْآخِرُ بِلاَ نِهَايَةٍ ، الْمُنَزَّهٌ عَنْ
 أَنْ يَكُونَ حَادِثًا أَوْ عَرَضًا لِلْحَوَادِثِ ، الْحَيُّ الَّذِي أَتَّصَفُ بِصِفَاتِ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ
 وَالْكَامِلِ ، وَالْمُتَرَدِّى بِرَدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْجَلَالِ ؛ مُدَبِّرُ الْأَفْلَاقِ وَمُسِيرُ الشُّهُبِ ، مُفِضُ
 الْقُوَى عَلَى الْكَوَاكِبِ ، وَبَاطِنُ الْأَرْوَاحِ فِي الصُّوَرِ ، مَكُونُ الْكَائِنَاتِ ، وَمُمَيِّ
 الْحَيَوَانَ وَالْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ . وَإِلَّا فَلَا رَقِيتُ رُوحِي إِلَى مَكَانِهَا ، وَلَا أَتَّصَلْتُ نَفْسِي
 بِعَالِمِهَا ، وَبَقِيتُ فِي ظُلْمِ الْجَهَالَةِ وَحُجْبِ الضَّلَالَةِ ، وَفَارَقْتُ نَفْسِي غَيْرَ مُرْتَسِمَةٍ
 بِالْمَعَارِفِ وَلَا مُكَمَّلَةٍ بِالْعِلْمِ ، وَبَقِيتُ فِي عَوَزِ النِّقْصِ وَتَحْتَ إِمْرَةِ الْغَيِّ ، وَأَخَذْتُ
 بِنَصِيبٍ مِنَ الشَّرِّكَ ، وَأَنْكَرْتُ الْمَعَادَ ، وَقُلْتُ بِفَنَاءِ الْأَرْوَاحِ ، وَرَضِيتُ فِي هَذَا بِمَقَالَةٍ
 أَهْلِ الطَّبِيعَةِ ، وَدُمْتُ فِي قَيْدِ الْمَرْجَاتِ وَشَوَاغِلِ الْحَسِّ ، وَلَمْ أُدْرِكِ الْحَقَائِقَ عَلَى
 مَا هِيَ عَلَيْهِ ؛ وَإِلَّا فَقُلْتُ : إِنْ الْهَيُولَى غَيْرُ قَابِلَةٍ لِتَرْكِيبِ الْأَجْسَامِ ، وَأَنْكَرْتُ الْمَادَّةَ
 وَالصُّورَةَ ، وَخَرَقْتُ النَّوَامِيسَ ، وَقُلْتُ : إِنْ التَّحْسِينِ وَالتَّقْيِيقِ إِلَى غَيْرِ الْعَقْلِ ،
 وَخَلَلْتُ مَعَ النُّفُوسِ الشَّرِّيرَةِ ، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَى النِّجَاةِ ، وَقُلْتُ : إِنْ الْإِلَهِ لَيْسَ
 فَاعِلًا بِالذَّاتِ ، وَلَا عَالِمًا بِالْكُلِّيَّاتِ ، وَدِنْتُ بِأَنَّ النَّبَوَاتِ مُتَنَاهِيَةٌ وَأَنَّهَا غَيْرُ كَسْبِيَّةٍ ،
 وَحَدَّثْتُ عَنْ طَرَائِقِ الْحِكْمَاءِ ، وَنَقَضْتُ تَقْرِيرَ الْقَدَمَاءِ ، وَخَالَفْتُ الْفَلَاسِفَةَ ،
 وَوَافَقْتُ عَلَى إِفْسَادِ الصُّوَرِ لِلْعَبَثِ ، وَحَيَّزْتُ الرَّبَّ فِي جِهَةٍ ، وَأُثْبِتُ أَنَّهُ جِسْمٌ ،
 وَجَعَلْتُهُ فِيمَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَدِّ وَالْمَاهِيَةِ [وَرَضِيتُ بِالتَّقْلِيدِ فِي الْأُولَهِيَّةِ] .^(١)

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٣ .

المهييع الرابع

(في بيان المحلوف عليه ، وما يقع على العموم ، وما يختص به كل واحد من أرباب الوظائف مما يناسب وظيفته)

إِعلم أن المحلوف عليه في الأيمان الملوكية تارة يشترك فيه جميع من يحلف من أهل الدولة ، وتارة يختلف باختلاف ما يمتاز به بعضهم عن بعض مما لا تقع الشركة بينهم فيه .

فأما ما يقع فيه الاشتراك ، كطاعة السلطان وما في معناها : من إخلاص النية وإصفاء الطوية ، وما يجري مجرى ذلك ، فذلك مما يشترك فيه كل حالف يحلف للسلطان على اختلاف عقائدهم : من مسلم : سُنيٍّ أو بدعيٍّ ، وكافر : يهوديٍّ أو نصرانيٍّ ، أو غيرهما . فكلُّ أحدٍ يحلف بما تقتضيه عقيدته في التعظيم ، على ما تقدم بيانه في أيمان الطوائف كلها .

فاذا انتهى إلى المحلوف عليه ، قال : إِنِّي من وقى هذا ومن ساعى هذه وما مد الله في عمري قد أخلصت نيتي ولا أزال مجتهداً في إخلاصها ، وأصفيت طويتي ولا أزال مجتهداً في إصفائها ، في طاعة مولانا السلطان المالك الملك الفلاني فلان الدنيا والدين فلان ، ابن السلطان السعيد الشهيد المالك فلان الدنيا والدين فلان خلد الله تعالى ملكه ، وفي خدمته ومحبته ونصحه ، وأكون ولياً لمن وآله ، عدوّاً لمن عاداه ، سائماً لمن ساله ، حرباً لمن حاربه من سائر الناس أجمعين ، لا أضمر له سوءاً ولا مكروهاً ولا خديعة ولا خيانة ، في نفس ولا مال ولا ملك ولا سلطنة ولا عساکر ولا جنود ولا عربان ولا تركمان ولا أكراذ ولا غير ذلك ، ولا أسعى في تفريق كلمة أحد منهم عن طاعته الشريفة . واني والله العظيم أبذل جهدي

وَطَاقَتِي فِي طَاعَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ فَلَانِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ الْمَشَارِإِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ بِي أَحَدٌ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ بِمَا فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى مُلْكِهِ لَا أُوَافِقُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا نِيَّةٍ ، وَإِنْ قَدَرْتُ عَلَى إِمْسَاكِ الَّذِي جَاءَنِي بِالْكِتَابِ أَمْسَكْتُهُ وَأَحْضَرْتُهُ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ فَلَانِ الْمَشَارِإِلَيْهِ أَوْ لِنَائِبِهِ الْقَرِيبِ مِنِّي .

وَأَمَّا مَا يَقَعُ فِيهِ الْإِخْتِلَافُ فَمَا يَتَبَيَّنُ الْحَالُ فِيهِ بِإِخْتِصَاصِ رَبِّ كُلِّ وَظِيفَةٍ بِمَا لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ الْآخَرُ . وَقَدْ أَشَارَ فِي "التَّعْرِيفِ" إِلَى نُبْذَةِ مَنْ ذَلِكَ فَقَالَ :
وَقَدْ يُزَادُ نَوَاطِبُ الْقِلَاعِ وَتُقَبَّأُهَا وَالْوُزَرَاءُ وَأَرْبَابُ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ وَالِدَوَادَارِيَةِ وَكُتَّابُ السَّرَرِيزَادَاتِ ، يَعْنِي عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

فَأَمَّا نَوَاطِبُ الْقِلَاعِ وَتُقَبَّأُهَا فَيُزَادُ فِي تَحْلِيفِهِمْ : وَإِنِّي أَجْمَعُ رِجَالَ هَذِهِ الْقَلْعَةِ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانِ وَخِدْمَتِهِ فِي حِفْظِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ وَحِمَايَتِهَا وَتَحْصِينِهَا ، وَالذَّبِّ عَنْهَا ، وَالْجِهَادِ دُونَهَا ، وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا بِكُلِّ طَرِيقٍ . وَإِنِّي أَحْفَظُ حَوَاصِلَهَا وَذَخَائِرَهَا وَسِلَاحَ خَانَاتِهَا عَلَى إِخْتِلَافِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَسْلِحَةِ . وَإِنِّي لَا أَنْحَرِجُ شَيْئًا مِنْهَا إِلَّا فِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ الْمَتَمِّينِ فِيهَا تَقْرِيقُ الْأَقْوَاتِ وَالسِّلَاحِ ، عَلَى قَدَرِ مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَيْهِ . وَإِنِّي أَكُونُ فِي ذَلِكَ كَوَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ يَتَّبِعُنِي كَوَاحِدٍ مِنْ يَتَّبِعُ أَتْبَاعَ رِجَالِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ ، لَا أَتَحَصَّصُ وَلَا أَمَكِّنُ مِنَ التَّخْصِيسِ . وَإِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ لَا أَفْتَحُ أَبْوَابَ هَذِهِ الْقَلْعَةِ إِلَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْجَارِيَةِ بِهَا عَادَةُ فَتْحِ أَبْوَابِ الْحُصُونِ ، وَأُغْلِقُهَا فِي الْوَقْتِ الْجَارِيِ بِهَ الْعَادَةِ ، وَلَا أَفْتَحُهَا إِلَّا بِشَمْسٍ ، وَلَا أَغْلِقُهَا إِلَّا بِشَمْسٍ . وَإِنِّي أَطَالِبُ الْحِرَّاسَ وَالِدَرَجَةَ وَأَرْبَابَ النَّوَابِ فِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَوَائِدُ الْإِزْمَةُ لِكُلِّ مَنْهُمْ مِمَّا فِي ذَلِكَ جَمِيعُهُ مَصْلَحَةُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانِ . وَإِنِّي لَا أَسْلَمُ هَذِهِ الْقَلْعَةَ إِلَّا

لمولانا السلطان فلان، أو بمرسومه الشريف وأمارته الصحيحة وأوامره الصريحة .
 وإني لا أستخدم في هذه القلعة إلا من فيه نفعها وأهلية الخدمة، لا أعمل في ذلك
 بغرض نفسي، [ولا أرخص فيه لمن يعمل بغرض نفسه ^(١)] ، وإني أبذل
 في ذلك كله الجهد، وأشهر فيه عن ساعد الجد، قال : ويسمى القلعة التي هو فيها .
 وأما الوزراء وأرباب التصرف [في الأموال] فما يزداد في تخليفهم : وإني أحفظ
 أموال مولانا السلطان فلان - خلد الله ملكه - من التبذير والضّياع ، والحونة
 وتفريط أهل العجز ، ولا أستخدم في ذلك ولا في شيء منه إلا أهل الكفاية
 والأمانة ، ولا أضمن جهة من الجهات الديوانية إلا من الأمانة الأتقياء القادرين ،
 أو من زاد زيادة ظاهرة وأقام عليه الضمان الثقات ، ولا أؤخر مطالبة أحد بما يتعين
 عليه بوجه حق من حقوق الديوان المعمور والموجبات السلطانية على اختلافها .
 وإني والله العظيم لا أرخص في تسجيل ولا قياس ، ولا أسأخ أحداً بموجب
 يجب عليه ، ولا أخرج عن كل مصلحة تتعين لمولانا السلطان فلان ولدولته ،
 ولا أخفي كل ديوان يرجع إلى أمره ، ويعتدق بي أمر مباشرته من تصفح
 لأحواله ، واجتهاد في تثير أمواله ، وكف أيدي الحونة عنه ، وغل أيديهم أن تصل
 إلى شيء منه ، ولا أدع حاضراً ولا غائباً من أمور هذه المباشرة حتى أجد فيه ،
 وأبذل الجهد الكلي في إجراء أموره على السداد وحسن الاعتماد . وإني لا أستجد
 على المستقر إطلاقه ما لم يرسم لي به إلا ما كان فيه مصلحة ظاهرة لهذه الدولة
 القاهرة ، ونفع بين هذه الأيام الشريفة . وإني والله أؤدى الأمانة في كل ما عِدق بي
 ووليت : من القبض والصرف ، والولاية والعزل ، والتأخير والتقديم ، والتقليل
 والتكثير ، وفي كل جليل وحقيق ، وقليل وكثير .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٩ .

وأما الدَّوَادِرِيَّةُ وَكُتَّابُ السَّرِّ فِيزَادُ فِيهِمَا : وَإِنِّي مَهْمَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِ
 مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - وَنَصَائِحِهِ ، وَأَمْرٍ دَانِي مُلْكِهِ وَنَازِحِهِ ، أَوْصَلَهُ
 إِلَيْهِ ، وَأَعْرِضْهُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَخْفِيهِ شَيْئًا مِنْهُ وَلَوْ كَانَ عَلَيَّ ، وَلَا أَكْتُمُهُ وَلَوْ خَفْتُ
 وَصُولَ ضَرَرِهِ إِلَيَّ .

ويفرد الدَّوَادِرُ : بِأَنِّي لَا أُؤَدِّي عَنْ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ رِسَالَةً فِي إِطْلَاقِ مَالٍ ، وَلَا
 اسْتِخْدَامِ مُسْتَحْدَمٍ ، وَلَا إِقْطَاعِ إِقْطَاعٍ ، وَلَا تَرْتِيبِ مُرْتَبٍ ، وَلَا تَجْدِيدِ مُسْتَجِدٍّ ،
 وَلَا شَادٍّ شَاغِرٍ ، وَلَا فَضْلٍ مُنَازَعَةٍ ، وَلَا كِتَابَةِ تَوْقِيعٍ وَلَا مَرْسُومٍ ، وَلَا كِتَابٍ
 صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا إِلَّا بَعْدَ عَرْضِهِ عَلَيَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ وَمُشَاوَرَتِهِ ، وَمَعَاوِدَةِ
 أَمْرِهِ الشَّرِيفِ وَمُرَاجَعَتِهِ .

ويفرد كاتب السر : بِأَنَّهُ مَهْمَا تَأَخَّرَتْ قِرَاءَتُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ عَلَيَّ مَوْلَانَا
 السُّلْطَانِ فَلَانٍ مِنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ ، يَعَاوِدُهُ فِيهِ فِي وَقْتٍ آخَرَ ، فَإِنْ لَمْ يَعَاوِدْهُ فِيهِ بِجَمْعٍ
 لَفْظِهِ ، لَطَوَّلَهُ الطُّوْلَ الْمُلَّ ، عَاوَدَهُ فِيهِ بِمَعْنَاهُ فِي الْمَخَصَّصَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا يُجَاوِبُهُ بَشْيٍ لَمْ
 يَنْصُ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ فِيهِ بَنْصٌ خَاصٌّ ، وَمَا لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِالنَّصِّ فِيهِ لَا يُجَاوِبُ
 فِيهِ إِلَّا بِأَكْلِ مَا يَرَى أَنْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ وَمَصْلَحَةُ دَوْلَتِهِ بِأَسَدٍ
 جَوَابٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَيَصِلُ أَجْتِهَادُهُ إِلَيْهِ . وَأَنَّهُ مَهْمَا أُمِّكَنَهُ الْمُرَاجَعَةُ فِيهِ لِمَوْلَانَا
 السُّلْطَانِ فَلَانٍ رَاجَعَهُ فِيهِ وَعَمِلَ بَنْصٌ مَا يَرْسُمُ لَهُ بِهِ فِيهِ . هَذَا مَا أَتَيْتُ بِهِ إِلَيْهِ كَلَامُهُ .

قال في "التثقيف" : ويزاد النُّوَابُ مِثْلَ قَوْلِهِ : وَلَا أَسْعَى فِي تَفْرِيقِ كَلِمَةٍ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَعَلَى أَنْ أَبْذُلَ جُهْدِي وَطَاقِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَفِي حِفْظِ
 الْمَمْلُوكَةِ الَّتِي أَسْتَنْابَنِي فِيهَا ، وَصِيَايَتِهَا وَحِمَايَتِهَا ، وَمَا بَهَا مِنَ الْقِلَاعِ وَالشُّغُورِ وَالسَّوَاوِلِ .
 ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُ : وَإِنْ كَاتِبْنِي أَحَدٌ أَخْلَ .

قلتُ : والمراد أنه يُؤتى باليمين العامة التي يحلف عليها كلُّ أحدٍ ، ثم يزداد لكلِّ واحدٍ من أرباب الوظائف ما يُناسبه مما تقدّم ، ثم يُؤتى على بقيّة اليمين من عند قوله : وإِنِّي أَنِي لمولانا السلطان بهذه اليمين ، إلى آخرها أو ما في معنى ذلك من أيّمان أهل البدع وأصحاب الملل على ما تقدّم ذكره .

ثم قال في "التثقيف" : وقد نتجّد وقائع وأُمورٌ تحتاج إلى التّحليف ، بسببها تتغيّر صيغةُ المحلوف عليه بالنسبة إلى ما رُسِم به فيها . ثم أشار إلى أنه لم يَرَمْدَ مباشرة بديوان الإنشاء أحدًا ممن ذكره في "التعريف" : من أرباب الوظائف حلف ، وإنما ذكرها لاحتمال أن تدعو الحاجة إليها في وقت من الأوقات ، أو أنها كانت مستعملة في المتقدّم ، فيكون في تركها إهمالٌ لبعض المصطلح .

قلت : وقد أهملنا في "التعريف" و "التثقيف" : ذكرَ يمينين مما رتبته الكتابُ وحافّوا به في الزمن المتقدّم مما لا غنى بالكاتب عنه .

الأوّل — اليمين على الهدنة التي تتعقد بين ملّكين أو نائبيهما ، أو ملكٍ ونائب ملكٍ آخر ، على ما سيأتى ذكره في المقالة التاسعة ، إن شاء الله تعالى .

وتقع اليمين فيها على ما فيه تأكيدُ عقْد الهدنة والتزامُ شروطها والبقاء عليها وعدمُ الخروج عنها أو عن شيءٍ من ملتمّاتها ، وغير ذلك مما يدخل به التّطرق إلى النّقض والتّوصل إلى الفسخ .



وهذه نسخةٌ يمينٍ حلف عليها السلطانُ الملك المنصورُ «قلاوون» على الهدنة الواقعة بينه وبين الحُكّام بمملكة عكا وصيدا وعثيث وبلادها ، من الفرنج الاستبارية ،

فى شهر ربيع الأول سنة آئتين وثمانين وستمائة ، فى مباشرة القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر كُتابة السر ، على ما أورده ابن مكرم فى تذكرة ، وهى :

أقول وأنا فلان : والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم ، الطالب ، الغالب ، الضار ، النافع ، المدرك ، المهلك ، عالم ما بدا وما خفى ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم ، وحق القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقال فيه من سورة سورة ، وآية آية ، وحق شهر رمضان ، إننى أفى بحفظ هذه الهدنة المباركة التى استقرت بينى وبين مملكة عكا والمقدمين بها على عكا وعثليت وصيدا وبلادها ، التى تضمنتها هذه الهدنة ، التى مدتها عشرين سنة كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ، وعشر ساعات ، أولها يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة آئتين وثمانين وستمائة للهجرة من أولها إلى آخرها ، وأحفظها وألترم بجميع شروطها المشروحة فيها ، وأجرى الأمور على أحكامها إلى انقضاء مدتها ولا أتاؤل فيها ولا فى شئ منها ، ولا أستفتى فيها طلباً لنقضها مادام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليت - وهم كافل المملكة بعكا ، ومقدم بيت الروم ، ومقدم بيت الاستبار ، ونائب مقدم بيت الاستبار إلى الآن ، ومن تولى بعدهم فى كفالة مملكة ، أو مقدم بيت بهذه المملكة المذكورة - وافين باليمين التى يخلقون عليها (فى ولدى الملك الصالح ، ولأولاده ، على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن) عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها إلى انقضاء مدتها ، ملتزمين أحكامها ، وإن نكثت فى هذه اليمين فليزمنى الحج إلى بيت الله الحرام بمكة حافياً حاسراً ثلاثين حجة ، وليزمنى صوم الدهر كله إلا الأيام المنهى عنها .

ويذكر بقية اليمين إلى آخرها ، ثم يقول : والله على ما نقول وكيل .



وهذه نسخة يمين حلف عليها الفرنج المعافدون على هذه الهدنة أيضا، في التاريخ
المقدم ذكره على ما أورده ابن مكرم أيضا، وهي :

والله والله والله ، وباللّٰه وباللّٰه وباللّٰه ، وتالله وتالله وتالله ، وحقّ المسيح وحقّ
المسيح ، وحقّ الصليب وحقّ الصليب ، وحقّ الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد
المكّنّى بها عن الآب والابن وروح القدس إله واحد ، وحقّ الصليب المكرّم الحالّ
في النَّسُوت ، وحقّ الإنجيل المطهر وما فيه ، وحقّ الأناجيل الأربعة التي نقلها متى
ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحقّ صلواتهم وتقديساتهم ، وحقّ التلامذة الاثني عشر ،
والاثني وسبعين ، والثمانمائة وثمانية عشر المجتمعين للبيعة ، وحقّ الصوت الذي
نزل من السماء على نهر الأردن فزجره ، وحقّ الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم
روح الله وكلمته ، وحقّ السيدة مارية أم النور (ومارية مريم) ويوحنا المعمودى
ومرثمان ومرتماني ، وحقّ الصوم الكبير ، وحقّ ديني ومعبودى وما اعتقده من
النصرانية ، وما تلقّيته عن الآباء والأقساء المعمودية - إني من وقّتي هذا وساعتي
هذه ، قد أخلصت نبيّ ، وأضفيت طويّتي في الوفاء للسلطان الملك المنصور ولولده
الملك الصالح ولأولادهما ، بجميع ما تضمّنته هذه الهدنة المباركة التي آتتني الصلح
عليها ، على مملكة عكا وصيدا وعنّيث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة ، المسماة فيها ،
التي مدّتها عشر سنين كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيّام ، وعشر ساعات ، أولها
يوم الخميس ثالث حريّان سنة ألف وخمسمائة وأربع وتسعين للإسكندر بن فيلبس
اليوناني ، وأعمل بجميع شروطها شرطا شرطا ، وألتزم الوفاء بكلّ فصل في هذه الهدنة
المذكورة إلى اتقضاء مدّتها . وإني والله والله وحقّ المسيح ، وحقّ الصليب ،

وَحَقَّ دِينِي لَا أُتَعَرَّضُ إِلَى بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَلَا إِلَى مَنْ حَوْتُهُ وَتَحْوِيهِ مِنْ سَائِرِ
النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَلَا إِلَى مَنْ يَتَرَدَّدُ مِنْهُمْ إِلَى الْبِلَادِ الْدَاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ بِأَذِيَّةٍ وَلَا
ضَرَرٍ فِي نَفْسٍ وَلَا فِي مَالٍ . وَإِنِّي وَاللَّهِ وَحَقَّ دِينِي وَمَعْبُودِي أَسْلُكُ فِي الْمَعَاهِدَةِ
وَالْمُهَادَنَةِ وَالْمُصَافَاةِ وَالْمُصَادَقَةِ وَحِفْظِ الرَّعِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبِلَادِ
السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالصَّادِرِينَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا - طَرِيقَ الْمَعَاهِدِينَ الْمُتَصَادِقِينَ الْمُلْتَمِثِينَ كَفَّ
الْأَذِيَّةِ وَالْعُدْوَانِ عَنِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ ، وَأَلْزَمُ الْوَفَاءَ بِمَجْمِيعِ شُرُوطِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ إِلَى
أَنْقِضَائِهَا ، مَا دَامَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ وَافِيًا بِالْيَمِينِ الَّتِي حَلَفَ بِهَا عَلَى الْهُدْنَةِ ، وَلَا أَتَقْصُ
هَذِهِ الْيَمِينَ وَلَا شَيْئًا مِنْهَا ، وَلَا أَسْتَتْنِي فِيهَا وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْهَا طَلِبًا لِنَقِضِهَا ، وَمَتَى
خَالَفْتُهَا وَنَقَضْتُهَا فَأَكُونُ بَرِيئًا مِنْ دِينِي وَاعْتِقَادِي وَمَعْبُودِي ، وَأَكُونُ مُحَالِفًا لِلْكَنِيسَةِ ،
وَيَكُونُ عَلَيَّ الْحُجُّ إِلَى الْقُدُسِ الشَّرِيفِ ثَلَاثِينَ حَجَّةً حَافِيًا حَاسِرًا ، وَيَكُونُ عَلَيَّ فَكُّ
أَلْفِ أَسِيرٍ مُسْلِمٍ مِنْ أَسْرِ الْفَرَنْجِ وَإِطْلَاقُهُمْ ، وَأَكُونُ بَرِيئًا مِنَ الْأَلَاهُوتِ الْحَالِّ
فِي النَّاسُوتِ ، وَالْيَمِينَ يَمِينِي وَأَنَا فَلَانٌ ، وَالنِّيَّةُ فِيهَا بِأَسْرِهَا نِيَّةُ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، وَنِيَّةُ
وَلَدِهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَنِيَّةُ مُسْتَحْلَفِي لَهَا بِهَا عَلَى الْإِنْجِيلِ الْكَرِيمِ ، لَا نِيَّةَ لِي غَيْرُهَا ،
وَاللَّهُ وَالْمَسِيحُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٍ .

وَكَذَلِكَ كَتَبْتُ الْيَمِينَ ، مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ بَيْرُوسَ ، وَيَمِينَ صَاحِبِ
بَيْرُوتَ وَحِصْنِ الْأَكْرَادِ وَالْمَرْقَبِ مِنَ الْفَرَنْجِ الْإِسْتَبَارِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ نَحْمِيسَ
وَسِتِينَ وَسَمَائَةَ .

قُلْتُ : وَمَقْتَضَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو الْمُكَرَّمِ فِي إِيرَادِ هَذِهِ الْإِيمَانِ أَنْ نُسَخَّةَ الْيَمِينَ تَكُونُ
مُنْفَصِلَةً عَنْ نَسَخَةِ الْهُدْنَةِ كَمَا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْإِيمَانِ الَّتِي يُسْتَحْلَفُ عَلَيْهَا ، إِلَّا أَنْ
مَقْتَضَى كَلَامِ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : أَنَّ الْيَمِينَ تَكُونُ مُتَّصِلَةً بِالْهُدْنَةِ . وَالَّذِي يَنْجِيهِ أَنَّهُ

إن تيسر الحلف عقيب الهدنة - لوجود المتحالفين - كتب في نفس الهدنة متصلاً بها ، وإلا أفرد كل واحد من الجانبين بنسخة يمين ، كما في غيرها من الأيمان . وربما جردت الهدنة عن الأيمان ، كما وقع في الهدنة الجارية بين الظاهر بيبرس وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونه من بلاد الأندلس ، في شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة على مقتضى ما أورده ابن المكرم في تذكرته .

وأعلم أنه قد يكتفى باليمين عن الهدنة [باليمين] في عقد الصلح .

وقد ذكر القاضي تقي الدين ابن ناظر الحيش في "التتيف" : أنه رتب يميناً حلف عليها الفرنج بالأبواب السلطانية بالديار المصرية عند عقد الصلح معهم ، في سنة اثنتين وسبعين وسبعائة ، فيها زيادات على ما ذكره المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" وهي :

والله والله والله العظيم ، إله إبراهيم ، مالك الكُل ، خالق ما يرى وما لا يرى ، صانع كل شيء ومُتَقِنُه ، الرب الذي لا يُعبد سواه ، وحق المسيح ، وحق المسيح ، وحق السيدة مريم ، وحق الصليب ، وحق الصليب ، وحق الإنجيل ، وحق الإنجيل ، وحق الأب والابن وروح القدس إله واحد من جوهر واحد ، وحق الآلهوت المكرم ، الحال في الناسوت المعظم ، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحق الآلهوت والناسوت وصليب الصلبوت ، وحق التلاميذ الاثني عشر ، والاثني وسبعين ، والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين على البيعة ، وحق الصوت الذي نزل على نهر الأردن فزجره ، وحق السيدة مارية أم النور ، وحق بيعة وقديس وثالوث ، وما يقوله في صلاته كل معمداني ، وحق ما اعتقده من ديز النصرانية ، والملة المسيحية - إني أفعل كذا وكذا ، ومتى

خالفت هذه اليمين التي في عُنُقِي ، أو نقضتها أو نكثتها ، أو سَعَيْتُ في إِبْطَائِهَا بِوَجْهِ
 مِنَ الْوُجُوهِ ، أو طَرِيقٍ مِنَ الطَّرِيقِ - بَرْتُ مِنَ المعمودية ، وقلتُ : إن ماءها نَجِسٌ ،
 وإن القَرَّايِينَ رَجَسٌ ، وبرْتُ من مَرِيحَتَا المَعْمَدَانِ ، والأُنَاجِيلِ الأربعة ، وقلتُ :
 إِنَّ مَتَّى كَذُوبٌ ، وإن مَرْيَمَ المَجْدَلَانِيَّةَ باطلةُ الدَّعْوَى في إخبارها عن السَّيِّدِ الْيَسُوعَ
 الْمَسِيحِ ، وقلتُ في السيدة مَرْيَمَ قَوْلَ الْيَهُودِ ، وَدِنْتُ بِيَدِيهِمْ فِي المَجُودِ ، وَبَرْتُ مِنْ
 الثَّالُوثِ ، وَجَدْتُ الْآبَ ، وَكَذَبْتُ الْآبَنَ ، وَكَفَرْتُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَخَلَعْتُ دِينَ
 النِّصْرَانِيَّةِ ، وَلَزِمْتُ دِينَ الْحَنِيفِيَّةِ ، وَلَطَخْتُ الْهَيْكَلَ بِحِيضَةٍ يَهُودِيَّةٍ ، وَرَفَضْتُ
 مَرْيَمَ ، وقلتُ : لِمَ أَقْرَنْتُ مَعَ الْأَسْخَرِيوطِيِّ فِي جَهَنَّمَ ، وَأَنْكَرْتُ اتِّحَادَ الْأَلْهَوَاتِ
 وَالنَّاسُوتِ ، وَكَذَّبْتُ الْقُسُوسَ ، وَشَارَكْتُ فِي ذَبْحِ الشَّمَائِسِ ، وَهَدَمْتُ الدِّيَارَاتِ
 وَالْحَنَائِسَ ، وَكُنْتُ مِمَّنْ مَالُ عَلَى قُسْطَنْطِينَ بْنِ هِيلَانِي ، وَتَعَمَّدْتُ أُمَّهُ بِالْعِظَامِ ،
 وَخَالَفْتُ المَجَامِعَ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَيْهَا الْأَسَاقِفُ بَرُومِيَّةَ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةَ ، وَجَدْتُ
 مَذْهَبَ الْمَلَكَائِيَّةِ ، وَسَفَّهْتُ رَأْيَ الرُّهْبَانِ ، وَأَنْكَرْتُ وَقُوعَ الصَّلْبِ عَلَى السَّيِّدِ
 الْيَسُوعَ ، وَكُنْتُ مَعَ الْيَهُودِ حِينَ صَلَبُوهُ ، وَحَدِثُ عَنْ الْخَوَارِيثِ ، وَأَسْتَبَحْتُ دِمَاءَ
 الدِّيْرَانِيِّينَ ، وَجَدَبْتُ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَنِ الْبَطْرِيَرِكِ ، وَخَرَجْتُ عَنْ طَاعَةِ الْبَابِ ،
 وَصُمْتُ يَوْمَ الْفِصْحِ الْأَكْبَرِ ، وَقَعَدْتُ عَنْ أَهْلِ الشَّعَائِنِ ، وَأَيْبْتُ عِيدَ الصَّلِيبِ
 وَالْفِطَاسِ ، وَلَمْ أَحْفَلْ بِعِيدِ السَّيِّدَةِ ، وَأَكَلْتُ لَحْمَ الْجَمَلِ ، وَدِنْتُ بِدِينِ الْيَهُودِ ،
 وَأَبْجَحْتُ حُرْمَةَ الطَّلَاقِ ، وَهَدَمْتُ بَيْدَى كَنِيسَةِ قُسَامَةَ ، وَخُنْتُ الْمَسِيحَ فِي وَدِيعَتِهِ ،
 وَتَرَوَّجْتُ فِي قَرْنٍ بِأَمْرَاتَيْنِ ، وقلتُ : إِنْ الْمَسِيحُ كَادَمَ خَلْقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ ، وَكَفَرْتُ
 بِأَحْيَاءِ الْعِيَازَةِ ، وَحَجَّيْتُ الْفَارَقْلِيطَ الْآخَرَ ، وَبَرْتُ مِنَ التَّلَامِذَةِ الْآخَرِ ، وَحَرَّمْتُ
 عَلَى الثَّلَاثَةِ وَثَمَانِيَةِ عَشَرَ ، وَكَسَرْتُ الصُّلْبَانَ ، وَدُسْتُ بِرَجُلِي الْقُرْبَانَ ، وَبَصَقْتُ
 فِي وَجْهِ الرُّهْبَانِ عِنْدَ قَوْلِهِمْ : كَثِيرَ الْيَصُومِ ، وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ نَعْمَةَ كُفْرِ الْجَوْنِ (؟)

وَأَنَّ يَوْسُفَ النَّجَّارَ زَنَى بِأُمِّ الْيَسُوعَ وَعَظَّمْتُ النَّاقُوسَ ، وَمَلْتُ إِلَى مِلَّةِ
 الْمَجُوسِ ، وَكَسَرْتُ صَلِيبَ الصَّلْبُوتِ ، وَطَبَخْتُ بِهِ لَحْمَ الْجَمَلِ ، وَأَكَلْتُهُ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ
 مِنَ الصَّوْمِ الْكَبِيرِ ، تَحْتَ الْهَيْكَلِ بِحَضْرَةِ الْآبَاءِ ، وَقُلْتُ فِي الْبَنُوَّةِ مَقَالَ تُسْطُورَسَ ،
 وَوَجَّهْتُ إِلَى الصَّخْرَةِ وَجْهِي ، وَصَدَيْتُ عَنِ الشَّرْقِ الْمُنِيرِ حَيْثُ كَانَ الْمَطْهَرُ
 الْكَرِيمُ . وَإِلَّا بَرِئْتُ مِنَ الثُّورَانِيِّينَ وَالشَّعْشَعَانِيِّينَ ، وَأَنْكَرْتُ أَنَّ السَّيِّدَ الْيَسُوعَ
 أَحْيَا الْمَوْتَى وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ مَرْبُوبٌ ، وَإِنَّهُ مَا رُؤِيَ وَهُوَ
 مَصْلُوبٌ ، وَأَنْكَرْتُ أَنَّ الْقُرْبَانَ الْمُقَدَّسَ عَلَى الْمَذْبَحِ مَاصِرَ لَحْمِ الْمَسِيحِ وَدَمَهُ حَقِيقَهُ ،
 وَخَرَجْتُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ عَنْ لَاحِبِ الطَّرِيقَةِ . وَإِلَّا قُلْتُ بِدِينِ التَّوْحِيدِ ، وَتَعَبَّدْتُ
 غَيْرَ الْأَرْبَابِ ، وَقَصَدْتُ بِالْمُظَانِيَّاتِ غَيْرَ طَرِيقِ الْإِخْلَاصِ ، وَقُلْتُ : إِنْ الْمَعَادَ غَيْرُ
 رُوحَانِيٍّ ، وَإِنْ بَنَى الْمَعْمُودِيَّةَ لَا تَسِيحُ فِي فَسِيحِ السَّمَاءِ ، وَأَثْبَتُ وُجُودَ الْخُورِ الْعَيْنِ
 فِي الْمَعَادِ ، وَأَنَّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ التَّلَذُّذَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ ، وَخَرَجْتُ خُرُوجَ الشَّعْفَةِ مِنَ
 الْعَجِينَ مِنْ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَأَكُونُ مِنْ دِينِي مُحْرَمًا ، وَأَقُولُ : إِنْ جَرَحِيْسٌ لَمْ يُقْتَلْ
 مَظْلُومًا ، وَخَرَقَتْ غَفَارَةُ الرَّبِّ ، وَشَارَكَتُ الشَّرَّ [بِرَّ] فِي سَلْبِ ثِيَابِهِ ، وَأَحْدَثْتُ تَحْتَ
 صَالِيهِ ، وَتَجَمَّرْتُ بِجَسَدِي ، وَصَفَعْتُ الْجَائِلِيْنَ . وَهَذِهِ الْيَمِينُ يَمِينِي وَأَنَا فُلَانٌ ، وَالنِّيَّةُ
 [فِيهَا] بِأَسْرِهَا نِيَّةُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ «شُعْبَان» وَنِيَّةُ
 مُسْتَحْفِيٍّ ، وَالْإِلَهِ وَالْمَسِيحَ عَلَى مَا أَقُولُ وَكِيلٌ .

قُلْتُ : خَلَطْتُ فِي هَذِهِ الْيَمِينِ بَعْضَ يَمِينِ الْيَعَاقِبَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ مُعْتَقِدِ الْفَرَجِ الَّذِينَ
 حَلَفَهُمْ مِنْ مَذْهَبِ الْمَلَكَانِيَّةِ ، يُظْهَرُ ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ مُعْتَقَدَاتِ
 النَّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ تَرْتِيبِ آيْمَانِهِمْ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَتَى فِيهَا بِأَكْثَرِ مَرَاتِبِهِ الْمَقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ
 فَضْلِ اللَّهِ فِي تَحْلِيلِهِمْ عَلَى صِدَاقَتِهِ ، وَزَادَ مَا زَادَ مِنَ الْيَمِينِ الْمُرْتَبَةِ فِي التَّحْلِيلِ عَلَى
 الْمُهْدَنَةِ السَّابِقَةِ وَغَيْرِهَا .

اليمن الثانية — مما أهمله في "التعريف" يمين أمير مكة .

والقاعدة فيها أن يحلف على طاعة السلطان، والقيام في خدمة أمير الركب،
والوصية بالحجاج، والأحفاظ بهم .

وهذه نسخة يمين حلف بها الأمير نجم الدين أبو نعيم أمير مكة المشرفة، في الدولة
المنصورية قلاوون الصالحى، في شعبان سنة إحدى وثمانين وستمائة .

ونُسختها على ما ذكره ابن المكرم في تذكرته بعد استيفاء الأقسام :

إِنِّى أَخْلَصْتُ نِيَّتِي، وَأَصْفَيْتُ طَوْبِي، وَسَاوَيْتُ بَيْنَ بَاطِنِي وَظَاهِرِي فِي طَاعَةِ
مَوْلَانَا السَّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، وَوَلَدِهِ السَّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ، وَطَاعَةِ أَوْلَادِهِمَا
وَارِثِي مُدْكِهِمَا، لَا أَضْمُرُ لَهُمْ سُوءًا وَلَا غَدْرًا فِي نَفْسٍ وَلَا مَلِكٍ وَلَا سُلْطَنَةٍ . وَإِنِّى
عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمْ، صَدِيقٌ لِمَنْ صَادَقَهُمْ، حَرَبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ، سَلَمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ . وَإِنِّى
لَا يُخْرِجُنِي عَنْ طَاعَتِهِمَا طَاعَةُ أَحَدٍ غَيْرِهِمَا، وَلَا أَتَلَفْتُ فِي ذَلِكَ إِلَى جِهَةٍ غَيْرِ
جِهَتِهِمَا، وَلَا أَفْعَلُ أَمْرًا مُخَالِفًا لِمَا اسْتَقَرَّ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَا أَشْرِكُ فِي تَحْكُمِهِمَا
عَلَى وَلَا عَلَى مَكَّةَ وَحَرَمِهَا وَمَوْقِفِ جَبَلِهَا زَيْدًا وَلَا عَمْرًا . وَإِنِّى أَلْتَزِمُ مَا اشْتَرَطْتُهُ
لِمَوْلَانَا السَّلْطَانِ وَلَوْلَدِهِ فِي أَمْرِ الْكُسُوفِ الشَّرِيفَةِ الْمَنْصُورِيَةِ الْوَاصِلَةِ مِنْ مِصْرَ
الْمَحْرُوسَةِ وَتَعْلِيْقِهَا عَلَى الْكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، وَأَنْ لَا يَعْلَوْهَا كُسُوفٌ غَيْرُهَا،
وَأَنْ أَقْدِمَ عَالِمَهُ الْمَنْصُورَ عَلَى كُلِّ عَالِمٍ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، وَأَنْ لَا يَتَقَدَّمَهُ عَالِمٌ غَيْرُهُ .
وَإِنِّى أَسَهِّلُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَيَّامَ مَوَاسِمِ الْحَجِّ وَغَيْرِهَا لِلزَّائِرِينَ وَالطَّائِفِينَ وَالْبَادِينَ
وَالْعَاكِفِينَ، وَالْآمِينَ لِحَرَمِهِ وَالْحَاجِّينَ وَالوَاقِفِينَ . وَإِنِّى أَجْتَهِدُ فِي حِرَاسَتِهِمْ مِنْ
كُلِّ عَادٍ بَفِعْلِهِ وَقَوْلِهِ، وَمُتَخَطِّفٍ لِلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ . وَإِنِّى أَوْمِّنُهُمْ فِي سِرِّيهِمْ،
وَأُعَذِّبُ لَهُمْ مَنَاهِلَ سُرِّيهِمْ؛ وَإِنِّى وَاللَّهِ أَسْتَمِرُّ بِتَفَرُّدِ الْخُطْبَةِ وَالسَّكَّةِ بِالْأَسْمِ الشَّرِيفِ

المنصوري ، وأَفْعَلُ في الخِدْمَةِ فَعَلَ المَخْلَصَ الوَلِيَّ . وإِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهِ أَمْتَلُ مِرَاسِيهِ
أَمْتَلِ النَّائِبِ لِلْمُسْتَنِيبِ ، وَأَكُونُ لِدَاعِي أَمْرِهِ أَوَّلَ سَامِعٍ مُجِيبٍ . وإِنِّي أَلْتَزِمُ
بشروط هذه اليمين من أولها إلى آخرها لا أَقْضُهَا .

المهيعة الخامس

(في صورة كتابة تُسَخَّ الأيمان التي يحلف بها)

وقد جرت العادة أنه إذا أَسْتَقَرَّ مَلِكٌ في المُلْكِ يُحْلَفُ له جميعُ الأُمراءِ والنَوَّابِ
في المملكة ، وإذا أَسْتَقَرَّ نَائِبٌ من النَوَّابِ في نِيَابَةِ حُلَفَ ذلك النَائِبُ عندَ أَسْتِقْرَارِهِ ،
وربما أَقْتَضَتْ الحَالُ التحْلِيفَ في غير هذه الأوقات .

ثم الأيمان التي يُحْلَفُ بها على ضربين :

الضرب الأول

(الأيمان التي يحلف بها الأُمراءُ بالديار المصرية)

وقد جرت العادة أن تُكَّابَ دِيَوَانُ الإنشاءِ يَجْتَمِعُ من يَجْتَمِعُ منهم بالقَلْعَةِ ،
ويتصَدَّقُ كُلُّ واحدٍ منهم لِتَحْلِيفِ جماعةٍ من الأُمراءِ والمماليك السلطانية وغيرهم ،
وينصَّبُ المَصْحُفُ الشريفُ على كُرْسِيِّ أَمَامَ الحالفين ، ويحلفُ كُلُّ كاتبٍ من
كُتَّابِ الإنشاءِ من يُحَلِّفُهُ نِجَاهَ المصحفِ بِالْفَاظِ اليمينِ المُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ على الوجه الذي
يُرْسَمُ تَحْلِيفُهُمْ عليه ، ويكتبُ كُلُّ واحدٍ من أولئك الكُتَّابِ أَسْمَاءَ الَّذِينَ حَلَفَهُمْ
في وَرَقَةٍ وَيُورِّخُهَا ويحملها إلى دِيَوَانِ الإنشاءِ فتخلَّدُ فيه .

الضرب الثاني

(الأيمن التي يحلف بها نواب السلطنة والأمراء بالملك الشامية وما أنضم إليها)

وقد جرت العادة أنه إذا أريد تحليف نائب من نواب الممالك الخارجة عن الحضرة بالديار المصرية أو أمير من أمرائها أن تكتب نسخة يمين من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ، وتجهز إلى النائب أو الأمير الذي يقصد تحليفه فيحلف على حكامها متلفظا بالفاظها جميعها . قال في "التثقيف" : وصفة ما يكتب في النسخة بعد البسملة من يمين الورق «أقول وأنا» ثم يخلى بياضا قليلا بقدر أصبعين لموضع كتابة الخالف اسمه ، ثم يكتب تحته من يمين الورق بهامش دقيق جدا «والله والله والله» وتكمل تيممة النسخة على ما تقدم ذكره . وتكون سطورها متلاصقة سطرًا إلى سطرٍ إلى عند قوله «وهذه اليمين يميني وأنا» فيخلى بعد ذلك بياضا قليلا لموضع كتابة اسم الخالف أيضا ، ثم يكتب من يمين الورق : «والنية في هذه اليمين بأسرها» إلى آخر النسخة .

قلت : وكذلك نسخ الأيمان التي تكتب ليحلف بها في الهدن التي تُفرد الأيمان فيها عن الهدن ، يخلى فيها بياض لكتابة الاسم بعد قوله «أقول وأنا»

وبعد قوله «وهذه اليمين يميني وأنا» سواء في ذلك اليمين التي يحلف بها السلطان أو الملك الذي تقع معه المهادنة : من ملوك الإسلام أو ملوك الكفر .

وقد جرت العادة أن يكون الورق الذي تكتب فيه نسخ الأيمان التي يحلف بها النواب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحضرة في قطع العادة . أما ما يحلف به على الهدن فلم أقف فيه على مقدار قطع الورق . والذي يظهر أن كل يمين تكون في قطع الورق الذي يكتب بها ذلك الملك الذي يحلف .

المقالة التاسعة

في عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وفيها خمسة أبواب^(١)

الباب الأول

في الأمانات، وفيه فصلان

الفصل الأول

في عقد الأمان لأهل الكفر

قال في "التعريف": وهو أقوى أمور الصلح دلالة على اشتداد السلطان، إذ كان يؤمن الخائف أمناً لا عوض عنه في عاجل ولا آجل، وفيه طرفان:

الطرف الأول

(في ذكر أصله وشرطه وحكمه)

علم أن الأمان هو الأمر الأول من الأمور الثلاثة التي يرفع بها القتل عن الكفار. قال العلماء: وهو من مكاييد القتال ومصالحه وإن كان فيه ترك القتال: لأن الحاجة [داعية] إليه. والأصل فيه من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾. ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُوا دِمَائِهِمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ».

(١) كذا وقع أيضاً في فهرست المؤلف ج ١ ص ٢٩ من هذا المطبوع ولكن سيد ذكر آخر المقالة باباً سادساً في الفسوخ.

وقد ذكر الفقهاء له أركاناً وشرائط وأحكاماً .

فأما أركانه ، فثلاثة :

الأول — العاقد للأمان من المسلمين . ولْيُعلم أَنَّ الأمانَ على ضربين : عامٌّ وخاصٌّ . فالعامُّ هو عَقْدُهُ للعَدَدِ الذي لا يُحْصَرُ كأهلِ ناحيةٍ ، ولا يصحُّ عَقْدُ الأمانِ فيه إلا من الإمام أو نائبه كما في الهدنة . والخاصُّ هو عَقْدُهُ للواحد أو العَدَدِ المحصور ؛ ويصحُّ من كلِّ مُسلمٍ مكلفٍ [وإن لم تكن] له أهلية القتال ، فيصح من العبد والمرأة والشَّيخِ الحرِّمِ والسَّفيهِ والمُفلسِ ، بخلاف أمانِ الصَّبِيِّ والمجنون .

الثاني — المعقود له ، ويصح عَقْدُهُ للواحد والعَدَدِ من ذكور الكُفَّار وإناهم . نعم في تأمينِ المرأة عن الاسترقاق خلاف .

الثالث — صيغة العَقْد . وهي كُلُّ لَفْظٍ يُفْهَمُ الأمانَ كنايةً كان أو صريحاً ، وفي معنى ذلك الإشارةُ المُفْهِمة . ويعتبر فيه قبُولُ الكافر ، فلا بد منه حتى لو ردَّ الأمان لم ينعقد ، وفيما إذا سكت خلافٌ . نعم لو دخل للسفارة بين المسلمين والكُفَّار في تبليغ رسالة ونحوها ، أو لسماع كلام الله تعالى لم يُعتبر فيه عَقْدُ الأمان ، بل يكون آمناً بمجرد ذلك ، أما لو دخل لقصد التجارة بغير أمانٍ فإنه لا يكون آمناً إلا أن يقول الإمام أو نائبه : من دخل تاجراً فهو آمنٌ .

وأما شرطه ، فإن لا يكون على المسلمين ضررٌ في المستأمن : بأن يكون طليعةً أو جاسوساً ، فإنه يقتل ولا يُبالي بأمانه ، ويعتبر أن لا تزيد مدَّةُ الأمان ^(١)

(١) عبارة ”المنهاج“ ويجب أن لا تزيد مدته على أربعة أشهر ” وفي قول يجوز ما لم تبلغ سنة “ قال

صاحب التحفة : فإن بلغت امتنع قطعاً .

على سَنَةِ بخلاف الهدنة ، فقد تقدم أنها تجوز عند ضعف المسلمين إلى عشر سنين .

وأما حكمه ، فإذا عقد الأمان لزم المشرط ، فلو قتله مسلم وجبت الدية . ثم هو جائز من جهة الكفار ، فيجوز للكافر نبذ متى شاء ، ولازم من جهة المسلمين ، فلا يجوز النبذ إلا أن يتوقع من المستأمن الشر ، فإذا توقع منه ذلك جاز نبذ العهد إليه ويلحق بآمنه ، وبقيّة فقه الفصل مستوفى في كتب الفقه .

الطرف الثاني

(في صورة ما يكتب فيه)

والأصل ما رواه ابن إسحاق أن رفاعَةَ بن زَيْدٍ الخزاعيّ قدّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية ، فأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً ، وأسلم وحسن إسلامه ؛ وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى قومه فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد : إني بعثته إلى قومه »
« عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ؛ فمن أقبل »
« منهم ففي حزب الله ورسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين » .
فلما قدم رفاعَةُ على قومه أجابوا وأسلموا .

(١) في الأصل الجذامى والتصحيح من السيرة النبوية ص ٣٣ ج ٣ وقد ضبطها بالعبارة .

ثم للكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول — أن يُفتح الأمان بلفظ : « هذا كتاب أمان » أو « هذا أمان » وما أشبه ذلك ، كما أفتح النبي صلى الله عليه وسلم ما كتب به لرفاعة بن زيد على ما تقدم .

وعلى ذلك كتب عمرو بن العاص رضي الله عنه الأمان الذي كتب به لأهل مِصرَ عند فتحها ، ونصّه بعد البسملة :

”هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مِصر من الأمان على أنفسهم ومالهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص ، ولا تُساكنهم النوبة . وعلى أهل مِصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم — خمسين ألف ألف . وعليه ممن جنى نصرتهم ، فإن أبى أحد منهم أن يُحيب رفع عنهم من الجزى بقدر [هم وذمتنا ممن أبى بريّة ، وإن نقص نهرهم عن غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر] ذلك ، ومن دخل في صلحهم : من الروم والنوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى وأختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمته أو يخرج من سلطاننا . وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله [وذمته] وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين [وذمة المؤمنين] . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً ، وكذا وكذا فرساً ، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناء ، وكتب وردان وحضر .

(١) في العبر ص ١١٥ بقية الجزء الثاني « وذمهم » وفيه بعض التغير من زيادة ونقص .

(٢) الزيادة من العبر ص ١١٥ بقية ج ٢ .

وعلى ذلك كتب الحافظ لدين الله أحد خلفاء الفاطميين الأمان لبهرام الأرمني، حين صُرف من وزارته وهرب عنه إلى بلاد الأرمن، وكتب إلى الحافظ يظهر الطاعة ويسأل تسيير أقاربه، فكتب له بالأمان له ولأقاربه .

فأما ما كتب له هو فنصّه بعد البسملة .

هذا أمانٌ أمر بكتبه عبد الله ووليه عبد الحميد أبو الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين، للأمير المتقدم، المؤيد، المنصور، عزّ الخلافة وشمسها، وتاج المملكة ونظامها، نخب الأشراف، شيخ الدولة وعمادها، ذي المجدين، مصطفى أمير المؤمنين بهرام الحافظي : فإنك آمن بأمان الله تعالى، وأمان جدنا محمد رسوله، وأبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليهما، وأمان أمير المؤمنين، على نفسك ومالك، وأهلك وجميع حالك، لا ينالك سوء، ولا يصل إليك مكروه، ولا تقصد باغتيال، ولا يخرج بك عن عادة الإحسان والإنعام، والتميز والإكرام، وحراسة النفس، والصون للحريم والأهل، والرعاية في القرب والبعد، مادمت متحيزاً إلى طاعة الدولة العلوية، ومتصرفاً على أحكام مشايعها، موالياً لمواليها، ومُعادياً لمُعاديها، ومستمراً على مرضاة إخلاصك . فتق بهذا الأمان وأسكن إليه، وأطمئن إلى مضمونه، والله بما أودعه كفيلاً وعليه شهيد، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكل وإليه يُنيب .

وأما الأمان الذي كتب لأقاربه فنصّه :

هذا أمانٌ تقدم بكتبه عبد الله ووليه، لبسيل وزرقا، وبهرام ابن أخيهما، ومن يلتزم إليهم ويتعلق بهم، ويلتزمون أمره ممن دونهم، ومن يمسك بسائهم .

مضمونه : إنكم معشر الجماعة بأسيركم لما قصدتم الدولة ووفدتم عليها ، وتفيأتم ظلها وهاجرتُم إليها ، شملكم الصنع الجميل ، وعمركم الإنعام السابغ والإحسان الخزيل ، وكُنِتم بالرعاية التامة ؛ والعناية الخاصة لا العناية العامة ، ووفر حظكم من الواجبات المقررة لكم ، والإقطاعات الموسومة بكم ، وكنتم مع ذلك تذكرون رغبتم في العود إلى دياركم ، والرجوع إلى أوطانكم ، وألنفتا إلى من تركتموه من ورائكم . وقد سرتُم من الباب على قضية المخافة ، وقد أمَّنتكم أمير المؤمنين ، فأتتم آمنون بأمان الله تعالى وأمان جدنا محمد رسوله وأبينا أمير المؤمنين : علي بن أبي طالب ، صلى الله عليهما ، وأمان أمير المؤمنين ، على نفوسكم وأهليكم وأموالكم وما تحويه أيديكم ويحوزه ملككم ، ويشتمل عليه احتياطكم ؛ لا ينالكم في شيء من ذلك مكروه ، ولا سبب مخوف ، ولا يمسكم سوء ، ولا تحشون من ضم ، ولا تقصدون بأذية ، ولا يغير لكم رسم ، ولا تنقض لكم عادة ، وأتم مستمرون في واجباتكم وإقطاعاتكم على ما عهدتموه ، ولا تنقصون منها ، ولا تُنحسون فيها . هذا إذا رغبتم في الإقامة في ظلال الدولة ، فإن آثرتم ما كنتم تذكرون الرغبة فيه من العودة إلى دياركم عند أنفتاح البحر ، فهذا الأمان لكم إلى أن تتوجهوا مشمولين بالرعاية ، ملحوظين بالعناية ، ولكم الوفاء بجميع ذلك ، والله لكم به وكيل وكفيل ، وكفى به شهيدا .

المذهب الثاني — أن يفتح الأمان المكتتب لأهل الكفر بالتحميد ، ثم يقال : « ولما كان كذا وكذا آفتضى حُسن الرأي الشريف كذا وكذا » ثم يقال : « فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يكون كذا وكذا » على نحو ما يُكتب في الولايات .

وعلى ذلك كُتِبَ عن السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » أماناً لفرا كس صاحب السرب ، من ملوك النصارى بالشَّمال وزَوْجَتِهِ ومن معهما من الأتباع ، عند طَلَبِهِمُ التَّكِينِ من زيارة القُدُس الشريف ، وإزالة الأعراض عنهم ، وأسْتِصْحَابِ العناية بهم ، إلى حين عَوْدِهِمُ آمِنِينَ على أنفسهم وأموالهم ، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء .

ونصّه بعد البسملة :

أما بعد حمد الله الذى آمَنَ بمهابتنا المناهج والمسالِك ، ومكَّنَ لِكَلِمَتِنَا المطاعة فى الإفطار والآفاق والممالك ، وأعان على لساننا بدعوة الحق التى تنفى كل كُرب حالك وتكفى كل كُرب حالك ، والشهادة له بالوحدانية التى تنفى المشابه والمشارك ، ونهى بالميعاد من الإصعاد على الأرائك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أنجده ببعوث الملا الأعلى من الملائك ، وأيده بالصون الملازم والعون المتدارك ، ووعدّه أن سيبلغ ملك أمته ما بين المشرق والمغرب وأنجز له ذلك ، وعلى آله وصحبه الذين زحزحوا عن المهالك ، ونصّحو الله ورسوله وأكرم بأولئك !!! - فإن كرمنا يرعى الوفود ، وشيئنا تدعى فتجود ، وذمنا بها لحظ الحقوق وحفظ العهود ، فيخدمنا ينجح كل مقصود ، وينعمنا بمنح الأمانى والمنى وهما أعظم نعمتين فى الوجود ؛ فليس آمل عن أبواب سماحتنا بمردود ، ولا متوسل إلينا بضراعة إلا ويرجع بالمرام ويعود .

ولما كانت حضرة الملك الجليل ، المُكْرَم ، المَبْجَل ، العَزِيز ، المَوْقَر ، "إستيفانوس فرا كس" : كبير الطائفة النصرانية ، جمال الأمة الصليبية ، عماد بني المعمودية ،

صديق الملوك والسلاطين ، صاحب السرب - أطال الله بقاءه - قد شمله إقبالنا
 المعهود ، ووصله إفضالنا الذي يحجز عن ميامينه السوء ويخز الوعود - أقتضى
 حسن الرأي الشريف أن نيسر سبيله ، ونوفر له من الإكرام جسيمه كما وفرنا لغيره
 من الملوك مسو له ؛ وأن يمكّن من الحضور هو وزوجته ومن معهما من
 أتباعهما إلى زيارة القدس الشريف ، وإزالة الأعراض عنهم ، وإكرامهم ورعايتهم ،
 واستصحاب العناية بهم ، إلى أن يعودوا إلى بلادهم ، آمينين على أنفسهم وأموالهم ،
 ويعاملوا بالوصية التامة ، ويواصلوا بالكرامة والرعاية إلى أن يعودوا في كنف الأمن
 وحریم السلامة ؛ وسيل كل واقف عليه أن يسمع كلامه ، ويتبع إرادته ، ولا يمنع
 عنهم الخير في سير ولا إقامة ، ويدفع عنهم الأذى حيث وردوا أو صدروا فلا يحدروا
 إمامه ؛ والله تعالى يوفر لكل مستعين من أبوابنا أفساط الأمن وأقسامه ، ويظفر
 عز منّا المحمدى بالنصر السرمدي حتى يطوق الطائع والعاصي حسامه . والعلامة
 الشريفة أعلاه حجة فيه ، والخير يكون إن شاء الله تعالى :

الفصل الثانى

من الباب الأول من المقالة التاسعة

(فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام وما يُكتب فيها ، ومذاهب الكُتاب فى ذلك

فى القديم والحديث ، وأصله ؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فى أصله)

إِعلم أَنَّ هذا النوعَ فرعٌ لحقه الكُتابُ بالنوع السابق ، وإلا فالْمُسْلِمُ آمِنٌ بِقَضِيَّةِ الشَّرْعِ بِحَرْدِ إِسْلَامِهِ ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا » . وإنما جَرَتْ عادةُ الملوكِ بكتابة الأمانِ لكلِّ من خاف سَطَوَتَهُمْ ، لاسيَّما مَنْ خرج عن الطَّاعة ، وَخِيفَ اسْتِشْرَاءُ الفسادِ باستمرار خُرُوجِهِ عن الطَّاعةِ خَوْفًا ؛ حَتَّى صار ذلك هو أغلب ما يُكتبُ من دواوين الإنشاء .

وقد ورد فى السُّنَّةِ ما يدلُّ لذلك ، وهو ما رواه أبو عُبَيْدٍ فى "كتاب الأموال" عن أبى العلاء بن عبد الله بن الشَّخِيرِ أَنَّهُ قال : كُنا بِالْمَرْبَدِ ومعنا مُطَرِّفٌ ، إِذْ أَتانا أَعْرَابِيٌّ ومعه قِطْعَةُ أَدِيمٍ ، فقال : أَفِيكُمْ مَنْ يَقْرَأُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، فَأَعْطانا الأَدِيمَ فَإِذَا فِيهِ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِبَنِي زُهَيْرِ بْنِ أَقْبَيْشٍ مِنْ عُكْلٍ . إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُمْ »
« أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَفَارَقْتُمُ الْمُشْرِكِينَ ، »

«وَأَعْطَيْتُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ الْخُمْسَ ، وَسَمَّيْتُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّفِيَّ» ؛
 «أَوْ قَالَ : وَصَفِيَّ ، فَأَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» .

الطرف الثاني

(فيما يُكتب في الأمانات)

وللكتاب في ذلك مذهبان :

المذهب الأول — أن يفتح الأمان بلفظ : « هذا كتاب أمان » أو « هذا أمان » ونحو ذلك ، على ما تقدم في الفصل السابق .

قال في «موادّ البيان» : والرسم فيه : « هذا كتاب أمان ، كتبه فلان بن فلان الفلاني أمير المؤمنين أو وزيره ، لفلان بن فلان الفلاني الذي كان من حاله كذا وكذا ، فإنه قد آمنه بأمان الله تعالى وأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمانه » .
 فإن كان عن الوزير قال : « وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانه ، على نفسه وماله ، وشعره ، وبشره ، وأهله ، وولده ، وحرمة ، وأشياءه ، وأتباعه ، وأصحابه ، وحاله ، وذات يده ، وأملأه ، ورباعه ، وضياعه ، وجميع ما يخصه ويخصهم — أماناً صحيحاً ، نافذاً واجباً لازماً ، لا ينقض ولا يفسخ ولا يبدل ، ولا يتعقب بخاتلة ، ولا دهان ولا مواربة ، ولا حيلة ولا غيلة . وأعطاه على ذلك عهد الله وميثاقه وصفقة يمينه ، بنية خالصة له ولجميع من ذكر معه ، وعفا له عن كل جريرة متقدمة ، وخطيئة سالفة ، إلى يوم تاريخ هذا الأمان ، وأحلّه من ذلك كله ، وأستقبله بسلامة النفس ونقاء السيرة ، وأوجب له من الرعاية ما أوجبه لأمثاله ،

مَنْ سَمَلَهُ ظِلُّهُ ، وَكَفَّتْهُ رِعَايَتُهُ ، حَاضِرًا وَغَائِبًا ، وَمَلَكَهُ مِنْ آخْتِيَارِهِ قَرِيبًا وَبَعِيدًا ، وَأَنْ لَا يُكْرِهَهُ عَلَى مَا لَا يَرِيدُهُ ، وَلَا يُلْزِمُهُ بِمَا لَا يَخْتَارُهُ .

قُلْتُ : هَذَا مَا أَصْلَهُ صَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : فِي كِتَابَةِ الْأَمَانَاتِ . وَمُقْتَضَاهُ
أَفْتِتَاحُ جَمِيعِ الْأَمَانَاتِ الْمَكْتُتَبَةِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَوْ الْوَزِيرِ أَوْ غَيْرِهِمَا بِلَفْظِ « هَذَا » .
وَسَيَأْتِي أَنَّ الْأَمَانَاتِ قَدْ تُفْتَحُ بِغَيْرِ هَذَا الْإِفْتِتَاحِ : مِنَ الْحَمْدِ وَغَيْرِهِ ، عَلَى مَا سَيَأْتِي
بَيَانُهُ ، وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مُصْطَلَحَ زَمَانِهِ فَوَقَّفَ عِنْدَهُ .

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْأَمَانَاتُ الْمَكْتُتَبَةُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى نَوْعَيْنِ :

النوع الأول

(مَا يُكْتَبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ)

الْمَذْهَبُ الْأَوَّلُ — طَرِيقَةُ صَاحِبِ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" الْمَتَقَدِّمَةُ الذِّكْرُ ، وَهِيَ
أَنْ يُفْتَحَ الْأَمَانُ بِلَفْظِ « هَذَا » وَحِينَئِذٍ يُقَالُ : « هَذَا كِتَابُ أَمَانٍ كَتَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ
فُلَانٌ أَبُو فُلَانٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْفُلَانِيُّ ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ ، وَأَدَامَ لَهُ التَّمَكِّينَ ،
لِفُلَانِ الْفُلَانِيِّ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَّنَهُ بِأَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَأَمَانِهِ ، عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَشَعْرِهِ ، وَبَشِيرِهِ ، وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدِهِ ، وَحَرَمِهِ ، وَأَشْيَاعِهِ ،
وَأَتْبَاعِهِ ، وَأَصْحَابِهِ ، وَحَالِهِ ، وَذَاتِ يَدِهِ ، وَأَمْلَاكِهِ ، وَرِبَاعِهِ ، وَضِيَاعِهِ ، وَجَمِيعِ
مَا يُحْصِيهِ وَيُحْصِيهِمْ — أَمَانًا صَحِيحًا ، نَافِذًا وَاجِبًا لَازِمًا ، لَا يُنْقَضُ وَلَا يُفْسَخُ ،
وَلَا يُدَلَّلُ ، وَلَا يُتَعَقَّبُ بِخَفَاتِلَةٍ ، وَلَا دِهَانٍ وَلَا مُوَارَبَةٍ ، وَلَا حِيلَةٍ وَلَا غِيلَةٍ ، وَأَعْطَاهُ
عَلَى ذَلِكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ وَصَفْقَةَ يَمِينِهِ ، بَنِيَّةً خَالِصَةً لَهُ وَجَمِيعِ مَنْ ذُكِرَ مَعَهُ ،
وَعَقْلًا لَهُ عَنْ كُلِّ جَرِيرَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ، وَخَطِيئَةٍ سَالِفَةٍ ، إِلَى يَوْمِ تَارِيخِ هَذَا الْأَمَانِ ،

وأحله من ذلك كله ، وأستقبله بسلامة النفس ونقاء السريرة ، وأوجب له من الرعاية ما أوجبه لأمثاله : مَنَّ سَمَلَهُ ظِلُّهُ ، وَكَفَفَتْهُ رَعَايَتُهُ ، حَاضِرًا وَغَائِبًا ، وَمَلَكَهُ مِنْ آخْتِيَارِهِ قَرِيبًا وَبَعِيدًا ، وَأَنْ لَا يُكْرِهَهُ عَلَى مَا لَا يَرِيدُهُ ، وَلَا يُلْزِمَهُ بِمَا لَا يَخْتَارُهُ .
وغير ذلك مما يقتضيه الحال ويدعو إليه المقام .

المذهب الثاني — أن يفتح الأمان بِحُطْبَةٍ مَفْتُوحَةٍ بِالْحَمْدِ . والرسم فيه أن يُسْتَفْتَحَ الْأَمَانُ بِحُطْبَةٍ يَكْرُرُ فِيهَا الْحَمْدُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَأَكْثَرُ ، بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُ النِّعْمَةِ عَلَى مَنْ يُصْدَرُ عَنْهُ الْأَمَانُ فِي الْأَسْتَظْهَارِ عَلَى مَنْ يُؤْمَنُ . يَحْمَدُ اللَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى عَلَى آلِهِ ، وَفِي الثَّانِيَةِ عَلَى إِعْزَازِ دِينِهِ ، وَفِي الثَّالِثَةِ عَلَى بَعَثَةِ نَبِيِّهِ ، وَفِي الرَّابِعَةِ عَلَى إِقَامَةِ ذَلِكَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَيْتِ النَّبَوَّةِ لِإِقَامَةِ الدِّينِ . وَيَأْتِي مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِمَا يَنْسَبُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَذْكُرُ الْأَمَانَ فِي الْآخِرَةِ .



وهذه نسخة أمان من هذا النمط ، كُتِبَ بِهِ عَنْ بَعْضِ مُتَقَدِّمِي خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بَيْقُودًا ، أَوْ رَدَّهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ فِي "كُتَابِ الْبَلَاغَةِ" الَّذِي جَمَعَهُ فِي التَّرْسُلِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَرْجُو فَضْلُهُ ، الْمُخَوَّفُ عَدْلُهُ ، بَارِي النَّسَمِ ، وَوَلِيُّ الْإِحْسَانِ وَالنِّعَمِ ، السَّابِقُ فِي الْأُمُورِ عِلْمُهُ ، النَّافِذُ فِيهَا حُكْمُهُ ، بِمَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ مُلْكٍ قُدْرَتِهِ ، وَأَنْفَذَ مِنْ عِزَائِمِ مَشِيئَتِهِ ، كُلِّ مَا سِوَاهُ مُدَبَّرٌ مَخْلُوقٌ وَهُوَ أَنْشَاءُ وَأَبْتَدَاهُ ، وَقَدَّرَ غَايَتَهُ وَمُتَنَاهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُعِزِّ لِدِينِهِ ، الْحَافِظِ مِنْ حُرْمَاتِهِ مَا تَرَبَّصَ الْمُتَرَبِّصُونَ عَنْ حِيَاطَتِهِ ، الْمُدْكِي مِنْ نُورِهِ مَا دَابَّ الْمَالِحِدُونَ لِإِطْفَائِهِ حَتَّى أَعْلَاهُ وَأَظْهَرَهُ كَمَا وَعَدَ فِي مُتَرَلِّ

(١) فِي اللِّسَانِ « رَجُلٌ رُبُضَةٌ وَمُتَرَبِّصٌ عَاجِزٌ » وَلَعَلَّ مَا هُنَا مِنْهُ وَهِيَ فِي الْأَصْلِ بِالضَّادِ الْمَهْمَلَةِ .

فُرقانه بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

والحمد لله الذي بعث محمداً رحمةً للعالمين ، وحجّةً على الجاحدين ، نفختم به النبيين والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وجعله الدّاعي إلى دين الحق ، والشّهيد على جميع الخلق ، فأدّى إليهم ما استودع من الأمانة ، وبلغهم ما حمل من الرسالة ؛ فلما أنقذ الله به من التورط في الضلالة ، والتّهوّر في العمى والجهالة ؛ وأوضح به المعالم والآثار ، ونهّج به العدل والمنار ، اختار له مآلديه ، ونقله إلى ما أعد له في دار الخلود : من النعيم الذي لا ينقطع ولا يبدي . ثم جعله في حُمتِه وأهله وراثته بما قلدهم من خلافته في أمّته ، وقدم لهم شواهد ما اختصّهم به من الفضيلة ، وزُلفَةِ الوسيلة ، في كتابه النّاطق ، على لسان نبيّه الصادق ، صلى الله عليه وسلم - منها ما أخبر به من تطهيره إياهم : ليجعلهم لما اختاره معدّناً ومحلاً ، إذ يقول جَلَّ وَعَزَّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ . ومنها ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من مسائله أمّته المودّة ، فقد أوضح لدوى الألباب أنهم موضع خيرته ، بتطهيره إياهم ، وأهل صفوته ، بما افترض من مودّتهم ، وولاءة الأمر الذين قرن طاعتهم بطاعته .

ولم يزل الله بعظيم منّهِ وإنعامه يُدعِمُ أركانَ دينهِ ، ويُسيّدُ أعلامَ هُدايهِ ، باعزاز السلطان الذي هو ظلُّهُ في أرضهِ ، وقوامُ عدله وقسطهِ ، والمجازُ الدّائدُ لهم عن الظّالم والتّشائم ، والحِصْنُ الحريزُ عند مخوفِ البوائق ومُلمِّ النَّوَابِ ؛ فليس يَكِيدُ وِلايَتَهُ المُستَقيّلين بحقّ الله فيه كائد ، ولا يَحمِضُ ما يَجبُ لهم من حقّ الطّاعة جاحد ، إلّا من أنطوى على غِشِّ الأُمّة ، ومُحاوَلَةِ التّشَتِيتِ للكلمة .

والحمد لله على ما تولى به أمير المؤمنين في البدء والعاقبة : من الإدلاء بالحجة ،
 والتأييد بالغلبة ، عند تشوه من حيز وطأة الخفض (؟) ، متبعا لكتاب الله حيث
 سلك به حكمه ، مقتفيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أنشأت أمامه ،
 بآذلا لله نفسه ، لا يصدّه وعيد من تكبر وعتا ، ولا يوحشه خذلان من أدبر وتولى ،
 مُتَظَرًّا لمن نكث عهده وغدر ببيعته وأتمس المكر به في حقه الآيات الموجبة
 في قوله : « ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ » . « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » .
 مكتفيا بالله ممن خذله ، مُستَعِينًا به على من نصب ، لا يَسْتَفِزُهُ ما أَجْلَبَ به الشيطان
 من خيله ورجله ، وهو في أنصاره المعتصمين ، لا تستهويهم الشبهة في بصائرهم ،
 ولا تخونهم قواعد عزائمهم في ساعة العسرة من بعد ما كادت تزيغ قلوب فريق
 منهم ، فكتبهم أمير المؤمنين ، وأهدهم لعدوه ، ينتظرون إحدى الحسنيين : من
 الفلاح المبين ، والفوز بالشهادة والسعادة ، فليس يُلْفِثُهم عن حقهم ما يُتَلَقَّونَ به من
 الترغيب والترهيب ، ولا يزدادون على عظيم التهاويل والأخطار إلا تقحُّمًا وإقدامًا ؛
 مُتَمَثِّلِينَ لسير إخوانهم قبلهم فيما آتص الله عليهم من شأنهم ، إذ يقول جل وعزَّ :
 « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
 حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

وكان بداية جند أمير المؤمنين في حربهم التقدُّم بالإعذار والإنذار ، والتخويف
 بالله جل وعزَّ وأيامه ، وما هم مسئولون عنه في مقامه : من عهوده المؤكدة عليهم
 في حرمة ، وبين ركن كعبته ومقام خليله ، المعلقة في بيته ، الشاهد عليها وفوده .

فكان أول ما بصرهم الله به محجته التي لا يقطعها قاطع ، ولا يدفعها دافع ،
 ثم ما جعلهم الله عليه من التناصر والتوازر الذي فت في أعضادهم ، ورماهم به من

التَّخَاذُلُ والتَّوَاكُلُ ، فَكُلَّمَا نَجَّحَتْ لَهُمْ قُرُونٌ أَجْتَنَّبَهَا اللَّهُ بِحَدِّ أَوْلِيَائِهِ ، وَكُلَّمَا مَرَّقَ مِنْهُمْ مَارِقٌ أَسَالَ اللَّهُ مُهْجَتَهُ ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُ وَدِيَارَهُ .

وَمَحْلُوعُهُمُ الْمُبْتَدِئُ بِمَا عَادَتْ عَلَيْهِمْ نِقْمَتُهُ وَنَكَالُهُ قَدْ أَعْلَقَ بِالرَّدَّةِ ، وَصَرَّحَتْ شَيْطَانِيَّتُهُ بِالغَدْرِ وَالتَّنَكُّثِ ، يَرَى بِذَلِكَ الدَّلَّ فِي نَفْسِهِ وَخِزْيَهُ ، وَتَنْتَقِصُ عَلَيْهِ الْأَرْضُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا ، وَيُؤَيِّنُ بُنْيَانَهُ مِنْ قَوَاعِدِهِ ، وَيَرُدُّ اللَّهُ جُيُوشَهُمْ مَفْلولَةً ، وَجُنُودَهُمْ مُحَلَّاةً عَنْ مَرَائِكِزِهَا ، مَقْمُوعَةً بِاطْلَاقِهَا . وَلَيْسَ مَعَ مَا نَالَهُ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ جَلٌّ وَعِزٌّ نَازِعًا عَنْ آتِنَاكَ مَحَارِمِهِ وَمَأْتِيَتِهِ ، وَلَا مُجْدِثًا عَنْ جَائِحَةٍ يُحِلُّهَا بِهِ إِحْجَامًا عَنِ التَّعَظُّمِ فِي مَلَاحِمِهِ الْمَلْبُوسَةِ لَهُ فِي عَاجِلِ مَا يُرِيدُهُ وَيُؤَيِّقُهُ ، وَأَجَلَ مَا يَرِصُّهُ اللَّهُ بِهِ الْمُعَانِدِينَ عَنْ سَبِيلِهِ ، النَّاكِبِينَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ مُتَبَايِنَ الْأَلْفَةِ ، وَضَمَّ لَهُ مُتَشَارِفَ الْفُرْقَةِ ، عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِخَزْيِهِ وَخِزْيِهِ ، وَعَدُوَّهُ وَوَلِيَّهُ ، وَمَنْ سَعَى لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، أَوْ أَطَاعَ اللَّهَ أَوْ عَصَاهُ فِيهِ : مِنْ وَافٍ بَبَيْعَتِهِ ، أَوْ خَاطِرٍ بِإِلٍّ وَذِمَّةٍ [جَدِيرٌ] أَنْ يُعْمَ بِجَمِيسِلِ نَظَرِهِ كَافَّةً رِعْيَتِيَّتِهِ ، وَيَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ بِحُسْنِ عَائِدَتِهِ ، وَيُشْمَلَهُمْ بِمَسْوَطِ عَدْلِهِ وَكَرِيمِ عَفْوِهِ ، وَتَقْدِيمِ أَهْلِ الْأَفْكَارِ الْحَمُودَةِ ، فِي الْمَوَاطِنِ الْمَشْهُودَةِ ، بِمَا لَمْ تَزَلْ أَنْفُسُهُمْ تَشْرَبُ إِلَيْهِ ، وَأَعْيُنُهُمْ تَرْتَوِي نَحْوَهُ ، لِتُحْمَدَ عَنْهُمْ عَاقِبَةُ الطَّاعَةِ ، وَيُعْجَلَ لَهُمُ الْوَفَاءُ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ ، إِلَى مَا ذَخَرَهُ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ الْمَثُوبَةِ وَمَزِيدِ الشُّكْرَانِ . وَأَمْرٍ لِفُلَانٍ بِكَذَا ، وَلِمَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْغَنَاءِ بِكَذَا ، وَأَمْنٍ الْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ ، مَا خَلَا الْمُحْدِثَ ابْنَ الرَّبِيعِ ، فَإِنَّهُ سَعَى فِي بِلَادِ اللَّهِ وَعِبَادِهِ سَعَى الْمَفْسِدِينَ ، وَاتَّكَمَسَ نَقْضَ وَثَائِقِ الدِّينِ .

جَمِيعٌ مِنْ حَلِّ مَدِينَةِ السَّلَامِ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ ، غَيْرُ مُتَّبِعِينَ بِتَرَةٍ ، وَلَا مَطْلُوبِينَ بِإِحْنَةٍ ، فَلَا تَدْخُلَنَّ أَحَدًا وَخَشَةً مِنْهُمْ لَضَعِيفَةٍ يَطْنُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَنْطَوَاءَ عَلَيْهَا ، وَلَا

يُحْلِنَهُ مَا عَفَا لَهُ عَنْهُ مِنْ ذَنْبِهِ عَلَى [خِلَافٍ] مَا هُوَ مُسْتَوْجِبٌ مِنْ ثَوَابِ طَاعَتِهِ أَوْ نِكَالِ مَعْصِيَتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَقُولُ : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .
 فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا أَلْهَمَ خَلِيفَتَكُمْ ، مِنْ إِثَابَةِ أَهْلِ السَّوَابِقِ مِنْكُمْ بِأَوْفَى سَعْيِهِمْ ،
 وَالتَّطَوُّلِ عَلَى عَامَّةِ جُنْدِهِ بِمَا شَمِلُوهُمُ بِرِفْقِهِ وَحَسَنَتْ عَلَيْهِمْ عَائِدَتُهُ ، وَمَا تَعَطَّفَ بِهِ
 عَلَى أَهْلِ التَّفْرِيطِ : مِنْ إِقَالَةِ هَفَوَاتِهِمْ وَعَثَرَاتِهِمْ ، حَتَّى صِرْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا
 مُتَرَافِدِينَ ، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ أَضْغَانَكُمْ وَنَزَعَ حَسَائِكَ صُدُورِكُمْ ، وَرَدَّ أَلْفَتَكُمْ إِلَى أَحْسَنِ
 مَا يَكُونُ ، وَصِرْتُمْ بَيْنَ مُتَقَدِّمٍ بَغْنَاءٍ ، وَمُقَمَّعٍ بِإِحْسَانٍ . فَحَافِظُوا عَلَى مَا يُرْتَبِطُ بِهِ رَاهُنُ
 النِّعْمَةِ ، وَيُسْتَدْعَى بِهِ حُسْنُ الْمَزِيدِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(مِنْ الْأَمَانَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، مَا يُكْتَبُ بِهِ عَنِ الْمُلُوكِ ،

وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ)

الضرب الأول

(مَا كَانَ يُكْتَبُ مِنْ هَذَا النَّحْوِ فِي الزَّمَنِ السَّابِقِ ، مِمَّا كَانَ يُصَدَّرُ عَنْ وَزَرَاءِ

الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ الْمُتَغَالِبِينَ عَلَى الْأَمْرِ مَعَهُمْ ، وَلَهُمْ فِيهِ أَسْلُوبَانِ)

الأسلوب الأول

(أَنْ يُصَدَّرَ بِالتَّمَسُّكِ الْمُسْتَأْمِنِ الْأَمَانِ)

وَهَذِهِ نُسْخَةُ أَمَانٍ مِنْ هَذَا الْأَسْلُوبِ ، كَتَبَ بِهَا أَبُو [إِسْحَاقَ بْنِ] هَلَالٍ الصَّاهِبِيُّ ،

عَنْ صَمْحَامِ الدَّوْلَةِ ، بِنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، بِنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ ، بِنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِيِّ لِبَعْضِ

مَنْ كَانَ مُتَخَوِّفًا مِنْهُ ، وَهُوَ :

هذا كتاب من صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين - لفلان بن فلان .

إنك ذكرت رغبتك في الانحياز إلى جملتنا، والمصير إلى حضرتنا، والسكون إلى ظلتنا، والسكنى في كنفنا، وأتممت التوثقة منا بما تطيب به نفسك، ويطمئن إليه قلبك؛ فتقبلنا ذلك منك، وأوجبنا به الحق والدمام لك، وأمنناك بأمان الله جل ثناؤه، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم، [وأمان] أمير المؤمنين أطل الله بقاءه، وأماننا - على نفسك، وجوارحك، وشعرك، وبشرتك، وأهلك، وولدك، ومالك، وذات يدك : أماناً صحيحاً ماضياً نافذاً، واجبا لازماً؛ ولك علينا بالوفاء به إذا صرت إلينا عهد الله وميثاقه، من غير نقض له ولا فسخٍ لشيء منه، ولا تأويل عليك فيه على [كل] وجه وسبب .

ثم إننا نتناولك إذا حضرت بالإحسان والإجمال، والأصطناع والإفضال، مؤفين بك على أملاك، ومُتجاوزين حد ظنك وتقديرك . فأسكن إلى ذلك وثق به، وتيقن أنك محمول عليه، ومُقضى إليه . ومن وقف على كتابنا هذا : من عمال الخراج والمعاون وسائر طبقات الأولياء والمتصرفين في أعمالنا، فليعمل بما فيه، وليحذر من تجاوزه أو تعديه؛ إن شاء الله تعالى .



وعلى نحو من ذلك كتب أبو إسحق الصابى، عن صمصام الدولة المتقدم ذكره، الأمان لجماعة من عرب المتفق، بواسطة محمد بن المسيب، وهو :

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

هذا كتاب منشور من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كاليبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين لجماعة من العرب من المنتفق، الراغبين في الطاعة والداخلين فيها مع أولياء الدولة.

إن محمد بن المسيب سأل في أمركم، وذكر رغبتكم في الخدمة، والانحياز إلى الجبل، وأتمس أمانكم على نفوسكم وأموالكم، وأهلكم وعشيرتكم، على أن تلتزموا الاستقامة، وتسلخوا سبيل السلامة، ولا تخيفوا سبيلا، ولا تسعوا في الأرض فسادا، ولا تخالفوا للسلطان وولاية أعماله أمرا، ولا تؤوا له عدوا، ولا تعادوا له وليا، ولا تحيروا أحدا خرج عن طاعته، ولا تدموا لأحد طلبه، ولا تحوونه في سر ولا جهر، ولا قول ولا عمل. فرأينا قبول ذلك منكم، وإجابة محمد إلى ما رغب فيه عنكم، وتضمنته العهدة فيما عقد من هذا الأمان لكم على شرائطه المأخوذة عليكم: في الكف عن الرعية والسابلة، وأهل السواد والحاضرة، وترك التعرض للال والدّم، أو الاتهك لدمه أو محرم، أو الارتكاب لمنكر أو مأثم.

فكونوا على هذه الحدود قائمين، وللصحة والاستقامة معتقدين، ولأحدائكم ضابطين، وعلى أيدي سفهائكم آخذين؛ وأنتم مع ذلك آمنون بأمان الله جلّ جلاله، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمان مولانا أمير المؤمنين، وأماننا: على نفوسكم وأموالكم وأحوالكم، وكلّ داخل في هذا الأمان وشرائطه معكم: من أهلكم وعشيرتكم وأتباعكم، ومن صمته حوزتكم.

ومن قرأ هذا الكتاب من عمال الخراج والمعاون، والمتصرفين في الحمارة والسيارة وغيرهم من جميع الأسباب، فليعمل بمتضمنه، وليحمل جماعة هؤلاء القوم على موجب، إن شاء الله تعالى.

الأسلوب الثانى

(أن لا يتعرض فى الأمان لالتماس المستأمن الأمان)

وهذه نسخة أمان على هذا الأسلوب ، أورده أبو الحسين بن الصابى فى كتابه "غرر البلاغة" ونصه بعد البسملة :

هذا كتاب من فلان مولى أمير المؤمنين لفلان .

إننا أمناك على نفسك ومالك ولذك وحريمك ، وسائر ما تحويه يدك ، ويشتمل عليه ملكك ؛ بأمان الله جلّت أسماؤه ، وعظمت كبريائه ، وأمان محمد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأماننا - أماناً صحيحاً غير معلول ، وسليماً غير مدخول ، وصادقاً غير مكذوب ، وخالصاً غير مشوب ؛ لا يتداخله تأويل ، ولا يتعقبه تبديل ؛ قد كفله القلب المحفوظ ، وقام به العهد الملحوظ - على أن تشملك الصيانة فلا يلحقك اعتراض معترض ، وتكتفك الحراسة فلا يطرقك اغتراض مغتمض ؛ وتترك النصرة فلا ينالك كف متخطف ، ولا تمتد إليك يد متطرف ؛ بل تكون فى ظل السلامة راتعاً ، وفى محاماة الأمانة وادعاً ؛ وبعين المراقبة ملحوظاً ، ومن كل تعقب وتنبع محفوظاً ؛ لك بذلك عهد الله الذى لا يخفر ، ومواثيقه التى لا تنكث ؛ وذمامه الذى لا يرفض ، وعهده الذى لا ينقض :

المذهب الثانى

(مما يكتب به فى الأمانات لأهل الإسلام - أن يفتتح الأمان بلفظ : «رسم»

كما تفتتح صغار التواقيع والمراسيم ، وهى طريقة غريبة)

وهذه نسخة أمان على هذا النمط ، أوردها محمد بن المكرم أحد كتّاب ديوان الإنشاء فى الدولة المنصورية «قلاوون» فى تذكرته التى سماها : «تذكرة اللبيب»

كتب بها عن المنصور قلاوون المقدم ذكره ، للتجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، من إنشاء المولى قنقح الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وهي :

رُسم - أعلى الله الأمر العالي - لا زال عدله يحل الرعايا من الأمن في حصن حصين ، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة [من] أهل المشارق والمغارب فلا أحد إلا وهو من المخلصين ، ويهيئ برحابتها للعتفين جنة عدن من أي أبوابها شاء الناس دخولاً : من العراق من العجم من الروم من الحجاز من الهند من الصين - أنه من أراد من الصدور الأجلاء الأكابرة التجار وأرباب التكسب ، وأهل التسبب ، من أهل هذه الأقاليم التي عددت والتي لم تعدد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكها إن أقام أو تردد - النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفيائها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخير ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة : لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر ، ولا تهجر للإفراط في الخصر^(١) والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه ، وأن بركة الله حاصلة في رجل من جعل الإحسان فيها من قراضه والحسنة من قرضه ، ومنها ما إذا أهبط إليها أمل كان له ما سأل ، إذ أصبحت دار إسلام يجنود تسبق سيوفهم العدل ، وقد عمم العدل أوطانها ، وكثر سكانها ، وآسعت أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن ، وأيسر المعسر فيها فلا يحشى سورة المدائن ، إذ المطالب بها

(١) الخصر بالتجريك البرد .

غير متعسره ، والنظرة فيها إلى ميسره ؛ وسائر الناس وجميع التجار ، لا يحشون فيها من يجوز فان العدل قد أجار .

فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها ، والقُدوم عليها ، ليجد الفعّال من المقال أكبر ، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ؛ ويحلّ منها في بلدة طيبة وربّ غفور ، وفي نعمة جزاؤها الشكر وهل يجازي إلا الشكور ؛ وفي سلامة في النفس والمال ، وسعادة تجلّي الأحوال وتموّل الآمال ؛ ولهم منا كل ما يؤثرونه : من معدلة تُجيب داعيها ، وتحمّد عيشتهم دواعيها ، وتبقى أموالهم على تخلفهم ، وتستخلصهم لأن يكونوا متفيّئين في ظلالها وتصفطفيهم ؛ ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف أمراً يشقّ ، فقد أبقى لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ما شق ؛ ومن أحضر معه منهم ممالك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد ، والمسامحة بما يتعوضه بتمهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب فكيف من البعيد : لأن رغبنا مضرّوفة إلى تكثير الجنود ، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقاً على الجود ؛ فليستكثر من يقدّر على جلبهم ، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم : لأن الإسلام بهم اليوم في عزّ لواؤه المنشور ، وسلطانُه المنصور ، ومن أحضر منهم فقد أخرج من الظلمات إلى النور ؛ وذمّ بالكفر أمسه وحمّد بالإيمان يومه ، وقاتل عن الإسلام عشيرته وقومه .

هذا مرسومنا إلى كلّ واقف عليه من تجار شأنهم الضرب في الأرض :
 ((يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) . ليقروا منه ما تيسر لهم

من حُكْمِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِنَجْمِهِ، وَيَعْتَدُونَ بِعِلْمِهِ، وَيَتَّطُونَ كَاهِلَ الْأَمَلِ الَّذِي يَجْلِبُهُمْ
عَلَى الْمِجْرَةِ، وَيَسْطُونَ أَيْدِيَهُمْ بِالْدُّعَاءِ لِمَنْ يَسْتَدْنِي إِلَى بِلَادِهِ الْخَلَائِقَ لِيَفُوزُوا مِنْ
إِحْسَانِهِ بِكُلِّ نَصَارَةٍ وَبِكُلِّ نَظَرَةٍ، وَيَقْتَنِمُونَ أَوْقَاتَ الرِّيحِ فَإِنَّهَا قَدْ أَدْنَتْ قِطَافَهَا،
وَبَعَثَتْ بِهَذِهِ الْوُعودِ الصَّادِقَةِ إِلَيْهِمْ تُحَقِّقُ لَهُمْ حُسْنَ التَّامِيلِ، وَتُثَبِّتُ عَنْدهُمْ أَنْ
الْخَطَّ الشَّرِيفَ حَاكِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى مَا قَالَتْهُ الْأَقْلَامُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قلتُ : هذا المكتوبُ وإن لم يكن صريحاً أماناً فإنه في معنى الأمان، كما أشار إليه
أَبْنُ الْمُكْرَمِ . وفيه غمرايتان : إحداهما - الافتتاح « برسم » ، والثانية - الكتابةُ به إلى
الآفاق البعيدة والأقطار النائية، إشارةً إلى امتداد لسان قلم هذه المملكة إليهم .

الضرب الثاني

(من الأمانات التي تُكتب لأهل الإسلام ما عليه مصطلح زماننا، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ما يُكتب من الأبواب السلطانية)

والنظر فيه من جهة قَطْعِ الْوَرَقِ، ومن جهة الطَّرَةِ، ومن جهة ما يُكتب
في المَتْنِ .

فأما قَطْعُ الْوَرَقِ فَقَدْ قَالَ فِي "التثقيف" : إِنَّ الْأَمَانَ لَا يُكْتَبُ إِلَّا فِي قَطْعِ الْعَادَةِ .

قلتُ : والذي يَنْجِيهِ أَنْ تَكُونَ كِتَابُهُ أَمَانٍ كُلِّ أَحَدٍ فِي نَظِيرِ قَطْعِ وَرَقِ الْمَكْتَابَةِ
إِلَيْهِ . فَإِنْ كَانَ مِنْ تُكْتَبُ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ، كُتِبَ لَهُ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ .
وإن كَانَ فِي قَطْعِ فَوْقَ ذَلِكَ، كُتِبَ فِيهِ .

وأما الطَّرة فقد قال في "التشقيف" : إنه يُكتب في أعلى الدَّرَج في الوَسَط الأسمُ الشريف ، كما في المكاتبات وغيرها ، ثم يكتب من أول عَرْض الورق إلى آخره كما في سائر الطَّرَ ما صورته :

« أمانٌ شريفٌ لفلان بن فلان الفُلانيّ بأن يحضُر إلى الأبواب الشريفة ، أو إلى بَلَدِهِ أو مكانه ، أو نحو ذلك آمِنًا على نفسه وأهلِهِ ومَالِهِ ، لا يُصِيبُهُ سُوءٌ ، ولا ينالُهُ ضَمٌّ ، ولا يَمَسُّهُ أذى ، على ما شَرَحَ فيه . »

قلت : والعلامةُ في الأمان الأسم ؛ والبياضُ بعد الطَّرة على ما في المكاتبات إما وَصْلانٍ أو ثلاثة ، بحسب ما تقتضيه رتبةُ صاحبِ الأمان ، وبحسب ما يقتضيه الحال : من مُدَاراة مَنْ يُكتب له الأمان : نخوف استِثراءَ شرِّه وما يُخالف ذلك .

وأما متن الأمان : فإنه تُكتبُ البَسْملةُ في أولِ الوَصْل الثالث أو الرابع ، بهامِش من الجانب الأيمن كما في المكاتبات ، ثم يكتب سَطْرٌ من الأمان تحت البَسْملة على سَمْتها ، ويخلَى موضعُ العلامة بياضًا كما في المكاتبات ، ثم يكتب السَطْر الثاني وما يليه على نَسَقِ المكاتبات .

قال في "التعريف" : ويجمعُ المقاصدُ في ذلك أن يُكتب بعد البَسْملة : « هذا أمانُ الله تعالى وأمانُ نبيِّه محمَّدٍ [نبيِّ الرحمة] ^(١) صلى الله عليه وسلم وأمانُ الشريف ، لفلان بن فلان الفُلانيّ [ويذكر أشهرَ أسمائِهِ وتعريفه] ^(١) ، على نفسه وأهلِهِ ومَالِهِ ، وجميعِ أصحابِهِ وأتباعِهِ وكلِّ ما يتعلق به : من قليلٍ وكثيرٍ ، وجليلٍ وحَقِيرٍ - أمانًا لا يَبْقَى معه خَوْفٌ ولا جَزَعٌ في أولِ أمرِهِ ولا آخرِهِ ، ولا عاجِلِهِ ولا آجِلِهِ ، يَخْصُ وَيُعْمُ ، وتُصَانُ به النَّفْسُ والأهْلُ والوَلَدُ والمَالُ وكلُّ ذاتِ اليَدِ . فليحضُرْ هو

وَبَنُوهُ ، وَأَهْلُهُ وَذَوُوهُ وَأَقْرَبُوهُ ، وَغُلَمَائُهُ وَكُلُّ حَاشِيَتِهِ ، وَجَمِيعُ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ دَانِيَةٍ وَقَاصِيَتِهِ ؛ وَلِيُصَلَّ بِهِمُ الْإِنْسَاءُ ، وَيَقْدُ عَلَى حَضْرَتِنَا فِي ذِمَامِ اللَّهِ وَكِلَاءَتِهِ وَضَمَانِهِ هَذَا الْأَمَانِ ، لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ مِنَّا ، وَلَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ قِبَلِنَا ، وَلَا يُتَعَرَّضُ إِلَيْهِ بِسُوءٍ وَلَا أَدَى ، وَلَا يُرْتَقَى لَهُ مَوْرِدٌ بِقَدَى ؛ وَلَهُ مِنَّا الْإِحْسَانُ ، وَالصَّفَاءُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ؛ وَالرَّعَايَةُ الَّتِي تُؤَمِّنُ سِرْبَهُ [وَتُهَيِّئُ سِرْبَهُ] وَيَطْمَئِنُّ ^(١) [بِهَا] خَاطِرُهُ ، وَتُرْفَرُ عَلَيْهِ كَالسَّحَابِ لَا يَنَالُهُ إِلَّا مَاطَرُهُ .

فَلْيَحْضُرْ وَائْتِمًا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِهَذَا الْأَمَانِ الشَّرِيفِ ، وَقَدْ تَلَفَّظْنَا لَهُ بِهِ لِيَزْدَادَ وَثُوقًا ، وَلَا يَجِدَ بَعْدَهُ سُوءُ الظَّنِّ إِلَى قَلْبِهِ طَرِيقًا . وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَيْهِ إِكْرَامُهُ فِي حَالِ حُضُورِهِ ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا عَاهَدَ مِنْ أُمُورِهِ ؛ وَلِيَكُنْ لَهُ وَلِكُلِّ مَنْ يَحْضُرُ مَعَهُ أَوْفَرُ نَصِيبٍ مِنَ الْإِكْرَامِ ، وَتَبْلُغُ قُصَارَى الْقَصْدِ وَنَهَايَةَ الْمَرَامِ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ » .

وَذَكَرَ فِي "التَّقْيِيفِ" : بِصِيغَةٍ أُخْرَى أَخْصَرَ مِنْ هَذِهِ ، وَهِيَ :

« هَذَا أَمَانُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَمَانُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَانَةُ الشَّرِيفِ لِفُلَانِ بْنِ فُلَانٍ الْفُلَانِيِّ ، بَأَنْ يَحْضُرَ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ آمِنًا عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، لَا يُصِيبُهُ سُوءٌ ، وَلَا يَنَالُهُ ضَمِيمٌ ، وَلَا يَمَسُّهُ أَدَى . فَلْيَتَّقِ بِاللَّهِ وَبِهَذَا الْأَمَانِ الشَّرِيفِ وَيَحْضُرَ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، آمِنًا مُطْمَئِنًّا ، لَا يُصِيبُهُ سُوءٌ ، وَلَا يَنَالُهُ أَدَى فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ وَلَا أَهْلٍ وَلَا وَلَدٍ . وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ » .

وَزَادَ فَقَالَ : ثُمَّ التَّارِيخُ وَالْمُسْتَنْدُ وَالْحَسْبَةُ . وَلَا يُكْتَبُ فِيهِ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » لِأَنَّهَا تَقْتَضِي الْإِسْتِثْنَاءَ فَمَا وَقَعَ مِنَ الْأَمَانِ الْمَذْكُورِ .

(١) من "التعريف" ص ١٦٥ .

ثم قال : هذا هو الأمر المستقر من ابتداء الحال وإلى آخر وقت ، لم يكتب خلاف ذلك . غير أن القاضي شهاب الدين ذكر النسخة المذكورة بزيادات حسنة لا بأس بها ، لكنني لم أر أنه كتب بها في وقت من الأوقات . ثم قال : وهي في غاية الحسن ، وكان الأولى أن لا يكتب إلا هي .

قلت : وقد رأيت عدة نسخ أمانات فيها زيادات ونقص عما ذكره في "التعريف" و"التثقيف" . والتحقيق ما ذكره صاحب "مواد البيان" : وهو أن مقاصد الأمان تختلف باختلاف الأحوال ، والذي يضبط إنما هو صورة الأمان ، أما المقاصد فإن الكاتب يدخل في كل أمان ما يليق به مما يناسب الحال .

وهذه نسخة أمان ، كتب بها الأسد الدين ربيعة أمير مكة ، في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارباري ، وهي :

هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأماننا الشريف ، للجلوس العالي الأسدي ربيعة ابن الشريف نجم الدين محمد بن أبي نمى : بأن يحضر إلى خدمة السنجق الشريف المجهز صعبة الجنب السيفي أيتش الناصري ، آمناً على نفسه وماله وأهله وولده وما يتعلق به ، لا يخشى حلول سطوة قاصمه ، ولا يخاف مؤاخذه حاسمه ، ولا يتوقع خديعة ولا مكراً ، ولا يجد سوءاً ولا ضراً ، ولا يستشعر مهابة ولا وجلاً ، ولا يرهب بأساً وكيف يرهب من أحسن عملاً ؟ بل يحضر إلى خدمة السنجق آمناً على نفسه وماله وآله ، مطمئناً واثقاً بالله وبرسوله وبهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب ، المبيض للوجوه الكريمة الأحساب ، وكل ما يخطر بباله أنا نؤاخذ به فهو مغفور ، والله عاقبة الأمور ،

وله منّا الإقبال والتأثير والتقديم ، وقد صفّحنا الصفح الحميل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

فلْيَثِقْ بهذا الأمان الشريف ولا تذهب به الظنون ، ولا يصغ إلى الذين
لا يعلمون ؛ ولا يَستَشِرْ في هذا الأمر غير نفسه ، ولا يظنّ إلا خيراً فيومه عندنا ناسخٌ
لأمره ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم [فيما يرويه عن ربه] : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ
عَبْدِي بِي فليظنّ بي خيراً » .

فتمسك بعروة هذا الأمان فإنها وثقى ، وأعمل عمل من لا يضل ولا يشق ؛ ونحن
قد أمتناك فلا تخف ، ورعينا لك الطاعة والشرف ؛ عفا الله عما سلف ؛ ومن أمتناه
فقد فاز ، فطب نفساً وقر عيناً فأنت أمير الحجاز .

قلت : هذا الأمان إنشاء مبتكر مطابق للواقع ، وهكذا يجب أن يكون كل أمان
يُكتب .



وهذه نسخة أمانٍ كتب بها عن السلطان الملك الظاهر « برقوق » عند محاصرته
لدمشق بعد خروجه من الكرك بعد خلعهِ من السلطنة : أمّن فيها أهل دِمَشق خلا
الشيخ شهاب الدين بن القرشي وجر دمر الطاربي ، كتب في ليلة يسفر صباحها
عن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام ، سنة إحدى وتسعين
وسبعمائة ، وهى :

هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان نبيه سيدنا محمد نبي الرحمة ، وشفيع الأمة ،
وكاشف الغم ، صلى الله عليه وسلم ، وأماننا لكل واقف عليه من أهل مدينة دِمَشق
المحروسة : من القضاة ، والمفتين ، والفقهاء ، وطالبي العلم الشريف ، والفقراء
والمساكين ، والأمراء ، والأجناد ، والتجار ، والمتسبين ، والشيوخ ، والكهول

والشبان ، والجبار والصغار ، والذكور والإناث ، والخاص والعام من المسلمين
و[أهل] الذمة ، إلا جردم الطاربي ، وأحمد بن القُرشي - على أنفسهم ، وأموالهم ،
وأولادهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأصحابهم ، وأتباعهم ، وغلمانهم ، وقبائلهم ،
وعشائرهم ، ودوابهم ، وما يملكونه من ناطق وصامت ، وكل ما يتعلق بهم : من كثير
وقليل ، وجليل وحقيق . أمان لا يبق معه خوف ولا جزع ، في أول أمره ولا في آخره ،
ولا في عاجله ولا في آجله ، ولا ضرر ، ولا مكرب ، ولا غدر ، ولا خديعة ، يخص
ويعم ، وتضان به النفس والمال ، والولد والأهل ، وكل ذات يد .

فليحضروا بنيهم ، وأهلهم وذويهم ، وأقربائهم ، وغلمانهم ، وحاشيتهم ، وجميع
ما يملكونه من ناطق وصامت ، ودان وقاص ، وليصلوا بهم إلينا ، وليفدوا بهم على
حضرتنا الشريفة في ذمام الله تعالى وكلائته ، وضمان هذا الأمان . لهم ذمة الله تعالى
وذمة رسوله سيدنا محمد نبي الرحمة ، صلى الله عليه وسلم - أن لا ينالهم مكروه منّا ،
ولا من أحد من قبلنا ، ولا يتعرض إليهم بسوء ولا أذى ، ولا يرتق لهم مورد بقدرى ،
ولهم منّا الإحسان ، والصفاء بالقلب واللسان ، والرعاية التي نؤمن بها سربهم ، ونهى
بها سربهم ، ويطمئن بها خاطرهم ، وترفرف عليهم كالسحاب لا ينالهم إلا ما طرهم .

فليحضروا واثقين بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا الأمان
الشريف . وقد تلطفنا بهم ليزدادوا وثوقاً ، ولا يجد سوء الظن بعد ذلك إلى قلوبهم
طريقاً . وسبيل كل واقف عليه إكرامهم في حال حضورهم ، وإجراؤهم على أكمل
ما عهدوه من أمورهم ، وليكن لهم ولكل من يحضر معهم وما يحضر أوفر نصيب
من الإكرام ، والقبول والاحترام ، وتبلغ قصارى القصد ونهاية المرام ، والصفح
والرضا ، والعفو عما مضى ، وليتمسكوا بعروة هذا الأمان المؤكّد الأسباب ، الفاتح

إلى الخيرات كلِّ باب؛ وليثِقُوا بُعْرُوتهِ الْوُثْقُ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَسَّكَ بِهَا لَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقُ؛
وليُشْرَحُوا بِالصَّفْحِ عَمَّا مَضَى صَدْرًا، وَلَا يَخْشَوْا ضَيْمًا وَلَا ضَرًّا؛ وَلَا يَعْرِضَ كُلُّ
مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا مِمَّا جَنَى وَأَقْتَرَفَ، فَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ .

ونحنُ نعرفُهم أن هذا أماننا بعد صَبْرِنَا عَلَيْهِمْ نَيْفًا وأربعين يومًا مع قُدْرَتِنَا عَلَى
دَوَسِ دِيَارِهِمْ وَتَحْرِيمِهَا، وَاسْتِئْصَالِ شَأْنِهِمْ، وَلِكُنَّا مَنَعْنَا مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْعَزِيزُ
وَالسَّيِّئَةَ الشَّرِيفَةَ، فَإِنَّا مَسْتَمْسِكُونَ بِهِمَا، وَخَوْفُنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وَهُمْ يَغَالِطُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُظَنُّونَ أَنْ تَأْخِرَنَا عَنْهُمْ عَنْ عَجْزٍ مِنَّا .

فَلْيَتَلَقَّوْا هَذَا الْأَمَانَ الشَّرِيفَ بِقُلُوبِهِمْ وَقَالِبِهِمْ، وَلْيَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَصُونُوا
دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، وَحُرْمَتَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، فَقَدْ رَأَوْا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ نَكْبَتِهِمْ
وَبَغْيِهِمْ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا
عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيَهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَاهَدُوا﴾ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ لِمَنْ وَفَّى بِعَهْدِهِ : وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ
لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ .
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ : الْمَكْرُ وَالْبَغْيُ وَالْخَدِيعَةُ» . وَقَالَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ : «الْمَرْءُ مُجْزَى بِعَمَلِهِ» . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «الْجَزَاءُ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ» .
وَقَالَ أَهْلُ التَّصَوُّفِ : (الطَّرِيقُ تَأْخُذُ حَقَّهَا) . وَقَالَ أَهْلُ الْحِكْمَةِ : (الطَّبِيعَةُ كَافِيَةٌ) .
وقال الشاعر :

قَضَى اللَّهُ أَنَّ الْبَغْيَ يَصْرَعُ أَهْلَهُ * وَأَنَّ عَلَى الْبَاغِي تَدَوُّرُ الدَّوَائِرِ !

ثم إنهم يعللون آمالهم بعسى ولعل ، ويقولون : العسكر المصرى وإصل إليهم نجدة لهم ، وهذا والله من أكبر حسراتنا أن تكون هذه الإشاعة صحيحة ، وبهذا طمعت آمالنا ، وصبرنا هذه المدة الطويلة ، وتمنينا حضوره ورجوانه ، فإنه بأجمعه مما يليك أبوابنا الشريفة ، وقد صارت الممالك الشريفة الإسلامية المحروسة في حوزتنا الشريفة ، ودخل أهلها تحت طاعتنا المفترضة على كل مسلم يؤمن بالله تعالى وبنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخر : من حاضِر وبَادٍ ، وعُرْبَانٍ وأكْرَادٍ وتُرْكِيَانٍ ، وقاصٍ ودانٍ ؛ وهم يتحققون ذلك ويكايرون في المحسوس ويتعللون بعسى ولعل ، ويقولون : ياليت ، فيقال لهم : هيئات .

فليستدرِكوا الفارط قبل أن يعضوا أيديهم ندما ، وتجرى أعينهم بدل الدُمُوع دما ، وهذا منا والله أمان ونصيحة في الدنيا والآخرة ، والله تعالى ربَّ النَّبَاتِ ، وعالمُ الْخَفِيَّاتِ ، يعلمون ذلك ويعتمدونه ؛ والله تعالى يوفقهم فيما يُبدئون به ويعيدونه ؛ والخطُ الشريفُ شرفه الله تعالى وأعلاه ، وصرفه في الآفاق وأمضاه - أعلاه ، حجة فيه .

قلت : وهذا الأمان أوله مُلَفَّقٌ من كلام "التعريف" وغيره ، وآخره كلامٌ سُوقِيٌّ مُبْتَدَلٌ نَازِلٌ ، ليس فيه شيء من صناعة الكلام .

(تنبيه) من غرائب الأمانات ما حكاه محمد بن المكرم في كتابه : "تذكرة اللبيب" أن رُسُلَ صاحبِ الْيَمَنِ وفدت على الأبواب السلطانية ، في الدولة المنصورية «قلاوون» في شهر رمضان ، سنة ثمانين وستمائة ، وسألوها السلطان في كتب أمان لصاحبِ الْيَمَنِ ، وأن يُكتب على صدره صورة أمان له ولأولاده ، فكتب له ذلك وشملتُه علامةُ السلطان ، وعلامة ولده وليَّ عهده «الملك الصالح على» وأعلمهم

أَنَّ هذا مِمَّا لم تَجْر به عَادَةٌ ، وَإِنَّمَا أَجَابِهِمْ إِلَى ذَلِكَ إِكْرَامًا لِمُحْدُوهُمْ ، وَمُوَافَقَةً لِفَرَضِهِ وَأَقْتِرَاحِهِ .

الصنف الثاني

(من الأمانات الجارية عليها مُصْطَلَحُ كُتَابِ الزَّيْمَانِ ، مَا يُكْتَبُ

عن نواب الممالك الشامية)

وهو على نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِمَّا يُكْتَبُ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ يُزَادُ فِيهِ : « وَأَمَانٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ » وَتُذَكَّرُ أَلْقَابُهُ الْمَعْرُوفَةُ ، ثُمَّ يُؤْتَى عَلَى بَقِيَّةِ الْأَمَانِ ، عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ ، وَيُقَالُ فِي طَرَّتِهِ : « أَمَانٌ كَرِيمٌ » . وَيُقَالُ فِي آخِرِهِ : « وَالْعَلَامَةُ الْكَرِيمَةُ » كَمَا تَقَدَّمَ فِي التَّوَاقِعِ .

وهذه نُسْخَةُ أَمَانٍ كُتِبَ بِهِ عَنِ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِحَلَبَ فِي نِيَابَةِ الْأَمِيرِ قُشْتَمِرِ الْمَنْصُورِيِّ ، فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ « شُعْبَانُ بْنُ حُسَيْنٍ » لِبَعْضِ مَنْ أَرَادَ تَأْمِينَهُ ، وَهِيَ :

هَذَا أَمَانٌ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَمَانٌ نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَانٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْمُجَاهِدِ ، الْمُرَابِطِ ، الْمُتَنَافِعِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمَالِكِ ، الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُجِيِّ الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، قَامِعِ الْكُفْرِ وَالْمُشْرِكِينَ ، قَاهِرِ الطُّغَاةِ وَالْمُعْتَدِينَ ، مُؤَمِّنِ قُلُوبِ الْخَائِفِينَ وَالتَّائِبِينَ ، مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ ، صَاحِبِ الْقِبْلَتَيْنِ خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، وَارِثِ الْمُلْكِ ، سُلْطَانِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ ، مَلِكِ الْأَرْضِ ، الْحَاكِمِ فِي طَوْلِهَا وَالْعَرَضِ ، سَيِّدِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، قَسِيمِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « شُعْبَانُ » ابْنِ الْمَلِكِ الْأَمْجَدِ بِجَمَالِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ « حُسَيْنُ » ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ

المَلِكِ الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين «محمد» ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور «قلاوون» - خلد الله ملكه، وجعل الأرض بأسرها ملكه - إلى فلان بالحضور إلى الطاعة الشريفة: طيب القلب، منبسط الأمل، آمناً على نفسه وماله وأولاده، وجماعته وأصحابه ودوابه، لا يخاف ضرراً ولا مكراً، ولا خديعة ولا غدرًا، وله مزيد الإكرام والاحترام، والرعاية الوافرة الأقسام، والعفو والرضا، والصفح عما مضى.

فليتمسك بعروة هذا الأمان المؤكد الأسباب، الفاتح إلى الخيرات كل باب، وليتق بعروته الوثقى، فإنه من تمسك بها لا يضل ولا يثقب، وليشرح بالصفح عما مضى صدرًا، ولا يخش ضيماً ولا ضرراً، ولا يعرض على نفسه شيئاً مما جنى وأقترف، فقد عفا الله عما سلف، والخط الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه حجة فيه.

قلت: ومما ينبغي التنبيه عليه في الأمانات، أنه إن احتاج الأمر في الأمان إلى الأيمان، أتى بها بحسب ما يقتضيه حال الحالف والمحلوف له، على ما تقدم ذكره في المقالة الثامنة.

الباب الثاني

من المقالة التاسعة

(في الدفن)

والمراد به دفن ذنوب من يُكْتَب له حتى لم تُرَبِّدْ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

في أصـله وكونه مأخوذاً عن العرب

والأصل فيه ما ذكره في "التعريف" أن العرب إذا جَنَى أحدٌ منهم جنايةً، وأراد الحَجَنِيَّ عليه العَفْوَ عما وقع، فالتَّعْوِيلُ في الصَّفْحِ فيها على الدَّفْنِ. قال في "التعريف": وطريقَتُهُمْ فيه أن تجتمع أكايرُ قَبِيلَةٍ الذي يَدْفِنُ بحضور رجالٍ يَثْبُقُ بِهِم المدفونُ له، ويقومُ منهم رجلٌ، فيقول للحَجَنِيَّ عليه: نُرِيدُ مِنْكَ الدَّفْنَ لفلانٍ، وهو مُقَرَّبٌ بها أَهْجَاكَ عليه، ويُعَدُّ ذَنْوبَهُ التي أُخِذَ بها ولا يَبْقَى منها بَقِيَّةٌ، ويُقَرُّ الذي يَدْفِنُ ذلك القاتِلَ على أن هذا جُمْلَةٌ ما نَقَمَهُ على المدفون له، ثم يَحْفِرُ بيده حَفِيرَةً في الأرض، ويقول: قد أَلْقَيْتُ في هذه الحَفِيرَةِ ذُنُوبَ فلانٍ التي نَقَمْتُها عليه، ودَفَنْتُها له دَفْنِي لهذه الحَفِيرَةِ، ثم يَرُدُّ ترابَ الحَفِيرَةِ إليها حتى يَدْفِنَها بيده. قال: وهو كثيرٌ متداولٌ بين العرب، ولا يَطْمَئِنُّ خَاطِرُ المُنْذِبِ منهم إلا به، إلا أنه لم تَجَرِ للعرب فيه عادةٌ بكتابة، بل يُكْتَفَى بذلك الفِعْلُ بِمَحْضَرِ كَبَارِ الفريقين؛ ثم لو كانت دِمَاءُ أَوْ قَتْلَى عَفِيَتْ وَعَفَّتْ بها آثارُ الطلائب.

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة التاسعة

(فيما يكتب في الدفن عن الملوك)

قال في " التعريف " : وصورته أن يكتب بعد البسملة : « هذا دَفْنٌ لذنوب فلان ، من الآن لا تُذكر ولا يطالب بها ، ولا يُؤخذ بسببها ، أفتَضَّتْهُ المَرَامِحُ الشَّرِيفَةُ السُّلْطَانِيَّةُ الْمَلِكِيَّةُ الْفُلَانِيَّةُ ، ضاعف الله تعالى حسناتها وإحسانها : وهي ما بدأ من الذنوب لفلان من الجرائم التي ارتكبها ، والمظالم التي آحَتْقَبَهَا ، وحصل العَفْوُ الشَّرِيفُ عن زَلَلِهَا ، وقابل الإحسانُ الْعَمِيمُ بالتَّعْمِيدِ سُوءَ عَمَلِهَا ؛ وهي : كذا وكذا (وتذكر) : دَفْنًا لَمْ تَبَقْ معه مُوَاحِدَةٌ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، ومات به الحِقْدُ وهِيلَ عليه التُّرَابُ ، ولم يَبَقْ معه لِمُطَالِبٍ شَيْءٌ مِنْهُ مَطْمَعٌ ، ولا في إحيائه رَجَاءٌ وَفِي غَيْرِ مَاوَارَاتِ الْأَرْضِ فَاطْمَعٌ ؛ تَصَدَّقَ بها سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ (وَيَذْكُرُ الْقَابِضَ وَأَسْمَهُ) - تَقَبَّلَ اللَّهُ صِدْقَتَهُ - وعفا عنها ، وقطع الرجاء باليأس منها ؛ وأبطل منها كُلَّ حَقٍّ يُطْلَبُ ، وصفح منها عن كل ذَنْبٍ كَانَ [به] ^(١) يُسْتَدْنَبُ ؛ ودفنها تَحْتَ قَدَمِهِ ، ونَسِيَهَا فِي عِلْمِ كَرَمِهِ ، وَخَلَّاهَا نَسِيًّا مَنْسِيًّا لَا تُذْكَرُ فِي خِفَارَةِ ذِمَّتِهِ ؛ وجعله بها مُقِيمًا فِي أَمْنِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ ، وَيَتَقَاضَى كَمَا يَشَاءُ حَقُّهُ ؛ لَا يَتَعَقَّبُ فِي هَذَا الْأَمَانِ مُتَعَقَّبٌ ، وَلَا يَنْتَهِي إِلَى أَمَدٍ لَهُ نَظَرٌ مَرْتَقِبٌ ؛ لَا يُنَبِّشُ هَذَا الدِّفِينَ ، وَلَا يُوقِفُ لَهُ عَلَى أَثَرٍ فِي الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَ حِينٍ ؛ وَلَا يُحْشَى فِيهِ صَبْرٌ مُصَارٍ ، وَلَا يُقَالُ فِيهِ :

(١) الزيادة عن " التعريف " ص ١٦٦ .

إِلَّا وَهَبَهَا كَشْيَءٌ لَمْ يَكُنْ أَوْ كَزَاجٍ بِهِ الدَّارُ أَوْ مَنْ غَيَّبَتْهُ الْمَقَابِرُ . وَرُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي الْفُلَانِي - أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَشَرَفَهُ ، وَغَفَرَ بِهِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ مَا أَسْلَفَهُ - أَنْ يُكْتَبَ لَهُ هَذَا الْكِتَابُ بِمَا عُنِيَ لَهُ عَنْهُ وَحُفِرَ لَهُ وَدُفِنَ ، وَأَصْبَحَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ مُرْتَمٍ ؛ وَدُفِنَ لَهُ فِيهِ دَفَنَ الْعَرَبِ ، وَقُطِعَ فِي التَّذَكُّرِ لَهُ أَرْبُ كُلِّ [ذِي] أَرْبٍ ؛ وَدُرِسَ فِي الْقُبُورِ الدَّوَارِسُ ، وَغُيِبَ مَكَانُهُ فِيمَا طُمِرَ فِي اللَّيَالِي الدَّوَامِسُ .

وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْحِجَّةُ عَلَى مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ ، أَوْ بَلَغَهُ خَبَرُهُ ، أَوْ سَمِعَهُ أَوْ وَضَحَ لَهُ أَثَرُهُ - أَنْ يَتَنَاسَى هَذِهِ الْوَقَائِعَ ، وَيَتَخَذَهَا فِيمَا تَضَمَّتْهُ الْأَرْضُ مِنَ الْوَدَائِعِ ، وَلَا يَذْكُرُ مِنْهَا إِلَّا مَا أَقْتَضَاهُ حُلُمُنَا الَّذِي يُؤْمِنُ مَعَهُ التَّلَفُ ، وَغَفَوْنَا الَّذِي شَبِلَ وَعَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفُ .

قَالَ فِي "التَّقْيِيفِ" : وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَلَا وَجَدْتُهُ مَسْطُورًا إِلَّا فِي كِتَابَةِ "التَّعْرِيفِ" . قَالَ : وَالَّذِي أَعْتَقِدُهُ أَنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ بِهِ قَطُّ ، وَإِنَّمَا الرَّجُلُ بِسَعَةِ فَضْلِهِ وَفَضِيلَتِهِ ، أَرَادَ أَنْ يَرْتَبَّ هَذِهِ النُّسخةَ لِاحْتِمَالِ أَنْ يُؤْمَرَ بِكِتَابَةِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ، فَلَا يَهْتَدِي الْكَاتِبُ إِلَى مَا يَكْتُبُهُ . ثُمَّ قَالَ : عَلَى أَنَّهُ كَرَّرَ فِيهَا ذِكْرَ السُّلْطَانِ مَرَّتَيْنِ ، وَالثَّلَاثَةَ قَالَ : رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ ، فَهِيَ عَلَى غَيْرِ نَحْوِ مَنْ النِّظَامِ الْمَعْهُودِ وَالْمَصْطَلَحِ الْمَعْرُوفِ ، بِحُكْمِ أَنْ فِيهَا أَيْضًا تَوْسَعًا كَثِيرًا فِي الْعِبَارَةِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُؤَدِّي كُلُّهَا مَعْنَى وَاحِدًا . قَالَ : وَكَانَ الْأَوَّلَى بِنَا آخِصَارَ ذَلِكَ وَعَدَمَ كِتَابَتِهِ ، لَكِنَّا أَرَدْنَا التَّنْبِيهَ عَلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ، لِيَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ مُسْتَوْعِبًا لِجَمِيعِ مَا ذُكِرَ ، مِمَّا يُسْتَعْمَلُ وَمِمَّا لَا يُسْتَعْمَلُ .

قلت : ما قاله في "التثقيف" كلامٌ ساقطٌ صادرٌ عن غير تحقيق ، فإنه لا يلزم من عدم اطلاع على شيء كُتب في هذا المعنى ولا سطر فيه أن لا يكون مسطوراً لأحد في الجملة . وماذا عسى يبلغ اطلاع المطلع فضلاً عن غيره ؟ وإن كان صاحب "التعريف" هو الذي أبتر ذلك ، كما أشار إليه في "التثقيف" فنعمت السَّجِيَّةُ الآتية بمثل ذلك مما لم يُسبق إليه . وأما إنكاره تكرير ذكر السلطان فيها ، فلا وجه له بعد انتظام الكلام وحسن ما أتى به في "التعريف" سواء كان فيه مُبتَكِراً أو مُتَّبِعاً أو مُنتزِعاً له من الأصل السابق .

وأحسن ما يكتب في ذلك في تأمين العربان : لأنه إنما أخذ عنهم ، فإذا صدر إليهم شيء يعرفونه ويخبرون على قواعدهم التي يلقونها ، تلقوه بالقبول ، وأطمأنت إليه قلوبهم ، ووقع منهم أجل موقع ، وبالله المستعان .

الباب الثالث

من المقالة التاسعة

(فما يُكتب في عقد الذمة، وما يتفرع على ذلك؛ وفيه فصلان)

الفصل الأول

في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد، وفيه طرفان

الطرف الأول

(في بيان رتبة هذا العقد، ومعناه، وأصله من الكتاب والسنة،

وما يخرط في سلك ذلك)

أما رتبته، فإنه دون الأمان بالنسبة إلى الإمام. وذلك أنه إنما يُقرره بعوض يأخذه منهم، بخلاف الأمان.

وأما معناه، فقد قال الغزالي في "الوسيط": إنه عبارة عن التزام تقريرهم في ديارنا، وحمايتهم، والذب عنهم ببذل الحزية أو الإسلام من جهتهم.

وأما الأصل فيه: فمن الكتاب قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . بفعل الحزية غاية ما يطلب منهم، وهو دليل تقريرهم بها.

ومن السنة ما ورد « أن النبي صلى الله عليه وسلم حين وجه مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ . قَالَ : إِنَّكَ سَتَرُدُّ عَلَى قَوْمٍ مُعْظَمُهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَأَعْرِضْ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ،

فَإِنْ أَمْتَنَعُوا فَأَعْرِضْ عَلَيْهِمُ الْحِزْيَةَ وَخُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا ، فَإِنْ أَمْتَنَعُوا فَأَقْتُلْهُمْ»
بِفَعْلُ الْقَتْلِ بَعْدَ الْأَمْتِنَاعِ عَنْ أَدَاءِ الْحِزْيَةِ يَدُلُّ عَلَى تَقْرِيرِهِمْ بِهَا أَيْضًا .

وَقَدْ قَرَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَصَارَى الشَّامِ بِإِيَالَتِهِمْ عَلَى شَرْوِطٍ اشْتَرَطُوهَا فِي كِتَابٍ كَتَبُوا بِهِ إِلَيْهِ ، مَعَ زِيَادَةٍ زَادَهَا .

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو صَادِقٍ مُحَمَّدٌ ، ابْنُ الْحَافِظِ رَشِيدُ الدِّينِ
أَبِي الْحُسَيْنِ يَحْيَى ، بْنُ عَلِيٍّ ، بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ "بِالزُّبْدِ الْمَجْمُوعَةِ ،
فِي الْحِكَايَاتِ وَالْأَشْعَارِ وَالْأَخْبَارِ الْمَسْمُوعَةِ" : أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ الْفَقِيهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ
ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الزُّهْرِيُّ الْمَالِكِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ شُيُوخِنَا إِجَازَةً ،
قَالُوا : أَنَبَانَا أَبُو الطَّاهِرِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مَكِّيٍّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الزُّهْرِيُّ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا
أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْفِهْرِيُّ الطُّرْطُوشِيُّ قِرَاءَةً عَلَيْهِ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا قَاضِي الْقَضَاةِ
الدَّامِقَانِيُّ ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّيْجِيَّيْنِ فِيمَا قَرَأْتُ
عَلَيْهِ ، أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ زِيَادِ الْأَعْمَرِيِّ بِمَكَّةَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَثَلَاثَةً ،
أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ أَبُو الْعَبَّاسِ الصَّفَّارُ ، أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ تَغْلِبَ أَبُو الْفَضْلِ ، أَخْبَرَنَا
يَحْيَى بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي الْعِزَّارِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ رَوْحٍ ، وَالسَّرِيِّ بْنِ
مَصْرُوفٍ ، يَذْكُرُونَ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مَصْرُوفٍ ، عَنْ مَسْرُوقٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غُفَمٍ ،
قَالَ : كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى الشَّامِ .

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا »
« إِنَّكُمْ لِمَا قَدَّمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمْ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَذَرَارِينَا وَأَمْوَالِنَا »
« وَأَهْلٍ مِلَّتِنَا ، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُنْجِثَ فِي مَدِينَتِنَا »

«ولا فيما حَوْلَهَا قَلْبَةً^(١) ولا صَوْمَعَةً رَاهِبٍ، ولا تُجَدِّدَ مَا حَرَبَ مِنْهَا : دَيْرًا»
«ولا كَنِيسَةً، ولا نُحْفَى ما كَانَ مِنْهَا فِي خِطَطِ الْمُسْلِمِينَ، ولا نَمْنَعُ كَنَائِسَنَا»
«أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ نَطْعُمُهُمْ، ولا نُؤْوِي فِي مَنَازِلِنَا»
«ولا كَنَائِسِنَا جَاسُوسًا، ولا نَكْتُمُ غَشًّا لِلْمُسْلِمِينَ، ولا نَعْلَمُ أَوْلَادَنَا الْقُرْآنَ»
«ولا نَظْهَرُ شُرَكَاءَ، ولا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا، ولا نَمْنَعُ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِنَا»
«الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُوقِّرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَقُومَ لَهُمْ فِي مَجَالِسِنَا»
«إِذَا أَرَادُوا الْجُلُوسَ، ولا نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ لِبَاسِهِمْ : فِي قَلَنْسُوءَةٍ»
«ولا عِمَامَةٍ ولا نَعْلَيْنِ ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا نَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ، ولا نَتَكَنَّى»
«بِكُنَاهُمْ، ولا نَرْكَبُ السُّرُوحَ، ولا نَتَقَلَّدُ السُّيُوفَ، ولا نَتَخَذُ شَيْئًا مِنْ»
«السِّلَاحِ، ولا نَحْمِلُهُ مَعْنَا، ولا نَنْقُشُ عَلَى خَوَاتِمِنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، ولا نَبِيعُ الْخُمُورَ»
«وَأَنْ نُبْزَ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا، وَأَنْ نَلْزِمَ دِينَنَا حَيْثُ مَا كُنَّا، وَأَنْ نَشُدَّ زَنَايِرَنَا»
«عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرَ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا، ولا كُتُبَنَا فِي شَيْءٍ»
«مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ ولا أَسْوَاقِهِمْ، ولا نَضْرِبَ بِنَوَاقِسِنَا فِي كَنَائِسِنَا»
«إِلَّا ضَرْبًا خَفِيفًا، ولا نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا ولا فِي شَيْءٍ»
«مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، ولا نَخْرُجُ سَعَانِينَ ولا بَاعُوثًا، ولا نَرْفَعُ»
«أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا، ولا نَظْهَرَ النَّيْرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ»

(١) القلية هي التي يقال لها القلاية . وهي من بيوت عباداتهم . والسعانيين عيد لهم قبل عيدهم الكبير بأربعين . والباعوث عندهم كالاستسقاء عندنا . انظر لسان العرب .

«ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نَحْذَ من الرقيق ما يجري عليه»
«سبهم المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم» .

قال عبد الرحمن : فلما أتيت عُمر بالكتاب زاد فيه :

«ولا نضرب أحدا من المسلمين . شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل»
«مِلَّتِنَا، وقبلنا عليه الأمان . فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه»
«لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل لأهل»
«المعاندة والشقاق» .

وفي رواية له من طريق أخرى «أن لا نُحْدِثَ في مدينتنا ولا فيما حوّلها»
«ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب» .

وفيها : — «وأن لا تمنع كنائسنا أن ينزلها أحد في ليل ولا نهار، وأن»
«نوسع أبوابها للمسيرة وابن السبيل» .

وفيها : — «وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمه» .

وفيها : — «وأن لا نظهر صليبا أو نجسا في شيء من طرق المسلمين»
«وأسواقهم» .

وفيها : — «وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم» .

قال أبو صادق المقدم ذكره : ومما ذكره أهل التاريخ أن الحاكم الفاطمي
أمر اليهود والنصارى إلا الجابرة بلبس العائم السود، وأن يحمل النصارى في أعناقهم

من الصُّلْبَانِ ما يَكُونُ طَوْلُهُ ذِرَاعًا وَوَزْنُهُ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ ؛ وَأَنْ تَحْمَلَ الْيَهُودُ فِي أَعْنَاقِهِمْ قَرَامِي الْخَشَبِ عَلَى وَزْنِ صُلْبَانِ النَّصَارَى ، وَأَنْ لَا يَرْكَبُوا شَيْئًا مِنَ الْمَرَائِبِ الْمُحَلَّلَةِ ، وَأَنْ تَكُونَ رُكْبَتُهُمْ مِنَ الْخَشَبِ ، وَأَنْ لَا يَسْتَخْدِمُوا أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَرْكَبُوا حِمَارًا مُكَارٍ مُسْلِمًا ، وَلَا سَفِينَةً نُوتِيَهَا مُسْلِمٌ ؛ وَأَنْ يَكُونَ فِي أَعْنَاقِ النَّصَارَى - إِذَا دَخَلُوا الْحَمَامَ - الصُّلْبَانُ ، وَفِي أَعْنَاقِ الْيَهُودِ الْجَلَّاجِلُ : لِيَتَمَيَّزُوا بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأُفْرِدَ حَمَامَاتِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَنْ حَمَامَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَنُهِوا عَنِ الْاجْتِمَاعِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَمَامَاتِ ، وَخُطِّتْ عَلَى حَمَامَاتِ النَّصَارَى صُورُ الصُّلْبَانِ ، وَعَلَى حَمَامَاتِ الْيَهُودِ صُورُ الْقَرَامِي .

قال : وذلك بعد الأربعائة . ثم قال : ولقد أحسن فيما فعل بهم ، عفا الله عنا وعنهم ، ورزقنا من ينظر في أمورنا وأموارهم بالمصلحة .

الطرف الثاني

(في ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في عقد الذمة)

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ثَمَانِيَةِ أُمُورٍ :

الأمر الأول - فيمن يجوز أن يتولى عقد الذمة من المسلمين . ويختص ذلك بالإمام أو نائبه في عقدها ؛ وفي آحاد الناس خلاف ، والأرجح أنه لا يصح منه لأنه من الأمور الكلية ، فيحتاج إلى نظر واجتهاد .

الأمر الثاني - معرفة من تُعقد له الذمة . ويشترط في المعقود له : التكليف والذكورة والحرية . فلا تُعقد لصبي ولا مجنون ولا امرأة ولا عبد ، بل يكونون تبعاً ، حتى لا تجب على أحد منهم الجزية ؛ وفيمن ليس أهلاً للقتال : كالشيخ الكبير

والزمن خلاف، والأصح صحة عقدها له . ويعتبر في المعقود له أيضا أن يكون زاعم التمسك بكتاب : كاليهودي يزعم تمسكه بالتوراة ، والنصراني يزعم تمسكه بالتوراة والإنجيل جميعا ، وفي التمسك بغير التوراة والإنجيل : كصحف إبراهيم وزبور داود خلاف والأصح جواز عقدها له . وكذلك المجوس ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ » . والسامرة إن وافقت أصولهم أصول اليهود ، عقد لهم وإلا فلا . وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول النصارى ، ولا يُعقد لزيدي ، ولا عابد وثني ، ولا من يعبد الملائكة والكواكب . ثم إذا كملت فيه شروط العقد فلا بد من قبوله العقد . ولو قال : قررتي بكذا فقال : قررتك صح . ولو طلبها طالب من الإمام وجبت إجابته .

الأمر الثالث — معرفة صيغة العقد : وهي ما يدل على معنى التقرير من الإمام أو نائيه ، بأن يقول : أقررتكم أو أذنت لكم في الإقامة في دارنا على أن تبدلوا كذا وكذا وتتقادوا لحكم الإسلام .

الأمر الرابع — المدة التي يُعقد عليها . ويعتبر فيها أن تكون مطلقة بأن لا يقيد بها ب انتهاء ، أو بما شاء المعقود له من المدة . ولا تجوز إضافة ذلك إلى مشيئة الإمام ، لأن المقصود من عقدها الدوام . وقوله صلى الله عليه وسلم « أَقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمْ اللَّهُ » إنما ورد في المهادنة لا في عقد الدمة .

الأمر الخامس — معرفة المكان الذي يُقرون فيه . وهو ماعدا الحجاز ، فلا يُقرون في شيء من بلاد الحجاز : وهي مكة ، والمدينة ، واليامة ، ومخاليقها يعني قرأها : كالأطائف بالنسبة إلى مكة ، وخير بالنسبة إلى المدينة ، ونحو ذلك . وسواء في ذلك القرى والطرق المتخللة بينها . ويمنعون من الإقامة في بحر الحجاز بخلاف ركوبه للسفر . وليس لهم دخول حرم مكة لإقامة ولا غيرها ، إذ يقول تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا ﴾

المَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) . فلو تَعَدَّى أَحَدُ مِنْهُمْ بالدخول ومات ودُفِنَ في الْحَرَمِ ، نُبِّشَ وأُخْرِجَ مِنْهُ مَا لَمْ يَتَقَطَّعْ ، فَان تَقَطَّعَ تَرِكَ . وقيل : تُجْمَعُ عِظَامُهُ وتُخْرَجُ . وعليه يدلُّ نَصُّ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْأُمِّ .

الأمر السادس — معرفة ما يلزم الإمام لهم بعد عَقْدِ الذِّمَّةِ . إذا عَقَدَ لَهُمُ الْإِمَامُ الذِّمَّةَ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَهُمْ وَدِينَهُمْ وَحِلَّاهُمْ ، وَيَنْصِبَ عَلَى كُلِّ جَمْعٍ عَرِيفًا : لِمَعْرِفَةِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ مَاتَ وَمَنْ بَلَغَ مِنْ صِبْيَانِهِمْ ، وَمَنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَوْ سَافَرَ مِنْهُمْ ؛ وَإِحْضَارِهِمْ لِأَدَاءِ الْجِزْيَةِ ، أَوْ شَكْوَى مَنْ تَعَدَّى الذِّمَّةَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ وَهَذَا الْعَرِيفُ هُوَ الْمَعْبَرُّ عَنْهُ فِي زَمَانِنَا بِالْأَمِينِ الْمَصْرِيِّ بِالْحَاشِرِ . ثُمَّ يَجِبُ الْكَفُّ عَنْهُمْ بِأَنْ لَا يَتَعَرَّضَ مَتَعَرِّضٌ لَأَنْفُسِهِمْ وَلَا أَمْوَالِهِمْ ، وَيُضْمَنُ مَا أَتْلَفَ مِنْهَا ، وَلَا تُرَاقُ نَحْوُهُمْ إِلَّا أَنْ يُظْهِرُوهَا ، وَلَا تُتْلَفُ خَنَازِيرُهُمْ إِذَا أَخْفَوْهَا ، وَلَا يُنْعَوْنَ التَّرَدُّدُ إِلَى كَنَائِسِهِمْ . وَلَا ضَمَانٌ عَلَى مَنْ دَخَلَ دَارَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَأَرَقَ حِمْرَهُ وَإِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا بِالْدُّخُولِ ، وَأَوْجِبَ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَيْهِ الضَّمَانُ . وَيَجِبُ ذَبُّ الْكُفَّارِ عَنْهُمْ مَا دَامُوا فِي دَارِنَا ، بِخِلَافِ مَا إِذَا دَخَلُوا دَارَ الْحَرْبِ .

الأمر السابع — معرفة ما يُطَلَبُ مِنْهُمْ إِذَا عَقَدَ لَهُمُ الذِّمَّةَ . ثُمَّ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ سِتَّةُ أَشْيَاءَ :

مِنْهَا — الْجِزْيَةُ : وَهِيَ الْمَالُ الَّذِي يُبْدُلُونَهُ فِي مُقَابَلَةِ تَقْرِيرِهِمْ بَدَارَ الْإِسْلَامِ . قَالَ الْمَوْرَدِيُّ فِي "الْأَحْكَامِ السَّلْطَانِيَّةِ" : وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْجَزَاءِ : إِمَّا بِمَعْنَى أَنَّهَا جَزَاءٌ لَتَقْرِيرِهِمْ فِي بِلَادِنَا ، وَإِمَّا بِمَعْنَى الْمُقَابَلَةِ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي مِقْدَارِهَا : فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَنَّهَا مَقْدَرَةُ الْأَقْلِ ، وَأَقْلَاهَا دِينَارٌ أَوْ اثْنَا عَشَرَ دِرْهَمًا نُقْرَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ عَلَى كُلِّ حَالِيمٍ ، وَلَا يَحُوزُ

الاقتصار على أقل من الدينار، وغير مقدرة الأكثر، فتجوز الزيادة على الأقل برضا المعقود له . ويستحب للإمام المأكسة : بأن يزيد عليهم بحسب ما يراه . ونقل ابن الرفعة عن بعض أصحاب الشافعي أنه إذا قدر على العقد غاية لم يجوز أن ينقص عنها . ويستحب أن يفاوت فيها : فيأخذ من الفقير ديناراً، ومن المتوسط دينارين، ومن الغني أربعة دنانير .

وذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثة أصناف : أغنياء، يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً . وأوساط، يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً . وفقراء، يؤخذ منهم اثنا عشر درهماً . فجعلها مقدرة الأقل والأكثر، ومنع من اجتهاد الإمام ورأيه فيها .

وذهب مالك إلى أنه لا يتقدر أقلها ولا أكثرها، بل هي موكولة إلى الاجتهاد في الطرفين .

ومنها - الضيافة : فيجوز للإمام بل يستحب أن يشترط على غير الفقير منهم ضيافة من يربهم من المسلمين زيادة على الحزية ، ويعتبر ذكر مدة الإقامة ، وأن لا تزيد على ثلاثة أيام ، وكذلك يعتبر ذكر عدد الضيفان من فُرسان ورجالة ، وقدر طعام كل واحد وأدمه ، وقدر العليق وجنس كل منهما، وجنس المنزل .

ومنها - الاتقياد لأحكامنا، فلوترافعوا إلينا أمضينا الحكم بينهم برضا خصم واحد منهم، ونحكم بينهم بأحكام الإسلام .

ومنها - أن لا يركبوا الخيل . ولهم أن يركبوا الحير بالأكف عرساً : بأن يجعل الرّاكب رجليه من جانب واحد . وفي البغال النفيسة خلاف : ذهب الغزالي وغيره إلى المنع منها والراجح الجواز، إلا أنهم لا يتخذون الثَّجَمَ المحلاة بالذهب والفضة .

ومنها - أن يُتَزَلَّوا المسلمون صَدَرَ المجلس وصَدَرَ الطريق . وإن حصل في الطَّرِيق ضَيْقٌ [اَلْحُؤَا] إلى أَضْيَقِهِ . وَيُمنَعُونَ من حَمْلِ السِّلَاح .

ومنها - التمييز عن المسلمين في اللباس : بأن يَخِيطُوا في ثِيَابِهِم الظَاهِرَةَ مَا يَخَالِفُ لَوْنَهَا ، سواءً في ذلك الرجال والنساء . والأولى باليهود الأصْفَرُ ، والنصارى الأزرقُ والأَكْهَبُ (وهو المعبر عنه بالرمادي) وبالمجوسى الأسود والأَحْمَرُ . ويُشَدُّ الرجالُ منهم الزنار من غير الحرير في وَسْطِهِ ، وتُشَدُّ المرأة تحت إزارها ، وقيل فوقه . ويميّزُونَ ملابسهم عن ملابس المسلمين ، وتُغَايِرُ المرأة لَوْنَ حُفْيَها : بأن يكون أحدهما أبيض والآخَرُ أسود ، ونحو ذلك . ويجعل في عُنُقِهِ في الحَمَامِ جُلُجُلًا أو خَاتَمًا من حَدِيدٍ . وإن كان على رأس أحدهم شَعْرٌ أَمْرٌ يَجُزُّ ناصِيَتِهِ . ويمنعون من إرسال الصِّفَاءِ كما تفعل الأشراف . ولهم ثُبُسُ الحرير والعِمامة والطَّيْلَسَان . والذي عليه عُرِفَ زماننا في التَّيْيزِ أَنَّ اليهودَ مطلقًا تلبسُ العِمامَ الصُّفْرَ ، والنصارى العِمامَ الزُّرْقَ ، ويركبون الحمير على البراذع ، ويثني أحدهم رِجْلَهُ قُدَّامَهُ ، وتختص السَّاهِرَةُ بالسَّامِ بلبسِ العِمامة الحمراء ، ولا تُمَيِّزُ يعتادونه الآن سوى ماقدّمناه .

ومنها - أنهم لا يرفعون ما يَبْنُونَهُ على [بَنِيان] جيرانهم من المسلمين ، ولا يُساوونَهُ به ولو كان في غاية الانخفاض ، ويمنع من ذلك وإن رَضِيَ الجارُ المسلم ، لأن الحقَّ للدين دون الجار ، وله أن يرفع ما بناه بَحَلَّةٍ مُنْفَصِلَةٍ عن أبنية المسلمين . ولو اشترى بِنَاءً عَالِيًا بَقِيَ على حاله ، فلو آتاهم فأعاده لم يكن له الرِّفْعُ على المسلم ولا المُساوَاة .

ومنها - أنهم لا يُحْدِثُونَ كَنِيسَةً ولا بَيْعَةً فيما أَحَدَثَهُ المسلمون من البلاد : كالْبَصْرَةِ ، والكُوفَةِ ، وبَغْدَادَ ، والقَاهِرَةَ ، ولا في بلدٍ أسلم أهلُها عليها : كالمدينة واليَمَنِ . فإن أحدثوا فيها شيئًا من ذلك نُقِضَ ، نعم يُتْرَكُ ما وجد منها ولم يُعْلَمْ حاله :

لأحتمال اتصال العمارات به . وكذلك لا يجوز إحداث الكائس والبيع فيما فُتِحَ عَنوةً ، ولا إبقاء القديم منها لحصول الملك بالاستيلاء . أمّا ما فُتِحَ صلحاً بخراج على أن تكون الرقبة لهم ، فيجوز فيها إحداث الكائس وإبقاء القديمة منها ، فإن الارض لهم . وإن فُتِحَتْ صلحاً على أن تكون لنا : فإن شُرِطَ إبقاء القديمة بقيت وكائنهم استثنوا . ويجوز لهم إعادة المهتدّة منها ، وتطيين خارجها دون توسيعها .

الأمر الثامن — معرفة ما ينتقض به عهدهم .

ويُنْتَقِضُ بأمور :

منها — قتال المسلمين بلا شبهة ، ومنع الجزية ، ومنع إجراء حكمنا عليهم ، وكذا الزنا بمسامة أو إصابتها باسم نكاح ، والأطلاع على عورات المسلمين وإنهاؤها لأهل الحرب ، وإيواء جاسوس لهم ، وقطع الطريق ، والقتل الموجب للقصاص ، وقذف مسلم ، وسب نبي جهوراً ، وطعن في الإسلام أو القرآن إن شُرِطَ عليهم الانتقاض وإلا فلا . أما لو أظهر ببلد الإسلام الخمر أو الخنزير أو الناقوس أو معتقده في عزير والمسيح عليهما السلام أو جنازة لهم أو سقى مسلماً خمرًا فإنه يُعزّر .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من المقالة التاسعة

(ما يكتب في مُتعلّقات أهل الذِّمة [عند خروجهم] عن لوازم عَقْد الذِّمة)

وأعلم أنه ربما نرجح أهل الذِّمة عن لوازم عَقْد الذِّمة ، وأظهروا التمييز والتكبر وعُدُوِّ البِئاء ، إلى غير ذلك مما فيه مخالفة الشروط ، فيأخذ أهل العدل : من الخلفاء والملوك في قمعهم والفض منهم وحطّ مقاديرهم ، ويكتبون بذلك كتباً ويبعثون بها إلى الآفاق ليعمل بمقتضاها ، غصّاً منهم وحطّاً لقدريهم ، ورفعةً لدين الإسلام وتشريعاً لقدريه ، إذ يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

وهذه نسخة كتاب كتب به عن المتوكل على الله حين حجّ ، جمع رجلاً يدعُو عليه ، فهم بقتله ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما قلت ما قلت إلا وقد أيقنت بالقتل ، فاسمع مقالتي ثم مر بقتلي ، فقال : قل ! - فشكا إليه استيالة كتاب أهل الذِّمة على المسلمين في كلام طويل ، نفرج أمره بأن تلبس النصارى واليهود ثياب العسلي ، وأن لا يميكنوا من لبس البياض كي لا يتشبهوا بالمسلمين ، وأن تكون ركبهم خشباً ، وأن تسلم بيعهم المستجدة ، وأن تطابق عليهم الجزية ، ولا يُفسح لهم في دخول حمامات خدمها من أهل الإسلام ، ولا يستخدموا مسلماً في حوائجهم لنفوسهم ، وأفردهم بمن يحتسب عليهم . وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن المتوكل أول من ألزمهم ذلك ، وهى :

أما بعد، فإن الله أصطفى الإسلام ديناً فشرّفه وكرّمه، وأناره ونصره وأطهره،
وفضّله وأكمله؛ فهو الدين الذي لا يقبل غيره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَإِنْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. بعث به صفيّه وخيرته من
خلقه: محمداً صلى الله عليه وسلم، فجعله خاتم النبيّين، وإمام المتّقين، وسيد المرسلين:
﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وأنزل كتاباً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. أسعد به أمته، وجعلهم خير
أمة أخرجت للناس يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله: ﴿وَلَوْ آمَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وأهان الشّرك
وأهله، ووضعهم وصغرهم وقمعهم وخذلهم وتبرأ منهم، وضرب عليهم الذّلة والمسكنة،
فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ
وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. وأطاع على قلوبهم، وخُبت سرائرهم وضمايرهم، فنبى عن أمتانهم،
والثقة بهم: لعداوتهم للساميين، وغشهم وبغضائهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقال
تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ يَدُونَ
أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ﴾.
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناساً لا رأى لهم ولا روية يستعينون بأهل
الذمة في أفعالهم ، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين ، ويسلطونهم على الرعية ،
فيعسفونهم ويسيطون أيديهم إلى ظلمهم وغشهم والعدوان عليهم . فأعظم
أمير المؤمنين ذلك ، وأنكره وأكبره ، وتبرأ منه ، وأحب التقرب إلى الله بحسبه
والنهي عنه ؛ ورأى أن يكتب إلى عماله على الكور والأمصار ، وولاة الثغور
والأجناد ، في ترك استعمالهم لأهل الذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم ، والإشراك
لهم في أماناتهم ، وما قلدهم أمير المؤمنين وأستحفظهم إياه ، إذ جعل في المسلمين
الثقة في الدين ، والأمانة على إخوانهم المؤمنين ، وحسن الرأية لما استبراهم ،
والكفاية لما استكفوا ، والقيام بما حملوا بما أغنى عن الاستعانة [بأحد] من المشركين
بالله ، المكذبين برسله ، الجاحدين لآياته ، الجاعلين معه إلهاً آخر ، ولا إله إلا هو
وحده لا شريك له ، ورجا أمير المؤمنين - بما ألهه الله من ذلك ، وقذف في قلبه -
جزيل الثواب ، وكريم المآب ؛ والله يعين أمير المؤمنين على نيته على تعزيز الإسلام
وأهله ، وإذلال الشرك وحزبه .

فلتعلم هذا من رأي أمير المؤمنين ، ولا تستعن بأحد من المشركين ؛ وأنزل أهل
الذمة منازلهم التي أنزلهم الله بها . فاقراً كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشيعة
فيهم ، ولا يعلم أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحد من عمالك وأعوانك بأحد
من أهل الذمة في عمل الإسلام .



وفي أيام المقتدر بالله ، في سنة خمس وتسعين ومائتين ، عزل كتاب النصاري
وعملهم ، وأمر أن لا يستعان بأحد من أهل الذمة حتى أمر بقتل ابن ياسر النصرائي
عامل يونس الحاجب ، وكتب إلى عماله بما نسخته :

عَوَانِدُ اللَّهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تُوفَى عَلَى غَايَةِ رِضَاهُ وَنِهَايَةِ أَمَانِيهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُظْهِرُ عِصْيَانَهُ إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ عِظَةً لِلْأَنَامِ ، وَبَادَرَهُ بِعَاجِلِ الْأَصْطِلَامِ : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . فَمَنْ نَكَثَ وَطْغَى وَبَغَى ، وَخَالَفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالَفَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَعَى فِي إِفْسَادِ دَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَاجَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِسَطْوَتِهِ وَطَهَّرَ مِنْ رَجْسِهِ دَوْلَتَهُ ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَقَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَرْكِ الْأَسْتِعَانَةِ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَيَحْذَرُ الْهَالُ تَجَاوُزَ أَوَامِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَوَاهِيهِ .



وَفِي أَيَّامِ الْأَمْرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ بِالْDIYَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، أَمْتَدَّتْ أَيْدِي النَّصَارَى ، وَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ بِالْخِيَانَةِ ، وَتَفَنَّنُوا فِي أَذَى الْمُسْلِمِينَ وَإِصَالِ الْمَضَرَّةِ إِلَيْهِمْ . وَاسْتَعْمَلَ مِنْهُمْ كَاتِبٌ يَعْرِفُ بِالرَّاهِبِ ، وَلَقَّبَ بِالْأَبِ الْقَدِّيسِ ، الرُّوحَانِي النَّفِيسِ ، أَبِي الْآبَاءِ ، وَسَيِّدَ الرُّؤَسَاءِ ، مُقَدِّمَ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَسَيِّدَ الْبَتْرِيكَةِ ، صَفَى الرَّبِّ وَمُخْتَارَهُ ، وَثَلَاثَ عَشَرَ الْخَوَارِجِيِّينَ . فَصَادَرُ اللَّعِينُ عَامَّةً مِنَ الْDIYَارِ الْمِصْرِيَّةِ : مِنْ كَاتِبِ وَحَاكِمِ وَجُنْدِيٍّ وَعَامِلٍ وَتَاجِرٍ ، وَأَمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ . خَفَوْهُ بَعْضُ مَشَايِخِ الْكُتَّابِ مِنْ خَالِقِهِ وَبَاعِيهِ وَمُحَاسِنِهِ ، وَحَذَرَهُ مِنْ سُوءِ عَوَاقِبِ أَفْعَالِهِ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِتَرْكِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِهَلَاكِهِ . وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ كُتَّابِ مِصْرٍ وَقَبِطُهَا فِي مَجْلِسِهِ ، فَقَالَ مُحَاطِبًا لَهُ وَمُسَمِّعًا لِلْجَمَاعَةِ : نَحْنُ مُلَاكُ هَذِهِ الدِّيَارِ حَرًّا وَخَرَاجًا ، مَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنَّا ، وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهَا وَغَضَبُوهَا ، وَاسْتَمْلَكُوهَا مِنْ أَيْدِينَا ، فَنَحْنُ مَهْمَا فَعَلْنَا بِالْمُسْلِمِينَ فَهُوَ قُبَالَةً مَا فَعَلُوا بَنَا ، وَلَا يَكُونُ لَهُ نِسْبَةٌ إِلَى مَنْ قُتِلَ مِنْ رُؤَسَائِنَا وَمُلُوكِنَا فِي أَيَّامِ الْفُتُوحِ ، بِجَمِيعِ مَا نَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِ

مَلَّوْا كَهِمَّ وَخُلَفَائِهِمْ حِلٌّ لَنَا ، وَهُوَ بَعْضُ مَا نَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِذَا حَمَلْنَا لَهُمْ مَا لَّا كَانَتْ
الْمِثَّةُ لَنَا عَلَيْهِمْ ، وَأَنْشُدُ :

بُنْتُ كَرِيمَ يَتَمَوَّهَا أُمُّهَا * وَأَهَانُوهَا فَدَيْسَتْ بِالْقَسَمِ

ثُمَّ عَادُوا حَكَمُوهَا بَيْنَهُمْ * وَيَلَهُمْ مِنْ فِعْلِ مَظْلُومٍ حَكَمٌ

فاستحسن الحاضرون من النصاري والمنافيقين ما سمعوه منه ، واستعادوه ، وعرضوا
عليه بالنواجذ ، حتى قيل : إِنَّ الَّذِي أَحْتَاطَ عَلَيْهِ قَلَمُ اللَّعِينِ مِنْ أَمْلَاكِ الْمُسْلِمِينَ
مِائَتَا أَلْفٍ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ أَلْفًا ، وَمِائَتَا دَارٍ وَحَانُوتٍ وَأَرْضٍ بِأَعْمَالِ الدَّوْلَةِ ، إِلَى أَنْ
أَعَادَهَا إِلَى أَصْحَابِهَا أَبُو عَلِيٍّ بْنُ الْأَفْضَلِ ؛ وَمِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

ثُمَّ أَنْتَبَهَ مِنْ رَقْدَتِهِ ، وَأَفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ ، وَأَدْرَكَتْهُ الْحَيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، وَالْغَيْرَةُ
الْحَمْدِيَّةُ ؛ فَغَضِبَ لِلَّهِ غَضَبَةً نَاصِرٍ لِلدِّينِ ، وَثَائِرٍ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَلْبَسَ أَهْلَ الذِّمَّةِ الْغِيَارَ ،
وَأَتَرَهُمْ بِالْمِزْلَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُتْرَلَوْا بِهَا مِنَ الذِّلِّ وَالصَّغَارِ ؛ وَأَمَرَ أَنْ لَا يُؤَلَّوْا شَيْئًا
مِنْ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ يُنْشَأَ فِي ذَلِكَ كِتَابٌ يَقِفُ عَلَيْهِ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ .

وهذه نسخته :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْبُودِ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، وَالْحَيِّبِ دَعَاءَ مَنْ يَدْعُو بِأَسْمَائِهِ ؛ الْمُتَفَرِّدِ
بِالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ ، الْمُتَوَحِّدِ بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ
فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ ؛ هَدَى الْعِبَادَ بِالْإِيمَانِ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ، وَوَفَّقَهُمْ فِي الطَّاعَاتِ
لَمَّا هُوَ أَنْفَعُ زَادٍ فِي الْمَعَادِ ؛ وَتَفَرَّدَ بِعِلْمِ الْغُيُوبِ فَعَلِمَ مِنْ كُلِّ عَبْدٍ إِضْمَارَهُ كَمَا عَلِمَ
تَصْرِيحَهُ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ
وَتَسْبِيحَهُ ﴾ . الَّذِي شَرَّفَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَعَظَّمَهُ ، وَقَضَى بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ لِمَنْ آتَمَّاهُ
وَيَتَمَّهُ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ شَرِّعٍ سَبَقَهُ وَعَلَى كُلِّ دِينٍ تَقَدَّمَ بِهِ ؛ فَنَصَرَهُ وَخَدَّلَهَا ، وَأَشَادَهُ

وَأَتَمَّلَهَا ، وَرَفَعَهَا وَوَضَعَهَا ، وَأَطَدَهَا وَضَعَضَهَا ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ دِينًا سِوَاهُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وَشَهِدَ بِهِ بِنَفْسِهِ ، وَأَشْهَدَ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَأُولَى الْعِلْمِ الَّذِينَ هُمْ خُلَاصَةُ الْأَنَامِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

وَلَمَّا أَرْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ وَأَتَمَّ بِهِ نِعْمَتَهُ ، أَكْمَلَهُ لَهُمْ وَأَظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَأَوْضَحَهُ لِإِضَاحِائِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَأَهْلِ الْبَغْيِ وَالرَّشَادِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وَأَمَرَ تَعَالَى بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ فَقَالَ وَبِقَوْلِهِ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وَهِيَ وَصِيَّةُ إِمَامِ الْخُتَفَاءِ لِبَنِيهِ وَإِسْرَائِيلَ : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وَشَهِدَ عَلَى الْخَوَارِئِيِّينَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَهُوَ الشَّاهِدُ الْأَمِينُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِئِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمر تعالى رسوله أن يدعو أهل الكتاب إليه ، ويشهد من تولى منهم بأنه عليه ،
فقال تعالى وقوله الحق المبين : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وصلى الله على الذى رفعه بأصطفائه إلى محله المنيّف ، وبعثه للناس كافة بالدين
القيّم الحنيف .

أما بعد ، فإن الله سبحانه ببالغ حكمته ، وتتابع نعمته ، شرف دين الإسلام
وطهره من الأدناس ، وجعل أهله خير أمة أخرجت للناس ، فالإسلام الدين القويم
الذى أصطفاه الله من الأديان لنفسه ، وجعله دين أنبيائه ورسله وملائكته قدسه ،
فارتضاه واختاره ، وجعل خير عباده وخاصتهم هم أوليائه وأنصاره ، يحافظون على
حدوده ويثابرون ، ويدعون إليه ويدكرون ، ويحافون ربهم من فوقهم ويفعلون
ما يؤمرون ، فهم بآيات ربهم يؤمنون ، وإلى مرضاته يسارعون ، ولمن خرج عن
دينه مجاهدون ، وعباده يجهدهم ينصحون ، وعلى طاعته مثابرون ، وعلى صلواتهم
يحافظون ، وعلى ربهم يتوكلون ، وبالأخرة هم يوقنون : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هذا وإن أمة الله هداها إلى دينه القويم ، وجعلها - دون الأمم الجاحدة - على
صراط مستقيم ، توفى من الأمم سبعين ، هم خيرها وأكرمها على رب العالمين - حقيقة -
بأن لا نوالى من الأمم سواها ، ولا نستمين بمن حاد الله خالقه ورآقه وعبد من دونه
إلهًا ، وكذب رسله ، وعصى أمره وأتبع غير سبيله ، واتخذ الشيطان وليًا من دونه
الله ، ومعلوم أن اليهود والنصارى مؤسومون بغضب الله ولعنته ، والشرك به والجحد

لَوْحَدَايَتِهِ ؛ وقد فرض الله على عباده في جميع صلواتهم أَنْ يَسْأَلُوا هِدَايَةَ سَبِيلِ
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَيُجَنِّبَهُمْ سَبِيلَ
الَّذِينَ أَبْغَضَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَطَرَدَهُمْ عَنْ جَنَّتِهِ ؛ فَبَاءُوا بِغَضَبِهِ وَلَعْنَتِهِ : مِنَ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ .

فَالْأَمَةُ الْغَضَبِيَّةُ هُمُ الْيَهُودُ بَنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَأَمَةُ الضَّلَالِ هُمُ النَّصَارَى الْمُثَلَّثَةُ عِبَادُ
الصُّلْبَانِ ؛ وقد أخبر تعالى عن اليهود بأنهم بالدِّلَّةِ وَالْمُسْكِنَةِ وَالْغَضَبِ مَوْسُومُونَ ،
فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْمًا تَقْفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ بَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُفْتَرِينَ ، فَقَالَ : ﴿ نَسَسَ
مَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَعَنَهُمْ وَلَا أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ، فَقَالَ : ﴿ يَسْأَلُ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى
أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

وَحَكَمَ سُبْحَانَهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَسَامِينِ حُكْمًا تَرْضِيهِ الْعُقُولُ ، وَيَتَلَقَّاهُ كُلُّ مُنْصِفٍ
بِالْإِذْعَانِ وَالْقَبُولِ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ
اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا
وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

وأخبر عما أحلَّ بهم من العقوبة التي صاروا بها مثلاً في العالمين ، فقال تعالى :
 ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ
 بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .
 ثم حكم عليهم حُكْمًا مُسْتَمِرًّا عليهم في الدَّرَارِي وَالْأَعْقَاب ، على مَرَّةٍ السِّنِينَ
 وَالْأَحْقَاب ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
 يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ . فكان هذا العذاب في الدنيا
 بعض الاستحقاق : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ . وأنهم أنجس
 الأئمة قلوباً وأخبثهم طويةً ، وأزدهم سجيّةً ، وأولاهم بالعذاب الأليم ، فقال :
 ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَكُنِ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴾ . وأنهم أمة الخيانة لله ورسوله ودينه وكتابه وعباده المؤمنين ، فقال :
 ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْحَسَنِينَ ﴾ .

وأخبر عن سوء ما يسمعون ويقبلون ، وخُبت ما يأكلون ويحكون ، فقال تعالى :
 ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ
 وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وأخبر تعالى أنه لعنهم على ألسنة أنبيائه ورُسُلِهِ بما كانوا يكسبون ، فقال :
 ﴿ لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا
 عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى
 كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَخِطِّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

وقطع الموالاة بين اليهود والنصارى وبين المؤمنين، وأخبر أن من تولاهم فإنه منهم في حكمه المدين، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وأخبر عن حال متوليهم بما في قلبه من المرض المؤدى إلى فساد العقل والدين، فقال: ﴿فَتَرَىٰ آيِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصِيبْحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ .

ثم أخبر عن حُبوب أعمال متوليهم ليكون المؤمن لذلك من الحذرين، فقال: ﴿وَيَقُولَ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ .

ونهى المؤمنين عن اتِّخاذ أعدائه أولياء، وقد كفروا بالحق الذى جاءهم من ربهم، وإنهم لا يمتنعون من سوء ينالونهم به بأيديهم وألسنتهم إذا قدرُوا عليه فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَخِفْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِتُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِن يَتَقَوَّمْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ .

وجعل سبحانه لعباده المسلمين أسوة حسنة في إمام الحنفاء ومن معه من المؤمنين، إذ تبرأ من ليس على دينهم أمثالاً لأمر الله، وإيثاراً لمرضاة وما عنده،

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدِّهِ ﴾ . وَتَبَرَّأَ سُبْحَانَهُ مِنْ اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

فمن ضروب الطاعات إهانتهن في الدنيا قبل الآخرة التي هم إليها صائرون ، ومن حقوق الله الواجبة أخذ جزية رؤسهم التي يعطونها عن يده وهم صاغرون ؛ ومن الأحكام الدينية أن يعم جميع الأمة إلا من لا تجب عليه باستخراجها ، وأن يعتمد في ذلك سلوك سبيل السنة المحمدية ومنهاجها ؛ وأن لا يسأح بها أحد منهم ولو كان في قومه عظيماً ، وأن لا يقبل إرساله بها ولو كان فيهم زعيماً ؛ وأن لا يُحمِل بها على أحد من المسلمين ، ولا يؤكَل في إخراجها عنه أحداً من الموحدين ؛ بل تؤخذ منه على وجه الدلة والصغار ، إعزازاً للإسلام وأهله وإذلالاً لطائفة الكفار ؛ وأن تستوفى من جميعهم حق الاستيفاء ، وأهل خير وغيرهم في ذلك على السواء .

وأما ما ادَّعاه الجبارة من وضع الجزية عنهم بعهده من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك زور وبهتان ، وكذب ظاهر يعرفه أهل العلم والإيمان ؛ لفقه القوم البهت وزوره ، ووضعوه من تلقاء أنفسهم وتمقوه ؛ وظنوا أن ذلك يخفى على الناقدين ؛ أو يروج على علماء المسلمين ؛ ويأبى الله إلا أن يكشف محال المبطلين ، وإفك المفتريين ؛ وقد تظاهرت السنن وصح الخبر بأن خير فتحت عنوة ، وأوجب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على إجلالهم عنها كما أجلي إخوانهم من أهل الكلاب ، فلما ذكروا أنهم أعرف بسقي نخلها ومصالح أرضها ، أقرهم فيها

كالأجراء وجعل لهم نصف الأرتفاع، وكان ذلك شرطاً مبيناً، وقال : « تُقَرُّكُمْ فِيهَا مَا شِئْنَا » ، فأقر بذلك الجباية صاغرين ، وأقاموا على هذا الشرط في الأرض عاملين ، ولم يكن للقوم من الدِّمَامِ والحُرْمَةِ ، ما يُوجِبُ إسقاط الجزية عنهم دون من عداهم من أهل الذمة ، وكيف ؟ وفي الكتاب المشحون بالكذب والمين ، شهادة سعد ابن معاذ وكان قد توفى قبل ذلك بأكثر من سنتين ، وشهادة معاوية بن أبي سفيان ، وإمام أسلم عام الفتح بعد خيبر سنة ثمان ، وفي الكتاب المكذوب أنه أسقط عنهم الكُفَّ والسُّخْرَ ، ولم تكن على زمان خُلُقائه الذين ساروا في الناس أحسن السير .

ولما اتسعت رُقعة الإسلام ، ودخل فيه الخاص والعام ، وكان في المسلمين من يقوم بعمل الأرض وسقى النخل ، أجلي عمر بن الخطاب اليهود من خيبر بل من جزيرة العرب حتى [قال] : لا أدع فيها إلا مسلماً .



وفي شهر رجب سنة سبع مائة وصل إلى القاهرة المحروسة وزير صاحب المغرب حاجاً ، فاجتمع بالملك الناصر « محمد بن قلاوون » ونائبه يومئذ الأمير سلا ، فتحدث الوزير معه ومع الأمير بيبرس الجاشنكير في أمر اليهود والنصارى ، وأنهم عندهم في غاية الذلة والهوان ، وأنهم لا يمكن أحد منهم من ركوب الخيل ولا الاستخدام في الجهات الديوانية ، وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أنحر الملابس ، وركوبهم الخيل والبغال ، واستخدمهم في أجل المناصب ، وتحكيمهم في رقاب المسلمين ، وذكر أن عهد ذمتهم أنقضى من سنة ستمائة من الهجرة النبوية ، فأثر كلامه عند أهل الدولة ، لاسيما الأمير بيبرس الجاشنكير ، فأمر بجمع النصارى واليهود ، ورسم أن لا يُستخدم أحد منهم في الجهات السلطانية ، ولا عند

الأمراء ، وأن تُغيّر عمامتهم : فلبس النصارى العمام الزرق ، وتشدّ في أوساطهم الزنانير ، ولبس اليهود العمام الصفّر ويدقوا ^(١) في البيع في إبطال ذلك فلم يقبل منهم ، وغلقت الكنائس بمصر والقاهرة ، وسمّرت أبوابها ، ففعل بهم ذلك ، وألزموا بأن لا يركبوا إلا الحمير ، وأن يلفّ أحدهم إحدى رجلَيْه إذا ركب ، وأن يقصر بنائهم المجاور للمسلمين عن بناء المسلم . وكتب بذلك إلى جميع الأعمال ليُعمل بمقتضاه ، وأسلم بسبب ذلك كثير منهم ؛ وألّس أهل الذمة بالشام : النصارى الأزرق ، واليهود الأصفر ، والسامرة الأحمر .

ثم عادوا إلى المباشرة بعد ذلك ، فانتدب السلطان الملك « الصالح صالح » ابن الملك الناصر في سنة خمس وخمسين وسبعائة لمنعهم من ذلك ، وألزمهم بالشروط العمريّة ، وكتب بذلك مرسوماً شريعاً وبعث بنسخته إلى الأعمال فقرئت على منابر الجوامع .

وهذه نسخته - صورة مافي الطرّة :

« مرسوم شريف بأن يعتمد جميع طوائف اليهود والنصارى والسامرة : بالديار المصرية ، والبلاد الإسلامية المحروسة وأعمالها ، حكم عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لمن مضى من أهل ملتهم : وهو أن لا يُحدّثوا في البلاد الإسلامية ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ، ولا يُحدّثوا ما تحرب منها ، ولا يؤوّا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام ، ولا يكتُموا غشاً للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يُظهروا شركاً ، ولا يمنّوا ذوى قرابة من الإسلام إن أرادوه ، ولا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ؛ ويلبسون الغيار الأزرق والأصفر ، ومنع نساؤهم

(١) بياض في الأصل في غير نسخة والكلام غير ملتم ولعل الأصل « العمام الصفّر فبالغوا في السعي في إبطال ذلك » الخ .

من التَّشَبُّه بنساء المسلمين ، ولا يركبوا سَرْجًا ، ولا يتقلَّدوا سَيْفًا ، ولا يركبوا الخيلَ
ولا البغالَ ، ويركبون الحميرَ بالأُكُفِّ عَرَضًا ، ولا يبيعوا الخُمُورَ ؛ وأن يَلْزِمُوا زِيَّهَ
حيثُ كانوا ، وَيُسُدُّوا زَنَانِيَهُمْ غيرَ الحَرِيرِ على أوساطهم ؛ والمرأةُ البارِزَةُ من النصارى
تلبسُ الإزارَ الكَنَّانَ المصبوغَ أزرق ، واليهوديةُ الإزارَ الأصفر ؛ ولا يدخلُ أحدٌ
منهم الحَمَّامَ إلا بعلامةٍ تُميِّزه عن المسلمين في عُنُقِهِ : من خَاتَمٍ حَدِيدٍ أو رصاصٍ أو غير
ذلك ؛ ولا يعلوا على المسلمين في البناءِ ولا يُساوُوهم ، بل يكونون أدونَ منهم ؛
ولا يضربوا بالناقوسِ إلا ضَرْبًا خَفِيفًا ، ولا يرفعوا أصواتهم في كَنائِسِهِمْ ، ولا يَحْدُمُوا
في دولتنا الشريفة - ثَبَّتَ اللهُ قواعدها - ولا عندَ أحدٍ من أمرائها - أعزَّهم اللهُ
تعالى - ولا يَلُوكَ وَظِيفَةً يَعْلَمُ أمرُهم فيها على أحدٍ من المسلمين ؛ وأن يُحْمَلَ الأمرُ
في موارِيثَ مَوْتَاهُمْ على حُكْمِ الشريعةِ الشريفةِ المحمَّديةِ ، وتوقع عليهم الحَوَاطَةُ
الدِّيوانيةُ أسوةً مَوْتَى المسلمين ؛ وأن لا يدخلَ نِسْوَةُ أَهْلِ الدِّمَةِ الحَمَّامَاتِ مع
المسلماتِ ، ويُعْمَلُ لهنَّ حَمَّامَاتٌ تُخَصَّنَ يَدْخُلْنَها ، عملاً في ذلك بما رَجَّحَهُ علماءُ
الشَّرْعِ الشريفِ ، على ما شَرَحَ فيه .

ونصه بعد البسملة الشريفة .

الحمدُ لله الذي بَصَّرَ سُلْطَانَنَا الصَّالِحَ ، بِاعْتِمَادِ مَصَالِحِ الدِّينِ والدُّنْيَا ، وَيَسَّرَ لِرَأْسِنَا
الراجِحِ ، تَوْفِيرَ التَّوْفِيقِ إثباتًا ونَفْيًا ، وَتَحْرِيرَ التَّحْقِيقِ أمرًا ونَهْيًا ؛ وقَهَرَ بِأَحْكَامِ الإسلامِ ،
من رامَ نَكْثَ العَهْدِ وتَقْضِ الدِّمَامِ ، بِتَعَدِّي الحُدُودِ عُدْوَانًا وَبَغْيًا ، وَجَسَرَ على اقْتِحَامِ
ذُنُوبٍ عِظَامٍ ، تُحِلُّ به في الدَّارَيْنِ ذُنَابًا وَنَحْرِيًا ، وَتَكْفُلُ للأُمَّةِ المحمَّديةِ في الأولى
والأخرى بالسَّعَادَةِ السَّرمِديةِ التي لا تُنْهَى ولا تُتَغَيَّرُ ، وجعلَ كَلِمَةَ الدِّينِ كَفَرُوا
السُّفلى وكَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُلَى .

نحمده أَنَّ أَصْحَبَ فِكْرِنَا رَشَدًا وَأَذْهَبَ بِأَمْرِنَا غِيًّا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ جَبَرَ بِأَحْكَامِ
الْعَدْلِ لِلْإِيمَانِ وَهَمًّا وَأَثَرِ لَذَوِي الْبُهْتَانِ بِالْإِنْتِقَامِ وَهِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ ، فَرْدٌ صَمَدٌ ، خَلَقَ وَرَزَقَ وَأَنْشَأَ وَأَفْنَى وَأَمَاتَ وَأَحْيَا ،
وَتَقَدَّسَ وَتَجَبَّدَ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ، وَأَوْجَدَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ كَمَا أَوْجَدَ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ
شَيْئًا وَجَعَلَهُ عَبْدًا صَالِحًا نَبِيًّا زَكِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَعَ الرُّوحِ الْأَمِينِ قُرْآنًا وَوَحْيًا ، وَأَسْتَأْصِلُ بِهِ شَافَةَ الْكُفَّارِ وَأَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ
الْأَخْطَارِ الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَا ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَرَى الصِّدْقَ وَصَدَقَ الرُّؤْيَا ،
وَجَمَعَ اللَّهُ بِهِ الشَّتَاتَ فَهَدَى قُلُوبًا غُلْفًا وَأَسْمَاعًا صُمًّا وَأَبْصَارًا غُمًّا ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ ،
وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ فَبُشِّرَى لِمَنْ وَفَّقَ مِنْ أُمَّتِهِ فُرْزِقَ لِحُكْمَتِهِ وَعِيَا ، وَرَفَعَ
الضَّلَالَةَ ، وَرَدَّ الضَّلَالَةَ ، وَأَجْمَلَ لِلْعَهْدِ حَفْظًا وَلِلدِّمَامِ رَعْيًا ، وَنَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ
الشَّرَائِعَ ، وَسَدَّتِ الذَّرَائِعَ ، وَشَمَخَتْ عَلَى النُّجُومِ الطُّوَالِغَ ، فَهِيَ أَسْمَى مِنْهَا رِفْعَةً
وَأَمْنَى عَدَدًا وَأَسْنَى هُدْيَا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ فُرُوعِ الزَّهْرَاءِ الَّذِينَ عُنُوا بِقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أَمْرَعَ سَقِيًّا ،
خُصُوصًا صَدِيقَهُ وَرَفِيقَهُ فِي الْمَمَاتِ وَفِي الْحَيَا ، وَمَنْ أَسْتَخْلَفَهُ فِي الصَّلَاةِ عَنْهُ
إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ أَحَقُّ لِرُبُوبَةِ الْخِلَافَةِ بِالرُّقْيَا ، وَمَنْ فَرَّقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ وَوَافَقَ الْفُرْقَانُ لَهُ
رَأْيَا ، وَيَسِّرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَيَّامِهِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الْفُتُوحَاتِ مَا لَا أَتَّفَقُ لِفَيْرِهِ وَلَا تَهَيَّا ،
وَذَا الثُّورَيْنِ الَّذِي قَطَعَ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا وَأَحْيَا ، وَأَسْتَحْيَتْ مِنْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
لَمَّا مَنِ اللَّهُ أَسْتَحْيَا ، وَعَلَى الصَّهْرِ وَابْنِ الْعَمِّ الْمُجَاهِدِ الرَّأْهِدِ الَّذِي طَلَّقَ ثَلَاثًا الدَّارَ
الْفَانِيَةَ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَقِيَا ، وَسَرَّهُ لَمَّا قَضَى عَلَى الرِّضَا نَجْبَهُ ، فَوَجَدَ الْأَجْبَسَةَ : مُحَمَّدًا
وَحُزْبَهُ ، وَحَمَدَ الْحَاقَّ وَاللَّقْبَا ، وَعَلَى تِمَّةَ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ الْأَبْرَارِ ، وَبَقِيَّةِ الْمُهَاجِرِينَ

والأنصار، رحمة تديم لمضاجعهم صوبها الدار الشقية، صلاة وافرة الأقسام سافر القسَمَاتِ باهرة المحيا، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فأحكام الشرع الشريف أولى بوجوب الاتباع، وذمام الدين الحنيف يبر من عصي ويجير من أطاع، وحرمات الملة الحمديّة أحق بأن تحفظ فلا تضاع، ومن المهمات التي تُصرف إليها الهمة، ويرهف لها حدّ العزمه، وتقام على متعدّد حدودها بالانتقام الجزية؛ باعتبار أحوال الملتين من أهل الذمة الذين حقن منهم الدماء حكم الإسلام، وسكن عنهم الدهماء ما ألزموه من الأحكام، مع القيام بالجزية في كل عام، وسلموا لأوامر الشريعة المطهرة التي لولا الانقياد إليها والاستسلام، لأُعْمِدَ في نُحُورِهِمْ حَدُّ الْحُسَامِ. فهم تحت قهر سلطان الإيمان سائرُونَ، ولأمر دين الحق الذي نسخ الله تعالى به الأديان صائرُونَ؛ وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

ولما فتح الله تعالى ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فتح من البلاد، وأسترجع بأيدي المهاجرين والأنصار من أيدي الكفار العاديّة كثيراً من الأمصار وأستعاد؛ وأكثر ذلك في خلافة أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، فإنها كانت للفتح مواسم، وبالمنح بواسم، وتظافرت فيها للمسلمين غنائم العزائم، التي أعادت هزأها الكفار يجرّون ذبول الهزائم - عقد أمراؤه الفاتحون لها بأمره - رضي الله عنه وعنهم - لأهل الكتاب عهداً، وحدوا لهم من الآداب حداً لا يجوز أن يتعدى؛ ولم تزل الخلفاء بعد ذلك والمملوك في جميع بلاد الإسلام يحدّونها، وبالمحافظة والملاحظة يتعهدونها؛ وآخر من ألزمهم أحكامها العادلة،

وَعَصَمَهُمْ بِذِمَّتِهَا الَّتِي هِيَ لَهُمْ مَا اسْتَقَامُوا بِالسَّلَامَةِ كَافِلِهِ ، وَالدُّنَا السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ
« الْمَلِكُ النَّاصِرُ » نَاصِرُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى عَهْدَهُ عَهْدَ الرَّحْمَةِ ، وَلَقِيَ نَفْسَهُ
الْخَيْرَ لِنُصْرِهِ الْأُمَّةَ ، فَإِنَّهُ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - جَدَّدَ لَهُمْ فِي سَنَةِ سَبْعِمِائَةِ لِبَاسَ الْغِيَارِ ،
وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ بَأْسَ النَّكَالِ وَالْإِنْكَارِ ، وَعَقَدَ لَهُمْ ذِمَّةَ الْإِعْتِبَارِ ، وَسَطَّرَ فِي الصِّحَافِ
مِنْهَا شُرُوطًا لَهُمْ بِالتَّزَامِهَا إِقْرَارٌ ، وَبِأَحْكَامِهَا أَمْكُنُهُمْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْإِسْتِقْرَارُ ،
وَحَذَلَ الْفِتْنَتَيْنِ الْمُفْتَرَتَيْنِ عَمَلًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

وَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ تَمَادَوْا عَلَى الْإِغْتِرَارِ ، وَتَعَادَوْا إِلَى الضَّرِّ وَالْإِضْرَارِ ،
وَتَدَرَّجُوا بِالتَّكْبَرِ وَالْإِسْتِكْبَارِ ، إِلَى أَنْ أَظْهَرُوا التَّزْيُّنَ أَغْظَمَ إِظْهَارًا ، وَخَرَجُوا عَنْ
الْمَعْهُودِ فِي تَحْسِينِ الزُّنَانِ وَالشُّعَارِ ، وَغَتَوْا فِي الْبِلَادِ وَالْأَمْصَارِ ، وَأَتَوْا مِنَ الْفَسَادِ
بِأُمُورٍ لَا تُطَاقُ كِبَارٌ .

وَلَمَّا وَضَّحَ عِنْدَنَا مِنْهُمْ الْإِسْتِقْرَارُ عَلَى ذَلِكَ وَالْإِضْرَارُ ، أَنْكَرْنَا عَلَيْهِمْ أَشَدَّ إِنْكَارًا ،
وَرَأَيْنَا أَنْ نَتَّبَعَ فِيهِمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَبَيْنَا [إِلَّا مَعَامَلَتَهُمْ]
بِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ الَّتِي كَمَ لَهَا عَلَى الْمِلَّتَيْنِ الْعِيسَوِيَّةِ وَالْمُوسَوِيَّةِ مِنْ مَنَّةٍ ، وَادَّخَرَ اللَّهُ
تَعَالَى لَنَا هَذِهِ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ جَمَلَةِ الْفَتْوحَاتِ الَّتِي يَفْتَحُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا لَنَا فِي الدُّنْيَا
أَبْوَابَ السَّعَادَةِ وَفِي الْآخِرَةِ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ ، فَاسْتَفْتَيْنَا فِي أَمْرِهِمُ الْمَجَالِسَ الْعَالِيَةَ حُكَّامَ
الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَأَقْتَدَيْنَا بِأَقْوَالِ مَذَاهِبِهِمُ الْحَرَّرَةِ ، الَّتِي لَنَا بِهَدْيِهَا إِلَى إِصَابَةِ
الصَّوَابِ تَبَيُّرُهُ ، وَعَقَدْنَا لَهُمْ مَجْلِسًا بَدَارَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ ، وَأَلْزَمْنَاهُمْ أَحْكَامَ أَهْلِ
الذِّمَّةِ الَّتِي بِالتَّزَامِ أَوَائِلُهُمْ لَهَا جَرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ هَذَا التَّكْلِيفِ ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَهْدِ
الَّذِي نَسَّوْهُ ، وَأَلْبَسْنَاهُمْ تَوْبَ الْهَوَانِ الَّذِي لَبَسُوا [وَ] لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَانُ نَزَعُوهُ
وَلَمْ يَلْبَسُوهُ ، وَأَجْرَيْنَا عَلَيْهِمُ الْآلَانَ شُرُوطَهُ الْمَضْبُوطَةَ ، وَقَوَانِينَهُ الَّتِي هِيَ مِنَ التَّبَدُّلِ

والتَّغْيِيرَ مُحَوِّطَةً ، فَمَنْ جَاوَزَهَا ، فَقَدْ شَاقَّقَ الشَّرِيعَةَ الشَّرِيفَةَ وَبَارَزَهَا ؛ وَمَنْ خَالَفَهَا ، فَقَدْ عَانَدَ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَوَأَقَفَهَا ؛ وَمَنْ صَدَفَ عَنْ سُبُلِهَا وَتَنَكَّبَهَا ، فَقَدْ آقَتَرَفَ الْكِبَائِرَ وَأَرْتَكَبَهَا ؛ وَحَظَرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَهُ بِالْمُسْلِمِينَ شَبَهَا ، وَصَيَّرْنَا عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَأَوْجَبَهَا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الصالح ، الصلاحي - لا زال أمره الممثل المطاع ، وزجره به عن المآثم امتناع وأرتداع ، ورأيه الصالح يريد الإصلاح ما استطاع - أن يعتمد جميع طوائف النصاري واليهود والسامرة بالديار المصرية وجميع بلاد الإسلام المحروسة وأعمالها : من سائر الأقطار والآفاق ، ما أخذ على سالفهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكيد العهد ووثيق الميثاق :

وهو أن لا يُحْدِثُوا فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا دِيرًا وَلَا كَنِيسَةً وَلَا قَلَابَةً وَلَا صَوْمَعَةً رَاهِبٍ ، وَلَا يُحْدِثُوا فِيهَا مَا خَرِبَ مِنْهَا ، وَلَا يَمْنَعُوا كَنَائِسَهُمُ الَّتِي عُوْهِدُوا عَلَيْهَا ، وَثَبَتَ عَهْدُهُمْ لَهَا ، أَنْ يَنْزِلَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ يُطْعِمُونَهُمْ ، وَلَا يُؤْوُوا جَاسُوسًا وَلَا مَنْ فِيهِ رَيْبَةٌ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا يَكْتُمُوا غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَعْلَمُوا أَوْلَادَهُمُ الْقُرْآنَ ، وَلَا يُظْهِرُوا شِرْكًَا ، وَلَا يَمْنَعُوا ذَوِي قَرَابَةٍ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَإِنْ أَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَا يُؤْذُوهُ وَلَا يُسَاكِنُوهُ ، وَأَنْ يُوقِرُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يَقَوْمُوا مِنْ مَجَالِسِهِمْ إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ ، وَأَنْ لَا يَتَشَبَّهُوا بِشَيْءٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لِبَاسِهِمْ فَلَنْسُوءَ وَلَا عِمَامَةً وَلَا نَعْلِينَ وَلَا فَرَقَّ شَعْرٍ ، بَلْ يَلْبَسُ النَّصْرَانِيُّ مِنْهُمْ الْعِمَامَةَ الزَّرْقَاءَ عَشْرَةَ أَذْرُعٍ غَيْرَ الشَّعْرَى (؟) فَمَا دُونَهَا ، وَالْيَهُودِيُّ الْعِمَامَةَ الصَّفْرَاءَ كَذَلِكَ ، وَتَمْنَعُ نِسَاءَهُمْ مِنَ التَّشَبُّهِ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلِبْسِ الْعِمَامِ ، وَلَا يَتَسَمَّوْنَ بِأَسْمَاءِ

المسلمين، ولا يتكّنوا بكنائهم، ولا يتلقّبوا بألقابهم، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلّدوا
سيفاً، ولا يركبوا الخيل ولا البغال، ويركبون الحمير بالأكف عرساً من غير ترين
ولا قيمة عظيمة لها، ولا يتخذوا شيئاً من السلاح، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية،
ولا يبيعوا الخمر، وأن يجزوا مَقَادِمَ رؤوسهم، وأن يلزموا زيمهم حيث ما كانوا،
ويشدّوا زنايهم غير الحرير على أوساطهم؛ والمرأة البارزة من النصارى تلبس
الإزار الكتان المصبوغ أزرق، واليهودية الإزار المصبوغ أصفر؛ ولا يدخل أحد
منهم الحمام إلا بعلامة تميزه عن المسلمين في عنقه : من خاتم نحاس أو رصاص
أو جرس أو غير ذلك، ولا يستخدموا مسلماً في أعمالهم؛ وتلبس المرأة البارزة منهم
خفين : أحدهما أسود، والآخر أبيض، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يرفعوا
بناء قبورهم، ولا يعلوا على المسلمين في البناء، ولا يسأوهم، ولا يتخللوا على ذلك
بجيلة، بل يكونون أدون من ذلك، ولا يضرّبوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً،
ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا أصواتهم على
موتاهم، ولا يظهروا الثيران، ولا يشتروا مسلماً من الرقيق ولا مُسَلِّمة، ولا من جرت
عليه سهام المسلمين، ولا من منشؤه مسلم؛ ولا يهودوا ولا ينصروا رقيقاً، ويختنبون
أوساط الطريق توسعةً للمسلمين، ولا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يدلّوا على عورات
المسلمين . ومن زنى بمسلمة قتل، ولا يضعوا أيديهم على أراض موت المسلمين
ولا غير موت ولا هزدرع، ولا ينسبوه لصومعة ولا كنيسة ولا دير ولا غير ذلك،
ولا يشتروا شيئاً من الحلب الرقيق ولا يؤكلوا فيه، ولا يتخللوا عليه بجيلة .
ومتى خالفوا ذلك فقد حلّ منهم ما يحلّ من أهل النفاق والمعادنة .

وكذلك رسمنا أن كلّ من مات من اليهود والنصارى والسامرة : الذكور والإناث
منهم يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية وأعمالها وسائر

البلاد الإسلامية المحروسة ، إلى أن تُثَبِّتَ وَرَثَتُهُ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ مِيرَاثِهِ بِمَقْتَضَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، وَإِذَا اثْبَتُوا مَا يَسْتَحِقُّونَهُ يُعْطَوْنَهُ بِمُقْتَضَاهُ ، وَيُحْمَلُ مَا فَضَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِبَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ ، وَمِنْ مَاتَ مِنْهُمْ وَلَا وَارِثَ لَهُ يَسْتَوْعِبُ ، حِمْلَ مَوْجُودِهِ لِبَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ ، وَيُجَرِّدُونَ فِي الْحَوَاطِ عَلَى مَوْتَاهُمْ مِنْ دَوَاوِينِ الْمَوَارِيثِ وَوُكَلَاءِ بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ مُجَرِّدِينَ مِنْ يَمُوتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : لِبَيْتِ أَمْرِ مَوَارِيثِهِمْ ، وَيُحْمَلُ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى حُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، عَمَلًا بِالْفَتَاوَى الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ إِجْرَاءَ مَوَارِيثِ مَوْتَاهُمْ عَلَى حُكْمِ الْفَرَائِضِ الشَّرْعِيَّةِ بِحُكْمِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْحَمِيدَةِ : مِنْ إِعْطَاءِ كُلِّ ذِي فَرَضٍ وَعَصَبَةٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ شَرْعًا ، مِنْ غَيْرِ مُحَالَفَةٍ وَلَا أَمْتِنَاعٍ ، وَلَا مُوَافَقَةٍ وَلَا دِفَاعٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ فِيهِ إِرْجَاعٌ ، وَلِتَعْلُقَ حَقُوقُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، وَلِأَنَّهُ يَعِيدُ حَيْثُ تَفِيَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ مَا يَسْتَحِقُّهُ بَيْتُ الْمَالِ مِنْ مَالِ كُلِّ هَالِكٍ ، وَلِأَنَّا الْمَطَالِبُونَ بِمَا يَتَوَلَّى إِلَى مِيرَاثِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ثَرَاتٍ أَوْلَئِكَ ، لَتَكُونَ هَذِهِ الْحَسَنَةُ فِي صَحَائِفِهَا مُسَطَّرَةً ، وَإِنْ كَانَتْ الْإِيَّامُ قَدْ تَمَادَتْ عَلَيْهَا وَمَعْرِفَتُهَا نَكَرَتْ ، وَتَعَادَتْ إِلَيْهَا أَيْدِيهِمُ الْعَادِيَّةُ فَاخْتَلَسَتْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ .

وَرَسَمْنَا أَنْ لَا يَخْدُمَ نَصْرَانِيٌّ وَلَا سَامِرِيٌّ وَلَا يَهُودِيٌّ فِي دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ ثَبَّتَ اللَّهُ قَوَاعِدَهَا ، وَلَا فِي دَوَاوِينِ الْمَمَالِكِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْأَعْمَالِ ، وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أُمَرَائِنَا أَعَزَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يُبَاشِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَكَالَةً وَلَا أَمَانَةً ، وَلَا مَا فِيهِ تَأَمَّرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهُمْ كَلِمَةٌ يَسْتَعْلُونَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ نَصًّا وَتَأْوِيلًا ، وَضَمَّنَ حُكْمَهُ فِي الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ قُرْآنًا وَتَنْزِيلًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وَأَوْضَحَ فِي آجِسَاتِهِمُ لِلْيَقِينِ عِلْمَ الْيَقِينِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ

اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .

وقد نهى الله عن مواليتهم وأضاف بسخطه كل خزي إليهم ، فقال تعالى :
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ .

وقد أذنبهم الله جلّ وعزّ لأفترائهم واجترائهم من كتابه العزيز في مواضع عدّة ، فقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ﴾ . فوجب أن لا يكونوا على الأعمال آمنه ، ولا للأموال خزنة : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليهود والنصارى خونة » . وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : « لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشاً في دينهم ولا تحلّ الرشا » فباعتراهم واختاراهم يؤمن من مكرهم وخيانتهم ما يحشش .

ولما قدم عليه أبو موسى الأشعريّ من البصرة وكان عاملة بها ، دخل عليه المسجد ، وأستأذن لكتبه وكان نصرانياً ، فقال له أمير المؤمنين عمر : - وليت ذمياً على المسلمين ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ هلّا اتخذت حنيفياً ؟ - فقال يا أمير المؤمنين : لي كتابته وله دينه ، فأنكر أمير المؤمنين عليه ذلك ، وقال : لا أكرّمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزّهم إذ أذنبهم الله ، ولا أدنّهم إذ أفصاهم الله . - فاتبعنا في صرفهم الكتاب والسنة والأثر ، ومنعنا عن المسلمين - ينل أيديهم عن المباشرة - الأذى والضرر ، ودفعنا عن أمير المؤمنين من سوء معاشرتهم ما ألما له من الأذى مع شرمعشر .

فليعتمد حكم هذا المرسوم ، الذى هو بالعدل والإحسان موسوم ، وليخلد في صحائف الموثبات ليستقر ويديم ، وليشع ذكره في الممالك ، وليدع أمره في المسالك ، وعلى حكام المسلمين - أيدهم الله تعالى - وقضاتهم ، ومتصرفيهم

وولاتهم ؛ أن يُوقَعُوا بمن تعدى هذه الحدود ، من النصارى واليهود ، ويردَعُوا
بسيِّف الشرع كلَّ جهولٍ من أهل الجُود ، ويحلُّوا العذاب بمن حمَّله العقوقُ على
حلِّ العقود ، ويذُلُّوا رِقَابَ الكافرين بالإذعانِ لاستخراج الحُقوق وإخراج
الأضغان والحُقود .

وقد رَسَمْنَا بأن يُجَلَّ الأمرُ في هذا المرسومِ الشريفِ على حُكم ما أَلْتَم في المرسومِ
الشريفِ الشَّهيدى النَّاصرى المُتقدِّم ، المُكْتَتَب في رَجَب سنة سبعمائة ، المتضمَّن
الشَّهادة على بطركي النصارى اليعاقبة ، والمَلِكِيَّة ، ورئيس اليهود بالتَّحريم وإيقاع
الكَلِمَة على من خالف هذا الشرطَ المشروطَ والحدَّ المُحدود ، وأن لا يَحُلُّوا ما أَنبَرَم
من مُحْكَم العقود ، فيحلُّ عليهم عَذَابٌ غيرُ مُردود ، والله تعالى يُعِينُ سُلْطَانَ الحَقِّ على
ما يرجعُ بِنَفْع الخلق ويعود ، وَيَزِينُ بِصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ مُلْكَ الإِسْلَامِ وَمَمَالِكَ الْوُجُودِ ،
وَيُهَيِّئُ بِبَاسِهِ أَعْدَاءَ الدِّينِ ، الَّذِينَ لَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ الْمُبِينِ ، صُدُوفٌ وَصُدُودٌ ، وَيَسْلُكُ بِهِ
شِرْعَةَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَمِنْهَاجَهُ : من إِمَامَةِ السِّدِّيقِ وإِحْيَاءِ السُّنَنِ وإِدَامَةِ الصُّوْنِ
وإِقَامَةِ الْحُدُودِ ، وَيَهْلِكُ بِسَطْوَتِهِ الْكَافِرِينَ كَمَا هَلَكَ بِدَعْوَةِ صَالِحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ نَمُودٌ . وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ أَعْلَاهُ حُجَّةٌ فِيهِ .

تم الجزء الثالث عشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر

وأوله الباب الرابع من المقالة التاسعة

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ١٦٩٣/١٩١٨/٣٠٠٠)

دَارُ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ طَبْعًا

صَنِيعُ الْأَمِيرِ
٢٠١٦
١٤١٧

الجزء الثالث عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٧ هـ
١٩١٨ م

فهرس

الجزء الثالث عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

المقالة السادسة

صفحة

- فيما يكتب في الوصايا الدينية، والمساحات، والاطلاقات السلطانية
والطرخانيات؛ وتحويل السنين والتذاكر، وفيها أربعة أبواب ٢
- الباب الأول** - في الوصايا الدينية، وفيه فصلان ٢
- الفصل الأول** - فيما تقدماء الكتاب من ذلك ٢
- » **الثاني** - فيما يكتب من ذلك في زماننا، وهو على ضربين ١١
- الضرب الأول** - ما يكتب عن الأبواب السلطانية ١٢
- » **الثاني** - ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك ١٣
- الباب الثاني** - فيما يكتب في المساحات والاطلاقات،
وفيه فصلان ٢٣
- الفصل الأول** - فيما يكتب في المساحات، وهي على ضربين ... ٢٣
- الضرب الأول** - ما يكتب من الأبواب السلطانية، وهو على مرتبتين ٢٣
- المرتبة الأولى** - المساحات العظام ٢٣
- » **الثانية** - من المساحات أن تكتب في قطع العادة الخ ... ٣٨
- الضرب الثاني** - ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية ٣٩
- الفصل الثاني** - فيما يكتب من الاطلاقات، وفيه طرفان ... ٤١
- الطرف الأول** - فيما يكتب عن الأبواب السلطانية، وهو على
ثلاث مراتب ٤١
- المرتبة الأولى** - ما يكتب في قطع الثلث مفتوحاً بـ «الحمد لله» ... ٤١
- » **الثانية** - ما يفتح بـ «أما بعد حمد الله» ٤٤
- » **الثالثة** - مما يكتب به في الاطلاقات أن يكتب في قطع
العادة مفتوحاً بـ «رسم بالأمر الشريف» ... ٤٦

صفحة

الباب الثالث - في الطرخانيات ، وفيه فصلان ٤٨

الفصل الأول - في طرخانيات أرباب السيوف ، وهي على ثلاث

مراتب (لم يذكر إلا مرتبتين) ٤٨

المرتبة الأولى - أن يفتح المرسوم المكتب في ذلك بـ «الحمد لله» ٤٨

» الثانية - أن يفتح مرسوم الطرخانيات بـ «أما بعد» ... ٥١

الفصل الثاني - فيما يكتب في طرخانيات أرباب الأقلام ... ٥٢

الباب الرابع - فيما يكتب في التوفيق بين السنين الشمسية

والقمرية المعبر عنه في زماننا بتحويل السنين

وما يكتب في التذاكر ، وفيه فصلان ... ٥٤

الفصل الأول - فيما يكتب في التوفيق بين السنين ، وفيه طرفان ٥٤

الطرف الأول - في بيان أصل ذلك ٥٤

» الثاني - في صورة ما يكتب في تحويل السنين ، وهو على

نوعين (لم يذكر إلا نوعاً واحداً) ٦٣

النوع الأول - ما كان يكتب في ذلك عن الخلفاء ، وفيه

مذهبان ٦٣

المذهب الأول - أن يفتح ما يكتب بـ «أما بعد» ٦٣

» الثاني - مما كان يكتب عن الخلفاء في تحويل السنين

أن يفتح ما يكتب بلفظ «من فلان أمير المؤمنين

إلى أهل الدولة» ونحو ذلك ، وفيه ضربان ... ٧١

الضرب الأول - ما كان يكتب في الدولة الأيوبية ٧١

» الثاني - ما يكتب به في زماننا ٧٤

صفحة

- الفصل الثاني - فيما يكتب في التذاكر [وفيه ثلاثة أضرب] ... ٧٩
- (ولم يذكر الضرب الأول) ... ٧٩
- الضرب الثاني - ما كان يكتب لتواب السلطنة بالديار المصرية
- عند سفر السلطان عن الديار المصرية ... ٩١
- » الثالث - ما كان يكتب لتواب القلاع وولاتها : إما عند
- استقرار النائب بها وإما في خلال نيابته ... ٩٩

المقالة السابعة

- في الاقطاعات والقطائع ، وفيها بابان ... ١٠٤
- الباب الأول - في ذكر مقدمات الاقطاعات ، وفيه فصلان ... ١٠٤
- الفصل الأول - في ذكر مقدمات تتعلق بالاقطاعات ،
- وفيه ثلاثة أطراف ... ١٠٤
- الطرف الأول - في بيان معنى الاقطاعات وأصلها في الشرع ... ١٠٤
- » الثاني - في بيان أول من وضع ديوان الجيش وكيفية
- ترتيب منازل الجند فيه والمساواة والمفاضلة
- في الاعطاء ... ١٠٦
- » الثالث - في بيان من يستحق إثباته في الديوان وكيفية
- ترتيبهم فيه ... ١١٠
- الفصل الثاني - في بيان حكم الاقطاع ، وهو على ضربين ... ١١٣
- الضرب الأول - إقطاع التملك ... ١١٣
- » الثاني - إقطاع الاستغلال ... ١١٥
- الباب الثاني - فيما يكتب في الاقطاعات في القديم والحديث ،
- وفيه فصلان ... ١١٨

صفحة

- الفصل الأول - في أصل ذلك ١١٨
- » الثاني - في صورة ما يكتب في الاقطاعات، وفيه طرفان ١٢٣
- الطرف الأول - فيما كان يكتب من ذلك في الزمن القديم،
وهو على ضربين ١٢٣
- الضرب الأول - ما كان يكتب عن الخلفاء، ولهم فيه طريقتان ١٢٣
- الطريقة الأولى - طريقة كتاب الخلفاء العباسيين ببغداد ١٢٣
- » الثانية - ما كان يكتب في الاقطاعات عن الخلفاء
الفاطميين بالديار المصرية ١٣١
- الضرب الثاني - مما كان يكتب في الاقطاعات في الزمن المتقدم
ما كان يكتب عن ملوك الشرق القائمين على
خلفاء بني العباس، وفيه طريقتان ١٣٩
- الطريقة الأولى - أن يكتب في الابتداء « هذا كتاب » كما كان
يكتب عن خلفاء بني العباس في ذلك ١٣٩
- » الثانية - ما كان يكتب عن الملوك الأيوبية بالديار
المصرية، ولهم فيه أساليب ١٤٤
- الأسلوب الأول - أن يفتح التوقيع المكتوب بالاقطاع بخطبة
مفتحة بـ « الحمد لله » ١٤٤
- » الثاني - أن يفتح التوقيع بلفظ « أما بعد فان كذا » ... ١٤٨
- » الثالث - أن يفتح التوقيع بما فيه معنى الشجاعة والقتال،
وما في معنى ذلك ١٥٠
- الطرف الثاني - ما يكتب في الاقطاعات في زماننا، وهو على
ضربين ١٥٣

- الضرب الأول — ما يكتب قبل أن ينقل إلى ديوان الإنشاء،
 وفيه جملتان ... ١٥٣
- الجملة الأولى — في ابتداء ما يكتب في ذلك من ديوان الجيش ١٥٣
- » الثانية — في صورة ما يكتب في المربعة الجيشية ... ١٥٤
- الضرب الثاني — فيما يكتب في الاقطاعات من ديوان الإنشاء،
 وفيه خمس جمل ... ١٥٧
- الجملة الأولى — في ذكر اسم ما يكتب في الاقطاعات من ديوان
 الإنشاء ... ١٥٧
- » الثانية — في بيان أصناف المناشير، وما يخص كل صنف
 منها من مقادير قطع الورق ... ١٥٨
- » الثالثة — في بيان صورة ما يكتب في المناشير في الطرة والمثنى ١٥٩
- » الرابعة — في الطغرى التي تكون بين الطرة المكتوبة في أعلى
 المنشور وبين البسمة ... ١٦٢
- » الخامسة — في ذكر طرف من نسخ المناشير التي تكتب
 في الاقطاعات في زمانها، وهي على ثلاثة أنواع ١٦٧
- النوع الأول — ما يفتح بـ «الحمد لله» وهو على ثلاثة أضرب ... ١٦٧
- الضرب الأول — مناشير أولاد الملوك ... ١٦٧
- » الثاني — » الأمراء مقدمى الألف ... ١٦٩
- » الثالث — » أمراء الطبلخاناه ... ١٨٤
- النوع الثاني — من المناشير ما يفتح بـ «أما بعد» وهو على ضربين ١٩٠
- الضرب الأول — في مناشير العشرات كأنها ذلك الأمير من كان ... ١٩٠
- » الثاني — » أولاد الأمراء ... ١٩٣
- النوع الثالث — من المناشير ما يفتح بـ «خرج الأمر الشريف» ١٩٨

المقالة الثامنة

صفحة	في الإيمان ، وفيها بابان	٢٠٠
	الباب الأول - في أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض	
٢٠٠	في الإيمان ، وفيه فصلان	٢٠٠
٢٠٠	الفصل الأول - فيما يقع به القسم ، وفيه طرفان	٢٠٠
	الطرف الأول - في الأقسام التي أقسم بها الله تعالى في كتابه	
٢٠٠	المزينة	٢٠٠
٢٠٣	» الثاني - في الأقسام التي تقسم بها الخلق ، وهي على ضربين	٢٠٣
٢٠٣	الضرب الأول - ما كان يُقسم به في الجاهلية	٢٠٣
٢٠٥	» الثاني - الأقسام الشرعية	٢٠٥
	الفصل الثاني - في بيان معنى اليمين الغموس ولغو اليمين والتحذير	
	من الحنث والوقوع في اليمين الغموس ،	
٢٠٨	وفيه طرفان	٢٠٨
٢٠٨	الطرف الأول - في بيان معنى اليمين الغموس ولغو اليمين	٢٠٨
٢٠٩	» الثاني - في التحذير من الوقوع في اليمين الغموس	٢٠٩
٢١١	الباب الثاني - في نسخ الإيمان الملوكية ، وفيه فصلان	٢١١
	الفصل الأول - في نسخ الإيمان المتعلقة بالخلفاء ، وهي	
٢١١	على نوعين	٢١١
	النوع الأول - في الأيمان التي يُحلف بها على بيعة الخليفة	
٢١١	عند مبايعته	٢١١
	» الثاني - الأيمان التي يحلف بها الخلفاء (ووقع مهرًا :	
٢١٦	الضرب الثاني الخ)	٢١٦

صفحة

- الفصل الثانى — فى نسخ الأيمان المتعلقة بالملوك، وفيه خمسة
مهايع (لم يذكر المهيع الخامس) ... ٢١٦
- المهيع الأول — فى بيان الأيمان التى يُحلف بها المسلمون،
وهى على نوعين ... ٢١٦
- النوع الأول — أيمان أهل السنة ... ٢١٦
- » الثانى — أيمان أهل البدع، وهم ثلاث طوائف ... ٢٢٢
- الطائفة الأولى — الخوارج ... ٢٢٢
- » الثانية — الشيعة، وهم خمس فرق ... ٢٢٦
- الفرقة الأولى — الزيدية ... ٢٢٧
- » الثانية — الإمامية ... ٢٢٩
- » الثالثة — الاسماعيلية ... ٢٣٥
- » الرابعة — الدرزية ... ٢٤٨
- » الخامسة — النصيرية ... ٢٤٩
- الطائفة الثالثة — القادرية ... ٢٥١
- المهيع الثانى — فى الأيمان التى يحلف بها أهل الكفر،
وهى على ضربين ... ٢٥٣
- الضرب الأول — من زعم منهم التمسك بشريعة نبي من الأنبياء،
وهى أصحاب ثلاث ملل ... ٢٥٣
- الملة الأولى — اليهود، وهم طائفتان ... ٢٥٣
- الطائفة الأولى — المتفق على يهوديتهم، وهم القراؤون ... ٢٥٦
- » الثانية — من اليهود السامرة ... ٢٦٨

صفحة

- الملة الثانية — النصرانية (ووقع سهواً : الفرقة الثالثة الخ)
 ٢٧١ وهم ثلاث فرق
 الفرقة الأولى — الملكانية
 ٢٧٦
 » الثانية — اليعقوبية
 ٢٧٨
 » الثالثة — النسطورية
 ٢٨٠
 الملة الثالثة — المجوسية ، وهم ثلاث فرق
 ٢٩٢
 الفرقة الأولى — الكيوسرية
 ٢٩٢
 » الثانية — الثنوية
 ٢٩٢
 » الثالثة — الزرادشتية
 ٢٩٣
 المهيع الثالث — في الأيمان التي يُحلف بها الحكماء ، وهم على
 ثلاثة أصناف
 ٢٩٨
 الصنف الأول — البراهمة
 ٢٩٨
 » الثاني — حكماء العرب
 ٢٩٩
 » الثالث — حكماء الروم ، وهم على ضريين
 ٢٩٩
 الضرب الأول — القدماء منهم
 ٢٩٩
 » الثاني — المتأخرون منهم ، وهم أصحاب أرسطاطاليس
 ٢٩٩
 المهيع الرابع — في بيان المحلوف عليه ، وما يقع على العموم ،
 وما يختص به كل واحد من أرباب الوظائف
 مما يناسب وظيفته
 ٣٠٧
 » الخامس — في صورة كتابة نسخ الأيمان التي يُحلف بها ،
 وهي على ضريين
 ٣١٩
 الضرب الأول — الأيمان التي يُحلف بها الأمراء في الديار
 المصرية
 ٣١٩
 » الثاني — الأيمان التي يُحلف بها نواب السلطنة والأمراء
 بالمالك الشامية ، وما أنضم إليها
 ٣٢٠

المقالة التاسعة

صفحة

- ٣٢١ ... في عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك ، وفيها خمسة أبواب ...
- ٣٢١ ... الباب الأول - في الأمانات ، وفيه فصلان ...
- ٣٢١ ... الفصل الأول - في عقد الأمان لأهل الكفر ، وفيه طرفان ...
- ٣٢١ ... الطرف الأول - في ذكر أصله وشرطه وحكمه ...
- ٣٢٣ ... » الثاني - في صورة ما يكتب فيه ...
- ٣٢٩ ... الفصل الثاني - في كتابة الأمانات لأهل الإسلام ، وفيه طرفان ...
- ٣٢٩ ... الطرف الأول - في أصله ...
- ٣٣٠ ... » الثاني - فيما يكتب في الأمانات ، وفيه مذهبان ...
- المذهب الأول - أن يفتح الأمان بلفظ : « هذا كتاب أمان الخ »
- ٣٣٠ ... وهو على نوعين ...
- ٣٣١ ... النوع الأول - ما يكتب عن الخلفاء ، وفيه مذهبان ...
- ٣٣١ ... المذهب الأول - أن يفتح الأمان بلفظ : « هذا » ...
- ٣٣٢ ... » الثاني - أن يفتح الأمان بخطبة مفتوحة بالحمد ...
- ٣٣٦ ... النوع الثاني - ما يكتب به عن الملوك ، وهو على ضربين ...
- الضرب الأول - ما يكتب من هذا النمط مما كان يصدر عن وزراء الخلفاء والملوك المتغلبين على الأمر معهم ، ولهم فيه أسلوبان ...
- ٣٣٦ ... الأسلوب الأول - أن يصدر بالتماس المستأمن الأمان ...
- » الثاني - ألا يتعرض في الأمان لالتماس المستأمن
- ٣٣٩ ... الأمان ...

صفحة

- المذهب الثانى — مما يكتب به فى الأمانات لأهل الإسلام
 أن يفتح الأمان بلفظ: «رسم» ... ٣٣٩ ...
 الضرب الثانى — من الأمانات التى تكتب لأهل الإسلام ما عليه
 مصطلح زماننا، وهى صنفان ... ٣٤٢ ...
 الصنف الأول — ما يكتب من الأبواب السلطانية ... ٣٤٢ ...
 » الثانى — من الأمانات الجارى عليها مصطلح كتاب
 الزمان — ما يكتب عن نواب الممالك الشامية... ٣٥٠ ...
الباب الثانى — من المقالة التاسعة فى الدفن (دفن الذنوب)
 وفيه فصلان ... ٣٥٢ ...
الفصل الأول — فى أصله وكونه مأخوذاً عن العرب ... ٣٥٢ ...
 » **الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوك** ... ٣٥٣ ...
الباب الثالث — فيما يكتب فى عقد الذمة، وفيه فصلان ... ٣٥٦ ...
الفصل الأول — فى الأصول التى يرجع إليها هذا العقد
 وفيه طرفان ... ٣٥٦ ...
الطرف الأول — فى بيان رتبة هذا العقد، ومعناه وأصله من
الكتاب والسنة ... ٣٥٦ ...
 » **الثانى — فى ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته فى عقد الذمة** ... ٣٦٠ ...
الفصل الثانى — ما يكتب فى متعلقات أهل الذمة عند خروجهم
عن لوازم عقد الذمة ... ٣٦٦ ...

(تم فهرس الجزء الثالث عشر من كتاب صبح الأعشى)

دَارُ الْكِتَابِ السُّنِّيَّةِ

كِتَابٌ

صُنْحُ الْأَكْبَرِ

تَالِيفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْغُبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِ

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

س ١٣٣٨ هـ
م ١٩١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبتهما ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رُتَبُهَا فإنها متأخرة - عنيد قُوَّة السُلطان - عن عَقْدِ الحِزْبِ : لأن في الحِزْبِ ما يدل على ضَعْفِ المعقود له، وفي الهدنة ما يدل على قُوَّتِهِ .

وأما معناها فالمُهادنة في اللُّغَةِ المصاحَّةُ، يقال : هَادَنَهُ يُهَادِنُهُ مُهادِنَةً إذا صاحبه والاسم الهدنة . وهى إما من هَدَنَ بفتح الدال يَهْدِنُ بضمها هَدُونًا إذا سَكَنَ، ومنه قولهم : « هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنِ » . أى سَكُونٌ عَلَى غِلٍّ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في التماموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب، ففعل فيه لغتين .

(٢) هذا هو أحد شق الفصل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظ أخرى :

أحدها — المَوَادعة، ومعناها المصالحة أيضا، أخذًا من قولهم : عليك بالمودع يريدون بالسكينة والوقار، فتكون راجعة إلى معنى السكون . وإما أخذًا من توديع الثوب ونحوه : وهو جعله في صوان يصونه ، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال . وإما أخذًا من الدعة : وهي الخفض والهناء ، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب وكلفه .

الثاني — المسالمة ومعناها ظاهر : لأن بوقوعها يسلم كل من أهل الجانبين من الآخر .

الثالث — المقاضاة، ومعناها [المحاكمة مفاعلة من القضاء بمعنى الفصل والحكم] .

الرابع — المواصفة ، سُميت بذلك لأن الكاتب يصنف ما وقع عليه الصلح من الجانبين . على أن الكتاب يخصون لفظ المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين ، ولا شك أن ذلك جارٍ في لفظ المَوَادعة والمسالمة والمقاضاة أيضا : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظ قليلة مخفوضة ، على ما هو مقرر في علم العربية .

أما لفظ الهدنة فإنه يصدق أن يكون من جانب واحد، بأن يعقد الأعلى الهدنة لمن هو دونه . على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة ، إذ لا تتصور إلا من اثنين .

وأما في الشرع فعبرة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة ، على ما سيأتي بيانه فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة في كتبهم . قال صاحب

”مواد البيان“. وقد يتعاقد عطاء أهل الإسلام على التَّوَادُّعِ والتَّسْلِيمِ واعتقاد المَوَدَّةِ والتَّصَافِي، والتَّوَازُرِ والتَّعَاوُنِ، والتَّعَاوُذِ والتَّنَاصُرِ، ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتفادي عنه بمعاطفته والالتقياد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يحصى.

قلت: وقد يكون المايكان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التعاقد بينهما على المسالمة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوة يحملها إليه؛ ولكل مقام مقال، والكاتب الماهر يوفى كل مقام حقه، ويعطى كل فصل من الفصول مستحقه.

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا﴾.

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه:

«أَنَّ قُرَيْشًا وَجَّهَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ»

«صَدَّهُ قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ - سَهِيلَ بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

«وَسَلَّمَ: هَاتِ [أَكْتُبْ] بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

«السَّكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ»

«الرحيم» . فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن آكتبُ
«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنتَ تكتبُ . فقال المسلمون : والله لا نكتبُ إلاَّ
«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : آكتبُ :
«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ - ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله - فقال سهيل :
«وَاللَّهِ لو كُنَّا نعلمُ أَنَّكَ رسولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا تَاتَلْنَاكَ ؛
«ولكن آكتبُ محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : وَاللَّهِ
«إِنِّي لرسولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُونِي ، آكتبُ محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ ، ثم قال النبيُّ
«صلى الله عليه وسلم : على أن تُخلُّوا بيننا وبين الْبَيْتِ فَطُوفُ بِهِ - فقال
«سهيلُ : والله لا نتحدثُ العربُ أَنَا قَدْ أَخَذْنَا ضُغْطَةً ، ولكن ذلك من
«الْعَامِ الْمُقْبِلِ ، فكتب - قال سهيلُ : وعلى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ
«وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا - قال المسلمون : سُبْحَانَ اللَّهِ !
«كيف يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا ! فبينما همُ كذلك ، إِذْ جَاءَ
«أَبُو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ
«أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ - فقال سهيلُ : هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقْضَيْكَ عَلَيْهِ أَنْ
«تُرَدَّ إِلَى - فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ -
«قال : فوالله [إِذَا] لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا - قال النبيُّ صلى الله
«عليه وسلم : فَأَجِزْهُ لِي - قال : مَا أَنَا بِجُزِّهِ لَكَ - قال بلى فافعلْ - !

« قال : ما أنا بفاعِلٍ . قال مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ : بلى قد أجزأه لك . قال »
« أبو جندلٍ : أى معشر المسلمين : أُرُدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً ؟ »
« ألا ترون ما قد لقيتُ ؟ وكان قد عَذَّبَ عذاباً شديداً فى الله تعالى . »
« قال عمرُ بن الخطابِ : فأُتيتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلت : «
« أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا ؟ قال بلى ! قلتُ : أَلَسْنَا على الحقِّ وعدُّونا على »
« الباطلِ ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم نُعطِ الدِّينَةَ فى دِينِنَا إِذَا ؟ قال : إني »
« رسولُ اللهِ ولستُ أعصيه وهو ناصِرِي » .

قلت : هذا ما أورده البخارىُّ فى حديثٍ طَوِيلٍ ^(١) . والذى أورده أصحابُ
السَّيْرِ أن الكاتِبَ كان على بن أبى طَالِبٍ ، وأن نُسخةَ الكتابِ :
« هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبدِ اللهِ سَهيلَ بن عمرو على وَضْعِ الحَرْبِ »
« عن الناسِ عَشْرَ سنين ، وأنه من أَحَبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ محمدٍ »
« وعَهْدِهِ دخلَ فيه ، ومن أَحَبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدِهِمْ »
« دخلَ فيه » .

وأشهد فى الكتابِ على الصَّالِحِ رجالاً من المسلمين والمشركين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من " إرشاد السارى " للقسطلانى ومنه كان

الطرف الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكاتبات له من الدولة محل خطير ، ومن المملكة موضع كبير ؛ ويتعين على الكاتب أن يحلّ له فكره ، ويعمل فيه نظره ، ويتوفر عليه توفراً يحكم مبانیه ، ويهذب معانيه .

والذى يلزم الكاتب في ذلك نودان :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتمدة في صحة العقد ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان المعقود عليه إقليماً : كالحند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقاً ، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائيه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف ، فلا حاجة للولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم .

الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة ، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أنفقت منهم ، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمَةٍ إِلَيْهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ. قَالَ الْغَزَالِيُّ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ، جَازَ اتِّزَامُ الْمَسَالِ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَحْزُرُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ اتِّزَاعِهِ .

الرابع — أَنْ لَا تَزِيدَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْنِهِمْ، وَلَا يَحْزُرُ أَنْ تَبْلُغَ سَنَةً بِحَالٍ، وَفِيمَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَا يَحْزُرُ. أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنًا وَخَوْفٌ، فَإِنَّهُ تَجُوزُ الْمَهَادَنَةُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ؛ فَقَدْ هَادَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ، وَفِي وَجْهِ تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ لِلصَّلَاحَةِ . فَلَوْ أُطْلِقَ الْمُدَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمِلُ عَلَى الْأَقْلِ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَحْزُرُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ وَبَطَلَ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتَجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثُمَّ عَشْرِ ثُمَّ عَشْرِ قَبْلَ تَقْضَى الْأُولَى، قَالَهُ الْفُورَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ مُدَّتَهَا غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ، بَلْ يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادكم على الخ » .

النوع الثاني

(ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح

الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه موالياً، ولعدوّه معادياً، ولمسالمة مسلمياً، ومحاربه محارباً، ولا يواطىء عليه عدوّاً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يوافق على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سؤال سائيل، ولا بدّل باذل، ولا رسالة مراسل مما يخالف الاتفاق الجاري، والأخذ على يد من سعى في نقض الصلح ونكث العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى من أهل مملكتهم جانٍ كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجناية .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومطّرف غوره، وشاسع نواحيه — أيدي الداخلين في جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يجهز لها جيشاً، ولا يحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مقارعة، ولا يتناوبهم بمكيبة ظاهرة ولا باطنة، ولا يعاملهم بأذية جليّة ولا خفيّة، ولا يطلق لأحد ممن ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن ينسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عتانا إلى شيء من ذلك بوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب، وأن لا يتجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بعسكر من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يفرج عمن هو في حوزته ممن أحاطت به ربة الأثر، ويمكنهم من المسير إلى بلادهم : بأنفسهم وخدمهم وعيالهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كفالة ولا مئونة تلحقهم على إطلاعهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يحمله إليه في كل سنة، أو أن يسلم إليه ما يختاره : من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب انتزاعه أو استضافته من بلاد من يهذنه من ملوك الكفر، وأن يبقى من بها من أهلها، ويقررهم فيها بجرمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلا، وما يخطر في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من رعيته، برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، وللبجائرين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاهدة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤخر شيئا عن الوقت الذي ... (١) ...

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التعيين فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله « الذي اتفق عليه » .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا آتقضى 'أمد الهدنة' على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يحمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوناً، أو بلاداً يُسلمها من بلاده، أو مما يغلب عليه من بلاد مهادنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تُحصى كثرة .

الضرب الثاني

(مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها، وترتيب قوانينها، وإحكام معاقبها)

وذلك باعتماد أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه، ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذى ينبغى أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذى يكتب فيه الملك الذى تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتى فى آتدائها براءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن عاقبته، أو بذكر السلطان الذى تصدر عنه الهدنة، أو السلطانين المتهادين، أو الأمر الذى ترتب عليه الصلح، وما يجرى هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

ومنها — أن يأتى بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذى أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكُفر، أحتج للإجابة إليها بالآتيار بأمر القرآن والآتياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطوعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ . وما وردت به السنة من مصالحته صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحديبية، وذكر ما سنع له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال وقوفاً عند ما حد لهم . وأنه لولا ذلك لشرعوا الأسنة إلى مخالفيهم في الدين، وركضوا الجياد إلى جهاد من يلبهم من الملحين .

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بنحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ . وبأحاديث التحذير من تقتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا لَقِيَ الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتُهُمَا فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» وما يجرى هذا المجرى .

ومنها - أن يراعى المقام في تجليل المتهادين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به : من التعظيم، أو التوسيط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجرى على حسب ذلك في الشدة واللين .

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحد من التأديب معه، ويراعى للحد ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة .

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الاستداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط القدرة، وحصول النصرة، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،

ووفور الجند، وقصور الملوك عن المطاولة، وعجزهم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يخطر في هذا السلك، لا سيما إذا كان القوى مسلماً والضعيف كافراً، فإنه يجب الأزياد من ذلك، وذكر ما للإسلام من العزة، وما توالى له من النصرة؛ وذكر الوقائع التي كانت فيها نصرة المسلمين على الكفار في المواطن المشهورة، والأماكن المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت الهدنة من ضعيف لقوى، أخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجلافة، وتماسك القوة، خصوصاً إذا كان القوى المعقود معه الهدنة كافراً. وإن شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضى أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به، لا عن خور طبايع وضعف قوة، إذ الله تعالى يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ 》 .

ومنها - أن يتخفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة، إن كانت المهادنة مع أهل الكفر، أو يجر إلى سلطانه وهيصة، إن كانت بين مسلمين، ويتحذر كل الحذر من خلل يتطرق إليه: من إهمال شيء من الشروط، أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان، أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل إلى التأول، وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة، ولا نتطرق إليه مناقضة، ولا يدخله تأويل .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتروية النظر في ذلك وظهور الخير فيه، ومشاورة ذوي الرأي وأهل الحجة، وموافقتهم على ذلك .

ومنها - أن يبين مدة الهدنة . فقد تقدم أن الصحيح من مذهب الشافعي أنه إذا لم يبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة .

قال في "التعريف": "وقد جرت العادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية. ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد وولد الولد."

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملكين أنفسهم، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها.

فإن كانت بين الملكين أنفسهم بغير واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق، والأيمان الصادرة من كل منهما، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك.

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر، بين ذلك، وتعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كتاب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه، وأنه وصل على يده أو يد غيره، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختوم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه. ويتعرض إلى قيام البينة بها وثبوتها بمجلس الحكم ونحو ذلك من المستندات.

وإن كانت بين نائبين، بين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره. ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه باختياره وطواعيته، لا عن إكراه ولا إجبار، ولا قسر ولا غلبة، بل لما رأى لنفسه ومستنبيه في ذلك من المصلحة والحظ. وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فصلاً فصلاً، وترجم له بموثوق به، إن كان لا يعرف العربية ونحو ذلك.

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها: على الوفاء، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الالتزامات،

أو مُحَاوَلَةِ التَّأْوِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ السَّعْيِ فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وما في مَعْنَى ذَلِكَ :

فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ مَلَائِكِينَ ، تَعَرَّضَ إِلَى تَحَايِفِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى التَّوْفِيَةِ بِذَلِكَ .

وإن كانت بين أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ ، حَلَفَ الْمَلِكُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَسَتَاتِي صُورَةَ
الْحَلْفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْمَدَنِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ ^(١) فِيمَا بَعْدُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - أَنْ يُحَرَّرَ أَمْرَ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وَمَا يُؤَرِّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَادَنِ : مِنْ
السَّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلَهُمْ عَادَةٌ أَنْ يَحْسُبُوهَا مَدَّةَ
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فَيُحَرَّرُ حَسَابُهَا بِالْقَمَرِيَّةِ ، وَيَذَكُرُ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وَسَاعَاتٍ حَتَّى
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ الْمُهَادَنِ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ
المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ وأستخراجها .

ومنها - أَنْ يَقَعَ الْإِشْهَادُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ بِذَلِكَ ، وَلَا بَأْسَ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ .
وقَدْ بَحَثَ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقْضَى عَلَى مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَالِحَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
وَرَبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسْخَةِ مُهَادَنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَبَدِّهِ
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ ، مَشْمُولَةً بِحَظِّ الْكُتَّابِ ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
أَوْ يُجَهَّزُ إِلَيْهِ نَسْخَةٌ يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالْغَالِبُ
الْأَكْتِفَاءُ بِالرُّسُلِ فِي ذَلِكَ .

(١) أى الإيمان الواقعة في عقود الصلح ، وإلا فالإيمان بأنواعها تقدمت في ج ١٣ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكتب في المهادنات والسجلات، ومذاهب
الكتاب في ذلك ، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يَسْبَدُ ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - ويُحَدِّثُ منه نُسخٌ بالأبواب
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلى ملوك الكُفَر)
ثم ما يُكتب في ذلك على نَمَطَيْنِ :

النمط الأول

(ما يُكتب في طَرَةِ الهدنة من أعلى الدَرَج)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدٌ صُلِحَ » أو « هذا كِتَابٌ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأُكْفِيَ
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابٌ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابٌ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدٌ مُصَالِحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأها لينسج على منوالها ، وهي :

هذا عَقْدٌ صُلِحَ أَنْتَظَمَتْ بِهِ عُقُودُ الْمَصَالِحِ ، وَأَنْتَسَقَتْ بِوَاسِطَتِهِ سُبُلُ الْمَنَاجِحِ ؛
وَتَحَدَّثَ بِحُسْنِ مُقَدِّمَتِهِ الْغَادِي وَتَرْتَمَ بِيَمْنِ نَتِيجَتِهِ الرَّائِجُ . عَاقَدَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ فَلَانٌ
فَلَانًا الْقَائِمَ فِي عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ عَنْ مُرْسِلِهِ فَلَانٍ ، حَسَبَ مَا فَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ
فِي كِتَابِهِ الْوَاصِلِ عَلَى يَدِهِ ، الْمُوَرَّخِ بِكَذَا وَكَذَا ، الْمُعْنُونِ بِعُتْوَانِهِ ، الْمُخْتَوِمِ بِطَابَعِهِ

المتعارف عنه - على أن يكون الأمر كذا وكذا . ويشرح مُلَخَّص ما يقع من الشروط التي يقع عليها الاتفاق بينهما في الصُّلح إلى آخرها ، ثم يقال : على ما شُرح فيه .

النَّمَطُ الثَّانِي

(ما يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْهُدْنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ)

النَّوْعُ الْأَوَّلُ

(ما تَكُونُ الْهُدْنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ)

بأن يكون المللكان متكافئين ، [فيتعاقدان إما على حِصْنٍ^(١) وإما على مالٍ يعطيه الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها ، كما كان يُكْتَبُ عن صاحب الديار المصرية . وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن تُفْتَحَ الْهُدْنَةُ بِلَفْظٍ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ »)

أو « هَذِهِ هُدْنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سَلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أو نحو ذلك

على نحو ما تقدّم في الكلام على الطّرة)

وعلى ذلك كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، على ما تقدّم ذكره في الكلام على أصل مشروعيتها .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ ، لِلْمَلِكِ مَضْعُوفٍ ، بِاشْتِرَاطِ مَالٍ يَقُومُ بِهِ الْمَضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ يَسَاهِمُ لَهَا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فَلَانٌ - خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَتَهُ وَشَرَفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكُ فَلَانًا الْفُلَانِيَّ . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَ ، وَأَمَلَهُ ، لِيُهِلَّهُ ، وَسَأَلَهُ ، لِيَكُفَّ عَنْهُ أَسَلَهُ ، حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
وَسَمَاءُ عَجَاجِهِ بِالْذَّمِّ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ، فَرَأَى - سَدَّدَ اللَّهُ أَرَأَاهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْجَحَ ، وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدَهُ
وَنَسْلِهِ ، وَجَمِيعَ بِلَادِهِ ، وَكُلَّ طَارِفِهِ وَتَلَادِهِ ، وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ، وَعَسَكٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَحُشُودٍ ، وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هَذِهِ مُدَّتُهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوها ، مَدَّةٌ
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَسِيمٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكَفَّلُ بِجَبَايَتِهِ مِنْ حِزْبَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَنَحَاجِ أَعْمَالِهِ ، عَلَى أَقْسَاطِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُحْجُجُ مَعَهُ إِلَى تَكْثُفِ مُطَالَبَةِ ،
وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالِبِهِ .

عَلَى أَنْ يَكُفَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهُ بِأَسَائِهِ ، وَخَيْلَهُ الْمُطِطَّةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَمَسَائِهِ ، وَيَضُمَّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانِهِمْ
وَسِرَاعِهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَنَاحِمَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاحِمَةِ لِدَوَاقِفِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدَى النَّهْبِ ،
وَيَكُفُّ الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذَى ، وَيُرَدِّدُ مَنْ نَزَحَ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّرُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ،
وَيُؤَمِّنَ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ، وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤْخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخص لذي عَمَى منهم ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كلما وردت إليه كتب مولانا السلطان فلان أو كتب نوابه، أو أحد [من المتعلقين] ^(١) بأسبابه، يسارع إلى أمثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يهمله .

وعليه أن لا يكون عينا للكنفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت الدار، ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولهم التتار] ^(٢) وأن يلتزم ما يلزمه من المسكة بالمسكنة، ويفعل ما تسكت عنه به الأسنة وما أشبهها من الألسنة . وعليه أن ينهي ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، وينبه على سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها، وقام بحقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به] ^(٣)، وصرف إليها عنان اجتهد به وبني عليها قواعد وفائه، وصان من التأكيد فيها سرائر صفائه، سأل هر في هذه الهدنة المقررة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحترمة، وشهد به الحضور بالملكيتين وتضمنته هذه الهدنة المسطرة، وبالله التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لتملك سيسى، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدم في الكلام على المالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) ومما يأتي قريبا .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن ممتلك سيس كان يما لي التتار ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوي له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصابي، عن صمصام الدولة، بن عضد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط ألتزمها، وحصون يسلمها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كاليجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين؛ كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أحنينا وعدتنا، وصاحب جيشنا (أبي حرب) ربار بن شهر اكويه) تأمل حالك في تطاول حبسك، واعتناقك عن مراجعة بلدك؛ وبذلت - متى أفرج عنك، وخلى طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا ولياً، ولعدونا عدواً، ولسلمنا سلماً، ولحربنا حرباً : من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجيالهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا تصالح لنا ضداً مبيناً، ولا تواطئ علينا عدواً مخالفاً؛ وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشاً، ولا تحاول لها غزواً؛ ولا تبدأ أهلها بمنازعه، ولا تشرع لهم في مقارعه، ولا تتناولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية؛ ولا تطلق لأحد ممن

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن يُنسبُ إلى جُماعتك ، ويتصرّف على إرادتك -
 الاجترأ على شيء من ذلك على الوجوه والأسباب كلها ، وأن تُفرجَ عن جميع
 المسلمين وأهل ذمتهم الحاصلين في محاسن الروم ، ممن أحاطت بعنقه رِبْقَةُ الأُسْرِ ،
 واشتملت عليه قَبْضَةُ الحَصْرِ والقَسْرِ ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيد الأوقات
 وقريبها ، المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعود إلى أوطانهم ، وتنهضهم بما
 ينهض به أمثالهم ، وتمكّنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحرهم وأولادهم وعيالاتهم
 وأتباعهم ، وأصناف أموالهم ، موفّورين مضمونين ، متبدّرين ^(١) محروسين ، غير
 ممنوعين ، ولا معوقين ، ولا مطالبين بمؤونة ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة .

وأن تُسلمَ تِمَّةَ سبعة من الحصون ، وهى : حصن أرحكاه المعروف بحصن
 الهندرس ، وحصن السناسة ، وحصن حويب ، وحصن اكل ، وحصن انديب ،
 وحصن حالى ، وحصن تل حرم ، برساتيقها ومزارعها إلى من نكّاتك بتسليمها إليه ،
 مع من بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لسكناها والاستقرار فيها ، بحرهم
 وأولادهم وأسبائهم ومواشيهم وأصناف أموالهم وغلاتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم ،
 ليكون جميعها حاصلاً فى أيدينا وأيدى المسلمين ، على غابر الأيام والسنين ، من غير
 أن تلتمس عنها أو عن شيء منها مالا ، ولا بدلا ، ولا عوضا من الأعواض كلها .

وعلى أنك تُمضى ما عقدته على نفسك من ذلك كله بابا بابا ، وتفى به أولا أولا ،
 منذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك ، وإلى غاية استيلائك عليها ، ونفاذ أمرك
 فيها ، ولا ترجع عن ذلك ولا عن بعضه ، ولا تؤخّر شيئا منه عن الوقت الذى تقدر
 فيه عليه ، ولا تُرخص لنفسك فى تجاوز له ولا عدول عنه . ومتى سعت طائفة من
 الطوائف التى تُنسب إلى الروم والأرمن وغيرهم فى أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب ،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم
وممانعتهم إن كانوا من أهل العنود عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،
وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوقيه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريق من
تضمّمته جملتك ، وأشملت عليه رفقتك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع
أعمالنا حتى تفدّ عنها إلى ما وراءها ، غير معوّق ، ولا معقّل ، ولا مؤذّي ،
ولا معارض ، ولا مطالب بمثوثة ولا كلفة ، ولا ممنوع من آتياج زاد ولا آلة ،
ولا نُؤثرُ عليك أحداً نأواك في أعمالك ، ونازعك سلطان بلادك ، ودافعك عنه
وناصبك العداوة فيه : من ينسب إلى الروم والأرمن والخزمية وسائر الأمم المضادة
لك ، ولا نوقع معه صلحاً عليك ، ولا موافقة على ما يعود بثلّمك أو قدح في أمرك ،
ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بذل باذل ، ولا رسالة مُراسل فيما خالف شرائط هذا
الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إعلال وثيقته من وثائقه .

ومتى وقد إلينا رسولٌ من جهة أحد من أضدادك ، راغباً إلينا في شيءٍ يخالف
ما آنعقد بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى مُتمسه ، ورددناه خائباً خالياً من
طلبته . وإذا سلمت الحصون المقدّم ذكرها إلى من نكاتبك بالتسليم إليه ، كان لك
علينا أن نُقرّ من فيها وفي رسائيقها على نعمهم ومنازلهم وضياعهم وأملأكمهم ،
وأن لا نُزِيلهم عنها ولا عن شيءٍ منها ، ولا نحول بينهم وبين ما تحويه أيديهم من جميع
أموالهم ، وأن نُجزيهم في المعاملات والجبايات على رؤسومهم الجارية الماضية التي
عوملوا عليها ، على مرّ السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير فسخ
ولا تنيير ولا تقض ولا تبديل .

فَأَنْهَيْنَا إِلَى مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ مَا سَأَلَتْ وَآتَمَسَتْ ، وَصَحْنَتْ وَشَرَطَتْ
وَأَشْرَطَتْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَسْتَأْذَنَاهُ فِي قَبُولِهِ مِنْكَ ، وَإِيقَاعِ الْمُعَاهَدَةِ عَلَيْهِ مَعَكَ ،
فَإِنْ - أَدَامَ اللَّهُ تَمَكُّنَهُ - لَنَا فِيهِ ، وَأَمَرْنَا بِأَنْ تُحْكِمَهُ وَنُضَيِّهِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ أَنْتَظَامِ
الْأُمُورِ ، وَحَيَاطَةِ الثُّغُورِ ، وَصَلَاحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالتَّنْفِيسِ عَنِ الْمَأْسُورِينَ .

فَأَمْضَيْنَاهُ عَلَى شَرَائِطِهِ ، وَتَرَاضَيْنَا جَمِيعًا بِهِ ، وَعَاقَدْنَاكَ عَلَيْهِ ، وَحَلَفْتَ لَنَا بِالْإِيمَنِ الْمُؤَكَّدَةِ
الَّتِي يَحْلِفُ أَهْلُ شَرِيعَتِكَ بِهَا ، وَيَتَخَرَّجُونَ مِنَ الْحَنْثِ فِيهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ ، وَأَشْهَدْنَا عَلَى
نَفْسِنَا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ اللَّهُ جَلَّ شَأْؤُهُ ، وَمَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّرِينَ ، وَأَنْبِيََاءَهُ الْمُرْسَلِينَ ،
وَأَخَانَا وَعُدَّتَنَا أَبَا حَرْبٍ رِبَارِ بْنِ شَهْرٍ كَوَيْهِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ
الَّذِي جَرَى فِيهِ ذَلِكَ ، بِاسْتِقْرَارِ جَمِيعِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلَزُمِهِ لَنَا وَلَكَ .

ثُمَّ حَضَرَ بَعْدَ تِمَامِ هَذِهِ الْمَوْافَقَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا ، وَثُبُوتِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا ، قُسْطَنْطِينُ
ابْنُ بَيْنِيرٍ أَخُو وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ ، وَأَرْمَانُوسُ بْنُ وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ ، فَوْقًا عَلَى هَذَا
الْكِتَابِ ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، وَاسْتَوْعَبَاهُ مَعْرِفَةً ، وَشَهِدَا عَلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ مَلِكِ الرُّومِ
بِإِقْرَارِهِ بِهِ ، وَالتَّزَامِهِ إِيَّاهُ . ثُمَّ تَبَرَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنْ أُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ التَّمَسُّكُ
بِهِ وَالْمُقَامُ عَلَيْهِ مَتَى قَامَ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ فِيمَا هُوَ مَوْسُومٌ بِهِ مِنْ مَلِكِ الرُّومِ ، وَجَعَلَ
جَمِيعَ الشَّرَاطِ النَّابِتَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَعْقُودِ بَعْضُهَا بِبَعْضِ أَمَانَةٍ فِي ذِمَّتِهِ ، وَطَوَقًا
فِي عُنُقِهِ ، وَعَهْدًا يُسْأَلُ عَنْهُ ، وَحَقًّا يُطَالَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِهِ ، وَصَارَ هَذَا الْعَقْدُ
جَامِعًا لَهُمْ وَلَنَا ، وَلِأَوْلَادِنَا وَأَوْلَادِهِمْ ، وَعَقَبِينَا وَعَقَبِهِمْ ، مَاعِشْنَا وَعَاشُوا ، يَلْزِمُنَا
وِلَايَتُهُمُ الْوَفَاءُ بِمَا فِيهِ عَلَيْنَا وَعَالِيهِمْ ، وَلَنَا وَلَهُمْ ، عَلَى مُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَآخْتِلَافِ
الْأَدْوَارِ وَالْأَعْوَامِ .

أَمْضَى وَأَنْفَذَ صَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيجَارِ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى شَرَائِطِهِ
وَحُدُودِهِ ، وَالتَّزَمَهُ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ الْمَعْرُوفُ بِسَفْلَارُوسَ مَلِكِ الرُّومِ ، وَأَخُوهُ

قُسْطَنْطِينُ ، وابنه أَرْمَانُوسُ بن وردس بن بينير ، وَصَّيُوا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَأَثْمَدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ بِالرَّضَا بِهِ ، طَائِعِينَ غَيْر مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لَا عِلَّةَ بِهِمْ مِنْ مَرِيضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفَسَّرَهُ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ مِنْ وَثْقٍ بِهِ ، وَفَهَّمُوا عَنْهُ ، وَفَقَّهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وَأَحَاطُوا عِلْمًا وَمَعْرِفَةً بِهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِثَارِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ فِي ذَلِكَ حَظًّا لَهُمْ ، وَصَلَحًا لِسَانِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثَةَ .

وَقَدْ كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِ نُسَخٍ مُتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِّدَتْ اثْنَتَانِ مِنْهَا بِدَوَاوِينَ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَلِمَتْ الثَّالِثَةُ إِلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرِ مَلِكِ الرُّومِ وَأَخِيهِ وَابْنِهِ الْمَذْكُورَيْنِ مَعَهُ فِيهِ .



وهذه نُسخة هُدِيَتْ مِنْ مَلِكٍ مُضْعُوفٍ لِمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ^(١) ابْنُ أَحَدُ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمُهَدِّيِّ بْنِ تَوْصَرْتِ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوَحِّدِينَ ، مَعَ « دُونِ فِرَانْدَةِ » صَاحِبِ قَشْنَالَةَ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ بِعَقْدِ الصُّلْحِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِشْرَاحِهِ ، وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِنْجَادِهِ ؛ نِيَابَةً عَنْ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادِنَا إِلَى أَوَامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَآرَائِهَا الْهَادِيَةِ . عَقْدْنَاهُ - وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ - لِقَشْنَالَةَ مَعَ فَلَانِ النَّائِبِ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مُرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمُبْجَلِ « دُونِ فِرَانْدَةِ » مَلِكِ قَشْنَالَةَ ، وَطَلِيطَةَ ، وَقُرْطُبَةَ ، وَلِيُونَ ، وَبَلَنْسِيَّةِ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَمِيزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مَخْتُومٌ بِطَابِعِهِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارِفِ عَنْهُ ، تَقْوِيضًا مِنْهُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعَقَّدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَعَاقِدُنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

السَّلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورِ لعَامَيْنِ أَشْنين ، أَوَّلُهَا شَهْرُ الْحَرَمِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ سَنَةِ
تَارِيخِ هَذَا الْكِتَابِ ، الْمَوَافِقُ مِنَ الْأَشْهُرِ الْعَجَمِيَّةِ شَهْرَ كَذَا ، عَلَى جَمِيعِ مَا تَحْتِ نَظَرَانَا
الْآنَ مِنَ الْبِلَادِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الدَّعْوَةِ الْمَهْدِيَّةِ - أَسْمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى - حَوَاضِرِهَا
وَتُغَوِّزِهَا ، مَوَاسِطِهَا وَأَطْرَافِهَا ، مِنْ جَزِيرَةِ شَقَرٍ إِلَى بَيْتَةِ الْمَنْصُورَةِ وَمَا يَلِيهَا
- حَرَسَ اللَّهُ جَمِيعَهَا - سِلْمًا مَحَافِظًا عَلَيْهَا مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَحْفُوظًا عَهْدَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ ؛
لَا غَدْرَ فِيهَا ، وَلَا إِخْلَالَ فِي مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا ؛ وَلَا تُشْنُ فِي مُدْنِهَا غَارَهُ ، وَلَا تَذَعُرُ
سَيَّارَهُ ، وَمَهْمَا وَقَعَ اغْوَارٌ ، أَوْ حَدَثَ اقْدَارٌ ، عَلَى جِهَةِ الْمَجَاهِرَةِ ، إِذَا اتَّصَلَتْ
وَالْمُسَاوَرَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ جِهَةِ النَّصَارَى ، فَعَلَى مَلِكِ قَشْتَالَةِ تَسْرِيحِ الْأَسَارَى ، وَرَدُّ
الْغَنَائِمِ وَالنَّهْبِ ، وَالْإِنْصَافِ مِنَ الْغَنِيمَةِ إِنْ عُدِمَتِ الْعَيْنُ ، وَأَعُوْزَ الطَّلَبِ . وَعَلَيْنَا
مِثْلُ ذَلِكَ سَوَاءً ، لِيَقَابَلَ بِالْوَفَاءِ هَذَا بَعْدَ أَنْ يَتَّبَعَ الْأَمْرُ وَيُعْلَمَ مِنْ أَيْنَ كَانَ .

وَمِنْ هَذِهِ الْمَهَادَنَةِ أَنْ لَا يُتَسَبَّبَ إِلَى الْحُصُونِ بِالْغَدْرِ وَلَا بِالشَّرِّ ، وَلَا يَتَجَاوَزَ
النَّصَارَى حُدُودَ بِلَادِهِمْ وَأَرْضِهِمْ بَشَيْءٍ مِنَ الْبِنَاءِ ، وَلَا يَصِلَ مِنْ بَلَدٍ قَشْتَالَةَ مَدَدِّ
لُحَاظِنَا ، وَلَا مَعُونَةٍ لِمُفَاتِنَا . وَكُلُّ مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي الطَّاعَةِ
مِنْ الْبِلَادِ بَعْدَ هَذَا الْعَقْدِ فَدَاخِلٌ فِي السَّلمِ ، بِزِيَادَةِ نِسْبَتِهِ مِنَ الْمَالِ الَّذِي هُوَ شَرْطُ
فِي صِحَّةِ هَذَا الْحُكْمِ . وَإِذَا بَقِيَ مِنْ مُدَّةِ هَذِهِ الْمُسَالَمَةِ شَهْرَانِ أَشْنَانِ ، فَعَلَى مَلِكِ قَشْتَالَةِ
أَنْ يُعْلِمَنَا بِغَرَضِهِ فِي الْمَهَادَنَةِ أَوْ سِوَاهَا ، إِعْلَامًا مِنْ مَذَابِ الْوَفَاءِ أَوْ نَاقِضِهَا .

وَقَدْ أَلْتَزَمَ رَسُولُ الْمَذْكُورِ لَنَا هَذِهِ الشَّرُوطَ ، وَأَحْكَمَ مَعَنَا - نِيَابَةً عَنْهُ فِيهَا -
الْعُقُودَ وَالرُّبُوطَ ، عَلَى كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَالتَزَمْنَا فِي هَذَا السَّلمِ الْمَلِكُ قَشْتَالَةَ الْمَذْكُورَةِ
- مَكافأةً عَنْ وِفَاءِ عَهْدِهِ ، وَصِحَّةِ عَقْدِهِ - مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَاحِدَةً ، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ
فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ عَامِي هَذَا الصُّلْحِ الْمَقْدَمِ الْوَصْفِ ، مَقْسَمًا ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَتْجَمِ

في العام، ليتقاضاها نِفَاتُهُ، وَيُوفَّى عَيْنَهَا عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ، قَبَضَ مِنْهَا كَذَا لِيُوصِّلَهَا إِلَى مُرْسَلِهِ، وَالتَّزِمَ لَهُ تَخْلِيصُ بَاقِي كَذَا عِنْدَ آتِقَضَاءِ كَذَا عَلَى أَوْفَى وَجْهِهِ وَأَكْمَلِهِ؛ فَإِنْ وَفَّى لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْمُؤَقَّتَةَ، فَالسَّلَامُ بِأَقِيَّةٍ وَحُكْمًا ثَابِتًا، وَإِلَّا فَالسَّلَامُ مَفْسُوحَةٌ وَلَا حُكْمَ لَهَا إِنْ عَجَزَ عَنِ الْوَفَاءِ لَهُ، بِحَصُولِ مَا بَقِيَ مِنَ الشُّرُوطِ فِي اسْتِصْحَابِ الْحُكْمِ وَاتِّصَالِ الْعَمَلِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَعَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذَا الْكِتَابُ أَمْضَى فَلَانٌ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ النِّيَابَةِ، عَنِ الْأَمْرِ الْعَالِي - أَسْمَاهُ اللَّهُ - هَذَا الْعَقْدُ الصَّالِحِي، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَةِ الْمَفْسَلِ طُورِ (?) الْمَذْكُورِ، فَتَرْجِمَ لَهُ الْكِتَابُ وَبَيَّنَتْ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقَرَّرَ عَلَى مَضَامِينِهِ، فَالْتَزَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ مُرْسَلِهِ مَلِكٍ قَشْتَالَةَ حَسَبَ مَا فُوضَ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي صِحَّتِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ فِيمَا قَضَاهُ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامُ .

المذهب الثاني

(أَنْ تُفْتَحَ الْمُهَادَنَةُ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بَعْدِيَّةً)

وهذه نُسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ بَيْنَ مَلَائِكَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ دُونَ تَقْرِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ الْمَحْدِّثُ أَبُو الرَّبِيعِ بْنُ سَالِمٍ مِنْ كُتَّابِ الْإِنْدُلِسِ، فِي عَقْدٍ صَالِحٍ عَلَى بَلَنَسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ شَرْقِ الْإِنْدُلِسِ، وَهِيَ :

وَبَعْدُ، فَهَذَا كِتَابُ مُوَادَعَةٍ أَمْضَى عَقْدُهَا وَالتَّزِمَهُ، وَأُبْرِمَ عَهْدَهَا وَتَمَمَهُ؛ فَلَانٌ لِلْمَلِكِ أَرْغُونٍ، وَقَوْمُ بَرْجُلُونَةَ، وَيَرْسَبُ مَقْتِ بَشْلَى، حَافِظَةُ (?) بِنَاطُورَةَ، بِنَ أَدْفُونَشَ، أَبْنِ رَيْمُونَدَ، أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتَمًا وَعِنَاوَانًا، الْمَعْهُودُ صَدُورُهُ فِي أَمْثَالِهَا مِنَ الْمَرَاوِضَاتِ الصُّلَحِيَّةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا؛ مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه ، والتفويض في إبرام أسبائها والتزام فصولها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب صحيح النظر ، وصريح الرأي المُعْتَبَر ؛ مُقَارَبَةً فِيهِ ، وَوُفَاقَةً مِنْهُ عَلَى مَا يَحْفَظُ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ وَيُوقِيهِ ، جُنُوحًا مِنْهُ إِلَى مَا جَنَحَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مُتَقَاضِيهِ ، وَتَحَرُّيًا لِلْعَمَلِ عَلَى شَاكِلَةِ الصَّوَابِ وَالْإِثَارِ لِمَا يَقْتَضِيهِ ، بَعْدَ مُحَاوَلَاتٍ بَلَغَ مِنْهَا النَّظَرُ غَايَتَهُ مِنَ الْجَهْدِ ، وَإِرَاغَاتٍ قَرَنَ بِهَا مِنْ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِنْجَادِهِ مَا رَضَى فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ الْعَمِيمِ مَعَهُودِ التَّسْهِيدِ وَالْإِنْجَادِ ؛ فَأَجَلَى ذَلِكَ عَنْ إِمْضَاءِ عَهْدِ السَّلَامِ لِلْمَلِكِ أَرْغُونَ عَلَى بَلَنَسِيَّةٍ وَكَافَّةٍ جِهَاتِهَا أَطْرَافًا وَمَوَاسِطَ ، وَتُغَوَّرًا وَبَسَائِطَ ؛ وَكَذَلِكَ شَاطِئَةُ وَدَانِيَةِ ، وَمَا يَنْتَظِمُ مَعَهُمَا مِنْ أَحْوَازِهِمَا وَيَرْجِعُ إِلَى حُكْمِ بَلَنَسِيَّةٍ وَحَاطِلِهَا مِنْ الْجِهَةِ النَّائِيَةِ وَالِدَانِيَةِ ؛ لِمَدَّةٍ عَامَيْنِ اثْنَيْنِ ، شَمْسِيَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ ، وَأَيَّامٍ مُتَّصِلَةٍ بِهِمَا كَذَلِكَ . وَهَذَا يَحْصُرُ أَمْرَهُ ، وَيُحَقِّقُ عَدَدَهُ ؛ أَنْ نَفْتَحَهُ بِيَوْمِ الْأَحَدِ الرَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ لَشَهْرِ نَوْرِ ، الْمُوَافِقِ لِعَاشِرِ ذِي الْقَعْدَةِ الْمُؤَرَّخِ بِهِ هَذَا الْكِتَابُ ، الَّذِي هُوَ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَعَشْرِينَ وَسِمَّائِيَّةٍ بِتَارِيخِ الْحَجَرَةِ - مُسَالَمَةٍ تَضَعُ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ أَوْزَارَهَا ، وَتُمَهِّدُ لِلْهُدَنَةِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ آثَارَهَا ، وَتَرْفَعُ اللَّبَنَةَ (؟) عَنْ ذِكْرِ مِنَ الْمَلْتَيْنِ أَذْيَتَهَا وَأَضْرَارَهَا ؛ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِي ذَلِكَ سَيَّانٍ ، وَالْمُسَاوَرَةِ فِيهَا بِالْأَذَى وَالْمُجَاهَرَةِ مُمْنُودَانِ ، وَحَقِيقَةُ الْأَلَزِمِ مِنْ ذَلِكَ غَنَى بَيَانِهِ وَوُضُوحِهِ عَنِ الْإِيضَاحِ وَالتَّبْيَانِ ؛ لَا الْتِبَاسَ وَلَا إِشْكَالَ ، وَلَا غَائِلَةَ وَلَا أَحْثِيَالَ ؛ لَيْسَ إِلَّا الْأَمْنُ الْكَافِلُ لِكَافَّةٍ مِنْ تَشْتِمَلُ عَلَيْهِ كَافَّةُ الْمَوَاضِعِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْ تَحْوِيهِ بِالْأُدْمَلِكِ أَرْغُونَ مِنَ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَ . وَكُلُّ مُنْتَمٍ إِلَى خِدْمَةِ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ الْأَرْغُونِيَّةِ بِمَا كَانَ مِنْ وَجْهِهِ الْأَنْتِمَاءِ ، أَوْ نَازِلٍ فِي جُزْءٍ مِنْهَا كَانَتْ مَا كَانَ مِنَ الْأَجْزَاءِ ؛ فَهُوَ فِي هَذَا الْحُكْمِ دَاخِلٌ ، وَتَحْتَ هَذَا الرِّبْطِ الصُّلْحِيِّ وَاصِلٌ ؛ وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ حِصْنٌ يَنْفَرِدُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ ، عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَوَائِدِ الْمُسْتَعَارَفَةِ . فَإِنْ تَقَضَّ بَعْزٌ مِنْهُ وَذَهَبَ إِلَى أَنْ يَكُونَ فِي حِصْنِهِ مُنْفَرِدًا فَهُوَ

وما آختر، إذا تنكَّب الإضرار، فإن رام التطرُّق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغون التطافر على استنزاله، والتظاهر على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره.

والحدود الفاصلة بين الجزأين هي أوساط المسافات، على ما عُرِف من مُتقدِّم المسلمات؛ ويدَّكُلُ فَرِيقٌ منهم مُطلقةً فيما وراءَ حدِّه بما شاء، من إنشاء برسم الإصلاح والانشاء؛ وكلٌّ من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونية بريئاً من تبعَةِ الفساد فقبُولُ قصِّده مُباح، وليس في استخدايمه والإحسان إليه جناح؛ والطريق للتجار المعهود وُصُولُهُمْ من بلاد أرغون إلى بلنسية في البرِّ والبحر مباحة الأنتياب، محموفة بالأمانة التامة في الحيثة والذهاب؛ وعلى تجار البحر منهم أن يتجنَّبوا رُكوب الأجفان الحرِّيَّة التي يُمكِنُ بها الإضرار، ويستغنى عن (١) التجار؛ والاسترهابُ مرفوعٌ عن هؤلاء الواصلين برسم التجارة على اختلافهم، وتبائين أصنافهم؛ فيما لم تجنِّه أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعديهم؛ وكلُّ مُعتَقِلٍ من الطائفتين بأذى شيء يطرق إلى حكم هذه السِّلْمِ خلافاً، أو يلحق بعهدِها إخلالاً؛ فعلى أهل موضعه الإنصاف ممن جناه، وصرف ماسلته يداه، وإحضاره مع ذلك ليعاقب بما أتاه. وليس لأحدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ باسترسال، إلى الإنصاف من جنابة حال؛ بل يقوم بدفع ذلك حيث يُحب، ويطلبه في الموضع الذي ينبغي فيه الطلب؛ حتى يخاطب الناظر على المملكة التي تُسبِت إليها هذه الإذايه، وصدرت عن أهلها [تلك] الجنابة؛ يطلب الإنصاف من عدوانها، وتعادُ عليه الأعذارُ في شأنها؛ وعليه - ولا بُدَّ - التخليص منها عملاً بالوفاء الذي يوجب العمل به، وقِياماً بحق العهد الذي أُكِّد الاعتلاق بسببه؛ ومتى غادر مغادرٌ من أحدِ الملتين حصناً من حصون

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوها ».

الأخرى فله الأمان على الكمال، والرعى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يلحق بأمنه، ويعود سائلاً إلى وطنه.

فعلى هذه الشروط المحققة، والربوط الموثقة، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سمي من أهل الملتين؛ وألزم كله عن ملك أرغون النائب عنه بتقويضه إليه، واستنابته إياه عليه؛ الزعيم بطره ابن فدايف ككدريش (?) على أتم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوثق علائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك ووصول كتاب هذا الملك الذى تولى النيابة عنه فى هذا العقد، مصرحاً بالآتزامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذى أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً لمناه، وتوثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى.

النوع الثانى

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً)

وفى الكتاب ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول

(أن تفتح الهدنة بلفظ : «هذه هدنة» ونحو ذلك)

قال فى "التعريف" : وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد التسمية : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجلاً ينتهى إليه؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحسبت به مواد

الآمال الطامعه ؛ تأكدت بينهما أسبابها ، وفُتحت بهما أبوابها ؛ وعليهما عهد الله على الوفاء بشرطها ، والانتهاى إلى أمدها ، ومدّ حبيل للموادة إلى آخر مددها ؛ ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدة ، وهى مدة كذا وكذا ؛ على أن كل واحد منهما يُعْمَدُ بینه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتُعَقَلُ الرماح الخطارة ، وتُقرَّ على صراطها الخيل المغيرة ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وما فى بلاد كل منهما من الثغور والأطراف والموانى والرساتيق والجهات والأعمال : برا وبحرا ، ومهلا وجبلا ، ونائيا ودائيا ، ومن فيها : من مايكها المسمى وبنيه ، وأهله وأمواله ، وجنوده وعساكره ، وخاص من يتعلّق به وسائره ؛ وروايه على اختلاف أنواعهم ، وعلى أفرادهم واجتماعهم ؛ البادى والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتجار والسفارة ، وجميع المترددين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا و [على فلان] كذا [ويعين مايعين] ^(١) : من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة فى حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقه المقرر بواجبه ؛ وعليهما الوفاء المؤكّد الموثيق ، والمحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق - هدنة صحيحة صريحة ، نطقا بها ، وتصادقا عليهما ، وعلى ما تضمّنته المواصفة [المستوعبة بينهما فيها ، وأشهدا الله عليهما بضمونها ، وتوثقا على ديونها ، وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمّنته من المواصفة] ^(١) ، وجرّت بينهما على حكم المناصفة ، رأيا فيها سُكون الجمّاح ، وغَضَّ طرف الطّاح .

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعية ، وحملهم فى قضاياهم على الوجوه الشرعية ؛ ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أعيد ، وما أخذ منها باليد الغاصبة استعيد ؛ وبهذا تمّ الإشهاد ، وقُرئ على المسامع على رؤوس الأئمة .

المذهب الثاني

(أن تُفتَحِ الْهُدْنَةُ : بلفظ : « أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ »)

ويقدم فيه ذِكْرُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ)

وعلى ذلك كانت الْهُدْنُ تُكْتُبُ بَيْنَ مَلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَبَيْنَ مَلُوكِ الْفَرَنْجِ ، الْمُتَغَلِّينَ عَلَى بَعْضِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ .

وهذه نُسخة هُدْنَةٍ عَلَى هَذَا النَّمَطِ : دُونَ تَقْرِيرٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ؛ كُتِبَتْ بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ « بَيْبَرَسِ الْبَنْدُكْدَارِي » صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَبَيْنَ الْأَسْبِتَارِ^(١) بِحُصْنِ الْأَكْرَادِ وَالْمَرْقَبِ ، فِي رَابِعِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ نَحْمِسٍ وَسِتِّينَ وَسِمِّائَةٍ ، وَهِيَ :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَيْمُونَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ أُنَى الْفَتْحِ « بَيْبَرَسِ » الصَّالِحِي النَّجْمِيِّ ، وَبَيْنَ الْمُقَدَّمِ الْكَبِيرِ الْهَامِ فُلَانٍ مُقَدَّمِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ الْفُلَانِي بَعْكَا ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَبَيْنَ فُلَانٍ مُقَدَّمِ حِصْنِ الْأَكْرَادِ ، وَبَيْنَ فُلَانٍ مُقَدَّمِ حِصْنِ الْمَرْقَبِ ، وَجَمِيعِ الْإِخْوَةِ الْأَسْبِتَارِ ، لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنَيْنَ مُتَوَالِيَةٍ وَعَشْرَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ وَعَشْرِ سَاعَاتٍ : أَوَّلَهَا يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ رَابِعُ رَمَضَانَ سَنَةِ نَحْمِسٍ وَسِتِّينَ وَسِمِّائَةٍ مِنْ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ،^(٢) الْمُوَافِقُ لِلْيَوْمِ الثَّلَاثِينَ مِنْ أَيَّامِ سَنَةِ أَلْفٍ وَتَحْسِمِائَةٍ وَتِسْعَةِ وَسَبْعِينَ سَنَةٍ

لِلْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى أَنْ جَمِيعَ الْمَمْلَكَةِ الْخَمِصِيَّةِ وَالشَّيْزَرِيَّةِ وَالْحَمْجَوِيَّةِ وَبِلَادِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَاقَعَ عَلَيْهَا الْإِتْفَاقُ الْمُبَارَكُ ، وَفُسِّقَتْ لَهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ الْمَيْمُونَةُ بِجَمِيعِ حُدُودِ هَذِهِ الْمَمَالِكِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَبِلَادِهَا الْمَوْصُوفَةِ ؛ وَقُرَاهَا وَضِيَاعِهَا ، وَسَهْلِهَا وَجَبَلِهَا ، وَعَامِرِهَا وَغَامِرِهَا ، وَمَرْزُوعِهَا وَمُعْطَلِهَا ، وَطُرُقَاتِهَا وَمِيَاهِهَا ، وَقِلَاعِهَا

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة في الكتب العربية بالاسبتارية .

(٢) بياض بالأصول .

وحُصُونِهَا - عَلَى مَا يُفَصِّلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُشْرَحُ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلدَّعَةِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقرَّ بِمَمْلَكَةِ حِمَصَ المحروسة أن جميع المواضع والقُرَى والأراضي التي من نَهْرِ الْعَاصِي، وتغرب إلى الحدِّ المعروف من الْعَرَبِ لِبَلَدِ الْمُنَاصِفَاتِ : عامًّا وادِّارًا، وبما فيها من الغلات صِيفِيَا وَشَتَوِيَا، والعداد وغيرِها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النِّصْفُ من ذلك للسلطان الملك الظاهر رُكْنِ الدِّينِ والدين أبي الفتح «بيبرس»، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِار .

وعلى أن كلاً من الجهتين يَتَّهَدُ وَيَحْرِصُ في عمارة بَلَدِ الْمُنَاصِفَاتِ المذكورة بِجُهدِهِ وطَاقَتِهِ، ومَن دخل إليها من الفلاحين بدَوَابٍّ، أو من التُّركِمان، أو من الْعَرَبِ، أو من الْأَكْرَادِ، أو من غيرهم، أو الْقُنَاةَ - كان عليهم الْعِدَادُ بِكَارِي الْعَادَةِ . ويكون النِّصْفُ للسلطان، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِار .

وعلى أن الملك الظاهر يُمْنِي بَلَدَ الْمُنَاصِفَاتِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهَا من جميع عَسْكَرِهِ وَأَتْبَاعِهِ، ومَن هو في حُكْمِهِ وطَاعَتِهِ، ومن جميع المسلمين الدَّاخِلِينَ في طَاعَتِهِ كَافَّةً . وكذلك مُقَدَّمُ بَيْتِ الْإِسْتِارِ وأصحابُهُ يَحْمُونَ بِلَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الدَّاخِلَةِ في هذه الْهُدْنَةِ .

وعلى أن جميع من يتعدَّى نَهْرَ الْعَاصِي مُغَرَّبًا لِرَعْيِ دَوَابِّهِ : سواءً أَقَامَ أو لَمْ يَقُمْ، كان عليه الْعِدَادُ سِوَى قُنَاةِ الْبَلَدِ ودَوَابِّهِ، ومن يخرجُ من مَدِينَةِ حِمَصَ ويعودُ إليها، ومن غَرَّبَ منهم ومات كان عليه الْعِدَادُ .

وعلى أن يكون أمرُ فَلَاحِي بَلَدِ الْمُنَاصِفَاتِ في الْحَبْسِ والإِطْلَاقِ وَالْحَبَايَةِ راجعاً إلى نَائِبِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، بِاتِّفَاقٍ من نَائِبِ بَيْتِ الْإِسْتِارِ، على أن يحْكَمَ فِيهِ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ إن كان مُسْلِمًا، وإن كان نَصْرَانِيًّا يحْكَمُ فِيهِ بِمُقْتَضَى دَوْلَةِ حِمَصَ الْأَكْرَادِ .

وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفت جميعها مُطْلَقِينَ من السَّخَرِ من
الجانين .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصفت المذكورة : من تُرْكَانٍ ولا عَرَبٍ
ولا أَكْرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوق بَلَدِ المناصفت ، إلا وَيَكُونُ النِّصْفُ
منه لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، والنِّصْفُ الآخرُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يَتَقَدَّمُ بمنع أَحَدٍ من الفَلَّاحِينَ المعروفين بِسُكْنَى بلاد
المناصفت من الرجوع إليها ، والسَّكَنِ فيها إذا أَخْتَارُوا العُودَ . وكذلك بَيْتُ الأَسْتَبَارِ
لا يمنعون أَحَدًا من الفَلَّاحِينَ المعروفين بِسُكْنَى بلاد المناصفت من الرجوع إليها
والسَّكَنِ فيها إذا أَخْتَارُوا العُودَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يمنعُ أَحَدًا من العُرَبَانِ والتُّرْكَانِ وغيرهم : مِمَّنْ يُودَى
العِدَادُ ، من الدُّخُولِ إلى بَلَدِ المناصفت ، إلا أن يكونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَنْجِ الداخلين
في هذه الهدنة ، فله المنع من ذلك . وأن تكونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظَّاهِرِ وخُشَارَاتُ
عساكرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وأهل بَلَدِهِ تَرَعَى في بلد المناصفت آمِنَةً من الفَرَنْجِ والنَّصَارَى
كَافَّةً . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْتَبَارِ وخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وأهل بَلَدِهِمْ
تَرَعَى آمِنَةً من المسلمين كَافَّةً في بَلَدِ المناصفت . وعند خروج الخُشَارَاتِ من المَرَاغَى
وتَسْلِيمِهَا لأَصْحَابِهَا ، لا يُؤْخَذُ فيها حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعَارَضُ من الجهتين .

وعلى أن تكونَ مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةُ مَوْحَا تَحْصَلَ مِنْهَا ، يكونُ النِّصْفُ منه
لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ . وكذلك المَصَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ الغَرْبِيِّ من
العاصِي يكونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ . ويكونُ لِبَيْتِ
الأَسْتَبَارِ في كُلِّ سَنَةٍ خَمْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ القَشِّ ، ويكونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ
الظَّاهِرِ يَتَصَرَّفُ نَوَابُهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . ويكونُ اللَّيْنُوفُ مَنَاصِفَةً : النِّصْفُ

منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاسبتار، الذي كان حصل الحرب فيه، والبستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاسبتار أيضا يكون مناصفة . وأن يكون متولى أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتولى أمرهما والتصرف فيهما وقبض منحصلاهما . وتقرر أن مهما يمدده بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقي البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار .

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة ، فهي شيزر ، وأبو قيس وأعماله ، وعيناب وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها ، وقراها المستقرة بها ، وسبلها وجبلها وعامرها وغايرها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور ، ناصر الدين « محمد » بن الملك المظفر أبي الفتح « محمود » بن الملك المنصور « محمد » بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي : حماة المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراها وسبلها وجبلها وأنهارها ، ومنافعها وثمارها وعامرها وغايرها ، وبلاد رقية وبلاد بارين بحدودها ونحومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها وما فيها - على أن الملك المنصور لا يرخص للتركان ولا للعرب أن ينزلوا بلاد رقية وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون القلعة لبارين ، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاسبتارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من الفرنجية في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فإن أنكشفت الأخيذة ،

أُعِيدَتْ . وَإِلَّا تُحْلَفَ الْجِهَةُ الْمَدْعَى عَلَيْهَا أَنَّهَا مَا عَلِمَتْ وَمَا أَحَسَّتْ ، وَكَمَا لَهُمْ ،
كَذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

والمستقر لمملكة الصالحين : تَجَمُّ الدِّينِ وَجَمَالِ الدِّينِ ، وَالْأَمِيرِ صَارِمِ الدِّينِ نَائِبِي
الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَوَلَدِ الصَّاحِبِ رَضَى الدِّينِ ، وَهِيَ : مُصَيِّفُ وَالرِّصَافَةُ وَجَمِيعُ
قِلَاعِ الدَّعْوَةِ وَحُصُونِهَا وَسَهْلِهَا وَغَيْرِهَا وَدَامِرِهَا وَدَائِرِهَا ، وَمُدْنُهَا وَبِلَادِهَا ،
وَضِيَاعِهَا وَطُرُقَاتِهَا ، وَمِيَادِهَا وَمَنَازِعِهَا ، وَجَمِيعُ بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِجَبَلِ بَهْرَا وَاللُّكَّامِ ،
وَكُلُّ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ حُدُودُ بِلَادِ الدَّعْوَةِ وَتَحْتَوِيهَا - أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ آمِنِينَ مِنْ عَلَى
الرَّصِيفِ الَّذِي يَسْزِرُ إِلَى نِهَازِ الْأَرَاضِي اتِّي بِحُصُونِ الدَّعْوَةِ وَبِلَادِهَا . وَحِمَايَةُ
الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِعَرْطَارِ (؟) يَكُونُ لَهُ أَسُوءُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ . وَإِنْ عَلِمَ الْأَصْحَابُ أَنَّ أَحَدًا
مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ قَدْ عَبَّرَ إِلَى بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ لِأَذِيَّةٍ ، أَعْلَمُوا بَيْتَ الْأَسْبِتَارِ قَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ
أَذِيَّةٌ ، وَمَا لَمْ يُعْلَمُوا بِهِ عَلَيْهِمُ الْيَمِينُ أَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَحْلِفُوا يَرُدُّوا الْأَذِيَّةَ
الَّتِي تَجْرِي .

وَتَقَرَّرُ أَنَّ يَكُونَ فَلَا حُجُوبَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ رَائِحِينَ وَغَائِبِينَ وَمَتَصَرِّفِينَ فِي بَيْعِهِمْ
وَشِرَائِهِمْ ، مَطْمَئِنِّينَ لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ . وَكَذَلِكَ جَمِيعُ فَلَا حِجَ بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ
لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْأَسْبِتَارِيَّةِ ، وَإِنْ
تَعَدَّى أَحَدٌ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي سُوقٍ أَوْ طَرِيقٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، تَكُونُ الْمَهْلَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ
يَوْمًا ؛ فَإِنْ رَدَّتِ الشَّكْوَى كُلُّهَا فَمَا يَكُونُ إِلَّا الْخَيْرَ بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ الْيَمِينُ
حَلَفَ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ يَحْلَفْ وَإِلَّا يَرُدُّ الْأَذِيَّةَ . وَتَكُونُ الضَّيْعَةُ الَّتِي رَهْنًا عَبْدُ الْمَسِيحِ
رَئِيسُ الْمَرْقَبِ الْأَسْبِتَارِ ، وَهِيَ الْمَشِيرَةُ تَكُونُ أَمْنَةً إِنْ كَانَ الْحَالُ أَسْتَقَرَّ عَلَيْهَا إِلَى
أَخْرُوقَتٍ عِنْدَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ بَيْنَ الْأَصْحَابِ وَأَصْحَابِهِمْ . وَيَحْمِلُ الْأَمْرُ
فِي الْحَقِيقَةِ .

ويطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبثت الاستتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومية، ونحسون مئدا حنطة، ونحسون مئدا شعيرا، ولا تبقى قطعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الاستتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقة مما يختص بالملكة الحصرية، يستزق بها الصعاليك . وأن نواب الملك الظاهر يجمعونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن نواب بيت الاستتار يصونونهم ويحرسونهم ويجمعونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستتارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الحارية في يد نواب الاستتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد ممن يجب عليه العدا وأتبع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضرا : إما عداد ديوان الملك الظاهر، وإما عداد بيت الاستتار، فلنائب العدا الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص المتنع عن العدا أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العدا، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصقات، ويترك الرهن عند الرئيس ودية إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العدا .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العدا، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على النواب إيصال بيت الاستتار إلى حقهم

مما يجب على الخارج من العِدَاد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حَقَّهُم مما يجب على الخارج من العِدَاد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحَمَوِيَّة وبلاد الدَّعوة المحروسة .

وعلى أن التجَّار والسَّفَّار والمتردِّدين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمِنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنَّصرانيَّة، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدَّواب وما يتعلق بهم، يحميهم السُّلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصُّلح وفي بلد المناصفات - من جميع المسلمين . ويحميهم بيت الاستتار في بلادهم الواقع عليها الصُّلح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردَّد التجَّار والمسافرون من جميع المتردِّدين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفات ، وخاصَّ بيت الاستتار والمناصفات ، يكون السَّاكنون والمتردِّدون في الجهتين آمِنين مُطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . لا يكون عِدَادٌ على ما لها في المناصفات : من الدَّواب والغنم والبقر والجمال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرُّسائ يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقَف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أُعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حَلَف ثلاثة

نَقَرٍ مِّنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْشِفُوا عَنْ الْأَخِيذَةِ بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ؛ فَإِنْ حَلَفُوا بِرُءُوسِهِمْ مِنَ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ آمَنَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمُدَّعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ النَّبَاحِ نَبَاحٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَّاحِ فَلَاحٌ . وَإِذَا انْقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةُ لَكَشَفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَحْلِفِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَحْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكِّمَ، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ ، وَمَعَهُ مَالٌ لِّغَيْرِهِ أُعِيدَ جَمِيعُ مَالِهِ ، وَكَانَ الْهَارِبُ مَخِيرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَخَرَجَ عَنْ دِينِهِ ، أُعِيدَ ثَمَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي بِلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّرِكْمَانِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَالنَّصَارَى كَافَّةً لِإِغَارَةِ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبِلَادِ مُعَاهِدِيهِ ، [وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ] بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ بَيْتِ الْإِسْبَتَارِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا إِذْنِهِمْ .

وَعَلَى أَنَّ الدَّعَاوِيَ الْمُنْتَقِمَةَ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ يَحُلُّ أَمْرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمُواصَفَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبَيْنَ مُعَاهِدِيهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْإِسْبَتَارِ .

(١) كَذَا فِي الْأَجَلِ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ «وَيَسْتَحِقُّ» كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقُص بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مُقدِّم، إلى آخر المدة المذكورة، وهى : عَشْرَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ وَعَشْرَ سَاعَاتٍ ، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نُوَّابَ الْمَلِكِ الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحداً من التركان ، ولا من العربان، ولا من الأكراد ، يدخل بلاد المناصِفات بغير اتِّفَاقٍ من بَيْتِ الاسبتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم فى هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا تبدؤ منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصِفات وبلد النصارى . ولنواب مولانا السلطان أن تركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار فى غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الاسبتار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما فى المناصِفات، والحدود فى هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحِصية على ما كان مستقرا فى الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين « سنجر » .

هذا ما وقع الاتِّفَاقُ والتراضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه ، وتأكيده لما شرح أعلاه . كُتِبَ فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هُدْنَةٍ من هذا النمط، عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكية يبروت من البلاد الشامية ، فى شهور سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها ، وهى :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين
 الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة آمنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها
 وبلادها التحية مدة عشر سنين متوالية؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة
 سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية -
 على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك
 العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر
 صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام
 الظاهرية، يقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كمها المضافة إليها:
 من حد جليل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب
 بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراوق بحدودها، وسن القيل بحدودها، والرح
 والشويف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها،
 والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية
 بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف
 بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف
 الناس أجمعين، والصّادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمتّرددين
 إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلاؤها وكل ما هو مختص بها،
 والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلاؤها، وجبله والأذقية وقلاعها وبلاؤها، وحمص
 المحروسة وقلاعها وبلاؤها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب
 إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلاؤها وما هو مختص بها، والمملكة الرحيّة وما هو
 مختص بها: من قلاعها وبلاؤها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها
 وبلاؤها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها ورعاياها

وَمَمَالِكُهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الشَّقِيقِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرَعَايَاها، وَالْمَمْلَكَةُ
الْقُدْسِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْحَلَبِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْكَرْكِيَّةُ وَالشَّوْبَكِيَّةُ
وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ الْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ وَالرَّعَايَا، وَالْمَمْلَكَةُ النَّابُلُسِيَّةُ، وَالْمَمْلَكَةُ الصَّرْحَدِيَّةُ،
وَالْمَمْلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةُ جَمِيعُهَا : بَشْغُورُهَا، وَحُصُونُهَا، وَمَمَالِكُهَا، وَبِلَادُهَا،
وَسَوَاحِلُهَا، وَبَرِّهَا، وَبَحْرُهَا، وَرَعَايَاها، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالسَّائِكِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْمَمَالِكِ : الْمَذْكُورَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ وَبِلَادِهِ، وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَى يَدِهِ وَيَدِ نَوَائِبِهِ وَغِلْمَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُنْتَظَمًا فِي جُمْلَةِ
شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغِلْمَانِهَا، وَجَمِيعَ مَنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :
بَرًّا وَبَحْرًا، لِيلاً وَنَهَارًا، وَمَنْ مَرَاكِهَا وَشَوَانِيهَا . وَكَذَلِكَ رَعِيَّةُ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغِلْمَانِهَا
يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمِنْ جَمِيعِ نَوَائِبِهِ وَغِلْمَانِهِ
وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبَحْرًا، لِيلاً وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَاللَّادِيقِيَّةِ،
وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمَنْ مَرَاكِه وَشَوَانِيه .

وَعَلَى أَنْ لَا يُجَدِّدَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التَّجَارِ الْمُرْتَدِّينَ رَسْمٌ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً، بَلْ يُجْرَوْنَ
عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَمَرَّةِ، وَالْقَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
مَالٌ، أَوْ أَخَذَتْ أَخِيذَةً، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مُوجُودَةً،
أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مُفْقُودَةً . وَإِنْ خَفِيَ أَمْرُهَا كَانَتْ الْمُدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،
فَإِنْ وَجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حَلَفَ وَإِلَى تِلْكَ الْوَلَايَةِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، وَحَلَفَ
ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِمَّنْ يَخْتَارُهُمُ الْمُدَّعَى، وَبَرِثَتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمُدَّعَى
عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ حَلَفَ الْوَالِي الْمُدَّعَى، وَأَخَذَ مَا يَدَّعِيهِ . وَإِنْ قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
خَطَأً كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ فِي جِهَتِهِ الْعَوَضُ عَنْهُ نَظِيرُهُ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ،

وَبَرِّكِلْ بَيْرِكِلْ ، وَرَاجِلْ بَرَّاجِلْ ، وَفَلَّاحْ بَفَلَّاحْ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِينِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَالٍ لغيره ، رَدَّ مِنَ الْجَهْتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُعْتَدَرُ بَعْدُ .

وَعَلَى أَنَّهُ إِنْ تَاجَرَ فَرَنْجِي صَدَرَ مِنْ يَبْرُوتَ إِلَى بِلَادِ السُّلْطَانِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ ، وَإِنْ عَادَ إِلَى غَيْرِهَا لَا يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَةَ فَلَانَةَ لَا تُمْكِنُ أَحَدًا مِنَ الْفَرَنْجِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ مِنْ قَصْدِ بِلَادِ السُّلْطَانِ مِنْ جِهَةِ يَبْرُوتَ وَبِلَادِهَا ؛ وَتَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ وَتَدْفَعُ كُلَّ مَتَطَرِّقٍ بِسُوءٍ ، وَتَكُونُ الْبِلَادُ مِنَ الْجَهْتَيْنِ مُحْفُوظَةً مِنَ الْمُتَجَرِّمِينَ الْمُفْسِدِينَ .

وَبِذَلِكَ أُنْعَقَتِ الْهُدْنَةُ لِلْسُلْطَانِ ، وَتَقَرَّرَ الْعَمَلُ بِهَذِهِ الْهُدْنَةِ وَالْإِتْرَامُ بِعَهْدِهَا وَالْوَفَاءُ بِهَا إِلَى آخِرِ مَدَّتَيْهَا مِنَ الْجَهْتَيْنِ : لَا يَنْقُضُهَا مَرُورُ زَمَانٍ ، وَلَا يُغَيِّرُ شَرْطُهَا حِينَ وَلَا أَوَانَ ؛ وَلَا تُقْضَى بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ الْجَانِينِ . وَعِنْدَ أَنْقِضَاءِ الْهُدْنَةِ تَكُونُ التُّجَّارُ آمِنِينَ مِنَ الْجَهْتَيْنِ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَلَا يُمْنَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنَ الْعُودِ إِلَى مَسْتَقَرِّهِ ، وَبِذَلِكَ شَمِلَ هَذِهِ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ الْخَطُّ الشَّرِيفُ حُجَّةً فِيهَا ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ ، فِي تَارِيخِ كَذَا وَكَذَا .



وَهَذِهِ نُسْخَةُ هُدْنَةٍ عُقِدَتْ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَيْرَس» وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَبَيْنَ الْفَرَنْجِ الْإِسْبَتَارِيَّةِ ، عَلَى قَلْعَةِ لُدٍّ بِالشَّامِ ، فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ وَسِتْمِائَةٍ ، وَهِيَ :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ «بَيْرَسِ الصَّالِحِي» قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ نَاصِرِ الدِّينِ «مُحَمَّدَ بَرَكَ خَاقَانَ» خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيْنَ الْمُبَاشِيرِ الْمَقْدَمِ الْجَلِيلِ أَفَرِيزِ أَوْلَدِ كَالِ مَقْدَمِ جَمِيعِ بَيْتِ أَسْبَتَارِ سَرَجَوَانَ بِالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَبَيْنَ جَمِيعِ الْإِخْوَةِ الْإِسْبَتَارِيَّةِ ، لِمُدَّةِ عَشْرٍ سَنِينَ

كواِملَ مُتوَالِيَاتٍ مُتَبَاعَاتٍ ، وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ ، أَوَّلُهَا مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ
وَسِتْمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْحَمْدِيَّةِ ، الْمُوَافِقِ لِلثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ نَيْسَانَ سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ
وَأَثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ لِلْإِسْكَانْدَرِ بْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلْعَةُ لُدٍّ بِكُلِّهَا
وَرَبَضُهَا وَأَعْمَالُهَا ، وَمَا هُوَ مَذْنُوبٌ إِلَيْهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، بِحُدُودِهَا الْمَعْرُوفَةِ بِهَا مِنْ
تَقَادُمِ الزَّمَانِ ، وَمَا آسَتْ قَرَّتْ لَهَا الْآنَ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ : مِنَ الْمَوَاضِعِ ، وَالْمَصَائِدِ ،
وَالْمَلَأَحَاتِ ، وَالْبَسَاتِينِ ، وَالْمَعَاصِرِ ، وَالطَّوَاغِينِ ، وَالْجَزَائِرِ : سَمَائِلُهَا وَجَبَائِلُهَا ،
وَعَامِرِيهَا ، وَدَائِرِيهَا ، وَمَا يَجْرِي بِهَا مِنْ أَنْهَارٍ ، وَيَنْبُعُ بِهَا مِنْ عُيُونٍ ، وَمَا هُوَ مَبْنِيٌّ بِهَا
مِنْ عِمَارَةٍ ، وَمَا اسْتَجَدَّ بِهَا مِنَ الْقَرَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَكُلُّ مَا عُمِّرَ فِي أَرْضِ الْمُنَاصِفَاتِ
عَلَى دُورِهَا وَأَنْهَارِهَا ، وَمَا بِحُدُودِ ذَلِكَ مِنْ نَهْرٍ بِدَرَةٍ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ ، وَمَا آسَتْ قَرَّتْ
لِبَلَدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ مِنَ الْحُدُودِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا وَالْمُسْتَقَرَّةِ
لَهَا ، وَحِصْنِ بَرْغِينَ وَمَا يُنْسَبُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْبِلَادِ وَالضِّيَاعِ وَالْقُرَى الَّتِي كَانَتْ
مُنَاصِفَةً - تَكُونُ جَمِيعُ بِلَدَةِ وَهَذِهِ الْجِهَاتِ خَاصًا إِلَى آخِرِ الزَّائِدِ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ،
وَلَا يَكُونُ لَبَيْتِ الْإِسْبَتَارِ وَلَا لِلرَّقَبِ فِيهَا حَقٌّ وَلَا طَلَبٌ بِوَجْهِهِ وَلَا سَبَبٌ إِلَى حِينِ
انْقِضَاءِ مُدَّةِ الْمُدَّةِ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ الزَّائِدِ ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ جَمِيعِ الْفَرَنْجَةِ فِيهَا تَعَلُّقٌ
وَلَا طَلَبٌ بِوَجْهِهِ وَلَا سَبَبٌ .

وَكَذَلِكَ مَهْمَا كَانَ مُنَاصِفَةً ، كَمَثَلَةِ الْعَلِيقَةِ فِي بِلَادِهَا لَبَيْتِ الْإِسْبَتَارِ ، يَكُونُ
ذَلِكَ جَمِيعُهُ لِلدِّيَّوَانِ الْمَعْمُورِ وَالْخَاصِّ الشَّرِيفِ ، وَلَا يَكُونُ لِلرَّقَبِ فِيهَا شَيْءٌ
وَلَا لَبَيْتِ الْإِسْبَتَارِ .

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا هُوَ فِي بِلَادِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ جَمِيعُهَا وَقِلَاعُهَا مِنَ الْقُرَى - لَا تَكُونُ
فِيهَا مُنَاصِفَةً لَبَيْتِ الْإِسْبَتَارِ وَلَا لِلرَّقَبِ ، وَلَا حَقٌّ ، وَلَا رَسْمٌ ، وَلَا شَرْطٌ ، وَلَا طَلَبٌ

في جميع بلاد الدَّعْوَة : مِصْيَافِ المحروسة ، والكَهْفِ ، والمنيقَةِ ، والقُدْمُوسِ ،
والخَوَاطِي ، والرُّصَافَةِ ، والعليقَةِ . وكلُّ ما هو في هذه القِلاع وفي بلادها من مُناصِفَةٍ ،
يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه خَدِيثٌ
ولا طَلَبٌ .

وعلى أن تكون بلاد المَرْقَبِ وحدودها من نَهْرٍ لَدِّ ومُقَبَّلًا ومُغَرَّبًا إلى حدود بلاد
مَرْقَبَةِ المعروفة بها ، الدَّاخلِ جَمِيعُهَا في الفُتُوحِ الشريف ، وأسْتَقَرَّارِهَا بِحُكْمِ ذلك
في الخاصِّ المبارك الشَّريف ، وَحَدَّ البُيُوتِ المحاذية لسُورِ الرِّبْضِ ، تستقرُّ جَمِيعُهَا
مناصِفَةً بين السُّلْطَانِ وبين بَيْتِ الاسبتارِ نِصْفَيْنِ بالسَّوِيَّةِ ، وما في جميع هذه البلاد :
من بَسَاتِينِ ، وطَوَاحِينِ ، وعِمَائِرَ ، ومَصَايِدَ ، ومَلَاحَاتَ ، ووُجُوهِ العَيْنِ ، والمُسْتَغَلَّاتِ
الصَّيْفِيَّةِ والشَّتَوِيَّةِ ، والقَطَاطِنِ ، والحُقُوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْرُوعٌ من الفدن
لأهل الرِّبْضِ وبياديرها : يكون ذلك مُناصِفَةً بين السُّلْطَانِ وبين بَيْتِ الاسبتارِ
سرجوان بالسَّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وما هو دَاخِلُ الرِّبْضِ وداخل المَرْقَبِ ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِكِ الظاهرِ لِلْقَدَمِ
الكبيرِ افريز أولد كال مقدم بَيْتِ الاسبتارِ سرجوان وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحِمَالَتِهِ
وَرِجَالَتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، بِرِسْمِ إقامتهم وَسُكْنَاهُمْ من داخل الأسوار ، وعن سُورِ الرِّبْضِ
المحاذية للسُّورِ تكونُ مُناصِفَةً جَمِيعُهَا ، بما فيه من حقوق طُرُقَاتِ وأَحْكَارَ ،
وَمَرَاعِي المَوَاشِي على أَخْتِلَافِ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجَمِيعِ السَّخَرِيَّاتِ ، وَكُلِّ أَرْضِ
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقٍّ أَوْ عِدَادٍ يكونُ مُناصِفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَانِي والمَرَاسِي البَحْرِيَّةِ المعروفةِ جَمِيعُهَا بِحِضْنِ المَرْقَبِ : من
مِينَا بَلَدَةٍ إِلَى مِينَا القَنْطَرَةِ المُجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةٍ - تكونُ هي وما يتحصَّلُ منها من

الحقوق المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما ينعقد عليه ارتفاعها،
وتشهد به الحسابات - جميعه مُناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مُناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من
حين أخذ بيت الأسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مُناصفة على العادة
الجارية، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر
كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للترددين والمقيمين بالقلعة والربض : من عامة وغير
عامة، وخیالة وغير خیالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الأسبتارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم
رؤسهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مُناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يجي أحد من الإخوة الخيالة، والوزراء، والكتاب، والثواب،
والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الأسبتار، ليستطلق الحق ويمنع من استيدائه، ولو
أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط،
أخذ جميع ماله مُستهلكاً للجهتين : للديوان السلطاني المعمور، وليت الأسبتار،
إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر، صادراً ووارداً، وكذلك في البر صادراً
ووارداً بعد المحاqqة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المباشر المقدم الكبير لبيت الأسبتار، وولاته وكتابه ومُستخدميه
وعلمائه، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك علمائنا وولاتنا وثوابنا ومُستخدمونا وكتائبنا ورعايا بلادنا يكونون آمنين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّقِينَ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخْذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ الْمَقَاسِمَاتِ وَالطَّرَفَاتِ وَالْبَسَائِتِ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرَّرةِ عَلَى الْفَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ . وكذلك الرَّأْسَةُ وَاسْتِخْرَاجُ وَجْهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَّرةِ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وعلى أن جميع الضمانات يَكُونُ نُوَابُ السُّلْطَانِ وَنُوَابُ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ مُتَّقِينَ بِجُمْلَةٍ عَلَىٰ ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ الْآخَرِ .

وعلى أن أَىِّ مُسْلِمٍ تَصَدَّرَ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْذِيهِ ، يَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِيهِ نَائِبًا : مِنْ شَتَّى يَحِبُّ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطَعَ . أَوْ أَدَبَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَتَّى ، وَقَطَعَ ، وَكَلَّ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَأْذَى مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . ^(١) فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِشَاشٌ وَبَضَائِعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ أَدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ، أُعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تُؤْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنْ جِهَتِنَا ، بَعْدَ أَدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء يعود عليه الضمير .

تَبَقَى تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، خَلا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ عَلَيْهِمْ آعْتَرَاضٌ ، وَيَحْمِلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَاعِ لِلدِّيَّانِ الْمَعْمُورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُنْبَعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ الثُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَاعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِي الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يُتَنَاوَلُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُمْ وَيُخْضِرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ الثُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَرْتَبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظِ لِلطَّرَقَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَحْضَرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِي بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَيِّبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِيرِ الْمَقْدَمِ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْخِيَالَةَ وَالرَّعِيَّةَ الْمَقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مِنَّا وَمِنْ تَوَائِنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمِنْ وَلَدِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَمِنْ أُمَرَائِنَا وَعَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المَرْقَب ، فيَقَعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشرين يومًا : فإن وُجِدَ فاعِلُ ذلك ، يُوْخَذُ الفاعِلُ بِذَنْبِهِ . وإن لم يظهرْ فاعِلُ ذلك مدّةَ عشرين يومًا فيُمْسِكُ رُؤَسَاءُ مَكَانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأُخِذَ الأَخِيذَةُ ، وَقَتِلَ القَتِيلُ ، إن كان أَخَذَهُ وَقَتْلُ - مَكَانَ مَنْ قَتَلَ القَتِيلَ أو أَخَذَ الأَخِيذَةَ - أَقْرَبَ القُرْبَاءِ إلى الذي قَطَعَ عليه الطريقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وَحُجِرَ عن إحضاره بعد عشرين يومًا ، يُلْزِمُ أَهْلُ نُوَابِ الجهتين من القُرْبَاءِ الأقْرَبَ لذلك المكانَ بِأَلْفِ دينارٍ صُورِيَّةٍ : لِلدِّيوانِ السلطاني النَّصْفُ ، وَلِنَقِيبِ الأَسْبَتَارِ النَّصْفُ ، ولا تُتْكَاسَلُ الولايةُ في طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُهُ يَدًا واحدةً ، ولا يختص الواحدُ دون الآخر . ولا يحاجي أحدُ منهم لِأَخْذِ الفلاحِ في هذا أو غيره في مَصْلَحةِ عِمارةِ البلاد ، وأَسْتِخْراجِ الحُقُوقِ ، ومُقاسمةِ الغِلالِ ، وطَلَبِ المُفْسِدِينَ لَيْلاً ونهاراً .

وعلى أن لا تَغْيَرُ الهُدُنَةُ المُبارَكَةُ بِأَمْرِ من الأمور ، لا من جِهَتَيْنَا ولا من جِهَةٍ وَلَدِنَا المَلِكِ السَّعِيدِ ، إلى أَنْقِضاءِ مُدَّتِهَا المَعِينَةِ أَغْلَاهُ وفروغِهَا . ولا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيَرِ المَقْدَمِ المُبَاشِرِ لِبَيْتِ الأَسْبَتَارِ الحَاكِمِ على المَرْقَبِ وغيره . وإذا جَرَتْ قِضِيَّةٌ في أَمْرِ من الأمور يَعْرِفُهُم نُوَابُنَا ، وَيَحَقِّقُ الكَشْفُ إلى مدّةِ أربعين يومًا ، فإن يكونَ للبِدايةِ يخرجُ منها على من سمى (?) ويكونُ قد عَرَفَ دَيْنَهُ الذي بدأ من جِهَةٍ كُلِّ واحدٍ . وإذا تَغَيَّرَ النَوَابُ بِالْمَرْقَبِ وحضَرَ نَائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يَعْتَمِدُ ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الهُدُنَةُ ، ولا يخرجُ عن هذه المُواصِفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمين أحدٌ على آخِلافِ أَجْناسِهِ ، إن كان مَمْلُوكًا أو غير مَمْلُوكٍ ، أو مَعْتُوقًا أو غير مَعْتُوقٍ ، أو كَاتِبًا مَنْ كان من المسلمين على آخِلافِ مَنَازِلِهِمْ ، وإن كان غُلَامًا أو غير غُلَامٍ - يَرُدُّ بِجَمِيعِ ما يُوْجَدُ مَعَهُ ، إن كان قَلِيلًا أو كَثِيرًا يَرُدُّ . ولو أَنَّ المُتَسَحِّبَ دَخَلَ الكَنِيسَةَ وجلسَ فيها يُمْسِكُ بِيَدِهِ وَيَخْرُجُ وَيَسَلِّمُ لِنَوَابِنَا بِجَمِيعِ ما مَعَهُ ، وإن كان خَيْلًا أو قَمَاشًا أو دَرَاهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به، يَسَلِّمُ بما معه إلى نوابنا على ما شرَحناه . وكذلك إذا تَسَجَّبَ أحدٌ من جِهَتِهِم من الفَرْنَجِ أو النَّصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وَصَلَ إلى جِهَةِ نَوَابِنَا يُمَسِّكُ وَيَسَلِّمُ بما يحضُرُ معه : من الخَيْلِ والأَقْشَةِ والعُدَّةِ وجميع ما يَصِلُ إن كان قليلاً أو كثيراً ، يُمَسِّكُهُ نَوَابِنَا وَيُسَلِّمُونَ ذلك بما معه لنائبِ المُقَدِّمِ الماسِترِ المُقِيمِ بالمدْرَقِ ، وأخذوا الخطوط بذلك بتَسْلِيمِهِ بما حضُرَ معه .

وعلى أنهم لا يكونُ لهم حديثٌ مع قَلْعَةِ العليقة ، ولا الرِّعْيَةِ الذين فيها ، ولا مع نَوَابِ ابنِ الرِّدِّيِّ المقيمين فيها : لا بِكُتَّابٍ ، ولا بِمَشَافِهِةٍ ، ولا بِرِسَالَةٍ ، ولا بِقَوْلٍ ، ولا يَطْلُعُ أحدٌ من جِهَتِهِم إليهم ؛ ولا يَمَكُنُ أحدٌ من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جِهَتِهِم من القَلْعَةِ المذكورة ؛ ولا تُسِيرُ إليهم مَؤُونَةٌ ولا تجارة ولا جَلَبٌ على اختلاف أجناسه ، ولا تكونُ بينهم معاملة . وإن حضر أحدٌ من جِهَةِ قَلْعَةِ العليقة إليهم يُمَسِّكُونَ وَيُسَلِّمُونَ لنوابنا ويأخذوا بذلك خُطوطَهم .

وعلى أنهم لا يَجِدُّونَ عِمَارَةَ قَلْعَةٍ ، ولا في القَلْعَةِ عِمَارَةً ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [يعتمدون] إصلاحَ شَيْءٍ منها إلا إذا عاينه نَوَابِنَا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضَّرورة في ترميمٍ يُرْمَوْنَهُ بعد أن يُعاينَهُ نَوَابِنَا من هذا التاريخ ؛ ولا يَجِدُّونَ عِمَارَةً في رَبَضِها ، ولا في سَوْرِها ، ولا في أبراجها ، ولا يَجِدُّونَ حَفَرَ خَنْدِقٍ ، وعِمَارَةَ خَنْدِقٍ ، أو تُجَدِّدُ بِنَايَةَ خَنْدِقٍ أو قَطْعُ جَبَلٍ ، أو تُحَصِّنُ عِمَارَةً ، أو تُحَصِّنُ بَقْطَعِ جَبَلٍ ، منسوباً لتَحْصِينِ يَمْنَعٍ أو يَدْفَعٍ . ولم نأذنْ لهم بسوَى البِنَايَةِ [على] أثرِ الدُّورِ التي أحرقت عند دُخُولِ العَسَاكِرِ حُجْبَةَ الْمَلِكِ السَّعِيدِ . وقد أذنَّا لهم في عِمَارَةِ باطنِ الرَّبَضِ على أثرِ الأساسِ القديمِ .

وعلى أن صِهْيُونََ وأعمالها ، ورومه (?) وأعمالها ، والقليعة وأعمالها ، وعِيدُوبَ وأعمالها ، الجارية تحت نَظَرِ الأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ عَثْمَانَ صاحبِ صِهْيُونََ -

يجرى حُكْم هذه البلاد المختصة به حُكْم بلادنا في المهادنة، بحُكْم أَنَّ بلادَه المذكورة جارية في ممالك الشريعة .

وعلى أنه لا يمكن بَيْت الأستبار من دُخُول رَجُلٍ غَريبَةٍ في البرّ ولا في البحر إلى بلادنا، بأذية ولا ضرر يعود على الدولة ، وعلى بلادنا وحُصُوننا ورعيّتنا ، إلا أن يكونوا يداً غالبةً ، صُحبة ملكٍ مُتَوَجِّج .

وعلى أَنَّ البُرْجَ الداخِلَ في المُنَاصِفَةِ ، وهو بُرْجُ مُعاوِيَةَ الذي عند المحاصّة الداخلة في مَنَاصِفِ المَرْقَبِ الآن ، يُحَرَّبُ ما يُحْصَنُ منه ، وهو النّصْفُ من البُرْجِ المذكور أعلاه . وأن الجُسْرَ المعروف بِجُسْرِ بِلْدَةِ لَمْ يَكُنْ لَبَيْتِ الأستبار فيه شيءٌ من البرّين ، وأنه خالِصٌ للديوان المعمور دُونَ بَيْتِ الأستبار . وأن الدَّارَ المُستجَدَّةَ عمارتها بقلعة المَرْقَبِ برسم الماستر المُقَدَّم الكَثير ، الذي هو عازِز تكميلِ عِمارة سَقْفِ القَبْوِ بالحجارة والكلس ، لا تَكْمَلُ عِمارتُها ، ويبقى على حاله ، وهو في وَسَطِ القَلْعَةِ الظاهر منه قليلٌ إلى البرّ الشَّرْقِيّ وهو المذكور أعلاه .

وعلى أَنَّ تَوَابَ الأستبارِ بالمَرْقَبِ لا يُخْفُونَ شيئاً من مُقامات البلاد ولا شيئاً من حُقوقها الجارية بها العادة أَنَّ بَيْتِ الأستبار يَسْتَخْرِجُونَهُ ولا يُخْفُونَ منه شيئاً ، وكلُّ ما كان يَسْتَأْذِي من البلاد في أيدي الأستبار قَبْلَ هذه الهُدنة يُطاعُونَ تَوَابناً عليه ولا يُخْفُونَ منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أَنَّ السُّلْطَانَ يأمرُ تَوَابَهُ بِحِفْظِ مُنَاصِفَاتِ بلادِ المَرْقَبِ الداخلة في هذه الهُدنة ، من المُفْسِدِينَ والمُتَلَصِّصِينَ والحَرَامِيَّةِ مِنْهُ هُوَ فِي حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ . وكذلك الماستر المُقَدَّم افريز أولدكال يلزِمُ ذلك من الجِهَةِ الأُخْرَى . ومتى وقع - والعياذُ بالله - فَسَخٌ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ ، كان التُّجَّارُ والسُّفَّارُ آمِنِينَ مِنَ الجَهِتَيْنِ إِلَى

أَنْ يَعُودُوا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَلَا يَمْنَعُونَ مِنَ السَّفَرِ إِلَى أَمَاكِنِهِمْ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَتَكُونَ
الْنَّهْيَةُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . وَتَكُونَ هَذِهِ الْهُدْنَةُ مِنْعَقْدَةً بِشُرُوطِهَا الْمَذْكُورَةِ ، مُسْتَقَرَّةً
بِقَوَاعِدِهَا الْمَسْطُورَةِ لِلْمَدَّةِ الْمَعْيَنَةِ ، وَهِيَ : عَشْرَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ كَوَامِلٍ ، أَوَّلُهَا
مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَسِمَائَةِ إِلَى آخِرِهَا ، مُتَابَعَةً مُتَوَالِيَةً ، لَا تَقْصُحُ
بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَلَا بِعَزْلِ وَائِلٍ وَقِيَامٍ غَيْرِهِ مَوْضِعَهُ ، وَلَا زَوَالِ رَجُلٍ غَيْرِيَّةٍ ،
وَلَا حُضُورِ يَدٍ غَالِبَةٍ ، بَلْ يُلْزَمُ كُلُّهُ مِنَ الْجَهْتَيْنِ حِفْظُهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ
الْآخِرِ حِفْظُهَا إِلَى آخِرِهَا ، بِالشُّرُوطِ الْمَشْرُوطَةِ فِيهَا أَوَّلًا وَآخِرًا . وَالْخَطُّ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ
بِمَقْتَضَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .



وَهَذِهِ نُسخَةُ هُدْنَةٍ عُقِدَتْ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ « قَلَاوُونَ » الصَّالِحِيِّ
صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ « عَلِيٍّ » وَلِيِّ عَهْدِهِ ،
وَبَيْنَ حُكَّامِ الْقَرْنَجِ بَعَكًا وَمَا مَعَهَا مِنْ بِلَادِ سَوَاحِلِ الشَّامِ ، فِي شَهْرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ
وِثْمَانِينَ وَسِمَائَةِ ، وَهِيَ يَوْمُئِذٍ بِأَيْدِيهِمْ . وَصُورَتُهَا :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ سَيِّفِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ
« قَلَاوُونَ » الْمَلِكِيِّ الصَّالِحِيِّ وَوَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ عَلَاءِ الدِّينِ « عَلِيٍّ » -
خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَنَتَهُمَا - وَبَيْنَ الْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَكَّا ، وَصَيْدَا ، وَعَثْلَيْثَ ، وَبِلَادِهَا
الَّتِي آتَعَقَدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ، وَهُمْ : الشَّيْخَانِ أَوْ دَهْيِلِ الْمَمْلَكَةِ بَعَكًا ، وَحَضْرَةُ
الْمُقَدِّمِ الْجَلِيلِ اِفْرِيزِ كَلَسَامِ دَسَا حَوْلِ (؟) مُقَدَّمِ بَيْتِ الدِّيُوبَةِ ، وَحَضْرَةُ الْمُقَدِّمِ الْجَلِيلِ
اِفْرِيزِ سَكْفَلِ لِلُورِنِ (؟) مُقَدَّمِ بَيْتِ الْاِسْبَتَارِيَّةِ ، وَالْمُرْشَأُنِ الْأَجَلِّ اِفْرِيزِ كُورَاتِ نَائِبِ
مُقَدَّمِ بَيْتِ الْاِسْبَتَارِ الْآمَنِ - لِمَدَّةِ عَشْرِ سِنِينَ كَوَامِلٍ ، وَعَشْرَةِ أَشْهُرٍ ، وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ ،

وعَشْرَ سَاعَاتٍ : أَوَّلُهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ ربيعِ الأولِ سنةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ
لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمَوَافِقُ لِلثَّالِثِ مِنْ حَزْرَانَ
سنةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لَغَلْبَةِ الْإِسْكَندَرِيِّ بْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ
بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي مَمْلَكَتَيْهَا وَتَحْتَ حُكُومَيْهَا وَطَاعَتَيْهَا وَمَا تَحْتَوِيهِ
أَيَّدِيهَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحُصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَغْرِ
دِمِيَاطَ ، وَتَغْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الْحَمْرُوسِيَّةِ ، وَتَسْتَرُو ، وَسَنْتَرِيَّةٍ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ
الْمَوَانِي وَالسَّوَاخِلِ ، وَتَغْرِ فُؤَّةَ ، وَتَغْرِ رَشِيدَ ، وَبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَتَغْرِ غَزَّةَ الْحَمْرُوسِ ،
وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَانِي وَبِلَادِهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكَرْكِيَّةِ ، وَالشُّوْبِكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَبُصْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ؛
وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ الْحَمِّ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ
دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيلَ ، وَمَمْلَكَةِ نَابِلَسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ
الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَعَسْقَلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَافَا وَالرَّمْلَةِ
وَمِيْنَاهَا ، وَقَيْسَارِيَّةَ وَمِيْنَاهَا وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَاقُورَ
وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالَ الْعَوْجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاخَةِ ، وَالْفَتْوُجِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا
وَمَزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْبَحْرَيْنِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَعَيْنَ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ
وَجُبَيْرَتَهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّفَدِيَّةِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَبْنِينَ وَهُونِينَ
وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْحَمْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِسَقِيفِ أَرْزُونِ
وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْفَرَنْ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا
عَمَّا عَيْنٌ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنِصْفِ مَدِينَةِ إِسْكَندَرُونَةَ ، وَنِصْفِ ضَيْعَةِ مَارِبَ
بِقُدْنِيهَا وَكُرُومِهَا وَبَسَاتِينِهَا وَحُقُوقِهَا ؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَندَرُونَةَ

المذكورة ، يكون جميعه بمحدوده وبلايه للسلطان الملك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لمملكة عكا . والباق العزیزی وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقیف
تیرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا نا غيرها (٩) ، وبانیاس وأعمالها ، وقلعة الصبیبة
وأعمالها وما معها من البحیرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقیة - حرّمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والمالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزيه وأعمالها ، وقوتحات حصن
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (١٠)
وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاديه ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأفامية وأعمالها ، وجبله وأعمالها ،
وأبو قبیس وأعماله ، والمملكة الحلیبة وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدر بسلک وأعمالها ، والراوندان وأعمالها ، وعینتاب وأعمالها ، وحرارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقیف دركوش
وأعماله ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزعا
وأعمالها ، وآلبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشيمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عینت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزیه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،
وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددِينَ في البر والبحر ،
والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي صدورهم
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحریمهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ،
وأتباعهم ، وموآشيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أيديهم
من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكماء بمملكة عكا : وهم كفيل الملكة بها ،
والمقدم افريز كليام دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ، والمقدم افريز بيكوك
للورن (؟) ، وافريز اهداب نائب مقدم بيت الاسبتار الآمن ، ومن جميع الفرنج
والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع
الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة
من كل وأصل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينال بلاد
السلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ،
ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عربهما ، ولا تركمانهما ، ولا أكرادهما ،
ولا رعاياهما ، على اختلاف الأجناس والأنفار ؛ ولا ما تحويه أيديهم من المواشي
والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء ، ولا يخشون من جميعهم أمرا
مكروها ولا إغارة ، ولا تعرضا ولا أذية .

وكذلك ما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على أيديهما ، وعلى يد توابهما
وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومليك ، وأعمال ، وولايات ، برا
وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة : وهي مدينة
عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ، وما يختص بها من كرومها ، وما لها من

(١) حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تَقَرَّرَ لها من بلادٍ في هذه الهُدنة وهي : البصة ومَزْرَعَتُها ، مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المَنَوَات ومَزْرَعَتُها ، الكابرة ومَزْرَعَتُها ، نصف وفيه جمعون ، كَفَر بَرْدَى ومَزْرَعَتُها ، كَوَكَبُ عَمَقَا ومَزْرَعَتُها ، المونيه ، كَفَر ياسيف ومَزْرَعَتُها ، تُوسيان ، مَكْر حرسين ومَزْرَعَتُها ، الحديدية ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا الحارثية ، ثَمَرَا الطره ، الرب ، البانوحه ومَزْرَعَتُها ، العرج ومَزْرَعَتُها ، المزرعة السَّمِيرِيَّة البِيضَاء ، دَعُوق والطاحون ، كَرْدَانَه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ، الغار ، الرخ والمجدل ، تَلْ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكة ، المشيرقه ، العطوانية ، المنير ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشه ، الزراعة الجديدة الشمالية ، الرحاحيه ، قسطه ، كَفَر نَبْتَل ، الدويرات ، ماصوب ، مَتَّاس العباسية ، سيعابه ، عين الملك ، المنصورة ، الرضيقة ، حانا ، سرطا ، كَفَرْتَا ، أرض الزراعة ، رولس ، صغد عدى ، سفر غم . هذه البلاد المذكورة [تكون] خاصا للفرنج . حِيقَا والكُروم والبساتين التي لها جميعها ، والقَصْر وهو الحوش وكَفَر تُوْتَا ، وهي : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعرة ، والباچور ، وسومرا . تكون حِيقَا وهذه البلاد المذكورة بِحُدُودِها وأَرَاضِها خاصَّة للفرنج . وكذلك قرية مارسا باره بها ، المعروفة بها وكرومها وغرسها يكون خاصا للفرنج . وديرُ السِيَّاح ، وديرُ مارلباس بأَرَاضِهما المعروفَ بهما وكُرومِهما وبساتينِهما يكونُ خاصًا للفرنج .

وعلى أن يكونَ لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ وَلَوْلَدِهِ الصَّالِحِ : من بلادِ الْكِرْمِلِ ، وهي : الدالية ، ودونه ، وضريبة الريح ، والكرك ، ومعليا ، والرامون ، ولونه ، ولسور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعا الأصول في الإهمال والنقط .

ونخربة يونس، ونخربة خميس، ورشما، ودواه، يكون خاصاً للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكالها .

وتكون جميع هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور ولده الملك الصالح ، وأمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خديهما ، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه ، الداخلة في هذه الهدنة المباركة : الخاص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورعاياها ، وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمترددين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمترددين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار ، والمترددين منها وإليها في بر وبحر ، في ليل أو نهار ، سهل وجبل ، آمنين على النفوس والأموال والأولاد ، والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هوتحت طاعتها : لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ، ويكون ما تقرّر أنه يكون خاصاً للفرنج حسب ما بين أعلاه لهم ، وما تقرّر أن يكون للسلطان ولولده خاصاً لها ، والمناصفات تكون كما شريح . ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شريح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يحدّدون في غير عكا وعثليث وصيدا : مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لقلعة ، ولا برجا ، ولا حصنا ، ولا مستجدا .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائنا من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد الدخول في دين النصرانية وتتنصر

بإرادته، يُردُّ جميع ما يروحُ معه وَيَبْقَى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخُولَ في دين النصرانية ولا يَتَنَصَّرُ، رُدَّ إلى أباؤهما العالِيةِ بجميع ما يروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعطى الأمان . وكذلك إذا حَضَرَ أَحَدٌ من عَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، وقصدَ الدُّخُولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يُردُّ جميع ما معه ويَبْقَى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخُولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسْلِمُ، يُردُّ إلى الحُكَّامِ بَعَمَّا، والمُقَدَّمِينَ بِجميع ما يروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعطى له الأمان .

وعلى أَنَّ الممنوعاتِ المعروفَ مَنَعُهَا قَدِيمًا تَسْتَقَرُّ على قَاعِدَةِ المَنَعِ من الجهتين . ومتى وَجَدَ مع أَحَدٍ من تُجَّارِ بلادِ السُّلْطَانِ وَلَدَهُ من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شَيْءٌ من الممنوعاتِ بَعَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، مثلَ عَدَّةِ السِّلَاحِ وغيره، يُعادُ على صَاحِبِهِ الذي اشْتَرَاهُ مِنْهُ، ويُعادُ إِلَيْهِ ثَمَنُهُ، ويُردُّ ولا يُؤْخَذُ مَالُهُ اسْتِهْلَاكًا، ولا يُؤْذَى . وللسُّلْطَانِ وَلَدُهُ أن يفتصلا في من يخرجُ من بلادِهِما من رَعِيَّتِهِما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، بشَيْءٍ من الممنوعاتِ . وكذلك كَفِيلُ المَلَكَةِ بَعَمَّا والمُقَدَّمُونَ لَهُم أن يفتصلوا في رَعِيَّتِهِم الذين يخرجُونَ بالممنوعاتِ من بلادِهِم الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ .

ومتى أَخَذَتْ أَخِيذَةً من الجَانِيَيْنِ، أَوْ قُتِلَ قَتِيلٌ من الجَانِيَيْنِ، على أَى وَجْهِ كَانَ - والعِيَادُ بِاللَّهِ - رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعَيْنِهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً، أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . والقَتِيلُ يَكُونُ العِوَضُ عَنْهُ بِنَظِيرِهِ من جَانِسِهِ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ، وَبِرَّكِلٌ بِبِرَّكِلٍ، وَتَاجِرٌ بِتَاجِرٍ، وَرَاجِلٌ بِرَاجِلٍ، وَفَلَّاحٌ بِفَلَّاحٍ . فَإِنْ خَفِيَ أَمْرُ القَتِيلِ والأَخِيذَةِ، كَانَتِ المَهْلَةُ في الكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ ظَهَرَتِ الأَخِيذَةُ أَوْ تَعَيَّنَ أَمْرُ المَقْتُولِ، رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعَيْنِهَا وَيَكُونُ العِوَضُ عَنِ القَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرِ

كانت اليمين على 'والى المكان المدعى عليه' ، وثلاثة نفر يقع اختيار المدعى عليهم ، من تلك الولاية . وإن امتنع الوالى عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الأخرى وأخذ قيمتها . وإن لم ينصف الوالى ولا ردّ المسأل ، أنهى المدعى أمره إلى الحكّام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً ، ويُزَمُّ الولاية من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط .

ومنى أخفوا قتيلاً أو أخيدّة ، أو قدرُوا على أخذ حقّ ولم يأخذهُ كل واحد فى ولايته ، يتعين على الذى يوليه من ملوك الجهتين إقامة السّياسة فيه : من أخذ الروح والمال والشّق ، والإنكار التّام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك فى ولايته وأرضه .

وإن هرب أحد بمالٍ وأترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه ، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ما رده . فإن لم يقنع المدعى بيمين الهارب ، حلف والى تلك الولاية أنه لم يطّلع على أنه وصل معه غير ما رده . وإن أنكر أنه لم يصل معه شيء أصلاً ، استحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعى شيء .

وعلى أنه إذا أنكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التى أنعدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى ميناء عكا وسواحيلها ، والبلاد الساحلية التى أنعدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأموال والأتباع والمتأخر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم [إليهم] . وإن عُدِمُوا بموتٍ أو غرقٍ أو غيبة ، فيحفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكُفَيْلِ الْمَلِكَةِ بَعْكَأَ أَوْ الْمَقْدَمِ .

ومتى توفى أحدٌ من التُّجَّارِ الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ: عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ، مِنْ بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، فِي عَكَأَ وَصَيْدَا وَعَثْلَيْثَ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ [فِيحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يُسَلَّمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ] ، وَإِذَا تُوُفِّيَ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ، يَحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ إِلَى حِينِ يُسَلَّمُ إِلَى كُفَيْلِ الْمَلِكَةِ بَعْكَأَ وَالْمَقْدَمِينَ .

وَعَلَى أَنْ شَوَانِي السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ إِذَا عَمَرَتْ وَخَرَجَتْ لَا تَتَعَرَّضُ بِأَذْنِ إِلَى الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ . ومتى قصدت الشَّوَانِي الْمَذْكُورَةُ جِهَةً غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَكَأَ، فَلَا تَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا الشَّوَانِي الْمَنْصُورَةُ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَكَأَ وَالْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْهُدْنَةُ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الشَّوَانِي - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَانِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْهُدْنَةُ وَسَوَاحِلِهَا : فَإِنْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلَكَةِ عَكَأَ وَمُقَدَّمِي بَيْوتِهَا عَهْدٌ، فَيَلْزِمُ كُفَيْلُ الْمَمْلَكَةِ بَعْكَأَ وَمُقَدَّمِي الْبُيُوتِ بِحِفْظِهَا، وَتَمْكِينِ رِجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَإِصْلَاحِ مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا، وَالْعَوْدِ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَسْكُرُ مِنْهَا - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - أَوْ يَرْمِيهِ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلَكَةِ عَكَأَ وَمُقَدَّمِيهَا عَهْدٌ . فَإِنْ [قَصَدَتْ مِنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتَعْمَرَ رِجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُتَعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْدِهَا، وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْفَصْلُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جُورًا البحر لقصْد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتَّفِقَةِ عليها هذه الهدنة ، فليُزَمُ نائب المملكة والمقدّمين بعكّا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركاتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكّا ، والمقدّمون بريئين من عهدة اليمين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياذ بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ، وانحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكّا ، والمقدّمين بها أن يدرؤوا عن بيوتهم ورعيّتهم وبلاّدهم بما تصل قُدْرَتُهُمْ إليه . وإن حصل - والعياذ بالله - جفْل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليزَمُ كفيل المملكة بعكّا ، والمقدّمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكّا ، والمقدّمين بها يؤصّون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكّنون حراميّة البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكّا والمقدّمون حتّى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكّا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كلّ من عليه منهم مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذى منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكاّتب

فِي وَقْتِ أَخْذِ هَذَا الشَّخْصِ رَهِينَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا : مِنْ دَرَاهِمَ أَوْ غَلَّةٍ أَوْ بَقَرٍ أَوْ غَيْرِهِ . فَإِذَا حَلَفَ الْوَالِي وَالْمُبَاشِرُ وَالكَاتِبُ قَدَامَ نَائِبِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ عَلَى ذَلِكَ يَقُومُ أَهْلُ الرِّهْنَةِ عَنْهُ بِمَا لِلْفَرَنْجِ عَلَيْهِ وَيُطْلَقُونَهُ . وَأَمَّا الرُّهَائِنُ الَّذِينَ أَخَذُوا مَنْسُوبِينَ إِلَى الْجُفْلِ وَالْأَخْتِشَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَهْرُبُونَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَيَمْتَنِعُ الْوَلَاةُ وَالْمُبَاشِرُونَ مِنَ الْيَمِينِ عَلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ يُطْلَقُونَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَجِدَّ عَلَى التُّجَّارِ الْمَسَافِرِينَ : الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْهُ عَادَةً ، وَيُجْرَوُ عَلَى عَوَائِدِهِمُ الْمُسْتَمَرَّةِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، وَتُؤْخَذُ مِنْهُمْ الْحَقُوقُ عَلَى الْعَادَةِ الْمُسْتَمَرَّةِ ، وَلَا يَجِدُّ عَلَيْهِمْ رَسْمٌ وَلَا حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْهُ عَادَةً . وَكُلُّ مَكَانٍ عُرِفَ بِاسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ فِيهِ يَسْتَخْرَجُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ؛ وَيَكُونُ التُّجَّارُ وَالسَّفَّارُ وَالْمُتَرَدِّدُونَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ مُحَقَّرِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَصُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ بِمَا صَحَّحْتَهُمْ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْبَضَائِعِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ .

وَعَلَى أَنَّهُ يَنَادَى فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ الدَّاحِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ : أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا . وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا ، مَعْرُوفًا قَرَارِيًا مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يَعُدْ بَعْدَ الْمُنَادَاةِ يُطْرَدُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَلَا يَمَكُنُ فَلَاحُو بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ، وَلَا فَلَاحُو بِلَادِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ؛ وَيَكُونُ عَوْدُ الْفَلَاحِ مِنَ الْجِهَةِ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى بِأَمَانٍ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ كَنِيسَةُ النَّاصِرَةِ وَأَرْبَعُ بُيُوتٍ مِنْ أَقْرَبِ الْبُيُوتِ إِلَيْهَا لَزِيَارَةِ الْحُجَّاجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ دِينِ الصَّلَيبِ : كَثِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَنْفَارِهِمْ :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقسائية^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا نُقِبَت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يُحطُّ بحجر منها على حجر لأجل بنيته ، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من قسميها وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة ، من قسميها وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكماء بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . ويفي كل منهم بما حلف به من الإيمان المؤكدة : من أنه يفى بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولادهم ، وبين الحكماء بملكية عكا ، وصيدا ، وعثليت ، وهم الشيوخان أودرا^(٢) والمقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقسم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشروطها المحددة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى أنقضت هذه الهدنة المباركة ، أوقع
 - والعياد بالله - فسح ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . وينادى
 برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإسهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،
 ولا ينعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين ، وتُسَدُّ
 أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى أنقضائها ؛ ويلزم المتولى
 حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على
 أبجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف
 عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
 الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛
 وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ؛ على يد رُسُلِهِ :
 أخويه وصهره الآتي ذكرهم ، في صفر سنة ثنتين وتسعين وستمائة ، وهى :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الحليل ،
 المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل « دون » حاكم
 الريد أرغون ، وأخويه دون ولدريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهره اللذين طلب
 الرسولان الوصالن إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
 داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
 نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
 الضرغام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطيطة ، وليون ، والنسيّة ، وأشبيلية ،
 وقرطبة ، ومريسة ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال - والملك

الجليل دون أنفونش ملك برتقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة
 اثنتين وتسعين وسمائة، الموافق لثلاث بقين من جنيد سنة ألف ومائتين واثنين
 وتسعين لمولانا السيد المسيح عليه السلام. وذلك بحضور رسول الملك دون حاكم،
 وهما: المحتشم الكبير ووصوديمار موند الحاكم، عن الملك دون حاكم في بالنسية،
 ورفيقه المحتشم العمد ديمون المان قراري برجلونة، الواصلين بكتاب الملك دون
 حاكم، المختم بختم الملك المذكور، المقتضى معناه أنه حملاهما جميعاً أحوالهم
 ومطالبهم، وسأل أن يقوموا فيما يقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالهما تقرير
 قواعد الصلح والمودة والصداقة. والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك
 دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويحلف الملك المذكور
 عليها هو وأخواه وصهره المذكورون. ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع
 الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه. وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهره
 يلتزمون بها، وهي: استقرار المودة والمصادقة من التاريخ المتقدم ذكره، على ممر
 السنين والأعوام، وتعاقب الآيالي والأيام: براً وبحراً، سهلاً وعمرًا، قريباً وبعداً.

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاع، وحصونه، ونعوره،
 ومالكه، ومواني بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومدنها، وكل ما هو
 داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها: من سائر الأقاليم الرومية،
 والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفرازية، واليمينية، والحجازية، والديار
 المصرية، والغرب.

وحد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية
 والبلاد الرومية الساحلية، وهي: من طرابلس الغرب، وسواحل برقة،
 والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزة، وعسقلان، ويافا،

وَأَرْشُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَنْثِيثَ ، وَحِفَا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَرُوتَ ،
وَجَبِيلَ ، وَالْبَيْرُونَ ، وَأَنْفَةَ طَرَابُاسِ الشَّامِ ، وَأَنْطَرُسُوسَ ، وَمَرْقِيَّةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلَ الْمَرْقَبَ : بَانِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِ دِمْيَاطَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ .

وَحَدُّهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيُّ : مِنْ تُولُسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُاسَ
الْغَرْبِ وَتَغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتَغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمْلَكَةُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذْكَرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتَّغُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالطَّرِيقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكِيَّانَ ، وَأَكْرَادَ ، وَعُرَبِيَّانَ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشٍ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْبَضَائِعِ وَالْمَتَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا . أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَّائِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنَ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ
وَالْأَقَالِيمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَبِلَادُ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ وَمَمْلَكَةُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْهَدْنَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَاهُا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، برُبُولِيَّةَ وأعمالها وبلادها، جَزِيرَةَ مَالَقَةَ، وَقَوْصَرَةَ وبلادها وأعمالها،
مَيُورَقَةَ وَيَابَسَةَ وبلادها، وأرسويار (؟) وأعمالها، وما سَيَفْتَحُهُ الْمَلِكُ دُونُ حَاكِمِ
مِنْ بِلَادِ أَعْدَائِهِ الْفَرَنْجِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ بِتِلْكَ الْأَقَالِيمِ - آمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
وَأَوْلَادِهِ، وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ، وَشَوَانِيهِ وَعَمَائِرِهِ، هِيَ وَمَنْ فِيهَا مِنْ فُرْسَانٍ وَخِيَالَةٍ
وَرَعَايَا. وَأَهْلُ بِلَادِهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ،
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالصُّدُورِ وَالْوُرُودِ.

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونُ حَاكِمٍ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ أَصْدِقَاءُ مِنْ بُصَادِقِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
وَأَوْلَادِهِ، وَأَعْدَاءُ مِنْ يُعَادِيهِمْ مِنْ سَائِرِ الْمُلُوكِ الْفَرَنْجِيَّةِ وَغَيْرِ الْمُلُوكِ الْفَرَنْجِيَّةِ. وَإِنْ
قَصَدَ الْبَابُ بَرُومِيَّةَ، أَوْ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ: مُتَوَجًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُتَوَجِّجٍ، كَبِيرًا كَانَ
أَوْ صَغِيرًا، أَوْ مِنَ الْجَنُوبِيَّةِ، أَوْ مِنَ الْبَنَادِقَةِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْناسِ عَلَى اخْتِلَافِ
الْفَرَنْجِ وَالرُّومِ، وَالْيُيُوتِ: بَيْتِ الْإِخْوَةِ الدِّيُوبَةِ، وَالْإِسْبَتَارِيَّةِ، وَالرُّومِ، وَسَائِرِ
أَجْناسِ النَّصَارَى - مَضَرَّةَ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، بِمُحَارَبَةٍ أَوْ أَدِيَّةٍ، يَمْنَعُهُمُ الْمَلِكُ دُونُ
حَاكِمٍ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ وَيَرُدُّوْنَهُمْ، وَيَعْمُرُونَ شَوَانِيَهُمْ وَمَرَاكِبَهُمْ، وَيَقْصِدُونَ
بِلَادَهُمْ، وَيَشْغَلُونَهُمْ بِنَفْسِهِمْ عَنْ قَصْدِ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَمَوَانِيهِ وَسَوَاحِلِهِ
وَتَغْوَرِهِ الْمَذْكُورَةِ، وَغَيْرِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَيَقَاتِلُونَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِشَوَانِيَهُمْ وَعَمَائِرِهِمْ،
وَفُرْسَانِهِمْ وَخِيَالَتِهِمْ وَرَجَالَتِهِمْ.

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ مُعَاهِدِي الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مِنَ الْفَرَنْجِ عَنْ شُرُوطِ
الْهُدْنَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَوَقَعَ مَا يُوجِبُ فُسْخَ الْهُدْنَةِ، لَا يُعِيْهُمُ الْمَلِكُ دُونُ
حَاكِمٍ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَخَوِيهِ وَلَا صِهْرِيهِ، وَلَا خِيَالَتِهِمْ، وَلَا فُرْسَانِهِمْ، وَلَا أَهْلِ
بِلَادِهِمْ، بِخَيْلٍ وَلَا خِيَالَةٍ، وَلَا سِلَاحٍ وَلَا رَجَالَةٍ، وَلَا مَالٍ وَلَا نَجْدَةٍ، وَلَا مِيرَةٍ،
وَلَا مَرَاكِبٍ وَلَا شَوَانٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ.

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، إنجاءاً، أو معاونةً : بخيالة ، أو رجالة ، أو مال ، أو مراكب ، أو شوان ، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك ، لا في سر ولا جهر ؛ ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقهم على ذلك . ومتى أطلعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمخاربه أو لمصرته بشيء ، يعرف الملك الأشرف بخبرهم ، وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت ، قبل حوطتهم من بلادهم ، ولا يخفيه شيئاً من ذلك .

وعلى أنه متى انكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم ، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره ، [فعلهم] أن يخفروهم ، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم ، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم ، ويجهزهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف . وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم ، وبلاد أخويه وصهره ، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف ، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف ، أو ذمة أهل بلاده ، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومعاهديه ، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم ، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف : ليفعل فيه ما يختار . وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعاهديهم ، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة ،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مُحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فُسْخَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسُخُ كُلَّ مِنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْبَيَاضَ وَالْخَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدِئِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبْعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسْرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْمُولًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَاكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَعَلَى أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبَضَاعَةٍ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على المَلِكِ دون حاكم وعلى أخويه وصهره ردُّ الهارب أو المقيم ببضاعة غيره،
والمال معه إلى بلاد الملك الأشرف ما دام مُسَلِّماً . وإن تَنَصَّرَ ، يرُدُّ المال الذي
معه خاصّة . ولملكة الملك دون حاكم وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم
إلى بلاد الملك الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعهديه
من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف ، وعلى يده كتاب الملك دون حاكم
وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف ، يُفَسِّحُ له في الزيارة مَسْجُوحاً
بالحق لِقْضَى زيارته ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله ، رجلاً كان
أو امرأةً ، بحيث إن الملك دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء
الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء .

وعلى أن الملك دون حاكم يحرس جميع بلاد الملك الأشرف هو وأخواه وصهره
من كل مَضَرَّةٍ ، ويحتهد كل منهم في أن أحداً من أعداء الملك الأشرف لا يصل
إلى بلاد الملك الأشرف ، ولا يُنْجِدهم على مَضَرَّةٍ بلاد الملك الأشرف ولا رعاياه ،
وأنه يساعد الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهي ويختاره .

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك دون حاكم
وأخويه وصهره ، إلى تغري الإسكندرية ودمياط ، والغور الإسلامية ، والممالك
السلطانية ، بسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها ، تستمر على حكم الضرائب
المستقرة في الديوان المعمور إلى آخر وقت ، ولا يحدث عليهم فيها حادث . وكذلك
يجرى الحكم على من يتردد من البلاد السلطانية إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه
وصهره .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوَدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرُوطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى الدَّوامِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَتَجْرَى أَحْكَامُهَا وَقَوَاعِدُهَا عَلَى أَجْمَلِ الْإِسْتِقْرَارِ،
فَإِنَّ الْمَالِكَ بِهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا ؛ لَا تَنْقُضُ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ
الْجَانِبِينَ ، وَلَا بَعْزِلِ وَالٍ وَتَوَلِيَةِ غَيْرِهِ ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا ، وَتَدُومُ أَيَّامُهَا ، وَشُهُورُهَا
وَأَعْوَامُهَا . وَعَلَى ذَلِكَ آتَتْظُمَتْ وَاسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ ، وَهُوَ كَذَا
وَكَذَا ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرِ تَقْلُطُهَا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكَرَّمِ ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنْشَاءِ بِالْدَوْلَةِ الْمَنْصُورِيَةِ « قَلَاوُونَ » الْمُسَمَّاةِ : « تَذَكُّرَةُ اللَّيْبِ ، وَزُهَّةِ
الْأَدِيبِ » مِنْ نُسخَةٍ بِحُطَّه ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحُطَّه عَلَى مَدِينَةِ
صَفَد . وَلَيْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ ، رَائِقُ الْأَلْفَاظِ ، بَهِجُ الْمَعَانِي ، بَلِغُ الْمَقاصِدِ ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْأَخِيرَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونِ حَاكِمِ . أَمَّا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَدَلَةٌ الْأَلْفَاظِ ، غَيْرُ رَائِقَةِ التَّرْتِيبِ ، لَا يَصْدُرُ مِثْلُهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أَذْنَى مُمَارَسَةٍ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ . وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ « الظَّاهِرِ
يَبْرَسَ » وَ« الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ » وَهُمَا مِنْهُمَا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ !! وَكِتَابَةُ الْإِنْشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِيَسَدِ بَنِي عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ بَيَّتُ الْفَصَاحَةَ وَرُعُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ !! وَلَعَلَّ
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ ، لِأَنَّ الْقَرَنَ كَانَ مُجَاوِرِينَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ ، فَيَقَعُ الْإِتِّفَاقُ
وَالْتِزَامُ بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَضْلِ فَضْلٍ ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمُسْلِمِينَ وَالْقَرَنَ بِالْفَاظِ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَائِقَةٍ ، طَلَبًا لِلسَّرْعَةِ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهَى بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْإِتِّفَاقِ وَالتَّزَامِ ، إِلَى آخِرِ فُصُولِ الْهُدْنَةِ ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ ، لِيُطَابِقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْقَرَنِ . إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبٌ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة . وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة - على سخافة لفظها ، وعدم انسجام ترتيبها - لأشتملها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قربنها يمين يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة ، على التولية بقصوها وشروطها ؛ ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يأذن له في عقدتها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله »)

وعلى هذا بنى صاحب "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أذل كل دين وأعزّه ، وخذل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ؛ والتوغل في توحيده ، وتقديسه وتمجيده ؛ والثناء عليه بالائه ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدْنِيَّةٍ مُتَّظِمَةٍ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ ، بَلْ أَشَارَ إِلَى كَيْفِيَّةِ عَمَلِهَا . ثُمَّ قَالَ : وَالْبَلِيغُ يَكْتَفِي بِقَرِيحَتِهِ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْمَعَانِي إِذَا دُفِعَ إِلَى الْإِنْشَاءِ فِيهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَلَمْ أَقِفْ لغيره عَلَى صُورَةِ هُدْنِيَّةٍ مُفْتَتَحَةٍ بِالتَّحْمِيدِ ، وَلَا يُخْفَى أَنْ الْإِبْتِدَاءَ بِهِ فِي كُلِّ مُهِمٍّ مِنَ الْعُهُودِ وَجَلَائِلِ الْوَلَايَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْمُولُ عَلَيْهِ فِي زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فِيمَا يُشَارِكُ فِيهِ مُلُوكُ الْكُفْرِ مُلُوكَ الْإِسْلَامِ فِي كِتَابَةِ نُسَخٍ مِنْ دَوَائِرِهِمْ)

إِعلم أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْهُدْنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ مُلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَبَيْنَ مُلُوكِ الْكُفْرِ أَنْ تُكْتَبَ نَسْخَةٌ تُخَلَّدُ بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَنُسْخَةٌ تُجَهَّزُ إِلَى الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ . وَرُبَّمَا كُتِبَتْ نَسْخَةٌ مِنْ دِيْوَانِهِ مُفْتَتَحَةٌ بِبَيِّنٍ .

وهذه نَسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ وَرَدَّتْ مِنْ جِهَةِ الْأَشْكِي ، صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسِتْمِائَةٍ ، مُؤَرَّخَةً بِتَارِيخِ مَوَاقِفٍ لِأَوَاخِرِ الْحَرَمِ مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَعَرَّبْتُ فَكَانَتْ نُسْخَتُهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو مُكَرَّمٍ فِي "تَذَكُّرَتِهِ" :

إِذْ قَدْ أَرَادَ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، الْعَالِي ، الْعَزِيزُ ، الْكَبِيرُ الْجَنَسُ ، الْمَلِكُ ، الْمَنْصُورُ ، سَيْفُ الدِّينِ « قَلَاوُونَ » صَاحِبُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ ، أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَمْلَكَتِي مُحَبَّةً - فَمَمْلَكَتِي تُؤَثِّرُ ذَلِكَ ، وَتُخْتَارُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ عِزِّ سُلْطَانِهِ مُحَبَّةً . وَلِهَذَا وَجِبَ أَنْ يَتَوَسَّطَ هَذَا الْأَمْرَ بَيْنِي وَأَتَّفَاقًا : لِتُدَوِّمَ الْمُحَبَّةَ الَّتِي بِهِذِهِ الصُّورَةِ فِيمَا بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ نَائِتَةً بِلا تَشْوِيشٍ . فَمَمْلَكَتِي هَذَا الْيَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ الثَّامِنُ مِنْ شَهْرِ إِيَّارٍ مِنَ التَّارِيخِ [الرُّومِي] التَّابِعِ لِسَنَةِ سِتَّةِ آلَافِ

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المتقدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز، الكبير الجنس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث
ملك عن سلطانه : محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نقيّة، ولا يحرك ملكي أبداً على
عن سلطانه حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا يتحرك
ملك أبداً على حربه، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز،
الكبير الجنس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولدي مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يحرك عن سلطانه على
مملكتنا حرباً قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك
أحدًا آخر أيضاً على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عن سلطانه أيضاً
مطلقاً [آمين، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسيرون من عن سلطانه، وكذلك يعودون إلى عن سلطانه. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عن سلطانه [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جوراً
ولا ظمناً، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عن سلطانه من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقيم كذلك
التجار الواردون من بلاد عن سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عن سلطانه، فلا ينال
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عن سلطانه والذين من أهل
سوداق إن حضر صحتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عن سلطانه بلا عائق

ولا مانع ، ما خلا إن كانوا نصارى ، لأنَّ شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عز سلطانة ممالك نصارى : روم وغيرهم من أجناس النصارى ، متمسكون بدين النصارى ، ويحصل لقوم منهم العتق ، فليكن للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عز سلطانة ، أن يفدوا في البحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانة أن يبيع مملوكا نصرانيا هذه صورته لأحد من رسل مملكتي ، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي ، أن لا يجد في هذا تعويقا ، بل يشتروا المذكور ويفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضا إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب ، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجرا ، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عز سلطانة بضائع متجرا ، فليكن هكذا : وهو إن أراد عز سلطانة أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق ، فليكن أيضا بضائع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانة منجاة مثل ذلك من كل الحقوق ، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [يقوم] بمثل ذلك . وأيضا أن يطلق عز سلطانة لملك أن يرسل أناسا من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانة ، فيشترون لي خيلا جيادا ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد عز سلطانة شيئا من خيرات بلاد ملكي ، فمملكتي أيضا تطلق لعز سلطانة أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عز سلطانة .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية ، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي ، وكذلك يحدون هؤلاء الكرسالية قوما من بلاد عز سلطانة فيعملون لهم خسارة ، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الاتفاق في تحوم بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عز

سُلْطَانِهِ بِمَجَرِّ يُسْكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَغْرَمُونَ . وَلِهَذَا فَلْيَصِرْ مَرْسُومٌ
مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَغْرَمُ بِهَذَا السَّبَبِ
وَلَا يُمَسِّكُ ، وَإِنْ عَرَضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غُرِّمَ أَوْ ظُلِمَ
مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْرِفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
بِلَادِ مُلْكِي ، فَلْيُكَلِّمِي بِأَمْرٍ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظُلِمَ أَوْ غُرِّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أَزْمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ
نُصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنَّهُ
أَرْسَلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجْدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضَرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرِكِ ، فَمَمْلَكَتِي
تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبِ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ
الْفُصُولِ الْمَعِينَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعِينُ وَتَتَجَدُّ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
لَا يُرِيدُ تَجْدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
فِي نَسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مَنَّا بِحِفْظِ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرُ مُتَرَعِّزَةٍ إِنْ كَانَ
هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلِفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرُ
مُتَرَعِّزَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نُسْخَةُ أَتْفَاقٍ ، كَتَبْتُ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَنِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ «قُلاوون»
عَنْ نَظِيرِ الْهَدَنَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، الْوَارِدَةِ مِنْ قَبْلِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مُفْتَتِحَةِ يَمِينِ
مُوَافَقَةٍ لَهَا ، وَهِيَ :

أَقُولُ وَأَنَا فَلَانُ : إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ حَضْرَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، كَرْمِيخَائِيلُ ، الدُّوقْسُ ،
الْأَنْجَالُوسُ ، الْكِينِيُوسُ ، الْبَالَاوُلُوغْسُ ، ضَابِطُ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعَظِيمَى ،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى ، حبة
وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ؛ وأكد ذلك
بيمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعائة
وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطانى ، الأمير ناصر الدين
أبن الجزرى ، والبطرك الجليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله
فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتصقين أن يتوسط هذا الأمر أيضا
يمين واتفاق من عز سلطانى ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون
نايبة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعر سلطانى من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان المعظم ، سنة
ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛
يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى
الصدور ، والقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ،
محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك
الجليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته
الحبيب الكينوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك إيراندروبنفوس ،
ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطانى أبدا على مملكته حربا ، ولا على
بلاديه ، ولا على قلاعه ، ولا على عساكره : فى بر ولا بحر . ولا يحرك
عز سلطانى أحدا آخر على حربيه ، بحيث إن الملك الجليل كرميخائيل يحفظ مثل
ذلك لعز سلطانى ، وملكى ، وبلادى ، ولقلاعى ، ولعساكرى ، ولولدى السلطان
الملك الصالح علاء الدين «على» ولوارثي ملكى من أولادى ؛ ويستمر على هذه
الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط ، ولا على

بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى ، ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة عز سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعده أحدًا من أضداد عز سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يؤايقه على ذلك ، ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عز سلطانى لمضرة شئ فيها بجهده وطاقته .

وأن الرسل المسييرين من مملكة عز سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطانى ، آمنين مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كرميخايل إلى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم ، ويترددون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية فى الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل مثل ذلك ، ويكونون مرعيين ، لا يجردون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل جوراً ولا ظملاً . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بماليك وجوار تمكثهم مملكة الملك الجليل كرميخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطانى ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، ونسبت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يسير عز سلطانى إليه فى طلبهم ،

ولا يتعرض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم أخذون ، أو تظهر عينُ المالِ معهم ، على ما تضمنته نسخةُ يمينِ الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، ومملكة الملكِ الجليلِ كرميخائيل من بلاد عِزِّ سلطاني مثل ذلك .

وعلى أنَّ الرسلَ المترددين من الجهتين : من مملكة عِزِّ سلطاني ، ومن مملكة الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، يكونون آمينين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعيةُ بلاد عِزِّ سلطاني ، ورعيةُ بلاد الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمينين مطمئنين ، صادرين واردين ، محترمين مرعيين . وهذه اليمينُ لا تزالُ محفوظةً ملحوظةً ، مُستمرةً مستقرةً ، على الدوامِ والاستمرار .

قلتُ : وهذه النسخةُ والنسخةُ الواردةُ من صاحبِ القُسطنطينيةِ المتقدمة عليها ، وإنْ عبرَ عنهما في خلالهما بلفظِ اليمينِ ، فإنهما بعقدِ الصلحِ أشبههُ ، واليمينُ جزءٌ من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها في عقودِ الصلحِ دونِ الأيمان .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين مَلَكيْن مُسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول في أصولٍ تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصلَ في ذلك ما ذكره أصحابُ السَّيرِ وأهلُ التَّاريخِ ، أنه لما وقع الحربُ بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وبين مُعاويةَ بن أبي سُفيانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، في صِفِّينَ ، في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - تَوافَقَا على أن يُقيما حَكَمَيْنِ بينهما ، وَيَعْمَلَا بِمَا يَتَّفِقَانِ عَلَيْهِ . فَأقام أمير المؤمنين عليُّ أبا موسى الأشعريَّ حَكَمًا عَنْهُ ، وَأقام مُعاويةُ عمرو بن العاصِ حَكَمًا عَنْهُ . فَاتَّفَقَ الْحَكَمَانِ على أن يُكْتَبَ بينهما كِتَابُ بَعْدِ الصُّلْحِ ، وَاجْتَمَعَا عندَ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَكُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بينهما بِحَضْرَتِهِ ، فَكُتِبَ فِيهِ بعدُ الْبَسْمَلَةُ :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عليُّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تَمُحُ اسمَ أمير المؤمنين فإنِّي أخاف إن مَحَوْتَهَا أن لا ترجعَ إليك أبدا . لا تَمُحُهَا وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليٌّ مَلِيًّا من النَّهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أُمحُ اسمَ أمير المؤمنين ؛ فَأجاب عليٌّ ومجاهد . ثم قال عليٌّ : اللهُ أَكْبَرُ ! سَنَةُ بَسْمَةٍ . وَاللَّهِ إِنِّي لَكَاتِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَكُتِبَتْ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالُوا : لَسْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَوِّهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذْنُ أَرْنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فُتَجِيبُ » .



وهذه نُسخَةُ كِتَابِ الْقِضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فِيمَا رَوَاهُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُزَاهِمِ الْمُنْقَرِي ، فِي « كِتَابِ صِفَتَيْنِ وَالْحَكَمَيْنِ »
بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقَاضَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِيعَتُهُمَا ،
فِيمَا تَرَاضِيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قِضِيَّةٌ عَلَى عَلِيٍّ
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقِضِيَّةٌ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَهْلِ
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَ حُكْمِ
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا آخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ قَاتِلَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَقَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضَيْنَا . وَأَنَّ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ رَضُوا أَنْ يَبْعَثُوا
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَبْعَثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ
نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَتَّخِذَا الْكِتَابَ إِمَامًا فِيمَا بُعِثَا لَهُ ، لَا يَبْعُدُونِهِ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مُسَمًّى فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَعَمَّدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبْهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ
بِالرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

غَيْرِهِ ، وَأَنْهَمَا آمِنَانِ فِي حُكُومَتِهِمَا عَلَى دِمَائِهِمَا وَأَمْوَالِهِمَا ، مَا لَمْ يَعْدُوا الْحَقَّ ، رَضِيَ بِذَلِكَ رَاضٍ أَوْ أَنْكَرُ مُنْكَرٍ . وَأَنَّ الْأُمَّةَ أَنْصَارُهَا عَلَى مَا قَضَاهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ .

فَإِنْ تَوَقَّى أَحَدُ الْحَاكِمِينَ قَبْلَ أَنْقِضَاءِ الْحُكُومَةِ ، فَأَمِيرُ شِيعَتِهِ وَأَصْحَابُهُ يَخْتَارُونَ رَجُلًا ، لَا يَأْلُوْنَ عَنْ أَهْلِ الْمَعْدِلَةِ وَالْإِفْسَاطِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْحُكْمِ بِكَلَامِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَلَهُ مِثْلُ شَرْطِ صَاحِبِهِ .

وَإِنْ مَاتَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ قَبْلَ الْقَضَاءِ ، فَلِشِيعَتِهِ أَنْ يُؤَلُّوا مَكَانَهُ رَجُلًا يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ .

وَقَدْ وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنَنَا وَالْأَمْنُ وَالتَّفَاوُضُ ، وَوُضِعَ السَّلَاحُ . وَعَلَى الْحَاكِمِينَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ : لِيَحْكُمَا بِكَلَامِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَا يَدْخُلَانِ فِي شُبْهَةٍ وَلَا يَأْلُوْنَ أَجْتِهَادًا ، وَلَا يَتَعَمَّدَانِ جَوْرًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ هَوًى ، وَلَا يَعْدُوْنَ مَا فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلَا بَرَأَتِ الْأُمَّةُ مِنْ حُكْمِهِمَا ، وَلَا عَهْدُهَا وَلَا ذِمَّةٌ .

وَقَدْ وَجِبَتِ الْقَضِيَّةُ عَلَى مَا سَمَّيْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَوْقِعِ الشَّرْطِ عَلَى الْأَمِيرَيْنِ وَالْحَاكِمِينَ وَالْفَرِيقَيْنِ ، وَاللَّهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وَأَدْنَى حَفِيزًا ، وَالنَّاسُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَنْقِضَاءِ مُدَّةِ الْأَجَلِ ، وَالسَّلَاحُ مَوْضُوعٌ ، وَالسَّبِيلُ مُخْلَى ، وَالشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَوَاءٌ فِي الْأَمْرِ . وَلِلْحَاكِمِينَ أَنْ يَنْزِلَا مَنْزِلًا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَلَا يَحْضُرُهُمَا فِيهِ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ عَنْ مَلَأٍ مِنْهُمَا وَتَرَاضٍ .

وَأَجَلَ الْقَاضِيَيْنِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَمَضَانَ : فَإِنْ رَأَى الْحَاكِمَانِ تَعَجُّيلَ الْحُكُومَةِ فِيمَا وَجَّهَ لَهُ ، عَجَّلَا . وَإِنْ أَرَادَا تَأْخِيرَهُ بَعْدَ رَمَضَانَ إِلَى أَنْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمَا . فَإِنْ هُمَا لَمْ يَحْكُمَا بِكَلَامِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إِلَى أَنْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَلِلْمُسْلِمِينَ عَلَى

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يد على من أراد في هذا الكتاب الحاداً أو ظمناً ، أو أراد له نقضاً .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب علي : الأشعث بن قيس ، وعبد الله بن عباس ، والأشتر بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحسين والطفيّل أبنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخبّاب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقي الخزاعي ، والحسن والحسين أبنا علي ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجر بن عدي الكندي ، وورقاء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيّل الأنصاري ،^(١) ويزيد بن حجة الدكري ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجر بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسامة الفهمي ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمزة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري ،^(٢) وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحر
العبيسي، ومسروق بن حملة العكي، وئير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر
القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القتي، وعاصم بن المستنير الجذامي،
وعبد الرحمن بن ذى كلاع الحميري، والصبح بن جلهمة الحميري، وئامة بن
حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإنّ بدينا على ما في هذه الصّحيفة عهد الله وميثاقه . وكتب حمير يوم الأربعاء
لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقد الصلح كان عند سعيد
ابن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .
في خاتم علي «محمد رسول الله» وفي خاتم معاوية «محمد رسول الله» .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً
الإطالة، إذ فيما ذكرنا منع . على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرفاً يسيراً .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول،

مما يكتب في الطرة والمنتن)

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .

وأما المنتن فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقد فيه من الجانبين)

ولم أرفه للكتاب إلا الاستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب القضية
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استكتب هرون الرشيد ولديه : محمدا الأمين ، وعبد الله المأمون :
العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لأبنه الأمين ، وولي خراسان أبنه المأمون ،
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فعلقا
في بطن الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك سُميت القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .

أما عهد الأيمن ، فُنُسَخَتْهُ بعد البَسْمَلَةِ - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مَكَّة -
ما صُورَتْهُ :

هذا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أمير المؤمنين ، كتبهُ [له] مُحَمَّدُ بْنُ أمير المؤمنين فِي صَحَّةٍ
من بَدَنِهِ وَعَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ من أَمْرِهِ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرِهٍ .

إِنَّ أمير المؤمنين هُرُونَ وَلَانِي الْعَهْدَ من بعده ، وَجَعَلَ لِي الْبَيْعَةَ فِي رِقَابِ
المسلمين جميعًا ، وَوَلَّى أُنْحَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أمير المؤمنين هُرُونَ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ
أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ من بَعْدِي ، بِرِضَا مِنِّي وَتَسْلِيمٍ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرِهٍ . وَلَوْلَاهُ خُرَاسَانَ
بِثَغُورِهَا ، وَكُورِهَا ، وَجُنُودِهَا ، وَخَرَاجِهَا ، وَطَرَايِزِهَا ، وَبَرِيدِهَا ، وَبُيُوتِ أَمْوَالِهَا ،
وَصَدَقَاتِهَا ، وَعُشَيْرِهَا وَعُشُورِهَا ، وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . فَشَرَطْتُ
لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أمير المؤمنين عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا جَعَلَهُ لَهُ أمير المؤمنين هُرُونَ : من الْبَيْعَةِ
وَالْعَهْدِ ، وَلِلْإِلَافَةِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِي ، وَتَسْلِيمِ ذَلِكَ لَهُ ، وَمَا جَعَلَ لَهُ
من وَلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَا أَقْطَعَهُ أمير المؤمنين هُرُونَ من قِطِيعَةٍ ، وَجَعَلَ لَهُ
من عُقْدَةٍ أَوْ ضِعْفَةٍ من ضِيَاعِهِ وَعُقْدِهِ ، أَوْ ابْتِنَاعٍ لَهُ من الضِّيَاعِ وَالْعُقَدِ . وَمَا أَعْطَاهُ
فِي حَيَاتِهِ وَصَحَّتِهِ : من مَالٍ ، أَوْ حُلِيِّ ، أَوْ جَوْهَرٍ ، أَوْ مَتَاعٍ ، أَوْ كُسُودَةٍ ، أَوْ رَقِيقٍ ،
أَوْ مَتَرٍ ، أَوْ دَوَابٍّ ، قَلِيلًا ، أَوْ كَثِيرًا ، فَهُوَ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أمير المؤمنين مُوقَرًا عَلَيْهِ ،
مُسَامَلًا لَهُ . وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِاسْمِهِ وَأَصْنَافِهِ وَمَوَاضِعِهِ ، أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ هُرُونَ أمير المؤمنين . فَإِنْ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ فَالْقَوْلُ فِيهِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ
أمير المؤمنين ، لَا أَتَّبِعُهُ بِشَيْءٍ من ذَلِكَ ، وَلَا أَخْذُهُ مِنْهُ ، وَلَا أَنْتَقِصُهُ ، صَغِيرًا
وَلَا كَبِيرًا [من مَالِهِ] وَلَا من وَلَايَةِ خُرَاسَانَ وَلَا غَيْرِهَا مِمَّا وَلَّاهُ أمير المؤمنين من
الْأَعْمَالِ ، وَلَا أَعِزُّهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا أَخْلَعُهُ ، وَلَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ ، وَلَا أَقْدِمُ عَلَيْهِ

فِي الْعَهْدِ وَالْخِلَافَةِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَلَا أُدْخِلُ عَلَيْهِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسِهِ وَلَا دَمِهِ ،
وَلَا شَعْرَهُ وَلَا بَشْرَهُ ، وَلَا خَاصًّا وَلَا عَامًّا مِنْ أُمُورِهِ وَوِلَايَتِهِ ، وَلَا أَمْوَالِهِ ، وَلَا قَطَائِعَهُ ،
وَلَا عُقْدَهُ ، وَلَا أُغَيِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَلَا أَخْذُهُ وَلَا أَحَدًا مِنْ عُمَّالِهِ وَكُتَّابِهِ
وَوُلاَةِ أَمْرِهِ - مَنْ صَحْبِهِ وَأَقَامَ مَعَهُ - بِمُحَاسَبَةٍ ، وَلَا أَتَتَّبِعُ شَيْئًا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ وَأَيْدِيهِمْ
فِي وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَغَيْرِهَا مِمَّا وَلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ : مِنْ
الْجَبَايَةِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالطَّرَازِ ، وَالْبَرِيدِ ، وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْعُشْرِ وَالْعُسُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ،
وَلَا أَسْرُ بِذَلِكَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَا أَرْخُصُ فِيهِ لَغَيْرِي ، وَلَا أَحْدَثُ نَفْسِي فِيهِ شَيْءًا
أَمْضِيهِ عَلَيْهِ ، وَلَا أَلْتَمِسُ قَطِيعَةً لَهُ ، وَلَا أَتَقْصُ شَيْئًا مِمَّا جَعَلَهُ لَهُ هَرُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَعْطَاهُ فِي حَيَاتِهِ وَخِلَافَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا سَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا . وَأَخْذُهُ لِي عَلَى
وَعَلَى جَمِيعِ النَّاسِ الْبَيْعَةِ ، وَلَا أَرْخُصُ لِأَحَدٍ - مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي جَمِيعِ مَا وَلَّاهُ -
فِي خَلْعِهِ وَلَا مُحَالَفَتِهِ ، وَلَا أَسْتَعِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْبَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ قَوْلًا ، وَلَا أَرْضَى بِذَلِكَ
فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ ، وَلَا أُعْمِضُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَتَغَافَلُ عَنْهُ ، وَلَا أَقْبِلُ مِنْ بَرٍّ مِنَ الْعِبَادِ
وَلَا فَاحِشٍ ، وَلَا صَادِقٍ وَلَا كَاذِبٍ ، وَلَا نَاصِحٍ وَلَا غَاشٍّ ، وَلَا قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ ، وَلَا أَحَدٍ
مَنْ وَلَدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى - مَشُورَةً ، وَلَا حِيلَةً ، وَلَا مَكِيدَةً
فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ : سَرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَحَقًّا وَبَاطِلًا ، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا ،
وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَرِيدُ بِذَلِكَ إِفْسَادَ شَيْءٍ مِمَّا أُعْطِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ هَرُونَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِي ، وَأَوْجِبْتُ لَهُ عَلَى ، وَشَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا .

وَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ سُوءًا أَوْ مَكْرُوهًا ، أَوْ أَرَادَ خَلْعَهُ أَوْ مُحَارَبَتَهُ ،
أَوْ الْوُصُولَ إِلَى نَفْسِهِ وَدَمِهِ ، أَوْ حَرَمِهِ ، أَوْ مَالِهِ ، أَوْ سُلْطَانِهِ أَوْ وِلَايَتِهِ : جَمِيعًا
أَوْ فَرَادَى ، مُسَرِّينَ أَوْ مُظْهِرِينَ لَهُ - فَإِنِّي أَنْصُرُهُ وَأُحِطُّهُ ، وَأُدْفَعُ عَنْهُ ، كَمَا أَدْفَعُ عَنْ
نَفْسِي ، وَمُهِجَّتِي ، وَدَمِي ، وَشَعْرِي ، وَبَشْرِي ، وَحُرْمِي ، وَسُلْطَانِي ، وَأَجْهَزُ الْجُنُودَ

إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أسلمه [ولا أخذه] ولا أنخلّ عنه ،
ويكون أمرى وأمره في ذلك واحداً [أبداً] ما كنت حياً .

وإن حدث بأمر المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين
بحضرة أمير المؤمنين ، أو أحداً ، أو كلاً غائبين عنه جميعاً : مجتمعين كلاً أو متفرقين ،
وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان [فعلى لعبد الله ابن
أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان] وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا
أعوقه عنها ، ولا أحبس قبي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأجمل إشخاصه
إلى خراسان وإلياً عليها مفرداً بها ، مفوضاً إليه جميع أعمالها كلها ، وأشخص معه
من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكُتّابه ، وعمّاله ،
ومواليه ، وخدّمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبس عنه
أحداً ، ولا أشرك معه في شيء منها أحداً ، ولا أرسل أميناً ولا كاتباً ولا بُنداراً ،
ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطت لهما على نفسي ،
من جميع ما سميت وكتبت في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين
وذمتي ، وذمة آبائي وذمة المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين
وخلقه أجمعين : من عهوده ومواثيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل
بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون
أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا ، أو حدثت نفسي أن أنقض شيئاً مما أنا عليه ،

أَوْ غَيْرَتْ أَوْ بَدَّلَتْ ، أَوْ حُلَّتْ أَوْ غَدَرْتُ ، أَوْ قِيلَتْ [ذلك] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ :
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، بَرًّا أَوْ فَاحِشًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ وَلَايَتِهِ ، وَمِنْ دِينِهِ ، وَمِنْ مَعْدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَقِيتُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرَاءٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَزَوَّجُهَا إِلَى
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَاقِ الْحَرَجِ ، وَعَلَى الْمَشَى إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي ، حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدًى بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ
الْحَرَامِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارًا لَوْجَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَلُّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكِتَبْتُهُ وَشَرَطْتُهُ
لَهُمَا ، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ ، وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِإِزْمٍ لِي الْوَفَاءَ بِهِ ، لَا أَضْمُرُ غَيْرَهُ ،
وَلَا أَتَوَى إِلَّا إِيَّاهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَاقِيقُ وَالْإِيمَانُ
كُلُّهَا لَازِمَةٌ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْآفَاقِ وَالْأَمْصَارِ
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِخْرَاجِي مِنْ وَلَايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ،
وَكَرْجُلٍ مِنْ عَرْضِ الْمُسْلِمِينَ ، لَأَحَقَّ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وَلَايَةً ، وَلَا تَبِعَةً لِي قَبْلَهُمْ ،
وَلَا تَبِعَةً لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْإِيمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، وَعِيسَى بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَدَاوُدُ بْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَيَحْيَى
 ابْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَخَزِيمَةُ بْنُ حَازِمٍ ، وَهَرْمَةُ بْنُ
 أَعْيَنَ ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى ، وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
 مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ الرَّبِيعِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدُمَانَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الْعَبْسِيِّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِّ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
 ابْنُ أَبِي الشَّامِرِ الْغَسَّانِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَاضِي مَكَّةَ ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ شُعَيْبٍ
 الْحَجَبِيُّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَبِيُّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبٍ الْحَجَبِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنُ عَثْمَانَ الْحَجَبِيُّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيُّ ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 الْحَجَبِيُّ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيُّ ، وَأَبَانُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ مَنْصُورٍ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ ، وَالْحَارِثُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالِدُ مَوْلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .



وَأَمَّا مَا كَتَبَهُ الْمَأْمُونُ ، فَتَضَّهَ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 فِي صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَصِدْقٍ نَيْسَةٍ فِيمَا كَتَبَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَعْرِفَةٍ
 مَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَلِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَّانِي الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ
 بَعْدَ أَخِي مُحَمَّدِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّانِي فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ نُرَّاسَانَ وَكُورَهَا ،
 وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا : مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْعُسْثِيرِ وَالْبَرِيدِ وَالطَّرَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَشْتَرْتُ لِي عَلَى

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،
 وولايي نحرسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو أبتعت منه [لنفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب
 في سبب محاسننه [لأصحابى] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل
 على ولا على أحد ممن كان معي ومي ، ولا عمالي ولا كتابي ، ومن استعت به من جميع
 الناس - مكرهاً : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
 ولا كبير .

فأجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتاباً كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقبله وعرف صدق نيته . فشرط لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصح
 ولا أغشه ، وأوقى بيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفى لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماء في الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقض شيئاً من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التى
 اشترطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن أحتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جندي وكتب لي يأمرني
 بإشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 نقض شيء من سلطانه وسلطاني الذى أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولائنا -
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلى .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوَلِّي رجلاً من وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ
من بَعْدِي، فذلك له ما وَفَّى لِي بِمَا جَعَلَ لِي أمير المؤمنين هرون، واشترط لي عليه،
وشرطه على نَفْسِهِ في أَمْرِي، وعلى إِنْفَاضِ ذَلِكَ وَالْوَفَاءَ لَهُ بِذَلِكَ، وَلَا أَنْقُضَ ذَلِكَ
وَلَا أُغَيِّرُهُ، وَلَا أَبَدُّهُ، وَلَا أَقْدِمُ [قبله] أَحَدًا من وَلَدِي، وَلَا قَرِيْبًا وَلَا بَعِيدًا من
الناس أجمعين، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ هرون أمير المؤمنين أَحَدًا من وَلَدِهِ الْعَهْدَ من بَعْدِي،
فيلزمني الْوَفَاءَ بِذَلِكَ.

وجعلتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءَ بِمَا اشترطتُ وَسَمَّيْتُ
فِي كِتَابِي هَذَا، مَا وَفَّى لِي مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هرون بِجَمِيعِ مَا اشترطَ لِي هرون
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هرون من جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ
الْمُسَمَّاةِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ لَهُ. [وعلى] عَهْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَمِيثَاقُهُ، وَذِمَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،
وَذِمَّتِي، وَذِمَّةُ آبَائِي، وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّبِيِّينَ
وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ مِنْ عُهُودِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَالْإِيمَانِ الْمُوَكَّدَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَفَاءِ بِهَا.

فإنَّ أَنَا نَقَضْتُ شَيْئًا مِمَّا اشترطتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَهُ، أَوْ غَيَّرْتُ، أَوْ بَدَّلْتُ،
أَوْ نَكَحْتُ، أَوْ غَدَرْتُ - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ وِلَايَتِهِ وَمِنْ دِينِهِ، وَمِنْ
مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلَقِيتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا
مُشْرِكًا. وَكُلُّ أَمْرٍ آتٍ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَتْرُجُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا الْبَتَّةَ [طَلَّاقٌ]
الْحَرْجِ. وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارٌ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى. وَعَلَى
الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ حَجَّةً، نَذْرًا وَاجِبًا عَلَيَّ وَفِي عُنُقِي،

حَافِيًّا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لِي هُوَ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمَلِكُمْ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ . وَكُلِّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ شَرَطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَزِمٌ لِي ، لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهِدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمُبْتَدِ بِذِكْرِهِ . قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلُقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُفْبَةِ حَتَّى مَاتَ هُرُونَ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْنَتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيَّ فِي إِثْبَانِهِ بِهِمَا ، فَتَزَعَّاهُمَا مِنَ الْكُفْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ، فَأَخَذَهُمَا الْفَضْلُ فَخَرَّقَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى نَحْوِ مَنْ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِي مُوَاصَفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ، أَجْنَى عَضْدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثَةَ .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاقَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ ابْنَا عَضْدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ ، وَنَصَرَهُ وَعَلَّوَهُ وَإِذْنَهُ .

اتَّفَقَا وَتَصَالَحَا ، وَتَعَاهَدَا وَتَعَاقَدَا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْأَعْتَصَامِ بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِتِّجَاءِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفَرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، لِأَشْرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدْبَ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلّم تسليماً ، والطّاعة لأمر المؤمنين الطّائِع لله ، والالتزام بوثائق بيعته ، وعلائق
دعوته ، والتّوازر على موالاة وليّه ، ومُعَاداة عَدُوّه ؛ وعلى أن يُنَسِّكَ [ذات] بينهما
بالسير الحميدة ، والسّنن الرشيدة ، التي سنّها لهما السّلف الصّالح من آبائهما وأجدادهما
في التّألف والتّوازر ، والتّعاصِد والتّظافُر ؛ وتُعْظِم الأصغر للأكبر ، وإشبال^(١) الأكبر
على الأصغر ؛ والامْتِزَاج في النّعم ، والتّقاوُض في الحظوظ والقِسَم ؛ والاتّحاد بخلوص
الطّوابع ، والخفايا ؛ وسلامة الخواطر ، وطهارة الضّمائر ؛ ورفع ما خالف ذلك من
أسباب المنافسة ، وجرائر المضاغنة ؛ وجوالب النّبوه ، ودواعي الفرقة ؛ والإقْران
لأعداء الدّولة ، والإزْصَاد لهم ؛ والاجتماع على دفع كلّ ناجم ، وقمع كلّ مُقْصِوم ؛
وإزْغَام أنف كلّ ضارٍ متجَبّر ، وإضْراغ خَدّ كلّ مُتَطاولٍ مُسْتَكْبِر ؛ حتّى يكون
الموَالِي لأحدهم منصُوراً من جماعتهم ، والمُعَادِي له مَقْصوداً من سائر جوانبهم ؛
فلا يجد المنايذ على أحدهم مَفْزَعاً عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به ، ولا النّجاء
إليه ؛ لكنّ يكون مَرْمِياً بجمع سباهم ، ومَضْرُوباً بأسيفِ نِقْمَتِهِمْ ، ومَأْخُوداً بِكَلِمَةِ
بأسِهِمْ وقُوَّتِهِمْ ، ومَقْصوداً بغالبِ تَجْدَتِهِمْ وشِدَّتِهِمْ ؛ إذ كانت هذه الآداب القويمة ،
والطّرائق السّليمة ؛ جاريةً للدّول مجرى الجُنن الدّافعة عنها ، والمعاقِل المانعة لها ؛
ومِثْلُهَا تَطْمِئِنُّ النّعم وتَسْكُن ، كما أنّ بأضدادها تَشْمَتُّ وتَفِر .

ولما وفق الله تعالى شرف الدّولة وزين المِلَّة أبا الفوارس ، وصمّصام الدّولة
وشمس المِلَّة أبا كاليبجار اعتقاد هذه الفضائل وإيثارها ، والتّظاھر بها واستشعارها ؛
ودعاهما مَوْلَاهُما الطّائِع لله أمير المؤمنين إلى ما دعاهما إليه من التّعاطف والتّألف ،
والتّصافي والتّخالص ؛ وأمر صمّصام الدّولة أبا كاليبجار بمُرَاسَلَةِ شَرَف الدّولة

أبي الفوارس في إحكام معاهد الأخوة، وإبرام وثائق الألفة - أتمثل ذلك وأصغي إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغي إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله تقبل العالم اللبيب؛ وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر خرشيد بن ديار بن مافنة المعروف من كفايته، والمشهور من اضطناج الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه إياه ودیعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوي في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

فحرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبي كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه الموصفة ما احتجج إلى إثباته منها [أمر] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

نأما الأمر الذي يجمعهما عموم، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جزه عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، واستعمال التقاطع؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن منقصة التنافر والتهاجر، إلى منقبة التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مریدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به؛ ومسررا مثل ما يظهر: من موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ والمرامة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما ناجم، أو راعمه مرغم، أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ أتفقا جميعا على مقارعة: قريبا كان أو بعيدا، وترافدا على مدافعة: دانيا كان أو قاصيا؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَنُوبِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَسَعُّ وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ طَوْقُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّهِ ، وَرِجَالٍ وَنَجْدَةٍ ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَغْفُلُ أَخَاهُ عَنْ أَحْيَاةِهِ ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَازَرَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغِبٍ ، وَحِيلَةٍ مُحْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ، وَلَا يُخَيِّرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعِصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ، وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَتَحَيِّفُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْقًا ، وَلَا يُخَيِّفُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْتِلَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُلَاءَمَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ النَّأْوِيَّاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ التَّزَامًا عَلَى التَّمَانُلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَازِيِ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صِلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهِمَا بَعِزًّا ، وَعَلَى عَدُوِّهِمَا بُدْلًا ؛ وَأَنْ يُقِيمَ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِمَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي نَقِشِ سِكَكِ دَوْرِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالْدِّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيجَارَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أَبَا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَاتِبَاتِ

والمخاطبات حقَّ التعظيم ، وشِعَارَ التَّفْخِيمِ ، على التَّقْرِيرِ بدينه وبين خرشيد بن ديار ابن مافنة في ذلك .

وأما الأمرُ الذي يختصُّ صَمَصَامُ الدَّوْلَةِ وشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ به ، ويَلْتَزِمُهُ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ له ، فهو تركُّ التَّعَرُّضِ لِسَائِرِ مَمَالِكِهِ ، وما يتَّصَلُ بها من حُدُودِهَا الجارية معها ؛ والإِفْرَاجُ منها عما يودُّه ويُسرِّعُ إليه أصحابُ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ المِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْيِيفِ لها أو لشيءٍ من الحقوقِ الواجبةِ فيها ، ومُرَاعَاةُهَا في الأمورِ التي يحتاج فيها إلى نَظَرِهِ وَطَوْلِهِ ، وإِجْمَالِهِ وَقُضْلِهِ ، وما يجب على الأَخِ الأكبرِ مُرَاعَاةَ أَخِيهِ وَتَالِيِهِ فيه ، ممَّا ثَبَّتَ في هذه المُواصِفَةِ جُمْلَتَهُ ، وَاشْتَمَلَتِ المِفَاوِضَةُ مع خورشيد بن ديار بن مافنة على تَفْصِيلِهِ .

اتَّفَقَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ ، وَصَمَصَامُ الدَّوْلَةِ وَشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ ، بأمرِ أميرِ المؤمنين الطائعِ لله ، وعلى الاختيارِ مِنْهُمَا ، والأَنْشِرَاجِ مِنْ صُدُورِهِمَا ، من غيرِ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ ، وَلَا أَصْطِبَارٍ وَلَا أَضْطِرَّارٍ - على الرِّضَا بِذَلِكَ كُلِّهِ ، والالتزامِ له ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجُوعًا إِلَيْهِ ، وَعَقْدًا مَعْمُولًا عَلَيْهِ ؛ وَحَلَفَ كُلُّ مِنْهُمَا على ما يَلْتَزِمُهُ مِنْ ذَلِكَ يَمِينًا عَقْدَهَا بِأَنْ يَحْلِفَ صَاحِبُهَا بِمِثْلِهَا ، على ما يَلْتَزِمُهُ مِنْهُ . فَقَالَ صَمَصَامُ الدَّوْلَةِ : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (وَيَسْتَمِ الْيَمِينُ) .

النوع الثاني

(مما يجري عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد)

وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يُفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصّابي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أردشير ، والشّريفيّين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسين محمد ابنه الرّضّى ، بما انعقد من الصّالّح والصّمير بين الوزير المذكور ، وبين النّقيب أبي أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على نسختين ، لكلّ جانب نسخة ، بعد البسملة ماضورته :

هذا كتاب لسابور بن أردشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسويّ ، وولده محمد بن الحسين الموسويّ .

إنا وإياك - عند ما وصله الله بيننا من الصّمير والخُلطة ، وشجّه من الحال والمودّة - آثرنا أن ينعقد بيننا وبينك ميثاقٌ مُؤكّد ، وعهدٌ مُجدّد ، تَسْكُنَ النفوس إليهما ، وتطمئنّ القلوبُ معهما ، وتزدادُ الألفةُ بهما على مرّ الأيام ، وتعاقبُ الأعوام ؛ ويكونُ ذلك أصلًا مُستقرًّا نرجع جميعًا إليه ، ونُعَوِّلُ ونَعْتَمِدُ عليه ؛ وتوارثه أعقابنا ، وتنبّعنا فيه أخلافنا .

فأعطيناك عهدَ الله وميثاقه ، وما أخذَهُ على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقرّبين ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صدّورٍ مُنْشَرَحِه ، وآمالٍ في الصّلاح مُنْفَسِحَه - أنا

تُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُسَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَيُوَافِقُ خَافِيَهُ دَالِنَهُ ، وَأَنَا نُوَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ، وَنِصْلُ مِنْ وَصْلِكَ ، وَنَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفِي فَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ، وَصِمْنَا لَكَ صِمَانًا شَهِدَ اللَّهُ بِلِزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، الْآثِيرَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُسْتَقْلَةَ إِلَيْنَا ، كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِشِعَاغِهَا ، وَتُجْرِيهَا مُجْرَى كَرَامِ حُرْمِنَا ، وَنَقَائِسِ بَنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّهِ مَنَازِلِنَا وَأَوْطَانِنَا ، وَنَتَنَاهَى فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرِ مُؤَيَّدَاتِهَا وَمُؤَنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهْوُضِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلَكَ فِيهَا ، فَلَا نُعْذِمُ شَيْئًا أَلْفَقْتَهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَذَبِّ عَنْهَا ، وَمُحَامَاةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ لِمَسَارِّهَا ، وَتَوَخُّحِ لِمَحَابَّتِهَا ، وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمَتْنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمَدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطْلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقُّ مَعْدِ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرِّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - مَا وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمَا ، وَسَادَتْنَا الْأُمَّةُ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقُّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ ، لَتَفِيْنٍ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةِ الْآثِيرَةِ أَبْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلِنَلْتَمِزَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِطَهُ وَوَثَائِقَهُ ، فَلَا نَنْفَسُهَا ، وَلَا نَنْقُضُهَا ،

ولا تَتَّبِعْهَا ، ولا تَتَّبِعْهَا ، ولا تَتَّأَوَّلْ فِيهَا ، ولا تَزُولْ عَنْهَا ، ولا تَلْتَمِسْ مَخْرَجًا وَلَا مَخْلَصًا مِنْهَا ، حَتَّى يَجْعَلَنا الْمَوْقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَالْمَقْدَمُ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ نَابِتَانِ عَلَيْهِمَا ، وَمُؤَدِّيَانِ لِلْأَمَانَةِ فِيهَا ، أَدَاءً يَشْهَدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَمَلَايَكَتُهُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَيُحَاسِبُ الْعِبَادَ . فَإِنْ نَحْنُ أَخْلَاْنَا بِذَلِكَ أَوْ لَيْسَ مِنْهُ ، أَوْ تَأَوَّلْنَا فِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، أَوْ أَضْرَرْنَا خِلَافَ مَا نَظْهَرُ ، أَوْ أَسْرَرْنَا ضِدَّ مَا نَعْلَمُ ، أَوْ أَكْتَمَسْنَا طَرِيقًا إِلَى تَقْضِيهِ ، أَوْ سَبِيلًا إِلَى فَسْخِهِ ، أَوْ أَلْمَنَّا بِإِخْفَارِ ذِمَّةٍ مِنْ ذِمَّتِهِ ، أَوْ أَتَهَّاكَ حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ ، أَوْ حَلَّ عِصْمَةٍ مِنْ عِصْمِهِ ، أَوْ أَبْطَلَّ شَرْطَ مَنْ شَرْطِهِ ، أَوْ تَجَاوَزَ حَدًّا مِنْ حُدُودِهِ - فالذى يفعل ذلك مِنَّا يَوْمَ يَفْعَلُهُ أَوْ يَعْتَقِدُهُ ، وَحِينَ يَدْخُلُ فِيهِ وَيَسْتَحْيِرُهُ - بَرَىءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، وَمَنْ نُبُوَّةَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَمَنْ وِلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ، وَمَنْ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ الْعَظِيمَ ، وَمَنْ دِينَ اللَّهِ الصَّحِيحَ الْقَوِيمَ ؛ وَلَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ بَعْدُ - سَبْحَانَهُ - مُشْرِكٌ ، وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَالِفٌ ، وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ مُعَادٍ ، وَلِأَعْدَائِهِمْ مُوَالٍ ؛ وَعَلَيْهِ الْحُجَّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الْعَتِيقِ الَّذِي بِمَكَّةَ : رَاجِلًا ، حَافِيًا ، حَاسِرًا ؛ وَإِمَاوُهُ عَوَاتِقٌ ، وَنِسَاوُهُ طَوَالِقٌ ، طَلَّاقُ الْحَرْجِ وَالسَّنَةِ ، لَا رَجْعَةَ فِيهِ وَلَا مَشْنُوِيَّةَ ؛ وَأَمْوَالُهُ - عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا - مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ ، وَخَارِجَةٌ عَنْ يَدَيْهِ ، وَحَبِيسَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَبَرَأَهُ اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَجْلَاهُ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لِسَانَهُ ، وَعَقَدَ عَلَيْهَا صَمِيرَهُ ، وَالنِّيَّةُ فِي جَمِيعِهَا نِيَّةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَّا الْوَفَاءَ بِهَا ، وَالتَّابَتَ عَلَيْهَا ، وَالْإِلْتِزَامَ بِشُرُوطِهَا ، وَالْوُقُوفَ عَلَى حُدُودِهَا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ، وَجَازِيًا لِعِبَادِهِ وَمُثَبِّيًا . وَذَلِكَ فِي يَوْمِ كَذَا ، مِنْ شَهْرِ كَذَا ، مِنْ سَنَةِ كَذَا .

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصَّلَاحِ بِخُطْبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْقِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صَلَاحٍ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ
(١) لمن كان

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي "كِتَابِ الْبَلَاغَةِ" فِي التَّرْسُلِ ، بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

الحمد لله الذي خلق العبادَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيٌّ ، وَلَا أَمْتَنَ عَنْهُ قَوِيٌّ ، أَسْتَدْعِ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطَرِهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ اخْتِذَاهُ ، وَلَا رَسِيمٍ آقَتْفَاهُ ؛ وَأَيَّدَهُمُ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدَوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَأَكْتَفَوْا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِخَبَرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرَ لَهُمْ فِي التَّبَصُّرِ ، وَغَلَبِهِمْ
فِي الْحُجَّةِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَّاتٍ بَيَّنَّهَا ؛ وَمَعَالِمٍ أَوْضَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ؛ وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَارْتِضَاهُ وَأَصْطِفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَاجْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ
وَأَعْلَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ مُهِمًّا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرُقِهِ ، وَالْهَادِينَ لِفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ ؛ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي فِتْرَةٍ بَعْدَ فِتْرَةٍ ، وَبَيِّنَةٍ بَعْدَ بَيِّنَةٍ ؛ حَتَّى
أَتَمَّ تَقْدِيرَهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَفَّى بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّهِ أَدْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَانِحِي

فَتَرَهُ ، وَتَرَاهِ حَيْرَةً ، فَأَبَاحَ بِهِ نِيرَانَ الْفِتَنِ بَعْدَ اضْطِرَامِهَا ، وَأَضَاءَ بِهِ سُبُلَ الرَّشَادِ بَعْدَ إِظْلَامِهَا ، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِمَا وَجَدَهُ عِنْدَهُ مِنَ التَّهْوُضِ بِأَعْيَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَالْقِيَامِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَةِ ، فَازْرَاحَ بِذَلِكَ الْعِلْمَةَ ، وَقَطَعَ الْمَعْدِرَةَ ، وَلَمْ يُبْقِ لِلشَّكِّ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ ، وَلَا لِلْعَانِدِ دَعْوَى مُمَوَّهَةٍ ، حَتَّى مَضَى حَمِيدًا تَشْهَدُ لَهُ آثَارُهُ ، وَتَقُومُ بِتَأْيِيدِ سُنَّتِهِ أَخْبَارُهُ ، قَدْ خَلَّفَ فِي أُمَّتِهِ ، مَا أَصَارَهُمْ بِهِ إِلَى عَطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَنُحْطِهِ ، إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ بَسُوءِ اخْتِيَارِهِ ، وَحَرَمِ الرَّشَادِ بِخِذْلَانِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وَأَتَمِّهَا ، وَأَوْفَاهَا وَأَعَمَّهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ سَيِّدَنَا الْأَمِيرَ بِالتَّوْفِيقِ وَتَوَحَّدَهُ بِالْإِرْشَادِ وَالتَّسْهِيدِ ، فِي جَمِيعِ أُنْحَائِهِ ، وَمَوَاقِعِ آرَائِهِ ، وَجَعَلَ هِمَّتَهُ (إِذْ كَانَتْ الْهِمْمُ مَنْصُرِفَةً إِلَى هَشِيمِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا ، الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْأَبْنَاءُ وَتَدْعُوهَا إِلَى نَفْسِهَا) ، مَقْصُورَةً عَلَى مَا يَجْعُلُ لَهُ رِضَا رَبِّهِ ، وَسَلَامَةً دِينِهِ ، وَاسْتِقَامَةً أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَصَلَاحَ أحوَالِ رِعْيَتِهِ ، وَأَيَّدَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْمَعَارِضِ ، وَالشُّبْهَةِ الْوَاقِعَةِ ، الَّتِي تَحَارُّ فِي مِثْلِهَا الْآرَاءُ ، وَتَضْطَرِبُ الْأَهْوَاءُ ، وَتَنَازِعُ خَوَاطِرُ النُّفُوسِ ، وَتَفْتَلِحُ وَسَاوِسُ الصُّدُورِ ، وَيَخْفَى مَوَاقِعُ الصَّوَابِ ، وَيُشْكَلُ مِنْهَجُ الصَّلَاحِ - بِمَا اخْتَارَ لَهُ مِنَ السَّلَامِ وَالْمُؤَادَعَةِ ، وَالصُّلْحِ وَالْمُؤَافَقَةِ ، الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى فَضْلِهِ ، وَالْخَيْرِ الَّذِي فِي ضَمْنِهِ ، بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ حَتَّى أَصْبَحَ السَّيْفُ مَغْمُودًا ، وَرَوَاقُ الْأَمْنِ مَمْدُودًا ، وَالْأَهْوَاءُ مُتَفَقَّةً ، وَالْقُلُوبُ مُؤْتَلَفَةً ، وَالْكَلِمَةُ مُجْتَمِعَةً ، وَنِيرَانُ الْفِتَنِ وَالضَّلَالَةِ خَامِدَةً ، وَظُنُونُ بُغَايَتِهَا وَالسَّاعِينَ لَهَا كَاذِبَةً ، وَطَبَقَاتُ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَّةِ - بِمَا أُعِيدَ إِلَيْهِمْ مِنْ

الْأَمْنَةُ تُعَقَّبُ الْخِيفَةَ ، وَالْأَنْسَةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَنْبِيْهِ وَطَأْنِهِ - رَاغِبِينَ ،
 وَفِي مُسَامَلَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ ، وَالصَّلَاحُ مُخْبَرًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظِمُ بِهِ : مِنْ حَقِّ الدَّمَاءِ ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنْ الْخِلَالِ الْحَمْدُودَةَ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَدْدُودَةَ ، الْمُقَدِّمِ ذِكْرُهَا - مَا حَادَا عَلَيْهِ ، وَمَثَلَ
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَحُسْنَ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخَاصِّ
 وَالْعَامِّ بِهِ ؛ فِيمَا يَحْتَلِي لِلْعِيُونِ ، مِنْ مُشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ ، إِذَ الدِّينُ وَإِقْعُ ، وَالشَّكُّ جَانِحُ
 بَيْنِ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ ، وَالْخَائِرِ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ ﴾ نَظِيرًا
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعَرَّةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيرُهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعُدْوَانِ ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَّاطِ النَّسْيَانِ ، وَكَفَافًا أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَحَنُّنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيقَاتُ الَّذِي أَدْنَاهُ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْضَاهُ ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا ، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا ، مَقْصُودَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا خَوْلَهُ ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَمْدُ الصُّلَحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق» ، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 النَّظْمِيِّ تَيْمُورْ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيبِهَا ، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلَحِ ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشَ
 لَزِمَهُ ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» صَحْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْكُجْجَانِي . جُهِزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرَيْنَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ صَحْبَةَ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقر المفتي صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع (١) بقلَم (١) وفي طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم، مُشتمل على عقد صالح أفتحه المقام الشريف، العالي، القطبي، نصرة الدين، تيمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ووكيله في ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر صحبته من العدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبتة، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة، واتحاد المملكة، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة في أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم بيت العلامة، والسطر الثاني بعد بيت العلامة . والعلامة بجليل الثبث بالذهب ما صورته : « الله أملي » .

وَتُسَخَّهُ الْمَكْتُوبُ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ مَا صُورَتْهُ :

الحمد لله الذى جعل الصُّلَحَ خَيْرَ ما أَنْعَقَدَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوَّلَى ما أَنْصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَأَحَقَّ ما نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْحَامِدِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ
أَفْوَاهُ الْمَدَائِحِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْتَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِعِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَى بِهَا كُلُّ غَادٍ وَرَاجٍ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَبْلُغُ قَائِلَهَا أَهْنَى الْمَنَاجِحِ ، وَتَعَطَّرُ مَجَالِسُ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رِوَايَتِهَا الرِّوَايِعِ ، وَنَشْهَدُ
أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مِنْ آخَى بَيْنَ الْمُتَحَاكِينَ فَنُصَحَ اللَّهُ وَرَأَى الصُّلَحَ مِنْ
أَعْظَمِ النَّصَائِحِ ، وَأَكْمَلَ رَسُولُ أَنْقَادَتْ لِأَخْلَاقِهِ الرِّضْيَةِ ، وَصِفَاتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، جَوَانِحِ
النُّفُوسِ الْجَوَانِحِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى ما أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلَى الْأَبْأَابِ ، وَرَكَنْتُ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - آتِلَافُ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا ، وَاتِّصَافُهَا
بِالتَّلَافُفِ بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ، وَالْعَمَلُ عَلَى الصُّلَحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَرْجَى
مَتَاحِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ، إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،
وَمِصْبَاحُ مَنَاجِحِ الْفِكْرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ، وَالِدَّاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءُ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ دَاءِ الْعَلِيلِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالَى ، الْكَبِيرُ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْمُؤَيَّدِيُّ ،
الْمُظَفَّرِيُّ ، الْمُنَجِّئِيُّ ، الْمَلَادِيُّ ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ، نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلْجَأُ الْقَاصِدِينَ ،
مَلَأْدُ الْعَالِيَيْنِ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، تَيَمُّورُ كُورِ كَانٍ ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ -
هُوَ الْبَادِي بِأَحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مُقَاوَضَتِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَضَمِّنَةٌ ، الْوَارِدَةُ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ،
 الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدُّنْيَا وَالِدِّينِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « فَرَج » بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
 الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدِ « بَرْقُوق » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
 مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَامِيِّ ، مَسْعُودِ
 الْكَجَجَانِيِّ ، الْمُرَوَّحَةِ بِسْمَلٍّ شَهْرَ ربيع الأول سنة تاريخه .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسِرٌّ مَكْنُونُهَا - قَصْدُ إِيقَاعِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ
 إِلَيْهِمَا ، وَنَسْجِ الْمَوَدَّةِ وَالْحُبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالِ رِذَاءِ مُحَاسِنِهَا عَلَيْهِمَا ؛
 بِمَقْتَضَى تَقْوِيضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى
 الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوَكُّلِهِ إِيَّاهُ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ،
 وَجَعَلِ قَوْلِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ،
 وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطَّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمَجْهَزِينَ صُحْبَةَ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْمَذْكُورِ ، وَهُمَا : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ
 الْحَزْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّدْرُ الْأَجَلُّ كَمَالُ الدِّينِ كَمَالُ أَعَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ
 الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، مُوَافَقَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ
 بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشَ لَزِمَ الْمَقَامِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجْهِيزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛
 وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحُضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكَابِرِهَا ، وَمَنْ حَضَرَ
 مَجْلِسَهُ ، بِالْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِأَشْتَاتِ الْحَلِيفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ
 وَبَارِئُ النَّسَمِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الدَّاخِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ
 مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا عَاهَدَ وَصَالَحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ
 نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَكِيلِ الْمَذْكُورُ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُمْضِيهِ
 وَيَرْتَضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فعند ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: تبركاً بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لها في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحى، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها، وما قامت به البينة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين ضجة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه . فكان صلحاً صحيحاً شرعياً، تاماً كاملاً معتبراً مرضياً، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل، واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقرت النواظر، لما في ذلك من حفظ دمام العهود الشريفه، وإقامة منار الشرع الشريف وأمنه

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرِيْفِهِ ؛ وإِجْراءِ كَلِمَةِ الصَّدِّقِ ، على لسانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فلا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصَّلَاحِ الشَّرِيفِ
على مَدَى الْإِسْأَلِ وَالْإِيَّامِ ، ولا يَنْقُضِي حُكْمُهُ ولا يَنْحَلُّ إِبْرَامُهُ على تَوَالِي السِّنِّينِ
والْأَعْوَامِ .

هذا : على أَنْ لا يَدْخُلَ أَحَدٌ من عَسَاكِرِهِمَا وَجُدِهِمَا وَمَمَالِكِهِمَا إلى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، ولا يَتَعَرَّضَ إلى ما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَمَالِكِ وَقِلَاعِ ، وَحُصُونِ
وَسَوَاحِلَ وَمَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ من سائرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرَعَايَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وما هو مُخْتَصٌّ بِبِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرُهَا
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِيهَا وَدَانِيهَا ، وَعَامِرُهَا وَغَامِرُهَا ، وَبَاطِنُهَا وَظَاهِرُهَا ، ولا إلى مَنْ
فِيهَا مِنَ الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْغَادِيْنَ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ :
مُتَفَرِّقِينَ وَمُجْتَمِعِينَ .

هذا على أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمَقَامَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا مع الْآخَرِ على أَكْمَلِ
ما يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ ، وعلى الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْتِزَاجِ وَالْإِخْتِلَاطِ كَرُوحَيْنِ فِي جَسَدٍ ؛
مع ما يُضَافُ إلى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،
وَمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وما تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الْفَسْخُ ، وهو ما وقع من أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ دُونَ الْآخَرِ

قال في "التعريف" : وَقَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعَثُ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ .
قال : وقد كتب عَمِّي الصَّاحِبُ شَرْفُ الدِّينِ [أبو محمد^(١)] عَبْدُ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ ،
سَنَةَ دُخُولِ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَةِ مَلَطِيَّةً ، سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَسَبْعَائَةٍ فَسَخًا عَلَى التَّكْفُورِ
مُتَمَلِّكٍ سَيِّسٍ ، كَانَ سَبَبًا لِأَنْ زَادَ قَطِيعَتَهُ . وَلَمْ يَذْكُرْ صَوْرَةَ مَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه
مُوجِبَ الْفَسْخِ الصَّادِرِ عَنِ الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ : مِنْ ظُهُورِ مَا يُوجِبُ تَقْصُّ الْعَهْدِ ،
وَنَكَثَ الْعَقْدَ ، وَإِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَى الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

قال في "التعريف" : وَالَّذِي أَقُولُ فِيهِ : إِنَّهُ إِنْ كُتِبَ فِيهِ ، كُتِبَ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ :

هَذَا مَا اسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَلَانٌ ، اسْتِخَارَةٌ تَبَيَّنَ لَهَا فِيهَا غَدْرُ الْغَادِرِ ، وَأُظْهِرَ لَهُ بِهَا
سِرُّ الْبَاطِنِ مَا حَقَّقَهُ الظَّاهِرُ ؛ فَسَخَ فِيهَا عَلَى فَلَانٍ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمُهَادَنَةِ
الَّتِي كَانَ آخِرُ الْوَقْتِ الْفُلَانِي آخِرَ مُدَّتِهَا ، وَطَهَّرَ السُّيُوفَ الذُّكُورَ فِيهَا مِنَ الدِّمَاءِ إِلَى
انْقِضَاءِ عَدَّتِهَا ؛ وَذَلِكَ حِينَ بَدَأَ مِنْهُ مِنْ مُوجِبَاتِ التَّقْصُّ ، وَحَلَّ الْمُعَاقَدَةَ الَّتِي كَانَتْ
يُسَدُّ بِبَعْضِهَا بَعْضُ (وَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَتَذَكَّرْ وَتَعَدَّ) مِمَّا يُوجِبُ كُلَّ ذَلِكَ إِخْفَارَ

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الدِّمَّة ، وَتَقْضِ الْعَهْدَ الْمَرْعِيَّةَ الْحُرْمَةَ ؛ وَهَذَ قَوَاعِدَ الْهُدْنَةِ ، وَتَحْلِيَةَ مَا كَانَ قَدْ
أُمْسِكَ مِنَ الْأَعْنَةِ ؛ كَتَبَ إِذْذَا ، وَقَدَّمَ حَذَارًا ؛ وَمَنْ يَشْهَدُ بِوُجُوبِ هَذَا الْفَسْخِ ،
وَدُخُولِ مِلَّةِ تِلْكَ الْهُدْنَةِ فِي حُكْمِ هَذَا النَّسْخِ ؛ مَا تَشْهَدُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَيَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ
النَّصْرُ الْمَكْتَتَبُ لِلْإِسْلَامِ ؛ وَكُتِبَ هَذَا الْفَسْخُ عَنْ فُلَانٍ لِفُلَانٍ وَقَدْ نَبَذَ إِلَيْهِ عَهْدَهُ ،
وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ ؛ وَأَنْقَذَ إِلَيْهِ سَهْمَهُ بَعْدَ أَنْ صَبَرَ مَلِيًّا عَلَى مُمَالَاتِهِ ، وَأَقَامَ مَدَّةَ يُدَارَى
مَرَضَ وَفَائِهِ وَلَا يَنْجُحُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَدَاوَاتِهِ ؛ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، وَيَحْدَرُ مَنْ
يَأْمَنُ مَكْرَهُ مَنْ يَحْدَرُهُ ؛ وَأَمْرُ فُلَانٍ أَنْ يَقْرَأَ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ،
لِيَنْتَقَلَ مَضْمُونُهُ إِلَى الْبِلَادِ ؛ أَفَنَّةٌ مِنْ أَمْرِ لَا يَتَدَايى بِهِ الْإِعْلَانُ ، وَيَنْصَبُ بِهِ لِهَذَا
الْغَادِرِ لَوَاءٌ لَا يُقَالُ إِذَا يُقَالُ : هَذَا اللَّوَاءُ لَغَدْرَةِ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ .

الفصل الثاني

المُفَاسَّخَةُ وَهِيَ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَانَيْنِ جَمِيعًا

قَالَ فِي "التعريف" : وَصُورَةُ مَا يَكْتَبُ فِيهَا : هَذَا مَا آخْتَارَهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ
فَسْخٍ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُهَادَنَةِ الَّتِي هِيَ إِلَى آخِرِ مَدَّةٍ كَذَا . آخْتَارَا فَسْخَ بِنَائِيهَا ،
وَنَسَخَ أَنْبَائِيهَا ؛ وَتَقْضَى مَا أُبْرِمَ مِنْ عَقُودِهَا ، وَأُكَّدَ مِنْ عُهُودِهَا ؛ جَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى
رِضَا مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا بَايِقَادِ نَارِ الْحَرْبِ ، الَّتِي كَانَتْ أُطْفِئَتْ ، وَإِنَارَةُ تِلْكَ الثَّوَرِ الَّتِي
كَانَتْ كُفِّيتْ ؛ نَبَذَاهُ عَلَى سَوَاءٍ بَيْنَهُمَا ، وَاعْتَقَادَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا ؛ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي هَذَا
لِحَيْثِهِ ، وَأَسْقَطَ مَا كَانَ يَحِلُّهُ لِلاَخَرِ مِنْ رِبْقَتِهِ ؛ وَرَضِيَ فِيهِ بِقَضَاءِ السُّيُوفِ ،
وَبِمَضَاءِ أَمْرِ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ فِي مُسَاقَاتِ الْخُتُوفِ ؛ وَقَدْ أَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ اللَّهُ
وَخَلْقُهُ وَمَنْ حَضَرَ ، وَمَنْ سَمِعَ وَنَظَرَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب وتنافس في عملها، ليس لها
تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الجديّات ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامية بفتح الميم ، وهي في أصل اللغة اسم للجلس والجماعة من الناس .
وسميت الأحدوثة من الكلام مقامية ، كأنها تُذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم ، فبمعنى الإقامة ، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وأعلم أن أول من فتح باب عميل المقامات ، علامة الدهر ، وإمام الأدب ،
البدیع الهمدانی : فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهي في غاية من البلاغة ،
وعلو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري ، فعمل مقاماته
الخمسین المشهورة ، بخات نهاية في الحُسن ، وأتت على الجزء الوافر من الحظ ،
وأقبل عليها الخاص والعام ، حتى أنست مقامات البدیع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المثل السائر " لم يوفّه حقّه ، ولا عامله
بالإنصاف ، ولا أبجل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات ،

حَتَّى ذَكَرَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْحَشَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْحَرِيرِيَّ رَجُلٌ مَقَامَاتٍ . أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحَسِّنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ سِوَاهَا ، فَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا فَلَا يَقُولُ شَيْئًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَغْدَادَ ، وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ ، قِيلَ : هَذَا يُسْتَصْلَحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ ، فَأَحْضِرْ وَكَلِّفْ كِتَابَةَ كِتَابِ فَأَقِمْ ، وَلَمْ يَجِرْ لِسَانُهُ فِي طَوِيلِهِ وَلَا قَصِيرِهِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ * يَنْتِفُ عُنُونَهُ مِنَ الْهُوسِ ،

أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ وَفِي * بَغْدَادَ أَصْحَى الْمَلْجُومَ بِالْحَرَسِ !

وَأَعْتَدَرَ عَنْهُ بِأَنَّ الْمَقَامَاتِ مَدَارُهَا جَمِيعُهَا عَلَى حِكَايَةِ تَخْرُجُ إِلَى مَخْلُصٍ ، بِخِلَافِ الْمَكْتَابَاتِ فَهِيَ بِمَجْرَلِ سَاحِلٍ لَهُ : مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَعَانِيَ تَتَجَدَّدُ فِيهَا بِتَجَدُّدِ خَوَادِثِ الْأَيَّامِ ، وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وهذه المقامةُ التي قَدِّمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا فِي خُطْبَةِ هَذَا الْكِتَابِ ، إِلَى أَنِّي كُنْتُ أُنْشَأُهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعًا ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِي فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَنَّهَا أَشْتَمَلَتْ - مَعَ الْأَخْتِصَارِ - عَلَى جُمْلَةِ جَمَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَوَسَمْتُهَا بِ”الْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ“ ، فِي الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ ، وَوَجَّهْتُ الْقَوْلَ فِيهَا لِنَقْرِيطِ الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْعَلَائِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْحَيَوِيِّ ، بِنِ فَضْلِ اللَّهِ ، صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْأَبْوَابِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمئِذٍ . جَعَلْتُ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حِرْفَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَمَعِيشَةٍ يَتَمَسَّكُ بِسَبَبِهَا ، وَأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ الْحِرْفَةُ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ سِوَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَا عَدَاهَا ، مَعَ الْجُنُوحِ فِيهَا إِلَى تَفْضِيلِ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْجِيحِهَا ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى كِتَابَةِ الدِّيْوَانَةِ وَتَرْشِيحِهَا .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ؛ مع التنبيه على جملة من المصطلح بيئت مقاصده ، ومهدت قواعده ؛ على ما ستقف عليه في خلال مطالعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناثر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمرى مرکز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأزله توحيد الاشتغال عن إشراك التطيل ؛ مشمرا عن ساق الحمد ذيل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد ؛ أتهز فُرصة الشباب قبل توليها ، وأغتنم حالة الصحة قبل تجايفها ؛ قد حالف جفني الشهاد ، وحالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتفرعن الطلب وتجمع ؛ مميلا جانب قصيدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيرا ألقى الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعا بأذني العيش راضيا بأيسر الأقوات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيشا ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيشا ؛ وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ؛ مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألفتها ؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع ؛ متقيا من الكتب أمتعتها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ؛ متخبا من أسيخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا وأطفهم تدقيقا ؛ عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل علم مستحقه ؛ قد استغنيت بكتابي عن خلّ ورفيق ، وآثرت بيت خلوقي على شفيق وشقيق ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدا عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أثنى عنها عيانا ؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالغنيمة ، وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولى عن هزيمه ؛ بل كلما لاحت لى فئة
من البحث تميزت إليها ، أو ظهرت لى كتيبة من المعانى حملت عليها ؛ إلى أن أتيج
لى من الفتح ما أفاضته النعمة ، وحصلت من الغنيمة على ما اقتضته القسمة .

فبينما أنا ارتع فى رياض ما نفلت ، وأجتنى ثمار ما خولت ، إذ طلع على جيش
التكليف فخصرنى ، وخرج على كمين التكليف فأسررنى ؛ فأمسيت فى أضيق خناق ،
وأشد وثاق ؛ قد عاقنى قيد الأكتساب عن الاشتغال ، وصددنى كل الكد عن
الاهتمام بالطلب والاحتفال ؛ فغشيت من القبض ما غشيتنى ، وأخذنى من الوحشة
ما أخذنى ؛ وتعارض فى حكم العقل بين الكسب وطلب العلم ، وتساويا فى الترجيح
فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم ؛ فصرت مدهوشا لا أحسن صنعا ، وبقيت متحيرا
لا أدرى أى الأمرين أقرب إلى نفع ؛ : إن طلبت العلم للكسب فقد أخشت
رجوعا ، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوعا .

فلما علمت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه ، ولا يتم الواجب فى أحدهما
مالم يتم فى الآخر بواجبه ؛ التمت كسبا يكون للعلم موافقا ، وبجملته لا نقاب ؛ ليكون
ذلك الكسب للعلم موضوعا والعلم عليه محمولا ، والجمع ولو بوجه أولى ؛ فجعلت
أسبر المعاش سبر مقصد ، وأسير فى فلوات الصنائع سير متعهد ؛ لكى أجد
حرفة تطابق أرى ، أو صنعة تجانس طلى .

فبينما أنا أسير فى معاهدها ، وأردد طرفى فى مشاهدها ؛ إذ رفعت لى صوت قرع
سمعى برنته ، وأخذ قلبى بجنته ؛ فقفوت أثره متبعا ، وملت إليه مستمعا ؛ فإذا رجل
من أحسن الناس شكلا ، وأزجهم عقلا ؛ وهو يترنم ويشد :

إن كنت تقصدنى بظاك عامدا ، * فحُرمت نفع صداقة الكتاب ؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ ثَرَى الْغِنَى * وَالنَّاعِشِينَ لَعَثَرَةِ الْأَصْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْقِلٍ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،
وَالْعَاطِفِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَلَيْتَ بَحْدَتِهِمُ الشَّنَاءَ فَطَالَمَا * بِحَدِّ الْعَيْدِ تَفْضَّلَ الْأَرْبَابُ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصفِ ما هنالك ؛ دنوتُ منه دُنُو الْوَاجِلِ ،
وجَلَسْتُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وقلتُ : هذه وأبيكَ صفاتُ المُلُوكِ بل مُلُوكُ
الصفّاتِ ، وأكْرَمُ الْفَضَائِلِ بل أَفْضَلُ الْمَكْرَمَاتِ ؛ ولم أَلِكْ أَظُنُّ أَنَّ لِلْكِتَابَةِ هَذَا
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَلِلْكِتَابِ هَذَا الْحَظُّ الْعَظِيمُ ؛ فَأَعْرَضَ مُغَضِّبًا ، ثُمَّ فَوَّقَ بَصَرَهُ إِلَى
مُعْجَبًا ؛ وَقَالَ : هِيَاتِ فَاتَكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمُ ؛ إِنَّمَا لِمَنْ أَعْظَمَ الصَّنَائِعَ قَدْرًا ،
وَأَرْفَعَهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الْغَرَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأُوهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعَمِهِ ، وَإِذْنَانَا بِأَنْ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دِيَمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُعْجِزُونَ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وَمَا سَطَّرَتْهُ الْأَفْلامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي آكِدِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ بِفَعْلِ الْكِتَابَةِ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مُنِعَهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجَزَةً قَدِيرَةً تَعَالَى سَبَبُهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْخَلْدَ هُمْ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَّاب راعياً ، فقد روى أنه كان له عليه أفضل الصلاة والسلام نيف وثلاثون كاتباً ؛ هم مُخَبَّرة أصحابه ، وخُلَاصَة أُنْزَايِهِ ؛ مَنْ آمَنَ بِهِمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِاللِّسَانَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِدْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضاً إِلَيْهِ أَبْدَاءً وَجَوَاباً ، وَكَاتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَتَبُوهُ فَأَحْسَنَ اسْتِمَاعاً وَأَحْمَمَ خُطَاباً ؛ وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمَنْ تَلَّاهُمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكِتَابَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُتَبُهَا غَايَةُ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ ؛ عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِنَافَةُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ؛ وَالْكَتَّابُ عِيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُمُ الْوَاعِيَةِ ، وَالسِّنْتُهُمُ الْأَنَاطِقَةُ وَعُقُولُهُمُ الْحَاوِيَةُ ؛ بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنْ الْمُلُوكُ إِلَى الْكَتَّابِ أَحْوَجُ مِنَ الْكَتَّابِ إِلَى الْمُلُوكِ ؛ وَنَاهِيكَ بِالْكِتَابَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَ بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَفَى ؛ أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلَمِهِ ، وَلَا يُزَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَايِهِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهُمْ الْحَاوُونَ لِكُلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَائِنٍ نَزِيلٍ ؛ الْكَرَمُ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دِئَارُهُمْ ؛ وَالْجُودُ جَادَتُهُمْ ، وَالْخَيْرُ عَادَتُهُمْ ؛ وَالْأَدَبُ مَرَكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَذْهَبُهُمْ ؛ وَلِلَّهِ الْقَائِلُ :

وَشُمُولٍ كَأَنَّمَا آعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكَتَّابِ !

فَلَمَّا انْقَضَى قِيْلُهُ ، وَبَانَ سَيْلُهُ ؛ قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ؛ وَدَعَانِي طَيْبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعْوَتِهِمْ ؛ إِلَى أَنْ أَحَلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأَنْزَلَ بِوَادِيهِمْ ؛ فَأَجْعَلَ حِرْقَتَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَائِي ؛ لِيَجْتَمَعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصَلَ بِالْإِسْتِغَالِ حَبْلِي ؛ فَأَكُونُ قَدْ ظَفِرْتُ بِمَنْبَتِي ، وَفُزْتُ بِبَيْعَتِي .

فأَيَّ قَيْلٍ مِنَ الْكُتُبِ أَرَدْتَ ؟ وَإِلَى أَى نَوْعٍ مِنَ الْكِتَابَةِ أَشَرْتَ ؟ أَكِتَابَةَ
الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ وَالْخُطَابَةِ ؟ ، أَمْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ؟ ، فَنَظَرَ إِلَى
مُتَبَسِّمًا ، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ * ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،
نَالُوا بِهَا مِنْ مُعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا * مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ دُونَ سَائِرِ الْكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا
بِالتَّصْرِيحِ وَتُسِيرُ إِلَيْهَا بِالْكَيَّاتِ ، فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ جُمْلَةٌ نَوْعٌ يُسَاوِيهَا ،
أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صَنْعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ، إِنَّ لَهَا لَلْقُدْحَ الْمَعْلَى ، وَالْحَيْدَ
الْمَحَلِّ ، وَالذَّرْوَةَ الْمُنِيفَةَ ، وَالرُّتَبَةَ الشَّرِيفَةَ ، كُتَابُهَا أَشُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلْكِ
وَأَطْوَادُهُ ، وَلِسَانُ الْمَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُهَا الْمَفُوقُ الرَّاشِقُ ، وَلِلَّهِ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ
الطَّائِي حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنَ كَاتِبِ بَنِيهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامٍ !
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !
قَلَمُهَا يَلِغُ الْأَمَلُ ، وَيُغْنِي عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ، بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتُفَرَّقُ
الْمُحَافِلُ :

فَلَمْ يَقُلْ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !
فَقُلْتُ : إِنْ كُتَابَ الْأَمْوَالِ يَزْعُمُونَ أَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ
الْمُنْتَلَى ، وَيَسْتَشْهِدُونَ لِفَضْلِهَا ، وَتَقْدِمُ أَهْلِهَا ، بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ،
وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضَاطِطٌ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ خَاطِطٌ ، وَبَيْنَ إِتَانَةِ تَوْطِيفِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ أَلْتِبَاسٌ ؛ إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمَلَأُ
 الْأَنْيَاسَ ، وَالتَّلَاوَةُ تُفْرِغُ الرَّاسَ ؛ وَخَرَجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاطِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ
 الْمَدَارِجِ ، يُغْنِي الْخَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفْظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ؛ وَالتَّقْلَةُ
 الْأَثْبَاتِ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتِ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِنْصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
 فِي الْأَخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَلِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ فِي السَّلَمِ وَالْهَرَجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
 فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِنْعَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
 قَلَمُ الْحُسَابِ ، لَأَوَدَّتْ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَا تَصِلُ التَّغَانُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكِنْ
 نِظَامُ الْمَاعْمَلَاتِ مَحْذُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ^(١)] ،
 وَسَيْفُ التَّنَظَامِ مَسْأُولًا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوِّلٌ ، وَيَرَاعَ الْحِسَابَ مُتَأَوِّلٌ ؛
 وَالْحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنَشِئُ أَبُو بَرَأَقِشٍ » .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشيأتهم على أكرم
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه الحجة معارضة بمثلا ، بل باطلة من أصلها . وأين ذلك من قوله
 في صدر كلامه ؟ :

« اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ؛ وقلم المكاتبية خاطب ،
 وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخُ لتُدْرَسَ ، ودساتير الحسابات تُنسخُ
 وتُدْرَسُ ؛ وَالْمُنَشِئُ جُهَيْتَةُ الْأَخْبَارِ ، وَحَقِيقَةُ الْأَسْرَارِ ؛ وَنَجِيُّ الْعُظْمَاءِ ، وَكَبِيرُ الثَّدْمَاءِ ؛
 وَقَلَمُهُ لِسَانُ أَسْرَارِ الدَّوْلَةِ ، وَقَارِئُ الْجَوْلَةِ ؛ وَلَقْنَانُ الْحِكْمَةِ ، وَتَرْجَمَانُ الْهِمَّةِ ؛ وَهُوَ

البشير والنذير، والسفيح والسفير؛ به تستخلص الصياصي، وتملك النواصي؛ ويقتاد العاصي، ويستدنى القاصي؛ وصاحبه برىء من التبعات، آمن كيد السعات؛ مقرظ بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات.

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يعتورها شين، ولا يشوبها مين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويؤذن بالترشيح؛ والرفع، أبلغ في الوصف من النفع؛ فقد يتفجع بالزور اليسير، ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكتاب الأموال، من التأثير في قل الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير نزال؛ فهذه هي الخصى التي لا تساوى، والمتنبئة التي لا تنأوى:

تلك المكارم لا قبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا !

فقلت: الآن قد انقطعت الحجة، وبانت المحجة، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلقت من الصنعة بأسبابها، وأثبت البيوت من أبوابها.

إعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته؛ وتقوى براعته، وتجل براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الاصطلاح والإحاطة بالرسوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير متانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائرا على لسانه حاضرا في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلا في قلبه مصورا في فكره؛ ليكون مستحضرا له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله الحجة البالغة، ولاياته الأجوبة الدامغة؛ خصوصا السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ؛ وما أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ النُّبُوَّةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي أَبْكَتِ
 الْفُصَحَاءَ ، وَالْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ الَّتِي أُعِيَتْ الْبُلْغَاءُ ؛ مع النَّظْرِ فِي مَعَانِيهَا وَمَعْرِفَةِ غَرِيبِهَا ،
 وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ بَعِيدِهَا وَقَرِيبِهَا ؛ لتكونُ أَبَدًا مُجْتَهِدًا
 ظَاهِرَهُ ، وَأَدِلَّتُهُ قَوِيَّةً مُتَظَاهِرَةً ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ إِذَا اسْتَدَّ إِلَى النَّصِّ انْقَطَعَ التَّرَاغُ
 وَسَلَّمِ الْمَدْعَى وَلَزِمَ ، وَالْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ غَايَتُهُمَا - بعدِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي كَلَامِ
 مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْحِكْمِ ، وَالْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفُرُوعِهَا ، وَخُصُوصِهَا وَشُيُوعِهَا ؛
 وَالتَّوَعُّلُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ ، وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ؛ وما وَرَدَ عَنْ كُلِّ
 فَرِيقٍ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْثَالِ نَثَرًا وَنَظْمًا ، وما جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَوَارَاتِ وَالْمُنَاقَضَاتِ حَرْبًا
 وَسِلْمًا ؛ وَالتَّوَعُّلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَشْعَارِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْعُلَمَاءُ بِهَا ، فَتَمَسَّكُوا
 بِأَوْتَادِهَا وَتَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا ؛ وَالْأَمْثَالُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي اتَّقَوْهَا ، وَدَوَّنُوهَا وَرَوَوْهَا ؛ وَاسْتِضَاحُ
 الْقِسْمِينَ وَاسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهِمَا ، وَاسْتِظْهَارُ النُّوعَيْنِ وَاسْتِطَارُ غَوَارِضِهِمَا ؛
 وَالْإِطْلَاعُ عَلَى خُطَبِ الْبُلْغَاءِ ، وَرِسَائِلِ الْفُصَحَاءِ ؛ وما وَقَعَ لَهُمْ فِي مُحَاطَاتِهِمْ ؛
 وَمُكَاتَبَاتِهِمْ ؛ وَالْعِلْمُ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَحُرُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْوَقَائِعِ بَيْنَ قَبَائِلِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ؛
 وَالنَّظَرُ فِي التَّوَارِيخِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ الْحَالِيَةِ ؛ وَسِيرِ الْمُلُوكِ وَأَحْوَالِ
 الْمَمَالِكِ ، وَمَعْرِفَةُ مَكَائِدِهِمْ فِي الْحَرْبِ الْمُتَقَدِّةِ مِنَ الْمَهَاوِي وَالْمُنْجِيَةِ مِنَ الْمَهَالِكِ .

مع سَعَةِ الْبَاعِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِ ، وَأُسْ مَقَالِهِ ؛ وَكَتَرُهُ الْمُعْدُّ لِلِإِنْفَاقِ ،
 وَمُعِينُهُ بَلْ مُغِيثُهُ وَقَتَ الضَّرُورَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَالتَّحْوِيلُ الَّذِي هُوَ مِلْحُ كَلَامِهِ ، وَمِسْكُ
 خَتَامِهِ ؛ وَالتَّصْرِيفُ الَّذِي تُعْرَفُ بِهِ أَصُولُ أُبْنِيَةِ الْكَلِمَةِ وَأَحْوَالُهَا ، وَكَيْفِيَّةُ التَّصَرُّفِ
 فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَعُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ الَّتِي هِيَ حُلِيَّةُ لِسَانِهِ ، وَآيَةُ بَيَانِهِ ؛
 وَمَعْرِفَةُ أَبْوَابِهَا وَفُصُولِهَا ، وَتَحْقِيقُ فُرُوعِهَا وَأَصُولِهَا : مِنَ الْفَصَاحَةِ وَطَرَائِقِهَا ،
 وَالْبَلَاغَةِ وَدَقَائِقِهَا ؛ وَاخْتِيَارُ الْمَعَانِي وَتَرْتِيبُهَا ، وَنَظْمُ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبُهَا ؛ وَالْفَصْلُ

وَالْوَصْلَ وَمَوَاقِعَهُمَا ، وَالتَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ وَمَوَاضِعَهُمَا ؛ وَمَوَاطِنَ الْحَذْفِ وَالْإِضْمَارِ ، وَحُكْمَ الرُّوَاطِيطِ وَالْأَخْبَارِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، وَالْبَسْطِ وَالْإِبْجَازِ ؛ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَتَمْيِيزَ الْكَلَامِ جَيِّدِهِ مِنْ رَدِيئِهِ بِصَحَّةِ النَّقْدِ ؛ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ وَطَرَائِقِهَا ، وَالْأَطْلَاعِ عَلَى غَوَامِضِ أَسْرَارِهَا وَفَرَائِدِ دَقَائِقِهَا .

عَلَى أَنْ أَكْثَرُ شَيْءٍ يَجِبُ تَحْصِيلُهُ قَبْلَ كُلِّ حَاصِلٍ ، وَيَسْتَوِي فِي الْاِحْتِيَاجِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ الْمَفْضُولُ مِنَ الْكُتَابِ وَالْفَاضِلُ ؛ الْعِلْمُ بِالْخَطِّ وَقَوَائِنِهِ : مِنَ الْهَجَاءِ وَالنَّقْطِ وَالشَّكْلِ ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الضَّادِ وَالطَّاءِ الْمُتَخَالِفِينَ فِي الصُّورَةِ وَالشَّكْلِ ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَلَاتِ الْكِتَابَةِ وَصِفَاتِهَا ، وَتَبَايُنِ أَنْوَاعِهَا وَاخْتِلَافِ صِفَاتِهَا .

هَذِهِ أَصُولُهُ الَّتِي يُنْبِئُ عَلَيْهَا ، وَقَوَاعِدُهُ الَّتِي يُرْجِعُ إِلَيْهَا ؛ فَإِذَا أَحَاطَ بِهَذِهِ الْفُنُونِ عِلْمًا ، وَاتَّقَنَهَا فَهَمًّا ؛ غَزُرَتْ عِنْدَهُ الْمَوَادُّ ، وَاتَّضَحَّتْ لَهُ الْجَوَادُّ ؛ فَأَخَذَ فِي الْأَسْتِعْدَادِ ، وَسَمَّلَ عَلَيْهِ الْأَسْتِشْهَادَ ؛ فَقَالَ عَنْ عِلْمٍ وَتَصَرَّفَ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَاسْتَحْسَنَ بِبَرْهَانٍ ، وَانْتَقَدَ بِمُجَمَّةٍ وَتَخَيَّرَ بِدَلِيلٍ وَصَاغَ بِتَرْتِيبٍ وَبَنَى عَلَى أَرْكَانٍ ؛ وَاتَّسَعَ فِي الْعِبَارَةِ مَجَالُهُ ، وَفُتِحَ لَهُ مِنْ بَابِ الْأَوْصَافِ أَقْفَالُهُ ؛ وَتَلَقَّى كُلَّ وَاقِعَةٍ بِمَا يُثَانِلُهَا ، وَقَابَلَ كُلَّ قَضِيَّةٍ بِمَا يُشَاكِلُهَا ؛ وَعَلِمَ الْحَيِّدَ فَتَسَجَّ عَلَى مَنَوَالِهِ ، وَظَهَرَ لَهُ الْقَاصِرُ فَأَعْرَضَ عَنْ أَقْوَالِهِ ؛ وَحَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ عَلَى فَهْمِ الْخَطَابِ ، وَأُنْشَأَ الْجَوَابُ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَعْرَاضِ ، عَلَى طَبَقِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَعْرَاضِ ؛ وَمَتَى أُخِلَّ بَشْيٌ مِنْ ذَلِكَ فَاتَّسَعَتْ الْفَضَائِلُ ، وَعَلَقَتْ بِهِ الرِّذَائِلُ ؛ وَقَلَّتْ بِضَاعَتُهُ ، وَتَقَصَّتْ صِنَاعَتُهُ ؛ وَسَاءَتْ آثَارُهُ ، وَقَبِحَتْ أَخْبَارُهُ ؛ وَخَلَطَ الْغُرَّ بِالْعُرَرِ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الصَّدْفِ وَالذَّرَرِ ؛ فَأَخْرَجَ الصَّنْعَةَ عَنْ أَمَّاكِئِهَا ، وَطَمَسَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَجُوهَ مُحَاسِنِهَا ؛ فَحَزَّ اللَّوْمَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَمْسَى مَهْزَأَةً لِأَبْنَاءِ جَنَسِهِ .

ووراء ذلك علوم هي كالنافلة للكتاب ، والزيادة للراغب :

منها ما تكمل به صناعته ، وتعظم به مكائده : كعلم الكلام ، وأصول الفقه وسائر الأحكام ، والمنطق والجدل ، وأحوال الفرق والنحل والمال ؛ وعلم العروض والميزان المحكم ، وعلم القوافي وحل المترجم ؛ والحساب المفتوح وما يترتب عليه من المعاملة ، وما تستخرج به المجهولات : من حساب الخطاين والدرهم والدينار والجبر والمقابلة ، وحساب الدور والوصايا ، والتخت والميل وما لأعماله على غيرها من المزايا ؛ والعلم بالفلاحة ، وأحوال المساحة ؛ وعلم عود الأبنية والمناطر المحققة ، ومراكر الأتقال والمرايا المحرقة ؛ وعلم جر الأتقال الأبيّة ، والعلم بالآلات الحربيّة ؛ وعلم المواقيت والينكلمات ، والتقاويم والزيجات ؛ وعلم تسطيح الكرة والتوصل بها إلى استخراج المطالب الفلكيّة ، وكيفية الأرصاد وأحكام النجوم والآلات الظليّة ؛ وعلم الطب والبيطرة ، وأحوال سائر الحيوان وعلم البيزره .

ومنها ما تكمل به ذاته ، وتتم به أدواته ؛ كعلم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسة ، وعلم تدبير المنزل وعلم الفراسة . وغير ذلك من العلوم التي أضربنا عن ذكرها خشية الإطالة ، وأعرضنا عن إيرادها خوف الملالة ؛ فهذه علوم فضلة يعظم بعلمها أمره ، وفضيلة يرتفع بتحصيلها ذكره ؛ بل لا يستغنى عن العلم برؤوس مسائلها ، وإشارات أربابها الآخذة من بحارها بأطراف سواحيلها ؛ على أنه قد ترد عليه أوقات لا يسعه جهل ذلك فيها ، وتمتر عليه أزمان يؤد لو شترى فيشتريها .

قلت : قد بانت لي علومها ، فما رؤسوها ؟ . قال : إن أعبأها لباهظة حملا ، وإنها لكيرة إلا ، ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرا ، وأنبئك بما لم تُخط به خبرا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛
من البيعات وأحكامها ، والعهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتفاويض
ومضاهاتها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ،
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمناسخ ومراثيها ، والمربعات الجيشية ومعانيها ؛
ومعرفة رتب المكاتبات وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب
الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكاتبات الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفة ،
والمكاتبات الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعتر النوية ؛
وملوك المسلمين والقنات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من
التواب والكشاف والولاء ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ؛ وسائر حملة
الأقلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء الملوك والخوندات ، ومكاتبات
التجار وما عساه يطرأ من المكاتبات المستجدات ؛ وكتب البشرى بالجلوس على
التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ وأستهداف
العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ؛ والملطافات التي يضطر إليها ، ويعول
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتبات تكرارها ، ويتسقى
في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك
العالية المراتب ؛ والآلات الملوكية الخليفة المقدار ، والسلاح وآلات الحصار ؛
والخيل المسومة ، والجوارح المئمة ؛ وجليل الوحش وسباعه ، وطير الواجب
وأثباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والغياض ؛ وغير ذلك مما يعز ويغلو ، ويرتفع
ويعلو ؛ وإخوانيات المكاتبات وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛
وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب ، والتشوق والعتاب ؛ والترفق والاعتذار ،

والشفاعة وطلب الصَّفح والعفو عند الاقتدار، والتَّهَانِي والتَّعَاذِي، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدَّدُ حَصْرُها، ويمتنعُ على المُستَقْصِي ذِكْرُها، ومعرفة الطُّغْرَا والطَّرَّة والعُنُوان والتَّعْرِيف، والعلامة في الكُتُب على أُمَّا كِنِها الفارقة بين أخطاط القَدْرِ والتَّشْرِيف، وتَرْيِبِ الْكِتَابِ وَطِيَّة وَخَتْمِه، وتَعْمِيَّة ما في الكُتُب بِضَرْبٍ من الحِيلَةِ وإخفاء ذلك وَكَتْمِه، وَنُسْخِ الْإِيْمَانِ التي يُسْتَحْلَفُ بِهَا، وَيُتَمَسَّكُ لِلْوَفَاءِ بِسَبَبِهَا، كِيَمِينَ الْبَيْعَةِ الْعَامَّةِ لِلْمُؤَافِقِ وَالْمُخَالِفِ، وما يختصُّ من ذلك بالنُّوَابِ وَأَرْبَابِ الْوُظَائِفِ، وَأِيْمَانِ أَصْحَابِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ، وَأَهْلِ الْمِلَلِ وَالْحِكْمَاءِ، وَكِتَابَةِ الْهُدَى وَالْمُؤَاصِفَاتِ، وَالْأَمَانَاتِ وَالْذَّقْنِ وَالْمُفَاسَّخَاتِ، ومَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْكُنَى، وَالْأَلْقَابِ، وَبَيَانِ الْمُسْتَنْدَاتِ وَمَحَلِّهَا الْمَصْطَلَحِ عَلَيْهِ بَيْنِ الْكُتُبِ، وَكِتَابَةِ التَّارِيخِ وما أَخَذَتْ بِهِ كُلُّ طَائِفَةٍ وَثَبَتْ إِلَيْهِ تَمَسُّكًا، وما يَفْتَتَحُ بِهِ فِي الْكِتَابَةِ تَيْمَنًا وَيُخْتَمُ بِهِ تَبَرُّكًا، ومَعْرِفَةِ قَطْعِ الْوَرَقِ : من كَامِلِ الْبَغْدَادِيِّ وَالشَّامِيِّ وَالثَّلَثَيْنِ وَالنَّصْفِ وَالثَّلْثِ وَالْمَنْصُورِيِّ وَالْعَادَةِ، وَمَنْ يَسْتَحَقُّ مِنْ هَذِهِ الْمَقَادِيرِ أَعْلَاهَا أَوْ يُوقَفُ بِهِ مَعَ أَدْنَى رُتَبِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، وَالْأَقْلَامِ الْمُنَاسِبَةِ لِهَذِهِ الْأَقْدَارِ، مِنَ الرِّقَاعِ وَالتَّوَاقِيْعِ وَالثَّلْثِ وَمُخْتَصِرِ الطُّومَارِ، وَالْعِلْمِ بِالْأَوْضَاعِ وَكَيْفِيَةِ التَّرْتِيبِ، وَمَقَادِيرِ الْبَيَاضِ وَمُبَاعَدَةِ مَا بَيْنَ الشُّطُورِ وَالتَّقْرِيبِ، وَمَعْرِفَةِ الرِّزَادِيْقِ وَقُطَانِهَا، وَالتَّوَاحِي وَالْبُلْدَانِ وَسُكَّانِهَا، وَالْأُمَمِ وَمَمَالِكِهَا، وَطُرُقِ الْأَقَالِيمِ وَمَسَالِكِهَا، وَمَرََاكِرِ الْبَرِيدِ وَمَسَافَاتِهَا، وَأَبْرَاجِ الْحَمَامِ وَمَطَارَاتِهَا، وَهَجْنِ الثَّجِّجِ وَالسُّفُنِ الْمُعَدَّةِ لِنَقْلِهِ، وَالْمُحَرِّقَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى أَجْتِيَاحِ الْعَدُوِّ وَتَفْرِيقِ شَمْلِهِ، وَالْمَنَاوِرِ وَأَمَاكِنِهَا، وَالْقُصَادِ وَمَكَامِنِهَا .

هذه رؤسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .
وَأَعْلَمُ أَنَّ حُسْنَ الْخَطِّ مِنَ الْكِتَابَةِ وَاسِطَةٌ عَقْدِيهَا، وَقُوَّةُ الْمَلَكَةِ عَلَى السَّجْعِ
وَالْأَزْدِوَاجِ مِلَالُكُ حَلَّهَا وَعَقْدِيهَا؛ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْخَطِّ مَا قُرِيَ، وَأَحْسَنَ السَّجْعِ مَا سَلِمَ
مِنَ التَّكَلُّفِ وَبَرَى؛ وَلِلْكَتَّابِ فِي بَحْرِ الْكِتَابَةِ سَبْعٌ طَوِيلٌ، وَتَفَنُّنٌ يُسْفِرُ عَنْ كُلِّ
وَجْهِ جَمِيلٍ .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفسه، سِمَةٌ يَلُمُّهَا، أَوْ سِلْكٌ يَضُمُّهَا؟
فقال: سبحان الله: إِنْ يَبْتَهَا لِأَشْهُرٍ مِنْ قِفَانَبِكَ، وَأُظْهِرُ لِلْعِيَانِ مِنْ شَاخَاتِ جِبَالِ
النَّبِّكَ؛ أَيُخْفَى مِنَ الْبَدْرِ ضَوْؤُهُ الْبَاهِرُ، وَنُورُهُ الزَّاهِرُ؟ إِنْ ذَلِكَ لِقَاصِرٌ عَلَى
«آلِ فَضْلِ اللَّهِ» حَقًّا، وَمُنْحَصِرٌ فِي الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ صِدْقًا؛ فَهُوَ قُطْبُهَا الَّذِي تَدُورُ
عَلَيْهِ، وَأَبْنُ بَجْدَتِهَا الَّتِي تَرْجِعُ فِي عُلُومِهَا وَرُسُومِهَا وَسَائِرِ أُمُورِهَا إِلَيْهِ؛ فَلَوْ رَأَاهُ
«الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ» لَمْ يَرَنَّفْسَهُ فَضْلًا وَلَا رَضَى لِفِيهِ مَقَالًا، أَوْ عَيْنَهُ «عَبْدُ الْحَمِيدِ
الْكَاتِبُ» لَقَالَ: هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا؛ أَوْ عَاصِرُهُ «قُدَامَةُ» لَجَلَسَ قُدَامَهُ،
أَوْ أَدْرَكَهُ «أَبْنُ قُتَيْبَةَ» لَأَتَّخَذَهُ فِي «أَدَبِ الْكَاتِبِ» شَيْخَهُ وَإِمَامَهُ؛ أَوْ بَصَّرَبَهُ
«الصَّابِي» لَصَبَا إِلَيْهِ وَمَالَ، أَوْ قَارَنَ زَمَانَهُ «الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ» بَلِ «الْفَضْلُ» أَخُوهُ
لَأَقَامَ بَبَابِهِ وَمَا زَالَ؛ أَوْ جَنَحَ «أَبْنُ الْعَدِيمِ» إِلَى مَنَاوَاتِهِ لِأَدْرَكَهُ الْعَدَمُ، أَوْ جَرَى
«الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ» فِي مِضْمَارِ فَضْلِهِ لَكَا وَزَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ؛ أَوْ أَطَّلَعَ «أَبْنُ مُقْلَةَ»
عَلَى حُسْنِ خَطِّهِ لَقَالَ: هَذَا هُوَ الْجَوْهَرُ الثَّمِينُ، أَوْ نَظَرَ «أَبْنُ هِلَالٍ» إِلَى بَهْجَةِ
رَوْنَقِهِ لَقَالَ: إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ؛ إِنْ تَكَلَّمَ نَفَثَ سِحْرًا، أَوْ كَتَبَ خَلَّتْ زَهْرًا
أَوْ تَخَيَّلَتْ دُرًّا:

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمَشْهُورَ مَنْطِقُهُ، * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ!

قد عَلَا نَسَبًا ، وفاق حَسَبًا ، وورث الفضل لا عن كَلَالَةٍ ، واستحقَّ الرتبةَ بِنَفْسِهِ
وإن كانت له بالأَصَالَةِ :

خَيْرًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْعُلَى ، * وَحَيْلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِ الْحَضِ !

فلما سمعتُ ذلك زال عَنِّي الإلباسُ ، وقلتُ : ذلك من فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وعلى
النَّاسِ . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذى تُسِيرُ إِلَيْهِ ، إِنْ تَدُلَّنِي عَلَيْهِ ، فقال : إِنَّهُ
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيَّتُهُ ، وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيَّتُهُ ، وَالْقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعُدُوا ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَقَامِ
إِذَا طُرِدُوا ، وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْذِنُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ،
وَالْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ إِذَا بُهِتُوا ، وَالصَّائِلُ
بِحُسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَى قَلْبِهِ ، وَالْحَامِي الْمَالِكِ بِجُيُوشِ سَطُورِهِ وَجُنْدِ كَلِمِهِ ، وَالْمُسْتَتِ
شَمْلُ الْعَدُوِّ بِدِيْعِ أَلْفَاظِهِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ، وَالْحَائِزُ قَصَبَ السَّقْيِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ
كَرَمِهِ ، وَالْمُرَوِّى ظَمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِهِ ، وَالْمُجَلِّى غِيَاهِبِ
الظُّلَمِ بَنِيرِ بَدْرِهِ وَمُضْيِئِ أَنْجَمِهِ :

فَمَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةٍ * يُسَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :

بَسِيطِ مَسَاعِيِ الْمَجِيدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ ؛

إِذَا سَالَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ !

قلتُ : حَسْبُكَ ! قد دَلَّنِي عَلَيْهِ عَرَفُهُ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ، وَبَانَ لِي مَحْتَدُهُ
الْفَانِخُ وَحَسَبُهُ الصَّمِيمُ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِيَ وَفَرْعَهُ الْكَرِيمُ ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ثم عَرَجْتُ إِلَى حِمَاهُ ، وَمَلْتُ إِلَى حَيْهِ كَيْ أَرَاهُ ، فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ نَتَائِلًا أَنْوَارُهُ ،
وَتَشْرِيقَ بِالْجَلَالَةِ أَفْقَارُهُ ، قَدْ عَاتَمَتْهُ الْهَيْبَةُ وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَقَّقَتْهُ الرِّيَاسَةُ وَجَلَّلَتْهُ
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِعِزِّ مَنَالِ قُدْرِهِ الْإِفْقَادُ كَمَا أَقْتَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأيته أستصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقم ببعض واجبه ؛ فغلبت هيئته إقداي ، وحالت حرمة بني وبين مرامي ؛ فقلت : إنا لله ! قد فانتني مآربي ، ورجعت من فوري إلى صاحبي ؛ فأظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تحف ؛ إنها لمنقبه عمريه ، وأثرة عدويه ؛ فالفاروق جدّه ، وبنو عدي قيسله وجنده .

هذا وإنه لأطف وأرق من السيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأحي من العذراء في خدزها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن زائدة » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعدة » :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ * فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَّيَسَّرُ !

بالعزائم الفاروقية فتحت الأمصار ، وبالمهية العمريّة أقر المهاحرون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوته في خلافة عمر وصمته ، وجوابه بعد ذلك للقائل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهيبته ؛ كيف ؟ وما سلك بفاً إلا وسلك الشيطان بفاً غير فقه وضافت عليه الفجاج ، ولم يمثل هيئته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر لأهيب من سيف الحجاج ؛ وهو مع ذلك يطف بالأراذل والمساكين ، ويعين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد اتضح لك القضيّة ، وتحققت أنها سمات إريته .

فعند ذلك ذهب روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له أتباع من الكُتاب فاتعلق بجهلهم ، وأتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ ؛ لكن ألتئم بسمّة الكُتاب ، وأثبت في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسبه الصميم ؛ به شدّ عضده ، وقوى كتفه ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثا سراً بهما « والولد سراً به » ؛ ثم كُتِبَ ديوان الإنشاء جُنْدُه
وأَتباعه ، وأولياؤه وأشياؤه ؛ وكُتِبَ الدَّسْتُ منهم أرفعُ في المَقام ، وكُتِبَ الدَّرَجُ
أجدرُ بالكتابة وصنعة الكلام .

قلت : القسمُ الثاني أليقُ بمقدارى ، وأقربُ إلى أوطارى ؛ ثم ودَّعتُ صاحبي
شاكراً له على صنيعة وحامداً له على أدبه ، وتركته ومضيتُ وكان ذلك آخر العهدِ
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرفعتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعافَ بإجابة دعوتي ؛
فقابلها بالقبول ، وأنعمَ بالمسئول ؛ وقرَّرَني في كتابة الدَّرَجِ الشَّريف ، وأكثفني
بالعرفِ عن التعريف ؛ وطابق الخبرَ الخبرَ ، واستغنيتُ بالبيانِ عن الأثر ؛ ثم قُمتُ
مُجِلاً ، وأنشدتُ مُرتجلاً :

إذا ما بنو الفاروقِ في المجدِ أعرقوا ، * ونالوا بفضلِ الله مالا كَمِثْلِهِ ،
وجَلَّتْ دُجَى الظُّلُماءِ أنوارُ بدرِهِم ، * وعمَّتْ بِقَاعُ الأرضِ أنواءُ فضْلِهِ ،
تعالَتْ ذُرَى العُلَيا فيهِم وأنشَدتْ : * أبى الفضلُ إلَّا أن يكونَ لِمِثْلِهِ !

ثم تشرفتُ بتَقْيِيلِ يَدِهِ ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددِهِ ؛ قد منعتني هَيْبَتِي من اللَّيَازِ
به والقُربِ إليه ، وصيرتُ عَاطِرَ مَدْحِي وخَالِصَ أَدْعِيَتِي وَقفاً عليه ؛ وصِرتُ إلى
الدِّيوانِ ، فوجدتُ قوماً قد حَفَّهمُ الحُسْنُ وزَانهمُ الإحسانُ ؛ فقلتُ : الحمدُ لله !
هؤلاءِ فِتْيَةُ ذاكِ الكَهْفِ بلا أَمْتِراء ، وأشَبَّالُ ذاكِ الأسدِ من غيرِ أَقْتِراء ؛ فجلستُ
جُلُوسَ الغَرِيبِ ، وأطرقتُ لِطِراقِ الكَيْبِ ؛ إذ كُنْتُ في هذه الصَّنِعةِ عِصَامِيًّا
لا عِظَامِيًّا ، ومُتَمِّمًا لا تِهَامِيًّا ؛ غيرَ أني تعلقْتُ منها بِجبالِ القَمَرِ ، وأستوقدْتُ نارها
من أَصْغَرِ الشَّرِّ ؛ فتلَقَّوني بِالرَّحْبِ ، وأحلَّوني من ديوانهم بِالْمَكَانِ الرَّحْبِ ؛ وقابلوني
بالجميلِ قبلَ المَعْرِفَةِ ، وعاملوني بِالإحسانِ والنَّصَفَةِ .

فلما رأيتُ ذلك منهم حمِدْتُ مَسْرَايَ ، وشكُرتُ مَسْعَايَ ؛ ودَعَوْتُ لِصَاحِبِي أَوَّلًا
إِذْ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَنِي ، وَدَانَى عَلَيْهِمْ وَسَاقَنِي .

ولما تَحَقَّقْتُ أَنِّي قَدْ أَثْبَتُ فِي دِيْوَانِهِ ، وَكُنَيْتُ مِنْ جُمْلَةِ غُلَمَانِهِ ؛ رَجَعْتُ
الْقَهْقَرَى عَنْ طَلَبِ الْكَسْبِ ، وَأَسْتَوَيْتُ عِنْدِي الْمَحَلُّ وَالْخَصْبُ ؛ وَأَكْتَفَيْتُ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ نَظْرَةً مِنْهُ إِلَيَّ تُرَقِّبُنِي إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلِسَانِ الصَّدِّيقِ عَلَى الْمَالِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْمَقَامَةُ مِنْ فَضْلِ الْكِتَابَةِ وَشَرَفِ الْكُتَابِ مَقْنَعٌ مِنْ غَيْرِهَا ،
وَمُقْنَعٌ عَنْ سِوَاهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمِنَّةُ .



وهذه نُسخة مَقَامَةٍ أَنشأَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْخُوارِزْمِيُّ فِي لِفَائِهِ لِأَدِيبٍ يَعْرِفُ بِالْهِتْيَةِ ،
وَأَنْقَطَاعِهِ فِي الْبَحْثِ ، وَغَلْبَةِ الْخُوارِزْمِيِّ لَهُ . أوردَهَا أَبُو حَمْدُونُ فِي "تَذَكُّرَتِهِ" وَهِيَ :
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَقَيِّظٌ أَرِيبٌ ، عَالِمٌ أَدِيبٌ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَحْفَظُ
مِنْ مَصَادِفِ الْغَلَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَّاتِ الْفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَغْضُ مِنْ سِهَامِهِ ؛ وَيُظْهِرَ بَعْضَ شَكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمُ بِأَيْسَرِ
قِيمَتِهِ ، وَيَسْتُرُ كَثِيرًا مِنْ بِضَاعَتِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْطِطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ بِصَدِّقِ الْمُنَاصَحَةِ ، وَجَمِيلِ الْمُسَاحَحَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْهَلَ
الْإِعْجَابُ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِنِ تَسْتَقْرِئُهُ ، وَالْأَقْبَرَاءَ عَلَى أَنْ يَعْتَرِضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنْظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْأَعْتِدَارِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ الْخَلْجَةِ وَالْأَنْكِسَارِ .

فليس الفتي من قال: إني أنا الفتي، * ولكنه من قيل: أنت كذلك.

وكم مدح ملكاً بغير شهادة * له نجلة إن قيل: أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالانصاع، على ذى نباهة وأرتفاع، وذلك أنى أضعدت في بعض
الأعوام، مع جماعة من العوام، بين تاجر وزائر، إلى العزل والحائر، حتى انتهينا
إلى قرية شارعه، أهلة زارعه، وما منا إلا من أملتته السمرية فأعترضته،
وأسقمته وأمرضته، وقترته فقبحته، وكثر منا الجوار، وأستولى علينا الدوار،
فخرجنا منها خروج المسجون، وقد تقوسنا تقوس العرجون، فاسترحنا بالصعود،
من طول القعود:

كأننا الطير من الأقفاص * ناجية من أحبل القناص،

طيبة الأنفيس بالخلاص * منفضات الريش والنواصي!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة، حتى وقف علينا واقف، وهتف
بنا هاتف، أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند،
فأقبل إلى، وسلم على، وقال: إن الناظر يستيريك، فليعجل إليه مصيرك، فقامت
معه، يتقدمني وأتبعه، حتى انتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوي بهاء وجلال،
وزينة وجمال، من أشراف الأمصار، وأعيان ذوي الأخطار، من أهل واسط
وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العمامة لاثماً * على وجه بدر تحته قلب ضيعم!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال في سؤاله
وسلامه، وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذنابه وأحبتيت، وأخذوا

يَسْتَخِيرُونِي عَنِ الْحَالِ ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ ؛ وَدَاعِيَةَ الْإِرْتِحَالِ ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَالْخَيْرَانِ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيٌّ مُسَائِلٌ ، * وَوَاصِفٌ أَشْوَاقٍ وَمُثْنٍ بِصَالِحٍ ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْ أُقِيمَ لَيْلِيًا * أَرْوَحُ وَأَعْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ !

ثم قال قائلهم : هل لقيتَ عَيْنَ الزَّمَانِ وَقَلْبَهُ ، وَمَالِكَ الْفَضْلِ وَرَبَّهُ ، وَقَلِيبَ الْأَدَبِ
وَعَرَبِيَّةِ إِمَامِ الْعِرَاقِ ، وَشَمْسِ الْآفَاقِ ؟ . فقلتُ : وَمَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَهُولَةِ ،
وَالْخَيَاةِ الْمَجْهُولَةِ ؛ فَقَالُوا : أَوْ مَا سَمِعْتَ بِكَامِلِ هَيْتِ ، ذِي الصَّوْتِ وَالصَّيْتِ ؟ :

ذَاكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانِ ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيَبَوِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانِ ،
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .
قالوا مجابٌ كُلُّهُمْ : إِنَّهُ * سَيِّدُنَا ، أَوْ قَالَ : غِلْمَانِي .

فقلتُ لهم : قَدْ قَلَّدْتُمُ الْمِنَّةَ ، وَهَيَّجْتُمُ الْحَنَّةَ ؛ إِلَى لِقَاءِ هَذَا الْعَالِمِ الْمَذْكُورِ ، وَالسَّيِّدِ
الْمَشْهُورِ ؛ وَقَدْ كَانَتْ الرِّيَّاحُ تَأْتِينِي بِنَفْحَاتِ هَذَا الطَّيْبِ ، وَهَذَرِ هَذَا الْخَطِيبِ ؛
فَالآنَ لَا أَثْرَ بَعْدَ عَيْنٍ ، سَأَصْبَحُ لِأَجَلِهِ عَنْ سُرَى الْقَيْنِ ؛ أَغْتِنَا مَا لِلْقَائِدِ ، وَالنَّعَمِ
الْبَارِدِ ، وَوُجِدْنَا لِلضَّلَالَةِ الشَّارِدِ .

أَيْنَ أَمِضِي وَمَا الَّذِي أَنَا أَبْنِي * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابِ ؟
فَإِذَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَا أُرِيدُ الثَّوَابَ .
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُرُورُوا عَلِيًّا : * لِأَزُورَ الْهَيْتِ وَالْآدَابِ :
لَنْ أَبَالِي إِنْ قِيلَ الْخَوَارِزِ * مَيَّ أَخْطَأَ فَعَلَهُ أَوْ أَصَابَا !

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : بَلْ أَصَبْتَ ، وَوَجَدْتَ مَا طَلَبْتَ ؛ وَقَدِيمًا كُنَّا نَنْشُرُ أَعْلَاقَكَ ،
وَنَتَحَنَّنُ أَتْفَاقَكَ ؛ وَتَسْدَأُ أَوْصَافَكَ ، وَنُحِبُّ مُضَافَكَ ؛ وَكُبْرُ لَدِيهِ ذِكْرُكَ ، وَنُعْظَمُ
لَدِيهِ قَدْرُكَ ؛ فَيَتَحَرَّكَ مِنْكَ سَاكِنُهُ ، وَتَتَقَلُّلُ بِكَ أَمَّا كِنُهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِمَحْضَرِنَا ، وَتُلَامِحَ عَيْنَكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيَلْتَفِّ غِبَارُكَ بِغُبَارِهِ ،
وَيَمْتَرِجُ تَيَّارُكَ بَتَيَّارِهِ ، وَيَخْتَلِطُ مِضْمَارُكَ بِمِضْمَارِهِ ؛ فَيَعْرِفُ مِنْكُمْ السَّابِقُ وَالسَّكِينُ ،
وَالسُّودَانِيُّ وَالْكُعَيْتُ ؛ وَيَتَبَيَّنُ مِنَ الذِّى يَحْوَى الْقَصَبُ ، فَانْكِمَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

هَمَّا رُحْمَانِ خَطِيَّانِ كَانَا * مِنَ السُّمْرِ الْمُتَقَفِّهِ الصَّعَادِ

تُهَالُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَا عَلَيْهَا * بِمَثَلِهِمَا تُسَالِمُ أَوْ نُعَايْ !

فَقَالَ [بَعْضُ الْجَمَاعَةِ] لَقَدْ تَتَكَّبْتُمُ الْإِنْصَافَ ، وَأَخْطَأْتُمُ الْاعْتِرَافَ ؛ وَأَبْعَدْتُمُ
الْقِيَاسَ ، وَأَوْقَعْتُمُ الْإِلْتِبَاسَ ؛ أَيْنَ أَبْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى أَبْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَبْنُ اللَّبُونِ ،
مِنَ الْبَازِلِ الْأَمُونِ ؟ ؛ وَالرُّمْحُ الرَّازِحُ ، مِنَ الْجَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالْكُودُنُ الْمَبْرُوضُ ،
مِنَ الْحَرْبِ الْمَرُوضِ .

وَأَبْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُرْلِ الْقَنَاعِيْسِ !

كَمْ لَدَيْهِمْ بَطَائِحُ وَسَبَاحُ ، وَسَاكِنُ صَرَائِفٍ وَأَكْوَاخُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ سَوَادِيَةُ أَنْبَاطُ ،
وَعُلُوجُ أَشْرَاطُ ، وَرِعَاعُ أَخْلَاطُ ، وَسِفْلُ سُقَاطُ ؛ فِي بِلْدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،
وَصَبَرْتُ جُسُورَهَا ، صَحْتُ : وَاعْرِبْتَاهُ ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهًا غَرِيبًا نَادَيْتُ : وَابْتَاهُ ؛
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبِطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَدَى إِمَامًا ؛ فِي مَعْشَرٍ مَا عَرَفُوا
الْتِّحَالَ ، وَلَا رَكِبُوا الشُّرُوحَ وَالرِّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْحِدَارَ وَالطَّلَالَ .

أُولَئِكَ مَعْشَرُ كَبَنَاتِ نَعِشٍ * خَوَالِفَ لَا تَغُورُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثنى له] بمصاولة رَجُلٍ جَوَّالٍ ، رَحَّالٍ حَلَّالٍ ؛ بهيِّتَ وُضِعَ ، وبالكُوفَةِ أَرْضِعَ ؛
 وببَغْدَادٍ أَثَغَرَ ، وبواسطِ أَحْفَرَ ؛ وبالحجازِ وَتِهَامَةَ فَطَامَهُ ، وبمِصْرَ والمَغْرِبِ كَانَ أَحْتَلَامَهُ ؛
 وببَحْدٍ والشَّامِ بَقَلَ عَارِضُهُ ، وباليَمَنِ وعِمانَ قَوَّيْتُ نَوَاهِضُهُ ؛ وبخُرَّاسَانَ بَلَغَ أَشُدَّهُ ،
 وببُخَّارًا وَسَمَرْقَنْدَ تَنَاهَى جِئُهُ ؛ وبغَزْنَةَ والهِندِ شَابَ وَأَكْتَهَلَ ، ومن سَيِّحُونَ وَجِيحُونَ
 عَلَّ وَنَهَلَ ؛ وبمِيسَانَ والبَصْرَةَ عَوَّدَ وَقِرِحَ ، وبالجبالِ جَلَّهَ وَجَالِحَ ؛ فهو يَعِدُّ
 «المَازِنِي» إِمَامَهُ ، وَأَبْنُ «جَنِّي» تِلَامُهُ ؛ و«الْمُتَنَبِّي» من رُؤَايِهِ ، و«الْمَعَرِّي» حَامِلُ
 دَوَاتِهِ ؛ و«الصَّيَّانِي» بَارِي قَلَمِهِ ، و«الصَّاحِب» رَافِعَ عِلْمِهِ ؛ و«أَبْنُ مُقَلَّة» من نَاقِلِي
 غَاشِيَتِهِ ، و«بَنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضُ حَاشِيَتِهِ ؛ وَقَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَلَّاهَا ، وَحَفِظَ الْعُلُومَ
 وَرَوَاهَا ، وَدَرَسَ الْآدَابَ وَوَدَّاهَا ؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَأَلْفَهَا ، وَأَنْشَأَ الْحِكْمَ وَصَنَّفَهَا ؛
 وَفَصَّلَ الْمُشْكَلَاتِ وَشَرَحَهَا ، وَأَرْتَجَلَ الْخُطَبَ وَنَقَّحَهَا ؛ فَهُوَ الْبَحْرُ الْمُرُودُ ، وَالْإِمَامُ
 الْمَقْصُودُ ، وَالْعَلَمُ الْمَصْمُودُ ، هَذَا بَوْنٌ وَمَرْتَقَى شَدِيدٌ .

أَتَلَقُّونَ بِالْأَعْزَلِ الرَّاحِمَاءِ * وَالْأَكْشَفِ الْحَاسِرِ الدَّارِعَاءِ ،
 وَبِالْكُودِنِ السَّابِقِ السَّابِحَاءِ * وَبِالْمِنْجَلِ الصَّارِمِ الْقَاطِعَاءِ ؟

فَمَا اسْتَمْتُمْ كَلَامَهُ حَتَّى أَقْبَلَ : فَذَا نَحْنُ بِهِ قَدْ طَلَعَ مُهْرُولا ، وَأَقْبَلَ مُسْتَعَجِلًا ؛
 فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَجْلَحَ ، أَهَمَّ أَفْلَحَ ، أَفْطَحَ أَرْدَحَ ؛ طَوِيلًا عَنطَنَطَ ، يَحْكِي ذَنْبًا أَمْعَطَ ،
 أَجْمَعَ أَحْبَطَ ؛ فَتَلَقَّوهُ مُعْظَمِينَ ، وَلَهُ مُفَخِّمِينَ ؛ فَقَصَدَ فِي الْمَجْلِسِ صَدْرَهُ ، وَأَسْنَدَ
 إِلَى الْحِدَّةِ ظَهْرَهُ ؛ فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانَ ، حَتَّى قِيلَ لَهُ : هَذَا فُلَانٌ ، فَقَبِضْ مِنْ أَنْفِهِ ،
 وَنَظَرْ إِلَى بَشِطٍ مِنْ طَرَفِهِ ؛ وَقَالَ بَعْضُ فِيهِ ، هَامُوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ ؛ تَعَسَّا لِلشُّوَاهِ
 وَجَالِييَاهَا ، وَالْقُرَّاءِ وَحَالِييَاهَا :

جَاءَ زَيْدٌ مَجْرَرًا رَسَنَةً * فَلَئِنْ لَإِيْمَعُهُ سَنَنَهُ (؟)
 أَحَبَّهُ قَوْمُهُ عَلَى شَوْءٍ * إِنْ الْقَرْنِي فِي عَيْنِ أُمِّهَا حَسَنَهُ !

كان لنا شيخٌ بالأنبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السنَّ أعلاه؛
قرأتُ عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب؛ و”مسائلُ ابنِ السَّراج“، و”ديوانُ
ابنِ العجاج“؛ و”كتابُ الإصلاح“، و”مَشْرُوحُ الإيضاح“؛ و”شعرُ الطَّرمَّاح“،
و”العين“، للفرُّودى، و”الجمهرة“، للأزدى؛ وأكثرُ من المصنَّفاتِ، المجهولاتِ
والمعروفاتِ؛ ينفُخُ في شِقَاقِهِ، ويُزِيدُ في بَقَايِهِ، ويتعاطمُ في مخارِقِهِ؛ وجعل
القَوْمُ يَقْسِمُونَ بيننا الألفاظَ، وَيَحْسِبُونَ الألفاظَ؛ وما منهم إلّا من اغْتَناظَ لِسُكُوتِ
وكلامِهِ، وتَأَخَّرَ وإقْدَامِهِ.

ثم هذى الشيخُ إذ وُصِفَ له رَجُلٌ على الغَيْبِ ثم رآه، فاحتَنَقَرَه وأزدرَاهُ؛
وأنشد مُثَمِّلًا:

لعمري أَيْبُكَ تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِ * بَعِيدَ الدَّارِ خَيْرُ ابْنِ تَرَاهِ

فقال: هذا المُعَيْدُ هو ضَمْرَةٌ، بنُ ضَمْرَةٍ، بنُ جَابِرٍ، بنُ قَطَّانٍ، بنُ نَهْشَلٍ، بنِ
دَارِمٍ، بنِ مَالِكٍ، بنِ حَنْظَلَةَ، بنِ مَالِكٍ، بنِ زَيْدِ مَنَاءَ، بنِ تَمِيمٍ، بنِ مُرَّةَ، بنِ أَدَّ،
ابنِ طَاهِجَةَ، بنِ أَلْيَاسٍ، بنِ مُضَرٍّ، بنِ نِزَارٍ، بنِ مَعَدٍّ، بنِ عَدْنَانَ. والمُعَيْدُ تَصْغِيرُ
مَعْدَى، وهو الذى قالتَ فيه نَادِيَتُهُ:

أَنْعَى الْكَرِيمَ النَّهْشَلِيَّ الْمُصْطَفَى * أَكْرَمَ مِنْ خَامِرٍ أَوْ تَحْتَدَفَا!

فقلتُ: ما بعد هذا المَقَالِ، وَجْهٌ لِلْإِحْتِمَالِ؛ وما يَجِبُ لى بعدَ هذه المَوَاقِفِ،
غَيْرُ الْمَكَافِهِ؛ ولم يَبْقَ لى بعدَ الْمَغَالِبِ، مِنْ مُرَاقِبِهِ:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدٌ نَائِلٌ^(١) * وَالْقَوْسُ فِيهِ وَتَرُّ عُنَابِلُ

* تَرْلُ عَنْ صَفْحَتِهِ الْمَعَالِلُ!

(١) كذا فى اللسان فى مادة - عل - وفى مادة عنبيل "خب خاتل".

ماعلى وأنا [رجل] جلد * والقوس فيه وتر عرد
* مثل ذراع البكر أو أشد *

فعمطت عليه عطف الثائر العاسف ، وألقت إليه ألتياف الطائر الخاطف ؛
فقلت له : يا أخاهيت ، قد قلت ماشيت ، فأجب الآن إذا دُعيت ؛ وألزم مكانك ،
وغض عنانك ، وقصر لسانك ؛ إن نادبة ضمرة خندقته ، لما وصفتها ؛ وما سمعت
في نسبك إياه لخندق ذكرا ، فأين عن ذلك عذرا ؛ فقال : إن خندق هي امرأة
ألياس بن مضر ، غلبت على بينها فنسبوا إليها ، كطهية ومزينة ، وبلعدوية وعرينة ،
والسلكة وجهينه ، وندبة وأذينة ؛ وكشيب بن البرصاء وابن الدغماء . فقلت له :
سئلت ، فأجبت وأصبت ؛ فأخبرني عن خندق هل هو اسم موضوع ، أو لقب
مصنوع ؟ ؛ فوقف عند ذلك حار ، ونحمت ناره ؛ وركد جريانه ، وسكن هديانه ،
وقتر غليانه ، وظهر حرانه ؛ وذلل وأنقمع ، وأنطوى وأجتمع ؛ فاضطره الحياء ، وأجأه
الاستجداء ؛ إلى أن قال وهو يخفى لفظه ، ويطلق لحظه : أظنه لقبا . فقلت : هو
كما ظننت فما معناه وما سببه ؟ وكيف كان موجبه ؟ فلم يجد بدا من أن يقول :
لا أدري ، فقال وقد أدقته مر الإماته ، وأحس من القوم بتظاهر الشماته :

وودَّ يبدع الأنف لو أن صحبه * تنادوا وقالوا في المناخ له : نعم !

ثم أقبلوا إلى ، وعكفوا على ؛ بأوجه مهله ، وألسنة متوسله ؛ في شرح الحال ،
والقيام بجواب السؤال ؛ فقلت : هذا بدع عجيب ، أنا أسأل وأنا أجيب ؛ إن ألياس
ابن مضر تزوج ليلي بنت ثعلبة ^(١) ، بن حلوان ، بن الحلاف ، بن قضاة ، بن معد ،
(في بعض النسب) ، فولد له منها : عمرو وعامر وعُمير . ففقدتهم ذات يوم ، فالحى

على ليلي باللوم، فقال: أخرجني في أثرهم، وأتيني بجبرهم، فمكنت في طلبهم، وعادت بهم، فقالت: ما زلت أحندي في أتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم، فقال لها ألباس: أنت خندف. والحندي في الأتباع، تقارب الخطو في إسراع، وقال عمرو: يا أبتى أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنت مدركة إذ حويته. وقال عامر: أنا طبخته وشويته. فقال له: أنت طايحة إذ شويته. فقال عمير: أنا أنقمت في الجباء، فقال له: أنت قعمة للاختباء، فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم استفدته، وفضل استردته، وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوي الألباب، نماء في الآداب. فقلت له ممثلاً:

أقول له والرمح ياطر متنه * تأمل خفاً: إني أنا ذليكا!

ثم لم يخبس إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً، حتى عاد إلى هديره، وأخذ في هديره، طمعاً بأن يأخذ بالنار، ويعود الفيض له في القمار، فعدل عن العلوم النسيبة، وجال في ميدان العريشة، ولم يحس أن باعه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر، فقال: حضرت يوماً حلبة من حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم، وقد غص بكل خطيب مصقع، وحكم مقنع، وعالم مصدع، وملي من كل عتيق صهال، وفتيق صوال، ومنطيق جوال، فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات، وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض، حتى أخذ السائل منهم بالمحقق، بيت [الفرزدق] ^(١):

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسخاً أو مجلف!

فَكَثُرَ فِيهِ الْحَدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ
الْقِرْطَاسَ ، وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْتَّحْقِيقِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ سَاهُونَ ،
وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ، فَنَادَيْتُهُمْ : إِلَى قَسَارِعُوهَا ، وَمِنِّي فَاسْتَمِعُوا ، فَإِنِّي أَنَا أَبْنُ بَجْدَتِهَا ،
وَعَالِمُ مَا نَحْتُ جِلْدَتِهَا ، ثُمَّ إِنِّي أَبْدَيْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ، وَحَلَّاتُ عُقْدَهُ ،
وَحَضَّضْتُ زُبْدَهُ ، وَأَطْرْتُ لَبْدَهُ ، وَبَجَسْتُ حَجْرَهُ ، وَأَبْثَنْتُهُمْ عُجْرَهُ وَيُجْرَهُ ، فَقَالُوا : لِلَّهِ
أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَغَايَاهُ ، وَأَجْلَلْنَا لَشَبْهَهُ ، وَأَضْرَأْنَا فِي بَدْهِهِ ،
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ ، وَيَطْلُعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَأَدْرَكَنِي الْأَمْتِعَاضُ ، وَأَخَذَنِي الْإِتْفَاضُ ، فَانْشَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَّعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ، فَأَخْبِرْنِي دِنَ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجْرِي
الْكُمَيْتِ ، وَكَيْفَ تُنْشِدُهُ : وَعَضَّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضَّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ،
فَقُلْتُ : نَبْتَدِيُّ بِالْفِعْلِ ثُمَّ نَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ إِذَا الْإِعْجَابُ ، تَهَيَّأَ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ،
وَأَخْبِرْنِي لَمْ تَفْتَحْ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّغَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ،
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ : فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابُ تَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا نَعْدِمُهُ ،
وَإِنَّمَا أَلْتَمِسُ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةِ
النُّحَا ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ، فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . فَقُلْتُ : دَعِ
عَنْكَ هَذَا وَأَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلِغَلَّةِ أَمْ لَغَيْرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّجُ ، وَيَتَنَاقَبُ
تَارَةً وَيَتَنَحَنَجُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَغَضَّ بِرِيقِهِ ،
قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْتَى سِلَاحَهُ ، وَغَضَّ جِمَاحَهُ ،
وَمَنْ أَدْبَرَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، عُدِلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحق أبلج لا يحسد سيّله * والحق يعرفه ذوو الألباب !

والآن فقد فازت قِداحك ، وبانت غُررك وأوضأحك ؛ وأجّدت النّضال ،
وأدركت الخصال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دلّلت ؛ لأنّ يقال : هذا
بهت ، ومحالّ تحت ؛ فقلت حبّا وكرامه ، اسمع أنت ياطغامه ؛ إنّ الفعل من
فاعله ، كالولد من ناجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كلّ قائل ؛
وهي الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضارعه . وبيان ذلك :
أن الفتحة لا تكون مع التاء والنون ... فتثبت الفتحة ، ثم تقول : أخرجت^(١)
وأخرجنا ، فتسقط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت
النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة ، فتقول : أخرجنا الأمير ، فهذا
بين . فصفت الجماعة وسمحت ، وحسنت وبجحت ؛ وجعل الأديب يضطرب
أضطراب العصفور ، ويتقلب تقلّب الصقور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ،
وبأزيه عاد صردا ؛ ودوره انقلبت مخشليا (؟) ، وزيتونه تحول عريبا ، وقناه تغير
قصبا ؛ وأن مستقبله تعوج ، وجيده تهرج ، وصحيحه تدحرج ، وجديده تكرج ؛
فقال منشداهم :

ترى الرجل النّحيف فتدريه * وتحت ثيابه أسد مزير ،
ويعجبك الطير فتبتأيه * فيخاف ظنك الرجل الطير .
فما عظم الرجال لهم بفخر * ولكنّ فخرهم كرم وخير !

فأخذ الأبلّاس ، وضافت به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفضه
الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفّه العض ؛ ويتشاءم بيومه ،

(١) بياض بالأصول .

ويعودُ على نفسه بلومه ؛ يَسْحُ جَبِينَهُ ، وَيُكْثِرُ أَيْنَهُ . فقامتُ فقامتُ معي الجماعة
وتركتهُ ، وأسْتَهانتُ به وفَرَكتهُ ؛ فلما بَقِيَ وَحْدَهُ ، تَمَنَّى لِحَدِّهِ ؛ وَأَسْبَلَ دَمْعَتَهُ ،
وَوَدَّ أَنْ الْأَرْضَ بَلَعَتْهُ :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ * تَلُودُ بِحَقْوِيهِ السُّرَاةُ الْأَكْبَرُ ،
فأَصْبَحَ مِثْلَ الْأَجْرِبِ الْحِلْدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فَمَا تَدْنُو إِلَيْهِ الْأَبْعَرُ !

فقام فَبَعْنِي ، وَوَقَفَ وَودَعَنِي ؛ وَأَطَالَ الْأَعْتِذَارَ ، وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالْأَسْتِغْفَارَ ؛
وَقَالَ : مِثْلُكَ مِنْ سَتَرِ الْخَلَالِ ، وَأَقَالَ الْعَثْرَةَ وَالزَّلَالَ ؛ فَقَدْ أَغْتَرَرْتُ مِنْ سِنِّكَ بِالْحَدَاثَةِ ،
وَمِنْ أَخْلَاقِكَ بِالْإِدْمَانَةِ . فَقُلْتُ : كُلُّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ مَعْلُومٌ ، وَأَنْتَ فِيهِ مَعْذُورٌ
لَا مَلُومٌ ؛ وَمَا جَرَى بَيْنَنَا فَهُوَ مَنَسَى غَيْرَ مَذْكُورٍ ، وَمَطْوًى غَيْرَ مَشْهُورٍ ، وَمَحْفَى
غَيْرَ مَشْهُورٍ :

و[جِدَالَ] أَهْلِ الْعِلْمِ لَيْسَ بِقَادِحٍ * مَا يَنْ غَالِيهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ !

ثُمَّ سَكَتَ فَمَا أَعَادَ ، وَتَرَلَّتْ وَعَادَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَهْدٍ بِهِ وَآخِرِهِ ، وَبَاطِنَ
لِقَاءٍ وَظَاهِرِهِ ، وَكُلَّ أَجْتِمَاعٍ وَسَائِرِهِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فِي الرِّسَائِلِ)

وهي جَمْعُ رِسَالَةٍ ، وَالْمُرَادُ فِيهَا أُمُورٌ يُرَتَّبُهَا الْكَاتِبُ : مِنْ حِكَايَةِ حَالٍ مِنْ عَدُوٍّ
أَوْ صَيدٍ ، أَوْ مَدْحٍ وَتَقْرِيصٍ ، أَوْ مُفَاخَرَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مَا يَجْرِي هَذَا
الْمَجْرَى ، وَسُمِّيَتْ رِسَائِلَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَدِيبَ الْمُنَشِئَ لَهَا رَبَّمَا كَتَبَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ

مُخْبِرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَحَةً بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْمَكْتُبَاتُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَانْتَحَتْ بِالْخَطِّبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائل المملوكية ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، وأفتلأعها من أيدي التتار ، وأستلأله على ملكها ، وجألوسه على تحت بني سلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كتب بها إلى الصأحاب بهاء الدين بن حنأ ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما أشتملت عليه حال تلك السفرة ، وهي :

يُقبَلُ الأَرْضَ بِسَاحَاتِ الأبوابِ الشريفة السَّيِّدِيَّةِ ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ ؛ لَا زَالَتْ رُكَّابُ السَّيْرِ تَحْتَ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَالِمُ خِدَامَهَا وَتُحِلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ ، وَلَا بَرَحَتْ مَوْطَنَ الْبِرِّ وَمَعْدِنَ الْجُودِ وَبَحْرَ الْكَرَمِ وَعُكَاظَ الْخَيْرِ ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ أَدْعِيَتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الْإِجَابَةِ مُحُوطَةً ، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً ؛ أَنَّ الْعَيْدَ مِنْ شَأْنِهِمْ إِتْخَافَ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الْأَسْتِرْقَاقِ ، وَتَكُونَ نِعَمُ سَادَاتِهِمْ قَدْ أَحْسَنْتَ لَأَفْوَاهِهِمُ الْأَسْتِنْطَاقَ ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عَسَاهُ يَعْنُ مِنْ مَرَاحِمِهِمُ اتِّقَى مَا عِنْدَهُمْ غَيْرُهَا يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٌ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في ما ثره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نفحاتها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يخف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصف؛ وإثما قصد أن يخف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: والله أعلم حيث يجعل رسالاته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هدى، فما زال شرح الوقائع مطولا كذا؛ وتالله ما ورخ مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيرا من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطال؛ والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتأمل في حجلها حتى تسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها،
 (١)

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزائم الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار، ولا نمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزدد الزائر من الأهبه، أو يتزود الطائر من النغبه؛ تسبق وقد الرياح من حيث نتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسجبه أذيال الصوافي تمتجى؛ نحمل هنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيها هذا الهمام؟ * نحن نبث الربا وأنت الغمام!

ومرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمّة إلا عمه ولا جبل إلا طاله ؛
تسايه السواري والغوادي ، ولا ينفك الغيث من أنسكاب في كل نادر وادي :
فباشرونها طالما باشر القنا ، * وبلى ثيابا طالما بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامات حرّهم ،
وحمل آلات طعنهم وضربهم :

فجاز له حتى على الشمس حكمة ، * وبأن له حتى على البدر ميسم .
يعدّ يديه في المفاضة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذى القعدة جرّائد على الأمر المعهود ،
قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود ؛ فسرنا في جبال نشتمى فيها سلوك الأرض ،
وأودية تملك الأشواط فيها إذا ملكت الفروج من الركض ؛ تزور ديارا ما نحب
معناها ، ولا نعرف أقصاها من أذناها ، واستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رحى الدرب بالخليل العتاق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
شوائل تشوال العقارب بالقنا * لها مروح من تحته وصهيل .
[وما هي إلا خطرة عرّضت له * بحزان لبثها قنا ونصول
همام إذا ما هم أمضى همومه * بأرعن وطء الموت فيه ثقل ^(٢)
وخيل براها الركض في كل بلدة * إذا عرّست فيها فليس ثقل]
فلما تجلّى من دلك وصنجة * عات كل طود راية ورعيل

(١) الذي في ديوان المتنبي : بالجرّد الجاد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طُرُقٍ فِيهَا عَلَى الطُّرُقِ رِفْعَةٌ * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ حُمُولُ !

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُكَ وَهِيَ رُسُومُ سُكَّانِهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنْ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَهَةِ غُذْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بَرْوِجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَدَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِيقَ مَوْقَدَةٍ ،
فِي عَمَدٍ مِنْ كَنَاسِهَا مُمَدَّدَةٍ ؛ وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرْجٍ الدِّيَاجِ نَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ طُلُمَاتِهَا مُدْهِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
عَلَيْنَا عُمَهُ ، لَا يَثْبُتُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّمَا سَالِكُهَا يَمْشِي عَلَى شَفَا جُرْفٍ
هَارٍ ؛ فَبِتْنَا هُنَاكَ لَيْلَةً نَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمَّتِ الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةً هُجُوعَ ، وَأَخَذْنَا فِي آخِرَاتِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّفِيقَ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَسْغُلُهُ عَنِ
أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِي مِنْهَا كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِلُهُ الْمَتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَنَاجِيهِهِ ؛ حَوْهَا مَعَاثِرُ أَهْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بُعِثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَقَطَّرَتْ ؛ بَيْنَهَا
مَخَائِصُ ، لَا بَلَّ مَغَائِصُ ، كَأَنَّهَا بِحَارٌ بَحُرَتْ ؛ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّنَقَتْ
بِالْجَدَاوِلِ وَتَعَمَّمَتْ بِالْثُلُوجِ ، وَعُمِيَّتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاجِيْهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُ
شَجَرَاتِهَا الْتِفَافَ الْأَكَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلَقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِيقَةٍ ، وَأَوْدِيَةٍ
بِالْمُزْدَحَمِينَ مُحْتَنِقَةٍ ؛ بَيْنَمَا يَقُولُ مُنْتَحِيهَا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بُسْطًا مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْمِنُنَا :

(١) سَوْدُ الشَّمْسِ مَنَابِيضٌ أَوْجُهِنَا ، * وَ[لَا] تَسْوَدُ بِيضَ الْعُدْرِ وَاللَّيْلِ ،
(١) [وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكِيمٍ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرٍ ، * مَاسَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحَدَثَ الحُمْرَاءَ الْمُسَمَّاةَ الْآنَ بِكَيْنُوكَ ومعناها الْحُرْقَةُ ، كان الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سِيسَ قد أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَتَمَلَّكَهَا وَعَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتُّجَّارِ . فلما كان فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ سَيرَ مولانا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَافْتَتَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالذَّرِّيَّةَ ، وَخَرِبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحِينَ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ يُبِينُ ؛ فَشَاهَدْنَا مَا بَنَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ حَمْدَانَ مِنْهَا وَالْقَنَا تَقَرُّعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَيا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةً هُنَاكَ : عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ؛ وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَضَبَ الدَّهْرِ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا * فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَالَا

فَهِىَ تَمَشِي مَشَى الْعُرُوسِ آخِثِيَالًا * وَتَتَنَّى عَلَى الزَّمَانِ دَلَالًا !

فَبِتْنَاهَا وَأَبْتَيْنَاهَا وَخَيْلُنَا مَبْنُوَّةٌ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا ثَبَرَتْ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَدُوسُ ؛ إِذَا زَلَقَتْ مَشَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِالصَّهِيلِ : « وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ » ؛ وَخُضْنَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَخَائِصَ سَوَافِحَ ، كَأَنَّهَا لِأَجْلِ عَوْمِ الْخَيْلِ بِهَا سُمِّيَ كُلُّ مِنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَابِجٌ ؛ كَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا بَحْرٌ قَدْ قَطَعْنَاهُ اعْتَرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ يُسَمَّى دُونُ الْهَوَى فِيهِ نَفَادُ الْأَجَلِ ؛ لَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كَوَكْصُوا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رَدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبَنْدَاتِ لِمَا قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوًى رِجَامِهَا ، وَمَتَوًى عَمَامِهَا ، وَمَلَوًى زِمَامِهَا ، وَمَأْوًى قَتَامِهَا ؛ فَلِلْوَقْتِ عِبْرَانَهُ رَكُضًا ، وَأَعْجَلَتْ الْخَيْلُ فَمَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ لُحَّةً أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا ؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخَرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ ، وَوَقَعَ
السَّيَّارِكُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ ؛ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِرْبَنْدَ فَمَا ثَبَتَتْ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَافَحَةِ صَفَاهَا ، وَلَا تَعْلَهُ لِمَكَاخِفَةِ رَحَاها ، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارَحَةِ قُوَاهَا ؛ وَتَمَرَّتْ
الْحَيْلُ عَلَى الْأَقْبِحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطَرُّقِ ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّشْرِبِ
وَالْتَسْلُقِ ؛ فَصَارَتْ نَحْطُ أَنْحِطَاطِ الْمَيْدَبِ ، وَتَرْتَفِعُ آرْتِفَاعَ الْكَوْكَبِ ؛ وَتَسْرِى
سَرِيَانِ الْخِيَالِ ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْحَيَادَ قَتْرُولُ مِنْهَا الْجِبَالِ ؛ حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْجَادِرْبَنْدَ وَهُوَ خِنَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمْ أُمْسَكَ عَلَى طَارِقِ ، وَفَمُ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمْ عَضَّتْ أُنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقِ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ثَامِنِ
ذِي الْقَعْدَةِ ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ ، وَسَمِجَتْ السُّحُبُ بِمَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَبَرَدٍ ، وَجَاءَتْ الرِّيَّاحُ بِمَا آلَمَتْ الْحِلْدَ وَاسْتَفْدَتِ الْجِلْدَ ؛ وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتْ الْمَفَاوِزَ ، وَمَلَكَتِ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ ؛
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسُ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِسٍ مِنَ التَّنَّارِ مُقَدِّمَهُمْ كَرَايَ ، فَأَنْهَزُمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مَنْ قُدِّمَ لِلسَّيْفِ السُّلْطَانِي فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ ، وَأَسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّنَّارِ وَيُؤْسَرُ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّنَّارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لَأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَتَمِّ
تَيَقُّظٍ وَأَعْظَمِ حَذَرٍ ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ لَتَّاعِ الْخَبَرِ بَعْدَ الْخَبَرِ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قُرُبُوا ، وَأَنَّهُمْ ثَابُوا وَوَثَبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَحَبٍ * أَنْ يُنْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدمة ، والاجتماع عند المصادمة ؛ ورتب جيش الإسلام للحب ، على ما يجب ، وأراهم من نور رأيه ما لا على بصير ولا بصيرة يحتاج ، فطلعت العساكر مشرفة على صخرات هوني من بلد أبلسين ، وكان العدو ليلته تلك بائناً على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرمن لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخود الصفرة المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيراناً مقتدحة ؛ رجوا إلى ما كانوا عقودوا من العزائم فحلوا ، وسقط في أيديهم وراوا أنهم قد ضلوا ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وعلى الموت يترأسون ؛ فانصببت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الحيلة منهم ونفى الخيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبنا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ؛ وكان فيهم من المتقدمين الجار تدلون ، ومعنى هذا الاسم التقاد ، يعنى أنه ما كان في عسكر قط إلا نفذه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخوتدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمي الألوف ذنرك ، وصهر أبنا ، وقرالقي وخواصه :

بيض العوارض طعانون من حقوا * من الفوارس شلالون للنعم !
قد بلغوا بقناهم فوق طاغته * وليس يبلغ ما فيهم من المهم .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * مِنْ طَيْبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ !
 فَعِنْدَ مَا شَاهَدُوا تَجَدُّدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَتَحَقُّقُوا أَنَّ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ، أَخَذَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ فَقَاتَلَتْ ، وَعَاجَتِ الْمَنَآيَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ ، وَبَاعَتْ نُفُوسُ الْمُسْلِمِينَ
 لَهُمْ وَتَاجَرَتْ ، وَكَسَرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ ، وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَانَ ، وَلِلْوَقْتِ خُذِلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبُطُونِ السَّبَاجِ وَحَوَاصِلِ
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ، وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، فَكَمْ مِنْ شَجَاجِ الْأَصْبَقِ ظَهَرَ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامِي ، وَنَاضَلَ وَرَآيَ ،
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَرِّهِمْ ، مَا سَلَّمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِتَابَتِهِ سَهْمٌ ، وَذِي سِنَّ طَارِحَ بِهِ فَمَا
 طَرَحَهُ حَتَّى تَسَلَّمَ ، وَذِي سَيْفٍ حَادِثُهُ بِالصِّقَالِ فَمَا جَلَى مُحَادَثَةٌ حَتَّى تَكَلَّمَ ، وَأَبَانُوا
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَيْبَهُ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَنَحْوَةٍ عَرِيَّةٍ ، وَأَشْتَدَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 مِنْ جِهَةِ الْمَيْسَرَةِ مُعَرِّجِينَ عَلَى السَّنَاقِقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُنْقَلِبِينَ بِصُفُوفِهِمْ
 عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزَّهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ * أَحَدٌ سِلَاحُهُمْ فِيهِ الْفِرَارُ !
 فَتَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ ، وَوَثَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْمَطٍ ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادِ
 فَأَفْرَطَ ، وَلَحِقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّحْصِينِ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخْذَةَ
 الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتْلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمَشَّى النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ ؟
 وَأَنْهَزَتْ جَمَاعَةٌ يَسِيرَةً طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِّ مَنْ كَانَ لَا يَنْدِفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخَذَتْهُمْ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةٍ غَدِهِ فِي أُمْسِهِ .

مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ حِثَارُ

إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَوَلَّوْهُمْ * بِأَرْمَاحٍ مِنَ الْعَطَشِ الْفِقَارُ!

وقصبت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى صجر الحديد من الحديد؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلالة - لما دُعيت نزال أول مسابق، وأسرع راشق؛ وأقرب مطاعن، وأعظم معاون؛ فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته، وأجمل في كرتة، وأجاد في طعنته؛ وزار زير الأليث، وسابق حتى لم يبق حيث؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله، وخضب بما تحذر من دم عدوه أخاف سرجه وعنان لحامه، وكانت عليه من الله باقية واقية في تقدمه وإقدامه؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي السلاح، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الحراح؛ وأراد الله أن لا يخلية من رسالة دم يعظم الله الأجر بسائله، فجعله - والمينة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيذر الدوادار الظاهري، قال: لقيتني وقد تكسر رنجي، وعاد - لولا لطف الله - إلى الخسارة رنجي؛ فأعطاني المولى الصاحب زين الدين رُمحه فإذا فيه نصول، وبسنه من قراع الدارين قُلُول؛ ورأيت دُبُوس المولى الصاحب زين الدين وقد تشلم، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً ولكن الله سَلَّم؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال: سيف مولانا السلطان هو الذي سفك، وعزمه هو الذي فتك .

وَمَنْ يَكْ مُحْفُوظًا مِنْ اللَّهِ فَلْتَكُنْ * سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَاذِرُ هَكَذَا،

وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا * وَلَا مَنَّ يَبْدِيهِ وَلَا نَالَهُ أَذَى!!

وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهر والصوافن، وما يصولون به من سيوف وقسي وكائن، وما يلبسونه من خوذ ودروع وجواشن، وما يملكونه

من جميع أصناف المعادين ؛ فُعِمَ ما هُنالك ، وتَسَلَّم من اسْتَشْهَد من المسلمين رِضْوَانُ
وتَسَلَّم من قُتِلَ من الكُفَّار مَالِك .

وكان الذين اسْتَشْهَدُوا في هذه الوقعة من المُقَدِّمين : شَرُفُ الدِّين قيرانُ العَلَّائِي ،
وعِزُّ الدِّين أخُو الأمير جمالِ الدِّين مُحَمَّدِي . ومن الممالك السلطانية : شَرُفُ الدِّين
فلدحق (؟) الحاشنكير الظَاهِرِيُّ ، وأَيْبُكُ الشَّقِيقِيُّ الذي كان وَزِيرَ الشَّقِيفِ . وكان
المجروحون عِدَّةً لطيفةً لم يُعَلِّم عَدَدُهَا لِقَاتَهَا ، بل خَلَقَتْهَا ؛ وأورث الله المسلمين مَنَازِلَهُمْ
فَتَرَلَوْهَا ، ووَطَاقَتِهِمْ وَخَرَكَاوَاتِهِمْ فَتَمَوَّلُوها ؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أعداؤه كما قيل :

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَحَهُمْ وَبَسَطَهُمْ تَرَابٌ !!

وأَصْبَحَ الأعداءُ لَا تُرَى إِلَّا أَشْلَاقُهُمْ ، وَلَا تُبْصَرُ إِلَّا أَعْيَاؤُهُمْ ؛ كَأَنَّما جَزُرُ
أَجْسَادِهِمْ جَزَائِرُ يَتَحَلَّلُها من الدِّماء السَّيْلُ ، وكَأَنَّما رُءُوسُهُم المِجْمُوعَةُ لَدَى الدَّهْلِيزِ
الْمَنْصُورِ أَكْرَ تَلْعَبُ بِهَا صَوَالِحُهُ من الأَيْدِي والأَرْجُلِ من الخَيْلِ :

أَلْقَتْ إِلَيْنَا دِمَاءُ الْمُغْلِ طَاعَتَهَا * فَلَوَدَعَوْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دَمُ !

فَكَمْ شَاهَدَ مولانا السلطانُ مِنْهُمْ مَهْيَبَ الهَامَةِ ، حَسَنَ الوَسَامَةِ ، تُتَفَرَّسُ فِي جِهَامَةِ
وَجْهِهِ الفَخَامَةِ ، قد فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فَقَرَعَ السِّنَّ عَلَى الحَقِيقَةِ نَدَامَهُ :

وَوُجُوهاً أَخَافَها مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكَتْ حُسْنَها لَهُ وَالْجَمَالَ !

أو كما قيل :

(١) لَا رَحِمَ اللَّهُ أَرُوسًا لَهُمْ * أَطْرَنَ عَنْ هَامِهِنَّ أَخْفَا !

وأقبل بعضُ الأَحْيَاءِ من الأسارى على الأَمْواتِ يَتَعَارَفُونَ ، ولأَخْبَارِ شِجَاعَتِهِمْ
يَتَوَاصَفُونَ ؛ فَكَمْ من قائل : هَذَا فلانٌ وَهَذَا فلانٌ ، وَهَذَا كانَ وَهَذَا كانَ ؛ وَهَذَا

(١) في ديوان المتنبي "لا يرحم".

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَزِمُ الْأُلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ
الْصُّفُوفُ ، وَكَثُرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الْمُغَلِّ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كُبَرَاءِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَمِلَ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْجِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
فَجَعَلَهُمْ لِلسُّيُوفِ طُعْمَةً ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الرُّومِ فَتَقَرَّبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّه :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا !
وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارَى الرُّومِيِّينَ مُهَذَّبُ الدِّينِ بَكْلَارَنْكِي ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدُ الْبُرْوَانَاهُ ، وَنُورُ الدِّينِ جَاجَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ ، فَكَانَ الْبُرْوَانَاهُ أَحَقُّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُقْتَلَيْكَ جَرِيحَةً * وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ !
أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيئَةِ أَبْنَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ ؟
لَأَنَّهُ شَمَّرَ اللَّذِيلَ ، وَامْتَطَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَدْهَمَ اللَّيْلِ ؛ وَثُمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ ، وَهُمْ قَلْبُهُ رَفِيقُهُ حِينَ هَمَّ :
فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، * وَالْبَرُّ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي تَحْجَلٍ ! !

وَدَخَلَ الْبُرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا ، وَالصَّاحِبَ نَخْرَ الدِّينِ بْنِ عَلَمَا (؟) وَالْأَتَايَاكَ مُحَمَّدَ الدِّينِ ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفَى ، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبَ ، وَالْأَمِيرَ فَلَانَ
الدِّينِ الطُّغْرَائِيَّ ، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ أُنْحَى الْبُرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغَلِّ وَبَقِيَتْهُمْ مُنْهَزِمُونَ ، وَيُخْشَى مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ
وِإِتْلَافُ مَا يَكُونُ بَهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَأَخَذَهُمْ جَرَأُودٌ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْجَى خَاتُون بَنَتْ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا أَرْبَعًا عَشَرَ جَارِيَةً لَهَا ، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَخَائِيِّ وَالْخِيَامِ وَالْآلَاتِ ، وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَّاتِ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةً أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مِنْ قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الْهَرَبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ اقْتَرَبَ ، وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبِرَوَانَةُ أَمْرَهُ وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا يُخْبِرُ بِخَبَرِهِمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُقْرًا الْأَشْقَرِ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ فَاتَ مِنَ الْمُغْلِ ، فَمَرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ بِفَرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ السَّبْتِ حَادِي عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَتَزَلَ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانٍ مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْخَطِّ الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمَسْمُوءَةُ بِرِيَّانَ فَإِنَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ كَالْهَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَلُومٌ ، وَعُمِّرَتْ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَسَدَتْ كَأَنَّهَا مَجَرَّةُ النُّجُومِ ، وَمِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دِرَازِنَاتٍ مَنُجُورَةٍ ، وَرَوَاشِنَ قَدْ بَدَتْ فِي أَكْمَلِ صُورِهِ ، يَخْتُمُهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيُوتَانِ ، وَيَعْلُوهَا مِنْ رَأْسِهَا مَنَزِلٌ مُسَمَّى الرَّاسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةُ السَّنَانُ ، وَتَطُوفُ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ جِبَالٌ كَأَنَّهَا أَسْوَارٌ بَلِ سِوَارَ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَدْوَةٌ نَارٌ ، وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بِهِوْطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ، ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ، وَمَضَاقِقَ لَا يُلْفَى عِبَرَهَا لَنَا كَبْ ، قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ مِقَاسَةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبٌ كُلٌّ وَهَدَ ، وَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَحْلَصُ مِنْ تَحْلَصَ ، وَحَصَرَ مِنْ كَانَ فِي الْمَضَائِقِ قَدْ تَرَبَّصَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْأَرْضِ حَصَصَ .

وَرَحَلْنَا مِنْ هُنَاكَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرَ ذِي الْقَعْدَةِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ حَيَّتِ الْأَرْضَ يَتَجَانِ أَمْطَارُهَا ، وَأَغْرَقَتِ الْهَوَاثِمَ فِي أَجْحَارِهَا ، وَالْفُتُوحَ فِي أَوْكَارِهَا ، وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ لَا تَمْسُكُ حَتَّى لَا لِمُرُورِ الْأَرَاقِمِ ، وَالْجِبَالُ لَا تَمْسُكُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بِهَا مِنَ الدَّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَرْتَلِقُ فِي صَقِيلِهَا أَرْجُلُ النَّمْلِ ؛ وَسِرْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ نَهَارَنَا كُلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الْغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسَائِمِنَا أَيْدِي الدُّرُوبِ مِنْ أَيْدِي الدُّوُوبِ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً فِي مُنْتَقِعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ، وَمِيَاءٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرِفُ قَاعَةً تِلْكَ الْأَرْضِ بُوْطَاةَ قَشَلَا وَسَارِ (؟) مِنْ أَعْمَالِ أَصَارُوسِ الْعَتِيقِ . وَيَقْرُبُ مِنْ تِلْكَ الْجَهَةِ مَعْدِنُ الْفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قَدْ شَرَعْنَا فِي أَهْبَةِ الْمَيْتِ ، وَلَمْ نَقْضِ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ قَدْ صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قَدْ سَنَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بَأَنَ فَوْجًا مِنَ التَّسَارِ فِي بَحْوَةٍ هُنَاكَ قَدْ آسْتَرَوْا ، وَفِي تَجْوَةٍ لَغْرَةٍ قَدْ آتَنَظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَرَكِبَ النَّاسُ فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَابُعُ الْغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ؟ ؛ ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ وَعَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فَبَيْنَمَا نَوْمَةُ السَّلِيمِ ، وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً فِي كُلِّ وَادٍ تَهِيمَ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ ، وَتَنَبَّسَتْ عَذْرَاءُ الطَّرْفِ فِيهَا حِينَ يَكْبُو فِيهَا الطَّرْفُ ؛ تَنْحَطُّ مِنْهَا إِلَى جَنَادِلَ ، يَضَعُفُ عَنِ الْهُوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الْأَجَادِلِ ؛ بَيْنَا نَقُولُ : قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهَا نَفَادًا وَمِنْهَا نَفَازًا ، وَإِذَا بَعْدَ الْأَوْدِيَةِ أَوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الْجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَاكَ عِنْدَ هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أَوْتَرَكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ مِنْ حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخَرُ

للسَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَاسِيَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشْيَدِي ، قَرِيبًا مِنْ حِصْنِ سَمْنَدُو ، الَّتِي عَرَّضَ بِهَا أَبُو الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يُقَدِّمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمْنَدُو * وَإِنْ يُحْجِمُ فَمَوْعِدُهُ الْخَلِيجُ !

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ سَيرَ إِلَيْهَا خَوَاصَّهُ بِكَنَافٍ إِلَى نَائِبِهَا فَقَبِلَهُ وَقَبْلَهُ ، وَأَذْعَنَ لَتَسْلِيمِ حِصْنِهَا الْمُنْبِيعِ وَالْأَزْوَاجِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ عَنْهَا إِنْ أَسْتَزَلَّهُ ، فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَفَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَلْعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دَوَالِوَا ، فَكُلُّهُمْ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ، وَتَزَلْنَا فِي وَطْأَةٍ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ بِجَمْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَّغَتْ عُلُوفَاتُ خَيْلِهِمْ أَوْ كَادَتْ ، وَالخَيْلُ قَدْ بَاتَتْ لِيَالِي بَلَا عَلِيٍّ فَمَا أَسْتَفَادَتْ ، وَشَارَكَتْهَا خِيُولُ الْكَسُوبِ (٩) فِي عَلَاقِهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا فِي طُرُوقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ، فَضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ نَفُوسِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِرَاكِبِهَا ، وَكَادَ الْفَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ، فَصَادَفْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْضَ أَتْبَانٍ أَمْسَكَتْ أَرْمَاقَهَا ، وَأَحْسَنْتْ إِرْفَادَهَا وَإِرْفَاقَهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ رَاغِبِينَ فِي جِبَالِ كَأْنَهَا تِلْكَ الْأَوَّلِ ، وَهَاطِطِينَ فِي أَوْدِيَةٍ يَتَمَنَّى سَالِكُهَا مِنْ شِدَّةِ مَضَاقِهَا أَنْ لَوْ عَادَ إِلَى تَرَقُّيْ أَعْلَى جَبَلٍ ، وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانَ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقَرْطَايَ يَدُلُّ عَلَى شَرْفِ هِمَّةِ بَآئِنِهِ ، وَطَلَبِ ثَوَابِ اللَّهِ فِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْنِيَةِ سَعَةً وَارْتِفَاعًا ، وَأَحْسَنِهَا شَكْلًا وَأَوْضَاعًا ، كُلُّهُ مَبْنِيٌّ بِالْحَجَرِ الْمَنْحُوتِ الْمَصْقُولِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَانَتْ رِخَامٌ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَرْكَانِهِ نُقُوشٌ لَا يَتِمَكَّنُ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلَهَا بِالْأَقْلَامِ ، وَلَهُ خَارِجٌ بِأَيْهِ مِثْلُ الرِّضِ بَيَّائِنٍ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَانِيتٌ . وَأَبْوَابُ الْخَلَانِ حَدِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ . وَدَاخِلُهُ أَوْابِينُ صَفِيْقِيَّةٍ ، وَأَمْكِنَةٌ

شَتَوِيَّةً ، وإصْطَبَلَاتٍ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَيْفٍ ،
وَمَا مِنْهَا إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وَفِيهِ الْحَمَامُ وَالْبَيْيَارِيسَتَانُ
وَالْأَدْوِيَّةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدَرِهِ ، حُمِلَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
مِنْ ضِيَافَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتُبٌ وَمُبَاشِرُونَ
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضِ النَّبَارُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَوْهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكْرِيمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يِبَالِغُونَ فِي تَجْمِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقَرُّبُ مِنْ قِيَصْرِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
صَلْعُومَةِ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَنْوُبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَيْرُ بَيَانٍ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وَهَذَا الْجَبَلُ يَعْلُوهُ جَبَلُ أَرْجَاسٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَضْرِبُ الرُّومَ الْأُمْتَالَ بِتَسَامِيهِ ،
وَتَنْتَضِعُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ ثُلُوجِهِ شِتَاءٌ وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأُبْحَرَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَاؤُهُ
مِنْ صُجْبِهِ .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مُتَصِفٍ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ مُتَرَتِّبَةً ، وَمَلَأَتِ الْقَضَاءُ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوِيَ أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَفْسَحِ مِيدَانٍ ، وَيَصِيحُ بِهِ فَرَحًا
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانٌ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ حَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلْكَاءُ وَتَلْقَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكابرها، وعلمائها وزهادها وتجارها، ورعايها ونسائها وصغارها، فأكرم مولانا السلطان ممّشاهم، وشكر مساعدهم، وتلقى قضاتهم وعلماءهم رُجباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً، وحصلت لجساعة من الفقراء والناس حالاتٌ وجدٍ مطربة، وصدحاتٌ ذكريّ معجبة. وكان دهليز السلطان غياث الدين صاحب الروم وخيامه وشعار سلطنة الروم قد بنى جميع ذلك في وطأة قريب الجوسق والبستان المعروف بكبخسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير:

رَجَا الرُّومُ مِنْ تَرْجَى النِّوَا فُلْ كُلُّهَا * لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطَّوَائِلُ!

ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المعدة لكرم الوفاة، وضربت نوبة سلجوق على باب دهليزه على العادة، وأذن مولانا السلطان للناس في التقرب إلى شريف فسطاطه، وشملهم بنظره واحتياطه، وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا بغير النواهي، وقيل لهم: أرجعوا وراءكم فالتبسوا، وأذهبوا إلى وادٍ غير هذا الوادى فالتبسوا، فهذه الهناة لا تنفق هنا، وما هذا موضع الغناء بل هذا موضع الغنى، وشرع مولانا السلطان في إنفاق اللهى، وعين لكل جهة شخصاً وقال: أنت لها، وحكم وحكم، وعلم وعلم، وأعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة، وأعطى كلاً بيمينه كتاباً، وأقام الحجّة على من أترّح بالاستعطاف، وتأمين من خاف، فما خرج كبيرهم عن المختاله، ولا زعيمهم عن المطاولة، فلما علم مولانا السلطان أنهم لا يفلحون، ولغير التتار لا يصلحون، وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يمسون وإن أمسوا لا يصيحون، عاد عن تلك الوعود، وأختار أن مابدأ إليه يعود، وأن يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود، فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذِي الْقَعْدَةِ مُسْتَقْبَلًا مِنْ اللَّهِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَنَصَبَ جِثْرَ بَنِي سَلْجُوقَ عَلَى رَأْسِهِ فَشَاهَدَ
النَّاسَ مِنْهُ صَاحِبَ الْقَبَّةِ وَالسَّبْعِ وَصَاحِبَ الْقُبَّةِ وَالطَّيْرِ؛ وَدَخَلَ قَيْصَرِيَّةَ فِي بُكْرَةِ
هَذَا الْيَوْمِ وَكَانَتْ دَارُ السَّلْطَانَةِ قَدْ فُرِشَتْ لِنُزُولِهِ، وَتَحْتُ بَنِي سَلْجُوقَ وَقَدْ هَيَّ
لِحُلُولِهِ؛ وَهِيَ دَارُ تَرْهَوَ، وَمَنَازِلُ مَنْ يَتَعَبَّدُ أَوْ مَنَازِلُهُ مِنْ يَلْهَوُ؛ أُنَيْقَةُ الْمُبْتَنَى، تَحْفُ
بِهَا بَسَاتِينُ عَذْبَةِ الْخَنَى؛ جُذْرَانِهَا بِأَحْسَنِ أَصْنَافِ الْقَاشَانِيِّ مُصَفَّحَةً، وَبِأَجْمَلِ
نُقُوشِهِ مُصَرَّحَةً؛ بِفُلْسٍ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ فِي مَرْتَبَةِ الْمُلْكِ فِي أَسْمَدِ وَقْتٍ، وَنَالَ
التَّخْتُ بِحُلُولِهِ أَسْعَدَ الْبَخْتِ :

وَمَا كَانَ هَذَا التَّخْتُ مِنْ حِينَ نَصَبِهِ * لَغَيْرِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ النَّذْبِ يَصْلُحُ .
مَلِكُكَ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ مَا فَتَحَتْ لَهُ * صَوَارِمُهُ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي وَتَفَتْحُ .
أَنْتَهُ وَفُودُ الرُّومِ وَالْكُلُّ قَائِلُ : * رَأَيْنَاكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصَفِّحُ .
فَأَوْسَعَهُمْ حِلْمًا وَجَادَ لَهُمْ نَدَى * وَأَمْسُوا عَلَى مَنْ وَأَمِنْ وَأَصْبَحُوا .
وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْنَحُوا لِمَنْكَبِ * عَنِ الْحَقِّ وَالتَّهَجِّ الْقَوِيمِ لَأَفْلَحُوا ،
وَلَكِنَّهُمْ أَعْطَوْا يَدًا فَوْقَهَا يَدٌ * تُصَافِحُ كَفًّا زَنْدَهَا النَّارُ يَقْدَحُ !!!

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى مَوْلَانَا السَّلْطَانِ يَهْنُؤُونَهُ، وَعَلَى كَفِّهِ الشَّرِيفِ يَقْبَلُونَهُ؛ وَبَعْدَ
ذَلِكَ حَضَرَتِ الْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ وَالصُّوْفِيَّةُ وَذَوُو الْمَرَاتِبِ مِنْ أَصْحَابِ الْعِلْمِ
عَلَى عَادَةِ بَنِي سَلْجُوقَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَوَقَفَ أَمِيرُ الْمُحْفِلِ وَهُوَ كَبِيرُ الْمِقْدَارِ عِنْدَهُمْ، لَهُ
وَسَامَةٌ وَنَخَامَةٌ، وَلَهُ أَكْبَرُكُمْ وَأَوْسَعُ عِمَامَةٍ؛ وَأَخَذَ فِي تَرْتِيبِ الْمُحْفِلِ عَلَى قَدْرِ الْأَقْدَارِ،
وَأَتَنَصَّبَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَانَا السَّلْطَانِ مُنْتَظِرًا مَا إِلَيْهِ بِهِ يُشَارُ؛ وَشَرَعَ الْقُرَّاءُ يَقْرَءُونَ
بِجَمِيعٍ وَفُرَادَى بِأَحْسَنِ تَلْحِينٍ، وَأَجْمَلِ تَحْسِينٍ؛ فَأَتَتْ أَصَوْرُهُمْ بِكُلِّ عَجِيبٍ، وَعَدَلُوا
عَنِ التَّرْتِيلِ إِلَى التَّرْتِيبِ . وَلَمَّا فَرَّغُوا شَرَعَ أَمِيرُ الْمُحْفِلِ صَارِيخًا، وَبُكُورَ فِيهِ نَافِخًا؛

فَأُتْسَدُّ وَأُورَدُ بِالْفَارِسِيَّةِ مَا يُعْجِبُ مَدْلُولُهُ ، وَيَهْوِلُ مَقُولُهُ ، وَأَطَالَ وَمَا أَطَابَ ،
وَأَسْتَصَوَّبُ مَنْ يَعْرِفُ مَقَالَهَ قَوْلَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

ولما أَتَقَضَى ذلكَ مَدَّ سِمَاطٌ لَيْسَ يُنَاسِبُ هِمَمَ الْمُلُوكِ ، فَأَكَلَ النَّاسُ مِنْهُ
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَفَ ، وَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَى
مَكَانِ الْإِسْتِرَاحَةِ فَأَقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مُحِيْمِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ، وَكَانَ بَدَارِ
الْمَلِكِ حَرَمُ السَّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْمَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَائِخُ خُدَّامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ سِنِّهِ - أَنْ يُدْعَى بِالْكَبِيرِ ؛ عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْأَنْكِسَارِ ، وَأَمَارُ الْإِفْتِقَارِ ؛
بَخْبَرِهِمْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَأَتَسَّهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ؛ وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
فِي قَيْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جَمْعٍ تُقَامُ ، وَبِهَا خُطَبَاءُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ؛ فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ
السُّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَحْتِفَالِ مُلُوكِهَا بِبُيُوتِ عِبَادَتِهِمْ ، وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَقْضِي بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ؛ فَخَضَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَارُهَا ، وَجَلَسُوا حِلَقًا
لَا صُفُوفًا ، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجَمِيَّةِ صُنُوفًا ؛ وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَفَظَةِ
الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَتَخَارَجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الدَّرَايَةِ ؛ بَلْ لِمَنْهَا
تُبْرِزُهَا أَصْوَاتٌ مُتَرْتِمَةٌ ، وَالْحَانَ لِتَفْرِيقِ الْكَلِمَاتِ مُقَسَّمَةً ؛ يَنْطَقُونَ بِالْحُرُوفِ
كَيْفَ أَتَفَقَّتْ ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى مَخَارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّهَا نَطَقَتْ أَوْ لَا نَطَقَتْ .

فَلَمَّا آنَ وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسَطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْيَةُ قَعُودٍ عَلَى
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَاِبْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِمَاعَةٍ وَلَا إِبَانَةٍ . وَلَمَّا تَشَهَّدَ
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُجْمَعَةٍ مُتَعَلِّعَةٍ ، وَنَغَائٍ مُتَنَوِّعَةٍ ؛ يُمَسِّكُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ
تَلْحِينٍ ، وَيَتَرْتَمُونَ بِالأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينَ ؛ وَفَرَّغَ الْأَذَانُ وَكُلُّهُمْ قَعُودٌ مَا مِنْهُمْ

أحد غير الصبي وقف ، وما منا أحد لكلمة من الأذان عرف ؛ ولما فرغ الأذان طاع شيخ كبير السن يعرف بأمر محفل المنبر ، فصعد إلى ذروة المنبر ، وشرع في دعاء لا نعرفه ، وأدعاء لا نألفه ؛ كأنه مخاصم ، أو يكمل شرح أحضره لمشادة خصمه محاكم بين يدي حاكم ؛ وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا مولانا السلطان بغير مشاركته ، ودعا الناس بما تلقته من الأقوال الملائكة ؛ وأنقضت الجمعة على هذه الصورة ، المسبورة ؛ وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه الميمون ، وأقرت الأئمة بهذه النعمة وقرت العيون ؛ وشاهدت بقيسارية مدارس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام بانها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدنية ، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة ، وأراضيها بأجمل تلك مفروشة ؛ وأواوينها وصففها مؤزرة بالقاشاني الأجل صورة ، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية العالية ، وفيها المياه الجارية ، ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قيصرية طائف بها من حولها ، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب «نحر الدين خواجا علي» ولا يحسن الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكه خاصة مائتا مملوك ، ودخله في كل يوم - غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم سلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وحركاوته شيئاً لا يكون لأكثر الملوك ، وله بر ومعرفة ، وهو بالخير موصوف :

والمسمون بالوزير كثير * والوزير الذي لنا المأمول !

وعلى هذا وذاك علي * وعلى هذا له التفضيل !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا * وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ !

وَمَعِيَ أَيْتِمَا سَاكَنُ كَأَنِّي * كُلَّ وَجْهِ لَهُ بَوَجْهِ كَفِيلُ !

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانَ الْبَرْوَانَةَ وَزَوْجَتَهُ كُرْجِي خَاتُونُ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْجُودِ
الْبَادِي لِلْعَيْنِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ آسَتُوهُ مُوَلَانَا السَّاطَانُ وَمَمَالِيكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَاحِ بَلْفِيسِ .

ولما أقام مُوَلَانَا السَّاطَانُ بَقِيصَرِيَّةَ هَذِهِ الْمَدَّةِ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمَصَارِعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَاعِدَ مِنَ الْمَصَادِمَةِ كَلَّتْ ؛ وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ يُعْزَى ، وَلَا بِجَزَاءِ السُّوءِ يُجْزَى ؛ وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرِ عَايَا كَالسَّوَائِمِ
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكُفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَاقِلٍ وَهَاقِلَةٍ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَالْبِلَادُ لَا تَحْمِلُهُ ،
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ؛ وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالْدُّوسِ قَدْ أَضْمَحَلَّتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ؛
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكِفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خُبُولُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خُبُولُ
الرُّومِ مِنَ الرَّعْيِ وَالرَّعَايَةِ ؛ وَأَنَّ الْحَسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ التَّتَارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ أَحْبَبَهُمْ عَامُهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلِ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ
كُلَّ مَا أُخْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزِمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوْلِيهِ أَسْمُ النِّعْمَةِ ؛ فَنَزَلَ
بِمَنْزِلَةٍ تَعْرِفُ بَعْتُلُوا فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَرَدَ إِلَى السَّاطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ
سَاطَانَ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبَرْوَانَةِ وَالْكُبَرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى ظَهِيرُ الدِّينِ التَّرْجُمَانُ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبَرْوَانَةِ ، يَسْتَوْقِفُ مُوَلَانَا السَّاطَانَ عَنْ الْحَرَكَةِ وَمَا عَلِمُوا
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرَكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيَوَاسَ . فَعَدَّدَ مُوَلَانَا
السَّاطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بَعْدِهِ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَقْصَى

مُلكه مع بُعْدِهِ ؛ وأنهم ما وَقَفُوا عند الشُّروطِ الْمُقَرَّرَةِ ، ولا وَفَّوا بِمَضْمُونِ الرِّسَالِ
 الْمُسَيَّرَةِ ، وأنهم لما جاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةً إِلَى مَيْسَرِهِ ؛ وَأَنْ أَعْتَنَهُم
 لِلْكَفْرِ مُسَلِّمَةً ، وَأَنَّهُمْ مِنْذُ اسْتِيلَاءِ التَّتَارِ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشَاقِمَةِ ؛ وَعَلِمَ مُولانا السُّلْطَانُ
 أَنَّ بِلَادَ الرُّومِ ما بها عَسْكَرٌ يَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ ، ولا مَنْ يُقَابِلُ الْمُغْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا
 مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ التَّيْدَادِ ، لا أَهْلُ نَفَادٍ ؛ وَأَهْلُ طَرْبٍ ،
 لا أَهْلُ حَرْبٍ [وَعَلَبٍ] ؛ وَأَهْلُ طَيْبَةِ عَيْشٍ ، لا قُوَّادَ جَيْشٍ ؛ فَردَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ
 الْبَرْوَانَةِ مَدَّ يَدَهُ ، وقال : قُلْ لَهُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهَا ، وَأَخَذْتُ أُمَّةَ
 أُسِيرَةٍ وَأَبْنَ بَنْتِهِ وَوَلَدَهُ ؛ وَيَكْفِينَا مَا جَرَى مِنَ النِّصْرِ الْوَجِيزِ ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ وَمَا كُلُّ مَنْ قَضَى فَرِيضَةَ الْحَجِّ تَجِبُ عَلَيْهِ الْمُحَاوَرَةُ ، ولا بَعْدَ
 هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ ، ولا بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ مُحَاوَرَهُ ، وَنَحْنُ فَقَدْ ابْتَغَيْنَا فِيمَا آتَانَا اللَّهُ :
 مِنْ حَقْنِ دِمَاءِ أَهْلِ الرُّومِ وَعَدَمِ نَهْبِ أَمْوَالِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَتَنَزُّهِنَا عَنْ أَمْوَالِ كُنْتُمْ
 لِلتَّتَارِ تَسْتَجِبُونَهَا ، وَمَعَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ مَغَانِمٌ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا ؛
 وَمَا كَانَ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَنَتِكُمْ لَزِيادَةٍ بَتَحْتِ آلِ سَلْجُوقٍ ، إِلَّا لِعِلْمِكُمْ أَنَّهُ
 لَا عَائِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يَعُوقُ ؛ وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ ،
 وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كُلِّ مَسَافَةٍ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوَهُ ؛ وَسُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ
 التَّخْتِ جَلَالًا ، وَأَرْفَعُ مَنَالًا ؛ وَكَمْ فِي مَمَالِكِنَا كَرَّاسِيٌّ مُلْكٍ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ ،
 وَكَمْ لَنَا فَتْحٌ كُلُّهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنَافَةِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ .

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ !

وَأَسْتَضْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ
 سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اشْتِغَالٌ بِعِلْمٍ ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دار يعني أمير المظالم . وأستصحب ظهير الدين موح (؟) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيراً من العلوم بخطه، مثل الصّحاح في مجلّد واحد، وغير ذلك . وأستصحب الأمير نظام الدين أوحّد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمّه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

وأستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (؟) والأمير سيف الدين بكجكا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير على صاحب كركر .

وأستصحب قاضي القضاة بمطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدتهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولد البرواناه المذكور، وولد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصر الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المغل : مقدمي الألوף والمآت - زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده

وتماديه (؟) .

ثُمَّ رَحَلَ السُّلْطَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَنَزَلَ بِمَنْزِلَةٍ قَرِيبِ خَانِ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ كَيْقْبَازَ، وَيَعْرِفُ بِكِرَوَانِي صَرَائِي . وَهَذَا الْخَانُ بَنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نِسْبَةِ خَانِ قِرْطَايَ، وَلَهُ أَوْقَافٌ عَظِيمَةٌ . وَمِنْ جُمْلَةِ مَا وَجِدَ قُرْبِيًّا مِنْهُ أَذْوَادٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَغْنَامِ عَمِلَتْ فِيهَا الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ، سَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ : إِنَّهَا وَقُفَّ عَلَى هَذَا الْخَانِ يُذْبَحُ نَتَاجُهَا لِلْوَارِدِينَ عَلَى هَذَا الْخَانِ، وَهَذِهِ الْأَغْنَامُ لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوُقُوفِ، قَدَّرَ اللَّهُ اسْتِيفَادَهَا جُمْلَةً لَمَّا كَثُرَتْ عَلَى هَذَا الْخَانِ مِنَ الْجُيُوشِ الْمَنْصُورَةِ الضُّيُوفِ .

وَرَحَلْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَهُوَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ ثَانِي عَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَنَزَلْنَا فِي وَطَاءٍ عَادَةُ التَّتَارِ يَنْزِلُونَ بِهَا تَسْمَى رُورَانِ كُودَلُوا، وَكُودَلُوا أَسْمُ جِبَالِ تِلْكَ الْوُطَاءِ .

وَرَحَلْنَا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَالِثَ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَعَارَضْنَا بِهَا - فِي وَطَاءٍ خَلْفَ حِصْنٍ سَمْنَدُو مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي كُنَّا تَوَجَّهْنَا مِنْهَا - نَهْرٌ يَعْرِفُ بِنَهْرِ قَزَلِ صُو، قَرِيبَ كُودَلُوا الصَّغِيرِ . وَمَعْنَى قَزَلِ صُو النَّهْرِ الْأَحْمَرِ، وَهَذَا النَّهْرُ صَعَبُ الْمَخَاضِ، وَاسِعُ الْأَعْتِرَاضِ، عَالِي الْمَهَبَطِ، زَلَقُ الْمَسْقَطِ، مُرْتَفِعُ الْمُتَرَقِّ، بَعِيدُ الْمُسْتَقَى، لَا يَجِدُ السَّالِكُ مِنْ أَوْحَالِ حَافَتِهِ إِلَّا صَعِيدًا زَلَقًا، فَوْقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ بِنَفْسِهِ، وَجَرَدَ سَيْفُهُ بِيَدِهِ، وَبَاشَرَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ هُوَ وَجَمِيعُ خَوَاصِّهِ، حَتَّى تَهَيَّأَ الْمَكَانُ جَمِيعُهُ، وَوَقَفَ رَاجِلًا يُعَبِّرُ النَّاسَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا : مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَغُلَامٍ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَكْرُهُ عَلَى مَنْ يَزِدُّهُمْ، وَيُكْرِّرُ التَّأْدِيبَ لِمَنْ يَطْلُبُ بِأَذِيَّةٍ رَفِيقَهُ وَيَقْتَحِمُ، وَمَا زَالَ مِنْ رَابِعَةِ هَذَا النَّهَارِ إِلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ حَتَّى عَبَرَتِ النَّاسُ سَالِمِينَ . وَلَمَّا خَفَّتِ الْبُرُورُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُرُورُ، رَكِبَ فَرَسَهُ وَعَبَرَ الْمَاءَ وَالْأُتْسُنَةَ لَهُ دَاعِيَهُ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَاقِيَةٌ بَاقِيَهُ، فَتَزَلَّ فِي وَادٍ هُنَاكَ بِهِ مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ، وَمَرَأَى وَلَا كَشَعْبِ بَوَّانٍ .

ثم رحل في يوم الجمعة فنزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قرية من هدر رجال (٩) قبالة بازار بلو، وهذا بازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلو الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوفا طول النهار، حتى نزلنا في وطاة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أُم التتار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكيف بأسهم من النشور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن آلتى أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم؛ فرآهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفا وجأؤوه كما خلقوا أول مره؛ وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هدأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفه.

قد سؤدت شجر الحبال شعورهم * فكان فيه مسفة الغربان!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنّت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه؛ وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: «فأسأل العادين»؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: «قل الله أعلم بعديتهم ما يعلمهم إلا قليل» وقال بعضهم من عددهم ومن عنده علم من الكتاب: «أنا عددت ستة آلاف وسبعائة وسبعين نفرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوفاسريعا.

الحِسَاب ؛ هذا : غير من آوَى إلى جَبَلٍ يَعِصِمُهُ من مَاءِ السَّيْفِ فَمَا عَصَمَهُ ،
وغير من آعْتَقَد أن فَرَسَهُ تُسَلِّمُهُ فَأَسْلَمَهُ ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والقَلَوَاتُ
مَزْرَعَةً لِحُسُومِهِمْ ، والدُّود - لَأَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ وَهُمْ كُفَّار - قد أثرت كالنواسر في لُحُومِهِمْ ؛
فرسم مولانا السلطانُ بتقدّم الأثقالِ والحُرَّاسِ والدَّهْلِيزِ المنصورِ صُحْبَةَ الأميرِ
بَدْرُ الدِّينِ الخَزَنَدَارِ ، والدُّخُولِ في أبقه دربند ، وأقام مولانا السلطانُ في سَاقَةِ العَسْكَرِ
المنصورِ بَقِيَّةَ يَوْمِ السَّبْتِ ويومَ الأحد :

فهو يَوْمَ الطَّرَادِ أَوَّلُ سَابِقٍ * وهو يَوْمَ القُفُولِ آخِرُ سَائِقٍ !

وَأَنْتَظِرُ في هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ صَيْدًا من العَدُوِّعَيْنِ ، وما من دِمَاءِهِمْ إلى السَّيْفِ يَحِجُّ ؛
فلَمَّا لم يَجِدْ أَحَدًا رَحَلَ في يَوْمِ الاثْنَيْنِ فَنَزَلَ قَرِيبًا من الْخَانِ الذِي في الدَّرْبِنَدِ ، وَرَكِبَ
يَوْمِ الاثْنَيْنِ من طَرِيقٍ غيرِ التِي حَضَرَ مِنْهَا ، فَسَلَكَ طَرِيقًا من الْأَوْعَارِ يَسَاءُ ، وَسَلَكَ
من قُلَلِ الْجِبَالِ في هِضَابٍ كَأَنَّ كَلًّا مِنْهَا أَلْفَ حِمْلَتٍ من الْأَنْجُمِ قَبَسًا ؛ فَقَامَسَى الْعَالَمَ
في هَذَا الْيَوْمِ من الشَّدَةِ مَا لَا يَدْخُلُ في قِيَاسِ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ لَوْلَا أن الله عَزَّ وَجَلَّ
تَدَارَكَ النَّاسَ ؛ فَتَسَابَقُوا وَلَكِنْ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وَتَسَالَلُوا وَلَكِنْ سَلَّ حَوَافِرِ
الْخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وَهَبَطُوا من جِبَالٍ يَسْتَصْعِبُهَا كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى طَارِقُ الطَّيْفِ ؛
يَسْتَصْعَبُ الْجَرُّ الْمُحَلَّقُ من شَاهِقٍ وَقُوعَهُ في عِقَابِهَا ، وَيَسْتَهْوِلُ النَّجْمُ النَّاقِبُ تَرْفَعُ
شِعَابُهَا ؛ بِالْقُرْبِ مِنْهَا جَبَلٌ شَاهِقٌ يُعْرِفُ بِسَقَرٍ وَمَا أُدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ، لَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ
من الدَّوَابِّ وَلَا يَذَرُ ؛ لَهُ عَقَبَةٌ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ؛ أَعَانَ اللهُ عَلَى الْمَهْبُوطِ مِنْهَا ، وَفَارَزَ بِمَشِيئَةِ
اللهِ وبِسَعَادَةِ مولانا السلطانِ من زُخْرَحَ عَنْهَا ؛ وَعَدَيْنَا كَوَكُصُوا وَهُوَ النَّهْرُ الْأُزْرَقُ ،
وَبَاتَ مولانا السلطانُ هُنَاكَ ، وَكَانَ قَضِيمُ الْبَغَالِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَرَقَّ الْبَلُوطُ ، إِلَّا مِنْ
أَمَسَتْ عَنَايَةِ اللهِ أَنْ تَيْسَرَ في شَعِيرٍ بِخَمْسَةِ عَشَرَ دِرْهَمًا كُلُّ مَدٍّ يُحُوطُ .

ورحل مولانا السلطانُ في يوم الأربعاء تاسعَ عشرين من ذى القعدة فَنَزَلَ قَرِيبَ كَسُولِ (؟) المَقْدَمِ ذِكْرُهَا ، وَعَدَلَ إِلَى طَرِيقِ مَرَعَشَ فَرَالَ بِحَمْدِ اللَّهِ الدَّاعِي ، وَقَالُوا لِلشَّعِيرِ : مَا فِينَا لَكَ مُحَاطِبٌ وَلَا مِنَّا فَيْدُكَ بِمَالِهِ مُحَاطِرٌ ، وَلِلخِيُولِ قَدْ حَصَلَ لَكَ فِي مِصْرِ الرَّبِيعِ الْأَوَّلِ فِي شَعْبَانَ وَفِي الشَّامِ فِي ذِي الْحِجَّةِ الرَّبِيعِ الْآخِرِ ، فَأَرْتَعْتَ لَا يَرُوعُهَا أَصْحَابُ الْمَوَازِينِ فِي تِلْكَ الْمَسَاجِدِ ، وَأَسْتَمَرَّتْ فِي مُرُوجٍ يَتَأَسَفُ عَلَيْهَا ابْنُ الْمَسَاجِدِ (؟) ؛ وَقَسَمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ تِلْكَ الْأَعْشَابَ كَمَا تَقَسَّصَتْ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ الثُّجُومَ ، وَأَوْقَفَ كُلَّ أَحَدٍ فِي مَقَامٍ حَتَّى قَالَ : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » ؛ فَكَمْ هُنَاكَ مِنْ مُرُوجٍ أَعْشَبَتْ فَأَعْجَبَتْ ، وَأَنْجَابَتْ السَّمَاءُ عَنْهَا فَأَنْجَبَتْ ، وَأُرْبَتْ عَلَى زُهْرِ الثُّجُومِ فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ :

يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَاجَهَتْنَا * فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذِنُ لِلنَّسِيمِ !

يَتَخَلَّلُهَا هُنَاكَ أَرْعُ الْحِيَاضِ ، وَيَأْهُو بِهَا كُلُّ شَيْءٍ فَكَمْ قَصَفَ الْعَاصِي بِهَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ .

هَذَا كُلُّهُ : وَخَيْرٌ مِنْ أَرْزَنْجَانٍ ، حَارَّةٌ بَرْجَوَانٍ ؛ وَخَيْرٌ مِنْ أَرَاخِي تَوْرِيْزٍ ، قِطْعَةٌ مِنْ أَيْلِيزٍ ؛ وَكَوْمٌ مِنْ كِيَانِ سَفْطِ مَيْدُومٍ ، خَيْرٌ مِنْ قَصْرِ فِي قَيْصَرِيَّةِ الرُّومِ ؛ وَنَظْرَةٌ إِلَى الْمِقْيَاسِ ، خَيْرٌ مِنْ سِيَوَاسٍ ؛ وَمَنَاطِرُ اللُّوقِ ، خَيْرٌ مِنْ كَيْقَبَازِ آلِ سَلْجُوقٍ ؛ وَتَرْبَةٌ مِنْ تُرْبِ الْقَرَّافَةِ ، خَيْرٌ مِنْ مُرُوجِ الْعَرَّافَةِ ؛ وَشَبْرٌ مِنْ شَبْرٍ ، خَيْرٌ مِنْ سَطَا وَمِرَا (؟) وَجُلُوسٌ فِي بَابِ دَارِكَ خَيْرٌ * مِنْ جُلُوسٍ فِي [بَابِ] إِيوَانِ كِسْرَى ،

وَأَنْتَاحِي لِنُورِ وَجْهِكَ خَيْرٌ * لِي مَنْ أَنْتَى أَشَاهِدُ بَدْرًا !

يَاوَلِيَّ يُولِي الْأَيَادِي سِرًّا * وَوَزِيرًا فَلَيْسَ يَكْسِبُ وَزْرًا :

مَا رَأَيْنَا وَاللَّهِ فَيَحْنُ رَأْيَا * لَكَ مِثْلًا مِنَ الْبَرِّيَّةِ طَرَا .

كَمْ خَبَرْنَا الرَّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ * فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا * فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَالِيكَ حَسْرَى.
لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا * نَ إِلَهٍ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَسْرَى!
مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كَمِصْرٍ وَلَا مِثْلَكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصيّد)

وهذه نسخة رسالة في صيّد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البازباري، وهي :

الحمد لله الذي نَعَمَ النفوسَ الشريفةَ بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمدٍها
الذي أثار كوكب نصره وسفره، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمة
في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حَقَّتْ أيامه بالعزّ
والتأييد والظفر.

نحمده على أن أقرّ العيونَ بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادةً ألانت قلب من نفر، وكرمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعزّ فريقٍ ونفر،
ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أعزّ من آمن وأذلّ من كفر، صلى الله عليه
وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليماً.

وبعد، فإنّ في ابتغاء النصر ملاًذا تُدرِكها كلُّ ذاتٍ شرفت، وتملِكها السجايَا
التي تعارفت بالفخار وأنشفت، وتناهى النفوسُ التي مالت إلى العزّ وإلى تلقائه

صُرِفَتْ ؛ وَمَنْشُؤُهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عِزٍّ عِنْدَ مَا تَلْمَعُ بِرُوقِ الصَّفَاحِ ،
وَتَشْيِبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُؤُوسَ الرِّمَاحِ ، وَتَشْرِحُ جَوَارِحَ النَّبَالِ لِتَحِلَّ فِي الْجَوَارِحِ
وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ سَلَمٍ عِنْدَ مَا تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ
الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشْرِحُ الصُّدُورُ إِلَى مَعَاوَاةِ الصُّيُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ؛
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ فَتَصِيدُ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدُ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَاجِي الْمُمْسَكَةُ ،
وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكَةً ؛ وَتَقَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمُ السُّلْطَانِيَّةُ
وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوَّحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَتَبَعُثُ مَوَاقِبُهَا .

وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَمَعَ لِلْمَوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَالِكِيَّةِ ،
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةَ الْحَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسِلَاحًا ، وَآتَاهَا فِيهِمَا النَّصْرَ الْأَرْفَعَ
وَالْعِزَّ الْأَشْمَى ؛ وَوَسَمَ بِصِدْقَاتِهِ وَعِزِّ مَاتِهِ الْأُمَرَاءَ وَنَسَمَا ، وَنَصَرَهُ نَعْتًا وَعَظَّمَهُ
سُبْحَةً وَشَرَّفَهُ أَسْمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَانْتِصَارٌ ، وَأَسْتِيْلَاءٌ وَأَسْتِظْهَارٌ ، وَقُوَّةٌ
تَحِيَّا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَفْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَبَةٌ ، وَصَدَقَاتُ مُنْجِيَةٍ
مُنْجِيَةٍ ، وَرَفْعُ ظُلَامَاتٍ مُتَشَعِّبَةٍ ؛ وَقَسْعُ نَفُوسٍ مُتَوَشِّبَةٍ ؛ وَحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَّةٍ ،
وَحِفْظُ الْحُوزَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ وَوَقَايَتُهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ
تُصَرَّفُ عِزَاتُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آتِبَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمَرِّينِ
النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّةِ بِكُلِّ ظَفِيرٍ جَدِيدٍ ؛ فَيَرَسُمُ - خَلَدَ
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرَسُمُ بِهِ مِنْ مَشْتَى كُلِّ عَامٍ بِإِخْرَاجِ الدَّهْلِيْزِ الْمَنْصُورِ
فِيَنْصَبُ فِي بَرٍّ الْحِزَةِ بِسَفْحِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةِ آخِذَةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ؛
فَتَمْدُّ بِالتَّائِيْدِ أَطْنَابَهُ ، وَتَرْفَعُ عَلَى عُمْدِ النَّصْرِ قِبَابَهُ ، وَيُحَاطُ بِجِرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ
رِحَابُهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقًا ، وَتُخَفُّ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛
وَيَسْتَقِلُّ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة ، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى
من المسافة ، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه ، وممالكه الأمراء قد حفوا به
أطلاباً ، وسنى موكله قد بعث أمامه من الإضاءة نجاباً ، ولم يزل حتى يأتي النسل
المبارك ويستوى على الكرسي في الفلك المشحون ، محوطاً بالنصر الميمون والجيش
المأمون ، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون ، وأضحى لظهر الفلك من الفخار
[بحضرته] المكرمه ، مالمهوات أجياده العناق المسومة ، فلهذا نشر أعلام بشرها ،
وقال : ﴿ أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مُجْرَّاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ ، فسارت به في اليم ، ونصر الله
قد تم ، وصعد من فلكه ، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزّة ملكه ،
وأستقر على جواد شرفت صهوته ، وقُرنت بالآناة والسكون خطوته ، عربى النجار ،
يختال في سيره كأنما أنتشى من العقار :

ويختال بك الطرف * كأنَّ الطرفَ نَسْوانُ.

ترى الطرفَ درى أولى * يس يدري أنك سلطان !

وسار في زروج محضره ، وتغور نبات مقتره ، وقد طلعت للظفر شمسوه وبدوره ،
وأعدت للصيد بزائه وصقوره ، من كل متوقد اللّحظ من الشّهامه ، محمول على
الراحات من فرط الكرامه ، يتوسم فيه النجاح ، قبل خفق الجناح ، ويخرج من
جو السماء ولا حرج ولا جناح ، وبازها الأشهب ، ينجى بالظفر ويذهب بصائر
مفضض وناظر مذهب ، له منسر أفتى ، طالما أغنى ، كأنما هو شبا السنان وقد
جباه الحكمة طعنا :

وصارم في يدك منصلي * إن كان للسيف في الوعى رُوحُ ،

متقد اللّحظ من شهامته * فالحو من ناظره مجروح !

قد رآش التُّجَحَّ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللَّهُ بِالْيَمِينِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرِّهِ حَيْثُ
جَعَلَ مِنْسَرَهُ رُحْمَهُ وَمَحَلَّهُ صَفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِيهِ النَّصْرُ
ظَاهِرٌ الْمَعْلَمُ ؛ كَأَنَّما أُلْهِمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» ،
فَيَسْرَحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِبْغَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فِيهَا بِهِ
الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِعُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
عَلَى الطَّيْرِ حَلَقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبًّا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُّ بِهَا ، فَيَدْعُرُونَهَا بِحَفَقِ
الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السَّاطِطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لِنَافِرِهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَلِطَائِرِهَا
بِالْجَارِحِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَتُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَيْتِهِ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ وَقَهَرَ بِعَظَمَتِهِ
بِعَظَمَتِهِ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَتَشَبَّ فِيهِ مَخَالِبُهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلُهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
وَمَذَاهِبِهِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةَ يَوْمِهِ مُتَوَغَّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ
صُيُودِهِ ، وَأَوْقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرِيهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ
وَيَجْنُونَهُ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارَ اللَّيْلَ بِظُلُمَائِهِ ، وَيَلْبَسَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
ذَلِكَ الرَّكَابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْخَيْمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارُ وَاهِبِهِ ؛
وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورُهُ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورُهُ ؛ وَالنُّفُوسُ مُتَمَتِّعَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ
مُضْمُوعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَّاءَتِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ
أَمَامَهُ فَانُوسَانِ تَوْعْمَانِ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانِ ، أَوْ فَرْقَدَانِ رَفَعَتْهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو
إِلَى خَيْمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَثِيلِ ، وَتَرَجُلِ الْإِنْصَارِ
قَبْلَ قُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدَرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشُّمُوعِ لَتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى تَحْتَ الْمُلْكِ
لَتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالْدَهْلِيزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشُّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،
وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَبِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عُرِضَتْ

عليه النعم فأعطاها ، والمهمات الإسلامية فقضاها ، وقدمت له الحياض المسومة
فامتطأها ، ويسرّح إلى الصيد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ،
وبسعادته إلى ظفريها قد أرشدت ، فإذا سار ركابه الشريف فرقت على أثره عساكر
الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ،
فعند ذلك يثنى عنان السير ، إلى آفاص الوحش فيعدّ لإمساكها كل هيكل قيد
الأوباد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاهد .

فمن أشهب : كريم المغار ، ذى إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ،
أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النصر وإغارة على العدا ، علا قدراً
وغلا قيمة ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ، إذا استنّ في مضمار يسبق البروق
الخاطفه ، ويخلف الريح حسرى وهى واقفه ، يحده القارس بحراً ، وله عند مجرى
العوالى مع السوايق مجرى .

ومن أحمر : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ،
كرمت غمره وجوله ، وحسنت أعرافه وذيله ، مكرّم فرج جلود صخر خطته من
على سيوله ، حتى لونه ثمجّ الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصب كالسيل ، كريم الناصية ، جواب قاصية ،
كأن غمرته صبح تنفس في الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب
يضيء المسالك ، وكأن جوله بروق تفرقت في جوانب النسيق فحسن منظرًا لذلك ،
سنايكه يورى قدحها ، وغمرته يبر صبحها ، وجوارحه مسود جنتها ، وصنوته
كمن فيها العز فلا يزال ظاهراً مجتهداً .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ اللَّحْظَ تَحَوِّشِيَّاتِهَا * وَأَلَوْنِهَا فَالْحُسْنَ عَنْكَ مُغِيبٌ^(١) !

وإِنَّمَا هِيَ بَصِيرُهَا عَلَى الظَّأِ ، وَشِدَّةُ عَدُوِّهَا فِي النُّورِ وَالظُّلُمَا ؛ وَسَبْقُهَا إِلَى غَايَاتِ رَهَانِهَا ، وَثَبَاتِهَا تَحْتَ رَايَاتِ فُرْسَانِهَا .

وَتَلِيهَا الْفُهُودُ الْحَسَنُ مَبْظَرُهَا ، الْجَمِيلُ ظَفَرُهَا ، الْكَاسِبُ نَابُهَا وَظَفَرُهَا ؛ تَفَرَّقَ اللَّيْلُ فِي أَهْمِهَا الْمُجْتَمِعَةِ ، وَأَذْرَكَتِ الْعَوَاصِمَ فِي هِضَابِهَا الْمُرْتَفَعَةِ ؛ وَجُوهُهَا كُوجُوهِ اللَّيْثِ الْخَادِرِ ، وَوَثَبَاتُهَا عَلَى الطَّرِيْدَةِ وَثَبَاتُ الْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى الْفِئَةِ الْكَافِرَةِ ؛ مُقْلَصَةُ الْخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا عَلَى الْوَحْشِ حَوَاصِرُ ؛ مَا أُطْلِقَتْ عَلَى صَيْدٍ إِلَّا قَنَصَتْهُ سَرِيْعًا ، وَلَا بَصُرَتْ بَعَانَةٍ مِنْ حُمُرٍ إِلَّا أَخَذَتْهَا جَمِيعًا .

ثُمَّ الْحَوَامِي الْمُعَلَّمَةُ ، وَالضُّوَارِي الَّتِي أَصَحَّتْ بِالنَّجْحِ مُتَوَسِّمَةً ؛ مَا مِنْهَا إِلَّا طَاوِي الْخَاصِرَةِ ، وَثَبَاتُهُ طَائِلَةٌ غَيْرَ قَاصِرَةٍ ؛ بُدُوبُ كَالْأَسْنَةِ ، وَسَاعِدَيْنِ مَفْتُولَيْنِ تَسْبِقُ بِهِمَا ذَوَاتِ الْأَعْنَةِ ؛ لَوْ رَأَاهُ عَدِيٌّ بُنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَضَمَّهُ إِلَى مَا لَدَيْهِ ، وَأَكَلَ مَا أَمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضَرَّبُ الْعَسَاكِرُ حَلَقَةً مَا يَلْتَقِي طَرَفَاهَا إِلَّا إِلَى اللَّيْلِ فِي اتِّسَاعِهَا ، تَحْوِي سَائِرَ الْأَوَائِدِ عَلَى آخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا .

فَمِنْ نَعَامٍ : خُضِبَ ظَلِيمُهَا لِمَا أَكَلَ رَيْعًا ، وَأَحْمَرَّتْ أَطْرَافُ رِيْشِهِ فَكَأَنَّهَا سِهَامٌ أَصَابَتْ نَجِيعًا ؛ طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَأَنَّهَا خَطِيَّةٌ ، وَأَشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الْحَامِلَةُ فَكَأَنَّهَا مَطِيَّةٌ ؛ شَارَكَتِ الطَّيْرَ فِي وُجُودِ الْجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا فِي تَكَاثُفِ الْأَشْبَاحِ ؛ وَأَشْبَهَتْ

(١) الَّذِي فِي دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّي :

إِذَا لَمْ تُشَاهَدْ غَيْرَ حَسَنِ شِيَّاتِهَا * وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنَ عَنْكَ مُغِيبٌ .

الْوَحْشَ فِي مَسْكَنِ الْقِفَارِ، وَشِدَّةِ النَّفَارِ؛ قَدْ أَجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَأَنْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الضَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ طِبَاءٍ : مُسَوِّدَةِ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كُحْلِ الْمُقَلِّ وَحُسْنِ سَوَالِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَبْيَضَّتْ بَطُونُهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونُهَا ، وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَحَادَكْتَ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي صَحْرَائِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاها فَالْمِسْكُ مِنْ دِمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحْشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ ، سَاكِنَةِ الْمَضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرِّمْلِ
مَرَايِضُ ، حَدَرًا مِنْ قَانِصٍ قَانِصٌ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ
رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمُرٍ إِهَابِهَا أَقْمَرُ مَنْسُوبَةٍ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَكَى الْجَزَعُ
الَّذِي لَمْ يَثْقُبْ فِي دُجَى اللَّيْلِ عَيُونُهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلْتَقِي حَلَقَةُ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ،
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَسْهُمُ النَّافِذُ ، وَالْفُهُودُ الْآخِذَةُ ؛ فَمَوْجُ الْوَحْشِ دُعْرًا ،
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْحِيَادِ
وَالْفُرْسَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنَبَالٍ وَخُرْصَانٍ ؛ فَيَنْتَدِي تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ،
وَالطَّبَّاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَادِرِهَا ، وَالْحُمُرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبِضُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأُمْسِكِهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوْعِ ؛ وَتُجَزَلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَظَّهُ
مِنَ الْقَبْضِ وَلَذَّةِ الْاِكْتِسَابِ ، رَسَمَ لِأَمْرَائِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُدُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قَصِصَ دَبِيجٍ، وَيَأْتِي كُلُّ بَإِ افْتَنَصَه لِيُظْهَرَ التَّرْجِيحُ؛ فَاذَا اسْتَكْمَلَ أَوْقَاتَ الصَّيْدِ
مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ ثَنَى رِكَابَهُ الشَّرِيفَ إِلَى جِهَةِ الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْقِفَارِ قَدْ شَرَفَتْ
بِمُرُورِ مَوَاكِبِهِ، وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ قَدْ افْتَخَرَتْ بِكَوْنِهَا أَصْبَحَتْ مِنْ مَكَاسِيهِ .

هَذَا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَفْسُ تَرَاهُ لَهَوًا، وَتَبْلُغُ بِهِ كُلَّ مَاتَهَوَى، فَفِي طَيْهِ مِنْ تَمَرِّينَ
الْجُنُودِ عَلَى الْحَرْبِ مَا تُشَدُّ بِهِ الْعَزَمَاتُ وَتَقْوَى؛ فَيُؤَمُّ الرِّكَابَ الشَّرِيفَ عَائِدًا إِلَى
سَرِيرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَالسَّلَامَةُ قَدْ قَضَتْ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حِرَاسَتِهِ،
وَالْأَقْدَارُ قَدْ وَفَّتْ مَا يَنْبَغِي مِنْ كَلَالَتِهِ؛ فَلَمْ يَكُ إِلَّا وَهُوَ صَاعِدٌ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ
وَالسِّنَةِ السَّعَادَةِ تُخَاطِبُهُ، وَسَرِيرُهُ قَدْ أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِمَقْدَمِهِ جَوَانِبُهُ، وَالصَّيْدُ الْمُبَارَكُ
قَدْ سَعِدَتْ مَبَادِيهِ وَجُمِدَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فُلِقَتْ أَهْبَةُ السَّفَرِ، وَيَأْخُذُ فِيمَا بَطْنُ مِنَ الْمَصَالِحِ
الْإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنَشِّدُهُ السِّنَةُ السَّلَامَةُ مَا أُمِلَ عَلَيْهَا الْعِزُّ وَالتَّائِيدُ وَالظُّفَرُ :

مَلِكُ الْبَيْسِطَةِ أَبَ مِنْ سَفَرِهِ * وَالنَّصْرُ وَالتَّائِيدُ فِي أَثَرِهِ،
فَكَأَنَّهُ فِي عِزٍّ مَوْكِبِهِ * بَدْرٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا خَفَرِهِ .
مَا فِي الْبَرِّيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ * أَوْقَى الَّذِي أُوتِيَ مِنْ ظَفَرِهِ !
يَسْرَى إِلَى أَعْدَائِهِ رَهْبٌ * مِمَّا يَبْثُّ النَّاسُ مِنْ خَبَرِهِ .
فَاللَّهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطْرُنَا * يُؤْتِيهِ مَا يُرِي عَلَى وَطَرِهِ ! !

الصنف الثاني

(مِنَ الرِّسَالِ مَا يَرِدُ مِنْهَا مَوْرِدُ الْمَدْحِ وَالتَّقْرِيصِ)

إِمَّا بَأَن يَجْعَلَ الْمَدْحَ مَوْرِدَ الرِّسَالَةِ وَيُصَدِّرَ بِمَدْحِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُرَادِ، وَإِمَّا بَأَن
يُصَدِّرَ بِمَاجَرِيَّةٍ يَحْكِيهَا الْمُتَشَيُّ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهَا إِلَى مَدْحٍ مِنْ يَقْصِدُ مَدْحَهُ وَتَقْرِيصَهُ

وما يَجْرَى مجرى ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك أفانين مختلفة المقاصد ،
وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر"
قصدها تقرير وزير المتوكل وشكر نعمه لديه ، مصدرها لها بذكر حقيقة الشكر
وبيان مقاصده ، وهى :

جُعِلَتْ فِداك ، أيُّدك الله وأكرمك وأعزك ، وأتمَّ نِعْمته عليك وعِندك . ليس
يكون الشكر - أبقاك الله - تاماً ، ومن حدَّ الثَّقْصانِ خارجاً ، حتَّى يَسْتَصِحَبَ أربعَ
خَلال ، ويشتمِلَ على أربع خِصال :

أولها : العلم بموقع النعمة من المنعم عليه ، وبقدْرِ انتفاعه بما يصلُّ إليه من
ذلك : من سدِّ خَلَّة ، أو مَبْلَغ لَذَّةٍ وُطُوٍّ في دَرَجَة ، مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم
للشَّقة ، والذي حاول من المعاناة والكُلْفَةِ في بذلِّ جَاهٍ مَصُونٍ ، أو مُفارقة عِلْقٍ
ثمينٍ . وكيف لا يكون كذلك ؟ وقد خَوَّل من نِعَمِهِ بعض ما كان حَيِّساً على
حوادثِ عِدَّة ، فزاد في نِعَمٍ غيره بما اُنْتَقَصَ من نِعَمٍ نَفْسِهِ وولَدِهِ . فكلُّما تَذَكَّرَ الشاكرُ
ما اَحْتَمَلَ من مَوْثَنَةِ البَذْلِ ، سَهَّلَ عليه اَحْتِمَالُ ما نَهَضَ به من ثَقَلِ الشكر .

والخِصْلَةُ الثانية : الحرِّيَّةُ الباعثةُ على حُبِّ المكافأةِ واستِحسانِ المجازاة . والشكرُ
من أكبر أبواب الأمانة ، وأبعده من أسباب الخيانة . ولن يبلغ أحدٌ في ذلك غاية
المجد إلا بمَعُونَةِ الطمع ، وإلا الحربُ سِجَالٌ بَيْنَهُما ، والظَفَرُ مَقْسُومٌ عليهما . كذلك
حُكْمُ الأشياءِ إذا تَسَاوَتْ في القُوَّة ، وتَقَارَبَتْ في بُلُوغِ المَدَّة . وقد زعم ناس أن الشاكرَ
والمنعمَ لا يَسْتَوِيان ، كما أن البادِيَّ بالظلمِ والمُنْتَصِرَ لا يَعْتَدِلَان ؛ لأنَّ البادِيَّ أخذَ
ما لَيْسَ له ، والمُنْتَصِرَ لم يتجاوز حَقَّهُ الذي هو له ؛ ولأنَّ البادِيَّ لم يكن مُهَيَّجاً على

الظلم بعلّة جناها المستصير، والمستصير مهيج على المكافاة بعلّة جناها البادئ، والمثور للطباع المغضب، والمستخف المهيج أعذر من الساكن الوادي المطمئن .
فلذلك قالوا : إن البادئ أظلم، والمستصير أعذر . وزعموا أن المنعم هو الذى أودع صدر الشاكر المحبة بانعامه عليه، وهيج به ذلك على مكافآته لإحسانه إليه، فقد صار المنعم شريك الشاكر فى إحسانه، وتفرّد بفضل إنعامه دون مشاركة غيره، والمنعم هو الذى دفع للشاكر أداة الشكر، وأعاره آلة الوفاء، فهو من ههنا أحق بالتقديم، وأولى بالتفضيل .

هذا، وقد قال بعض الحكماء والأدباء والعلماء : من تمام كرم المنعم التغافل عن مجته، والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته ؛ لأن الحاجة مغالبه، ولا يتم مودة إلا مع المسامحة . ولذلك قال الربيعى لناس من العرب يحتصمون : هل لكم فى الحق أو خير منه ؟ قالوا : قد عرفنا الحق، فما الذى هو خير منه ؟ قال : التغافل فإن الحق مر . ألا ترى إلى بنت هريم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبى سلمى فى بعض المناحات، أو فى بعض المزاورات : إنه ليُعجبنى ما أرى من حسن شاربتكم، وتقاء نفحتكم . قالت ابنة زهير : أما والله لئن قلت ما قلت، فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم . قالت بنت هريم : لابل لكم الفضل، وعلينا الشكر، أعطيناكم ما يقنى، وأعطيتُمونا ما يبقى . وقيل لعبد الله بن جعفر حين أجزل لنصيب الشاعر فى الهبة، وكثر له فى العطية : أتنبئ هذا العبد الأسود كل هذا النبل، وتجبوه بمنل هذا الجباء ؟ فقال عبد الله بن جعفر : أما والله لئن كان أسود الجلد إنه لأبيض الشعر، أعطيناه دراهم تفى، وثياباً تبلى، ورواحل تنضى، وأعطانا شاء يبقى، وحديثاً يثنى، ومكارم لا تبلى . فلهذه الحصال تكاملت خصال المجد فيهم، فظهر عنوان كرم الخير عليهم، فصاروا فى زمانهم منارا، ولمن بعدهم

أَعْلَامًا . وليس تَمَّ مَعَانِي كَرَمِ الْمُنْعِمِ ، وَمَعَانِي وَفَاءِ الشَّاكِرِ ، حَتَّى تُتَوَافَى أَقْوَالُهُمَا ، وَتَتَّفِقَ أَهْوَاؤُهُمَا عَلَى تَدَافُعِ الْحُجَّةِ ، وَالْإِفْرَارِ بِالْمُعْجِزَةِ ، فَيَزِدَادُ بِذَلِكَ الْمُنْعِمُ فَضْلًا ، وَالشَّاكِرُ نُبْلًا .

هذا جُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي خَصْلَتَيْنِ مِنَ الْأَرْبَعِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا ، وَشَهَرْنَا أَمْرَهَا .

وَالْخَصْلَةُ الثَّلَاثَةُ : الدِّينَانَةُ بِالشُّكْرِ ، وَالْإِخْلَاصُ لِلْمُنْعِمِ فِي تَصْفِيَةِ الْوُدِّ ، فَإِنَّ الدِّينَ قَانِدُ الْمُرُوءَةِ ، كَمَا أَنَّ الْمُرُوءَةَ خِطَامُ الْحَيَّةِ . وَهَذِهِ الْخِصَالُ وَإِنْ تَشَعَّبَتْ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ ، وَافْتَرَقَتْ فِي بَعْضِ الْأُمَاكِينِ ، فَإِنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى نِصَابٍ يَجْمَعُهَا ، وَإِلَى إِنَاءٍ يَحْفَظُهَا ، مِنْهُ نَجَتْ ، وَعَنْهُ أُنْبِثَتْ ، وَإِلَيْهِ رَجَعَتْ . وَلَا جَمَاعَ هَذِهِ الْخِصَالِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْهَوَى ، وَجُبَانَةِ الْهَوَايِ ، وَعَلَى أَتِّهَامِ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ ، وَالْاِمْتِنَاعِ مِنْ كَلَبِ الطَّبِيعَةِ - وَفَقَّ الْأَقْوَالُونَ بَيْنَهَا فِي جُمْلَةِ الْأَسْمِ ، وَقَارَنُوا بَيْنَهَا فِي جَمْعَةِ الْحُكْمِ . وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَعْتَبِرْ عِزَّمَهُ بِجَمِيتِهِ ، وَحَزَمَهُ بِمَتَاعِ بَيْتِهِ .

وَمَدَارُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الْمَحْمُودَةِ عَلَى الصَّبْرِ ، وَلَنْ يَتَكَلَّفَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ مَنْ يَجْهَلُ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ . وَقَالُوا : لِمَا صَارَ قُلُوبُ الشُّكْرِ لَا يُحْتَمَلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ ، صَارَ الشُّكْرُ مِنْ نَتَاجِ الصَّبْرِ . وَكَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْحِلْمِ - مَعَ كَرَمِ الْحِلْمِ - مِنَ الصَّبْرِ ، فَكَذَلِكَ لَا بُدَّ لِلشُّكْرِ - مَعَ كَرَمِ الشُّكْرِ - مِنَ الصَّبْرِ . فَالصَّبْرُ يَجْرَى مَعَ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ ، كَمَا يَجْرَى الْهَوَى مَعَ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّارَ وَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ، وَخَلَقَ الْجَنَّةَ وَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ » .

وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ : وَصَفُ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ بِاللِّسَانِ الْبَيِّنِ ، وَتَحْيِيهِ بِالْبَيَانِ النَّيِّرِ ، وَبِالْلَفْظِ الْعَذْبِ الشَّيْءِ ، وَالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْبَهِيِّ . فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ حَسَنًا ، جَعَلَتْهُ الْحِكْمَاءُ أَدْبًا ، وَوَجَدَتْ الرُّوَاةُ إِلَى تَشْرِهِ سَبَبًا ، حَتَّى يَصِيرَ حَدِيثًا مَأْمُورًا ، وَمَجْدًا

مَذْكُورًا، وِدَاخِلًا فِي أَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِّينَ، وَوَصْلَةً إِلَى الْجَالِسِ،
وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَشَحْدًا لِلْسَّانِ، وَتَرْهِيْفًا لِلْقَلْبِ، وَتَطْيِيفًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصُّدْرِ،
وَسُلْمًا إِلَى الْعُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إِلَى الْحِلَّةِ الْكُبْرَى . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى
بَارِعًا، وَبِالنُّوَادِرِ مُرْتَحًا، وَبِالْمُلُحِّ مَجْلُوبًا، لَمْ تَصُغْ لَهُ الْأَسْمَاعُ، وَلَمْ تَنْشَرْحْ لَهُ الصُّدُورُ،
وَلَمْ تَحْفَظْهُ النُّفُوسُ، وَلَمْ تَنْطِقْ بِهِ الْأَفْوَاهُ، وَلَمْ يُثَلِّدْ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقَيِّدْ بِالدَّرْسِ،
وَلَمْ يَحْدِلْ بِهِ قَائِلٌ، وَلَمْ يَلْتَدِّ بِهِ سَامِعٌ . وَمَتَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَكَلَامِ اللَّغْوِ،
وَمَعَانَى السَّمْوِ، وَكَأَلْهَجْرِ الَّذِي لَا يَفْهَمُ، وَالْمُسْتَفْلِقِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - نَبِيٌّ أَحْوَجَ إِلَى الْحِذْقِ، وَلَا أَفْقَرُ إِلَى الرَّفْقِ، مِنْ الشُّكْرِ
النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِعِ، الَّذِي يَبْقَى بَقَاءَ الْوَشْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ النِّجْمُ . كَمَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ
أَحْوَجُ إِلَى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تَمَامِ
الْعَزْمِ - مِنَ الصَّبْرِ . وَعَلَى أَنْ الشُّكْرُ فِي طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِنْ جَمَعَهَا
أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا تَحِيْشُ بِهِ الصُّدُورُ، وَتَمُجِّهُ الْأَفْوَاهُ،
وَتَجِدُّ بِهِيَ الْأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُقْتَضِبُ، وَالْخَاطِرُ الْمُخْتَارُ، وَالْكَلَامُ
الْمُرْتَجَلُ، فَيُرْمَى بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَتُبْنَى مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ
الشَّاكِرُونَ لانتفاع المنعمين، كَمَا تَعَدَّرُ الْمُنْعَمُونَ لانتفاع الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ
الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مَفُوهًا، أَوْ يَسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ
إِلَّا لِيَعْتَزَّ كَرِيمًا، أَوْ يَخْتَدِعَ غَيًّا لَا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ الْمُسْتَمْعِينَ؟
وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَسْبُ وَالتَّعَرُّضُ وَالْإِنْتِفَاعُ وَالتَّرْتُّبُ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ الْمُسْتَأْكِلِينَ،
وَإِحَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا الباب وإن جعلته العوامُّ شكرًا، فهو بغير الشُّكْرِ أَشْبَهَ، وَبِذَلِكَ أُولَى،
وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأَنُّقٍ وَتَدَكُّيرٍ، وَعَنْ تَخْيِيرٍ وَتَحْيِيرٍ، وَعَنْ تَفَقُّدٍ لِلْحَالَاتِ،

وَتَحْصِيلُ الْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهْجَتِهِ ، وَبَحْضَةُ عَدُوِّ لَا يَزَالُ مُتَرَصِّدًا
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ
قَلْبِهِ ، وَنَقَضَ الْمُتَبَرِّمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَى قَدَرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدَرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرَعِيمٍ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُّ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،
فَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شَعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا
مَنْشُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَتْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْيُسْرَ وَأَتَّحَلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ
عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ النَّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأَتْبَلُ
الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّدْيِيرِ قَوْلُ نُصَيْبٍ :

فَعَا جُوا فَاشُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَزْرِيِّ :

يَابْنَ الْعَلَاءِ وَيَابْنَ الْقِرْمِ مُرْدَاسٍ : * إِنِّي لِأُطْرِكَ فِي أَهْلِي وَجُلَاسِي .
حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ * طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَهَا رَاسِي !
أُنْتِي عَلَيَّ وَلِي حَالٍ تُكْذِّبُنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ !

وَبَيْنَ هَذَيْنِ الشُّكْرَيْنِ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَنَازِلُ مَعْلُومَةٌ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ مِنْ
قَلْبِ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْإِسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدَرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرَفِ ، وَاعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .
وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخَرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ لَمَّا
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْقِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ
أَحَدًا يَحْشَعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بَكُمْ شَرٌّ .

وَقِيلَ لِحُكْمَاءِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْرَزَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَلَوْلَا أَنَّ عَبْدَ الصَّمَدِ أَغْرَزَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَزَرَّ؟ قَالُوا : لِأَن قَلْبَ الْفَضْلِ أَرَقَّ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرَقَّ ،
وَالْقُلُوبُ تَتَجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِلْمُدَّوْحِ إِذَا كَانَ لِلدَّحِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلتَّسْتِجَابَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَظِيَ بِالْقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَحْتَشِمُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَتَزِيدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أُمْدِحُكَ
مِنْ جِهَةٍ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّنَفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ . وَفِي الْخَبَرِ
الْمُسْتَفِيزِ ، وَالْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ : « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَالْهَيَّ . وَقَلِيلٌ بَاقٍ
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَذَكَّرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَنَزَّلَ حَالَاتِهِمْ
فِي الْبِرِّ ، وَمَنْ كَانَتْ الْخَصْلَةُ الْمَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الْحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ، وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَقُوقَ الرَّجُلُ أَثْرَابَهُ فِي الزُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الْفِقْهِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ
الْبُلْدَانِ . وَلَكِنَّ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ ، وَالنَّادِرَ الْغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمَرَيْنِ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَتَّسَقَ لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَيْرُ عَشْرِ حِجَجٍ : يَفْتَحُ الْفُتُوحَ ، وَيُدَوِّخُ الْبِلَادَ ،
وَيُصَرِّصُ الْأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَفْرِضُ الْفُرُوضَ ، وَيُرَتِّبُ الْخُلَاصَةَ ، وَيُدَبِّرُ
الْعَامَةَ ، وَيُنْجِي النَّفْسَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الْأَرْضُ بِأَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُحْرُفِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونُونَ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مُلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيُحِلُّ وَيَعْقِدُ ،
وَيُؤَلِّ وَيُعْزِلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَغَتْ خَيْلُهُ إِفْرِيقِيَّةً ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّنْذِيرِ الصَّحِيحِ وَالضَّبْطِ ، وَالْإِتْقَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْإِشْرَافِ ، وَالْبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالْعَزَمِ

الْمُتَمَكِّن . ثم قال : لَا يَجْمَعُ مَصْلَحَةُ الْأُمَّةِ ، وَلَا يُحَوِّشُهُمْ عَلَى حَظِّهِمْ مِنَ الْأَلْفَةِ
وَأَجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ ، وَإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْحُجَّةِ ، مَعَ ضَبْطِ الْأَطْرَافِ ، وَأَمْنِ الْبَيْضَةِ - إِلَّا لَيْنٌ
فِي غَيْرِ ضَعِيفٍ ، وَشِدَّةٌ فِي غَيْرِ عُنْفٍ . ثم غر بعد ذلك سِنِيَهُ كُلَّهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَطَرِيقَةٍ مُطَرَّدَةٍ ؛ لَا يَتَحَرَّفُ عَنْهَا ، وَلَا يُغَيِّرُهَا ، وَلَا يَسَامُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهَا :
مِنْ خُسُونَةِ الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ ، وَغِلَظِ الْمَرْكَبِ ، وَظَلْفِ النَّفْسِ عَنْ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ،
وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا ، وَكُلِّ مَا يُنَاحِزُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي لِقَاءٍ وَلَا فِي حِجَابٍ ،
وَلَا فِي مُعَامَلَةٍ وَلَا فِي مُجَالَسَةٍ ، وَلَا فِي جَمْعٍ وَلَا فِي مَنَعٍ ، وَلَا قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ :
وَالدُّنْيَا تَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ صَبًّا ، وَتَدْفُقُ عَلَيْهِ تَدْفُقًا ، وَالْحَصْلَةُ مِنْ خِصَالِهِ ، وَالْحَلَّةُ مِنْ
خِلَالِهِ ؛ تَدْعُو إِلَى الرَّغْبَةِ ، وَتَقْتَحُ بَابَ الْأَلْفَةِ ، وَتَقْضِي الْمُبْرَمَ ، وَتُقَيِّدُ الْمُرُوءَةَ
وَتُفْسِحُ الْمُنَّةَ ، وَتَحُلُّ الْعُقْدَةَ ، وَتُورِثُ الْإِعْتِرَارَ بِطُولِ السَّلَامَةِ ، وَالْإِتِّكَالَ عَلَى دَوَامِ
الظَّفَرِ ، وَمُؤَاتَاةِ الْأَيَّامِ ، وَمُتَابَعَةَ الزَّمَانِ . وَكَانَ ثَبَاتُهُ عَشْرَ حِجَجٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
أَعْجُوبَةً ، وَمِنَ الْبَدَائِعِ الْغَرِيبَةِ . وَبَاقِلٌ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ الْعَجَبُ ، وَيُسْتَعْمَلُ الْكِبَرُ ،
وَيَظْهَرُ الْحَقَاءُ ، وَيَقِلُّ التَّوَاضُّعُ .

وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَحِيزُ أَنْ نُلْحِقَ أَحَدًا بِطِبَاعِ عُمَرُ وَمَذْهَبِهِ ، وَفَضْلِ قُوَّتِهِ ،
وَتَمَامِ عَزَمِهِ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ بَدَأًا مِنْ مَعْرِفَةِ فَضْلِ كُلِّ مَنْ اسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ ، وَدَامَتْ
خَلِيقَتُهُ ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ عِنْدَ تَتَابُعِ النِّعَمِ ، وَتَظَاهُرِ الصُّنْعِ ، وَإِنْ كَانَتْ النِّعَمُ مُخْتَلِفَةً
الْأَجْنَاسَ ، وَمُتَفَاوِتَةً فِي الطَّبَقَاتِ . وَكَيْفَ يُلْحَقُ بِهِ أَحَدٌ ؟ مَعَ قَوْلِهِ : ”لَوْ أَنَّ
الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ بَعِيرَانِ مَا بَالَيْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ“ وَلَكِنَّا عَلَى حَالٍ لَا نَدْعُ تَعْظِيمَ كُلِّ مَنْ
بَانَ مِنْ نُظْرَائِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَشْبَاهِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ ، إِذْ كَانَ أَدْوَمُهُمْ طَرِيقَهُ ، وَأَشَدَّهُمْ
مَرِيرَهُ ، وَأَمْضَاهُمْ عَلَى الْجَادَةِ الْوُسْطَى ، وَأَفْدَرَهُمْ عَلَى الْحُجَّةِ الْعُظْمَى .

ولا بد من أن يُعطى كل رئيس قسطه ، وكل زمان حظه ؛ ولا يُعجبنى قول القائل : لم يدع الأول للآخر شيئاً ، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل ، والثمين الخطير ، واللقم النج ، والمنهج الرحب . ولو أن الناس مذحرت هذه الكلمة على أفواه العوام ، وأعجب بها الأعمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم ، وأسستلوا لهذا المذهب ، وأهملوا الروية ، ويتسوا من الفائدة ، لقد كان آرتفع من الدنيا نفع كثير ، وعلم غزير .

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل ، وأولى بالتقديم ، من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية ، والدولة العباسية ، ثم زمان الموكلي على الله ، والناصر لدين الله ، والإمام الذى جل فكره ، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه ، وتلخيصه وتنقيحه ، وإعزازه وتأيينه ، واجتماع كلمته ، ورجوع ألقته . وقد سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر ، والخبر المتظاهر - : مارأيت فى زماننا من كفاة السلطان وولاته ، وأعوانه وحماته ، من كان يؤمل لمحكك ، ويتقدم فى التأهب له ، إلا وقد كان معه من البذخ والنفع ، ومن الصاف والعجب ، ومن الخيلاء ، ومن إفراط التغير للأولياء ، والتمسك على الخلطاء ، ومن سوء اللقاء ، مالا خفاء به على كاتب ولا على عامل ، ولا على خطيب ولا على أديب ؛ ولا على خاصى ولا على عامى .

بجمعت - والحمد لله على النعمة فىك - بين التواضع والتجرب ، وبين الإنصاف وقلة التريث ؛ فلا يستطيع عدو مؤمن ، ولا كاشع مسر ، ولا جاهل غنى ، ولا عالم مبرز ، يزعم أنه رأى فى شمايك وأعطافك - عند تتابع النعم ، وتظاهر المنن - تغيراً فى لقاء ولا فى بشر عند المسألة ، ولا فى إنصاف عند المعاملة ، وأحتمل عند المطاولة . الأمر واحد ، والخلق دائم ، والبشر ظاهر ، والمجج ثاقبه ، والأعمال

زَاجِيهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ، وَالْعُيُونَ نَاطِقَةً بِحَبِّهِ ، وَالصُّدُورُ مَأْهُولَةٌ بِالمَوَدِّهِ ؛
وَالدَّاعِيَ كَثِيرٌ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلٌ ؛ وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُّعِ نُبْلًا ،
وَبِالْإِنصَافِ فَضْلًا ؛ وَبِحَسَنِ اللَّقَاءِ حَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ الْعُجْبِ هَيْبَةً .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هُرُونٍ فِي دُعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ يَتَعَنَّى بِشَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنْ
الْخَيْرَاتِ ، وَابْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ؛ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفِيًّا عَلَى أَمْسِهِ ،
مُقْصِرًا عَنْ فَضِيلَةِ غَدِهِ . وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى 'أَعَشَى' هَمْدَانٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخَضَّرَمِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسَ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ !

قَدْ وَاللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَسْبَغَ ، فَاشْكُرِ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ؛ مَحَمَّدُكَ شَرِيفٌ ، وَأَرْوَمُكَ
كَرِيمٌ ، وَالْعِرْقُ مُنْجِبٌ ، وَالْعَدَدُ دَثْرٌ ، وَالْأَمْرُ جَمِيلٌ ، وَالْوُجُوهُ حَسَنَانٌ ، وَالْعُقُولُ
رِزَانٌ ؛ وَالْعَفَافُ ظَاهِرٌ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبٌ ، وَالنِّعْمَةُ قَدِيمَةٌ ، وَالصَّنِيعَةُ جَسِيمَةٌ ؛
وَمَا مِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِبَةَ الْكَرَامَ تَحْمَلُوا * دَفَعَ الْمَكَارَهَ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِ !

النِّعْمَةُ مَحْفُوظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوِّمَةٌ بِالْأَدَبِ ، وَالْكَفَاءَةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْحَذَقِ ،
وَالْحَذَقُ مَرْدُودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصُّنْعُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَذَا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَغَشَّاءُكَ مِنَ الْحَبَّةِ ، وَطَوَّقَكَ مِنَ الصَّبْرِ .
فَبَقِيَ الْآنَ أَنْ تَنْتَهِيَ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، وَفِي مَقْدَارِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ؛
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ؛ فَإِنَّهُمَا لَا يَثْرَانِ مِنَ النِّشَاطِ ،

وَيَنْتِجَانِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا تُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ
مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلَّهُ ، وَتُجُودُ بِغُزُورِ
قُوَّاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالدٍ لجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وَتَكَافَأَ النُّهْضَ بِأَعْبَاءِ
الْخِلَافَةِ : أَيُّ بَيْتٍ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجَزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمِلُ .
إِنِّي لَسْتُ أَمِنُ أَنْ تَنْفَسَخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَفْسَخَ الْجَمَلُ تَحْتَ الْجَمَلِ الثَّقِيلِ .
قال جعفر : لِكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِلَّ هَذَا الثَّقَلَ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرِ
مُبْهُورٍ ، وَأَجِئُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَانِي ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ
فَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :
شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ أَلَمِ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ نَهَضْتَ بِثِقَلِهَا فِيهِذَا ، وَإِلَّا فَلَا . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ
إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ وَابْتِدَائِهِ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتِيَارِهِ ،
أَنْ يُخْرِجَ عَلَى أَدَبِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيفِهِ وَتَقْوِيمِهِ ، وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ،
وَيُنْجِزَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ،
وَيُعْلِي كَعْبَهُ ، وَيَسِّرَ صَدِيقَهُ ، وَيَكْتِبَ عُدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن
سليمان المعري التنوخي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وهي :

(١) [بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإعانة] .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربية ، والألفاظ العربية ، أي هواء رفاقك ، وأي غيث سقاك ، برقه كالإحريض ، وودقه مثل الإغريض ، حلت الربوة ، وجلت عن الهبوة ، أقول لك ما قال أخو نمير ، لفتاة بنى عمير :

زكا لك صالح وخلاك ذم * وصبحك الأيمان والسعود!

لأننا أسف على قريك من الغراب الحجازي ، على حسن الزى ، لما أفقر ، وركب السفر ، فقدم جبال الروم في تو ، أنزل البرس من الجوى ، فالتفت إلى عطفيه وقد شبط فأسى ، وترك التعيب أو نسي ، وهبط إلى الأرض فمشى في قيد ، وتمثل بيت دريد :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ، * فلما علاه قال للباطل : أبعد!

وأراد الإياب ، في ذلك الجلباب ، فكره الشتمات ، فكبد حتى مات ، ورب ولي أغرق في الإكرام ، فوقع في الإبرام ، إبرام السأم ، لإبرام السلم ، فخرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ، وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رخو وشديد ، وهاد وذو تصعيد ، وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس ، وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدا ، نظير الفعل في أنها لا تخفص أبدا ، فقد جعلني : إن حضرت عرف شاني ، وإن غبت لم يجهل مكاني ، كما في النداء ، والمحدوف من الابتداء ، إذا قلت : زيد أقبل ، والإيل الإيل ، بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألفت فواجب ، وإن ذكرت فغير لازب .

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد التلج الشبيه به .

إِنِّي وَإِنْ غَدَوْتُ [فِي زَمَانٍ] كَثِيرِ الدَّدِ ، كِهَاءِ الْعَدَدِ ؛ لَزِمَتِ الْمَذَكَّرَ ، فَاتَتْ
بِالْمُنْكَرِ ؛ مَعَ إِنْفِ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَالْفِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكُرُنِي بغيرِ الشَّاءِ ، وَيَطْرَحُنِي
عِنْدَ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالٍ كَالْهَمْزَةِ تُبَدِّلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَتَبُّتُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صُورَةً
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ الْحَقِيقَةِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّمَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسَ ؛ لِأَمَدَنَّ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيَّ صَوْتَهُ
فِي هَؤُلَاءِ ؛ وَأَخْفَفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّئِيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَرَ
عَلَيْهِ مِنَ النَّبْرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُلْتَمِسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسْهَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ
ثَوَابٍ ؛ حَسْبِي مَا لَدَيَّ مِنْ أَيْدِيهِ ، وَمَا عَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَيْهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
لَهَا الْقَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللَّهُ يَمِينَ عَدُوَّهِمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعَرُوضَ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجُمِعَ لَهُ
الْمَهَانَةُ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي الْمَدِيدِ ؛ وَقُلِمَ قَلَمُ الْفَسِيطِ ، وَخُبِلَ كَسْبَاعِي
الْبَسِيطِ ؛ وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْبَهَامَةَ شَانِيَهُمَا وَهُوَ مَحْزُوقٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّالِثِ وَهُوَ
مَحْزُوقٌ ؛ بَلْ أَضْمَرْنَاهُ الْأَرْضَ إِضْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمْلُ الْآمِلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحْبَابِهِ وَقَرَّبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمَجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمَنَ مِنْ
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَفْتَنَنْتُ فِي نِعْمَتِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَأَفْتَنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمُّ سِتَّةٍ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةٌ مَفْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلٍ ؛
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضُ الْإِعْظَامِ

في مَمَّتْ ؛ فقد نَصَبَ لِلدَّابِ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ ، وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ
الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتْ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ ؛ هِنْدِ الطَّيْبِ ،
وَهِنْدِ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةَ الْخِمَارِ ، وَأَرْبَابَ قِصَارِ ؛ أَخْدَانِ التَّجَرِّ ، وَخَدِينَةَ الْحَجَرِ .
أَحَامِلَةَ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ مِنَ الْمُرْتَبِعِ مَكْنُوفِ الدَّلِيلِ ؛ أَوْفَتْ الْأَشْيَاءَ ، فَقَالَتْ
لِلْكَذِيبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِّعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالْمَزْمُومِ ؛ كَأَن تَبْجِيعُهَا قَرِيبُضَ ،
وَمُرَاسِلُهَا الْغَرِيبُضَ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْعُودَ ، وَفَقِيدُهَا لَا يَعُودُ ؛ تَدْبُ هَدِيلاً فَاتَ ،
وَأَتَبِجَ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ
عَلَى إِنْفِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ ، لَذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدَ
السَّاجِعِهِ ، عَبْرَةٌ مُتَرَاكِعِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ ؛ وَالرِّشَاءِ ، بَعْدَ
الْعِشَاءِ ؛ فَخَكَّتْ صَوْتَ الْمَاءِ فِي الْخَرِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
فَقَدْتُ حَمِيماً ، وَتَكَلَّتْ وَلَدًا كَرِيماً : وَهِيَهَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتُ ، فَصَدَحْتُ ؛
وَأُمْسَيْتِ ، فَتَنَاسَيْتِ ؛ لَا هَمَّامَ لَا هَمَّامَ ، مَا رَأَيْتُ أُعْجِبَ مِنْ هَاتِفِ الْحَمَامِ ؛ سَلِمَ
فَنَاحَ ، وَصَمَّتْ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدَّ كَرَفِي كُلِّ حِينٍ ، وَلَا يُدْهِلُهُ
مُضَى السَّنِينَ .

وسيدنا الوزير أطلَّ الله بقاءه القائل النظم في أدكاءٍ مثل الزهر ، وفي النقاءٍ مثل
الجوهر ؛ تَحَسَّبُ بِإِدْرَتِهِ النَّجَاحَ ، أَرْتَفَعَ عَنِ الْحِجَاجِ ؛ وَغَايَرَتَهُ الْجَحْلُ ، فِي الرَّجُلِ ؛ يَجْمَعُ
بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الْأَفْعَوَانَ فِي لُعَائِهِ بَيْنَ الْقَلَّةِ ، وَفَقَدِ الْبِلَّةِ ؛
خَشَنَ ، فَحَسَنَ ؛ وَلَانَ ، فَمَا هَانَ ؛ لَيْنُ الشَّكِيرِ ، يَدُلُّ عَلَى عُنُقِ الْمُحْضِرِ ، وَحَرَشُ
الدِّينَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَارِ ؛ فَصُنُوفُ الْأَشْعَارِ بَعْدَهُ كَأَلْفِ السَّلَامِ ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ ،
وَلَا تَتَبُّتْ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ ؛ خَلَصَ مِنْ سَبْكِ النَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنَ اللَّهَبِ ؛
وَالْجَبِينِ ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَأَلْ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطَّ ، فِي عُنُقِ نَطَّ ؛

ما خانتَه قُوَّةُ الخاطرِ الأمينِ ، ولا عيبَ بسنادٍ ولا تَضَمِينِ ؛ وأينَ النَّثْرَةُ ، من العَثْرَةِ ؛ والغَرَقْدُ ، من الفَرَقْدِ ؟ ؛ فالسَّاعِي في أثرِهِ فارسٌ عصاً بصيرٍ ، لا فارسٌ عصاً قصيرٍ .

وأنا نابتُ على هَذِهِ الطَّوِيَّةِ ثَبَاتَ حَرَكَةِ البناءِ ، مُقِيمٌ تلكَ الشَّهَادَةَ بغيرِ اسْتِئْذَاءٍ ؛ غَفَى عَنِ الْإِيمَانِ فَلَا عَدَمٍ ، مُقْسِمٌ عَلَى مَا قَلْتُ فَلَا حِثَّ وَلَا نَدَمَ ؛ وَإِنَّمَا تُحِبُّ الدَّرَّةَ ، لِلْحُسْنَاءِ الْحُزَّةِ ؛ وَيُجَادُّ بِالْيَمِينِ ، فِي الْعَلَقِ الثَّمِينِ ؛ مَا أَنْفَسَهُ خَاطِرًا أَمْتَرَى الْفِضَّةَ ، مِنَ الْقِضَّةِ ؛ وَالْوَصَاهُ ، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاهُ ؛ وَرُبَّمَا نَزَعْتَ الْأَشْبَاهُ ، وَلَمْ يُشَبَّهِ الْمَرْءُ أَبَاهُ ؛ وَلَا غَرَوَ لَذَلِكَ : الْحُضْرَةُ أُمُّ اللَّهَيْبِ ، وَالْحَمْرَةُ بِنْتُ الْغُرَيْبِ .

وكذلكَ سَيِّدُنَا وَلَدٌ مِنْ سِحْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِلخَفَاءِ الْمُتَدَيِّنِينَ ؛ كَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةٍ تُبْنَى السُّودُ ، وَتُبْنَى الْحَسُودُ ؛ كَلِمَتٌ ، مِنْ شُرْبِ الْعَاقَةِ الْكَيْتِ ؛ نُشُورُهُ قَرِيبٌ ، وَحِسَابُهُ تَثْرِبٌ ؛ أَيْنَ مُشَبَّهُو النَّاقَةِ بِالْفَدَنِ ، وَالصَّحَّاحِ بِرِدَائِ الرَّدَنِ ؛ وَجَبَ الرَّحِيلُ ، عَنْ الرَّبْعِ الْمُحِيلِ ؛ نَشَأَ بَعْدَهُمْ وَاصِفٌ ، غَوْدَرَ رَأْيَهُ كَلِمَاتِصِفٍ ؛ إِذَا سَمِعَ الْخَافِضُ صِفَتَهُ لِلسَّهْبِ الْفَسِيحِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الْأَحْنَاءِ ، وَخُلُوقَهُ عَصِيمِ الْهِنَاءِ ؛ وَحَلَمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاغَ بُرَى ذَوَاتِ الْأُرْسَانِ ، مِنْ بُرَى الْبَيْضِ الْحَسَانِ ؛ شَنَفَا لُدْرَ النُّحُورِ ، وَعُيُونِ الْحُورِ ؛ وَشَغَفَا بَدْرَ بَكِيٍّ ، وَعَيْنِ مِثْلِ الرُّكْبَى ؛ وَإِعْرَاضًا عَنْ بُدُورِ ، سَكَنَ فِي الْخُدُورِ ؛ إِلَى مُحُولٍ ، كَأَهْلَةِ الْمُحُولِ ؛ فَهِنَّ أَشْبَاهُ الْقَيْسَى ، وَنَعَامُ السَّيِّ ، وَإِنْ أَخَذَ فِي نَعْتِ [الْحَيْلِ]^(١) فَيَاخِيْبَةُ مِنْ سِسْبَةٍ^(٢) الْأَوَايِدِ بِالتَّقْيِيدِ ، وَشَبَّهَ الْخَافِرَ بِقَعْبِ الْوَلِيدِ ؛ نَعْتًا غَبَطَ بِهِ الْهَجِينَ الْمُنْسُوبَ ، وَالْبَازِيَّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حواسها . وفى الأصل شَبَّهَ بِالسَّيْنِ .

الْيَعْسُوبُ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لَكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، سَمِيَ بَعْضُ الْغُرَرِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ، وَخَفَتْ جَرْسٌ؛ وَلِلْقَالِعِ، ابْغَضُ طَالِعٌ؛ وَالْأَزْرَقُ، يُحِبُّكَ عَنْهُ الْفَرْقُ.

فَالآنَ سَلِمَتِ الْجَبَّةُ مِنَ الْمَعْصِ، وَشَمِلَ بَعْضُهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ؛ فَأَيُّقُنِ النَّطِيجَ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيعُ؛ وَالْمَهْقُوعُ، نَجَاءٌ رَأَى كَيْهَ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُحْرَبَ، قَائِدُ الْمُقَرَّبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابُ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ. وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ: الدَّبَاءُ، لِرَأْيِ الْمَبَاءِ؛ وَالْأُنْفِيَّةُ، لِلْقَدْرِ الْكَفِيَّةِ؛ نَقَمًا عَلَى جَاعِلِ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبْهَتِهَا كَحَدَفِ الثُّرُوسِ؛ وَأَيُّ لِدِكِنْدِي، قَوَافٍ كَهَيْجَمَةِ السَّعْدِي:

إِذَا أَصْطَكَّتْ بِضِيْقٍ حَجَرَتَاهَا * تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ وَاللَّطِيمُ!

فَالْقَسِيبُ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْبِيبِ؛ لَيْسَ رَوِيَّةٌ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ أَلِيلَ مَاءِ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظُمَاءِ الظُّبَا؛ فَاِلْمِصْرَاعُ كَوَذِيلَةِ الْغَرِيبِ، حَكَّتِ الزَّيْنَةَ وَالرِّيْبَةَ؛ وَأَرَّتِ الْحُسْنَاءَ سَنَاهَا، وَالسَّمْعَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَقَّتْ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَنْتَقَتْ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرْضَ دِنَارُ الْعَقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ؛ وَنَسَجَ الْعَنَّاكِبُ، عَلَى الْمَنَاكِبِ؛ وَلَكِنْ تُكْسَى مِنْ وَشْيِ ثِيَابَا، وَيُجْعَلُ طِلَافُهَا زِيَابَا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغِطُ الْمِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَيَوَدُّ سَعْدُ الْأَخِيَّةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ.

وَوَقَفْتُ عَلَى "مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" الَّذِي كَادَ بِسِمَاءِ الْأَبْوَابِ، يُعْنَى عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطِلَاءِ الْأَحْمَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ، وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ، شَرْفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّيْبَ،
وَكَفَى مِنْ آبِنِ قُرَيْبٍ، وَدَلَّ عَلَى جَوَامِعِ اللُّغَةِ بِالْإِيْمَاءِ، كَمَا دَلَّ الْمُضْمَرُ عَلَى مَا طَالَ
مِنَ الْأَسْمَاءِ .

أَقُولُ فِي الْإِخْبَارِ : أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ ، إِذَا أَضْمَرْتُهُ ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ :
أَمَرْتُهُ ، وَأَبْلَّ مِنَ الْمَرَضِ وَالْمَرِيضِ ، بِمَا أُسْقِطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ ، كَأَنَّهُمْ
فِي تِلْكَ الْحَالِ ، شَهِدُوا بِالْحَالِ ، عِنْدَ قَاضٍ ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمْ بِالْإِتِّقَاضِ ، عَلَى حَقِّ
عِلْمِهِ بِالْعِيَانِ ، فَاسْتَغْنَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيَانٍ .

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ ”إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ“ فَوَجَدْتُهَا عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ فِي صَدَّةِ إِخْوَةِ
الصَّدِّيقِ ، لَمَّا تَظَاهَرُوا عَلَى غَيْرِ حَقِيقٍ ، وَتَزِيدُ عَلَى الْعَشْرَةِ بَوَاحِدٍ ، كَلَّخَ يُوسُفُ
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ . وَالشَّعْرُ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الْآثَرِ ، وَصَحِيفَةُ الْمَائِثَةِ ، فَإِنَّهُ كَذُوبُ
الْقَالَهْ ، نَمُومُ الْإِطَالَةِ ، وَإِنْ قَفَا نَبْكَ [عَلَى حُسْنِهَا] ، وَقَدِمَ سِنِّي ، لِقُرْبٍ بِمَا يُبْطِلُ
شَهَادَةَ الْعَدْلِ الرَّضَا ، فَكَيْفَ بِالْبَيْتِ الْأَثْنِ ، قَاتَلَهَا اللَّهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بَشَرِيَّةً ،
كَانَتْ مِنْ أَغْوَى الْبَرِّيَّةِ . وَقَدْ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَجْتِهَادُ ، فِي إِقَامَةِ
الْأَشْهَادِ ، حَتَّى أَتَشَدَّ رَجَزَ الضَّبِّ ، وَإِنْ مَعَدًّا مِنْ ذَلِكَ لِحُدِّ مُغْضَبٍ ، أَعْلَى فَصَاحَتِهِ
يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَاشِ الْأَرْضِ ؟ ، مَا رُؤِبَةُ عِنْدَهُ فِي نَفِيرٍ ، فَمَا قَوْلُكَ
فِي ضَبِّ دَامِي الْأُظَافِيرِ ؟ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ ، إِلَّا بَابَ فَعَلٍ
وَفَعَلَ ، فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عَشْرِينَ حَرْفًا : سِتَّةَ مُدْلَقَةٍ ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَقَةٍ ، وَأَرْبَعَةَ مِنْ
الْحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ ، وَوَاحِدًا مِنَ الْمَزِيدَةِ ، وَنَفِثَتَيْنِ : الثَّاءَ وَالذَّالَ ، وَآخَرَتَمَعَالٍ ،
وَالْأَخْنِينَ الْعَيْنَ وَالْحَاءَ ، وَالشَّيْنَ مُضَافَةً إِلَى حَيِّزِ الرَّاءِ . فَوَحَّمَ اللَّهُ أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ
لَفَاطَ كَمَدًا ، أَوْ أَحْفَاطًا حَسَدًا ، سَبَقَ ابْنُ السَّكِّيتِ ثُمَّ صَارَ السُّكِّيتُ ، وَسَمَّى ثُمَّ حَارَ
وَتَدًّا لِلْبَيْتِ ، كَانَ الْكَتَابُ تِبْرًا فِي تُرَابٍ مَعْدِنٍ ، بَيْنَ الْحُثِّ وَبَيْنَ الْمُتَدَّنِ ، فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ ، فَعَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ ، وَالْأَلِ النَّقِيشِ ؛
فهو محبوبٌ ليس بهينٌ ، على أنه ذو وجهين ؛ ما نَمَّ قَطُّ ولا هَمَّ ، ولا نَطَقَ ولا أَرَمَ ؛
فقد نَابَ في كَلَامِ الْعَرَبِ الصِّمِيمِ ، مَنَابَ مِرْآةِ الْمُتَنَجِّمِ فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ ؛ شَخَّضَهَا ضَيْلٌ
مَلُومٌ ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومُ .

وأقولُ بعدُ في إعادة اللَّفْظِ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ ، كَلْتَجْمَعُ
فِي النِّكَاحِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ؛ الْأُولَى حِلُّ يُرَامُ ، وَالثَّانِيَةِ بَسْلٌ حَرَامٌ ؛ كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودَجِ لَيْسَانُ ، وَفِي السَّبَّةِ حَمِيسَانُ ؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ ، وَيَا أَبَا
الْفَتَيَانِ شَرُّكَ مِنَ السُّعُودِ ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزِينٌ وَدَعْدٌ ، وَسَمَّيْنَاهُ الرَّجُلَ بِسُوءِ سَعْدٍ ؛
مَا قَلَّ أَثِيرُ ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرُ .

مَثَلُ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْذٍ كَثِيرَةٍ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ ، وَعَظَلَتْ الْخَصَرَ وَالسَّاقَ ؛
كَانَ يَوْمٌ قَدُومٌ تِلْكَ النُّسخَةِ يَوْمَ ضَرِيبِ حَشَرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَأَضَافَ
الْجِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْجِنْسِ ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الظُّبَاءِ ، بِالسَّبَاءِ ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ ، بِالْأَوْجَالَ ؛
وَلَكِنَّ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِعُ ؛ وَتَنْصَرِفُ بِلَذَاتِ ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ ؛ وَإِنْ عَبْدَهُ
مُوسَى لَقَيْنِي نِقَابًا ، فَقَالَ : هَلُمَّ كِتَابًا ؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفًا ، وَبِمُؤَالَاتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفًا ؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَنْظَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ . وَأَحْسَبُهُ رَأَى نَوْرَ السُّودِدِ فَقَالَ لِمُخْلَفِيهِ ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ ؛ : ﴿ إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقَبَسَ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسَ
لَهَبٌ ؟ بَلْ يَتَشَرَّفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبَّةُ الزَّمَنُ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوعَ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رِسَالَةِ الْمُعْزَى الْمَوْجُودَةِ

بِدَارِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَةِ .

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَقْتَسِنُ لَهَا * جَزَلَ الْجَدَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِرٍ !

وقد آب من سَفَرِهِ الأولى ومعه جَدْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إِنْ لُمِسَتْ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،
أَوْ أُونِسَتْ فَنَارُ الْكَلِيمِ ؛ وَأَجْتَنَى بِهَارًا حَبَّتْ بِهِ الْمَرَاذِبَةُ كَسْرِي ، وَحَمِلَ فِي فَكَاكِ
الْأَسْرَى ؛ وَأَدْرَكَ نُوحًا مع القوم ، وَبَقِيَ غَضًّا إِلَى الْيَوْمِ ؛ وَمَا أَتَجَمَعَ مُوسَى إِلَّا الرُّوضُ
الْعَمِيمُ ، وَلَا أَتَبَعَ إِلَّا أَصْدَقُ مُقِيمٍ ؛ وَوَرَدَ عَبْدُهُ الرَّهْيَرِيُّ مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ وَكَانَتْ
زَهْرَةً بَقِيعَ ، أَوْ وَرْدَةً رَبِيعَ ؛ كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَيِّبَةُ الْعَرَقِ ؛ وَلَيْسَ هُوَ فِي نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،
فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ ؛ وَاجْتَابَ ، فِي السَّحَابِ الْمُتَجَابِ ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالغَمَامَ
يَسْفِرُ ؛ وَلَكِنَّهُ مِثْلُ الثُّونِ فِي الْجَهِّ ، وَالْأَعْقَرِ تَحْتَ جَرِيهِ .

وقد كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا فِي مَا سَلَفَ أَنَّ الْأَدَبَ كَعُهودٍ فِي غِيبٍ مُهُودٍ ، أَرَوَتْ
النَّجَادَ فَمَا ظَنُّكَ بِالْوُهودِ ؟ ؛ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْثِ بِلَدِّ طَسْمَ ، كَأَثَرِ الْوَسْمِ ؛
مَنْعَهُ الْقِرَاعَ ، مِنْ الْإِمْرَاعِ ؛ يَابُوسَ ، بَنِي سُدُوسَ ؛ الْعَدُوَّ حَازِبَ ، وَالْكَلاَّ
عَازِبَ ؛ يَاحْضَبَ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ ، ضَانٌّ فِي الْحَرْبِ وَإِبِلٌ فِي السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الْأَظْلَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْحَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ فِي اللَّيْدِ ، إِلَّا الْهَيْدِ ؛ جَنَيْتُهُ مِنْ
شَجَرَةٍ أَجْتَنَيْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . لَبَنُ الْإِبِلِ عَنِ الْمُرَارِ مَرَّةً ، وَعَنِ
الْأَرَاكِ طَيِّبٌ حَرٌّ .

هَذَا مِثْلِي فِي الْأَدَبِ . فَأَمَّا فِي النَّسَبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِقَاءِ سَيِّدِنَا
بُلْعَتَانِ : بُلْعَةُ صَبَرٍ ، وَبُلْعَةُ وَفَرٍ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمَرْعِيَّةِ ، وَاللُّجُوجِ الرَّبِيعَةِ ؛ هَذِهِ
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَالٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالْقَالِيلُ ، سَلَّمَ إِلَى الْحَلِيلِ ؛ كَالْمُصَلِّيِ يُرِيقُ الضُّمُوءَ ، بِإِسْبَاحِ
الْوُضُوءِ ؛ وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّغْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ اللَّهِ يَغْسِلُ الْحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكتبة حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ، وَالْمِيلِ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْأَجَلِّ وَالِدِهِ
- أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - كَسَبَ بْنَ يَعْرُبَ، لِمَا أَتَهَّلَ فِي التَّقَرُّبِ؛ إِلَى خَالِقِ الثُّورِ، وَمُصَرِّفِ
الْأُمُورِ، نَظَرَ فَلَمْ يَرَأْ شَرْقَ مِنَ الشَّمْسِ يَدًا، فَسَجَدَ لَهَا تَعْبُدًا . وَغَيْرُ مَلُومٍ سَيِّدِنَا
لَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ الثُّمَانِ الرَّبِيعِيِّ، وَمَدَائِحِ الْيَرُبُوعِيِّ، مَلًّا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ
الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْأَسْمِ، فَغَيْرُ مُعْتَذِرٍ، مَنْ أَبْغَضَ لِأَجْلِهِمْ بَنِي الْمُنْذَرِ؛ وَهُمْ إِلَى
حَضْرَتِهِ السَّيِّئَةِ رَجُلَانِ : سَائِلٌ، وَقَائِلٌ؛ فَأَمَّا السَّائِلُ فَأَلَحَّ، وَأَمَّا الْقَائِلُ فَغَيْرُ
مُسْتَمْلَحٍ؛ وَقَدْ سَتَرْتُ نَفْسِي عَنْهَا سِتْرَ الْخَمِيصِ، بِالْقَمِيصِ؛ وَأَنْحَى الْهَيْتَرَ، بِسُجُوفِ
السَّيْرِ؛ فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مِثْلُهُ مِثْلُ الصُّبْحِ إِذَا لَمَعَ تَصَرَّفَ الْحَيَوَانُ فِي شُؤُونِهِ
وَنَاجَى مِنْ يَتِيهِ الْيَرُبُوعِ، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجْلِ الرُّبُوعِ، وَقَدْ يُوَلِّعُ الْهَيْجَرِسُ؛ بِأَنْ
يُجْرِسَ؛ فِي الْبَلَدِ الْحَرْدِ، قُدَّامَ الْأَسَدِ الْوَرْدِ . وَإِنِّي خُبِرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الْأُولَى
عُرِضَتْ بِالْمَعْرِضِ الْكَرِيمِ : فَأَوْجَبَ ذَلِكَ رَحِيلَ أُخْتَهَا، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْثِهَا؛
وَكَيْفَ لَا تَتَفَعَّ، وَفِي الْيَمِّ تَفَعَّ؛ وَهِيَ بِمَقْصِدِ سَيِّدِنَا فَانِحِهِ، وَلَوْ نُهِيتِ الْأُولَى
لَا تَهْتَبِ الْآخِرَةُ :

كَلِمَتِ الرِّسَالَةِ .



قُلْتُ : وَهَذِهِ رِسَالَةٌ أَنْشَأْتُهَا فِي تَقْرِيبِضِ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ الْفَتْحِيِّ، أَيْ الْمَعَالَى فَتَحَ اللَّهُ،
صَاحِبِ دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِيِّ وَالْمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَدَامَ اللَّهُ
تَعَالَى مَعَالِيَهُ، فِي شُهُورِ سَنَةِ أَرْبَعٍ عَشْرَةٍ وَثَمَانِينَ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْفَتْحَ حَقًّا رِجَالِ الْقَرَائِحِ الْجَائِدَةِ، وَمُسْتَقَرًّا نَوَاهَا، وَوَحِيظًا
دَائِرَةَ الْأَفْكَارِ الْوَارِدَةِ، وَمَرْكَزَ شُعَاعِ كُؤَاهَا، وَمَادَّةَ عَنَاصِرِ الْأَفْهَامِ الْجَائِلَةِ، وَعِتَادَ
شَكِيمَةِ قُوَاهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَمْلَكَةَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِيدَاعِ سِرِّهَا الْمَصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ
 رَحِيبٍ ، وَأَنْهَضَ بِتَدْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَرَتْ كِتَابُ كُتُبِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَنْشَدَ مِنْ شِدَّةِ
 الْفِرَاقِ : قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَيِّبٍ ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسْلِلِ الْأَقْلَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ
 مَنْ إِذَا طَرَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقُ تَلَا لِسَانُ يَرَاعَتِهِ : ﴿ نَصْرُكَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .
 وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بَرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ
 الْأَخْلَاقِ فَتُشِيدُ لِقَلَاغِ الْإِيمَانِ بِأَقْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا ، وَتُرَقِّمُ أَسْرَارُ شِعَارِهَا بِنَقِيسِ
 الْقَبُولِ فِي صُحُفِ الْإِقْبَالِ فَيَبْدُلُ دَاعِيَهَا بِإِذَاعَةٍ خَبَرَهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا ، وَتَدِينُ
 بِطَاعَتِهَا مُلُوكُ الْمَمَالِكِ النَّائِيَةِ خُضُوعًا فَتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَفَارِقِ بَعْدَ اللَّحْمِ
 تَيْجَانًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ سَنِّ الْمَعْرُوفِ وَنَدَبِ إِلَيْهِ ، وَأَكْرَمُ
 رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَائِنِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتَمِلُهُ عَلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
 وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكَوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَّةَ وَافْتَقَرُوا فِيهِ سُنَّتَهُ ،
 وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . صَلَاةٌ نَتَقَلُّ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا ، وَيَتَصَدَّقُ لِرَوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ
 عَلَى تِمَادِي الدَّهْرِ أَخْبَارُهَا ؛ وَسَلَّمُ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإن رِياسَةَ أَهْلِ الدُّوَلِ نَتَفَاوَتْ بِاعْتِبَارِ قُرْبِ الرِّئِيسِ مِنْ مِلْكِهِ فِي مُحَاطَبَتِهِ
 وَمُنَاجَاتِهِ ، وَأَعْتِمَادِ تَصَرُّفِهِ فِي أُمُورِ دَوْلَتِهِ وَتَنْفِيزِ مُهِمَّاتِهِ ، وَالْأَسْتِنَادِ عَلَى رَأْيِهِ فِي جَلِيلِ
 خُطُوبِهِ وَعَظِيمِ مُلْكِيَّتِهِ :

فَعَالٌ تِمَادَتْ فِي الْعُلُوكِ كَأَنَّمَا * تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

وَلَا خَفَاءَ أَنْ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنْ هَذِهِ الرِّتْبَةِ بِالْحَلِّ الْأَرْفَعِ ، وَالْمُنْزِلَةِ الَّتِي
 لَا تُدْفَعُ وَلَا تُدْفَعُ ، وَالْمَقَامِ الَّذِي تَقَرَّرُ بِصُدْرَتِهِ فَكَانَ كَالْمَصْدَرِ لَا يُنْتَقَى وَلَا يُجْمَعُ ؛

إذ هو كليم الملك ونجيته ، ومقرب حضرته وحظيه ، بل عميد الملكة وعمادها ،
وركنها الأعظم وسنادها ، حامي حومتها وسدادها ، وعقدتها المسيق ونظامها ، ورأس
ذروتها العليا وسنامها ، وجهينة خبرها ، وحقيبة وردها وصدرها ، ومبلغ أنبائها
وسفيرها ، وزند رأيها المورى ومشيرها .

فهيلاً بالمكومات وبالعالى * وحيلاً بالفضل والسؤدد المحض !

هذا . وهو الواسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصصهم بدرك قصده وبلوغ
بغيته ، والمُسعد للظلم من عزائم توقيعاته بما يقضى بنصرتة ، وحينئذ فلا يصلح
لها إلا من كان مع كرم الحليم بارز الخيام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي
الهمة لإغاثة الملهوف ، ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجانب لذي المسأله ، ومع
قربه بحضرة سلطانه قريباً من الرعية حتى من المسكين والأرملة .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالضدين اللذين
لا يجتمعان بحال ، والنقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجتمع
العالى والهابط ، والمترفع والساقط ؟ أم كيف تتصل الأرض بالسما ، أو يقع
أمتزاج عنصر النار بعنصر الماء ؟ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه
لأعز من الجوهر الفرد ، وقيل وجوده حتى لم يوجد إلا في الواحد القدد فلا تراه
إن تراه إلا في حيز النادر ، ولا تظفر به إلا ظفرك بيض الأنوق إن كان يظفر به
ظافر ، إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالقدد من هذا النوع في الزمن المتباعد ، أو أسعد
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الاشياء من نظر من هو متصف ببعض
هذه الأوصاف عاقل ، والدهر يعد بمن يقوم فيه بتفريح كربة الملهوفين ولكنه
يماطل :

يرفه ما يُرفّه في التّقاضى * وليس لديه غير المَطْلِ نقد!

إلى أن طلع نير الزّمان وتوصّح شروقُه، وظهرت تباشير صباحه وأفل بطلوع السّعد عيوقُه؛ فأقبلت الدولة الظاهرية بسعادتها، وتلقّتها الأيام الناصرية جاريةً منها على وفق عاداتها؛ ووَفّر للدولتين من انتخاب الأصفياء قسَمَتها، ومَحَضّت لها الرأى الصائب حتّى ظهرت في الوجود زُبْدَتها؛ فكان خلاصةً أصطفايها، وزُبْدَةُ أنقيائها؛ المقرّ الأشرف، العالى، المولوى، القاضوى، الكيرى، السّفيرى، المُشيرى، الفتحي، نظامُ الممالك الإسلامية وزمامُ سياستها، ومُنقذُ أمورِها، وجامع راسِتها؛ أبو المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، زاد الله تعالى في أرقيائه على تعاقبِ الدّول، وأجرأه من خفي اللّطف على أجمَلِ العوائد وقد فعل؛ فألقى إليه من أسرارِ المملَكة مقاليدُها، وأتفقت بحُسنِ سفارته باتّفاق الرواة أسانيدُها؛ فنقدت بتنفيذه أمورُها، وكَلِمَتُ بصحيح رأيه كُسرُها؛ جَرتِ الأمور بحُسنِ تديره على السّداد، ومَشَتِ الأحوال بلُطفِ سفارته على أتمّ المُراد؛ وأعترفت له الكافّة بالسيادة فاطاعت، وعرفت له الرّعية تقدّمه في الرّاسة فرعت حرّمته وراعت.

وإنّ أمورَ المُلِكِ أصحى مدَارُها * عليه كدَارَت على قُطُيها الرّحى!

قد استعبد الخطّ فأصبح له كالخديم، وأتى من المعروف بكلّ غريب فأنسى من أثرعنه ذلك في الزّمن القديم؛ فلوراه «خالد بن برمك» لأخيم عن ملاقاته عظاماً، أو ناواه «يحيى بن خالد» لمات من مُناوآته عدماً، أو سابقه «الفضل وجعفر» أبناهُ لسبقهما كرماً:

مناقب لو أتى تكلفتُ نسخها، * لأفلسْتُ في أقلامِها ومدادِها!

أو سمع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحزن والسهل ، أو بصر به "الفضل"
أخوه ، لما رأى أنه للفضل أهل ، أو عاينه "أبو علي بن مقله" لعلم أنه فاقه خطاً
وخطاً ، أو نظر "ابن هلال" إلى أهله نواته لتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة
الحروف وما أخطأ :

إِذَا أَخَذَ الْقِرطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * تَفْتَحُ نُورًا أَوْ تُنْظِمُ جَوْهَرًا !
فَإِنْ تَكَلَّمَ أَتَى مِنْ بَيَانِهِ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ ، أَوْ حَاوَرَ أَتَى مِنْ الْبَلَاغَةِ بِمَا يُقْصَرُ عَنْ
رَتْبِهِ "سُجْبَانُ" فِي الْمَقَالِ ، أَوْ تَرَسَّلَ أَعْيَى "عَبْدَ الْحَمِيدِ" فِي رَسَائِلِهِ ، أَوْ كَتَبَ رَتَعَتَ
مِنْ رَوْضِ خَطِّهِ فِي زَهْرِ نَحَائِلِهِ :

يُؤَلِّفُ اللَّؤْلُؤَ الْمُنْشُورَ مَنْطِقُهُ * وَيَنْظِمُ الدُّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !
فَرَأَاهُ السَّيْفُ لَا مَا صَنَعَ الْهِنْدُ ، وَعَقَلَهُ الصَّارِمُ لَا مَا اسْتُودِعَ الْغَمْدُ :
فَفِي رَأْيِهِ نُجْحُ الْأُمُورِ وَلَمْ يَزَلْ * كَفَيْلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوَفَّقًا !
أَقْلَامُهُ تُزَرِّي بِالصَّوَارِمِ وَتَهْزَأُ بِالْأَسَلِ ، وَتَجْرِي بِصَلَةِ الْأَرْزَاقِ فَتَرِيدُ عَلَى الْأُمَانِي
وَتَرْبُو عَلَى الْأَمَلِ :

بِتْ جَارَهُ فَالْعَيْشُ نَحْتَ ظِلَالِهِ * وَأَسْتَسْقِهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَائِهِ !
فَكَارِمُهُ تُغْنِي مِنَ الْإِمْلَاقِ ، وَبَوَا كَرِهِ بِالْإِسْعَادِ تَبَادُرَ الْغُدُوِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَعَطَايَاهُ
تَسِيرُ سِيرَ السَّحَابِ فُتْمِطِرُ الْغَيْثَ عَلَى الْآفَاقِ :

كَرِيمُ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْقَوَاضِلِ !
قَدْ خَدَمْتَهُ الْحُظُوطُ وَأَسْعَدَتْهُ الْجُدُودُ ، وَفُسِّمَتِ الْمَنَازِلُ السَّنِيَّةُ فَمَكَانَ لَهُ مِنْهَا
سَعْدُ السَّعُودِ :

لوعَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لِمَا بَرَحَتْ * تَثْنِي الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشَّوْكَ أَمْرَ الْعِبَاءِ أُنَى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاخِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامُ الْعَامَ وَالسَّنَةِ الْخَصْبَةَ ، وَلَضُوعِفَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَحَظَّتْكَ عِيُونُهَا ، * نَمَّ فَالْحَاوِفُ كُلُّهُمْ أَمَانُ ،

وَأَصْطَدَّ بِهَا الْعَقَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ * وَأَقْبَدَ بِهَا الْجَوَزَاءُ فَهِيَ عِنَانُ!

قَدْ لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَتَقْمَصُّ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَتَطَلَّعُ
الْأَيَّامُ إِلَى تَزَعِهِ ، وَأَتَتْهُ إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْصَى الْكَرَمِ الَّذِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا!

فَمَنَاقِبُهُ تَسْبِقُ أَقْلَامَ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَعْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَأَرْتِفَاعِهَا غَايَةٌ ،
وَلَا لِنَدْوِهَا نِهَايَةٌ ؛ فَلَا تُؤْنِي جَامِعَةٌ بَشْرُطَهَا ، وَلَا تُقَوِّمُ جَرِيدَةً بِسَطِهَا :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِفَضْلِهِ أَفْوَاهُ الْمَخَابِرِ
فَنَكَّسَتْ لِرَفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَاخِجَ الرُّؤُوسِ ؛ وَطَلَعَتْ فِي أَفْئِ الْمَهَارِقِ سُعُودُ إِيَالَتِهِ السَّعِيدَةِ
فَأَفَلَّتْ لَوْجُودِهِ التُّحُوسُ ؛ وَرُقِيتْ مُحَاسِنُهُ بِنَقِيسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفَحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وَحُمِلَتْ أَخْبَارُ مَعْرِوفِهِ فَتَرَا حَمَتِ الْآفَاقُ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجَ رِيحِهِ الْعَبَقَةِ وَأَسْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرُمْتَ فِي الْمَكْرُمَاتِ صِفَاتُهُ * فَمَا دَخَلَتْ لَاءٌ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا!

اتَّفَقَتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيصِهِ فُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ ، وَاسْتَغْرَقَتْ مَادِحُهُ الْأَزْمِنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوْلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ * وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيصِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٌ !
عَلَى أَنِّي اسْتَقْبِلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ
بِأَعْبَائِهِ ، فَلَوْ أَنَّ «الْمُحَاطِظَ» نَصِيرِي ، وَ«أَبْنَ الْمُقَفَّعَ» ظَهِيرِي ، وَ«قَسَّ بْنَ سَاعِدَةَ»
يُسْعِدُنِي ، وَ«سَجْبَانَ وَائِلَ» يُجِدُنِي ، وَ«عَمْرَو بْنَ الْأَهَمِّ» يُرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي
بِالْعَجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ
تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنَبَةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم مُعِين الدِّين تاج العلماء ، خَطِيبِ الْخُطَبَاءِ ،
زَيْنُ الْأَمَةِ ، قُدْوَةُ الشَّرِيعَةِ ، الصِّدِّيقُ أَبُو الْفَضْلِ يَحْيَى بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْحَصَكْفِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، سَمَّاها : «عِتَابُ الْكُتَّابِ ، وَعِقَابُ الْأَقْلَابِ ، الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى
أَصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وَهِيَ :

عَذِيرِي مِنْ وَزَرَاءِ النَّصِيبَةِ وَكُتَّابِهَا ، وَكُبَرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا ، وَأَوَاخِي الدُّوَلِ
وَأَطْنَابِهَا ، وَنَوَابِ الدَّوَاوِينِ وَأَنْبِيَاءِهَا ^(١) ؛ وَجُبَاةِ بُيُوتِ الْأَمْوَالِ ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمٍّ تُشْرِ
الْأَحْوَالِ ؛ وَسَاسَةِ الْمَمَالِكِ ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ ؛ الشَّاخِصِينَ بِأَنْوَفِ التِّيَسِ
وَالْكِبَرِيَاءِ ، وَالسَّاحِصِينَ ذُيُولَ الْعُجْبِ وَالْخِيَلَاءِ ، الرَّافِلِينَ فِي حُلِيِّ الْبَهَاءِ ، وَالْعَافِلِينَ
عَنْ فُرُوضِ الْعِلَاءِ ؛ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا السُّودَّ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ ، وَتَسَنَّمُوا الرُّتَبَ بِلَا إِعْدَادٍ ؛

(١) الْأَنْبِيَاءُ جَمْعُ نَابٍ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَوْمِ وَكَبِيرُهُمْ .

فَكَانَهمُ الحَاصِبُ ، وَعَدُوُّ اللهِ المُنَاصِبُ ؛ شَغَلَهُمُ الأَشْرُ والفُجُورُ ، وَكُلُّ عَلَى
بَسْطَتِهِ يَجُورُ ، هَمَّهُمُ مَجْجُ الأَحْرَاحِ ، وَشَجُّ الرَاحِ بِالمَاءِ القَرَّاحِ ؛ وَامْتِطَاءُ المُرْدِ ،
وَالْعِتَاقِ الجُرْدِ ؛ أَمَلَهُمُ تَحْيِيدُ الأَفْنِيَةِ ، وَتَشْيِيدُ الأَبْنِيَةِ ؛ وَالزِّيَادَةُ فِي الرِّقِيقِ وَالكَرَّاعِ ،
وَالنَّحْلِ وَالإِتْبَاعِ ؛ وَلَيْسَ بَغَالٍ ، كَثْرَةُ خَيْلٍ وَبَغَالٍ ؛ بِمَا بَاعُوهُ مِنَ الْوَرَعِ وَالدِّيَانَةِ ،
وَأَضَاعُوهُ مِنَ العِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ :

قَدْ مَلَكَوا الدُّنْيَا عَلَى غَيْرَةٍ * وَنَافَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !
تَوَزَّعُوا الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالدِّينَا ،
شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ * وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَاوِينَا ،
عَفُّوا وَمَا عَفُّوا بِأَقْلَامِهِمْ * مَسَاكِناً تَحْوِي مَسَاكِينَا ،
غَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا بَأَن أَظْهَرَتْ * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُهَا لِينَا ،
وَالدَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فِي مَرَّةٍ * مُرّاً وَحِيناً سَاقَهُ حِينَا .
يَا أَنْفُسَا ذَلَّتْ بِإِتْيَانِهِمْ * وَبِكَ أَتَانَيْنِ الْآتَانِينَا .
لَا تَرْتَضِي فِي رِسَالِهِمْ إِنَّمَا * تَمَرِّينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !
وَكَانَ يُجْدِي الْقَصْدُ لَوْ أَنَّهُمْ * يَدْرُونَ شَيْئاً أَوْ يَدْرُونَ .
مَوْتِي هُمُ فَلَيْكُ تَقْرِيطُهُمْ * إِنْ كُنْتَ لَا تَأْبِينُ ، تَأْبِينَا ،
لَا يَعْنِي الْفَضْلُ بِإِطْرَاءٍ مِنْ * يَكُونُ فِيهِ الْهَجُومُ مَغْبُونَا ،
لَوْ رَمَتْ شَيْئاً دُونَ أَقْدَارِهِمْ * لَهَجَوْهُمْ لَمْ تَحِيدِ الدُّونَا !!!

قد أَخْلَدُوا إِلَى الوَضَاعَةِ ، عَنْ تَحْصِيلِ البِضَاعَةِ ، وَكَفَاهُمْ مِنَ الْبَرَاعَةِ ، بِرَى الْيَرَاعَةِ ،
وَعُنُوا بِأَسْوَدَادِ اللَّيْقَةِ ، عَنْ سُودِّدِ الْخَلِيقَةِ ؛ وَأَحَالُوا عَلَى الرِّمِّ ، عِنْدَ قُصُورِ الْهِمِّ ؛
وَمَنْ أَعْظَمَ الْآفَاتِ ، تَغَرُّهُمُ بِالْعَظْمِ الرُّفَاتِ .

وَكَاثِمُ لَصِيمِ هَاشِمٍ * أَوْ مِنْ لَهَايِمِ الْعَبَاشِمِ ،
غَشِمُوا مَا يَغْشَاهُمْ * بِالطَّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لَا يُعِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مُرْوَةٍ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخُوهِ ، وَلَا يَرْعَى وَارِثَ أَبُوهِ ، وَلَوْ
أَعْتَرَى إِلَى بَنُوهِ ، فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمَوْجُودِهِ ، يَرُوقُكَ كَيْسُهُ وَالْغَلَامُ ،
وَتَرُوعُكَ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ، فَإِذَا أَسْتَنْطَقَ قَلَمُهُ الصَّامِتَ ، أَجْدَلُ عَدُوَّهُ الشَّامِتَ ،
فَزَادَ أَدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أَدْرَاجِهِ نَاكِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أُمِّلَى لَهُمْ حِلْمُهُ * مَعَ الْخَنَاءِ وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيبَهُمْ * شَفِيتُ صَدْرَ النَّقِيعِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلَا نَاطِرٍ ، * وَعَارِضٍ يُمَسِّي بِلَا عَارِضٍ ،
وَمُشْرِفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَّدَهُ * فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدُ الْمَاخِضِ ،
وَحَازِنٍ إِنْ لَفَّ مَرْضَاتُهُ * مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَبِثَ جَاءَنَا ذِكْرُهُ * فِي الذِّكْرِ يَنْبِكِرُ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ * لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْقَعَ ، وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ،
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ، وَأَوْلَى بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنْ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ، وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ،
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ، وَأَخْلَقُ بِالْمَسْحَاهِ ، مِنَ السَّحَاهِ ، وَأَلْيَقُ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ، يَبْرَى وَيَقْطُ ، وَلَا يَذَرِي مَا يَحْطُ ، إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ،
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ، ظَفِرَتْ بَعْصَةُ الْمَسَاحِ ، وَخَشَرَ الْمَفَاتِحُ ، إِنْ خَطَّ : فَنُونُهُ
كَلَامُهُ ، وَخَلَطَ فَنُونُهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أَوْ أَنْفَدُوا أَنْفَدْتَهُمْ أَسْهُمُ الْكَلَمِ ،
 أَوْ قَلَدُوا قُلَدُوا خِزْيًا يُجِلِّلُهُمْ ، * أَوْ أَقْطَعُوا قُطِعُوا شَتْمًا يُجْهَلُهُمْ .
 أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقُّوا * جَائِئًا مِنَ الرِّقْمِ وَالْأَلْفَافِ بِالرَّقْمِ ،
 فَاللَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاءِ وَلَا تُقَاسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرَاطِ وَالْقَلَمُ !!

فالجديد بهم سَمَلٌ ، والسَّوَامُ بينهم هَمَلٌ ، ولا عِلْمٌ عندهم ولا عَمَلٌ ؛ لَهْفِي عَلَى
 الْفَضْلِ الْمَذَالِ ، بِرِفْعَةِ الْأَنْذَالِ ؛ وَضِياعِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْصِياعِ الْبَيْضَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع أَصْطَحَابِ الْبَمِّ وَالزَّرِيرِ ، وَنَفَاقِ سُوقِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ
 فِي فُسُوقِهِ ، وَأَتِّصَالِ صَبُوحِهِ بِغُبُوقِهِ ؛ وَتَحَلُّيهِ فِي الْبَهْوِ ، لِلْعِبِّ وَاللَّهْوِ ؛ مِنْ ظَهْرِ غَيِّ
 يُرْكَبُ ، وَذِي يَسَارِينِكَبُ ؛ وَسَاعِ يَثِي ، وَرَاجِ يَرْتَثِي ؛ وَرُسُومِ حَيْفِ تُجْهَدُ ،
 وَسَوَاتٍ تَعْدُدُ ؛ مَا يَضُرُّهُ مِنْ شَكْوَى الْجَارِحِ الْبُعَاثِ ، وَصَرِيخِ لَا يُغَاثِ ؛ وَوَالِ
 يَعْسُفُ بِأَهْلِ مَصْرِهِ ، وَإِنْ شَرَكُهُ فِي إِضْرِهِ ؛ وَقَاضٍ لَا يُنْصِفُ الرَّعِيَّةَ ، وَلَا يَنْبَغِ
 الْقَضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَفَقِيهِ يَسِفُ إِلَى تَحْصِيلِ عَرَضِ زَائِلٍ ، وَتَعْجِيلِ غَرَضٍ مِنْ
 سَائِلٍ ؛ مَالَهُ وَلِحْفِظِ الْمَالِ ، وَمُحَاسَبَةِ الْعَمَالِ ؟ :

أَمْ مَاعِلَى الْعَامِلِ نَمِيسُ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرْمُ وَزَادَ الْخَرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُلَ فِي كُمَّه * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخَرَاجِ .
 وَهُوَ خَرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يُبْطُ بِالْمُبْضَعِ مَا فِي الْخَرَاجِ !!!

شُغْلُهُمْ بِالشَّهْدِ الْمَشْهُورِ ، لَا بِشَهْدِ يَوْمِ النُّشُورِ ، وَقَصْدُهُمُ الْجَمْعُ وَالْاِكْتِسَابُ ،
 وَمَتَى الْجَمْعُ وَالْحِسَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ مَالٌ يُحْتَقَبُ ، لَا مَالٌ يُرْتَقَبُ ؛ وَفَسَادٌ فِي الْأَرْضِ ،
 لَا إِعْدَادَ لِيَوْمِ الْعَرَضِ :

وَإِنِّي لَأَرَى لِلرَّاتِبِ تَحَوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بُرُودُ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَشِينُهُمْ * وَلِكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودُ،
 يَقَاطُ إِذَا مَا ثَوَّبَ اللُّؤْمُ دَاعِيَا * وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودُ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزَ حَوْلَهُمْ * وَإِلَّا قِيَامُ بَيْنَهُمْ وَقُودُ،
 لَقَدْ حُسِدُوا ظُلُمًا عَلَى مَا أَتَاهُمْ * وَهَلْ لَأَنحَى نَقِصَ يَسُودُ حُسُودُ؟
 وَلِلسَّيِّدِ الْمُحْسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَذُودُ وَأُنْحَرَى بِالنَّوَالِ تَجُودُ،
 لَمَّا اللَّهُ دُنِيََا التِّي ضَلَّ سَعِيهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُودُ،
 إِذَا صَغُرَتْ كَاسُ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةً * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إِنَّمَا الصَّدْرُ مِنْ صَدْرِهِ كَالْهُ ، وَحَسُنْتَ أَعْمَالُهُ ، وَجَرَدَ الْعَزَمَاتُ ، فَشَرَدَ
 الْأَزْمَاتُ ، وَنَفَى بِذَبْهِ الْكُرْبَاتُ ، وَأَصْطَفَى لِرَبِّهِ الْقُرْبَاتُ ، فَسَهَلَ الْغَنَى ، وَأَقْعَمَ الْإِنَا ،
 وَوَضَعَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ الْهِنَا ، فَهُوَ يَهْشُ لِلنَّوَالِ ، وَيَبْشُ عِنْدَ السُّؤَالِ ، لَا يَشُوبُ
 وَرَدَهُ الْقَدَا ، وَلَا يُبْطِلُ مِنْهُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، يَبْشُرُ بَشْرِهِ بِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَنْشُرُ نَشْرَهُ
 الطَّيِّبِ فِي الْأَفَاقِ ، وَيُحْسِمُ بِدَوَانِهِ دَاءَ الْإِمْلَاقِ ، وَيُحْزِرُ بِقَصْبَتِهِ قَصَبَ السَّبَاقِ :

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةِ نَائِلِ * أَجْنَتْهَا مِنْ نَافِدَاتِ الْمَعَالِلِ ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُزْرَى شَبَاتُهَا * بَلْهَدَمَ مَنُوسٍ إِلَى الْخَطِّ ذَائِلِ ،
 وَإِنْ بَذَرْتَ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَ * مِنَ الْبَرِّ قَبْلَ الْبُرْسِ سَنَائِلِ !!

دُؤُوبُهُ لِإِقَالَةِ الْعَاثِرِ ، وَعِمَارَةِ الدَّائِرِ ، وَإِشَاعَةِ الْمَآثِرِ ، هَمُّهُ فِي مُعْضِلَةِ تِرَاضِ ،
 وَمَعْدِلَةِ تِفَاضِ ، وَخَلَلِ يُسَدِّ ، وَجَلَلِ يُصَدِّ ، وَعَانَ بِظَهْرِهِ يُعَانِ ، وَعَاتٍ بِقَهْرِهِ يُهَانَ ،
 بَابُهُ مَفْتُوحٌ ، وَخَيْرُهُ مَمْنُوحٌ ، وَمَا أَقَلَّ الْأَلَامِ ، لِمَنْ أَكْثَرَ الْوَلَامِ ، وَأَغْفَلَ الْجَادِبِ ،

لمن صَنَعَ المَادِبَ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ، لمن أَسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ؛ فَبَدَّلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ،
وَالسَّنَامَ الإِطْرِيحَ؛ لَا كَمَنْ يَشْحُ بِالْقُتَارِ، لَفَرَطِ الإِقْتَارِ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضَرِ، عَلَى
الْمُحْتَضَرِ؛ وَيَخْلُ بِالْعَرَاقِ، عَمَّنْ رُوحِهِ فِي التَّرَاقِ، وَيُسِرُّ الْغَمِيرَةَ، لِمَنْ يَتَنَبَّئِي الْمِيرَةَ؛
وَيُبَيِّنُ الدَّاءَ، لِمَنْ يَنْتَظِرُ الْغَدَاءَ؛ وَيُسْعِرُ الْأَحْشَاءَ، لِمَنْ تَرَقَّبَ الْعِشَاءَ :

مسلط سِيرَتُهُ نَقْمَةٌ * وَجَائِزُ قِسْمَتِهِ ضَيْرِيٌّ،

لَيْسَ بَذِي لُبٍّ يَمَلُّ النَّأْيُ * وَلَا لُبَّابٌ يَمَلُّ الشَّيْرِيُّ !

يَحْقُدُ عَلَى الإِخْوَانِ، عِنْدَ ظُهُورِ الْخَوَانِ؛ فَتَرَاهُ يُحَدِّقُ، إِلَى مَنْ يُشَدِّقُ؛ وَيَنْتَقِمُ،
مَنْ يَلْتَقِمُ؛ وَيَذِلُّ الْأَيْكِلَ، وَيُحِلُّ بِهِ التَّنْيِيلَ؛ وَيُبْغِضُ الشَّرِيبَ، وَإِنْ كَانَ الْخِلْدَنَ
الْقَرِيبَ؛ فَالْحَسَائِنُ مِنْ يَدِهِ، فَيَزْدَرِدُ؛ وَالْحَسَائِنُ مِنْ يَنْسِطُ، فَيَسْتَرْطُ؛ يَسْنَأُ مِنْ
الْأَجْرَاسِ، صَوْتِ الْأَضْرَاسِ؛ وَحَشْرَجَةِ الْبَلَاعِمِ، بِدَحْرَجَةِ الْمَطَاعِمِ؛ وَهَرَهْرَةَ
الشَّدُوقِ، وَجَرَجَةَ الْخُلُوقِ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَازِبُ بُلُوَاهُ، أَفْوَاهًا تَصَدَّتْ لِحْلُوَاهُ؛
وَحَكَمَتْ لِحَامِهِ، بِحِكْمَةِ لِحَامِهِ؛ وَعُدَّتْ بِكَيَوَانِهِ، لَهْيٌ وَعُدَّتْ بِأَلْوَانِهِ، رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ^(١)
مِنَ الْغَرِيْفِ، وَأَغْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الطَّرِيفِ؛ صَرِيفُ بَابِهِ، دُونَ صَرِيفِ نَابِهِ؛
وَيُحْكِمُ صَكَّ بَابِهِ، عَنْ كَبَابِهِ؛ وَيُعِدُّ سَدِيفَ جَفَانِهِ، مِنْ سَدِيفِ أَجْفَانِهِ؛ يُمَانِعُ
بَلَدِيدِهِ، عَنْ سَفُودِ قَدِيدِهِ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيدِهِ، عَنْ صَفْحَةِ ثَرِيدِهِ؛ حَمَلُهُ مِنْ
نُجُومِ الْحَمَلِ، وَسَمَكُهُ فَوْقَ السَّمَكِ الْأَعْزَلِ؛ وَحُوتُهُ بَيْنَ الْحَوْتِ وَالْأَسَدِ، وَجَدِيهِ
عِنْدَ جَدِّي الْفَرَقْدِ؛ دُونَ عُجَّتِهِ آرْتِفَاعِ الْعِجَاجِ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجَةِ :

يَدْرَجُ فِي الْقِدْرِ دُرَاجُهُ * لِيَلْقَطَ الْحَبَّ وَطَيْهْرُهُ

فَنِي السَّمَوَاتِ سُمَانَاتُهُ * وَعِنْدَ دِيكَ الْعَرْشِ فَرْوُهُ

(١) مِنْ عَرَزِهِ يَعْزُرُهُ أَنْتَرَعُهُ أَنْتَرَعَا عَنَيْفًا وَالْغَرِيفُ الدَّلُوفُ .

يَحْرُسُ مَائِدَتَهُ الدَّلْوُ والعَقْرَبُ ، وهُمَا مِمَّا أَدْنَى وَأَقْرَبُ ؛ يُعْجِبُهُ التَّشْمِيرُ وَالْأَحْيَانُ ،
 وَيَلْذُّهُ التَّوْفِيرُ وَالْإِخْتِرَانُ ؛ وَقَصْرُ مُفَاجَأَةِ أَحْوَالِ ، تُصَرِّحُ عَنْ أَهْوَالِ ؛ وَكَأَنَّكَ
 بِالْأَيَّامِ بَعْدَ الْإِتِسَامِ ، شَاهِرَةٌ لِلْحُسَامِ ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبَاهِهَا الْعُصَلُ ، فِي بُكْرَاهَا
 وَالْأَصْلُ ؛ وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيلٍ مَسْحُوبٍ ، لَتَنْكُرُ مَصْحُوبٌ ؛ وَأَخْرَجَتْ دَدَّ فِي الْبُوسِ ،
 وَيُخَلِّدُ فِي الْحُبُوسِ ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَّةِ الْحَاوِي ، مِنْ سَلَةِ الْحَلَاوِي ؛ وَمَنْ طَعِمَ
 الْعَسَلَ ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ ؛ وَمَنْ الْعَذِبَ الْبَارِدَ ، عَلَى خَرِّ الْمَبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكِبُولُ * فَهُوَ عَلَى قَيْدِهِ يَبُولُ ،

خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ * وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ ،

يَتَشَكُّوْا إِلَى اللَّهِ مُسْتَغْنِيًا * وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ ،

ذَلِكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيَهُ وَالْمِيُولُ !

فَهِمُ بَيْنَ حَصَى تَعَصُرَ ، وَقِفَا يَقْصُرُ ؛ وَكَعَابٍ مَثْقُوبَةٍ ، وَأَنْوَاعٍ عُقُوبَةٍ ؛ أَوْ يُقَالُ
 فَلَانُ أَنْارَتِهِ شَعُوبُ ، وَوَارَتُهُ الْجُبُوبُ ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْمَمَاتِ ، مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ ؛
 وَمَا ظَنُّكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيحِ ، فِي ضَنْكِ الضَّرِيحِ ؛ تَحْتَهُ الْبَرْزَخُ الْمَوْصُودُ ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ
 الْمَنْصُودُ ؛ أَنْظِرْ كَيْفَ هَجَرَ بَابَهُ الْمَقْصُودُ ، وَجَانَبَتْ جَنَابَهُ الْوُقُودُ ؛ وَأَخْلَقْتَ رِبَاعَهُ ،
 وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ ؛ ثُمَّ تَشْوِيهِ الْحُوبُ ، أَبْشَعُ مِنْ تَشْوِيهِ الشُّحُوبِ (؟) ؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
 الْبُورِ ، مِنْ بَعَثَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ * مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحَفْرِ الْهَاوِيَةِ ،

وَكُلُّ مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُثْمُهُ فِي بَعْتِهِ هَاوِيَةِ ،

وَلَيْسَ يَذَرِي وَيَحُهُ مَا هِيَةِ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةِ !

أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ خِلَالٍ يَقْضِي جَهْلُهَا بِالشَّنَارِ، وَأَفْعَالٍ تُفْضِي بِأَهْلِهَا إِلَى النَّارِ؛ بِكَرَمِهِ
وإِحْسَانِهِ، وَطَوْلِهِ وَأَمْنَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاخرات ، وهي على أنواع)

منها : المفاخرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم ، أنشأتها في شهور سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة ، لفاضل القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن
ابن شيخ الإسلام ، بقیة المجتهدين ، أبي حفص عمر البلقيني الكافی ، الشافعی ،
أَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِبَقَائِهِ ، ذَكَرْتُ فِيهَا نِيفًا وَسَبْعِينَ عِلْمًا ، أَبْتَدَأْتُهَا بِعِلْمِ اللُّغَةِ ،
وَحَتَمْتُهَا بِفَنِّ التَّارِيخِ ؛ ذَاكِرًا خَيْرَ كُلِّ عِلْمٍ عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ ، مُحْتَجًّا عَلَيْهِ بِفَضَائِلِ مَوْجُودَةٍ
فِيهِ دُونَ الْآخَرِ ، وَجَعَلْتُ مَصَبَّ الْقَوْلِ فِيهَا إِلَى أَشْتِمَالِهِ عَلَى جَمِيعِهَا ، وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّهَا ،
مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى فَضْلِ وَالِدِهِ ، شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَمُسَاهَمَتِهِ لَهُ فِي الْفَضْلِ ، عَلَى مَا سَتَقِفُ
عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَهِيَ :

الحمد لله الذي جعل للعلم جلالاً تودُّ جلائل الفضائل أن تكون له أتباعاً ، وأطلق
السنة الأعلام من جميل شأنه بما أنطق به السنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من
مأثور فضله إجماعاً ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنعش
قلوباً ونزه أبصاراً وشنف أسماعاً .

أحمدُ على أن أفاض نتائج الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح ،
وبث جياد الألسنة في ميدان الجدال فحاز قصب السبق منها كل لسان ذليق فصيح .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى قَهَرَتْ بَيِّنَاتُ دَلَالِهِ الْمُلْحِدَ
المَعَانِدَ، وَبَهَرَتْ قَوَاطِعُ بَرَاهِينِهِ الْأَلَدَّ الْخَصِيمَ وَالْجَدِلَ الْمَيْكِيدَ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ الذى أَظْهَرَ مِنْ وَاضِحِ الْحَجَجِ الْجَلِيلَةِ مَا سَقَطَ بِحُجَّتِهِ دَعْوَى الْمُعَارِضِ، وَأَتَى
مِنْ فَصْلِ الْخِطَابِ بِمَا أَفْخَمَ بِهِ الْخَصُومَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَشَدُّهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ شِكِيمَةً أَنْ
يَأْتِيَ لَهُ بِمُنَاقِضٍ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَازُوا مِنْ جَلِيلِ الْمُنَاقِبِ بِكُلِّ
وَصِفٍ جَمِيلٍ، وَأَشْتَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ مَفَاخِرُهُمْ فَلَمْ يُحْتَجْ فِي إِثْبَاتِهَا إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ؛
صَلَاةٌ تُنَمِّسُكَ فِي دَعْوَى الشَّرَفِ بِمَتْنَيْنِ حَبْلُهَا، وَتَتَّفِقُ أَدْلَةُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ عَلَى الْقَطْعِ
بِعُلُوشَانِهَا وَتَوْفِيرِ فَضْلِهَا .

وبعد ، فلما كانت العلومُ مشتركةً في أَصْلِ التَّفْضِيلِ ، مُتَّفَقَةً الْفَضْلُ فِي الْجُمْلَةِ
وإن تَفَاوَتْ فِي التَّفْصِيلِ ؛ مُسَلِّمًا أَصْلَ الشَّرَفِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مُنَازَعٍ ، مُجْمَعًا عَلَى أَنَّهُ
لَا شَيْءَ مِنَ الْعِلْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِلْمٌ بَصَارٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَهْلٌ
بِنَافِعٍ ؛ مَعَ آخِلَاتِهَا فِي التَّفَاضُلِ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، وَتَفَاوُتِهَا فِي الشَّرَفِ بِحَسَبِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا أَوْ وَثَاقَةِ حُجَّتِهَا أَوْ نَفَاسَةِ غَايَاتِهَا ؛ عَطَسَ كُلُّ مَنْهَا بِأَنْفٍ شَاخٍ غَيْرِ مُسَلِّمٍ
لِلْآخِرِ وَلَا مُسَالِمٍ ، وَمَدَّ إِلَى الْعِلْيَاءِ يَدَ الْمَطَاوِلَةِ فَتَنَاولَ الثَّرِيًّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ ؛ وَادَّعَى
كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَحْرَهُ الطَّامِي ، وَفَضَّلَهُ النَّامِي ؛ وَجَوَّادَهُ الطَّامِحَ ، وَسَمَّاكَهُ الرَّامِحَ ؛ زَاعِمًا
أَنْ حُسَامَهُ الْقَاطِعَ وَعَضْبَهُ الْقَاضِبَ ، وَقَدَحَهُ الْمُعَلَّى وَسَهْمَهُ الصَّائِبَ ، وَتَجَمَّهُ السَّارِي
وَشِهَابَهُ الشَّاقِبَ ؛ وَأَنْ تَشْرَ الثَّنَاءَ عَلَى 'مَجَامِرِهِ مَوْقُوفٍ ، وَخَطِيبِ الْحَمَامِدِ بِمَنَابِرِهِ
مَعْرُوفٍ ؛ وَفَلَكَ الْفَضْلَ عَلَى 'قُطْبِهِ دَائِرٍ ، وَكُلِّ شَرَفٍ عَلَيْهِ مُحَبَّسٌ وَكُلِّ فَخْرٍ عَلَيْهِ قَاصِرٌ ؛
فَمَاسَ بَعْطِفِهِ وَمَالَ ، وَبَسَطَ فِي الْكَلَامِ لِسَانَهُ فَقَالَ وَطَالَ .

هذا : وإِنَّمَا أَجْتَمَعَتْ يَوْمًا أَجْتِمَاعٌ مَعْنَى لَا صُورَةَ ، وَقَامَتْ لَهَا سُوقٌ بِالْبَحْثِ
مَعْرُوفَةٌ وَعَلَى الْحِدَالِ مَقْصُورَةٌ ؛ وَتَفَاوَضَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَتَخَاطَبَتْ ، وَتَحَاوَرَتْ

فِي دَعْوَى الشَّرَفِ وَتَجَاوَبَتْ ، وَالْمَتْ بِالْمُنَافَرَةِ فَتَنَافَرَتْ ، وَتَسَابَقَتْ فِي مِيدَانِ
الْإِفْتِخَارِ فَتَنَافَحَتْ ، وَأَخَذَ كُلُّ مَنِهَا فِي نُصْرَةِ مَذْهَبِهِ ، وَتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بِأَنْوَاعِ الْمُجْجِ
وَالْأَسْتِدْلَالِ ، وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْتِرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلُ بَادِيٍّ بِدَأِّهَا بِالْكَلَامِ ، وَفَتَحَ بَابَ الْحِدَالِ وَالْخِصَامِ : -

عِلْمُ اللُّغَةِ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ الْعُلُومِ أَنَّيْ أَعْمَكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعَكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرَكُمْ جَمْعًا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَكَ تَدَوُّرِ الدَّوَائِرِ ، وَبِوَاسِطَتِي تُدْرِكُ الْمَقَاصِدَ وَيَسْتَعْلِمُ مَا فِي الضَّمَائِرِ ؛ وَبِدَلَالَتِي تُعْلَمُ
الْمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَمَيَّزُ مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدَوَاتِ ؛ وَتَتَبَيَّنُ دِلَالَاتُ
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالْأَشْخَاصِ ؛
عَلَى أَنْ كُلُّكُمْ كُلٌّ عَلَى ، وَحُتَاجٌ فِي تَرْجُمَةٍ مَقْصُودِهِ إِلَى ؛ فَلَفْظِي " الْمُحْكَم " وَأَقْوَالِي
" الصَّحَاح " ، وَكَلَامِي " الْجَامِع " وَسَيْفُ لِسَانِي " الْمُجَرَّد " نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ؛ وَفَضْلِي
" الْمُجْمَل " لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرَهُ بِي
مَعْرِفَةٍ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خَصِيصَةً لَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .^(١)

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيلُهُ ، وَبَانَتْ لِلْمُسْتَبِيرِ سَبِيلُهُ ؛ تَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلِنَفْسِهِ وَلِسَائِرِ الْعُلُومِ مُتَّصِرًا ؛ فَقَالَ : رُؤَيْدُكَ أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ يَا ذَا
الْمُنَاضِلِ ؛ فَقَدْ دَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُهُ مِنْ تَرْفَعٍ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَلَوْ عُقِدَتْ
عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ؛ وَمَا يُجِيدُ الْبَازِي بَغِيرَ جَنَاحٍ ، أَوْ يُغْنِي السَّاعِي إِلَى الْحَرْبِ بَغِيرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَنْيَ يَطْعُنُ رُحْمٌ بَغِيرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقْطَعُ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ
بَنَانٌ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرَقْتَ أَصْلًا ؛ وَكُنْتَ لِلْكَلَامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الَّذِي فِي كِتَابِ اللُّغَةِ « خَصِيصَتِي » وَيَمُذُّ .

بَيَانِ المقاصدِ إِمَامَا ؛ فَأَنْتَ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِنَفْسِكَ ، وَلَا قَائِمٌ بِرَأْسِكَ ؛ بَلْ أَنَا الْمُتَكَفِّلُ
بِتَأْسِيسِ مَبَانِيكَ ، وَالْمَلْتَمِزُ بِتَحْرِيرِ أَلْفَاظِكَ وَتَقْرِيرِ مَعَانِيكَ ؛ بِي تُعَرَفُ أَصُولُ أُبْنِيَّةِ
الْكَلِمَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا ، وَكَيْفِيَّةُ التَّصَرُّفِ فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ
مِنْ أَحْوَالِ الْحُرُوفِ الْبَسِيطَةِ وَتَرْتِيبِهَا ، وَآخِلَافِ مَخَارِجِهَا وَبَيَانِ تَرَكِيبِهَا ؛ وَالْأَصْلِيُّ
مِنْهَا وَالْمَزِيدُ ، وَالْمَهْمُوسُ وَالرَّخْوُ وَالشَّدِيدُ ؛ وَتَقْدِيرُهُ ، وَالصَّحِيحُ وَالْمُعْتَلُّ ^(١)
وَتَحْرِيرُهُ ، وَكَيْفِيَّةُ التَّنْثِيَةِ وَاجْتِمَاعُ ، وَالْفَصْلُ وَالْوَصْلُ وَالْإِبْتِدَاءُ وَالْقَطْعُ ؛ وَأَنْوَاعُ الْأُبْنِيَّةِ
وَتَغْيِيرُهَا عِنْدَ اللَّوَاحِقِ ، وَكَيْفِيَّةُ تَصْرِيفِ الْفِعْلِ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنِ الْعَوَائِقِ ؛ وَأُمُثْلَةُ
الْأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ فِي الزَّنَةِ وَالْهَيْئَةِ وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ ، وَتَمَيِيزُ الْجَامِدِ
مِنْهَا وَالْمُشْتَقِّ وَأَصْنَافِ الْأَشْتِقَاقِ : وَكَيْفَ هُوَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ .

عَلَى أَنَّكَ لَوْ خُلِّيتَ وَمَجْرَدَ التَّعْرِيفِ ، وَبَيَانِ الْمَقَاصِدِ بِالْأَصْطِلَاحِ أَوْ التَّوْقِيفِ ؛
لَكَانَ عِلْمُ الْخَطِّ يَقُومُ مَقَامَكَ فِي الدَّلَالَةِ الْحَالِيَّةِ لَدَى الْمُتَلَقِّ ، وَيَتَرَجَّحُ عَلَيْكَ بَعْدَ
الْمَسَافَةِ مَعَ طُولِ الْبَقَا ؛ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ تَرْتِيبِ الْأَحْوَالِ ، وَضَبْطِ الْأُمُورِ ؛
وَحِفْظِ الْعُلُومِ فِي الْأَدْوَارِ ، وَاسْتِمْرَارِهَا عَلَى الْأَكْوَارِ ؛ وَاتِّعَالِ الْأَخْبَارِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى
زَمَانٍ ، وَحُمُلِهَا سِرًّا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؛ بَلْ رُبَّمَا أَكْتَفَيْتَنِي بِالإِشَارَةِ وَالتَّلْوِيحِ ،
وَقَامَتِ الْكَلَامَةُ مِنْهَا مَقَامَ التَّصْرِيحِ .

فَعِنْدَهَا غَضَبُ عِلْمِ النَّحْوِ وَكَفْهَرُ وَزَجَرِ وَأَشْمَحَرٍ ؛ وَقَالَ : يَا لِلَّهِ ! ” أَسْتَنْتِ
الْفِصَالُ حَتَّى الْقَرْعَا “ ، ” أَسْتَنْسَرْتُ الْبَغَا “ ، فَكَانَ أَشَدَّ ثُلْمَةً وَأَعْظَمَ صَدْعًا ؛ لَقَدْ
أَدْعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ فَفَاتَكَ الْحُبُورُ ، ” مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يَنْلِ فَهُوَ كَلَايِسُ تَوْبَى زُور “ ؛
وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا بَضْعَةٌ مِنِّي ؟ ، تُسْنَدُ إِلَيَّ وَتَنْقُلُ عَنِّي ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَمُكَ أَبَاً مِنْ أَبَوَائِي ،

وَجُمْلَتِكَ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي ؛ حَتَّى مِيزَكَ "الْمَازِنُ" ، فَأَفْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 "أَبْنُ جَنِّي" ، فَتَبِعَهُ فِي التَّالِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ "ابْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ "أَبْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَتِهِ فَرَقَ عَنْكَ الْحَاجِبُ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيٌّ ضَمْنِ كُتُبِي ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسَبُكَ لِاحِقٌ بِحَسَبِي ؛
 أَنَا مِلْحُ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَعْنِي عَنِّي مِتْكَامٌ ، وَلَا يَلِيقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ
 وَلَا مُتَعَلِّمٍ ، بِي تَبِينُ أَحْوَالُ الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دِلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيَرْتَفِعُ اللَّبْسُ
 عَنْ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَةِ وَالْعَائِدِ ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمِتْكَامُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَحْنٍ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ ، وَزَالَتْ طِلَاوَتُهُ ، وَعِيبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغَيَّرَتْ دِلَالَتُهُ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلَفَاءُ تَحْتُ عَلَى النَّحْوِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْذَرُ اللَّحْنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ جُمْلَةً ، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِ
 بِصَدْقِ الْعَزْمِ فِي اللَّقَاءِ حَمْلَهُ ؛ وَقَالَتْ : جَعَجَعَةُ رَحًا مِنْ غَيْرِ طِخْنٍ ، وَتَصْوِيتُ
 رَعْدٍ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ أَتَيْتَ بِغَيْرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنْ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ؛
 الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ بَلْخَجُ ؛ إِنْ الْفَوْزَ لِقِدْحِنَا ، وَالْوَرَى لِقِدْحِنَا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْعَرَبِيَّةِ وَخُلَاصَتِهَا ، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا ؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِمَالُ فَأَمِنْتَ الْأَطْرَاحَ ؛ فَلَوْ أَصْطَلَحَ عَلَى
 نَصْبِ الْفَاعِلِ وَرَفَعَ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخْلُ بِالتَّفَاهِمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لَذَلِكَ أَقْوَمُ
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشُّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ تَسَيَّمْتُ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَلْتُمْ ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيبْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرْدُونٍ ، وَعَنَى تَصْدُرُونِ ؛

وإلى تَنَسُّبُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْتَمَلْتُ عليه من المدح الذى كم رَفَعَ وَضَعًا،
وَجَلَبَ نَفْعًا، وَوَصَلَ قَطْعًا، وَجَبَرَ صَدْعًا، وَالْمَجَّو الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وَأُنْحَدَ ذِكْرًا،
وَجَعَلَ بَيْنَ الرَّفِيعِ وَالْوَضِيعِ فى حَظِيطَةِ الْقَدْرِ نَسْبًا وَصِهْرًا، إلى غير ذلك من أنواعِ
الشَّعْرِيَّةِ التى شَاعَ ذِكْرُهَا، وَأَصْنَوَاعِ الْعِطْرِيَّةِ التى فَاحَ نَشْرُهَا، بل لا يكاد عِلْمٌ من
العلوم الأَدَبِيَّةِ يَسْتَغْنِي عن شَوَاهِدِى، ولا يَخْرُجُ فى أَصُولِهِ عن قَوَائِنِى وَقَوَاعِدِى؛
حَتَّى عِلْمُ النَّثْرِ الذى هُوَ شَقِيقُ فى النَّسَبِ، وَعَدِيلُ فى لِسَانِ الْعَرَبِ؛ لَمْ يَزَلْ أَهْلُهُ
يَتَطَفَّلُونَ عَلَىِّ فى بَيْتٍ يَحِلُّونَهُ، وَيَقِفُونَ من يَدِيعِ مَحَاسِنِى عِنْدَ حَدٍّ لَا يَتَعَدَّوْنَهُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْقَافِيَةِ : إِنَّكَ وَإِنْ تَأَلَّقَ بَرْقُ مَبَاسِمِكَ، وَطَابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ؛ فَأَنْتَ
مَوْقُوفٌ عَلَى مَقَاصِدِى، وَمُعْتَرِفٌ من رَوَى مَوَارِدِى؛ أَنَا عُدَّةُ الشَّاعِرِ، وَعُمْدَةُ النَّاثِرِ؛
لَا يَسْتَغْنِي عَنِ شِعْرٍ وَلَا خَطَابَةٍ، وَلَا يَسْتَنْكِفُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِ دُورِ تَرْسِلِ
وَلَا كِتَابَةٍ؛ طَالَمَا عَثَرَ الْفُحُولُ فى مِيدَانِى، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقِ فَضْلُوا السَّبِيلِ
وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْمَبَانِى؛ فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ التَّكَوُّسِ وَالتَّرَاكِبِ فى التَّعَارُفِ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا
بَيْنَ التَّدَارُكِ وَالتَّوَاتُرِ وَالتَّرَادُفِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْعُرُوضِ : لَقَدْ أَسْمَعْتَ الْقَوْلَ فى الدَّعْوَى من غير تَوْجِيهِ فَدَخَلَ
عَلَيْكَ الدَّخِيلُ، وَأَوْقَعَكَ الْوَصْلُ دُونَ تَأْسِيسِ فى هُوَّةِ النَّقْصِ : فَهَلْ إِلَى خُرُوجِ
من سَبِيلٍ؟ أَنَا مَعْيَارُ الْفَرِيزِ وَمِيزَانُهُ، وَعَلَى ثُبْنِ قَوَاعِدِهِ وَأَرْكَانِهِ؛ لَمْ يَزَلِ الشَّعْرُ
فى عُلُوِّ رُتْبَتِهِ بِفَضْلِي مُعْتَرِفًا وَلَحَقَى مُتَحَقِّقًا، وَمِنْ بُحُورِى مُعْتَرِفًا، وَبِأَسْبَابِى مُتَعَلِّقًا؛
فَأَبْيَانُهُ بِمِيزَانِى مُحَرَّرَهُ، وَأَجْرَائِهِ بِقِسْطَائِى تَفَاعِيلِ مُقَدَّرَهُ؛ وَبِقَوَاصِلِى مُتَّصِلَهُ،
وَبِأَوْتَادِى مُرْتَبِطُهُ غَيْرُ مُنْفَصِلِهِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوْسِيقِ : لَقَدْ أَسْرَفْتَ فى الْإِفْتِخَارِ فَضَلَّاتِ الطَّرِيقِ وَبَنَتْ عَنْهَا،
وَوَرَّطَتْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةً لَا تَنْفَكُ عَنْهَا؛ وَأَتَيْتَ من طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنقل قولاً ، وجئت من بسط القول بما لو اقتصرته منه على المتقارب لكان بك أولى ؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه ، وآخرت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بضره ولا عروضة ؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك ، ولا عبرة بك ولا معمول عليك ؛ وكفى بك هضماً ، ونقيصة وذمماً ؛ واستدلالاً على دحض حجتك ، وضعف أدلتك ؛ قول ابن حجاج :

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولٌ * مسائلُ كُلِّها فُضُولُ ،

قد كان شعراً لورى صحيحاً * من قبل أن يُخلق الخليل !

على أنه إن ثبتت لك فائدة ، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عأده ؛ فأنما تفاعيلك مقدمة للآلحاني ، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني ؛ نعم أنا غذاء الأرواح ، وقاعدة عمود الأفرح ؛ والمتكفل بسط النفوس وقبضها ، والقائم من تعديلها وتقويتها بنفلها وقرضها ؛ أحرّك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم ، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد الهموم والندم ؛ فتارة تستعمل في الأفرح وزوال الكرب ، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب ؛ وأونه في محل الأحران واجتماع المآتم ، ومرة يستعملني قوم في بيوت العبادات فأبعثهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم ؛ وآتى من غريب الألحان ، بما يشبع به الجائع ويروى به الظمان ، ويأس به المستوحش وينشط به الكسلان ؛ وتدنو لسماعه السباع ، ويعنوه بعد الشدة الشجاع .

مع ما يفتقر عنى من علم الآلات الروحانية التي تُنعش الأرواح ، وتُجلب الأفرح ؛ وتنفي الأتراح ، وتؤثر في البخيل السّماح ، وتُفعل في الألباب ما لا تفعل في اللَّبَّات بيض الصّفاح .

فَقَالَ عِلْمُ الطَّبِّ : لَقَدْ أَضَعْتَ الزَّمَانَ فِي اللَّهْوِ ، وَمِلْتَ مَعَ الْأَرِيحَةِ فَنَاسَ بِكَ
 الْعُجْبُ وَزَادَ بِكَ الزَّهْوُ ، وَدَاخَلَكَ الطَّيْشُ فَقَنِعْتَ بِالْإِطْرَابِ ، وَعُنَيْتَ بِمَعْرِفَةِ اللَّحْنِ
 فَفَاتَكَ الْإِعْرَابُ ، تُذَكِّرُ الْعُشَّاقَ أَحْوَالَ النَّوَى فَيُسَلِّمُهَا الْهَوَى إِلَى الْهَوَانِ ، وَتَنْتَقِلُ
 فِي نَوَاحِي الْإِيْقَاعِ تَنْقُلُ الْمَهَائِمَ فَيُتَمَسِّى فِي حِجَازٍ وَتُصْبِحُ فِي أَصْهَانٍ ، وَأَنْتَ وَإِنْ
 أَدْعَيْتَ أَنَّكَ الْعِلْمُ الرُّوحَانِي ، وَالْمُسْتَوَلَى بِتَحْرِيكِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ عَلَى النَّوعِ الْإِنْسَانِي
 وَغَيْرِ الْإِنْسَانِي ، فَأَنْتَ غَيْرُ مُسْتَعْنٍ عَنِّي ، وَلَا فَئِكَ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْفَكٌّ عَنِّي ؛ بَلْ
 قَوَاعِدُكَ مُرْتَبَةٌ عَلَى قَوَاعِدِي ، وَفَوَائِدُكَ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ فَوَائِدِي ، وَأَهْلُ صِنَاعَتِكَ
 يَتَطَفَّلُونَ فِي مَعْرِفَةِ الْمَلَائِمِ وَالْمُنَافِي عَلَى سَاقِطِ لُبَابِ مَوَائِدِي ، وَأَنْتَ تَبْسُطُ بِكَ الرُّوحَ
 مَعَ وُجُودِ السَّقَمِ ، أَوْ يَسْتَرِيحُ إِلَيْكَ الْقَلْبُ مَعَ شِدَّةِ مُقَاسَاةِ الْأَلَمِ ؟ ؛ بَلْ أَنَا قَوَامُ
 الْأَبْدَانِ ، وَغَايَةُ مَلَائِكِ الْإِنْسَانِ ؛ بِي تُحْفَظُ صِحَّةُ الْأَجْسَامِ ، وَتُمَكِّنُ النَّفْسُ مِنْ
 اسْتِكْمَالِ قُوَّتَيْهَا النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ بِوَسْطَةِ زَوَالِ الْأَسْقَامِ وَأَنْتِفَاءِ الْأَلَامِ ؛ مَعَ مَا يَتَضَحُّ
 بِالْظُّرِّ فِي التَّشْرِيحِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ مِنْ سِرِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا
 تُبْصِرُونَ ﴾ . وَمَا يَظْهَرُ مِنْ حَالِ الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَسِرِّ الْمَوْتِ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى بَدَأَ الْخَلْقَ
 أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ يَحْشُرُونَ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِبِي مِنْ عِلْمِ خَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَحْجَارِ الَّتِي تُؤَثِّرُ بِتَمْيِيزِهَا
 الصَّنَاعِيَّ التَّأْثِيرَ الْعَجِيبَةَ ، وَتَأْتِي مِنْ نَوَادِرِ الْأَفْعَالِ بِالْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ عَلَى أَنَّي لَسْتُ
 بِمُخْتَصِّصٍ فِي الْحَقِيقَةِ بِبَدَنِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا قَاصِرٍ عَلَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَإِنَّمَا
 أَفْرَدْتُ بَنُوْعَ الْبَشَرِ أَهْتِمَامًا بِشَانِهِ ، وَتَنْبِيْهًُا عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَعُلُوِّ مَكَانِهِ .

ثُمَّ أَلْحَقَ بِالْإِنْسَانِ فِي الْأَعْتِنَاءِ بِهِ الْخَيُْولَ فَاسْتَقَتْ لَهَا مِنِّي عِلْمُ الْبَيْطَرَةِ ، وَتَلَاهَا
 فِي الْأَعْتِنَاءِ جَوَارِحُ الطُّيُورِ لِأَهْتِمَامِ الْمُلُوكِ بِشَانِهَا فَاسْتَنْبَطْتُ لَهَا مِنْ أَجْزَائِ عِلْمِ الْبَيْزَرَةِ ؛
 وَأَهْمَلْتُ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانِ ، فَلَمْ يُعْتَنَ بِأَمْرِهِ وَلَمْ يُهْتَمَّ لَهُ بِشَانِ .

فقال علم القافّة : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ، وولجت موجيا صلبا ؛ وأتيت من مشكلات القضايا بما ضاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يغالبه ؛ واقتصرت في تشريحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ، وأضربت عما تدل عليه بصورها وكمياتها ؛ أين أنت من إلحاق الابن بالأب بالصفات المتماثلة ، والحكم بثبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يُحكم بالبيدة العادلة ؟ ؛ فهذه هي الفضيلة التي لا تُساوى ، والمثقة التي لا تُعادل ولا تُساوى ؛ وكفالك لذلك شاهدا ، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مُساعدا ؛ وأنه لا يفتور ذلك مُعارضه ولا نقض ، استبشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مدح المدلحي : « إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجتهدك لمصيب ؛ غير أنني أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة بمنزلة ، وتقيس فرعاً على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ؛ وأنا فأدرك المؤثر من الأثر ، وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدرب ؛ وربما ميزت أثر البعير الشارد من المراتع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والطالع ؛ فادركت من الأمر الخفي ما تدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضي به على الحاضر .

فقال علم غصون الكف والجبهة : ما الذي أتيت به من الغريب ، أو أظهرته بعلمك من العجيب ؟ ؛ فلو أتيت بأرض صلبة لوقفت أمامك ، أو تحت الريح معالم الأثر لطلت أعمالك ؛ أو ولج من ثقفي أثره المساء لقات حدسك الصائب ، أو جعل الماشي مُقدّم نعله مؤخره لقلت : إن الداهب قادم والقادم ذاهب ؛ لكن أنا كاشف الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما ركب فيه من الدلائل الخفية ؛

أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَبَمَةِ وَغُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْشَدَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دِلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكَتِفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلَازِمِهِ أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَعْجَبٌ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخُطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كَتِفِ الدَّيِّجَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خَطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ تُتَرَجِّمُ ، وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرُّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارُبِ ، مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيتَ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِعْمَالِ ، أَمَا أَنَا فَقَارِسُ هَذَا الْمِيدَانِ ، وَمَالِكُ زِمَامِ هَذَا الشَّأْنِ ، فَكَمْ مِنْ ضَمِيرٍ أَبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ، وَمَكَانٍ عَيَّنْتُهُ فَوَافِقٍ ، وَأَمَدٍ قَدَّرْتُهُ فَطَاقٍ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا أَثْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ، فَإِنْ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرْتَ فِي الْإِحْتِجَاجِ خَصْمَكَ ، فَمَا كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَنَ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَعْيِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنِ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ، فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَدْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْإِحْتِمَالِيَةِ ، أَيْنَ أَنْتَ مَنِيَّ حِينَ أُعْبِرُ عَنْ شَاهِدَتِهِ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أُكْشِفُ عَنْهُ الْمُحْجَبَ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كِفَافُ الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَأَخْبِرُ بِحَوَادِثٍ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وَجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّدَارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُنَبِّهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ تُحُوسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمُوَافَاتِ سَعُودِهَا .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجُومِ : حَقِيقُ مَا أَوَّلْتُ ، وَصَحِيحُ مَا عَنْهُ عَبَّرْتُ وَعَلَيْهِ
عَوَّلْتُ ؛ إِلَّا أَنْكَ قَاصِرٌ عَلَى وَقَائِعِ مَخْصُوصَةٍ تُرْشِدُ إِلَيْهَا ، وَأُمُورٍ مَحْدُودَةٍ تُنَبِّئُهُ عَلَيْهَا ؛
عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا نَسَّاتِ الرُّؤْيَا عَنْ فِكْرَةٍ وَقَعَتْ فِي الْيَقَظَةِ فَأَتَصَلَّتْ بِالنَّامِ ، أَوْ حَدَثَتْ
عَنْ سُوءِ مَزَاجٍ أَوْ رَدَاءَةِ مَطْعَمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَكَانَتْ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ؛ أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَدُلُّ
بِمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَادَةِ ، عَلَى الْحَوَادِثِ الْعَامَةِ مَصَاحِبًا لِمُقْتَضَيَاتِ الْإِرَادَةِ ؛
لِيُظْهِرَ مَا فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ قَضَايَا التَّدْبِيرِ ، وَيَبَيِّنَ مَا أَشْمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَفْلاكُ
الْعُلُويَّةُ مِنْ تَقْدِيرِ التَّرْتِيبِ وَتَرْتِيبِ التَّقْدِيرِ ؛ مَعَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ
الْعَجِيبَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ الَّتِي تَبْهَرُ الْعُقُولَ ، وَيَمْتَنِعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ
الْوُصُولِ :

مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَعِلْمِ الطَّلَسِمَاتِ الْغَرِيبَةِ وَعِلْمِ الْأَوْفَاقِ ،
وَكَذَلِكَ عِلْمِ النِّيرِنَجِيَّاتِ وَعِلْمِ السِّيمِيَا الْآخِذِ بِالْأَحْدَاقِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحَبِيشَةِ : مَا لَكَ وَلَا بِأَطِيلَ تُمَقُّهَا ، وَأَكَاذِيبَ تُزَحْرِفُهَا وَتُزْبِرُ قُهَا ؛
وَأَمَّا نِيلَ يَعْتَمِدُهَا الْمُعْتَمِدُ فَتَخِيبُ ، وَأَقَاوِيلَ تَارَةٍ تُحْطِئُ وَتَارَةً تَصْهَبُ ؛ وَلَقَدْ وَرَدَتْ
الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ بِالنَّهْيِ عَنْ أَعْتِبَارِكَ ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الْفَرَاءُ بِنَحْوِ أَخْبَارِكَ وَإِعْفَاءِ
آثَارِكَ ؛ وَنَاهَيْكَ بِفَسَادِ هَذَا الْإِعْتِقَادِ وَرَدَّ هَذَا الْمَذْهَبِ ، مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ
أَنَّهُ مِنْ قَالَ : مُطَرَّنَا بَنُو كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ ؛ عَلَى أَنَّكَ فِي الْحَقِيقَةِ
نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ ، مَعْدُودٌ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمَحْسُوبٌ مِنْ أَتْبَاعِي ؛ نَعَمْ أَنَا الْقَائِمُ مِنْ دَلِيلِ
الْأَعْتِبَارِ فِي الْقُدْرَةِ بِتِمَامِ الْفَرَضِ ، وَالْقَائِدُ بِزِمَامِ الْعَقْلِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ؛ عَنِّي يَتَفَرَّعُ عِلْمُ الزِّيجَاتِ وَالتَّقَاوِيمِ الَّذِي بِهِ يُعْرَفُ مَوْضِعُ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَمُدَّةُ إِقَامَتِهَا ، وَزَمَنُ تَسْرِيقِهَا وَتَغَرِّبِهَا وَمِقْدَارُ رُجُوعِهَا

وَأَسْتَقَامَتَهَا ؛ وَحَالُ ظُهُورِهَا وَأَخْفَائِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْإِتِّصَالِ
وَالْإِنْفِصَالِ وَالْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ وَاخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ .

فَقَالَ عِلْمُ كَيْفِيَّةِ الْأَرْصَادِ : مَا عِلْمُ الزَّيْجَاتِ وَالتَّقَاوِيمِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى ،
وَتُؤَخِّرُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَى ؛ إِذْ بِي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَكيَّةِ ،
وَالْتَوْصُلِ إِلَيْهَا بِالْآلَاتِ الرَّصَدِيَّةِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَبُ عِلْمُ الزَّيْجَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ
الْإِتِّصَالَاتُ وَالْإِنْفِصَالَاتُ وَالْأَمْتَرَا جَاتُ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكُرَّةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ آتِخَاذِ الْآلَاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،
وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوَاقِيتِ : كَيْفَ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَزَعِيمُهَا ، وَشَرِيفُهَا فِي الشَّرِيعَةِ
وَكَرِيمُهَا ؛ بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْجِهَاتِ ؛
وَتُعَلَّمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَمَحَلُّهَا مِنَ الْمَعْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَبْعَادِهَا
وَأَنْحِرَافُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ؛ مَعَ مَا يَنْخَرِطُ فِي هَذَا السَّلْكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ
وَأَرْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَالَعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّلَاعِ مِنْهَا وَالْعَارِبِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ
مِنْ الشُّعَاعَاتِ الْمَخْرُوطَةِ ، وَالظَّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمَبْسُوطَةِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ،
وَيُنْسَبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِي :

مِنْ عِلْمِ الْآلَاتِ الظِّلِّيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيُظْهِرُ مِنْهَا الْمَاضِي
وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُتَمَسِّسٍ وَأَطْفِ اعْتِبَارٍ ، مِنْ نَحْوِ الرُّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمَبْسُوطَاتِ
مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ : إِنْ فَضَّلَكَ لِمَشْهُورٍ ، وَمَقَامَكَ فِي الشَّرَفِ غَيْرِ مَنْكُورٍ ؛ إِلَّا أَنْ
الْآتِيكَ بِي مُقَدَّرُهُ ، وَأَشْكَالَكَ بِأَوْضَاعِي مُحَرَّرُهُ ؛ فَأَنَا إِمَامُكَ الَّذِي بِهِ تَقْتَدِي ، وَتَجْمَلُ

الذي به تهتدي ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوه ، ولم يميز بين الخطوط والقسي والدوائر المقدره ؛ مع ما ينشأ عنى ، ويستملئ من صحابي ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولواحقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سبيله أن يعمل لها ؛ واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين البينة القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛ ونور عيونك ، وعروس فنونك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأبنية وحفر الأنهار ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتنضيد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأشجار وترتيب الرياض ذوات الخمائيل .

فقال علم جبر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك ، وحامل أثقالك وعمود اعتمادك ؛ بى تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيره ، حتى تسقل مائة ألف رطل بقوة تحميانه وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيره .

فقال علم مراكر الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومتوقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث استخراج مراكر الأجسام المحموله ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومفردة عنك بكثير من المعانى ؛ من أخرج والزرعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمدورات ،
والمستطيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كميات المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترفت أنك من جملة لواحقي ، مندرج في حقوق
وداخل تحت مرافقي ، فأنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمحدد
بك دون غيري من غير التباس ؛ مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء
كونه إلى تمام تدبيره ، وتنمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحللها
من المعفونات كالسماد وغيره وما أيديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض واستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني أنا بداية عمالك ، وغاية متهى أملك ؛ لا يتم لك
أمر يدوني ، ولا تنبت لك خضرأ ما لم تسق من بتاري وعيوني ؛ فأنا الكفيل
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذي تجدي أنت وطرفي عنك مرشد ، ونظري إليك غير
ممتد ؛ وأنى تستطيع مياهلك الترقى من الأغوار إلى النجود ، وتنقل عيونك وأنبارك
بين الهبوط والصعود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك محافظا ،
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،
وما يغلط فيه البصر كالأشجار القائمة على شطوط المياه حيث ترى وأسافلها أعاليها .

(١)
فقال علم المرايا المحرقة : إنك وإن دقت النظر ، وحققت كل ما وقع عليه
حاسة البصر ، فأنا مقصودك الأعظم ، ومهمك المتقدم ؛ طالما أحرقت القلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المرأة جمعها مرأ كراع وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بُشْعَامِي، وَحَصَّنْتُ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْعَسْكَرَ
الْحَزَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفَرَادِي عَنْ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُضَادَّةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَدَّكَ لِكَيْلٍ ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ ، وَإِنْ
الْمُسْتَصْرِ بِكَ لَذَلِيلٍ ، وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ ، أَوْ تُسَلِّطَ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ ؟
أَنَا بَاغُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ ، وَالْمُحَصَّنُ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالتَّالِي بِلِسَانِ الصَّدْقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فَإِنَّا نَقُصُّ الْمَقْصُودَ وَعَيْنُ
الْمُرَادِ ، وَعُمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ ، وَمُوَاقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ النَّزَالِ ، وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ ، لَا تَسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ ، وَائْتِي يُغْنِي
السَّلَاحُ عَنْ أَلْبَانٍ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجَرَّبُ الشُّجَاعُ ،
فَالْعِبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ ، لَا بِالذَّوَابِلِ ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ ، لَا بِبَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ النَّزَالِ ،
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهُمَا ،
وَالْأَسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَا سَوَاهُمَا ، وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ ، وَعَنِّي يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ ، أُحَاوِلُ مُحَسِّنُ التَّهْدِيرِ ، مَا طَبَحَتْهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ ، فَاتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ ، وَأُجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَارَجَتِهَا
فَيُظْهِرُ عَنْهَا كُلَّ مَعْنَى غَرِيبٍ ، وَأُبْرِزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيحُ قَرَارًا
مِنْ غَيْرِ لَبْسٍ ، وَيُحِيلُ الزُّهْرَةَ شَمْسًا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ ، فَصَاحِبِي
أَبَدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُفْتَوَحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَفَعْتَ عَنَّا ، وَجَلَبْتَ غَنِيَّ ، فَأُمُورُكَ
الْجَمَّةُ ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ ، مُحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَابِي ، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنِ كُتَّابِي ، أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ، مع احتياج كثير من العلوم إلى الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ، ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعة ذكرى ، قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبنى وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الأكتساب ، ولأتصل التغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ، تكاد أن تكون بديةا حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ، يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصره ، وتتشعب عليك مدارك القسمة فتأق بها على التقريب غير محوره ، أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحجير أوصاعى ؟ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تخت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الحماة بخداه قاصر ونفعه قليل ، على أن غيرك يساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه ، وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مُصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حسبك فإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ كَشْفُ قِطْعَةٍ مِنْ قِطْرٍ ، أَوْ نُغْبِيَةٍ مِنْ بَحْرٍ ، تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرِيقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالُكَ النَّاكِبَةِ ، عَلَى مَا أَمَكَّنَ صَيُورَتَهُ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهَا ، وَأَبْنُ بَيْجَدَتِهَا ، وَأَخُو نَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَيَحْوُ هَذَا النِّحْوُ وَيَسْرَى هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْجُدُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ وَالْكُسُورِ .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مَالَكْ وَلِإِدْعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولاتِ الْعَدَدِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ الْعَوَارِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَاتَكَ حِينَهُ يَذِ الدَّعَاوَى الْخَصْرِيَّةِ ؛ لِكُنِّي أَنَا كَاشِفُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَمُبَيِّنُ سُبُلِهَا بِالْطَّيْفِ الطَّارِقِ ؛ فَيُ إِلَيْهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لِاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجَمَّلُ وَيُفَصَّلُ .

فقال علم حساب الدَّورِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ، وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَأَنَا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَةً ، وَأَجَلُّ مِنْهُ عَائِدَةً ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَدْوَرِ مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَّضِحَ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّوْرَ فَتَعُودُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسْلَسَلَ .

فقال علم الفقه : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا بُنْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ، تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِقِي ؛ بِي تُمَيِّزُ مَعَالِمَ الْأَحْكَامِ ، وَيَتَبَيَّنُ الْوَأَجِبُ وَالْمَنْدُوبُ وَالْمُبَاحُ وَالْمَكْرُوهُ وَالْحَرَامُ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتُ

وَتَجَرَّى بِهِ الْعَادَاتُ ؛ فَإِنَّا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَنَجْمُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَضَلَّ سَعَى الْمُكَلَّفِينَ ، وَلَأَمْسَوْا فِي دِيْهَانٍ
مُدْهَمَةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُخْلَفِينَ .

وَنَاهِيكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآحَادِ أَعْدَادِي : -

عَلِمَ الْفَرَائِضَ الَّذِي حَضَّ الشَّارِعَ عَلَى تَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ
مُنْبَهًا عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيمِهِ ؛ وَبَالَغَ فِي إِثْبَاتِ قَوَاعِدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْئَلِهِ ، فَقَالَ :
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أُصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَعَالٍ ، وَإِنَّ جِدِّكَ لِحَالٍ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفِّلُ بِتَقْرِيرِ أُصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُوكِ ؛
بِى تُعْرِفُ مَطَالِبَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقَ اسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادِّ حُجَجِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِهَا ؛ فَبِأُصُولِي فُرُوعَكَ مَقَرَّرَهُ ، وَبِحَاوِسِ
أَسْتِدْلَالِي مُحْجَبَكَ مُنْتَحَظَةً مُحَرَّرَهُ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنَيْتُ
عَلَى أَعْظَمِ الْأُصُولِ فُرُوعَكَ فَأَسْنَدْتُهَا لِلِكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَارِكِ ؛ بِى تُعْرِفُ كَيْفِيَّةَ تَقْرِيرِ الْحُجَجِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَقَوَادِحُ
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبِ الثَّبُوتِ الْخِلَافِيِّهِ ؛ فَمَوْضُوعَكَ عَلَى تَحْمُولِ ، وَنَظْرَكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ
حَالٍ مُوَكَّلِ .

فقال علم المنطق : حَفْضُ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطِقِيَّةِ
أَفَرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْمُبَاحِثِ الدِّيَلِيَّةِ لِمَخَالَطَتِ أَصُولِ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟ ؛
فَأَنْتَ إِذَا فَرَدْتَ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا أَشْتَمَلُ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَاطِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ
فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَمَاتِ وَالْمُسَاوَرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمَفِيدُ لِلتَّخِيلِ الْمَوْجِبِ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
كَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْقِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلُّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ نَعِصْمُ مَرَاغَاتِي الْفِكْرَ عَنِ الْخَطَا فَلَإِزِلْ ، وَتَهْدِيهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ
فَلَإِيحِدْ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلْ ، وَأَسْرِي فِي جَمِيعِ الْمَعْقُولَاتِ فَاتَصَرَّفْ فِيهَا
يَدِقُّ مِنْهَا وَيَجِلُّ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدْلَةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالتَّصْرِيحِ ،
أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْيِيحِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
وَتُسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْضَحَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسُنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
مُقَدِّمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَنَائُجِكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
أَنْتَى إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتَ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب ؛ إلا أن الدراية ، موقوفة على الرواية ؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه ، أو يتأني العلم بمعناه قبل الوقوف عليه ؛ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس ، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس ؛ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها ، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسمع المتصل وتحريرها وضبطها .

فقال علم التفسير : قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد ، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد ؛ إلا أنها وإن اتفقا في الدلالة والإرشاد ، فقد اختلفت الكتاب في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالأحاد . فقال علم القراءات : إلا أنه لا ينبغي للفسر أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ عالما ، وبلغاتها عارفا وللنظر في معانيها ملazما ؛ مع ما يلتحق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلقة من المصاحف بخطها ، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها .

فقال علم النواميس : (وهو العلم بمتعلقات النبوة) : إنك لفرع من فروع الكتاب المبين ، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين ؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها ، ومسيب الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها ؛ والفرق بين النبوة الحقة ، والدعاوى الباطلة غير المحقة ؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام ، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام ؛ فإنا المقدم على سائر العلوم الشرعية ، وإمام الأصلية منها والقرعية .

فقال علم الإلهي : لقد تحققت أن اللازم المحتم ، والواجب تقديمه على كل مقدم ؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها ، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وباعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحججكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحلول .

فقال علم أصول الدين : فحينئذ قد فُزْتُ من جمعكما بالشرفين ، وجمع لي منكما الفضل بطرفيه فصرتُ بكما معلّم الطرفين ؛ وميزتُ بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبينتُ طريق الحق لسالكها فكنتُ سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكل علم يستمدُّ مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، إذ كان كل أمرئ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازماً ، أن يكون عن دار الغرور متجافياً ولأعمال البرملازماً ؛ فانما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فتلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فتلك إذا كره خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن أغتر بزخرفها القاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتتابعت الحجج والمنافضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حسم مادة الحدال وطالباً ؛ وقال : أنا جدي لها المحكك وعديقها المرجب ، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب ؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يسوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يليق بالمنصف أن يتخطى قدره المحمود ولا يتعدى جزئه المقسوم ، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مِنْكُم سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوْقَ عِنْدَ مَا حُدِّدَ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقٌ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فَقَالَ عِلْمُ تَدْيِيرِ الْمَنْزِلِ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلِ الْخَطَّابَ ؛ لِكِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبْرٍ عَالِمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لِسَمْلِكُمْ جَامِعًا ، وَلِمَوَاقِعِ الشَّكِّ فِي حِلِّ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ، تَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حَدِّهِ وَمَوْضُوعِهِ وَفَائِدَتِهِ وَأَسْتِدَادِهِ ؛ لِيُبْلَغَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ مُنْتَاهَا ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدَّعِي مُدَّعٍ بغير مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنَّ الْحَيْطُ بِكُلِّكُمْ عِلْمًا ، وَالْقَائِمُ بِجَمِيعِكُمْ فَهَمًّا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْكِبَرِيَّةِ الْأَحْمَرِ ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيضِ الْأَنْوَقِ بَلْ بَيِضُ الْأَنْوَقِ فِي الْوُجْدَانِ أَكْثَرُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ ، وَبَابُنِ يَجِدَتِهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، وَبِمِطَّتِيهِ عِلِيمٌ ؛ فَلِلْعِلْمِ عَرَفٌ يَنْبَغُ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلَوُّجٌ عَلَيْهِ بَوَارِقُهُ وَإِنْ أَكَنَّهُ بَيْنَ جَوَانِبِهِ ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَحْفَى رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَّامٍ ، وَالنَّهَارُ لَا يَحْفَى ضَوْؤُهُ عَلَى ذِي بَصَرٍ وَإِنْ تَسْتَرَتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ الْغَمَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَمَلَةِ ، الَّذِينَ طَوَّايَاهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَفَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ، وَتَفَرَّسْتُ وَتَوَسَّمْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مَنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلُحُ لِقَطْعِ الْحِدَالِ وَإِنْخِصَامِ ؛ وَيَعْرِفُ بُلْغَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُضُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لِأَنْحِطَاطِهِ عَنْ بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الزَّانِحُ ، وَ (١) الَّذِي لَا يُعْلَمُ لِفَضْلِهِ أَوَّلٌ وَلَا يُدْرِكُ لِمَدَاهِ أَحَرُّ ؛ حَبْرُ الْأُمَمِ ، وَعَلَامَةُ الْأُمَمِ ؛ وَنَاصِرُ السُّنَّةِ وَحَامِيهَا ، وَقَامِعُ الْبِدْعَةِ وَقَامِيهَا ؛ تَجَلُّ (٢)

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامتها بالهمز تخففه من قهقهة كتمه قهقهة .

شيخ الإسلام ، وخلاصة غرر الأيام ، جلال الدين ، بقية المجتهدين ؛ أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي ، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية ، وسائر الممالك الإسلامية وما أضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية ؛ لا زالت فواضل الفضائل معروفة : فهو العالم الذي إذا قال لا يعارض ، والحاكم الذي إذا حكم لا يناقض ؛ والإمام الذي لا يتخال أجتهاده خلل ، والمناظر الذي ما حاول قطع خصم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا يقال : « سبق السيف العدل » :

إذا قال بذّ القائلين ولم يدع * لمتحمس في القول جدًا ولا هزلًا !

إن تكلم في الفقه فكأنما بلسان « الشافعي » تكلم ، و « الربيع » عنه يروى و « المزني » منه يتعلم ؛ أو خاض في أصول الفقه . قال « الغزالي » : هذا هو الإمام باتفاق ، وقطع السيف « الأبدى » بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق ؛ وأجرى في التفسير . قال « الواحدي » : هذا هو العالم الأوحد ، وأعطاه « ابن عطية » صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد ؛ وأترف له « صاحب الكشف » بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام « نضر الدين » : « هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل » فارتفع الخلاف وأندفع المعارض ؛ أو أخذ في القراءات والرسم أزرى بأبي « عمرو الداني » ، وعدا شاو « الشاطبي » في « الرائية » وتقدمه في « حرز الأمان » ؛ أو تحدث في الحديث شهد له « السفينان » بعلو الرتبة في الرواية ، وأترف له « ابن معين » بالتبريز والتقدم في الدراية ؛ وهتف « الخطيب البغدادي » بذكره على المنابر ، وقال « ابن الصلاح » : لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تنفذ المحابر ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرًا تعلق منه « أبو الحسن الأشعري » بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول « عمرو بن عبيد » و « وأصل بن

عطاء : لَيْتَنَّا لَمْ نَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظْرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَر « الْأَبْهَرِي »
 فِي مَنَازِلِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِي » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعَجَزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَدَلِ
 رَمَى « الْأَرْمَوِي » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِي » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ اعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدِهِ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقَرَّ بِالْعَجَزِ لَدَيْهِ
 « الْجَوْهَرِي » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ مَجْلِسَ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى التَّحْوِ
 وَالتَّصْرِيفِ أَرَبِيًّا فِيهِ عَلَى « سَيْبَوِيهِ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِي » لَهُ عَزْمَهُ فَسَارَ مِنْ
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُنْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَّ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِي » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ
 حَدَّهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِي » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرَزَى
 « الْأَصْمَعِي » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ
 لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي اسْتَحَقَّقَهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ
 الْمُتَدَارِكَ وَاعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِي » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ
 فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْنَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ
 « الرَّازِي » بِجُحْيِ الْمَوْتِ إِنْ « يَقْرَاطُ » لَوْ سَمِعَهُ لَمَّا صَنَّفَ « الْفُصُولَ » ؛ أَوْ جَنَحَ
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طُبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَذَبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ بِزِمَامٍ
 فَأَنْقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أَوْقَلِيدِسُ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْثَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَمَدَ
 « الْمُؤْتَمِنُ بْنُ هُوْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لَاعْتَرَفَ « أَبُو الرِّيْحَانِ الْبَيْروني » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو أَلْفَلَحٍ : هَذَا الْعَالَمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظْرَهُ
 لِقَالَ « السَّمَوِيُّ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْفَنَّ الدَّارِسُ ، وَنَادَى « أَبُو جَعْفَرٍ الْمَوْصِلِي »
 قَدْ أَنْجَلْتَ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لِعَامِهِ وَلَا عُمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِهِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنَّ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

وَكَيْفَ لَا تَأْتِي إِلَيْهِ الْعُلُومُ مَقَالِيدَهَا ، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا ، وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ
الْإِسْلَامِ وَإِمَامِهِ ، وَوَاحِدُ الدَّهْرِ وَعَلَامِهِ ، وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ ، وَمَنْ حَقَّقَ وَجُودَهُ
فِي أَوَانِ الْأَعْصَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَمَعِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضُوعُ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْمُولًا ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمِائَةِ الْأُولَى ، فَالْخَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْقَدُ ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُشْدُهُمَا فَاتَّشَدَ :

إِنَّ الْمِائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى * لَهَا عَمْرُ الثَّانِي لَذَا الدِّينِ صَاحِبُهُ ،
وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ * فَهَا عُمَرُ وَاقٍ عَلَى رَأْسِ ثَامِنِهِ
يُظَاهِرُهُ نَجْلٌ سَعِيدٌ غَدَتْ بِهِ * مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي ذُرَا الْحَقِّ آمِنِهِ .
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجُهُ * رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَنَهُ !
فَلَا يَعْدِمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عُلَاهُمَا * وَلَنْ يَبْرَحَا لِلدِّينِ دَأْبًا مَيَامِنَهُ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبْتَ سَوَاءَ الثُّغْرَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ ، وَعَرَفْتَ مِنْ
أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ ، إِلَّا أَنَّ مِنْ مُحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ ، أَنْ تَعُودُوا بِفَضْلِكُمْ ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرُوفِكُمْ وَبِرِّكُمْ ، إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّفَاقُحِ
مَجْرَى الْإِنْصَافِ ، وَبَسَطَ لِسَانَ كَلِمِهِ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مِنْكُمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ ،
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتِّفَاقِ وَالْإِتِّتَامِ حَبْلَكُمْ ، وَجَمَعَ بِالْحُلِّ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعَدِ
شَبْلَكُمْ ، وَذَكَرَكُمْ بِجُسُسِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَدِيمِ ، وَتَلَا بِلِسَانِ الْأَلْفَةِ فِيكُمْ :
(فَإِذَا الَّذِي يَبْنِيكَ وَيَبْنِيهِ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . بَانَ يَنْتَصِبُ كُلُّ مِنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَفِيلِ ، أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْعِنَايَةِ ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّعَايَةِ ، لِيَعْرِضَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ ، وَيَطْلُعَ

في أفق السَّعد بعد الأُفول غَارِبُهُ ؛ وَيَبْلُغُ مِنْ مُنْتَهَى أَمَلِهِ مَالَهُ جَهْدٌ ، وَيَسْعُدُ
بِالنَّظَرِ السَّعيد جَدُّهُ فَقَدْ قِيلَ : « مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ نَظَرُ السَّعيد سَعِدَ » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة
كما جمع لهما بين طَارِفِ الْحَمْدِ وتَالِدِهِ ؛ - قد فَتَحَ لَهُ مِنَ التَّرَقُّيِّ أَوَّلَ بَابٍ ، وَلَا شَكَّ
أَنَّ نَظْرَةً مِنْهُ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ تُرْقِيهِ إِلَى السَّحَابِ .

فَازَرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أَيْضِهِ * وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ يَنْسَكِبُ !

فَقَالَ عِلْمُ التَّارِيخِ : أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَقَرُّوا عَيْنًا إِلَى الْقَصْدِ
الْجَلِيلِ وَصَلْتُمْ ، وَعَلَى غَايَةِ الْأَمَلِ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - حَصَلْتُمْ ؛ فَقَدْ بَلَّوْتُ الْأَوَائِلَ وَالْأَوَاخِرَ ،
وَحَبَّرْتُ حَالَ الْمُتَقَدِّمِ وَالْمُعَاصِرِ ؛ فَلَمْ أَرِ فِيمَنْ مَضَى وَغَبَرَ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ وَأَشْتَهَرَ ؛ مِنْ
ذَوِي الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْمَنَاصِبِ السَّيْنِيَّةِ ؛ مَنْ يُسَاوِي هَذَا السَّيِّدَ الْجَلِيلَ فَضْلًا ،
أَوْ يُدَانِيهِ فِي الْمَعْرُوفِ قَوْلًا وَفِعْلًا ؛ قَدْ لَيْسَ شَرْفًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَلَا يَتَطَّلَعُ
الزَّمَانُ إِلَى نَزْعِهِ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَيْهِ التَّجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكُرْمُ مَكَانَهُ فَأَنْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ ؛
وَحَلَّتْ الرِّاسَةُ بِفَنَائِهِ فَاسْتَغْنَتْ بِهِ عَنِ السَّوَى ، وَأَنَاخَتِ السَّيَادَةُ بِأَفْنَائِهِ فَأَلْقَتْ
عَصَاهَا وَأَسْتَقَرَّهَا النَّوَى ؛ فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ
يُنَاوِيهِ ؛ وَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فَمُدَّحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى
حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ ، * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٌ !

فَهُوَ الْحَرِيُّ بِأَن يُكْتَبَ بِأَقْلَامِ الذَّهَبِ جَمِيلُ مَنْاقِبِهِ ، وَأَن يُرْقَمَ عَلَى صَفَحَاتِ
الْإِيَّامِ حَمِيدُ مَطَالِبِهِ ؛ فَلَا يَذْهَبُ عَلَى مَمَرِّ الزَّمَانِ ذِكْرُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَلَى تَوَالِي
الدَّهْرِ نَفَرُهَا .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قَارَنَ السَّعْدُ جَلَالَهُ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ
خِلَالَهُ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشُّعْرِ مُعَاتِبِينَ ، وَبِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيرِضِ هَذَا الْحَبْرِ
وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
قُدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِنِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَحْتِمِ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لَائِقَةٍ ، وَلِمَا نَحْنُ
فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَةٍ ؛ فَأَمَّةٌ مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لَتَكْمَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَقَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
خَطَابَةً وَشِعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضَرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ مَجْلًا ،
وَأَنشَدَ مَرْتَجِلًا :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعَتْ بِصَدْرِ حَبْرٍ كَامِلٍ !
فُنُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمٍ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ !
يَسْفَى الصُّدُورُ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبَحْثُهُ فَرِيضَةُ الْحَافِلِ !
كَمْ عَمَرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيسٍ ، * وَزَيَّنَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ عَاطِلٍ !
وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلٍ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
وَكَمْ غَدَتْ أَرَاؤُهُ حَمِيدَةً ، * وَنَهَتْ بِجِدِّهَا مِنْ خَامِلٍ .
وَحُكْمُهُ فَكَمُ أَقَالِ عَثَرَةٍ * وَجُودُهُ فَفَوْقَ قَصْدِ الْأَمِلِ !
هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَهُ * مُحْفُوفَةً بِالطَّفِ الشَّمَائِلِ !
مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأْوَهُ ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمَائِلِ ؟
مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُتْبَةً * قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَائِلِ !
فَمَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، * وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَنْتَنِي * صِفَرُ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمْنَى الْأَجَلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمُفَاخَرَةِ بين العلوم سوى القاضي الرّشيد أبي الحسين
 ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة^(١)
 على هذا الترتيب ، مع الاختصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المفاضلة بينها على
 ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدّى بفضلِهِ إلى وجه الترجيح التي يرجح بها
 كل علم على خصمه ، ويفلج به على غيره ، والمُنصف يعرف لذلك حقه . والذي
 أعانني على ذلك جلاله قدر من صُنِفَتْ له وعلوّ مرتبته ، واتساع فضله ، وكثرة
 علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات الممدوح تهدي المادح وترشده .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن غالٍ وهابط ،
 وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها للقرّ الزيّني أبي يزيد الدوّادار
 الظاهري ، في شهور سنة أربع وتسعين وسبعائة ، وسمّيتها : ”حلية الفضل وزينة
 الكرم، في المفاخرة بين السيف والقلم“ وهي :

الحمد لله الذي أعزّ السيف وشرف القلم ، وأفردهما برتب العلياء فقرن لهما بين
 المجّد والكرم ، وساوى بينهما في القسمة فهذا الحكم وهذا للحكم .

أحمدُهُ على أن جمع بجيّر أمير بعد التفرّق شملهما ، ووصل بأعزّ ملك بعد التقاطع
 حبّلهما ، وأرغب إليه بشكريكاثر النجوم في عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان
 أبا يزيد لها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتمّ الإخلاص
 بمذهبها ، ولا يتجو من سيفها إلا من أجاب داعيها وأقرّبها ، وأن مجدّ عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى خُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر، وأسأثر بالسُودد في الدارين فحاز أُنحَرُ المعالي ونال أعلى المفاخر؛ صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بُنُصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكُفَر سِيوفُهم فعدت بِجُلُوقِ النَّصْر لاجْمرة الخجل؛ صلاةً ينقضي دُونُ آنقضائها تعاقبُ الأيام، وتَكِلُ السَّنةُ الأقالِمَ عن وصفها ولو أنَّ مافي الأرض من شجرة أَقلام .

وبعد، فإنه ما تقارب اثْنان في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعوا في مقام رفعة إلا أزدحما على المجد وتواردَا؛ ورام كلُّ منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلي، وأن يكون مفرقه هو المتوجَّح وجيده هو المحلِّي؛ وأدعى كلُّ منهما أن جواده هو السابق في حابة السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق؛ وأن نجمه هو الطالع الذي لا يافل، وسُودده هو الحاكم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دُون عييره، والبحر لا يبحي نقطة في غديره؛ والدَّر لا يصلح له صدفا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفا؛ وأن منابر المعالي موقوفة على قدمه، ومجامر المفاخر فاححة بنشير كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا، وأخذَا بطرفي الشرف وتجاذبا؛ إذ كانا قُطْبَيْنِ تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدَيْنِ يجتمعان في دائرة الاعتدال؛ ونجمَيْنِ يهْدِيان إلى المعالي، ومُضْبَاحَيْنِ يُستضاء بهما في حنادس الليالي؛ وقاعدَتَيْنِ تُبْنِي الدُّول على أركانهما، وشجرتَيْنِ يُجْتَنَى العِزُّ من أغصانهما؛ جرَّ كلُّ منهما ثوب الخيلاء خفرا فشى وتختَر، وأسبل رداء العُجب تيهًا فاستجبل ولا تعثر؛ وآتسع له المجال في الدعوى بخال، وطاوعته يد المقال فقال وطال؛ وتطرقت إليهما عقارب الشحناء ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت؛ وأظهر كلُّ منهما ما كان يُخفيه فكتب وأملى، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حلي؛ وبدأ القلم فتكلم، ومضى في الكلام بصديق عزيز فما توقف ولا تلعثم؛ فقال :

باسم الله تعالى أَسْتَفْتِحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَمِنُّ وَأُسْتَجِجُ ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِي الْكِتَابُ ، وَمِنْ
فَنِّي الْخُطَابُ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْزَمُ ، وَكُلُّ كَلَامٍ
لَا يَفْتَتَحُ بِحَمْدِهِ فَاسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ وَرِدَاؤُهُ غَيْرُ مُعْلَمٍ ؛ وَالْعَاقِلُ مِنْ أَتَى الْأَمْرَ مِنْ فَصِّهِ ،
وَأَخَذَ الْحَدِيثَ بِنَصِّهِ ؛ وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَالْبَاطِلُ أَجْدَرُ أَنْ يَتْرَكَ فَلَا يُصْنَعُ إِلَيْهِ
وَلَا يَسْتَمَعُ ؛ إِنِّي لِأَوَّلُ مَخْلُوقٍ بِالنَّصِّ الثَّابِتِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْمُسْتَحَقُّ لِفَضْلِ
السَّبْقِ مِنْ غَيْرِ مُنَازَعَةٍ ؛ أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَى بِي فِي كِتَابِهِ ، وَشَرَفِي بِالذِّكْرِ فِي كَلَامِهِ لِرَسُولِهِ
وَخُطَابِهِ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمُجْنُونٍ ﴾ . وَقَالَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَكَانَ لِي مِنَ الْفَضْلِ وَافِرِ الْقِسْمَةِ ، وَخُصِصْتُ بِكُلِّ الْمَعْرِفَةِ فَجُمِعَتْ
شَوَارِدُ الْعُلُومِ وَكُنْتُ قِيمَ الْحِكْمَةِ .

فَقَالَ السَّيْفُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ . لِكُلِّ بَاغٍ
مَصْرَعٍ ، وَلِلصَّائِلِ بِالْعُدْوَانِ مَهْلَكٌ لَا يَنْجُو مِنْهُ وَلَا يَنْجَعُ ؛ وَفَاتَحُ بَابَ الشَّرِّ يُعْلِقُ بِهِ ،
وَقَادِحَ زَنْدِ الْحَرْبِ يُحْرِقُ بِهِ ؛ أَقُولُ بِمَوْجِبِ اسْتِدْلَالِكَ ، وَأُوجِبُ الْإِعْتِرَاضَ
عَلَيْكَ فِي مَقَالِكَ :

نَعَمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَلَمِ وَلَسْتُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ وَلَسْتَ الْمَعْنَى بِهَا
هُنَالِكَ ؛ إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى يَكِلُ فَهْمُكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، وَيَضِلُّ تَجَمُّعُكَ أَنْ تَسِرَّ فِي أَفْلَاكِهِ ؛
وَأَنْتَ وَإِنْ ذُكِرْتَ فِي التَّنْزِيلِ ، وَتَمَسَّكَتَ مِنَ الْأَمْنَانِ بِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾
بُشْبَهَةَ التَّفْضِيلِ ؛ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى تَعْلَمَ خَطِّكَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَحَرَّمَكَ مِنْ مَسِّ
أَنَامِلِهِ الشَّرِيفَةِ مَا يُؤْسَى عَلَى قُوْنِهِ وَيُسَرُّ بِحُصُولِهِ ؛ لِكِنِّي قَدْ نَلْتُ مِنْ هَذِهِ الرِّتَبَةِ
أَسْنَى الْمَقَاصِدِ ، فَشَهِدْتُ مَعَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ مَا لَمْ تَشَاهِدْ ؛ وَحَلَّلَنِي مِنْ كَفِّهِ شَرْفًا لَا يَزُولُ

حَلَّيْهِ أَبَدًا ، وَفُتُّ بِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حَنِينًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛
 ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنَ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَعْمُ وَأَشْهَرُ ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَّةِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . عَلَيَّ أَنْكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَائِلَ مِنْهُمَا وَالْحَلِيدَ ؛ لَتَحَقَّقْتَ
 تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرِيًّا ، وَتَحَكَّمَ فَيْكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : فَرَّرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلَهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلَهَا ؛ فَانْتَحَرْتَ
 بِحَيْفِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعَدِّيكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَمَّتْ إِلَى الظُّلْمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْحَوَرِ : وَ « الطَّعْغُ أَغْلَبَ » ؛ فَلَا فِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَارَةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخَفَاءِ ، وَتُكَدِّرُ أَوْقَاتَ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقَسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَا أَنَا فَالْحَقُّ مَذْهَبِي ، وَالصَّدَقُ مَرْكَبِي ؛ وَالْعَدْلُ سِتْمِي ،
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطُ ، وَإِنْ اسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرَطْتُ ؛
 لَا أَفْتِنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَغْنَى مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عُمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَى ، وَالِافْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالْاِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيَّ ، أُدِيرُ فِي الْقُرْطَاسِ كَاسَاتِ
 نَحْمَرِي فَأُزِرِّي بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفُثُ فِيهِ سِحْرِيَّانِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيُوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدٍ فَأَهْزِمُ الْعَسَاكِرَ :

فَلَكُمْ يَقُلُ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلْتَ الْغَيْهَ ، وَجِثْتَ بِالْخَيْبَةِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفًا ، وَنَطَقْتَ خَلْفًا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ

إِنَّ نِجَادِي لِحِلْيَةِ الْعَوَاتِقِ ، وَمُصَاحَبَتِي آمِنَةٌ مِنَ الْبَوَائِقِ ؛ مَا تَقَلَّدَنِي عَاتِقٌ إِلَّا بَاتَ
عَزِيْزًا ، وَلَا تَوَسَّدَنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حِرْزًا حَرِيْزًا ؛ أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمْعُ ،
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُجَّتِي الْمُسْتَبْعُ ؛ لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مُفْتَاخًا ، وَلِلظَّلَامِ مُصْبَاخًا ؛ وَلِلْعِزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا ؛ فَأَنَّى لَكَ بِمَسَاجِلَتِي ، وَمُقَاوَمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ؛ مَعَ عُرْيِ جِسْمِي
وَنَحَافَةِ بَدَنِكَ ، وَإِسْرَاحِ تَلَاْفِكَ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبُخْسِ أَثْمَانِكَ عَلَى بُعْدِ وَطَنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى دَمْعِكَ ، وَضَبْقِ دَرْعِكَ ، وَتَفَرُّقِ جَمْعِكَ ؛ وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقِلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهْلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَالِبُ وَالْمُنَاضِلُ ؛ لَقَدْ
أَفْشَيْتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مُحَالًا ؛ فَدَاوَرْتُكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنْ جَادَةِ الْإِنَابَةِ ،
وَسُوتَ سَمْعًا فَاسَّاتَ جَابَهُ ؛ إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسِيْمُهَا ، شَرِيفُ النَّفْسِ كَرِيْمُهَا ؛
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِيٌّ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ فَطَائِرِي مِيْمُونَ ،
وَعَوْلِي مَأْمُونٌ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَمْنُونٍ ؛ أَصِلْ وَتَقَطَّعْ ، وَأَعْطِ وَتَمْنَعْ ، وَتَفَرِّقْ وَاجْمَعْ ؛
وَإِنْ أَزْدَرَأَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمَهْيِيِّ عَنْهُ ، وَغَضُّكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ؛
وَمِنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمَنْ آسْتَهَانَ بِفَاضِلٍ فَضَّلَهُ ؛ وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حِرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ نَحِيفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛ وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظَامِيَا ؛ وَإِنْ ضَاقَ دَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ
الْحِمَالِ مَشْهُورٌ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطْلَقْتُ أُسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورٌ ؛ إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرَسِي ، وَتَدَرَّعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْسِي ، وَجَاسْتُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-
رَأَيْتُ جَلِيلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَنَى وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَتَسَيَّتُ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَتَسَفَّكُ الرِّيحُ وَتُزْرِي بِكَ
الْأَيَّامُ ؟ ؛ ثُمَّ صَرْتَ إِلَى الْفَيْنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّنَادِينَ بِالْمَرَّاصِدِ ، وَتَدْمُغُكَ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الحرب وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنشرت البغاث فعد العصفور نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغراب إلى البازي يهدده ، ورجع ابن آوى على الأسد يشرده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ؛ ووقفت عند ما حدث لك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدر بك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك ليعذني لمهماتهما ، وتستنجدي في ملابتهما ؛ وتعالى في نسبي ، وتعالى في حسي ؛ وتنافس في قبيني وتخاصد ، وتجعلي عرصة لايمانها فتعاقد بالحلف على وتعاهد ؛ وتدخري في خزائنها آدخار الأعلاق ، وتعذني أنفس ذخائرها على الإطلاق ؛ فتكلمي الجواهر ، وتخليني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز للشجعان خدي الأسيل فأسيهم الخدود ذوات السوالف ، وأزهو بقدي فأسلبهم هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيّل للقرور من بعد أنى جدوة نار فيطلبي على المدى الطويل ؛ ويخالي متوقع الغيث برقاً لامعاً ، ويظنني الجائر في الشرق نجماً طالعاً ؛ فالشمس من شعاعي في نجم ، والليل من ضوئي في وجل ، وما أسرعت في طلب نار إلا قيل : « فات ماذبح » و« سبق السيف العدل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرفك ، وروّج على غير الجوهرى صدّك ؛ فما أنت من بزى ولا عطري ، ولست بمساوحدك القاطع بقلامة ظفري ؛ إن برقك خلّب ، وإن ريمك لأزيب ؛ وإن ماءك لجامد ، وإن نارك لخامد ؛ ومن أدعى ما ليس له فقد باء بالفجور ، ومن تشبّع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السُّهَى * بغيرِ دَلِيلٍ كَذَّبَتْهُ ذُكَا !

أنا جَدِيلُهَا الْمُحْكَمُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمَرْجَبُ ، وَكَرِيمُهَا الْمُبْجَلُ ، وَعَالِمُهَا الْمُهْدَبُ ؛ يَخْتَلِفُ
حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّيْنِيَّةِ بِأَخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْشِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ
الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَزَيَّأُ بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزِلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً
أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَتَارَةً لُدْرَ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأُخْرَى لِعُقُودِ الشَّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُلْفِيَنِي
جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَسَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَخَالُنِي نَجْمًا مُشْرِقًا ،
وَحِينًا تَحْسَبُنِي أَفْعُوَانًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ فُقِئَتِ الشَّبَابَةُ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزَتْ عَلَيْهَا فِي كُلِّ
مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْمَعَانِي ؛ وَجَاءَتْ
بَغْرِيْبِ النِّعَمِ ، وَجِئْتُ بِبَيْدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلِعْتُ بِالْأَلْبَابِ
فَاتَّخَذْتُ لَدَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَّرَنِي الطَّعْنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قَلَّةً وَعُدْتَ
حَاسِيًا ؛ فَكُنْتَ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَمْرِيسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهِ أَهْلُكِهِ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ
فَالْقَيْتَ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَأَقْفَعْ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنْ أَرْحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يَشُقُّ غُبَارِي ، وَلَا يَقَالِي فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي
وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطْلٍ أَبْطَلْتُ حِرَاكِهِ ، وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ عَجَلْتُ هَلَاقِهِ ؛
وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرَقْتُ دَمَهُ ، وَكَمْ ثَابِتٍ الْجُنَاحِ زَلَزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِفْقَةُ
طَبِيعِهِ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاسَةُ قِيَادِهِ وَجَمِيلُ مَقَاصِدِهِ ؛ فَحَالَ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ
إِلَى السَّلَامِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبٍ صَافٍ ،
وَلِسَانٍ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فنحن في الكرم شقيقان ، وفي المحبة رقيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأئس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلت الدهر أسطره ، وعامت أصفاه وأكدره ؛ وقلبت ظهرها وبطنها ، وجبت فيا فيه سهلا وحرنا ؛ وإن معاداة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب شماتة العدو ونعم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بندي جديمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بآء بالخطل .

ولست بمستيق أخا لا تلثمه * على شعث ، أى الرجال المهدب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابا ؛ وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد يجمع الله الشيتين بعدما * يطنان كل الظن أن لا تلاقي !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم نرجع في ذلك إليه ؛ لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها غرف ؛ ولنسنا بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ الماجد السرى ، والبطل الكي ؛ والبحرا الحضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة فى الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قُطْبُ

المملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدّها المصور، وبطلها السّميدع وليّتها
الشهير، وأبو عذرتها حقًا من غير نكر وأبن بجديتها السّاقطة منه على الخير، ومعقلها
الأمّنع وجزؤها الحصين، وعقدّها الأنفس وجوهرها الثّمين، وتلاذدّها العاليم
بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنّن
فى أفنانها، وطبيبها العارف بطبها، ومنجّدها الكاشف لكربها .

هذا : وإنّه لما لك أمرنا، ورأفّع قدرنا، والصّائل منا بالحدّين، والجامع منا
بين الضّدين، فلو لقيه «فارس عيس» لولّى عايسا، أو طرق حمى «كليب» لبات من
حماء آيسا، أو قارعه «ربيعة بن مكدّم» لعلا بالسّيف مفريقه، أو نازله «سُطّام»
لبدّد جمعه وفرقه، كما أنه لو قرّن خطّه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه، أو فاسمه
«أبن مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه، أو فاحره «أبن هلال» لرأى
أنه سبقه إلى كلّ كريمه .

وبالجملّة فعزه الظاهر وقضله الأكل، وسماكّه الرّاح وسماكّه غيره الأعزل،
فلا يسمّح الزّمان أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدّع بلوغ شأوه إلا قيل : أتتدّ فلقد
حاولت الاتّهاض بجناح كبير :

خَيْهَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى * وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمَحْضِ !

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل، وأحسن مقام وأجمل، فهلمّ إليه يعقد
بيننا عقد الصّلح، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنّصح .

ثم لم يلبث أن كتبَ بينهما كتابًا بالصّلح والمصافاه، وتعهّدا على الودّ والمؤافاه،
وأعلنَ بعقد الصّلح مناديهما، وحدّا بذكر التّعاضد والتّناصر حاديهما، وراح يُشيد :
حَسَمَ الصّلْحَ مَا أَشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى * وَأَذَاعَتْهُ السُّنُ الْحَسَادِ !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْقَادُ وَالْإِحْنُ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطَنٍ ، وَنَلَّتْ قِرَانُهُمَا فَأَسْعَدَ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنَشَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ * فَعَاقِدُ الصُّلْحِ عَلَى الْقَدْرِ وَالْهِمَمِ !
أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُلْكِ مَا لِكُنَا * وَوَاوِصِلُ الْعِلْمِ فِي عَالِيهِ بِالْعِلْمِ .
فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَبْدِيهِ مِنْ مِدَحٍ * وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !
وَإِنْ جَرَى مِدْحُ سَيْفٍ أَوْ عِلَاقِلَمٍ ، * فَذَاكَ وَصْفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قلتُ : وَسَبَبُ إِنْشَائِي لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ انْخِلَاطٍ وَتَحْرِيرِ قَوَاعِيدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ، وَعَظُمَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوقٍ» وَعَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وَلَّاهُ وَظِيفَةَ الدَّوَادِرِيَّةِ بِإِمْرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفٍ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عَنْدهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّيًا ، وَأَوَّلَانِي عِنْدَ عَمَلِهَا لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالرَّائِتُوَالِي مَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكِلُ عَنْهُ اللَّسَانُ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الأسئلة الامتحانية)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ مَشَايِخِ الْأَدَبِ وَفُضَّلَاءِ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفَاضِلِ بِالسَّائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِفْهَامِ وَأَسْتِخَاحَةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ وَالتَّعْجِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ بِأَجْوِبَةٍ فَتُكْتَبُ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المِصرى إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتَّاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُخْرِجُ الكُوهَ مَنِّي غَيْرُ نَائِيَةٍ ^(١) * وَلَا أَلِيْنُ لِمَنْ لَا يَتَنَغَّى لِيْنِي !

الاستفتاح بـ «لَا» تيمُّنٌ بركة الشهادة ، وهي ههنا مقرّضٌ يقطع من العيب المدّة ويَحْسِمُ المادّة ؛ فحَسَمَ الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مُكْمَلِ الآداب ، وَمَلِكِ الشعراء والكُتَّاب ؛ شَرَكْلَ عَيْنٍ حاسِدٍ ولو أنها عَيْنُ الشَّمْسِ ، وَحَمَاهُ عن مدّ أَلْسِنَةِ ذوى الأَعْتِيَابِ والأَرْتِيَابِ من الهمج والهمس ؛ وهَيَّا لَهُ أسبابَ الخَيْرِ حتى يكون يومه فيه مُقَصَّرًا عن الغد زَائِدًا على الأمس ، وَأَسْتَحْدِمُ لَهُ الأَقْدَارَ حَتَّى تَكُونَ قَرَارِصُ تَقْيِيلِ أَنَامِلِهِ العُشْرَ عندهم كَقَرَارِصِ النَحْمَسِ ، وَجَعَلَ مَا يَرُدُّ عَنْهُ الْعَيْنَ من العيب - بَعْدَ شَأْنِهِ عن المُتَنَاوَلِ - وَقَايَةً عن اللَّئْسِ ، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ عِلَاءَهُ * إِذَا حَدَدُوهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ ،

وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا ثَرِ بَلَّتِيهِ * سِوَى أَنَّهَا تُرَوَّى بِأَلْسِنَةِ الْأَعْدَا !

وَحَتَّى يُؤْمَنَ عَلَيْهِ الْقَائِلُ :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى * عَيْبٍ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْرِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُخْرِجُ الْقَسْرَ مَنِّي غَيْرُ مَائِيَةٍ . الْقَسْرُ ،

القهر والمأية مصدر كالتحمية معناها الإباء والبيت من كلمة لذى الإصبع العدواني .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعَدُّ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٌ وَاحِدٌ !
 الْعَبْدُ يَخْدُمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةً نَقَطَهَا الْجَوْ بَدْرٌ سَحَابِيهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَفْقُ سَفَطَ
 كَوَاكِبِهِ ؛ وَأَمْتَدَّ نَوَى الدَّرَاعِ لَتَدْبِيحِ سَمَائِهَا ، وَتَارِيخِ أَرْجَائِهَا ، وَتَحْيِيشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنَشَّقَةِ بِأَفْنَانِهَا ؛ وَصَقَّالَ نَسَمَاتِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عِيُونِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَهَوَانَ
 الْعَالِيَةِ بِنَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَانِيرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْلُ جَدْوْلَهَا عَلَى
 الْهَمُومِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْنِبُ حَمَائِمُ الْقُلُوبِ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ
 بِالْأُورَاقِ ؛ قَدْ تَرَقَّقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَيَّ مُطْرِبُ حَمَامِهَا وَعَنْتَرُهُ فِي حَكِّ
 مِنَ الذُّبَابِ ، وَبَجَرَهَا رَوْنَقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذُّبَابُ .^(٢)

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَيِّ ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتٍ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بِأَهْجٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَتَشَاقًا وَأَتَسَاقًا ، وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَذَلِكَ الْغَيْثُ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنَعُودُ فَقُولُ : لَا أَدْرِي أَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَابٌ !!
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُ مُنَاسِبٍ ، وَطِيبُ مَكَاسِبٍ ؛ قَدْ أُمَكَّنَتْهُمْ الْمَعَالِ ،
 وَطَاوَعَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ؛ وَخَدَمَتْهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 الصُّعُودِ ، كَابِرٌ بِسُكُونِ الْجَلَّاشِ مَنْحَدِرٍ (٩) وَكَانَتْ قَدْ أَسْتَجَدَّتْ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيِّرِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفه المنطرف .

”وَلَيْسَعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنَّ وَظَنَّ مَا ظَنَّ ، وَأَسْتَعِطَفَ بَنَسِيمَ الْكَلَامِ
غُصْنُ يَرَاعِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنٌّ ؛ وَبَجَلَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرِّزْقِ ،
وَحَرَمَنِي لَذَّةَ أَلْفَاظِهِ فَإِنَّمَا الَّتِي إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرَّقِّ ؛
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ سَخَّ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالْغَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَظِّ عِنْدَ عَبْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طَرًّا فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ !

فَاعَلَى اللَّهِ كَلِمَةَ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْ غَنَى جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةَ الدَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيَوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِحِجَابٍ ، وَأَمَّنَنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبٍ ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفٌ تَتَقَوِّعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلُّ مَحَلٌّ ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحَلٌ ، وَنَحَلَنِي شُهَدَاءَ إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كَابِرَ النَّحْلِ ؛ حَتَّى عَذَرَنِي
فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّتِيهِمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينِ :
وَيُلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا !

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيَوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعُنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرْبَى عَلَى الْأَرَبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كِسْرَى وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ خَرَجَ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَنِي أَنْوَارُهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشَوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعَنِي أَلْفَاظُهُ
وَلَكِنْ عَلَى السَّمَاءِ بِرَغَمِ حُسُودِي الْعَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنَادُّرِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ،
وَتُكْتَبُ بِأَنْفَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الْأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا الثَّقَى لَقَلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّةِ الرَّفَاقِ مِنَ الْآفَاقِ ؛

فَتَى أَنْفَرُغْ لَطَلَبِ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحِ وَإِنَّمَا مَدْحِي
له من فوائد مدحه :

وما هو إِلَّا من نَدَاهُ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُبْلِيْنِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ شَتِيتِ عِنَانِ التَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ
فِي تَنْضِيدِ أَوْصَافِهِ الْبَكْرَى ، وَأَنْضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطُّرْسِ وَلَيْلِ النَّقْسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتُهُ بِلَاءٍ فِيَّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سَوَاءً عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِخَازَانِي مُجَازَاةَ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَتِيهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ مُحَاسِنِي الَّتِي أَدْلَى بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتَذَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعَمْرُوسَةِ وَالذَّبُّ غَرَّانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَتَيْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وَلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدْرَةً * فَدُونَكَ كُلُّنِي لَاهِنًا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرْجِمَ ، وَتَحْقِيقَ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمَ ؛ أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِدِهِمْ ، وَالتَّنْقَاطَ لِقَرَائِدِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنَجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بِأَرْبَابِ صَفَحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا الْغَضَّ مِنِّي ، وَفَنَى الْإِحْسَانِ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي وَشِعْرِي *

هَآنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنِّي أَلْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلَامِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ

صِنَاعَتِي : * هُوَ الْجَمَى وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ *

وَإِنِّهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ
أَفْرَاسَ رِهَانٍ ، وَأَعْجَبَ كَلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛

وَلَا مُؤَاوَعَدَلُوا، وَهُمْوَا بِالسَّبِّ وَفَعَلُوا، وَاسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حَدَادَ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعْدَى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى بِالْجَوَابِ، وَفِىلَهُ إِمَّا جَزَاءٌ لِلدَّجِّ وَإِمَّا
لِلشَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عَيْشِي جَعَارٍ وَجَرِّى * بِلَحْمِ أَمْرِئٍ لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ !
وما كَانَ الْمَالِخُ أَنْ يُغْرِى بِي مِنْ سَبْقِ مَذْحِهِ إِلَى ، وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعِزَّهُ لِنَفْسِهِ فَمَا
أَنْتَصَرَ لَدَى ”وهذا لَعَمْرُى جَهْدٌ مِنْ لَالَةٍ جَهْدٌ“ وما تَخْلُو هذه الْأَفْعَالُ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ
مُجَازَاةً عَلَى مَذْحِهِمْ ، فَأَيْنَ الْكَرَامُ وَفَضْلُهُمْ ، وَالْمُنْصِفُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي
عَرَّضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَّضْتُ ، فَأَيْنَ ذِكَاؤُ الْأَلْبَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَنْظُرُ السَّمَاءُ
أَنْ يَدَا تَصِلَ لِمَالِهَا ، وَالتُّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَا
جِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يُجْهَلُ حُكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَمُحِّدَ الشَّمْسَ
فَضْلُهَا الطَّائِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلُهُ أَنْ يَقُولَ : سَحَابٌ وَائِلٌ كَبَاقِلُ ؟ ؛ ... (١) ...
أَدْرَكْنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَمَّا أَمْرَقَ ، وَأُنْجِدْنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ وَأَرْشَقُ ،
وَأَضْوَأُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقُ ؛ وما أَغْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلَمِ ؟ ؛ وما أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ؛ وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيْفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَّرْتُ تَبَتُّغِيهِ فَصَادَفْتُهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّيْبَاعَا

فَأَنَا أُنْشِدُ اللَّهَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ السَّادَةِ الْغَائِبِينَ ، أَوْ الْقَوْمَ الْعَاتِيِينَ ؛ هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمُ الْعِيُّ يُجَرِّضُهُ ، وَتَزَلُ فِيهِمُ الْجِهَادُ
بَقَضِهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بَابُهُمْ لَمْ كِبْستَانِ بِلَاثِمَارَ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كِدْيَوَانِ أَبِي مِهْيَارَ ؛ لَا يُحَسِّنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكُتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمَدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةِ الْمُعَوَّجَةِ ،

وَالْعِبَادَةُ الصَّيِّغَةُ وَالْأَنْوَابُ الْمُفْرَجَةُ ؛ وَيَتَنَاوَلُ السَّلَامُ بِالْيَمِينِ وَكِتَابُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالشَّمَالِ ، وَمَشَى هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» لَزَادَ فِي الْفِكْرِ وَنَقَصَ :
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِمَجْلِسِي ، وَ«الْخَوَارِزْمِيَّ»
لَقَالَ : سَرَّحُ قَرَسِي ، «وَالْقَاضِلُ» لَقَالَ : هَا هُوَ ذَا ذَيْلُ مَلِكِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ
كَذَلِكَ فَفِيمَ الْمَلَامِ وَالتَّفْنِيدِ :

عَلَّقُوا الْقَتْلَ لِلْبُرَا * عِ عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنَ^(١) ،
ثُمَّ لَامُوا الْبُرَاةَ أَنْ * قَطَّعْتُ نَحْوَهَا الرَّسَنَ ،
لَوْ أَرَادُوا صِيَاتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الْحَسَنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ هُنَا وَجْهَ الْمَنْصِبِ وَحِجَابُهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْآثَارَ ، وَتَحْمِيشُ تِلْكَ
الْأَلْفَاظَ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مِثْلِي مَعَ مَنْ ذَكَرَنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بَطْرَفُكَ حَيْثُ شِئْتُ * فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَحِيلًا !

فَقِيلَ لَهُ : بَخَلَّتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَآنَا فَلْتَكْذِبُونِي بِوَاحِدٍ مِنْ
عَرَضْتُ ، وَصَحِيحٌ مِنْ أَمْرَضْتُ ؛ وَلِيَبْرُزْ إِلَى مَضْجِعِهِ ، وَلِيَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَضْرَعِهِ ؛
وَلَا يَتْرِكْ شَيْئًا مِنْ أَدَوَاتِهِ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِيَتُهُ مِنْ حَائِثِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَفْتَرِحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضُ مَا أَقْتَرَحُهُ الْفُضَّلَاءُ ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ؛
وَالْأَمْرُ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ ، وَمَالِكُ أَمْرَتِهِ ؛ وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

فانه الذى نبئى عليه وإن لم أكن ساهيا ، وذكرنى الطعن وما كنت ناسيا ؛ حتى
رَمَيْتُهُ من هذه المسائل ، فى مجَاهِل ؛ لا يُهْتَدَى فيها بغير الذهن الواقد ، وأفتَحْتُمُ
به فى بحارٍ لا يَعِصَمُ منها جَبَلُ الفِكرِ الحامد ؛ على أنها فيما أغفلت كاللحمِ من البحار ،
واللحمة من النهار ؛ ولولا الاختصار ، لأتيتُ منها بالجمع الحِمِّ فلنَحْمِدَ اللهَ والاختصار ،
فأقول :

من كَتَبَ فى الورقِ وأسْتَنْبَطَهُ ؟ ومن خَتَمَ الكتابَ بالطِّينِ وربَطَهُ ؟ ومن غَيَّرَ
طِينَ الكتابِ بالنَّشَا وَضَبَطَهُ ؟ ؛ ومن قال : أَمَا بَعْدُ فى كتابه ؟ ومن جعلها فى الخُطْبِ
وَأَسْقَطَهَا فى آيَاتِهِ فى المكتبة وجَوَّابِهِ ؟ ؛ ومن كَرِهَ الاستشهادَ فى مُكَاتَّبَاتِ الملوكِ
بالأشعار ؟ ؛ وكيف تَرَكَهَا على ما فيها من الآثار ؟ ؛ ومن الَّذِى أراد أن يَكْتُبَ نَثْرًا
بجاء شعرا ؟ ؛ ومن وَضَعَ هذه الطُّرَّةَ فى التقاليد وأخْتَرَعَهَا ؟ ؛ وما مُحِجَّتُهُ إذ قَدَّمَهَا على
أَسْمِ الله ورفَعَهَا ؟ ؛ ومن الَّذِى بَاعَدَ بين السُّطورِ ووسَّعَهَا ؟ ؛ وكيف تَرَكَ بالتعاضدِ
فى كُتُبِهِ سُنَّةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولم يَسْعَهُ من التَّوَضُّعِ ما وَسَعَهَا ؟ ؛ ومن
أَسْتَفْنَى بِكُتَابَةِ آيَةٍ من كِتَابِ الله عن الجَوَّابِ ؟ ؛ ومن أَكْتَفَى بَيْتَ من الشُّعْرَا
يحتاج من تَطْوِيلِهِ الكتاب ؟ ؛ ومن الَّذِى عَانَى المُتَرَجِّمَاتِ وَرَتَبَهَا ؟ وأخْفَى مُلْطَفَاتِ
الجَوَاسِيسِ وَغَيْبَهَا ؟ ؛ ومن الَّذِى سَنَّ البُرْدَ وَبَعَثَهَا فى المِلَمَّاتِ ؟ ؛ ومن حَاكَى شَيْئًا
من مُلْكِ سليمان فَاسْتَحْدَمَ الطُّيُورَ فى بَعْضِ المِهْمَّاتِ ؟ ؛ وما أَوْجَزُ مَكَاتَّبَةٍ كُتِبَ بها
عن خَلِيفَةٍ فى مَعْنَى ؟ ؛ وما أَبْلَغُ جَوَابٍ وَأَوْجَزُهُ أَجَابَ به عن خَلِيفَةٍ من لَاسَمَى
وَلَا كَتَى ؟ ؛ ولم أَرَّخْ بِهَجْرَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف لم يُؤَرِّخْ بِمَوْلِدِهِ أو غير
ذلك من الأيام ؟ ؛ ومن الذى أَمَرَهُ الخَلِيفَةُ بِكُتَابَةِ مَعْنَى فَأَرْنَجَ عَلَيْهِ الكلامَ وَلَقَنَهُ
فى المنام ؟ ؛ ومن الذى وَصَفَ بِرِسَالَةٍ طَوِيلَةٍ شَيْئًا لم يَصِفْهُ بِنَثَارٍ وَلَا نِظَامٍ ؟ ؛ وكيف
جَازَ للكاتب أن يَكْتُبَ آيَةً من الكتابِ فى لَفْظَةٍ يَحْسِبُهَا من لا يَحْفَظُ أَنَّهَا من عِنْدِهِ

لَا مِنْ حِفْظِهِ ؟ ، مِثْلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا ؟ وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْحَجَّاجِ فِي أَسْمَاءِ الْمُسْتَفِثِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجْنِ : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟

وَعَلَامَ يُطَوَّلُ الْكَاتِبُ بَاءَ الْبَسْمَلَةِ ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحَسْبَلَةَ ؟ ، وَلَا يُجْهِدُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أُلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَعَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ ؟ ، وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرَّاطِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا ؟ ، وَالسَّكِّينَ وَالْدَوَاةَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قِطْعَةً عَنْ جَنْبِهِ يُعْطِيهَا ؟ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ أَسْتَسْقَى وَلَمْ يُمْطَرْ ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَصْرَعَ كَالْمُعْتَصِمِ وَكَيْفَ يُعَذِّرُ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ ؟ ، وَكَيْفَ يُبَيِّنُ خَلِيفَةُ خُلَعٍ فَرَجَعَ ، وَغُرِّبَ عَنِ السَّجْنِ وَطُلِعَ ؟ ، وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَأَسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ ؟ ، وَكَيْفَ يُبَيِّنُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمُّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلَدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصِرٍ حَصْنًا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْسَلٍ لَمْ يُوفَ لَا أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ ؟ ، وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْزَاءِ الْأَنْزَامِ ، وَيُشَيِّئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوِزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ ، وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينٍ (؟) مِنْ عَدُوٍّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ ؟ وَيُنْشِرُ عَدُوًّا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ ؟ ، وَيُبَيِّنُ خَصِيًّا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَمَّنْ فَرَّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تَحْكُمُ الظُّبَا فِي أَوْدَاجِهِ ؟

وَيَكْتُبُ لِمَلِكِ بَنِي مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، أَوْ أَجْرَى خِيُولَ رَهَانٍ فَسُقِيتْ خَيْلُهُ
وَأَنْقَطَعَتْ ؟ ؛ أَوْ خَرَجَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ ، أَوْ لِبَرْزَةِ بَنْدُقٍ أَحْتَفَلُ فِيهَا وَلَمْ يَضْرَعْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُعْتَادِ ؟ ؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَازِيهِهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَثْنَى فَضْلُهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ دُكُورِ الْأَوْلَادِ .

وَمِنْ هُنَا أَكُفِّ الْقَلَمَ عَنْ شَوِطِهِ ، وَأَرْفَعُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوِطِهِ ؛
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ ، وَكَفْنِي بِالْغُرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النِّهْرِ .

فَإِذَا نَشِطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَخَرَجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ خُرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصِّقَالِ ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ الثَّرْيَا فِي هَذَا النَّسِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَثِ كَمَا يَقَالُ : بِرَمْتِهِ ؛ (٩) وَأَمَاطَ لِنَائِمَهَا ،
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَمَهَا - أَنْقَطَعَتْ الْأَطْمَاعُ دُونَ غَايَتِهِ ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْغَاءِ لِمُبَايَعَةِ رِسَالَتِهِ ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَلَّ قَلَمُهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانِ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظِلُّ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ ، فَكَانَ كَمَنْ سُلَّ لِنَحْرِهِ سَيْفُهُ ؛ وَعُذِرَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِبِ مُؤْنَبِهِ ، وَكَانَ يَوْمُذِلُهُ الْوَيْلُ لِمَنْ يُكَذِّبُهُ ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ :

فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْخَلَالَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ
كَمَا عُوذَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عَوَدَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا ، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كَمْ وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا ؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدُ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْعَاهَا ، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ لَتَصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَارْخَ عَلَيْهَا سِرَّ مَعْرُوفِكَ الَّذِي * سَتَرْتَ بِهِ قِدَمًا عَلَى عَوَارِي !

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مدهول عن حسن الإيقان، ممدد عليه نواب الدهر بأنامل الخفقان؛ مرمرى بسهام الأعادي في قسي الضلوع، غائص في بحر الهمم وكلما رمت أن يلقى إلى در الكلام ألقى در الدموع :

أبكي فتجري مهنجي في عبرتي * وكان ما أبكىته أبكاني !

لا يدع لي الفكر في قلة^(١) ... الإخوان وقتنا استنيط فيه معنى، ولا يفسح لي التمعجب من أبناء الزمان لتقصهم أن أصح نقدا ولا وزنا؛ أجنح لسلم الأيام فكأني لحربها جنحت، وأقدح فكري في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت، فلو قضى الله لي بالمنية من المنية لأرحت الزمان وأسترحت :

فالأرض تعلم أنني متصرف * من فوقها وكأني من تحتها !

ولا فرق فيما بيننا غير أننا * بمس الأذى ندرى ومن مات لا يدري !
ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقا قطعيا، لا طلاقا رجعيا؛ وأجاهرها جهارا حربيا لا جهارا عينيا؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني، وأتولى قوس داله مع سهم بائها فما أصبت غير كيدى؛ «كأنا القوس منها موضع الوتر»، «وقلت أذهبي يا صبوتي بسلام» فإذا لقيت من آفاتنا، ومُنيت به من الخوف في عرفاتنا، ومُطرت لا من عوارض قطرها ولكن من عوارض مرجفاتنا :

ولمّا رأيت الحب في القلب والأذى * إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب !

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحدا سينتقد على تشبيهي، وطرقه قديمة في استفتاح المكتبة، واستنجاح المخاطبة؛ ويقول: تلك أمة قد خلت، ودولة فاضلة أدبرت مثل ما أقبلت؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره، وأبناء عصره؛ فالجواب

(١) بياض بالأصل ولعله : « مصافاة الإخوان » أو نحوه .

ما قاله القاضى السَّعِيدُ بْنُ سَنَاءِ الْمَلِكِ رحمه الله تعالى ، فما كان أَسْعَدَ خَاطِرِهِ ! ،
وأَكْثَرَ ذَهَبَ لَفْظِهِ وَجَوَاهِرِهِ !! :

إِنِّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ شَمِ رَأَيْتُهَا * مَا ذَا عَلَى إِذَا عَشِيقْتُ الْأَحْسَنَاءَ !

وذكرت أن الاس عدره ونسيت أن الاس أفعلها^(١) .

انتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بعيد الظلام ، وبلغ عن الصُّبْحِ السَّلَامَ ،
والأزهار قد سَلَبَتْهُ عَنْهُ فقام من كَرَاهِ يَصِيحُ ، وَمِيدَانُ الْغُصُونِ قَدْ أَحْضَبَ بَغْيَى
الْأَطْيَارِ وَشَغَبَ الرِّيحُ ، وَنَسْرُ السَّمَاءِ قَدْ فَرَّ مِنَ الْغَسَادَةِ وَبَارِيهَا ، وَالنُّجُومُ قَدْ حُمِلَتْ
إِلَى مَلْحِدِهَا مِنَ الْغَرْبِ عَلَى نُعُوشِ دِيَاغِيهَا ، وَالْمَجَرَّةُ مِنَ الْجُوزَاءِ عَاطِلَةٌ الْخَصْرِ ،
وَحَاقَانُ الصُّبْحِ قَدْ حَمَلَ عَلَى نَجَاشِي الظَّلَامِ رَايَةَ النُّصْرِ .

لَا بَرَحَ سَيِّدَنَا مَعْصُومِ الرُّوْيَةِ وَالْأَرْتِجَالِ ، مَسْجِلًا بِشَجَاعَةِ الْيَرَاعَةِ وَالْحَرْبِ سِجَالِ ،
مَجْمُودِ الْمَوَاقِفِ وَالْمَسَاعِي "وَالنَّقْصُ نَقَعٌ وَالطَّرُوسُ مَجَالٌ" ، وَالسَّلَامُ .

الضئيف السادس

(من الرسائل ما تَكْتَبُ بِهِ الْحَوَادِثُ وَالْمَاجِرِيَّاتُ)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب ما جَرِيَهُ وأراد
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المَاجِرِيَّةَ في كتابه مع تَمَيُّقِ الكلام
في ذلك ، إما آبتداءً وإما جواباً ، عند مُصَادَفَةٍ وَرُودِ كِتَابِهِ إِذْ ذَاكَ إِلَيْهِ .

وهذه نُسخَةُ رسالةٍ أَنشأها الإمامُ قَاضِي قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ مُحْيِي الدِّينِ ، أَبُو الْفَضْلِ
يُحْيَى ، بَنُ قَاضِي الْقُضَاةِ الْإِمَامِ مُحْيِي الدِّينِ أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدَ ، بَنِ عَلِيٍّ ، بَنِ مُحَمَّدٍ ،

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي الْأَصْلِ هَكَذَا وَلَا مَعْنَى لَهَا .

ابن الحُسَيْن ، بن علي ، بن عبد العزيز ، بن علي ، بن الحسين ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ،
 ابن القَاسِم ، بن الوليد ، بن القَاسِم ، بن عبد الرحمن ، بن أَبَانَ ، بن عُثْمَانَ ، بن عَفَّانَ
 رضى الله عنه ، لما وَرَدَ إلى القاهرة المحروسة في التَّاسِع من جُمادى الأولى من سنة
 تِسْع وعشرين وستمائة ، وتُعرف ”برسالة التمس“ وهى :

وَرَدْتُ رُقْعَةً سَيِّدِنَا أَسْعَدَهُ اللهُ بِتَوْفِيقِهِ ، وَأَوْصَحَ فِي أَكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ
 طَرِيقِهِ ، فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَوَفَّ السَّازِ بِوُرُودِهَا ، الْمُسْتَسْعِدُ بِوُفُودِهَا ، الْمُبْتَهِلُ إِلَى اللهِ
 فِي إِبْقَاءِ مُهْجَتِهِ الَّتِي يَنْشَرُّفُ الْوُجُودُ بِوُجُودِهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْغِهِ * وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ اللَّحْمَ وَاللِّدْمَا !

وَفَضَضْتُهَا عَنْ مِثْلِ النُّورِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا ، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَاهَمَتْ فِي أَكْتِسَاءِ
 وَشْيِهَا الْأَهْضَابُ وَالزَّبَا ، يَكْبُو جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضْمَارِ وَصْفِهَا ، وَيَنْبُو عَضْبُ لِسَانِهِ
 عَنْ مَجَارَاتِهَا فِي رَصْفِهَا ، يُجْجِلُ مَحْيَا النَّهَارِ بِيَاضَ طَرَسِهَا ، وَيُودُّ اللَّيْلُ لَوْ تَفَضَّتْ عَلَيْهِ
 صِبْغَةً نَفْسِهَا ، وَتَحْسَدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِهَا ، وَتَمْنَى لَوْ أُعِيرَتْ فَضْلُ إِشْرَاقِهَا
 وَتَلَايِهَا ، فِي كُلِّ فِقْرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَامَ ، وَكُلُّ أَلِفٍ سَاقٌ وَكُلُّ سِينٍ
 طَرَةٌ غَلَامَ ، وَكُلُّ وَائٍ عَطْفَةٌ صُدِغَ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيسٌ حَاجِبَ ، وَكُلُّ لَامٍ مَشْقَةٌ
 عِذَارٍ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبَ ، تُصِيبُ مِنْ سَامِعِهَا أَقْصَى مَا يُرَادُ بِالنَّفْثِ فِي الْعُقَدِ ،
 وَتَسْتُولِي بَلْفِظَهَا عَلَى لُبِّهِ أَسْتِيلَاءَ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا أَجَلْتِ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُسْتَهْبَةَ فِي اللَّفْظِ الْمَوْجَزِ ، وَأَجَلْتُ طَرَفِي مِنْهَا مَا بَيْنَ
 نَزْهَةِ الْمُطْمَئِنِّ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ ، وَأَسْلَمْتُ قِيَادِي إِلَى سِجْرِهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتَلَ
 الْعَاشِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَنَا أَجْرَى فِي حَلَبَةِ السَّيَاقِ فَحَازَ قَصَبَ سَبْقِهَا ،

وَذَلَّتْ لَهُ الْبِلَاغَةُ فَتَوَعَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا ، وَحُكِّمَتْ يَدُهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَلَّمَتِ الْقَوْسَ إِلَى بَارِيهَا ، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا ، فَمَنْ وَائِلٌ ؟ وَمَنْ سَحْبَانٌ ؟ ، وَمَنْ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا كَانَ ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا ، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُثَمَانِهِ ظَلَّهَا ، وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلْبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسَّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَيْفَ بِنُطْقٍ مِنْ مَيِّتٍ ، وَأَيُّ يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتٍ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ ، فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَأَلْفَيْتُ بِأَقْلًا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طُرِقَ قَرَى ، وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ فَرَى ، وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامًّا فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ مَائُهُ وَكَدَّرَتِ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عِلْمِهِ وَالْغَيْرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرَرُ أَنْ يَلِينَ لِضَرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجَرِ ، فَبَدَّلَ جُهْدَهُ لِمَا شَغَبَتِ الْهُمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُنْشَتَّتًا ، وَنَحَى عَنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتَلَقِّيًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلْقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ ، كَأَنَّهُ سَاوَرَتْهُ ضَمِيلَةٌ سُمِّهَا نَاقِعٌ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَاطِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي الْخُطُوبِ نَوَازِعَ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنَى ثَوْبَهُ * تَقَلَّبَ فِيهِ فَنَى مُوجِعُ

فَنَارَةٌ فِكْرُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نُحُوقَلَةً حَظَّهُ ، وَأَوْنَةٌ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لَحْظِهِ ، وَإِنْ يَدُ الْخُمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقُّهَا أَنْ تُصَرَفَ إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرُهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :

لَنْ كَانَ أَدْلَى حَائِلٍ فَتَعَدَّرَتْ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَّةً فَتَحَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكْتَهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ * وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطُ !!

ولقد جهِد في سِلْم الدَّهْرِ وهو يُجَارِبُهُ، "وَكَيْفَ تُوقَى ظَهْرُ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فإِشَامَ بَارِقَةٍ أَمِلَ إِلَّا أَخْفَقْتُ وَرَجَعَ بِخَفَى حُنَيْنٍ، وَقَرَّتْ أَعْيُنُ أَعَادِيهِ كَمَا سَخِنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرَغَ مِنْ حَجَامٍ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ "أَشْغَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ".

وكلما تَأَمَّلَ جَدَّهُ الْعَاثِرَ النَّاكِصَ، وَنَظَرَ رِزْقَهُ النَّاصِبَ النَّاقِصَ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرُ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِجِ، وَمَتَّى نَفْسَهُ عُقْبَى يَوْمٍ صَالِحٍ، رَبَعَ عَلَيْهَا فَنَلَى بِالسَّائِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟؛ وَنَاجَى نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الرُّكَّابِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرِمِيسِ غُرَّةَ آيِبٍ؛ وَيَصِلَ التَّهْجِيرَ بِالسُّرَى، وَيَبْتَ مِنْ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوْتَقَاتِ الْعُرَى؛ وَإِنْ كَسَدَتْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِهِ، أَوْ رَثَتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ اكْتَسَبَ بِأُخْرَى مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَنَقَتْ فِي عُقْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا أَبْنُ بِيحْدِيهَا؛ فَإِلَامَ وَعِلَامَ وَحَتَّى مَتَى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْيَعُ مِنْ قَمَرِ الشَّتَا؟؛ وَحَالِي أَنُظْهِرُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ"إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ":

وَمَا أَنَا كَالْعَيْرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ * عَلَى الْقَيْدِ فِي مُبْجُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَلَ تَقَعُّمُ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَاسْتَفْتَحَ لِقَادِحَ زِنَادِ الْحِظِّ الْإِكْدَاءَ وَالْإِصْلَادَ، وَأَقُولُ: أَخْطَأَ مُسْتَعَجِلٌ أَوْكَادَ؛ فَأُتُوبُ مَتَابَ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ، وَأَخَذَ إِذَا أَرْتَفَعَ عَنِ الدِّنْيَةِ مِنْ حَظِّهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلْفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفُضِ الدِّنْيَةَ وَلَا تُلَوِّ عَلَيْهَا، فَتَكُونَ "أَحْمَقَ مِنَ الْمَهْجُورَةِ إِحْدَى خِدْمَتَيْهَا"، "فَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِشِدْيَتِهَا":

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ قَاتَهُ * عَلَى رِفْقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يُدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرَ الْأَرِيبِ * وَقَدْ يُصْرَعُ الْحَوْلُ الْقُلْبُ!

وَنَارَةٌ يُخْطَرُ أَنْ لَوْ شَكَّوْتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ ذَوِي الْجَاهِ، وَسَأَلْتُهُمْ بِالْحَقِّ
 فِي الْإِتِّغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ؛ وَأَحْضَهُمْ عَلَى آتِهَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
 وَأَضْرَبُ لَهُمْ : ”أَعِنْ أَحَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مَنْ يُحْيِفُهُ الدَّهْرُ فِي ذَلِكَ
 مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جُنَاحٍ“ ؛ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ جَلَدُوا ،
 بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَادُوا ؛ وَلَوْ مُلِّكُوا ظَلَّ اللَّهُ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيَا ،
 وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَانَهَا مُنَادِيَا ، وَقَبْلِي بَغَى عَلَى الْأَمْرِ فِقَاتُهُ وَأَدْرَكَ الْخِدَّ
 السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ؛ وَإِلَى كَمْ أَعْلَلُ تَعْلِيلَ الْقَطِيمِ بِالْخَضَابِ :

سَمِئْتُ الْعَيْشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرَّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيُمْنِيهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقُيْهَا ، وَيَقْصُ
 عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا ؛ وَأَنَّهَا مَاقَدَمَتْ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَبَتْهَا
 بَتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَتْ صَفْوَ الْأَمَانِي بَشَرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْدِيرٍ ؛ وَأَنَّ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
 مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوْلًا سَبِيلُ
 رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمرُ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَآدَمَ وَقَتَ الْوَفَاةِ عَلَى
 مِيعَادٍ ؛ فَإِنْ شِئْتُ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضِعْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ بِجِدِّ أَوْدَعُ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمْرِي فِي غَيْرِ
 مَآرِبِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أُنْجِزَنِي الْأَيَّامُ مَوَاعِيدَ
 عُرُقُوبٍ ، لَأَفْضَيْتُ بِي إِلَى أَحَلِّ مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَّةِ الرَّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
 قَنِعْتُ بِحَالِي ”وَوَشَّرَ مَا أَبْجَاكَ إِلَى مُخَّةِ عُرُقُوبٍ“ ، ثُمَّ يُخَاطِبُنِي حِجَايَ بِأَنْ تَثَبَّتْ وَأَصْبِرْ ،
 فَالَلِيلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقِمِّرٌ ؛ فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَهَيَّ بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْيَكَّابِ ،
 فَلَا تَعَجَلْ بِجَرَى الْمَذَكِّيَاتِ غَلَابِ .

فَاسْتَرَوَحْتُ إِلَى فَتْحِ بَابٍ كَانَ مُرْتَجَاً ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِجْلَاءِ مُحْيَا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ
هَمِّي فَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقٍ فِكْرِي مُخْرِجَا ؛
فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَّاكِ كِتَخْطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرْفَعَةِ شَطْرِنَجٍ وَضَعْتَ بَيْنَ الرِّفَاقِ ؛
الْيَسَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذَ لَاسْتِجْلَاءٍ وَجْهَ الْغَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلَدٍ عَلَى الْقِيَامِ
وَالْكَدِّ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثْمَانَ الْمَرْءِ عَمَّا وَارَاهُ ، وَيُبَيِّحُ
إِنْسَانَ الطَّرْفِ رَعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيَنْبِغُ بِمَا اسْتَوْدَعَتْهُ
مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشْرِفُ إِلَى غِيْضَةٍ قَدْ أَلْتَفَّتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهَدَّلَتْ ثِمَارُهَا ، وَرَقَصَتْ
أَغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدَتْ بِصَافِي الزَّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَنَمَتْ بِعَرَفِ الْعَبْرِ
الشَّجَرَى أَزْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِسُ النَّارِنَجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا وَحُلِيِّهَا ؛
قَدْ أَلْبَسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خَضْرَاً ، وَحَلَّتْ مِنْ ثِمَارِهَا تَبْرًا ؛ وَنَظَّمَ قِدَاحُهَا
فِي جِيَادِهَا لَوْلُؤًا رَطْبًا ، وَرَنَحَهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَسَالَتْ عَجْبًا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا
مِنَ الْبَنْفَسِجِ مَقَارِشُ سُندُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطٍ أَخْضَرَ سَلَّتْ أَيْدَى الْقِيُونَ
عَلَيْهِ صَقِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عِيُونَ الرُّقَبَاءِ مِنَ التَّرْجِسِ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِ ،
وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ فَمَا يَلَتْ كَعْنَاقَ الْحُبَيْنِ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَأَجْتَلَيْتُ مُحْيَاً وَسِيمًا تَبْلُجُ
أَسْرَتَهُ ، وَمَنْظَرًا جَسِيماً تَرُوقُ بِهِجَّتُهُ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاطُ بَسَاطًا أَزْرَقَا ، بَزْهَرِ الْكَوَاكِبِ
مُشْرِقَا ؛ وَطَرَزَهُ بِالْشَفَقِ طَرَاذَا مُذْهَبَا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَفْرَقًا أَشْيَبَا :

وَرَثَ قَيْصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ * سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّحُ ،
وَرَقَعَ مِنْهُ الذَّيْلُ صُبْحُ كَانَهُ * وَقَدْ لَاحَ شَخْصٌ أَشْقَرُ اللَّوْنِ أَجْلَحُ ،
وَلَا حَتَّ بَقِيَّاتُ النُّجُومِ كَانَهَا * عَلَى كَيْدِ الْخَضْرَاءِ نَوْرٌ يَفْتَحُ !

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَتَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَتَبِعُهُ كَوَاجِبًا فَكَوَاجِبًا ، فَكَانَهُ مَلِكٌ أَتَّخَذَ
الْحَجْرَةَ عَلَيْهِ مَضْرِبًا ؛ وَتَوَجَّجَ بِالْأَثْرِيَا إِكْلِيلًا ، وَخَنَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوَفِيرًا لَهُ

وَتَجِيلا ، وَأَصْطَفَتْ حَوْلَهُ خَدَمًا وَجُنُودًا ، وَنَشَرَتْ مِنْ أَشْعَثِهَا أَلْوِيَّةً وَبُنُودًا ؛
وَأَخَذَتْ مَقَامَاتِهَا فِي مَرَاكِزِهَا بِكَيُوشٍ عُبْتُتْ لِلِقَاءِ مُنَاجِرِهَا ، وَمُسَاقِيهَا أَخَذَ فُرْصَةَ
النَّصْرِ وَمَنَاهَزَهَا :

وَلَا حَ سَهِيلٌ مِنْ يَعِيدٍ كَأَنَّهُ * شَهَابٌ يُنَجِّهِ عَنِ الرِّيحِ قَائِسُ !

وَأَنْبَرَى نَسِيمَ السَّحَرِ عَلِيلاً ، وَجَرَّ عَلَى أَعْطَافِ الْأَزْهَارِ ذَيْلاً بَلِيلاً ؛ وَرَوَى أَحَادِيثَ
الرِّيَاضِ بِلِسَانِ نَشْرِهِ ، مُذِيعًا لِأَسْرَارِ خُرَآمِهِ وَزَهْرِهِ ؛ وَغَرَّدَتْ خُطْبَاءُ الطَّيْرِ عَلَى مَنَابِرِ
الْأَغْصَانِ ، وَاسْتَنْبَطَتْ مِنْ قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ دَفَائِنَ الْأَشْجَانِ ؛ وَحَثَّ دَاعِيَ الْفَلَاحِ ،
طَائِفَةُ التُّنَى وَالصَّلَاحِ ؛ عَلَى أَنْ تُؤَدَّى قَرْضُهَا وَنَفْلُهَا ، وَتَرْتَقَى بِخُضُوعِهَا بَيْنَ يَدَيِ
مَوْلَاهَا دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا ؛ وَهَتَفَ بِشِيرِ التَّجَجُّجِ بَيْنَ أَحْيَا
لَيْلَتِهِ لَمَّا تَمَزَّقَ قَمِيصُ اللَّيْلِ وَأَنْفَرَى : "عِنْدَ الصَّبَاحِ يَمْحَدُ الْقَوْمُ السُّرَى" .

فَبَيْنَا أَنَا أَتَفَكَّرُ فِي أَنَّ جُمْلَةَ مَا عَايَنْتُهُ سَيُصْبِحُ زَائِلًا ، وَعَنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الْعَجِيبَةِ
حَائِلًا ، وَأَتَذَكَّرُ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا)
إِذْ أَهْدَتْ إِلَى الْأَيَّامِ إِحْدَى طُرْفِهَا وَغَرَّائِهَا ، وَكُبْرَى أَوَايِدِهَا وَعَجَائِبِهَا ؛ فَطَرَقَ سَمْعِي
مِنَ الشُّبَّانِ نَبَأٌ ، وَتَاتَهَا وَجْبَةٌ تَتْبَعُهَا وَثْبَةٌ ؛ فَاسْتَعَدْتُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ ،
وَقُلْتُ : أَسْعُدْ أُمَّ سَعِيدٍ ؛ وَإِذَا بِمُخْمَسٍ قَدْ فَارَقَ وَجَارَهُ إِلَى وَجَارِي ، وَأَخْتَارَنِي عَلَى
الصَّحْرَاءِ جَارًا فَأَرْتَضِيَتْهُ لِحَوَارِي ؛ فَوَجَّحَ مُسْتَأْنَسًا ، وَمَرَحَ بَيْنَ يَدَيَّ آنَسًا ، وَأَرَانِي
أَحَدَ كَيْفِيهِ فِي الْأَسْتِرْسَالِ لَيْنًا وَالْآخِرَ بِاتِّمْنَعٍ شَامِسًا ؛ فَدَلَّهُ الْحِرْصَ عَلَى جُورِهِ حَبَائِلَ
مَكْرِهِ وَشِبَابِكِهِ ، وَيَدَّ الْغَبْشِ تَحُولُ دُونِ قَنْصِهِ وَإِنْسَا كِهِ ؛ وَبَقَايَا الظَّلَامِ تَقْضِي
بِتَمَنُّعِهِ ، وَتَصُدُّ عَنْ جَعْلِهِ مِنَ الْوَثَاقِ فِي مَوْضِعِهِ ؛ وَأَنَا مُلَازِمُهُ مُلَازِمَةُ الْمُفْسِرِ لِرَبِّ
الدِّينِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الصُّبْحُ لَدَى عَيْنَيْنِ .

فلما خَشِيتُ عَلَى صَلَاتِي الْفَوْتَ عَدَلْتُ إِلَى تَأْدِيَةِ فَرَضِهَا ، وَتَوَجَّيْتُ بَيْنَ يَدَيْ
مُوجِبِهَا وَعَرَضِهَا ؛ فلما انْفَتَلْتُ مِنْ مُصَلَّاي ، وَأَنْصَرَفْتُ عَنْ مُنَاجَاةِ مَوْلَاي ؛
بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فَقَالْتُ : أَدْرَقُرُنُ الْغَزَالَهَ ؟ ، وَإِلَا فَلَاتَ
حِينَ ذُبَالَهَ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَلَهُ الْمُهَنْدَسُ فَقُتِلَ لَهُ مِنَ الظُّلَمَاءِ
بَحْرًا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مَرْبَجًا وَعُغْرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى
أَسَدًا هَزَبْرًا ؛ وَأَتَرَخَ لَهُ كَأْسَ الْحَمَامِ بِالْوَاقِي ، وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْإِثْنَانِي ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ
بِالْإِلَيمَةِ مُنْكَرًا لِحَالِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاجِرًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَذَرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كُلَّهُ “ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَاكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، لَقَدْ خَلْتُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ - وَإِنْ
كُنْتُ وَلِيدًا - أَشْيَا ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إِلَى السَّيْفِ مُحْتَطِرًا ؟ ، ” إِنَّكَ لَأَجَبُنُ مِنْ
الْمُزَوَّفِ ضَرِطًا “ لَقَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْفَشْلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِرَاحَ
فِي مَحَلِّ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَمْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرْجِيكَ
بَعْدَهَا زِنَادًا صَلْدًا ، وَاسْتَنْبَعَ الْمَاءَ جَلْدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَهُ فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءَ أَزْرَى بِالسَّمَوِّ بِنِ عَادِيَا : أُنْجِ
هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيَا ؛ إِنِّي رُمِيتُ مِنَ الْخُطُوبِ بِأَصْعَمِيَا ، وَلَا يُنَبِّئُكَ بِالْحُرُوبِ
كُجْرِيَا ، وَالْفَاصُ بِاللُّقْمَةِ أَخْبَرِيَا ؛ فَلَقْدَ أَوْطَأَنِي مَا لَا اسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثْرَةَ ، وَمَا لَقَيْتُ
فِي حَرْبٍ كَهَذِهِ الْمَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْخِمْرَةَ “ ؛ لَقَدْ صَرَخَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجْ ، وَكَشَرَ
عَنْ أُنْيَايِهِ غَيْرَ مُتَبَسِّمٍ ؛ ” وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ “ ، ” أَسْتُ الْبَائِسِ أَعْلَمُ “ ؛ تَالَلَّهِ إِنَّهُ لَأَجْرًا
مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَنْ سَبَرْتَهُ لَتَعْلَمَنَّ مَا بَيْنَ الدَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيتُ نَفْسِي مِنْ
الْغَنِيمَةِ أَنْ تَوُوبَ بِذِمَائِي ، لَمَّا تَشَبَّثَ بِخِصْرِي تَحْضِيهَا بِذِمَائِي ، فَقُلْتُ : ” أَجْفَلَ عَنْ
جَنَابِكَ الْخَيْرُ وَأَجَلِي “ ، ” أَضَرُّطًا وَأَنْتَ الْأَعْلَى “ ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ
اسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ اسْتِكْبَارَهُ الْخُطْبَ وَاسْتِكْبَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : مِنْ ضَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكَ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَفْتِدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الدَّلُولِ الشَّامِسِ، الْمُسْتَسْدِ
 الْمُسْتَأْنِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَنْقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوِي سَامِعًا .
 فَلَمَّا حَازَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارَ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالَ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالْإِكْثَارِ، وَقَدْ
 كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعَقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ، اسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَمَلِّيًا،
 إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْتًا، فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَهُ، وَجُثَّةَ صَحْمِهِ، وَشِدْقًا أَهْرَتًا
 رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَعْبًا، وَأُنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُصَلًا كَالنَّصَالِ، وَطَرَفًا
 مُحَالِسًا غَيْرَ غَرٍّ بِالْمَكْرِ وَالْخِتَالِ، كَأَنَّهُ شَهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارٌ لَمْ تَجُدْ، وَسَامِعَتَيْنِ
 تَتَوَجَّسَانِ مَادَارَ فِي الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنَاجِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الْأَحْلَامِ، قَدْ
 نَيْطَتْ بَعْنَى صَغُرَتْ هَامَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ اسْتَدْبَرْتَهُ قُلْتَ : هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
 أَوْ اسْتَقْبَلْتَهُ قُلْتَ : هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ، يَشْتَمِلُ عَلَى نَحْوِ خَصِيبٍ، وَصَدْرٍ رَحِيبٍ،
 فِيهِ نَزْعَتَا بَيَاضِ كِهْلَالَيْنِ قُرْنًا فِي نَسَقٍ، أَوْ تَجْمِي دُؤَابَةٍ ظَهَرًا فِي عَسَقٍ، تُسَرُّ نَفْسُ
 النَّاضِرِ إِلَيْهَا، وَيُعْقَدُ خَنْصَرُ الْاِخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشَّيَاطِ عَلَيْهَا، أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ
 عَيْدٍ، وَسَاعِدِ شَدِيدٍ، وَبُرْنِ شَتْنٍ وَمُحَلِّبِ حَدِيدٍ :

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا * نَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّحُورِ نَوَاشِبِ،

مُعَقَّفَةِ التَّرْهِيْفِ عَوِجَ كَأَنَّهَُا * تَعَقُّرُ أَصْدَاغِ الْحَسَانِ الْكَوَاعِبِ !!

قَدْ جَاوَرَ جُوجُؤًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَسَدًّا، يَكَادُ خَضْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،
 وَهَمَّتْهُ تَسْعَرُ نَارًا، بِرَجْلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الْحَضَرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُ بِأَظْفَارِهَا أُذُنَيْهِ، وَذَنَبُ
 كَالرَّدَاءِ الْمُسِيلِ يَحْرُهُ اخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَتَبَّهِ نَحْبًا وَفَرَحًا، إِنْ أَنْسَابَ قُلْتَ : أَنْسَابُ
 أُنْعُوَانِ، أَوْ صَالَ قُلْتَ : أَسْدُ خَفَّانٍ، أَوْ وَثَبَ سَبَقَ الْوَهْمِ فِي انْخِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ
 أَدْرَكَ الْبَرْقَ مِنْ نَشَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفَ فِي انْخِرَاطِهِ، أَنْعَمَ مَسًّا مِنْ أَرْبٍ،

وَأُزْهِىْ مِنْ نَعْلَبَ ، قَدْ كَسَاهُ الظَّلَامُ خِلْعَتَهُ ، وَقَبْلَ الصَّبَاحِ طَلَعَتْهُ ؛ حَازَ مِنَ الْقَدَسِ صِقَالَهُ وَبَهَجَتَهُ ، وَمِنَ الْفَنَكِ لَيْلَهُ وَنَعَمَتَهُ ؛ أَلَيْسَ رِدَاءُ الشَّبَابِ ، وَزُيْنُهُ عَنْ تَرْوِيرِ الْخِصَابِ ؛ إِنْ أَخْتَلَسَ فَمَا تَأْبَاطُ شَرًّا ، أَوْ خَاتَلُ أَزْرَى ؛ بِالشَّفَفَرَى مُكَرًّا ؛ أَحَدَ نَفْسًا مِنْ عَمْرُو بْنِ مَعْدَى ، لَا يُصَلِّدُ قَادِحَ زِنَادٍ بَطْشُهُ وَلَا يُكْدِي ؛ أَنْزَقُ مِنْ أَبِي عَبَّادٍ ، وَأَصُولُ مِنْ عَنَتَرَةَ بْنِ شَدَادٍ ؛ أَفَنَكُ مِنَ الْحَرِثِ بْنِ ظَالِمٍ ، وَأَنْهَرُ فَصْدًا لِلْدَّمِ مِنْ حَاتِمٍ ؛ لَا يَلِينُ وَلَا يَشْكُو إِلَى ذِي تَضَمُّنٍ ، ”كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عِفْرِيتٍ“ ؛ يَكَادُ عِنْدَ الْمُخَاتَلَةِ فِي أُنْسِيَايِهِ ، يَقُوتُ الْخَاطِرُ أَوْ يُخْرِجُ مِنْ إِهَابِهِ ؛ إِنْ قَارَنَ طَيْرًا أَبَاحَهُ مَنَسْرًا كِمَنَسْرِ الْأَسَدِ ، أَغْلَبَ فِيهِ شَعًا كَأَنَّهُ عِقْدُ ثَمَانِينَ فِي الْعَدَدِ ؛ فَيُنْشِدُهُ : أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي ، فَلَا يُحَسُّ لَهُ بَعِيْنٌ وَلَا أَثَرٌ سَيَحْيِسَ اللَّيَالَى ، فَكَأَنُّ قُلُوبِهَا رَطْبًا وَيَاسًا لَدَى وَكْرِهِ الْعُنَابِ وَالْحَشَفِ الْبَالِي ؛ أَعْتَادَ قَنَصَ السَّانِحِ وَالْبَارِحِ ، فَمَا فَاتَ وَرَدَ الْمَنِيَّةِ مِنْهُ غَايِدٌ وَلَا رَاجِحٌ ؛ طَوِيلُ الْقَرَامُجِ الْأَعْظَمُ ، لَهُ مُخَاتَلَةٌ سِرْحَانٍ وَهَجْمَةٌ ضَعِيفٌ ؛ أَحَنَ مِنْ نَقَبِهِ (?) ، وَأَظْلَمَ مِنْ حِيَّةٍ ، أَطْيَشُ مِنْ فَرَّاشَةٍ ، وَأَسْبَقُ إِلَى الْغَايَاتِ مِنْ عُكَّاشَةٍ ؛ أَخْطَفُ مِنْ عُقَابٍ ، وَأَشْجَعُ مِنْ سَاكِنِ غَابٍ ؛ أَسْرَقُ مِنْ جُرْزٍ وَأَنُومُ مِنْ قَهْدٍ ، وَالَّذِينَ مِنْ عَيْنٍ وَأَخْشَنَ مِنْ قَدٍ ؛ بِأُسِهِ قَضَاءٌ عَلَى الطَّيْرِ مُنْزَلٌ ، وَبَطْشُهُ مَلَكٌ بِأَجَالِهَا مُرْسَلٌ .

فَلَمَّا تَأَمَّلَتْ خَلْقَهُ ، وَسَبَرَتْ بِتَجَرِبَةِ الْفِرَاسَةِ خُلُقَهُ ؛ عَجَلَتْ لَهُ جَرِيرًا مُسْتَحْصِدَ الْمِرَّةِ لَوْنًا قَدِيمًا ، وَأَحْكَمَتْ شَدَّهُ فِي مَحَلِّ خِنَاقِهِ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : إِنْ جُرَّ بِكَ سَحَابَةٌ هَذَا النَّهَارِ ، ”وَمَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ أَمِنْ مِنَ الْعِنَارِ“ ؛ فِعَلْ ذِي خِبْرَةٍ بِمَكْرِهِ ، وَعَلَى ثِقَةٍ مِنْ غَدْرِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّئِيمَ ذُو صَوْلَةٍ بَعْدَ الْخُضُوعِ ، وَفَضَحَ التَّطَبُّعِ شَيْمَةَ الْمُطْبُوعِ ؛ وَكَيْفَ الثِّقَةُ بِهِ وَإِنْ أَسْتَقَرَّ وَلَمْ يَنْتَبِشْ ؟ وَأَيُّ الطَّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمُتَمَسِّسُ ؟ .

ثم آنصرفت إلى البلد لبعض شائي ، والاجتماع بأخلائي وأخذاني ؛ واستغفرت أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيت نهجتي ، من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفتته عمداً إلى الوثاق فقرضه ، ووفاه بالكيل الوافي ما أقترضه ؛ وصال على شيخه تستسعد بدعائها ، ونزع إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نداءها ؛ ذات خلق عظيم ، ومنطق رقيم ، وقلب رقيم ، وجه ذي نضرة ونعيم ؛ إن قامت أحييت الليل بالسهر ، أوقرات رأيتنا حولها زمراً بعد زمراً ؛ إن حادتها نطق بالسحر محلاً ، أو تاركتها رأت الصمت على كثير من النطق مفضلاً ؛ تسر نفسك في حالة الصخب ، وتريك وجه الرضا في صورة الغضب ؛ فدد إليها يد العدوان ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛ ولم يقرب فيها إلا ولا ذمة ، وحملها حملنا من أذاها غمه ؛ ومزق قشيب أنوابها ، وحكم محالبه الحديدة في إهابها ، فعظم مصاب من حوت داري بمصاها .

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مهيب ؛ فسليت بها بأن المصائب تلقاها الأبرار ، وترققت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار ، وأوردت : «إن جرح العجاء جبار» ؛ وقلت : إياها لك وآها ، لقد ارتكبت خطة ما ألقها بعذرك وأولاه !! ، «فلقد أنصف القارة من رامها» ثم آليت ألية بره ، لأوطئته من الوثاق جمره ، ولأقتصن بهذه المرة تلك المرة ؛ وأتيت به بسلسلة تنبؤ أنيابه عن عجمها ، ولا تثبت شياطين مكره برحها ؛ قد أبدع قينها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب في نظامها ؛ فله هو من تحكم فيما يقطع الجلمد ، بفعله من اللطافة يحل ويعقد ؛ فاستودعت عنقه منها أميناً لا يخفر وثيق ذمته ، ولا تتطرق الاوهام إلى تهمته ؛ مستحكم القوة في الشد ، فتغيظ تغيظ الأسير على القد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وَتَذَلُّ بِعَدِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَبَضْبَصَ بِذَنبِهِ قَلْتُ : ”أَمْرُكَ وَأَنْتَ فِي الْحَدِيدِ“ . فَلَمَّا
أَيَسَ مِنَ الْخَلَّاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ) .

فَلَمَّا تَمَّ مَا ذَكَرْتُهُ ، وَأَبْدَأْتُهُ وَأَعْدَيْتُهُ ؛ وَرَدَّتْ رُقْعَةُ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَائِلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
الَّتِي وَقَعْتُ ، وَصَدَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ؛ وَأَقْتَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ
وَمِنْ تَسْبِيحَتِ بَأْذِيَالِ الْخَلْدِ ، فَأَخْرَجْتُهَا مَخْرَجَ الْهَزْوِ وَإِن دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قَضَبَاتِ
الْمَجْدِ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي الرِّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَنَبَّأْتُ الشَّجَرُ فَلَمَّا أَبْنُ جَلَا
وَطَلَّاعُ النَّبَايَا ” .

هَذَا : وَإِنْ أَبْقَى قِرَاعُ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي فُلُولًا ، ”فَالْفَحْلُ يَجِي شَوْلَهُ مَعْقُولًا“ ؛
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَوْبَ ، وَطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ
صَوْبَ ؛ وَجَرَيْتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَفَرَسِي الرَّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعِشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ؛ وَبِكُلِّ حَبْلٍ يَحْتَنِقُ الشَّقِي ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرُهُ كَيْفَ يَتَقِي ؛
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ عُقَى السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَى وَهُوَ عَاجِزٌ * وَيَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدُ !

قَسَطَرْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ إِلَى سَيِّدِنَا لِيُوَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرُهُ ، وَ”مَنْ يَشْتَرِي
سَيْفِي وَهَذَا أَثَرُهُ“ وَأَعْلَمَ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ ”أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُشْتَمِلٌ“ .

(١) العقابيل جمع عقوبة وعقوب . بالضم . وهي الشدائد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الحصّال الغافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
آبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشفُ سوءَ سواه ، ولا يدعُ المضطرَّ إلا إياه ، نزلَ فقرنا بغناه ،
ونعوذُ من سُخطه برضاه ، ونستغفره من ذُنوبنا : (ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا علا فاقْتَدَرَ ، وأوردَ عباده
وأصدرَ ، وبَسَطَ الرِّزْقَ وقَدَرَ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله الذى بَشَّرَ وأنذَرَ ،
ورَغِبَ وحَدَّرَ ، وغَلَّبَ البُشرى على الإقْناط ، ودَلَّ على الصِّراط ، وأشار إلى السَّاعةِ
بالأشْراط ، ولم يَأُلْ أُمَّته فى الذَّبِّ والاحتياط ، صلى الله عليه وعلى الوُزراءِ الخُلُفا ،
والبرَّةِ الأتْقيا ، والأشدَّاءِ الرُّحما ، والأصحابِ الرُّعما ، صلاةً تملأ ما بين الأرضِ
والسَّما ، وتوافيهم فى كلِّ الأوقات والآنا ، وتَضَعُ الثَّناءَ مَوْضِعَ الثَّنا .

ولما لَفَحَتْ حَرْبُ الجَدْبِ عن حِيال ، وأشفقَ رَبُّ الصَّريحةِ والعِيال ، وتنادى
الجيرانُ للتفرُّقِ والزَّيَال ، وتناوحتْ فى المهبُوبِ ريحُها الجنُوبُ والشَّمال ، وتراوحتْ
على القلوبِ راحتا اليَمينِ والشَّمال ، وأحضرتْ أنفُسُ الأغنياءِ الشَّح ، وودَّوا أن
لا تَنشأَ مُزْنَةٌ ولا تَسِحَّ ، وتَوَهَّمْ حَازِنُ البرِّ ، أنَّ صاعَه يَعْدِلُ صاعَ الدُّرِّ ؛ وخَفَّتْ
الأزْوادُ ، وماجتِ الأرضُ وألْتَقَتِ الرُّودُ ؛ وأنترعتِ العازبُ القِصَى ، فألْقَتِ العِصَى ،
وصدَّرتْ بِجَسَرَاتِها ، وقد أَسْلَمَتْ حَرَراتِها ؛ وأصبحت كلُّ قَنَةٍ فِدْعاء ، وهَضْبَةٌ دَرعاء ،
(صفاه وهما ونقبا وهما) (؟) ؛ والصُّبْحُ فى كلِّ أَفْقٍ قَطُرٌ أو قطع ، والأَرْضُ كُلُّها سَيْفٌ
ونِطع ، والشَّعرُ يَشْمُرُ ذَيْلَه للنفاق ، ويُضَمِّرُ خَيْلَه للسِّباق ؛ وجاءَ الحِمدُ وراحَ الهزلُ ،

(١) كذا فى الأصل ، ولم فصل إلى محله مع البحث والتنقيب .

وَقُلْنَا : هَذِهِ الشَّدَّةُ هَذَا الْأَزْلُ ؛ وَلِلرَّجَفَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةٌ ظَنُّوْهَا لَا تَلْبَدُ ،
وَقِسِيْ نَحْوَ الْغُيُوبِ تُعْطَفُ وَتَلْبَدُ ؛ فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَابٍ يَحْرِقُ ،
وَشِهَابٍ يَبْرِقُ ؛ حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْإِيمَانَ ، وَأَخَذُوا بِزَعْمِهِمُ الْإِيمَانَ ؛ وَقَالُوا : لَا يُطْمَعُ
فِي الْغَيْثِ ، وَرُحُلٌ فِي اللَّيْثِ ؛ فَإِذَا فَارَقَ الْأُسْدُ ، لَكَدًا مَا أَفْسَدَ :

تَحَرَّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً * لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبٍ !

أَنْشَأَ اللَّهُ الْعَنَانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَبَيْنَمَا النُّجُومُ دَرَارِيهَا الْأَعْلَامُ ، وَأَغْفَاَهَا
الَّتِي لَا تُحْمَدُ عِنْدَهُمْ وَلَا تُتْلَمُ ؛ قَدْ اخْتَلَطَ مَرَعَاهَا بِالْهَمَلِ ، وَلَمْ تَدْرِ السَّدَةَ بِالْحَمَلِ ؛
وَلَا عِلْمَ الْجَدَى بِالرَّثَالِ ، وَلَا أَحْسَسَ النُّورَ بِالرَّأْمَى ذِي الشَّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا ظُلُلُ النِّهَامِ ،
وَحَجَبَتْهَا أَسْتَارُ كَأَجْنَحَةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخَذَتْ عَلَيْهَا فِي الطُّرُوقِ ، مَصَادِرُ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مُقَنِّعٌ بَصِيفٍ ، أَوْ مُزْمَلٌ فِي نِجَادٍ خَصِيفٍ ؛ لَمْ تُتْرَكْ لَهُ عَيْنٌ تَطْرِفُ ،
وَلَا ثَقْبَةٌ يَطْلُعُ مِنْهَا أَوْ يُشْرِفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دُورٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدُرَرٍ مُتَنَائِرَةِ
السُّمُوطِ ، وَدِيمٍ مُنَحَلَّةٍ الْخَبُوطِ ؛ وَجُيُوشٍ مَنصُورَةِ الْأَعْلَامِ ، ثَابِتَةِ الْأَقْدَامِ ؛ وَكَتَائِبَ
صَادِقَةِ الْمُجُومِ ، صَائِبَةِ الرَّجُومِ ، تَطْلُبُ الْحَلَّ مَا بَيْنَ التُّخُومِ وَالنُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ
تَرْمِيهِ بِأَحْجَارِهِ ، وَتَحْتَرِشُهُ فِي أَحْجَارِهِ ؛ وَتَفْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ ، حَتَّى عَفَّتْ عَلَى آثَارِهِ ،
وَأَخَذَتْ لِلْحَزَنِ وَالسَّهْلِ بَثَارَهُ .

فِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، انْظُرْ إِلَى الدَّيْمِ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِغْ فِي لُحُجِ سَيُوطِهَا ،
وَارْتَحْ فِي مَرْمَرِ دُيُوطِهَا ؛ وَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَدَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ
الْحَلَى إِلَى الْعَاطِلِ ؛ فَبُرُودُ الظُّوَاهِرِ مُحْضَرَهُ ، وَتَغُورُ الْأَزَاهِرِ مُفْتَرَهُ ؛ وَمَسَرَّاتُ النُّفُوسِ
مُنْتَشِرَهُ ، وَالدُّنْيَا ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَهُ ؛ وَأَرْوَاحُ الْأَدْوَاكِ حَامِلَهُ ، وَأَعْطَافُ الْأَغْصَانِ
مَائِلَهُ ؛ وَأَوْرَاقُ الْأَوْرَاقِ تَفْصِلُ ، وَأَجْنَحَةُ الظَّلَالِ تُرَاشُ وَتُوصَلُ ؛ وَخُطْبَاءُ الطَّيْرِ

تَرَوِي وَتُخِيرِ ، وَتُسِيوُخِ الْحَارِبِ تَهْلِلُ وَتُكَبِّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُخَضِّعُ لِحَبْرَتِهِ ،
وَيُسَهِّدُ لِمَلَكُوتِهِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَأَمَّا الْخَطَاطِيفُ فَقَدْ سَبَقَ هَايَهَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَاجَعَ شُكْرًا لِلَّهِ نَادِيهَا ؛
فُعْشُ يَوْمٍ ، وَلَيْلَةٌ إِلَى أُخْرَى تَزِمُ ، وَشَعَثٌ يُلِمُّ ، وَبَدَأَةٌ تُوفِي وَتُمْ ؛ وَكَأَنَّهَا حَنْتَ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتِ اللَّفَاقِي إِلَى الْمَعَاهِدِ ؛ فَظَلَّتِ اللَّفَاقِي بَعْدَهَا نَزَاعًا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطَامِهَا أَوْزَاعًا ، وَأَجَدَتْ إِقْطَاعًا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخُصْبِ أَمْرًا مُطَاعًا ؛ وَحَازَتْ
مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ إِقْطَاعًا ؛ وَسِغَرْدٌ فِي رَوْضَتِهِ الْمُكَّاءُ ، وَيُضْحِكُ هَذَا الْوَايِلُ
الْبَكَّاءُ ، وَتَرُومُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاءٌ ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْأَفْنَانِ النَّاعِمَةُ قِلَاصٌ ، وَأُحْصَنَتُهُ مِنْ
الْخُضْرَاءِ التَّبَعِيَّةِ دِلَاصٌ ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالنَّيْلُ لِأَهْلِ الثَّنَاءِ
وَالْخَيْرَاتِ ؛ وَالْمَرْغَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضُ بَكْوَاكِبِ النُّورِ تَزْدَانُ ، وَبِقَاعُ تَدِينُ الْغَيْثِ
كَأُتْدَانِ ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَرَتْ ، وَعَمَرَهَا مَا أَنْكَرَتْ ؛
كَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةٍ نَسَبَ أَوْ مَلَحَ ، قَالَتْ لَهَا : خِطْبُ فَقَالَ : نِكَحْ ،
فَقُتِلَتِ الْأَزْهَارُ بِسَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي مَسِيلِهِ ، وَثَبَّتْ كَاللَّحْظَةِ فِي شَطْطِ نَجْمِهِ .

فَمِنْ نَجْمِيسٍ تَزْنُو الرُّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بِهِجَةَ إِشْرَاقِهِ ؛ وَيَوْدُ الْمِسْكُ
نَفْحَةَ آتِنَشَاقِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَيَتَمَنَّى الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ ؛ كُحْلَةٌ
نَدَى تَتَرَقَّقُ ، أَوْ غُصْنٌ بَانَ لَا يَزَالُ يُوْرِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَفْنَى مُطَالِعُهُ عَلَى عَرَارٍ ، وَكَلَفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالْعَوَادِي كَلْفَ عَمْرٍو
بِعَرَارٍ ؛ بَجَاءِ كَسَوَالِفِ الْغَيْدِ تَرَفٍّ ، وَكَوْمِيضِ الثُّغُورِ يَعْبُقُ وَيَسِفُّ .

وَمِنْ أَقْصَوَانٍ جَرَى عَلَى الثَّنَايَا الْغُرَّ ، وَسُبِكَ مِنْ نَاصِيعِ الدَّرِّ ؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبُقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوْبُمَا ^(١) وَيَغْنَقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

ومن بَنَفْسِجٍ كَطَوَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ ؛ تَشْرَفُ بِأَبْدَعِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفُ مِنَ النَّسَقِ وَالْخَلْقِ ؛ تَلَحُّظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَى الْأَجْفَانِ وَقَيْتُ ،
وَبُدْمُوعِ الْكُحْلِ سُقَيْتُ ؛ نَسِيمُهُ أَلِينُ مِنَ الْحَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعْطَرُ مِنَ الْعَيْدِ ؛ يُفَاحِرُهُ
كَانُونُ الْبَرْدِ ، مُفَاحِرَةٌ نَيْسَانَ بِالْوَرْدِ .

وَكُلَّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُحْرُفَهَا وَأَزَيَّنَتْ ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَتْ ؛ كَمَا نَتَوَجَّحُ
فِي إِيَوَانِهِ كِسْرَى ، وَأَسْتَقْبِلْتُهُ وَفُودُهُ تَتَرَى ، وَتَقْلِبْتُ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرَى ،
وَكُلَّ تَلَعَةٍ مَذَانِبُ نَصُوحِهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُضُولِهَا لَا تُتْنَى ؛ وَأَرَاقِمُ تَنْسَابِ ، وَلُحَيْنِ
يُدَابُّ وَيُدَابُّ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا يُجُومُ مِنَ النُّورِ مُشْتَبِكُهُ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَّاتِ الْغَوَافِي
مُنْتَبِكُهُ ؛ فَلَوْ أَقْتَضَتْ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ ، وَنَطَقَتِ السُّهُولُ وَالْحُزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قَلِيلَ الْخَبْرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا ، وَنُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِئَ النَّسَمِ ،
وَدَارِئِ الْقَسَمِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلِ الدِّيمِ ، وَبَاعِثِ الرَّحْمِ ، وَنُحْيِ الْأَنْفِ ،
فَإِنَّا نُوْمِنُ بِقُدْرِكَ : خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْشَكَ عَلَى غِرِّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِنَشْرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ ؛ وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ
وَالْإِلْحَادِ ؛ وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْإِسْلَامِ ؛ رِزْقُنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا نُشْرِكَ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُلْتَحِدًا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأَمَّتْ الْحَيُّ وَأُحْيِيَتِ الْمَيِّتُ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكَيْفَا فِيمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّيْنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) الْآيَةُ .



وهذه نسخة رسالة ، كتَب بها الصاحبُ نَحرُ الدِّين عبدُ الرَّحمن بن مُكَانِس ،
تَعَمَّدَه اللهُ بِرَحْمَتِهِ ؛ إلى الشَّيخ بَدْرِ الدِّين البَشْتَكِي عند ما زَاد النِّيلُ الزِّيَادَةَ المُقْرِطَةَ ،
سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهى :

رَبَّنَا اجْعَلْنَا فى هَذَا الطُّوفَانِ مِنَ الْآمِنِينَ ، وَسَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فى الْعَالَمِينَ .
ما تَأْخِيرَ مَوْلَانَا بَحْرَ الْعِلْمِ وَشَيْخَهُ عَنْ رُؤْيَا هَذَا الْمَاءِ ؟ ، وما قُعَادُهُ عَنْ زُرْقَةِ
هَذَا النِّيلِ الذِّى جُعِلَ النَّاسُ فِيهِ بِالتَّوْبَةِ كَالْمَلَأْنِكَةِ لَمَّا غَدَا هُوَ أَيْضًا كَالْمَاءِ ؟ ،
وَكَيْفَ لَمْ يَرَهُ هَذَا الطُّوفَانُ الذِّى اسْتَحَالَ لِلزِّيَادَةِ فَمَا أَشْبَهَ زِيَادَتَهُ بِالظُّلْمِ ، فَهِيَ كَزِيَادَةِ
الْأَصَابِعِ الدَّلَالَةَ فى الْكَفِّ عَلَى نَقْصِهِ ، وَأَوْلَى أَنْ تُنْسَدَ بَيْتَ الْمَثَلِ بِنَصِّهِ :
طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ * مِنْ عُظْمٍ مَا قَدَّ سَرَّنِي أَبْكَانِي !

فإنه قَارَبَ أَنْ يَمْتَرِجَ بَنَهْرَ الْحَجَرَةِ بِلِ وَصَلٍ وَأَمْتَرِجَ ، وَأَرَانَا مِنْ عَجَائِبِهِ مَا حَقَّقَ أَنَّهُ
الْمَعْنَى [بِقَوْلِ الْقَائِلِ] : " حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ " ، وَتَجَاوَزَ فى عَشْرِ الثَّلَاثِينَ
الْحَدَّ ، وَأَرَانَا بِالْمَعَانِيَةِ فى كُلِّ سَاحِلٍ مِنْهُ مَا سَمِعْنَاهُ عَنِ الْجَزْرِ وَالْمَدَى ، وَأَسَاءَ فى دَفْعِهِ
فَلَمْ يَدْفَعْ بِالتَّى هِىَ أَحْسَنُ ، وَأَقْعَدَ الْمَآثِي عَنِ التَّسَبُّبِ وَالْحَرَكَةِ حَتَّى شَكَا إِلَى اللَّهِ
فى الْحَالَيْنِ جَوْرَ الزَّمَنِ ؛ وَسَقَى النَّاسَ مِنْ مَاءِ حَيَاتِهِ الْمَعْهُودَةِ كَمَا شَرِبُوا مِنَ الْمَوْتِ
أَصْعَبَ كَاسٍ ، وَسُئِلَ ابْنُ أَبِي الرَّدَّادِ عَنِ قِيَاسِ الزِّيَادَةِ فَقَالَ : زَادَ بِلا قِيَاسٍ ؛
أَمْتَلَأَ الْيَبَابَ ، وَهَالَ الْعُبَابَ ، وَضَاعَ الْعَدُّ وَأَخْتَلَطَ الْحِسَابُ ؛ كَالِ فَطْطَفِ ، وَزَارَ
فَمَا خَفَّفَ ؛ غَسَلَ الْجُسُورَ ، وَأَعَادَ الْإِمْلَاقَ بَعَزَمَهُ إِلَى الْبُحُورِ ، وَبَرَعَ فَكَانَ أَوْلَى
بِقَوْلِ الْحِلِّىِّ مِنْ ابْنِ مَنْصُورٍ :

بِمَكَارِمِ تَذَرُ السَّبَاسِبَ أَبْجَرًا * وَعَزَائِمِ تَذَرُ الْبِحَارَ سَبَاسِبًا !

جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواقٍ مضر
وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح ؛ وغدا التيار ينساب في كل يوم
كالآيم ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم ؛ وأستحالت
الأفلاك فكل برج مائي ، وتغيرت الألوان فكل ما في الأرض سمائي ؛ وحكى ماؤه
حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط ، وزاد فأستحال نفعه فتحقق
ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أقرط ؛ فلقد حكّت أمواجه ودوائر
الأعكان والسرر ، وغدا كل حي ميتاً من زيادته لا كما قال المعري : حياً من بني مطر^(١) ؛
وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر ، وأحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت
الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا ؟ وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه
جعقراً ويزيد :

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةً شَاخِصٍ * إِلَيْهِ بَعَيْنٌ أَوْ مُشِيرًا بِأَصْبَعٍ !
فلکم قال الهرم للسارين ياسارية الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للحوض : أنا الغريق
فما خوفي من البلل ؟ وكم قال أبو الهول : لا هول إلا هول هذا البحر ، وقال
المسافرون : ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر ، وقال المؤرخون : لم تنقل
كهذه الزيادة من عهد التهروان وإلى هذا الدهر .

وكيف يسوغ لمولانا في هذه الأيام غير آرتشاف فم الخمر ؟ ولم لا يغير مذهبه
ويطيب على هذه الخلل بالسلسل والدور ؟ ؛ وكيف وكيف ؟ !! ، ولم لا يتخذ
مولانا حمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف ؟ ؛ وهو في المبادرة إلى علو المعالي
وعلو المعاني ، وآتهاز القرص في بلاغ الآمال وبلوغ الأماني :

(١) يشير إلى بيت المعري في قوله :

وإني بخلت عن الأحياء كلهم * فأسقى الماطر حياً من بني مطر

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ * وَنَوْعٌ فَرْدٌ وَشَكْلٌ غَرِيبٌ !

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى الثَّمَادِ !

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّحَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيَبَوِيهِ وَهَلَمْ جَرًّا ، وَشَيْخِ
الْعَرُوضِيِّينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَحْرًا :

وَشَيْخِ سَيَحُونِ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلَهْ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ نَهْرِ الْأُبُلَّةِ !

إِىَ وَاللَّهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَى : * الطَّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكَسَا !

لَا تَجِبْ لِعَظِيمٍ بَعْدَ عُرُوسٍ ، أَنْتَ أَعْوَمُ فِي بُحُورِ الشُّعْرِ مِنْ ابْنِ قَادُوسٍ ، وَأُصْلِحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، وَأَتَمِّهِ إِذَا هَزَلْتَ مِنْ ابْنِ حَجَّاجٍ إِلَى
النَّفُّوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَجًّا * وَحَقَّقَكَ مَا اسْتَحْلَى لَهُ النَّاسُ زَانِدًا !

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ ابْنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوَجْهِ جَمِيلٍ ؛ : فَلَوْ رَأَاهُ مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرَ بَغْضَا خِلَالِ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَعْشُوقِ فَتَرَكَه كَالْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْآثَارِ ؛ لَبَكَى بَعْنَى عُرْوَهْ ،
وَأَوَى مِنَ الرَّصْدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صَلَدِهِ عَيُونَ النَّزِّ إِلَى رَبْوَهْ ؛ أَوْرْنَا لِرَوْضِ الْحَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَامَلَتْ عَرَائِسُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينِ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّخِيلِ وَقَدْ قُتِنَتْ
مَلَأُكُهَا - حِينَ فَتَكَ - بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ ثَمَرِهَا وَأَصْفَرَهُ فَأَرَانَا الْعَابَابُ وَالْحَشَفُ .
وَالْحَزِيرَةِ وَقَدْ قَلْتُ لَهَا : تَبًّا لِحَارِكِ النَّيْلِ إِذَا أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بغيرِ اسْتِثْنَاءٍ . وَقُرَاهَا الْغَرْبِيَّةُ . وَقَدْ قَلْتُ لَهَا : حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَعْتَصَمْتَ بِالْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلُّ سَفِينَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْتَقَتْ لِارْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ آخِطَطْتُ بِالسَّمَاءِ ، وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَتْرَابُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرْجِعِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّمَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقَامِي ، وَالنَّيْلُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةً لِبُعْدِهَا فَكَأَنَّمَا انْجِيَامُ بَذَى طُلُوحِ^(١) ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بَطْغْيَانُهُ فَكَأَنَّمَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحٍ .

فَلَقَدْ طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرُ الْمَجَرَّةِ مِنَ السَّكَارَى بِالشَّخَايِيتِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَنَزَجِسَ الْبَسَاتِينَ وَقَدْ أَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ ، وَفَارَقَ أَحْبَابَهُ مِنَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرُ الْقَلَانِسِ صَدِيقٌ وَغَيْرُ الْمَاءِ حَمِيمٌ .
 وَالْوَرْدُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَالِكٌ مِنْ آسٍ ، وَغُصْنُ الْبَابِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَانَقَكَ
 وَلَا بَاسَ . وَالْأَسْمَاكِ وَقَدْ أَجْتَمَعَهُمُ الْعَرَقُ ، وَالْقُلُقَاسِ وَقَدْ شَكَا شَكَاؤُ ابْنِ قَلَاقِسَ
 وَأَبْنَاهُ مِنَ الْعَرَقِ . وَالْقَصَبُ بِالْحَيْرَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ النَّزِّ فَهُوَ بُنْسُ الشَّرَابِ ، وَالْقَصَبُ
 بِبُولَاقٍ لَمْ يُنْجِهِ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْعَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَابَ ، وَالْفَارِسِيُّ بِالْبَسَاتِينَ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَأَرَانَا كَيْفَ تَكْسِيرِ الْأَقْصَابِ ، وَقِيلَ لِلْآسِ : عَالِجُ حَيْرَانِكَ بِالْغِيْطَانِ فَالنَّاسُ
 بِالنَّاسِ ، وَبَادَرُوا إِلَى جَبْرِ مَا كُسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالِينِ إِلَى الْآسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرُّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبَائِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَعْمَرِاضِ ، وَإِنْ أَعْتَلَّتْ بِالْأَسْتِسْقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّحَّةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى الْعُيُونِ الْمِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَغْرَاضِ :

وَقَائِلُ : فِي لِحَاطِ الْغَيْدِ بَاقِيَةٌ * مِنَ السَّقَامِ وَمَا ضَمَّتْ خُصُورَهُمْ ،

وَفِي النَّسِيمِ فَقُلْتُ : الْأَمْرُ مُشْتَبِهٌ * عَلَيْكَ فَالْزَمِ فَأَنْتَ الْحَادِقُ الْفَهْمُ .

قُلْتُ الصَّحِيحَ وَلَكِنِّي بِمُوجِبِهِ * أَقُولُ : تِلْكَ دَوَاةٌ بَرُّوْهَا السَّقَمُ !

قَدْ أَحَاطَ بِهَا النَّيْلُ إِحَاطَةَ الْمَرَاشِفِ بِاللَّيِّ ، فَأَشْرَقَتْ ضِيَاءَ بَيْنِ زُرْقَتِهِ فَكَانَهَا
الْبَدْرُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ :

بَصَخْنِ خَدَّ لَمْ يَغْفُضْ مَأْوُهُ * وَلَمْ تَخْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مَتَعَطَّشٌ مَعَ هَذَا الطُّوفَانِ لِرَيَّاكَ ، مُتَشَوِّفٌ وَإِنْ كُنْتُ مُغَاوِلَ الْجُجُومِ الْأَرْضِيَّةِ
وَالسَّمَائِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ، لِكِنِّي يُسَلِّبُنِي أَنْيَ مَا نَظَرْتُ إِلَى النَّيْلِ إِلَّا رَأَيْتُكَ مِنْ سَائِرِ
الْجِهَاتِ ، وَلَا لَحْتُ بِيُوتَ الْبَحْرِ بِلِ الْبُحُورِ إِلَّا رَأَيْتُكَ عِمَارَةَ الْأَبْيَاتِ :

وَلَا هَمَمْتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطِشٍ * إِلَّا رَأَيْتُ خَيَالًا مِنْكَ فِي الْمَاءِ !

وَلَكِنِ لِلْعِيَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * لَهُ طَلَبَ الْمَشَاهِدَةِ الْكَلِيمُ !

فَهَلُمَّ إِلَى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا هَذَا النَّيْلِ الَّذِي لَمْ تَرَمْثَلَهُ الْعُيُونُ ، وَالنَّظَرَ إِلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطِيبُ لِلتَّامِيزِ رُؤْيَا هَذَا الْبَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيَا
شَيْخِهِ ، وَلَا يَلْذُّ لَهُ التَّمَلُّ بِمَشَاهِدَةِ هَذَا الْفُلْكِ مَا لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَتْ بِيَدْرِهِ وَمَرَّيْجُهُ ؛
فَمَا هَذَا الْإِهْمَالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يَا أَدِيبُ تَسَاغَلُكَ بَأْيُ الْأَعْمَالِ ؟ ، أَبَا لِكِتَابَةٍ ؟
فَلْتَكُنْ فِي هَذَا النَّيْلِ الَّذِي هُوَ كَالطَّلْحَةِ بِغَيْرِ مِثَالٍ ، أَوْ بِالنَّثْرِ وَالنَّظْمِ ؟ فَفِي هَذَا الْبَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ يُؤْخَذُ الدَّرَرُ وَفِيهِ تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ ؛ وَلَقَدْ وَلَدَ فِيهِ الْفِكْرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادَمَ الْأَكْفَاءُ وَقَهَرُ الْمَمْلُوكِ لِلْمَمْلُوكِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا وَرَحَ
فِي عَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الزَّائِدَةِ ، وَالْجَرَيِّ عَلَى نَحْوِ الْعَادَةِ الَّتِي لَا جَعَلَ

الله بها صلة ولا منها عائدة ؛ وغايته ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق
بسعته المسالك ؛ وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السالك ، وأحوج مرات إلى الاستضياء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شمل به من الفساد ، وما عامل به البلاد وأهل البلاد ؛ ما قاله أدباء كل
عصر ، عند ما أبيع للسافر في مدّ عرضة القصر .

فن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طفق دُرّه ،
فلله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمن نبأ سطورهِ العظيمة أمر طوفان النيل التي كأنها جدأوله ،
وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتي الله سائله

ومنها : ولم يزل يجرى مُستقرّ له ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوله ؛
حتى إذا تكامل سمواً أمواجه حالاً على حال ، وتوزر أقاصي الأرض من بنية المقياس
فأدناها النظرُ العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق ،
وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كل غدير ما أطاق ؛ وطالما جرى بالصفاء ولكن
كدر صفاه بهذا المسعى ، والمرجو من الله أن يتلوما أفسده هذا الماء ما يصاحبه
خروج المرعى .

وما قاله القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، سقى الله تلك الأنفاظ النيلة
صوب الماطر :

ويُنهي إليه أمر النيل الذي سرفى أوائله الأنفس بأنفس بشرى ، ويقص عليه
نبأ العظيم الذي مايرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه
إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبحها وتقرى ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفْوَرِهِ وَوَفَائِهِ ، وَأَغْنَىٰ بِهِ قُطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ مَدِّ
كَافِهِ وَفَائِهِ ، وَتَزَهَّهَ عَنِ مِنَّةِ الْغَمِّ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهَقَةِ رَعْدِهِ وَدَفْعَةِ
بُكَائِهِ ؛ فَقَدْ وَطِئَ بِلَادَهَا بِعَسْكَرِهِ الْعَبَّاجِ ، وَزَاخَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ؛ فَعَمِلَ
فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخَنَاقِهِ وَتَخَلَّلَهَا بِزِرَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ
قُلُوعِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُمْدُ قِلَاعِهِ ؛ وَزَارَ زَرَائِي الدُّورِ الْمَبْتُوثَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَيَا
كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مُورُوثِهِ ؛ وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمُنْكَوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ
وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَقْصَارِ وَالنَّجُومِ أَشْعَاطُهَا الْمَعْكُوسَةِ ؛ وَحَمَلَ عَلَىٰ بُرْكَتِهِ
الْفِيلَ حَمْلَ الْأَسُودِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَعَلَ الْمَجْنُونَةَ مِنْ تِيَّارِهِ الْمُنْحَدِرِ فِي السَّلَاسِلِ
وَالْأَغْلَالِ ؛ وَالْمَرْجُوُّ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَاهَدَنَا بِهِ ؛ فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ
الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعِبرَ ؛ فَهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصِّفَاءِ ؛ وَبُلُوغُ الْهَرَمِ ،
إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَضْطَرَّم ؛ وَأَمِنْ كُلِّ فَرِيقٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ؛ وَفَرِحَ قُطَّانُ الْأَوْطَانِ ،
إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يَقَالُ : سُلْطَانٌ ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبَرَائِهِ مَعَ الزِّيَادَةِ
مِنْ نَقَائِصِهِ ؛ طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَفَازَ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَائِهِ
الْمُعْصِفَرِ بِتَخْلِيْقِهِ .

وَمَا قَالَهُ الْمَوْلَىٰ زَيْنُ الدِّينِ عُمَرُ الصَّفْدِيُّ تَعَمُّدُهُ اللَّهُ بِعَفْوِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ حِلَاوَةِ
الْكُوْثَرِ وَصَفْوِهِ :

وَأَمَّا النَّيْلُ فَقَدْ أَخَذَ الدَّارَ وَالسَّكَّانَ ، وَقَالَ ابْنُ الْخَامِلِ كَمَا قَالَ ابْنُ النَّبِيِّ : الْأَمَانُ
الْأَمَانُ ، وَبَكَى النَّاسُ عِنْدَ مَا رَأَوْهُ مُقْبِلًا عَلَيْهِمُ بِالطُّوفَانِ ؛ وَأَنْسَابَتْ أَرَاقِمُ غُدْرَانِهِ
فِي الْإِقْلِيمِ فَأَبْتَلَتْ غُدْرَانُ أَرَاقِمِهِ ، وَمَحَا سَيْلُهُ الْمَتَدَفِّقُ مَعَالِمَهُ الْمَجْهُولَةَ فَاسْتَعْمَلَ
الْأَفْلَامَ فِي إِثْبَاتِ مَعَالِمِهِ ، وَأَحَاطَ بِالْقُرَى كَالْمُحَاصِرِ فَضَرَبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ بِسُورٍ ،
وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِينَ فَلَا مَرَكَبَ إِلَّا الْمَرَاكِبُ وَلَا عَاصِمَ إِلَّا الْبُحُورُ .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نصرته الأقباط ، وأحد عمد الشعر المشهورة
بالفسطاط ، فما أطيّب مدائح النبوة التي جعلها سوراً بينه وبين النار، وما أعجب
رثاءه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غب القطار !! :

يا نيل ياملك الأنهار قد شربت * منك البرايا شرباً طيباً وغداً ،
وقد دخلت القرى تبغى منافعها * فعمها بعد فرط النفع منك أذى .
فقال : يدكر عني أنني ملك * وتعتدى ناسياً : إن الملوك إذا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب جوائح
نظمها ونثرها ، وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب : اختر من درها ، فسبحان
من يسر له ممتنع الكلام وهونه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،
فما أشق دقيق فكره الجليل ، وما أكثر ما يضحك زهر تقطيعه على زهر مقطعات
النيل ؛ فما كان إلا مخصوصاً في الأدب بحور الهبات ، وكلامه في العذوبة والبلاغة
يزري بالقرات وآبن القرات ؛ وإن قيل أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد ، يقال
قول ابن نباتة .

فلا عجب للفظي حين يحلو * فهذا القطر من ذاك النبات ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه ، وأمتد نصل تياره كالسيف
الصقيل فقتل الإقليم وهذا الإحمرار إنما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قتلت * والدم النصل شاهد عجب !

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه ، ولا وهذا بل جبلاً إلا أخفاه ؛ أقبل كالأسد
المصور إذا احتد واضطرم ، وجاء من سن الحنادل فحدّر وعلاً حتى بلغ أقصى
الهرم ؛ وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، قائلاً :

إِنْ كُنْتُ يُلِيتُ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَفِضُ بِأَنْ أَرِنِي مِنْ بُرُوقِ تِيَّارِي
بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ .

هذا وطلما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال
جميل، وكل بديع من آثار جود يصيب الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة
الليل، وطلما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطه، وكنازل
الخضب بقُدومه المبارك ذات غبطه، ومنحناه بولاء وثاء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يعدب من البحار بنقطة، كم ورد إلى البلاد صيفاً ومعه القرى، وكم أتى
مرسلاً بمعجز آيات الخضب إلى أهل القرى، فهو جواد قد خلع الرسن، ساهر
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه
ومرءاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن، كم بات سير مقياسه يشمل
بظله الغائبين والحاضرين، وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛
وبلغ وبلغ بحرير التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحب الستر
والسلامه، وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ
زحرفها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العباد، وبسط يده ببركة الماء فقيل:
سلام لك من أصحاب اليمين، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب
البنان يمين، وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المحلقة على الماء فوقت
وما خابت فروج الأصابع، ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى،
وتمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرنت زرايئ الدور المبتوثة بالتمارق، وقال المقياس: تغطت منها
الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق؛ فهو جم المنافع، عذب المنابع، يُشار في الحقيقة
والمحجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النَّفْعِ المعهود ، وأرانا منه الأمان من الطَّوفانِ إلى أن نَرِدَ
الْحَوْضَ الْمَوْرودَ ؛ وَكَفَى أَهْلَ مِصْرَ هذه المِصْبِيَةِ التي إذا أصابَتْهم قالوا :
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلَاهُمْ بِمِثْلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ فَإِنَّمَا يَسْتَعْشَى ثِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي الْمَطَرِ وَيَجْعَلُ
أَصَابِعَهُ فِي آذَانِهِ مِنْهُمْ الْمُؤَذِّنُونَ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعْمَةِ ، وَأُولَى بَرَحَةِ خَلْقِكَ مِنْ
فَيْضِ هذه الرَّحْمَةِ .

وما قاله صاحبنا الشيخُ شهابُ الدين بن أبي حَجَلَةَ الذي كان أُغْرِبَ من زُرْقَاءِ
الْيَمَامَةِ ، وَأَعْجَبَ إذا رَكِبَ بَعْلَتَهُ وَزُرُورَهُ مِنْ أَبِي دُلَامَةٍ ؛ الْأَدِيبُ الذي كان حُجَّةَ
العَرَبِ ، وَالنَّائِثُ الذي كان يَنْسِبَتُهُ إِلَى الطُّيُورِ مُحَرِّكَ الْمَنَاطِقِ وَإِلَى الشَّعْرِ صَنَاجِدَ
الْأَدَبِ ، وَالنَّائِظُ الذي كان إذا أُنْشِدَ مَقَاطِيعَهُ فِي التَّشْيِيبِ فَاقَ عَلَى الْمَوَاصِلِ ذَوَاتِ
الطَّرَبِ ؛ وَالصَّدِيقُ الذي كانت مِنْهُ عَوَائِدُ الْوَفَاءِ مَأْلُوفَةٍ ، وَشَيْخُ الصُّوفِيَّةِ الذي
لَا تَعْجَبُ إِذَا كَانَتْ لَهُ الْمَقَامَاتُ الْمُوصُوفَةُ ؛ أَسْكَنَهُ اللهُ فَيْسِحَ الْحَنَانِ ، وَخَصَّ ذَلِكَ
الْوَجْهَ الْجَمِيلَ بِالْعَارِضِ الْهَتَّانِ ؛ مِنْ مَقَامَتِهِ الرَّعْفَرَانِيَّةِ عَنْ أَبِي الرَّيَاشِ :

فَاعْتَنَقْتُهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامَ ؛ فَقَدْ بَلَغْنَا أَنَّ النَّيْلَ تَرَايَدَ
دَفْعُهُ ، وَأَدَّى إِلَى الضَّرَرِ نَفْعُهُ ؛ فَقَالَ : خُذِ الْعَفْوَ ، وَلَا تُكَدِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصَّفْوَ ؛
فَقَدْ أَمْتَرَجَ بِالْمَعْصَرَاتِ نَجَاجُهُ ، وَأَعْيَى طَيْبَ الْغِيْطَانِ عِلَاجُهُ :

وَشَرِّقْ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ * وَغَرِّبْ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبٌ !

قُلْتُ : فَمَا فَعَلَ التَّغْيِيرُ ، بِحَزَنَةِ الطَّيْرِ ؛ قَالَ : لَمْ يَتَّقَ بِهَا هَاتِفٌ يُبَشِّرُ بِالصَّبَاحِ ،
وَلَا سَاجٍ يَسْعَى بِرِجْلٍ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحٍ ؛ إِلَّا اتَّخَذَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّمَاءِ ،
أَوْ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُهُ مِنَ الْمَاءِ ؛ فَادَّاقَ بِهَا الْحَمَامُ الْحَمَامَ فِي الْمَرْجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

كسَاءَ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿ أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَقَعَ ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَاغِ :
وَمَنْ هَلْ فِيهِ الْغُرَابُ مَيِّتٌ * سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْتَقَيْتُ !

قُلْتُ : فِمَصْرٍ ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَعْسُكَرِهِ الْجَرَّارُ ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .
قُلْتُ : فَالْجَلِيَّةُ ؟ قَالَ : طَفَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ أَخْضَارِ رِزْنِهِ شَاحِبَ الْإِهَابِ ، نَاصِلَ الْخِضَابِ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مَنْبَاطِهَا مِنَ الْمُقْطَعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّالِحَ كَالصَّالِحِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ؛ وَأَذْرَكَهُمُ الْغَرَقُ فَأَلْسَوْا مِنَ الْخِلَاصِ ، وَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ؛ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قَوَاهِمُ ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالرَّوْضَةُ ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَلَامِ بِزَهْرِهِ ، وَالْكَاسُ بِحُبَابِ نَحْمِهِ :
فَكَانَهَا فِيهِ إِسَاطُ أَخْضَرٍ * وَكَأَنَّهُ فِيهَا طِرَازُ مُدْهَبٍ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِعِهِ يَدَانِ ، وَكَمْ أَنْشَدَ مَرْجُهَا حِينَ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :
أَعَيْنِي كُفًّا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَغْيِ سَعَى أَثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَدَارُ النُّحَاسِ ؟ قَالَ : انْحَسَرَ حَالُهَا ، وَأُفْسِدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ حَمَامِهَا الطُّهْرُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الظُّهْرِ ؛ فَأَلْحَقَ بِحَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقِيَ مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ ؛ كَمْ أَغْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غُرْفًا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلْفَا .

قلت : فاخلج الحارثي ؟ قال : خرج عسكر موجه بعبد الكسر على حية ،
ومرق من قسي قناطره مروق السهم من الرمية .

قلت : فالمشاة ؟ قال : أصبحت للبحر مقره ، بعد أن كانت للعيون قره ، وقيل
لنمشها : أتى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يحيى الذي أنشأها أول مره ، قد مال
على ما فيها من شون الغلال كل الميل ، وتركها تتلوفمها الذي شفتاه مصراعا
بابها : (ياء بآنا منع منا الكيل) .

قلت : بغزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مغايتها فلم يدع
شيئا من رديها وخيارها ، أخلق دياجة روضها الأنف ، وترك قلقاسها في الجروف
على شفا جرف :

بعني رأيت الماء يوما وقد جرى * على رأسه من شاهق فتكسرا !

طلما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء
على قلبه ، وتمثل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى * فقل : قاسى ، وقل : قاسى ، وقل : قاسى !!!

لم يفده تحصنه من ورقه بالدرق والستائر ، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه
فضح أن الماء مبطان جائر .

قلت : فحكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ، قد أنحل
من دوره نملها ، وجعل عاليها سافلها ، فكم دار أهدم صاحبها قواره ، ونادى
في عرساتها المتداعية : إياك أعني فاستمعي بإجازه ، فأصبحت بعد نفقها فليسة
الجداء ، مستولية عليها يد الردى ، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحكت في يومها
أبكت غدا .

قلت : فبولاق ؟ قال : إِمْلَاق ، قد أَلْتَقَتْ بهما من الزَّائِقِ السَّاقِ بالسَّاقِ ، فَأَتَى
 من النُّوتَةِ على الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ومن المَرَاكِبِ ومَرَّهَا على النِّقِيرِ والقَطْمِيرِ .
 هذا بعد أن تَرَكَ جَامِعَ الْخَطِيرِ على خَطَرٍ ، وَحِيطَانِهِ يَانِعَةُ الثَّرْبِ ؛ قد دَنَا قِطَانُهَا ،
 وَحَانَ تِلَافُهَا ، فَكَأَنِّي به وقد مَنَعَ رِفْدَهُ ، وتَلَا على مَجْرَاهِ سُورَةَ السَّجْدَةِ .
 قلت : بغزيرة الفيل ؟ قال : أَقْتَلَعَ أَشْجَارَهَا بِشُرُوشِهَا ، وَتَرَكَ سَوَاقِيهَا خَاوِيَةً
 على عُرُوشِهَا .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هَجَمَ على حُرْمِهَا ، وَعَمَّ الْوُجُوهَ من فَرْقِهَا
 إِلَى قَدَمِهَا ، فَبَلَ تَرَى الْمَوْتَى فِي التَّخُومِ ، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقِيُومِ ؛ قلت : فما
 الحيلة ؟ قال : تَرَكَ الْحِيلَةَ :

دَعَا سَمَآوِيَةً تَجْرِي على قَدَرٍ * لَا تُفْسِدُنَا بِرَأْيِ مَنْكَ رَاضِي (؟)

طَالَ الْكِتَابُ ، وَخَرَجْنَا عَنْ فَصْلِ الْخَطَابِ :

وَلَرُبَّمَا سَاقُ الْمُحَدِّثِ بَعْضُ مَا * لَيْسَ النَّدَى إِلَيْهِ بِالْمُحْتَاجِ !

وكأَنِّي بِقَائِلٍ يَقُولُ : أليس من الكِبَرِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ هَذَا فِي رِسَالَتِهِ مُلُوكَ الْكَلَامِ ،
 وَمَنْ الْمُحْتَقُ أَنْ يَحْتَلِيَ عَرَائِيسَ أَفْكَارِهِ بِمَا لِلنَّاسِ مِنْ حَلِي النَّثَارِ وَالنِّظَامِ ؛ فَأَقُولُ :
 مُسَلِّمٌ أَنْ كُلَّ مَا أوردته دُرَرٌ وَجَوَاهِرٌ ، وَعُقُودٌ كَرَاهِرُ الرِّبْعِ عِيُونَ وَجُوهِهَا النَوَاضِرُ
 نَوَاطِرُ ؛ وَلَكِنَّهَا هَاهُنَا أَمْثَلُ ، وَجَمَعَ شَمْلُهَا على هَذِي الْعُرُوسِ أَجْمَلُ :

* وَفِي عُنُقِ الْحَسَنَاءِ يُسْتَحْسَنُ الْعِقْدُ ! *

وعلى الْجُمْلَةِ فيرجع المملوك إلى التَّوَاضُّعِ وهو الْأَلْبِقُ بِالْأَدَبِ ، فيقول : لَا عَيْبَ
 على الْفَقِيرَةِ إِذَا تَجَمَّلَتْ بِحُلِيِّ الْغَنِيِّهِ ، وَلَا عَارَ على الْجَوْهَرِيِّ إِذَا نَظَّمَ سِلْكَهَا كَانَتْ
 دُرَّرُهُ على الطَّرِيقِ مَرْمِيَةً ، وَنَرْجِعُ إِلَى مَا وَلَدَهُ الْفِكْرُ مِنْ عَجَبِ الْبَحْرِ ، وَمَا ظَهَرَ مِنْ دَفْعِ

الملوك لأمثالها عن جَرِيئِهَا إلى غَايَاتِهَا بِصُورِ الْقَمَرِ، فَأَقُولُ : إِنَّمَا قَالَتِ الْأَدْبَاءُ ذَلِكَ لَمَّا جَرَى مِنْ جَوْرِ النَّيْلِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَمَّا عَمَّ النَّاسُ مِنَ الْإِرْجَافِ بِطُولِ أَذَاهِ وَهَرَجِهِ فَكُنْتُمْ هُمْ فِي يَوْمِ الْعَرَضِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ وَمَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الارتفاعِ ، وَرُبَّمَا كَانَ انْقِصَافُ هَذِهِ الزِّيَادَةِ بِقَرِيبِ الدَّرَاجِ .

وعلى هذا القياس إِنَّمَا دَفَعَ ضَرَرَهُ، وَجَمَّلَ فِي الْبِلَادِ أَثَرَهُ، وَحَسَّنَ فِي السَّيِّئِ خَبَرَهُ وَفِي الْأَرْضِ مَخْبَرَهُ ، السَّرِىُّ الَّذِي أَهْتَمَّاهُ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ ، وَسَيْفُ الدِّينِ الَّذِي سَهَرَ فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا لَمَّا تَنَامَ مِلْءُ أَجْفَانِهَا السُّيُوفُ ؛ أَتَاكَ الْعَسَاكِرُ، وَالْمَلِكُ الَّذِي هُوَ بِالْإِسْلَامِ وَلَهُ مَنْصُورٌ وَنَاصِرٌ؛ حَصَّنَ سَائِرَ الْكُؤَى بِالْجُسُورِ، وَرَكَزَ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَحْرِ وَالْخَلِيجِ الْأَمْرَاءَ كَمَا يَرَكَزُ الْمُجَاهِدُونَ عَلَى الثُّغُورِ ؛ وَقَابَلَ الْبَحْرَ مِنْ سَطَوَاتِهِ بِمَا لَيْسَ لَهُ بِهِ قِبَلٌ ، وَرَدَّ دَفْعَهُ بِكُلِّ دَفْعٍ مِنَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ يُغْنِي عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ؛ وَحَارَبَهُ بِجَيْشٍ عَزِيمٍ إِلَى أَنْ وَلَّى هَارِبًا مَعَ التَّرَاعِ وَالْقَنَاطِرِ، وَجَاهَدَهُ بِجُنْدٍ رَكَزَهُمْ عَلَى جَوَانِبِهِ لَمَّا تَحَقَّقَ أَنَّ الْبَحْرَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ؛ وَحَصَرَهُ بِالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ كَمَا تُحْصِرُ الْبِرْكُ وَالتَّرَاعِ، وَغَلَّ يَدَهُ عَنِ التَّصَرُّفِ فَسَفَاهَ الْمَوْتَ كَمَا سَقَى النَّاسَ أَنْوَاعَ التَّرَاعِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَضَاعَلَ بَيْنَ رِجْلَيْ سَطَوَاتِهِ وَاحْتَرَقَ ، وَذَلَّ خَاضِعًا وَكَفَى بِهِ تَضَرُّعًا بِالْأَصَابِعِ وَتَوَسُّلًا بِالْمَلَقِ، وَأَطَاعَ لَمَّا لَمْ تُنْجِهْ مُجَاهَرَتُهُ مِنْ تِيَّارِهِ بِالسُّيُوفِ وَلَا تَحَصُّنُهُ مِنْ دَارَاتِهِ بِالْدَّرَقِ .

على أَنَّهُ تَطَاوَلَ لِيُضَاهِيَ بِأَصَابِعِهِ جُودَ أَيَادِيهِ فَقَصَّرَ، وَتَحَسَّرَ فَرَكِبَ خَيْلَ خِيَلَاتِهِ لِيُحَاكِيَ بِأَسَفِهِ فَوْقَ مَنْ جُسُورُ نُجْبِهِ وَتَقَطَّرَ، وَسَمَتْ نَفْسُهُ كَبْرًا لِأَنَّهُ يَبْلُغُ قَدْرَهُ فَقِيلَ : يَا بَحْرُ هَذَا خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ؛ نَعَمْ :

رَأَى الْبَحْرُ الْخَضْمَ نَدَاهُ طَائِمٌ * يَفِيضُ عَلَى الْوَرَى مِنْهُ بِحَارٌ،

فَضَارَ الْبَحْرُ مُلْتَطِمًا وَأَضْحَى * عَلَى الْحَالَيْنِ لَيْسَ لَهُ قَرَارٌ !

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصرك جهداً ؛ وكنت
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آتعلوا فيها الأهله ، وأنسدوها وجعلوا أعزة أهلها
أذله ؛ لكن هب قبولك إذبارا ، ولاقت ريحك إعصارا ؛ فليس لك به قبل ،
”والسبل أدرى بالجبل“ ؛ فمالك سبل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عياده ؛
فانه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل
والثغور ، والتخديم بأيادي السحائب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر
فلاست بمنصور ؛ والرأي أن تقف مستغفرا ، وتقول مُتَذِرا ؛ : لم أفرط بالزيادة
في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار جواد خيله ومواطئ
أقدامه ؛ وتبسع نواحيه وتمثّل أوامره ، وتدعوه كالرعايا بطول البقاء في الدنيا
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛
وكما أغنى زيادتك عن الاستسقاء ، لا يحوجنا في نقصك إلى الاستسقاء ؛ إنه سميع
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قدمات البندق)

جَمَعَ قِدْمَةُ بكسر القاف وسكون الدال المهملة ، وهى رَسَائِلُ تُشْتَمَلُ عَلَى حَالِ الرَّحْمِيِّ بِالْبُنْدُقِ ، وَأَحْوَالِ الرَّمَاةِ ، وَأَسْمَاءِ طَيْرِ الْوَاجِبِ ، وَأَصْطِلَاحِ الرَّمَاةِ وَشُرُوطِهِمْ .
وهذه نسخة قِدْمَةٌ ، كَتَبَ بِهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَنْفِيُّ الْأَدِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ ، لِصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْمُقْتَرِ الْحَيَوِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَنَصَّهَا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى سَدَّدَ لِصَلَاحِ الدِّينِ سِهَامَ الْوَاجِبِ ، وَشَيَّدَ بِجَاحِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّالِبِ ، وَجَعَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّعْيِ فِي الْمَنَاقِبِ ، وَسَهَّلَ الْمُتَنَبِّعَ عَلَى الْقَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَائِبٌ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَ ، شَهَادَةً تَزْجُرُ طَيْرَ الْإِشْرَاقِ بِهَذِهِ الْأَشْرَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، وَهَذِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَقَوْا فِي الْعِلْيَاءِ لِمَرَاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ ، صَلَاةٌ يَسْبِقُ بِهَا الْمُصَلِّى إِلَى بِقَاعِ شَرَفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالسُّرُورِ وَلَا رُجُوعَ الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الصَّيْدَ مِنْ أَحَلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا ، وَأَجَلَّهَا وَأَجْلَاهَا ، وَأَبْهَرَهَا وَأَبْهَاهَا ، وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَاهَا ، وَأَخْفَرَهَا قِيمَةً ، وَأَغْزَرَهَا دِيمَةً ، بِوُرُودِ الطَّيْرِ فِيهِ إِلَى الْمَنَاهِلِ تَنْشِيرِ الصَّدُورِ ، وَبُقُوعِهِ فِي سُرُورِ الشَّرْكِ يَتِمُّ السُّرُورُ ، يُحْصَلُ عِنْدَ مُتَعَاطِيهِ نَشَاطًا ، وَيَزِيدُهُ أَنْبَسَاطًا ، وَيُشْرِحُ خَاطِرَهُ ، وَيُسَرِّحُ نَازِحَهُ ، وَيَمَلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً ،

وَقَلْبَهُ مَسْرَهُ؛ يُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُثَبِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُوهَ، وَيُسَوِّى الْخَطُوهَ؛
وَيُسَوِّقُ الظُّفْرَ، وَيُسَوِّقُ النَّظَرَ، وَيُرْوِقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَيَفُوقُ فِيهِ الْخُبْرَ عَلَى
الْخَبَرِ. قَالَ بَعْضُ الْحِكَمَاءِ: قَلَمًا يَغْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمُنْ مُرْبِعُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الْحَرَكَةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَاتِينَ، فَاسْتَمَعَ طَرْفُهُ بِنُضْرَتِهَا،
وَأَنَبَقَ مَنَظَرُهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:
لَوْلَا طَرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا.
هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!
يَا حُسْنَهُ مَنْ فَعَلَ أَعْتَلَّتْ بِالنِّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلُهُ فِي اللَّذَاذَةِ
أَوَاخِرُهُ؛ وَلِلَّهِ الْقَائِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هَمٌّ وَنَسَاطٌ * يُعَقِّبُ الْجِسْمَ صَحَّةً وَصَلَاحًا،
وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَى إِصَابَةً وَنَجَاحًا!
وَمَا أَطْيَبَ الْاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعُ الْوَصْلِ بَعْدَ الصَّدُودِ:
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ. * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةِ بِعَاطَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ
الْقُوَّةِ، وَكَمَالِ الْمُرُوءَةِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ؛ وَطَيْبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ
الْمِيثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَبْغُونَ بِصَاحِبِهِمْ
بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِوَمَا تَعَاطَى صَيْدُ طُيُورِ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ
الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَّتُهُمُ الْعَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،
وَأَوْنَةً إِلَى مَشَارِعِ الْمَاءِ.

لَا يَتِمُّ سُرُورُهُمْ إِلَّا بِرُؤْيَا تَمَّ كَبْدَرِ النَّهَامِ ، وَمِصْبَاحِ الظَّلَامِ ؛ يَفِرُّ مِنْ ظِلِّهِ فِرَارًا ،
وَيُرِيكَ بَيَاضَ لَوْنِهِ وَسَوَادَ مِنْقَارِهِ شَيْبًا وَوَقَارًا ؛ وَلَا يَدَاوِي هُمُومَ لَغَيْبِهِمْ مِثْلَ كُنْ ،
لَا جُنْحَتَهُ الْخَوَافِقِ فِي الْخَافِقِينَ نَشْرُوطَى ؛ وَلَا تَبْتَهِجُ نَفُوسُهُمُ النَّفِيسَةَ إِلَّا بِأَوْرِهِ ،
يَزْدِرِي دَلَالَهَا بِالْكَاعِبِ الْمُعْتَرِ ؛ وَلَا يُطْرِبُ أَسْمَاعَهُمْ غَيْرُ لُغَاتِ اللِّغْلَغَةِ ، حِينَ تَمْتَدُّ
كَأَنَّهَا مُدَامَةٌ فِي الرَّجَاجَةِ مُفْرَعَةً ؛ وَلَا يُؤْنِسُهُمْ إِلَّا الْإِنْسَةُ الْإِنْسِيَّةُ ، وَالذَّرَّةُ النَّفِيسَةُ ؛
وَلَا يُذْهِبُ حَرَجَهُمْ غَيْرُ الْخُبْرَجِ الصَّادِحِ ، الْمُسْتَوْفِ بِحُسْنِهِ كُلَّ غَادٍ وَرَائِحٍ ؛ تَكَادُ
قُلُوبُهُمْ تَطِيرُ بِالْفَرَحِ عِنْدَ رُؤْيَا النَّسْرِ الطَّائِرِ ، وَتُجْبَرُ خَوَاطِرُهُمْ بِكُسْرِ ذَلِكَ الْكَاسِرِ ؛
إِذَا عَلَيْنَا عَقْبَانًا أَعْقَبَهُمُ الْفَرَحُ ، وَنَزَحَ عَنْهُمْ التَّرَحُّ ؛ وَإِنْ كَرَّ كُرْكُ فَرَّ عَنْهُمْ الْبُوسُ ،
وَرَأَوْا عَلَى رَأْسِهِ ذَلِكَ النَّجَاجِ الَّذِي لَمْ يَعْلُ مِثْلُهُ عَلَى الرَّؤُوسِ ؛ وَإِنْ عَرَضَ غُرُوقٌ
غَرِقُوا فِي بِحَارِ أَفْكَارِهِمْ ، وَجَدُّوا إِلَى أَنْ يَقَعَ يَجْدُولُ أَوْتَارِهِمْ ؛ وَإِنْ لَاحَ ضُيُوعٌ
كَالذَّهَبِ الْمَصُوعِ ، أَلْقَوْهُ فِي الْحَبَالِ وَهُوَ بِدَمِهِ مَصْبُوعٌ ؛ وَإِنْ مَرَّ مَرَزَمٌ كَالْخُودَةِ
الْحَسَنَاءِ ، ضَرَبُوا لَهُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ ؛ وَإِنْ مَرَّ السَّيِّطَرُ أَجْنَحَتُهُ كَالسَّحَابِ ، جَاءَتْهُ
الْمَرَامِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَإِنْ عَنَّ عَتَرٌ عَمَدُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقَطَ فِي يَدَيْهِ ؛ قَدْ تَعَالَوْا
فِي رُتَبِهَا ، وَتَعَالَوْا فِي وَصْفِ وَشَيْهَا .

وَجَعَلُوا كُلَّ آلَةٍ صَنِيعَهُ ، وَرَبَّةَ جَمَالٍ مَنِيعَهُ ، وَبَعِيدَةَ الرَّمِيِّ بَدِيعَهُ : -

مِنْ كُلِّ قَوْسٍ هِيَ فِي الْعَيْنِ كَالْحَاجِبِ ، أَوْ النُّونِ الَّتِي أَجَادَهَا الْكَاتِبُ ؛ تُدَوِّرُ
الطَّائِرَ عِنْدَ الرَّمِيِّ وَتُدْبِيهِ ، وَتَنْشُرُ أَيْدِيَّهَا أَوَّلَى بِهِ مِنْ تَصْيِيهِ . وَبُنْدُقٍ جِيلَتْ طِينَتُهُ
عَلَى صَوْبِ الصَّوَابِ ، يَسْتَنْزِلُ الطَّيْرَ وَلَوْ اسْتَرْبَذِلَ السَّحَابِ ؛ كَأَنَّهُ النَّجْمُ النَّاقِبُ ،
وَالشَّهَابُ الصَّائِبُ ؛ يَرَى الطَّيْرَ كَالسَّحَابِ الْوَائِكِ ، فَيَنْقُضُ عَلَيْهِ انْقِضَاصَ الْبَرْقِ
الْخَاطِيفِ ؛ وَيَرْجِعُ النَّسْرُ مِنْ حَنْفِهِ رَاتِمًا ، وَيَقْدُو بَعْدَ أَنْ كَانَ طَائِرًا وَاقِعًا ؛ وَيَصِيرُ
بَعْدَ أَنْ كَانَ كَاسِرًا مَكْسُورًا ، وَفِي سَوَارِ الْقَسَى مَأْسُورًا ؛ فَهَذَا الَّذِي يُقَالُ الْغَالِبُ

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فيئذ تَشْرِحُ النفوس ، وتطرب
ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الحسime ؛ تعاطته الملوك وأبناء الملوك ،
ونظموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرتاضت به النفوس الطاهرة ، وأعتاضت به عن
الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكميل الأدوات ، وسامت به فعل الواجب وإن
قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، وأعْب لم يكن شيء
أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجنب الكريم ، العالى ، الصلاحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح
الطالبين ؛ سليل الوزراء ، ونجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العطاء ؛ ابن المقر
المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر
مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرى نفسه
الكريمة بذلك ، ويحصيل على تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

* تَقَلَّ فَلَذَاتُ الْهَوَىٰ فِي التَّنَقُّلِ ! *

وعمد إلى تحصيل آلاته ، سائراً كالبدْر في هالاته ؛ فسار مع سرايا كالنجوم ،
يتفك كهنون في الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخلطون جد القول بهزله ، كلما خلط
لهم طل الجود بوبله ؛ وأنحدروا في النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية
ولم يقنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلوا يسيرون في تلك المراكب ، التي كأنها
قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويشرفون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى
البرمتفرجين ، وبطيب ذلك النسيم متارجين :

لَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَنَشِيرٌ * فَأَذْكَرَهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَّا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَافَى * لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْقُصْنِ الرَّاهِي قَدًّا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الزَّاهِرِ خَدًّا ؛ وَيَتَأَمَّلُونَ
جُحُكَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةَ الْقُصْبِ عِنْدَ خَرِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَذُوقُ أَجْفَانُهُمْ
طَعْمَ الْكَرَى ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَائِسًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَائِسًا ؛ بَيْنَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَهُمْ طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ وَآلَتَفَوْا مُحَلِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَهْمُونَ الْعَيْشَ ، بِالذِّعَةِ
وَالطَّيْشِ ؛ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارَكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ حِمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِعِمَانَةَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِي عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،
بِالْبَنَادِقِ الْحِدَادِ ؛ فَتَبَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَدَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّغُورَ ؛ وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ نَزُولَ الرَّئِيسِ ، فَخَادَتْ لَهُ بِالنَّفِيسِ ؛ وَخَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَتَمَحَّحَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزْنِ نَحْرِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسْمِ ، وَتَرَجَّى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبُ لَهُ فِي الْقَدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَأَصَابَ مِرْزَمًا ؛ فَيَالَهُ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكْبَارِ الصَّيْدَ !
وَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَنْخَرُ الطَّيْرُ يَوْمَ الْعِيدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَجِبٍ مَأْشَرَعَهُ الرَّمَاةُ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مُسْتَدِدِّ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ
نَحِيًّا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَجْرَى بُرَادُهُ الْمَقْدُورُ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظَّمْتُ مُحَمَّسًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاجِبِ ، وَطَرَزْتُهُ بِاسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِدْمَةَ قَدْ قَدِّمْتُ لَهُ وَجَعَلْتُ بِرِسْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي اعْتَذَرْتُ عَنْهَا ، لَعَلَّ مَادَّةَ عِنْدِي
أَسَمَدٌ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تُطْعَمُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِي،
وَأَشْرَبُ هَنِيئًا وَأَسْقِنِي بِاصْبَاحِ، * وَأَذْكُرُ زَمَانًا مَرَّ بِالْأَفْرَاحِ،
* هَبَّتْ بِهِ فَيَا مَضَى رِيَا حِي ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أَحْتَبُّ الْأَكَابِرَا، * وَأَغْتَسِدِي مَعَ الرُّمَاءِ سَائِرَا،
وَلَا أَزَالُ بِالْغِيَارِ غَائِرَا، * إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرَا،
* نَحْوَتُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ! *

فِتَارَةً كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، * وَبَعْدَهُ الْعُقَابُ يَحْكِي الْجَمْرَا
وَالْكَيَّ وَالْكُرْكَيَّ صِدْتُ جَهْرَا، * وَصِدْتُ غِرْنَوْقًا وَعِزًّا قَهْرَا
* وَكُنْتُ بِالْإِوَزِّ فِي أَنْشِرَاحِ ! *

وَتَارَةً تَمَّا كَبَدِرِ التَّمِّ * تَتَّبِعُهُ أَيْبَسَةُ كَالنَّجْمِ،
وَلَغَفُ أَسْوَدُ مِسْكُ الْهَمِّ، * وَجَبْرُجٌ عَنِ الرُّمَاءِ مَحْمِي،
* وَالضُّبُوعُ مَعَ سَبِيطٍ سَيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِدْتُ يَوْمًا مِرْزَمَا * أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ،
جَنَاحُهُ يَحْكِي طَرَا زَا مُعَلَّمَا * عَلَى بَيَاضِ شَيْءٍ شَبَّهِ الدَّمَاءِ،
* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُشْفَعُ بِالْقَبُولِ، * وَشَمَلْنَا يُجْمَعُ بِالشَّمُولِ،
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، * وَجَاءَنَا التَّوْقِعُ فِي الْوُضُولِ،
* فَسَادُكُمْ يَغْفَرُ بِالصَّلَاحِ ! *

السَّيِّدِ الْفَائِئِ فِي أَفْعَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِيَّ بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِيَّ حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَا لَهُ ، * لَا أَحَدٌ يَحْكُمُهُ فِي نَوَالِهِ :

* إِلَّا أَخُوهُ مَعْدِنُ السَّمَاحِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَّابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، * الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلا حِسَابِ !
زاده الله نِعْمًا ، وَأَجْرَى لَهُ فِي النَّدَى يَدَا وَثَبَتْ لَهُ فِي الْعُلَى قَدَمًا ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة رسالة في صَيْدِ الْبُنْدُقِ ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الثَّناء
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عَدُوِّهِ وَاجِبًا ، وَسَعَدَهُ
كَوَصْفِ عَبْدِهِ لاسَّارَ جَالِيَا ، وَلِلضَّارِّ حَاجِبَا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوَّنُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ؛ وَتَحْضُهَا عَلَى اخْتِزَانِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحْتَمِيهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ؛ وَتَأْخُذُهَا بِطَوْرٍ
فِي الْجِدِّ وَطَوْرٍ فِي اللَّعِبِ ، وَتَضْمُرُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّعَبُ . فَتَارَةً تَحْمِلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكُرَى ؛ وَمُهَاجِرَةِ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِمَةِ الْأَخْطَارِ ؛ وَمُكَابَدَةِ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادَرَةِ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يُدْمُ الْمُعْرِضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مِثْلِهِمْ جِدَّ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةُ لَعِبٍ يُخْرِجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ

على مُلازمة الصّدق ومُجانبة المَلَق؛ فيعتسِفون إليها الدُّجى، إذا سَجى، ويقترِحون
في بلوغها حرق النّهار، إذا آنهار؛ ويتنعمون بوعثاء السّفر، في بلوغ الظّفر؛
ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السّهر على النّوم، واللّيلة
على اليّوم؛ والبندق على السّهام، والوحدة على الأليثام .

ولمّا عدنا من الصّيد الذى اتّصل به حديثه، وشُرح له قديم أمره وحديثه؛ تقنا
إلى أن تسقع صيد السوانح، برمي الصّوادح؛ وأن نفعل في الطّير الجوانح، بأهله القسيّ
ما نفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الارتحال، على الإقامة في الرّحال؛ وأخذاً بقولهم :

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَبَّرَةً * إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ !

فبرزنا ونتمسّ الأصيل نجود بنفسها، ونسير من الأفق الغربيّ إلى موضع رمسها؛
وتغازل عيون النّور بمقلة أرمَد، وتنظر إلى صفحات الورْد نظر المريض إلى وجوه
العُود؛ فكانها كتيب أنحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بقايا مدّة
الرّمق؛ وقد أخضلت عيون النّور لوداعها، وهم الرّوض بخلج حُتّه المؤهّه بذهب
شعاعها :

وَالطَّلُّ فِي أَعْيُنِ النَّوَارِ تَحْسَبُهُ * دَمْعًا تَحْيِرٌ لَمْ يَرَقًا وَلَمْ يَكِفِ :

كُلُّ لَوْ ظَلَّ عَطْفُ الْغُصْنِ مُتَشَحًّا * بِعَقْدِهِ وَتَبَدَّى مِنْهُ فِي شَنِف .

يُضْمُّ مِنْ سُنْدُسِ الْأُورَاقِ فِي صُرِّ * خُضِرٌ وَيُجْنَى مِنَ الْأَزْهَارِ فِي صَدَفِ !

وَالشَّمْسُ فِي طَفَلِ الْإِمْسَاءِ تَنْظُرُ مِنْ * طَرْفِ غَدَاوِهِمْ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ خَفِي :

كَعَاشِقٍ سَارَ عَنْ أَحْبَابِهِ وَهَفَا * بِهِ الْهَوَىٰ فَرَأَاهُمْ عَلَى شَرَف .

إلى أن نفضي المغرب عن الأفق حتّى فلائدها، وعوّضه عنها من النّجوم بحدمها
وولائدها؛ فلئنا بعد أداء الفرض لبث الألهه، ومنعنا جفوننا أن ترد النّوم

إِلَّا تَحِلَّةً ، وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوَشَّعٌ ، وَعِقْدُهُ مُرْصَعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ مُجَوَّهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعَنْبَرٌ ، وَبَدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبَقَرُهُ فِي حَشَا مَطَالِعِهِ مُسْتَجِنٌ ؛ كَأَن
أَمْتَرَجَ لَوْنُهُ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مِسْكٍ وَصَنْدَلٍ ، وَكَأَنَّ ثُرْيَاهُ لَأَمْتَدَادُهُ مُعَلَّقَةٌ
بَأَمْرَاسٍ كَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ نَجُومُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَانَهَا * عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الزَّيْجِ تُنْظَمُ ،

مُحَلَّقَةٌ فِي الْجَوِّ تُحْسَبُ أَنَّهَا * [طُيُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْمَجْزَةِ حَوْمٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصُّبْحِ وَلَّتْ يَوْمُهَا * إِلَى الْغَرْبِ خَوْفًا مِنْهُ تَسْرُ وَتَمْرُزُ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَقَّةً ، وَجَدَاوِلَ مُحْتَفَّةً ؛ إِذَا نَحَمَشَ النَّسِيمُ غُصُونَهَا اعْتَنَقَتْ اعْتِنَاقَ
الْأُجْبَابِ ، وَإِذَا فَرَكَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْشِيَابُ الْحُبَابِ ،
وَرَقَصَتْ فِي الْمَنَاهِلِ رَقَصَ الْحَبَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ تُغَوِّرْ نُورُهَا حَيَّتَهُ بِأَنْفَاسِ الْمَعْشُوقِ ،
وَإِنْ أَهْقَظَ نَوَاعِيسُ وَرْقِهَا غَتَّتْهُ بِالْأَلْحَانِ الْمَشُوقِ ؛ فَتَسِيمُهَا وَإِنْ ، وَشَمِيمُهَا لَعْرِفَ الْجَنَانِ
عُنُونًا ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرٍ تَرْجِسُهَا غَيْرَانِ :

وَطَلُّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبِعَثٌ * طَوْرًا وَفِي طُرَرِ الرِّيحَانِ حَيْرَانُ !

وَطَائِرُهَا غَرْدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطَرِدٌ ؛ وَغُصْنُهَا تَارَةً يَعْطِفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةً
يَعْلَلُ تَحْتَ وَرْقَانِهِ فَتُحْسَبُ أَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى الْإِفِّ ؛ مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيحِ مِنْ تَوَافُقِ
الْمَحَاسَنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ صَحَّ الْأَرْجُ وَكَلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبُ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا ثَنَّتْ * أَعْطَافَهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا أَفْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتِعْطَافِهَا * صَلَحَ وَمِنْ سَبَّحِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَائِسَا * شَرَبٌ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّ وَعَدْبُ نِطَافِهَا * رَاحَ وَأَضْوَاءُ الثُّجُومِ حُسَابُ !

يَحِيطُ بِمَلَقِي نِطَاقِهَا صَافٍ، وَظِلَالِ دَوْحِهَا ضَافٍ، وَحَصَاها لَصَفَاءِ مَائِهَا فِي نَفْسِ
الْأَمْرِ رَاكِدٌ وَفِي رَأْيِ الْعَيْنِ طَافٌ؛ إِذَا دَغْدَغَهَا النَّسِيمُ حَسِبْتَ مَاءَهَا بِتَمَائِلِ الظَّلَالِ
فِيهِ يَتَبَرَّجُ وَيَمِيلُ، وَإِذَا أَطْرَدَتْ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا ظَنَنْتَ أَفْيَاءَ تِلْكَ الْعُصُونِ تَارَةً
تَتَمَوَّجُ وَتَارَةً تَمِيلُ :

فَكَأَنَّهُ مُحِبٌّ هَامٌ بِالْعُصُونِ هَوَى فَمَثَلَهَا فِي قَلْبِهِ، وَكَأَنَّ النَّسِيمَ كَلَفَ بِهَا غَارَ مَنْ
دَنُوها إِلَيْهِ فَمِيلُهَا عَنْ قُرْبِهِ :

وَالنَّوْرُ مِثْلُ عَرَائِسَ * لُفَّتْ عَلَيْهِنَّ الْمَلَأُ،

شَمَرْنَ فَضْلَ الْأَزْرِ عَنْ * سُوقٍ خَلَاخِلُهُنَّ مَاءُ،

وَالنَّهْرُ كَالْمِرْآةِ تَنْظُرُ وَجْهَهَا فِيهِ السَّمَاءُ !!!

وَكَأَنَّ صَوَافِ الطُّيُورِ الْمُتَسِقَةِ بِتِلْكَ الْأَرْضِ خِيَامٌ، أَوْ ظُبَاءٌ بِأَعْلَى الرَّقَّتَيْنِ قِيَامٌ،
أَوْ أَبَارِيقُ فَضْيةٍ رُؤُوسِهَا لَهَا أَفْدَامٌ، وَمَنَاقِيرُهَا الْمُحْمَرَّةُ أَوَائِلُ مَا أَنْسَكَبَ مِنَ الْمُدَامِ؛
وَكَأَنَّ رِقَابَهَا رِمَاحَ أُسْتَتَّهَا مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ شُمُوعَ أَسْوَدَ رُؤُوسِهَا مَا أَنْطَفَى وَأَحْمَرُهُ
مَا أَلْتَهَبَ؛ وَكُنَّا كَالطَّيْرِ الْجَلِيلِ عَدَّهُ، وَكَطِرَازِ الْعُمَرِ الْأَوَّلِ جِدَّهُ :

مِنْ كُلِّ أَلْبَجٍ كَالنَّسِيمِ لَطَافَةً * عَفَّ الضَّمِيرُ مُهْدَبِ الْأَخْلَاقِ،

مِثْلُ الْبُدُورِ مَلَاحَةً، وَكُعْمَرِهَا * عَدَدًا، وَمِثْلُ الشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ !

وَمَعَهُمْ قِسِيٌّ كَالْعُصُونِ فِي لَطَاقِهَا وَلِينِهَا، وَالْأَهْلَةُ فِي نَحَاقِهَا وَتَكْوِينِهَا، وَالْأَزَاهِرُ
فِي تَرَاقِهَا وَتَلْوِينِهَا؛ بِطَوْنِهَا مُدْبِجُهُ، وَمُتَوْنِهَا مُدْرَجُهُ؛ كَأَنَّهُا كَوَاكِبُ الشُّوْلَةِ فِي أَنْعَاطِهَا،
أَوْ أُرُوقُ الظُّبَاءِ فِي أَلْتِفَافِهَا؛ لِأَوْتَارِهَا عِنْدَ الْقَوَادِمِ أَوْتَارٌ، وَلِبَنَادِقِهَا الْحَوَاصِلُ
أَوْكَارٌ؛ إِذَا أُنْتَضِيَتْ لَصِيدَ ذَهَبٍ مِنَ الْحَيَاةِ نَصِيْبِهِ، وَإِنْ أُنْتَضَتْ لِرَمِيٍّ بَدَأَ لَهَا
أَنَّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنْ يُصِيبُهُ؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ زَجْرُ لِبْنَدِقِهَا أَنْ يُنْطِئَ فِي سَيْرِهِ،

أَوْ يَتَخَطَّى الْغَرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَازِ كَبِيدِهَا ، أَوْ أَسْفَ عَلَى
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَقَعَتْ لِحْصِمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَابِ أَدْنَابًا مُعَقَّدَةً * لِمَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَ !

إِنْ مَدَّهَا قَرْمَنُهُمْ وَعَيْنَهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرًا ،

فَهُوَ الْمُسَيِّءُ اخْتِيَارًا إِذْ نَوَى سَفَرًا * وَقَدْ رَأَى طَالِعًا فِي الْعَقْرِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبَنَادِقِ كُرَاتٌ مَتَفِقَةٌ السَّرْدُ ، مُتَّحِدَةٌ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ، كَأَنَّمَا تُحِرِّطُ مِنَ
الْمَنْدَلِ الرُّطْبِ أَوْ تُحِثُّ مِنَ الْعَبْرِ الْوَرْدُ ؛ تَسْرِي كَالثَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرْنَ فِي أَفْقٍ * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُورُهَا رَأَى .

مَا فَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِقَتْ * إِلَّا ثَبَاتٌ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،

تَسْرِي وَلَا يَشْعُرُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ بِهَا * كَأَنَّمَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،

وَتَسْمَعُ الطَّيْرُ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ * خَوَافًا فِي الدِّيَاجِي وَهِيَ صَمَاءُ !!!

يَصُونُهَا جِرَآوَةٌ كَأَنَّمَا دُرُجُ دُرَّرٍ ، أَوْ دُرُجُ غُرَرٍ ، أَوْ كِمَامَةٌ ثَمَرٌ ؛ أَوْ كَمَا تَكُونُ نَبْلٌ ،
أَوْ عِمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّمَا رُقِيتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيمُ :

كَأَنَّمَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَبَيَّنَتْ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجُمُ ،

أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا * مُلَوَّنًا وَأَنْبَثَتْ تَسْجِمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهْ مَرَكْرَا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدًّا مُنْجِرًا ، وَضَمَّنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَا :

كَأَنَّهُمْ فِي يَمِينِ أَفْعَالِهِمْ * فِي نَظَرِ الْمُتَصِفِ وَالْحَاحِدِ:

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعٍ وَاحِدٍ، * وَأَشْرَفُوا مِنْ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنِحَتِهَا سَحَابَهُ، مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَقْلَعَ
يَرْتَادُ مَرْتَعًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَعًا، وَأَسَفَ يَبْتَغِي مَاءً جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَاءَ مُنْقَعًا،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْغِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ سُجْدًا لِمَحَارِيبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْعًا، فَتَبَرَّكَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوَّلُنَا تَمَامَ بَدْرِهِ، وَعَظَمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ، كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٍ فِي غَسَقٍ،
أَوْ صُبْحٍ عَظَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَظَفَ النَّسَقِ، تَحْسَبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمَنَى غُرَّةً مُنْجَحٍ،
وَتَحَالَهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةٌ صُبْحٍ، عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٍ، وَلَهُ كَدُهُنٌ عَنَبَرٍ
فَوْقَ مِثْقَالٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ، وَالْتِفَاتَةٌ رِيمٌ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ :

كَلَوْنِ الْمَشِيبِ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ، * وَوَقْتِ الْوِصَالِ، وَيَوْمِ الظَّفَرِ!

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِنْقَارُهُ ثُمَّ فَتَرَ!

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ تَهْنَأَ، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حُجَا، فَاسْتَبَشَرَ بِجَنَاحِهِ،
وَكَبُرَ عِنْدَ ضِيَاغِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِجَنَاحِهِ .

وَتَلَاهُ كُنْ نَقِيُّ اللَّبَاسِ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّاسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَانِينَ شَيْبِهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ
أَنَاسٍ، إِنْ أَسَفَ فِي طَيْرَانِهِ فَنَامَ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلَعَ لَهُ بَيْدَ النَّسِيمِ زَمَامٌ،
ذُو عِيَّةٍ كَالْحَرَابِ، وَمِنْقَارٍ كَالْحَرَابِ، وَلَوْنٍ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيُخَدِّعُ فِي الصُّحَى
كَالسَّرَابِ، ظَاهِرُ الْهَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمَ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْعَدِيرِ حَسِبْتَهُ * مُبَيِّضُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءٍ،

أَوْ طَارَ فِي أُنْفُسِ السَّمَاءِ ظَنَنْتَهُ * فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءٍ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ السُّجْهَالِ نَحْتِ رَزَانَةِ الْعُلَمَاءِ!

فَنَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عِنَانَ بُنْدِقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَفْزَ كَارِدٍ أَنْقَضَ عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرُ بِالتَّكْبِيرِ ، وَأَخْطَفَهُ قَبْلَ مَصَافَهَةِ الْمَاءِ مِنْ وَجْهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْرَةً حُلَبَاءَ دَكَّاءَ ، وَحُلَّتْهَا حَسَنَاءَ ؛ لَهَا فِي الْفَضَاءِ جَمَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَّاتِ الْجَمَالِ ؛ كَأَمَّا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاضَتْ فِي لَهَبٍ ؛ تَخْنَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ ، وَتَتَأَنَّى فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعْطِفُ بِجِيدِهَا كَالظُّبِيِّ الْغَرِيرِ ، وَتَتَدَافِعُ فِي سَيْرِهَا مِثْلَ الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي نَفْطَرَةً صَكَاعِبٍ * رَدَاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي * خَفَا ذِي الْخَوَافِ أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .
فَأَنْعَمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِرٍ ، * وَأَحْسَنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ ثُخْفَةُ قَادِمٍ !
فَلَوَّى الثَّالِثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَظَفَ بَوَجْهِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفَعِهَا مُعْنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَى حُكِّهِ مُدْعِنَةً ، فَأَعْجَاهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْهُبُوطِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ اسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .
وَحَادَتْهَا لُغْلَغَةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشْيِهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ؛ وَتُرِي عَلَيْهَا بُغْرَتَهَا ، وَتَنَافِسُهَا فِي الْحَاسِنِ كَضَرْبَتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةً قُطِبَتْ بِمَائِهَا ، أَوْ غَمَامَةً شَقَّتْ عَنْ بَعْضِ نُجُومِ سَمَائِهَا :

بُنْزَرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْمُونَةٍ * تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّهَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خِلَّتَهَا * فِي الْحُلَّةِ الدَّكَّاءِ بَرَقَ النَّهَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِاسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ بِنَجْمٍ وَبِأَلِهَا ؛ بَخَّذَتْ فِي الْعُلُوِّ مُبْتَدَاهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بُنْدِقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَدَّهُ ؛ وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابٌ حَفِيها، وأدركها الأجلُ نَخْفَةً طَيَّرَها من خَلْفِها؛ فوَقَعَتْ من الأفقِ في كَفِّه،
ونَفَرَ ما في بقايا صَفِّها عن صَفِّه .

وَأَتَتْ في إثرِها أَيْسَةً آتِسَه، كأَنَّها العَذْرَاءُ العائِسَه، أو الأذْمَاءُ الكائِسَه؛ عليها
خَفَرُ الأَبْكارِ، وَخِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وَحَلَاوَةُ المَعَانِي التي تُجَلُّ على الأفكارِ؛ ولها
أُنْسُ الرِّيبِ، وإِدْلالُ الحَيْبِ، وتَلَقُّتُ الزائرَ المُرِيبَ من خَوْفِ الرِّيبِ؛ ذَاتُ عُنُقٍ
كالإبريقِ، أو الفُصْنِ الوريقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ؛ وَصَدْرُ بَهِيٍّ
الملبوسِ، شَهِيٍّ إلى النفوسِ، كأَنَّ رَقِمَ فيه النَهارُ بالليلِ أو نُقِشَ فيه العَاجُ بالآبُوسِ؛
وَجَنَاحُ يُجَيِّها من العَطَبِ، يَحْكِي لونها المَنْدَلُ الرُّطْبَ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدْبِجَةُ الصِّدْرِ تَقْوِيْفُهُ * أَضَافَ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ!

لَهَا عُنُقٌ خَالَهَ مَنْ رَأَاهُ * شَقَائِقُ قَدْ سَيَّجَتْ بِالْبَهارِ!

فَوَثَبَ الخَامِسُ منها إلى الغَنِيمةِ، ونَظَمَ في سِلْكِ رَمِيهِ تلكَ الدَّرَّةَ اليَتِيمةَ، وَحَصَلَ
بِتَحْصِيلِها بين الرُّمَّةِ على الرُّتْبَةِ الجَسِيمةِ .

وَأَتَى على صَوْتِها حَبْرٌ تَسْبِقُ هِمَّتُهُ جَنَاحَهُ، وَيَغْلِبُ خَفَقُ قَوَادِمِهِ صِيَاحَهُ؛ مُدْبِجُ
المَطَا، كأَنَّما خَلَعَ حُلَّةَ مَنْكِيبِهِ على القَطَا؛ يَنْظُرُ مِنْ هَلَبٍ، وَيَخْطُو على رِجْلَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ :

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَخْجُو الحِياضَ * وَيُشْبِهُ في اللَّوْنِ كُذْرَ القَطَا،

وَيَغْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِها، * وَلَا يَرُدُّ المَاءَ إِلَّا خَطَا!

فَبَدَّرَهُ السَّادِسُ قَبْلَ ارْتِفاعِهِ، وَأَعَانَ قَوْسَهُ بِامْتِدَادِ بَاعِهِ، نَخَرَ على الأَلَاءِ كِبِسْطامَ
أَبْنِ قَيْسٍ، وَأَنْقَضَ عليه رَأْمِيه خَمْلَهُ بِحَذْقٍ وَحَمْلِهِ بِكَيْسٍ .

(١) يشير إلى قول الشاعر في بسطام :

نَخَرَ على الأَلَاءِ لَمْ يَوْسَدَ * كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ :

الأَلَاءُ، بوزن العلاء، شَجَرٌ والأَلَاءَةُ أخص منه .

وتعسّر على السَّابِغِ مَرَامُهُ ، وَنَبَا عَنْ بُلُوغِ الْأَرَبِ مَقَامَهُ ؛ فَصَعِدَ هُوَ وَتَرَبَّ لَهُ إِلَى جَبَلٍ ، وَثَبَتَ فِي مَوْقِفِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِرَافِقَتِهِمَا قَبْلَ .

فَعِنَ لَهُ نَسْرُ فَوْقِ نَوَائِمِ شِدَادٍ ، وَمَنَاسِرِ حَدَادٍ . كَأَنَّهُ مِنْ نُسُورِ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ ؛ تَحْسِبُهُ فِي السَّمَاءِ ثَالِثَ أَخَوَيْهِ ، وَتَحَالُهُ فِي الْفَضَاءِ قُبْتَهِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ ؛ قَدْ حَلَقَ كَالْفُقَرَاءِ رَأْسَهُ ، وَجَعَلَ مِمَّا قَصَرَ مِنَ الدُّلُوقِ الدُّكْنِ لِبَاسَهُ ؛ وَأَشْتَمَلَ مِنَ الرِّيشِ الْعَسَلِيِّ إِزَارًا ، وَأَلْفَ الْعُزْلَةِ فَلَا تَجِدُ لَهُ إِلَّا فِي قُنَنِ الْجِبَالِ الشَّوَاهِقِ مَرَارًا ؛ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيْلِ وَهُوَ لَمْ يَتَشَبَّ ، وَمَضَتْ الدُّهُورُ وَهُوَ مِنَ الْحَوَادِثِ فِي مَعْقِلِ أَشْبَ :

مَلِكُ طُيُورِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * وَفِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى لَهُ أَخَوَانِ !

لَهُ حَالُ فَتَاكِ ، وَحِلْيَةُ نَاسِكٍ ، * وَإِسْرَاعُ مِقْدَامٍ ، وَفَتْرَةٌ وَإِنْ !

فَدَنَا مِنْ مَطَارِهِ ، وَتَوَحَّيْ بُنْدُقَهُ عَنْقَهُ فَوَقَعَ فِي مِيقَارِهِ ؛ فَكَأَنَّمَا هَدَّ مِنْهُ صَخْرًا ، أَوْ هَدَمَ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ ، مُبَشِّرًا لَهُ بِمَا آمَنَازَ بِهِ عَنْ فَرِيقِهِ .

وَإِذَا بِهِ قَدْ أَظْلَنَتْهُ عُقَابُ كَاسِرٍ ، كَأَنَّمَا أَضَلَّتْ صَيْدًا أَفْلَتَ مِنَ الْمَنَاسِرِ ؛ إِنْ حَطَّتْ فَسَحَابٌ أَنْكَشَفَ ، وَإِنْ أَقَامَتْ فَكَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَأْسًا لَدَيْ وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ ، بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْمَنَازِكِ :

إِذَا أَقْلَعَتْ بَلَّتْ عُلُوقًا كَأَنَّمَا * تُحَاوِلُ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

يَرَى الطَّيْرُ وَالْوَحْشُ فِي كَفِّهَا * وَمِيقَارِهَا ذَا عِظَامٍ مُزَالَةٍ .

فَلَوْ أَمَكْنَ الشَّمْسُ مِنْ خَوْفِهَا * إِذَا طَلَعَتْ مَا تَسَمَّتْ غَزَالَةً !

فَوُثِبَ إِلَيْهَا الثَّامِنُ وَثْبَةً لَيْثٌ قَدْ وَثِقَ مِنْ حَرَكَاتِهِ بِتَجَاحُهَا ، وَرَمَاهَا بِأَوَّلِ بُنْدُقَةٍ فَمَا أَخْطَأَ قَادِمَةَ جَنَاحِهَا ؛ فَأَهْوَتْ كَعُودَ صُرْعٍ ، أَوْ طَوْدَ صُدْعٍ ؛ قَدْ ذَهَبَ بِأَسْهَا ،

وَتَذَهَّبُ بِدَمِهَا لِبَاسُهَا ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ يُخَادِعُ الْجَوَّ عَنْ عُقَابِهِ ، وَيَسْتَنْزِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ
عِقَابِهِ ، فَعَمَلُهَا بِجَنَاحِهَا الْمَهِيضِ ، وَرَفَعَهَا بَعْدَ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ ،
وَنَزَلَ إِلَى الرَّفْقَةِ ، جَذَلًا بِرَبْحِ الصَّفْقَةِ .

فوجد التَّاسِعَ قد مرَّ به كُرْكِيٌّ طَوِيلُ الشَّفَارِ ، سَرِيعُ النَّفَارِ ، شَمِهُ الْفِرَاقِ ،
كَثِيرُ الْأَعْتَابِ يَسْتَوِي بِمَضَرٍّ وَيَصِيفُ بِالْعِرَاقِ ، لِقَوَادِمِهِ فِي الْجَوِّ خَفِيفٌ ، وَلَادِيمِهِ
لَوْنُ سَمَاءٍ طَرَأَ عَلَيْهَا غَيْمٌ خَفِيفٌ ، تَحْنُ إِلَى صَوْتِهِ الْجَوَارِحِ ، وَتَعِجِبُ مِنْ قُوَّتِهِ
الرِّيَاحِ الْبَوَارِحِ ، لَهُ أَثَرُ حُرْمَةٍ فِي رَأْسِهِ كَوْمِيزٍ جَمْرٌ تَحْتَ رَمَادٍ ، أَوْ بَقِيَّةُ جُرْحٍ تَحْتَ
ضِمَادٍ ، أَوْ فَصٌّ عَقِيقٍ سَفَتَ عَنْهُ بَقَايَا ثِمَادٍ ، ذُو مَنَقَارٍ كَسَنَانٍ ، وَعُقَى كَهَنَانٍ ،
كَأَنَّمَا يَنُوسُ ، عَلَى عُودَيْنِ مِنْ أَبْنُوسِ :

إِذَا بَدَأَ فِي أَفْقٍ مُقْلَعًا * وَالْجَوُّ كَلَمَاءَ تَفَاوِيْفُهُ :

حَسِبْتَهُ فِي لُحْيَةٍ مَرْكَبًا * رَجُلَاهُ فِي الْأَفْقِ مَجَادِيْفُهُ !

فَصَبَّرَ لَهُ حَتَّى جَازَهُ مُجَلِيًّا ، وَعَظَفَ عَلَيْهِ مُصَلَّبًا ، نَحَرَ مُضَرَّجًا بِدَمِهِ ، وَسَقَطَ مُشْرِفًا
عَلَى عَدَمِهِ ، وَطَلَمًا أَفْلَتَ لَدَى الْكَوَاسِرِ مِنْ أَظْفَارِ الْمُنُونِ ، وَأَصَابَهُ الْقَدَرُ بِجَنَّةٍ مِنْ
حَمِيمٍ مَسْنُونٍ ، فَكَثُرَ التَّكْيِيرُ مِنْ أَجَلِهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ بِرِجْلِهِ .

وَحَازَاهُ غِرْنُوقٌ حَكَاهُ فِي زِيَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَامْتَاَزَ عَنْهُ بِسَوَادِ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ ، لَهُ
رَيْشَتَانِ مَمْدُودَتَانِ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى خَلْفِهِ ، مَعْقُودَتَانِ مِنْ أُذُنَيْهِ مَكَانَ شَفْهِهِ :

لَهُ مِنَ الْكُرْكِيِّ أَوْصَافُهُ * سِوَى سَوَادِ الصَّدْرِ وَالرَّاسِ .

إِنْ شَالَ رِجْلًا وَأَنْبَرَى قَائِمًا * أَلْفَيْتَهُ هَيْئَةً بِرِجَاسِ !

فَأَصْنَعِي الْعَاشِرَ لَهُ مُنْصِتًا ، وَرَمَاهُ مُتَلَفَّتًا ، نَحَرَ كَأَنَّهُ صَرِيرُ الْأَلْحَانِ ، أَوْ نَزِيْفُ بَنَاتِ
الْحَنَانِ ، فَأَهْوَى إِلَى رِجْلِهِ بِيَدِهِ ، وَأَتَقَضَّ عَلَيْهِ أَنْقِضَاضَ الْكَاسِرِ عَلَى صَيْدِهِ .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضُوعٌ ^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ النَّضَارِ مَصْنُوعٌ؛ تَحْسَبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَثَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلَةُ رِجْلَاهُ مُسَوَّدَةٌ * كَأَنَّمَا مِثْقَالُهُ خَنْجَرٌ:
مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطُ * جَاءَتْ فِي رَقَبَتِهَا مِعْجَرًا!

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كَثْبٍ؛ فسقط كفَارِسٍ تَقَطَّرَ
عن جَوَادِهِ، أَوْ وَاثِقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ فُؤَادِهِ؛ فحملَه بِسَاقِهِ، وَعَدَلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .
وَأَقْرَنَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ مَعْرُوفٍ، ذُو مِثْقَالٍ كَصُدُغٍ مَعْطُوفٍ؛ كَأَن
رِيَاشَهُ فَلَقَّ أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ الثَّلْجِ * عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ:
إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قُلْتُ بَرَقَ فِي الدَّجَى سَارِي!

فانتحاه الثاني عشر مِيمًا، ورماه مُصَمًّا؛ فأصابه في زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ قَوْرِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ السَّرِّ وَرَمَا حَرَجَ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَأَلْتَحَقَ بِهِ سَبِيطَرٌ، كَأَنَّهُ مَذْبَذَةٌ مُبِيطَرٌ؛ يَخْطُ كَالسَّيْلِ، وَيَكُرُّ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالْحَيْلِ،
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِيَّةٍ بَيْنَ ضِدَيْنِ يُقْبِلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُدْبِرُ بِاللَّيْلِ؛ يَتَلَوَّى فِي مِثْقَالِهِ الْأَيْمُ،
تَلَوَّى التَّيْنِ فِي الْغَيْمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُتَدًّا وَفِي فَمِهِ * مِنَ الْأَفَاعِي شَجَاعٌ أَرْقَمُ ذَكَرُ:
كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَامَ عُنْقَهُ يَدُهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَرْدُ!

(١) هو بضم الضاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :
”ضُوعٌ“ وأنظر ما كتبناه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه ، فقطع لحية وعنقه ، فوق كالصرح الممرد ،
أو الطراف الممدد .

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ، كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره ، أو أنطوى على هالة بذره :

ترآه في الجو عند الصبح حين بدا * مسود أجنية مبيض حيزوم :

كأنه حبشي عام في نهر * وضم في صدره طفلاً من الروم !

فهض تمام القوم إلى التتمة ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المذممة ؛
وغدا ذلك الطير الواجب واجباً ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عيناً أو تبرز
حاجباً ؛ فيالها ليلة حصرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل شمل مجتمع ؛ وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لمن عظام ، وأصبحنا مثنين على
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ؛ داعين لاولي جهدنا ، مدعين له قبلنا
أوردنا ؛ حاملين ما صرنا إلى بين يديه ، عاملين على التشرف بخدمته والانتهاإ إليه :

فأنت الذي لم يلف من لا يؤده * ويدعى له في السر أو يدعى له :

فان كان رمي ، أنت توضع طرقة ، * وإن كان جيش : أنت تحي قبيلة !

والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل ، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل ؛
بمنه وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصَّدَقَات ، وفيه طَرَفَان)

الطرف الأول

(في الصَّدَقَات المُلْكِيَّة وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تُكْتَبَ له خُطْبَةُ صَدَاقٍ تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صَدَاقٍ، كُتِبَ به لملك السَّعِيدِ بَرَكَةَ ، ابنِ السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأتقى قبل سَلْطَنَتِهِ ، بالقلعة المحروسة ، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى : الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركه ، ومصدق القائل لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانَه وصهره ملكه ؛ الذى جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميز أقدارهم بأصطفاء تاهله حتى حازوا نعيماً ومُلْكاً كبيراً ، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياءً وزاد قمرها نورا ، وشرف به وُصْلَتَهُمْ حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً ، مهياً أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل رُبوع كلِّ إملاك من الأملاك بالشموس والبُدُور والأهلة أهله ، جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .

تَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَحْسَنَ عِنْدَ الْأَوْلِيَاءِ بِالْعَمَةِ الْأَسْتِدَاعِ ، وَأَجَمَلَ لَتَأْمِيلِهِمُ الْأَسْطِلَاعِ ،
وَكَلَّ لِأَخْيَارِهِمُ الْأَجْنَاسَ مِنَ الْعِزِّ وَالْأَنْوَاعِ ، وَأَتَى أَمَلَهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ
أَحْسَائِهِمْ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ بِالتَّخْوِيلِ وَالْإِبْتِدَاعِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ الْأَوْضَاعِ ، مَلِيَّةٌ بِتَشْرِيفِ الْأَلْسِنَةِ وَتَكْرِيمِ الْأَسْمَاعِ ؛ وَنُصِّلَ عَلَى
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ بِهِ الْأَقْدَارَ ، وَشَرَّفَ بِهِ الْمَوَالِي وَالْأَصْهَارَ ، وَجَعَلَ كَرَمَهُ
دَارًا لَهُمْ فِي كُلِّ دَارٍ ، وَبَحَّرَهُ عَلَى مَنْ أَسْتَطْلَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مُشْرِقَ الْأَنْوَارِ ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ صَلَاةَ زَاهِيَةِ الْأَزْهَارِ ، يَانِعَةَ الثَّمَارِ .

وَبَعْدُ ، فَلَوْ كَانَ اتِّصَالُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِ الْمُتَّصِلِ بِهِ فِي تَفْضِيلِهِ ، لَمَا أَسْتَصْلَحَ
الْبَدْرُ شَيْئًا مِنَ الْمَنَازِلِ لُزُولِهِ ، وَلَا الْغَيْثُ شَيْئًا مِنَ الرِّيَاضِ لُطُولِهِ ، وَلَا الذِّكْرُ
الْحَكِيمُ لِسَانًا مِنَ الْأَلْسِنَةِ لَتَرْتِيلِهِ ، وَلَا الْجَوْهَرُ الثَّمِينُ شَيْئًا مِنَ التَّيجَانِ لَحُلُولِهِ ؛ لَكِنْ
لِيَتَشَرَّفَ بَيْتٌ يَحُلُّ بِهِ الْقَمَرُ ، وَنَبْتُ يَزُورُهُ الْمَطَرُ ، وَلِسَانٌ يَتَعَوَّذُ بِالْآيَاتِ وَالسُّورِ ،
وَنِثَارٌ يَجْمَلُ بِاللَّائِي وَالذَّرَرِ ؛ وَلِذَلِكَ تَجَلَّتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَضْهَارُهُ
وَأَصْحَابُهُ ، وَتَشَرَّفَتْ أَنْسَابُهُمْ بِأَنْسَابِهِ ؛ وَتَزَوَّجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ ، وَتَمَّتْ لَهُمْ
مَنْزِيَّةُ الْفَخَارِ حَتَّى رَضُوا عَنْ اللَّهِ وَرَضَى عَنْهُمْ .

وَالْمُرْتَبَ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْفَاضِلَةِ نُورٌ يَسْتَمِدُّهُ الْوُجُودُ ، وَتَقَرُّرُ أُمُورُهُ يَقَارَنُ سَعْدُ
الْأَخِيَّةِ مِنْهُ سَعْدُ السُّعُودِ ؛ وَإِظْهَارُ خُطْبَةٍ تَقُولُ لِلثَّرِيَّا لَأَنْتَظِمُ عُقُودَهَا : كَيْفَ ،
وإِبْرَازُ وَضْعَةٍ يَجْمَلُ بِتَرْصِيعِ جَوْهَرِهَا مِثْلُ السَّيْفِ الَّذِي يَغِيْطُهُ عَلَى إِبْدَاعِ هَذَا
الْجَوْهَرِ بِهِ كُلُّ سَيْفٍ ؛ وَتَسْجُ صِهْرَةٍ يَتِمُّ بِهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - كُلُّ أَمْرِ سَيِّدٍ ،
وَيَتَفَقُّ بِهَا كُلُّ تَوْفِيقٍ تَخْلُقُ الْآيَّامَ وَهُوَ جَدِيدٌ ، وَيُخْتَارُهَا أَرْبُكَ طَالِعٌ : وَكَيْفَ لَا تَكُونَ
الْبَرَكَةُ فِي ذَلِكَ الطَّالِعِ وَهُوَ السَّعِيدُ ؟ .

وذلك بأن المَرَّاحِمَ الشَّرِيفَةَ السُّلْطَانِيَّةَ أَرَادَتْ أَنْ تُحَصِّنَ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ بِالْإِحْسَانِ الْمُبْتَكِرِ ، وَتُقَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ الَّتِي يُرْهَفُ بِهَا الْحَدُّ الْمُتَنَضِّي وَبِعَظَمِ الْحَدِّ الْمُتَنَطِّرِ ، وَأَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَدَرِ صَاحِبِيَّةٍ : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؛ نَحْطِبُ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعُ مِنْ تَحْمِيلِهَا السُّيُوفَ الْمَشْرِفِيَّةَ ، وَأَعَزُّ مِنْ تُسْبَلِ عَلَيْهَا سُتُورُ الصَّوْنِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُلُودُ الْجَلَالِ الرَّضِيَّةِ ، وَتُجَمَّلُ بِنِعْوَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَقَالَ وَاللَّهِ هُوَ الْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تُرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُزَانُ ، وَكَذَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛ وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَّاحِمُ الشَّرِيفَةُ السُّلْطَانِيَّةُ لَهُ نَحِيلَهُ ! ، وَأَشْرَفَ سَيْفًا غَدَّتْ مِنْطَقَةُ بُرُوجِ سَمَائِهَا لَهُ حِمْلَهُ ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةٌ آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَفْرَحَهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبودِيَّةٌ كَرَّمَتْ سَلَامَتَهَا بِأَنْ جَعَلَتْهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفَعِ قَدْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَخَصَّصَتْهُ بِهَذِهِ الْمَرْيَةِ الَّتِي تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَرِ الْمَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفَعِ دَرَجَاتِ عَبِيدِهِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَفَوَّهُ بِهِ هَذَا الْإِنْشَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَحَاسَدَتْ وَمَلَأَ الْخَطَّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ مَطَالِيعُ النُّوَارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَظْمِ سَطُورِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَّلَ نُورُهُ بِالْإِحْسَانِ فَاعْتَدَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجْنِيسِ لَفْظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْإِعْتِرَافُ : هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصْدَقَ مُوَلَانَا السُّلْطَانُ : أَصْدَقَهَا مَا مَلَأَ نَحَائِنَ الْأَحْسَابِ خَفَارًا ، وَشَجَرَةَ الْأَنْسَابِ ثِمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضْلَفَ إِلَى

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا؛ فبدل لها من العين المصري ما هو باسم والدها قد تشرف، وبنعوته قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف.



وهذه نسخة صداق المقام الشريف العالى السيفي أنوك، ولد السلطان الشهيد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفي «بكتمر الساقى». وكان العاقد قاضى القضاة جلال الدين القزويني، والقابل السلطان الملك الناصر والد الزوج، وهى:

الحمد لله مسير الشمس والقمر، وميسر حياة كل شيء باتصال الروض بالمطر، ومبشر المتقين من درارى الدارارى بأسعد كوكب ينتظر، وأحمد عاقبة تهترها أعطاف عظماء الملوك على كبر، وتنجاب عن الأنجاب كما تفتح الأكام عن الثمر؛ الذى مد من الشجرة المباركة الملوكة فروعا آلتفت بعضها على بعض، ورفقت على من استظل بها فراقب السماء على الأرض.

نحمده على نعمة التى أطابت لنا جنى الغروس، وأطالت منا منى النفوس، وأطافت بملوكنا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذها عصمة نافعته، ونعمة حسن العاقبة جامعته، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة، والأنوار الساطعة، والبروق اللامعة، والغيوث الهامعة، والسيول الدافعة، والسيوف القاطعة، والأسود التى هى عن حرم حضرته مانعة؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان من تمسك له بحسب، وشرف من اعتزى إليه بالقربى أو أعتز منه بصهر أو نسب؛

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَرْضَاهُمْ وَرَضَى عَنْهُمْ ، وَكَرَّمَهُمْ بِصَلَاتِهِ الشَّرِيفَةِ
لَمَّا زَوَّجَهُمْ وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ الْعَامِ أَنْ يَتَفَقَّدَ الْأَرْضَ بِمَطَرِهِ ، وَالْبَحْرَ أَنْ يَسْقَى الزُّرُوعَ
بِمَا فَاضَ مِنْ نَهَرِهِ ؛ وَالْمَصَابِيحَ أَنْ تَمَدَّ بِأَنْوَارِهَا مَا يَتَوَقَّدُ ، وَالسَّمَاءُ أَنْ لَا يَخْلُو أَفْقُهَا
مِنْ اتِّصَالِ فَرْقِدٍ بِفَرْقِدٍ ؛ وَلَوْ تَوَقَّفَتِ الْقُرْبَى عَلَى مُقَارَبَةٍ كَبِيرٍ ، أَوْ مُقَارَنَةِ نَظِيرٍ ،
لَمَّا صَلَحَتِ الْأَعْمَادُ لِمَضَاجِعِ السُّيُوفِ وَلَا دَنَّتِ الْكَوَاكِبُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
الْمُنِيرِ ؛ وَلَا صَاحَتِ يَمِينٌ شِمَالًا ، وَلَا جَاوَرَتْ جَنُوبٌ شِمَالًا ؛ وَلَا حَوَتْ الْكَتَائِنُ
سِهَامًا ، وَلَا جَمَعَ السَّلَكُ لِلْجَوَاهِرِ نِظَامًا ؛ وَلَا طَمَحَ طَرْفٌ إِلَى غَايَةٍ ، وَلَا قَدَّرَ لِسَانُ
إِنْسَانٍ عَلَى تِلَاوَةِ سُورَةٍ وَلَا آيَةٍ ؛ وَإِنَّمَا الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ الْمُلُوكِيَّةُ لَهَا فِي الْبَرِّ
عَوَائِدُ ، وَفِي الْخَيْرِ سَجَايَا يَقْتَدِي فِيهَا الْوَلَدُ بِالْوَالِدِ .

وَلَمْ يَزَلْ مِنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ ، الْأَعْظَمِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَالِكِيِّ ،
النَّاصِرِيِّ ، أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ عَلَى مَنْ لَازَ بِهِ تُسَبَّلُ ذُبُولُ الْفَخَّارِ ، وَتُودَعُ فِي هَالَاتِ
أَقَارِمِهِمُ وَدَائِعِ الْأَنْوَارِ ، وَتَوْهَلُ أَهْلَتُهُمْ لِأَنْ يَكُونَ مِنْهَا أَحَدُ الْأَبْوِينَ لُذْرِيَّتِهِ الْأَطْهَارِ ،
وَتَحْطُبُ مِنْ حُجُبِهِمْ كُلُّ مَصُونَةٍ يَغُورُ بِهَا بَدْرُ الدُّجَى وَتَغَارُ مِنْهَا شَمْسُ النَّهَارِ .

وَكَانَ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، النَّاصِرِيَّةِ ، عَلَى مَنْ تَعَرَّضَ لِسَحَابِهَا
الْمَاطِرِ ، وَوَقَفَ لِلْإِعْتِرَافِ مِنْ بَحْرِهَا الزَّانِحِ - مَا رَفَعَتْ بِهِ ذِكْرَهُ إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ ،
وَأَتَمَّتْ لَهُ السَّعَادَةُ إِذْ كَانَ يُعَدُّ فِي جُدُودٍ مِنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدٍ ؛ وَأَكْدَتْ لَهُ
بِالْقُرْبَى مَرْيَّةَ مَزِيدٍ ، وَاسْتَخْرَجَتْ مِنْ بَحْرِهِ جَوْهَرَةً لَا يَطْمَعُ فِي التَّطَوُّقِ بِهَا كُلُّ
جَدٍ ؛ وَقَالَتْ : نَحْنُ أَحَقُّ بِتَكْمِيلِ مَا بَنَيْنَا ، وَتَحْوِيلِ الْخُلُوءَةِ مِنْ أَوْلَيْنَا ؛ وَتَاهِيلِ مَنْ قَرَّ
بِنَا عَيْنًا وَقَرَّبَنَا إِلَيْنَا ، وَتَفْضِيلِ غَرَسِ نِعْمَةٍ نَحْنُ غَرَسْنَاهُ وَاجْتَنَيْنَا ثَمَرَاتَهُ بِيَدَيْنَا .

فاقتضى حُسْنُ الاختيار الشريف المَلِكِي الناصريّ، لولده المقام العالی السَّيْفِيّ؛
أحسن الله لهما الاختيار، وأجرى بارادتهما اقتدار الأقدار - أن تُزَفَّ أُمَّ الشُّمُوسِ إلى
سُتُورِهِ الرِّفِيعَةِ، وتُصَانَ أَكْلُ مَعَايِلِ الْعُقَائِلِ بِجُجِيهِ الْمَنِيَعَةِ، وتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَرِ
فِي مُسْتَوْدَعِهِ، وتُنَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَارِيِّ بِمُطَاعِهِ؛ وتُسَاقَ إِلَيْهِ الْكَرِيمَةُ حَسَبًا، الْعَظِيمَةُ
بِأَبِيهِ - عَظَّمَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا، الَّذِي كَمَ لَهُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مِنْ مَنَاقِبَ
كَالْجُومِ، وَمَذَاهِبَ تَشَبَّهَ بِهَا الْبَرْقُ فَتَشَبَّثَ بِأَذْيَالِ الْغُيُومِ، وَمَرَاتِبَ تَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى
كُلِّ نَظِيرٍ قَالَ: وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، مِنْ قَدَرِهِ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ، وَرَأْيُهُ
لَا يُرَامَى وَلَا يُرَامُ، وَسَيْفُهُ فِي غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يُشِيمُ وَلَا يُسَامُ، وَهُوَ «سَيْفُ
الدَّوْلَةِ» لَا كَمَا يُسَمَّى بِهِ مَنْ اسْتَعَارَ هَذَا اللَّقَبَ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ؛ كَمَ لَهُ فِي مَرَاضِي
سُلْطَانِهِ مِنْ رَغْبَةٍ بَذَلَ بِهَا مَا لَدَيْهِ، وَتَمَحَّحَ فِيهَا بِوَلَدِهِ وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَجَادَ
بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ؛ كَمَ تَبَهَّتْ بِعَزَائِمِهِ الشُّيُوفُ مِنْ سِنَانَتِهَا، كَمَ وَهَبَتْ مِنْ
مَكَارِمِهِ الْأَيَّامُ مَا يُعَدُّ مِنْ حَسَنَاتِهَا؛ كَمَ أَلْتَهَبَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا فَجَرَّتْ أَنْهَارًا فَجَرَّتْ
مِنْ جَنَابَتِهَا؛ كَمَ لِسَمَاءِ الْمُلْكِ بُشْمُهُ مِنْ حَرَسٍ، وَبُقُضُصِهِ مِنْ قَبَسٍ، وَكَمَ قَامَ وَقَعَدَ
فِي مَصْلَحَةٍ وَكَانَ أَدْنَاهُمْ مِنْ مَلِكِهِ مَقَامًا لَمَّا قَامَ وَأَعْلَاهُمْ مَجْلِسًا لَمَّا جَلَسَ؛ فَسَمِعَ
المَقَامُ الْعَالِي السَّيْفِيُّ وَأَطَاعَ، وَأَتَتْهُ إِلَى مَا بَرَزَتْ بِهِ مَرَاسِمُ وَالِدِهِ - أَنْفَذَهَا اللَّهُ -
وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ الْمُطَاعَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفِ وَهُوَ نَاصِرُ السُّنَّةِ فَقَدَّمَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ،
وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْإِجْتِمَاعِ، وَاتَّبَعَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ
بِزُرِّيَةِ أُمَّةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ الْأُمَّةُ أَتْبَاعَ؛ لِغُلَامِهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَوْ خَطَبَ لَهُ
وَالِدُهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ، لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كُلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وَهُوَ لَهُ
عَبْدٌ مُمْلُوكٌ؛ فَأَحْيَى سُنَّةَ شَرِيفَةٍ مُلُوكِيَّةٍ مَابَرَحَتْ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ تَحْفَظُ بِهَا قُلُوبُ
أَوْلِيَائِهَا عَلَى أُمْدَادِ الْمَدَى، وَيَكْفِي مِنْ هَذَا مِثْمُونُ فَعَلِ «الْمَأْمُونِ» لَمَّا تَزَوَّجَ

«بُورَان» من أبيها «أَبْنِ سَهْلٍ» وَخَطَبَ «الْمُعْتَصِدُ» إِلَى «أَبْنِ طُولُونٍ» أَبْنَتَهُ
«قَطْرَ النَّدى» .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدراً هالِكاً مهابةً فسلم وقال : لِمَالِكِ التَّصَرُّفُ
وَلِلْمَلِكِ التَّصْرِيفُ ، وَإِذَا اقْتَضَى حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفٌ عَبْدٌ فَيَا حَبِيبًا
التَّشْرِيفُ ، وَيَا حَبِيبًا السَّبَبُ الَّذِي آتَصَلَتْ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَخْتَفَلَتْ
دِيمَ النِّعَمِ وَأَخْتَفَّتْ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ، فَتَحَاسَدْتُ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصَائِلِ
وَحُمْرُ النِّعَمِ ، وَتَنَافَسْتُ عَلَى رَقْمِ سَطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيحُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصَرِيرُ الْقَلَمِ ، وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ اجْتَمَعَتْ مَوَاكِبُ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمُنَاقِبُ لَوْ أَنَّهَا حَوْلَهُ بِمَقَانِبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ، وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَنْحَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَعَتْ بِالْإِتْفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أُبِيحَ لَهَا أَنْ تُغَرَّدَ وَتَحْلُعَ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ،
بَلِ الشُّيُوفُ لِمَا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقُ ، وَالرَّمَا حُ لِمَا بَدَأَ لَهَا
سِرِيرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَقَّتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المراسمُ الشريفةُ - زادها الله شرفاً - بتجريد هذا الكتاب الكريم ، وتضييد
ما يصلح من الدرر لهذا العقد النظيم ، ونفذ المرسومُ العالى المولوى السلطانى ما أمر
به وصدق ، وتآدب إجلالاً لمقام أبيه الشريف فأطرق ، وتواضع لله فلم يقل : هذا
ما تصدق ، بل قال : هذا ما أصدق المقام العالى السَّيْفِيُّ أَنُوكَ أَبْنُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ
الْأَعْظَمِ ، مَالِكِ رِقَابِ الْأَيْمِ ، الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْغَازِى ،
الْمُجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمُرَاطِطِ ، الْمُتَابِعِ ، الْمُظْفَرِ ، الْمَنْصُورِ ، الشَّاهِنشَاهِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا
وَالدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُجْبِى الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ
مِنَ الظَّالِمِينَ ، مَلِكِ الْبَسِيطَةِ ، نَاصِرِ السُّنَّةِ ، رُكْنِ الشَّرِيعَةِ ، ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ،

القائم بسنته وفرضه ؛ وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، خداوند عالم
بادشاه بنى آدم ، بهلولان جهان ، شهریار ایران ، اسکندر الزمان ، مملک أصحاب المنابر
والأسيرة والتخوت والتيجان ؛ فاتح الأفطار ، وأهيب المالك والأقاليم والأمصار ،
مبيد البغاة والطغاة والكفار ؛ صاحب البحرين ، حامي الحرمين ، خادم القبلتين ؛
كفيل العباد والعباد ، مقيم شعائر الحج والجهاد ؛ إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ،
أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ،
المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبي الفتح «قلاوون» خلد
الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه - : الحجاب الكريم ، الرفيع ، المنيع ،
المصون ، المكنون ، الجهة المكرمة ، المفخمة ، المعظمة ، بنت الجناح الكريم ،
العالى ، الأميرى ، الأجل ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المهدى ، المشيدى ،
الزعيمى ، المقدمى ، الغياثى ، القوتى ، الذخرى ، الأوحدي ، الظهيري ، الكافى ،
السيفى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصير الغزاة والمجاهدين ،
زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملة ، مهدي الدول ، مشيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرى ،
ضاعف الله نعمته .

أصدقها ما تلقت به أنسابها إجلالا ، وبلغت به أحسابها جمالا ، وطلعت فى سماء
الملك هلالا ؛ وليست نغارا ، وقبست أنوارا ؛ وأوت إلى حصن حصين ، ووصلت
إلى مقام أمين ، وابت (؟) بأموال وبنين ؛ مالولا أدب الشرف ، وتجنب السرف ؛
والعمل بالشرع فى تعيين معلوم ، وتبين مقدار مفهوم ؛ لخرج عن كل وصف
محدود ، وقدر معدود ؛ ولما قام به موجود ، ولكان مما تقل له الممالك
ولا يستكثر لأجله الوجود .

قَدِّمَ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكَ مَا هُوَ بَنَقْدِ مِمَّا لَكَ وَالِدِهِ مَعْرُوفٌ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ فِي هِبَاتِهِ مَصْرُوفٌ ؛ مَا يُجَدُّ مَالًا ، وَيُتَمَّى مَالًا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَّالًا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، عَجَّلَ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلٌ وَالدَّهَاءُ مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضَهَا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَخَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ الْمَعْرُوفِ أَوْ تَسْرِيجِ بِالْحَسَنِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وَوَلَّى تَرْوِيحَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ والدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاءِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، خُطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَّالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالَى ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاءِ
سَعْدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصٍ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْوِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمَ بِالْدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وِإِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَهُ
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاهَا بِمَحْضُورٍ
مِنْ تَمِّ الْعَقْدِ بِمَحْضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْلَقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ .



وهذه نسخةُ صَدَاقِ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ
أَبْنِ قِلَافُونَ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الحمد لله معنى الملوك بالمظافره ، ومكثر زينة الأسماء بجُومهم الزاهره ، ومُكبر أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهره .

نحمده على نعمه التي شرفت قدرا ، وصرفت أمرا ، وأطلعت من هالة البدر المنير شمسا لا تتخذ غير الأفق خذرا ، ولا تفتي الليالي والأيام إلا أن تقلدها من الأشعة ياقوتاً ومن الكواكب دُرّاً ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع من حمة الدين نسباً وصهراً ، وترفع في أنباء الأبناء لها حسباً وذكراً ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي عصم به ، وخص صفوة الخلق في المصاهرة باختلاط نسبهم بنسبه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستوثق بها الأسباب ، وتستوسق الأنساب ، وتبقى أنوارها بملك أبناء الملوك كلمة باقية في الأعقاب ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فلما جمع الله بملوك البيت الشريف المنصوري - كثر الله عددهم - شتات الإسلام ، ومحا بيوارق جهادهم ما امتد من ظلام ؛ حتى انتهت التوبة إلى من أصبحت به الدولة القاهرة وكل أوقاتها أنوار صباح ، وتوار آفاق ، وسماء سماح ، وأسمى نعم لا تعد إلا معاهد تيجان الملوك على كل جبين وضاح ؛ المقام الشريف العالي المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الناصري ، زاد الله شرفه ، وأعلى على شرفات بروج السماء غرفه ؛ فأحب - لما أجزاه الله به وبمن سلف من ملوك بيته الشريف من تأييد هذه الأمة ، وتأيد ما شملها بفتوحاتهم المذهبات الفتوح من سوانح النعمة ؛ - أن يعمل بقول نبيه المشرف بموافقة أسميه ومتابعة حكمه في الترويح ، وأن تقع مواقع أمطاره على كل أرض حرة فتذبت كل زوج بهيج . وكان من بينه - أدام الله سعوده - من يطبع في كل أمر أمره العالي أدام الله تمكينه ، ولولا هذا لما رضى سوى أقران الفرسان له قرينه ؛ وكان من نجابهم إذا

عَدَّتْ الأولاد ، وَأَحْبَبَتْهُمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِمَجْلَتِهِمْ
بِحَالٍ ، وَلِدَوْلَتِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِقَائِهِمْ أَسَدُ الْأَشْيَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤْتِلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ سَمِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتِ تَسْلِيهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ
اللَّهُ فِي الْأَفْطَارِ - بِأَنَّهُ يُغَيِّرُ لِمَغْرَسِهِ الْكَرِيمِ ، وَتَسْبِيهِ الصِّمِيمِ ؛ وَصَبَّاحِهِ الْمُشْرِقِ ،
وَسَمَّاحِهِ الْمُغْدِقِ ؛ فِصَادِفِ الْإِحْسَانِ مَوْضِعِهِ ، وَأَتَتْخَبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ الْبَدْرِ التَّمَامِ
مَطْلَعَهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الرَّائِحُ
وَمِنْ مَكُونِهِ يُسْتَخْرَجُ الْخَيْرُ الثَّمِينِ ؛ فَبَادِرِ الْخَاطِبِ إِلَيْهِ إِلَى آغْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِي لَا يُطَاوِلُ ، وَعَاجِلِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيتَ تِلْكَ السُّتُورَ بِهَذِهِ الْمَخْطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَلِيَاءُ هَذِهِ الْمَحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ ذَوَاتِ الْعِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينُ ؛ فَأَتَمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رَتْبَةِ
الْفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَّفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ
مِنَ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْعُقُودِ وَلَا كَيْدٍ وَلَا كِرَامَةٍ لِمَا يَنْجَلِي بِهِ
الْلَّيْلُ الْبَهِيمَ ، وَلَا لِمَا يَتَحَلَّى فِي جِيدِ الْجَوَازِ مِنْ عِقْدِ دُرِّهَا النَّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِجْلَالُ
الْمَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا أَخْتَصَرَ الْقَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ
.....

الطرف الثانى

(فى صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم)

وهى على نحو من الصدقات الملوكية فى الترتيب ، إلا أنها أخصر ، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

(١)
وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبى سعيد أمير حاجب]
على بنت بيدمر العمرى ، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه ، ورأى ذمم من لم ينسوا عهده ولم يخلفوه ،
ومكمل الخير لكل ذى ^(١) يصد من يخفوه ، وجيب كل منيب يدعو قائما
وقاعدا : (ولما قام عبد الله يدعو) .

نحمده حمدا نكرر فضله وتتلوه ، ونحل معضله ونجمله ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الأمر المسلم وبنوه ، وتبيض بها وجوه
الأوداء ، وتسود وجوه الأعداء ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ؛ ونشهد أن سيدنا
محمدا عبده ورسوله الذى سجد به ذووه ، وصعد قدر صهره وحموه ، وشرف نسبا
ما ألتقى فيه على سفايح هو ولا أولوه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال
بها الروض الأرج ينفوه ، والسحر يبلغها ولو سكنت وخيم بالبرق فوه ؛ وسلم تسليما .

وبعد ، فإن أزهى زهر طاب مجتنوه ، وطال باعا فى الفخار مجتنوه ؛ زهر كلمة
جرت عنها لامة كبرى ، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذى أنف حى ؛ وطلعت
من أفق بدرى طالما سنع مجتنوه ، وحمى سيف أمين فى كلته بكلاءته مجتنوه .

وكان الجَنَابُ الجَمَالِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المَرْحُومِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي سَعِيدٍ أَمِيرِ حَاجِبٍ ،
أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عُلَاهُ ، وَرَحِمَ أَبَاهُ ، هُوَ وَلَدَ ذَلِكَ الْوَالِدِ ، وَطَارِفَ ذَلِكَ التَّالِدِ ؛ وَتَشَوَّ
هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ الْكَامِلِيَّةَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا حَظَّهُ بِالتَّمَامِ وَالْكَامِلِ ، وَأَصْبَحَتْ بِهِ
كَالْعَادَةِ الْحَسَنَاءِ ذَاتِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ ؛ وَلَمْ يَمُتْ أَبُوهُ فِي أَيَّامِ سُلْطَانِهَا - خَلَّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ - حَتَّى قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَسَاوَاهُ فِي الْإِمْرَةِ لَوْلَا تَفَاوُتُ الْعِدَّةِ وَقِدَمُ الْمُدَّةِ بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُ ؛ وَجَاءَ مِنْهُ وَلَدٌ نَجِيبٌ ، وَأَبْنٌ شَاعٌ وَذَاعَ سِرَّأِيهِ وَحُمِدَ وَهَذَا نَجِيبٌ !!! .
وَلَمَّا اتَّخَذَ وَالِدُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، وَشَرِبَ بِالْكَأْسِ الَّتِي لَا بُدَّ لِكُلِّ
حَيٍّ مِنْ شُرْبِهِ - تَطَلَّبَ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَبِ وَلَمْ يَزَلْ يَجِدُ حَتَّى وَجَدَ ، وَظَفَرَ بِوَالِدٍ إِنْ
لَمْ يَكُنْ وَلَدَهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ عِنْدَهُ مِثْلُ الْوَلَدِ ؛ وَهُوَ الْمُقَرَّبُ بِدَمَرٍ ، وَهُوَ الْوَالِدُ الَّتِي لَمْ يَفْقِدْ
مَعَهُ مِنْ وَالِدِهِ ذَرَّةً ، وَالْأَبُ الَّتِي هُوَ أَرَأْفُ مِنْ كُلِّ أُمِّ بَرٍّ ؛ وَالنَّيِّرُ الْبَسْدَرِيُّ الَّتِي
سَعَدَ قِرَانَا ، وَصَعِدَ وَدَّاسَ بِقَدَمِهِ أَقْرَانَا ، وَقَسَمَ دَهْرَهُ شَطْرَيْنِ : نَهَارَهُ لِلضُّيُوفِ قَرَى
وَلَيْلَهُ لِلَّهِ قُرَانَا .

هَذَا إِلَى أَنَّهُ طَالَمَا طَيَّبَ لِرِكَاتَةِ أَمْوَالِهِ وَثَمَرَهَا ، وَزَيَّنَ فِي أَعْمَالِهِ بِمَدْرَسَةِ عَمَرَهَا ،
وَقَيَّدَ شَوَارِدَ حَسَنَاتِهِ وَتَقَفَّهَا ؛ مَعَ أَنَّهُ شَيَّدَ الْمَمَالِكَ وَسَدَّدَ أُمُورَهَا ، وَسَدَّدَ ثَغُورَهَا ؛
وَحَمَى بَيَاضَ سُيُوفِهِ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ ، وَرَمَى بِصَوَائِبِ سِهَامِهِ النَّوَائِبَ وَلَمْ تُسْتَغْظَمْ ؛
وَلَمْ تَزَلْ نُوبُ الْأَيَّامِ تُجْرِبُ مِنْهُ مِسُورِيًّا ، وَتُجَرِّدُ حُرًّا كَرِيمًا جَاءَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ صَقْرًا
بَدْرِيًّا ؛ فَكَانَ مِنْ تَمَامِ بَرِّهِ بِمَنْ سَلَفَ إِجَابَةُ وَلَدِهِ ، وَإِجَالَةُ الرَّأْيِ فِيمَا يَكُونُ سَبَبًا
لِصَيَانَةِ عِزِّهِ وَذَاتِ يَدِهِ ؛ فَانْعَمَ لَهُ بِعَقِيلَتِهِ الْمُنْعَةِ ، وَرَبِيبَتِهِ الَّتِي غَدَّتِ الشَّمْسُ مِنْهَا
سَافِرَةً مُقْنَعَةً ؛ وَقَالَ : عَلَى الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ ، وَأَبْنُ أَخِي كَرِيمٌ وَجَدَعَ الْحَلَالَ أَنْفَ الْغِيَرَةِ ؛
وَمَا أَسْنَى عَقْدًا يَكُونُ مُتَوَلِّيًا ، وَمُنْشِئَةً إِحْسَانًا مِنْهُ وَمُسْنِيَةً ؛ مَوْلَى بِهِ نَظُمَتْ عَقُودُ
الْأَلَى ، وَرُقِيتْ بِعَلَمِهِ أَعْلَامُ الْأَيَّامِ وَذَوَائِبُ اللَّيَالِي ؛ وَسُلِّمَتْ الْقَضَايَا بِهِ إِلَى مُنْقَذِ

أحكامها، ومَنِيْل الفضل لحكامها؛ البحر الزانح، والتَّجْم الذي تَمَّ ترك الأول منه
للاَتحِر؛ والغَمَام إلا أنه قَضَتْ صَوَاعِقُهُ على الخُصُوم، والإمام الذي أجمعت عليه
السُّنَّة ولم تُتَكِر الشَّيْعَةُ أنه الإمام المَعصُوم؛ والعالم الذي ما برحت بُرُوقُهُ تُشَام، وحُقوقه
على أَهْلِ مِصر والشَّام؛ والذي وَلَّى الظُّلْم مُنْذُ وَلِي، وآتِرف ذُوو الفضل والفضل
في القَضَاء أَن أَتَقَاهم تَقَى الدِّين وأَقْضَاهم :

قَاضِي القَضَاءِ أَبُو الحَسَنِ * بَبَقَائِهِ يُجَلِّي الحَزْنَ ،
و [هو] ^(١) الذي في حُكْمِهِ * يَجْرِي على أَقْوَى ^(١) [سُنَنِ] !
طَوْدٌ إِذَا وَازَنَتْهُ * بالطَّوْدِ في حُكْمٍ وَزَن !
وَالْبَحْرُ طَى رِدَائِهِ * قَلْد العُقُودِ بِلَا ثَمَنِ ! ^(٢)

فأضاء المخفِل به وبالحاضرين، وقام شعار الدين حتَّى قال القائل : هذه سِيُوف
المجاهدين وهذا سيف المناظرين ؛ وقيل : هذا وَقْتُ جُودٍ قد حضر، ومَوْضِعُ
سُرُورٍ يُنبِغِي أَن يُعْجَلَ منه ما يُنْتَظَر ؛ فَأَبْتَدَأَ السَّعْدُ حِيَاهِ الوَسِيم ، وَأَفْتَحَ فَقَالَ :
بِسْمِ الله الرحمن الرحيم هذا



وهذه نسخةُ صَدَاقِ نَاصِرِ الدِّين مُحَمَّدِ بْنِ الحَطِيرِي ، من إنْشاءِ المَقَرِّ الشَّهَابِي بن
فضل الله ، وهى :

الحمدُ لله الذى زاد الأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبَا ، وزَانَ الأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَةٍ نَتَأَكَّدُ
حُبًّا ، وصَانَ كَرَامَتِ البُيُوتِ القَدِيمَةِ الفَخَارِ بِمَنْ يُنَاضِلُ عَنْ حَسْبِهِ ذَبَا ، وَيُنَاطِرُ العُلَيَّا
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بُيُوتًا وَلَمْ يُسَيِّلْ سِوَى السُّمْرِ سُمْرًا لَقْنَا مُجْبَا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ دَعَاهُ قَبْلَ بَثِّ النَّسَمِ فَلَبَّى ، وَأَسْتَدْعَاهُ لِأَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْهِ أَمَامَ
تَفْرِيقِ الْقِسَمِ فَمَا تَأْتِي ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسْتَنْطِقُ
السَّنَةَ وَتَشْكُرُ قَلْبًا ، وَتَسْتَغْدِقُ أَنْوَاءَ السَّرُورِ فَتُضِيءُ الْبَشَائِرَ بَرُوقًا وَتُمْطِرُ الرَّحْمَةَ سُحْبًا ،
وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَامَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ حَتَّى زَادَ عَدَدُهَا عَلَى مَوَاقِعِ
الْقَطْرِ وَأَرْبَى ، وَقَالَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى أَقْرَبَائِهِ صَلَاةً تَضُمُّ آلًا وَصَحْبًا ، مَاسَرَتْ الشُّهُبَ
تَقَطَّعَ الْآفَاقَ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَشْتَبَكَ وَشِجْهَ ، وَأَشْتَبَهَ فِي مَنَابِتِ الْإِيكِ بَهِيْجُهُ ، وَأَنْتَبَهَ
فِي أَرَائِكِ الْخَمَائِلِ أَرِيْجُهُ ، وَأَنْتَدَبَ لِإِتْيَانِهِ الْأُفُقُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَمْوِيْهُ
وَمِنْ لَمَعِ الصَّبَاحِ تَدْيِيْجُهُ - مَا أَتَبَعَتْ فِيهِ الشَّرِيعَةُ الْمَطَهْرَةَ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأَئِمَّةُ ،
وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَّا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأْتَلَفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكْثُرُ
لِمَبَاهَاتِهِ الْأَتَمُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، وَتُعَدُّ بِهِ أَيَادٍ جَمَّةٌ لَا تُحْصَرُ وَيُحْلَدُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيُتَجَلُّ بِهِ شَرَفُ النِّعَمَةِ ، وَهُوَ التَّنْكَاحُ الَّذِي تَشْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمْثِيلِ أَكْثَرِ الصُّوَرِ مِنْ أَرْزَاقِ الْعَنَاصِرِ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ هِمُّ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِجَفْدَةٍ
أَنْبَاءُهُ مِنْ أَتَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلُهُ مَا تَمَائَلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرَبِيَّةِ وَجْوهُ
نَخَارِهِ ، وَتَقَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرْفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُمُوهِ وَمَطَالِعُ أَفْقَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْوَانُ فِي أَهْلِ الْفَخَارِ مِنْ جُرُومَةٍ بَسَقَا ، وَأَرْوَمَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
ثُمَّ تَلَاقَى مِنْهَا غُصْنَانُ وَاعْتَقَقَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا حُجِّبُهُ إِلَّا مَوَاضِي الصِّفَاحِ ، وَلَا شُبُهَةَ

إلا طلائع الأسنّة في رؤوس الرّماح، ولا سُجُبه إلا ما يفيض على جَبّاته من النفوس
 أو يفيض من السّماح، ولا سُجُفه إلا المناقب لولا أن الثّريّا جاذبت ما يعرض
 في السماء أثّناء الوشاح، وكان هو الرّاغب إلى عمّه، الخاطب إليه ما لم يكن يُحبّاً
 إلا لقسمه؛ الطّامح بنظره إلى عقيلة الفخار في غرّفيها، الطّامع بخطبة الشّمس شمس
 النّهار إلا أنها في بيت شرفها؛ المُتوقّع من كرم عمّه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية
 يد كريمة لا يعتدل الزّمان إلا إذا حُلّت شمسها في بيت حمّله؛ توقّعاً لنسل لا يزال به
 شرف هذا البيت الكريم موجوداً، ونسب إذا عدّ ولدٌ منه الآباء عدّ جدّين سيّدين
 هذا مسعوداً وهذا محموداً؛ فلتقى قصده بأكرام بؤاه أكفاف الشّرف، وأوطاه
 فرش الكرامة ممّعاً بنعيم التّرف، أبتدعاً للكرم المألوف، وأتباعاً للسّنة الشّريفة
 إذ كان الأقربون أولى بالمعروف .

فبارياً جوداً سارع كلّ منهما في أداء حقّه إلى الواجب، وتجارياً إليه ليُلحقا
 شأواً أبيهما وكلّ منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب، وأتمّ الجناّب
 الشّرفي محمود - أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل عُصْبته، وأهل
 جنوده إلى أن ساروا إلى الهيجاء تحت عصابته - بأن فوّض هذا الأمر إلى أخيه
 الكبير والدّ الخاطب، وسكت وقال : هو في التّصرف وعنى المخاطب؛ وله الأمر
 ولولا الشّرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا : إلا أننا ملك يده، وإذا كان العمّ صنو
 الأب فأى فرق بين ولدي وولده؟، ولئن آخِصّ في نسبة هذه الزّوجة في يومه هذا
 فإن أولادها لا تُعرف إلا به في غده؛ فكلّ هذا العقد، وأشرق به السّعد الطّالع
 أضواً ممّا قدّم وأخر من النّقد؛ وكان من تمام التّكريم، أن قال قائله :

بسم الله الرحمن الرحيم



وهذه نسخةُ صداقِ القاضى تَقَى الدِّينَ ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَلِيَّةِ من كان تَقِيًّا ، وَجَمَعَ شَمْلَ من لم يَبْرَحْ لِسَنَ السُّنَنِ تَابِعًا وَبِهَا حَفِيًّا ؛ وَخَلَعَ أَثْوَابَ الثَّوَابِ عَلَى من سَرَّحَ طَرَفَ طَرَفِهِ فى رَوْضِ التَّاهُلِ وَجَعَلَهُ وَضِيًّا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِى مِنْ هَرَجٍ جَدُّعٍ نَحْلُهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ الَّذِى كَمْ أَجْرَى لِقَاصِدِهِ مِنْ بَحْرِ المعروفِ سَرِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمْنَحُ قَائِلَهَا فى غُرَفِ الْجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِى آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، الْأَمْرَ أَمَنَةً بِالنِّكَاحِ لِيُكَاثِرَ بِهِمُ الْأُمَمَ يَوْمَ يُقَرِّبُهُ اللَّهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ يُحَلُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِى الْكَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ وَلِيًّا ، مَا أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفَاقِ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْأَنْسَابِ الْكَرِيمَةِ كَوْنًا دُرِّيًّا ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى السُّنَنِ بِالِاتِّبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الَّتِى أَخْفَى نُورُ مُصْبِحِهَا شَمْسَ الصَّبَاحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَى مَعَالِمِهَا أَعْلَامُ النِّجَاةِ وَالنَّجَاحِ ، وَحَمِدَ الْمَسِيرَ إِلَى رُبُوعِهَا الْآهِلَةِ بِأَهْلَةِ الْعِصْمَةِ فى الْغُدُوِّ وَالرَّوْحِ ؛ يَالِهَا سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَجْهَهَا جَمِيلَةٌ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا بِلِ أَيْدِيهِ جَزِيلَةٌ ؛ بِهَا تُحْمَى أَشْجَارُ النَّسَبِ وَيَطْيَبُ جَنَاهَا ؛ وَتَبْلُغُ النُّفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ أَقْصَى مُنَاهَا ؛ وَيَظْفَرُ أَوَّلُو الرِّغْبَةِ فِىمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ؛ وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِى تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَالذَّرِيعَةُ إِلَى [بَقَاءِ] النَّوْعِ الَّذِى أَظْهَرَ اللَّهُ فى سَمَاءِ التَّكْرِيمِ نَجْمَهُ ؛ وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ فى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ .

ولما كان كذلك رَغِبَ في اقْتِنَاءِ آثارِها ، وَاهْتَدَى بالضوءِ اللامع من أَفْئادِها ؛ مَنْ
يتشرفُ المَكَانُ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا انْتَشَرَ فِي طَيْبِهِ من طِيبِ عَرْفِهِ ؛ مَا جَدُّ
عَمْرُ البِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ بِدَوَامِ دِيَمِهِ ، وَجَوَادُ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ من كَرَمِهِ ؛
وَرِئِيسُ أَمْتِطَى ذِرْوَةُ الْعُلِيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَارِيحِي لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أُبْرَزَ لَكَ الْجَوْهَرُ الْمَصُونُ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لُبْكَاءُ قَلَمِهِ تُغَوِّرُ
التُّغَوِّرُ وَالْحُصُونُ ؛ لِلَّهِ نَسَبُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكْبَارِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْنَهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ
الْمَرْفُوعُ خَبَرُهَا إِلَى فِتْيَانٍ ؛ نَحْطُبُ من عَلَا قَدْرُهَا ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عَنَّا أَنْ تَرَى الْعُيُونُ لَهَا فِي الصُّونِ شَيْبًا ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعُ سَحْبُ بَرَكَةِ أَبِيهَا ؛
أَكْرَمَ بِهِ عَلِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُنْدَى فَضْلًا وَيُسَدَّى نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ من آثَارٍ
مَشْهُورَةٍ ، وَمَنَاقِبَ مَأْثُورَةٍ ، وَصَدَقَاتٍ مَبْرُورَةٍ ، وَمَوَاطِنَ بِذِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورَةٍ .

فَقُوبِلَ بِالْبِشْرِ قَوْلُ رَسُولِهِ ، وَرَدَّ رَائِدُهُ مُحِبًّا بِلُؤْغِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْآمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْإِتِّفَاقِ أَهْجُمُ سَعُودِهِ ؛ وَمَا يَلَتْ قُدُودُ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَتْ مَجَالِسُ السُّرُورِ
بِالْإِنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَتْ قُبُولُ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطُّرُسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق



وهذه نسخةٌ صدَّقَ من إنشاءِ الشيخِ صلاحِ الدينِ الصَّفَدِيِّ ، لِلْقَاضِي بَدْرِ الدِّينِ
خَطِيبِ بَيْتِ الْآثَارِ ، عَلَى بَيْتِ شَمْسِ الدِّينِ الْخَطِيبِ مِنْ بَيْتِ الْآثَارِ ، تُسَمَّى
سُؤْلِي ، فِي مُسْتَهْلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي مَجْلِسِ مَوْلَانَا
قَاضِي الْقَضَاةِ تَقِيِّ الدِّينِ السُّبُكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زينَ سماءَ المعالي ببدرها ، وأثبتَ في رياضِ السَّعادةِ يانعَ زهرها ،
وألهمَ ذوي الهمم أن يبذلوا في الكرامِ غوالي مَهْرها .

نحمدُه على نِعَمِهِ التي حَلَّتْ ما ضفا من لِبَاسِها ، وسَوَّغَتْ ما صفا من رُضابِ
كَاسِها ، وَخَصَّنَا بِمَا عَمَّتْ به من أنواعِ أَجْناسِها ؛ وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده
لا شريكَ له ، أَعْلَمُنَا في الإيمانِ نَصْها بالأداء ، وَبَنَى أَسْمَها على الفتحِ كما فُتِحَ
المُضَافُ في النداء ، وَرَفَعَ خَبَرها : إِمَّا على رَأْيِ الرِّوَاةِ للشُّهْرَةِ وإِما على رَأْيِ النُّحَاةِ
بِالْأَبْتِداء ؛ ونشهدُ أن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذي شَرَعَ النِّكَاحَ لهذه الأُمَّة ،
وَمَنَعَ السِّفَاحَ فلم يكنْ أَمْرُنَا عَلَيْنَا عُمَّةً ، وَنَهَجَ الصَّوَابَ فإِذَا ظَنُّكَ بالصَّبَاحِ إِذَا أَبْتَلَجَ
عَقِيبَ اللَّيْلِ الْمُدْهِمَةِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَلَقَّوْا أَوَامِرَهُ بالطاعة ،
وَأَجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ حَتَّى بَلَّغُوا جُهْدَ الاسْتِطَاعَةِ ، وَفَهِمُوا مُرَادَهُ بِمُكَاتَرَةِ الْأُمِّ فَكَانَ
الْبِضَاعُ عِنْدَهُمْ خَيْرَ بِضَاعِهِ ؛ صَلَاةَ رِضْوَانِها يُضِيءُ إِضَاءَةَ الْكَوَاكِبِ فِي أَبْرَاجِها ،
وَعَفْرَانِها يُكَاتِرُ الْبِحَارَ فِي أَعْدَادِ مَوْجِها ؛ ما أَتَّصَلَ سَبَبٌ بِالنِّكَاحِ ، وَأَنْفَصَلَ نَسَبٌ
بِالسِّفَاحِ ؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعدُ ، فإنَّ النِّكَاحَ من مَحَاسِنِ هذا الدِّينِ الْقَيِّمِ ، وَفَضَائِلِ هذا الشَّرْعِ الذي
لا زالَ شَرْفُهُ بَدْرًا بينَ مُشْرِقاتِ النُّجُومِ وهو مُحِيْمٌ ؛ به يُحْفَظُ النِّسَبُ الشَّرُودُ ، وَيُرْعَى
عَهْدُ الْقَرِينَةِ الْوُلُودِ الْوُدُودِ .

وكانَ فُلَانٌ مِمَّنْ أَشْبَهَ أَباهُ ، وَأَيِّنَ ما أَوْدَعَهُ من نَفَائِسِ الْعُلُومِ وَحَبَاهُ ؛ تَصَدَّرَ
في المَجَالِسِ ، وَدَرَسَ في المَدَارِسِ ، وَأَوْرَدَ ما عِنْدَهُ من النِّفَائِسِ ؛ كَيْفَ لا ؟ وهو
سَبِطُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ وإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَاضِي قُضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ وَأَوْحِدُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛
وقد أَرَادَ الآنَ إِحْصَانَ فَرْجِهِ ، وَأَنْ تَنْزِلَ الزَّهْرَةُ مَعَ بَدْرِهِ في بُرْجِهِ .

فلذلك رَغِبَ إلى المَجْلِسِ العَالِي (المسمى) وَخَطَبَ الجُلهَةَ المَصُونَةَ المَحَجَّبةَ ،
النَّقيَّةَ ، النَّقيَّةَ ، العَفِيفَةَ ، الخَاتُونَ ، غُصْنَ الإسلام ، شَرَفَ الخَوَاتِينَ ، جَمَالَ ذَوَاتِ
السُّتُور ، قُرَّةَ عَيْنِ المُلُوكِ والسُّلاطِينَ ، السَّيِّدَةَ "سُؤلى" بِنْتَ فُلَان ، صَانِ الله
حِجَابَهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصْدِهِ ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ دُرَّةٍ فِي عِقْدِهِ .

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكَرِيم ، والنَّجْمُ الذِّى لم يَزَلْ نَجْمَهُ بِالطَّالِعِ المُسْتَقِيم ،
وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم



قلتُ : وهذه نسخةُ صَدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةِ السَّيْفِيّ أَزْدَمَر ، عَلَى بِنْتَ أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ «المُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ» . أَنشَأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا المُسْتَعِينِ بِاللَّهِ العَبَّاسِيّ ، وَهِيَ :
الحَمْدُ لِلَّهِ مُسْتَخْرِجِ الدَّوْحَةِ الهَاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ العَنَاصِرِ ، وَمُفَرِّجِ النَّبْعَةِ العَبَّاسِيَّةِ
مَنْ أَكْرَمَ صِنُوءَ أَنْعَقَدَتْ عَلَى فَضْلِهِ الخَنَاصِرِ ، وَمُخَصِّصِ بَيْتِ الخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبٍ ذَلَّتْ لِعِزِّهِ عُظْمَاءُ المُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمٍ وَمُعَاصِرٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الخُلَفَاءِ بِمَعَاوِلِ الحَسَبِ ، وَحَصَرَ كَفَائَتَهَا فِي العِلْمِ والدِّينِ
حَيْثُ لم يُكَافَأَ بِحِرْفَةٍ وَلَا نَسَبٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الذِّى
سَنَّ النِّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْغَمَ بِالْحِلِّ أَنْفَ الْغَيْرَةِ لَدَى الْإِبَاءِ وَقَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَشَقُّ
مِنْ رِيَاءٍ عَمِيرِهَا كُلِّ شَيْءٍ أَرِيحُ ، وَتُجْتَنَى ثِمَارُ نَيْعِهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِهَيْجٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَفُرَى الْفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَاهَمْ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ رَخَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ صَحَابِهِ وَإِلَّا فَايَنْ كُفَّ رَسُولُ اللَّهِ
مِنْ الْعَالَمِ ؟ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصَّنْوَ

بالتَّسَبُّبِ فِيهِمْ نَخْصُ مُصَاهَرَتِهِ أَخْصَهُمْ بِهِ ؛ صَلَاةً تَصِلُ سَبَبَ قَائِلِهَا بِسَبَبِهِ ،
وتَجْعَلُ الْفَخَارَ بِهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَا أَطَالَ فِيهِ الْمَطِيلُ ، وَتُحِذَ فِي وَصْفِهِ الذَّهْنُ الْكَثِيلُ ، وَرُقِيتْ
مَحَاسِنُ ذِكْرِهِ عَلَى صَفْحَةِ النَّهَارِ بِذَائِبِ ذَهَبِ الْأَصِيلِ - مَا تَوَاصَلَتْ بِهِ الْأَنْسَابُ ،
وَتَوَصَّلَ بِوَاسِطَتِهِ فِي دَرَارِيِّ الذَّرَارِيِّ إِلَى شَرَفِ الْأَحْسَابِ ؛ وَتَوَفَّرَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاعِي
فَأَشْتَدَّتْ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَحَسُنَتْ فِي طَرِيقِ قَصْدِهِ الْمَسَاعِي فَتَأَكَّدَتْ بِهِ الْمَوَدَّةُ
فِي الْبَوَاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ . وَهُوَ النَّكَاحُ الَّذِي نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُعَاطَاتِهِ ، وَحَضَّ
عَلَى التَّحَلُّ بِجَمَلِهِ حَتَّى أَلْحَقَهُ بِالْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ ؛ طَلَبًا لِلتَّحْصِينِ الْكَافِلِ بِسُلُوكِ
نَهْجِ الْأَسْتِقَامَةِ ، وَرَغْبَةً فِي تَكْثِيرِ النَّسْلِ الْوَاقِعِ [بِهِ] مُكَاتَرَةً الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هَذَا وَكَرَائِمُ بَيْتِ الْخِلَافَةِ ، وَرَبَائِثُ مَحْنِدِ الْمَحْنِدِ وَالْإِنَافَةِ ؛ فِي حَيِّزٍ لَوْ طَلَبَ مُنَاوِ
مُكَافَأَتِهَا لَطَلَبَ مُعْوزًا ، أَوْ رَامَ مُقَاوِمَ مُضَاهَاةِهَا فِي عُلوِّ الرُّتَبَةِ لَرَامَ مُعْجِزًا ؛ لِمَا
أَخْتَصَّتْ بِهِ مِنَ السِّيَادَةِ الَّتِي لَا يُرْقَى إِلَى مِثْرَتِهَا ، وَالْمَعَالِي الَّتِي لَا تَسْمُو النَّفُوسُ
وَأِنْ شَمَخَتْ إِلَى رُتَبَتِهَا ؛ إِذْ كَانَ النَّظِيرُ لَشَرَفِ أَرْوَمَتِهَا مُثْمِنًا ، وَالنَّقِیْضُ بِمَا ثَبَتَ مِنْ
طِيبِ جُرُثُومَتِهَا مُرْتَفِعًا ؛ فَبَرَّقَ مَعَالِيهَا فِي التَّطَاوُلِ لَا يُسَامُ ، وَجَوْهَرُ نَخَارِهَا فِي الْمَآثِرِ
لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ ؛ فَغَزَّ بِذَلِكَ فِي الْوُجُودِ مُكَافِئًا ، وَأَمْتَنَعَ - خَوْفُ الْمُجْرِمِ بِالْأَخْطَابِ -
مُؤَافِئًا ؛ إِلَّا أَنْ الْمَوَاقِفَ الشَّرِيفَةَ الْمُقَدَّسَةَ الْمُتَوَكِّلَةَ - زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرَفِهَا ،
وَأَدَامَ رِعَايَتَهَا بِحُلَّةِ الْمُلُوكِ وَحِمَايَتَهَا وَكَفَيْهَا - مَعَ مَا أَنْفَرَدَتْ بِهِ مِنَ الْعِزِّ الشَّائِعِ الَّذِي
لَا يُسَاوَى ، وَالشَّرَفِ الْبَازِخِ الَّذِي لَا يُتَاوَى ؛ قَدْ رَغِبَ تَفَضُّلُهَا فِي أَهْلِ الْفَضْلِ فَهَالِ
إِلَيْهِمْ ، وَأَخْتَصَّ بِأَقْبَالِهِ أَهْلَ الدِّينِ فَأَقْبَلَ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِمْ ؛ مُحِلًّا لَهُمْ مِنْ شَرِيفِ مَقَامِهِ
الْعَلِيِّ مَحَلَّ الْأَصْطِفَاءِ ، وَمُقَدِّمًا لَهُمْ فِي الْمُصَاهَرَةِ عَلَى أُنْسَاءِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ ؛ فَوَافَقَ

فِي الْفَضْلِ شَنْ طَبَقَهُ ، وَحَاوَلَ سَارَةَ النَّعْمِ مِنْهَا خَيْرُ خَاطِبٍ فَلَقِيَ بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ
تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقَةٍ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أُنْتَدِرَ الْقَلَمُ مِنْبَرِ الطَّرْسِ نَحْطَبُ ، وَخَطَبَ بِالْحَمْدِ
لِسَانُهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرُ ، الْكَبِيرُ ،
الشَّيْخُ ، الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْعَايِدُ ، الْخَاشِعُ ، النَّاسِكُ ، الْبَلِيغُ ،
الْمُفَوِّهُ ، الصَّدْرُ ، الرَّئِيسُ ، الْأَصِيلُ ، الْعَرِيقُ ، الرَّزِيُّ ، أَبُو الْمَعَالَى صَدَقَةُ -
الْجِهَةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ ، الْكُبْرَى ، الْمَعْظَمَةُ ، الْمُحَجَّجَةُ ، الْمُصُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرْعُ
الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحَجَّجَاتِ ، سَارَةُ ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا
وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ، السَّيِّدِي ، الْإِمَامِي ، النَّبَوِي ،
الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، ابْنُ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ،
الْإِمَامِي ، الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" بَنُ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْنَى بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ
سُلَيْمَانٌ" ابْنُ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذَاخَا ، وَعِزُّ نَيْبُهُ
الشَّرِيفُ شَاخَا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنْقِبَةٍ نَاسِخَا - صَدَاقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا ،
زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقَبْلَهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةً
شُرُوطُهُ وَلَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةً عَوْدُهُ وَنَمَائِمُهُ ، مَيْمُونَةً فَوَاتِحُهُ وَخَوَاتِمُهُ ، مُفْتَتَحَةً بِطِيبِ
الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةً عَنْ [نَوْرِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَامِلَةً .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المستجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك . وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في قرحة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية ، بين كل سطرين نحو أصبع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نجر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكامل ، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلاً من الله ونعمة .

وَسُخِّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مَقْدَارًا ، وَأَجَزَلَ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَقَّفَ
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ آقَدَى بِهِمْ إِيْرَادًا ، وَإِصْدَارًا ، أَثَرَعَتْ هِمَمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَابَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَفَاخِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ،
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَفَاخِرِ أَقْفَارًا ، وَأَزَالَ بِضْيَاءَ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ
الْجَهْلَالَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجَبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْصَصَهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهَيْكَ بِهَا نَخَارًا .

أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ مِنْ هُدَى إِلَى الْحَقِّ بِفَعْلِهِ شِعَارًا ، وَاسْتِضَاءَ بِنُورِ الْهُدَى فَلَجًّا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَفْقَارًا ، وَعَجَزَ عَنْ شُكْرٍ مَا أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِمَا تَوَالَى
عَلَيْهِ وَبَلَّغَا مِذْرَابًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عُبِدَتْ جِهَارًا ، وَالْكُفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِجَارًا ، فَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتِصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ اغْتِرَارًا ،
وَأَتَمَدَ بِضْيَاءُ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَوةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِئْصَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ ثِقَلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّؤُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَضَعَ لِدَوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَّ عِنْدَ ذَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ،
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوَى الْقُلُوبِ السَّالِمَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، أَنْ مِثْلَ عِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ، وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْحَمْدِيَّةِ ، الَّتِي مِنْ عَلِمِهَا وَعَمَلِهَا
وَعِلْمُهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ ، إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِخَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرْعِيَّةٍ سِوَاهَا دَاوِرَةٌ ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمِنَّةَ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ ﴾ . فَتَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّصَهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ۖ ﴾ . فَتَنَى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكُونِهِمْ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۖ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّصَهُمْ بِأَنَّهُمُ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتَقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ “ . وَقَالَ أَيْضًا : ” مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ “ . وَقَالَ أَيْضًا : ” أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَاعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالَمٌ وَمُتَعَلِّمٌ “ .

وَلِمَا كَانَ فَلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْدِيدَهُ وَتَوْفِيقَهُ ، وَيَسَّرَ إِلَى الْخَيْرَاتِ طَرِيقَهُ - مِّنْ شَبِّ وَنَسَاءٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الْحَلِيلَةِ ؛ وَصَحَّبَ السَّادَةَ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْقَادَةَ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْفُضَّلَاءِ ؛ وَأَشْتَغَلَ عَلَيْهِمُ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ أَشْتَغَالًا يُرِضِي ، وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - يُفْضِي -

أَسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدُنَا وَشَيْخُنَا وَبَرَكَتُنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامُ ، الْحَبْرُ الْفَهَّامُ ؛ فَرِيدُ دَهْرِهِ ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ ، جَمَالُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْفُضَّلَاءِ ، عُمْدَةُ الْفُقَهَاءِ وَالصُّلَحَاءِ ؛ سَرَاجُ الدِّينِ ، مُقْنَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ أَبُو حَقِيقِصْ عَمْرُ

أَبْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْأَوْحَدُ ، الْكَامِلُ ، الْقُدْوَةُ ، الْمَرْحُومُ نُورُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ ، أَبْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وببركته، وأشركا والمسلمين في صالح أديته،
بمحمد وآله وصحبه وعترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي، الشافعي،
رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبه، حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأي شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظا، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه : لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفته ودرايته، وأهليته لذلك وكفايته .

فلتلق أيد الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليرق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيفة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدنى من الإحسان الوافر إليه،
وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبيديه في الورود والصدور، ولا يستكف
أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم : فذاك قول سعد قائله . وقد جاء : "جنة العالم لا أدري
فإن أخطأها أصيبت مقائلته" فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق، ويهديننا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرت كل خير بسببه ، بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ولور ضريحه ، والإفتاء به لفظاً وخطاً صحيح . فإنه من فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد أعتنى وفقه الله تعالى وإيأى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي نعمة الله تعالى بقرانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال بديع فصاحته جملة مدلهمة ، وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاريه ما يقف عنده البارع الأريب .

فليتق الله حينئذ فيما يديه ، وليتجر الصواب في لفظه وخطه وإيراق الله فيه ، فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخلل ، وليستحضر ما اشتكت عليه من الجلالة ، فإن الله تعالى تولاها بنفسه حيث قال : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجرت له مع ذلك أن يروى عنى مالى من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكمالها ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى" . ومنها "البدر المنير" ، فى تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى الشرح الكبير" للإمام أبى القاسم الرافعى . وبه تكملى معرفة الفقيه ويصير محدثاً فقيهاً .

وأجرت له مع ذلك ما جازى وعن رايته بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيأى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخارى" و "مسلم" و "أبو داود" و "الترمذى" و "النسائى" و "أبن ماجه" . والمسائيد : "مسند أحمد" و "مسند الشافعى" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : « الفقير إلى الله
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العامل ، الأوحَد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علم
المفידين ، رحلة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان » (بحسب رتب
آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد
أن يذكر ألقاب نفسه في مُصَنَّف له ، لأنه يصير كأنه أتى على نفسه .

وأما الإجازة بعِراضِة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ
العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،
يستقرئها إياها من أي مكان أتفق ، فإن مضى فيها من غير توقُّف ولا تلَّغُم ، استدلَّ
بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كلُّ من عرض
عليه ، في ورقٍ مربعٍ صغيرٍ ، يأتي كلُّ منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عالٍ ، ومن هابط . وربما
خفف بعضهم فكتب : « وكذلك عرض على فلان » ، أو : « عرض على وكتبه
فلان » . إما رياسةً وتأبياً عن شغل فكره وكَدِّ نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزاً عن
مُضَاهَاة من يكتب معه .

وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .
فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، وحجة الأدب ، بدر
الدين محمد بن أبي بكر الخزومي المالكي ، للنَّجَلِ النبيل الذي تنتهي الألقاب ولا نهاية

لمناقبه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكل شبا الألسن عن حداثها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو عمدة في النجاة يوم العرض ونأهيك بها عمده، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروى حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجواهر و"شذور الذهب"، وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعربوا عن طرق الهداية، ما أنهل من أفق الكرم المحمدي كل عارض صيب، وتحتل الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب - فقد عرض على الجناب العالي البارعي، الأوحدي، الأملعي، اللودعي، الشهابي، شهاب الدين، نخبه النجباء، أوجد الألباء، تجل السادة العظماء، سلالة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالي، المولوي، العالمي، الفاضلي، البليغي، المفيد، الفريدي، المفوهي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة متفرقة من "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضا قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لأمة حرب الفئة الباغية عليه فأحسن عند العرض في سردها، وزين أبقاه الله تلك الأما كن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وأذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتائب قد حصلت يجمعوها في خزنة حفظه .

فَبَدَا هُوَ مِنْ حَافِظِ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَلِيًّا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا اقْتَضَى
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فَلِلَّهِ دَرَهُ مُقَدِّمًا وَتَالِيًا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَعْدَلِ طَرِيقٍ
وَنَاهَيْكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَانَ مَنَظِقَهُ عَنْ خَالِ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ ”الْمُقَدِّمَةُ الشَّمْسِيَّةُ“ ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانَهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْضِيلِ
فِي حَلَةِ السَّبَاقِ ، وَطَائِقَ بَيْنِ رَفْعِ شَأْنِهِ وَخَفْضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَاشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعْ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الْإشْتَغَالِ ، وَنَصَبَ فِكْرَهُ لِحَصِيلِ الْعِلْمِ فَتَعَيَّنَ تَمِيْزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّدَتْ نَارُ ذَهْنِهِ
فَتَلَطَّطَ حَاسِدُهُ بِالْإِلْتِهَابِ ، وَرُوِيَ أَحَادِيثُهُ بِاللُّغَةِ فِي الْعُلُوِّ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدَعُ
إِذَا رُوِيَ أَحَادِيثُ الشُّهَابِ ؛ وَافْتَخَرَ مِنْ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي أَرْتَفَعَ فِي دِيْوَانِ
الْإِنْشَاءِ خَبْرَهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْفِيقِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُحَرِّره وَيُجَبِّره ؛ وَوَشَّى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضٌ قَدْ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِهِ ، وَنَحَاها بِإِنْشَائِهِ الَّذِي هُوَ عُمْدَةُ الْمُتَأْدِبِينَ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفْعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَدْيَانَهُ تَقَائِسَ الدَّرَرِ فَقَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ ”صَوَاحُ الْجَوْهَرِي“ ،
وَفَتَحَ بِحَيْشِ بَلَاغَتِهِ مَعَاقِلَ الْمَعَانِي الْمُتَمَنِّعَةِ وَحَسَبَكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِي :

بَيَانُهُ السَّحَرُ قَدْ أَخْفَى مَعَاقِدَهُ * لَكِنْ أَرَانَا لِسِرِّ الْفَضْلِ إِنْشَاءَ
إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحِ مَنَظِقَتَهُ * نَظْمًا وَيُطْرَبُنَا بِالنَّثْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَمَّدٌ ، وَيُقَرِّعُنِي بِهِذَا الْوَلَا
التَّجِيبُ حَتَّى لَا يَبْرَحَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللَّهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ ، لَوْلَدِي تَجَمُّ الدِّينِ
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ ”الْمِنْهَاجُ“ فِي الْفِقْهِ لِلنَّوَوِيِّ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ
وَمِائَةِ ثَمَانٍ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذي أَوْضَحَ بَنجَمَ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفَقْهِ وَأَنَارَهُ ، وَأَقْضَحَ لِسَانَهُ بِكُتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَارَهُ ، فَسَطَوَتْ أَنْوَارُ شَهَابِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَنَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنَازِلَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى أَسِيدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْصُوصِ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ الْهُدَى ، وَشَهَبِ النَّاسِ وَالْأَقْيَدِ .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ تَجَلُّ الْأَفْضَلِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَانِلِ ؛ ذُو الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الدَّيْكِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّيْكِ ؛ نَجْمُ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ : نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِدِهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ "الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأْلِيفَ الْخَيْرِ الْعَالِمَةِ وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرَفٍ بْنِ مَرِي النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا فَحَّحَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِحَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .



وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كَذَلِكَ عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بَاطِنَهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهْدَبًا مُجَادًّا مُتَقْنًا ؛ عَرَضَ مِنْ أَتَقِنَ حِفْظُهُ ، وَزَيْنَ يُحْسِنُ الْأَدَاءَ لَفْظُهُ ، وَأُجْزَلَ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَاءِ حَظُّهُ ؛ مَرَّةً فِيهِ مُرُورُ الْهِمَالِجِ الْوَسَّاعِ ، فِي فَيْسِيحِ ذِي السَّبَّاحِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُفُورِ أَرْيَحِيَّتِهِ ، وَتَوَقُّدِ فِكْرِهِ ، وَأَتَقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقٌ :

سَيِّمَةُ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنَّ الْخَلَائِقَ - فَاعْلَمْ - شَرَّهَا الْبِدْعُ !

وقد أذنت له أن يروى عني الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعني روايته من مصنفاتي وغيرها من منظوم ومنثور، ومنقول ومعقول ومأثور؛ بشرطه المعتمد، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن أسماه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان: وقد عرض عليّ «الأربعين حديثاً» للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، و«الورقات» في الأصول لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية» في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيّان دقّة واحدة، وهو لدون عشرين سنين، وهو:

الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجاة شمساً، وأظهر من أفاضل الذراري ما يغض به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجاة فطاب جني وأعرق أصلاً وزكا غرساً؛ وأبرز من ذوي الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريّة في لمحّه، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأسمى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، وخرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة أسميه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخص بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهي فاسمى به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب؛ وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرض عليّ فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمز فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا بكا^(١) .

وأما الإجازة بالمرويات على الاستدعآت : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنعم على الأديب بذوق أتى في نظمه ونثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سائمة لم يكن على حجاجه حجاب .

نحمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حسن الصياغة ، وصيد أواميد المعاني التي من أعمل فكره في اقتناصها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائيلها يوم يضيق على الخلائق فسيح عراصها ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سننه وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أدخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامة الغفران ، نامية الرضوان ؛ ما أجاب محبوب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحفُّق لهم ذوائب الطروس وتلتصّب رماح الأفلام ؛ ولم تزل رغبة السلف تتوقر عليه ، وتشير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الجبار يتحلون إلى أفاصي

الأقاليم في طلبه، ويتحملون المشاق والمتاعب فيه ويتجملون بسببه؛ فقد أرتحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحق بالفضل عليه قن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكاديه؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حَدَّثَنَا فُلَانٌ أَوْ أَشَدُّنَا فُلَانٌ لِنَفْسِهِ، ولكن:

مَأْكُلٌ مِنْ طَلَبِ الْمَعَالِي نَافِذًا * فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ خُؤُلَا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ ممن نظم فودت الدرر في أفلاكه لو آسقت، وكتب فرقم الطروس وشاها، وغشاها من زهرات الرياض ماغشاها؛ وحل المترجم فسحر عقل كل لبيب وخاب لبه، ووقع على القصد فيه فكانت شئ من الغيب خص الله به قلبه، وأتى فيه بدائع ما تساوى ابن الصيرفي ولا ابن (١) عندها بحبه؛ وخطب فصّدع القلوب، وأجرى ذنوب المدامع من أهل الذنوب، وحذر فكانت أسجاعه كالحنان إسحق وسامعه يبكي بأجفان يعقوب؛ كأنما هو في حلة الخطابة بدر في غمامه، أو منبره غصن وهو فوقه حمامه، أو بحر وفضائله مثل أمواجه ودره يحكي كلامه؛ لو رآه "ابن نبأته"، ما أورت بالفصاحة أعواده، أو "ابن المنير" مارقت بالبلاغة أبراده، أو "ابن تيمية" ما حظيت بالحدود أجداه؛ فأراد أن يشرف قدرى، ويعرف نكرى؛ فطلب الإجازة مني وأنا أحق بالأخذ عنه، وأستدعي ذلك مني: ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

(١) بياض بالأصول ولعله: ولا ابن نبأته.

فَنَعَمْ قَدْ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ * يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :
لَمَنْ مَلَكَ الْفَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّائِغُ عَلَى اسْتِدْعَائِهِ
لِبَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّ مَنْ اسْتَجَدَى كَرَمَهُ ، وَلَا يُحِبُّ مَنْ اسْتَدْعَى
نِعَمَهُ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدَمِهِ : (١)

أَثَرْتُ الْجَوَى بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَابِي * وَعَظُمْتَ خَطِيئِي إِذْ قَصَدْتَ خَطَايِي :
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُحِبُّ وَمَنْ أَنَا ! * أُحِيزُ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابٍ !
عَجِيبٌ لَطْلَابٍ لَدَيْنَا تَخَلَّفُوا * وَكَمْ قَدْ أَتَانَا دَهْرُنَا بِعُجَابٍ !
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوحَةِ أَمْرٌ نَائٍ * عَرَبِنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابٍ (٢)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بِضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُرْجَاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مُرْجَاهُ ، وَتَسْلِيمَ أَخْبَارِهِ
عَلِيلٌ ، وَادَّبَ إِخْبَارَهُ قَلِيلٌ ؛ وَتَصَانِيفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَآمَالِي فِي تَبْيِضِهَا
لِقِصْرِ الْجَمِيمِ مَمْتَدَةٌ ؛ سَأَلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنْ أُعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
لَا أَعْرِفُ لَصَقِلِ الْأُذْهَانُ حَدَّهَا ؛ وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أَنْحَرٍ ، وَمَقَاطِيعِ إِنْ لَمْ
تَكُنْ كَالزُّهْرِ فَهِيَ كَالزُّهْرِ ؛ ثُمَّ عَدَّدْتُ نِيفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "مَجْمَعُ الْفَرَائِدِ"
فِي سِتِّ عَشْرَةِ مَجْلَدَةٍ . ثُمَّ أَنْشُدُ فِي أَنْحَرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشَفِ الظُّلُونِ : تِسْعَةُ عَشَرَ مَجْلَدًا .

وَلَقَدْ شَرَفْتَ قَدْرِي * بِنَفْسٍ مِنْ هَدَايَا :
 بِنِظَامِ شَنْفِ السَّمْعِ * يَدْرُ كَالثَّنَايَا .
 فَارْوِمْنِي وَأَرْوِعْنِي * وَأَغْنِ عَنْ شِدِّ الْمَطَايَا ،
 وَأَنْتَقِ الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، * وَأَحْظِ مِنِّي بِمَرَايَا ،
 وَتَحَرَّ الصَّدَقِ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!
 أَجَزْتُ لَكَ أَنْ تَرَوِيَ هَذِهِ وَغَيْرَهَا عَنِّي ، وَلَكَ الْفَضْلُ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .

الصنف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنّفات المصنّفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنٍّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتي كلٌّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة ، وهي :

وَقَفْتُ عَلَى هَذَا التَّصْنِيفِ الَّذِي وَضَعَهُ هَذَا الْعَلَامَةُ ، وَنَشَرَهُ فِي الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَعْلَامُهُ ، وَأَصْبَحَ وَنَسَبَتْهُ إِلَيْهِ أَشْهُرُ عِلْمٍ وَأَبْهَرُ عِلَامَةٍ ، فَأَقْسِمُ مَا سَامَ الرُّوضِ حَدَائِقَهُ ، وَلَا شَامَ أَبُو شَامَةَ بَوَارِقَهُ ، كُلُّ الْأُئِمَّةِ تَعْتَرِفُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، وَكُلُّ التَّصَانِيفِ تَقُولُ أَمَامَهُ : بِسْمِ اللَّهِ ؛ كَمْ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ لَا يُعَارِضُ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكِلُ عَنْهَا الْخَصْمُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَلَى حَكِّ النَّقْدِ يُعْرِضُهُ ؛ قَدْ أُيِّدَ مَا ادَّعَاهُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ ، وَنَقَلَ مَذْهَبَ كُلِّ إِمَامٍ سَبَقَ وَمَا عَثَرَ ؛ لَقَدْ سُرَّ الشَّافِعِيُّ بِبَصِّ

قوله الذى هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مذهبه ؛ وأتى فيه بِنَكْتِ تطرب من
أسرار الحَرْف ، وفوائد عُرِف بها ما بين ابن الدّرهم وبين البونى من البون
فى تفاوت الصّرف :

أَكْرَمَ بِهِ مُصَنَّفًا * فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْمَعْنَى الْمُنِيرِ أَقْمَرًا !
كَمْ فِيهِ بُرْدُ حُجَّةٍ * قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا ،
وَكَمْ دَلِيلُ سَيْفِهِ * إِذَا أَلْتَقَى خَصْمًا فَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ * مُحَالَفٌ قَطُّ يَرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المقرّ الشّهابى بن فضّل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ
غرس الدين خليل الصّفيّ المعروف بالصّلاح الصّفيّ ، مدح بها الأمير سيف
الدين ألباى الدّوادار النّاصرى ، فى شهور سنة تسع وعشرين وسبعائة ، وهى :

وَقَفْتُ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي أَشْرَقَتْ مَعَانِيهَا فَكَادَتْ تُرَى ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَائِمُهَا
فَاسْتَمْسَكَ بِهَا الْأَدَبُ لَمَّا كَانَتْ الْمِيَاهُ فِيهَا كَالْعُرَى ؛ فَوَجَدْتُهَا مُشْتَمِلَةً مِنَ الْبَلَاغَةِ
بَوَازِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ، لِطِيفَةِ لَا تُقَاسُ بِأَمْثَالِهَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُرَكَّبِ لِأَنَّهَا مِنَ الْبَسِيطِ ؛
فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا مُكْتَسِبًا مِنْ بَيَانِهَا سَحَرَ الْحَدَقِ ، مُتَعَجِّبًا مِنْ مُنْشِئِهَا لَغَرَسٍ يُسْرِعُ
الْإِمَارَ فِي الْوَرَقِ ؛ ثُمَّ فَطِنْتُ إِلَى أَنَّ الْمَدُوحَ بِهَا أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى سَحَّتْ دِيَمُهُ فَرَوَّضَتْ
الطُّرُوسَ ، وَبَرَّحَتْ مَنَاقِبُهُ بِمَا كَانَ مَصُونًا فِي أَخْبِيَةِ النُّفُوسِ ؛ وَقَدْ اسْتَوْجِبَ هَذَا
الْمَادِحُ عَطْفَ اللَّهِ تَعَالَى قَلْبَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاحِيهِ حَظًّا جَزِيلًا ، وَحُبًّا يَقُولُ بِهِ لِمَنْ قَصِدَ
الْمَسَاوَاةَ بِهِ : لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا :

مَدَّبَ الْمُلْكُ لَهُ * عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قصيدة نظمها شرفُ الدين عيسى بن حجاج الشاعر المعروف بالعالية ، مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وضمها أنواع البديع ، ضاهى بها بديعة الصفي الحلبي ، في شهور سنة آتنتين وتسعين وسبعائة ، ما صورته :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ سحر البيان ، وأقدر أهل البلاغة من بديع التخيُّل على ما يشهد بصحته العيان ؛ ودلَّ برائض أفكارهم صعب الألفاظ فامتطوا من مُتون أحاسنها الحيات ، وأوضح لهم طرق الفصاحة فغدَّت لديهم - بحمد الله تعالى - سهلة القياد ؛ وأحيى ميت الأدب بروح الأنفاس العيسوية وعمر بأنسها ربوعه الخالية ، وحى نفس الفضل في رُقعة المساجلة أن تصل إليها فرازة الدعاوى ولا غرو أن حماها العاليه ؛ والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد ، وأوتي جوامع الكلم فلن تحضر معاني كلامه الأعداد - فإني وقفتُ على البديعة البديعة التي نظمها الفاضل الأرفع ، واللودعي المصقع ؛ أديب الزمان ، وشاعر الآوان ؛ شرف الدين أبو الروح عيسى العالية - أعلى الله تعالى منار أدبه ورفعه على منأويه ، وبلغ به من قصب السبق ما يمتنع أن يراه على البعد مضاهيه - فأنفيتها الدرّة الثينة غير أنها لا تُسام ، والخريدة المخدرة إلا أنها لا يليق بها الاحتشام :

تروم احتشاماً سترلاً لآء وجهها ! * ومن ذا لذات الحسن يخفى ويسر ؟ !

قد اتخذت من الاحتشام معقلاً وحصناً لا يغشى ، وانتبذت من حسادها مكاناً قصياً فلا تخاف دركاً ولا تحشى :

وَلَمْ أَدِرْ - وَالْأَنْفَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُو أَمْ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِي ؟ !
أَرَادَ الْمُدَّعَى بِلَوْغِ شَأْنِهَا الْجَرَى فِي مِضَارِهَا فَقِيلَ : كَلَّا ، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضْلَ مِنْهَا عِنَادًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٍ ! * وَبَيَّانُهَا أَحْلَى الْبَيَّانِ وَأَمَثَلُ !
فَأَهَسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ بِلَاغَتِهَا : « فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاضِعِينَ » :

كَمْ جَدَلَتْ يَوْمَ الْوَعْيِ مِنْ جَنَدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَمَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا !
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ ، وَتَذِلُّ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَهِيَ
الْيَتِيمَةُ الَّتِي أُعْظِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْفَرِيدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عَلَيَّ ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا ؟ * وَمَحَلَّهَا مِنْهُ الثَّرِيَّا أَقْرَبُ !
وَأَنَّى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَامِهَا ،
وَأَحْدَقَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا ، وَأَقْتَطَفَتْ مِنْ أَفْنَانِ الْفُنُونِ ثَمَارَ مَعَانٍ تَلَذُّ
لِنَظَرِهَا وَتَحْلُو لَذَائِقِهَا ؟ :

وَلَا تُعْرِغْ غَيْرَهَا سَمْعًا وَلَا نَظْرًا * فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ !
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً ، وَشَرَفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَأَصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتْ الدَّرَّ حَقُّ مَالِهِ تَمَنُّ ، * وَأَرْخَصَتْ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْخُطْبَا !
لَا جَرَمَ أَضْحَتْ أُمُّ الْقَصَائِدِ وَكَعْبَةُ الْقُصَادِ ، وَمَحَطَّ الرَّحَالِ وَمَنْهَلُ الْوُرَادِ ، فَأَرَبَتْ
فِي الشُّمْرَةِ عَلَى " الْمَثَلِ السَّائِرِ " ، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَزَالَةَ الْهَادِي وَسُهُولَةَ الْخَاضِرِ :

فَلَا فَاِضْلٍ فِي عَلَيَّهَا سَمَرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلِيَاءِ أَسْمَارُ !
فَأَعْجَبَ بِهَا مِنْ بَادِرَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادِّينِ سَمَرٍ وَسَمَرٍ ، وَقَرَنْتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهْرٍ
وَزَهْرٍ ، وَجَادَتْ بِمُسْتَرْهِينِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ ؛ وَتَفَنَّنْتَ فِي أُسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ ،
وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ ؛ وَدَعَتْ فُرْسَانَ الْعَرِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَنَكَّسُوا ،
وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعِجْزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَاعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ نِزَارٌ وَيَعْرُبُ !
إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدَّرُ الْمَشْتُورُ ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أُنْجَلَتْ الرَّوْضُ الْمَطْطُورُ ؛
أَوْ أُعْتِدَ تَحْرِيرُ وَزْنِهَا فَاقِ الذَّهَبَ تَحْرِيرًا ، أَوْ قُوِّلَتْ قَوَافِيهَا بِغَيْرِهَا زَكَتْ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ
تَوْفِيرًا ؛ أَوْ تَعَزَّلَتْ أَسْكَمَتِ الْوُرُقَ فِي الْأَغْصَانِ ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرُ « كَعْبٍ »
وَسَلَكَتْ سَبِيلَ « حَسَّانٍ » ؛ فِإِطْنَابُهَا - لِفَصَاحَتِهَا - لَا يُعَدُّ إِطْنَابًا ، وَإِيجَازُهَا
- لِبَلَاحَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطْنَابًا :

أَبْنُ لِي مَغْزَاهَا أَحَا الْفَهْمِ إِنَّمَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ ؟
هَذَا وَبَرَاةٌ مَطْلَعُهَا تَحْتُ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَغْفًا ، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِيقُ الْأَسْمَاعَ
لَطَافَةً وَيَسْتَرِيقُ الْقُلُوبَ كَلْفًا ، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَالَوَةِ مَقْطَعِهِ تَدُوبُ
عَلَيْهَا أَسْفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذَا الْفَضْلُ وَرَدَّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ !
وَبِالْجَمْلَةِ فَمَا تَرَاهَا الْجَمِيلَةَ لِأَنْحَصَى ، وَجَمَائِلُهَا الْمَانُورَةَ لَا تُعَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى ؛ فَكَأَنَّمَا
« قُسْ بْنُ سَاعِدَةَ » يَأْتِمُّ بِفَصَاحَتِهَا ، وَ« أَبْنُ الْمُقَفَّعِ » يَهْتَدِي بِهَدْيِهَا وَيُرْوَى عَنْ
بَلَاحَتِهَا ؛ « وَأَمْرُؤُ الْقَيْسِ » يَقْتَبِسُ مِنْ صَنِيعَةِ شِعْرِهَا ، وَ« الْأَعَشِيُّ » يَسْتَقْبِضُ
بَطْلَعَةَ بَدْرِهَا ؛ فَلَوْ رَأَاهَا « جَرِيرٌ » لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْتَرُوهَا ، أَوْ سَمِعَهَا « الْفَرَزْدَقُ »

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصرها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من رواتها ، أو أطلع عليها « المتنبى » لتحير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها :
 فَلْبَصَائِرِ هَادٍ مِنْ فَضَائِلِهَا * يَهْدِي أَوْلَى الْفَضْلِ إِنْ ضَلُّوا وَإِنْ حَارُّوا !
 وَلَا نَطِيلُ فَبَلَغَ الْقَوْلُ فِيهَا أَنَّ آيَتِهَا الْمُحْكَمَةَ نَاسِخَةٌ لِمَا قَبْلُهَا ، وَبُرْهَانُهَا الْقَاطِعُ قَاضٍ
 بِأَنْ لَا تَسْمَحَ قَرِيحَةٌ أَنْ تَنْسُجَ عَلَى مَنَوَالِهَا وَلَا يَطْمَعَ شَاعِرٌ أَنْ يَسْلُكَ سُبُلَهَا :
 وَأَيُّهَا الْكُبْرَى الَّتِي دَلَّ فَضْلُهَا * عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَضْلَ جَاحِدٌ !

الطرف الثاني

(فيما يُكتب عن القضاة ، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تُفتتح بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،
 استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا ، فليباشِرْ ذلك » ويؤص بما يناسب .
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، ومُجَّتْنَا عند الله عليك ، فأعلم هذا وأعمل به ، وكتب
 ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعّال لما يُريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو
 المولى ونحن العبيد ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصّلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُسْتَمْلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإنَّ مَرْتَبَةَ الْحُكْمِ لَا تُعْطَى إِلَّا لِأَهْلِهَا ، وَالْأَفْضِيَّةَ لَا يَنْتَصِبُ لَهَا إِلَّا مَنْ
هُوَ كُفٌّ لَهَا ؛ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصَّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذِّيَانَةِ ؛ فَنُ
هَذِهِ صِفَتُهُ أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِي الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَفْعَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ
قَدْ حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خِصَالٌ حَمَلْنَا عَلَى
أَسْتِنَاتِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمَتِينِ ، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَلِيَجْتَمِدَ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَضْلِ الْخِصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْعَدَالَاتِ
وَالْتَّلُبُّسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ وَيُقَدِّمِهِ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْصِصْهُ وَيُطَالِعْنَا
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ
الْأَيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا اللَّوَاظِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَفْضُلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيَقَرَّرُ الْفُرُوضَ ، وَيَزَوِّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعِدَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مَنْ
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لَذَلِكَ مَنْ يَعْلَمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ، وَيَتَخَيَّرُ لَكِتَابَةِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يَشُكُّ فِي دِيَانَتِهِ وَخَبْرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَعْدَمِينَ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجْرِهِ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُبْقِهِ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيَقْصِصْهُ .

هذا عهدي إليك ، ومُحِيتي غداً عند الله عليك ؛ فاعلم هذا وأعمل به .
 وَكُتِبَ ذَلِكَ عَنِ الْإِنْسَانِ الْكَرِيمِ الْفُلَانِي وَهُوَ فِي مَحَلِّ وَلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ،
 وَهُوَ نَاقِذُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ مَاضِيهِمَا ، فِي التَّارِيخِ الْفُلَانِي . (ثُمَّ يَكْتُبُ الْحَاكِمُ عَلَامَتَهُ
 وَالتَّارِيخَ) وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وهذه نُسخة تَقْلِيد :

الحمد لله الْحَكَمَ الْعَدْلَ الْهَادِيَ عِبَادَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، الْحَاكِمَ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ؛ الْمُثِيبَ مِنْ قَبْلِهِ
 الطَّاعَةَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالُ ، الرَّقِيبَ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
 فَلَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ .

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ، وَأَسْتَعِيدُهُ مِنْ نِقَمِهِ الَّتِي يُرْسِلُهَا
 فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُفِيدُ الْمُخْلِصَ بِهَا فِي الْإِقْرَارِ النِّجَاةَ يَوْمَ الْمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ الَّذِي نَعْتَهُ بِأَكْرَمِ الشِّيمِ وَأَشْرَفِ الْخِصَالِ ، وَعَرَفَهُ بِمَا يَجِبُ مِنْ عُبودِيَّتِهِ فَقَالَ :
 ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) .
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فَإِنْ مَنْ حَسُنَتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَحُمِدَتْ سِيرَتُهُ ؛ وَغُرِفَ بَوْرَجُ وَشُمِرَ بَهْفَافُ ،
 وَدِيَانَةٌ وَخَيْرٌ وَأَنْصَافُ ؛ وَأَضْحَى نَزْهُ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا ، فَقِيهَاً دَرَبًا بِالْأَحْكَامِ
 الشَّرْعِيَّةِ ، عَارِفًا بِالْأَوْضَاعِ الْمُرِضِيَّةِ - أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيُرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ ،

ولمّا علمنا من حال فلان الفلانيّ من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديّة -
استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فليكن متمسكاً معتصماً بحبل الله القويّ المتين، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وليأشّر ما قلّدها أمانه الله سبحانه وتعالى، ويراع حقوق الله تعالى في السرّ والعلانية : فإنه معين من استعان به وتوكل عليه، وهادي من استرشده وفوض أموره إليه .

وليُجْتَهِد في فصل الأحكام بين المتنازعين، والمساواة في العدل بين المتحاكين،
قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وأن يثبت في الخصومات، ويفرق بين الحقائق والشبهات ؛ ويُصَف كلّ ظالم من ظالمه بالشريعة الحمديّة ، ليكون ذلك سبباً للسعادة الأبدية ؛ وينظر في أمر الشهود : فمن كان منهم تزيهاً، وإلى الحق متوجّهاً ؛ فليأمره، ومن كان منهم غير ذلك طالّعنا بحاله . وينظر في أمر الجوامع والمساجد معتمداً في ذلك قول الله العزيز القاهر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

وينظر في أمر الأيتام ، ويحتاط على ما لهم من الأموال ، ويفعل في ذلك على جاري عادة أمثاله من الحكماء ؛ من نفقة وكسوة ولوازم شرعيّه، فمن بلغ منهم رشيداً أسلم إليه ما فضل من ماله بالبينّة المرضيّة ؛ ويقرر الفروض على مقتضى قول الله تعالى : ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ﴾ . ويزوج النسوة الخالية من العدد والأولياء ، ممن رغب فيهنّ من الأكفاء ؛ ويندب لذلك من يعلم أمانته وخبرته، وينظر في أمر المتصرفين : فمن كان منهم على الطريقة الماثورة أجراً على عادته ،

وأبقاه على حُكْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خِلافَ ذلك يُعْجِده وَيُقْصِصه ؛ وَيَسْتَبْدِلُ به غيره لِيَبْقَى مكانه وفي تَصَرُّفه .

هذا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعْلَمْ ذلك وَتَعْمَلْ به إن شاء الله تعالى . (وَيُؤَرِّخُ ، ويكون ذلك بِحِطِّ الحاكم) وَيَكْتُبُ : «وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعَةِ نَفَعَهُ ، وَمِنْ أَخْلَاصٍ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛ الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أحوالُ الْأَوَائِلِ وَالْآخِرِ ، وَأَطْلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيره أَنْ يَطْلُعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضُ الرَّافِعُ ، وَالْمُعْطِي الْمَانِعُ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّذِيرُ ، الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ : (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أحمد حمدًا يَقْضِي لِلْسَّعَادَةِ بِالتَّيسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ شَهَادَةً يَحُلُّ الْمَخْلُصُونَ بِهَا جَنَّةً (يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيْعَةِ ؛ مُسْتَعِدًّا إِلَى بَيْتِ مُشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مُوَفِّرٍ ؛ قُلَّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا فَلَانَ بْنَ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ الْفُلَانِيَّ، قَلَدْنَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشِرُ أَعَانِكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشِيرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ؛ وَأَنْتَ نَصَبٌ لِنَفْيِذِ الْأَحْكَامِ أَنْتَ صَابٌ مِنْ يُرَاقِبُ اللَّهَ وَيَخْشَاهُ ، وَحَاسِبٌ نَفْسَكَ مُحَاسِبَةً مَنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطْلُعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ؛ وَأَبْذُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسُعَكَ ، وَرَحْبٌ لِلتَّحَاكُمِ ذَرْعَكَ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ النُّهُودِ وَحَذَرِهِمْ أَنْ يَزُوغُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبِهِمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنَظِقَةً ؛ وَأَنْهَهُمْ عَنِ التَّسَمُّحِ فِيهَا ، وَعَرِّفِهِمُ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُوْدِي مِنَ التَّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقِ إِلَيْهَا ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِيَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظْرًا يُوْدِي إِلَى صَالِحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْضِيهِ ، وَلَا تُعَرِّجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمِلْ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْأُحْبَاسِ نَظْرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مُعَامَلَةً مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ ؛ وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكَّامِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْقِسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَدْنَاهُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ؛ فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينُكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَنْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ؛ وَأَسْتَجِيعُ نَصِيحَتِي ، وَأَفْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : ^(١) وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدَرٍ مَرَّتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » ثُمَّ يَقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفُلَانِيَّ» بِلَقْبِهِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَحْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانِ كَذَا، فَيُبَاشِرُ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إيجالاتُ العدالة)

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَثْبُتُ عَدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ، وَيُسَجَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيُحْكَمُ الْحَاكِمُ بِعَدَالَةٍ مِنْ تَثْبُتَ عَدَالَتُهُ لَدَيْهِ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ عَرِيضٍ، إِمَّا فِي قِطْعِ فَرْخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مُتَوَالِيَةً، بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ تَقْدِيرَ عَرَضٍ أَصْبَعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذِهِ نُسْخَةٌ سَجَّلَ أَنْشَأْتُهُ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدُ ثُبُوتِ عَدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِبَصْرَةِ الْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا، وَأَنَارَ بَدْرَ دَرِيِّ الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَادِسِ الْجَهَالَةِ مُدْهِمًا لِيَالِيهَا، وَكَلَّ عُقُودَ النِّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْفَسَ لَآلِيهَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُرْفَى قَائِلَتُهَا إِلَى أَرْفَعِ الدُّرَى، وَيَمْتَلِئُ مُنْتَحِلُهَا ضَوْءُ الثَّرَيَّا : وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَصُوصُ بِمَحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَآثِرِ وَمَآثِرِ الْكَرَمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عَمَرِ الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الْأَقْوَى، وَسَلَّكُوا جَادَةَ الْهِدَايَةِ فَخَصَلُوا مِنْ أَقْصَى مُغَيَّاهَا عَلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فلما كانت العدالةُ هي أَسُّ الشريعة وعمادها، ورُكْنُهَا الأعظمُ في الاستناد
إلى الصوابِ وسنادها؛ لا تُقْبَلُ دونها شهادة ولا رواية، ولا يصحُّ مع عدمها إسنادُ
أمرٍ ولا ولاية - فقد بُنِيَتِ الشريعةُ المطهرةُ على أركانها، واعتُمِدَ الرواةُ في صحَّةِ
الأخبارِ على أصولها وتعلقتِ الحُكُمُ في قبُولِ الشهادة بأحضانها؛ إذ هي الملكةُ
الحاملةُ على ملازمةِ التقوى، والحفيظةُ المانعةُ من الوقوعِ في هوةِ البدعِ المتمسكِ
بسببها الأقوى؛ والحكمةُ الثانيةُ عن الجماعِ إلى ارتكابِ الكبائر، والعنانُ الصَّارِفُ
عن الجنوحِ إلى الإصرارِ على الصغائر؛ والزمامُ القائدُ إلى صلاحِ أعمالِ الظواهرِ
وسلامةِ عقائدِ الضمائرِ .

ولما كان مجلسُ القاضي الأجلِّ، الفقيهِ، الفاضلِ، المشتغلِ، المحصلِ،
الأصيلِ، نجمِ الدين، سليلِ العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندى الفزارى،
الشافعى، خليفةُ الحُكْمِ العزيزِ بالقاهرة المحروسة والدِّه، والحاكمُ بالعملِ الفلانى
ومامعهما: أيدَ الله تعالى أحكامه، وأقرَّ عينه بولده - هو الذى وُلِدَ على فراشِ الديانة،
وظهرتْ عليه فى الطفولة آثارها، ونشأ فى أحياءِ الصيانة، فرويتْ عنه بالسندِ
الصحيح أخبارها؛ وأرتضِعَ ثدى العلمِ حين بزوغِ نجمه، وغذيه مع لبانِ أمه فأمتزج
بدمه ونجمه وعظمه؛ وأعلنَ مُنادى نَشْأته بجملِ الذِّكرِ فأغنى فيه عن الاستخبارِ،
ولاحتْ عليه لوائحُ النجابة فلقى له بالكمالِ قبل أن يبلغَ قمرِ عمره زمنُ الإبدارِ؛
فلم يردْ منهلَ التكليفِ إلا وقد تزَيَّنَ من محاسنِ الفضائلِ بأكلِ زينٍ، ولم يبلغْ مبلغَ
العِلْمِ حتى صارَ لوالده - والله الحمد - قُرَّةَ عينٍ - رُفِعَتْ قِصَّةُ محبته عن حاله فيها من
مضمونِ السؤالِ طَلَبُ الإذنِ الكريمِ بسماعِ بَيِّنَةِ المذكورِ، وكتابةِ إسمِجَالِ بعدالته،

فشمّلها الخطُّ الكريمُ العالى ، المولوى ، القاصوى ، الإمامى ، العالمى ، العالمى ،
العالمى ، الشيخى ، المحدثى ، الحافظى ، الحبرى ، المجتهدى ، المحققى ، المدققى ،
الوحيدى ، الفريدى ، المجبى ، المجبى ، الخطيبى ، البلىنى ، الحاكى ، الجلالى ،
الكنانى ، البلقينى ، الشافعى ، شيخ الإسلام ، الناظر فى الأحكام الشرعية بالديار
المصرية ، والممالك الشريفة الإسلامية : أدام الله تعالى أيامه ، وأعزَّ أحكامه ،
وأحسنَ إليه ، وأسبغَ نِعَمَه فى الدارينِ عليه - لسيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالى ،
الشيخ الإمام العالم ، الحافظ ، وليَّ الدين ، شرف العلماء ، أوحد الفضلاء ،
مفتى المسلمين ، أبى زُرعة أحمد ابن سيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالى زين الدين ،
شيخ الإسلام ، قاضى المسلمين ، أبى الفضل عبد الرحيم ، ابن سيِّدنا العبدِ الفقيرِ
إلى الله تعالى بذر الدين ، شرف العلماء ، أوحد الفضلاء ، مفتى المسلمين ،
أبى عبد الله الحسين العراقى الشافعى ، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة ومصر
المحروستين ، والحاكم بالأعمال المنوفاة ، ومفتى دار العدل الشريف بالديار المصرية :
أيد الله تعالى أحكامه ، وأحسنَ إليه بالنظر فى ذلك على الوجه الشرعى .

فحينئذ سَمِعَ سيِّدنا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى الشيخ الإمام ، العالم ، الحافظ ،
وليَّ الدين ، الحاكمُ المشارُ إليه : أحسنَ الله تعالى إليه - البينةَ بتركيته ، وصرحتْ
له بالشهادة بعدالته ، وقبلها القبول الشرعى السائغ فى مثله .

ثم أشهد على نفسه الكريمة من حضر مجلس حكمه وقضائه ، وهو نافذ القضاء
والحكم ماضيهما ، وذلك فى اليوم المبارك يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر
رجب الفرد سنة ثلاث عشرة وثمانمائة - أنه ثبتَ عنده وصحَّ لديه : أحسنَ الله إليه -
على الوضع المعبر الشرعى ، والقانون المحرر المرعى ، بالبينة العادلة المرضية ، التى

تثبت بمثلها الحقوق الشرعية - عدالة القاضي الأجل، العدل، الرضى، نجم الدين محمد المسمى أعلاه : زاده الله تعالى توفيقا، وسهل له إلى خير طريقا، وما أشتمل عليه من صفاتها، وتحلى به من أدواتها، ثبوتا صحيحا معتبرا، مستوفى الشرائط محررا . وأنه - أيد الله تعالى أحكامه ، وسدد نقضه وإبرامه - حكم بعدالته ، وقبول شهادته ، حكما تاما وجرمه ، وقضى فيه قضاء أبرمه ، وأذن له - أيد الله تعالى أحكامه - في تحمیل الشهادة وأدائها، وبسط قلمه في سائر أندية وأرجائها، وأجراه - أجرى الله تعالى الخيرات على يديه - مجرى أمثاله من العدول، ونظمه في سلك الشهداء أهل القبول، ونصبه بين الناس شاهدا عدلا، إذ كان صالحا لذلك وأهلا . فليسط بالشهادة قلمه، وليؤلف على شروط أدائها كلمه، وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملائمتها الجميلة ، وأثاله من الترقى لرتبتها الجليلة ، وليتق الله تعالى في موارده ومصادره، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره، وليعلم أن من سلك الحق نجا، ومن يتق الله يجعل له مخرجا . أوزعه الله تعالى شكر هذه الرتبة عليه، والمنزلة السنية .

وتقدم أمر سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام، العالم، الحافظ، ولي الدين، الحاكم المذكور، وقاه الله تعالى كل محذور، بكتابة هذا الإسجال، فكتب عن إذنه الكريم، متضمنا لذلك مسؤولا فيه، مستوفيا شرائطه الشرعية . وأشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ المقدم ذكره بأعليه، المكتوب بخطه الكريم - شرفه الله تعالى، حسبنا الله ونعم الوكيل .

قلت: والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة، ويكتب التاريخ في الوسط، والحسبة في الآخر، كل ذلك بخطه، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم، كما في سائر الإسجالات الحكيمة .

الصنف الثالث

(الكتب إلى الثواب وما في معناها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاةِ أَلْفَظُهَا مَرْسَلَةً ، لِاجْتِنَاحِ فِيهَا إِلَى فَنِّ
الْبَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن قاضي القضاة نَحْرَ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ ، إِلَى الْحُكَّامِ
بِالْمُلْكَةِ ، وَهُوَ :

أَدَامَ اللَّهُ فَضَائِلَ الْجَنَابَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْمَجَالِسِ الْعَالِيَةِ ، وَجَعَلَهُمْ قَادَةً يُقْتَدَى بِهِمْ
فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَو (١)
الْإِحْتِفَالِ مِنْ يَعْتَنِي بِأَمْرِهِ وَيُحْتَفِلُ ، وَلَا سِيَّامَا
مَنْ سَارَتْ طَرِيقَةُ فَضْلِهِ الْمُثْنَى فِي الْآفَاقِ سَيْرَ الْمُثَلِّ ، وَلَا زَالَ عَرُفُ مَعْرِفِهِمْ عَلَى
ذَوِي الْفَضَائِلِ يُفْرِحُ ، وَجِيَادُ جُودِهِمْ تَعْدُو فِي مَيْدَانِ الْإِحْسَانِ وَتَرْوَحُ ، وَنِيلُ نَيْلِهِمْ
يَسْرِي إِلَى الْقُصَادِ فَيُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ الْغُبُوقِ كَمَا يُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتوبة إليهم تُقْرِئُهُمْ سَلَامًا أَلْطَفَ مِنَ النَّسِيمِ ، وَتُهْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مِرْآجِ
كَاتِبِهِ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَتُبْدِي لَعْلُومِهِمُ الْكَرِيمَةَ أَنَّ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ ، الْعَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،
الْإِمَامِيَّ ، الْفَاضِلِيَّ ، الْبَارِعِيَّ ، الْأَوْحَدِيَّ ، الْأَكْمَلِيَّ ، الْبَلِيغِيَّ ، الْمَقْدَمِيَّ ، الْخَطِيبِيَّ ،
الْبَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الْفَضْلَاءِ ، نَحْرَ الْعُلَمَاءِ ، زَيْنَ الْخُطَبَاءِ ، قِبْلَةَ الْأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ الْبُلْغَاءِ ،
صَفْوَةَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، خَطِيبَ الْمَوْصِلِ - أَدَامَ اللَّهُ الْمَسْرَةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الْخَيْرَ
بِسَبَبِهِ ، وَنَفَعَ بِفَوَائِدِ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَرَائِصِ الْحُرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ الْمَسْرَةُ
بِذَلِكَ الْوَرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ الْعُهُودِ ، وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الْفَائِقِ
الرَّفِيقِ ، وَإِنْشَائِهِ الْمُنْفَعِ عَنْ نَشْوَةِ الرَّحِيقِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ السَّحَرُ الْحَلَالُ عَلَى

التَّحْقِيقُ ؛ مَا نَزَّهَ الْأَبْصَارَ وَشَفَّ الْأَسْمَاعَ ، وَقَطَعَ مِنْ قُرْسَانِ الْأَدَبِ أَسْبَابَ
الْأَطْعَامِ ؛ فَأَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَثِيبَ فِكْرًا ، وَأَحْجَلَ مِنَ الرُّوْضِ الْأَنِيقِ زَهْرًا ،
وَأَحْمَلَ مِنَ الْمِسْكِ السَّحِيقَ عِطْرًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ
الْأَدَبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْجَالِيسُ الَّذِي لَا يُسَامُ كَلَامُهُ وَلَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ؛ يَا لَيْتَا لَيْسَ فِيمَا
يُبْدِيهِ مِنَ الْأَدَبِ تَحْرِيفٌ وَلَا غَلْطٌ ، وَفَاضِلًا لَوْ لَمْ يَكُنْ جَحْرًا لَمَا كَانَ الدَّرُّ مِنْ فِيهِ
يُلْتَقَطُ ؛ يَمِينُهُ وَفِطْنَتُهُ الْكَرِيمَتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ، فَهَذِهِ إِنْ رَفَقَتْ طَرَسًا فُرُوحٌ وَرِيحَانٌ ،
أَوْ بَدَلَتْ رِيًّا فَعِينَانِ تَجْرِيَانِ ؛ وَهَذِهِ إِنْ نَظَمْتَ شِعْرًا فَيَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ ، أَوْ نَثَرْتَ
تَبْرًا فَتَمِينُ الدَّرِّ أَلْوَانٌ ؛ مَا بَرِحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يُسَارِعُوا
وَمِنْ أَبْوَابِ مَعْرُوفِهِ يَفْتَتِسُونَ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْجَلِيلُ
الَّذِي لَمْ تَزَلْ تُسِيرُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، وَالنَّبِيلُ الَّذِي تَجْرَى لِفَرَاقِهِ مِنْ عِيُونِ اللَّيْلِ
الْمَدَامِغُ ، وَالتَّرِيزُ الَّذِي يُنْشِدُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

* بَعِيشِكَ خَبَرَنِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ *

يَعْرِفُ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ فَيُنْشِرُهُ مِنَ النَّعَاءِ لَوَاءً ، وَيُجِلُّ فِي مَدْحِ صِفَاتِهِ
وَنُعُوتِهِ الْإِنْشَاءَ إِنْ شَاءَ ، وَيُجِزِلُ فِي ذَمِّ مُسْتَحَقِّ الذَّمِّ مِنْهُ الْهَجَاءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدْحًا
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجَاءً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحُضُورِهِ يَتَقَرَّبُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفَضَلَاءُ بِفَضْلِهِ
يَعْتَرِفُونَ ، وَمَنْ بَحَرَهُ يَعْتَرِفُونَ ؛ وَالْأُدَبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَتِقُونَ ، وَمِنْهُ يَفْتَتِسُونَ ؛ وَالطَّلَبَةُ
بِأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبَنَشْرِ أَثْنَتِهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ
يَفْتَحِرُونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّمَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بِإِيثارِهِ ، وَكُلُّمَا
عَانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِأَنْصَارِهِ ، فَيَجُودُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانُ بَنَانِهِ ، وَيُجْرَدُ
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفُ لِسَانِهِ .

ثم من قبل أن نَبْلُغَ منه الوَطْرَ ، ومن دُونِ أن يَكْتَفِيَ منه السَّمْعَ والبَصَرَ ، عَرَفْنَا أنه قَصَدَ التَّوَجُّهَ إلى البلاد السَّاحِلِيَّةِ ، والأَعْمَالِ الطَّرَابُئِيَّةِ ؛ يُعْمَلُ على أَهْلِهَا من فضائله البَاهِرَةِ البَاسِقَةِ ، وألفاظه التي هي كالدَّرَرِ الْمُتَنَاسِقَةِ ؛ وَيُجْلِيهِمْ عَرَائِسَ الأفكارِ من أَفْكَارِهِ ، وَيُجَنِّهِمْ عَرَائِسَ الْأَثْمَارِ من أَشْجَارِ عِلْمِهِ ، وَيُرِيهِمُ الْبَدِيعَةَ الْبَدِيعَةَ ، وَالتَّوَافِيَّ الْحَبِيبَةَ الْمُطِيعَةَ .

فَلْيَتَقَدَّمِ الْجَمَاعَةُ - أَيُّدِهِمُ اللَّهُ تَعَالَى - بِإِكْرَامِهِ الْأَهْلَ وَالْأَصْحَابَ ، وَتَلَقِّيهِ بِالْبِشْرِ وَالطَّلَاقَةِ وَالتَّرْحَابِ ؛ وَإِحْلَالِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ مَحَلًّا سَامِيًّا ، وَإِنزَالِهِ مِنَ الْإِفْضَالِ مَنْزِلًا عَالِيًّا ؛ وَالْأَعْتِنَاءِ الْوَافِرِ بِأَمْرِهِ ، وَاسْتِجْلَابِ بَثِّ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ؛ وَالتَّنَاقُطِ دُرَرِ فَوَائِدِهِ ، وَآكِثَسَابِ غُرَرِ فَرَائِدِهِ ؛ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى الْمَشْهُورِ وَالْمَنْظُومِ مِنْ أَقْوَالِهِ ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حُسْنِ بَدَاهَتِهِ وَسُرْعَةِ آرْتِجَالِهِ .

وَلْيُحْتَفَلْ كُلَّ يَوْمٍ بِخِدْمَتِهِ غَايَةَ الْإِحْتِفَالِ ، وَيُعْتَنَ بِأَمْرِهِ أَعْتِنَاءً لَا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ وَلَا إِهْمَالٌ ؛ وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الْجَلِيلِ ، وَالْقَادِمِ الَّذِي إِذَا رَحَلَ عَنْ بَلَدِهِ أَبَى لَهُ بِهَا الذِّكْرُ الْجَمِيلُ ؛ وَيُسَاعَدُ عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِصَدَدِهِ كُلِّ سَاعَةٍ يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ وَيُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ .

وَنَحْنُ نُؤَكِّدُ عَلَى الْجَمَاعَةِ - أَيُّدِهِمُ اللَّهُ - فِي ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكُّيدِ ، وَنُبَالِغُ فِيهِ مُبَالَغَةً مَاعِلِيًّا مِنْ مَرِيدٍ ؛ وَنُحَذِّرُهُمُ مِنَ الْإِهْمَالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَمِنْ مُقَابَلَةِ جَنَابِهِ الْكَرِيمِ بِالْتَّزْرِ الْحَقِيرِ وَالتَّقْدِيرِ الْيَسِيرِ ؛ فَإِكْرَامُ هَذَا الرَّجُلِ لَيْسَ كإِكْرَامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسِرِّهِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا لِعَالَمِهِ وَفَضْلِهِ وَخَيْرِهِ ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَلَيْسَ مِنْ يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ كَالَّذِي يُكْرَمُ لِفَيْرِهِ » .

فَلْيُعْظَمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتُزَلُّوهُ مَنْزِلَةً تَلِيقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ ، وَتَرَفُّوْهُ لِهَ الْمَقَامِ وَتَحْفَظُوْهُ لِهَ الْمَقَالِ ؛ لِيَعُودَ مُحَقِّقَ الْأَمَالِ مُبْلَغَ الْمَقَاصِدِ ، نَاشِرًا أَلْوِيَةَ الشَّيْءِ

والمحامد ، مَشْمُولًا بِجَمِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ وَنَحْنُ مُتَظَرُّونَ مَا يَرِدُ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ
الْكَرِيمَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ... (١) ... الْحَسَنَةِ .

وَفِي هِمَمِهِمُ الْعَلِيَّةِ ، وَمَكَارِمِهِمُ السَّنِيَّةِ ، مَا يُغْنِي عَنْ التَّأَكُّدِ بِسَبَبِهِ وَالْوَصِيَّةِ ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ سَائِعَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ، وَيَجْمَلُ بِوُجُودِهِمْ وَجُودَهُمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الصنف الرابع (ما يُكْتَبُ فِي آفْتَاتِحَاتِ الْكُتُبِ)

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة حُطْبَةٍ فِي آبْتَدَاءِ كِتَابٍ وَقِفٍ عَلَى مَسْجِدٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَنَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ
بَنِيْنًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَجْمَادِ ، وَمُشْرِفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَمْنَةِ وَالْجُمُعَةِ
وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ ، وَجَاعِلِ مِنْ أَرْتَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعِبَادِ ، وَمُمَسِّرِ الْقُرْبَاتِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّدَادِ ، وَمُرِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
مِمَّنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمَزِيدِ الْإِرْفَادِ ، وَمُفَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبِرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لَخِيْرَ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعْظَمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَنَى بَيْتًا لِلَّهِ
بِنِيَّةِ خَلِيَّةٍ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعِنَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ بَنَى
مَسْجِدًا لِلَّهِ وَلَوْ كَفَحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ “ وَزَجُّوا مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادِ .

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ وَلَعَلَهُ : مِنَ الْمَنَازِلِ الْحَسَنَةِ الْخُلُوعِ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعَمِهِ التي جَلَّتْ عن التَّعْدَادِ ، وأشكرُه شُكْرًا وافيًا وإفْرًا نجعله
ذَخِيرَةً لِيَوْمِ التَّنَادِ ، وأسْتَعِذُّ من اللُّطْفِ لَوَازِمِ الْفَضْلِ الْخَفِيِّ وهو الْكَرِيمُ الْجَوَادُ ،
وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسوله الْخَاتِمُ الْحَاتِمُ عَلَى
حَوْضِهِ الْوَرَادُ ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِهِ ما أَصْنَعِي إلى الذِّكْرِ وأُجِيبَ كُلَّ دَاعٍ
من حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ .

وبعدُ ، فلمَّا كانتِ الْمَثُوبَاتُ مَضمُونَةً الْأَجْرِ عندَ الْكَرِيمِ ، والأَعْمَالُ مَتَعَدَّةٌ
في التَّقْدِيمِ ؛ وكانَ بُيَانُ الْمَسَاجِدِ وإفْرًا أَجْرًا ، لمن أقامَ بواجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الْجَمِيلِ
وسَدَّدَ إلى الْخَيْرَاتِ سَبِيلًا ، وقد قالَ تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِـي . فَلْيُظَنَّ
بِي خَيْرًا » . ورَأَى الْعُقَلَاءُ أَنَّ الْأَوْقَافَ على الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ من أَنْفُسِ قَوَاعِدِ
الدِّينِ وأَعْلَى - فلذلكَ قِيلَ في هذا الْإِنْجَالِ الْمُبَارَكِ :

هذا ما وَقَفَهُ وَحَبَسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فَلان . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً في مَزِيدِ الثَّوَابِ ،
وَرَجَاءً في تَهْوِيلِ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَأَغْنَيْنَا لِلْأَجْرِ الْحَزِيلِ من الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ؛
لَقَوْلِ اللهِ تعالى في الْآيَاتِ الْمَبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وَقَفَ بِنَيَّْةٍ خَالِصَةٍ ، وَعِزِّيمَةٍ صَالِحَةٍ ، وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ ؛ ما هُوَ له
وفي مِلْكِهِ ، وَحَوْزِهِ وَبِيَدِهِ وَتَصَرَّفِهِ ، من غيرِ مُنَاطِئٍ له في ذلكَ ولا شَرِيكَ ،
(ثم يَذْكُرُ الْوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاتِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخةُ عُمَرَةٍ اعْتَمَرَهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزَرَجِيُّ ، عِنْدَ مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ» ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بِمَكَّةَ مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ وَمَنْ سَلَفَهُ الْكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ؛ وَعَقَدَ لِيَوَاءِ الْمَلِكِ بِخَيْرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعَى : فَفِي حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ الْمُقَامُ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ؛ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مِنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَوَرِثَ الْمَلِكُ كَارِبًا عَنْ كَارِبٍ ، وَأَنْطَقَ الْأَلْسِنَةُ بِالِدَعَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَافِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَّتْ لَوْصِفِ مَنَاقِبِهِ الْمَنَارِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِنْعَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أُسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعَمَ الدَّخِيرَةِ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَافُوزَ مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى بَغَاءٍ بِأَشْرَفِ مَلَّةٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عُمَرَةُ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّه » صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُوصًا عَلَى خَلِيقَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاذَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخَطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ؛ الْجَامِعِ لَجَمِيعِ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمُلْكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْخَيْرُ بِيَدِهِ يُفِيضُهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَادَهُ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْغَلَا ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمَ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَلَمَّا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعْظَمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْحَجِّدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمُلْكَ عَنْ أَشْرَفِ أَيْخٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ لِّلْسُلْطَانَةِ الدَّلَائِلُ ، وَأَلْفَهُ سِرِيرُ الْمُلْكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمِنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمُلْكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةَ الْفَخَارِ فَلَمْ تَجِدْ لَهُ فِي السُّودُدِ وَالْفَخَارِ
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قِيلَ : بِحَرِّ طَمْحِي أَوْ بِدَرِّ تَجَلِّي ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعُلُوِّ شَأْنِهِ وَأَرْتِقَائِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لِعَلْيَانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآوَاخِرَ ، وَأَضْفَيْتَ عَلَيْهِ حُلُلَ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةً وَنَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَلْتَمَسَ بِجَالٍ نَصْرَهُ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَضْرًا ، وَحَكَمَتْ
سَيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِضْرًا ؛ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كره، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم
مرة بعد مرة، ومرة أخرى إن شاء الله تعالى ومرة ومرة !!! كم سلك سنن
وأبده وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالغزاة فكان له كل مشهد مذكور، وعرف
تقدمه وإقدامه فكان أعظم ناصر وأشرف منصور؛ يحمده الله تعالى والناس عن
جميل ذبه عن الإسلام وحميد فعله، واستقل الجزيل فينبئ الجميل لمن أم أبوابه
الشريفة فلا يستكثر هذا من مثله، ما حملت راياته الشريفة كتيبة إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت، ولا جهز عساكره
المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيمهم، ولا حاصروا ثغراً للكفار إلا أخذوا
بنواصيمهم، ولا سير سرية لمواجهة محارب إلا ذل على رغبة، ولا نطق لسان الحمد
للمجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه؛ فاختره الله تعالى على علم على
العالمين، وأجابه للدب عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسلطانه وإرثنا، وفي الملك
مأكنا، وللقمرين ثالثا؛ ولأموره سدادا، ولثغور بلاد الإسلام سدادا؛ وفوض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاص والعام؛ وعدق به أمور الممالك
والأملاك، وأطلع بسعادته أيمن البروج في أثبت الأفلاك؛ وحمى الإسلام
والمسلمين من كل جانب شرقاً وغرباً، وملاً بمهايته البلاد والعباد رعباً وحباً؛
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وفضله؛ وفرض طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيدا لملوك العرب والعجم؛ وأمن بمهايته كل حاضِر وبَاد،
ونوم سُكَّان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطا مهاد؛ وسكن خواطر المجاورين
من جميع المخاوف، وصان بالمقام في مكة الطائف والعاكف؛ قد حسن مع الله
تعالى سيرة وسيراً، ودلت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيراً؛
وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عالم أن ليس للإنسان إلا ماسعى.

قد مَلَأَ أَعْيُنَ الرَّايا بِالطَّمَأْنِينَةِ وَالْهَجُوعِ ، وَأَمْتَمَهُمْ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ بِالرَّخَاءِ مِنْ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ؛ وَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الدُّخُولَ إِلَى بَيْتِهِ
الْحَرَامِ بَرًّا وَبَحْرًا ؛ وَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - جَمِيعَ الْأَمْصَارِ ،
وَمَلَأَ مِنْ مَهَابَتِهِ جَمِيعَ الْأَقْطَارِ :

فَسَارَتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * وَهَبَّتْ هُبُوبُ الرِّيحِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ !

فَوَجِبَ عَلَى الْعَالَمِينَ أَنْ يَدْعُوا لِدَوْلَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمُبَارَكَةِ بِطَوِيلِ الْبَقَاءِ ، وَ[دَوَامِ] الْعُلُوِّ
وَالْأَرْتِقَاءِ ؛ وَوَجَبَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْوَاصِلِينَ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ وَحَضْرَةَ قُدْسِهِ ، أَنْ يَبْتَهِلَ
بِالدَّعَاءِ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُو لِنَفْسِهِ ؛ فَكَيْفَ مِنْ هُوَ مَمْلُوكُهُ وَأَبْنُ مَمْلُوكِهِ وَوَارِثُ عِبُودِيَّتِهِ ،
وَمَنْ لَمْ يَزَلْ هُوَ وَوَالِدُهُ وَإِخْوَتُهُ فِي صَدَقَاتِ وَالِدِهِ الشَّهِيدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَعِمِيمِ
نِعْمَتِهِ ؛ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُكْرَمِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيِّ ،
فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مَدَّةَ أَيَّامِهِ مُبْتَهِلًا بِصَالِحِ دَعْوَاتِهِ ، مُتَوَسِّلًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ نَصْرِهِ
وَطَوِيلِ حَيَاتِهِ ؛ طَائِفًا عِنْدَ مَقَامِهِ الشَّرِيفِ حَوْلَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وَالْمَشَاعِرِ الْعِظَامِ .

وَأَحَبُّ أَنْ يُخَفِّفَهُ بِأَشْرَفِ الْعِبَادَةِ فَلَمْ يَجِدْ أَجَلَ مِقْدَارًا وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا ، مِنْ عُمْرَةٍ
يَعْتَمِرُهَا عَنْهُ وَيُهْدِي ثَوَابَهَا لَصَحَابَتِهِ الشَّرِيفَةِ وَيَزِيدَ بِذَلِكَ نَحْرًا ؛ فَقَامَ عَنْهُ بِعُمْرَتَيْنِ
شَرِيفَتَيْنِ أَعْتَمَرَهُمَا عَنْهُ فِي رَمَضَانَ ، مَكْمَلَتَيْنِ بِإِحْرَامَيْهِمَا وَتَلْبِيَّتَيْهِمَا ، وَطَوَّافَتَيْهِمَا
وَسَعْيَيْهِمَا ؛ يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى أَبْوَابِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَسْأَلُ صَدَقَاتِهِ
الشَّرِيفَةَ أَنْ يَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِصْفِ مَعْلُومِ صَدَقَةٍ عَلَيْهِ ، وَيَنْصِفَهُ لِأَوْلَادِهِ : لِيَقْضَى بَقِيَّةَ
عُمْرِهِ فِي الثَّلَاثَةِ الْمَسَاجِدِ ، وَيُخَصِّصَهُ بِجَزَائِلِ الدَّعَاءِ مِنْ كُلِّ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ ؛ وَأَنْ يَكُونَ
ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِ مَدَّةَ حَيَاتِهِ ، وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ وَنَسْلِهِ وَعَقْبِهِ بَعْدَ وَقَاتِهِ ؛ لِتَشْمَلَ
صَدَقَاتُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتِ ، وَيَطِيبَ لِقَائَهُمَا

في أيامه الشريفة المات ؛ جَعَلَ اللهُ تعالى مَوْلانا السلطانَ وَارِثَ الأعمار ،
وَأَجْرَى بَدَوامَ أَيَّامِهِ الشريفةِ المِقْدار ؛ وجَعَلَ كَلِمَةَ المُلْكِ باقيةً في عَقْبِهِ ، وبلغه
من النَصْرِ والظْفَرِ والأَجْرِ غايةَ أَرِيهِ ؛ وجَعَلَ أَيَّامَهُ كُلَّها مَسارًّا وبَشائرَ ، ودَوْلَتَهُ تَسرُّ
النَّواظِرَ ، وسَعادَتَهُ ليس لها آخِر ؛ ويُهِنُّهُ بما قد أَمَّه اللهُ له من مُلْكٍ والده الشَّهِيد
رحمه الله تعالى :

[أَهْنِكَ] بِالْمُلْكِ يَاخَيْرَ مَنْ * أَجَارَ الْبَرَايا وَمَنْ مَارَها ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ * تُمِيلُ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصارَها !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَافِقِينَ * وإِعْصارَها ،
وَتَمْلِكُ سَيِّبَ تَكْفُورِها * وَتَرْكَبُ بِالْحَيْشِ أَوْعارَها ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنْشِدُ فِي التَّخْتِ أَشعارَها ،
وَتَفْتَحُ بَغْدادَ دَارِ السَّلامِ * وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْدارَها ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكَرِ النَّاصِرِيِّ * قُصُورَ الْخِلافةِ أَوْتارَها ،
وَيَأْمَنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتَحْجِي الْأُسُودَ وَأَوْكارَها ،
وَتَبْقَى إِلَى أَنْ تَعَمَّ الْبِلادَ * بِنُعْمَى ثَنائِعِ إِدْرارَها ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلادِ * وَتُجْرِي الْعِبَادَ وَأَوْطارَها ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاظِمُونَ * وَتُعْيِي مَفازِيكَ سُمَارَها ،

[والله يُقَيِّمُهُ] ^(١) بعدها دائما ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده
ناصر الدنيا والدين ؛ إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه رُبَّمَا أَعْتَنَتِ الْمُلُوكُ بَعْضُهُ ، فَاقْتَرَحَتْ عَلَى كُتَّابِهَا لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ
الْهَزْلِيَّةِ ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِثْنَانِ بِهَا عَلَى وَفْقِ غَرَضٍ ذَلِكَ الْمَلِكِ . كَمَا وَقَعَ لِمُعِينِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِيِّ فِي اقْتِرَاحِهِ عَلَى أَبِي إِسْحَقَ الصَّابِي كِتَابَةَ عَهْدٍ بِالتَّطَفُّلِ ، لِرَجُلٍ كَانَ
عِنْدَهُ اسْمُهُ عَلَيْكَ ، يُنْسَبُ إِلَى التَّطَفُّلِ ، وَيَسْخَرُ مِنْهُ السُّلْطَانُ بِسَبَبِ ذَلِكَ .

وهذه نسخة عهد بالتطفل ، التي أنشأها أبو إسحاق الصابي لعليك المذكور :

هَذَا مَا عَهَدَ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفُ بِعَلِيكَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ عُرْسِ الْمَوْصِلِيِّ ، حِينَ
اسْتَخْلَفَهُ عَلَى إِحْيَاءِ سُنَّتِهِ ، وَاسْتِنَابِهِ فِي حِفْظِ رُسُومِهِ ، مِنَ التَّطَفُّلِ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةِ
السَّلَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَرْبَاضِهَا وَأَكْنَافِهَا ، وَيَجْرَى مَعَهَا فِي سَوَادِهَا وَأَطْرَافِهَا ؛
لِمَا تَوَسَّعَ فِيهِ مِنْ قَلَّةِ الْحَيَاءِ ، وَشِدَّةِ اللَّقَاءِ ، وَكَثْرَةِ اللَّقَمِ ، وَجَوْدَةِ الْهَضْمِ ، وَرَأَى
أَهْلًا لَهُ مِنْ سَدِّ مَكَانِهِ ، وَالرَّفَاقَةِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي فَطَنَ لَهَا ، وَالرَّقَاعَةَ الْمُطْرَحَةَ الَّتِي أَهْتَدَى
إِلَيْهَا ؛ وَالنَّعَمَ الْعَائِدَةَ عَلَى لَا بَسِيهَا بِمَلَادِّ الطُّعُومِ ، وَخِصْبِ الْجُسُومِ ؛ وَرَدًّا عَلَى مَنْ
أَتَسَّعَتْ حَالَهُ ، وَأَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَى غَرَائِبِ الْمَأْكُولَاتِ ، وَأُظْفَرَهُ بِبِدَائِعِ الطَّيِّبَاتِ ؛ أَخِذًا
مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَصِيبِ الشَّرِيكِ الْمُنَاصِفِ ، وَضَارِبًا فِيهِ بِسَمِّ الْخَلِيطِ الْمُنَافِوِضِ ؛
وَمُسْتَعْمَلًا لِلدَّخْلِ اللَّطِيفِ عَلَيْهِ ، وَالْمُتَوَلِّجِ الْعَجِيبِ إِلَيْهِ ؛ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي سَتُشْرَحُ
فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَوَامِرِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَتُسْتَوْفَى الدَّلَالَةُ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ رَشَادٍ وَصَوَابٍ ؛
وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ وَعَلَيْهِ التَّعْوِيلُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات
يشتمل على فصلين : الفصل الأول فيما أعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل ، ولكنه
لم يذكر هنا الفصل الثاني ، فليتبناه .

أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْجَانِبُ الْعَزِيزُ، وَالْحِرْزُ الْحَرِيزُ؛ وَالرُّكْنُ الْمَنِيعُ، وَالطُّودُ الرَّفِيعُ؛ وَالْعِصْمَةُ الْكَالِثَةُ، وَالْحُنَّةُ الْوَاقِيَةُ؛ وَالزَّادُ النَّافِعُ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَحَيْثُ الْأَمْثَلَةُ مِنَ الْأَزْوَادِ؛ وَأَنْ يَسْتَشْعِرَ خِيفَتَهُ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، وَيُرَاقِبَهُ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ؛ وَيَجْعَلَ رِضَاهُ مَطْلَبَهُ، وَثَوَابَهُ مَكْسَبَهُ، وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ أَرْبَهُ، وَالزَّانِيَ لَدَيْهِ غَرَضَهُ؛ وَلَا يُخَالَفَهُ فِي مَسْئَعَةٍ قَدَمَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ عِنْدَهُ لِعَاقِبَةِ نَدَمَ؛ وَلَا يُقَدِّمَ عَلَى مَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ، وَلَا يَتَقَاعَسَ عَمَّا أَحَبَّ وَأَمَرَ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِأَدَبِهِ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ، وَيَقِفَ عَلَى حُدُودِهِ فِيمَا أَبَاحَ وَحَظَرَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ هِجْرًا وَدَيْدَنَةً، وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْهَا جُهِدٌ وَسَنَدٌ؛ تَكْفَّلَ اللَّهُ لَهُ بِالنَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَى الرُّشَادِ وَالْفَلَاحِ؛ وَأَطْفَرَهُ بِكُلِّ بَغْيَةٍ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى كُلِّ مَشْيَةٍ؛ وَلَمْ يُجَلِّهِ مِنَ الْفَوْزِ بِمَا يُرْصَدُ، وَالْحَوْزِ بِمَا يَقْصَدُ؛ بِذَلِكَ وَعَدَ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ، وَمَا تَوْفِيقُنَا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا مَرْجِعُنَا إِلَّا إِلَيْهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ اسْمَ التَّطْفِيلِ وَمَعْنَاهُ، وَيَعْرِفَ مَغْزَاهُ وَمَنْحَاهُ؛ وَيَتَصَفَّحَهُ تَصَفُّحَ الْبَاحِثِ عَنْ حَظِّهِ بِمَحْمُودِهِ، غَيْرِ الْقَائِلِ فِيهِ بِتَسْلِيمِهِ وَتَقْلِيدِهِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ اسْتَقْبَحَهُ مِنْ فَعْلِهِ، وَكَرِهَهُ لِمَنْ اسْتَعْمَلَهُ؛ وَنَسَبَهُ فِيهِ إِلَى الشَّرِّ وَالنَّهَمِ، وَحَمَلَهُ مِنْهُ عَلَى التَّفَهِّ وَالْقَرَمِ؛ فَهُمْ مِنْ غَلِطَ فِي اسْتِدْلَالِهِ، فَأَسَاءَ فِي مَقَالِهِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ شَجَّ عَلَى مَالِهِ، فَدَافَعَ عَنْهُ بِأَحْتِيَالِهِ؛ وَكُلُّ الْفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ، وَجَمِيعُهُمَا مَلُومٌ؛ لَا يَتَعَلَّقَانِ بَعْدُ وَاضِحٌ، وَلَا يَعْتَرِيَانِ مِنْ لِبَاسٍ فَاضِحٍ؛ وَمِنْهُمْ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرَى فِيهَا شَرَكَةَ الْعِنَانِ: فَهِيَ تَتَدَلَّلُ إِذَا كَانَ لَهَا، وَتَتَدَلَّى عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لغيرِهَا؛ وَتَرَى أَنَّ الْمِنَّةَ فِي الْمَطْعَمِ لِلْهَاجِمِ الْآكِلِ، وَفِي الْمَشْرَبِ لِلْوَارِدِ الْوَاعِلِ، وَهِيَ أَحَقُّ بِالْحُرِّيَّةِ، وَأَخْلَقُ بِالْخَيْرِيَّةِ؛ وَأُحَرِّى بِالْمُرُوءَةِ، وَأُوَلِّى بِالْفُتُوَّةِ؛ وَقَدْ عَرَفْتُ بِالتَّطْفِيلِ، وَلَا عَارَ فِيهِ عِنْدَ ذَوِي التَّحْصِيلِ،

لأنه مُسْتَقٌّ من الطَّفْلِ وهو وَقْتُ الْمَسَاءِ ، وَأَوَّلُ الْعَشَاءِ ؛ فلما كَثُرَ اسْتَعْمَلَ فِي صَدْرِ
النَّهَارِ وَحِجْزِهِ ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ؛ كما قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ،
وَلَأَبَى بَكْرٌ وَعُمَرُ : الْعُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وَقَدْ سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى
هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ خُلُودُ الدَّكْرِ ، فَهُوَ بَاقٍ بَقَاءَ الدَّهْرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ
عَصْرِ ؛ وما نعرف أَحَدًا نَالَ من الدُّنْيَا حَظًّا من حُطُوطِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلِفُهُ ،
وَصِيَّتٌ يَسْتَبْدُّ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ ، فَبَيَانُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ
الْمُلُوكُ بِسِيرِهَا ، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ ؛ سَعِدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ
فِي يَوْمِهِ ، وَنَبَاهَةِ ذِكْرِهِ فِي غَدِهِ ؛ جعلنا الله جميعًا من السابقين إِلَى مَدَاهِ ، وَالْمَذْكُورِينَ
كَذِكْرَاهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ مَوَائِدَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَايَاهِ ، وَسُمَطَ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ بِسَرَايَاهِ ؛
فَإِنَّهُ يَطْقُرُ مِنْهَا بِالْغَنِيمَةِ الْبَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَاهَا
وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، الْمِلْدَةِ لِلْسَانَ ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الْحُلُقُومِ ؛
مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَدَيْهِمْ ؛ لِحَذَقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجَوْدَةِ أَدْوَانَتِهِمْ ،
وَأَنْزِيَاكِ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُوقِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا ؛
وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَعْرِضُ لِمُوسِرَى الثُّجَارِ ، وَجُهْزَى الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِرَةِ الدَّارِ ،
وَالْعُرْسِ وَالْإِعْذَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّعُونَ عَلَى نَفُوسِهِمْ فِي النَّوَائِبِ ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا
فِي الرَّائِبِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَفِّلِينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجُمِ الْوَاعِلِينَ ؛
لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي مَحَافِلِهِمُ الرَّذَلَةِ ، وَيَعُدُّوه فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ النَّذَلَةِ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ
الْبَاحِجُ بِاتِّسَاعِ طَعَامِهِ ، الْمُبَاهِي بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْغَرِيبَةَ
فَأَطْعَمُهَا ، وَالْأَيْدِيَّ الْمُتَمَدِّدَةَ فَأَمْلُؤُهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدْ بِمَا فَعَلَتْهُ الْكَرَمُ وَالسَّعَةِ ،

ولأنما أرادت المنّ والسَّمْعَة ؛ فإذا اهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بُغْيَتِهِ
من إعلان قِضِّتها ، وفاز بمراده من ذخائر حَسَنَتِها ، إن شاء الله .

وأمره أن يُصادقَ قَهَّارِمَةَ الدُّورِ ومُدَبِّرِيهَا ، ويرافقَ وكلاءَ المطامخِ وحَمَالِيهَا ؛ فإنهم
يَمْلِكُون من أصحابهم أزمّةَ مطاعِمِهِمْ ومشارِبِهِمْ ، ويضعونها بحيث يُحبُّون من أهل
مُودَاتِهِمْ ومعارِفِهِمْ ؛ وإذا عدت هذه الطائفةُ أحداً من الناس خليلاً من خلانِها ،
وَأَتَّخَذَتْهُ أَخاً من إخوانها ؛ سَعِدَ بمرافقَتِها ، ووَصَلَ إلى محابّة من جِهاَتِها ، ومأربه
في جنباتِها .

وأمره أن يتعهّد أسواقَ المُسَوِّقِينَ ، وموَاسِمَ المُتَبَايعِينَ ؛ فإذا رأى وَظِيفَةً قد زيدَ
فيها ، وأطعمَةً قد احتشدَ مُشْتَرِيهَا ؛ اتَّبَعَهَا إلى المقصدِ بها ، وشيَّعَهَا إلى المنزلِ
الحاوي لها ؛ وأستعلم مِيقَاتَ الدَّعْوَةِ ، ومن يحضرها من أهل النِّسيانِ والمُروءِ ؛
فإنه لا يخلو فيهم من عارفٍ به يرَاعِي وقتَ مَصِيرِهِ إليها لِيَتَّبِعَهُ ، ويَكُنَّ له لِيَصْحَبَهُ
ويَدْخُلَ مَعَهُ ؛ وإن خلا من ذلك آخِطَطَ بِزُمرِ الدَّاخِلِينَ ، وعُصِبَ الرَّاحِلِينَ ؛
فإنه هو إلا أن يَتَجَاوَزَ عَتَبَ الأبوابِ ، ويَخْرُجَ من سُلْطَانِ البَوَايِنِ والمُجَابِ ؛ حَتَّى
يَحْصُلَ حَصُولاً قَلَّ ما حَصَلَ [عليه] أحدٌ قَبْلَهُ فانصرف عنه إلا ضليعاً من الطَّعَامِ ،
بَرِيقاً من المُدَامِ ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يَنْصَبَ الأَرْصَادَ على مَنَازِلِ المُغَنِّيَّاتِ والمُغَنِّينَ ، ومَوَاطِنِ الأَبْلِيَّاتِ (؟)
والمُحَنَّنِينَ ؛ فإذا أتاه خبرُ جَمْعِ يَضْمُهُمْ ، ومَادِيَةِ تَعَمُّهِمْ ؛ ضَرَبَ إليها أعناقَ إِيْلِهِ ،
وَأَنْضَى نَحْوَهَا مَطَايَا خَيْلِهِ ؛ وَحَمَلَ عليها حَمَلَةَ الحَوْتِ المُتَلَقِّمِ ، والثُّغْبَانِ المُتَلَسِّمِ ؛
وَاللَّيْثِ الهَاصِرِ ، والعُقَابِ الكَّاسِرِ ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يَتَجَنَّبَ بِجَمَاعِ العَوَامِّ المُقِلِّينَ ، ومَحَافِلِ الرِّعَاعِ المُقْتَرِينَ ؛ وأن لا يَنْقُلَ
إليها قَدَمَا ، ولا يُغْفِرَ لِمَا كَلِمَهَا قَسّاً ؛ ولا يَلْقَى في عَتَبِ دُورِهَا كَيْسَانَا ، ولا يَعدُّ الرَّجُلَ

منها لإنسانا ؛ فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضِيقُ النُّفُوسِ والأَحْلَامِ ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِخْخَافٌ بها يُوسَمُ ، وإِزْرَافُهُ بِمُرُوءَةِ الْمُتَطَفِّلِ يُوصَمُ ؛ والتَّجَنُّبُ لها
أُحْرَى ، والأَزْوَارُ عنها أَجْحَى ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَحْزَرَ الْخَوَانَ إِذَا وُضِعَ ، والطَّعَامَ إِذَا نُقِلَ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
والتَّقْرِيبِ ، وَالبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ ؛ عَدَدَ الْأَلْوَانِ فِي الكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ ، وَافْتِنَانَهَا فِي الطَّيِّبِ
وَاللَّدِّ ؛ فَيُقَدِّرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَشْبَعَ مَعَ آخِرِهَا ، وَيَتَمَتَّى مِنْهَا عِنْدَ آتِهَا ؛ وَلَا يَقُوتهُ
النَّصِيبُ مِنْ كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا ، وَلَا يُحِطُّهُ الْحِطُّ مِنْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَنْ أَحْسَنَ قِلَّةَ
الطَّعَامِ ، وَعَجَزَهُ عَنِ الْأَقْوَامِ ؛ أَمَعَنَ فِي أَوَّلِهِ إِمْعَانَ الْكَيْسِ فِي سَعَتِهِ ، الرَّشِيدُ فِي أَمْرِهِ ،
الْمَالِي لِبَطْنِهِ ؛ مِنْ كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ ، وَخَبِيثٍ وَطَيِّبٍ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَلِمَ مِنْ
عَوَاقِبِ الْأَنْعَمَارِ الَّذِينَ يَكْفُونَ تَطَرُّفًا ، وَيُقِلُّونَ تَأَدُّبًا ؛ وَيُظَنُّونَ أَنَّ الْمَادَّةَ تَبْلَغُهُمْ
فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ ، وَتَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى غَايَةِ سَعْيِهِمْ ؛ فَلَا يَلْبَثُوا أَنْ يَنْجَلُوا نَجْمَةَ الْوَائِقِ ،
وَيَنْقَلِبُوا بِحَسْرَةِ الْخَائِبِ ؛ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ ، وَعَصَمَنَا مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ ، وَيُغَالِطَ حِسَّهُ ؛ وَيَضْرِبَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَلْحَقُهُ صَفْحًا ،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْحًا ، وَيَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عَنِ الْفَحْشَا ؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْرَةُ فِي حَلْقِهِ ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فِي الْوُصُولِ إِلَى حَقِّهِ ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فِي رَأْسِهِ ، صَبَرَ عَلَيْهَا لِمَوْقِعِ
أَضْرَاسِهِ ؛ وَإِنْ لَقِيَهِ لَاقٍ بِالْجَفَاءِ ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ وَالصَّفَاءِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَجَعَ الْأَبْوَابَ ،
وَخَالَطَ الْأَسْبَابَ ؛ وَجَلَسَ مَعَ الْحُضُورِ ، وَآمَتَرَجَ بِالْجُمْهُورِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ الْمُنْكَرُ
لَأَمْرِهِ ، وَيَمُرَّ بِهِ الْمُسْتَغْرِبُ لَوَجْهِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَدَمَّ ، وَإِنْ كَانَ قَظًّا
غَلِظًا هَمَّهُمْ وَتَكَلَّمَ ؛ وَتَجَنَّبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُخَاشَنَةَ ، وَاسْتَعْمَلَ مَعَ الْمُخَاطَبِ لَهُ الْمُلَاطَنَةَ ؛
لِيُبَرِّدَ غَيْظَهُ ، وَيَقْلِلَ حَدَّهْ ؛ وَيَكْفِ غَرَبَهُ ، وَيَأْمَنَ شَغْبَهُ ؛ ثُمَّ إِذَا طَالَ الْمَدَى

تكررت الالتحاط عليه فعرف ، وأنست النفوس به فألف ؛ ونال من المحال المجتمع عليها ، منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهمٍ ودرأيه ، وعقلٍ وحصافة ؛ طفل على وليمه ، لرجل ذي حالٍ عظيمه ؛ فرمقته فيها من القوم العيون ، وصرفت بهم فيه الظنون ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعي إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرفتني وعرفته نفسي . فحى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك : أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فإتاك تلك الزيادة لى ولأمثالى ، وبها يستظهر لمن جرى مجراى ، وهى رزقٌ لنا أنزله الله على يدك وبك ، فقال له : كرامةٌ ورُحبا ، وأهلا وقربا ؛ والله لا جالسٌ إلا مع عليّة الناس ووجوه الجلساء ، إذ أطرفت فى قولك ، وتفننت فى فعلك . فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به ، ويقتفى طريقه ، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارشبات المتفدّة للسدد ، المقوية للمعد ؛ المشبهة للطعام ، المسهلة لسبل الانهضام ؛ فإنها عماد أمره وقوامه ، وبها انتظامه وألئامه ؛ إذ كانت تعين على عمل الدعوتين ، وتنبض فى اليوم الواحد الأكلتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكاكب الذى يقط أقلامه ، والجندى الذى يصقل حسامه ؛ والصانع الذى يحدد آلته ، والماهر الذى يصلح أدواته ، إن شاء الله .

هذا عهد عليك بن أحمد إليك ، وحجته لك وعليك ؛ لم يالك فيه إرشاداً وتوقيفا ، وتهديداً وتثقيفا ؛ وبعثاً وتبصيرا ، وحنّاً وتذكيراً ؛ فكن بأوامره مؤتمراً ، وبزواجره مُزديحراً ؛ ولسومه متبعا ، وبحفظها مضطلعا ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،
وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلّق الغرض
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لغةً وأصطلاحاً) .

أما معناه لغةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مقدّرة بأثنى عشر ميلاً ، واحتجّ له
الجوهرى بقول مُزَيَّد يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، * وَنَاقَتِي النَّاحِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرُهَا فِي الْبَرِيدِ . وقد قدّره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة
فَرَاسِخَ ، وَالْفَرَسُ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ ، وَالْمِيلُ ثَلَاثَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ بِالْهَاشِمِيِّ ، وَهُوَ أَرْبَعَةٌ
وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرَ إِحْدَاهَا لِبَطْنِ الْأُخْرَى ،
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعَرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَغِيلٍ أَوْ يَرْذُونٍ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المُرْتَب ، يقال : حُجِلَ فلانٌ على البريد .
قال : ويُطْلَقُ أيضًا على الرسولِ بريدٌ .

ثم اختلف فيه فقيل : إنه عربيٌّ . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مُشتَقٌّ من
بَرَدْتُ الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أَبْرَدْتُهُ إذا أرسلته . وقيل : من بَرَدَ
إذا ثَبَتَ ، لأنه يأتي بما تَسْتَقِرُّ عليه الأخبار ، يقال : * اليومَ يومٌ باردٌ سَمُومُهُ *
أى ثَابِتٌ .

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معرَّبٌ . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
”النهاية في غريب الحديث“ : وأصله بالفارسية بريدة دم ، ومعناه مَقْصُوص
الذنب . وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قَصَّوْا
ذنبه ، ليكون ذلك علامةً لكونه من بغال البريد . وأنشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كُلِّ مَقْصُوصِ الذَّنَابِ مُعَاوِدٍ * بريدَ السرى بالليل من خيلٍ برِّبراً .

الأمم — الثاني

(أَوَّلُ من وَضَعَ البريدَ وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في ”التعريف“ : أن البريد كان موجوداً في عهد
الأكاسرة من ملوك الفرس ، والقيصرة ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أظن أنه
إلا على القدر المحذور ، إذ كانت حكمتهم تأبى إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه ”الأوائل“ : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في ”التعريف“ :

وذلك حينَ استقرَّتْ له الخلافةُ ، وماتَ أميرُ المؤمنينَ على رضى الله عنه ، وسَلَّمْ له ابنُه الحسنُ عليه السلام ، وخلا من المنازع ، فوضَعَ البريدُ لتُسْرِعَ إليه أخبارُ بلاده من جميع أطرافها ، فأمرَ بإحضارِ رجالٍ من دَهَاقينَ الفُرسِ وأهلِ أعمالِ الرُّومِ وعرفَهم ما يُريدُ ، فوضَعوا له البريدَ . قال : وقيل : إنما فُعِلَ ذلكَ زَمَنَ عَبْدَ الملكِ ابنِ مروانَ حينَ خلا وَجْهُهُ من الخَوارجِ عليه : كَعَمْرِو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ ، وعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، ومُضْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، والمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ .

والذى ذكره العسكرى : أن عَبْدَ الملكِ إنما أَحْكَمَهُ . وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لابْنِ الدغيدغة : وَلَيْتَكَ مَا حَصَرَ بَابِي إِلَّا أَرْبَعَةً : الْمُؤَدَّنَ ، فَإِنَّهُ دَاعَى اللَّهِ تَعَالَى فَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ . وَطَارِقَ اللَّيْلِ ، فَشَرُّ مَا آتَى بِهِ وَلَوْ وَجَدَ خَيْرًا لَنَامَ . وَالْبَرِيدَ ، فَتَى جَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَلَا تَحْجُبُهُ ، فَرُبَّمَا أَفْسَدَ عَلَى الْقَوْمِ سَنَةً حَبَسَهُمُ الْبَرِيدُ سَاعَةً . وَالطَّعَامَ إِذَا أَدْرَكَ ، فَأَتَفَحَّ الْبَابَ وَأَرْفَعَ الْحِجَابَ وَخَلَّ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ الدُّخُولِ . ثُمَّ قَالَ : وَيَذَكُرُ هَذَا الْكَلَامَ عَنْ زِيَادٍ أَيْضًا .

قال في "التعريف" : وكان الوليدُ بْنُ عَبْدِ الملكِ يحملُ عليه الفُسَيْفِسَاءَ وهى الفِصُّ المذهبُ من القُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى دِمَشْقَ ، حَتَّى صَفَحَ مِنْهُ حِيْطَانُ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِهَا ، وَمَسَاجِدَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْقُدْسِ .

قال : ثم لم يَزَلْ البريدُ قائمًا ، والعملُ عليه دائمًا ، حَتَّى آنَ لِبِنَاءِ الدَّوْلَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ أَنْ يَنْقُضَ ، وَلِحَبْلِهَا أَنْ يَنْتَكِثَ ، فَانْقَطَعَ مَا بَيْنَ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ ، لِانْتِصَافِ الْوُجُوهِ إِلَى الشَّيْعَةِ الْقَائِمَةِ بِالدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ . وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى انْقَضَتْ أَيَّامُ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ آخِرِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَمَلَكَ السَّفَاحُ ، ثُمَّ الْمَنْصُورُ ، ثُمَّ الْمَهْدِيُّ ، وَالْبَرِيدُ لَا يُسَدُّ لَهُ سَرَجٌ ، وَلَا تُلْجَمُ لَهُ دَابَّةٌ . ثُمَّ إِنَّ الْمَهْدِيَّ أَغْرَى ابْنَهُ هُرُونَ الرُّشَيْدَ الرُّومَ ، وَأَحَبَّ أَنْ لَا يَزَالَ عَلَى عِلْمٍ قَرِيبٍ مِنْ خَبْرِهِ ، فَرتَّبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

مُسْكِرَ أَبِيهِ بُرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِيَ مُدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِحْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلدَّيْنِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَبَّنَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالَ فِي الْمَرَكَزِ ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبُرْدُونِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعَذَبَهُ وَاسْتَبْرَدَهُ وَاسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَعِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلَ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ الْطَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَازَ ، فَأَتَى الْمَأْمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعْجَبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أُمْنِيَّتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَذُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأْمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمِيَ حَادَّةً كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصْدِهِمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهِمْ عَلَى بَغْتَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمُّ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ اخْتِلَافُ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجاة ، وأعدت له النجب المتخبة .
 ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان بني أيوب إلى انقراض دولتهم . وتبعها على ذلك
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملة الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
 ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
 ووزيراً ، وقاضياً ، و كاتباً للإنشاء .

قال : وكان عمي صاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، آكدتها مواسلته بالأخبار
 وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبينني كل ليلة إلا على
 خبر [ولا تصبني إلا على خبر ^(١)] فافعل ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه فحسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكنت أنا
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
 وهو جناح الإسلام الذي لا يخص ، وطرف قادمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
 غشي البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر ، وفتح دمشق وخرّبها وحرّقها
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر
 الممالك الشامية . ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل ، ورماها
 بعد الحلي بالعطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعقت آثاره ، وصار إذا
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
 ركب البريد على فرس له ، يسير بها الهويناء سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

الأمـر الثالث

(بيان معالم البريد)

اعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، وأشتقاق أسمائهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مبرد يعنى أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشا مزججا ماصورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر ماصورته: «عز مولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شربة من حرير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشربة خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطى لوحا من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشربة خلف ظهره علم أنه بريدي. وبواسطة

ذلك تُذَعِنُ له أَرْبَابُ الْمَرَآكِرِ بِتَسْلِيمِ خَيْلِ الْبَرِيدِ . وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ
وَيَعُودَ ، فَيُعِيدُ ذَلِكَ اللَّوْحَ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ .

وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ بِدِمَشْقَ وَحَلَبَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ ،
لَا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكِتَابَةِ بِحُلِّ ضَرْبِ اللَّوْحِ . فَإِنْ كَانَ بِدِمَشْقَ
كُتِبَ : «ضُرِبَ بِالشَّامِ» . وَإِنْ كَانَ بِحَلَبَ كُتِبَ : «ضُرِبَ بِحَلَبَ الْحَرُوسَةِ»
وَكَذَلِكَ بَاقِي الْمَمَالِكِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكير البريد

وهي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغير خيل البريديَّة فيها فرساً بعد
فرس ، قال في "التعريف" : وليست على المقدار المُقَدَّر في البريد المُحرَّر ، بل هي
مُتَفَاوِئَةُ الْأَبْعَادِ ، إِذْ أَبْجَلَّتِ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ : تَارَةً لُبْعِدِ مَاءٍ ، وَتَارَةً لِلْأُنْسِ بِقَرْيَةٍ ،
حَتَّى إِنَّكَ لَتَرَى فِي [هَذِهِ] الْمَرَآكِرِ الْبَرِيدَ الْوَاحِدَ بِقَدَرِ بَرِيدَيْنِ . وَلَوْ كَانَتْ عَلَى
التَّحْرِيرِ [الَّذِي عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ] لَمَّا كَانَ تَفَاوُتٌ . وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بْنَ
فَضْلِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي "التعريف" مَا أَرَبْنِي فِي ذَلِكَ عَلَى الْمَقْصُودِ وَزَادَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ
أَدْرَى وَأَدْرَبُ . وَهَآنَا أَذْكَرُ مَا ذَكَرَهُ ، مَوْصَحًا لِمَا يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى التَّوْضِيحِ ، مَعَ
الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ وَتَقْرِيبِ التَّرْتِيبِ .

وَيَشْتَمِلُ عَلَى سَنَةِ مَقَاصِدَ :

المقصود الأول

(في مَرَكِرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ ، وما يتفرع عنه من المَرَاكِرِ ، وما تَنْتَهِي إليه مَرَاكِرُ كُلِّ جِهَةٍ)

إِعلم أن الذي يتفرَّعُ عن مَرَكِرِ الْقَلْعَةِ وَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ أَرْبَعُ جِهَاتٍ ، وهى : جِهَةُ قُوصَ من الوجه القبلى وما يَتَّصِلُ بِذلك من أُسْوَانَ وما يليها من بلاد النوبة ، وعِيْدَابَ وما يليها من سِوَاكِين . وَجِهَةُ الإسْكَندَرِيَّةِ من الوجه البحرى . وَجِهَةُ دِمِيَّاطَ من الوجه البحرى أيضا ، وما يتفرع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية .

فأما مَرَاكِرُ قُوصَ وما يليها : فمن مَرَكِرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة ، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحِيزَةِ ، وهى قَاعِدَةُ الأَعْمَالِ الْحِيزِيَّةِ ، وقد تقدَّم الكلام عليها فى الكلام على بلاد المملكة فى المقالة الثانية . ثم منها إلى زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْنَ ، وهى قَرْيَةٌ من عَمَلِ الْحِيزَةِ . قال فى "التعريف" : والمَرَكِرُ الآنَ بِمَنْيَةِ الْقَائِدِ وهى على القُربِ من زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْنَ المذكورة ، ثم منها إلى وَنَا وهى بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْبَهَنَسِيِّ ؛ ثم منها إلى دَهْرُوطَ وهى بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْبَهَنَسِيِّ أيضا . ثم منها إلى أَقْلُوسَنَا ، وهى بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيِّينَ . ثم منها إلى مُنِيَّةِ بَنِي خَصِيبٍ ، وهى مَدِينَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وقد تقدَّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وهى قَاعِدَةُ بِلَادِهَا ، وقد تقدَّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى ذِرْوَةِ سَرْبَامَ وهى بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيِّينَ على قِمِّ الْخَلِيجِ الْيُوسُفِيِّ الْوَاصِلِ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْفَيُومِ ، وتعرف بِذِرْوَةِ الشَّرِيفِ ، إضافةً إِلَى الشَّرِيفِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ تَغَلَبَ الَّذِى كَانَ عَصَى بِهَا فى زَمَنِ الظَّاهِرِ بَيْرَسَ ، وَسَمَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمَلِكِ حَتَّى كَادَهُ الظَّاهِرُ وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَشَقَّهْ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَبِهَا

(١) فى معجم البلدان لياقوت : قَلُوسَنَا .

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَقْلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسَيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسَيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِمَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسَيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكَرِ عَلَى صَفَةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاغَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاغَةُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسَبُورَةِ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسَبُورَةُ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرَجَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهُمَا مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرِي وَيُسَمَّى حَانَ دَنْدَرِي ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفًى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكُزُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ الثُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْهَجْنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الثُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانٍ فَقَطَّطَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قِفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانٍ فَقَطَّطَ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لَيْطَةً عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانِ ، بِهِ عَيْنٌ تَتَّبَعُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِيحَ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به عين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهى لا تريد ولا تنقص . ثم منها إلى حميثة حيث قبر سيدى أبى الحسن الشاذلى ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عيذاب ، وهى قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم فى الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام يسير الأتقال . على أنه فى ”مسالك الأبصار“ قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها فى بلاد عرب يُسمون بنى عامر إلى سواكن ، وهى قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكُتِبَ السلطان تنتهى إليه ، على ما تقدم ذكره فى الكلام على المكاتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها فى طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربى ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهى قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهى قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرانة^(١) . ثم منها إلى طيلاس وهى بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف براوية مبارك . قال فى ”التعريف“ : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهى قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحرى ، وقد تقدم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى لوفين وهى قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة فى وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهى من مَرَكز القلعة إلى مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمال القَلْيُوبِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ مَنُوف العُلَيَّا ، وهى قَاعِدَةُ الأعمال المَنُوفِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المَحَلَّة المعروفة بِالْمَحَلَّةِ الْكُبْرَى ، وهى قاعدة الأعمال الْغَرْبِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . وقد وَهَمَ فى " التعريف " فساها مَحَلَّة المَرْحُومِ بِلْدَةٍ من بلاد الْغَرْبِيَّة غيرها . ثم منها إلى النَحْرِيَّة ، وهى مَدِينَةُ مَنْ عَمِلَ الْغَرْبِيَّة . ثم منها إلى الإسكَنْدَرِيَّة .



وأما الطريق إلى دِمِيَاط وَغَزَّة ، فمن مَرَكز القلعة إلى سِرْيَاقُوس ، وهى بلدة من ضَوَاحى القاهرة ، وليس المَرَكز فى نَفْسِ البَلَد ، بل بالقرية المُسَجَّدة بِجَوَارِ الخَنْقَاهِ النَّاصِرِيَّة التى أَنشأها السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ سِرْيَاقُوس . قال فى " التعريف " : وكان قبل هذا بالعش ، وكان طويل المدى فى مكان مُنْقَطِع ، وكانت الْبَرِيدِيَّة لا تَزَالُ تَتَشَكَّى مِنْهُ ، فَصَلَحَ بِنَقْلِهِ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ لِأُمُورٍ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْخَنْقَاهِ النَّاصِرِيَّةِ وَمَا يَوْجَدُ فِيهَا ، وَأَنْسَهُ بِمَا حَوْلَهَا [لكفى] . ثم منها إلى بَرْ الْبَيْضَاء ، وهى مَرَكزُ بَرِيدٍ مُنْفَرَدٍ لَيْسَ حَوْلَهُ سَاكِنُونَ . ثم منها إلى مَدِينَةِ بُلْبُيْسِ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الشَّرْقِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى " التعريف " : وهى آخِرُ الْمَرَكَزِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وهى التى تُسْتَرَى خِيَاهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُّلْطَانِيَّةِ وَيُقَامُ لَهَا السُّوَّاسُ وَتَصْرَفُ لَهَا الْعُلُوفَاتُ . ثم منها إلى السَّعِيدِيَّة . ثم من السَّعِيدِيَّةِ إِلَى أَشْمُومِ الرُّمَّانِ قَاعِدَةِ بِلَادِ الدَّقْهَلِيَّةِ وَالْمُرْتَاخِيَّةِ ، وقد تقدّم ذكرها فى المقالة الثانية . ومنها إلى دِمِيَاط وَمَنْ أَرَادَ غَزَّةَ . وقد تقدّم أَنَّ مَدِينَةَ بُلْبُيْسِ هِيَ آخِرُ الْمَرَكَزِ السُّلْطَانِيَّةِ . ثم السَّعِيدِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بِهَا مَقَرَّةٌ عَلَى عُزْبَانِ ذَوِي إِقْطَاعَاتٍ، عَلَيْهِمْ خِيُولٌ مُوظَّفَةٌ يَحْضُرُهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هَلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَكَزِ، وَتَسْتَعِيدُهَا فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِي غَيْرُهَا، وَمِنْ هُنَاكَ سُمِّيَتِ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التعريف" :
وَعَلَيْهِمْ وَالْ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَصْحَابِ النَّوْبَةِ وَيُدَوِّغُهَا بِالْدَّاعِجِ السُّلْطَانِيِّ . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَجِدُّ فَهِيَ قَائِمَةٌ ، وَمَتَى أَكْثَرَى أَهْلُ نَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَدَتْ الْمَرَكَزُ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَهْلُ وَفِي خَيْلِ الْمُنْسَلِخِ قُوَّةٌ، لَا سِيَّامًا وَالْعَرَبُ قَلِيلَةُ الْعَلَفِ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَرَكَزِ السَّعِيدِيَّةُ الْمَقْدَمُ ذِكْرُهَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْخَطَّارَةِ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَبْرِ الْوَالِي . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ اسْتَجِدَّ بِهِ أَثْنِيَّةٌ وَأَسْوَأُ وَبَسَاتِينَ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ قَرْيَةٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّالِحِيَّةِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قَالَ فِي "التعريف" : وَهِيَ آخِرُ مَعْمُورِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَرْ عَفْرَى ، وَإِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ يَجْلِبُ الْمَاءُ مِنْ بَرْ وَرَاءَهُ . وَمِنْهَا إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ وَكِيلُ الْخَاصِّ بَنَى بِهَا خَانًا وَمَسْجِدًا وَمِثْدَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَةً ، فَتَهَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مِنْ يُجَدِّدُهُ ، وَبَقِيَتِ الْمِثْدَنَةُ خَاصَّةً ، وَرُتِبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقُصَيْرُ يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الْجَسْرِ الْحَارِيِّ تَحْتَهَا فَوَاضِلُ مَاءِ النَّيْلِ أَوْ أَنَّ زِيَادَتَهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى الرَّمْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبُوة . قَالَ فِي "التعريف" : وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بِنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ ، وَيُجْلِبُ الْمَاءَ إِلَيْهَا مِنْ بَرْ وَرَاءَهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَرَابِيِّ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بِهَا تُؤْخَذُ الْمُرْتَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

وهناك رَمْلٌ بالطريق يُخْتَمُ في الليل ويُحَفَظُ ما حوله بالعُرَبان ، حتى لا يَمُرَّ أَحَدٌ لَيْلًا . فيكونُ من القاهرة إلى قَطِيَا اثْنَا عَشَرَ بَرِيدًا . ثم منها إلى صَيْدِيَّة نَخْلَةٍ مَعْن . قال في ” التعريف “ : ومن الناس من يَقْتَصِرُ على إحدى هذه الكلمات في تسميتها . ثم منها إلى المُطَيِّب ، ثم منها إلى السَّوَادَةِ . قال في ” التعريف “ : وقد حُوِّلَتْ عن مكانها فصار المُسَافِرُ لا يحتاج إلى تَعْرِيجٍ إليها . ثم منها إلى الوَرَادَةِ ، قال في ” التعريف “ : وهى قريةٌ صَغِيرَةٌ بها مَسْجِدٌ على قَارِعَةِ الطريق ، بناه المَلِكُ الأَشْرَفُ « خَلِيل » بن المنصور قَلَاوُون تَعَمَّده الله برحمته ، حَصَلَ به الرِّقُّ بِمِيتِ السَّفَارَةِ به . قال : وقد كان نَخْرُ الدِّين كَاتِبُ المَالِكِ بَنَى إلى جَانِبِهِ خَانًا فَبِيعَ بَعْدَهُ . ثم منها إلى بئر القَاضِي . قال في ” التعريف “ : والمدى بينهما بَعِيدٌ جِدًا يَمْلِكُهُ السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال في ” التعريف “ : وقد أَحْسَنَ كَرِيمُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللهُ بَعْمَلِ سَاقِيَةِ سَبِيلٍ به وَبِنَاءِ خَانٍ حَصِينٍ فِيهِ يَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ أَجْلَاءِ الْمَسَاءِ ، وَيَنَامُ فِيهِ آمِنًا مِنْ طَوَارِقِ الْقَرَنْجِ . ثم منها إلى الخَرْبَةِ ، وبها سَاقِيَةٌ وَخَانٌ ، بناهما نَخْرُ الدِّين كَاتِبُ المَالِكِ ، حَصَلَ به من الرِّقِّ وَالْأَمْنِ مَا بِالْعَرِيشِ . قال في ” التعريف “ : وهذا آنَحَرُ مَرَاكِرِ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ . ثم مِمَّا يَلِيهَا خَيْلُ السُّلْطَانِ ذَوَاتُ الإِصْطِبَلَاتِ وَالْحَدَمُ تُشْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وَتُعَلَّفُ مِنْهُ ، وَأَوَّلُهَا الزَّعْفَرَةُ ، ثم منها إلى رَفْعٍ ، ثم منها إلى السَّلْقَةِ . قال في ” التعريف “ : وكان قبل هذا المَرْكُزُ بَيْتُ طَرَنْطَايَ حَيْثُ الْجُمُيزُ وَيُسَمَّى سَطْر . قال : وكان في ثَقَلِهِ إلى السَّلْقَةِ الْمُصَلَّحَةُ . ثم منها إلى الدَّارُومِ ، ثم منها إلى غَزَّةَ . يكون من قَطِيَا إلى غَزَّةَ أَحَدَ عَشَرَ مَرْكَزًا .

المقصود الثاني

(في مراكز غزّة وما يتفرّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتفرّع عنه مراكز ثلاث جهات، وهى : الكرك، ودمشق، وصفد.

فأما الطريق إلى الكرك : فمن غزّة إلى ملاقس وهو مركز بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك.

وأما مراكز دمشق : فمن غزّة إلى الحنين، وهو مركز بريد، ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون : تدارس، وبها خان بناه ناصر الدين خزندار تنكر. قال في "التعريف" : وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فنقل وكانت المصلحة في نقله، ثم منها إلى قطرى. قال في "التعريف" : وهو مركز مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصرى، وبه بئر سبيل وآثار له. قال : وقد حصل به رفق عظيم^(١) بعد ما بين [لُد وبيت دارس] أو ياسور، ثم منها إلى لُد، ثم منها إلى العوجاء. قال في "التعريف" : وهى زوراء عن الطريق، ولو نقلت منه لكان أرفق، ثم منها إلى الطيرة. قال في "التعريف" : وبها خان كان قد شرع في بنائه ناصر الدين دوادار^(١) تنكر ثم كل بيد غيره. ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى فحمة [ثم منها إلى جينين]. قال في "التعريف" : وهى على صفد، يعنى القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار، حسن البناء جليل النفع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحصن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين.

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١).

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ مِنْ جِئِينَ إِلَى ذَرْعِينَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" :
 وَمِنْهَا يَنْزِلُ عَلَى عَيْنِ جَالُوتَ ، وَهُوَ مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ حَصَلَ بِهِ أَعْظَمُ الرِّفْقِ وَالرَّاحَةِ مِنْ
 الْعَقَبَةِ الَّتِي كَانَ [يُسْلِكُ] ^(١) عَلَيْهَا بَيْنَ جِئِينَ وَبَيْسَانَ مَعَ طُولِ الْمَدَى . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى
 بَيْسَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَجَامِعِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَهُوَ مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ عِنْدَ جِسْرِ
 سَامَةِ ، كُنْتُ أَنَا الْمَشِيرَ بِهِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ لِبُعْدِ
 مَا كَانَ بَيْنَ بَيْسَانَ وَزَحْر . قَالَ : وَقَدْ كَانَ الطَّرِيقُ قَدِيمًا مِنْ بَيْسَانَ عَلَى طَبِيعَةِ أَسْمَ ،
 ثُمَّ إِلَى أَرَبْدَ ، وَكَانَتْ غَايَةً فِي الْمَشَقَّةِ ، إِذْ كَانَ الْمَسَافِرُ مَا بَيْنَ بَيْسَانَ وَطَبِيعَةِ أَسْمَ يَحْتَاجُ
 إِلَى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وَبِهَا مَعْدِيَةٌ لِلْفَارِسِ دُونَ الْفَرَسِ ، وَإِنَّمَا يَعْبُرُ فِيهَا الْفَرَسُ
 سِبَاحَةً ، وَكَانَ فِي هَذَا مِنَ الْمَشَقَّةِ مَا لَا يُوصَفُ ، لَا سِيَّمَا أَيَّامَ زِيَادَةِ الشَّرِيعَةِ وَكَلْبِ
 الْبَرْدِ : لَقَطَعَ الْمَاءَ وَمُعَانَاةَ الْعُقَابِ الَّتِي لَا يَسْقُهَا جَنَاحُ الْعُقَابِ . وَلَكِنْ الْأَمِيرُ
 الطَّنْبُغَا كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَقَلَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ وَجَعَلَهَا عَلَى الْقُصَيْرِ حَيْثُ هِيَ الْيَوْمَ ،
 وَتَقَلَّ الْمَرْكَزَ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى زَحْر حِينَ غَرِقَ بَعْضُ الْبَرِيدِيَّةِ الْجَلِيلِينَ بِالشَّرِيعَةِ . ثُمَّ مِنْ
 الْمَجَامِعِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى زَحْر ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرَبْدَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَفَسَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْجَامِعِ .
 قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَكَانَ قَدِيمًا فِي الْمَكَانِ الْمُسَمَّى بِرَأْسِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا مَلَكَهُ الْأَمِيرُ
 الْكَبِيرُ تَنَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَقَلَّ الْمَرْكَزَ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجَامِعِ ، فَقَرَّبَ بِهِ الْمَدَى
 فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَفَسَ ، وَكَانَ بَعِيدًا فَمَا جَاءَ إِلَّا حَسَنًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّنَمَيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا
 إِلَى غَبَاغِبَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْكُسُودَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ الْحَرُوسَةِ .

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمُوصَّلَةُ إِلَى صَفَدَ : فَهِيَ جِئِينَ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهَا إِلَى تَبْنِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا
 إِلَى [حَطِينِ] ^(١) وَبِهَا قَبْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى صَفَدَ .

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ وَالتَّصْحِيحُ مِنَ التَّعْرِيفِ (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْق وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة
إلى حمص وحماة وحلب، وإلى الرحبة، وإلى طرابلس، وإلى جعبر، ومضيف
ويروت وصيدا وبلبك والكرك وأذرعَات)

أما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْق إلى القَصِير . والذي
رأيتُه في بعض الدساتير أنه من دِمَشْق إلى خان لاجين ، ثم إلى القَصِير . قال
في " التعريف " : ثم من القَصِير إلى القطيفة، ثم منها إلى القسطل . ورأيتُ
في الدُّسُور المذكور أن من القَصِير إلى خان الوالي، ثم إلى خان العروس، ثم إلى
القسطل، ثم منها إلى قارا، ثم منها إلى بريح العطش ويقال فيه البزيج أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مقطوع طريق، وموضع خوف، فبني به قاضي
القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مسجدا وبركة، وأجرى
الماء إلى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل، فبدل الخوف أمنا،
والوحشة أنسا، أثابه الله على ذلك . ثم منها إلى الغسولة، ثم منها إلى شمين،
ثم منها إلى حمص، ثم منها إلى الرستن، ثم منها إلى حماة، ثم منها إلى لطمين،
ثم منها إلى طرابلس، ثم منها إلى المعرة، ثم منها إلى أنقراتا، ثم منها إلى إباد، ثم منها
إلى قنسرين، ثم منها إلى حلب .

وأما طريق الرحبة : فمن القطيفة المقدمة الذكر إلى العطنة . قال في " التعريف " :
وليس بها مركز، وإنما بها خان تفرق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب
إلى جليل، ثم منها إلى المصنع، ثم منها إلى القريتين، ثم منها إلى الحسير، ثم منها
إلى البيضاء، ثم منها إلى تدمر، ثم منها إلى أرك، ثم منها إلى السخنة، ثم منها إلى

قُبَاقِبَ ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في " التعريف " : وهو اليومُ عُطْل . ثم منها إلى الرَّحْبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [إلى القَصَبِ ، ثم منها إلى قَدَسَ] ^(١) إلى أَقْصَارِ ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ ، ثم منها إلى عِرْقَاءَ ، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرٍ وما يليها : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ إلى سَلَمِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْيَدِيدَ ، ثم منها إلى سُورِيَا ، ثم منها إلى الحَصِ ، ثم منها إلى جَعْبَرٍ ، إلى عَيْنِ بَذَالِ ، ثم منها إلى صِهْلَانِ ، ثم منها إلى الْخَابُورِ ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريقُ صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِيحِ الْفُلُوسِ ، ومنه إلى أُرَيْبَةَ ، ومنها إلى لُغْرَانَ ، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق بَيْرُوتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مَيْسَلُونَ ، ومنها إلى زُبْدَانَ ، ومنها إلى الْحَصِينِ ، ومنها إلى بَيْرُوتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مَيْسَلُونَ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ ، إلى جَزِيرَةِ صَيْدَاءَ ، إلى كَرْكِ نُوحَ ، ثم منه إلى بَعْلَبَكَّ . قال في " التعريف " : وآهلم أَنَّ من صَيْدَاءَ إلى بَيْرُوتَ قَدَرُ مَرَكْرَ .

وأما بَعْلَبَكَّ ، فلها طريقان : إِحْدَاهُمَا من خَانَ مَيْسَلُونَ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحَ إلى بَعْلَبَكَّ . والثَّانِيَةُ من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَعْلَبَكَّ .

ومن أَرَادَ من بَعْلَبَكَّ حِمَصَ ، تَوَجَّهَ مِنْهَا إلى الْقَصَبِ ، ثم إلى الْغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، وبعدها شَمْسِينَ ، ثم حِمَصُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وأما طريق الكرك : فمن دِمَشْق - في المراكز المذكورة في الوصول من غَزَّة إلى دِمَشْق - على عَكْس ما تقدّم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البُرج^(١) الأبيض ، ومنها إلى حُسبان ، ومنها إلى [ديباج^(٢)] ومنها إلى [اكرية] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذِرعات ، مَقَرِّ ولاية الولاية بالصفقة القبلية : فمن طفس المقدمة الذّكر إلى أذِرعات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مراكز دِمَشْق إلى كل جهة .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصّل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

المقصود الرابع

(في مركز حلب وما يتفرّع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسنى وما يليهما ، وقلة المسلمين المعروفة بقاعة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فأما الطريق الموصّلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى السّاجور ، ثم منها إلى كلنس^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البرّ الشرقيّ من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أجلّ نفورها^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجلّ فلاح الاسلام ، وعقائل المعاقلة التي لم تفرّج على طول الأيام » فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بهسني وما يليها : فمن حلب إلى السموقة ، ثم منها إلى سسندرا ،^(١)
[ثم منها إلى بيت الفار ^(٢)] ثم منها إلى عيّناب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدخل إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدروب . قال في "التعريف" : وقد استَضَفْنَا نحن (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحيز القريب إلينا منها : قيسارية ودرندة ، وإنما المستقر المعروف أنَّ
آخر حد الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بهسني .

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها : فمن عيّناب المقدمة الذكر إليها ، وهي وسط
الفرات ، وهو خُلْجَان دَائِرَةٌ عاها . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكفتا ، وهي آخر الحد من الطرف الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حلب إلى أرحاب ، ثم منها إلى تيزين ، ثم منها إلى يفرأ ،
ثم منها إلى بقراس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحد مما يلي بلاد
الأرمن . قال : وقد استَضَفْنَا نحن في هذا الحيز ما استَضَفْنَا ، فصار من بقراس
إلى بياض ، وهي أول جيل الأرمن ، ثم من بياض إلى آياس .

وأما طريق جعبر : فمن حلب إلى الجبُول ، ثم منها إلى بالِس ، ثم منها إلى جعبر .
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكز حلب . أما بقايا القلاع ومقار الولايات ،
فمن شعب هذه الطرق ، أو من واحدة إلى أخرى .

(١) في التعريف سسندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مَرَكز طَرَابُلُس وما يتفرّع عنه من المراكز الموصّلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللّاذِقِيَّة : فمن طَرَابُلُس إلى مَرْفِيَّة ، ثم منها إلى يِلْنِيَّاس ، ثم منها إلى اللّاذِقِيَّة ، ثم منها إلى صِهْيُون ، وهي قلعة جليّة كانت دَارَ مُلِك . ثم منها إلى بَلَّاطُنُس . قال في "التعريف" : ومن شاء فمن صِهْيُون إلى بُرْزِيَّة ، وهو حصن سُمِّيَ باسم من عمّره أو عُرف بِمَلِكِهِ ، ومن شاء فمن بَلَّاطُنُس إلى العُلَيْقَةِ أَوَّلِ قِلاع الدَّعْوَةِ ممّا يلي بَلَّاطُنُس ، ثم منها إلى الكَهْف ، ثم منها إلى القُدْمُوس ، ثم منها إلى الخَوَابِي ، ثم منها إلى الرُّصَافَةِ ، ثم منها إلى مِصْيَاف . قال في "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكِز طَرَابُلُس . فأما مَقَارُ الولايات فمن واحدة إلى أخرى ، ثم ذَكَرَ جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة .

قال : فأما من أطراف مَمَالِكنا إلى حَضْرَةِ الأَرْدُو ، حيث هو مُلْكُ بَنِي هُولاكُو ، فلهم مراكز تسمّى خَيْلُ الأَولاق وخَيْلُ الْيَاسَمِ يُحْمَلُ عليها ، لا تُشْتَرَى بِمالِ السُّلْطَان ولا يُكَلَّفُ قَمْنُهَا ، وإِنَّمَا هِيَ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الأَرْضِ ، نَحْوَ مَرَاكِزِ الْعَرَبِ فِي رَمْلِ مِصْرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

المقصود السادس

(في معرفة مَرَاكِزِ الحِجَازِ الموصّلة إلى مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ والمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا)

سَيَدُنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ ، إِذْ كَانَتْ مِنْ

بِمَنَةِ الطَّرِيقِ الموصّلة إلى بَعْضِ أَقْطَارِ المَمْلَكَةِ)

وَكَمَا ضُبِطَتْ تِلْكَ بِالْمَرَاكِزِ فَقَدْ ضُبِطَتْ هَذِهِ بِالْمَرَاكِزِ . وَعَادَةُ الْحُجَّاجِ أَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْهَا مَرَحِلَتَيْنِ بِسَيْرِ الْأَنْقَالِ ، وَدِيْبِ الْأَقْدَامِ ، [وَيَقْطَعُونَهَا

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة واليَّبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على النَجْبِ مُحْفًا مع الحَدِّ في السَّير فإنه يَقْطَعُهَا في نحو أحد عشر .

ثم أول مَصِيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحَاجِّ، ثم منها إلى البُويْبِ، ثم منها إلى الطَّلَبَاتِ، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلى مرا كع موسى، ثم منها إلى عَجُود، وبها بئر ومَصْنَعُ ماءٍ مُتَسِّعٌ يَمْلَأُ منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادِي القَبَابِ، وهو كثير الرَّمْلِ . ثم منها إلى أول تِيهِ بنى إِسْرَائِيلَ، وهو وادٍ أَفِيحٌ مُتَسِّعٌ . ثم منها إلى العُنُقِ، ثم منها إلى نِخْلٍ، وبها ماء طيِّبٌ . ثم منها إلى جَسَدِ الحَيِّ، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تَمْدِ الحِصَا، ثم منها إلى ظَهْرِ العَقْبَةِ، ثم منها إلى سَطْحِ العَقْبَةِ، وهو عُرْقُوبُ البَغْلَةِ على جانب طَرَفِ بَحْرِ القُلْزُمِ، وفيها ماء طيِّبٌ من حَفَائِرِ . ثم منها إلى حَفْرِ . على جانب طَرَفِ بَحْرِ القُلْزُمِ، وفيها ماء طيِّبٌ من الحَفَائِرِ . ثم منها إلى عَشِّ الغُرَابِ، ثم منها إلى آخِرِ الشَّرْفَةِ، ثم منها إلى مَقَارَةِ شُعَيْبٍ، وبها ماءٌ ومَصْنَعٌ . ثم منها إلى وادِي عَقَّانَ، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّخِيمِ، ثم منها إلى عِيُونِ القَصَبِ، وبه ماءٌ نَابِعٌ وَأَبْحَةٌ قَصَبٍ نَابِتَةٌ فِيهَا . ثم منها إلى المُوَالِحَةِ، وبها ماءٌ فِي آبَارِ . ثم منها إلى المَدْرَجِ، ثم منها إلى سَلَمَى مُجَاوِرِ بَحْرِ القُلْزُمِ، وبها ماءٌ مَلْحٌ . ثم منها إلى الأَثِيالَاتِ، ثم منها إلى الأَزْنَمِ، والنَّاسُ يَقُولُونَ: الأَزْلَمُ بِاللَّامِ بَدَلِ النُّونِ، وبه آبَارُهَا ماءٌ رَدِيءٌ يُطْلِقُ بَطْنَ مَنْ شَرِبَهُ، لا يَسْقَى مِنْهُ غَالِبًا إِلَّا الْجَمَالُ، وَهِيَ نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وادِي عَنَتَرِ . ثم منها إلى الْوَجْهِ، وبه آبَارٌ قَلِيلَةُ الْمَاءِ، وما هو داخل الْوَادِي يَعْزُّ الْمَاءُ فِيهِ غَالِبًا وَلَا يُوجَدُ فِيهِ إِلَّا حَفَائِرُ، وَيَقَالُ : إِنَّهُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِ نَضَبَ مَأْوُهُ، وفيه يَقُولُ بَعْضُ مَنْ حَجَّ مِنَ الشَّعْرَاءِ وَعَزَّ عَلَيْهِ وَجُودُ الْمَاءِ فِيهِ :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ " قَلَّ حَيَاؤُهُ، * وَلَا خَيْرَ فِي "وَجْهِ" بغيرِ حَيَاءٍ!

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكر ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروى ، ثم منه إلى كلخا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادى الثور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منه إلى آخر وادى الثور ، ثم منه إلى رأس السبع وعرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهى النصف والرُّبع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية فى سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب فى الوعر . ثم منها إلى رأس وادى بدر ، وهى منزلة حسنة بها عيون تجرى وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البروة ، ثم منه إلى وسط قاع البروة ، ثم منه إلى رابغ ، وهو مقابل الجحفة التى هى ميقات الإحرام لأهل مصر ، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة ، إذ قد دعا النبى صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله : « وأتقل حمأها إلى الجحفة » فلو مر بها طائر لحم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عقبة السويق ، ثم منها إلى خلص ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسفان ، ثم منها إلى مدرج على ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطن مر ، والعامية يقولون : مرو ، بزيادة واو ، وبه عيون تجرى وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار تحفر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهى الموقف ، وإليها ينتهى سفر الحجاج .

ثم العود فى المنازل المتقدمة الذكر إلى وادى بدر على عكس ما تقدم .

الطريق إلى المدينة النبوية

(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ في المَرَاكِيلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى وَادِي بَدْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى رَأْسِ
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثمَّ مِنْهَا إلى وَادِي بَنِي سَالِمٍ ،
ثمَّ مِنْهُ إلى وَادِي الْغَزَالَةِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى الْفَرَشِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى بَرٍّ عَلِيٍّ ، وبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .
ثمَّ مِنْهَا إلى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْيَنْبُعِ إِلَى رَأْسِ تَقَبٍ عَلِيٍّ عِنْدَ طَرْفِ الْجَبَلِ ، ثمَّ إِلَى
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثمَّ فِي الْمَرَاكِيلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ لِلْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثانى

من الخاتمة فى مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطريق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فى مطاراته

قد تقدم فى الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه فى أواخر
مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة - أنَّ الحمام أَسْمُ جَنَسٍ يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى أَيْمَامٍ والدَّباسِ والقَارِيَّ والفَوَاحِشِ وغيرها، وأنَّ المُتَبَادِرَ
إلى فَهْمِ السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأنَّ أَغْلَاهُ قِيَمَةً وأَعْلَاهُ
رُتْبَةً الحمامُ الرَّسَائِلِيُّ، وهو الذى يَتَّخِذُهُ المُلُوكُ لِحَمْلِ المَكاتبات، ويُعَبَّرُ عنه بـ«الهدى» .
وتقدم هناك الكلام على ذِكْرِ ألوانها على اختلافها، وعدَدِ الرِّيشِ المعتبرة فيها، وهى
رِيشُ أَجْنَحَتِهَا وَأُذُنَيْهَا، وبيان الفرق بين الذَّكَرِ والأنثى، ووصْفَةُ الطائرِ الفَارِهِ،
والفِرَاسَةِ فى نَجَابَتِهِ فى حال صِغَرِهِ، والزَّمَانِ والمكانِ اللاتين بالإفراخ، وما يجرى
بجِرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النَجِيبِ منه من غيره، فأغنى
عن ذِكْرِهِ هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذِكْرُ الاعتناء بهذا الحمام، وأَوَّلِ من أهتمَّ بِشَأْنِهِ،
واعْتَنَى بِأَمْرِهِ، ومن قام به من المُلُوكِ، وَمَسَافَاتِ طَيْرَانِهِ، وما يجرى هذا
المَجْسرَى .

فأما الاعتناء به والأهتمام بسانه - فقد اعتنى به في القديم خلفاء بني العباس :
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لاسيما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في اقتنائه ، ولهجوا
 بذكروه ، وبالفوا في أثمانه ، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تُباع بيضتا الطائر المشهور بالفراة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقائر
 بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الحليل ولا الفقيه
 ولا العدل من اتخاذ الحمام ، والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ،
 والتعت لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبة البكراني قاضي مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بحامات لهم مع
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متجراً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من اعتنى به من الملوك ^(١) [وقله]
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس
 وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالفوا حتى أفردوا له
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تمائم الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاعب القوارس
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أَسْمَاءُ أَعْضَاءِ الطَّائِرِ وَرِيَاشِهِ ، وَالْوُشُومِ الَّتِي تُوسَمُ فِي كُلِّ عُضْوٍ ، وَأَلْوَانِ الطُّيُورِ
وَمَا يُسْتَحْسَنُ مِنْ صِفَاتِهَا ، وَكَيْفِيَةِ إِفْرَاحِهَا ، وَبُعْدِ الْمَسَافَاتِ الَّتِي أُرْسِلَتْ فِيهَا ،
وَذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ نَوَادِرِهَا وَحِكَايَاتِهَا ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى . وَأُظْنُّ أَنَّ كِتَابَ الْقَاضِي
مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ نَتِيجَةٌ عَنْ مُقَدِّمَتِهِ .

وَأَمَّا مَسَافَاتُ طَيْرَانِهِ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الطَّائِرَ الَّذِي يَبِيعُ بِأَلْفِ دِينَارٍ طَارَ مِنْ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَأَنَّ الْحَمَامَ أُرْسِلَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْبَصْرَةِ بِحَضْرَةِ الْقَاضِي
بَكَّارِ قَاضِي مِصْرَ .

وَذَكَرَ ابْنُ سَعِيدٍ فِي كِتَابِهِ ”حَيَاَ الْمَحَلِّ وَجَنَى النَّحْلِ“ أَنَّ الْعَزِيزَ ثَانِيَّ خُلَفَاءِ
الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ ، ذَكَرَ لَوْزِيرَهُ يَعْقُوبَ بْنَ كَلَّسٍ أَنَّهُ مَارَأَى الْقَرَاصِيَّةَ الْبَعْلَبَكِّيَّةَ ،
وَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا . وَكَانَ بِدِمَشْقَ حَمَامٌ مِنْ مِصْرَ وَبِمِصْرَ حَمَامٌ مِنْ دِمَشْقَ ،
فَكَتَبَ الْوَزِيرُ لَوْفَتِهِ بِطَاقَةٍ يَأْمُرُ فِيهَا مَنْ هُوَ تَحْتَ أَمْرِهِ بِدِمَشْقَ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ
الْحَمَامِ الْمِصْرِيِّ ، وَيَعْلَقَ فِي كُلِّ طَائِرٍ حَبَاتٍ مِنَ الْقَرَاصِيَّةِ الْبَعْلَبَكِّيَّةِ ، وَيُرْسِلَهَا إِلَى
مِصْرَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَمِضْ النَّهَارُ حَتَّى حَضَرَتْ تِلْكَ الْحَمَامُ بِمَا عُلِقَ عَلَيْهَا مِنْ
الْقَرَاصِيَّةِ ، فَجَمَعَهُ الْوَزِيرُ يَعْقُوبُ بْنُ كَلَّسٍ وَطَلَعَ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فِي يَوْمِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ
مِنْ أَغْرِبِ الْغَرَائِبِ لَدَيْهِ .

وَذَكَرَ أَيْضًا فِي كِتَابِهِ ”الْمَغْرِبُ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ“ أَنَّ الْوَزِيرَ الْبَازُورِيَّ الْمَغْرِبِيَّ ،
وَزِيرَ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ الْفَاطِمِيِّ وَجَّهَ الْحَمَامَ مِنْ تُونِسَ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ
إِلَى مِصْرَ ، وَالْعَهْدَةُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من الخاتمة فى أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهى من القواعد والطرق، على ما تقدم فى البريد .

أما فى المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرأى
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة
إلى جهات الديار المصرية

قال فى "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدرجيه من مصر إلى قوص
وأسوان وعيذاب . وهذا ظاهر فى أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدرجيه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر فى "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيذاب والإسكندرية
ودمياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزّة

من بروج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،
ثم منها إلى الوردادة ، ثم منها إلى غزّة .

الأبراج الآخذة من غَزَّة ومايتفرع عنها

إعلم أن الأبراج من غَزَّة تتشعب فيها مسارح الحمام إلى غير جهة دِمَشق وإلى جهتها .

فأما غير جهة دِمَشق ، فمن غَزَّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غَزَّة إلى القدس الشريف ، ومن غَزَّة إلى نابلس .

وأما جهة الشام : فمن غَزَّة إلى لُد ، ومن لُد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين . ومن جينين تتشعب المسارح إلى غير جهة دِمَشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غير جهة دِمَشق : فمن جينين إلى صفد . وأما ما إلى جهة دِمَشق : فمن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دِمَشق .

قال في "التعريف" : ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أذرعاء مقر ولاية الولاية بالصفقة القبلية ، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دِمَشق وما يتفرع عنها

تتشعب مسارح الحمام من دِمَشق إلى غير جهة حلب ، وإلى جهتها .

فأما إلى غير جهة حلب : فتسرح من دِمَشق إلى بعلبك ، ومن دِمَشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهة حلب : فتسرح من دِمَشق إلى قارا^(١) ، ثم من قارا^(١) إلى حصص^(١) ،

ثم من حصص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قارة بالهاء .

الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

برج الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى هسن^(١) . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شأن^(١)] مما حوّلها [ثم من القريتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقيب ، ومنها إلى الرجة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقيب ، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقيب ، ثم يسرح على الجناح من قباقيب إلى الرجة^(١)] . قال : وبما ذكرتم ذكر مراكر الحمام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحمام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليتم الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هُجْنِ التَّلْجِ والمرَاكِيبِ الْمُعَدَّةِ لِحَمْلِ التَّلْجِ الذي يحمل
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل التَّلْجِ

إِعلم أَنَّ مَاءَ نَيْلٍ مُضْرِباً كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يُساويه فيه نهر من
الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شِدَّةِ
الْقَيْظِ بها في زَمَنِ الصَّيفِ، وَخُفُوَةِ الهَوَاءِ الذي قد لا يَتَأَتَّى معه تبريدُ الماء، وكان
التَّلْجُ غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوك قد آتت الرِّفاهيةَ مع أَقْندارِها على تحصيلِ
الأشياء العزِيزَةِ، وولَّوهم بِجَلْبِها من الأماكِنِ البعيدَةِ - إكمالاً لحال الرِّفاهيةِ،
وَإِظهاراً لأبهةِ المُلْكِ - دَعاهم كَمالُ الرِّفاهيةِ والأبهةِ إلى جَلْبِ التَّلْجِ من الشام إلى
مصر: لتَبْرِيدِ الماءِ به في زَمَنِ الحَرِّ. على أَنَّ ذلك كان في غيرهم من الملوك التي
لا تَلْجُ بِحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلال العسْكَرِيُّ في كتابه "الأوائل" أَنَّ أَوَّلَ مَنْ حَمَلَ إِلَيْهِ التَّلْجُ
الْحِجَّاجُ بنُ يُوْسُفَ بالعِراقِ . ثم لاعتناء مُلُوكِ مِصرَ بالتَّلْجِ قَرَّروا له هُجْناً تَحْمِلُهُ في البَرِّ
وَسُفْناً تَحْمِلُهُ في البَحْرِ، حتَّى يَصَلَ إلى القلعة المحروسة .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام
قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تَعَمِّده الله
بِرَحْمَتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ في السنة، لا تَزِيدُ على ذلك . قال : ودامت على أيام سُلْطَانِنَا
(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السَّلاطنة الثالثة، وبقيت صَدْرًا منها،
ثم أخذت في التريُّد إلى أن بلغت أحدَ عَشَرَ مَرَّجًا في مملكتي الشام وطَرَابُلُسَ،
ورُبَّمَا زادت على ذلك . قال : وَآخِرُ عَهْدِي بها من السَّبعة إلى الثمانية تُطَلَّبُ
من الشام ولا تُكَلَّفُ طَرَابُلُسُ إلا المساعدة، وكلُّ ذلك بحسَبِ اختلافِ الأوقاتِ
ودَوَاعِي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دُمياطَ في البَحْرَ، ثم يخرج الثلج في النِيلِ إلى ساحل
بِوَلَاقَ، فيُنْقَلُ منه على البغال السلطانية، ويُحْمَلُ إلى الشرايخانة الشريفة، على
ما تقدّم ذكره .

وقد جرت العادة أن المراكب إذا سَفَرَتْ سَفَرًا معها من يتدَرَّكها من تَلَّاجينَ
لمداراتها . ثم الواصلون بها في البَحْرَ يعودون على البريد في البرّ .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهُجْنِ المعدّة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حَدَّثَ في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
وَأَسْتَمَرَ . وقد كان قبل ذلك لا يُجْمَلُ إلا في البَحْرَ خاصّةً . ثم ذكر أن هذه المراكب
من دَمَشَقَ إلى الصَّنَمِينَ، ثم منها إلى بَانِيَّاسَ، ثم منها إلى أَرْبَدَ، ثم منها إلى يَسَّانَ،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غَزَّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قطيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلييس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز ست هجن : خمسة للأحمال ، وهجن للهجان ، تكون كل نقلة خمسة أحمال . وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صفد . ومن الورداء إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مصر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج ، وهي : حريان وتشرين الثاني . وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل نقلة بریدی يتداركه ، ويجهز معه ثلاث خير بجمله ومداراته ، يحمل على فرس بریدی ثان . قال : وأستقر في وقت أن يحمل الثلاث على خيل الولاية .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الثَّلْجَ إِذَا وَصَلَ عَلَى الْمَرَكَبِ وَالْهُجْنِ حَتَّى آتَتْهُ إِلَى الْقَلْعَةِ ، نُحِرَ بِالشَّرَاجِنَاهُ السُّلْطَانِيَّةِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَمَذْكَرَ أَنَّ يُحْمَلُ مِنَ الثَّلْجِ عَلَى الظُّهْرِ مَا يُحْمَلُ ، أَسْتَقَرَّ مِنْهُ خَاصُّ الْمَشْرُوبِ ، لِأَنَّهُ يَصِلُ أَنْظَفَ وَأَمَنَ عَاقِبَةً ، عَلَى أَنَّ الْمُتَسَفِّرِينَ يَأْخُذُونَ الْحَاشِي مِنْهُ بِحَضُورِ أَمِيرِ مَجْلِسٍ وَشَادَّ الشَّرَاجِنَاهُ السُّلْطَانِيَّةِ وَنَحْرَانَهَا . أَمَّا الْمَنْقُولُ فِي الْبَحْرِ فَلَمَّا عَدَا ذَلِكَ . قَالَ : وَلِلْمُجَهِّزِينَ بِهِ مِنَ الْخَلْعِ وَرُسُومِ الْإِنْعَامِ رُسُومٌ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَعَوَائِدُ مُسْتَمَرَّةٌ .

قُلْتُ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ وَاصِلَ الثَّلْجِ فِي كُلِّ نَقْلَةٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تُكْتَبُ بِهِ رَجْعَةٌ مِنْ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ ، وَهَذَا هُوَ وَجْهُ تَعَلُّقِهِ بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع يُرفع النَّارُ في اللَّيْلِ والدُّخانُ في النَّهارِ .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أما كنْ مَرْفَعَةً من رؤوس الجبال تُوقَد فيها النَّارُ ليلاً و[يُثار] الدُّخانُ نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تُعرَف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إنَّ المتجدد بالفترات إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما يُرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدُّخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العدد، وتارة في غير ذلك . وقد أُرصد في كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامع مقررّة كانت لا تزال دارة . قال : وكان ينور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النّصّاح بحجة أمرٍ سوى التّنوير، ويسترون عليهم أهل البلد حباً للملوكة، فترى [ناره أو دُخانُه بحريّة الروم وبالحرف أيضاً، ويُرفع فيهما أوفى إحداهما فيرى]^(١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كل منهما بواى الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرجبة
وقاها الله، ويرفع بها فيرى فى كوائل، ويرفع فيها فيرى فى منطرة قباقب، ويرفع
فيها فيرى فى حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنطرة
أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أرك] وتدمر، ويرفع فيها فيرى
بمنطرة تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنطرة البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها
فيرى بجليجل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى
بشدة العقاب، ويرفع فيها فيرى بمذنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذارا للرايا
وصما للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمناج، ويرفع به
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل
عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة أسم، ثم يرفع بها فيرى بالمنور المعمول بازاء
البريد الذى برأس الجبل المنحدر إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق^(٢)
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها،
ويرفع من هذا المنور الذى برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين،
ثم يرفع منه فيرى بجبل قحمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى
بأطراف أعمال نابلس^(١)] ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصايب لمجدل بابا،
فيرفع منه فيرى بمرکز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال
المطلّة على غزّة، فيرفع بغزّة على أعالي الحدب المعروف بمجدب غزّة، ثم [لأمنور^(١)] لا
إخبار بشأن التتار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مَنَاورٌ تَشَعَّبُ إلى ما نَحْرَجُ عن جَادَةِ الطريق إلى البلاد الآخذة على جَنْبِ جَنُوبًا وَشَمَالًا ، شَرْقًا وَغَرْبًا . أما منذُ أَمَلَحَ اللهُ بين الفِئَتَيْنِ ، وَأَمَّنَ جَانِبَ الْجَهَنِّينِ ؛ فَقَدْ قَلَّ بِذَلِكَ الْأَحْتِمَالُ ، وَصُرِفَ عَنِ الْبَالِ . وهذه المَنَاورُ رُسُومٌ قَدْ عَفَّتْ ، وَجُسُومٌ [أَكَلَتْ شُعْلُ النَّارِ أَرْوَاحَهَا] ^(١) فَانْطَفَتْ .

على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مَنَاورِ طريقِ البيرة ، ومَنَاورِ طريقِ الرَّحْبَةِ ، وهما من نَفْسِ الْمَمْلَكَةِ .

قلت : وهذه المَنَاورُ مأخوذةٌ عن ملوكِ الهِنْدِ . فقد رأيتُ في بعضِ الكُتُبِ أَنَّ بِلَادَهُمْ مَنَاورٌ على جِبَالٍ مَرْتَفِعَةٍ ، تُرى النَّارُ فِيهَا على بُعْدٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ .

على أن مَرَّتَبَهَا بِهَذِهِ الْمَمْلَكَةِ أَوَّلًا أَتَى بِحِكْمَةٍ مُلْكِيَّةٍ لَا تُسَاوِي مِقْدَارًا ، إِذْ قَدْ تَرَقَّى فِي سُرْعَةِ بُلُوغِ الْأَخْبَارِ إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى . وذلك أَنَّ الْبَرِيدَ يَأْتِي مِنْ سُرْعَةِ الْخَبَرِ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ غَيْرُهُ ، وَالْحَمَامَ يَأْتِي مِنَ الْخَبَرِ بِمَا هُوَ أَسْرَعُ فِي الْبَرِيدِ ، وَالْمَنَاورُ تَأْتِي مِنَ الْخَبَرِ بِمَا هُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْحَمَامِ . وَنَاهِيكَ أَنْ يَظْهَرَ عُنْوَانُ الْخَبَرِ فِي الْفُرَاتِ بِمَصْرَ فِي مَسَافَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المحرقات

قال فى "التعريف": وهى مَوَاضِعُ مِمَّا يَلِى بِلَادَنَا مِنْ حَدِّ الشَّرْقِ دَاخِلَةً فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ (يعنى مملكة بني هولاكو من التتار) يُجَهَّزُ إِلَيْهَا رِجَالٌ فُتُحِرُقُ زَرْعَهَا، كَأَرْضِ الْبُقْعَةِ وَالْثَرْتَارِ وَالْقَيْمَةِ، وَبِاشْرَةِ، وَالْهَتَّاحِ، وَمُشْهَدِ بْنِ عُمَرَ، وَالْمُوَيْلِحِ، وَبِلَادِ نَيْنَوَى مِنْ بَرِّ الْمَوْصِلِ الَّتِي يَقَالُ، إِنْ يُوسَّسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ إِلَى أَهْلِهَا، وَالْوَادِي، وَالْمَيْدَانِ، وَالْبَابِ، وَالصَّوْمَعَةِ، وَالْمَرْجِ الْمَعْرُوفِ بِبَنِي زَيْدٍ، وَالْمَرْجِ الْمُحْتَرَقِ، وَمَنَازِلِ الْأَوْرَاتِيَّةِ، وَهِيَ أَطْرَافُ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ إِلَى جَبَلِ الْأَكْرَادِ. وَبِلَادِ سِنْجَارٍ - الْمَنْطِقِ وَالْمَنْظَرَةِ وَالْمَزِيدَةِ، وَتَحْتَ الْجِبَالِ عِنْدَ الثَّلِيَّاتِ، وَكَذَلِكَ النَّارَاتِ، وَأَعَالَى جَبَلِ سِنْجَارٍ وَمَا وَالِى ذَلِكَ.

وذلك أنه كان من عادة التتار أنهم لا يكفون عُلُوفَهُمْ لِحِلْمِهِمْ بَلْ يَكُونُهَا إِلَى مَا تُنْتَبِتُ الْأَرْضُ، فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ مُحْصَبَةً سَكُوهَا، وَإِذَا كَانَتْ مُحْدَبَةً تَجَبَّوْهَا، وَكَانَتْ أَرْضُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْمَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ أَرْضًا مُحْصَبَةً، تَقُومُ بِكَفَايَةِ خَيْلِ الْقَوْمِ إِذَا قَصَدُوا بِلَادَنَا، فَإِذَا أَحْرَقُوا زَرْعَهَا وَنَبَاتَهَا ضَعُفُوا عَنْ قَصْدِ بِلَادِنَا وَحَصَلَ بِذَلِكَ جَمِيعُ الرِّفْقِ، وَالدَّفْعِ عَنْ مَبَاغَةِ الْأَطْرَافِ وَمُهَاجَةِ الثُّغُورِ.

وَكَانَ طَرِيقُهُمْ فِي إِحْرَاقِهَا أَنْ يُجَهَّزُوا إِلَيْهِمُ الرِّجَالُ وَمَعَهُمُ الثَّعَالِبُ الْوَحْشِيَّةُ وَكِلَابُ الصَّيْدِ، فَيَكْنُبُونَ عِنْدَ أُمَمَاءِ النَّصَّاحِ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَيَرْتَقِبُونَ يَوْمًا تَكُونُ رِيحُهُ عَاصِفَةً وَهَوَائُهُ زَعَزَعٌ، تَعَلَّقَ النَّارُ مُوثَقَةً فِي أَذْنَابِ تِلْكَ الثَّعَالِبِ وَالكِلَابِ، ثُمَّ تَطْلُقُ الثَّعَالِبُ، وَالكِلَابُ فِي أَثَرِهَا وَقَدْ جُوعَتْ، لِتَجِدَ

الغالبُ في العدو ، والكَلَابُ في الطَّلَب ، فتَحْرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْع والنَّبَات ، وتُعَلِّقُ الرِّيحُ النَّارَ منه فيما جَاوَرَهُ ، مع ما يُلقِيهِ الرَّجَالَةُ بأيديهم في اللَّيَالِي المَظْلِمَةِ ، وعِشَاءَ الأَيَّامِ المُعْتَمَةِ . وكان يُنْفَقُ في نَظِيرِ هذا الإِحْرَاقِ من خزانة دِمَشقُ جُمْلٌ من الأموال . قال : وكان الأَهْتَامُ بِذلك في أَوَّلِ الأَمْرِ قَبْلَ أن يَفْطُنُوا بِقَصْدِ التَّحْرِيقِ ، ثم نَبَّهَهُمْ على ذلك أَهْلُ المَدَاجَاة ، فَصَارُوا يَرَبِّطُونَ عليها الطُّرُق ، وَيُحْسِنُونَ منها بِالْأَطْرَافِ ، وَقِيلَ عِدِيدٌ مِنَ الرِّجَالِ بِسَبَبِهَا ، وَأَحْرَقُوهُمْ بِأَشَدِّ مِنْ نَارِهَا .

وَذَكَرَ أَنَّ مِمَّا كَانَ يُجْتَنَبُ تَحْرِيقُهُ - أَرْضَ الحِجَالِ ، من حيثُ إنها بِلَادُ بَقِيَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ من ذُرِّيَّةِ شَيْخِ الإِسْلَامِ الإمامِ الكَبِيرِ العَارِفِ باللهِ «عَبْدُ القَادِرِ الحَلِيلِيَّ» المعروف بِالْكِلَانِيَّ ، نَفَعَ اللهُ تَعَالَى بِبِرْكَانِهِ ، لَتَعْظِيمِهِمْ مِنَ الجَهْتَيْنِ ، مع ما لَمْ يَحْدُثْ عِنْدَ مُلُوكِهَا مِنَ المَكَانَةِ العَلِيَّةِ : لَقَدِيمِ سَلَفِهِمْ ، وَصَمِيمِ شَرَفِهِمْ ، وَلِمَا للإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ إِسْعَافِهِمْ بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ القُدْرَةُ وَيَبْلُغُهُ الإِمْكَانُ .

قُلْتُ : وَبِتَامَ القَوْلُ فِي هَذَا الطَّرَفِ قَدْ تَمَّ مَا كُنْتُ أُحَاوِلُهُ مِنَ التَّأْلِيفِ ، وَأَهْتَمُّ بِهِ مِنَ الْجَمْعِ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ ، وَإِلَيْهِ الرَّغْبَةُ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ المَصْنَفَاتِ تَتَفَاوَتْ فِي الحُظُوظِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا : فَمِنْ مَرَّغُوبٍ فِيهِ ، وَمَرَّغُوبٍ عَنْهُ ، وَمُتَوَسِّطٍ بَيْنَ ذَلِكَ . عَلَى أَنَّهُ قَلَّ أَنْ يَتَّفَقَ تَأْلِيفٌ فِي حَيَاةِ مُؤَلِّفِهِ ، أَوْ يَرُوجَ تَصْنِيفٌ عَلَى القُرْبِ مِنْ زَمَانٍ مُصَنِّفِهِ .

قال المَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِهِ «التَّنْبِيْهِ وَالْإِشْرَافُ» وَقَدْ تَشَتَّرَكَ الخَوَاطِرُ ، وَتَتَّفَقُ الضَّمَائِرُ ، وَرُبَّمَا كَانَ الْآخِرُ أَحْسَنَ تَأْلِيفًا ، وَأَمْتَنَ تَصْنِيفًا ؛ لِحِكْمَةِ التَّجَارِبِ ، وَخَشْيَةِ التَّتَبُّعِ ، وَالْإِحْتِرَاسِ مِنْ مَوَانِعِ الْمَضَارِّ . وَمِنْ هَاهُنَا صَارَتِ الْعُلُومُ نَامِيَّةً ، غَيْرَ مُتَنَاهِيَّةً ، لَوْجُودِ الْآخِرِ مَا لَا يَحْجِدُهُ الْأَوَّلُ ، وَذَلِكَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ مُحْصُورَةٍ ، وَلَا نِهَايَةٍ مُحَدُودَةٍ .

على أن من شيم كثير من الناس إطرء المتقدمين، وتَعْظِيمُ كُتُبِ السَّالِفِينَ؛ ومدَحُ المَاضِي، وذَمُّ البَاقِي؛ وإن كان في كُتُبِ المُحَدِّثِينَ ما هو أعظم فائده، وأكثر عائده.

ثم حَكَى عن الجَاحِظِ - على جَلَالَةِ قَدْرِهِ - أنه قال: كُنْتُ أُؤَلِّفُ الكِتَابَ الكَثِيرَ المعَانِي، الحَسَنَ النِّظْمَ، وَأَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِي، فَلَا أَرَى الاِسْتِمَاعَ تُصْنِعِي إِلَيْهِ، وَلَا الإِرَادَاتِ تَلْتَمِعُ نَحْوَهُ، ثُمَّ أُؤَلِّفُ مَا هُوَ أَنْقَضَ مِنْهُ رُتْبَةٌ، وَأَقْلَ فَائِدَةٌ، وَأَنَحَلُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفِّعِ، أَوْ سَهْلُ بْنُ هُرُونَ، أَوْ غَيْرُهُمَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، مِمَّنْ صَارَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْمُصَنِّفِينَ، فَيُقْبَلُونَ عَلَى كِتَابَتِهَا، وَيُسَارِعُونَ إِلَى نَسْخِهَا، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِنِسْبَتِهَا لِلْمُتَقَدِّمِينَ، وَلِمَا يُدْخِلُ أَهْلَ هَذَا الْعَصْرِ مِنْ حَسَدٍ مَنْ هُوَ فِي عَصَرِهِمْ، وَمُنَافَسَتِهِ عَلَى الْمُنَاقَبِ الَّتِي عَنِي بِتَشْيِيدِهَا.

قال: وهذه طَائِفَةٌ لَا يَعْأُ بِهَا كِبَارُ النَّاسِ، وَإِنَّمَا الْعَمَلُ عَلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّائِلِ الَّذِينَ أَعْطُوا كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ الْقَوْلِ، وَوَفَوْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْحَقِّ؛ فَلَمْ يَرْفَعُوا الْمُتَقَدِّمَ إِذَا كَانَ نَاقِصًا، وَلَمْ يُنْقِصُوا الْمُتَأَخَّرَ إِذَا كَانَ زَائِدًا؛ فَلِمِثْلِ هَؤُلَاءِ تُصَنَّفُ الْعُلُومُ، وَتُدَوَّنُ الْكُتُبُ.

وإذا كان هذا نَقْلَ الْمَسْمُودِيِّ عَنِ الْجَاحِظِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمُصَنِّفِينَ، وَعَيْنُ أَعْيَانِهِمْ، فَمَا ظَنُّكَ بغيره؟.

لِكُنِّي أَحْمَدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَوَاجِ سُوقِ تَأْلِيْفِي، وَنَفَاقِ سِلْعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى اسْتِكْنَاهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ تَأْلِيْفِهِ، حَتَّى إِنْ قَامَتِ التَّأْلِيْفُ وَالنَّسْخُ يَتَسَابَقَانِ فِي مِيدَانِ الطَّرْسِ إِلَى آكْتِنَابِهِ، وَمُرْتَقَبَ نَجَازِهِ لِلاِسْتِنْسَاجِ يُسَاهِمُهُمَا فِي ارْتِقَائِهِ. فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

قال المؤلف : نَجَزْتُ تَأْلِيفَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وُنَجَزَتْ هَذِهِ النُّسخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَرِ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسِتَّةً قَبْلَهُ ، فَقِيرٌ رَحِمَهُ رَبُّهُ الْغَنِيُّ الْفَاتِحُ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
أَبْنُ مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، نَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِخَطِّ
بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عِيُوبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول لتعين على الكاتب معرفتها ،
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،
وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء
المسلمين، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير
أوضاعها، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،
ومذاهب الكتاب في ذلك، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
وتأخذ منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع
منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نمطين ... ١٦

صفحة

النمط الأول — ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج ... ١٦

» الثاني — ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧

النوع الأول — ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،

وفيه مذهبان ... ١٧

المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧

» الثاني — أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبدية ... ٢٦

النوع الثاني — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر—

أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب

ثلاثة مذاهب ... ٢٩

المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»

ونحو ذلك ... ٢٩

الثاني — أن تفتح الهدنة بلفظ: «أستقرت الهدنة بين

فلان وفلان» الخ ... ٣١

» الثالث — أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٧١

الطرف الثاني — فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام

في كتابة نسخ من دواوينهم ... ٧٢

الباب الخامس — من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين

ملكين مسلمين، وفيه فصلان ... ٧٩

الفصل الأول — في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩

» الثاني — فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك

المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة

والمتن، وفيه نوحان ... ٨٤

صفحة

النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ٨٤

» الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،

وفيه مذهبان ٩٧

المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : «هذا» ٩٧

» الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله»

وربما كرر فيها التحميد ١٠٠

الباب السادس — من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود

السابقة ، وفيه فصلان ١٠٨

الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون

الآخر ١٠٨

» الثاني — المفاخعة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق

بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ١١٠

الباب الأول — في الجديّات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة

فصول) ١١٠

الفصل الأول — في المقامات ١١٠

» الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ١٣٨

الصنف الأول — الرسائل المملوكية ، وهي على ضربين ١٣٩

الضرب الأول — رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلّها ١٣٩

» الثاني — « الصيّد ١٦٥

الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المدح والتقريض ١٧٢

صفحة

الصفنف الثالث — من الرسائل — المفانحات	٢٠٤
» الرابع — » » الأسئلة والأجوبة	٢٤٠
» الخامس — » » ما تكتب به الحوادث والماجرئات	٢٥١
الفصل الثالث — من الباب الأول من المقالة العاشرة ،	
في قِدمات البندق	٢٨٢
» الرابع — من الباب الأول من المقالة العاشرة ،	
في الصّدقات ، وفيه طرفان	٣٠٠
الطرف الأول — في الصّدقات المملوكة وما في معناها	٣٠٠
» الثاني — في صّدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم	٣١١
الفصل الخامس — من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب	
عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة	
بمراعاة النثر المسجوع فيه ، ومحاولة الفصاحة	
وبالبلغة ، وفيه طرفان	٣٢٢
الطرف الأول — فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،	
وهو على صنفين	٣٢٢
الصفنف الأول — الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات	
الكتب ، ونحوها	٣٢٢
» الثاني — التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة	
والقصائد المنظومة	٣٣٥
الطرف الثاني — فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة	
أصناف	٣٤٠
الصفنف الأول — التقاليد الیكیة	٣٤٠
» الثاني — إسجالات العدالة	٣٤٦

صفحة

- الصفحة الثالث - الكتب إلى الثواب وما في معناها ... ٣٥٠
 » الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب ... ٣٥٣
 الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ... ٣٥٥
 الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات ... ٣٦٠

الخاتمة

- في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦
 الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ... ٣٦٦
 الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
 الغرض من ذلك بثلاثة أمور ... ٣٦٦
 الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ... ٣٦٦
 » الثاني - أقول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ... ٣٦٧
 » الثالث - بيان معالم البريد ... ٣٧١
 الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
 البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ... ٣٧٢
 المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
 هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
 وما تنتهي إليه مراكز كل جهة ... ٣٧٣
 » الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ... ٣٧٩
 » الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨١
 » الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨٣
 » الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨٥
 » السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
 المشرفة والمدينة المنورة ... ٣٨٥

صفحة

الباب الثاني — من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلى، وذكر أبراجها المقتررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان ٣٨٩
الفصل الأول — في مطاراته ٣٨٩
» الثاني — في أبراج الحمام المقتررة لاطارتها بالديار المصرية، والبلاد الشامية ٣٩٢
الباب الثالث — من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدة لحمل الثلج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥
الفصل الأول — في نقل الثلج ٣٩٥
» الثاني — في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام ... ٣٩٦
» الثالث — في الهجن المعدة لنقل ذلك ٣٩٦
الباب الرابع — من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨
الفصل الأول — في المناور ٣٩٨
» الثاني — في المحرقات ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى
وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول
رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي
بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيسِيرِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى
مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعَمُ الْمَوْلَى وَنِعَمُ النَّصِيرِ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحِ الْهِدَايَةِ
وَشَهَائِمِ السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النُّجُومِ الثَّوَابِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِغِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْأُمَمَ تَأْتَارِهَا ، وَالشُّعُوبَ بَسِيرِهَا وَأَخْبَارِهَا ؛ وَمِنَ الْأَعْظَمِ الْآثَارِ
قِيَمَهُ ، وَأَغْزَرِهَا دِيَمَهُ ؛ مَا تُعْرِفُ بِوَاسِطَتِهِ نَتَائِجَ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ
قِرَائِحُ الْجَهَائِذَةِ الْحُكَمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ الرَّائِيَةُ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ وَإِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنَى بِشَأْنِ عُلَمَائِهَا :
عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَشَارِبِهِمْ ؛ وَتَحِلُّهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى
الدَّرَجَاتِ ، وَتَرْجَعُ فِي أَمْرِ مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدَةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدَةِ ؛
وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهْدِهَا فِي إِنْشَاءِ دُورِ الْكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا :
لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَاتِرَهُمْ وَطَوَامِيرَهُمُ الَّتِي أَوْدَعُوهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَنَتِيجَةَ بَحْثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْعَزِيزَةُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ تُسَاقُ « الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ » فِي هَذَا
الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ ، مَيْدَانِ التَّقْدِيمِ وَالْأَرْتِقَاءِ .

وسارت من بعدهما تناهض « بغداد » دار السلام، ومركز الملاحة العباسية
وكعبة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يبذله الخلفاء لعلمائها من أنواع التحف،
ويقرغونه عليهم من بدر الأموال : حبا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم
عصورها الذهبية المملوءة بالمعالي والمفاخر، يوم كانت تنشر على العالم ألية الحضارة،
وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتح مصر ذراعيها : مرحبة بكل وافد عليها من أهل العلم والأدب ،
خصوصا بعد أن طوحت يد الردى بمدن العراق وحواضر الأندلس ، ودارت عليها
الدوائر، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد
علمائها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فأصبحت ميدانا واسعا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، وموردا عذبا يزدحم
عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاهية بأكار العلماء ونوابغ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمراؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ملؤها الإعظام
والإجلال ، وأخذوا يساعدهم ، ويبالغون في إكرامهم وإدراج النعم عليهم ،
ويُسجِّعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا
لا يؤسسون مسجدا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا
ويشيّدون في داخله خزانة كتب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار
والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد
الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لخلفائها الفاطميين خزانة كُتِبَ كُبرى ، كانت من أجل الخزانين وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .
يقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كُتِبَ أعظم من التي كانت بالقاهرة في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : ترد منهاهل العلم العذبة ، وتتغذى باللبان الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأمم الإسلامية ، فتفرقت شيعًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العامة ، وصار كل واحد لا هيا بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

فقلل الاحتفال بالعلم وأهله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار على كثرتها ، وأمتدت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أتى شاءت بدون محاسب أورقي . وأستولى المغيرون على الديار المصرية على أنفس ما كان مودعًا فيها من الكتب والآثار ، ونقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ما شاء الله أن ينقلوا .

وهاهي اليوم تتأدى أهل مصر من وراء البحار ، وتناجيهم بما كان لسالفهم الناهض من آثار العمل ودلائل النبوغ .

وما بقي في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار رهنًا عليها ، لاتقع عليه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كثر مدفون لم يهتد إليه بعد ، أو سجين حكم عليه بالسجن الأبدى لا يجد لنفسه خلاصا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تذهب بكل ما بنى أهلها في الزمن
السابق من مجيد وأسسوا من قوة - لولا أن الله تعالى أراد بها خيراً ،
فخلص على أريكتها ذلك المصلح الكبير، والعصامي الشهير، مؤسس «مِصر الحديثة»
ساكن الحنان "محمد علي باشا" رأس العائلة العلوية الكريمة .

فانه - نور الله ضريحه - أعاد لهذه الأمة سالف مجدها، ونبه الأفكار بعد
طول رقادها، ونشر العلوم والمعارف بين أبنائها، وأرسل البعثات العلمية إلى
أشهر الجامعات بأوروبا : ليتعلموا أساليب التعليم الحديثة، ويدودوا إلى مصر
بفنون من التربية والتأديب تدعو إليها سنة التقدم والارتقاء .

وقرب إليه العلماء والأدباء ، وشجعهم على التأليف والتصنيف . ووصل
الليل بالنهار في سبيل إنقاذها وإسعادها، وأسّس المدارس ، وشاد دور الصناعات
والمعامل في حواضر هذا القطر السعيد .

وأنشأ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجهّزها بكل ما يلزم لها من
الآلات والعدد ، حتى صارت من أرقى دور الطباعة في الشرق ، واختار
لها نوابغ العلماء وأساطين الكتاب : ليقوموا بتصحيح ما يطبع فيها . وإليها يرجع
الفضل الأكبر في تقوية النهضة العلمية في مصر وغيرها من البلاد ، ونشر العلوم
والآداب العربية في جميع أنحاء العالم .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغفور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، أنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهتم بها بعده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً وثم نمانية فدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب ، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمتلأت خزائنها بنفائس الأسفار وجلال المؤلفات ، من مصر وغيرها من سائر الممالك ، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة ، والمؤلفات القديمة ، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية . وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات ، وأثر خالده من الآثار الباقيات ؛ ولها على العلم وأهله الأيادي التي لا تُشكر ، والمفاتيح التي تُذكر فتُشكر ؛ فقد أعدت للترددين إليها قاعة كبرى للمطالعة ، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وتسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والعلماء ، والكتاب والشعراء ، والمنجمون والحكماء وغيرهم : يردون نيرها ، ويؤلّون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم ، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة "أحمد حشمت باشا" وزير المعارف الأسبق وجهه — حفظه الله — عنايته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكاتها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع الآداب العربية وإذاعتها بين أبنائها .

فأختار طائفة مما فيها من نفائس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصًا المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطبع في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتُشترق أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قرب ومن بُعد ؛ ضئلاً بها أن تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وغرفها ، لا ينتفع بها غير فريق من المقيمين في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربية ، كتاب :

”صبح الأعشى في كتابة الإنشا“

(للقلقشندي)

التعريف بهذا الكتاب

مَهْمَا أَطَالَ الْكَاتِبُ فِي وَصْفِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَجَوَّدَ فِكْرَهُ ، وَأَجْهَدَ قَلَمَهُ
فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَبِقِيَمَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ - فَانْه لَا يَبْلُغُ تَعْدَادًا مَا أُودِعَ فِيهِ مِنْ
الْفَوَائِدِ ، وَأَنْطَوَى تَحْتَهُ مِنَ الدَّفَائِقِ .

فَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ ، عَظِيمُ النِّفَعِ ، كَبِيرُ الْفَائِدَةِ ، لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مَنَوَالِهِ فِي عَالَمِ
التَّأْلِيفِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ وَالْكِتَابَةِ . وَلَا نَعُدُّ مُبَالِغِينَ إِذَا قُلْنَا : إِنَّهُ أَنْفَسُ كِتَابٍ
أُلِّفَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَارِيخِ آدَابِهَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ الْقَلَقُ شَنْدِيُّ مُؤَلَّفِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَالَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ،
وَكَيْفَ كَانَتْ فِي الْعُصُورِ الْأَوَّلَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ
مِنَ الْإِنْتِشَارِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لُغَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّمْحَةِ
وَالدِّينِ الْحَنِيفِ ، تَبَعًا لِإِنْتِشَارِهَا فِي أَكْثَرِ أَنْحَاءِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ : فِي بِلَادِ فَارَسَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، فِي بِلَادِ الرُّومِ ، فِي الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ (وَقَاهَا اللَّهُ) فِي بِلَادِ أَفْرِيقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فِي بِلَادِ الصِّينِ ، فِي بِلَادِ
كَثِيرَةٍ مِنْ أَوْرُوبَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ كَيْفَ زَهَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ الشَّرِيفَةُ فِي عُصُورِ الْخُلَفَاءِ : مِنْ
بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ ، وَغَزَرَتْ مَادَّتُهَا ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُهَا ، وَدَنَا قِطَافُهَا : فَصَارَتْ
لُغَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، لُغَةُ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ ، لُغَةُ الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ ، لُغَةُ الْحَدَلِ وَالْمَنَاظَرَةِ .
كَمَا صَارَتْ لُغَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ : فِي أَحْكَامِ الدِّينِ ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ ، وَتَثْقِيفِ
الْعُقُوفِ ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ . وَعِلُومِ الْفَلَسَفَةِ ،
وَالرِّيَاضَةِ ، وَالتَّجُومِ ، وَالطَّبِّ ، وَالْكِيمْيَاءِ ، وَمَا أَشْبَهَهَا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ
مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْإِرْتِقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا
لِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مَنْ لَيْسُوا
مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالْدِينِ . كَمَا بَيْنَ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ ،
وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطُهَا وَرُسُومُهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :
مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَائِزِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ
بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادَ وَمِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأندلسِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ
مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ
دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظُمَتِهَا ، وَرُسُومُهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
مِنْ الْقَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْخَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْأَثَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا
مِنْ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِيُّ الصَّحِيمُ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ
مِصْرَ ، وَأُظْلِمَتْهُ سَمَائُهَا ، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيلِهَا - الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَفَضَائِلَهَا
وَمَحَاسِنَهَا ، وَخَوَاصَّهَا وَعَجَائِبَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ
وَمَصْبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمُقَابِلَتِهِ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ
فِي النَّقْصَانِ ، وَخُلُجَانِهِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَنْهُ ، وَجُسُورِهِ الْحَاسَةِ لِمَائِهِ . وَبَيْنَ بُحَيْرَاتِهَا ،
وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحَاتِهَا ، وَفَوَاكِهَاتِهَا ، وَمَوَاشِيهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .
وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَابْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عَنْهَا . وَبَيْنَ أَعْمَالِهَا وَقَوَاعِدِهَا الْقَدِيمَةِ ، وَمَبَانِيهَا الْعَظِيمَةِ الْبَاقِيَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمَانِ .
وَبَيْنَ قَوَاعِدِهَا الْحَدِيثَةِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَنْبِيَةِ . وَبَيْنَ مَنْ وَلِيَهَا مِنَ
الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ . وَبَيْنَ تَرْتِيبِ أَحْوَالِهَا ، وَمُعَامَلَاتِهَا ،
وَنُقُودِهَا ، وَتَرْتِيبِ مَمْلَكَتِهَا ، وَوُضَائِفِ دَوْلِهَا الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ .

كُتِبَ دُونَ فِيهِ مَوَافِقُهُ عَدَّةُ كُتُبٍ أَدَبِيَّةٍ نَفِيسَةٍ بِتَامِهَا ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثِيرًا مِمَّا تَفَرَّقَ
فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ .

وَرَتَّبَهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَعَشْرٍ مَقَالَاتٍ وَخَاتِمَةٍ ، بَنَاهَا بِالْإِجْمَالِ عَلَى التَّعْرِيفِ بِمَحَقَّةِ
دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ وَأَصْلِ وَضْعِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَفَرَّقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَمَالِكِ ، وَبَيَانِ كِتَابَةِ
الْإِنْشَاءِ وَتَفْصِيلِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ، وَصِفَاتِ الْكُتَّابِ وَأَدَائِهِمْ ، وَمَدَجِ
فُضْلَائِهِمْ وَدَمَّ حَقَّاهُمْ .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَاتِبُ الْإِنْشَاءِ فِي الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ : كَمَعْرِفَةِ الْمَوَادِّ
الْأَلَزَمَةِ لِلنُّشْئِ : مِنَ الْخَطِّ وَتَوَابِعِهِ وَلَوَاحِقِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ (عِلْمُ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الْأَرْضِ وَإِحَاطَةِ
الْبَحْرِ بِهَا ، وَبَيَانِ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،
وَبَيَانِ مَوْقِعِ الْأَقَالِيمِ الْعُرْفِيَّةِ مِنْهَا ، وَذِكْرَ حُدُودِهَا الْجَامِعَةِ لَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ
وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَالْأَقَالِيمِ وَالْمَمَالِكِ وَالْبُلْدَانِ ، وَمُلُوكِهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ
وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيهَا أَنْوَاعُ الْمُكَاتَّبَاتِ وَالْوِلَايَاتِ وَغَيْرِهَا : مِنْ ذِكْرِ
الْأَسْمَاءِ وَالْكُنَى وَمَوَاضِعِ ذِكْرِهَا فِي الْمُكَاتَّبَاتِ ، وَذِكْرِ الْأَلْقَابِ وَأَصْلِ وَضْعِهَا ،
وَمَا كَانَ يُلَقَّبُ بِهِ أَهْلُ كُلِّ دَوْلَةٍ إِلَى زَمَنِهِ ، وَكَيْفِيَّةِ تَوْزِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى كُتَّابِ

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ، وكتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الإسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومن في معناهم ، وبيان مذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكتبات ، وما يُخاطب به أهل الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والعهود ، ومعناها ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يكتب فيها في القديم والحديث ، والمساحات والإطلاقات وما يكتب فيهما ، والطرائيات وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التذكار التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأول من وضع ديوان الجيش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يقع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يخلف بها العرب في الجاهلية ، وما يقسم به أهل كل ملة ونحلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصلح ، والهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فنونا كثيرة يتداولها الكتاب والأدباء ويتنافسون في عملها ، لا تعلق لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو

والصَّيْد ، وَرَسَائِلِ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ ، وَرَسَائِلِ الْمَفْخَرَاتِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْأَسْئَلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمَكْتُوبَةِ بِالْحَوَادِثِ وَالْمَسَاجِرَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَكَقَدَمَاتِ الْبُنْدُوقِ ، وَالصَّدَقَاتِ الْمُلُوكِيَةِ وَغَيْرِهَا ، وَالْعُمَرَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ لِلْحَاجِّ ، وَذِكْرُ نُسخٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ : مِنْ الْإِجَازَةِ بِالْفَتْوَى وَالتَّدْرِيسِ وَالْمَرْوِيَّاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَلَى الْكُتُبِ الْمَصْنُوفَةِ وَالْقَصَائِدِ مِنْ التَّقْرِیْضَاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاةِ : مِنْ التَّقَالِيدِ الْحُكْمِيَةِ وَإِسْجَالَاتِ الْعَدَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَتَكَلَّمَ فِيهِ عَلَى الْبَرِيدِ وَأَوَّلِ مَنْ وَضَعَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَبَيَّنَ مَعَالِمَهُ وَمَرَآكِزَهُ ، وَمَطَارَاتِ الْحَمَامِ الرَّسَائِلِيَّ وَأَبْرَاجَهُ بِالْدَّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، وَمَرَآكِبِ التَّلَاجِ وَالْمُحْجَنِّ الْمُعَدَّةَ لِنَقْلِهِ ، وَالْمَنَاوِيرَ وَالْمُحَرِّقَاتِ .

وَذَكَرَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَقْوَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أَيْمَةِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعِلُومِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَأَتَى فِيهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْكُتُبِ وَالْفُنُونِ ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ مُشَاهِيرِ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ .

وَأُورِدَ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الصَّنْعَةِ فِي الْكِتَابَةِ مَا يُغْنِي قَارِئَهُ عَنْ تَصَفُّحِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْلُفَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

وَضَمَّنَهُ شَيْئًا كَثِيرًا يَفُوقُ الْحَاضِرَ مِنَ الرِّسَالِ الْبَلِيغَةِ لِمُشَاهِيرِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَالْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُحليّه من غرر منشأته
لنفسه بالمعجب والمُطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتاب مُتَمِّع، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء، وقوة التمكن في اللغة
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الاطلاع على دقيقتها وجليلها .

وإن حسن نية مؤلفه، واعتاده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على
حفظه إلى هذا الزمان من أيدي العوادي، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحدثاً بنعمة الله عليه - بعد أن ذكر أن
المصنفات تتفاوت في الحظوظ إقبالاً وإدباراً: فن مرغوب فيه، ومرغوب عنه،
ومتوسط بين ذلك، وأنه قل أن ينفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على
القرب من زمان مصنفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه
”التنبيه والإشراف“ عن الجاحظ . قال :

لكنني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته، والمسارة إلى
استيغائه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان
الطرس إلى اكتتابه، ومرتبب نجاهه للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من
الله ونعمة : ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن التاسع، فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم القاهري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع على ابن الشيخة. وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، وناب في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه. وعمل "صبح الأعشى" في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات، جمع فأوعى. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعيني وآخرون. وسمى المقرئ والد عبد الله وهو وهم.



وترجمه صاحب "شذرات الذهب" في أخبار من ذهب، فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى الشافعى ، تزييل القاهرة .
تفقه ومهر ، وتعالى الأدب ، وكتب فى الإنشاء ، وناب فى الحكم . وكان يستحضر
" الحاوى " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً سماه
" صبح الأعشى " فى معرفة الإنشاء ، وكان مسنداً لا كثر ذلك ، وصنف غير ذلك .
وكان مفضلاً وقوراً فى الدولة إلى أن توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن
(١)
خمسة وستين سنة » .



وقد وقفنا على شئ من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " ، نوره
هنا ، إتماماً للفائدة ، فنقول :

مـيـلادـه ونسبـته

وُلِدَ الْمُؤَلَّفُ فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كما ذكره السخاوى فى " الضوء
اللامع " ببلدة يقال لها " قَلْقَشَنْدَة " من أعمال مديرية القليوبية بالديار
المصرية : من أصل عربى صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قبس عيلان .
وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامى وبعده ،

(١) سماه صاحب " كشف الظنون " مرة بأحمد بن علي ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة
بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان " نهاية الأرب " المؤلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله
ابن سليمان بن إسماعيل القلقشندى ، الشهير بابن أبي غدة .
ووجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنَزَلُوا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبُوبِيَّةِ ، وَاسْتَوَلَى بُؤْدَيْرٌ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ بِإِلَادِهِ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّاسَةُ
وَالْغَلْبَةُ عَلَى جِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمَّهِمْ بَنِي مَازِنَ بْنِ فَزَارَةَ . وَكَانَ بَقْلَقَشْنَدَةَ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بُدَيْرٍ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنَ ^(١) .

نَشَأَتُهُ وَتَرْبِيَتُهُ

وَنَشَأَ نَشَأَةً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عِلْمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى تَعْرِفِ الإسْكَندَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمُرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورِي الْعِلْمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَشْتَغَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطَّلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إِجَازَتُهُ بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعًا مِائَةً حِينَ كَانَ مُقِيمًا بِبَغْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ الشَّهِيرُ بِابْنِ الْمَلَقِّينِ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ -
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى إِحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بِأَنْ يَرَوِيَ عَنْهُ كُلُّ مَالِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرهما ، وَأَنْ يَرَوِيَ كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكُتُبِ الصَّحَاحِ
السَّتَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحَظِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مُوقَّعَ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ
بِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ .

(١) أَنْظَرَ "نَهَايَةَ الْأَرْبَابِ فِي مَعْرِفَةِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ" لِلزُّلْفِ (ص ١٥٠) .

تَصَدُّرُهُ لِلْإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرّض عليه كثيرٌ من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعُلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

التحاققه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة آلتحق بديوان الإنشاء بالأبواب
السلطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامةً في تقرّيط القاضي بدر الدين ، بن القاضي
علاء الدين، بن القاضي محيي الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سمّاها "الكواكب الدرّية" في المناقب البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلوّ قدرها، وعظم خطرّها، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالِب العلم غيرها، والصّناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى ماسواها، وصنّفا كثيراً من أصول الصّناعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعاني - احتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضّح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجعله كالشرح لها .

وفرغ من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشاؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التّخيل والتّزام المحسنات البديعية : من السّجع والجناس والتّورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدّين ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبدو أخفّ روحاً وأعظم وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإنّ من قرأ مقامته التي أنشأها عند التّحانته بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان عليه : من غزارة المادّة ، وسلامة الذّوق ، وقوّة الدّأكرة .

مؤلفاته

وله تأليف كثيرة ، منها :

كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب .

وكتاب « ضوء الصّبح المُسفر وجنى الدّوح المُثمر » وهو مختصر كتاب « صبح الأعشى » . طبع الجزء الأوّل منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب « الغيوث الهوامع » ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وَكِتَابُ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ"، فِي مَعْرِفَةِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ، فِي الْأَنْسَابِ، أَلْفَهُ لِلْفَتْحِ الْجَمَالِيِّ
يُوسُفَ الْأُمَوِيِّ^(١)، وَطُبِعَ فِي مَطْبَعَةِ الرِّيَاضِ بِمَدِينَةِ بَنْدَاد (دَارِ السَّلَام) .
وَكِتَابُ "قَلَائِدِ الْجُمَانِ"، فِي قِبَائِلِ الْعُرَبَانِ، فِي أَنْسَابِ الْعَرَبِ أَيْضًا^(٢) .
وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ رَسَائِلُ كَثِيرَةٌ تَزِيدُ عَلَى الْمِائَةِ أَوْدَعَهَا كِتَابُهُ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" .



هَذَا : وَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْنَا تَصْحِيحُ كِتَابِهِ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" الْمَطْبُوعُ عَلَى نَتَقَةِ
دَارِ الْكُتُبِ، بِالْقِسْمِ الْأَدَبِيِّ بِالمَطْبَعَةِ الْأَمِيرِيَّةِ . فَتَمُنَّا تَحْوَهُ بِمَا يَسِبُ بِإِزَاءِ مُؤَلِّفِ
جَلِيلٍ مِثْلِهِ، وَاجْتَهَدْنَا فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ .

وَأَسْتَعْنَا عَلَى مَا وَجَدْنَاهُ بِأَصْلِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْكَثِيرِ وَالتَّصْحِيحِ الْغَرِيبِ - زِيَادَةً
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الطَّمْسِ وَالسَّقَمِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ - بِمُرَاجَعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ
فِي الْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَنَسَخَ شَيْءٌ مِنْ رَسَائِلِ الْكُتُبِ وَدَوَائِينَ الشُّعْرَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ،
بَاحِثِينَ فِيهَا عَنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ تَكَلَّمَ عَنْهُ الْمُؤَلِّفُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ . وَمَتَى تَوَقَّفْنَا
فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ أَثْنَاءَ التَّصْحِيحِ : لَعَدَمَ وُضُوحِهِ، أَوْ لِأَن يَدَ النَّاسِخِ مَسَخَتْهُ،
أَوْ لَغَيْرِ ذَلِكَ - رَجَعْنَا إِلَى تِلْكَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فَصَحَّحْنَاهُ مِنْهَا، مَعَ الْحَافِظَةِ النَّامَةِ
عَلَى عِبَارَةِ الْأَصْلِ مَهْمَا بَلَّغَتْ مِنَ السَّقَمِ . وَمَا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ نِيهَا، أَبْقَيْنَاهُ عَلَى حَالِهِ،

(١) كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْمُؤَلِّفُ فِي خُطْبَتِهِ، وَذَكَرَ صَاحِبُ "كَشْفِ الظُّنُونِ" أَنَّهُ أَلْفَهُ لِأَبِي الْجَرْدِ «بَرْبَن رَاشِد»
أَمِيرِ الْعُرَبَانِ فِي الْبِلَادِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ .

(٢) نَسَبَهُ صَاحِبُ "كَشْفِ الظُّنُونِ" لِوَالِدِ الْمُؤَلِّفِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ نَبَهَ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ" .
[وَقَدْ تَصَفَّحْنَاهُ فَلَمْ نَعثرْ عَلَى ذَلِكَ] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلَامَةً تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَّلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ وَعَبَقَرِيَّتِهِ ،
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدَّنا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَدَّلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ ، بَوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَحَاشٍ شَرَحْنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثَبْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيحِ .

وَهَا هُوَ ذَا نَقَدَّمَهُ لِحَضْرَاتِ قُرَّائِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْيِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسِّرُ النَّظَرَ وَيُشْرِحُ الْخَاطِرَ ، مُعْتَذِرِينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّ مُطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،
وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَفَقَّنَا اللَّهَ تَعَالَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبَنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهيم